الحاوي في التفسير

الشيخ

عبد الرحمن بن محمد القماش

المجلد العشرون

الاجزاء من ٣٧٦ الى ٣٩٣

الْحَاوِي فِي التَّفْسِيرِ

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝

وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ ※

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
376	سورة هود	الآية 23 الى الآية 31	2
377	=	الآية 32 الى الآية 40	445
378	=	الآية 41 الى الآية 44	729
379	=	الآية 45 الى الآية 49	1039
380	=	الآية 50 الى الآية 60	1502
381	=	الآية 61 الى الآية 68	2028
382	=	الآية 69 الى الآية 80	2278
383	=	الآية 81 الى الآية 86	2677
384	=	الآية 87 الى الآية 95	3058
385	=	الآية 96 الى الآية 109	3483
386	=	الآية 110 الى الآية 117	3883
387	=	الآية 118 الى الآية 122	4278
388	=	الآية 123	4439
389	سورة يوسف	فصول مهمة	5039
390	=	فصل في الوقف والابتداء	5477
391	=	الآية 1 الى الآية 10	5956
392	=	الآية 11 الى الآية 20	6447
393	=	الآية 21 الى الآية 25	6821

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرَيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والسبعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السادس والسبعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 23 ﴾ من سورة هود عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 31 ﴾ من نفس السورة

(4/376)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (23) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (24) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما توعد الكافرين وأخبر عن مآلهم بسببه ، كان موضع أن يسأل عن حال المؤمنين فقال :

﴿ إن الذين آمنوا ﴾ أي أوجدوا هذه الحقيقة ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ ولما كان الحاصل ما مضى من وصف الكافرين بعد مطلق الأعمال السيئة الإعراض عن ربهم والنفرة عن المحسن إليهم جلافة وغلظة ، وصف المؤمنين بالإقبال عليه والطمأنينة إليه فقال :

﴿ وأخبتوا ﴾ أي خشعوا متوجهين منقطعين ﴿ إلى ربهم ﴾ أي المحسن إليهم فشكروه

فوفقهم لاستطاعة السمع والأبصار .

ولما ذكر وصفهم ذكر جزاءهم عليه بقوله : ﴿ أولئك ﴾ أي العالو الرتبة ﴿ أصحاب الجنة ﴾ ولما كانوا مختصين بها أول أو بالخلود من أول الأمر ، أعاد الضمير فقال : ﴿ هم فيها ﴾ أي خاصة لا في غيرها ﴿ خالدون ﴾ .

ولما استوفى أوصاف الحزبين وجزاءهم ، ضرب للكل مثلاً بقوله : ﴿ مثل الفريقين ﴾ أي الكافرين والمؤمنين ، وهو من باب اللف والنشر المرتب ، فإن الكافر ذكر فيما قبل أولاً ﴿ كالأعمى ﴾ أي العام العمى في بصره وبصيرته ﴿ والأصم ﴾ في سمعه كذلك ، فهذا للكافرين ﴿ والبصير ﴾ بعينه وقلبه ﴿ والسميع ﴾ على أتم أحوالهما ، وهذا للمؤمنين ، وفي أفراد المثل طباق أيضاً ﴿ هل يستويان ﴾ أي الفريقان ﴿ مثلاً ﴾ أي من جهة المثل .

(5/376)

ولما كان الجواب قطعاً لمن له أدنى تأمل : لا يستويان مثلاً فلا يستويان ممثولاً ، حسن تسبب الإنكار عنه في قوله : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أي يحصل لكم أدنى تذكر بما أشار إليه الإدغام فتعلموا صدق ما وصفوا به بما ترونه من أحوالهم ، وذلك ما قدم في حق الكفار من قوله : ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع ﴾ الآية ؛ والإخبات : الخشوع المستمر على استواء فيه ،

وأصله الاستواء من الخبت ، وهو الأرض المستوية الواسعة ، ولعله وصله بإلى في موضع اللام إشارة إلى الإخلاص أي إخباتاً ينتهي إلى ربهم من غير أن يحجب عنه ؛ والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بحال الأول ، والأمثال لا تغير عن صورتها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 519 ﴾

(6/376)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (23) ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر عقوبة الكافرين وخسرانهم ، أتبعه بذكر أحوال المؤمنين ، والإخبات هو الخشوع والخضوع وهو مأخوذ من الخبت وهو الأرض المطمئنة وخبت ذكره أي خفي ، فقوله : "أخبت" أي دخل في الخبت ، كما يقال فيمن صار إلى نجد أنجد وإلى تهامة أتهم ، ومنه المخبت من الناس الذي أخبت إلى ربه أي اطمأن إليه ، ولفظ الإخبات يتعدى بإلى وباللام ، فإذا قلنا : أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن إليه ، وإذا قلنا أخبت له فمعناه

خشع له.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ إشارة إلى جميع الأعمال الصالحة، وقوله ﴿ وَأَخْبَتُواْ ﴾ إشارة إلى أن هذه الأعمال لا تنفع في الآخرة إلا مع الأحوال القلبية ثم إن فسرنا الإخبات بالطمأنينة كان المراد أنهم يعبدون الله وكانت قلوبهم عند أداء العبادات مطمئنة بذكر الله فارغة عن الالتفات إلى ما سوى الله تعالى أو يقال إنما قلوبهم صارت مطمئنة إلى صدق الله بكل ما وعدهم من الثواب والعقاب، وأما إن فسرنا الإخبات بالخشوع كان معناه أنهم يأتون بالأعمال الصالحة خائفين وجلين من أن يكونوا أتوا بها مع وجود الإخلال والتقصير، ثم بين أن من حصل له هذه الصفات الثلاثة فهم أصحاب الجنة، ويحصل لهم الخلود في الجنة.

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (24) ﴾

(7/376)

واعلم أنه تعالى لما ذكر الفريقين ذكر فيهما مثالاً مطابقاً ثم اختلفوا فقيل: إنه راجع إلى من ذكر آخراً من المؤمنين والكافرين من قبل، وقال آخرون: بل رجع إلى قوله: ﴿ أَفَمَن كَانَ

على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [هود : 17] ثم ذكر من بعده الكافرين ووصفهم بأنهم لا يستطيعون السمع ولا يبصرون ، والسميع والبصير هم الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم .

واعلم أن وجه التشبيه هو أنه سبحانه خلق الإنسان مركباً من الجسد ومن النفس ، وكما أن للجسد بصراً وسمعاً فكذلك حصل لجوهر الروح سمع وبصر ، وكما أن الجسد إذا كان أعمى أصم بقي متحيراً لا يهتدي إلى شيء من المصالح ، بل يكون كالتائه في حضيض الظلمات لا يبصر نوراً يهتدي به ولا يسمع صوتاً ، فكذلك الجاهل الضال المضل ، يكون أعمى وأصم القلب ، فيبقى في ظلمات الضلالات حائراً تائهاً .

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ منبهاً على أنه يمكنه علاج هذا العمى وهذا الصمم ، وإذا كان العلاج ممكناً من الضرر الحاصل بسبب حصول هذا العمى وهذا الصمم وجب على العاقل أن يسعى في ذلك العلاج بقدر الإمكان .

واعلم أنه قد جرت العادة بأنه تعالى إذا ورد على الكافر أنواع الدلائل أتبعها بالقصص ، ليصير ذكرها مؤكداً لتلك الدلائل على ما قررنا هذا المعنى في مواضع كثيرة ، وفي هذه السورة ذكر أنواعاً من القصص . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 167 . 168 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ ﴾

فيه خمسة تأويلات :

أحدها : يعني خافوا ربهم ، قاله ابن عباس .

الثاني : يعني اطمأنوا ، قاله مجاهد .

الثالث : أنابوا ، قاله قتادة .

الرابع : خشعوا وتواضعوا لربهم ، رواه معمر .

الخامس : أخلصوا إلى ربهم ، قاله مقاتل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وأخبتوا إِلى ربهم ﴾

فيه سبعة أقوال :

أحدها : خافوا ربهم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أنابوا إلى ربهم ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : ثابوا إِلى ربهم ، قاله قتادة .

والرابع : اطمأنوا ، قاله مجاهد .

والخامس : أخلصوا ، قاله مقاتل .

والسادس : تخشَّعوا لربهم ، قاله الفراء .

والسابع : تواضعوا لربهم ، قاله ابن قتيبة .

فإن قيل : لم أوثرت "إِلى" على اللام في قوله "وأخبتوا إِلى ربهم" ، والعادة جارية بأن يقال : أخبتوا لربهم ؟

فالجواب : أن المعنى : وَجَّهوا خوفَهم وخشوعهم وإِخلاصهم إِلى ربهم ، واطمأنوا إِلى ربهم .

قال الفراء : وربما جعلت العرب "إِلى" في موضع اللام ، كقوله : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ [الزلزال : 5] ، وقوله : ﴿ الذي هدانا لهذا ﴾ [الأعراف : 43] .

وقد يجوز في العربية : فلان يخبت إِلى الله ، يريد : يفعل ذلك موجهَه إِلى الله .

قال بعض المفسرين : هذه الآية نازلة في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما قبلها نازل في المشركين .

ثم ضرب للفريقين مثلاً ، فقال : ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم ﴾ قال مجاهد : الفريقان : المؤمن والكافر .

فأما الأعمى والأصم فهو الكافر ، وأما البصير والسميع فهو المؤمن .

قال قتادة : الكافر عَمِيَ عن الحق وصُمَّ عنه ، والمؤمن أبصرَ الحق وسمعَه ثم انتفع به .

وقال أبو عبيدة : في الكلام ضمير ، تقديره : مثل الفريقين كمثل الأعمى .

وقال الزجاج : مثل الفريقين المسلِمَين كالبصير والسميع ، ومثل فريق الكافرين كالأعمى والأصم ، لأنهم في عداوتهم وتركهم للفهم بمنزلة من لا يسمع ولا يبصر .

قوله تعالى : ﴿ هل يستويان مثلاً ﴾ أي : هل يستويان في المشابهة ؟

والمعنى : كما لا يستويان عندكم ، كذلك لا يستوي المؤمن والكافر عند الله .

وقال أبو عبيدة : "هل" هاهنا بمعنى الإِيجاب ، لا بمعنى الاستفهام ، والمعنى : لا يستويان .

(10/376)

قال الفراء : وإِنما لم يقل : "يستوون" لأن الأعمى والأصم من صفةٍ واحدٍ ، والسميع والبصير من صفةٍ واحدٍ ، كقول القائل : مررت بالعاقل واللبيب ، وهو يعني واحداً ، قال الشاعر :

وما أدْرِي إذا يمَّمْتُ أرضاً . . .

أريدُ الخيْرَ أيّهما يليني

فقال : أيهما .

وإنما ذكر الخير وحده ، لأن المعنى يُعرف ، إذ المبتغي للخير متَّقٍ للشر .

وقال ابن الأنباري : الأعمى والأصم صفتان لكافر ، والسميع والبصير صفتان لمؤمن ، فرُدَّ الفعلُ إلى الموصوفين بالأوصاف الأربعة ، كما تقول : العاقل والعالم ، والظالم والجاهل ، حضرا مجلسي ، فتثنِّي الخبر بعد ذكرك أربعة ، لأن الموصوف بالعلم هو الموصوف بالعقل ، وكذلك المنعوت بالجهل هو المنعوت بالظلم ، فلما كان المنعوتان اثنين ، رجع الخبر إليهما ، ولم يُلتفت إلى تفريق الأوصاف ، ألا ترى أنه يسوغ أن تقول : الأديب واللبيب والكريم والجميل قصدني ، فتوحِّد الفعل بعد أوصاف لعلة أن الموصوف بهن واحد ، ولا يمتنع عطف النعوت على النعوت بحروف العطف ، والموصوفُ واحد ، فقد قال تعالى : ﴿ التائبون العابدون ﴾ [التوبة : 112] ثم قال : ﴿ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴾ فلم يقتض دخولُ الواو وقوعَ خلاف بين الآمرين والناهين ، وقد قيل : الآمر بالمعروف ، ناهٍ عن المنكر في حال أمره ، وكان دخول الواو دلالة على الآمر بالمعروف ، لأن الأمر بالمعروف لا ينفرد دون النهي عن المنكر ، كما ينفرد الحامدون بالحمد دون السائحين ، والسائحون بالسياحة دون الحامدين ، ويدل أيضاً على أن العرب تنسق النعت على

النعت والمنعوت واحد ، كقول الشاعر يخاطب سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان :

يَظُنُّ سعيدٌ وابنُ عمروٍ بأنَّني . . .

إذا سامَني ذلاً أكونُ به أرْضَى

فنسق ابن عمرو على سعيد ، وهو سعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(11/376)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ ﴾

﴿ الذين ﴾ اسم ﴿ إنّ ﴾ و ﴿ آمَنُوا ﴾ صلة ، أي صدّقوا .

﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات وأخبتوا إلى رَبِّهِمْ ﴾ عطف على الصلة .

قال ابن عباس : أخبتوا أنابوا .

مجاهد : أطاعوا .

قَتَادة : خشعوا وخضعوا .

مقاتل : أخلصوا .

الحسن : الإخبات الخشوع للمخافة الثابتة في القلب ؛ وأصل الإخبات الاستواء ، من

الخَبْت وهو الأرض المستوية الواسعة : فالإخبات الخشوع والاطمئنان ، أو الإنابة إلى الله عزّ وجلّ المستمرّة ذلك على استواء .

﴿ إِلَى رَبِّهِمْ ﴾ قال الفرّاء : إلى ربهم ولربهم واحد ، وقد يكون المعنى : وجهوا إخباتهم إلى ربهم .

﴿ أولئك ﴾ خبر ﴿ إِنَّ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الفريقين ﴾

ابتداء ، والخبر ﴿ كالأعمى ﴾ وما بعده .

قال الأخفش : أي كمثل الأعمى .

النحاس : التقدير مثل فريق الكافر (كالأعمى) والأصم ، ومثل فريق المؤمن كالسميع والبصير ؛ ولهذا قال : ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ فردّ إلى الفريقين وهما اثنان ؛ روي معناه عن قَتَادة وغيره .

قال الضّحّاك : الأعمى والأصمّ مثلٌ للكافر ، والسميع والبصير مثل للمؤمن .

وقيل : المعنى هل يستوي الأعمى والبصير ، وهل يستوي الأصمّ والسميع .

﴿ مَثَلاً ﴾ منصوب على التمييز .

﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ في الوصفين وتنظرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ﴾

لما ذكر الله أحوال الكفار في الدنيا وخسرانهم في الآخرة أتبعه بذكر أحوال المؤمنين في الدنيا وربحهم في الآخرة والإخبات في اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب ولفظ الإخبات يتعدى بإلى وباللام فإذا قلت أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن إليه وإذا قلت أخبت له فمعناه خشع وخضع له فقوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ إشارة إلى جميع أعمال الجوارح وقوله وأخبتوا إشارة إلى أعمال القلوب وهي الخضوع والخشوع لله يعني أن هذه الأعمال الصالحة لا تنفع في الآخرة إلا بحصول أعمال القلب وهي الخشوع والخضوع فإذا فسرنا الإخبات بالطمأنينة كان معنى الكلام يأتون بالأعمال الصالحة مطمئنين إلى صدق وعد الله بالثواب والجزاء على تلك الأعمال أو يكونون مطمئنين إلى ذكره سبحانه وتعالى وإذا فسرنا الإخبات الخشوع والخضوع كان معناه أنهم يأتون بالأعمل الصالحة خائفين وجلين أن لا تكون مقبولة وهو الخشوع والخضوع ﴿ أولئك ﴾ يعني الذين هذه

صفتهم ﴿ أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ أخبر عن حالهم في الآخرة بأنهم من أهل الجنة التي لا انقطاع لنعيمها ولا زوال.

(13/376)

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال الكفار وما كانوا عليه من العمى عن طريق الهدى والحق ومن الصمم عن سماعه وذكر أحوال المؤمنين وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد للطاعة ضرب لهم مثلاً فقال تبارك وتعالى مثل الفريقين يعني فريق المؤمنين وفريق الكافرين كالأعمى وهو الذي لا يهتدي لرشده والأصم وهو الذي لا يسمع شيئاً البتة، والبصير وهو الذي يبصر الأشياء على ماهيتها، والسميع وهو الذي يسمع الأصوات ويجيب الداعي فمثل المؤمنين كمثل الذي يسمع ويبصر وهو الكامل في نفسه ومثل الكافر كمثل الذي لا يسمع ولا يبصر وهو الناقص في نفسه ﴿ هل يستويان مثلاً ﴾ قال الفراء لم يقل هل يستوون لأن الأعمى والأصم في حيز كأنهما واحد وهما من وصف الكافر والبصير والسميع في حيز كأنهما واحد وهما من وصف المؤمن ﴿ أفلا تذكرون ﴾ يعني فتتعظون. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ ﴾

لما ذكر ما يؤول إليه الكفار من النار ، ذكر ما يؤول إليه المؤمنون من الجنة ، والفريقان هنا الكافر والمؤمن .

ولما كان تقدم ذكر الكفار وأعقب بذكر المؤمنين ، جاء التمثيلم هنا مبتدأ بالكافر فقال : كالأعمى والأصم .

ويمكن أن يكون من باب تشبيه اثنين باثنين ، فقوبل الأعمى بالبصير وهو طباق ، وقوبل الأصم بالسميع وهو طباق أيضاً ، والعمى والصمم آفتان تمنعان من البصر والسمع ، وليستا بضدّين ، لأنه لا تعاقب بينهما .

ويحتمل أن يكون من تشبيه واحد بوصفيه بواحد بوصفيه ، فيكون من عطف الصفات كما قال الشاعر :

إلى الملك القرن وابن الهمام . . .

وليث الكريهة في المزدحم

ولم يجيء التركيب كالأعمى والبصير والأصم والسميع فيكون مقابلة في لفظ الأعمى وضده ، وفي لفظة الأصم وضده ، لأنه تعالى لما ذكر انسداد العين أتبعه بانسداد السمع ، ولما ذكر انفتاح البصر أتبعه بانفتاح السمع ، وذلك هو الأسلوب في المقابلة ، والأتم في الإعجاز .

ويأتي إن شاء الله تعالى نظير هذه المقابلة في قوله في طه : ﴿ أن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ واحتمل أنْ تكون الكاف نفسها هي خبر المبتدأ ، فيكون معناها معنى المثل ، فكأنه قيل : مثل الفريقين مثل الأعمى .

واحتمل أن يراد بالمثل الصفة ، وبالكاف مثل ، فيكون على حذف مضاف أي : كمثل الأعمى ، وهذا التشبيه تشبيه معقول بمحسوس ، فأعمى البصيرة أصمها ، شبه بأعمى البصر أصم السمع ، ذلك في ظلمات الضلالات متردد تائه ، وهذا في الطرقات محير لا يهتدي إليها .

وجاء أفلا تذكرون لينبه على أنه يمكن زوال هذا العمى وهذا الصمم المعقول ، فيجب على العاقل أن يتذكر ما هو فيه ، ويسعى في هداية نفسه .

وانتصب مثلاً على التمييز ، قال ابن عطية : ويجوز أن يكون حالاً انتهى .

وفيه بعد ، والظاهر التمييز وأنه منقول من الفاعل أصله : هل يستوي مثلاهما . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

ولما ذُكر فريقُ الكفارِ وأعمالُهم وبيّن مصيرُهم ومآلُهم شُرِع في بيان حالِ أضدادِهم أعني فريقَ المؤمنين وما يؤول إليه أمرُهم من العواقب الحميدةِ تكملةً لما سلف من محاسنهم المذكورة في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيّنَةٍ مّن رَّبّهِ ﴾ الآية ، ليتبينَ ما بينهما من التباين البيّنِ حالاً ومآلاً فقيل : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ أي بكل ما يجب أن يؤمَن به فيندرج تحتَه ما نحن بصدده من الإيمان بالقرآن الذي عبّر عنه بالكون على بينة من الله وإنما يحصُل ذلك باستماع الوحي والتدبرِ فيه ومشاهدةِ ما يؤدّي إلى ذلك في الأنفس والآفاقِ ، أو فعلوا الإيمان كما في يُعطي ويمنع ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات وَأَخْبَتُواْ إلى رَبّهِمْ ﴾ أي اطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخضوع والتواضعِ من الخَبْت وهي الأرضُ المطمئنة ومعنى أخبت دخل في الخَبْت . وأنجدَ دخل في تِهامةَ ونجدٍ ﴿ أولئك ﴾ المنعوتون بتلك النعوتِ الجميلة ﴿ أصحاب الجنة هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ دائمون وبعد بيانِ تباينِ حاليهما عقلاً أريد بيانُ تبايُنِهما حِساً فقيل :

﴿ مَثَلُ الفريقين ﴾

المذكورين أي حالُهما العجيبُ لأن المَثَلَ لا يُطلق إلا على ما فيه غرابةٌ من الأحوال والصفات ﴿ كالاعمى والاصم والبصير والسميع ﴾ أي كحال هؤلاءِ فيكون ذواتُهم كذواتهم ، والكلامُ وإن أمكن أن يُحمَلَ على تشبيه الفريقِ الأولِ بالأعمى وبالأصمّ وتشبيهِ الفريقِ الثاني بالبصير وبالسميع لكن الأدخلَ في المبالغة والأقربَ إلى ما يشير إليه لفظُ المثل والأنسبَ بما سبق من وصف الكفرةِ بعدم استطاعةِ السمع وبعدم الإبصارِ ، أن يُحمل على تشبيه الفريقِ الأولِ بمن جمع بين العَمى والصمَم ، وتشبيهُ الفريقِ الثاني بمَن جمع بين البصر والسمع على أن تكون الواوُ في قوله تعالى : ﴿ والاصم ﴾ وفي قوله : ﴿ والسميع ﴾ لعطف الصفةِ على الصفة كما في قول من قال :

(16/376)

إلى الملك القَرْمِ وابنِ الهُمام . . . وليثِ الكتيبةِ في المُزْدَحَمْ

(17/376)

وأياً ما كان فالظاهرُ أن المرادَ بالحال المدلولِ عليها بلفظ المَثَل وهي التي يدور عليها أمرُ التشبيهِ ما يلائم الأحوالَ المذكورةَ المعتبرةَ في جانب المشبهِ به من تعامي الفريقِ الأولِ عن مشاهدة آياتِ الله المنصوبةِ في العالم والنظرِ إليها بعين الاعتبار وتصامّهم عن استماع آياتِ القرآنِ الكريم وتلقّيها بالقبول حسبما ذكر في قوله تعالى : ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ وإنما لم يُراعَ هذا الترتيبُ هنا لكون الأعمى أظهرَ وأشهرَ في سوء الحالِ من الأصم ، ومن استعمال الفريقِ الثاني لكل من أبصارهم وأسماعِهم فيما ذكر كما ينبغي المدلولُ عليه بما سبق من الإيمان والعملِ الصالحِ والإخبات حسبما فسر به فيما مر فلا يكون التشبيهُ تمثيلياً لا جميع الأحوال المعدودةِ لكل من الفريقين مما ذكر وما يؤدي إليه من العذاب المضاعَف والخسران البالغِ في أحدهما ومن النعيم المقيم في الآخر ، فإن اعتبارَ ذلك ينزِعُ إلى كون التشبيهِ تمثيلياً بأن يُنتزَعَ من حال الفريقِ الأول في تصامّهم وتعاميهم المذكورَيْن ووقوعِهم بسبب ذلك في العذاب المضاعفِ والخُسران الذي لا خسرانَ فوقه هيئةٌ فتشبّه بهيئة منتزَعةٍ ممن فقَد مَشْعَرَيْ البصر والسمعِ فتخبّط في مسلَكه فوقع في مهاوي الردى ولم يجدْ إلى مقصِده سبيلاً وينتزَعَ من حال الفريق الثاني في استعمال مشاعرِهم في آيات الله تعالى حسبما ينبغي وفوزِهم بدار الخلودِ هيئةٌ فتشبّه بهيئة متنزَعةٍ ممن له بصرٌ وسمع يستعملهما في مَهمّاته فيتهدي إلى سبيله وينال مَرامه ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ يعني الفريقين المذكورين والاستفهامُ إنكاريٌّ مذكّر لما سبق من إنكار المماثلةِ في قوله عز

وجل : ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ ﴾ الآية ﴿ مَثَلاً ﴾ أي حالاً وصفةً وهو تمييزٌ من فاعل يستويان ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أتشكون في عدم الاستواءِ وما بينهما من التباين أو

(18/376)

أتغفُلون عنه فلا تتذكرونه بالتأمل فيما ضُرب لكم من المثل فيكون الإنكارُ وارداً على المعطوفَيْن معاً أو أتسمعون هذا فلا تتذكرون فيكون راجعاً إلى عدم التذكر بعد تحققِ ما يوجب وجودَه وهو المثل المضروبُ كما في قوله تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن ﴾ فإن الفاءَ لإنكار الانقلاب بعد تحقق ما يوجب عدمَه من علمهم بخلوّ الرسلِ قبل رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أو أفلا تفعلون التذكرَ أو أفلا تعقِلون ومعنى الهمزةِ إنكارُ عدمِ التذكرِ واستبعادُ صدوره عن المخاطبين وأنه ليس مما يصح أن يقع لا من قبيل الإنكار في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مّن رَّبّهِ ﴾ وقولِه تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ فإن ذلك لنفي المماثلة ونفي الاستواء . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(19/376)

وقال الآلوسى :

ثم إنه تعالى لما ذكر طريق الكفار وأعمالهم وبين مصيرهم وما له شرع في شرح حال أضدادهم وهم المؤمنون وبيان ما لهم من العواقب الحميدة تكملة لما سلف من محاسن المؤمنين المذكورة عند جمع في قوله سبحانه : ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيّنَةٍ مّن رَّبّهِ ﴾ [هود : 17] الآية ليتبين ما بينهما من التباين البين حالا ومآلا

فقال عز من قائل :

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ أي صدقوا بكل ما يجب التصديق به من القرآن وغيره ولا يكون ذلك إلا باستماع الحق ومشاهدة الآيات الآفاقية والأنفسية والتدبر فيها ، أو المعنى فعلوا الإيمان واتصفوا به كما في فلان يعطى ويمنع ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي الأعمال الصالحات ولعل المراد بها ما يشمل الترغيب في سلوك سبيل الله عز وجل ونحوه مما على ضده فريق الكفار ﴿ وَأَخْبَتُواْ إلى رَبّهِمْ ﴾ أي اطمؤنوا إليه سبحانه وخشعوا له ، وأصل الإخبات نزول الخبت وهو المنخفض من الأرض ، ثم أطلق على اطمئنان النفس والخشوع تشبيهاً للمعقول بالمحسوس ثم صار حقيقة فيه ، ومنه الخبيت بالتاء المثناة للدنىء ، وقيل : إن التاء بدل من الثاء المثلثة ﴿ أولئك ﴾ المنعوتون بتلك النعوت الجلية الشأن ﴿ أصحاب الجنة هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ دائمون أبداً وليس المراد حصر الخلود فيهم لأن

العصاة من المؤمنين يدخلون الجنة عند أهل الحق ويخلدون فيها ، ولعل من يدعى ذلك يريد بنفي الخلود عن العصاة نقصه من أوله كما قيل به فيما ستسمعه إن شاء الله تعالى :

﴿ مَثَلُ الفريقين ﴾ المذكورين من المؤمنين والكفار أي حالهما العجيب ، وأصل المثل كالمثل النظير ، ثم استعير لقول شبه مضربه بمورده ولا يكون إلا لما فيه غرابة وصار في ذلك حقيقة عرفية ، ومن هنا يستعار للقصة والحال والصفة العجيبة .

(20/376)

﴿ كالاعمى والاصم والبصير والسميع ﴾ أي كحال من جمع بين العمى والصمم ، ومن جمع بين البصر والسمع فهناك تشبيهان : الأول تشبيه حال الكفرة الموصوفين بالتعامي والتصام عن آيات الله تعالى بحال من خلق أعمى أصم لا تنفعه عبارة ولا إشارة ، والثاني تشبيه حال الذين آمنوا وعملوا الصالحات فانتفعوا بأسماعهم وأبصارهم اهتداءاً إلى الجنة وانكفاءاً عما كانوا خابطين فيه من ضلال الكفر والدجنة بحال من هو بصير سميع يستضيء بالأنوار في الظلام ويستفيء بمغانم الأنذار والأبشار فوزاً بالمرام ، والعطف لتنزيل تغاير الصفات منزلة تغاير الذوات كما في قوله :

يا لهف زيابة للحرث الص . . .

ابح فالغانم فالآيب

ويحتمل أن يكون هناك أربع تشبيهات بأن يعتبر تشبيه حال كل من الفريقين .

الفريق الكافر .

والفريق المؤمن بحال اثنين أي مثل الفريق الكافر كالأعمى ومثله أيضاً كالأصم ، ومثل الفريق المؤمن كالبصير ومثله أيضاً كالسميع ، وقد يعتبر تنويع كل من الفريقين إلى نوعين فيشبه نوع من الكفار بالأعمى .

ونوع منهم بالأصم ويشبه نوع من المؤمنين بالبصير .

ونوع منهم بالسميع ، واستبعد ذلك إذ تقسيم الكفار إلى مشبه بالأول ومشبه بالثاني

وكذلك المؤمنون غير مقصود البتة بدليل نظائره في الآيات الأخر كقوله سبحانه : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الاعمى والبصير ﴾ [فاطر : 19] وكقوله تعالى : ﴿ خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ [البقرة : 7] في الكفار الخلص ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ [البقرة : 18] في المنافقين ، وللآية على احتمالاتها شبه في الجملة بقول أمرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطباً ويابسا . . .

لدى وكرها العناب والحشف البالي

فتدبره ، وقد يعتبر التشبيه تمثيلياً بأن ينتزع من حال الفريق الأول في تصامهم وتعاميهم

المذكورين ووقوعهم بسبب ذلك في العذاب المضاعف والخسران الذي لا خسران فوقه هيئة منتزعة ممن فقد مشعري البصر .

(21/376)

والسمع فتخطب في مسلكه فوقع في مهاوي الردي ولم يجد إلى مقصده سبيلاً ، وينتزع من حال الفريق الثاني في استعمال مشاعرهم في آيات الله تعالى حسبما ينبغي وفوزهم بدار الخلود هيئة تشبه بهيئة منتزعة ممن له بصر وسمع يستعملهما في مهماته فيهتدي إلى سبيله وينال مرامه ، ولا يخفى أنه خلاف الظاهر .

ولعل أظهر الاحتمالات ما أشير إليه أولاً ، والكلام من باب اللف والنشر ، واللف إما تقديري إن اعتبر في الفريقين لأنه في قوة الكافرين والمؤمنين ، أو تحقيقي إن اعتبر فيما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى ﴾ [هود : 18] الخ ، وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ [هود : 23] الآية ، وأمر النشر ظاهر ، ولا يخفى ما فيه من الطباق بين الأعمى والبصير وبين الأصم والسميع ، وقدم ما للكافرين قيل : مراعاة لما تقدم ولأن السياق لبيان حالهم ، وقدم الأعمى على الأصم لكونه أظهر وأشهر في سوء الحال منه .

وفي البحر إنما لم يجيء التركيب كالأعمى والبصير .

والأصم والسميع ليكون كل من المتقابلين على إثر مقابله لأنه تعالى لما ذكر انسداد العين أتبعه بانسداد السمع ، ولما ذكر انفتاح البصر أتبعه بانفتاح السمع وذلك هو الأسلوب في المقابلة والأتم في الاعجاز ، وسيأتي إن شاء الله تعالى نظير ذلك في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ لَكَ أَن لا تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تعرى وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُا فِيهَا وَلاَ تضحى ﴾ [طه : 118 ، 119] ثم الظاهر مما تقدم أن الكلام على حذف مضاف وهو مجرور بالكاف ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع خبراً عن مثل .

(22/376)

وجوز أن تكون الكاف نفسها خبر المبتدأ ويكون معناها معنى المثل ، ولا حاجة إلى تقدير مضاف أي مثل الفريقين مثل الأعمى والأصم والبصير والسميع ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ يعني الفريقين المذكورين ، والاستفهام إنكاري مذكر على ما قيل : لما سبق من إنكار المماثلة في قوله سبحانه : ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مّن رَّبّهِ ﴾ [هود : 17] الخ ﴿ مَثَلاً ﴾ أي حالا وصفة ونصبه على التمييز المحول عن الفاعل ، والأصل هل يستوي مثلهما .

وجوز ابن عطية أن يكون حالا ، وفيه بعد ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أتشكون في عدم الاستوار وما بينهما من التباين أو تغفلون عنه فلا تتذكرونه بالتأمل فيما ذكر لكم من المثل ،

فالهمزة للاستفهام الإنكاري وهو وارد على المعطوفين معاً أو أتسمعون هذا فلا تتذكرون فيكون الإنكار وارداً على عدم التذكر بعد تحقق ما يوجب وجوده وهو المثل المضروب أي أفلا تفعلون التذكر ، أو أفلا تعقلون ، ومعنى إنكار عدم التذكر استبعاده من المخاطبين وأنه مما لا يصح أن يقع ، وليس من قبيل الإنكار في ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيّنَةٍ مّن رَّبّهِ ﴾ [هود : 17] و﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ فإن ذلك لنفي المماثلة ونفي الاستواء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(23/376)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾

هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْمُقَابَلَةِ وَالْمُوَازَنَةِ بَيْنَ مَنْ يَهْتَدِي وَيَهْدِي بِالْقُرْآنِ عَلَى عِلْمٍ وَبَيِّنَةٍ ، وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ عَلَى جَهْلٍ وَتَقْلِيدٍ ، أَوْ عِنَادٍ وَجُحُودٍ ، فَهِيَ صِلَةٌ بَيْنَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا .

(24/376)

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ) أَيْ عَلَى الْحُجَّةِ وَبَصِيرَةٍ مِنْ رَبِّهِ فِيمَا يُؤْمِنُ بِهِ وَيَدْعُو إِلَيْهِ هَادِيًا مُهْتَدِيًا بِهِ ، فَالْبَيِّنَةُ مَا يَتَبَيَّنُ بِهِ الْحَقُّ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ ; كَالْبُرْهَانِ فِي الْعَقْلِيَّاتِ ، وَالنُّصُوصِ فِي النَّقْلِيَّاتِ ، وَالْخَوَارِقِ فِي الْإِلَهِيَّاتِ ، وَالتَّجَارِبِ فِي الْحِسِّيَّاتِ ، وَالشَّهَادَاتِ فِي الْقَضَائِيَّاتِ ، وَالِاسْتِقْرَاءِ فِي إِثْبَاتِ الْكُلِّيَّاتِ ، وَقَدْ نَطَقَ الْقُرْآنُ بِأَنَّ الرُّسُلَ كُلَّهُمْ قَدْ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ ، وَأَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ مِنْهُمْ كَانَ يَحْتَجُّ عَلَى قَوْمِهِ بِأَنَّهُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ، وَأَنَّهُ جَاءَهُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَمَا تَرَى فِي قَصَصِهِمْ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَهَذِهِ السُّورَةِ . وَكَانَتْ بَيِّنَاتُهُمْ قِسْمَيْنِ : حُجَجًا عَقْلِيَّةً ، وَآيَاتٍ كَوْنِيَّةً ، وَكَانَ مَنْ لَمْ يَقْتَنِعْ بِبَيِّنَةِ الرَّسُولِ أَوْ يُكَابِرُهَا يَقُولُونَ : (مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ) (11 : 53) وَكَانَ مَنْ جَحَدَ الْآيَةَ الْكَوْنِيَّةَ بَعْدَ التَّحَدِّي وَالْإِنْذَارِ بِالْعَذَابِ يُهْلَكُونَ بِعَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ ، وَتَجِدُ هَذَا وَذَاكَ مُفَصَّلًا فِي قَصَصِهِمْ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَفَرَّقَ بَيْنَ قَوْلِ الرَّسُولِ مِنْهُمْ :

(25/376)

إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي 6 : 57 وَقَوْلِهِ : (قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) (7 : 105) فَالْأُولَى مَا عَلِمَ هُوَ بِهِ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ رَبِّهِ بِوَحْيِهِ إِلَيْهِ ، وَبِإِظْهَارِهِ عَلَى مَا شَاءَ مِنْ رُؤْيَةِ مَلَكِ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ ، وَالثَّانِيَةُ مَا آتَاهُ مِنَ الْحُجَّةِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَى قَوْمِهِ كَقَوْلِهِ : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا

آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ) (6 : 83) أَوْ مَا آتَاهُ مِنْ آيَةٍ كَوْنِيَّةٍ تَسْتَخْذِي لَهَا أَنْفُسُهُمْ، وَتَنْقَطِعُ بِهَا مُكَابَرَتُهُمْ.

وَكَانَ نَبِيُّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُطْلِقُ الْبَيِّنَةَ تَارَةً عَلَى الْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ، وَتَارَةً عَلَى آيَتِهِ الْكُبْرَى الْجَامِعَةِ لِلْبَرَاهِينِ الْكَثِيرَةِ وَهِيَ الْقُرْآنُ، قَالَ تَعَالَى لَهُ: (قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ) (6 : 57) وَأَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ بَعْدَ ذِكْرِ مُوسَى وَالتَّوْرَاةِ: (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ) (6 : 155 - 157) فَهَذَا

السِّيَاقُ يُشْبِهُ سِيَاقَ الْآيَةِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا.

وَفِي الْمُرَادِ بِصَاحِبِ الْبَيِّنَةِ فِيهَا وَجْهَانِ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ : أَنَّهُ عَامٌّ قُوبِلَ بِهِ مَا قَبْلَهُ ، وَهُوَ مَنْ لَا يُرِيدُونَ مِنْ حَيَاتِهِمْ إِلَّا لَذَّاتِ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ، وَأَنَّ الْبَيِّنَةَ هِيَ نُورُ الْبَصِيرَةِ الْفِطْرِيَّةِ وَالْحُجَّةُ الْعَقْلِيَّةُ الَّتِي يُمَيِّزُ بِهَا الْإِنْسَانُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ . وَالْمَعْنَى : أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ وَبَصِيرَةٍ فِي دِينِهِ مِنْ رَبِّهِ - فَهُوَ كَقَوْلِهِ : (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) (39 : 22) (وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ) أَيْ وَيَتْبَعُ هَذَا النُّورَ الْفِطْرِيَّ وَالْبُرْهَانَ الْعَقْلِيَّ الْمُرَادَ بِالْبَيِّنَةِ ، وَأَعَادَ الضَّمِيرَ عَلَيْهَا مُذَكَّرًا بِاعْتِبَارِ مَعْنَاهَا ، وَيُؤَيِّدُهُ نُورٌ آخَرُ غَيْبِيٌّ إِلَهِيٌّ مِنْهُ - تَعَالَى - يَشْهَدُ بِحَقِّيَّتِهِ وَصِحَّتِهِ ، وَهُوَ هَذَا الْقُرْآنُ ، الَّذِي هُوَ مَشْرِقُ النُّورِ وَالْهُدَى وَالْبُرْهَانِ (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً) وَيَتْبَعُهُ وَيُؤَيِّدُهُ شَاهِدٌ آخَرُ جَاءَ مِنْ قَبْلِهِ ، وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَالَ كَوْنِهِ إِمَامًا مُتَّبَعًا فِي الْهُدَى وَالتَّشْرِيعِ ، وَرَحْمَةً لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ بِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَشَهَادَتُهُ لَهُ مِنْ وَجْهَيْنِ : شَهَادَةُ مَقَالٍ وَشَهَادَةُ حَالٍ ; فَالْأُولَى تَصْرِيحُهُ بِالْبِشَارَةِ

بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ وَرِسَالَتِهِ وَقَدْ بَيَّنَّاهَا مُفَصَّلَةً فِي تَفْسِيرِ (7 : 157) ، وَالثَّانِيَةُ مَا بَيْنَ رِسَالَةِ مُوسَى وَمُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مِنَ التَّشَابُهِ .

وَحَاصِلُ الْمَعْنَى : أَفَمَنْ كَانَ هَذَا شَأْنُهُ فِي كَمَالِ الْفِطْرَةِ وَالْعَقْلِ ، الَّذِي عَرَفَ بِهِ حَقِّيَّةَ الْوَحْيِ الْعَامِّ الْأَخِيرِ ، وَمَا فِيهِ مِنْ كَمَالِ الْهِدَايَةِ وَالنُّورِ ، وَعَرَفَ تَأْيِيدَهُ بِالْوَحْيِ السَّابِقِ الَّذِي اهْتَدَى بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، فَاتَّسَقَتْ لَهُ أَنْوَارُ الْحُجَجِ الثَّلَاثِ فِي هِدَايَةِ دِينِهِ ، كَمَنْ كَانَ يُرِيدُ مِنْ حَيَاتِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا النَّاقِصَةَ الْفَانِيَةَ وَزِينَتَهَا الْمُوَقَّتَةَ ، مَحْرُومًا مِنَ الْحَيَاةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ الْعَالِيَةِ ، الْمُوصِلَةِ إِلَى سَعَادَةِ الْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ ؟ ! .

(أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) أَيْ أُولَئِكَ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذُكِرَ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْبَيِّنَةِ الْوَهْبِيَّةِ ،

(28/376)

وَشَهَادَةِ الْوَحْيِ لِعَقَائِدِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ الْكَسْبِيَّةِ ، وَيُؤْمِنُونَ بِهَذَا الْقُرْآنِ إِيمَانَ مَعْرِفَةٍ وَإِذْعَانٍ ، عَلَى عِلْمٍ بِمَا فِيهِ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، وَأَنَّهُ مَا كَانَ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ) الَّذِينَ تَحَزَّبُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَزُعَمَاءِ قُرَيْشٍ لِلصَّدِّ عَنْهُ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ : هُمْ بَنُو أُمَيَّةَ وَبَنُو الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْمَخْزُومِيِّ وَآلُ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ ، وَالَّذِينَ سَيَتَحَزَّبُونَ لِمِثْلِ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ) أَيْ فَإِنَّ نَارَ جَهَنَّمَ هِيَ الدَّارُ الَّتِي يَنْتَهُونَ إِلَيْهَا بِمُقْتَضَى وَعْدِهِ - تَعَالَى - آنِفًا (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ) (11 : 16) وَمَا فِي مَعْنَاهُ فِي السُّوَرِ الْكَثِيرَةِ ، فَالْمَوْعِدُ اسْمُ مَكَانٍ (فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ) أَيْ فَلَا تَكُنْ أَيُّهَا

الْمُكَلَّفُ الْعَاقِلِ فِي شَكٍّ مِنْ هَذَا الْوَعْدِ ، أَوْ مِنْ أَمْرِ هَذَا الْقُرْآنِ (إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) إِنَّهُ هُوَ الْحَقُّ الْكَامِلُ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ (مِنْ رَبِّكَ) وَخَالِقِكَ الَّذِي يُرَبِّيكَ مِمَّا تَكْمُلُ بِهِ فِطْرَتُكَ ، وَيُوصِلُكَ إِلَى السَّعَادَةِ فِي دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) هَذَا الْإِيمَانَ الْكَامِلَ ، أَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَلِاسْتِكْبَارِ زُعَمَائِهِمْ وَرُؤَسَائِهِمْ ، وَتَقْلِيدِ مَرْءُوسِيهِمْ وَدَهْمَائِهِمْ ، وَأَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ فَلِتَحْرِيفِهِمْ وَابْتِدَاعِهِمْ فِي دِينِ أَنْبِيَائِهِمْ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ :

الْمُرَادُ بِـ النَّاسِ - فِي مِثْلِ هَذِهِ الْآيَةِ أَهْلُ مَكَّةَ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : جَمِيعُ الْكُفَّارِ .

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ مَكَّةَ أَوْ كُلَّهُمْ كَانُوا قَدْ آمَنُوا فِي عَهْدِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَإِذَا صَحَّتِ الرِّوَايَةُ عَنْهُ كَانَ مُرَادُهُ بَيَانَ حَالِهِمْ عِنْدَ نُزُولِ السُّورَةِ ، وَأَنَّ فِعْلَ الْمُضَارِعِ لِبَيَانِ الْحَالِ الْوَاقِعِ .

(الْوَجْهُ الثَّانِي) فِي الْآيَةِ: أَنَّ الْمُرَادَ بِمَنْ (كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ) فِيهَا رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْبَيِّنَةُ عَلَى هَذَا عِلْمَهُ الْيَقِينِيَّ الضَّرُورِيَّ بِنُبُوَّتِهِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَسَيَأْتِي مِثْلُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ حِكَايَةً عَنْ نُوحٍ فِي الْآيَةِ 28، وَعَنْ صَالِحٍ فِي الْآيَةِ 63، وَعَنْ شُعَيْبٍ فِي الْآيَةِ 88، وَيَكُونُ الشَّاهِدُ الَّذِي يَتْلُوهُ مِنْهُ - تَعَالَى - الْقُرْآنَ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ عِنْدِي، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالنَّخَعِيِّ وَالضَّحَّاكِ وَعِكْرِمَةَ وَأَبِي صَالِحٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: أَنَّ (الْبَيِّنَةَ) الْقُرْآنُ، وَ (الشَّاهِدَ) جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - . وَقَوْلُهُ: (وَيَتْلُوهُ) عَلَى هَذَا مِنَ التِّلَاوَةِ لَا مِنَ التُّلُوِّ وَالتَّبَعِيَّةِ، فَهُوَ الَّذِي كَانَ يَقْرَؤُهُ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عِنْدَ نُزُولِهِ بِهِ، وَكَانَ يُعَارِضُهُ وَيُدَارِسُهُ فِي رَمَضَانَ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ جَمِيعَ مَا نَزَلَ مِنْهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ آخِرُ رَمَضَانَ مِنْ آخِرِ عُمْرِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَارَضَهُ الْقُرْآنَ مَرَّتَيْنِ . وَفِي الشَّاهِدِ رِوَايَاتٌ أُخْرَى ضَعِيفَةُ الرِّوَايَةِ وَالدِّرَايَةِ (مِنْهَا) أَنَّهُ مَلَكٌ آخَرُ غَيْرُ جِبْرِيلَ كَانَ يَحْفَظُهُ الْقُرْآنَ أَنْ يَنْسَى مِنْهُ شَيْءٌ (وَمِنْهَا) أَنَّهُ لِسَانُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالَّذِي كَانَ يَتْلُوهُ بِهِ عَلَى النَّاسِ (وَمِنْهَا) أَنَّهُ عَلِيٌّ

-

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَرْوِيهِ الشِّيعَةُ وَيُفَسِّرُونَهُ بِالْإِمَامَةِ ، وَرُوِيَ أَنَّهُ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - سُئِلَ عَنْهُ فَأَنْكَرَهُ وَفَسَّرَهُ بِأَنَّهُ لِسَانُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَابَلَهُمْ خُصُومُهُمْ بِمِثْلِهَا فَقَالُوا : إِنَّهُ أَبُو بَكْرٍ ، وَهُمَا مِنَ التَّفْسِيرِ بِالْهَوَى ، وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ بَقِيَّةَ الْآيَةِ لَا تَظْهَرُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ بِالْجَلَاءِ وَالضِّيَاءِ الَّذِي يَظْهَرُ بِهِ الْوَجْهُ الْأَوَّلُ ، بَلْ يَحْتَاجُ الْجَمْعُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) إِلَى تَأْوِيلٍ مُتَكَلَّفٍ .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي
الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

هَذِهِ الْآيَاتُ السَّبْعُ بَيَانٌ لِحَالِ كُلِّ فَرِيقٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الْمُدْمَجَيْنِ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهُنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالْقُرْآنِ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، مَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَمَا يَكُونُونَ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ ، وَبَدَأَ بِوَصْفِ الْأَوَّلِ فَقَالَ :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا) أَيْ لَا أَحَدَ أَظْلَمُ لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا فِي وَحْيِهِ وَأَقْوَالِهِ ، أَوْ أَحْكَامِهِ أَوْ صِفَاتِهِ أَوْ أَفْعَالِهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ فِي الْأَنْعَامِ (1) وَالْأَعْرَافِ (2) وَيُونُسَ (3) وَسَيَأْتِي فِي الْكَهْفِ وَالْعَنْكَبُوتِ وَالصَّفِّ ، وَيُفَسَّرُ الِافْتِرَاءُ فِي كُلِّ آيَةٍ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ ، وَأَظْهَرُهُ هُنَا اتِّخَاذُ الشُّرَكَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالشُّفَعَاءِ لَهُ بِدُونِ إِذْنِهِ ، وَزَعْمُ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ اتَّخَذَ لَهُ وَلَدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ كَالْعَرَبِ الَّذِينَ قَالُوا : الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ ، وَالْوَثَنِيِّينَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ كِرُشْنَا ابْنُ اللهِ ، وَالنَّصَارَى الَّذِينَ قَالُوا : الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ، وَكَذَا مَنِ افْتَرَى عَلَيْهِ بِتَكْذِيبِ مَا جَاءَ بِهِ رُسُلُهُ مِنْ دِينِهِ ، لِصَدِّهِمُ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِهِ (أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ) يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمُحَاسَبَتِهِمْ ، وَتُعْرَضُ عَلَيْهِ أَعْمَالُهُمْ وَأَقْوَالُهُمْ (وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ)

الَّذِينَ يَقُومُونَ بِأَمْرِهِ لِلشَّهَادَةِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ ، وَالْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ ، وَصَالِحِي الْمُؤْمِنِينَ (الْأَشْهَادُ جَمْعُ شَاهِدٍ كَأَصْحَابٍ ، أَوْ شَهِيدٍ كَأَشْرَافٍ) (هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) أَيْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِأَشْخَاصِهِمْ فَيَفْضَحُونَهُمْ بِهَذِهِ الشَّهَادَةِ الْمَقْرُونَةِ بِاللَّعْنَةِ ، الدَّالَّةِ عَلَى خُرُوجِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ مُحِيطِ الرَّحْمَةِ ، وَجُمْلَةُ اللَّعْنَةِ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مِنْ كَلَامِ الْأَشْهَادِ ، وَأَنْ تَكُونَ مُسْتَأْنَفَةً مِنْ كَلَامِ اللهِ تَعَالَى . وَفِي مَعْنَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) (40 : 51 و52) وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ وَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ وَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ ، وَيَقُولُ لَهُ : أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا فَيَقُولُ : رَبِّ أَعْرِفُ ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ قَالَ : فَإِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ، ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ . وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ : (هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)

وَقَدْ بَيَّنَّا مَسْأَلَةَ الشَّهَادَةِ وَالشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَوَاضِعِهَا مِنْ سُوَرِ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَعْرَافِ مُفَصَّلَةً تَفْصِيلًا ، فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهَا فِي مَوَاضِعِهَا مِنْ أَجْزَاءِ التَّفْسِيرِ مُسْتَدِلًّا عَلَيْهَا بِأَلْفَاظِهَا فِي فَهَارِسِهَا .

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ)

صِفَةٌ لِلظَّالِمِينَ الْمَلْعُونِينَ ، أَيْ هُمُ الَّذِينَ يَمْنَعُونَ النَّاسَ وَيَصْرِفُونَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ الْمُوصِلَةِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ وَعِبَادَتِهِ ، وَهِيَ دِينُهُ الْقَيِّمُ وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) أَيْ يَصِفُونَهَا بِالْعِوَجِ وَالِالْتِوَاءِ لِلتَّنْفِيرِ عَنْهَا ، أَوْ يُرِيدُونَ أَنْ تَكُونَ عَوْجَاءَ بِمُوَافَقَتِهَا لِأَهْوَائِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ وَإِبَاحَةِ الظُّلْمِ وَالْفِسْقِ (وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) أَيْ وَالْحَالُ أَنَّهُمْ كَافِرُونَ بِالْآخِرَةِ لَا يُؤْمِنُونَ بِبَعْثٍ وَلَا جَزَاءٍ ، وَإِنَّمَا الدِّينُ عِنْدَهُمْ رَابِطَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ ، وَشَعَائِرُ قَوْمِيَّةٌ ، قَدْ يَتَعَصَّبُونَ لَهَا تَعَصُّبَهُمْ لِقَوْمِيَّتِهِمْ ، وَتَقْلِيدًا لِآبَائِهِمْ ، وَهَكَذَا شَأْنُ الْمَلَاحِدَةِ وَالْمُبْتَدِعَةِ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ ، الْمُدَّعِينَ لِدِينِ الْأَنْبِيَاءِ ، كَمَا تَرَاهُمْ فِي هَذَا الزَّمَانِ .

وَزِيَادَةُ - هُمْ - بَيْنَ الْمُبْتَدَإِ وَالْخَبَرِ لِلتَّأْكِيدِ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ نَصُّ هَذِهِ الْآيَةِ بِدُونِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ فِي الْآيَةِ (45) مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (7) فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهَا فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ .

(أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ) أَيْ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ اللهَ فِي الدُّنْيَا أَنْ يُعَاقِبَهُمْ بِظُلْمِهِمْ وَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِهِ وَكُفْرِهِمْ بِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَلِقَائِهِ (وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ) وَمَا كَانَ لَهُمْ فِيهَا أَوْلِيَاءُ مِنْ دُونِهِ يَتَوَلَّوْنَ أَمْرَهُمْ عِنْدَهُ، وَلَا أَنْصَارٌ يَمْنَعُونَهُمْ مِنْ عِقَابِهِ وَيَنْصُرُونَهُمْ، وَلَكِنْ سَبَقَتْ كَلِمَتُهُ وَاقْتَضَتْ مَشِيئَتُهُ وَحِكْمَتُهُ أَنْ يُؤَخِّرَهُمْ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ (يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ) فِيهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا كَانَ يَكُونُ مِنْ عِقَابِهِمْ فِي الدُّنْيَا لَوْ عُوقِبُوا فِيهَا، لَا بِالزِّيَادَةِ عَمَّا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنْهُ بِمُقْتَضَى سُنَّتِهِ - تَعَالَى - فِي إِفْسَادِ كُفْرِهِمْ لِأَرْوَاحِهِمْ، وَتَدْسِيَةِ ظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ.

(36/376)

قَرَأَ الْجُمْهُورُ (يُضَاعَفُ) مِنَ الْمُضَاعَفَةِ، وَابْنُ كَثِيرٍ وَابْنُ عَامِرٍ وَيَعْقُوبُ (يُضَعَّفُ) بِالتَّشْدِيدِ مِنَ التَّضْعِيفِ. وَعَلَّلَ هَذِهِ الْمُضَاعَفَةَ بِقَوْلِهِ: (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ) أَيْ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ إِلْقَاءَ أَسْمَاعِهِمْ إِلَى الْقُرْآنِ إِصْغَاءً لِدَعْوَةِ الْحَقِّ وَكَلَامِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لِاسْتِحْوَاذِ الْبَاطِلِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَرَيْنِ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ عَلَى قُلُوبِهِمْ بَلْ كَانُوا (يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) (6 : 26)، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِيهِمْ: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا

فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) (41 : 26) (وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ) مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ، أَيْ إِنَّهُمْ لِشِدَّةِ انْهِمَاكِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَلَوَازِمِهِ مِنَ الْبَاطِلِ وَاتِّبَاعِ الْهَوَى وَالشَّهَوَاتِ، صَارُوا يَكْرَهُونَ الْحَقَّ وَالْهُدَى كَرَاهَةً شَدِيدَةً، بِحَيْثُ يَثْقُلُ عَلَيْهِمْ سَمَاعُ مَا يُبَيِّنُهُ مِنَ الْآيَاتِ السَّمْعِيَّةِ، وَمَا يُثْبِتُهُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَصَرِيَّةِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ
أَنَّهُمْ فَقَدُوا حَاسَّتَيِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ فَصَارُوا صُمًّا وَعُمْيَانًا بِالْفِعْلِ ; بَلْ هُمْ كَمَا يَقُولُ أَمْثَالُهُمْ فِيمَا يُبْغِضُونَ: إِنَّنِي لَا أُطِيقُ رُؤْيَةَ فُلَانٍ، وَلَا أَقْدِرُ أَنْ أَسْمَعَ كَلَامَهُ، وَتَذَكَّرْ أَوْ رَاجِعْ قَوْلَهُ - تَعَالَى - لِنَبِيِّهِ فِي سُورَةِ يُونُسَ:) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ) (10 : 42) إِلَخْ .

(37/376)

وَأَمْثَالُهُمْ مُشَاهَدُونَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، أَعْطَى رَجُلٌ مُؤْمِنٌ رَجُلًا مُتَفَرْنِجًا مِنْهُمْ كِتَابَ (الْوَحْيِ الْمُحَمَّدِيِّ) الَّذِي شَهِدَ لَهُ مَنْ قَرَأَهُ مِنْ طَبَقَاتِ النَّاسِ الْمُخْتَلِفَةِ بِطَلَاوَةِ عِبَارَتِهِ وَحُسْنِ بَيَانِهِ، وَمُوَافَقَةِ أُسْلُوبِهِ وَتَرْتِيبِهِ وَتَبْوِيبِهِ لِذَوْقِ هَذَا الْعَصْرِ، ثُمَّ سَأَلَهُ بَعْدَ أَيَّامٍ: كَيْفَ رَآهُ؟ ظَانًّا أَنَّهُ قَرَأَهُ كُلَّهُ بِشَغَفٍ وَأَنَّهُ سَيَشْكُرُ لَهُ هَدِيَّتَهُ، فَقَالَ: إِنَّنِي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَقْرَأَ مِنْهُ صَفْحَةً وَاحِدَةً، وَاعْتَرَفَ بِأَنَّهُ يَقْرَأُ كُتُبَ أَشْهَرِ الْمَلَاحِدَةِ الطَّاعِنِينَ فِي الْقُرْآنِ بِلَذَّةٍ وَرَغْبَةٍ كَمَا يَقْرَأُ الْقَصَصَ (الرِّوَايَاتِ) الْغَرَامِيَّةَ ! ! ! !

(أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) أَيْ أُولَئِكَ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا تَقَدَّمَ هُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِافْتِرَائِهِمْ عَلَى اللهِ ، وَاشْتِرَاءِ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى ، فَإِنَّهُمْ دَسُّوهَا وَمَا زَكَّوْهَا فِي الدُّنْيَا فَفَقَدُوهَا فِي الْآخِرَةِ ، وَأَيُّ وُجُودٍ لِمَنْ يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ، فَلَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) مِنَ اتِّخَاذِ الشُّفَعَاءِ عِنْدَ اللهِ ، وَالْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ يُقَرِّبُونَهُمْ إِلَيْهِ زُلْفَى ، وَقَدْ سَبَقَ بِهَذَا الْمَعْنَى مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ فِي سِيَاقِ نِدَاءِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ : (فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ) (7 : 44 و45) .

(38/376)

(لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ) كَلِمَةُ لَا جَرَمَ تُفِيدُ التَّحْقِيقَ وَالتَّأْكِيدَ لِمَا بَعْدَهَا ; قَالَ الْفَرَّاءُ : هِيَ فِي الْأَصْلِ بِمَعْنَى لَا بُدَّ وَلَا مَحَالَةَ ، ثُمَّ كَثُرَتْ فَحُوِّلَتْ إِلَى مَعْنَى الْقَسَمِ وَصَارَتْ بِمَعْنَى (حَقًّا) وَلِهَذَا تُجَابُ بِاللَّامِ نَحْوَ : لَا جَرَمَ لَأَفْعَلَنَّ كَذَا ، أَيْ حَقًّا إِنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ لَأَشَدُّ النَّاسِ خُسْرَانًا . وَتَرَى مِثْلَ هَذَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ النَّمْلِ ، بِهَذَا وَصَفَ الْفَرِيقَ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ هُنَا ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَنْ يَقُولُ بِلِسَانِهِ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَيَلِيهِ الْفَرِيقُ الْآخَرُ - جَعَلَنَا اللهُ مِنْ خِيَارِهِ وَأَنْصَارِهِ - وَهُوَ :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ) أَيْ خَشَعُوا لَهُ وَاطْمَأَنَّتْ نُفُوسُهُمْ بِالْإِيمَانِ، وَلَانَتْ قُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِهِ، فَلَمْ يَبْقَ فِيهَا زِلْزَالٌ وَلَا اضْطِرَابٌ. وَأَصْلُ الْإِخْبَاتِ قَصْدُ الْخَبْتِ وَهُوَ الْمَكَانُ الْمُطْمَئِنُّ الْمُنْخَفِضُ مِنَ الْأَرْضِ وَالنُّزُولُ فِيهِ، يَقُولُونَ: أَخْبَتَ الرَّجُلُ،

كَمَا يَقُولُونَ: أَنْجَدُوا أَسْهَلَ وَأَنْهَمْ. وَيُقَالُ: أَخْبَتَ إِلَيْهِ وَأَخْبَتَ لَهُ، وَمِنَ الثَّانِي: (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(39/376)

(22 : 54) وَذَكَرَ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءُ الْمُخْبِتِينَ فِي سُورَةِ الْحَجِّ وَسَطًا بَيْنَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ إِلْقَاءِ الشَّيْطَانِ، وَبَيْنَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ (لَا يَزَالُونَ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ)، فَعُلِمَ مِنْهُ أَنَّهُ لَيْسَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ، وَمَا أَحْسَنَ مَا فَعَلَهُ الرَّاغِبُ مِنَ التَّنْظِيرِ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْمُخْبِتِي الْقُلُوبِ، وَبَيْنَ مَنْ قَالَ فِيهِمْ: (وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ) (2 : 74) (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ) أُولَئِكَ الْمُتَّصِفُونَ بِمَا ذُكِرَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الْمُسْتَحِقُّونَ لَهَا بِالذَّاتِ الْخَالِدُونَ فِيهَا أَبَدًا .

(40/376)

(مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ) أَيْ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْكَافِرِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَقَدَّمَ وَصْفُهُمَا وَبَيَانُ حَالِهِمَا ، فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُبَيِّنَةِ لِابْتِلَائِهِ - تَعَالَى - لِلنَّاسِ لِيَظْهَرَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَالصِّفَةُ الْحِسِّيَّةُ الْمُطَابِقَةُ لِحَالِهِمَا ، كَمَثَلِ الْأَعْمَى الْفَاقِدِ لِحَاسَّةِ الْبَصَرِ فِي خِلْقَتِهِ ، وَالْأَصَمِّ الْفَاقِدِ لِحَاسَّةِ السَّمْعِ ، كَذَلِكَ فِي حِرْمَانِهِ مِنْ مَصَادِرِ الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ ، وَمَنْ هُوَ كَامِلُ حَاسَّتَيِ الْبَصَرِ وَالسَّمْعِ كِلْتَيْهِمَا ، فَهُوَ يَسْتَمِدُّ الْعِلْمَ مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي التَّكْوِينِ وَالتَّشْرِيعِ بِمَا يَسْمَعُ مِنَ الْقُرْآنِ وَبِمَا يَرَى مِنَ الْأَكْوَانِ ، وَهُمَا الْيَنْبُوعَانِ اللَّذَانِ يُفِيضَانِ الْعِلْمَ وَالْهُدَى عَلَى عَقْلِ الْإِنْسَانِ (هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا) أَيْ هَلْ يَسْتَوِي الْفَرِيقَانِ صِفَةً وَحَالًا وَمَبْدَأً وَمَآلًا ؟ كَلَّا إِنَّهُمَا لَا يَسْتَوِيَانِ (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أَيْ أَتَجْهَلُونَ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ هَذَا الْمَثَلَ الْحِسِّيَّ الْجَلِيَّ ، أَوْ أَتَغْفُلُونَ عَنْهُ فَلَا تَتَذَكَّرُونَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّبَايُنِ فَتَعْتَبِرُوا بِهِ ؟ أَيْ يَجِبُ أَنْ تَتَفَكَّرُوا فَتَتَذَكَّرُوا فَتَعْتَبِرُوا وَتَهْتَدُوا .

(41/376)

شَبَّهَ فَرِيقَ الْكَافِرِينَ أَوَّلًا بِالْأَعْمَى فِي عَدَمِ اسْتِعْمَالِ بَصَرِهِ فِيمَا يُفْضُلُ بِهِ بَصَرَ الْحَيَوَانِ الْأَعْجَمِ، مِنْ فَهْمِ آيَاتِ اللهِ الَّتِي تَزِيدُهُ عِلْمًا وَعَقْلًا وَهُدًى رُوحِيًّا، ثُمَّ شَبَّهَهُ بِالْأَصَمِّ كَذَلِكَ بِدَلِيلِ عَطْفِهِ عَلَى الْأَعْمَى لِيَتَأَمَّلَ الْعَاقِلُ كُلَّ تَشْبِيهٍ وَحْدَهُ، وَأَمَّا قَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي الْمُنَافِقِينَ: (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ) (2 : 18) بِدُونِ عَطْفٍ، فَالْمُرَادُ بِهِ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ: التَّهْوِيلُ بِجَمْعِهِمْ لِلنَّقَائِصِ الثَّلَاثِ كُلِّهَا دُفْعَةً وَاحِدَةً فَلَمْ يَبْقَ فِي اسْتِعْدَادِهِمْ مَنْفَذٌ لِلْهُدَى، وَلِذَلِكَ عَطَفَ عَلَيْهِ بِفَاءِ السَّبَبِيَّةِ قَوْلَهُ فِي الْآيَةِ: (فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) (2 : 18) وَفِي الْآيَةِ: (فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (2 : 171) وَمِنَ الْإِيجَازِ فِي الْآيَةِ عَطْفُهُ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْمُتَقَابِلَةِ لِلْفَرِيقَيْنِ، وَتَرْكُهُ لِلسَّامِعِ وَالْقَارِئِ التَّوْزِيعَ، وَالتَّفْرِيقَ بَيْنَ مَا لِكُلٍّ مِنْهُمَا مِنَ التَّشْبِيهَيْنِ الْمُتَضَامِنَيْنِ. انتهى

انتهى. اهـ ﴿تفسير المنار حـ 12 صـ 42.50﴾

(42/376)

وقال ابن عاشور:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ ﴾

لما ذكر أحوال البالغين أقصى غايات الخسارة ذكر مقابلهم الذين بلغوا أعلى درجات

السعادة .

فالجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن النفوس تشرئب عند سماع حكم الشيء إلى معرفة حكم ضده .

والإخبات : الخضوع والتواضع ، أي أطاعوا ربهم أحسن طاعة .

وموقع ﴿ أولئك ﴾ هنا مثل موقعه في الآية قبلها .

وجملة ﴿ هم فيها خالدون ﴾ في موقع البيان لجملة ﴿ أصحاب الجنة ﴾ لأن الخلود في المكان هو أحق الأحوال بإطلاق وصف الصاحب على الحالّ بذلك المكان إذ الأمكنة لا تقصد إلاّ لأجل الحلول فيها فتكون الجملة مستأنفة لبيان ما قبلها فمنزلتها منزلة عطف البيان ، ولا تعرب في موضع خبر ثان عن اسم الإشارة .

وقد تقدم نظيرها في سورة [البقرة : 82] في قوله : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدُون ﴾ فعُد إليه وزد إليه ما هنا .

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾

بعد أن تبين الاختلاف بين حال المشركين المفترين على الله كذباً وبين حال الذين آمنوا وعملوا الصالحات في منازل الآخرة أعقب ببيان التنظير بين حالي الفريقين المشركين والمؤمنين بطريقة تمثيل ما تستحقه من ذم ومدح .

فالجملة فذلكة للكلام وتحصيل له وللتحذير من مواقعة سببه .

والمَثل، بالتحريك: الحالة والصفة كما في قوله تعالى: ﴿ مثَل الجنة التي وعد المتقون ﴾ الآية من سورة [الرعد: 35]، أي حالة الفريقين المشركين والمؤمنين تشبه حال الأعمى الأصم من جهة وحال البصير السميع من الجهة الأخرى، فالكلام تشبيه وليس استعارة لوجود كاف التشبيه وهو أيضاً تشبيه مفرد لا مركب.

(43/376)

والفريقان هما المعهودان في الذكر في هذا الكلام، وهما فريق المشركين وفريق المؤمنين، إذ قد سبَق ما يؤذن بهذين الفريقين من قوله: ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ [هود: 18].

ثم قوله: ﴿ إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ﴾ [هود: 23] الآية.

والفريق: الجماعة التي تفارق، أي يخالف حالها حال جماعة أخرى في عمل أو نحلة.

وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ فأيّ الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾ في سورة [الأنعام: 81].

شبه حال فريق الكفار في عدم الانتفاع بالنظر في دلائل وحدانية الله الواضحة من مخلوقاته بحال الأعمى، وشبهوا في عدم الانتفاع بأدلة القرآن بحال من هو أصم.

وشبه حال فريق المؤمنين في ضد ذلك بحال من كان سليم البصر ، سليم السمع فهو في هدى ويقين من مدركاته .

وترتيب الحالين المشبه بهما في الذكر على ترتيب ذكر الفريقين فيما تقدم ينبىء بالمراد من كل فريق على طريقة النشر المرتب .

والترتيب في اللف والنشر هو الأصل والغالب .

وقد علم أن المشبهين بالأعمى والأصم هم الفريق المقول فيهم ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾ [هود : 20] .

والواو في قوله : ﴿ والأصَم ﴾ للعطف على ﴿ الأعمى ﴾ عطف أحد المشبهين على الآخر .

وكذلك الواو في قوله : ﴿ والسميع ﴾ للعطف على ﴿ البصير ﴾ .

وأما الواو في قوله : ﴿ والبصير ﴾ فهي لعطف التشبيه الثاني على الأول ، وهو النشر بعد اللف .

فهي لعطف أحد الفريقين على الآخر ، والعطف بها للتقسيم والقرينة واضحة .

وقد يظن الناظر أن المناسب ترك عطف صفة ﴿ الأصم ﴾ على صفة ﴿ الأعمى ﴾ كما لم يعطف نظيراهما في قوله تعالى : ﴿ صُمٌ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ في سورة [البقرة : 18] ظناً بأن مورد الآيتين سواء في أن المراد تشبيه من جمعوا بين الصفتين .

وذلك أحد وجهين ذكرهما صاحب الكشاف.

وقد أجاب أصحاب حواشي الكشاف بأن العطف مبني على تنزيل تغاير الصفات منزلة تغاير الذوات.

(44/376)

ولم يذكروا لهذا التنزيل نكتة ولعلهم أرادوا أنه مجرد استمال في الكلام كقول ابن زيابة

يا لهف زيابة للحارب ال . . .

صابح فالغانم فالآيب

والوجه عندي في الداعي إلى عطف صفة الأصم ﴿ على صفة ﴿ الأعمى ﴾ أنه ملحوظ فيه أن لفريق الكفار حالين كل حال منهما جدير بتشبيهه بصفة من تينك الصفتين على حدة، فهم يُشبهون الأعمى في عدم الاهتداء إلى الدلائل التي طريق إدراكها البصر، ويُشْبهون الأصم في عدم فهم المواعظ النافعة التي طريق فهمها السمع، فهم في حالتَيْن كلُّ حال منهما مشبّه به، ففي قوله تعالى: ﴿ كالأعمى والأصم ﴾ تشبيهان مُفرقان كقول امرىء القيس:

كأنّ قلوب الطير رطباً ويابساً

لدى وكرها العُنّاب والحشف البالي . . .

والذي في الآية تشبيه معقولين بمحسوسين ، واعتبار كل حال من حالي فريق الكفار لا محيد عنه لأن حصول أحد الحالين كاف في جر الضلال إليهم بله اجتماعِهما ، إذ المشبّه بهما أمر عدمي فهو في قوة المنفي .

وأما الدّاعي إلى العطف في صفتي ﴿ البصير والسّميع ﴾ بالنسبة لحال فريق المؤمنين فبخلاف ما قررنا في حال فريق الكافرين لأن حال المؤمنين تشبه حالة مجموع صفتي ﴿ البصير السميع ﴾ ، إذ الإهتداء يحصل بمجموع الصفتين فلو ثبتت إحدى الصفتين وانتفت الأخرى لم يحصل الاهتداء إذ الأمران المشبه بهما أمران وجوديان ، فهما في قوة الإثبات ؛ فتعين أن الكون الداعي إلى عطف ﴿ السميع ﴾ على ﴿ البصير ﴾ في تشبيه حال فريق المؤمنين هو المزاوجة في العبارة لتكون العبارة عن حال المؤمنين مماثلة للعبارة عن حال الكافرين في سياق الكلام ، والمزاوجةُ من محسنات الكلام ومرجعها إلى فصاحته .

وجملة ﴿ هل يستويان مثلاً ﴾ واقعة موقع البيان للغرض من التشبيه وهو نفي استواء حالهما ، ونفي الاستواء كناية عن التفضيل والمفضل منهما معلوم من المقام ، أي معلوم تفضيل الفريق الممثل بالسميع والبصير على الفريق الممثل بالأعمى والأصم .

والاستفهام إنكاري .

وانتصب ﴿ مثلاً ﴾ على التمييز ، أي من جهة حالهما ، والمثل : الحال .

والمقصود تنبيه المشركين لما هم فيه من الضلالة لعلهم يتداركون أمرهم فلذلك فرع عليه بالفاء جملةُ ﴿ أفلا تذكرون ﴾ .

والهمزة استفهام وإنكار انتفاء تذكرهم واستمرارهم في ضلالهم .

وقرأ الجمهور "تذّكرون" بتشديد الدال .

وأصله تتذكرون ، فقلبت التاء دَالاً لِقرب مخرجيهما وليتأتّى الإدْغام تخفيفاً .

وقرأه حفص ، وحمزة ، والكسائي بتخفيف الذال على حذف إحدى التاءين من أول الفعل .

وفي مقابلة ﴿ الأعمى والأصم ﴾ بـ ﴿ البصير والسميع ﴾ محسن الطباق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(46/376)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ﴾ الآية .

ضرب الله تعالى في هذه الآية الكريمة المثل للكافر بالأعمى والأصم ، وضرب المثل للمؤمن بالسميع والبصير ، وبين أنهما لا يستويان ، ولا يستوي الأعمى والبصير ، ولا يستوي الأصم والسميع . وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة :

قوله : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأعمى والبصير وَلاَ الظلمات وَلاَ النور وَلاَ الظل وَلاَ الحرور وَمَا يَسْتَوِي الأحيآء وَلاَ الأموات إِنَّ الله يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القبور إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 19-23] .

وقوله ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الحق كَمَنْ هُوَ أعمى ﴾ [الرعد : 19] الآية .

وقوله ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعآء إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ [النمل : 80]

إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(47/376)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾

الإيمان كما نعلم أمر عقدي ، يعلن فيه الإنسان إيمانه بإله واحد موجود ، ويلتزم بالمنهج الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن آمن بالله تعالى ولم يعمل

العمل الصالح يتلقَّ العقاب ؛ لأن فائدة الإيمان إنما تتحقق بالعمل الصالح .

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول لنا :

﴿ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات : 14] .

أي : اتبعتم ظاهر الإسلام .

وهكذا نعرف أنه يوجد مُتيقِّن بصحة واعتقاد بأن الإله الواحد الأحد موجود ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم مُبلِّغ عن الله عز وجل ؛ لكن العمل الذي يقوم به الإنسان هو الفيصل بين مرتبة المؤمن ، ومرتبة المعلم .

فالذي يُحسن العمل هو مؤمن ، أما من يؤدي العمل بتكاسل واتِّباع لظواهر الدين ، فهو المسلم ، وكلاهما يختلف عن المنافق الذي يدَّعي الحماس إلى أداء العبادات ، لكنه يمكر ويبِّيت العداء للإسلام الذي لا يؤمن به .

وكان المنافقون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسبق الناس إلى صفوف الصلاة ، وكانوا مع هذا يكتمون الكيد ويدبرون المؤامرات ضد النبي صلى الله عليه وسلم .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وأخبتوا إلى رَبِّهِمْ ﴾ [هود : 23] .

هذا القول يبيِّن لنا أن معيار الإيمان إنما يعتمد على التوحيد ، وإتقان أداء ما يتطلبه منهج الله سبحانه ، وأن يكون كل ذلك بإخبات وخضوع ، ولذلك يقال : رُبَّ معصية أورثت ذلاً

وانكساراً ، خير من عبادة أورثت عزّاً واستكباراً .

أي : أن المؤمن عليه ألا يأخذ العبادة وسيلة للاستكبار .

(48/376)

وكلمة ﴿ وأخبتوا ﴾ أي : خضعوا خشية لله تعالى ، فهم لا يؤدون فروض الإيمان لمجرد رغبتهم في ألَّا يعاقبهم الله ، لا بل يؤدون فروض الإيمان والعمل الصالح خشية لله .

وأصل الكلمة من " الخبت " وهي الأرض السهلة المطمئنة المتواضعة ، وكذلك الخبت في الإيمان .

ويصف الحق سبحانه أهل الإيمان المخبتين بأنهم :

﴿ أولئك أَصْحَابُ الجنة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [هود : 23] .

أي : الملازمون لها ، وخلودهم في الجنة يعني أنهم يقيمون في النعيم أبداً ، ونعيم الجنة مقيم ودائم ، على عكس نعيم الدنيا الذي قد يفوته الإنسان بالموت ، أو يفوت النعيم الإنسان بالسلب ؛ لأن الإنسان في الدنيا عرضة للأغيار ، أما في الآخرة ، فأهل الإيمان أصحاب العمل الصالح المخبتون لربهم ، فهم أهل النعيم المقيم أبداً .

وهكذا عرض الحق سبحانه حال الفريقين : الفريق الذي ظلم نفسه بافتراء الكذب وعلى

الله ، وصدوا عن سبيل الله ، وابتغوا الأمر عوجاً ، هؤلاء لن يُعجزوا الله ، وليس لهم أولياء يحمونهم من العذاب المضاعف .

وهم الذين خسروا أنفسهم ، ولن يجدوا عوناً من الآلهة التي عبدوها من دون الله ، ولا شيء بقادر على أن يفصل بينهم وبين العذاب ، وهم الأخسرون .

أما الفريق الثاني فهم الذين آمنوا وعملوا الصالحة بخشوع وخشية ومحبة لله سبحانه وتعالى ، وهم أصحاب الجنة الخالدون فيها .

إذن : فلكل فريق مسلكه وغايته .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم ﴾

والفريقان هما من تحدثنا عنهما من قبل .

وكلمة " الفريق " تعني : جماعة يلتقون عند غاية وهدف واحد ، مثلما نقول : فريق كرة القدم أو غيره من الفرق ، فهي جماعات ، كل جماعة منها لها هدف يجمعها .

ونحن نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَرِيقٌ فِي الجنة وَفَرِيقٌ فِي السعير ﴾ [الشورى : 7] .

وكلمة ﴿ الفريقين ﴾ جاءت في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ لأن كل فرقة تضم جماعة مختلفة عن الجماعة الأخرى ، ولهؤلاء متعصبون ، وللآخرين متعصبون .

ويضرب الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية المثل بسَيِّدَي الحواس الإداركية في الإنسان ، وهما السمع والبصر ، فهما المصدران الأساسيان عند الإنسان لأخذ المعلومات ، إما مسموعة ، أو مرئية ، ثم تتكون لدى الإنسان قدرة الاستنباط والتوليد مما سمعه بالأذن ورآه بالعين .

ولذلك قال لنا الحق سبحانه :

﴿ واللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : 78] .

إذن فما دام الحق سبحانه قد جعل السمع و الأبصار والأفئدة مصادر تأتي منها ثمرة ، هي المعلومات وتمحيصها ، فالحق سبحانه يستحق الشكر عليها .

ونحن نعلم أن الطفرات الحضارية وارتقاءات العلم ، إنما تأتي بمن سمع ومن رأى ، ثم جاءت من الاستنباط أفكار تطبيقية تفيد البشرية .

ومثال ذلك : هو من رأى إناء طعام وله غطاء ، وكان بالإناء ماء يغلي ، فارتفع الغطاء عن الإناء .

هذا الإنسان اكتشف طاقة البخار ، واستنبط أن البخار يحتاج حيِّزاً أكبر من حيز السائل

الموجود في الإناء ؛ لذلك ارتفع الغطاء عن الإناء ، وارتقى هذا الاكتشاف ليطور كثيراً من أوجه الحياة .

ولو أن كل إنسان وقف عند ما يسمعه أو يراه ولم يستنبط منه شيئاً لما تطورت الحياة بكل تلك الارتقاءات الحضارية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ [هود : 24] .

ولن يشك كل من الأعمى أو الأصم أن من يرى أو من يسمع هو خير منه ، ولا يمكن أن يستوي الأعمى بالبصير ، أو الأصم بمن يسمع .

(50/376)

وهكذا جاء الحق سبحانه وتعالى بالأشياء المتناقضة ، ليحكم الإنسان السامع أو القارىء لهذه الآية ، وليفصل بحكم يُذكِّره بالفارق بين الذي يرى ومن هو أعمى ، وكذلك بين من يسمع ومن هو أصم ، ومن الطبيعي ألا يستويان .

لذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : ألا تعتبرون بوجود هذه الأشياء .

ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد قال لنا :

﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور ﴾ [الحج : 46] .

أي : أن الإنسان قد يكون مبصراً ، أو له أذن تسمع ، لكنه لا يستخدم حاسة الإبصار أو حاسة السمع فيما خلقت من أجله في التقاط مجاهيل الأشياء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(51/376)

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ وأخبتوا إلى رَبِّهِمْ ﴾ [23] أي خشعت قلوبهم إلى ربهم ، وهو الخشية ، فالخشوع ظاهر والخشية سر ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « لو خشع قلبه لخشعت جوارحه » فقد حكي أن موسى صلوات الله عليه قص في بني إسرائيل ، فمزق واحد منهم قميصه ، فأوحى الله تعالى إلى موسى أن قل له : مزق لي قلبك ولا تمزق لي ثيابك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 78 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (23) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وأخبتوا ﴾ قال : خافوا .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الإِخبات الإِنابة .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه قال : الإِخبات الخشوع والتواضع .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وأخبتوا إلى ربهم ﴾ قال : اطمأنوا إلى ربهم .

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (24) ﴾

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم ﴾ قال : الكافر ﴿ والبصير والسميع ﴾ قال : المؤمن . انتهى ا . هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(53/376)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (23) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ ﴾ : الموصولُ اسمُ إنَّ ، والجملة مِنْ قولِه : ﴿ أولئك أَصْحَابُ الجنة ﴾ خبرها .

والإِخباتُ : الاطمئنان والتذلُّل والتواضع ، وأصله من الخَبْت وهو المكانُ المطمئنُّ ، أي : المنخفضُ من الأرض ، وأَخْبَتَ الرجلُ : دخل في مكان خَبْت ، كأَنْجَدَ وأَتْهَمَ إذا دخل في أحد هذين المكانين ، ثم تُوسِّع فيه فقيل : خَبَتَ ذِكْرُه ، أي : خمد ، ويقال للشيء الدنيء الخبيت ، قال الشاعر :

2648 ينفع الطيِّبُ القليلُ من الرِّزْ . . . قِ ولا يَنْفَعُ الكثير الخبيتُ

هكذا يُنْشدون هذا البيتَ في هذه المادة، الزمخشري وغيره، والظاهر أن يكونَ بالثاءِ المثلثة ولا سيما لمقابلته بالطِّيب، ولكن الظاهر من عبارتهم أنه بالتاء المثنَّاة لأنهم يَسُوقونه في هذه المادة، ويدلُّ على أن معنى البيت إنما هو على الثاء المثلثة قولُ الزمخشري: " وقيل: التاءُ فيه بدل من الثاء " . ومن مجيء الخَبْت بمعنى المكان المطمئن قوله:

2649 أفاطمُ لو شَهِدْتِ ببطنِ خَبْتٍ . . . وقد قتل الهزبرَ أخاكِ بشرا

وفي تركيب البيتِ قَلَقٌ، وحلُّه: لو شهدْتِ أخاكِ بشْرا وقد قتل الهزبرَ، ففاعل " قتل " ضمير يعودُ على " أخاك " . وأخبت يتعدى بإلى كهذه الآية، وباللام كقوله تعالى: ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: 54] .

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (24) ﴾

(54/376)

قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الفريقين ﴾: مبتدأٌ، و " كالأعمى " خبره، ثم هذه الكافُ يحتمل أن تكونَ هي نفسَ الخبر، فتقدَّر ب " مثل " ، تقديرُه: مَثَلُ الفريقين مثلُ الأعمى . ويجوز أن

تكون " مثل " بمعنى " صفة " ، ومعنى الكاف معنى مِثْلِ ، فيقدَّر مضافٌ محذوفٌ ، أي : كمثل الأعمى . وقوله : ﴿ مَثَلُ الفريقين كالأعمى ﴾ يجوز أن/ يكونَ من باب تشبيه شيئَين بشيئَين ، فقابل العمى بالبصَر ، والصمم بالسمع وهو من الطِّباق ، وأن يكونَ من تشبيهِ شيءٍ واحد بوصفَيْهِ بشيءٍ واحدٍ بوصفَيْه ، وحينئذٍ يكون قولُه : " كالأعمى والأصمِّ " وقوله " والبصير والسميع " من باب عطف الصفات كقوله :

2650 إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمامِ . . . ولَيْثِ الكتيبةِ في المُزْدَحَمْ

وقد أحسنَ الزمخشريُّ في التعبير عن ذلك فقال : " شبَّه فريق الكافرين بالأَعْمى والأصمِّ ، وفريقَ المؤمنين بالبصير والسميع ، وهو من اللَّفِّ والطِّباق ، وفيه معنيان : أن يُشَبِّه الفريقين تشبيهين اثنين ، كما شبَّه امرؤ القيس قلوبَ الطير بالحَشَف والعُنَّاب ، وأن يُشَبِّهَ بالذي جمع بين العمى والصَّمَم ، والذي جمع بين البصر والسمع ، على أن تكونَ الواوُ في " والأصمِّ " وفي " والسميع " لعطفِ الصفة على الصفةِ كقوله :

2651 . . . . ال . . . صَابِحِ فالغانِمِ فالآيِبِ

قلت : يريد بقوله " اللفّ " أنه لفَّ المؤمنين والكافرين اللذين هما مشبهان بقوله " الفريقين " ، ولو فسَّرهما لقال : مَثَلُ الفريق المؤمن كالبصير والسميع ، ومثل الكافر كالأعمى والأصم ، وهي عبارةٌ مشهورة في علم البيان : لفظتان متقابلتان : اللفُّ والنشر ، وأشارَ لقول امرىء

القيس وهو :

2652 كأنَّ قلوبَ الطيرِ رَطْباً ويابِساً . . . لدى وكرِها العُنّابُ والحَشَفُ البالي

(55/376)

أصلُ الكلامِ : كأن الرَّطْبَ من قلوب الطير : العُنَّابُ ، واليابسَ منها : الحَشَفُ ، فلفَّ ونشر ، واللف والنشر في علم البيان تقسيمُ كبير ، ليس هذا موضعَه .

وأشار بقوله " الصابح فالغانم " إلى قوله :

2653 يا ويحَ زَيَّابَةَ للحارثِ ال . . . صابحِ فالغانم فالآئبِ

وقد تقدَّم ذلك أولَ البقرة وتحريرُه .

فإن قلت : لِمَ قَدَّم تشبيهَ الكافر على المؤمن ؟ أجيب بأن المتقدّمَ ذِكْرُ الكفار فلذلك قدَّم تمثيلهم . فإن قيل : ما الحكمةُ في العدولِ عن هذا التركيب لو قيل : كالأعمى والبصير والأصم والسميع لتتقابلَ كلُّ لفظةٍ مع ضدها ، ويظهرَ بذلك التضادُّ ؟ أجيب : بأنه تعالى لَمَّا ذكر انسدادَ العين أتبعه بانسداد الأذن ، ولمَّا ذكر انفتاح العين أتبعه بانفتاح الأذن ، وهذا التشبيهُ أحدُ الأقسامِ وهو تشبيهُ أمرٍ معقول بأمرٍ محسوس : وذلك أنه شبَّه عمى البصيرة وصَمَمها بعمى البصر وصمم السمع ، ذاك متردِّدٌ في ظُلَم الضلالات ، كما أن هذا متحيِّرٌ

في الطرقات . وهذه فوائد علم البيان .

قوله : ﴿ مَثَلاً ﴾ تمييز ، وهو منقولٌ من الفاعلية ، والأصل : هل يَسْتوي مَثَلُهما ، كقوله تعالى : ﴿ واشتعل الرأس شَيْباً ﴾ [مريم : 4] . وجوّز ابنُ عطية رحمه اللَّه أن يكون حالاً ، وفيه بَعْدٌ صناعةً ومعنى ؛ لأنه على معنى "مِنْ" لا على معنى "في" . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 305.308 ﴾

(56/376)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا ﴾ .

الإخباتُ التخشع لله بالقلب بدوام الانكسار ، ومن علامته الذبول تحت جريان المقادير بدوام الاستغاثة بالسر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ . . . وَالبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ . . . ﴾ الآية .

مثل الكافر في كفره كالأعمى والأصم ، ومَثْلُ المؤمن في إيمانه كالسميع والبصير – هذا بيان

التفسير .

والإشارة فيه أن الأعمى مَنْ عَمِيَ عن الإبصار بسِرِّه ، والأصمُّ الذي طَرِش بسَمْع قلبه ؛ فلا باستدلاله شَهِدَ سر تقديره في أفعاله ، ولا بنور فراسةٍ توهم ما وقف عليه من مكاشفات الغيب لقلبه ، ولا بسَمْع القبولِ استجابَ لدواعي الشريعة ، ولا بِحُكْم الإنصاف انْقَادَ لما يتوجَّب عليه من مطالبات الوقت مما يلوح لِسرِّه من تلويحات الحقيقة .

وأما البصير فهو الذي يشهد من الحق أفعاله بعلم اليقين ، ويشهد صفاته بعين اليقين ، ويشهد ذاته بحق اليقين ، والغائبات له حضور ، والمستورات له كشف . فالذي يسمع فَصِفَتُه ألا يسمعَ هواجسَ النَّفْس ولا وساوس الشيطان ؛ فيسمع من جواعي العلم شرعاً ، ثم من خواطر التعريف قدراً ، ثم يكاشف بخطاب من الحق سِرّاً .

فهؤلاء لا يستويان ، ولا في طريق يلتقيان :

راحَتْ مُشَرِّقةً ورُحْتُ مُغَرِّباً . . . فمتى التقاءُ مُشَرِّقٍ ومُغَرِّبِ ؟ ! . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 130. 131 ﴾

(57/376)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) ﴾

﴿ الر ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني : أنا الله أرى ، ويقال : الألف آلاؤه ، واللام لطفه ، والراء ربوبيته .

﴿ كِتَابٌ ﴾ يعني : هذا الكتاب ، وهو القرآن ﴿ الر كِتَابٌ ﴾ من الباطل ، فلم يوجد فيه عوج ولا تناقض .

﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ يعني : بيّن أمره ونهيه .

وقال الحسن : أحكمت آياته بالأمر والنهي ، وفصلت بالوعد والوعيد ، والثواب والعقاب .

وقال مجاهد : فصلت أي فُسِّرت .

وقال القتبي : أحكمت ، فلم تنسخ ، ثم فُصّلت بالحلال والحرام .

ويقال : فصلت ، أي : أنزلت شيئاً بعد شيء ، فلم تنزل جملة واحدة .

﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ يعني : أنزل جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى حكيم في أمره ، خبير بالعباد وبأعمالهم ، ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ يعني : نزل جبريل بالقرآن ، وقد بيّنَ فيه ، ألا توحدوا ولا تطيعوا غير الله ، ﴿ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ ﴾ يعن

ي : قل لهم يا محمد إنني لكم من الله تعالى ﴿ نَذِيرٌ ﴾ يعني : مخوف من عذابه للكافرين ، ﴿ وَبَشِيرٌ ﴾ بالجنة للمؤمنين .

﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ يعني : وآمركم أن تستغفروا ربكم من الذنوب ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ يعني : وتوبوا إليه من الشرك والذنوب ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا ﴾ يعني : يُعَيِّشْكُمْ في الدنيا عيشاً حسناً في خير وعافية ، ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ إلى منتهى آجالكم .

وقال القتبي : أصل الإمتاع الإطالة ، يقال : حبل ماتع وقد متع النهار إذا طال .

يمتعكم ، يعني : يُعَمِّركم ، ويقال : يمتعكم متاعاً حسناً يعني : يجعلكم راضين بما يعطيكم .

ويقال ويجعل حياتكم في الطاعة .

(58/376)

ثم قال : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ يعني : يعطي في الآخرة كل ذي فضل في العمل في الدنيا فضله ، في الآخرة في الدرجات .

وروى جويبر ، عن الضحاك ، قال : يؤت كل ذي عمل ثواب عمله .

وقال سعيد بن جبير ، في قوله : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ قال : من عمل حسنة كتبت عشر حسنات ، ومن عمل سيئة كتبت عليه سيئة واحدة ، فإن لم يعاقب بها في

الدنيا ، أُخذ من العشرة واحدة ، وبقيت له تسع حسنات .

ثم قال ابن مسعود رضي الله عنه هلك من غلب آحاده أعشاره .

﴿ وَإِن تَوَلَّوْا ﴾ يعني : أعرضوا عن الإيمان ﴿ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ يعني : قل لهم يا محمد : إني أخاف عليكم ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ يعني : القحط .

قال مقاتل : فحبس الله تعالى عنهم المطر سبع سنين حتى أكلوا الموتى .

ويقال : ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ ، يعني : عذاب النار يوم القيامة .

ويقال : إنّي أخاف ، يعني : أعلم ، فيوضع الخوف موضع العلم لأن فيه طرفاً من العلم .

ثم قال : ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ يعني : مصيركم في الآخرة ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يعني : هو قادر على بعثكم بعد الموت .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ قال الكلبي : يقول : يكتمون ما في صدورهم من العداوة ﴿ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ يعني : ليستروا ذلك منه ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ يعني : يلبسون ثيابهم ، يعني : حين يُغشي الرجل نفسه بثيابه ، يعني : ﴿ يَعْلَمُ ﴾ ما تحت ثيابه ، ويعلم ﴿ مَا يُسِرُّونَ ﴾ من العداوات ، ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ بألسنتهم .

قال الكلبي : نزلت في شأن أخنس بن شريق .

وقال مقاتل : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ يعني : يلوون .

وذلك أن كفار مكة كانوا إذا سمعوا القرآن ، نكسوا رؤوسهم على صدورهم ، كراهية استماع القرآن ، ﴿ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ يعني : من النبي صلى الله عليه وسلم .

(59/376)

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، قال : أخفى ما يكون الإنسان إذا أسر في نفسه شيئاً ، وتغطى بثوبه ، فبذلك أخفى ما يكون والله تعالى يطلع على ما في نفوسهم ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ يعني : ما في قلوب العباد من الخير والشر .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض إِلاَّ عَلَى الله رِزْقُهَا ﴾ يعني : إلا الله القائم على رزقها .

ويقال : الله ضامن لرزقها .

ويقال : يرزقها الله حيث ما تَوَجَّهَتْ .

﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ يعني : يعلم مستقرها حيث تأوي بالليل ، ومستودعها حيث تموت ، وتدفن .

وروي عن عبد الله بن مسعود ، قال : مستقرها الأرحام ، ومستودعها الأرض التي تموت فيها .

وقال عبد الله : إذا كان موت الرجل بأرض أتيت له حاجة ، حتى إذا كان عند انقضاء أمده قبض ، فتقول الأرض يوم القيامة : هذا ما استودعتني .

وقال سعيد بن جبير ، ومجاهد : المستقر الرحم ، والمستودع الصلب .

﴿ كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ يعني : المستقر ، والمستودع .

وبيان كل شيء ، ورزق كل دابة ، مكتوب في اللوح المحفوظ خلق من درة بيضاء .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ قال ابن عباس يعني : من أيام الآخرة .

وقال الحسن : من أيام الدنيا ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء ﴾ قبل خلق السموات والأرض ، لأنه لم يكن تحته شيء ، سوى الماء .

قال : حدثنا أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد ، قال : حدثنا فارس بن مردويه ، قال : حدثنا محمد بن الفضل ، قال : حدثنا أبو مطيع ، عن عاصم بن بهدلة ، عن زر بن حبيش ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام ، وبين السماء السابعة وبين الكرسي مسيرة خمسمائة عام ، وبين الكرسي وبين الماء خمسمائة عام ، والعرش فوق الماء ، والله فوق العرش ، بعُلوِّهِ وقدرته يعلم ما أنتم فيه .

وروى أبو جعفر الرازي ، عن الربيع ، عن أنس ، قال : كان عرشه على الماء ، فلمّا خلق الله تعالى السموات والأرض ، قسم ذلك الماء قسمين .

فجعل نصفه تحت العرش وهو البحر المسجور ، وجعل النصف الآخر تحت الأرض السفلى ، وهو مكتوب في الكتاب الأول ، ويسمى اليم .

وعن سعيد بن جبير ، قال : سئل ابن عباس عن قول الله تعالى : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء ﴾ على أي شيء كان الماء ؟ قال : على متن الريح .

ويقال كان عرشه على الماء ، يعني : فوق الماء كقولك السماء فوق الأرض ، لا أنه ملتزق بالماء .

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ يعني : ليختبركم أيكم أحسن أي أخلص عملاً ، وأزهد في الدنيا .

والاختبار من الله تعالى ، هو إظهار ما يعلم من خلقه .

ثم قال : ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الموت ﴾ يعني : يوم القيامة ﴿ لَيَقُولَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : أهل مكة ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ما هذا إلا كذب بين حيث يخبرنا أنه يكون البعث .

قرأ حمزة ، والكسائي : ﴿ ساحر مُّبِينٌ ﴾ بالألف ، وقرأ الباقون ﴿ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ بغير

ألف.

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ يعني: سنيناً معلومة، يعني: إلى الوقت الذي جعل أجلهم.

وقال القتبي: يعني: إلى حين بغير توقيت، وقوله: ﴿ وَقَالَ الذى نَجَا مِنْهُمَا وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [يوسف: 45] إنما هو سبع سنين ﴿ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ يعني: العذاب، على وجه الاستهزاء، ﴿ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ يعني: العذاب ﴿ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ ﴾ يعني: ليس أحد يصرف العذاب عنهم، إذا نزل بهم في الدنيا وفي الآخرة.

﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ يعني: نزل بهم ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾.

(61/376)

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ﴾ يعني: أصبنا الإنسان منا رحمة، يعني: نعمة وخيراً وعافية ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ يعني: آيس من رحمة الله، كفور بنعم الله تعالى، ثم قال: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء ﴾ يعني: أعطيناه خيراً، وعافية، وسعة في الرزق ﴿ بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ ﴾ يعني: أصابته ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السيئات عَنّي ﴾ يعني

: لا يشكر الله تعالى .

ذكر في الابتداء ﴿ لَّيَقُولَنَّ ﴾ بنصب اللام بلفظ الواحد ، لتقديم الفعل على الاسم ، وفي الثاني بضم اللام لأنه فعل الجماعة ، ولم يذكر الاسم ، وفي الثالث بنصب اللام لأنه فعل الواحد .

ويقول : ذهب السيئات عني ﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ يعني : بطراً فرحاً بما أعطاه الله تعالى ، وهو الطغيان في النعمة ، فخور في نعم الله تعالى ، ومتكبر على الناس .

ثم استثنى ، فقال تعالى : ﴿ إِلَّا الذين صَبَرُواْ ﴾ ، وهم المؤمنون الذين صبروا على الطاعات ، والشدائد ليسوا كذلك ، وليسوا من أهل هذه الصفة ، إذا ابتلوا صبروا وإذا أعطوا شكروا ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ بينهم وبين ربهم ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم في الدنيا ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ يعني : ثواباً عظيماً في الجنة .

قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ ﴾ يعني : لا تترك ﴿ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ ﴾ وذلك أن كفار مكة .

قالوا : كيف لا ينزل إليه ملك ، أو يكون له كنز وطلبوا منه بأن لا يعيب آلهتهم ، فهمّ النبي صلى الله عليه وسلم بأن يترك عيبها ، رجاء أن يتبعوه ، فنزل : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يوحى إِلَيۡكَ ﴾ من أمر الآلهة ﴿ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ ﴾ في البلاغ ، ﴿ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ ﴾ يعني : المال ، ﴿ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ﴾ يُعِينهُ ويُصَدّقُه فأمر بأن لا يترك تبليغ الرسالة ، فقال : يا محمد ، ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ يعني : إنما عليك تبليغ الرسالة ، والتخويف .

﴿ والله على كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾ يعني : شهيد بأنك رسول الله تعالى ، قوله تعالى : ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ افتراه ﴾ يعني : أيقولون والميم صلة افتراه ، يعني : اختلقه من تلقاء نفسه .

﴿ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ ﴾ يعني : مختلقات .

قال الكلبي : يعني : بعشر سور مثل سورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والتوبة ، ويونس .

وهود لأن العاشرة هي سورة هود .

وقال بعضهم : هذا التفسير لا يصح ، لأن سورة هود مكية ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة مدنيات ، أُنزِلَتْ بعد سورة هود بمدة طويلة .

ولكن معناه فأتوا بعشر سور مثل سور القرآن ، أي سورة كانت ، مفتريات ، يعني : مختلقات

إن كنتم تزعمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم يختلقه من ذات نفسه ، ﴿ وادعوا مَنِ استطعتم مّن دُونِ الله ﴾ يعني : استعينوا بآلهتكم ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في مقالتكم .

(63/376)

فسكتوا ، فلم يجيبوا ، فنزل قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ ﴾ فإن لم يجيبوك ، خاطب النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ الجماعة ، كما قال : ﴿ يا أيها الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات واعملوا صالحا إِنّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون : 51] ويقال : أراد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ﴿ فاعلموا أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ الله ﴾ يقال : فاعلموا يا أهل مكة ، إنما أُنزل بعلم الله ، يعني : أنزل جبريل هذا القرآن بإذن الله تعالى وبأمره .

وقال القتبي : بعلم الله ، يعني : من علم الله والباء مكان من .

ثمّ قال تعالى : ﴿ وَأَن لاَّ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ يعني : فاعلموا أن لا إله إلا هو ، يعني : إن الله تعالى هو منزل الوحي ، وليس أحد ينزل الوحي غيره ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ يعني : مقرّين بأن الله أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ويقال : مخلصون بالتوحيد ويقال : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ هذا على وجه الأمر ، يعني : أسلموا .

قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا ﴾ يعني : من كان يريد بعمله الدنيا ، ولا

يريد به وجه الله .

﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾ يعني : ثواب أعمالهم في الدنيا ﴿ وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ﴾ يعني : لا ينقص من ثواب أعمالهم شيء في الدنيا ، ﴿ أُوْلَئِكَ الذين لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخرة إِلاَّ النار ﴾ .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في أهل القبلة .

وقال الحسن : نزلت في المنافقين والكافرين .

﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا ﴾ يعني : ثواب أعمالهم في الدنيا ، لأنه لم يكن لوجه الله تعالى .

(64/376)

﴿ وباطل مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وروى أنس بن مالك ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ ، صَارَتْ أُمَّتِي ثَلاثَ فِرَقٍ : فِرْقَةً يَعْبُدُونَ الله تَعَالَى خَالِصاً ، وَفِرْقَةً يَعْبُدُونَ الله تَعَالَى رِيَاءً ، وَفِرْقَةً يَعْبُدُونَ الله تَعَالَى لِيُصِيبُوا بِهَا الدُّنْيَا .

فَيَقُولُ الله تَعَالَى لِلَّذِي كَانَ يَعْبُدُ الله لِلدُّنْيَا : وَمَاذَا أَرَدْتَ بِعِبَادَتِكَ ؟ فَيَقُولُ : الدُّنْيَا .

فَيَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ : لاَ جَرَمَ ، وَلاَ يَنْفَعُكَ مَا جَمَعْتَ ، وَلاَ تَرْجِعُ إِلَيْهِ .

وَيَقُولُ : انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى النَّارِ ، وَيَقُولُ لِلَّذِي كَانَ يَعْبُدُ الله رِيَاءً ، مَاذَا أَرَدْتَ بِعِبَادَتِكَ ؟ فَيَقُولُ

: الرِّيَاءَ ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى : انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى النَّارِ ، وَيَقُولُ لِلَّذِي كَانَ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَى خَالِصاً : مَاذَا أَرَدْتَ بِعِبَادَتِكَ ؟ فَيَقُولُ أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، كُنْتُ أَعْبُدُكَ لِوَجْهِكَ وَذَاتِكَ .

قَالَ : صَدَقَ عَبْدِي ، انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى الجَنَّةِ " .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ يعني : على بيان من ربه ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ يقول : يقرأ جبريل هذا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وهو شاهد منه ، يعني : من الله تعالى .

وهذا قول ابن عباس ، وأبي العالية ، ومجاهد ، وقتادة ، وإبراهيم النخعي .

ويقال : أفمن كان على بينة من ربه ، يعني : أن الله بيّن أمره ونبوته بدلائل أعطاها محمداً صلى الله عليه وسلم ، ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ أي : يقرأ القرآنَ جبريلُ على محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ ، أي : ملك أمين من الله تعالى ، وهو جبريل .

(65/376)

وقال شهر بن حوشب القرآن : شاهد من الله تعالى ، ومعناه : يتلو القرآن ، وهو شاهد من الله تعالى .

وقال الحسن : ويتلوه شاهد منه ، يعني : لسان محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال قتادة : لسانه شاهد منه .

وكذلك قال عكرمة .

قال : حدثنا الخليل بن أحمد ، قال : حدثنا السراج ، قال : حدثنا أبو إسماعيل ، قال : حدثنا صفوان بن صالح ، قال : حدثنا الوليد بن مسلم ، قال : حدثنا الخليل ، عن قتادة ، عن عروة ، عن محمد بن علي ، قال : قلت لعليّ : إنَّ الناس يزعمون في قوله تعالى : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أنك أنت التالي ، قال : وددت أني أنا هو ، ولكنه لسان محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقال : الشَّاهد القرآن ، ويتلوه يعني : بعده .

ويقال : يتلوه ، يعني : يتبعه ، كقوله : ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ [الشمس : 2] .

قال القتبي : هذا كلام على الاختصار ومعناه : أفمن كان على بينة من ربه ، ويتلوه شاهد منه ، كالذي يريد الحياة الدنيا وزينتها ؟ فاكتفى من الجواب بما تقدم ، كقوله : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ الليل ساجدا وَقَآئِماً يَحْذَرُ الآخرة وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الالباب ﴾ [الزمر : 9] يعني : كمن هو بخلاف ذلك .

ثم قال : ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى ﴾ يعني : جبريل قرأ التوراة على موسى عليه السلام من قبل أن يتلو القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذا قول الكلبي، ومقاتل.

وقال عبد الله بن سلام: يتلو القرآن، وكان من قبله يتلو التوراة.

والتأويل الأول أصح، لأن هذه السورة مكية، وعبد الله بن سلام أسلم في المدينة.

ويقال: هم الذين آمنوا بمكة من أهل الكتاب، حين قدموا من الحبشة.

(66/376)

ثم قال: ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ يعني: إماما يُهتدى به ويعمل به، ورحمةً، يعني: ونعمة من العذاب لمن آمن به، يعني: كتاب موسى عليه السلام ﴿ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ يعني: بالقرآن وهذا كقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب فالذين ءاتيناهم الكتاب يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هؤلاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بآياتنا إِلاَّ الكافرون ﴾

[العنكبوت: 47] يعني: بالقرآن.

ثم قال: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الاحزاب ﴾ يعني: من يجحد بالقرآن ﴿ فالنار مَوْعِدُهُ ﴾

يعني: مصيره.

قال سعيد بن جبير: ما بلغني حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وجدت مصداقه في كتاب الله تعالى، حتى بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لاَ يَسْمَعُ

بِي أَحَدٌ مِنْ هذه الأُمَّةِ ، لاَ يَهُودِيٌّ ، وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ، ثُمَّ لاَ يُؤمِنُ بِي إِلاَّ دَخَلَ النَّارَ " .

فجعلت أقول وأتفكر : أين هذا في كتاب الله ؟ حتى أتيت على هذه الآية ، ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الاحزاب فالنار مَوْعِدُهُ ﴾ قال : هي في أهل الملل كلها .

ثم قال : ﴿ فَلاَ تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ يعني : فلا تك في شك أن موعده النار .

﴿ أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ وهذا قول الكلبي .

وقال مقاتل : فلا تك في شك أن القرآن من الله تعالى ، وأنه الحق من ربك ، أي : الصدق من ربك ، رداً لقولهم : إنه يقول ذلك من شيطان يلقيه إليه ، يقال له : الري .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَا مِنْ أَحَدٍ إِلا وَمَعَهُ شَيْطَانٌ فَاغِرٌ بَيْنَ يَدَيهِ ، إلاَ أَنَّ الله تَعَالَى أَعَانَنِي عَلَيْهِ وَأَسْلَم " .

ثم قال : ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس ﴾ أهل مكة ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : لا يصدقون بالقرآن بأنه من عند الله تعالى .

(67/376)

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ يعني : ومن أشد في كفره ممن افترى ، يقول : ممن اختلق على الله كذباً ، بأن معه شريكاً ﴿ أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ على رَبِّهِمْ

﴾ يعني : يساقون إلى ربهم يوم القيامة ، ﴿ وَيَقُولُ الأشهاد ﴾ يعني الرسل : قد بلغناهم الرسالة .

وقال الضحاك : ويقول الأشهاد ، يعني : الأنبياء .

وقال قتادة ، ومجاهد ، ويقول الأشهاد ، يعني : الملائكة .

وقال الأخفش : الأشهاد ، واحدها شاهد ، مثل أصحاب وصاحب ، ويقال : شهيد وأشهاد ، مثل : شريف وأشراف .

قال الله تعالى : ﴿ هَؤُلاء الذين كَذَبُواْ على رَبِّهِمْ ﴾ يعني : افتروا على الله عز وجل بأن معه شريكاً ، وقال الله : ﴿ أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ ، يعني : عذابه وغضبه على المشركين .

ثم وصفهم فقال تعالى : ﴿ الذين يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ يعني : يصرفون الناس عن دين الإسلام ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ يطلبون بملة الإسلام زيغاً وغِيراً ، ﴿ وَهُمْ بالآخرة هُمْ كافرون ﴾ ينكرون البعث .

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى الأرض ﴾ يعني : لم يفوتوا ، ولم يهربوا من عذاب الله تعالى ، حتى يجزيهم بأعمالهم الخبيثة ، ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مّن دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ يعني : ما كان لهم من عذاب الله تعالى مانع يمنعهم من العذاب ، ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب ﴾ يعني : الرؤساء يكون لهم العذاب بكفرهم ، وبما أضلوا غيرهم ، ﴿ مَا كَانُواْ

يَسْتَطِيعُونَ السمع ﴾ في العذاب، لا يقدرون أن يسمعوا ﴿ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ في النار شيئاً .

ويقال: ذلك التضعيف لهم، لأنهم كانوا لا يستطيعون الاستماع إلى محمد صلى الله عليه وسلم، في الدنيا من بغضه، ﴿ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ ، أي: عمياً لا ينظرون إليه من بغضه.

(68/376)

وقال الكلبي: يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون سماع الهدى، وبما كانوا لا يبصرون الهدى.

ويقال: كانوا لا يستطيعون أن يسمعوا ، فلم يسمعوا وكانوا يستطيعون أن يبصروا ، فلم يبصروا .

ويقال: يعني: لم يكن لهم سمع القلب، وما كانوا يبصرون، أي لم يكن لهم بصر القلب.

قرأ ابن كثير، وابن عامر ﴿ يضاعف لَهُمْ ﴾ بتشديد العين بغير ألف، وقرأ الباقون: ﴿ يضاعف ﴾ بالألف، ومعناهما واحد.

ثمّ بيّنَ أنّ ضرر ذلك يرجع إلى أنفسهم، فقال تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾

يعني : غبنوا حظَّ أنفسهم ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ يعني : ويبطل عنهم ما كانوا يعبدون من دون الله تعالى ، فات عنهم ولا ينفعهم شيئاً .

ثم قال تعالى : ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ قال القتبي : يعني حقاً .

ويقال : يعني نعم .

ويقال : لا جرم ، يعني : لا شك .

ويقال : لا كذب .

ويقال : لا جرم ، أي : لا بلى .

وذكر عن الفراء أنه قال : لا جرم ، كلمة كانت في الأصل ، بمنزلة لا بد ، ولا محالة ، فكثر استعمالهم إياها حتى صارت بمنزلة حقاً ، ﴿ أَنَّهُمْ فِى الآخرة هُمُ الاخسرون ﴾ يعني : الخاسرين .

ويقال : الأخسر إذا قلت بالألف واللام ، يكون بمعنى الخاسر ، وإذا قلت : أخسر بغير اللام ، يكون أخسر من غيره .

ثم أخبر عن المؤمنين ، وما أعدّ لهم في الآخرة ، فقال : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يعني : صدقوا بوحدانية الله تعالى ، ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ ، يعني : الطاعات فيما بينهم وبين ربهم ، ﴿ وَأَخْبَتُواْ إلى رَبّهِمْ ﴾ ، قال القتبي : يعني : تواضعوا ، والإخبات : التواضع .

وقال مقاتل: أخلصوا، ويقال: يخشعوا فرقاً من عذاب ربهم، ﴿ أُوْلَئِكَ أصحاب الجنة ﴾ يعني: أهل الجنة ﴿ هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ يعني: دائمون، لا يموتون ولا يخرجون منها، ثم ضرب مثل المؤمنين والكافرين:

(69/376)

فقال تعالى: ﴿ مَثَلُ الفريقين ﴾ يعني: مثل المؤمن والكافر، ومثل الذي يبصر الحق، ومثل الذي لا يبصر الحق: ﴿ كالأعمى ﴾ يعني: عن الإيمان، ولا يبصره، ﴿ والأصم ﴾ عن الإيمان، ولا يسمعه، وهو الكافر، ﴿ والبصير والسميع ﴾ وهو المؤمن.

﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ في الشبه.

ويقال معناه: مثل الفريقين، يعني: الذي لا يسمع، ولا يبصر، هل يستوي بالذي يسمع ويبصر؟ ويقال معناه: كالأعمى والبصير، والأصم والسميع.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لكفار مكة: "هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ والأَصَمُّ وَالسَّمِيعُ؟" قالوا لا.

قال: ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أنهما لا يستويان.

قرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ بالتخفيف، وقرأ

الباقون : ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ بالتشديد . انتهى انتهى . اهـ ﴿بحر العلوم حـ 2 صـ 137 .
145﴾

(70/376)

وقال الثعلبى :

﴿ الر كِتَابٌ ﴾ قيل ﴿ الر ﴾ مبتدأ وكتاب خبره ، وقيل : كتاب رفع على خبر ابتداء مضمر تقديره : هذا كتاب ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ قال ابن عباس : أُحكمت آياته : لم تنسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع بها ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ بُيّنت بالأحكام والحلال والحرام ، قال الحسن وأبو العالية : فُصّلت : فُسّرت ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلاَّ تعبدوا ﴾ يحتمل أن يكون موضع أن رفعاً على مضمر تقديره : وفي ذلك الكتاب أن لا تعبدوا ، ويحتمل أن يكون محله نصباً بنزع الخافض تقديره : ثم فُصِّلت أن لا تعبدوا ﴿ إِلاَّ الله ﴾ أو لئلاّ تعبدوا إلاّ الله .

﴿ إِنَّنِي لَكُمْ مِّنْهُ ﴾ من الله ﴿ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ وأن عطف على الأول ﴿ وَأَنِ استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ ﴾ أي ارجعوا إلى الله بالطاعة والعبادة ، وقال الفرّاء : ثُمّ هاهنا بمعنى (الواو) أي وتوبوا إليه لأنّ الاستغفار من التوبة ، والتوبة من الاستغفار ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعاً

حَسَناً ﴾ أي يعيشكم عيشاً في [منن] ودعة وأمن وسعة [رزق] ، ﴿ إِلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهو الموت ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ ويؤتِ كل ذي عمل مبلغ أجره وثوابه [سمى فضله] باسم الابتداء .

قال ابن مسعود : من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات ، فإن عوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات ، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر ، واحدة وبقيت له تسع سنات ثم قال : هلك من غلبت آحاده عشراته .

(71/376)

وقال ابن عباس : من زادت حسناته على سيئاته دخل الجنة ، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار ، ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أهل الأعراف ، ثم يدخلون الجنة بعد ، وقال أبو العالية : من زادت طاعته في الدنيا زادت درجاته في الجنة ، لأن الدرجات تكون بالأعمال . وقال مجاهد : إن ما يحتسب الإنسان من كلام يقوله بلسانه ، أو عمل يعمله بيده ورجله ، أو ما يتصدّق به من حق ماله .

﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ وهو يوم القيامة .

﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : يخفون ما في صدورهم من الشحناء والعدواة ، نزلت في الأخنس بن شريق وكان رجلا حلو الكلام ، حلو المنظر ، يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب وينطوي بقلبه على ما يكره . مجاهد : يثنون صدورهم شكّاً وامتراءً ، السدّي : يعرضون بقلوبهم عنك من قولهم [. . . . .] .

عن عبد الله بن شداد : نزلت في بعض المنافقين كان إذا مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره ، وطأطأ رأسه ، وتغشّى ثوبه كي لا يراه النبي (صلى الله عليه وسلم) . قتادة : كانوا يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب الله ولا ذكره .

ابن زيد : هذا حين يناجي بعضهم بعضاً في أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

﴿ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ أي من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال مجاهد : ليستخفوا من الله إن استطاعوا ، وقال ابن عباس : يثنون صدورهم على وزن يحنون ، جعل الفعل للصدور أي [يلقون] .

﴿ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ يغطّون رؤوسهم بثيابهم ، وذلك أخفى ما يكون لابن آدم إذا حنى صدره وتغشّى ثوبه وأضمر همه في نفسه .

﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور * وَمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ من بغلة وليس دابّة وهي كل حيوان دبّ على وجه الأرض ، وقال بعض العلماء : كل ما أُكل فهو دابة .

﴿ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ غذاؤها وقوتها وهو المتكفّل بذلك فضلاً لا وجوباً ، وقال بعضهم : (على) بمعنى (من) أي من الله رزقها ، ويدل عليه قول مجاهد ، قال : ما جاء من رزق فمن الله ، ربما لم يرزقها حتى تموت جوعاً ، ولكن ما كان من رزق فمن الله .

﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ أي مأواها الذي تأوي إليه وتستقر فيه ليلاً ونهاراً ، ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ الموضع الذي تودع فيه أما بموتها أو دفنها ، قال ابن عباس : مستقرها حيث تأوي ، ومستودعها حيث تموت ، مجاهد : مستقرها في الرحم ومستودعها في الصلب ، عبد الله : مستقرها الرحم ، ومستودعها المكان الذي تموت فيه ، الربيع : مستقرها أيام حياتها ، ومستودعها حيث تموت ، ومن حيث تبعث .

وقيل : يعلم مستقرها في الجنة أو في النار ، ومستودعها القبر ، ويدلّ عليه قوله تعالى في وصف أهل الجنة والنار : ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ [الفرقان : 76] و ﴿ سَآءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ [الفرقان : 66] .

﴿ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ كل ذلك مثبت في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقها .

﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المآء ﴾ قبل أن يخلق السماوات والأرض وذلك الماء على متن الريح . وقال كعب : خلق الله ياقوتة حمراء لا نظير لها [فنظر إليها بالهيبة] فصارت ماء ، [يرتعد من مخافة الله تعالى] ثمّ خلق الريح فجعل الماء [على قشرة] ثم وضع العرش على الماء . وقال ضمرة : إنّ الله تعالى كان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض بالحق ، وخلق القلم وكتب به ما هو خالق وما هو كائن من خلقه ، ثم إن ذلك الكتاب سبّح الله ومجدّه قبل أن يخلق شيئاً من الخلق .

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ ليختبركم وهو أعلم ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ روى عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ليبلوكم أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله " .

قال ابن عباس : أيّكم أعمل بطاعة الله . قال مقاتل : أيّكم أتقى لله ، الحسن : أيّكم أزهد في الدنيا زاهداً وأقوى لها تركاً .

﴿ وَلَئِن قُلْتَ ﴾ يا محمد ﴿ إِنَّكُمْ مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الموت لَيَقُولَنَّ الذين كفروا إِنْ هذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ يعنون القرآن ، ومن قرأ : ساحر ردّه إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) .

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ إلى أجل معدود ووقت محدود ، وأصل الأُمّة الجماعة ، وإنما قيل للحين : أُمّة ، لأن فيه يكون الأُمّة ، فكأنه قال : إلى مجيء أُمّة وانقراض أُخرى قبلها ، كقوله : ﴿ وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف : 45] .

(74/376)

﴿ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ يقولون استعجالا للعذاب واستهزاء ، يعنون أنه ليس بشيء . قال الله تعالى : ﴿ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ العذاب ﴿ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ ﴾ خبر [ليس] عنهم . ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي رجع إليهم ونزل بهم وبال استهزائهم ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ﴾ سعة ونعمة ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا ﴾ سلبناها ﴿ مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ ﴾ قنوط في الشدّة ﴿ كَفُورٌ ﴾ في النعمة .

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾ بعد بلاء وشدة ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السيئات عني ﴾ زالت الشدائد عني ﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ أشر بطر ، ثم استثنى فقال : ﴿ إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ فإنهم إن نالتهم شدّة وعسرة صبروا ، وإن نالوا نعمة شكروا ﴿ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وهو الجنة ، وإنما جاز الاستثناء مع اختلاف الحالين لأن الإنسان اسم الجنس كقوله : ﴿ والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين

آمَنُواْ ﴾ [العصر: 1-3].

﴿ فَلَعَلَّكَ ﴾ يا محمد ﴿ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ ﴾ فلا تبلّغه إياهم، وذلك أن مشركي مكة قالوا: آتنا بكتاب ليس فيه سبّ آلهتنا.

﴿ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ ﴾ لأن يقولوا ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ ﴾ ينفقه ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ يصدّقه، قال عبد الله بن أُمية المخزومي قال الله: يا أيها النذير (ليس عليك إلاّ البلاغ) والله على كل شيء وكيل ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ ﴾ مثله ﴿ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ بزعمكم ﴿ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ ﴾ لفظه جمع والمراد به الرسول وحده كقوله:

﴿ يا أيها الرسل ﴾ [المؤمنون: 51] ويعني الرسول.

(75/376)

وقال مجاهد: عنى به أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فاعلموا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ الله ﴾ يعني القرآن ﴿ وَأَن لاَّ إله إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ لفظه استفهام ومعناه أمر.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا ﴾ أي من كان يريد بعمله الحياة الدنيا ﴿ وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ نوفر لهم أجور أعمالهم في الدنيا ﴿ وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ﴾ لا ينقصون.

قتادة يقول : من كانت الدنيا همّه وقصده وسروره وطلبته ونيّته جازاه الله تعالى ثواب حسناته في الدنيا ، ثم يمضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء ، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من أحسن من محسن فقد وقع أجره على الله في عاجل الدنيا وآجل الآخرة " .

واختلفوا في المعنيّ بهذه الآية فقال بعضهم : هي للكفار ، وأما المؤمن فإنه يريد الدنيا والآخرة ، وإرادته الآخرة غالبة على إرادته للدنيا ، ويدل عليه قوله : ﴿ أولئك الذين لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة إِلاَّ النار وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا ﴾ في الدنيا ﴿ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ قال مجاهد : هم أهل الربا .

وروى ابن المبارك عن حيوة بن شريح قال : حدثني الوليد بن أبي الوليد بن عثمان أن عقبة بن مسلم حدّثه أن شقي بن قابع الأصبحي حدّثنا أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس ، فقال : من هذا ؟ قيل : أبو هريرة .

قال : فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدّث الناس ، فلما سكت وخلا ، قلت : وانشدك الله لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم [عقلته وعلمته] فقال : لأحدّثنّك حديثاً حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في [هذا البيت] ثم غشي عليه ثم أفاق فقال : أحدثك حديثاً حدّثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا البيت ، ولم يكن أحد غيره وغيري ، ثم شهق أبو هريرة شهقة شديدة ثم قال : [فأرى على وجهه ثمّ استغشى] طويلا ثم أفاق فقال : حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة دعا العباد ليقضي بينهم ، وكل أُمة جاثية فأول من يدعو رجل جمع القرآن ، ورجل قُتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال . فيقول الله للقارئ : ألم أعلّمك ما أنزلت على رسولي ؟ قال : بلى يا رب . قال : ماذا عملت فيما علمت ؟ قال : كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار ، فيقول الله تعالى له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، فيقول الله تعالى : بل أردت أن يقال : فلان قارئ ، فقد قيل ذلك ، ويؤتى بصاحب المال ، فيقول الله له : ألم أوسّع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى رب ، قال : فماذا عملت فيما آتيتك ؟

قال : كنت أصل الرحم وأتصدّق ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، ويقول الله تعالى : بل أردت أن يقال : فلان جواد فقد قيل ذلك . ويؤتى بالذي قُتل في سبيل الله فيقال له : في ماذا قُتلت ؟ فيقول : أُمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قُتلت ، فيقول الله

: كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال فلان جريء ، فقد قيل ذلك " ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي فقال : " يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة " .

(77/376)

قال الوليد : وأخبرني غيره أن شقياً دخل على معاوية وأخبره بهذا عن أبي هريرة فقال معاوية : وقد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس ؟ ثم بكى معاوية [وضرب خدّيه] حتى ظننّا أنه هالك ، ثم أفاق معاوية لا يمسح وجهه وقال : صدق الله ورسوله ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾ وقرأ إلى قوله : ﴿ بَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ ﴾ بيان وحجة ﴿ مِّن رَّبِّهِ ﴾ وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ يتبعه من يشهد له ويصدقه .

واختلفوا في هذا الشاهد فقال ابن عباس وعلقمة وإبراهيم ومجاهد والضحاك وأبو صالح وأبو العالية وعكرمة : هو جبريل (عليه السلام) ، وقال الحسن (رضي الله عنه) : هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . وقال الحسن وقتادة : هو لسان رسول الله (صلى

الله عليه وسلم) . وقال محمد بن الحنفية : قلت لأبي أنت التالي ؟ قال : وما تعني بالتالي ؟ قلت : قوله : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ قال : وددت أني هو ولكنه لسان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . وقال بعضهم : الشاهد صورة النبي صلى الله عليه وسلم ووجهه ومخائله ، لأنّ كل من كان له عقل ونظر إليه علم أنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . وقال الحسين بن الفضل : هو القرآن في نظمه وإعجازه والمعاني الكثيرة منه في اللفظ القليل . وروى ابن جريج وابن أبي نجيح عن مجاهد قال : هو ملك يحفظه ويسدّده . وقيل : هو علي بن أبي طالب .

(78/376)

أخبرني عبد الله الأنصاري عن القاضي أبو الحسين النصيري ، أبو بكر السبيعي ، علي بن محمد الدهان والحسن بن إبراهيم الجصاص ، قال الحسين بن حكيم ، الحسين بن الحسن عن حنان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ علي خاصة (رضي الله عنه) .

وبه عن السبيعي عن علي بن إبراهيم بن محمد [العلوي] ، عن الحسين بن الحكيم ، عن

إسماعيل بن صبيح ، عن أبي الجارود ، عن حبيب بن يسار ، عن زاذان قال : سمعت علياً يقول : والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو ثنيت لي وسادة فأُجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم ، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم ، وبين أهل الزبور بزبورهم ، وبين أهل الفرقان بفرقانهم ، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما من رجل من قريش جرت عليه المواسي إلاّ وأنا أعرف به يساق إلى جنة أو يقاد إلى نار . فقام رجل فقال : ما آيتك يا أمير المؤمنين التي نزلت فيك ؟ قال : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ رسول الله صلى الله عليه وسلم على بينة من ربه وأنا شاهد منه .

وبه عن [السبيعي] ، وأحمد بن محمد بن سعيد الهمداني حدثني الحسن بن علي بن برقع وعمر بن حفص الفراء ، حدثنا صباح القراملي ، عن محارب عن جابر بن عبد الله [الأنصاري] ، قال علي (رضي الله عنه) : ما من رجل من قريش إلاّ وقد نزلت فيه الآية والآيتان ، فقال له رجل : فأنت أي شيء نزل فيك ؟ قال علي (رضي الله عنه) : أما تقرأ الآية التي في هود ، ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ .

وفي الكلام محذوف تقديره : أفمن كان على بيّنة من ربه كمن هو في الضلالة [متردّد] ، ثم قال : ﴿ وَمِن قَبْلِهِ ﴾ يعني ومن قبل محمد والقرآن كان ﴿ كِتَابُ موسى إِمَاماً وَرَحْمَةً أولئك ﴾ أي بني إسرائيل ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ﴾ أي بمحمد وقيل بالقرآن ، وقيل بالتوراة ﴿ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُهُ ﴾ .

روى سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يستمع لي يهودي ولا نصراني ، ولا يؤمن بي إلاّ كان من أهل النار " .

قال أبو موسى فقلت في نفسي : إن النبي لا يقول مثل هذا القول إلاّ من الفرقان فوجدت الله يقول : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُهُ ﴾ .

﴿ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ ﴾ أي في شكّ ﴿ مِّنْهُ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ زعم أن لله ولداً أو شريكاً أو كذب بآيات القرآن ﴿ أولئك ﴾ يعني الكاذبين ، ﴿ يُعْرَضُونَ على رَبِّهِمْ ﴾ فيسألهم عن أعمالهم ويجزيهم بها .

﴿ وَيَقُولُ الأشهاد ﴾ يعني الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم في الدنيا ، في قول مجاهد والأعمش ، وقال الضحاك : يعني الأنبياء والرسل ، وقال قتادة : يعني الخلائق .

وروى صفوان بن محرز المازني قال : بينا نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر إذ عرض له رجل فقال : يا بن عمر ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى ؟

فقال: سمعت نبي الله صلى الله عليه وسلم [يقول]: "يدنو المؤمن من ربّه حتى يضع كنفيه عليه فيقرّره بذنوبه فيقول: هل [تعرف ما فعلت؟ يقول: [رب أعرف مرّتين، حتى إذا بلغ ما شاء الله أن يبلغ فقال: وإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، وقال [ثمّ يعطى صحيفة حسناته، أو كتابه بيمينه قال]: وأما الكافر والمنافق فينادى بهم على رؤوس الأشهاد".

﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربّهم ألا لعنة الله على الظالمين * الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون * أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ﴾ قال ابن عباس: سابقين.

مقاتل بن حيان: قانتين، قتادة: [هراباً] ﴿ وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾ أنصار تغني [عنهم] ﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾ يعني يزيد في عذابهم.

﴿ ما كانوا يستطيعون السمع ﴾ اختلف في تأويله: قال قتادة [. . . .]: ﴿ وما كانوا يبصرون ﴾ الهدى، وقوله: ﴿ إنّهم عن السمع لمعزولون ﴾ [الشعراء: 212]

قال ابن عباس: إن الله تعالى إنّما حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا، وأما في الدنيا

فإنه قال ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السمع وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ فإنه قال : فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ، وقال بعضهم : إنما عنى بذلك الأصنام .

﴿ أولئك ﴾ وآلهتهم ﴿ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأرض وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السمع ﴾ ولا يسمعونه ﴿ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ [. . . . . . .] فلا يعتبرون بها ، فحذف الباء ، كما يقول : لا يجزينك ما عملت وبما عملت .

﴿ أولئك الذين خسروا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ * لاَ جَرَمَ ﴾ أي [. . . . .] ، قال الفرّاء : معناها لابدّ ولا محالة ﴿ أَنَّهُمْ فِي الآخرة هُمُ الأخسرون ﴾ يعني من غيرهم ، وإنْ كان الكل في الخسار .

﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ ﴾ بيان وحجة ﴿ مِّن رَّبِّهِ ﴾ وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ يتبعه من يشهد له ويصدقه .

واختلفوا في هذا الشاهد فقال ابن عباس وعلقمة وإبراهيم ومجاهد والضحاك وأبو صالح وأبو العالية وعكرمة : هو جبريل (عليه السلام) ، وقال الحسن (رضي الله عنه) : هو

رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . وقال الحسن وقتادة : هو لسان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . وقال محمد بن الحنفية : قلت لأبي أنت التالي ؟ قال : وما تعني بالتالي ؟ قلت : قوله : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ قال : وددت أني هو ولكنه لسان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . وقال بعضهم : الشاهد صورة النبي صلى الله عليه وسلم ووجهه ومخائله ، لأنّ كل من كان له عقل ونظر إليه علم أنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقال الحسين بن الفضل : هو القرآن في نظمه وإعجازه والمعاني الكثيرة منه في اللفظ القليل . وروى ابن جريج وابن أبي نجيح عن مجاهد قال : هو ملك يحفظه ويسدّده . وقيل : هو علي بن أبي طالب .

أخبرني عبد الله الأنصاري عن القاضي أبو الحسين النصيري ، أبو بكر السبيعي ، علي بن محمد الدهان والحسن بن إبراهيم الجصاص ، قال الحسين بن حكيم ، الحسين بن الحسن عن حنان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ علي خاصة (رضي الله عنه) .

وبه عن السبيعي عن علي بن إبراهيم بن محمد [العلوي] ، عن الحسين بن الحكيم ، عن إسماعيل بن صبيح ، عن أبي الجارود ، عن حبيب بن يسار ، عن زاذان قال : سمعت علياً يقول : والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو ثنيت لي وسادة فأُجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم ، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم ، وبين أهل الزبور بزبورهم ، وبين أهل الفرقان بفرقانهم ، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما من رجل من قريش جرت عليه المواسي إلاّ وأنا أعرف به يساق إلى جنة أو يقاد إلى نار . فقام رجل فقال : ما آيتك يا أمير المؤمنين التي نزلت فيك ؟ قال : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ رسول الله صلى الله عليه وسلم على بينة من ربه وأنا شاهد منه .

وبه عن [السبيعي] ، وأحمد بن محمد بن سعيد الهمداني حدثني الحسن بن علي بن برقع وعمر بن حفص الفراء ، حدثنا صباح القراملي ، عن محارب عن جابر بن عبد الله [الأنصاري] ، قال علي (رضي الله عنه) : ما من رجل من قريش إلاّ وقد نزلت فيه الآية والآيتان ، فقال له رجل : فأنت أي شيء نزل فيك ؟ قال علي (رضي الله عنه) : أما تقرأ الآية التي في هود ، ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ .

وفي الكلام محذوف تقديره : أفمن كان على بيّنة من ربه كمن هو في الضلالة [متردّد] ، ثم قال : ﴿ وَمِن قَبْلِهِ ﴾ يعني ومن قبل محمد والقرآن كان ﴿ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ ﴾ أي بني إسرائيل ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ﴾ أي بمحمد وقيل بالقرآن ، وقيل

بالتوراة ﴿ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُهُ ﴾ .

روى سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لا يستمع لي يهودي ولا نصراني ، ولا يؤمن بي إلاّ كان من أهل النار" .

(83/376)

قال أبو موسى فقلت في نفسي : إن النبي لا يقول مثل هذا القول إلاّ من الفرقان فوجدت الله يقول : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُه ﴾ .

﴿ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ ﴾ أي في شكّ ﴿ مِّنْهُ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ زعم أن لله ولداً أو شريكاً أو كذب بآيات القرآن ﴿ أولئك ﴾ يعني الكاذبين ، ﴿ يُعْرَضُونَ على رَبِّهِمْ ﴾ فيسألهم عن أعمالهم ويجزيهم بها .

﴿ وَيَقُولُ الأشهاد ﴾ يعني الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم في الدنيا ، في قول مجاهد والأعمش ، وقال الضحاك : يعني الأنبياء والرسل ، وقال قتادة : يعني الخلائق .

وروى صفوان بن محرز المازني قال : بينا نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر إذ عرض له رجل فقال : يا بن عمر ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى ؟

فقال: سمعت نبي الله صلى الله عليه وسلم [يقول]: "يدنو المؤمن من ربّه حتى يضع كنفيه عليه فيقرّره بذنوبه فيقول: هل [تعرف ما فعلت؟ يقول: [رب أعرف مرّتين، حتى إذا بلغ ما شاء الله أن يبلغ فقال: وإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، وقال [ثمّ يعطى صحيفة حسناته، أو كتابه بيمينه قال]: وأما الكافر والمنافق فينادى بهم على رؤوس الأشهاد".

﴿ هؤلاء الذين كَذَبُواْ على ربِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظالمين * الذين يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ * أولئك لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأرض ﴾ قال ابن عباس: سابقين.

مقاتل بن حيان: قانتين، قتادة: [هرابا] ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّن دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أنصار تُغني [عنهم] ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب ﴾ يعني يزيد في عذابهم.

(84/376)

﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع ﴾ اختلف في تأويله: قال قتادة [. . . .]: ﴿ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ الهدى، وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ [الشعراء: 212]

قال ابن عباس: إن الله تعالى إنّما حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا، وأما في الدنيا

فإنه قال ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ فإنه قال : فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ، وقال بعضهم : إنما عنى بذلك الأصنام .

﴿ أولئك ﴾ وآلهتهم ﴿ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأرض وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّن دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع ﴾ ولا يسمعونه ﴿ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ [. . . . . . .] فلا يعتبرون بها ، فحذف الباء ، كما يقول : لا يجزينك ما عملت وبما عملت .

﴿ أولئك الذين خسروا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ * لاَ جَرَمَ ﴾ أي [. . . . .] ، قال الفرّاء : معناها لابدّ ولا محالة ﴿ أَنَّهُمْ فِي الآخرة هُمُ الأخسرون ﴾ يعني من غيرهم ، وإنْ كان الكل في الخسار .

﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وأخبتوا إلى رَبِّهِمْ ﴾ قال عطية عن ابن عباس وقتادة : أنابوا وتضرّعوا إليه ، مجاهد : اطمأنوا إلى ذكره ، مقاتل : أخلصوا ، الأخفش : تخشّعوا له ، وقيل : تواضعوا له .

﴿ أولئك أَصْحَابُ الجنة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ الفريقين ﴾ المؤمن والكافر ﴿ كالأعمى والأصم والبصير والسميع هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ قال الفرّاء : وإنّما لم يقل هل يستوون مثلا ، لأنّ الأعمى والأصم في خبر كأنهما واحد ، لأنهما من وصف الكافر ،

والسميع والبصير في خبر كأنهما واحد ، لأنهما من وصف المؤمن . ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشف والبيان حـ 5 صـ 156. 165 ﴾

(85/376)

فصل

قال الزمخشرى فى الآيات السابقة :

سورة هود عليه السلام

(مكية [إلا الآيات 12 و17 و114 فمدنية] وهي مائة وثلاث وعشرون آية [نزلت بعد سورة يونس]) بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة هود (11) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1)

أُحْكِمَتْ آياتُهُ نظمت نظما رصينا محكما لا يقع فيه نقض ولا خلل ، كالبناء المحكم المرصف .

ويجوز أن يكون نقلا بالهمزة ، من «حكم» بضم الكاف ، إذا صار حكيما : أى جعلت

حكيمة ، كقوله تعالى آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ وقيل : منعت من الفساد ، من قولهم :

أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح. قال جرير :

أَبنِى حَنِيفَةَ أَحْكِمُوا سُفَهَاءَكُمْ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا «1»

وعن قتادة : أُحكمت من الباطل ثُمَّ فُصِّلَتْ كما تفصل القلائد بالفرائد ، من دلائل التوحيد ، والأحكام ، والمواعظ ، والقصص . أو جعلت فصولا ، سورة سورة ، وآية آية . وفرقت في التنزيل ولم تنزل جملة واحدة . أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد : أى بين ولخص . وقرئ : أحكمت آياته ثم فصلت : أى أحكمتها أنا ثم فصلتها . وعن عكرمة والضحاك : ثم فصلت ، أى فرّقت بين الحق والباطل . فإن قلت : ما معنى ثم ؟ قلت : ليس معناها التراخي في الوقت ، ولكن في الحال ، كما تقول : هي محكمة أحسن الأحكام ، ثم مفصلة أحسن التفصيل . وفلان كريم الأصل ، ثم كريم الفعل . وكتاب : خبر مبتدإ محذوف . وأحكمت : صفة له . وقوله مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ صفة ثانية . ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر ، وأن يكون صلة لأحكمت وفصلت ، أى : من عنده إحكامها وتفصيلها . وفيه طباق حسن ، لأنّ المعنى : أحكمها حكيم وفصلها : أى بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور .

---

(1) . لجرير ، يقول : يا بنى حنيفة «امنعوا سفهاءكم عنى كما تمنع الدابة بالحكمة ، فان

غضبى عليكم شديد . وفيه ضرب من التهديد ، فخوفه عليهم كناية عن ذلك . وأن أغضب : مفعول أخاف ، أى أخاف عليكم غضبى .

(86/376)

[سورة هود (11) : الآيات 2 إلى 4]

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (4)

أَلَّا تَعْبُدُوا مفعول له على معنى : لئلا تعبدوا . أو تكون «أن» مفسرة ، لأنّ في تفصيل الآيات معنى القول ، كأنه قيل : قال لا تعبدوا إلا الله ، أو أمركم أن لا تعبدوا إلا الله وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا أى أمركم بالتوحيد والاستغفار . ويجوز أن يكون كلاما مبتدأ منقطعاً عما قبله على لسان النبي صلى الله عليه وسلم ، إغراء منه على اختصاص الله بالعبادة . ويدل عليه قوله إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ كأنه قال : ترك عبادة غير الله ، إننى لكم منه نذير ، كقوله تعالى فَضَرْبَ الرِّقابِ والضمير في مِنْهُ لله عز وجل ، أى : إننى لكم نذير وبشير من جهته ، كقوله رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ أو هي صلة لنذير ، أى : أنذركم منه ومن عذابه إن كفرتم ،

وأبشركم بثوابه إن آمنتم.

فإن قلت: ما معنى ثم في قوله ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ؟ قلت: معناه استغفروا من الشرك، ثم ارجعوا إليه بالطاعة. أو استغفروا، والاستغفار توبة، ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها، كقوله ثُمَّ اسْتَقامُوا. يُمَتِّعْكُمْ يطوّل نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية، من عيشة واسعة، ونعمة متتابعة إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إلى أن يتوفاكم، كقوله فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ويعط في الآخرة كل من كان له فضل في العمل وزيادة فيه جزاء فضله لا يبخس منه.

أو فضله في الثواب، والدرجات تتفاضل في الجنة على قدر تفاضل الطاعات وَإِنْ تَوَلَّوْا وإن تتولوا عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ هو يوم القيامة، وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل. وبين عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شيء، فكان قادراً على أشدّ ما أراد من عذابهم لا يعجزه. وقرئ: وإن تولوا، من ولى.

[سورة هود (11): آية 5]

أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (5)

يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ يزورّون عن الحق وينحرفون عنه، لأن من أقبل على الشيء استقبله

بصدره ، ومن ازورّ عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ يعنى :

(87/376)

ويريدون ليستخفوا من اللّه ، فلا يطلع رسوله والمؤمنين على ازورارهم . ونظير إضمار يريدون - لقود المعنى «1» إلى إضماره - الإضمار في قوله تعالى اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ معناه فضرب فانفلق . ومعنى أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ ويريدون الاستخفاء «2» حين يستغشون ثيابهم أيضاً ، كراهة لاستماع كلام اللّه تعالى ، كقول نوح عليه السلام جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ ثم قال يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ يعنى . أنه لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم ، فلا وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء ، واللّه مطلع على ثنيهم صدورهم واستغشائهم ثيابهم ، ونفاقهم غير نافق عنده . روى أنها نزلت في الأخنس بن شريق وكان يظهر لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم المحبة وله منطق حلو وحسن سياق للحديث ، فكان يعجب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مجالسته ومحادثته ، وهو يضمر خلاف ما يظهر . وقيل : نزلت في المنافقين . وقرئ : تثنونى صدورهم ، واثنونى «افعوعل» من الثني ، كاحلولى من الحلاوة ، وهو بناء مبالغة ، قرئ

بالتاء والياء . وعن ابن عباس لتثنونى . وقرئ تثنونّ وأصله تثنونن «تفعوعل» من الثن «3» وهو ما هش وضعف من الكلأ ، يريد : مطاوعة صدورهم للثنى ، كما ينثني الهش من النبات . أو أراد ضعف إيمانهم ومرض قلوبهم . وقرئ : تثنئن ، من اثنأن «أفعال» منه ، ثم همز كما قيل : ابيأضت ، وادهأمت وقرئ : تثنوى ، بوزن ترعوى .

[سورة هود (11) : آية 6]

وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (6)

فإن قلت : كيف قال عَلَى اللَّهِ رِزْقُها بلفظ الوجوب «4» وإنما هو تفضل؟ قلت : هو تفضل إلا أنه لما ضمن أن يتفضل به عليهم ، رجع التفضل واجباً كنذور العباد . والمستقرّ : مكانه من الأرض ومسكنه . والمستودع حيث كان مودعا قبل الاستقرار ، من صلب ، أو رحم ،

---

(1) . قوله «لقود المعنى» أى لتأدية المعنى . (ع)

(2) . قوله «ويزيدون الاستخفاء» الظاهر أن هذا هو الخبر عن قوله : ومعنى ألا حين الخ ، كما قال أولا ، يعنى ويريدون . (ع)

(3) . قوله «من الثن» في الصحاح «الثن» بالكسر : يبس الحشيش . (ع)

(4) . قال محمود «إن قلت كيف قال على اللّه رزقها بلفظ الوجوب . . . الخ» قال أحمد

: كل ما يسديه اللّه تعالى من رزق لبهيمة أو مكلف في الدنيا أو ثواب في الآخرة ، فذلك كله فضل ولا واجب على اللّه تعالى ، وإن ورد مثل هذه الصيغة فمحمول على أن اللّه عز وجل لما وعدهم فضله - ووعده خبر ، وخبره صدق - وجب وقوع الموعود : أى يستحيل في العقل أن لا يقع ، للزوم الخلف في خبر الصادق ، فعبر عن ذلك بما يعبر به عن وجوب التكليف ، وبينهما هذا الفرق المذكور . هذه قاعدة أهل الحق . وقد مر الكلام عليها عند قوله تعالى إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ ، واللّه الموفق .

(88/376)

أو بيضة كُلٌّ كل واحد من الدواب ورزقها ومستقرّها ومستودعها في اللوح ، يعنى ذكرها مكتوب فيه مبين .

[سورة هود (11) : آية 7]

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (7)

وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ أى ما كان تحته خلق قبل خلق السموات والأرض . وارتفاعه

فوقها إلا الماء . وفيه دليل على أنّ العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض .

وقيل : وكان الماء «1» على متن الريح ، واللّه أعلم بذلك ، وكيفما كان فاللّه ممسك كل ذلك بقدرته ، وكلما ازدادت الأجرام كانت أحوج إليه وإلى إمساكه لِيَبْلُوَكُمْ متعلق بخلق ، أى خلقهن لحكمة بالغة ، وهي أن يجعلها مساكن لعباده ، وينعم عليهم فيها بفنون النعم ، ويكلفهم الطاعات واجتناب المعاصي ، فمن شكر وأطاع أثابه ، ومن كفر وعصى عاقبه . ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال : ليبلوكم . يريد : ليفعل بكم ما يفعل المبتلى لأحوالكم كيف تعملون . فإن قلت : كيف جاز تعليق فعل البلوى ؟ قلت : لما في الاختبار من معنى العلم ، لأنه طريق إليه فهو ملابس له ، كما تقول : انظر أيهم أحسن وجهاً واسمع أيهم أحسن صوتا ، لأنّ النظر والاستماع من طريق العلم . فإن قلت : كيف قيل : أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن ، فأمّا أعمال المؤمنين والكافرين فتفاوتها إلى حسن وقبيح ؟ قلت : الذين هم أحسن عملا هم المتقون ، وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو غرض اللّه من عباده ، فخصهم بالذكر واطرح ذكر من وراءهم تشريفاً لهم وتنبيهاً على مكانهم منه ، وليكون ذلك لطفاً للسامعين ، وترغيباً في حيازة فضلهم . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «ليبلوكم أيكم أحسن عقلا ، وأورع عن محارم اللّه وأسرع في طاعة اللّه «2»» قرئ : ولئن قلت إنكم مبعوثون ، بفتح الهمزة .

ووجهه أن يكون من قولهم : ائت السوق عنك تشترى لنا لحماً ، وأنك تشترى بمعنى علك ،

أى :

ولئن قلت لهم لعلكم مبعوثون ، بمعنى : توقعوا بعثكم وظنوه ، ولا تبتوا القول بإنكاره ، لقالوا :

---

(1) . قوله «وقيل : وكان الماء» لعله «كان» بدون واو . ويمكن أن المعنى كان عرشه على الماء وكان الماء . (ع)

(2) . أخرجه داود بن المجبر في كتاب العقل والحرث في مسنده عنه ، والطبري وابن مردويه من طريقه عن عبد الواحد بن زيد عن كليب بن وائل عن ابن عمر . وداود ساقط . وأخرجه ابن مردويه أيضا من طريق محمد ابن أمرس عن سليمان بن عيسى عن الثوري عن كليب كذلك ، وإسناده أسقط من الأول .

إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ باتين القول ببطلانه . ويجوز أن تضمن «قلت» معنى «ذكرت» ومعنى قولهم إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أنّ السحر أمر باطل ، وأن بطلانه كبطلان السحر تشبيهاً له به . أو أشاروا «1» بهذا إلى القرآن لأنّ القرآن هو الناطق بالبعث ، فإذا جعلوه سحراً فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره . وقرئ : إن هذا إلا ساحر ،

يريدون الرسول ، والساحر : كاذب مبطل ،

[سورة هود (11) : آية 8]

وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (8)

الْعَذابَ عذاب الآخرة. وقيل عذاب يوم بدر. وعن ابن عباس : قتل جبريل المستهزئين إِلى أُمَّةٍ إلى جماعة من الأوقات ما يَحْبِسُهُ ما يمنعه من النزول استعجالا له على وجه التكذيب والاستهزاء. وَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ منصوب بخبر ليس ، ويستدل به من يستجيز تقديم خبر ليس على ليس ، وذلك أنه إذا جاز تقديم معمول خبرها عليها ، كان ذلك دليلا على جواز تقديم خبرها ، إذ المعمول تابع للعامل ، فلا يقع إلا حيث يقع العامل وَحاقَ بِهِمْ وأحاط بهم ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ العذاب الذي كانوا به يستعجلون. وإنما وضع يستهزئون موضع يستعجلون ، لأنّ استعجالهم كان على جهة الاستهزاء. والمعنى : ويحيق بهم إلا أنه جاء على عادة الله في أخباره.

[سورة هود (11) : الآيات 9 إلى 11]

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (11)

الْإِنسانَ للجنس رَحْمَةً نعمة من صحة وأمن وجدة ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ ثم سلبنا تلك النعمة إِنَّهُ لَيَؤُسٌ شديد اليأس من أن تعود إليه مثل تلك النعمة المسلوبة. قاطع رجاءه من سعة فضل اللّه من غير صبر ولا تسليم لقضائه ولا استرجاع كَفُورٌ عظيم الكفران لما سلف له من التقلب في نعمة اللّه نَسَّاءٌ له ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي أي المصائب التي ساءتني إِنَّهُ لَفَرِحٌ أشر

---

(1). قوله «أو أشاروا بهذا» لعله: وأشاروا. (ع)

(90/376)

بطر فَخُورٌ على الناس بما أذاقه اللّه من نعمائه، قد شغله الفرح والفخر عن الشكر إِلَّا الَّذِينَ آمنوا، فإنّ عادتهم إن نالتهم رحمة أن يشكروا، وإن زالت عنهم نعمة أن يصبروا.

[سورة هود (11): آية 12]

فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (12)

كانوا يقترحون عليه آيات تعنتا لا استرشادا، لأنهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة مما جاء به كافية في رشادهم. ومن اقتراحاتهم لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البينات، فكان يضيق صدر رسول

اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يلقى إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه ، فحرّك اللّه منه

وهيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة بردّهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ

ما يُوحى إِلَيْكَ أى لعلك تترك أن تلقيه إليهم وتبلغه إياهم مخافة ردّهم له وتهاونهم به وَضائِقٌ

بِهِ صَدْرُكَ بأن تتلوه عليهم أَنْ يَقُولُوا مخافة أن يقولوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أى هلا أنزل عليه ما

اقترحنا نحن من الكنز والملائكة ولم أنزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه ، ثم قال إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ

أى ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحى إليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه ، ولا عليك ردّوا أو

تهاونوا أو اقترحوا وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ يحفظ ما يقولون ، وهو فاعل بهم ما يجب أن

يفعل ، فتوكل عليه ، وكل أمرك إليه ، وعليك بتبليغ الوحى بقلب فسيح وصدر منشرح ،

غير ملتفت إلى استكبارهم ولا مبال بسفههم واستهزائهم . فإن قلت : لم عدل عن ضيق

إلى ضائق ؟ قلت : ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت ، لأنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه

وسلم كان أفسح الناس صدرا . ومثله قولك : زيد سيد وجواد ، تريد السيادة والجواد

الثابتين المستقرّين ، فإذا أردت الحدوث قلت : سائد وجائد ونحوه كانوا قوماً عامين في

بعض القراآت ، وقول السمهري العكلي :

بِمَنْزِلَةٍ أَمَّا اللّئِيمُ فَسامِنٌ بِهَا وَكِرَامُ النّاسِ بَادٍ شُحُوبُهَا «1»

[سورة هود (11) : آية 13]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

صادِقِينَ (13)

---

(1) . العكلي . والشحوب تغير اللون . وأنشده أبو زيد شاهدا على أن الشحوب في لغة بنى كلاب الهزال ، وهو أنسب بالمقابلة لقوله بمنزلة مجدبة صفتها أنها . أما اللئيم الذي همه بطنه ، فهو سامن فيها لكثرة أكله . وأما كرام الناس فهم متغيرون فيها مهازيل ، لأنهم يطعمون ولا يطعمون . و«فاعل» من سمن شاذ ، وقياسه «فعيل» .

أَمْ منقطعة . والضمير في افْتَراهُ لما يوحى إليك . تحداهم أوّلا بعشر سور ، ثم بسورة واحدة ، كما يقول المخابر في الخط لصاحبه : اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب ، فإذا تبين له العجز عن مثل خطه قال : قد اقتصرت منك على سطر واحد مِثْلِهِ بمعنى أمثاله ، ذهابا إلى مماثلة كل واحدة منها له مُفْتَرَياتٍ صفة لعشر سور . لما قالوا : افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك وليس من عند اللّه ، قاودهم «1» على دعواهم وأرخى معهم العنان وقال : هبوا أنى اختلقته من عند نفسي ولم يوح إلىّ وأنّ الأمر كما قلتم ، فأتوا أنتم أيضا بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم ، فأنتم عرب فصحاء مثلي لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام .

فإن قلت :

كيف يكون ما يأتون به مثله ، وما يأتون به مفترى وهذا غير مفترى؟ قلت : معناه مثله في حسن البيان والنظم وإن كان مفترى .

[سورة هود (11) : آية 14]

فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14)

فإن قلت : ما وجه جمع الخطاب بعد إفراده وهو قوله لَكُمْ فَاعْلَمُوا بعد قوله قُلْ؟ قلت : معناه : فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين لأنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين كانوا يتحدّونهم ، وقد قال في موضع آخر : فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ ويجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول اللّه صلى الله عليه وسلم كقوله :

فَإِنْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ «2»

ووجه آخر : وهو أن يكون الخطاب للمشركين ، والضمير في فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لمن استطعتم ، يعنى : فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون اللّه إلى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه وأن طاقتهم أقصر من أن تبلغه فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ أى أنزل ملتبساً بما لا يعلمه إلا اللّه ، من نظم معجز للخلق ، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه وَاعلموا عند ذلك أَنْ لا إِلهَ إِلَّا اللّه وحده ، وأن توحيده واجب والإشراك به ظلم عظيم فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ مبايعون بالإسلام بعد هذه الحجة القاطعة ، وهذا وجه حسن مطرد . ومن جعل الخطاب للمسلمين فمعناه : فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه ، وازدادوا يقيناً وثبات قدم على أنه

منزل من عند اللّه وعلى التوحيد .

ومعنى فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ فهل أنتم مخلصون ؟

---

(1) . قوله «قاودهم» ضمن معنى وافقهم وسايرهم . (ع)

(2) . مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص 294 فراجعه إن شئت . اه مصححه .

(92/376)

[سورة هود (11) : الآيات 15 إلى 16]

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ (15)

أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

(16)

نُوَفِّ إِلَيْهِمْ نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا ، وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق . وقيل : هم أهل الرياء . يقال للقراء منهم : أردت أن يقال : فلان قارئ ، فقد قيل ذلك . ولمن وصل الرحمن وتصدّق : فعلت حتى يقال ، فقيل . ولمن قاتل فقتل : قاتلت حتى يقال فلان جريء ، فقد قيل : وعن أنس بن مالك : هم اليهود والنصارى ، إن أعطوا سائلا أو وصلوا رحما ، عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة في الرزق

وصحة في البدن. وقيل: هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأسهم لهم في الغنائم. وقرئ: يوفّ، بالياء على أن الفعل للّه عزّ وجلّ. وتوفَّ إليهم أعمالهم بالتاء، على البناء للمفعول. وفي قراءة الحسن:

نوفى، بالتخفيف وإثبات الياء، لأنّ الشرط وقع ماضياً، كقوله:

يَقُولُ لَا غَائِبٌ مَالِى وَلَا حَرِمُ «1»

وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وحبط في الآخرة ما صنعوه، أو صنيعهم، يعنى: لم يكن له ثواب لأنهم لم يريدوا به الآخرة، إنما أرادوا به الدنيا، وقد وفي إليهم ما أرادوا وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أى كان عملهم في نفسه باطلا، لأنه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل لا ثواب له.

وقرئ: وبطل على الفعل. وعن عاصم: وباطلا بالنصب، وفيه وجهان: أن تكون ما إبهامية وينتصب بيعملون، ومعناه: وباطلا، أىّ باطل كانوا يعملون. وأن تكون بمعنى المصدر على:

وبطل بطلاناً ما كانوا يعملون.

[سورة هود (11): آية 17]

أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (17)

أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ معناه: أمّن كان يريد الحياة الدنيا فمن كان على بينة «2» أى لا يعقبونهم في المنزلة

---

(1). مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 537 فراجعه إن شئت. اه مصححه. [.....]

(2). قوله «فمن كان على بينة» عبارة النسفي: كمن كان يريد... الخ. (ع)

(93/376)

ولا يقاربونهم، يريد أنّ بين الفريقين تفاوتاً بعيداً وتبايناً بيناً، وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره، كان على بينة مِنْ رَبِّهِ أى على برهان من الله وبيان أنّ دين الإسلام حق وهو دليل العقل وَيَتْلُوهُ ويتبع ذلك البرهان شاهِدٌ مِنْهُ أى شاهد يشهد بصحته، وهو القرآن مِنْهُ من الله، أو شاهد من القرآن، فقد تقدّم ذكره آنفاً وَمِنْ قَبْلِهِ ومن قبل القرآن كِتابُ مُوسى وهو التوراة، أى: ويتلو ذلك البرهان أيضاً من قبل القرآن كتاب موسى. وقرئ: كتابَ موسى بالنصب، ومعناه: كان على بينة من ربه، وهو الدليل على أنّ القرآن حق، ويتلوه: ويقرأ القرآن شاهِدٌ مِنْهُ شاهد ممن كان على بينة، كقوله وَشَهِدَ

شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ، قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ، وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى ويتلو من قبل القرآن والتوراة إِماماً كتاباً مؤتما به في الدين قدوة فيه وَرَحْمَةً ونعمة عظيمة على المنزل إليهم أُولئِكَ يعنى من كان على بينة يُؤْمِنُونَ بِهِ يؤمنون بالقرآن وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ يعنى أهل مكة ومن ضامهم من المتحزّبين على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ وقرئ: مُرية، بالضم وهما الشك مِنْهُ من القرآن أو من الموعد.

[سورة هود (11) : الآيات 18 إلى 22]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (19) أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ (20) أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (21) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (22)

يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ يحبسون في الموقف وتعرض أعمالهم ويشهد عليهم الْأَشْهادُ من الملائكة والنبيين بأنهم الكذابون على الله بأنه اتخذ ولداً وشريكا، ويقال أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ

فوا خزياه ووا فضيحتاه. والأشهاد : جمع شاهد أو شهيد ، كأصحاب أو أشراف

وَيَبْغُونَها عِوَجاً يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة. أو يبغون أهلها أن يعوجوا

(94/376)

بالارتداد ، وهم الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ أى ما كانوا يعجزون اللّه في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم ، وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه ، ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم ، وهو من كلام الأشهاد يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ وقرئ : يضعف ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ أراد أنهم لفرط تصامّهم عن استماع الحق وكراهتهم له ، كأنهم لا يستطيعون السمع «1» ولعل بعض المجبرة «2» يتوثب إذا عثر عليه فيوعوع «3» به على أهل العدل ، كأنه لم يسمع الناس يقولون في كل لسان : هذا كلام لا أستطيع أن أسمعه ، وهذا مما يمجه سمعي. ويحتمل أن يريد بقوله وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ أنهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون اللّه ، وولايتها ليست بشيء ، فما كان لهم في الحقيقة من أولياء ، ثم بين نفى كونهم أولياء بقوله ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ فكيف يصلحون للولاية. وقوله يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ اعتراض بوعيد خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ

اشتروا عبادة الآلهة بعبادة اللّه، فكان خسرانهم في تجارتهم مالا خسران أعظم منه، وهو أنهم خسروا أنفسهم وَضَلَّ عَنْهُمْ

وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو ما كانُوا يَفْتَرُونَ

من الآلهة وشفاعتها لا جَرَمَ فسر في مكان آخر هُمُ الْأَخْسَرُونَ لا ترى أحداً أبين خسراناً منهم.

[سورة هود (11) : آية 23]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (23)

---

(1) . قال محمود: «أراد أنهم لفرط تصامهم عن استماع الحق وكراهتهم له كأنهم . . . الخ» قال أحمد: أهل الحق وإن نفوا تأثير استطاعة العبد وخلصوا الخلق لقدرة الخالق عز وجل، لا ينفون استطاعة العبد نفسها ولا ما يجده من نفسه من الفرق حالة الحركات القسرية والاختيارية، وإنما الذي ينفى الاستطاعة جملة هم المجبرة حقيقة لا أهل السنة. والحق مع الزمخشري في هذا الموضع إلا في غفلته حيث يقول: فيوعوع بها على أهل العدل، يعنى الآية المذكورة. وهذه سقطة عظيمة، وهب أن المجبر غلط في الاستدلال بالآية على معتقده، فكيف يستجيز أن يطلق على إيراده الآية وعوعة، وإنما تلا كتاب اللّه تعالى غير أن خطأه في تصحيح معتقده الباطل به. وما الزمخشري إلا يتسامح كثيراً فيما يجب من

الآداب للكتاب العزيز ، وإنما يليق التسامح إذا كان يفسر شعر امرئ القيس أو الحارث بن حلزة . وأما أدب القرآن فيضيق عن أسهل من ذلك ، واللّه الموفق .

(2) . قوله «ولعل بعض المجبرة» إن كان مراده بهم أهل السنة كعادته ، فهم لا يسلبون عن العبد الاستطاعة في الفعل ، بل يثبتون له الكسب والاستطاعة مع الفعل ، وإن كان مراده القائلين بالجبر المحض وأن العبد كالريشة المعلقة في الهواء فلا ضير . ونقل الخازن عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال : أخبر اللّه تعالى أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة . أما في الدنيا فانه قال : ما كانوا يستطيعون السمع ، وهو طاعته . وما كانوا يبصرون . وأما في الآخرة فانه قال لا يَسْتَطِيعُونَ خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ . (ع)

(3) . قوله «فيوعوع به» في الصحاح : الوعوعة صوت الذئب . (ع)

(95/376)

وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ واطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع من الخبت وهي الأرض المطمئنة . ومنه قولهم للشيء : الدنىء الخبيت . قال :

يَنْفَعُ الطَّيِّبُ الْقَلِيلُ مِنَ الرِّزْ قِ وَلَا يَنْفَعُ الْكَثِيرُ الْخَبِيتُ «1»

وقيل : التاء فيه بدل من الثاء .

[سورة هود (11) : آية 24]

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ (24)

شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع «2» وهو من اللف والطباق. وفيه معنيان: أن يشبه الفريق تشبيهين اثنين، كما شبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحشف والعناب، وأن يشبهه بالذي جمع بين العمى والصمم، أو الذي جمع بين البصر والسمع «3». على أن تكون الواو في وَالْأَصَمِّ وفي وَالسَّمِيعِ لعطف الصفة على الصفة، كقوله:

الصَّابِحِ فَالْغَانِمِ فَالْآيِبِ «4»

هَلْ يَسْتَوِيانِ يعنى الفريقين مَثَلًا تشبيها. انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 377. 387﴾

---

(1). مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص 543 فراجعه إن شئت اه مصححه.

(2). قال محمود: «شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع إلى قوله أن تكون الواو ... الخ» قال أحمد: بخلافها على الوجه الأول، فإنها لعطف الموصوف على الموصوف. وأما تنظيره الآية بتشبيه امرئ القيس في كونه شبه تشبيهين اثنين ففيه نظر. فان امرأ القيس شبه كل واحد من الرطب واليابس تشبيها واحداً، والآية على التفسير الأول شبهت كل واحد من الكافر والمؤمن تشبيهين، وإنما

ينظر ببيت امرئ القيس على الوجه الثاني ، فان مقتضاه أن كل واحد منهما شبه تشبيهاً واحداً ، ولكن في صفتين متعددتين ، والأمر في ذلك قريب ، واللّه أعلم .

(3) . قوله «أو الذي جمع بين البصر والسمع» لعله : والذي . (ع)

(4) . مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص 41 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(96/376)

وقال النسفى :

﴿ الرِكَتَابٌ ﴾

أي هذا كتاب فهو خبر مبتدأ محذوف ﴿ أُحكمت ءاياته ﴾ صفة له أي نظمت نظماً رصيناً محكماً لا يقع فيه نقص ولا خلل كالبناء المحكم ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ كما تفصل القلائد بالفرائد من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص أو جعلت فصولاً سورة سورة وآية وآية أو فرقت في التنزيل ولم تنزل جملة ، أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد أي بين ولخص .

وليس معنى " ثم " التراخي في الوقت ولكن في الحال ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ صفة أخرى ل ﴿ كتاب ﴾ أو خبر بعد خبر أو صلة ل ﴿ أحكمت ﴾ و ﴿ فصلت ﴾ أي

من عنده أحكامها وتفصيلها ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ ﴾ مفعول له أي لئلا تعبدوا أو "أن" مفسرة لأن في تفصيل الآيات معنى القول كأنه قيل قال : لا تعبدوا إلا الله أو أمركم أن لا تعبدوا إلا الله ﴿ إِنَّنِي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ أي من الله ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ أي أمركم بالتوحيد والاستغفار ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ أي استغفروه من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعًا حَسَنًا ﴾ يطوّل نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية من عيشة واسعة ونعمة متتابعة ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إلى أن يتوفاكم ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ ويعط في الآخرة كل من كان له فضل في العمل وزيادة فيه جزاء فضله لا يبخس منه شيئاً ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا ﴾ وإن تتولوا ﴿ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ هو يوم القيامة .

﴿ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ رجوعكم ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فكان قادراً على إعادتكم ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ يزورّون عن الحق وينحرفون عنه لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدره ومن أزورّ عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه ﴿ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ ليطلبوا الخفاء من الله فلا يطلع رسوله والمؤمنون على ازورارهم ﴿

أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ يتغطون بها أي يريدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم كراهة لاستماع كلام الله كقول نوح عليه السلام ﴿ جَعَلُوٓاْ أَصَابِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ ﴾ ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم فلا وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء والله مطلع على ثنيهم صدورهم واستغشائهم ثيابهم ونفاقهم غير نافق عنده قيل نزلت في المنافقين ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصدور ﴾ بما فيها .

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ تفضلاً لا وجوباً ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ مكانه من الأرض ومسكنه ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ حيث كان مودعاً قبل الاستقرار من صلب أو رحم أو بيضة ﴿ كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ كل واحد من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها في اللوح يعني ذكرها مكتوب فيه مبين ﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ السماوات والأرض ﴾ وما بينهما ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ من الأحد إلى الجمعة تعليماً للتأني ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء ﴾ أي فوقه يعني ما كان تحته خلق قبل خلق السماوات والأرض إلا الماء ، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل خلق السماوات والأرض .

قيل بدأه بخلق يا قوتة خضراء فنظر إليها بالهيبة فصارت ماء ثم خلق ريحاً فأقر الماء على متنه ثم وضع عرشه على الماء وفي وقوف العرش على الماء أعظم اعتبار لأهل الأفكار ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ أي خلق السماوات والأرض وما بينهما للمتحن فيهما ولم يخلق هذه الأشياء لأنفسها ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ أكثر شكراً وعنه عليه السلام " أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله فمن شكر وأطاع أثابه ومن كفر وعصى عاقبه " ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال : ﴿ ليبلوكم ﴾ أي ليفعل بكم ما يفعل المبتلي لأحوالكم كيف تعملون ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الموت لَيَقُولَنَّ الذين كَفَرُواْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أشار بهذا إلى القرآن لأن القرآن هو الناطق بالبعث فإذا جعلوا سحراً فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره ﴿ ساحر ﴾ حمزة وعلي يريدون الرسول والساحر كاذب مبطل ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب ﴾ عذاب الآخرة أو عذاب يوم بدر ﴿ إلى أُمَّةٍ ﴾ إلى جماعة من الأوقات ﴿ مَّعْدُودَةٍ ﴾ معلومة أو قلائل والمعنى إلى حين معلوم ﴿ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ ما يمنعه من النزول استعجالاً له على وجه التكذيب والاستهزاء ﴿ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ العذاب ﴿ لَّيْسَ ﴾ العذاب ﴿ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ ﴾ ويوم منصوب ب ﴿ مصروفاً ﴾ أي ليس العذاب مصروفاً عنهم يوم يأتيهم ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ وأحاط بهم ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ العذاب الذي كانوا به يستعجلون وإنما وضع

يستهزئون موضع يستعجلون لأن استعجالهم كان على وجه الاستهزاء .

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان ﴾ هو للجنس ﴿ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ نعمة من صحة وأمن وجدة .

(99/376)

واللام في ﴿ لئن ﴾ لتوطئة القسم ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ﴾ ثم سلبناه تلك النعمة وجواب القسم ﴿ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ ﴾ شديد اليأس من أن يعود إلى مثل تلك النعمة المسلوبة قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر ولا تسليم لقضائه ﴿ كَفُورٌ ﴾ عظيم الكفران لما سلف له من التقلب في نعمة الله نسّاء له ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ وسعنا عليه النعمة بعد الفقر الذي ناله ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السيئات عَنِّي ﴾ أي المصائب التي ساءتني ﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ ﴾ أشر بطر ﴿ فَخُورٌ ﴾ على الناس بما أذاقه الله من نعمائه قد شغله الفرح والفخر عن الشكر ﴿ إِلاَّ الذين صَبَرُواْ ﴾ في المحنة والبلاء ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ وشكروا في النعمة والرخاء ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ يعني الجنة كانوا يقترحون عليه آيات تعنتاً لا استرشاداً لأنهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة مما جاء به كافية في رشادهم .

(100/376)

ومن اقتراحاتهم ﴿ لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ﴾ [الفرقان : 7] وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به فكان يضيق صدر رسول صلى الله عليه وسلم أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه فهيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة بردهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ ﴾ أي لعلك تترك أن تلقيه إليهم وتبلغه إياهم مخافة ردهم له وتهاونهم به ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ بأن تتلوه عليهم ولم يقل ضيق ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت لأنه عليه السلام كان أفسح الناس صدراً ولأنه أشكل ب ﴿ تارك ﴾ ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ مخافة أن يقولوا ﴿ لَوْلاَ أُنُزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ هلا أنزل عليه ما اقترحنا من الكنز لننفقه والملائكة لنصدقه ولم أنزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ أي ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحي إليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه ، ولا عليك أن ردوا أو تهاونوا ﴿ والله على كُلِّ شَىْء وَكِيلٌ ﴾ يحفظ ما يقولون وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل ، فتوكل عليه وكل أمرك إليه وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح وصدر منشرح غير ملتفت إلى استكبارهم ولا مبال بسفههم واستهزائهم .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ "أم" منقطعة ﴿ افتراه ﴾ الضمير لما يوحى إليك ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ ﴾ تحداهم أولا بعشر سور ثم بسورة واحدة كما يقول المخابر في الخط لصاحبه : اكتب

عشر أسطر نحو ما أكتب فإذا تبين له العجز عن ذلك قال : اقتصرت منك على سطر واحد ﴿ مِّثْلِهِ ﴾ في الحسن والجزالة .

ومعنى ﴿ مثله ﴾ أمثاله ذهاباً إلى مماثلة كل واحدة منها له ﴿ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ صفة ل ﴿ عشر سور ﴾ .

(101/376)

لما قالوا افتريت القرآن واختلقته من عندك وليس من عند الله ، أرضى معهم العنان وقال : هبوا أني اختلقته من عند نفسي فأتوا أنتم أيضاً بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم فأنتم عرب فصحاء مثلي ﴿ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله ﴾ إلى المعاونة على المعارضة ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أنه مفترى ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فاعلموا أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ الله وَأَن لاَّ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ أي أنزل ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله من نظم معجز للخلق وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه واعلموا عند ذلك أن لا إله إلا الله وحده وأن توحيده واجب والإشراك به ظلم عظيم ، وإنما جمع الخطاب بعد إفراده وهو قوله ﴿ لكم فاعلموا ﴾ بعد قوله ﴿ قل ﴾ لأن الجمع لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا يحدثونهم أو لأن الخطاب للمشركين .

والضمير في ﴿ فإن لم يستجيبوا ﴾ لمن استطعتم أي فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله إلى المظاهرة على المعارضة لعلمهم بالعجز عنه فاعلموا أنما أنزل بعلم الله أي بإذنه أو بأمره ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ متبعون للإسلام بعد هذه الحجة القاطعة .

ومن جعل الخطاب للمسلمين فمعناه فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه وازدادوا يقيناً على أنه منزل من عند الله وعلى التوحيد فهل أنتم مسلمون مخلصون .

(102/376)

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ﴾ نوصل إليهم أجور أعمالهم وافيه كاملة من غير بخس في الدنيا ، وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق ، وهم الكفار أو المنافقون ﴿ أُوْلَئِكَ الذين لَيْسَ لَهُمْ فِى الأخرة إِلاَّ النار وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا ﴾ وحبط في الآخرة ما صنعوه أو صنيعهم أي لم يكن لهم ثواب لأنهم لم يزيدوا به الآخرة إنما أرادوا به الدنيا وقد وفى إليهم ما أرادوا ﴿ وباطل مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي كان عملهم في نفسه باطلاً لأنه لم يعمل لغرض صحيح والعمل الباطل لا ثواب له ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيّنَةٍ مّن رَّبّهِ ﴾ أمن كان يريد الحياة الدنيا كما كان على بينة من ربه أي لا يعقبونهم في المنزلة ولا يقاربونهم يعني أن بين الفريقين تبايناً بيناً وأراد بهم من آمن من

اليهود كعبد الله بن سلام وغيره كان على بينة من ربه أي على برهان من الله وبيان أن دين الإسلام وهو دليل العقل ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ ويتبع ذلك البرهان ﴿ شَاهِدٌ ﴾ يشهد بصحته وهو القرآن ﴿ مِنْهُ ﴾ من الله أو من القرآن فقد مر ذكره آنفاً ﴿ وَمِن قَبْلِهِ ﴾ ومن قبل القرآن ﴿ كِتَابُ موسى ﴾ وهو التوراة أي ويتلو ذلك البرهان أيضاً من قبل القرآن كتاب موسى عليه السلام ﴿ إِمَاماً ﴾ كتاباً مؤتماً به في الدين قدوة فيه ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ ونعمة عظيمة على المنزل إليهم وهما حالان ﴿ أولئك ﴾ أي من كان على بينة ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ بالقرآن ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ﴾ بالقرآن ﴿ مِّنَ الأحزاب ﴾ يعني أهل مكة ومن ضامهم من المتحزبين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فالنار مَوْعِدُهُ ﴾ مصيره ومورده ﴿ فَلاَ تَكُ فِى مِرْيَةٍ ﴾ شك ﴿ مِنْهُ ﴾ من القرآن أو من الموعد ﴿ إِنَّهُ الحق مِن رَّبّكَ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا

(103/376)

أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ على رَبّهِمْ ﴾ يحبسون في الموقف وتعرض أعمالهم ﴿ وَيَقُولُ الأشهاد هَؤُلاء الذين كَذَبُواْ على رَبّهِمْ ﴾ ويشهد عليهم الأشهاد من الملائكة والنبيين بأنهم الكذابون على الله بأنه اتخذ ولداً وشريكاً ﴿ أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ الكاذبين على

ربهم والأشهاد جمع شاهد كأصحاب وصاحب أو شهيد كشريف وأشراف ﴿ الذين يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ يصرفون الناس عن دينه ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد ﴿ وَهُمْ بالأخرة هُمْ كافرون ﴾ "هم" الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ ﴾ أي ما كانوا ﴿ مُعْجِزِينَ فِى الأرض ﴾ بمعجزين الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم وهو من كلام الأشهاد ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب ﴾ لأنهم أضلوا الناس عن دين الله يضعّف مكي وشامي ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع ﴾ أي استماع الحق ﴿ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ الحق ﴿ أُوْلَئِكَ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ حيث اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ من الآلهة وشفاعتها .

﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الأخرة هُمُ الأخسرون ﴾ بالصد والصدود وفي لا جرم أقوال أحدها أن لا رد لكلام سابق أي ليس الأمر كما زعموا ومعنى ﴿ جرم ﴾ كسب وفاعله مضمر و ﴿ أنهم في الآخرة ﴾ في محل النصب والتقدير كسب قولهم خسرانهم في الآخرة وثانيها أن ﴿ لا جرم ﴾ كلمتان ركبتا فصار معناهما حقاً و"أن" في موضع رفع بأنه فاعل لحق أي حق خسرانهم ، وثالثها أن معناه لا محالة .

(104/376)

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَأَخْبَتُواْ إلى رَبّهِمْ ﴾ واطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع من الخبت وهي الأرض المطمئنة ﴿ أُوْلَئِكَ أصحاب الجنة هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ ﴿ مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ﴾ شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم وفريق المؤمنين بالبصير والسميع ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ يعني الفريقين ﴿ مَثَلاً ﴾ تشبيها وهو نصب على التمييز ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ فتنتفعون بضرب المثل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 179. 184 ﴾

(105/376)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آَيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (24)

﴿

التفسير: ﴿ آلر ﴾ إن كان اسماً للسورة فما بعده خبره، وإن كان وارداً على سبيل التعديد أو كان معناه أنا الله أرى فقوله: ﴿ كتاب ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا الكتاب. والإشارة إما إلى هذا البعض وإما إلى مجموع القرآن. ومعنى ﴿ أحكمت ﴾ نظمت نظماً رصيناً من غير نقض ونقص، أو جعلت حكيمة من حكم بالضم إذا صار حكيماً. أو منعت من الفساد والبطلان من قوله: أحكمت الدابة وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح. أي لم ينسخ بكتاب سواه كما نسخ سائر الكتب وذلك لاشتماله على العلوم النظرية والعلمية والظاهرية والباطنية وعلى أصول جميع الشرائع، فلا محالة لا يتطرق إليه تبديل وتغيير. ﴿ ثم فصلت ﴾ كما تفصل القلائد بالفرائد من دلائل التوحيد والنبوة والأحكام والمواعظ والقصص، لكل معنى من هذه المعاني من هذه المعاني فصل انفرد به. أو جعلت فصولاً سورة سورة وآية وآية، أو فرقت في التنزيل ولم تنزل جملة واحدة، أو فصل فيها تكاليف العباد وبين ما يحتاجون إليه في إصلاح المعاش والمعاد.

ومعنى " ثم " التراخي في الحال كقولك : فلان كريم الأصل ثم كريم الفعل . و ﴿ أحكمت ﴾ صفة كتاب . و ﴿ من لدن ﴾ صفة ثانية أو خبر بعد خبر أو صلة لأحكمت وفصلت أي من عنده إحكامها وتفصيلها . وفي قوله : ﴿ حكيم خبير ﴾ لف ونشر لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها خبير عالم بمواقع الأمور . احتج الجبائي بقوله : ﴿ أحكمت ثم فصلت ﴾ على كون القرآن محدثاً لأن الإحكام والتفصيل يكون بجعل جاعل ، وكذا بقوله : ﴿ من لدن ﴾ لأن القديم لا يصدر من القديم . وأجيب بأنه لا نزاع في حدوث الأصوات والحروف وإنما النزاع في الكلام النفسي . وقوله : ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ مفعول له أي لأجل ذلك أو يكون " أن " مفسرة لأن في تفصيل الآيات معنى القول كأنه قيل : ثم قيل للنبي صلى الله عليه وسلم قل لهم لا تعبدوا . وجوز في الكشاف أن يكون كلاماً مبتدأ منقطعاً عما قبله محكياً على لسان النبي صلى الله عليه وسلم يغري أمته على اختصاص الله بالعبادة كأنه قال : ترك عبادة غير الله مثل ﴿ فضرب الرقاب ﴾ [محمد : 4] والضمير في ﴿ منه ﴾ لله عز وجل حالاً من ﴿ نذير وبشير ﴾ أي إنني لكم نذير من جهته إن لم تخصوه بالتعبد ، وبشير إن خصصتموه بذلك . ويجوز أن يكون ﴿ منه ﴾ صلة لنذير أي أنذركم منه ومن عذابه ، ويكون صلة بشير محذوفاً أي أبشركم بثوابه . ثم عطف على قوله : ﴿ أن لا تعبدوا ﴾ قوله : ﴿ وأن استغفروا ﴾ أي اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم . ن ثم بين الشيء الذي به يطلب ذلك وهو التوبة فقال : ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ فالتوبة

مطلوبة لكونها من متممات الاستغفار ، وما كان آخراً في الحصول كان أولاً في الطلب ، فلهذا قدم الاستغفار على التوبة . وقيل استغفروا أي توبوا ثم قال : ﴿ توبوا ﴾ أي أخلصوا التوبة واستقيموا عليها . وقيل : استغفرا من سالف الذنوب ثم توبوا من أنف الذنوب . وقيل : استغفروا من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة . وقيل : الاستغفار أن يطلب من الله الإعانة في إزالة ما لا ينبغي ،

والتوبة سعي الإنسان في الطاعة والاستعانة بفضل الله مقدم على الاستعانة بسعي النفس . ثم رتب على الامتثال أمرين : الأول التمتع بالمنافع الدنيوية إلى حين الوفاة كقوله ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ [النحل : 97] . سؤال : كيف الجميع بين هذا وبين قوله تعالى : ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ﴾ ﴿ الزخرف : 33] وقول النبي صلى الله عليه وسلم : " الدنيا سجن المؤمن " " البلاء موكل بالأنبياء ثم بالأولياء " ؟ وأجيب بأن المراد أن لا يهلكهم بعذاب الاستئصال أو يرزقهم كيف كان . والجواب الثاني أن الإنسان إذا كان مشغولاً بطاعة الله مستغرقاً في نور معرفته وعبادته كان مبتهجاً في نفسه مسروراً في ذاته ، هيناً عليه ما فاته من اللذات العاجلة ، قانعاً بما يصيبه من الخيرات الزائلة .

الثاني قوله : ﴿ ويؤت ﴾ أي في الآخرة ﴿ كل ذي فضل فضله ﴾ أي موجب فضل ذلك الشخص ومقتضاه يعني الجزاء المرتب على عمله بحسب تزايد الطاعات . وتسمية العمل الحسن فضلاً تشريف ويجوز أن يعود الضمير في ﴿ فضله ﴾ إلى الله تعالى . وفيه تنبيه على أن الدرجات في الجنة تتفاضل بحسب تزايد الطاعات . ثم أوعد على مخالفة الأمر فقال : ﴿ وإن تولوا ﴾ أي تتولوا فحذفت إحدى التاءين والمعنى إن تعرضوا عن الإخلاص في العبادة وعن الاستغفار والتوبة ﴿ فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴾ هو يوم القيامة الموصوف بالعظم والثقل أيضاً ﴿ ويذورن وراءهم يوماً ثقيلاً ﴾ [الدهر : 27] . ثم بين كبر عذاب ذلك اليوم بقوله : ﴿ إلى الله مرجعكم ﴾ أي لا حكم في ذلك اليوم إلا لله ولا رجوع إلا إلى جزائه ، وهو مع ذلك كامل القدرة نافذ الحكم فما ظنكم بعذاب يكون المعذب به مثله . وفيه من التهديد ما فيه ولكن الآية تتضمن البشارة من وجه آخر . وذلك أن الحاكم الموصوف بمثل هذه العظمة والقدرة الاستقلال في الحكم إذا رأى عاجزاً مشرفاً على الهلاك فإنه يرحم عليه ولا يقيم لعذابه وزناً . اللهم لا تخيب رجاءنا فإنك واسع المغفرة . ثم ذكر أن التولي عن الأوامر المذكورة باطناً كالتولي عنها ظاهراً فقال :

﴿ ألا إنهم يثنون ﴾ يقال ثنى صدره عن الشيء إذا ازورّ عنه وانحرف وطوى عنه كشحاً .

(109/376)

قال المفسرون : وههنا إضمار أي يثنون صدورهم ويريدون ﴿ ليستخفوا منه ﴾ أي من الله . ثم كرر كلمة ﴿ ألا ﴾ تنبيهاً على وقت استخفائهم وهو ﴿ حين يستغشون ثيابهم ﴾ أي يريدون الاستخفاء في وقت استغشاء الثياب . قال الكلبي : ثني صدورهم كناية عن نفاقهم لما روي أن طائفة من المشركين منهم الأخنس بن شريق قالوا : إذا أغلقنا أبوابنا وأبوابنا وأرخينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد فكيف يعلم بنا . وعلى هذا لا حاجة إلى الإضمار . وقيل : إنه حقيقة ، وذلك أن بعض الكفار كان إذا مر به رسول الله عليه وسلم ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه لئلا يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يتلو من القرآن ، وليقول في نفسه ما يشتهي من الطعن . ثم استأنف قوله : ﴿ يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ تنبيهاً على أنه لا فائدة لهم في الاستخفاء لأنه تعالى عالم بالسرائر كما أنه عالم بالظواهر . ثم أكد كونه عالماً بكل المعلومات بكونه كافلاً لأرزاق جميع الحيوانات ضامناً لمصالحها ومهامها فضلاً وامتناناً وكرماً

وإحساناً فقال : ﴿ وما من دابة ﴾ الآية . والمستقر مكانها من الأرض ، والمستودع ما قبل ذلك من الأمكنة من صلب أو رحم أو بيضة . وقال الفراء : مستقرها حيث تأوي إليه ليلاً أو نهاراً ، ومستودعها موضعها الذي تموت فيه . وقد مر تمام الأقوال في سورة الأنعام .

(110/376)

واستدل الأشاعرة بالآية على أن الحرام رزق لأنها تدل على أن إيصال الرزق إلى كل حيوان واجب على الله بحسب الوعد عندنا أو بحسب الاستحقاق عند المعتزلة شبه النذر . ثم إنا نرى إنساناً لا يأكل من الحال طول عمره وقد سماه الله تعالى رزقاً . ثم ختم الآية بقوله : ﴿ كل في كتاب مبين ﴾ أي كل واحد من الدواب . ورزقها ومستقرها ومستودعها ثابت في علم الله أو في اللوح المحفوظ . وقد ذكرنا فائدته في قوله : ﴿ ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ [الأنعام : 59] يروى أن موسى عليه السلام عند نزول الوحي عليه تعلق قلبه بأهله فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه صخرة فانشقت فخرجت منها صخرة ثانية ، ثم ضرب فانشقت فخرجت ثالثة ، ثم ضربها فخرجت دودة كالذرة وفي فمها شيء يجري مجرى الغذاء لها ، فسمع الدودة تقول : سبحان من يراني ويسمع كلامي ويعرف مكاني ويذكرني ولا ينساني . ثم أكد دلائل قدرته بقوله : ﴿ وهو الذي خلق السموات

والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ﴾ قال كعب الأحبار : خلق الله ياقوته خضراء ، ثم نظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ، ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ووضع العرض على الماء ، وقال أبو بكر الأصم : هذا كقولك : لا سماء إلا على الأرض وليس ذلك على سبيل كون أحدهما ملصقاً بالآخر . وعلى هذا فيكون الآن أيضاً عرشاً على الماء . وقال في الكشاف : المراد أنه ما كان تحت العرش خلق سوى الماء ، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض ، وعلى أن الملائكة خلقت قبل العرش والماء ليعتبرا بهما وإلا لزم أن يكون خلقهما قبل أن يعتبر بهما عبثاً إذ لا يتصور عود نفعهما إليه تعالى . وقال أبو مسلم : العرش البناء أي الماء بناؤه للسموات كان على الماء .

وقال حكماء الإسلام : المراد بالماء تحركه شبه سيلان الماء أي وكان عرشه يتحرك .

وبالجملة مقصود الآية بيان كمال قدرته في إمساك الجرم العظيم على الصغير . أما قوله : ﴿

(111/376)

ليبلوكم ﴾ فالمعتزلة قالوا : اللام للتعليل ، وذلك أنه خلق هذا العالم الكبير لأجل مصالح المكلفين وأن يعاملهم معاملة المختبر المبتلى لأحوالهم كيف يعملون فيجازي كل فريق بما يستحقه . والأشاعرة قالوا : إن أحكامه غير معللة بالمصالح ومعناه أنه فعل فعلاً لو كان

يفعله من يجوز عليه رعاية المصالح لما فعله إلا لهذا الغرض . وإنما علق فعل البلوى لما في الاختبار من معنى العلم لأنه طريق إلى العلم فهو ملابس له كالنظر والاستماع في قولك : انظر أيهم أحسن وجهاً واسمع أيهم أحسن كلاماً . قال في الكشاف : الذين هم أحسن عملاً هم المتقون . وإنما خصهم بالذكر وطرح ذكر من وراءهم من الفساق والكفار تشريفاً لهم .

قلت ويجوز أن يقال إن أحسن بمعنى حسن ليشمل الخطاب جميع المكلفين .

(112/376)

ثم لما كان الابتلاء يتضمن حديث البعث أتبع ذلك قوله : ﴿ ولئن قلت ﴾ الآية .

والإشارة في قوله : ﴿ إن هذا إلا سحر ﴾ إلى البعث أي هو باطل كبطلان السحر أو إلى القرآن لأنه الناطق بالبعث ، فإذا جعلوه سحراً فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من العبث .

وقال القفال : معناه أن هذا القول خديعة منكم وضعتموها لمنع الناس عن لذات الدنيا واجتذابهم إلى الانقياد لكم الدخول تحت طاعتكم . ومن قرأ ﴿ ساحر ﴾ فالإشارة إلى النبي صلى الله عليه وسلم : ثم بين أنه متى تأخر عنهم العذاب الذي توعدهم الرسول به أخذوا في الاستهزاء وقالوا ما الذي حبسه عنا فقال : ﴿ ولئن أخرنا عنهم ﴾ الآية :

والأمة اشتقاقها من الأم وهو القصد والمراد بها الوقت المقصود لإيقاع الموعود . وقيل : هي

في الأصل الجماعة من الناس وقد يسمى الحين باسم ما يحصل فيه كقولك : كنت عند فلان صلاة العصر أي في ذلك الحين . فالمراد إلى حين ينقضي أمة معدودة من الناس . وقال في الكشاف . أي جماعة من الأوقات . والعذاب عذاب الآخرة . وقيل : عذاب يوم بدر . عن ابن عباس : قتل جبريل المستهزئين . ومعنى ﴿ ما يحبسه ﴾ أيّ شيء يمنعه من النزول استعجالاً له على جهة الاستهزاء والتكذيب فأجابهم الله بقوله : ﴿ أَلا يوم يأتيهم ﴾ وهو متعلق بخبر ليس أي ليس العذاب مصروفاً عنهم يوم يأتيهم . واستدل به من جوز تقديم خبر ليس على ليس لأنه إذا جاز تقديم معمول الخبر عليها فتقديم الخبر عليها أولى وإلا لزم للتابع مزية على المتبوع . ثم قال : ﴿ وحاق بهم ﴾ أي أحاط بهم ﴿ ما كانوا به يستهزؤون ﴾ أراد يستعجلون ولكنه وضع ﴿ يستهزؤون ﴾ موضعه لأن استعجالهم للعذاب كان على وجه الاستهزاء . وإنما قال : ﴿ وحاق ﴾ بلفظ الماضي لأنه جعله كالواقع . ثم حكى ضعف حال الإنسان في حالتي السراء والضراء فقال : ﴿ ولئن أذقنا الإنسان ﴾ الآية . واختلف المفسرون فقيل : الإنسان مطلق بدليل صحة الاستثناء في قوله : ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ ولأن هذا النوع

مجبول على الضعف والنقص والعجلة وقلة الثبات . وقيل : المراد الكافر ، والاستثناء منقطع واللام للعهد . وقد مر ذكر الكافر ، ، ولأن وصف اليأس والكفران والفرح المفرط بالأمور الزائلة والفخر بها لا يليق إلا بالكافر ، وذلك أنه يعتقد أن السبب في حصول تلك النعم من الأمور الاتفاقية ، فإذا زالت استبعد حدوثها مرة أخرى فيقع في اليأس الشديد ، وعند حصولها كان ينسبها إلى الاتفاق فلا يشكر الله بل يكفره ، وإذا انتقل من مكروه إلى محبوب ومن محنة إلى محنة اشتد فرحه بذلك وافتخر بها لذهوله عن السعادات الأخروية الروحانية فيظن أنه قد فاز بغاية الأماني ونهاية المقاصد . وأما المؤمن فحاله على العكس ولذلك استحق وعد الله بالمغفرة والأجر الكبير . أما تفسير الألفاظ فالإذاقة والذوق أقل ما يوجد به الطعم ، وفيه دليل على أن الإنسان لا يصبر عن أقل القليل ولا عليه ، وفيه أن جميع نعم الدنيا في قلة الاعتبار وسرعة الزوال تشبه حلم النائمين وخيالات المبرسمين .

والرحمة والنعمة من صحة أو أمن أو جدة ، ونزعها سلبها . واليؤوس والكفور بناءان للمبالغة ، والنعماء إنعام يظهر أثره على صاحبه ، والضراء مضرة كذلك . قال الواحدي لأنها أخرجت مخرج الأحوال الظاهرة نحو حوراء وعوراء . والسيئات يريد بها المصائب

التي ساءته . ثم سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ فلعلك تارك ﴾ قال ابن عباس : إن رؤساء مكة قالوا : إن كنت رسولاً فاجعل لنا جبال مكة ذهباً أو ائتنا بالملائكة ليشهدوا لك فخاطب الله سبحانه نبيه بقوله : ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ﴾ واختلفوا في ذلك البعض فعن ابن عباس أن المشركين قالوا له : ائتنا بكتاب ليس فيه شتم آلهتنا حتى نتبعك ونؤمن بكتابك . وقال الحسن : طلبوا منه صلى الله عليه وسلم أن يترك قوله : ﴿ إن الساعة آتية ﴾ [طه : 15] وأجمع المسلمون على أنه لا يجوز على الرسول أن يترك بعض ما أوحى الله إليه لأنه ينافي المقصود من الرسالة المعتبر فيها الأمانة ، فأوّلوا الآية بأن أمثال هذه التهديدات لعلها سبب بعدم التقصير في أداء الوحي فلهذا خوطب بها ، أو لعله صلى الله عليه وسلم بين محذورين : أحدهما ترك أداء شيء من الوحي ، وثانيهما أنهم كانوا يتلقون الوحي بالطعن والاستهزاء ، فنبه بالآية على أن تحمل الضرر الثاني أهون وإذا وقع الإنسان بين مكروهين وجب أن يختار أسهلهما ، والعربي يقول لغيره إذا أراد أن يزجره : لعلك تفعل كذا أي لا تفعل . وإنما قال : ﴿ وضائق ﴾ ولم يقل وضيق ﴿ به صدرك ﴾ دلالة على أنه ضيق حادث لأنه صلى الله عليه وسلم كان أفسح الناس صدراً . ومعنى ﴿ أن يقولوا ﴾ مخافة أن يقولوا : ﴿ لولا أنزل ﴾ أي هلا أنزل عليه ما اقترحنا نحن من الكنز والملائكة ولم أنزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه . ثم بين أن حاله

مقصور على النذارة لا يتخطاها الى إنزال المقترحات ، والذي أرسله هو القادر على ذلك حفيظ عليه وعلى كل شيء ، ومن كمال قدرته إنزال القرآن المعجز لدهماء المصاقع

(115/376)

وأشار إلى ذلك بقوله : ﴿ أم يقولون ﴾ الآية . وقد مر مثله في سورة يونس . عن ابن عباس : السور العشر هي من أول القرآن إلى ههنا . واعترض عليه بأن هذه السورة مكية وبعض السورة المتقدمة عليها مدنية ، فكيف يمكن أن يشار إلى ما ليس بمنزل بعد . فالأولى أن يقال : إن التحدي وقع بمطلق السور التي تظهر فيها قوة ترتيب الكلام وتأليفه . تحداهم أوّلاً بمجموع القرآن في قوله : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ [الإسراء : 88] الآية . وبعشر سور في هذه الآية وذلك أن العشرة أول عقد من العقود ، ثم بسورة في يونس وفي البقرة ، وهذا كما يقول الرجل لصاحبه : اكتب كمثل ما أكتب فإذا عجز قال : اكتب عشرة أسطر مثل ما أكتب ، فإذا ظهر عجزه عنه قال في آخر الأمر : قد اقتصرت منك على سطر واحد مثله ، ثم إذا أراد غاية المبالغة قال : قد جوزت لك أن تستعين بكل من تريد فإذا ظهر عجزه حال الانفراد وحال الاجتماع والتعاون تبين عجزه عن المعارضة على الإطلاق ولهذا قال : ﴿ فإن لم يستجيبوا ﴾ إلى

معارضة القرآن أو إلى الإيمان ﴿ لكم ﴾ أي لك وللمؤمنين لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا يتحدّونهم ، أو الجمع لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ﴾ أي ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله من النظم المعجز والاشتمال على العلوم الجمة الظاهرة الغائبة .

ومعنى الأمر راجع إلى الثبات أي اثبتوا على ما أنتم عليه من العلم واليقين بشأن القرآن ودوموا على التوحيد الذي استفدتم من القرآن أو دلكم على ذلك عجز آلهتهم عن المعارضة والإعانة . ثم ختم الآية بقوله : ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ وفيه نوع من التهديد كأنه قيل للمسلمين إذا تبينتم صدق قول محمد صلى الله عليه وسلم وازددتم بصيرة وطمأنينة وجب عليكم الزيادة في الإخلاص والطاعة . وتفسير آخر وهو أن يكون الضمير في ﴿ لم يستجيبوا ﴾ لمن في ﴿ من استطعتم ﴾ والخطاب في ﴿ لكم ﴾ للمشركين ، وكذا في قوله : ﴿ فاعلموا ﴾ وفي ﴿ أنتم ﴾ والمعنى فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المظاهرة لعلمهم بالعجز عنه فاعلموا أنه منزل من عند الله وأن توحيده واجب . ثم رغبهم في أصل الإسلام وهددهم على تركه بقوله : ﴿ فهل أنتم ﴾ بعد لزوم الحجة ﴿ مسلمون

﴿ ثم أوعد من كانت همته مقصورة على زينة الحياة الدنيا وكان مائلاً عن الدين جهلاً أو عناداً فقال : ﴿ من كان يريد ﴾ الآية . عن أنس أنهم اليهود والنصارى . وقيل : المنافقون كانوا يطلبون بغزوهم مع الرسول الغنائم فكان صلى الله عليه وسلم يسهم لهم فيها . وقال الأصم : هم منكرو البعث . وقال آخرون : هي عامة في الكافر والمسلم المرائي . وقال القاضي : المراد من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم ، نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا وهو ما ينالون من الصحة والكفاف وسائر اللذات المنافع . عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان يوم القيامة يدعى برجل جامع للقرآن فيقال له : ما عملت فيه ؟ فيقول : يا رب قمت فيه آناء الليل والنهار . فيقول الله : كذبت أردت أن يقال فلان قارىء . وقد قيل ذلك ويؤتى بصاحب المال فيقول الله ألم أوسع عليك فماذا عملت فيه ؟ فيقول : وصلت الرحم وتصدقت فيقول الله : كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد وقد قيل ذلك . ثم يؤتى بمن قتل في سبيل الله

فيقول : قاتلت في الجهاد حتى قتلت فيقول الله تعالى : كذبت بل أردت أن يقال فلان جريء . قال أبو هريرة : ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ركبتي وقال : يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق تسعر بهم النار يوم القيامة "

(118/376)

وروي أن أبا هريرة ذكر هذا الحديث عند معاوية فبكى معاوية حتى ظننا أنه هالك ثم أفاق فقال : صدق الله ورسوله : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ﴾ الآيتان . ثم بين أن بين طالب الدنيا وحدها وبين طالب السعادات الباقية تفاوتاً بيناً فقال : ﴿ أفمن كان ﴾ والمعنى أمن كان يريد الحياة الدنيا كما كان على بينة أي لا يعقبونهم في المنزلة عند الله ولا يقاربونهم ؟ نظيره إذا أتاك العلماء والجهال فاستأذن الجهال للدخول قبل العلماء فتقول : الجهال ثم العلماء كلا وحاشا تريد أن العلماء ينبغي أن يدخلوا أولاً ثم الجهال . ويمكن أن يقال : التقدير أفمن كان ﴿ على بينة من ربه ﴾ كمن يريد الحياة الدنيا فحذف الخبر للعلم به ومثله ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ [فاطر : 35] ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ﴾ [الزمر : 9] واعلم أن أول هذه الآية يشتمل على ألفاظ أربعة مجملة : الأول أن هذا الذي وصفه الله بأنه على بينة من هو ؟ الثاني ما المراد بالبينة ؟

الثالث ما معنى يتلوه أهو من التلاوة أم من التلو؟ الرابع الشاهد من هو؟ وللمفسرين فيها أقوال: أصحها أن معنى البينة البرهان العقلي الدال على صحة الدين الحق، والذي هو على البينة مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه، ومعنى يتلوه يعقبه وتذكير الضمير العائد إلى البينة. بتأويل البيان والبرهان، والمراد بالشاهد القرآن ومنه أي من الله أو من القرآن المتقدم ذكره في قوله: ﴿ أم يقولون افتراه ﴾، ﴿ ومن قبله كتاب موسى ﴾ أي ويتلو ذلك البرهان من قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة حال كونها ﴿ إماماً ﴾ أو أعني إماماً كتاباً مؤتماً به في الدين قدوة فيه ﴿ ورحمة ﴾ ونعمة عظيمة على المنزل إليهم. والحاصل أن المعارف اليقينية المكتسبة إما أن يكون طريق اكتسابها بالحجة والبرهان، وإما أن يكون بالوحي والإلهام، وإذا اجتمع على بعض المطالب هذان الأمران واعتضد كل واحد منهما

بالآخر كان المطلوب أوثق. ثم إذا توافقت كلمة الأنبياء على صحته بلغ المطلوب غاية القوة والوثوق، ثم إنه حصل على تقرير صحة هذا الدين هذه الأمور الثلاثة جميعاً: البينة. وهي الدلائل العقلية اليقينية، والشاهد وهو القرآن المستفاد من الوحي، وكتاب موسى

المشتمل على الشرائع المتقدمة عليه الصالح لاقتداء الخلف به ، وعند اجتماع هذه الأمور لم يبق لطالب الحق المنصف في صحة هذا الدين شك وارتياب .

(120/376)

وقيل : أفمن كان محمد صلى الله عليه وسلم ، والبينة القرآن ، ويتلوه يقرؤه شاهد هو جبرائيل نزل بأمر الله وقرأ القرآن على محمد أو شاهد من محمد هو لسانه ، أو شاهد هو بعض محمد يعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أو يتلوه أي يعقب ذلك البرهان شاهد من النبي صلى الله عليه وسلم هو صورته ومخايله ، فإن من نظر إليه بعقله تفرس أنه ليس بمجنون ولا وجهه وجه كذاب ولا كاهن . وقيل : الكائن على البينة هم المؤمنون ، والبينة القرآن ، ويتلوه يعقب القرآن شاهد من الله هو محمد صلى الله عليه وسلم أو الإنجيل لأنه يعقبه في التصديق والدلالة على المطلوب وإن كان موجداً قبله ، أو ذلك الشاهد كونه القرآن واقعاً على وجه يعرف المتأمل فيه إعجازه لاشتماله على فنون الفصاحة وصنوف البلاغة إلى غير ذلك من المزايا التي قلما يخبر عنها إلا الذوق السليم : ثم مدح الكائن على البينة بقوله : ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ أي بالقرآن . ثم أوعد غيرهم بقوله : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب ﴾ يعني أهل مكة ومن انحاز معهم كاليهود والنصارى والمجوس ﴿ فالنار

موعده فلا تك في مرية ﴾ في شك ﴿ منه ﴾ من القرآن أو من الموعد ، ولما أبطل بعض عادات الكفرة من شدة حرصهم على الدنيا وذلك قوله : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا ﴾ ومن إنكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك قوله : ﴿ أفمن كان على بينة ﴾ أراد أن يبطل ما كانوا يعتقدون في أصنامهم أنها شفعاء تشفع لهم فقال ، ﴿ ومن أظلم ﴾ . ثم قال : ﴿ أولئك يعرضون ﴾ لم يحمل عليهم العرض لأنهم مخصوصون بالعرض فإن العرض عام ، ولكن فائدة الحمل ترجع إلى المعطوف . أراد أنهم يعرضون فيفضحون بقول الأشهاد . ومعنى عرضهم على ربهم أنهم يعرضون على الأماكن المعدة للحساب . والسؤال أو المراد عرضهم على من يوبخ ويبكت بأمر الله من الأنبياء والمؤمنين ، أو أراد أنهم يحبسون في المواقف وتعرض أعمالهم على الرب . قال مجاهد : الأشهاد الملائكة الحفظة . وقال قتادة :

هم الناس كما يقال على رؤوس الأشهاد أي الناس . وقيل : هم الأنبياء لقوله : ﴿ ولنسألن المرسلين ﴾ [الأعراف : 6] والأشهاد إما جمع شاهد كصاحب وأصحاب ، أو جمع شهيد كشريف وأشراف . قال أبو علي : وهذا أرجح لكثرة ورود شهيد في القرآن ﴿

ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ [البقرة : 143] ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ [النساء : 41] والفائدة في اعتبار قول الأشهاد المبالغة في إظهار الفضحية . وباقي الآية قد مر تفسير مثلها في " الأعراف " . ﴿ أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ﴾ أي لم يكن يمكنهم أن يهربوا من عذابنا لأنه سبحانه قادر على جميع الممكنات ولا تتفاوت قدرته بالنسبة إلى القريب والبعيد والضعيف والقوي . ﴿ وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾ تنصرهم وتمنعهم من عقابه .

(122/376)

جمع تعالى بين ما يرجع إليهم وبين ما يرجع إلى غيرهم وبين بذلك انقطاع حيلهم في الخلاص من عذاب الدنيا ومن عذاب الآخرة . وقيل : هذا من كلام الأشهاد والمراد أنه تعالى لو شاء عقابهم في الدنيا لعاقبهم ولكنه أراد إنظارهم وتأخيرهم إلى هذا اليوم ﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾ من قبل الكفر والصد أي الضلال والإضلال . ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع ﴾ يريد ما هم عليه في الدنيا من صمم القلوب وعمى البصائر . ثم إن الأشاعرة قالوا : إن ذلك بتخليق الله تعالى حيث صيرهم عاجزين ممتنعين عن الوقوف على دلائل الحق ، ويوافقه ما روي عن ابن عباس أنه قال : إنه تعالى منع الكافرين من الإيمان في الدنيا وذلك

قوله : ﴿ ما كانوا يستطيعون ﴾ الآية . وفي الآخرة كما قال : ﴿ يدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾ [القلم : 42] . وقالت المعتزلة : المراد استثقالهم لاستماع الحق ونفورهم عنه كقول القائل : هذا الكلام مما لا أستطيع أن أسمعه ، وهذا الشخص لا أستطيع أن أبصره . والمراد بالأولياء الأصنام كأنه قال : الذي سموه أولياء ليسوا في الحقيقة بأولياء . ثم نفى كونهم أولياء بأنهم لا يمسعون ولا يبصرون فكيف يصلحون للولاية ؟ وعلى هذا يكون قوله : ﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾ اعتراضاً بوعيد . واعلم أنه سبحانه وصف الكفار في هذه الآيات بصفات كثيرة . الأولى ﴿ ومن أظلم ممن افترى ﴾ الثانية ﴿ أولئك يعرضون ﴾ أي في موقف الذل والهوان . الثالثة بيان الخزي والفضيحة في قوله : ﴿ ويقول الأشهاد ﴾ الرابعة اللعنة عليهم . الخامسة الصد عن سبيل الله . السادسة سعيهم في إلقاء الشبهات وذلك قوله : ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ السابعة كونهم كافرين بالآخرة . الثامنة كونهم عاجزين عن الفرار ﴿ أولئك لم يكونوا ﴾ . التاسعة ﴿ وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾ . العاشرة مضاعفة العذاب لهم . الحادية عشرة والثانية عشرة ﴿ ما كانوا يستطيعون ﴾ الآية . الثالثة عشرة ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ وقد مر في " الأنعام " .

الرابعة عشرة ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ وقد سبق في "يونس". الخامسة عشرة ﴿ لا جرم ﴾ قال الفراء إنها بمنزلة قولك لا بد ولا محالة ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقاً. وقال النحويون: "لا" حرف نفي وجرم أي قطع معناه لا قطع قاطع ﴿ أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ وقال الزجاج "لا" نفي لما ظنوا أنه ينفعهم و"جرم" معناه كسب، والمعنى لا ينفعهم ذلك وكسب لهم ذلك الفعل خسار الدارين. قال الأزهري: وهذا من أحسن ما قيل في هذه اللفظة قوله في وعد المؤمنين ﴿ وأخبتوا إلى ربهم ﴾ معناه اطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع من الخبت وهي الأرض المطمئنة، وفيه إشارة إلى أن الأعمال لا بد فيها من الأحوال القلبية الموجبة للالتفات عما سوى الله. وقيل: المراد اطمئنانهم وتصديقهم كل ما وعد الله به من الثواب وضده.

وقيل: المراد كونهم خائفين من قوع الخلل في بعض تلك الأعمال. ثم ضرب للفريقين مثلاً وهو إما تشبيهان بأن شبههما تارة بالأعمى والبصير وأخرى بالأصم والسميع، وإما تشبيه واحد والواو لعطف الصفة على الصفة فيكون قد شبه الكافر بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن بالجامع بين البصر والسمع. ولا شك أن الفريق الكافر هو الذي وصفه بالصفات الخمس عشرة، وأما الفريق المؤمن فقيل: المراد به قوله: ﴿ أفمن كان على بينة ﴾ وقيل: المذكورون في قوله: ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ ثم أنكر تساويهما في الأحكام

والمراتب بقوله ﴿ هل يستويان مثلاً ﴾ أي تشبيهاً . وفي قوله : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ تنبيه على أن علاج هذا العمى وهذا الصمم ممكن بتبديل الأخلاق وتغيير الأحوال بتيسير الله تعالى وتوفيقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 14.4 ﴾

(124/376)

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

﴿ بسم الله ﴾ أي : الذي له تمام العلم وكمال الحكمة وجميع القدرة ﴿ الرحمن ﴾ لجميع خلقه بعموم البشارة والنذارة ﴿ الرحيم ﴾ لأهل ولايته بالحفظ في سلوك سبيله ، وقوله تعالى:

﴿ الر كتاب ﴾ مبتدأ وخبر ، أو كتاب خبر مبتدأ محذوف ، وتقدم الكلام على أوائل السور أول سورة البقرة . وقرأ أبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي بالإمالة ، والباقون بالفتح . وقوله تعالى : ﴿ أحكمت آياته ﴾ صفة للكتاب وفسر الأحكام بوجوه: الأوّل : أحكمت آياته ، أي : نظمت نظماً محكماً لا يقع فيه نقص ولا خلل كالبناء المحكم المرصف ، ولا يعتريه إخلال من جهة اللفظ ، والمعنى : ولا يستطيع أحد نقض شيء منه ولا الطعن في شيء من بلاغته أو فصاحته . الثاني:

أنّ الأحكام عبارة عن منع الفساد من الشيء فقوله : أحكمت آياته ، أي : لم تنسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع به كما قال ابن عباس .

الثالث : أنها أحكمت بالحجج والدلائل ، أو جعلت حكيمة منقول من حكم بالضم إذا صار حكيماً ؛ لأنها مشتملة على أمهات الحكم النظرية والعملية وقوله تعالى : ﴿ ثم فصلت ﴾ صفة أخرى للكتاب ، أي : بينت بالأحكام والقصص والمواعظ والأخبار ، وبالإنزال نجماً نجماً ، أو فصل فيها ولخص ما يحتاج إليه ، أو بجعلها سوراً .

وقال الحسن أحكمت بالأمر والنهي ثم فصلت بالوعد والوعيد .

(125/376)

تنبيه : معنى ثم في قوله ثم فصلت ليس للتراخي في الوقت لكن في الحال كما تقول : هي محكمة أحسن الإحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل وفلان كريم الأصل ثم كريم الفعل .

وقوله تعالى ﴿ من لدن حكيم خبير ﴾ أي : الله تعالى صفة أخرى للكتاب ، والتقدير : الر كتاب من حكيم خبير أو خبر بعد خبر والتقدير : الر من لدن حكيم خبير أو صلة لأحكمت وفصلت ، أي : أحكمت وفصلت من لدن حكيم خبير . وعلى هذا التقدير قد حصل بين أوائل هذه السورة وبين آخرها مناسبة لطيفة ، كأنه يقول تعالى : أحكمت

آياته من لدن حكيم وفصلت من لدن خبير عالم بكيفيات الأمور ، وقوله تعالى:

﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ يحتمل وجوهاً : الأوّل : أن تكون مفعولاً له والتقدير : كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لأجل أن لا تعبدوا إلا الله . الثاني : أن تكون مفسرة ؛ لأنّ في تفصيل الآيات معنى القول ، قال الرزاي : والحمل على هذا أولى ؛ لأنّ قوله تعالى : ﴿ وأن استغفروا ﴾ معطوف على قوله تعالى : ﴿ أن لا تعبدوا ﴾ فيجب أن يكون معناه ، أي : لا تعبدوا ليكون الأمر معطوفاً على النهي ، فإنّ كونه بمعنى لأن لا تعبدوا يمنع عطف الأمر عليه . الثالث : أن يكون كلاماً مبتدأ منقطعاً عما قبله على لسان النبيّ صلى الله عليه وسلم إغراءً منه على اختصاص الله تعالى بالعبادة ، ويدلّ عليه قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إنني لكم منه ﴾ أي : الله ﴿ نذير ﴾ بالعقاب على الشرك ﴿ وبشير ﴾ بالثواب على التوحيد ، كأنه قيل ترك عبادة غير الله تعالى بمعنى اتركوها إنني لكم منه نذير وبشير كقوله تعالى : ﴿ فضرب الرقاب ﴾ (محمد ،) .

تنبيه : هذه الآية الكريمة مشتملة على أشياء مترتبة : الأوّل : أنه تعالى أمر أن لا تعبدوا إلا الله لأنّ ما سواه محدث مخلوق مربوب ، وإنما حصل بتكوين الله وإيجاده ، والعبادة عبارة

عن إظهار الخضوع والخشوع ونهاية التواضع والتذلل ، وذلك لا يليق إلا بالخالق المدبر الرحيم المحسن ، فثبت أن عبادة غير الله تعالى منكرة . المرتبة الثانية : قوله تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ﴾ المرتبة الثالثة : قوله ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ واختلفوا في بيان الفرق بين هاتين المرتبتين على وجوه : الأوّل : أنّ معنى قوله ﴿ وأن استغفروا ﴾ ، أي : اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ، ثم بين الشيء الذي يطلب به ذلك وهو التوبة . فقال : ثم توبوا إليه ؛ لأنّ الداعي إلى التوبة والمحرك عليها هو الاستغفار الذي هو عبارة عن طلب المغفرة فالاستغفار مطلوب بالذات والتوبة مطلوبة لكونها من مهمات الاستغفار ، وما كان آخراً في الحصول كان أولاً في الطلب ، فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة .

الثاني : وأن استغفروا من الشرك والمعاصي ثم توبوا ، أي : ارجعوا إليه بالطاعة . الثالث : الاستغفار طلب من الله تعالى لإزالة ما لا ينبغي والتوبة سعي من الإنسان في إزالة ما لا ينبغي فقدم الاستغفار ليدل على أنّ المؤمن يجب عليه أن لا يطلب الشيء إلا من مولاه فإنه هو الذي يقدر على تحصيله ، ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة ؛ لأنها عمل يأتي به الإنسان ويتوسل به إلى دفع المكروه ، والاستعانة بفضل الله تعالى تقدم على الاستعانة بسعي النفس

، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه المراتب الثلاثة ذكر بعدها ما يرتب عليها من الآثار المطلوبة ، ومن المعلوم أنّ المطالب محصورة في نوعين ؛ لأنه إنما يكون حصولها في الدنيا أو في الآخرة أما المنافع الدنيوية فهي المرادة من قوله تعالى : ﴿ يمتعكم متاعاً حسناً ﴾ أي : بطيب عيش وسعة رزق ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ وهو الموت . فإن قيل : إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر" . وقال أيضاً : "خص البلاء بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل" . وقال تعالى : ﴿ ولولا أن يكون الناس أمّة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ﴾ (الزخرف ،) فهذه النصوص دالة على أن نصيب المشتغل بالطاعات في الدنيا هو الشدّة والبلية ، ومقتضى هذه الآية أن نصيب المشتغل بالطاعات الراحة في الدنيا فكيف الجمع بينهما ؟

أجيب : بأن المشتغل بعبادة الله ومحبته مشتغل بحب شيء يمتنع تغيره وزواله وفناؤه ، فكلما كان امعانه في ذلك الطريق أكثر وتوغله فيه أتمّ كان انقطاعه عن الخلق أتمّ وأكمل ، وكلما كان الكمال في هذا الباب أكثر كان الابتهاج والسرور أكمل ؛ لأنه أمن من تغير مطلوبه وأمن من زوال محبوبه ، وأمّا من كان مشتغلاً بحب غير الله كان أبداً في ألم الخوف من فوات

المحبوب وزواله ، وكان عيشه منغصاً وقلبه مضطرباً . ولذلك قال تعالى في صفة المشتغلين بخدمته ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ (النحل ،) . وقيل : المراد بالمتاع الحسن : عدم العذاب بعذاب الاستئصال كما استأصل أهل القرى الذين كفروا . وسمى سبحانه وتعالى منافع الدنيا بالمتاع لأجل التنبيه على حقارتها وقلتها ، ونبه تعالى على كونها منقضية بقوله تعالى : ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية . وأمّا المنافع الأخروية فقد ذكرها تعالى بقوله تعالى : ﴿ ويؤت ﴾ أي : في الآخرة ﴿ كل ذي فضل ﴾ أي : في العمل ﴿ فضله ﴾ أي : جزاءه ؛ لأنّ مراتب السعادات في الآخرة مختلفة ؛ لأنها متقدرة بمقدار الدرجات الحاصلة في الدنيا ، فلما كان الإعراض عن غير الحق والإقبال على عبودية الحق درجات غير متناهية فكذلك مراتب السعادة الأخروية غير متناهية ، فلهذا السبب قال تعالى : ويؤت كل ذي فضل فضله . وقال أبو العالية : من كثرت طاعاته في الدنيا زادت درجاته في الآخرة . وقال ابن عباس : من زادت حسناته على سيئاته دخل الجنة ، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار ، ومن استوت سيئاته وحسناته كان من أهل الأعراف ثم يدخلون الجنة . وقال ابن مسعود : من عمل سيئة كتبت له سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات ، فإن عوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من

حسناته العشر واحدة وبقي له تسع حسنات ، ثم يقول ابن مسعود : هلك من غلب آحاده أعشاره . وقوله تعالى : ﴿ وإن تولوا ﴾ فيه حذف إحدى

(129/376)

التاءين ، أي:

وإن تعرضوا عما جئتكم به من الهدى ﴿ فإني ﴾ أي : فقل لهم إني ﴿ أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴾ هو يوم القيامة وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل . وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بالقحط حتى أكلوا الجيف .

﴿ إلى الله مرجعكم ﴾ أي : رجوعكم في ذلك اليوم فيثيب المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسيء على إساءته ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ أي : قادر على جميع المقدورات لا دافع لقضائه ولا مانع لمشيئته ، ومنه الثواب والعقاب ، وفي ذلك دلالة على قدرة عالية وجلالة عظيمة لهذا الحاكم وعلى ضعف لهذا العبد ، والملك القاهر العالي إذا رأى عاجزاً مشرفاً على الهلاك فإنه يخلصه من الهلاك ، ومنه المثل المشهور : ملكت فأسجح () ، أي : فاعف ، يقول مصنف هذا الكتاب : قد أفنيت عمري في خدمة العلم ومطالعة الكتب ولا رجاء لي في شيء إلا أني في غاية الذلة والقصور . والكريم إذا قدر

عفا . فأسألك يا أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين وساتر عيوب المعيوبين أن تفيض سجال رحمتك عليّ وعلى والديّ وأولادي وإخواني وأحبابي ، وأن تخصني وإياهم بالفضل والتجاوز والجود والكرم . واختلفوا في سبب نزول قوله تعالى:

(130/376)

﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ﴾ فقال ابن عباس : نزلت في الأخنس بن شريق وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنظر يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب وينطوي بقلبه على ما يكره فمعنى قوله تعالى : ﴿ يثنون صدورهم ﴾ يخفون ما في صدورهم من الشحناء والعداوة . وقال عبد الله بن شدّاد : نزلت في بعض المنافقين كان إذا مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كي لا يراه النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال قتادة : كانوا يحنون ظهورهم كي لا يسمعوا كلام الله تعالى ولا ذكره .
وروى البخاري عن ابن عباس أنها نزلت فيمن كان يستحي أن يتخلى أو يجامع فيفضي إلى السماء . وقيل : كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخي ستره ويتغشى بثوبه ويقول : هل يعلم الله ما في قلبي . وقال السدي : يثنون صدورهم : أي : يعرضون بقلوبهم من قولهم ثنيت عناني ﴿ ليستخفوا منه ﴾ أي : من الله تعالى بسرهم فلا يطلع رسول الله صلى الله

عليه وسلم والمؤمنون عليه . وقيل : من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قيل : إنها نزلت في طائفة من المشركين قالوا : إن أرخينا علينا ستوراً واستغشينا ثياباً وطوينا صدورنا على عداوة محمد كيف يعلم ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم ﴾ أي : يأوون إلى فراشهم ويتغطون بثيابهم ﴿ يعلم ﴾ تعالى ﴿ ما يسرّون ﴾ في قلوبهم ﴿ وما يعلنون ﴾ بأفواههم ، أي : أنه لا تفاوت في علمه تعالى بين إسرارهم وإعلانهم ، فلا وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الإخفاء ﴿ إنه ﴾ تعالى ﴿ عليم بذات الصدور ﴾ أي : بالقلوب وأحوالها . ولما أعلم تعالى ما يسرّون وما يعلنون أردفه بما يدل على كونه عالماً بجميع المعلومات بقوله تعالى:

﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ فذكر تعالى أن رزق كل حيوان إنما يصل إليه من الله تعالى ، فلو لم يكن عالماً بجميع المعلومات لما حصلت هذه المهمات ، والدابة اسم كل حيوان دب على وجه الأرض ، ولا شك أن أقسام الحيوانات وأنواعها كثيرة وهي الأجناس التي تكون في البرّ والبحر والجبال ، والله تعالى عالم بكيفية طباعها وأعضائها وأحوالها وأغذيتها ومساكنها وما يوافقها ويخالفها ، فالإله المدبر لأطباق السموات

والأرض ولطبائع الحيوانات والنبات كيف لا يكون عالماً بأحوالها روي أن موسى عليه السلام عند نزول الوحي عليه تعلق قلبه بأحوال أهله فأمره الله تعالى أن يضرب عصاه على صخرة ، فانشقت وخرج منها صخرة ثانية ، ثم ضرب عصاه عليها فانشقت وخرج منها صخرة ثالثة ، ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت فخرجت منها دودة كالذرة وفي فيها شيء يجري مجرى الغذاء لها ، ورفع الله تعالى الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع أنّ الدودة كانت تقول : سبحان من يراني ويسمع كلامي ويعرف مكاني ويذكرني ولا ينساني . فإن قيل : إن كلمة على للوجوب فيدل على أنّ إيصال الرزق إلى الدابة واجب على الله تعالى . أجيب : بأنه تعالى إنما أتى بذلك تحقيقاً لوصوله بحسب الوعد والفضل والإحسان وحملاً على التوكل فيه . وفي هذه الآية دليل على أنّ الرزق إلى كل حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد والله تعالى لا يخل به ، ثم قد نرى أنّ إنساناً لا يأكل من الحلال طول عمره ، فلو لم يكن الحرام رزقاً لكان الله تعالى ما أوصل رزقه إليه فيكون الله تعالى قد أخل بالواجب ، وذلك محال فعلمنا أنّ الحرام قد يكون رزقاً ﴿ ويعلم ﴾ تعالى ﴿ مستقرّها ﴾ قال ابن عباس : هو المكان الذي تأوي إليه وتستقر فيه ليلاً ونهاراً ﴿ ومستودعها ﴾ هو الذي تدفن فيه إذا ماتت . وقال عبد الله بن مسعود : المستقر : أرحام الأمهات ، والمستودع : المكان الذي تموت فيه . وقال عطاء : المستقر : أرحام الأمهات ، والمستودع : أصلاب

الآباء . وقيل:

الجنة أو النار والمستودع القبر . لقوله تعالى في صفة الجنة والنار : حسنت مستقرّا ، وساءت مستقرّا ومقاماً ، ولا مانع أن يفسر ذلك بهذا كله ﴿ كل ﴾ أي : كل واحدة من الدواب ورزقها ومستقرّها ومستودعها ﴿ في كتاب ﴾ أي : ذكرها مثبت في اللوح المحفوظ ﴿ مبين ﴾ أي : بيّن كما قال تعالى ﴿ ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ (الأنعام ،) . ولما أثبت تعالى بالدليل المتقدّم كونه عالماً بالمعلومات أثبت كونه تعالى قادراً على كل المقدورات بقوله تعالى :

﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴾ أي : من أيام الدنيا أوّلها الأحد وآخرها الجمعة ، وتقدّم الكلام على تفسير ذلك في سورة الأعراف ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ قال كعب : خلق ياقوتة خضراء ، ثم نظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ، ثم خلق

الريح فجعل الماء على متنها ، ثم وضع العرش على الماء . وقال أبو بكر الأصمّ : ومعنى قوله تعالى : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ كقولهم السماء على الأرض ، وليس ذلك على سبيل كون أحدهما ملتصقاً بالآخر . وقال حمزة : إن الله عز وجل كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وخلق القلم ، فكتب به ما هو خالقه ، وما هو كائن من خلقه ، ثم إن ذلك الكتاب سبح الله تعالى ومجده ألف عام قبل أن يخلق شيئاً من خلقه ، ففي هذا دلالة على كمال قدرته تعالى ؛ لأنّ العرش مع كونه أعظم من السموات والأرض كان على الماء ، وقد أمسكه الله تعالى من غير دعامة تحته ولا علامة فوقه . وقوله تعالى ﴿ ليبلوكم ﴾ متعلق بخلق ، أي : خلقها وما فيها منافع لكم ومصالح ليختبركم وهو أعلم بكم منكم ﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ أي : أطوع لله وأورع عن محارم الله ، وهذا القيام الحجة عليهم . وقد مرّ أمثال ذلك ، ولما بين تعالى أنه إنما خلق هذا العالم لأجل ابتلاء المكلفين وامتحانهم ، وهذا يوجب القطع بحصول الحشر والنشر ؛ لأنّ الابتلاء والامتحان يوجب تخصيص المحسن بالرحمة والثواب وتخصيص المسيء بالعقاب وذلك لا يتم إلا مع الاعتراف بالمعاد والقيامة . خاطب تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم فقال جلا وعلا : ﴿ ولئن قلت ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك ﴿ إنكم مبعوثون من بعد الموت ﴾ أي : للحساب والجزاء ﴿ ليقولن الذي كفروا إن ﴾ أي : ما ﴿ هذا ﴾ أي : القرآن بالبعث أو الذي تقوله ﴿ إلا سحر مبين ﴾ أي : بين . وقرأ حمزة والكسائي بفتح السين وألف بعدها

وكسر الحاء ، فيكون ذلك راجعاً للنبيّ صلى الله عليه وسلم والباقون بكسر السين وسكون الحاء ، ولما حكى تعالى عن الكفار أنهم يكذبون رسول الله

صلى الله عليه وسلم حكى عنهم نوعاً آخر بقوله تعالى:

﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى ﴾ مجيء ﴿ أمّة ﴾ أي : جماعة من الأوقات ﴿ معدودة ﴾ أي : قليلة ﴿ ليقولنّ ﴾ أي : استهزاء ﴿ ما يحبسه ﴾ أي : ما يمنعه من الوقوع قال الله تعالى : ﴿ ألا يوم يأتيهم ﴾ كيوم بدر ﴿ ليس مصروفاً ﴾ أي : مدفوعاً العذاب ﴿ عنهم وحاق ﴾ أي : نزل ﴿ بهم ﴾ من العذاب ﴿ ما كانوا به يستهزؤون ﴾ أي : الذي كانوا يستعجلون ، فوضع يستهزؤون موضع يستعجلون ؛ لأنّ استعجالهم كان استهزاء . فإن قيل : لم قال تعالى : وحاق على لفظ الماضي مع أنّ ذلك لم يقع ؟ أجيب : بأنه وضع الماضي موضع المستقبل تحقيقاً ومبالغة في التأكيد والتقرير والتهديد . ولما ذكر تعالى أنّ عذاب الكفار وإن تأخر إلا أنه لا بدّ وأن يحيق بهم ذكر بعده ما يدل على كفرهم وعلى كونهم مستحقين لذلك العذاب بقوله تعالى:

﴿ ولئن أذقنا ﴾ أي : أعطينا ﴿ الإنسان ﴾ أي : الكافر ﴿ منا رحمة ﴾ أي : نعمة

كغنى وصحة بحيث يجد لذتها ﴿ ثم نزعناها ﴾ أي : سلبنا تلك النعمة ﴿ منه إنه ليؤس ﴾ أي : قنوط من رحمة الله تعالى لقلة صبره وعدم ثقته به ﴿ كفور ﴾ أي : جحود لنعمتنا عليه ، وأمّا المسلم الذي يعتقد أنّ تلك النعمة من جود الله وفضله وإحسانه فإنه لا يحصل له اليأس بل يقول : لعله تعالى يردها عليّ بعد ذلك أحسن وأكمل وأفضل مما كانت .

﴿ ولئن أذقناه ﴾ أي : الكافر ﴿ نعماء بعد ضرّاء مسته ﴾ كصحة بعد سقم وغنى بعد عدم ، وفي اختلاف الفعلين وهما أذقناه ومسته من حيث الإسناد إليه تعالى في الأوّل وإلى الضرّاء في الثاني نكتة عظيمة وهي أنّ النعمة صادرة من الله تعالى تفضلاً منه لخبر : "ما أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى . قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا" .

والضرر صادر من العبد كسباً ؛ لأنه السبب فيه باجتلابه إياه بالمعاصي غالباً لقوله تعالى : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ (النساء ،) ولا ينافي ذلك قوله تعالى : ﴿ قل كل من عند الله ﴾ (النساء ،) فإن الكلّ منه إيجاداً ، غير أنّ الحسنة إحسان وامتحان ، والسيئة مجازاة وانتقام لخبر : "ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها وحتى انقطاع شسع نعله إلا بذنب وما يعفو الله أكثر" .

﴿ ليقولنّ ﴾ أي : الذي أصابه الصحة والغنى ﴿ ذهب السيئات ﴾ أي : المصائب التي أصابتني ﴿ عني ﴾ ولم يتوقع زوالها ولا يشكر عليها ﴿ إنه لفرح ﴾ أي : فرح بطر ﴿ فخور ﴾ على الناس بما أذاقه الله تعالى من نعمائه ، وقد شغله الفرح والفخر عن الشكر فبيّن سبحانه وتعالى في هذه الآية أنّ أحوال الدنيا غير باقية بل هي أبداً في التغير والزوال والتحوّل والانتقال ، فإنّ الإنسان إمّا أن يتحوّل من النعمة إلى المحنة ، ومن اللذات إلى الآفات كالقسم الأوّل ، وإمّا أن يكون بالعكس من ذلك وهو أن ينتقل من المكروه إلى المحبوب كالقسم الثاني . ولما بيّن تعالى أنّ الكافر عند الابتلاء لا يكون من الصابرين ، وعند الفوز بالنعماء لا يكون من الشاكرين بين حال المتقين بقوله تعالى:

(136/376)

﴿ إلا ﴾ أي : لكن ﴿ الذين صبروا ﴾ على الضرّاء ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ أي : في النعماء ، أي : فإنهم إن أصابتهم شدّة صبروا ، وإن نالتهم نعمة شكروا ﴿ أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ فجمع لهم تعالى بين هذين المطلوبين ، أحدهما : زوال العقاب والخلاص منه وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ لهم مغفرة ﴾ ، والثاني : الفوز بالثواب ودخول الجنة وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ وأجر كبير ﴾ .

﴿ فلعلك ﴾ يا محمد ﴿ تارك بعض ما يوحى إليك ﴾ فلا تبلغهم إياه لتهاونهم به ، فإنهم كانوا يستهزؤون بالقرآن ويضحكون منه . وقرأ حمزة والكسائي بالإمالة محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح . ﴿ وضائق به صدرك ﴾ أي : بتلاوته عليهم لأجل ﴿ أن يقولوا لولا ﴾ أي : هلا ﴿ أنزل عليه كنز ﴾ ينفقه في الاستتباع كالملوك ﴿ أو جاء معه ملك ﴾ يصدقه كما اقترحنا ، وروي عن ابن عباس : "أنّ رؤساء مكة قالوا : يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهباً إن كنت رسولاً وقال آخرون:ائتنا بالملائكة ليشهدوا بنبوّتك فقال : لا أقدر على ذلك" فنزل ﴿ إنما أنت نذير ﴾ فلا عليك إلا البلاغ لا الإتيان بما اقترحوه ﴿ والله على كل شيء وكيل ﴾ فتوكل عليه إنه عالم بحالهم وفاعل بهم جزاء أقوالهم وأفعالهم .

(137/376)

﴿ أم ﴾ أي : بل ﴿ يقولون ﴾ كفار مكة ﴿ افتراه ﴾ أي : اختلقه من تلقاء نفسه وليس هو من عند الله ، قال الله تعالى : ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ فأتوا بعشر سور مثله ﴾ في البيان وحسن النظم ﴿ مفتريات ﴾ فإنكم عربيون مثلي . قال ابن عباس : هذه السور التي وقع بها هذا التحدي معينة وهي سورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ،

والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس ، وهود ، وقيل : التحدي وقع بمطلق السور وهو متقدّم على التحدّي بسورة واحدة ، والتحدّي بسورة واحدة وقع في سورة البقرة ، وفي سورة يونس ، أمّا تقدم هذه السورة على سورة البقرة فظاهر ؛ لأن هذه السورة مكية وسورة البقرة مدنية ، وأمّا في سورة يونس فلأنّ كل واحدة من هاتين السورتين مكية ، فتكون سورة هود متقدّمة في النزول على سورة يونس كما قاله الرازي ، وأنكر المبرد هذا وقال : بل سورة يونس أولاً وقال معنى قوله في سورة يونس ﴿ فأتوا بسورة مثله ﴾ (يونس ،) أي : مثله في الخبر عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد ، فعجزوا ، فقال لهم في سورة هود : إن عجزتم عن الإتيان بسورة مثله في الأخبار والأحكام والوعد والوعيد فأتوا بعشر سور من غير وعد ولا وعيد ، وإنما هي مجرّد البلاغة ﴿ وادعوا ﴾ أي : وقل لهم يا محمد ادعوا للمعاونة على ذلك ﴿ من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ في أنه مفترى ، والضمير في قوله تعالى:

﴿ فإن لم يستجيبوا لكم ﴾ أي : بإتيان ما دعوتموهم إليه للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا يتحدونهم ، وقال تعالى في موضع آخر

: ﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم ﴾ (القصص ،) والتعظيم للنبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ فاعلموا أنما أنزل ﴾ ملتبساً ﴿ بعلم الله ﴾ أي : بما لا يعلمه إلا الله تعالى من نظم يعجز الخلق وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه ولا يقدر عليه سواه ، وقوله تعالى : ﴿ وأن ﴾ مخففة من الثقيلة ، أي : وأنه ﴿ لا إله إلا هو ﴾ وحده وأن توحيده واجب والإشراك به ظلم عظيم ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ أي : ثابتون على الإسلام راسخون مخلصون فيه إذ تحقق عندكم إعجازه مطلقاً . وقيل : الخطاب للمشركين والضمير في لم يستجيبوا لمن استطعتم ، أي : فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله إلى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه ، وأنّ طاقتهم أقصر من أن تبلغه فاعلموا أنه منزل من عند الله ، وأنّ ما دعاكم إليه من التوحيد حق ، فهل أنتم بعد هذه الحجة القاطعة مسلمون ، أي : أسلموا وفي مثل هذا الاستفهام إيجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر . .

واختلف في سبب نزول قوله تعالى:

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ﴾ أي : بعمله الذي يعمل من أعمال البرّ ﴿ نوف إليهم أعمالهم ﴾ أي : التي عملوها من خير كصدقة وصلة رحم ﴿ فيها ﴾ أي : في الدنيا ﴿ وهم فيها لا يبخسون ﴾ أي : نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد ونحو ذلك .

﴿ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ﴾ أي : بطل ﴿ ما صنعوا ﴾ أي : عملوا ﴿ فيها ﴾ أي : الآخرة فلا ثواب لهم ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ لأنه لغير الله تعالى ، فقال مجاهد : نزلت في أهل الرياء قال صلى الله عليه وسلم "إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالو : يا رسول الله ، وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء" . والرياء هو أن يظهر الإنسان الأعمال الصالحة لتحمده الناس ويعتقدوا فيه الصلاح ، فهذا هو العمل الذي لغير الله تعالى . نعوذ بالله من الخذلان . وقال أكثر المفسرين : إنّها نزلت في الكافر ، وأمّا المؤمن فيريد الدنيا والآخرة ، وإرادته الآخرة غالبة فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة . وعن أنس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة . وأمّا الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً" . وقيل : نزلت في المنافقين الذين يطلبون بغزوهم مع النبيّ صلى الله عليه وسلم الغنائم من غير أن يؤمنوا بالآخرة وثوابها . وقيل في اليهود والنصارى وهو منقول عن أنس . ولما ذكر تعالى الذين

يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ذكر من كان يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة بقوله تعالى:

﴿ أفمن كان على بيّنة من ربه ﴾ قيل : هو النبيّ صلى الله عليه وسلم والبينة هي القرآن ﴿ ويتلوه ﴾ أي : يتبعه ﴿ شاهد ﴾ يصدقه ﴿ منه ﴾ أي : من الله تعالى وهو جبريل عليه السلام ﴿ ومن قبله ﴾ أي : القرآن ﴿ كتاب موسى ﴾ وهو التوراة شاهد له أيضاً وقوله تعالى ﴿ إماماً ﴾ أي : كتاباً مؤتماً به في الدين ﴿ ورحمة ﴾ أي : على المنزل عليهم ؛ لأنه الوصلة إلى الفوز بسعادة الدارين حال من كتاب موسى ، والجواب محذوف لظهوره ، والتقدير : أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم في الآخرة إلا النار ليس مثله بل بينهم تفاوت بعيد وتباين بين . وقيل : هو من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره ، والمراد بالبينة : هو البيان والبرهان والمراد بالشاهد هو القرآن ومنه ، أي : من الله ومن قبله كتاب موسى ، أي : ويتلو ذلك البرهان من قبل مجيء القرآن كتاب موسى ، أي : في دلالته على هذا المطلوب لا في الوجود . قال الرازي : وهذا القول هو الأظهر لقوله تعالى : ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ وهذه صفة جمع ولا يجوز رجوعه إلى محمد صلى الله عليه

وسلم انتهى. ويجوز أن تكون للتعظيم أو له صلى الله عليه وسلم ومن تبعه وربما يكون هذا أولى كما جرى عليه بعض المفسرين، والإشارة إلى من كان على بينة، والضمير في به للقرآن وإذا كان هذا الفريق ليس له في الآخرة إلا النار فهذا الفريق ليس له في الآخرة إلا الجنة ﴿ ومن يكفر به ﴾ أي: بالنبيّ صلى الله عليه وسلم أو القرآن ﴿ من الأحزاب ﴾ أي: أصناف الكفار فيدخل فيهم اليهود والنصارى والمجوس ﴿ فالنار موعده ﴾ يعني في الآخرة.

(141/376)

روى سعيد بن جبير عن أبي موسى أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "لا يسمع بي يهوديّ ولا نصرانيّ فلا يؤمن بي إلا كان من أهل النار". قال أبو موسى: فقلت في نفسي: إنّ النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول مثل هذا إلا عن القرآن فوجدت الله تعالى يقول: ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ قال بعض العلماء: ولما دلت الآية على أنّ من يكفر به كانت النار موعده دلّ على أنّ من لا يكفر به كانت الجنة موعده وقوله تعالى: ﴿ فلا تك في مرية ﴾ أي: في شك ﴿ منه ﴾ أي: القرآن أو الموعد ﴿ إنه الحق من ربك ﴾ الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد غيره لأنه صلى الله عليه وسلم لم يشك

قط ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ أي : لا يصدقون بما أوحينا إليك أو بأن موعد الكفار النار ، ثم وصف الله تعالى هؤلاء المنكرين الجاحدين بصفات كثيرة في معرض الذم . الصفة الأولى : كونهم مفترين على الله كما قال تعالى:

(142/376)

﴿ ومن ﴾ أي : لا أحد ﴿ أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ بنسبة الشريك والولد إليه ، أو أسند إليه ما لم ينزله ، أو نفى عنه ما أنزله . الصفة الثانية : أنهم يعرضون على الله تعالى في موقف الذل والهوان كما قال تعالى : ﴿ أولئك يعرضون على ربهم ﴾ أي : يوم القيامة . فإن قيل : هم لا يختصون بهذا العرض لأنّ العرض عامّ في كل العباد كما قال تعالى : ﴿ وعرضوا على ربك صفاً ﴾ (الكهف ،) أجيب : بأنهم يعرضون فيفتضحون بشهادة الأشهاد عليهم كما قال تعالى : ﴿ ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ﴾ فيحصل لهم من الخزي والنكال ما لا مزيد عليه ، وهذه هي الصفة الثالثة ، واختلف في هؤلاء الأشهاد ، فقال مجاهد : هم الملائكة الذين يحفظون أعمالهم عليهم في الدنيا ، وقال مقاتل : هم الناس كما يقال على رؤوس الأشهاد ، أي : على رؤوس الناس ، وقال قوم : هم الأنبياء كما قال تعالى : ﴿ فلنسألنّ الذين أرسل إليهم ولنسألنّ المرسلين ﴾ (الأعراف ،)

. والفائدة في اعتبار قول الأشهاد المبالغة في إظهار الفضيحة. فإن قيل: العرض على الله يقتضي أن يكون الله تعالى في حيز وهو تعالى منزه عن ذلك. أجيب: بأنهم يعرضون على الأماكن المعدّة للحساب والسؤال، أو يكون ذلك عرضاً على من يوبخ بأمر الله تعالى من الأنبياء والمؤمنين. والأشهاد جمع شاهد كصاحب وأصحاب، أو جمع شهيد كشريف وأشراف. قال أبو علي الفارسي: وكان هذا أرجح؛ لأنّ ما جاء من ذلك في التنزيل جاء على فعيل كقوله تعالى: ﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ (النحل،) . وعن عبد الله بن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنّ الله تعالى يدني المؤمن يوم القيامة فيستره من الناس فيقول: أي عبدي تعرف ذنب كذا وكذا فيقول: نعم، حتى إذا قرّره بذنوبه قال تعالى: سترتها عليك في الدنيا وقد سترتها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته" ، وأمّا الكافر والمنافق فتقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ولما أخبر الله تعالى عن حالهم

في عقاب القيامة

أخبر عن حالهم في الحال بقوله تعالى: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ فبيّن تعالى أنهم في

الحال ملعونون من عند الله ، وهذه هي الصفة الرابعة ، ثم وصفهم بالصفة الخامسة بقوله تعالى:

﴿ الذين يصدّون عن سبيل الله ﴾ أي : دينه ، ثم وصفهم بالصفة السادسة بقوله تعالى : ﴿ ويبغونها ﴾ أي : يطلبون السبيل ﴿ عوجاً ﴾ أي : معوجة ، أي : كأنهم ظلموا أنفسهم بالتزام الكفر والضلال فقد أضافوا إليه المنع من الدين الحق وإلقاء الشبهات وتعويج الدلائل المستقيمة ؛ لأنه لا يقال في العامّي : إنه يبغي عوجاً ، وإنما يقال ذلك فيمن يعرف كيف الاستقامة ، وكيفية العوج بسبب إلقاء الشبهات وتقرير الضلالات ، ثم وصفهم بالصفة السابعة بقوله تعالى : ﴿ وهم ﴾ أي : والحال أنهم ﴿ بالآخرة هم كافرون ﴾ وتكرير لفظ هم لتأكيد كفرهم وتوغلهم فيه . الصفة الثامنة : كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله كما قال تعالى:

﴿ أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ﴾ أي : ما كانوا معجزين الله في الدنيا أن يعاقبهم إذ لا يمكنهم أن يهربوا من عذابه ، فإنّ هرب العبد من عذاب الله تعالى محال ؛ لأنه تعالى قادر على جميع الممكنات ولا تتفاوت قدرته بالقرب والبعد ، والقوة والضعف . الصفة التاسعة

: أنهم ليس لهم أولياء يدفعون عقاب الله تعالى عنهم كما قال تعالى : ﴿ ما كان لهم من دون الله ﴾ أي : غيره ﴿ من أولياء ﴾ أي : أنصار يمنعوهم من عذابه . الصفة العاشرة : مضاعفة العذاب كما قال تعالى : ﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾ أي : بسبب إضلالهم غيرهم ، وقيل : لأنّهم كفروا بالله وكفروا بالبعث والنشور . الصفة الحادية عشرة : قوله تعالى : ﴿ وما كانوا يستطيعون السمع ﴾ قال قتادة : صم عن سماع الحق فلا يسمعون خيرا فينتفعون به ﴿ وما كانوا يبصرون ﴾ خيراً فيأخذوا به . قال ابن عباس : أخبر الله تعالى أنه أحال بين أهل الشرك وبين طاعة الله تعالى في الدنيا وفي الآخرة ، أمّا في الدنيا فإنه قال : ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾ وأمّا في الآخرة فإنه قال : ﴿ فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ﴾ (القلم ، ،) . الصفة الثانية عشرة : قوله تعالى:

﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ فإنهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى فكان مصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم وذلك أعظم وجوه الخسرانات . الصفة الثالثة عشرة : قوله تعالى ﴿ وضلّ ﴾ أي : غاب ﴿ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ على الله تعالى من دعوى الشريك وأنّ لآلهة تشفع لهم . الصفة الرابعة عشرة : قوله تعالى:

﴿ لاجرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ أي : لا أحد أبين وأكثر خسراناً منهم .

تنبيه : قال الفرّاء : إنّ لا جرم بمنزلة قولنا لا بدّ ولا محالة ، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقاً . تقول العرب : لا جرم إنك محسن على معنى حقاً إنك محسن . وقال الزجاج : إنّ كلمة لا نفي لما ظنوا أنه ينفعهم ، وجرم معناه : كسب ذلك الفعل والمعنى : لا ينفعهم ذلك وكسب ذلك الفعل لهم الخسران في الدنيا والآخرة . قال الأزهري : وهذا من أحسن ما قيل في هذا الباب . وقال سيبويه : لا ردّ على أهل الكفر كما مرّ . وجرم معناه : أحق والمعنى : أنه أحق كفرهم وقوع العذاب والخسران بهم واحتج سيبويه بقول الشاعر :

*ولقد طعنت أبا عيينة طعنة ** جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

أراد أحقت الطعنة فزارة أن يغضبوا ، ولما ذكر تعالى عقوبة الكفار وخسرانهم أتبعه بذكر أحوال المؤمنين في الدنيا وربحهم في الآخرة بقوله تعالى:

﴿ إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ﴾ أي : اطمأنوا إليه وخشعوا ، إذ الإخبات في اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب ، ويتعدّى بإلى وباللام فإذا قلت : أخبت فلان إلى كذا ، فمعناه اطمأن إليه ، وإذا قلت : أخبت له فمعناه خشع وخضع له ، فقوله تعالى : ﴿ إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ إشارة إلى جميع عمل الجوارح . وقوله تعالى : ﴿ وأخبتوا ﴾ إشارة إلى أعمال القلوب وهي الخشوع والخضوع لله تعالى ، وإن هذه الأعمال الصالحة لا تنفع في الآخرة إلا بحصول أعمال القلب وهي الخشوع والخضوع

﴿ أولئك ﴾ أي : الذين هذه صفتهم ﴿ أصحاب الجنة هم خالدون ﴾ فأخبر تعالى عن حالهم في الآخرة بأنهم من أهل الجنة التي لا انقطاع لنعيمها ولا زوال. ولما ذكر سبحانه وتعالى أحوال الكفار وما كانوا عليه من العمى عن طريق الحق ومن الصمم عن سماعه وذكر أحوال المؤمنين وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد للطاعة ذكر فيهما مثالاً مطابقاً بقوله تعالى:

﴿ مثل ﴾ أي : صفة ﴿ الفريقين ﴾ أي : الكفار والمؤمنين ﴿ كالأعمى والأصم ﴾ هذا مثل الكافر شبه بالأعمى لتعاميه عن آيات الله ، وبالأصم لتصامه عن استماع كلام الله تعالى وتأبيه عن تدبر معانيه ﴿ والبصير والسميع ﴾ هذا مثل المؤمن شبه بالبصير والسميع ؛ لأنّ أمره بالضدّ من الكافر فيكون كل منهما مشبهاً باثنين باعتبار وصفين ، أو يشبه الكافر بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن بالجامع بين ضدّيهما على أن تكون الواو في الأصم وفي السميع لعطف الصفة على الصفة ، بخلافه على التشبيه الأوّل فإنه لعطف الموصوف على الموصوف ، ويعبر عنه بعطف الذات على الذات ﴿ هل يستويان ﴾ أي : هل يستوي الفريقان ﴿ مثلاً ﴾ أي : تشبيهاً لا يستويان ، ويصح أن يكون مثلاً صفة

لمصدر محذوف ، أي : استواء مثلاً ، وأن يكون حالاً من فاعل يستويان وقوله تعالى : ﴿ أفلا تذكّرون ﴾ فيه إدغام التاء في الأصل في الذال ، أي : تتعظون بضرب الأمثال ، والتأمّل فيها . وقرأ حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون بالتشديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 63. 77 ﴾

(147/376)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) ﴾

هذا الدرس الأول من السورة يمثل المقدمة التي يتوسط القصص بينها وبين التعقيب وهي تتضمن عرض الحقائق الأساسية في العقيدة الإسلامية : توحيد الدينونة لله الواحد بلا منازع ، وعبادة الله وحده بلا شريك ؛ والإعتقاد في البعث والقيامة للحساب والجزاء على ما كان من الناس من عمل وكسب في دار العمل والإبتلاء . . مع تعريف الناس بربهم الحق ؛ وصفاته المؤثرة في وجودهم وفي وجود الكون من حولهم ؛ وبيان حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، ومقتضاهما في حياة البشرية . وتوكيد الدينونة لله في الآخرة كالدينونة له سبحانه في الحياة الدنيا .

كذلك تتضمن هذه المقدمة بياناً لطبيعة الرسالة وطبيعة الرسول ؛ كما تتضمن تسلية وترويحاً للرسول صلى الله عليه وسلم في وجه العناد والتكذيب ، والتحدي والمكابرة ، التي كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يواجهها في الفترة العصيبة في حياة الدعوة بمكة ، كما أسلفنا في التعريف بالسورة . مع تحدي المشركين بهذا القرآن الذي يكذبون به ، أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات كما يزعمون أن هذا القرآن مفترى وتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم والقلة المؤمنة معه بهذا التحدي من الله وبذلك العجز من المشركين !

ومع هذا التحدي تهديد قاصم للمكذبين بما ينتظرهم في الآخرة من العذاب الذي يستعجلون به ويكذبون . وهم الذين لا يطيقون أن تنزع منهم رحمة الله في الدنيا ، ولا يصبرون على ابتلائه فيها وهو أيسر من عذاب الآخرة !

(148/376)

ثم يجسم هذا التهديد في مشهد من مشاهد القيامة ؛ يتمثل فيه موقف المكذبين بهذا القرآن من أحزاب المشركين ؛ ويتبين فيه عجزهم وعجز أوليائهم عن إنقاذهم من العذاب الأليم ، المصحوب بالخزي والتشهير والتنديد والتأنيب . وفي الصفحة المقابلة من المشهد . . الذين آمنوا وعملوا الصالحات وما ينتظرهم من الثواب والنعيم والتكريم . .

ومشهد مصور للفريقين على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير : ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، هل يستويان مثلاً ؟ افلا تذكرون ؟ ﴾ . .

﴿ الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ألا تعبدوا إلا الله ، إنني لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله ، وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم . وهو على كل شيء قدير ﴾ . .

إنها جملة الحقائق الإعتقادية الأساسية :

* إثبات الوحي والرسالة .

* العبودية لله وحده بلا شريك .

* جزاء الله في الدنيا والآخرة لمن يهتدون بهداه ويتبعون منهجه للحياة .

* جزاء الله في الآخرة للمكذبين ، وعودة الجميع إلى الله عصاة وطائعين .

* قدرته المطلقة وسلطانه غير المحدود .

﴿ ألف . لام . راء ﴾ : مبتدأ ، خبره : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ . . وهذا الكتاب المؤلف من مثل هذه الأحرف هو الذي يكذبون به . وهم عن شيء من مثله عاجزون !

﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ . .

أحكمت آياته ، فجاءت قوية البناء ، دقيقة الدلالة ، كل كلمة فيها وكل عبارة مقصودة ، وكل معنى فيها وكل توجيه مطلوب ، وكل إيماءة وكل إشارة ذات هدف معلوم . متناسقة لا اختلاف بينها ولا تضارب ، ومنسقة ذات نظام واحد . ثم فصلت . فهي مقسمة وفق أغراضها ، مبوبة وفق موضوعاتها ، وكل منها له حيز بمقدار ما يقتضيه .

أما من أحكمها ، ومن فصلها على هذا النحو الدقيق ؟ فهو الله سبحانه ، وليس هو الرسول :

﴿ من لدن حكيم خبير ﴾ . .

يحكم الكتاب عن حكمة ، ويفصله عن خبرة . . هكذا جاءت من لدنه ، على النحو الذي أنزل على الرسول ، لا تغيير فيها ولا تبديل .

وماذا تضمنت ؟

إنه يذكر أمهات العقيدة وأصولها :

﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ . . فهو توحيد الدينونة والعبودية والاتباع والطاعة .

﴿ إنني لكم منه نذير وبشير ﴾ . . فهي الرسالة ، وما تضمنته من نذارة وبشارة .

﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ . . فهي العودة إلى الله من الشرك والمعصية ، إلى التوحيد والدينونة .

﴿ يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ . . . فهو الجزاء للتائبين المستغفرين .

﴿ وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴾ . . فهو الوعيد للمتولين .

﴿ إلى الله مرجعكم ﴾ . . فهي الرجعة إلى الله في الدنيا والآخرة .

﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ . . فهي القدرة المطلقة والسلطان الشامل .

هذا هو الكتاب . أو هو آيات الكتاب . فهذه هي القضايا الهامة التي جاء ليقررها ويقيم عليها بناءه كله بعد تقريرها .

وما كان لدين أن يقوم في الأرض ، وأن يقيم نظاماً للبشر ، قبل أن يقرر هذه القواعد .

فتوحيد الدينونة لله وحده هو مفرق الطريق بين الفوضى والنظام في عالم العقيدة ؛ وبين تحرير البشرية من عقال الوهم والخرافة والسلطان الزائف ، أو استعبادها للأرباب المتفرقة ونزواتهم ، وللوسطاء عند الله من خلقه ! وللملوك والرؤساء والحكام الذين يغتصبون أخص خصائص الألوهية وهي الربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية فيعبّدون الناس لربوبيتهم الزائفة المغتصبة .

وما من نظام اجتماعي او سياسي أو اقتصادي أو أخلاقي أو دولي ، يمكن أن يقوم على

أسس واضحة فاصلة ثابتة ، لا تخضع للهوى والتأويلات المغرضة ، إلا حين تستقر عقيدة التوحيد هكذا بسيطة دقيقة .

(150/376)

وما يمكن أن يتحرر البشر من الذل والخوف والقلق ؛ ويستمتعوا بالكرامة الحقيقية التي أكرمهم بها الله ، إلا حين يتفرد الله سبحانه بالربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية ، ويتجرد منها العبيد في كل صورة من الصور .

وما كان الخلاف على مدار التاريخ بين الجاهلية والإسلام ؛ ولا كانت المعركة بين الحق والطاغوت ، على ألوهية الله سبحانه للكون ؛ وتصريف أموره في عالم الأسباب والنواميس الكونية : إنما كان الخلاف وكانت المعركة على من يكون هو رب الناس ، الذي يحكمهم بشرعه ، ويصرفهم بأمره ، ويدينهم بطاعته ؟

لقد كان الطواغيت المجرمون في الأرض يغتصبون هذا الحق ويزاولونه في حياة الناس ، ويذلونهم بهذا الإغتصاب لسلطان الله ، ويجعلونهم عبيداً لهم من دون الله . وكانت الرسالات والرسل والدعوات الإسلامية تجاهد دائماً لانتزاع هذا السلطان المغتصب من أيدي الطواغيت ورده إلى صاحبه الشرعي . . الله سبحانه . .

والله سبحانه غني عن العالمين . لا ينقص في ملكه شيئاً عصيان العصاة وطغيان الطغاة . ولا يزيد في ملكه شيئاً طاعة الطائعين وعبادة العابدين . . ولكن البشر هم أنفسهم الذين يذلون ويصغرون ويسفلون حين يدينون لغير الله من عباده ؛ وهم الذين يعزون ويكرمون ويستعلون حين يدينون لله وحده ، ويتحررون من العبودية للعبيد . . ولما كان الله سبحانه يريد لعباده العزه والكرامة والإستعلاء فقد أرسل رسله ليردوا الناس إلى عبادة الله وحده . وليخرجوهم من عبادة العبيد . . لخيرهم هم أنفسهم . . والله غني عن العالمين . إن الحياة البشرية لا تبلغ مستوى الكرامة الذي يريده الله للإنسان إلا بأن يعزم البشر أن يدينوا لله وحده ، وأن يخلعوا من رقابهم نير الدينونة لغير الله . ذلك النير المذل لكرامة الإنسان في أية صورة قد كان !

والدينونة لله وحده تتمثل في ربوبيته للناس وحده . والربوبية تعني القوامة على البشر ، وتصريف حياتهم بشرع وأمر من عند الله ، لا من عند أحد سواه .

وهذا ما يقرر مطلع هذه السورة الكريمة أنه موضوع كتاب الله وفحواه :

﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير : ألا تعبدوا إلا الله ﴾ . .

وهذا هو معنى العبادة كما يعرفه العرب في لغتهم التي نزل بها كتاب الله الكريم .

والإقرار بالرسالة أساس للتصديق بهذه القضايا التي جاءت الرسالة لتقريرها . وكل شك في أن هذا من عند الله ، كفيل بتحطيم احترامها الملزم في عالم الضمير . والذين يظنون أنها من عند محمد مهما أقروا بعظمة محمد لا يمكن أن تنال من نفوسهم الإحترام الملزم ، الذي يتحرجون معه أن يتفلتوا منها في الكبير أو الصغير . . إن الشعور بأن هذه العقيدة من عند الله هو الذي يطارد ضمائر العصاة حتى يثوبوا في النهاية إلى الله ، وهو الذي يمسك بضمائر الطائعين ، فلا تتلجلج ولا تتردد ولا تحيد .

كما أن الإقرار بالرسالة هو الذي يجعل هناك ضابطاً لما يريده الله من البشر . كي يتلقى البشر في كل ما يتعلق بالدينونة لله من مصدر واحد ، هو هذا المصدر .

وكي لا يقوم كل يوم طاغوت مفتر يقول للناس قولاً ، ويشرع للناس شرعاً ، ثم يزعم أنه شرع الله وأمره ! بينما هو يفتريه من عند نفسه !

وفي كل جاهلية كان يقوم من يشرع الشرائع ، ومن يقرر القيم والتقاليد والعادات . . ثم يقول : هذا من عند الله ! !

وما يحسم هذه الفوضى وهذا الإحتيال على الناس باسم الله ، إلا أن يكون هناك مصدر واحد هو الرسول لقول الله .

والإستغفار من الشرك والمعصية هو دليل حساسية القلب وانتفاضه ، وشعوره بالإثم ورغبته في التوبة . والتوبة بعد ذلك هي الإقلاع الفعلي عن الذنب ، والأخذ في مقابله في أعمال الطاعة . ولا توبة بغير هذين الدليلين ، فهما الترجمة العملية للتوبة ، وبهما يتحقق وجودها الفعلي ، الذي ترجى معه المغفرة والقبول . . فإذا زعم زاعم أنه تاب من الشرك ودخل في الإسلام ، بينما هو لا يدين لله وحده ، ولا يتلقى منه وحده عن طريق نبيه ؛ فلا قيمة لهذا الزعم الذي يكذبه واقع الدينونة لغير الله . .

والبشرى للتائبين والوعيد للمتولين هما قوام الرسالة ، وقوام التبليغ . وهما عنصرا الترغيب والترهيب ، اللذان علم الله من طبيعة البشر أنهما الحافز القوي العميق ! . .

والإعتقاد باليوم الآخر ضروري لاكتمال الشعور بأن وراء الحياة حكمة ، وأن الخير الذي تدعو إليه الرسالات هو غاية الحياة ؛ ومن ثم لا بد أن يلقى جزاءه ؛ فإن لم يلقه في هذه الحياة الدنيا فجزاؤه مضمون في العالم الآخر ، الذي تصل فيه الحياة البشرية إلى الكمال المقدر لها . أما الذين يزيغون عن نهج الله وحكمته في الحياة فهؤلاء يرتكسون وينتكسون إلى درك العذاب . . وفي هذا ضمان للفطرة السليمة ألا تنحرف . فإن غلبتها شهوة أو استبد بها ضعف عادت تائبة ، ولم تلج في العصيان . ومن ثم تصلح هذه الأرض لحياة البشر . وتمضي الحياة على سنتها في طريق الخير . فالإعتقاد باليوم الآخر ليس طريقاً للثواب في الآخرة

فحسب كما يعتقد بعض الناس إنما هو الحافز على الخير في الحياة الدنيا . والحافز على إصلاحها وإنمائها . على أن يراعى في هذا النماء أنه ليس هدفاً في ذاته ، إنما هو وسيلة لتحقيق حياة لائقة بالإنسان الذي نفخ الله فيه من روحه ، وكرمه على كثير من خلقه ، ورفعه عن درك الحيوان ؛ لتكون أهداف حياته أعلى من ضرورات الحيوان ؛ ولتكون دوافعه وغاياته أرفع من دوافع الحيوان وغاياته .

(153/376)

ومن ثم كان مضمون الرسالة أو مضمون آيات الكتاب المحكمة المفصلة ، بعد توحيد الدينونة لله ، وإثبات الرسالة من عنده . . الدعوة إلى الإستغفار من الشرك والتوبة . . وهما بدء الطريق للعمل الصالح . والعمل الصالح ليس مجرد طيبة في النفس وشعائر مفروضة تقام . إنما هو الإصلاح في الأرض بكل معاني الإصلاح ، من بناء وعمارة ونشاط ونماء وإنتاج.

والجزاء المشروط :

﴿ يمتعكم متاعا حسناً إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ . .

والمتاع الحسن قد يكون بالنوع كما يكون بالكم في هذه الحياة الدنيا . أما في الآخرة فهو بالنوع

والكم وبما لم يخطر على قلب بشر . فلننظر في المتاع الحسن في هذه الحياة .

إننا نشاهد كثيراً من الطيبين الصالحين ، المستغفرين التائبين ، العاملين في الحياة . . مضيقاً عليهم في الرزق . فأين إذن هو المتاع الحسن ؟

وهو سؤال نعتقد أنه يتحرك على ألسنة الكثيرين !

ولا بد لإدراك المعنى الكبير الذي يتضمنه النص القرآني أن ننظر إلى الحياة من زاوية أوسع ، وننظر إليها في محيطها الشامل العام ، ولا نقتصر منها على مظهر عابر .

إنه ما من جماعة يسود فيها نظام صالح ، قائم على الإيمان بالله ، والدينونة له وحده ، وإفراده بالربوبية والقوامة ، وقائم على العمل الطيب المنتج في الحياة . . إلا كان لها التقدم والرخاء والحياة الطيبة بصفة عامة كجماعة ؛ وإلا ساد فيها العدل بين الجهد والجزاء والرضى والطمأنينة بالقياس إلى الأفراد بصفة خاصة . فإذا شاهدنا في جماعة ما أن الطيبين العاملين المنتجين مضيق عليهم في الرزق والمتاع الطيب ، فذلك شاهد على أن هذه الجماعة لا يسودها النظام المستمد من الإيمان بالله ، القائم على العدل بين الجهد والجزاء .

على أن الأفراد الطيبين الصالحين المنتجين في هذه الجماعة يمتعون متاعاً حسناً ، حتى لو ضيق عليهم في الرزق ، وحتى لو كانت الجماعة تطاردهم وتؤذيهم ، كما كان المشركون يؤذون القلة المؤمنة ، وكما تؤذي الجاهليات القلة الداعية إلى الله . وليس هذا خيالاً وليس ادعاء . فطمأنينة القلب إلى العاقبة ، والإتصال بالله ، والرجاء في نصره وفي إحسانه وفضله . . عوض عن كثير ؛ ومتاع حسن للإنسان الذي يرتفع درجة عن الحس المادي الغليظ .

ولا نقول هذا لندعو المظلومين الذين لا يجدون جزاء عادلاً على جهدهم إلى الرضى بالأوضاع المنافية للعدالة . فالإسلام لا يرضى بهذا ، والإيمان لا يسكت على مثل تلك الأوضاع . والجماعة المؤمنة مطالبة بإزالتها وكذلك الأفراد ، ليتحقق المتاع الحسن للطيبين العاملين المنتجين . إنما نقوله لأنه حق يحس به المؤمنون المتصلون بالله ، المضيق عليهم في الرزق ، وهم مع هذا يعملون ويجاهدون لتحقيق الأوضاع التي تكفل المتاع الحسن لعباد الله المستغفرين التائبين بهدى الله .

﴿ ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ . .

خصصها بعض المفسرين بجزاء الآخرة . وأرى أنها عامة في الدنيا والآخرة ، على النحو الذي فسرنا به المتاع الحسن في الدنيا ؛ وهو متحقق في جميع الأحوال . وذو الفضل يلقى جزاءه في اللحظة التي يبذل فيها الفضل . يجده رضى نفسياً وارتياحاً شعورياً ، واتصالاً

بالله وهو يبذل الفضل عملاً أو مالاً متجهاً به إلى الله. أما جزاء الله له بعد ذلك فهو فضل من الله وسماحة فوق الجزاء.

﴿ وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴾ . .

هو عذاب يوم القيامة. لا عذاب يوم بدر كما يقول بعض المفسرين. فاليوم الكبير حين يطلق هكذا ينصرف إلى اليوم الموعود. ويقوي هذا ما بعده:

﴿ إلى الله مرجعكم ﴾ .

وإن كان المرجع إلى الله في الدنيا والآخرة وفي كل لحظة وفي كل حالة. ولكن جرى التعبير القرآني على أن المرجع هو الرجعة بعد الحياة الدنيا . .

﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ . .

وهذه كذلك تقوّي هذا المعنى، لأن التلويح بالقدرة على كل شيء، مناسب للبعث الذي كانوا يستبعدونه ويستصعبونه!

وبعد إعلان خلاصة الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . .

يمضي السياق يعرض كيف يتلقى فريق منهم تلك الآيات، عندما يقدمها لهم النذير البشير

، ويصور الوضع الحسي الذي يتخذونه والحركة المادية المصاحبة له وهي إحناء رؤوسهم وثني صدورهم للتخفي . ويكشف عن العبث في تلك المحاولة وعلم الله يتابعهم في أخفى أوضاعهم ؛ وكل دابة في الأرض مثلهم يشملها العلم اللطيف الدقيق :

﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه . ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور . وما من دآبة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها . كل في كتاب مبين ﴾ . .

والآيتان الكريمتان تستحضران مشهداً فريداً ترجف له القلوب حين تدبره وتصوره ! ويا لها من رهبة غامرة ، وروعة باهرة ، حين يتصور القلب البشري حضور الله سبحانه وإحاطة علمه وقهره ؛ بينما أولئك العبيد الضعاف يحاولون الإستخفاء منه وهم يواجهون آياته يتلوها رسوله :

﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه . ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون . إنه عليم بذات الصدور ﴾ . .

ولعل نص الآية إنما يصور حالة واقعة كانت تصدر من المشركين ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمعهم كلام الله ؛ فيثنون صدورهم ويطأطئون رؤوسهم إستخفاء من الله الذي كانوا يحسون في أعماقهم أنه قائل هذا الكلام . . وذلك كما ظهر منهم في بعض الأحيان !

ولا يكمل السياق الآية حتى يبين عبث هذه الحركة ، والله ، الذي أنزل هذه الآيات ، معهم حين يستخفون وحين يبرزون . ويصور هذا المعنى على الطريقة القرآنية في صورة مرهوبة ، وهم في موضع خفي دقيق من أوضاعهم . حين يأوون إلى فراشهم ، ويخلون إلى أنفسهم ، والليل لهم ساتر ، وأغطيتهم لهم ساتر . ومع ذلك فالله معهم من وراء هذه الأستار حاضر ناظر قاهر . يعلم في هذه الخلوه ما يسرون وما يعلنون :

﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ . .

والله يعلم ما هو أخفى . وليست أغطيتهم بساتر دون علمه . ولكن الإنسان يحس عادة في مثل هذه الخلوة أنه وحيد لا يراه أحد .

فالتعبير هكذا يلمس وجدانه ويوقظه ، ويهزه هزة عميقة إلى هذه الحقيقة التي قد يسهو عنها ، فيخيل إليه أن ليس هناك من عين تراه !

﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ . .

عليم بالأسرار المصاحبة للصدور ، التي لا تفارقها ، والتي تلزمها كما يلزم الصاحب صاحبه ، أو المالك ملكه . . فهي لشدة خفائها سميت ذات الصدور . ومع ذلك فالله بها عليم . . وإذن فما من شيء يخفى عليه ، وما من حركة لهم أو سكنة تذهب أو تضيع .

﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ؛ كل في كتاب

مبين ﴾ . .

وهذه صورة أخرى من صور العلم الشامل المرهوب . . هذه الدواب وكل ما تحرك على الأرض فهو دابة من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة . ما من دابة من هذه الدواب التي تملأ وجه البسيطة ، وتكمن في باطنها ، وتخفى في دروبها ومساربها . ما من دابة من هذه الدواب التي لا يحيط بها حصر ولا يكاد يلم بها إحصاء . . إلا وعند الله علمها . وعليه رزقها ، وهو يعلم أين تستقر وأين تكمن . من أين تجيء وأين تذهب . . وكل منها . كل من أفرادها مقيد في هذا العلم الدقيق .

إنها صورة مفصلة للعلم الإلهي في حالة تعلقه بالمخلوقات ، يرتجف لها كيان الإنسان حين يحاول تصورها بخياله الإنساني فلا يطيق .

ويزيد على مجرد العلم ، تقدير الرزق لكل فرد من أفراد هذا الحشد الذي يعجز عن تصوره الخيال . وهذه درجة أخرى ، الخيال البشري عنها أعجز إلا بإلهام من الله . .

وقد أوجب الله سبحانه على نفسه مختاراً أن يرزق هذا الحشد الهائل الذي يدب على هذه الأرض . فأودع هذه الأرض القدرة على تلبية حاجات هذه المخلوقات جميعاً ،

وأودع هذه المخلوقات القدرة على الحصول على رزقها من هذا المودع في الأرض في صورة من صوره. ساذجاً خامة، أو منتجاً بالزرع، أو مصنوعاً، أو مركباً.. إلى أخر الصور المتجددة لإنتاج الرزق وإعداده. حتى إن بعضها ليتناول رزقه دماً حياً مهضوماً ممثلاً كالبعوضة والبرغوث!!

وهذه هي الصورة اللائقة بحكمة الله ورحمته في خلق الكون على الصورة التي خلقه بها؛ وخلق هذه المخلوقات بالإستعدادات والمقدرات التي أوتيتها. وبخاصة الإنسان. الذي استخلف في الأرض، وأوتي القدرة على التحليل والتركيب، وعلى الإنتاج والإنماء، وعلى تعديل وجه الأرض، وعلى تطوير أوضاع الحياة؛ بينما هو يسعى لتحصيل الرزق، الذي لا يخلقه هو خلقاً، وإنما ينشئه مما هو مذخور في هذا الكون من قوى وطاقات أودعها الله؛ بمساعدة النواميس الكونية الإلهية التي تجعل هذا الكون يعطي مدخراته وأقواته لكافة الأحياء!

وليس المقصود ان هناك رزقاً فردياً مقدراً لا يأتي بالسعي، ولا يتأخر بالقعود، ولا يضيع بالسلبية والكسل، كما يعتقد بعض الناس! وإلا فأين الأسباب التي أمر الله بالأخذ بها، وجعلها جزءاً من نواميسه؟ وأين حكمة الله في إعطاء المخلوقات هذه المقدرات والطاقات؟ وكيف تترقى الحياة في مدارج الكمال المقدر لها في علم الله، وقد استخلف

عليها الإنسان ليؤدي دوره في هذا المجال ؟

إن لكل مخلوق رزقاً .

(158/376)

هذا حق . وهذا الرزق مذخور في هذا الكون . مقدر من الله من سننه التي ترتب النتاج على الجهد . فلا يقعدن أحد عن السعي وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . ولكن السماء والأرض تزخران بالأرزاق الكافية لجميع المخلوقات . حين تطلبها هذه المخلوقات حسب سنة الله التي لا تحابي أحداً ، ولا تتخلف أو تحيد .

إنما هو كسب طيب وكسب خبيث ، وكلاهما يحصل من عمل وجهد . إلا أنه يختلف في النوع والوصف . وتختلف عاقبة المتاع بهذا وذاك .

ولا ننسى المقابلة بين ذكر الدواب ورزقها هنا ؛ وبين المتاع الحسن الذي ذكر في التبليغ الأول . والسياق القرآني المحكم المتناسق لا تفوته هذه اللفتات الأسلوبية والموضوعية ، التي تشارك في رسم الجو في السياق .

وها تان الآيتان الكريمتان هما بدء تعريف الناس بربهم الحق الذي عليهم أن يدينوا له وحده . أي أن يعبدوه وحده . فهو العالم المحيط علمه بكل خلقه ، وهو الرازق الذي لا يترك

أحداً من رزقه . وهذه المعرفة ضرورية لعقد الصلة بين البشر وخالقهم ؛ ولتعبيد البشر للخالق الرازق العليم المحيط .

ثم يمضي السياق في تعريف البشر بربهم ، وإطلاعهم على آثار قدرته وحكمته . في خلق السماوات والأرض بنظام خاص في أطوار أو آماد محكمة ؛ لحكمة كذلك خاصة . يبرز منها السياق هنا ما يناسب البعث والحساب و العمل والجزاء :

﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ، ليبلوكم أيكم أحسن عملاً . ولئن قلت : إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين ﴾ . .

وخلق السماوات والأرض في ستة أيام تحدثنا عنه في سورة يونس . . وهو يساق هنا للربط بين النظام الذي يقوم عليه الكون والنظام الذي تقوم عليه حياة الناس .

﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ .

والجديد هنا في خلق السماوات والأرض هو الجملة المعترضة : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ وما تفيده من أنه عند خلق السماوات والأرض أي إبرازهما إلى الوجود في شكلهما

الذي إنتهيا إليه كان هناك الماء ؛ وكان عرش الله سبحانه على الماء . .

أما كيف كان هذا الماء ، وأين كان ، وفي أية حالة من حالاته كان . وأما كيف كان عرش الله على هذا الماء . . فزيادات لم يتعرض لها النص ، وليس لمفسر يدرك حدوده أن يزيد شيئاً على مدلول النص ، في هذا الغيب الذي ليس لنا من مصدر لعلمه إلا هذا النص وفي حدوده .

وليس لنا أن نتلمس للنصوص القرآنية مصداقاً من النظريات التي تسمى " العلمية " حتى ولو كان ظاهر النص يتفق مع النظرية وينطبق فالنظريات " العلمية " قابلة دائماً للإنقلاب رأساً على عقب ، كلما اهتدى العلماء إلى فرض جديد ، وامتحنوه فوجدوه أقرب إلى تفسير الظواهر الكونية من الفرض القديم الذي قامت عليه النظرية الأولى . والنص القرآني صادق بذاته ، اهتدى العلم إلى الحقيقة التي يقررها أم لم يهتد . وفرق بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية . فالحقيقة العلمية قابلة للتجربة وإن كانت دائماً احتمالية وليست قطعية أما النظرية العلمية فهي قائمة على فرض يفسر ظاهرة كونية أو عدة ظواهر ، وهي قابلة للتغيير والتبديل والانقلاب . . ومن ثم لا يحمل القرآن عليها ولا تحمل هي على القرآن ، فلها طريق غير طريق القرآن . ومجال غير مجال القرآن .

وتلمسُ موافقات من النظريات " العلمية " للنصوص القرآنية هو هزيمة لجدية الإيمان بهذا القرآن واليقين بصحة ما فيه ، وأنه من لدن حكيم خبير . هزيمة ناشئة من الفتنة " بالعلم " وإعطائه أكثر من مجاله الطبيعي الذي لا يصدق ولا يوثق به إلا في دائرته . فلينتبه إلى دبيب الهزيمة في نفسه من يحسب أنه بتطبيق القرآن على " العلم " يخدم القرآن ويخدم العقيدة ، ويثبت الإيمان ! إن الإيمان الذي ينتظر كلمة العلم البشري المتقلبة ليثبت لهو إيمان يحتاج إلى إعادة النظر فيه ! إن القرآن هو الأصل والنظريات العلمية توافقه أو تخالفه سواء . أما الحقائق العلمية التجريبية فمجالها غير مجال القرآن . وقد تركها القرآن للعقل البشري يعمل فيها بكامل حريته ، ويصل إلى النتائج التي يصل إليها بتجاربه ، ووكل نفسه بتربية هذا العقل على الصحة والإستقامة والسلامة ، وتحريره من الوهم والأسطورة والخرافة . كما عمل على إقامة نظام للحياة يكفل لهذا العقل أن يستقيم ، وأن يتحرر ، وأن يعيش في سلام ونشاط . . ثم تركه بعد ذلك يعمل في دائرته الخاصة . ويصل إلى الحقائق الجزئية الواقعية بتجاربه . ولم يتعرض لذكر شيء من الحقائق العلمية إلا نادراً . مثل أن الماء أصل الحياة والعنصر المشترك في جميع الأحياء . ومثل أن جميع الأحياء أزواج حتى النبات الذي يلقح من نفسه فهو يحتوي على خلايا التذكير والتأنيث . . . وأمثال هذه الحقائق . التي صرحت بها النصوص القرآنية .

ونعود من هذا الإستطراد إلى النص القرآني تتملاه في مجاله الأصيل . مجال بناء العقيدة وتصريف الحياة :

﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ . .

خلق السماوات والأرض في ستة أيام . . وهنا فقرات كثيرة محذوفة يشير إليها ما بعدها فيغني عنها . . خلقها في هذا الأمد ، لتكون صالحة ومجهزة لحياة هذا الجنس البشري ، وخلقكم وسخر لكم الأرض وما يفيدكم من السماوات .

(161/376)

. وهو سبحانه مسيطر على الكون كله . . ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ . .

والسياق يظهر كأن خلق السماوات والأرض في ستة أيام مع سيطرة الله سبحانه على مقاليده كان من أجل ابتلاء الإنسان . ليعظم هذا الإبتلاء ويشعر الناس بأهميتهم وبجدية ابتلائهم .

وكما جهز الخالق هذه الأرض وهذه السماوات بما يصلح لحياة هذا الجنس ، جهز هذا الجنس كذلك باستعدادات وطاقات ؛ وبنى فطرته على ذات القانون الذي يحكم الكون ؛

وترك له جانباً إختيارياً في حياته ، يملك معه أن يتجه إلى الهدى فيعينه الله عليه ويهديه ، أو أن يتجه إلى الضلال فيمد الله له فيه ، وترك الناس يعملون ، ليبلوهم أيهم أحسن عملاً . يبلوهم لا للعلم فهو يعلم . ولكن يبلوهم ليظهر المكنون من أفعالهم ، فيتلقوا جزاءهم عليها كما اقتضت إرادة الله وعدله .

ومن ثم يبدو التكذيب بالبعث والحساب والجزاء عجيباً غريباً في هذا الجو . بعدما يذكر أن الإبتلاء مرتبط بتكوين السماوات والأرض . أصيل في نظام الكون وسنن الوجود . ويبدو المكذبون به غير معقولين وغير مدركين للحقائق الكبيرة في تكوين هذا الوجود ، وهم يعجبون لهذه الحقائق وبها يفاجأون :

﴿ ولئن قلت : إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين ﴾ . .

فما أعجبها قولة ، وما أغربها ، وما أكذبها في ظل هذا البيان الذي تقدمها !

شأنهم في التكذيب بالبعث ، وجهلهم بارتباطه بناموس الكون ، هو شأنهم في مسألة العذاب الدنيوي ، فهم يستعجلونه ويتساءلون عن سبب تأخيره ، إذا ما اقتضت الحكمة الأزلية أن يتأخر عنهم فترة من الوقت :

﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن : ما يحبسه ؟ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ﴾ .

لقد كانت القرون الأولى تهلك بعذاب من عند الله يستأصلها ، بعد أن يأتيهم رسولهم بالخوارق التي يطلبونها ثم يمضون هم في التكذيب . ذلك أنها كانت رسالات مؤقتة لأمة من الناس ، ولجيل واحد من هذه الأمة . والمعجزة كذلك لا يشهدها إلا هذا الجيل ، ولا تبقى لتشاهدها أجيال أخرى لعلها تؤمن بها أكثر مما آمن الجيل الذي شهدها أول مرة .

فأما الرسالة المحمدية فقد كانت خاتمة الرسالات ، ولجميع الأقوام وجميع الأجيال ، وكانت المعجزة التي صاحبتها معجزة غير مادية ، فهي قابلة للبقاء ، قابلة لأن تتدبرها أجيال وأجيال ، وتؤمن بها أجيال وأجيال ، ومن ثم اقتضت الحكمة ألا تؤخذ هذه الأمة بعذاب الإستئصال . وأن يقع العذاب على أفراد منها في وقت معلوم . . وكذلك كان الحال في الأمم الكتابية قبلها من اليهود والنصارى ، فلم يعم فيهم عذاب الإستئصال .

ولكن المشركين في جهلهم بنواميس الله الخالصة بخلق الإنسان على هذا النحو من القدرة على الإختيار والإتجاه ؛ وخلق السماوات والأرض على نحو يسمح له بالعمل والنشاط والبلاء ينكرون البعث .

وفي جهلهم بسنن الله في الرسالات والمعجزات والعذاب يتساءلون إذا ما أخر عنهم إلى أمة

من السنوات أو الأيام أي مجموعة منها ما يحبسه ؟ وما يؤخره ؟ فلا يدركون حكمة الله ولا رحمته . وهو يوم يأتيهم لا يصرف عنهم ، بل يحيط بهم ، جزاء لاستهزائهم الذي يدل عليه سؤالهم واستهتارهم :

﴿ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

إن عذاب الله لا تستعجله نفس مؤمنة ولا نفس جادة . وإذا ما أبطأ فهي حكمة ورحمة . ليؤمن من يتهيأ للإيمان .

وفي فترة التأجيل التي صرف الله العذاب فيها عن مشركي قريش ، كم آمن منهم من رجال حسن إسلامهم وأبلوا أحسن البلاء . وكم ولد لكفارهم من ذرية نشأت فيما بعد في الإسلام . . وهذه وتلك بعض الحكم الظاهرة والله يعلم ما بطن . ولكن البشر القاصرين العجولين لا يعلمون . .

وبمناسبة استعجال العذاب يجول السياق جولة في نفس هذا المخلوق الإنساني العجيب ، الذي لا يثبت ولا يستقيم إلا بالإيمان :

﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد

ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عني ، إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ . .

إنها صورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر ، الذي يعيش في لحظته الحاضرة ، ويطغى عليه ما يلابسه ؛ فلا يتذكر ما مضى ولا يفكر فيما يلي . فهو يؤوس من الخير ، كفور بالنعمة بمجرد أن تنزع منه . مع أنها كانت هبة من الله له . وهو فرح بطر بمجرد أن يجاوز الشدة إلى الرخاء . لا يحتمل في الشدة ويصبر ويؤمل في رحمة الله ويرجو فرجه ؛ ولا يقتصد في فرحه وفخره بالنعمة أو يحسب لزوالها حساباً . .

﴿ إلا الذين صبروا ﴾ . .

صبروا على النعمة كما صبروا على الشدة ، فإن كثيراً من الناس يصبرون على الشدة تجلداً وإباء أن يظهر عليهم الضعف والخور ، ولكن القلة هي التي تصبر على النعمة فلا تغتر ولا تبطر . .

﴿ وعملوا الصالحات ﴾ . .

في الحالين . في الشدة بالاحتمال والصبر ، وفي النعمة بالشكر والبر .

﴿ أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ . .

بما صبروا على الضراء وبما شكروا في السراء .

إن الإيمان الجاد المتمثل في العمل الصالح هو الذي يعصم النفس البشرية من اليأس الكافر في

الشدة ؛ كما يعصمها من البطر الفاجر في الرخاء . وهو الذي يقيم القلب البشري على سواء في البأساء والنعماء ؛ ويربطه بالله في حاليه ، فلا يتهافت تحت مطارق البأساء . ولا يتنفج ويتعالى عندما تغمره النعماء . . وكلا حالي المؤمن خير . وليس ذلك إلا للمؤمن كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أولئك الجاهلون بحكمة الخلق وبسنن الكون وهم أفراد من هذا الإنسان القاصر الغافل اليؤوس الكفور الفرح الفخور الذين لا يدركون حكمة إرسال الرسل من البشر فيطلبون أن يكون ملكاً أو أن يصاحبه ملك ؛ ولا يقدرون قيمة الرسالة فيطلبون أن يكون للرسول كنز ! . . أولئك المكذبون المعاندون الذين يلجون في التكذيب والعناد . . ما تراك صانعاً معهم أيها الرسول ؟

﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا : لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك . إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴾ . .

ولعل هنا تحمل معنى الإستفهام . وهو ليس استفهاماً خالصاً ، إنما يتلبس به أن المتوقع من النفس البشرية أن تضيق صدراً بهذا الجهل ، وبهذا التعنت ، وبهذه الإقتراحات السخيفة

التي تكشف عن بعد كامل عن إدراك طبيعة الرسالة ووظيفتها . فهل سيضيق صدرك يا محمد وهل سيحملك هذا الضيق على أن تترك بعض ما أنزل إليك فلا تبلغه لهم ، كي لا يقابلوه بما اعتادوا أن يقابلوا به نظائره فيما أخبرتهم من قبل ؟

كلا . لن تترك بعض ما يوحى إليك ولن يضيق به صدرك من قولهم هذا :

﴿ إنما أنت نذير ﴾ . .

فواجبك كله أن تنذرهم وأبرز صفة النذير هنا لأن المقام يستوجبها مع أمثال هؤلاء فأد واجبك :

﴿ والله على كل شيء وكيل ﴾ . .

فهو الموكل بهم ، يصرفهم كيف يشاء وفق سنته ، ويحاسبهم بعد ذلك على ما يكسبون . ولست أنت موكلاً بكفرهم أو إيمانهم . إنما أنت نذير .

وهذه الآية تشي بجو تلك الفترة الحرجة في تاريخ الدعوة ؛ وما كان يعتور صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الضيق . كما تشي بثقل المواجهة للجاهلية المتمردة المعاندة ، في الوقت الذي هلك فيه العشير والنصير ؛ وغمرت الوحشة قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغشى الكرب على قلوب المؤمنين القلائل في هذه الجاهلية المحيطة . .

ومن بين كلمات الآية نحس جواً مكروباً تتنزل فيه هذه الكلمات الربانية بالبشاشة ، وتسكب فيه الطمأنينة ، وتريح الأعصاب والقلوب !

وقولة أخرى يقولونها . وقد قالوها مرارا : إن هذا القرآن مفترى . فتحدّهم إذن أن يفتروا عشر سور كسوره ، وليستعينوا بمن يشاءون في هذا الإفتراء :

﴿ أم يقولون افتراه ؟ قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات . وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ . .

ولقد سبق أن تحداهم بسورة واحدة في سورة يونس ، فما التحدي بعد ذلك بعشر سور ؟ قال المفسرون القدامى : إن التحدي كان على الترتيب : بالقرآن كله ، ثم بعشر سور ، ثم بسورة واحدة . ولكن هذا الترتيب ليس عليه دليل . بل الظاهر أن سورة يونس سابقة والتحدي فيها بسورة واحدة ، وسورة هود لاحقة والتحدي فيها بعشر سور .

وحقيقة إن ترتيب الآيات في النزول ليس من الضروري أن يتبع ترتيب السور . فقد كانت تنزل الآية فتلحق بسورة سابقة أو لاحقة في النزول . إلا أن هذا يحتاج إلى ما يثبته . وليس في أسباب النزول ما يثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود . والترتيب التحكمي في مثل هذا لا يجوز .

ولقد حاول السيد رشيد رضا في تفسير المنار أن يجد لهذا العدد ﴿ عشر سور ﴾ علة

، فأجهد نفسه طويلاً رحمة الله عليه ليقول : إن المقصود بالتحدي هنا هو القصص القرآني ، وأنه بالإستقراء يظهر أن السور التي كان قد نزل بها قصص مطول إلى وقت نزول سورة هود كانت عشراً . فتحداهم بعشر . . لأن تحديهم بسورة واحدة فيه يعجزهم أكثر من تحديهم بعشر نظراً لتفرق القصص وتعدد أساليبه ، واحتياج المتحدي إلى عشر سور كالتي ورد فيها ليتمكن من المحاكاة إن كان سيحاكي . . إلخ .

ونحسب والله أعلم أن المسألة أيسر من كل هذا التعقيد . وأن التحدي كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول ، لأن القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة مواجهة واقعة محددة . فيقول مرة : ائتوا بمثل هذا القرآن . أو ائتوا بسورة ، أو بعشر سور . دون ترتيب زمني . لأن الغرض كان هو التحدي في ذاته بالنسبة لأي شيء من هذا القرآن . كله أو بعضه أو سورة منه على السواء . فالتحدي كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره . والعجز كان عن النوع لا عن المقدار . وعندئذ يستوي الكل والبعض والسورة . ولا يلزم ترتيب ، إنما هو مقتضى الحالة التي يكون عليها المخاطبون ، ونوع ما يقولون عن هذا القرآن في هذه الحالة . فهو الذي يجعل من المناسب أن يقال سورة أو عشر سور أو هذا القرآن . ونحن اليوم لا نملك تحديد

الملابسات التي لم يذكرها لنا القرآن .

﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ . .

ادعوا شركاءكم وفصحاءكم وبلغاءكم وشعراءكم وجنكم وإنسكم . وأتوا بعشر سور فقط مفتريات ، إن كنتم صادقين في أن هذا القرآن مفترى من دون الله !

﴿ فإن لم يستجيبوا لكم ﴾ . .

ولم يقدروا على افتراء عشر سور ، لأنهم عاجزون عن أن يقدموا لكم عوناً في هذه المهمة المتعذرة ! وعجزتم أنتم بطبيعة الحال ، لأنكم لم تدعوهم لتستعينوا بهم إلا بعد عجزكم !

﴿ فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ﴾ . .

فهو وحده القادر على أن ينزله ، وعلم الله وحده هو الكفيل بأن ينزله على هذا النحو الذي نزل به ، متضمناً ما تضمنه من دلائل العلم الشامل بسنن الكون وأحوال البشر ، وماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وما يصلح لهم في نفوسهم وفي معاشهم . .

﴿ وأن لا إله إلا هو ﴾ . .

فهذا مستفاد كذلك من عجز آلهتكم عن تلبيتكم في تأليف عشر سور كالتي أنزلها الله .

فلا بد أن يكون هناك إله واحد هو القادر على تنزيل هذا القرآن .

ويعقب على هذا التقرير الذي لا مفر من الإقرار به بسؤال لا يحتمل إلا جواباً واحداً عند غير المكابرين المتعنتين . سؤال :

﴿ فهل أنتم مسلمون؟ ﴾ .

بعد هذا التحدي والعجز ودلالته التي لا سبيل إلى مواجهتها بغير التسليم؟ .

ولكنهم ظلوا بعدها يكابرون ! ! !

لقد كان الحق واضحاً ولكنهم كانوا يخافون على ما يتمتعون به في هذه الحياة الدنيا من منافع وسلطان ، وتعبيد للناس كي لا يستجيبوا لداعي الحرية والكرامة والعدل والعزة . . داعي لا إله إلا الله . . لهذا يعقب السياق بما يناسب حالهم ويصور لهم عاقبة أمرهم فيقول :

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون ﴾ . .

إن للجهد في هذه الأرض ثمرته . سواء تطلع صاحبه إلى أفق أعلى أو توجه به الى منافعه القريبة وذاته المحدودة . فمن كان يريد الحياة الدنيا و زينتها فعمل لها وحدها ، فإنه يلقى نتيجة عمله في هذه الدنيا ؛ ويتمتع بها كما يريد في أجل محدود ولكن ليس له في الآخرة إلا النار ، لأنه لم يقدم للآخرة شيئاً ، ولم يحسب لها حساباً ، فكل عمل الدنيا يلقاه في الدنيا .

ولكنه باطل في الآخرة لا يقام له فيها وزن وحابط (من حبطت الناقة إذا انتفخ بطنها من المرض) وهي صورة مناسبة للعمل المنتفخ المتورم في الدنيا وهو مؤد إلى الهلاك !

ونحن نشهد في هذه الأرض أفراداً اليوم وشعوباً وأمماً تعمل لهذه الدنيا ، وتنال جزاءها فيها . ولدنياها زينة ، ولدنياها انتفاخ ! فلا يجوز أن نعجب ولا أن نسأل : لماذا ؟ لأن هذه هي سنة الله في هذه الأرض : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾ .

ولكن التسليم بهذه السنة ونتائجها لا يجوز أن ينسينا أن هؤلاء كان يمكن أن يعملوا نفس ما عملوه ونفوسهم تتطلع للآخرة وتراقب الله في الكسب والمتاع فينالوا زينة الحياة الدنيا لا يبخسون منها شيئاً ، وينالوا كذلك متاع الحياة الأخرى .

إن العمل للحياة الأخرى لا يقف في سبيل العمل للحياة الدنيا . بل إنه هو هو مع الإتجاه إلى الله فيه . ومراقبة الله في العمل لا تقلل من مقداره ولا تنقص من آثاره ؛ بل تزيد وتبارك الجهد والثمر ، وتجعل الكسب طيباً والمتاع به طيباً ، ثم تضيف إلى متاع الدنيا متاع الآخرة . إلا أن يكون الغرض من متاع الدنيا هو الشهوات الحرام . وهذه مردية لا في الأخرى فحسب ،

بل كذلك في الدنيا ولو بعد حين .

وهي ظاهرة في حياة الأمم وفي حياة الأفراد . وعبر التاريخ شاهدة على مصير كل أمة اتبعت الشهوات على مدار القرون .

بعد ذلك يلتفت السياق إلى موقف المشركين من رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاءه من الحق ؛ وإلى هذا القرآن الذي يشهد له بأنه على بينة من ربه ، وأنه مرسل من عنده ؛ كما يشهد له كتاب موسى من قبله . يلتفت السياق إلى هذا الحشد من الأدلة المحيطة بالنبي صلى الله عليه وسلم وبدعوته ورسالته . ذلك ليثبت بهذه الإلتفاتة قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم والقلة المؤمنة معه . ثم ليوعد الذين يكفرون به من أحزاب المشركين بالنار ؛ وليعرضهم في مشهد من مشاهد العذاب يوم القيامة يجلله الخزي والعار جزاء العتو والإستكبار ؛ وليقرر أن هؤلاء المتبجحين بالباطل ، المعاندين في الحق أعجز من أن يفلتوا من عذاب الله ؛ وأعجز من أن يجدوا لهم من دون الله أولياء . . ﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ . . وليعقد بينهم وبين المؤمنين موازنة في صورة حسية مشهودة ؛ تصور الفارق البعيد بين الفريقين في طبيعتهما ، وفي موقفهما وحالهما في الدنيا وفي الآخرة سواء :

﴿ أفمن كان على بينة من ربه ، ويتلوه شاهد منه ، ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ؟ أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ، فلا تك في مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ .

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ؛ أولئك يعرضون على ربهم ؛ ويقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وهم بالآخرة هم كافرون . أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ، وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العذاب . ما كانوا يستطيعون السمع ، وما كانوا يبصرون . أولئك الذين خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ . .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ .

مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون ؟ ﴾ . .

إن طول هذه الجملة ، وتنوع الإشارات والإيحاءات فيها ، وتنوع اللفتات والإيقاعات أيضاً . . إن هذا كله يشي بما كانت تواجهه القلة المؤمنة ، في تلك الفترة الحرجة من تاريخ الدعوة ؛ ويصور لنا حاجة الموقف إلى هذه المعركة التقريرية الإيحائية ؛ كما يصور لنا طبيعة هذا القرآن الحركية ؛ وهو يواجه ذلك الواقع ويجاهده جهاداً كبيراً .

إن هذا القرآن لا يتذوقه إلا من يخوض مثل هذه المعركة؛ ويواجه مثل تلك المواقف التي تنزل فيها ليواجهها ويوجهها. والذين يتلمسون معاني القرآن ودلالاته وهم قاعدون. يدرسونه دراسة بيانية أو فنية لا يملكون أن يجدوا من حقيقته شيئاً في هذه القعدة الباردة الساكنة؛ بعيداً عن المعركة وبعيداً عن الحركة.. إن حقيقة هذا القرآن لا تتكشف للقاعدين أبداً، وإن سره لا يتجلى لمن يؤثرون السلامة والراحة مع العبودية لغير الله، والدينونة للطاغوت من دون الله!

﴿ أفمن كان على بينة من ربه، ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة؟ أولئك يؤمنون به، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده، فلا تك في مرية منه، إنه الحق من ربك، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾..

وردت روايات شتى فيما هو المقصود بقوله تعالى: ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾.. وفي قوله تعالى: ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾. وفي عائد هذه الضمائر في: ﴿ ربه ﴾ وفي ﴿ يتلوه ﴾ وفي ﴿ منه ﴾.. وأرجحها كما يبدو لي هو أن المقصود بقوله تعالى: ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالتبعية له كل من يؤمن بما

جاء به وأن المقصود بقوله تعالى : ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ أي ويتبعه شاهد من ربه على نبوته ورسالته . وهو هذا القرآن الذي يشهد بذاته أنه وحي من الله لا يقدر عليه بشر .

﴿ ومن قبله ﴾ أي من قبل هذا الشاهد وهو القرآن ؛ ﴿ كتاب موسى ﴾ يشهد كذلك بصدق النبي صلى الله عليه وسلم سواء بما تضمنه من البشارة به ؛ أو بموافقة أصله لما جاء به محمد من بعده .

(171/376)

والذي يرجح هذا عندي هو وحده التعبير القرآني في السورة في تصوير ما بين الرسل الكرام وربهم ، من بينة يجدونها في أنفسهم ، يستيقنون معها أن الله هو الذي يوحي إليهم ، ويجدون بها ربهم في قلوبهم وجوداً مستيقناً واضحاً لا يخالجهم معه شك ولا ريبة . فنوح عليه السلام يقول لقومه : ﴿ يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ ﴾ وصالح عليه السلام يقول الكلمة ذاتها : ﴿ قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته ؟ فما تزيدونني غير تخسير ﴾ وشعيب عليه السلام يقولها كذلك : ﴿ قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً ﴾ فهو تعبير موحد عن حال

واحدة للرسل الكرام مع ربهم ، تصور حقيقة ما يجدونه في أنفسهم من رؤية قلبية مستيقنة لحقيقة الألوهية في نفوسهم ؛ ولصدق اتصال ربهم بهم عن طريق الوحي أيضاً . . وهذا التوحيد في التعبير عن الحال الواحدة مقصود قصداً في سياق السورة كما أسلفنا في التعريف بها لإثبات أن شأن النبي صلى الله عليه وسلم مع ربه ومع الوحي الذي تنزل عليه شأن سائر الرسل الكرام قبله ؛ مما يبطل دعاوى المشركين المفتراة عليه صلى الله عليه وسلم وكذلك لتثبيته هو والقلة المؤمنة معه على الحق الذي معهم ؛ فهو الحق الواحد الذي جاء به الرسل جميعاً ، والذي أسلم عليه المسلمون من أتباع الرسل جميعاً .

(172/376)

ويكون المعنى الكلي للآية : أفهذا النبي الذي تتضافر الأدلة والشواهد على صدقة وصحة إيمانه ويقينه . . حيث يجد في نفسه بينة واضحة مستيقنة من ربه . وحيث يتبعه أو يتبع يقينه هذا شاهد من ربه هو هذا القرآن الدال بخصائصه على مصدره الرباني . وحيث يقوم على تصديقه شاهد آخر قبله ، هو كتاب موسى الذي جاء إماماً لقيادة بني إسرائيل ورحمة من الله تنزلت عليهم . وهو يصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم بما تضمنه من التبشير به ، كما يصدقه بما فيه من مطابقة للأصول الإعتقادية التي يقوم عليها دين الله

كله . .

يقول : أفمن كان هذا شأنه يكون موضعاً للتكذيب والكفر والعناد كما تفعل الأحزاب التي تناوئه من شتى فئات المشركين ؟ إنه لأمر مستنكر إذن في مواجهة هذه الشواهد المتضافرة من شتى الجهات . .

ثم يعرض مواقف الذين يؤمنون بهذا القرآن والذين يكفرون به من الأحزاب ، وما ينتظر هؤلاء من جزاء في الآخرة . ويعرج على تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم والذين يؤمنون بما معه من الحق ؛ فلا يقلقهم شأن المكذبين الكافرين ، وهم كثرة الناس في ذلك الحين :

﴿ أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ، فلا تك في مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ . .

وقد وجد بعض المفسرين إشكالاً في قوله تعالى : ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ إذا كان المقصود بقوله تعالى : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ﴾ هو شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أسلفنا . . فإن ﴿ أولئك ﴾ تعني جماعة يؤمنون بهذا الوحي

وبتلك البينة . . ولا إشكال هناك . فالضمير في قوله تعالى ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ يعود على ﴿ شاهد ﴾ وهو القرآن . وكذلك الضمير في قوله تعالى ﴿ ومن قبله ﴾ فإنه يعود على القرآن كما أسلفنا . . فلا إشكال في أن يقول : ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ أي بهذا الشاهد أي بهذا القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم هو أول من آمن بما أنزل إليه ، ثم تبعه المؤمنون : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه و المؤمنون . كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . . . ﴾ كما جاء في آية البقرة . . والآية هنا تشير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتدمج معه المؤمنين الذين آمنوا بما آمن به هو وبلغهم إياه . . وهو أمر مألوف في التعبير القرآني ، ولا إشكال فيه .

﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ . .

وهو موعد لا يخلف ، والله سبحانه هو الذي قدره ودبره !

﴿ فلا تك في مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ . .

وما شك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أوحي إليه ، ولا امترى وهو على بينة من ربه ولكن هذا التوجيه الرباني عقب حشد هذه الدلائل والشواهد يشي بما كان يخالج نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم من ضيق وتعب ووحشة من جراء تجمد الدعوة وكثرة المعاندين ، تحتاج كلها إلى التسرية عنه بهذا التوجيه والتثبيت . كذلك ما كان يخالج قلوب القلة المسلمة من ضيق وكرب يحتاج إلى برد اليقين يتنزل عليهم من ربهم الرحيم .

وما أحوج طلائع البعث الإسلامي ؛ وهي تواجه مثل تلك الحال في كل مكان ؛ ويتآزر عليها الصد والإعراض ، والسخرية والإستهزاء ، والتعذيب والإيذاء ؛ والمطاردة بكل صورها المادية والمعنوية ؛ وتتضافر عليها كل قوى الجاهلية في الأرض من محلية وعالمية ؛ وتسلط عليها أبشع ألوان الحرب وأنكدها ؛ ثم تدق الطبول وتنصب الرايات لمن يحاربونها هذه الحرب ومن يطاردونها هذه المطاردة . .

ما أحوج هذه الطلائع إلى تدبر هذه الآية بكل فقرة فيها ، وبكل إشارة ، وبكل لمحة فيها وكل إيماءة ! ما أحوجها إلى اليقين الذي يحمله التوكيد الرباني الحكيم :

﴿ فلا تك في مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ . .

وما أحوجها إلى أن تجد في نفسها ظلالاً لما كان يجده الرسل الكرام صلوات الله عليهم وسلامه من بينة من ربهم ، ومن رحمة لا يخطئونها ولا يشكون فيها لحظة ؛ ومن التزام بالمضي في الطريق مهما تكن عقبات الطريق :

﴿ قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته ؟ فما تزيدونني غير تخسير ﴾ . .

إن هذه الطلائع تتصدى لمثل ما كان يتصدى له ذلك الرهط الكريم من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً وتجد من الجاهلية مثلما كانوا يجدون . . لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البشرية كلها بهذا الدين ؛ فواجهته بجاهليتها التي صارت إليها بعد الإسلام الذي جاءها به من قبل إبراهيم وإسماعيل ويعقوب والأسباط ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان ويحيى وعيسى ، وسائر النبيين !

(175/376)

إنها الجاهلية التي تعترف بوجود الله سبحانه أولا تعترف . ولكنها تقيم للناس أرباباً في الأرض يحكمونهم بغير ما أنزل الله ؛ ويشرعون لهم من القيم والتقاليد والأوضاع ما يجعل دينونتهم لهذه الأرباب لا لله . . ثم هي الدعوة الإسلامية للناس كافة أن ينحوا هذه الأرباب الأرضية عن حياتهم وأوضاعهم ومجتمعاتهم وقيمهم وشرائعهم ، وأن يعودوا إلى الله وحده يتخذونه رباً لا أرباب معه ؛ ويدينون له وحده .

فلا يتبعون إلا شرعه ونهجه ، ولا يطيعون إلا أمره ونهيه . . ثم هي بعد هذه وتلك المعركة القاسية بين الشرك والتوحيد ، وبين الجاهلية والإسلام . وبين طلائع البعث الإسلامي وهذه الطواغيت في أرجاء الأرض والأصنام !

ومن ثم لا بد لهذه الطلائع من أن تجد نفسها وموقفها كله في هذا القرآن في مثل هذا الأوان . . وهذا بعض ما نعنيه حين نقول : "إن هذا القرآن لا يتذوقه إلا من يخوض مثل هذه المعركة . ويواجه مثل تلك المواقف التي تنزل فيها ليواجهها ويوجهها ، وإن الذين يتلمسون معاني القرآن ودلالاته وهم قاعدون يدرسونه دراسة بيانية أو فنية لا يملكون أن يجدوا من حقيقته شيئًا في هذه القعدة الباردة الساكنة ، بعيداً عن المعركة ، وبعيداً عن الحركة . . . " .

ثم يمضي السياق يواجه الذين يكفرون به ؛ ويزعمون أنه مفترى من دون الله ، ويكذبون على الله سبحانه وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم ذلك في مشهد من مشاهد القيامة يعرض فيه الذين يفترون على الله الكذب . سواء بقولهم : إن الله لم ينزل هذا الكتاب ، أو بادعائهم شركاء لله . أو بدعواهم في الربوبية الأرضية وهي من خصائص الألوهية . . يجمل النص هنا الإشارة لتشمل كل ما يوصف بأنه كذب على الله .

هؤلاء يعرضون في مشهد يوم القيامة للتشهير بهم وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد . وفي الجانب الآخر المؤمنون المطمئنون إلى ربهم وما ينتظرهم من نعيم . ويضرب للفريقين مثلاً : الأعمى والأصم والبصير والسميع :

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟ أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم . ألا لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وهم بالآخرة هم كافرون . أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ، وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العذاب ، ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون . أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ، لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع . هل يستويان مثلا ؟ أفلا تذكرون ؟ ﴾ .

إن افتراء الكذب في ذاته جريمة نكراء ، وظلم للحقيقة ولمن يفتري عليه الكذب . فما بال حين يكون هذا الإفتراء على الله ؟

﴿ أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ﴾ .

إنه التشهير والتشنيع . بالإشارة : ﴿ هؤلاء ﴾ . . ﴿ هؤلاء الذين كذبوا ﴾ . . وعلى من ؟ ﴿ على ربهم ﴾ لا على أحد آخر ! إن جو الفضيحة هو الذي يرتسم في هذا المشهد ، تعقبها اللعنة المناسبة لشناعة الجريمة :

﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ .

.

يقولها الأشهاد كذلك. والأشهاد هم الملائكة والرسل والمؤمنون، أو هم الناس أجمعون.

فهو الخزي والتشهير إذن في ساحة العرض الحاشدة! أو هو قرار الله سبحانه في شأنهم إلى جانب ذلك الخزي والتشهير على رؤوس الأشهاد:

﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾..

والظالمون هم المشركون. وهم الذين يفترون الكذب على ربهم ليصدوا عن سبيل الله.

﴿ ويبغونها عوجاً ﴾..

فلا يريدون الإستقامة ولا الخطة المستقيمة، إنما يريدونها عوجاً والتواء وانحرافاً. يريدون الطريق أو يريدون الحياة أو يريدون الأمور. كلها بمعنى.. ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ ويكرر ﴿ هم ﴾ مرتين للتوكيد وتثبيت الجريمة وإبرازها في مقام التشهير.

والذين يشركون بالله سبحانه وهم الظالمون إنما يريدون الحياة كلها عوجاً حين يعدلون عن استقامة الإسلام. وما تنتج الدينونة لغير الله سبحانه إلا العوج في كل جانب من جوانب النفس، وفي كل جانب من جوانب الحياة.

إن عبودية الناس لغير الله سبحانه تنشئ في نفوسهم الذلة وقد أراد الله أن يقيمها على الكرامة. وتنشئ في الحياة الظلم والبغي وقد أراد الله أن يقيمها على القسط والعدل. وتحول جهود الناس إلى عبث في تأليه الأرباب الأرضية والطبل حولها والزمر، والنفخ فيها دائماً لتكبر حتى تملأ مكان الرب الحقيقي. ولما كانت هذه الأرباب في ذاتها صغيرة هزيلة لا يمكن أن تملأ فراغ الرب الحقيقي، فإن عبادها المساكين يظلون في نصب دائب، وهمٍّ مقعد مقيم ينفخون فيها ليل ونهار، ويسلطون عليها الأضواء والأنظار، ويضربون حولها بالدفوف والمزامير والترانيم والتسابيح، حتى يستحيل الجهد البشري كله من الإنتاج المثمر للحياة إلى هذا الكد البائس النكد وإلى هذا الهم المقعد المقيم.. فهل وراء ذلك عوج وهل وراء ذلك التواء؟!

﴿ أولئك ﴾..

البعداء المبعدون الملعونون.

﴿ لم يكونوا معجزين في الأرض ﴾..

فلم يكن أمرهم معجزاً لله، ولو شاء لأخذهم بالعذاب في الدنيا..

﴿ وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾..

ينصرونهم أو يمنعونهم من الله. إنما تركهم لعذاب الآخرة، ليستوفوا عذاب الدنيا وعذاب الآخرة:

﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾ . .

فقد عاشوا معطلي المدارك مغلقي البصائر ؛ كأن لم يكن لهم سمع ولا بصر :

﴿ وما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾ . .

﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ . .

(178/376)

وهي أفدح الخسارة ، فالذي يخسر نفسه لا يفيد شيئاً مما كسب غيرها وأولئك خسروا أنفسهم فأضاعوها في الدنيا ، لم يحسوا بكرامتهم الآدمية التي تتمثل في الإرتفاع عن الدينونة لغير الله من العبيد . كما تتمثل في الإرتفاع عن الحياة الدنيا والتطلع مع المتاع بها إلى ما هو أرقى وأسمى . وذلك حين كفروا بالآخرة ، وحين كذبوا على ربهم غير متوقعين لقاءه .

وخسروا أنفسهم في الآخرة بهذا الخزي الذي ينالهم ، وبهذا العذاب الذي ينتظرهم . .

﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ . .

غاب عنهم فلم يهتد إليهم ولم يجتمع عليهم ما كانوا يفترونه من الكذب على الله . فقد تبدد وذهب وضاع .

﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ . .

الذين لا تعدل خسارتهم خسارة . وقد أضاعوا أنفسهم دنيا وأخرى .

وفي الجانب الآخر أهل الإيمان والعمل الصالح ، المطمئنون إلى ربهم الواثقون به الساكنون إليه لا يشكون ولا يقلقون :

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وأخبتوا إلى ربهم ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ . .

والإخبات الطمأنينة والإستقرار والثقة والتسليم . . وهي تصور حال المؤمن مع ربه ، وركونه إليه واطمئنانه لكل ما يأتي به ، وهدوء نفسه وسكون قلبه ، وأمنه واستقراره ورضاه :

﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع . هل يستويان مثلاً ؟ ﴾ . .

صورة حسية تتجسم فيها حالة الفريقين . والفريق الأول كالأعمى لا يرى وكالأصم لا يسمع والذي يعطل حواسه وجوارحه عن الغاية الكبرى منها ، وهي أن تكون أدوات موصلة للقلب والعقل ، ليدرك ويتدبر فكأنما هو محروم من تلك الجوارح والحواس والفريق الثاني كالبصير يرى وكالسميع يسمع ، فيهديه بصره وسمعه .

﴿ هل يستويان مثلاً ؟ ﴾ . .

سؤال بعد الصورة المجسمة لا يحتاج إلى إجابة لأنها إجابة مقررة .

﴿ أفلا تذكّرون ﴾ .

فالقضية في وضعها هذا لا تحتاج إلى أكثر من التذكر . فهي بديهية لا تقتضي التفكير . .

وتلك وظيفة التصوير الذي يغلب في الأسلوب القرآني في التعبير . . أن ينقل القضايا التي تحتاج لجدل فكري إلى بديهيات مقررة لا تحتاج إلى أكثر من توجيه النظر والتذكير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 1850. 1868 ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) ﴾

قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ أي : لا أحد أظلم منهم لأنفسهم ؛ لأنهم افتروا على الله كذباً بقولهم لأصنامهم : هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

وقولهم: الملائكة بنات الله، وأضافوا كلامه سبحانه إلى غيره، واللفظ وإن كان لا يقتضي إلا نفي وجود من هو أظلم منهم كما يفيده الاستفهام الإنكاري، فالمقام يفيد نفي المساوي لهم في الظلم.

فالمعنى على هذا: لا أحد مثلهم في الظلم فضلاً عن أن يوجد من هو أظلم منهم، والإشارة بقوله: ﴿ أولئك ﴾ إلى الموصوفين بالظلم المتبالغ، وهو مبتدأ، وخبره ﴿ يعرضون على ربهم ﴾ فيحاسبهم على أعمالهم، أو المراد بعرضهم: عرض أعمالهم ﴿ وَيَقُولُ الأشهاد هَؤُلاء الذين كَذَبُواْ على رَبِّهِمْ ﴾ الأشهاد: هم الملائكة الحفظة، وقيل: المرسلون.

وقيل: الملائكة والمرسلون والعلماء الذين بلغوا ما أمرهم الله بإبلاغه، وقيل جميع الخلائق.

والمعنى: أنه يقول هؤلاء الأشهاد عند العرض: هؤلاء المعرضون أو المعروضة أعمالهم الذين كذبوا على ربهم بما نسبوه إليه ولم يصرّحوا بما كذبوا به، كأنه كان أمراً معلوماً عند أهل ذلك الموقف.

قوله: ﴿ أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ هذا من تمام كلام الأشهاد أي: يقولون هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ويقولون: ألا لعنة الله على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالافتراء، ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه، قاله بعد ما قال الأشهاد ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ﴾.

والأشهاد جمع شهيد ، ورجحه أبو عليّ بكثرة ورود شهيد في القرآن كقوله : ﴿ وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : 143] ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هَؤُلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] ، وقيل : هو جمع شاهد كأصحاب وصاحب ، والفائدة في قول الأشهاد بهذه المقالة المبالغة في فضيحة الكفار ، والتقريع لهم على رؤوس الأشهاد .

ثم وصف هؤلاء الظالمين الذين لعنوا بأنهم ﴿ الذين يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ أي : يمنعون من قدروا على منعه عن دين الله والدخول فيه ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي : يصفونها بالاعوجاج تنفيراً للناس عنها ، أو يبغون أهلها أن يكونوا معوجين بالخروج عنها إلى الكفر ، يقال بغيتك شرّاً : أي طلبته لك والحال أنهم ﴿ بالآخرة هُمْ كافرون ﴾ أي : يصفونها بالعوج ، والحال أنهم بالآخرة غير مصدّقين ، فكيف يصدّون الناس عن طريق الحق ، وهم على الباطل البحت ؟ وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به ، حتى كأن كفر غيرهم غير معتدّ به بالنسبة إلى عظيم كفرهم ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى الأرض ﴾ أي : ما كانوا يعجزون الله في الدنيا إن أراد عقوبتهم ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مّن دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ يدفعون عنهم ما يريده الله سبحانه من عقوبتهم ، وإنزال بأسه بهم ، وجملة ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب ﴾ مستأنفة لبيان أن تأخير العذاب

والتراخي عن تعجيله لهم ، ليكون عذاباً مضاعفاً .

وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، ويزيد ويعقوب "يضعف" مشدّداً ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع ﴾ أي : أفرطوا في إعراضهم عن الحق ، وبغضهم له ، حتى كأنهم لا يقدرون على السمع ولا يقدرون على الإبصار ، لفرط تعاميهم عن الصواب .

ويجوز أن يراد بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مّن دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ أنهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون الله ، ولا ينفعهم ذلك ، فما كان هؤلاء الأولياء يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ، فكيف ينفعونهم فيجلبون لهم نفعاً أو يدفعون عنهم ضرراً ، ويجوز أن تكون "ما" هي المدية .

والمعنى : أنه يضاعف لهم العذاب مدّة استطاعتهم السمع والبصر .

قال الفراء : ما كانوا يستطيعون السمع ، لأن الله أضلهم في اللوح المحفوظ .

وقال الزجاج : لبغضهم النبي صلى الله عليه وسلم .

وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفهموا عنه .

قال النحاس : هذا معروف في كلام العرب ، يقال : فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان : إذا

كان ثقيلاً عليه ﴿ أولئك ﴾ المتصفون بتلك الصفات ﴿ الذين خَسِرُوا أَنفُسَهُم ﴾ بعبادة غير الله .

والمعنى : اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله ، فكان خسرانهم في تجارتهم أعظم خسران ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : ذهب وضاع ما كانوا يفترون من الآلهة التي يدّعون أنها تشفع لهم ، ولم يبق بأيديهم إلا الخسران .

قوله : ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ قال الخليل وسيبويه : "لا جرم" بمعنى حق فهي عندهما بمنزلة كلمة واحدة ، وبه قال الفراء .

وروي عن الخليل والفراء أنها : بمنزلة قولك : لا بدّ ولا محالة ، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقاً .

وقال الزجاج : إن جرم بمعنى كسب : أي كسب ذلك الفعل لهم الخسران ، وفاعل كسب مضمر ، وأنّ منصوبة بجزم .

قال الأزهري : وهذا من أحسن ما نقل في هذه اللغة .

وقال الكسائي : معنى لا جرم : لا صدّ ولا منع عن أنهم في الآخرة هم الأخسرون .

وقال جماعة من النحويين : إن معنى لا جرم لا قطع قاطع ﴿ أَنَّهُمْ فِى الآخرة هُمُ الأخسرون ﴾ قالوا : والجرم : القطع ، وقد جرم النخل واجترمه : أي قطعه ، وفي هذه الآية بيان أنهم في الخسران قد بلغوا إلى حدّ يتقاصر عنه غيرهم ، ولا يبلغ إليه ، وهذه الآيات مقرّرة لما سبق من نفي المماثلة بين من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ، وبين من كان على بينة من ربه ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ أي : صدقوا بكل ما يجب التصديق به من كون القرآن من عند الله ، وغير ذلك من خصال الإيمان ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات وَأَخْبَتُواْ إلى رَبّهِمْ ﴾ أي : أنابوا إليه ، وقيل : خشعوا .

وقيل : خضعوا .

قيل : وأصل الإخبات : الاستواء في الخبث : وهو الأرض المستوية الواسعة فيناسب معنى الخشوع والاطمئنان .

قال الفراء : إلى ربهم ، ولربهم واحد ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الصالحة ﴿ أصحاب الجنة هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ .

قوله : ﴿ مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ﴾ ضرب للفريقين مثلاً وهو تشبيه فريق الكافرين بالأعمى والأصمّ ، وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع ، على أن كل فريق شبه بشيئين ، أو شبه بمن جمع بين الشيئين ، فالكافر شبه بمن جمع بين العمى والصمم ، والمؤمن شبّه بمن جمع بين السمع والبصر ، وعلى هذا تكون الواو في ﴿ والأصمّ

﴾ ، وفي ﴿ والسميع ﴾ لعطف الصفة على الصفة ، كما فى قول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام . . . والاستفهام في قوله : ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ للإنكار : يعني الفريقين ، وهذه الجملة مقرّرة لما تقدّم من قوله : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ وانتصاب مثلاً على التمييز من فاعل يستويان : أي هل يستويان حالاً وصفة ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ في عدم استوائهما ، وفيما بينهما من التفاوت الظاهر الذي لا يخفى على من له تذكر ، وعنده تفكر وتأمل ، والهمزة لإنكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين .

(184/376)

وقد أخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن ابن جريج ، في قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ قال : الكافر والمنافق ﴿ أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ فيسألهم عن أعمالهم ﴿ وَيَقُولُ الأشهاد ﴾ الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم في الدنيا ﴿ هَؤُلاء الذين كَذَبُواْ على رَبِّهِمْ ﴾ شهدوا به عليهم يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير ، عن مجاهد ، قال : " الأشهاد : الملائكة " .

وأخرج أبو الشيخ ، عن قتادة ، نحوه ، وفي الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر : سمعت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله يدني المؤمن حتى يضع كنفه ويستره من الناس ويقرّره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ، أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : ربّ أعرف ، حتى إذا قرّره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال : فإني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطي كتاب حسناته .

وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد : ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ " وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السديّ ، في قوله : ﴿ الذين يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ قال : هو محمد يعني سبيل الله ، صدّت قريش عنه الناس .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي مالك ، في قوله : ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ يعني : يرجون بمكة غير الإسلام ديناً .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى الأرض ﴾ الآية قال : أخبر الله سبحانه أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا ، فإنه قال : ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ وأما في الآخرة فإنه قال ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ * خاشعة ﴾ [القلم : 42 ، 43] .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع ﴾ قال : ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا خيراً فينتفعوا به ، ولا يبصروا خيراً فيأخذوا به .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ *أخبتوا ﴾ قال : خافوا .

وأخرج ابن جرير ، عنه ، قال : الإخبات : الإنابة .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، قال الإخبات : الخشوع والتواضع .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، قال : اطمأنوا .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم ﴾ قال : الكافر ﴿ والبصير والسميع ﴾ قال : المؤمن . انتهى انتهى . اهـ

﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(186/376)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ الر ﴾ إشارة إلى الله ، واللام الى جبرائيل ، والراء إلى الرسول . يعني ما أنزل الله على لسان جبرائيل إلى الرسول كتاب مبين من لدن حكيم خبير كقوله : ﴿ وعلمناه من لدنا ﴾ [الكهف : 65] ورأس العلم اللدني أن تقول لأمتك يا محمد ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله وأن استغفروا ربكم ﴾ مما ضاع من عمركم في غير طلب الله ﴿ ثم توبوا ﴾ ارجعوا ﴿ إليه ﴾ بقدم السلوك لتكون التوبة تحلية لكم بعد التزكية بالاستغفار . ﴿ يمتعكم متاعاً حسناً ﴾ هو الترقي في المقامات العلية ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ هو حين انقضاء المقامات وابتداء درجات الوصول ﴿ ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ أي يؤت كل ذي صدق واجتهاد في الطلب درجات الوصول ، فإن المشاهدات بقدر المجاهدات .

والحاصل أن المتاع الحسن في مراتب السير إلى الله وإيتاء الفضل في درجات السير في الله .

﴿ عذاب يوم كبير ﴾ هو عذاب الانقطاع عن الله الكبير ﴿ ألا حين يستغشون ﴾ ثياب الجسمية على وجه الروح كان ﴿ يعلم ما يسرون ﴾ من حرمان النور المرشش ومن نقص الحرمان تحت ثياب القالب ﴿ وما يعلنون ﴾ من ثني الصدور ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بما في الصدور من القلوب الظلمانية . ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ لأن كل حيوان له صفة مخصوصة ومزاج مخصوص وغذاؤه يجب أن يكون ملائماً لمزاجه . فعلى ذمة كرم الله أنه كما خلق أجسادها على الأمزجة المتعينة يخلق غذاءها موافقاً لمزاج كل منها ، ثم يهديها إلى ما هو أوفق لها ﴿ ويعلم مستقرها ﴾ في العدم كيف

قدرها مستعدة للصور المختصة بها ﴿ ومستودعها ﴾ الذي تؤول إليه عند ظهور ما فيها بالقوة إلى الفعل . ﴿ ليبلوكم ﴾ فإن العالم بما فيه محل الابتلاء ومحك السعداء والأشقاء . ﴿ ولئن قلت ﴾ للأشقياء موتوا عن الطبيعة باستعمال الشريعة ومزاولة الطريقة لتحيوا بالحقيقة فإن الحياة الحقيقية تكون بعد الموت عن الحياة الطبيعية ﴿ ليقولن الذين كفروا ﴾ ستروا حسن استعدادهم الفطري بتعلق

(187/376)

الشهوات الفانية ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ أي كلام مموه لا أصل له . ﴿ ولئن أخرنا عنهم ﴾ عذاب البعد ﴿ إلى أمة ﴾ إلى حين ظهور ذوق العذاب فإن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 15.14 ﴾

(188/376)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا

وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (27) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تم ذلك على أوضح المسالك ، وختم بالحث على التذكر ، وكان تقديم ذكر كتاب موسى محركاً لتوقع ذكر نبئه ونبأ غيره من الرسل ، عطف - مقروناً بحرف التوقع على العامل الذي قدرته في قوله : ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ أو على قوله : ﴿ إنما أنت نذير ﴾ وهو أحسن وأقرب - قوله : ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ نوحاً إلى قومه ﴾ أي الذين هم على لسانه ؛ وما بعد ذلك من القصص تقريراً لمضمون هذا المثل وتثبيتاً وتسلية وتأييداً وتعزية لهذا النبي الكريم لئلا يضيق صدره بشيء مما أمر بإبلاغه حرصاً على إيمان أحد وإن كان أقرب الخلائق إليه وأعزهم عليه كما تقدمت الإشارة إليه في قوله تعالى : ﴿ فلا يكن في صدرك حرج منه ﴾ وقوله : ﴿ وضائق به صدرك ﴾ ويأتي في قوله : ﴿ وكلاًّ نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ فوضح أن هذه القصص لهذا المعنى سيقت ، وأن سياقها في الأعراف وغيرها كان لغير ذلك كما تقدم وأن تضمن هذا الغرض بيان إهلاك من كانوا أشد من العرب قوة وأكثر جمعاً وأمكن أمراً وأقوى عناداً وأعظم فساداً وأحدّ شوكة وما اتفق في ديارهم من الطامات والأهوال المفظعات تحذيراً

من مثل حالهم بارتكاب أفعالهم ، ففرق بين ما يساق للشيء وما يلزم منه الشيء ، ولهذا الغرض المقصود هنا طولت قصة نوح في هذه السورة ما لم يطوله في غيرها ، وصدرت بقوله : ﴿ إني ﴾ أي قائلاً على قراءة الجمهور بالكسر ، والتقدير عند ابن كثير وأبي عمرو والكسائي : ملتبساً بأني ﴿ لكم ﴾ أي خاصة ﴿ نذير مبين ﴾ أي مخوف بليغ التحذير ، أبين ما أرسلت به غاية البيان ، وذكر فيها أنه طالت مجادلته لهم وأنه لما أوضح له أمر الله تعوذ من السؤال فيه وفي كل ما يشبهه ، وخللت قصته بقوله : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ خطاباً لهذا النبي الكريم وختمت بقوله : ﴿ فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ وذكرت قصة إبراهيم عليه السلام لما ضمنته من أنه بشر الولد بما لم يجر بمثله عادة فلم يتردد فيه ، وأنه جادل الرسل في قوم

ابن أخيه لوط ، وأنه لما تحقق حتم الأمر وبت الحكم سلم لربه مع كونه حليماً أواهاً منيباً إلى غير ذلك مما يؤمى ء إليه سياق القصص ، فكأنه قيل : إنما أنت نذير أرسلناك لتبلغ ما أرسلت به من الإنذار وإن شق عليهم وعزتنا لقد أرسلنا من قبلك رسلاً منذرين فدعوا إلى ما أمرت بالدعوة إليه وأنذروهم ما يشق عليهم من بأسنا امتثالاً لأمرنا وما تركوا شيئاً

منه خوفاً من إعراض ولا رجاء في إقبال على أن أممهم قالوا لهم ما قالت لك أمتك كما يشير إليه قوله تعالى عن نوح: ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ -الآية، وقد كان في المخالفين من أممهم القريب منهم نسبه والعزيز عليهم أمره من ابن وصاحبة وغيرهما، هذا مع أن قصصهم دليل على قوله تعالى: ﴿ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم﴾ وزجر لهم عن مثل قولهم: ﴿ما يحبسه﴾ وتأييد لقوله: ﴿ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة﴾ -وغير ذلك مما تقدم، فقد علم من هذا الوجهُ في تكرير هذه القصص، وأنه في كل سورة لمقصد يخالف المقصد في غيرها وإن كان يستفاد من ذلك فوائد أخر: منها إظهار القدرة في بيان الإعجاز بتصريف المعنى في الوجوه المختلفة لما في ذلك من علو الطبقة في البلاغة لأنه ربما قال متعنت عند التحدي: قد استوفى اللفظ البليغ على الأسلوب الأكمل البديع في هذه القصص فلم تبق لنا ألفاظ نعبر بها عن هذه المعاني حتى نأتي بمثل هذه القصة؛ فأتى بها ثانياً إظهاراً لعجزه وقطعاً لحجته، وربما كررت ثالثاً ورابعاً توكيداً لذلك وتمكيناً للاعتبار بضروب البيان وتصبيراً للنبي -صلى الله عليه وسلم- على أذى قومه حالاً فحالاً، فإن قيل: فما بالها تأتي تارة في غاية البسط وتارة في غاية الإيجاز وتارة على الوسط؟ قيل: هذا من أعلى درجات البلاغة وأجل مراتب الفصاحة والبراعة، فإن قبل: فإنا نرى القصة تبسط في بعض السور غاية البسط ثم توجز في غيرها غاية الإيجاز ويؤتي فيها ما لم يؤت في المبسوطة كما في العنكبوت

فإنه عين فيها مقدار لبثه وأنه كان ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلم لا استوعبت جميع المعاني في الموضع المبسوط كما هو الأليق بمقام البسط لا سيما لمن لا يخفى عليه شيء ولا ينسى ، وإذا وقع حذف كان في الموجزة ، قيل : قال شيخنا حافظ العصر أبو الفضل بن حجر : إن الإمام أبا حاتم بن حبان البستي ذكر في كتابه التقاسيم والأنواع : إنما لم يرتبه ليحفظ إذ لو رتبه ترتيباً سهلاً لاتكل من يكون عنده على سهولة الكشف منه فلا يتحفظه ، وإذا وعر طريق الكشف كان أدعى إلى حفظه ليكون على ذكر من جميعه ، وذكر أنه فعل ذلك اقتداء بالكتاب العزيز فإنه ربما أتى بالقصص غير مرتبة ، قال شيخنا : ومن هنا يظهر أن من أسرار تخصيص بعض الموجزات بما ليس في المبسوط الحث على حفظ الجميع - انتهى .

وهذه فوائد ينبغي إهمالها بل تستعمل حيث أمكن ، والعمدة في المناسبة الوجه الأول وهو أنها في كل سورة لمناسبة تخص تلك السورة ، ثم يراعي في البسط وغيره المعاني المناسبة للمقصد الذي سيقت له القصة - والله الموفق .

واللام في " لقد " للقسم : قال الإمام أبو الحسن على بن عيسى الرماني : لأنها تدخل على

الفعل والحرف الذي يختص بالفعل مما يصح معناه معه .

ولام الابتداء للاسم خاصة ، ومعنى (قد) توقع الخبر للتقريب من الحال ، يقال : قد ركب الأمير – لقوم يتوقعون ركوبه فعلى هذا القول جرى ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ والإبانة : إظهار المعنى للنفس بما يمكن إدراكه .

وأصله القطع ، فالإبانة قطع المعنى من غيره ليظهر في نفسه – انتهى .

(191/376)

والمقصود من الرسالة قوله سبحانه : ﴿ أن ﴾ أي نذير لأجل أن ﴿ لا تعبدوا ﴾ أي شيئاً أصلاً ﴿ إلا الله ﴾ أي الملك الأعظم – ومعنى النذارة قوله : ﴿ إني أخاف عليكم ﴾ وعظم العذاب المحذر منه بقوله : ﴿ عذاب يوم أليم ﴾ وإذا كان اليوم مؤلماً فما الظن بما فيه من العذاب ! فهو إسناد مجازي مثل نهاره صائم ، ولم يذكر بشارة كما تقدم عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قوله : ﴿ إنني لكم منه نذير وبشير ﴾ [هود : 2] إرشاداً إلى ما سيقت له القصة من تقرير معنى ﴿ إنما أنت نذير ﴾ [هود : 12] ولذلك صرح بالألم بخلاف الأعراف ، وكذا ما أمر به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول هذه من عذاب يوم كبير ، وهما متقاربان ؛ ثم ساق سبحانه جواب قومه على وجه هو في غاية التسلية والمناسبة

للسياق بقوله : ﴿ فقال ﴾ أي فتسبب عن هذا النصح العظيم أن قال ؛ ولما كان هذا بعد أن تبعه بعضهم قال : ﴿ الملأ ﴾ وبين أن الجدال مع الضلال بعد أن بين أنهم هم الأشراف زيادة في التسلية بقوله : ﴿ الذين كفروا ﴾ وبين أنهم اقارب أعزة بقوله : ﴿ من قومه ﴾ أي الذين هم في غاية القوة لما يريدون محاولة القيام به ﴿ ما نراك ﴾ أي شيئاً من الأشياء ﴿ إلا بشراً ﴾ اي آدمياً ﴿ مثلنا ﴾ أي في مطلق البشرية ، لست بملك تصلح لما لا تصلح له من الرسالة ، وهذا قول البراهمة ، وهو منع نبوة البشر على الإطلاق ، وهو قول من يحسد على فضل الله ويعمى عن جلي حكمته فيمنع أن يكون النبي بشراً ويجعل الإله حجراً .

ولما كانت العظمة عندهم منحصرة في عظمة الأتباع قالوا : ﴿ وما نراك ﴾ ولما انفوا الرؤية عنه فتشوف السامع إلى ما يقع عليه من المعاني ، بينوا أن مرادهم رؤية من اتبعه فقالوا : ﴿ اتبعك ﴾ أي تكلف اتباعك ﴿ إلا الذين هم ﴾ أي خاصة ﴿ أراذلنا ﴾ أي كالحائك ونحوه ، وليس منا رذل غيرهم ، وهو جمع أرذل كأكلب جمع رذل ككلب ، والرذل : الخسيس الدنيء ، وهذا ينتج أنه لم يتبعك أحد له قدر ؛ قالوا : و ﴿ اتبعك ﴾ عامل في قوله : ﴿ بادي الرأي ﴾ وهو ظرف أي اتبعوك بديهة من غير تأمل ، فاتباعهم لا يدل على

سداد لما اتبعوه من وجهين : رذالتهم في أنفسهم ، وأنهم لم يفكروا فيه ، لكن يضعفه إيراد الاتباع بصيغة الافتعال التي تدل على علاج ومجاذبة ، فالأحسن إسناده - كما قالوه أيضاً - إلى أراذل .

أي أنهم بحيث لا يتوقف ناظرهم عند أول وقوع بصره عليهم أنهم سفلة أسقاط ، ويجوز أن يكون المراد " بادي رأيك " أي أنك تظن أنهم اتبعوك ، ولم يتبعوك .

(193/376)

ولما كانوا لا يعظون إلا بالتوسع في الدنيا ، قالوا : ﴿ وما نرى لكم ﴾ أي لك ولمن تبعك ﴿ علينا ﴾ وأغرقوا في النفي بقولهم : ﴿ من فضل ﴾ أي شرف ولا مال ، وهذا - مع ما مضى من قولهم - قول من يعرف الحق بالرجال ولا يعرف الرجال بالحق ، وذلك أنه يستدل على كون الشيء حقاً بعظمة متبعه في الدنيا ، وعلى كونه باطلاً بحقارته فيها ، ومجموع قولهم يدل على أنهم يريدون : لو صح كون النبوة في البشر لكانت في واحد ممن أقروا له بالعلو في الأرض ، وعمل ﴿ اتبعك ﴾ في ﴿ بادي ﴾ يمنعه تمادي الاتباع على الإيمان ، فانتفى الطعن بعدم التأمل ﴿ بل نظنكم كاذبين ﴾ أي لكم هذا الوصف لازماً دائماً لأنكم لم تتصفوا بما جعلناه مظنة الاتباع مما يوجب العظمة في القلوب والانقياد للنفوس بالتقدم في

الدنيا بالمال والجاه ؛ فكان داؤهم بطر الحق وغمط الناس ، وهو احتقارهم ، وهذا قد سرى إلى أكثر أهل الإسلام ، فصاروا لا يعظمون إلا بذلك ، وهو أجهل الجهل لأن الرسل أتت للتزهيد في الدنيا وانظر إلى رضاهم لأنفسهم بالعدول عن البينة إلى اتباع الظن ما أرداه ! وهذا افظع مما حكى هنا من قوله قريش ﴿ لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ﴾ وأبشع ؛ والبشر : الإنسان لظهور بشرته أي ظاهر جلده لأن الغالب على غيره من الحيوان سترها بالصوف أو الشعر أو الوبر أو الريش ؛ والمثل : الساد مسد غيره في الحس بمعنى أنه لو ظهر للمشاهدة لسد مسده ؛ والرذل : الحقير بما عليه من صفات النقص وجمعه ؛ والفضل : الزيادة من الخير ، والإفضال : مضاعفة الخير التي توجب الشكر . انتهى ا . هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 519 . 523 ﴾

(194/376)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ إني لكم ﴾ بكسر الهمزة : نافع وابن عامر وعاصم وحمزة . والآخرون بفتحها ﴿ بادىء ﴾ بالهمزة : أبو عمرو ونصير . ﴿ الرأي ﴾ بالياء : أبو عمرو غير

شجاع ويزيد والأعشى والأصبهاني عن ورش وحمزة في الوقف ﴿ فعميت ﴾ مجهولاً مشدداً . حمزة وعلي وخلف وحفص . الباقون بضدهما ﴿ أنلزمكموها ﴾ باختلاس ضمة الميم : عباس ﴿ أجري إلا ﴾ بالفتح : أبو جعفر ونافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص ﴿ ولكني أريكم ﴾ بالفتح حيث كان : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو ﴿ نصحي إن ﴾ أبو جعفر ونافع وأبو عمرو ﴿ بأعيننا ﴾ مدغماً . حيث كان : عباس ﴿ من كل ﴾ بالتنوين حيث كان : حفص والمفضل ﴿ مجريها ﴾ بفتح الميم بالإمالة : حمزة وعلي وخلف وحفص ﴿ مجريها ﴾ بالضم وبالإمالة : أبو عمرو . والباقون بالضم مفخماً . ﴿ يا بني ﴾ بفتح الياء : عاصم ﴿ اركب معنا ﴾ مظهراً : عاصم وحمزة ﴿ عمل ﴾ على أنه فعل غير بالنصب : علي وسهل ويعقوب . الآخرون ﴿ عمل ﴾ غير بالرفع فيهما ﴿ تسألن ﴾ بالنون المشددة المسكورة لإدغام النون المخففة في نون الوقاية بعد حذف ياء المتكلم في الحالين : ابن عامر وقالون : بإثبات الياء في الوصل : أبو جعفر ونافع غير قالون بفتح النون المشددة : ابن كثير ﴿ تسألني ﴾ بغير نون التأكيد وإثبات الياء في الحالين سهل ويعقوب الباقون بغير ياء في الحالين ﴿ إني أعظك ﴾ ﴿ إني أعوذ ﴾ بفتح الياء فيهما : أبو جعفر ونافع وابن عامر وأبو عمرو .

الوقوف: ﴿ مبين ﴾ 5 لا ﴿ إلا الله ﴾ ط ﴿ أليم ﴾ 5 ﴿ الرأي ﴾ ج ﴿ كاذبين ﴾ 5 ﴿ فعميت عليكم ﴾ ط ﴿ كارهون ﴾ 5 ﴿ مالاً ﴾ ط ﴿ آمنوا ﴾ ط ﴿ تجهلون ﴾ 5 ﴿ طردتهم ﴾ ط ﴿ تذكرون ﴾ 5 ﴿ خيراً ﴾ ط ﴿ أنفسهم ﴾ ج ﴿ الظالمين ﴾ 5 ﴿ الصادقين ﴾ 5 ﴿ بمعجزين ﴾ 5 ﴿ أن يغويكم ﴾ ط ﴿ ترجعون ﴾ 5 ط ﴿ افتراه ﴾ ط ﴿ تجرمون ﴾ 5 ﴿ يفعلون ﴾ 5 ج للآية والعطف ﴿ ظلموا ﴾ ج لاحتمال التعليل. ﴿ مغرقون ﴾ 5 ﴿ سخروا منه ﴾ 5 ﴿ تسخرون ﴾ 5 ط ﴿ تعلمون ﴾ 5 لا لأن ما بعده مفعول ﴿ مقيم ﴾ 5 ﴿ التنور ﴾ 5 لا لأن ما بعده جواب «إذا» ﴿ ومن آمن ﴾ ط ﴿ قليل ﴾ 5 ط ﴿ ومرساها ﴾ ط ﴿ رحيم ﴾ 5 ﴿ الكافرين ﴾ 5 ﴿ من الماء ﴾ ط، ﴿ رحم ﴾ ج لاتفاق الجملتين مع اختلاف العامل. ﴿ المغرقين ﴾ 5 ﴿ الظالمين ﴾ 5. ﴿ الحاكمين ﴾ 5 ﴿ من أهلك ﴾ ج ﴿ علم ﴾ ط ﴿ الجاهلين ﴾ 5 ﴿ علم ﴾ ط ﴿ الخاسرين ﴾ 5 ﴿ معك ﴾ ط ﴿ أليم ﴾ 5 ﴿ إليك ﴾ ج ط لاحتمال ما بعده الحال أو الاستئناف ﴿ هذا ﴾ ط وعلى قوله: ﴿ فاصبر ﴾ أحسن للابتداء ب «أن» ﴿ للمتقين ﴾ 5. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 17.16 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

القصة الأولى

قصة نوح عليه السلام

اعلم أنه تعالى قد بدأ بذكر هذه القصة في سورة يونس وقد أعادها في هذه السورة أيضاً لما فيها من زوائد الفوائد وبدائع الحكم ، وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ﴿ أني ﴾ بفتح الهمزة ، والمعنى : أرسلنا نوحاً بأني لكم نذير مبين ، ومعناه أرسلناه ملتبساً بهذا الكلام وهو قوله : ﴿ أني لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ فلما اتصل به حرف الجر وهو الباء فتح كما فتح في كان ، وأما سائر القراء فقرؤا ﴿ إِنِّي ﴾ بالكسر على معنى قال ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

المسألة الثانية :

قال بعضهم : المراد من النذير كونه مهدداً للعصاة بالعقاب ، ومن المبين كونه مبيناً ما أعد الله للمطيعين من الثواب ، والأولى أن يكون المعنى أنه نذير للعصاة من العقاب وأنه مبين بمعنى أنه بين ذلك الإنذار على الطريق الأكمل والبيان الأقوى الأظهر ، ثم بين تعالى أن ذلك الإنذار إنما حصل في النهي عن عبادة غير الله وفي الأمر بعبادة الله لأن قوله : ﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللهَ ﴾ استثناء من النفي وهو يوجب نفي غير المستثنى .

واعلم أن تقدير الآية كأنه تعالى قال ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه بهذا الكلام وهو قوله :

﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

ثم قال : ﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللهَ ﴾ فقوله : ﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللهَ ﴾ بدل من قوله : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ ثم إنه أكد ذلك بقوله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ والمعنى أنه لما حصل الألم العظيم في ذلك اليوم أسند ذلك الألم إلى اليوم ، كقولهم نهارك صائم ، وليلك قائم .

(197/376)

﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن نوح عليه السلام أنه دعا قومه إلى عبادة الله تعالى حكى عنهم أنهم طعنوا في نبوته بثلاثة أنوع من الشبهات .

فالشبهة الأولى : أنه بشر مثلهم ، والتفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع انتهاؤه إلى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة لجميع العالمين .

والشبهة الثانية : كونه ما أتبعه إلا أراذل من القوم كالحياكة وأهل الصنائع الخسيسة ، قالوا ولو كنت صادقاً لاتبعك الأكياس من الناس والأشراف منهم ، ونظيره قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الأرذلون ﴾ [الشعراء : 111] .

والشبهة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ والمعنى : لا نرى لكم علينا من فضل لا في العقل ولا في رعاية المصالح العاجلة ولا في قوة الجدل فإذا لم نشاهد فضلك علينا في شيء من هذه الأحوال الظاهرة فكيف نعترف بفضلك علينا في أشرف الدرجات وأعلى المقامات ، فهذا خلاصة الكلام في تقرير هذه الشبهات .

واعلم أن الشبهة الأولى لا تليق إلا بالبراهمة الذين ينكرون نبوة البشر على الإطلاق ، أما الشبهتان الباقيتان فيمكن أن يتمسك بهما من أقر بنبوة سائر الأنبياء ، وفي لفظ الآية مسائل :

المسألة الأولى :

الملأ الأشراف وفي اشتقاقه وجوه : الأول : أنه مأخوذ من قولهم مليء بكذا إذا كان مطيقاً

له وقد ملؤا بالأمر ، والسبب في إطلاق هذا اللفظ عليهم أنهم ملؤا بترتيب المهمات وأحسنوا في تدبيرها .

الثاني : أنهم وصفوا بذلك لأنهم يتمالؤون أي يتظاهرون عليه .

الثالث : وصفوا بذلك لأنهم يملؤون القلوب هيبة والمجالس أبهة .

الرابع : وصفوا به لأنهم ملؤوا العقول الراجحة والآراء الصائبة .

(198/376)

ثم حكى الله تعالى عنهم الشبهة الأولى ، وهي قولهم : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ وهو مثل ما حكى الله تعالى عن بعض العرب أنهم قالوا : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ [الأنعام : 8] وهذا جهل ، لأن من حق الرسول أن يباشر الأمة بالدليل والبرهان والتثبت والحجة ، لا بالصورة والخلقة ، بل نقول : إن الله تعالى لو بعث إلى البشر ملكاً لكانت الشبهة أقوى في الطعن عليه في رسالته لأنه يخطر بالبال أن هذه المعجزات التي ظهرت لعل هذا الملك هو الذي أتى بها من عند نفسه بسبب أن قوته أكمل وقدرته أقوى ، فلهذه الحكمة ما بعث الله إلى البشر رسولاً إلا من البشر .

ثم حكى الشبهة الثانية وهي قوله : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرأى ﴾

والمراد منه قلة ما لهم وقلة جاههم ودناءة حرفهم وصناعتهم هذا أيضاً جهل ، لأن الرفعة في الدين لا تكون بالحسب والمال والمناصب العالية ، بل الفقر أهون على الدين من الغنى ، بل نقول : الأنبياء ما بعثوا إلا لترك الدنيا والإقبال على الآخرة فكيف تجعل قلة المال في الدنيا طعناً في النبوة والرسالة .

ثم حكى الله تعالى الشبهة الثالثة وهي قوله : ﴿ وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ وهذا أيضاً جهل ، لأن الفضيلة المعتبرة عند الله ليست إلا بالعلم والعمل ، فكيف اطلعوا على بواطن الخلق حتى عرفوا نفي هذه الفضيلة ، ثم قالوا بعد ذكر هذه الشبهات لنوح عليه السلام ومن اتبعه ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذبين ﴾ وفيه وجهان : الأول : أن يكون هذا خطاباً مع نوح ومع قومه ، والمراد منه تكذيب نوح في دعوى الرسالة .

والثاني : أن يكون هذا خطاباً مع الأراذل فنسبوهم إلى أنهم كذبوا في أن آمنوا به واتبعوه .

المسألة الثانية :

قال الواحدي : الأرذل جمع رذل وهو الدون من كل شيء في منظره وحالاته ورجل رذل الثياب والفعل .

والأراذل جمع الأرذل ، كقولهم أكابر مجرميها ، وقوله عليه الصلاة والسلام : " أحاسنكم أخلاقاً " فعلى هذا الأراذل جمع الجمع ، وقال بعضهم : الأصل فيه أن يقال : هو أرذل من كذا ثم كثر حتى قالوا : هو الأرذل فصارت الألف واللام عوضاً عن الإضافة وقوله : ﴿ بَادِىَ الرأى ﴾ البادي هو الظاهر من قولك : بدا الشيء إذا ظهر ، ومنه يقال : بادية لظهورها وبروزها للناظر ، واختلفوا في بادي الرأي وذكروا فيه وجوهاً : الأول : اتبعوك في الظاهر وباطنهم بخلافه ، والثاني : يجوز أن يكون المراد اتبعوك في ابتداء حدوث الرأي وما احتاطوا في ذلك الرأي وما أعطوه حقه من الفكر الصائب والتدبر الوافي .

الثالث : أنهم لما وصفوا القوم بالرذالة قالوا : كونهم كذلك بادي الرأي أمر ظاهر لكل من يراهم ، والرأي على هذا المعنى من رأي العين لا من رأي القلب ويتأكد هذا التأويل بما نقل عن مجاهد أنه كان يقرأ ﴿ إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ رَأْىَ العين ﴾ .

المسألة الثالثة :

قرأ أبو عمرو ونصير عن الكسائي ﴿ بادىء ﴾ بالهمزة والباقون بالياء غير مهموز فمن قرأ ﴿ بادىء ﴾ بالهمزة فالمعنى أول الرأي وابتداؤه ومن قرأ بالياء غير مهموز كان من بدا يبدو أي ظهر و ﴿ بَادِىَ ﴾ نصب على المصدر كقولك : ضربت أول الضرب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 168 . 170 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عزوجل : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾

الأراذل جمع أرذل ، وارذل جمع رذل ، والرذل الحقير ، وعنوا بأراذلهم الفقراء وأصحاب المهن المتضعة . ﴿ باديَ الرأي ﴾ أي ظاهر الرأي ، وفيه ثلاثة اوجه :

احدها : إنك تعمل بأول الرأي من غير فكر ، قاله الزجاج .

الثاني : أن ما في نفسك من الرأي ظاهر ، تعجيزاً له ، قال ابن شجرة . الثالث : يعني ان أراذلنا اتبعوك بأقل الرأي وهم إذا فكروا رجعوا عن اتباعك ، حكاه ابن الأنباري .

﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ يحتمل وجهين .

أحدهما : من فضل تفضلون به علينا من دنياكم . والثاني : من فضل تفضلون به علينا في أنفسكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(201/376)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد ارسلنا نوحاً إلى قومه أني ﴾

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائي "أني" بفتح الألف ، والتقدير : أرسلناه بأني ، وكأن الوجه بأنه لهم نذير ، ولكنه على الرجوع من الإِخبار عن الغائب إِلى خطاب نوح قومه .

وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة "إِني" بكسر الألف ، فحملوه على القول المضمر ، والتقدير : فقال لهم : إِني لكم نذير .

قوله تعالى : ﴿ ما نراك إِلا بشراً مثلنا ﴾ أي : إِنساناً مثلنا ، لا فضل لك علينا .

فأما الأراذل ، فقال ابن عباس : هم السَّفَلة .

وقال ابن قتيبة : هم جمع "أرذل" ، يقال : رجل رَذْل ، وقد رَذُل رذالة ورُذُولة .

ومعنى الأراذل : الشرار .

قوله تعالى : ﴿ بادي الرأي ﴾ قرأ الأكثرون "بادِيَ" بغير همز .

وقرأ أبو عمرو بالهمز بعد الدال .

وكلهم همز "الرأي" غير أبي عمرو .

وللعلماء في معنى "بادي" إذا لم يُهمز ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المعنى : ما نرى أتباعك إِلا سفلتنا وأرذالنا في بادي الرأي لكل ناظر ، يعنون أن ما وصفناهم به من النقص لا يخفى على أحد فيخالفنا ، هذا مذهب مقاتل في آخرين .

والثاني : أن المعنى أن هؤلاء القوم اتَّبعوك في ظاهر ما يُرى منهم ، وطويَّتُهم على خلافك .

والثالث : أن المعنى : اتبعوك في ظاهر رأيهم ، ولم يتدبروا ما قلتَ ، ولو رجعوا إِلى التفكر لم

يتبعوك ، ذكر هذين القولين الزجاج .

قال ابن الأنباري : وهذه الثلاثة الأقوال على قراءة من لم يهمز ، لأنه مِن بدا ، يبدو : إِذا ظهر .

فأما من همز "بادىء" فمعناه : ابتداء الرأي ، أي : اتَّبعوك أول ما ابتدؤوا ينظرون ، ولو فكروا لم يعدلوا عن موافقتنا في تكذيبك .

قوله تعالى : ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : من فضل في الخلق ، قاله ابن عباس .

والثاني : في الملك والمال ونحو ذلك ، قاله مقاتل .

(202/376)

والثالث : ما فُضِّلتم باتِّباعكم نوحاً ، ومخالفتكم لنا بفضيلة تتبعكم طلبا لها ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : ﴿ بل نظنكم كاذبين ﴾ فيه قولان :

أحدهما : نتيقنكم ، قاله الكلبي .

والثاني : نحسبكم ، قاله مقاتل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ ﴾

ذكر سبحانه قصص الأنبياء عليهم السلام للنبي صلى الله عليه وسلم تنبيهاً له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفيه الله أمرهم .

﴿ إِنِّي ﴾ أي فقال : إني ؛ لأن في الإرسال معنى القول .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائيّ "أَنِّي" بفتح الهمزة ؛ أي أرسلناه بأني لكم نذير مبين .

ولم يقل "إنه" لأنه رجع من الغيبة إلى خطاب نوح لقومه ؛ كما قال : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الألواح مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : 7] ثم قال : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ [الأعراف : 145] .

قوله تعالى : ﴿ أَن لاَّ تعبدوا إِلاَّ الله ﴾ أي اتركوا الأصنام فلا تعبدوها ، وأطيعوا الله وحده .

ومن قرأ "إنّي" بالكسر جعله معترضاً في الكلام ، والمعنى أرسلناه بألا تعبدوا إلا الله .

﴿ إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ .

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ

أَرَاذِلُنَا ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ المَلأ ﴾ قال أبو إسحق الزجاج : الملأ الرؤساء ؛ أي هم مليئون بما يقولون .

وقد تقدّم هذا في "البقرة" وغيرها .

﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً ﴾ أي آدميًا .

﴿ مِّثْلَنَا ﴾ نصب على الحال .

و﴿ مثلنا ﴾ مضاف إلى معرفة وهو نكرة يقدر فيه التنوين ؛ كما قال الشاعر :

يا رُبَّ مِثْلِكِ في النّساءِ غَرِيرَةٍ . . .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ أَراذل جمع أَرْذُل وأَرْذُل جمع رَذْل ؛ مثل كَلْب وأَكْلُب وأَكَالب .

وقيل : والأراذل جمع الأَرْذَل ، كأَسَاود جمع الأَسْوَد من الحيّات .

والرَّذْل النّذل ؛ أرادوا اتبعك أخِسّاؤنا وسَقَطُنا وسفلتنا .

قال الزجاج : نسبوهم إلى الحِياكة ؛ ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها في الديانة .

قال النحاس : الأراذل هم الفقراء ، والذين لا حسب لهم ، والخسيسو الصناعات .

وفي الحديث : " إنهم كانوا حاكَة وحَجَّامين " .

وكان هذا جهلاً منهم ؛ لأنهم عابوا نبيّ الله صلى الله عليه وسلم بما لا عيب فيه ؛ لأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، إنما عليهم أن يأتوا بالبراهين والآيات ، وليس عليهم تغيير الصور والهيئات ، وهم يرسَلون إلى الناس جميعاً ، فإذا أسلم منهم الدنيء لم يلحقهم من ذلك نقصان ؛ لأن عليهم أن يقبلوا إسلام كل من أسلم منهم .

قلت : الأراذل هنا هم الفقراء والضعفاء ؛ كما قال هِرَقْل لأبي سفيان : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ؛ فقال : هم أتباع الرسل .

قال علماؤنا : إنما كان ذلك لاستيلاء الرياسة على الأشراف ، وصعوبة الانفكاك عنها ، والأَنَفة من الانقياد للغير ؛ والفقير خِليٌّ عن تلك الموانع ، فهو سريع إلى الإجابة والانقياد . وهذا غالب أحوال أهل الدنيا .

الثالثة : اختلف العلماء في تعيين السّفلة على أقوال ؛ فذكر ابن المبارك عن سفيان أن السّفلة هم الذين يَتَقَلَّسون ، ويأتون أبواب القضاة والسلاطين يطلبون الشهادات .

وقال ثعلب عن ابن الأعرابي : السّفِلة الذين يأكلون الدنيا بدينهم ؛ قيل له : فمن سفلة السّفلة ؟ قال : الذي يُصلح دنيا غيره بفساد دينه .

وسئل علي رضي الله عنه عن السّفلة فقال : الذين إذا اجتمعوا غَلَبوا ؛ وإذا تفرقوا لم يعرفوا .

وقيل لمالك بن أنس رضي الله عنه : مَن السّفلة ؟ قال : الذي يسبّ الصحابة .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما : الأرذلون الحاكَة والحجّامون .

يحيى بن أَكْثَم : الدّبّاغ والكنّاس إذا كان من غير العرب .

(205/376)

الرابعة : إذا قالت المرأة لزوجها : يا سَفِلة ، فقال : إن كنتُ منهم فأنتِ طالق ؛ فحكى النقاش أن رجلاً جاء إلى التّرمذي فقال : إن امرأتي قالت لي يا سَفِلة ، فقلت : إن كنتُ سَفِلة فأنت طالق ؛ قال التّرمذيّ : ما صناعتك ؟ قال : سماك ؛ قال : سَفِلة واللّهِ ، سَفَلة والله (سفلة) .

قلت : وعلى ما ذكره ابن المبارك عن سفيان لا تطلق ، وكذلك على قول مالك ، وابن الأعرابي لا يلزمه شيء .

قوله تعالى : ﴿ بَادِيَ الرأي ﴾ .

أي ظاهر الرأي ، وباطنهم على خلاف ذلك .

يقال : بدا يبدو إذا ظهر ؛ كما قال :

فاليوم حين بَدَوْن للنُّظار . . .

ويقال للبرّية بادية لظهورها .

وبدا لي أن أفعل كذا ، أي ظهر لي رأي غير الأول .

وقال الأزهري : معناه فيما يبدو لنا من الرأي .

ويجوز أن يكون ﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ من بدأ يبدأ وحذف الهمزة .

وحقّق أبو عمرو الهمزة فقرأ : "بَادِىء الرأي" أي أوّل الرأي ؛ أي اتبعوك حين ابتدؤوا ينظرون ، ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك ؛ ولا يختلف المعنى هاهنا بالهمز وترك الهمز .

وانتصب على حذف "في" كما قال عز وجل : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف : 155] ﴿ وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ أي في اتباعه ؛ وهذا جحد منهم لنبوّته صلى الله عليه وسلم .

﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ الخطاب لنوح ومن آمن معه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن:

قوله: ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين ﴾

يعني أن نوحاً عليه السلام قال لقومه حين أرسله الله إليهم إني لكم أيها القوم نذير مبين يعني بين النذارة أخوف بالعقاب من خالفة أمر الله وعبد غيره؛ وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ يعني مؤلم موجع قال ابن عباس: بعث نوح بعد أربعين سنة ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة فكان عمره ألفاً وخمسين سنة.

وقال مقاتل: بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو يومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفاً وأربعمائة وخمسين سنة.

﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾

يعني الأشراف والرؤساء من قوم نوح ﴿ ما نراك ﴾ يا نوح ﴿ إلا بشراً مثلنا ﴾ يعني آدمياً مثلنا لا فضل لك علينا لأن التفاوت الحاصل بني آحاد البشر يمتنع اشتهاره إلى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة على جميع العالم وإنما قالوا هذه المقالة وتمسكوا بهذه الشبهة جهلاً منهم لأن من حق الرسول أن يباشر الأمة بالدعوة إلى الله تعالى بإقامة الدليل والبرهان على ذلك ويظهر المعجزة الدالة على صدقه ولا يأتي ذلك إلا من آحاد البشر وهو من

اختصه الله بكرامته وشرفه بنبوته وأرسله إلى عباده ثم قال سبحانه وتعالى إخباراً عن قوم نوح ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾ يعني سفلتنا والرذل الدون من كل شيء قيل هم الحاكة والأساكفة وأصحاب الصنائع الخسيسة وإنما قالوا ذلك جهلاً منهم أيضاً لأن الرفعة في الدين ومتابعة الرسول لا تكون بالشرف ولا بالمال والمناصب العالية بل للفقراء الخاملين وهم أتباع الرسل ولا يضرهم خسة صنائعهم إذا حسنت سيرتهم في الدين ﴿ بادي الرأي ﴾ يعني أنهم اتبعوك في أول الرأي من غير تثبت وتفكر في أمرك ، ولو تفكروا ما اتبعوك .

وقيل : معناه ظاهر الرأي ، يعني أنهم اتبعوك من غير أن تفكروا باطناً ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ يعني بالمال والشرف والجاه وهذا القول أيضاً جهل منهم لأن الفضيلة المعتبرة عند الله بالإيمان والطاعة لا بالشرف والرياسة ﴿ بل نظنكم كاذبين ﴾ قيل الخطاب لنوح ومن آمن معه من قومه وقيل هو لنوح وحده فعلى هذا يكون الخطاب بلفظ الجمع للواحد على سبيل التعظيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

هذه السورة في قصصها شبيهة بسورة الأعراف بدىء فيها بنوح ، ثم بهود ، ثم بصالح ، ثم بلوط ، مقدّماً عليه ابراهيم بسبب قوم لوط ، ثم بشعيب ، ثم بموسى وهارون ، صلى الله على نبينا وعليهم أجمعين .

وذكروا وجوه حكم وفوائد لتكرار هذه القصص في القرآن .

وقرأ النحويان وابن كثير : أني بفتح الهمزة أي : بأني ، وباقي السبعة بكسرها على إضمار القول .

وقال أبو علي في قراءة الفتح : خروج من الغيبة إلى المخاطبة ، قال ابن عطية : وفي هذا نظر ، وإنما هي حكاية مخاطبة لقومه وليس هذا حقيقة الخروج من غيبة إلى مخاطبة ، ولو كان الكلام أنْ أنذرهم أو نحوه لصح ذلك انتهى .

وأنْ لا تعبدوا إلا الله ظاهر في أنهم كانوا يعبدون الأوثان كما جاء مصرّحاً في غير هذه السورة ، وأن بدل من أني لكم في قراءة من فتح ، ويحتمل أن تكون أنْ المفسرة .

وأما في قراءة من كسر فيحتمل أن تكون المفسرة ، والمراعى قبلها : إما أرسلنا وإما نذير مبين ، ويحتمل أن تكون معمولة لأرسلنا أي : بأن لا تعبدوا إلا الله ، وإسناد الألم إلى اليوم

مجاز لوقوع الألم فينه لا به .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : فإذا وصف به العذاب ؟ (قلت) : مجازى مثله ، لأن

الأليم في الحقيقة هو المعذب ، ونظيرهما قولك : نهاره صائم انتهى .

وهذا على أن يكون أليم صفة مبالغة من آلم ، وهو من كثر ألمه .

فإنْ كان أليم بمعنى مؤلم ، فنسبته لليوم مجاز ، وللعذاب حقيقة .

لما أنذرهم من عذاب الله وأمرهم بإفراده بالعبادة ، وأخبر أنه رسول من عند الله ، ذكروا

أنه مماثلهم في البشرية ، واستبعدوا أن يبعث الله رسولاً من البشر ، وكأنهم ذهبوا إلى

مذهب البراهمة الذين ينكرون نبوة البشر على الإطلاق ، ثم عيروه بأنه لم يتبعه إلا الأراذل

أي : فنحن لا نساويهم ، ثم نفوا أن يكون له عليهم فضل .

(209/376)

أي : أنت مساوينا في البشرية ولا فضل لك علينا ، فكيف امتزت بأنك رسول الله ؟ وفي

قوله : إلا الذين هم أراذلنا ، مبالغة في الإخبار ، وكأنه مؤذن بتأكيد حصر من اتبعه ، وأنهم

هم الأراذل لم يشركهم شريف في ذلك .

وفي الحديث " إنهم كانوا حاكة وحجامين " وقال النحاس : هم الفقراء والذين لا حسب

لهم، والخسيسو الصناعات.

وفي حديث هرقل: "أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، فقال: هم أتباع الرسل قبل" وإنما كان كذلك لاستيلاء الرئاسة على الأشراف وصعوبة الانفكاك عنها، والأنفة من الانقياد لغيرهم، والفقير خلي عن تلك الموانع فهو سريع إلى الإجابة والانقياد.

ونراك يحتمل أن تكون بصرية، وأن تكون علمية.

قالوا: وأراذل جمع الجمع، فقيل: جمع أرذل ككلب وأكلب وأكالب.

وقيل: جمع أرذال، وقياسه أراذيل.

والظاهر أنه جمع أرذل التي هي أفعل التفضيل وجاء جمعاً، كما جاء أكابر مجرميها وأحاسنكم أخلاقاً.

وقال الزمخشري: ما نراك إلا بشراً مثلنا، تعريض بأنهم أحق منه بالنبوّة، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملأ وموازيهم في المنزلة، فما جعلك أحق منهم؟ ألا ترى إلى قولهم: وما نرى لكم علينا من فضل، أو أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكاً لا بشراً، ولا يظهر ما قاله الزمخشري من الآية.

وقرأ أبو عمرو، وعيسى الثقفي: بادىء الرأي من بدأ يبدأ ومعناه: أول الرأي.

وقرأ باقي السبعة: بادي بالياء من بدا يبدو، ومعناه ظاهر الرأي.

وقيل : بادي بالياء معناه بادىء بالهمز ، فسهلت الهمزة بإبدالها ياء لكسر ما قبلها .

وذكروا أنه منصوب على الظرف ، والعامل فيه نراك أو اتبعك أو أراذلنا أي : وما نراك فيما يظهر لنا من الرأي ، أو في أول رأينا ، أو وما نراك اتبعك أول رأيهم ، أو ظاهر رأيهم .

واحتمل هذا الوجه معنيين : أحدهما : أن يريد اتبعك في ظاهر أمرهم ، وعسى أن تكون بواطنهم ليست معك .

والمعنى الثاني : أن يريد اتبعوك بأول نظر وبالرأي البادىء دون تعقب ، ولو تثبتوا لم يتبعوك ، وفي هذا الوجه ذم الرأي غير المروي .

وقال الزمخشري : اتبعوك أول الرأي ، أو ظاهر الرأي ، وانتصابه على الظرف أصله وقت حدوث أول أمرهم أو وقت حدوث ظاهر رأيهم ، فحذف ذلك ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، أرادوا أنّ اتباعهم لك إنما هو شيء عنّ لهم بديهة من غير روية ونظر انتهى .

وكونه منصوباً على الظرف هو قول أبيّ على في الحجة ، وإنما حمله على الظرف وليس بزمان ولا مكان ، لأنّ في مقدرة فيه أي : في ظاهر الأمر ، أو في أول الأمر .

وعلى هذين التقديرين أعني أنْ يكون العامل فيه نراك ، أو اتبعك يقتضي أن لا يجوز ذلك ،

لأنّ ما بعد إلا لا يكون معمولاً لما قبلها إلا إن كان مستثنى منه نحو : قام إلا زيداً القوم ، أو مستثنى نحو : جاء القوم إلا زيداً ، أو تابعاً للمستثنى منه نحو : ما جاءني أحد إلا زيد أخبرني عمرو ، وبادىء الرأي ليس واحداً من هذه الثلاثة .

وأجيب بأنه ظرف ، أو كالظرف مثل جهد رأي أنك ذاهب ، أي أنك ذاهب في جهد رأي ، والظروف يتسع فيها .

وإذا كان العامل أراذلنا فمعناه الذين هم أراذلنا بأدل نظر فيهم ، وببادىء الرأي يعلم ذلك منهم .

وقيل : بادي الرأي نعت لقوله : بشراً .

وقيل : انتصب حالاً من ضمير نوح في اتبعك ، أي : وأنت مكشوف الرأي لا حصافة لك .

وقيل : انتصب على النداء لنوح أي : يا بادي الرأي ، أي ما في نفسك من الرأي ظاهر لكل أحد ، قالوا : ذلك تعجيزاً له .

وقيل : انتصب على المصدر ، وجاء الظرف والمصدر على فاعل ، وليس بالقياس .

فالرأي هنا إما من رؤية العين ، وإما من الفكر .

قال الزمخشري : وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية ، لأنهم كانوا جهالاً ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال انتهى .

وظاهر الخطاب في لكم شامل لنوح ومن اتبعه ، والمعنى : ليس لكم علينا زيادة في مال ، ولا نسب ، ولا دين .

وقال ابن عباس : في الخلق والخلق ، وقيل : بكثرة الملك والملك ، وقيل : بما تابعتكم نوحاً ومخالفتكم لنا ، وقيل : من شرف يؤهلكم للنبوّة ، وقال الكلبي : نظنكم نتيقنكم ، وقال مقاتل : نحسبكم أي في دعوى نوح وتصديقكم ، وقال صاحب العتيان : بل نظنكم كاذبين توسلاً إلى الرئاسة والشهرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(212/376)

وقال أبو السعود :

ولما بيَّن من فاتحة السورةِ الكريمةِ إلى هذا المقامِ أنها كتابٌ محكمُ الآياتِ مفصّلُها نازلٌ في شأن التوحيدِ وتركِ عبادةِ غيرِ الله سبحانه وأن الذي أنزل عليه نذيرٌ وبشيرٌ من جهته تعالى وقرر في تضاعيف ذلك ما له مدخلٌ في تحقيق هذا المرامِ من الترغيب والترهيبِ وإلزامِ

المعاندين بما يقارنه من الشواهد الحقةِ الدالةِ على كونه من عند الله تعالى وتسليةِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم مما عراه من ضيق الصدرِ العارضِ له من اقتراحاتهم الشنيعةِ وتكذيبِهم له وتسميتِهم للقرآن تارةً سحراً وأخرى مفترًى وتثبيتِه عليه الصلاة والسلام والمؤمنين على التمسك به والعملِ بموجبه على أبلغِ وجهٍ وأبدعِ أسلوبٍ شرَع في تحقيق ما ذُكر وتقريرِه بذكر قصصِ الأنبياءِ صلواتُ الله عليهم أجمعين المشتملةِ على ما اشتمل عليه فاتحةُ السورةِ الكريمةِ ليتأكد ذلك بطريقين (أحدُهما) أن ما أُمر به من التوحيد وفروعِه مما أطبق عليه الأنبياءُ قاطبةً، (والثاني) أن ذلك إنما عِلمه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بطريق الوحي فلا يبقى في حقيته كلامٌ أصلاً وليتسلّى بما يشاهده من معاناة الرسلِ قبله من أممهم ومقاساتِهم الشدائدَ من جهتهم فقيل:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾

الواوُ ابتدائيةٌ واللامُ جوابُ قسمٍ محذوفٍ وحرفُه الباءُ لا الواو كما في سورة الأعراف لئلا يجتمعَ واوان، ولا يكاد تُطلق هذه اللامُ إلا مع قد لأنها مظِنّةُ التوقعِ وأن المخاطبَ إذا سمِعها توقع وقوعَ ما صُدّر بها، ونوحٌ هو ابن لمك بن متوشلخ بن إدريسَ عليهما السلام وهو

أول نبي بُعث بعده. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: بعث عليه الصلاة والسلام على رأس أربعين من عُمره ولبث يدعو قومَه تسعمائة وخمسين سنةً وعاش بعد الطوفانِ ستين سنةً وكان عمرُه ألفاً وخمسين سنة، وقال مقاتل: بعث وهو ابنُ مائةِ سنةٍ، وقيل: وهو ابن خمسين سنة، وقيل: وهو ابنُ مائتين وخمسين سنةً ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة ﴿ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ بالكسر على إرادة القولِ أي فقال أو قائلا، وقرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، والكسائيُّ، بالفتح على إضمار حرف الجرِّ أي أرسلناه ملتبساً بذلك الكلامِ وهو إني لكم نذيرٌ بالكسر فلما اتصل به الجارُّ فُتح كما فُتح في كأن والمعنى على الكسر وهو قولك: إن زيداً كالأسد واقتُصر على ذكر كونِه عليه الصلاة والسلام نذيراً لا لأن دعوتَه عليه الصلاة والسلام كانت بطريق الإنذارِ فقط، ألا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ الخ، بل لأنهم لم يغتنموا مغانمَ إبشاره عليه الصلاة والسلام ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أبيِّن لكم موجباتِ العذابِ ووجهَ الخلاصِ منه لأن الإنذارَ إعلامُ المحذورِ لا لمجرد التخويفِ والإزعاجِ بل للحذر منه فيتعلق صفتُه بكلا وصفيه.

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ ﴾ أي بألا تعبدوا على أنّ أنْ مصدريةٌ والباءُ متعلقةٌ بأرسلنا ولا ناهية أي أرسلناه ملتبساً بنهيهم عن الشرك إلا أنه وُسّط بينهما بيانُ بعضِ أوصافِه وأحوالِه عليه الصلاة والسلام وهو كونه نذيراً مبيناً ليكون أدخلَ في القَبولِ ولم يُفعلْ ذلك في صدر السورة لئلا يُفرِّقَ بين الكتاب ومضمونِه بما ليس من أوصافه وأحوالِه، أو مفسرةٌ متعلقةٌ به أو بنذير أو مفعولٌ لمبين وعلى قراءة الفتح بدلٌ من أني لكم نذيرٌ مبينٌ وتعيينٌ لما يوجب وقوعَ المحذورِ وتبيينٌ لوجه الخلاصِ وهو عبادةُ الله تعالى وقوله تعالى: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ تعليلٌ لموجب النهي وتصريحٌ بالمحذور وتحقيقٌ للإنذار، والمرادُ به يومُ القيامةِ أو يومُ الطوفان، ووصفُه بالأليم على الإسناد المجازي للمبالغةِ، كما في: نهارُه صائمٌ، وهذه المقالةُ وما في معناها مما قاله عليه الصلاة والسلام في أثناء الدعوةِ على ما عُزِي إليه في سائر السور لما لم تصدر عنه عليه الصلاة والسلام مرةً واحدة بل كان يكرّرها عليهم في تلك المدةِ المتطاولةِ على ما نطق به قولُه تعالى: ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ الآيات... عطفٌ على فعل الإرسالِ المقارنِ لها أو القولِ المقدّرِ بعده جوابُهم المتعرّضُ لأحوال المؤمنين الذين اتبعوه عليه الصلاة والسلام بعد اللتيا والتي بالفاء التعقيبيةِ فقيل: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ﴾ أي الأشرافُ منهم من قولهم: فلانٌ مليءٌ بكذا أي مُطيقٌ له لأنهم مُلِئوا بكفايات الأمور أو لأنهم ملأوا القلوبَ هيبةً والمجالسَ أُبّهةً أو لأنهم مُلئوا بالأحلام والآراءِ الصائبةِ، ووصفُهم بالكفر لذمهم والتسجيلِ عليهم

بذلك من أول الأمر لا لأن بعضَ أشرافِهم ليسوا بكفرة ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ مُرادُهم ما أنت إلا بشرٌ مثلُنا ليس فيك

(215/376)

مزيةٌ تخصُّك من دوننا بما تدعيه من النبوة ولو كان كذلك لرأيناه لا أن ذلك محتملٌ ولكن لا نراه وكذا الحالُ في قولهم : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلَّا الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرأى ﴾ فالفعلان من رؤيةِ العينِ وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ حالٌ من المفعول وكذا قوله : ﴿ اتبعك ﴾ في موضعِ الحالِ منه إما على حاله أو بتقدير قد عند من يشترط ذلك ، ويجوز أن يكون من رؤيةِ القلبِ وهو الظاهرُ فهما المفعولُ الثاني وتعلّقُ الرأي في الأول بالمثلية لا بالبشرية فقط ، وإنما لم يبتّوا القول بذلك مع جزمهم به وإصرارِهم عليه إراءةً بأن ذلك لم يصدرُ عنه جُزافاً بل بعد التأملِ في الأمر والتدبرِ فيه ولذلك اقتَصروا على ذكر الظن فيما سيأتي وتعريضاً من أول الأمرِ برأي المتبعين فكأن قولَهم : ﴿ وَمَا نَرَاكَ ﴾ جوابٌ عما يرِد عليهم من أنه عليه الصلاة والسلام ليس مثلَهم حيث عاين دلائلَ نبوته واغتنم اتباعَه مَنْ له عينٌ تُبصر وقلبٌ يدرك فزعَموا أن هؤلاء أراذلُنا أي أخِسّاؤنا وأدانينا جمعُ أرذل فإنه صار بالغلبة جارياً مجرى الاسم كالأكبر والأكابر أو جمعُ أرذُلٍ جمعُ رَذْلٍ كأكالِب وأكْلُب وكلْب

يعنون أنه لا عبرة باتباعهم لك إذ ليس لهم رزانةُ عقل ولا أصالةُ رأيٍ وقد كان ذلك منهم في بادي الرأي أي ظاهره من تعمّق ، من مَبْدُوّ أو في أوله من البدء والياء مبدلةٌ من الهمزة لانكسار ما قبلها وقد قرأه أبو عمرو بها وانتصابُه على الظرفية على حذف المضافِ أي وقتَ حدوثِ بادي الرأي والعاملُ فيه اتبعك وإنما استرذلوهم مع كونهم أولي الألبابِ الراجحةِ لفقرهم فإنهم لما لم يعلموا إلا ظاهرَ الحياةِ الدنيا كان الأشرفُ عندهم الأكثرَ منها حظاً والأرذلُ من حُرمها ولم يفقَهوا أن ذلك لا يزن عند الله جناحَ بعوضةٍ وأن النعيم إنما هو نعيمُ الآخرة والأشرفُ من فاز به والأرذلُ من حُرمه نعوذ بالله تعالى من ذلك .

(216/376)

﴿ وَمَا نرى لَكُمْ ﴾ أي لك ولمتّبعيك فغلّب المخاطَب على الغائبين ﴿ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ يعنون أن اتباعَهم لك لا يدل على نبوتك ولا يُجديهم فضيلةً تستتبع اتباعَنا لكم واقتصارَهم هاهنا على ذكر عدمِ رؤيةِ الفضل بعد تصريحِهم برذالتهم فيما سبق باعتبار حالِهم السابقِ واللاحقِ ، ومرادُهم أنهم كانوا أراذلَ قبل اتباعهم لك ولا نرى فيهم وفيك بعد الاتباع فضيلةً علينا ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذبين ﴾ جميعاً لكون كلامكم واحداً ودَعْواكم واحدةً ، أو إياك في دعوى النبوةِ وإياهم في تصديقِك واقتصارُهم على الظنّ احترازٌ منهم

عن نسبتهم إلى المجازفة ومجاراةٌ معه عليه الصلاة والسلام بطريق الإرادة على نهج الإنصاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(217/376)

وقال الآلوسى :

ثم إنه تعالى شرع في ذكر قصص الأنبياء الداعين إلى الله تعالى وبيان حالهم مع أممهم ليزداد صلى الله عليه وسلم تشميراً في الدعوة وتحملا لما يقاسيه من المعاندين

فقال عز من قائل :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إلى قَوْمِهِ ﴾ الواو ابتدائية واللام واقعة في جواب قسم محذوف ويقدر حرفه باء لا واو وإن كان هو الشائع لئلا يجتمع واوان ، وبعضهم يقدرها ولا يبالي بذلك .

ونوح في المشهور ابن لمك بن متوشلخ بن إدريس عليه السلام وأنه أول نبي بعث بعده قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : بعث عليه السلام على رأس أربعين من عمره ولبث يدعو قومه ما قص الله تعالى ألف سنة إلا خمسين عاماً ؛ وعاش بعد الطوفان ستين سنة وكان عمره ألفا وخمسين سنة .

وقال مقاتل : بعث وهو ابن مائة سنة ، وقيل : ابن خمسين ، وقيل : ابن مائتين وخمسين ومكث يدعو قومه ما قص سبحانه وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا وأربعمائة وخمسين سنة ﴿ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ بالكسر على إرادة القول أي فقال أو قائلا .

وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو .

والكسائي بالفتح على إضمار حرف الجر أي ملتبساً بذلك الكلام وهو ﴿ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ فلما اتصل الجار فتح كما فتح في كان ، والمعنى على الكسر وهو قولك : إن زيداً كالأسد بناءاً على أن كان مركبة وليست حرفاً برأسه ، وليس في ذلك خروج من الغيبة إلى الخطاب خلافاً لأبي علي ، ولعل الاقتصار على ذكر كونه عليه السلام نذيراً لأنهم لم يغتنموا مغانم إبشاره عليه السلام ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أي موضح لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص منه .

﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أي بأن لا تعبدوا إلا الله على أن ﴿ إن ﴾ مصدرية والباء متعلقة ﴿ بأرسلنا ﴾ [هود : 25] و﴿ لا ﴾ ناهية أي أرسلناه ملتبساً بنهيهم عن الإشراك إلا أنه وسط بينهما بيان بعض أوصافه ليكون أدخل في القبول ولم يفعل ذلك في صدر السورة لئلا يكون من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه ، وجوز كون ﴿ إن ﴾ وما بعدها في تأويل مصدر مفعولاً لمبين أي مبينا النهي عن الإشراك ، ويجوز أن تكون ﴿ إن ﴾ مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير أو بمبين أي أرسلناه بشيء .

أو نذير بشيء .

أو مبين شيئاً هو ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ لكن قيل : الانذار في هذا غير ظاهر وهذا على قراءة الكسر فيما مر ، وأما على قراءة الفتح فإن ﴿ لا ﴾ الخ بدل من ﴿ إِنِّي لَكُمْ ﴾ [هود : 25] الخ ويقدر القول بعد ﴿ إن ﴾ فيكون التقدير أرسلناه بقوله : ﴿ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ ، وبقوله ﴿ لَّا تَعْبُدُوا۟ ﴾ فهو بدل البعض أو الكل على المبالغة ، وادعاء ﴿ إن ﴾ الإنذار كله هو ، وجاز أن لا يقدر القول ، فالأظهر حينئذ بدل الاشتمال ، ومن زعم أنه كذلك مطلقاً إذ لا علاقة بينهما بجزئية أو كلية فقد غفل عن أنه على تقدير القول يكون قوله تعالى : ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ المعلل به النهي من جملة المقول ، وهو إنذار خاص فيكون ذلك بعضاً له أو كلا على الادعاء ، والظاهر أن المراد باليوم يوم القيامة ، وجوز أن يكون يوم الطرفان ووصفه بالأليم أي المؤلم على الاسناد المجازي لأن المؤلم هو الله

سبحانه نزل الظرف منزلة الفاعل نفسه لكثرة وقوع الفعل فيه ، فجعل كأنه وقع الفعل منه ، وكذا وصف العذاب بذلك في غير موضع القرآن العظيم ويمكن اعتباره هنا أيضاً ، وجعل الجر للجوار ، ووجه التجوز حينئذ أنه جعل وصف الشيء لقوة تلبسه به كأنه عينه فأسنه إليه ما يسند إلى الفاعل ، ونظير ذلك على الوجهين نهاره صائم .

(219/376)

وجد جده ، وقد يقال : إن وصف العذاب بالإيلام حقيقة عرفية ومثله يعدّ فاعلا في اللغة ، فيقال : آلمه العذاب من غير تجوز ، قيل : وهذه المقالة وكذا ما في معناها مما قص في غير آية لما لم تصدر عنه عليه السلام مرة واحدة بل كان يكررها في مدته المتطاولة حسبما نطق به قوله تعالى حكاية عنه : ﴿ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ [نوح : 5] الآيات عطف على فعل الإرسال المقارن لها أو القول المقدر بعده جوابهم المتعرض لأحوال المؤمنين الذين اتبعوه بعد اللتيا والتي بالفاء التعقيبية فقال سبحانه :

﴿ فَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ ﴾ أي الإشراف منهم وهو كما قال غير واحد من قولهم : فلان مليء بكذا إذا كان قادراً عليه لأنهم ملئوا بكفاية الأمور وتدبيرها ، أو لأنهم متمالئون أن متظاهرون متعاونون ، أو لأنهم يملأون القلوب جلالا .

والعيون جمالا .

والأكف نوالاً ، أو لأنهم مملوؤون بالآراء الصائبة والأحلام الراجحة على أنه من الملأ لازماً ، ومتعدياً ووصفهم بالكفر لذمهم والتسجيل عليهم بذلك من أول الأمر لا لأن بعض أشرافهم ليسوا بكفرة .

﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ أرادوا ما أنت إلا بشر مثلنا ليس فيك مزية تخصك من بيننا بالنبوة ولو كان ذلك لرأيناه لا أن ذلك محتمل لكن لا نراه ، وكذا الحال في ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرأى ﴾ فالفعلان من رؤية العين وبشراً .

(220/376)

واتبعك حالان من المفعول بتقدير قد في الثاني أو بدونه على الخلاف ؛ ويجوز أن يكونا من رؤية القلب وهو الظاهر فهما حينئذ المفعول الثاني ، وتعلق الرأي في الأول بالمثلية لا البشرية فقط ، ويفهم من الكشاف أن في الآية وجهين : الأول أنهم أرادوا التعريض بأنهم أحق بالنبوة كأنهم قالوا : هب أنك مثلنا في الفضيلة والمزية من كثرة المال والجاه فلم اختصصت بالنبوة من دوننا ، والثاني أنهم أرادوا أنه ينبغي أن يكون ملكاً لا بشراً ، وتعقب هذا بأن فيه اعتزالاً خفياً ، وقد بينه العلامة الطيبي ، ونوزع في ذلك ففي الكشف

أن قولهم ﴿ مِّثْلُنَا ﴾ علية لتحقيق البشرية ، وقولهم ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك ﴾ الخ استدلال بأنهم ضعفاء العقول لا تمييز لهم ، فجوّزوا أن يكون الرسول بشراً وقولهم الآتي ﴿ وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ تسجيل بأن دعوى النبوة باطلة لإدخاله عليه السلام والأراذل في سلك على أسلوب يدل أنهم أنقص البشر فضلاً عن الارتقاء ، وليسس في هذا الكلام اعتزال خفي ولا المقام عنه أبى انتهى .

(221/376)

وفي الانتصاف يجوز أن يكونوا قد أرادوا الوجهين جميعاً كأنهم قالوا : من حق الرسول أن يكون ملكاً لا بشراً وأنت بشر ، وإن جاز أن يكون الرسول بشراً فنحن أحق منك بالرسالة ، ويشهد لإرادتهم الأول قوله في الجواب ﴿ وَلاَ أَقُولُ إِنّى مَلَكٌ ﴾ [هود : 31] ويشهد لأرادتهم الثانية ﴿ وَمَا نرى لَكُمْ ﴾ الخ ، والظاهر أن مقصودهم ليس إلا إثبات أنه عليه السلام مثلهم وليس فيه مزية يترتب عليها النبوة ووجوب الإطاعة والاتباع ، ولعل قولهم ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك ﴾ الخ جاب عما يرد عليهم من أنه عليه السلام ليس مثلهم حيث اتبعه من وفق لاتباعه ، فكأنهم قالوا : إنه لم يميزك اتباع من اتبعك فيوجب علينا اتباعك لأنه لم يتبعك ﴿ إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ أي أخساؤنا وأدانينا ، وهو جمع أرذل والأغلب الاقيس

في مثله إذا أريد جمعه أن يجمع جمع سلامة كالأخسرون جمع أخسر لكنه كسر هنا لأنه صار بالغلبة جاريا مجرى الاسم ، ولذا جعل في القاموس الرذل والأرذل بمعنى وهو الخسيس الدنيء ، ومعنى جريانه مجرى الاسم أنه لا يكاد يذكر الموصوف معه كالأبطح والأبرق .

وجوز أن يكون جمع أرذل جمع رذل فهو جمع الجمع ونظير ذلك أكالب .

وأكلب .

وكلب وكونه جمع رذل مخالف للقياس وإنما لم يقولوا : إلا أراذبنا مبالغة في استرذالهم وكأنهم إنما استرطلوهم لفقرهم لأنهم لما لم يعلموا إلا ظاهراً من الحياة الدنيا كان الأشرف عندهم الأكير منها حظاً والأرذل من حرمها ولم يفقهوا أن الدنيا بحذافيرها لا تعدل عند الله تعالى جناح بعوضة وأن النعيم إنما هو نعيم الآخرة .

والأشرف من فاز به والأرذل من حرمه ، ومثل هؤلاء في الجهل كثير من أهل هذا الزمان عافانا الله سبحانه مما هم فيه من الخذلان والحرمان وكان القوم على ما في بعض الأخبار حاكة وأساكفة وحجامين وأرادوا بقولهم ﴿ بَادِىَ الرأى ﴾ ظاهره وهو ما يكون من غير

تعمق ، والرأي من رؤية الفكر والتأمل ، وقيل : من رؤية العين وليس بذاك .

وجوز أن يكون البادي بمعنى الأول ، وهو على الأول من البدو ، وعلى الثاني من البدء ، والياء مبدلة .

من الهمزة لانكسار ما قبلها وقد قرأ أبو عمرو .

وعيسى الثقفي بها ، وانتصابه على القراءتين على الظرفية لاتبعك على معنى اتبعوك في ظاهر رأيهم أو أوله .

ولم يتأملوا .

ولم يتثبتوا ولو فعلو ذلك لم يتبعوك وغرضهم من هذا المبالغة في عدم اعتبار ذلك الاتباع وجعل ذلك بعضهم علة الاسترذال وليس بشيء ، وقيل : المعنى إنهم اتبعوك في أول رأيهم أو ظاهرة وليسوا معك في الباطن .

واستشكل هذا التعلق بأن ما قبل ﴿ إِلا ﴾ لا يعمل فيما بعدها إلا إذا كان مستنثى منه نحو ما قام إلا زيداً القوم أو مستثنى نحو جاء القوم إلا زيداً أو تابعاً للمستنثى منه نحو ما جاءني أحد إلا زيداً خير من عمرو ، و ﴿ بَادِيَ الرأى ﴾ ليس واحداً من هذه الثلاثة في بادي الرأي ؛ وأجيب بأنه يغافر ذلك في الظرف لأنه يتسع فيه ما لا يتسع في غيره ،

واستشكل أمر الظرفية بأن فاعلاً ليس بظرف في الأصل ، وقال مكي : إنما جاز في فاعل

أن يكون ظرفاً كما جاز في فعيل كقريب ، ومليء لإضافته إلى الرأي وهو كثيراً ما يضاف إلى المصدر الذي يجوز نصبه على الظرفية نحو جهد رأيا أنك منطلق .

(223/376)

وقال الزمخشري : وتابعه غيره أن الأصل وقت حدوث أول أمرهم أو وقت حدوث ظاهر رأيهم فحذف ذلك وأقيم المضاف إليه مقامه ، ولعل تقدير الوقت ليكون نائباً عن الظرف فينتصب على الظرفية ، واعتبار الحدوث بناءاً على أن اسم الفاعل لا ينوب عن الظرف وينتصب والمصدر ينوب عنه كثيراً فأشاروا بذكره إلى أنه متضمن معنى الحدوث بمعنييه فلذا جاز فيه ذلك ، وليس مرادهم أنه محذوف إذ لا داعي لذلك في المعنى على التفسيرين ، وما ذكروه هنا من أن الصفات لا ينوب منها عن الظرف إلا فعيل من الفوائد الغريبة كما قال الشهاب لكن استدركه باملنع لأن فاعلا وقع ظرفاً كثيراً كفعيل ، وذلك مثل خارج الدار .

وباطن الأمر .

وظاهره ، وغير ذلك مما هو كثير في كلامهم ، وقيل : هو ظرف لنراك أي ما نراك في أول رأينا أو فيما يظهر منه ، وقيل : لاراذلنا أي أنهم أراذل في أول النظر أو ظاهره لأن رذالتهم

مكشوفة لا تحتاج إلى تأمل .

وقيل : هو نعت لبشراً وقيل : منصوب على أنه حال من ضمير نوح في ﴿ اتبعك ﴾ أي وأنت مكشوف الرأي لا حصافة فيك ، وقيل : انتصب على النداء لنوح عليه السلام أي يا بادي الرأي أي ما في نفسك من الرأي ظاهر لكل أحد ، وقيل : هو مصدر على فاعل منصوب على المفعولية المطلقة والعامل فيه ما تقدم على تقدير الظرفية .

﴿ وَمَا نرى لَكُمْ ﴾ خطاب له عليه السلام ولمتبعيه جميعاً على سبيل التغليب أي وما نرى لك ولمتبعيك .

﴿ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ أي زيادة تؤهلكم لاتباعنا لكم ، وعن ابن عباس تفسير ذلك بالزيادة في الخَلق والخُلق ، وعن بعضهم تفسيره بكثرة الملك والملك ، ولعل ما ذكرناه أولى ، وكأنّ مرادهم نفي رأية ﴿ فَضّلَ ﴾ بعد الاتباع أي ما نرى فيك وفيهم بعد الاتباع فضيلة علينا لنتبع وإلا فهم قد نفوا أولاً أفضليته عليه السلام في قولهم ﴿ مَا نَرَاكَ المؤمنين غَيْرُ أُوْلِى الضرر والمجاهدون فِى سَبِيلِ الله بأموالهم وَأَنفُسِهِمْ فَضّلَ ﴾ لهم علهم ، وقيل : إن هذا تأكيد لما فهم أولاً ، وقيل : الخطاب لأتباعه عليه السلام فقط فيكون التفاتاً أي ما نرى لكم

علينا شرف في تلك التبعية لنوافقكم فيها ، وحمل الفضل على التفضل والإحسان في احتمالي الخطاب على أن يكون مراد املألا من جوابهم له عليه السلام حين دعاهم إلى ما دعاهم إليه أنا لانتبعك ولا نترك ما نحن عليه لقولك لأنك بشر مثلنا ليس فيك ما يستدعي نبوتك وكونك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلينا بذلك وأتباعك أراذل اتبعوك من غير تأمل وتثبت فلا يدل اتباعهم على أن فيك ما يستدعي ذلك وخفي عنا ، وأيضاً لست ذا تفضل علينا ليكون تفضلك داعياً لنا لموافقتك كيفما كنت ولا أتباعك ذوو تفضل علينا لنوافقهم وإن كانوا أراذل مراعاة لحق التفضل ، فإن الإنسان قد يوافق الرذيل لتفضله ولا يبالي بكونه رذيلاً لذلك مما يدور في الخلد إلا أن في القلب منه شيئاً ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذبين ﴾ جميعاً لكون كلامكم واحداً ودعوتكم واحدة أو إياك في دعوى النبوة وإياهم في تصديقك ، قيل : واقتصروا على الظن احترازاً منهم عن نسبتهم إلى المجازفة كما أنهم عبروا بما عبروا أولاً لذلك مع التعريض من أول الأمر برأي المتبعين ومجاراة معه عليه السلام بطريق الآراء على نهج الإنصاف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [25] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ ﴾ وكانت امتلأت الأرض من شركهم وشرورهم : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : بأني ، وقرئ بالكسر . أي : فقال إني لكم نذير مبين ، أبين لكم موجبات العذاب ، ووجه الخلاص منه .

﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ ﴾ (الباء) مقدرة هنا للتعدية ، و (لا) ناهية أي : أرسلناه متلبساً بالنهي عن عبادة غير الله ﴿ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : إن عبدتم غيره : ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ أي : مؤلم في الدنيا والآخرة .

﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ ﴾ أي : السادة والكبراء ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا ﴾ أي : لست بملك ، ولكنك بشر ، فكيف أوحي إليك من دوننا .

قال القاشاني : أي : فقال الأشراف المليئون بأمور الدنيا ، القادرون عليها ، الذين حجبوا بعقلهم ومعقولهم عن الحق : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا ﴾ لكونهم ظاهريين ، واقفين على حد العقل المشوب بالوهم ، المتحير بالهوى ، الذي هو عقل المعاش ، ولا يرون لأحد طوراً

وراء ما بلغوا إليه من العقل، غير مطلعين على مراتب الاستعدادات والكمالات، طوراً بعد طور، ورتبة فوق رتبة، إلى ما لا يعلمه إلا الله، فلم يشعروا بمقام النبوة ومعناها .

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ أي: فقراؤنا الأدنون منا؛ إذ المرتبة الرفعة عندهم بالمال والجاه ليس إلا، كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ أي: بديهة الرأي؛ لأنهم ضعاف العقول، عاجزون عن كسب المعاش، ونحن أصحاب فكر ونظر . قالوا ذلك لاحتجابهم بعقلهم القاصر عن إدراك الحقيقة والفضيلة المعنوية؛ لقصر تصرفه على كسب المعاش، والوقوف على حده . وأما أتباع نوح عليه السلام، فإنهم أصحاب همم بعيدة، وعقول حائمة حول القدس، غير ملتفتة إلى ما يلتفت غيرهم إليه، فلذلك استنزلوا عقولهم واستحقروها .

تنبيه:

(بادي) قرأه أبو عَمْرو بالهمزة، والباقون بالياء .

فأما الأول: فمعناه أول الرأي . بمعنى أنه صدر من غير روية وتأمل، أول وهلة .

وأما الثاني : فيحتمل أن أصله ما تقدم ، فقلبت الياء عن الهمزة تخفيفاً ، ويحتمل أنها أصلية من بدا يبدو ، كعلا يعلوا . والمعنى : ظاهر الرأي دون باطنه ، ولو تؤمل لعرف باطنه ، وهو في المعنى كالأول . وعلى كليهما هو منصوب على الظرفية . والعامل فيه إما (نراك) أو (اتبعك) .

قال الناصر : زعم هؤلاء أن يحجوا نوحاً بمن اتبعه من وجهين :

أحدهما : أن المتبعين آراءه ليسوا قدوة ولا أسوة .

والثاني : أنهم مع ذلك لم يتروروا في إتباعه ، ولا أمعنوا الفكرة في صحة ما جاء به ، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية ، وغرض هؤلاء ألا تقوم عليهم حجة بأن منهم من صدقة وآمن به – انتهى – .

أي وكلا الوجهين يبرهنان على جهلهم وقصر عقلهم ، أما الأول فلا خفاء في أنه ليس بعارٍ على الحق رذالة من اتبعه ، بل أتباعه هم الأشراف ولو كانوا فقراء ، والذين يأبونه هم الأدنون ولو كانوا أغنياء . وفي الغالب ما يتبع الحق إلا ضعفة الخلق ، كما يغلب على الكبراء مخالفته ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 23] ولما سأل هرقل ملك الروم ، أبا سفيان عن نعوت النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم فيما قال : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ، فقال هرقل : هم أتباع الرسل

.

وأما الثاني : فإن البدار لاعتناق الحق من أسمى الفضائل ؛ لأن الحق إذا وضح فلا يبقى للرأي ولا للفكر مجال ، ولا بد من إتباعه حالتئذ لكل ذي فطنة ، ولا يتردد إلا غبي أو عيي ، ولا أجلى مما يدعو إليه الرسل عليهم السلام .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ ﴾ خطاب لنوح وأتباعه : ﴿ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ أي : تقدم يؤهلكم للنبوة واستحقاق المتابعة ؛ لأن الفضل محصور عندهم بالغنى والمال .

قال الزمخشري : كان الأشراف عندهم من له جاه ومال ، كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يعتقدون ذلك ، ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم . ولقد زل عنهم أن التقدم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله ، وإنما يبعده ولا يرفعه ، بل يضعه ، فضلاً عن أن يجعله سبباً في الاختيار للنبوة ، والتأهيل لها ، على أن الأنبياء عليهم السلام بعثوا مرغبين في طلب الآخرة ، مصغرين لشأن الدنيا ، وشأن من أخلد إليها ، فما أبعد حالهم عليهم السلام من الاتصاف بما يبعد من الله ، والتشرف بما هو ضعة عند الله !

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ أي : فيما تدعونه من الإصلاح وترتب السعادة والنجاة عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿محاسن التأويل حـ 9 صـ 88.90 ﴾

(229/376)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

انتقال من إنذار المشركين ووصف أحوالهم وما ناسب ذلك إلى موعظتهم بما أصاب المكذبين قبلهم من المصائب ، وفي ذلك تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم بما لاقاه الرّسل عليهم السّلام قبله من أقوامهم .

فالعطف من عطف القصة على القصة وهي التي تسمى الواو الابتدائية .

وأكدت الجملة بلام القسم و ﴿ قد ﴾ لأن المخاطبين لما غفلوا عن الحذر مما بقوم نوح مع مماثلة حالهم نزلوا منزلة المنكر لوقوع رسالته .

وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ﴿ إني ﴾ بكسر الهمزة على أنه محكي بفعل قول محذوف في محل حال ، أي قائلاً .

وقرأه ابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائي ، وأبو جعفر ، ويعقوب ، وخلف بفتح الهمزة على

تقدير حرف جرّ وهو الباء للملابسة ، أي أرسلناه متلبساً بذلك ، أي بمعنى المصدر المنسبك من (أني نذير) ، أي متلبساً بالنذارة البيّنة .

وتقدم الكلام على نوح عليه السلام وقومه عند قوله تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً ﴾ في آل عمران (33) .

وعند قوله : ﴿ لقد أرْسلْنا نُوحاً إلى قوْمه ﴾ في سورة الأعراف (59 .

(وجملة ﴿ ألا تعبدوا إلاّ الله ﴾ مفسرة لجملة ﴿ أرسلنا ﴾ لأن الإرسال فيه معنى القول دون حروفه ، ويجوز كونها تفسيراً ل ﴿ نذير ﴾ لما في ﴿ نذير ﴾ من معنى القول ، كقوله في سورة نوح (2 ، 3) ﴿ قال يا قوم إني لكمْ نذَير مبين أن اعبدوا الله واتّقوه ﴾ وهذا الوجه متعين على قراءة فتح همزة (أني) إذا اعتبرت (أنّ) تفسيرية .

ويجوز جعل (أنْ) مخففة من الثقيلة فيكون بدلاً من ﴿ أني لكم نذير مبين ﴾ على قراءة فتح الهمزة واسمها ضمير شأن محذوفاً ، أي أنّه لا تعبدوا إلاّ الله .

وجملة ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ تعليل ل ﴿ نذير ﴾ لأن شأن النذارة أن تثقل على النفوس وتخزُهم فكانت جديرة بالتعليل لدفع حرج ما يلاقونه .

ووصف اليوم بالأليم مجاز عقلي ، وهو أبلغ من أن يوصف العذاب بالأليم ، لأن شدة العذاب لما بلغت الغاية جعل زمانه أليماً ، أي مؤلماً .

وجملة ﴿ أخاف عليكم ﴾ ونحوها مثل أخشى عليك ، تستعمل للتوقّع في الأمر المظنون أو المقطوع به باعتبار إمكان الانفلات من المقطوع به ، كقول لبيد :

أخشى على أربَد الحتوف ولا

أخشَى عليه الرياح والمَطرا . . .

فيتعدّى الفعل بنفسه إلى الخوف منه ويتعدى إلى المخوف عليه بحرف (على) كما في الآية وبيت لبيد .

و(العذاب) هنا نكرة في المعنى ، لأنه أضيف إلى نكرة فكان محتملاً لعذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

فأما عذاب الدنيا فليس مقطوعاً بنزوله بهم ولكنه مظنون من نوح عليه السلام بناء على ما علمه من عناية الله بإيمان قومه وما أوحي إليه من الحرص في التبليغ ، فعلم أن شأن ذلك أن لا يترك مَن عَصَوْه دون عقوبة .

ولذلك قال في كلامه الآتي ﴿ إنما يأتيكم به الله إن شاء ﴾ [هود : 33] على ما يأتي هنالك .

وكان العذاب شاملاً لعذاب الآخرة أيضاً إن بقوا على الكفر ، وهو مقطوع به لأنّ الله يقرن

الوعيد بالدعوة ، فلذلك قال نوح عليه السلام في كلامه الآتي ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ [هود : 33] ، وقد تبادر إلى أذهان قومه عذاب الدنيا لأنهم لا يؤمنون بالبعث فلذلك قالوا في كلامهم الآتي ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنتم من الصادقين ﴾ [هود : 32] .

ولعلّ في كلام نوح عليه السّلام ما تفيدهم أنه توعدهم بعذاب في الدنيا وهو الطوفان .

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾

عطف قول المَلأ من قومه بالفاء على فعل ﴿ أرسلنا ﴾ [هود : 25] للإشارة إلى أنهم بادروه بالتكذيب والمجادلة الباطلة لمّا قال لهم : ﴿ إني لكم نذيرٌ مبينٌ ﴾ [هود : 25] إلى آخره .

(231/376)

ولم تقع حكاية ابتداء محاورتهم إياه بـ (قال) مجرداً عن الفاء كما وقع في الأعراف لأن ابتداء محاورته إياهم هنا لم يقع بلفظ القول فلم يحك جوابهم بطريقة المحاورات بخلاف آية الأعراف .

والملأ : سادة القوم .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ قال الملأ من قومه إنّا لنراك في ضلال مبين ﴾ في سورة [

الأعراف : 60] .

جزموا بتكذيبه فقدموا لذلك مقدمات استخلصوا منها تكذيبه ، وتلك مقدمات باطلة أقاموها على ما شاع بينهم من المغالطات الباطلة التي روجها الإلف والعادة فكانوا يعدون التفاضل بالسؤدد وهو شرف مصطلح عليه قوامه الشجاعة والكرم ، وكانوا يجعلون أسباب السؤدد أسباباً مادية جسدية ، فيسوّدون أصحاب الأجسام البَهْجة كأنهم خشب مسندة لأنهم ببساطة مداركهم العقلية يعظمون حسن الذوات ، ويسوّدون أهل الغنى لأنهم يطمعون في نوالهم ، ويسوّدون الأبطال لأنهم يُعدونهم لدفاع أعدائهم .

ثم هم يعرفون أصحاب تلك الخلال إمّا بمخالطتهم وإما بمخالطة أتباعهم فإذا تسامعوا بسيّد قوم ولم يعرفوه تعرّفوا أتباعَه وأنصاره ، فإن كانوا من الأشراف والسادة علموا أنهم ما اتّبعوه إلا لما رأوا فيه من موجبات السيادة ؛ وهذه أسباب ملائمة لأحوال أهل الضلالة إذ لا عناية لهم بالجانب النفساني من الهيكل الإنساني .

فلما دعاهم نوح عليه السّلام دعوةً علموا منها أنّه يقودهم إلى طاعته ففكروا وقدّروا فرأوا الأسباب المألوفة بينهم للسؤدد مفقودة من نوح عليه السلام ومن الذين اتّبعوه فجزموا بأنه غير حقيق بالسيادة عليهم فجزموا بتكذيبه فيما ادّعاه من الرسالة بسيادة للأمة وقيادة لها .

وهؤلاء لقصود عقولهم وضعف مداركهم لم يبلغوا إدراك أسباب الكمال الحق ، فذهبوا

يتطلّبون الكمال من أعراض تعرض للناس بالصدفة من سعة مال، أو قوة أتباع، أو عزة قبيلة.

(232/376)

وتلك أشياء لا يطرد أثرها في جلب النفع العام ولا إشعار لها بكمال صاحبها إذ يشاركه فيها أقل الناس عقولاً، والحيوان الأعجم مثل البقرة بما في ضرعها من لبن، والشاة بما على ظهرها من صوف، بل غالب حالها أنها بضد ذلك.

وربما تطلبوا الكمال في أجناس غير مألوفة كالجن، أو زيادة خلقة لا أثر لها في عمل المتصف بها مثل جمال الصورة وكمال القامة، وتلك وإن كانت ملازمة لموصوفاتها لكنّها لا تفيدهم أن يكونوا مصادر كمالات، فقد يشاركهم فيها كثير من العجماوات كالظباء والمَها والطواويس، فإن ارتقوا على ذلك تطلبوا الكمال في أسباب القوة والعزة من بسطة الجسم وإجادة الرماية والمجالدة والشجاعة على لقاء العدو.

وهذه أشبه بأن تعدّ في أسباب الكمال ولكنها مكمّلات للكمال الإنساني لأنها آلات لإنقاذ المقاصد السامية عند أهل العقول الراجحة والحكمة الإلهية كالأنبياء والملوك الصالحين، وبدون ذلك تكون آلات لإنفاذ المقاصد السيّئة مثل شجاعة أهل الحرابة وقطّاع الطريق

والشّطّار ، ومثل القوة على خلع الأبواب لاقتحام منازل الآمنين .

وإنما الكمال الحق هو زكاء النفس واستقامة العقل ، فهما السبب المطّرد لإيصال المنافع العامة لما في هذا العالم ، ولهما تكون القوى المنفّذة خادمة كالشجاعة للمدافعين عن الحق والملجئين للطغاة على الخنوع إلى الدّين ، على أن ذلك معرض للخطأ وغيبة الصواب فلا يكون له العصمة من ذلك إلاّ إذا كان محفوفاً بالإرشاد الإلهي المعصوم ، وهو مقام النبوءة والرسالة .

فهؤلاء الكفرة من قوم نوح لمّا قَصروا عن إدراك أسباب الكمال وتطلبوا الأسباب من غير مكانها نظروا نوحاً عليه السلام وأتباعه فلم يروه من جنس غير البشر ، وتأمّلوه وأتباعه فلم يروا في أجسامهم ما يميّزهم عن الناس وربّما كان في عموم الأمة من هم أجمل وجوهاً أو أطول أجساماً .

من أجل ذلك أخطأوا الاستدلال فقالوا : ﴿ ما نراك إلاّ بشراً مثلنا ﴾ فأسندوا الاستدلال إلى الرؤية .

والرؤية هنا رؤية العين لأنّهم جعلوا استدلالهم ضرورياً من المحسوس من أحوال الأجسام ،

أي ما نراك غير إنسان ، وهو مماثل للنّاس لا يزيد عليهم جوارح أو قوائم زائدة .

والبشَر محركة : الإنسان ذكراً أو أنثى ، واحداً كان أو جمعاً .

قال الراغب : "عبر عن الإنسان بالبشر اعتباراً بظهور بشرته وهي جلده من الشعر بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف والشعر والوبر" أي والريش .

والبشر مرادف الإنسان فيطلق كما يطلق الإنسان على الواحد والأكثر ، والمؤنث والمذكر .

وقد يثنى كما في قوله تعالى : ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾ [المؤمنون : 47] .

وقالوا : ﴿ وما نراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا ﴾ فجعلوا أتباع الناس المعدودين في عادتهم أراذل محقورين دليلاً على أنه لا ميزة له على سادتهم الذين يلوذ بهم أشراف القوم وأقوياؤهم .

فنفوا عنه سبب السيادة من جهتي ذاته وأتباعه ، وذلك تعريض بأنهم لا يتبعونه لأنهم يترفعون عن مخالطة أمثالهم وأنه لو أبعدهم عنه لاتبَعوه ، ولذلك ورد بعده ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ [هود : 29] الآية .

والأرذال : جمع أرذل المجعول اسماً غير صفة كذلك على القياس ، أو جمع رذيل على خلاف القياس .

والرذيل : المحتقر .

وأرادوا أنهم من لفيف القوم غير سادة ولا أثرياء .

وإضافة (أراذل) إلى ضمير جماعة المتكلمين لتعيين القبيلة ، أي أراذل قومنا .

وعبّر عنهم بالموصول والصّلة دون أن يقال : إلا أراذلنا لحكاية أن في كلام الذين كفروا إيماء إلى شهرة أتباع نوح عليه السلام بين قومهم بوصف الرذالة والحقارة ، وكان أتباع نوح عليه السلام من ضعفاء القوم ولكنهم من أزكياء النفوس ممّن سبق لهم الهدى .

(234/376)

و ﴿ بادي ﴾ قرأه الجمهور بياء تحتية في آخره على أنه مشتق من بدَا المقصور إذا ظهر ، وألفهُ منقلبة عن الواو لما تحركت وانفتح ما قبلها ، فلما صيغ منه وزن فاعل وقعت الواو متطرفة إثر كسرة فقلبت ياء .

والمعنى فيما يبدو لهم من الرأي دون بحث عن خفاياه ودقائقه .

وقرأه أبو عَمرو وحده بهمزة في آخره على أنه مشتق من البداء ، وهو أول الشيء .

والمعنى : فيما يقع أول الرأي ، أي دون إعادة النظر لمعرفة الحق من التمويه ، ومآل المعنيين واحد .

والرأي : نظر العقل ، مشتق من فعل رأى ، كما استعمل رأى بمعنى ظن وعلم .

يعنون أن هؤلاء قد غرتهم دعوتك فتسرعوا إلى متابعتك ولو أعادوا النظر والتأمل لعلموا أنك لا تستحق أن تتبع .

وانتصاب ﴿ بادي الرأي ﴾ بالنيابة عن الظرف ، أي في وقت الرأي دون بحث عن خفيّه ، أو في الرأي الأول دون إعادة نظر .

وإضافة ﴿ بادي ﴾ إلى ﴿ الرأي ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف ، ومعنى كلامهم : لا يلبث أن يرجع إلى متبعيك رُشدُهم فيعيدوا التأمل في وقت آخر ويُكشف لهم خَطؤُهم .

ولما وصفوا كل فريق من التابع والمتبوع بما ينفي سيادة المتبوع وتزكية التابع جَمَعوا الوصف الشامل لهما .

وهو المقصود من الوصفين المفرقين .

وذلك قولهم : ﴿ وما نَرى لكم علينا من فضل ﴾ فنفوا أن يكون لنوح عليه السّلام وأتباعه فضل على الذين لم يؤمنوا به حتى يكون نوح عليه السلام سيّداً لهم ويكون أتباعه مفضلين بسيادة متبوعهم .

والفضل : الزيادة في الشرف والكمال ، والمراد هنا آثاره وعلاماته لأنها التي تُرى ، فجعلوا عدم ظهور فضل لهم عليهم دليلاً على انتفاء فضلهم ، لأنّ الشيء الذي لا تخفى آثاره يصح أن يجعل انتفاء رؤيتها دليلاً على انتفائها إذ لو ثبتت لرئَيت .

(235/376)

وجملة ﴿ بل نظنّكم كاذبين ﴾ إبطال للمنفي كلّه الدال على صدقه في دعواه بإثبات ضد المنفي ، وهو ظنهم إياهم كاذبين لأّنه إذا بطل الشيء ثبت ضدّه ، فزعموا نوحاً عليه السلام كاذباً في دعوى الرسالة وأتباعه كاذبين في دعوى حصول اليقين بصدق نوح عليه السّلام ، بل ذلك منهم اعتقاد باطل ، وهذا الظن الذي زعموه مستند إلى الدليل المحسوس في اعتقادهم .

واستعمل الظن هنا في العلم كقوله : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ﴾ [البقرة : 46] وهو إطلاق شائع في الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(236/376)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرأي ﴾ الآية .

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة : أن الملأ من قوم نوح قالوا له : ما نراك اتبعك منا إلا الأسافل

والأراذل . وذكر في سورة الشعراء ، أن اتباع الأراذل له في زعمهم مانع لهم من اتباعه بقوله ﴿ قالوا أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الأرذلون ﴾ [الشعراء : 111] .

وبين في هذه السورة الكريمة : أن نوحاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أبى أن يطرد أولئك المؤمنين الذين اتبعوه بقوله : ﴿ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الذين آمنوا إِنَّهُمْ مُّلاَقُو رَبِّهِمْ ولكني أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ وَيا قوم مَن يَنصُرُنِي مِنَ الله إِن طَرَدتُّهُمْ ﴾ [هود : 29 - 30] . وذكر تعالى عنه ذلك في الشعراء أيضاً بقوله : ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ على رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ المؤمنين ﴾ [الشعراء : 113 - 114] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(237/376)

وقال الشيخ الشعراوى :

وبعد أن بيَّن الحق سبحانه وَصْفَ كل طرف وصراعه مع الآخر ، واختلاف كل منهما في الغاية ، والصراع الذي بينهما تشرحه قصص الرسل عليهم السلام .

ويقول الحق سبحانه في بعض من مواضع القرآن الكريم ، وفي كل موضع لقطات من قصة أي رسول ، واللقطة التي توجد في سورة قد تختلف عن اللقطة التي في سورة أخرى .

ومثال ذلك : أن الحق سبحانه قد تكلم في سورة يونس عن نوح وموسى وهارون ويونس عليهم السلام ، وهنا في سورة هود تأتي مرة أخرى قصة نوح عليه السلام ، فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ ﴾

والآية توضِّح مسألة إرسال نوح عليه السلام كرسول لقومه ، وعلى نوح الرسول أن يمارس مهمته وهي البلاغ ، فيقول :

﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود : 25] .

ونحن نلحظ أن همزة (إن) في إحدى قِرَاءَتَي الآية تكون مكسورة ، وفي قراءة أخرى تكون مفتوحة ، أما في القراءة بالكسر فتعني أن نوحاً عليه السلام قد جاء بالرسالة فبلغ قومه وقال :

﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود : 25] .

وأما في القراءة الأخرى بالفتح فتعني أن الرسالة هي :

﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود : 25] .

فكأن القراءة الأولى تعني الرواية عن قصة البلاغ ، والقراءة الثانية تحدد مضمون الرسالة :

﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود : 25] .

والقراءة الأولى فيها حذف القول ، وحذف القول كثير في القرآن ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [الرعد :

. [2324] .

وهذا يعني أن الملائكة يدخلون على المؤمنين في الجنة من كل باب ، وساعة الدخول يقول الملائكة :

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [الرعد : 24] .

وقول نحو عليه السلام : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود : 25] .

(238/376)

نعلم منه أن النذير كما قلنا من قبل هو من يخبر بشرٍّ لم يأت وقته بعد ، حتى يستعد السامع لملاقاته ، وما دام أن نبي الله نوحاً قد جاء نذيراً ، فالسياق مستمر ؛ لأن الحق سبحانه قال في الآية التي قبلها :

﴿ مَثَلُ الفريقين ﴾ [هود : 24] .

أي : أن هناك فريقاً عاصياً وكافراً وله نذير ، أما الفريق الآخر فله بشير ، يخبر بخير قادم ليستعد السامع أيضاً لاستقباله بنفس مطمئنة .

والفريق الكافر الذي يستحق الإنذار ، يأتي لهم الحق سبحانه بنص الإنذار في قوله تعالى :

﴿ أَن لاَّ تعبدوا إِلاَّ الله ﴾

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام محسوب على قومه ، وهم محسوبون عليه ؛ ولذلك نجده خائفاً عليهم ؛ لأن الرباط الذي يربطه بهم رباط جامع قوي .

وكذلك نجد الحق سبحانه يُحنّن قلوب الرسل إليهم لعلهم يحسنون استقبال الرسول .

ومثال ذلك : قول الحق سبحانه :

﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ﴾ [الأعراف : 65] .

ولأن الرسول أخ لهم فلن يغشّهم أو يخدعهم .

واستقبل الملأ من قوم نوح الأمر بما يقوله الحق سبحانه عنهم : ﴿ فَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ ﴾

والملأ كما نعلم هم وجوه القوم ، وهم السادة الذين يملأون العيون مهابة ، ويتصدرون أي مجلس .

وهناك مثل شعبي في بلادنا يوضح ذلك المعنى حين نقول : " فلان يملأ العين " .

أي : أن العين حين تنظر إليه لا تكون فارغة ، فلا جزء في العين يرى غيره .

ويقال أيضاً : " فلان قَيْد النواظر " أي : أنه إذا ظهر تقيّدت به كل النواظر ، فلا تلتفت إلى سواه ، ولا يمكن أن يكون كذلك إلا إذا كانت فيه مزايا تجذب العيون إليه بحيث لا تتحول عنه .

والمراد بذلك هو الحاشية المقربة ، أو الدائرة الأولى التي حول المركز ، فَحَوْل كل مركز هناك

دوائر ، والملأ هم الدائرة الأولى ، ثم تليهم دائرة ثانية ، ثم ثالثة وهكذا ، والارتباك إنما ينشأ حين يكون للدائرة أكثر من مركز ، فتتشتت الدوائر .

(239/376)

وردّ الذين يكوّنون الملأ على سيدنا نوح قائلين :

﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا ﴾ [هود : 27] .

أي : أنه لا توجد لك ميزة تجعلك متفوقاً علينا ، فما الذي سوّدك علينا لتكون أنت الرسول ؟

وقولهم هذا دليل غباء ؛ لأن الرسول ما دام قد جاء من البشر ، فسلوكه يكون أسوة ، وقوله يصلح للاتباع ، ولو كان الرسول من غيرِ البشر لكان من حق القوم أن يعترضوا ؛ لأنهم لن يستطيعوا اتخاذ الملاك أسوة لهم .

ولذلك بيَّن الحق سبحانه هذه المسألة في قوله تعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 94] .

وجاء الرد منه سبحانه بأن قُلْ لهم :

﴿ لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 95] .

إذن : فالرسول إنما يجيء مُبلِّغ منهج وأسوة سلوك ، فإذا لم يكن من جنس البشر ، فالأسوة لن تصلح ، ولن يستطيع إلا البلاغ فقط .

ومثال ذلك : أنت حين ترى الأسد في أي حديقة من حدائق الحيوان ، يصول ويجول ، ويأكل اللحم النَّيء المقدم له من الحارس ، أتحدثك نفسك أن تفعل مثله ؟ . . طبعاً لا ، لكنك إن رأيت فارساً على جواد ومعه سيفه ، فنفسك قد تحدثك أن تكون مثله .

وهكذا نجد أن الأسوة تتطلب اتحاد الجنس ؛ ولذلك قلنا : إن الأسوة هي الدليل على إبطال من يدَّعي الألوهية لعزير أو لعيسى عليهما السلام .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان الملأ الكافر من قوم نوح :

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ [هود : 27] .

والأراذل جمع " أرذل " ، مثل قولنا : " أفاضل قوم " ، وهي جمع " أفضل " .

والأرذل هو الخسيس الدنيء في أعين الناس . ورذال المال أي : رديئه . ورذال كل شيء هو نفايته .

ونرى في الريف أثناء مواسم جمع " القطن " عملية " فرز " القطن ، يقوم بها صغار البنين والبنات ، فيفصلون القطن النظيف ، عن اللوز الذي لم يتفتح بالشكل المناسب ؛ لأن اللوزة المصابة عادة ما تعاني من ضمور ، ولم تنضج النضج الصحيح .

وكذلك يفعل الفلاحون في موسم جمع " البلح " ، فيفصلون البلح الجيد عن البلح المعيب .

إذن : فرذال كل شيء هو نفايته .

وقد قال الملأ من الكفار من قوم نوح :

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ [هود : 27] .

أي : أنهم وصفوا من آمنوا بنوح عليه السلام بأنهم نفاية المجتمع .

وجاء الحق على ألسنتهم بقولهم في موضع آخر :

﴿ واتبعك الأرذلون ﴾ [الشعراء : 111] .

ولم يَنْفِ نوح عليه السلام ذلك ؛ لأن الذين اتبعوه قد يكونون من الضعاف ، وهَم ضحايا الإفساد ؛ لأن القوى في المجتمع لا يقربه أحد ؛ ولذلك فإنه لا يعاني من ضغوط المفسدين ، أما الضعاف فهم الذين يعانون من المفسدين ؛ فما إن يظهر المُخْلِّص لهم من المفسدين فلا بد أن يتمسكوا به .

ولكن ذلك لا يعني أن الإيمان لا يلمس قلوب الأقوياء ، بدليل أن البعض من سادة وأغنياء

مكة استجابوا للدعوة المحمدية مثل : أبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنهم .

ولكن الغالب في دعوات الإصلاح أنه يستجيب لها المطحونون بالفساد ، هؤلاء الذين يشعرون بالغليان في مراجل الألم بسبب الفساد ، وما إن يظهر داعية الإصلاح ويريد أن يزحزح الفساد ، فيلتفُّون حوله ويتعاطفون معه ، وإن كانوا غير عبيد ، لكن محكومين بالغير ، فهم يؤمنون علناً برجل الإصلاح ، وإن كانوا عبيداً مملوكين للسادة ؛ فهم يؤمنون خفية ، ويتحمل القوي منهم الاضطهاد والتعذيب .

إذن : فكل رسول يأتي إنما يأتي في زمن فساد ، وهذا الفساد ينتفع به بعض الناس ؛ وطغيان يعاني منه الكثيرون الواقع عليهم الفساد والطغيان .

ويأتي الرسول وكأنه ثورة على الطغيان والفساد ؛ لذلك يتمسك به الضعفاء ويفرحون به ، وتلتف قلوبهم حوله .

أما المنتفعون بالفساد فيقولون : إن أتباعك هم أراذلنا . وكأن هذا القول طَعْن في الرسول ، لكنهم أغبياء ؛ لأن هذا القول دليل على ضرورة مجيء الرسول ؛ ليخلص هؤلاء الضعاف ،

ويجيء الرسول ليقود غضبة على فساد الأرض ، ولينهي هذا الفساد .

وهي غضبة تختلف عن غضبة الثائر العادي من الناس ، فالثائر من الناس يرى من يصفق له من المطحونين بالفساد .

لكن آفة الثائر من البشر شيء واحد ، هي أنه يريد أن يستمر ثائراً ، ولكن الثائر الحق هو الذي يثور ليهدم الفساد ، ثم يهدأ ليبني الأمجاد ، فلا يسلط السيف على الكل ، ولا يفضّل قوماً على قوم ، ولا يدلل مَنْ طُغِي عليهم ، ويظلم مَنْ طغوا .

بل عليه أن يحكم بين الناس بالعدل والرحمة ؛ لتستقيم الأمور ، وتذهب الأحقاد ، ويعلم الناس كلهم أن الثائر ما جاء ضد طائفة بعينها ، وإنما جاء ضد ظلم طائفة لغيرها ، فإذا أخذ من الظالم وأعطى المظلوم ؛ فليجعل الاثنين سواء أمام عينيه .

ومن هنا يجيء الهدوء والاستقرار في المجتمع .

إذن : فقد كان قول الكافرين من ملأ قوم نوح .

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ [هود : 27] .

هو قول يؤكد وجود الفساد في هذا المجتمع ، وأن الضعاف المطحونين من الفساد قد اتبعوا نوحاً عليه السلام .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ بَادِيَ الرأي ﴾ [هود : 27] .

والبادي هو الظاهر ؛ ضد المستتر .

وهناك قراءة أخرى هي ﴿ بَادِيءَ الرأي ﴾ ؟

أي : بعد بدء الرأي .

والآية هنا تقول :

﴿ بَادِيَ الرأي ﴾ [هود : 27] .

أي : ظاهر الأمر ، فساعة ما يُلْقى إلى الإنسان أيُّ شيء فهو ينظر له نظرة سطحية ، ثم يفكر بإمعان في هذا الشيء .

وساعة يسمع الإنسان دعوى أو قضية ، فعليه ألا يحكم عليها بظاهر الأمر ، بل لا بد أن يبحث القضية أو الدعوى بتروٍّ وهدوء .

(242/376)

وهم قد قالوا لنوح عليه السلام : أنت بشر مثلنا ، وقد اتبعك أراذلنا ؛ لأنهم نظروا إلى دعوتك نظرة ظاهرية ، ولو تعقَّبوا دعوتك وتأمَّلوها ونظروا في عواقبها بتدبُّر لما آمنوا بها .

ويكشف الحق سبحانه هذا الغباء فيهم ، فقول الملأ بأن الضعفاء كان يجب عليهم أن يتدبروا الأمر ويتمعنوا في دعوة نوح قبل الإيمان به ، ينقضه إصرار الضعفاء على الإيمان ؛

لأنه يؤكد أن جوهر الحكم عندهم جوهر سليم ؛ لأن الواحد من هؤلاء الضعفاء لا يقيس الأمر بمقياس من يملك المال ، ولا بمقياس من يملك الجاه ، ولا بمقياس من له سيادة ، بل قاس الضعيف من هؤلاء الأمر بالقلب ، الذي تعقّل وتبصَّر ، وباللسان الذي أعلن الإيمان ؛ لأن الإنسان بأصغريه : قلبه ولسانه .

إذن : فهذا الملأ الكافر من قوم نوح عليه السلام ، قد حكم بأن الضعاف أراذل بالمقاييس الهابطة ، لا بالمقاييس الصحيحة .

ولو امتنع هؤلاء الذي يُقال عنهم "أراذل" عن خدمة من يقال لهم "سادة" لذاق السادة الأمرّيَن ، فهم الذين يقدّمون الخدمة ، ولو لم يصنع النجار أثاث البيت لما كانت هناك بيوت مؤثثة .

ولو امتنع العمال عن الحفر والبناء لما كانت هناك قصور مشيدة .

ولو امتنع الطاهي عن طهي الطعام لما كانت هناك موائد ممتدة ، وكل خدمات هؤلاء الضعاف تصب عند الغني أو صاحب المال أو صاحب الجاه .

وهكذا نرى أن الكون يحتاج إلى من يملك الثورة ولو عن طريق الميراث ليصرف على من يحتاجه المجتمع أيضاً ، وهم الضعاف الذين يعطون الخير من كدّهم وإنتاجهم .

إذن : فالضعفاء هم تتمة السيادة .

وحين نمعن النظر لوجدنا أن سيادة الثَّريّ أو صاحب الجاه إنما تأتي نتيجة لمجهودات من

يقال عنهم : إنهم أراذل .

ولو أنهم تخلَّوا عن الثرى أو صاحب الجاه ، لما استطاع أن يكون سيداً . ويذكر لنا الحق سبحانه بقية ما قاله الملأ الكافر من قوم نوح :

﴿ وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود : 27] .

وهم بهذا القول قد أنكروا أن سيادتكم إنما نشأت بجهد من قالوا عنهم إنهم أراذل ، وأنكروا فضل هؤلاء الناس .

ويُلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى الآفة التي تنتاب بعض المجتمعات حين يذكر لنا ما قاله الكافرون :

﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ [الزخرف : 31 32] .

إذن : فالحق سبحانه هو الذي قسم المعيشة ، وآفة الحكم أن ننظر إلى المرفوع على أنه الغنى ، لا ، فليس المرفوع هو الغنى ، بل هو كل ذي موهبة ليست في سواه .

وما دام مرفوعاً في مجال فهو سيخدم غيره فيه ، وغيره سيخدمونه فيما رُفعوا فيه ؛ لأن المسألة أساسها التكامل .

لذلك لا يُديم الله سبحانه غِنَى أحدٍ أبد الدهر ، بل جعل الدنيا دُوَلاً بين الناس .

إذن : فلو عرف هذا الملأ الكافر من قوم نوح عليه السلام معنى كلمة الفضل لما قالوها ؛ لأن الفضل هو الزائد عن المطلوب للكائن ، في المحسوسات أو المعاني والفضل يقتضي وجود فاضل ومفضول .

ولينظر كل طاغية في حياته ليرى ما الفاضل فيها ؟

إنه بعض من المال أو الجاه ، وكل مَنْ يخدم هذا الطاغية هم أصحاب الفضل ؛ لأن سيادة الطاغية مبنية على عطائهم .

فهم أصحاب الفضل ، ما دام الفضل هو الأمر الزائد عن الضروري .

إذن : فحقيقة ارتباط العالم بعضه ببعض ، هو ارتباط الحاجة لا ارتباط السيطرة ، ولذلك حين نرى مسيطراً يطغى ، فنحن نقول له : تعقَّل الأمر ؛ لأنك ما سيطرت إلا بأناس من الأراذل ، فإظهار قوته تكون بمن يُجيدون تصويب السلاح ، أو بمن تدربوا على إيذاء البشر ، فهو يبني سيادته ببعض الأراذل ، كوسائل لتحقيق سيطرته .

وقول الكافرين من ملأ نوح عليه السلام :

﴿ وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ [هود : 27] .

يكشف أنهم قد فهموا الفضل على أنه الغِنَى ، والجاه والمناصب ، وهم قد أخطأوا الفهم

.

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود : 27] .

والظن هو الراجح ، والمرجوح هو الوهم ؛ وهذا يثبت أن في الإنسان فطرة تستيقظ في

النفس كومضات فالمتكبر يمضي في كبره إلى أن تأتي له ومضة من فطرته ، فيعرف أن الحق

حق ، وأن الباطل باطل .

وحين جاءت هذه الومضة في نفوس هذا الملأ الكافر ، قالوا :

﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود : 27] .

ولم يقولوا : " نعتقد أنكم كاذبون " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنِّي لَكُمْ ﴾ : قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي " أني " بفتح الهمزة ، والباقون بكسرها . فأمَّا الفتح فعلى إضمار حرفِ الجر ، أي : بأني لكم . قال الفارسي : " في قراءة الفتح خروجٌ من الغَيْبة إلى المخاطبةِ " . قال ابن عطية : وفي هذا نظر ، وإنما هي حكاية مُخاطبتِهِ لقومه ، وليس هذا حقيقة الخروج من غَيْبةٍ إلى مخاطبة ، ولو كان الكلام أن أَنْذِرْهم ونحوه لصح ذلك " . وقد قال بهذه المقالة أعني الالتفات مكي فإنه قال : " الأصل : بأني والجارُّ والمجرور في موضع المفعول الثاني ، وكان الأصلُ : أنه ، لكنه جاء على طريقة الالتفات " . انتهى ، ولكن هذا الالتفات غيرُ الذي ذكره أبو علي ، فإنَّ ذاك من غيبة إلى خطاب ، وهذا من غيبةٍ إلى تكلُّم ، وكلاهما غير محتاج إليه ، وإن كان قولُ مكي أقربَ . وقال الزمخشري : " الجارُّ والمجرور صلةٌ لحالٍ محذوفة ، والمعنى : أرسلناه ملتبساً بهذا الكلام ، وهو قوله : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ بالكسر ، فلما اتصل به الجارُّ فُتِح كما فتح في " كأنَّ " والمعنى على الكسر في قولك : " إن زيداً كالأسد " . وأما الكسرُ فعلى إضمار القول ، وكثيراً ما يُضْمر ، وهو غني عن الشواهد .

﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ أَن لاَّ تعبدوا ﴾ : كقوله : ﴿ أَن لاَّ تعبدوا ﴾ في أول السورة ، ونزيد هنا شيئاً آخر ، وهو أنها على قراءة مَنْ فتح " أني " تحتمل وجهين ، أحدُهما : أن تكون بدلاً من قوله : " أني لكم " ، أي : أَرْسَلْناه بأن لا تعبدوا . والثاني : /أن تكون مفسِّرة ، والمفسَّر بها : إمَّا أرسلنا ، وإمَّا نذير . وأمَّا على قراءة مَنْ كسر فيجوز أن تكونَ المصدرية ، وهي معمولةٌ لأرسلنا ، ويجوز أن تكونَ المفسرةَ بحالَيْها .

قوله : ﴿ أَلِيمٍ ﴾ إسناد الألم إلى اليوم مجازٌ لوقوعه فيه لا به ، وقال الزمخشري : " فإذا وُصِفَ به العذابُ قلت : مجازٌ مثلُه ؛ لأنَّ الأليمَ في الحقيقة هو المعذِّب ، فنظيرها قولك : نهارك صائم " . قال الشيخ : " وهذا على أن يكون " أليم " صفةُ مبالغةٍ وهو مَنْ كَثُرَ ألمه ، وإن كان أليم بمعنى مُؤْلِم فنسبتُه لليوم مجازٌ وللعذاب حقيقة " .

﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَرَاكَ ﴾ : يجوز أن تكون قلبية ، وأن تكون بصريةً . فعلى الأول تكون

الجملةُ من قوله " اتَّبعك " في محل نصب مفعولاً ثانياً ، وعلى الثاني في محلِّ نصب على الحال ، و " قد " مقدرةٌ عند مَنْ يشترط ذلك .

والأراذِلُ فيه وجهان ، أحدهما : أنه جمعُ الجمع ، والثاني : جمعٌ فقط . والقائلون بالأول اختلفوا فقيل : جمع ل " أَرْذُل " ، وأَرْذُل جمع لرَذْل نحو : كَلْب وأَكْلُب وأَكَالب . وقيل : بل جمع لأَرْذال ، وأَرْذال جمع لرَذْل أيضاً . والقائلون بأنه ليس جمعَ جمعٍ ، بل جمعٌ فقط قالوا : هو جَمْعٌ لأَرْذُل ، وإنما جاز أن يكون جمعاً لأَرْذُل لجريانه مَجْرى الأسماءِ من حيث إنه هُجِر موصوفُه كالأَبطح والأبرق وقال بعضهم : هو جمع أَرْذَل الذي للتفضيل ، وجاء جمعاً كما جاء ﴿ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا ﴾ [الأنعام : 123] و ﴿ أحاسِنُكم أخلاقاً ﴾ [الأنعام : 123] . ويقال : رجل رَذْل ورُذال ، ك " رَخْل " و " رُخال " وهو المرغوبُ عنه لرداءته .

قوله : ﴿ بَادِيَ الرأي ﴾ قرأ أبو عمرو من السبعة وعيسى الثقفي " بادِئَ " بالهمز ، والباقون بياءٍ صريحةٍ مكانَ الهمزة . فأمَّا الهمزُ فمعناه : بادئَ الرأي ، أي : أولَ الرأي بمعنى أنه غيرُ صادرٍ عن رَوِيّة وتأَمُّل ، بل من أولِ وَهْلة . وأمَّا مَنْ لم يهمز فيحتمل أن يكون

أصلُه كما تقدَّم، ويحتمل أن يكونَ مِنْ بدا يَبْدو أي ظهر، والمعنى: ظاهر الرأي دون باطنه ، أي: لو تُؤُمِّل لعُرِفَ باطنُه، وهو في المعنى كالأول.

(248/376)

وفي انتصابِهِ على كلتا القراءتين سبعةُ أوجه، أحدها: أنه منصوبٌ على الظرف، وفي العاملِ فيه على هذا ثلاثةُ أوجه، أحدُها: "نراك"، أي: وما نراك في أول رأينا، على قراءة أبي عمرو، أو فيما يَظْهر لنا من الرأي في قراءة الباقين. والثاني من الأوجه الثلاثة: أن يكونَ منصوباً ب "اتَّبعك"، أي: ما نراك اتبعك أولَ رأيهم، أو ظاهرَ رأيهم، وهذا يحتمل معنيين، أحدهما: أن يريدوا اتَّبعوك في ظاهر أمرهم، وبواطنهم ليست معك. والثاني: أنهم اتَّبعوك بأول نظرٍ، وبالرأي البادي دون تثبُّت، ولو تثبَّتوا لَمَا اتبعوك. الثالث من الأوجه الثلاثة: أنَّ العاملَ فيه "أراذِلُنا" والمعنى: أراذِلنا بأولِ نظرٍ منهم، أو بظاهر الرأي نعلم ذلك، أي: إنَّ رذالَتَهم مكشوفةٌ ظاهرةٌ لكونهم أصحابَ حِرَفٍ دنيَّة.

ثم القول بكونِ "باديَ" ظرفاً يحتاج إلى اعتذار فإنه اسمُ فاعلٍ وليس بظرفٍ في الأصل، فقال مكي: "وإنما جاز أن يكون فاعِل ظرفاً كما جاز ذلك في فعيل نحو: قريب ومليء، وفاعل وفعيل يتعاقبان كراحِم ورحيم، وعالم وعليم، وحَسُن ذلك في فاعِل لإِضافته إلى

الرأي ، والرأي يُضاف إليه المصدر ، وينتصبُ المصدرُ معه على الظرف نحو : " أما جَهْدَ رأيٍ فإنك منطلقٌ " ، أي : في " جَهْد " .

وقال الزمخشري : " وانتصابه على الظرف ، أصلُه : وقتَ حدوثِ أول أمرهم ، أو وقت حدوثِ ظاهرِ رأيهم ، فَحُذِفَ ذلك وأُقيم المضافُ إليه مُقامه " .

الوجه الثاني من السبعة : أن ينتصبَ على المفعول به ، حُذف معه حرفُ الجر مثل ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف : 155] كذا قاله مكي . وفيه نظرٌ من حيث إنه ليس هنا فعلٌ صالحٌ للتعدي إلى اثنين ، إلى ثانيهما بإسقاط الخافض .

الثالث من السبعة : أن ينتصبَ على المصدر ، ومجيءُ المصدر على فاعِلٍ أيضاً ليس بالقياسِ ، والعاملُ في هذا المصدرِ كالعامل في الظرف كما تقدم ، ويكون من باب ما جاء فيه المصدرُ من معنى الفعل لا من لفظه ، تقديرُه : رؤيةَ بَدْءٍ أو ظهور ، أو اتباعَ بَدْءٍ أو ظهور ، أو رَذالةَ بَدْءٍ أو ظهور .

الرابع من السبعة : أن يكونَ نعتاً لبشر ، أي : ما نراك إلا بشراً مثلنا / باديَ الرأي ، أي : ظاهرَه ، أو مبتدِئاً فيه . وفيه بُعْدٌ للفصلِ بين النعت والمنعوت بالجملة المعطوفة . الخامس

: أنه حالٌ من مفعول " اتَّبَعَكَ " ، أي : وأنت مكشوفُ الرأي ظاهرَ لا قوةَ فيه ولا حصافةَ لك . السادس : أنه منادى والمراد به نوحٌ عليه السلام ، كأنهم قالوا : يا باديَ الرأي ، أي : ما في نفسِك ظاهرٌ لكلِّ أحدٍ ، قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء به والاستقلال له . السابع : أن العاملَ فيه مضمر ، تقديره : أتقول ذلك بادي الرأي ، ذكره أبو البقاء ، والأصلُ عدم الإِضمار مع الاستغناء عنه ، وعلى هذه الأوجهِ الأربعةِ الأخيرة هو اسمُ فاعلٍ من غير تأويل ، بخلاف ما تقدَّم من الأوجه فإنه ظرفٌ أو مصدر .

واعلم أنك إذا نَصَبْتَ " باديَ " على الظرف أو المصدر بما قبل " إلا " احتجْتَ إلى جوابٍ عن إشكال وهو أنَّ ما بعد " إلا " لا يكون معمولاً لما قبلها ، إلا إن كان مستثنى منه نحو : " ما قام إلا زيداً القوم " أو مستثنى نحو : " قام القومُ إلا زيداً " ، أو تابعاً للمستثنى منه نحو : " ما جاءني أحدُ إلا زيدٌ أخيرٌ من عمرو " و " بادي الرأي " ليس شيئاً من ذلك . وقال مكي : " فلو قلت في الكلام : " ما أعطيت [أحداً] إلا زيداً درهماً] فأوقعتَ اسمين مفعولين بعد " إلا " لم يَجُزْ ؛ لأن الفعلَ لا يصلُ ب " إلا " إلى مفعولين ، إنما يصل إلى اسمٍ واحد كسائر الحروف ، ألا ترى أنك لو قلت : " مررت بزيدٍ عمروٍ " فأوصلْتَ الفعلَ إليهما بحرفٍ واحدٍ

لم يَجُزْ ، ولذلك لو قلت : " استوى الماءُ والخشبة الحائط " فتنصب اسمين بواو " مع " لم يجز إلا أن تأتي َفي جميعِ ذلك بواو العطف فيجوز وصولُ الفعل " .

والجوابُ الذي ذكروه هو أنَّ الظروف يُتَّسع فيها ما لا يُتَّسع في غيرِها . وهذا جماعُ القولِ في هذه المسألة باختصار .

والرأي : يجوز أن يكونَ من رؤيةِ العينِ أو من الفكرة والتأمُّل . وقوله ﴿ بَيِّنَةٍ مِّن ربي ﴾ " مِنْ ربي " نعتُ ل " بَيِّنة " ، أي : بَيِّنَةٌ من بَيِّنات ربي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 308. 313 ﴾

(251/376)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ .

كان نوحٌ عليه السلام أطول الأنبياء عُمْرا وأشدّهم بلاءً ، وسمي نوحاً لكثرة نَوْحِه على نَفْسِه . . . . وسببُ ذلك أنه مرّ بكلبٍ فقال : ما أقبحه ! فأوحى الله إليه أنْ اخلقْ أنت

أَحْسَنَ من هذا . فأخذ يبكي وينوح على نفسه كلَّ ذلك النَّوْح. فكيف بحالِ مَنْ لم يذكر يوماً مما مضى من عمره في مدة تكليفه– ولم يحصل منه لله كثير من ولاية ! ؟

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (27) ﴾

أنكروا صحة كوْنِه نبيّاً لمشاكلته إياهم في الصورة ، ولم يعلموا أن المباينة بالسريرة لا بالصورة .

ثم قال : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ : نظروا إلى أتباعه نَظْرَةَ استصغارٍ ، ونَسَبُوهم إلى قِلّةِ التحصيل . . . وما استصغر أحدٌ أحداً من حيث رؤية الفضل عليه إلا سَلَّطَ اللَّهُ عليه ، وأذاقه ذُلَّ صَغَارِه ، فبالمعاني يحصل الامتيازُ لا بالمباني :

ترى الرجلَ النحيف فتزدريه . . . وفي أثوابه أسد هصور

فإن أَكُ في شِراركم قليلاً . . . فإني في خِياركم كثير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 132.131 ﴾

(252/376)

قوله تعالى ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ختام جوابهم أشده ، بدأ في جوابه برده مبيناً لضلالاتهم مغضياً عن شناعاتهم شفقة عليهم ومحبة لنجاتهم ، فقال تعالى حكاية عنه : ﴿ قال يا قوم ﴾ وشرع يكرر هذه اللفظة كل قليل تذكيراً لهم أنه منهم لتعطفهم الأرحام وتردهم القرابات عن حسد أو اتهامه إلى قبول ما يلقي إليهم من الكلام ، وأشار بأداة البعد - مع قربهم - إلى مباعدتهم فيما يقتضي غاية القرب ﴿ أرأيتم ﴾ أي أخبروني ﴿ إن كنت ﴾ على سبيل الفرض منكم والتقدير ﴿ على بينة ﴾ أي برهان ساطع ، وزاد ترغيباً فيه بقوله : ﴿ من ربي ﴾ أي الذي أوجدني وأحسن إليّ بالرسالة وغيرها يشهد بصحة دعواي شهادة لا يتطرق إليها عند المنصف شبهة فكيف بالظن ! ﴿ وآتاني ﴾ فضلاً منه عليّ لا لمعنى فيّ أزيد عليكم

به ، بل ﴿ رحمة ﴾ أي إكراماً بالرسالة بعد النبوة ، وعظمها بقوله : ﴿ من عنده ﴾ فيها فضل عظيم النور واضح الظهور .

(253/376)

ولما كانت البينة من الرحمة ، وحد الضمير فقال : ﴿ فعميت ﴾ أي فتسبب عن تخصيصي بها أن أظلمت ، ووقع ظلامها ﴿ عليكم ﴾ أي فعميتم انتم عنها لضعف عقولكم ولم يقع عليكم شيء من نورها ، وذلك أن الدليل إذا كان أعمى عاد ضرره على التابع بالحيرة والضلال ، وهو معنى قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالبناء للمفعول مشددة ﴿ أنلزمكموها ﴾ وقوله : ﴿ وأنتم لها كارهون ﴾ مع تسميته لها بينة - إشاره إلى أنها لم تعم ولا خفيت عليهم لقوة نورها وشدة ظهورها ، وإنما هم معاندون في نفيهم لفضله وفضل من تبعه ، والتعبير عن ذلك بالجملة الاسمية واسم الفاعل إشارة إلى أن أفعالهم أفعال من كراهته لها ثابتة مستحكمة ، وكأنه لم يكن مأموراً بالقتال كما كان نبينا - صلى الله عليه وسلم - في أول الأمر ، والآية ناظرة إلى قوله تعالى : ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ [يونس : 99] ويجوز أن يكون ذلك كناية عن أنهم معاندون مع قطع النظر عن الجهاد وغيره فإن الأنبياء عليهم السلام مأمرون بالمجادلة للمعاندين إلى أن

يلزموهم الحجة، وهي لا تفيد إلا الإلزام في الظاهر مع الإنكار والكراهة في الباطن، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة للكاملين، وبالموعظة والخطابة للمنافقين الذي لا يعاندون ويحسنون الظن في الداعي، فيكون المعنى أن البينة لم تنفعكم لشكاسة وإعوجاج في طباعكم، فلم يبق إلا الموعظة وهي لا تفيد إلا مع حسن الظن، وأما مع الكراهة فلا ينفعكم النصح، فلا فائدة في المجادلة إلا الإلزام، وهو مع الكراهة غير نافع لكم.

(254/376)

ولما كان نفي ذلك عاماً للفضل الدنيوي، وكان الاتصاف بقلة ما في اليد إنما يكون ضاراً إذا كان صاحبه يسأل غيره، نفى عنه هذا اللازم العائب فقال مجيباً عن نفيهم الفضل عنه وعن أتباعه بأنه قد يرد منهم على ذلك ثواباً دنيوياً: ﴿ويا قوم﴾ استعطافاً لهم ﴿لا أسئلكم﴾ أي في وقت من الأوقات ﴿عليه﴾ أي الإنذار كما يأخذ منكم من ينذركم أمر من يريد منكم من ينذركم أمر من يريد بكم بعض ما تكرهون في أمور دنياكم حتى تكون عاقبة ذلك أن تتهموني ﴿مالاً إن﴾ أي ما ﴿أجري إلا على الله﴾ أي الذي له الجلال والإكرام فبيده الخزائن كلها، ونبه بهذا على أنه لا غرض له من عرض دنيوي ينفر المدعو عنه فوجب تصديقه، وفيه تلقين للجواب عن قول قريش: لولا ألقي إليه كنز - كما سيأتي

بأبين من ذلك عقب قصة يوسف عليه السلام في قوله : ﴿ وما تسئلهم عليه من أجر ﴾ لأن هذه القصص كالشيء الواحد متتابعة في بيان حقية هذا القرآن والتأسية في الاقتداء بالرسل في الصبر على أداء جميع الرسالة مع ما يلزم ذلك من جليل العبر وبديع الحكم ، فلما اتحد الغرض منها مع تواليها اتحدت متفرقاتها .

(255/376)

ولما كان التعبير برذالة المتبع مما ينفر أهل الدنيا عن ذلك التابع ، بين لهم أن شأنه غير شأنهم وأنه رقيق على من آمن به رفيق به رحيم له وإن كان متأخراً في الدنيا محروماً منها خوفاً من الله الذي اتبعوه فيه فقال : ﴿ وما أنا ﴾ وأغرق في النفي بقوله : ﴿ بطارد الذين آمنوا ﴾ أي أقروا بألسنتهم بالإيمان ؛ ثم علل ذلك بقوله مؤكداً لإنكارهم ﴿ إنهم ملاقوا ربهم ﴾ أي المحسن إليهم بعد إيجادهم وترتيبهم لهدايتهم ، فلو طردتهم لشكوني إليه فلا أرى لكم وجهاً في الإشارة إلى طردهم ولا في شيء مما أجبتموني به ﴿ ولكني أراكم ﴾ أي أعلمكم علماً هو كالرؤية ﴿ قوماً تجهلون ﴾ أي تفعلون أفعال أهل الجهل فتكذبون الصادق وتعيرون المؤمنين بما لا يعنيهم وتنسون لقاء الله وتوقعون الأشياء في غير مواقعها ، وفي تعبيره ب ﴿ تجهلون ﴾ دون ﴿ جاهلين ﴾ إشارة إلى أن الجهل متجدد لهم وهو غير عادتهم

استعطافاً لهم إلى الحلم، ثم عطف إلى صريح الاستعطاف في سياق محذر من سطوات الله فقال: ﴿ويا قوم﴾ أي الذين هم أعز الناس عليّ ﴿من ينصرني من الله﴾ أي الذي له جميع العظمة ﴿إن طردتهم﴾ ولو لم يشكوني إليه لاطلاعه على ما دق وجل: ولما تم الجواب عن ازدرائهم، سبب عنه الإنكار لعدم تذكرهم ما قاله لهم بما يجدونه في أنفسهم فقال: ﴿أفلا تذكرون﴾ أي ولو أدنى تذكر - بما يشير إليه الإدغام - فتعلموا أن من طرد صديقاً لكم عاديتموه وقصدتموه بالأذى، فترجعوا عما طرأ لكم من جهل إلى عادتكم مِنَ الحلم الباعث على التأمل الموقف على الحق؛ والطرد: إبعاد الشيء على جهة الهوان؛ والقوم: الجماعة الذين يقومون بالأمر، اسم جمع لا واحد له من لفظه؛ والتذكير: طلب معنى قد كان حاضراً للنفس، والتفكر طلبه وإن لم يكن حاضراً.

(256/376)

ولما كان نفيهم للفضل شاملاً للأموال وعلم الغيب، أقرهم على ذلك منبهاً على خطئهم فيه بأنه لم يقل بينهم قط ما يكون سبباً له، فقال عاطفاً على قوله ﴿لا أسئلكم عليه أجراً﴾ ؛ ﴿ولا أقول لكم﴾ أي في وقت من الأوقات ﴿عندي خزائن الله﴾ أي الملك الأعظم فأتفضل عليكم بها؛ ولما كان من الجائز أن يمكن الله من يشاء من خزائن الأرزاق ونحوها

فيسوغ له أن يطلق ملك ذلك مجازاً ، ولا يجوز أن يمكنه من علم الغيب ، وهو ما غاب عن الخلق كلهم ، لأنه خاصته سبحانه ، قال عاطفاً على ﴿ أقول ﴾ لا على المقول : ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ لا حقيقة ولا مجازاً فأعلم وقت ما توعدون به أو ما في قلوب المؤمنين مما قد يتوهم به من السوء ، وأعلمهم أنه لا مانع من إرسال البشر بقوله : ﴿ ولا أقول إني ملك ﴾ فتكون قوتي أفضل من قوتكم أو خلقي أعظم قدراً من خلقكم ونحو ذلك من الفضل الصوري الذي جعلتموه هو الفضل ، فلا تكون الآية دليلاً على أفضلية الملائكة ، وتقدم في الأنعام سر إسقاط ﴿ لكم ﴾ .

(257/376)

ولما كان تعريضهم بنفي الملكية عنه من باب الإزراء ، أتبعه تأكيد قبوله لمن آمن كائناً من كان وإن ازدروه بقوله : ﴿ ولا أقول للذين ﴾ أي لأجل الذين ﴿ تزدري ﴾ أي تحتقر ﴿ أعينكم ﴾ أي تقصرون به عن الفضل عند نظركم له وتعيبونه ﴿ لن يؤتيهم الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ خيراً ﴾ ولما كان كأنه قيل : ما لك لا تقول ذلك ؟ أجاب بما تقديره : لأني أعلم ضمائرهم ولا أحكم إلا على الظاهر : ﴿ الله ﴾ أي المحيط بكل شيء ﴿ أعلم ﴾ أي حتى منهم ﴿ بما في أنفسهم ﴾ ومن المعلوم أنه لا يظلم أحداً ، فمن كان في

نفسه خير جازاه عليه ، ويجوز أن يكون هذا راجعاً إلى ﴿ بادي الرأي ﴾ بالنسبة إليه.

صلى الله عليه وسلم. كما تقدم ؛ ثم علل كفه عن ذلك بقوله مؤكداً لإنكارهم ظلمه على ذلك التقدير : ﴿ إني إذاً ﴾ أي إذا قلت لهم ذلك ﴿ لمن الظالمين ﴾ اي العريقين في وضع الشيء في غير موضعه ؛ والخزائن : أخبية المتاع الفاخرة ، وخزائن الله مقدوراته لأنه يوجد منها ما يشاء ، وفي وصفها بذلك بلاغة ؛ والغيب : ذهاب الشيء عن الإدراك ، ومنه الشاهد خلاف الغائب ، وإذا قيل : علم غيب ، كان معناه : علم من غير تعليم ؛ والازدراء : الاحتقار ، وهو افتعال من الزراية ، زريت عليه – إذا عبته ، وأزريت عليه – إذا قصرت به ؛ والملك أصله مألك من الألوكة وهي الرسالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 523. 526 ﴾

(258/376)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما حكى شبهات منكري نبوة نوح عليه الصلاة والسلام حكى بعده ما يكون جواباً عن تلك الشبهات .

فالشبهة الأولى : قولهم : ﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ فقال نوح حصول المساواة في البشرية لا يمنع من حصول المفارقة في صفة النبوة والرسالة ، ثم ذكر الطريق الدال على إمكانه ، فقال : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ من معرفة ذات الله وصفاته وما يجب وما يمتنع وما يجوز عليه ، ثم إنه تعالى آتاني رحمة من عنده ، والمراد بتلك الرحمة إما النبوة وإما المعجزة الدالة على النبوة ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي صارت مظنة مشتبهة ملتبسة في عقولكم ، فهل أقدر على أن أجعلكم بحيث تصلون إلى معرفتها شئتم أم أبيتم ؟ والمراد أني لا أقدر على ذلك ألبتة ، وعن قتادة : والله لو استطاع نبي الله لألزمها ولكنه لم يقدر عليه ، وحاصل الكلام أنهم لما قالوا : ﴿ وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ [هود : 27] ذكر نوح عليه السلام أن ذلك بسبب أن الحجة عميت عليكم واشتبهت ، فأما لو تركتم العناد واللجاج ونظرتم في الدليل لظهر المقصود ، وتبين أن الله تعالى آتانا عليكم فضلاً عظيماً .

المسألة الثانية :

قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ بضم العين وتشديد الميم

على ما لم يسم فاعله ، بمعنى ألبست وشبهت والباقون بفتح العين مخففة الميم ، أي التبست واشتبهت .

(259/376)

واعلم أن الشيء إذا بقي مجهولاً محضاً أشبه المعمي ، لأن العلم نور البصيرة الباطنة والأبصار نور البصر الظاهر فحسن جعل كل واحد منها مجازاً عن الآخر وتحقيقه أن البينة توصف بالأبصار قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ ءاياتنا مُبْصِرَةً ﴾ [النمل : 13] وكذلك توصف بالعمى ، قال تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنباء ﴾ [القصص : 66] وقال في هذه الآية : ﴿ فَعُمّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ .

المسألة الثالثة :

﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ فيه ثلاث مضمرات : ضمير المتكلم وضمير الغائب وضمير المخاطب ، وأجاز الفراء إسكان الميم الأولى ، وروي ذلك عن أبي عمرو قال : وذلك أن الحركات توالت فسكنت الميم وهي أيضاً مرفوعة وقبلها كسرة والحركة التي بعدها ضمة ثقيلة ، قال الزجاج : جميع النحويين البصريين لا يجيزون إسكان حرف الإعراب إلا في ضرورة الشعر وما يروى عن أبي عمرو فلم يضبطه عنه الفراء ، وروي عن سيبويه أنه كان يخفف الحركة

ويختلسها ، وهذا هو الحق وإنما يجوز الإسكان في الشعر كقول امرىء القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب . .

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن هذا هو الجواب عن الشبهة الثانية وهي قولهم لا يتبعك إلا الأراذل من الناس وتقرير هذا الجواب من وجوه :

الوجه الأول : أنه عليه الصلاة والسلام قال : " أنا لا أطلب على تبليغ دعوة الرسالة مالاً حتى يتفاوت الحال بسبب كون المستجيب فقيراً أو غنياً وإنما أجري على هذه الطاعة الشاقة على رب العالمين " وإذا كان الأمر كذلك فسواء كانوا فقراء أو أغنياء لم يتفاوت الحال في ذلك .

الوجه الثاني : كأنه عليه الصلاة والسلام قال لهم إنكم لما نظرتم إلى ظواهر الأمور وجدتموني فقيراً وظننتم أني إنما اشتغلت بهذه الحرفة لأتوسل بها إلى أخذ أموالكم وهذا الظن منكم

خطأ فإني لا أسئلكم على تبليغ الرسالة أجراً إن أجري إلا على رب العالمين فلا تحرموا أنفسكم من سعادة الدين بسبب هذا الظن الفاسد .

والوجه الثالث : في تقرير هذا الجواب أنهم قالوا : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ [هود : 27] فهو عليه السلام يبن أنه تعالى أعطاه أنواعاً كثيرة توجب فضله عليهم ولذلك لم يسع في طلب الدنيا ، وإنما يسعى في طلب الدين ، والإعراض عن الدنيا من أمهات الفضائل باتفاق الكل ، فلعل المراد تقرير حصول الفضيلة من هذا الوجه .

فأما قوله : ﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الذين ءامَنُواْ ﴾ فهذا كالدليل على أن القوم سألوه طردهم رفعاً لأنفسهم عن مشاركة أولئك الفقراء .

روى ابن جريج أنهم قالوا : إن أحببت يا نوح أن نتبعك فاطردهم فإنا لا نرضى بمشاركتهم فقال عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الذين ءامَنُواْ ﴾ وقوله تعالى حكاية عنهم أنهم قالوا : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرأى ﴾ [هود : 27] كالدليل على أنهم طلبوا منه طردهم لأنه كالدليل على أنهم كانوا يقولون : لو اتبعك أشراف القوم لوافقناهم ، ثم إنه تعالى حكى عنه أنه ما طردهم ، وذكر في بيان ما يوجب الامتناع من هذا الطرد أموراً : الأول : أنهم ملاقو ربهم وهذا الكلام يحتمل وجوهاً منها أنهم قالوا هم

منافقون فيما أظهروا فلا تغتر بهم فأجاب بأن هذا الأمر ينكشف عند لقاء ربهم في الآخرة .

(261/376)

ومنها أنه جعله علة في الامتناع من الطرد وأراد أنهم ملاقوا ما وعدهم ربهم ، فإن طردتهم استخصموني في الآخرة ، ومنها أنه نبه بذلك الأمر على أنا نجتمع في الآخرة فأعاقب على طردهم فلا أجد من ينصرني ، ثم بين أنهم يبنون أمرهم على الجهل بالعواقب والاغترار بالظواهر فقال ﴿ ولكنى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ .

(262/376)

ثم قال بعده ﴿ وياقوم مَن يَنصُرُنِى مِنَ الله إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ والمعنى : أن العقل والشرع تطابقا على أنه لا بد من تعظيم المؤمن البر التقي ومن إهانة الفاجر الكافر ، فلو قلبت القصة وعكست القضية وقربت الكافر الفاجر على سبيل التعظيم ، وطردت المؤمن التقي على سبيل الإهانة كنت على ضد أمر الله تعالى ، وعلى عكس حكمه

وكنت في هذا الحكم على ضد ما أمر الله تعالى من إيصال الثواب إلى المحقين ، والعقاب إلى المبطلين وحينئذ أصير مستوجباً للعقاب العظيم فمن ذا الذي ينصرني من الله تعالى ومن الذي يخلصني من عذاب الله أفلا تذكرون فتعلمون أن ذلك لا يصح ثم أكد هذا البيان بوجه ثالث فقال : ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ أي كما لا أسألكم فكذلك لا أدعي أني أملك مالاً ولا لي غرض في المال لا أخذاً ولا دفعاً ، ولا أعلم الغيب حتى أصل به إلى ما أريد لنفسي ولا أتباعي ولا أقول إني ملك حتى أتعظم بذلك عليكم ، بل طريقي الخضوع والتواضع ومن كان هذا شأنه وطريقه فإنه لا يستنكف عن مخالطة الفقراء والمساكين ، ولا يطلب مجالسة الأمراء والسلاطين وإنما شأنه طلب الدين وسيرته مخالطة الخاضعين والخاشعين فلما كانت طريقتي توجب مخالطة الفقراء فكيف جعلتم ذلك عيباً علي ، ثم إنه أكد هذا البيان بطريق رابع فقال : ﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ وهذا كالدلالة على أنهم كانوا ينسبون أتباعه مع الفقر والذلة إلى النفاق فقال : إني لا أقول ذلك ، لأنه من باب الغيب والغيب لا يعلمه إلا الله ، فربما كان باطنهم كظاهرهم فيؤتيهم الله ملك الآخرة فأكون كاذباً فيما أخبرت به ، فإني إن فعلت ذلك كنت من الظالمين لنفسي ومن الظالمين لهم في وصفهم بأنهم لا خير لهم مع أن الله تعالى آتاهم الخير في الآخرة .

المسألة الثانية :

احتج قوم بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء وقالوا : إن الإنسان إذا قال : أنا لا أدعي كذا وكذا ، فهذا إنما يحسن إذا كان ذلك الشيء أشرف من أحوال ذلك القائل فلما كان قائل هذا القول هو نوح عليه السلام وجب أن تكون درجة الملائكة أعلى وأشرف من درجات الأنبياء ، ثم قالوا : وكيف لا يكون الأمر كذلك والملائكة داوموا على عبادة الله تعالى طول الدنيا مذ خلقوا إلى أن تقوم الساعة ، وتمام التقرير أن الفضائل الحقيقية الروحانية ليست إلا ثلاثة أشياء : أولها : الاستغناء المطلق وجرت العادة في الدنيا أن من ملك المال الكثير فإنه يوصف بكونه غنياً فقوله : ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾ إشارة إلى أني لا أدعي الاستغناء المطلق وثانيها : العلم التام وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الغيب ﴾ وثالثها : القدرة التامة الكاملة ، وقد تقرر في الخواطر أن أكمل المخلوقات في القدرة والقوة هم الملائكة وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ والمقصود من ذكر هذه الأمور الثلاثة بيان أن ما حصل عندي من هذه المراتب الثلاثة إلا ما يليق بالقوة البشرية والطاقة الإنسانية ، فأما الكمال المطلق فأنا لا أدعيه وإذا كان الأمر كذلك فقد ظهر أن قوله : ﴿ وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ يدل على أنهم أكمل من البشر ، وأيضاً يمكن جعل هذا الكلام

جواباً عما ذكروه من الشبهة فإنهم طعنوا في أتباعه بالفقر فقال : ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ الله ﴾ حتى أجعلهم أغنياء وطعنوا فيهم أيضاً بأنهم منافقون فقال : ﴿ وَلا أَعْلَمُ الغيب ﴾ حتى أعرف كيفية باطنهم وإنما أُجري الأحوال على الظواهر وطعنوا فيهم بأنهم قد يأتون بأفعال لا كما ينبغي فقال : ﴿ وَلا أَقُولُ إِنّى مَلَكٌ ﴾ حتى أكون مبرأ عن جميع الدواعي الشهوانية والبواعث النفسانية .

المسألة الثالثة :

(264/376)

احتج قوم بهذه الآية على صدور الذنب من الأنبياء فقالوا : إن هذه الآية دلت على أن طرد المؤمنين لطلب مرضاة الكفار من أصول المعاصي ، ثم إن محمداً صلى الله عليه وسلم طرد فقراء المؤمنين لطلب مرضاة الكفار حتى عاتبه الله تعالى في قوله : ﴿ وَلا تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشى يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام : 52] وذلك يدل على إقدام محمد صلى الله عليه وسلم على الذنب .

والجواب : يحمل الطرد المذكور في هذه الآية على الطرد المطلق على سبيل التأبيد ، والطرد المذكور في واقعة محمد صلى الله عليه وسلم ، على التقليل في أوقات معينة لرعاية

المصالح.

المسألة الرابعة:

احتج الجبائي على أنه لا تجوز الشفاعة عند الله في دفع العقاب بقول نوح عليه السلام ﴿ مَن يَنصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ﴾ معناه إن كان هذا الطرد محرماً فمن ذا الذي ينصرني من الله ، أي من الذي يخلصني من عقابه ولو كانت الشفاعة جائزة لكانت في حق نوح عليه السلام أيضاً جائزة وحينئذ يبطل قوله: ﴿ مَن يَنصُرُنِى مِنَ اللَّهِ ﴾ واعلم أن هذا الاستدلال يشبه استدلالهم في هذه المسألة بقوله تعالى: ﴿ واتقوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ [البقرة: 48 ، 123] إلى قوله: ﴿ وَلَا هم يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: 48 ، 123]

والجواب المذكور هناك هو الجواب عن هذا الكلام. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 170 . 171 ﴾

(265/376)

وقال الماوردى:

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَّبِّي ﴾

فيه وجهان:

أحدهما : يعني على ثقة من ربي ، قاله أبو عمران الجوني .

الثاني : على حجة من ربي ، قاله عليّ بن عيسى .

﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : الإيمان .

والثاني : النبوة ، قاله ابن عباس .

﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ يعني البينة في قوله ﴿ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ وإنما قال ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ وهم الذين عموا عنها ، لأنها خفيت عليهم بترك النظر فأعماهم الله عنها .

وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ فعميت عليكم ﴾ بضم العين وتشديد الميم ، وفي قراءة أُبي ﴿ فعمّاها ﴾ وهي موافقة لقراءة من قرأ بالضم على ما لم يسم فاعله .

وفي الذي عماها على هاتين القراءتين وجهان :

أحدهما : أن الله تعالى عماها عليهم .

الثاني : بوسوسة الشيطان . وما زينه لهم من الباطل حتى انصرفوا عن الحق . وإنما قصد نبي الله نوح بهذا القول لقومه أن يرد عيهم قولهم ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ ليظهر فضله عليهم بأنه على بينة من ربه وآتاه رحمة من عنده وهم قد سلبوا ذلك ، فأي فضل أعظم منه .

ثم قال تعالى : ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ فيها وجهان : أنلزمكم الرحمة ، قاله مقاتل .

الثاني : أنلزمكم البينة وأنتم لها كارهون ، وقبولكم لها لا يصح مع الكراهة عليها .

قال قتادة والله لو استطاع نبي الله نوح عليه السلام لألزمها قومه ولكنه لم يملك ذلك .

قوله عز وجل : ﴿ . . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ لأنهم سألوه طرد من اتبعه من أراذلهم ، فقال جواباً لهم ورداً لسؤالهم : وما أنا بطارد الذين آمنوا .

﴿ إِنَّهُم مُّلاَقُواْ رَبِّهِم ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون قال ذلك على وجه الإعظام لهم بلقاء الله تعالى .

الثاني : على وجه الاختصام ، بأني لو فعلت ذلك لخاصموني عند الله . ﴿ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تجهلون في استرذالكم لهم وسؤالكم طردهم .

الثاني : تجلون في أنهم خير منكم لإيمانهم وكفركم .

قوله عز وجل : ﴿ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾

احتمل هذا القول من نوح عليه السلام وجهين :

أحدهما : أن يكون جواباً لقومه على قولهم ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا ﴾

الثاني : أن يكون جواباً لهم على قولهم ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ فقال الله تعالى له قل : ﴿ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ ﴾ وفيها وجهان :

أحدهما : أنها الرحمة أي ليس بيدي الرحمة فأسوقها إليكم ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنها الأموال ، أي ليس بيدي أموال فأعطيكم منها على إيمانكم . ﴿ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ فأخبركم بما في انفسكم . ﴿ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ يعني فأباين جنسكم . ﴿ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً ﴾ والازدراء الإحتقار . يقال ازدريت عليه إذا عبته ، وزريت عليه إذا حقرته .

وأنشد المبرد :

يباعده الصديق وتزدريه . . . حليلته وينهره الصغير .

﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً ﴾ أي ليس لاحتقاركم لهم يبطل أجرهم أو ينقص ثوابهم ، وكذلك لستم لعلوكم في الدنيا تزدادون على أجوركم .

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ يعني أنه يجازيهم عليه ويؤاخذهم به . ﴿ إِنِي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ يعني إن قلت هذا الذي تقدم ذكره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أرأيتم إِن كنت على بينة من ربي ﴾

أي : على يقين وبصيرة .

قال ابن الأنباري : وقوله : "إِن كنت" شرط لا يوجب شكّاً يلحقه ، لكن الشك يلحق المخاطَبين من أهل الزيغ ، فتقديره : إِن كنتُ على بينة من ربي عندكم .

﴿ وآتاني رحمة من عنده ﴾ فيها قولان .

أحدهما : أنها النبوّة ، قاله ابن عباس .

والثاني : الهداية ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ فعُمِّيت عليكم ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : "فعَمِيَتْ" بتخفيف الميم وفتح العين .

قال ابن قتيبة : والمعنى : عميتم عنها ، يقال : عمي عليَّ هذا الأمر : إِذا لم أفهمه ، وعميت عنه بمعنى .

قال الفراء : وهذا مما حوّلت العرب الفعل إِليه ، وهو في الأصل لغيره ، كقولهم : دخل الخاتم

في يدي، والخف في رجلي، وإنما الإِصبع تدخل في الخاتم، والرجل في الخف، واستجازوا ذلك إذ كان المعنى معروفاً.

وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: "فعُمِّيَتْ" بضم العين وتشديد الميم.

قال ابن الأنباري: ومعنى ذلك: فعمّاها الله عليكم إذ كنتم ممن حُكم عليه بالشقاء.

وكذلك قرأ أُبَيّ بن كعب، والأعمش: "فعمّاها عليكم"

وفي المشار إليها قولان:

أحدهما: البيِّنة.

والثاني: الرحمة.

قوله تعالى: ﴿ أنلزمكموها ﴾ أي: أنُلزمكم قبولها؟ وهذا استفهام معناه الإِنكار، يقول: لانقدر أن نُلزمكم من ذات أنفسنا.

قال قتادة: والله لو استطاع نبي الله صلى الله عليه وسلم لألزمها قومه، ولكن لم يملك ذلك.

وقيل: كان مراد نوح عليه السلام ردَّ قولهم: ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ فبيَّن فضله وفضل مَن آمن به بأنه على بيِّنة من ربه، وقد آتاه رحمةً من عنده، وسُلب المكذِّبون ذلك.

قوله تعالى: ﴿ لا أسألكم عليه ﴾ أي: على نصحي ودعائي إياكم ﴿ مالاً ﴾

فتتهموني .

وقال ابن الأنباري : لما كانت الرحمة بمعنى الهدى والإِيمان ، جاز تذكيرها .

(268/376)

قوله تعالى : ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ قال ابن جريج : سألوه طردهم أنفة منهم ، فقال : لا يجوز لي طردهم ، إِذ كانوا يلقون الله فيجزيهم بايمانهم ، ويأخذ لهم ممن ظلمهم وصغَّر شؤونهم .

وفي قوله : ﴿ ولكني أراكم قوما تجهلون ﴾ قولان :

أحدهما : تجهلون أن هذا الأمر من الله تعالى ، قاله ابن عباس .

والثاني : تجهلون لأمركم إِياي بطرد المؤمنين ، قاله أبو سليمان .

قوله تعالى : ﴿ ويا قوم من ينصرني ﴾

أي : من يمنعني من عذاب الله إِن طردتهم .

قوله تعالى : ﴿ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ﴾ قال ابن الأنباري : أراد بالخزائن : عِلمَ الغيب المطوي عن الخلق ، لأنهم قالوا له : إنما اتَّبعك هؤلاء في الظاهر وليسوا معك ، فقال لهم : ليس عندي خزائن غيوب الله فأعلم ما تنطوي عليه الضمائر .

وإنما قيل للغيوب : خزائن ، لغموضها عن الناس واستتارها عنهم .

قال سفيان بن عيينة : إنما آيات القرآن خزائن ، فإذا دخلت خزانةً فاجتهد أن لا تخرج منها حتى تعرف ما فيها .

قوله تعالى : ﴿ ولا أعلم الغيبّ ﴾ قيل : إنما قال لهم هذا ، لأن أرضهم أجدبت ، فسألوه : متى يجيء المطر ؟ وقيل : بل سألوه : متى يجيء العذاب ؟ فقال : ولا أعلم الغيب .

وقوله : ﴿ ولا أقول إني ملَك ﴾ جواب لقولهم : ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلَنا ﴾ [هود : 27] .

﴿ ولا أقول للذين تزدري أعينكم ﴾ أي : تحتقر وتستصغر المؤمنين .

قال الزجاج : "تزدري" تستقل وتستخِس ، يقال : زريت على الرجل : إذا عبت عليه وخسست فعله ، وأزريت به : إذا قصرت به .

وأصل تزدري : تزتري ، إلا أن هذه التاء تبدل بعد الزاي دالاً ، لأن التاء من حروف الهمس ، وحروف الهمس خفية ، فالتاء بعد الزاي تخفى ، فأبدلت منها الدال لجهرها .

قوله تعالى : ﴿ لن يؤتيهم الله خيراً ﴾ قال ابن عباس : إيمانا .

ومعنى الكلام : ليس لي أن أطَّلِع على ما في نفوسهم فأقطع عليهم بشيء ، وليس لاحتقاركم إياهم يبطل أجرهم .

﴿ إِني إذاً لمن الظالمين ﴾ إِن قلت هذا الذي تقدم ذكره ، وقيل إِن طردتهم . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(269/376)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يا قوم أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن ربي ﴾

أي على يقين ؛ قاله أبو عِمران الجُونيّ .

وقيل : على معجزة ؛ وقد تقدّم في "الأنعام" هذا المعنى .

﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ ﴾ أي نبوّة ورسالة ؛ عن ابن عباس ؛ وهي رحمة على الخلق .

وقيل : الهداية إلى الله بالبراهين .

وقيل : بالإيمان والإسلام .

"فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ" أي عمِيت عليكم الرسالة والهداية فلم تفهموها .

يقال : عَمِيتُ عن كذا ، وعَمِي عليّ كذا أي لم أفهمه .

والمعنى : فَعمِيت الرحمةُ ؛ فقيل : هو مقلوب ؛ لأن الرحمة لا تَعمَى إنما يُعمَى عنها ؛ فهو

كقولك : أدخلت في القَلَنْسوة رأسي ، ودخل الخفُّ في رجلي .

وقرأها الأعمش وحمزة والكسائي ﴿ فَعُمِّيَتْ ﴾ بضم العين وتشديد الميم على ما لم يُسَمَّ فاعله ؛ أي فعمّاها الله عليكم ؛ وكذا في قراءة أُبيّ "فعمَّاها" ذكرها الماورديّ.

﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ قيل : شهادة أن لا إله إلا الله.

وقيل : الهاء ترجع إلى الرحمة.

وقيل : إلى البينة ؛ أي أنلزمكم قبولها ، وأُوجبها عليكم ؟! وهو استفهام بمعنى الإنكار ؛ أي لا يمكنني أن أضطركم إلى المعرفة بها ؛ وإنما قصد نوح عليه السلام بهذا القول أن يردّ عليهم.

وحكى الكسائيّ والفرّاء "أَنُلْزِمْكُمُوهَا" بإسكان الميم الأولى تخفيفاً ؛ وقد أجاز مثل هذا سيبويه ، وأنشد :

فاليومَ أَشربْ غيرَ مُستَحْقِبٍ . . .

إِثْماً مِنَ اللّهِ وَلاَ وَاغِلِ

وقال النحاس : ويجوز على قول يونس في غير القرآن أنلزمكمها يجري المضمر مجرى المظهر ؛ كما تقول : أنلزمكم ذلك.

﴿ وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ أي لا يصح قبولكم لها مع الكراهة عليها.

قال قتادة : والله لو استطاع نبي الله نوح عليه السلام لألزمها قومه ولكنه لم يملك ذلك.

قوله تعالى : ﴿ ويا قوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على التبليغ ، والدعاء إلى الله ، والإيمان به أجراً أي ﴿ مَالاً ﴾ فيثقل عليكم .

﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله ﴾ أي ثوابي في تبليغ الرسالة .

﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الذين آمنوا ﴾ سألوه أن يطرد الأراذل الذين آمنوا به ، كما سألت قريش النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يطرد الموالي والفقراء ، حسب ما تقدّم في "الأنعام" بيانه ؛ فأجابهم بقوله : ﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الذين آمنوا إِنَّهُمْ مُّلاَقُو رَبِّهِمْ ﴾ يحتمل أن يكون قال هذا على وجه الإعظام لهم بلقاء الله عزّ وجلّ ، ويحتمل أن يكون قاله على وجه الاختصام ؛ أي لو فعلت ذلك لخاصموني عند الله ، فيجازيهم على إيمانهم ، ويجازي من طردهم .

﴿ ولكني أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ في استرذالكم لهم ، وسؤالكم طردهم .

قوله تعالى : ﴿ ويا قوم مَن يَنصُرُنِي مِنَ الله ﴾ قال الفرّاء : أي يمنعني من عذابه .

﴿ إِن طَرَدتُّهُمْ ﴾ أي لأجل إيمانهم .

﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أدغمت التاء في الذال .

ويجوز حذفها فتقول : تَذَكَّرون .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ الله وَلاَ أَعْلَمُ الغيب ﴾ أخبر بتذلّله وتواضعه لله عزّ وجلّ ، وأنه لا يدّعي ما ليس له من خزائن الله ؛ وهي إنعامه على من يشاء من عباده

؛ وأنه لا يعلم الغيب ؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ .

﴿ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ أي لا أقول إن منزلتي عند الناس منزلة الملائكة .

وقد قالت العلماء : الفائدة في الكلام الدلالة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء ؛ لدوامهم على الطاعة ، واتصال عباداتهم إلى يوم القيامة ، صلوات الله عليهم أجمعين .

وقد تقدّم هذا المعنى في "البقرة" .

﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ ﴾ أي تستثقل وتحتقر أعينكم ؛ والأصل تزدريهم حذفت الهاء والميم لطول الاسم .

والدّال مبدلة من تاء ؛ لأن الأصل في تزدري تَزْتَرِي ، ولكن التّاء تبدل بعد الزاي دالا ؛ لأن الزّاي مجهورة والتّاء مهموسة ، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها .

ويقال : أَزْرَيتُ عليه إذا عِبتَه .

وزريتُ عليه إذا حقّرته .

وأنشد الفرّاء :

يُباعدهُ الصديقُ وتَزْدَرِيهِ . . .

حَلِيلتُهُ ويَنْهرُه الصَّغيرُ

﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً ﴾ أي ليس لاحتقاركم لهم تبطل أجورهم ، أو ينقص ثوابهم .

﴿ اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ فيجازيهم عليه ويؤاخذهم به .

﴿ إِني إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي إن قلت هذا الذي تقدّم ذكره .

و"إِذاً" ملغاة ؛ لأنها متوسطة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ قال ﴾ يعني نوحاً ﴿ يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ﴾ يعني على بيان ويقين من ربي بالذي أنذرتكم به ﴿ وآتاني رحمة من عنده ﴾ يعني هدياً ومعرفة ونبوة ﴿ فعميت عليكم ﴾ يعني خفيت وألبست عليكم ﴿ أنلزمكموها ﴾ الهاء عائدة إلى الرحمة والمعنى أنلزمكم أيها القوم قبول الرحمة يعني أنا لا نقدر أن نلزمكم ذلك من عند أنفسنا ﴿ وأنتم لها كارهون ﴾ وهذا استفهام معناه الإنكار أي لا أقدر على ذلك والذي أقدر عليه أن أدعوكم إلى الله وليس لي أن أضطركم إلى ذلك قال قتادة والله لو استطاع نبي (صلى الله عليه وسلم) لألزمها قومه ولكنه لم يملك ذلك .

﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً ﴾

يعني لا أسألكم ولا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلاً ﴿ إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ وذلك أنهم طلبوا من نوح أن يطرد الذين آمنوا وهم الأرذلون في زعمهم فقال ما يجوز لي ذلك لأنهم يعتقدون ﴿ إنهم ملاقو ربهم ﴾ فلا أطردهم ﴿ ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ يعني عظمة الله ووحدانيته وربوبيته وقيل معناه إنكم تجهلون أن هؤلاء المؤمنين خير منكم ﴿ ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم ﴾ يعني من يمنعني من عذاب الله إن طردتهم عني لأنهم مؤمنون مخلصون ﴿ أفلا تذكرون ﴾ يعني فتتعظون.

﴿ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ﴾

هذا عطف على قوله لا أسألكم عليه مالاً والمعنى لا أسألكم عليه مالاً ولا أقول لكم عندي خزائن الله يعني التي لا يفنيها شيء فأدعوكم إلى اتباعي عليها لأعطيكم منها وقال ابن الأنباري الخزائن هنا بمعنى غيوب الله وما هو منطوٍ عن الخلق وإنما وجب أن يكون هذا جواباً من نوح عليه السلام لهم لأنهم قالوا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وادعوا أن المؤمنين إنما اتبعوه في ظاهر ما يرى منهم وهم في الحقيقة غير متبعين له فقال مجيباً لهم ولا أقول لكم عندي خزائن الله التي لا يعلم منها ما ينطوي عليه عباده وما يظهرونه إلا هو وإنما قيل للغيوب خزائن لغموضها عن الناس واستتارها عنهم والقول الأول أولى ليحصل الفرق بين قوله ولا أقول لكم عندي خزائن الله وبين قوله ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾

يعني ولا أدعي علم ما يغيب عني مما يسرونه في نفوسهم فسبيل قبول إيمانهم في الظاهر ولا يعلم ما في ضمائرهم إلا الله ﴿ ولا أقول إني ملك ﴾ وهذا جواب لقولهم ما نراك إلا بشراً مثلنا أي لا أدعي أني من الملائكة بل أنا بشر مثلكم أدعوكم إلى الله وأبلغكم ما أرسلت به إليكم.

(فصل)

استدل بعضهم بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء قال لأن نوحاً عليه السلام قال ولا أقول إني ملك لأن الإنسان إذا قال أنا لا أدعي كذا وكذا لا يحسن إلا إذا كان ذلك الشيء أشرف وافضل من أحوال ذلك القائل فلما قال نوح عليه السلام هذه المقالة وجب أن يكون الملك أفضل منه والجواب أن نوحاً عليه السلام إنما قال هذه المقالة في مقابلة قولهم ما نراك إلا بشراً مثلنا لما كان في ظنهم أن الرسل لا يكونون من البشر إنما يكونون من الملائكة فأعلمهم أن هذا ظن باطل وأن الرسل إلى البشر إنما يكونون من البشر فلهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ ولا أقول إني ملك ﴾ ولم يرد أن درجة الملائكة أفضل من درجة الأنبياء والله أعلم.

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا أقول للذين تزدري أعينكم ﴾ يعني تحتقر وتستصغر أعينكم يعني المؤمنين وذلك لما قالوا إنهم أراذلنا من الرذالة وهي الخسة ﴿ لن يؤتيهم الله خيراً ﴾ يعني توفيقاً وهداية وإيماناً وأجراً ﴿ الله أعلم بما في أنفسهم ﴾ يعني من الخير والشر ﴿ إني إذاً لمن الظالمين ﴾ يعني إن طردتهم مكذباً لظاهرهم ومبطلاً لإيمانهم يعني أني إن فعلت هذا فأكون قد ظلمتهم وأنا لا أفعله فما أنا من الظالمين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(274/376)

وقال أبو حيان :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴾

لما حكى شبههم في إنكار نبوّة نوح عليه السلام وهي قولهم : ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلنا ﴾ ذكر أنّ المساواة في البشرية لا تمنع من حصول المفارقة في صفة النبوّة والرسالة ، ثم ذكر الطريق الدال على إمكانه على جهة التعليق والإمكان ، وهو متيقن أنه على بينة من معرفة الله وتوحيده ، وما يجب له وما يمتنع ، ولكنه أبرزه على سبيل العرض لهم والاستدراج للإقرار بالحق ، وقيام الحجة على الخصم ، ولو قال : على اني على حق من ربي لقالوا له

كذبت ، كقوله : ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ﴾ الآية فقال فيها : وإن يك كاذباً فعليه كذبه .

والبينة البرهان ، والشاهد بصحة دعواه ابن عباس الرحمة والنبوّة مقاتل الهداية غيرهما التوفيق والنبوّة والحكمة .

والظاهر أن البينة غير الرحمة ، فيجوز أن يراد بالبينة المعجزة ، وبالرحمة النبوّة .

ويجوز أن تكون البينة هي الرحمة ، ومن عنده تأكيد وفائدته رفع الاشتراك ولو بالاستعارة ، فعميت عليكم .

الظاهر أنّ الضمير عائد على البينة ، وبذلك يحصل الذم لهم من أنه أتى بالمعجزة الجلية الواضحة ، وأنها على وضوحها واستنارتها خفيت عليهم ، وذلك بأنه تعالى سلبهم علمها ومنعهم معرفتها .

فإن كانت الرحمة هي البينة فعود الضمير مفرداً ظاهر ، وإن كانت غيرها كما اخترناه .

فقوله : وآتاني رحمة من عنده ، اعتراض بين المتعاطفين .

قال الزمخشري : حقه أن يقال : فعميتا .

(قلت) : الوجه أن يقدر فعميت بعد البينة ، وأن يكون حذفه للاقتصار على ذكره ، فتلخص أن الضمير يعود إما على البينة ، وإما على الرحمة ، وإما عليهما باعتبار أنهما

واحد .

ويقول للسحاب العماء لأنه يخفي ما فيه ، كما يقال له الغمام لأنه يغمه .

(275/376)

وقيل : هذا من المقلوب ، فعميتم أنتم عنها كما تقول العرب : أدخلت القلنسوة في رأسي ،

ومنه قول الشاعر :

ترى الثور فيها مدخل الظل رأسه . . .

قال أبو علي : وهذا مما يقلب ، هذ ليس فيه إشكال ، وفي القرآن : ﴿ فلا تحسبنّ الله مخلف وعده رسله ﴾ انتهى .

والقلب عند أصحابنا مطلقاً لا يجوز إلا في الضرورة ، وأما قول الشاعر : فليس من باب القلب بل من باب الاتساع في الظرف .

وأما الآية فأخلف يتعدّى إلى مفعولين ، ولكان يضيف إلى أيهما شئت فليس من باب القلب ، ولو كان فعميت عليكم من باب القلب لكان التعدي بعن دون على .

ألا ترى أنك تقول : عميت عن كذا ، ولا تقول عميت على كذا ؟ وقرأ الإخوان وحفص : فعميت بضم العين وتشديد الميم مبنياً للمفعول ، أي أبهمت عليكم وأخفيت ، وباقي

السبعة فعميت بفتح العين وتخفيف الميم مبنياً للفاعل .

وقرأ أبيّ ، وعليّ ، والسلميّ ، والحسن ، والأعمش : فعماها عليكم .

وروى الأعمش عن أبي وثاب : وعميت بالواو خفيفة .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : فما حقيقته ؟ (قلت) : حقيقته أنّ الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء ، لأنّ الأعمى لا يهتدي ، ولا يهدي غيره ، فمعنى فعميت عليكم البينة فلم تهدكم ، كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد .

(فإن قلت) : فما معنى قراءة أبيّ ؟ (قلت) : المعنى أنهم صمموا على الإعراض عنها فخلاهم الله وتصميمهم ، فجعلت تلك التخلية تعمية منه ، والدليل عليه : أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ يعني : أنكرهكم على قبولها ونقسركم على الاهتداء بها وأنتم تكرهونها ولا تختارونها ، ولا إكراه في الدين انتهى .

وتوجيهه قراءة أبيّ هو على طريقة المعتزلة ، وتقدّم في سورة الأنعام الكلام على ﴿ أرأيتم ﴾ مشبعاً ، وذكرنا أن العرب تعديها إلى مفعولين : أحدهما منصوب ، والثاني أغلب ما يكون جملة استفهامية .

تقول : أرأيتك زيداً ما صنع ، وليس استفهاماً حقيقياً عن الجملة .

وأنّ العرب ضمنت هذه الجملة معنى أخبرني ، وقررنا هناك أن قوله : ﴿ أرأيتكم إن أتاكم عذاب من الله ﴾ أنه من باب الأعمال تنازع على عذاب الله .

أرأيتكم يطلبه منصوباً ، وفعل الشرط يطلبه مرفوعاً ، فأعمل الثاني ، وهذا البحث يتقرر هنا أيضاً ، فمفعول أرأيتكم محذوف والتقدير : أرأيتكم البينة من ربي إن كنت عليها أنلزمكموها ؟ فهذه الجملة الاستفهامية في موضع المفعول الثاني لقوله : أرأيتم ، وجواب الشرط محذوف يدل عليه أرأيتم ، وجيء بالضميرين متصلين في أنلزمكموها ، لتقدّم ضمير الخطاب على ضمير الغيبة ، ولو انعكس لانفصل ضمير الخطاب خلافاً لمن أجاز الاتصال .

قال الزمخشري : ويجوز أن يكون الثاني منفصلاً كقولك : أنلزمكم إياها ونحوه ، فسيكفيكهم الله ، ويجوز فسيكفيك إياهم ، وهذا الذي قاله الزمخشري من جواز انفصال الضمير في نحو أنلزمكموها ، هو نحو قول ابن مالك في التسهيل .

قال : وتختار اتصال نحوها ءأعطيتكه .

وقال ابن أبي الربيع : إذا قدمت ما له الرتبة اتصل لا غير ، تقول : أعطيتكه .

قال تعالى : أنلزمكموها ؟ وفي كتاب سيبويه ما يشهد له ، قال سيبويه : فإذا كان المفعولان اللذان تعدّى إليهما فعل الفاعل مخاطباً وغائباً ، فبدأت بالمخاطب قبل الغائب ، فإنّ

علامة الغائب العلامة التي لا يقع موقعها إياه وذلك قولك : أعطيتكه وقد أعطاكه .

قال الله تعالى : أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ، فهذا كهذا ، إذا بدأت بالمخاطب قبل الغائب انتهى .

فهذا نص من سيبويه على ما قاله ابن أبي الربيع خلافاً للزمخشري وابن مالك ومن سبقهما إلى القول بذلك .

وقال الزمخشري : وحكى عن أبي عمرو إسكان الميم ، ووجهه أنّ الحركة لم تكن إلا خلسة خفيفة ، فظنها الراوي سكوناً .

والإسكان الصريح لحن عند الخليل وسيبويه وحذاق البصريين ، لأن الحركة الإعرابية لا يسوغ طرحها إلا في ضرورة الشعر انتهى .

(277/376)

وأخذه الزمخشري من الزجاج ، قال الزجاج : أجمع النحويون البصريون على أنه لا يجوز إسكان حركة الإعراب إلا في ضرورة الشعر ، فأما ما روي عن أبي عمرو فلم يضبطه عنه القراء ، وروى عنه سيبويه أنه كان يخف الحركة ويختلسها ، وهذا هو الحق .

وإنما يجوز الإسكان في الشعر نحو قول امرىء القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب . . .

والزمخشري على عادته في تجهيل القراء وهم أجل من أن يلتبس عليهم الاختلاس بالسكون ، وقد حكى الكسائي والفراء أنلزمكموها بإسكان الميم الأولى تخفيفاً .

قال النحاس : ويجوز على قول يونس أنلزمكمها ، كما تقول : أنلزمكم ذلك ويريد إلزام جبر بالقتل ونحوه ، وأما إلزام الإيجاب فهو حاصل ، وقال النحاس : أنوحيها عليكم ، وقوله في ذلك خطأ .

قال ابن عطية : وفي قراءة أبيّ بن كعب أنلزمكموها من شطر أنفسنا ، ومعناه من تلقاء أنفسنا .

وروي عن ابن عباس أنه قرأ ذلك من شطر قلوبنا انتهى .

ومعنى شطر نحو ، وهذا على جهة التفسير لا على أنه قرآن لمخالفته سواد المصحف .

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾

تلطف نوح عليه السلام بندائه بقوله : ويا قوم ، استدراجاً لهم في قبول كلامه ، كما تلطف إبراهيم عليه السلام بقوله "يا أبت يا أبت" وكما تلطف مؤمن آل فرعون بقوله : " يا قوم يا قوم" والضمير في عليه عائد إلى الإنذار .

وإفراد الله بالعبادة المفهوم من قوله لهم : ﴿ إني لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله ﴾ وقيل : على الدين ، وقيل : على الدعاء إلى التوحيد ، وقيل : على تبليغ الرسالة .

وكلها أقوال متقاربة ، والمعنى : إنكم وهؤلاء الذين اتبعونا سواء في أنّ أدعوكم إلى الله ، وإني لا أبتغي عما ألقيه إليكم من شرائع الله مالاً ، فلا يتفاوت حالكم وحالهم .

وأيضاً فلعلهم ظنوا أنه يريد الاسترفاد منهم ، فنفاه بقوله : لا أسألكم عليه مالاً إنْ أجري إلاّ على الله ، فلا تحرموا أنفسكم السعادة الأبدية بتوهم فاسد .

ثم ذكر أنه قام بهؤلاء وصف يجب العكوف عليهم به والانضواء معهم ، وهو الإيمان فلا يمكن طردهم ، وكانوا سألوا منه طرد هؤلاء المؤمنين رفعاً لأنفسهم من مساواة أولئك الفقراء .

ونظير هذا ما اقترحت قريش على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من طرد أتباعه الذين لم يكونوا من قريش .

وقرىء : بطارد بالتنوين ، قال الزمخشري : على الأصل يعني : أنّ اسم الفاعل إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال أصله أن يعمل ولا يضاف ، وهذا ظاهر كلام سيبويه .

ويمكن أن يقال : إن الأصل الإضافة لا العمل ، لأنه قد اعتوره شبهان أحدهما : شبه بالمضارع وهو شبهه بغير جنسه .

والآخر شبه بالأسماء إذا كانت فيها الإضافة، فكان إلحاقه بجنسه أولى من إلحاقه بغير جنسه.

إنهم ملاقوا ربهم: ظاهره التعليل لانتفاء طردهم، أي: إنهم يلاقون الله، أي: جزاءه، فيوصلهم إلى حقهم عندي إن ظلمتهم بالطرد.

وقال الزمخشري: معناه أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم، أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت كما ظهر لي منهم، وما أعرف غيره منهم، أو على خلاف ذلك مما تعرفونهم به من بناء إيمانهم على بادي الرأي من غير نظر ولا تفكر، وما عليّ أنْ أشق على قلوبهم وأتعرف ذلك منهم حتى أطردهم ونحوه ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ﴾ الآية أو هم مصدّقون بلقاء ربهم، موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة انتهى.

ووصفهم بالجهل لكونهم بنوا أمرهم على الجهل بالعواقب، والاغترار بالظواهر.

أو لأنهم يتسافلون على المؤمنين ويدعونهم أراذل من قوله: ألا لا يجهلن أحد علينا.

(279/376)

أو تجهلون لقاء ربكم، أو تجهلون أنهم خير منكم، أو وصفهم بالجهل في هذا الاقتراح، وهو طرد المؤمنين ونحوه: من ينصرني، استفهام معناه لا ناصر لي من عقاب الله إن طردتهم عن

الخير الذي قد قبلوه ، أو لأجل إيمانهم قاله : الفراء ، وكانوا يسألونه أنْ يطردهم ليؤمنوا به أنفة منهم أن يكونوا معهم على سواء ، ثم وقفهم بقوله : أفلا تذكرون ، على النظر المؤدّي إلى صحة هذا الاحتجاج.

وتقدم تفسير الجمل الثلاث في الأنعام.

وتزدري تفتعل ، والدال بدل من التاء قال :

ترى الرجل النحيف فتزدريه . . .

وفي أثوابه أسد هصور

وأنشد الفراء :

يباعده الصديق وتزدريه . . .

حليلته وينهره الصغير

والعائد على الموصول محذوف أي : تزدرونهم ، أي : تستحقرهم أعينكم.

ولن يؤتيهم معمول لقوله : ولا أقول ، وللذين معناه لأجل الذين.

ولو كانت اللام للتبليغ لكان القياس لن يؤتيكم بكاف الخطاب ، أي : ليس احتقاركم إياهم ينقص ثوابهم عند الله ولا يبطل أجورهم ، الله أعلم بما في أنفسهم ، تسليم لله أي : لست أحكم عليهم بشيء من هذا ، وإنما الحكم بذلك لله تعالى الذي يعلم ما في أنفسهم فيجازيهم عليه.

وقيل : هو رد على قولهم : اتبعك أراذلنا ، أي لست أحكم عليهم بأنْ لا يكون لهم خير لظنكم بهم ، إن بواطنهم ليست كظواهرهم ، الله عز وجل أعلم بما في نفوسهم ، إني لو فعلت ذلك لمن الظالمين ، وهم الذين يضعون الشيء في غير مواضعه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(280/376)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَءيْتُمْ ﴾

أي أخبروني وفيه إيماءٌ إلى ركاكة رأيِهم المذكور ﴿ إِن كُنتُ على بَيّنَةٍ ﴾ برهانٍ ظاهر ﴿ مّن رَّبّى ﴾ وشاهدٍ يشهد بصِحّة دعواي ﴿ وَآتَانِى رَحْمَةً مّنْ عِندِهِ ﴾ هي النبوةُ ، ويجوز أن تكون هي البينةَ نفسَها جيء بها إيذاناً بأنها مع كونها بينةً من الله تعالى رحمةٌ ونعمةٌ عظيمة من عنده ، فوجهُ إفرادِ الضمير في قوله تعالى : ﴿ فَعُمّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ حينئذ ظاهرٌ وإن أريد بها النبوةُ وبالبينة البرهانُ الدالُّ على صحتها فالإفرادُ لإرادة كلِ واحدةٍ منهما أو لكون الضميرِ للبينة والاكتفاءِ بذلك لاستلزام خفائِها خفاءَ النبوةِ ، أو لتقدير فعلٍ آخرَ بعد البينة ، ومعنى عُمّيت أُخفيت ، وقرىء عمِيَت ومعناه خَفِيت ،

وحقيقتُه أن الحجةَ كما تجعل مُبصِرة وبصيرةً تجعل عمياءَ ، لأن الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيرَه ، وفي قراءة أُبيّ فعمّاها عليكم على الإسناد إلى الله عز وجل ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أي أنُكرِهُكم على الاهتداء بها ، وهو جوابُ أرأيتم وسادٌّ مسدَّ جوابِ الشرطِ ، وقرأ أبو عمرو بإخفاء حركةِ الميمِ ، وحيث اجتمع ضميران منصوبان وقد قُدّم أعرفُهما جاز في الثاني الوصلُ والفصل ، فوصل كما في قوله تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ ﴾ ﴿ وَأَنْتُمْ لَهَا كارهون ﴾ لا تختارونها ولا تتأملون فيها ، ومحصولُ الجوابِ أخبروني إن كنتُ على حجة ظاهرةِ الدِلالة على صِحّة دعواي إلا أنها خافيةٌ عليكم غيرُ مُسلَّمةٍ عندكم ، أيمكنُنا أن نكرِهَكم على قَبولها وأنتم معرضون عنها غيرَ متدبّرين فيها أي لا يكون ذلك ، وظاهرُه مُشعِرٌ بصدوره عنه عليه الصلاة والسلام بطريق إظهارِ اليأسِ عن إلزامهم القعودَ عن مُحاجّتهم كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي ﴾ الخ ، لكنه محمولٌ على أن مرادَه عليه الصلاة والسلام ردُّهم عن الإعراض عنها وحثُّهم على التدبّر فيها بصرف الإنكارِ إلى الإلزام حال كَراهتِهم لها لا إلى

الإلزام مطلقاً ، هذا ويجوز أن يكون المرادُ بالبينة دليلَ العقلِ الذي هو ملاكُ الفضل ، وبحسبه يمتاز أفرادُ البشرِ بعضُها من بعض وبه يناط الكرامةُ عند الله عز وجل والاجتباءُ للرسالة ، وبالكون عليها التسمكُ به والثباتُ عليه وبخفائها على الكفرة على أن الضميرَ للبينة عدمُ إدراكِهم لكونَه عليه الصلاة والسلام عليها وبالرحمة النبوةُ التي أنكروا اختصاصَه عليه السلام بها بين ظَهرانيهم ، والمعنى أنكم زعمتم أن عهدَ النبوةِ لا يناله إلا من له فضيلةٌ على سائر الناسِ مستتبعةٌ لاختصاصه به دونهم ، أخبروني إن امتزتُ عنكم بزيادة مزيةٍ وحيازةِ فضيلةٍ من ربي وآتاني بحسبها نبوةً منه فخفِيَتْ عليكم تلك البينةُ ولم تُصيبوها ولم تنالوها ولم تعلموا حيازتي لها وكوني عليها إلى الآن حتى زعمتم أني مثلُكم وهي متحققةٌ في نفسها أنلزمكم قبولَ نبوتي التابعةِ لها والحال أنكم كارهون لذلك فيكون الاستفهامُ للحمل على الإقرار ، وهو الأنسبُ بمقام المُحاجةِ وحينئذٍ يكون كلامُه عليه الصلاة والسلام جواباً عن شُبَهِهم التي أدرجوها في خلال مقالِهم من كونه عليه السلام بشراً ، قصارى أمره أن يكون مثلَهم من غير فضلٍ له عليهم وقطعاً لشأفة آرائِهم الركيكة .

﴿ وَيَا قَوْمِ لآَ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾

أي على ما قلته في أثناء دعوتكم ﴿ مَالاً ﴾ تؤدّونه إليّ بعدِ إيمانكم واتباعِكم لي فيكونَ ذلك أجراً لي في مقابلة اهتدائِكم ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ﴾ الذي يُثيبني في الآخرة، وفي التعبير عنه حين نُسب إليهم بالمال ما لا يخفى من المزية ﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الذين ءامَنُواْ ﴾ جوابٌ عما لوّحوا به بقولهم: ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ من أنه لو اتبعه الأشرافُ لوافقوهم وأن اتّباعَ الفقراءِ مانعٌ لهم عن ذلك كما صرّحوا به في قولهم: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الارذلون ﴾ فكان ذلك التماساً منهم لطردهم وتعليقاً لإيمانهم به عليه الصلاة والسلام بذلك أنفَةً من الانتظام معهم في سلك واحد ﴿ إِنَّهُمْ مُّلاَقُو رَبِّهِمْ ﴾ تعليلٌ لامتناعه عليه السلام عن طردهم أي إنهم فائزون في الآخرة بلقاء الله عز وجل كأنه قيل: لا أطرُدهم ولا أُبعِدُهم عن مجلسي لأنهم مقرَّبون في حضرة القدسِ، والتعرّضُ لوصف الربوبيةِ لتربية وجوبِ رعايتِهم وتحتّمِ الامتناعِ عن طردهم، أو مصدِّقون في الدنيا بلقاء ربِّهم موقنون به عالِمون أنهم ملاقوه لا محالة فكيف أطرُدهم. وحملُه على معنى أنهم يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيحٍ ثابتٍ كما ظهر لي أو على خلاف ذلك مما تعرِفونهم به من بناء إيمانِهم على بادي الرأي من غير نظرٍ وتفكّر، وما عليّ أن أشقّ عن قلوبهم وأتعرّفَ سرَّ ذلك منهم حتى أطرُدَهم إن كان الأمرُ كما تزعُمون يأباه الجزمُ بترتّب غضب الله عز وجل على طردهم كما سيأتي وأيضاً فهم إنما قالوا إن اتباعَهم لك إنما هو بحسب بادي الرأي بلا تأمل وتفكرٍ، وهذا لا يكاد يصلُح مداراً للطرد في الدنيا ولا للمؤاخذة في الآخرة،

غايتُه أن لا يكونوا في مرتبة الموقنين ، وادعاءُ أن بناءَ الإيمانِ على ظاهر الرأي يؤدّي إلى الرجوع عنه عند التأملِ فكأنهم قالوا إنهم اتبعوك بلا تأمل فلا يثبُتون على

(283/376)

دينك بل يرتدون عنه تعسفٌ لا يخفى .

﴿ ولكنى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ بكل ما ينبغي أن يُعلم ، ويدخُل فيه جهلُهم بلقاء الله عز وجل وبمنزلتهم عنده وباستيجاب طردِهم لغضب الله كما سيأتي وبركاكة رأيِهم في التماس ذلك وتوقيفِ إيمانهم عليه أنفةً عن الانتظام معهم في سلك واحدٍ وزعماً منهم أن الرذالة بالفقر والشرفَ بالغنى . وإيثارُ صيغةِ الفعلِ للدلالة على التجدد والاستمرارِ ، أو تتسافهون على المؤمنين بنسبتهم إلى الخَساسة .

﴿ ويا قوم مَن يَنصُرُنى مِنَ الله ﴾

بدفْع حلولِ سخطِه عني ﴿ إن طَرَدتُّهُمْ ﴾ فإن ذلك أمرٌ لا مردّ له لكون الطرد ظلماً موجباً لحلول السّخط قطعاً ، وإنما لم يُصرَّح به إشعاراً بأنه غنيٌّ عن البيان لا سيما غِبَّ ما قُدّم ما يلوحُ به من أحوالهم فكأنه قيل : مَنْ يدفعُ عني غضبَ الله تعالى إن طردتُهم وهم بتلك المثابةِ من الكرامة والزُلفى كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي

أتستمرّون على ما أنتم عليه من الجهلِ المذكورِ فلا تتذكرون ما ذُكر من حالهم حتى تعرِفوا أن ما تأتونه بمعزل عن الصواب ، ولكون هذه العلةِ مستقلةً بوجه مخصوصٍ ظاهر الدلالةِ على وجوب الامتناعِ عن الطرد أُفردت عن التعليل السابقِ وصُدّرت بيا قوم ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ حين أدّعي النبوة ﴿ عِندِى خَزَائِنُ اللهِ ﴾ أي رزقُه وأموالُه حتى تستدلوا بعدمها على كذبي بقولكم : ﴿ وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذبين ﴾ فإن النبوةَ أعزُّ من أن تنال بأسباب دنيويةٍ ودعواها بمعزل عن ادعاء المالِ والجاه ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الغيب ﴾ أي لا أدعي في قولي : ﴿ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ علمَ الغيبِ حتى تسارعوا إلى الإنكار والاستبعاد .

(284/376)

﴿ وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ حتى تقولوا : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ فإن البشريةَ ليست من موانع النبوةِ بل من مباديها يعني أنكم اتخذتم فقدانَ هذه الأمورِ الثلاثة ذريعةً إلى تكذيبي والحال أني لا أدعي شيئاً من ذلك ولا الذي أدّعيه يتعلق بشيء منها وإنما يتعلق بالفضائل النفسانيةِ التي بها تتفاوت مقاديرُ البشرِ ﴿ وَلَا أَقُولُ ﴾ مساعدةً لكم كما تقولون ﴿ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ ﴾ أي تقتحِمهم وتحتقِرهم من زراه إذا عابه ، وإسنادُ الازدراءِ إلى

أعينهم (إما) بالنظر إلى قولهم : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ وإما للإشعار بأن ذلك لقصور نظرِهم ولو تدبروا في شأنهم ما فعلوا ذلك أي لا أقول في شأن الذين استرذلتموهم لفقرهم من المؤمنين ﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ الله خَيْرًا ﴾ في الدنيا أو في الآخرة فعسى الله أن يُؤتيهم خيري الدارين .

(285/376)

إن قلتَ : هذا القولُ ليس مما تستنكره الكفرةُ ولا مما يتوهمون صدورَه عنه عليه السلام أصالةً أو استتباعاً كادعاء المِلْكية وعلمِ الغيب وحيازة الخزائنِ مما نفاه عليه الصلاة والسلام عن نفسه بطريق التبرؤ والتنزه عنه فمِنْ أيِّ وجه عطُف نفيُه على نفيها ؟ قلتُ : من جهة أن كِلا النفيَيْن ردٌّ لقياسهم الباطلِ الذي تمسّكوا به فيما سلف فإنهم زعَموا أن النبوةَ تستتبع الأمورَ المذكورةَ وأنها لا تسنى لمن ليس على تلك الصفات فإن العثورَ على مكانها واغتنامَ مغانِمها ليس من دأب الأراذلِ فأجاب عليه الصلاة والسلام بنفي ذلك جميعاً فكأنه قال : "لا أقول وجودُ تلك الأشياءِ من مواجب النبوةِ ولا عدمُ المالِ والجاهِ من موانع الخير" ﴿ الله أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ من الإيمان ، وإنما اقتُصر على نفي القولِ المذكورِ من أنه عليه الصلاة والسلام جازمٌ بأن الله سبحانه سيؤتيهم خيراً عظيماً في

الدارين وأنهم على يقين راسخٍ في الإيمان جرياً على سنن الإنصافِ من القوم واكتفاءً بمخالفة كلامِهم وإرشاداً لهم إلى مسلك الهدايةِ بأن اللائقَ لكل أحدٍ أن لا يبُتَّ القولَ إلا فيما يعلمه يقيناً ويبني أمورَه على الشواهد الظاهرة ولا يجازف فيما ليس فيه على بينة ظاهرة ﴿ إِنّى إِذاً ﴾ أي إذا قلتُ ذلك ﴿ لَّمِنَ الظالمين ﴾ لهم بحطِّ مرتبتِهم ونقصِ حقوقِهم أو من الظالمين لأنفسهم بذلك فإن وبالَه راجعٌ إلى أنفسهم وفيه تعريضٌ بأنهم ظالمون في ازدرائهم واسترذالِهم ، وقيل : إذا قلتُ شيئاً مما ذكر من ادّعاء المِلْكية وعلمِ الغيب وحيازةِ الخزائن ، وهو بعيدٌ لأن تبعةَ تلك الأقوالِ مغنيةٌ عن التعليل بلزوم الانتظامِ في زمرة الظالمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(286/376)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ استئناف بياني ﴿ يا قوم أَرَءيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ، وفيه إيماء إلى ركاكة رأيهم المذكور ﴿ إِن كُنتُ على بَيّنَةٍ ﴾ حجة ظاهرة ﴿ مّن رَّبّى ﴾ وشاهد يشهد لي بصحة دعواي ﴿ وَءاتَانِى رَحْمَةً مّنْ عِندِهِ ﴾ هي النبوة على ما روي عن ابن عباس رضي الله

تعالى عنهما ، وجوز أن تكون هي البينة نفسها جيء بها إيذاناً بأنها مع كونها بينة من الله تعالى رحمة ونعمة عظيمة منه سبحانه ، ووجه إفراد الضمير في قوله تعالى : ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي أخفيت على هذا ظاهر ، وإن أريد بها النبوة.

وبالبينة البرهان الدال على صحتها فالافراد لإرادة كل واحدة منهما ، أو لكون الضمير للبينة والاكتفاء بذلك لاستلزام خفاء البينة خفاء المدعى ، وجملة ﴿ قَالَ يا قوم ﴾ على هذا معترضة أو لكونه للرحمة ، وفي الكلام مقدر أي أخفيت الرحمة بعد إخفاء البينة وما يدل عليها وحذف للاختصار.

وقيل : إنه معتبر في المعنى دون تقدير ، أو لتقدير عميت غير المذكر بعد لفظ البينة وحذف اختصاراً ، وفيه تقدير جملة قبل الدليل.

وقرأ أكثر السبعة ﴿ فَعُمِّيَتْ ﴾ بفتح العين وتخفيف الميم مبنياً للفاعل ، وهو من العمى ضد البصر ، والمراد به هنا الخفاء مجازاً يقال : حجة عمياء كما يقال : مبصرة للواضحة ، وفي الكلام استعارة تبعية من حيث أنه شبه خفاء الدليل بالعمى في أن كلا منهما يمنع الوصول إلى المقاصد ، ثم فعل ما لا يخفى عليك ، وجوز أن يكون هناك استعارة تمثيلية بأن شبه الذي لا يهتدي بالحجة لخفائها عليه بمن سلك مفازة لا يعرف طرقها واتبع دليلاً أعمى فيها ، وقيل : الكلام على القلب ، والأصل فعميتم عنها كما تقول العرب : ادخلت

القلنسوة في رأسي ، ومنه قول الشاعر

: ترى الثور فيها يدخل الظل رأسه . . .

وقوله سبحانه : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ [إبراهيم : 47] وتعقبه أبو حيان بأن القلب عند أصحابنا مطلقاً لا يجوز إلا في الضرورة ، وقول الشاعر ليس منه بل من باب الاتساع في الظرف ، وكذا الآية ليست منه أيضاً لأن أخلف يتعدى إلى مفعولين ، والوصف منه كذلك ولك أن تضيفه إلى أيهما شئت على أنه لو كان ما ذكر من القلب لكان التعدي بعن دون على ، ألا ترى أنك تقول : عميت عن كذا ولا تقول : عميت على كذا .

وروي الأعمش عن وثاب وعميت بالواو الخفيفة ، وقرأ أبيّ .

والسلمي .

والحسن .

وغيرهم فعماها عليكم على أن الفعل لله تعالى ، وقرىء بالتصريح به وظاهر ذلك مع أهل السنة القائلين بأن الحسن والقبيح منه تعالى ، ولذا أوله الزمخشري خفظاً لعقيدته ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أي أنكرهكم على الاهتداء بها وهو جواب أرأيتم وساد مسد جواب

الشرط.

وفي البحر أنه في موضع المفعول الثاني له ومفعوله الأول البينة مقدراً وجواب الشرط محذوف دل عليه ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي ﴿ إِن كُنتَ ﴾ الخ فأخبروني وحيث احتمع ضميران منصوبان وقد قدم أعرفهما وهو ضمير المخاطب الاعرف من ضمير الغائب جاز في الثاني الوصل والفصل فيجوز في غير القرآن أنلزمكم إياها وهو الذي ذهب إليه ابن مالك في التسهيل ووافقه عليه بعضهم، وقال ابن أبي الربيع: يجب الوصل في مثل ذلك ويشهد له قول سيبويه في الكتاب: فإذا كان المفعولان اللذان تعدي إليهما فعل الفاعل مخاطباً وغائباً فبدأت بالمخاطب قبل الغائب فإن علامة الغائب العلامة التي لا يقع موقعها إياه وذلك نحو أعطيتكه وقد أعطاكه، قال الله تعالى: ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ فهذا كهذا إذ بدأتبالمخاطب قبل الغائب انتهى، ولو قدم الغائب وجب الانفصال على الصحيح فيقال: أنلزمها إياكم.

(288/376)

وأجاز بعضهم الاتصال، واستشهد بقول عثمان رضي الله تعالى عنه: أراهمني، ولم يقل: أراهم إياي، وتمام الكلام على ذلك في محله، وجيء بالواو تتمة لميم الجمع.

وحكى عن أبي عمرو إسكان الميم الأولى تخفيفاً ، ويجوز مثل ذلك عند الفراء ، وقال الزجاج : أجمع النحويون البصريون على أنه لا يجوز إسكان حركة الإعراب إلا في ضرورة الشعر كقوله

: فاليوم أشرب غير مستحقب . . .

إثما من الله ولا واغل

وقوله

: وناع يخبرنا بمهلك سيد . . .

تقطع من وجد عليه الأنامل

وأما ما روي عن أبي عمرو من الإسكان فلم يضبطه عنه الراوي ، وقد روي عنه سيبويه أنه كان يخفف الحركة ويختلسها وهذا هو الحق ، وذكر نحو ذلك الزمخشري ، وقال : إن الإسكان الصريح لحن عند الخليل .

وسيبويه .

وحذاق البصريين ، وفي قرأة أبيّ ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ من شطر أنفسنا ، وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قرأ من شطر قلوبنا أي من تلقائها وجهتها ، وفي البحر أن ذلك على جهة التفسير لا على أنه قرآن لمخالفته سواد المصحف ﴿ وَأَنتُمْ لَهَا كارهون ﴾ أي لا تختارونها ولا تتأملون فيها ، والجملة في موضع الحال قال السمين : إما من الفاعل .

أو من أحد المفعولين ، واختير أنها في موضع الحال من ضمير المخاطبين ، وقدم الجار رعاية للفواصل ، ومحصول الجواب أخبروين إن كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة دعواي إلا أنها خافية عليكم غير مسلمة لديكم أيمكننا أن نكرهكم على قبولها وأنتم معرضون عنها غير متدبرين فيها أي لا يكون ذلك كذا قرره سيخ الإسلام ثم قال : وظاهره مشعر بصدوره عنه عليه السلام بطريق إظهار اليأس عن إلزامهم والقعود عن محاجتهم كقوله : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي ﴾ [هود : 34] الخ لكنه محمول على أن مراده عليه السلام ردهم عن الاعراض عنها وحثهم على التدبر فيها بصرف الإنكار المستفاد من الهمزة إلى الإلزام حال كراهتهم لا إلى الإلزام مطلقاً ، وقال مولانا سعدى جلبي : إن المراد من الإلزام هنا الجبر بالقتل ونحوه لا الإيجاب لأنه واقع فليفهم .

وجوز أن يراد بالبينة دليل العقل الذي هو ملاك الفضل وبحسبه يمتاز أفراد البشر بعضها عن بعض وبه تناط الكرامة عند الله عز وجل والاجتباء للرسالة وبالكون عليها التمسك به والثبات عليه وبخفائها على الكفرة على أن يكون الضمير للبينة عدم إدراكهم لكونهم عليه السلام عليها وبالرحمة النبوة التي أنكروا اختصاصه عليه السلام بها بين ظهرانيهم ويكون المعنى إنكم زعمتم أن عهد النبوة لا يناله إلا من له فضلة على سائر الناس مستتبعة لاختصاصه به دونهم أخبروني إن امتزت عليكم بزيادة مزية وحيازة فضيلة من ربي وآتاني بحسبها نبوة من عنده فخفيت عليكم تلك البنة ولم تصيبوها ولم تناولها ولم تعلموا حيازتي لها وكوني عليها إلى الآن حتى زعمتم أني مثلكم وهي متحققة في نفسها أنلزمكم قبول نبوتي التابعة لها والحال أنكم كارهون لذلك، ثم قيل: فيكون الاستفهام للحمل على الإقرار وهو الأنسب بمقام المحاجة، وحينئذٍ يكون كلامه عليه السلام جواباً عن شبهتهم التي أدرجوها في خلال مقالهم من كونه عليه السلام بشراً قصارى أمره أن يكون مثلهم من غير فضل له عليهم وقطعاً لشأفة آرائهم الركيكة انتهى، وفيه أن كون معنى أنلزمكموها أنلزمكم قبول نبوتي التابعة لها غير ظاهر على أن في أمر التبعية نظراً كما لا يخفى، ولعل الإتيان بما أتى به من الشرط من باب المجاراة وإسناد الإلزام لضمير الجماعة إما للتعظيم أو لاعتبار متبعيه عليه السلام معه في ذلك.

﴿ ويا قوم ﴾ ناداهم بذلك تلطفاً بهم واستدراجاً لهم ﴿ لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي التبليغ المفهوم مما تقدم، وقيل: الضمير للإنذار، وأفرد الله سبحانه بالعبادة، وقيل: للدعاء إلى التوحيد، وقيل: غير ذلك، وكلها أقوال متقاربة أي لا أطلب منكم على ذلك ﴿ مَالاً ﴾ تؤدونه إلى بعد إيمانكم، وأجراً لي في مقابلة اهتدائكم ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ﴾ فهو سبحانه يثيبني على ذلك في الآخرة ولا بدّ حسب وعده الذي لا يخلف، فالمراد بالأجر الأجر على التبليغ، وجوز أن يراد الأجر على الطاعة مطلقاً، ويدخل فيه ذلك دخولاً أولياً، وفي التعبير بالمال أولاً.

(292/376)

وبالأجر ثانياً ما لا يخفى من مزية ما عند الله تعالى على ما عندهم ﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الذين ءامَنُواْ ﴾ قيل: هو جواب عما لوحوا به بقولهم: ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ [هود: 27] من أنه لو اتبعه الأشراف لوافقوهم وأن اتباع الفقراء مانع لهم عن ذلك كما صرحوا به في قولهم: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الارذلون ﴾ [الشعراء: 111] فكان ذلك التماساً منهم لطردهم وتعليقاً لإيمانهم به عليه السلام بذلك أنفة من الانتظام معهم في

سلك واحد انتهى ، والمروى عن ابن جريج أنهم قالوا له يا نوح : إن أحببت أن نتبعك فاطرد هؤلاء وإلا فلن نرضى أن نكون نحن وهم في الأمر سواء ، وذلك كما قال قريش للنبي صلى الله عليه وسلم في فقراء الصحابة رضي الله تعالى عنهم : اطرد هؤلاء عنك ونحن نتبعك فأنا نستحيي أن نجلس معهم في مجلسك فهو جواب عما لم يذكر في النظم الكريم لكن فيه نوع إشارة إليه ، وقرىء ﴿ بِطَارِدٍ ﴾ بالتنوين قال الزمخشري : على الأصل يعني أن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال فأصله أن يعمل ولا يضاف ، وهو ظاهر كلام سيبويه ، واستدرك عليه أبو حيان بأنه قد يقال : إن الأصل الإضافة لأنه قد اعتوره شبهان : أحدهما شبهه بالمضارع وهو شبه بغير جنسه ، والآخر شبهه بالأسماء إذا كانت فيها الإضافة ، وإلحاقه بجنسه أولى من إلحاقه بغير جنسه انتهى ، وربما يقال : إن أولوية إلحاقه بالأسماء إنما يتم القول بها إذا كانت الإضافة في الأسماء هي الأصل وليس فليس ﴿ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ تعليل للامتناع من طردهم كأنه قيل : لا أدرهم ولا أبعدهم عن مجلسي لأنهم من أهل الزلفى المقربون الفائزون عند الله تعالى ؛ وانفهام الفوز بمعونة المقام وإلا فملاقاة الله تعالى تكون للفائز وغيره ، أو أنهم ملاقوا ربهم فيخاصمون طاردهم عنده فيعاقبه على ما فعل وحمله على أنهم مصدقون في الدنيا بلقاء ربهم موقنون به عالمون

أنهم ملاقوه لا محالة فكيف أطردهم خلاف الظاهر على أن هذا التصديق من توابع الإيمان ، وقيل : المعنى إنهم يلاقونه تعالى فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت كما ظهر لي أو على خلاف ذلك مما تعرفونهم به من بناء أمرهم على بادىء الرأي من غير تعمق في الفكر ، وما على أن أشق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون ، وفيه أنه مع كونه مبنياً على أن سؤال الطرد لعدم إخلاصهم لا لاسترذالهم وحاله أظهر من أن يخفى يأباه اغلجزم بترتب غضب الله تعالى على طردهم كما سيأتي إن شاء الله تعالى ﴿ ولكنى أُرِيكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ أي بكل ما ينبغي أن يعلم ، ويدخل فيه جهلهم بمنزلتهم عند الله تعالى وبما يترتب من المحذور على طردهم وبركاكة رأيهم في التماس ذلك ، وتوقف إيمانهم عليه وغير ذلك وإيثار صيغة الفعل للدلالة على التجدد والاستمرار ، وعبر بالرؤية موافقة لتعبيرهم ، وجوز أن يكون الجهل بمعنى الجناية على الغير وفعل ما يشق عليه لا بمعنى عدم العلم المذموم وهو معنى شائع كما في قوله

: ألا لا يجهلن أحد علينا . . .

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

أي ولكني أراكم قوماً تتسفهون على المؤمنين بنسبتهم إلى الخساسة .

﴿ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ ﴾

أي من يصونني منه تعالى ويدفع عني حلول سخطه ، والاستفها للإنكار أي لا ينصرني أحد من ذلك ﴿ إِن طَرَدتُّهُمْ ﴾ وأبعدتهم عني وهم بتلك المثابة والزلفى منه تعالى ، وفي الكلام ما لا يخفى من تهويل أمر طردهم ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل فلا تتذكرون ما ذكر من حالهم حتى تعرفوا أن ما تأتونه بمعزل عن الصواب ، قيل : ولكون هذه العلة مستقلة بوجه مخصوص ظاهر الدلالة على وجوب الامتناع عن الطرد أفردت عن التعليل السابق وصدرت بياقوم .

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾

(294/376)

شروع على ما قال غير واحد في دفع الشبه التي أوردوها تفصيلاً وذلك من قبيل النشر المشوش ثقة بعلم السامع وتخلل ما تخلل بين شبههم وجوابها على ما قال العلامة الطيبي لأنه مقدمة وتمهيد للجواب ، وبينه بأن قوله : ﴿ يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده ﴾ [هود : 28] إثبات لنبوته يعني ما قلت لكم ﴿ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ ﴾ [هود : 25 ، 26] إلا عن بينة على إثبات نبوتي وصحة دعوتي لكن خفيت عليكم وعميت حتى أوردتم تلك الشبه الواهية ومع ذلك ليس نظري فيما

ادعيت إلا إلى الهداية وإني لا أطمع بمال حتى ألازم الأغنياء منكم وأطرد الفقراء وأنتم تجهلون هذا المعنى حيث تقولون : اطرد الفقراء وأن الله سبحانه ما بعثني إلا للترغيب في طلب الآخرة ورفض الدنيا فمن ينصرني إن كنت أخالف ما جئت به ، ثم شرع فيما شرع ، وفي "الكشف" إن قوله : ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ [هود : 28] الآية جواب إجمالي عن الشبه كلها مع التعبير بأنهم لا يرجعون فما يرمون إلى أدنى تدبر وقوله : ﴿ ويا قوم لا أَسْئَلُكُمْ ﴾ [هود : 27] تتميم للتعبير وحث على ما ضمنه من التشويق إلى ما عنده ، وقوله : ﴿ مَا أَنَاْ بِطَارِدِ ﴾ [هود : 29] تصريح بجواب ما ضمنوه في قولهم : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ [هود : 72] من خسة الشركاء وأنه لولا مكانهم لكان يمكن الاتباع إظهاراً للتصلب فيما هو فيه وأن ما يورده ويصدره عن برهان من الله تعالى يوافيه وأنى يدع الحق الأبلج بالباطل اللجلج ، ثم شرع في الجواب التفصيلي بقوله : ﴿ وَلاَ أَقُولُ ﴾ الخ ، وهو أحسن مما ذكره الطيبي ، وجعلوا هذا رداً لقولهم : ﴿ وَمَا نرى لَكُمْ ﴾ [هود : 27] الخ كأنه يقول : عدم اتباع وتكذيبي إن كان لنفيكم عني فضل المال والجاه فأنا لم أدعه ولم أقل لكم إن خزائن رزق الله تعالى وماله عندي حتى أنكم تنازعوني في ذلك

وتنكرونه وإنما كان مني دعوى الرسالة المؤيدة بالمعجزات ، ولعل جوابه عليه السلام عن ذلك من حيث أنه معنى به مستتبع للجواب عنه من حيث أنه عنى به متبوعه عليه السلام أيضاً ، وجعله جواباً عن قولهم : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [هود : 27] كما جوزه الطبرسي ليس بشيء ، وحمل الخزائن على ما أشرنا إليه هو المعول عليه .

وقال الجبائي .

وأبو مسلم : إن المراد بها مقدورات الله تعالى أي لا أقول لكم حين أدعي النبوة عندي مقدورات الله تعالى فأفعل ما أشاء وأعطي ما أشاء وأمنع ما أشاء وليس بشيء ، ومثله بل أدهى وأمر قول ابن الأنباري : إن المراد بها غيوب الله تعالى وما انطوى عن الخلق ، وجعل ابن الخازن هذه الجملة عطفاً على

﴿ لاَّ أَسْئَلُكُمْ ﴾ [هود : 29] الخ ، والمعنى عنده لا أسألكم عليه ما لا ولا أقول لكم عندي خزائن الله التي لا يفنيها شيء فأدعوكم إلى اتباعي عليها لأعطيكم منها ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الغيب ﴾ عطف على ﴿ عِندِى خَزَائِنُ الله ﴾ المقول للقول ، وذكر معه النفي مع أن العطف على مقول القول المنفي منفي أيضاً من غير أن يذكر معه أداة نفي لتأكيد النفي

السابق والتذكير به ودفع احتمال أن لا يقول هذا المجموع فلا ينافي أن يقول أحدهما أي ولا أقول أنا أعلم الغيب حتى تكذبوني لاستبعاد ذلك وما ذكرت من دعوى النبوة والإنذار بالعذاب إنما هو بوحي وإعلام من الله تعالى مؤيد بالبينة والغيب ما لم يوح به ولم يقم عليه دليل ، ولعله إنما لم ينف عليه السلام القول بعلم الغيب على نحو ما فعل في السابق واللاحق مبالغة في نفي هذه الصفة التي ليس لأحد سوى الله تعالى منها نصيب أصلاً ، ويجوز عطفه على ﴿ أَقُولُ ﴾ أي لا أقول لكم ذلك ولا أدعي علم الغيب في قولي ﴿ إني نذير مبين ﴾ [هود : 25] ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ [هود : 26] حتى تسارعوا إلى الإنكار والاستبعاد ، وقيل : هو معطوف على هذا أو ذاك إلا أن المعنى لا أعلم الغيب حتى أعلم أن هؤلاء اتبعوني بادىء الرأي من غير بصيرة وعقد قلب ولا يخفى حاله ، واعترض على الأول بأنه غير ملائم للمقام ، ثم قيل : والظاهر أنه صلى الله عليه وسلم حين ادعى النبوة سألوه عن المغيبات ، وقالوا له : إن كنت صادقاً أخبرنا عنها فقال : أنا أدعي النبوة بآية من ربي ولا أعلم الغيب إلا بإعلامه سبحانه ، ولا يلزم أن يذكر ذلك في النظم الكريم كما أن سؤال طردهم كذلك انتهى ، وفيه أن زعم عدم الملاءمة ليس على ما ينبغي ، وأيضاً لا يخفى أنه لا قرينة تدل على وقوعه جواباً لما لم يذكر ، وأما سؤال طردهم فإن الاستحقار قرينة عليه في الجملة ، وقد صرح بعض السلف به ومثله لا يقال من قبل الرأي ﴿ وَلاَ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾

رد لقولهم : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [هود : 27] أي لا أقول ترويجاً لما أدعيه من النبوة إني ملك حتى تقولوا لي ذلك وتكذبوني فإن البشرية ليست من موانع النبوة بل من مباديها يعني كما قيل : إنكم اتخذتم فقدان هذه الأمور الثلاثة ذريعة إلى تكذيبي ، والحال أني لا أدعي شيئاً من ذلك ولا الذي يتعلق بشيء منها ، وإنما الذي أدعيه يتعلق بالفضائل التي تتفاوت بها مقادير البشر ، وقيل : أراد بهذا لا أقول : إني روحاني غير مخلوق من ذكر وأنثى بل ءنما أنا بشر مثلكم فلا معنى لردكم على بقولكم

﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [هود : 27] وعلى القولين لا دليل فيه على أن الملائكة أفضل من الأنبياء عليهم السلام خلافاً لمن استدل به ، وجعل ذلك كلاماً آخر ليس رداً لما قالوه سابقاً مما لا وجه له فتدبر ﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ ﴾ أي تستحقرهم والأصل تزتري بالتاء إلا أنها قلبت دالاً لتجانس الزاي في الجهر لأنها من المهموسة ، وأصل الازدراء الإعابة يقال : ازدراه إذا عابه ، والتعبير بالمضارع للاستمرار ، أو لحكاية الحال لأن الازدراء قد وقع ، وإسناده إلى الأعين مجاز للمبالغة في رأي من حيث أنه إسناد إلى الحاسة التي لا يتصور منها تعييب أحد فكأن من لا يدرك ذلك يدركه ، وللتنبيه على أنهم

استحقروهم بادىء الرؤية وبما عاينوا من رثاثة حالهم وقلة منالهم دون تأمل وتدبر في معانيهم وكمالاتهم ، وعائد الموصول محذوف كما أشرنا إليه ، واللام للأجل لا للتبليغ وإلا لقيل فيما بعد يؤتيكم أي لا أقول مساعدة لكم ونزولاً على هواكم في شأن الذين استرذلتموهم واستحقرتموهم لفقرهم من المؤمنين ﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا ﴾ في الدنيا أو في الآخرة فعسى الله سبحانه يؤتيهم خيري الدارين .

(298/376)

﴿ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ مما يستعدون به لإيتاء ذلك ، وفي إرشاد العقل السليم من الإيمان ، وفيه توجيه لعطف نفي هذا القول الذي ليس مما يستنكره الكفرة ولا مما يتوهمون صدوره عنه عليه السلام أصالة واستتباعاً على نفي هاتيك الأقوال التي هي مما يستنكرونه ويتوهمون صدوره عنه عليه السلام إن ذلك من جهة أن كلا النفيين رد لقياسهم الباطل الذي تمسكوا به فيما سلف فإنهم زعموا أن النبوة تستتبع الأمور المذكورة من ادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن وأن العثور على مكانها واغتنام مغانمها ليس من دأب الأراذل ، فأجاب عليه السلام بنفي ذلك جميعاً فكأنه قال : لا أقول وجود تلك الأشياء من مواجب النبوة ولا عدم المال والجاه من موانع الخير ، واقتصر عليه السلام على نفي القول

المذكور مع أنه عليه السلام جازم بأن الله سبحانه سيؤتيهم خيراً عظيماً في الدارين وأنهم على يقين راسخ في الإيمان جرياً على سنن الإنصاف مع القوم واكتفاءاً بمخالفة كلامهم وإرشاداً لهم إلى مسلك الهداية بأن اللائق لكل أحد أن لا يبت القول إلا فيما يعلمه يقيناً ويبني أموره على الشواهد الظاهرة ولا يجازف فيما ليس فيه على بينة انتهى ، وأنت تعلم أنه عليه السلام قد بتّ القول بفوز هؤلاء في قوله : ﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الذين ءامَنُواْ إِنَّهُمْ ملاقوا رَبّهِمْ ﴾ [هود : 29] بناءاً على أنهم المعنيون بالذين آمنوا ، وأن المراد من كونهم ملاقوا ربهم أنهم مقربون في حضرة القدس كما قال به غير واحد وكذا الحكم إذا كان المعنى بالموصول من اتصف بعنوان الصلة مطلقاً إذ يدخلون فيه دخولاً أولياً لما أن المسؤول صريحاً أو تلويحاً طردهم ، ولعل البت تارة وعدمه أخرى لاقتضاء المقام ذلك وأن في كون الكفرة قد زعموا أن العثور على مكان النبوة واغتنام مغانمها ليس من دأب الأراذل خفاءاً مع دعوى أنهم لوحوا بقولهم :

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك ﴾ [هود : 27] الخ الذي هو مظنة ذلك الزعم إلى التماس طردهم وتعليق إيمانهم به عليه السلام بذلك أنفة من الانتظام معهم في سلك واحد .

وفي "البحر" أن معنى ﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ ﴾ الخ ليس احتقاركم إياهم ينقص ثوابهم عند الله تعالى ولا يبطل أجورهم ولست أحكم عليهم بشيء من هذا ، وإنما الحكم بذلك للذي يعلم ما في أنفسهم فيجازيهم عليه ، وقيل : إن هذا رد لقولهم : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك ﴾ [هود : 27] الخ على معنى لست أحكم عليهم بأن لا يكون لهم خير لظنكم بهم أن بواطنهم ليست كظواهرهم الله أعلم بما في نفوسهم انتهى ، ولا يخفى ما فيه .

وقد أخرج أبو الشيخ عن السدي أنه فسر الخير بالإيمان أي لا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله إيماناً واستشكل بأن الظاهر أن المراد بالموصول أولئك المتبعون المسترذلون وهم مؤمنون عندهم فلا معنى لنفي القول بإيتاء الله تعالى إياهم الإيمان مساعدة لهم ونزولاً على هواهم .

(300/376)

وأجيب بأن المراد من هذا الإيمان هو المعتد به الذي لا يزول أصلاً كما ينبىء عن ذلك التعبير عنه بالخير وهم إنما أثبتوا لهم الاتباع بادىء الرأي وأرادوا بذلك أنهم آمنوا إيماناً لا ثبات له ، ويجعل ذلك رداً لذلك القول ، ويراد من ﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ ﴾ ما آتاهم فكأنهم قالوا : إنهم اتبعوك وآمنوا بك بلا تأمل ومثل ذلك الإيمان في معرض الزوال ، فهم لا يثبتون عليه

ويرتدون فرد عليهم عليه السلام بأني لا أحكم على أولئك بأن الله تعالى ما آتاهم إيماناً لا يزول وأنهم سيرتدون كما زعمتم ويكون قوله عليه السلام : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ تفويضاً للحكم بذلك إليه تعالى ؛ أو إشارة إلى جلالة ما آتاهم الله تعالى إياه من الإيمان كما يقال الله تعالى : أعلم بما يقاسي زيد من عمرو إذا كان ما يقاسيه منه أمراً عظيماً لا يستطاع شرحه ، فكأنه قيل : إن إيمانهم عظيم القدر جليل الشأن فكيف أقول لن يؤتيهم الله تعالى إيماناً ثابتاً ، وفيه من التكلف والتعسف ما الله تعالى به أعلم ، وحمل الموصول على أناس مسترذلين جداً غير أولئك ولم يؤمنوا بعد أي لا أقول للذين تزدريهم أعينكم ولم يؤمنوا بعد لن يوفقهم الله تعالى للإيمان حيث كانوا في غاية من رثاثة الحال والدناءة التي تزعمونها مانعة من الخير ﴿ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ مما يتأهلون به لإفاضة التوفيق عليهم وهو المدار لذلك لا الأحوال الظاهرة مما لا أقول به ﴿ إِنّى إِذاً ﴾ أي إذا قلت ذلك ﴿ لَّمِنَ الظالمين ﴾ لهم بحط مرتبتهم ونقص حقوقهم ، أو من الظالمين لأنفسهم بذلك ، وفيه تعريض بأنهم ظالمون في ازدرائهم واسترذالهم .

ويجوز أن يكون إذا قلت شيئاً مما ذكر من حيازة الخزائن وادعاء علم الغيب والملكية ، ونفي إيتاء الله تعالى أولئك الخير والقول لمزيد جهلهم محتاجون لأن يعلل لهم نحو الأقوال الأول بلزوم الانتظام في زمرة الظالمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ [28] .

﴿ قَالَ ﴾ أي : نوح : ﴿ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أي : أخبروني : ﴿ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ ﴾ أي : برهان : ﴿ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً ﴾ أي : هداية خاصة كشفية : ﴿ مِّنْ عِندِهِ ﴾ أي : فوق طور العقل من العلوم اللدنية ، ومقام النبوة : ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : لاحتجابكم بالظاهر عن الباطن ، وبالخليقة عن الحقيقة : ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ يعني أنكرهكم على قبولها ، ونقسركم على الاهتداء بها ، وأنتم تكرهونها ولا تختاورنها ، و : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : من الآية 256] ، فالاستفهام للإنكار ، أي : لا نقدر على ذلك ، والذي في وسعنا دعوتكم إلى الله ، لا أن نضطركم إليها ، فإن شئتم تلقيها فزكوا نفوسكم ، واتركوا إنكاركم ، وفي طي جوابه عليه السلام حث على تدبرها ، ورد عن الإعراض عنها ، بأسلوب فائق .

﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي : على تبليغ التوحيد : ﴿ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ ﴾ قال القاشاني : أي : الغرض عندكم من كل أمر ، محصور في حصول المعاش ، وأنا لا أطلب ذلك منكم ، فتنبهوا لغرضي ، وأنتم عقلاء بزعمكم .

ثم لما بيّن أن لا وجه لكراهة دعوته ؛ إذ لا تنقصهم من دنياهم شيئاً ، فلم يبق إلا خسة أتباعه ، ولا ترتفع إلا بطردهم ، قال : ﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ أي : لأنهم أهل القربة والمنزلة عند الله ، وطردهم قد يكون مانعاً لهم من الإيمان أو لأمثالهم . ولا يفعل ذلك إلا عدو لله مناوئ لأوليائه . ولو كان طردهم سبب إيمانكم ولم يرتدوا ، أخاف من طردهم شكايتهم ، وهذا معنى قوله : ﴿ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ ﴾ أي : فيخاصمون طاردهم عنده . أو المعنى : إنهم يلاقونه ويفوزون بقربه ، فكيف أطردهم ؟ .

ثم أشار إلى أن خستهم ليست مانعة من الإيمان ؛ إذ لا تلحقهم ، بقوله :

﴿ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ أي : فتخافون لحوق خستهم ، لمشاركتكم إياهم في الإيمان من جهلكم ؛ إذ الخسيس لا تترك مشاركته في كل شيء . أو تجهلون ما يصلح به المرء للقاء الله ، ولا تعرفون الله ولا لقاءه ؛ لذهاب عقولكم في الدنيا ، أو تسفهون وتؤذون المؤمنين ، وتدعونهم أراذل ، أو تجهلون أنهم خير منكم ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام

: 53] .

ثم أشار إلى أن طردهم يستوجب عقابه تعالى بقوله :

(303/376)

﴿ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ﴾ أي : فإن أفادكم طردهم تعززكم ، فإني أستوجب قهره بطردهم ، ومن يدفعه عني ؟ وفيه إعلام بأن الطرد ظلم موجب لحلول السخط قطعاً ، وإنما لم يصرح به إشعاراً بأنه غني عن البيان ، لا سيما وقد تقدم ما يلوح به من كرامتهم بإيمانهم بالله واليوم الآخر ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ تتعظون فتنزجروا عما تقولون ؟ .

تنبيه :

قال بعضهم : ثمرة ذلك وجوب تعظيم المؤمن ، وتحريم الاستخفاف به ، وإن كان فقيراً عادماً للجاه ، متعلقاً بالحرف الوضيعة ؛ لأنه تعالى حكى كلام نوح وتجهيله للرؤساء لما طلبوا طرد من عدوه من الأراذل ، وهي نظير قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [الأنعام : من الآية 52] .

ثم أشار إلى أنه عليه السلام بشر مثلهم ، أوثر بالوحي والرسالة فلا يدعي ما ليس له ، بقوله :

﴿ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ ﴾ أي : رزقه وأمواله : ﴿ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ أي : أنا أدعي الفضل بالنبوة ، لا بالغنى وكثرة المال ، ولا بالإطلاع على الغيب ، ولا بالملكية ، حتى تنكروا فضلي بفقدان ذلك : ﴿ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ ﴾ أي : تحتقرهم ، وهم الفقراء المؤمنون : ﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً ﴾ أي : في الدنيا والآخرة ، لهوانهم عليه ، كما تقولون ؛ إذ الخير عندي ما عند الله ، لا المال : ﴿ اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ أي : من الخير مني ومنكم ، وهو أعرف بقدرهم وخطرهم ، وما يعلم أحد قدر خيرهم لعظمه .

قال القاشاني : وحمل غيره هذا على تفويض ما في أنفسهم من الإيمان إلى علم الله إرشاداً إلى أن اللائق لكل أحد ألا يبت القول إلا فيما يعلمه يقيناً ، ويبني أموره على الشواهد الظاهرة ، ولا يجازف فيما ليس فيه على بينة ظاهرة : ﴿ إِنِّي إِذاً ﴾ أي : إذا قلت ذلك : ﴿ لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : لبخس حقهم ، وحط قدرهم ؛ فإن الإيمان الظاهر منهم ، رفع

شأنهم ، فإذا ضموا إلى ذلك الإيمان القلبي كما هو الظاهر منهم ؛ فلهم جزاء الحسنى ، فمن قطع لهم بعدم نيل الخير بعد ما آمنوا كان ظالماً . وفيه تعريض بأنهم ظالمون في ازدرائهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 90.92 ﴾

(305/376)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾

فُصلت جملة ﴿ قال يا قوم ﴾ عن التي قبلها على طريقة حكاية الأقوال في المحاورات كما قدّمناه عند قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعِلٌ في الأرض خليفةٌ ﴾ في سورة [البقرة : 30] ، فهذه لما وقعت مقابلاً لكلام محكي يقال فصلت الجملة ولم تعطف بخلاف ما تقدم آنفاً في قوله : ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ [هود : 27] .

وافتتاح مراجعته بالنداء لطلب إقبال أذهانهم لوعي كلامه ، كما تقدم في نظيرها في سورة الأعراف ، واختيار استحضارهم بعنوان قومه لاستنزال طائر نفورهم تذكيراً لهم بأنه منهم فلا يريد لهم إلاّ خيراً .

وإذ قد كان طعنهم في رسالته مدلّلاً بأنهم ما رأوا له مزية وفضلاً ، وما رأوا أتباعه إلاّ

ضعفاء قومهم وإن ذلك علامة كذبه وضلال أتباعه ، سلك نوح عليه السلام في مجادلتهم مسلك إجمال لإبطال شبهتهم ثم مسلك تفصيلٍ لردّ أقوالهم ، فأما مسلك الإجمال فسلك فيه مسلك القلب بأنهم إن لم يروا فيه وفي أتباعه ما يحمل على التصديق برسالته ، فكذلك هو لا يستطيع أن يحملهم على رؤية المعاني الدالة على صدقه ولا يستطيع منع الذين آمنوا به من متابعته والاهتداء بالهدي الذي جاء به .

فقوله : ﴿ أرأيتم إن كنتُ على بينة من ربي ﴾ إلى آخره .

معناه إن كنتُ ذا برهان واضح ، ومتصفاً برحمة الله بالرسالة بالهدى فلم تظهر لكم الحجة ولا دلائل الهدى ، فهل ألزمكم أنا وأتباعي بها ، أي بالإذعان إليها والتصديق بها إن أنتم تكرهون قبولها .

وهذا تعريض بأنهم لو تأملوا تأملاً بريئاً من الكراهية والعداوة لعلموا صدق دعوته .

و﴿ أرأيتم ﴾ ، استفهام عن الرؤية بمعنى الاعتقاد .

وهو استفهام تقريري إذا كان فعل الرؤية غيرَ عامل في مفرد فهو تقرير على مضمون الجملة السادة مسدّ مفعولي (رأيتُم) ، ولذلك كان معناه آيلاً إلى معنى أخبروني ، ولكنّه لا

يستعمل إلاّ في طلب مَن حاله حالُ من يجحد الخبر ، وقد تقدم معناه في قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتةً أو جهرة ﴾ في سورة [الأنعام : 47] .

وجملة ﴿ إن كنتُ على بينة من ربي إلى قوله فعَميت عليكم ﴾ معترضة بين فعل ﴿ أرأيتم ﴾ ومَا سدّ مسد مفعوليه .

والاستفهام في ﴿ أنلزمكموها ﴾ إنكاري ، أي لا نكرهكم على قبولها ، فعُلق الإلزام بضمير البينة أو الرحمة .

والمراد تعليقه بقبولها بدلالة القرينة .

والبينة : الحجة الواضحة ، وتطلق على المعجزة ، فيجوز أن تكون معجزته الطوفان ، ويجوز أن تكون له معجزات أخرى لم تذكر ، فإن بعثة الرسل عليهم السّلام لا تخلو من معجزات .

والمراد بالرحمة نعمة النبوءة والتفضيل عليهم الذي أنكروه ، مع ما صحبها من البيّنة لأنّها من تمامها ، فعطف (الرحمة) على (البينة) يقتضي المغايرة بينهما ، وهي مغايرة بالعموم والخصوص لأن الرحمة أعم من البينة إذ البينة على صدقه من جملة الرحمة به ، ولذلك لما أعيد الضمير في قوله : ﴿ فعميت ﴾ أعيد على (الرحمة) لأنها أعم .

و﴿ عليكم ﴾ متعلقة بـ (عميت) وهو حرف تتعدى به الأفعال الدّالة على معنى الخفاء ، مثل : خفي عليك .

ولما كان عمي في معنى خفي عُدّي بـ (على) ، وهو للاستعلاء المجازي أي التمكن ، أي قوة ملازمة البينة والرحمة له .

واختيار وصف الرب دون اسم الجلالة للدّلالة على أن إعطاءه البينة والرحمة فضل من الله أراد به إظهار رفقه وعنايته به .

ومعنى ﴿ فعميت ﴾ فخفيت ، وهو استعارة ، إذ شبهت الحجة التي لم يدركها المخاطبون كالعمياء في أنها لم تصل إلى عقولهم كما أن الأعمى لا يهتدي للوصول إلى مقصده فلا يصل إليه .

(307/376)

ولمّا ضمّن معنى : الخفاء عدي فعل (عميت) بحرف (على) تجريداً للاستعارة .

وفي ضد هذه الاستعارة جاء قوله تعالى : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرةً ﴾ [الإسراء : 59] ، أي آتيناهم آية واضحة لا يستطاع جحدها لأنها آية محسوسة ، ولذلك سمّي جحدهم إياها ظلماً فقال : ﴿ فظلموا بها ﴾ [الإسراء : 59] .

ومن بديع هذه الاستعارة هنا أن فيها طباقاً لمقابلة قولهم في مجادلتهم ﴿ ما نراك إلاّ بشراً وما نراك اتّبعك وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ [هود : 27] .

فقابل نوح عليه السلام كلامهم مقابلة بالمعنى واللفظ إذ جعل عدم رؤيتهم من قبيل العَمى.

وعطف (عَميت) بفاء التعقيب إيماء إلى عدم الفترة بين إيتائه البينة والرحمة وبين خفائها عليهم.

وهو تعريض لهم بأنهم بادروا بالإنكار قبل التأمل.

وجملة ﴿ أنلزمكموها ﴾ سادة مسد مفعولي ﴿ أرأيتم ﴾ لأن الفعل علّق عن العمل بدخول همزة الاستفهام.

وجوابُ الشرط محذوف دلّ عليه فعل ﴿ أرأيتم ﴾ وما سدّ مسد مفعوليه.

وتقدير الكلام: قال يا قوم إن كنت على بيّنة من ربي إلى آخره أترون أنلزمكم قبول البينة وأنتم لها كارهون.

وجيء بضمير المتكلم المشارك هنا للإشارة إلى أن الإلزام لو فُرض وقوعه لكان له أعوان عليه وهم أتباعه فأراد أن لا يهمل ذكر أتباعه وأنهم أنصار له لو شاء أن يُهيب بهم.

والقصد من ذلك التنويه بشأنهم في مقابلة تحقير الآخرين إياهم.

والاستفهام إنكاري، أي ما كان لنا ذلك لأن الله لم يأمره بإكراههم إعراضاً عن العناية بهم فترك أمرهم إلى الله، وذلك أشد في توقع العقاب العظيم.

والكاره: المبغض لشيء.

وعدّي باللام إلى مفعوله لزيادة تقوية تعلق الكراهية بالرحمة أو البينة، أي وأنتم مبغضون

قبولها لأجل إعراضكم عن التدّبر فيها .

وتقديم المجرور على ﴿ كارهون ﴾ لرعاية الفاصلة مع الاهتمام بشأنها .

والمقصود من كلامه بعْثهم على إعادة التأمل في الآيات .

وتخفيض نفوسهم .

واستنزالُهم إلى الإنصاف .

(308/376)

وليس المقصود معذرتهم بما صنعوا ولا العدول عن تكرير دعوتهم .

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾

إعادة الخطاب بـ ﴿ يا قوم ﴾ تأكيد لما في الخطاب به أول مرة من المعاني الّتي ذكرناها ،

وأما عطف النداء بالواو مع أن المخاطب به واحد وشأن عطف النداء أن يكون عند

اختلاف المنادى ، كقول المعري :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر

لعل بالجزع أعواناً على السهر . . .

ثم قال :

ويا أسيرة حجليها أرى سفها

حَمْلَ الحُلي بمن أعيَا عن النظر . . .

فأما إذا اتّحد المنادى فالشأن عدم العطف كما في قصة إبراهيم عليه السلام في سورة [مريم : 42 45] ﴿ إذ قال لأبيه يا أبتِ لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر إلى قوله وَلِيّاً ﴾ فقد تكرّر النداء أربع مرات .

فتعين هنا أن يكون العطف من مقول نوح عليه السّلام لا من حكاية الله عنه .

ثمّ يجوز أن يكون تنبيهاً على اتّصال النداءات بعضها ببعض ، وأن أحدها لا يغني عن الآخر ، ولا يكون ذلك من قبيل الوصل لأن النداء افتتاح كلام فجملته ابتدائية وعطفها إذا عطفت مجرد عطف لفظي .

ويجوز أن يكون ذلك تفنناً عربياً في الكلام عند تكرر النداء استحساناً للمخالفة بين التأكيد والمؤكد .

وسيجيء نظير هذا قريباً في قصة هود عليه السلام وقصة شعيب عليه السّلام .

ومنه ما وقع في سورة [المؤمن : 30 33] في قوله : ﴿ وقال الذي آمن يا قوم إني أخَافُ عَلَيْكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوحٍ وعادٍ وثمود والذينَ مِن بعَدهم وما الله يريد ظلماً للعباد ويا قوم إنّي أخَافُ علَيكم يَوْمَ التنادِ يوم تُولّون مُدبرين ما لكم من الله من عاصمٍ ﴾ ثم قال : ﴿ وقال الذي آمن يا قوم اتبعونِ أهدكم سبيل الرشاد ، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاعٌ وإن الآخرة هي دار القرار ، من عملَئَة فَلاَ يُجزى إلاّ مثلَها ومَن عمِل صالحاً من ذكر أو أُنْثى وهو مؤمنٌ فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حسابٍ ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النّار ﴾ [غافر : 38 41] .

فعطف (ويا قوم) تارة وترك العطف أخرى .

وأما مع اختلاف الوصف المنادى به فقد جاء العطف وهو أظهر لما في اختلاف وصف المنادى من شبه التغاير كقول قيس بن عاصم ، وقيل حاتم الطائيء :

أيا ابنةَ عبد الله وابنةَ مالك

ويا ابنةَ ذي البُردين والفرس الورد . . .

فقوله : (ويا بنة ذي البردين) عطف نداء على نداء والمنادى بهما واحد .

لما أظهر لهم نوح عليه السّلام أنه يجبرهم على إيما ن يكرهونه انتقل إلى تقريبهم من النظر في نزاهة ما جاءهم به ، وأنه لا يريد نفعاً دنيوياً بأنّه لا يسألهم على ما جاء به مالاً يعطونه إياه ، فماذا يتهمونه حتّى يقطعون بكذبه .

والضمير في قوله : ﴿ عليه ﴾ عائد إلى المذكور بمنزلة اسم الإشارة في قوله ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ فإن الضمير يعامل معاملة اسم الإشارة .

وجملة ﴿ إن أجْري إلاّ على الله ﴾ احتراس لأنه لمّا نفى أن يسألهم مالاً ، والمال أجر ، نشأ توهّم أنه لا يسأل جَزاء على الدعوة فجاء بجملة ﴿ إن أجْري إلاّ على الله ﴾ احتراساً .

والمخالفة بين العبارتين في قوله : ﴿ مالا ﴾ و ﴿ أجري ﴾ تفيد أنه لا يسأل من الله مالاً ولكنه يسأل ثواباً .

والأجر : العوض على عمل .

ويسمّى ثواب الله أجراً لأنّه جزاء على العمل الصالح .

(310/376)

وعطف جملة ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ على جملة ﴿ لا أسألكم عليه مالاً ﴾ لأنّ مضمونها كالنتيجة لمضمون المعطوف عليها لأن نفي طمعه في المخاطبين يقتضي أنه لا يؤذي أتباعه لأجل إرضاء هؤلاء .

ولذلك عبّر عن أتباعه بطريق الموصولية بقوله : ﴿ الذين آمنوا ﴾ لِما يؤذن به الموصول من تغليظ قومه في تعريضهم له بأن يُطردهم بما أنهم لا يجالسون أمثالهم إيذاناً بأن إيمانهم يوجب

تفضيلهم على غيرهم الذين لم يؤمنوا به والرغبةَ فيهم فكيف يطردهم .

وهذا إبطال لما اقتضاه قولهم : ﴿ وما نراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا ﴾ [هود : 27] من التعريض بأنهم لا يماثلونهم في متابعته .

والطرد : الأمر بالبعد عن مكان الحضور تحقيراً أو زجراً .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾ في سورة [الأنعام : 52] .

وجملة ﴿ إنهم ملاقوا ربهم ﴾ في موضع التعليل لنفي أن يطردهم بأنهم صائرون إلى الله في الآخرة فمحاسبٌ من يَطردهم ، هذا إذا كانت الملاقاة على الحقيقة ، أو أراد أنهم يدعون ربهم في صلاتهم فينتصر الله لهم إذا كانت الملاقاة مجازية ، أو أنهم ملاقو ربهم حين يحضرون مجلس دعوتي لأنّي أدعو إلى الله لا إلى شيء يخصّني فهم عند ملاقاتي كمن يلاقون ربّهم لأنهم يتلقون ما أوحى الله إليّ .

وهذا كقول النبي صلى الله عليه وسلم في قصة النفَر الثلاثة الذين حضروا مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فجلس أحدهم ، واستحَيَا أحدهم ، وأعرض الثالث "أمّا الأول فأوَى إلى الله فآواه الله ، وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه" .

وتأكيد الخبر بـ (إنّ) إنْ كان اللقاء حقيقة لرد إنكار قومه البعث ، وإنْ كان اللقاء مجازاً

فالتّأكيد للاهتمام بذلك اللقاء .

وقد زيد هذا التّأكيد تأكيداً بجملة ﴿ ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ .

وموقع الاستدراك هو أن مضمون الجملة ضد مضمون التي قبلها وهي جملة ﴿ إنهم ملاقوا ربهم ﴾ أي لا ريب في ذلك ولكنكم تجهلون فتحسبونهم لا حضرة لهم وأن لا تبعة في طردهم .

وحذف مفعول ﴿ تجهلون ﴾ للعلم به ، أي تجهلون ذلك .

وزيادة قوله : ﴿ قوماً ﴾ يدل على أن جهلهم صفة لازمة لهم كأنها من مقومات قوميتهم كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ لآياتٍ لقومٍ يعقلون ﴾ في سورة [البقرة : 164] .

﴿ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

إعادة ﴿ ويا قوم ﴾ مثل إعادته في الآية قبلها .

والاستفهام إنكاري .

والنصر : إعانة المقاوم لضدّ أو عدوّ ، وضمن معنى الإنجاء فعدّي بـ (مِن) أي مَن يخلصني ، أي ينجيني من الله ، أي من عقابه ، لأن طردهم إهانة تؤذيهم بلا موجب معتبر عند الله ،

والله لا يحب إهانة أوليائه .

وفرع على ذلك إنكاراً على قومه في إهمالهم التذكر ، أي التأمل في الدلائل ومدلولاتها ، والأسباب ومسبّباتها .

وقرأ الجمهور ﴿ تذّكّرون ﴾ بتشديد الذال .

وأصل ﴿ تذّكرون ﴾ ، تتذكرون فأبدلت التاء ذالاً وأدغمت في الذّال .

وقرأه حفص "تذكرون" بتخفيف الذال وبحذف إحدى التاءين .

والتذكر تقدم عند قوله : ﴿ إن الذين اتّقوا إذا مسّهم طائفٌ من الشيطان تذكّروا ﴾ في آخر سورة الأعراف (201 .

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾

هذا تفصيل لما ردّ به مقالة قومه إجمالاً ، فهم استدلوا على نفي نُبوّته بأنهم لم يروا له فضلاً عليهم ، فجاء هو في جوابهم بالقول بالموجَب أنه لم يدع فضلاً غير الوحي إليه كما حكى الله عن أنبيائه عليهم السّلام في قوله : ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلاّ بشر مثلكم ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده ﴾ [إبراهيم : 11] ، ولذلك نفى أن يكون قد ادّعى غير ذلك .

واقتصر على بعض ما يتوهّمونه من لوازم النبوءة وهو أن يكون أغنى منهم ، أو أن يعلم الأمور الغائبة .

والقول بمعنى الدعوى ، وإنما نفى ذلك بصيغة المضارع للدّلالة على أنّه منتف عنه ذلك في الحال ، فأما انتفاؤه في الماضي فمعلوم لديهم حيث لم يقله ، أي لا تظنوا أني مضمر ادّعاء ذلك وإن لم أقله .

والخزائن : جمع خِزانة بكسر الخاء وهي بيت أو مِشكاة كبيرة يجعل لها باب ، وذلكِ لِخزن المال أو الطعام ، أي حفظه من الضياع .

وذكر الخزائن هنا استعارة مكنية ؛ شبهت النعم والأشياء النافعة بالأموال النفيسة التي تُدخر في الخزائن ، ورمز إلى ذلك بذكر ما هو من روادف المشبّه به وهو الخزائن .

وإضافة ﴿ خزائن ﴾ إلى ﴿ الله ﴾ لاختصاص الله بها .

وأما قوله : ﴿ ولا أقول إني ملك ﴾ فنفي لشبهة قولهم : ﴿ ما نراك إلاّ بشراً مثلنا ﴾ [هود : 27] ولذلك أعاد معه فعل القول ، لأنه إبطال دعوى أخرى ألصقوها به ، وتأكيده بـ (إنّ) لأنه قول لا يقوله قائله إلا مؤكداً لشدة إنكاره لو ادعاه مدّع ، فلما نفاه نفى صيغة إثباته .

ولّما أراد إبطال قولهم : ﴿ وما نراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا ﴾ [هود : 27] أبطله بطريقة التغليط لأنهم جعلوا ضعفهم وفقرهم سبباً لانتفاء فضلهم ، فأبطله بأن ضعفهم ليس بحائل بينهم وبين الخير من الله إذ لا ارتباط بين الضعف في الأمور الدنيوية من فقر وقلة

وبين الحرمان من نوال الكمالات النفسانية والدينية ، وأعاد معه فعل القول لأنه أراد من القول معنى غيرَ المراد منه فيما قيل ، فالقول هنا كناية عن الاعتقاد لأن المرء إنما يقول ما يعتقد ، وهي تعريضية بالمخاطبين لأنهم يضمون ذلك ويقدرونه .

والازدراء : افتعال من الزري وهو الاحتقار وإلصاق العيب ، فأصله : ازتراء ، قلبت تاء الافتعال دالاً بعد الزاي كما قلبت في الازدياد .

وإسناد الازدراء إلى الأعين وإنما هو من أفعال النفس مجاز عقلي لأن الأعين سبب الازدراء غالباً ، لأن الازدراء ينشأ عن مشاهدة الصفات الحقيرة عند الناظر .

ونظيره إسناد الفرق إلى الأعين في قول الأعشى :

كذلك فافعل ما حييت إذا شتَوْا

وأقدم إذا ما أعينُ الناس تَفرَقُ . . .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ سَحروا أعْيُنَ الناس ﴾ [الأعراف : 116] وإنما سحروا عقولهم ولكن الأعين ترى حركات السحرة فتؤثر رؤيتها على عقول المبصرين .

وجيء في النفي بحرف ﴿ لن ﴾ الدّالة على تأكيد نفي الفعل في المستقبل تعريضاً بقومه

لأنّهم جعلوا ضعف أتباع نوح عليه السّلام وفقرهم دليلاً على انتفاء الخير عنهم فاقتضى دوام ذلك ما داموا ضعفاء فقراء ، فلسان حالهم يقول : لن ينالوا خيراً ، فكان رده عليهم بأنه لا يقول : ﴿ لن يؤتيهم الله خيراً ﴾ .

وجملة ﴿ الله أعلم بما في أنفسهم ﴾ تعليل لنفي أن يقول : ﴿ لن يؤتيهم الله خيراً ﴾ . ولذلك فصلت الجملة ولم تعطف ، ومعنى ﴿ الله أعلم بما في أنفسهم ﴾ أن أمرهم موكول إلى ربهم الذي علم ما أودعه في نفوسهم من الخير والذي وفقهم إلى الإيمان ، أي فهو يعاملهم بما يعلم منهم .

وتعليقه بالنفوس تنبيه لقومه على غلطهم في قولهم : ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ [هود : 27] بأنهم نظروا إلى الجانب الجثماني الدنيوي وجهلوا الفضائل والكمالات النفسانية والعطايا اللدنية التي اللّهُ أعلم بها .

واسم التفضيل هنا مسلوبُ المفاضلة مقصود منه شدة العلم .

وجملة ﴿ إني إذن لمن الظالمين ﴾ تعليل ثان لنفي أن يقول : ﴿ لن يؤتيهم الله خيراً ﴾ . و﴿ إذن ﴾ حرف جواب وجزاء مجازاة للقَول ، أي لو قلت ذلك لكنت من الظالمين ، وذلك أنه يظلمهم بالقضاء عليهم بما لا يعلم من حقيقتهم ، ويظلم نفسه باقتحام القول بما لا يصدق .

وقوله : ﴿ لمن الظالمين ﴾ أبلغ في إثبات الظلم من : إني ظالم ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿

قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ في سورة [البقرة : 67] .

وأكده بثلاث مؤكدات : إنّ ولام الابتداء وحرف الجزاء ، تحقيقاً لظلم الذين رموا المؤمنين بالرذالة وسلبوا الفضل عنهم ، لأنه أراد التعريض بقومه في ذلك .

وسيجيء في سورة الشعراء ذكر موقف آخر لنوح عليه السلام مع قومه في شأن هؤلاء المؤمنين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(314/376)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28) ﴾

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة عن نبيه نوح : أنه قال لقومه : ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن ربي ﴾ أي على يقين ونبوة صادقة لا شك فيها ، وأعطاني رحمة منه مما أوحى إلي من التوحيد والهدى ، فخفي ذلك كله عليكم ، ولم تعتقدوا أنه حق ، أيمكنني أن ألزمكم به ، وأجبر قلوبكم على الانقياد والإذعان لتلك البينة التي تفضل الله علي بها ، ورحمني بإيتائها ، والحال أنكم كارهون لذلك ؟ يعني ليس بيدي توفيقكم إلى الهدى وإن

كان واضحاً جلياً لا لبس فيه ، إن لم يهدكم الله جل وعلا .

وهذا المعنى صرح به جل وعلا عن نوح أيضاً في هذه السورة الكريمة بقوله : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نصحي إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ [هود : 34] الآية .

قوله تعالى : ﴿ ويا قوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ﴾ الآية .

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة عن نبيه نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام : أنه أخبر قومه أنه لا يسألهم مالاً في مقابلة ما جاءهم به من الوحي والهدى ، بل يبذل لهم ذلك الخير العظيم مجاناً من غير أخذ أجرة في مقابله .

وبين في آيات كثيرة : أن ذلك هو شأن الرسل عليهم صلوات الله وسلامه ، كقوله في سبأ عن نبينا صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ﴾ [سبا : 47] الآية .

وقوله فيه أيضاً في آخر ص : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ المتكلفين ﴾ [ص : 86] .

وقوله في الطور والقلم ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ [الطور : 40] .

وقوله في الفرقان ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : 57] .

وقوله في الأنعام : ﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : 90] .

وقوله عن هود في سورة هود : ﴿ يا قوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الذي فطرني ﴾ [هود : 51] الآلآية .

وقوله في الشعراء عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام :

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا على رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 109] .

وقوله تعالى عن رسل القرية المذكورة في يس ﴿ اتبعوا المرسلين اتبعوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً ﴾ [يس : 20 - 21] الآية .

وقد بينا وجه الجمع بين هذه الآيات المذكورة وبين قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا المودة فِي القربى ﴾ [الشورى : 23] في كتابنا " دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب " في سورة سبأ في الكلام على قوله تعالى ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ [سبأ : 47] .

ويؤخذ من هذه الآيات الكريمة : أن الواجب على أتباع الرسل من العلماء وغيرهم أن

يبذلوا ما عندهم من العلم مجاناً من غير أخذ عوض ذلك ، وأنه لا ينبغي أخذ الأجرة على تعليم كتاب الله تعالى ، ولا على تعليم العقائد والحلال والحرام .

ويعتضد ذلك بأحاديث تدل على نحوه ، فمن ذلك ما رواه ابن ماجه والبيهقي والروياني في مسنده عن أبي ابن كعب رضي الله عنه قال : علمت رجلاً القرآن ، فأهدى لي قوساً ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : " إن أخذت قوساً من نار " فرددتها .

قال البيهقي وابن عبد البر في هذا الحديث : هو منقطع ، اي بين عطية الكلاعي وابي بن كعب ، وكذلك قال المزي .

وتعقبه ابن حجر بأن عطية ولد في زمن النّبي صلى الله عليه وسلم .

وأعله ابن القطان بأن رواية عن عطية المذكور هو عبد الرحمن بن سَلْم وهو مجهول .

وقال فيه ابن حجر في التقريب . شامي مجهول .

وقال الشوكاني في نيل الأوطار : وله طرق عن أبي . قال ابن القطان : لا يثبت منها شيء قال الحافظ وفيما قاله نظر .

وذكر المزي في الأطراف له طرقاً منها : أن الذي أقرأه أبي هو الطفيل بن عمرو ، ويشهد له

ما أخرجه الطبراني في الأوسط عن الطفيل بن عمرو الدوسي قال . أقرأني أبي بن كعب القرآن فأهديت له قوساً فغدا إلى النّبي صلى الله عليه وسلم وقد تقلدها فقال النّبي صلى الله عليه وسلم : " تقلدها من جهنم " الحديث . وقال الشوكاني أيضاً : وفي الباب عن معاذ عند الحاكم والبزار بنحو حديث أبي . وعن أبي الدرداء عن الدارمي بإسناد على شرط مسلم بنحوه أيضاً .

ومن ذلك ما رواه ابو داود وابن ماجه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال . علمت ناساً من أهل الصفة الكتاب والقرآن ، فأهدى إلى رجل منهم قوساً فقلت ليست بمال ارمي بها في سبيل الله عز وجل ، لآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأسألنه ، فأتيته فقلت . يا رسول الله ، أهدى إلي رجل قوساً ممن كنت أعلمه الكتاب والقرآن وليست بمال أرمى عليها في سبيل الله ؟ فقال : " إن كنت تحب أن تطوق طوقاً من نار فاقبلها " وفي إسناده المغيرة بن زياد الموصلي قال الشوكاني : وثقه وكيع ويحيى بن معين وتكلم فيه جماعة .

وقال الإمام أحمد : ضعيف الحديث ، حدث بأحاديث مناكير ، وكل حديث رفعه هو منكر . وقال أبو زرعة الرازي . لا يحتج بحديثه اه . وقال فيه ابن حجر في التقريب . المغيرة بن زياد البجلي أبو هشام أو هاشم الموصلي صدوق له أوهام . وهذا الحديث رواه أبو داود من طريق أخرى ليس فيها المغيرة المذكور . حدثنا عمرو بن عثمان وكثير بن عبيد قالا : ثنا بقية حدثني بشر بن عبد الله بن بشار قال عمرو : وحدثني عبادة بن نسي عن جنادة بن ابي أمية عن عبادة بن الصامت نحو هذا الخبر ، والأول أتم ، فقلت : ما ترى فيها يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : " جمرة بين كتفيك تقلدتها أو تعلقتها " اه منه بلفظه . وفي سند هذه الرواية بقية بن الوليد وقد تكلم فيه جماعة ، ووثقه آخرون إذا روى عن الثقات ، وهو من رجال مسلم . وأخرج له البخاري تعليقاً . وقال فيه ابن حجر في التقريب : صدوق ، كثير التدليس عن الضعفاء ، والظاهر أن أعدل الأقوال فيه أنه إن صرح بالسماع عن الثقات فلا بأس به ، مع أن حديثه هذا معتضد بما تقدم وبما سيأتي إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد والترميذي عن عمران بن حصين رضي الله عنهما عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" اقرؤوا القرآن واسألوا الله به ، فإن من بعدكم قوماً يقرؤون القرآن يسألون به الناس " قال الترمذي في هذا الحديث : ليس إسناده بذلك .

ومنها ما رواه أبو داود في سننه : حدثنا وهب بن بقية ، أخبرنا خالد عن حميد الأعرج ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نقرأ القرآن وينا الأعرابي والأعجمي : فقال : " اقرؤوا القرآن واسألوا الله به ، فإن من بعدكم قوماً يقرؤون القرآن يسألون به الناس " قال الترمذي في هذا الحديث : ليس إسناده بذلك .

(318/376)

ومنها ما رواه أبو داود في سننه : حدثنا وهب بن بقية ، أخبرنا خالد عن حميد الأعرج ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نقرأ القرآن ، وفينا الأعرابي والأعجمي : فقال : " اقرؤوا فكل حسن ، وسيجيء أقوام يقيمونه كما يقال القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه " حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا عبد الله بن وهب ، أخبرني عمرو وابن لهيعة ، عن بكر بن سوادةن عن وفاء بن شريح الصدفي ، عن سهل بن سعد الساعدس قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نقتري فقال : " الحمد لله ، كتاب الله واحد ، وفيكم الأحمر وفيكم الأبيض وفيكم الأسود ، اقرؤوا قبل أن يقرأه أقوام يقيمونه كما يقوم السهم يتعجل أجره ولا يتأجله "

اه .

ومنها ما رواه الإمام أحمد ، عن عبد الرحمن بن شبل ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " اقرؤوا القرآن ولا تغلوا فيه ولا تجفوا عنه ولا تأكلوا به ولا تستكثروا به " قال الشوكاني رحمه الله في نيل الأوطار في هذا الحديث : قال في مجمع الزوائد رجال أحمد ثقات .

ومنها ما أخرجه الأثرم في سننه عن أُبي رضي الله عنه قال : كنت أختلف إلى رجل مسن قد أصابته علة ، قد احتبس في بيته أقرئه القرآن ، فيؤتى بطعام لا آكل مثله بالمدينة ، فحاك في نفسي شيء فذكرته للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : " إن كان ذلك الطعام طعامه وطعام أهله فكل منه ، وإن كان يتحفك به فلا تأكله " اه بواسطة نقل ابن قدامة في المغني والشوكاني في نيل الأوطار .

فهذه الأدلة ونحوا تدل على أن تعليم القرآن والمسائل الدينية لا يجوز أخذ الأجرة عليها .

وممن قال بهذا : الإمام أحمد في إحدى الروايتين ، وأبو حنيفة والضحاك بن قيس وعطاء .

وكره الزهري وإسحاق تعليم القرآن بأجر .

وقال عبد الله بن شفيق : هذه الرغف التي يأخذها المعلمون من السحت .

وممن كره أجرة التعليم مع الشرط : الحسن وابن سرين ، وطاوس ، والشعبي ، والنخعي .

قاله في المغني . وقال : إن ظاهر كلام الإمام أحمد جواز أخذ العلم ما أعطيه من غير شرط .

وذهب أكثر أهل العلم إلى جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن ، وهو مذهب مالك ، والشافعي .

وممن رخص في أجور المعلمين : أبو قلابة ، وأبو ثور ، وابن المنذر .

ونقل أبو طالب عن أحمد أنه قال : التعليم أحب إلي من أن يتوكل لهؤلاء السلاطين ، ومن أن يتوكل لرجل من عامة الناس في ضيعة ، ومن أن يستدين ويتجر لعله لا يقدر على الوفاء فيلقى الله تعالى بأمانات الناس ، التعليم أحب إلي .

وهذا يدل على أن منعه منه في موضع منعه للكراهة لا للتحريم . قال ابن قدامة في المغني .

واحتج أهل هذا القول بأدلة منها ما رواه الشيخان وغيرهما من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنهك أن النّبي صلى الله عليه وسلم جاءته امرأة فقالت : يا رسول الله ، إني قد وهبت نفسي لك ، فقامت قياماً طويلاً ، فقام رجل فقال : يا رسول الله ، زوجنيها إن لم يكن لك حاجة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " هل عندك من شيء تصدقها إياه ؟ " قال نعم ، سورة كذا وكذا يسميها ، فقال النّبي صلى الله عليه وسلم : " قد زوجتكها بما معك من القرآن " وفي رواية " قد ملكتكها بما معك من القرآن " فقالوا :

هذا الرجل أباح له النّبي أن يجعل تعليمه بعض القرآن لهذه المرأة عوضاً عن صداقها . وهو صريح في أن العوض على تعليم القرآن جائز . وما رد به بعض العلماء الاستدلال بهذا الحديث من أنه صلى الله عليه وسلم زوجه إياها بغير صداق إكراماً له لحفظه ذلك المقدار من القرآن ، ولم يجعل التعليم صداقاً لها – مردود بما ثبت في بعض الروايات في صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " انطلق فقد زوجتكها فعلمها من القرآن " وفي رواية لأبي داود " علمها عشرين آية وهي امرأتك " .

(320/376)

واحتجوا أيضاً بعموم قوله صلى الله عليه وسلم الثابت في صحيح البخاري من حديث ابن عباس : " إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله " قالوا : الحديث وإن كان وارداً في الجعل على الرقيا بكتاب الله فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب . واحتمال الفرق بين الجعل على الرقية وبين الأجرة على التعليم ظاهر .

قال مقيدة – عفا الله عنه – : الذي يظهر لي والله تعالى أعلم ، أن الإنسان إذا لم تدعه الحاجة الضرورية فالأولى له ألا يأخذ عوضاً على تعليم القرآن ، والعقائد ، والحلال والحرام للأدلة الماضية . وإن دعته الحاجة أخذ بقدر الضرورة من بيت مال المسلمين . لأن

الظاهر أن المأخوذ من بيت المال من قبيل الإعانة على القيام بالتعليم لا من قبيل الأجرة.

والأولى لمن أغناه الله أن يتعفف عن أخذ شيء في مقابل التعليم للقرآن والعقائد والحلال والحرام. والعلم عند الله تعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(321/376)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾

وقول نوح عليه السلام: ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أي: أخبروني إن كنت على بين موهوبة من الله تعالى ونور وبصيرة وفطرة بالهداية، وآتاني الحق سبحانه: ﴿ رَحْمَةً ﴾ أي: رسالة، بينما خفيت هذه المسألة عنكم، فهل أجبركم على ذلك؟ لا؛ لأن الإيمان لا بد أن يأتي طواعية بعد إقناع ملموس، وانفعال مأنوس، واختيار بيقين.

وحين ننظر في قوله:

﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ [هود: 28].

نجد الهمزة الاستفهامية ثم الفعل "نلزم" ثم كاف المخاطبة، وهنا نكون أمام استفهام، وفعل، وفاعل مطمور في الفعل، ومفعول أو هو كاف المخاطبة، ومفعول ثان هو الرحمة.

إذن : فلا إلزام من الرسول لقومه بأن يؤمنوا ؛ لأن الإيمان يحتاج إلى قلوب ، لا قوالب ، وإكراه القوالب لا يزرع الإيمان في القلوب .

والحق سبحانه يريد من خلقه قلوباً تخشع ، لا قوالب تخضع ، ولو شاء سبحانه لأرغمهم وأخضعهم كما أخضع الكون كله له ، سبحانه القائل :

﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآء ﴾ [النازعات : 27] .

فالحق سبحانه وتعالى أخضع السماء والشمس والقمر ، وكلّ الكون ، وهو سبحانه يقول لنا :

﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [غافر : 57] .

والكون كله يخضع لمشيئة الله سبحانه وتعالى .

وقد خلق الحق سبحانه الملائكة وهم جنس أعلى من البشر ، وقال سبحانه عنهم :

﴿ لاَّ يَعْصُونَ الله مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : 6] .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى لو أراد قوالب لأخضع الخلق كلهم لعبادته ، ولكنه سبحانه وتعالى يريد قلوباً تخشع ؛ ولذلك يقول تبارك وتعالى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السماء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : 34] .

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه مُنَزَّهٌ عن رغبة أخضاع القوالب البشرية ، بل شاء سبحانه أن يجعل الإنسان مختاراً ؛ ولذلك لا يُكْرِهُ الله سبحانه أحداً على الإيمان .

والدِّين لا يكون بالإكراه ، بل بالطواعية والرضا .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين قَد تَّبَيَّنَ الرشد مِنَ الغي ﴾ [البقرة : 256] .

وهكذا يطلب الحق سبحانه من الخلق أن يعرضوا أمر الإيمان على العقل ، فالعقل بالإدراك ينفعل متعجباً لإبداع المبدع ، وعند الإعجاب ينزع إلى اختياره بيقين المؤمن .

يقول الحق :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيَاتٍ لأُوْلِي الألباب ﴾ [آل عمران : 190] .

والإكراه إنما يكون على أمر غير مُتَبَيَّن ، أما الدِّين فأمر يتبيَّن فيه الرشد ؛ لأن المنهج حين يطلب منك ألا تسرق غيرك ، فهو يضمن لك ألا يسرقك الغير ، وحين يأمرك ألا تنظر إلى محارم غيرك ، فهو يحمي محارمك ، وحين يأمرك ألا تغتاب أحداً ، وألا تحقد على أحد ، ففي هذا كله راحة للإنسان .

إذن : فما يطلبه المنهج هو كل أمر مريح للإنسان ، وأنت إن نظرت في مطلوبات المنهج فلن تجدها مطلوبة منك وحدك ، ولكن مطلوبة من الناس لك أيضاً .

وهو تبادل مراد من الله لإعمار الكون أخذاً وعطاء .

ولذلك لا يحتاج مثل هذا الرشد إلى إكراه عليه ، بل تجد فيه البينة واضحة فاصلة بينه وبين الغَيّ .

والآفة أن بعضاً من الناس يستخدمون هذه الآية في غير موضعها ، فحين تطلب من مسلم أن يصلّي تجده يقول لك :

﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين ﴾ [البقرة : 256] .

ولك أن تقول له : لا إكراه في الحَمْل على الدِّين والإيمان به ، لكنك إذا آمنت بالدِّين فإياك أن تكسره ، بتعطيل منهجه أو الإعراض عنه .

ولذلك يشدِّد الحق سبحانه عقوبة الخروج من الدين ؛ لأن الحق سبحانه لم يُكرِه أحداً على الدخول في الدين ، بل للإنسان أن يفكر ويتدبر ؛ لأنه إن دخَل في الدين وارتكب ذنباً فسيلقى عقاب الذنب ؛ لأنه دخل برغبته واختاره بيقينه ، فالمخالفة لها عقابها .

إذن : فالدخول إلى الإيمان لا إكراه فيه ، ولكن الخروج من الدين يقتضي إقامة الحد على المرتدّ ومعاقبة العاصي على عصيانه .

وعندما يعلم الجميع هذا الأمر فهم يعلمون أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل الصعوبة في الدخول إلى الدين عن طريق تصعيب آثار الخروج منه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان نوح عليه السلام : ﴿ ويا قوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً ﴾

ومثل هذا القول بمعناه جاء مع كل رسول ، ففي مواضع أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ [الأنعام : 90] .

لأن العِوَض في التبادل قد لا يكون مالاً ، بل قد يكون تمراً ، أو شعيراً أو قطناً أو غير ذلك ، والأجر كما نعلم هو أعم من أن يكون مالاً أو غير مال ؛ لذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله ﴾ [هود : 29] .

وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد أغْلَى الأمر .

وقول الرسول :

﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله ﴾ [هود : 29] .

هو قول يدل على أن الأمر الذي جاء به الرسول هو أمر نافع ؛ لأن الأجرة لا تستحق إلا مقابل المنفعة .

ونحن نعلم أن مبادلة الشيء بعينه أو ما يساويه؛ تُسمَّى شراء ، أما أن يأخذ الإنسان المنفعة من العين ، وتظل العين ملكاً لصاحبها ، فمن يأخذ هذه المنفعة يدفع عنها إيجاراً ، فكان نوحاً عليه السلام يقول : لقد كنت أستحق أجراً لأنني أقدِّم لكم منفعة ، لكنني لن آخذ منكم شيئاً ، لا زُهْداً في الأجر ، ولكني أطمع في الأجر ممن هو أفضل منكم وأعظم وأكبر .

ولأن هذا الملأ الكافر قد وصف من اتبع نوحاً بأنهم أراذل ؛ لذلك يأتي الرد من نوح عليه السلام :

﴿ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الذين آمنوا ﴾ [هود : 29] .

ويوضح هذا الرد أن نوحاً عليه السلام لا يمكن أن يطرد إنساناً من حظيرة الإيمان لأنه فقير ، فاليقين الإيماني لا علاقة له بالثروة أو الجاه أو الفقر والحاجة .

ولا يُخْلِي رسولٌ مكاناً من أتباعه الفقراء ليأتي الأغنياء ، بل الكلُّ سواسية أمام الله سبحانه وتعالى .

والحق سبحانه يقول :

﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ [الأنعام : 52]

.

وقد جعل الحق سبحانه هؤلاء الذين يطلق عليهم كلمة " أراذل " فتنة ، فمن تكبّر بسبب فقر وضعف أتباع الرسل ، فليغرق في كِبْره .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ [الأنعام : 53] .

وأيضا يأمر الحق سبحانه رسوله بأن يضع عينه على هؤلاء الضعاف ، وألا ينصرف عنهم أو عن أي واحد منهم ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم ﴾ [الكهف : 28] .

جاء هذا القول حتى لا ينشأ فساد أو عداء بين المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يقال : " فلان مُقَرَّبٌ منه " ؛ ولذلك كان صلى الله عليه وسلم إذا جلس ؛ يوزع نظره على كل جلسائه ، حتى يظن كل جالس أن نظره لا يتحول عنه .

وفي هذه الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سحبانه وتعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام وصفاً لهؤلاء الضعاف الذين آمنوا :

﴿ إِنَّهُمْ مُّلاَقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ [هود : 29] .

وفي هذا بيانٌ أن نوحاً عليه السلام لن يطرد هؤلاء الضعاف المؤمنين ، فلو طردهم وهم الذين سيلقون الله تعالى ، أيسمح نوح عليه السلام أن يقال عنه أمام الحق تبارك وتعالى إنه قد طرد قوماً آمنوا رسالته ؟ طبعاً لا .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه يحاسب رسله ، والمرسَل إليهم ، فهو سبحانه القائل :

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين ﴾ [الأعراف : 6] .

إذن : فنوح عليه السلام يعلم أنه مسئول أمام ربه ، ولكن هذا الملأ الكافر من قومه يجهلون ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه في نهاية هذه الآية الكريمة على لسان نوح عليه السلام :

﴿ ولكني أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ [هود : 29] .

أي : أنهم لا يفهمون مهمة نوح عليه السلام ، وأنه مسئول أمام ربه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ ويا قوم مَن يَنصُرُنِي مِنَ الله ﴾

وهنا يوضِّح نوح عليه السلام أنه لا يقدر على مواجهة الله إن طرد هؤلاء الضعاف ؛ لأن أحداً لن ينصر نوحاً على الله عز وجل لحظة الحساب ، فهناك يوم لا ملك فيه لأحد إلا لله ، ولا أحد يشفع إلا بإذنه سبحانه ، ولا أحد بقادر على أن ينصر أحداً على الله تعالى ؛ لأنه القاهر فوق كل خلقه ،

والنصر كما نعلم يكون بالغلبة ، أما الشفاعة فهي بالخضوع ، والحق سبحانه لا يأذن لأحد أن يشفع في طرد مؤمن من حظيرة الإيمان .

وفي هذا القول تذكير من نوح عليه السلام لقومه ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

(326/376)

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود : 30]

أي : يجب ألَّا تأخذكم الغفلة ، وتُنسيكم ما يجب أن تتذكروه .

وكما جاء الحق سبحانه بالتذكُّر ، وهو الأمر الذي بدوامه يبعد الإنسان الغفلة ، جاء الحق سبحانه أيضاً بالتفكُّر ، وهو التأمل لاستنباط شيء جديد عن طريق إعمال العقل بالتفكر ، الذي يجعل الإنسان في تأمل يقوده إلى تقديس وتنزيه الخالق ، وبهذا يصل الإنسان إلى الحقائق التي تكشف له معالم الطريق .

وجاء الحق سبحانه أيضاً بالتدبر ، أي : ألا يأخذ الإنسان الأمور بظواهرها ، أو أن ينخدع بتلك الظواهر ، بل لا بد من البحث في حقائق الأشياء .

لذلك يقول الحق جَلَّ وعَلاَ :

﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن ﴾ [النساء : 82] .

أي : أفلا يبحثون عن الكنوز الموجودة في المعطيات الخلفية للقرآن .

والتدبر هو الذي يكشف المعاني الخفية خلف ظواهر الآيات ، والناس يتفاضلون في تعرضهم لأسرار كتاب الله حين ينظرون خلف ظواهر المعاني .

ولذلك نجد عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول : " ثَوِّروا القرآن " أي : قَلِّبوا معاني الآيات لتجدوا ما فيها من كنوز ، ولا تأخذوا الآيات بظواهرها ، فعجائب القرآن لا تنقضي .

ويقول الحق سبحانه وتعالى مواصلاً ما جاء على لسان سيدنا نوح : ﴿ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ الله ﴾

وهكذا يَسُدُّ نوح عليه السلام على هذا الملأ الكافر كل أسباب إعراضهم عن الإيمان ، فإن ظنوا أن الإيمان يتطلب ثراءً ، فنوح لا يملك خزائن الله ، وهو لا يملك أكثر من هذا الملأ ، وإن طلبوا أن يكشف لهم الغيب ، فالغيب علمه عند الله تعالى وحده .

ولم يَدَّعِ نوح أنه من جنس آخر غير البشر ، إنما هو بشر مثلهم ، لا يملك ما يجبرهم به على الطاعة ، ثراءً ، أو جاهاً ، أو علم غيب .

ولن يطرد نوح عليه السلام مَنْ آمن مِنَ الضِّعاف الذين تزدريهم وتحتقرهم وتتهكَّم عليهم عيون هذا الملأ الكافر ؛ لأن نوحاً يخشى سؤال الله عزَّ وجَلَّ له إن سَدَّ في وجوه الضعاف أبواب الإيمان .

ولا بد من وقفة هنا عند قول الحق سبحانه :

﴿ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ الله وَلاَ أَعْلَمُ الغيب وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تزدري أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ الله خَيْراً ﴾ [هود : 31] .

ونلحظ هنا أن الخطاب قد حُوِّل إلى الغيبة ، فلم يخاطب نوح عليه السلام الضعاف ويقول لهم : إن الله سيمنع عنكم الخير ، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو العليم بما في نفوسهم ، ولو قال نوح لهم مثل هذا القول لكان من الظالمين .

واللام في كلمة ﴿ لِلَّذِينَ ﴾ تعني الحديث عن الضعاف ، لا حديثاً إلى الضعاف .

ومجيء " اللام " بمعنى " عن " له نظائر ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سبأ : 43] .

وهم هنا لا يقولون للحق ، ولكنهم يقولون عن الحق ، وهكذا جاءت " اللام " بمعنى " عن "

.

وهكذا أوضح نوح عليه السلام أنه لو طرد من يقال عنهم " أراذل " ، لكان معنى ذلك أنه يعلم النوايا ، ونوح عليه السلام يعلم يقيناً أن الله هو الأعلم بما في النفوس ؛ لذلك لا يضع نوح نفسه في موضع الظلم لا لنفسه ولا لغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(328/376)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام : (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ) (هود : 28) ، في قصة صالح بعد : (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً) (هود : 63) ، للسائل أن يسأل عن مجاوبة كل واحد من هذين النبيين الكريمين لقومه ، لم تقدم المجرور في قول صالح عليه السلام (وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً) على المفعول الثاني من مفعولي أتى التي هو رحمة والوجه تأخيره لأنه

فضله كما تقدم متأخرا في قول نوح عليه السلام (وَآَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ) ؟

والجواب على ذلك : أن قوم صالح ، عليه السلام ، بالغوا في أساءت الجواب حين قالوا : (قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا) (هود : 62) ، أي قد كنت مرجواً أن تسود فينا حتى نقطع عن رأيك ونرجع إليك من أمورنا ، فرموا مقامه النبوي بحط مرتبته عنهم ، فلما بالغوا في إساءة الجواب جاوبهم ، عليه السلام ، ردا لمقالهم الشنيع بقوله : (أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً) (هود : 63) ، ولا شك أن عليه السلام كذلك ، وأنه على بصيرة من أمره ، ولكنه خاطبهم على ما يجري في مناظرة من فرض ما لا يعتقده المناظر على حسب نطقه ، ولكنه يستنزل بذلك مناظرة ليقيم الحجة عليه ، فيقول هب كذا على ما

تقوله ، فعلى هذا جرى قول النبي الكريم (أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي) ، أي كيف ترون إن كنت على واضحه وعلى يقين من ربي وآتاني منه رحمة فعصيته بموافقتكم ، فإن فعلت ذلك فمن ينصرني ويمنعني من عذابه ، فخاطبهم عليه السلام بطريقة فرض هذا : إن كان كذا ، وهو عليه السلام العليم بحاله الجليل ، وعلى بينة من ربي ، وأكد بتقدم المجرور في

قوله (وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً) ، لما يحرز تقديمه من التأكد وبعيه مفهومه من أن الرحمة منه سبحانه لا يشرك فيها غيره ، فهو مخصوص لا يحصل مع تأخيره . فتقديم هذا الضمير المجرور كتقديمه في قوله سبحانه : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) (الأخلاص : 4) ، وقد تقدم مثله في إنشاد سيبويه (رحمة الله عليه) :

لتقربن قرباً لجذيا ما دام فيهن فصيل حيا

فلما بالغوا في قبح الجواب بالغ ، عليه السلام في رد مقالهم ، فقدم المجرور لتأكيد أن الرحمة من عند الله تعالى : (وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً) .

ولما لم يكن في مراجعة قوم نوح مثل هذا في شناعة الجواب ، لأن أقصى المفهوم من قولهم : (مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا) ، إلحاقه بهم ومماثلته إياهم ، وكلهم يقولون لو كنت رسول لكنت من الملائكة ولم تكن لتماثلنا . فلم يكن في قول هؤلاء ما في قول قوم صالح ، فجرى جوابه ، عليه السلام ، على نسبة ذلك فقال : (وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ) ، فأتى بالمجرور مأخراً في محله على ما يجب ، حيث لا يقصد في إحراز المفهوم ما قصد في الآية الأخرى ، فورد كل على ما يلائم ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ ملاك التأويل صـ 255 ـ 256 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28) ﴾

قوله تعالى : ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ ﴾ : يجوز في الجارِّ أيضاً أن يكونَ نعتاً ل " رحمة " وأن يكونَ متعلقاً ب " آتاني " .

قوله : ﴿ فَعُمِّيَتْ ﴾ قرأ الأخوان وحفص بضم العين وتشديد الميم ، والباقون بالفتح والتخفيف . فأما القراءة الأولى فأصلها : عَمَاها اللَّهُ عليكم ، أي : أَبْهمهما عقوبةً لكم ، ثم بُني الفعل لما لم يُسَمَّ فاعله ، فحُذِفَ فاعلُه للعلمِ به وهو اللَّه تعالى ، وأقيم المفعولُ وهو ضميرُ الرحمة مُقامه ، ويدل على ذلك قراءةُ أُبَيّ بهذا الأصل " فعماها اللَّهُ عليكم " ، ورُوِي عنه أيضاً وعن الحسن وعليّ والسُّلَمي " فعماها " من غير ذِكْرِ فاعلٍ لفظي ، ورُوِي عن الأعمش وابن وثاب " وعُمِّيَتْ " بالواو دون الفاء .

وأمَّا القراءة الثانية فإنه أسند الفعل إليها مجازاً . قال الزمخشري : " فإن قلت : ما حقيقته ؟ قلت : حقيقته أنَّ الحجة كما جُعِلَتْ بصيرةً ومُبْصرة جُعلت عمياء ؛ لأنَّ الأعمى لا يَهْتدي ولا يَهْدي غيرَه ، فمعنى " فَعَمِيَتْ عليكم البَيِّنَةُ " : فلم تَهْدِكم كما لو عَمِي على القوم دليلُهم في المفازَةِ بقُوا بغيرِ هادٍ " .

وقيل : هذا من باب القلب ، وأصلها فَعَمِيْتُم أنتم عنها كما تقول : أدخلت القلنسوة في رأسي ، وأدخلت الخاتم في إصبعي وهو كثيرٌ ، وتقدم تحريرُ الخلافِ فيه ، وأنشدوا على ذلك :

2654 ترى الثورَ فيها مُدْخِلَ الظلِّ رأسَه . . . .

(331/376)

قال أبو علي : " وهذا مما يُقْلَبُ ، إذ ليس في إشكال ، وفي القرآن ﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ [إبراهيم : 47] ، وبعضهم يُخَرِّج البيت على الاتساعِ في الظرف . وأمَّا آيةُ إبراهيم فأَخْلَفَ يتعدَّى لاثنين ، فأنت بالخيار : أن تضيفَ إلى أيِّهما شِئْتَ فليس من باب القلب . وقد رَدَّ بعضُهم كونَ هذه الآية من باب المقلوب بأنه لو كان كذلك لتعدَّى ب " عن " دون " على " ، ألا ترى أنك تقول : " عَمِيْتُ عن كذا " لا " على كذا " .

واختُلِفَ في الضمير في " عُمِّيَتْ " هل هو عائد على البيِّنة فيكونُ قولُه : " وآتاني رحمة " جملة معترضة بين المتعاطفين ، إذ حقُّه ﴿ على بَيِّنَةٍ مِّن ربي . . . فَعُمِّيَتْ ﴾ . وإن قيل بأنه عائد على الرحمة فيكون قد حُذف من الأول لدلالة الثاني ، والأصل : على بينة من

ربي فعُمِّيَتْ . قال الزمخشري : " وآتاني رحمة بإتيان البيِّنة ، على أن البيِّنة في نفسها هي الرحمة . ويجوز أن يريدَ بالبينة المعجزة ، وبالرحمة النبوَّةَ . فإن قلت : فقوله : " فعُمِّيَتْ " ظاهر على الوجه الأول فما وجهُه على الوجه الثاني ، وحقُّه أن يقال : فَعَمِيَتَا ؟ قلت : الوجهُ أن يُقدَّر : فعُمِّيَتْ بعد البينة ، وأن يكون حَذَفَه/ للاقتصار على ذِكْرِه مرةً " .

انتهى .

وقد تقدَّم الكلامُ على " أرأيتم " هذه في الأنعام ، وتلخيصُه هنا أنَّ " أَرَأَيْتُم " يطلب البينة منصوبةً ، وفعل الشرط يطلبُها مجرورةً ب " على " ، فأعمل الثاني وأضمر في الأول ، والتقدير : أرأيتم البيِّنَةَ من ربي إن كنتُ عليها أَنُلْزِمكموها ، فحذف المفعولُ الأول ، والجملةُ الاستفهامية هي في محل الثاني ، وجواب الشرط محذوفٌ للدلالة عليه .

(332/376)

وقوله : ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أتى هنا بالضميرين متصلين ، وتقدم ضمير الخطاب لأنه أخصُّ ، ولو جيء بالغائب أولاً لانفصل الضميرُ وجوباً . وقد أجاز بعضُهم الاتِّصال ، واستشهد عثمان " أراهُمُني الباطل شيطاناً " . وقال الزمخشري : " يجوز أن يكون الثاني منفصلاً كقوله : " أَنُلْزِمكم إياها " ونحوه : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ ﴾ [البقرة : 137] ويجوز "

فسيكفيك إياهم " . وهذا الذي قاله الزمخشريُّ ظاهرُ قول سيبويه وإن كان بعضُهم مَنَعه .

وإشباعُ الميم في مثل هذا التركيب واجبٌ ، ويضعف سكونُها ، وعليه " أراهُمني الباطل " . وقال أبو البقاء : " وقرئ بإسكان الميم فِراراً من توالي الحركات " فقوله هذا يحتمل أن يكون أراد سكونَ ميم الجمع ؛ لأنه قد ذكر ذلك بعدما قال : " ودَخَلَتِ الواوُ هنا تتمةً للميم ، وهو الأصل في ميم الجمع ، وقرئ بإسكان الميم " . انتهى . وهذا إن ثَبَتَ قراءةً فهو مذهبُ ليونس : يُجَوِّزُ " الدرهمَ أعطيتكمْه " وغيرُه يأباه . ويحتمل أَنْ يريد سكونَ ميم الفعل ، ويدل عليه ما قال الزجاج " أجمع النحويون البصريون على أنه لا يجوز إسكانُ حركةِ الإعرابِ إلا في ضرورة الشعر ، فأمَّا ما روي عن أبي عمرو فلم يَضْبطه عنه القرَّاء ، وروى عنه سيبويه أنه كان يُخِفُّ الحركةَ ويختلِسُها ، وهذا هو الحقُّ ، وإنما يَجُوز الإسكانُ في الشعرِ نحو قولِ امرئ القيس :

2655 فاليَومَ أشربْ غير مُسْتَحْقِبٍ . . . .

. . . .

وكذا قال الزمخشري أيضاً : " وحُكي عن أبي عمرو إسكانُ الميم ، ووجهُه أنَّ الحركةَ لم تكن إلا خِلْسةً خفيفةً ، فظنَّها الراوي سكوناً ، والإسكانُ الصريحُ لحنٌ عند الخليل وسيبويه وحُذَّاقِ البصريين ؛ لأن الحركةَ الإعرابيةِ لا يُسوَّغ طَرْحُها إلا في ضرورةِ الشعر " .

قلت : وقد حكى الكسائي والفراء " أَنُلْزِمْكُموها " بسكون هذه الميم ، وقد تقدم القول في ذلك مشبعاً في سورة البقرة ، أعني تسكينَ حركةِ الإِعراب فكيف يَجْعلونه لحناً ؟ .

و" ألزم " يتعدَّى لاثنين ، أوَّلُهما ضمير الخطاب ، والثاني ضمير الغيبة . و ﴿ وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ جملة حالية ، يجوز أن تكون للفاعلِ أو لأحد المفعولين . وقدَّم الجارَّ لأجل الفواصل . وفي الآية قراءاتٌ شاذةٌ مخالِفَةٌ للسَّواد أَضْرِبُ عنها لذلك .

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾

والضمير في " عليه " يجوز أن يعودَ على الإِنذار المفهوم من " نذير " ، وأن يعودَ على الدين الذي هو المِلَّة ، وأن يعود على التبليغ . وقُرِىء " بطاردٍ الذين " بتنوين " طاردٍ " قال الزمخشري : " على الأصل " . يعني أن أصل اسم الفاعل بمعنى الحال والاستقبال العملُ ، وهو ظاهرُ قولِ سيبويه . قال الشيخ : " ويمكن أن يُقال : الأصلُ الإِضافةُ لا العمل ؛ لأنه قد اعتوره شَبَهان ، أحدهما : لشَبَهه بالمضارع وهو شَبَهٌ بغير جنسه ، والآخر : شَبَهُه بالأسماء إذا كانت فيه الإِضافة ، فكان إلحاقُه بجنسه أَوْلى " .

وقوله ﴿ إِنَّهُمْ مُلَاقُو ﴾ استئنافٌ يفيدُ التعليل . وقوله : " تَجْهلون " صفةٌ لا بُدَّ منها إذ

الإتيانُ بهذا الموصوفِ دون صفتِه لا يفيد ، وأتى بها فعلاً ليدلَّ على التجدُّد كلَّ وقت .

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾

و " تَزْدَري " تَفْتَعِل مِنْ زرى يَزْري ، أي : حقَرَ ، فأُبدلت تاءُ الافتعال دالاً بعد الزاي وهو مُطَّرِد ، ويقال : " زرَيْتُ عليه " إذا عِبْتَه ، و " أَزْرَيْتُ به " ، أي : قَصَّرت به . وعائدُ الموصولِ محذوفٌ ، أي : تَزْدَريهم أعينُكم ، أي : تحتقرهم وتُقَصِّر بهم ، قال الشاعر :

2656 ترَى الرجلَ النحيفَ فتَزْدَريه . . . وفي أثوابِه أسدٌ هَصُورُ

وقال أيضاً :

2657 يباعِدُه الصَّديقُ وتَزْدريهِ حَلِيْلتُه . . . ويَنْهَرُه الصغيرُ

واللام في " للذين " للتعليل ، أي : لأجل الذين ، ولا يجوز أن تكونَ التي للتبليغ إذ لو كانت لكان القياس " لن يؤتيكم " بالخطاب .

وقوله : ﴿ وَلاَ أَعْلَمُ الغيب ﴾ الظاهر أن هذه الجملة لا محلَّ لها عطفاً على قولِه ﴿ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ كأنه أخبر عن نفسه بهذه [الجمل الثلاث] . وقد تقدَّم في الأنعام [أن هذا هو المختار] وأن الزمخشري قال : " إنّ قوله تعالى : ﴿ وَلاَ أَعْلَمُ الغيب ﴾ معطوفٌ على "

عندي خزائن " ، أي : لا أقولُ : عندي خزائن اللَّه ، ولا أقول : أنا أعلمُ الغيب " . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 313. 318﴾

(335/376)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28) ﴾

الصُّبحُ لا خَلَلَ في ضيائه لِكَوْنِ الناظرين عميانا ً ، والسيفُ لا خَلَلَ في مُضَائِه لِكَوْنِ الضاربين صبيانا ً . . . . وكيف لِبَشَرٍ من قدرةٍ على هداية مَنْ أَضَلَّه اللَّهُ - ولو كان نبيًّا ؟

هيهات لا ينفع مع الجاهل نُصحٌ ، ولا ينجح في المُصِرّ وعظٌ !

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) ﴾

سُنَّةُ الأنبياء - عليهم السلام_ ألا يطلبوا على رسالتهم أجرا ً ، وألَّا يُؤمِّلوا لأنفسهم عند الخَلْقِ قَدْرا ً ، عَمَلُهم لله لا يطلبون شيئًا من غير الله . فَمَنْ سَلَكَ من العلماء سبيلَهم حُشِرَ

في زمرتهم ، ومَنْ أَخذَ على صلاحِه مِنْ أحدٍ عِوَضاً ، أو اكتسب بسداده جاهاً لم يَرَ من الله إلا هواناً وصَغَاراً .

﴿ ويَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30) ﴾

مجالسةُ الفقراءِ اليومَ – وهم جُلساءُ الحقِّ غداً – أجدى من مجالسة قومٍ من الأغنياء هم من أهل الردِّ .

ومَنْ طَرَدَ مَنْ قَرَّبَه الله وأدناه استوجب الخِزْيَ في دنياه ، والصَّغَارَ في عقباه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَآ أَقُولُ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ .

لا أتخطَّى خَطِّي عما أبلغ مما حملتُ من رسالتي ، ولا اتعدَّى ما كُلِّفْتُ به ، ولا أزيد عما أُمِرْتُ ، ولن أخرجَ عن الذي أنبأوني ، بل أنتصب بشاهدي فيما أقاموني .

(336/376)

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

إن أولياء الله سبحانه في أثوابهم ولا يراهم إلا من قربهم في معناهم . اللَّهُ أعلمَ بأحوالهم وفي

الجملة : طيرُ السماءِ على أُلَّافها تقع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 133.132﴾

(337/376)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والسبعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/377)

الجزء السابع والسبعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 32 ﴾ من سورة هود عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 40 ﴾ من نفس السورة

(4/377)

قوله تعالى ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (35) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فلما استوفى نقض ما أبرموه في زعمهم من جوابهم على غاية الإنصاف واللين

والاستعطاف ، استأنف الحكاية عنهم بقوله : ﴿ قالوا ﴾ أي قول من لم يجد في رده شبهة يبديها ولا مدفعاً يغير به : ﴿ يا نوح قد جادلتنا ﴾ أي اردت فتلنا وصرفنا عن آرائنا بالحجاج وأردنا صرفك عن رأيك بمثل ذلك ﴿ فأكثرت ﴾ أي فتسبب عن ذلك وعن تضجرنا أنك أكثرت ﴿ جدالنا ﴾ أي كلامنا على صورة الجدال ﴿ فأتنا ﴾ أي فتسبب عن ذلك وعن تضجرنا أن نقول لك : لم يصح عندنا دعواك ، ائتنا ﴿ بما تعدنا ﴾ من العذاب ﴿ إن كنت ﴾ أي كوناً هو جبلة لك ﴿ من الصادقين ﴾ أي العريقين في الصدق في أنه يأتينا فصرحوا بالعناد المبعد من الإنصاف والاتصاف بالسداد وسموه باسمه ولم يسمحوا بأن يقولوا له : يا ابن عمنا ، مرة واحدة كما كرر لهم : يا قوم ، فكان المعنى أنا غير قابلين لشيء مما تقول وإن أكثرت وأطلت - بغير حجة منهم بل عناداً وكبراً فلا تتعب ، بل قصر الأمر مما تتوعدنا به ، وسموه وعداً سخرية به ، أي أن هذا الذي جعلته وعيداً هو عندنا وعد حسن سار باعتبار أنا نحب حلوله ، المعنى أنك لست قادراً على ذلك ولا أنت صادق فيه ، فإن كان حقاً فائتنا به ، فكأنه قيل : ماذا قال لهم ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ جرياً على سنن قوله ﴿ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ﴾ : ﴿ إنما يأتيكم به الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بكل شيء فتبرأ من الحول والقوة ورد ذلك إلى من هو له ، وأشار بقوله : ﴿ إن شاء ﴾ إلى أنه مخير في إيقاعه وإن كان قد تقدم قوله به إرشاداً إلى أنه سبحانه لا يجب عليه شيء ولا يقبح منه شيء ، بل ولا يسأل عما يفعل وإن كان لا يقع إلا

ما أخبر به ؛ ثم بين لهم عجزهم وخطأهم في تعرضهم للهلاك فقال : ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أي في شيء من الأوقات لشيء مما يريده بكم سبحانه ؛ والإكثار : الزيادة على مقدار الكفاية ؛ والمجادلة : المقابلة بما يفتل الخصم عن مذهبه بحجة أو شبهة ، وهو من الجدل وهو شدة الفتل والمطلوب به الرجوع عن

المذهب ، والمطلوب بالحجاج ظهور الحجة ، فهو قد يكون مذموماً كالمراء ، وذلك حيث يكون للتشكيك في الحق بعد ظهوره ، وحيث قيد الجدال ب

﴿ التي هي أحسن ﴾ [العنكبوت : 46] فالمراد به إظهار الحق .

ولما بين أنهم إنما هم في قبضته سبحانه ، زاد في بيان عظمته وأن إرادته تضمحل معها كل إرادة في سياق دال على أنه بذلك ناصح لهم وأن نصحه خاص بهم ، فقال جواباً لما وهموا من أن جداله لهم كلام بلا طائل : ﴿ ولا ينفعكم نصحي ﴾ وذكر إرادته لما يريد أن يذكره من إرادة الله فقال : ﴿ إن أردت ﴾ أي جمعت إلى فعل النصح إرادة ﴿ أن أنصح لكم ﴾ بإعلام موضع الغي ليتقى والرشد ليتبع ، وجزاءه محذوف تقديره : لا ينفعكم نصحي ﴿ إن كان الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ يريد أن يغويكم ﴾ أي يضلكم ويركبكم غير

الصواب فإنه إرادته سبحانه تغلب إرادتي وفعلي معاً لا ينفعكم شيء إشارة إلى أنكم لا تقدرون على دفع العذاب بقوة فتكونوا غالبين، ولا بطاعة فتكونوا محبوبين مقربين إن كان الله يريد إهلاككم بالإغواء، وأن أردت أنا نجاتكم، ولم يقل: ولا ينفعكم نصحي إن نصحت لكم، إشارة إلى أني لا أملك إلا إرادتي لنصحكم، فإذا أردته فغاية ما يترتب عليه من فعلي وقوع النصح وإخلاصه لكم، وأما النفع به فلا شيء منه إليّ، بل هو تابع لمراد الله، فإن أراد غوايتكم حصلت لا محالة، ولم يقع ما قد يترتب على النصح من عمل المنصوح بمقتضاه المستجلب لنفع المستدفع للضر؛ ثم رغبهم في إحسانه ورهبهم من انتقامه معللاً لعدم ما لا يريده: ﴿ هو ربكم ﴾ أي الموجد لكم المدبر لأموركم فهو يتصرف وحده لما يريد.

ولما كان التقدير: فمنه مبدؤكم، عطف عليه قوله: ﴿ وإليه ﴾ أي لا إلى غيره ﴿ ترجعون ﴾ أي بأيسر أمر وأهونه بالموت ثم البعث فيجازيكم على أعمالكم كما هي عادة الملوك مع عمالهم.

ولما كان مضمون هذه الآية نحو مضمون قوله : ﴿ إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴾ فإن النذير من ينصح المنذر ، والوكيل هو المرجوع إليه في أمر الشيء الموكول إليه ، وما قبلها تعريض بنسبة نوح عليه السلام إلى الافتراء ، تلاه بما تلا به ذاك من النسبة إلى الافتراء وإشارة إلى أن هذه القصص كلها للتسلية في أمر النذارة والتأسية فكأنه قيل : أيقولون لك مثل هذه الأقوال فقد قالوها لنوح كما ترى ، ثم والى عليهم من الإنذار ما لم يطعموا معه في ترك شيء مما أمرناه به أعجبهم أو أغضبهم ، فلك به أسوة وحسبك به قدوة في أن تعد كلامهم عدماً وتقبل على ما أرسلناك به من بذل النصيحة بالنذارة : ﴿ أم يقولون ﴾ في القرآن ﴿ افتراه ﴾ إصراراً على ما تقولوه فدمغه الدليل وأدحضته الحجة فكأنه قيل : نعم ، إنهم يقولون ذلك ، فقيل : لا عليك فإنه قول يقصدون به مجرد العناد وهم يعلمون خلافه بعد ما قام عليهم من الحجج التي وصلوا معها إلى عين اليقين فلا يهمنك قولهم هذا ، فإنهم يجعلونه وسيلة إلى تركك بعض ما يوحى إليك فلا تفعل ، بل ﴿ قل ﴾ في جواب قولهم هذا ﴿ إن افتريته ﴾ أي قطعت كذبه ﴿ فعليَّ ﴾ أي خاصاً بي ﴿ إجرامي ﴾ أي وباله وعقابه دونكم وإذا استعلى عليَّ الإجرام عرف ذلك لأرباب العقول وظهر ظهوراً أفتضح به وأنتم أعرف الناس بأني أبعد من ذلك مما بين اجتماع الضدين وارتفاع النقيضين لما تعلمون مني من طهارة الشيم وعلو الهمم وطيب الذكر وشريف القدر وكريم الأمر ، هذا لو كنت قادراً على ذلك فكيف وأنا وأنتم في العجز عنه سواء ﴿ وأنا

بريء ﴾ أي غاية البراءة ﴿مما تجرمون ﴾ أي توجدون إجرامه ، ليس عليّ من إجرامكم عائد ضرر بعد أن أوضحته لكم وكشفت عنكم غطاء الشبه ، إنما ضرره عليكم فاعملوا على تذكر هذا المعنى فإن سوق جوابهم على هذا الوجه أنكى لهم من إقامة حجة أخرى لأنهم يعلمون منه أنه إلزام لهم بالفضيحة لانقطاعهم لدى من له وعي ، ويمكن أن يكون التقدير : هل انتبه

(7/377)

قومك يا محمد فعلموا قبح مثل هذه الحال وأنها حال المعاندين ، فرجعوا تكرماً عن ركوب مثلها واستحياء ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ أي كذبه متعمداً استمراراً على العناد وتمادياً في البعاد كما تمادى قوم نوح فيحل بهم ما حل بهم ، أي هل رجعوا بهذا المقدار من قصة قوم نوح أم هم مستمرون على ما نسبوك إليه في أوائل السورة من افترائه فيحتاجون إلى تكميل القصة بما وقع من عذابهم ليخافوا مثل مصابهم ؛ وافتراء الكذب : افتعاله من قبل النفس فهو أخص من مطلق الكذب لأنه قد يكون تقليداً للغير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 526 . 529 ﴾

(8/377)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن الكفار لما أوردوا تلك الشبهة .

وأجاب نوح عليه السلام عنها بالجوابات الموافقة الصحيحة أورد الكفار على نوح كلامين :

الأول : أنهم وصفوه بكثرة المجادلة فقالوا : يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، وهذا يدل على أنه عليه السلام كان قد أكثر في الجدال معهم ، وذلك الجدال ما كان إلا في إثبات التوحيد والنبوة والمعاد ، وهذا يدل على أن الجدال في تقرير الدلائل وفي إزالة الشبهات حرفة الأنبياء ، وعلى أن التقليد والجهل والإصرار على الباطل حرفة الكفار .

والثاني : أنهم استعجلوا العذاب الذي كان يتوعدهم به ، فقالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ ثم إنه عليه السلام أجاب عنه بجواب صحيح فقال : ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ والمعنى أن إنزال العذاب ليس إلي وإنما هو خلق الله تعالى فيفعله إن شاء كما شاء ، وإذا أراد إنزال العذاب فإن أحداً لا يعجزه ، أي لا يمنعه

منه ، والمعجز هو الذي يفعل ما عنده لتعذر مراد الغير فيوصف بأنه أعجزه ، فقوله : ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي لا سبيل لكم إلى فعل ما عنده ، فلا يمتنع على الله تعالى ما يشاء من العذاب إن أراد إنزاله بكم ، وقد قيل معناه : وما أنتم بمانعين ، وقيل : وما أنتم بمصونين ، وقيل : وما أنتم بسابقين إلى الخلاص ، وهذه الأقوال متقاربة .

(9/377)

واعلم أن نوحاً عليه السلام لما أجاب عن شبهاتهم ختم الكلام بخاتمة قاطعة ، فقال : ﴿ وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ﴾ أي إن كان الله يريد أن يغويكم فإنه لا ينفعكم نصحي ألبتة ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الله تعالى قد يريد الكفر من العبد ، وأنه إذا أراد منه ذلك فإنه يمتنع صدور الإيمان منه ، قالوا : إن نوحاً عليه السلام قال : ﴿ وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ والتقدير : لا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد أن يغويكم ويضلكم ، وهذا صريح في مذهبنا ، أما المعتزلة فإنهم قالوا ظاهر الآية يدل على أن الله تعالى إن أراد إغواء القوم لم ينتفعوا بنصح الرسول ، وهذا مسلم ، فإنا نعرف أن الله تعالى لو أراد إغواء عبد فإنه لا ينفعه نصح الناصحين ، لكن لم قلتم إنه تعالى أراد هذا الإغواء فإن النزاع ما وقع إلا فيه ، بل نقول إن

نوحاً عليه السلام إنما ذكر هذا الكلام ليدل على أنه تعالى ما أغواهم ، بل فوض الاختيار إليهم وبيانه من وجهين الأول : أنه عليه السلام بين أنه تعالى لو أراد إغواءهم لما بقي في النصح فائدة فلو لم يكن فيه فائدة لما أمره بأن ينصح الكفار ، وأجمع المسلمون على أنه عليه السلام مأمور بدعوة الكفار ونصيحتهم ، فعلمنا أن هذا النصح غير خال عن الفائدة ، وإذا لم يكن خالياً عن الفائدة وجب القطع بأنه تعالى ما أغواهم ، فهذا صار حجة لنا من هذا الوجه .

(10/377)

الثاني : أنه لو ثبت الحكم عليهم بأن الله تعالى أغواهم لصار هذا عذراً لهم في عدم إتيانهم بالإيمان ولصار نوح منقطعاً في مناظرتهم ، لأنهم يقولون له إنك سلمت أن الله أغوانا فإنه لا يبقى في نصحك ولا في جدنا واجتهادنا فائدة ، فإذا ادعيت بأن الله تعالى قد أغوانا فقد جعلتنا معذورين فلم يلزمنا قبول هذه الدعوة ، فثبت أن الأمر لو كان كما قاله الخصم ، لصار هذا حجة للكفار على نوح عليه السلام ، ومعلوم أن نوحاً عليه السلام لا يجوز أن يذكر كلاماً يصير بسببه مفحماً ملزماً عاجزاً عن تقرير حجة الله تعالى ، فثبت بما ذكرنا أن هذه الآية لا تدل على قول المجبرة ، ثم إنهم ذكروا وجوهاً من التأويلات : الأول : أولئك

الكفار كانوا مجبرة ، وكانوا يقولون إن كفرهم بإرادة الله تعالى ، فعند هذا قال نوح عليه السلام : إن نصحه لا ينفعهم إن كان الأمر كما قالوا ، ومثاله أن يعاقب الرجل ولده على ذنبه فيقول الولد : لا أقدر على غير ما أنا عليه ، فيقول الوالد فلن ينفعك إذاً نصحي ولا زجري ، وليس المراد أنه يصدقه على ما ذكره بل على وجه الإنكار لذلك .

الثاني : قال الحسن معنى ﴿يُغْوِيَكُمْ﴾ أي يعذبكم ، والمعنى : لا ينفعكم نصحي اليوم إذا نزل بكم العذاب فآمنتم في ذلك الوقت ، لأن الإيمان عند نزول العذاب لا يقبل ، وإنما ينفعكم نصحي إذا آمنتم قبل مشاهدة العذاب .

الثالث : قال الجبائي : الغواية هي الخيبة من الطلب بدليل قوله تعالى :

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ [مريم : 59] أي خيبة من خير الآخرة قال الشاعر :

ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً . . الرابع : أنه إذا أصر على الكفر وتمادى فيه منعه الله تعالى الألطاف وفوضه إلى نفسه ، فهذا شبيه ما إذا أراد إغواءه فلهذا السبب حسن أن يقال إن الله تعالى أغواه هذا جملة كلمات المعتزلة في هذا الباب .

والجواب عن أمثال هذه الكلمات قد ذكرناه مراراً وأطواراً فلا فائدة في الإعادة .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ جزاء معلق على شرط بعده شرط آخر وهذا يقتضي أن يكون الشرط المؤخر في اللفظ مقدماً في الوجود وذلك لأن الرجل إذا قال لامرأته أنت طالق إن دخلت الدار ، كان المفهوم كون ذلك الطلاق من لوازم ذلك الدخول ، فإذا ذكر بعده شرطاً آخر مثل أن يقول : إن أكلت الخبز كان المعنى أن تعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الأول مشروط بحصول هذا الشرط الثاني والشرط مقدم على المشروط في الوجود فعلى هذا إن حصل الشرط الثاني تعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الأول إما إن لم يوجد الشرط المذكور ثانياً لم يتعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الأول ، هذا هو التحقيق في هذا التركيب ، فلهذا المعنى قال الفقهاء : إن الشرط المؤخر في اللفظ مقدم في المعنى ، والمقدم في اللفظ مؤخر في المعنى .

واعلم أن نوحاً عليه السلام لما قرر هذه المعاني قال : ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وهذا نهاية الوعيد أي هو إلهكم الذي خلقكم ورباكم ويملك التصرف في ذواتكم وفي صفاتكم قبل الموت وعند الموت وبعد الموت مرجعكم إليه وهذا يفيد نهاية التحذير .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (35) ﴾

اعلم أن معنى افتراه اختلقه وافتعله وجاء به من عند نفسه ، والهاء ترجع إلى الوحي الذي بلغه إليهم ، وقوله : ﴿ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى ﴾ الإجرام اقتراح المحظورات واكتسابها ، وهذا من باب حذف المضاف ، لأن المعنى : فعليَّ عقاب إجرامي ، وفي الآية محذوف آخر وهو أن المعنى : إن كنت افتريته فعليَّ عقاب جرمي ، وإن كنت صادقاً وكذبتموني فعليكم عقاب ذلك التكذيب ، إلا أنه حذف هذه البقية لدلالة الكلام عليه ، كقوله : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءانَاء الليل ﴾ [الزمر : 9] ولم يذكر البقية ، وقوله : ﴿ وَأَنَاْ بَرِىء مّمَّا تُجْرَمُونَ ﴾ أي أنا بريء من عقاب جرمكم ، وأكثر المفسرين على أن هذا من بقية كلام نوح عليه السلام ، وهذه الآية وقعت في قصة محمد صلى الله عليه وسلم في أثناء حكاية نوح ، وقولهم بعيد جداً ، وأيضاً قوله : ﴿ قُلْ إِنْ افتريته فَعَلَيَّ إِجْرَامِى ﴾ لا يدل على أنه كان شاكاً ، إلا أنه قول يقال على وجه الإنكار عند اليأس من القبول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 172.176 ﴾

(13/377)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾

يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، افترى افتعل من قبل نفسه ما أخبر به عن نوح وقومه .

﴿ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إجرامي ﴾ وفي الإجرام وجهان :

أحدهما : أنه الذنوب المكتسبة . حكاه ابن عيسى .

الثاني : أنها الجنايات المقصودة ، قاله ابن عباس ومنه قول الشاعر :

طريد عشيرةٍ ورهين جرم . . . بما جرمت يدي وجنى لساني .

ومعناه : فعلىّ عقاب إجرامي . ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ أي وعليكم من عقاب جرمكم في تكذيبي ما أنا بريء منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(14/377)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قد جادلتنا ﴾

قال الزجاج : الجدال : هو المبالغة في الخصومة والمناظرة ، وهو مأخوذ من الجَدْل ، وهو شدة الفتل ، ويقال للصقر : أجدل ، لأنه من أشد الطير .

ويُقرأ ﴿ فأكْثرت جَدْلنا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فائتنا بما تعدنا ﴾ قال ابن عباس : يعنون العذاب .

﴿ إِن كنت من الصادقين ﴾ أنه يأتينا .

قوله تعالى : ﴿ إِن أردت أن أنصح لكم ﴾ أي : أنصحكم .

وفي هذه الآية شرطان ، فجواب الأول النصح ، وجواب الثاني النفع .

قوله تعالى : ﴿ إِن كان الله يريد أن يُغويكم ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : يُضلكم ، قاله ابن عباس .

والثاني : يُهلككم ، حكاه ابن الأنباري : وقال : هو قول مرغوب عنه .

والثالث : يضلكم ويهلككم ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ هو ربكم ﴾ أي : هو أولى بكم ، يتصرف في ملكه كما يشاء ﴿ وإِليه تُرجعون ﴾ بعد الموت .

قوله تعالى : ﴿ أم يقولون ﴾ قال الزجاج : المعنى : أيقولون : ﴿ افتراه ﴾ ؟ قال ابن قتيبة : الافتراء : الاختلاق .

﴿ فعليَّ إِجرامي ﴾ أي : جرم ذلك الاختلاق إِن كنتُ فعلت .

﴿ وأنا بريء مما تُجرمون ﴾ في التكذيب .

وقرأ أبو المتوكل ، وابن السميفع : "فعليَّ أجرامي" بفتح الهمزة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسيرحـ 4 صـ ﴾

(15/377)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يا نوحقَدْ جَادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾

أي خاصمتنا فأكثرت خصومتنا وبالغت فيها .

والجَدَل في كلام العرب المبالغة في الخصومة ؛ مشتق من الجَدْل وهو شدّة الفَتْل ؛ ويقال للصقر أيضاً أَجْدَل لشدّته في الطّير ؛ وقد مضى هذا المعنى في "الأنعام" بأشبع من هذا .

وقرأ ابن عباس "فَأَكْثَرْتَ جَدَلَنَا" ذكره النحاس .

والجَدَل في الدين محمود ؛ ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق ، فمن قَبِله أنجح وأفلح ، ومن ردّه خاب وخَسِر .

وأما الجِدال لغير الحقّ حتى يظهر الباطل في صورة الحقّ فمذموم ، وصاحبه في الدّارين ملوم .

﴿ فَأْتِنا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ أي من العذاب .

﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في قولك .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِن شَآءَ ﴾ أي إن أراد إهلاككم عذّبكم .

﴿ وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي بفائتين .

وقيل : بغالبين بكثرتكم ، لأنهم أعجبوا بذلك ؛ كانوا مَلؤوا الأرض سهلاً وجبلاً على ما يأتي .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَنفَعُكُمْ نصحي ﴾ إي إبلاغي واجتهادي في إيمانكم .

﴿ إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصحَ لَكُمْ ﴾ أي لأنكم لا تقبلون نصحاً ؛ وقد تقدّم في "براءة" معنى النصح لغة .

﴿ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ أي يضلّكم .

وهذا مما يدلّ على بطلان مذهب المعتزلة والقَدَرية ومن وافقهما ؛ إذ زعموا أن الله تعالى لا يريد أن يَعصي العاصي ، ولا يَكفر الكافر ، ولا يَغوي الغاوي ؛ وأنه يفعل ذلك ، والله لا يريد ذلك ؛ فردّ الله عليهم بقوله : ﴿ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ .

وقد مضى هذا المعنى في "الفاتحة" وغيرها .

وقد أكذبوا شيخهم اللعين إبليس على ما بيّناه في "الأعراف" في إغواء الله تعالى إيّاه حيث قال : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ [الأعراف : 16] ولا محيص لهم عن قول نوح عليه السلام : ﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ فأضاف إغواءهم إلى الله سبحانه وتعالى ؛ إذ هو الهادي والمضل ؛ سبحانه عما يقول الجاحدون والظالمون عُلوًّا كبيراً .

وقيل : ﴿ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ يهلككم ؛ لأن الإضلال يُفضي إلى الهلاك .

الطَّبريّ : ﴿ يُغْوِيَكُمْ ﴾ يهلككم بعذابه ؛ حكي عن طيء : أصبح فلان غاوياً أي مريضاً ، وأغويته أهلكته ؛ ومنه ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ فإليه الإغواء ، وإليه الهداية .

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ تهديد ووعيد .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ يعنون النبي صلى الله عليه وسلم .

افترى افتعل ؛ أي اختلق القرآن من قِبل نفسه ، وما أخبر به عن نوح وقومه ؛ قاله مقاتل .

وقال ابن عباس : هو من محاورة نوح لقومه وهو أظهر ؛ لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه ؛ فالخطاب منهم ولهم .

﴿ قُلْ إِنِ افتريته ﴾ أي اختلقته وافتعلته ، يعني الوحي والرسالة .

﴿ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ﴾ أي عقاب إجرامي ، وإن كنت مُحقاً فيما أقوله فعليكم عقاب تكذيبي .

والإجرام مصدر أجرم؛ وهو اقتراف السَّيِّئة.

وقيل (المعنى): أي جزاء جُرْمي وكَسْبي.

وجَرَم وأَجْرَم بمعنى؛ عن النحاس وغيره.

قال:

طَريدُ عَشيرةٍ ورَهينُ جُرْمٍ . . .

بما جَرَمَتْ يَدِي وجَنَى لِسَانِي

ومن قرأ "أَجْرَامِي" بفتح الهمزة ذهب إلى أنه جمع جُرْم؛ وذكره النحاس أيضاً.

﴿ وَأَنَاْ بريء مِّمَّا تُجْرَمُونَ ﴾ أي من الكفر والتكذيب. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(17/377)

وقال الخازن:

﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا ﴾

يعني خاصمتنا ﴿ فأكثرت جدالنا ﴾ يعني خصومتنا ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ يعني من العذاب ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ يعني في دعواك أنك رسول الله إلينا ﴿ قال إنما

يأتيكم به الله إن شاء ﴾ يعني قال نوح لقومه حين استعجلوه بإنزال العذاب إن ذلك ليس إليّ إنما هو إلى الله ينزله متى شاء وعلى من يشاء إن أراد إنزال العذاب بكم ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ يعني وما أنتم بفائتين إن أراد الله نزول العذاب بكم ﴿ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم ﴾ يعني ولا ينفعكم إنذاري وتحذيري إياكم عقوبته ونزول العذاب ﴿ إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ يعني يضلكم وقيل يهلككم وهذا معنى وليس بتفسير لأن الإغواء يؤدي إلى الهلاك ﴿ هو ربكم ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى هو يملككم فلا تقدرون على الخروج من سلطانه ﴿ وإليه ترجعون ﴾ يعني في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ أي اختلقه وجاء به من عند نفسه والضمير يعود إلى الوحي الذي جاءهم به ﴿ قل إن افتريته ﴾ أي اختلقته ﴿ فعلي إجرامي ﴾ أي إثم إجرامي والإجرام اقتراف السيئة واكتسابها يقال جرم وأجرم بمعنى أنه اكتسب الذنب وافتعله ﴿ وأنا بريء مما تجرمون ﴾ يعني من الكفر والتكذيب وأكثر المفسرين على أن هذا من محاورة نوح قومه فهي من قصة نوح عليه السلام وقال مقاتل ﴿ أم يقولون ﴾ يعني المشركين من كفار مكة افتراه يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) اختلق القرآن من عند نفسه فعلى هذا القول تكون هذه الآية معترضة في قصة نوح ثم رجع إلى القصة فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قد جادلتنا ﴾

الظاهر المبالغة في الخصومة والمناظرة.

وقال الكلبي : دعوتنا .

وقيل : وعظتنا ، وقيل : أتيت بأنواع الجدال وفنونه فما صح دعواك .

وقرأ ابن عباس : فأكثرت جدلنا كقوله : ﴿ وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلاً ﴾ فأتنا بما تعدنا من العذاب المعجل وما بمعنى الذي ، والعائد محذوف أي بما تعدناه ، أو مصدرية ، وإنما كثرت مجادلته لهم لأنه أقام فيهم ما أخبر الله به ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وهو كل وقت يدعوهم إلى الله وهم يجيبونه بعبادتهم أصنامهم .

قال : إنما يأتيكم به الله ، أي ليس ذلك إليّ إنما هو للإله الذي يعاقبكم على عصيانكم إن شاء أي : إن اقتضت حكمته أن يعجل عذابكم وأنتم في قبضته لا يمكن أن تفلتوا منه ، ولا أن تمتنعوا .

ولما قالوا : قد جادلتنا ، وطلبوا تعجيل العذاب ، وكان مجادلته لهم إنما هو على سبيل

النصح والإنقاذ من عذاب الله قال : ولا ينفعكم نصحي .

وقرأ عيسى بن عمر الثقفي : نصحي بفتح النون ، وهو مصدر .

وقراءة الجماعة بضمها ، فاحتمل أن يكون مصدراً كالشكر ، واحتمل أن يكون اسماً .

وهذان الشرطان اعتقب الأول منهما قوله : ولا ينفعكم نصحي ، وهو دليل على جواب الشرط تقديره : إنْ أردت أن أنصح لكم فلا ينفعكم نصحي ، والشرط الثاني : اعتقب الشرط الأول وجوابه أيضاً ما دل عليه قوله : ولا ينفعكم نصحي ، تقديره : إن كان الله يريد أن يغويكم فلا ينفعكم نصحي .

وصار الشرط الثاني شرطاً في الأول ، وصار المتقدم متأخراً والمتأخر متقدّماً ، وكأن التركيب إن أردت أن أنصح لكم أن كان الله يريد أن يغويكم ، فلا ينفعكم نصحي ، وهو من حيث المعنى كالشرط إذا كان بالفاء نحو : إنْ كان الله يريد أن يغويكم .

فإن أردت أن أنصح لكم فلا ينفعكم نصحي .

ونظيره : ﴿ وامرأة مؤمنة إنْ وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها ﴾ وقال الزمخشري : قوله إن كان الله يريد أن يغويكم جزاؤه ما دل عليه قوله : لا ينفعكم نصحي ،

وهذا الدليل في حكم ما دل عليه ، فوصل بشرط كما وصل الجزاء بالشرط في قوله : إن أحسنت إليّ أحسنت إليك إن أمكنني .

وقال ابن عطية : وليس نصحي لكم بنافع ، ولا إرادتي الخير لكم مغنية إذا كان الله تعالى قد أراد بكم الإغواء والإضلال والإهلاك .

والشرط الثاني اعتراض بين الكلام ، وفيه بلاغة من اقتران الإرادتين ، وأنّ إرادة البشر غير مغنية ، وتعلق هذا الشرط هو بنصحي ، وتعلق الآخر هو بلا ينفع انتهى .

وكذا قال أبو الفرج بن الجوزي قال : جواب الأول النصح ، وجواب الثاني النفع .

والظاهر أنّ معنى يغويكم يضلكم من قوله : غوى الرجل يغوي وهو الضلال .

وفيه إسناد الإغواء إلى الله ، فهو حجة على المعتزلة إذ يقولون : إن الضلال هو من العبد .

وقال الزمخشري : إذا عرف الله من الكافر الإصرار فخلاه وشأنه ولم يلجئه سمى ذلك إغواء وإملاء ، كما إنه إذا عرف منه أن يتوب ويرعوي فلطف به سمى إرشاداً وهداية انتهى .

وهو على طريقة الاعتزال ، ونصوا على أنه لا يوصف الله بأنه عارف ، فلا ينبغي أن يقال : إذا عرف الله كما قال الزمخشري ، وللمعتزلي أن يقول : لا يتعين أن تكون إن شرطية ، بل هي نافية والمعنى : ما كان الله يريد أن يغويكم ، ففي ذلك دليل على نفي الإضلال عن الله تعالى ، ويكون قوله : ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح ، إخبار منه لهم وتعزية لنفسه

عنهم ، لما رأى من إصرارهم وتماديهم على الكفر .

وقيل : معنى يغويكم يهلككم ، والغوي المرض والهلاك .

وفي لغة طيء : أصبح فلان غاوياً أي مريضاً ، والغوي بضم الفصيل وقاله : يعقوب في الإصلاح.

وقيل : فقده اللبن حتى يموت جوعاً قاله : الفراء ، وحكاه الطبري يقال منه : غوى يغوي .

(20/377)

وحكى الزهراوي أنه الذي قطع عنه اللبن حتى كاد يهلك ، أو لما يهلك بعد .

قال ابن الأنباري : وكون معنى يغويكم يهلككم قول مرغوب عنه ، وأنكر مكي أن يكون الغوي بمعنى الهلاك موجوداً في لسان العرب ، وهو محجوج بنقل الفراء وغيره .

وإذا كان معنى يغويكم يهلككم ، فلا حجة فيه لا لمعتزلي ولا لسني ، بل الحجة من غير هذا ، ومعناه : أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر فالمنزلة التي لا تنفعكم نصائح الله ومواعظه وسائر ألطافه ، كيف ينفعكم نصحي ؟ وفي قوله : هو ربكم ، تنبيه على المعرفة بالخالق ، وأنه الناظر في مصالحكم ، إن شاء أن يغويكم ، وإن شاء أن يهديكم .

وفي قوله : وإليه ترجعون ، وعيد وتخويف .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (35) ﴾

قيل : هذه الآية اعترضت في قصة نوح ، والإخبار فيها عن قريش .

يقولون ذلك لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) أي : افترى القرآن ، وافترى هذا الحديث عن نوح وقومه ، ولو صح ذلك بسند صحيح لوقف عنده ، ولكن الظاهر أن الضمير في يقولون عائد على قوم نوح ، أي : بل أيقولون افترى ما أخبرهم به من دين الله وعقاب من أعرض عنه ، فقال عليه السلام قل : إن افتريته فعليّ إثم إجرامي ، والإجرام مصدر أجرم ، ويقال : أجر وهو الكثير ، وجرم بمعنى .

ومنه قول الشاعر :

طريد عشيرة ورهين ذنب . . .

بما جرمت يدي وجنى لساني

وقرىء أجرامي بفتح الهمزة جمع جرم ، ذكره النحاس ، وفسر بآثامي .

ومعنى مما تجرمون من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ ، وقيل : مما تجرمون من الكفر والتكذيب . انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قَالُوا يا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا ﴾

خاصمتنا ﴿ فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ أي أطلْته أو أتيتَه بأنواعه فإن إكثارَ الجدالِ يتحقق بعد وقوعِ أصلِه فلذلك عُطف عليه بالفاء أو أردتَ ذلك فأكثرتَه كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرءان فاستعذ بالله ﴾ ولما حجّهم عليه الصلاة والسلام وأبرز لهم بيناتٍ واضحةَ المدلولِ وحُججاً تتلقاها العقولُ بالقَبول وألقمهم الحجرَ برد شُبههم الباطلةِ ضاقت عليهم الحيلُ وعيّت بهم العللُ وقالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب المعجّلِ أو العذابِ الذي أشير إليه في قوله : ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ على تقدير أن لا يكون المرادُ باليوم يومَ القيامة ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ فيما تقول ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ الله إِن شَاء ﴾ يعني أن ذلك ليس موكولاً إليّ ولا هو مما يدخل تحت قدرتي وإنما يتولاه الله الذي كفرتم به وعصيتموه يأتيكم به عاجلاً أو آجلاً إنْ تعلّق به مشيئتُه التابعةُ للحكمة ، وفيه ما لا يخفى من تهويل الموعودِ فكأنه قيل : الإتيانُ به أمرٌ خارجٌ عن دائرة القُوى البشرية وإنما يفعله الله عز وجل .

(22/377)

﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ بالهرب أو بالمدافعة كما تدافعونني في الكلام ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي ﴾ النُصحُ كلمةٌ جامعةٌ لكل ما يدور عليه الخيرُ من قول أو فعل ، وحقيقتُه إمحاضُ إرادةِ الخيرِ والدلالةِ عليه ، ونقيضُه الغشُّ وقيل : هو إعلامُ موقع الغَيِّ ليُتّقى وموضعِ الرشد ليقتفى ﴿ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ﴾ شرطٌ حذف جوابُه لدلالة ما سبق عليه ، والتقديرُ إن أردتُ أن أنصحَ لكم لا ينفعُكم نُصحي وهذه الجملةُ دليلٌ على ما حذف من جواب قولِه تعالى : ﴿ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ والتقديرُ إن كان يريد أن يُغوِيَكم فإن أردتُ أن أنصحَ لكم لا ينفعكم نصحي ، هذا على ما ذهب إليه البصريون من عدم تقديم الجزاءِ على الشرطِ ، وأما على ما ذهب إليه الكوفيون من جوازه فقوله عز وعلا : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي ﴾ جزاءٌ للشرط الأولِ ، والجملةُ جزاءٌ للشرط الثاني وعلى التقديرين فالجزاءُ متعلّقٌ بالشرط الأولِ وتعلّقه به معلّقٌ بالشرط الثاني ، وهذا الكلامُ متعلّقٌ بقولهم : ﴿ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ صدر عنه عليه الصلاة والسلام إظهاراً للعجز عن إلزامهم بالحجج والبيناتِ لتماديهم في العناد ، وإيذاناً بأن ما سبق منه ليس بطريق الجدالِ والخصامِ بل بطريق النصيحةِ لهم والشفقةِ عليهم وبأنه لم يألُ جهداً في إرشادهم إلى الحق وهدايتِهم إلى سبيله المستبينِ وإمحاضِ النصحِ لهم ولكن لا ينفعهم ذلك عند إرادة الله تعالى لإغوائهم ، وتقييدُ عدمِ نفع النصحِ بإرادته مع أنه محققٌ لا محالة للإيذان بأن ذلك النصحَ منه مقارِنٌ للإرادة والاهتمامِ به ولتحقيق المقابلةِ بين ذلك وبين ما وقع بإزائه من إرادته تعالى لإغوائهم ،

وإنما اقتُصر في ذلك على مجرد إرادةِ الإغواءِ دون نفسِه حيث لم يقل : إن كان الله يغويكم مبالغةً في بيان غلبةِ جنابه عز وعلا حيث دل ذلك على أن نُصحَه المقارِنَ

(23/377)

للاهتمام به لا يُجديهم عند مجردِ إرادةِ الله سبحانه لإغوائهم ، فكيف عند تحقيقِ ذلك وخلقِه فيهم .

وزيادةُ كان للإشعار بتقدم إرادتِه تعالى زماناً كتقدّمها رتبةً وللدلالة على تجدّدها واستمرارِها ، وإنما قُدّم على هذا الكلامِ ما يتعلق بقولهم : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِن شَاء ﴾ رداً عليهم من أول الأمرِ وتسجيلاً عليهم بحلول العذابِ مع ما فيه من اتصال الجوابِ بالسؤال ، وفيه دليلٌ على أن إرادَته تعالى يصِحّ تعلقُها بالإغواء وأن خلافَ مرادِه غيرُ واقع ، وقيل : معنى أن يغويَكم يُهلككم ، من غوَى الفصيلُ غوًى إذا بشِم وهلك ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ خالقُكم ومالكُ أمركم ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكم على أعمالكم لا محالة .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما : يعني نوحاً عليه الصلاة والسلام ، ومعناه بل أيقول قومُ نوحٍ

إن نوحاً افترى ما جاء به مسنِداً إياه إلى الله عز وجل ﴿ قُلْ ﴾ يا نوح ﴿ إِنِ افتريته ﴾ بالفرض البحْت ﴿ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى ﴾ إثمي ووبالُ إجرامي وهو كسبُ الذنب وقرىء بلفظ الجمع ، وينصرُه أن فسّره الأولون بآثامي ﴿ وَأَنَاْ بَرِىء مّمَّا تُجْرَمُونَ ﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراءِ إليّ ، فلا وجهَ لإعراضكم عني ومعاداتِكم لي . وقال مقاتلٌ : يعني محمداً عليه الصلاة والسلام ومعناه بل أيقولُ مشركو مكةَ افترى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خبرَ نوحٍ فكأنه إنما جيء به في تضاعيف القصةِ عند سَوْق طرفٍ منها تحقيقاً لحقيتها وتأكيداً لوقوعها وتشويقاً للسامعين إلى استماعها ، لا سيما وقد قُصّ منها طائفةٌ متعلقةٌ بما جرى بينه عليه السلام وبين قومِه من المُحاجّة وبقِيَتْ طائفةٌ مستقّلةٌ متعلقةٌ بعذابهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(24/377)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُواْ يا نُوحُ قَدْ ﴾

أي خاصمتنا ونازعتنا ، وأصله من جدلت الحبل أي أحكمت فتله ومنه الجديل وجدلت البناء أحكمته ، ودرع مجدولة ، والأجدل الصقر المحكم البنية ، والمجدل القصر المحكم

البناء ، وسميت المنازعة جدالاً لأن المتجادلين كأنهما يفتل كل واحد منهما الآخر عن رأيه ، وقيل : الأصل في الجدال الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة ، وهي الأرض الصلبة ﴿ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ عطف على ما قبله على معنى شرعت في جدالنا فأطلته أو أتيت بنوع من أنواع الجدال فأعقبته بأنواع أخر فالفاء على ظاهرها ، ولا حاجة إلى تأويل ﴿ جَادَلْتَنَا ﴾ بأردت جدالنا كما قاله الجمهور في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرءان فاستعذ بالله ﴾ [النحل : 98] ونظير ذلك جادل فلان فأكثر ، وجعل بعضهم مجموع ذلك كناية عن التمادي والاستمرار .

وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما جدلنا ، وهو كما قال ابن جني اسم بمعنى الجدال ولما حجهم عليه السلام وأبرز لهم ما ألقمهم به الحجر ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل .

وقالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب المعجل ، وجوز أن يكون المراد به العذاب الذي أشير إليه في قوله : ﴿ إِنّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود : 26] بناءاً على أن لا يكون المراد باليوم يوم القيامة ، و﴿ مَا ﴾ موصولة والعائد محذوف أي بالذي تعدنا به ، وفي "البحر" تعدناه ، وجوز أن تكون مصدرية وفيه نوع تكلف ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في حكمك بلحوق العذاب إن لم نؤمن بك .

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ ﴾ أي إن ذلك ليس إلي ولا مما هو داخل تحت قدرتي وإنما هو لله عز وجل الذي كفرتم به وعصيتم أمره يأتيكم به عاجلاً أو آجلاً إن تعلقت به مشيئته التابعة للحكمة، وفيه كما قيل: ما لا يخفى من تهويل الموعود، فكأنه، قيل: الإتيان به أمر خارج عن دائرة القوى البشرية وإنما يفعله الله تعالى.

وفي الإتيان بالاسم الجليل الجامع تأكيد لذلك التهويل ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ بمصيريه سبحانه وتعالى عاجزاً بدفع العذاب أو الهرب منه، والباء زائدة للتأكيد، والجملة الاسمية للاستمرار، والمراد استمرار النفي وتأكيده لا نفي الاستمرار والتأكيد وله نظائر.

﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي ﴾ النصح تحري قول أو فعل فيه صلاح وهو كلمة جامعة، وقيل: هو إعلام مواقع الغي ليتقى.

(26/377)

ومواضع الرشد ليقتفى، وهو من قولهم: نصحت له الود أي أخلصته، وناصح العسل خالصه، أو من قولهم نصحت الجلد خطته، والناصح الخياط، والنصاح الخيط، وقرأ عيسى ابن عمر الثقفي ﴿ نَصْحِي ﴾ بفتح النون وهو مصدر، وعلى قراءة الجماعة

على ما قال أبو حيان يحتمل أن يكون مصدراً كالشكر ، وأن يكون اسماً ﴿ إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ﴾ شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق عليه وليس جواباً له لامتناع تقدم الجواب على الشرط على الأصح الذي ذهب إليه البصريون أي إن أردتم أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي ، والجملة كلها دليل جواب قوله سبحانه : ﴿ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ والتقدير إن كان الله يريد أن يغويكم فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي ، وجعلوا الآية من باب اعتراض الشرط على الشرط ، وفي شرح التسهيل لابن عقيل أنه إذا توالى شرطان مثلاً كقولك : إن جئتني إن وعدتك أحسنت إليك ، فالجواب للأول ، واستغنى به عن جواب الثاني ، وزعم ابن مالك أن الشرط للثاني مقيد للأول بمنزلة الحال ، فكأنه قيل في المثال : إني جئتني في حال وعدي لك أحسنت إليك ، والصحيح في المسألة أن الجواب للأول ، وجواب الثاني محذوف لدلالة الشرط الثاني وجوابه عليه ، فإذا قلت : إن دخلت الدار إن كلمت زيداً إن جاء إليك فأنت حر ، فأنت حر جواب إن دخلت وهو وجوابه دليل جواب إن كلمت وإن كلمت وجوابه دليل جواب إن جاء ، والدليل على الجواب جواب في المعنى ، والجواب متأخر ، فالشرط الثالث مقدم وكذا الثاني ، فكأنه قيل إن جاء فإن كلمت فإن دخلت فأنت حر فلا يعتق إلا إذا وقع هكذا مجيء .

ثم كلام ثم دخول ، وهو مذهب الشافعي عليه الرحمة ، وذكر الجصاص أن فيها خلافاً بين محمد .

وأبي يوسف رحمهما الله تعالى ، وليس مذهب الإمام الشافعي فقط ، وقال بعض الفقهاء :

إن الجواب للأخير .

والشرط الأخير وجوابه جواب الثاني .

(27/377)

والشرط الثاني وجوابه جواب الأول ، وعلى هذا لا يعتق حتى يوجد هكذا دخول .

ثم كلام .

ثم مجيء ، وقال بعضهم : إذا اجتمعت حصل العتق من غير ترتيب وهذا إذا كان التوالي

بلا عاطف فإن عطف بأو فالجواب لهما وإن كان بالفاء فالجواب للثاني وهو وجوابه

جواب الأول فتخرج الفاء عن العطف ، وادعى ابن هشام أن في كون الآية من ذلك الباب

نظراً قال : إذ لم يتوال شرطان وبعدهما جواب كما فيما سمعت من الأمثلة ، وكما في قول

الشاعر

إن تستغيثوا بنا إن تذعروا تجدوا . . .

منا معاقل عز زانها كرم

إذ لم يذكر فيها جواب وإنما تقدم على الشرطين ما هو جواب في المعنى للأول فينبغي أن

يقدر إلى جانبه ويكون الأصل إن أردت أن أنصح لكم فلا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد أن يغويكم ، وأما أن يقدر الجواب بعدهما ثم يقدر بعد ذلك مقدماً إلى جانب الشرط الأول فلا وجه له انتهى .

وقد ألف في المسألة رسالة كما قال الجلال السيوطي وأوردها في حاشيته على المغني حسنة ، ولا يخفى عليك أن المقدر في قوة المذكور ، والكثير في توالي شرطين بدون عاطف تأخره سماعاً فيقدر كذلك ويجري عليه حكمه .

والكلام على ما تقدم متضمن لشرطين مختلفين : أحدهما جواب للآخر وقد جعل المتأخر في الذكر متقدماً في المعنى على ما هو المعهود في المسألة ، وهو عند الزمخشري على ما قيل شرطية واحدة مقيدة حيث جعل لا ينفعكم دليل الجواب لأن كان ، وجعل إن أردت قيداً لذلك نظير إن أحسنت إلى أحسنت إليك إن أمكنني فتأمل ، والكلام متعلق بقولهم : ﴿ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ [هود : 32] صدر عنه عليه السلام إظهاراً للعجز عن ردهم عما هم عليه من الضلال بالحجج والبينات لفرط تماديهم في العناد وإيذاناً بأن ما سبق منه إنما كان بطريق النصيحة لهم والشفقة عليهم وأنه لم يأل جهداً في إرشادهم إلى

الحق وهدايتهم إلى سبيله المستبين ولكن لا ينفعهم ذلك عند إرادته سبحانه لإغوائهم ، وتقييد عدم نفع النصح بإرادته مع أنه محقق لا محالة للإيذان بأن ذلك النصح مقارن للإرادة والاهتمام به ، ولتحقيق المقابلة بين ذلك .

(29/377)

وبين ما وقع بإزائه من إرادته تعالى لإغوائهم ، وإنما تقصر في ذلك على مجرد إرادة الإغواء دون نفسه حيث لم يقل إن كان الله يغويكم مبالغة في بيان غلبة جنابه جل جلاله حيث دل ذلك على أن نصحه المقارن للاهتمام به لا يجديهم نفعاً عند مجرد إرادة الله تعالى إغواءهم فكيف عند تحققه وخلقه فيهم ، وزيادة ﴿ كَانَ ﴾ للإشعار بتقدم إرادته تعالى زماناً كتقدمه رتبة ، وللدلالة على تجددها واستمرارها ، وقدم على هذا الكلام ما يتعلق بقولهم : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ [هود : 32] من قوله : ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِن شَاء ﴾ [هود : 33] رداً عليهم من أول الأمر وتسجيلاً عليهم بحلول العذاب مع ما فيه من اتصال الجواب بالسؤال قال ذلك مولانا شيخ الإسلام ثم إن ﴿ إِنْ أَرَدْتُّ ﴾ أن أبقى على الاستقبال لا ينافي كونه نصحهم في الزمن الماضي ، وقيل : إنه مجاراة لهم لاستظهار الحجة لأنهم زعموا أن ما فعله ليس بنصح إذ لو كان نصحاً قبل منه ، واللام في ﴿ لَكُمْ ﴾ ليست

للتقوية كما قد يتوهم لتعدي الفعل بنفسه كما في قوله

: نصحت بني عوف فلم يتقبلوا . . .

رسولي ولم تنجح لديهم رسائلي

لما في "الصحاح" أنه باللام أفصح ، وفي الآية دليل على أن إرادة الله تعالى مما يصح تعلقها بالإغواء وأن خلاف مراده سبحانه محال ، وإلا لم تصدق الشرطية الدالة على لزوم الجواب للشرط ، والمعتزلة وقعوا في حيص بيص منها واختلفوا في تأويلها ، فقيل : إن ﴿ يُغْوِيَكُمْ ﴾ بمعنى يهلككم من غوى الفصيل إذا بشم من كثرة شرب اللبن فهلك ، وقد روى مجيء الغوى بمعنى الهلاك الفراء .

وغيره ، وأنكره مكي .

وقيل : إن الإغواء مجاز عن عقوبته أي إن كان الله يريد عقوبة إغوائكم الخلق وإضلالكم إياهم .

وقيل : إن قوم نوح كانوا يعتقدون أن الله تعالى أراد إغوائهم فأخرج عليه السلام ذلك مخرج التعجب والإنكار أي إن نصحي لا ينفعكم إن كان الأمر كما تزعمون ، وقيل : سمي ترك

إلجائهم وتخليتهم وشأنهم إغواء مجازاً ، وقيل : إن نافية أي ما كان الله يريد أن يغويكم ، ونفى ذلك دليل على نفي الإغواء ، ويكون ﴿ لَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي ﴾ الخ إخباراً منه عليه السلام لهم وتعزية لنفسه عنهم لما رأى من إصرارهم وتماديهم على الكفر ، ولا يخفى ما في ذلك من مخالفة الظاهر المعروف في الاستعمال وارتكاب ما لا ينبغي ارتكاب مثله في كلام الملك المتعال .

ومن الناس من اعترض الاستدلال بأن الشرطية لا تدل على وقوع الشرط ولا جوازه فلا يتم ولا يحتاج إلى التأويل ولا إلى القال والقيل ، ودفع بأن المقام ينبو عنه لعدم الفائدة في مجرد فرض ذلك فإن أرادوا إرجاعه إلى قياس استثنائي فإما أن يستثني عين المقدم فهو المطلوب أو نقيض التالي فخلاف الواقع لعدم حصول النفع .

وبالجملة الآية ظاهرة جداً فيما ذهب إليه أهل السنة ، والله سبحانه الموفق ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ أي خالقكم ومالك أمركم ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكم على أفعالكم لا محالة .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : يعني نوحاً عليه السلام أي بل أيقول قوم نوح أن نوحاً افترى ما جاء به مسنداً إلى الله تعالى عز وجل ﴿ اثنين قُلْ ﴾ يا نوح ﴿ إن افتريته ﴾ بالفرض البحت .

﴿ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ﴾ أي وباله فهو على تقدير مضاف ، أو على التجوز بالسبب عن المسبب ، وفسر الإجرام بكسب الذنب وهو مصدر أجرم ، وجاء على قلة جرم ، ومن

ذلك قوله

: طريد عشيرة ورهين ذنب . . .

بما (جرمت) يدي وجنى لساني

(31/377)

وقرىء ﴿ إِجْرَامِى ﴾ بفتح الهمزة على أنه كما قال النحاس : جمع جرم ، واستشكل العز بن عبد السلام الشرطية بأن الافتراء المفروض هنا ماض والشرط يخلص للاستقال بإجمال أئمة العرب ، وأجاب أن المراد كما قال ابن السراج إن ثبت أني افتريته فعلي إجرامي على ما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ [المائدة : 116] ﴿ وَأَنَاْ بَرِىء مّمَّا تُجْرَمُونَ ﴾ أي من إجرامكم في إسناد الافتراء إلي ، قيل : والأصل إن افتريته فعلى عقوبة افترائي ولكنه فرض محال وأنا بريء من افترائكم أي نسبتكم إياي إلى الافتراء ، وعدل عنه إدماجاً لكونهم مجرمين ، وأن المسألة معكوسة ، وحملت ﴿ مَا ﴾ على المصدرية لما في الموصولية من تكلف حذف العائد مع أن ذلك هو المناسب لقوله : ﴿ إِجْرَامِى ﴾ فيما قبل ، وما يقتضيه كلام ابن عباس من أن الآية من تتمة قصة نوح عليه السلام وفي شأنه هو الظاهر ، وعليه الجمهور ، وعن مقاتل أنها في شأن النبي صلى الله عليه

وسلم مع مشركي مكة أي بل أيقول مشركو مكة افترى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر نوح ، قيل : وكأنه إنما جيء به في تضاعيف القصة عند سوق طرف منها تحقيقاً لحقيقتها وتأكيداً لوقوعها وتشويقاً للسامعين إلى استماعها لا سيما وقد قص منها طائفة متعلقة بما جرى بينه عليه السلام وبين قومه من المحاجة ، وبقيت طائفة مستقلة متعلقة بعذابهم ، ولا يخفى أن القول بذلك بعيد وإن وجه بما وجه ، وقال في "الكشف" : إن كونها في شأن النبي صلى الله عليه وسلم أظهر وأنسب من كونها من تتمة قصة نوح عليه السلام لأن ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ كالتكرير لقوله سبحانه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ دلالة على كمال العناد وأن مثله بعد الإتيان بالقصة على هذا الأسلوب المعجز مما لا ينبغي أن ينسب إلى افتراء فجاء زيادة إنكار على إنكار كأنه قيل : بل أمع هذا البيان أيضاً يقولون ﴿ افتراه ﴾ وهو نظير اعتراض قوله سبحانه

في سورة العنكبوت : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ بين قصة إبراهيم عليه السلام في أحد الوجهين انتهى ، ولا أراه معولاً عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

قِصَّةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

تَقَدَّمَ ذِكْرُ خُلَاصَةٍ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي سُورَةِ يُونُسَ مُخْتَصَرَةً مَبْدُوءَةً بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ) (10 : 71) إِلَخْ ، وَبَيَّنْتُ فِي تَفْسِيرِهَا نُكْتَةَ هَذَا الْعَطْفِ فِيهَا ، وَوَجْهَ اتِّصَالِ الْكَلَامِ بِمَا قَبْلَهُ فَكَانَ مُتَمِّمًا وَشَاهِدًا لَهُ ، وَتَقَدَّمَتْ قَبْلَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ مُخْتَصَرَةً أَيْضًا مَبْدُوءَةً بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ) (7 : 59) وَأَشَرْتُ فِي تَفْسِيرِهِ إِلَى وَجْهِ التَّنَاسُبِ وَاتِّصَالِ الْكَلَامِ بِمَا جَاءَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ مِنْ ذِكْرِ بَعْثَةِ الرُّسُلِ عَامَّةً . وَقَدْ جَاءَتْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مُفَصَّلَةً مُنَاسِبَةً لِمَا قَبْلَهَا بِمَا نُبَيِّنُهُ فِيمَا يَلِي فَنَقُولُ :

(33/377)

- (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ) قَالَ الْمُعْرِبُونَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ الْوَاوَ هُنَا لِلِابْتِدَاءِ ، أَيْ لِأَنَّ مَعْنَى الْجُمْلَةِ لَا يَشْتَرِكُ مَعَ مَا قَبْلَهُ بِمَا يَصِحُّ جَعْلُهَا مَعْطُوفَةً عَلَيْهِ . وَأَقُولُ : إِنَّ هَذَا سِيَاقٌ جَدِيدٌ فِي السُّورَةِ ، أَكَّدَ بِهِ مَا قَبْلَهُ مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى أُصُولِ الدِّينِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ وَالنُّبُوَّةِ

، فَهُوَ يَشْتَرِكُ مَعَهُ فِي جُمْلَتِهِ لَا مَعَ آخِرِ آيَةٍ مِنْهُ ، وَعِنْدِي أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَا فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ ذِكْرِ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِمِثْلِ مَا بُعِثَ بِهِ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ ، وَبَعْثِهِ نَذِيرًا وَبَشِيرًا ، وَالْإِيمَانِ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ; لِيَعْلَمَ قَوْمُهُ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَيْسَ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ، وَأَنَّ حَالَهُ مَعَهُمْ كَحَالِ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - مَعَ أَقْوَامِهِمْ إِجْمَالًا وَتَفْصِيلًا ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ : (سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا) (17 : 77) فَكَأَنَّهُ قَالَ : لَقَدْ أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ إِلَى قَوْمِكَ وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةً بِمَا تَقَدَّمَ بَيَانُ أُصُولِهِ ، وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ بِمِثْلِ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَخْ .

(34/377)

وَافْتُتِحَتِ الْقِصَّةُ بِصِيغَةِ الْقَسَمِ ; لِإِنْكَارِ الْمُخَاطَبِينَ بِهَا لِبِعْثَةِ الرُّسُلِ ، وَقَدَّمْنَا بَيَانَ مَا كَانَ لِلْقَسَمِ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنَ التَّأْثِيرِ فِي تَأْكِيدِ الْكَلَامِ ، وَنَاهِيكَ بِهِ فِي كَلَامِ اللهِ الْمُنَزَّلِ عَلَى مَنْ عُرِفَ عِنْدَهُمْ بِالصِّدْقِ مِنْ أَوَّلِ نَشْأَتِهِ وَهُوَ مُحَمَّدٌ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ - أَيْ أَرْسَلْنَاهُ بِبَيَانِ وَظِيفَتِهِ مِنَ الْإِنْذَارِ لَهُمْ ، أَوْ قَائِلًا لَهُمْ : إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ بَيِّنُ الْإِنْذَارِ

ظَاهِرُهُ ، وَهُوَ الْإِعْلَامُ بِالشَّيْءِ مَعَ بَيَانِ عَاقِبَةِ مَنْ خَالَفَهُ فَلَمْ يُذْعِنْ لِمَا فِيهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، ثُمَّ فَسَّرَ هَذَا الْإِرْسَالَ وَالْإِنْذَارَ بِقَوْلِهِ :

(35/377)

(أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ) بِأَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ ، بَلِ اعْبُدُوهُ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا (وَهَذَا عَيْنُ مَا تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ) وَكَانُوا أَوَّلَ قَوْمٍ أَشْرَكُوا بِاللهِ وَاتَّخَذُوا لَهُ الْأَنْدَادَ ، وَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ - تَعَالَى - إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قِصَّتِهِ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ) أَيْ شَدِيدِ الْأَلَمِ ; وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَوْ يَوْمُ عَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ بِالطُّوفَانِ ، وُصِفَ بِالْأَلَمِ لِلْمُبَالَغَةِ ، وَإِنَّمَا يَشْعُرُ بِالْأَلَمِ مَنْ يُعَذَّبُ فِيهِ مِنَ الْكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ ، وَفِي قِصَّتِهِ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ : (عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (7 : 59) أَيْ أَلَمُهُ وَهَوْلُهُ ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ : (عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) وَالْمُرَادُ وَاحِدٌ .

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَا قَالَهُ نُوحٌ جَامِعًا لِمَعْنَى الْأَلَمِ وَمَعْنَى الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِ ; إِذِ الْقُرْآنُ يُبَيِّنُ الْمَعَانِيَ الْمَحْكِيَّةَ بِالْأَلْفَاظِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي السُّوَرِ الْمُتَعَدِّدَةِ كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَيَأْتِي فِي بَعْضِهَا بِمَا يُغْنِي عَنْ بَعْضٍ ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ نُوحٍ فِي سُورَةِ (الْمُؤْمِنُونَ) بَعْدَ الْأَمْرِ بِعِبَادَةِ التَّوْحِيدِ

وَتَقْرِيرِه : (أَفَلَا تَتَّقُونَ) (23 : 23) وَمِثْلُهُ فِيهَا عَنِ الرَّسُولِ الَّذِي بَعْدَهُ . وَكَانَ كُلُّ رَسُولٍ يَأْمُرُ قَوْمَهُ بِالتَّقْوَى ، كَمَا كَرَّرَ حِكَايَتَهُ عَنْهُمْ فِي الشُّعَرَاءِ ، إِذِ التَّقْوَى مِلَاكُ الْأَمْرِ كُلِّهِ .

(36/377)

(فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ) أَيْ فَبَادَرَ الْمَلَأُ ، أَيِ الْأَشْرَافُ وَالزُّعَمَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِلَى الْجَوَابِ لِيَكُونَ الدَّهْمَاءُ تَبَعًا لَهُمْ كَعَادَتِهِمْ ،

وَاقْتَرَنَ جَوَابُهُمْ هُنَا بِـ (الْفَاءِ) ; لِأَنَّهُ هُوَ الْأَصْلُ فِي الرَّدِّ السَّرِيعِ ، وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ (الْمُؤْمِنُونَ) وَتَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ مَفْصُولًا وَهُوَ : (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (7 : 60) لِأَنَّهُ هُوَ الْأَصْلُ فِي بَابِ الْمُرَاجَعَةِ يُقَالُ : . . قَالَ . . . . . وَيُسَمَّى الِاسْتِئْنَافُ الْبَيَانِيُّ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا فِي الْمَوْضِعَيْنِ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّ الْمَوْصُولَ بِالْفَاءِ أُرِيدَ بِهِ الْمُبَادَرَةُ إِلَى الرَّدِّ عَلَى نُوحٍ بِمَا يُبْطِلُ دَعْوَتَهُ بِزَعْمِهِمْ ، وَالْمَفْصُولُ لَيْسَ إِلَّا طَعْنًا وَتَخْطِئَةً ، وَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ مَا رَمَوْهُ بِهِ لَا يُعْلَمُ مَتَى وَقَعَ مِنْهُمْ ، وَلَيْسَ جَوَابًا مُتَّصِلًا بِالدَّعْوَةِ ، فَيَا لَلَّهِ الْعَجَبُ مِنْ هَذِهِ الدِّقَّةِ فِي بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ !

(مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا) فِي الْجِنْسِ ، لَا مَزِيَّةَ لَكَ عَلَيْنَا تَكُونُ بِهَا نَذِيرًا لَنَا نُطِيعُكَ وَنَتَّبِعُكَ مُذْعِنِينَ لِنُبُوَّتِكَ وَرِسَالَتِكَ (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا) أَيْ أَرْدِيَاؤُنَا وَأَخِسَّاؤُنَا

يُقَالُ : رَذُلَ الشَّيْءُ أَوِ الْمَرْءُ بِضَمِّ الذَّالِ (كَضَخُمَ) فَهُوَ رَذْلٌ بِسُكُونِهَا (كَضَخْمٍ) وَجَمْعُهُ أَرْذُلٌ بِضَمِّ الذَّالِ ، وَجَمْعُ

(37/377)

الْجَمْعِ أَرَاذِلُ أَوْ هُوَ جَمْعُ (أَرْذَلَ) بِصِيغَةِ التَّفْضِيلِ ، وَيُؤَيِّدُهُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ : (وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ) (25 : 111) وَيَعْنُونَ بِهِمْ مَنْ دُونَ طَبَقَةِ الْأَشْرَافِ وَالْأَكَابِرِ كَالزُّرَّاعِ وَالصُّنَّاعِ وَالْعُمَّالِ ، وَهُمُ الَّذِينَ يَقْبَلُونَ الْحَقَّ إِذَا فَهِمُوهُ لِعَدَمِ اسْتِكْبَارِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ غَيْرِهِمْ (بَادِيَ الرَّأْيِ) أَيِ اتَّبَعُوكَ فِي بَادِي الرَّأْيِ أَيْ ظَاهِرِهِ الَّذِي يَبْدُو لِلنَّاظِرِ فِيهِ ، قَبْلَ الْعِلْمِ بِمَا وَرَاءَ قَوَادِمِهِ مِنْ خَوَافِيهِ ، وَالتَّأَمُّلِ فِي بَاطِنِهِ ، وَالْغَوْصِ فِي أَعْمَاقِهِ ، أَوْ فِي بَدْئِهِ وَمَا يَظْهَرُ مِنْهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ قَبْلَ تَكْرَارِ التَّفْكِيرِ فِيهِ ، وَالنَّظَرِ فِي عَوَاقِبِهِ وَتَوَالِيهِ ، فَالْيَاءُ عَلَى هَذَا مُنْقَلِبَةٌ عَنْ هَمْزَةٍ لِانْكِسَارِ مَا قَبْلَهَا . وَيُؤَيِّدُهُ قِرَاءَةُ أَبِي عَمْرٍ بِالْهَمْزَةِ (بَادِئَ) وَقِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ أَبْلَغُ لِاحْتِمَالِهَا الْجَمْعَ بَيْنَ الْمَعْنَيَيْنِ (وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ) أَيْ وَمَا نَرَى لَكَ وَلِمَنِ اتَّبَعَكَ عَلَيْنَا أَدْنَى فَضْلٍ تَمْتَازُونَ بِهِ فِي جَمَاعَتِكُمْ ، كَالْقُوَّةِ وَالْكَثْرَةِ وَالْعِلْمِ وَالرَّأْيِ يَحْمِلُنَا عَلَى اتِّبَاعِكُمْ وَالنُّزُولِ عَنْ جَاهِنَا وَامْتِيَازِنَا عَلَيْكُمْ بِالْجَاهِ وَالْمَالِ لِمُسَاوَاتِكُمْ (بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) أَيْ بَلِ الْأَمْرُ شَرٌّ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ أَنَّنَا نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ فِي جُمْلَتِكُمْ : الْمَتْبُوعُ فِي دَعْوَى

النُّبُوَّةِ ، وَالتَّابِعُونَ فِي تَصْدِيقِهِ ، فَهِيَ إِذًا ائْتِمَارٌ بِنَا تُحَاوِلُونَ بِهِ أَنْ تَقْلِبُوا الْحَقِيقَةَ فَتَجْعَلُوا الْفَاضِلَ

(38/377)

مَفْضُولًا ، وَالشَّرِيفَ مَشْرُوفًا

، وَقَدْ كَرَّمُوا أَنْفُسَهُمْ بِعَدَمِ الْجَزْمِ بِالتَّكْذِيبِ فَعَبَّرُوا عَنْهُ بِالظَّنِّ .

أَجَابُوهُ بِأَرْبَعِ حُجَجٍ دَاحِضَةٍ : (الْأُولَى) أَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ فَسَاوَوْهُ بِأَنْفُسِهِمْ فِي الْجُمْلَةِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ مِنْ طَبَقَتِهِمْ أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْهَا فِي بَيْتِهِ وَفِي شَخْصِهِ ، وَهَكَذَا كَانَ كُلُّ رَسُولٍ مِنْ وَسَطِ قَوْمِهِ ، وَوَجْهُ الْجَوَابِ : أَنَّ الْمُسَاوَاةَ تُنَافِي دَعْوَى تَفَوُّقِ أَحَدِ الْمُتَسَاوِيَيْنِ عَلَى الْآخَرِ بِجَعْلِ أَحَدِهِمَا تَابِعًا طَائِعًا ، وَالْآخَرِ مَتْبُوعًا مُطَاعًا ; لِأَنَّهُ تَرْجِيحٌ بِغَيْرِ مُرَجِّحٍ .

(وَالثَّانِيَةُ) أَنَّهُ لَمْ يَتَّبِعْهُ مِنْهُمْ إِلَّا أَرَاذِلُهُمْ فِي الطَّبَقَةِ وَالْمَكَانَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ (بَادِيَ الرَّأْيِ) لَا بِدَلِيلٍ مِنَ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ ، وَبِهَذَا تَنْتَفِي الْمُسَاوَاةُ فَيَنْزِلُ هُوَ عَنْ رُتْبَةِ الطَّبَقَةِ الْعُلْيَا إِلَى رُتْبَةِ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الطَّبَقَاتِ السُّفْلَى ، وَهَذَا مُرَجِّحٌ لِرَدِّ دَعْوَتِهِ وَالتَّوَلِّي عَنْهُ .

(الثَّالِثَةُ) عَدَمُ رُؤْيَةِ فَضْلٍ لَهُ مَعَ جَمَاعَتِهِ هَؤُلَاءِ عَلَيْهِمْ ، مِنْ قُوَّةِ عَصَبِيَّةٍ أَوْ كَثْرَةٍ غَالِبَةٍ ، أَوْ

غَيْرِ هَذَا مِنَ الْمَزَايَا الَّتِي تَرْفَعُ الْأَرَاذِلَ مِنْ مَقْعَدِهِمْ فِي السَّفْلَةِ ، فَيَهُونُ عَلَى الْأَشْرَافِ مُسَاوَاتُهُمْ فِي اتِّبَاعِهِ .

(39/377)

(الرَّابِعَةُ) أَنَّهُمْ بَعْدَ الْإِضْرَابِ أَوْ صَرْفِ النَّظَرِ عَمَّا ذَكَرُوا مِنَ التَّنَافِي وَالتَّعَارُضِ يُرَجِّحُونَ الْحُكْمَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ بِالْكَذِبِ فِي هَذَا الدَّعْوَى ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَجِّحُ الْأَقْوَى لِرَدِّ الدَّعْوَةِ ، وَقَدْ أَخَّرُوهُ فِي الذِّكْرِ لِأَنَّهُمْ لَوْ قَدَّمُوهُ لَمَا بَقِيَ لِذِكْرِ تِلْكَ الْعِلَلِ الْأُخْرَى وَجْهٌ وَهِيَ وَجِيهَةٌ فِي نَظَرِهِمْ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ بَيَانِهَا ، وَهَذِهِ الْأَخِيرَةُ طَعْنٌ لَهُمْ عَلَى نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَشْرَكُوهُ فِيهِ مَعَ أَتْبَاعِهِ وَلَمْ يُجَابِهُوهُ بِهِ وَحْدَهُ ، وَلَمْ يَجْزِمُوا بِهِ ، كَمَا أَنَّهُمْ لَمْ يَجْعَلُوهُ فِي طَبَقَتِهِمْ مِنَ الرَّذَالَةِ ، وَنَحْنُ نَرَى مَلَاحِدَةَ هَذَا الْعَصْرِ كَقَوْمِ نُوحٍ وَمَنْ بَعْدَهُ فِي حُجَجِهِمُ الدَّاحِضَةِ ، وَغُرُورِهِمْ وَعَمَى

قُلُوبِهِمْ ، لَا يَفْضُلُونَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا الْغُرُورَ بِفُنُونِ الْإِفْرِنْجِ وَقُوَّتِهِمْ ، وَجَعْلِهَا حُجَّةً عَلَى تَقْلِيدِ أَرَاذِلِهِمْ فِي شَرِّ رَذَائِلِهِمْ ، وَتَحْقِيرِ أَنْفُسِهِمْ وَأُمَّتِهِمْ وَلُغَتِهِمْ ، فَهُمْ شَرٌّ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ، إِذْ كَانَ تَقْلِيدُ قَوْمِ نُوحٍ لِآبَائِهِمْ تَعْظِيمًا لَهُمْ ، وَالْبَلَاءُ عِنْدَنَا مِنْ فَسَادِ أُمَرَائِنَا وَبَاشَاوَاتِنَا وَأَغْنِيَائِنَا ، فَهُمْ فِي مَجْمُوعِهِمْ أَوْ أَكْثَرِهِمْ كَمَلَأِ نُوحٍ شَرُّ طَبَقَاتِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَشَدُّهَا فَسَادًا وَإِفْسَادًا .

(40/377)

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ

تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ دَحْضَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ الْأَرْبَعِ الَّتِي رَدُّوا بِهَا عَلَيْهِ وَشُبُهَاتٍ أُخْرَى مِنْ لَوَازِمِهَا ، وَرُبَّمَا صَرَّحُوا بِهَا وَاسْتُغْنِيَ عَنْ حِكَايَتِهَا بِالْعِلْمِ بِهَا مِنَ الرَّدِّ عَلَيْهَا ، وَهُوَ مِنْ دَقَائِقِ إِيجَازِ الْقُرْآنِ الْمُعْجِزِ لِلْبَشَرِ فَتَأَمَّلْهُ .

(41/377)

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي) خَاطَبَهُمْ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِلَقَبِ الْقَوْمِ مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ (يَا قَوْمِي ، وَحَذْفُ الْيَاءِ مِنَ الرَّسْمِ مُرَاعَاةً لِلنُّطْقِ) اسْتِعْطَافًا وَإِيذَانًا بِأَنَّهُ

يَدْعُوهُمْ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ ، وَكَلِمَةُ (أَرَأَيْتُمْ) تُسْتَعْمَلُ عِنْدَ الْعَرَبِ بِمَعْنَى أَخْبِرُونِي عَنْ رَأْيِكُمْ فِيمَا يَأْتِي بَعْدَهَا كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ يُونُسَ (10 : 50 و59) وَغَيْرِهَا ، وَالْبَيِّنَةُ مَا يَتَبَيَّنُ بِهِ الْحَقُّ وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا آنِفًا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ 17 .

أَيْ أَخْبِرُونِي يَا قَوْمِي الْأَعِزَّاءَ مَا رَأْيُكُمْ وَقَوْلُكُمْ فِي حَالِي مَعَكُمْ ، إِنْ كُنْتُ عَلَى حُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ مِنْ رَبِّي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ تَبَيَّنَ لِي بِهَا أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِهِ لَا مِنْ عِنْدِي وَكَسْبِي الْبَشَرِيِّ

(42/377)

الَّذِي تُشَارِكُونَنِي فِيهِ ، وَإِنَّمَا هِيَ فَوْقَ ذَلِكَ (وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ) وَهِيَ النُّبُوَّةُ وَتَعَالِيمُ الْوَحْيِ الَّتِي هِيَ سَبَبُ رَحْمَةِ اللهِ الْخَاصَّةِ لِمَنْ يَهْتَدِي بِهَا فَوْقَ رَحْمَتِهِ الْعَامَّةِ لِعِبَادِهِ كُلِّهِمْ (فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ) قَرَأَ الْجُمْهُورُ (عَمِيَتْ) بِالتَّخْفِيفِ كَخَفِيَتْ وَزْنًا وَمَعْنًى ، وَمِثْلُهَا (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ) (28 : 66) وَقَرَأَهَا حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَحَفْصٌ بِالتَّشْدِيدِ وَالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ ، أَيْ فَحَجَبَهَا عَنْكُمْ جَهْلُكُمْ وَغُرُورُكُمْ وَجَاهُكُمْ فَلَمْ تَسْتَبِينُوا بِهَا مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ التَّفْرِقَةِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِذْ جَعَلْتُمُونِي بَشَرًا مِثْلَكُمْ ، وَالتَّعْبِيرُ (بِعُمِّيَتْ) مُخَفَّفَةً وَمُشَدَّدَةً أَبْلَغُ مِنَ التَّعْبِيرِ بِخَفِيَتْ وَأُخْفِيَتْ ; لِأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنَ الْعَمَى الْمُقْتَضِي لِأَشَدِّ أَنْوَاعِ الْخَفَاءِ ، وَيَجُوزُ عَوْدَةُ الضَّمِيرِ إِلَى الْبَيِّنَةِ لِاقْتِضَاءِ خَفَائِهَا خَفَاءَ الرَّحْمَةِ كَمَا هُوَ شَأْنُ الدَّلِيلِ مَعَ الْمَدْلُولِ ،

وَيَجُوزُ عَوْدُهُ إِلَى الرَّحْمَةِ بِاعْتِبَارِ ذِكْرِهَا بَعْدَ الْبَيِّنَةِ كَأَنَّهُ قَالَ : فَخَفِيَتْ عَلَيْكُمْ رَحْمَةُ اللهِ لَكُمْ بِهَذِهِ النُّبُوَّةِ لِخَفَاءِ الْبَيِّنَةِ الدَّالَّةِ عَلَيْهَا ، أَوْ لِأَنَّ الْبَيِّنَةَ خَاصَّةٌ بِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَهِيَ الْعِلْمُ الضَّرُورِيُّ الَّذِي يَعْلَمُ بِهِ النَّبِيُّ أَنَّهُ نَبِيٌّ (أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ) أَيْ أَنُلْزِمُكُمْ إِيَّاهَا بِالْجَبْرِ وَالْإِكْرَاهِ ، وَالْحَالُ أَنَّكُمْ كَارِهُونَ لَهَا إِنْكَارًا وَجُحُودًا وَاسْتِكْبَارًا ؟ أَيْ لَا نَفْعَلُ

(43/377)

ذَلِكَ ; فَإِنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَصِحُّ إِلَّا بِإِيمَانِ الْإِذْعَانِ : وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ، وَهُوَ أَوَّلُ نَصٍّ فِي دِينِ اللهِ - تَعَالَى - يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مَا كَانَ وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ بِالْإِكْرَاهِ ، وَأَمَّا مَا فَعَلَهُ نَصَارَى الْإِفْرِنْجِ فِي سَابِقِ تَارِيخِهِمْ - وَمَا لَا يَزَالُ يَفْعَلُهُ بَعْضُهُمْ فِي مُسْتَعْمَرَاتِهِمْ - مِنَ التَّنْصِيرِ بِإِجْبَارِ الْأَقْوَامِ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ ، فَهُوَ مِمَّا امْتَازُوا بِهِ عَلَى أُمَمِ الشَّرْقِ فِي ظُلْمِهِمْ وَتَعَصُّبِهِمْ . وَهَذِهِ الْآيَةُ إِثْبَاتٌ لِنُبُوَّتِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَرَدٌّ لِإِنْكَارِهِمْ لَهَا وَتَكْذِيبِهِ وَمَنْ مَعَهُ فِيهَا ، وَإِبْطَالٌ لِشُبْهَتِهِمُ الْأُولَى فِي أَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ . وَهِيَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَنَّ الْمُسَاوَاةَ فِي الْبَشَرِيَّةِ تَقْتَضِي اسْتِوَاءَ أَفْرَادِ الْجِنْسِ ، وَيَدْفَعُهَا مَا هُوَ مَعْلُومٌ بِالْحِسِّ وَالْخُبْرِ (بِالضَّمِّ أَيِ الِاخْتِبَارِ) مِنَ التَّفَاوُتِ الْعَظِيمِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْبَشَرِ فِي الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ وَالرَّأْيِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ بِمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنَ التَّفَاوُتِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَعْضِ الْحَيَوَانِ الْأَعْجَمِ ، حَتَّى إِنَّ وَاحِدًا مِنْهُمْ لَيَأْتِي مِنَ الْإِصْلَاحِ

لِقَوْمِهِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ مَا يَعْجِزُ عَنْ مِثْلِهِ الْأُلُوفُ الْكَثِيرُونَ فِي الْقُرُونِ الْمُتَوَالِيَةِ، وَكُلُّ هَذَا فِي مُحِيطِ التَّفَاوُتِ الْعَادِيِّ، وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ الْكَسْبِيِّ، وَفَوْقَهُمَا مَا اخْتَصَّ

اللَّهُ بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ بِمَا لَا كَسْبَ لَهُمْ فِيهِ فَجَعَلَهُمْ أَنْبِيَاءَ وَرُسُلًا لَهُ، كَمَا بَيَّنَّاهُ بِالتَّفْصِيلِ فِي مَبَاحِثِ الْوَحْيِ الْمُحَمَّدِيِّ.

(وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا) أَعَادَ نِدَاءَهُمْ بِقَوْلِهِ: (وَيَا قَوْمِ) اسْتِعْطَافًا وَتَكْرِيرًا لِلتَّذْكِيرِ بِأَنَّهُ إِنَّمَا يَدْعُوهُمْ لِخَيْرِهِمْ وَمَصْلَحَتِهِمْ، وَصَرَّحَ لَهُمْ بِأَنَّهُ لَا يَسْأَلُهُمْ عَلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مَالًا فَيَكُونُ مُتَّهَمًا فِيهِ عِنْدَهُمْ لِمَكَانَةِ حُبِّ الْمَالِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَاعْتِزَازِهِمْ بِهِ عَلَيْهِ وَعَلَى الْفُقَرَاءِ مِنْ أَتْبَاعِهِ، وَالْمَالُ: مَا يُمْلَكُ وَيُقْتَنَى مِنْ نَقْدٍ وَمَاشِيَةٍ وَغَيْرِهَا، وَعَبَّرَ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ بِالْأَجْرِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ هُنَا (إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ) أَيْ مَا أَجْرِي عَلَى تَبْلِيغِهِ وَالْقِيَامِ بِأَعْبَائِهِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ الَّذِي

أَرْسَلَنِي بِهِ ، وَكُلُّ رَسُولٍ بَعْدَهُ أُمِرَ أَنْ يُبَلِّغَ قَوْمَهُ هَذَا ، كَمَا تَرَاهُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ مَحْكِيًّا عَنْ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ ، وَتَكَرَّرَ مِثْلُهُ بِأَمْرِهِ - تَعَالَى - عَنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، وَمَا اتَّصَلَ بِهِ مِنَ الِاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) (42 : 23) فَهُوَ - أَيِ الِاسْتِثْنَاءُ - مُنْفَصِلٌ مَعْنَاهُ ، لَكِنْ أَسْأَلُكُمْ مَوَدَّةَ أُولِي الْقُرْبَى لَكُمْ ، وَصِلَةَ الْأَرْحَامِ الَّتِي تُبَالِغُونَ فِيهَا وَتُقَاتِلُونَ لِأَجْلِهَا . فَهَذِهِ الْجُمْلَةُ دَفْعٌ لِشُبْهَةٍ أُخْرَى عَلَى نُبُوَّةِ نُوحٍ كَغَيْرِهِ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ حَاكَتْ فِي صُدُورِ قَوْمِهِ ، وَقَدْ يَكُونُ بَعْضُهُمْ تَكَلَّمَ بِهَا (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا) أَيْ وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِي وَلَا بِالَّذِي يَقَعُ مِنِّي طَرْدُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قُرْبِي وَجِوَارِي لِاحْتِقَارِكُمْ لَهُمْ ، وَوَصْفِكُمْ إِيَّاهُمْ بِالْأَرَاذِلِ جَهْلًا مِنْكُمْ ، فَهَذَا رَدٌّ عَلَى الشُّبْهَةِ الثَّانِيَةِ فِي كَلَامِهِمْ بِنَفْيِ لَازِمِهِ وَهُوَ الطَّرْدُ ، وَقَدْ يَكُونُونَ صَرَّحُوا بِذِكْرِ هَذَا اللَّازِمِ ، وَهَذِهِ سُنَّةُ أَكَابِرِ مُجْرِمِي الْكُفَّارِ مِنْ جَمِيعِ أَقْوَامِ الْمُرْسَلِينَ ، بَيَّنَهَا هُنَا وَفِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ فِي قَوْمِ نُوحٍ أَوَّلِهِمْ ، وَتَكَرَّرَ مَعْنَاهَا فِي قَوْمِ خَاتَمِهِمْ ، وَمِنْهُ فِي ذِكْرِ الطَّرْدِ قَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ : (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) (6 : 52) الْآيَةَ .

وَفِي مَعْنَاهَا قِصَّةُ الْأَعْمَى فِي سُورَتِهِ (إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ) هَذَا تَعْلِيلٌ مُسْتَأْنَفٌ لِنَفْيِ الطَّرْدِ ، مَعْنَاهُ : أَنَّهُمْ يُلَاقُونَ رَبَّهُمْ

(47/377)

يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَهُوَ يَتَوَلَّى حِسَابَهُمْ وَجَزَاءَهُمْ ، وَلَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ مِنْ هَذَا شَيْءٌ ، إِنْ عَلَيْهِ إِلَّا الْبَلَاغُ ، فَلَيْسَ يَضُرُّكُمْ مَا هُمْ عَلَيْهِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِهِ وَبِهِمْ (وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ) أَيْ تُسَفِّهُونَ عَلَيْهِمْ ، مِنَ الْجَهَالَةِ الْمُضَادَّةِ لِلْعَقْلِ وَالْحِلْمِ ، أَوْ تَجْهَلُونَ مَا يَمْتَازُ بِهِ الْبَشَرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنَ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَالتَّحَلِّي بِالْفَضَائِلِ ، وَعَمَلِ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ ، وَتَظُنُّونَ أَنَّ الِامْتِيَازَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْمَالِ الْمُطْغِي ، وَالْجَاهِ بِالْبَاطِلِ الْمُرْدِي ، وَفِي قِصَّتِهِ مِنْ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ : (قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ) (26 : 111 - 115) وَفِي مَعْنَى مَا هُنَا مِنْ أَنَّ حِسَابَهُمْ عَلَى اللهِ تَتِمَّةُ الْآيَةِ (6 : 52) الْمُشَارِ إِلَيْهَا آنِفًا ، وَهُوَ بِمَعْنَى قَوْلِهِ - تَعَالَى - : (وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ) كَرَّرَ هَذَا النِّدَاءَ لِمَا سَبَقَ بَيَانُهُ آنِفًا ، وَالِاسْتِفْهَامُ بَعْدَهُ إِنْكَارِيٌّ ، أَيْ لَا يُوجَدُ أَحَدٌ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ بِأَنْ يَمْنَعَ عَنِّي مَا أَسْتَحِقُّهُ مِنْ عِقَابِهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ لِي وَاتِّبَاعِهِمْ إِيَّايَ فِيمَا بَلَّغْتُهُمْ عَنْهُ ، وَهُوَ ظُلْمٌ عَظِيمٌ يَقْتَضِي

الْعِقَابَ الشَّدِيدَ بِعَدْلِ اللهِ - تَعَالَى - مَهْمَا تَكُنْ صِفَةُ مَنِ اقْتَرَفَهُ، كَمَا يُصَرِّحُ بِهِ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ،

(48/377)

وَكَمَا قَالَ فِي آخِرِ آيَةِ الْأَنْعَامِ (فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ) (6 : 52) (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أَصْلُهُ تَتَذَكَّرُونَ، حُذِفَتْ إِحْدَى التَّائَيْنِ مِنْهُ لِلتَّخْفِيفِ وَهُوَ قِيَاسٌ، وَيُقَدَّرُ بَعْدَ هَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ فِعْلٌ عُطِفَتْ عَلَيْهِ الْجُمْلَةُ، أَيْ: أَتُصِرُّونَ عَلَى جَهْلِكُمْ، أَوْ أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْرُدَهُمْ فَلَا تَتَذَكَّرُونَ أَنَّ لَهُمْ رَبًّا يَنْصُرُهُمْ وَيَنْتَقِمُ لَهُمْ ؟ .

(وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ) هَذَا مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: (لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا)، وَلِهَذَا لَمْ يُكَرِّرِ النِّدَاءَ فِيهِ، وَهَذِهِ الثَّلَاثُ الَّتِي نَفَاهَا نُوحٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَنْ نَفْسِهِ، هِيَ الَّتِي كَانَ يَظُنُّ الْمُشْرِكُونَ مِنْ قَوْمِهِ وَمِمَّنْ بَعْدَهُمْ أَنَّ ثُبُوتَهَا لَازِمٌ لِمَنْ كَانَ نَبِيًّا مُرْسَلًا مِنَ اللهِ - تَعَالَى - إِنْ صَحَّتْ دَعْوَاهُ، وَإِلَّا كَانَ كَسَائِرِ الْبَشَرِ لَا فَضْلَ لَهُ عَلَيْهِمْ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ نَفْيُهَا مُتَضَمِّنًا لِرَدِّ شُبْهَةِ حُجَّتِهِمُ الثَّالِثَةِ ; وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُ - تَعَالَى - خَاتَمَ النَّبِيِّينَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِنَفْيِهَا عَنْ نَفْسِهِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ (6 : 50) وَنَخْتَصِرُ فِي تَفْسِيرِهَا هُنَا لِتَفْصِيلِهِ هُنَالِكَ .

أَمَّا خزَائنُ اللهِ - تعَالَى - فَالْمُرَادُ مِنْهَا أَنْوَاعُ رِزْقِهِ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا عِبَادُهُ لِلْإِنْفَاقِ مِنْهَا كَمَا قَالَ (قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا) (17 : 100) وَالْمَعْنَى : لَا أَقُولُ لَكُمْ بِادِّعَائِي لِلنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ إِنَّ عِنْدِي خَزَائِنَ رِزْقِ اللهِ - تعَالَى - أَتَصَرَّفُ فِيهَا بِغَيْرِ وَسَائِلِ الْأَسْبَابِ الْمُسَخَّرَةِ لِسَائِرِ النَّاسِ ، بِحَيْثُ أُنْفِقُ عَلَى نَفْسِي وَعَلَى مَنِ اتَّبَعَنِي بِالتَّصَرُّفِ فِيهَا بِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، بَلْ أَنَا وَغَيْرِي مِنَ الْبَشَرِ فِي كَسْبِهَا سَوَاءٌ ، إِذْ لَيْسَتْ مِنْ مَوْضُوعِ الرِّسَالَةِ وَلَا مِنْ خَصَائِصِهَا وَوَظَائِفِهَا ، وَلَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ لَاتَّبَعَ النَّاسُ الرُّسُلَ لِأَجْلِهَا ، لَا لِمَا بُعِثُوا لِأَجْلِهِ مِنْ تَزْكِيَةِ الْأَنْفُسِ بِمَعْرِفَةِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ ، وَتَأْهِيلِهَا لِلِقَائِهِ - تعَالَى - وَمَثُوبَتِهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ . وَأَمَّا عِلْمُ الْغَيْبِ ، فَالْمُرَادُ بِهِ امْتِيَازُ النَّبِيِّ عَلَى سَائِرِ الْبَشَرِ بِعِلْمِ مَا لَا يَصِلُ إِلَيْهِ عِلْمُهُمُ الْكَسْبِيُّ مِنْ مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ وَمَضَارِّهِمْ فِي مَعَايِشِهِمْ وَكَسْبِهِمْ ، فَيُخْبِرُ بِهَا أَتْبَاعَهُ لِيَفْضُلُوا غَيْرَهُمْ بِالتَّبَعِ لَهُ ، وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ أَنْ يَقُولَ لِقَوْمِهِ : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ) (7 : 188)

وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ نَفْيَ ادِّعَائِهِ الْغَيْبَ يَتَضَمَّنُ الرَّدَّ عَلَى قَوْلِهِمْ فِي أَتْبَاعِهِ أَنَّهُمُ اتَّبَعُوهُ بَادِيَ الرَّأْيِ مِنْ غَيْرِ تَفَكُّرٍ وَلَا اسْتِدْلَالٍ ، فَهُمْ غَيْرُ مُوقِنِينَ بِإِيمَانِهِمْ ، وَإِنَّمَا يَظُنُّونَ ظَنًّا ، فَهُوَ يَقُولُ : إِنَّهُ لَمْ يُعْطَ عِلْمَ الْغَيْبِ فَيَحْكُمَ عَلَى بَوَاطِنِهِمْ ، وَإِنَّمَا أُمِرَ أَنْ يَأْخُذَ بِالظَّاهِرِ ، وَاللهُ هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ السَّرَائِرَ ، وَهَذَانِ الْأَمْرَانِ اللَّذَانِ نَفَاهُمَا كِتَابُ اللهِ عَنْ رُسُلِهِ يُثْبِتُهُمَا مُبْتَدِعَةُ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ لِمَنْ يُسَمُّونَهُمُ الْأَوْلِيَاءَ وَالْقِدِّيسِينَ مِنْهُمْ ، وَقَدْ بَيَّنَّا بُطْلَانَ هَذَا مِرَارًا .

وَأَمَّا نَفْيُ كَوْنِهِ مَلَكًا فَهُوَ دَاحِضٌ لِشُبْهَتِهِمْ أَنَّ الرَّسُولَ مِنَ اللهِ إِلَى الْبَشَرِ يَجِبُ أَنْ يَفْضُلَهُمْ وَيَمْتَازَ عَلَيْهِمْ ، وَإِذَنْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ ، يَعْلَمُ مَا لَا يَعْلَمُ الْبَشَرُ وَيَقْدِرُ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ، وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مُفَصَّلَةٌ وَمُكَرَّرَةٌ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، وَبَيَّنَّا فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِهَا مِنْ جُزْءِ التَّفْسِيرِ الثَّامِنِ جُمْلَةَ مَا جَاءَ فِيهَا مَعَ شَوَاهِدِهِ مِنْ غَيْرِهَا فِي ذَلِكَ تَحْتَ عُنْوَانِ (شُبُهَاتِ الْكُفَّارِ عَلَى الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ) فَرَاجِعْهَا فِي
(ص 245 ج 8 وَمَا بَعْدَهَا ط الْهَيْئَةِ) .

(وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ) الِازْدِرَاءُ : افْتِعَالٌ مِنَ الزِّرَايَةِ ، يُقَالُ : زَرَى عَلَى فُلَانٍ يَزْرِي زَرْيَةً وَزِرَايَةً (بِالْكَسْرِ) إِذَا عَابَهُ وَاسْتَهْزَأَ بِهِ ، وَأَزْرَى بِهِ إِزْرَاءً تَهَاوَنَ بِهِ ، أَيْ : وَلَا أَقُولُ فِي شَأْنِ الَّذِينَ تَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ نَظَرَ الِاسْتِصْغَارِ وَالِاحْتِقَارِ فَتَزْدَرِيهِمْ أَعْيُنُكُمْ لِفَقْرِهِمْ وَرَثَاثَتِهِمْ : (لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا) كَمَا تَقُولُونَ أَنْتُمْ . وَالْمُرَادُ بِالْخَيْرِ مَا وَعَدَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْهُدَى مِنْ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَيُرَاجَعُ تَفْسِيرُ مَا حَكَى اللهُ عَنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ بِقَوْلِهِ : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ) (46 : 11) وَغَيْرُ هَذَا مِمَّا فِي مَعْنَاهُ .

(52/377)

(اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ) مِمَّا آتَاهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ عَلَى بَصِيرَةٍ ، وَاتِّبَاعِ رَسُولِهِ بِإِخْلَاصٍ وَصِدْقِ سَرِيرَةٍ ، خِلَافًا لِمَا زَعَمْتُمْ مِنَ اتِّبَاعِي بَادِيَ الرَّأْيِ بِغَيْرِ بَصِيرَةٍ وَلَا عِلْمٍ (إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) أَيْ إِنِّي إِذَا قُلْتُ ذَلِكَ فِيهِمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ، إِذْ أَكُونُ ظَالِمًا لِنَفْسِي بِالتَّقَوُّلِ عَلَى اللهِ غَيْرَ مَا أَعْلَمُهُ عَنْهُ مِنْ وَعْدِ الْمُؤْمِنِينَ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَظَالِمًا لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُحْسِنِينَ بِهَضْمِ حَقِّهِمْ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : إِنِّي إِذَا قُلْتُ شَيْئًا مِمَّا نَفَيْتُهُ مِنْ أَوَّلِ الْآيَةِ ، بِأَنِ ادَّعَيْتُ أَنِّي أَمْلِكُ التَّصَرُّفَ فِي خَزَائِنِ رِزْقِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ بِالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ ، أَوْ أَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَخْ . لَمِنْ زُمْرَةِ الظَّالِمِينَ الرَّاسِخِينَ فِي الظُّلْمِ ، لَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ الْمُعْتَصِمِينَ بِالْحَقِّ

وَالْعَدْلِ ، وَفِي هَذَا التَّعْلِيلِ لِاجْتِنَابِ مَا ذُكِرَ تَعْرِيضٌ بِالْمُخَاطَبِينَ ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ مِنَ الظَّالِمِينَ ، وَبِهَذَا تَمَّتْ حُجَّتُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَيْهِمْ وَدَحْضُهُ لِجَمِيعِ شُبُهَاتِهِمْ ، وَلِذَلِكَ قَالُوا قَوْلَ الْمُعْتَرِفِ بِالْعَجْزِ ، الْمُنْتَهِي بِهِ عَجْزُهُ إِلَى حَدِّ الْيَأْسِ :

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

قَالَ الرَّاغِبُ : الْجِدَالُ : الْمُفَاوَضَةُ عَلَى سَبِيلِ الْمُنَازَعَةِ وَالْمُغَالَبَةِ ، وَأَصْلُهُ مِنْ جَدَلْتُ الْحَبْلَ إِذَا أَحْكَمْتُ فَتْلَهُ ، وَمِنْهُ الْجَدِيلُ (أَيِ الْحَبْلُ الْمَفْتُولُ) وَجَدَلْتُ الْبِنَاءَ أَحْكَمْتُهُ . وَدِرْعٌ مَجْدُولَةٌ ، وَالْأَجْدَلُ الصَّقْرُ الْمُحْكَمُ الْبِنْيَةِ ، وَالْمِجْدَلُ (كَمِنْبَرٍ) الْقَصْرُ الْمُحْكَمُ الْبِنَاءِ ، وَمِنْهُ

الْجِدَالُ ، فَكَأَنَّ الْمُتَجَادِلَيْنِ يَفْتِلُ كُلُّ وَاحِدٍ الْآخَرَ عَلَى رَأْيِهِ . وَقِيلَ : الْأَصْلُ فِي الْجِدَالِ الصِّرَاعُ وَإِسْقَاطُ الْإِنْسَانِ صَاحِبَهُ عَلَى الْجَدَالَةِ وَهِيَ (بِالْفَتْحِ) الْأَرْضُ الصُّلْبَةُ اهـ . وَقَالَ الْفَيُّومِيُّ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ : جَدِلَ الرَّجُلُ جَدَلًا فَهُوَ جَدِلٌ مِنْ بَابِ تَعِبَ إِذَا اشْتَدَّتْ خُصُومَتُهُ ، وَجَادَلَ مُجَادَلَةً إِذَا خَاصَمَ بِمَا يَشْغَلُ عَنْ ظُهُورِ الْحَقِّ وَوُضُوحِ الصَّوَابِ ، هَذَا أَصْلُهُ ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِي لِسَانِ حَمَلَةِ الشَّرْعِ فِي مُقَابَلَةِ الْأَدِلَّةِ لِظُهُورِ أَرْجَحِهَا ، وَهُوَ مَحْمُودٌ إِنْ كَانَ لِلْوُقُوفِ عَلَى الْحَقِّ ، وَإِلَّا فَمَذْمُومٌ اهـ ، وَقَدْ وَرَدَ عِدَّةُ أَحَادِيثَ وَآثَارٍ فِي ذَمِّ الْجَدَلِ وَالنَّهْيِ عَنْهُ مِنْهَا : (مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ مَرْفُوعًا .

(55/377)

(قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا) أَيْ قَدْ خَاصَمْتَنَا وَحَاجَجْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا وَاسْتَقْصَيْتَ فِيهِ فَلَمْ تَدَعْ لَنَا حُجَّةً إِلَّا دَحَضْتَهَا ، حَتَّى مَلِلْنَا وَسَئِمْنَا وَلَمْ يَبْقَ عِنْدَنَا شَيْءٌ نَقُولُهُ ، يَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ فِي سُورَةِ نُوحٍ : (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا) (71 : 5 و6 إِلَخْ) . وَقَوْلُهُ لَهُمْ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ هَذِهِ الْحَالَةِ مِنْ سُورَةِ يُونُسَ (يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ) (10 : 71 إِلَخْ) (فَأْتِنَا بِمَا

تَعِدُنَا) مِنْ عَذَابِ اللهِ الدُّنْيَوِيِّ الَّذِي تَخَافُهُ عَلَيْنَا ، الْأَقْرَبُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ قَوْلَهُ : (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ) (26) وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ غَيْرَهُ كَمَا تَقَدَّمَ (إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) فِي دَعْوَاكَ أَنَّ اللهَ يُعَاقِبُنَا عَلَى عِصْيَانِهِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ . (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ) أَيْ إِنَّ هَذَا لِلَّهِ وَبِيَدِهِ لَا أَمْلِكُهُ أَنَا ، وَإِنَّمَا هُوَ الَّذِي يَأْتِيكُمْ بِهِ إِنْ تَعَلَّقَتْ مَشِيئَتُهُ بِهِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ ، وَهَذَا بَيَانٌ لِلْوَاقِعِ لَا شَكَّ فِيهِ (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) وَلَا فَائِتِينَ لَهُ إِنْ أَخَّرَهُ لِحِكْمَةٍ يَعْلَمُهَا ، فَهُوَ مَتَى شَاءَ وَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ، وَنَفْيُ الْإِعْجَازِ مُؤَكَّدٌ بِالْبَاءِ .

(56/377)

(وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ) النُّصْحُ تَحَرِّي الصَّلَاحِ وَالْخَيْرِ لِلْمَنْصُوحِ لَهُ وَالْإِخْلَاصِ فِيهِ قَوْلًا وَعَمَلًا مِنْ قَوْلِهِمْ : نَاصِحُ الْعَسَلِ ، لِخَالِصِهِ الْمُصَفَّى مِنْهُ ، وَنَصَحَ لَهُ أَفْصَحُ مِنْ نَصَحَهُ ، وَالْإِغْوَاءُ الْإِيقَاعُ فِي الْغِنَى وَهُوَ الْفَسَادُ الْحِسِّيُّ وَالْمَعْنَوِيُّ ، وَالْمَعْنَى : إِنَّ نُصْحِي لَكُمْ لَا يَنْفَعُكُمْ بِمُجَرَّدِ إِرَادَتِي لَهُ فِيمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنَّمَا يَتَوَقَّفُ نَفْعُهُ عَلَى إِرَادَةِ اللهِ - تَعَالَى - ، وَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُهُ - تَعَالَى - بِمَا عُرِفَ بِالتَّجَارِبِ أَنَّ نَفْعَ النُّصْحِ لَهُ شَرْطَانِ أَوْ طَرَفَانِ ، هُمَا الْفَاعِلُ لِلنُّصْحِ وَالْقَابِلُ لَهُ ، وَإِنَّمَا يَقْبَلُهُ الْمُسْتَعِدُّ

لِلرَّشَادِ ، وَيَرْفُضُهُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْغَيُّ وَالْفَسَادُ ، بِمُقَارَفَةِ أَسْبَابِهِ مِنَ الْغُرُورِ بِالْغِنَى وَالْجَاهِ وَالْكِبْرِ ، وَهُوَ غَمْطُ الْحَقِّ وَاحْتِقَارُ الْمُتَكَبِّرِ لِمَنْ يَزْدَرِي مِنَ النَّاسِ ، وَتَعَصُّبُهُ لِمَنْ كَانَ عَلَيْهِ الْآبَاءُ وَالْأَجْدَادُ وَاتِّبَاعُ الْهَوَى وَحُبُّ الشَّهَوَاتِ الْمَالِئَةِ مِنْ طَاعَةِ اللهِ ، فَمَعْنَى إِرَادَةِ اللهِ - تَعَالَى - لِإِغْوَائِهِمْ : اقْتِضَاءُ سُنَّتِهِ فِيهِمْ أَنْ

(57/377)

يَكُونُوا مِنَ الْغَاوِينَ ، لَا خَلْقُهُ لِلْغَوَايَةِ فِيهِمْ جُزَافًا أُنُفًا (بِضَمَّتَيْنِ) أَيِ ابْتِدَاءً بِغَيْرِ عَمَلٍ وَلَا كَسْبٍ مِنْهُمْ لِأَسْبَابِهِ ، فَإِنَّ هَذَا مُضَادٌّ لِمَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي إِثْبَاتِ خَلْقِ الْأَشْيَاءِ مُقَدَّرَةً بِأَقْدَارِهَا ، تَرْتَبِطُ أَسْبَابُهَا بِمُسَبَّبَاتِهَا وَفَسَّرَ ابْنُ جَرِيرٍ يُغْوِيَكُمْ بِيُهْلِكَكُمْ بِعَذَابِهِ ، وَقَدْ وَرَدَ الْغَيُّ بِهَذَا الْمَعْنَى ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : (فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) (19 : 59) وَحُكِيَ عَنْ طَيِّءٍ قَوْلُهُمْ : أَصْبَحَ فُلَانٌ غَاوِيًا ، إِذَا أَصْبَحَ مَرِيضًا ، وَأَصْلُ الْغَيِّ فَسَادُ الْجِهَازِ الْهَضْمِيِّ مِنْ كَثْرَةِ الْغِذَاءِ أَوْ سُوئِهِ ، تَقُولُ الْعَرَبُ : غَوَى الْفَصِيلُ إِذَا فَسَدَ جَوْفُهُ وَبَشِمَ مِنْ كَثْرَةِ اللَّبَنِ ، ثُمَّ تَوَسَّعُوا فِيهِ فَاسْتُعْمِلَ فِي الْفَسَادِ الْمَعْنَوِيِّ مِنَ الِانْهِمَاكِ فِي الْجَهْلِ وَكُلِّ مَا يُنَافِي الرُّشْدَ ، وَالْقَرَائِنُ هِيَ الَّتِي تُرَجِّحُ بَعْضَ الْمَعَانِي عَلَى بَعْضٍ ، وَمُوَافَقَةُ سُنَنِ اللهِ وَأَقْدَارِهِ شَرْطٌ فِي الْكُلِّ ، وَبِهِ يُعْرَفُ الْحَقُّ فِي اخْتِلَافِ الْأَشَاعِرَةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ فِي الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا ، بِنَاءً عَلَى

اخْتِلَافِهِمْ فِي إِرَادَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - لِكُلٍّ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ مُطْلَقًا ، وَتَقَدَّمَ بَسْطُ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ .

(58/377)

(هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) أَيْ هُوَ مَالِكُ أُمُورِكُمْ وَمُدَبِّرُهَا وَمُسَيِّرُهَا عَلَى سُنَنِهِ الْمُطَّرِدَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ عِنْدَهُ قَدَرٌ ، وَلِكُلِّ قَدَرٍ أَجَلٌ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فِي الْآخِرَةِ فَيَجْزِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا لَا يَظْلِمُ أَحَدًا .

(59/377)

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ) اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، فَقَالَ مُقَاتِلٌ وَغَيْرُهُ : هِيَ مُعْتَرِضَةٌ فِي قِصَّةِ نُوحٍ حِكَايَةً لِقَوْلِ مُشْرِكِي مَكَّةَ فِي تَكْذِيبِ هَذِهِ الْقِصَصِ الَّذِي تَقَدَّمَ الرَّدُّ عَلَيْهِ فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ وَقَالَ الْجُمْهُورُ : إِنَّهَا مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ لَا مُقْتَضَى لِاعْتِرَاضِهَا فِي وَسَطِهَا وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَفِيهِ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْجُمَلِ الِاعْتِرَاضِيَّةِ مَعْهُودٌ فِي الْقُرْآنِ كَآيَتَيِ الْوَصِيَّةِ

بِالْوَالِدَيْنِ فِي أَثْنَاءِ مَوْعِظَةِ لُقْمَانَ بَعْدَ نَهْيِهِ عَنِ الشِّرْكِ مِنْ سُورَتِهِ وَهُمَا : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ) (31 : 14) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ، وَبَعْدَهَا : (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ) (16 إِلَخْ) وَكَذَلِكَ الْآيَاتُ (53 - 55) (مِنْ سُورَةِ طه 20) قَالُوا : إِنَّهَا مُعْتَرِضَةٌ فِي الْمُحَاوَرَةِ بَيْنَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَفِرْعَوْنَ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ . وَلِلْجُمَلِ وَالْآيَاتِ الْمُعْتَرِضَةِ فِي الْقُرْآنِ حِكَمٌ وَفَوَائِدُ يَقْتَضِيهَا تَلْوِينُ الْخِطَابِ لِتَنْبِيهِ الْأَذْهَانِ ، وَمَنْعِ السَّآمَةِ وَتَجْدِيدِ النَّشَاطِ فِي الِانْتِقَالِ ، وَالتَّشْوِيقِ إِلَى سَمَاعِ بَقِيَّةِ الْكَلَامِ ; فَمِنَ الْمُتَوَقَّعِ هُنَا أَنْ يَخْطُرَ فِي بَالِ الْمُشْرِكِينَ عِنْدَ سَمَاعِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّهَا مُفْتَرَاةٌ كَمَا زَعَمُوا ، لِاسْتِغْرَابِهِمْ هَذَا السَّبْكَ فِي الْجِدَالِ وَالْقُوَّةَ فِي الِاحْتِجَاجِ ، وَأَنْ يَصُدَّهُمْ هَذَا

(60/377)

عَنِ اسْتِمَاعٍ ، فَيَكُونَ إِيرَادُ هَذِهِ الْآيَةِ تَجْدِيدًا لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ وَلِنَشَاطِهِمْ ، وَأَعْظَمَ بِوَقْعِهَا فِي قُلُوبِهِمْ إِذَا كَانَ هَذَا الْخَاطِرُ عَرَضَ لَهُمْ عِنْدَ سَمَاعِ

مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْقِصَّةِ ، فَمَا قَالَهُ مُقَاتِلٌ : لَهُ وَجْهٌ وَجِيهٌ مِنْ وِجْهَةِ الْأُسْلُوبِ الْخَاصِّ بِالْقُرْآنِ ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى تَعْبِيرِهَا عَنِ الْإِنْكَارِ بِـ (يَقُولُونَ) وَعَنِ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ بِـ (قُلْ) الدَّالَّيْنِ عَلَى الْحَالِ ، وَأَبْعَدُ عَنْ سِيَاقِ حِكَايِ كُلِّهِ بِفِعْلِ الْمَاضِي مِنَ الْجَانِبَيْنِ (قَالُوا : قَالَ) وَهُوَ سِيَاقُ قِصَّةِ نُوحٍ

- عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ قَطْعِيًّا فِي الْأَوَّلِ ، وَإِنَّمَا هُوَ الْأَرْجَحُ عِنْدِي وَعَلَيْهِ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَمُقَابِلُهُ ضَعِيفٌ وَهُوَ لِجُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ .

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) أَيْ أَمْ يَقُولُ مُشْرِكُو مَكَّةَ : إِنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَدِ افْتَرَى

(61/377)

هَذَا الَّذِي يَحْكِيهِ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ ، أَوْ يَقُولُ نُوحٌ : إِنَّهُ افْتَرَى هَذَا الَّذِي وَعَدَنَا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ (قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي) أَيْ إِنْ كُنْتُ افْتَرَيْتُهُ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرْضًا فَهُوَ إِجْرَامٌ عَظِيمٌ عَلَيَّ إِثْمُهُ وَعِقَابُهُ مِنْ دُونِكُمْ ; إِذِ الْإِجْرَامُ : الْفِعْلُ الْقَبِيحُ الضَّارُّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ فَاعِلُهُ الْعِقَابَ ، مِنَ الْجُرْمِ الَّذِي هُوَ قَطْعُ الثَّمَرِ قَبْلَ بُدُوِّ صَلَاحِهِ الَّذِي يَجْعَلُهُ مُنْتَفَعًا بِهِ كَمَا سَبَقَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى) وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ أَنَّ هَذَا إِجْرَامٌ يُعَاقَبُ عَلَيْهِ فَمَا الَّذِي يَحْمِلُهُ عَلَى اقْتِرَافِهِ (وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ) لِأَنَّ حُكْمَ اللهِ الْعَدْلَ أَنْ يَجْزِيَ كُلَّ امْرِئٍ بِعَمَلِهِ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَلَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (2 : 286) وَتَقَدَّمَ هَذَا الْمَعْنَى بِمَا هُوَ أَعَمُّ مِمَّا هُنَا وَهُوَ : (وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) (10 : 41) وَقَدْ أَثْبَتَ عَلَيْهِمُ الْإِجْرَامَ هُنَا ; وَمِنْهُ - أَوْ أَشَدُّهُ - تَكْذِيبُهُ وَوَصْفُهُ بِالِافْتِرَاءِ عَلَى اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَهَذَا الْأُسْلُوبُ مِنَ الْجِدَالِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

يَسْتَخِفُّهُ السَّمْعُ، وَيَقْبَلُهُ الطَّبْعُ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير المنار جـ 12 صـ 51.

61 ﴾

(62/377)

وقال ابن عاشور:

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

فصلت هذه الجملة فصلاً على طريقة حكاية الأقوال في المحاورات كما تقدم في قصة آدم

عليه السلام من سورة البقرة.

والمجادلة: المخاصمة بالقول وإيراد الحجّة عليه، فتكون في الخير كقوله: ﴿ يجادلنا في قوم

لوطٍ ﴾ [هود: 74]، ويكون في الشر كقوله: ﴿ ولا جدال في الحجّ ﴾ [البقرة:

197].

وإنما أرادوا أنه جادلهم فيما هو شر فعبّر عن مرادهم بلفظ الجدال الموجّه، وقد مضى

عند قوله تعالى: ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾ في سورة [النساء: 107

].

وهذا قول وقع عقب مجادلته المحكية في الآية قبل هذه، فتعين أن تلك المجادلة كانت آخر

مجادلة جادَلها قومه ، وأن ضجرهم وسآمتهم من تكرار مجادلته حصل ساعتئذٍ فقالوا قولهم هذا ، فكانت كلها مجادلات مضت .

وكانت المجادلة الأخيرة هي الّتي استفزّت امتعاضهم من قوارع جدله حتى سئموا من تزييف معارضتهم وآرائهم شأن المبطل إذا دمغته الحجة ، ولذلك أرادوا طي بساط الجدال ، وأرادوا إفحامه بأن طلبوا تعجيل ما توعدهم من عذاب ينزل بهم كقوله آنفاً : ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ [هود : 26] .

وقولهم : ﴿ فأكثرت جِدَالَنا ﴾ خبرٌ مستعمل في التذمر والتضجير والتأييس من الاقتناع ، أجابهم بالمبادرةِ لبيان العذاب لأن ذلك أدخل في الموعظة فبادر به ثم عاد إلى بيان مجادلته .

والإتيان بالشيء : إحضاره .

وأرادوا به تعجيله وعدم إنظاره .

و﴿ ما تَعِدنا ﴾ مصداقه ﴿ عذاب يوم أليم ﴾ [هود : 26] .

(63/377)

والقصر في قوله : ﴿ إنما يأتيكم به الله إن شاء ﴾ قصر قلب بناء على ظاهر طلبهم ، حملاً لكلامهم على ظاهره على طريقة مجاراة الخصم في المناظرة ، وإلاّ فإنهم جازمون بتعذّر أن يأتيهم بما وعدهم لأنهم يحسبونه كاذباً وهم جازمون بأنّ الله لم يتوعدهم ، ولعلّهم كانوا لا يؤمنون بوجود الله .

وقوله : ﴿ إن شاء ﴾ احتراس راجع إلى حمل العذاب على عذاب الدنيا .

ومعنى ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ ما أنتم بناجين وفالتين من الوعيد ، يريد أن العذاب واقع لا محالة .

ولعل نوحاً عليه السّلام لم يكن له وحي من الله بأن يحلّ بهم عذاب الدنيا ، فلذلك فوّضه إلى المشيئة ؛ أو لعلّه كان يوقن بنزوله بهم فيكون التعليق بـ ﴿ إن شاء ﴾ منظوراً فيه إلى كون العذاب معجلاً أو مؤخراً .

﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾

عَطَف على وعظهم بحلول العذاب وتوقعه بيانَ حال مجادلته إيّاهم التي امتعضوا منها بأنها مجادلة لنفعهم وصلاحهم ، وفي ذلك تعريض بتحميقهم وتسفيه آرائهم حيث كرهوا ما هو نفع لهم .

والنصح : قول أو عمل يريد صاحبه صلاح المعمول لأجله .

وأكثر ما يطلق على الأقوال النافعة المنقذة من الأضرار .

ويكون بالعمل كقوله تعالى : ﴿ إذا نصحوا لله ورسوله ﴾ في سورة [التوبة : 91] .

وفي الحديث : " الدين النصيحة لله ولرسوله " أي الإخلاص في العمل لهما لأنّ الله لا ينبّأ بشيء لا يعلمه .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ ونصحتُ لكم ولكن لا تحبون النّاصحين ﴾ في سورة [الأعراف : 79] .

فالمراد بالنصح هنا هو ما سمّاه قومه بالجدال ، أي هو أولى بأن يسمّى نصحاً ، لأن الجدال يكون للخير والشر كما تقدم .

(64/377)

وجملة الشرط في قوله : ﴿ إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ هي المقصود من الكلام ، فجوابها في معنى قوله : ﴿ لا ينفعكم نصحي ﴾ ولكن نظم الكلام بني على الإخبار بعدم نفع النصح اهتماماً بذلك فجعل معطوفاً على ما قبله وأتي بالشرط قيداً له .

وأمّا قوله : ﴿ إن أردت أن أنصح لكم ﴾ فهو شرط معترض بين الشرط وبين دليل جوابه لأنه ليس هو المقصود من التعليق ولكنه تعليق على تعليق ، وغير مقصود به التقييد أصلاً ، فليس هذا من الشرط في الشروط المفروضة في مسائل الفقه وأصوله في نحو قول القائل : إن

أكلت ، إن شربت فأنت طالق ، لأنها مفروضة في شرط مقيّد لشرط آخر .

على أن المقصود إذا اجتمع فعلا الشرطين حصل مضمون جوابهما .

ومثلوه بقول الشاعر

إن تستغيثوا بنا إن تُذْعَروا تَجدوا . . .

مِنّا مَعاقِل عزّ زانها كرم

فأما قوله : ﴿ إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ فكل من الشرطين مقصود التعليق به .

وقد حذف جواب أحدهما لدلالة جواب الآخر عليه .

والتعليق بالشرط في قوله : ﴿ إن أردت أن أنصح لكم ﴾ مؤذن بعزمه على تجديد النصح في المستقبل لأن واجبه هو البلاغ وإن كرهوا ذلك .

وأشار بقوله : ﴿ إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ إلى ما هم فيه من كراهية دعوة نوح عليه السلام سببه خذلان الله إيّاهم ولولاه لنفعهم نصحه ، ولكن نوحاً عليه السلام لا يعلم مراد الله من إغوائهم ولا مدى استمرار غوايتهم فلذلك كان عليه أن ينصح لهم إلى نهاية الأمر .

وتقدم الكلام على دخول اللام على مفعول (نصح) عند قوله تعالى : ﴿ إذا نصحوا لله ورسوله ﴾ في [براءة : 91] .

والإغواء : جعل الشخص ذا غَواية ، وهي الضلال عن الحق والرشد .

وجملة هو ربكم ﴾ ابتدائية لتعليمهم أن الله ربهم إن كانوا لا يؤمنون بوجود الله ، أو لتذكيرهم بذلك إن كانوا يؤمنون بوجوده ويشركون معه وُدّاً ، وسوَاعاً ، ويغوث ، ويعوق ، ونسراً .

(65/377)

والتقديم في ﴿ وإليه ترجعون ﴾ للاهتمام ولرعاية الفاصلة وليس للقصر ، لأنهم لا يؤمنون بالبعث أصلاً بله أن يزعموا أنهم يُحْضرون إلى الله وإلى غيره .

وتمثلتْ فيما قصه الله من قصة نوح عليه السلام مع قومه صورة واضحة من تفكير أهل العقول السخيفة التي ران عليها الضلال فقلبَ أفكارها إلى اعوجاج فظيع ، وهي الصورة التي تتمثل في الأمم التي لم يثقّف عقولها الإرشاد الديني فغلب عليها الانسياق وراء داعي الهوى ، وامتلكها الغرور بظن الخطأ صواباً ، ومصانعة مَن تصأصىءُ عين بصيرته بلائح من النور ، من يدعوه إلى إغماضها وعدمت الوازع النفساني فلم تعبأ إلاّ بالصور المحوسة ولم تهتمّ إلا باللذات وحب الذات ولا تزن بمعيار النقد الصحيح خلوص النفوس من دَخَل النقائص .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾

جملة معترضة بين جملة أجزاء القصة وليست من القصة ، ومن جعلها منها فقد أبعد ،

وهي تأكيد لنظيرها السابق في أول السورة .

ومناسبة هذا الاعتراض أن تفاصيل القصة التي لا يعلمها المخاطبون تفاصيل عجيبة تدعو المنكرين إلى أن يتذكروا إنكارهم ويعيدوا ذكره .

وكون ذلك مطابقاً لما حصل في زمن نوح عليه السلام وشاهدة بكتب بني إسرائيل يدل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم لأن علمه بذلك مع أميته وبعد قومه عن أهل الكتاب آية على أنه وحي من الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فالاستفهام الذي يؤذن به حرف ﴿ أم ﴾ المختصّ بعطف الاستفهام استفهام إنكاري .

وموقع الإنكار بديع لتضمنه الحجّة عليهم .

و ﴿ أم ﴾ هنا للإضراب للانتقال من غرض لغرض .

وضمير النصب عائد إلى القرآن المفهوم من السياق .

وجملة ﴿ قل ﴾ مفصولة عن التي قبلها لوقوعها في سياق المحاورة كما تقدم غير مرة .

وأَمِرَ النبيءُ صلى الله عليه وسلم أن يعرض عن مجادلتهم بالدليل لأنهم ليسوا بأهل لذلك إذ قد أقيمت عليهم الحجة غير مرة فلم تغن فيهم شيئاً ، فلذلك أجيبوا بأنه لو فرض ذلك لكانت تبعة افترائه على نفسه لا ينالهم منها شيء .

وتقديم (عليّ) مؤذن بالقصر ، أي إجرامي عليّ لا عَليكم فلماذا تكثرون ادّعاء الافتراء كأنكم ستؤاخَذُون بتبعته .

وهذا جار على طريقة الاستدراج لهم والكلام المنصف .

ومعنى جعل الافتراء فعلاً للشرط : أنه إن كان وقع الافتراء كقوله : ﴿ إن كنت قلته فقد علِمْته ﴾ [المائدة : 116] .

ولما كان الافتراء على الله إجراماً عدل في الجواب عن التعبير بالافتراء مع أنهُ المدعى إلى التعبير بالإجرام فلا حاجة إلى تقدير : فعليّ إجرام افترائي .

وذكر حرف (على) مع الإجرام مؤذن بأن الإجرام مؤاخذ به كما تَقتضيه مادة الإجرام .

والإجرام : اكتساب الجرم وهو الذنب ، فهو يقتضي المؤاخذة لا محالة .

وجملة ﴿ وأنا بريء مما تجرمون ﴾ معطوفة على جملة الشرط والجزاء ، فهي ابتدائية .

وظاهرها أنها تذييل للكلام وتأييده بمقابله ، أي فإجرامِي عليّ لا عليكم كما أن إجرامكم لا تنالني منه تَبعة .

ولا حاجة إلى تقدير المضاف في قوله : ﴿ مما تجرمون ﴾ أي تبعته وإنما هو تقدير معنى لا

تقدير إعراب ، والشيءُ يؤكد بضدّه كقوله : ﴿ لاَ أعبد ما تَبعدُون ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ [الكافرون : 2 ، 3] .

وفي هذه الجملة توجيه بديع وهو إفادة تبرئة نفسه من أن يفتريَ القرآن فإنّ افتراء القرآن دعوى باطلة ادعَوها عليه فهي إجرام منهم عليه ، فيكون المعنى وأنا بريء من قولكم الذي تجرمونه عليّ باطلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(67/377)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

والجدال هو قول كلام يقابل كلاماً آخر ، والقصد عند كل طرف متكلم أن يزحزح الطرف الآخر عن مذهبه بحجة أو بشبهة ، بهدف إسقاط المذهب .

إذن : فالجدال هو مناقشة طرفين ، يتقاسمان الكلام بهدف أن يقنع أحدهما الآخر بأن ينصرف عن مذهبه هو إلى مذهب القائل .

وكلمة " الجدال " مأخوذة من " الجَدْل " أي : الفَتْل ، وفتل الحبل إنما يأتي من أخذ شعرات من الكتان أو الحرير أو أي مادة مثل هذا أو ذاك ، ثم ضَمِّ شعرتين إلى بعضهما ، ثم القيام

بِلَفّ كل شعرتين أخريين ، وهكذا حتى يتم اكتمال الحبل .

ويقال للرجل القوي : " مفتول العضلات " ، أي : أن عضلاته ليست رخوة أو ضعيفة ، بل مفتولة ، أي : متداخلة ومشدودة .

وحين تنظر إلى الجهاز العضلي فأنت تندهش لقدرة الحق سبحانه وتعالى الذي خلق كل عضلة بشكل وأسلوب معين ، يتيح لها أن تتآزر وتتعاون مع غيرها من العضلات لأداء الحركات المطلوبة منها .

فحين يرفع الإنسان رأسه فهو يحتاج لحركة أكثر من عضلة ، وحين تعمل اليد فهي تحرك أكثر من عضلة ، ولو تعطلت حركة عضلة واحدة ، لامتنعت الحركة المقابلة لها .

وهم قد قالوا لنوح عليه السلام :

﴿ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ [هود : 32] .

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام عاش ألف عام إلا خمسين عاماً ، ومعنى ذلك أن جداله معهم أخذ وقتاً طويلاً .

والجدال يختلف عن المِرَاء ، لأن الجدال إنما يكون لحقٍّ ، والمراء ، يكون بعد ظهور الحق .

الجدال إذن مطلوب ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : 125] .

وكذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [المجادلة : 1] .

(68/377)

إذن : فالجدال مطلوب لنصل إلى الحق ، شرط أن يكون جدلاً حسناً ، لا احتكاك فيه ولا إيذاء .

وهناك فارق بين احتكاك الآراء ، وتحكُّك الآراء ، فالتحكك كالتلكّك ، وهو الرغبة في عدم الوصول إلى الحق ، لكن الاحتكاك هو الذي يوصل إلى الحق ، مثلما نحكُّ الزناد بقطعة من حديد فتولد الشرر لنرى الحق ، أما التحكُّك فهو يواري ويطمس الحقيقة .

والمِرَاء هو الجدَال بعد أن يظهر الحق ، وهو مأخوذ من مَرَى الضَّرع ، فحينَ يقومون بإنزال اللبن من ضرع الناقة أو البقرة ، فالضرع يكون ملآن ، وينزل منه اللبن بشدة وقوة ، وبعد أن ينتهي حَلْبُ الضرع ، يظل مَنْ يحلبها مُمْسِكاً بحَلَمات الناقة أو الجاموسة ، ويستحلب ما بقى من اللبن ، ويُقال لهذا الجزء الأخير " المريى " .

ولذلك أخذوا من هذه العملية كلمة " المراء " ، وهو ما بعد ظهور الحق .

وهناك بجانب الجدال والمراء ، والاحتكاك ، والتحكُّك ، والحِجَاج؛ والمراد بالحجاج هو

إظهار حجة الخصم على الخصم .

وبعد أن مَلُّوا من جدال نوح عليه السلام طلبوا أن ينزل بهم العذاب الذي أنذرهم به ، وقد استبطأوا مجيء هذا العذاب ؛ لأن نوحاً عليه السلام عاش بينهم ألف سنة إلا خمسين ، وقالوا :

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [هود : 32] .

وكأنهم بهذا القول قد أخرجوا نوحاً مَخْرج من بيده أن يأتي بالعذاب ، أو يمنع العذاب ، وهذه مسألة لا يملكها نوح ، بل هي مِلْك لله سبحانه وتعالى .

ولذلك يُنبههم نوح عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ الله ﴾

لأن الحق سبحانه هو الذي يقدِّر للعذاب أواناً ، ويقدِّر لكل تعذيب ميلاداً ، ولا يَعْجَلُ الله بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد .

وهم لن يعجزوا الله تعالى ولن يفلتوا منه ؛ لأنه لا توجد قوة في الكون يمكن أن تمنع مشيئة الله تعالى ، أو أن تتأبَّى عليه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان نوح عليه السلام: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نصحي إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ﴾

والمعنى هنا: إن كان الله سبحانه يريد أن يغويكم فلن تنتفعوا بالنصيحة إن أردت أن أنصحكم؛ لأن الآية بها تعدُّد الشرطين.

ومثال ذلك من حياتنا: حين يطرد ناظر المدرسة طالباً، عقاباً له على خطأ معين، فالطالب قد يستعطف الناظر، فيقول الناظر: "إن جئتني غداً أقبل اعتذارك إنْ كان معك والدك".

وقول الناظر: "إن كان معك والدك" هو شرط متأخِر، ولكنه كان يجب أن يتقدَّم.

وفي الآية الكريمة التي نحن بصددها جاء الشرط الأول متأخِّراً، ولكن هل يغوي الله سبحانه عِبادَه؟

لا، إنه سبحانه يهديهم، والغواية هي الضلال والبعد عن الطريق المستقيم.

والحق سبحانه يقول عن محمد صلى الله عليه وسلم:

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غوى ﴾ [النجم: 2].

وقال سبحانه عن آدم عليه السلام حين أكل من الشجرة:

﴿ وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى ﴾ [طه: 121].

ونحن يجب ألاَّ نقع في الآفة التي يخطىء البعض بها، حين يستقبلون ألفاظ العقائد على

أساس ما اشتهر به اللفظ من معنى ؛ فالألفاظ لها معانٍ متعددة .

لذلك لا بد أن نعرض كل معاني اللفظ لنأخذ اللفظ المناسب للسّياق .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصلاة واتبعوا الشهوات فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ [مريم : 59] .

وقوله سبحانه هنا : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ .

أي : سوف يلقون عذاباً ، لأن غيَّهم كان سبباً في تعذيبهم ، فسمَّى العذاب باسم مُسبِّبه .

ومثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] .

والحق سبحانه لا يُسيء لعباده ، ولكنهم هم الذين يُسيئون لأنفسهم ، فسمَّى ما يلقاهم من العذاب سيئةً .

(70/377)

وكذلك " الغَيُّ " يرد بمعنى " الإغواء " ، ويرد بمعنى الأثر الذي يترتب عن الغي من العذاب .

وقد عرض الحق سبحانه وتعالى في كتابه صوراً متعددة للإغواء ، فآدم عليه السلام حين تَنكَّبَ عن الطريق ، وأكل من الشجرة المحرَّمة رغم تحذير الحق سبحانه له ألاّ يقربها ، قال الحق سبحانه وتعالى في هذا الموقف :

﴿ وعصى ءَادَمُ ربَّهُ فغوى ﴾ [طه : 121] .

وقد فعل آدم عليه السلام ذلك بحكم طبيعته البشرية ، فأراد الله تعالى أن يعلمه أنه إذا خالف المنهج في " افعل " و " لا تفعل " ستظهر عورته وتبدو له سوءاته .

وهكذا أخذ آدم عليه السلام التجربة ليكون مُستعِداً لاستقبال المنهج والوَحْي .

وقد ذكر لنا الحق سبحانه كلمات الشيطان بقوله :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأرض وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 39] .

ولكن هل أغوى الله سبحانه الشيطان ؟

إن الحق سبحانه لا يُغْوِي ، ولكنه يترك الخيار للمكلَّف إن شاء أطاع ، وإن شاء عَصَى .

ولو أنه سبحانه وتعالى جعلنا مؤمنين لما كان لنا اختيار ، فإن أطاع الإنسان نال عطاء الله ، وإن ضَلَّ ، فقد جعل الله له الاختيار ، ووَجَّهه لغير المراد مع صلاحيته للمراد .

إذن : فالاختيار ليس مقصوراً على الإغواء بل فيه الهداية أيضاً ، والإنسان قادر على أن يهتدي ، وقادر على أن يضلَّ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ إِنِ افتريته ﴾

جاء هذا القول في صُلْب قصة نوح عليه السلام وقد يكون مما أوحى به الله سبحانه لنوح عليه السلام ، أو يكون المراد به أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الكلام .

والافتراء كما نعلم هو الكذب المتعمّد الذي يناقض واقعاً .

(71/377)

وانظروا إلى كل ما جاء بالمنهج ليلتزم به الفرد ، ستجدون أنه مُلْزِمٌ للجميع ، وستكون الفائدة التي تعود عليك بالتزام الجميع بما فيهم أنت فائدة كبيرة ، فإن قال لك المنهج : لا تسرقْ ؛ فهذا أمانٌ لك من أن يسرقك الناس .

ولذلك فساعة تسمع للمنهج ، لا تنظرْ إلى المأخوذ منك ، بل التفتْ إلى المأخوذ لك .

وعلى ذلك لا يمكن أن يكون المنهج افتراء .

ونحن نعلم أن المنهج يؤسِّس في المجتمعات مقاييس عادلة للاستقامة ، وحين يُشَرِّع الحق سبحانه تشريعاً ، قد يبدو لك أنه يُحِدُّ من حريتك ، ولكنه في الواقع يُحقِّق لك منافع متعدِّدة ، ويحميك من أن يعتدي الآخرين عليك .

وكان الردُّ على الاتهام بالافتراء يتمثَّل في أمرين : إما أن يفتروا مثله ، أو أن يتحمَّل هو وِزْرُ إجرام الافتراء .

وإن لم يكن قد افتراه، فعليهم يقع وِزْرُ إجرامهم باتّهامه أنه قد افترى .

وأسلوب الآية الكريمة يحذف عنهم البراءة في الشطر الأول منها ، ولو جاء بالقول دون احتباك، لقال سبحانه : قل إن افتريته فعليَّ إجرامي وأنتم براءه منه ، وإنْ لم أفْتَرِ فعليكم إجرامكم وأنا برىء .

وجاء الحذف من شِقّ المقابل من شِقّ آخر ، وهذا ما يسمَّى في اللغة " الاحتباك " .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [البقرة : 249] .

والفئة القليلة تكون قلّتُها في الأفراد والعتَاد وكلِّ لوازم الحرب ، والفئة الكثيرة ، تظهر كثرَتها في العُدَّة والعَدَد وكلِّ لوازم الحرب ، والفئة القليلة إنما تَغْلِب بإذن الله تعالى .

وهكذا يوضِّح الحق سبحانه أن الأسباب تقضي بغلبة الفئة الكثيرة ، لكن مشيئته سبحانه تغلب الأسباب وتصل إلى ما شاءه الله تعالى .

ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾ [آل عمران : 13] .

وحذف سبحانه صفة الإيمان عن الفئة الأولى ، كما حذف عن الفئة الثانية صفة أنها تقاتل في سبيل الطاغوت والشيطان ، وهذا يسمَّى " الاحتباك " .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قال الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنِ افتريته فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بريء مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود : 35] .

ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يبين لنا قول رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم حين خاطب قومه ، فقال سبحانه :

﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ : 25] .

فلم يَقُلْ : " عَمَّا تُجرمون " . فلم يقابل إيذاءهم القوليَّ والماديَّ له بإيذاء قوليٍّ .

وكذلك ذكر الحق سبحانه ما جاء على لسان محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 24] .

وهذا ارتقاء في الجدل يناسب رحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أنزلها الله على العالم كله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا باديَ الرأي ﴾ قال : فيما ظهر لنا .

وأخرج أبو الشيخ عن عطاء رضي الله عنه . مثله .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ إن كنت على بينة من ربي ﴾ قال : قد عرفتها وعرفت بها أمره وأنه لا إله إلا هو ﴿ وآتاني رحمة من عنده ﴾ قال : الإِسلام والهدى والإِيمان والحكم والنبوة .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ أنلزمكموها ﴾ قال : أما والله لو استطاع نبي الله لألزمها قومه ولكنه لم يستطع ذلك ولم يملكه .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما . أنه كان يقرأ " أنلزمكموها من شطر أنفسنا وأنتم لها كارهون " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قرأ " أنلزمكموها من شطر قلوبنا " .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ إن أجري ﴾ قال : جزائي .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ قال : قالوا له : يا نوح إن أحببت أن نتبعك فاطردهم وإلا فلن نرضى أن نكون نحن وهم في الأمر سواء . وفي قوله ﴿ إنهم ملاقوا ربهم ﴾ قال : فيسألهم عن أعمالهم ﴿ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ﴾ التي لا يفنيها شيء فأكون إنما أدعوكم لتتبعوني عليها لأعطيكم منها بملكه أي عليها ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ لا أقول اتبعوني على علمي بالغيب ﴿ ولا أقول إني ملك ﴾ نزلت من السماء برسالة ﴿ ما أنا إلا بشر مثلكم ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ ولا أقول للذين تزدري أعينكم ﴾ قال : حقرتموهم .

(74/377)

وأخرج أبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ لن يؤتيهم الله خيراً ﴾ قال : يعني إيماناً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا ﴾ قال : ماريتنا .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج رضي الله عنه ﴿ فائتنا بما تعدنا ﴾ قال :

تكذيباً بالعذاب وأنه باطل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فعليَّ إجرامي ﴾ قال : عملي ﴿ وأنا بريء مما تجرمون ﴾ أي مما تعملون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(75/377)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ جِدَالَنَا ﴾ : قرأ ابن عباس " جَدلنا " كقوله : ﴿ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [الكهف : 54] . ونقل أبو البقاء أنه قُرِيء " جَدَلْتَنا فأكْثرت جَدَلَنا " بغير ألفٍ فيهما قال : وهو بمعنى غَلَبْتَنا بالجدل " .

وقوله : ﴿ بِمَا تَعِدُنآ ﴾ فيجوز أن تكونَ " ما " بمعنى الذي ، فالعائدُ محذوفٌ ، أي : تَعِدناه . ويجوز أن تكونَ مصدريةً ، أي : بوعدك إيانا . وقوله " إنْ كنت " جوابُه محذوف

أو متقدّمٍ وهو " فَأْتِنا " .

﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصحَ لَكُمْ إن كانَ ﴾ : قد تقدم حُكْمُ توالي الشرطين وأنَّ ثانيَهما قيدٌ في الأول ، وأنه لا بد من سَبْقه للأول . وقال الزمخشريُّ هنا : " إن كان اللَّه " جزاؤُه ما دلَّ عليه قولُه : " لا ينفعكم نُصْحي " ، وهذا الدليلُ في حكم ما دلَّ عليه ، فوُصِل بشرطٍ ، كما وُصِل الجزاء بالشرط في قوله " إنْ أَحْسَنْتَ إليَّ أحسنتُ إليك إنْ أمكنني " .

(76/377)

وقال أبو البقاء : " حكمُ الشرطِ إذا دَخَل على الشرط أن يكون الشرطُ الثاني والجواب جواباً للشرط الأول نحو : " إنْ أَتَيْتني إن كلَّمتني أَكْرَمْتك " فقولُك " إنْ كَلَّمْتني أكرمتُك " : جوابُ " إن أتيتني " جميعُ ما بعده ، وإذا كان كذلك صار الشرطُ الأول في الذِّكْرِ مؤخَّراً في المعنى ، حتى إنْ أتاه ثم كلَّمه لم يجب الإِكرام ، ولكن إنْ كلَّمه ثم أتاه وَجَبَ الإِكرام ، وعلةُ ذلك أن الجواب صار مُعوَّقاً بالشرط الثاني ، وقد جاء في القرآن منه ﴿ إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النبي ﴾ [الأحزاب : 50] .

قلت : أمَّا قولُه : " إنْ وَهَبَتْ . . . أن أراد " فظاهره وظاهرُ القصةِ المَرْوِيَّةِ يدل على عدم اشتراطِ تقدُّم الشرط الثاني على الأول ، وذلك أن إرادتَه عليه السلام للنكاح إنما هو مُرَتَّبٌ على هِبة المرأةِ نفسَها له ، وكذا الواقعُ في القصة لمَّا وَهَبَت أراد نكاحَها ، ولم يُرْوَ أنه أراد نكاحَها فوهبت ، وهو يحتاج إلى جوابٍ ، وسيأتي هذا إن شاء اللَّهُ في موضِعِه .

وقال ابن عطية هنا : " وليس نُصحي لكم بنافع ، ولا إرادتي الخيرَ لكم مُغْنيةً إذا أراد اللَّه تعالى بكم الإِغواء ، والشرطُ الثاني اعتراض بين الكلام ، وفيه بلاغةٌ من اقتران الإِرادتين ، وأن إرادة البشرِ غيرُ مُغْنيةٍ ، وتعلُّقُ هذا الشرطِ هو " بنصحي " ، وتعلَّقُ الآخر ب " لا ينفع " .

وتلخص من ذلك أن الشرطَ مدلولٌ على جوابه بقوله : " ولا ينفعكم " لأنه عَقِبُه ، وجوابُ الثاني أيضاً ما دلَّ على جواب الأول ، وكأنَّ التقدير : وإنْ أَرَدْتُ أن أنصحَ لكم إن كان اللَّه يريد أن يُغْوِيَكم فلا يَنْفعكم نصحي . وهو مِنْ حيث المعنى كالشرط إذا كان بالفاء نحو : إن كان اللَّهُ يريدُ أن يُغْوِيكم فإن أَرَدْتُ أن أنصح لكم فلا ينفعكم نُصْحي .

وقرأ الجمهور "نُصْحي" بضم النون وهو يحتمل وجهين، أحدهما: المصدرية كالشُّكُر والكُفْر. والثاني: أنه اسمٌ لا مصدر. وقرأ عيسى ابن عمر "نَصْحي" بفتح النون، وهو مصدرٌ فقط.

وفي غضون كلام الزمخشري: "إذا عرف اللَّهُ" وهذا لا يجوز؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى لا يُسْنَدُ إليه هذا الفعلُ ولا يُوصف بمعناه، وقد تقدَّم علةُ ذلك غيرَ مرةٍ. وفي غضون كلام الشيخ "وللمعتزلِيِّ أن يقول: لا يتعيَّن أن تكون "إنْ" شرطيةً بل هي نافيةٌ والمعنى: ما كان اللَّه يريد أن يُغْويكم". قلت: لا أظنُّ أحداً يرضى بهذه المقالة وإن كانت توافق مذهبه.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (35) ﴾

قوله تعالى: ﴿ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ﴾: مبتدأ وخبرٌ أو فعلٌ وفاعل. والجمهورُ على كسرِ همزة "إجرامي" وهو مصدر أجرم، وأجرم هو الفاشي، ويجوز جَرَمَ ثلاثياً وأنشدوا:

2658 طَرِيدُ عشيرةٍ ورهينُ ذَنْبٍ ... بما جَرَمَت يَدي وجَنَى لساني

وقُرِىء في الشاذ "أجرامي" بفتحها، حكاه النحاس، وخَرَّجه على أنه جمع جُرْم كقُفْل أَقْفال، والمراد آثامي. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 318. 321﴾

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32) ﴾

أوضح لهم من البراهين ما لوا أنعموا النظر فيه لتمّ لهم اليقين ، ولكنهم أصروا على الجحود ، ولم يقنعوا من الموعود بغير المشهود .

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) ﴾

أقَرَّ بالعبودية ، وتبرّأ عن الحول والقوة ، وأحال الأمرَ على المشيئة . ولقد أنصف مَنْ لم يُجَاوِزْ حدَّه في الدعوى . والأنبياء عليهم السلام - وإن كانوا أصحاب التحدي للناس بمعجزاتهم فهم معترفون بأنهم موقوفون عند حدودهم .

﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34) ﴾

مَنْ لم يُساعده تعريفُ الحقِ - بما له بحكم العناية - لم ينفعه نُصْحُ الخَلْقِ في النهاية .

ويقال مَنْ لم يُوَصِّلْه الحقُّ للوصال في آزله لم ينفعه نُصْحُ الخَلْقِ في حاله .

ويقال مَنْ سَبَقَ الحُكْمُ له بالضلالة أنَّى ينفعه النصحُ وبَسْطُ الدلالة ؟

ويقال من لم تساعدْه قسمةُ السوابق لم ينفعه نُصْحُ الخلائق .

قوله : ﴿ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ : من المحال اجتماع الهداية والغواية ؛ فإذا أراد اللهُ بقوم الغواية لم يصح أن يقال إنهم من أهل الهداية .

ثم بيَّن المعنى في ذلك بأن قال : ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ لِيَعْلَم العالِمون أَنَّ الربَّ تعالى له أن يفعل بعباده ما شاء بحكم الربوبية .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (35) ﴾

ومهما وصفتموني فإني أُجِيبُ اللّهَ . . . وكُلٌّ مُطَالَبٌ بفعله دون فِعْلِ صاحِبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 134 . 135 ﴾

(79/377)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) ﴾

لما أورد سبحانه على الكفار المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم أنواع الدلائل التي هي أوضح من الشمس ، أكد ذلك بذكر القصص على طريقة التفنن في الكلام ، ونقله من أسلوب إلى أسلوب لتكون الموعظة أظهر والحجة أبين ، والقبول أتمّ ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ

أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ قرأ ابن كثيرة، وأبو عمرو، والكسائي بفتح الهمزة على تقدير حرف الجر: أي أرسلناه بأني: أي أرسلناه متلبساً بذلك الكلام، وهو أني لكم نذير مبين.

وقرأ الباقون بالكسر على إرادة القول: أي قائلاً إني لكم، والواو في ﴿ ولقد ﴾ للابتداء، واللام هي الموطئة للقسم، واقتصر على النذارة دون البشارة، لأن دعوته كانت لمجرد الإنذار، أو لكونهم لم يعملوا بما بشرهم به، وجملة ﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللهَ ﴾ بدل من إني لكم نذير مبين: أي أرسلناه بأن لا تعبدوا إلا الله، أو تكون أن مفسرة متعلقة بأرسلنا، أو بنذير، أو بمبين، وجملة: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ تعليلية.

والمعنى: نهيتكم عن عبادة غير الله لأني أخاف عليكم، وفيها تحقيق لمعنى الإنذار، واليوم الأليم: هو يوم القيامة، أو يوم الطوفان؛ ووصفه بالأليم من باب الإسناد المجازي مبالغة.

(80/377)

ثم ذكر ما أجاب به قومه عليه، وهذا الجواب يتضمن الطعن منهم في نبوّته من ثلاث جهات، فقال: ﴿ فَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قومِهِ ﴾ والملأ: الأشراف، كما تقدم غير مرة،

ووصفهم بالكفر ذماً لهم ، وفيه دليل على أن بعض أشراف قومه لم يكونوا كفرة ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ هذه الجهة الأولى من جهات طعنهم في نبوّته : أي : نحن وأنت مشتركون في البشرية ، فلم يكن لك علينا مزية تستحق بها النبوّة دوننا ، والجهة الثانية : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلَّا الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ ولم يتبعك أحد من الأشراف ، فليس لك مزية علينا باتباع هؤلاء الأراذل لك .

والأراذل : جمع أرذل ، وأرذل جمع رذل ، مثل : أكالب وأكلب وكلب .

وقيل : الأراذل جمع الأرذل ، كالأساود جمع أسود ، وهم : السفلة .

قال النحاس : الأراذل : الفقراء والذين لا حسب لهم ، والحسب : الصناعات .

قال الزجاج : نسبوهم إلى الحياكة ، ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها في الديانة .

وقال ثعلب عن ابن الأعرابي : السفلة هو الذي يصلح الدنيا بدينه ، قيل له : فمن سفلة السفلة؟ قال : الذي يصلح دنيا غيره بفساد دينه .

والظاهر من كلام أهل اللغة : أن السفلة هو الذي يدخل في الحرف الدنية ، والرؤية في الموضعين إن كانت القلبية ف ﴿ بشرا ﴾ في الأوّل ، و ﴿ اتبعك ﴾ في الثاني هما المفعول الثاني ، وإن كانت البصرية فهما منتصبان على الحال ، وانتصاب ﴿ بادي الرأي ﴾ على الظرفية ، والعامل فيه ﴿ اتبعك ﴾ .

والمعنى : في ظاهر الرأي من غير تعمق ، يقال بدا يبدو : إذا ظهر .

قال الأزهري : معناه فيما يبدو لنا من الرأي .

(81/377)

والوجه الثالث : من جهات قدحهم في نبوّته ﴿ وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ خاطبوه في الوجهين الأولين ، منفرداً وفي هذا الوجه خاطبوه مع متبعيه أي : ما نرى لك ولمن اتبعك من الأراذل علينا من فضل يتميزون به ، وتستحقون ما تدّعونه ، ثم أضربوا عن الثلاثة المطاعن ، وانتقلوا إلى ظنهم المجرّد عن البرهان الذي لا مستند له إلا مجرد العصبية ، والحسد ، واستبقاء ما هم فيه من الرياسة الدنيوية ، فقالوا : ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذبين ﴾ فيما تدّعونه ، ويجوز أن يكون هذا خطاباً للأراذل وحدهم ، والأوّل : أولى ؛ لأن الكلام مع نوح لا معهم إلا بطريق التبعية له .

ثم ذكر سبحانه ما أجاب به نوح عليهم ، فقال : ﴿ قَالَ ياقوم أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيّنَةٍ مّن رَّبّى ﴾ أي : أخبروني إن كنت على برهان من ربي في النبوّة يدل على صحتها ويوجب عليكم قبولها ، مع كون ما جعلتموه قادحاً ليس بقادح في الحقيقة ، فإن المساواة في صفة البشرية لا تمنع المفارقة في صفة النبوّة ، واتباع الأراذل كما تزعمون ليس مما يمنع من النبوّة ،

فإنهم مثلكم في البشرية والعقل والفهم ، فاتباعهم لي حجة عليكم لا لكم ، ويجوز أن يريد بالبينة المعجزة ﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ ﴾ هي : النبوّة ، وقيل : الرحمة : المعجزة ، والبينة : النبوّة .

قيل : ويجوز أن تكون الرحمة هي : البينة نفسها ، والأولى تفسير الرحمة بغير ما فسرت البينة ، والإفراد في ﴿ فَعُمِّيَتْ ﴾ على إرادة كل واحدة منهما ، أو على إرادة البينة ، لأنها هي التي تظهر لمن تفكر ، وتخفى على من لم يتفكر ، ومعنى عميت : خفيت ؛ وقيل : الرحمة هي على الخلق ، وقيل : هي الهداية إلى معرفة البرهان ، وقيل : الإيمان ، يقال عميت عن كذا ، وعمي عليّ كذا : إذا لم أفهمه .

قيل وهو من باب القلب ، لأن البينة أو الرحمة لا تعمى وإنما يعمى عنها فهو كقولهم : أدخلت القلنسوة رأسي .

(82/377)

وقرأ الأعمش ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص ﴿ فعميت ﴾ بضم العين وتشديد الميم على البناء للمفعول : أي فعماها الله عليكم ، وفي قراءة أبيّ " فعماها عليكم " والاستفهام في ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ للإنكار : أي لا يمكنني أن أضطركم إلى المعرفة بها ، والحال أنكم

﴿ لها كارهون ﴾ ، والمعنى : أخبروني إن كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة نبوّتي إلا أنها خافية عليكم أيمكننا أن نضطركم إلى العلم بها ، والحال أنكم لها كارهون غير متدبرين فيها ، فإن ذلك لا يقدر عليه إلا الله عزّ وجلّ .

وحكى الكسائي والفراء إسكان الميم الأولى في ﴿ أنلزمكموها ﴾ تخفيفاً كما في قول الشاعر :

فاليوم أشرب غير مستحقب . . . إثماً من الله ولا واغل

فإن إسكان الباء في أشرب للتخفيف .

وقد قرأ أبو عمرو كذلك .

قوله : ﴿ ويا قوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ﴾ فيه التصريح منه عليه السلام بأنه لا يطلب على تبليغ الرسالة مالاً حتى يكون بذلك محلاً للتهمة ، ويكون لقول الكافرين مجال بأنه إنما ادّعى ما ادعى طلباً للدنيا ، والضمير في عليه راجع إلى ما قاله لهم ، فيما قبل هذا .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الذين ءامَنُواْ ﴾ كالجواب عما يفهم من قولهم ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ من التلميح منهم إلى إبعاد الأراذل عنه .

وقيل : إنهم سألوه طردهم تصريحاً لا تلميحاً ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّهُم ملاقوا رَبِّهِمْ ﴾ أي : لا أطردهم ، فإنهم ملاقون يوم القيامة ربهم فهو يجازيهم على إيمانهم لأنهم طلبوا ما عنده سبحانه ، وكأنه قال هذا على وجه الإعظام لهم ، ويحتمل أنه قاله خوفاً من مخاصمتهم له عند ربهم بسبب طرده لهم ؛ ثم بين لهم ما هم عليه في هذه المطالب التي طلبوها منه ، والعلل التي اعتلوا بها عن إجابته فقال : ﴿ ولكنى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ كل ما ينبغي أن يعلم ، ومن ذلك استرذالهم للذين اتبعوه وسؤالهم له أن يطردهم .

ثم أكد عدم جواز طردهم بقوله : ﴿ ويا قوم مَن يَنصُرُنِى مِنَ اللهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ﴾ أي : من يمنعني من عذاب الله وانتقامه إن طردتهم ؟ فإن طردهم بسبب سبقهم إلى الإيمان والإجابة إلى الدعوة التي أرسل الله رسوله لأجلها ظلم عظيم ، لا يقع من أنبياء الله المؤيدين بالعصمة ، ولو وقع ذلك منهم فرضاً وتقديراً لكان فيه من الظلم ما لا يكون لو فعله غيرهم من سائر الناس .

وقوله : ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ معطوف على مقدّر ؛ كأنه قيل : أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل بما ذكر ، أفلا تذكرون من أحوالهم ما ينبغي تذكره ، وتتفكرون فيه ، حتى تعرفوا ما أنتم عليه من الخطأ ، وما هم عليه من الصواب .

قوله : ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللهِ ﴾ بين لهم أنه كما لا يطلب منهم شيئاً من أموالهم

على تبليغ الرسالة ، كذلك لا يدّعي أن عنده خزائن الله حتى يستدلوا بعدمها على كذبه ، كما قالوا : ﴿ وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ والمراد بخزائن الله : خزائن رزقه ﴿ وَلا أَعْلَمُ الغيب ﴾ أي : ولا أدّعي أني أعلم بغيب الله ، بل لم أقل لكم إلا أني نذير مبين ، إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴿ وَلا أَقُولُ ﴾ لكم ﴿ إِنّى مَلَكٌ ﴾ تقولوا ما نراك إلا بشراً مثلنا .

(84/377)

وقد استدلّ بهذا من قال : إن الملائكة أفضل من الأنبياء ، والأدلة في هذه المسألة مختلفة ، وليس لطالب الحق إلى تحقيقها حاجة ، فليست مما كلفنا الله بعلمه ﴿ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ ﴾ أي : تحتقر ، والازدراء مأخوذ من أزرى عليه : إذا عابه ، وزري عليه : إذا احتقره ، وأنشد الفراء :

يباعده الصديق وتزدريه . . . خليلته وينهره الصغير

والمعنى : إني لا أقول لهؤلاء المتبعين لي المؤمنين بالله الذين تعيبونهم وتحتقرونهم ﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ الله خَيْرًا ﴾ بل قد آتاهم الخير العظيم بالإيمان به واتباع نبيه ؛ فهو مجازيهم بالجزاء العظيم في الآخرة ، ورافعهم في الدنيا إلى أعلى محل ، ولا يضرّهم احتقاركم لهم شيئاً ﴿

الله أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ من الإيمان به ، والإخلاص له ، فمجازيهم على ذلك ، ليس لي ولا لكم من أمرهم شيء ﴿ إِنِّى إِذًا لَّمِنَ الظالمين ﴾ لهم إن فعلت ما تريدونه بهم ، أو من الظالمين لأنفسهم إن فعلت ذلك بهم ، ثم جاوبوه بغير ما تقدّم من كلامهم وكلامه عجزاً عن القيام بالحجة ، وقصوراً عن رتبة المناظرة ، وانقطاعاً عن المباراة بقولهم : ﴿ يا نوح قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ أي : خاصمتنا بأنواع الخصام ، ودفعتنا بكل حجة لها مدخل في المقام ، ولم يبق لنا في هذا الباب مجال ، فقد ضاقت علينا المسالك ، وانسدّت أبواب الحيل ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب الذي تخوّفنا منه ، وتخافه علينا ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ فيما تقوله لنا ، فأجاب بأن ذلك ليس إليه وإنما هو بمشيئة الله وإرادته ، و ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ الله إِن شَاء ﴾ فإن قضت مشيئته وحكمته بتعجيله عجله لكم ، وإن قضت مشيئته وحكمته بتأخيره أخره ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ بفائتين عما أراده الله بكم بهرب أو مدافعة .

﴿ وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِى ﴾ الذي أبذله لكم ، وأستكثر منه قياماً مني بحق النصيحة لله بإبلاغ رسالته ، ولكم بإيضاح الحق وبيان بطلان ما أنتم عليه ﴿ إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ

﴾ وجواب هذا الشرط محذوف ، والتقدير : إن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي ، كما يدل عليه ما قبله : ﴿ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ أي : إن كان الله يريد إغواءكم ، فلا ينفعكم النصح مني ، فكان جواب هذا الشرط محذوفاً كالأوّل ، وتقديره ما ذكرنا ، وهذا التقدير إنما هو على مذهب من يمنع من تقدّم الجزاء على الشرط ، وأما على مذهب من يجيزه ، فجزاء الشرط الأوّل ، ﴿ ولا ينفعكم نصحي ﴾ ، وجزاء الشرط الثاني الجملة الشرطية الأولى وجزاؤها .

قال ابن جرير : معنى ﴿ يغويكم ﴾ يهلككم بعذابه ، وظاهر لغة العرب أن الإغواء : الإضلال ؛ فمعنى الآية : لا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد أن يضلكم عن سبيل الرشاد ، ويخذلكم عن طريق الحق .

وحكى عن طيّ : أصبح فلان غاوياً : أي مريضاً ، وليس هذا المعنى هو المراد في الآية .

وقد ورد الإغواء بمعنى الإهلاك ، ومنه : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقُونَ غَيّاً ﴾ [مريم : 59] وهو غير ما في هذه الآية ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ فإليه الإغواء وإليه الهداية ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشرّ .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرأى ﴾ قال : فيما ظهر لنا .

وأخرج أبو الشيخ ، عن عطاء ، مثله .

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: ﴿ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ قال: قد عرفتها وعرفت بها أمره، وأنه لا إله إلا هو، ﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ ﴾ قال: الإسلام الهدى والإيمان، والحكم والنبوّة.

(86/377)

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن قتادة في قوله: ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ قال: أما والله لو استطاع نبيّ الله لألزمها قومه، ولكنه لم يستطع ذلك ولم يمكنه.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، أنه كان يقرأ "أنلزمكموها من شطر أنفسنا وأنتم لها كارهون".

وأخرج ابن جرير، عن أبي العالية، قال في قراءة أبيّ: "أنلزمكموها من شطر أنفسنا وأنتم لها كارهون".

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن أبيّ بن كعب، أنه قرأ: "أنلزمكموها من شطر قلوبنا".

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءامَنُوا ﴾، قال: قالوا له: يا نوح، إن أحببت أن نتبعك فاطردهم، وإلا فلن نرضى أن نكون نحن

وهم في الأرض سواء ، وفي قوله : ﴿ إِنَّهُم ملاقوا رَبِّهِمْ ﴾ قال : فيسألهم عن أعمالهم ﴿ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللهِ ﴾ التي لا يفنيها شيء ، فأكون إنما دعوتكم لتتبعوني عليها ، لا أعطيكم بملكه لي عليها ﴿ وَلاَ أَعْلَمُ الغيب ﴾ لا أقول : اتبعوني على علمي بالغيب ﴿ وَلاَ أَقُولُ إِنّى مَلَكٌ ﴾ نزلت من السماء برسالة ، ما أنا إلا بشر مثلكم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد ﴿ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ ﴾ .

قال : حقرتموهم .

وأخرج أبو الشيخ ، عن السدي ، في قوله : ﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا ﴾ قال : يعني : إيماناً .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن ابن جريج ، في قوله : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ قال : تكذيباً بالعذاب ، وأنه باطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(87/377)

قوله تعالى ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما فرغ من هذه الجملة التي هي المقصود بهذا السياق كله وإن كانت اعتراضية في هذه القصة ، رجع إلى إكمالها بياناً لأن نوحاً عليه السلام كان يكاشف قومه بجميع ما أمر به وإن عظمت مشقته عليهم بحيث لم يكن قط موضع رجاء لهم في أن يترك شيئاً منه وتحذيراً لكل من سمع قصتهم من أن يحل به ما حل بهم فقال : ﴿ وأوحي ﴾ أي من الذي لا موحي إلا هو وهو ملك الملوك ﴿ إلى نوح ﴾ بعد تلك الخطوب ﴿ أنه لن يؤمن ﴾ بما جئت به ﴿ من قومك إلا من ﴾ ولما كان الذي يجيب الإنسان إلى ما يسأله فيه يلوح عليه مخايل قبل الإجابة يتوقع السائل بها الإجابة ، قال : ﴿ قد آمن فلا ﴾ أي فتسبب عن علمك بأنه قد تم شقاءهم أنا نقول لك : لا ﴿ تبتئس ﴾ أي يحصل لك بؤس ، أي شدة يعظم عليك خطبها بكثرة تأملك في عواقبها ﴿ بما كانوا ﴾ أي بما جبلوا عليه ﴿ يفعلون ﴾ فإنا نأخذ لك بحقك منهم قريباً ، وكأنه كان أعلمه أنهم إن لم يجيبوه أغرقهم وأنجاه ومن معه في فلك يحملهم فيه على متن الماء فقال : ﴿ واصنع الفلك ﴾ حال كونك محفوظاً ﴿ بأعيننا ﴾ نحفظك أن تزيغ في عملها ، وجمع مبالغة في الحفظ والرعاية على طريق التمثيل ﴿ ووحينا ﴾ فنحن نلهمك أصلح ما يكون من عملها وأنت تعلم ما لنا من العظمة التي تغلب كل شيء ولا يتعاظمها شيء ، فلا تهتم بكونك لا تعرف صنعتها ؛ وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن الله أوحى إليه أن يصنعه مثل جؤجؤ الطائر - أي صدره .

وأشار إلى شفقته على قومه وحبه لنجاتهم كما هو حال هذا النبي الكريم مع أمته فقال : ﴿ ولا تخاطبني ﴾ أي بنوع مخاطبة وإن قلت ﴿ في الذين ظلموا ﴾ أي أوجدوا الظلم واستمروا عليه في أن أنجيهم ؛ ثم علل النهي بأن الحكم فيهم قد انبرم فقال : ﴿ إنهم مغرقون ﴾ قد انبرم الأمر بذلك ؛ والابتئاس : حزن في استكانة ، لأن أصل البؤس الفقر والمسكنة ؛ والوحي : إلقاء المعنى إلى النفس في خفاء ، وقد يكون إفهاماً من غير كلام بإشارة ونحوها ، وقد يكون بكلام خفي ؛ والفلك : السفينة ، يؤنث ويذكر ، واحده وجمعه سواء ، وأصله الإدارة من الفلكة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 529 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما جاء هذا من عند الله تعالى دعا على قومه فقال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرضِ مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [نوح : 26] وقوله : ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ ﴾ أي لا تحزن ، قال أبو زيد : ابتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه ، وأنشد أبو عبيدة :

ما يقسم الله أقبل غير مبتئس . . به وأقعد كريماً ناعم البال

أي غير حزين ولا كاره .

المسألة الثانية :

احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم في القضاء والقدر وقالوا : إنه تعالى أخبر عن قومه أنهم لا يؤمنون بعد ذلك ، فلو حصل إيمانهم لكان إما مع بقاء هذا الخبر صدقاً ، ومع بقاء هذا العلم علماً أو مع انقلاب هذا الخبر كذباً ومع انقلاب هذا العلم جهلاً والأول ظاهر البطلان لأن وجود الإيمان مع أن يكون الإخبار عن عدم الإيمان صدقاً ، ومع كون العلم بعدم الإيمان حاصلاً حال وجود الإيمان جمع بين النقيضين ، والثاني أيضاً باطل ، لأن انقلاب خبر الله كذباً وعلم الله جهلاً محال ، ولما كان صدور الإيمان منهم لا بد وأن يكون

على هذين القسمين وثبت أن كل واحد منهما محال كان صدور الإيمان منهم محالاً مع أنهم كانوا مأمورين به ، وأيضاً القوم كانوا مأمورين بالإيمان ومن الإيمان تصديق الله تعالى في كل ما أخبر عنه .

ومنه قوله : ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا من قد آمن ﴾ فيلزم أن يقال : إنهم كانوا مأمورين بأن يؤمنوا بأنهم لا يؤمنون ألبتة .

وذلك تكليف الجمع بين النقيضين ، وتقرير هذا الكلام قد مر في هذا الكتاب مراراً وأطواراً .

المسألة الثالثة :

(90/377)

اختلف المعتزلة في أنه هل يجوز أن ينزل الله تعالى عذاب الاستئصال على قوم كان في المعلوم أن فيهم من يؤمن أو كان في أولادهم من يؤمن ، فقال قوم : إنه لا يجوز .

واحتجوا بما حكى الله تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُواْ إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح : 26 ، 27] وهذا يدل على أنه إنما حسن منه تعالى إنزال عذاب الاستئصال عليهم ، لأجل أنه

تعالى علم أنه ليس من يؤمن ، ولا في أولادهم أحد يؤمن .

قال القاضي وقال كثير من علمائنا : إن ذلك من الله تعالى جائز وإن كان منهم من يؤمن .

وأما قول نوح عليه السلام : ﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾ فذلك يدل على أنه إنما سأل ذلك من حيث إنه كان في المعلوم أنهم يضلون عباده ولا يلدون إلا فاجراً كفاراً وذلك يدل على أن ذلك الحكم كان قولاً بمجموع هاتين العلتين ، وأيضاً فلا دليل فيه على أنهما لو لم يحصلا لما جاز إنزال الإهلاك ، والأقرب أن يقال : إن نوحاً عليه السلام لشدة محبته لإيمانهم كان سأل ربه أن يبقيهم ، فأعلمه أنه لا يؤمن منهم أحد ليزول عن قلبه ما كان قد حصل فيه من تلك المحبة ، ولذلك قال تعالى من بعد : ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ أي لا تحزن من ذلك ولا تغتم ولا تظن أن في ذلك مذلة ، فإن الدين عزيز ، وإن قل عدد من يتمسك به ، والباطل ذليل وإن كثر عدد من يقول به .

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37) ﴾

(91/377)

واعلم أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَن يُؤْمِنَ قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ ءامَنَ ﴾ [هود : 36] يقتضي تعريف نوح عليه السلام أنه معذبهم ومهلكهم ، فكان يحتمل أن يعذبهم بوجوه التعذيب ،

فعرفه الله تعالى أنه يعذبهم بهذا الجنس الذي هو الغرق ، ولما كان السبيل الذي به يحصل النجاة من الغرق تكوين السفينة .

لا جرم أمر الله تعالى بإصلاح السفينة وإعدادها ، فأوحى الله تعالى إليه أن يصنعها على مثال جوجؤ الطائر .

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ واصنع الفلك ﴾ أمر إيجاب أو أمر إباحة .

قلنا : الأظهر أنه أمر إيجاب ، لأنه لا سبيل له إلى صون روح نفسه وأرواح غيره عن الهلاك إلا بهذا الطريق وصون النفس عن الهلاك واجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ويحتمل أن لا يكون ذلك الأمر أمر إيجاب بل كان أمر إباحة ، وهو بمنزلة أن يتخذ الإنسان لنفسه داراً ليسكنها ويقيم بها .

أما قوله : ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ فهذا لا يمكن أجراؤه على ظاهره من وجوه : أحدها : أنه يقتضي أن يكون لله تعالى أعين كثيرة .

وهذا يناقض ظاهر قوله تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ على عَيْنِى ﴾ [طه : 39] وثانيها : أنه يقتضي أن يصنع نوح عليه السلام ذلك الفلك بتلك الأعين ، كما يقال : قطعت بالسكين ، وكتبت بالقلم ، ومعلوم أن ذلك باطل .

وثالثها : أنه ثبت بالدلائل القطعية العقلية كونه تعالى منزهاً عن الأعضاء والجوارح والأجزاء والأبعاض ، فوجب المصير فيه إلى التأويل ، وهو من وجوه : الأول : أن معنى

﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بعين الملك الذي كان يعرفه كيف يتخذ السفينة ، يقال فلان عين على فلان نصب عليه ليكون منفحصاً عن أحواله ولا تحول عنه عينه .

(92/377)

الثاني : أن من كان عظيم العناية بالشيء فإنه يضع عينه عليه ، فلما كان وضع العين على الشيء سبباً لمبالغة الاحتياط والعناية جعل العين كناية عن الاحتياط ، فلهذا قال المفسرون معناه بحفظنا إياك حفظ من يراك ويملك دفع السوء عنك ، وحاصل الكلام أن إقدامه على عمل السفينة مشروط بأمرين أحدهما : أن لا يمنعه أعداؤه عن ذلك العمل . والثاني : أن يكون عالماً بأنه كيف ينبغي تأليف السفينة وتركيبها ودفع الشر عنه ، وقوله : ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ إشارة إلى أنه تعالى يوحي إليه أنه كيف ينبغي عمل السفينة حتى يحصل منه المطلوب .

وأما قوله : ﴿ وَلاَ تخاطبنى فِى الذين ظَلَمُواْ إِنَّهُمْ مغرقون ﴾ ففيه وجوه : الأول : يعني لا تطلب مني تأخير العذاب عنهم فإني قد حكمت عليهم بهذا الحكم ، فلما علم نوح عليه السلام ذلك دعا عليهم بعد ذلك وقال : ﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [نوح : 26] الثاني : ﴿ وَلاَ تخاطبنى ﴾ في تعجيل ذلك العقاب على الذين ظلموا ، فإني

لما قضيت إنزال ذلك العذاب في وقت معين كان تعجيله ممتنعاً ، الثالث : المراد بالذين ظلموا امرأته وابنه كنعان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 176 . 178 ﴾

(93/377)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أنه لن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾

حقق الله تعالى استدامة كفرهم تحقيقاً لنزول الوعيد بهم ، قال الضحاك ، فدعا عليهم لما أُخبر بهذا فقال : ﴿ ربّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً . إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إلاَّ فاجراً كَفَّاراً ﴾ [نوح: 27 : 26] .

﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فلا تأسف ومنه قول يزيد بن عبد المدان :

فارسُ الخيل إذا ما ولولت . . . ربّهُ الخِدر بصوتٍ مبتئس

الثاني : فلا تحزن ، ومنه قول الشاعر :

وكم من خليلٍ او حميم رُزئته . . . فلم أبتئس والرزءُ فيه جَليلُ

والأبتئاس : الحزن في استكانة ، وأصله من البؤس ، وفي ذلك وجهان :

أحدهما : فلا تحزن لهلاكهم .

الثاني : فلا تحزن لكفرهم المفضي إلى هلاكهم .

قوله عز وجل : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدهما : بحيث نراك ، فعبر عن الرؤية بالأعين لأن بها تكون الرؤية .

الثاني : بحفظنا إياك حفظ من يراك .

الثالث : بأعين أوليائنا من الملائكة .

ويحتمل وجهاً رابعاً : بمعونتنا لك على صنعها . ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وأمرنا لك أن تصنعها .

الثاني : تعليمنا لك كيف تصنعها .

﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ نهاه الله عن المراجعة فيهم فاحتمل نهيه أمرين :

أحدهما : ليصرفه عن سؤال ما لا يجاب إليه .

الثاني : ليصرف عنه مأثم الممالأة للطغاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾

قال المفسرون : لما أوحي إليه هذا ، استجاز الدعاء عليهم ، فقال : ﴿ لا تذرْ على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ [نوح 26] .

قوله تعالى : ﴿ فلا تبتئس ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، لا تحزن .

وقال الفراء ، والزجاج : لا تستكن ولا تحزن .

قال أبو صالح عن ابن عباس : فلا تحزن إذا نزل بهم الغرق ﴿ بما كانوا يفعلون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ واصنع الفلك ﴾

أي : واعمل السفينة .

وفي قوله : ﴿ بأعيننا ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : بمرأىً منا ، قاله ابن عباس .

والثاني : بحفظنا ، قاله الربيع .

والثالث : بعلمنا ، قاله مقاتل .

قال ابن الأنباري : إنما جمع على مذهب العرب في إيقاعها الجمع على الواحد ، تقول : خرجنا إلى البصرة في السفن ، وإنما جمع ، لأن من عادة الملك أن يقول : أمرنا ونهينا .

وفي قوله : ﴿ ووحينا ﴾ قولان .

أحدهما : وأمرنا لك أن تصنعها .

والثاني : وبتعليمنا إياك كيف تصنعها .

قوله تعالى : ﴿ ولاتخاطبني في الذين ظلموا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لاتسألني الصفح عنهم .

والثاني : لاتخاطبني في إمهالهم .

وإنما نهي عن الخطاب في ذلك صيانة له عن سؤال لايجاب فيه .

الإشارة إلى كيفية عمل السفينة

روى الضحاك عن ابن عباس : قال كان نوح يُضرب ثم يُلفُّ في لِبْدٍ فيُلقى في بيته ، يُرَوْن أنه قد مات ، ثم يخرج فيدعوهم .

حتى إذا يئس من إيمان قومه ، جاءه رجل ومعه ابنه وهو يتوكأ على عصاً ، فقال : يا بني ، انظر هذا الشيخ لايغررك ، قال : ياأبت أمكني من العصا ، فأخذها فضربه ضربةً شجه مُوْضِحَةً ، وسالت الدماء على وجهه ، فقال رب قد ترى مايفعل بي عبادك ، فإن يكن لك

فيهم حاجة فاهدهم ، وإلا فصبّرني إلى أن تحكم ، فأوحى الله إليه ﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ إلى قوله : ﴿ واصنع الفلك ﴾ ، قال : يارب ، وما الفلك ؟ قال : بيت من خشب يجري على وجه الماء أُنجّي فيه أهل طاعتي ، وأُغْرِق أهل معصيتي ، قال : يارب ، وأين الماء ؟ قال : إني على ما أشاء قدير ، قال : يارب ، وأين الخشب ؟ قال : اغرس الشجر ، فغرس الساج عشرين سنة ، وكفّ عن دعائهم ، وكفُّوا عنه ، إلا أنهم يستهزئون به ، فلما أدرك الشجر ، أمره ربه ، فقطعه وجففَه ولفَّقَه ، فقال : يارب ، كيف أتخذ هذا البيت ؟ قال : أجعله على ثلاث صور ، رأسه كرأس الطاووس ، وجؤجؤه كجؤجؤ الطائر ، وذنبه كذنب الديك ، واجعلها مطبقة ، وبعث الله إليه جبريل يعلمه ، وأوحى الله إليه أن عجِل عمل السفينة فقد اشتد غضبي على مَنْ عصاني ، فاستأجر نجارين يعملون معه ، وسام ، وحام ، ويافث ، معه ينحتون السفينة ، فجعل طولها ستمائة ذراع ، وعرضها ثلاثمائة وثلاثين ذراعاً ، وعلوها ثلاثاً وثلاثين ، وفجّرَ الله له عين القار تغلي غلياناً حتى طلاها .

وعن ابن عباس قال : جعل لها ثلاث بطون ، فحمل في البطن الأول الوحوش والسباع والهوام ، وفي الأوسط الدواب والأنعام ، وركب هو ومن معه البطن الأعلى .

وروي عن الحسن أنه قال : كانت سفينة نوح طولها ألف ذراع ، ومائتا ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع .

وقال قتادة : كانت فيما ذُكر لنا طولها ثلاثمائة ذراع ، وعرضها خمسمائة ذراع ، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً .

(96/377)

وقال ابن جريج : كان طولها ثلاثمائة ذراع ، وعرضها خمسين ومائة ذراع ، وطولها في السماء ثلاثون ذراع ، وكان في أعلاها الطير ، وفي وسطها الناس ، وفي أسفلها السباع .

وزعم مقاتل أنه عمل السفينة في أربعمائة سنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(97/377)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ﴾

"أنه" في موضع رفع على أنه اسم ما لم يُسمَّ فاعله .

ويجوز أن يكون في موضع نصب ، ويكون التقدير ب "أنه" .

و ﴿ آمَنَ ﴾ في موضع نصب ب ﴿ يؤمن ﴾ ومعنى الكلام الإياس من إيمانهم ، واستدامة كفرهم ، تحقيقاً لنزول الوعيد بهم .

قال الضحاك : فدعا عليهم لما أخبر بهذا فقال : ﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [نوح : 26] الآيتين .

وقيل : إن رجلاً من قوم نوح حمل ابنه على كتفه ، فلما رأى الصبي نوحاً قال لأبيه : أعطني حجراً ؛ فأعطاه حجراً ، ورمى به نوحاً عليه السلام فأدماه ؛ فأوحى الله تعالى إليه ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ﴾ .

﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ أي فلا تغتمّ بهلاكهم حتى تكون بائساً ؛ أي حزيناً .

والبؤس الحزن ؛ ومنه قول الشاعر :

وكم مِن خليلٍ أو حميم رُزِئته . . .

فلم أبتئسْ والرُّزْءُ فيه جَلِيلُ

يقال : ابتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه .

والابتئاس حزن في استكانة .

قوله تعالى : ﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ أي اعمل السفينة لتركبها أنت ومن آمن معك .

﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بمرأى منا وحيث نراك .

وقال الرّبيع بن أنس : بحفظنا إياك حفظ من يَراك .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : بحراستنا ؛ والمعنى واحد ؛ فعبّر عن الرؤية بالأعين ؛ لأن الرؤية تكون بها .

ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَنِعْمَ القادرون ﴾ [المرسلات : 23] "فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ" ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : 47] .

وقد يرجع معنى الأعين في هذه الآية وغيرها إلى معنى عين ؛ كما قال : ﴿ وَلِتُصْنَعَ على عيني ﴾ [طه : 39] وذلك كله عبارة عن الإدراك والإحاطة ، وهو سبحانه منزه عن الحواسّ والتشبيه والتكييف ؛ لا ربّ غيره .

(98/377)

وقيل : المعنى "بِأَعْيُنِنَا" أي بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على حِفظك ومعونتك ؛ فيكون الجمع على هذا التكثير على بابه .

وقيل : ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بعلمنا ؛ قاله مقاتل : وقال الضّحاك وسفيان : ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ بأمرنا .

وقيل : بوحينا .

وقيل : بمعونتنا لك على صنعها .

﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ أي على ما أوحينا إليك من صنعتها .

﴿ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذين ظلموا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ أي لا تطلب إمهالهم فإني مغرقهم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(99/377)

وقال الخازن :

﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ .

قال ابن عباس إن قوم نوح كانوا يضربون نوحاً حتى يسقط فيلفونه في لبد ويلقونه في بيت يظنون أنه قد مات فيخرج في اليوم الثاني ويدعوهم إلى الله ويروي أن شيخاً منهم جاء متكئاً على عصاه ومعه ابنه فقال يا بني لا يغرنك هذا الشيخ المجنون فقال يا أبت أمكني من العصا فأخذه من أبيه وضرب بها نوحاً عليه السلام حتى شجه شجة منكرة فأوحى الله إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴿ فلا تبتئس ﴾ يعني فلا تحزن عليهم فإني مهلكهم ﴿ بما كانوا يفعلون ﴾ يعني بسبب كفرهم وأفعالهم فحينئذ دعا نوح عليه السلام عليهم فقال

﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾

وحكى محمد بن إسحاق عن عبد الله بن عمير الليثي أنه بلغه أنهم كانوا يبسطون نوحاً فيخنقونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون حتى تمادوا في المعصية واشتد عليه فإذا فاق قال رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون حتى تمادوا في المعصية واشتد عليه منهم البلاء وهو ينتظر الجيل بعد الجيل فلا يأتي قرن إلا كان أنحس من الذي قبله ولقد كان يأتي القرن الآخر منهم فيقول قد كان هذا الشيخ مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنوناً فلا يقبلون منه شيئاً فشكا نوح إلى الله فقال يا رب ﴿ أني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ﴾ الآيات حتى بلغ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه .

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾

(100/377)

يعني السفينة والفلك لفظ يطلق على الواحد والجمع ﴿ بأعيننا ﴾ قال ابن عباس بمرأى منا وقيل بعلمنا وقيل بحفظنا ﴿ ووحينا ﴾ يعني بأمرنا ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ يعني بالطوفان والمعنى ولا تخاطبني في إمهال الكفار فإني قد حكمت

بإغراقهم وقيل ولا تخاطبني في ابنك كنعان وامرأتك واعلة فإنهما هالكان مع القوم وقيل إن جبريل أتى نوحاً فقال له إن ربك يأمرك أن تصنع الفلك فقال كيف أصنعها ولست نجاراً فقال إن ربك يقول اصنع فإنك بأعيننا فأخذ القدوم وجعل ينجر ولا يخطئ فصنعها مثل جؤجؤ الطير وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ويصنع الفلك ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(101/377)

وقال أبو حيان :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾

قرأ الجمهور وأوحي مبنياً للمفعول ، أنه بفتح الهمزة .

وقرأ أبو البرهشيم : وأوحي مبنياً للفاعل ، إنه بكسر الهمزة على إضمار القول على مذهب البصريين ، وعلى إجراء أوحى مجرى قال : على مذهب الكوفيين ، أيأسه الله من إيمانهم ، وأنه صار كالمستحيل عقلاً بأخباره تعالى عنهم .

ومعنى إلا من قد آمن أي : من وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه ، ونهاه تعالى عن ابتآسه بما كانوا يفعلون ، وهو حزنه عليهم في استكانة .

وابتأس افتعل من البؤس ، ويقال : ابتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه ، وقال الشاعر :

وكم من خليل أو حميم رزئته . . .

فلم نبتئس والرزء فيه جليل

وقال آخر :

ما يقسم الله أقبل غير مبتئس . . .

منه واقعد كريماً ناعم البال

وقال آخر :

فارس الخيل إذا ما ولولت . . .

ربة الخدر بصوت مبتئس

وقال آخر :

في مأتم كنعاج ص . . .

رة يبتئسن بما لقينا

صارة موضع بما كانوا يفعلون من تكذيبك وإيذائك ومعاداتك ، فقد حان وقت الانتقام منهم .

واصنع عطف على فلا تبتئس ، بأعيننا بمرأى منا ، وكلاءة وحفظ فلا تزيغ صنعته عن الصواب فيها ، ولا يحول بين العمل وبينه أحد .

والجمع هنا كالمفرد في قوله : ولتصنع على عيني ، وجمعت هنا لتكثير الكلاءة والحفظ وديمومتها .

وقرأ طلحة بن مصرف : باعينا مدغمة .

ووحينا نوحي إليك ونلهمك كيف تصنع .

وعن ابن عباس : لم يعلم كيف صنعة الفلك ، فأوحى الله أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر .

قيل : ويحتمل قوله بأعيننا أي بملائكتنا الذين جعلنا هم عيوناً على مواضع حفظك ومعونتك ، فيكون اللفظ هنا للجمع حقيقة .

وقول من قال : معنى ووحينا بأمرنا لك أو بعلمنا ضعيف ، لأن قوله : واصنع الفلك ، مغن عن ذلك .

وفي الحديث : "كان زان سفينة نوح جبريل " والزان القيم بعمل السفينة .

والذين ظلموا قوم نوح ، تقدم إلى نوح أن لا يشفع فيهم فيطلب إمهالهم ، وعلل منع مخاطبته بأنه حكم عليهم بالغرق ، ونهاه عن سؤال الإيجاب إليه كقوله : ﴿ يا إبراهيم أعرض عن

هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ وقيل الذين ظلموا واعلة زوجته وكنعان ابنه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(103/377)

وقال أبو السعود :

﴿ وَأُوحِىَ إلى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ ﴾

أي المُصِرّين على الكفر وهو إقناطٌ له عليه السلام من إيمانهم وإعلامٌ لكونه كالمُحال الذي لا يصِحّ توقّعُه ﴿ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ إلا من قد وُجد منه ما كان يُتوقّع من إيمانه ، وهذا الاستثناءُ على طريقة قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ أي لا تحزَنْ حزْنَ بائسٍ مستكينٍ ولا تغتمَّ بما كانوا يتعاطَوْنه من التكذيب والاستهزاء والإيذاءِ في هذه المدة الطويلةِ فقد انتهى أفعالُهم وحان وقتُ الانتقامِ منهم ﴿ واصنع الفلك ﴾ ملتبساً ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بحفظنا وكلاءتنا كأن معه من الله عز وجل حُفّاظاً وحرّاساً يكلؤنه بأعينهم من التعدّي من الكفرة ومن الزيغ في الصنعة ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ إليك كيف تصنعُها وتعليمِنا وإلهامِنا . عن ابن عباس رضي الله عنهما لم يعلمْ كيف صنعةُ الفُلك ، فأوحى الله تعالى إليه أن يصنعَها مثل جُؤجُؤ الطائر ، والأمرُ للوجوب إذ لا سبيل

إلى صيانة الروحِ من الغرق إلا به فيجب كوجوبها ، واللامُ إما للعهد بأن يُحملَ على أن هذا مسبوقٌ بوحي الله تعالى إليه عليه السلام أنه سيهلكهم بالغرق وينجّيه ومَنْ معه بشيء سيصنعه بأمره تعالى ووحيه ، مِنْ شأنه كيتَ وكيت واسمُه كذا ، وإما للجنس . قيل : صنعها عليه الصلاة والسلام في سنتين ، وقيل : في أربعمائة سنة ، وكانت من خشب الساج وجُعلت ثلاثةَ بطونٍ حُمل في البطن الأول الوحوشُ والسباعُ والهوامُّ ، وفي البطن الأوسطِ الدوابُّ والأنعام ، وفي البطن الأعلى جنسُ البشر هو ومَنْ معه مع ما يحتاجون إليه من الزاد ، وحَمل معه جسدَ آدمَ عليه الصلاة والسلام ، وقيل : جَعل في الأول الدوابَّ والوحوشَ وفي الثاني الإنسَ وفي الأعلى الطيرَ ، قيل : كان طولُها ثلاثمائة ذراعٍ وعَرْضُها خمسين ذراعاً وسَمْكُها ثلاثين ذراعاً .

(104/377)

وقال الحسنُ : كان طولُها ألفاً ومائتي ذراعٍ وعَرضُها ستَّمائةِ ذراعٍ . وقيل : إن الحَواريين قالوا لعيسى عليه الصلاة والسلام : لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينةَ يحدثنا عنها ، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب فأخذ كفاً من ذلك الترابِ فقال : أتدرون مَنْ هذا ؟ قالوا : الله ورسولُه أعلم ، قال هذا كعبُ بنُ حام قال : فضرب بعصاه فقال : قم بإذن الله

فإذا هو قائمٌ ينفض التراب عن رأسه وقد شاب ، فقال له عيسى عليه الصلاة والسلام : أهكذا هلكْتَ ؟ قال : لا ، متُّ وأنا شابٌّ ولكني ظننتُ أنها الساعة فمِنْ ثَمَّة شِبْتُ ، فقال : حدثنا عن سفينة نوحٍ ، قال : كان طولها ألفاً ومائتي ذراعٍ وعَرضُها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاثَ طبقاتٍ طبقةٌ للدواب والوحش وطبقةٌ للإنس وطبقةٌ للطير ، ثم قال : عُدْ بإذن الله تعالى كما كنت فعاد تراباً .

﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي لا تراجِعْني فيهم ولا تدعُني باستدفاع العذابِ عنهم وفيه من المبالغة ما ليس فيما لو قيل : ولا تدعُني فيهم ، وحيث كان فيه ما يلوح بالسببية أُكّد التعليلُ فقيل : ﴿ إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ أي محكومٌ عليهم بالإغراق قد مضى به القضاءُ وجفّ القلمُ فلا سبيل إلى كفه ولزِمتْهم الحُجة فلم يبقَ إلا أن يُجعلوا عِبرةً للمعتبرين ومثلاً للآخرين . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(105/377)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آَمَنَ ﴾

﴿ وَأُوحِىَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ ءامَنَ ﴾ إقناط له عليه السلام من

إيمانهم وإعلام بأنه لم يبق فيهم من يتوقع إيمانه ، أخرج إسحاق بن بشر .

وابن عساكر عن ابن عباس قال : إن نوحاً عليه السلام كان يضرب ثم يلف في لبد فيلقى في بيته يرون أنه قد مات ثم يخرج فيدعوهم ، واتفق أن جاءه رجل ومعه ابنه وهو يتوكأ على عصا فقال : يا بني انظر هذا الشيخ لا يغرنك قال : يا أبت أمكني من العصا فأخذ العصا ثم قال : ضعني على الأرض فوضعه فمشى إليه فضربه فشجه موضحة في رأسه وسالت الدماء فقال نوح عليه السلام : رب قد ترى ما يفعل بي عبادك فإن يك لك في عبادك حاجة فاهدهم وإن يكن غير ذلك فصبرني إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين فأوحى الله تعالى إليه وآيسه من إيمان قومه وأخبره أنه لم يبق في أصلاب الرجال ولا في أرحام النساء مؤمن .

وقال سبحانه : ﴿ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ ﴾ الخ ، والمراد بمن آمن قيل : من استمر على الإيمان وللدوام حكم الحدوث ، ولذا لو حلف لا يلبس هذا الثوب وهو لابسه فلم ينزعه في الحال حنث ، وقيل : المراد إلا من قد استعد للإيمان وتوقع منه ولا يراد ظاهره وإلا كان المعنى إلا من آمن فإنه يؤمن ، وأورد عليه أنه مع بعده يقتضي أن من القوم من آمن بعد ذلك ، وهو ينافي تقنيطه من إيمانهم ، وقد يقال : المراد ما هو الظاهر والاستثناء على حد الاستثناء في قوله

تعالى : ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الاختين إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء : 23] على ما قاله غير واحد ، فيفيد الكلام الإقناط على أتم وجه وأبلغه أي لن يحدث من قومك إيماناً ويحصله بعد إلا من قد أحدثه وحصله قبل ، وذلك مما لا يمكن لما فيه من تحصيل الحاصل وإحداث المحدث ، فإحداث الإيمان وتحصيل بعد مما لا يكون أصلاً ، وفي "الحواشي الشهابة" لو قيل : إن الاستثناء منقطع وأن المعنى لا يؤمن أحد بعد ذلك غير هؤلاء لكان معنى بليغاً فتدبر ، وقرأ أبو البرهسم ﴿ وَأُوحِىَ ﴾ مبنياً للفاعل وأنه بكسر الهمزة على إضمار القول على مذهب البصريين وعلى إجراء ﴿ أوحى ﴾ مجرى قال على مذهب الكوفيين ، واستدل بالآية من أجاز التكليف بما لا يطاق .

﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ أي لا تلتزم البؤس ولا تحزن بما كانوا يتعاطونه من التكذيب والاستهزاء والإيذاء في هذه المدة الطويلة فقد حان وقت الانتقام منهم .

(107/377)

﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا ﴾ عطف على ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ ﴾ [هود : 36] والأمر قيل : للوجوب إذ لا سبيل إلى صيانة الروح من الغرق إلا به فيجب كوجوبها ، وقيل : للإباحة وليس بشيء ، وأل في ﴿ الفلك ﴾ إنا للجنس أو للعهد بناءاً على أنه أوحى إليه عليه

السلام من قبل أن الله سبحانه سيهلكهم بالغرق وينجيه ومن معه بشيء يصنعه بأمره تعالى من شأنه كيت وكيت واسمه كذا ، والباء للملابسة والجار والمجرور في موضع الحال من الفاعل ، والأعين حقيقة في الجارحة وهي جارية مجرى التمثيل كأن لله سبحانه أعيناً تكلؤه من تعدى الكفرة ومن الزيغ في الصنعة ، والجمع للمبالغة ، وقد انسلخ عنه لإضافته على ما قيل .

معنى القلة وأريد به الكثرة ، وحينئذ يقوي أمر المبالغة ، وزعم بعضهم أن الأعين بمعنى الرقباء وأن في ذلك ما هو من أبلغ أنواع التجريد ، وذلك أنهم ينتزعون من نفس الشيء آخر مثله في صفته مبالغة بكمالها كما أنشد أبو علي

: أفات بنو مروان ظلماً دماءنا . . .

وفي الله إن لم يعدلوا حكم عدل

وقد جرد ههنا من ذات المهيمن جماعة الرقباء وهو سبحانه الرقيب نفسه ، وقيل : إن ملابسة العين كناية عن الحفظ وملابسة الأعين لمكان الجمع كناية عن كمال الحفظ والمبالغة فيه ، ونظير ذلك بسط اليد وبسط اليدين ، فإن الأول كناية عن الجود والثاني عن المبالغة فيه ، وجوز أن يكون المراد الحفظ الكامل على طريقة المجاز المرسل لما أن الحفظ من لوازم الجارحة ، وقيل : المراد من أعيننا ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على مواضع حفظك

ومعونتك ، والجمع حينئذ على حقيقته لا للمبالغة ، ويفهم من صنيع بعضهم أن هذا من المتشابه ، والكلام فيه شهير ، ففي الدر المنثور عند الكلام على هذه الآية .

(108/377)

أخرج البيهقي عن سفيان بن عيينة قال : ما وصف الله تبارك وتعالى به نفسه في كتابه فقراءته تفسيره ليس لأحد أن يفسره بالعربية ولا بالفارسية ، وقرأ أبو طلحة بن مصرف بأعينا بالادغام ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ إليك كيف تصنعها وتعليمنا ، أخرج إسحاق بن بشر . وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه عليه السلام لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى الله تعالى إليه أن اجعل رأسها كرأس الديك .

وجؤجؤها كجؤجؤ الطير .

وذنبها كذنب الديك ، واجعل لها أبواباً في جنبها وشدها بدسر وأمره أن يطليها بالقار ولم يكن في الأرض قار ففجر الله تعالى له عين القار حيث ينحتها يغلي غلياناً حتى طلاها الخبر ، وفيه أن الله تعالى بعث جبريل عليه السلام فعلمه صنعتها ، وقيل : كانت الملائكة عليهم السلام تعلمه .

﴿ وَلاَ تخاطبنى فِى الذين ظَلَمُواْ ﴾ أي لا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب

عنهم وفيه من المبالغة ما ليس فيما لو قيل : ولا تدعني فيهم ، وحيث كان فيه ما يلوح بما يستتبعه أكد التعليل فقيل : ﴿ إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ أي محكوم عليهم بالاغراق ؛ وقد جرى به القضاء وجف القلم فلا سبيل إلى كفه ، والظاهر أن المراد من الموصول من لم يؤمن من قومه مطلقاً ، قيل : المراد واعلة زوجته .

وكنعان ابنه .

وليس بشيء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(109/377)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾

عطف على جملة ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا ﴾ [هود : 32] أي بعد ذلك أوحي إلى نوح عليه السّلام ﴿ أنّه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن ﴾ .

واسم (أن) ضمير الشأن دال على أن الجملة بعده أمرهم خطير لأنها تأييس له من إيمان بقية قومه كما دل حرف ﴿ لن ﴾ المفيد تأبيد النفي في المستقبل ، وذلك شديد عليه ولذلك عقب بتسليته بجملة ﴿ فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ فالفاء لتفريع التسلية على

الخبر المحزن .

والابتئاس افتعال من البؤس وهو الهم والحزن ، أي لا تحزن .

ومعنى الافتعال هنا التأثر بالبؤس الذي أحدثه الخبر المذكور .

﴿ بما كانوا يفعلون ﴾ هو إصرارهم على الكفر واعتراضهم عن النظر في الدعوة إلى وقت أن أوحي إليه هذا .

قال الله تعالى حكاية عنه : ﴿ فلم يزدهم دعائي إلاّ فِراراً وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ﴾ [نوح : 6 ، 7] .

وتأكيد الفعل بـ ﴿ قد ﴾ في قوله : ﴿ من قد آمن ﴾ للتنصيص على أن المراد من حصل منهم الإيمان يقيناً دون الذين ترددوا .

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾

(110/377)

لما كان نهيه عن الابتئاس بفعلهم مع شدة جرمهم مؤذناً بأن الله ينتصر له ، أعقبه بالأمر بصنع الفلك لتهيئة نجاته ونجاة من قد آمن به من العذاب الذي قدره الله لقومه ، كما حكى

الله عنه ﴿ فدعا ربّه أني مغلوبٌ فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمرٍ ﴾ [القمر : 10 ، 11] الآية ، فجملة ﴿ واصنع الفلك ﴾ عطف على جملة ﴿ فلا تبتئس ﴾ [هود : 36] وهي بذلك داخلة في الموحى به فتدل على أن الله أوحى إليه كيفية صنع الفلك كما دل عليه قوله : ﴿ ووَحينا ﴾ ، ولذلك فنوح عليه السّلام أول من صنع الفلك ولم يكن ذلك معروفاً للبشر ، وكان ذلك منذ قرون لا يحصيها إلاّ الله تعالى ، ولا يعتد بما يوجد في الإسرائيليات من إحصاء قرونها .

والفلك اسم يستوي فيه المفرد والجمع .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾ في سورة البقرة (164 .

(والباء في بأعيننا ﴾ للملابسة وهي في موضع الحال من ضمير (اصنع) .

والأعين استعارة للمراقبة والملاحظة .

وصيغة الجمع في ﴿ أعيننا ﴾ بمعنى المثنى ، أي بعينينا ، كما في قوله : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ [الطور : 48] .

والمراد الكناية بالمعنى المجازي عن لازمه وهو الحفظ من الخلل والخَطأ في الصنع .

والمراد بالوحي هنا الوحي الذي به وصف كيفية صنع الفلك كما دل عليه عطفه على المجرور بباء الملابسة المتعلقة بالأمر بالصنع .

ودل النهي في قوله : ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا ﴾ ، على أن كفار قومه سينزل بهم عقاب عظيم لأن المراد بالمخاطبة المنهي عنها المخاطبة التي ترفع عقابهم فتكون لنفعهم كالشفاعة ، وطلب تخفيف العقاب لا مطلق المخاطبة .

ولعل هذا توطئة لنهيه عن مخاطبته في شأن ابنه الكافر قبل أن يخطر ببال نوح عليه السلام سؤال نجاته حتى يكون الرد عليه حين السؤال أَلْطَف .

وجملة ﴿ إنهم مغرقون ﴾ إخبار بما سيقع وبيان لسبب الأمر بصنع الفلك .

(111/377)

وتأكيد الخبر بحرف التوكيد في هذه الآية مثال لتخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر بتنزيل غير السائل المتردد منزلة السائل إذا قدم إليه من الكلام ما يلوّح إلى جنس الخبر فيستشرفه لتعيينه استشرافاً يشبه استشراف السائل عن عين الخبر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(112/377)

وقال الشيخ الشعراوى :

وبعد ألف عام إلا خمسين من جدال نوح عليه السلام لقومه ، قال له الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ ﴾

ومجيء " إلا " هنا ليس للاستثناء ، ولكنها اسم بمعنى " غير " أي : لن يؤمن من قومك غير الذي آمن .

ولهذا نظير في قمة العقائد حين قال الحق سبحانه :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] .

و " إلا " هنا أيضاً بمعنى " غير " ، ولو كانت " إلا " بمعنى الاستثناء لعنى ذلك أن الله سبحانه معاذ الله سيكون ضمن آلهة آخرين ، لذلك لا يصلح هنا أن تكون " إلا " للاستثناء ، بل هي بمعنى " غير " ، وتفيد معنى الوحدانية لله عَزَّ وجَلَّ وتَفرُّده بالألوهية .

والآية التي نتناولها بخواطرنا تؤكد أنه لا يوجد غير من آمن بنوح عليه السلام من قومه ، سوف يؤمن ؛ فقد ختم الله المسألة .

وهذا يعطينا تبريراً لاجتراء نوح عليه السلام على الدعاء على الذين لم يؤمنوا من قومه بقوله :

﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يلدوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح : 26 27] .

وكان تبرير ذلك أنه عليه السلام قد دعاهم إلى الإيمان زماناً طويلاً فلم يستجيبوا ، وأوحى له الله تعالى أنهم لن يؤمنوا ، وقال له سبحانه :

﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [هود : 36] .

والابتئاس هو الحزن المحبط ، وهم قد كفروا وليس بعد الكفر ذنب .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾

وهكذا علم نوح بمسألة الإغراق من خلال الوحي له بصنع السفينة . ومعنى " أصنع " أي : اعمل الصنعة ، وهناك فرق بين الصنعة والحرفة ، فالصنعة أنْ تُوجِدَ معدوماً ، كصانع الأكواب ، أو صانع الأحذية ، أو صانع النَّجَف ، أو صانع الكراسي ، أما الذي يقوم على صيانة الصنعة فهو الحِرفيُّ .

وهناك عملية أخرى للاستنباطات مثل مهنة الزارع الذي يحرث الأرض ويبذر فيها الحَبَّ ويرويها ليستنبط منها النباتات ، ويسمَّى صاحب هذه المهنة " زارع " أو " فلاَّح " ؛ لأن اقتيات الحياة المباشر يأتي من الزراعة .

أما الصانع فيأتي بشيء من متطلبات الحياة ، في تطورها ويوجد آلةً أو يصنع جهازاً لم يكن

موجوداً ، و الحرفيُّ هو الذي يصون تلك الآلة ، أما التاجر فهو الذي يقوم بعمليةٍ تجمع كل ذلك ، ويكون هو الوسيلة بين منتج الشيء والمستهلك ، فالتاجر يكون لعرض الأشياء بغية البيع والشراء .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا لنوح عليه السلام :

﴿ واصنع الفلك ﴾ [هود : 37] .

أي : أوجد شيئاً من عدم ، إلا أن هذا الشيء سيصنع من شيء آخر موجود ، لأن نوحاً عليه السلام قد زرع من قبل شجرة وعاشت معه كل هذه المدة الطويلة ، وتضخَّمت في الجذع والفروع .

وبدأ نوح عليه السلام في عملية شقِّ الشجرة ليصنع منها السفينة التي بلغ طولها كما قيل ثلاثمائة ذراع وبلغ عرضها خمسين ذراعاً ، وبلغ ارتفاعها ثلاثين ذراعاً ومكوَّنة من ثلاثة أدوار لتسع المؤمنين ، وزوجين من كل نوع من حيوانات الأرض ودوابِّها وهوامها وسباعها ووحوشها .

ونحن قد علمنا أن الشجرة التي زرعها نوح عليه السلام قد تضخَّمت جداً لطول المدَّة التي قضاها نوح في دعوته لقومه ؛ ونعلم أيضاً أن جذع الشجرة ينمو دائرياً بمقدار دائرة كل عام . وحين نقطع جذع الشجرة نجد أن قطر الجذع مكوَّن من دوائر ، وكل دائرة تمثِّل عاماً من عمرها .

وهكذا بلغ حجم الشجرة ما يساعد نوحاً عليه السلام على أن يصنع السفينة .

وقد علَّمه الحق سبحانه بالوحي وإلهام الخواطر كيف يصنع السفينة ، ألَمْ يُلهِم الله سبحانه نبيِّه داود عليه السلام في مسألة الحديد ؟ وقال لنا سبحانه أنه جلَّ وعَلا قد أمر الجبال أو تُؤَوِّب معه ، وكذلك الطير ، فألان له الحديد دون نار :

(114/377)

﴿ يا جبال أَوِّبي مَعَهُ والطير وَأَلَنّا لَهُ الحديد * أَنِ اعمل سَابِغَاتٍ ﴾ [سبأ : 1011]

.

هكذا أخبرنا الحق سبحانه أن الحديد صار لِيِّنًا دون نار بإذنه سبحانه ليصنع منه داود دروعاً كبير مستوفية للظهور والصدر ، لتحمي معاطب الإنسان .

وقد أوحى الحق سبحانه لداود عليه السلام أن يصنع تلك الدروع بطريقة عجيبة ، بأن يجعلها سابغات .

والسابغة هي المسرودة ، مثل الحصير ، حيث يُوضع العُود بجانب العود ، ويربط الأعواد كلها بطريقة تسهل من فَرْد الحصير أو لَفّه .

وفي نفس الآية يبيِّن لنا الحق سبحانه كيفية الوحي لداود عليه السلام بتلك الصناعة

الدقيقة، فيقول سبحانه:

﴿ وَقَدِّرْ فِي السرد ﴾ [سبأ: 11].

أي: أنك يا داود حين تنسج الحديد اللين بإذن الله تعالى لتجعله دروعاً عليك أن تصنع تلك الدروع بتقدير دقيق كي لا تكون الدِّرع ضيِّقة على صدر المقاتل فتضيق حركته، وتقلِّل من قدرته على التنفس، فيلهث بسرعة، ولا يستطيع مواصلة القتال.

وكذلك يجب ألَّا تكون الدِّرع واسعة على صدر المقاتل؛ حتى لا تساعد سعة الدِّرع سيف الخصم، فيضرب الدِّرع نفسه صدر المقاتل، وتكون قوة الدِّرع مضافة إلى قوة سيف الخصم، ولكن حين تكون الدِّرع قادرة على الإحاطة بالجسم دون أن يُكبِّل الحركة، فهذه الدِّرع المناسبة للقتال.

وقد أتقن داود عليه السلام صناعة تلك الدُّروع بتلك الهندسة الدقيقة التي أوحى الحق سبحانه بها إليه، فقد صنعها بأمر الحق الأعلى سبحانه حين قال له: ﴿ وَقَدِّرْ ﴾ [سبأ: 11] وكلمة قدر تعطي معنى التقدير والإتقان.

فعلى الذين يصنعون الأشياء عليهم أن يعلموا أن القرآن الكريم لحظة يوجّه إلى الإتقان في الأداء والعمل ، فإنه يعلمنا طريقة التقدير والإتقان في العمل والإبداع فيه ، لتتخذ من هذا التوجيه نبراساً نسير عليه ؛ ليكون العمل صالحاً ، وأنت ترى من يتقن صنعته وهو يقول : " الله " ، وكأن هذا القول اعتراف الفطرة الأولى بقدرة الحق سبحانه على أن يهب الإنسان طاقة الإتقان والإبداع .

ويقول الحق سبحانه أيضاً في تعليمه لداود عليه السلام :

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ ﴾ [الأنبياء : 80] .

وهكذا يلقي الله تعالى الخاطر في قلب الرسول أو النبي أن " افعل كذا " ؛ فيفعل .

وحين ننظر إلى حضارة مصر القديمة ، نجد كلّ علومها وفنونها في التحنيط والألوان والنّحت ، كانت من اختصاص الكهنة الذين يُمثّلون السلطة الدينية ، ولم يكتب هؤلاء الكهنة أسرار تلك العلوم ، فلم يستطع أحد من المعاصرين أن يتعرف عليها .

وهكذا نجد أن كل أمر في أصوله ؛ مصدره السماء .

وفي قصة نوح عليه السلام نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الذين ظلموا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود : 37] .

ومعنى " بأعيننا " هو بحفظنا وبرعايتنا . وكلمة " بأعيننا " تفيد شمول الحفظ وكمال

الرعاية .

ألم يقل الحق سبحانه في مسألة تخصُّ رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ؟

﴿ واصبر لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : 48] .

وكذلك قال سبحانه في قصة سيدنا موسى عليه السلام :

﴿ وَلِتُصْنَعَ على عيني ﴾ [طه : 39] .

وأنقذ الحق سبحانه موسى عليه السلام من الفرعون الذي كان يقتل أطفال بني إسرائيل ،

وألقى الله تعالى المحبة لموسى في قلب زوجة الفرعون ، وقال سبحانه :

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه : 39] .

(116/377)

لأن موسى عليه السلام حين كان طفلاً رضيعاً قد ألقى في اليَمِّ ، والتقطه رجال الفرعون ،

لكن زوجة الفرعون قالت لزوجها طالبة لموسى الحياة :

﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي ولَكَ ﴾ [القصص : 9] .

ونحن نجد أن عَدُوَّ موسى وقومه ، يلتقط موسى ليعيش في كنفه ورعايته ، وكأن الله

سبحانه يقول لهم : سأجعلكم تُربُّون مَنْ يتولّى قهركم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا ﴾ [هود : 37] .

أي : إنك إن توقَّفتَ لأية عقبة ، فسوف نُلهمك بما تُواجه به تلك العقبة .

وحين صنع نوح عليه السلام الفُلْك احتاج لألواح خشبية ، ولا بد أن تتماسك تلك الألواح ، ولم تكن مسامير قد اختُرِعتْ بَعْدُ ، فأوحى له الله تعالى أن يربط الألواح بالحبال المجدولة ، وقد فعل هذا أحد مكتشفي أمريكا في العصر الحديث ، حين صنع سفينة من نبات البَرْدِى وربطها بالحبال المجدولة القوية .

وقال الحق سبحانه في طريقة صنع سفينة نوح عليه السلام :

﴿ وَحَمَلْنَاهُ على ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر : 13] .

أي : أن نوحاً عليه السلام قد أحضر من الخشب وربطها بحبال مجدولة ، وأَحْكَمَ الرَّبط بقدر مقتدر بما لا يسمح بتسرب الماء إلى داخل السفينة .

مثلما تصنع البراميل الخشبية في عصرنا ، حيث يصنعها الصانع من قطع خشبية مستطيلة ، ويرتّبها ثم يُحْكم رَبْطَها بإطار قويٍّ ، وحين يوضع فيها أي سائل ، فالخشب يتشرَّب من هذا السائل ويتمدَّد ليسدَّ المسَام ، فلا ينضح السائل من البرميل ؛ لأن الخشب هو المادة الوحيدة التي تتمدّد بالبرودة على العكس من كل المواد التي تتمدّد بالحرارة .

ولذلك نجد النَّجَّار الحاذق في صنعته هو مَنْ يصنع الأثاث أو الأبواب أو الشبابيك في الفصول الرتيبة ؛ لأنه إن صنعها في الصيف ، سنجد الخشب وهو منكمش ؛ فإذا ما جاء الشتاء تمدَّد ذلك الخشب وسبَّب عدم إحكام إغلاق الأبواب والنوافذ ، وكذلك إن صنعها في الشتاء والخشب متمدِّد سيأتي الصيف وتنكمش الأبواب ، وتكون لها متاعبها ، فلا يسهل ضبط إغلاق الأبواب أو ضبط أي صندوق أو شبَّاك بإحكام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الذين ظلموا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود : 37] .

أي : لا تحدِّثني في أمر المغفرة لمن ظلموا أنفسهم بالكفر ، وهم مَن ارتكبوا الظلم العظيم ، وهو الكفر في القمة العقدية ، وهي الإيمان بالله تعالى واحداً أحداً لا شريك له ؛ لذلك استحقوا العقاب ، وهو الإغراق .

وهكذا عَلِمَ نوح عليه السلام أنَّ صُنْعِ السفينة مرتبط بلون العقاب الذي سيقع على مَنْ كفروا برسالته ، فهو ومَنْ آمنوا معه سوف ينجون ، أما مَنْ كفر فلسوف يغرق . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ وذلك حين دعا عليهم نوح عليه السلام ﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ [نوح : 26] .

وأخرج أحمد في الزهد وابن المنذر وأبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه قال : إن نوحاً لم يدع على قومه حتى نزلت عليه الآية ﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ فانقطع عند ذلك رجاؤه منهم فدعا عليهم .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب رضي الله عنه قال : لما استنقذ الله من أصلاب الرجال وأرحام النساء كل مؤمن ومؤمنة قال : يا نوح ﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ .

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن نوحاً عليه السلام كان يضرب ثم يلف في لبد فيلقى في بيته ، يرون أنه قد مات ثم يخرج فيدعوهم ، حتى إذا أيس من إيمان قومه جاءه رجل ومعه ابنه وهو يتوكأ على عصا فقال : يا بني أنظر هذا الشيخ لا يغرنك . قال : يا أبت أمكني من العصا ، ثم أخذ العصا ثم قال : ضعني في الأرض . فوضعه فمشى إليه فضربه فشجه موضحة في رأسه وسالت الدماء ، قال نوح عليه السلام : رب قد ترى ما يفعل بي عبادك ، فإن يكن لك في عبادك حاجة فاهدهم ، وإن يكن غير ذلك فصبرني إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين . فأوحى الله إليه وآيسه من إيمان قومه ، وأخبره أنه لم يبق في أصلاب الرجال ولا في أرحام النساء مؤمن قال ﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ يعني لا تحزن عليهم ﴿ واصنع الفلك ﴾ [هود : 37] قال : يا رب وما الفلك ؟ قال : بيت من خشب يجري على وجه الماء ، فأغرق أهل معصيتي وأطهر أرضي منهم . قال : يا رب وأين الماء ؟ قال : إني على ما أشاء قدير .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فلا تبتئس ﴾ قال : فلا تحزن .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ أن اصنع الفلك ﴾ قال

: السفينة ﴿ بأعيننا ووحينا ﴾ قال : كما نأمرك .

وأخرج ابن أبو حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ﴾ قال : بعين الله ووحيه .

وأخرج البيهقي عن سفيان بن عيينة رضي الله عنه قال : ما وصف الله تبارك به نفسه في كتابه فقراءته تفسيره ، ليس لأحد أن يفسره بالعربية ولا بالفارسية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لم يعلم نوح عليه السلام كيف يصنع الفلك ، فأوحى الله إليه أن يصنعها على مثل جؤجؤ الطائر .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا ﴾ يقول : لا تراجعني ، تقدم إليه لا يشفع لهم عنده .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : نهى الله نوحاً عليه السلام أن يراجعه بعد ذلك في أحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آَمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ ﴾ : الجمهور على " أُوحي " مبنياً للمفعول ، والقائمُ مقامَ الفاعل " أنه لن يؤمن " أي : أُوحي إليه عدمُ إيمان بعض . وقرأ أبو البرهسم " أوحى " مبنياً للفاعل وهو اللَّه تعالى ، " إنه " بكسر الهمزة . وفيها وجهان أحدهما : وهو أصلٌ للبصريين - أنه على إجراء الإِيحاء مُجْرى القول .

وقوله : ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ ﴾ هو تَفْتَعِل من البُؤْس ومعناه الحزنُ في استكانة ، ويقال : ابتأسَ فلانٌ أي : بلغه ما يَكْرهه قال :

2659 ما يَقْسِمِ اللَّهُ أَقْبَلْ غيرَ مُبْتَئِسٍ . . . منه وأَقْعُدْ كريماً ناعمَ البالِ

/ وقال آخر :

2660 وكم مِنْ خليلٍ أو حَميمٍ رُزِئْتُه . . . فلم نَبْتَئِس والرُّزْء فيه جَليل

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37) ﴾

قوله تعالى : ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ : حالٌ من فاعل " اصنع " أي : محفوظاً بأعيننا ، وهو مجازٌ عن

كلام اللَّه له بالحفظ . وقيل : المراد بهم الملائكة تشبيهاً لهم بعيونِ الناس أي : الذين يتفقَّدون الأخبار ، والجمع حينئذ حقيقةٌ . وقرأ طلحة بن مصرف " بأعيُنَّا " مدغمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 322.321 ﴾

(122/377)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) ﴾

عرَّفه الحقُّ أَنَّه غنيٌّ عن إيمانهم ، فكَشَفَ له أحكامَهم ، وأَنَّ مَنْ لم يؤمن منهم قد سبق الحكمُ بشقائهم ، فعند ذلك دعا لعيهم نوحٌ- عليه السلام- بالإهلاك .

ويقال لم يدعُ عليهم ما دام للمطمع في إيمانهم مساغٌ ، فلما حَصَلَ العكسُ نطق بالتماس هلاكهم .

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37) ﴾

أي قُمْ - بشرط العبودية- بصنع السفينة بأمرنا ، وتحقق بشهودنا ، وأنَّك بمرأىً منا . ومَنْ

عَلِمَ اطلاعه عليه يلاحِظْ نَفْسَه ولا غيرَه، لا سيما وقد تحقق بأنّ المُجْرِي هو سبحانه.

وقال له: راعِ حدّ الأدَب، فما لم يكن لك إذْنٌ منا في الشفاعة لأحدٍ فلا تُخاطِبْنا فيهم.

ويقال سبق لهم الحكمُ بالغَرَقِ - وأمواج بحر التقدير تتلاطم - فكلٌّ في بحار القدرة مُغْرَقُون إلا من أهّلَه الحقُّ بِحُكْمِه فحَمَلَه في سفينة العناية.

ويقال كان قومُ نوحٍ من الغَرْقَى في بحار القَطْرِة، ومِنْ قبل كانوا غرقى في بحار القدرة. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 135﴾

(123/377)

قوله تعالى ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (39) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى:

ولما أمره تعالى ونهاه، أخبر أنه امتثل ذلك بقوله عاطفاً على ما تقديره: فأيس من إيمان

أحد منهم فترك دعاءهم وشرع يسلي نفسه : ﴿ ويصنع ﴾ أي صنعة ماهر جداً ، له ملكة عظيمة بذلك الصنع ﴿ الفلك ﴾ فحلى فعله حالُ علمه بأنه سبحانه بت الأمر بأنه كان يعمل ما أمره به سبحانه ولم يخاطبه فيهم ولا أسف عليهم ، وأشار إلى أنهم ازدادوا بغياً بقوله : ﴿ وكلما ﴾ أي والحال أنه كلما ﴿ مرّ عليه ملأ ﴾ أي أشراف ﴿ من قومه ﴾ وأجاب "كلما " بقوله : ﴿ سخروا منه ﴾ أي ولم يمنعهم شرفهم من ذلك ، وذلك أنهم رأوه يعاني ما لم يروا قبله مثله ليجري على الماء وهو في البر وهو على صفة من الهول عظيمة فعن الحسن أن طوالها ألف ذراع ومائتا ذراع وعرضها ستمائة ، فقالوا : يا نوح! ما تصنع ؟ قال : أبني بيتاً على الماء ، ويجوز أن يكون ﴿ سخروا ﴾ : صفة لملإ ، وجواب ﴿ كلما ﴾ ﴿ قال ﴾ ، ولما أيأسه الله من خيرهم ، ترك ما كان من لينه لهم واستعطافهم فعلم أن ذلك ما كان إلا له سبحانه ، فقال حاكياً عنه استئنافاً : ﴿ قال إن تسخروا منا ﴾ ولما كانوا يظنون أنه غائب في عمله كان عندهم موضعاً لخزي والسخرية ، وكان هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ عالماً بأن عملهم سبب لخزيهم بالعذاب المستأصل ، فكان المعنى : إن تسخروا منا - أي مني وممن يساعدني - لظن أن عملنا غير مثمر ﴿ فإنا نسخر ﴾ أي نوجد السخرية ﴿ منكم ﴾ جزاء لكم ﴿ كما تسخرون ﴾ منا الآن لأن عملنا منج وعملكم ليس مقتصراً على الضياع بل هو موجب لما توعدون من العذاب فأنتم المخزيون دوني .

ولما كان قوله ﴿ نسخر منكم ﴾ واقعاً موقع هذا الإخبار ، حسن الإتيان بالفاء المؤذنة بتسبب العلم المذكور عنه في قوله : ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أي بوعد لا خلف فيه ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ أي يفضحه فيذله ، وكأن المراد به عذاب الدنيا ﴿ ويحل عليه ﴾ أي حلول الدين الذي لا محيد عنه ﴿ عذاب مقيم ﴾ وهو عذاب الآخرة ، وقد مضى نحوه في الأنعام عند قوله ﴿ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ﴾ ؛ والسخرية : إظهار ما يخالف الإبطان على جهة تفهم استضعاف العقل ، من التسخير وهو التذليل استضعافاً بالقهر ، وهي تفارق اللعب بأن فيها خدعة استنفاض ، فلا تكون إلا بحيوان ، واللعب قد يكون بجماد لأنه مطلق طلب الفرح ؛ والخزي : العيب الذي تظهر فضيحته والعار به ، ونظيره الذل والهوان ؛ واستمر ذلك دأبه ودأبهم ﴿ حتى إذا جاء أمرنا ﴾ أي وقت إرادتنا لإهلاكم ﴿ وفار ﴾ أي غلا وطفح ﴿ التنور ﴾ وعن ابن عباس -رضى الله عنهما - والحسن ومجاهد أنه الحقيقي الذي يخبز فيه ، وهذا هو الظاهر فلا يعدل عنه إلا بدليل ، لأن صرف اللفظ عن ظاهره بغير دليل عبث كما قاله أهل الأصول ﴿ قلنا ﴾ بعظمتنا ﴿ احمل ﴾ ولما كان الله تعالى قد أمره أن يجعل لها غطاء - كما قاله أهل التفسير - لئلا تمتلىء من شدة الأمطار ، كانت الظرفية فيها بخلاف غيرها من السفن واضحة فلذلك قال : ﴿ فيها ﴾ أي السفينة ﴿ من كل زوجين ﴾ من الحيوانات ، والزوج فرد

يكون معه آخر لا يكمل نفعه إلا به ﴿ اثنين ﴾ ذكراً وأنثى ﴿ وأهلك ﴾ أي احملهم ، والأهل : العيال ﴿ إلا من سبق ﴾ غالباً ﴿ عليه القول ﴾ بأني أغرقه وهو امرأته وابنه كنعان ﴿ ومن ﴾ أي واحمل فيها من ﴿ آمن ﴾ قال أبو حيان : وكانت السفينة ثلاث طبقات : السفلى للوحوش ، والوسطى للطعام والشراب ، والعليا له ولمن آمن معه ؛ ثم سلى المخاطب بهذه القصص - صلى الله عليه وسلم - وذكره نعمته بكثرة من اتبعه مع صدعهم بمؤلم الإنذار على قصر الزمان دون نوح عليهم السلام مع تطاول الزمن فقال : ﴿ وما ﴾ أي والحال

(125/377)

أنه ما ﴿ آمن ﴾ كائناً ﴿ معه ﴾ أي بإنذاره ﴿ إلا قليل ﴾ بسبب تقديرنا لا باغضائهم بما كوفحوا به من الإنذار ؛ والتنور - قال أبو حيان : وزنه فعول عند أبي علي وهو أعجمي ، وقال ثعلب : وزنه تفعول من النور ، وأصله تنوور ، همزت الواو ثم خففت وشدد الحرف الذي قبلها ، والزوج قد كثر على الرجل الذي له امرأة ؛ قال الرماني : وقال الحسن في ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ [الذاريات : 49] : السماء زوج والأرض زوج ، والشتاء زوج ، والصيف زوج ، والليل زوج ، والنهار زوج ، حتى يصير الأمر إلى الله الفرد

الذي لا يشبهه شيء ، ومعنى ذلك في صحيح البخاري وأقل ما قيل فيمن كان في السفينة ثمانية : نوح وامرأة له ، وثلاثة بنين : سام وحام ويافث ، ونساؤهم ؛ وأكثر ما قيل أنهم ثمانون - روي عن ابن عباس -رضى الله عنهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 3 صـ 531.529﴾

(126/377)

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

الإسرائيليات في سفينة نوح :

ومن الإسرائيليات التي اشتملت عليها بعض كتب التفسير ، كتفسير ابن جرير ، و"الدر المنثور" وغيرهما : ما روي في سفينة نوح عليه السلام فقد أحاطوها بهالة من العجائب والغرائب ، من أي خشب صنعت ؟ وما طولها ؟ وما عرضها ؟ وما ارتفاعها ؟ وكيف كانت طبقاتها ؟ وذكروا خرافات في خلقة بعض الحيوانات من الأخرى ، وقد بلغ ببعض الرواة أنهم نسبوا بعض هذا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال صاحب الدر :

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه

وسلم قال : "كانت سفينة نوح عليه السلام لها أجنحة وتحت الأجنحة إيوان" ، أقول : قبح الله من نسب مثل هذا إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن مردويه : عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم" وذكر أن طول السفينة كان ثلاثمائة ذراع ، وعرضها خمسون ذراعا ، وطولها في السماء ثلاثون ذراعا ، ثم قال :

وأخرج إسحاق بن بشر ، وابن عساكر ، عن ابن عباس : "أن نوحا لما أمر أن يصنع الفلك ، قال : يا رب ، وأين الخشب ؟ قال : اغرس الشجر ، فغرس الساج عشرين سنة . . . . . إلى أن قال : "فجعل السفينة ستمائة ذراع طولها ، وستين ذراعا في الأرض يعني عمقها ، وعرضها ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون2 وأمر أن يطليها بالقار3 ، ولم يكن في الأرض قار ، ففجر الله له عين القار ، حيث تنحت السفينة ، تغلي غليانا ، حتى طلاها ، فلما فرغ منها جعل لها ثلاثة أبواب ، وأطباقها ، وحمل فيها السباع ، والدواب ، فألقى الله على الأسد الحمى ، وشغله بنفسه عن الدواب وجعل الوحش والطير في الباب الثاني ، ثم أطبق عليهما . . . . .

---

1 هذا أمارة على أن ذلك من رواية ابن عباس عن أهل الكتاب وأن من رفعها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقد غلط .

2 لا ندري بأي رواية نصدق ، أبرواية ابن عباس هذه ، أم بالسابقة ، وهذا الاضطراب

أمارة الاختلاق ممن وضعوها أولا ، وحملها عنهم ابن عباس وغيره .

3 في القاموس : القبر ، والقار : شيء أسود تطلى به الإبل ، أو هو الزفت .

(127/377)

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن ، قال : "كان طول سفينة نوح عليه السلام ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع" ، وإليك ما ذكره بعد هذا من العجب العجاب ، قال : وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال الحواريون لعيسى ابن مريم عليهما السلام : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فحدثنا عنها ، فانطلق بهم ، حتى انتهى إلى كثيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب ، قال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا كعب حام بن نوح ، فضرب الكثيب بعصاه ، قال : قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب على رأسه ، قد شاب ، قال له عيسى عليه السلام : هكذا هلكت ؟ ! قال : لا ؛ مت وأنا شاب ، ولكنني ظننت أنها الساعة قامت ، فمن ثم شبت قال : حدثنا عن سفينة نوح قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، كانت ثلاث طبقات ، فطبقة فيها الدواب ، والوحش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطير ، فلما كثر أرواث الدواب : أوحى الله إلى نوح : أن اغمز ذنب الفيل ، فغمزه ،

فوقع منه خنزير وخنزيرة ! ! فأقبلا على الروث ، فلما وقع الفأر يخرب السفينة بقرضه أوحى الله إلى نوح : أن اضرب بين عيني الأسد ، فخرج من منخره سنور ، وسنورة ، فأقبلا على الفأر فأكلاه .

(128/377)

وفي رواية أخرى : أن الأسد عطس ، فخرج من منخره سنوران : ذكر وأنثى ، فأكلا الفأر ، وأن الفيل عطس ، فخرج من منخره خنزيران ذكر وأنثى فأكلا أذى السفينة وأنه لما أراد الحمار أن يدخل السفينة أخذ نوح بأذني الحمار ، وأخذ إبليس بذنبه ، فجعل نوح عليه السلام يجذبه ، وجعل إبليس يجذبه ، فقال نوح : ادخل يا شيطان . –ويريد به الحمار– فدخل الحمار ، ودخل معه إبليس ، فلما سارت السفينة جلس إبليس في أذنابها يتغنى ، فقال له نوح عليه السلام : ويلك من أذن لك ؟ قال : أنت . قال : متى ؟ قال : أن قلت للحمار ادخل يا شيطان ، فدخلت بإذنك . . .

وزعموا أيضا : أن الماعز لما استصعبت على نوح أن تدخل السفينة فدفعها في ذنبها ، فمن ثم انكسر ، وبدا حياها ، ومضت النعجة فدخلت من غير معاكسة فمسح على ذنبها ، فستر الله حياها يعني فرجها وزعموا أيضا : أن سفينة نوح عليه السلام

طافت بالبيت أسبوعا بل رووا عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم "إن سفينة نوح طافت بالبيت سبعًا ، وصلت عند المقام ركعتين" ! !

وهذا من تفاهات عبد الرحمن هذا ، وقد ثبت عنه من طريق أخرى ، نقلها صاحب التهذيب "ج 6 ص 179" عن الساجي ، عن الربيع ، عن الشافعي ، قال : "قيل لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : حدثك أبوك عن جدك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن سفينة نوح طافت بالبيت ، وصلت خلف المقام ركعتين ؟" ! ! قال : نعم ، وقد عرف عبد الرحمن بمثل هذه العجائب المخالفة للعقل وتندر به العلماء ، قال الشافعي فيما نقل في التهذيب أيضا : "ذكر رجل لمالك حديثا منقطعا ، فقال : اذهب إلى عبد الرحمن بن زيد يحدثك عن أبيه ، عن نوح" ! !

وأن لما رست السفينة على الجودي وكان يوم عاشوراء صام نوح ، وأمر جميع من معه من الوحش والدواب فصاموا شكرا لله ، إلى غير ذلك من التخريفات والأباطيل 1 التي لا نزال نسمعها ، وأمثالها من العوام والعجائز ، وهذا لا يمكن أن يمت إلى الإسلام بصلة ، وإنا لننزه

المعصوم صلى الله عليه وسلم من أن يصدر عنه ما نسبوه إليه ، وإنما هي أحاديث خرافة اختلقها اليهود وأضرابهم على توالي العصور ، وكانت شائعة مشهورة في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام نشرها أهل الكتاب الذين أسلموا بين المسلمين ، وهؤلاء رووها بحسن نية ، ولم يزيفوها اعتمادا على أنها ظاهرة البطلان ، وأوغل زنادقة اليهود وأمثالهم في الكيد للإسلام ونبيه ، فزوروا بعضها على النبي صلى الله عليه وسلم وما كنا نحب لابن جرير ، ولا للسيوطي ، ولا لغيرهما أن يسودوا صحائف كتبهم بهذه الخرافات والأباطيل ، فاحذر منها أيها القارئ في أي كتاب من كتب التفسير وجدتها ، وألق بها دبر أذنيك ، وكن عن الحق منافحًا وللباطل مزيفًا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير صـ 216.218 ﴾

---

1 تفسير ابن جرير الطبري : ج 12 من ص 21-29 ، الدر المنثور : ج 3 من ص 327-335 .

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾

أما قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الفلك ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في قوله : ﴿ وَيَصْنَعُ الفلك ﴾ قولان : الأول : أنه حكاية حال ماضية أي في ذلك الوقت كان يصدق عليه أنه يصنع الفلك .

الثاني : التقدير وأقبل يصنع الفلك فاقتصر على قوله : ﴿ وَيَصْنَعُ الفلك ﴾ .

المسألة الثانية :

ذكروا في صفة السفينة أقوالاً كثيرة : فأحدها : أن نوحاً عليه السلام اتخذ السفينة في سنتين ، وقيل في أربع سنين وكان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً ، وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاث بطون فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام ، وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام ، وفي البطن الأعلى جلس هو ومن كان معه مع ما احتاجوا إليه من الزاد ، وحمل معه جسد آدم عليه السلام ، وثانيها : قال الحسن كان طولها ألفاً ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع .

واعلم أن أمثال هذه المباحث لا تعجبني لأنها أمور لا حاجة إلى معرفتها ألبتة ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلاً وكان الخوض فيها من باب الفضول لا سيما مع القطع بأنه ليس ههنا ما يدل على الجانب الصحيح والذي نعلمه إنه كان في السعة بحيث يتسع للمؤمنين من قومه ولما

يحتاجون إليه ولحصول زوجين من كل حيوان ، لأن هذا القدر مذكور في القرآن ، فأما غير ذلك القدر فغير مذكور .

أما قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ ففي تفسير الملأ وجهان قيل جماعة وقيل طبقة من أشرافهم وكبرائهم واختلفوا فيما لأجله كانوا يسخرون وفيه وجوه

أحدهما : أنهم كانوا يقولون : يا نوح كنت تدعي رسالة الله تعالى فصرت بعد ذلك نجاراً .

وثانيها : أنهم كانوا يقولون له : لو كنت صادقاً في دعواك لكان إلهك يغنيك عن هذا العمل الشاق .

وثالثها : أنهم ما رأوا السفينة قبل ذلك وما عرفوا كيفية الانتفاع بها وكانوا يتعجبون منه ويسخرون .

ورابعها : أن تلك السفينة كانت كبيرة وهو كان يصنعها في موضع بعيد عن الماء جداً وكانوا يقولون : ليس ههنا ماء ولا يمكنك نقلها إلى الأنهار العظيمة وإلى البحار ، فكانوا يعدون ذلك من باب السفه والجنون .

وخامسها : أنه لما طالت مدته مع القوم وكان ينذرهم بالغرق وما شاهدوا من ذلك المعنى

خبراً ولا أثراً غلب على ظنونهم كونه كاذباً في ذلك المقال فلما اشتغل بعمل السفينة لا جرم سخروا منه وكل هذه الوجوه محتملة .

ثم إنه تعالى حكى عنه أنه كان يقول : ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ وفيه وجوه : الأول : التقدير إن تسخروا منا في هذه الساعة فإنا نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والخزي في الآخرة .

الثاني : إن حكمتم علينا بالجهل فيما نصنع فإنا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله تعالى وعذابه فأنتم أولى بالسخرية منا .

الثالث : أن تستجهلونا فإنا نستجهلكم واستجهالكم أقبح وأشد ، لأنكم لا تستجهلون إلا لأجل الجهل بحقيقة الأمر والاغترار بظاهر الحال كما هو عادة الأطفال والجهال .

فإن قيل : السخرية من آثار المعاصي فكيف يليق ذلك بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

قلنا : إنه تعالى سمى المقابلة سخرية كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] .

أما قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أي فسوف تعلمون من هو أحق بالسخرية ومن هو أحمد عاقبة ، وفي قوله : ﴿ مَن يَأْتِيهِ ﴾ وجهان : أحدهما : أن يكون استفهاماً بمعنى أي كأنه قيل : فسوف تعلمون أينا يأتيه عذاب ، وعلى هذا الوجه فمحل "من" رفع بالابتداء .

والثاني : أن يكون بمعنى الذي ويكون في محل النصب ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي يجب عليه وينزل به .

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال صاحب "الكشاف" ﴿ حتى ﴾ هي التي يبتدأ بعدها الكلام أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء ووقعت غاية لقوله : ﴿ وَيَصْنَعُ الفلك ﴾ أي فكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد .

المسألة الثانية :

الأمر في قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ يحتمل وجهين : الأول : أنه تعالى بين أنه لا يحدث شيء إلا بأمر الله تعالى كما قال : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْء إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : 40] فكان المراد هذا .

والثاني : أن يكون المراد من الأمر ههنا هو العذاب الموعد به .

المسألة الثالثة :

في التنور قولان : أحدهما : أنه التنور الذي يخبز فيه .

والثاني : أنه غيره ، أما الأول وهو أنه التنور الذي يخبز فيه فهو قول جماعة عظيمة من المفسرين كابن عباس والحسن ومجاهد .

وهؤلاء اختلفوا ، فمنهم من قال : إنه تنور لنوح عليه السلام ، وقيل : كان لآدم قال الحسن : كان تنوراً من حجارة ، وكان لحواء حتى صار لنوح عليه السلام ، واختلفوا في موضعه فقال الشعبي : إنه كان بناحية الكوفة ، وعن علي رضي الله عنه أنه في مسجد الكوفة ، قال : وقد صلى فيه سبعون نبياً ، وقيل بالشام بموضع يقال له : عين وردان وهو قول مقاتل وقيل : فار التنور بالهند ، وقيل : إن امرأته كانت تخبز في ذلك التنور فأخبرته بخروج الماء من ذلك التنور فاشتغل في الحال بوضع تلك الأشياء في السفينة .

(133/377)

القول الثاني : ليس المراد من التنور تنور الخبز ، وعلى هذا التقدير ففيه أقوال : الأول : أنه انفجر الماء من وجه الأرض كما قال : ﴿ فَفَتَحْنَا أبواب السماء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً فَالْتَقَى الماء على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر : 11 ، 12] والعرب تسمي وجه

الأرض تنوراً .

الثاني : أن التنور أشرف موضع في الأرض وأعلى مكان فيها وقد أخرج إليه الماء من ذلك الموضع ليكون ذلك معجزة له ، وأيضاً المعنى أنه لما نبع الماء من أعالي الأرض ، ومن الأمكنة المرتفعة فشبهت لارتفاعها بالتنانير .

الثالث : ﴿ فَارَ التنور ﴾ أي طلع الصبح وهو منقول عن علي رضي الله عنه .

الرابع : ﴿ فَارَ التنور ﴾ يحتمل أن يكون معناه أشد الأمر كما يقال : حمي الوطيس ومعنى الآية إذا رأيت الأمر يشتد والماء يكثر فانج بنفسك ومن معك إلى السفينة .

فإن قيل : فما الأصح من هذه الأقوال ؟

قلنا : الأصل حمل الكلام على حقيقته ولفظ التنور حقيقة في الموضع الذي يخبز فيه فوجب حمل اللفظ عليه ولا امتناع في العقل في أن يقال : إن الماء نبع أولاً من موضع معين وكان ذلك الموضع تنوراً .

فإن قيل : ذكر التنور بالألف واللام وهذا إنما يكون معهود سابق معين معلوم عند السامع وليس في الأرض تنور هذا شأنه ، فوجب أن يحمل ذلك على أن المراد إذا رأيت الماء يشتد نبوعه والأمر يقوى فانج بنفسك وبمن معك .

قلنا : لا يبعد أن يقال : إن ذلك التنور كان لنوح عليه السلام بأن كان تنور آدم أو حواء أو كان تنوراً عينه الله تعالى لنوح عليه السلام وعرفه أنك إذا رأيت الماء يفور فاعلم أن الأمر

قد وقع، وعلى هذا التقدير فلا حاجة إلى صرف الكلام عن ظاهره.

المسألة الرابعة:

(134/377)

معنى ﴿فار﴾ نبع على قوة وشدة تشبيهاً بغليان القدر عند قوة النار ولا شبهة في أن نفس التنور لا يفور فالمراد فار الماء من التنور، والذي روي أن فور التنور كان علامة لهلاك القوم لا يمتنع لأن هذه واقعة عظيمة، وقد وعد الله تعالى المؤمنين النجاة فلا بد وأن يجعل لهم علامة بها يعرفون الوقت المعين، فلا يبعد جعل هذه الحالة علامة لحدوث هذه الواقعة.

المسألة الخامسة:

قال الليث: التنور لفظة عمت بكل لسان وصاحبه تنار، قال الأزهري: وهذا يدل على أن الاسم قد يكون أعجمياً فتعربه العرب فيصير عربياً، والدليل على ذلك أن الأصل تنار ولا يعرف في كلام العرب تنور قبل هذا، ونظيره ما دخل في كلام العرب من كلام العجم الديباج والدينار والسندس والاستبرق فإن العرب لما تكلموا بهذه الألفاظ صارت عربية.

واعلم أنه لما فار التنور فعند ذلك أمره الله تعالى بأن يحمل في السفينة ثلاثة أنواع من

الأشياء .

فالأول : قوله : ﴿ قُلْنَا احمل فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ قال الأخفش : تقول الاثنان هما زوجان قال تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات : 49] فالسماء زوج والأرض زوج والشتاء زوج والصيف زوج والنهار زوج والليل زوج ، وتقول للمرأة هي زوج وهو زوجها قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء : 1] يعني المرأة ، وقال : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [النجم : 45] فثبت أن الواحد قد يقال له : زوج ومما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ ثمانية أزواج مّنَ الضأن اثنين وَمِنَ المعز اثنين وَمِنَ الإبل اثنين وَمِنَ البقر اثنين ﴾ [الأنعام : 143] .

(135/377)

إذا عرفت هذا فنقول : الزوجان عبارة عن كل شيئين يكون أحدهما ذكراً والآخر أنثى والتقدير كل شيئين هما كذلك فاحمل منهما في السفينة اثنين واحد ذكر والآخر أنثى ، ولذلك قرأ حفص ﴿ مِن كُلٍّ ﴾ بالتنوين وأرادوا حمل من كل شيء زوجين اثنين الذكر زوج والأنثى زوج لا يقال عليه إن الزوجين لا يكونان إلا اثنين فما الفائدة في قوله : ﴿ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ لأنا نقول هذا على مثال قوله : ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ إلهين اثنين ﴾ [النحل : 51] وقوله

: ﴿ نَفْخَةٌ واحدة ﴾ [الحاقة : 13] وأما على القراءة المشهورة ، فهذا السؤال غير وارد

واختلفوا في أنه هل دخل في قوله : ﴿ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ غير الحيوان أم لا ؟ فنقول : أما الحيوان فداخل لأن قوله : ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ يدخل فيه كل الحيوانات ، وأما النبات فاللفظ لا يدل عليه ، إلا أنه بحسب قرينة الحال لا يبعد بسبب أن الناس محتاجون إلى النبات بجميع أقسامه ، وجاء في الروايات عن ابن مسعود رضي الله عنهما أنه قال : لم يستطع نوح عليه السلام أن يحمل الأسد حتى ألقيت عليه الحمى وذلك أن نوحاً عليه السلام قال : يا رب فمن أين أطعم الأسد إذا حملته قال تعالى : "فسوف أشغله عن الطعام" فسلط الله تعالى عليه الحمى وأمثال هذه الكلمات الأولى تركها ، فإن حاجة الفيل إلى الطعام أكثر وليس به حمى .

الثاني : من الأشياء التي أمر الله نوحاً عليه السلام بحملها في السفينة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول ﴾ قالوا : كانوا سبعة نوح عليه السلام وثلاثة أبناء له وهم سام وحام ويافث ، ولكل واحد منهم زوجة ، وقيل أيضاً كانوا ثمانية ، هؤلاء وزوجة نوح عليه السلام .

وأما قوله : ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول ﴾ فالمراد ابنه وامرأته وكانا كافرين ، حكم الله تعالى عليهم بالهلاك .

فإن قيل : الإنسان أشرف من جميع الحيوانات فما السبب أنه وقع الابتداء بذكر الحيوانات ؟

(136/377)

قلنا : الإنسان عاقل وهو لعقله كالمضطر إلى دفع أسباب الهلاك عن نفسه ، فلا حاجة فيه إلى المبالغة في الترغيب ، بخلاف السعي في تخليص سائر الحيوانات ، فلهذا السبب وقع الابتداء به .

واعلم أن أصحابنا احتجوا بقوله : ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول ﴾ في إثبات القضاء اللازم والقدر الواجب ، قالوا : لأن قوله : ﴿ سَبَقَ عَلَيْهِ القول ﴾ مشعر بأن كل من سبق عليه القول فإنه لا يتغير عن حاله وهو كقوله عليه الصلاة والسلام : " السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه "

النوع الثالث : من تلك الأشياء قوله : ﴿ وَمَنْ ءامَنَ ﴾ قالوا كانوا ثمانين .

قال مقاتل : في ناحية الموصل قرية يقال لها قرية الثمانين سميت بذلك ، لأن هؤلاء لما خرجوا من السفينة بنوها ، فسميت بهذا الاسم وذكروا ما هو أزيد منه وما هو أنقص منه وذلك مما لا سبيل إلى معرفته إلا أن الله تعالى وصفهم بالقلة وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَا ءامَنَ

مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

فإن قيل : لما كان الذين آمنوا معه ودخلوا في السفينة كانوا جماعة فلم لم يقل قليلون كما في قوله : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ [الشعراء : 54] .

قلنا : كلا اللفظين جائز ، والتقدير ههنا وما آمن معه إلا نفر قليل ، فأما الذي يروي أن إبليس دخل السفينة فبعيد ، لأنه من الجن وهو جسم ناري أو هوائي وكيف يؤثر الغرق فيه ، وأيضاً كتاب الله تعالى لم يدل عليه وخبر صحيح ما ورد فيه ، فالأولى ترك الخوض فيه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 178.182 ﴾

(137/377)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾

قال زيد بن أسلم : مكث نوح عليه السلام مائة سنة يغرس الشجر ويقطعها وييبسها ، ومائة سنة يعملها ، واختلف في طولها على ثلاثة أقاويل :

أحدها : ما قاله الحسن كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت مطبقة .

الثاني : ما قاله ابن عباس : كان طولها أربعمائة ذراع ، وعلوها ثلاثون ذراعاً . وقال خصيف : كان طولها ثلاثمائة ذراع ، وعرضها خمسون ذراعاً ، وكان في أعلاها الطير ، وفي وسطها الناس وفي أسفلها السباع . ودفعت من عين وردة في يوم الجمعة لعشر مضين من رجب ورست بباقردي على الجودي يوم عاشوراء . قال قتادة وكان بابها في عرضها .

﴿ وكلّما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾ وفي سخريتهم منه قولان :

أحدهما : أنهم كانوا يرونه يبني في البر سفينة فيسخرون منه ويستهزئون به ويقولون : يا نوح صرت بعد النبوة نجاراً .

الثاني : أنهم لما رأوه يبني السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت قالوا يا نوح : ما تصنع ؟ قال : أبني بيتاً يمشي على الماء فعجبوا من قوله وسخروا منه .

﴿ قال إن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ فيه قولان :

أحدهما : إن تسخروا من قولنا فسنسخر من غفلتكم .

الثاني : إن تسخروا من فعلنا اليوم عند بناء السفينة فإنا نسخر منكم غداً عند الغرق .

والمراد بالسخرية ها هنا الاستجهال . ومعناه إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم .

قال ابن عباس : ولم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر فلذلك سخروا منه . قال : ومياه البحار بقية الطوفان .

فإن قيل : فلم جاز أن يقول فإنا نسخر منكم مع قبح السخرية ؟ قيل : لأنه ذمٌّ جعله مجازاة

على السخرية فجاء به على مزاوجة الكلام ، وكان الزجاج لأجل هذا الاعتراض يتأوله على معنى إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلوننا .

(138/377)

قوله عز وجل : ﴿ حَتَّى إذا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾

فيه ستة أوجه :

أحدها : وجه الأرض ، والعرب تسمي وجه الأرض تنُّوراً ، قاله ابن عباس وقيل لنوح عليه السلام : إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك .

الثاني : أن التنور العين التي بالجزيرة "عين وردة" ، رواه عكرمة . الثالث : أنه مسجد بالكوفة من قبل أبواب كندة ، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه . الرابع : أن التنور ما زاد على وجه الأرض فأشرف منها ، قاله قتادة .

الخامس : أنه التنور الذي يخبز فيه ، قيل له : إذا رأيت الماء يفور منه فاركب أنت ومن معك ، قاله مجاهد .

قال الحسن : كان تنوراً من حجارة وكان لحواء ثم صار لنوح ، وقال مقاتل : فارَ من أقصى دار نوح بعين وردة من أرض الشام ، قال أمية بن الصلت :

فار تنورهم وجاش بماءٍ . . . صار فوق الجبال حتى علاها

السادس : أن التنور هو تنوير الصبح ، من قولهم : نور الصبح تنويراً ، وهو مروي عن علي رضي الله عنه .

﴿ قُلْنَا احمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْن اثْنَيْنِ ﴾ يعني من الآدميين والبهائم ذكراً وأنثى .

﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ أي احمل أهلك .

﴿ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ من الله تعالى أنه يهلكهم وهو ابنه كنعان وامرأته كانا كافرين : قاله الضحاك وابن جريج .

﴿ وَمَن آمَنَ ﴾ أي احمل من آمن .

﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيْلٌ ﴾ واختلف في عددهم على ثلاثة أقاويل : أحدها : ثمانون رجلاً منهم جرهم ، قاله ابن عباس . الثاني : ثمانين ، قاله ابن جريج .

الثالث : سبعة ، قاله الأعمش ومطر ، وكان فيهم ثلاثة بنين : سام وحام ويافث ، وثلاث بنات له ونوح معهم فصاروا سبعة .

وعلى القول الثاني : كانت فيهم امرأة نوح فصاروا ثمانية . قال محمد بن عباد بن جعفر : فأصاب حام امرأته في السفينة ، فدعا نوح أن يغير الله نطفته فجاء السودان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وكلمَّا مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أنهم رأوه يبني السفينة وما رأوا سفينة قط ، فكانوا يسخرون ويقولون : صرت بعد النبوَّة نجاراً ؟ وهذا قول ابن إسحاق .

والثاني : أنهم قالوا له : ما تصنع ؟ فقال : أبني بيتا يمشي على الماء ، فسخروا من قوله ، وهذا قول مقاتل .

وفي قوله : ﴿ إن تسخروا منا فانا نسخر منكم ﴾ خمسة أقوال .

أحدها : إن تسخروا من قولنا فانا نسخر من غفلتكم .

والثاني : إن تسخروا من فعلنا عند بناء السفينة ، فانا نسخر منكم عند الغرق ، ذكره المفسرون .

والثالث : إن تسخروا منا في الدنيا ، فانا نسخر منكم في الآخرة ، قاله ابن جرير .

والرابع : إن تستجهلونا ، فانا نستجهلكم ، قاله الزجاج .

والخامس : إن تسخروا منا ، فانا نستنصر الله عليكم ، فسمى هذا سخرية ، ليتفق اللفظان كما بينا في قوله : ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ [البقرة : 15] ، هذا قول ابن

الأنباري.

قال ابن عباس: لم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر، فلذلك سخروا منه، وإنما مياه البحار بقية الطوفان.

قوله تعالى: ﴿ فسوف تعلمون ﴾

هذا وعيد، ومعناه: فسوف تعلمون من هو أحق بالسخرية، ومن هو أحمد عاقبة.

قوله تعالى: ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ أي: يُذِلُّه، وهو الغرق.

﴿ ويحل عليه ﴾ أي: ويجب عليه ﴿ عذاب مقيم ﴾ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ حتى إذا جاء أمرنا ﴾

فيه قولان:

أحدهما: جاء أمرنا بعذابهم وإهلاكهم.

والثاني: جاء عذابنا وهو الماء، ابتدأ بجنبات الأرض فدار حولها كالإكليل، وجعل المطر ينزل من السماء كأفواه القرب، فجعلت الوحوش يطلبن وسط الأرض هربا من الماء حتى اجتمعن عند السفينة، فحينئذ حمل فيها من كل زوجين اثنين.

قوله تعالى: ﴿ وفار التَّنُّورُ ﴾ الفور: الغليان؛ والفوَّارة: ما يفور من القِدْر، قاله ابن فارس.

قال المصنف : وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي عن ابن دريد قال : التنور اسم فارسي معرَّب لا تعرف له العرب اسماً غير هذا ، فلذلك جاء في التنزيل ، لأنهم خوطبوا بما عرفوا .

وروي عن ابن عباس أنه قال : التنور ، بكل لسان عربي وعجمي .

وفي المراد بهذا التنور ستة أقوال :

أحدها : أنه اسم لوجه الأرض ، رواه عكرمة عن علي عليه السلام .

وروى الضحاك عن ابن عباس : التنور : وجه الأرض ، قال : قيل له : إِذا رأيت الماءَ قد علا وجهَ الأرض ، فاركب أنت وأصحابك ، وهذا قول عكرمة ، والزهري .

والثاني : أنه تنوير الصبح ، رواه أبو جحيفة عن علي رضي الله عنه .

وقال ابن قتيبه : التنوير عند الصلاة .

والثالث : أنه طلوع الفجر ، روي عن علي أيضا ، قال : "وفار التنور" طلع الفجر .

والرابع : أنه طلوع الشمس ، وهو منقول عن علي أيضا .

والخامس : أنه تنُّور أهله ، روى العوفي عن ابن عباس قال : إِذا رأيت تنُّور أهلك يخرج منه الماء ، فانه هلاك قومك .

وروى أبو صالح عن ابن عباس : أنه تنُّور آدم عليه السلام ، وهبه الله لنوح ، وقيل له : إِذا

فار الماء منه، فاحمل ما أُمرتَ به .

وقال الحسن : كان تنوراً من حجارة، وهذا قول مجاهد ، والفراء ، ومقاتل .

والسادس : أنه أعلى الأرض وأشرفها .

قال ابن الأنباري : شُبهت أعالي الأرض وأماكنها المرتفعة لعلوها ، بالتنانير .

واختلفوا في المكان الذي فار منه التنور على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه فار من مسجد الكوفة، رواه حبة العربي عن علي عليه السلام .

وقال زِرّ بن حُبَيش : فار التنور من زاوية مسجد الكوفة اليمنى .

وقال مجاهد : نبع الماء من التنور ، فعلمت به امرأته فأخبرته ، وكان ذلك بناحية الكوفة .

وكان الشعبي يحلف بالله ما كان التنور إلا بناحية الكوفة .

والثاني : أنه فار بالهند ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثالث : أنه كان في أقصى دار نوح، وكانت بالشام في مكان يقال له : عين وردة ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ قلنا احمل فيها ﴾ أي : في السفينة ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾ .

وروى حفص عن عاصم : "من كُلٍّ" بالتنوين .

قال أبو علي : والمعنى : من كل شيء ، ومن كل زوج زوجين ، فحذف المضاف .

وانتصاب "اثنين" على أنهما صفة لزوجين ، وقد علم أن الزوجين اثنان ، ولكنه توكيد .

قال مجاهد : من كل صنف ، ذكراً وأنثى .

وقال ابن قتيبة : الزوج يكون واحداً ، ويكون اثنين ، وهو هاهنا واحد ، ومعنى الآية : احمل من كل ذكر وأنثى اثنين .

وقال الزجاج : المعنى : احمل زوجين اثنين من كل شيء ، والزوج في كلام العرب يجوز أن يكون معه واحد ، والاثنان يقال لهما : زوجان ، يقال : عندي زوجان من الطير ، إنما يريد ذكراً وأنثى فقط .

وقال ابن الأنباري : إنما قال "اثنين" فثنَّى الزوج ، لأنه قصد قصْد الذكر والأنثى من الحيوان ، وتقديره : من كل ذكر وأنثى .

قوله تعالى : ﴿ وأهلك ﴾ أي : وأحمل أهلك .

قال المفسرون : أراد بأهله : عياله وولده .

﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ أي : سبق عليه القول من الله بالإهلاك .

قال الضحاك : وهم امرأته وابنه كنعان .

قوله تعالى : ﴿ ومن آمن ﴾ معناه : واحمل من آمن .

﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ وفي عددهم ثمانية أقوال :

أحدها : أنهم كانوا ثمانين رجلاً معهم أهلوهم ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثاني : أن نوحاً حمل معه ثمانين إنساناً ، وبنيه الثلاثة ، وثلاث نسوة لبنيه ، وامرأة نوح ، رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس .

والثالث : كانوا ثمانين إنساناً ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

وقال مقاتل كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة .

والرابع : كانوا أربعين ، ذكره ابن جريج عن ابن عباس .

والخامس : كانوا ثلاثين رجلاً ، رواه أبو نهيك عن ابن عباس .

والسادس : كانوا ثمانية ، قال الحكم بن عتيبة : كان نوح وثلاثة بنيه وأربع كنائنه .

قال قتادة : ذُكر لنا أنه لم ينج في السفينة إلا نوح وامرأته وثلاثة بنين له ، ونساؤهم ، فجماعتهم ثمانية ، وهذا قول القرظي ، وابن جريج .

والسابع : كانوا سبعة ، نوح ، وثلاث كنائن له وثلاثة بنين ، قاله الأعمش .

والثامن : كانوا عشرة سوى نسائهم ، قاله ابن إِسحاق .

وروي عنه أنه قال : الذين نَجَوْا مع نوح بنوه الثلاثة ، ونساؤهم ثلاث ، وستة ممن آمن به .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(143/377)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الفلك ﴾

أي وطفق يصنع .

قال زيد بن أسلم : مكث نوح صلى الله عليه وسلم مائة سنة يَغرس الشّجر ويقطعها وييبسها ، ومائة سنة يعملها .

وروى ابن القاسم عن ابن أشرس عن مالك قال : بلغني أن قوم نوح مَلَؤوا الأرض ، حتى مَلَؤوا السّهل والجبل ، فما يستطيع هؤلاء أن ينزلوا إلى هؤلاء ، ولا هؤلاء أن يصعدوا إلى هؤلاء ؛ فمكث نوح يَغرس الشجر مائة عام لعمل السّفينة ، ثم جمعها ييبسها مائة عام ، وقومه يسخرون ؛ وذلك لما رأوه يصنع من ذلك ؛ حتى كان من قضاء الله فيهم ما كان .

وروي عن عمرو بن الحارث قال : عمل نوح سفينته ببقاع دمشق ، وقطع خشبها من جبل

لبنان .

وقال القاضي أبو بكر بن العربيّ : لما استنقذ الله سبحانه وتعالى مَن في الأصلاب والأرحام من المؤمنين أوحى الله إليه .

﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فاصنع الفلك ﴾ قال : يا رب ما أنا بنجّار ، قال : "بلى فإن ذلك بعيني" فأخذ القدوم فجعله بيده ، وجعلت يده لا تُخطىء ، فجعلوا يمرّون به ويقولون : هذا الذي يزعم أنه نبيّ صار نجّاراً ؛ فعملها في أربعين سنة .

وحكى الثّعلبيّ وأبو نصر القُشَيريّ عن ابن عباس قال : اتخذ نوح السفينة في سنتين .

زاد الثّعلبيّ : وذلك لأنه لم يعلم كيف صنعة الفلك ، فأوحى الله إليه أن اصنعها كجُؤْجُؤ الطائر .

وقال كعب : بناها في ثلاثين سنة ، والله أعلم .

المهدويّ : وجاء في الخبر أن الملائكة كانت تعلّمه كيف يصنعها .

واختلفوا في طولها وعرضها ؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما كان طولها ثلثمائة ذراع ، وعرضها خمسون ، وسمكها ثلاثون ذراعاً ؛ وكانت من خشب السّاج ، وكذا قال الكَلْبيّ وقَتَادة وعِكْرمة كان طولها ثلثمائة ذراع ، والذّراع إلى المَنْكِب .

قاله سلمان الفارسيّ .

وقال الحسن البصريّ : إن طول السّفينة ألف ذراع ومائتا ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع .

وحكاه الثّعلبيّ في كتاب العرائس .

(144/377)

وروى عليّ بن زيد عن يوسف بن مِهران عن ابن عباس قال قال الحواريون لعيسى عليه السلام : لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة يحدّثنا عنها ، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كَثِيب من تراب فأخذ كفًّا من ذلك التراب ، قال أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : (هذا كعب حام بن نوح) قال فضرب الكثيب بعصاه وقال : قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب من رأسه ، وقد شاب ؛ فقال له عيسى : أهكذا هلكت ؟ قال : لا بل متُّ وأنا شابّ ، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثَمَّ شِبت .

قال : أخبرنا عن سفينة نوح ؟ قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات ، طبقة فيها الدوابّ والوحش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطّير .

وذكر باقي الخبر على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى .

وقال الكَلْبيّ فيما حكاه النقاش : ودخل الماء فيها أربعة أذرع ، وكان لها ثلاثة أبواب ؛ باب

فيه السبّاع والطير ، وباب فيه الوحش ، وباب فيه الرجال والنساء .

ابن عباس جعلها ثلاث بطون ؛ البطن الأسفل للوحوش والسباع والدواب ، والأوسط للطعام والشراب ، وركب هو في البطن الأعلى ، وحمل معه جسد آدم عليه السلام معترضاً بين الرجال والنساء ، ثم دفنه بعدُ ببيت المقدس ؛ وكان إبليس معهم في الكَوْثَل .

وقيل : جاءت الحيّة والعقرب لدخول السفينة فقال نوح : لا أحملكما ؛ لأنكما سبب الضرر والبلاء ، فقالتا : احملنا فنحن نضمن لك ألا نضرّ أحداً ذَكَرَك ؛ فمن قرأ حين يخاف مَضرّتَهما ﴿ سَلَامٌ على نُوحٍ فِي العالمين ﴾ [الصافات : 79] لم تضرّاه ؛ ذكره القشيريّ وغيره .

وذكر الحافظ ابن عساكر في التاريخ له مرفوعاً من حديث أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال حين يمسي صلى الله على نوح وعلى نوح السلام لم تلدغه عقرب تلك الليلة " قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّمَا ﴾ ظرف .

﴿ مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ .

قال الأخفش والكِسائي يقال : سَخرتُ به ومنه .

وفي سخريتهم منه قولان : أحدهما أنهم كانوا يرونه يبني سفينته في البر ، فيسخرون به ويستهزئون ويقولون : يا نوح صرت بعد النبوّة نجاراً .

الثاني لما رأوه يبني السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت قالوا : يا نوح ما تصنع ؟ قال : أبني بيتاً يمشي على الماء ؛ فعجبوا من قوله وسخروا منه .

قال ابن عباس : ولم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر ؛ فلذلك سخروا منه ؛ ومياه البحار هي بقية الطوفان .

﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا ﴾ أي من فعلنا اليوم عند بناء السفينة .

﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ غداً عند الغرق .

والمراد بالسخرية هنا الاستجهال ؛ ومعناه إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلونا .

قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾

تهديد ، و ﴿ مَنْ ﴾ متصلة ب ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ و ﴿ تعلمون ﴾ هنا من باب التعدية إلى مفعول ؛ أي فسوف تعلمون الذي يأتيه العذاب .

ويجوز أن تكون ﴿ مَن ﴾ استفهامية ؛ أي أيّنا يأتيه العذاب ؟ .

وقيل : ﴿ مَن ﴾ في موضع رفع بالابتداء و ﴿ يَأْتِيهِ ﴾ الخبر ، و ﴿ يُخْزِيهِ ﴾ صفة ل ﴿ عذاب ﴾ .

وحكى الكسائي : أن أناساً من أهل الحجاز يقولون : سو تعلمون ؛ وقال من قال : "ستعلمون" أسقط الواو والفاء جميعاً .

وحكى الكوفيون : سفْ تعلمون ؛ ولا يعرف البصريون إلا سوف تفعل ، وستفعل لغتان ليست إحداهما من الأخرى ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ ﴾ أي يجب عليه وينزل به .

﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي دائم ، يريد عذاب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ اختلف في التنور على أقوال سبعة : الأول أنه وجه الأرض ، والعرب تسمي وجه الأرض تنوراً ؛ قاله ابن عباس وعِكرمة والزّهري وابن عيينة ؛ وذلك أنه قيل له : إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك .

الثاني أنه تنور الخبز الذي يخبز فيه ؛ وكان تنوراً من حجارة ؛ وكان لحوّاء حتى صار لنوح ؛ فقيل له : إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك .

وأنبع الله الماء من التنور ، فعلمت به امرأته فقالت : يا نوح فار الماء من التنور ؛ فقال : جاء وعد ربي حقاً .

هذا قول الحسن ؛ وقاله مجاهد وعطية عن ابن عباس .

الثالث أنه موضع اجتماع الماء في السفينة ؛ عن الحسن أيضاً .

الرابع أنه طلوع الفجر ، ونور الصبح ؛ من قولهم : نوّر الفجر تنويراً ؛ قاله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

الخامس أنه مسجد الكوفة ؛ قاله عليّ بن أبي طالب أيضاً ؛ وقاله مجاهد .

قال مجاهد : كان ناحية التنور بالكوفة .

وقال : اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة ، وكان التنور على يمين الدّاخل مما يلي كندة .

وكان فوران الماء منه علماً لنوح ، ودليلاً على هلاك قومه .

قال الشاعر وهو أمية :

فار تنّورُهم وجاشَ بماءٍ . . .

صار فوق الجبالِ حتّى عَلاها

السادس : أنه أعالي الأرض ، والمواضع المرتفعة منها ؛ قاله قتادة .

السابع : أنه العين التي بالجزيرة "عين الوردة" رواه عِكرمة .

وقال مقاتل : كان ذلك تنور آدم ، وإنما كان بالشام بموضع يقال له : "عين وَرْدَة" وقال ابن عباس أيضاً : فار تنور آدم بالهند .

قال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ؛ لأن الله عز وجل أخبرنا أن الماء جاء من السماء والأرض ؛ قال : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السماء بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً ﴾ [القمر : 11] .

فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة .

والفَوَران الغَلَيان .

والتنور اسم أعجميّ عربته العرب ، وهو على بناء فَعّل ؛ لأنّ أصل بنائه تَنّر ، وليس في كلام العرب نون قبل راء .

وقيل : معنى "فَارَ التَّنُّورُ" التمثيل لحضور العذاب ؛ كقولهم : حَمِي الوطيس إذا اشتدت الحرب .

والوطيس التنور .

ويقال : فارت قِدر القوم إذا اشتد حربهم ؛ قال شاعرهم :

(147/377)

تركتم قِدْركم لا شيء فيها . . .

وقِدْرُ القوم حامية تفورُ

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا احمل فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ يعني ذكراً وأنثى ؛ لبقاء أصل النسل بعد الطوفان .

وقرأ حفص : "مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين" بتنوين "كل" أي من كل شيء زوجين .

والقراءتان ترجعان إلى معنًى واحدٍ : (شيء) معه آخر لا يستغنى عنه .

ويقال للاثنين : هما زوجان ، في كل اثنين لا يَستغني أحدهما عن صاحبه ؛ فإن العرب تسمي كل واحد منهما زوجاً .

يقال : له زوجا نعلٍ إذا كان له نعلان .

وكذلك عنده زوجا حمامٍ ، وعليه زوجا قيود ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [النجم : 45] .

ويقال للمرأة هي زوج الرجل ، وللرجل هو زوجها .

وقد يقال للاثنين هما زوج ، وقد يكون الزوجان بمعنى الضربين ، والصنفين ، وكل ضرب يدعى زوجاً ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : 5] أي من كلِّ لون وصنف .

وقال الأعشى :

وكل زوجٍ من الدّيباجِ يَلبَسه . . .

أبو قُدامة مَحبوٌّ بذاك مَعَا

أراد كل ضرب ولون .

و﴿ مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ﴾ في موضع نصب ب ﴿ احمل ﴾ .

﴿ اثنين ﴾ تأكيد .

﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ أي واحمل أهلك .

﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ ﴾ .

"مَن" في موضع نصب بالاستثناء .

﴿ عَلَيْهِ القول ﴾ منهم أي بالهلاك ؛ وهو ابنه كنعان وامرأته واعِلَة كانا كافرين .

﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾ قال الضحاك وابن جريج : أي احمل من آمن بي ، أي من صدّقك ؛ ف

"من" في موضع نصب ب ﴿ احمل ﴾ .

﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : آمن مِن قومه ثمانون إنسانا ، منهم ثلاثة من بنيه ؛ سام وحام ويافث ، وثلاث كنائن له .

ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية وهي اليوم تدعى قرية الثمانين بناحية الموصل .

وورد في الخبر أنه كان في السفينة ثمانية أنفس ؛ نوح وزوجته غير التي عوقبت ، وبنوه الثلاثة وزوجاتهم ؛ وهو قول قتادة والحكم بن عتيبة وابن جريج ومحمد بن كعب ؛ فأصاب حام امرأته في السفينة ، فدعا نوح الله أن يغير نطفته فجاء بالسودان .

قال عطاء : ودعا نوح على حام ألا يعدو شعر أولاده آذانهم ، وأنهم حيثما كان ولده يكونون عبيداً لولد سام ويافث .

وقال الأعمش : كانوا سبعة ؛ نوح وثلاث كنائن وثلاثة بنين ؛ وأسقط امرأة نوح .

وقال ابن إسحق : كانوا عشرة سوى نسائهم ؛ نوح وبنوه سام وحام ويافث ، وستة أناس ممن كان آمن به ، وأزواجهم جميعاً .

و﴿ قَلِيلٌ ﴾ رفع بآمن ، ولا يجوز نصبه على الاستثناء ؛ لأن الكلام قبله لم يتم ، إلا أن الفائدة في دخول "إلا" و "ما" لأنك لو قلت : آمن معه فلان وفلان جاز أن يكون غيرهم قد آمن ؛ فإذا جئت بما وإلا ، أوجبت لما بعد إلا ونفيت عن غيرهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(149/377)

وقال الخازن:

﴿ ويصنع الفلك ﴾ .

(150/377)

يعني كما أمره الله سبحانه وتعالى قال أهل السير لما أمر الله سبحانه وتعالى نوحاً بعمل السفينة أقبل على عملها ولها عن قومه وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيئ القار وكل ما يحتاج إليه في عمل الفلك وجعل قومه يمرون وهو في عمله فيسخرون منه ويقولون يا نوح قد صرت نجاراً بعد النبوة وأعقم الله أرحام النساء فلا يولد لهم ولد قال البغوي وزعم أهل التوراة أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج وأن يطليه بالقار من داخله وخارجه وأن يجعل طوله ثمانين ذراعاً وعرضه خمسين ذراعاً وطوله في السماء ثلاثين ذراعا والذراع إلى المنكب وأن يجعله ثلاث طباق سفلى ووسطى وعلياً وأن يجعل فيه كوى فصنعه نوح كما أمره الله سبحانه وتعالى وقال ابن عباس اتخذ نوح السفينة في سنتين فكان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعاً وطولها في السماء ثلاثين ذراعاً وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون فجعل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام وركب هو ومن معه في البطن الأعلى وجعل معه ما

يحتاج إليه من الزاد وغيره قال قتادة وكان بابها في عرضها ، وروي عن الحسن : أنه كان طولها ألف ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع والقول الأول أشهر وهو أن طولها ثلثمائة ذراع وقال زيد بن أسلم : مكث نوح مائة سنة يغرس الأشجار ويقطعها ومائة سنة يصنع الفلك ، وقال كعب الأحبار : عمل نوح عليه السلام السفينة في ثلاثين سنة وروي أنها ثلاثة أطباق الطبقة السفلى للدواب ، والوحوش والطبقة الوسطى للإنس والطبقة العلياء للطير فلما كثرت رواث الدواب أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة ومسح على الخنزير فوقع منه الفأر فأقبلوا على الروث فأكلوه فلما أفسد الفار في السفينة فجعل يقرضها ويقرض حبالها أوحى الله سبحانه وتعالى إليه أن اضرب بين عيني الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة وهي القطة

والقط فأقبلا على الفأر فأكلاه .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وكلما مر عليه ملأ من قومه ﴾ أي جماعة من قومه ﴿ سخروا منه ﴾ يعني استهزؤوا به وذلك أنهم قالوا إن هذا الذي كان يزعم أنه نبي قد صار نجاراً وقيل قالوا يا نوح ماذا تصنع قال أصنع بيتاً يمشي على الماء فضحكوا منه ﴿ قال ﴾ يعني

نوحاً لقومه ﴿ إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ يعني إن تستجهلونا في صنعنا فإنا نستجهلكم لتعرضكم لما يوجب سخط الله وعذابه ، فإن قلت السخرية لا تليق بمنصب النبوة فكيف قال نوح عليه السلام إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون .

قلت إنما سمي هذا لفعل سخرية على سبيل الازدوج في مشاكلة الكلام كما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ والمعنى إنا نرى غب سخريتكم بنا إذا نزل بكم العذاب .

قوله تعالى : ﴿ فسوف تعلمون ﴾

يعني فسترون ﴿ من يأتيه ﴾ يعني أينا يأتيه نحن أو أنتم ﴿ عذاب يخزيه ﴾ يعني يهينه ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ يعني في الآخرة فالمراد بالعذاب الأول عذاب الدنيا وهو الغرق والمراد بالعذاب الثاني عذاب الآخرة وعذاب النار الذي لا انقطاع له .

وقوله : ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ﴾ يعني وغلى والفور الغليان وفارت القدر إذا غلت .

والتنور : فارسي معرب لا تعرف له العرب اسماً غير هذا فلذلك جاء في القرآن بهذا اللفظ فخوطبوا بما يعرفون وقيل إن لفظ التنور جاء هكذا بكل لفظ عربي وعجمي وقيل إن لفظ التنور أصله أعجمي فتكلمت به العرب فصار عربياً مثل الديباج ونحوه واختلفوا في المراد بهذا التنور ، فقال عكرمة والزهري : هو وجه الأرض وذلك أنه قيل لنوح عليه السلام إذا رأيت الماء قد فار على وجه الأرض فاركب السفينة فعلى هذا يكون قد جعل فوران التنور علامة لنوح على هذا الأمر العظيم وقال علي : فار التنور أي طلع الفجر ونور الصبح شبه نور الصبح بخروج النار من التنور ، وقال الحسن ومجاهد والشعبي : إن التنور هو الذي يخبز فيه ، وهو قول أكثر المفسرين ورواية عن ابن عباس ، أيضاً وهذا القول أصح لأن اللفظ إذا دار بين الحقيقة والمجاز كان حمله على الحقيقة أولى ولفظ التنور حقيقة في اسم الموضع الذي يخبز فيه فوجب حمل اللفظ عليه .

فإن قلت الألف واللام في لفظ التنور للعهد وليس هاهنا معهود سابق عند السامع فوجب حمله على غيره وهو شدة الأمر والمعنى إذا رأيت الماء يشتد نبوعه ويقوى فانج بنفسك ومن معك .

قلت : لا يبعد أن يكون ذلك التنور معلوماً عند نوح عليه السلام ، قال الحسن كان تنوراً من حجارة وكانت حواء تخبز فيه ثم صار إلى نوح وقيل له إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك واختلفوا في موضع التنور فقال مجاهد نبع الماء من التنور فعلمت به امرأته فأخبرته وكان ذلك في ناحية الكوفة وكان الشعبي يحلف بالله ما فار التنور إلا من ناحية الكوفة ، قال الشعبي : اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان فوران التنور علامة لنوح عليه السلام ، وقال مقاتل : كان ذلك التنور تنور آدم وكان بالشام بموضع يقال له عين وردة وروي عن ابي عباس أنه كان بالهند قال : والفوران الغليان ﴿ قلنا احمل فيها ﴾ يعني : قلنا لنوح احمل في السفينة ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾ الزوجان كل اثنين لا يستغني أحدهما عن الآخر كالذكر والأنثى يقال لكل واحد منهما زوج والمعنى من كل صنف زوجين ذكراً أو أنثى فحشر الله سبحانه وتعالى إليه الحيوان من الدواب والسباع والطير فجعل نوح يضرب بيديه في كل جنس منها فيقع الذكر في يده اليمنى والأنثى في يده اليسرى فيجعلهما في السفينة ﴿ وأهلك ﴾ أي واحمل أهلك وولدك وعيالك ﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ يعني بإهلاك وأراد به امرأته واعلة وولده كنعان ﴿ ومن آمن ﴾ يعني واحمل معك من آمن بك من قومك ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ اختلفوا في عدد من حمل نوح معه في السفينة فقال قتادة وابن جريج ومحمد

كعب القرظي لم يكن في السفينة إلا ثمانين : نفر نوح وامرأته وثلاثة بنين له وهم سام وحام ويافث ونساؤهم ؛ وقال الأعمش : كانوا سبعة نوحاً وبنيه وثلاث كنائن له .

وقال محمد بن إسحاق : كانوا عشرة سوى نسائهم وهم نوح وبنوه سام وحام ويافث وستة نفر آمنوا بنوح وأزواجهم جميعاً ، وقال مقاتل : كانوا اثنين وسبعين نفراً رجلاً وامرأة وقال ابن عباس كان في السفينة ثمانون رجلاً أحدهم جرهم ، قال الطبري : والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ فوصفهم الله سبحانه وتعالى بالقلة ولم يحدد عدداً بمقدار فلا ينبغي أن يجاوز في ذلك حد الله سبحانه وتعالى إذ لم يرد ذلك في كتاب ولا خبر صحيح عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال مقاتل : حمل نوح معه جسد آدم عليه السلام فجعله معترضاً بين الرجال والنساء وقصد نوحاً جميع الدواب والطيور ليحملها قال ابن عباس : أول ما حمل نوح الدرة وآخر ما حمل الحمار فلما أراد أن يدخل الحمار أدخل صدره فتعلق إبليس بذنبه فلم تنتقل رجلاه وجعل نوح يقول له ويحك ادخل فينهض فلا يستطيع حتى قال له أدخل وإن كان الشيطان معك كلمة ذلت على لسانه فلما قالها نوح خلى سبيل الحمار فدخل الحمار ودخل الشيطان معه فقال له

نوح ماذا أدخلك عليّ يا عدو الله قال ألم تقل ادخل وإن كان الشيطان معك قال اخرج عني يا عدو الله .

(155/377)

قال : لا بد من أن تحملني معك فكان فيما يزعمون على ظهر السفينة ، هكذا نقله البغوي وقال الإمام فخر الدين الرازي : وأما الذي يروى أن إبليس دخل السفينة فبعيد لأنه من الجن وهو جسم ناري أو هوائي فكيف يفر من الغرق وأيضاً فإن كتاب الله لم يدل على ذلك ولم يرد فيه خبر صحيح فالأولى ترك الخوض فيه ، قال البغوي : وروي عن بعضهم أن الحية والعقرب أتيا نوحاً عليه السلام فقالتا احملنا معك فقال إنكما سبب البلاء فلا أحملكما فقالتا احملنا فنحن نضمن لك أن لا نضر أحداً ذكرك فمن قرأ حين يخاف مضرتهما سلام على نوح في العالمين لم تضراه وقال الحسن لم يحمل نوح معه في السفينة إلا ما يلد ويبيض وأما ما سوى ذلك مما يتولد من الطين من حشرات الأرض كالبق والبعوض فلم يحمل منها شيئاً .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(156/377)

وقال أبو حيان :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾

ويصنع الفلك حكاية حال ماضية ، والفلك السفينة .

ولما أمره تعالى بأن يصنع الفلك قال : يا رب ما أنا بنجار ، قال : بلى ، ذلك بعيني .

فأخذ القدوم ، وجعلت يده لا تخطىء ، فكانوا يمرون به ويقولون : هذا الذي يزعم أنه نبي صار نجاراً ؟ وقيل : كانت الملائكة تعلمه ، واستأجر أجراء كانوا ينحتون معه ، وأوحى الله إليه أن عجل عمل السفينة فقد اشتد غضبي على من عصاني ، وكان سام وحام ويافث ينحتون معه ، والخشب من الساج قاله : قتادة ، وعكرمة ، والكلبي .

قيل : وغرسه عشرين سنة .

وقيل : ثلاثمائة سنة يغرس ويقطع وييبس .

وقال عمرو بن الحرث : لم يغرسها بل قطعها من جبل لبنان .

وقال ابن عباس : من خشب الشمشار ، وهو البقص قطعة من جبل لبنان .

واختلفوا في هيئتها من التربيع والطول ، وفي مقدار مدة عملها ، وفي المكان الذي عملت فيه ، ومقدار طولها وعرضها ، على أقوال متعارضة لم يصح منها شيء .

وسخريتهم منه لكونهم رأوه يبني السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت ، قالوا : يا نوح ما

تصنع ؟ قال : ابني بيتاً يمشي على الماء ، فعجبوا من قوله وسخروا منه قاله : مقاتل .

وقيل : لكونه يبني في قرية لا قرب لها من البحر ، فكانوا يتضاحكون ويقولون : يا نوح صرت نجاراً بعدما كنت نبياً .

وكلما ظرف العامل فيه سخروا منه ، وقال : مستأنف على تقدير سؤال سائل .

وجوزوا أن يكون العامل قال : وسخروا صفة لملا ، أو بدل من مرّ ، ويبعد البدل لأنّ سخر ليس في معنى مرّ لا يراد ذا ولا نوعاً منه .

(157/377)

قال ابن عطية : وسخروا منه استجهلوه ، فإن كان الأمر كما روي أنهم لم يكونوا رأوا سفينة قط ، ولا كانت ، فوجه الاستجهال واضح ، وبذلك تظاهرت التفاسير ، وإن كانت السفائن جينئذ معروفة فاستجهلوه في أنّ صنعها في قرية لا قرب لها من البحر انتهى ، فأنا نسخر منكم في المستقبل كما تسخرون منا الآن أي : مثل سخريتكم إذا أغرقتم في الدنيا ، وأحرقتم في الآخرة ، أو إن تستجهلونا فيما نصنع فإنا نستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتعريض لسخط الله وعذابه ، فأنتم أولى بالاستجهال منا قال : قريباً من معناه الزجاج .

أو إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم في استجهالكم ، لأنكم لا تستجهلون إلا عن جهل بحقيقة

الأمر ، وبناء على ظاهر الحال ، كما هو عادة الجهلة في البعد عن الحقائق .

وقال ابن جريج : إن يسخروا منا في الدنيا فإنا نسخر منكم في الآخرة .

والسخرية استجهال مع استهزاء .

وفي قوله : فسوف تعلمون ، تهديد بالغ ، والعذاب المخزي الغرق ، والعذاب المقيم عذاب الآخرة ، لأنه دائم عليهم سرمد .

ومن يأتيه مفعول بتعلمون ، وما موصولة ، وتعدى تعلمون إلى واحد استعمالاً لها استعمال عرف في التعدية إلى واحد .

وقال ابن عطية : وجائز أن تكون التعدية إلى مفعولين ، واقتصر على الواحد انتهى .

ولا يجوز حذف الثاني اقتصاراً ، لأنّ أصله خبر مبتدأ ، ولا اختصاراً هنا ، لأنه لا دليل على حذفه وتعنتهم بقوله : من يأتيه .

وقيل : مَن استفهام في موضع رفع على الابتداء ، ويأتيه الخبر ، والجملة في موضع نصب ، وتعلمون معلق سدت الجملة مسد المفعولين .

وحكى الزهراوي أنه يقرأ ويحل بضم الحاء ، ويحل بكسرها بمعنى ويجب .

قال الزمخشري : حلول الدين والحق اللازم الذي لا انفكاك له عنه ، ومعنى يخزيه : يفضحه ، أو يهلكه ، أو يذله ، وهو الغرق .

أقوال متقاربة حتى إذا جاء أمرنا تقدم الكلام على دخول حتى على إذا في أوائل سورة الأنعام، وهي هنا غاية لقوله: ويصنع الفلك.

(158/377)

ويصنع كما قلنا حكاية حال أي: وكان يصنع الفلك إلى أن جاء وقت الوعد الموعود.

والجملة من قوله: وكلما مرّ عليه حال، كأنه قيل: ويصنعها، والحال أنه كلما مر، وأمرنا واحد الأمور، أو مصدر أي: أمرنا بالفوران أو للسحاب بالإرسال، وللملائكة بالتصرف في ذلك، ونحو هذا مما يقدر في النازلة.

وفار: معناه انبعث بقوة، والتنور وجه الأرض، والعرب تسميه تنوراً قاله: ابن عباس، وعكرمة، والزهري، وابن عيينة، أو التنور الذي يخبز فيه، وكان من حجارة، وكان لحواء حتى صار لنوح قاله: الحسن، ومجاهد، وروي أيضاً عن ابن عباس.

وقيل: كان لآدم، وقيل: كان تنور، نوح، أو أعلى الأرض والمواضع المرتفعة قاله: قتادة، أو العين التي بالجزيرة عين الوردة رواه عكرمة، أو من أقصى دار نوح قاله: مقاتل، أو موضع اجتماع الماء في السفينة، روي عن الحسن، أو طلوع الشمس وروي عن علي، أو نور الصبح من قولهم: نور الفجر تنويراً قاله: علي ومجاهد، أو هو مجاز والمراد غلبة الماء

وظهور العذاب كما قال (صلى الله عليه وسلم) لشدة الحرب: "حمي الوطيس"

والوطيس أيضاً مستوقد النار، فلا فرق بين حمى وفار، إذ يستعملان في النار.

قال الله تعالى: ﴿ سمعوا لها شهيقاً وهي تفور ﴾ ولا فرق بين الوطيس والتنور.

والظاهر من هذه الأقوال حمله على التنور الذي هو مستوقد النار، ويحتمل أن تكون أل فيه للعهد لتنور مخصوص، ويحتمل أن تكون للجنس.

ففار النار من التنانير، وكان ذلك من أعجب الأشياء أن يفور الماء من مستوقد النيران.

ولا تنافي بين هذا وبين قوله: ﴿ وفجرنا من الأرض ينبوعاً ﴾ إذ يمكن أن يراد بالأرض أماكن التنانير، والتفجير غير الفوران، فحصل الفوران للتنور، والتفجير للأرض.

والضمير في فيها عائد على الفلك، وهو مذكر أنث على معنى السفينة، وكذلك قوله: وقال اركبوا فيها.

وقرأ حفص: من كل زوجين بتنوين، كل أي من كل حيوان وزوجين مفعول، واثنين نعت توكيد، وباقي السبعة بالإضافة، واثنين مفعول احمل، وزوجين بمعنى العموم أي: من كل ما له ازدواج، هذا معنى من كل زوجين قاله أبو علي وغيره.

قال ابن عطية : ولو كان المعنى احمل فيها من كل زوجين حاصلين اثنين ، لوجب أن يحمل من كل نوع أربعة ، والزوج في مشهور كلام العرب للواحد مما له ازدواج ، فيقال : هذا زوج ، هذا وهما زوجان ، وهذا هو المهيع في القرآن في قوله تعالى : ﴿ ثمانية أزواج ﴾ ثم فسرها وفي قوله ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ﴾ وقال الأخفش : وقد يقال في كلام العرب للاثنين زووج ، هكذا تأخذه العدديون .

والزوج أيضاً في كلام العرب النوع كقوله تعالى : ﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ وقال تعالى : ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها ﴾ انتهى .

ولما جعل المطر ينزل كأفواه القرب جعلت الوحوش تطلب وسط الأرض هرباً من الماء ، حتى اجتمعن عند السفينة فأمره الله أن يحمل من الزوجين اثنين ، يعني : ذكراً وأنثى ليبقى أصل النسل بعد الطوفان .

فروي أنه كان يأتيه أنواع الحيوان فيضع يمينه على الذكر ويساره على الأنثى ، وكانت السفينة ثلاث طبقات : السفلى للوحوش ، والوسطى للطعام والشراب ، والعليا له ولمن آمن .

وأهلك معطوف على زوجين إن نوّن كل ، وعلى اثنين إن أضيف ، واستثنى من أهله من سبق عليه القول بالهلاك وأنه من أهل النار .

قال الزمخشري : سبق عليه القول أنه يختار الكفر لا لتقديره عليه وإرادته تعالى غير ذلك

انتهى .

وهو على طريقة الاعتزال ، والذي سبق عليه القول امرأته واعلة بالعين المهملة ، وابنه كنعان .

ومن آمن عطف على وأهلك ، قيل : كانوا ثمانين رجلاً وثمانين امرأة ، وقيل : كانوا ثلاثة وثمانين .

(160/377)

وقال ابن عباس : آمن معه ثمانون رجلاً ، وعنه ثمانون إنساناً ، ثلاثة من بنيه سام وحام ويافث ، وثلاث كنائن له ، ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية تدعى اليوم قرية الثمانين بناحية الموصل .

وقيل : كانوا ثمانية وسبعين ، نصفهم رجال ، ونصفهم نساء .

وقال ابن إسحاق : كانوا عشرة سوى نسائهم : نوح ، وبنوه سام وحام ويافث ، وستة ناس من كان آمن به وأزواجهم جميعاً .

وعن ابن إسحاق : كانوا عشرة : خمسة رجال ، وخمس نسوة .

وقيل : كانوا تسعة ونوح ، وثمانية أبناء له وزوجته .

وقيل : كانوا ثمانية ونوح وزوجته غير التي عوقبت ، وبنوه الثلاثة وزوجاتهم ، وهو قول : قتادة ، والحكم ، وابن عيينة ، وابن جريج ، ومحمد بن كعب .

وقال الأعمش : كانوا سبعة : نوح ، وثلاث كنائن ، وثلاث بنين .

وهذه أقوال متعارضة ، والذي أخبر الله تعالى به أنه ما آمن معه إلا قليل ، ولا يمكن التنصيص على عدد هذا النفر القليل الذي أبهم الله عددهم إلا بنص عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(161/377)

وقال ابن كثير :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نُوح لما استعجل قومُه نقمة الله بهم وعذابه لهم ، فدعا عليهم نوحُ دعوته التي قال الله تعالى مخبرًا عنه أنه قال : ﴿ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : 26] ، ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ [القمر : 10] ، فعند ذلك أوحى الله تعالى إليه : ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ فلا تحزن عليهم ولا يَهُمَّنك أمرهم .

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾ يعني : السفينة ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي : بمرأى منا ، ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ أي : وتعليمنا لك ماذا تصنعه ، ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ .

فقال بعض السلف : أمره الله تعالى أن يغرِز الخشب ويقطّعه وييبسه ، فكان ذلك في مائة سنة ، ونَجَرها في مائة سنة أخرى ، وقيل : في أربعين سنة ، فالله أعلم .

وذكر محمد بن إسحاق عن التوراة : أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج ، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا .

وأن يطلي باطنها وظاهرها بالقار ، وأن يجعل لها جؤجؤا أزور يشق الماء . وقال قتادة : كان طولها ثلاثمائة ذراع ، في عرض خمسين .

وعن الحسن : طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلاثمائة ذراع .

وعنه مع ابن عباس : طولها ألف ومائتا ذراع ، في عرض ستمائة .

وقيل : طولها ألفا ذراع ، وعرضها مائة ذراع ، فالله أعلم .

قالوا كلهم : وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعا ، ثلاث طبقات ، كل طبقة عشرة أذرع ، فالسفلى للدواب والوحوش : والوسطى للإنس : والعليا للطيور . وكان بابها في عرضها ، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها .

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير أثرا غريبا ، من حديث علي بن زيد بن جُدْعَان ، عن يوسف بن مِهْران ، عن عبد الله بن عباس ؛ أنه قال : قال الحواريون لعيسى ابن مريم : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فحدّثنا عنها . قال : فانطلق بهم حتى أتى إلى كَثيب من تراب ، فأخذ كفا من ذلك التراب بكفه ، قال أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا كعب حام بن نوح . قال : وضرب الكثيب بعصاه ، قال : قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفُض التراب عن رأسه ، قد شاب . قال له

(163/377)

عيسى ، عليه السلام : هكذا هلكت ؟ قال : لا . ولكني متّ وأنا شابّ ، ولكنني ظننت أنها الساعة ، فمن ثمّ شبت . قال : حدِّثنا عن سفينة نوح ؟ قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات ، فطبقة فيها الدواب والوحوش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطير ، فلما كثر أرواث الدواب ، أوحى الله عز وجل إلى نوح ، عليه السلام ، أن اغمز ذنَب الفيل ، فغمزه ، فوقع منه خنزير وخنزيرة ، فأقبلا على الروث ، فلما وقع الفأر بخَرَزِ السفينة يقرضه وحبالها ، أوحى إلى نوح ؛ أن

اضرب بين عيني الأسد ، فخرج من منخره سنّور وسنورة ، فأقبلا على الفأر . فقال له عيسى ، عليه السلام : كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت ؟ قال : بعث الغراب يأتيه بالخبر ، فوجد جيفة فوقع عليها ، فدعا عليه بالخوف ، فلذلك لا يألف البيوت قال : ثم بعث الحمامة ، فجاءت بورق زيتون بمنقارها ، وطين برجليها ، فعلم أن البلاد قد غَرِقت . قال : فطوّقها الخضرة التي في عنقها ، ودعا لها أن تكون في أنس وأمان ، فمن ثم تألف البيوت . قال : فقلنا : يا رسول الله ، ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا ؟ قال : كيف يتبعكم من لا رزق له ؟ قال : فقال له : عد بإذن الله ، فعاد ترابا

وقوله : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ أي : يطْنزون به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق ، ﴿ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وعيد شديد ، وتهديد أكيد ، ﴿ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أي : يهنه في الدنيا ، ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ أي : دائم مستمر أبدا .

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ (40) ﴾

هذه مُواعدة من الله تعالى لنوح، عليه السلام، إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة، والهتّان الذي لا يُقلع ولا يفتُر، بل هو كما قال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر: 11 - 14].

وأما قوله: ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ فعن ابن عباس: التنور: وجه الأرض، أي: صارت الأرض عيونا تفور، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار، صارت تفور ماء، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف.

وعن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: التنور: فَلَق الصبح، وتنوير الفجر، وهو ضياؤه وإشراقه.

والأول أظهر.

وقال مجاهد والشعبي: كان هذا التنور بالكوفة، وعن ابن عباس: عين بالهند. وعن قتادة: عين بالجزيرة، يقال لها: عين الوردة.

وهذه أقوال غريبة.

فحينئذ أمر الله نوحا، عليه السلام، أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين – من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات – اثنين. ذكرا وأنثى، فقيل: كان أول من أدخل من الطيور الدرة، وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار، فدخل إبليس

متعلقًا بذنبه ، فدخل بيده ، وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه ، فجعل يقول له نوح : مالك ؟ ويحك . ادخل . فينهض ولا يقدر ، فقال : ادخل وإن كان إبليس معك فدخلا في السفينة .

(165/377)

وذكر أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد ، حتى ألقيت عليه الحمى .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث ، حدثني الليث ، حدثني هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم . عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين ، قال أصحابه : وكيف يطمئن أو : تطمئن - المواشي ومعها الأسد ؟ فسلط الله عليه الحمى ، فكانت أول حُمَّى نزلت الأرض ، ثم شكوا الفأرة فقالوا : الفُوَيسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا . فأوحى الله إلى الأسد ، فعطس ، فخرجت الهرة منه ، فتخبأت الفأرة منها (1) .

وقوله : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ أي : "واحمل فيها أهلك ، وهم أهل بيته وقرابته" إلا من سبق عليه القول

---

(1) وهذا مرسل، وقد ورد في سفينة نوح غير ما ذكره الحافظ وأكثرها من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. قال ابن حبان: "كان ممن يقلب الأخبار حتى كثر ذلك في روايته من رفع المراسيل وإسناد الموقوف، فاستحق الترك". ومما رواه في شأن سفينة نوح ما أورده ابن حجر في التهذيب (179/6) عن الساجي قال: حدثنا الربيع، حدثنا الشافعي قال: قيل لعبد الرحمن بن زيد: حدثك أبوك عن جدك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن سفينة نوح طافت بالبيت وصلت خلف المقام ركعتين؟!" قال: نعم. وقد ذكر رجل لمالك حديثا منقطعا، فقال: اذهب إلى عبد الرحمن بن زيد يحدثك عن أبيه عن نوح!!. وانظر كتاب: الإسرائيليات في كتب التفسير لمحمد أبو شهبة (ص218).

(166/377)

منهم، ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه "يام" الذي انعزل وحده، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله.

وقوله: ﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾ أي: من قومك، ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ ﴾ أي: نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فعن ابن عباس: كانوا ثمانين

نفسا منهم نساؤهم . وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفسا . وقيل : كانوا عشرة . وقيل : إنما كانوا نوح وبنوه الثلاثة سام ، وحام ، ويافث ، وكنائِنه الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام . وقيل : بل امرأةُ نوح كانت
معهم في السفينة ، وهذا فيه نَظَرٌ ، بل الظاهر أنها هلكت ؛ لأنها كانت على دين قومها ، فأصابها ما أصابهم ، كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قَومها ، والله أعلم وأحكم . انتهى
انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 4 صـ 319.322 ﴾

(167/377)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَصْنَعُ الفلك ﴾

حكايةُ حالٍ ماضيةٍ لاستحضار صورتِها العجيبةِ ، وقيل : تقديرُه وأخذ يصنع الفلكَ أو أقبل بصنعها فاقتصر على يصنع ، وأياً ما كان ففيه ملاءمةٌ للاستمرار المفهومِ من الجملة الواقعةِ حالاً من ضميره ، أعني قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ استهزأوا به لعمله السفينةَ إما لأنهم ما كانوا يعرِفونها ولا كيفيةَ استعمالِها والانتفاعِ بها فتعجبوا من ذلك وسخِروا منه ، وإما لأنه كان يصنعها في برّية بهماءَ في أبعد موضعٍ من الماء

وفي وقت عزّته عِزّةٌ شديدة وكانوا يتضاحكون ويقولون : يا نوحُ صرتَ نجاراً بعد ما كنت نبياً ، وقيل : لأنه عليه الصلاة والسلام كان يُنذرهم الغرقَ فلما طال مكثُه فيهم ولم يشاهِدوا منه عيناً ولا أثراً عدّوه من باب المُحال ثم لما رأوا اشتغالَه بأسباب الخلاص من ذلك فعلوا ما فعلوا ، ومدارُ الجميعِ إنكارُ أن يكون لعمله عليه الصلاة والسلام عاقبةٌ حميدةٌ مع ما فيه من تحمل المشاقِ العظيمةِ التي لا تكاد تُطاق واستجهالِه عليه السلام في ذلك ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا ﴾ مستجهلين لنا فيما نحن فيه ﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ أي نستجهلكم فيما أنتم عليه ، وإطلاقُ السخريةِ عليه للمشاكلة ، وجمعُ الضمير في منا إما لأن سخريتَهم منه عليه الصلاة والسلام سخريةٌ من المؤمنين أيضاً أو لأنهم كانوا يسخرون منهم أيضاً إلا أنه اكتُفي بذكر سُخريتِهم منه عليه الصلاة والسلام ، ولذلك تعرض الجميعُ للمجازاة في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ الخ ، فتكافأ الكلامُ من الجانبين ، وتعليقُ استجهالِه عليه الصلاة والسلام إياهم بما فعلوا من السُّخرية باعتبار إظهارِه ومشافهتِه عليه الصلاة والسلام إياهم بذلك وإلا فعدُّه عليه الصلاة والسلام إياهم جاهلين فيما يأتون ويذرون أمرٌ مطّردٌ لا تعلّق له بسخريتهم منهم لكنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يتصدى

لإظهاره جرياً على نهج الأخلاقِ الحميدةِ ، وإنما أظهره جزاءً بما صنعوا بعد اللتيا والتي ، فإن سخريتَهم كانت مستمرةً ومتجدّدةً حسب تجدُّدِ مرورِهم عليه ، ولم يكن يُجيبهم في كل مرة ، وإلا لقيل : ويقول إن تسخروا منّا الخ ، بل إنما أجابهم بعد بلوغِ أذاهم الغايةَ كما يؤذِن به الاستئنافُ ، فكأن سائلاً سأل فقال : فما صنع نوحٌ عند بلوغِهم منه هذا المبلغ ؟ فقيل : قال : إن تسخروا منا أي إن تنسُبونا فيما نحن بصدده من التأهب والمباشرةِ لأسباب الخلاصِ من العذاب إلى الجهل وتسخَروا منا لأجله فإنا ننسُبكم إليه فيما أنتم فيه من الإعراض عن استدفاعه بالإيمان والطاعة ، ومن الاستمرار على الكفر والمعاصي والتعّرضِ لأسباب حلولِ سخطِ الله تعالى التي من جملتها استجهالُكم إيانا وسخريتُكم منا .

والتشبيهُ في قوله تعالى : ﴿ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ إما في مجرد التحققِ والوقوعِ أو في التجدد والتكررِ حسبما صدر عن ملإٍ غبَّ ملإٍ لا في الكيفيات والأحوال التي لا تليق بشأن النبيِّ عليه الصلاة والسلام فكلا الأمرين واقعٌ في الحال ، وقيل : نسخر منكم في المستقبل سُخريةً مثلَ سُخريتكم إذا وقع عليكم الغرقُ في الدنيا والحرقُ في الآخرة ، ولعل مرادَه نعاملكم معاملةَ مَنْ يفعل ذلك لأن نفسَ السُّخرية مما لا يكاد يليق بمنصِب النبوةِ ، ومع ذلك لا سَدادَ له لأن حالَهم إذ ذاك ليس مما يلائمه السُّخريةُ أو ما يجري مجراها فتأمّلْ .

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾

(169/377)

وهو عذابُ الغَرَقِ ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ ﴾ حلولَ الدَّيْنِ المؤجل ﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ هو عذابُ النارِ الدائمُ وهو تهديدٌ بليغٌ ، و (مَنْ) عبارةٌ عنهم ، وهي إما استفهاميةٌ في حيز الرفعِ أو موصولةٌ في محل النصبِ بتعلمون وما في حيّزِها سادٌّ مسدَّ مفعولين أو مفعولٍ واحدٍ إن جُعل العلمُ بمعنى المعرفةِ ، ولما كان مدارُ سخريتِهم استجهالَهم إياه عليه الصلاة والسلام في مكابدة المشاقِّ الفادحةِ لدفع ما لا يكاد يدخُل تحت الصّحةِ على زعمهم من الطوفان ومقاساةِ الشدائِد في بناء السفينةِ وكانوا يعدّونه عذاباً قيل بعد استجهالِهم فسوف تعلمون مَنْ يأتيه العذابُ يعني أن أُباشرُه ليس فيه عذابٌ لاحقٌ بي فسوف تعلمون مَنِ المعذَّبُ ، ولقد أصاب العلمُ بعد استجهالِهم محزّه ، ووصفُ العذاب بالإخزاء لما في الاستهزاء والسخريةِ من لُحوق الخِزْي والعارِ عادة ، والتعرُّضُ لحلول العذاب المقيمِ للمبالغة في التهديد ، وتخصّصُه بالمؤجل وإيرادُ الأول بالإتيان في غاية الجزالة .

(170/377)

﴿ حتىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ حتى هي التي يُبتدأ بها الكلامُ دخلت على الجملة الشرطيةِ وهي مع ذلك غايةٌ لقوله : ﴿ وَيَصْنَعُ ﴾ وما بينهما حالٌ من الضمير فيه ، وسخِروا منه جوابٌ لكلما ، وقال استئنافٌ على تقدير سؤال سائلٍ كما ذكرناه وقيل : هو الجوابُ وسخِروا منه بدلٌ من مرّ أو صفةٌ لملأ وقد عرفت أن الحقَّ هو الأولُ لأن المقصودَ بيانُ تناهيهم في إيذائه عليه الصلاة والسلام وتحمُّله لأذيَّتهم لا مسارعتُه عليه الصلاة والسلام إلى جوابهم كلما وقع منهم ما يؤذيه من الكلام ﴿ وَفَارَ التنور ﴾ نبعَ منه الماءُ وارتفع بشدة كما تفور القِدْرُ بغليانها ، والتنّورُ تنّورُ الخبز ، وهو قول الجمهور . روي أنه قيل لنوح عليه الصلاة والسلام : إذا رأيتَ الماءَ يفورُ من التنور فاركبْ ومن معك في السفينة فلما نبع الماءُ أخبرتْه امرأتُه فركب ، وقيل : كان تنورَ آدمَ عليه الصلاة والسلام وكان من حجارة فصار إلى نوح ، وإنما نبع منه وهو أبعدُ شيء من الماء على خرق العادةِ وكان في الكوفة في موضع مسجدها عن يمين الداخلِ مما يلي باب كِنْدة ، وكان عملُ السفينةِ في ذلك الموضع ، أو في الهند أو في موضع بالشام يقال له عين وردة ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما وعِكرمةَ والزُّهري أن التنورَ وجهُ الأرض ، وعن قتادةَ أشرفُ موضع في الأرض أي أعلاه ، وعن علي رضي الله تعالى عنه فار التنور طلع الفجرُ ﴿ قُلْنَا احمل فِيهَا ﴾ أي في السفينة وهو جوابُ إذا ﴿ مِن كُلٍّ ﴾ أي من كل نوعٍ لا بد منه في الأرض ﴿ زَوْجَيْنِ ﴾ الزوجُ ما له مشاكلٌ من نوعه فالذكرُ زوجٌ للأنثى كما هي زوجٌ له وقد يُطلق على مجموعهما فيقابل الفرد ، ولإزالة ذلك

الاحتمالِ قيل : ﴿ اثنين ﴾ كلٌّ منهما زوجٌ للآخر وقرىء على الإضافة ، وإنما قُدم ذلك على أهله وسائرِ المؤمنين لكونه عريقاً فيما أُمر به من الحمل لأنه يحتاج إلى مزاولة الأعمالِ منه عليه الصلاة والسلام في تمييز بعضِه

(171/377)

من بعض وتعيينِ الأزواج ، فإنه رُوي أنه عليه الصلاة والسلام قال : يا رب كيف أحْمل من كلَ زوجين اثنين فحشر الله تعالى إليه السباعَ والطيرَ وغيرَهما فجعل يضرِب بيديه في كل جنس فيقع الذكرُ في يده اليمنى والأنثى في اليسرى فيجعلهما في السفينة ، وأما البشرُ فإنما يدخل الفُلكَ باختياره فيخِفّ فيه معنى الحَمْل ، أو لأنها إنما تحمِل بمباشرة البشر وهم إنما يدخُلونها بعد حلمهم إياها .

(172/377)

﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ عطفٌ على زوجين أو على اثنين والمرادُ امرأتُه وبنوه ونساؤهم ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول ﴾ بأنه من المغرَقين بسبب ظلمِهم في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تخاطبنى فِى

الذين ظَلَمُواْ ﴾ الآية ، والمرادُ به ابنُه كنعان وأمُّه واعلةُ فإنهما كانا كافرين والاستثناءُ منقطعٌ إن أريد بالأهل الأهلُ إيماناً وهو الظاهرُ كما ستعرفه أو متصلٌ إن أريد به الأهلُ قرابة ويكفي في صحة الاستثناءِ المعلوميةُ عند المراجعةِ إلى أحوالهم والتفحّصُ عن أعمالهم ، وجيء بعلى لكون السابقِ ضاراً لهم كما جيء باللام فيما هو نافعٌ لهم من قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مّنَّا الحسنى ﴾ ﴿ وَمَنْ ءامَنَ ﴾ من غيرهم ، وإفرادُ الأهلِ منهم للاستثناءِ المذكورِ ، وإيثارُ صيغةِ الإفراد في آمن محافظةً على لفظ مَنْ للإيذان بقلتهم كما أعرب عنه قولُه عز قائلاً : ﴿ وَمَا ءامَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ قيل : كانوا ثمانيةً ، نوحٌ عليه الصلاة والسلام وأهلُه وبنوه الثلاثةُ ونساؤُهم . وعن ابن إسحاقَ كانوا عشرةً ، خمسةَ رجالٍ وخمسَ نسوةٍ ، وعنه أيضاً أنهم كانوا عشرةً سوى نسائِهم وقيل : كانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأةً ، وأولادُ نوحٍ سامٌ وحامٌ ويافث ونساؤُهم فالجميع ثمانيةٌ وسبعون نصفُهم رجالٌ ونصفُهم نساء ، واعتبارُ المعيةِ في إيمانهم للإيماء إلى المعية في مقرّ الأمانِ والنجاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَصْنَعُ الفلك ﴾

حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة .

وقيل : تقديره ، وأخذ أو أقبل يصنع الفلك ، وكانت على ما روي عن قتادة .

وعكرمة .

والكلبي من خشب الساج وقد غرسه بنفسه ولم يقطعه حتى صار طوله أربعمائة ذراه والذراع إلى المنكب في أربعين سنة على ما روس عن سليمان الفراسي ، وقيل : أبقاه عشرين سنة ، وقيل : مكث مائة سنة يغرس ويقطع وييبس ، وقال عمرو بن الحرث : لم يغرسه بل قطعه من جبل لبنان .

وعن ابن عباس أنها كانت من خشب الشمشاد وقطعه من جبل لبنان ، وقيل : إنه ورد في التوراة أنها كانت من الصنوبر ، وروي أنه كان سام .

وحام .

ويافث ينحتون معه ، وفي رواية أنه عليه السلام كان معه أيضاً أناس استأجرهم ينحتون ، وذكر أن طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسون وارتفاعها في السماء ثلاثون .

وأخرج ابن جرير .

وغيره عن الحسن قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي وعرضها ستمائة ذراع وصنع لها باباً في وسطها ، وأتم صنعها على ما روي عن مجاهد في ثلاث سنين .

(174/377)

وعن كعب الأحبار في أربعين سنة ، وقيل : في ستين ، وقيل : في مائة سنة ، وقيل : في أربعمائة سنة ، واختلف في أنه في أي موضع صنعها ، فقيل : في الكوفة ، وقيل : في الهند ، وقيل : في أرض الجزيرة ، وقيل : فى أرض الشام ، وسفينة الأخبار في تحقيق الحال فيما أرى لا تصلح للركوب فيها إذ هي غير سالمة عن عيب ، فالحرى بحال من لا يميل إلى الفضول أن يؤمن بأنه عليه السلام صنع الفلك حسبما قص الله تعالى في كتابه ولا يخوض في مقدار طولها وعرضها وارتفاعها ومن أي خشب صنعها وبكم مدة أتم علمها إلى غير ذلك مما لم يشرحه الكتاب ولم تبينه السنة الصحيحة ، وهذا وفي التعبير بيصنع على ما قيل : ملاءمة للاستمرار المفهوم من الجملة الواقعة حالا من ضميره أعني قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ أي استهزأوا به لعمله السفينة إما لأنهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها فتعجبوا من ذلك وسخروا منه ، ويشهد لعدم معرفتهم ما روي عن ابن عباس أنه عليه السلام حين قال الله تعالى له : ﴿ اصنع الفلك ﴾ [هود : 37] قال : يا

رب وما الفلك؟ قال: بيت من خشب يجري على وجه الماء قال يا رب: وأين الماء؟ قال: إني على ما أشاء قدير، وإما لأنه عليه السلام كان يصنعها في برية بعيدة عن الماء وكانوا يتضاحكون، ويقولون: يا نوح صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً، وهذا مبني على أن السفينة كانت معروفة بينهم، ويشهد له ما أخرجه ابن جرير.

(175/377)

والحاكم وصححه وضعفه الذهبي عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان نوح قد مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها ثم جعل يعملها سفينة فيرونه ويسألونه فيقول اعملها سفينة فيسخرون منه ويقولون: تعمل سفينة في البر وكيف تجري؟ فيقول: سوف تعلمون الحديث والأكثرون كما قال ابن عطية على أنهم لم يكونوا رأوا سفينة قط ولا كانت إذ ذاك، وقد ذكر في كتب الأوليات أن نوحاً عليه السلام أو من عمل السفينة، والحق أنه لا قطع بذلك، وكل منصوب على الظرفية و﴿ مَا ﴾ مصدرية وقتية أي كل وقت مرور، والعامل فيه جوابه وهو ﴿ سَخِرُواْ ﴾ وقوله سبحانه:

﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ استئناف بياني كأن سائلاً سأل فقال: فما

صنع نوح عليه السلام عند بلوغهم منه هذا المبلغ ؟ فقيل : قال : ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا ﴾ لهذا العمل مباشرة أسباب الخلاص من العذاب ﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ لما أنتم فيه من الأعراض عن استدفاعه بالإيمان والطاعة ومن الاستمرار على الكفر والمعاصي ، والتعرض لأسباب حلول سخط الله تعالى التي من جملتها سخريتكم منا واستهزاؤكم بنا ، وإطلاق السخرية عليهم حقيقة ، وعليه عليه السلام للمشاكلة لأنها لا تليق بالأنبياء عليهم السلام ، وفسرها بعضهم بالاستجهال ؛ وهو مجاز لأنه سبب للسخرية ، فأطلقت السخرية وأريد سببها .

وقيل : إنها منه عليه السلام لما كانت لجزائهم من جنس صنيعهم لم تقبح فلا حاجة لارتكاب خلاف الظاهر ، وجمع الضمير في ﴿ مِنَّا ﴾ إما لأن سخريتهم منه عليه السلام سخرية من المؤمنين أيضاً أو لأنهم كانوا يسخرون منهم أيضاً إلا أنه اكتفى بذكر سخريتهم منه عليه السلام ولذلك تعرض الجميع للمجازاة في قوله : ﴿ نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ فتكافأ الكلام من الجانبين ، والتشبيه في قوله سبحانه : ﴿ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ إما في مجرد التحقق والوقوع ، وإما في التجدد والتكرر حسبما صدر عن ملأ بعد ملأ ، وقيل : لا مانع من أن

يراد الظاهر ولا ضرر في ذلك لحديث الجزاء ، ومن هنا قال بعضهم : إن في الآية دليلاً على جواز مقابلة نحو الجاهل والأحمق بمثل فعله ويشهد له قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى ﴾ [البقرة : 194] ﴿ وَجَزَاء سَيّئَةٍ سَيّئَةٌ مّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل : 126] إلى غير ذلك ، والظاهر أن كلا الفعلين واقع في الحال .

وقال ابن جريج : المعنى ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا ﴾ في الدنيا ﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ في الآخرة ، وقيل : في الدنيا عند الفرق .

(177/377)

وفي الآخرة عند الحرق ، قال الطبرسي : إن المراد من نسخر منكم على هذا نجازيكم على سخريتكم أو نشمت بكم عند غرقكم وحرقكم ، وفيه خفاء ، هذا وجوز أن يكون عامل ﴿ كُلَّمَا ﴾ قال ، وهو الجواب ، وجملة ﴿ سَخِرُواْ ﴾ صفة لملأ أو بدل من ﴿ مَرَّ ﴾ بدل اشتمال ون مرورهم للسخرية فلا يضر كون السخرية ليست بمعنى المرور ولا نوعاً منه ، وأبو حيان جعل ذلك مبعداً للبدلية وليس بذلك ، ويلزم على هذا التجويز استمرار هذا القول منه عليه السلام وهو ظاهر ، وعلى الاعراب قيل : لا استمرار وإنما أجابهم به

في بعض المرات ، ورجح بأن المقصود بيان تناهيهم في إيذائه عليه السلام وتحمله لأذيتهم لا مسارعته عليه السلام إلى الجواب ﴿ كُلَّمَا ﴾ وقع منهم ما يؤذيه من الكلام ، وقد يقال : إن في ذلك إشارة إلى أنه عليه السلام بعد أن يئس من إيمانهم لم يبال باغضابهم ولذا هددهم التهديد البليغ

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾

أي يفضحه.

أو يذله أو يهلكه ، وهي أقوال متقاربة ، والمراد بذلك العذاب الغرق ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ ﴾ حلول الدين المؤجل ﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي دائم وهو عذاب النار ، و ﴿ مَنْ ﴾ عبارة عنهم ، وهي موصولة في محل نصب مفعول للعلم ، وهو بمعنى المعرفة فيتعدى إلى واحد . وجوز ابن عطية أن يراد العلم المتعدي إلى مفعولين لكنه اقتصر على واحد ، وتعقبه في البحر بأنه لا يجوز حذف الثاني اقتصاراً لأن أصله خبر مبتدأ ، ولا اختصاراً هنا لأنه لا دليل على حذفه.

وقيل : إن ﴿ مِنْ ﴾ استفهامية مبتدأ ، والجملة بعدها خبر ، وجملة المبتدأ والخبر معلق عنها سادة مسد المفعول أو المفعولين ، قيل : ولما كان مدار سخريتهم استجهالهم إياه عليه السلام في مكابدة المشاق الفادحة لدفع ما لا يكاد يدخل تحت الصحة على زعمهم من الطوفان ومقاساة الشدائد في عمل السفينة وكانوا يعدونه عذاباً قيل : بعد استجهالهم ﴿ فَسَوْفَ ﴾ الخ يعني أن ما أباشره ليس فيه عذاب لاحق بي ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ من يعذب ، ولقد أصاب العلم بعد استجهالهم محزه انتهى ، وهو ظاهر على تقدير حمل السخرية المنسوبة إليه عليه السلام على الاستجهال .

ولعله يمكن إجراؤه على تقدير حملها على ظاهرها أيضاً بأدنى عناية فافهم ، ووصف العذاب بالاخزاء لما في الاستهزاء والسخرية من لحوق الخزى والعار عادة والتعرض لحلول العذاب المقيم للمبالغة في التهديد ، وفيه من المجاز ما لا يخفى ، وتخصيصه بالمؤجل ، وإيراد الأول بالاتيان غاية الجازلة ، وحكى الزهراوي أنه قرىء يحل بضم الحاء .

﴿ حتى إِذَا جَاء أَمْرُنَا ﴾ غاية لقوله سبحانه : ﴿ يَصْنَعُ الفلك ﴾ [هود : 38] و ﴿ حتى ﴾ إما جارة متعلقة به ، و ﴿ إِذَا ﴾ لمجرد الظرفية ، وإما ابتدائية داخلة على الشرط وجوابه ، والجملة لا محل لها من الاعراب ، وحال ما وقع في البين قد مرت الإشارة إليه ، والأمر إما واحد الأوامر أي الأمر بركوب السفينة .

أو بالفوران .

أو للسحاب بالارسال .

أو للملائكة عليهم السلام بالتصرف فيما يراد .

أو نحو ذلك ، وإما واحد الأمور وهو الشأن أعني نزول العذاب بهم ﴿ وَفَارَ التنور ﴾ أي نبع منه الماء وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها وفيه من الاستعارة ما لا يخفى ، والمراد من التنور تنور الخبز عند الجمهور ، وكان على ما روي عن الحسن .

(179/377)

ومجاهد تنوراً لحواء تخبز فيه ثم صار لنوح عليه السلام وكان من حجارة ، وقيل : هو تنور في الكوفة في موضع مسجدها عن يمين الداخل مما يلي باب كندة ، وجاء ذلك في رواية عن علي كرم الله تعالى وجهه ، وقيل : تنور بالهند ، وقيل : بعين وردة من أرض الجزيرة العمرية أو من أرض الشام ، وقيل : ليس المراد به تنوراً معيناً بل الجنس ، والمراد فار الماء من التنانير ، وفي ذلك من عجيب القدرة ما لا يخفى ، ولا تنافي بين هذا وقوله سبحانه : ﴿ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً ﴾ [القمر : 12] إذ يمكن أن يكون التفجير غير الفوران فحصل الفوران للتنور والتفجير للأرض ، أو يراد بالأرض أماكن التنانير ، ووزنه تفعول من النور ، وأصله تنوور فقلبت الواو الأولى همزة لانضمامها ، ثم حذفت تخفيفاً ، ثم شددت النون

عوضاً عما حذف ، ونقل هذا عن ثعلب ، وقال أبو على الفارسي : وزنه فعول ، وقيل : على هذا أنه أعجمي ولا اشتقاق له ، ومادته تنر ، وليس في كلام العرب نون قبل راء ، ونرجس معرب أيضاً ، والمشهور أنه مما اتفق فيه لغة العرب .

والعجم كالصابون .

والسمور ، وعن ابن عباس .

وعكرمة .

والزهري أن ﴿ التنور ﴾ وجه الأرض هنا ، وعن قتادة أنه أشرف موضع منها أي أعلاه وأرفعه ، وأخرج ابن جرير .

وأبو الشيخ .

(180/377)

وغيرهما عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه تنوير الصبح ، والظاهر أنه لم يستعمل في اللغة العجمية بهذه المعاني الأخيرة ، وجوز أن يكون فوران التنور مجازاً عن ظهور العذاب وشدة الهول ، وهذا كما جاء في الخبر حمى الوطيس مجازاً عن شدة الحرب وليس بين الجملتين كثير فرق في المعنى وهو معنى حسن لكنه بعيد عما جاءت به الأخبار ﴿ قُلْنَا

احمل فِيهَا ﴾ أي في الفلك، وأنث الضمير لأنه بمعنى السفينة، والجملة استئناف أو جواب إذا ﴿ مِن كُلٍّ ﴾ أي من كل نوع من الحيوانات ينتفع به الذين ينجون من الغرق وذراريهم بعد، ولم تكن العادة جارية بخلقه من غير ذكر وأنثى، والجار والمجرور متعلق باحمل أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله أعني قوله سبحانه: ﴿ زَوْجَيْنِ ﴾ وهو تثنية زوج، والمراد به الواحد المزدوج بآخر من جنسه، فالذكر زوج للأنثى كما هي زوج له، وقد يطلق على مجموعهما، وليس بمراد، وإلا لزم أن يحمل من كل صنف أربعة، ولئلا يراد ذلك وصف بقوله تعالى: ﴿ اثنين ﴾ وحاصل المعنى احمل ذكراً وأنثى من كل نوع من الحيوانات، وقرأ الأكثرون دمن كل زوجين ﴾ بالإضافة فاثنين على هذا مفعول احمل و ﴿ ﴾ بالإضافة فاثنين على هذا مفعول احمل و ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ﴾ حال منه، ولو أخر لكان صفة له أي احمل اثنين من كل زوجين أي صنف ذكر وصنف أنثى، وقيل: ﴿ مِنْ ﴾ زائدة وما بعدها مفعول احمل، و ﴿ اثنين ﴾ نعت لزوجين بناءاً على جواز زيادة ﴿ مِنْ ﴾ في الموجب ثم ما ذكرناه في تفسير العموم هو الذي مال إليه البعض وأدرج فيه أناس الهوام والطير، وذكر أنه روي أنه عليه السلام جعل للسفينة ثلاثة بطون وحمل في البطن الأسفل الوحوش.

والسباع.

والهوام ، وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام ، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد ، وحمل معه جسد آدم عليه السلام وجعله معترضاً بين الرجال والنساء ، وكان حمله بوصية منه عليه السلام توارثها ولده حتى وصلت إلى نوح عليه السلام ،

ويعارض هذا التقسيم ما روي أن الطبقة السفلى للوحش .

والوسطى للطعام .

والعليا له عليه السلام ولمن آمن ، وتوسع بعضهم في العموم فأدرج فيه ما ليس من جنس الحيوان ، وأيد بما أخرجه إسحاق بن بشر .

وغيره عن علي كرم الله تعالى وجهه مرفوعاً أن نوحاً عليه السلام حمل معه في السفينة من جميع الشجر ، وبما أخرجه أبو الشيخ عن جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما قال : أمر نوح عليه السلام أن يحمل معه ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ فحمل من التمر العجوة واللون .

وأخرج النسائي عن أنس بن مالك أن نوحاً عليه السلام نازعه الشيطان في عود الكرم ، فقال : هذا لي ، وقال نوح : هو لي فاصطلحا على أن لنوح ثلثها .

وللشيطان ثلثيها ولا يكاد يعول على مثل هذه الأخبار عند التنقير ، ومما يحمل معها في سفينة ما أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : تأذى أهل السفينة بالفأر فعطس الأسد فخرج من منخريه سنوران ذكر وأنثى فأكلا الفأر إلا ما أراد الله تعالى

أن يبقى منه ، وتأذوا بأذى أهل السفينة فعطس الفيل فخرج من منخريه خنزيران ذكر وأنثى فأكلا أذى أهل السفينة ، وفي رواية الحكيم الترمذي في نوادر الأصول .

وابن جرير .

وغيرهما عنه أن نوحاً عليه السلام شكا إلى الله تعالى قرض الفأر حبال السفينة فأوحى الله إليه فمسح جبهة الأسد فخرج سنوران ، وشكا عذرة في السفينة فأوحى إليه سبحانه ، فمسح ذنب الفيل فخرج خنزيران فأكل العذرة .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق زيد بن أسلم عن أبيه مرفوعاً أن أهل السفينة شكوا الفأرة فقالوا : الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فأوحى الله تعالى إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها ، ولم يذكر فيه بحث الخنزير ، ويفهم منها على ما فيها أن الهرة لم تكن عند الحمل ، ومن الأولين أنها والخنزير لم يكونا ، وفي بعض الآثار ما يخالفه ، فقد أخرج أحمد في الزهد .

وأبو الشيخ عن وهب بن منبه قال لما أمر الله تعالى نوحاً عليه السلام بالحمل قال : كيف أصنع بالاسد .

والبقرة.

وكيف أصنع بالعناق.

والذئب، وكيف أصنع بالحمام.

والهر؟ فقال الله تعالى: من ألقى بينهما العداوة؟ قال: أنت يا رب قال: فإني أؤلف بينهم حتى لا يتضارون، ولا يخفى ما بين هذا وبين التقسيم الأول أيضاً، وجاء في شأن الأسد روايات مختلفة: ففي رواية أن أصحابه عليه السلام قالوا: كيف نطمئن ومعنا الأسد؟ فسلط الله تعالى عليه الحمى، وكانت أولى حمى نزلت الأرض.

وفي رواية أنه كان يؤذيهم في السفينة فألقيت عليه الحمى ليشتغل بنفسه، وفي أخرى أنه عليه السلام حين أمر بالحمل قال: يا رب كيف بالأسد.

والفيل؟ فقال له سبحانه: سألقي عليهما الحمى وهي ثقيلة؛ وفي أخرى عن أبي عبيدة أنه عليه السلام حين أمر بالحمل لم يستطع أن يحمل الأسد حتى ألقيت عليه الحمى فحمله فأدخله، ولا يخفى أنها مع دلالة بعضها على أن إلقاء الحمى قبل الدخول، وبعضها على أنه بعده، وكان يغني عن إلقائها بعد دفعاً لأذاء التأليف بينه وبين الإنسان كما ألف بين ما مر بعضه مع بعض، ولعل لدفع الأذى بالحمى دون التأليف إن صح ذلك حكمة لكنها غير ظاهرة لنا، وجاء في بعض الآثار ما يفهم منه أنه كان معه عليه السلام في السفينة من الجن ما كان، وفي بعضها أن إبليس عليه اللعنة كان أيضاً.

فعن ابن عباس أنه لما أراد الله تعالى أن يدخل الحمار السفينة أخذ نوح بأذني الحمار وأخذ إبليس بذنبه فجعل نوح يجذبه وجعل إبليس يجذبه فقال نوح عليه السلام : ادخل شيطان فدخل الحمار ودخل إبليس معه فلما سارت السفينة جلس في ذنبها يتغنى فقال له نوح : ويلك من أذن لك ؟ قال : أنت قال : متى ؟ قال : إذ قلت للحمار ادخل شيطان فدخلت بإذن منك ، وفي رواية أخرى عنه أن نوحاً عليه السلام قال للحمار : ويحك ادخل وإن كان الشيطان معك كلمة جرت على لسانه فدخل ودخل معه الشيطان .

وأخرج ابن عساكر عن عطاء أن اللعين جاء ليركب السفينة فدفعه نوح عليه السلام فقال : يا نوح إني منظور ولا سبيل لك علي فعرف أنه صادق فأمره أن يجلس على خيزران السفينة ، وهو بظاهره مخالف لما روي عن ابن عباس ، واختلفوا في أنه كيف جمعت الحيوانات على تفرقها في أكناف الأرض ، فقيل : إنها أحست بالعذاب فاجتمعت ؛ وعن الزهري أن الله تعالى بعث ريحاً فحمل إليه من كل زوجين اثنين من الطير والسباع والوحش والبهائم .

وعن جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما أن الله تعالى بعث جبريل عليه السلام

فحشرها فجعل عليه السلام يضرب بيديه على الزوجين فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى فيدخلهما السفينة حتى أدخل عدة ما أمر الله تعالى به ، وروي إسحاق بن بشر .

وغيره عن زيد بن ثابت أنه استعصت عليه عليه السلام الماعزة فدفعها في ذنبها فمن ثم انكسر وبدا حياها ومضت النعجة حتى دخلت فمسح على ذنبها فستر حياها .

(184/377)

وفي كتب الأخبار كثير من هذه الآثار التي يقضي منها العجب ، وأنا لا أعتقد سوى أن الله عزت قدرته خلق الماعزة والنعجة من قبل على ما هما عليه اليوم وأنه سبحانه لم يخلق الهرة من الأسد وإن أشبهته صورة ولا الخنزير من الفيل وإن كان بينهما شبه مّا كما شاهدناه عام مجيء الفيل إلى بغداد ولو كلف الفيل أكل العذرة لكان أحب إلى أهل السفينة من زيادة خنزير فيها وأحب من ذلك كله إليهم أن لا يكون في السفينة غيرهم أو يكون حيوان واحد يخلق لهم من عطاسه ما يريدونه من الحيوانات ويحتاجون إليه بعد .

والذي يميل القلب إليه أن الطوفان لم يكن عاماً كما قال به البعض وأنه عليه السلام لم يؤمر بحمل ما جرت العادة بتكونه من عفونة الأرض كالفأر والحشرات بل أمر بحمل ما يحتاج إليه

إذا نجا ومن معه من الغرق لئلا يغتموا لفقده ويتكلفوا مشقة جلبه من الأصقاع النائية التي لم يصلها الغرق فكأنه قيل : قلنا احمل فيها من كل ما تحتاجونه إذا نجوتم زوجين اثنين ، وإن قلنا بعموم الغرق نقول أيضاً : إنه عليه السلام لم يكلف بحمل شيء من المتكونات من العفونة بل كلف بالحمل مما يتناسل من الحيوانات لمصلحة بقاء النوع ، وكانت السفينة بحيث تسع ذلك عادة أو معجزة وقدرة الله تعالى أجل من أن تضيق عن ذلك ، وإن قيل بالعموم على وجه يبقى معه بعض الجبال جاز أن يقال : إنه عليه السلام لم يحمل إلا مما لا مهرب له ويضر فقده بجماعته ، ولو قيل : إن العموم على إطلاقه وأنه عليه السلام لم يحمل في السفينة إلا ما تتسع له عادة مما يحتاج إليه لئلا يضيق أصحابه ذرعاً بفقده بالكلية حسبما تقتضيه الطباع البشرية وغرق ما عدا ذلك لكن الله تعالى جلت قدرته خلق نظير ما غرق بعد على الوجه الذي فعل قبل لم يكن ذلك بدعاً ممن أمره بين الكاف والنون جل شأنه وعظم سلطانه .

(185/377)

هذا وإنما قدم ذلك على أهله وسائر المؤمنين قيل : لكونه عريقاً بالحمل المأمور به لأنه يحتاج إلى مزاولة الأعمال منه عليه السلام في تمييز بعض عن بعض وتعيين الأزواج ، وأما البشر فإنما يدخل الفلك باختياره فيخف فيه معنى الحمل ، أو لأن ذلك إنما يحمل بمباشرة البشر

وهم إنما يدخلونها بعد حملهم إياه ، ويجوز أن يكون التقديم حفظاً للنظم الكريم عن الانتشار ، وأياًّ مّا كان فقوله سبحانه : ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ عطف على ﴿ زَوْجَيْنِ ﴾ أو على ﴿ اثنين ﴾ والمراد بأهله على ما في بعض الآثار امرأته المسلمة وبنوه منها وهم سام عليه السلام وهو أبو العرب وأصله على ما قال البكري : بالشين المعجمة ، وحام وهو أبو السودان قيل : إنه أصاب زوجته في السفينة فدعا نوح عليه السلام أن تغير نطفته فغيرت ، وأخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن أبي صالح ، ويافث كصاحب وهو أبو الترك ويأجوج ومأجوج وزوجة كل منهم ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول ﴾] بأنه من المغرقين لظلمهم ، وذلك في قوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تخاطبنى فِى الذين ظَلَمُواْ ﴾ [هود : 37] الآية ، والمراد زوجة له أخرى تسمى واعلة بالعين المهملة ، وفي رواية والقة .

(186/377)

وابنه منها كنعان وكان اسمه فيما قيل : يام وهذا لقبه عند أهل الكتاب وكانا كافرين ، وفي هذا دلالة على أن الأنبياء عليهم السلام يحل لهم نكاح الكافرة بخلاف نبينا صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى : ﴿ أيها النبى إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ ﴾ [الأحزاب : 50] الآية ، والاستثناء

جوز أن يكون متصلاً إن أريد بالأهل الأهل إيماناً ، وأن يكون منقطعاً إن أريد به الأهل قرابة ، ويكفى في صحة الاستثناء المعلومية عند المراجعة إلى أحوالهم والتفحص عن أعمالهم ، وجيء بعلي لكون السابق ضاراً لهم كما جيء باللام فيما هو نافع في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين ﴾ [الصافات : 171] وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مّنَّا الحسنى ﴾ [الأنبياء : 101] ﴿ وَمَنْ ءامَنَ ﴾ عطف على الأهل أي والمؤمنين من غيرهم وإفراد أولئك منهم للاستثناء المذكور ، وإيثار صيغة الافراد في ﴿ مِن ﴾ محافظة على لفظ ﴿ مِنْ ﴾ للإيذان بالقلة كما أفصح عن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا ءامَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ قيل : كانوا سبعة زوجته .

واتاؤه الثلاثة .

وكنائنه الثلاث ، وروي هذا عن قتادة .

والحكم بن عقبة .

وابن جريج .

ومحمد بن كعب ، ويرده عطف ﴿ وَمَنْ ءامَنَ ﴾ على الأهل إلا أن يكون الأهل بمعنى الزوج فإنه قد ثبت بهذا المعنى لكن قبل : إنه خلاف الظاهر ، والاستثناء عليه منقطع أيضاً ، وعن ابن إسحاق أنهم كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة ، وعنه أنهم كانوا مع نوح عليه السلام عشرين نصفهم رجال ونصفهم الآخر نساؤهم ، وقيل : كانوا ثمانية

وسبعين نصفهم ذكور ونصفهم أناث ، وقيل : كانوا ثمانين رجلاً وثمانين امرأة وقيل : وقيل والرواية الصحيحة أنهم كانوا تسعة وسبعين ، زوجته .

وبنوه الثلاثة .

ونسائهم .

واثنان وسبعون رجلاً .

وامرأة من غيرهم من بني شيث ، واعتبار المعية في الإيمان للإيماء إلى المعية في مقر الإيمان والنجاة . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(187/377)

وقال القاسمى :

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾

أي : بإهلاك قومه . و : ﴿ حَتَّى ﴾ غاية لقوله (ويصنع) وما بينهما حال من الضمير فيه ، و (سخروا منه) جواب (كلما) : ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ أي : وجه الأرض ، أو كل مفجر ماء ، أو محفل ماء الوادي ، أو عين ماء معروفة ، أو الكانون الذي يخبز فيه ، أو تنوير الفجر – أقوال حكاها اللغويون والمفسرون – زاد بعضهم احتمال أن يكون هذا كناية عن

اشتداد الأمر ، كما يقال : (حمي الوطيس) والوطيس : التنور ، وهو من فصيح الكلام وبليغه ، وعندي أنه أظهر الأوجه المذكورة وأرقها وأبدعها وأبلغها ، وإن حاول الرازي رده ، كأنه قيل : واشتد الأمر ، وقوي انهمار الماء ونبوعه . وهذا الإيجاز في مجازه الرهيب قد بينته آيات أخر ، وهي : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر : 11 - 12] الآيات ، ومما يؤيده شموله لشدة الأمر من السماء والأرض فيطابق هذه الآيات . وأما غيره فمقصور على ناحية الأرض فقط ، وجلي أن الأمر كان أعم - والله أعلم - .

﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا ﴾ أي : في السفينة : ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ﴾ أي : صنفين من البهائم والطيور وما يدب على وجه الأرض : ﴿ اثْنَيْنِ ﴾ أي : ذكراً وأنثى .

قال أبو البقاء : يقرأ (كُلِّ) بالإضافة وفيه وجهان :

أحدهما : أن مفعول (احمِل) (اثنين) و (مِن) حال .

والثاني : أن (مِن) زائدة والمفعول (كُلّ) و (اثنين) توكيد . ويقرأ مِن كُلٍ (بالتنوين) ، فـ (زوجين) مفعول (احمل) و (اثنين) توكيد له ، و (مِن) متعلقة بـ (احمل) أو حال . انتهى

.

﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ أي : من يتصل بك في دينك وسيرتك من أقاربك : ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ﴾ أي : وجب عليه : ﴿ الْقَوْلُ ﴾ أي : بالإغراق بسبب ظلمه ﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾ أي : احمله معك فيها . قال أبو السعود : وإفراد الأهل منهم للاستثناء المذكور ، وإيثار صيغة الإفراد في (آمن) محافظة على لفظ (مَنْ) للإيذان بقلتهم ، كما أعرب عنه قوله عز قائلاً : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 95.

96﴾

(189/377)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾

عطف على جملة ﴿ واصنع الفلك ﴾ [هود : 37] ، أي أوحي إليه ﴿ اصنع الفلك ﴾ ، وصَنَع الفلك .

وإنما عبر عن صنعه بصيغة المضارع لاستحضار الحالة لتخييل السامع أن نوحاً عليه السلام بصدد العمل ، كقوله : ﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً ﴾ [فاطر : 9]

وقوله : ﴿ يجادلنا في قوم لوطٍ ﴾ [هود : 74] وجملة ﴿ وكلما مر عليه ملأ ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ يصنع ﴾ .

و﴿ كلّما ﴾ كلمة مركبة من (كل) و (ما) الظرفية المصدرية ، وانتصبت (كل) على الظرفية لأنها اكتسبت الظرفية بالإضافة إلى الظرف ، وهو متعلّق ﴿ سخروا ﴾ ، وهو جوابه من جهة أخرى .

والمعنى : وسَخر منه ملأ من قومه في كل زمن مرورهم عليه .

و(لما) في (كلما) من العموم مع الظرفية أشربت معنى الشرط مثل (إذا) فاحتاجت إلى جواب وهو ﴿ سَخروا منه ﴾ .

وجملة ﴿ قال إن تسخروا منا ﴾ حكاية لما يجيب به سخريتهم ، أجريت على طريقة فعل القول إذا وقع في سياق المحاورة ، لأن جملة ﴿ سخروا ﴾ تتضمن أقوالاً تنبني عن سخريتهم أو تبين عن كلام في نفوسهم .

وجمع الضمير في قوله : ﴿ مِنّا ﴾ يشير إلى أنهم يسخرون منه في عمل السفينة ومن الذين آمنوا به إذْ كانوا حَوله واثقين بأنه يعمل عَملاً عظيماً ، وكذلك جمعه في قوله : ﴿ فإنّا نسخر منكم ﴾ .

والسخرية : الاستهزاء ، وهو تعجب باحتقار واستحماق .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فحَاق بالذين سَخروا منهم ﴾ في أول سورة [الأنعام : 10] ،

وفعلها يتعدى بـ (من) .

وسخريتهم منه حمل فعله على العبث بناء على اعتقادهم أن ما يصنعه لا يأتي بتصديق مدعاه .

وسخرية نوح عليه السلام والمؤمنين ، من الكافرين من سفه عقولهم وجهلهم بالله وصفاته .

فالسخريتان مقترنتان في الزمن .

(190/377)

وبذلك يتضح وجه التشبيه في قوله : ﴿ كما تسخرون ﴾ فهو تشبيه في السبب الباعث على السخرية ، وإن كان بين السببيْن بَون .

ويجوز أن تجعل كاف التشبيه مفيدة معنى التعليل كالتي في قوله تعالى : ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ [البقرة : 198] فيفيد التفاوت بين السخريتين ، لأن السخرية المعللة أحق من الأخرى ، فالكفار سخروا من نوح عليه السلام لعمل يجهلون غايته ، ونوح عليه السّلام وأتباعه سخروا من الكفار لعلمهم بأنهم جاهلون في غرور ، كما دل عليه قوله : ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ فهو تفريع على جملة ﴿ فإنّا نسخر منكم ﴾ أي سيظهر مَن هو الأحق بأن يسخر منه .

وفي إسناد (العلم) إلى ضمير المخاطبين دون الضمير المشارك بأن يقال : فسوف نعلم ، إيماء إلى أن المخاطبين هم الأحق بعلم ذلك .

وهذا يفيد أدباً شريفاً بأن الواثق بأنه على الحق لا يزعزع ثقته مقابلة السفهاء أعماله النافعة بالسخرية ، وأن عليه وعلى أتباعه أن يسخروا من الساخرين .

والخزي : الإهانة ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ربنا إنك مَن تدخل النار فقد أخزيته ﴾ في آخر سورة [آل عمران : 192] .

والعذاب المقيم : عذاب الآخرة ، أي من يأتيه عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، والعذاب الخالد في الآخرة .

و﴿ مَن ﴾ استفهامية معلّقة لفعل العِلم عن العمل ، وحلول العذاب : حصوله ؛ شبه الحصول بحلول القادم إلى المكان وهو إطلاق شائع حتى ساوى الحقيقة .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾

﴿ حتى ﴾ غاية ل﴿ يصنع الفلك ﴾ [هود : 38] أي يصنعه إلى زمن مجيء أمرنا ، ف﴿ إذا ﴾ ظرف مضمن معنى الشرط ولذلك جيء له بجواب .

وهو جملة ﴿ قلنا احمل ﴾ .

وجعل الشرط وجوابه غاية باعتبار ما في حرف الشرط من معنى الزمان وإضافته إلى جملة الشرط ، فحصل معنى الغاية عند حصول مضمون جملة الجزاء ، وهو نظم بديع

بإيجازه.

و﴿ حتى ﴾ ابتدائية.

(191/377)

والأمر هنا يحتمل أمْر التكوين بالطوفان، ويحتمل الشّأن وهو حادث الغرق، وإضافته إلى اسم الجلالة لتهويله بأنّه فوق ما يعرفون.

ومَجيء الأمر: حصوله.

والفوران: غليان القدر، ويطلق على نبع الماء بشدة، تشبيهاً بفوران ماء في القدر إذا غلي، وحملوه على ما جاء في آيات أخرى من قصة نوح عليه السّلام مثل قوله: ﴿ وفجّرنا الأرض عيوناً ﴾ [القمر: 12].

ولذلك لم يتضح لهم إسناده إلى التنور، فإن التنور هو الموقد الذي ينضج فيه الخبز، فكثرت الأقوال في تفسير التنور، بلغت نسبة أقوال منها ما لا ينبغي قبوله.

ومنها ما له وجه وهو متفاوت.

فمن المفسرين من أبقى التنور على حقيقته، فجعل الغوران خروج الماء من أحد التنانير وأنه علامة جعلها الله لنوح عليه السّلام إذ أفار الماء من تنوره علم أن ذلك مبدأ الطوفان

فركب الفلكَ وأركبَ من معه .

ومنهم من حمل التنور على المَجاز المفرد ففسره بسطح الأرض ، أي فار الماء من جميع الأرض حتى صار بسطح الأرض كفوهة التنور .

ومنهم من فسره بأعلى الأرض .

ومنهم من حمل ﴿ فار ﴾ و ﴿ التنور ﴾ على الحقيقة ، وأخرج الكلام مَخرج التمثيل لاشتداد الحال ، كما يقال : حمي الوطيس .

وقع حكاية ذلك في تفسير ابن عطية في هذه الآية وفي الكشاف في تفسير سورة المؤمنون :

وأنشد الطبرسي قول الشاعر .

وهو النابغة الجعدي :

تفورُ علينا قِدرهم فنديمها

ونفثأها عنّا إذا قِدرها غلى . . .

يريد بالقدر الحرب ، ونفثأها ، أي نسكنها ، يقال : فثأ القِدر إذا سكن غليانها بصب الماء فيها .

وهذا أحسن ما حكي عن المفسرين .

والذي يظهر لي أن قوله : ﴿ وفارَ التنور ﴾ مثَل لبلوغ الشيء إلى أقصَى ما يتحمل مثله ،

كما يقال : بلغ السيل الزُبى ، وامتلأ الصاع ، وفاضت الكأس وتفاقم .

والتنور : محفل الوادي ، أي ضفته ، فيكون مثل طَما الوادي من قبيل بلغ السيل الزُبى .

(192/377)

والمعنى : بأن نفاذ أمرنا فيهم وبلغوا من طول مدة الكفر مبلغاً لا يغتفر لهم بعدُ كما قال تعالى : ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾ [الزخرف : 55] .

والتنور : اسم لمَوقد النار للخبز .

وزعمه .

الليث مما اتفقت فيه اللغات ، أي كالصابون والسمور .

ونسب الخفاجي في شفاء الغليل هذا إلى ابن عباس .

وقال أبو منصور : كلام الليث يدل على أنه في الأصل أعجمي .

والدليل على ذلك أنه فعّول من تنر ولا نعرف تنر في كلام العرب لأنه مهمل ، وقال غيره : ليس في كلام العرب نون قبل راء فإن نرجس معرب أيضاً .

وقد عدّ في الألفاظ المعربة الواقعة في القرآن .

ونظمها ابن السبكي في شرحه على مختصر ابن الحاجب الأصلي ونسب ذلك إلى ابن

دريد .

قال أبو علي الفارسي : وزنه فَعّول .

وعن ثعلب أنه عربي ، قال : وزنه تَفعول من النور (أي فالتاء زايدة) وأصله تنوور بواوين ،

فقلبت الواو الأولى همزة لانضمامها ثم حذفت الهمزة تخفيفاً ثم شددت النون عوضاً عما

حذف أي مثل قوله : تقَضّى البَازي بمعنى تقضّض .

وقرأ الجمهور ﴿ من كلّ زوجين ﴾ بإضافة ﴿ كل ﴾ إلى ﴿ زوجين ﴾ .

والزوج : شيء يكون ثَانياً لآخَرَ في حالة .

وأصله اسم لما ينضم إلى فرد فيصير زوجاً له ، وكل منهما زوج للآخر .

والمراد بـ ﴿ زوجين ﴾ هنا الذكر والأنثى من النوع ، كما يدل عليه إضافة ﴿ كل ﴾ إلى

﴿ زوجين ﴾ ، أي احمل فيها من أزواج جميع الأنواع .

و﴿ من ﴾ تبعيضية ، و ﴿ اثنين ﴾ مفعول ﴿ احمل ﴾ ، وهو بيان لئلاّ يتوهّم أن يحمل

كل زوجين واحداً منهما لأن الزوج هو واحد من اثنين متصلين ، كما تقدم في قوله تعالى :

﴿ ثمانية أزواج ﴾ في سورة [الأنعام : 143] .

ولئلا يحمل أكثر من اثنين من نوع لتضيق السفينة وتثقل .

وقرأه حفص ﴿ من كلَ ﴾ بتنوين ﴿ كلَ ﴾ فيكون تنوين عوض عن مضاف إليه ، أي من

كل المخلوقات ، ويكون ﴿ زوجين ﴾ مفعول ﴿ احمل ﴾ ، ويكون ﴿ اثنين ﴾ صفة ل ﴿ زوجين ﴾ أي لا تزد على اثنين .

(193/377)

وأهل الرجل قرابته وأهل بيته وهو اسم جمع لا واحد له .

وزوجه أول من يبادر من اللفظ ، ويطلق لفظ الأهل على امرأة الرجل قال تعالى : ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله ﴾ [القصص : 29] ، وقال : ﴿ وإذ غدوتَ من أهلك ﴾ [آل عمران : 121] أي من عند عائشة رضي الله عنها .

و ﴿ من سبق عليه القول ﴾ أي من مضى قول الله عليه ، أي وعيده .

فالتعريف في ﴿ القول ﴾ للعهد ، يعني إلاّ من كان من أهلك كافراً .

، وماصدق هذا إحدى امرأتيه المذكورة في سورة التّحريم وابنه منها المذكور في آخر هذه القصة .

وكان لنوح عليه السّلام امرأتان .

وعدّي ﴿ سبَق ﴾ بحرف ﴿ على ﴾ لتضمين ﴿ سَبَق ﴾ معنى : حَكَم ، كما عدّي باللام في قوله : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ [الصافات : 171] لتضمينه

معنى الالتزام النافع .

و ﴿ مَن آمن ﴾ كلّ المؤمنين .

وجملة ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ اعتراض لتكميل الفائدة من القصة في قلة الصالحين .

قيل : كان جميع المؤمنين به من أهله وغيرهم نيفاً وسبعين بين رجال ونساء ، فكان معظم حمولة السفينة من الحَيوان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(194/377)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا احمل فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ الآية .

ذكر الله جل وعلا في الآية هذه الكريمة أنه أمر نبيه نوحاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام : أن يحمل في سفينته من كل زوجين اثنين . وبين في سورة ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ لأنه أمره أن يسلكهم أي يدخلهم فيها . فدل ذلك على أن فيها بيوتاً يدخل فيه الراكبون . وذلك في قوله ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التنور فاسلك فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ [المؤمنون : 27] ومعنى " اسلك " أدخل فيها من كل زوجين اثنين . تقول العرب : سلكت الشيء في الشيء : أدخلته فيه . وفيه لغة أخرى وهي : أسلكته فيه ، رباعياً بوزن أفعل ، والثلاثية

لغة القرآن. كقوله: ﴿ فاسلك فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ [المؤمنون: 27] الآية.

وقوله ﴿ اسلك يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ [القصص: 32] الآية. وقوله ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ المجرمين ﴾ [الشعراء: 200] الآية. وقوله ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ المجرمين ﴾ [الحجر: 12] وقوله ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ [المدثر: 42] الآية.

ومنه قول الشاعر:

وكنت لزاز خصمك لم أعرد... وقد سلكوك في يوم عصيب

ومن الرباعية قول عبد مناف بن ربع الهذلي:

حتى إذا أسلكوهم في قتائده... شلا كما تطرد الجمالة الشردا

قال مقيدة عفا الله عنه- : الذي يظهر أن أصل السلك الذي هو الخيط فعل بمعنى مفعول كذبح بمعنى مذبوح، وقتل بمعنى مقتول. لأن الخيط يسلك أي يدخل في الخرز لينظمه.

كما قال العباس بن مرداس السلمي:

عين تأوبها من شجوها أرق... فالماء يغمرها طورا وينحدر

كأنه نظم در عند ناظمة... تقطع السلك منه فهو منتثر

والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول ﴾ الآية.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه أمر نوحاً أن يحمل في السفينة أهله إلا من قد سبق عليه القول ، اي سبق عليه من القول بأنه شقى ، وأنه هالك مع الكافرين .

ولم يبين هنا من سبق عليه القول منهم ، ولكنه بين بعد هذا أن الذي سبق عليه القول من أهله هو ابنه وامرأته .

قال في ابنه الذي سبق عليه القول : ﴿ ونادى نُوحٌ ابنه وكَانَ فِي مَعْزِلٍ يا بني اركب مَّعَنَا ولَا تَكُن مَّعَ الكافرين ﴾ [هود : 42] - إلى قوله - ﴿ وحَالَ بَيْنَهُمَا الموج فَكَانَ مِنَ المغرقين ﴾ [هود : 43] وقال فيه أيضاً : ﴿ قَالَ يا نوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود : 46] الآية وقال في امرأته : ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امرأة نُوحٍ ﴾ [التحريم : 10] - إلى قوله ﴿ مَعَ الداخلين ﴾ [التحريم : 10] . انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(196/377)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَصْنَعُ الفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾

وكان السادة والكبراء من ملأ نوح يمرون عليه وهو يصنع السفينة يسخرون منه ، بما يعني : ها هو بعد أن ادَّعى النبوة يتحوّل إلى نجَّار ، ثم يتساءلون : كيف تصل هذه السفينة من " الموصل " إلى البحر ؟

ولم يكونوا قد علموا ما علمه نوح عليه السلام من أن الماء هو الذي سوف يأتي ليحمل السفينة .

ونحن نلحظ في قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَصْنَعُ الفلك ﴾ [هود : 38] .

تنفيذ الأمر الذي صدر من الله سبحانه وتعالى إلى نوح عليه السلام حين قال سبحانه :

﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذين ظلموا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود : 37] .

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾

ونلحظ في قول الحق سبحانه : ﴿ فَسَوْفَ ﴾ ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ أن الفعل الذي يعلمه نوح عليه السلام وهو أمر الإغراق سيحدث مستقبلاً ؛ لأن أي حدث كما نعلم له أكثر من صورة ، فإن جاء الكلام عن الحدث بعد وقوعه ؛ كان الفعل ماضياً ، وإن جاء الكلام وقت الحدث كان الفعل مضارعاً .

وإن جاء الكلام عن حدث لم يأت زمنه فالأمر يقتضي أن نسبق الكلام عن الحدث بحرف "

السين " كأن نقول : " سيعلمون " وهذا عن الاستقبال القريب ، أما عن الاستقبال البعيد فتأتي كلمة " سوف " .

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام قضى العديد من السنين وهو يصنع السفينة ؛ ولذلك جاء ب " سوف " لتدل على أوسع مَدًى زمنيّ .

وما الذي سوف يعلمونه ؟ إن العذاب ، أيأتي لنوح ومن معه أم يأتي للذين كفروا من ملأ نوح .

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام :

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ [هود : 39] .

(197/377)

وفي هذا القول ما يؤكّد أن نوحاً عليه السلام يعلم أن العذاب سوف يأتيهم ؛ لأنهم كفروا وسَخِروا وقالوا :

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [هود : 32] .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ هود : 39] .

نجد فيه كلمة ﴿ يَحِلُّ ﴾ وهي ضِدُّ الرحيل ، وتفيد النزول من أعلى إلى مكان الإقامة ، فَحَلَّ بالمكان ، أي : نزل ليقيم به ، والضِّدُّ هو الرحيل أو الترحال .

وقول الحق سبحانه : ﴿ مُّقِيمٌ ﴾ يعني أن العذاب الذي سيحِلُّ بهم عذاب دائم .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : ﴿ حتى إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التنور ﴾

وكلمة ﴿ حتى ﴾ تدل على الغاية وكلمة ﴿ أَمْرُنَا ﴾ تدل على الطوفان ، ثم الأمر من الحق سبحانه بأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، ومَنْ آمن معه وكانوا قِلَّة قليلة .

إذن : ففي قصة نوح عليه السلام أكثر من مرحلة ، أمر من الله تعالى بقوله :

﴿ واصنع الفلك ﴾ [هود : 37] .

وعمل من نوح عليه السلام بأن يصنع ، وقد استغرق هذا الفعل وقتاً طويلاً من نوح عليه السلام إلى أن جاء أمر الطوفان الذي يدل عليه قول الحق سبحانه :

﴿ وَفَارَ التنور ﴾ [هود : 40] .

ومعنى كلمة ﴿ فَارَ ﴾ أي : أن الماء قد وصل إلى درجة الغليان .

فالماء يحتوي على هواء بدليل أن السمك يتنفس من الماء ، وحين نغلي الماء نرى فقاقيع الهواء وهي تخرج من الماء ، ثم يثقل الماء إلى أن تشتد سخونة الغليان ، فيفور الماء منثوراً خارج إناء الغليان .

و" التنور " هو المكان الذي تتم فيه عملية الخبز ، وخروج الماء من التنور هو علامة مميزة

يعلمها نوح عليه السلام ليحمل من يريد نجاتهم ، من المؤمنين ، ومن متاع الدنيا كله .

وكانت العلامة هي خروج الماء من غير مَظَانّه وهو التنور .

(198/377)

واختلف العلماء في تفسير كلمة " التنور " فمنهم من قال : إن التنور هو المكان الذي كان آدم عليه السلام يخبز فيه ، أو هو المكان الذي كانت تعمل فيه حواء ، أو هو بيت نوح ، أو هو بيت سيدة عجوز .

وكل تلك التفسيرات لا تفيد ولا تضرُّ ، المهم أن فوران التنور كان علامة بين نوح عليه السلام وربه ، وأنه إذا ما فار التنور فعَلَى نوح أن يحمل من كل زوجين اثنين .

وقول الحق سبحانه :

﴿ احمل فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ [هود : 40] .

تعني : أن يحمل من كل الكائنات ، وتدل على ذلك كلمة ﴿ كُلٍّ ﴾ المنونة وتفيد التعميم أي : احمل في السفينة من كل شيء ، تطلبه حياة الناجين من جميع أصناف النباتات والحيوانات ، حتى الخنزير كان ضمن ما حمله نوح عليه السلام .

والذين يقولون إن تحريم الخنزير جاء ؛ لأن نوحاً عليه السلام لم يحمله معه ، لم يفطنوا إلى أهمية

الخنزير كحيوان يأكل القاذورات وينظف الأرض منها ؛ لأن كل كائن له مهمة ، وليست مهمة الكائنات فقط أن يأكلها الإنسان .

وكلمة :

﴿ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ [هود : 40] .

تدل على أن كلمة " زَوْجٍ " هي مفرد ؛ بدليل قول الحق سبحانه :

﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء : 1] .

إذن : كلمة " زَوْجٍ " تعني مفرد معه مثله ، كزوج من الأحذية مثلاً .

أقول ذلك حتى لا نأخذ كلمة " الزوج " على أنها اثنان ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يقول في آية أخرى .

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضأن اثنين وَمِنَ المعز اثنين قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الإبل اثنين وَمِنَ البقر اثنين ﴾ [الأنعام : 143144] .

وحين نجمع العدد سنجده ثمانية ، ولو كانت كلمة " زوج " تطلق على الاثنين لصار العدد في تلك الآية الكريمة ستة عشر .

ويوضِّح القرآن الكريم أن كلمة " زوج " مفرد في قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾ [القيامة: 3739] .

إذن: فالذكر زوج، والأنثى زوج أيضاً .

وواصل نوح عليه السلام تنفيذ أمر الحق سبحانه:

﴿ احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [هود: 40] .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يستبقي الحياة بنجاة كل ما تحتاجه الحياة بالسفينة، ويقال: إنهم عاشوا في تلك السفينة عامين. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(200/377)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل:

قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) (هود: 40) ، وفي سورة: ((قد أفلح المؤمنون)) (فَإِذَا جَاءَ

أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ . . .) (المنؤمنون : 27) . للسائل أن يسأل عن وقله في سورة هود (قُلْنَا احْمِلْ) وفي السورة الثانية (فَاسْلُكْ) والقصة واحدة فهل ذلك بمقتض لكل واحد من الموضوعين بما وقع فيه ؟

والجواب عن ذلك ، والله أعلم : أن لفظ احملأوسع مواقع في اللغة وأكثر تصرفاً في الكلام تقول : حملت الشيء إلى فلان ، وحملته على كاهلي ، وحملت العلم عن فلان ، وحمل فلان الأمانة ، وحمله الغضب على كذا ، وحِمل الفارس على صاحبه ، وحملت المرأة والشجر ، ولا تقول في شيء من هذا سلك إلا أن يكون المحصور فيه حسبما

تعاقب سلك وحمل إن لم يعرض في المعنى ما يمنع . وأما سلك فإن العرب تقول : سلكت الشيء في الشيء وأسلكته أي أدخلته قال الله تعالى : (اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ) (القصص : 32) ، أي أدخلها ، وقال تعالى : (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ) (المدثر : 42) أي ما أدخلكم ، وقال تعالى : (وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً) (الجن : 17) أي ندخله فيه ، وكل ما يخرج سلك عن هذا المعنى من الدخول حقيقة ومجازاً ، ففيها من حيث معنها الخصوص ، وأما حمل ففيها اتساع لا يكون في سلك . فوجه ورودها في سورة هود مناسبتها من حيث المعنى من حيث ما اقترن بها من لفظ : ((قلنا)) ، فطال الكلام لفظا مع ما أشرنا إليه من سعة المحامل ، وإن لم يرد جميعها هنا ، لكن ناسب مجموع

هذه العبارة ما ورد في سورة هود من إستيفاء قصة نوح ، عليه السلام ، وطول الكلام بذلك .

(201/377)

وأما آية المؤمنون ففي قصة نوح فيها إيجاز وإجمال ، إلا ترى أنها في كلمها وعدد حروفها – أعني آية هود – على الضعف أو أطول مما في سورة المؤمنون ، فلذلك ورد في سورة المؤمنون لفظ ((أسلك)) لإيجازه من حيث معناه وعروه عن (إقتران) لفظ ((قلنا)) أو غيره مما يحرز الطول ، بخلاف ما في سورة هود . ومما يعضد هذا المقصود ويشهد له قوله تعالى في سورة هود : (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا) (هود : 40) ، وفي سورة المؤمنون : (فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا) (المؤمنون : 27) . فتأمل تنظير ((حتى)) وهي على أربعة أحرف بفاء التعقيب في سورة المؤمنون في قوله : ((فإذا)) ، وإنما الفاء على حرف واحد ، فنوسب بالفاء موضعها المبنى على الإيجاز ، وبحتى موضعها المبني على الاستيفاء والطول ، فقد وضح ورود كل من ما في السروتين على ما يجب ويناسب ، والله سبحانه أعلم بما أرد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ ملاك التأويل صـ 256 . 257 ﴾

(202/377)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وضعفه الذهبي وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كان نوح عليه السلام مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها ، ثم جعل يعملها سفينة ويمرون فيسألونه فيقول : أعملها سفينة ، فيسخرون منه ويقولون : تعمل سفينة في البر وكيف تجري ؟ قال : سوف تعلمون . فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حباً شديداً ، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بين يديها حتى ذهب بها الماء ، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي " .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كانت سفينة نوح عليه السلام لها أجنحة وتحت الأجنحة إيوان " .

وأخرج ابن مردويه عن سمرة بن جندب رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال : سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم ، وذكر أن طول السفينة كان ثلاثمائة ذراع ، وعرضها خمسون ذراعاً ، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً ، وبابها في عرضها " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان طول سفينة نوح ثلثمائة ذراع ، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً .

(203/377)

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما . أن نوحاً لما أمر أن يصنع الفلك قال : يا رب وأين الخشب ؟ قال : إغرس الشجر فغرس الساج عشرين سنة ، وكف عن الدعاء وكفوا عن الاستهزاء ، فلما أدرك الشجر أمره ربه فقطعها وجففها فقال : يا رب كيف اتخذ هذا البيت ؟ قال : اجعله على ثلاثة صور . رأسه كرأس الديك ، وجؤجؤ كجؤجؤ الطير ، وذنبه كذنب الديك ، واجعلها مطبقة واجعل لها أبواباً في جنبها وشدها بدسر - يعني مسامير الحديد - وبعث الله جبريل عليه السلام يعلمه صنعة السفينة ، فكانوا يمرون به ويسخرون منه ويقولون : ألا ترون إلى هذا المجنون يتخذ بيتاً ليسير به على الماء ؟ وأين الماء ويضحكون . وذلك قوله ﴿ وكلما مر عليه ملأ من قومه

سخروا منه ﴾ فجعل السفينة ستمائة ذراع طولها ، وستين ذراعاً في الأرض ، وعرضها ثلثمائة ذراع وثلاثة وثلاثون ، وأمر أن يطليها بالقار ولم يكن في الأرض قار ففجر الله له عين القار حيث تنحت السفينة تغلي غلياناً حتى طلاها ، فلما فرغ منها جعل لها ثلاثة أبواب وأطبقها ، فحمل فيها السباع والدواب ، فألقى الله على الأسد الحمى وشغله بنفسه عن الدواب ، وجعل الوحش والطير في الباب الثاني ثم أطبق عليها ، وجعل ولد آدم أربعين رجلاً وأربعين امرأة في الباب الأعلى ثم أطبق عليهم ، وجعل الدرة معه في الباب الأعلى لضعفها أن لا تطأها الدواب .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه قال : ذكر لنا أن طول السفينة ثلاثمائة ذراع ، وعرضها خمسون ذراعاً ، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً وبابها في عرضها ، وذكر لنا أنها استقلت بهم في عشر خلون من رجب ، وكانت في الماء خمسين ومائة يوم ، ثم استقرت بهم على الجودي ، واهبطوا إلى الأرض في عشر ليال خلون من المحرم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه قال : كان طول سفينة نوح عليه السلام ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال الحواريون لعيسى بن مريم عليهما السلام ، لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها ، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب ، فأخذ كفاً من ذلك التراب قال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا كعب حام بن نوح ، فضرب الكثيب بعصاه قال : قم بإذن الله . فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب قال له عيسى عليه السلام : هكذا هلكت . قال : لا مت وأنا شاب ولكني ظننت أنها الساعة قامت فمن ثم شبت قال : حدثنا عن سفينة نوح قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، كانت ثلاث طبقات . فطبقة فيها الدواب والوحش ، وطبقة فيها الإِنس ، وطبقة فيها الطير ، فلما كثر أرواث الدواب أوحى الله إلى نوح : أن اغمز ذنب الفيل . فغمز فوقع منه خنزير وخنزيرة ، فأقبلا على الروث فلما وقع الفار يخرب السفينة بقرضه ، أوحى الله إلى نوح أن أضرب بين عيني الأسد . فخرج من منخره سنور وسنورة ، فأقبلا على الفار فقال له عيسى عليه السلام : كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت ؟ قال : بعث الغراب يأتيه بالخبر ، فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف ، فلذلك لا يألف البيوت . ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجليها ، فعلم أن البلاد قد غرقت ، فطوّقها الخضرة التي في عنقها

ودعا لها أن تكون في أنس وأمان ، فمن ثم تألف البيوت فقالوا : يا روح الله ألا تنطلق بنا إلى أهالينا فيجلس معنا ويحدثنا ؟ قال : كيف يتبعكم من لا رزق له ؟ ثم قال : عد بإذن الله فعاد تراباً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان طول سفينة نوح عليه السلام أربعمائة ذراع ، وعرضها في السماء ثلاثون ذراعاً .

(205/377)

وأخرج ابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه قال : قال سليمان الفرائي . عمل نوح عليه السلام السفينة أربعمائة سنة ، وأنبت الساج أربعين سنة حتى كان طوله أربعمائة ذراع ، والذراع إلى المنكبين .

وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم رضي الله عنه . أن نوحاً عليه السلام مكث يغرس الشجر ويقطعها وييبسها ، ثم مائة سنة يعملها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار رضي الله عنه . أن نوحاً عليه السلام لما أمر أن يصنع الفلك قال : رب لست بنجار ؟ قال : بلى . فإن ذلك بعيني فخذ القادوم فجعلت يده لا تخطىء ، فجعلوا يمرون به ويقولون : هذا الذي يزعم أنه نبي قد صار نجاراً ، فعملها

أربعين سنة .

وأخرج ابن عساكر عن سعيد بن ميناء . أن كعباً رضي الله عنه قال لعبد الله بن عمرو بن العاص ، أخبرني عن أول شجرة نبتت على الأرض ؟ قال عبد الله : الساج وهي التي عمل منها نوح السفينة فقال كعب رضي الله عنه : صدقت .

أخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ قال : هو الغرق ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ قال : هو الخلود في النار .

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وفار التنور ﴾ نبع الماء .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وفار التنور ﴾ قال : إذا رأيت تنور أهلك يخرج منه الماء فإنه هلاك قومك .

وأخرج ابن جرير عن الحسن رضي الله عنه قال : كان تنوراً من حجارة ، كان لحوّاء عليها السلام حتى صار إلى نوح عليه السلام ، فقيل له : إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان بين دعوة نوح عليه السلام وبين هلاك قومه ثلاثمائة سنة ، وكان فار التنور بالهند ، وطافت سفينة نوح عليه السلام بالبيت أسبوعاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وفار التنور ﴾ قال : العين التي بالجزيرة عين الوردة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : فار التنور من مسجد الكوفة من قبل أبواب كندة .

وأخرج أبو الشيخ عن حبة العربي قال : جاء رجل إلى علي رضي الله عنه فقال إني قد اشتريت راحلة وفرغت من زادي أريد بيت المقدس لأصلي فيه ، فإنه قد صلى فيه سبعون نبياً ومنه فار التنور ، يعني مسجد الكوفة .

وأخرج أبو الشيخ من طريق الشعبي رضي الله عنه عن علي رضي الله عنه قال : والذي فلق الحبة وبرأ النسمة أن مسجدكم هذا لرابع أربعة من مساجد المسلمين ، ولركعتان فيه أحب إليّ من عشر فيما سواه إلا المسجد الحرام ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وإن من جانبه الأيمن مستقبل القبلة فار التنور .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي بن إسماعيل الهمداني قال : لقد نجر نوح سفينته في وسط

هذا المسجد – يعني مسجد الكوفة – وفار التنور من جانبه الأيمن ، وإن البرية منه لعلى إثني عشر ميلاً من حيث ما جنبه ، ولصلاة فيه أفضل من أربع في غيره إلا المسجدين مسجد الحرام ، ومسجد الرسول بالمدينة ، وإن من جانبه الأيمن مستقبل القبلة فار التنور .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : التنور وجه الأرض قيل له : إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك ، والعرب تسمي وجه الأرض تنور الأرض .

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ وفار التنور ﴾ قال : وجه الأرض .

(207/377)

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : التنور أعلى الأرض وأشرفها ، وكان علماً فيما بين نوح وبين ربه عز وجل .

وأخرج أبو الشيخ عن بسطام بن مسلم قال : قلت لمعاوية بن قرة أن قتادة رضي الله عنه إذا أتى على هذه الآية قال : هي أعلى الأرض وأشرفها فقال : الله أعلم ، أما أنا فسمعت منه حديثين فالله أعلم . قال بعضهم : فار منه الماء . وقال بعضهم فارت من النار ، وفار التنور بكل لغة التنور .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿ وفار التنور ﴾ قال : طلع الفجر . قيل له : إذا طلع الفجر فاركب أنت وأصحابك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن علي ﴿ وفار التنور ﴾ قال : تنور الصبح .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ﴾ قال : في كلام العرب ، يقولون للذكر والأنثى : زوجان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مسلم بن يسار رضي الله عنه قال : أمر نوح عليه السلام أن يحمل معه من كل زوجين اثنين ومعه ملك فجعل يقبض زوجاً زوجاً وبقي العنب ، فجاء إبليس فقال : هذا كله لي . فنظر نوح عليه السلام إلى الملك فقال : إنه لشريكك فأحسن شركته . فقال : نعم ، لي الثلثان وله الثلث . قال : إنه شريكك فاحسن شركته فقال : لي النصف وله النصف . فقال إبليس : هذا كله لي . فنظر إلى الملك فقال : إنه شريكك فاحسن شركته . قال : نعم ، لي الثلث وله الثلثان . قال : أحسنت وأني محسان ، أنت تأكله عنباً وتأكله زبيباً وتشربه عصيراً ثلاثة أيام . قال مسلم : وكان يرون أنه إذا شربه كذلك فليس للشيطان نصيب .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن محمد بن سيرين رضي الله عنه قال : لما ركب نوح عليه السلام السفينة كتب له تسمية ما حمل معه فيها ، فقال : إنكم قد كتبتم الحبلة وليست ههنا . قالوا : صدقت أخذها الشيطان ، وسنرسل من يأتي بها . فجيء بها وجاء الشيطان معها ، فقيل لنوح : إنه شريكك فاحسن شركته . فذكر مثله وزاد بعد قوله : تشربه عصيراً وتطبخه ، فيذهب ثلثاه خبثاً وحظ الشيطان منه ، ويبقى ثلثه فتشربه .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه قال : لما حمل نوح عليه السلام الأسد في السفينة قال : يا رب إنه يسألني الطعام من أين أطعمه ؟ قال : إني سوف أعقله عن الطعام . فسلط الله عليه الحمى ، فكان نوح عليه السلام يأتيه بالكبش فيقول : ادر يأكل فيقول الأسد : آه .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر وابن النجار في تاريخهما عن مجاهد رضي الله عنه قال : مر نوح عليه السلام بالأسد وهو في السفينة فضربه برجله فخمشه الأسد فبات ساهراً ، فبكى نوح من ذلك فأوحي إليه إنك ظلمته وإني لا أحب الظلم .

وأخرج ابن عدي وابن عساكر من وجه آخر عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً " مر نوح بأسد رابض فضربه برجله ، فرفع الأسد رأسه فخمش ساقه ، فلم يبت

ليلته مما جعلت تضرب عليه وهو يقول : يا رب كلبك عقرني . فأوحى الله إليه أن الله لا يرضى الظلم أنت بدأته . قال ابن عدي : هذا الحديث بهذا الإِسناد باطل ، وفيه جعفر بن أحمد الغافقي يضع الحديث " .

وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : استصعبت على نوح الماعزة أن تدخل السفينة فدفعها في ذنبها فمن ثم انكسر ذنبها فصار معقوفاً وبدا حياها ، ومضت النعجة حتى دخلت فمسح على ذنبها فستر حياها .

وأخرج أبو الشيخ عن جعفر بن محمد قال : أمر نوح عليه السلام أن يحمل معه من كل زوجين اثنين ، فحمل معه من اليمن العجوة واللوز .

(209/377)

وأخرج أحمد في الزهد وأبو الشيخ عن وهب بن منبه قال : لما أمر نوح عليه السلام أن يحمل من كل زوجين اثنين قال : كيف أصنع بالأسد والبقرة ؟ وكيف أصنع بالعناق والذئب ؟ وكيف أصنع بالحمام والهر ؟ قال : من ألقى بينهما العداوة ؟ قال : أنت يا رب . قال : فإني أؤلف بينهم حتى لا يتضارون .

وأخرج ابن عساكر عن خالد رضي الله عنه قال : لما حمل نوح في السفينة ما حمل ، جاءت

العقرب تحجل قالت : يا نبي الله أدخلني معك . قال : لا أنت تلدغين الناس وتؤذينهم قال : لا احملني معك ، فلك علي أن لا ألدغ من يصلي عليك الليلة .

وأخرج ابن عساكر عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قال حين يمسي : صلى الله على نوح وعلى نوح السلام لم تلدغه عقرب تلك الليلة " .

وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن عذاء والضحاك . أن إبليس جاء ليركب السفينة فدفعه نوح فقال : يا نوح إني منظر ولا سبيل لك علي . فعرف أنه صادق فأمره أن يجلس على خيزران السفينة ، وكان آدم قد أوصى ولده أن يحملوا جسده ، فورثهم في ذلك نوح ، فتوارث الوصية ولده حتى حملها نوح ، فوضع جسد آدم عليه السلام بين الرجال والنساء .

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن عساكر في مكايد الشيطان عن أبي العالية قال : لما رست السفينة سفينة نوح عليه السلام إذا هو بإبليس على كوتل السفينة . . . ! فقال له نوح عليه السلام : ويلك قد غرق أهل الأرض من أجلك . ؟ ! قال له إبليس : فما أصنع ؟ قال : تتوب . قال : فسل ربك هل لي من توبة ؟ فدعا نوح ربه ، فأوحى إليه أن توبته أن يسجد لقبر آدم . قال : قد جعلت لك توبة قال : وما هي ؟ قال : تسجد لقبر آدم .

قال : تركته حياً وأسجد له ميتاً ؟ ! .

وأخرج النسائي عن أنس بن مالك رضي الله عنه . أن نوحاً عليه السلام نازعه الشيطان في عود الكرم قال : هذا لي . وقال : هذا لي . فاصطلحا على أن لنوح ثلثها وللشيطان ثلثيها .

وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن علي رضي الله عنه مرفوعاً " أن نوحاً عليه السلام حمل معه في السفينة من جميع الشجر " .

وأخرج إسحاق بن بشر أخبرنا رجل من أهل العلم . أن نوحاً عليه السلام حمل في السفينة من الهدهد زوجين ، وجعل أم الهدهد فضلاً على زوجين فماتت في السفينة قبل أن تظهر الأرض ، فحملها الهدهد فطاف بها الدنيا ليصيب لها مكاناً ليدفنها فيه فلم يجد طيناً ولا تراباً ، فرحمه ربه فحفر لها في قفاه قبراً فدفنها فيه ، فذلك الريش الناتىء في قفا الهدهد موضع القبر ، فذلك ثناء اقفية الهداهد " . وأخرجه ابن عساكر .

وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر من طريق جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اعطى الله نوحاً عليه السلام في السفينة خرزتين أحدها بياضها كبياض النهار والأخرى سوادها كسواد الليل، فإذا أمسوا غلب سواد هذه بياض هذه، وإذا أصبحوا غلب بياض هذه سواد هذه على قدر الساعات الاثني عشر، فأول من قدر الساعات الاثني عشر لا يزيد بعضها على بعض نوح عليه السلام في السفينة ليعرف بها مواقيت الصلاة، فسارت السفينة من مكانه حتى أخذت إلى اليمين فبلغت الحبشة، ثم عدلت حتى رجعت إلى جدة، ثم أخذت على الروم، ثم جاوزت الروم فأقبلت راجعة على حيال الأرض المقدسة، وأوحى الله إلى نوح عليه السلام: أنها تستوي على رأس جبل فعلت الجبال لذلك، فتطلعت لذلك وأخرجت أصولها من الأرض وجعل جودي يتواضع لله عز وجل، فجاءت السفينة حتى جاوزت الجبال كلها، فلما انتهت إلى الجودي استوت ورست، فشكت الجبال إلى الله فقالت: يا رب إنا تطلعنا وأخرجنا أصولنا من الأرض لسفينة نوح، وخنس جودي فاستوت سفينة نوح عليه. فقال الله: إني كذلك من تواضع لي رفعته، ومن ترفع لي وضعته، ويقال: إن الجودي من جبال الجنة. فلما أن كان يوم عاشوراء استوت السفينة عليه وقال الله: يا أرض ابلعي ماءك بلغة الحبشة، ويا سماء أقلعي أي أمسكي بلغة الحبشة، فابتلعت الأرض ماءها وارتفع ماء السماء حتى بلغ عنان السماء رجاء أن يعود إلى مكانه، فأوحى الله إليه: أن ارجع فإنك رجس وغضب.

فرجع الماء فملح وحم وتردد فأصاب الناس منه الأذى ، فأرسل الله الريح فجمعه في مواضع البحار فصار زعاماً مالحاً لا ينتفع به ، وتطلع نوح فنظر فإذا الشمس قد طلعت وبدا له اليد من السماء ، وكان ذلك آية ما بينه وبين ربه عز وجل أمان من الغرق ، واليد القوس الذي يسمونه قوس قزح ، ونهي أن يقال له قوس قزح لأن قزح شيطان وهو قوس الله ، وزعموا أنه كان يمتد وتروسهم قبل ذلك في السماء ،

(212/377)

فلما جعله الله تعالى أماناً لأهل الأرض من الغرق نزع الله الوتر والسهم ، فقال نوح عليه السلام عند ذلك : رب إنك وعدتني أن تنجي معي أهلي وغرق ابني ، و

﴿ إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ﴾ [هود : 45] يقول : إنه ليس من أهل دينك إن عمله كان غير صالح . قال : اهبط بسلام منا . فبعث نوح عليه السلام من يأتيه بخبر الأرض ، فجاء الطير الأهلي وقال : أنا . فأخذها وختم جناحيها فقال : أنت مختومة بخاتمي لا تطير أبداً ينتفع بك ذريتي . فبعث الغراب فأصاب جيفة فوقع عليها ، فاحتبس فلعنه فمن ثَمَّ يقتل في الحرم ، وبعث الحمامة وهي القمري فذهبت فلم تجد في الأرض قراراً ، فوقعت على شجرة

بأرض سبا فحملت ورقة زيتون فرجعت إلى نوح فعلم أنها لم تستمكن من الأرض ، ثم بعثها بعد أيام فخرجت حتى وقعت بوادي الحرم ، فإذا الماء قد نضب وأول ما نضب موضع الكعبة ، وكانت طينتها حمراء فخضبت رجليها ، ثم جاءت إلى نوح فقالت : البشرى استمكن الأرض فمسح يده على عنقها ، وطوّقها ، ووهب لها الحمرة في رجليها ، ودعا لها ، وأسكنها الحرم ، وبارك عليها فمن ثم شفق بها الناس ، ثم خرج فنزل بأرض الموصل وهي قرية الثمانين لأنه نزل في ثمانين ، فوقع فيهم الوباء فماتوا إلا نوح وسام وحام ويافث ونساؤهم وطبقت الأرض منهم ، وذلك قوله ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ .

وأخرج ابن عساكر عن خالد الزيات قال : بلغنا أن نوحاً عليه السلام ركب السفينة أول يوم من رجب وقال لمن معه من الجن والإِنس : صوموا هذا اليوم فإنه من صامه منكم بعدت عنه النار مسيرة سنة ، ومن صام منكم سبعة أيام أغلقت عنه أبواب جهنم السبعة ، ومن صام منكم ثمانية أيام فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، ومن صام منكم عشرة أيام قال الله له : سل تعطه ، ومن صام منكم خمسة عشر يوماً قال الله له : استأنف العمل فقد غفرت لك ما مضى ، ومن زاد زاده الله . فصام نوح عليه السلام في السفينة رجب ، وشعبان ،

ورمضان ، وشوّالاً ، وذا القعدة ، وذا الحجة ، وعشراً من المحرم ، فأرست السفينة يوم عاشوراء فقال نوح عليه السلام لمن معه من الجن والإِنس : صوموا هذا اليوم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال : ركب نوح عليه السلام في السفينة في عشرة خلون من رجب ، نزل عنها في عشر خلون من المحرم ، فصام هو وأهله من الليل إلى الليل .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه قال : لما حمل نوح عليه السلام في السفينة من كل شيء ، حمل الأسد وكان يؤذي أهل السفينة فألقيت عليه الحمى .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي عبيدة رضي الله عنه قال : لما أمر نوح عليه السلام أن يحمل في السفينة من كل زوجين اثنين لم يستطع أن يحمل الأسد حتى ألقيت عليه الحمى فحمله فأدخله .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق زيد بن أسلم عن أبيه . " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين قال له أصحابه : وكيف نطمئن ومعنا الأسد ؟ فسلط الله عليه الحمى . فكانت أول حمى نزلت الأرض . ثم شكوا الفأرة فقالوا الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا ، فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما كان نوح عليه السلام في السفينة قرض الفأر حبال السفينة ، فشكا إلى الله عز وجل ذلك ، فأوحى الله إليه فمسح جبهة الأسد ، فخرج سنوران وكان في السفينة عذرة ، فشكا نوح إلى الله فأوحى الله إليه ، فمسح ذنب الفيل فخرج خنزيران فأكلا العذرة .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : تأذى أهل السفينة بالفأر ، فعطس الأسد فخرج من منخره سنوران ذكر وأنثى ، فأكلا الفأر إلا ما أراد الله أن يبقى منه ، وأوذوا بأذى أهل السفينة فعطس الفيل فخرج من منخره خنزيران ذكر وأنثى فأكلا أذى أهل السفينة قال ولما أراد أن يدخل الحمار السفينة أخذ نوح بأذني الحمار وأخذ إبليس بذنبه ، فجعل نوح عليه السلام يجذبه وجعل إبليس يجذبه ، فقال نوح : ادخل شيطان فدخل الحمار ودخل إبليس معه ، فلما سارت السفينة جلس في أذنابها يتغنى فقال له نوح عليه السلام : ويلك من أذن لك . . . ؟ ! قال : أنت . قال : متى . قال : إن قلت للحمار ادخل يا شيطان ، فدخلت بإذنك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أول ما حمل نوح في الفلك من الدواب الدرة ، وآخر ما حمل الحمار ، فلما دخل الحمار أدخل صدره فتعلق

إبليس بذنبه فلم تستقل رجلاه ، فجعل نوح يقول : ويحك . . . ! ادخل يا شيطان .

فينهض فلا يستطيع حتى قال نوح : ويحك . . . ! ادخل وإن كان الشيطان معك – كلمة زلت على لسانه – فلما قالها نوح خلى الشيطان سبيله ، فدخل ودخل الشيطان معه فقال له نوح : ما أدخلك يا عدو الله ؟ قال : ألم تقل ادخل وإن كان الشيطان معك ؟ قال : اخرج عني .

قال : ما لك بد من أن تحملني ، فكان كما يزعمون في ظهر الفلك .

(215/377)

وأخرج ابن عساكر عن مجاهد رضي الله عنه قال : مكث نوح عليه السلام يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله يسره إليهم ثم يجهر به لهم ، ثم أعلن قال مجاهد رضي الله عنه : الاعلان الصياح : فجعلوا يأخذونه فيخنقونه حتى يغشى عليه فيسقط الأرض مغشياً عليه ، ثم يفيق فيقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون . فيقول الرجل منهم لأبيه : يا أبت ما لهذا الشيخ يصيح كل يوم لا يفتر ؟ فيقول : اخبرني أبي عن جدي أنه لم يزل على هذا منذ كان ، فلما دعا على قومه أمره الله أن يصنع الفلك فصنع السفينة ، فعملها في ثلاث سنين كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه يعجبون من نجارته السفينة ، فلما فرغ

منها جعل له ربه آية إذا رأيت التنور قد فار فاجعل في السفينة من كل زوجين اثنين ، وكان التنور فيما بلغني في زاوية من مسجد الكوفة ، فلما فار التنور جعل فيها كل ما أمره الله قال : يا رب كيف بالأسد والفيل ؟ قال : سألقي عليهم الحمى إنها ثقيلة ، فحمل أهله وبنيه وبناته وكنائنه ودعا ابنه ، فلما أبى عليه وفرغ من كل شيء يدخله السفينة طبق السفينة الأخرى عليهم ولولا ذلك لم يبق في السفينة شيء إلا هلك لشدة وقع الماء حين يأتي من السماء قال الله تعالى ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ [القمر : 11] فكان قدر كل قطرة مثل ما يجري من فم القربة ، فلم يبق على ظهر الأرض شيء إلا هلك يومئذ إلا ما في السفينة ، ولم يدخل الحرم منه شيء .

وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن عبد الله بن زياد بن سمعان عن رجال سماهم . أن الله أعقم رجالهم قبل الطوفان بأربعين عاماً ، وأعقم نساءهم فلم يتوالدوا أربعين عاماً منذ يوم دعا نوح عليه السلام حتى أدرك الصغير وأدرك الحنث وصارت لله عليهم الحجة ، ثم أرسل الله السماء عليه بالطوفان .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه قال: يزعم الناس أن من أغرق الله من الولدان مع آبائهم وليس كذلك، إنما الولد بمنزلة الطير وسائر من أغرق الله بغير ذنب، ولكن حضرت آجالهم فماتوا لآجالهم، والمدركون من الرجال والنساء كان الغرق عقوبة لهم.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو الشيخ وابن عساكر من طريق مجاهد عن عبيد بن عمير رضي الله عنه قال: لما أصاب قوم نوح الغرق قام الماء على رأس كل جبل خمسة عشر ذراعاً، فأصاب الغرق امرأة فيمن أصاب معها صبي لها، فوضعته على صدرها فلما بلغها الماء وضعته على منكبيها، فلما بلغها الماء وضعته على يديها.

فقال الله: لو رحمت أحداً من أهل الأرض لرحمتها ولكن حق القول مني.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء رضي الله عنه قال: بلغني أن نوحاً عليه السلام قال لجاريته: إذا فار تنورك ماء فأخبريني، فلما فرغت من آخر خبزها فار التنور، فذهبت إلى سيدها فأخبرته، فركب هو ومن بأعلى السفينة وفتح الله السماء بماء منهمر وفجر الأرض عيوناً.

وأخرج سحق بن بشر وابن عساكر من طريقه أنا عبد الله العمري عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما نبع الماء حول سفينة نوح خرج رجل من تلك الأمة إلى فرعون من فراعنتهم فقال: هذا الذي تزعمون أنه مجنون؟ قد أتاكم بما كان يعدكم، فجاء يسير في

موكب له وجماعة من أصحابه حتى وقف من نوح غير بعيد فقال لنوح : ما تقول ؟ قال : قد أتاكم ما كنتم توعدون . قال : ما علامة ذلك ؟ قال : اعطف برأس برذونك . فعطف برذونه فنبع الماء من تحت قوائمه ، فخرج يركض إلى الجبل هارباً من الماء .

(217/377)

وأخرج ابن إسحاق وابن عساكر عن جعفر بن محمد رضي الله عنه قال : فار الماء من التنور من دار نوح عليه السلام ، من تنور تختبز فيه ابنته ، وكان نوح يتوقع ذلك إذ جاءته ابنته فقالت : يا أبت قد فار الماء من التنور . فآمن بنوح النجارون إلا نجاراً واحداً فقال له : اعطني أجري قال : أعطيتك أجرك على أن تركب معنا . قال : فإن وداً وسواع ويغوث ونسراً سينجوني . فأوحى الله إليه أن احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ، وكان ممن سبق عليه القول امرأته والقة وكنعان ابنه فقال : يا رب هؤلاء قد حملتهم فكيف لي بالوحش والبهائم والسباع والطير ؟ قال : أنا أحشرهم عليك : فبعث جبريل عليه السلام فحشرهم ، فجعل يضرب بيديه على الزوجين فجعل يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى فيدخله السفينة ، حتى أدخل عدة ما أمره الله تعالى به ، فلما جمعهم في السفينة رأت البهائم والوحش والسباع العذاب ، فجعلت تلحس قدم نوح عليه

السلام وتقول : احملنا معك . فيقول : إنما أمرت من كل زوجين اثنين .

وأخرج ابن عساكر عن الزهري قال : إن الله بعث ريحاً فحمل إليه من كل زوجين اثنين ، من الطير والسباع والوحش والبهائم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾ قال : ذكر وأنثى من كل صنف .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في الآية قال : الذكر زوج والأنثى زوج .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج رضي الله عنه ﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ قال : العذاب ، هي امرأته كانت في الغابرين .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحكم ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ قال : نوح وبنوه ثلاثة وأربع كنائنه .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج قال : حدثت أن نوحاً حمل معه بنيه الثلاثة وثلاث نسوة لبنيه ، وأصاب حام زوجته في السفينة فدعا نوح أن تغير نطفته فجاء بالسودان . وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن أبي صالح .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حمل نوح عليه السلام معه في السفينة ثمانين إنساناً . أحدهم جرهم وكان لسانه عربياً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم ، وكانوا في السفينة مائة وخمسين يوماً ، وإن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً ، ثم وجهها إلى الجودي فاستوت عليه ، فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بالخبر فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه ، فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين ، فعرف نوح عليه السلام أن الماء نضب فهبط إلى أسفل الجودي فابتنى قرية وسماها ثمانين ، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة أحدها اللسان العربي ، فكان لا يفقه بعضهم كلام بعض ، وكان نوح عليه السلام يعبر عنهم .

وأخرج ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وابن عساكر عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لما ركب نوح عليه السلام في السفينة وحمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمر رأى في السفينة شيخاً لم يعرفه فقال له : من أنت ؟ قال : إبليس دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معي وأبدانهم معك ، ثم قال : خمس أهلك بهن الناس وسأحدثك منهن بثلاثة ولا أحدثك بالثنتين . فأوحى إلى نوح : لا حاجة لك بالثلاث مرهُ يحدثك بالثنتين . قال :

الحسد وبالحسد لعنت وجعلت شيطاناً رجيماً ، والحرص أبيح آدم الجنة كلها فأصبت حاجتي منه بالحرص .

وأخرج ابن المنذر عن الحكم قال : خرج القوس قزح بعد الطوفان أماناً لأهل الأرض أن يغرقوا جميعاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(219/377)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ ﴾ : العامل في "كلما" "سَخِر" ، و "قال" مستأنف ؛ إذ هو جوابٌ لسؤال سائل . وقيل : بل العامل في "كلما" : "قال" ، و "سخروا" على هذا : إمَّا صفة لَملأ ، وإمَّا بدل مِنْ "مرَّ" ، وهو بعيدٌ جداً ، إذ ليس "سَخِرَ" نوعاً من المرور ولا هو هو فكيف يُبدل منه ؟ والجملةُ من قوله "كلما" إلى آخره في محلِّ نصب على الحال أي : يصنع الفلك والحال أنه كلما مرَّ .

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (39) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَن يَأْتِيهِ ﴾ : في " مَنْ " وجهان ، أحدهما : أن تكونَ موصولةً . والثاني : أن تكونَ استفهاميةً ، وعلى كلا التقديرين ف " تعلمون " : إمَّا من باب اليقين فتتعدَّى لاثنين ، وإمَّا من باب العرفان فتتعدَّى لواحد . فإذا كانت هذه عرفانيةً و " مَنْ " استفهامية كانت " مَنْ " وما بعدها سادَّة مسدَّ مفعول واحد ، وإن كانَتْ متعديةً لاثنين كانت سادَّة مَسَدَّ المفعولين ، وإذا كانت " تعلمون " متعديةً لاثنين و " مَنْ " موصولة كانت في موضع المفعول الأول ، والثاني محذوف . قال ابن عطية : " وجائز أن تكونَ المتعديةَ إلى مفعولين ، واقتصر على الواحد " وهذه العبارةُ ليست جيدةً ؛ لأن الاقتصارَ في هذا الباب على أحد المفعولين لا يجوز ؛ لِما تقرَّرَ غيرَ مرة من أنهما مبتدأٌ وخبرٌ في الأصل ، وأمَّا حَذْفُ الاختصار فهو ممتنعٌ أيضاً ، إذ لا دليلَ على ذلك . وإن كانت متعديةً لواحد و " مَنْ " موصولةٌ فأمرُها واضح .

وحكى الزهراوي : " ويَحُلُّ " بضم الحاء بمعنى يجب .

و " التنور " معروفٌ . وقيل : هو وجهُ الأرض . وهل أل فيه للعهدِ أو للجنس ؟ ووزنَ تَنُّور قيل : تَفْعُول مِنْ لفظ النور فقُلبت الواوُ الأولى همزةً لانضمامِها ، ثم حُذِفت تخفيفاً ، ثم شددوا النون كالعوضِ عن المحذوف ، ويُعزَى هذا لثعلب . وقيل : وزنه فَعُّول ويعزى لأبي علي الفارسي . وقيل : هو أعجمي وعلى هذا فلا اشتقاقَ له . والمشهورُ أنه مما اتَّفق فيه لغة العرب والعجم كالصابون .

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ﴾ : قرأ العامة بإضافة " كل " لزوجين . وقرأ حفص بتنوين " كل " . فأمَّا العامَّة فقيل : إن مفعول " احمل " " اثنين " و ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ﴾ في محل نصب على الحال من المفعول لأنه كان صفةً للنكرة فلما قُدِّم عليها نُصب حالاً . وقيل : بل " مِنْ " زائدة ، و " كل " مفعول به ، و " اثنين " نعت لزوجين على التأكيد ، وهذا إنما يتمُّ على قول مَنْ يرى زيادةَ " مِنْ " مطلقاً ، أو في كلامٍ موجب . وقيل : قوله : " زوجين " بمعنى العموم أي : من كل ما لَه ازدواجٌ ، هذا معنى قوله : ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ﴾ وهو قول الفارسي وغيره . قال ابن عطية : " ولو كان المعنى : احمل فيها من كل زوجين حاصلين اثنين لوجب أن يَحْمل من كلِّ نوعٍ أربعةً ، والزوج في مشهور كلامهم للواحد مما له ازدواجٌ " .

وأمَّا قراءة حفص فمعناها من كل حيوان ، و " زوجين " مفعول به ، و " اثنين " نعتُ على

التأكيد ، و " مِنْ كلٍ " على هذه القراءة يجوز أن يتعلق ب " احمل " وهو الظاهر ، وأن يتعلق بمحذوف على أنها حال من " زوجين " وهذا الخلافُ والتخريجُ جاريان أيضاً في سورة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ [المؤمنون : 27] .

(221/377)

قوله : ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ نسق على " اثنين " في قراءة مَنْ أضاف " كل " لزوجين ، وعلى " زوجين " في قراءة مَنْ نوَّن " كلاً " وقولُه : ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ ﴾ استثناءٌ متصل في موجَب ، فهو واجبُ النصب على المشهور .

وقوله : ﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾ مفعول به نسقاً على مفعول " احمِلْ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 322.324﴾

(222/377)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) ﴾

لما تحقق بما أمر اللَّهُ به لم يأْبه عند إمضاءِ ما كُلِّفَ به بما سَمِعَ من القيل ، ونظر إلى الموعود بطَرْفِ التصديق فكان كالمُشاهِد له قبلَ الوجود .

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (39) ﴾

لا طاعةَ لمخلوقٍ في مقاساة تقديره – سبحانه – إلا من تحمل عنه بفضله ما يحمله بحُكْمه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾ .

طال انتظارُهم لِمَا كان يَتَوعَّدُهم به نوحٌ عليه السلام على وجه الاستبعاد ، ولم يَزِدْهُم تطاولُ الأيامِ إلا كفراً ؛ وصَمَّمُوا على عقد تكذيبهم .

ثم لمَّا أتاهم الموعودُ إياهم بغتةً ، وظهر من الوضع الذي لم يَحِبُّوه فآرَ الماءُ من التنور المسجور ، وجادت السماءُ بالمطر المعبور .

﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ : استبقاءً للتناسل .

ويقال : قد يؤْتى الحَذِرُ من مَأْمَنِه ؛ فإن إبليسَ جاء إلى نوح – عليه السلام – .

وقال : احْمِلني في السفينة فأَبى نوحٌ عليه السلام ، فقال له إبليس : أَمَا عَلِمْتَ أَني من المُنْظَرين إلى يوم معلومٍ ، ولا مكانَ لي اليومَ إلا في سفينتك ؟

فأوحى الله إلى نوح أن يَحْمِله معه .

ويقال لم يكن لابن نوح معه مكان ، وأُمِرَ بحَمْل إبليس وهو أصعب الأعداء ! وفي هذا إشارة إلى أن أسرار التقدير لا تجري على قياس الخَلْق ؛ كأنه قيل له : يا نوح . . . ابنك لا تحمله ، وعدوك فَأَدْخُلْه ، فالله سبحانه فعَّالٌ لما يريد .

(223/377)

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيهِ الْقَوْلُ ﴾ بالشقاوة . وفيه تعريف بأن حُكْمَ الأَزَل لا يُرَدُّ ، والحقُّ - سبحانه - لا يُنَازَعُ ، والجبَّارُ لا يُخاصَمُ ، وأن مَنْ أقصاه ربُّه لم يُدْنِه تنبيهٌ ولا بِرٌّ ولا وعظ .

﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قِلِيلٌ ﴾ ولكن بَارَكَ الحقُّ - سبحانه - في الذين نجَّاهم من نَسْلِه ، ولم يدخل خَلَلٌ في الكونِ بعد هلاكِ مَنْ أَهْلَكَ مِنْ قومه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 136 . 137 ﴾

(224/377)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرَيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والسبعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن والسبعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 41 ﴾ من سورة هود عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 44 ﴾ من نفس السورة

(4/378)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أتاه الأمر بذلك، بادر الامتثال فجمع من أمره الله به إلى السفينة بعد أن هيأها لهم ﴿ وقال ﴾ أي لمن أمر بحمله ﴿ اركبوا ﴾ ولما كانت الظرفية أغلب على السفينة قال : ﴿ فيها ﴾ أي السفينة؛ ولما أمرهم بالركوب فركبوا، استأنف قوله، أو أمرهم بالركوب قائلين : ﴿ بسم الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ مجراها ومرساها ﴾ أي إجرائها

وإرساءها ومحلهما ووقتهما ، وقرأ الحسن وقتادة وحميد العرج وإسماعيل بن مجالد عن عاصم بكسر الراء والسين كسراً خالصاً بعده ياءان خالصتان على أن الاسمين صفتان للجلالة ؛ ثم علل نجاتهم بالإجراء والإرساء اعترافاً بأنه لا نجاة إلا بعفوه بقوله : ﴿ إن ربي ﴾ أي المحسن إلي بما دبر مني هذا الأمر وغيره ، وزاد في التأكيد تطبيقاً لقلوب من معه معرفاً لهم بأن أحداً لن يقدر الله حق قدره وأن العبد لا يسعه إلا الغفران فقال :

﴿ لغفور ﴾ أي بالغ الستر للزلات والهفوات ﴿ رحيم ﴾ أي بالغ الإكرام لم يريد ، فركبوها واستمروا سائرين فيها يقولون : بسم الله ﴿ وهي ﴾ أي والحال أنها ﴿ تجري بهم ﴾ .

ولما كان الماء مهيئاً للإغراق ، فكان السير على ظهره من الخوارق ، وأشار إلى ذلك بالظرف فقال : ﴿ في موج ﴾ ونبه على علوه بقوله : ﴿ كالجبال ﴾ أي في عظمه وتراكمه وارتفاعه ، فالجملة حال من فركبوها ، المقدر لأنه لظهوره في قوة الملفوظ ، وكان هذه الحال مع أن استدامة الركوب ركوب إشارة إلى شرعة امتلاء الأرض من الماء وصيرورته فيها أمثال الجبال عقب ركوبهم السفينة من غير كبير تراخ ، قالوا : وكان أول ما ركب معه الذرة ، وآخر ما ركب معه الحمار ، وتعلق إبليس بذنبه فلم يستطع الدخول حتى قال له نوح عليه

السلام : ادخل ولو كان الشيطان معك - كذا قالوا ، وقيل : إنه منع الحية والعقرب وقال : إنكما سبب الضر ، فقالا : احملنا ولك أن لا نضر أحداً ذكرك ، فمن قال ﴿ سلام على نوح في العالمين إنا كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ [الصافات : 79-80] لم تضراه .

(6/378)

ولما كان ابتداء الحال في تفجر الأرض كلها عيوناً وانهمار السماء انهماراً - مرشداً إلى أن الحال سيصير إلى ما أخبر الله به من كون الموج كالجبال لا ينجي منه إلا السبب الذي أقامه سبحانه ، تلا ذلك بأمر ابن نوح فقال عاطفاً على قوله ﴿ وقال اركبوا ﴾ ﴿ ونادى نوح ابنه ﴾ أي كنعان وهو لصلبه - نقله الرماني عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك ﴿ وكان ﴾ أي الابن ﴿ في معزل ﴾ أي عن أبيه في مكانه وفي دينه لأنه كان كافراً ، وبين أن ذلك المعزل كان على بعض البعد بقوله : ﴿ يا بني ﴾ صغّره تحنناً وتعطفاً ﴿ اركب ﴾ كائناً ﴿ معنا ﴾ أي في السفينة لتكون من الناجين ﴿ ولا تكن ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ مع الكافرين ﴾ أي في دين ولا مكان إشارة إلى أن حرص الرسل عليهم السلام وشفقتهم - وإن كانت مع رؤية الآيات العظام والأمور الهائلة - ليست سبباً للين القلوب وخضوع

النفوس ما لم يأذن الله ، انظر إلى استعطاف نوح عليه السلام بقوله ﴿ يا بني ﴾ مذكراً له بالنبوة مع تصغير التحنن والتراؤف وفظاظة الابن مع عدم سماحه بأن يقول : يا أبت ، ولم يلن مع ما رأى من الآيات العظام ولا تناهى لشيء منها عن تقحم الجهل بدلاً من العلم وتعسف الشبهة بدلاً من الحجة .

ولما كان الحال حال دهش واختلال .

كان السامع جديراً بأن لا يصبر بل يبادر إلى السؤال فيقول : فما قال ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ قول من ليس له عقل تبعاً لمراد الله ﴿ سآوي إلى جبل يعصمني ﴾ أي بعلوه ﴿ من الماء ﴾ أي فلا أغرق ﴿ قال ﴾ أي نوح عليه السلام ﴿ لا عاصم ﴾ أي لا مانع من جبل ولا غير موجود ﴿ اليوم ﴾ أي لأحد ﴿ من أمر الله ﴾ أي الملك الأعظم المحيط أمره وقدرته وعلمه ، وهو حكمه بالغرق على كل ذي روح لا يعيش في الماء ﴿ إلا من رحم ﴾ أي إلا مكان من رحمة الله فإنه مانع من ذلك وهو السفينة ، أو لكن من رحمه الله فإن الله يعصمه .

ولما ركب نوح ومن أمره الله به وأراده .

ولم تبق حاجة في تدرج ارتفاع الماء ، فعلاً وطماً وغلب وعتاً فهال الأمر وزاد على الحد والقدر ، قال تعالى عاطفاً على ما تقديره : فلم يسمع ابنه ذلك منه بل عصى أباه كما عصى الله فأوى إلى الجبل الذي أراده فعلا الماء عليه ولم يمكنه بعد ذلك اللحاق بأبيه ولا الوصول إليه : ﴿ وحال بينهما ﴾ أي بين الابن والجبل أو بينه وبين أبيه ﴿ الموج ﴾ المذكور في قوله ﴿ في موج كالجبال ﴾ ﴿ فكان ﴾ أي الابن بأهون أمر ﴿ من المغرقين ﴾ وهم كل من لم يركب مع نوح عليه السلام من جميع أهل الأرض ؛ قال أبو حيان : قل كانا يتراجعان الكلام فما استتمت لمراجعة حتى جاءت موجة عظيمة وكان راكباً على فرس قد بطر وأعجب بنفسه فالتقمته وفرسه وحيل بينه وبين نوح عليه السلام فغرق - انتهى .

والركوب : العلو على ظهر الشيء ، ركب الدابة والسفينة والبر والبحر ؛ والجري : مر سريع ؛ يقال : هذه العلة تجري في أحكامها ، أي تمر من غير مانع ، والموج جمع موجة - لقطعة عظيمة من الماء الكثير ترتفع عن حملته ، وأعظم ما يكون ذلك إذا اشتدت الريح ؛ والجبل : جسم عظيم الغلظ شاخص من الأرض هو لها كالوتد ؛ والعصمة : المنع من الآفة ﴿ وقيل ﴾ أي بأدنى إشارة بعد هلاك أهل الأرض وخلوها من الكافرين وتدمير من في السهول والجبال من الخاسرين ، وهو من إطلاق المسبب - وهو القول - على السبب - وهو لإرادة - لتصوير أمر ومأمور هو في غاية الطاعة فإنه أوقع في النفس . انتهى انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 531. 533 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) ﴾

أما قوله : ﴿ وقَال ﴾ يعني نوح عليه السلام لقومه : ﴿ اركبوا ﴾ والركوب العلو على ظهر الشيء ومنه ركوب الدابة وركوب السفينة وركوب البحر وكل شيء علا شيئاً فقد ركبه ، يقال ركبه الدين قال الليث : وتسمي العرب من يركب السفينة راكب السفينة .

وأما الركبان والركب من ركبوا الدواب والإبل .

قال الواحدي : ولفظة (في) في قوله : ﴿ اركبوا فِيهَا ﴾ لا يجوز أن تكون من صلة الركوب ، لأنه يقال ركبت السفينة ولا يقال ركبت في السفينة ، بل الوجه أن يقال مفعول اركبوا محذوف والتقدير اركبوا الماء في السفينة ، وأيضاً يجوز أن يكون فائدة هذه الزيادة ، أنه أمرهم أن يكونوا في جوف الفلك لا على ظهرها فلو قال اركبوها : لتوهموا أنه أمرهم أن يكونوا على ظهر السفينة .

أما قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم مجريها بفتح الميم والباقون بضم الميم واتفقوا في مرساها أنه بضم الميم ، وقال صاحب "الكشاف" : قرأ مجاهد ﴿ مجريها ومرسيها ﴾ بلفظ اسم الفاعل مجروري المحل صفتين لله تعالى .

قال الواحدي : المجرى مصدر كالإجراء ، ومثله قوله : ﴿ مُنزَلاً مُّبَارَكاً ﴾ [المؤمنون : 29] و ﴿ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء : 80] وأما من قرأ ﴿ مجريها ﴾ بفتح الميم ، فهو أيضاً مصدر ، مثل الجري .

واحتج صاحب هذه القراءة بقوله : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ ﴾ [هود : 42] ولو كان مجراها لكان وهي تجريهم ، وحجة من ضم الميم أن جرت بهم وأجرتهم يتقاربان في المعنى ، فإذا قال : ﴿ تَجْرِى بِهِمْ ﴾ فكأنه قال : تجريهم ، وأما المرسي فهو أيضاً مصدر كالإرساء .

(9/378)

يقال : رسا الشيء يرسو إذا ثبت وأرساه غيره ، قال تعالى : ﴿ والجبال أرساها ﴾ [النازعات : 32] قال ابن عباس : يريد تجري بسم الله وقدرته ، وترسو بسم الله وقدرته ، وقيل : كان إذا أراد أن تجري بهم قال : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ فتجري ، وإذا أراد أن ترسو قال :

بسم الله مرساها فترسو .

المسألة الثانية :

ذكروا في عامل الإعراب في ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مجريها ﴾ وجوهاً : الأول : اركبوا بسم الله ، والثاني : ابدؤا بسم الله ، والثالث : بسم الله إجراؤها وإرساؤها ، وقيل : إنها سارت لأول يوم من رجب ، وقيل : لعشر مضين من رجب ، فصارت ستة أشهر ، واستوت يوم العاشر من المحرم على الجودي .

المسألة الثالثة :

في الآية احتمالان :

الاحتمال الأول : أن يكون مجموع قوله : ﴿ وَقَالَ اركبوا فِيهَا بِسْمِ الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ كلاماً واحداً ، والتقدير : وقال اركبوا فيها بسم مجريها ومرساها ، يعني ينبغي أن يكون الركوب مقروناً بهذا الذكر .

والاحتمال الثاني : أن يكونا كلامين ، والتقدير : أن نوحاً عليه السلام أمرهم بالركوب ، ثم أخبرهم بأن مجريها ومرساها ليس إلا بسم الله وأمره وقدرته .

فالمعنى الأول : يشير إلى أن الإنسان لا ينبغي أن يشرع في أمر من الأمور إلا ويكون في وقت الشروع فيه ذاكراً لاسم الله تعالى بالأذكار المقدسة حتى يكون ببركة ذلك الذكر سبباً لتمام ذلك المقصود .

والمعنى الثاني : يدل على أنه لما ركب السفينة أخبر القوم بأن السفينة ليست سبباً لحصول النجاة بل الواجب ربط الهمة وتعليق القلب بفضل الله تعالى ، وأخبرهم أنه تعالى هو المجري والمرسي للسفينة ، فإياكم أن تعولوا على السفينة ، بل يجب أن يكون تعويلكم على فضل الله فإنه هو المجري والمرسي لها ، فعلى التقدير الأول كان نوح عليه السلام وقت ركوب السفينة في مقام الذكر ، وعلى التقدير الثاني كان في مقام الفكر والبراءة عن الحول والقوة وقطع النظر عن الأسباب واستغراق القلب في نور جلال مسبب الأسباب .

واعلم أن الإنسان إذا تفكر في طلب معرفة الله تعالى بالدليل والحجة فكأنه جلس في سفينة التفكر والتدبر ، وأمواج الظلمات والضلالات قد علت تلك الجبال وارتفعت إلى مصاعد القلال ، فإذا ابتدأت سفينة الفكرة والروية بالحركة وجب أن يكون هناك اعتماده على الله تعالى وتضرعه إلى الله تعالى وأن يكون بلسان القلب ونظر العقل .

يقول : بسم الله مجريها ومرساها حتى تصل سفينة فكره إلى ساحل النجاة وتتخلص عن أمواج الضلالات .

وأما قوله : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ففيه سؤال وهو أن ذلك الوقت وقت الإهلاك

وإظهار القهر فكيف يليق به هذا الذكر ؟

وجوابه : لعل القوم الذين ركبوا السفينة اعتقدوا في أنفسهم أنا إنما نجونا ببركة علمنا فالله تعالى نبههم بهذا الكلام لإزالة ذلك العجب منهم ، فإن الإنسان لا ينفك عن أنواع الزلات وظلمات الشهوات ، وفي جميع الأحوال فهو محتاج إلى إعانة الله وفضله وإحسانه ، وأن يكون رحيماً لعقوبته غفوراً لذنوبه .

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾

واعلم أن قوله : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كالجبال ﴾ مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ ﴾ متعلق بمحذوف ، والتقدير : وقال اركبوا فيها ، فركبوا فيها يقولون : بسم الله وهي تجري بهم في موج كالجبال .

المسألة الثانية :

(11/378)

الأمواج العظيمة إنما تحدث عند حصول الرياح القوية الشديدة العاصفة فهذا يدل على أنه حصل في ذلك الوقت رياح عاصفة شديدة ، والمقصود منه : بيان شدة الهول والفزع .

المسألة الثالثة :

الجريان في الموج ، هو أن تجري السفينة داخل الموج ، وذلك يوجب الغرق ، فالمراد أن الأمواج لما أحاطت بالسفينة من الجوانب ، شبهت تلك السفينة بما إذا جرت في داخل تلك الأمواج.

ثم حكى الله تعالى عنه أنه نادى ابنه ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اختلفوا في أنه كان ابناً له ، وفيه أقوال :

القول الأول : أنه ابنه في الحقيقة ، والدليل عليه : أنه تعالى نص عليه فقال : ﴿ ونادى نُوحٌ ابنه ﴾ ونوح أيضاً نص عليه فقال : ﴿ يا بَنِى ﴾ وصرف هذا اللفظ إلى أنه رباه ، فأطلق عليه اسم الابن لهذا السبب صرف للكلام عن حقيقته إلى مجازه من غير ضرورة وأنه لا يجوز ، والذين خالفوا هذا الظاهر إنما خالفوه لأنهم استبعدوا أن يكون ولد الرسول المعصوم كافراً ، وهذا بعيد ، فإنه ثبت أن والد رسولنا صلى الله عليه وسلم كان كافراً ، ووالد إبراهيم عليه السلام كان كافراً بنص القرآن ، فكذلك ههنا ، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أنه عليه السلام لما قال : ﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [نوح : 26] فكيف ناداه مع كفره ؟

فأجابوا عنه من وجوه : الأول : أنه كان ينافق أباه فظن نوح أنه مؤمن فلذلك ناداه ولولا ذلك

لما أحب نجاته .

والثاني : أنه عليه السلام كان يعلم أنه كافر ، لكنه ظن أنه لما شاهد الغرق والأهوال العظيمة فإنه يقبل الإيمان فصار قوله : ﴿ يا بنى اركب مَّعَنَا ﴾ كالدلالة على أنه طلب منه الإيمان وتأكد هذا بقوله : ﴿ وَلاَ تَكُن مَّعَ الكافرين ﴾ أي تابعهم في الكفر واركب معنا .

(12/378)

والثالث : أن شفقة الأبوة لعلها حملته على ذلك النداء ، والذي تقدم من قوله : ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول ﴾ كان كالمجمل فلعله عليه السلام جوز أن لا يكون هو داخلاً فيه .

القول الثاني : أنه كان ابن امرأته وهو قول محمد بن علي الباقر وقول الحسن البصري ويروى أن علياً رضي الله عنه قرأ ﴿ ونادى نُوحٌ ابنه ﴾ والضمير لامرأته .

وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير ﴿ ابنه ﴾ بفتح الهاء يريد أن ابنها إلا أنهما اكتفيا بالفتحة عن الألف ، وقال قتادة سألت الحسن عنه فقال : والله ما كان ابنه فقلت : إن الله حكى عنه أنه قال :

﴿ إِنَّ ابنى مِنْ أَهْلِى ﴾ [هود : 45] وأنت تقول : ما كان ابناً له ، فقال : لم يقل : إنه مني ولكنه قال من أهلي وهذا يدل على قولي .

القول الثالث : أنه ولد على فراشه لغير رشدة ، والقائلون بهذا القول احتجوا بقوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط فخانتاهما وهذا قول خبيث يجب صون منصب الأنبياء عن هذه الفضيحة لا سيما وهو على خلاف نص القرآن .

أما قوله تعالى ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ فليس فيه أن تلك الخيانة إنما حصلت بالسبب الذي ذكروه .

قيل لابن عباس رضي الله عنهما : ما كانت تلك الخيانة ، فقال : كانت امرأة نوح تقول : زوجي مجنون ، وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه إذا نزلوا به .

ثم الدليل القاطع على فساد هذا المذهب قوله تعالى : ﴿ الخبيثات لِلْخَبِيثِينَ والخبيثون للخبيثات والطيبات لِلطَّيِّبِينَ والطيبون للطيبات ﴾ [النور : 26] وأيضاً قوله تعالى : ﴿ الزانى لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً والزانية لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذلك عَلَى المؤمنين ﴾ [النور : 3] وبالجملة فقد دللنا على أن الحق هو مقول الأول .

وأما قوله : ﴿ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ ﴾ فاعلم أن المعزل في اللغة معناه : موضع منقطع عن غيره ، وأصله من العزل ، وهو التنحية والإبعاد .

تقول : كنت بمعزل عن كذا ، أي بموضع قد عزل منه .

واعلم أن قوله : ﴿ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ ﴾ لا يدل على أنه في معزل من أي شيء فلهذا السبب ذكروا وجوهاً : الأول : أنه كان في معزل من السفينة لأنه كان يظن أن الجبل يمنعه من الغرق : الثاني : أنه كان في معزل عن أبيه وإخوته وقومه : الثالث : أنه كان في معزل من الكفار كأنه انفرد عنهم فظن نوح عليه السلام أن ذلك إنما كان لأنه أحب مفارقتهم .

أما قوله : ﴿ يا بنى اركب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الكافرين ﴾ فنقول : قرأ حفص عن عاصم ﴿ يا بَنى ﴾ بفتح الياء في جميع القرآن والباقون بالكسر .

قال أبو علي : الوجه الكسر وذلك أن اللام من ابن ياء أو واو فإذا صغرت ألحقت ياء التحقير ، فلزم أن ترد اللام المحذوفة وإلا لزم أن تحرك ياء التحقير بحركات الإعراب لكنها لا تحرك لأنها لو حركت لزم أن تنقلب كما تنقلب سائر حروف المد واللين إذا كانت حروف إعراب ، نحو عصا وقفا ولو انقلبت بطلت دلالتها على التحقير ثم أضفت إلى نفسك اجتمعت ثلاث آيات .

الأولى : منها للتحقير .

والثانية : لام الفعل .

والثالثة : التي للإضافة تقول : هذا بني فإذا ناديته صار فيه وجهان : إثبات الياء وحذفها والاختيار حذف الياء التي للإضافة وإبقاء الكسرة دلالة عليه نحو يا غلام ومن قرأ ﴿ يا

بَنى ﴾ بفتح الياء فإنه أراد الإضافة أيضاً كما أرادها من قرأ بالكسر لكنه أبدل من الكسرة الفتحة ومن الياء الألف تخفيفا فصار يا بنيا كما قال :

يا ابنة عما لا تلومي واهجعي . . ثم حذف الألف للتخفيف .

(14/378)

واعلم أنه تعالى لما حكى عن نوح عليه السلام أنه دعاه إلى أن يركب السفينة حكى عن ابنه أنه قال : ﴿ سَاوِى إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الماء ﴾ وهذا يدل على أن الابن كان متمادياً في الكفر مصراً عليه مكذباً لأبيه فيما أخبر عنه فعند هذا قال نوح عليه السلام : ﴿ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ وفيه سؤال ، وهو أن الذي رحمه الله معصوم ، فكيف يحسن استثناء المعصوم من العاصم وهو قوله : ﴿ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله ﴾ وذكروا في الجواب طرقاً كثيرة .

الوجه الأول : أنه تعالى قال قبل هذه الآية : ﴿ وَقَالَ اركبوا فِيهَا بِسْمِ الله مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود : 41] فبين أنه تعالى رحيم وأنه برحمته يخلص هؤلاء الذين ركبوا السفينة من آفة الغرق .

إذا عرفت هذا فنقول : إن ابن نوح عليه السلام لما قال : سآوي إلى جبل يعصمني من الماء

قال نوح عليه السلام أخطأت ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ والمعنى : إلا ذلك الذي ذكرت أنه برحمته يخلص هؤلاء من الغرق فصار تقدير الآية : لا عاصم اليوم من عذاب الله إلا الله الرحيم وتقديره : لا فرار من الله إلا إلى الله ، وهو نظير قوله عليه السلام في دعائه : " وأعوذ بك منك " وهذا تأويل في غاية الحسن .

الوجه الثاني : في التأويل وهو الذي ذكره صاحب "حل العقد" أن هذا الاستثناء وقع من مضمر هو في حكم الملفوظ لظهور دلالة اللفظ عليه ، والتقدير : لا عاصم اليوم لأحد من أمر الله إلا من رحم وهو كقولك لا نضرب اليوم إلا زيداً ، فإن تقديره لا تضرب أحداً إلا زيداً إلا أنه ترك التصريح به لدلالة اللفظ عليه فكذا ههنا .

(15/378)

الوجه الثالث : في التأويل أن قوله : ﴿ لَا عَاصِمَ ﴾ أي لا ذا عصمة كما قالوا : رامح ولابن ومعناه ذو رمح ، وذو لبن وقال تعالى : ﴿ مِن مَّاء دَافِقٍ ﴾ [الطارق : 6] و ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 21] ومعناه ما ذكرنا فكذا ههنا ، وعلى هذا التقدير : العاصم هو ذو العصمة ، فيدخل فيه المعصوم ، وحينئذ يصح استثناء قوله : ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ منه .

الوجه الرابع : قوله : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ عنى بقوله إلا من رحم

نفسه ، لأن نوحاً وطائفته هم الذين خصهم الله تعالى برحمته ، والمراد : لا عاصم لك إلا الله بمعنى أن بسببه تحصل رحمة الله ، كما أضيف الإحياء إلى عيسى عليه السلام في قوله : ﴿ وأحيي الموتى ﴾ [آل عمران : 49] لأجل أن الإحياء حصل بدعائه .

الوجه الخامس : أن قوله : ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ استثناء منقطع ، والمعنى لكن من رحم الله معصوم ونظيره قوله تعالى : ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتباع الظن ﴾ [النساء : 157] ثم إنه تعالى بين بقوله : ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الموج ﴾ أي بسبب هذه الحيلولة خرج من أن يخاطبه نوح ﴿ فَكَانَ مِنَ المغرقين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 182 .

186 ﴾

(16/378)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وقال اركبوا فيها بِاسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفورٌ رحيم ﴾

قال قتادة : ركب نوح عليه السلام في السفينة في اليوم العاشر من رجب ، ونزل منها في اليوم العاشر من المحرم ، وهو يوم عاشوراء ، فقال لمن معه : من كان صائماً فليتم صومه ، ومن لم يكن صائماً فليصمه .

وقوله ﴿ بسم الله مجريها ﴾ أي مسيرها ، ﴿ ومُرساها ﴾ أي مثبتها ، فكان إذا أراد السير قال : بسم الله مجريها ، فتجري ، وإذا أراد الوقوف قال : بسم الله مرساها . فتثبت واقفة .

قوله عز وجل : ﴿ قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ﴾ قال ذلك لبقائه على كفره تكذيباً لأبيه ، وقيل إن الجبل الذي أوى إليه طور زيتا .

﴿ قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إلا من رحم الله وهم أهل السفينة .

الثاني : إلا من رحم نوح فحمله في سفينته وقوله ﴿ لا عاصم ﴾ يعني لا معصوم . ﴿ من أمر الله ﴾ يعني الغرق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(17/378)

وقال ابن الجوزى :

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾

قوله تعالى : ﴿ وقال ﴾ يعني نوحاً للذين أمر بحملهم ﴿ اركبوا ﴾ السفينة .

قال ابن عباس : ركبوا فيها لعشر مضين من رجب ، وخرجوا منها يوم عاشوراء .

وقال ابن جريج : رفعت من عين وردة يوم الجمعة لعشر مضين من رجب ، فأتت موضع البيت فطافت به أسبوعاً ، وكان البيت قد رُفع في ذلك الوقت ، ورست بباقِرْدى على الجودي يوم عاشوراء .

قال ابن عباس : قرض الفأر حبال السفينة ، فشكا نوح ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه ، فمسح ذنب الأسد ، فخرج سنَّوْرانِ ، وكان في السفينة عَذِرة ، فشكا ذلك إلى ربه ، فأوحى الله تعالى إليه ، فمسح ذنب الفيل ، فخرج خنزيران فأكلا ذلك .

قوله تعالى : ﴿ بسم الله مجراها ومرساها ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : "مُجراها" بضم الميم .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : "مَجراها" بفتح الميم ، وكسر الراء .

وكلهم قرؤوا بضم الميم من "مرساها" ، إلا أن ابن كثير ، وأبا عمرو ، وابن عامر ، وحفصاً عن عاصم ، كانوا يفتحون السين .

ونافع ، وأبو بكر عن عاصم ، كانا يقرآنها بين الكسر والتفخيم .

وكان حمزة ، والكسائي ، وخلف ، يميلونها .

وليس في هؤلاء أحد جعلها نعتاً لله ، وإنما جعل الوصفين نعتاً لله تعالى ، الحسن ، وقتادة ، وحُميد الأعرج ، وإسماعيل بن مجالد عن عاصم ، فقرؤوا "مُجرِيها و مُرسِيها" بضم الميم ، وبياءين صحيحتين ، مثل مبديها ومنشيها .

وقرأ ابن مسعود : "مجراها" بفتح الميم ، وإِمالة الراء بعدها ألف ، "ومرساها" برفع الميم ، وإِمالة السين بعدها ألف .

وقرأ أبو رزين ، وأبو المتوكل : "مجراها" بفتح الميم والراء ، وبألف بعدها ، ومرساها ، برفع الميم وفتح السين ، وبألف بعدها .

وقرأ أبو الجوزاء ، وابن يعمر : "مَجراها ومَرساها" بفتح الميم فيهما جميعاً ، وفتح الراء والسين ، وبألف بعدهما .

(18/378)

وقرأ يحيى بن وثاب بفتح الميمين ، إِلا أنه أمال الراء والسين فيهما ، وقرأ أبو عمران الجوني ، وابن جبير ، برفع الميم فيهما ، وفتح الراء والسين ، وبألف بعدهما جميعاً .

فمن قرأ بضم الميمين ، جعله من أجرى وأرسى .

ومن فتحهما ، جعله مصدراً من جرى الشيء يجري مَجرى ، ورسى يرسي مَرسى .

قال الزجاج : قوله : ﴿ بسم الله ﴾ أي : بالله ، والمعنى : أنه أمرهم أن يسمُّوا في وقت جريها ووقت استقرارها .

ومن قرأ بضم الميمين ، فالمعنى : بالله إِجراؤها ، وبالله إِرساها .

ومن فتحهما ، فالمعنى : بالله يكون جريها ، وبالله يقع إرساؤها ، أي : إقرارها .

وسمعت شيخنا أبا منصور اللغوي يقول : من ضم الميم في "مُجراها" أراد : أجراها اللهُ مجرىً ، ومن فتحها ، أراد : جرت مَجرى .

وقال الضحاك : كان إذا أراد أن تجري ، قال : بسم الله ، فجرت .

وإذا أراد أن ترسي ، قال : بسم الله ، فرست .

قوله تعالى : ﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾

شبهه بالجبال في عِظَمه وارتفاعه ، ويقال : إن الماء أرتفع على أطول جبل في الأرض أربعين ذراعاً ، ويروي خمس عشرة ذراعاً .

وذكر بعض المفسرين أنه ارتفع نحو السماء سبعين فرسخاً من الأرض .

قوله تعالى : ﴿ ونادى نوح ابنه ﴾ لا يختلفون أنه كان كافراً .

وفي اسمه قولان :

أحدهما : كنعان ، وهو قول الأكثرين .

والثاني : اسمه يام ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال عبيد بن عمير ، وابن إسحاق .

قوله تعالى : ﴿ وكان في مَعْزِلٍ ﴾ المعزل : المكان المنقطع .

ومعنى العزل : التنحية .

وفي معنى الكلام وجهان ذكرهما الزجاج.

أحدهما : في معزل من السفينة .

والثاني : في معزل من دين أبيه .

قوله تعالى : ﴿ يابني اركب معنا ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبوعمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي "يابني اركب" مضافة ، بكسر الياء .

وروى أبوبكر عن عاصم "يابنيَ" مفتوحة الياء ها هنا ، وباقي القرآن مكسورة .

(19/378)

وروى حفص عنه بالفتح في كل القرآن "يابنيَّ" إِذا كان واحداً .

قال النحويون : الأصل في "بُنيّ" ثلاث ياءات ، ياء التصغير ، وياء بعدها هي لام الفعل ، وياء بعد لام الفعل هي ياء الإِضافة .

فمن قرأ "يابُني" أراد : يابنيي ، فحذف ياء الاضافة ، وترك الكسرة تدل عليها ، كما يقال : يا غلام أقبل .

ومن فتح الياء ، أبدل من كسرة لام الفعل فتحة ، استثقالاً لاجتماع الياءات مع الكسرة ، فانقلبت ياء الإِضافة ألفاً ، ثم حذفت الألف كما تحذف الياء ، فبقيت الفتحة على حالها .

وقيل : إِن المعنى : يا بني آمن واركب معنا .

قوله تعالى : ﴿ سآوي ﴾ أي : سأصير وأرجع ﴿ إِلى جبل يعصمني ﴾ أي : يمنعني ﴿ من الماء ﴾ أي : من تغريق الماء .

﴿ قال لا عاصم اليوم ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لا مانع اليوم من أمر الله ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : لا معصوم ، ومثله : ماء دافق ، أي مدفوق ، وسرٌّ كاتم ، وليلٌ نائم ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ إِلا من رحم ﴾ قال الزجاج : هذا استثناء ليس من الأول ، والمعنى : لكن من رحم الله فانه معصوم .

قال مقاتل : إِلا من رحم فركب السفينة .

قوله تعالى : ﴿ وحال بينهما الموج ﴾ في المكني عنها قولان .

أحدهما : أنهما ابن نوح والجبل الذي زعم أنه يعصمه ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

والثاني : نوح وابنه ، قاله مقاتل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اركبوا فِيهَا ﴾

أمر بالركوب ؛ ويحتمل أن يكون من الله تعالى ، ويحتمل أن يكون من نوح لقومه .

والركوب العلوّ على ظهر الشيء .

ويقال : ركبه الدّيْن .

وفي الكلام حذف ؛ أي اركبوا الماء في السفينة .

وقيل : المعنى اركبوها .

و"في" للتأكيد كقوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف : 43] وفائدة "في" أنهم أمروا أن يكونوا في جوفها لا على ظهرها .

قال عِكرمة : ركب نوح عليه السلام في الفلك لعشر خلون من رجب ، واستوت على الجُوديّ لعشر خلون من المحرم ؛ فذلك ستة أشهر ؛ وقاله قَتَادة وزاد ؛ وهو يوم عاشوراء ؛ فقال لمن كان معه : من كان صائماً فليتم صومه ، ومن لم يكن صائماً فليصمه .

وذكر الطبريّ في هذا حديثاً عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن نوحاً ركب في السفينة أوّل يوم من رجب ، وصام الشهر أجمع ، وجرت بهم السفينة إلى يوم عاشوراء ، ففيه أرست على الجوديّ ، فصامه نوح ومن معه .

وذكر الطبريّ عن ابن إسحق ما يقتضي أنه أقام على الماء نحو السنة، ومرت بالبيت فطافت به سبعاً، وقد رفعه الله عن الغرق فلم ينله غرق، ثم مضت إلى اليمن ورجعت إلى الجوديّ فاستوت عليه.

قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللهِ مجراها وَمُرْسَاهَا ﴾ قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم فيهما إلا من شذ، على معنى بسم الله إجراؤها وإرساؤها؛ فمجراها ومرساها في موضع رفع بالابتداء؛ ويجوز أن تكون في موضع نصب، ويكون التقدير: بسم الله وقت إجرائها ثم حذف وقت، وأقيم "مجراها" مقامه.

وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي: "بِسم الله مَجْرِيهَا" بفتح الميم و "مُرْسَاهَا" بضم الميم. وروى يحيى بن عيسى عن الأعمش عن يحيى بن وثّاب "بِسْمِ الله مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا" بفتح الميم فيهما؛ على المصدر من جَرت تَجري جرياً ومجَرًى، ورَست رُسوًّا ومَرْسًى إذا ثبتت.

وقرأ مجاهد وسليمان بن جُنْدُب وعاصم الجَحْدَريّ وأبو رَجاء العُطَارِدِيّ: "بِسْمِ الله مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا" نعت لله عز وجل في موضع جر.

ويجوز أن يكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ ؛ أي هو مُجريها ومُرسيها .

ويجوز النصب على الحال .

وقال الضحّاك : كان نوح عليه السلام إذا قال بسم الله مَجراها جرت ، وإذا قال بسم الله مَرساها رست .

وروى مروان بن سالم عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز عن الحسين بن عليّ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أمَانٌ لأمتي من الغرق إذا ركبوا في الفلك بسم الله الرحمن الرحيم" ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : 67] ﴿ بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وفي هذه الآية دليل على ذكر البسملة عند ابتداء كل فعل ؛ كما بيّناه في البسملة ، والحمد لله .

﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي لأهل السفينة .

وروي عن ابن عباس قال : لما كثرت الأرواث والأقذار أوحى الله إلى نوح اغمز ذنب الفيل ، فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث ؛ فقال نوح : لو غمزت ذنب هذا الخنزير ففعل ، فخرج منه فأر وفأرة فلما وقعا أقبلا على السفينة وحبالها تقرضها ، وتقرض الأمتعة والأزواد حتى خافوا على حبال السفينة ؛ فأوحى الله إلى نوح أن امسح جبهة الأسد

فمسحها ، فخرج منها سِنّوران فأكلا الفَرة .

ولما حمل الأسد في السفينة قال : يا رب من أين أطعمه ؟ قال : سوف أشغله ، فأخذته الحمى ؛ فهو الدهرَ محموم .

(22/378)

قال ابن عباس : وأوّل ما حمل نوح من البهائم في الفلك حمل الإوزّة ، وآخر ما حمل حمل الحمار ؛ قال : وتعلق إبليس بذنبه ، ويداه قد دخلتا في السفينة ، ورجلاه خارجة بعد ، فجعل الحمار يضطرب ولا يستطيع أن يدخل ، فصاح به نوح : ادخل ويلك فجعل يضطرب ؛ فقال : ادخل ويلك وإن كان معك الشيطان ؛ كلمة زلّت على لسانه ، فدخل ووثب الشيطان فدخل .

ثم إن نوحاً رآه يغنِّي في السفينة ، فقال له : يا لعين ما أدخلك بيتي ؟! قال : أنت أذنت لي ؛ فذكر له ؛ فقال له : قم فاخرج .

قال : ما لك بدّ في أن تحملني معك ؛ فكان فيما يزعمون في ظهر الفلك .

وكان مع نوح عليه السلام خرزتان مضيئّتان ، واحدة مكان الشمس ، والأخرى مكان القمر .

ابن عباس : إحداهما بيضاء كبياض النهار ، والأخرى سوداء كسواد الليل ؛ فكان يعرف بهما مواقيت الصلاة ؛ فإذا أمسوا غلب سواد هذه بياض هذه ، وإذا أصبحوا غلب بياض هذه سواد هذه ؛ على قدر الساعات .

قوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كالجبال ﴾ الموج جمع موجة ؛ وهي ما ارتفع من جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح .

والكاف للتشبيه ، وهي في موضع خفض نعت للموج .

وجاء في التفسير أن الماء جاوز كل شيء بخمسة عشر ذراعاً .

﴿ ونادى نُوحٌ ابنه ﴾ قيل : كان كافراً واسمه كنعان .

وقيل : يام .

ويجوز على قول سيبويه : ﴿ ونادى نوح ابنه ﴾ بحذف الواو من ﴿ ابنه ﴾ في اللفظ ، وأنشد :

لَهُ زَجَلٌ كَأَنَّهُ صوتُ حادٍ . . .

فأما ﴿ ونَادَى نُوحٌ ابنه وكَانَ ﴾ فقراءة شاذّة ، وهي مروية عن عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وعروة بن الزبير .

وزعم أبو حاتم أنها تجوز على أنه يريد "ابنها" فحذف الألف كما تقول : ﴿ ابنه ﴾ ؛ فتحذف الواو .

وقال النحاس : وهذا الذي قاله أبو حاتم لا يجوز على مذهب سيبويه ؛ لأن الألف خفيفة فلا يجوز حذفها ، والواو ثقيلة يجوز حذفها .

﴿ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ﴾ أي من دين أبيه .

وقيل : عن السفينة .

وقيل : إن نوحاً لم يعلم أن ابنه كان كافراً ، وأنه ظن أنه مؤمن ؛ ولذلك قال له : ﴿ وَلاَ تَكُن مَّعَ الكافرين ﴾ وسيأتي .

وكان هذا النداء من قبل أن يستيقن القوم الغرق ؛ وقبل رؤية اليأس ، بل كان في أوّل ما فار التنور ، وظهرت العلامة لنوح .

وقرأ عاصم : "يَاُبنيَّ اركب مَعَنَا" بفتح الياء ، والباقون بكسرها .

وأصل "يا بنيّ" أن تكون بثلاث ياءات ؛ ياء التصغير ، وياء الفعل ، وياء الإضافة ؛ فأدغمت ياء التصغير في لام الفعل ، وكسرت لام الفعل من أجل ياء الإضافة ، وحذفت ياء الإضافة لوقوعها موقع التنوين ، أو لسكونها وسكون الراء في هذا الموضع ؛ هذا أصل قراءة من كسر الياء ، وهو أيضاً أصل قراءة من فتح ؛ لأنه قلب ياء الإضافة ألفاً لخفة الألف

، ثم حذف الألف لكونها عوضاً من حرف يحذف ، أو لسكونها وسكون الراء .

قال النحاس : أما قراءة عاصم فمشكلة ؛ قال أبو حاتم : يريد يا بُنَيَّاه ثم يحذف ؛ قال النحاس : رأيت عليّ بن سليمان يذهب إلى أن هذا لا يجوز ؛ لأن الألف خفيفة .

قال أبو جعفر النحاس : ما علمت أن أحداً من النحويين جوز الكلام في هذا إلا أبا إسحق ؛ فإنه زعم أن الفتح من جهتين ، والكسر من جهتين ؛ فالفتح على أنه يبدل من الياء ألفاً ؛ قال الله عز وجل إخبارا : ﴿ يَا وَيْلَتَا ﴾ [الفرقان : 28] وكما قال الشاعر :

فيا عجبَا مِن رَحْلها المتحمَّلِ . . .

فيريد يا بنيّا ، ثم حذف الألف لالتقاء الساكنين ، كما تقول : جاءني عبدا الله في التثنية .

والجهة الأخرى أن تحذف الألف ؛ لأن النداء موضع حذف .

والكسر على أن تحذف الياء للنداء .

والجهة الأخرى على أن تحذفها لالتقاء الساكنين .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَآوِي ﴾ أي أرجع وأنضم .

﴿ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي ﴾ أي يمنعني ﴿ مِنَ الْمَآءِ ﴾ فلا أغرق .

﴿ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ أي لا مانع ؛ فإنه يوم حقّ فيه العذاب على الكفار .

وانتصب "عاصم" على التبرئة .

ويجوز "لا عاصم اليوم" تكون لا بمعنى ليس .

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ في موضع نصب استثناء ليس من الأوّل ؛ أي لكن من رحمه الله فهو يعصمه ؛ قاله الزجاج.

ويجوز أن يكون في موضع رفع ، على أن عاصماً بمعنى معصوم ؛ مثل : ﴿ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق : 6] أي مدفوق ؛ فالاستثناء على هذا متصل ؛ قال الشاعر :

بطيءُ القيامِ رخيمُ الكلا . . .

مِ أَمْسَى فؤادِي بِهِ فَاتِنَا

أي مفتوناً .

وقال آخر :

دَعِ المكارِمَ لا تَنهضْ لبغيتها . . .

واقعد فإنَّك أنتَ الطاعمُ الكَاسِي

أي المطعوم المكسوّ.

قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فيه أن تكون "مَن" في موضع رفع ؛ بمعنى لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحم ؛ أي إلا الله .

وهذا اختيار الطَّبَريّ.

ويُحسّن هذا أنك لم تجعل عاصماً بمعنى معصوم فتخرجه من بابه ، ولا "إلاَّ" بمعنى "لكن" .

﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الموج ﴾ يعني بين نوح وابنه .

﴿ فَكَانَ مِنَ المغرقين ﴾ قيل : إنه كان راكباً على فرس قد بطر بنفسه ، وأعجب بها ؛ فلما رأى الماء جاء قال : يا أبت فار التنور ، فقال له أبوه : ﴿ يا بني اركب مَّعَنَا ﴾ فما استتم المراجعة حتى جاءت مَوْجة عظيمة فالتقمته هو وفرسه ، وحيل بينه وبين نوح فغرق .

وقيل : إنه اتخذ لنفسه بيتاً من زجاج يتحصّن فيه من الماء ، فلما فار التّنور دخل فيه وأقفله عليه من داخل ، فلم يزل يتغوّط فيه ويبول حتى غرق بذلك .

وقيل : إن الجبل الذي آوى إليه "طورسيناء" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(25/378)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وقال اركبوا فيها ﴾

يعني وقال نوح لمن حمل معه اركبوا في السفينة ﴿ بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ﴾ يعني بسم الله اجراؤها وإرساؤها قال الضحاك كان نوح إذا أراد أن تجري السفينة قال بسم الله فتجري وكان إذا أراد أن ترسو يعني تقف قال بسم الله فترسو أي تقف وهذا تعليم من الله لعباده أنه من أراد أمراً فلا ينبغي له أن يشرع فيه حتى يذكر اسم الله عليه وقت الشروع حتى يكون ذلك سبباً للنجاح والفلاح في سائر الأمور ﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾ الموج ما ارتفع من الماء إذا اشتدت عليه الريح ، شبهه سبحانه وتعالى بالجبال في عظمه هوارتفاعه على الماء قال العلماء : بالسير أرسل الله المطر أربعين يوماً وليلة وخرج الماء من الأرض فذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴾ يعني : صار إناء نصفين نصفاً من السماء ونصفاً من الأرض وارتفع الماء على أعلى جبل وأطوله أربعين ذراعاً وقيل خمسة عشر ذراعاً حتى أغرق كل شيء .

وروي أنه لما كثر الماء في الشكك خافت أم الصبي على ولدها من الغرق وكانت تحبه حباً شديداً فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلحقها الماء فارتفعت حتى بلغت ثلثيه

فلما لحقها الماء ذهبت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء إلى رقبتها رفعت الصبي بيديها حتى ذهب بهما الماء فأغرقهما فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي ﴿ ونادى نوح ابنه ﴾ يعني كنعان وكان كافراً ﴿ وكان في معزل ﴾ يعني عن نوح لم يركب معه ﴿ يا بني اركب معنا ﴾ يعني في السفينة ﴿ ولا تكن مع الكافرين ﴾ يعني فتهلك معهم ﴿ قال ﴾ يعني قال كنعان ﴿ سآوي ﴾ يعني سألتجئ وأصير ﴿ إلى جبل يعصمني ﴾ يعني يمنعني ﴿ من الماء قال ﴾ يعني قال له نوح ﴿ لا عاصم ﴾ يعني لا مانع ﴿ اليوم من أمر الله ﴾ يعني من عذابه ﴿ إلا من رحم ﴾ يعني إلا من رحمه الله فينجيه من الغرق ﴿ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ يعني كنعان. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(27/378)

وقال أبو حيان :

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾

رسا الشيء يرسو، ثبت واستقر.

قال :

فصبرت نفساً عند ذلك حرة . . .

ترسو إذا نفس الجبان تطلع

﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ : الضمير في : وقال ، عائد على نوح أي : وقال نوح حين أمر بالحمل في السفينة لمن آمن معه ومن أمر بحمله : اركبوا فيها .

وقيل : الضمير عائد على الله ، والتقدير : وقال الله لنوح ومن معه ، وبعد ذلك قوله : إن ربي لغفور رحيم .

قيل : وغلب من يعقل في قوله : اركبوا ، وإنْ كانوا قليلاً بالنسبة لما لا يعقل ممن حمل فيها ، والظاهر أنه خطاب لمن يعقل خاصة ، لأنه لا يليق بما لا يعقل .

وعدى اركبوا بفي لتضمينه معنى صيروا فيها ، أو معنى ادخلوا فيها .

وقيل : التقدير اركبوا الماء فيها .

وقيل : في زائدة للتوكيد أي : اركبوها .

والباء في بسم الله في موضع الحال ، أو متبركين بسم الله .

ومجراها ومرساها منصوبان إما على أنهما ظرفا زمان أو مكان ، لأنهما يجيئان لذلك .

أو ظرفا زمان على جهة الحذف ، كما حذف من جئتك مقدّم إلحاج ، أي : وقت قدوم الحاج ، فيكون مجراها ومرساها مصدران في الأصل حذف منهما المضاف ، وانتصبا بما في بسم الله من معنى الفعل .

ويجوز أن يكون باسم الله حالاً من ضمير فيها ، ومجراها ومرساها مصدران مرفوعان على الفاعلية ، أي : اركبوا فيها ملتبساً باسم الله إجراؤها وإرساؤها أي : ببركة اسم الله .

أو يكون مجراها ومرساها مرفوعين على الابتداء ، وباسم الله الخبر ، والجملة حال من الضمير في فيها .

وعلى هذه التوجيهات الثلاثة فالكلام جملة واحدة ، والحال مقدرة .

(28/378)

ولا يجوز مع رفع مجراها ومرساها على الفاعلية أو الابتداء أن يكون حالاً من ضمير اركبوا ، لأنه لا عائد عليه فيما وقع حالاً .

ويجوز أن يكون باسم الله مجراها ومرساها جملة ثانية من مبتدإ وخبر ، لا تعلق لها بالجملة الأولى من حيث الإعراب أمرهم أولاً بالركوب ، ثم أخبر أنّ مجراها ومرساها بذكر الله أو

بأمره وقدرته ، فالجملتان كلامان محكيان .

يقال : كما أن الجملة الثانية محكية أيضاً بقال .

وقال الضحاك : إذا أراد جري السفينة قال بسم الله مجراها فتجري ، وإذا أراد وقوفها قال بسم الله مرساها فتقف .

وقرأ مجاهد ، والحسن ، وأبو رجاء ، والأعرج ، وشيبة ، والجمهور من السبعة الحرميان ، والعربيان ، وأبو بكر : مجراها بضم الميم .

وقرأ الأخوان ، وحفص : بفتحها ، وكلهم ضم ميم مرساها .

وقرأ ابن مسعود ، وعيسى الثقفي ، وزيد بن عليّ ، والأعمش ، مجراها ومرساها بفتح الميمين ، ظرفي زمان أو مكان ، أو مصدرين على التقارير السابقة .

وقرأ الضحاك ، والنخعي ، وابن وثاب ، وأبو رجاء ، ومجاهد ، وابن جند ، والكلبي ، والجحدري ، مجريها ومرسيها اسمي فاعل من أجرى وأرسى على البدل من اسم الله ، فهما في موضع خبر ، ولا يكونان صفتين لكونهما نكرتين .

وقال ابن عطية : وهما على هذه القراءة صفتان عائدتان على ذكره في قولهم بسم الله انتهى .

ولا يكونان صفتين إلا على تقدير أنْ يكونا معرفتين .

وقد ذهب الخليل إلى أن ما كانت إضافته غير محضة قد يصح أن تجعل محضة ، فتعرّف إلا

ما كان من الصفة المشبهة فلا تتمحض إضافتها فلا تعرّف .

إن ربي لغفور ستور عليكم ذنوبكم بتوبتكم وإيمانكم ، رحيم لكم إذا نجاكم من الغرق .

وروي في الحديث : " أن نوحاً ركب في السفينة أول يوم من رجب ، وصام الشهر أجمع "

وعن عكرمة : لعشر خلون من رجب .

(29/378)

وهي تجري بهم إخبار من الله تعالى بما جرى للسفينة ، وبهم حال أي : ملتبسة بهم ، والمعنى : تجري وهم فيها في موج كالجبال ، أي في موج الطوفان شبه كل موجة منه بجبل في تراكمها وارتفاعها .

روي أن السماء أمطرت جميعها حتى لم يكن في الهواء جانب إلا أمطر ، وتفجرت الأرض كلها بالنبع ، وهذا معنى التقاء الماء .

وروي أن الماء علا على الجبال وأعالي الأرض أربعين ذراعاً ، وقيل : خمسة عشر .

وكون السفينة تجري في موجٍ دليل على أنه كان في الماء موج ، وأنه لم يطبق الماء ما بين السماء والأرض ، وأنّ السفينة لم تكن تجري في جوف الماء والماء أعلاها وأسفلها ، فكانت تسبح في الماء كما تسبح السمكة ، كما أشار إليه الزجاج والزمخشري وغيرهما .

وقد استبعد ابن عطية هذا قال : وأين كان الموج كالجبال على هذا ؟ ثم كيف استقامت حياة من في السفينة ؟ وأجاب الزمخشري : بأن الجريان في الموج كان قبل التطبيق ، وقيل أنْ يعم الماء الجبال .

ألا ترى إلى قول ابنه : سآوي إلى جبل يعصمني من الماء .

ونادى نوح ابنه ، الواو لا ترتب .

وهذا النداء كان قبل جري السفينة في قوله : وهي تجري بهم في موج ، وفي إضافته إليه هنا وفي قوله : إن ابني من أهلي ، وندائه دليل على أنه ابنه لصلبه ، وهو قول : ابن مسعود ، وابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك ، وابن جبير ، وميمون بن مهران ، والجمهور ، واسمه كنعان .

وقيل : يام ، وقيل : كان ابن قريب له ودعاه بالبنوّة حناناً منه وتلطفاً .

وقرأ الجمهور : بكسر تنوين نوح ، وقرأ وكيع بن الجراح : بضمه ، أتبع حركته حركة الإعراب في الحاء .

قال أبو حاتم : هي لغة سوء لا تعرف .

وقرأ الجمهور : بوصل هاء الكناية بواو ، وقرأ ابن عباس : أنه بسكون الهاء ، قال ابن عطية وأبو الفضل الرازي : وهذا على لغة الازد الشراة ، يسكنون هاء الكناية من المذكر ، ومنه

قول الشاعر :

ونضواي مشتاقان له أرقان . . .

(30/378)

وذكر غيره أنها لغة لبني كلاب وعقيل ، ومن النحويين من يخص هذا السكون بالضرورة وينشدون :

وأشرب الماء ما بي نحوه عطش . . .

إلا لأن عيونه سيل واديها

وقرأ السدّيّ ابناه بألف وهاء السكت .

قال أبو الفتح : ذلك على النداء .

وذهبت فرقة إلى أنه على الندبة والرثاء .

وقرأ عليّ ، وعروة ، وعليّ بن الحسين ، وابنه أبو جعفر ، وابنه جعفر : ابنه بفتح الهاء من غير ألف أي : ابنها مضافاً لضمير امرأته ، فاكتفى بالفتحة عن الألف .

قال ابن عطية : وهي لغة ، ومنه قول الشاعر :

إما تقود بها شاة فتأكلها . . .

أو أن تبيعه في بعض الأراكيب

وأنشد ابن الأعرابي على هذا :

فلست بمدرك ما فات مني . . .

بلهف ولا بليت ولا لواني

انتهى .

يريد تبيعها وتلهفاً ، وخطأ النحاس أبا حاتم في حذف هذه الألف ، قال ابن عطية : وليس كما قال انتهى .

وهذا أعنى مثل تلهف بحذف الألف عند أصحابنا ضرورة ، ولذلك لا يجيزون يا غلام بحذف الألف ، والاجتزاء بالفتحة عنها كما اجتزؤوا بالكسرة في يا غلام عن الياء ، وأجاز ذلك الأخفش .

وقرأ أيضاً عليّ وعروة ابنها بفتح الهاء وألف أي : ابن امرأته .

وكونه ليس ابنه لصلبه ، وإنما كان ابن امرأته قول : علي ، والحسن ، وابن سيرين ، وعبيد بن عمير .

وكان الحسن يحلف أنه ليس ابنه لصلبه ، قال قتادة : فقلت له : إن الله حكى عنه أن ابني من أهلي ، وأنت تقول : لم يكن ابنه ، وأهل الكتاب لا يختلفون في أنه كان ابنه فقال : ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب ؟ واستدل بقوله من أهلي ولم يقل مني ، فعلى هذا يكون ربيباً .

وكان عكرمة ، والضحاك ، يحلفان على أنه ابنه ، ولا يتوهم أنه كان لغير رشدة ، لأن ذلك غضاضة عصمت منه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وروي ذلك عن الحسن وابن جريج ، ولعله لا يصح عنها .

(31/378)

وقال ابن عباس : ما بغت امرأة نبي قط ، والذي يدل عليه ظاهر الآية أنه ابنه ، وأما قراءة من قرأ ابنه أو ابنها فشاذة ، ويمكن أن نسب إلى أمه وأضيف إليها ، ولم يضف إلى أبيه لأنه كان كافراً مثلها ، يلحظ فيه هذا المعنى ولم يضف إليه استبعاداً له ، ورعياً أن لا يضاف إليه كافر ، وإنما ناداه ظناً منه أنه مؤمن ، ولولا ذلك ما أحب نجاته .

أو ظناً منه أنه يؤمن إنْ كان كافراً لما شاهد من الأهوال العظيمة ، وأنه يقبل الإيمان .

ويكون قوله : اركب معنا كالدلالة على أنه طلب منه الإيمان ، وتأكد بقوله : ولا تكن مع الكافرين ، أي اركب مع المؤمنين ، إذ لا يركب معهم إلا مؤمن لقوله : ومن آمن .

وفي معزل أي : في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن مركب المؤمنين .

وقيل : في معزل عن دين أبيه ، ونداؤه بالتصغير خطاب تحنن ورأفة ، والمعنى : اركب معنا في السفينة فتنجو ولا تكن مع الكافرين فتهلك .

وقرأ عاصم يا بني بفتح الياء ، ووجه على أنه اجتزأ بالفتحة عن الألف ، وأصله يا بنيا كقولك : يا غلاماً ، كما اجتزأ باقي السبعة بالكسرة عن الياء في قراءتهم يا بني بكسر الياء ، أو أن الألف انحذفت لالتقائها مع راء اركب .

وظن ابن نوح أن ذلك المطر والتفجير على العادة ، فلذلك قال : سآوي إلى جبل يعصمني من الماء أي : من وصول الماء إليّ فلا أغرق ، وهذا يدل على عادته في الكفر ، وعدم وثوقه بأبيه فيما أخبر به .

قيل : والجبل الذي عناه طور زيتا فلم يمنعه ، والظاهر إبقاء عاصم على حقيقته وأنه نفي كل عاصم من أمر الله في ذلك الوقت ، وأنّ من رحم يقع فيه من على المعصوم .

والضمير الفاعل يعود على الله تعالى ، وضمير الموصول محذوف ، ويكون الاستثناء منقطعاً أي : لكنْ من رحمة الله معصوم ، وجوزوا أن يكون من الله تعالى أي لا عاصم إلا الراحم ، وأن يكون عاصم بمعنى ذي عصمة ، كما قالوا لابن أي : ذو لبن ، وذو عصمة ، مطلق على عاصم وعلى معصوم ، والمراد به هنا المعصوم .

أو فاعل بمعنى مفعول ، فيكون عاصم بمعنى معصوم ، كماء دافق بمعنى مدفوق .

وقال الشاعر :

بطيء الكلام رخيم الكلام . . .

أمسى فؤادي به فاتنا

أي مفتوناً .

ومن للمعصوم أي : لا ذا عصمة ، أو لا معصوم إلا المرحوم .

وعلى هذين التجويزين يكون استثناء متصلاً ، وجعله الزمخشري متصلاً بطريق أخرى : وهو حذف مضاف وقدره : لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى معتصم واحد ، وهو مكان من رحمهم الله ونجاهم ، يعني في السفينة انتهى .

والظاهر أن خبر لا عاصم محذوف ، لأنه إذا علم كهذا الموضع التزم حذفه بنو تميم ، وكثر حذفه عند أهل الحجاز ، لأنه لما قال : سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال له نوح : لا عاصم ، أي لا عاصم موجود .

ويكون اليوم منصوباً على إضمار فعل يدل عليه عاصم ، أي : لا عاصم يعصم اليوم من أمر الله ، ومن أمر متعلق بذلك الفعل المحذوف .

ولا يجوز أن يكون اليوم منصوباً بقوله : لا عاصم ، ولا أن يكون من أمر الله متعلقاً به ، لأن اسم لا إذ ذاك كان يكون مطولاً ، وإذا كان مطولاً لزم تنوينه وإعرابه ، ولا يبنى وهو مبنى ،

فبطل ذلك .

وأجاز الحوفي وابن عطية أن يكون اليوم خبراً لقوله : لا عاصم .

قال الحوفي : ويجوز أن يكون اليوم خبراً ويتعلق بمعنى الاستقرار ، وتكون من متعلقة بما تعلق به اليوم .

وقال ابن عطية : واليوم ظرف وهو متعلق بقوله : من أمر الله ، أو بالخبر الذي تقديره : كائن اليوم انتهى .

وردّ ذلك أبو البقاء فقال : فأما خبر لا فلا يجوز أن يكون اليوم ، لأن ظرف الزمان لا يكون خبراً عن الجثة ، بل الخبر من أمر الله ، واليوم معمول من أمر الله .

وقال الحوفي : ويجوز أن يكون اليوم نعتاً لعاصم ومن الخبر انتهى .

ويردّ بما ردّ به أبو البقاء من أن ظرف الزمان لا يكون نعتاً للجثث ، كما لا يكون خبراً .

وقرىء إلا من رحم بضم الراء مبنياً للمفعول ، وهذا يدل على أنّ المراد بمن في قراءة الجمهور الذين فتحوا الراء هو المرحوم لا الراحم ، وحال بينهما أي بين نوح وابنه .

قيل : كانا يتراجعان الكلام ، فما استتمت المراجعة حتى جاءت موجة عظيمة ، وكان

راكباً على فرس قد بطر وأعجب بنفسه فالتقمته وفرسه ، وحيل بينه وبين نوح فغرق .

وقال الفراء : بينهما أي بين ابن نوح والجبل الذي ظن أنه يعصمه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(34/378)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾

﴿ وَقَالَ ﴾ أي نوحٌ عليه الصلاة والسلام لمن معه من المؤمنين كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ولو رجع الضميرُ إلى الله تعالى لناسب أن يقال : إن ربكم ، ولعل ذلك بعد إدخالِ ما أُمر بحمله في الفلك من الأزواج كأنه قيل : فحمَلَ الأزواجَ أو أدخلها في الفلك وقال للمؤمنين : ﴿ اركبوا فِيهَا ﴾ كما يأتي مثلُه في قوله تعالى : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ ﴾ والركوبُ العلوُّ على شيء متحرّكٍ ، ويتعدّى بنفسه ، واستعمالُه هاهنا بكلمة في ليس لأن المأمورَ به كونُهم في جوفها لا فوقَها كما ظُن فإن أظهرَ الرواياتِ أنه عليه السلام جعل الوحوشَ ونظائرَها في البطن الأسفلِ والأنعامَ في الأوسطِ وركب هو ومن معه في الأعلى بل لرعاية جانبِ المحلية والمكانيةِ في الفلك ، والسرُّ فيه أن معنى الركوبِ العلوُّ

على شيء له حركةٌ إما إراديةٌ كالحيوان أو قسريةٌ كالسفينة والعجلة ونحوهما ، فإذا استُعمل في الأول يوفر له حظُّ الأصل فيقال : ركبتُ الفرسَ ، وعليه قوله عز من قائل : ﴿ والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا ﴾ وإن استُعمل في الثاني يلوح بمحلية المفعول بكلمة في فيقال : ركبت في السفينة ، وعليه الآيةُ الكريمة وقولُه عز قائلاً : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى الفلك ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فانطلقا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِى السفينة خَرَقَهَا ﴾ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ متعلقٌ باركبوا حالٌ من فاعله أي اركبوا مسمّين الله تعالى ، أو قائلين : بسم الله ﴿ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ نصبٌ على الظرفية أي وقتَ إجرائِها وإرسائِها على أنهما اسما زمانٍ أو مصدران كالإجراء والإرساءِ بحذف الوقتِ كقولك : آتيك خفوقَ النجمِ أو اسما مكانٍ انتصبا بما في ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ من معنى الفعل أو إرادةِ القول ، ويجوز أن يكون ﴿ بِسْمِ اللَّهِ * مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ مستقلةً من مبتدأ وخبرٍ في موضع الحالِ من ضمير الفلك أي اركبوا فيها مُجراةً

(35/378)

ومُرساةً باسم الله بمعنى التقدير كقوله تعالى : ﴿ ادخلوها *** خالدين ﴾ أو جملةٌ مقتضبةٌ على أن نوحاً أمرهم بالركوب فيها ثم أخبرهم بأن إجراءَها وإرساءَها باسم الله

تعالى فيكونان كلامين له عليه الصلاة والسلام . قيل : كان عليه السلام إذا أراد أن يُجريَها يقول : بسم الله فتجري وإذا أراد أن يرسيَها يقول : بسم الله فترسو ، ويجوز أن يكون الاسمُ مقْحماً كما في قوله :

إلى الحولِ ثم اسمُ السلامِ عليكما . . . ويراد بالله إجراؤُها وإرساؤُها أي بقدرته وأمرِه ، وقرىء مُجرِيها على صيغة الفاعل مجروريَ المحلِّ صفتين لله عز وجل ومَجراها ومَرْساها بفتح الميم مصدرين أو زمانين أو مكانين من جرى ورسا ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ ﴾ للذنوب والخطايا ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بعباده ولذلك نجاكم من هذه الطآمّة والداهية العامّة ، ولولا ذلك لما فعله وفيه دِلالةٌ على أن نجاتَهم ليست بسبب استحقاقِهم لها بل بمحض فضلِ الله سبحانه وغفرانِه ورحمتِه على ما عليه رأيُ أهل السنة .

﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ ﴾ متعلقٌ بمحذوف دلّ عليه الأمرُ بالركوب أي فركِبوا فيها مُسمّين وهي تجري ملتبسةً بهم ﴿ فِى مَوْجٍ كالجبال ﴾ وهو ما ارتفع من الماء عند اضطرابه ، كلُّ موجةٍ من ذلك كجبل في ارتفاعها وتراكُمِها ، وما قيل من أن الماءَ طبّق ما بين السماء والأرضِ وكانت السفينةُ تجري في جوفه كالحوت فغيرُ ثابتٍ ، والمشهورُ أنه علا شوامخَ الجبالِ خمسةَ عشرَ ذراعاً أو أربعين ذراعاً ، ولئن صح ذلك فهذا الجريانُ إنما هو قبل أن يتفاقم الخطبُ كما يدل عليه قوله تعالى :

﴿ ونادى نُوحٌ ابنه ﴾ فإن ذلك إنما يُتصوَّر قبل أن تنقطعَ العلاقةُ بين السفينةِ والبرِّ ، إذ حينئذ يمكن جرَيانُ ما جرى بين نوحٍ عليه الصلاة والسلام وبين ابنِه من المفاوضة بالاستدعاء إلى السفينة والجوابِ باعتصامٍ بالجبل ، وقرىء ابنَها وابنَه بحذف الألفِ على أن الضميرَ لأمرأته وكان ربيبَه وما يقال من أنه كان لغيرِ رِشدةٍ لقوله تعالى : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ فارتكابُ عظيمةٍ لا يقادر قدرُها فإن جنابَ الأنبياءِ صلواتُ الله تعالى عليهم وسلامُه أرفعُ من أن يشارَ إليه بأصبَع الطعنِ وإنما المرادُ بالخيانة الخيانةُ في الدين ، وقرىء ابناهْ على الندبة ولكونها حكايةً سُوّغ حذفُ حرفها . وأنت خبيرٌ بأنه لا يلائمه الاستدعاءُ إلى السفينة فإنه صريحٌ في أنه لم يقع في حياته يأسٌ بعْدُ ﴿ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ ﴾ أي في كان عزَل فيه نفسَه عن أبيه وإخوتِه وقومِه بحيث لم يتناولْه الخطابُ باركبوا ، واحتاج إلى النداء المذكورِ ، وقيل : في معزل عن الكفار قد انفرد عنهم وظن نوحٌ أنه يريد مفارقتَهم ولذلك دعاه إلى السفينة ، وقيل : كان ينافق أباه فظن أنه مؤمنٌ ، وقيل : كان يعلم أنه كافرٌ إلى ذلك الوقتِ لكنه عليه الصلاة والسلام ظن أنه عند مشاهدةِ تلك الأهوالِ ينزجرُ عما كان عليه ويقبل الإيمانَ ، وقيل : لم يكن الذي تقدّم من قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول ﴾ نصاً في كون ابنِه داخلاً تحته بل كان كالمُجمل فحملتْه شفقةُ الأبوة على ذلك ﴿ أَوْبِنى ﴾ بفتح الياء اقتصاراً عليه من الألف المُبْدلةِ من ياء الإضافةِ في قولك : يا بنيا وقرىء بكسر الياء

اقتصاراً عليه من ياء الإضافة أو سقطت الياءُ والألفُ لالتقاء الساكنين لأن الراءَ بعدهما ساكنة ﴿ اركب مَّعَنَا ﴾ قرأ أبو عمْرو، والكسائيّ، وحفص، بإدغام الباء في الميم لتقاربهما في المخرج، وإنما أطلق الركوبُ عن ذكر الفُلك لتعينها وللإيذان بضيق المقامِ حيث حال

(37/378)

الجريضُ دون القريض مع إغناء المعيةِ عن ذلك ﴿ وَلاَ تَكُن مَّعَ الكافرين ﴾ أي في المكان وهو وجهُ الأرض خارجَ الفلك لا في الدين وإن كان ذلك مما يوجبه كما يوجب ركوبُه معه عليه الصلاة والسلام كونَه معه في الإيمان لأنه عليه الصلاة والسلام بصدد التحذيرِ عن الهَلَكة فلا يلائمه النهيُ عن الكفر.

﴿ قَالَ سَآوِى إلى جَبَلٍ ﴾

(38/378)

من الجبال ﴿ يَعْصِمُنِى ﴾ بارتفاعه ﴿ مِنَ الماء ﴾ زعماً منه أن ذلك كسائر المياهِ في أزمنة السيولِ المعتادةِ التي ربما يُتّقى منها بالصعود إلى الرُّبى ، وأنى له ذلك وقد بلغ السيلُ الزبى وجهلاً بأن ذلك إنما كان لإهلاك الكفرةِ وألاّ محيصَ من ذلك الفكرِ المُحالِ ، وكان مقتضى الظاهرِ أن يجيب بما ينطبقُ عليه كلامُه ويتعرّضَ لنفي ما أثبته للجبل من كونه عاصماً له من الماء بأن يقولَ : لا يعصِمُك منه مفيداً لنفي وصفِ العصمةِ عنه فقط من غير تعرضٍ لنفيه عن غيره ولا لنفي الموصوف (بالعصمة) أصلاً لكنه عليه الصلاة والسلام حيث ﴿ قَالَ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله ﴾ سلك طريقةَ نفي الجنسِ المنتظِمِ لنفي جميعِ أفرادِ العاصمِ ذاتاً وصفةً كما في قولهم : ليس فيه داعٍ ولا مجيبٌ أي أحدٌ من الناس للمبالغة في نفي كونِ الجبلِ عاصماً بالوجهين المذكورَين وزادَ اليومَ للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيامِ التي تقع فيها الوقائعُ وتُلمُّ فيها المُلماتُ المعتادةُ التي ربما يُتخلّص من ذلك بالالتجاء إلى بعض الأسبابِ العادية ، وعبّر عن الماء في محلِّ إضمارِه بأمرِ الله أي عذابه الذي أشير إليه حيث قيل : حتى إذا جاء أمرُنا تفخيماً لشأنه وتهويلاً لأمره وتنبيهاً لابنه على خطئه في تسميته ماءً ويوهم أنه كسائرِ المياهِ التي يُتفصَّى منها بالهرب إلى بعض المهاربِ المعهودةِ وتعليلاً للنفي المذكورِ فإن أمرَ الله لا يغالَب وعذابَه لا يُردّ وتمهيداً لحصر العِصمةِ في جناب الله عز جارُه بالاستثناء كأنه قيل : لا عاصمَ من أمر الله إلا هو وإنما قيل : ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ تفخيماً لشأنه الجليلِ بالإبهام ثم التفسيرِ وبالإجمال ثم التفصيل ، وإشعاراً بعلّية رحمتِه في ذلك

بموجب سبقِها على غضبه وكلُّ ذلك لكمال عنايته عليه الصلاة والسلام بتحقيق ما يتوخاه من نجاة ابنِه ببيان شأنِ الداهيةِ وقطعِ أطماعِه الفارغةِ وصرفه عن التعليل

(39/378)

بما لا يغني عنه شيئاً وإرشادِه إلى العياذ بالمَعاذ الحقِّ عزَّ حِماهُ وقيل : لا مكانَ يعصِم من أمر الله إلا مكانُ من رحمه الله وهو الفُلك ، وقيل : معنى لا عاصم لا ذا عصمةٍ إلا من رحمه الله تعالى ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الموج ﴾ أي بين نوحٍ وبين ابنِه فانقطع ما بينهما من المجاوبة لا بين ابنِه وبين الجبل لقوله تعالى : ﴿ فَكَانَ مِنَ المغرقين ﴾ إذ هو إنما يتفرع على حيلولة الموجِ بينه عليه الصلاة والسلام وبين ابنه لا بينه وبين الجبلِ لأنه بمعزل من كونه عاصماً وإن لم يحُلْ بينه وبين الملتجىءِ إليه موجٌ ، وفيه دِلالةٌ على هلاك سائرِ الكفرة على أبلغ وجهٍ فكان ذلك أمراً مقرَّرَ الوقوعِ غيرَ مفتقِرٍ إلى البيان ، وفي إيراد كان دون صار مبالغةٌ في كونه منهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(40/378)

وقال الآلوسي :

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾

﴿ وَقَالَ ﴾ أي نوح عليه السلام لمن معه من المؤمنين كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود : 14] .

وقيل : الضمير لله تعالى ، وفيه أنه لو كان كذلك لكان المناسب إن ربكم الخ ، ولعل هذا القول بعد إدخال ما أمر بحمله في الفلك من الأزواج كأنه قيل : فحمل الأزواج حسبما أمر أو أدخلها في الفلك ، وقال للمؤمنين ﴿ اركبوا فِيهَا ﴾ أي صيروا فيها ، وجعل ذلك ركوباً لأنها في الماء كالمركوب في الأرض ففيه استعارة تبعية من حيث تشبيه الصيرورة فيها بالركوب ، وقيل : استعارة مكنية والتعدية بفي لاعتبار الصيرورة وإلا فالفعل يتعدى بنفسه ، وإلى هذا ذهب القاضي البيضاوي ، وقيل : التعدية بذلك لأنه ضمن معنى ادخلوا ، وقيل : تقديره اركبوا الماء فيها ، وقيل : في زائدة للتوكيد ، وكأن الأول أولى ، وقال بعض المحققين : الركوب العلو على شيء متحرك ويتعدى بنفسه واستعماله ههنا بفي ليس لأن المأمور به كونهم في جوفها لا فوقها كما ظن فإن أظهر الروايات أنه عليه السلام ركب هو ومن معه في الأعلى بل لرعاية جانب المحلية والمكانية في الفلك .

والسر فيه أن معنى الركوب العلو على شيء له حركة إما إرادية كالحيوان أو قسرية كالسفينة والعجلة ونحوهما فإذا استعمل في الأول توفر له حظ الأصل فيقال : ركبت

الفرس ، وعليه قوله تعالى : ﴿ والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا ﴾ [النحل : 8] وإن استعمل في الثاني يلوح بمحلية المفعول بكلمة في فيقال : ركبت في السفينة ، وعليه الآية الكريمة ، وقوله سبحانه : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِى الفلك ﴾ [العنكبوت : 65] و ﴿ حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِى السفينة خَرَقَهَا ﴾ [الكهف : 71] انتهى ، وظاهره أن الركوب ههنا حقيقي ، وصرح بعضهم أنه ليس به .

(41/378)

وقال الراغب : الركوب في الأصل كون الإنسان على ظهر حيوان ، وقد يستعمل في السفينة ، وفيه تأكيد لما صرح بع البعض ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ حال من فاعل ﴿ اركبوا ﴾ والباء للملابسة ولما كانت ملابسة اسم الله عز اسمه بذكره قالوا : المعنى اركبوا مسمين الله ، وجوزوا أن تكون الحال محذوفة وهذا معمول لها سادّ مسدّها ولذلك سموه حالا ، والأصل ﴿ اركبوا ﴾ قائلين ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ ﴿ مجراها ومرساها ﴾ نصب على الظرفية أي وقت إجرائها وإرسائها على أنهما اسما زمان أو مصدران ميميان بمعنى الإجراء والإرساء ، ويقدر مضاف محذوف وهو وقت كما في قولك : أتيتك خفوق النجم فإن التقدير وقت خفوقه إلا أنه لما حذف المضاف سدّ المضاف إليه مسده وانتصب

انتصابه وهو كثير في المصادر ، ويجوز أن يكونا اسمى مكان وانتصابهما بالاستقرار الذي تعلق به الجار والمجرور أو بقائلين ، ولا يجوز أن يكون باركبوا إذ ليس المعنى على ﴿ قِلِيلٌ وَقَالَ اركبوا ﴾ في وقت الإجراء والإرساء ، أو في مكانهما وإنما المعنى متبركين أو قائلين فيهما ، وتعقب القول بانتصابهما مطلقاً بأنهما محدودان ومحدود المكان لا بد له من في ، وبعضهم يجوز النصب في مثل ذلك بما فيه من الابهاج ، وجوز رفعهما فاعلين بالظرف لاعتماده على ذي الحال أو على أنهما مبتدأ ومعطوف عليه ؛ و﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ خبراً والخبر محذوف تقديره متحققان ونحوه وهو صلة لهما ، والجملة إما مقتضية منقطعة عما قبلها لاختلافهما خبراً وطلبا على أن نوحاً عليه السلام أمرهم بالركوب في السفينة ثم أخبرهم بأن إجراءها وإرساءها بسم الله تعالى أو بأن إجراءها وإرساءها باسمه تعالى متحققان لا يشك فيهما ، وفي ذلك حث على الركوب وإزالة لما عسى يختلج في قلوبهم من خوف الغرق ونحوه ، ويروى عن ضحاك أنه عليه السلام كان إذا أراد أن يجريها ، يقول ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ فتجري ، وإذا أراد أن يرسيها قال : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ فترسو ، وإما في موضع

الحال من ضمير الفلك أي اركبوا فيها مجراة ومرساة باسم الله وهي حال مقدرة إذ لا إجراء ولا إرساء وقت الركوب كذا قيل، وتعقبه في التقريب بأن الحال إنما تكون مقدرة إذا كانت مفردة كمجراة أما إذا كانت جملة فلا لأن معنى الجملة اركبوا وإجراؤها ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ وهذا واقع حال الركوب انتهى، وأجاب عنه في "الكشف" بأنه لا فرق بين قوله تعالى: ﴿ ادخلوها خالدين ﴾ [الزمر: 73] وقول القائل: ادخلوها وأنتم مخلدون في عدم المقارنة والرجوع إلى الحال المقدرة فكذلك ما نحن فيه، واعترض على المجيب بأن مراد ذلك القائل إجراؤها مجرى المفرد على نحو كلمته فوه إلى في بأنه تكلف لا حاجة إليه، وهو غير مسلم في المستشهد به أيضاً، وإنما ذلك في قول القائل كلمته فاه إلى في انتهى، وكأنه لم ينكشف له مراد صاحب التقريب فإنهم ذكروا أن الفرق بين الحال إذا كانت مفردة وإذا كانت جملة أن الثانية تقتضي التحقق في نفسها والتلبس بها، وربما أشعرت بوقوعها قبل العامل واستمرارها معه كما إذا قلت: جاءني وهو راكب فإنه يقتضي تلبسه بالركوب واستمراره عليه، وهذا ينافي كونها منتظرة ولا أقل من أن لا يحسن الحمل عليه حيث تيسر الإفراد فافهم، وجوز أن تكون حالاً مقدرة أيضاً من فاعل ﴿ اركبوا ﴾، واعترض بأنه لا عائد على ذي الحال، وضمير ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ للمبتدأ وتقديره أي فاجراؤها معكم أو بكم كائن ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ تكلف، والقول بأن الرضى قد ذكر أن الجملة الحالية إذا كانت اسمية قد تخلو من الرابطين عند ظهور الملابسة نحو خرجت زيد على الباب ليس بشيء

لضعف ما ذكر في العربية فلا ينبغي التخريج عليه نعم كون الاسمية لا بد فيها من الواو والقول بأن الحال المقدرة لا تكون جملة مطلقاً كل منهما في حيز المنع كما لا يخفى .

وجوز أن يكون الاسم مقحماً كما في قول لبيد :

فقوما وقولا بالذي قد عرفتما . . .

ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا الشعر

(43/378)

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما . . .

ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

ويراد بالله إجراؤها وإرساؤها أي بقدرته أو بأمره أو بإذنه ، ويقدر ذلك أو يراد معنى ، وخص بعضهم هذا الجواز بما إذا لم يقدر مسمين أو قائلين إذ لا يظهر المعنى حينئذٍ ، ويجري على تقديري الكلام الواحد والكلامين ، وكذا على تقدير الزمان والمكان في رأي ، ويعتبر الإسناد مجازياً من قبيل نهاره صائم وطريق بر .

وقرأ مجراها ومرساها بفتح الميم مصدرين .

أو زمانين .

أو مكانين على أنهما من جرى ورسا الثلاثيين ، وقرأ مجاهد مجريها ومرسيها بصيغة اسم الفاعل ، وخرج ذلك أبو البقاء على أنهما صفتان للاسم الجليل ، وقيل عليه : إن أضافة اسم الفاعل إذا كان بمعنى المستقبل لفظية فهو نكرة لا يصح توصيف المعرفة به فالحق البدلية ، والقول بأن مراد المعرب الصفة المعنوية لا النعت النحوي فلا ينافي البدلية بعيد لكن عن الخليل إن ما كانت إضافته غير محضة قد يصح أن تجعل محضة فتعرف إلا ما كان من الصفة المشبهة فلا تتمحض إضافتها فلا تعرف ، والرسو الثبوت والاستقرار ، ومنه قول الشاعر :

فصبرت نفساً عند ذلك حرة . . .

(ترسو) إذا نفس الجبان تطلع

(44/378)

﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قيل : الجملة مستأنفة لبيان الموجب أي لولا مغفرته لفرطاتكم ورحمته إياكم لما أنجاكم من هذه الطامة إيمانكم ، وفيه دلالة على أن نجاتهم لم تكن عن استحقاق بسبب أنهم كانوا مؤمنين بل بمحض رحمة الله تعالى وغفرانه على ما عليه أهل السنة ، ومنع صلاحية كونها علة لاركبوا لعدم المناسبة فيقدر ما يصح به الكلام بأن يقال :

امتثلوا هذا الحكم لينجيكم من الهلاك بمغفرته ورحمته ، أو يقال : ﴿ اركبوا فِيهَا ﴾ ذاكرين الله تعالى ولا تخافوا الغرق لما عسى فرط منكم من التقصير لأن الله تعالى شأنه غفور للخطايا والذنوب رحيم بعباده ، وجعلها بعضهم تعليلاً بالنظر إلى ما فيها من الإشارة إلى النجارة فكأنه قيل : اركبوا لينجيكم الله سبحانه

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾

جوز فيه ثلاثة أوجه : الأول : أن يكون مستأنفاً ، الثاني : أن يكون حالاً من الضمير المستتر في ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ أي جريانها استقر ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ [هود : 41] حال كونها جارية ، الثالث : أنه حال من شيء محذوف دل عليه السياق أي فركبوا فيها جارية ، والفاء المقدرة للعطف ، و﴿ بِهِمْ ﴾ متعلق بتجري أو بمحذوف أي ملتبسة والمضارع لحكاية الحال الماضية ولا معنى للحالية من الضمير المستتر في الحال الأولى كما لا يخفى ، والموج ما ارتفع من الماء عند اضطرابه ، واحده موجة و﴿ كالجبال ﴾ في موضع الصفة لموج أي في موج مرتفع متفاوت في الارتفاع متراكم ، قيل : إنها جرت بهم في موج كذلك وقد بقي منها فوق الماء ستة أذرع ، واستشكل هذا الجريان مع ما روي أن الماء طبق ما بين السماء والأرض وأن السفينة كانت تجري في داخله كالسمك ، وأجيب بأن الرواية مما لا صحة لها ويكاد العقل يأبى ذلك ، نعم أخرج ابن أبي شيبة .

وابن جرير .

وابن عساكر .

(45/378)

وعبد بن حميد من طريق مجاهد عن عبيد بن عمير قال : إن الماء علا رأس كل جبل خمسة عشر ذراعاً على أنه لو سلم صحة ما ذكر فهذا الجريان كان في ابتداء الأمر قبل أن يتفاقم الخطب كما يدل عليه قوله سبحانه : ﴿ ونادى نوحٌ ابنه ﴾ الخ فإن ذلك إنما يتصور قبل أن تنقطع العلاقة بين السفينة والبر إذ حينئذٍ يمكن جريان ما جرى بين نوح عليه السلام وبين ابنه من المفاوضة والاستدعاء إلى السفينة ، والجواب بالاعتصام بالجبل .

وقال بعض المحققين : إن هذا النداء إنما كان قبل الركوب في السفينة والواو لا تدل على الترتيب ، وعن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قرأ ابنها على أن ضمير التأنيث لامرأته ، وفي إضافته إليها إشعار بأنه ربيبه لأن الإضافة إلى الأم مع ذكر الأب خلاف الظاهر ، وإن جوزوه ، ووجه بأنه نسب إليها لكونه كافراً مثلها ، وما يقال من أنه كان لغير رشدة لقوله سبحانه : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ [التحريم : 10] فارتكاب عظيمة لا يقادر قدرها فإن الله تعالى قد طهر الأنبياء عليهم السلام عما هو دون ذلك من النقص بمراحل فحاشاهم ثم

حاشاهم أن يشار إليهم بأصبع الطعن وإنما المراد بالخيانة الخيانة في الدين ، ونسبة هذا القول إلى الحسن .

ومجاهد كما زعم الطبرسي كذب صريح ، وقرأ محمد بن علي .

وعروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهم ﴿ ابنه ﴾ بهاء مفتوحة دون ألف اكتفاءاً بالألف عنها وهو لغة كما قال ابن عطية ومن ذلك قوله

: أما تقود بها شاة فتأكلها . . .

أو أن تبيعه في بعض الأراكيب

قيل : وهو ضعيف في العربية حتى خصه بعضهم بالضرورة والضمير للأم أيضاً ، وقرأ ابن عباس ابنه بسكون الهاء ، وهي على ما قال ابن عطية .

وأبو الفضل الرازي .

لغة أزد فإنهم يسكنون هاء الكناية من المذكر ، ومنه قوله

: ونضواي مشتاقان له أرقان . . .

وقيل : إنها لغة لبني كلاب .

وعقيل ، ومن النحويين من يخص هذا السكون بالضرورة وينشد

: وأشرب الماء ما بي نحوه عطش . . .

إلا لأن عيونه سيل واديها

وقرأ السدي ابناه بألف وهاء سكت، وخرج ذلك على الندبة، واستشكل بأن النحاة صرحوا بأن حرف النداء لا يحذف في الندبة، وأجيب بأن هذا حكاية، والذي منعوه في الندبة نفسها لا في حكايتها، وعن ابن عطية أبناه بفتح همزة القطع.

التي للنداء، وفيه أنه لا ينادي المندوب بالهمزة، وأن الرواية بالوصل فيها والنداء بالهمزة لم يقع في القرآن، ويبعد القول بالندبة أنها لا تلائم الاستدعاء إلى السفينة بعد كما لا يخفى ولو قيل: إن ابناه على هذه القراءة مفعول نادى أيضاً كما في غيرها من القراءات، والألف للإشباع والهاء الساكنة هاء الضمير في بعض اللغات لم يكن هناك محذور من جهة المعنى وهو ظاهر، نعم يتوقف القول بذلك على السماع في مثله؛ ومتى ثبت تعين عندي تخريج القراءة إن صحت عليه، وقرأ الجمهور ﴿ ابنه ﴾ بالإضافة إلى ضمير نوح، ووصلوا بالهاء واواً وتوصل في الفصيح، وتنوين ﴿ نُوحٌ ﴾ مكسور عند الجمهور دفعاً لالتقاء الساكنين، وقرأ وكيع بضمه اتباعاً لحركة الإعراب.

وقال أبو حاتم: هي لغة سوء لا تعرف ﴿ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ ﴾ أي مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وإخوته ومن آمن من قومه، والمراد بعده عنهم إما حساً أو معنى، وحاصله المخالفة

لهم في الدين فمعزل بالكسر اسم مكان العزلة ، وهي إما حقيقية أو مجازية ، وقد يكون اسم زمان ، وإذا فتح كان مصدراً ، وقيل : المراد كان في معزل عن الكفار قد انفرد عنهم ، وظن نوح عليه السلام أنه يريد مفارقتهم ولذلك دعاه إلى السفينة ، وقيل : إنما ناداه لأنه كان ينافقه فظن أنه مؤمن ، واختاره كثير من المحققين كالما تريدي .

(47/378)

وغيره ، وقيل : كان يعلم أنه كافر إلى ذلك الوقت لكنه عليه السلام ظن أنه عند مشاهدة تلك الأهوال وبلوغ السيل الزبي ينزجر عما كان عليه ويقبل الإيمان ، وقيل : لم يجزم بدخوله في الاستثناء لما أنه كان كالمجمل فحملته شفقة الأبوة على أن ناداه ﴿ يا بَنِى ﴾ بفتح الياء التي هي لام الكلمة اجتزاءاً بالفتحة عن الألف المبدلة من ياء الإضافة في قوله يا بنيا ، وقيل : إنها سقطت لالتقائها ساكنة مع الراء الساكنة بعدها ، ويؤيد الأول أنه قرىء كذلك حيث لا ساكن بعد .

ومن الناس من قال : فيه ضعف على ما حكاه يونس من ضعف يا أب ويا أم بحذف الألف والاجتزاء عنها بالفتحة .

وقرأ الجمهور بالكسر اقتصاراً عليه من ياء الإضافة ، وقيل : إنها حذفت لالتقاء الساكنين

كما قيل ذلك في الألف ، ونداؤه بالتصغير من باب التحنن والرأفة ، وكثيراً ما ينادي الوالد ولده كذلك ﴿ اركب مَّعَنَا ﴾ أي في السفينة ولتعينها وللإيذان بضيق المقام حيث حال الجريض دون القريض مع إغناء المعية عن ذكرها لم تذكر ، وأطلق الركوب وتخفيف الباء وإدغامها في الميم قراءتان سبعيتان ووجه الإدغام التقارب في المخرج ﴿ وَلاَ تَكُن مَّعَ الكافرين ﴾ تأكيد للأمر وهو نهي عن مشايعة الكفرة والدخول في غمارهم ، وقطع بأن الدخول فيه يوجب الغرق على الطريق البرهاني .

﴿ قَالَ ﴾ أي سأنضم ﴿ سَآوِى إلى جَبَلٍ ﴾ من الجبال ، وقيل : عنى طور زيتا ﴿ يَعْصِمُنِى ﴾ أي يحفظني بارتفاعه ﴿ مِنَ الماء ﴾ فلا يصل إلي .

(48/378)

قال ذلك زعماً منه أن ذلك كسائر المياه في أزمنة السيول المعتادة التي ربما يتقي منها بالصعود إلى مرتفع ، وجهلاً منه بأن ذلك إنما كان لإهلاك الكفرة فلا بد أن يدركهم ولو كانوا في قلل الجبال ﴿ قَالَ ﴾ مبينا له حقيقة الحال وصارفاً له عن ذلك الفكر المحال ﴿ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله ﴾ نفي لجنس العاصم المنتظم لنفي جميع أفراده ذاتاً وصفة للمبالغة في نفي كون الجبل عاصماً ، وزاد ﴿ اليوم ﴾ للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام التي

تقع فيها الوقائع وتلم فيها الملمات المعتادة التي ربما يتخلص منها بالالتجاء إلى بعض الأسباب العادية، وعبر عن الماء في محل إضماره بأمر الله أي عذابه الذي أشير إليه أولاً بقوله سبحانه: ﴿ حتى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ [هود: 40] تفخيماً لشأنه وتهويلاً لأمره وتنبيهاً لابنه على خطئه في تسميته ماءاً وتوهمه أنه كسائر المياه التي يتخلص منها بالهرب إلى بعض المهارب المعهودة، وتعليلاً للنفي المذكور فإن أمر الله سبحانه لا يغالب وعذابه لا يرد، وتمهيداً لحصر العصمة في جناب الله تعالى عز جاره بالاستثناء كأنه قيل: لا عاصم من أمر الله تعالى إلا هو تعالى، وإنما قيل: ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ تفخيماً لشأنه الجليل جل شأنه وإشعاراً بعلية رحمته بموجب سبقها غضبه كل ذلك لكمال عنايته عليه السلام بتحقيق ما يتوخاه من نجاة ابنه ببيان شأن الداهية وقطع أطماعه الفارغة وصرف عنانه عن التعلل بما لا يغني عنه شيئاً وإرشاده إلى العياذ بالمعاذ الحق عز حماه، ولذا عدل عما يقتضيه الظاهر من الجواب بقوله: لا يعصمك الجبل منه كذا ذكره بعض المحققين وهو أحد أوجه في الآية وأقواها.

والوجه الثاني : أن عاصماً صيغة نسبة ، والمراد بالموصول المرحوم أي لا ذا عصمة أي معصوم إلا من رحمه الله تعالى ، وأيد ذلك بأنه قرىء ﴿ إِلاَّ مَن رُّحِمَ ﴾ بالبناء للمفعول ، واعترضه في "الكشف" بأن فاعلاً بمعنى النسبة قليل ، وأجيب بأنه إن أراد قلته في نفسه فممنوع وإن بالنسبة إلى الوصف فلا يضر .

والثالث : أن عاصماً على ظاهره ، و﴿ مَن رَّحِمَ ﴾ بمعنى المرحوم والاستثناء منقطع لا متصل كما في الوجهين الأولين أي لا عاصم من أمر الله لكن من رحمه الله تعالى فهو معصوم ، وأورد عليه بأن مثل هذا المنقطع قليل لأنه في الحقيقة جملة منقطعة تخالف الأولى لا في النفي والإثبات فقط بل في الاسمية والفعلية أيضاً ، والأكثر فيه مثل ما جاءني القوم إلا حماراً ، والرابع : أن عاصماً بمعنى معصوم كدافق بمعنى مدفوق وفاتن بمعنى مفتون في قوله : بطيء القيام رخيم الكلا . . .

م أمسى فؤادي به (فاتنا)

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ ﴾ بمعنى الراحم ، والاستثناء منقطع أيضاً أي لا معصوم إلا الراحم على معنى لكن الراحم يعصم من أراد ، والخامس : أن الكلام على إضمار المكان والاستثناء

متصل أي لا عاصم إلا مكان من رحمه الله من المؤمنين وهو السفينة ، قيل : وهو وجه حسن فيه مقابلة لقوله : ﴿ يَعْصِمُنِى ﴾ وهو المرجح بعد الأول ، والعاصم على هذا حقيقة لكن إسناده إلى المكان مجازي ، وقيل : إنه مجاز مرسل عن مكان الاعتصام ، والمعنى لا مكان اعتصام إلا مكان من رحمه الله ، وادعى أنه أرجح من الكل لأنه ورد جواباً عن قوله : ﴿ سَاوِى إِلى جَبَلٍ ﴾ الخ وليس بمسلم ، والسادس : ما أبداه صاحب الكشف من عنده وهو أن المعنى لا معصوم إلا مكان من رحمه الله تعالى ، ويراد به عصمة من فيه على الكناية فإن السفينة إذا عصمت عصم من فيها ، والسابع : أن الاستثناء مفرغ ، والمعنى لا عاصم اليوم أحداً أو لأحد إلا من رحمه الله أو لمن رحمه الله سبحانه ، وعده بعضهم أقربها ، ولا أظنك تعدل بالوجه الأول وجهاً وهو الذي اختاره ، والظاهر على ما قال أبو حيان : أن خبر لا محذوف للعلم به أي ﴿ لاَ عَاصِمَ ﴾ موجود ، والأكثر الحذف في مثل ذلك عند الحجازيين ، والتزم الحذف فيه بنو تميم ويكون اليوم منصوباً على إضماره فعل يدل عليه ﴿ عَاصِمَ ﴾ أي ﴿ لاَ عَاصِمَ ﴾ يعصم اليوم ؛ والجار والمجرور متعلق بذلك الفعل ومنع جواز أن يكون ﴿ اليوم ﴾ منصوباً باسم لا وأن يكون الجار متعلقاً به لأنه يلزم حينئذٍ أن يكون معرباً منوناً للطول .

وجوز الحوفي أن يكون ﴿ اليوم ﴾ متعلقاً بمحذوف وقع خبراً للا والجار متعلق بذلك المحذوف أيضاً ، وأن يكون متعلقاً بمحذوف هو الخبر ، و﴿ اليوم ﴾ في موضع النعت لعاصم ، ورد أبو البقاء خبرية اليوم بأنه ظرف زمان وهو لا يكون خبراً للا والجار متعلق بذلك المحذوف أيضاً ، وأن يكون متعلقاً بمحذوف هو الخبر ، و﴿ اليوم ﴾ في موضع النعت لعاصم ، ورد أبو البقاء خبرية اليوم بأنه ظرف زمان وهو لا يكون خبراً عن الجثة ، والتزم كونه معمول من أمر الله وكون الخبر هو الجار والمجرور ، ورد أبو حيان جواز النعتية بأن ظرف الزمان لا يكون نعتاً للجثث كما لا يكون خبراً عنها ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الموج ﴾ أي بين نوح عليه السلام وابنه فانقطع ما بينهما من المجاوبة ، قيل : كانا يتراجعان الكلام فما استتمت المراجعة حتى جاءت موجة عظيمة وكان راكباً على فرس قد بطر وأعجب بنفسه فالتقمته وفرسه ، وليس في الآية هنا إلا إثبات الحياة له ، وأما علمه عليه السلام بغرقه فلم يحصل إلا بعد ، وقال الفراء : بينهما أي بين ابن نوح عليه السلام والجبل ، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ عن القاسم بن أبي بزة ، وتعقبه العلامة أبو السعود بأن قوله تعالى : ﴿ فَكَانَ مِنَ المغرقين ﴾ إنما يتفرع على حيلولة الموج بينه عليه السلام وبين ابنه لا بينه وبين الجبل لأنه بمعزل عن كونه عاصماً وإن لم يحل بينه وبين الملتجأ إليه موج ، وأجيب بأن التفريع لا ينافي

ذلك لأن المراد فكان من غير مهلة أو هو بناءً على ظنه أن الماء لا يصل إليه ، وفي الآية دلالة على غرق ساء الكفرة على أبلغ وجه ، فكأن ذلك أمر مقرر الوقوع غير مفتقر إلى البيان ، وفي إيراد كان دون صار مبالغة في كونه منهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(52/378)

وقال القاسمى :

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [41] .

﴿ وَقَالَ ﴾ أي : نوح عليه السلام لمن معه من المؤمنين : ﴿ ارْكَبُوا فِيهَا ﴾ أي : السفينة : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ . قال الزمخشري : يجوز أن يكون كلاماً واحداً وكلامين ، فالكلام الواحد أن يتصل (بسم الله) بـ (اركبوا) حالاً من الواو ، بمعنى : ركبوا فيها مسمين الله ، أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ، ووقت إرسائها ، إما لأن المجرى والمرسى للوقت ، وإما لأنهما مصدران ، كالإجراء والإرسال ، حذف منهما الوقت المضاف ، كقولهم : (خفوق النجم) و (مقدم الحاج) ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء وانتصابهما ، بما في (بسم الله) من معنى الفعل ، أو بما فيه من إرادة القول .

والكلامان : أن يكون : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ جملة من مبتدأ وخبر مقتضبة ، أي : بسم الله إجراؤها وإرساؤها ، يروى أنه كان إذا كان إذا أراد أن تجري قال : بسم الله ، فجرت ، وإذا أراد أن ترسوا قال : بسم الله ، فرست . وجوز أن يقحم الاسم كقوله :

~ثم اسم السلام عليكما

ويراد : بالله إجراؤها وإرساؤها ، أي : بقدرته وأمره . ومعنى قولنا : (جملة مقتضبة) أن نوحاً عليه السلام أمرهم بالركوب ، ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله أو بأمره وقدرته . ويحتمل أن يكون غير مقتضبة ، بأن تكون في موضع الحال من ضمير (الفلك) كأنه قيل : اركبوا فيها مجراة ومرساة بسم الله ، بمعنى التقدير ، كقوله : ﴿ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [الزمر : من الآية 73] انتهى .

تنبيهات :

الأول : قرأ الإخوان – حمزة والكسائي وحفص – (مَجْرَاهَا) بفتح الميم ، والباقون بضمها . واتفق السبعة على ضم ميم (مرساها) . وقد قرأ ابن مسعود والثقفي (مَرْسَاهَا)

بفتح الميم أيضاً . وقرئ بضم الميم وكسر الراء والسين وياء بعدهما ، بلفظ اسم الفاعل ، مجروري المحل ، صفتين لله .

الثاني : ما وقع بعد الراء من الألفات المنقلبة عن الياء التي للتأنيث ، أو للإلحاق ، أماله حمزة والكسائي وأبو عَمْرو ، ووافقهم حفص في إمالة (مَجْرَاهَا) هنا ، ولم يُمِلْ غيره .

الثالث : أخذ بعضهم من الوجه الأول في : ﴿ بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ أعني تقدير قائلين ، استحباب التسمية ، وذكره تعالى عند ابتداء الجري والإرساء ، وهو مؤيد بقول تعالى في سورة المؤمنون : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ [المؤمنون : 28 – 29] ، وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا ﴾ [الزخرف : 12 – 13] الآية ، وجاءت السنة بالحث على ذلك ، والندب إليه أيضاً .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ جملة مستأنفة ، بيان للموجب للإنجاء ، أي : لولا مغفرته ورحمته لغرقتم وهلكتم مثل قومكم ، أو تعليل لـ (اركبوا) لما فيه من الإشارة إلى النجاة ، فكأنه قيل : اركبوا لينجيكم الله .

وقوله تعالى :

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ ﴾ متصل بمحذوف دل عليه (اركبوا) ، أي : فاركبوا مسمين وهي تجري ، وهم فيها : ﴿ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ وذلك أنه لما تفتحت أبواب السماء بالماء ، وتفجرت ينابيع الأرض تعاظمت المياه ، وعلت أكناف الأرض ، وارتفعت فوق الجبال الشامخة بخمسة عشر ذراعاً ، وكان ما يرتفع من الماء عند اضطرابه من أمواجه كالجبال .

﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ﴾ أي : في متنحى عن أبيه : ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا ﴾ أي : ادخل في ديننا ، واصحبنا في السفينة : ﴿ وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي : في الدين والانعزال ، الهالكين .

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء ﴾ أي : فلا أغرق : ﴿ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ أي : لا مانع اليوم من بلائه ، وهو الطوفان ، إلا الراحم وهو الله تعالى . أو لا عاصم إلا مكان من رحم ، وهم المؤمنون ، يعني السفينة . أو لا عاصم ، بمعنى لا

ذا عصمة إلا من رحمه الله . أو (إلا) منقطعة ، أي : لكن من رحمه فهو المعصوم .

قال الناصر : الاحتمالات الممكنة أربعة : لا عاصم إلا راحم ، ولا معصوم إلا مرحوم ، ولا عاصم إلا مرحوم ، ولا معصوم إلا راحم . فالأولان استثناء من الجنس ، والآخران من غير الجنس . أي : فيكون منقطعاً . أي : لكن المرحوم يعصم على الأول ، ولكن الراحم يعصم من أراد على الثاني .

وزاد الزمخشري خامساً وهو : لا عاصم إلا مرحوم ، على أنه من الجنس ، بتأويل حذف المضاف ، تقديره : لا مكان عاصم إلا مكان مرحوم ، والمراد بالنفي التعريض بعدم عصمة الجبل ، وبالمثبت التعريض بعصمة السفينة ، والكل جائز ، وبعضها أقرب من بعض – انتهى – .

﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ ﴾ أي : صار حائلاً بين نوح وابنه ، أو بين ابنه والجبل ، لارتفاعه فوقه : ﴿ فَكَانَ ﴾ أي : ابنه مع كونه فوق الجبل : ﴿ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ أي : الهالكين بالغرق .

وفيه دلالة على هلاك سائر الكفرة على أبلغ وجه ، فكان ذلك أمراً مقرر الوقوع ، غير مفتقر إلى البيان . وفي إيراد (كان) دون (صار) مبالغة في كونه منهم – أفاده أبو السعود – . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل جـ 9 صـ 96 . 99 ﴾

وقال القاسمى :

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾

عطف على جملة ﴿ قلنا احمل فيها ﴾ [هود : 40] أي قلنا له ذلك .

وقال نوح عليه السّلام لمن أمر بحمله ﴿ اركبوا ﴾ .

وضمير ﴿ فيها ﴾ لمفهوم من المقام ، أي السفينة كقوله : ﴿ وحملناه على ذَات ألواحٍ ودُسرٍ ﴾ [القمر : 13] أي سفينة .

وعدّي فعل ﴿ اركبوا ﴾ بـ (فِي) جرياً على الفصيح فإنه يقال : ركب الدابة إذا علاها .

وأما ركوب الفلك فيعدّى بـ (في) لأن إطلاق الركوب عليه مجاز ، وإنما هو جلوس واستقرار فلا يقال : ركب السفينة ، فأرادوا التفرقة بين الركوب الحقيقي والركوب المشابه له ، وهي تفرقة حسنة .

والباء في ﴿ باسم الله ﴾ للملابسة مثل ما تقدم في تفسير البسملة ، وهي في موضع الحال من ضمير ﴿ اركبوا ﴾ أي ملابسين لاسم الله ، وهي ملابسة القول لقائله ، أي قائلين : باسم الله .

و﴿ مجراها ومرساها ﴾ بضم الميمين فيهما في قراءة الجمهور .

وهما مصدراً ، أجرى السفينة إذا جعلها جارية ، أي سيّرها بسرعة ، وأرساها إذا جعلها راسية ، أي واقفة على الشاطىء .

يقال : رَما إذا ثَبت في المكان .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وخلَفٌ "مَجراها" فقط بفتح الميم على أنه مَفعل للمصدر أو الزمان أو المكان .

وأما ﴿ مُرساها ﴾ فبضم الميم مثل الجمهور ، لأنه لا يقال : مَرساها بفتح الميم .

والعدول عن الفتح في ﴿ مرساها ﴾ في كلام العرب مع أنه في القياس مماثل (مَجراها) وجهه دفع اللبس لئلا يلتبس باسم المَرسى الذي هو المكان المعدّ لرسوّ السفن .

ويَجوز أن يكون ﴿ مجراها ومرساها ﴾ في محل نصب بالنيابة عن ظرف الزمان ، أي وقت إجرائها ووقت إرسائها .

ويجوز أن يكون في محل رفع على الفاعلية بالجار والمجرور لما فيه من معنى الفعل ، وهو رأي نحاة الكوفة ، وما هو ببعيد .

وجملة ﴿ إن ربي لغفور رحيم ﴾ تعليل للأمر بالركوب المقيد بالملابسة لذكر اسم الله تعالى ، ففي التعليل بالمغفرة والرحمة رمز إلى أن الله وعَده بنجاتهم ، وذلك من غفرانه ورحمته .

وأكّد بـ ﴿ إنّ ﴾ ولام الابتداء تحقيقاً لأتباعه بأن الله رحمهم بالإنجاء من الغرق .

﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كالجبال ﴾ .

جملة معترضة دعا إلى اعتراضها هنا ذكر (مجراها) إتماماً للفائدة وصفاً لعظم اليوم وعجيب صنع الله تعالى في تيْسير نجاتهم .

وقدم المسند إليه على الخبر الفعلي لتقوّي الحكم وتحقيقه .

وعدل عن الفعل الماضي إلى المضارع لاستحضار الحالة مثل قوله تعالى : ﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً ﴾ [فاطر : 9] .

والموج : ما يرتفع من الماء على سطحه عند اضطرابه ، وتشبيهه بالجبال في ضخامته . وذلك إما لكثرة الرياح التي تعلو الماء وإما لدفع دفقات الماء الواردة من السيول والتقاء الأودية الماءَ السابقَ لها ، فإن حادث الطوفان ما كان إلاّ عن مثل زلازل تفجرت بها مياه الأرض وأمطار جمّة تلتقي سيولها مع مياه العيون فتختلط وتجتمع وتصب في الماء الذي كان قبلها حتى عم الماء جميع الأرض التي أراد الله إغراق أهلها ، كما سيأتي .

عطفت جملة ﴿ ونادى ﴾ على أعلق الجمل بها اتّصالاً وهي ﴿ وقال اركبوا فيها ﴾ [

هود : 41] لأن نداءه ابنه كان قبل جريان السفينة في موج كالجبال ، إذ يتعذر إيقافها بعد جريها لأن الراكبين كلّهم كانوا مستقرين في جوف السفينة .

وابن نوح هذا هو ابن رابع في أبنائه من زَوج ثانية لنوح كان اسمها (وَاعلة) غرقت ، وأنّها المذكورة في آخر سورة التحريم .

قيل كان اسم ابنه (ياماً) وقيل اسمه (كنعان) وهو غير كنعان بن حام جد الكنعانيين .

وقد أهملت التوراة الموجودة الآن ذكر هذا الابن وقضية غرقه وهل كان ذا زوجة أو كان عزباً .

وجملة ﴿ وكان في معزل ﴾ حال من ﴿ ابنه ﴾ .

(58/378)

والمعْزل : مكان العزلة أي الانفراد ، أي في معزل عن المؤمنين إمّا لأنه كان لم يؤمن بنوح عليه السلام فلم يصدق بوقوع الطوفان ، وإما لأنّه ارتد فأنكر وقوع الطوفان فكفر بذلك لتكذيبه الرسول .

وجملة ﴿ يا بنيّ اركب معنَا ﴾ بيان لجملة ﴿ نادى ﴾ وهي إرشاد له ورفق به .

وأما جملة ﴿ ولا تكن مع الكافرين ﴾ فهي معطوفة على جملة ﴿ اركب معنا ﴾

لإعلامه بأنّ إعراضه عن الركوب يجعله في صف الكفار إذ لا يكون إعراضه عن الركوب إلاّ أثراً لتكذيبه بوقوع الطوفان .

فقول نوح عليه السّلام له ﴿ اركب معنا ﴾ كناية عن دعوته إلى الإيمان بطريقة العرض والتحذير .

وقد زاد ابنَه دلالة على عدم تصديقه بالطوفان قولُه متهكماً ﴿ سَآوي إلى جبل يعصمني من الماء ﴾ .

و(بنيّ) تصغير (ابن) مضافاً إلى ياء المتكلم .

وتصغيره هنا تصغير شفقة بحيث يجعل كالصغير في كونه محل الرحمة والشفقة .

فأصله بُنَيْو ، لأنّ أصل ابن بَنْو ، فلما حذفوا منه الواو لثقلها في آخر كلمة ثلاثية نقصَ عن ثلاثة أحرف فعوّضوه همزة وصل في أوله ، ومهما عادتْ له الواو المحذوفة لزوال داعي الحذف طرحت همزة الوصل ، ثم لمّا أريد إضافة المصغّر إلى ياء المتكلم لزم كسر الواو ليصير بُنَيْوِيّ ، فلما وقعت الواو بين عدوتيها الياءين قلبت ياء وأدغمت في ياء التصغير فصار بنَيّي بياءين في آخره أولاهما مشدّدة ، ولما كان المنادى المضاف إلى ياء المتكلم يجوز حذف ياء المتكلم منه وإبْقاء الكسرة صار ﴿ بنَيِّ ﴾ بكسر الياء مشدّدة في قراءة الجمهور .

وقرأه عاصم ﴿ بنيّ ﴾ بفتح ياء المتكلم المضاف إليها لأنها يجوز فتحها في النداء ، أصله

يَا بنَيّيَ بياءين أولاهما مكسورة مشدّدة وهي ياء التصغير مع لام الكلمة التي أصلها الواو ثم اتصلت بها ياء المتكلم وحذفت الياء الأصلية.

وفصلت جملة ﴿ قال سآوي ﴾ وجملة ﴿ قال لا عاصم ﴾ لوقوعهما في سياق المحاورة.

(59/378)

وقوله: ﴿ سآوي إلى جبل ﴾ قد كان قبل أن يبلغ الماء أعالي الجبال.

و(آوي): أنزل، ومصدره: الأوِيّ بضم الهمزة وكسر الواو وتشديد الياء.

وجملة ﴿ يعصمني من الماء ﴾ إمّا صفة ل(جبل) أي جبل عال، وإمّا استيناف بياني، لأنّه استشعر أن نوحاً عليه السّلام يسأل لماذا يأوي إلى جبل إذ ابنه قد سمعه حين ينذر الناس بطوفان عظيم فظن الابن أن أرفع الجبال لا يَبلغه الماء، وأنّ أباه ما أراد إلا بلوغ الماء إلى غالب المرتفعات دون الجبال الشامخات.

ولذلك أجابه نوح عليه السّلام بأنّه ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله ﴾، أي مأموره وهو الطوفان ﴿ إلاّ مَن رحم ﴾.

واستثناء ﴿ مَن رحم ﴾ من مفعول يتضمنه (عَاصم) إذ العاصم يَقتضي معصوماً وهو

المستثنى منه .

وأراد بـ ﴿ من رحم ﴾ من قدّر الله له النجاة من الغرق برحمته .

وهذا التقدير مظهره الوحي بصنع الفلك والإرشاد إلى كيفية ركوبه .

والموج : اسم جمع مَوجة ، وهي : مقادير من مَاء البحر أو النهر تتصاعد على سطح الماء من اضطراب الماء بسبب شدة رياح ، أو تزايد مياه تنصبُّ فيه ، ويقال : مَاجَ البحر إذا اضطرب ماؤه .

وقالوا : مَاجَ القوم ، تشبيهاً لاختلاط النّاس واضطرابهم باضطراب البحر .

وحيلولة الموج بينهما في آخر المحاورة يشير إلى سرعة فيضان الماء في حين المحاولة .

وأفاد قوله : ﴿ فكان من المغرقين ﴾ أنه غرق وغرق معه من توعّده بالغرق ، فهو إيجاز بديع . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(60/378)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) ﴾

ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة : أن نبيه نوحاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أمر

أصحابه الذين قيل لهم احملهم فيها أن يركبوا فيها قائلاً : وَقَالَ ﴿ بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ أي بسم الله يكون جريها على وجه الماء ، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها .

وبين في سورة الفلاح : أنه أمره إذا استوى على السفينة هو ومن معه أن يحمدوا الله الذي نجاهم من الكفرة الظالمين ، ويسألوه أن ينزلهم منزلاً مباركاً . وذلك في قوله : ﴿ فَإِذَا استويت أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الفلك فَقُلِ الحمد للَّهِ الذي نَجَّانَا مِنَ القوم الظالمين وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ المنزلين ﴾ [المؤمنون : 28 – 29] .

وبين في سورة الزخرف ما ينبغي أن يقال عند ركوب السفن وغيرها بقوله ﴿ والذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا استويتم عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّآ إلى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف : 12 -14] .

ومعنى قوله ﴿ مُقْرِنِينَ ﴾ أي مطيقين ، ومنه قول عمرو بن معد يكرب :

لقد علم القبائل ما عقيل . . . لنا في النائبات بمقرنينا

وقول الآخر :

ركبتم صعبتي أشر وجبن . . . ولستم للصعاب بمقرنينا

وقول ابن هرمة :

وأقرنت ما حملتني ولقلما . . . يطاق احتمال الصد يا دعد والهجر

قوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كالجبال ﴾ الآية .

ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة : أن السفينة تجري بنوح ومن معه في ماء عظيم ، أمواجه كالجبال .

وبين جريانها هذا ي ذلك الماء الهائل في مواضع آخر . كقوله : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا المآء حَمَلْنَاكُمْ فِي الجارية لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : 11 - 12]

وقوله : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السمآء بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً فَالْتَقَى المآء على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ على ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : 11 - 15] .

وبين في موضع آخر : أن أمواج البحر الذي أغرق الله فيه فرعون وقومه كالجبال أيضاً بقوله : ﴿ فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾ [الشعراء : 63] والطود : الجبل العظيم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾

هذه هي المرحلة الأخيرة في قصة السفينة ، وبدأت القصة بأمر من الله سبحانه لنوح عليه السلام أن اصنع الفلك ، ثم تمهيد من نوح لقومه ، ثم ظل يصنع الفلك حتى جاءت إشارة البدء بعلامة :

﴿ وَفَارَ التنور ﴾ [هود : 40]

وحَمَلَ نوح عليه السلام في الفُلْك بأمر من الله تعالى من كل شيء زوجين اثنين ، وأهله ومَنْ آمن معه .

وقال نوح عليه السلام لمن آمن :

﴿ اركبوا فِيهَا بِسْمِ الله مجراها وَمُرْسَاهَا ﴾ [هود : 41] .

وهذا القول منسوب لنوح عليه السلام ؛ لأنه أضاف :

﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود : 41] .

والركوب يقتضي أن يكون الراكب على المركوب ، ومستعلٍ عليه . والاستعلاء يقتضي أن يكون الشيء المُستعلَى عليه في خدمة المُستعلِي ، فكأن تسخير الله سبحانه للسفينة إنما جاء ليخدم المستعلِي .

ولكن الله تعالى يقول هنا :

﴿ اركبوا فِيهَا ﴾ [هود : 41] .

ولم يقل : " اركبوا عليها " .

قال الحق سبحانه وتعالى ذلك ؛ ليعطينا لقطة عن طريق صنع السفينة ، فقد صنعها نوح عليه السلام بوحي من الله تعالى على أفضل نظام في البواخر ، ولم يصنعها بطريقة بدائية ، فهم إذن لم يركبوها على سطحها ، بل تم بناؤها بما يتيح لهم السكن فيها ، خصوصاً وأن تلك السفينة تحمل وحوشاً وهواماً وحيوانات بجانب البشر ، لذلك كان لا بد من بنائها على هيئة طبقات وأدوار .

وقول الحق سبحانه :

﴿ بِسْمِ الله مجراها وَمُرْسَاهَا ﴾ [هود : 41] .

يُبيِّن لنا أنها قد صُنعت لتُنجي من الغرق ؛ لذلك لا بد أن تسير بالراكبين فيها إلى مكان لا يصله الماء ، ولا بد أن يكون هذا المكان عالياً ؛ ليتيح الرُّسُوَّ ، كما أتاح الفيضان عملية الجريان .

وهكذا كان جريانها باسم الله ، ورُسُوُّها بإذنه سبحانه .

وقول نوح عليه السلام :

﴿ بِسْمِ الله مجراها وَمُرْسَاهَا ﴾ [هود : 41] .

يعلِّمنا أن جريانها إنما يتمُّ بمشيئة الله تعالى وأنهم يركبون فيها ، لا لمكانتهم الشخصية ، ولكن لإيمانهم بالله تعالى .

ومثال ذلك من حياتنا ولله المثل الأعلى : نجد القاضي يقول مفتتحاً الحكم : " باسم الدستور والقانون " أي : أنه لا يحكم بذاته كقاضٍ ، لكنه يحكم باسم الدستور والقانون .

ونوح عليه السلام يقول :

﴿ بِسْمِ الله مجراها وَمُرْسَاهَا ﴾ [هود : 41]

لأن السفينة لله أمر ، ولرسوله صناعة .

ولذلك يقال : " كل شيء لا يبدأ باسم الله فهو أبْتر " .

لأنك حين تُقبل على فعل شيء ، فالأفعال أو الأحداث تحتاج إلى طاقات متعددة ، فإن كان الفعل عضليّا ، فهو يحتاج لقوة ، وإن كان الفعل عقليّا فهو يحتاج لفكر ورويَّة وأناة ، وإن كان فعلاً فيه مواجهة لأهل الجاه فهو يحتاج إلى شجاعة ، وإن كان من أجل تصفية نفوس فهو يحتاج إلى الحِلْم ؟

إذن : فاحتياجات الأحداث كثيرة ومختلفة ، ومن أجل أن تحصل على القوة فقد تقول : "

باسم القوي القادر " ولكي تحصل على علم ؛ تقول : " باسم العليم " ، وتريد الغني ؛ فتقول : " باسم الغنيّ " وحين تحتاج إلى الحلم تقول : " باسم الحليم " ، وعندما تحتاج إلى الشجاعة ؛ تقول : " باسم القهار " .

وقد يحتاج الفعل الواحد لأشياء كثيرة ، والذي يُغْنِي عن كل ذلك أن تنادي ربك وتبرّك باسم واجد الوجود وهو الله سبحانه وتعالى ، ففيه تنطوي كل صفات الكمال والجلال .

وإياك أن تتهيّب أو تستحي ، بل ادخل على كل أمر باسم الله ، حتى لو كنت عاصياً ؛ لأن الحق سبحانه رحمن رحيم .

وقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام :

﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود : 41] .

إنما يقصد أن هؤلاء المؤمنين برسالة نوح كانوا من البشر ، ولم يطبّقوا كغالبية البشر كل التكاليف ؛ لأنهم ليسوا ملائكة .

لذلك قَدَّر الحق سبحانه وتعالى إيمانهم وعفا عن بعض الذنوب التي ارتكبوها ولم يؤاخذهم بها .

هذه هي الميزة في قول : " بسم الله الرحمن الرحيم " .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك يَصفُ السفينة وركَّابها : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كالجبال ﴾

وجرت بهم السفينة ، لا بين موج هائج فحسب ، ولكن كان الموج كالجبال ، وهذا يدل على أنها مُسيَّرة بقوة عالية لا تؤثر فيها الأمواج ، ثم يجيء الحديث عن عاطفة الأبوة حين ينادي نوح ابنه :

﴿ ونادى نُوحٌ ابنه وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يا بني اركب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الكافرين ﴾ [نوح : 42]

.

ورفض الابن مطلب أبيه معتمداً على أن الجبل يحميه .

وفي هذا يقول الحق سبحانه مبيناً مُراد الابن في مُخالفة مراد أبيه : ﴿ قَالَ سآوي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المآء ﴾

هكذا ظن ابن نوح أنه سينجو إن آوى إلى جبل ، لعل ارتفاع الجبل يعصمه من الغرق ، لكن نوحاً عليه السلام يعلم أن لا نجاة لكافر ، بل النجاة فقط هي لمن رحمه الله بالإيمان .

وهكذا فرّق الموج بين نوح وابنه ؛ وغرق الابن .

وأراد الحق سبحانه أن يُنهى الكلام عن نوح عليه السلام ، فجاء بلقطة استواء السفينة على الجودي .

ويقال : إن جبل الجودي يوجد في الموصل ويقال : إنه ناحية الكوفة ، وإن كان هذا القول مجرد علم لا ينفع ، والجهل به لا يضر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(65/378)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه قال : لما ركب نوح عليه السلام في السفينة فجرت به فخاف ، فجعل ينادي : الاها اتقن قال يا ألله أحسن .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ بسم الله مجريها ومرساها ﴾ قال : حين يركبون ويجرون ويرسون .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : كان إذا أراد أن ترسي قال : بسم الله . فأرست ، وإذا أراد أن تجري قال : بسم الله . فجرت .

وأخرج سعيد بن منصور والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرأ ﴿ مجراها ومرساها ﴾ .

وأخرج أبو يعلى والطبراني وابن السني وابن عدي وأبو الشيخ وابن مردويه عن الحسين بن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا: بسم الله الملك الرحمن ﴿ بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ﴾ وما قدروا الله حق قدره " إلى آخر الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا: بسم الله ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ [الأنعام: 91] الآية ﴿ بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ﴾ ".

وأخرج أبو الشيخ في الثواب عن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه " ما من رجل يقول إذا ركب السفينة: بسم الله الملك الرحمن ﴿ بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ﴾ ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ [الأنعام: 91] الآية إلا أعطاه الله أماناً من الغرق حتى يخرج منها ".

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال : كان اسم ابن نوح الذي غرق كنعان .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : هو ابنه غير أنه خالفه في النية والعمل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي جعفر محمد بن علي رضي الله عنه في قوله ﴿ ونادى نوح ابنه ﴾ قال : هي بلغة طيىء لم يكن ابنه ، وكان ابن امرأته .

وأخرج ابن الأنباري في المصاحف وأبو الشيخ عن علي رضي الله عنه أنه قرأ " ونادى نوح ابنها " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾ قال : لا ناج إلا أهل السفينة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن القاسم ابن أبي بزة في قوله ﴿ وحال بينهما الموج ﴾ قال : بين ابن نوح والجبل .

وأخرج الحاكم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح ، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق " .

وأخرج عبد بن حميد عن حميد بن هلال قال : جعل نوح لرجل من قومه جعلا على أن يعينه على عمل السفينة ، فعمل معه حتى إذا فرغ قال له نوح : خير أي ذلك شئت ، إما أن أوفيك أجرك وإما أن نوقيك من القوم الظالمين . قال : حتى استأمر قومي . فاستأمر قومه فقالوا له : اذهب إلى أجرك فخذه . فأتاه فقال : أجري . . . فوفاه أجره . قال : فما أخذ جاوز ذلك الرجل إلى حيث ينظر إليه حتى أمر الله الماء بما أمره به ، فأقبل ذلك الرجل يخوض الماء فقال : خذ الذي جعلت لي . قال : لك ما رضيت به . فغرق فيمن غرق .

انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ﴾: يجوز أن يكونَ الفاعلُ ضميرَ نوح عليه السلام، ويجوز أن يكونَ ضميرَ الباري تعالى أي: وقال اللَّهُ لنوح ومَنْ معه. و "فيها متعلقٌ ب "اركبوا" وعُدِّي ب "في" لتضمُّنه معنى "ادخلوا فيها راكبين" أو سيروا فيها. وقيل: تقديره: اركبوا الماء فيها. وقيل: "في" زائدةٌ للتوكيد.

قوله: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ يجوز أن يكونَ هذا الجار والمجرور حالاً من فاعل "اركبوا" أو مِنْ "ها" في "فيها"، ويكون "مجراها" و "مرساها" فاعلين بالاستقرار الذي تَضَمَّنه الجارُّ لوقوعه حالاً. ويجوز أن يكونَ "بسم اللَّه" خبراً مقدماً، و "مَجْراها" / مبتدأً مؤخراً، والجملة أيضاً حالٌ مما تقدَّم، وهي على كلا التقديرين حالٌ مقدَّرةٌ كذا أعربه أبو البقاء وغيرُه. إلا أنَّ مكيَّاً منع ذلك لخلوِّ الجملة من ضمير يعود على ذي الحال إذا أَعْرَبْنا الجملةَ أو الجارَّ حالاً من فاعل "اركبوا" قال: "ولا يَحْسُنُ أن تكونَ هذه الجملةُ حالاً من فاعل "اركبوا" لأنه لا عائدَ في الجملةِ يعودُ على المضمر في "اركبوا"؛ لأن المضمرَ في "بسم اللَّه" إنْ جَعَلْتَه خبراً ل "مَجْراها" فإنما يعود على المبتدأ وهو مجراها، وإن رَفَعْتَ "مجراها" بالظرفِ لم يكن فيه ضميرُ الهاء في "مجراها" وإنما تعود على الضمير في "فيها"، وإذا نَصَبْتَ "مجراها" على الظرفِ عَمِل فيه "بسم اللَّه"، وكانت الجملةُ حالاً من فاعل "اركبوا".

وقيل : ﴿ بِسْمِ اللهِ ﴾ حال من فاعل " اركبوا " ومَجْراها ومُرْساها في موضع الظرف المكاني أو الزماني ، والتقدير : اركبوا فيها مُسَمِّين موضعَ جريانها ورُسُوِّها ، أو وقتَ جريانِها ورسوِّها . والعامل في هذين الظرفين حينئذٍ ما تضمَّنه " بسم اللَّه " من الاستقرار ، والتقدير : اركبوا فيها متبرِّكين باسم الله في هذين المكانين أو الوقتين . قال مكي : " ولا يجوزُ أن يكونَ العاملُ فيهما " اركبوا " لأنه لم يُرِدْ : اركبوا فيها في وقت الجَرْي والرسُوِّ ، إنما المعنى : سَمُّوا اسمَ اللَّه في وقت الجَرْي والرسوِّ " .

ويجوز أيضاً أن يكون " مَجْراها ومُرْساها " مصدرين ، و " بسم اللَّه " حالٌ كما تقدَّم ، رافعاً لهذين المصدرين على الفاعلين أي : استقرَّ بسم اللَّه إجراؤها وإرساؤها ، ولا يكون الجارُّ حينئذٍ إلا حالاً من " ها " في " فيها " لوجود الرابط ، ولا يكون حالاً من فاعل " اركبوا " لعدمِ الرابط .

وعلى هذه الأعاريبِ يكون الكلامُ جملةً واحدةً . ويجوز أن يكون ﴿ بِسْمِ اللهِ مجراها وَمُرْسَاهَا ﴾ جملةً مستأنفة لا تعلُّق لها بالأولى من حيث الإعراب ، ويكون قد أمرهم في الجملة الأولى بالركوب ، وأخبر أن مجراها ومُرْساها باسم اللَّه ، وفي التفسير : كان إذا قال : " بسم اللَّه " وقَفَتْ ، وإذا قالها جرَتْ عند إرادته ذلك ، فالجملتان محكيَّتان ب " قال " .

وقرأ الأخوان وحفص " مَجْراها " بفتح الميم والباقون بضمها . واتفق السبعة على ضمِّ

ميم " مُرْساها " . وقد قرأ ابن مسعود وعيسى الثقفي وزيد بن علي والأعمش " مَرْساها " بفتح الميم أيضاً . فالضمُّ فيهما لأنهما مِنْ أَجْرى وأرسى ، والفتح لأنهما مِنْ جَرَتْ ورَسَتْ وهما : إمَّا ظرفا زمان أو مكان أو مصدران ، على ما سبق من التقادير .

(70/378)

وقرأ الضحاك والنخعي وابن وثاب ومجاهد وأبو رجاء والكلبي والجحدري وابن جندب " مُجْرِيها ومُرْسِيها " بكسر الراء بعدهما ياء صريحة ، وهما اسما فاعلَيْن مِنْ أجرى وأَرْسى ، وتخريجُهما على أنهما بدلان من اسم اللَّه . وقال ابن عطية وأبو البقاء ومكي : إنهما نعتان للَّه تعالى ، وهذا الذي ذكروه إنما يتمُّ على تقديرِ كونهما معرفتين بتمحض الإِضافة وقد قال الخليل : " إنّ كلَّ إضافةٍ غيرُ محضةٍ قد تُجْعل مَحْضةً إلا إضافةَ الصفةِ المشبهة فلا تتمحَّض " .

وقال مكي : " ولو جُعِلت " مجراها " و " مرساها " في موضع اسم الفاعل لكانت حالاً مقدرة ، ولجازَ ذلك ولجَعَلْتَها في موضع نصب على الحال من اسم اللَّه تعالى " قلت : وقد طَوَّل مكي رحمه اللَّه تعالى كلامه في هذه المسألة ، وقال في آخرها : " وهذه المسألةُ يُوقف فيها على جميع ما كان في الكلام والقرآن مِنْ نظيرها ، وذلك لمَنْ فَهمها حقَّ فَهْما وتدبَّرها

حَقَّ تدبُّرها فهي من غُرَرِ المسائِل المُشْكلة " .

قوله : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي ﴾ في هذه الجملة ثلاثة أوجه ، أحدها : أنها مستأنفةٌ أخبر اللَّه تعالى عن السفينة بذلك . والثاني : أنها في محلِّ نصبٍ على الحال من الضمير المستتر في " بسم اللَّه " أي : جريانها استقرَّ بسم اللَّه حال كَوِنها جارية . والثالث : أنها حالٌ مِنْ شيءٍ محذوفٍ تضمَّنته جملةٌ دَلَّ عليها سياقُ الكلام . قال الزمخشري : " فإن قلت : بِمَ اتصل قوله : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ ﴾ ؟ قلت : بمحذوفٍ دلَّ عليه قوله ﴿ اركبوا فِيهَا بِسْمِ الله ﴾ كأنه قيل : فركبوا فيها يقولون : بسم اللَّه وهي تجري بهم .

وقوله : ﴿ بِهِمْ ﴾ يجوز فيه وجهان ، أحدهما : أن يتعلَّق ب " تَجْرِي " . والثاني : أنه متعلقٌ بمحذوفٍ أي : تجري ملتبسةً بهم ، ولذلك فَسَّره الزمخشري بقوله : " أي : تجري وهم فيها " .

(71/378)

والرُّسُوُّ : الثبات والاستقرار ، يقال : رَسَا يَرْسُو وأَرْسَيْتُه أنا . قال :

2661 فصَبَرْتُ نَفْساً عند ذلك حُرَّةً . . . تَرْسُو إذا نفسُ الجبان تَطَلَّعُ

أي : تثبت وتستقرُّ عندما تضطربُ وتتحرك نفسُ الجبان .

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) ﴾

قوله تعالى : ﴿ كالجبال ﴾ : صفةٌ ل " مَوْج " . قوله : " نوحٌ ابنَه " الجمهورُ على كسر تنوين " نوح " لالتقاء الساكنين . وقرأ وكيع/ بضمّه اتباعاً لحركة الإِعراب . واستَرْذَلَ أبو حاتم هذه القراءة وقال : " هي لغة سوء لا تُعرف " .

وقرأ العامة " ابنه " بوصل هاء الكناية بواو ، وهي اللغةُ الفصيحةُ الفاشية . وقرأ ابن عباس بسكون الهاء . قال بعضهم : " هذا مخصوصٌ بالضرورة وأنشد :

2662 وأَشْربُ الماء ما بِيْ نحوَه عَطَشٌ . . . إلا لأنَّ عيونَهْ سيلُ واديها

وبعضُهم لا يَخُصُّه بها . وقال ابن عطية : إنها لغةٌ لأَزْدٌ السراة ومنه قوله :

2663 . . . . ومِطْوايَ مُشْتاقان لَهْ أَرِقانِ

وقال بعضهم : " هي لغة عُقَيل وبني كلاب " .

وقرأ السدي : " ابناهْ " بألف وهاء السكت . قال ابن جني : " وهو على النداء " . وقال أبو البقاء : " ابناه : على التَرَثِّي وليس بندبة ، لأنَّ الندبةَ لا تكون بالهمزة " وهو كلامٌ مُشْكِلٌ في نفسه ، وأين الهمزةُ هنا ؟ إن عنى همزةَ النداءِ فلا نسلِّم أن المقدَّرَ مِنْ حروف النداء هو الهمزة ، لأنَّ النحاةَ نصُّوا على أنه لا يُضْمر في حروف النداء إلا " يا " لأنها أمُّ الباب . وقوله

: " الترّثي " هو قريب في المعنى من الندبة . وقد نَصُّوا على أنه لا يجوز حَذْفُ النداء من المندوب وهذا شبيه به .

(72/378)

وقرأ عليٌّ عليه السلام : " ابنها " إضافة إلى امرأته كأنه اعتبَرَ قولَه " ليس من أهلك " . وقوله : " ابني " و " من أهلي " لا يدلُّ له لاحتمالِ أن يكونَ ذلك لأجل الحنوّ ، وهو قول الحسن وجماعة .

وقرأ محمد بن علي وعروة والزبير : " ابْنَهَ " بهاء مفتوحة دون ألف ، وهي كالقراءةِ قبلَها ، إلا أنه حَذَفَ ألف " ها " مُجْتزئاً عنها بالفتحة ، كما تُحذف الياءُ مُجْتَزَأً عنها بالكسرة .

قال ابن عطية : " هي لغة " وأنشد :

2664 أمَا تقودُ بها شاةً فتأكُلُها . . . أو أنْ تبيعَهَ في بعض الأراكيبِ

يريد : " تبيعَها " فاجتزأ بالفتحة عن الألف ، كما اجتزأ الآخر عنها في قوله : أنشده ابن الأعرابي على ذلك .

2665 فلستُ براجعٍ ما فاتَ مني . . . بِلَهْفَ ولا بِلَيْتَ ولا لوَاني

يريد : يا لَهْفا ، فحذف ، وهذا يخصُّه بعضهم بالضرورة ، ويمنع في السَّعة يا غلامَ في يا غلاما

. قلت: وسيأتي في نحو: "يا أبتَ" بالفتح: هل ثَمَّ ألفٌ محذوفة أم لا؟ وتقدم لنا خلاف في نحو: يا بنَ أمَّ ويا بنَ عَمَّ: هل ثَمَّ ألفٌ محذوفة مجتزأٌ عنها بالفتحة أم لا؟ فهذا أيضاً كذلك ، ولكن الظاهرَ عدمُ اقتياسه .

وقد خطَّأ النحاس أبا حاتم في حَذْفِ هذه الألفِ ، وفيه نظرٌ .

قوله: ﴿ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ﴾ جملةٌ في موضع نصب على الحال ، وصاحبُها هو "ابنه" ، والحال تأتي مِن المنادى لأنه مفعول . والمَعْزِل بكسر الزاي اسم مكان العزلة . وكذلك اسم الزمان أيضاً ، وبالفتح هو المصدر . قال أبو البقاء : "ولم أعلم أحداً قرأ بالفتح" . قلت : لأنَّ المصدر ليس حاوياً له ولا ظرفه ، فكيف يُقرأ به إلا بمجاز بعيد ؟

(73/378)

وقرأ البزي وقالون وخلاَّد بإظهار ياء "اركب" قبل ميم "معنا" بخلافٍ عنهم ، والباقون بالإدغام ، وقرأ عاصم هنا "يا بنيَّ" بفتح الياء . وأمَّا في غير هذه السورة فإن حفصاً عنه فَعَل ذلك ، والباقون بكسر الياء في جميع القرآن إلا ابنَ كثيرٍ فإنه في الأول من لقمان وهو قوله : ﴿ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ [لقمان : 13] فإنه سكَّنه وصلاً ووقفاً ، وفي الثاني كغيره أعني أنه يكسر ياءه ، وحفص على أصله من فتحه . وفي الثالث وهو قولُه : ﴿ يا بني أَقِمِ الصلاة

﴿ [لقمان : 17] اختُلِف عنه ، فروى عنه البزي كحفصٍ ، وروى عنه قنبل السكون كالأول . هذا ضبطُ القراءة .

وأمّا تخريجُها فمَنْ فتح فقيل : أصلها : يا بُنَيَّا بالألف فحُذفت الألفُ تخفيفاً ، اجْتَزَأ عنها بالفتحة ، وقد تقدَّم من ذلك أمثلةٌ كثيرة . وقيل بل حُذِفت لالتقاء الساكنين ؛ لأنها وقع بعدها راءُ " اركب " وهذا تعليلٌ فاسدٌ جداً ، بدليل سقوطها في سورة لقمان في ثلاثة مواضعَ حيث لا ساكنان . وكأن هذا المُعَلِّلَ لم يَعْلم بقراءة عاصم في غيرِ هذه السورة ، ولا بقراءةِ البزي للأخير في لقمان ، وقد نَقَل ذلك أبو البقاء ولم يُنْكِره .

وأمّا مَنْ كَسَرَ فحُذِفت الياءُ أيضاً : إمّا تخفيفاً وهو الصحيح ، وإمّا لالتقاءِ الساكنين ، وقد تقدَّم فسادُه . وأمّا مَنْ سكَّن فلما رأى مِنْ الثّقَل مع مطلق الحركة ، ولا شك أن السكونَ أخفُّ مِنْ أخفِّ الحركات ، ولا يقال : فلِم/ وافق ابنُ كثير غيرَ حفصٍ في ثاني لقمان ، ووافق حفصاً في الأخيرة في رواية البزي عنه ، وسكَّن الأول ؟ لأنَّ ذلك جَمَعَ بين اللغات ، والمفرِّق آتٍ بمُحالٍ .

وأصلُ هذه اللفظةِ بثلاثِ ياءات : الأولى للتصغير ، والثانيةُ لامُ الكلمة ، وهل هي ياءٌ بطريق الأصالة أو مُبْدلَةٌ من واو ؟ خلافٌ تقدَّم تحقيقُه أولَ هذا الموضوعِ في لام " ابن " ما هي ؟ ، والثالثةُ ياءُ المتكلم مضافٌ إليها ، وهي التي طرَأَ عليها القلبُ ألفاً ثم الحذفُ ، أو الحذفُ وهي ياءٌ بحالِها .

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لاَ عَاصِمَ اليوم ﴾ : فيه أقوالٌ ، أحدها : أنه استثناءٌ منقطع ، وذلك أن تَجْعَلَ عاصماً على حقيقته ، ومَنْ رَحِم هو المعصوم ، وفي " رَحِم " ضميرٌ مرفوعٌ يعود على اللَّه تعالى ، ومفعولُه ضميرُ الموصولِ وهو " مَنْ " حُذِف لاستكمالِ الشروط ، والتقدير : لا عاصمَ اليومَ البتةَ مِنْ أمر الله ، لكن مَنْ رَحِمه اللهُ فهو معصوم . الثاني : أن يكونَ المرادُ ب " مَنْ رَحِم " هو الباري تعالى كأنه قيل : لا عاصمَ اليومَ إلا الراحمَ . الثالث : أن عاصماً بمعنى مَعْصوم ، وفاعِل قد يجيءُ بمعنى مفعول نحو : ماء دافق ، أي : مدفوق ، وأنشدوا :

2666 بطيءُ القيامِ رخيمُ الكلا . . . مِ أَمْسى فؤادي به فاتِنا

أي مفتوناً ، و " مَنْ " مرادٌ بها المعصومُ ، والتقدير : لا معصومَ اليومَ مِنْ أَمْرِ اللَّه إلا مَنْ رحمه اللَّه فإنه يُعْصَم . الرابع : أن يكون " عاصم " هنا بمعنى النَّسَب ، أي : ذا عِصْمة نحو : لابن وتامر ، وذو العصمة ينطلق على العاصم وعلى المعصوم ، والمرادُ به هنا المَعْصوم .

وهو على هذه التقاديرِ استثناءٌ متصلٌ ، وقد جعله الزمخشري متصلاً لمَدْرك آخرَ ، وهو

حذفُ مضافٍ تقديرُه : لا يعصمك اليومَ معتصِمٌ قط مِنْ جبلٍ ونحوِه سوى معتصمٍ واحد ، وهو مكان مَن رحمهم الله ونجَّاهم ، يعني في السفينة " .

(75/378)

وأمَّا خبرُ " لا " فالأحسنُ أن يُجْعل محذوفاً ، وذلك لأنه إذا دلَّ عليه دليلٌ وَجَبَ حذفُه عند تميم ، وكَثُر عند الحجاز ، والتقدير : لا عاصمَ موجودٌ . وجوَّز الحوفي وابن عطية أن يكون خبرُها هو الظرف وهو اليوم . قال الحوفي : " ويجوز أن يكونَ " اليوم " خبراً فيتعلَّق بالاستقرار ، وبه يتعلق { مِنْ أَمْرِ الله } . وقد ردَّ أبو البقاء ذلك فقال : " فأمَّا خبرُ " لا " فلا يجوز أن يكونَ " اليوم " ؛ لأنَّ ظرفَ الزمان لا يكون خبراً عن الجثة ، بل الخبر { مِنْ أَمْرِ الله } و " اليوم " معمولُ { مِنْ أَمْرِ الله } .

وأمَّا " اليومَ " و { مِنْ أَمْرِ الله } فقد تقدَّم أن بعضهم جعَل أحدَها خبراً ، فيتعلَّقُ الآخر بالاستقرار الذي يتضمنَّه الواقعُ خبراً . ويجوز في " اليوم " أن يتعلَّقَ بنفس { مِنْ أَمْرِ الله } لكونه بمعنى الفعل . وجوَّز الحوفي أن يكون " اليوم " نعتاً ل " عاصم " ، وهو فاسدٌ بما أفسدَ بوقوعِه خبراً عن الجثث .

وقُرِىء { إِلاَّ مَن رُحِمَ } مبنياً للمفعول ، وهي مقويةٌ لقول مَنْ يدَّعي أنَّ " مَنْ رَحِم " في

قراءة العامة المرادُ به المرحوم لا الراحم ، كما تقدَّم تأويله . ولا يجوز أن يكون " اليوم " ولا ﴿ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ متعلّقين ب " عاصم " وكذلك الواحد منهما ؛ لأنه كان يكون الاسمُ مطوّلاً ، ومتى كان مطوّلاً أُعْرِبَ ، ومتى أُعرب نوِّن ، ولا عبرةَ بخلاف الزجاج : حيث زعم أن اسمَ " لا " معربٌ حُذِفَ تنوينُه تخفيفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 333.324 ﴾

(76/378)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) ﴾

عَرَفَ أَنَّ نجاته من القَطْرة لمَّا تقاطرَتْ ليست بالحِيَل - وإنْ تنوّعَتْ وكَثُرَتْ ، فباسم اللّهِ سلامتُه ، وبتوكلِه على الله نجاتُه وراحتُه ، وبتفضله - سبحانه - صلاحُه وعافيته .

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) ﴾

وكان في معزل بظاهره ، وكان في سرِّ تقديره أيضاً بمعزلٍ عما سبق لنوح وقومه ما سابق

فضله . فحينما نطق بلسان الشفقة وقال : ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾

- لم يقل له : ولا تكن من الكافرين ؛ لأن حالته كانت مُلْتبسة على نوح إذ كان ابنُه ينافقه -

فقيل له : يا نوح إنه مع الكافرين لأنه في سابق حُكْمِنا من الكافرين .

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) ﴾

أَخْطأَ مِنْ وجهين : رأى الهلاكَ من الماءِ وكان مِنَ اللَّهِ ، ورأى النجاةَ والعِصمةَ من الجبل وهما من الله ، فقال له نوح : لا عاصِمَ اليومَ من أمرِ الله . قيل أراد لا معصومَ اليوم من الله .

وقيل لا أحدَ يَعْصِم أحداً من أمر الله ، لكنْ مَنْ رَحِمَه ربُّه فهو معصومٌ من ذلك ، وله عاصمٌ وهو الله .

ولقد كان نوح - عليه السلام - مع ابنه في هذه المخاطبات فجاءت أمواجُ الماءِ وحالَتْ بينهما وصار من المُغْرَقين ، فلا وعظُه ونُصْحُه نفعاه ، ولا قولُه وتذكيره نَجَّيَاه وخَلَصَّاه .

ويقال احتمل أن لو قيل له نوح عرِّفْنَا العَالَم بدعائك ولا عليكَ إِنْ عَرَفَ . انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 137.138 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان كل شيء دون مقام الجلال والكبرياء والعزة بأمر لا يعلمه إلا الله ، دل على ذلك بأداة البعد فقال ﴿ يا أرض ابلعي ﴾ أي اجذبي من غير مضغ إلى مكان خفي بالتدريج ، وعين المبلوع لئلا يعم فتبتلع كل شيء على ظهرها من جبل وغيره ، ولذلك أفرد ولم يجمع فقال : ﴿ ماءك ﴾ أي الذي تجدد على ظهرك للإغراق ليكون كالغذاء للآكل الذي يقوي بدنه فيقوى به على الإنبات وسائر المنافع وجعله ماءها لاتصاله بها اتصال الملك بالمالك ﴿ ويا سماء أقلعي ﴾ أي أمسكي عن الإمطار ، ففعلتا مبادرتين لأمر الملك الذي لا يخرج عن مراده شيء ﴿ وغيض الماء ﴾ أي المعهود ، حكم عليه بالدبوب في أعماق الأرض ، من المتعدي فإنه يقال : غاض الماء وغاضه الله ، كما يقال : نقض الشيء ونقضته أنا ﴿ وقضي الأمر ﴾ أي فرغ وانبتّ وانبرم في إهلاك من هلك ونجاة من نجا كما أراد الجليل على ما تقدم به وعده نوحاً عليه السلام ، لم يقدر أحد أن يحبسه عنهم ولا أن يصرفه ولا أن يؤخره دقيقة ولا أصغر منها .

فليحمد الله من أخر عنه العذاب ولا يقل ما "يحبسه" لئلا يأتيه مثل ما أتى هؤلاء أو من بعدهم ﴿ واستوت ﴾ أي استقرت واعتدلت السفينة ﴿ على الجودي ﴾ إشارة باسمه إلى أن الانتقام العام قد مضى ، وما بقي إلا الجود بالماء والخير والخصب والرحمة العامة ، وهو الجبل بالموصل بعد خمسة أشهر ؛ قال قتادة : استقلت بهم لعشر خلون من رجب وكانت في الماء خمسين ومائة يوم ، واستقرت بهم على الجودي شهراً ، وهبط بهم يوم عاشوراء ﴿ وقيل ﴾ أي إعلاماً بهوان المهلكين والراحة منهم ﴿ بعداً ﴾ هو من بعد - بالكسر مراداً به البعد من حيث الهلاك ، فإن حقيقته بعدُ بعيد لا يرجى منه عود ، ثم استعير للهلاك وخص بدعاء السوء ، وعبر بالمصدر لتعليقه باللام الدالة على الاستحقاق والختصاص ﴿ للقوم ﴾ أي المعهودين في هذه القصة التي كان فيها من شدة القيام فيما يحاولونه ما لا يعلمه أحد إلا الله ﴿ الظالمين ﴾ أي العريقين في الظلم ، وهذه الآية تسع عشرة لفظة فيها أحد وعشرون نوعاً من البديع - عدها أبو حيان وقال : وروي أن أعرابياً سمعها فقال : هذا كلام القادرين .

وذكر الرماني عدة من معانيها ، منها إخراج الأمر على جهة التعظيم لفاعله من غير معاناة ولا لغوب ، ومنا حسن تقابل المعاني ، ومنها حسن ائتلاف الألفاظ ، ومنها حسن البيان في تصوير الحال ، ومنها الإيجاز من غير إخلال ، ومنها تقبل الفهم على أتم الكمال ؛ والبلع :

إجراء الشيء في الحلق إلى الجوف ؛ والإقلاع : إذهاب الشيء من أصله حتى لا يبقى له أثر ؛ والغيض : غيبة الماء في الأرض على جهة النشف وإبراز الكلام على البناء للمفعول أدل على الكبرياء والعظمة للفاعل للإشارة إلى أنه معلوم لأنه لا يقدر على مثل هذه الأفعال غيره ، ونقل الأصبهاني عن صاحب المفتاح فيها كلاماً أغلى من الجوهر . انتهى انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 533 . 534 ﴾

(79/378)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾

اعلم أن المقصود من هذا الكلام وصف آخر لواقعة الطوفان ، فكان التقدير أنه لما انتهى أمر الطوفان قيل كذا وكذا ﴿ يا أرض ابلعى مَاءكِ ﴾ يقال بلع الماء يبلعه بلعاً إذا شربه وابتلع الطعام ابتلاعاً إذا لم يمضغه ، وقال أهل اللغة : الفصيح بلع بكسر اللام يبلع بفتحها ﴿ ويا سماء أَقْلِعِى ﴾ يقال أقلع الرجل عن عمله إذا كف عنه ، وأقلعت السماء بعدما مطرت إذا أمسكت ﴿ وَغِيضَ الماء ﴾ يقال غاض الماء يغيض غيضاً ومغاضاً إذا نقص وغضته

أنا وهذا من باب فعل الشيء وفعلته أنا ومثله جبر العظم وجبرته وفغر الفم وفغرته، ودلع اللسان ودلعته، ونقص الشيء ونقصته، فقوله: ﴿ وَغِيضَ الماء ﴾ أي نقص وما بقي منه شيء.

واعلم أن هذه الآية مشتملة على ألفاظ كثيرة كل واحد منها دال على عظمة الله تعالى وعلو كبريائه: فأولها: قوله: ﴿ وَقِيلَ ﴾ وذلك لأن هذا يدل على أنه سبحانه في الجلال والعلو والعظمة، بحيث أنه متى قيل قيل لم ينصرف العقل إلا إليه ولم يتوجه الفكر إلا إلى أن ذلك القائل هو هو وهذا تنبيه من هذا الوجه، على أنه تقرر في العقول أنه لا حاكم في العالمين ولا متصرف في العالم العلوي والعالم السفلي إلا هو.

وثانيها: قوله: ﴿ يا أرض ابلعى مَاءكِ ويا سماء أَقْلِعى ﴾ فإن الحس يدل على عظمة هذه الأجسام وشدتها وقوتها فإذا شعر العقل بوجود موجود قاهر لهذه الأجسام مستول عليها متصرف فيها كيف شاء وأراد، صار ذلك سبباً لوقوف القوة العقلية على كمال جلال الله تعالى وعلو قهره، وكمال قدرته ومشيئته.

وثالثها : أن السماء والأرض من الجمادات فقوله : ﴿ يا أرض – ويا سماء ﴾ مشعر بحسب الظاهر ، على أن أمره وتكليفه نافذ في الجمادات فعند هذا يحكم الوهم بأنه لما كان الأمر كذلك فلأن يكون أمره نافذاً على العقلاء كان أولى وليس مرادي منه أنه تعالى يأمر الجمادات فإن ذلك باطل بل المراد أن توجيه صيغة الأمر بحسب الظاهر على هذه الجمادات القوية الشديدة يقرر في الوهم نوع عظمته وجلاله تقريراً كاملاً .

وأما قوله : ﴿ وَقُضِيَ الأمر ﴾ فالمراد أن الذي قضى به وقدره في الأزل قضاء جزماً حتماً فقد وقع تنبيهاً على أن كل ما قضى الله تعالى فهو واقع في وقته وأنه لا دافع لقضائه ولا مانع من نفاذ حكمه في أرضه وسمائه .

فإن قيل : كيف يليق بحكمة الله تعالى أن يغرق الأطفال بسبب جرم الكفار ؟

قلنا : الجواب عنه من وجهين : الأول : أن كثيراً من المفسرين يقولون إن الله تعالى أعقم أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة فلم يغرق إلا من بلغ سنه إلى الأربعين .

ولقائل أن يقول : لو كان الأمر على ما ذكرتم ، لكان ذلك آية عجيبة قاهرة .

ويبعد مع ظهورها استمرارهم على الكفر ، وأيضاً فهب أنكم ذكرتم ما ذكرتم فما قولكم في إهلاك الطير والوحش مع أنه لا تكليف عليها ألبتة .

والجواب الثاني : وهو الحق أنه لا اعتراض على الله تعالى في أفعاله ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 23] وأما المعتزلة فهم يقولون إنه تعالى أغرق الأطفال

والحيوانات ، وذلك يجري مجرى إذنه تعالى في ذبح هذه البهائم وفي استعمالها في الأعمال الشاقة الشديدة .

وأما قوله تعالى : ﴿ واستوت عَلَى الجودى ﴾ فالمعنى واستوت السفينة على جبل بالجزيرة يقال له الجودي ، وكان ذلك الجبل جبلاً منخفضاً ، فكان استواء السفينة عليه دليلاً على انقطاع مادة ذلك الماء وكان ذلك الاستواء يوم عاشوراء .

(81/378)

وأما قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ ففيه وجهان : الأول : أنه من كلام الله تعالى قال لهم ذلك على سبيل اللعن والطرد .

والثاني : أن يكون ذلك من كلام نوح عليه السلام وأصحابه لأن الغالب ممن يسلم من الأمر الهائل بسبب اجتماع قوم من الظلمة فإذا هلكوا ونجا منهم قال مثل هذا الكلام ولأنه جار مجرى الدعاء عليهم فجعله من كلام البشر أليق . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 187 . 188﴾

(82/378)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءَكِ ﴾

جعل نزول الماء فيها بمنزلة البلع ، ومعناه ابلعي الماء الذي عليك ، فروى الحسن والحسين عليهما السلام أن بعض البقاع امتنع أن يبلع ماءه فصار ماؤه مراً وترابه سبخا .

﴿ ويا سماء أقلعي ﴾ أي لا تمطري ، من قولهم أقلع عن الشيء إذا تركه .

﴿ وغيض الماء ﴾ أي نقص حتى ذهبت زيادته عن الأرض . ﴿ وَقضي الأمر ﴾ يعني بهلاك من غرق من قوم نوح .

﴿ وَاستوت ﴾ يعني السفينة .

﴿ على الجودي ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه جبل بالموصل ، قاله الضحاك .

الثاني : أنه جبل بالجزيرة ، قاله مجاهد . قال قتادة . هو بباقردى من أرض الجزيرة .

الثالث : أن الجودي اسم لكل جبل ، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل .

سبحانه ثم سُبحاناً يعود له . . . وقبلنا سبح الجوديُّ والجمد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ﴾

وقف قوم على ظاهر الآية ، وقالوا : إنما ابتلعت مانبع منها ، ولم تبتلع ماء السماء ، فصار ذلك بحاراً وأنهاراً ، وهو معنى قول ابن عباس .

وذهب آخرون إلى أن المراد : ابلعي ماءك الذي عليك ، وهو ما نبع من الأرض ونزل من السماء ، وذلك بعد أن غرق ما على وجه الأرض .

قوله تعالى : ﴿ ويا سماء أقلعي ﴾ أي : أمسكي عن إنزال الماء .

قال ابن الأنباري : لما تقدم ذكر الماء ، عُلم أن المعنى : أقلعي عن إنزال الماء .

قوله تعالى : ﴿ وغيض الماء ﴾ أي : نقص .

قال الزجاج : يقال : غاض الماء يغيض : إذا غاب في الأرض .

ويجوز إشمام الضم في الغين .

قوله تعالى : ﴿ وقضي الأمر ﴾ قال ابن عباس : غرق مَنْ غرق ، ونجا مَنْ نجا .

وقال مجاهد : قضي الأمر : هلاك قوم نوح.

وقال ابن قتيبة : "وقضي الأمر" أي : فرغ منه .

قال ابن الأنباري : والمعنى : أُحكمتْ هلكة قوم نوح ، فلما دلت القصة على ما يبيِّن هلكتهم ، أغنى عن نعت الأمر .

قوله تعالى : ﴿ واستوت ﴾ يعني السفينة ﴿ على الجوديّ ﴾ وهو اسم جبل .

وقرأ الأعمش ، وابن أبي عبلة : "على الجودي" بسكون الياء .

قال ابن الأنباري : وتشديد الياء في "الجوديّ" لأنها ياء النسبة ، فهي كالياء في علوي ، وهاشمي .

وقد خففها بعض القراء .

ومن العرب من يخفف ياء النسبة ، فيسكنها في الرفع ، والخفض ، ويفتحها في النصب ، فيقول : قام زيد العلوي ، ورأيت زيداً العلوي .

قال ابن عباس : درات السفينة بالبيت أربعين يوماً ، ثم وجهها الله إلى الجودي فاستقرت عليه .

واختلفوا أين هذا الجبل على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه بالموصل ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك .

والثاني : بالجزيرة ، قاله مجاهد ، وقتادة .

وقال مقاتل : هو بالجزيرة قريب من الموصل .

والثالث : أنه بناحية آمِد ، قاله الزجاج.

وفي علة استوائها عليه قولان :

(84/378)

أحدهما : أنه لم يغرق ، لأن الجبال تشامخت يومئذ وتطاولت ، وتواضع هو فلم يغرق ، فأرست عليه ، قاله مجاهد .

والثاني : أنه لما قلَّ الماء أَرْسَتْ عليه ، فكان استواؤها عليه دلالة على قلة الماء .

قوله تعالى : ﴿ وقيل بُعْدًا للقوم الظالمين ﴾ قال ابن عباس : بُعداً من رحمة الله للقوم الكافرين .

فإن قيل : ما ذنب من أُغرق من البهائم والأطفال ؟ فالجواب : أنَّ آجالهم حضرت ، فأُميتوا بالغرق ، قاله الضحاك ، وابن جريج . انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(85/378)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يا أرض ابلعي مَآءَكِ ويا سمآء أَقْلِعِي ﴾

هذا مجاز لأنها موات .

وقيل : جعل فيها ما تُميّز به .

والذي قال إنه مجاز قال : لو فُتّش كلام العرب والعجم ما وجد فيه مثل هذه الآية على حسن نظمها ، وبلاغة رصفِها ، واشتمال المعاني فيها .

وفي الأثر : إن الله تعالى لا يخلي الأرض من مطر في عام أو عامين ، وأنه ما نزل من السماء ماء قطّ إلا بحفظ مَلك موكّل به إلا ما كان من ماء الطوفان ؛ فإنه خرج منه ما لا يحفظه الملَك .

وذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَآءَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجارية ﴾ [الحاقة : 11] فجرت بهم السفينة إلى أن تناهي الأمر ؛ فأمر الله الماء المنهمر من السماء بالإمساك ، وأمر الله الأرض بالابتلاع .

يقال : بلَع الماء يبلَعه مثل منع يمنع وبَلِع يبلَع مثل حمِد يحمَد ؛ لغتان حكاهما الكسائيّ والفرّاء .

والبالُوعة الموضع الذي يشرب الماء .

قال ابن العربي : التقى الماءان على أمر قد قدر ، ما كان في الأرض وما نزل من السماء ؛

فأمر الله ما نزل من السماء بالإقلاع، فلم تمصّ الأرض منه قطرة، وأمر الأرض بابتلاع ما خرج منها فقط.

وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يا أرض ابلعي مَآءَكِ ويا سمآء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمآء ﴾ وقيل: ميّز الله بين الماءين، فما كان من ماء الأرض أمرها فبلعته، وصار ماء السماء بحاراً.

قوله تعالى: ﴿ وَغِيضَ الْمآء ﴾ أي نقص؛ يقال: غاض الشيءُ وغِضته أنا؛ كما يقال: نَقَص بنفسه ونَقَصه غيره، ويجوز "غيض" بضم الغين.

﴿ وَقُضِيَ الأمر ﴾ أي أحكم وفرغ منه؛ يعني أهلك قوم نوح على تمام وإحكام.

ويقال: إن الله تعالى أعقم أرحامهم أي أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة، فلم يكن فيمن هلك صغير.

والصحيح أنه أهلك الوِلدان بالطّوفان، كما هلكت الطير والسباع، ولم يكن الغرق عقوبة للصبيان والبهائم والطير، بل ماتوا بآجالهم.

(86/378)

وحكي أنه لما كثر الماء في السّكك خشيت أمّ صبيّ عليه؛ وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت به إلى الجبل، حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثيه، فلما

بلغها الماء استوت على الجبل ؛ فلما بلغ الماء رقبتها رفعت يديها بابنها حتى ذهب بها الماء ؛ فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أمّ الصبي .

قوله تعالى : ﴿ واستوت عَلَى الجودي وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ أي هلاكاً لهم .

الجُوديّ جبل بقرب المَوْصل ؛ استوت عليه في العاشر من المحرّم يوم عاشوراء ؛ فصامه نوح وأمر جميع من معه من الناس والوحش والطير والدواب وغيرها فصاموه ، شكراً لله تعالى ؛ وقد تقدّم هذا المعنى .

وقيل : كان ذلك يوم الجمعة .

وروي أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسي على واحد منها فتطاولت ، وبقي الجُوديّ لم يتطاول تواضعاً لله ، فاستوت السّفينة عليه : وبقيت عليه أعوادها .

وفي الحديث أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لقد بقي منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة " .

وقال مجاهد : تشامخت الجبال وتطاولت لئلا ينالها الغرق ؛ فعلا الماء فوقها خمسة عشر ذراعاً ، وتطامن الجوديّ ، وتواضع لأمر الله تعالى فلم يغرق ، ورست السفينة عليه .

وقد قيل : إن الجوديّ اسم لكل جبل ؛ ومنه قول زيد بن عمرو بن نُفَيل :

سُبحانه ثمّ سُبحاناً يَعودُ له . . .

وقَبْلَنا سَبّحَ الجُوديُّ والجَمَدُ

ويقال : إن الجُوديّ من جبال الجنة ؛ فلهذا استوت عليه .

ويقال : أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر : الجوديّ بنوح ، وطورسيناء بموسى ، وحِراء بمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

مسألة : لما تواضع الجوديّ وخضع عزَّ ، ولما ارتفع غيره واستعلى ذَلّ ، وهذه سُنّة الله في خلقه ، يرفع من تخشّع ، ويضع من ترفّع ؛ ولقد أحسن القائل :

وإذا تذلّلتِ الرّقابُ تَخشُّعاً . . .

مِنّا إليكَ فعِزُّها في ذلِّها

(87/378)

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال : كانت ناقة للنبي صلى الله عليه وسلم تُسمَّى العَضْباء ؛ وكانت لا تُسبق ؛ فجاء أعرابيّ على قعودٍ له فسبقها ، فاشتدّ ذلك على المسلمين ؛ وقالوا : سُبِقت العضباء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن حقّاً على الله ألا يَرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه" .

وخرج مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما نَقَصت صدقةٌ من مالٍ وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزّاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله" .

وقال صلى الله عليه وسلم : " إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يَبغِي أحد على أحد ولا يَفخر أحد على أحد " .

خرجه البخاريّ .

مسألة : نذكر فيها من قصة نوح مع قومه وبعض ذكر السفينة .

ذكر الحافظ ابن عساكر في التاريخ له عن الحسن : أن نوحاً أوّل رسول بعثه الله إلى (أهل) الأرض ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ [العنكبوت : 14] .

وكان قد : كثرت فيهم المعاصي ، وكثرت الجبابرة وعَتَوْا عُتُوّاً كبيرا ، وكان نوح يدعوهم ليلاً ونهارا ، سرّاً وعلانية ، وكان صبوراً حليماً ، ولم يلق أحد من الأنبياء أشدّ مما لقي نوح ؛ فكانوا يدخلون عليه فيخنقونه حتى يترك وقيدا ، ويضربونه في المجالس ويطرد ؛ وكان لا يدعو على من يصنع به بل يدعوهم ويقول : "رَبّ اغفر لقومي فإنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ" فكان لا يزيدهم ذلك إلا فراراً منه ، حتى أنه ليكلم الرجل منهم فيلفّ رأسه بثوبه ، ويجعل أصبعيه في أذنيه لكيلا يسمع شيئاً من كلامه ، فذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جعلوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ واستغشوا ثِيَابَهُمْ ﴾ [نوح : 7] .

وقال مجاهد وعُبيد بن عمير: كانوا يضربونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال: "رَبِّ اغفر لِقَوْمي فَإنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ".

وقال ابن عباس: إن نوحاً كان يضرب ثم يُلفّ في لِبد فيلقى في بيته يرون أنه قد مات، ثم يخرج فيدعوهم؛ حتى إذا يئس من إيمان قومه جاءه رجل ومعه ابنه وهو يتوكأ على عصا؛ فقال: يا بُنيّ انظر هذا الشيخ لا يغرّنك، قال: يا أبت أمكنّي من العصا، (فأمكنه) فأخذ العصا ثم قال: ضعني في الأرض فوضعه، فمشى إليه بالعصا فضربه فشجه شجة مُوضِحة في رأسه، وسالت الدماء؛ فقال نوح: "ربّ قد ترى ما يفعل بي عبادك فإن يك لك في عبادك خيرية فاهدهم وإن يك غير ذلك فصبّرني إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين" فأوحى الله إليه وآيسه من إيمان قومه، وأخبره أنه لم يبق في أصلاب الرجال ولا في أرحام النساء مؤمن؛ قال: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾؛ أي لا تحزن عليهم.

﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [هود: 37] قال: يا رب وأين الخشب؟ قال: اغرس الشجر.

قال: فَغرس السّاج عشرين سنة، وكفّ عن الدعاء، وكفّوا عن الاستهزاء، وكانوا يسخرون منه؛ فلما أدرك الشجرُ أمره ربه فقطعها وجفّفها: فقال: يا رب كيف أتخذ هذا

البيت؟ قال: اجعله على ثلاثة صور؛ رأسه كرأس الدّيك، وجؤجؤه كجؤجؤ الطير، وذَنبه كذَنب الديك؛ واجعلها مطبقة واجعل لها أبواباً في جنبها، وشدّها بدُسُرٍ، يعني مسامير الحديد.

وبعث الله جبريل فعلمه صنعة السفينة، وجعلت يده لا تخطىء.

(89/378)

قال ابن عباس: كانت دار نوح عليه السلام دمشق، وأنشأ سفينته من خشب لبنان بين زمزم وبين الركن والمقام، فلما كملت حمل فيها السباع والدواب في الباب الأوّل، وجعل الوحش والطير في الباب الثاني، وأطبق عليهما، وجعل أولاد آدم أربعين رجلاً وأربعين امرأة في الباب الأعلى وأطبق عليهم، وجعل الذّر معه في الباب الأعلى لضعفها ألا تطأها الدوابّ.

قال الزُّهريّ: إن الله عز وجل بعث ريحاً فحمل إليه من كل زوجين اثنين؛ من السباع والطير والوحش والبهائم.

وقال جعفر بن محمد: بعث الله جبريل فحشرهم، فجعل يضرب بيديه على الزوجين فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى، فيدخله السفينة.

وقال زيد بن ثابت : استصعبت على نوح الماعزة أن تدخل السفينة ، فدفعها بيده في ذنبها ؛ فمن ثَم انكسر ذنبها فصار مَعْقوفاً وبدا حَياؤها .

ومضت النعجة حتى دخلت فمسح على ذنبها فستر حياؤها ؛ قال إسحق : أخبرنا رجل من أهل العلم أن نوحاً حمل أهل السفينة ، وجعل فيها من كل زوجين اثنين ، وحمل من الهدهد زوجين ، فماتت الهدهدة في السفينة قبل أن تظهر الأرض ، فحملها الهدهد فطاف بها الدنيا ليصيب لها مكاناً ، فلم يجد طيناً ولا تراباً ، فرحمه ربه فحفر لها في قفاه قبراً فدفنها فيه ، فذلك الريش الناتىء في قفا الهدهد موضع القبر ؛ فلذلك نتأت أقفية الهداهد .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كان حمل نوح معه في السفينة من جميع الشجر وكانت العجوة من الجنة مع نوح في السفينة " .

وذكر صاحب كتاب "العروس" وغيره : أن نوحاً عليه السلام لما أراد أن يبعث من يأتيه بخبر الأرض قال الزّجاج : أنا ؛ فأخذها وختم على جناحها وقال لها : أنت مختومة بخاتمي لا تطيري أبداً ، أنت ينتفع بك أمتي ؛ فبعث الغراب فأصاب جيفة فوقع عليها فاحتبس فلعنه ، ولذلك يقتل في (الحل) والحَرَم ودعا عليه بالخوف ؛ فلذلك لا يألف البيوت .

وبعث الحمامة فلم تجد قراراً فوقعت على شجرة بأرض سيناء فحملت ورقة زيتونة ، ورجعت إلى نوح فعلم أنها لم تستمكن من الأرض ، ثم بعثها بعد ذلك فطارت حتى وقعت بوادي الحرم ، فإذا الماء قد نضب من مواضع الكعبة ، وكانت طينتها حمراء ، فاختضبت رجلاها ، ثم جاءت إلى نوح عليه السلام فقالت : بشراي منكَ أن تهب لي الطوق في عنقي ، والخِضاب في رجلي ، وأسكنُ الحرَمَ ؛ فمسح يده على عنقها وطوقها ، ووهب لها الحمرة في رجليها ، ودعا لها ولذريتها بالبركة .

وذكر الثعلبيّ أنه بعث بعد الغراب التُّدْرُج وكان من جنس الدّجاج ؛ وقال : إياك أن تعتذر ، فأصاب الخضرة والفرجة فلم يرجع ، وأخذ أولاده عنده رهناً إلى يوم القيامة . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(91/378)

وقال الخازن :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾

﴿ وقيل ﴾ يعني بعد ما تناهى الطوفان وأغرق الله قوم نوح ﴿ يا أرض ابلعي ماءك ﴾

أي اشربيه ﴿ ويا سماء أقلعي ﴾ أي أمسكي ﴿ وغيض الماء ﴾ أي نقص ونضب يقال غاض الماء إذا نقص وذهب ﴿ وقضي الأمر ﴾ يعني وفرغ من الأمر وهو هلاك قوم نوح ﴿ واستوت ﴾ يعني واستقرت السفينة ﴿ على الجودي ﴾ وهو جبل بالجزيرة بقرب الموصل ﴿ وقيل بعداً ﴾ يعني هلاكاً ﴿ للقوم الظالمين ﴾ قال العلماء : بالسير لما استقرت السفينة بعث نوح الغراب ليأتيه بخبر الأرض فوقع على جيفة فلم يرجع إليه فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون في منقارها ولطخت رجليها بالطين ، فعلم نوح أن الماء قد ذهب فدعا على الغراب بالخوف فلذلك لا يألف البيوت وطوق الحمامة بالخضرة التي في عنقها ودعا لها بالأمان فمن ثم تألف البيوت وروي أن نوحاً عليه السلام ركب السفينة لعشر بقين من رجب وجرت بهم السفينة ستة أشهر ومرت بالبيت الحرام وقد رفعه الله من الغرق وبقي موضعه فطافت السفينة به سبعاً وأودع الحجر الأسود جبل أبي قبيس وهبط نوح ومن معه في السفينة يوم عاشوراء فصامه نوح عليه السلام وأمر جميع من معه بصيامه شكراً لله تعالى وبنوا قرية بقرب الجبل فسميت سوق ثمانين فهي أول قرية عمرت على وجه الأرض بعد الطوفان ، وقيل : إنه لم ينج أحد من الكفار من الغرق غير عوج بن عنق وكان الماء يصل إلى حجزته وسبب نجاته من الهلاك أن نوحاً عليه السلام احتاج إلى خشب ساج لأجل السفينة فلم يمكنه نقله فحمله عوج بن عنق من الشام إلى نوح فنجاه الله من الغرق لذلك .

فإن قلت : كيف اقتضت الحكمة الإلهية والكرم العظيم إغراق من لم يبلغوا الحلم من الأطفال ولم يدخلوا تحت التكليف بذنوب غيرهم .

(92/378)

قلت : ذكر بعض المفسرين أن الله أعقم أرحام نسائهم أربعين سنة فلم يولد لهم ولد تلك المدة وهذا الجواب ليس بقوي لأنه يرد عليه إغراق جميع الدواب والهوام والطير وغير ذلك من الحيوان ويرد على ذلك أيضاً إهلاك أطفال الأمم الكافرة مع آبائهم غير قوم نوح .

والجواب الشافي عن هذا كله أن الله سبحانه وتعالى متصرف في خلقه وهو المالك المطلق يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(93/378)

وقال أبو حيان :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾

البلع : معروف ، والفعل منه بلع بكسر اللام وبفتحها لغتان حكاهما الكسائي والفراء ، يبلع بلعاً ، والبالوعة الموضع الذي يشرب الماء .

الإقلاع : الإمساك ، يقال : أقلع المطر ، وأقلعت الحمى ، أي أمسكت عن المحموم .

وقيل : أقلع عن الشيء تركه ، وهو قريب من الإمساك .

غاض الماء نقص في نفسه ، وغضته نقصته ، جاء لازماً ومتعدياً .

الجودي : علم لجبل بالموصل ، ومن قال بالجزيرة أو بآمد ، فلأنهما قريبان من الموصل .

وقيل الجودي : اسم لكل جبل ، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل :

سبحانه ثم سبحانا نعوذ له . . .

وقبلنا سبح الجودي والجمد

﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين .

قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين .

قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾ : قال الزمخشري : نادى الأرض والسماء بما ينادي به الإنسان المميز على لفظ

التخصيص ، والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات وهو قوله : يا أرض ويا سماء ، ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله : ابلعي ماءك وأقلعي ، من الدلالة على الاقتدار العظيم ، وأنّ السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء ، غير ممتنعة عليه كأنها عقلاء مميزون ، قد عرفوا عظمته وجلاله وثوابه وعقابه ، وقدرته على كل مقدور ، وتبينوا تحتم طاعته عليهم وانقيادهم له ، وهم يهابونه ويفرعون من التوقف دون الامتثال له والنزول عن مشيئته على الفور من غير ريب .

فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولاً لا حبس ولا بطء .

(94/378)

وبسط الزمخشري وذيل في هذا الكلام الحسن ، قال الحسن : يدل على عظمة هذه الأجسام ، والحق تعالى مستول عليها متصرف فيها كيف يشاء ، وأراد فصار ذلك سبباً لوقوف القوة العقلية على كمال جلال الله تعالى وعلوّ قدرته وهيبته انتهى .

وبناء الفعل في وقيل وما بعدها للمفعول أبلغ في التعظيم والجبروت وأخصر .

قال الزمخشري : ومجيء أخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء ، وأن تلك الأمور العظام لا يكون إلا بفعل فاعل قادر ، وتكوين مكون قاهر ، وأن فاعل هذه

الأفعال فاعل واحد لا يشارك في أفعاله ، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ، ولا أن يقضي ذلك الأمر الهائل غيره ، ولا أن تستوي السفينة عل الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره .

ولما ذكرنا من المعاني والنكت واستفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم ، لا لتجانس الكلمتين وهما قوله : ابلعي واقلعي ، وذلك وان كان الكلام لا يخلو من حسن ، فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللب ، وما عداها قشور انتهى .

وأكثره خطابة ، وهذا النداء والخطاب بالأمر هو استعارة مجازية ، وعلى هذا جمهور الحذاق .

وقيل : إن الله تعالى أحدث فيهما إدراكاً وفهماً لمعاني الخطاب .

وروي أن أعرابياً سمع هذه الآية فقال : هذا كلام القادرين ، وعارض ابن المقفع القرآن فلما وصل إلى هذه الآية أمسك عن المعارضة وقال : هذا كلام لا يستطيع أحد من البشر أن يأتي بمثله .

وقال ابن عباس في قوله : وقضي الأمر ، غرق من غرق ، ونجا من نجا .

وقال مجاهد : قضي الأمر بهلاكهم ، وقال ابن قتيبة ، قضي الأمر فرغ منه ، وقال ابن الأنباري : أحكمت هلكة قوم نوح ، وقال الزمخشري : أنجز ما وعد الله نوحاً من هلاك قومه .

واستوت أي استقرت السفينة على الجودي، واستقرارها يوم عاشوراء من المحرّم قاله: ابن عباس، والضحاك.

وقيل: يوم الجمعة، وقيل: في ذي الحجة.

(95/378)

وأقامت على الجودي شهراً، وهبط بهم يوم عاشوراء.

وذكروا أن الجبال تطاولت وتخاشع الجودي.

وحديث بعث نوح عليه السلام الغراب والحمامة ليأتياه بخبر كمال الغرق الله أعلم بما كان من ذلك.

وقرأ الأعمش وابن أبي عبلة على الجودي بسكون الياء مخففة.

قال ابن عطية: وهما لغتان، وقال صاحب اللوامح: هو تخفيف ياءي النسب، وهذا التخفيف بابه الشعر لشذوذه، والظاهر أن قوله: وقيل بعداً من قول الله تعالى كالأفعال السابقة، وبنى الجميع للمفعول للعلم بالفاعل، وقيل: من قول نوح والمؤمنين، قيل: ويحتمل أن يكون من قول الملائكة، قيل: ويحتمل أن يكون ذلك عبارة عن بلوغ الأمر ذلك المبلغ وإن لم يكن، ثم قول محسوس.

ومعنى بعد هلاكاً يقال : بعد يبعد بعداً وبعداً إذا هلك ، واللام في للقوم من صلة المصدر .

وقيل : تتعلق بقوله : وقيل ، والتقدير وقيل لأجل الظالمين ، إذ لا يمكن أن يخاطب الهالك إلا على سبيل المجاز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(96/378)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي ﴾

أي انشفي ، استُعير له من ازدراد الحيوان ما يأكُله للدِلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتادِ التدريجيّ ﴿ مَاءكِ ﴾ أي ما على وجهك من ماء الطوفانِ دون المياهِ المعهودةِ فيها من العيون والأنهارِ ، وعبّر عنه فيما سلف بأمر الله تعالى لأن المقامَ مقامُ النقص والتقليلِ لا مقامُ التفخيمِ والتهويلِ ﴿ ويا سماء أَقْلِعِى ﴾ أي أمسِكي عن إرسال المطرِ ، يقال : أقلعت السماءُ إذا انقطع مطرُها وأقلعت الحُمّى أي كفّت ﴿ وَغِيضَ الماء ﴾ أي نقص ما بين السماءِ والأرض من الماء ﴿ وَقُضِىَ الأمر ﴾ أي أُنجز ما وعد الله تعالى نوحاً من إهلاك قومِه وإنجائِه بأهله أو أُتِمَّ الأمر ﴿ واستوت ﴾ أي استقرّت الفلكُ ﴿ عَلَى الجودى ﴾ هو جبل بالمَوْصِل أو بالشام أو بآمل . روي أنه عليه الصلاة والسلام ركب في الفلك في

عاشر رجب ونزل عنها في عاشر المحرَّم فصام ذلك اليوم شكراً فصار سُنّة ً ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ أي هلاكاً لهم ، والتعرضُ لوصف الظلم للإشعار بعليته للهلاك ولتذكيره ما سبق من قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تخاطبنى فِى الذين ظَلَمُواْ إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ ولقد بلغت الآيةُ الكريمةُ من مراتب الإعجاز قاصيتَها وملكت من غُرر المزايا ناصيتَها وقد تصدّى لتفصيلها المتقنون ، ولعمري إن ذلك فوق ما يصفه الواصفون فحريٌّ بنا أن نوجزَ الكلامَ في هذا الباب ونفوّضَ الأمر إلى تأمل أولي الألباب ، والله عنده علم الكتاب . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(97/378)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي ﴾

أي انشفي استعير من ازدراد الحيوان ما يأكله للدلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتاد التدريجي ، وتخصيص البلع بما يؤكل هو المشهور عن اللغويين ، وقال الليث : يقال : بلع الماء إذا شربه وهو ظاهر في أنه غير خاص بالمأكول ، وذكر السيد أن ذلك مجاز ، وأخرج ابن المنذر .

وغيره عن وهب بن منبه أن البلع بمعنى الازدراد لغة حبشية ، وأخرج أبو الشيخ عن جعفر بن محمد عن أبيه أنه بمعنى الشرب لغة هندية ﴿ مَاءَكِ ﴾ أي ما على وجهك من ماء الطوفان وعبر عنه بالماء بعد ما عبر عنه فيما سلف بأمر الله تعالى لأن المقام مقام النقص والتقليل لا مقام التفخيم والتهويل ﴿ ويا سماء أَقْلِعِى ﴾ أي امسكي عن إرسال المطر يقال : أقلعت السماء إذا انقطع مطرها ؛ وأقلعت الحمى إذا كفت ، والظاهر أن المطر لم ينقطع حتى قيل للسماء ما قيل ، وهل فوران الماء كان مستمراً حتى قيل للأرض ما قيل أم لا ؟ لم أر فيه شيئاً ، والآية ليست نصاً في أحد الأمرين ﴿ وَغِيضَ الماء ﴾ أي نقص يقال : غاضه إذا نقصه وجميع معانيه راجعة إليه .

وقول الجوهري : غاض الماء إذا قل ونضب ، وغيض الماء فعل به ذلك لا يخالفه فإن القلة عين النقصان ، وتفسير ذلك بالنقص مروى عن مجاهد ﴿ وَقُضِىَ الأمر ﴾ أي أنجز ما وعد الله تعالى نوحاً عليه السلام من إهلاك كفار قومه وإنجائه بأهله المؤمنين ، وجوز أن يكون المعنى أتم الأمر ﴿ واستوت ﴾ استقرت يقال : استوى على السرير إذا استقر عليه ﴿ عَلَى الجودى ﴾ بتشديد الياء ، وقرأ الأعمش .

وابن أبي عبلة بتخفيفها وهما لغتان كما قال ابن عطية وهو جبل بالموصل .

أو بالشام .

أو بآمل بالمد وضم الميم والمشهور الأول .

وجاء في بعض الآثار أن الجبال تشامخت إذ ذاك وتواضع هو لله تعالى شأنه فأكرمه سبحانه باستواء السفينة عليه ، ومن تواضع الله سبحانه رفعه ، وكان استواؤها عليه يوم عاشوراء ، فقد أخرج أحمد .

(98/378)

وغيره عن أبي هريرة قال : "مر النبي صلى الله عليه وسلم بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال : ما هذا الصوم ؟ فقيل : هذا اليوم الذي أنجى الله تعالى فيه موسى عليه السلام وبني إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون ، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي فصامه نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله تعالى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أنا أحق بموسى عليه السلام وأحق بصوم هذا اليوم فصامه وأمر أصحابه بالصوم " وأخرج الأصبهاني في الترغيب عنه رضي الله تعالى عنه أنه اليوم الذي ولد فيه عيسى عليه السلام أيضاً وأن صيامه يعدل سنة مبرورة ، وكان ركوبه عليه السلام فيما روي عن قتادة في عشر خلون من رجب .

وأخرج ابن جرير عن عبد العزيز بن عبد الغفور عن أبيه مرفوعاً أنه عليه السلام ركب في أول يوم من رجب فصام هو ومن معه وجرت بهم السفينة ستة أشهر فانتهى ذلك إلى المحرم

فأرست السفينة على الجودي يوم عاشوراء فصام نوح عليه السلام وأمر جميع من معه من الوحش والدواب فصاموا شكراً لله .

(99/378)

وفي بعض الآثار أنها طافت بهم الأرض كلها ولم تدخل الحرم لكنها طافت به أسبوعاً وأن الحجر الأسود خبىء في جبل أبي قبيس وأن البيت رفع إلى السماء ، وفي رواية ابن عساكر عن مجاهد أنه لم يدخل الحرم من الماء شيء ، والظاهر على هذا أنه لا خبء كما أنه لا رفع ، وعندي أن رواية ثبوتهما جميعاً مما لا تكاد تصح ، وبفرض صحتها لا يظهر لي سر رفع البيت بلا حجر وخبء الحجر بلا بيت بل عندي في رفع البيت مطلقاً تردد ، وإن كنت ممن لا يتردد في أن الله تعالى على كل شيء قدير ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ أي هلاكاً لهم ، واللام صلة المصدر ، وقيل : متعلق بقيل وأن المعنى قيل لأجلهم بعداً وهو خلاف الظاهر ، والتعرض لوصف الظلم للإشعار بعليته للهلاك ولتذكير ما سبق في قوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تخاطبنى فِى الذين ظَلَمُواْ ﴾ [هود : 37] ولا يخفى ما في هذه الآية أيضاً من الدلالة على عموم هلاك الكفرة .

ويشهد لذلك آيات أخر وأخبار كثيرة بل فيها ما هو على علاته ظاهر في عموم هلاك من

على الأرض ما عدا أهل السفينة فعن عبيد بن عمير أن فيمن أصاب الغرق امرأة معها صبي لها فوضعته على صدرها فلما بلغها الماء وضعته على منكبها فلما بلغها الماء وضعته على يديها فقال الله سبحانه : لو رحمت أحداً من أهل الأرض لرحمتها ولكن حق القول مني .

وزعم بعضهم أنه لم ينج أحد من الكفار سوى عوج بن عوق وكان الماء يصل إلى حجزته ، وسبب نجاته أن نوحاً عليه السلام احتاج إلى خشب ساج فلم يمكنه نقله فحمله عوج من الشام إليه عليه السلام فنجاه الله تعالى من الغرق لذلك ، وظاهر كلام "القاموس" يقتضي نجاته .

فقد ذكر فيه عوج بن عوق بضمهما رجل ولد في منزل آدم عليه السلام فعاش إلى زمن موسى عليه السلام ، والحق أنه لم ينج أحد من الكفار أصلاً ، وخبر عوج يرويه هيان ابن بيان فلا تعج إلى القول به ولا يشكل إغراق الأطفال الذين لا ذنب لهم لما أنه مجرد سبب للموت بالنسبة إليهم وأي محذور في إماتة من لا ذنب له وفي كل وقت يميت الله سبحانه من ذلك ما لا يحصى وهو جل شأنه المالك الحق والمتصرف المطلق يفعل ما يشاء ويحكم ما

يريد ، ولا يحتاج في الجواب إلى ما أخرجه إسحاق بن بشر .

وابن عساكر عن عبد الله بن زياد بن سمعان عن رجال سماهم أن الله تعالى أعقم رجالهم قبل الطوفان بأربعين عاماً وأعقم نساءهم فلم يتوالدوا أربعين عاماً منذ دعا نوح عليه السلام حتى أدرك الصغير فبلغ الحنث وصارت لله تعالى عليهم الحجة ثم أنزل السماء عليهم بالطوفان إذ يبقى عليه مع ضعفه والتعارض بينه وبين الخبر السابق آنفاً أمر إهلاك ما لم يكن في السفينة من الحيوانات وقد جاء عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه أن نوحاً عليه السلام لما حمل من حمل في السفينة رأت البهائم والوحش والسباع العذاب فجعلت تلحس قدمه عليه السلام وتقول : احملنا معك فيقول : إنما أمرت أن أحمل من كل زوجين اثنين ولم يحملها وكذا لا يحتاج إلى الجواب بأن الله تعالى إنما أهلك أولئك الأطفال لعلمه جل شأنه بما كانوا فاعلين وذلك كما يقال في وجه إدخال أطفال الكفار النار يوم القيامة على قول من يراه لما أن فيه ما فيه ، وبالجملة إماتة الأحياء بأي سبب كان دفعة أو تدريجاً مما لا محذور فيه ولا يسئل عنه .

هذا واعلم أن هذه الآية الكريمة قد بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها واستدلت مصاقع العرب فسفعت بنواصيها وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان وكانت من سمهرى البلاغة مكان السنان ، يروى أن كفار قريش قصدوا أن يعارضوا القرآن فعكفوا على لباب البر ولحوم الضأن وسلاف الخمر أربعين يوماً لتصوف أذهانهم فلما أخذوا فيما قصدوه وسمعوا هذه الآية قال بعضهم لبعض : هذا الكلام لا يشبه كلام المخلوقين فتركوا ما أخذوا فيه وتفرقوا ، ويروى أيضاً أن ابن المقفع وكان كما في "القاموس" فصيحاً بليغاً ، بل قيل : إنه أفصح أهل وقته رام أن يعارض القرآن فنظم كلاماً وجعله مفصلاً وسماه سوراً فاجتاز يوماً بصبي يقرؤها في مكتب فرجع ومحا ما عمل ، وقال : أشهد أن هذا لا يعارض أبداً وما هو من كلام البشر ، ولا يخفى أن هذا لا يستدعي أن لا يكون سائر آيات القرآن العظيم معجزاً لما أن حد الإعجاز هو المرتبة التي يعجز البشر عن الإتيان بمثلها ولا تدخل على قدرته قطعاً ، وهي تشتمل على شيئين : الأول : الطرف الأعلى من البلاغة أعني ما ينتهي إليه البلاغة ولا يتصور تجاوزها إياه ، والثاني : ما يقرب من ذلك الطرف أعني المراتب العلية التي تتقاصر القوى البشرية عنها أيضاً ؛ ومعنى إعجاز آيات الكتاب المجيد بأسرها هو كونها مما تتقاصر القوى البشرية عن الإتيان بمثلها سواء كانت من القسم الأول أو الثاني ، فلا يضر تفاوتها في البلاغة وهو الذي قاله علماء هذا الشأن ، وأنشد بعض الفرس في ذلك :

در بيان ودر فصاحت كي بود يكسان سخن . . .

ورجه كوينده بودوجون حافظ وجون أصمعي

در كلام ايزد بيجون كه وحى منزلست . . .

كي بود تيت يداجون قيل : يا أرض ابلعي

وقد فصل بعض مزايا هذه الآية المهرة المتقنون وتركوا من ذلك ما لا يكاد يصفه الواصفون ، ولا بأس بذكر شيء مما ذكر إفادة لجاهل وتذكير لفاضل غافل ، فنقول : ذكر العلامة السكاكي أن النظر فيها من أربع جهات : من جهة علم البيان ، ومن جهة علم المعاني وهما مرجعا البلاغة .

ومن جهة الفصاحة المعنوية .

ومن جهة الفصاحة اللفظية ، أما النظر فيها من جهة علم البيان وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بذلك من القرينة والترشيح والتعريض فهو أنه عز سلطانه لما أراد أن يبين معنى أردنا أن نردّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد .

وأن نقطع طوفان السماء فانقطع .

وأن نغيض الماء النازل من السماء فغاض .

وأن نقضي أمر نوح عليه السلام وهو إنجاز ما كنا وعدناه من إغراق قومه فقضى .

(103/378)

وأن نسوي السفينة عل الجودي فاستوت وأبقينا الظلمة غرقى ، بنى سبحانه الكلام على تشبيه المراد منه بالمأمور الذي لا يتأتى منه لكمال هيبته من الآمر العصيان ، وتشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ في تكون المقصود تصويراً لاقتداره سبحانه العظيم ، وأن هذه الأجرام العظيمة من السموات والأرض تابعة لإرادته تعالى إيجاداً وإعداماً ولمشيئته فيها تغييراً وتبديلاً كأنها عقلاء مميزون قد عرفوه جل شأنه حق معفرته وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره والإذعان لحكمه وتحتم بذل المجهود عليهم في تحصيل مراده وتصوروا مزيد اقتداره فعظمت مهابته في نفوسهم وضربت سرادقها في أفنية ضمائرهم فكما يلوح لهم إشارته سبحانه كان المشار إليه مقدماً ، وكما يرد عليهم أمره تعالى شأنه كان المأمور به متمماً لا تلقى لإشارته بغير الإمضاء والانقياد ولا لأمره بغير الإذعان والامتثال ، ثم بنى على مجموع التشبيهين نظم الكلام فقال جل وعلا : { قِيلَ } على سبيل المجاز عن الإرادة من باب ذكر المسبب وإرادة السبب لأن الإرادة تكون سبباً لوقوع القول في الجملة

وجعل قرينة هذا المجاز خطاب الجماد وهو ﴿ تَكُنْ أَرْضُ ﴾ ﴿ كُلّ سَمَاء ﴾ إذ يصح أن يراد حصول شيء متعلق بالجماد ولا يصح القول له ثم قال سبحانه كما ترى : ﴿ تَكُنْ أَرْضُ ﴾ ﴿ كُلّ سَمَاء ﴾ مخاطباً لهما على سبيل الاستعارة للشبه المذكور ، والظاهر أنه أراد أن هناك استعارة بالكناية حيث ذكر المشبه أعني السماء والأرض المراد منهما حصول أمر وأريد المشبه به أعني المأمور الموصوف بأنه لا يتأتى منه العصيان ادعاء بقرينة نسبة الخطاب إليه ودخول حرف النداء عليه وهما من خواص المأمور المطيع ويكون هذا تخييلاً .

وقد يقال : أراد أن الاستعارة ههنا تصريحية تبعية في حرف النداء بناءاً على تشبيه تعلق الإرادة بالمراد منه بتعلق النداء والخطاب بالمنادى المخاطب وليس بشيء إذ لا يحسن هذا التشبيه ابتداءاً بل تبعاً للتشبيه الأول فكيف يجعل أصلاً لمتبوعه ؟! على أن قوله للشبه المذكور يدفع هذا الحمل ، ثم استعار لغور الماء في الأرض البلع الذي هو أعمال الجاذبة في المطعوم للشبه بينهما وهو الذهاب إلى مقر خفي .

وفي "الكشاف" جعل البلع مستعارا لنشف الأرض الماء وهو أولى ، فإن النشف دال على

جذب من أجزاء الأرض لما عليها كالبلع بالنسبة إلى الحيوان ، ولأن النشف فعل الأرض والغور فعل الماء مع الطباق بين الفعلين تعدياً ، ثم استعار الماء للغذاء استعارة بالكناية تشبيهاً له بالغذاء لتقوي الأرض بالماء في الإنبات للزروع والأشجار تقوي الآكل بالطعام ، وجعل قرينة الاستعارة لفظة ﴿ ابلعى ﴾ لكونها موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء .

ولا يخفى عليك أنه إذا اعتبر مذهب السلف في الاستعارة يكون ﴿ ابلعى ﴾ استعارة تصريحية ومع ذلك يكون بحسب اللفظ قرينة للاستعارة بالكناية في الماء على حد ما قالوا في ﴿ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ ﴾ [البقرة : 27] وأما إذا اعتبر مذهبه فينبغي أن يكون البلع باقياً على حقيقته كالإنبات في أنبت الربيع البقل وهو بعيد ، أو يجعل مستعاراً لأمر متوهم كما في نطقت الحال ، فيلزمه القول بالاستعارة التبعية كما هو المشهور ، ثم إنه تعالى أمر على سبيل الاستعارة للتشبيه الثاني وخاطب في الأمر ترشيحاً لاستعارة النداء .

والحاصل أن في لفظ ﴿ ابلعى ﴾ باعتبار جوهره استعارة لغور الماء وباعتبار صورته أعني كونه صورة أمر استعارة أخرى لتكوين المراد وباعتبار كونه أمر خطاب ترشيح

للاستعارة المكنية التي في المنادى فإن قرينتها النداء وما زاد على قرينة المكنية يكون ترشيحاً لها ، وأما جعل النداء استعارة تصريحية تبعية حتى يكون خطاب الآمر ترشيحاً لها فقد عرفت ما فيه ، ثم قال جل وعلا : ﴿ مَاءكِ ﴾ بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز تشبيهاً لاتصال الماء بالأرض باتصال الملك بالمالك ، واختار ضمير الخطاب لأجل الترشيخ ، وحاصله أن هناك مجازاً لغوياً في الهيئة الإضافية الدالة على الاختصاص الملكي ولهذا جعل الخطاب ترشيحاً لهذه الاستعارة من حيث أن الخطاب يدل على صلوح الأرض للمالكية فما قيل : إن المجاز عقلي والعبارة مصروفة عن الظاهر ليس بشيء ، ثم اختار لاحتباس المطر الإقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم ما كان من المطر أو الفعل ففي ﴿ أَقْلِعِى ﴾ استعارة باعتبار جوهره وكذا باعتبار صيغته أيضاً وهي مبنية على تشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ ، والخطاب فيه أيضاً ترشيح لاستعارة النداء ، والحاصل أن الكلام فيه مثل ما مر في ﴿ ابلعى ﴾ ثم قال سبحانه : ﴿ وَغِيضَ الماء وَقُضِىَ الأمر واستوت عَلَى الجودى وَقِيلَ بُعْدًا ﴾ فلم يصرح جل وعلا بمن غاض الماء ولا بمن قضى الأمر وسوى السفينة وقال بعداً كما لم يصرح سبحانه بقائل ﴿ تَكُنْ أَرْضُ ﴾ ﴿ كُلّ سَمَاء ﴾ في صدر الآية سلوكاً في كل واحد من ذلك لسبيل الكناية لأن تلك الأمور العظام لا تصدر إلا من ذي قدرة لا يكتنه قهار لا يغالب فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره جلت عظمته قائلاً : ﴿ تَكُنْ أَرْضُ ﴾ و ﴿ كُلّ سَمَاء ﴾ ولا

غائض ما غاض ولا قاضي مثل ذلك الأمر الهائل ، أو أن يكون تسوية السفينة وإقرارها بتسوية غيره .

(106/378)

والحاصل أن الفعل إذا تعين لفاعلبعينه استتبع لذلك أن يترك ذكره ويبني الفعل لمفعوله ، أو يذكر ما هو أثر لذلك الفعل على صيغة المبني للفاعل ، ويسند إلى ذلك المفعول فيكون كناية عن تخصيص الصفة التي هي الفعل بموصوفها ، وهذا أولى مما قيل في تقرير الكناية هنا : إن ترك ذكر الفاعل وبناء الفعل للمفعول من لوازم العلم بالفعل وتعينه لفاعلية ذلك الفعل فذكر اللازم وأريد الملزوم لما أن استوت غير مبني للمفعول كقيل وغيض ثم إنه تعالى ختم الكلام بالتعريض تنبيهاً لسالكي مسلك أولئك القوم في تكذيب الرسل عليهم السلام ظلماً لأنفسهم لا غير ختم إظهار لمكان السخط ولجهة استحقاقهم إياه وأن قيامه الطوفان وتلك الصورة الهائلة ما كانت إلا لظلمهم كما يؤذن بذلك الدعاء بالهلاك بعد هلاكهم والوصف بالظلم مع تعليق الحكم به ، وذكر بعضهم أن البعد في الأصل ضد القرب وهو باعتبار المكان ويكون في المحسوس ، وقد يقال في المعقول نحو ﴿ ضَلُّوا۟ ضلالا بَعِيداً ﴾ [النساء : 167]

واستعماله في الهلاك مجاز ،

قال ناصر الدين : يقال بعد بعداً بضم فسكون وبعداً بالتحريك إذا بعد بعداً بعيداً بحيث لا يرجى عوده ، ثم استعير للهلاك وخص بدعاء السوء ولم يفرق في القاموس بين صيغتي الفعل في المعنيين حيث قال : البعد معروف والموت وفعلهما ككرم .

وفرح بعداً وبعداً فافهم .

وزعم بعضهم أن الأرض والسماء أعطيتا ما يعقلان به الأمر فقيل لهما حقيقة ما قيل ، وأن القائل ﴿ بُعْدًا ﴾ نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين ، ولا يخفى أن هذا خلاف الظاهر ولا أثر فيه يعول عليه ، والكلام على الأول أبلغ ، وأما النظر فيها من جهة علم المعاني وهو النظر في فائدة كل كلمة فيها وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها فذلك أنه اختير ﴿ يا ﴾ دون سائر أخواتها لكونها أكثر في الاستعمال وأنها دالة على بعد المنادى الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة وإبداء شأن العزة والجبروت ، وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به ولم يقل ﴿ تَكُنْ أَرْضُ ﴾ بالكسر لأن الإضافة إلى نفسه جل شأنه تقتضي تشريفاً للأرض وتكريماً لها فترك إمداداً للتهاون لم يقل يا أيتها الأرض مع كثرته في نداء أسماء الأجناس قصداً إلى الاختصار والاحتراز عن تكلف التنبيه المشعر بالغفلة التي

لا تناسب ذلك المقام ، واختير لفظ الأرض والسماء على سائر أسمائهما كالمقلة والغبراء وكالمظلة والخضراء لكونهما أخصر وأورد في الاستعمال وأوفى بالمطابقة ، فإن تقابلهما إنما اشتهر بهذين الاسمين ، واختير لفظ ﴿ ابلعى ﴾ على ابتعلي لكونه أخصر وأوفر تجانساً باقلعي لأن همزة الوصل إن اعتبرت تساوياً في عدد الحروف وإلا تقاربا فيه بخلاف ابتلعي ، وقيل : دماءك ﴾ بالافراد دون الجمع لما فيه من صورة الاستكثار المتأبى عنها مقام إظهار الكبرياء وهو الوجه في إفراد الأرض والسماء وإنما لم يقل ﴿ ﴾ بالافراد دون الجمع لما فيه من صورة الاستكثار المتأبى عنها مقام إظهار الكبرياء وهو الوجه في إفراد الأرض والسماء وإنما لم يقل ﴿ ابلعى ﴾ بدون المفعول لئلا يستلزم تركه ما ليس بمراد كم تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وساكنات الماء بأسرهن نظراً إلى مقام عظمة الآمر المهيب وكمال انقياد المأمور ، ولما علم أن المراد بلع الماء وحده علم أن المقصود بالاقلاع إمساك المساء عن إرسال الماء

(108/378)

فلم يذكر متعلق ﴿ أَقْلِعِي ﴾ اختصاراً واحترازاً عن الحشو المستغنى عنه وهذا هو السبب في ترك ذكر حصول المأمور به بعد الأمر فلم يقل ﴿ قِيلَ يا أَرْضُ ابلعى ﴾ فبلعت

﴿ مَاءكِ ويا سماء أَقْلِعِى ﴾ فقلت لأن مقام الكبرياء وكمال الانقياد يغني عن ذكره الذي ربما أوهم إمكان المخالفة ، واختير غيض على غيض المشدد لكونه أخصر .

(109/378)

وقيل : الماء دون ماء طوفان السماء ، وكذا الأمر دون أمر نوح وهو إنجاز ما وعد لقصد الاختصار ، والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك لأنه إما بدل من المضاف إليه كما هو مذهب الكوفية ، وإما لأنه يغني غناء الإضافة في الإشارة إلى المعهود ، واختير استوت على سويت أي أقرت مع كونه أنسب بأخواته المبنية للمفعول اعتباراً لكون الفعل المقابل للاستقرار أعني الجريان منسوباً إلى السفينة على صيغة المبني للفاعل في قوله تعالى : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ ﴾ [هود : 42] مع أن ﴿ استوت ﴾ أخصر من سويت ، واختير المصدر أعني ﴿ أَلاَ بُعْدًا ﴾ على ليبعد القوم طلبا لتأكيد معنى الفعل بالمصدر مع الاختصار في العبارة وهو نزول ﴿ بُعْدًا ﴾ وحده منزلة ليبعدوا بعداً مع فائدة أخرى هي الدلالة على استحقاق الهلاك بذكر اللام ، وإطلاق الظلم عن مقيداته في مقام المبالغة يفيد تناول كل نوع فيدخل فيه ظلمهم على أنفسهم لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في التكذيب من حيث أن تكذيبهم للرسل ظلم على أنفسهم لأن ضرره يعود إليهم ، هذا من

حيث النظر إلى تركيب الكلم ، وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل فذلك أنه قدم النداء على الأمر فقيل : ﴿ وَقِيلَ يا أرض ابلعى ﴾ ﴿ مَاءكِ ويا سماء أَقْلِعِى ﴾ دون أن يقال : ابلعي يا أرض ، واقلعي يا سماء جريا على مقتضى اللازم فيمن كان مأموراً حقيقة من تقديم التنبيه ليتمكن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادي قصداً بذلك لمعنى الترشيح للاستعارة المكنية في الأرض والسماء ، ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء لكونها الأصل نظراً إلى كون ابتداء الطوفان منها حيث فار تنورها أولا ، ثم جعل قوله سبحانه : ﴿ وَغِيضَ الماء ﴾ تابعاً لأمر الأرض والسماء لاتصاله بقصة الماء وأخذه بحجزتها ، ألا ترى أصل الكلام ﴿ قِيلَ يا أَرْضُ ابلعى مَاءكِ ﴾ فبلعت ماءها ﴿ مَاءكِ ويا سماء أَقْلِعِى ﴾ عن إرسال الماء فأقلعت عن إرساله ﴿ وَغِيضَ الماء ﴾

(110/378)

النازل من السماء فغاض .

وقيد الماء بالنازل وإن كان في الآية مطلقاً لأن ابتلاع الأرض ماءها فهم من قوله سبحانه : ﴿ ابلعى مَاءكِ ﴾ .

واعترض بأن الماء المخصوص بالأرض إن أريد به ما على وجهها فهو يتناول القبيلين

الأرضي والسمائي وإن أريد به ما نبع منها فاللفظ لا يدل عليه بوجهه ، ولهذا حمل الزمخشري الماء على مطلقه ، وأشعر كلامه بأن غيض الماء إخبار عن الحصول المأمور به من قوله سبحانه : ﴿ المغرقين وَقِيلَ يا أرض ابلعى مَاءكِ ويا سماء أَقْلِعِى ﴾ فالتقدير قيل لهما ذلك فامتثلا الأمر ونقص املاء .

ورجح الطيبي ما ذهب إليه الكساكي زاعماً أن معنى الغيض حينئذ ما قاله الجوهري ، وهو عنده مخالف للمعني الذي ذكره الزمخشري فقال : إن إضافة الماء إلى الأرض لما كانت ترشيحاً للاستعارة تشبيهاً لاتصاله بها باتصال الملك بالمالك ولذا جيء بضمير الخطاب اقتضت إخراج سائر المياه سوى الذي بسببه صارت الأرض مهيأة للخطاب بمنزلة المأمور المطيع وهو المعهود في قوله تعالى : ﴿ وَفَارَ التنور ﴾ [هود : 40] وبهذا الاعتبار يحصل التواغل في تناسي التشبيه والترشيح ، ولو أجريت الإضافة على غير هذا تكون كالتجريد وكم بينهما ، هذا ولو حمل على العموم لاستلزم تعميم ابتلاعه المياه بأسرها لورود الأمر من مقام العظمة كما علمت من كلام السكاكي ، وليس بذاك ، وتعقبه في الكشف بأنه دعوى بلا دليل ورد يمين إذ لا معهود ، والظاهر ما على وجه الأرض من الماء ولا ينافي الترشيح وإضافة المالكية ، ثم الظاهر من تنزيل الماء منزلة الغذاء أن تجعل الإضافة من باب إضافة الغذاء إلى المغتذي في النفع والتقوية وصيرورته جزءاً منه ولا نظر فيه إلى كونه مملوكاً أو غير

ذلك ، وأما التعميم فمطلوب وحاصل على التفسيرين لانحصار الماء في الأرض والسمائي ، وقد قلتم بنضوبهما من قوله سبحانه فبلعت .

(111/378)

وقوله تعالى : ﴿ وَغِيضَ ﴾ ولا شك أن ما عندنا من الماء غير ماء الطوفان ، هذا والمطابق تفسير الزمخشري ، ألا ترى إلى قوله جل وعلا :

﴿ فَٱلْتَقَى الماء ﴾ [القمر : 12] أي الأرضي والسمائي ، وههنا تقدم الماءان في قوله سبحانه : ﴿ مَاءكِ ويا سماء سَمَاء أَقْلِعِى ﴾ لأن تقديره عن إرسال الماء على زعمهم ، فإذا قيل : وغيض المار رجع إليهما لا محالة لتقدمهما ، ثم إذا جعل من توابع ﴿ أَقْلِعِى ﴾ خاصة لم يحسن عطفه على أصل القصة أعني ﴿ وَقِيلَ يا أَرْضُ ابلعى ﴾ كيف وفي إيثار هذا التفسير الإشارة إلى أنه زال كونه طوفانا لأن نقصان الماء غير الإذهاب بالكلية ، وإلى أن الأجزاء الباطنة من الأرض لم تبق على ما كانت عليه من قوة الانباع ورجعت إلى الاعتدال المطلوب وليس في الاختصاص بالنضوب هذا المعنى البتة انتهى .

وزعم الطبرسي أن أئمة البيت رضي الله تعالى عنهم على أن الماء المضاف هو ما نبع وفار وأنه هو الذي ابتلع .

وغاض لا غير ، وأن ماء السماء صار بحاراً وأنهاراً .

وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن ابن عباس ما يؤيده ، وهذا مخالف لما يقتضيه كلام السكاكي مخالفة ظاهرة ، وفي القلب من صحته ما فيه ، ثم إنه تعالى أتبع غيض الماء ما هو المقصود الأصلي من القصة ، وهو قوله جلت عظمته : ﴿ وَقُضِيَ الأمر ﴾ ثم أتبع ذكر المقصود حديث السفينة لتأخره عنه في الوجود ، ثم ختمت القصة بالتعريض الذي علمته ، هذا كله نظر في الآية من جانبي البلاغة ، وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهي كما ترى نظم للمعاني لطيف .

وتأدية لها ملخصة مبينة لا تعقيد يعثر الكفر في طلب المراد ولا التواء يشيك الطريق إلى المرتاد بل إذا جربت نفسك عند استماعها .

وجدت ألفاظها تسابق معانيها ومعانيها تسابق ألفاظها فما من لفظة فيها تسبق إلى أذنك إلا ومعناها أبق إلى قلبك ، وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية فألفاظها على ما ترى عربية مستعملة جارية على قوانين اللغة سليمة عن التنافر بعيدة عن البشاعة عذبة على العذبات سلسة على الاسلات كل منها كالماء في السلالة والكعسل في الحلاوة

والكنسيم في الرقة ، ولله تعالى در التنزيل ماذا جمعت يا ته :

وعلى تفنن واصفيه بحسنه . . .

يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وما ذكر في مزايا هذه الآية بالنسبة إلى ما فيها قطرة من حياض .

(113/378)

وزهرة من رياض ، وقد ذكر ابن أبي الاصبع أن فيها عشرين ضرباً من البديع من أنها سبع عشرة لفظة وذلك المناسبة التامة في ﴿ ابلعى ﴾ و ﴿ أَقْلِعِى ﴾ والاستعارة فيهما والطباق بين الأرض والسماء والمجاز في ﴿ كُلّ سَمَاء ﴾ فإن الحقيقة يا مطر السماء ، والإشارة في ﴿ وَغِيضَ الماء ﴾ فإنه عبر به عن معان كثيرة لأن الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء وتبلع الأرض ما يخرج منها فينقص ما على وجه الأرض ، والإرداف في ﴿ واستوت ﴾ والتمثيل في ﴿ وَقُضِىَ الأمر ﴾ والتعليل فإن غيض الماء علة للاستواء وصحة التقسيم فإنه استوعب أقسام الماء حال نقصه والاحتراس في الدعاء لئلا يتوهم أن الغرق لعمومه شمل من لا يستحق الهلاك فإن عدله تعالى يمنع أن يدعو على غير مستحق ، وحسن النسق وائتلاف اللفظ مع المعنى والايجاز فإنه سبحانه قص القصة مستوعبة

بأخصر عبارة ، والتسهيم لأن أول الآية يدل على آخرها ، والتهذيب لأن مفرداتها موصوفة بصفات الحسن ، وحسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام ولا يشكل عليه شيء منه ، والتمكين لأن الفاصلة مستقرة من محلها مطمئنة في مكانها ، والانسجام ، وزاد الجلال السيوطي بعد أن نقل هذا عن ابن أبي الأصبع الاعتراض ، وزاد آخرون أشياء كثيرة إلا أنها ككلام ابن أبي الأصبع قد أشير إليها بأصبع الاعتراض ، وقد ألف شيخنا علاء الدين أعلى الله تعالى درجته في أعلى عليين رسالة في هذه الآية الكريمة جمع فيها ما ظهر له ووقف عليه من مزاياها فبلغ ذلك مائة وخمسين مزية ، وقد تطلبت هذه الرسالة لأذكر شيئاً من لطائفها فلم أظفر بها وكأن طوفان الحوادث أغرقها ، ولعل فيما نقلناه سداداً من عوز ، والله تعالى الموفق للصواب وعنده علم الكتاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(114/378)

وقال القاسمى :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

إعلام بأنه لما غرق أهل الأرض ، ولم يبق ممن كفر بالله ديار ، أمر تعالى الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها ، وأمر السماء أن تقلع عن المطر ، فنضب الماء ، وقضي أمر الله ، بإنجاء من نجا ، وإهلاك من هلك .

ولما أخذت المياه تتناقص وتتراجع إلى الأرض شيئاً فشيئاً ، وظهرت رؤوس الجبال ، استقرت السفينة على الجودي ، وهو جبل بالجزيرة قرب الموصل .

و(بُعْداً) مصدر منصوب بمقدر ، أي : وبعدوا بعداً . يقال : بعد بعداً ، إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك ، ولذلك اختص بدعاء السوء كـ : (جَدْعًا) و (تَعْساً) . و (اللام) متعلقة بمحذوف ، أو للبيان ، أو متعلقة بـ (قيل) أي : لأجلهم هذا القول .

والتعرض لوصف الظلم للإشعار بعليته للهلاك ، ولتذكر ما سبق من قوله : ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ .

تنبيه :

هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها ، وحوت من بدائع الفرائد نهايتها . وقد اهتم علماء البيان لإيضاح نخب من لطائفها ، ومن أوسعهم مجالاً في معارفها الإمام السكاكي ، فقد أطال وأطاب في كتابه " المفتاح " وتلطف في التبيان بألطف من نسيم الصباح ، ونحن نورده بتمامه ، لنعطر الألباب بعرف مبتدئه ومسك ختامه .

قال عليه الرحمة في بحث (البلاغة والفصاحة) وتعريفه الأولى بأنها بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها ، ثم تقسيمه الفصاحة إلى ما يرجع إلى المعنى ، وهو خلوص الكلام عن التعقيد وإلى اللفظ ، وهو كونه عربيا أصلياً ، جارياً على قوانين اللغة ، أَدْوَرَ على ألسنة الفصحاء أكثر في الاستعمال ، ما صورته :

وإذ قد وقفت على البلاغة ، وعثرت على الفصاحة المعنوية واللفظية ، فأنا أذكر على سبيل الأنموذج آية أكشف لك فيها عن وجوه البلاغة والفصاحتين ، ما عسى يسترها عنك ، ثم إن ساعدك الذوق ، أدركت منها ما قد أدرك من تُحدوا بها وهي قوله علت كلمته : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ ﴾ إلى : ﴿ الظَّالِمِينَ ﴾ .

والنظر في هذه الآية من أربع جهات من جهة علم البيان ، ومن جهة علم المعاني وهما مرجعا البلاغة ، ومن جهة الفصاحة المعنوية ، ومن جهة الفصاحة اللفظية .

أما النظر فيها من جهة علم البيان ، وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها ، فنقول : إنه عز سلطانه لما أراد أن يبين معنى : أردنا أن نرد ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد ، وأن نقطع طوفان السماء فانقطع ، وأن نغيض الماء النازل من الماء فغاض ، وأن نقضي أمر نوح ، وهو إنجاز ما كنا وعدنا من إغراق قومه فقضي ، وأن نسوي السفينة على الجودي فاستوت ، وأبقينا الظلمة غرقى ؛ بنى الكلام على تشبيه المراد بالأمور الذي لا يتأتى منه لكمال هيبته العصيان ، وتشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ في تكون المقصود ، تصويراً لاقتداره العظيم ، وأن السماوات والأرض وهذه الأجرام العظام تابعة لإرادته إيجاداً وإعداماً ، ولمشيئته فيها تغييراً وتبديلاً ، كأنها عقلاء مميزون ، قد عرفوه حق معرفته ، وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره ، والإذعان لحكمه ، وتحتم بذل المجهود عليهم في تحصيل مواده ، وتصور مزيد اقتداره ، فعظمت مهابته في نفوسهم ، وضربت سرادقها في أفنية ضمائرهم ، فكما يلوح لهم إشارته كان المشار إليه مقدماً ، وكما يرد عليهم أمره كان المأمور به متمماً ، لا تلَقّي لإشارته بغير الإمضاء والانقياد ، ولا لأمره بغير الإذعان والامتثال . ثم بنى على تشبيهه هذا نظم الكلام ، فقال جل وعلا : ﴿ وَقِيلَ ﴾ على سبيل المجاز – أي : المرسل – عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل ، وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد وهو : يا أرض ويا سماء . ثم قال كما ترى : يا أرض ويا سماء ، مخاطباً لهما على سبيل الاستعارة للشبه المذكور ، ثم استعار لغؤور الماء في الأرض البلع ،

الذي هو إعمال الجاذبة في المطعوم، للشبه بينهما، وهو الذهاب إلى مقر خفي. ثم استعار الماء للغذاء واستعارة بالكناية، تشبيهاً له بالغذاء؛ لتقوى الأرض بالماء في الإنبات للزروع والأشجار تقوي الآكل بالطعام، وجعل قرينة الاستعارة لفظة (ابلعي) لكونها

موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء. ثم أمر على سبيل الاستعارة للشبه المقدم ذكره، وخاطب في الأمر ترشيحاً لاستعارة النداء. ثم قال: ﴿ مَاءَكِ ﴾ بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز، تشبيهاً لاتصال الماء بالأرض، باتصال الملك بالمالك، واختار ضمير الخطاب لأجل الترشيح. ثم اختار لاحتباس المطر الإقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم ما كان. ثم أمر على سبيل الاستعارة، وخاطب في الأمر قائلاً: ﴿ أَقْلِعِي ﴾ لمثل ما تقدم في: ﴿ ابْلَعِي ﴾. ثم قال: ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً ﴾ لم يصرح بمنْ غاض الماء، ولا بمن قضي الأمر، وسوى السفينة. وقال: ﴿ بُعداً ﴾ كما لم يصرح بقائل: يا أرض ويا سماء في صدر الآية، سلوكاً في كل واحد من ذلك على سبيل الكناية، أن تلك الأمور العظام لا تتأتى إلا من ذي قدرة لا يُكتنه، قهار لا يغالب. فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره – جلت عظمته

– قائل : يا أرض ويا سماء ، ولا غائض مثل ما غاض ، ولا قاضي مثل ذلك الأمر الهائل ، وأن تكون تسوية السفينة وإقرارها بتسوية غيره وإقراره . ثم ختم الكلام بالتعريض ؛ تنبيهاً لسالكي مسلكهم في تكذيب الرسل ظلماً لأنفسهم لا غير ، ختم إظهارٍ ؛ لمكان السخط ، ولجهة استحقاقهم إياه ، وأن قيامة الطوفان ، وتلك الصورة الهائلة ، ما كانت إلا لظلمهم .

(118/378)

وأما النظر فيها من حيث علم المعاني ، وهو النظر في فائدة كل كلمة منها ، وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها ، فذلك أنه اختير (يا) دون سائر أخواتها ، لكونها أكثر في الاستعمال ، وأنها دالة على بعد المنادي الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة ، وإبداء شأن العزة والجبروت ، وهو تبعيد المنادي المؤذن بالتهاون به ، ولم يقل : يا أرض ، بالكسر ؛ لإمداد التهاون ، ولم يقل : يا أيتها الأرض ؛ لقصد الاختصار مع الاحتراز عما في (أيتها) من تكلف التنبيه غير المناسب بالمقام . واختير لفظ (الأرض) دون سائر أسمائها ، لكونه أخف وأدور . واختير لفظ السماء لمثل ما تقدم في الأرض ، مع قصد المطابقة . واختير لفظ : ﴿ ابلعي ﴾ على (ابتلعي) لكونه أخصر ، ولمجيء خط التجانس بينه وبين : ﴿ أقلعي ﴾ أوفر . وقيل : ﴿ ماءك ﴾ بالإفراد دون الجمع ، لما كان في الجمع من صورة

الاستكثار المتأبي عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت ، وهو الوجه في إفراد (الأرض) و (السماء) . وإنما لم يقل : ﴿ ابلعي ﴾ بدون المفعول أن لا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وساكنات الماء بأسرهن ، نظراً إلى مقام ورود الأمر ، الذي هو مقام عظمة وكبرياء . ثم إذا بين المراد اختصر الكلام مع : ﴿ أَقْلِعِي ﴾ احترازاً عن الحشو المستغني عنه ، وهو – أي : الاختصار – الوجه في أن لم يقل : قيل يا أرض ابلعي ماءك فبلعت ، ويا سماء أقلعي فأقلعت . واختير (غيض) على (غيّض) المشدد لكونه أخصر ، وقيل (الماء) دون أن يقال : ماء طوفان السماء وكذا الأمر دون أن يقال : أمر نوح ، وهو إنجاز ما كان الله وعد نوحاً من إهلاك قومه ، لقصد الاختصار والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك . ولم يقل : سويت على الجودي ، بمعنى أقرت ، على نحو : (قيل) و (غيض) و (قضي) في البناء للمفعول اعتباراً لبناء الفعل للفاعل مع السفينة في قوله : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي

مَوْجٍ ﴾ مع قصد الاختصار في اللفظ . ثم قيل : ﴿ بُعْداً لِّلْقَوْمِ ﴾ دون أن يقال : ليبعد القوم ، طلباً للتأكيد مع الاختصار ، وهو نزول : ﴿ بُعْداً ﴾ وحده ، منزلة ليبعدوا بُعداً ،

مع فائدة أخرى : وهي استعمال اللام مع (بُعداً) الدال على معنى أن البُعد حق لهم ، ثم أطلق الظلم ليتناول كل نوع ، حتى يدخل فيه ظلمهم أنفسهم ، لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في تكذيب الرسل . هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلم .

وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل : فذاك أنه قد قدم النداء على الأمر ، فقيل : ﴿ يَا أَرْضُ ابْلَعِي وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ دون أن يقال : ابلعي يا أرض ، وأقلعي يا سماء ، جرياً على مقتضى اللازم فيمن كان مأموراً حقيقة ، من تقديم التنبيه ، ليمكن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادى قصداً بذلك لمعنى الترشيح . ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء ، وابتدأ به لابتداء الطوفان منها ، وبنزولها لذلك في القصة منزلة الأصل ، والأصل بالتقديم أولى ، ثم أتبعها قوله : ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾ لاتصاله بقصة الماء ، وأخذه بحجزتها ، ألا ترى أصل الكلام : (: ﴿ قيل يا أرض ابلعي ماءك ﴾ فبلعت ماءها ، و : ﴿ يا سماء أقلعي ﴾ عن إرسال الماء ، فأقلعت عن إرساله ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾ النازل من السماء فغاض) . ثم أتبعه ما هو مقصود من القصة وهو قوله : ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أي : أنجز الموعود من إهلاك الكفرة ، وإنجاء نوح ومن معه في السفينة ، ثم أتبعه حديث السفينة ، وهو قوله : ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ ثم ختمت القصة بما ختمت . هذا كله نظر في الآية من جانبي البلاغة .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية ، فهي كما ترى نظم للمعاني لطيف ، وتأدية لها ملخصة مبينة ، لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد ، ولا التواء يُشبك الطريق إلى المرتاد ، بل إذا جربت نفسك عند استماعها ، وجدت ألفاظها تسابق معانيها ، ومعانيها تسابق ألفاظها ، فما من لفظة في تركيب الآية ونظمها تسبق إلى أذنك إلا ومعناها أسبق إلى قلبك .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية ، فألفاظها على ما نرى عربية ، مستعملة جارية على قوانين اللغة ، سليمة من التنافر ، بعيدة عن البشاعة ، عذبة على العذبات ، سلسة على الأسلات ، كل منها كالماء في السلاسة ، وكالعسل في الحلاوة ، وكالنسيم في الرقة . ولله در شأن التنزيل ! لا يتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر ، ولا تظنن الآية مقصورة على ما ذكرت ، فلعل ما تركت أكثر مما ذكرت ؛ لأن المقصود لم يكن إلا مجرد الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمي المعاني والبيان ، وأن لا علم في باب التفسير (بعد علم الأصول) أقرأ منهما على المرء لمراد الله تعالى من كلامه ، ولا أعون على تعاطي تأويل مشتبهاته ، ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره ، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه ، وهو الذي يوفي كلام رب العزة من البلاغة حقه ، ويصون له في مظان التأويل ماءه ورونقه . ولَكَم من آية من آيات القرآن تراها قد ضيمت حقها ، واستلبت ماءها ورونقها

، إن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم فأخذوا بها في مآخذ مردودة ، وحملوها على محامل غير مقصودة ، وهم لا يدرون ، ولا يدرون أنهم لا يدرون ، فتلك الآي من مآخذهم في عويل ، ومن محاملهم على ويل طويل ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً – انتهى كلام السكاكي – .

وقد تصدى أبو حيان أيضاً في تفسيره المسمى بـ " النهر " للطائفها ، وساق أحداً وعشرين نوعاً من البديع . وألف السيد محمد بن إسماعيل الأمير رسالة فيها سماها " النهر المورود في تفسير آية هود " أورد تلك الأنواع البديعية أيضاً ، وهي : المناسبة ، والمطابقة ، والمجاز ، والاستعارة ، والإشارة ، والتمثيل ، والإرداف ، والتعليل ، وصحة التقسيم ، والاحتراس ، والإيضاح ، والمساواة ، وحسن النسق ، والإيجاز ، والتسهيم ، والتهذيب ، وحسن البيان ، والتمكين ، والتجنيس ، والمقابلة ، والذم ، والوصف . انتهى انتهى . اهـ

﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 104.99 ﴾

وقال صاحب المنار في الآيات السابقة:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ)

هَذِهِ الْآيَاتُ هِيَ الْحُكْمُ الْفَصْلُ فِي قَوْمِ نُوحٍ الْمُشْرِكِينَ، وَيَلِيهَا بَيَانُ تَنْفِيذِهِ (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ) أَيْ

(123/378)

أَوْحَى اللهُ - تَعَالَى - إِلَيْهِ مَا أَيْأَسَهُ مِنْ إِيمَانِ أَحَدٍ مِنْ قَوْمِهِ بَعْدَ الْآنِ، غَيْرَ مَنْ قَدْ آمَنَ مِنْ قَبْلُ مِنْهُمْ، فَهُمْ ثَابِتُونَ عَلَى إِيمَانِهِمْ دَائِمُونَ عَلَيْهِ: (فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) أَيْ فَلَا يَشْتَدَّنَّ عَلَيْكَ الْبُؤْسُ وَالْحُزْنُ وَاحْتِمَالُ الْمَكَارِهِ بَعْدَ الْيَوْمِ (بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) فِي السِّنِينَ الطِّوَالِ، مِنْ تَكْذِيبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَإِيذَائِهِمْ لَكَ وَلِمَنْ آمَنَ لَكَ، إِذْ كُنْتَ تَعَرَّضُ لَهُ وَتَسْتَهْدِفُ لِسِهَامِهِ؛ رَجَاءً فِي إِيمَانِهِمْ وَاهْتِدَائِهِمْ، فَأَرِحْ نَفْسَكَ بَعْدَ الْآنِ مِنْ جِدَالِهِمْ وَسَمَاعِ أَقْوَالِهِمْ وَمِنْ إِعْرَاضِهِمْ وَاحْتِقَارِهِمْ، فَقَدْ آنَ زَمَنُ الِانْتِقَامِ مِنْهُمْ (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا) الْفُلْكُ: السَّفِينَةُ، يُطْلَقُ عَلَى الْمُفْرَدِ وَالْجَمْعِ، وَالظَّاهِرُ مِنْ تَعْرِيفِهِ هُنَا أَنَّ اللهَ - تَعَالَى - كَانَ أَخْبَرَهُ خَبَرَهُ، أَيْ: وَاصْنَعِ الْفُلْكَ الَّذِي سَنُنَجِّيكَ وَمَنْ آمَنَ مَعَكَ فِيهِ حَالَ كَوْنِكَ

مَلْحُوظًا وَمُرَاقَبًا بِأَعْيُنِنَا مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَمَا يَلْزَمُهُ مِنْ حِفْظِنَا فِي كُلِّ آنٍ وَحَالِهِ، فَلَا يَمْنَعُكَ مِنْهُ مَانِعٌ، وَمُلْهَمًا أَوْ مُعَلَّمًا بِوَحْيِنَا لَكَ كَيْفَ تَصْنَعُهُ، فَلَا يَعْرِضُ لَكَ فِي صِفَتِهِ خَطَأٌ، وَجَمْعُ الْأَعْيُنِ هُنَا لِإِفَادَةِ شِدَّةِ الْعِنَايَةِ بِالْمُرَاقَبَةِ وَالْحِفْظِ، وَإِنْ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ (بِعَيْنِي وَوَحْيِي) فَإِنَّ الْعَرَبَ تُعَبِّرُ بِرُؤْيَةِ الْعَيْنِ الْوَاحِدَةِ عَنِ الْعِنَايَةِ وَبِالْأَعْيُنِ عَنِ الْمُبَالَغَةِ فِيهَا، قَالَ - تَعَالَى - لِمُوسَى عَلَيْهِ

(124/378)

السَّلَامُ: وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي 20 : 39 وَقَالَ لِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) (52 : 48) وَفِي الْأَسَاسِ: وَتَقُولُ لِمَنْ بَعَثْتَهُ وَاسْتَعْجَلْتَهُ: (بِعَيْنٍ مَا أَرَيْتُكَ) أَيْ لَا تَلْوِ عَلَى شَيْءٍ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكَ اهـ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

وَإِذَا الْعِنَايَةُ لَاحَظَتْكَ عُيُونُهَا . . . نَمْ فَالْمَخَاوِفُ كُلُّهُنَّ أَمَانُ

وَهَذَا التَّفْسِيرُ هُوَ الظَّاهِرُ بَلِ الْمُتَبَادِرُ مِنْ هَذَا التَّعْبِيرِ، وَلَيْسَ تَأْوِيلًا صُرِفَ بِهِ عَنِ الظَّاهِرِ لِإِيهَامِهِ التَّشْبِيهَ، فَإِنَّمَا مُرَادُهُمْ بِالتَّأْوِيلِ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى الْمَرْجُوحِ مِنْ مَعْنَيَيْهِ أَوْ مَعَانِيهِ لِمَانِعٍ مِنْ حَمْلِهِ عَلَى الْمَعْنَى الرَّاجِحِ، وَهُوَ لَا يَنْحَصِرُ فِي الْحَقِيقَةِ اللُّغَوِيَّةِ.

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا) أَيْ لَا تُرَاجِعْنِي فِي أَمْرِهِمْ بِشَيْءٍ مِنْ طَلَبِ الرَّحْمَةِ بِهِمْ

وَدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ (إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) أَيْ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ وَقَضَى عَلَيْهِمُ الْقَضَاءُ الْحَتْمُ بِالْإِغْرَاقِ ، فَلَا تَأْخُذُكَ بِهِمْ رَأْفَةٌ وَلَا إِشْفَاقٌ . وَقِيلَ مَعْنَاهُ : وَلَا تُخَاطِبْنِي بَعْدُ فِي اسْتِعْجَالِ تَعْذِيبِهِمْ وَتَكْرَارِ الدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَيُرَجِّحُ هَذَا

(125/378)

إِذَا كَانَ الدُّعَاءُ بَعْدَ إِعْلَامِهِ - تَعَالَى - إِيَّاهُ بِهَذَا الْحُكْمِ ، فَقَدْ حَكَى عَنْهُ فِي آخِرِ سُورَتِهِ : (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا) (71 : 26 - 28) أَيْ هَلَاكًا .

(وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ) أَيْ وَطَفِقَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ كَمَا أُمِرَ (وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ) اسْتَهْزَءُوا بِهِ وَضَحِكُوا مِنْهُ وَتَنَادَرُوا عَلَيْهِ لِحُسْبَانِهِمْ أَنَّهُ مُصَابٌ بِالْهَوَسِ وَالْجُنُونِ ،

(126/378)

يُقَالُ : سَخِرَ مِنْ فُلَانٍ وَسَخِرَ بِهِ (كَتَعِبَ) أَيِ اتَّخَذَهُ سُخْرِيًّا (بِضَمِّ السِّينِ وَكَسْرِهَا) يَهْزَأُ بِهِ . وَرُوِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْأَلُونَهُ عَمَّا يَصْنَعُ فَيُجِيبُهُمْ أَنَّهُ يَصْنَعُ بَيْتًا يَجْرِي عَلَى الْمَاءِ ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا مَعْرُوفًا وَلَا مُتَصَوَّرًا ، وَقَلَّ أَنْ يَسْبِقَ أَحَدٌ أَهْلَ عَصْرِهِ بِمَا هُوَ فَوْقَ عُقُولِهِمْ وَمَدَارِكِهِمْ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ إِلَّا سَخِرُوا مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ لَهُ النَّجَاحُ فِيهِ : (قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا) قَالَ مُجِيبًا لِكُلٍّ مِنْهُمْ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ : إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا وَتَسْتَجْهِلُونَنَا الْيَوْمَ لِرُؤْيَتِكُمْ مِنَّا مَا لَا تَتَصَوَّرُونَ لَهُ فَائِدَةً : (فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) مِنَّا جَزَاءً وِفَاقًا ، نَسْخَرُ مِنْكُمُ الْيَوْمَ لِجَهْلِكُمْ ، وَغَدًا لِمَا يَحِلُّ عَلَيْكُمْ ، فَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ الْيَوْمَ بِمَا نَعْمَلُ وَبِمَا سَيَكُونُ مِنْ عَاقِبَةِ عَمَلِنَا .

(فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) بَعْدَ تَمَامِهِ (مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ) أَيْ يُذِلُّهُ وَيَجْلِبُ لَهُ الْعَارَ وَالتَّبَارَ فِي الدُّنْيَا (وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ) بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ ، فَيَكُونُ عَذَابُ الدُّنْيَا هَيِّنًا بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهِ لِانْقِضَاءِ هَذَا وَزَوَالِهِ بِهَلَاكِكُمْ ، وَبَقَاءِ ذَلِكَ وَدَوَامِهِ بِدَوَامِكُمْ .

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ

وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا) هَذَا بَيَانٌ لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ مِمَّا ذَكَرَ قَبْلَهُ مِنَ الِاسْتِعْدَادِ لِهَلَاكِ قَوْمِ نُوحٍ، أَيْ: وَكَانَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ كَمَا أُمِرَ، وَيُقَابِلُ السُّخْرِيَةَ بِغَيْرِ ابْتِئَاسٍ وَلَا ضَجَرٍ، حَتَّى إِذَا جَاءَ وَقْتُ أَمْرِنَا بِهَلَاكِهِمْ (وَفَارَ التَّنُّورُ) اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ - تَعَالَى -، فَهُوَ مَجَازٌ كَحَمِيَ الْوَطِيسُ، أَوْ فَارَ الْمَاءُ مِنَ التَّنُّورِ عِنْدَ نُوحٍ؛ لِأَنَّهُ بَدَأَ يَنْبُعُ مِنَ الْأَرْضِ. وَالتَّنُّورُ الَّذِي يُخْبَزُ فِيهِ الْخُبْزُ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْعَرَبِ. قِيلَ: إِنَّ التَّاءَ أَصْلِيَّةٌ فِيهِ، وَقِيلَ: زَائِدَةٌ، وَقَدِ اتَّفَقَتْ فِيهِ لُغَةُ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، وَقِيلَ: أَوَّلُ مَنْ صَنَعَهُ حَوَّاءُ أُمُّ الْبَشَرِ وَأَنَّ تَنُّورَهَا بَقِيَ إِلَى زَمَنِ نُوحٍ، وَأَنَّهُ هُوَ الْمُرَادُ هُنَا، وَهَذَا مِمَّا لَا يُوثَقُ بِهِ، وَالْفَوْرُ وَالْفَوَرَانُ ضَرْبٌ مِنَ الْحَرَكَةِ وَالِارْتِفَاعِ الْقَوِيِّ، يُقَالُ فِي الْمَاءِ إِذَا نَبَعَ وَجَرَى، وَإِذَا غَلَا وَارْتَفَعَ، قَالَ فِي الْأَسَاسِ: فَارَتِ الْقِدْرُ، وَفَارَتْ فَوْرَاتُهَا، وَعَيْنٌ فَوَّارَةٌ فِي أَرْضٍ خَوَّارَةٍ، وَفَارَ الْمَاءُ مِنَ الْعَيْنِ. وَمِنَ الْمَجَازِ: فَارَ الْغَضَبُ، وَأَخَافُ أَنْ تَفُورَ عَلَيَّ، وَقَالَ ذَلِكَ فِي فَوْرَةِ الْغَضَبِ اهـ. وَقَالَ الرَّاغِبُ فِي مُفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ: الْفَوْرُ شِدَّةُ الْغَلَيَانِ، وَيُقَالُ ذَلِكَ فِي النَّارِ نَفْسِهَا إِذَا هَاجَتْ، وَفِي الْقِدْرِ وَفِي

الْغَضَبِ ، نَحْوَ : وَهِيَ تَفُورُ 67 : 7 (وَفَارَ التَّنُّورُ) اهـ . وَالْمُتَبَادِرُ مِنْ فَوَرَانِ التَّنُّورِ هُنَا اشْتِدَادُ غَضَبِ اللهِ - تَعَالَى - عَلَى أُولَئِكَ الْمُشْرِكِينَ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِلنَّاسِ ، وَحُلُولُ وَقْتِ انْتِقَامِهِ مِنْهُمْ ، وَقَدْ رُوِيَ فِيهِ عَنْ مُفَسِّرِي الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ بِضْعَةُ أَقْوَالٍ مَا أُرَاهَا إِلَّا مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، أَقْرَبُهَا إِلَى اللُّغَةِ أَنَّ التَّنُّورَ أُطْلِقَ فِي اللُّغَةِ عَلَى تَنُّورِ الْفَجْرِ ، وَأَنَّ الْمُرَادَ مِنْ فَوَرَانِهِ هُنَا ظُهُورُ نُورِهِ ، وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنْ عَلِيٍّ - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، يَعْنِي أَنَّ هَذَا الْوَقْتَ مَوْعِدُهُمْ كَقَوْمِ لُوطٍ .

وَالثَّانِي : أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ فَوَرَانُ الْمَاءِ مِنْ تَنُّورِ الْخَبْزِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَامَةً لِنُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَهُوَ يَتَوَقَّفُ عَلَى رِوَايَةٍ مَرْفُوعَةٍ وَيُنْسَبُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وَأَقْرَبُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ أَوَّلَ نَبْعِ مَاءِ الطُّوفَانِ مِنَ

الْأَرْضِ . وَلَا يَصِحُّ فِي هَذِهِ الْآثَارِ وَلَا فِي أَمْثَالِهَا رِوَايَةٌ مَرْفُوعَةٌ يُحْتَجُّ بِهَا ، وَحَدِيثُ عَائِشَةَ الْآتِي يَدُلُّ عَلَى مَا قُلْتُ إِنَّهُ الْأَقْرَبُ .

(قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) قَرَأَ حَفْصٌ كَلِمَةَ (كُلٍّ) هُنَا بِالتَّنْوِينِ ، وَجُمْهُورُ الْقُرَّاءِ بِالْإِضَافَةِ لِمَا بَعْدَهَا ، أَيْ : حَتَّى إِذَا جَاءَ مَوْعِدُ أَمْرِنَا قُلْنَا لِنُوحٍ حِينَئِذٍ : (احْمِلْ فِيهَا) أَيِ

فِي الْفُلْكِ ، وَهُوَ السَّفِينَةُ – مِنْ كُلٍّ زَوْجٍ اثْنَيْنِ ذَكَرًا وَأُنْثَى . وَالتَّقْدِيرُ عَلَى قِرَاءَةِ حَفْصٍ : احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْأَحْيَاءِ أَوِ الْحَيَوَانِ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ذَكَرًا وَأُنْثَى لِأَجْلِ أَنْ تَبْقَى بَعْدَ غَرَقِ سَائِرِ الْأَحْيَاءِ فَتَتَنَاسَلَ وَيَبْقَى نَوْعُهَا عَلَى الْأَرْضِ : (وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) أَيْ : وَاحْمِلْ فِيهَا أَهْلَ بَيْتِكَ ذُكُورًا وَإِنَاثًا ، وَأَهْلُ بَيْتِ الرَّجُلِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ نِسَاؤُهُ وَأَوْلَادُهُ وَأَزْوَاجُهُمْ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُمْ كُفَّارُهُمْ إِنْ كَانَ فِيهِمْ كُفَّارٌ ، لِأَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ فِي عُمُومِ قَوْلِهِ : (وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) وَإِلَّا كَانَ الْمُسْتَثْنَى وَلَدَهُ الَّذِي سَتُذْكَرُ قِصَّتُهُ قَرِيبًا (وَمَنْ آمَنَ) مَعَكَ مِنْ قَوْمِكَ (وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) مِنْهُمْ ، وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا اللهُ – تَعَالَى – وَلَا رَسُولُهُ عَدَدَهُمْ ، فَكُلُّ مَا قَالَهُ الْمُفَسِّرُونَ فِيهِمْ مَرْدُودٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أَنْوَاعَ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي حَمَلَهَا ، وَلَا كَيْفَ جَمَعَهَا وَأَدْخَلَهَا السَّفِينَةَ وَهِيَ مُفَصَّلَةٌ فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ ، وَلِلْمُفَسِّرِينَ فِيهَا إِسْرَائِيلِيَّاتٌ مُضْحِكَةٌ تُخَالِفُهَا

، لَا يَنْبَغِي تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنَ الْعُمُرِ فِي نَقْلِهَا وَإِشْغَالِ الْقُرَّاءِ بِهَا .

(وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) يُقَالُ : رَكِبَ الدَّابَّةَ وَالسَّفِينَةَ وَرَكِبَ عَلَى

الدَّابَّةِ لأَنَّهُ يَعْلُوهَا ، وَفِي السَّفِينَةِ لأَنَّهُ يَكُونُ مَظْرُوفًا فِيهَا وَإِنْ جَلَسَ عَلَى ظَهْرِهَا وَهُوَ الْمُسْتَعْمَلُ فِي الْقُرْآنِ ، قَرَأَ بَعْضُ أَئِمَّةِ الْقُرَّاءِ مَجْرَاهَا بِفَتْحِ الْمِيمِ بِإِمَالَةِ الرَّاءِ وَتَرْكِهَا وَهُوَ مَصْدَرٌ مِيمِيٌّ لِجَرَتِ السَّفِينَةُ تَجْرِي مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ الْآتِي : (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ) وَقَرَأَهَا الْآخَرُونَ بِضَمِّ الْمِيمِ وَهُوَ مَصْدَرٌ مِيمِيٌّ لِأُجْرَى عَلَى إِرَادَةِ إِجْرَاءِ اللهِ - تَعَالَى - لَهَا .

وَقَرَأُوا كُلُّهُمْ : (مُرْسَاهَا) بِضَمِّ الْمِيمِ ؛ بِمَعْنَى أَنَّ اللهَ - تَعَالَى - هُوَ الَّذِي سَيُرْسِيهَا ، وَرُسُوُّ السَّفِينَةِ وُقُوفُهَا ، وَالْمَجْرَى وَالْمَرْسَى

يَجِيئَانِ اسْمَيْ زَمَانٍ

(131/378)

وَمَكَانٍ أَيْضًا . وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَالَهَا نُوحٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عِنْدَ أَمْرِهِمْ بِرُكُوبِ السَّفِينَةِ مَعَهُ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللهِ - تَعَالَى - فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا ، فَتَكُونُ بِشَارَةً لَهُمْ بِحِفْظِهِ - تَعَالَى - لَهَا وَلَهُمْ ، أَيْ : بِاسْمِ اللهِ جَرَيَانُهَا وَإِرْسَاؤُهَا فَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَحِفْظِهِ وَعِنَايَتِهِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَمَرَهُمْ بِأَنْ يَقُولُوهَا كَمَا يَقُولُهَا عَلَى تَقْدِيرِ : ارْكَبُوا فِيهَا قَائِلِينَ بِاسْمِ اللهِ ، أَيْ بِتَسْخِيرِهِ وَقُدْرَتِهِ (مَجْرَاهَا) حِينَ تَجْرِي أَوْ حِينَ يُجْرِيهَا (وَمُرْسَاهَا) حِينَ يُرْسِيهَا ، لَا بِحَوْلِنَا وَلَا قُوَّتِنَا (إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) أَيْ : إِنَّهُ لَوَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ لِعِبَادِهِ حَيْثُ

لَمْ يُهْلِكْهُمْ جَمِيعَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَتَقْصِيرِهِمْ ، وَإِنَّمَا يُهْلِكُ الْكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ وَحْدَهُمْ ، رَحِيمٌ بِهِمْ بِمَا سَخَّرَ لَهُمْ هَذِهِ السَّفِينَةَ لِنَجَاةِ بَقِيَّةِ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ مِنْ هَذَا الطُّوفَانِ الَّذِي اقْتَضَتْهُ مَشِيئَتُهُ ، أَخْرَجَ أَبُو يَعْلَى وَالطَّبَرَانِيُّ وَابْنُ السُّنِّيِّ وَغَيْرُهُمْ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (أَمَانٌ لِأُمَّتِي مِنَ الْغَرَقِ إِذَا رَكِبُوا الْفُلْكَ أَنْ يَقُولُوا : بِاسْمِ اللَّهِ الْمَلِكِ الرَّحْمَنِ بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا) الْآيَةَ (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) الْآيَةَ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْآيَةِ الثَّانِيَةِ آيَةُ سُورَةِ الزُّمَرِ (39 : 67) وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(132/378)

(وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ) هَذَا تَصْوِيرٌ لِحَالِهَا فِي جَرْيِهَا بِهِمْ كَأَنَّهَا حَاضِرَةٌ أَمَامَ الْقَارِئِ أَوِ السَّامِعِ ، أَيْ تَجْرِي فِي أَثْنَاءِ مَوْجٍ يُشْبِهُ الْجِبَالَ فِي عُلُوِّهِ وَارْتِفَاعِهِ وَامْتِدَادِهِ ، وَهُوَ مَا يَحْدُثُ فِي ظَاهِرِ الْبَحْرِ عِنْدَ اضْطِرَابِهِ مِنَ التَّمَوُّجِ وَالِارْتِفَاعِ بِفِعْلِ الرِّيَاحِ ، وَاحِدُهُ

مَوْجَةٌ وَجَمْعُهُ أَمْوَاجٌ، وَأَصْلُ الْمَوْجِ الِاضْطِرَابُ وَمِنْهُ: (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ) (18: 99)

(133/378)

وَمَنْ عَرَفَ مَا يَحْدُثُ فِي الْبِحَارِ الْعَظِيمَةِ مِنَ الْأَمْوَاجِ عِنْدَمَا تُهَيِّجُهَا الرِّيَاحُ الشَّدِيدَةُ، رَأَى أَنَّ الْمُبَالَغَةَ فِي هَذَا التَّشْبِيهِ غَيْرُ بَعِيدَةٍ، وَصَفَ لِي بَعْضُهُمْ سَفَرَهُ فِي الْمُحِيطِ الْهِنْدِيِّ فِي زَمَنِ رِيَاحِ الصَّيْفِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْمَوْسِمِيَّةَ بِمَا مَعْنَاهُ: كُنْتُ أَرَى السَّفِينَةَ تَهْبِطُ بِنَا فِي غَوْرٍ عَمِيقٍ، كَوَادٍ سَحِيقٍ، نَرَى الْبَحْرَ مِنْ جَانِبَيْهِ كَجَبَلَيْنِ عَظِيمَيْنِ يَكَادَانِ يُطْبِقَانِ عَلَيْهَا، فَإِذَا بِهَا قَدِ انْدَفَعَتْ إِلَى أَعْلَى الْمَوْجِ كَأَنَّهَا فِي شَاهِقِ جَبَلٍ تُرِيدُ أَنْ تَنْقَضَّ مِنْهُ، وَالْمَلَّاحُونَ يَرْبِطُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْحِبَالِ عَلَى ظَهْرِهَا وَجَوَانِبِهَا، لِئَلَّا يَجْرُفُهُمْ مَا يُفِيضُ مِنَ الْمَوْجِ عَلَيْهَا، وَرَاجِعْ وَصْفَ الْبَحْرِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى -: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) (10: 22) (وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ) عِنْدَ الرُّكُوبِ فِي السَّفِينَةِ وَقَبْلَ جَرَيَانِهَا، وَلَمْ يَسْبِقْ لَهُ ذِكْرٌ، وَسَيَأْتِي بَقِيَّةُ خَبَرِهِ فِي آخِرِ الْقِصَّةِ: (وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ) أَيْ: مَكَانِ عُزْلَةٍ وَانْفِرَادٍ دُونَ أَهْلِهِ الَّذِينَ رَكِبُوا فِيهَا وَدُونَ الْكُفَّارِ (يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا) أَيْ: مَعَ وَالِدِكَ وَأَهْلِكَ النَّاجِينَ (وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ) الْمَقْضِيِّ عَلَيْهِمْ بِالْهَلَاكِ.

(قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ) أَيْ: سَأَلْجَأُ إِلَى جَبَلٍ عَالٍ يَحْفَظُنِي مِنَ الْمَاءِ أَنْ يَصِلَ إِلَيَّ فَأَغْرَقَ (قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ) أَيْ: لَا شَيْءَ فِي هَذَا الْيَوْمِ الْعَصِيبِ يَعْصِمُ أَحَدًا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ الَّذِي قَضَاهُ، فَلَيْسَ الْأَمْرُ وَالشَّأْنُ أَمْرَ مَاءٍ يَرْتَفِعُ بِكَثْرَةِ الْمَطَرِ كَالْمُعْتَادِ، فَيَتَّقِي الْحَازِمُ ضُرَّهُ بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَسْبَابِ، وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرُ انْتِقَامٍ عَامٍّ مِنْ أَشْرَارِ الْعِبَادِ، الَّذِينَ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ

وَظَلَمُوا وَطَغَوْا فِي الْبِلَادِ، لَكِنْ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ مِنْهُمْ فَهُوَ يَعْصِمُهُ وَيَحْفَظُهُ. وَقَدِ اخْتُصَّ بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ مَنْ أَمَرَ بِحَمْلِهِمْ فِي هَذِهِ السَّفِينَةِ (وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ) وَكَانَ قَدْ بَدَأَ يَرْتَفِعُ فِي أَثْنَاءِ هَذَا الْحَدِيثِ حَتَّى حَالَ بَيْنَ الْوَلَدِ وَوَالِدِهِ (فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) الْهَالِكِينَ.

أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ وَالْحَاكِمُ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (كَانَ نُوحٌ مَكَثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا يَدْعُوهُمْ،

حَتَّى كَانَ آخِرُ زَمَانِهِ غَرَسَ شَجَرَةً فَعَظُمَتْ وَذَهَبَتْ كُلَّ مَذْهَبٍ ، ثُمَّ قَطَعَهَا ، ثُمَّ جَعَلَ يَعْمَلُ مِنْهَا سَفِينَةً ، وَيَمُرُّونَ فَيَسْأَلُونَهُ فَيَقُولُ : أَعْمَلُهَا سَفِينَةً ، فَيَسْخَرُونَ مِنْهُ ، وَيَقُولُونَ : تَعْمَلُ سَفِينَةً فِي الْبَرِّ فَكَيْفَ تَجْرِي ؟ قَالَ : سَوْفَ تَعْلَمُونَ . فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا وَفَارَ التَّنُّورُ وَكَثُرَ الْمَاءُ فِي السِّكَكِ ، خَشِيَتْ أُمُّ الصَّبِيِّ عَلَيْهِ وَكَانَتْ تُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا فَخَرَجَتْ إِلَى الْجَبَلِ حَتَّى بَلَغَتْ ثُلُثَهُ ، فَلَمَّا بَلَغَهَا الْمَاءُ خَرَجَتْ حَتَّى اسْتَوَتْ عَلَى الْجَبَلِ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْمَاءُ رَقَبَتَهُ رَفَعَتْهُ بَيْنَ يَدَيْهَا حَتَّى ذَهَبَ الْمَاءُ بِهَا ، فَلَوْ رَحِمَ اللهُ مِنْهُمْ أَحَدًا لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ) .

هَذَا الْحَدِيثُ رَوَاهُ مَنْ ذَكَرْنَا ، كُلُّهُمْ مِنْ طَرِيقِ مُوسَى بْنِ يَعْقُوبَ ، وَقَدْ قَالَ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ اهـ . يَعْنِي : الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ ، وَتَعَقَّبَهُ

(136/378)

الذَّهَبِيُّ فَقَالَ : إِسْنَادُهُ مُظْلِمٌ ، وَمُوسَى لَيْسَ بِذَاكَ . وَذَكَرَ فِي الْمِيزَانِ ، وَوَافَقَهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي تَهْذِيبِ التَّهْذِيبِ أَنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي مُوسَى هَذَا ، وَثَّقَهُ ابْنُ مَعِينٍ ، وَقَالَ النَّسَائِيُّ : لَيْسَ بِالْقَوِيِّ ، وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ : هُوَ صَالِحٌ ، وَقَالَ ابْنُ الْمَدِينِيِّ : ضَعِيفٌ مُنْكَرُ الْحَدِيثِ .

(137/378)

وَقَدْ وَصَفَ اللهُ حُدُوثَ هَذَا الطُّوفَانِ بِقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْقَمَرِ : {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} (54 : 9 - 16) وَإِنَّهُ لَوَصْفٌ وَجِيزٌ فِي أَعْلَى مَرَاقِي الْبَلَاغَةِ وَالتَّأْثِيرِ ، مَا أَفْظَعَ هَذَا الْمَنْظَرَ ! مَا أَشَدَّ هَوْلَهُ ! مَا أَعْظَمَ رَوْعَتَهُ ! مَاءٌ يَنْهَمِرُ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ انْهِمَارًا ، وَأَرْضٌ تَتَفَجَّرُ عُيُونًا خَوَّارَةً فَتَفِيضُ مِدْرَارًا ، مَاءٌ ثَجَّاجٌ يَصِيرُ بَحْرًا ذَا أَمْوَاجٍ ، خَفِيَتْ مِنْ تَحْتِهِ الْأَرْضُ بِجِبَالِهَا ، وَخَفِيَتْ مِنْ فَوْقِهِ السَّمَاءُ بِشَمْسِهَا وَكَوَاكِبِهَا ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ السَّفِينَةُ كَمَا كَانَ عَرْشُ اللهِ عَلَى الْمَاءِ فِي بَدْءِ التَّكْوِينِ ، كَأَنَّ مُلْكَ اللهِ الْأَرْضِيَّ قَدِ انْحَصَرَ فِيهَا ، فَتَخَيَّلْ أَنَّكَ نَاظِرٌ إِلَيْهَا كَمَا صَوَّرَهَا لَكَ التَّنْزِيلُ ، تَتَفَكَّرُ فِيمَا يَئُولُ إِلَيْهِ أَمْرُ هَذَا الْخَطْبِ الْجَلِيلِ ، وَاسْتَمِعْ لِمَا بَيَّنَهُ بِهِ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ ، أَوْجَزَ عِبَارَةٍ وَأَبْلَغَهَا تَأْثِيرًا ، جَعَلَتْ أَعْظَمَ مَا فِي الْعَالَمِ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا .

(وقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ) أَيْ : وَصَدَرَ مِنْ عَالِمِ الْغَيْبِ الْأَعْلَى نِدَاءٌ خَاطَبَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ ، بِأَمْرِ التَّكْوِينِ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ الْعُقَلَاءُ وَغَيْرُ الْعُقَلَاءِ : (يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ) كُلَّهُ الَّذِي عَلَيْكِ ، أَوِ الَّذِي تَفَجَّرَ مِنْ بَاطِنِكِ ، إِنْ صَحَّ أَنَّ مَاءَ السَّمَاءِ صَارَ بَحْرًا ، وَالْبَلْعُ : ازْدِرَادُ الطَّعَامِ أَوِ الشَّرَابِ بِسُرْعَةٍ (وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي) أَيْ : كُفِّي عَنِ الْإِمْطَارِ فَامْتُثِلَ الْأَمْرُ فِي الْحَالِ ، وَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ قِيلَ : كُنْ فَكَانَ (وَغِيضَ الْمَاءُ) أَيْ : غَارَ فِي الْأَرْضِ وَنَضَبَ بِابْتِلَاعِهَا لَهُ نُضُوبًا (وَقُضِيَ الْأَمْرُ) أَيْ : وَنَفَذَ ذَلِكَ الْأَمْرُ بِإِهْلَاكِ الظَّالِمِينَ ، وَنَجَاءِ الْمُؤْمِنِينَ (وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ) أَيْ : وَاسْتَقَرَّتِ السَّفِينَةُ رَاسِيَةً عَلَى الْجَبَلِ الْمَعْرُوفِ بِالْجُودِيِّ (وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أَيْ هَلَاكًا وَسُحْقًا لَهُمْ ، وَبُعْدًا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ - تَعَالَى - بِمَا كَانَ مِنْ رُسُوخِهِمْ فِي الظُّلْمِ وَاسْتِمْرَارِهِمْ عَلَيْهِ ، وَفَقْدِهِمُ الِاسْتِعْدَادَ لِلتَّوْبَةِ وَالرُّجُوعِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَسَيَأْتِي مِثْلُ هَذَا فِي أَمْثَالِهِمْ مِنْ أَقْوَامِ الْأَنْبِيَاءِ : أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ 11 : 60 أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ 11 : 68 ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْجَبَلَ قَدْ غَمَرَهُ الْمَاءُ وَلَمْ يَرْتَفِعْ فَوْقَهُ إِلَّا قَلِيلًا ، فَلَمَّا بَلَغَتْهُ السَّفِينَةُ كَانَ الْمَاءُ فَوْقَهُ رَقْرَاقًا وَبَدَأَ يَتَقَلَّصُ وَيَغِيضُ فَاسْتَوَتْ عَلَيْهِ .

قَرَّرَ عُلَمَاءُ الْبَلَاغَةِ الْفَنِّيَّةِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَبْلَغُ آيَةٍ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ . أَحَاطَتْ بِالْبَلَاغَةِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهَا وَأَرْجَائِهَا اللَّفْظِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِي وُضِعَتْ لِفَلْسَفَتِهَا الْفُنُونُ الثَّلَاثَةُ : الْمَعَانِي وَالْبَيَانُ وَالْبَدِيعُ ، وَأَنَّ مِثْلَ هَذَا التَّفَاضُلِ بَيْنَ الْآيَاتِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْحَالُ وَالْمَقَامُ ، لَا يُنَافِي بُلُوغَ كُلِّ آيَةٍ فِي مَوْضِعِهَا وَمَوْضُوعِهَا دَرَجَةَ الْإِعْجَازِ ، وَلَا يُعَدُّ مِنَ التَّفَاوُتِ الْمَعْهُودِ فِي كَلَامِ أَشْهَرِ الْبُلَغَاءِ كَأَبِي تَمَّامٍ وَالْمُتَنَبِّي ، وَكَذَا غَيْرُهُمَا مِنْ شُعَرَاءِ

الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ فِي الدَّرَجَاتِ الثَّلَاثِ الْعُلْيَا وَالسُّفْلَى وَمَا بَيْنَهُمَا ، فَآيَاتُهُ كُلُّهَا فِي الدَّرَجَةِ الْعُلْيَا الْمُعْجِزَةِ لِلْبَشَرِ ، وَإِنْ كَانَ لِبَعْضِهَا مَزِيَّةٌ عَلَى بَعْضٍ كَمَا تَرَاهُ فِي تَكْرَارِ الْقِصَّةِ الْوَاحِدَةِ مِنْ هَذِهِ الْقِصَصِ ، وَقَدْ بَسَطْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ التَّحَدِّي بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ : 13 مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ .

(140/378)

مِثَالُ ذَلِكَ مَا تَرَاهُ مِنْ بَلَاغَةِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي بَابِ الْعِبْرَةِ الْمَقْصُودَةِ بِالذَّاتِ مِنْ سِيَاقِ هَذِهِ الْقِصَصِ كُلِّهَا ، وَهُوَ فَوْقَ مَا ذَكَرُوهُ مِنْ نُكَتِ الْفُنُونِ فِيهَا ، وَبَيَانُهُ أَنَّ اللهَ قَدْ أَنْذَرَ الظَّالِمِينَ وَأَوْعَدَهُمُ الْهَلَاكَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ - وَمِنْهُمْ مُكَذِّبُو الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - كُلُّهَا مُعْجِزَةٌ فِي بَلَاغَتِهَا ، وَلَكِنَّكَ تَرَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ تَأْثِيرِ تَقْبِيحِ الظُّلْمِ وَالْوَعِيدِ عَلَيْهِ نَوْعًا لَا تَجِدُهُ فِي

غَيْرِهَا ، لِأَنَّ حَادِثَةَ الطُّوفَانِ أَكْبَرُ مَا حدَثَ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَظَاهِرِ سَخَطِ اللهِ - تَعَالَى - عَلَى الظَّالِمِينَ ، وَقَدْ عُلِمَ مِنْ أَوَّلِ الْقِصَّةِ أَنَّهَا عِقَابٌ لِلظَّالِمِينَ ، بَيْدَ أَنَّ إِعَادَتَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَقِبَ تَصْوِيرِ حَادِثَةِ الطُّوفَانِ بَارِزَةً فِي أَشَدِّ مَظَاهِرِ هَوْلِهَا ، وَإِشْعَارِ الْقُلُوبِ عَظَمَةَ الْجَبَّارِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ فِي الْفَصْلِ فِيهَا ، بِمَا تَتَلَاقَى فِيهَا نِهَايَتُهَا بِبِدَايَتِهَا ، وَالتَّعْبِيرُ عَنْ هَذِهِ النِّهَايَةِ بِالدُّعَاءِ عَلَى الظَّالِمِينَ بِالْبُعْدِ وَالطَّرْدِ الَّذِي يَحْتَمِلُ عِدَّةَ مَعَانٍ مَذْمُومَةٍ شَرُّهَا الطَّرْدُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ - تَعَالَى - ، يُمَثِّلُ لَكَ هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ بِصُورَةٍ تِمْثَالٍ مِنَ الْخِزْيِ وَاللَّعْنِ وَالرِّجْسِ ، لَا تَرَى مِثْلَهُ فِي أَمْثَالِهِمْ مِنْ أَقْوَامِ الْأَنْبِيَاءِ ، عَلَى مَا تَرَاهُ فِي التَّعْبِيرِ عَنْهَا بِالْعِبَارَاتِ الرَّائِعَةِ فِي الْبَلَاغَةِ وَعُلُوِّ الْأَسْبَابِ ، وَإِحْدَاثِهَا الرُّعْبَ فِي الْقُلُوبِ ، كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ

كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) (54 : 18 - 21) وَهَذِهِ الْآيَاتُ فِي طَبَقَةِ مَا قَبْلَهَا مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ فِي هَذِهِ السُّوَرِ وَقَدْ أَوْرَدْنَاهَا آنِفًا . وَقَوْلُهُ - تَعَالَى - : (كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ

سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ) (69 : 4 – 8 ؟ إلخ) . وَنَاهِيكَ بِمَا وَصَفَ بِهِ عَذَابَ قَوْمِ لُوطٍ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا ، وَسَأَصِفُ الْفَرْقَ بَيْنَ الْبَلَاغَتَيْنِ : الْمَعْنَوِيَّةِ الرُّوحِيَّةِ وَالْفَنِّيَّةِ ، وَإِضْرَابُ الْمُثُلِ

لِجَلَالِهَا وَجَمَالِهَا عِنْدَ الْعَرَبِ الْخُلَّصِ وَأَهْلِ الْفُنُونِ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْعِلَاوَةِ الْأُولَى مِنْ عِلَاوَاتِ هَذِهِ الْقِصَّةِ .

(142/378)

وَحِكْمَةُ هَذِهِ الْمُبَالَغَاتِ فِي عِقَابِ الظَّالِمِينَ وَالْمُجْرِمِينَ مِنَ الْغَابِرِينَ ، إِنَّمَا هِيَ إِنْذَارُ أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْحَاضِرِينَ ، وَقَدْ كَرَّرَ عُقُوبَةَ كُلِّ قَوْمٍ فِي سُورَةِ الْقَمَرِ ، وَكَرَّرَ مَعَهَا : (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) (54 : 17) وَتَرَى الظَّالِمِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ غَافِلِينَ ، وَتَرَى الْمُفَسِّرِينَ لِلْقُرْآنِ يُعْنَوْنَ بِبَسْطِ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ وَبَلَاغَةِ عِبَارَتِهِ وَلَفْظِهِ ، وَلَا يُعْنَوْنَ بِبَسْطِ عِبْرَتِهِ وَوَعْظِهِ ، وَلَقَدْ قَالَ حَكِيمُ الشُّعَرَاءِ أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعَرِّيِّ فِي أَهْلِ عَصْرِهِ :

وَالْأَرْضُ لِلطُّوفَانِ مُشْتَاقَةٌ . . . لَعَلَّهَا مِنْ دَرَنٍ تُغْسَلُ

وَنَحْنُ نَقُولُ : رَحِمَ اللهُ أَبَا الْعَلَاءِ فَكَيْفَ لَوْ رَأَى زَمَانَنَا هَذَا ؟ كَمَا قَالَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ

رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَقَدْ أُنْشِدَتْ قَوْلَ لَبِيدٍ :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ . . . وَبَقِيتُ فِي خَلَفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

قَالَتْ : رَحِمَ اللهُ لَبِيدًا فَكَيْفَ لَوْ رَأَى زَمَانَنَا هَذَا ؟

رُوِّينَاهُ مُسَلْسَلًا إِلَيْهَا مِنْ طَرِيقِ شَيْخِنَا أَبِي الْمَحَاسِنِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ الْقَاوَقْجِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - وَسَنَعْقِدُ فَصْلًا لِلْكَلَامِ عَلَى عِقَابِ اللهِ لِلظَّالِمِينَ وَالْمُجْرِمِينَ فِي عَصْرِنَا بِمَا نُورِدُهُ مِنْ عِلَاوَاتِ هَذِهِ الْقِصَّةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 61 . 69 ﴾

(143/378)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾

لما أفاد قوله : ﴿ فكان من المغرقين ﴾ [هود : 43] وقوعَ الغرق الموعود به على وجه الإيجاز كما علمتَ انتقل الكلام إلى انتهاء الطوفان .

وبناء فعل ﴿ قيل ﴾ للمفعول هنا اختصار لظهور فاعل القول ، لأن مثله لا يصدر إلاّ من الله .

والقول هنا أمر التكوين .

وخطاب الأرض والسماء بطريقة النداء وبالأمر استعارة لتعلّق أمر التكوين بكيفيات أفعال في ذاتيهما وانفعالهما بذلك كما يخاطَب العاقل بعمل يعمله فيقبله امتثالاً وخشية.

فالاستعارة هنا في حرف النداء وهي تبعيّة.

والبلع حقيقته اجتياز الطعام والشراب إلى الحلق بدون استقرار في الفم.

وهو هنا استعارة لإدخال الشيء في باطن شيء بسرعة، ومعنى بلع الأرض ماءها: دُخوله في باطنها بسرعة كسرعة ازدراد البالع بحيث لم يكن جفاف الأرض بحرارة شمس أو رياح بل كان بعمل أرضي عاجل.

وقد يكون ذلك بإحداث الله زلازل وخسفاً انشقت به طبقة الأرض في مواضع كثيرة حتى غارت المياه التي كانت على سطح الأرض.

وإضافة ﴿ الماء ﴾ إلى (الأرض) لأدنى ملابسة لكونه في وجهها.

وإقلاع السماء مستعار لكفّ نزول المطر منها لأنه إذا كَفّ نزولُ المطر لم يُخلف الماء الذي غار في الأرض، ولذلك قدّم الأمر بالبلْع لأنّه السبب الأعظم لغيض الماء.

وفي قران الأرض والسماء محسّن الطباق، وفي مقابلة (ابلعي) بـ ﴿ أقلعي ﴾ محسّن الجناس.

و﴿ غيض الماء ﴾ مغن عن التعرُّض إلى كون السماء أقلعت والأرض بَلعت، وبنيَ فعل ﴿ غيض الماء ﴾ للنائب لمثل ما بني فعل ﴿ وقِيل ﴾ باعتبار سبب الغيض، أو لأنه لا

فاعل له حقيقة لأن حصوله حصول مسبب عن سبب والغَيْض : نضوبه في الأرض .

والمراد : الماء الذي نشأ بالطوفان زائداً على بحار الأرض وأوديتها .

وقضاء الأمر : إتمامه .

وبناء الفعل للنائب للعلم بأنّ فاعله ليس غير الله تعالى .

والاستواء : الاستقرار .

(144/378)

والجوديّ : اسم جبل بين العراق وأرمينا ، يقال له اليوم (أرَارَاط) .

وحكمة إرسائها على جبل أنّ جانب الجبل أمكَن لاستقرار السفينة عند نزول الرّاكبين لأنّها تخف عندما ينزل معظمهم فإذا مالت استندت إلى جانب الجبل .

و﴿ بعداً ﴾ مصدر (بعدَ) على مثال كَرُم وفَرِح ، منصوب على المفعولية المطلقة .

وهو نائب عن الفعل كما هو الاستعمال في مقام الدعاء ونحوه ، كالمدح والذم مثل : تَبّاً له ، وسحقاً ، وسَقْياً ، ورَعْياً ، وشكْراً .

٧ والبعد كناية عن التحقير بلازم كراهية الشيء ، فلذلك يقال : بَعِد أو نحوه لمن فُقِدَ ، إذا كان مكروهاً كما هنا .

ويقال: نفي البعد للمرغوب فيه وإن كان قد بعد ، فَيُقَال للميّت العزيز كما قال مالك بن الرّيْب:

يقولون لا تَبْعَدْ وهم يدفِنونني

وأَيْنَ مكانُ البعد إلاّ مَكانِيا . . .

وقالت فاطمة بنت الأَحْجَم:

إخْوَتي لا تَبْعَدُوا أبداً

وبَلى والله قد بَعِدوا . . .

والأكثر أن يقال (بعِد) بكسر العين في البعد المجّازي بمعنى الهلاك والموت ، و (بعُد) المضموم العين في البعد الحقيقي .

والقوم الظالمون هم الذين كفروا فغرقوا .

والقائل (بعداً) قد يكون من قول الله جرياً على طريقة قوله : ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ﴾ ويجوز أن يقوله المؤمنون تحقيراً للكفّار وتشفّياً منهم واستراحة ، فبِنيَ فعل ﴿ وقيل ﴾ إلى المجهول لعدم الحاجة إلى معرفة قائله .

قال في "الكشاف" بعد أن ذكر نكتاً ممّا أتينا على أكثره "ولما ذكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم لا لتجانس الكلمتين ﴿ ابلَعي ﴾ و ﴿ اقلعي ﴾ وإن كان لا يُخلِي الكلامَ من حسن فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك

المحاسن التي هي اللّب وما عداها قشور" أ هـ .

وقد تصدّى السكاكي في "المفتاح" في بحث البلاغة والفصاحة لبيان بعض خصائص البلاغة في هذه الآية ، تقفية على كلام "الكشاف" فيما نرى فقال:

(145/378)

"والنّظر في هذه الآية من أربع جهات ، من جهة علم البيان ، ومن جهة علم المعاني . . . ومن جهة الفصاحة المعنوية ومن جهة الفصاحة اللفظية .

أما النظر فيها من جهة علم البيان . . .

فنقول : إنه عزّ وجل لما أراد أن يبين معنى أردنا أن نَرُدّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها .

.

وأن نقطع طوفان السماء .

.

وأن نغيض الماءَ .

.

وأن نقضيَ أمر نوح عليه السّلام وهو إنجاز ما كنّا وعدنا من إغراق قومه .

.

وأن نسوي السّفينة على الجوديّ.

.

وأبقينا الظّلَمةَ غَرْقى بُنِيَ الكلام على تشبيه المراد بالمأمور . . .

وتشبيه تكوين المراد بالأمر.

.

وأن السماوات والأرض . . .

تابعة لإرادته . . .

كأنها عقلاء مميّزون . . .

ثم بنى على تشبيهه هذا نَظْمَ الكلام فقال جلّ وعلا : ﴿ قيل ﴾ على سبيل المجاز عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل ، وجَعل قرينة المجاز الخطاب للجماد . . .

فقال : ﴿ يا أرض ويا سماء ﴾ . . .

ثم استعار لغور الماء في الأرض البلعَ.

.

للشبه بينهما وهو الذهاب إلى مقر خفي ، ثم استعار الماء للغذاء استعارة بالكناية تشبيهاً له بالغذاء لتقوي الأرض بالماء في الإنبات . . .

تقويَ الآكِل بالطعام ، وجعل قرينة الاستعارة لفظة (ابلعي) . . .

ثم أمَرَ على سبيل الاستعارة للشبه المقدم ذكره ، وخاطَب في الأمر ترشيحاً لاستعارة النداء ، ثم قال ﴿ ماءك ﴾ بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز تشبيهاً لاتّصال الماء بالأرض باتصال المِلْك بالمالك واختار ضمير الخطاب لأجل الترشيح .

ثم اختار لاحتباس المطر الإقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم ما كان ، ثم أمَر على سبيل الاستعارة وخاطب في الأمر قائلاً ﴿ أقلعي ﴾ لمثل ما تقدم في ﴿ ابلعي ﴾ ، ثم قال : ﴿ وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجوديّ ﴾ .

(146/378)

﴿ وقيل بعداً ﴾ فلم يصرح بمن غَاض الماءَ ، ولا بمن قَضَى الأمر وسوّى السفينة وقال ﴿ بعداً ﴾ ، كما لم يصرح بقائل ﴿ يا أرض ﴾ و ﴿ يا سماء ﴾ في صدر الآية ، سلوكاً في كل واحد من ذلك لسبيل الكناية أن تلك الأمور العظام لا تتأتى إلاّ من ذي قدرة لا يُكتنه قهار لا يغالب ، فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره جلت عظمته قائلاً ﴿ يا أرض ﴾ و ﴿ يا سماء ﴾ ، ولا غائضاً ما غاض ، ولا قاضياً مثل ذلك الأمر الهائل ، أو أن تكون تسوية السفينة وإقرارها بتسوية غيره وإقراره .

ثم ختم الكلام بالتعريض تنبيهاً لسالكي مسلكهم في تكذيب الرسل ظلماً لأنفسهم لا غير خَتْمَ إظهار لمكان السخط ولجهة استحقاقهم إياه وأن قيامة الطوفان وتلك الصورة الهائلة إنّما كانت لظلمهم .

وأما النظر فيها من حيث علم المعاني ، وهو النّظر في إفادة كل كلمة فيها ، وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها ، لذلك أنه اختير ﴿ يا ﴾ دون سائر أخواتها لكونها أكثر في الاستعمال وأنها دالة على بعد المنادَى الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة .

.

وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به . . .

واختير ﴿ ابلعي ﴾ على ابتلعي لكونه أخصر ، ولمجيء حظّ التجانس بينه وبين ﴿ أقلعي ﴾ أوْفَر .

وقيل ﴿ ماءَكِ ﴾ بالإفراد دون الجمع لما كان في الجمع من صورة الاستكثار المتأتي عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت .

.

وإنما لم يقل ﴿ ابلعي ﴾ بدون المفعول أن لا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وساكنات الماء بأسرهنّ نظراً إلى مقام ولأرود أمر الذي هو مقام عظمة وكبرياء .

ثم إذ بَيّن المرادَ اختصر الكلام مع ﴿ اقلعي ﴾ احترازاً عن الحشْو المستغنى عنه ، وهو الوجه في أن لم يقل : قيل يا أرض ابلعي ماءك فبلَعَت ، ويا سماء أقلعي فأقلعت .

.

(147/378)

وكذا الأمر دون أن يقال : أمرُ نوح عليه السّلام وهو إنجاز ما كان الله وعد نوحاً عليه السّلام من إهلاك قومه لقصد الاختصار والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك .

ثم قيل : ﴿ بعداً للقوم الظالمين ﴾ دون أن يقال : ليبعَد القومُ ، طلباً للتأكيد مع الاختصار وهو نزول ﴿ بعداً ﴾ منزلة ليبعَدُوا بعداً ، مع فائدة أخرى وهي استعمال اللاّم مع (بعداً) الدّال على معنى أن البعد يحقّ لهم .

ثم أطلق الظلم ليتناول كلّ نوع حتى يدخل فيه ظلمهم أنفسهم لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في تكذيب الرسل .

وأمّا من حيث النظر إلى ترتيب الجمل ، فذلك أنه قد قدّم النداء على الأمر ، فقيل : ﴿ يا أرض ابلعي ويا سماء أقلعي ﴾ دون أن يقال : ابلعي يا أرض وأقلعي يا سماء ، جرياً على مقتضى اللازم فيمن كان مأموراً حقيقة من تقديم التنبيه ليتمكّن الأمر الوارد عقيبه في نفس

المنادَى قصداً بذلك لمعنى الترشيح .

ثم قدّم أمر الأرض على أمر السماء وابتدىء به لابتداء الطوفان منها ، ونزولها لذلك في القصة منزلة الأصل ، والأصل بالتقديم أوْلى ، ثم أتْبَعَهَا قوله : ﴿ وغيض الماء ﴾ لاتّصاله بغيضية الماء وأخذه بحجزتها ، ألا ترى أصل الكلام : قيل يا أرض ابلعي ماءك فبلعت ماءها ويا سماء أقلعي عن إرسال الماء فأقلعت عن إرساله ، وغيض الماء النازل من السماء فغاض ، ثم أتبعه ما هو المقصود من القصة وهو قوله تعالى : ﴿ وقضي الأمر ﴾ أي أنجز الموعود .

.

ثم أتبعه حديث السفينة وهو قوله : ﴿ واستوت على الجوديّ ﴾ ، ثم ختمت القصة بما ختمت . . .

وأمّا النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهي كما ترى نظمٌ للمعاني لطيفٌ وتأديةٌ لها ملخّصةٌ مبيّنة ، لا تعقيد يعثّر الفكر في طلب المراد .

ولا التواء يشيك الطريق إلى المرتاد ، بل إذا جربت نفسك عند استماعها وجدت ألفاظها تطابق معانيها ومعانيها تطابق ألفاظها .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية فألفاظها على ما ترى عربية مستعملة جارية على قوانين اللغة، سليمة عن التّنافر، بعيدة عن البشاعة، عذبة على العذبات، سلسة على الأسلات. . . ".

هذه نهاية كلام المفتاح. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(149/378)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾

والبلع هو مرور الشيء من الحَلْق ليسقط في الجوف، وساعة أن يأتي في القرآن أمر من الله تعالى مثل :

﴿ وَقِيلَ يا أرض ابلعي مَآءَكِ ﴾ [هود : 44] .

فافهم أن القائل هو من تَنْصَاع له الأرض .

ولم يَقُل الله سبحانه : " قال الله يا أرض ابلعي ماءك " ؛ لأن هناك أصلاً متعيّناً وإنْ لم يقُله، والحق سبحانه يريد أن ينمِّي فينا غريزة وفطنة الإيمان ؛ لأن أحداً غير الله تعالى ليس بقادر

على أن يأمر الأرض بأن تبلع الماء .

ويكون أمره سبحانه للسماء : ﴿ وياسماء أقلعي ﴾ أي : أن توقف المطر .

وهكذا يُنهي الحق سبحانه الطوفان الذي أغرق الدنيا بأن أوقف المصبَّ ، وأعطى الأمر للمصرف أن يسحب الماء .

ونحن نلاحظ عند سقوط المطر أن شبكة الصرف الصحيّ تطفح إن كان هناك ما يسدُّ تصريف الماء ؛ لأن أرض المدن حالياً صارت من الأسفلت الذي لا يمتص المياه ؛ ولذلك نجد الجهات المختصة تجنِّد طاقاتها لإصلاح مواسير الصرف الصحي لتمتص مياه المطر حتى لا تتعطل حركة الحياة .

وأقول هنا : إن حُسن استخدام الماء من حُسن الإيمان ؛ لأني ألحظ أن الناس حين يتوضأون فهم يفتحون صنابير الماء بما يزيد كثيراً عن حاجتهم للوضوء الشرعي ، فيجب ألا نرتكب إثم ترك الماء النقيّ ليضيع دون جدوى .

وعلى الناس أن يدّخروا الماء ، ولا يُسيئوا استغلاله ؛ لأن الماء حين يتوفَّر فهو يُحيي الأموات ، ونحن نحتاج الماء لاستزراع الصحاري ، ونحتاج لتخفيف العبء على شبكات الصرف الصحيِّ .

باختصار ؛ نحن نحتاج إلى حُسن استقبال نِعَم الله تعالى وحُسن التصرُّف فيها ؛ لننعم بها ، ونسعد بخيرها .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وياسمآء أَقْلِعِي ﴾ [هود : 44] .

أي : اتركي المطر . . ومن ذلك أخذنا كلمة " قِلْع " الذي يوضع فوق السفن الشراعية الصغيرة ، وهو الشِّراع .

(150/378)

ويُقال : " أقلعت المركب " أي : تركت السكون الذي كانت عليه وهي واقفة على الشاطىء .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَغِيضَ المآء ﴾ [هود : 44] .

وبناها الحق سبحانه هنا للمجهول ؛ لنعلم أن الله تعالى هو الذي أمر الماء بأن يغيض .

ومادة " غاض " تُستعمل لازمةً ، وتُستعمل متعديةً .

ثم يقول سبحانه :

﴿ واستوت عَلَى الجودي ﴾ [هود : 44] .

أي : استقرت السفينة على جبل الجودي .

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ [هود : 44] .

وهو بعدٌ نهائيٌّ إلى يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(151/378)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) ﴾

(152/378)

أخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان للملك يوم ولد نوح اثنان وثمانون سنة ، ولم يكن أحد في ذلك الزمان ينتهي عن منكر ، فبعث الله نوحاً إليهم وهو ابن أربعمائة سنة وثمانين سنة ، ثم دعاهم في نبوّته

مائة وعشرين سنة ، ثم أمره بصنعة السفينة فصنعها وركبها وهو ابن ستمائة سنة وغرق من غرق ، ثم مكث بعد السفينة ثلاثمائة وخمسين سنة ، فولد نوح سام وفي ولده بياض وأدمة ، وحام وفي ولده سواد وبياض ، ويافث وفيهم الشقرة والحمرة ، وكنعان وهو الذي غرق ، والعرب تسمية بام وأم هؤلاء واحدة ، وبجل فود نجر نوح السفينة ، ومن ثم بدا الطوفان ، فركب نوح السفينة معه بنوه هؤلاء ونساء بنيه هؤلاء ، وثلاثة وسبعون من بني شيث ممن آمن به ، فكانوا ثمانين في السفينة ، وحمل معه من كل زوجين اثنين ، وكان طول السفينة ثلاثمائة ذراع بذراع جد أبي نوح ، وعرضها خمسين ذراعاً ، وطولها في السماء ثلاثين ذراعاً ، وخرج منها من الماء ستة أذرع وكانت مطبقة ، وجعل لها ثلاثة أبواب بعضها أسفل من بعض ، فأرسل الله المطر أربعين يوماً فأقبلت الوحش حين أصابها المطر والدواب والطير كلها إلى نوح وسخرت له ، فحمل منها كما أمره الله من كل زوجين اثنين وحمل معه جسد آدم عليه السلام ، فجعل حاجزاً بين النساء والرجال فركبوا فيها لعشر مضين من رجب ، وخرجوا منها يوم عاشوراء من المحرم ، فلذلك صام من صام يوم عاشوراء ، وخرج الماء مثل ذلك نصفين نصف من السماء ونصف من الأرض ، فذلك قول الله ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ [القمر : 11] يقول : مُنْصَبٍّ ﴿ وفجرنا الأرض عيوناً ﴾ [القمر : 12] يقول : شققنا الأرض فالتقى الماء ﴿ على أمر قد قدر ﴾ [القمر : 12] وارتفع الماء على أطول جبل في الأرض خمسة عشر ذراعاً ، فسارت

بهم السفينة فطافت بهم الأرض كلها في ستة أشهر لا تستقر على شيء حتى أتت الحرم فلم تدخله ، ودارت

بالحرم أسبوعاً ورفع البيت الذي بناه آدم عليه السلام رفع من الغرق ، وهو البيت المعمور والحجر الأسود على أبي قبيس ، فلما دارت بالحرم ذهبت في الأرض تسير بهم حتى انتهت إلى الجودي ، وهو جبل بالحضين من أرض الموصل ، فاستقرت بعد ستة أشهر لتمام السنة ، فقيل بعد الستة أشهر : بعداً للقوم الظالمين ، فلما استوت على الجودي قيل : ﴿ يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ﴾ يقول : احبسي ماءك ﴿ وغيض الماء ﴾ نشفته الأرض فصار ما نزل من السماء هذه البحور التي ترون في الأرض ، فآخر ماء بقي في الأرض من الطوفان ماء بحسى بقي في الأرض أربعين سنة بعد الطوفان ، ثم ذهب فهبط نوح عليه السلام إلى قرية فبنى كل رجل منهم بيتاً فسميت سوق الثمانين ، فغرق بنو قابيل كلهم ، وما بين نوح إلى آدم من الآباء كانوا على الإسلام ، ودعا نوح على الأسد أن يلقى عليه الحمى ، وللحمامة بالانس ، وللغراب بشقاء المعيشة ، وتزوّج نوح امرأة من بني قابيل فولدت له غلاماً سماه يوناطن ، فلما ضاقت بهم سوق الثمانين تحوّلوا إلى بابل فبنوها وهي بين

الفرات والصراة ، فمكثوا بها حتى بلغوا مائة ألف وهم على الإِسلام ، ولما خرج نوح من السفينة دفن آدم عليه السلام ببيت المقدس .

وأخرج عبد الرزاق وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه قال : بعث نوح عليه السلام الحمامة فجاءت بورق الزيتون ، فأعطيت الطوق الذي في عنقها وخضاب رجليها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد رضي الله عنه قال خرجت أريد أن أشرب ماء المر قال : لا تشرب ماء المر فإنه لما كان زمن الطوفان أمر الله الأرض أن تبلع ماءها وأمر السماء أن تقلع ، فاستعصى عليه بعض البقاع فلعنه فصار ماؤه مراً ، وترابه سبخاً لا ينبت شيئاً .

وأخرج أبو الشيخ عن إبراهيم التيمي رضي الله عنه قال : لما أمرت الأرض أن تغيض الماء غاضت الأرض ما خلا أرض الكوفة فلعنت ، فسائر الأرض تكون على نورين وأرض الكوفة على أربع .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة ﴿ يا أرض ابلعي ﴾ قال : هو بالحبشة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب بن منبه رضي الله عنه ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ﴾ بالحبشية قال : ازرديه .

وأخرج أبو الشيخ عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله ﴿ يا أرض ابلعي ماءك ﴾ قال : اشربي بلغة الهند .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ويا سماء أقلعي ﴾ قال : أمسكي ﴿ وغيض الماء ﴾ قال : ذهب .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وغيض الماء ﴾ قال : نغض ﴿ وقضي الأمر ﴾ قال : هلاك قوم نوح.

أما قوله تعالى : ﴿ واستوت على الجودي ﴾ .

أخرج أحمد وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " مر النبي صلى الله عليه وسلم بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال : " ما هذا الصوم؟ فقالوا : هذا اليوم الذي أنجى الله فيه موسى وبني إسرائيل من الغرق وأغرق فيه فرعون ، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي فصامه نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله . فقال صلى الله عليه وسلم : أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم ، فصامه وأمر أصحابه بالصوم " " .

وأخرج ابن جرير عن عبد العزيز بن عبد الغفور عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " في أول يوم من رجب ركب نوح السفينة فصام هو وجميع من معه ، وجرت بهم السفينة ستة أشهر فانتهى ذلك إلى المحرم ، فأرست السفينة على الجودي يوم عاشوراء

، فصام نوح وأمر جميع من معه من الوحش والدواب فصاموا شكراً لله تعالى " .

وأخرج الأصبهاني في الترغيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : يوم عاشوراء اليوم الذي تاب الله فيه على آدم ، واليوم الذي استوت فيه سفينة نوح على الجودي ، واليوم الذي فرق الله فيه البحر لبني إسرائيل ، واليوم الذي ولد فيه عيسى ، صيامه يعدل سنة مبرورة .

وأخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما استقرت السفينة على الجودي لبث ما شاء الله ، ثم إنه أذن له فهبط على الجبل ، فدعا الغراب فقال : ائتني بخبر الأرض فانحدر الغراب وفيها الغرقى من قوم نوح فابطأ عليه فلعنه ، ودعا الحمامة فوقع على كف نوح فقال : اهبطي فائتيني بخبر الأرض ، فانحدر فلم يلبث إلا قليلاً حتى جاء ينفض ريشه في منقاره فقال : اهبط فقد أبينت الأرض . قال نوح : بارك الله فيك وفي بيت يؤويك وحببك إلى الناس ، لولا أن يغلبك الناس على نفسك لدعوت الله أن يجعل رأسك من ذهب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه قال : الجودي جبل بالجزيرة ، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت ، وتواضع هو لله تعالى فلم يغرق ،

وأرسلت عليه سفينة نوح.

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن عطاء قال: بلغني أن الجبل تشامخ في السماء إلا الجودي، فعرف أن أمر الله سيدركه فسكن. قال: وبلغني أن الله تعالى استخبا أبا قبيس الركن الأسود.

وأخرج ابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه قال: الجودي جبل بالموصل.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه قال: أبقاها الله بالجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة، كم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(156/378)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾

قوله تعالى: ﴿ ابلعي ﴾: البَلْع معروفٌ. والفعل منه مكسورُ العين ومفتوحُها: بَلِع وبَلَع حكاهما الكسائي والفراء. والإِقلاع: الإِمساك، ومنه " أَقْلَعَت الحمى ". وقيل: أقلع

عن الشيء، أي: تركه وهو قريبٌ من الأول. والغَيْضُ: النقصان وفعله لازم ومتعدٍ، فمِن اللازمِ قولُه تعالى: ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأرحام ﴾ [الرعد: 8]، أي: تَنْقُص. وقيل: بل هو هنا متعدٍّ أيضاً وسيأتي، ومن المتعدِي هذه الآية؛ لأنه لا يُبنى للمفعول مِنْ غير واسطة حرف جر إلا المتعدي بنفسه.

والجُودِيُّ: جبلٌ بعينه بالمَوْصل. وقيل: بل كل جبل يقال له جُودي ومنه قول عمرو بن نفيل /:

2667 سبحانَه ثم سُبْحاناً نعوذُ به . . . وقبلَنا سَبَّح الجُودِيُّ والجُمُدُ

ولا أدري ما في ذلك مِن الدلالة على أنه عامٌّ في كل جبل. وقرأ الأعمش وابن أبي عبلة بتخفيف "الجُودِيْ". قال ابن عطية: "وهما لغتان". والصواب أن يقال: خُفِّفَتْ ياءُ النسب، وإن كان لا يجوز ذلك في كلامهم الفاشي.

قوله ﴿ بُعْداً ﴾ منصوبٌ على المصدر بفعلٍ مقدر، أي: وقيل: ابعدوا بُعْداً، فهو مصدرٌ بمعنى الدعاء عليهم نحو: جَدْعاً، يُقال: بَعِد يَبْعَد بَعَداً إذا هلك، قال:

2668 يقولون لا تَبْعَدْ وهم يَدْفِنونه . . . ولا بُعْدَ إلا ما تُواري الصَّفائحُ

واللام إمَّا [أن] تتعلق بفعل محذوف، ويكون على سبيل البيان كما تقدَّم في نحو "سَقْياً لك ورَعْياً"، وإمَّا أن تتعلق بقيل، أي: لأجلهم هذا القولَ.

قال الزمخشري : " ومجيءُ إخبارهِ على الفعلِ المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء ، وأن تلك الأمورَ العظامَ لا تكون إلا بفعلِ قادرٍ وتكوينِ مكوّنٍ قاهرٍ ، وأنَّ فاعلَ هذه الأفعال فاعل واحد لا يُشارِكُ في أفعاله ، فلا يذهبُ الوهمُ إلى أن يقول غيره : يا أرضُ ابلعي ماءك ، ولا أن يَقْضي ذلك الأمر الهائل إلا هو ، ولا أَنْ تَسْتوي السفينة على الجوديِّ وتستقر عليه إلا بتسويته وإقرارهِ ، ولِما ذَكَرْنا من المعاني والنُّكت استفصح علماءُ البيان هذه الآيةَ ورقصوا لها رؤوسَهم لا لتجانُس الكلمتين وهما قوله : ابلعي وأقلعي ، وذلك وإن كان الكلام لا يخلو مِنْ حُسْنٍ فهو كغير الملتفَتِ إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللُّبُّ وما عداها قشورٌ " . يعني أن بعض الناس عدَّ من فصاحة الآية التجانسَ فقال : إن هذا ليس بطائل بالنسبة إلى ما ذكر من المعاني ، ولعَمْري لقد صدَق .

ولَمَّا حكى الشيخ عنه هذا الكلام الرائع لم يكن جزاؤُه عنده إلا " وأكثرُه خَطابة " .

وقول الزمخشري " ورقَصوا لها رؤوسهم " يحتمل أن يُريد ما يُحكى أن جماعةً من بلغاء زمانهم اجتمعوا في الموسم بعرفةَ وتفرّقوا على أن يُعارِض كلٌّ منهم شيئاً من القرآن ليبروزوا قواهم في الفصاحة ، فتفرّقوا على أن يجتمعوا في القابل ففتح أحدهم قيل هو ابن المقفَّع المصحف فوَجَد هذه الآية ، فكعَّ لها وأَذْعَنَ ، وقال : " لا يقدر أحدٌ أن يَصْنَعَ مثلَ هذا " .

انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون جـ 6 صـ 233 . 235 ﴾

(158/378)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) ﴾

فلما غَرِقَ ابنُ نوح سَكَنَ الموجُ ونضبَ الماءُ وأقلعت السماء ، وكأنه كان المقصودُ من الطوفانِ أَنْ يغرقَ ابن نوحٍ – عليه السلام – وقيل :

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدهرُ بيني وبينها . . . فلما انقضى ما بيننا سَكَنَ الدهرُ . انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 138 ﴾

(159/378)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ قرأ نافع، وعاصم، وحمزة، وابن عامر، إِنِّي بكسر الألف، ومعناه: قال لهم: إِنِّي لكم نذير.

وقرأ الباقون: أَنِّي لكم بالنصب، ومعناه: ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه بالإنذار.

وفي الآية تهديد لأهل مكة، معناه: واتل عليهم نبأ نوح، يعني: إن لم يتّعظوا بما ذكرت، فاتل عليهم خبر نوح.

وروى أبو صالح، عن ابن عباس: أن نوحاً أُوحي إليه، وهو ابن أربعمائة وثمانين سنة، فدعا قومه مائة وعشرين سنة، وركب السفينة وهو ابن ستمائة سنة، ومكث بعد هلاك قومه ثلاثمائة وخمسين سنة.

فذلك ألف سنة إلا خمسين عاماً، وذكر عن وهب بن منبه، قال: أوحى الله تعالى إلى نوح وهو ابن تسعمائة، ودعا قومه خمسين سنة.

فلما هلك قومه عاش بعدهم خمسين سنة، فتمام عمره ألف وخمسون.

وقال عكرمة: إنما سُمِّي نوحاً لأنه كان ينوح على نفسه.

ويقال: كان اسمه شاكر، فمن كثرة نوحه على نفسه، سُمِّيَ نوحاً، فدعا قومه إلى الله وقال لهم: إِنِّي لكم نذير مبين من العذاب.

ويقال: مبين، يعني: مبين بلغة تعرفونها ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ يعني: ألا تطيعوا، ولا توحِّدوا إلا الله، ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ يعني: الغرق.

قال الله تعالى : ﴿ فَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ ﴾ يعني : الأشراف من قومه ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ يعني : آدميا مثلنا ، ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك ﴾ يعني : آمن بك ﴿ إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ يعني : سفلتنا وضعفاؤنا ﴿ بَادِيَ الرأى ﴾ .

قال الكلبي : ظاهر الرأي ، يعني : إنهم يعرفون الظاهر ، فلا تمييز لهم .

وقال مقاتل : يعني : بدا لنا أنهم سفلتنا وضعفاؤنا بادي الرأي .

وقال القتبي : أراذلنا يعني : شرارنا ، وهو جمع أرذل .

(160/378)

وقوله : بادي الرأي ، بغير همز ، أي ظاهر الرأي ، من بدا يبدو .

وأما بادىء بالهمزة ، يعني : أول الرأي من قولك : بدأ يبدأ .

قرأ أبو عمرو : ﴿ بَادِيَ الرأى ﴾ بالهمز ، وقرأ الباقون : على ضد ذلك .

ثم قال : ﴿ وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ قوم نوح قالوا لنوح : ما نرى لكم علينا من فضل في مُلْكٍ ولا مال ، ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذبين ﴾ يعني : نحسبك من الكاذبين .

وقد يخاطب الواحد بلفظ الجماعة ، ويقال : إنما أراد به نوحاً ومن آمن معه .

﴿ قَالَ ﴾ نوح : ﴿ قَالَ يا قوم أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ يعني : إن كنت على

دين ويقين وبيان من ربي ، ﴿ قَالَ يا قوم أَرَأَيتُمْ إِن ﴾ يقول : أكرمني بالرِّسالة والنُّبُوَّة ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ ، يعني : عميت عليكم هذه البينة .

ويقال : عُميتم عن ذلك .

يقال : عمي عليه هذا إذا لم يفهم .

ويقال : التبست عليكم هذه النعمة ، وهذه البينة التي هي من الله تعالى ، فلم تبصروها ولم تعرفوها .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم في رواية حفص ، فَعُمِّيَتْ بضم العين وتشديد الميم ، على معنى فعل ما لم يُسَمَّ فاعله .

وقرأ الباقون : بنصب العين والتخفيف ، ومعناه واحد ، يعني : خَفِيَتْ عليكم هذه النعمة ، والرحمة .

واتفقوا في سورة القصص ﴿ قَالَ يا قوم أَرَأَيتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن ربى وَءاتَانِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كارهون ﴾ [هود : 28] الأَنْبَاءُ بالنصب .

ثم قال : ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كارهون ﴾ ؟ يعني : كيف نعرفكموها وأنتم للنبوة كارهون ؟ قال قتادة : أما والله لو استطاع نبي الله لألزمها قومه ، ولكن لم يملك ذلك .

ويقال : أفنفهمكموها وأنتم لها كارهون ؟ يعني : منكرون .

ويقال: أنحملكموها، يعني: معرفتها.

ويقال: أنعلمكموها وأنتم تكذبونني ولا تناظروني في ذلك.

(161/378)

ثم أخبرهم عن شفقته، وقلة طمعه في أموالهم، فقال: ﴿ كارهون ويا قوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً ﴾ يعني: لا أطلب منكم على الإيمان أجراً، يعني: رزقاً ولا جعلاً ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى الله ﴾ يعني: ما ثوابي إلا على الله، ﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الذين ءامَنُواْ ﴾، لأنهم طلبوا منه أن يطرد من عنده من الفقراء والضعفاء، فقال ﴿ إِنَّهُمْ مُّلاَقُو رَبِّهِمْ ﴾ فيجزيهم بأعمالهم.

ويقال: إنهم ملاقو ربهم فيشكونني إلى الله تعالى، إن لم أقبل منهم الإيمان وأطردهم، ﴿ ولكنى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ ما أمرتكم به وما جئتكم به.

ثم قال تعالى: ﴿ ويا قوم مَن يَنصُرُنِى مِنَ الله إِن طَرَدتُّهُمْ ﴾ يعني: لو طردتهم فيعذبني الله بذلك، فمن يمنعني من عذاب الله، إن طردتهم عن مجلسي؟ ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي: أفلا تتَّعِظُونَ؟ ولا تفهمون أنّ مَنْ آمن بالله لا يُطْرَدُ.

ثم قال: ﴿ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ الله ﴾ يعني: مفاتيح الله في الرزق، ﴿ وَلاَ أَعْلَمُ

الغيب ﴾ أن الله يهديكم أم لا .

ويقال : ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الغيب ﴾ ، يعني : علم ما غاب عني ، ﴿ وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ من الملائكة ، ﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ ﴾ يعني : تحتقر أعينكم من السفلة ، ﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا ﴾ يعني : لا أقول : إن الله تعالى لا يكرم بالإيمان ، ولا يهدي من هو حقير في أعينكم ، ولكن الله يهدي من يشاء .

ثم قال : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ يعني : بما في قلوبهم من التصديق ، والمعرفة ، ﴿ إِنِّى إِذًا لَّمِنَ الظالمين ﴾ يعني : إن طردتهم فلم أقبل منهم الإيمان ، بسبب ما لم أعلم ما في قلوبهم ، كنت ظالماً على نفسي .

فعجز قومه عن جوابه ، ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا ﴾ ، قال مقاتل : ماريتنا ﴿ فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ يعني : مرانا .

(162/378)

وقال الكلبي : دعوتنا ، فأكثرت دعاءنا .

ويقال : وعظتنا ، فأكثرت موعظتنا .

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ يعني : لا نقبل موعظتك ، فأتنا بما تعدنا من العذاب ، ﴿ إِن كُنتَ

مِنَ الصادقين ﴾ بأن العذاب نازل بنا .

﴿ قَالَ ﴾ لهم نوح : ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِن شَاءَ ﴾ إن شاء يُعذبكم ، وإن شاء يصرفه عنكم ، ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ يعني : إن أراد أن يعذبكم لا تفوتون من عذابه .

ثم قال : ﴿ وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِى ﴾ يعني : دعائي ، وتحذيري ، ونصيحتي ، ﴿ إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ﴾ يعني : إن أردت أن أدعوكم من الشرك ، إلى التوحيد ، والتوبة ، والإيمان ، ﴿ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ يعني : لا تنفعكم دعوتي ، إن أراد الله أن يضلكم عن الهدى ، ويتركَكم على الضلالة ويهلككم .

﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ يعني : هو أولى بكم .

ويقال : هو ربكم ، رب واحد ليس له شريك ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يعني : بعد الموت فيجزيكم بأعمالكم .

ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ قال مقاتل : الخطاب لأهل مكة .

معناه أتقولون إن محمداً تقوله من ذات نفسه ﴿ قُلْ إِنِ افتريته ﴾ من ذات نفسي ﴿ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى ﴾ يعني خطيئتي ﴿ وَأَنَاْ بَرِىءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ يعني من خطاياكم .

وقال الكلبي : الخطاب أيضاً لقوم نوح .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ يعني : قوم نوح يقولون افتراه ، أي : اختلقه من تلقاء نفسه ، فقال لهم

نوح: ﴿ افتريته فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ﴾ أي آثامي ، ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ أي مما تأثمون .

(163/378)

قوله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ ءامَنَ ﴾ قال الحسن : إن نوحاً عليه السلام لم يدع على قومه ، حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ ﴾ فدعا عليهم عند ذلك ، فقال : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [نوح: 26] .

ثم قال : ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ وذلك أن نوحاً ندم على دعائه ، وجعل يحزن عليهم ، فقال الله تعالى : ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ يعني : لا يحزنك إذا نزل بهم الغرق ، بما كانوا يفعلون من الكفر .

قوله تعالى : ﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ يقول : اعمل السفينة ، ويقال : للواحد وللجماعة الفلك ، ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ قال الكلبي : يعني : بمنظر منا ، ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ يعني : بوحينا إليك .

وقال مقاتل : يعني : بتعليمنا وأمرنا .

﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ يعني : فلا تراجعني في قومك ، ولا تدعني بصرف العذاب عنهم ، ﴿ إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ بالطوفان .

ويقال : ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ، يعني ابنه كنعان .

وقال عكرمة : كان طول سفينة نوح ثلاثمائة ذراع ، وعرضها وإرتفاعها أحدهما ثلاثون ، والآخر أربعون .

وقال الحسن : طولها ألف ومائتا ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع .

وقال ابن عباس : طولها ثلاثمائة ذراع ، وطولها في الماء ثلاثون ذراعاً ، وعرضها خمسون ذراعاً .

وقال القتبي : قرأت في التوراة : إن الله تعالى أوحى إليه أن اصنع الفلك ، وليكن طولها ثلاثمائة ذراع ، وعرضها خمسون ذراعاً ، وارتفاعها ثلاثون ذراعاً ، وليكن بابها في عرضها .

وادخل أنت في الفلك ، وامرأتك ، وبنوك ، ونساء بنيك ، ومن كل زوجين من الحيوان ذكراناً وإناثاً ، فإني منزل المطر على الأرض ، أربعين يوماً وأربعين ليلة ، فأتلف كل شيء

خلقته على الأرض .

فأرسل الله تعالى ماء الطوفان على الأرض ، في سنة ستمائة من عمر نوح ولبث في الماء مائة وخمسين يوماً ، وعاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة .

وروي عن وهب بن منبه ، أنه قال : مكث نوح ينجر السفينة مائة سنة ، فلما فرغ من عملها أمره الله تعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، فحمل فيها امرأته وبنيه ونساءهم ، فركب فيها لسبع عشرة ليلة خلت من صفر ، فمكث في الماء سبعة أشهر لم يقر لها قرار ، فأرسيت على الجودي خمسة أشهر ، فأرسل الغراب لينظر كم بقي من الماء ، فمكث على جيفة فغضب عليه نوح ولعنه ، ثم أرسل الحمامة فوقعت في الماء ، فبلغ الماء قدر حمرة رجليها ، فجاءت فأرته فبارك عليها نوح.

قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الفلك ﴾ يعني : ينجر السفينة .

ويقال : إن الله تعالى أمره بأن يغرس الأشجار ، فغرسها حتى أدركت ، وقطعها حتى يبست ، ثم اتخذ منها السفينة ، فاستأجر أجراء ينحتون معه .

﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ يعني : الأشراف من قومه ﴿ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ يعني : استهزؤوا به ، وكانوا يقولون : إن الذي يزعم أنه نبي صار نجاراً ، ومرة كانوا يقولون : أتجعل للماء إكافاً فأين الماء .

﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ يعني : إن تسخروا منا اليوم ، فإنا نسخر

منكم بعد الهلاك، يعني: يصيبكم جزاء السخرية، ﴿ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ منا، يعني: بما تسخرون ويقال إن تستجهلوا بنا بهذا الفعل، فإنا نستجهلكم بترك الإيمان، كما تستجهلوننا ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني: تعرفون بعد هذا من أحق بالسخرية، وهذا وعيد لهم.

(165/378)

﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ يعني: يهلكه ويذله ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ يعني: ينزل عليه عذاب دائم، لا ينقطع عنه.

قوله تعالى: ﴿ حتى إِذَا جَاء أَمْرُنَا ﴾ يعني: قولنا بالعذاب، ويقال: عذابنا، وهو الغرق ﴿ وَفَارَ التنور ﴾ يعني: نبع الماء من أسفل التنور.

وقال مقاتل: التنور الذي يخبز فيه في أقصى داره بالشام.

وقال ابن عباس: وفار التنور، يعني: نبع الماء من وجه الأرض.

وقال علي بن أبي طالب: يعني: طلوع الفجر، أي تنوير الصبح، يعني: إذا طلع الفجر، كان وقت الهلاك.

وروي عن عليّ رضي الله عنه أيضاً أنه قال: فار منه التنور وجرت منه السفينة، أي

مسجد الكوفة ﴿ قُلْنَا احمل فِيهَا ﴾ يعني : في السفينة ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ يعني : من كل صنفين ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ يعني : واحمل أهلك فيها معك ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول ﴾ بالغرق ، يعني : سوى من قدرت عليه الشقاوة والكفر ، فلا تحمله ، يعني : امرأته الكافرة وابنه كنعان ، ﴿ وَمَنْ ءامَنَ ﴾ معه ، يعني : احمل في السفينة من آمن معك .

قال الفقيه : أخبرني الثقة ، بإسناده عن وهب بن منبه ، قال : أمر نوح بأن يحمل من كل زوجين اثنين ، فقال : رب كيف أصنع بالأسد والبقرة ؟ وكيف أصنع بالعناق والذئب ؟ وكيف أصنع بالحمام والهرة ؟ قال : يا نوح من ألقى بينهم العداوة ؟ قال : أنت يا رب ، قال : فإني أؤلف بينهم حتى يتراضوا .

قال الفقيه : حدثنا الخليل بن أحمد ، قال : حدثنا الماسرخسي ، قال : حدثنا إسحاق ، قال : حدثنا قبيصة بن عقبة ، قال : حدثنا سفيان ، عن علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ، قال : كثر الفأر في السفينة ، حتى خافوا على حبال السفينة ، فأوحى الله تعالى إلى نوح ، أن امسح عن جبهة الأسد ، فمسحها فعطس ، فخرج منها سنوران ، فأكلا الفأر .

وكثرت العذرة في السفينة ، فشكوا إلى نوح ، فأوحى الله تعالى إلى نوح : أن امسح ذنب الفيل ، فمسحه فخرج خنزير ، فأكل العذرة .

وفي خبر آخر فخرج منه خنزيران فأكلا العذرة .

قال الفقيه ، أبو الليث رحمه الله : في خبر وهب بن منبه دليل أن الهرة ، كانت من قبل .

وفي هذا الخبر أن الهرة لم تكن من قبل ، والله أعلم بالصواب منهما .

وروي عن ابن عباس أنه قال : لما فار الماء من التنور ، فأرسل الله تعالى من السماء بمطر شديد ، فأقبلت الوحوش حتى أصابتها السماء إلى نوح ، وسخرت له فحمل في السفينة من كل طير زوجين ، ومن كل دابة زوجين ، ومن كل بهيمة زوجين ، ومن كل سبع زوجين ، يعني : الذكر والأنثى .

فقال نوح : رب هذه الحية والعقرب ، كيف أصنع بهما ؟ فبعث الله تعالى جبريل ، فقطع فقار العقرب ، وضرب فم الحية .

وكان نوح جعل للسفينة ثلاثة أبواب ، بعضها أسفل من بعض ، فجعل في الباب الأسفل : السباع والهوام ، وجعل في الباب الأوسط : البهائم والوحوش ، وجعل في الباب الأعلى : بني آدم من ذكر منهم .

فذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا ءامَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ قال ابن عباس : هم ثمانون إنساناً ، وقال الأعمش في قوله : ﴿ وَمَا ءامَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ كان نوح ، وثلاث بنين ، ونساؤهم .

وقال مقاتل : كانوا أربعين رجلاً ، وأربعين امرأة .

قرأ عاصم في رواية حفص : ﴿ مِن كُلّ ﴾ بالتنوين ، يعني : من كل شيء ، ثمَّ قال ﴿ زَوْجَيْنِ ﴾ على وجه التفسير للكل ، وقرأ الباقون : ﴿ مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ ﴾ بغير تنوين على معنى الإضافة .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اركبوا فِيهَا ﴾ يعني : ادخلوا في السفينة .

ويقال : الجؤوا فيها من الغرق ﴿ بِسْمِ الله مَجْرَاهَا ﴾ يعني : إذا ركبتموها فقولوا : ﴿ بِسْمِ الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ .

قرأ حمزة والكسائي ، وعاصم في رواية حفص : ﴿ مَجْرِيها ﴾ بنصب الميم ، وهكذا قرأ ابن مسعود ، والأعمش .

وقرأ الباقون : بضم الميم .

واتفقوا في ﴿ أَيَّانَ مرساها ﴾ ، أنها بضم الميم ، إلا أن حمزة ، والكسائي قرآ بالإمالة .

فأما من قرأ بضم الميم ، فيكون بمعنى المصدر ، ومعناه : يعني إجراؤها وإرساؤها بأمر الله تعالى ، وهذا قول الفراء .

ويقال : معناه بسم الله من حيث تجري وتحبس .

ومن قرأ بالنصب فمعناه : بسم الله جريها وحبسها يعني : بأمر الله تعالى .

﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ بالمؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ ﴾ يعني : أمواجاً ﴿ كالجبال ونادى نُوحٌ ابنه ﴾ كنعان ، وقرأ بعضهم : ابنها ، يعني : ابن امرأته ، وقرأ بعضهم : ﴿ نُوحٌ ابنه ﴾ بضم الألف ، وهي بلغة طيىء .

ويقال : إنه لم يكن ابنه ، ولكن كان ابن امرأته .

وقراءة العامة : ﴿ ونادى نُوحٌ ابنه ﴾ قالوا : ﴿ وَكَانَ ﴾ ابن نوح ﴿ فِى مَعْزِلٍ ﴾ يعني : في ناحية من السفينة ، ويقال : من الجبل ، ﴿ مَعْزِلٍ يا بنى اركب مَّعَنَا ﴾ أسلم ، واركب في السفينة معنا ﴿ وَلاَ تَكُن مَّعَ الكافرين ﴾ يعني : لا تثبت على الكفر ، ولا تتخلف مع الكافرين .

قرأ عاصم : ﴿ مَعْزِلٍ يا بنى اركب ﴾ بنصب الياء قرأ الباقون ﴿ مَعْزِلٍ يا بنى اركب ﴾ بالكسر .

وقال أبو عبيدة : القراءة عندنا بالكسر ، للإضافة إلى نفسه كما اتفقوا في قوله : ﴿ قَالَ يَا بنى لاَ تَقْصُصْ رُءْيَاكَ على إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشيطان للإنسان عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف : 5] وفي لقمان : ﴿ يا بنى إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِى صَخْرَةٍ أَوْ

فِى السماوات أَوْ فِى الأرض يَأْتِ بِهَا الله إِنَّ الله لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : 16] وإنما فرق عاصم فيما يرى الألف الخفيفة الحقيقة التي في قوله اركب .

(168/378)

﴿ قَالَ سَاوِى ﴾ يعني : قال ابنه : سأصعد ﴿ إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الماء ﴾ يعني : يمنعني من الماء ، أم من الغرق ، ولا أؤمن ، ولا أركب السفينة ، ﴿ قَالَ ﴾ نوح : ﴿ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله ﴾ يقول : لا مانع اليوم من عذاب الله ، أي الغرق ، لا جبل ولا غيره ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ يعني : إلا من قد آمن ، فعصمه الله .

ثم قال : ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الموج ﴾ يعني : فرّق بين كنعان ، وبين الجبل الموج ، وهذا قول الكلبي .

وقال مقاتل : وحال بينهما ، يعني بين نوح وابنه الموج ، ﴿ فَكَانَ مِنَ المغرقين ﴾ يعني : فصار من المغرقين .

وروي عن ابن عباس أنه قال : أمطرت السماء أربعين يوماً ، وخرج ماء الأرض أربعين يوماً الليل والنهار ، فذلك قوله :

﴿ فَفَتَحْنَا أبواب السمآء بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً فَالْتَقَى المآء على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ

﴾ [القمر : 11 ، 12] وارتفع الماء على كل جبل في الأرض ، خمسة عشر ذراعاً .

وروي عن الحسن ، أنه قال : ارتفع الماء فوق كل جبل ، وكل شيء ، ثلاثين ذراعاً .

وسارت بهم السفينة ، فطافت بهم الأرض كلها في خمسة أشهر ، ما استقرت على شيء ، حتى أتت الحرم فلم تدخله ، ودارت بالحرم أسبوعاً ، ورفع البيت الذي بناه آدم إلى السماء السادسة ، وهو البيت المعمور ، وجعل الحجر الأسود على أبي قبيس .

ويقال : أودع فيه ، ثم ذهبت السفينة في الأرض حتى انتهت بهم إلى الجودي ، وهو جبل بأرض الموصل ، فاستقرت عليه بعد خمسة أشهر .

قال ابن عباس : ركب نوح السفينة لعشر مضين من رجب ، وخرج منها يوم عاشوراء ، فذلك ستة أشهر ، فلما استقرت على الجودي ، كشف نوح الطبق الذي فيه الطير ، فبعث الغراب ليأتيه بالخبر فأبصر جيفة ، فوقع عليها فأبطأ على نوح ، فلم يأته ، ثم أرسل الحدأة على أثره ، فأبطأت عليه ، ثم أرسل بالحمامة فلم تجد موقفاً في الأرض ، فجاءت بورق الزيتون ، فعرف نوح أن الماء قد نقص ، فظهرت الأشجار ثم أرسلها فوقفت على الأرض ، فغابت رجلاها في الطين فجاءت إلى نوح ، فعرف أن الأرض قد ظهرت .

وذلك قوله : ﴿ وَقِيلَ يا أرض ابلعى مَاءكِ ﴾ معناه : انشفي ماءك الذي خرج منك ﴿ مَاءكِ ويا سماء أَقْلِعِى ﴾ يعني : احبسي وامسكي ﴿ وَغِيضَ الماء ﴾ يعني : نقص الماء ، وظهرت الجبال والأرض ، ﴿ وَقُضِىَ الأمر ﴾ يعني : فرغ من الأمر ، ومعناه : نجا من نجا وهلك من هلك ﴿ واستوت عَلَى الجودى ﴾ يعني : استقرت السفينة على الجودي .

وروي في الخبر : أن الله تعالى أوحى إلى الجبال ، أني أنزل السفينة على جبل ، فتشامخت الجبال ، وتواضع الجودي لله تعالى ، فأرسيت عليه السفينة .

وقال الحكيم : خرج قوس قزح بعد الطوفان أماناً لأهل الأرض أن يغرقوا جميعاً ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ يعني : سحقاً ونكساً للقوم الكافرين ، وهو التبعيد من رحمة الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 145.153 ﴾

(170/378)

وقال الثعلبى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ إِنِّي ﴾

قرأ أهل مكة وأبو عمرو والكسائي : أني بفتح الألف ويعنون بأني ، وقرأ الباقون بكسر الألف إني ، قال : إني لأن في الإرسال معنى القول .

﴿ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لاَّ تعبدوا إِلاَّ اللهَ إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ مؤلم ، قال مقاتل : بعث نوح وأمره ربّه ببناء ، السفينة وهو ابن ستمائة سنة وكان عمره ألفاً وخمسين عاماً ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة ، قال الله تعالى ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ [العنكبوت : 14] أي فلبث فيهم داعياً ﴿ فَقَالَ المَلأُ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ ﴾ يا نوح ﴿ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا ﴾ آدمياً مثلنا ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ سفلتنا ﴿ بَادِيَ الرأي ﴾ قال مجاهد وأبي المعين وحمزة أبو عمرو وبصير على معنى بادي الرأي من غير روية ولا فكرة يعني : آمنوا من غير روية .

﴿ وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ قَالَ ﴾ نوح ﴿ يا قوم أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن ربي وَآتَانِي رَحْمَةً ﴾ هدىً ومغفرة ﴿ مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ التبست واشتبهت وقرأ أهل الكوفة : فعُمّيت بضم العين وتشديد الميم ، أي اشتبهت ولبّست ومعنى الكلام : عمّيت الأبصار عن الحق ، وهذا كما يقال : دخل الخاتم في أصبعي ، والخُفّ في رجلي وإنما يدخل الأصبع في الخاتم والرجل في الخُفّ ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ يعني البيّنة والرحمة ﴿ وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ لا تريدونها يعني لا يُقبل ذلك .

﴿ ويا قوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً ﴾ أي على الوحي وتبليغ الرسالة كناية عن غير مذكور ﴿ إِنْ أَجْرِيَ ﴾ ما ثوابي ﴿ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الذين آمنوا ﴾ الباء صلة ﴿ إِنَّهُمْ مُّلاَقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ بالمعاد ﴿ ولكني أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ * ويا قوم مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الغيب وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تزدري ﴾ تحتقر وتستصغر ﴿ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً ﴾ يعني يؤخذ وانما ﴿ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ من النية والعزم والخير والشر ﴿ إِنِي إِذاً لَّمِنَ الظالمين ﴾ إنْ فعلتُ ذلك.

﴿ قَالُواْ يا نوح قَدْ جَادَلْتَنَا ﴾ ما ريتنا وخاصمتنا ﴿ فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ يعني العذاب ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلاَ يَنفَعُكُمْ نصحي ﴾ نصيحتي ﴿ إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ يهلككم ويضلكم ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ والأمر والحكم له ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكم بأعمالكم وهو ردّ على المعتزلة و[المرجئة] .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ قال ابن عباس : يعني نوحاً ، مقاتل يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ إِنِ افتريته فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ﴾ إثمي ووبال أمري ، لا تؤخذون بذنبي ﴿ وَأَنَاْ بريء مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ لا أواخذ بذنوبكم ﴿ وَأُوحِيَ إلى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ ﴾ ولا تحزن وهو منفعل من البؤس ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ فإني مهلكهم ومنقذك منهم فحينئذ دعا عليهم ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [نوح : 26] .

﴿ واصنع الفلك ﴾ واعمل السفينة ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمرأى منّا ، الضحاك : بمنظر منّا ، مقاتل : بعلمنا ، ربيع : بمسمعنا ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ [على ما أوحينا إليك] ، قال ابن عباس : وذلك إنّه لم يعلم كيف يصنع الفلك فأوحى الله إليه أن يصنعها على جؤجؤ الطائر ﴿ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذين ظلموا ﴾ ولا تسألني العفو عن هؤلاء الذين كفروا ﴿ إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ بالطوفان ، أمر أن لا يشفع لهم عنده ، وقال : عنى امرأته وابنه .

﴿ وَيَصْنَعُ الفلك ﴾ قيل : معناه وكان يصنع الفلك ، وقيل : معناه وصنع الفلك ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ هزئوا به .

﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا ﴾ الآن ﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ إذا عاينتم عذاب الله ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ يهينه ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ دائم ، قال ابن عباس : اتخذ نوح (عليه السلام) السفينة في سنتين ، وكان طول السفينة ثلاثمائة ذراع

، وعرضها خمسين ، وطولها في السمك ثلاثين ذراعاً ، وكانت من خشب الساج ، وجعل لها ثلاثة بطون فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام ، وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام ، وركب هو في البطن الأعلى [. . . . .] ، عمّا يحتاج إليه من الزاد .

(173/378)

روي عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مكث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ، فأوحى الله عزّ وجلّ لما كان آخر زمانه وغرس شجرة [فعظمت وذهبت كلّ مذهب ثمّ قطعها] ويقطع ما يبس منها ، ثمّ جعل يعمل سفينة ويمّرون عليه قومه فيسألونه فيقول : أعمل سفينة فيسخرون منه ويقولون : يعمل سفينة في البر فكيف تجري ؟ فيقول : فسوف تعلمون ، فلّما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء في السكك ، خشيت أُمّ صبي عليه وكانت تحبّه حبّاً شديداً ، فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلمّا بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثيه ، فلمّا بلغها الماء خرجت حتى صعدت على الجبل فلما بلغ الماء رقبته رفعته بيديها حتى ذهب بها الماء ، فلو رحم الله أحداً منهم لرحم أُمّ الصبي " .

وروى علي بن زيد بن صوحان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : قال الحواريون

لعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فيحدّثنا عنها ، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب فأخذ كفّاً من ذلك التراب بكفّه قال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا كفن حام بن نوح ، قال : فضرب الكثيب بعصاه وقال : قم بإذن الله ، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب ، قال له عيسى : هكذا هلكت ؟ قال : لا بل متُّ وأنا شاب ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثَمّ شبت ، قال : حدِّثْنا عن سفينة نوح ، قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات ، فطبقة فيها الدواب والوحش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطير ، فلمّا كثرت فضلات الدواب أوحى الله تعالى إلى نوح أن اغمز ذنب الفيل ، فغمز فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث ، فلمّا وقع الفار بجوض السفينة وحبالها فقرضها ، وذلك أن الفار ولدت في السفينة فأوحى الله تعالى إلى نوح أن اضرب بين عيني الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وهرّة فأقبلا على الفار .

فقال له عيسى : كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت ؟ قال : بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف ، فلذلك لا يألف البيوت ، ثم بعث الحمامة فجاءت

بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها فعلم أن البلاد قد غرقت قال : فطوّقها بالحمرة التي في عنقها ودعا لها أن تكون في قصر بأمان فمن ثم تألف البيوت .

قال : فقالوا : يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلنا فيجلس معنا ويحدّثنا ؟ قال : كيف يتبعكم من لا رزق له ؟ فقال له : عد بإذن الله ، قال : فعاد تراباً .

وروى محمد بن إسحاق عن عبيد بن عمير أنّه كان يحدّث الأحاديث وكانوا يبطشون به ، يعني قوم نوح فيخنقونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال : ربّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون ، حتى إذا تمادوا في المعصية وعظمت في الأرض منهم الخطيئة وتطاولوا عليه ، وتطاول عليه وعليهم الشأن واشتد عليه منهم البلاء ، وانتظر البخل بعد البخل ، فلا يأتي قرن إلاّ كان أخبث من الذي قبله حتى إذا كان الآخر منهم ليقول : قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنوناً لا يقبلون منه شيئاً ، حتى شكا ذلك من أمرهم إلى الله عزّ وجل فقال : رب إنّي دعوت قومي ليلا ونهاراً ، حتى قال : ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً إلى آخر القصة ، فأوحى الله إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا أي بعد اليوم إنهم مغرقون .

فأقبل نوح على [عمل] الفلك ولجأ عن قومه إلى جبل يقطع الخشب ويضرب بيديه [الحديد] ، ويهيّئ عدة الفلك من القار وغيره مما لا يصلحه إلاّ هو ، وجعل قومه يمرون به

وهو في ذلك من عمله فيسخرون منه ويقولون : يا نوح هل صرت نجاراً بعد النبوة ؟ وأعقم الله أرحام النساء فلبثوا سنين فلا يولد لهم ولد .

(175/378)

قال : ويزعم أهل التوراة أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج وأن يصنعه أزور وأن يطليه بالقار من أسفله وخارجه ، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعاً وعرضها خمسين ذراعاً ، ومائة في عرضه وبطوله في السماء ثلاثين ذراعاً ، والذراع إلى المنكب ، وجعلها ثلاثة طوابق سفلى ووسطى وعليا ، فجعل فيه كوى ، ففعل نوح كما أمره الله تعالى .

﴿ حتى إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ عذابنا ﴿ وَفَارَ التنور ﴾ يعني انبجس الماء من وجه الأرض ، والعرب تسمي وجه الأرض تنور الأرض ، وذلك أنه إذا قيل : إذا رأيت الماء يسيح على وجه الأرض فاركب أنت ومن اتبعك ، ومنها قول ابن عباس وعكرمة والزهري وابن عيينة ، وقال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في تفسيرو ﴿ وَفَارَ التنور ﴾ : أي طلع الفجر ونور الصبح ، ومن ذلك عبارته نوّر الفجر تنويراً ، قتادة : موضع في الأرض وأعلى مكان فيها . قال الحسن : أراد بالتنور الذي يخبز فيه وكان تنوراً من حجارة وكان لحواء حتى صار إلى نوح ، فقيل له : إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك

، فنبع الماء من التنور فعلمت به امرأته فأخبرته ، وهذا قول مهران . ورواه عطية عن ابن عباس ، قال مجاهد : وكان ذلك في ناحية الكوفة ، وروى السدي عن الشعبي أنه كان يحلف بالله ما يظهر التنور إلاّ من ناحية الكوفة ، وقال : اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة ، وكان التنور على يمين الداخل مما يلي باب كندة ، وكان فوران الماء منه علماً لنوح ودليلا على هلاك قومه .

وقال مقاتل : كان ذلك تنور آدم وإنّما كان بالشام بموضع يقال له : عين وردة ، وقال ابن عباس : فار التنور بالهند ، والفور : الغليان .

(176/378)

﴿ قُلْنَا احمل فِيهَا ﴾ أي في السفينة ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ قال المفسرون أراد بالزوجين : اثنين ذكراً وأنثى ، وقال أهل المعاني : كل اثنين لا يستغني أحدهما عن صاحبه ، فإن العرب تسمي كل واحد منهما زوجاً ، يقال له : زوجا نعال إذا كانت له نعلان وكذلك عنده زوجا حمام ، وعليه زوجا قيود ، قال الله تعالى ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [النجم : 45] ، وقال بعضهم : أراد بالزوجين الضربين والصنفين وكل ضرب يدعى زوج ، قال الأعشى :

وكل زوج من الديباج يلبسه . . . أبو قدامة محبوّ بذاك معا

أراد كل ضرب ولون . وقال لبيد : وذي [. . . . .] كرّ المقاتل صولة وذرّته أزواج [. . . . .] يشرّب أي ألوان وأصناف ، وقرأ حفص هاهنا وفي سورة المؤمنين ﴿ مِن كُلٍّ ﴾ بالتنوين أي من كل صنف ، وجعل اثنين على التأكيد .

﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ أي واحمل أهلك ومالك وعيالك ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول ﴾ بالهلاك يعني امرأته راحلة وابنه كنعان .

﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾ يعني واحمل من آمن بك ، قال الله تعالى ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ واختلفوا في عددهم ، فقال قتادة والحكم وابن جريج ومحمد بن كعب القرضي : لم يكن في السفينة إلاّ نوح وامرأته وثلاثة بنيه ، سام وحام ويافث أخوة كنعان وزوجاتهم [وَرَحْلِهم] فجميعهم ثمانية ، فأصاب حام امرأته في السفينة فدعا الله نوحٌ أن يغير نطفته فجاء بالسودان . وقال الأعمش : كانوا سبعة : نوح وثلاث كنائن وثلاثة بنين له . وقال ابن إسحاق : كانوا عشرة سوى نسائهم : نوح وبنوه حام وسام ويافث وستة أناس ممن كان آمن معه وأزواجهم جميعاً .

وقال مقاتل : [كانوا] اثنين وسبعين رجلا وامرأة وبنيه الثلاثة ونساءهم ، فكان الجميع ثمانية وسبعين نفساً ، نصفهم رجال ونصفهم الآخر نساء .

قال ابن عباس : كان في سفينة نوح ثمانون إنساناً أحدهم جرهم .

قال مقاتل : وحمل نوح معه جسد آدم وجعله معترضاً بين الرجال والنساء ، وحمل نوح جميع الدواب من الغنم والوحوش والطير وفرق فيما بينها .

قال ابن عباس : أول ما حمل نوح في السفينة من الدواب الأوزة ، وآخر ما حمل الحمار ، فلمّا دخل الحمار ودخل صدره تعلق إبليس بذنبه فلم يستقل رجلاه فجعل نوح يقول له : ادخل فينهض فلا يمشي ، حتى قال نوح : ويحك ادخل وإن كان الشيطان معك ، فقال له نوح : ما أدخلك عليّ يا عدو الله ؟ فقال له : ألم تقل ادخل وان كان الشيطان معك ، قال نوح : اخرج عني يا عدو الله ، قال : ما لك بدّ من أن تحملني معك ، فكان فيما يزعمون في ظهر الفلك .

وفي تفسير مالك بن إبراهيم الهروي الذي أخبرني بالأسناد إلى أبي القاسم والحسن بن محمد ببعضه قراءةً وأجاز لي بالباقي في غير مرة ، قال يحدثنا أبو العباس محمد بن الحسن الهروي ، قال : حدثنا جابر بن عبد الله عنه أن الحية والعقرب أتيا نوحاً فقالتا : احملنا ، فقال نوح : إنكما سبب الضرّ والبلايا والأوجاع فلا أحملكما ، فقالتا : احملنا فنحن نضمن لك بأن لا نضر أحداً ذكرك ، فمن قرأ حين خاف ضرّتهما : ﴿ سَلاَمٌ على نُوحٍ فِي العالمين

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ﴾ [الصافات : 79-81] ما ضرّتاه .

﴿ وَقَالَ ﴾ نوح لهم : ﴿ اركبوا فِيهَا بِسْمِ الله مجراها ﴾ قرأ أبو رجاء العطاردي :

مُجراها ومُرسِاها بضم الميمين وكسر الراء والسين وهي قراءة عبد الله .

قال ابن عباس : مجريها حيث تجري ومرساها حيث ترسو ، أي تحسر في الماء .

وقرأ محمد بن محيصن بفتح الميمين وهما مصدران ، يعني أن الله تعالى بيده جريها ورسوّها أي ثبوتها ، جرى يجري جريا ومجرى ، ورسا يرسو رسوّا ومُرسى ، مثل ذهب مذهباً وضرب مضرباً . قال امرؤ القيس :

تجاوزت أحراساً وأهوال معشر . . . عليَّ حرامٌ لو يسرّون مقتلي

أي : قتلي .

وقرأ الباقون بضم الميمين ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، ومعناه : بسم الله إجراؤها وإرساؤها ، كقوله تعالى ﴿ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً ﴾ [المؤمنون : 29] ﴿ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء : 80] بمعنى الإنزال والإدخال

والإخراج.

﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قال الضحاك: كان نوح إذا أراد أن يرسو قال: بسم الله، فرست، وإذا أراد أن تجري قال: بسم الله، فجرت.

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كالجبال ونادى نُوحٌ ابنه ﴾ كنعان وكان عنيداً وقيل وكان كافراً.

﴿ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ﴾ عنه لم يركب معه الفلك.

﴿ يا بني اركب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الكافرين ﴾ فتهلك، قال له ابنه: ﴿ سآوي ﴾ سأصير وأرجع ﴿ إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي ﴾ يمنعني ﴿ مِنَ المآء ﴾ ومنه عصام القربة الذي [يربط] رأسها فيمنع الماء أن يسيل منها.

﴿ قَالَ ﴾ نوح ﴿ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله ﴾ عذاب الله إلاّ من رحمناه، وأنقذناه منه، ومن في محل رفع، وقيل: في محل النصب ومعناه لا معصوم اليوم من أمر الله إلاّ من رحمه الله، كقوله تعالى ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة: 21] [القارعة: 7] و ﴿ مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق: 6] قال الشاعر:

بطيء القيام رخيم الكلام . . . أمسى فؤادي به فاتنا

أي مفتوناً.

﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الموج فَكَانَ ﴾ فصار ﴿ مِنَ المغرقين * وَقِيلَ ﴾ بعدما تناهى أمر

الطوفان ﴿ يا أرض ابلعي ﴾ أي اشربي ﴿ مَآءَكِ ويا سماء أَقْلِعِي ﴾ امسكي ﴿ وَغِيضَ المَآء ﴾ فذهب ونقص ومصدره الغيض والغيوض .

(179/378)

﴿ وَقُضِيَ الأمر ﴾ أي وفرغ من العذاب ﴿ واستوت ﴾ يعني السفينة استقرّت ورست وحلّت ﴿ عَلَى الجودي ﴾ وهو جبل بالجزيرة بقرب الموصل ، قال مجاهد : تشامخت الجبال وتطاولت لئلاّ ينالها الماء فعلا الماء فوقها خمسة عشر ذراعاً وتواضع الجودي وتطامن لأمر ربّه فلم يغرق ، فأرسيت السفينة عليه .

﴿ وَقِيلَ بُعْداً ﴾ هلاكاً ﴿ لِّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ الكافرين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " في أوّل يوم من رجب وفي بعض الأخبار : لعشر مضت من رجب ركب نوح في السفينة فصام هو ومن معه وجرت بهم السفينة ستة أشهر ، ومرّت بالبيت فطاف به سبعاً وقد رفعه الله من الغرق ، وأرسيت السفينة على الجودي يوم عاشوراء ، فصام نوح وأمر جميع من معه من الوحوش والدواب فصاموا شكراً لله عزّ وجلّ " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ 165. 172 ﴾

(180/378)

فصل

قال الزمخشرى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) ﴾

أى أرسلنا نوحا بأنى لكم نذير . ومعناه أرسلناه ملتبسا بهذا الكلام ، وهو قوله إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ بالكسر ، فلما اتصل به الجارّ فتح كما فتح في كَأَنْ والمعنى على الكسر ،

وهو قولك : إنّ زيدا كالأسد . وقرئ بالكسر على إرادة القول أَنْ لا تَعْبُدُوا بدل من إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ أى أرسلناه بأن لا تعبدوا إِلَّا اللَّهَ أو تكون «أن» مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير . وصف اليوم بأليم من الإسناد المجازى لوقوع الألم فيه . فإن قلت : فإذا وصف به العذاب ؟ قلت : مجازى مثله ، لأنّ الأليم في الحقيقة هو المعذب ، ونظيرهما قولك : نهارك صائم ، وجدّ جدّه .

[سورة هود (11) : آية 27]

فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا

بادِيَ الرَّأْيِ وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (27)

الْمَلَأُ الأشراف من قولهم: فلان مليء بكذا، إذا كان مطيقاً له، وقد ملؤوا بالأمر، لأنهم ملؤوا بكفايات الأمور واضطلعوا بها وبتدبيرها. أو لأنهم يتمالئون أى يتظاهرون ويتساندون، أو لأنهم يملئون القلوب هيبة والمجالس أبهة «1» أو لأنهم ملاء بالأحلام والآراء الصائبة ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة «2» وأنّ الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملأ ومواز لهم في المنزلة، فما جعلك أحق منهم؟ ألا ترى إلى قولهم: وما نرى لكم علينا من فضل. أو أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكا لا بشر. والأراذل جمع الأرذل، كقوله أَكابِرَ مُجْرِمِيها «أحاسنكم أخلاقاً» وقرئ: بادى الرأى، بالهمز وغير الهمز، بمعنى: اتبعوك أوّل الرأى أو ظاهر الرأى، وانتصابه على الظرف، أصله: وقت حدوث أوّل رأيهم، أو وقت حدوث ظاهر رأيهم فحذف ذلك وأقيم المضاف إليه مقامه. أرادوا: أنّ اتباعهم لك إنما هو شيء عنّ لهم بديهة من غير روية ونظر، وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية، لأنهم كانوا جهالا ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال، كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يعتقدون ذلك ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم، ولقد زلّ عنهم

---

(1). قوله «والمجالس أبهة» كسكرة: عظمة. (ع)

(2) . قال محمود : «هو تعريض بأنهم كانوا أحق منه بالنبوة . . . الخ» قال أحمد : ويحتمل في الوجهين أن يكون المراد أول الرأى . ولكنه ترك الهمز استثقالا ، إلا أن يكون القارئ بها ياء ليس من مذهبه تسهيل الهمز ، والمعنيان متقاربان ، وقد زعم هؤلاء أن يحجوا نوحا بمن اتبعه من وجهين ، أحدهما : أن المتبعين أراذل ليسوا قدوة ولا أسوة . والثاني : أنهم مع ذلك لم يتروا في اتباعه . ولا أمعنوا الفكرة في صحة ما جاء به ، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية . وغرض هؤلاء أن لا يقوم عليهم حجة بأن منهم من صدقه وآمن به ، والله أعلم

(182/378)

أن التقدّم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله وإنما يبعده ، ولا يرفعه بل يضعه ، فضلا أن يجعله سبباً في الاختيار للنبوّة والتأهيل لها ، على أن الأنبياء عليهم السلام بعثوا مرغبين في طلب الآخرة ورفض الدنيا ، مزهدين فيها ، مصغرين لشأنها وشأن من أخلد إليها ، فما أبعد حالهم من الاتصاف بما يبعد من الله ، والتشرف بما هو ضعة عند الله مِنْ فَضْلٍ من زيادة شرف علينا تؤهلكم للنبوّة . بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ فيما تدّعونه .

[سورة هود (11) : الآيات 28 إلى 32]

قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (28) وَيا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (29) وَيا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (30) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31) قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32)

أَرَأَيْتُمْ أخبرونى إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ على برهان مِنْ رَبِّي وشاهد منه يشهد بصحة دعواي وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ بإيتاء البينة على أن البينة في نفسها هي الرحمة، ويجوز أن يريد بالبينة: المعجزة، وبالرحمة: النبوّة. فإن قلت: فقوله فَعُمِّيَتْ ظاهر على الوجه الأوّل، فما وجهه على الوجه الثاني؟ وحقه أن يقال فعميتا؟ قلت: الوجه أن يقدّر فعميت بعد البينة، وأن يكون حذفه للاقتصار على ذكره مرة: ومعنى عميت خفيت. وقرئ: فعميت بمعنى أخفيت. وفي قراءة أبى: فعماها عليكم. فإن قلت: فما حقيقته؟ قلت: حقيقته أن الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء، لأنّ الأعمى لا يهتدى ولا يهدى غيره، فمعنى فعميت عليكم البينة فلم تهدكم، كما لو عمى على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد. فإن قلت:

فما معنى قراءة أبيّ؟ قلت : المعنى أنهم صمموا على الإعراض عنها فخلاهم اللّه «1» وتصميمهم ، فجعلت تلك التخلية تعمية منه ، والدليل عليه قوله أَنُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ يعنى

---

(1) . قوله «فخلاهم اللّه» لم يفسره بمعنى أخفاها ، لأن اللّه لا يفعل الشر عند المعتزلة ، وعند أهل السنة يفعل كل ممكن . (ع)

(183/378)

أنكرهكم على قبولها ونقسركم على الاهتداء بها ، وأنتم تكرهونها ولا تختارونها ، ولا إكراه في الدين؟ وقد جيء بضميري المفعولين متصلين جميعاً . ويجوز أن يكون الثاني منفصلا كقولك :

أنلزمكم إياها . ونحوه فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ويجوز : فسيكفيك إياهم . وحكى عن أبى عمرو إسكان الميم . ووجهه أنّ الحركة لم تكن إلا خلسة خفيفة ، فظنها الراوي سكونا .

والإسكان الصريح لحن عند الخليل وسيبويه وحذاق البصريين ، لأن الحركة الإعرابية لا يسوغ طرحها إلا في ضرورة الشعر . والضمير في قوله لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ راجع إلى قوله لهم إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ . وقرئ : وما أنا بطارد الذين آمنوا ، بالتنوين على

الأصل . فإن قلت :

ما معنى قوله إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ ؟ قلت : معناه أنهم يلاقون اللّه فيعاقب من طردهم . أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت ، كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم .

أو على خلاف ذلك مما تقرفونهم به «1» من بناء إيمانهم على بادئ الرأى من غير نظر وتفكر .

وما علىّ أن أشق عن قلوبهم وأ تعرّف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون .

ونحوه وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ الآية . أو هم مصدقون بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة تَجْهَلُونَ تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل ، من قوله :

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا «2»

أو تجهلون بلقاء ربكم . أو تجهلون أنهم خير منكم مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ من يمنعني من انتقامه إِنْ طَرَدْتُهُمْ وكانوا يسألونه أن يطردهم ليؤمنوا به ، أنفة من أن يكونوا معهم على سواء أَعْلَمُ الْغَيْبَ معطوف على عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ أى لا أقول عندي خزائن اللّه ، ولا أقول : أنا أعلم الغيب . ومعناه : لا أقول لكم : عندي خزائن اللّه فأدعى فضلا عليكم في الغنى ، حتى تجحدوا فضلى بقولكم وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ ولا أدعى علم الغيب حتى تنسبونى

إلى الكذب والافتراء ، أو حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضمائر قلوبهم وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ حتى تقولوا لي ما أنت إلا بشر مثلنا ، ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم أن اللّه لن يؤتيهم خيراً في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه ، كما تقولون ، مساعدة لكم ونزولا على هواكم إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ إن قلت شيئاً من ذلك ، والازدراء : افتعال من زرى عليه إذا عابه.

وأزرى به : قصر به ، يقال ازدرته عينه ، واقتحمته عينه.

---

(1) . قوله «ذلك مما تقرفونهم به» أى ترمونهم وتعيبونهم. أفاده الصحاح. (ع)

(2) ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

لعمرو بن كلثوم من معلقته ، و«ألا» استفتاحية تفيد التوكيد - و«لا» ناهية. والنون لتوكيد النهى. أى : لا يسفهن أحد علينا ويبدأنا بالشر ، ونجهل : نصب بأن مضمرة بعد فاء السببية لأنه بعد النهى. وسمى جزاء الجهل جهلا مشاكلة ، أى : فنجازيه فوق فعله بنا ، أو فوق جهل كل جاهل وزيادة عليه.

جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا معناه : أردت جدالنا وشرعت فيه فأكثرته ، كقولك :

جاد فلان فأكثر وأطاب فَأْتِنا بِما تَعِدُنا من العذاب المعجل .

[سورة هود (11) : الآيات 33 إلى 35]

قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (35)

إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ أى ليس الإتيان بالعذاب إلىّ إنما هو إلى من كفرتم به وعصيتموه إِنْ شاءَ يعنى إن اقتضت حكمته أن يعجله لكم . وقرأ ابن عباس رضى اللّه عنه : فأكثرت جدلنا . فإن قلت : ما وجه ترادف هذين الشرطين ؟ «1» قلت : قوله إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ جزاؤه ما دلّ عليه قوله لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي وهذا الدال في حكم ما دلّ عليه ، فوصل بشرط كما وصل الجزاء بالشرط في قولك : إن أحسنت إلىّ أحسنت إليك إن أمكنني . فإن قلت :

فما معنى قوله «2» إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ؟ قلت : إذا عرف اللّه من الكافر الإصرار فخلاه وشأنه ولم يلجئه ، سمى ذلك إغواء وإضلالا ، كما أنه إذا عرف منه أنه يتوب ويرعوى فلطف به :

سمى إرشاداً وهداية . وقيل أَنْ يُغْوِيَكُمْ أن يهلككم من غوى الفصيل غوى ، إذا بشم فهلك

«3» . ومعناه : أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر بالمنزلة التي لا تنفعكم نصائح اللّه

---

(1) . قال محمود : «إن قلت : ما وجه ترادف هذين الشرطين . . . الخ» قال أحمد : ونظير هذه الآية من مسائل الفقهاء قول القائل : أنت طالق إن شربت إن أكلت . وهي المترجمة بمسئلة اعتراض الشرط على الشرط .

والمنقول عن الشافعية أنها إن شربت ثم أكلت لم يحنث . وإن أكلت ثم شربت حنث . وهذا الفرق مبناه على جعل الجزاء للشرط الآخر ، أى الذي يليه ، ثم جعلهما معا جزاء للشرط المتوسط ، ولذلك سر في العربية لا نطول بذكره وعليه أعرب الزمخشري هذه الآية كما رأيت ، واللّه أعلم . [. . . . .]

(2) . قوله «فان قلت فما معنى . . . الخ» السؤال وجوابه مبنى على مذهب المعتزلة : أن اللّه لا يخلق الشر . أما على مذهب أهل السنة فالاغواء على ظاهره : خلق الغى - أى الضلال - في القلب . (ع)

(3) . قوله «إذا بشم فهلك» في الصحاح «البشم» التخم . يقال : بشمت من الطعام - بالكسر . وبشم الفصيل من كثرة شرب اللبن . (ع)

ومواعظه وسائر ألطافه، كيف ينفعكم نصحى؟ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وإجرامى بلفظ المصدر والجمع، كقوله: والله يعلم إسرارهم وأسرارهم. ونحو: جرم وأجرام قفل وأقفال. وينصر الجمع أن فسره الأولون بآثامى. والمعنى: إن صح وثبت أنى افتريته، فعلىّ عقوبة إجرامى أى افترائى. وكان حقي حينئذ أن تعرضوا عنى وتتألبوا علىّ «1» وَأَنَا بَرِيءٌ يعنى ولم يثبت ذلك وأنا بريء منه. ومعنى مِمَّا تُجْرِمُونَ من إجرامكم في إسناد الافتراء إلىّ فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم.

[سورة هود (11) : الآيات 36 إلى 37]

وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (36)
وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37)

لَنْ يُؤْمِنَ إقناط من إيمانهم، وأنه كالمحال الذي لا تعلق به للتوقع إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ إلا من قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه، وقد للتوقع وقد أصابت محزها فَلا تَبْتَئِسْ فلا تحزن حزن بائس مستكين. قال:

مَا يَقْسِمُ اللَّهُ فَاقْبَلْ غَيْرَ مُبْتَئِسٍ مِنْهُ وَاقْعُدْ كَرِيماً نَاعِمَ الْبَالِ «2»

والمعنى: فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك ومعاداتك، فقد حان وقت الانتقام لك منهم بِأَعْيُنِنا في موضع الحال، بمعنى: اصنعها محفوظا، وحقيقته: ملتبسا بأعيننا، كأن لله معه أعينا تكلؤه أن يزيغ في صنعته عن الصواب، وأن لا يحول بينه «3» وبين عمله أحد

من أعدائه . ووحينا : وأنا نوحى إليك ونلهمك كيف تصنع . عن ابن عباس رضى اللّٰه عنه :

لم يعلم كيف صنعة الفلك ، فأوحى اللّٰه إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ولا تدعني في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ إنهم محكوم عليهم بالإغراق ، وقد وجب ذلك وقضى به القضاء وجف القلم ، فلا سبيل إلى كفه ، كقوله :

---

(1) . قوله «و تتألبوا على» أى تتجمعوا . أفاده الصحاح . (ع)

(2) . لحسان ، يقال : ابتأس إذا حزن من كثرة وقوع البأس والمكاره به . والبال القلب أو الشأن . يقول :

ما يقسمه اللّٰه لك من نعمة أو نقمة فاقبله حال كونك غير متحزن منه ، أى مما قسمه اللّٰه لك . واقعد كريما غير مهان طيب الحال والشأن ، أو مستريح القلب من نصب الدنيا . وروى : وأقعد بقطع الهمزة ، من أقعد المتعدي ، فكريما حال على الأول ، ومفعول على الثاني ، وفيه تجريد .

(3) . قوله «و أن لا يحول بينه» لعله : وأن يحول . (ع)

يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ .

[سورة هود (11) : الآيات 38 إلى 39]

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (39)

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ حكاية حال ماضية سَخِرُوا مِنْهُ ومن عمله السفينة ، وكان يعملها في برية بهماء «1» في أبعد موضع من الماء ، وفي وقت عزّ الماء فيه عزة شديدة ، فكانوا يتضاحكون ويقولون له : يا نوح ، صرت نجاراً بعد ما كنت نبيا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ يعنى في المستقبل كَما تَسْخَرُونَ منا الساعة ، أى : نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة . وقيل : إن تستجهلونا فيما نصنع فإنا نستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتعرّض لسخط اللّه وعذابه ، فأنتم أولى بالاستجهال منا . أو إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم في استجهالكم ، لأنكم لا تستجهلون إلا عن جهل بحقيقة الأمر ، وبناء على ظاهر الحال كما هو عادة الجهلة في البعد عن الحقائق . وروى أنّ نوحا عليه السلام اتخذ السفينة في سنتين ، وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً ، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً ، وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون ، فحمل

في البطن الأسفل : الوحوش والسباع والهوام ، وفي البطن الأوسط :

الدواب والأنعام ، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد ، وحمل معه جسد آدم عليه السلام وجعله معترضاً بين الرجال والنساء ، وعن الحسن : كان طولها ألفاً ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة . وقيل : إنّ الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدّثنا عنها ، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب ، فأخذ كفا من ذلك التراب فقال : أتدرون من هذا ؟ قالوا اللّه ورسوله أعلم . قال : هذا كعب بن حام . قال :

فضرب الكثيب «2» بعصاه فقال : قم بإذن اللّه ، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى عليه السلام : هكذا أهلكت ؟ قال لا ، مت وأنا شاب ، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثمت شبت . قال : حدّثنا عن سفينة نوح . قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات : طبقة للدواب والوحوش ، وطبقة للإنس ، وطبقة للطير .

ثم قال له : عد بإذن اللّه كما كنت ، فعاد ترابا مَنْ يَأْتِيهِ في محل النصب بتعلمون . أى :

---

(1) . قوله «برية بهماء» أى لا يهتدى فيها الطريق . ويقال : المر أبهم ، وكذا الرجل الشجاع أبهم ، كذا في الصحاح . (ع)

(2) . قوله «قال فضرب الكثيب» أى راوى هذه القصة ، لكنه غير معلوم . (ع)

فسوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يخزيه ، ويعنى به إياهم ، ويريد بالعذاب : عذاب الدنيا وهو الغرق وَيَحِلُّ عَلَيْهِ حلول الدين والحق اللازم الذي لا انفكاك له عنه عَذابٌ مُقِيمٌ وهو عذاب الآخرة .

[سورة هود (11) : الآيات 40 إلى 41]

حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَما آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (40) وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41)

حَتَّى هي التي يبتدأ بعدها الكلام ، دخلت على الجملة من الشرط والجزاء . فإن قلت : وقعت غاية لماذا ؟ قلت : لقوله : ويصنع الفلك ، أى : وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد .

فإن قلت : «فإذا اتصلت «حتى» بيصنع فما تصنع بما بينهما من الكلام ؟ قلت : هو حال من يصنع ، كأنه قال : يصنعها والحال أنه كلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه . فإن قلت : فما جواب كلما ؟

قلت : أنت بين أمرين : إما أن تجعل سَخِرُوا جوابا وقالَ استئنافا ، على تقدير سؤال سائل . أو تجعل سَخِرُوا بدلا من مَرَّ أو صفة لـ مَلَأٌ وقالَ جوابا . وَأَهْلَكَ عطف على اثنين ، وكذلك وَمَنْ آمَنَ يعنى : واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم . واستثنى من أهله من سبق عليه القول أنه من أهل النار ، وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر ، لا لتقديره عليه «1» وإرادته به - تعالى اللّه عن ذلك - قال الضحاك : أراد ابنه وامرأته إِلَّا قَلِيلٌ روى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «كانوا ثمانية : نوح وأهله ، وبنوه الثلاثة ، ونساؤهم» «2» وعن محمد بن إسحاق : كانوا عشرة : خمسة رجال وخمس نسوة . وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلا وامرأة ، وأولاد نوح : سام وحام ويافث ، ونساؤهم . فالجميع ثمانية وسبعون : نصفهم رجال ونصفهم نساء . ويجوز أن يكون كلاما واحداً وكلامين ، فالكلام الواحد : أن يتصل بِسْمِ اللَّهِ باركبوا حالا من الواو ، بمعنى : اركبوا فيها مسمين اللّه . أو قائلين بسم اللّه وقت إجرائها ووقت إرسائها ، إما لأن المجرى والمرسى للوقت ، وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء ، حذف منهما الوقت المضاف ، كقولهم خفوق النجم ، ومقدم الحاج.

ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء ، وانتصابهما بما في بِسْمِ اللَّهِ من معنى الفعل ، أو بما فيه

---

(1) . قوله «يختار الكفر لا لتقديره عليه» هذا على مذهب المعتزلة من عدم سبق

القضاء والقدر على الشر وعدم إرادته ، ولكن مذهب أهل السنة أن كل ممكن مسبوق بالقضاء والقدر والارادة ولو شراً . (ع)

(2) . لم أره مرفوعا . وذكره الطبري بإسناد عن قتادة قال : ذكر لنا أن لم يتم في السفينة إلا نوح وامرأته وبنوه الثلاثة ونساؤهم . فجميعهم ثمانية .

(188/378)

من إرادة القول . والكلامان : أن يكون بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها جملة من مبتدإ وخبر مقتضبة ، أى بسم اللّه إجراؤها وإرساؤها . يروى أنه كان إذا أراد أن تجرى قال : بسم اللّه فجرت ، وإذا أراد أن ترسو قال : بسم اللّه فرست . ويجوز أن يقحم الاسم «1» ، كقوله :

ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا «2»

ويراد : باللّه إجراؤها وإرساؤها ، أى بقدرته وأمره . وقرئ مَجْراها وَمُرْساها بفتح الميم ، من جرى ورسى ، إما مصدرين أو وقتين أو مكانين . وقرأ مجاهد : مجريها ومرسيها ، بلفظ اسم الفاعل ، مجرورى المحل ، صفتين للّه . فإن قلت : ما معنى قولك : جملة مقتضية ؟ قلت : معناه أن نوحا عليه السلام أمرهم بالركوب ، ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم اللّه أو بأمره وقدرته . ويحتمل أن تكون غير مقتضية بأن تكون في

موضع الحال كقوله :

وَجَاؤُنَا بِهِمْ سَكَرٌ عَلَينَا «3»

فلا تكون كلاما برأسه ، ولكن فضلة من فضلات الكلام الأوّل ، وانتصاب هذه الحال عن

---

(1) . قال محمود : «ويجوز أن يقحم الاسم . . . الخ» قال أحمد : نفور من اعتقاد أن الاسم هو المسمى ، ولو اعتقد ذلك لما جعله مقحما ، واللّه أعلم .

(2) تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

فان حان يوما أن يموت أبو كما فلا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر

وقولا هو المرء الذي لا صديقه أهان ولا خان الأمين ولا غدر

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

للبيد بن ربيعة العامري ، يوصى ابنتيه أسماء ويسرة . وتمنى : ماض ، أو مضارع حذف منه إحدى التاءين ، والاستفهام إنكارى وهو كناية عن تحتم الموت . ويوما : ظرف لحان . والمراد به : مطلق الزمن . وأن يموت : فاعل . وخمش وجهه خمشا : جرحه بأظفاره ، أى : لا تبالغا في الجزع حتى تفعلا ذلك ، ووقف على شعر منصوب بصورة المرفوع على لغة ، نهاهما عن الجزع وأمرهما بعد مناقبه . وصديقه : مفعول مقدم ، وإلى الحول : متعلق بقولا ، ولفظ «اسم» مقحم بين ثم ولفظ السلام ، لأنه أراد تحيتهما بهذا اللفظ بخصوصه وإن أفاد غيره معناه . وقيل : أقحمه إشارة إلى أنه لا أمان لهما بعد موته ، وفي «ثم» إيماء إلى أنه لم

يسلم الآن ، وإنما ذلك بعد الحول ، والمراد أنه لا يخطر ببالهما ولا يحزنا عليه بعد ذلك ، فعبر عنه بسلام المودعة الذي يلزمه الافتراق ، والافتراق يلزمه عدم التذكر عادة . ويحتمل أن المراد الدلالة على أن الوصية قد تمت ، ثم قال : ومن يبك مصابه حولا كاملا فقد أبلغ في العذر ، كأنه يعتذر عن سكوته بأنه أدى ما عليه ، أي : وأنتما كذلك .

(3) وجاءونا بهم سكر علينا فأجلى القوم والسكران صاحى

السكر والسكر : كالبعد والبعد ، و«بهم سكر» جملة حالية . و«علينا» متعلق بسكر : أي جاءنا القوم غضابا علينا ، فانكشفوا عن مكان الحرب ومضوا عنه . والحال أن السكران منهم مفلق من سكره . ويروى «فأجلى اليوم» أي زال ومضى ، أو انكشفت ظلمة الحرب في ذلك اليوم : أي لم يلبثوا إلا هو والحال أن الذي كان سكران صاح من سكره ، لعلمه أنه ليس أهلا لذلك ، فأجلى هنا لازم .

ضمير الفلك ، كأنه قيل : اركبوا فيها مجراة ومرساة بسم اللّه بمعنى التقدير ، كقوله تعالى ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ . إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ لولا مغفرته لذنوبكم ورحمته إياكم لما نجاكم .

[سورة هود (11) : الآيات 42 إلى 43]

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ وَكانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ (42) قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43)

فإن قلت: بم اتصل قوله وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ؟ قلت: بمحذوف دل عليه ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ كأنه قيل: فركبوا فيها يقولون: بسم اللّه، وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ أى تجرى وهم فيها فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ يريد موج الطوفان، شبه كل موجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها. فإن قلت: الموج: ما يرتفع فوق الماء عند اضطرابه وزخيره «1» وكان الماء قد التقى وطبق ما بين السماء والأرض، وكانت الفلك تجرى في جوف الماء كما تسبح السمكة، فما معنى جريها في الموج؟

قلت: كان ذلك قبل التطبيق، وقبل أن يغمر الطوفان الجبال. ألا ترى إلى قول ابنه: سآوى إلى جبل يعصمني من الماء. قيل: كان اسم ابنه: كنعان. وقيل: يام. وقرأ على رضى اللّه عنه:

ابنها، والضمير لامرأته. وقرأ محمد بن على وعروة بن الزبير: ابنه، بفتح الهاء، يريدان ابنها، فاكتفيا بالفتحة عن الألف، وبه ينصر مذهب الحسن. قال قتادة: سألته فقال: واللّه ما كان ابنه، فقلت: إنّ اللّه حكى عنه إن ابني من أهلى، وأنت تقول: لم يكن ابنه، وأهل الكتاب لا يختلفون في أنه كان ابنه، فقال: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب، واستدل

بقوله مِنْ أَهْلِي ولم يقل : منى ، ولنسبته إلى أمّه وجهان ، أحدهما : أن يكون ربيباً له ، كعمر بن أبى سلمة لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وأن يكون لغير رشدة ، وهذه غضاضة عصمت منها الأنبياء عليهم السلام . وقرأ السدى : ونادى نوح ابناه ، على الندبة والترثى . أى : قال يا ابناه . والمعزل :

مفعل ، من عزله عنه إذا نحاه وأبعده ، يعنى : وكان في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن مركب المؤمنين . وقيل : كان في معزل عن دين أبيه «يا نبىّ» قرئ بكسر الياء اقتصاراً عليه من ياء الإضافة ، وبالفتح اقتصاراً عليه من الألف المبدلة من ياء الإضافة في قولك : يا بنيا ، أو سقطت

(1) . قوله «عند اضطرابه وزخيره» في الصحاح «زخر الوادي» إذا امتد جداً وارتفع . ومنه يقال : بحر زاخر .

(190/378)

الياء والألف لالتقاء الساكنين ، لأنّ الراء بعدهما ساكنة إِلَّا مَنْ رَحِمَ إلا الراحم وهو اللّه تعالى «1» ، أو لا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم اللّه . أى إلا مكان من رحم اللّه من المؤمنين ، وكان لهم غفورا رحيما في قوله إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وذلك أنه لما جعل الجبل

عاصما من الماء قال له : لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى معتصم واحد وهو مكان من رحمهم اللّه ونجاهم يعنى السفينة . وقيل لا عاصم ، بمعنى : لا ذا عصمة إلا من رحمه اللّه ، كقوله ماءٍ دافِقٍ وعِيشَةٍ راضِيَةٍ وقيل : إِلَّا مَنْ رَحِمَ استثناء منقطع ، كأنه قيل : ولكن من رحمه اللّه فهو المعصوم ، كقوله ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّباعَ الظَّنِّ وقرئ إِلَّا مَنْ رَحِمَ على البناء للمفعول .

[سورة هود (11) : آية 44]

وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44)

نداء الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميز «2» على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات وهو قوله يا أَرْضُ ، وَيا سَماءُ ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله ابْلَعِي ماءَكِ وأَقْلِعِي من الدلالة على الاقتدار العظيم ، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه ، كأنها عقلاء مميزون قد عرفوا عظمته وجلالته وثوابه وعقابه وقدرته على كل مقدور ، وتبينوا تحتم طاعته عليهم وانقيادهم له ، وهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له والنزول على مشيئته

---

(1) . قال محمود : «المراد إلا الراحم وهو اللّه تعالى أو لا عاصم اليوم . . . الخ» قال أحمد

: والاحتمالات الممكنة أربعة : لا عاصم إلا راحم ، ولا معصوم إلا مرحوم ، ولا عاصم إلا مرحوم ، ولا معصوم إلا راحم . فالأولان استثناء من الجنس ، والآخران من غير الجنس . وزاد الزمخشري خامسا ، وهو لا عاصم إلا مرحوم ، على أنه من الجنس بتأويل حذف المضاف ، تقديره : لا مكان عاصم إلا مكان مرحوم . والمارد بالنفي التعريض بعدم عصمة الجبل ، وبالمثبت التعريض بعصمة السفينة والكل جائز ، وبعضها أقرب من بعض ، واللّه أعلم . [. . . . .]

(2) . قال محمود : «نداء الأرض والسماء بما ينادى به العاقل . . . الخ» قال أحمد : ومن هذا النمط في السكوت عن ذكر الموصوف اكتفاء بصفاته لانفراده بها السكوت عن ذكر الأوصاف أحيانا ، اكتفاء بذكر الموصوف لتبينه بها وتوحده فيها ، وأنه متى ذكر مكانها قد ذكرت بذكره في مثل قوله وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ الآية .

والمراد : وهو اللّه الموصوف بصفات الكمال المشهور بها في العالمين . ومنه :

أنا أبو النجم وشعري شعري

ولقد تحيل الشعراء على التعلق بأذيال هذه المعاني اللطيفة ، فقال أبو الطيب يمدح عضد الدولة :

لا تحمدنها واحمدن هماما إذ لم يسم حامد سواكا

يعنى لا تمنح نفسك فإنك المنفرد بالمادح ، حتى إذا ذكرت ولم يسم المعنى بها لم يسبق إلى ذهن أحد غيرك لتفردك بها .

(191/378)

على الفور من غير ريث ، فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولا لا حبس ولا إبطاء .

والبلع :

عبارة عن النشف . والإقلاع : الإمساك . يقال : أقلع المطر وأقلعت الحمى وَغِيضَ الْماءُ من غاضه إذا نقصه وَقُضِيَ الْأَمْرُ وأنجز ما وعد اللّه نوحا من هلاك قومه وَاسْتَوَتْ واستقرّت السفينة عَلَى الْجُودِيِّ وهو جبل بالموصل وَقِيلَ بُعْداً يقال بعد بعدا وبعدا ، إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك ، ولذلك اختص بدعاء السوء ومجيء أخباره على الفعل المبنى للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء ، وأنّ تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر ، وتكوين مكون قاهر ، وأنّ فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله ، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره : يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعى ، ولا أن يقضى ذلك الأمر الهائل غيره ، ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره ، ولما ذكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية

ورقصوا لها رؤسهم ، لا لتجانس الكلمتين ، وهما قوله ابْلَعِي وأَقْلِعِي وذلك وإن كان لا يخلى الكلام من حسن ، فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور . وعن قتادة : استقلت بهم السفينة لعشر خلون من رجب ، وكانت في الماء خمسين ومائة يوم ، واستقرّت بهم على الجودي شهراً ، وهبط بهم يوم عاشوراء . وروى أنها مرت بالبيت فطافت به سبعا ، وقد أعتقه اللّه من الغرق . وروى أنّ نوحا صام يوم الهبوط وأمر من معه فصاموا شكراً للّه تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ 387 . 398 ﴾

(192/378)

وقال النسفى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

أي بأني والمعنى أرسلناه ملتبساً بهذا الكلام وهو قوله ﴿ إني لكم نذير مبين ﴾ بالكسر فلما اتصل به الجار فتح كما فتح في "كأن" والمعنى على الكسر وبكسر الألف شامي ونافع وعاصم وحمزة على إرادة القول ﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللهَ ﴾ أن مفسرة متعلقة ب ﴿ أرسلنا ﴾ أو ب ﴿ نذير ﴾ ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ وصف اليوم بأليم

من الإسناد المجازي لوقوع الألم فيه ﴿ فَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ ﴾ يريد الأشراف لأنهم يملؤون القلوب هيبة والمجالس أبهة أو لأنهم ملئوا بالأحلام والآراء الصائبة ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مّثْلَنَا ﴾ أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكاً أو ملكاً
﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ أخساؤنا جمع الأرذل ﴿ بَادِىَ ﴾ وبالهمزة : أبو عمرو ﴿ الرأى ﴾ وبغير همز : أبو عمرو أي اتبعوك ظاهر الرأي ، أو أول الرأي من بدا يبدو إذا أظهر أو بدأ يبدأ إذا فعل الشيء أولاً ، وانتصابه على الظرف أصله وقت حدوث ظاهر رأيهم أو أول رأيهم ، فحذف ذلك وأقيم المضاف إليه مقامه ، أرادوا أن اتباعهم لك شيء عنّ لهم بديهة من غير روية ونظر ولو تفكروا ما اتبعوك .

وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية لأنهم كانوا جهالاً ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال كما ترى أكثر المتسمّين بالإسلام يعتقدون ذلك ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم ولقد زل عنهم أن التقدم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله وإنما يبعده ولا يرفعه بل يضعه ﴿ وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ في مال ورأي يعنون نوحاً وأتباعه ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذبين ﴾ أي نوحاً في الدعوة ومتبعيه

في الإجابة والتصديق يعني تواطأتم على الدعوة والإجابة تسبيباً للرياسة .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أخبروني ﴿ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ ﴾ برهان ﴿ مِّن رَّبِّى ﴾ وشاهد منه يشهد بصحة دعواي ﴿ وآتني رحمة من عنده ﴾ يعني النبوة ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ -أي خفيت .

﴿ فعميت ﴾ : حمزة وعلي وحفص أي أخفيت أي فعميت عليكم البينة فلم تهدكم كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغيرها ، وحقيقته أن الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء لأن الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أي الرحمة ﴿ وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ لا تريدونها ، والواو دخلت هنا تتمة للميم .

وعن أبي عمرو إسكان الميم ووجهه أن الحركة لم تكن إلا خلسة خفيفة فظنها الراوي سكوناً وهو لحن ، لأن الحركة الإعرابية لا يسوغ طرحها إلا في ضرورة الشعر .

﴿ ويا قوم لآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على تبليغ الرسالة لأنه مدلول قوله ﴿ إني لكم نذير ﴾ ﴿ مَالاً ﴾ أجراً يثقل عليكم إن أديتم أو عليّ أن أبيتم ﴿ إِنْ أَجْرِىَ ﴾ مدني وشامي وأبو عمرو وحفص ﴿ إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنو ﴾ جواب لهم حين سألوا طردهم

ليؤمنوا به أنفة من المجالسة معهم ﴿ أَنَّهُم ملاقوا رَبِّهِمْ ﴾ فيشكونني إليه إن طردتهم ﴿ ولكنى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل ، أو تجهلون لقاء ربكم أو أنهم خير منكم ﴿ ويا قوم مَن يَنصرُنى مِنَ الله ﴾ من يمنعني من انتقامه ﴿ إن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ تتعظون ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ الله ﴾ فأدعي فضلاً عليكم بالغنى حتى تجحدوا فضلي بقولكم ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ ﴿ وَلا أَعْلَمُ الغيب ﴾ حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضمائر قلوبهم وهو معطوف على ﴿ عندي خزائن الله ﴾ أي لا أقول عندي خزائن الله ولا أقول أنا أعلم الغيب ﴿ وَلا أَقُولُ إِنّى مَلَكٌ ﴾ حتى تقولوا إلى ﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ ﴿ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ ﴾ ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم ﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ الله خَيْرًا ﴾ في الدنيا والآخرة لهوانه عليه مساعدة لكم ونزولاً على هواكم ﴿ الله أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ من صدق الاعتقاد وإنما على قبول ظاهر إقرارهم إذ لا أطلع على خفي أسرارهم ﴿ إِنّى إِذاً لَّمِنَ الظالمين ﴾ إن قلت شيئاً من ذلك .

والازدراء افتعال من زرى عليه إذا عابه وأصله تزتري فأبدلت التاء دالاً .

﴿ قَالُواْ يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنَا ﴾ خاصمتنا ﴿ فَأَكْثَرْتَ جِدالَنَا فَأْتِنا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في وعدك

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِن شَاءَ ﴾ أي ليس الإتيان بالعذاب إليّ وإنما هو إلى من كفرتم به ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي لم تقدروا على الهرب منه ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي ﴾ هو إعلام موضع الغي ليتقي والرشد ليقتفي ﴿ ولكني ﴾ ﴿ إني ﴾ ﴿ نصحَي ﴾ مدني وأبو عمرو ﴿ إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ أي يضلكم وهذا شرط دخل على شرط فيكون الثاني مقدماً في الحكم لما عرف.

تقديره : إن كان الله يريد أن يغويكم لا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم ، وهو دليل بين لنا في إرادة المعاصي ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ فيتصرف فيكم على قضية إرادته ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكم على أعمالكم ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ بل أيقولون افتراه ﴿ قُلْ إِنِ افتريته فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ﴾ أي إن صح أني افتريته فعلي عقوبة إجرامي أي افترائي يقال أجرم الرجل إذا أذنب ﴿ وَأَنَاْ بَرِيءٌ ﴾ أي ولم يثبت ذلك وأنا بريء منه.

ومعنى ﴿ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إلي فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾

إقناط من إيمانهم وأنه غير متوقع ، وفيه دليل على أن للإيمان حكم التجدد كأنه قال : إن الذي آمن يؤمن في حادث الوقت ، وعلى ذلك يخرج الزيادة التي ذكرت في الإيمان بالقرآن ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ فلا تحزن حزن بائس مستكين والابتئاس افتعال من البؤس وهو الحزن والفقر ، والمعنى فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك فقد حان وقت الانتقام من أعدائك .

﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا ﴾ هو في موضع الحال أي اصنعها محفوظاً وحقيقته ملتبساً بأعيننا كأن لله معه أعينا تكلؤه من أن يزيغ في صنعته عن الصواب ﴿ وَوَحيِنَا ﴾ وأنا نوحي إليك ونلهمك كيف تصنع .

(196/378)

عن ابن عباس رضي الله عنهما : لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطير ﴿ وَلاَ تخاطبنى فِى الذين ظَلَمُواْ ﴾ ولا تدعني في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك ﴿ إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ محكوم عليهم بالإغراق وقد قضى به وجف القلم فلا سبيل إلى كفه ﴿ وَيَصْنَعُ الفلك ﴾ حكاية حال ماضية ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ من عمله السفينة وكان يعملها في برية في أبعد موضع من الماء

فكانوا يتضاحكون منه ويقولون له يا نوح صرت نجاراً بعدما كنت نبياً ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ عند رؤية الهلاك ﴿ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ منا عند رؤية الفلك. روي أن نوحاً عليه السلام اتخذ السفينة من خشب الساج في سنتين وكان طولها ثلثمائة ذراع أو ألفاً ومائتي ذراع وعرضها خمسون ذراعاً، أو ستمائة ذراع وطولها في السماء ثلاثون ذراعا وجعل لها ثلاثة بطون فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام، وركب نوح ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد وحمل معه جسد آدم عليه السلام وجعله حاجزاً بين الرجال والنساء ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ ﴾ "من" في محل النصب ب "تعلمون" أي فسوف تعلمون الذي يأتيه ﴿ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ ويعني به إياهم ويريد بالعذاب عذاب الدنيا وهو الغرق ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ ﴾ وينزل عليه ﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ وهو عذاب الآخرة.

(197/378)

﴿ حتى ﴾ هي التي يبدأ بعدها الكلام أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء وهي غاية لقوله ﴿ ويصنع الفلك ﴾ أي وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد، وما بينهما من الكلام حال من ﴿ يصنع ﴾ أي يصنعها والحال أنه كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه

، وجواب ﴿ كلما ﴾ ﴿ سخروا ﴾ ﴿ وقال ﴾ استئناف على تقدير سؤال سائل ، أو ﴿ قال ﴾ جواب و ﴿ سخروا ﴾ بدل من ﴿ مر ﴾ أو صفة ل ﴿ ملأ ﴾ ﴿ إِذَا جَاء أَمْرُنَا ﴾ عذابنا ﴿ وَفَارَ التنور ﴾ هو كناية عن اشتداء الأمر وصعوبته .

وقيل : معناه جاش الماء من تنور الخبز ، وكان من حجر لحواء فصار إلى نوح عليه السلام .

وقيل : التنور وجه الأرض ﴿ قُلْنَا احمل فِيهَا ﴾ في السفينة ﴿ مِن كُلّ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ تفسيره في سورة المؤمنين ﴿ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول ﴾ عطف على ﴿ اثنين ﴾ وكذا ﴿ وَمَنْ ءامَنَ ﴾ أي واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم ، واستثنى من أهله من سبق عليه القول إنه من أهل النار وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر بتقديره وإرادته جل خالق العباد عن أن يقع في الكون خلاف ما أراد ﴿ وَمَا ءامَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ قال عليه السلام : "كانوا ثمانية نوح وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم" وقيل : كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة .

(198/378)

وقيل : كانوا اثنين وسبعين رجالاً ونساء وأولاد نوح : سام وحام ويافث ونساؤهم ، فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء ﴿ وَقَالَ اركبوا فِيهَا بِسْمِ الله مَجْرَاهَا

وَمُرْسَاهَا ﴾ ﴿ بسم الله ﴾ متصل ب ﴿ اركبوا ﴾ حالاً من الواو أي اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها ، إما لأن المجرى والمرسى للوقت ، وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء حذف منهما الوقت المضاف كقولهم "خفوق النجم" ويجوز أن يكون ﴿ بسم الله مجرها ومرساها ﴾ جملة برأسها غير متعلقة بما قبلها وهي مبتدأ وخبر يعني أن نوحاً عليه السلام أمرهم بالركوب ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله أي باسم الله إجراؤها وإرساؤها ، وكان إذا أراد أن تجري قال بسم الله فجرت ، وإذا أراد أن ترسو قال بسم الله فرست : ﴿ مجريها ﴾ بفتح الميم وكسر الراء من جرى إما مصدر أو وقت : حمزة وعلي وحفص ، وبضم الله الميم وكسر الراء : أبو عمرو ، والباقون : بضم الميم وفتح الراء ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ ﴾ لمن آمن منهم ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ حيث خلصهم

.

﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ ﴾ متصل بمحذوف دل عليه ﴿ اركبوا فيها بسم الله ﴾ كأنه قيل : فركبوا فيها يقولون بسم الله وهي تجري بهم أي السفينة تجري وهم فيها ﴿ فِى مَوْجٍ كالجبال ﴾ يريد موج الطوفان وهو جمع موجة كتمر وتمرة وهو ما يرتفع من الماء عند اضطرابه بدخول الرياح الشديدة في خلاله ، شبه كل موجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها ﴿ ونادى نُوحٌ ابنه ﴾ كنعان .

وقيل : يام .

والجمهور على أنه ابنه الصلبي .

وقيل : كان ابن امرأته ﴿ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ ﴾ عن أبيه السفينة "مفعل" من عزله عنه إذ نجاه وأبعده أو في معزل عن دين أبيه ﴿ يابنيى ﴾ بفتح الياء : عاصم ، اقتصاراً عليه من الألف المبدلة من ياء الإضافة من قولك "يا بنيا" .

(199/378)

غيره بكسر الياء اقتصاراً عليه من ياء الإضافة ﴿ اركب مَّعَنَا ﴾ في السفينة أي أسلم واركب ﴿ وَلاَ تَكُن مَّعَ الكافرين * قَالَ سَاوِى ﴾ ألجأ ﴿ إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الماء ﴾ يمنعني من الغرق ﴿ قَالَ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ إلا الراحم وهو الله تعالى ، أو لا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم الله أي إلا مكان من رحم الله من المؤمنين ، وذلك أنه لما جعل الجبل عاصماً من الماء قال له لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى معتصم واحد وهو مكان من رحم الله ونجاهم يعني السفينة ، أو هو استثناء منقطع كأنه قيل : ولكن من رحمه الله فهو المعصوم كقوله ﴿ ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾ [النساء : 157] ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الموج ﴾ بين ابنه والجبل أو بين نوح وابنه ﴿

فَكَانَ مِنَ المغرقين ﴾ فصار أو فكان في علم الله

﴿ وَقِيلَ يا أرض ابلعى مَاءكِ ﴾ انشفي وتشربي ، والبلع : النشف ﴿ وياسمآء أَقْلِعِى

﴾ أمسكي ﴿ وَغِيضَ الماء ﴾ نقص من غاضه إذا نقصه وهو لازم ومتعد ﴿ وَقُضِى

الامر ﴾ وأنجز ما وعد الله نوحاً من إهلاك قومه ﴿ واستوت ﴾ واستقرت السفينة بعد

أن طافت الأرض كلها ستة أشهر ﴿ عَلَى الجودى ﴾ وهو جبل بالموصل ﴿ وَقِيلَ بُعْداً

لّلْقَوْمِ للظالمين ﴾ أي سحقاً لقوم نوح الذين غرقوا .

يقال : بعد بعداً وبَعَداً إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ولذلك اختص

بدعاء السوء

(200/378)

والنظر في هذه الآية من أربع جهات : من جهة علم البيان وهو النظر فيما فيها من المجاز

والاستعارة والكناية وما يتصل بها فنقول : إن الله تعالى لما أراد أن يبين معنى أردنا أن نرد

ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد ، وأن نقطع طوفان المساء فانقطع ، وأن نغيض الماء

النازل من السماء فغيض ، وأن نقضي أمر نوح وهو إنجاز ما كنا وعدناه من إغراق قومه

فقضي ، وأن نسوي السفينة على الجودي فاستوت ، وأبقينا الظلمة غرقى ، بني الكلام

على تشبيه المراد بالأمر الذي لا يتأتى منه لكمال هيبته العصيان ، وتشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ في تكون المقصود تصويراً لاقتداره العظيم ، وأن السماوات والأرض منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة لإرادته فيها تغييراً وتبديلاً كأنها عقلاء مميزون قد عرفوه حق معرفته ، وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره والإذعان لحكمه وتحتم بذل المجهود عليهم في تحصيل مراده .

ثم بنى على تشبيه هذا نظم الكلام فقال عز وجل ﴿ وَقِيلَ ﴾ على سبيل المجاز على الإرادة الواقع بسببها قول القائل ، وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد وهو ﴿ يا أرض ﴾ ﴿ ويا سماء ﴾ ثم قال مخاطباً لهما ﴿ يا أرض ﴾ ﴿ ويا سماء ﴾ على سبيل الاستعارة للشبه المذكور ، ثم استعار لغور الماء في الأرض البلع الذي هو أعمال الجاذبة في المطعوم للشبه بينهما وهو الذهاب إلى مقر خفي ، ثم استعار الماء للغذاء تشبيهاً له بالغذاء لتقوى الأرض بالماء في الإنبات كتقوي الآكل بالطعام ، ثم قال ﴿ ماءك ﴾ بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز لاتصال الماء بالأرض كاتصال الملك بالمالك ، ثم اختار لاحتباس المطر الإقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم التأني ، ثم قال ﴿ وغيض

الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا ﴾ ولم يصرح بمن أغاض الماء ، ولا بمن قضى الأمر ، وسوى السفينة وقال بعداً ، كما لم يصرح بقائل ﴿ يا أرض ﴾ ﴿ ويا سماء ﴾ سلوكا في كل واحد من ذلك لسبيل الكناية وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر وتكوين مكون قاهر ، وأن فاعلها واحد لا يشارك في فعله فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ، ولا أن يكون الغائض والقاضي والمسوي غيره .

ثم ختم الكلام بالتعريض تنبيهاً لسالكي مسلكهم في تكذيب الرسل ظلماً لأنفسهم ، إظهاراً لمكان السخط وأن ذلك العذاب الشديد ما كان إلا لظلمهم .

ومن جهة علم المعاني وهو النظر في فائدة كل كلمة فيها وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها ، وذلك أنه اختير "يا" دون أخواتها لكونها أكثر استعمالاً ، ولدلالتها على بعد المنادي الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة والملكوت وإبداء العزة والجبروت ، وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به ، ولم يقل "يا أرضي" لزيادة التهاون إذ الإضافة تستدعي القرب ، ولم يقل "يا أيتها الأرض" للاختصار .

واختير لفظ الأرض والسماء لكونهما أخف وأدور ، واختير ﴿ ابلعي ﴾ على "ابتلعي" لكونه أخصر وللتجانس بينه وبين ﴿ أقلعي ﴾ وقيل ﴿ أقلعي ﴾ ولم يقل "عن المطر" ! وكذا لم يقل يا أرض ابلعي ماءك فبلعت ويا سماء أقلعي فأقلعت اختصاراً ، واختير ﴿ غيض ﴾ على "غيّض" وقيل "الماء" دون أن يقول "ماء الطوفان" و ﴿ الأمر ﴾ ولم يقل "أمر نوح وقومه" لقصد الاختصار والاستغناء بحرف العهد عن ذلك ، ولم يقل "وسويت على الجودي" أي أقرت على نحو ﴿ قيل ﴾ ﴿ وغيض ﴾ اعتباراً لبناء الفعل للفاعل مع السفينة في قوله ﴿ وهي تجري بهم ﴾ إرادة للمطابقة ، ثم قيل ﴿ بعداً للقوم ﴾ ولم يقل "ليبعد القوم" طلباً للتأكيد مع الاختصار .

هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلم ، وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل ، فذلك أنه قدم النداء على الأمر : ف ﴿ قيل يا أرض ابلعي ويا سماء أقلعي ﴾ ولم يقل "ابلعي يا أرض وأقلعي يا سماء" جرياً على مقتضى اللازم فيمن كان مأموراً حقيقة من تقديم التنبيه ليتمكن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادى قصداً بذلك لمعنى الترسيخ ، ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء وابتدأ به لابتداء الطوفان منها ، ثم اتبع ﴿ وغيض الماء ﴾ لاتصاله بقصة الماء وأخذه بجزتها ، ثم ذكر ما هو المقصود القصة وهو قوله ﴿ وقضي الأمر ﴾ أي أنجز الموعود من إهلاك الكفرة وإنجاء نوح ومن معه في الفلك وعلى هذا فاعتبر .

ومن جهة الفصاحة المعنوية وهي كما ترى نظم للمعاني لطيف ، وتأدية لها ملخصة مبينة لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد ولا التواء يشيّك الطريق إلى المرتاد ومن جهة الفصاحة اللفظية ، فألفاظها على ما ترى عربية مستعملة ، سليمة عن التنافر ، بعيدة عن البشاعة ، عذبة على العذبات ، سلسة على الأسَلات ، كل منها كالماء في السلاسة ، وكالعسل في الحلاوة وكالنسيم في الرقة ، ومن ثم أطبق المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية ، ولله در شأن التنزيل لا يتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر ، ولا تظنن الآية مقصورة على المذكور فلعل المتروك أكثر من المسطور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 184 . 191 ﴾

(204/378)

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾

وقد جرت عادة الله تعالى بأنه إذا أورد على الكفار أنواع الدلائل أتبعها بالقصص ليصير ذكرها مؤكداً لتلك الدلائل . وفي هذه السورة ذكر أنواعاً من القصص :

القصة الأولى : قصة نوح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾

وقوله : ﴿ إني لكم ﴾ قرأه ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بفتح الهمزة ، أي : بأني والباقون بكسرها على إرادة القول ﴿ نذير مبين ﴾ أي : بين النذارة أخوّف من العقاب لمن خالف أمر الله تعالى . وقوله:

﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ بدل من إني لكم أو مفعول مبين ﴿ إني أخاف عليكم ﴾ أي : إن عبدتم غيره ﴿ عذاب يوم أليم ﴾ أي : مؤلم موجع في الدنيا أو الآخرة . قال ابن عباس : بعث نوح بعد أربعين سنة ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة . وقال مقاتل : وهو ابن مائة سنة . وقيل : وهو ابن خمسين سنة . وقيل : وهو ابن مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألف سنة وأربعمائة وخمسين . ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة ، وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة . ولما حكى تعالى عن نوح عليه السلام أنه دعا قومه إلى عبادة الله تعالى حكى عنهم أنهم طعنوا في نبوّته بثلاثة أنواع من الشبهات بقوله تعالى:

﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ وهم الأشراف ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلنا ﴾ هذه الشبهة الأولى ، أي : أنك بشر مثلنا لا مزية لك علينا تخصك بالنبوّة ووجوب الطاعة ، وإنما قالوا هذه المقالة وتمسكوا بهذه الشبهة جهلاً منهم ؛ لأنّ الله تعالى إذا اصطفى عبداً من عباده وأكرمه بنبوّته ورسالته وجب على من أرسله إليهم اتباعه . الشبهة الثانية : ما ذكره الله تعالى عنهم بقوله تعالى : ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾ أي : أسافلنا كالحاكة وأهل الصنائع الخسيسة ، وهو جمع أرذل بفتح الهمزة كقوله تعالى : ﴿ أكابر مجرميها ﴾ (الأنعام ،) وقوله صلى الله عليه وسلم "أحاسنكم أخلاقاً" أو جمع أرذل بضم الذال جمع رذل بسكونها ، فهو على الأوّل جمع مفرد وعلى الثاني جمع جمع ، ثم قالوا : ولو كنت صادقاً لاتبعك الأكابر من الناس والأشراف منهم ، وإنما قالوا ذلك جهلاً منهم أيضاً ؛ لأنّ الرفعة بالدين واتباع الرسول لا بالمناصب العالية والمال ﴿ بادي الرأي ﴾ أي : اتبعوك في أوّل الرأي من غير تثبت وتفكر في أمرك ولو تفكروا ما اتبعوك . ونصبه على الظرف ، أي : وقت حدوث أوّل رأيهم . وقرأ أبو عمرو بادئ بهمزة مفتوحة بعد الدال والباقون بياء مفتوحة ، وأبدل السوسي همزة الرأي ألفاً وقفاً ووصلاً . وأمّا حمزة فأبدلها وقفاً لا وصلاً . الشبهة الثالثة : ما ذكره الله تعالى عنهم في قوله تعالى : ﴿ وما نرى لكم ﴾ أي : لك ولمن اتبعك ﴿ علينا من فضل ﴾ أي : بالمال والشرف والجاه تستحقون به الاتباع منا وهذا أيضاً جهل منهم ؛ لأنّ الفضيلة المعتبرة عند الله تعالى بالإيمان والطاعة لا بالشرف

والرياسة. وقولهم: ﴿ بل نظنكم كاذبين ﴾ خطاب لنوح عليه السلام في دعوى الرّسالة وأدرجوا قومه معه في الخطاب. وقيل: خاطبوه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم. وقيل: كذبوه في دعوى النبوّة وكذبوا قومه في دعوى العلم بصدقه، فغلب المخاطب على الغائبين. ولما ذكروا هذه الشبهة لنوح عليه السلام.

﴿ قال ﴾ لهم ﴿ يا قوم أرأيتم ﴾ أي: أخبروني ﴿ إن كنت على بينة ﴾ أي: نبوّة ورسالة ﴿ من ربي وآتاني رحمة ﴾ أي: نبوّة ورسالة ﴿ من عنده ﴾ من فضله وإحسانه ﴿ فعميت ﴾ أي: خفيت والتبست ﴿ عليكم ﴾ ووحد الضمير إمّا لأنّ البينة في نفسها هي الرحمة وإمّا لأنه لكل واحدة منهما. وقرأ حفص وحمزة والكسائي بضم العين وتشديد الميم والباقون بفتح العين وتخفيف الميم ﴿ أنلزمكموها ﴾ أي: أنكرهكم على قبولها ﴿ وأنتم لها كارهون ﴾ أي: لا تختارونها ولا تتأمّلون فيها لا نقدر على ذلك. قال قتادة: والله لو استطاع نبيّ الله لألزمها قومه ولكنه لا يملك ذلك، واتفق القراء على ضم النون من أنلزمكموها لاتصالها باللام رسماً، وحيث اجتمع ضميران وليس أحدهما مرفوعاً وقدم الأعرف منهما جاز في الثاني الوصل كما في الآية، والفصل كأن يقال:

أنلزمكموها إياها .

﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه ﴾ أي : على تبليغ الرسالة وهو وإن لم يذكر معلوم مما ذكر ﴿ مالاً ﴾ أي : جعلا تعطونيه ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ أجري إلا على الله ﴾ أي : ما ثواب تبليغي إلا عليه فإنه المأمول منه تعالى . وقرأ ابن كثير وشعبة وحمزة والكسائي بسكون الياء والباقون بالفتح . وقول نوح عليه السلام : ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ جواب لهم حين طلبوا طردهم ، فإنهم طلبوا من نوح عليه السلام قبل أن يطرد الذين آمنوا وهم الأرذلون في زعمهم فقال : ما يجوز لي ذلك . ﴿ إنهم ملاقوا ربهم ﴾ أي : بالبعث فيخاصمون طاردهم عنده ويأخذ لهم ممن ظلمهم وطردهم أو أنهم يلاقونه ويفوزون بقربه فكيف أطردهم ﴿ ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ أي : إنّ هؤلاء المؤمنين خير منكم أو عاقبة أمركم أو تسفهون عليهم بأن تدعوهم أراذل .

﴿ ويا قوم من ينصرني ﴾ أي : يمنعني ﴿ من الله ﴾ أي : من عقابه ﴿ إن طردتهم ﴾ عني وهم مؤمنون مخلصون ﴿ أفلا ﴾ أي : فهلا ﴿ تذكرون ﴾ أي : تتعظون . وقرأ حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون بالتشديد بإدغام التاء في الأصل في الذال .

﴿ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ﴾ أي : خزائن رزقه ، فكما أني لا اسألكم مالاً فكذلك لا أدعي أني أملك مالاً ولا غرض لي في المال لا أخذاً ولا دفعاً ، وقوله : ﴿ ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ﴾ فأتعاظم به عليكم حتى تقولوا ما أنت إلا بشر مثلنا بل طريقتي التواضع والخضوع ، ومن كان هذا شأنه وطريقته كذلك فإنه لا يستنكف عن مخالطة الفقراء والمساكين ولا يطلب مجالسة الأمراء والسلاطين ، ثم أكد ذلك بقوله :

﴿ ولا أقول للذين تزدري ﴾ أي : تحتقر ﴿ أعينكم ﴾ أي : لا أقول في حقهم ﴿ لن يؤتيهم الله خيراً ﴾ فإن ما أعدّ الله تعالى لهم في الآخرة خير مما آتاكم في الدنيا ﴿ الله أعلم بما في أنفسهم ﴾ وهذا كالدلالة على أنهم كانوا ينسبون أتباعه مع الفقر والذلة إلى النفاق ﴿ إني إذاً ﴾ أي : إن فعلت ذلك ﴿ لمن الظالمين ﴾ لنفسي ومن الظالمين لهم . فإن قيل : هذه الآية تدل على تفضيل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإن الإنسان إذا قال : لا أدعي كذا وكذا إنما يحسن إذا كان ذلك الشيء أشرف من أحوال ذلك القائل ؟

أجيب : بأن نوحاً عليه السلام إنما ذكر ذلك جواباً عما ذكروه من الشبه ، فإنهم طعنوا في أتباعه بالفقر فقال : ولا أقول لكم عندي خزائن الله حتى أجعلهم أغنياء وطعنوا فيهم أيضاً بأنهم منافقون فقال : ولا أعلم الغيب حتى أعرف كيفية باطنهم وإنما تكليفي بناء الأحوال على الظاهر ، وطعنوا فيه أنه من البشر فقال : ولا أقول إني ملك حتى تنفوا عني ذلك وحينئذٍ فالآية ليس فيها ذلك . فإن قيل : في هذه الآية دلالة على أنّ طرد المؤمنين

لطلب مرضاة الكفار من أصول المعاصي فكيف طرد محمد صلى الله عليه وسلم بعض فقراء المؤمنين لطلب مرضاة الله حتى عاتبه الله تعالى في قوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيِّ ؟

(208/378)

أجيب : بأنّ الطرد المذكور في هذه الآية محمول على الطرد المطلق على سبيل التأبيد ، والطرد المذكور في واقعة محمد صلى الله عليه وسلم محمول على التبعيد في أوقات معينة رعاية للمصلحة . ولما أنّ الكفار أوردوا تلك الشبهة وأجاب نوح عليه السلام عنها بالجوابات الموافقة الصحيحة أوردوا عليه كلامين : الأوّل ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى:

﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا ﴾ أي : خاصمتنا ﴿ فأكثرت جدالنا ﴾ أي : فأطنبت فيه ، وهذا يدل على أنه عليه السلام كان قد أكثر في الجدال معهم ، وذلك الجدال ما كان إلا في إثبات التوحيد والنبوّة والمعاد ، وهذا يدل على أنّ الجدال في تقرير الدلائل ، وإزالة الشبهات حرفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وعلى أنّ التقليد والجهل حرفة الكفار ، والثاني : ما ذكره الله تعالى عنهم بقوله : ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ أي : من العذاب ﴿ إن كنت

من الصادقين ﴾ في الدعوى والوعيد فإنّ مناظرتك لا تؤثر فينا .

﴿ قال ﴾ لهم نوح عليه السلام في جواب ذلك ﴿ إنما يأتيكم به الله إن شاء ﴾ تعجيله لكم فإن أمره إليه إن شاء عجله ، وإن شاء أخره لا إليّ ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أي : بفائتين الله تعالى .t

ولما أجاب نوح عليه السلام عن شأنهم ختم الكلام بخاتمة قاطعة فقال:

(209/378)

﴿ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ أي : يضلكم وجواب الشرط محذوف دل عليه ولا ينفعكم نصحي . وتقدير الكلام : إن كان الله يريد أن يغويكم فإن أردت أن أنصح لكم فلا ينفعكم نصحي ، فهو من باب اعتراض الشرط . على الشرط ونظير ذلك ما لو قال رجل لزوجته : أنت طالق إن دخلت الدار إن كلمت زيداً ، فدخلت ثم كلمت لم تطلق فيشترط في وجوب الحكم وقوع الشرط الثاني قبل وقوع الأوّل .

وفي الآية دليل على أنّ الله تعالى قد يريد الكفر من العبد فإنه إذا أراد منه ذلك فإنه يمتنع صدور الإيمان منه ﴿ هو ربكم ﴾ أي : خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته ﴿ وإليه ترجعون ﴾ فيجازيكم على أعمالكم قال تعالى : ﴿ أم ﴾ أي : بل ﴿ يقولون افتراه ﴾ أي

: اختلقه وجاء به من عند نفسه ، والهاء ترجع إلى الوحي الذي بلغه إليهم ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ إن افتريته فعليّ إجرامي ﴾ وهذا من باب حذف المضاف ؛ لأنّ المعنى فعليّ إثم إجرامي ، والإجرام اقتراف المحظور . وفي الآية محذوف آخر وهو أنّ المعنى إن كنت افتريته فعليّ عقاب جرمي وإن كنت صادقاً وكذبتموني فعليكم عقاب ذلك التكذيب ، إلا أنه حذف هذه البقية لدلالة الكلام عليها ﴿ وأنا بريء مما تجرمون ﴾ أي : من عقاب جرمكم في إسناد الافتراء إليّ .

(210/378)

تنبيه : أكثر المفسرين على أنّ هذا من بقية كلام نوح عليه السلام مع قومه . وقال مقاتل : أم يقولون ، أي : المشركون من كفار مكة : افتراه ، أي : محمد صلى الله عليه وسلم اختلق القرآن من عند نفسه . وهذه الآية وقعت في قصة محمد صلى الله عليه وسلم في أثناء قصة نوح عليه السلام . قال الرازي : وقوله بعيد جدًّا . ﴿ وأوحي إلى نوحٍ أنه لن يؤمن من قومك ﴾ أي : لن يستمرّ على الإيمان لقوله تعالى : ﴿ إلا من قد آمنّ ﴾ . قال ابن عباس : إنّ قوم نوح كانوا يضربون نوحاً حتى يسقط فيلفونه في لبد ويلقونه في بيت يظنون أنه قد مات ، فيخرج في اليوم الثاني ويدعوهم إلى الله تعالى . وروي أنّ شيخاً منهم جاء متوكئاً على

عصاه ومعه ابنه فقال لابنه : لا يغوينك هذا الشيخ المجنون فقال : يا أبتاه مكني من العصا فأخذها من أبيه وضرب بها نوحاً عليه السلام حتى شجه شجةً منكرةً ، فأوحى الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴿ فلا تبتئس ﴾ أي : لا تحزن عليهم فإني مهلكهم ﴿ بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ كانوا يفعلون ﴾ من الشرك وننقذك منهم ، فحينئذ دعا عليهم نوح عليه السلام فقال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ (نوح،) . وحكى محمد بن إسحاق عن عبيد بن عمير الليثي : إنه بلغه أنهم يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال : رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ، حتى تمادوا في المعصية ، واشتدّ عليه منهم البلاء ، وهو ينظر من الجيل إلى الجيل ، فلا يأتي قرن إلا كان أنجس من الذين قبلهم ، ولقد كان يأتي القرن الآخر منهم فيقول : قد كان هذا الشيخ مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنوناً فلا يقبلون منه شيئاً فشكى إلى الله تعالى ، فقال : ﴿ رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ﴾ (نوح،) حتى قال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ (نوح،) فأوحى الله تعالى إليه:

﴿ واصنع الفلك ﴾ أي : السفينة ﴿ بأعيننا ﴾ قال ابن عباس بمرأى منا . وقال مقاتل : بعلمنا . وقيل : بحفظنا . ﴿ ووحينا ﴾ أي : بأمرنا لك كيف تصنعها ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا ﴾ أي : ولا تراجعني في الكفار ، ولا تدعني في استدفاع العذاب عنهم ﴿ إنهم مغرقون ﴾ أي : محكوم عليهم بالإغراق فلا سبيل إلى كفه . وقيل : لا تخاطبني في ابنك كنعان وامرأتك راعلة فإنهما هالكان مع القوم ، ويروى أنّ جبريل عليه السلام أتى نوحاً فقال : إنّ ربك يأمرك أن تصنع الفلك . قال : كيف أصنع ولست بنجار . قال : إنّ ربك يقول اصنع فإنك بأعيينا ، فأخذ القدوم فجعل ينجر ولا يخطئ وصنعها فعملها مثل جؤجؤ الطير ، وفي قوله تعالى:

﴿ ويصنع الفلك ﴾ قولان : أحدهما : أنه حكاية حال ماضية ، أي : في ذلك الوقت كان يصدق عليه أنه يصنع الفلك . الثاني : التقدير فأقبل يصنع الفلك فاقتصر على قوله ويصنع الفلك ، ثم إنّ نوحاً عليه السلام أقبل على عملها ولَهَى عن قومه وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيئ عدّة الفلك من القار وغيره ، وجعل قومه يمرّون عليه ويسخرون منه كما قال تعالى : ﴿ وكلما مرّ عليه ملأ ﴾ أي : جماعة ﴿ من قومه سخروا منه ﴾ أي : استهزؤوا به ويقولون يا نوح قد صرت نجاراً بعدما كنت نبياً ، فأعقم الله أرحام نسائهم فلا يولد لهم . قال ابن عباس رضي الله عنهما : اتخذ نوح عليه السلام السفينة في سنتين وكان طول السفينة ثلاثمائة ذراع ، وكانت من خشب الساج ، وجعل لها ثلاثة بطون ، فجعل في

البطن الأوّل الوحوش والهوامّ ، وفي البطن الأوسط الدوابّ وركب هو ومن معه البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد . وقال قتادة : كان في بابها في عرضها .

وروي عن أنس : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة . وقيل : إنّ الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام : لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة يحدّثنا عنها ، فانطلق بهم حتى انتهى بهم إلى كثيب من تراب فأخذ كفاً من ذلك التراب فقال : أتدرون من هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال كعب بن حام ، قال فضرب الكثيب بعصاه فقال : قم بإذن الله ، فإذا هو قائم ينفض عن رأسه التراب وقد شاب ، فقال له عيسى عليه السلام : هكذا هلكت . قال : لا ولكن مت وأنا شاب ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت قال : حدّثنا عن سفينة نوح؟ قال : كان طولها ألف ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات ؛ طبقة للدواب والوحوش وطبقة للإنس وطبقة للطير ، ثم قال له : عد بإذن الله تعالى كما كنت فعاد تراباً . قال البغوي : والمعروف أن طولها ثلاثمائة ذراع . وعن زيد بن أسلم قال : مكث نوح مائة سنة يغرس الأشجار ومائة سنة يعمل الفلك .

وعن كعب الأحبار : أنّ نوحاً عمل السفينة في ثلاثين سنة . وروي أنها كانت ثلاث طبقات : الطبقة السفلى للدواب والوحوش ، والطبقة الوسطى فيها الإنس ، والطبقة العليا فيها الطير ، فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله تعالى إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث ، ولما أفسد الفأر في السفينة فجعل يقرض حبالها ؛ أوحى الله تعالى إليه أن اضرب بين عيني الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة وهو القط فأقبلا على الفأر فأكلاه . قال الرزاي : واعلم أنّ أمثال هذه المباحث لا تعجبني لأنها أمور لا حاجة إلى معرفتها البتة ، ولا يتعلق بمعرفتها فائدة البتة ، فكان الخوض فيها من باب الفضول ، لا سيما مع القطع بأنه ليس ههنا ما يدل على الجانب الصحيح ، والذي نعلمه أنها كانت في السعة بحيث تسع المؤمنين من قومه ، وما يحتاجون إليه ولحصول زوجين من كل حيوان ؛ لأنّ هذا القدر مذكور في القرآن . وما آمن معه إلا قليل ، فأما تعيين ذلك القدر فغير معلوم . ﴿ قال ﴾ لهم لما سخروا منه ﴿ إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ إذا نجونا وغرقتم . فإن قيل : السخرية لا تليق بمنصب النبوّة ؟

أجيب : بأنّ ذلك ذكر على سبيل الازدواج في مشاكلة الكلام كما في قوله تعالى :

﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ (الشورى ،) والمعنى إن تسخروا منا فسترون عاقبة

سخريتكم، وهو قوله تعالى:

﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ أي: يهينه في الدنيا وهو الغرق ﴿ ويحلّ عليه ﴾ في الآخرة ﴿ عذاب مقيم ﴾ وهو النار التي لا انقطاع لها وقوله تعالى:

(214/378)

﴿ حتى إذا جاء أمرنا ﴾ أي: بإهلاكهم غاية لقوله ويصنع الفلك، وما بينهما حال من الضمير فيه أو حتى هي التي يبتدأ بعدها الكلام. واختلف في التنور في قوله تعالى: ﴿ وفار التنور ﴾ فقال عكرمة والزهريّ: هو وجه الأرض. وذلك أنه قيل لنوح عليه السلام إذا رأيت الماء فار على وجه الأرض فاركب السفينة. وروي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: فار التنور وقت طلوع الفجر ونور الصبح. وقال الحسن ومجاهد والشعبيّ: أنه التنور الذي يخبز فيه. وهو قول أكثر المفسرين ورواية عطية وابن عباس: لأنه حمل الكلام على حقيقته، ولفظ التنور حقيقته هو الموضع الذي يخبز فيه وهو قول أكثر المفسرين فوجب حمل اللفظ عليه، وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال: إنه تنور لنوح. ومنهم من قال: إنه كان لآدم عليه السلام. قال الحسن: كان تنوراً من حجارة كانت حواء تخبز فيه فصار إلى نوح فقيل لنوح عليه السلام: إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب السفينة

أنت وأصحابك. واختلفوا أيضاً في موضعه فقال مجاهد والشعبيّ: كان في ناحية الكوفة، وكان الشعبيّ يحلف بالله ما فار التنور إلا من ناحية الكوفة، وقال: اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة، وكان التنور على يمين الداخل مما يلي باب كندة، وكان فوران الماء منه علماً لنوح. وقال مقاتل: كان تنور آدم عليه السلام وكان بالشأم بموضع يقال له عين وردة. وروي عن ابن عباس أنه كان بالهند، ومعنى فار نبع على قوّة وشدّة تشبيهاً بغليان القدر عند قوّة النار، ولا شبهة أنّ التنور لا يفور.

والمراد: فار الماء من التنور فلما فار أمر الله تعالى نوحاً عليه السلام أن يحمل في السفينة ثلاثة أنواع من الأشياء الأول قوله تعالى: ﴿ قلنا احمل فيها ﴾ أي: السفينة ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾ والزوجان عبارة عن كل شيئين يكون أحدهما ذكراً والآخر أنثى، والتقدير من كل شيئين هما كذلك، فاحمل منهما في السفينة اثنين واحد ذكر وواحد أنثى. وفي القصة أنّ نوحاً عليه السلام قال: يا رب كيف احمل من كل زوجين اثنين، فحشر الله تعالى إليه السباع والطير، فجعل يضرب بيديه في كل جنس فيقع الذكر في يده اليمنى والأنثى في يده اليسرى، فيحملهما في السفينة. وقرأ حفص بتنوين لام كل، أي: واحمل من

كل شيء زوجين اثنين : الذكر زوج والأنثى زوج . فإن قيل : ما الفائدة في قوله زوجين اثنين والزوجان لا يكونان إلا اثنين ؟

أجيب : بأنّ هذا على مثال قوله تعالى : ﴿ لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾ (النحل ،) . وقوله تعالى : ﴿ نفخة واحدة ﴾ (الحاقة ،) والباقون بغير تنوين فهذا السؤال غير وارد ، النوع الثاني من الأشياء التي أمر الله تعالى نوحاً عليه السلام أن يحملها في السفينة قوله تعالى : ﴿ وأهلك ﴾ وهم أبناؤه وزوجته . وقوله تعالى : ﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ بأنه من المغرقين وهو ابنه كنعان وأمّه راعلة وكانا كافرين حكم الله تعالى عليهما بالهلاك بخلاف سام وحام ويافث وزوجاتهم ثلاثة وزوجته المسلمة .

فإن قيل : الإنسان أشرف من سائر الحيوانات فلم بدأ بالحيوان ؟

أجيب : بأنّ الإنسان عاقل فهو لعقله مضطر إلى دفع أسباب الهلاك عن نفسه فلا حاجة فيه إلى المبالغة في الترغيب بخلاف السعي في تخليص سائر الحيوانات فلهذا السبب وقع الابتداء به . النوع الثالث : من الأشياء التي أمر الله تعالى نوحاً عليه السلام بحملها في السفينة قوله تعالى : ﴿ ومن آمن ﴾ أي : واحمل معك من آمن معك من قومك ، واختلف

في العدد الذي ذكره الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ فقال قتادة وابن جريج : لم يكن معه في السفينة إلا ثمانية نفر نوح وامرأته المسلمة وثلاثة بنين له هم : سام وحام ويافث ونساؤهم . وقال ابن إسحاق : كانوا عشرة سوى نسائهم نوح وبنوه الثلاثة وستة أناس ممن كان آمن به وأزواجهم جميعاً . وقال مجاهد كانوا اثنين وسبعين نفراً رجلاً وامرأة . وعن ابن عباس قال : كان في سفينة نوح ثمانون نصفهم رجال ونصفهم نساء . وقال الطبري : والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله تعالى : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ فوصفهم بالقلة فلم يحد عدداً بمقدار فلا ينبغي أن يجاوز في ذلك حد الله تعالى ، إذ لم يرد عدد في كتاب الله تعالى ، ولا في خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقدّم نحو ذلك عن الرازي . وقال مقاتل : حمل نوح عليه السلام جميع الدواب والطير ليحملها . قال ابن عباس أوّل ما حمل نوح الدرّة ، وآخر ما حمل الحمار ، فلما دخل الحمار أدخل صدره وتعلق إبليس بذنبه فلم تستقل رجلاه فجعل نوح يقول : ويحك ادخل فينهض فلا يستطيع حتى قال : ويحك ادخل وإن كان الشيطان معك ، كلمة زلت على لسانه ، فلما قالها خلى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان معه فقال نوح : ما أدخلك عليّ يا عدوّ الله ؟ قال : ما لك بد أن تحملني معك فكان معه على ظهر السفينة . هكذا نقله البغويّ . قال الرازيّ : وأمّا الذي يروى أنّ إبليس دخل السفينة فبعيد لأنّه من الجنّ وهو جسم ناري أو هوائي ، فكيف يؤثر الغرق

فيه ، وأيضاً كتاب الله تعالى لم يدل عليه ولم يرد في ذلك خبر صحيح فالأولى ترك الخوض في ذلك . قال البغويّ : وروي أنّ بعضهم قال : إنّ الحية والعقرب أتيا نوحاً عليه السلام فقالتا احملنا معك ، فقال : إنكما سبب البلاء فلا أحملكما فقالتا : احملنا فإنا نضمن لك أن لا نضر أحداً ذكرك . فمن قرأ حين يخاف مضرتهما ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾ (الصافات ،) لم يضراه . وقال الحسن : لم يحمل نوح في السفينة إلا ما يلد ويبيض ، فأمّا ما يتولد من الطين من حشرات الأرض كالبق والبعوض فلم يحمل منها شيئاً .

﴿ وقال ﴾ نوح لمن معه ﴿ اركبوا ﴾ أي : صيروا ﴿ فيها ﴾ أي : السفينة وجعل ذلك ركوباً ؛ لأنها في الماء كمركوب في الأرض ، وقوله تعالى : ﴿ بسم الله مجراها ومرساها ﴾ متصل باركبوا حال من الواو في اركبوا ، أي : اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت اجرائها وارسائها . قال الضحاك : كان نوح إذا أراد أن تجري السفينة قال : بسم الله جرت ، وإذا أراد أن ترسو قال : بسم الله رست . وقرأ حفص وحمزة والكسائي بنصب الميم من جرت ورست ، أي : جريها ورسوها وهما مصدران ، والباقون بضم الميم من أجريت وأرسيت أي بسم الله إجراؤها وارساؤها وأمال الألف بعد الراء أبو عمرو وحفص

وحمزة والكسائي محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح ، وذكروا في عامل الإعراب في بسم الله وجوهاً : الأول : اركبوا بسم الله ، الثاني : ابدؤوا بسم الله ، الثالث : بسم الله إجراؤها ﴿ إنّ ربي لغفور رحيم ﴾ أي : لولا مغفرته لفرطائكم ورحمته إياكم لما نجاكم .

وقوله تعالى:

(218/378)

﴿ وهي تجري بهم ﴾ متعلق بمحذوف دلّ عليه اركبوا ، أي : فركبوا مسمين الله تعالى وهي تجري وهم فيها ﴿ في موج ﴾ وهو ما ارتفع من الماء إذا اشتدّت عليه الريح ﴿ كالجبال ﴾ في عظمه وارتفاعه على الماء ، قال العلماء : بالسير أرسل الله تعالى المطر أربعين يوماً وليلة . وخرج الماء من الأرض فذلك قوله تعالى : ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا ، فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴾ (القمر ، ،) فصار الماء نصفين نصف من السماء ونصف من الأرض وارتفع الماء على أعلى جبل وأطوله أربعين ذراعاً ، وقيل : خمسة عشر ذراعاً حتى أغرق كل شيء ، وروي أنه لما كثر الماء في السكك خافت امرأة على ولدها من الغرق وكانت تحبه حباً شديداً فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه ، فلما بلغها الماء ذهبت

حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبتها رفعت الصبيّ بيديها حتى ذهب بهما الماء ، فلو رحم الله تعالى منهم أحداً لرحم هذه المرأة . وما قيل من أنّ الماء طبق ما بين السماء والأرض وكانت السفينة تجري في جوفه كما تسبح السمكة فليس بثابت . قال البيضاويّ : والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعاً . فإن صح ، أي : أنه طبق ما بين السماء والأرض فلعل ذلك أي : ما ذكر من علو الموج قبل التطبيق ﴿ ونادى نوح ابنه ﴾ كنعان وكان كافراً كما مرّ ، وقيل : اسمه يام ﴿ وكان في معزل ﴾ عزل فيه نفسه إمّا عن أبيه أو دينه ولم يركب معه ، وإمّا عن السفينة ، وإمّا عن الكفار كأنه انفرد عنهم . وظنّ نوح عليه السلام أنّ ذلك إنما كان لأنه أحب مفارقتهم ولذلك ناداه بقوله ﴿ يا بني اركب معنا ﴾ في السفينة . وقرأ عاصم بفتح الياء اقتصاراً على الفتح من الألف المبدلة ياء الإضافة في قولك يا بنيا . والباقون بالكسر في الوصل ليدل على ياء الإضافة المحذوفة كما قال الشاعر :

*يا ابنة عم لا تلومي واهجعي

ثم حذف الألف للتخفيف ﴿ ولا تكن مع الكافرين ﴾ أي : في دين ولا مكان فتهلك . ولما قال له ذلك .

﴿ قال سآوي ﴾ أي : ألتجئ وأصير ﴿ إلى جبل يعصمني ﴾ أي : يمنعني ﴿ من الماء قال ﴾ له نوح عليه السلام : ﴿ لا عاصم ﴾ أي : لا مانع ﴿ اليوم من أمر الله ﴾ أي : من عذابه وقوله ﴿ إلا من رحم ﴾ استثناء منقطع كأنه قيل : ولكن من رحمه الله فهو المعصوم كقوله تعالى : ﴿ ما لهم به من علم إلا اتباع الظنّ ﴾ (النساء ،) وقيل : ﴿ إلا من رحم ﴾ أي : إلا الراحم وهو الله تعالى ، وقيل : إلا مكان من رحمه الله تعالى فإنه مانع من ذلك وهو السفينة . ﴿ وحال بينهما ﴾ أي : بين نوح وابنه أو بين ابنه والجبل ﴿ الموج ﴾ المذكور في قوله موج كالجبال ﴿ فكان ﴾ ابنه ﴿ من المغرقين ﴾ أي : فصار من المهلكين بالماء .

﴿ و ﴾ لما تناهى الطوفان وأغرق قوم نوح ﴿ قيل ﴾ أي : قال الله تعالى أو ملك بأمره تعالى ﴿ يا أرض ابلعي ماءك ﴾ أي : اشربيه ﴿ ويا سماء أقلعي ﴾ أي : أمسكي ماءك ، ناداهما بما ينادى به الحيوان المميز على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل تمثيلاً لكمال انقيادهما لما يشاء

تكوينه فيهما ، وههنا همزتان مختلفتان من كلمتين الأولى مضمومة والثانية مفتوحة . قرأ أبو عمرو ونافع وابن كثير بإبدال الثانية واواً خالصة والباقون بالتخفيف ﴿ وغيض الماء ﴾ أي : نقص وذهب ، وقرأ هشام والكسائي بإشمام الغين وهو ضم الغين قبل الياء والباقون بالكسر وكذا وقيل : ﴿ وقضي الأمر ﴾ أي : وأنجز ما وعد من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين ﴿ واستوت ﴾ أي : استقرّت السفينة ﴿ على الجودي ﴾ وهو جبل بالجزيرة قريب من الموصل . وقيل ، أي : قال الله تعالى أو ملك بأمره تعالى : ﴿ بعداً ﴾ أي : هلاكاً ﴿ للقوم الظالمين ﴾ ومجيء أخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء وأنّ تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر وبكون مكون قاهر ، وأن فاعلها واحد لا يشارك في أفعاله فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره : ﴿ يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ﴾ ولا أن يقضي ذلك الأمر الهائل غيره ولا أن تستوي على متن الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره .

(221/378)

وروي أنّ السفينة لما استقرت بعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض فوقع على جيفة فلم يرجع ، فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون في منقارها ، ولطخت رجليها بالطين

فعلم نوح أنّ الماء قد نقص ، فقيل : إنه دعا على الغراب بالخوف فلذا لا يألف البيوت ، وطوّق الحمامة الخضرة التي في عنقها ودعا لها بالأمان فمن ثم تألف البيوت . وروي أنّ نوحاً ركب السفينة لعشر مضت من رجب وجرت بهم السفينة ستة أشهر ومرّت بالبيت العتيق ، وقد رفعه الله تعالى من الغرق وبقي موضعه ، فطافت به السفينة سبعاً . وأودع الحجر الأسود في جبل أبي قبيس ، وهبط نوح ومن معه في السفينة يوم عاشوراء فصامه نوح وأمر من معه بصيامه شكراً لله تعالى . وبنوا قرية بقرب الجبل وسميت سوق ثمانين فهي أوّل قرية عمرت على وجه الأرض بعد الطوفان . وقيل : إنه لم ينج أحد من الكفار من الغرق غير عوج بن عنق وكان الماء يصل إلى حجزته وهذا لا يأتي على القول بإطباق الماء . قال هذا القائل : وسبب نجاته أنّ نوحاً احتاج إلى خشب ساج للسفينة فلم يمكنه نقله ، فحمله عوج إليه من الشام فنجاه الله تعالى من الغرق بذلك . فإن قيل : كيف أغرق الله تعالى من لم يبلغ الحلم من الأطفال ؟

أجيب : بأنه تعالى يتصرف في خلقه لا يسئل عما يفعل . وقيل : إنّ الله تعالى أعقم أرحام نسائهم أربعمائة سنة فلم يولد لهم تلك المدّة . انتهى انتهى . اهـ ﴿السراج المنير حـ 3 صـ 88.77﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (35) ﴾

قوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ أنكر سبحانه عليهم قولهم : إن ما أوحى إلى نوح مفترى ، فقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ ثم أمره أن يجيب بكلام متصف ، فقال : ﴿ قُلْ إِنِ افتريته فَعَلَيَّ إِجْرَامِى ﴾ بكسر الهمزة على قراءة الجمهور ، مصدر أجرم : أي فعل ما يوجب الإثم ، وجرم وأجرم بمعنى قاله النحاس ، والمعنى : فعليّ إثمي ، أو جزاء كسبي .

ومن قرأ بفتح الهمزة ، قال : هو جمع جرم ذكره النحاس أيضاً ﴿ وَأَنَاْ بَرِىء مّمَّا تُجْرَمُونَ ﴾ أي : من إجرامكم بسبب ما تنسبونه إليّ من الافتراء ، قيل : وفي الكلام حذف والتقدير : لكن ما افتريته ، فالإجرام وعقابه ليس إلا عليكم ، وأنا بريء منه .

وقد اختلف المفسرون في هذه الآية ، فقيل : إنها حكاية عن نوح ، وما قاله لقومه ، وقيل : هي حكاية عن المحاورة الواقعة بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وكفار مكة .

والأوّل : أولى ؛ لأن الكلام قبلها وبعدها مع نوح عليه السلام .

قوله : ﴿ وَأُوحِىَ إلى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمن ﴾ ﴿ أنه لن يؤمن ﴾ في محل رفع على أنه نائب الفاعل الذي لم يسمّ .

ويجوز أن يكون في موضع نصب بتقدير الباء : أي بأنه ، وفي الكلام تأييس له من إيمانهم ،

وأنهم مستمرّون على كفرهم، مصممون عليه، لا يؤمن أحد منهم إلا من قد سبق إيمانه ﴿ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ البؤس: الحزن، أي فلا تحزن، والبائس: المستكين، فنهاه الله سبحانه عن أن يحزن حزن مستكين؛ لأن الابتئاس حزن في استكانة.

ومنه قول الشاعر:

وكم من خليل أو حميم رُزِئته . . . فلم أبتئس والرزءُ فيه جليلُ

(223/378)

ثم إن الله سبحانه لما أخبره أنهم لا يؤمنون ألبتة عرفه وجه إهلاكهم، وألهمه الأمر الذي يكون به خلاصه، وخلاص من آمن معه، فقال: ﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ أي: اعمل السفينة متلبساً بأعيننا: أي بمرأى منا، والمراد بحراستنا لك وحفظنا لك، وعبر عن ذلك بالأعين لأنها آلة الرؤية، والرؤية هي: التي تكون بها الحراسة والحفظ في الغالب، وجمع الأعين للتعظيم لا للتكثير.

وقيل المعنى: ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي: بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على حفظك.

وقيل: ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ بعلمنا.

وقيل: بأمرنا.

ومعنى بوحينا : بما أوحينا إليك من كيفية صنعتها ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الذين ظَلَمُوٓاْ ﴾

أي : لا تطلب إمهالهم ، فقد حان وقت الانتقام منهم ، وجملة ﴿ إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ للتعليل :

أي : لا تطلب منا إمهالهم ، فإنه محكوم منا عليهم بالغرق ، وقد مضى به القضاء فلا سبيل

إلى دفعه ولا تأخيره .

وقيل : المعنى : ولا تخاطبني في تعجيل عقابهم ، فإنهم مغرقون في الوقت المضروب لذلك ،

لا يتأخر إغراقهم عنه .

وقيل المراد بالذين ظلموا : امرأته وابنه .

﴿ وَيَصْنَعُ الفلك ﴾ أي : وطفق يصنع الفلك ، أو وأخذ يصنع الفلك .

وقيل : هو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة ، وجملة : ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن

قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ في محل نصب على الحال : أي استهزءوا به لعمله السفينة .

قال الأخفش والكسائي : يقال سخرت به ومنه .

وفي وجه سخريتهم منه قولان : أحدهما : أنهم كانوا يرونه يعمل السفينة ، فيقولون يا نوح

صرت بعد النبوّة نجارا .

والثاني : أنهم لما شاهدوه يعمل السفينة ، وكانوا لا يعرفونها قبل ذلك ، قالوا : يا نوح ما

تصنع بها ؟ قال : أمشي بها على الماء فعجبوا من قوله ، وسخروا به .

ثم أجاب عليهم بقوله : ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ وهذا الكلام مستأنف على تقدير سؤال كأنه قيل : فماذا قال لهم؟ والمعنى : إن تسخروا منا بسبب عملنا للسفينة اليوم ، فإنا نسخر منكم غداً عند الغرق .

ومعنى السخرية هنا : الاستجهال ، أي : إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلون ، واستجهاله لهم باعتبار إظهاره لهم ومشافهتهم ، وإلا فهم عنده جهال قبل هذا وبعده ، والتشبيه في قوله : ﴿ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ لمجرد التحقق والوقوع ، أو التجدّد والتكرّر ، والمعنى : إنا نسخر منكم سخرية متحققة واقعة كما تسخرون منا كذلك ، أو متجدّدة متكرّرة كما تسخرون منا كذلك .

وقيل معناه : نسخر منكم في المستقبل سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق ، وفيه نظر ، فإن حالهم إذ ذاك لا تناسبه السخرية ، إذ هم في شغل شاغل عنها .

ثم هدّدهم بقوله : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ وهو عذاب الغرق في الدنيا ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ وهو عذاب النار الدائم ، ومعنى يحلّ : يجعل المؤجل حالاً ، مأخوذ من حلول الدين المؤجل ، و " من " موصولة في محل نصب ، ويجوز أن تكون استفهامية في محل رفع : أي أينا يأتيه عذاب يخزيه .

وقيل : في موضع رفع بالابتداء ، و ﴿ يأتيه ﴾ الخبر ، و ﴿ يخزيه ﴾ صفة لعذاب .

قال الكسائي : إن ناساً من أهل الحجاز يقولون : " سوف تعلمون " ؛ قال : ومن قال " ستعلمون " أسقط الواو والفاء جميعاً ، وجوّز الكوفيون "سف تعلمون" ومنعه البصريون ، والمراد بعذاب الخزي : العذاب الذي يخزي صاحبه ، ويحل عليه العار .

قوله : ﴿ حتى إذا جَاء أَمْرُنَا وفَارَ التنور ﴾ " حتى " هي الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية ، وجعلت غاية لقوله : ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ﴾ .

والتنور : اختلف في تفسيرها على أقوال : الأوّل : أنها وجه الأرض ، والعرب تسمى وجه الأرض تنوراً ، روي ذلك عن ابن عباس ، وعكرمة ، والزهري ، وابن عيينة .

الثاني : أنه تنور الخبز الذي يخبزونه فيه ، وبه قال مجاهد وعطية والحسن ، وروي عن ابن عباس أيضاً .

الثالث : أنه موضع اجتماع الماء في السفينة ، روي عن الحسن .

الرابع : أنه طلوع الفجر ، من قولهم تنّور الفجر ، روي عن عليّ بن أبي طالب .

الخامس : أنه مسجد الكوفة ، روي عن عليّ أيضاً ومجاهد .

قال مجاهد : كان ناحية التنّور بالكوفة .

السادس : أنه أعالي الأرض ، والمواضع المرتفعة ، قاله قتادة .

السابع : أنه العين التي بالجزيرة المسماة عين الوردة ، روي ذلك عن عكرمة .

الثامن : أنه موضع بالهند .

قال ابن عباس : كان تنور آدم بالهند .

قال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ، لأن الله سبحانه قد أخبر بأن الماء قد جاء من السماء والأرض ، قال : ﴿ فَفَتَحْنَا أبواب السماء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً ﴾ [القمر : 11 ، 12] فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة .

هكذا قال ، وفيه نظر ، فإن القول الرابع ينافي هذا الجمع ، ولا يستقيم عليه التفسير بنبع الماء .

إلا إذا كان المراد مجرد العلامة ، كما ذكره آخراً .

وقد ذكر أهل اللغة أن الفور : الغليان ، والتنور : اسم عجمي عرّبته العرب .

وقيل : معنى فار التنور : التمثيل بحضور العذاب كقولهم : حَمِي الوطيس : إذا اشتدّ الحرب ، ومنه قول الشاعر :

تركتم قدركم لا شيء فيها . . . وقِدرُ القوم حامية تفورُ

يريد : الحرب .

قوله : ﴿ قُلْنَا احمل فِيهَا مِن كُلّ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ أي : قلنا : يا نوح ، احمل في السفينة من كل زوجين مما في الأرض من الحيوانات اثنين ذكراً وأنثى .

وقرأ حفص : ﴿ من كلّ ﴾ بتنوين كل : أي : من كل شيء زوجين ، والزوجان للاثنين اللذين لا يستغنى أحدهما عن الآخر ، ويطلق على كل واحد منهما زوج ، كما يقال للرجال زوج ، وللمرأة زوج ، ويطلق الزوج على الاثنين إذا استعمل مقابلاً للفرد ، ويطلق الزوج على الضرب والصنف ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَأَنبَتَتْ مِن كُلّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : 5] ، ومثله قول الأعشى :

وكل ضرب من الديباج يلبسه . . . أبو حذافة محبوّ بذاك معا

أراد كل صنف من الديباج ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ عطف على ﴿ زوجين ﴾ ، أو على اثنين على قراءة حفص ، وعلى محل كل زوجين ، فإنه في محلّ نصب ب ﴿ احمل ﴾ ، أو على ﴿ اثنين ﴾ على قراءة الجمهور ، والمراد : امرأته وبنوه ونساؤهم ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول ﴾ أي : من تقدّم الحكم عليه بأنه من المغرقين ، في قوله : ﴿ وَلاَ تخاطبنى فِى الذين ظَلَمُواْ إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ على الاختلاف السابق فيهم ، فمن جعلهم جميع الكفار من أهله

وغيرهم كان هذا الاستثناء من جملة ﴿ احمل فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين وَأَهْلَكَ ﴾ ومن قال : المراد بهم ولده كنعان وامرأته واعلة أمّ كنعان جعل الاستثناء من أهلك ، ويكون متصلاً إن أريد بالأهل ما هو أعمّ من المسلم والكافر منهم ، ومنقطعاً إن أريد بالأهل المسلمون منهم فقط ، قوله : ﴿ وَمَنْ ءامَنَ ﴾ معطوف على ﴿ أهلك ﴾ : أي : واحمل في السفينة من آمن من قومك ، وأفرد الأهل منهم لمزيد العناية بهم ، أو للاستثناء منهم على القول الآخر .

ثم وصف الله سبحانه قلة المؤمنين مع نوح بالنسبة إلى من كفر به ، فقال : ﴿ وَمَا ءامَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ قيل : هم ثمانون إنساناً : منهم ثلاثة من بنيه ، وهو سام ، وحام ، ويافث ، وزوجاتهم ، ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية يقال لها قرية الثمانين ، وهي موجودة بناحية الموصل .

وقيل : كانوا عشرة .

وقيل : سبعة ، وقيل : كانوا اثنين وسبعين .

وقيل : غير ذلك .

قوله : ﴿ وَقَالَ اركبوا فِيهَا ﴾ القائل : نوح ، وقيل : الله سبحانه .

والأوّل : أولى ، لقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ والركوب : العلوّ على ظهر الشيء حقيقة نحو ركب الدابة ، أو مجازاً نحو ركبه الدين ، وفي الكلام حذف : أي : اركبوا الماء في السفينة ، فلا يرد أن ركب يتعدّى بنفسه ؛ وقيل إن الفائدة في زيادة " في " أنه أمرهم بأن يكونوا في جوف السفينة لا على ظهرها .

وقيل : إنها زيدت لرعاية جانب المحلية في السفينة كما في قوله : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى الفلك ﴾ [العنكبوت : 65] ، وقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِى السفينة ﴾ [الكهف : 71]

قيل : ولعلّ نوحاً قال هذه المقالة بعد إدخال ما أمر بحمله من الأزواج ، كأنه قيل : فحمل الأزواج وأدخلها في الفلك ، وقال للمؤمنين ، ويمكن أن يقال إنه أمر بالركوب كل من أمر بحمله من الأزواج والأهل والمؤمنين ، ولا يمتنع أن يفهم خطابه من لا يعقل من الحيوانات ، أو يكون هذا على طريقة التغليب .

قوله : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ متعلق ب ﴿ اركبوا ﴾ ، أو حال من فاعله : أي مسمين الله ، أو قائلين : ﴿ بِسْمِ الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ قرأ أهل الحرمين وأهل البصرة بضمّ الميم فيهما إلا من شذّ منهم على أنهما اسما زمان ، وهما : في موضع نصب على الظرفية : أي وقت مجراها ومرساها ، ويجوز أن يكونا مصدرين : أي : وقت إجرائها وإرسائها .

وقرأ الأعمش ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص ﴿ مجراها ﴾ بفتح الميم ، و ﴿ مرساها

﴾ بضمها ، وقرأ يحيى بن وثاب بفتحها فيهما .

وقرأ مجاهد ، وسليمان بن جندب ، وعاصم الجحدري ، وأبو رجاء العطاردي ﴿ مجريها ومرسيها ﴾ على أنهما وصفان لله ، ويجوز أن يكونا في موضع رفع باضمار مبتدأ : أي هو مجريها ومرسيها ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ ﴾ للذنوب ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بعباده ، ومن رحمته إنجاء هذه الطائفة تفضلاً منه لبقاء هذا الجنس الحيواني ، وعدم استئصاله بالغرق .

(228/378)

قوله : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كالجبال ﴾ هذه الجملة متصلة بجملة محذوفة دلّ عليها الأمر بالركوب ، والتقدير : فركبوا مسمين ، وهي تجرى بهم ، والموج : جمع موجة ، وهي : ما ارتفع عن جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح ، وشبهها بالجبال المرتفعة على الأرض .

قوله : ﴿ ونادى نُوحُ ابنه ﴾ هو : كنعان ، قيل : وكان كافراً ، واستبعد كون نوح ينادي من كان كافراً مع قوله : ﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [نوح : 26] ، وأجيب بأنه كان منافقاً ، فظن نوح أنه مؤمن .

وقيل : حملته شفقة الأبوّة على ذلك .

وقيل : إنه كان ابن امرأته ، ولم يكن بابنه ، ويؤيده ما روي أن علياً قرأ " ونادى نوح ابنها " .

وقيل: إنه كان لغير رشدة، وولد على فراش نوح.

وردّ بأن قوله: ﴿ ونادى نوحٌ ابنه ﴾ ، وقوله: ﴿ إِنَّ ابنى مِنْ أَهْلِى ﴾ يدفع ذلك على ما فيه من عدم صيانة منصب النبوّة ﴿ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ ﴾ أي: في مكان عزل فيه نفسه عن قومه، وقرابته بحيث لم يبلغه قول نوح: اركبوا فيها، وقيل: في معزل من دين أبيه، وقيل: من السفينة.

قيل: وكان هذا النداء قبل أن يستيقن الناس الغرق، بل كان في أوّل فور التنور.

قوله: ﴿ مَعْزِلٍ يا بنى اركب مَّعَنَا ﴾ قرأ عاصم بفتح الياء، والباقون بكسرها، فأما الكسر فلجعله بدلاً من ياء الإضافة، لأن الأصل يا بنيّ، وأما الفتح فلقلب ياء الإضافة ألفاً لخفة الألف، ثم حذف الألف وبقيت الفتحة لتدلّ عليه.

قال النحاس: وقراءة عاصم مشكلة.

وقال أبو حاتم: أصله يا بنياه ثم تحذف، وقد جعل الزجاج للفتح وجهين، وللكسر وجهين.

أما الفتح بالوجه الأوّل ما ذكرناه، والوجه الثاني: أن تحذف الألف لالتقاء الساكنين.

وأما الكسر، فالوجه الأوّل ما ذكرناه، والثاني: أن تحذف لالتقاء الساكنين، كذا حكى عنه النحاس.

وقرأ أبو عمرو، والكسائي، وحفص ﴿ اركب مَّعَنَا ﴾ بادغام الباء في الميم لتقاربهما في المخرج.

وقرأ الباقون بعدم الإدغام ﴿ وَلَا تَكُن مَّعَ الكافرين ﴾ نهاه عن الكون مع الكافرين: أي خارج السفينة، ويمكن أن يراد بالكون معهم الكون على دينهم.

ثم حكى الله سبحانه ما أجاب به ابن نوح على أبيه، فقال: ﴿ قَالَ سَآوِى إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الماء ﴾ أي: يمنعني بارتفاعه من وصول الماء إليّ، فأجاب عنه نوح بقوله: ﴿ لَا عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله ﴾ أي: لا مانع، فإنه يوم قد حقّ فيه العذاب وجفّ القلم بما هو كائن فيه، نفى جنس العاصم فيندرج تحته العاصم من الغرق في ذلك اليوم اندراجاً أوّلياً، وعبر عن الماء أو عن الغرق بأمر الله سبحانه تفخيماً لشأنه، وتهويلاً لأمره.

والاستثناء قال الزجاج: هو منقطع: أي: لكن من رحمه الله فهو يعصمه، فيكون: ﴿ مَن رَّحِمَ ﴾ في موضع نصب، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً على أن يكون عاصم بمعنى معصوم: أي: لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله: مثل: ﴿ مَّاء دَافِقٍ ﴾ [الطارق: 6] ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة: 21] ومنه قول الشاعر:

دع المكارم لا تنهض لبغيتها . . . واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

أي: المطعم المكسوّ، واختار هذا الوجه ابن جرير؛ وقيل: العاصم بمعنى ذي العصمة،

كلابن وتامر ، والتقدير : لا عاصم قط إلا مكان من رحم الله ، وهو السفينة ، وحينئذ فلا يرد ما يقال : إن معنى من رحم من رحمه الله ، ومن رحمه الله هو معصوم ، فكيف يصحّ استثناؤه عن العاصم ؟ لأن في كل وجه من هذه الوجوه دفعاً للإشكال .

وقرىء " إلا من رحم " على البناء للمفعول ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الموج ﴾ أي : حال بين نوح وابنه فتعذر خلاصه من الغرق .

(230/378)

وقيل : بين ابن نوح ، وبين الجبل ، والأوّل : أولى ، لأن تفرّع ﴿ فَكَانَ مِنَ المغرقين ﴾ عليه يدل على الأوّل لا على الثاني ، لأن الجبل ليس بعاصم .

قوله : ﴿ وَقِيلَ يا أرض ابلعى مَاءكِ ﴾ يقال : بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع ، وبلع يبلع ، مثل حمد يحمد لغتان حكاهما الكسائي والفراء : والبلع : الشرب ، ومنه البالوعة ، وهي : الموضع الذي يشرب الماء ، والازدراد ، يقال : بلع ما في فمه من الطعام إذا ازدرده ، واستعير البلع الذي هو من فعل الحيوان للنشف دلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتاد الكائن على سبيل التدريج ﴿ ويا سماء أَقْلِعِى ﴾ الإقلاع : الإمساك ، يقال : أقلع المطر : إذا انقطع .

والمعنى : أمر السماء بامساك الماء عن الإرسال ، وقدّم نداء الأرض على السماء لكون ابتداء الطوفان منها ﴿ وَغِيضَ الماء ﴾ أي : نقص ، يقال : غاض الماء وغضته أنا ﴿ وَقُضِىَ الأمر ﴾ أي : أحكم وفرغ منه : يعني : أهلك الله قوم نوح على تمام وإحكام ﴿ واستوت عَلَى الجودى ﴾ أي : استقرّت السفينة على الجبل المعروف بالجودي ، وهو جبل بقرب الموصل ؛ وقيل : إن الجودي : اسم لكل جبل ، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل :

سبحانه ثم سبحانا نعوذ به . . . وقبلنا سبح الجوديّ والجمد

ويقال : إنه من جبال الجنة ، فلذا استوت عليه ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ القائل : هو الله سبحانه ، ليناسب صدر الآية .

وقيل : هو نوح وأصحابه .

والمعنى : وقيل هلاكاً للقوم الظالمين ، وهو من الكلمات التي تختص بدعاء السوء ووصفهم بالظلم للإشعار بأنه علة الهلاك ، وللإيماء إلى قوله : ﴿ وَلاَ تخاطبنى فِى الذين ظَلَمُواْ ﴾ .

وقد أطبق علماء البلاغة على أن هذه الآية الشريفة بالغة من الفصاحة والبلاغة إلى محل يتقاصر عنه الوصف ، وتضعف عن الإتيان بما يقاربه قدرة القادرين على فنون البلاغة ،

الثابتين الأقدام في علم البيان ، الراسخين في علم اللغة ، المطلعين على ما هو مدوّن من خطب مصاقع خطباء العرب ، وأشعار بواقع شعرائهم ، المرتاضين بدقائق علوم العربية وأسرارها .

وقد تعرّض لبيان بعض ما اشتملت عليه من ذلك جماعة منهم ، فأطالوا وأطابوا ، رحمنا الله وإياهم برحمته الواسعة .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى ﴾ قال عملي ﴿ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ أي : مما تعملون .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ وذلك حين دعا عليهم نوح قال : " لا تذكرّ على الأرض من الكافرين ديّاراً " [نوح : 26] .

وأخرج أحمد في الزهد ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن الحسن ، قال : إن نوحاً لم يدع على قومه حتى نزلت الآية هذه ، فانقطع عند ذلك رجاؤه منهم ، فدعا عليهم .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ قال : فلا تحزن .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقي ، عنه ، في قوله : ﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ قال : بعين الله ووحيه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عنه ، أيضاً قال : لم يعلم نوح كيف يصنع الفلك ، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم ، وابن مردويه ، عن عائشة ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كان نوح مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم ، حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب ، ثم قطعها ، ثم جعل يعملها سفينة ، ويمرّون فيسألونه ، فيقول : أعملها سفينة ، فيسخرون منه ، ويقولون : يعمل سفينة في البرّ ، وكيف تجري ؟ قال : سوف تعلمون ، فلما فرغ منها وفار التنور ، وكثر الماء في السكك خشيته أمّ الصبي عليه ، وكانت تحبه حباً شديداً ، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبته رفعته بين يديها حتى ذهب بها الماء ، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أمّ الصبيّ" وقد ضعفه الذهبي في مستدركه على مستدرك الحاكم .

وقد روي في صفة السفينة وقدرها أحاديث ، وآثار ليس في ذكرها هنا كثير فائدة .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ قال : هو :

الغرق ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ قال : هو الخلود في النار .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، عنه ، قال : كان بين دعوة نوح وبين هلاك قومه ثلثمائة سنة ، وكان فار التنور بالهند ، وطافت سفينة نوح بالبيت أسبوعاً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عنه أيضاً قال : التنور : العين التي بالجزيرة عين الوردة .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن عليّ بن أبي طالب ، قال : فار التنور من مسجد الكوفة من قبل أبواب كندة .

وقد روي عنه نحو هذا من طرق .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس قال : التنور : وجه الأرض ، قيل له : إذا رأيت الماء على وجه الأرض ، فاركب أنت ومن معك .

والعرب تسمى وجه الأرض تنور الأرض .

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عليّ ﴿ وَفَارَ التنور ﴾ قال: طلع الفجر، قيل له: إذا طلع الفجر فاركب أنت وأصحابك.

وقد روي في تفسير التنور غير هذا، وقد قدّمنا الإشارة إلى ذلك.

وروي في صفة القصة، وما حمله نوح في السفينة، وكيف كان الغرق، وكم بقيت السفينة على ظهر الماء روايات كثيرة، لا مدخل لها في تفسير كلام الله سبحانه.

وأخرج ابن جرير، عن مجاهد، في قوله: ﴿ بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ قال حين يركبون ويجرون ويرسون.

وأخرج ابن جرير، عن الضحاك قال: كان إذا أراد أن ترسي قال: بسم الله، فأرست، وإذا أراد أن تجري قال: بسم الله، فجرت.

وأخرج أبو يعلى، والطبراني، وابن السني، وابن عديّ، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن الحسن بن عليّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا: بسم الله الملك الرحمن، بسم الله مجراها ومرساها، إن ربي لغفور رحيم، ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ إلى آخر الآية [الزمر: 67] " وأخرجه ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس، عن النبيّ.

وأخرجه أيضاً أبو الشيخ، عنه، مرفوعاً من طريق أخرى.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: كان اسم ابن نوح الذي غرق كنعان.

وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس قال: هو ابنه غير أنه خالفه في النية والعمل.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة، في قوله: ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ ﴾ قال: لا ناج إلا أهل السفينة.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن القاسم بن أبي برّة، في قوله: ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ ﴾ قال: بين ابن نوح والجبل.

وأخرج ابن المنذر، وعن عكرمة في قوله: ﴿ يا أرض ابلعى ﴾ قال: هو بالحبشية.

(234/378)

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن وهب بن منبه، في ﴿ ابلعي ﴾ قال بالحبشية: أي ازدرديه.

وأخرج أبو الشيخ، عن جعفر بن محمد، عن أبيه قال: معناه: اشربي، بلغة الهند.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس مثله.

أقول: وثبوت لفظ البلع وما يشتق منه في لغة العرب: ظاهر مكشوف، فما لنا وللحبشة والهند. انتهى انتهى. اهـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والسبعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والسبعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 45 ﴾ من سورة هود عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 49 ﴾ من نفس السورة

(4/379)

قوله تعالى ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان الاستثناء من أهله في قوله : ﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ يجوز أن يراد به امرأته فقط ، فتكون نجاة ابنه جائزة ، وكان ما عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من فرط الشفقة على الخلق لا سيما الأقارب يحملهم على السعي في صلاحهم ما كان لذلك وجه

كما تقدم مثل ذلك في قوله تعالى ﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ [التوبة : 80] لأن أجنحة الخلق كسيرة وأيديهم قصيرة وأمرهم ضعيف وحالهم رث ، فأدنى هوان يورثهم الخسران ، وأما جناب الحق ففسيح وشأنه عظيم وأمره عليّ ، فلا يلحقه نقص بوجه ولا يدانيه ضرر ولا يعتري أمره وهن ، لما كان ذلك كذلك ، سأل نوح عليه السلام نجاة ولده كما أخبر عنه تعالى في قوله : ﴿ ونادى نوح ربه ﴾ أي الذي عوده بالإحسان الجزيل ، ودل سبحانه بالعطف بالفاء دون أن يأتي بالاستئناف المفسر للنداء على أن ما ذكر هنا من نداء نوح عليه السلام بعض ندائه وأن هذا المذكور مرتب معقب على شيء منه سابق عليه أقربه أن يكون ما أرشده إليه سبحانه في سورة المؤمنين ويشعر به قوله تعالى بعد هذا جواباً له ﴿ يا نوح اهبط بسلام منا ﴾ فيكون تقدير الكلام قال : رب أنزلني منزلاً مباركاً – وما قدر له من الكلام ﴿ فقال ﴾ أي عقبة لما حمله على ذلك من رحمة النبوة وشفقة الأبوة وسجية البشر متعرضاً لنفحات الرحمة وعواطف العفو ؛ أو الفاء تفصيل لمجمل " نادى " مثل ما في : توضأ فغسل ﴿ رب إن ابني ﴾ أي الذي غرق ﴿ من أهلي ﴾ أي وقد أمرتني بحمل أهلي ، وذلك الأمر محتمل للإشارة إلى إرادة نجاتهم ﴿ وإن وعدك الحق ﴾ أي الكامل في نجاتهم إلا من سبق عليه القول ، وقد علمت ذلك في المرأة الكافرة ﴿ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ لأنك أعلمهم ، ومن كان أعلم كان أحكم فتعلم أن قولك ﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ يصح باستثنائها وحدها ، فإن كان ابني ممن نجا

فأتني به ؛ وإن كان هذا الدعاء عند حيلولة الموج بينهما فالمعنى : فلا تهلكه ﴿ قال يا نوح ﴾ وأكد في نفي ما تقدم منه

(5/379)

إثباته فقال : ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ أي المحكوم بنجاتهم لإيمانهم وكفره ، ولهذا علل بقوله : ﴿ إنه عمل ﴾ أي ذو عمل ، ولكنه جعله نفس العمل في قراءة الجماعة مبالغة في ذمه ، وذلك لأن الجواهر متساوية الأقدام في نفس الوجود لا تشرف إلا بآثارها ، فبين أنه ليس فيه أثر صالح أصلاً ، ويثبت قراءة يعقوب والكسائي بالفعل أن من باشر السوء مطلق مباشرة وجبت البراءة منه ، ولا سيما للأمر فلا يواصل إلا بإذن ، وعبر بالعمل دون الفعل لزعمه أن أعماله مبنية على العلم ، وأكده لما لا يخص من سؤال نوح عليه السلام هذا ﴿ غير صالح ﴾ بعلمي ، وقد حكمت في هذا الأمر أني لا أنجي منه إلا من اتصف بالصلاح وأنا عليم بذات الصدور ، وأنت يخفي عليك كثير من الأمور فربما ظننت الإيمان بمن ليس بؤمن لبنائك الأمر على ما نراه من ظاهره ؛ وقد نقل الرماني عن الحسن أنه كان ينافق بإظهار الإيمان ، وهذا يدل على أن الموافق في الدين ألصق ما يكون وإن كان في غاية البعد في النسب ، والمخالف فيه أبعد ما يكون وإن كان في غاية القرب في النسب .

ولما تسبب عن هذا الجواب أن ترك السؤال كان أولى ، ذكر أمراً كلياً يندرج فيه فقال : ﴿ فلا تسألن ﴾ أي بنوع من أنواع السؤال ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ فلا تعلم أصواب السؤال فيه أم لا ، لأن اللائق بأمثالك من أولى القرب بناء أمورهم على التحقيق وانتظار الإعلام منا ، انظر إلى قول موسى عليه السلام في حديث الشفاعة في الصحيح من حديث أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ : " وإني قد قتلت نفساً لم أومر بقتلها " ومن المعلوم أن تلك النفس كانت كافرة من آل فرعون ﴿ إني أعظك ﴾ بمواعظي كراهية ﴿ أن تكون ﴾ أي كوناً تتخلق به ﴿ من الجاهلين ﴾ أي في عداد الذين يعملون بالظن لأنهم لا سبيل لهم إلى الوقوف على حقائق الأمور من قبلنا فتسأل مثل ما يسألون .

(6/379)

ولما انجلى للسامع ما هو فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من علو المقام وعظيم الشأن الموجب للعقاب على كثير من الصواب فتشوف للجواب ، استأنف بيانه بقوله : ﴿ قال ﴾ أي مبادراً على ما يقتضيه له من كمال الصفات ﴿ رب ﴾ أي أيها المحسن إليّ ، وأكد دلالة للسامعين على عظيم رغبته فقال : ﴿ إني أعوذ بك أن ﴾ أي من أن ﴿ أسألك ﴾ أي في شيء من الأشياء ﴿ ما ليس لي به علم ﴾ تأدباً بإذنك واتعاظاً بموعظتك وارتقاء لما

رقيتني إليه من علو الدرجة ورفيع المنزلة ﴿ وإلا تغفر لي ﴾ أي الآن وفي المستقبل ﴿ وترحمني ﴾ أي تستر زلاتي وتمحها وتكرمني ﴿ أكن من الخاسرين ﴾ أي العريقين في الخسارة فكأنه قيل : ماذا أجيب عن ذلك ؟ فقيل : ﴿ قيل ﴾ بالبناء للمفعول دلالة على العظمة والجلال الذي تكون الأمور العظيمة لأجله بأدنى إشارة ﴿ يا نوح اهبط ﴾ أي من السفينة ﴿ بسلام ﴾ أي عظيم ﴿ منا ﴾ أي ومن سلمنا عليه فلا هلك يلحقه ﴿ وبركات ﴾ أي خيرات نامية عظيمة صالحة ﴿ عليك ﴾ أي خاصة بك ﴿ وعلى أمم ﴾ ناشئة ﴿ ممن معك ﴾ لكونهم على ما يرضينا ولا نمتعهم بالدنيا إلا قليلاً ، ولهم إذا رجعوا إلينا نعيم مقيم ، وقد دخل في هذا الكلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ﴿ وأمم ﴾ أي منهم ﴿ سنمتعهم ﴾ في الدنيا بالسعة في الرزق والخفض في العيش على وفق علمنا وإرادتنا ولا بركات عليهم منا ولا سلام ، فالآية من الاحتباك : ذكر البركات والسلام أولاً دليلاً على نفيهما ثانياً ، والمتاع ثانياً ، دليلاً على حذفه أولاً ﴿ ثم يمسهم منا ﴾ أي في الدارين أو في الآخرة أو فيهما ﴿ عذاب أليم ﴾ لجريهم على غير هدينا وجرأتهم على ما يسخطنا ، ويجوز أن يكون ﴿ وأمم ﴾ مبتدأ من غير تقدير صفة محذوفة ، فيكون المسوغ للابتداء كون المقام مقام التفضيل ؛ والعياذ : طلب النجاة بما يمنع من الشر ؛ والبركة : ثبوت الخير بنمائه حالاً بعد حال ، وأصله الثبوت ، ومنه البروك والبركة لثبوت الماء فيها .

ذكر قصة نوح عليه السلام من التوراة وهو نوح بن لمك بن متوشلح بن خنوخ بن يارد بن مهلاليل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام ، وذلك لأنه في أوائل السفر الأول منها : وإن آدم طاف نحو حليلته فحبلت وولدت ابناً فسماه شيث وقال : الآن أخلف الله عليّ نسلاً آخر بدل هابيل الذي قتله قابيل ، وذلك بعد أن عاش آدم مائة وثلاثين سنة ، وكان جميع حياة آدم تسعمائة وثلاثين سنة ، وعاش شيث مائة وخمس سنين فولد له أنوش ، وكان جميع حياة شيث تسعمائة واثنتي عشرة سنة ، فعاش أنوش تسعين سنة فولد له قينان وكان جيمع حياة أنوش تسعمائة وخمس سنة ، وعاش قينان سبعين سنة فولد له مهلاليل وكان جميع حياة قينان تسعمائة وعشرين سنة ، وعاش مهلاليل خمساً وستين سنة فولد له يارد وكانت مائة واثنتين وستين سنة فولد به خنوخ فكانت جميع حياة يارد تسعمائة واثنتين وستين سنة ، وعاش خنوخ خمساً وستين سنة فولد له متوشلح وكانت جميع حياة خنوخ ثلاثمائة وخمساً وستين سنة ، وعاش متوشلح مائة وسبعاً وثمانين سنة فولد له لمك وكانت جميع حياة متوشلح تسعمائة وتسعاً وستين سنة ، وعاش لمك مائة واثنتين وثمانين سنة فولد له ابن فسماه نوحاً ، ثم قال : هذا يريحنا من أعمالنا ، وكد أيدينا

في الأرض التي قد لعنها الله ، وكانت جميع أيام حياة لمك سبعمائة وسبعاً وسبعين سنة ،

وتوفي ونوح ابن خمسمائة سنة .

(8/379)

فولد لنوح بنون : سام وحام ويافث ، فلما بدأ الناس أن يكثروا على وجه الأرض وولد لهم البنات نظر بنو الأشارف منهم بنات العامة حسانا جداً فأخذوا منهم النساء على ما اختاروا وأحبوا ، فقال الله عند ذلك : لا تحل عنايتي وشفتي على هؤلاء الناس لأنهم يتبعون أهواء الجسد واللحم وكانت على الأرض جبابرة في تلك الأيام ومن بعدها ، لأن بني الأشراف دخلوا على بنات العامة فولد لهم جبابرة مذكورون ، فرأى الرب أن شر الناس قد كثر على الأرض هوىء فكرهم وحقدهم ردىء في جميع الأيام ، فقال الرب : أمحق الذين خلقت وأبيدهم عن جديد الأرض من الناس والبهائم حتى الهوام وطير السماء ؛ وظفر نوح من الله برحمة ورأفة ، وكان نوح رجلاً باراً تقياً في حقبه فأرضى الله ، وفسدت الأرض بين يدي الله وامتلأت إثماً وفجوراً ، فرأى الرب الإله أن الأرض قد فسدت وقال الله لنوح : قد وصل إلى أمر جميع الناس وسوء أعمالهم لأن الأرض قد امتلأت إثماً وفجوراً بسوء سيرتهم .

فهأنذا مفسدهم مع الأرض فاتخذ لك أنت تابوتاً مربعاً من خشب الساج - وفي نسخة : الشمشار - وأجعل في التابوت علالي .

واطلها بالقار من داخلها وخارجها ، وليكن طول الفلك ثلاثمائة ذراع .

وعرضه خمسين ذراعاً ، وسمكه ثلاثين ذراعاً ، واجعل في التابوت كوى وليكن عرضها من أعلاها ذراعاً واحداً ، واجعل باب الفلك في جانبه ، واجعل فيه منازل أسفل وأوساط وعلالي .

وها أنذا محدر ماء الطوفان على الأرض لأفسد به كل ذي لحم فيه نسمة الحياة من تحت السماء ، ويبيد كل ما على الأرض ، وأثبت عهدي بيني وبينك .

وتدخل التابوت أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك ، ومن كل حي من ذوي اللحوم من كل صنف اثنان لتحيى معك ، ولتكن ذكوراً وإناثاً ، من كل الطيور كأجناسها .

ومن الأنعام لأصنافها ، ومن كل الهوام التي تدب على الأرض لجواهرها ، اثنين اثنين أدخل معك من كلها لتستحييها ذكراً وانثى ، واجعل من كل ما يؤكل فاخزنه معك ، وليكن مأكلك ومأكلها ؛ فصنع نوح كل شيء كما أمر الله ثم قال الله لنوح : ادخل أنت وكل أهل بيتك إلى

التابوت لأني إياك وجدت باراً تقياً في هذا الحقب ، ومن كل الأنعام الزكية أدخل معك سبعة سبعة من الذكور والإناث ، ومن الأنعام التي ليست بزكية أدخل معك اثنين ذكوراً وإناثاً .

ومن الطير الزكي سبعة سبعة ذكوراً وإناثاً ، ومن الطير الذي ليس بزكي اثنين اثنين ذكوراً وإناثاً ، ليحي منها نسل على وجه الأرض ، لأني من الآن إلى سبعة أيام أهبط القطر على وجه الأرض أربعين يوماً ولياليها ، وأبيد كل ما خلقت على وجه الأرض ؛ فصنع نوح كما أمره الرب الإله .

فلما كان بعد بعد ذلك بسبعة ايام نزلت مياه الطوفان ، تفجرت مياه الغمر وتفتحت مثاعب السماء .

وأقبلت الأمطار على وجه الأرض أربعين نهاراً وأربعين ليلة ، وفي هذا اليوم دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح وامرأة نوح ونساء بنيه الثلاث معه الفلك هم وجميع السباع لأجناسها وجميع الدواب لأصنافها وكل حشرة تدب على الأرض بجواهرها وجميع الطيور لأجناسها ، ودخل مع نوح التابوت منكل عصفور ومن كل ذي جناحين اثنان اثنان ، ومن كل ذي لحم فيه روح الحياة وكل شيء دخل من ذوي اللحوم دخلوا ذكوراً وإناثاً كما أمر الله نوحاً ، ثم أغلق الله الرب الباب عليه ، وكان الطوفان على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة ، وكثرت المياه حتى احتملت التابوت فارتفع عن الأرض ، وعزرت المياه

وكثرت على الأرض جداً وجعل التابوت يسير على وجه الماء واشتدت المياه على وجه الأرض جداً جداً .

(10/379)

وتوارت جميع الجبال العالية الشاهقة التي تحت السماء ، وارتفعت المياة من فوق كل جبل خمسة عشر ذراعاً ، وباد كل ذي لحم على الأرض من الطيور أجمع والسباع والدواب وجميع الحشرة التي تدب على الأرض وجميع الناس والبهائم ، ومات كل شيء كان فيه نسمة الحياة مما في اليبس .

وبقي نوح ومن معه في الفلك ، واشتدت المياه على الأرض مائة وخمسين يوماً ؛ وإن الله ذكر نوحاً وكل السباع والدواب وجميع الطيور التي معه في التابوت .

فأهاج الله ريحاً على وجه الأرض فسكنت المياه والأمطار .

واشتدت ينابيع الغمر وميازيب وغاضت المياه بعد مائة وخمسين يوماً ، وسكن التابوت ووقف في الشهر السابع لثلاث عشرة ليلة بقيت من الشهر على جبال قودي وجعلت المياه تنصرف وتنتقص إلى الشهر العاشر ، وظهرت رؤوس الجبال في أول يوم الشهر العاشر ، فلما كان بعد ذلك بأربعين يوماً فتح نوح الكوة التي عملها في التابوت فأرسل الغراب ، فخرج

الغراب من عنده فلم يعد إليه حتى يبست المياه عن وجه الأرض ، ثم أرسل الحمامة من بعده ليرى هل قلت المياه عن وجه الأرض فلم تجد الحمامة موضعاً لموطىء رجليها فرجعت إلى التابوت لأن المياه كانت بعد على وجه الأرض ، فمد يده فأخذها وأدخلها إليه وانتظر سبعة أيام أخرى ، ثم عاد فأرسل الحمامة فعادت عند المساء وفي منقارها ورقة زيتون ، فعلم أن الماء قد غاض عن وجه الأرض فصبر أيضاً سبعة أيام أخر ، ثم أرسل الحمامة فلم تعد إليه أيضاً ، ففتح نوح باب الفلك فرأى فإذا وجه الأرض قد ظهر وجفت الأرض .

فكلم الرب الإله نوحاً وقال له : اخرج من التابوت أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك وكل السباع التي معك من كل ذي لحم والطيور والدواب ، وأخرج كل الهوام التي تدب على الأرض معك ، ولتتولد وتنمو في الأرض وتكثر وتزداد على الأرض .

فخرج نوح ومن ذكر وبنى للرب مذبحاً وأخذ من جميع الدواب والطيور الزكية فأصعد منها على المذبح قرباناً للرب الإله ، فقال الرب الإله : لا أعود ألعن الأرض أبداً من أجل أعمال الناس لأن هوى قلب الإنسان وحقده رديء منذ صباه ولا أعود أيضاً أبيد كل حي كما

فعلت ، ومن الآن جميع أيام الأرض يكون فيها الزرع والحصاد والبرد والحر والقيظ والشتاء ، فبارك الله على نوح وبنيه وقال لهم : انموا واكثروا واملؤوا الأرض ، وليغش رعبكم وخوفكم جميع السباع وبهائم الأرض وكل طيور السماء وكل دابة تدب على الأرض ، وجميع حيتان البحور تكون تحت أيديكم ، وكل الدواب الطاهرة الحية تكون لأكلكم ، وقد جعلت الأشياء كلها حلالاً لكم مثل عشب البرية خضرها ، وأما المخنوق الذي دمه فيه فلا تأكلوه فإن دمع نفسه ، وأما دماؤكم من أنفسكم فأطلبها بالنهي من يد جميع الحيوان ومن يد جميع الناس ، أي إنسان قتل أخاه طالبته بدمه ، ومن سفك دم الإنسان سفك دمه لأن الله خلق آدم بصورته ، وأنتم فانموا واكثروا وولدوا في الأرض وأكثروا فيها ؛ وقال الله لنوح ولبنيه معه : هاأنذا مثبت عهدي بيني وبينكم ومع أنسالكم من بعدهم ومع كل نفس حية منكم ، ومع الطيور والدواب ومع كل سباع الأرض جميع الذين خرجوا من الفلك .

(12/379)

وأثبت عهدي بيني وبينكم فلا يبيد كل ذي لحم أيضاً بماء الطوفان ولا يهبط الطوفان أيضاً ليفسد جميع الأرض ، قال الله لنوح : هذه علامة لعهدي الذي أجعله بيني وبينكم وبين كل نفس حية معكم في جميع أحقاب العالم ، قد أظهرت قوسي في السحاب فهي أمارة ذكر

العهد الذي بيني وبينك وبين أهل الأرض ، فإذا أنشأت السحاب في الأرض وأظهرت قوس السحاب فاذكروا العهد الذي بيني وبينكم ، وكان بنو نوح الذين خرجوا معه من التابوت سام وحام ويافث ، وحام يكنى أبا كنعان ، هؤلاء الثلاثة ثم بنو نوح ، وتفرق الناس من هؤلاء في الأرض كلها ؛ ثم ذكر أن نوحاً عليه السلام نام فرأى حام عريه فأظهر ذلك لأخويه ، فتناول سام ويافث رداء فألقياه على أكتافهما ثم سعيا على أعقابهما مدبرين فواريا عرى أبيهما ، فلما علم نوح ما صنع ابنه الأصغر دعا عليه أن يكون عبداً لأخويه ، وكانت جميع أيام حياة نوح تسعمائة سنة وخمسين سنة ، ثم توفي عليه الصلاة والسلام والتحية والإكرام ؛ ثم ذكر أن الناس بعده أرادوا أن يبنوا صرحاً لاحقاً بالسماء ، واجتمع جميعهم على ذلك لأن لغتهم كانت واحدة ورأيهم واحد ففرق الله ألسنتهم وفرقهم من هنالك على وجه الأرض ولم يبنوا القرية التي هموا بها ، ولذلك سميت بابل وبوبال معناه بالعبراني : الشتات ، وما في تفسير البغوي وغيره من أن عوج ابن عوق – بضمهما كما في القاموس – كان في زمن نوح وسلم من الطوفان ، وأن الماء لم يجاوز ركبتيه ونحو هذا كذب بحت منابذ لقوله تعالى : ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ [هود : 27] وقوله : ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾ وقوله : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ [نوح : 26] ونحوها ، فإن كل من ذكر ذلك ذكر أن موسى عليه السلام قتله كافراً . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 534.540 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

اعلم أن قوله : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابنى مِنْ أَهْلِى ﴾ فقد ذكرنا الخلاف في أنه هل كان ابناً له أم لا فلا نعيده ، ثم إنه تعالى ذكر أنه قال : ﴿ يا نوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ واعلم أنه لما ثبت بالدليل أنه كان ابناً له وجب حمل قوله : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ على أحد وجهين : أحدهما : أن يكون المراد أنه ليس من أهل دينك .

والثاني : المراد أنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك والقولان متقاربان .

المسألة الثانية :

هذه الآية تدل على أن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب فإن في هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه ولكن لما انتفت قرابة الدين لا جرم نفاه الله تعالى بأبلغ

الألفاظ وهو قوله : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالح ﴾ قرأ الكسائي : عمل على صيغة الفعل الماضي ، وغير بالنصب ، والمعنى : إن ابنك عمل عملاً غير صالح يعني أشرك وكذب ، وكلمة ﴿ غَيْرِ ﴾ نصب ، لأنها نعت لمصدر محذوف ، وقرأ الباقون : عمل بالرفع والتنوين ، وفيه وجهان : الأول : أن الضمير في قوله إنه عائد إلى السؤال ، يعني أن هذا السؤال عمل وهو قوله : ﴿ إِنَّ ابنى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق ﴾ غير صالح ، لأن طلب نجاة الكافر بعد أن سبق الحكم ، الجزم بأنه لا ينجي أحداً منهم سؤال باطل .

الثاني : أن يكون هذا الضمير عائداً إلى الابن ، وعلى هذا التقدير ففي وصفه بكونه عملاً غير صالح وجوه : الأول : أن الرجل إذا كثر عمله وإحسانه يقال له : إنه علم وكرم وجود ، فكذا ههنا لما كثر إقدام ابن نوح على الأعمال الباطلة حكم عليه بأنه في نفسه عمل باطل .

الثاني : أن يكون المراد أنه ذو عمل باطل ، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه .

الثالث : قال بعضهم معنى قوله : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالح ﴾ أي إنه ولد زنا وهذا القول باطل قطعاً .

ثم إنه تعالى قال لنوح عليه السلام : ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

احتج بهذه الآية من قدح في عصمة الأنبياء عليهم السلام من وجوه :

الوجه الأول : أن قراءة عمل بالرفع والتنوين قراءة متواترة فهي محكمة ، وهذا يقتضي عود الضمير في قوله : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ إما إلى ابن نوح وإما إلى ذلك السؤال ، فالقول بأنه عائد إلى ابن نوح لا يتم إلا بإضمار وهو خلاف الظاهر .

ولا يجوز المصير إليه إلا عند الضرورة ولا ضرورة ههنا ، لأنا إذا حكمنا بعود الضمير إلى السؤال المتقدم فقد استغنينا عن هذا الضمير ، فثبت أن هذا الضمير عائد إلى هذا السؤال ، فكان التقدير أن هذا السؤال عمل غير صالح ، أي قولك : إن ابني من أهلي لطلب نجاته عمل غير صالح ، وذلك يدل على أن هذا السؤال كان ذنباً ومعصية .

الوجه الثاني : أن قوله : ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ ﴾ نهي له عن السؤال ، والمذكور السابق هو قوله ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ فدل هذا على أنه تعالى نهاه عن ذلك السؤال فكان ذلك السؤال ذنباً ومعصية .

الوجه الثالث : أن قوله : ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ يدل على أن ذلك السؤال كان قد صدر لا عن العلم ، والقول بغير العلم ذنب لقوله تعالى : ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا

تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 169] .

الوجه الرابع : أن قوله تعالى : ﴿ إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ يدل على أن ذلك السؤال كان محض الجهل .

وهذا يدل على غاية التقريع ونهاية الزجر ، وأيضاً جعل الجهل كناية عن الذنب مشهور في القرآن .

(15/379)

قال تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ السوء بجهالة ﴾ [النساء : 17] وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ أَعُوذُ بالله أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ [البقرة : 67] .

الوجه الخامس : أن نوحاً عليه السلام اعترف بإقدامه على الذنب والمعصية في هذا المقام فإنه قال : ﴿ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُن مِّنَ الخاسرين ﴾ واعترافه بذلك يدل على أنه كان مذنباً .

الوجه السادس : في التمسك بهذه الآية أن هذه الآية تدل على أن نوحاً نادى ربه لطلب تخليص ولده من الغرق ، والآية المتقدمة وهي قوله : ﴿ ونادى نُوحٌ ابنه ﴾ وقال : ﴿ يا بنى اركب مَّعَنَا ﴾ تدل على أنه عليه السلام طلب من ابنه الموافقة .

فنقول : إما أن يقال إن طلب هذا المعنى من الله كان سابقاً على طلبه من الولد أو كان بالعكس ، والأول باطل لأن بتقدير أن يكون طلب هذا المعنى من الله تعالى سابقاً على طلبه من الابن لكان قد سمع من الله أنه تعالى لا يخلص ذلك الابن من الغرق ، وأنه تعالى نهاه عن ذلك الطلب ، وبعد هذا كيف قال له : ﴿ يا بنى اركب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الكافرين ﴾ وأما إن قلنا : إن هذا الطلب من الابن كان متقدماً فكان قد سمع من الابن قوله : ﴿ سَاوِى إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الماء ﴾ وظهر بذلك كفره ، فكيف طلب من الله تخليصه ، وأيضاً أنه تعالى أخبر أن نوحاً لما طلب ذلك منه وامتنع هو صار من المغرقين فكيف يطلب من الله تخليصه من الغرق بعد أن صار من المغرقين ، فهذه الآية من هذه الوجوه الستة تدل على صدور المعصية من نوح عليه السلام .

واعلم أنه لما دلت الدلائل الكثيرة على وجوب تنزيه الله تعالى الأنبياء عليهم السلام من المعاصي ، وجب حمل هذه الوجوه المذكورة على ترك الأفضل والأكمل ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، فلهذا السبب حصل هذا العتاب والأمر بالاستغفار ، ولا يدل على سابقة الذنب كما قال :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفتح * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أفواجا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره ﴾ [النصر : 3 1] ومعلوم أن مجيء نصر الله والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجاً ليست بذنب يوجب الاستغفار وقال تعالى : ﴿ واستغفر لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ [محمد : 19] وليس جميعهم مذنبين ، فدل ذلك على أن الاستغفار قد يكون بسبب ترك لأفضل .

المسألة الثانية :

قرأ نافع برواية ورش وإسمعيل بتشديد النون وإثبات الياء ﴿ تَسْأَلْنِّى ﴾ وقرأ ابن عامر ونافع برواية قالون بتشديد النون وكسرها من غير إثبات الياء ، وقرأ أبو عمرو بتخفيف النون وكسرها وحذف الياء ﴿ تسألن ﴾ أما التشديد فللتأكيد وأما إثبات الياء فعلى الأصل ، وأما ترك التشديد والحذف فللتخيف من غير إخلال .

واعلم أنه تعالى لما نهاه عن ذلك السؤال حكى عنه أنه قال : ﴿ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُن مِّنَ الخاسرين ﴾ والمعنى أنه تعالى لما قال له : ﴿ فَلاَ تَسْأَلْنِّى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ فقال عند ذلك قبلت يا رب هذا التكليف ، ولا أعود إليه إلا أني لا أقدر على الاحتراز منه إلا بإعانتك وهدايتك ، فلهذا بدأ أولاً بقوله : ﴿ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ ﴾ .

واعلم أن قوله : ﴿ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ ﴾ إخبار عما في المستقبل ، أي لا أعود إلى هذا العمل ، ثم أشتغل بالاعتذار عما مضى ، فقال : ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُن مِّنَ الخاسرين ﴾ وحقيقة التوبة تقتضي أمرين : أحدهما : في المستقبل ، وهو العزم على الترك وإليه الإشارة بقوله : ﴿ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ ﴾ والثاني : في الماضي وهو الندم على ما مضى وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُن مِّنَ الخاسرين ﴾ ونختم هذا الكلام بالبحث عن الزلة التي صدرت عن نوح عليه السلام في هذا المقام .

(18/379)

فنقول : إن أمة نوح عليه السلام كانوا على ثلاثة أقسام كافر يظهر كفره ومؤمن يعلم إيمانه وجمع من المنافقين ، وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة وحكم الكافرين هو الغرق ، وكان ذلك معلوماً ، وأما أهل النفاق فبقي حكمهم مخفياً وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مؤمناً ، وكانت الشفقة المفرطة التي تكون من الأب في حق الابن تحمله على حمل أعماله وأفعاله لا على كونه كافراً ، بل على الوجوه الصحيحة ، فلما رآه بمعزل عن القوم طلب منه

أن يدخل السفينة فقال : ﴿ سَاوِى إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الماء ﴾ وذلك لا يدل على كفره لجواز أن يكون قد ظن أن الصعود على الجبل يجري مجرى الركوب في السفينة في أنه يصونه عن الغرق ، وقول نوح : ﴿ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ لا يدل إلا على أنه عليه السلام كان يقرر عند ابنه أنه لا ينفعه إلا الإيمان والعمل الصالح ، وهذا أيضاً لا يدل على أنه علم من ابنه أنه كان كافراً فعند هذه الحالة كان قد بقي في قلبه ظن أن ذلك الابن مؤمن ، فطلب من الله تعالى تخليصه بطريق من الطرق إما بأن يمكنه من الدخول في السفينة ، وإما أن يحفظه على قلة جبل ، فعند ذلك أخبره الله تعالى بأنه منافق وأنه ليس من أهل دينه ، فالزلة الصادرة عن نوح عليه السلام هو أنه لم يستقص في تعريف ما يدل على نفاقه وكفره ، بل اجتهد في ذلك وكان يظن أنه مؤمن ، مع أنه أخطأ في ذلك الاجتهاد ، لأنه كان كافراً فلم يصدر عنه إلا الخطأ في هذا الاجتهاد ، كما قررنا ذلك في أن آدم عليه السلام لم تصدر عنه تلك الزلة إلا لأنه أخطأ في هذا الاجتهاد ، فثبت بما ذكرنا أن الصادر عن نوح عليه السلام ما كان من باب الكبائر وإنما هو من باب الخطأ في الاجتهاد ، والله أعلم .

(19/379)

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

أنه تعالى أخبر عن السفينة أنها استوت على الجودي ، فهناك قد خرج نوح وقومه من السفينة لا محالة ، ثم إنهم نزلوا من ذلك الجبل إلى الأرض فقوله : ﴿ اهبط ﴾ يحتمل أن يكون أمراً بالخروج من السفينة إلى أرض الجبل وأن يكون أمراً بالهبوط من الجبل إلى الأرض المستوية .

المسألة الثانية :

أنه تعالى وعده عند الخروج بالسلامة أولاً ، ثم بالبركة ثانياً ، أما الوعد بالسلامة فيحتمل وجهين : الأول : أنه تعالى أخبر في الآية المتقدمة أن نوحاً عليه السلام تاب عن زلته وتضرع إلى الله تعالى بقوله : ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود : 47] وهذا التضرع هو عين التضرع الذي حكاه الله تعالى عن آدم عليه السلام عند توبته من زلته وهو قوله : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : 23] فكان نوح عليه السلام محتاجاً إلى أن بشره الله تعالى بالسلامة من التهديد والوعيد

فلما قيل له : ﴿ يا نوح اهبط بسلام مّنّا ﴾ حصل له الأمن من جميع المكاره المتعلقة بالدين .

(20/379)

والثاني أن ذلك الغرق لما كان عاماً في جميع الأرض فعند ما خرج نوح عليه السلام من السفينة علم أنه ليس في الأرض شيء مما ينتفع به من النبات والحيوان ، فكان كالخائف في أنه كيف يعيش وكيف يدفع جميع الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب ، فلما قال الله تعالى : ﴿ اهبط بسلام مّنّا ﴾ زال عنه ذلك الخوف ، لأن ذلك يدل على حصول السلامة من الآفات ولا يكون ذلك إلا مع الأمن وسعة الرزق ، ثم إنه تعالى لما وعده بالسلامة أردفه بأن وعده بالبركة هي عبارة عن الدوام والبقاء ، والثبات ، ونيل الأمل ، ومنه بروك الإبل ، ومنه البركة لثبوت الماء فيها ، ومنه تبارك وتعالى ، أي ثبت تعظيمه ، ثم اختلف المفسرون في تفسير هذا الثبات والبقاء .

فالقول الأول : أنه تعالى صير نوحاً أبا البشر ، لأن جميع من بقي كانوا من نسله وعند هذا قال هذا القائل : إنه لما خرج نوح من السفينة مات كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل إلا من ذريته ، فالخلق كلهم من نسله وذريته ، وقال آخرون : لم يكن في سفينة

نوح عليه السلام إلا من كان من نسله وذريته ، وعلى التقديرين فالخلق كلهم إنما تولدوا منه ومن أولاده ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ [الصافات : 77] فثبت أن نوحاً عليه السلام كان آدم الأصغر ، فهذا هو المراد من البركات التي وعده الله بها .

(21/379)

والقول الثاني : أنه تعالى لما وعده بالسلامة من الآفات ، وعده بأن موجبات السلامة ، والراحة والفراغة يكون في التزايد والثبات والاستقرار ، ثم إنه تعالى لما شرفه بالسلامة والبركة شرح بعده حال أولئك الذين كانوا معه فقال : ﴿ وعلى أُمَمٍ مّمَّن مَّعَكَ ﴾ واختلفوا في المراد منه على ثلاثة أقوال : منهم من حمله على أولئك الأقوام الذين نجوا معه وجعلهم أمماً وجماعات ، لأنه ما كان في ذلك الوقت في جميع الأرض أحد من البشر إلا هم ، فلهذا السبب جعلهم أمماً ، ومنهم من قال : بل المراد ممن معك نسلاً وتولداً قالوا : ودليل ذلك أنه ما كان معه إلا الذين آمنوا وقد حكم الله تعالى عليهم بالقلة في قوله تعالى :

﴿ وَمَا ءامَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [هود : 40] ومنهم من قال : المراد من ذلك مجموع الحاضرين مع الذين سيولدون بعد ذلك ، والمختار هو القول الثاني : ومن في قوله : ﴿ مّمَّن

مَّعَكَ ﴾ لابتداء الغاية ، والمعنى : وعلى أمم ناشئة من الذين معك .

واعلم أنه تعالى جعل تلك الأمم الناشئة من الذين معه على قسمين : أحدهما : الذين عطفهم على نوح في وصول سلام الله وبركاته إليهم وهم أهل الإيمان .

والثاني : أمم وصفهم بأنه تعالى سيمتعهم مدة في الدنيا ثم في الآخرة يمسهم عذاب أليم ، فحكم تعالى بأن الأمم الناشئة من الذين كانوا مع نوح عليه السلام لا بد وأن ينقسموا إلى مؤمن وإلى كافر .

(22/379)

قال المفسرون : دخل في تلك السلامة كل مؤمن وكل مؤمنة إلى يوم القيامة ، ودخل في ذلك المتاع وفي ذلك العذاب كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة ، ثم قال أهل التحقيق : إنه تعالى إنما عظم شأن نوح بإيصال السلامة والبركات منه إليه ، لأنه قال : ﴿ بسلام مّنَّا ﴾ وهذا يدل على أن الصديقين لا يفرحون بالنعمة من حيث إنها نعمة ولكنهم إنما يفرحون بالنعمة من حيث إنها من الحق ، وفي التحقيق يكون فرحهم بالحق وطلبهم للحق وتوجههم إلى الحق ، وهذا مقام شريف لا يعرفه إلا خواص الله تعالى ، فإن الفرح بالسلامة وبالبركة من حيث هما سلامة وبركة غير ، والفرح بالسلامة والبركة من حيث إنهما من الحق غير ، والأول :

نصيب عامة الخلق ، والثاني : نصيب المقربين ، ولهذا السبب قال بعضهم : من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني ، ومن آثر العرفان لا للعرفان بل للمعروف فقد خاض لجة الوصول ، وأما أهل العقاب فقد قال في شرح أحوالهم ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فحكم بأنه تعالى يعطيهم نصيباً من متاع الدنيا فدل ذلك على خساسة الدنيا ، فإنه تعالى لما ذكر أحوال المؤمنين لم يذكر ألبتة أنه يعطيهم الدنيا أم لا .

ولما ذكر أحوال الكافرين ذكر أنه يعطيهم الدنيا ، وهذا تنبيه عظيم على خساسة السعادات الجسمانية والترغيب في المقامات الروحانية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 7.3 ﴾

(23/379)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾

(24/379)

سَمَّى ابْنَهُ مِنْ أَهْلِهِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ ، أَوْصَى لِأَهْلِهِ بِثُلُثِ مَالِهِ أَنَّهُ عَلَى مَنْ هُوَ فِي عِيَالِهِ ابْنًا كَانَ ، أَوْ زَوْجَةً ، أَوْ أَخًا ، أَوْ أَجْنَبِيًّا وَكَذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا ، وَالْقِيَاسُ أَنْ يَكُونَ لِلزَّوْجَةِ خَاصَّةً وَلَكِنْ اُسْتُحْسِنَ فَجَعَلَهُ لِجَمِيعِ مَنْ تَضَمَّنَهُ مَنْزِلُهُ وَهُوَ فِي عِيَالِهِ وَقَوْلُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ فَسَمَّى جَمِيعَ مَنْ ضَمَّهُ مَنْزِلُهُ وَسَفِينَتُهُ مِنْ أَهْلِهِ وَقَوْلُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي يَعْنِي مِنْ أَهْلِي الَّذِينَ وَعَدْتنِي أَنْ تُنْجِيَهُمْ فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِك الَّذِينَ وَعَدْتُك أَنْ أُنَجِّيَهُمْ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ قِيلَ فِيهِ : مَعْنَاهُ ذُو عَمَلٍ غَيْرِ صَالِحٍ فَجَاءَ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي الصِّفَةِ كَمَا قَالَتْ الْخَنْسَاءُ : تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إذَا ادَّكَرَتْ فَإِنَّمَا هِيَ إقْبَالٌ وَإِدْبَارُ تَعْنِي : ذَاتَ إقْبَالٍ وَإِدْبَارٍ ، أَوْ مُقْبِلَةً وَمُدْبِرَةً وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَإِبْرَاهِيمَ قَالَ : سُؤَالُك هَذَا عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ وَقَرَأَ الْكِسَائِيُّ " إنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ " عَلَى الْفِعْلِ وَنَصْبِ غَيْرِ وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكِ أَنَّهُ كَانَ ابْنَهُ لِصُلْبِهِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ تَعَالَى ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِك ﴾ يَعْنِي لَيْسَ مِنْ أَهْلِ

دِينك وَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ابْنَهُ لِصُلْبِهِ وَكَانَ لِغَيْرِ رِشْدَةٍ وَقَالَ الْحَسَنُ : وَكَانَ مُنَافِقًا يُظْهِرُ الْإِيمَانَ وَيُسِرُّ الْكُفْرَ وَقِيلَ : إنَّهُ كَانَ ابْنَ امْرَأَتِهِ .

وَإِنَّمَا كَانَ نُوحٌ يَدْعُوهُ إلَى الرُّكُوبِ مَعَ نَهْيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

إيَّاهُ أَنْ يَرْكَبَ فِيهَا كَافِرٌ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُنَافِقُ بِإِظْهَارِ الْإِيمَانِ ، وَقِيلَ : إنَّهُ دَعَاهُ عَلَى شَرِيطَةِ الْإِيمَانِ كَأَنَّهُ قَالَ آمِنْ وَارْكَبْ مَعَنَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(26/379)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابنى مِنْ أَهْلِى ﴾ فإنك قد وعدتني ، أن تنجيهم من العذاب ، ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق ﴾ يعني : أنت الصّادق في وعدك ، ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الحاكمين ﴾ يعني : أعدل العادلين ﴿ قَالَ يَا ءادَمُ نُوحٍ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ الذي وعدتك أن أنجيهم .

وروي عن الحسن ، أنه قال : إنه تخلف ، لأنه لم يكن ابن نوح .

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، قال : كنت عند الحسن ، قال : ونادى نوح ابنه ، فقال : لعمر الله ما هو ابنه ، قلت : يا أبا سعيد ، يقول الله تعالى : ﴿ ونادى نُوحٌ ابنه ﴾

وأنت تقول : هو ليس بابنه ؟ قال : أفرأيت قوله : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ قلت : إنه ليس من أهلك ، الذي وعدتك أن أنجيهم .

ولا يختلف أهل الكتاب أنه ابنه .

قال : إنّ أهل الكتاب يكذبون .

وروي عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، أنه ابنه غير أنه خالفه في العمل .

وقال بعض الحكماء : إن الابن إذا لم يفعل ما يفعل الأب انقطع عنه ، والأمة إذا لم يفعلوا ما فعل نبيُّهم ، أخاف أن ينقطعوا عنه .

ثمّ قال : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالح ﴾ قرأ الكسائي : ﴿ إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صالح ﴾ ، بكسر الميم ونصب الراء .

وروت أُمُّ سَلَمَةَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ هكذا ، ومعناه : إن ابنك عمِلَ عَمَلَ المشركين ، ولم يعمل عمل المؤمنين .

وقرأ الباقون : ﴿ عَمَلٌ غَيْرُ ﴾ ، بالتنوين والضم ، وضم الراء ، ومعناه : إنّ سؤالك ودعاءك لابنك الكافر عَمَلٌ غير صالح ، ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ يعني : بياناً .

وقرأ أهل الكوفة : فلا تسألن بتخفيف النون بغير ياء ، لأن الكسر يقوم مقام الياء .

وروي عن أبي عبيدة، أنه قال: رأيت في مصحف عثمان هكذا.

وقرأ أبو عمرو: ﴿ فَلَاَ تَسْأَلْنى ﴾ بإثبات الياء بغير تشديد، وهو الأصل في اللغة.

(27/379)

وقرأ ابن كثير: ﴿ فَلَاَ تَسْأَلْنى ﴾ بنصب النون والتشديد بغير ياء، ويكون معناه: التأكيد في النهي.

وقرأ ابن عامر، ونافع في رواية قالون: ﴿ فَلَاَ تَسْأَلْنى ﴾ بالكسر بغير ياء مع التشديد.

وقرأ نافع في رواية ورش: ﴿ فَلَاَ تَسْأَلْنى ﴾ بالياء مع التشديد.

ثم قال: ﴿ إِنّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ أي أنهاك أن تكون من الجاهلين.

يعني: من يترك أمري.

ويقال: من المكذبين بقدر الله تعالى.

﴿ قَالَ ﴾ نوح عليه السلام: ﴿ رَبّ إِنّى أَعُوذُ بِكَ ﴾، يعني: اعتصم وامتنع بك ﴿ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ ﴾ يعني: احفظني بعد اليوم، لكيلا أسألك ما ليس به علم ﴿ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى ﴾ يعني: إن لم تغفر لي، ولم ترحمني، ﴿ أَكُن مّنَ الخاسرين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قِيلَ يا نوح نُوحُ اهبط بسلام مّنَّا ﴾ يعني: انزل من السّفينة مسلّماً من

عذابنا ، وغرقنا .

ويقال : بسلام عليك ، كما قال : ﴿ سلام على نُوحٍ فِى العالمين ﴾ [الصافات : 79] ، ﴿ وبركات ﴾ يعني : وسعادات ﴿ عَلَيْكَ وعلى أُمَمٍ مّمَّن مَّعَكَ ﴾ يعني : الذين كانوا في السفينة معه ، ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ يعني : من كان من أهل الشّقاء سنمتّعهم في الدنيا ﴿ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يَصِيبهم في الآخرة ، وقَالَ مقاتل : اهبط من السفينة بسلام منا .

فسلمه الله ومن معه من الغرق وبركات عليك وعلى أمم ممن معك .

يعنى بالبركة إنهم توالدوا وكثروا ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ ، وهم قوم هود ، وشعيب ، ولوط .

وقال محمد بن كعب القرظي في قوله : ﴿ اهبط بسلام مّنَّا وبركات عَلَيْكَ وعلى أُمَمٍ مّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال : دخل في السلام والبركة ، كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ، ودخل في المتاع والعذاب ، كل كافر إلى يوم القيامة .

ويقال : إنهم لَمَّا خرجوا من السفينة ، بنوا مدينة وسموها : مدينة ثمانين ، ويقال : ماتوا كلهم ، ولم يكن منهم نسل ، إلا من أولاد نوح ، وكان له ثلاثة بنين سام وحام ويافث ، سوى الذي غرق كما قال في موضع آخر : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ [الصافات : 77] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 153 . 154 ﴾

(29/379)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ونادى نوحٌ ربه فقال رَبِّ إنَّ ابني من أهلي ﴾

وإنما قال ﴿ من أهلي ﴾ لأن الله تعالى وعده أن ينجي أهله معه .

﴿ وإن وعدك الحق ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما الذي يحق فلا يخلف .

الثاني : الذي يلزم كلزوم الحق .

﴿ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ يعني بالحق : فاحتمل هذا من نوح أحد أمرين : إما أن يكون قبل علمه بغرق ابنه فسأل الله تعالى له النجاة ، وإما أن يكون بعد علمه بغرقه فسأل الله تعالى له الرحمة .

قوله عز وجل : ﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلك ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه ولد على فراشه ولم يكن ابنه وكان لغيره رشدة ، قاله الحسن ومجاهد .

الثاني : أنه ابن امرأته .

الثالث : أنه كان ابنه ، قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك . قال ابن عباس : ما بغت امرأة نبي قط .

وقيل إن اسمه كان كنعان ، وقيل بل كان اسمه يام .

قال الحسن : وكان منافقاً ولذلك استعجل نوح أن يناديه فعلى هذا يكون في تأويل قوله تعالى ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ وجهان :

أحدهما : ليس من أهل دينك وولايتك ، وهو قول الجمهور .

الثاني : ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك ، قاله سعيد بن جبير .

﴿ إنه عملُ غير صالحٍ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن مسألتك إياي أن أنجيه عمل غير صالح ، قاله قتادة وإبراهيم وهو تأويل من قرأ عملٌ غير صالح بالتنوين .

والثاني : معناه أن ابنك الذي سألتني أن أنجيه هو عملُ غير صالحٍ ، أي أنه لغير رشدة ، قاله الحسن .

والثالث : أنه عملُ غير صالحٍ ، قاله ابن عباس ، وهو تأويل من لمن ينون .

﴿ فلا تسألن ما ليس لك به علمٌ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : فيما نسبته إلى نفسك وليس منك .

الثاني : في دخوله في جملة من وعدتك بإنجائهم من أهلك وليس منهم .

﴿ إني أعظُك أن تكون من الجاهلين ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : من الجاهلين بنسبك .

الثاني : من الجاهلين بوعدي لك .

وفي قوله ﴿ إني أعظك ﴾ تأويلان :

أحدهما : معناه إني رافعك أن تكون من الجاهلين .

الثاني : معناه أني أحذرك ومنه قوله تعالى ﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً ﴾ أي يحذّركم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾

هذه جملة معطوفة على التي قبلها دون ترتيب ، وذلك أن هذه القصة كانت في أول ما ركب نوح في السفينة ؛ ويظهر من كلام الطبري أن ذلك كان بعد غرق الابن ، وهو محتمل ، والأول أليق .

وهذه الآية احتجاج من نوح عليه السلام ، وذلك أن الله أمره بحمل أهله وابنه من أهله فينبغي أن يحمل ، فأظهر الله له أن المراد من آمن من الأهل ، ثم حسن المخاطبة بقوله : ﴿ وإن وعدك الحق ﴾ ، وبقوله : ﴿ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ ، فإن هذه الأقوال معينة في حجته ، وهذه الآية تقتضي أن نوحاً عليه السلام ظن أن ابنه مؤمن ، وذلك أشد الاحتمالين .

وقوله تعالى : ﴿ قال يا نوح ﴾ الآية ، المعنى قال الله تعالى : يا نوح ، وقالت فرقة : المراد أنه ليس بولد لك ، وزعمت أنه كان لغية وأن امرأته الكافرة خانته فيه ، هذا قول الحسن وابن سيرين وعبيد بن عمير : وقال بزي إنما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالولد للفراش من أجل ابن نوح ، وحلف الحسن أنه ليس بابنه ، وحلف عكرمة والضحاك أنه ابنه .

قال القاضي أبو محمد : عول الحسن على قوله تعالى : ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ ، وعول

الضحاك وعكرمة على قوله تعالى : ﴿ ونادى نوح ابنه ﴾ [هود : 42] .

وقرأ الحسن ومن تأول تأويله : ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ على هذا المعنى ، وهي قراءة السبعة سوى الكسائي : وقراءة جمهور الناس ، وقال من خالف الحسن بن أبي الحسن : المعنى : ليس من أهلك الذين عمهم الوعد لأنه ليس على دينك وإن كان ابنك بالولاء . فمن قرأ من هذه الفرقة ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ جعله وصفاً له بالمصدر على جهة المبالغة ، فوصفه بذلك كما قالت الخنساء تصف ناقة ذهب عنها ولدها : [البسيط]

ترتع ما غفلت حتى إذا ادكرت . . . فإنما هي إقبال وإدبار

(32/379)

أي ذات إقبال وإدبار . وقرأ بعض هذه الفرقة " إنه عمل غير صالح " وهي قراءة الكسائي ، وروت هذه القراءة أم سلمة وعائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذكره أبو حاتم ، وضعف الطبري هذه القراءة وطعن في الحديث بأنه من طريق شهر بن حوشب ، وهي قراءة علي وابن عباس وعائشة وأنس بن مالك ، ورجحها أبو حاتم وقرأ بعضها : " إنه عمل عملاً غير صالح " . وقالت فرقة : الضمير في قوله : " إنه عمل غير صالح " على قراءة جمهور السبعة على سؤال الذي يتضمنه الكلام وقد فسره آخر الآية ؛ ويقوي هذا التأويل أن

في مصحف ابن مسعود " إنه عمل غير صالح أن تسألني ما ليس لك به علم " . وقالت فرقة : الضمير عائد على ركوب ولد نوح معهم الذي يتضمنه سؤال نوح ، المعنى : أن ركوب الكافر مع المؤمنين عمل غير صالح ، وقال أبو علي : ويحتمل أن يكون التقدير أن كونك مع الكافرين وتركك الركوب معنا عمل غير صالح .

قال القاضي أبو محمد : وهذا تأويل لا يتجه من جهة المعنى ، وكل هذه الفرق قال : إن القول بأن الولد كان لغية وولد فراش خطأ محض وقالوا : إنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم " أنه ما زنت امرأة نبي قط " .

قال القاضي أبو محمد : وهذا الحديث ليس بالمعروف ، وإنما هو من كلام ابن عباس رضي الله عنه ويعضده شرف النبوة . وقالوا في قوله عز وجل : ﴿ فخانتاهما ﴾ إن الواحدة كانت تقول للناس : هو مجنون ؛ والأخرى كانت تنبه على الأضياف ، وأما غير هذا فلا ، وهذه منازع ابن عباس وحججه ؛ وهو قوله وقول الجمهور من الناس .

وقرأ ابن أبي مليكة : " فلا تسلْني " بتخفيف النون وإثبات الياء وسكون اللام دون همز .

وقرأت فرقة بتخفيف النون وإسقاط الياء وبالهمز " فلا تسألن " ، وقرأ أبو جعفر وشيبة

بكسر النون وشدها والهمز وإثبات الياء " فلا تسألنّي " ، وقرأ نافع ذلك دون ياء " فلا تسألن " وقرأ ابن كثير وابن عامر " فلا تسألنَّ " بفتح النون المشددة ، وهي قراءة ابن عباس ، وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي " فلا تسلْن " خفيفة النون ساكنة اللام ، وكان أبو عمرو يثبت الياء في الوصل ، وحذفها عاصم وحمزة في الوصل والوقف . ومعنى قوله : ﴿ فلا تسألني ما ليس لك به علم ﴾ أي إذ وعدتك فاعلم يقيناً أنه لا خلف في الوعد فإذ رأيت ولدك لم يحمل فكان الواجب عليك أن تقف وتعلم أن ذلك هو بحق واجب عند الله .

قال القاضي أبو محمد : ولكن نوحاً عليه السلام حملته شفقة النبوة وسجية البشر على التعرض لنفحات الرحمة والتذكير ، وعلى هذا القدر وقع عتابه ، ولذلك جاء بتلطف وترفيع في قوله : ﴿ إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ ، وقد قال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ فلا تكونن ﴾ [البقرة : 147 ، الأنعام : 34-114 ، يونس : 94] ، وذلك هنا بحسب الأمر الذي عوتب فيه وعظمته ، فإنه لضيق صدره بتكاليف النبوة ، وإلا فمتقرر أن محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل البشر وأولاهم بلين المخاطبة ؛ ولكن هذا بحسب الأمرين لا بحسب النبيين . وقال قوم : إنما وقر نوح لسنة . وقال قوم : إنما حمل اللفظ على محمد صلى الله عليه وسلم كما يحمل الإنسان على المختص به الحبيب إليه .

قال القاضي أبو محمد : وهذا كله ضعيف ، ويحتمل قوله : ﴿ فلا تسألني ما ليس لك به

علم ﴾ ، أي لا تطلب مني أمراً لا تعلم المصلحة فيه علم يقين ، ونحا إلى هذا أبو علي الفارسي ، وقال : إن ﴿ به ﴾ يجوز أن يتعلق بلفظة ﴿ علم ﴾ كما قال الشاعر : [الرجز] .

(34/379)

كان جزائي بالعصا أن أجلدا . . . ويجوز أن يكون ﴿ به ﴾ بمنزلة فيه ، فتتعلق الباء بالمستقر .

قال القاضي أبو محمد : واختلاف هذين الوجهين إنما هو لفظي ، والمعنى في الآية واحد ، وروي أن هذا الابن إنما كان ربيبه وهذا ضعيف ؛ وحكى الطبري عن ابن زيد أن معنى قوله : ﴿ إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ في أن تعتقد أني لا أفي لك بوعد وعدتك به .

قال القاضي أبو محمد : وهذا تأويل بشع ، وليس في الألفاظ ما يقتضي أن نوحاً اعتقد هذا وعياذاً بالله ، وغاية ما وقع لنوح عليه السلام أن رأى ترك ابنه معارضاً للوعد فذكر به ، ودعا بحسب الشفقة ليكشف له الوجه الذي استوجب به ابنه الترك في الغرقى .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾

هذه الآية فيها إنابة نوح وتسليمه لأمر الله تعالى واستغفاره بالسؤال الذي وقع النهي عليه والاستعاذة والاستغفار منه هو سؤال العزم الذي معه محاجة وطلبة ملحة فيما قد حجب وجه الحكمة فيه ؛ وأما السؤال في الأمور على جهة التعلم والاسترشاد فغير داخل في هذا .

(35/379)

وظاهر قوله : ﴿ فلا تسألنِ ما ليس لك به علم ﴾ [هود : 46] يعم النحويين من السؤال ، فلذلك نبهت على أن المراد أحدهما دون الآخر ، و" الخاسرون " هم المغبونون حظوظهم من الخير ، وقوله تعالى : ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام ﴾ كان هذا عند نزوله من السفينة مع أصحابه للانتشار في الأرض ، و" السلام " هنا السلامة والأمن ونحوه ، و" البركات " الخير والنمو في كل الجهات ، وهذه العدة تعم جميع المؤمنين إلى يوم القيامة ، قاله محمد بن كعب القرظي ؛ وقوله ﴿ ممن معك ﴾ أي من ذرية من معك ومن نسلهم ، ف ﴿ مَنْ ﴾ - على هذا - هي لابتداء الغاية ، أي من هؤلاء تكون هذه الأمم ، و ﴿ من ﴾ موصولة ، وصلتها ﴿ معك ﴾ وما يتقدر معها نحو قولك : ممن استقر معك ونحوه ثم قطع قوله : ﴿ وأمم ﴾

على وجه الابتداء إذ كان أمرهم مقطوعاً من الأمر الأول ، وهؤلاء هم الكفار إلى يوم القيامة. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(36/379)

وقال القرطبى :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ﴾ أي دعاه .

﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي ﴾ أي من أهلي الذين وعدتهم أن تنجيهم من الغرق ؛ ففي الكلام حذف .

﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق ﴾ يعني الصدق .

وقال علماؤنا : وإنما سأل نوح ربه ابنه لقوله : "وَأَهْلَكَ" وترك قوله : ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول ﴾ فلما كان عنده من أهله قال : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي ﴾ يدلّ على ذلك قوله : ﴿ وَلاَ تَكُن مَّعَ الكافرين ﴾ أي لا تكن ممن لست منهم ؛ لأنه كان عنده مؤمناً في ظنه ، ولم يك نوح يقول لربه : "إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي" إلا وذلك عنده كذلك ؛ إذا محال أن يسأل هلاك

الكفار ، ثم يسأل في إنجاء بعضهم ؛ وكان ابنه يُسِرّ الكفر ويظهر الإيمان ؛ فأخبر الله تعالى نوحاً بما هو منفرد به من علم الغيوب ؛ أي علمت من حال ابنك ما لم تعلمه أنت .

وقال الحسن : كان منافقاً ؛ ولذلك استحل نوح أن يناديه .

وعنه أيضاً : كان ابن امرأته ؛ دليله قراءة عليّ "وَنَادَى نُوحٌ ابنها" .

﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الحاكمين ﴾ ابتداء وخبر .

أي حكمت على قوم بالنجاة ، وعلى قوم بالغرق .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ قَالَ يا نوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ (أي ليس من أهلك) الذين وعدتهم أن أنجيهم ؛ قاله سعيد بن جُبير .

وقال الجمهور : ليس من أهل دينك ولا ولايتك ؛ فهو على حذف مضاف ؛ وهذا يدلّ على أن حكم الاتفاق في الدِّين أقوى من (حكم) النسب .

﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ قرأ ابن عباس وعُروة وعِكرمة ويعقوب والكسائيّ "إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ" أي من الكفر والتكذيب ؛ واختاره أبو عبيد .

وقرأ الباقون "عَمَلٌ" أي ابنك ذو عمل غير صالح فحذف المضاف ؛ قاله الزجاج وغيره .

قال :

تَرْتَعُ ما رَتَعتْ حتَّى إذا ادَّكَرتْ . . .

فَإنما هي إقبالٌ وإدبار

أي ذات إقبال وإدبار .

وهذا القول والذي قبله يرجع إلى معنى واحد .

ويجوز أن تكون الهاء للسؤال ؛ أي إن سؤالك إياي أن أنجيه عمل غير صالح .

قاله قتادة .

وقال الحسن : معنى عمل غير صالح أنه ولد على فراشه ولم يكن ابنه .

وكان لغير رِشْدَة ، وقاله أيضاً مجاهد .

قال قتادة سألت الحسن عنه فقال : والله ما كان ابنه ؛ قلت إن الله أخبر عن نوح أنه قال :

"إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي" فقال : لم يقل مني ، وهذه إشارة إلى أنه كان ابن امرأته من زوج آخر ؛

فقلت له : إن الله حكى عنه أنه قال : "إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي" "وَنَادَى نُوحٌ ابنه" ولا يختلف أهل

الكتابين أنه ابنه ؛ فقال الحسن : ومن يأخذ دينه عن أهل الكتاب إنهم يكذِبون .

وقرأ : "فَخَانَتَاهُمَا" .

وقال ابن جريج : ناداه وهو يحسب أنه ابنه ، وكان ولد على فراشه ، وكانت امرأته خانته

فيه ؛ ولهذا قال :

﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ [التحريم: 10] وقال ابن عباس: ما بغت امرأة نبيّ قطّ، وأنه كان ابنه لصُلْبه.

وكذلك قال الضّحاك وعِكرمة وسعيد ابن جُبير وميمون بن مِهران وغيرهم، وأنه كان ابنه لصُلْبه.

وقيل لسعيد بن جُبير يقول نوح: "إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي" أكان من أهله؟ أكان ابنه؟ فسبّح اللَّهَ طويلاً ثم قال: لا إله إلا الله يحدث الله محمداً صلى الله عليه وسلم أنه ابنه، وتقول إنه ليس ابنه نعم كان ابنه؛ ولكن كان مخالفاً في النية والعمل والدِّين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾؛ وهذا هو الصحيح في الباب إن شاء الله تعالى لجلالة من قال به، وإن قوله: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ ليس مما ينفي عنه أنه ابنه.

وقوله: ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ يعني في الدِّين لا في الفِراش، وذلك أن هذه كانت تخبر الناس أنه مجنون، وذلك أنها قالت له: أما ينصرك ربك؟ فقال لها: نعم.

(38/379)

قالت: فمتى؟ قال: إذا فار التّنور؛ فخرجت تقول لقومها: يا قوم والله إنه لمجنون، يزعم أنه لا ينصره ربه إلا أن يفور هذا التّنور، فهذه خيانتها.

وخيانة الأخرى أنها كانت تدلّ على الأضياف على ما سيأتي إن شاء الله .

والله أعلم .

وقيل : الولد قد يسمى عملاً كما يسمى كَسْباً ، كما في الخبر : "أولادكم من كَسْبكم" .

ذكره القشيريّ .

الثالثة : في هذه الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين .

وروي أن ابن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد غطّاه ، قال : فعلم مالك أنه قد فهمه الناس ؛ فقال مالك : الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات ، والخير خير الله لا خير الآباء والأمهات .

وفيها أيضاً دليل على أن الابن من الأهل لغة وشرعاً ، ومن أهل البيت ؛ فمن وصّى لأهله دخل في ذلك ابنه ، ومن تضمنه منزلُه ، وهو في عياله .

وقال تعالى في آية أخرى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ المجيبون وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم ﴾ [الصافات : 75-76] فسمى جميع من ضمه منزله من أهله .

الرابعة : ودلّت الآية على قول الحسن ومجاهد وغيرهما : أن الولد للفراش ؛ ولذلك قال نوح ما قال آخذاً بظاهر الفراش .

وقد روى سفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع عبيد بن عمير يقول : نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما قضى بالولد للفراش من أجل ابن نوح عليه السلام ؛ ذكره أبو عمر

في كتاب "التمهيد" .

وفي الحديث الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الولدُ للفراش وللعاهِر الحَجَر " يريد الخيبة .

وقيل : الرّجم بالحجارة .

وقرأ عُروة بن الزّبير .

"ونَادَى نُوحٌ ابنها" يريد ابن امرأته ، وهي تفسير القراءة المتقدّمة عنه ، وعن عليّ رضي الله عنه ، وهي حجة للحسن ومجاهد ؛ إلا أنها قراءة شاذة ، فلا نترك المتفق عليها لها .

والله أعلم .

(39/379)

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ إني أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ [هود : 46] أي أنهاك عن هذا السؤال ، وأحذرك لئلا تكون ، أو كراهية أن تكون من الجاهلين ؛ أي الآثمين .

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَعِظُكُمُ الله أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ أَبَداً ﴾ [النور : 17] أي يحذركم الله وينهاكم .

وقيل : المعنى أرفعك أن تكون من الجاهلين .

قال ابن العربي : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين ، ويعليه بها إلى مقام العلماء والعارفين ؛ ف ﴿ قَالَ ﴾ نوح ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ الآية وهذه ذنوب الأنبياء عليهم السلام ، فشكر الله تذلله وتواضعه .

﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي ﴾ ما فرط من السؤال .

﴿ وترحمني ﴾ أي بالتوبة .

﴿ أَكُن مِّنَ الخاسرين ﴾ أي أعمالاً .

فقال : ﴿ يا نوح اهبط بِسَلَامٍ مِّنَّا ﴾ [هود : 48] .

قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يا نوح اهبط بِسَلَامٍ مِّنَّا ﴾ أي قالت (له) الملائكة ، أو قال الله تعالى له : اهبط من السفينة إلى الأرض ، أو من الجبل إلى الأرض ؛ فقد ابتلعت الماء وجفّت .

"بِسَلَامٍ مِنَّا " أي بسلامة وأمن .

وقيل : بتحية .

﴿ وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ أي نعم ثابتة ؛ مشتق من بروك الجمل وهو ثبوته وإقامته .

ومنه البِركة لثبوت الماء فيها .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نوح آدم الأصغر ، فجميع الخلائق الآن من نسله ، ولم يكن معه في السفينة من الرجال والنساء إلا من كان من ذريته ؛ على قول قَتَادة وغيره ، حسب ما تقدّم ؛ وفي التنزيل ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ [الصافات : 77] .

﴿ وعلى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ قيل : دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة .

ودخل في قوله : ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ كل كافر إلى يوم القيامة ؛ رُوي ذلك عن محمد بن كعب .

(40/379)

والتقدير على هذا : وعلى ذرية أمم ممن معك ، وذرية أمم سنمتعهم .

وقيل : "مِن" للتبعيض ، وتكون لبيان الجنس .

"وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ" ارتفع "وَأُمَمٌ" على معنى وتكون أمم .

قال الأخفش سعيد كما تقول : كلمت زيداً وعمرو جالس .

وأجاز الفراء في غير القراءة وأمماً ، وتقديره : ونمتّع أمماً .

وأعيدت "على" مع "أُمَمٌ" لأنه معطوف على الكاف من "عَلَيْكَ" وهي ضمير المجرور ، ولا يعطف على ضمير المجرور إلا بإعادة الجار على قول سيبويه وغيره .

وقد تقدّم في "النساء" بيان هذا مستوفى في قوله تعالى : ﴿ واتقوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامِ ﴾ [النساء : 1] بالخفض .

والباء في قوله : "بِسَلَامٍ" متعلقة بمحذوف ؛ لأنها في موضع الحال ؛ أي اهبط مسلَّماً

عليك .

و"مِنَّا" في موضع جر متعلق بمحذوف ؛ لأنه نعت للبركات .

"وَعَلَى أُمَمٍ" متعلق بما تعلق به "عَلَيْكَ" ؛ لأنه أعيد من أجل المعطوف على الكاف .

و"من" في قوله : "مِمَّنْ مَعَكَ" متعلق بمحذوف ؛ لأنه في موضع جر نعت للأمم .

و"مَعَكَ" متعلق بفعل محذوف ؛ لأنه صلة "لمن" أي ممن استقر معك ، أو آمن معك ، أو ركب معك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(41/379)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ونادى نوح ربه ﴾

أي دعاه وسأله ﴿ فقال رب إن ابني من أهلي ﴾ يعني وقد وعدتني أن تنجيني وأهلي ﴿ وإن وعدك الحق ﴾ يعني الصدق الذي لا خلف فيه ﴿ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ يعني أنك حكمت لقوم بالنجاة وحكمت على قوم بالهلاك ﴿ قال ﴾ يعني قال الله تعالى : ﴿ يا نوح إنه ﴾ يعني هذا الابن الذي سألتني نجاته ﴿ ليس من أهلك ﴾ اختلف علماء التفسير : هل كان هذا الولد ابن نوح لصلبه أم لا فقال الحسن ومجاهد كان ولد حدث من

غير نوح ولم يعلم به فلذلك قال إنه ليس من أهلك ، وقال محمد بن جعفر الباقر : كان ابن امرأة نوح وكان يعلمه نوح ولذلك قال من أهلي ولم يقل مني .

وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأكثر المفسرين : إنه ابن نوح من صلبه ، وهذا القول هو الصحيح والقولان الأولان ضعيفان بل باطلان ويدل على صحة هذا نقل الجمهور لما صح عن ابن عباس أنه قال : ما بغت امرأة نبي قط ولأن الله سبحانه وتعالى نص عليه بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ونادى نوح ابنه ﴾ ونوح (صلى الله عليه وسلم) أيضاً نص عليه بقوله ﴿ يا بني اركب معنا ﴾ وهذا نص في الدلالة وصرف الكلام عن الحقيقة إلى المجاز من غير ضرورة لا يجوز وإنما خالف هذا الظاهر من خالفه لأنه استبعد أن يكون ولد نبي كافراً وهذا خطأ ممن قاله لأن الله سبحانه وتعالى خلق خلقه فريق في الجنة وهم المؤمنون وفريق في السعير وهم الكفار والله سبحانه وتعالى يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر ولا فرق في ذلك بين الأنبياء وغيرهم فإن الله سبحانه وتعالى أخرج قابيل من صلب آدم عليه السلام وهو نبي وكان قابيل كافراً وأخرج إبراهيم من صلب آزر وهو نبي وكان آزر كافراً فكذلك أخرج كنعان وهو كافر من صلب نوح وهو نبي فهو المتصرف في خلقه كيف يشاء .

فإن قلت : فعلى هذا كيف ناداه نوح فقال : اركب معنا وأسأل له النجاة مع قوله رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً قلت : قد ذكر بعضهم أن نوحاً لم يعلم بكون ابنه كان كافراً فلذلك ناداه وعلى تقدير أنه يعلم كفره إنما حمله على أن ناداه رقة لأبوة ولعله إذا رأى تلك الأهوال أن يسلم فينجيه الله بذلك من الغرق فأجابه الله بقوله إنه ليس من أهلك يعني أنه ليس من أهل دينك لأن أهل الرجل من يجمعه وإياهم نسب أو دين أو ما يجري مجراهما .

ولما حكمت الشريعة برفع حكم النسب في كثير من الأحكام بين المسلم والكافر قال الله سبحانه وتعالى لنوح : إنه ليس من أهلك ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ قرأ الكسائي ويعقوب : عَمِلَ بكسر الميم وفتح اللام غير بفتح الراء على عود الفعل على الابن ومعناه أنه عمل الشرك والكفر والتكذيب وكل هذا غير صالح ، وقرأ الباقون من القراء : عمَلٌ بفتح الميم ورفع اللام مع التنوين وغير بضم الراء ومعناه إن سؤالك إياي أن أنجيه من الغرق عمل غير صالح لأن طلب نجاة الكفار بعد ما حكم عليه بالهلاك بعيد فلهذا قال سحبانه وتعالى : ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ ويجوز أن يعود الضمير في إنه على ابن نوح أيضاً ويكون التقدير على هذه القراءة إن ابنك ذو عمل أو صاحب عمل غير صالح فحذف المضاف كما قالت الخنساء : فإنما هي إقبال وإدبار .

قال الواحدي ، وهذا قول أبي إسحاق يعني الزجاج وأبي بكر بن الأنباري وأبي علي الفارسي قال أبو علي : ويجوز أن يكون ابن نوح عمل عملاً غير صالح فجعلت نفسه ذلك العمل لكثرة ذلك منه ، كما يقال الشعر زهير والعلم فلان إذا كثر منه فعلى هذا لا حذف ﴿ فلا تسألن ما ليس لك به علم ﴾ وذلك أن نوحاً عليه السلام سأل ربه إنجاء ولده من الغرق وهو من كمال شفقة الوالد على ولده وهو لا يعلم أن ذلك محظور لإصرار ولده على الكفر فهناه الله سبحانه وتعالى عن مثل هذه المسألة وأعلمه أن ذلك لا يجوز فكان المعنى فلا تسألن ما ليس لك به علم بجواز مسألته ﴿ إني أعظك ﴾ يعني أنهاك ﴿ أن تكون من الجاهلين ﴾ يعني لمثل هذا السؤال .

﴿ قال ﴾ يعني : قال نوح ﴿ رب إني أعوذ بك ﴾ يعني : ألجأ إليك وأعتذر إليك ﴿ أن أسألك ما ليس لي به علم ﴾ يعني : إنك أنت علام الغيوب وأنا لا أعلم ما غاب عني فأعتذر إليك من مسألتي ما ليس لي به علم ﴿ وإلا تغفر لي ﴾ يعني : جهلي وإقدامي على سؤال ما ليس لي به علم ﴿ وترحمني ﴾ يعني برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿ أكن من الخاسرين ﴾

(فصل وقد استدل بهذه الآيات من لا يرى عصمة الأنبياء)

وبيانه أن قوله إنه عمل غير صالح المراد منه السؤال وهو محظور فلهذا نهاه عنه بقوله فلا تسألن ما ليس لك به علم ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ يدل على أن ذلك السؤال كان جهلاً ففيه زجر وتهديد وطلب المغفرة والرحمة له يدل على صدور الذنب منه .

(44/379)

والجواب أن الله كان قد وعد نوحاً عليه السلام بأن ينجيه وأهله فأخذ نوح ظاهر اللفظ واتبع التأويل بمقتضى هذا الظاهر ولم يعلم ما غاب عنه ولم يشك في وعد الله سبحانه وتعالى فأقدم على هذا السؤال لهذا السبب فعاتبه الله على سؤاله ما ليس له به علم وبين له أنه ليس من أهله الذي وعده بنجاتهم لكفره وعمله الذي هو غير صالح وأعلمه الله سبحانه وتعالى أنه مغرق مع الذين ظلموا ونهاه عن مخاطبته فيهم فأشفق نوح من إقدامه على سؤال ربه فيما لم يؤذن له فيه فخاف نوح من ذلك الهلاك فلجأ إلى ربه وخشع له وعاذ به وسأل المغفرة والرحمة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين وليس في الآيات ما يقتضي صدور ذنب ومعصية من نوح عليه السلام سوى تأويله وإقدامه على سؤال ما لم يؤذن له فيه

وهذا ليس بذنب ولا معصية والله أعلم .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قيل يا نوح اهبط ﴾ أي انزل من السفينة أو من الجبل إلى الأرض ﴿ بسلام ﴾ أي بأمن وسلامة ﴿ منا وبركات عليك ﴾ البركة هي ثبوت الخير ونماؤه وزيادته ، وقيل : المراد بالبركة هنا أن الله سبحانه وتعالى جعل ذريته هم الباقين إلى يوم القيامة فكل العالم من ذرية أولاده الثلاثة ولم يعقب من كان معه في السفينة غيرهم ﴿ وعلى أمم ممن معك ﴾ يعني : وعلى ذرية أمم ممن كانوا معك في السفينة ، والمعنى وبركات عليك وعلى قرون تجيء من بعدك من ذرية أولادك وهم المؤمنون .

قال محمد بن كعب القرظي : دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة ﴿ وأمم سنمتعهم ﴾ هذا ابتداء كلام أي وأمم كافرة يحدثون بعدك سنمتعهم يعني في الدنيا إلى منتهى آجالهم ﴿ ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ يعني في الآخرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(45/379)

وقال أبو حيان :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾

ومعنى ونادى نوح ربه أي : أراد أن يناديه ، ولذلك أدخل الفاء ، إذ لو كان أراد حقيقة النداء والإخبار عن وقوعه منه لم تدخل الفاء في فقال : ولسقطت كما لم تدخل في قوله : ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً قال رب ﴾ والواو في هذه الجملة لا ترتب أيضاً ، وذلك أن هذه القصة كانت أول ما ركب نوح السفينة ، ويظهر من كلام الطبري أن ذلك من بعد غرق الابن .

وفي قوله : إن ابني من أهلي ، ظهور أنه ولده لصلبه .

ومعنى من أهلي أي : الذي أمرت أن أحملهم في السفينة لقوله : ﴿ احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ﴾ ولم يظن أنه داخل فيمن استثناه الله بقوله : إلا من سبق عليه القول منهم لظنه أنه مؤمن وعموم قوله : ومن آمن يشمل من آمن من أهله ومن غير أهله ، وحسن الخطاب بقوله : وإن وعدك الحق ، أي الوعد الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به ، وقد وعدتني أن تنجي أهلي ، وأنت أعلم الحكام وأعدلهم .

قال الزمخشري : ويجوز أن تكون من الحكمة حاكم بمعنى النسبة ، كما يقال : دارع من الدرع ، وحائض وطالق على مذهب الخليل انتهى .

ومعنى ليس من أهلك على قول من قال : إنه ابنه لصلبه أي الناجين ، أو الذين عمهم الوعد .

ومن زعم أنه ربيبه فهو ليس من أهله حقيقة ، إذ لا نسبة بينه وبينه بولادة ، فعلى هذا نفي

ما قدّر أنه داخل في قوله : وأهلك ، ثم علل انتفاء كونه ليس من أهله بأنه عمل غير صالح .

والظاهر أنّ الضمير في أنه عائد على ابن نوح لا على النداء المفهوم من قوله : ونادى المتضمن سؤال ربه ، وجعله نفس العمل مبالغة في ذمه كما قال : فإنما هي إقبال وإدبار ، هذا على قراءة جمهور السبعة .

(46/379)

وقرأ الكسائي : عمل غير صالح جعله فعلاً ناصباً غير صالح ، وهي قراءة : علي ، وأنس ، وابن عباس ، وعائشة ، وروتها عائشة وأم سلمة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وهذا يرجح أن الضمير يعود على ابن نوح .

قيل : ويرجح كون الضمير في أنه عائد على نداء نوح المتضمن السؤال أنّ في مصحف ابن مسعود أنه عمل غير صالح إن تسألني ما ليس لك به علم .

وقيل : يعود على الضمير في هذه القراءة على ركوب ولد نوح معهم الذي تضمنه سؤال نوح المعنى : أن كونه مع الكافرين وتركه الركوب مع المؤمنين عمل غير صالح ، وكون الضمير في إنه عائداً على غير ابن نوح عليه السلام تكلف وتعسف لا يليق بالقرآن .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : فهلا قيل إنه عمل فاسد ؟ (قلت) : لما نفاه من أهله نفى

عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستنفي معها لفظ المنفي وأذن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهله بصلاحهم ، لا لأنهم أهلك وأقاربك ، وإن هذا لما انتفي عنه الصلاح لم تنفعه أبوّتك .

وقرأ الصاحبان : تسألنّ بتشديد النون مكسورة ، وقرأ أبو جعفر وشيبة وزيد بن علي كذلك ، إلا أنهم أثبتوا الباء بعد النون ، وابن كثير بتشديدها مفتوحة وهي قراءة ابن عباس .

وقرأ الحسن وابن أبي مليكة : تسألني من غير همز ، من سال يسال ، وهما يتساولان ، وهي لغة سائرة .

وقرأ باقي السبعة بالهمز وإسكان اللام وكسر النون وتخفيفها ، وأثبت الياء في الوصل ورش وأبو عمرو ، وحذفها الباقون .

قال الزمخشري : فلا تلتمس ملتمساً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب حتى تقف على كنهه ، وذكر المسألة دليل على أنّ النداء كان قبل أن يغرق حين خاف عليه . (فإن قلت) : لم سمى نداءه سؤالاً ولا سؤال فيه ؟ (قلت) : قد تضمن دعاؤه معنى السؤال وإن لم يصرح به ، لأنه إذا ذكر الموعد بنجاة أهله في وقت مشارفة الغرق فقد استنجز ، وجعل سؤال ما لا يعرف كنهه جهلاً وغباوة ووعظه أن لا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين .

(فإن قلت) قد وعد الله أن ينجيَ أهله ، وما كان عنده أنّ ابنه ليس منهم ديناً ، فلما أشفي على الغرق تشابه عليه الأمر ، لأنّ العدة قد سبقت له ، وقد عرف الله حكيماً لا يجوز عليه فعل القبيح وخلف الميعاد ، فطلب إماطة الشبهة وطلب إماطة الشبهة واجب ، فلم زجر وجعل سؤاله جهلاً ؟ (قلت) : إن الله عز وجل قدم له الوعد بإنجاء أهله مع استثناء من سبق عليه القول منهم ، فكان عليه أن يعتقد أن في جملة أهله من هو مستوجب العذاب لكونه غير صالح ، وأن كلهم ليسوا بناجين ، وأنْ لا تخالجه شبهة حين شارف ولده الغرق في أنه من المستثنين لا من المستثنى منهم ، فعوتب على أن اشتبه عليه ما يجب بما يجب أن لا يشتبه .

وقال ابن عطية : معنى قوله : فلا تسألن ما ليس لك به علم ، أي إذ وعدتك فاعلم يقيناً أنه لا خلف في الوعد ، فإذا رأيت ولدك لم يحمل فكان الواجب عليك أن تقف وتعلم أنّ ذلك لحق واجب عند الله ، ولكنّ نوحاً عليه السلام حملته شفقة البنوة وسجية البشر على التعرض لنفحات الرحمة والتذكير ، وعلى هذا القدر وقع عقابه ، ولذلك جاء بتلطف وترج في قوله : إني أعظك أن تكون من الجاهلين .

ويحتمل قوله : فلا تسألن ما ليس لك به علم ، أي : لا تطلب مني أمراً لا تعلم المصلحة فيه علم يقين ، ونحا إلى هذا أبو علي الفارسي وقال : إن به يجوز أن يتعلق بلفظ عام كما قال الشاعر :

كأن جزائي بالعصا أن أجلدا . . .

ويجوز أن يكون به بمنزلة فيه ، فتتعلق الباء بالمستقر .

واختلاف هذين الوجهين إنما هو لفظي ، والمعنى في الآية واحدة .

وذكر الطبري عن ابن زيد تأويلاً في قوله : إني أعظك أن تكون من الجاهلين لا يناسب النبوة تركناه ، ويوقف عليه في تفسير ابن عطية .

وقيل : سأل نوح ربه حين صار عنه ابنه بمعزل ، وقيل : قبل أن عرف هلاكه ، وقيل : بعد أن عرف هلاكه سأل الله له المغفرة .

أنْ أسألك من أن أطلب في المستقبل ما لا علم لي بصحته تأدباً بأدبك ، واتعاظاً بموعظتك ، وهذه إنابة من نوح عليه السلام وتسليم لأمر الله .

قال ابن عطية : والسؤال الذي وقع النهي عنه والاستعاذة والاستغفار منه هو سؤال العزم

الذي معه محاجة ، وطلبه ملحة فيما قد حجب وجه الحكمة فيه .

وأما السؤال في الأمور على جهة التعلم والاسترشاد فغير داخل في هذا ، وظاهر قوله : فلا تسألن ما ليس لك به علم ، يعم النحوين من السؤال ، ولذلك نبهت على أنّ المراد أحدهما دون الآخر ، والخاسرون هم المغبونون حظوظهم من الخير انتهى ، ونسب نوح النقص والذنب إلى نفسه تأدباً مع ربه فقال : وإلا تغفر لي ، أي ما فرط من سؤالي وترحمني بفضلك ، وهذا كما قال آدم عليه السلام .

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾

بني الفعل للمفعول ، فقيل : القائل هو الله تعالى ، وقيل : الملائكة تبليغاً عن الله تعالى .

والظاهر الأول لقوله : منا .

وسنمتعهم أمر عند نزوله بالهبوط من السفينة ومن الجبل مع أصحابه للانتشار في الأرض ، والباء للحال أي : مصحوباً بسلامة وأمن وبركات ، وهي الخيرات النامية في كل الجهات .

ويجوز أن تكون اللام بمعنى التسليم أي : اهبط مسلماً عليك مكرماً .

وقرىء اهبط بضم الباء ، وحكى عبد العزيز بن يحيى وبركة على التوحيد عن الكسائي وبشر بالسلامة إيذاناً له بمغفرة ربه له ورحمته إياه ، وبإقامته في الأرض آمناً من الآفات الدنيوية ، إذ كانت الأرض قد خلت مما ينتفع به من النبات والحيوان ، فكان ذلك تبشيراً له بعود الأرض إلى أحسن حالها ، ولذلك قال : وبركات عليك أي دائمة باقية عليك .

والظاهر أنّ من لابتداء الغاية أي : ناشئة من الذين معك ، وهم الأمم المؤمنون إلى آخر الدهر .

قال الزمخشري : ويحتمل أن تكون من للبيان فتراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة لأنهم كانوا جماعات .

وقيل لهم : أمم ، لأنّ الأمم تشعبت منهم انتهى .

(49/379)

وهذا فيه بعد تكلف ، إذ يصير التقدير : وعلى أمم هم من معك ، ولو أريد هذا المعنى لا غنى عنه ، وعلى أمم معك أو على من معك ، فكان يكون أخضر وأقرب إلى الفهم ، وأبعد عن اللبس .

وارتفع أمم على الابتداء .

قال الزمخشري : وسنمتعهم صفة ، والخبر محذوف تقديره وممن معك أمم سنمتعهم ، وإنما حذف لأن قوله : ممن معك ، يدل عليه ، والمعنى : أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤون ممن معك ، وأمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار انتهى .

ويجوز أن يكون أمم مبتدأ ، ومحذوف الصفة وهي المسوغة لجواز الابتداء بالنكرة ،

والتقدير : وأمم منهم أي ممن معك ، أي ناشئة ممن معك ، وسنمتعهم هو الخبر كما قالوا :

السمن منوان بدرهم ، أي منوان منه ، فحذف منه وهو صفة لمنوان ، ولذلك جاز الابتداء

بمنوان وهو نكرة .

ويجوز أن يقدر مبتدأ ولا يقدر صفة الخبر سنمتعهم ، ومسوغ الابتداء كون المكان مكان

تفصيل ، فكان مثل قول الشاعر :

إذا ما بكى من خلفها انحرفت له . . .

بشق وشق عندنا لم يحول

وقال القرطبي : ارتفعت وأمم على معنى : ويكون أمم انتهى .

فإنْ كان أراد تفسير معنى فحسن ، وإن أراد الإعراب ليس بجيد ، لأن هذا ليس من

مواضع إضمار يكون ، وقال الأخفش : هذا كما تقول كلمت : زيداً وعمرو جالس

انتهى .

فاحتمل أن يكون من باب عطف الجمل ، واحتمل أنْ تكون الواو للحال ، وتكون حالاً

مقدرة لأنه وقت الأمر بالهبوط لم تكن تلك الأمم موجودة .

وقال أبو البقاء : وأمم معطوف على الضمير في اهبط تقديره : اهبط أنت وأمم ، وكان

الفصل بينهما مغنياً عن التأكيد ، وسنمتعهم نعت لأمم انتهى .

وهذا التقدير والمعنى لا يصلحان ، لأنّ الذين كانوا مع نوح في السفينة إنما كانوا مؤمنين لقوله : ومن آمن ، ولم يكونوا قسمين كفاراً ومؤمنين ، فتكون الكفار مأمورين بالهبوط مع نوح ، إلا إن قدر أن من أولئك المؤمنين من يكفر بعد الهبوط ، وأخبر عنهم بالحالة التي يؤولون إليها فيمكن على بعد ، والذي ينبغي أن يفهم من الآية أنّ من معه ينشأ منهم مؤمنون وكافرون ، ونبه على الإيمان بأن المتصفين به من الله عليهم سلام وبركة ، وعلى الكفر بأن المتصفين به يمتعون في الدنيا ثم يعذبون في الآخرة ، وذلك من باب الكناية كقولهم : فلان طويل النجاد كثير الرماد .

وظاهر قوله : ممن معك يدل على أنّ المؤمنين والكافرين نشأوا ممن معه ، والذين كانوا معه في السفينة إن كانوا أولاده الثلاثة فقط ، أو معهم نساؤهم ، انتظم قول المفسرين أنّ نوحاً عليه السلام هو أبو الخلق كلهم ، وسمي آدم الأصغر لذلك .

وإن كانوا أولاده وغيرهم على الاختلاف في العدد ، فإن كان غير أولاده مات ولم ينسل صح أنه أبو البشر بعد آدم ، ولم يصح أنه نشأ ممن معه مؤمن وكافر ، إلا إن أريد بالذين معه أولاده ، فيكون من إطلاق العام ويراد به الخاص .

وإن كانوا نسلوا كما عليه أكثر المفسرين فلا ينتظم أنه أبو البشر بعد آدم بل الخلق بعد الطوفان منه ، وممن كان معه في السفينة والأمم الممتعة ليسوا معينين ، بل هم عبارة عن

الكفار .

وقيل : هم قوم هود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، عليهم الصلاة والسلام . انتهى ا . هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(51/379)

وقال أبو السعود :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ ﴾

أي أراد ذلك بدليل الفاء في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابنى مِنْ أَهْلِى ﴾ وقد وعدتني إنجاءَهم في ضمن الأمرِ بحملهم في الفلك أو النداءُ على الحقيقة والفاءُ لفتصيل ما فيه من الإجمال ، ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق ﴾ أي وعدك ذلك ، أو إنّ كلَّ وعدِه حقٌّ لا يتطرق إليه خُلْفٌ فيدخل فيه الوعدُ المعهود دخولاً أولياً ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الحاكمين ﴾ لأنك أعلمُهم وأعدلُهم أو أنت أكثرُ حكمةً من ذوي الحِكَم على أن الحاكمَ من الحِكمة كالدارع من الدِرْع ، وهذا الدعاءُ منه عليه الصلاة والسلام على طريقة دعاءِ أيوبَ عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنّى مَسَّنِىَ الضر وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ ﴿ قَالَ يَا نُوحُ ﴾ لما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام بتذكير وعدِه جل ذكرُه مبنياً على كون كنعانَ من أهله نفَيَ أولاً كونُه

منهم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أي ليس منهم أصلاً لأن مدار الأهليةِ هو القرابةُ الدينية ولا علاقةَ بين المؤمن والكافرِ أو ليس من أهلك الذين أمرتُك بحملهم في الفلك لخروجه عنهم بالاستثناء ، وعلى التقديرين ليس هو من الذين وُعد بإنجائهم ثم علل عدمُ كونِه منهم على طريقة الاستئنافِ التحقيقي بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالح ﴾ أصله إنه ذو عملٍ غيرِ صالح فجُعل نفسَ العملِ مبالغةً كما في قول الخنساء :

(52/379)

فإنما هي إقبالٌ وإدبارُ . . . وإيثارُ غيرُ صالحٍ على فاسد إما لأن الفاسدَ ربما يطلق على ما فسد ومن شأنه الصلاحُ فلا يكون نصاً فيما هو من قبيل الفاسدِ المحضِ كالقتل والمظالم ، وإما للتلويح بأن نجاةَ من نجا إنما هي لصلاحه ، وقرأ الكسائي ، ويعقوب ، إنه عمِلَ غيرَ صالحٍ أي عملاً غيرَ صالح ، ولما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام مبنياً على ما ذكر من اعتقاد كونِ كنعانَ من أهله وقد نُفيَ ذلك وحُقّق ببيان عِلّته فرِّع على ذلك النهيُ عن سؤال إنجاِئه ، إلا أنه جيء بالنهي على وجه عامٍ يندرجُ فيه ذلك اندراجاً أولياً فقيل : ﴿ فَلاَ تَسْأَلنى ﴾ أي إذا وقفتَ على جلية الحالِ فلا تطلُب مني ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي مطلباً لا تعلم يقيناً أن حصولَه صوابٌ وموافقٌ للحكمة على تقديرِ كون (ما) عبارةً عن

المسؤول الذي هو مفعولٌ للسؤال أو طلباً لا تعلم أنه صوابٌ على تقدير كونِه عبارةً عن المصدر الذي هو مفعولٌ مطلقٌ فيكون النهيُ وارداً بصريحه في كلَ من معلوم الفسادِ ومشتبِهِ الحالِ ويُفهم ، ويجوز أن يكون المعنى ما ليس لك علمٌ بأنه صوابٌ أو غيرُ صوابٍ فيكون النهيُ وارداً في مشتبِهِ الحالِ ويُفهمُ منه حالُ معلوم الفساد بالطريق الأولى ، وعلى التقديرين فهو عامٌ يندرج تحته ما نحن فيه كما ذكرناه ، وهذا كما ترى صريحٌ في أن نداءَه عليه الصلاة والسلام ربَّه عز وعلا ليس استفساراً عن سبب عدمِ إنجاءِ ابنِه مع سبق وعدِه بإنجاء أهلِه وهو منهم كما قيل ، فإن النهيَ عن استفسار ما لم يُعلم غيرُ موافقٍ للحكمة ، إذا عدمُ العلمِ بالشيء داعٍ إلى الاستفسار عنه لا إلى تركه بل هو دعاءٌ منه لإنجاء ابنِه حين حال الموجُ بينهما ولم يَعلم بهلاكه بعدُ ، إما بتقريبه إلى الفُلك بتلاطم الأمواجِ أو بتقريبها إليه ، وقيل : أو بإنجائه في قُلّة الجبل ، ويأباه تذكيرُ الوعدِ في الدعاء فإنه مخصوصٌ بالإنجاء في الفلك وقوله تعالى :

﴿ لاَ عَاصِمَ اليومِ مِنْ أَمْرِ اللهِ إلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ ومجرّدُ حيلولةِ الموجِ بينهما لا يستوجب هلاكَه فضلاً عن العلم به لظهور إمكانِ عصمةِ الله تعالى إياه برحمته وقد وعد بإنجاء أهلِه

ولم يكن ابنُه مجاهراً بالكفر كما ذكرناه حتى لا يجوز عليه السلام أن يدعوَه إلى الفُلك أو يدعوَ ربّه لإنجائه ، واعتزالُه عنه عليه الصلاة والسلام وقصدُه الالتجاء إلى الجبل ليس بنص في الإصرار على الكفر لظهور جوازِ أن يكون ذلك لجهله بانحصار النجاة في الفُلك وزعمِه أن الجبلَ أيضاً يجري مجراه أو لكراهة الاحتباسِ في الفلك بل قوله : ﴿ سَآوِى إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الماء ﴾ بعد ما قال نوحٌ عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَلاَ تَكُن مَّعَ الكافرين ﴾ ربما يُطمعه عليه السلام في إيمانه حيث لم يقل : أكونُ معهم أو سنأوي أو يعصمنا ، فإن إفرادَ نفسه بنسبة الفعلين المذكورَيْن بما يشعر بانفراده من الكافرين واعتزالِه عنهم وامتثالِه ببعض ما أمره به نوحٌ عليه الصلاة والسلام ، إلا أنه عليه الصلاة والسلام لو تأمل في شأنه حقَّ التأملِ وتفحّص عن أحواله في كل ما يأتي ويذر لما اشتبه عليه أنه ليس بمؤمن وأنه المستثنى من أهله ، ولذلك قيل : ﴿ إِنّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ فعبّر عن ترك الأولى بذلك ، وقرىء فلا تسألن بغير ياءِ الإضافةِ وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء .

﴿ قَالَ رَبّ إِنّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ ﴾

أي أطلب منك من بعدُ ﴿ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي مطلوباً لا أعلم أن حصوله مقتضي الحِكمة أو طلباً لا أعلم أنه صوابٌ سواءٌ كان معلومَ الفسادِ أو مشتبهَ الحالِ أو لا أعلمُ أنه صوابٌ أو غيرُ صوابٍ على ما مر ، وهذه توبةٌ منه عليه السلام مما وقع منه وإنما لم يقُلْ : أعوذ بك منه أو من ذلك مبالغةً في التوبة وإظهاراً للرغبة والنشاطِ فيها وتبركاً بذكر ما لقّنه الله تعالى ، وهو أبلغُ من أن يقول : أتوبُ إليك أن أسألَك لما فيه من الدِلالة على كون ذلك أمراً هائلاً محذوراً لا محيصَ منه إلا بالعوذ بالله تعالى وأن قدرتَه قاصرةٌ عن النجاة من المكاره إلا بذلك ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى ﴾ ما صدر عني من السؤال المذكور ﴿ وَتَرْحَمْنِى ﴾ بقَبول توبتي ﴿ أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أعمالاً بسبب ذلك ، فإن الذهولَ عن شكر الله تعالى لا سيما عند وصولِ مثلِ هذه النعمةِ الجليلةِ التي هي النجاةُ وهلاكُ الأعداءِ والاشتغالَ بما لا يعني خصوصاً بمبادي خلاصِ من قيل في شأنه إنه عملٌ غيرُ صالحٍ والتضرّعَ إلى الله تعالى في أمره معاملةٌ غيرُ رابحةٍ أو خسرانٌ مبينٌ .

وتأخيرُ ذكرِ هذا النداءِ عن حكايةِ الأمرِ الواردِ على الأرض والسماءِ وما يتلوه من زوالِ الطوفانِ وقضاءِ الأمر واستواءِ الفُلك على الجوديّ والدعاءِ بالهلاك على الظالمين مع أن

حقَّه أن يُذكر عَقيبَ قوله تعالى: ﴿ فَكَانَ مِنَ المغرقين ﴾ حسبما وقع في الخارج إذ حينئذ يُتصوّر الدعاءُ بالإنجاء لا بعد العلمِ بالهلاكِ ليس لما قيل من استقلاله بغرض مُهمَ هو جعل قُرابةِ الدين غامرةً لقرابة النسب، وأن لا يقدّم في الأمور الدينيةِ الأصوليةِ إلا بعد اليقينِ قياساً على ما وقع في قصة البقرة من تقديم ذكرِ الأمرِ بذبحها على ذكر القتيلِ الذي هو أولُ القصةِ وكان حقُّها أن يقالَ: وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها فقلنا: اذبحوا بقرةً فاضربوه ببعضها كما قُرّر في موضعه فإن تغييرَ الترتيبِ هناك للدلالة على كمال سوءِ حالِ اليهودِ بتعديد جناياتِهم المتنوعةِ وتثنية التقريعِ عليهم بكل نوع على حدة فقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ الخ، لتقريعهم على الاستهزاء وتركِ المسارعةِ إلى الامتثال وما يتبع ذلك وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾ الخ، للتقريع على قتل النفسِ المحرمةِ وما يتبعه من الأمور العظيمةِ، ولو قُصت القِصةُ على ترتيبها لفات الغرضُ الذي هو تثنيةُ التقريعِ ولظُن أن المجموعَ تقريعٌ واحدٌ وأما ما نحن فيه فليس مما يمكن أن يراعى فيه مثلُ تلك النكتةِ أصلاً، وما ذكر من جعل القرابةِ الدينيةِ غامرةً للقرابة النسبية الخ، لا يفوت على تقدير سَوْقِ الكلامِ على ترتيب الوقوعِ أيضاً بل لأن ذكرَ هذا النداءِ كما ترى مستدعٍ لذكر ما مر من الجواب المستدعي لذكر ما مر من توبته عليه الصلاة والسلام المؤدّي ذكرُها إلى ذكر قَبولها في ضمن الأمرِ الواردِ بنزوله عليه الصلاة والسلام من الفلك بالسلام والبركاتِ الفائضةِ عليه وعلى المؤمنين حسبما سيجيء

مفصلاً ، ولا ريب في أن هذه المعانيَ آخذٌ بعضُها بحُجْزةِ بعض بحيث لا يكاد يُفرّق الآياتُ الكريمة المنطويةُ عليها بعضُها من بعض وأن ذلك إنما يتم بتمام القِصّة ، ولا ريب أن ذلك إنما يكون بتمام الطوفانِ فلا جرم اقتضى الحال ذُكرَ تمامِها قبلَ هذا النداءِ وذلك إنما يكون عند ذكرِ كونِ كنعانَ من المغرَقين ولهذه النكتة ازداد حسنُ موقعِ الإيجاز البليغ وفيه فائدةٌ أخرى هي التصريحُ بهلاكه من أول الأمرِ إلى أن يرِد قولُه : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أنه ينجو بدعائه عليه الصلاة والسلام فنُص على هلاكه من أول الأمرِ ثم ذُكر الأمرُ الواردُ على الأرض والسماءِ الذي هو عبارةٌ عن تعلق الإرادةِ الربانيةِ الأزليةِ بما ذُكر من الغيض والإقلاعِ وبين بلوغِ أمرِ الله محلَّه وجريانِ قضائِه ونفوذ حُكمِه عليهم بهلاك من هلك ونجاةِ من نجا بتمام ذلك الطوفانِ واستواءِ الفُلكِ على الجوديّ فقُصّت القِصةُ إلى هذه المرتبةِ وبُيّن ذلك أيَّ بيانٍ ثم تعرض لما وقع في تضاعيف ذلك مما جرى بين نوحٍ عليه السلام وبين ربّ العزة جلت حكمتُه فذُكر بعد توبتِه عليه الصلاة والسلام قبولُها بقوله :

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ ﴾

أي انزل من الفُلك وقرىء بضم الباء ﴿ بِسَلامٍ ﴾ ملتبساً بسلامة من المكاره كائنةٍ ﴿ مِنَّا ﴾ أو بسلام وتحيةٍ منا عليك كما قال : سلامٌ على نوح في العالمين ﴿ وبركات عَلَيْكَ ﴾ أي خيراتٍ ناميةٍ في نسلك وما يقوم به معاشُك ومعاشُهم من أنواع الأرزاق ، وقرىء بركةٍ ، وهذا إعلامٌ وبشارةٌ من الله تعالى بقَبول توبتِه وخلاصِه من الخسران بفيضان أنواعِ الخيراتِ عليه في كل ما يأتي وما يذر ﴿ وعلى أُمَمٍ ﴾ ناشئةٍ ﴿ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ إلى يوم القيامة متشبعةٍ منهم ، فمن ابتدائيةٌ ، والمرادُ الأممُ المؤمنةُ المتناسلةُ ممن معه إلى يوم القيامة ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ أي ومنهم على أنه خبرٌ حذف لِدلالة ما سبق عليه ، فإن إيرادَ الأممِ المباركِ عليهم المتشعبةِ منهم نكرةٌ يدل على أن بعضَ مَنْ يتشعّب منهم ليسوا على صفتهم يعني ليس جميعُ من تشعّب منهم مسلماً ومباركاً عليه بل منهم أممٌ ممتّعون في الدنيا معذّبون في الآخرة ، وعلى هذا لا يكون الكائنون مع نوح عليه السلام مسلماً ومباركاً عليهم صريحاً وإنما يفهم ذلك من كونهم مع نوح عليه الصلاة والسلام ومن كون ذريّاتِهم كذلك بدلالة النصّ ، ويجوز أن تكون (من) بيانيةً أي وعلى أمم هم الذين معك وإنما سُمّوا أمماً لأنهم أممٌ متحزّبةٌ وجماعاتٌ متفرِقةٌ ، أو لأن جميعَ الأممِ إنما تشعّبت منهم فحينئذ يكون المرادُ بالأمم المشارِ إليهم في قوله تعالى : ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ بعضَ الأممِ المتشعبةِ منهم وهي الأممُ الكافرةُ المتناسلةُ منهم إلى يوم القيامة ، ويبقى أمرُ الأممِ المؤمنةِ الناشئةِ منهم مبهماً غيرَ متعرّضٍ له

ولا مدلولٍ عليه ، ومع ذلك ففي دِلالة المذكورِ على خبره المحذوفِ خفاءٌ لأن (من) المذكورةَ بيانيةٌ والمحذوفةَ تبعيضيةٌ أو ابتدائيةٌ فتأمل ﴿ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ ﴾ إما في الأخرة أو في الدنيا أيضاً ﴿ مّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . عن محمد بن كعب القرظي دخل

(58/379)

في ذلك السلامِ كلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ إلى يوم القيامة ، وفيما بعده من المتاع والعذابِ كلُّ كافر ، وعن ابن زيد هبطوا والله عنهم راضٍ ثم أَخرج منهم نسلاً منهم من رَحِم ومنهم من عذّب . وقيل : المرادُ بالأمم الممتَّعةِ قومُ هودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ عليهم السلام وبالعذاب ما نزل بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(59/379)

وقال الآلوسى :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ ﴾ أي أراد ذلك بدليل تفريع قوله سبحانه : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابنى مِنْ

أَهْلِي ﴾ عليه ، وقيل : النداء على حقيقته والعطف بالفاء لكون حق التفصيل يعقب الإجمال ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق ﴾ أي وإن وعدك ذلك أو كل وعد تعده حق لا يتطرق إليه خلف فيدخل فيه الوعد المعهود دخولاً أولياً .

﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الحاكمين ﴾ لأنك أعلمهم وأعدلهم ، وقد ذكر أنه إذا بني أفعل من الشيء الممتنع من التفضيل والزيادة يعتبر فيما يناسب معناه معنى الممتنع ، وقال العز بن عبد السلام في أماليه : إن هذا ونحوه من أرحم الراحمين وأحسن الخالقين مشكل لأن أفعل لا يضاف إلا إلى جنسه ، وهنا ليس كذلك لأن الخلق من الله سبحانه بمعنى الإيجاد ومن غيره بمعنى الكسب وهما متباينان يعني على المشهور من مذهب الأشاعرة ، والرحمة من الله تعالى إن حملت على الإرادة أو جعلت من مجاز التشبيه صح وإن أريد إيجاد فعل الرحمة كان مشكلاً أيضاً إذ لا موجد سواه سبحانه ، وأجاب الآمدي بأنه بمعنى أعظم من يدعي بهذا الاسم ، واستشكل بأن فيه جعل التفاضل في غير ما وضع اللفظ بإزائه وهو يناسب مذهب المعتزلة فافهم ، وقيل : المعنى هنا أنك أكثر حكمة من ذوي الحكم على أن الحاكم من الحكم كالدارع من الدرع ، واعترض عليه بأن الباب ليس بقياسي وأنه لم يسمع حاكم بمعنى حكيم وأنه لا يبنى منه أفعل إذاً لأنه ليس جارياً على الفعل لا يقال : ألبن وأتمر من فلان إذ لا فعل بذلك المعنى ، والجواب بأنه قد كثر في كلامهم فجوز على أن يكون وجهاً مرجوحاً وبأنه من قبيل أحنك الشاتين لا يخلو عن تعسف كما في الكشف ، وتعقب بأن

للحكمة فعلا ثلاثياً وهو حكم ، وأفعل من الثلاثي مقيس ، وأيضاً سمع احتنك الجراد .

وألبن .

(60/379)

وأتمر فغايته أن يكون من غير الثلاثي ولا يخفى ما فيه ، ومنهم من فسره على هذا بأعلمهم بالحكمة كقولهم ؛ آبل من أبل بمعنى أعلم .

وأحذف بأمر الإبل ، وأياً مّا كان فهذا النداء منه عليه السلام يقطر منه الاستعطاف ، وجميل التوسل إلى من عهده منعاً مفضلاً في شأنه أولاً وآخراً وهو على طريقة دعاء أيوب عليه السلام ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضر وَأَنتَ أَرْحَمُ ﴾ [الأنبياء : 83] فيكون ذلك قبل الغرق ، والواو لا تقتضي الترتيب ، وقيل : إن النداء إنما كان بعده والمقصود منه الاستفسار عن سبب عدم إنجائه مع سبق وعده تعالى بإنجاء أهله وهو منهم ، وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً تمام الكلام في ذلك .

﴿ قَالَ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل ، ما قال له ربه سبحانه حين ناداه بذلك ؟ فقيل : قال : ﴿ قَالَ يا نوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أي ليس منهم أصلا لأن مدار الأهلية هو القرابة الدينية وقد انقطعت بالكفر فلا علاقة بين مسلم وكافر ولذا لم يتوارثا ، وقد ذكروا أن قرابة

الدين أقرب من قرابة النسب كما أشار إلى ذلك أبو فراس بقوله :

كانت مودة سلمان له نسبا . . .

ولم يكن بين نوح وابنه رحم

أو ﴿ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ الذين أمرتك بحملهم في الفلك لخروجه عنه بالاستثناء ، وحكى

هذا عن ابن جرير .

وعكرمة ، والأول عن ابن عباش رضي الله تعالى عنهما ؛ وعلى القولين ليس هو من الذين

وعد بإنجائهم ، وكأنه لما كان دعاؤه عليه السلام بتذكير وعده جل ذكره مبنياً على كون

كنعان من أهله نفى أولا كونه منهم ، ثم علل عدم كونه منهم على طريقة الاستئناف

التحقيقي بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالح ﴾ وأصله إنه ذو عمل فاسد فحذف

ذو للمبالغة بجعله عين عمله لمداومته عليه ، ولا يقدر المضاف لأنه حينئذ تفوت المبالغة

المقصودة منه ، ونظير ذلك ما في قول الخنساء ترثي أخاها صخراً :

ما أم سقب على بو تحن له . . .

قد ساعدتها على التحنان آظار

ترتع ما رتعت حتى إذا ادّكرت . . .

فإنما هي إقبال وإدبار

يوماً بأوجع مني حين فارقني . . .

صخر وللعيش إحلاء وإمرار

وأبدل فاسد بغير صالح إما لأن الفاسد ربما يطلق على ما فسد ومن شأنه الصلاح فلا يكون نصاً فيما هو من قبيل الفاسد المحض كالمظالم ، وإما للتلويح بأن نجاة من نجاة إنما هو لصلاحه .

وقرأ الكسائي .

ويعقوب ﴿ إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرُ صالح ﴾ على صيغة الفعل الماضي ، ونصب ﴿ غَيْرِ ﴾ وهي قراءة على كرم الله تعالى وجهه .

وابن عباس .

وأنس .

وعائشة ، وقد روتها هي وأم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، والأصل عمل عملاً غير صالح ، وبه قرء أيضاً كما روي عن عكرمة فحذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه ، وذلك شائع مطرد عند انكشاف المعنى وزوال اللبس ، وضعفه بعضهم هنا بأن العرب لا تكاد تقول : ﴿ عَمَلٌ غَيْرُ صالح ﴾ وإنما تقول عمل عملاً غير صالح ، وليس بشيء ، وأيد

بهذه القراءة كون ضمير إنه في القراءة الأولى لابن نوح لأنه فيها له قطعاً فيضعف ما قيل : إنه في الأولى لترك الركوب معهم والتخلف عنهم أي إن ذلك الترك ﴿ عَمَلٌ غَيْرُ صالح ﴾ على أنه خلاف الظاهر في نفسه كما لا يخفى .

ومثله في ذلك ما قيل : إنه لنداء نوح عليه السلام أي إن نداءك هذا ﴿ عَمَلٌ غَيْرُ صالح ﴾ وتخرج بذلك الجملة عن أن تكون تعليلاً لما تقدم ويفوتما في ذاك من الفائدة ولا يكون الكلام على مساق واحد ، نعم روي عن ابن عباس ما يقتضيه فقد أخرج ابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ عنه أنه قال : إن نساء الأنبياء عليهم السلام لا يزنين ، ومعنى الآية مسألتك إياي يا نوح ﴿ عَمَلٌ غَيْرُ صالح ﴾ لا أرضاه لك .

وفي رواية ابن جرير عنه سؤال ما ليس لك به علم عمل غير صالح ، ولعل ذلك لم يثبت عن هذا الحبر لأن الظاهر من الرواية الأولى أنه إنما جعل الضمير للمسألة دون ابن نوح لما في ذلك من نسبة الزنا إلى من لا ينسب إليه وهو رضي الله تعالى عنه أجل قدراً من أن يخفى عليه أنه لا يلزم من ذلك هذا المحذور ، ثم إنه لما كان دعاؤه عليه السلام مبنياً على كون كنعان من أهله وقد نفى ذلك وحقق ببيان علته فرع على ذلك النهي عن سؤال إنجائه إلا أنه جيء

بالنهي على وجه عام يندرج فيها ما ذكر اندراجاً أولياً فقال سبحانه: ﴿ فَلا ﴾ أي إذا وقفت على جلية الحال فلا تطلب مني ﴿ تَسْأَلْنِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي مطلباً لا تعلم يقيناً أن حصوله صواب وموافق للحكمة على تقدير كون ﴿ مَا ﴾ عبارة عن المسؤول الذي هو مفعول للسؤال أو طلباً لا تعلم أنه صواب على تقدير كونه عبارة عن المصدر الذي هو مفعول مطلق فيكون النهي وارداً بصريحه في كل من معلوم الفساد ومشتبه الحال قاله شيخ الإسلام، وجوز أن يكون ما ليس لك علم بأنه صواب أو غير صواب وهو الذي ذهب إليه القاضي فيكون النهي وارداً في مشتبه الحال ويفهم منه حال معلوم الفساد بالطريق الأولى، وأياً مّا كان فهو عام يندرج تحته ما نحن فيه كما ذكرنا، وسمي النداء سؤال لتضمنه إياه وإن لم يصرح به كما لا يخفى، وبه على ما نقل عن أبي علي إما متعلق بما يدل عليه العلم المذكور وإن لم يتسلط عليه كقوله:

ربيته حتى إذا تمعددا

كان جزائي بالعصا أن أجلدا...

وإما أن يتعلق بالمستقر في ذلك وكذا الكلام فيما سيأتي إن شاء الله تعالى ، والآية ظاهرة في أن نداءه عليه السلام لم يكن استفساراً عن سبب عدم إنجائه مع تحقق سبب الإنجاء فيما عنده كما جوزه القاضي بناءاً على أنه كان بعد الفرق بل هو دعاء منه عليه السلام لانجاء ابنه حين حال الموج بينهما ولم يعلم بهلاكه بعد إما بتقريبه إلى الفلك بتلاطم الأمواج مثلاً أو بتقريبها إليه ، وقيل : أو بإنجائه بسبب آخر ويأباه تذكير الوعد في الدعاء فإنه مخصوص بالإنجاء في الفلك ، ومجرد حيلولة الموج لا يستوجب الهلاك فضلاً عن العلم به لظهور إمكان عصمة لله تعالى عليه إياه برحمته ، وقد وعده بإنجاء أهله ولم يعتقد أن فيه مانعاً من الانتظام في سلكهم لمكان النفاق وعدم المجاهرة بالكفر لما في ذلك لفظاً من الاحتياج إلى القول بالحذف والايصال ، ومعنى من أن النهي عن الاستفسار عما لا يعلم غير موافق للحكمة إذ عدم العلم بالشيء داع إلى الاستفسار عنه لا إلى تركه .

وقيل : إن السؤال عن موجب عدم النجاة مع ما فيه من الجرأة ، وشبه الاعتراض فيه أنه تعين له عليه السلام أنه من المستثنين بهلاكه فهو غير سديد كيف ونداؤه ذاك مما يقطر منه الاستعطاف .

وقيل : إن النهي إنما هو عن سؤال ما لا حاجة إليه إما لأنه لا يهمّ أو لأنه قامت القرائن على حاله لا عن السؤال للاسترشاد فلا ضير إذن في كلام القاضي وهو كما ترى .

ولا يصلح العطار ما أفسد الدهر . . .

(64/379)

فالحق أن ذلك مسألة الانجاء ، وكان قبل تحقق الغرق عند رؤية المشارفة عليها ولم يكن عالماً بكفره إذ ذاك لأنه لم يكن مجاهراً به وإلا لم يدع له بل لم يدعه أيضاً ﴿ وَلاَ تَكُن مَّعَ الكافرين ﴾ [هود : 24] لا يدل على أنه كافر عنده بل هو نهي عن الدخول في غمارهم ، وقطع بأن ذلك يوجب الغرق على الطريق البرهاني كما قدمنا ، وكأنه عليه السلام حمل مقاولته على غير المكابرة والتعنت لغلبة المحبة وذهوله عن إعطاء التأمل حقه فلذلك طلب ما طلب ، فعوتب بأن مثله في معرض الإرشاد والقيام بأعباء الدعوة تلك المدة المتطاولة لا ينبغي أن يشتبه عليه كلام المسترشد والمعاند ، ويرجع هذا إلى ترك الأولى ، وهو المراد بقوله سبحانه : ﴿ إِنّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ .

(65/379)

وذكر شيخ الإسلام أن اعتزاله قصده الالتجاء إلى الجبل ليس بنص في الإصرار على الكفر لظهور جواز أن يكون ذلك لجهله بانحصار النجاة في الفلك ، وزعمه أن الجبل أيضاً يجري

مجراه أو لكراهة الاحتباس في الفلك بل قوله : ﴿ سَاوِى إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الماء ﴾ [هود : 43] بعد ما قال له نوح ﴿ وَلَا تَكُن مَّعَ الكافرين ﴾ ربما يطمعه عليه السلام في إيمانه حيث لم يقل أكون معهم أو سنأوي أو يعصمنا فإن إفراد نفسه بنسبة الفعلين المذكورين ربما يشعر بانفراده من الكافرين واعتزاله عنهم وامتثاله ببعض ما أمره به نوح عليه السلام إلا أنه عليه السلام لو تأمل في شأنه حق التأمل وتفحص عن أحواله في كل ما يأتي وما يذر لما اشتبه عليه أنه ليس بمؤمن وأنه مستثنى من أهله ولذلك قيل له : ﴿ إِنِّى ﴾ الخ ، وهو ظاهر في أن مدار العتاب الاستباه كما ذكرنا ، وإليه ذهب الزمخشري قال : إن الله تعالى قدم إليه عليه السلام الوعد بانجاء أهله مع استثناء من سبق عليه القول منهم فكان عليه أن يعتقد أن في الجملة من هو مستوجب للعذاب لكونه غير صالح وأن كلهم ليسوا بناجين وأن لا تخالجه شبهة حين شارف ولده الغرق في أنه من المستثنين لا من المستثني منهم فعوتب على أن اشتبه عليه ما يجب أن لا يشتبه ، وكأنه أراد أن الاستثناء دل على أن المعنى المعتبر الصلاح لا القرابة فكان ينبغي أن يجعله الأصل ويتفحص في الأهل عن وجوده ، وأن يجعل كلهم سواسية في استحقاق العذاب إلا من علم صلاحه وإيمانه لا أن يجعل كونه من الأهل أصلاً فيسأل إنجاءه مع الشك في إيمانه فقد قصر فيما كان عليه بعض التقصير وأولى العزم مؤاخذون بالنقير والقطمير وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، وابن المنير لم يرض كون ذلك عتاباً قال : وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه يعتقد أن نوحاً عليه السلام صدر منه

ما أوجب نسبة الجهل إليه ومعاتبته على ذلك وليس الأمر كما تخيله ، ثم قال : ونحن نوضح أن الحق في

(66/379)

الآية منزلاً على نصها مع تبرئة نوح عليه السلام مما توهم الزمخشري نسبته إليه فنقول : لما وعد عليه السلام بتنجية أهله إلا من سبق عليه القول منهم ولم يكن كاشفاً لحال ابنه ولا مطلعاً على باطن أمره بل كان معتقداً بظاهر الحال أنه مؤمن بقي على التمسك بصيغة العموم للأهلية الثابتة ولم يعارضها يقين في كفر ابنه حتى يخرج من الأهل ويدخل في المستثنين فسأل الله تعالى فيه بناءاً على ذلك فبين له أنه في علمه من المستثنين وأنه هو لا علم له بذلك فلذلك سأل فيه ، وهذا بأن يكون إقامة عذر أولى منه من أن يكون عتباً فإن نوحاً عليه السلام لا يكلفه الله تعالى علم ما استأثر به غيباً ؛ وأما قوله سبحانه : ﴿ إِنِّى أَعِظُكَ ﴾ الخ فالمراد النهي عن وقوع السؤال في المستقبل بعد أن أعلمه سبحانه باطن أمره وأنه إن وقع في المستقبل في السؤال كان من الجاهلين ، والغرض من ذلك تقديم ما يبقيه عليه السلام على سمت العصمة ، والموعظة لا تستدعي وقوع ذنب بل المقصد منها أن لا يقع الذنب في الاستقبال ولذلك امتثل عليه السلام ذلك واستعاذ بالله سبحانه أن يقع منه ما نهى عنه بم

كما يدل عليه قوله سبحانه :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ ولا يخفي سقوطه على ما علمت وهو خلاف الظاهر جداً ، وقد جاء عن الفضيل بن عياض أنه قال : بلغني أن نوحاً عليه السلام بكى عن قول الله تعالى له ما قال أربعين يوماً ، وأخرج أحمد في الزهد عن وهيب بن الورد الحضرمي قال : لما عاتب الله تعالى نوحاً في ابنه وأنزل عليه ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ ﴾ [هود : 46] بكى ثلثمائة عام حتى صار تحت عينيه مثل الجدول من البكاء .

(67/379)

وزعم الواحدي أن السؤال قبل الغرق ومع العلم بكفره ، وذلك أن نوحاً عليه السلام لم يعلم أن سؤاله ربه نجاة ولده محظور عليه مع إصراره على الكفر حتى أعلمه الله تعالى ذلك ، واعترض بأنه إذا كان عالماً بكفره مع التصريح بأن في أهله من يستحق العذاب كان طلب النجاة منكراً من المناكير فتدبر ، والظاهر على ما قررنا أن قوله : ﴿ رَبِّ ﴾ الخ توبة مما وقع منه عليه السلام وما هنا أيضاً عبارة إما عن المسؤول أو عن السؤال أي أعوذ بك أن أطلب منك من بعد مطلوباً لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة أو طلباً لا أعلم أنه صواب سواء كان معلوم الفساد أو مشتبه الحال ، أو لا أعلم أنه صواب أو غير صواب ، ولم يقل

أعوذ بك منك أو من ذلك مبالغة في التوبة وإظهاراً للرغبة والنشاط فيها وتبركا بذكر ما لقنه الله تعالى وهو أبلغ من أن يقول: أتوب إليك أن أسألك لما فيه من الدلالة على كون ذلك أمراً هائلاً محذوراً لا محيص منه إلا بالعوذ بالله تعالى وأن قدرته عليه السلام قاصرة عن النجاة من المكاره إلا بذلك كما في إرشاد العقل السليم، واحتمال أن يكون فيه رد وإنكار نظير ما في [البقرة : 67] من قول موسى عليه السلام ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ مما لا يكاد يمر بفكر أحد من الجاهلين.

هذا وفي مصحف ابن مسعود ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ أن تسألني، ورجح به كون ضمير ﴿ أَنَّهُ ﴾ في القراءة المتواترة للنداء المتضمن للسؤال، وقرأ ابن كثير ﴿ فَلَا تَسْأَلَنِّي ﴾ بفتح اللام وتشديد النون مفتوحة وهي قراءة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وكذا قرأ نافع.

وابن عامر غير أنهما كسرا النون على أن أصله تسألنني فحذفت نون الوقاية لاجتماع النونات وكسرت الشديدة للياء ثم حذفت الياء اكتفاءاً بالكسرة، وقرأ أبو جعفر.

وشيبة.

وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما كذلك إلا أنهم أثبتوا الياء بعد النون وأمره ظاهر، وقرأ الحسن.

وابن أبي مليكة ﴿ تَسْأَلْنِى ﴾ من غير همز من سال يسال فهما يساولان ، وهي لغة سائرة ، وقرأ باقي السبعة بالهمز وإسكان اللام وكسر النون وتخفيفها .

وأثبت الياء في الوصل ورش .

وأبو عمرو ، وحذفها الباقون ﴿ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِى ﴾ ما صدر عني من السؤال المذكور ﴿ وَتَرْحَمْنِى ﴾ بقبول توبتي ﴿ أَكُن مّنَ الخاسرين ﴾ أعمالاً بسبب ذلك وتأخير ذكر هذا عن حكاية الأمر الوارد على الأرض والسماء وما يتلوه مع أن حقه أن يذكر عقيب قوله سبحانه : ﴿ فَكَانَ مِنَ المغرقين ﴾ [هود : 43] حسبما وقع في الخارج على ما علمت من أن النداء كان لطلب الإنجاء قبل العلم بالهلاك قيل : ليكون على أسلوب قصة البقرة في سورتها دلالة على استقلال هذا المعنى بالغرض لما فيه من النكت من جعل قرابة الدين غامرة لقرابة النسب وأن لا يقدم في الأمور الدينية الأصولية إلا بعد اليقين ، وتعقب بالفرق بين ما هنا وما هناك عند من كان ذا قلب ، وما ذكر من جعل قرابة الدين غامرة لقرابة النسب الخ لا يفوت على تقدير سوق الكلام على ترتيب الوقوع أيضاً .

واختار بعض المحققين أن ذلك لأن ذكر هذا النداء كما ترى مستدع لما مر من الجواب المستدعي لذكر توبته عليه السلام المؤدي إلى ذكر قبولها في ضمن الأمر بهبوطه عليه السلام من الفلك بالسلام والبركات الفائضة عليه وعلى المؤمنين حسبما يجيء إن شاء الله تعالى ، ولا ريب أن هذه المعاني آخذ بعضها بحجرة بعض بحيث لا تكاد تفرق الآيات الكريمة المنطوية عليها بعضها من بعض وأن ذلك إنما يتم بتمام القصة ، وذلك إنما يكون بتمام الطوفان فلا جرم اقتضى الحال ذكر تمامها قبل هذا النداء وهو إنما يكون عند ذكر كون كنعان من المغرقين ، ولهذه النكتة ازداد حسن موقع الإيجاز البليغ ، وفيه فائدة أخرى هي التصريح بهلاكه من أول الأمر ولو ذكر النداء بعد ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود : 43] لربما توهم من أول الأمر إلى أن يرد أنه ليس من أهلك الخ أنه ينجو بدعائه فنص على هلاكه ، ثم ذكر القصة على وجه أفحم مصاقع البلغاء ، ثم تعرض لما وقع في تضاعيف ذلك مما جرى بين نوح عليه السلام ورب العزة جلت حكمته وعلت كلمته ، ثم ذكر بعد توبته عليه السلام قبولها

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ ﴾ الخ

وهو من الحسن بمكان ، وبنى الفعل لما لم يسم فاعله لظهور أن القائل هو الله تعالى ، وقيل : القائل الملائكة عليهم السلام والهبوط النزول قيل : أي أنزل من الفلك ، وقيل : من الجبل إلى الأرض وذلك أنه روي أن السفينة استوت على الجودى في عاشر ذي الحجة فأقام بمن معه

هناك شهراً ، ثم قليل له : اهبط فهبط بأرض الموصل وبنى قرب الجبل قرية يقال لها : قرية الثمانين عدد من في السفينة ، وفي رواية عن ابن عباس أنه بنى كل منهم بيتاً فسميت سوق الثمانين .

(70/379)

وأخرج ابن مردويه عن عمر رضي الله تعالى عنه قال : لما استقرت السفينة على الجودي لبث نوح عليه السلام ما شاء الله تعالى ، ثم إنه أذن له بالهبوط فهبط على الجبل فدعا الغراب فقال : ائتني بخبر الأرض ، فانحدر إلى الأرض وفيها الغرقى من قوم نوح فوقع على جيفة منهم فأبطأ عليه فلعنه ، ودعا الحمامة فوقفت على كفه فقال : اهبطي فأتني بخبر الأرض فانحدرت فلم تلبث قليلاً حتى جاءت تنفض ريشها بمنقارها فقالت : اهبط فقد أنبتت الأرض فقال نوح : بارك الله تعالى فيك وفي بيت يأويك وحببك إلى الناس ولولا أن يغلبك الناس على نفسك لدعوت الله سبحانه أن يجعل رأسك من الذهب ، والظاهر عندي أن الهبوط من الجودي الذي استقرت عليه السفينة إلى الأرض ، وليس في الكلام ما يستدعي أن يكون بعد الاستقرار بلا مهلة ليقال : إن ما تحت الجبل مغمور إذ ذاك بالماء ، والتعبير بالهبوط على هذا في غاية الظهور ، ولعل ذلك على أن يكون المراد من السفينة

لمكان الركوب ، وخبر الحمامة .

والغراب قد طار في الآفاق وأولع به القصاصون ، والله تعالى أعلم بصحته ، وغالب الظن أنه لم يصح ، وكذا اشتهر خبر قرية الثمانين في أرض الموصل وأنها لما ضاقت عليهم تحولوا إلى باب فبنوها .

وأخرج ابن عساكر عن كعب الأحبار أنه قال : أول حائط وضع على وجه الأرض بعد الطوفان حائط حران ودمشق ثم بابل .

(71/379)

وقرىء ﴿ اهبط ﴾ بضم الباء ﴿ بسلام ﴾ أي ملتبساً بسلامة مما تكره كائنة ﴿ مِنَّا ﴾ أي من جهتنا ، ويجوز أن يكون السلام بمعنى التسليم والتحية أي مسلماً عليك من جهتنا ﴿ وبركات عَلَيْكَ ﴾ أي خيرات نامية في نسلك وما يقوم به معاشك ومعاشهم من أنواع الأرزاق ، أو مباركاً عليك أي مدعواً لك بالبركة بأن يقال : بارك الله تعالى فيك وهو مناسب لكون السلام بمعنى التسليم فيكون كقوله : السلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته ، وأصل البرك كما قال الراغب صدر البعير يقال : برك البعير إذا ألقى بركه ، واعتبر فيه اللزوم ولذا سمي محتبس الماء بركة ، والبركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء سمي بذلك لثبوت

الخير فيه ثبوت الماء في البركة .

ولما كان الخير الإلهي يصدر على وجه لا يحس ولا يحصى قيل لكل ما يشاهد فيه زيادة غير محسوسة : هو مبارك وفيه بركة ، ولما في ذلك من الإشعار باللزوم وكونه غير محسوس اختص تبارك بالاستعمال في الله تبارك وتعالى كما قيل ، وفي "الكشف" كل شيء ثبت وأقام فقد برك وأخذ بروك البعير منه ، ثم البرك بمعنى الصدر من الثاني لأنه آلة بروكه أظهر ، وحكى عبد العزيز بن يحيى عن الكسائي أنه قرأ وبركة بالتوحيد ، وفي الآية على القراءتين صنعة الاحتباك لأنه حذف من الثاني ما ذكر في الأول ، وذكر فيه ما حذف من الأول ، والتقدير سلام منا عليك وبركات ، أو وبركة منا عليك ، وهذا منه تعالى إعلام وبشارة بقبول توبته عليه السلام وخلاصة من الخسران مع الإشارة إلى عود الأرض إلى حالها من الإنبات وغيره ﴿ وعلى أُمَمٍ ﴾ ناشئة ﴿ مّمَّن مَّعَكَ ﴾ متشعبة منهم فمن ابتدائية ، والمراد الأمم المؤمنة المتناسلة ممن معه إلى يوم القيامة ، والمراد ممن معه أولاده من إطلاق العام وإرادة الخاص بناءاً على ما قيل : إنه لم يعقب غيرهم ، فالناس كلهم على هذا من نسل نوح عليه السلام ؛ ومن هنا سمي عليه السلام آدم الثاني .

وآدم الأصغر ، واستدل لذلك بقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ [الصافات : 77] وقد يقال ببقاء من على عمومه بناءاً على ما عليه أكثر المفسرين من عدم اختصاص النسل بأولاده عليه السلام بل لمن معه نسل باق أيضاً ، والكلام في استدلال الأولين سيأتي إن شاء الله تعالى ، وقوله سبحانه : ﴿ وَأُمَمٌ ﴾ بالرفع وهو على ما ذهب إليه الزمخشري مبتدأ ، وجملة قوله تعالى : ﴿ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ صفته ، والخبر محذوف أي ومنهم أمم ، وساغ ذلك لدلالة ما سبق عليه فإن إيراد الأمم المبارك عليهم المتشعبة منهم نكرة يدل على أن بعض من يتشعب منهم ليسوا على صفتهم ، والمعنى ليس جميع من يتشعب منهم مشاركاً له في السلام والبركات بل منهم أمم يمتعون في الدنيا ﴿ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ ﴾ فيها أو في الآخرة أو فيهما ﴿ مّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وجوز أبو حيان أن يكون ﴿ أُمَمٌ ﴾ مبتدأ محذوف الصفة وهي المسوغة للابتداء بالنكرة ، والتقدير وأمم منهم ، وجملة ﴿ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ هو الخبر كما قالوا : السمن منوان بدرهم ، وأن يكون مبتدأ ولا يقدر له صفة والخبر أيضاً ﴿ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ ومسوغ الابتداء كون المكان مكان تفصيل فكان مثل قول الشاعر

إذا ما بكى من خلفها انحرفت له . . .

بشق وشق عندنا لم يحول

وقول القرطبي : إنه ارتفع ﴿ أُمَمٌ ﴾ على معنى ويكون أمم إن أراد به تفسير معنى فحسن وإن أراد الإعراب فليس بجيد لأن هذا ليس من مواضع إضمار يكون ، وقال الأخفش :

هذا كما تقول : كلمت زيداً .

وعمرو جالس يحتمل أن يكون من باب العطف ، ويحتمل أن يكون الواو للحال وتكون الجملة هنا حالاً مقدرة لأن وقت الأمر بالهبوط لم تكن تلك الأمم موجودة .

(73/379)

وقال أبو البقاء : إن ﴿ أُمَمٌ ﴾ معطوف على الضمير في ﴿ اهبط ﴾ والتقدير اهبط أنت وأمم وكان الفصل بينهما مغنياً عن التأكيد ، و﴿ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ نعت لأمم ، وفيه إن الذين كانوا مع نوح عليه السلام في السفينة كلهم مؤمنون لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ ءامَنَ ﴾ [هود : 40] ولم يكونوا قسمين كفاراً ومؤمنين ليؤمر الكفار بالهبوط معه اللهم إلا أن يلتزم أن من أولئك المؤمنين من علم الله سبحانه أنه يكفر بعد الهبوط فأخبر عنهم بالحالة التي يؤولون إليها وفيه بعد .

وجوز أن تكون من في ﴿ مّمَّن مَّعَكَ ﴾ بيانية أي وعلى أمم هم الذين معك ، وسموا أمماً لأنهم أمم متحزبة وجماعات متفرقة أو لأن جميع الأمم إنما تشعبت منهم فهم أمم مجازاً فحينئذٍ يكون المراد بالأمم المشار إليهم في قوله سبحانه : ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ بعض الأمم المتشعبة منهم وهي الأمم الكافرة المتناسلة منهم إلى يوم القيامة .

وفي "الكشاف" إن الوجه هو الأول قيل : ليقابل قوله تعالى : ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ ولأنه أشمل ولأن من الابتدائية لا سيما في المنكر أكثر وللنكتة في إدخال الناشئين في المسلم عليهم ، وقطع الممتعين عنهم من الدلالة على ما صرح به في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالح ﴾ [هود : 46] ولهذه النكتة حذف منهم في الثاني ، واكتفى بسلام نوح عليه السلام عن سلام مؤمني قومه لأن النبي زعيم أمته وكفاهم هذا التعظيم والاتحاد معه عليه السلام ، فلا يرد أن الحمل على البيانية أرجح لئلا يلزم أن لا يكون مسلماً عليهم على أن لفظ الأمم في الإطلاق على من معه بأحد الاعتبارين لا فخامة فيه لأن تسمية الجماعة القليلة بالأمة لا يناسب فكيف بالأمم ، ولا مبالغة في هذا المقام فيه فلا يعدل عن الحقيقة ، وإن جعل من باب ﴿ إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل : 120] لم يلائم تفخيم نوح عليه السلام ، وقد ذكر أنه يبقى على البيانية أمر الأمم المؤمنة الناشئة من الذين معه عليه السلام مبهماً غير متعرض له ولا مدلول عليه إلا أن يقال : حيث كان المراد بمن معك المؤمنين يعلم أن المشاركين لهم في وصف الإيمان مثلهم فيما تقدم ، نعم قيل : إن في دلالة المذكور على الخبر المحذوف على ذلك الوجه خفاءاً لأن من المذكورة بيانية ، والمحذوفة تبعيضية .

أو ابتدائية ، وربما يجاب عنه أيضاً بإلزام أن لا حذف أصلاً كما هو أحد الأوجه التي ذكرناها آنفاً فتدبر جميع ما ذكر .

والمأثور عدم تخصيص الأمم في الموضعين بمؤمنين معينين وكافرين كذلك ، فقد أخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

(75/379)

وغيرهما عن محمد القرظي قال : دخل في ذلك السلام والبركات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ودخل في ذلك المتاع والعذاب الأليم كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة ، وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أنه قال في الآية ما زال الله تعالى يأخذ لنا بسهمنا وحظنا ويذكرنا من حيث لا نذكر أنفسنا كلما هلكت أمة خلقنا في أصلاب من ينجو بلطفه حتى جعلنا في خير أمة أخرجت للناس ، وقيل : المراد بالأمم الممتعة قوم هود .

وصالح .

ولوط .

وشعيب عليهم السلام ، وبالعذاب ما نزل بهم ، وبالغ بعضهم في عموم الأمم في الأول فجعلها

شاملة لسائر الحيوانات التي كانت معه عليه السلام فإن الله تعالى جعل فيها البركة وليس بشيء كما لا يخفى ، وههنا لطيفة وهي أنه قد تكرر في هذه الآية حرف واحد مرات مع غاية الخفة ولم تتكرر الراء مثله في قوله

: وقبر حرب بمكان قفر . . .

وليس قرب قبر حرب قبر

ومع ما ترى فيه من غاية الثقل وعسر النطق ، ولله تعالى شأن التنزيل ما أكثر لطائفه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(76/379)

وقال القاسمى :

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ ﴾

أي : انزل من السفينة : ﴿ بِسَلَامٍ مِّنَّا ﴾ أي : سلامة : ﴿ وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ أي : في السفينة على دينك وطريقتك إلى آخر الزمان : ﴿ وَأُمَمٌ ﴾ أي : ومنهم أمم : ﴿ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ أي : في الحياة الدنيا لاحتجابهم بها : ﴿ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : في الدنيا ، أو في الآخرة ، أو فيهما .

لطيفة :

ذهب العلماء ، في الطوفان ، مذاهب شتى . فالأكثرون على أنه عمَّ الأرض بأسرها ، ومن ذاهب إليه أنه لم يعم إلا الأرض المأهولة وقتئذ بالبشر ، ومن جانح إلى أنه لم يعمها كلها ولم يهلك البشر كلهم . ولكل فريق حجج يدعم بها مذهبه :

قال تقي الدين المقريزي في " الخطط " : إن جميع أهل الشرائع أتباع الأنبياء من المسلمين واليهود والنصارى قد أجمعوا على أن نوحاً هو الأب الثاني للبشر ، وأن العقب من آدم عليه السلام انحصر فيه ، ومنه ذرأ الله جميع أولاد آدم ، فليس أحد من بني آدم إلا وهو من أولاد نوح ، وخالفت القبط والمجوس وأهل الهند والصين ذلك ، فأنكروا الطوفان . وزعم بعضهم أن الطوفان إنما حدث في إقليم بابل وما وراءه من البلاد الغربية فقط ، وأن أولاد (كيومرت) الذي هم عندهم (الإنسان الأول) كانوا بالبلاد الشرقية من بابل ، فلم يصل الطوفان إليهم ، ولا إلى الهند والصين ، والحق ما عليه أهل الشرائع ، وأن نوحاً عليه السلام لما أنجاه الله ومن معه بالسفينة ، نزل بهم ، وهم ثمانون رجلاً سوى أولاده ، فماتوا بعد ذلك ، ولم يعقبوا ، وصار العقب من نوح في أولاده الثلاثة ، ويؤيد هذا قول الله تعالى عن نوح : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ [الصافات : 77] ونحوه في الكامل لابن الأثير .

(77/379)

وقال ابن خلدون : اتفقوا على أن الطوفان الذي كان في زمن نوح وبدعوته ذهب بعمران الأرض أجمع ، بما كان من خراب المعمور ، وهلك الذين ركبوا معه في السفينة ، ولم يعقبوا فصار أهل الأرض كلهم من نسله ، وعاد أباً ثانياً للخليقة – انتهى .

قال بعضهم (في تقرير عموم الطوفان ، مبرهناً عليه) إن مياه الطوفان قد تركت آثاراً عجيبة في طبقات الأرض الظاهرة ، فيشاهد في أماكن رواسب بحرية ممتزجة بالأصداف ، حتى في قمم الجبال ، ويرى في السهول والمفاوز بقايا حيوانية ونباتية مختلطة بمواد بحرية ، بعضها ظاهر على سطحها ، وبعضها مدفون على مقربة منه ، واكتشف في الكهوف عظام حيوانية متخالفة الطباع ، بعيدة الائتلاف ، معها بقايا آلات صناعية ، وآثار بشرية ، مما يثبت أن طوفاناً قادها إلى ذاك المكان ، وجمعها قسراً فأبادها ، فتغلغلت بين طبقات الطين فتحجرت ، وظلت شهادة على ما كان ، بأمر الخالق تعالى – انتهى – .

وقد سئل مفتي مصر الإمام الشيخ محمد عبده عن تحقيق عموم الطوفان ، وعموم رسالة نوح ، فأجاب بما صورته :

أما القرآن الكريم فلم يرد فيه نص قاطع على الطوفان ، ولا عموم رسالة نوح عليه السلام ، وما ورد من الأحاديث ، على فرض صحة سنده فهو آحاد لا يوجب اليقين . والمطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن ، إذا عد اعتقادها من عقائد الدين . وأما المؤرخ ، ومريد الإطلاع فله أن يحصل من الظن ما ترجحه عنده ثقته بالراوي أو المؤرخ ، أو صاحب الرأي . وما يذكره المؤرخون والمفسرون في هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرواية ، أو عدم الثقة بها ، ولا يتخذ دليلاً قطعياً على معتقد ديني . أما مسألة عموم الطوفان في نفسها ، فهي موضوع نزاع بين أهل الأديان ، وأهل النظر في طبقات الأرض ، وموضوع خلاف بين مؤرخي الأمم . فأهل الكتاب وعلماء الأمة الإسلامية ؛ على أن الطوفان كان عاماً لكل الأرض ، ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر ، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة في أعالي الجبال ؛ لأن هذه الأشياء مما لا يتكون إلا في البحر ، فظهورها في رؤوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات ، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عم الأرض . ويزعم غالب أهل النظر من المتأخرين أن الطوفان لم يكن عاماً ، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها ، غير أنه لا يجوز لشخص مسلم أن ينكر قضية أن الطوفان كان عاماً ، لمجرد حكايات عن أهل الصين ، أو لمجرد احتمال التأويل في آيات الكتاب العزيز ، بل على كل من يعتقد بالدين ألا ينفي شيئاً مما يدل عليه ظاهر الآيات والأحاديث التي صح سندها ، وينصرف عنها إلى التأويل إلا بدليل

عقلي يقطع بأن الظاهر غير مراد ، والوصول إلى ذلك في مثل هذه المسألة يحتاج إلى بحث طويل وعناء شديد وعلم غزير في طبقات الأرض وما تحتوي عليه ، وذلك يتوقف على علوم شتى ، نقلية وعقلية . ومن هدي برأيه بدون علم يقيني فهو مجازف ، ولا يسمع له قول ، ولا يسمح له ببث جهالاته ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(79/379)

واستظهر بعضهم أن الطوفان كان عاماً ، إذ لم يكن العمران قائماً إلا بقوم نوح ، فكان عاماً لهم ، وإن كان من جهة خاصاً بهم ؛ إذ ليس ثمَّ غيرهم ، قال :

هبط آدم إلى الأرض وهو ليس بأمة ، إذا مضت عليها قرون ولدت أمماً ، بل هو واحد تمضي عليه السنون ، بل القرون ، ونمو عشيرته لا يكاد يكون إلا كما يتقلص الظل قليلاً قليلاً من آدم إلى نوح ثمانية آباء ، فإن كان ثمانية آباء يعطون من الذرية أضعافاً وآلافاً ، حتى يطؤوا وجه الأرض بالأقدام ، وينشروا العمران في تلك الأيام ، فتلك قضية من أعظم ما يذكره التاريخ أعجوبة للعالمين ! أما تلك الجبال التي وجدت فوقها عظام الأسماك ، فإن كانت مما وصل إليه الطوفان من المكان الخاص الذي سبق به البيان ؛ فلا برهان . وإن كانت في غير ذلك المكان ، فإن لم يكن وضعها إنسان ، كما وجدها إنسان ؛ كان نقل الجوارح والكواسر

لتلك العظام ، إلى تلك الجبال مما يسوغه الإمكان . بهذا وبغيره مما لا يغيب عن الأفهام تعلم أن الطوفان خاص عام : خاص بمكان ، عام سائر المكان – والله أعلم – . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 108.106 ﴾

(80/379)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾

موقع الآية يقتضي أنّ نداء نوح عليه السّلام هذا كان بعد استواء السفينة على الجوديّ نداءً دَعاه إليه داعي الشفقة فأراد به نفع ابنه في الآخرة بعد اليأس من نجاته في الدّنيا ، لأنّ الله أعلمه أنّه لا نجاة إلاّ للّذين يركبون السّفينة ، ولأنّ نوحاً عليه السّلام لمّا دعا ابنه إلى ركوب السّفينة فأبى وجرت السفينة قد علم أنه لا وسيلة إلى نجاته فكيف يسألها من الله فتعيّن أنّه سأل له المغفرة ، ويدلّ لذلك قوله تعالى : ﴿ فلا تسألنّي ما ليس لك به علم ﴾ كما سيأتي .

ويجوز أن يكون دعاء نوح عليه السّلام هذا وقع قبل غرق النّاس ، أي نادى ربّه أن ينجي ابنه من الغرق .

ويجوز أن يكون بعد غرق من غرقوا ، أي نادى ربّه أن يغفر لابنه وأن لا يعامله معاملة الكافرين في الآخرة .

والنّداء هنا نداء دعاء فكأنّه قيل : ودعا نوح ربّه ، لأنّ الدعاء يصدّر بالنّداء غالباً ، والتّعبير عن الجلالة بوصف الربّ مضافاً إلى نوح عليه السلام تشريف لنوح وإيماء إلى رأفة الله به وأن نهيه الوارد بعده نهيُ عتاب .

وجملة ﴿ فقال ربّ إنّ ابني من أهلي ﴾ بيان للنّداء ، ومقتضى الظّاهر أنْ لا تعطف بفاء التفريع كما لم يعطف البيان في قوله تعالى : ﴿ إذْ نادى ربّه نداءً خفيّاً قال ربّ إنّي وهن العظم مني ﴾ [مريم : 3 ، 4] ، وخولف ذلك هنا .

(81/379)

ووجّه في "الكشاف" اقترانه بالفاء بأنّ فعل ﴿ نادى ﴾ مستعمل في إرادة النداء ، أي مثل فعل (قمتم) في قوله تعالى : ﴿ يأيها الّذينَ آمنوا إذا قمْتم إلى الصّلاة فاغْسلوا وجوهكم ﴾ [المائدة : 6] الآية ، يريد أن ذلك إخراج للكلام على خلاف مقتضى الظاهر فإنّ وجود الفاء في الجملة التي هي بيان للنداء قرينة على أن فعل ﴿ نادى ﴾ مستعار لمعنى إرادة النداء ، أي أراد نداءَ ربه فأعقب إرادته بإصدار النداء ، وهذا إشارة إلى أنه أراد

النداء فتردّد في الإقدام عليهِ لِما علم من قوله تعالى : ﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ [هود : 40] فلم يطل تردّده لمّا غلبته الشفقة على ابنه فأقدم على نداء ربه ، ولذلك قدم الاعتذار بقوله : ﴿ إنّ ابني من أهلي ﴾ .

فقوله : ﴿ إن ابني من أهلي ﴾ خبر مستعمل في الاعتذار والتمهيد لأنّه يريد أن يسأل سؤالاً لا يدري قبوله ولكنّه اقتحمه لأن المسؤول له من أهله فله عذر الشفقة عليه .

وتأكيد الخبر بـ ﴿ إنّ ﴾ للاهتمام به .

وكذلك جملة ﴿ وإنّ وعدك الحق ﴾ خبر مستعمل في لازم الفائدة .

وهو أنّه يعلم أن وعد الله حق .

والمراد بالوعد ما في قوله تعالى : ﴿ إلاّ من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ [المؤمنون : 37] إذ أفاد ذلك أن بعض أهله قد سبق من الله تقدير بأنّه لا يركب السفينة .

وهذا الموصول متعيّن لكونه صادقاً على ابنه إذ ليس غيره من أهله طَلب منه ركوب السفينة وأبى ، وأنّ من سبق علم الله بأنه لا يركب السفينة من الناس فهو ظالم ، أي كافر ، وأنه مغرق ، فكان عدم ركوبه السفينة وغرقه أمارة أنه كافر .

فالمعنى : أن نوحاً عليه السّلام لا يجهل أنّ ابنه كافر ، ولذلك فسؤال المغفرة له عن علم بأنه

كافر ، ولكنّه يطمع لعل الله أن يعفو عنه لأجل قرابته به ، فسؤاله له المغفرة بمنزلة الشفاعة له عند الله تعالى ، وذلك أخذ بأقصى دواعي الشفقة والرحمة بابنه .

(82/379)

وقرينة ذلك كله قوله : ﴿ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ المفيد أنه لا رادّ لما حكم به وقضاه ، وأنه لا دالة عليه لأحد من خلقه ، ولكنه مقام تضرّع وسؤال ما ليس بمحال .

وقد كان نوح عليه السّلام غيرَ منهيّ عن ذلك ، ولم يكن تقرر في شرعه العلم بعدم المغفرة للكافرين ، فكان حال نوح عليه السّلام كحال النبي صلى الله عليه وسلم حين قال لأبي طالب " لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك " قَبل أن ينزل قوله تعالى : ﴿ ما كان للنبيء والذين آمنوا أن يستَغفروا للمشركين ﴾ [التوبة : 113] الآية .

والاقتصار على هذه الجمل الثلاث في مقام الدعاء تعريض بالمطلوب لأنه لم يذكره ، وذلك ضرب من ضروب التأدب والتردد في الإقدام على المسؤول استغناء بعلم المسؤول كأنّه يقول : أسألك أم أترك ، كقول أميّة بن أبي الصلت :

أأذكر حَاجتي أم قد كفاني . . .

حَياؤك أن شيمتك الحياء

ومعنى ﴿ أحكم الحاكمين ﴾ أشدهم حكْماً .

واسم التفضيل يتعلق بماهية الفعل ، فيفيد أن حكمه لا يجورُ وأنّه لا يبطله أحد .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ إنّه ليس من أهلك ﴾ نفي أن يكون من أهل دينه واعتقاده ، فليس ذلك إبطالاً لقول نوح عليه السّلام : ﴿ إن ابني من أهلي ﴾ ولكنّه إعلام بأنّ قرابة الدين بالنسبة لأهل الإيمان هي القرابة ، وهذا المعنى شائع في الاستعمال .

قال النابغة يخاطب عيينة بن حصن :

إذا حاولت في أسد فجوراً . . .

فإني لست منك ولست منّي

وقال تعالى : ﴿ ويحلفون بالله إنّهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قومٌ يفرقون ﴾ [التوبة : 56] .

وتأكيد الخبر لتحقيقه لغرابته .

وجملة ﴿ إنّه عَمل غير صالح ﴾ تعليل لمضمون جملة ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ ف (إنّ) فيه لمجرد الاهتمام .

و ﴿ عَمَلٌ ﴾ في قراءة الجمهور بفتح الميم وتنوين اللام مصدر أخبر به للمبالغة وبرفع ﴿ غيرُ ﴾ على أنه صفة (عمل) .

وقرأه الكسائي ، ويعقوب ﴿ عَمِلَ ﴾ بكسر الميم بصيغة الماضي وبنصب ﴿ غيرَ ﴾ على المفعولية لفعل (عمل) .

(83/379)

ومعنى العمل غير الصالح الكفر ، وأطلق على الكفر (عمل) لأنه عمل القلب ، ولأنّه يظهر أثره في عمل صاحبه كامتناع ابن نوح من الركوب الدال على تكذيبه بوعيد الطوفان .

وتفرع على ذلك نهيه أن يَسأل ما ليس له به علم نهيَ عتاب ، لأنّه لما قيل له ﴿ إنّه ليس من أهلك ﴾ بسبب تعليله بأنه عمل غير صالح ، سقط ما مهد به لإجابة سؤاله ، فكان حقيقاً بأن لا يسأله وأن يتدبّر ما أرَاد أن يسأله من الله .

وقرأه نافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر "فلا تسألنّي" بتشديد النون وهي نون التوكيد الخفيفة ونون الوقاية أدغمتا .

وأثبتَ ياء المتكلم من عدا ابنَ كثير من هؤلاء .

أما ابن كثير فقرأ "فلا تسألنّ" بنون مشددة مفتوحة .

وقرأه أبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، ويعقوب ، وخلف "فلا تسألْنِ" بسكون اللام وكسر النون مخففة على أنّه غير مؤكد بنون التوكيد ومعدى إلى ياء المتكلم .

وأكثرهم حذف الياء في حالة الوصل، وأثبتها في الوصل ورش عن نافع وأبو عمرو.

ثم إن كان نوح عليه السّلام لم يسبق له وحي من الله بأن الله لا يغفر للمشركين في الآخرة كان نهيه عن أن يسأل ما ليس له به علم، نهيَ تنزيه لأمثاله لأن درجة النبوءة تقتضي أن لا يقدم على سؤال ربه سؤْلاً لا يعلم إجابته.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ [سبأ: 23] وقوله: ﴿ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ [النبأ: 38]، وإن كان قد أوحي إليه بذلك من قبل، كما دل عليه قوله: ﴿ وإنّ وعدكَ الحقُ ﴾، وكان سؤاله المغفرة لابنه طلباً تخصيصَه من العموم.

وكان نهيه نهيَ لوم وعتاب حيث لم يتبيّن من ربه جواز ذلك.

وكان قوله: ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ محتملاً لظاهره، ومحتملاً لأن يكون كناية عن العلم بضده، أي فلا تسألني ما علمت أنه لا يقع.

(84/379)

ثم إن كان قول نوح عليه السّلام ﴿ إنّ ابني من أهلي ﴾ إلى آخره تعريضاً بالمسؤول كان النّهي في قوله: ﴿ فلا تسألّني ما ليس لك به علم ﴾ نهياً عن الإلحاح أو العود إلى سؤاله؛

وإن كان قول نوح عليه السّلام مجرد تمهيد للسؤال لاختبار حال إقبال الله على سؤاله كان قوله تعالى : ﴿ فلا تسألّني ﴾ نهياً عن الإفضاء بالسؤال الذي مَهّد له بكلامه .

والمقصود من النهي تنزيهه عن تَعريض سؤاله للردّ .

وعلى كل الوجوه فقوله : ﴿ إني أعظك أن تكون من الجاهلية ﴾ موعظة على ترك التثبّت قبل الإقدام .

والجهل فيه ضد العلم ، وهو المناسب لمقابلته بقوله : ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ .

فأجاب نوح عليه السّلام كلام ربّه بما يدل على التنصّل ممّا سأل فاستعاذ أن يسأل ما ليس له به علم ، فإن كان نوح عليه السّلام أراد بكلامه الأول التعريض بالسؤال فهو أمر قد وقع فالاستعاذة تتعلق بتبعة ذلك أو بالعود إلى مثله في المستقبل ؛ وإن كان إنّما أراد التمهيد للسؤال فالاستعاذة ظاهرة ، أي الانكفاف عن الإفضاء بالسؤال .

وقوله : ﴿ وإلاّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾ طلب المغفرة ابتداء لأن التخلية مقدمة على التحلية ثم أعقبها بطلب الرحمة لأنّه إذا كان بمحل الرضى من الله كان أهلاً للرحمة .

وقد سلك المفسرون في تفسيرهم هذه الآيات مسلك كون سؤال نوح عليه السّلام سؤالاً لإنجاء ابنه من الغرق فاعترضتهم سبل وَعْرة متنائية ، ولقوا عناء في الاتصال بينها ، والآية بمعزل عنها ، ولعلنا سلكنا الجادة في تفسيرها .

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾

فصلت الجملة ولم تعطف لوقوعها في سياق المحاورة بين نوح عليه السّلام وربّه ، فإنّ نوحاً عليه السّلام لما أجاب بقوله : ﴿ ربّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ﴾ [هود : 47] إلى آخره خاطبه ربه إتماماً للمحاورة بما يسكّن جأشهُ .

(85/379)

وكان مقتضى الظاهر أن يقول : قال يا نوح اهبط ، ولكنه عدل عنه إلى بناء الفعل للنائب ليجيء على وتيرة حكاية أجزاء القصة المتقدمة من قوله : ﴿ وقيل يا أرض ابلعي . . . وقيل بعداً للقوم الظالمين ﴾ [هود : 44] فحصل بذلك البناء قضاء حق الإشارة إلى جزء القصة ، كما حصل بالفصل قضاء حق الإشارة إلى أن ذلك القول جزء المحاورة .

ونداء نوح عليه السّلام للتنويه به بين الملأ .

والهبوط : النزول .

وتقدم في قوله : ﴿ اهبطوا مصراً ﴾ في سورة [البقرة : 61] .

والمراد : النزول من السفينة لأنّها كانت أعلى من الأرض .

والسّلام : التحيّة ، وهو مما يخاطب بها عند الوداع أيضاً ، يقولون : اذهب بسلام ، ومنه

قول لبيد :

إلى الحول ثم اسْم السلام عليكما

وخطابه بالسلام حينئذٍ إيماء إلى أنه كان في ضيافة الله تعالى لأنه كان كافلاً له النجاة ، كما قال تعالى : ﴿ وحملناه على ذَات ألواحٍ ودُسرٍ تجري بأعيننا ﴾ [القمر : 13 ، 14] .

وأصْل السّلام : السّلامة ، فاستعمل عند اللقاء إيذاناً بتأمين المرء ملاقيه وأنّه لا يضمر له سوءاً ، ثم شاع فصار قولاً عند اللقاء للإكرام .

وبذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم الذين قالوا : السّلام على الله ، فقوله هنا : ﴿ اهبط بسلام ﴾ نظير قوله : ﴿ ادخلوها بسلام آمنين ﴾ [الحجر : 46] فإن السلام ظاهر في التحية لتقييده بـ (آمنين) .

ولو كان السّلام مراداً به السلامة لكان التقييد بـ (آمنين) توكيداً وهو خلاف الأصل .

و﴿ منا ﴾ تأكيد لتوجيه السّلام إليه لأنّ (من) ابتدائية ، فالمعنى : بسلام ناشىء من عندنا ، كقوله : ﴿ سلامٌ قولاً من ربٍ رحيمٍ ﴾ [يس : 58] .

وذلك كثير في كلامهم .

وهذا التأكيد يراد به زيادة الصلة والإكرام فهو أشدُّ مبالغة من الذي لا تذكر معه (من) .

والباء للمصاحبة ، أي اهبط مصحوباً بسلام منّا .

ومصاحبة السّلام الذي هو التّحية مصاحبة مجازية .

(86/379)

والبركات : الخيرات النامية ، واحدتها بركة ، وهي من كلمات التحية مستعملة في الدعاء .

ولما كان الداعون بلفظ التحيّة إنما يسألون الله بدعاء بعضهم لبعض فصدور هذا الدعاء من لدنه قائم مقام إجابة الدعاء فهو إفاضة بركات على نوح عليه السّلام ومن معه ، فحصل بذلك تكريمهم وتأمينهم والإنعام عليهم .

و(عليك) يتعلق (بسلام) و (بركات) وكذلك ﴿ وعلى أُمم ممن معك ﴾ .

والأمم : جمع أمة .

والأمة : الجماعة الكثيرة من الناس التي يَجمعها نسب إلى جدّ واحد .

يقال : أمّة العرب ، أو لغة مثل أمة الترك ، أو موطن مثل أمة أمريكا ، أو دين مثل الأمة الإسلامية ، ف ﴿ أمم ﴾ دال على عدد كثير من الأمم يكون بعد نوح عليه السّلام .

وليس الذين ركبوا في السفينة أمماً لقلة عددهم لقوله : ﴿ وما آمن معه إلاّ قليل ﴾ [هود :

40].

وتنكير ﴿ أمم ﴾ لأنّه لم يقصد به التعميم تمهيداً لقوله : ﴿ وأمم سنمتعهم ﴾ .

و(مِن) في ﴿ ممّن معك ﴾ ابتدائية ، و (مَن) الموصولة صادقة على الذين ركبوا مع نوح عليه السّلام في السفينة .

ومنهم ابناؤه الثلاثة .

فالكلام بشارة لنوح عليه السّلام ومن معه بأن الله يجعل منهم أمماً كثيرة يكونون محلّ كرامته وبركاته .

وفيه إيذان بأن يجعل منهم أمماً بخلاف ذلك ، ولذلك عطف على هذه الجملة قوله : ﴿ وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ .

وهذا النظم يقتضي أن الله بدأ نوحاً بالسلام والبركات وشرّك معه فيهما أمماً ناشئين ممن هم معه ، وفيهم الناشئون من نوح عليه السلام لأن في جملة من معه أبناءه الثلاثة الذين انحصر فيهم نسله من بعده .

فتعين أن الذين معه يشملهم السلام والبركات بادىء بدء قبل نسلهم إذ عُنون عنهم بوصف معية نوح عليه السّلام تنبيهاً على سبب كرامتهم .

وإذ كان التنويه بالناشئين عنهم إيماء إلى أن اختصاصهم بالكرامة لأجل كونهم ناشئين عن فئة مكرمة بمصاحبة نوح عليه السّلام، فحصل تنويه نوح عليه السّلام وصحبته ونسلهم بطريق إيجاز بديع.

وجملة ﴿ وأمم سنمتعهم ﴾ إلخ، عطف على جملة ﴿ اهبط بسلام منا ﴾ إلى آخرها، وهي استئناف بياني لأنّها تبيين لما أفاده التنكير في قوله: ﴿ وعلى أمم ممن معك ﴾ من الاحتراز عن أمم آخرين.

وهذه الواو تسمى استينافية وأصلها الواو العاطفة وبعضهم يرجعها إلى الواو الزائدة، ويجوز أن تكون الواو للتقسيم، والمقصود: تحذير قوم نوح من اتباع سبيل الذين أغرقوا، والمقصود من حكاية ذلك في القرآن التعريض بالمشركين من العرب فإنهم من ذرّيّة نوح ولم يتبعوا سبيل جدّهم، فأشعروا بأنّهم من الأمم التي أنبأ الله نوحاً بأنه سيمتعهم ثم يمسهم عذاب أليم.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ﴾ [الإسراء: 3] أي وكان المتحدث عنهم غير شاكرين للنعمة.

وإطلاق المس على الإصابة القوية تقدّم عند قوله تعالى: ﴿ وإن يمسسك الله بضرّ فلا كاشف له إلاّ هو ﴾ في [الأنعام: 17].

وذكر ﴿ منا ﴾ مع ﴿ يمسهم ﴾ لمقابلة قوله في ضدّه ﴿ بسلام منا ﴾ ليعلموا أنّ ما يصيب الأمة من الأحوال الزائدة على المعتاد في الخير والشر هو إعلام من الله بالرضى أو الغضب لئلا يحسبوا ذلك من سنة ترتب المسبّبات العادية على أسبابها ، إذ من حق الناس أن يتبصروا في الحوادث ويتوسّموا في جريان أحوالهم على مراد الله تعالى منهم ويعلموا أن الله يخاطبهم بدلالة الكائنات عند انقطاع خطابه إياهم على ألسنة الرسل ، فإنّ الرسل يبينون لهم طرق الدلالة ويكلون إليهم النظر في وضع المدلولات عند دلالاتها .

ومثاله ما هنا فقد بيّن لهم على لسان نوح عليه السّلام أنّه يمتع أمماً ثم يمسهم عذاب أليم بما يصنعون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(88/379)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾

وعاطفة الأبوة عاطفة محمودة ، والحق سبحانه يشحن بها قلب الأب على قَدْر حاجة البنوة ، ولو لم تكن تلك العاطفة موجودة ، لما تحمَّل أيُّ أبٍ أو أيُّ أمٍّ متاعب تربية الأبناء .

وحتى نعلم أن الأنبياء لا بنوة لهم إلا بنوة الاتِّباع نجد المثل في إبراهيم خليل الرحمن عليه

وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، حين قال فيه الحق سبحانه :

﴿ وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة : 124] .

أي : أن أداء إبراهيم عليه السلام للتكاليف كان على وجه التمام ، مثلما أراد أن يرفع القواعد من البيت ، فرفعها فوق قامته بالاحتيال ، فاحضر حجراً ووقف عليه ليُعلي جدار الكعبة .

وقال له الله تعالى :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ [البقرة : 124] .

لأنك مأمون على منهج الله وقادر على أن تنفِّذه بدقة ، فقال إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [البقرة : 124] .

فقال الحق سبحانه :

﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ [البقرة : 124] .

من هذا نعلم أن النبوَّة ليس لها بنوَّة ، بل النبوَّة لها أتباع .

ويتضح ذلك أيضاً في قول إبراهيم عليه السلام بعد أن استقرَّ في ذهنه قول الحق سبحانه :

﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ [البقرة : 124] .

قال إبراهيم لربه سبحانه طلباً للرزق لمكة وأهلها :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بالله

واليوم الآخر ﴾ [البقرة : 126] .

هكذا طلب إبراهيم عليه السلام الرزق للمؤمنين ، لكن الحق سبحانه يبيِّن له أنه نقل المسألة إلى غير مكانها ؛ فالرزق عطاء ربوبية للمؤمن والكافر ، لكن تكليفات الألوهية هي للمؤمن فقط ؛ لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ [البقرة : 126] .

أي : أن الرزق يشمل المؤمن والكافر ، عطاء من الربوبية .

ونريد أن نقول إنَّ عاطفة الأبوة والأمومة إنما تتناسب مع حاجة الابن تناسباً عكسيّا ، فإن كان الابن قويّاً فعاطفة الأبوة والأمومة تقلُّ .

ومثال ذلك : أننا نجد شقيقين أحدهما غني قائم بأمر الأبوين ويتكفَّل بهما ، بينما الابن الآخر فقير لا يقدر على رعاية الأبوين .

وسنلحظ أن قلب الأب والأم يكون مع الفقير ، لا مع الغَنيِّ ، فعاطفة الأبوة والأمومة تكون مع الضعيف والمريض والغائب ، وكلما كان الابن في حاجة ؛ كانت العاطفة معه .

وفي نداء نوح عليه السلام لربه سبحانه نلحظ أن نوحاً كان يملك المبرِّر طلباً لنجاة الابن ؛

لأن الحق سبحانه أمره بأن يحمل في السفينة من كلٍّ زوجين اثنين وكذلك أهله ، فأراد نوح عليه السلام أن يطلب النجاة لابنه من أهله ، فقال :

﴿ رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق وَأَنتَ أَحْكَمُ الحاكمين ﴾ [هود : 45] .

إذن : فنوح عليه السلام يملك حق الدعاء ؛ لأنه يطلب تحقيق وعد الله تعالى بأن يحمل أهله معه للنجاة .

وحين يقول نوح : ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الحاكمين ﴾ هو إقرار بأن الله سبحانه لا يخطىء ؛ لأن الابن قد غرق ، بل لا بد أن ذلك الغرق كان لحكمة .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ يا نوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾

ويريد الحق سبحانه هنا أن يلفت نبيّه نوحاً إلى أن أهليّة الأنبياء ليست أهلية الدم واللحم ، ولكنها أهلية المنهج والاتّباع ، وإذا قاس نوح عليه السلام ابنه على هذا القانون ، فلن يجده ابناً له .

ألم يقل نبينا صلى الله عليه وسلم عن سلمان الفارسي : " سلمان منّا آل البيت " .

إذن : فالبنوة بالنسبة للأنبياء هي بنوة اتّباع ، لا بنوة نَسَب .

وانظر إلى دقة الأداء في قول الله تعالى :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود : 46] .

ثم يأتي سبحانه بالعلة والحيثية لذلك بقوله :

﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود : 46] .

فكأن البنوة هنا عمل ، وليست ذاتاً ، فالذات منكورة هنا ، والمذكور هو العمل ، فعمل ابن نوح جعله غير صالح أن يكون ابناً لنوح .

وهكذا نجد أن المحكوم عليه في البنوة للأنبياء ليس الدم ، وليس الشحم ، وليس اللحم ، إنما هو الاتِّباع بدليل أن الحق سبحانه وصف ابن نوح بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ ولو كان عملاً صالحاً لكان ابنه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ [هود : 46] .

والحق سبحانه يطلب من نوح هنا أن يفكِّر جيِّداً قبل أن يسأل ، فلا غبار على الأنبياء حين يربيِّهم ربُّهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ ﴾

وهنا يدعو نوح عليه السلام ربه سبحانه وتعالى أن يغفر له ما قاله ، وهو هنا يقرُّ بأنه لما أحبَّ أن يسأل نجاة ابنه لم يستطع أن يكتم سؤاله ، ولكن الحق سبحانه وتعالى وحده هو

القادر على أن يمنع من قبله مثل هذا السؤال ، وهذه قمة التسليم لله تعالى .

وقول نوح عليه السلام :

﴿ إني أَعُوذُ بِكَ ﴾ [هود : 47] .

يوضِّح لنا أن الإنسان لا يعوذ من شيء بشيء إلا إن كانت قوته لا تقدر على أن تمتنع عنه .

ولذلك يستعيذ نوح عليه السلام من أن يسأل ما ليس له به علم ، ويرجو مغفرة الله سبحانه وتعالى ورحمته حتى لا يكون من الخاسرين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ قِيلَ يا نوح اهبط بِسَلاَمٍ ﴾

وقوله الحق سبحانه :

﴿ اهبط بِسَلاَمٍ مِّنَّا ﴾ [يونس : 48] .

يدل على أن نوحاً عليه السلام قد تلقَّى الأمر بالنزول من السفينة ليباشر مهمته الإيمانية في أرض فيها مقومات الحياة ، مما حمل في تلك السفينة من كلٍّ زوجين اثنين ، ومن معه من المؤمنين الذين أنجاهم الله تعالى ، وأغرق مَنْ قالوا عليهم إنهم أراذل .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ [هود : 48] .

تضمَّن أهل نوح عليه السلام ومَنْ آمن به ، وكذلك أمم الوحوش والطيور والحيوانات والدواب .

أي : أنها إشارة إلى الأمة الأساسية ، وهي أمة الإنسان وإلى الأمم الخادمة للإنسان ، وهكذا توفرت مقومات الحياة للمؤمنين ، ويتفرَّغ نوح وقومه إلى المهمة الإيمانية في الأرض .

وقول الحق سبحانه :

﴿ اهبط بِسَلاَمٍ مِّنَّا ﴾ [هود : 48] .

والمقصود بالسلام هو الأمن والاطمئنان ، فلم يَعُدْ هناك من الكافرين ما ينغِّص على نوح عليه السلام أمره ، ولن يجد من يكدِّر عليه بالقول :

﴿ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ [هود : 32] .

ولن يجد مَنْ يتهمه بالافتراء .

ومَنْ بقي مع نوح هم كلهم من المؤمنين ، وهم قد شهدوا أن نجاتهم من الغرق قد تمت بفضل المنهج الذي بلَّغهم به نوح عن الله تعالى .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَبَرَكَاتٍ ﴾ [هود : 48] .

يعني أن الحق سبحانه يبارك في القليل ليجعله كثيراً .

ويقال : "إن هذا الشيء مبارك "كالطعام الذي يأتي به الإنسان ليكفي اثنين ، ولكنه فوجىء بخمسة من الضيوف ، فيكفي هذا الجميع .

إذن : فالشيء المبارك هو القليل الذي يؤدي ما يؤدِّيه الكثير ، مع مظنَّة أنه لا يفي .

وكان يجب أن تأتي هنا كلمة ﴿ وَبَرَكَاتٍ ﴾ لأن ما يحمله نوح عليه السلام من كلٍّ زوجين اثنين إنما يحتاج إلى بركات الحق سبحانه وتعالى ليتكاثر ويكفي .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وعلى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود : 48] .

هذا القول يناسب الطبيعة الإنسانية ، فقد كان المؤمنون مع نوح عليه السلام هم الصفوة ، وبمضيِّ الزمن طرأت الغفلة على بعضٍ منهم ، ويأتي جيل من بعدهم فلا يجد الأسوة أو القدوة ، ثم تحيط بالأجيال التالية مؤثرات تفصلهم تماماً عن المنهج .

(92/379)

وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : "ينام الرجل النومة فتُقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكْت ، ثم ينام النومة فتُقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها كأثر المَجْل ، كجمر دحرجته على رجلك فنفط ، فتراه مُنتبراً ، وليس فيه شيء ، ثم أخذ حصى

فدحرجه على رجله ، فيصبح الناس يتبايعون ، لا يكاد أحد يؤدِّي الأمانة ، حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل : ما أجلده ! ما أظرفه ! ما أعقله ! وما في قلبه مثقال حبة من خَرْدل من إيمان " .

وهكذا تطرأ الغفلة على أصحاب المنهج ، ويقول صلى الله عليه وسلم : " تُعرض الفِتَن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأيما قلب أشْرِبَها نُكتت فيه نكتة سوداء ، وأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا لا تضرُّه فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مُرْباداً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً إلا ما أشْرِبَ مِنْ هَواه " .

وأعوذ بالله تعالى من طروء فتنة الغفلة على القلوب .

والحق سبحانه يتحدث في هذه الآية عن الذين بقوا مع نوح عليه السلام وهم صفوة من المؤمنين ، لكن منهم من ستطرأ عليه الغفلة ، وسيمتِّعهم الله سبحانه وتعالى أيضاً بمتاع الدنيا ، ولن يضنَّ عليهم ، ولكن سَيَلحقُهم العذاب .

فإذا ما جاء جيل على الغافلين فهو يخضع لمؤثِّرين اثنين :

المؤثر الأول : غفلته هو .

المؤثر الثاني : أسوة الغافلين من السابقين عليه .

ونحن نعلم أن مِنْ ذرية نوح عليه السلام " قوم عادٍ " الذين أرسل الحق سبحانه إليهم هوداً

عليه السلام ، وكذلك " قوم ثمود " الذين أرسل إليهم أخاهم صالحاً عليه السلام ، وقوم لوطٍ ، وهؤلاء جميعاً رَانَتِ الغفلة على قلوبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(93/379)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه قال ﴿ ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي ﴾ وإنك قد وعدتني أن تنجي لي أهلي وان ابني من أهلي .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما بغت امرأة نبي قط ، وقوله ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ يقول : إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك .

﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ

وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن نساء الأنبياء لا يزنين، وكان يقرؤها ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ يقول: مسألتك إياي يا نوح عمل غير صالح لا أرضاه لك.

وأخرج أبو الشيخ من طريق سعيد عن قتادة في الآية قال: إنه لما نهاه أن يرجعه في أحد كان العمل غير صالح مراجعة ربه في قراءة عبد الله ﴿ فلا تسألن ما ليس لك به علم ﴾ وعن غير قتادة: كان اسم ابن نوح الذي غرق كنعان، وقال قتادة: خالف نوحاً في النية والعمل.

وأخرج أبو الشيخ عن أبي جعفر الرازي قال: سألت زيد بن أسلم قلت: كيف تقرأ هذا الحرف؟ قال: ﴿ عمل غير صالح ﴾.

وأخرج ابن المنذر عن علقمة قال: في قراءة عبد الله ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾.

وأخرج ابن جرير ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ يقال: سؤالك عما ليس لك به علم.

وأخرج الطيالسي وأحمد وأبو داود والترمذي وابن المنذر وابن مردويه من طريق شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ .

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي والطبراني والحاكم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية من طريق شهر بن حوشب عن أم سلمة رضي الله عنه قالت " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ قال عبد بن حميد : أم سلمة رضي الله عنها هي أسماء بنت يزيد كلا الحديثين عندي واحد " .

وأخرج البخاري في تاريخه وابن مردويه والخطيب من طرق عن عائشة رضي الله عنها " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم " أنه قرأ ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ " .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه قال : في بعض الحروف " إنه عمل عملاً غير صالح " .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ قال : كان عمله كفراً بالله .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير رضي الله عنه . أنه قرأ " عمل غير صالح " قال :

معصية نبي الله .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فلا تسألن ما ليس لك به علم ﴾ قال : بين الله لنوح عليه السلام أنه ليس بابنه .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد رضي الله عنه ﴿ إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ قال : أن تبلغ بك الجهالة أني لا أفي بوعد وعدتك حتى تسألني .

قال : فإنها خطيئة رب إني أعوذ بك أن أسألك الآية .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن المبارك رضي الله عنه قال : لو أن رجلاً اتقى مائة شيء ولم يتق شيئاً واحداً لم يكن من المتقين ، ولو تورع من مائة شيء ولم يتورع من شيء واحد لم يكن ورعاً ، ومن كان فيه خلة من الجهل كان من الجاهلين ، أما سمعت إلى ما قال نوح عليه السلام ﴿ إن ابني من أهلي ﴾ قال الله ﴿ إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ .

(95/379)

وأخرج أبو الشيخ عن الفضيل بن عياض رضي الله عنه قال : بلغني أن نوحاً عليه السلام لما سأل ربه فقال : يا رب إن ابني من أهلي . فأوحى الله إليه . يا نوح ان سؤالك إياي أن ابني من أهلي عمل غير صالح ﴿ فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من

الجاهلين ﴾ قال: فبلغني أن نوحاً عليه السلام بكى على قول الله ﴿ إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ أربعين عاماً.

وأخرج أحمد في الزهد عن وهيب بن الورد الحضرمي قال: لما عاتب الله نوحاً عليه السلام في ابنه، وأنزل عليه ﴿ إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ بكى ثلاثمائة حتى صارت تحت عينيه مثل الجدول من البكاء.

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا... ﴾ الآية. قال: اهبطوا والله عنهم راض، واهبطوا بسلام من الله كانوا أهل رحمته من أهل ذلك، ثم أخرج منهم نسلاً بعد ذلك أمماً منهم من رحم، ومنهم من عذب وقرأ ﴿ وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ﴾ قال: إنما افترقت الأمم من تلك العصابة التي خرجت من ذلك الماء وسلمت.

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ﴾ قال: فما زال الله يأخذ لنا بسهمنا وحظنا، وكذلك يذكرنا من حيث لا نذكر أنفسنا كلما هلكت أمة جعلنا في أصلاب من ينجو بلطفه حتى جعلنا في خير أمة أخرجت للناس.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن السني في الطب النبوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أوّل شجر غرس نوح عليه السلام حين خرج من السفينة الآس .

(96/379)

وأخرج أبو الشيخ عن عثمان بن أبي العاتكة . أن أوّل شيء تكلم به نوح عليه السلام حين استقرت به قدماه على الأرض حين خرج من السفينة أن قال : يا مورا تقن ، كلمة بالسريانية : يعني يا مولاي اصلح .

وأخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن وهب بن منبه قال : لما أغرق الله قوم نوح أوحى إلى نوح عليه السلام أني خلقت خلقاً بيدي وأمرتهم بطاعتي فعصوني واستأثروا غضبي ، فعذبت من لم يعصني من خلقي بذنب من عصاني ، في حلفت وأي شيء مثلي لا أعذب بالغرق العامة بعد هذا ، وإني جعلت قوسي أماناً لعبادي وبلادي من الغرق إلى يوم القيامة ، وكانت القوس فيها سهم ووتر ، فلما فرغ الله من هذا القول إلى نوح نزع الوتر والسهم من القوس وجعلها أماناً لعباده وبلاده من الغرق .

وأخرج ابن عساكر عن خصيف قال : لما هبط نوح من السفينة وأشرف من جبل حسماء رأى تل حران بين نهرين فأتى حران فخطها ثم أتى دمشق فخطها ، فكانت حران أول

مدينة خطت بعد الطوفان ثم دمشق .

وأخرج ابن عساكر عن كعب الأحبار رضي الله عنه قال : أول حائط وضع على وجه الأرض بعد الطوفان حائط حران ودمشق ثم بابل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي قال : دخل في ذلك السلام والبركات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ، ودخل في ذلك المتاع والعذاب الأليم كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ وعلى أمم ممن معك ﴾ يعني ممن لم يولد أوجب الله لهم البركات لما سبق لهم في علم الله من السعاد ﴿ وأمم سنمتعهم ﴾ يعني متاع الحياة الدنيا ، ثم يمسهم منا عذاب أليم لما سبق لهم في علم الله من الشقاوة .

وأخرج أحمد في الزهد عن كعب رضي الله عنه قال : لم يزل بعد نوح عليه السلام في الأرض أربعة عشر يدفع بهم العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(97/379)

فصل

قال الإمام فخر الدين الرازى :

[قصة نوح عليه السلام]

[وفيها شبهات] [الأولى] تمسكوا بقوله تعالى : (ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح انه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) من وجهين : [الأول] أن قوله تعالى : (إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) يدل على أنه لم يكن ابنا ، وإذا كان كذلك كان قوله (إن ابني من أهلى) كذبا ، وهو معصية [الثاني] أن سؤال نوح عليه السلام كان معصية لثلاث آيات : [أحدها] قوله (لا تسألن ما ليس لك

---

(1) قال الإمام الحافظ أبو محمد بن حزم في كتاب الملل والنحل : وهذا الذى نسبوه إلى آدم عليه السلام من أنه سمى ابنه عبد الحرث خرافة موضوعة مكذوبة من تأليف من لا دين له ولا حياء ولم يصح سندها قط وإنما نزلت الآية في المشركين على ظاهرها اهـ . والعجب أن ابن جرير ادعى الاجماع عليها . ثم اخذ يتمحل لذلك تمحلات بعيدة سخيفة فغفر الله له ولمن تبعه على هذه الخرافة (*)

به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) (1) *

[وثانيها] قوله خبرا عن نوح (قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمني أكن من الخاسرين) *

[وثالثها] قوله (إنه عمل غير صالح) وفيها قراءتان قراءة الكسائي عمل غير صالح ، والمعنى أن ابنك عمل غير صالح والباقون بالتنوين والرفع . والاول مرجوح لأنه يقتضى إضمار الموصوف (2) وهو على خلاف الاصل فتعينت القراءة الثانية ، والهاء في قوله : (إنه) ضمير والضمير لابد وأن يكون عائدا إلى مذكور سابق والمذكور السابق هاهنا إما السؤال وإما الابن لا يجوز عوده إلى الابن لان الابن لا يكون عملا غير صالح بل ذا عمل غير صالح ، فيقتضى الاضمار ، وإنه خلاف الاصل . فثبت أن الضمير عائد إلى السؤال فثبت أن ذلك كان عملا غير صالح *

---

(1) قال أبو محمد بن حزم : وهذا لا حجة لهم فيه ، لان نوحا عليه السلام تأول وعد الله تعالى أن يخلصه وأهله ، فظن أن ابنه من أهله على ظاهر القرابة وهذا لو فعله أحد كان مأجورا ولم يسأل نوح تخليص من أيقن أنه ليس من أهله فتفرع على ذلك نهى عن أن يكون من الجاهلين فندم عليه السلام ونزع وليس ههنا عمد للمعصية ألبتة *

(2) موصوف (غير) أي عمل عملا غير صالح قال الشريف الرضى : ومع هذه القراءة لا

شبهة في رجوع معنى الكلام إلى الابن دون سؤال نوح ، وقد قوى الشريف هذه القراءة وساق عليها شواهد من كلام العرب (*)

(99/379)

---

* (والجواب) * عن الأول أن المفسرين اختلفوا في هذا الابن على ثلاثة اقوال [الأول] فالأكثرون على انه كان ابنا له لصلبه وهو الاقوى لقوله تعالى (ونادى نوح ابنه) ثم اختلفوا فمنهم من قال ليس من اهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك ، وقيل : ليس من أهل دينك وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وعكرمة وميمون بن مهران * [الثاني] أنه كان ابن امرأته إلا أنه لاختلاطه بأبنائه واهل بيته أطلق عليه لفظ الابن ، كما أن ابليس لاختلاطه بالملائكة اطلق عليه اسم الملك . ويدل عليه قوله (ان ابني من اهلي) ولم يقل مني ، ويروى ذلك عن الباقين [الثالث] أنه ولد على فراشه لغير رشدة (1) ، وهو المروى عن الحسن ومجاهد وابن جريج وعبيد بن عمير . وهذان القولان ضعيفان ، لقوله تعالى (ونادى نوح ابنه) والثالث أضعف لأنه يجب تنزيه منصب الأنبياء عن مثل هذه الفضيحة * وعن الشبهة الثانية انا لا نسلم أنه دعا لابنه مطلقا ، بل يشترط الايمان لا يقال : فلم قال الله تعالى (لا تسألن ما ليس لك به علم) وقال (انى أعظك ان تكون من الجاهلين)

وقال نوح (رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم) ؟ لانا نقول : يمتنع ان يكون نوح عليه السلام نهى عن ذلك وإن لم يقع ذلك منه ، كما أن نبينا عليه الصلاة والسلام نهى عن الشرك لقوله تعالى (لئن أشركت ليحبطن عمالك) وإن لم يقع

---

(1) يريد أنه كان ولد زنى يقال : هذا ولد رشدة إذا كان لنكاح صحيح كما يقال في ضده : ولد زنية - بكسر الحرف الأول منهما (*)

(100/379)

ذلك منه ، فأما قوله تعالى (إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) فمعناه أن لا تكون منهم . ولا شك أن وعظه تعالى الذى صرف نوحا عليه السلام عن الجهل . وأما قول نوح عليه السلام (إنى اعوذ بك أن أسالك ما ليس لى به علم) فلا دلالة فيه على أنه فعل ذلك سلمنا أنه دعاله مطلقا ، ولكن لشفقته الطبيعية قال ما قال ، والعقل لا ينكر الدعاء للكافر ، وإنما يمنع منه الشرع ، فلعله دعاء بمقتضى الطبع إلى ان ورد الشرع بالنهي عنه * لا يقال : فلم سأل من غير إذن ؟ لانا نقول : لما لم يجد نصا مانعا منه تمسك في الجواز بالاباحة الاصلية ، أو نقول : إنما كان مسلما في الظاهر ، وكان نوح عليه السلام مأذونا في الدعاء للمسلمين فدعا له بحكم الظاهر وذلك جائز لقوله عليه السلام " نحن نحكم بالظاهر " (1) أو نقول :

(1) لا يعرف بهذا اللفظ الذى ساقه المصنف . ولكن المشهور " أمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر " ذكره العجلونى في كشف الخفاء وقال قال في اللآلى هو غير ثابت بهذا اللفظ . ولعله مروى بالمعنى من احاديث صحيحة ذكرتها في الاقضيه من الذهب الابريز .

وقال في المقاصد : اشتهر بين الاصوليين والفقهاء بل وقع في شرح النووي لمسلم في قوله صلى الله عليه وآله " إنى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم " مانصه : معناه " إنى أمرت بالحكم بالظاهر والله يتولى السرائر " كما قال النبي صلى الله عليه وسلم اهـ قال : ولا وجود له في كتب الحديث المشهورة ولا الاجزاء المنثورة . وجزم الحافظ العراقى بانه لا أصل له وكذا المزى وغيره . وقال القارى : وممن (*)

(101/379)

هب أنه أخطأ في ذلك ، لكن إن قلت : إن ذلك من الكبائر لقوله هذا سؤال (عمل غير صالح) قلنا : لا نسلم والتعويل في تغيير هذا القسم على كون الإضمار بخلاف الاصل ضعيف لان الادلة الدالة على عصمة الأنبياء اقوى من الدليل الدال على كون الإضمار بخلاف الأصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿عصمة الأنبياء صـ 24. 28﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ ﴾ : عطفٌ على " نادى " قال الزمخشري " فإن قلت : وإذا كان النداءُ هو قوله " رَبِّ " فكيف عطف " فقال ربِّ " على " نادى " بالفاء ؟ قلت : أريد بالنداء إرادةُ النداء ، ولو أريد النداءُ نفسه لجاء كما جاء في قوله ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً ﴾ " قال ربِّ " بغير فاء .

قوله تعالى : ﴿ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ : قرأ الكسائي " عَمِلَ " فعلاً ماضياً ، و " غيرَ " نصباً ، والباقون " عَمَلٌ " بفتح الميمِ وتنوينهِ على أنه اسمٌ ، و " غيرُ " بالرفع . فقراءةُ الكسائي : الضمير فيها يتعيَّنُ عَوْدُه على ابن نوح ، وفاعل " عمل " ضميرٌ يعودُ عليه أيضاً ، و " غيرَ " مفعول به . ويجوز أن يكونَ نعتاً لمصدرٍ محذوف ، تقديرُه : عَمل عملاً غيرَ صالحٍ كقوله ﴿ واعملوا صَالِحاً ﴾ [المؤمنون : 51] .

وأمّا قراءةُ الباقين ففي الضمير أوجه، أظهرها: أنه عائدٌ على ابنِ نوح، ويكونُ في الإِخبار عنه بالمصدر المذاهبُ الثلاثةُ في "رجل عدل". والثاني: أنه يعود على النداء المفهومِ مِنْ قوله "ونادى"، أي: نداؤك وسؤالُك. وإلى هذا ذهب أبو البقاء ومكي والزمخشري.

وهذا فيه خطرٌ عظيم، كيف يُقال ذلك في حقِّ نبي من الأنبياء، فضلاً عن أول رسولٍ أُرْسِلَ إلى أهل الأرض من بعدِ آدم عليهما السلام؟ ولما حكاه أبو القاسم قال: "وليس بذاك" ولقد أصاب. واستدلَّ من قال بذلك أنَّ في حرف عبد اللَّه بن مسعود "إنه عملٌ غيرُ صالحٍ أن تسألني ما ليس لك به علمٌ" وهذا مخالِفٌ للسَّواد.

(103/379)

الثالث: أنه يعودُ على ركوب ابنِ نوح المدلولِ عليه بقوله "اركب معنا". الرابع: أنَّه يعودُ على تركه الركوب وكونِه مع المؤمنين، أي: إنَّ تَرْكَه الركوبَ مع المؤمنين وكونَه مع الكافرين عملٌ غيرُ صالح، وعلى الأوجهِ الثلاثةِ لا يُحتاج في الإِخبارِ بالمصدر [إلى] تأويلٍ، لأنَّ كليهما معنى من المعاني، وعلى الوجه الرابع يكون من كلامِ نوح عليه السلام، أي: إنَّ نوحاً قال: إنَّ كونَك مع الكافرين وتَرْكَك الركوبَ معنا غيرُ صالح، بخلاف ما تقدَّم فإنه مِنْ قول اللَّه تعالى فقط، هكذا قال مكي وفيه نظرٌ، بل الظاهرُ أنَّ الكلَّ مِنْ كلامِ اللَّه تعالى. قال

الزمخشري : " فإن قلت : هلا قيل : إنه عملٌ فاسِدٌ . قلت : لَمَّا نفاه عن أهله نفى عنه صفتَهم بكلمةِ النفي التي يستبقي معها لفظَ المنفي ، وآذن بذلك أنَّه إنما أُنجى مَنْ أُنجى لصلاحهم لا لأنهم أهلُك .

قوله : ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِي ﴾ قرأ نافع وابن عامر " فلا تسألَنِّ " بتشديدِ النون مكسورةً من غير ياء . وابنُ كثير بتشديدها / مع الفتح ، وأبو عمرو والكوفيون بنونٍ مكسورةٍ خفيفة ، وياءٍ وصلاً [لأبي عمرو] ، ودون ياء في [الحالين] للكوفيين . وفي الكهف ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ ﴾ [الآية : 70] قرأه أبو عمرو والكوفيون كقراءتهم هنا ، وافقهم ابنُ كثير في الكهف ، وأمَّا نافعٌ وابن عامر فكقراءتهما هنا ، ولابن ذكوان خلافٌ في ثبوتِ الياء وحَذْفها ، وإنما قرأ ابن كثير التي في هود بالفتح دونَ التي في الكهف ؛ لأنَّ الياء في هود ساقطة في الرسم ، فكانت قراءتُه بفتحِ النون محتملةً بخلاف الكهف فإنَّ الياءَ ثابتةٌ في الرسم فلا يُوافِق فيه فتْحُها .

وقد تقدَّم خلافُ ابن ذكوان في ثبوتِ الياء في الكهف .

فَمَنْ خَفَّفَ النونَ فهي نونُ الوقاية وحدَها ، ومَنْ شدَّدها فهي نون التوكيد . وابن كثير لم يَجْعل في هود الفعلَ متصلاً بياء المتكلم ، والباقون جعلوه ، فَلَزِمهم الكسرُ . وقد تقدَّم أنَّ " سأل " يتعدى لاثنين أوَّلُهما ياء المتكلم ، والثاني ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ .

قوله ﴿ أَن تَكُونَ ﴾ على حذف حرف الجر ، أي : مِنْ أن تكون أو لأجلِ أن ، وقوله ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ يجوز في " به " أن يتعلَّق ب " عِلْم " . قال الفارسي : " ويكونُ مثلَ قوله :

2669 كان جَزائي بالعَصا أن أُجْلَدا . . . ويجوز أن يتعلَّقَ بالاستقرار الذي تَعَلَّق به " لك " . والباء بمعنى " في " ، أي : ما ليس لك به عِلْمٌ . وفيه نظرٌ .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِلاَّ تَغْفِرْ ﴾ : لم تَمْنَعْ " لا " من عمل الجازم كما لم تمنعْ مِنْ عمل الجارِّ في نحو : " جئْتُ بلا زادٍ " . قال أبو البقاء : " لأنها كالجزء من الفعل وهي غيرُ عاملة في النفي ، وهي تنفي ما في المستقبل ، وليس كذلك " ما " فإنها تنفي ما في الحال ، فلذلك لم يَجُزْ أَنْ تَدْخُلَ " إنْ " عليها " .

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يا نوح ﴾ : الخلافُ المتقدم في قوله ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ ﴾ [البقرة : 13] وشبهِه عائدُ هنا ، أي : في كونِ القائمِ مقامَ الفاعل الجملة المحكيةَ أو ضميرَ مصدرِ الفعل .

(105/379)

قوله : ﴿ بِسَلاَمٍ ﴾ حال من فاعل " اهبط " ، أي : ملتبساً بسلام . و " منا " صفةٌ ل " سلام " فيتعلَّق بمحذوف أو هو متعلقٌ بنفسِ سلام ، وابتداءُ الغايةِ مجازٌ ، وكذلك " عليك " يجوز أن يكونَ صفةً لبركات أو متعلقاً بها .

قوله : ﴿ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ يجوز في " مَنْ " أن تكونَ لابتداء الغاية ، أي : ناشئة من الذين معك ، وهم الأمم المؤمنون إلى آخر الدهر ، ويجوز أن تكونَ " مِنْ " لبيان الجنس ، فيراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة ، لأنهم كانوا جماعاتٍ . وقُرِىء " اهبُط " بضم الباء ، وقد تقدم أول البقرة . وقرأ الكسائي فيما نُقِل عنه " وبركة " بالتوحيد .

قوله : ﴿ وأُمَمٍ ﴾ يجوز أَنْ يكونَ مبتدأ ، و " سنمتِّعهم " خبره ، وفي مسوِّغ الابتداءِ وجهان ، أحدهما : الوصفُ التقديري ، إذ التقديرُ : وأممٌ منهم ، أي : ممَّن معك كقولهم " السَّمْن مَنَوان بدرهم " فمنوان مبتدأ وُصِف ب " منه " تقديراً . والثاني : أنَّ المسوِّغ لذلك

التفصيلُ نحو : " الناسُ رجلان : رجلٌ أَهَنْتُ ، وآخَرُ أكرمتُ " ومنه قولُ امرىء القيس :

2670 إذا ما بكى مِنْ خَلْفِها انحرفَتْ له . . . بشقٍّ وشِقٌّ عندنا لم يُحَوَّلِ

ويجوز أن يكونَ مرفوعاً بالفاعلية عطفاً على الضمير المستتر في " اهبط " وأغنى الفصلُ عن التأكيد بالضمير المنفصل ، قاله أبو البقاء قال الشيخ : " وهذا التقديرُ والمعنى لا يصلحان ، لأن الذين كانوا مع نوح في السفينة إنما كانوا مؤمنين لقوله : " ومَنْ آمنَ " ولم يكونوا كفَّاراً ومؤمنين ، فيكون الكفار مأمورين بالهبوط ، إلا إنْ قُدِّر أنَّ مِن المؤمنين مَنْ يكفر بعد الهبوط ، وأخبر عنهم بالحال التي يَؤُولون إليها فيمكن على بُعْدٍ " . قلت : وقد تقدَّم أنَّ مثلَ ذلك لا يجوز ، في قول ﴿ اسكنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ﴾ [البقرة : 35] لأمرٍ صناعي ، و " سنمتِّعُهم " على هذا صفةٌ ل " أمم " ، والواوُ يجوز أن تكونَ للحال . قال الأخفش : " كما تقول : " كلَّمْتُ زيداً وعمروٌ جالس " ويجوز أن تكونَ لمجردِ النَّسَق " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 336 . 340 ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الأهل)

أَهل الرّجل : مَن يجمعه وإِيّاهم نسب ، أَو دين ، أَو ما يَجرى مجراهما : من صناعة ، وبيت ، وبلد ، (وصنعه) .

فأَهل الرّجل [فى الأَصل] من يجمعه وإِيّاهم مسكن واحد ثمّ تجوّز به (وقيل) أَهل بيت الرّجل لمن يجمعه وإِياهم [نسب] وتعورف فى أُسْرة النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم مطلقاً وعُبّر بأَهل الرّجل عن امرأَته .

ولّما كانت الشريعة حكمت برفع النَّسب فى كثير من الأَحكام بيْنَ المسلم والكافر قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ وفى المثل : الأَهل إِلى الأَهل أَسرع من السيْل إِلى السّهل .

وفى خبرٍ بلا زمام : إِن لله مَلَكاً فى السّماءِ السّابعة تسبيحُه : سُبحان مَنْ يسوق الأَهل إِلى الأَهل .

وقال الشاعر :

*لا يمنعنّك خفض العيش فى دَعَة * نُزُوعُ نفس إِلى أَهل وأَوطان*

*تلقى بكلّ بلاد إِن حَلَلْت بها * أَهلاً بأَهل وجيراناً بجيران*

والأَهل فى نصّ التنزيل ورد على عشرة أَوجه :

الأَول : بمعنى سُكَّان القرى .

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى ﴾ .

الثانى : بمعنى قُرَّاءِ التوارة والإِنجيل : ﴿ يا أَهْلَ الكِتَاب ﴾ وله نظائر .

الثالث : بمعنى أَصحاب الأَموال وأَرباب الأَملاك : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ أَى أَربابها .

الرّابع : بمعنى العِيَال والأَولاد : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ أَى بزوجه وولده .

الخامس : بمعنى القوم ، وذوى القرابة : فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ .

السادس : بمعنى المختار ، والخليق ، والجدير : ﴿ كَانُواْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ .

السّابع : بمعنى الأُمّة ، وأَهل الملّة : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ .

الثَّامن : المستوجب المستحقّ للشئ : ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ .

التَّاسع : بمعنى العِترة ، والعشيرة ، والأَولاد ، والأَحفاد ، والأَزواج ، والذريات : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ

الْبَيْتِ ﴾ .

العاشر : بمعنى الأَولاد ، وأَولاد أَولاد الخليل : ﴿ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ .

وأَهَّلَك الله فى الجَنَّة أَى زوّجك ، وجعل لك فيها أَهلاً يجمعك وإياهم .

وجَمْع الأَهل أَهلون وآهال وأَهْلات .

وفى الحديث : اصنع المعروف إِلى من هو أَهله ، وإِلى من ليس أَهله .

فإِن أَصبت أَهله فهو أَهله ، وإِن لم تصب أَهله فأَنت من أَهله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 83.85 ﴾

(109/379)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾

خَاطَبَ الحقَّ - سبحانه - في باب ابنِه ، واستعطفَ في السؤال فقال :

و ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ : فقال له : إنَّه ليست مِنْ أهل الوصلة قِسْمَتُه - وإنْ كان من

أَهْلِكَ نَسَباً ولُحْمَةً ، وإنَّ خطابَك في بابه عملٌ غيرُ صالح ، أو إنه أيضاً عَمِلَ غيرَ صالح .

﴿ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ : أي سَتَرْتُ غيبي في حال أوليائي وأعدائي ، فلا يُعلَمُ سِرُّ تقديري .

قوله : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ ﴾ : وذلك لِحُرمة شيخوخته وكِبَره ، ولأنه لم يَسْتَجِبْ له في وَلَدِه ، فَتَدارَكَ بِحُسْنِ الخطاب قَلْبَه .

وقيل إن ابنَ نوح بَنَى من الزجاج بيتاً وقتَ اشتغال أبيه باتخاذ السفينة ، فلما ركب نوحٌ السفينةَ دَخَلَ ابنُه في البيت الذي اتخذه من الزجاج ، ثم إن الله تعالى سلَّطَ عليه البوْلَ حتى امتلأ بيْتُ الزجاج من بَوْله ؛ فغَرِقَ الكلُّ في ماء البحر ، وغرق ابنُ نوحٍ في بَوْله ! ليُعلَمَ أنه لا مفرَّ مِنَ القَدَر .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) ﴾

نَسِيَ نوحٌ – عليه السلام – حديثَ ابنه في حديث نفسه ، فاستعاذ بفضله واستجار بلطفه ، فوجد السلامةَ من ربِّه في قوله جل ذكره :

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) ﴾

طَهَّرَ وجهَ الأرضِ من أعدائه ، وحفظ نوحاً عليه السلام من بلائه ، هو ومن معه من

أصدقائه وأقربائه .

والأممُ التي أخبر أنه سَيُمَتِّعُهم ثم يَمَسُّهم العذابُ هم الذين ليسوا من أهل السعادة . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 139 . 140﴾

(110/379)

قوله تعالى ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تمت هذه القصة على لنحو الوافي ببيان اجتهاد نوح علبه السلام في إبلاغ الإنذار من غير مراعاة إقبال ولا إدبار ، وكانت مع ذلك دالة على علم تام واطلاع على دقائق لا سبيل إليها إلا من جهة الملك العلام ، فهي على إزالة اللبس عن أمره.صلى الله عليه وسلم.أوضح من الشمس ، قال تعالى منبهاً على ذلك : ﴿ تلك ﴾ أي هذه الأنباء البديعة الشأن الغريبة الأمر البعيدة عن طوق المعارض ، العلية الرتب عن يد المتناول ﴿ من أنباء الغيب ﴾ أي أخباره العظيمة ، ثم أشار إلى أنه لا يزال يجدد له أمثالها بالمضارع في قوله : ﴿ نوحيها

إليك ﴾ فكأنه قيل : إن بعض أهل الكتاب يعلم بعض تفاصيلها ، فأشار إلى أن ذلك مجموعة غيب وبما يعلمونه غيب نسبي بقوله : ﴿ ما كنت تعلمها ﴾ أي على هذا التفصيل ﴿ أنت ﴾ ولما كان خفاءها عن قومه دليلاً على خفائها عنه لأنه لم يخالط غيرهم قال : ﴿ ولا قومك ﴾ أي وإن كانوا أهل قوة في القيام على ما يحاولونه وعدداً كثيراً ، ومنهم من يكتب ويخالط العلماء .

ولما كان زمان خفاء ذلك عنهم - وإن كان عاماً لهم - بعض الزمان الماضي ، أدخل الجار فقال : ﴿ من قبل هذا ﴾ أي من إيحائي إليك حتى يطرق الوهم حينئذ أنك تعلمتها من أحد منهم وإن كان يعلم كثيراً منها أهل الكتاب كما رأيت عن نص التوراة فبان أن لا عرض لقومك إلا العناد ﴿ فاصبر ﴾ على ذلك ولا تفتر عن الإنذار فستكون لك العاقبة كما كانت لنوح لأجل تقواه ﴿ إن العاقبة ﴾ أي آخر الأمر من الفوز والنصر والسعادة ﴿ للمتقين ﴾ أي العريقين في مخافة الله في كل زمن ، وقد تضمنت القصة البيان عما يوجبه حال أهل الخير والإيمان وأهل الشر والطغيان من الاعتبار بالنبأ عن الفريقين ليجتبي حال

هؤلاء ويتقي حال أولئك لسوء العاقبة في الدنيا والآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 540.541 ﴾

(112/379)

فصل

قال الفخر :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾

واعلم أنه تعالى لما شرح قصة نوح عليه السلام على التفصيل قال : ﴿ تِلْكَ ﴾ أي تلك الآيات التي ذكرناها ، وتلك التفاصيل التي شرحناها من أنباء الغيب ، أي من الأخبار التي كانت غائبة عن الخلق فقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ في محل الرفع على الابتداء ، و ﴿ مِنْ أَنبَاء الغيب ﴾ الخبر و ﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ خبر ثان وما بعده أيضاً خبر ثالث .

ثم قال تعالى : ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ ﴾ والمعنى : أنك ما كنت تعرف هذه القصة ، بل قومك ما كانوا يعرفونها أيضاً ، ونظيره أن تقول لإنسان لا تعرف هذه المسألة لا أنت ولا أهل بلدك .

فإن قيل : أليس قد كانت قصة طوفان نوح عليه السلام مشهورة عند أهل العلم ؟

قلنا : تلك القصة بحسب الإجمال كانت مشهورة ، أما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة .

ثم قال : ﴿ فاصبر إِنَّ العاقبة لِلْمُتَّقِينَ ﴾ والمعنى : يا محمد اصبر أنت وقومك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على أذى أولئك الكفار ، وفيه تنبيه على أن الصبر عاقبته النصر والظفر والفرح والسرور كما كان لنوح عليه السلام ولقومه .

فإن قال قائل : إنه تعالى ذكر هذه القصة في سورة يونس ثم إنه أعادها ههنا مرة أخرى ، فما الفائدة في هذا التكرير ؟

قلنا : إن القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه : ففي السورة الأولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب ، فذكر تعالى قصة نوح في بيان أن قومه كانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ما كان يظهر ثم في العاقبة ظهر فكذا في واقعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي هذه السورة ذكر هذه القصة لأجل أن الكفار كانوا يبالغون في الإيحاش ، فذكر الله تعالى هذه القصة لبيان أن إقدام الكفار على الإيذاء والإيحاش كان حاصلاً في زمان نوح ، إلا أنه عليه السلام لما صبر نال الفتح والظفر ، فكن يا محمد كذلك لتنال المقصود ، ولما كان وجه الانتفاع بهذه

القصة في كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خالياً عن الفائدة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 8 ﴾

(114/379)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ تلك من أنباء الغيب ﴾ الآية

إشارة إلى القصة ، أي هذه من الغيوب التي تقادم عهدها ولم يبق علمها إلا عند الله تعالى ، ولم يكن علمها أو علم أشباهها عندك ولا عند قومك ، ونحن نوحيها إليك لتكون لك هداية وأسوة فيما لقيه غيرك من الأنبياء ، وتكون لقومك مثالاً وتحذيراً ، لئلا يصيبهم إذا كذبوك مثل ما أصاب هؤلاء وغيرهم من الأمور المعذبة .

قال القاضي أبو محمد : وعلى هذا المعنى ظهرت فصاحة قوله : ﴿ فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ ، أي فاجتهد في التبليغ وجد في الرسالة واصبر على الشدائد واعلم أن العاقبة لك كما كانت لنوح في هذه القصة . وفي مصحف ابن مسعود : " من قبل هذا القرآن " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(115/379)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ الغيب ﴾ أي تلك الأنباء ، وفي موضع آخر "ذلك" أي ذلك النبأ والقصص من أنباء ما غاب عنك .

﴿ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ﴾ أي لتقف عليها .

﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ ﴾ أي كانوا غير عارفين بأمر الطوفان ، والمجوس الآن ينكرونه .

﴿ مِن قَبْلِ هذا ﴾ خبر أي مجهولة عندك وعند قومك .

﴿ فاصبر ﴾ على مشاق الرسالة وإذاية القوم كما صبر نوح .

وقيل : أراد جهلهم بقصة ابن نوح وإن سمعوا أمر الطوفان (فإنه) على الجملة .

"فاصبر" أي اصبر يا محمد على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته ، وما تلقى من أذى العرب الكفار ، كما صبر نوح على (أذى) قومه .

﴿ إِنَّ العاقبة ﴾ في الدنيا بالظَّفر ، وفي الآخرة بالفوز .

﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ عن الشرك والمعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ تلك من أنباء الغيب ﴾

هذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) يعني أن هذه القصة التي أخبرناك يا محمد من قصة نوح وخبر قومه من أنباء الغيب يعني من أخبار الغيب ﴿ نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ يعني من قبل نزول القرآن عليك .

فإن قلت إن قصة نوح كانت مشهورة معروفة في العالم فكيف قال ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا .

قلت : يحتمل أن يكون كانوا يعلمونها مجملة فنزل القرآن بتفصيلها وبيانها .

وجواب آخر وهو أنه (صلى الله عليه وسلم) كان أميّاً لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يعلمها وكذلك كانت أمته فصح قوله ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل نزول القرآن بها ﴿ فاصبر ﴾ يا محمد على أذى مشركي قومك كما صبر نوح على أذى قومه ﴿ إن العاقبة ﴾ يعني النصر والظفر على الأعداء والفوز بالسعادة الأخروية يعني للمؤمنين . انتهى

انتهى . اهـ ﴿تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾

تلك إشارة إلى قصة نوح ، وتقدمت أعاريب في مثل هذا التركيب في قوله : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ في آل عمران ، وتلك إشارة للبعيد ، لأنّ بين هذه القصة والرسول مدداً لا تحصى .

وقيل : الإشارة بتلك إلى آيات القرآن ، ومن أنباء الغيب وهو الذي تقادم عهده ولم يبق علمه إلا عند الله ، ونوحيها إليك ليكون لك هداية وأسوة فيما لقيه غيرك من الأنبياء ، ولم يكن علمها عندك ولا عند قومك ، وأعلمناهم بها ليكون مثالاً لهم وتحذيراً أن يصيبهم إذا كذبوك ما أصاب أولئك ، وللحظ هذا المعنى ظهرت فصاحة قوله : فاصبر على أذاهم مجتهداً في التبليغ عن الله ، فالعاقبة لك كما كانت لنوح في هذا القصة .

ومعنى ما كنت تعلمها : أي مفصلة كما سردناها عليك ، وعلم الطوفان كان معلوماً عند العالم على سبيل الإجمال ، والمجوس الآن ينكرونه .

والجملة من قوله : ما كنت في موضع الحال من مفعول نوحيها ، أو من مجرور إليك ، وقدرها الزمخشري تقدير معنى فقال : أي مجهولة عندك وعند قومك ويحتمل أن يكون خبراً بعد خبر ، والإشارة بقوله : من قبل هذا إلى الوقت أو إلى الإيحاء أو إلى العلم الذي اكتسبه

بالوحي احتمالات ، وفي مصحف ابن مسعود من قبل هذا القرآن .

وقال الزمخشري : ولا قومك معناه : أن قومك الذين أنت منهم على كثرتهم ووفور عددهم إذا لم يكن ذلك شأنهم ، ولا سمعوه ولا عرفوه ، فكيف برجل منهم كما تقول : لم يعرف هذا عبد الله ولا أهل بلده ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(118/379)

وقال أبو السعود :

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارةٌ إلى ما قُصّ من قصة نوحٍ عليه الصلاة والسلام إما لكونها بتقضّيها في حكم البعيدِ أو للدِلالة على بُعد منزلِتها ، وهي مبتدأٌ خبرُه ﴿ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيبِ ﴾ أي من جنسها ، أي ليست من قبيل سائرِ الأنباءِ بل هي نسيجُ وحدِها منفردةٌ عما عداها أو بعضِها ﴿ نُوحِيهَا إِلَيكَ ﴾ خبرٌ ثانٍ والضمير لها أي مُوحاةٌ إليك أو هو الخبرُ ، ومن أنباء متعلّقٌ به ، فالتعبير بصيغة المضارع لاستحضار الصورة أو حال من أنباء الغيب أي مُوحاةً إليك ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ ﴾ خبرٌ آخرُ أي مجهولةٌ عندك وعند قومِك ﴿ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ أي من قبل إيحائِنا إليك وإخبارِك بها أو من قبل هذا العلمِ الذي كسبْتَه بالوحي أو من قبلِ هذا الوقتِ أو حالٌ من الهاء في نُوحيها ، أو الكافِ في إليك ، أي جاهلاً

أنت وقومُك بها ، وفي ذكر جهلهم تنبيهٌ على أنه عليه الصلاة والسلام لم يتعلّمه ، إذا لم يخالِطْ غيرَهم وأنهم مع كثرتهم لم يعلموه فكيف بواحد منهم ﴿ فَاصْبِر ﴾ متفرِّعٌ على الإيحاء أو العلمِ المستفادِ منه المدلولِ عليه بقوله : ﴿ ما كنت تعلمها أنت ولا قومُك من قبل هذا ﴾ أي وإذ قد أوحيناها إليك أو علمْتَها بذلك فاصبِرْ على مشاقّ تبليغ الرسالةِ وأذيّةِ قومِك كما صبر نوحٌ على ما سمعته من أنواع البلايا في هذه المدة المتطاولةِ ، وهذا ناظرٌ إلى ما سبق من قوله تعالى : ﴿ فلعلك تاركٌ بعضَ ما يوحى إليك ﴾ الخ ﴿ إن العاقبة ﴾ بالظفر في الدنيا وبالفوز في الآخرة ﴿ للمتقين ﴾ كما شاهدْتَه في نوحٍ عليه الصلاة والسلام وقومِه ولك فيه أسوةٌ حسنةٌ فهي تسليةٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليلٌ للأمر بالصبر فإن كونَ العاقبةِ الحميدةِ للمتقين وهو في أقصى درجاتِ التقوى والمؤمنون كلُّهم متّقون مما يسليه عليه الصلاة والسلام ويهوِّن عليه الخطوبَ ويُذهب عنه ما عسى أن يعتريَه من ضيق صدرِه ، وهذا على تقدير

أن يرادَ بالتقوى الدرجةُ الأُولى منه أعني التوقّي من العذاب المخلدِ بالتبرؤ من الشرك ، وعليه قوله تعالى : ﴿ وألزمَهم كلمةَ التقوى ﴾ ويجوز أن يراد الدرجةُ الثالثةُ وهو أن يتنزّه

عما يشغل سِرَّهَ عن الحق ويتبَتَّلَ إليه بشراشِره وهو التقوى الحقيقيُّ المطلوبُ بقوله تعالى :

﴿ اتقوا اللهَ حقَّ تقاتِه ﴾ فإن التقوى بهذا المعنى منطوٍ على الصبر المذكورِ فكأنه قيل :

فاصبر فإن العاقبةَ للصابرين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(120/379)

وقال الآلوسى :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى قصة نوح عليه السلام وهي لتقضيها في حكم البعيد ، ويحتمل أنه أشير بأداة البعد إلى بعد منزلتها ، وقيل : إن الإشارة إلى آيات القرآن وليس بذاك ؛ وهي في محل الرفع على الابتداء ، وقوله سبحانه : ﴿ مِنْ أَنبَاء الغيب ﴾ أي بعض أخباره التي لها شأن وكونها بعض ذلك باعتبار أنها على التفصيل لم تبق لطول العهد معلومة لغيره تعالى حتى إن المجوس على ما قيل : ينكرونها رأساً ، وقيل : إن كونها من الغيب لغير أهل الكتاب ، وقد ذكر غير واحد أن الغيب قسمان : ما لا يتعلق به علم مخلوق أصلاً وهو الغيب المطلق ، وما لا يتعلق به علم مخلوق معين وهو الغيب المضاف بالنسبة إلى ذلك المخلوق ، وهو مراد الفقهاء في تكفير الحاكم على الغيب ، وقوله سبحانه : ﴿ نُوحِيهَا ﴾

خبر ثان لتلك والضمير لها أي موحاة ﴿ إِلَيْكَ ﴾ أو هو الخبر ، و﴿ مِنْ أَنْبَاء ﴾ متعلق به ، وفائدة تقديمه نفى أن يكون علم ذلك بكهانة أو تعلم من الغير ، والتعبير بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ، أو ﴿ مِنْ أَنْبَاء ﴾ هو الخبر ، وهذا في موضع الحال من ﴿ أَنْبَاء ﴾ والمقصود من ذكر كونها موحاة إلجاء قومه صلى الله عليه وسلم للتصديق بنبوته عليه الصلاة والسلام وتحذيرهم مما نزل بالمكذبين ، وقوله تعالى : ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنت وَلاَ قَوْمُكَ ﴾ خبر آخر أي مجهولة عندك وعند قومك ﴿ مّن قَبْلِ هذا ﴾ أي الإيحاء إليك المعلوم مما مر ، وقيل : أي الوقت ، وقيل : أي العلم المكتسب بالوحي .

وفي مصحف ابن مسعود من قبل هذا القرآن ويحتمل أن يكون حالاً من الهاء في ﴿ نُوحِيهَا ﴾ أو الكاف من ﴿ إِلَيْكَ ﴾ أي غير عالم أنت ولا قومك بها ، وذكر القوم معه صلى الله عليه وسلم من باب الترقي كما تقول : هذا الأمر لا يعلمه زيد ولا أهل بلده لأنهم مع كثرتهم إذا لم يعلموا ذلك فكيف يعلمه واحد منهم ، وقد علم أنه لم يخالط غيرهم .

﴿ فاصبر ﴾ متفرع على الإيحاء أو على العلم المستفاد منه المدلول عليه بما تقدم ﴿ مّن قَبْلِ هذا ﴾ أي وإذ قد أوحيناها إليك أو علمتها بذلك فاصبر على مشاق تبليغ الرسالة

وأذية قومك كما صبر نوح عليه السلام على ما سمعته من أنواع البلايا في هذه المدة المتطاولة ، قيل : وهذا ناظر إلى ما سبق من قوله سبحانه : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ ﴾ [هود : 12] الخ ﴿ إِنَّ العاقبة ﴾ بالظفر في الدنيا وبالفوز بالآخرة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ كما سمعت ذلك في نوح عليه السلام وقومه ، قيل : وهو تعليل للأمر بالصبر وتسلية له صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالتقوى الدرجة الأولى منها ، وجوز أن يراد بها الدرجة الثالثة وهي بذلك المعنى منطوية على الصبر فكأنه قيل : فاصبر فإن العاقبة للصابرين ، وقيل : الآية فذلكة لما تقدم وبيان للحكمة في إيحاء ذلك من إرشاده صلى الله عليه وسلم وتهديد قومه المكذبين له والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(122/379)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ)

هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ فِي مَسْأَلَةٍ فَرْعِيَّةٍ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ لَا مِنْ صُلْبِ الْقِصَّةِ وَأُصُولِ وَقَائِعِهَا وَلَكِنَّهَا تَدْخُلُ فِي الْعَقَائِدِ وَأُصُولِ الدِّينِ مِنْ بَابَيْنِ اثْنَيْنِ لَا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ،

أَحَدُهُمَا : بَابُ الْإِلَهِيَّاتِ بِمَا فِيهَا مِنْ حُكْمِ اللهِ وَعَدْلِهِ وَسُنَّتِهِ فِي خَلْقِهِ بِلَا مُحَابَاةٍ لِوَلِيٍّ وَلَا

نبيٍّ، وثانيهما: اجْتِهَادُ الْأَنْبِيَاءِ وجواز الْخطأ فيه وعدُّه ذنبًا عَلَيْهِمْ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مقامهم ومعرفتهم بربِّهِمْ، - وهي ما عرض له - عَلَيْهِ السَّلَامُ - من الاجْتِهَادِ فِي أَمْرِ ابْنِهِ الَّذِي تخلَّف عن السَّفِينة وكان من الْمُغْرَقِينَ كما مرَّ في الْآيَةِ (43) وكان ظاهرُ التَّرْتِيبِ أَنْ تُجعل بعدها فتكون (44) ووجه هذا التَّقْدِيم والتَّأْخِير بينهما الَّذِي اقْتَضَتْهُ الْبَلَاغَةُ الْعُلْيَا والْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ الْمُثْلَى، هُوَ أَنْ قُدِّمت الْآيَةُ الْمُتَمِّمَةُ لِأَصْلِ الْقِصَّةِ الْمُبَيِّنَةُ لِوَجْهِ الْعِبْرَةِ فيها بِأَرْوَعِ التَّعْبِيرِ، الَّذِي يَقْرَعُ أَبْوَابَ الْقُلُوبِ

(123/379)

بِأَبْلَغِ قَوَارِعِ التَّأْثِيرِ، فَكَانَ اتِّصَالُهَا بِهَا كَاتِّصَالِ الْمُوجَبِ بِالسَّالِبِ مِنَ الْكَهْرَبَائِيَّةِ الَّذِي يَتَوَلَّدُ بِهِ الْبَرْقُ الَّذِي يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ، وَالصَّاعِقَةُ الَّتِي تَمْحَقُ مَا تُصِيبُهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَالْأَشْخَاصِ، فَالْآيَةُ الثَّالِثَةُ وَالْأَرْبَعُونَ تُصَوِّرُ لِقَارِئِهَا وَسَامِعِهَا نَكْبَةَ الطُّوفَانِ بِأَعْظَمِ الصُّوَرِ هَوْلًا وَرُعْبًا وَدَهْشًا تَطِيشُ لَهَا الْأَلْبَابُ، وَتَحَارُ فِي تَصَوُّرِ كَشْفِهَا وَمَا يَئُولُ إِلَيْهِ أَمْرُهَا الْأَخْيِلَةُ وَالْأَفْكَارُ، فَتَتْلُوهَا الْآيَةُ الرَّابِعَةُ وَالْأَرْبَعُونَ فَتَكُونُ الْفَاصِلَةَ بِكَشْفِ ذَلِكَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ بِكَلِمَتَيْنِ وَجِيزَتَيْنِ مِنْ كَلِمَاتِ التَّكْوِينِ الْإِلَهِيِّ، قُضِيَ بِهِمَا الْأَمْرُ بِنَجَاةِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ، وَهَلَاكِ الْمُشْرِكِينَ الظَّالِمِينَ، وَلَوْ فُصِلَ بَيْنَهُمَا بِهَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ (45 - 47)

اللَّوَاتِي وُضِعْنَ بَعْدَهُمَا ، لَضَاعَ تِسْعَةُ أَعْشَارِ بَلَاغَتِهِمَا وَتَأْثِيرِهِمَا فِي الْعِبْرَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْمَقْصُودَةِ عَنِ الْقِصَّةِ كُلِّهَا ، الَّتِي كَانَتْ كَاشْتِعَالِ الْكَهْرَبَاءِ مَظْهَرًا لِسُرْعَةِ مَشِيئَتِهِ - تَعَالَى - فِي كَشْفِ الْكَرْبِ ، فَكَانَ مِنْهَا نُورٌ ظَهَرَتْ بِهِ رَحْمَتُهُ فِي إِنْجَاءِ السَّفِينَةِ وَأَهْلِهَا الْمُؤْمِنِينَ ، وَصَاعِقَةٌ مَحَقَتْ جَمِيعَ الظَّالِمِينَ .

(124/379)

(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ) فِي إِثْرِ نِدَائِهِ لِابْنِهِ الَّذِي تَخَلَّفَ عَنِ السَّفِينَةِ وَدَعَاهُ إِلَيْهَا فَلَمْ يَسْتَجِبْ (فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) هَذَا تَفْسِيرٌ لِـ (نَادَى) أَيْ فَكَانَ نِدَاؤُهُ أَنْ قَالَ : يَا رَبِّ إِنَّ ابْنِي هَذَا مِنْ أَهْلِي الَّذِينَ وَعَدْتَنِي بِنَجَاتِهِمْ إِذْ أَمَرْتَنِي بِحَمْلِهِمْ فِي السَّفِينَةِ (وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ) الَّذِي لَا خُلْفَ فِيهِ ، وَهَذَا مِنْهُ (وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) أَيْ : أَحَقُّ مِنْ كُلِّ مَنْ يُتَصَوَّرُ مِنْهُمُ الْحُكْمُ ، وَأَحْسَنُهُمْ وَخَيْرُهُمْ حُكْمًا

كَمَا قَالَ - تَعَالَى - : (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (5 : 50) وَقَالَ : (وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) وَذَلِكَ أَنَّ حُكْمَهُ - تَعَالَى - لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، لِأَنَّهُ يَصْدُرُ عَنْ كَمَالِ الْعِلْمِ وَالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ ، فَلَا يَعْرِضُ لَهُ الْخَطَأُ وَلَا الْمُحَابَاةُ ، وَلَا الْحَيْفُ وَالظُّلْمُ ، وَحُكْمُهُ - تَعَالَى - يُطْلَقُ عَلَى مَا يُشَرِّعُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ ، وَعَلَى مَا يُنَفِّذُهُ فِي عِبَادِهِ مِنْ جَزَاءٍ

عَلَى الْأَعْمَالِ ، وَمُرَادُ نُوحٍ بِهَذَا أَنْ يُنْجِيَ ابْنَهُ الَّذِي تَخَلَّفَ عَنِ السَّفِينَةِ بَعْدَ أَنْ دَعَاهُ إِلَيْهَا فَامْتَنَعَ ، مُعَلِّلًا نَفْسَهُ بِأَنْ يَأْوِيَ إِلَى جَبَلٍ يَعْتَصِمُ بِهِ مِنَ الْغَرَقِ ، وَلَمْ يَقْتَنِعْ بِقَوْلِهِ لَهُ : لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ : 43 فَالْمَعْقُولُ أَنَّ الدُّعَاءَ وَقَعَ بَعْدَ هَذِهِ الْمُحَاوَرَةِ مَعَ ابْنِهِ وَقَبْلَ أَنْ يَحُولَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ .

(قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) الَّذِينَ أَمَرْتُكَ أَنْ تَسْلُكَهُمْ فِي السَّفِينَةِ لِإِنْجَائِهِمْ ، وَفَسَّرَ هَذَا النَّفْيَ وَعَلَّلَهُ أَوْ وَجَّهَهُ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) قَرَأَ الْجُمْهُورُ (عَمَلٌ) بِرَفْعِ اللَّامِ وَالتَّنْوِينِ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي التَّشْبِيهِ كَرَجُلٍ عَدْلٍ ، كَأَنَّهُ لِفَسَادِهِ وَاجْتِنَابِهِ لِلصَّلَاحِ وَالْتِزَامِهِ الْعَمَلَ غَيْرَ الصَّالِحِ نَفْسُ الْعَمَلِ ، كَمَا قَالَتِ الْخَنْسَاءُ فِي وَصْفِ النَّاقَةِ :

تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إِذَا ادَّكَرَتْ . . . فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ

وَقَرَأَ الْكِسَائِيُّ وَيَعْقُوبُ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الْمَاضِي بِتَقْدِيرِ : عَمِلَ عَمَلًا غَيْرَ صَالِحٍ ، وَالْأَوَّلُ

أَبْلَغُ ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ كَانَ كَافِرًا يَعْمَلُ عَمَلَ الْكَافِرِينَ ، وَالْكُفْرُ يَقْطَعُ الْوِلَايَةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ مِنَ الْأَقْرَبِينَ ، وَيُوجِبُ بَرَاءَةَ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ ، كَمَا قَالَ - تَعَالَى - : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ) (60 : 4) الْآيَةَ ، كَمَا أَنَّ الْإِيمَانَ يُوجِبُ الْوِلَايَةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ الْأَبْعَدِينَ - بَلْهَ الْأَقْرَبِينَ - كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) (9 : 71) . وَقِيلَ إِنَّ مَعْنَى الْجُمْلَةِ : إِنَّ سُؤَالَكَ إِيَّايَ يَا نُوحُ عَنْهُ وَطَلَبَكَ لِنَجَاتِهِ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ لَا أَرْضَاهُ لَكَ . رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمَا أَرَاهُ يَصِحُّ عَنْهُ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ كَانَ وَلَدَ زِنًا ، أَوْ كَانَ وَلَدَ غَيْرِهِ مِنِ امْرَأَتِهِ ، وَهُوَ ظَاهِرُ الْبُطْلَانِ ; لِأَنَّ اللهَ - تَعَالَى - سَمَّاهُ ابْنَهُ .

(127/379)

فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ وَقَعَ هَذَا مِنْ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَقَدِ اسْتَثْنَى اللهُ - تَعَالَى - مِنْ أَهْلِهِ الَّذِينَ وَعَدَهُ بِنَجَاتِهِمْ فَقَالَ : وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ 23 : 27 وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ أَنَّ الَّذِينَ سَبَقَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ هُمُ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ قَضَى اللهُ بِهَلَاكِهِمْ بَعْدَ دُعَائِهِ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) (71 : 26) وَكَانَتِ امْرَأَتُهُ وَابْنُهُ هَذَا مِنْهُمْ ، وَلَا يُعْقَلُ أَنْ يَخْفَى عَلَيْهِ أَمْرُهُمَا ؟ وَلَكِنَّ امْرَأَتَهُ لَمْ تُذْكَرْ فِي قِصَّتِهِ ، وَإِنَّمَا ذُكِرَتْ فِي

سُورَةِ التَّحْرِيمِ مَعَ امْرَأَةِ لُوطٍ فِي خِيَانَةِ زَوْجَيْهِمَا وَدُخُولِهِمَا النَّارَ ، وَاسْتُثْنِيَتِ امْرَأَةُ لُوطٍ مِنَ النَّجَاةِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فِي قِصَّتِهِ ؟

(قُلْنَا) يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حِينَ رَأَى ابْنَهُ بِمَعْزِلٍ عَنِ الْكُفَّارِ ، ظَنَّ أَنَّهُ قَدْ بَدَا لَهُ كُفْرُهُ فَكَرِهَهُ وَجَنَحَ لِلْإِيمَانِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَدْ فَهِمَ أَنَّهُ غَيْرُ دَاخِلٍ فِي عُمُومِ قَوْلِهِ – تَعَالَى – لَهُ : أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ 11 : 36 ; لِأَنَّهُ – تَعَالَى – جَعَلَ النَّاجِينَ قِسْمَيْنِ : أَهْلَهُ إِلَّا مَنِ اسْتَثْنَى ، وَمَنْ آمَنَ مِنْ قَوْمِهِ ، فَجَازَ فِي فَهْمِهِ أَنْ يُؤْمِنَ مِنْ أَهْلِهِ مَنْ كَانَ كَافِرًا لِأَنَّهُمْ قَسِيمٌ لِقَوْمِهِ مِنْهُمْ ، وَوَافَقَ هَذَا الْفَهْمَ وَقَوَّاهُ رَحْمَةُ الْأُبُوَّةِ فَسَأَلَ اللهَ – تَعَالَى –

(128/379)

أَنْ يُحَقِّقَهُ ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا اجْتِهَادًا ظَنِّيًّا لَا يَلِيقُ بِنَبِيٍّ رَسُولٍ مِنْ أُولِي الْعَزْمِ أَنْ يُخَاطِبَ بِهِ رَبَّهُ عَاتَبَهُ – تَعَالَى – وَأَدَّبَهُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : (فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) أَيْ : فَلَا تَسْأَلْنِي فِي شَيْءٍ مَا مِنَ الْأَشْيَاءِ لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ صَحِيحٌ أَنَّهُ حَقٌّ وَصَوَابٌ ، وَسَمَّى دُعَاءَهُ سُؤَالًا ; لِأَنَّهُ تَضَمَّنَ ذِكْرَ الْوَعْدِ بِنَجَاةِ أَهْلِهِ وَمَا رَتَّبَهُ عَلَيْهِ مِنْ طَلَبِ نَجَاةِ وَلَدِهِ ، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ (تَسْأَلَنَّ) بِفَتْحِ اللَّامِ وَتَشْدِيدِ النُّونِ الْمَفْتُوحَةِ ، وَابْنُ عَامِرٍ بِتَشْدِيدِهَا مَكْسُورَةً وَكَذَا نَافِعٌ مَعَ إِثْبَاتِ الْيَاءِ .

وهَذَا النَّهْيُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يُشْتَرَطُ فِي الدُّعَاءِ أَنْ يَكُونَ بِمَا هُوَ جَائِزٌ فِي شَرْعِ اللهِ وَسُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ ، فَلَا يَجُوزُ سُؤَالُ مَا هُوَ مُحَرَّمٌ وَمَا هُوَ مُخَالِفٌ لِسُنَنِ اللهِ الْقَطْعِيَّةِ بِمَا يَقْتَضِي تَبْدِيلَهَا ، وَلَا تَحْوِيلَهَا وَقَلْبَ نِظَامِ الْكَوْنِ لِأَجْلِ الدَّاعِي ، وَلَكِنْ يَجُوزُ الدُّعَاءُ بِتَسْخِيرِ الْأَسْبَابِ ، وَتَوْفِيقِ الْأَقْدَارِ لِلْأَقْدَارِ ،

وَالْهِدَايَةِ إِلَى الْعِلْمِ بِالْمَجْهُولِ مِنَ السُّنَنِ وَالنِّظَامِ ، مَعَ مَا يُؤَدِّي إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ - كَمَا فَصَّلْنَاهُ مِنْ قَبْلُ .

(إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) أَيْ أَنْهَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ زُمْرَةِ الْجَاهِلِينَ ، الَّذِينَ يَسْأَلُونَ أَنْ يُبْطِلَ - تَعَالَى - تَشْرِيعَهُ أَوْ حِكْمَتَهُ وَتَقْدِيرَهُ فِي خَلْقِهِ إِجَابَةً لِشَهَوَاتِهِمْ

(129/379)

وَأَهْوَائِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ أَوْ أَهْلِيهِمْ وَمُحِبِّيهِمْ ، وَأَجْهَلُ مِنْهُمْ وَأَضَلُّ سَبِيلًا مَنْ يَسْأَلُونَ بَعْضَ الصَّالِحِينَ عِنْدَهُمْ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ نَبِيًّا مِنْ أُولِي الْعَزْمِ مِنْ رُسُلِهِ أَنْ يَسْأَلَهُ إِيَّاهُ ، كَأَنَّ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ يُعْطُونَهُمْ أَوْ يَتَوَسَّلُونَ إِلَى اللهِ أَنْ يُعْطِيَهُمْ مَا لَمْ يُعْطِ مِثْلَهُ لِرُسُلِهِ ، بَلْ مَا عُدَّ طَلَبُهُ مِنْهُ ذَنْبًا مِنْ ذُنُوبِهِمْ أَمَرَهُمْ بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ وَعَدَمِ الْعَوْدَةِ إِلَى مِثْلِهِ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْوَعْظُ هُنَا بِمَعُونَةِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : (يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (24 : 17)

وَتَقَدَّمَ مَعْنَى الْوَعْظِ فِي تَفْسِيرِ (يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) (10 : 57) (ص 328 ج 11 ط الْهَيْئَةِ) .

(130/379)

(قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ) أَيْ : إِنِّي أَعْتَصِمُ وَأَحْتَمِي بِكَ مِنْ أَنْ أَسْأَلَكَ بَعْدَ الْآنِ مَا لَيْسَ لِي عِلْمٌ صَحِيحٌ بِأَنَّهُ جَائِزٌ لَائِقٌ (وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي) أَيْ : وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لِي ذَنْبَ هَذَا السُّؤَالِ الَّذِي سَوَّلَتْهُ لِي رَحْمَتِي الْأَبَوِيَّةُ ، وَطَمَعِي بِرَحْمَتِكَ الرَّبَّانِيَّةِ (وَتَرْحَمْنِي) بِقَبُولِ تَوْبَتِي الصَّادِقَةِ وَرَحْمَتِكَ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) فِيمَا حَاوَلْتُهُ مِنَ الرِّبْحِ بِنَجَاةِ أَوْلَادِي كُلِّهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ بِطَاعَتِكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنِّي ، وَالْعِبْرَةُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِنْ وُجُوهٍ : (أَوَّلُهَا) أَنَّ سُؤَالَ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَا سَأَلَهُ لِابْنِهِ لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً لِلَّهِ - تَعَالَى - خَالَفَ فِيهَا أَمْرَهُ أَوْ نَهْيَهُ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ خَطَأً فِي اجْتِهَادِ رَأْيٍ بِنِيَّةٍ صَالِحَةٍ ، وَإِنَّمَا عَدَّهَا اللهُ - تَعَالَى - ذَنْبًا لَهُ لِأَنَّهَا كَانَتْ دُونَ مَقَامِ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ بِمَنْزِلَتِهِ مِنْ رَبِّهِ ، هَبَطَتْ بِضَعْفِهِ الْبَشَرِيِّ وَمَا غُرِسَ فِي الْفِطْرَةِ مِنَ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ بِالْأَوْلَادِ إِلَى اتِّبَاعِ الظَّنِّ ، وَمِثْلُ هَذَا الِاجْتِهَادِ لَمْ يُعْصَمْ مِنْهُ الْأَنْبِيَاءُ فَيَقَعُونَ فِيهِ أَحْيَانًا ، لِيَشْعُرُوا بِحَاجَتِهِمْ إِلَى تَأْدِيبِ رَبِّهِمْ وَتَكْمِيلِهِ إِيَّاهُمْ آنًا بَعْدَ آنٍ ، بِمَا يَصْعَدُونَ بِهِ فِي مَعَارِجِ الْعِرْفَانِ .

(ثَانِيهَا) أَنَّ الْإِيمَانَ وَالصَّلَاحَ لَا عَلَاقَةَ لَهُ بِالْوِرَاثَةِ وَالْأَنْسَابِ، وَقَدْ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ اسْتِعْدَادِ الْأَفْرَادِ، وَمَا يُحِيطُ بِهِمْ مِنَ الْأَسْبَابِ، وَمَا يَكُونُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْآرَاءِ وَالْأَعْمَالِ، وَلَوْ كَانَ بِالْوِرَاثَةِ لَكَانَ جَمِيعُ وَلَدِ آدَمَ كَأَبِيهِمْ، غَايَةُ مَا يَقَعُ مِنْهُمْ مَعْصِيَةٌ تَقَعُ عَنِ النِّسْيَانِ وَضَعْفِ الْعَزْمِ، وَتَتْبَعُهَا التَّوْبَةُ وَاجْتِبَاءُ الرَّبِّ، ثُمَّ لَكَانَ سَلَائِلُ أَبْنَاءِ نُوحٍ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ نَجَوْا مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ كُلُّهُمْ مُؤْمِنِينَ صَالِحِينَ، وَالْمَشْهُورُ أَنَّ نَسْلَ الْبَشَرِ انْحَصَرَ فِيهِمْ، وَقَدْ دَلَّتِ الْآيَةُ الْآتِيَةُ عَلَى أَنَّ فِيهِمُ

الصَّالِحِينَ وَالظَّالِحِينَ وَأَيَّدَ ذَلِكَ الْوَاقِعُ، بَلْ لَمَا كَانَ أَحَدُهُمُ الْمَذْكُورُ هُنَا كَافِرًا هَالِكًا.

(ثَالِثُهَا) أَنَّ اللهَ - تَعَالَى - يَجْزِي النَّاسَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِإِيمَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ لَا بِأَنْسَابِهِمْ، وَلَا يُحَابِي أَحَدًا مِنْهُمْ لِأَجْلِ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ الصَّالِحِينَ وَإِنْ كَانُوا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ، وَأَنَّ مَنْ سَأَلَهُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْآبَاءِ مَا يُخَالِفُ سُنَنَهُ فِي شَرْعِهِ وَحِكْمَتَهُ فِي نِظَامِ خَلْقِهِ، كَانَ مُذْنِبًا يَسْتَحِقُّ التَّأْدِيبَ، حَتَّى يَتُوبَ وَيُنِيبَ.

(رابعها) أَنَّ هؤُلَاءِ الْمَغْرُورِينَ بِأَنسابهِمْ مِنَ الشُّرَفَاءِ الْجاهِلِينَ بِكِتَابِ رَبِّهِمْ وَمَا يَلِيقُ بِعظَمَةِ الرُّبوبيَّة، وَعُلُوِّ الْأُلُوهِيَّةِ، الْجاهِلِينَ بِسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ، الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ، والصَّالِحِينَ الْمُصْلِحِينَ، وَالْأَغْنِيَاءِ الشَّاكِرِينَ، وَالْفُقَرَاءِ الصَّابِرِينَ، وَإِنْ كَانُوا عُرَاةً مِمَّا كَسَا اللهُ هؤُلَاءِ الْأَصْنَافَ مِنْ لِبَاسِ التَّقْوى والدِّينِ، وأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِنَسَبِهِمْ، وَيَسْتَحِقُّهَا مَنْ عَظَّمَهُمْ وَأَفَاضَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَالِهِ بِمُحَابَاةِ اللهِ لَهُ لِأَجْلِهِمْ، أُولَئِكَ هُمُ الْجاهِلُونَ الَّذِينَ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ كِتَابُ اللهِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، وَسُنَّةُ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهَدْيُهُ فِي إِنْذَارِ عَشِيرَتِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، كَقَوْلِهِ لِبِنْتِهِ سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ: (يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا) رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثٍ طَوِيلٍ.

هؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ الْمَسَاكِينُ يَعُدُّونَ أَعْدَى أَعْدَائِهِمْ مَنْ يَدْعُوهُمْ أَوْ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَيَعُدُّونَ أَصْدَقَ أَصْدِقَائِهِمُ الْمُبْتَدِعِينَ الْخُرَافِيِّينَ الْمُشَعْوِذِينَ.

قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ

الْآيَةُ الْأُولَى مِنْ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ خَاتِمَةُ قِصَّةِ نُوحٍ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – وَالَّتِي تَلِيهَا اسْتِدْلَالٌ بِهَا عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَقَدْ وَرَدَتْ كُلٌّ مِنْهُمَا مَفْصُولَةً مِمَّا قَبْلَهَا غَيْرَ مَعْطُوفَةٍ عَلَيْهِ .

وَلَوْلَا الْفَصْلُ بَيْنَ الْأُولَى وَبَيْنَ آيَةِ : (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ) (44) لِمَا بَيَّنَّاهُ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ

لَكَانَ الْوَجْهُ أَنْ تُعْطَفَ عَلَيْهَا ، إِمَّا مَعَ إِعَادَةِ الْقِيلِ ، وَإِمَّا بِدُونِهِ بِأَنْ يُقَالَ : (يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا) وَلَكِنَّ الْفَصْلَ بِالْآيَاتِ الثَّلَاثِ فِي مَسْأَلَةِ نُوحٍ وَوَلَدِهِ صَارَ مَانِعًا مِنَ الْوَصْلِ بِمَا قَبْلَهُ وَمُقْتَضِيًا أَنْ تُذْكَرَ مَفْصُولَةً عَلَى الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ الَّذِي هُوَ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ ، وَأَنْ يُبْدَأَ بِفِعْلِ (قِيلَ) الْمَجْهُولِ ; لِأَنَّهُ هُوَ الْمُتَعَيِّنُ الْمَعْلُومُ .

(قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا) أَيْ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَمُدَبِّرُ أَمْرِ الْعَالَمِ كُلِّهِ لِنُوحٍ؛ بَعْدَ انْتِهَاءِ أَمْرِ الطُّوفَانِ، وَإِقْلَاعِ السَّمَاءِ عَنْ إِمْطَارِهَا، وَابْتِلَاعِ الْأَرْضِ لِمَائِهَا، وَإِمْكَانِ السُّكْنَى وَالْعَمَلِ عَلَى ظَهْرِهَا: يَا نُوحُ اهْبِطْ مِنَ السَّفِينَةِ أَوْ مِنَ الْجُودِيِّ الَّذِي اسْتَوَتْ عَلَيْهِ إِلَى الصَّفْصَفِ الْمُسْتَوِي مِنْهَا، مُلَابِسًا أَوْ مُزَوَّدًا وَمُمَتَّعًا بِسَلَامٍ مِنْ عَظَمَتِنَا وَرَحْمَتِنَا الرَّبَّانِيَّةِ، وَهُوَ التَّحِيَّةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الْفِتَنِ وَالْعَدَاوَةِ الَّتِي أَحْدَثَهَا الْمُشْرِكُونَ الظَّالِمُونَ فِيهَا، (وَبَرَكَاتٍ) فِي الْمَعَايِشِ وَسَعَةِ الرِّزْقِ فَائِضَةً (عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ) أَيْ: وَعَلَى مَنْ مَعَكَ الْآنَ فِي السَّفِينَةِ، وَعَلَى ذُرِّيَّاتٍ يَتَنَاسَلُونَ مِنْهُمْ وَيَتَفَرَّقُونَ فِي الْأَرْضِ، فَيَكُونُونَ أُمَمًا مُسْتَقِلًّا بَعْضُهُمْ دُونَ بَعْضٍ، وَهُمْ مُمَتَّعُونَ بِهَذَا السَّلَامِ الْمَعْنَوِيِّ وَالْبَرَكَاتِ الْمَادِّيَّةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَشْمَلَ لَفْظُ الْأُمَمِ مَا كَانَ مَعَ نُوحٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ، فَقَدْ قَالَ - تَعَالَى -: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ) (6: 38) (وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ) أَيْ: وَثَمَّ أُمَمٌ آخَرُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ سَنُمَتِّعُهُمْ فِي الدُّنْيَا بِأَرْزَاقِهَا وَبَرَكَاتِهَا دُونَ السَّلَامِ الرَّبَّانِيِّ، الْمَمْنُوحِ مِنَ الْأَلْطَافِ الرَّحْمَانِيِّ، لِسَلِيمِي الْفِطْرَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّ

أُولَئِكَ سَيُغْوِيهِمُ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ ، وَيُزَيِّنُ لَهُمُ الشِّرْكَ بِرَبِّهِمْ ، وَالظُّلْمَ وَالْبَغْيَ فِيمَا بَيْنَهُمْ (ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِأَنَّهُمْ لَا يُحَافِظُونَ عَلَى السَّلَامِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ مَنْ قَبْلَهُمْ ، بَلْ يَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ لِتَفَرُّقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ فِي هِدَايَةِ الدِّينِ ، الَّتِي نَبْعَثُ بِهَا الْمُرْسَلِينَ ، كَمَا وَقَعَ لَكَ مَعَ قَوْمِكَ الْأَوَّلِينَ .

هَذَا هُوَ الْمُتَبَادِرُ مِنْ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ ، وَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ مَا قَبْلَهَا مِنْ آيَاتِ الْقِصَّةِ هُوَ الْمُتَبَادِرُ مِنْ مَدْلُولِ أَلْفَاظِهَا الْفَصِيحَةِ نَصًّا وَاقْتِضَاءً ، الْمُوَافِقُ لِسُنَنِ اللهِ - تَعَالَى - فِي الْأُمَمِ ، فَهِيَ لَا تَحْتَمِلُ كَثْرَةَ الْآرَاءِ الَّتِي قُرِنَتْ بِهَا ، لَوْلَا كَثْرَةُ الرِّوَايَاتِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي غَشِيَتْهَا ، حَتَّى مَا لَا يَقْبَلُهُ اللَّفْظُ وَلَا الشَّرْعُ وَلَا الْعَقْلُ مِنْهَا ، وَسَنُبَيِّنُ مَجَامِعَ الْعِبْرَةِ فِيهَا .

(تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ) الْإِشَارَةُ إِلَى قِصَّةِ نُوحٍ الْمُفَصَّلَةِ هَذَا التَّفْصِيلَ الْبَدِيعَ ، (مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ) الْمَاضِيَةِ (نُوحِيهَا إِلَيْكَ) أَيُّهَا الرَّسُولُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ، مُتَمِّمًا وَمُفَصِّلًا لِمَا أَوْحَيْنَاهُ إِلَيْكَ قَبْلَهَا (مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا) الْوَحْيِ الَّذِي نَزَلَ مُبَيِّنًا لَهَا ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا كَانَ يَعْلَمُهَا هُوَ ، وَلَا قَوْمُهُ يَعْلَمُونَهَا بِهَذَا التَّفْصِيلِ ، وَقَدْ كَانَ هُوَ

يَعْلَمُهَا بِالْإِجْمَالِ ، وَهُوَ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُمْ قَدْ عَلِمَ مِنْهُ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ شَيْئًا مَا مِنْهَا ، وَلَوْ كَانَ قَوْمُهُ وَهُمْ قُرَيْشٌ يَعْلَمُونَهَا عَلَى الْوَجْهِ الْمَنْفِيِّ هُنَا وَأَكْثَرُهُمْ كَافِرُونَ بِهِ لَكَذَّبُوهُ ، وَلَنُقِلَ تَكْذِيبُهُمُ الْخَاصُّ لَهُ فِيهَا ؛ كَمَا نُقِلَ تَكْذِيبُهُمُ الْعَامُّ لِلْقَصَصِ كُلِّهَا ، إِذْ قَالُوا إِنَّهُ افْتَرَاهَا ، وَلَكِنَّ هَذَا طَعْنٌ مُفْتَعَلٌ فِي شَيْءٍ لَا يُعْلَمُ مِنْ قِبَلِهِمْ ، وَقَدْ تُحُدُّوا فِيهِ بِمَا قَامَتْ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ، وَأَمَّا تَكْذِيبُهُ الْخَاصُّ فِيمَا يُعْلَمُ مِنْ نَاحِيَتِهِمْ - وَهُوَ الْعِلْمُ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ قَبْلِ هَذَا - فَلَوْ وَقَعَ لَكَانَ يَكُونُ حُجَّةً وَلَوْ ظَاهِرَةً لَهُمْ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقَعْ فَتَمَّتْ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ (فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) أَيْ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ نُوحٌ عَلَى قَوْمِهِ ، فَإِنَّ سُنَّةَ اللهِ فِي رُسُلِهِ وَأَقْوَامِهِمْ أَنْ تَكُونَ الْعَاقِبَةُ بِالْفَوْزِ وَالنَّجَاةِ لِلْمُتَّقِينَ ، وَأَنْتَ وَمَنِ اتَّبَعَكَ الْمُتَّقُونَ ، فَأَنْتُمُ النَّاجُونَ الْمُفْلِحُونَ ، وَالْمُصِرُّونَ عَلَى عَدَاوَتِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ الْهَالِكُونَ ، فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ .

عِلَاوَاتُ التَّفْسِيرِ قِصَّةُ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -

الْعِلَاوَةُ الْأُولَى ، الْبَلَاغَةُ الْفَنِّيَّةُ فِي الْآيَةِ 44

سَبَقَ لَنَا أَنْ قُلْنَا فِي الْكَلَامِ عَلَى إِعْجَازِ الْقُرْآنِ بِبَلَاغَتِهِ، وَمَذْهَبِ الْمُتَكَلِّمِينَ وَأُدَبَاءِ الْفُنُونِ فِي التَّحَدِّي بِهِ: إِنَّ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْإِعْجَازِ يَقِلُّ مَنْ يَفْقَهُهُ فِي هَذَا الْعَصْرِ لِفَقْدِ أَهْلِهِ مَلَكَتَيِ الْبَلَاغَةِ الذَّوْقِيَّةِ السَّلِيقِيَّةِ وَالْبَيَانِيَّةِ الْفَنِّيَّةِ، بَلْهَ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا، وَهُوَ ضَرُورِيٌّ لِإِدْرَاكِ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْإِعْجَازِ، وَإِنَّ مَنْ يَفْقَهُهُ وَيُدْرِكُ عَدَمَ اسْتِطَاعَةِ أَحَدٍ أَنْ يَأْتِيَ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، قَدْ يَخْفَى عَلَيْهِ وَجْهُ دَلَالَتِهِ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ وَحْيًا مِنَ اللهِ - تَعَالَى - وَحُجَّةً عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلِذَلِكَ جَزَمُوا بِوُقُوعِ الْعَجْزِ وَاخْتَلَفُوا فِي وَجْهِ الدَّلَالَةِ، فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ حُذَّاقِ الْفَنَّانِينَ فِي الْوَشْيِ وَالتَّطْرِيزِ إِذَا رَأَوْا صُنْعَ قُدَمَاءِ الْهُنُودِ مِنْ أَهْلِ هُورَ وَكَشْمِيرَ وَأَقَرُّوا بِالْعَجْزِ عَنْ مُحَاكَاتِهِ، أَوِ الْمُصَوِّرِينَ إِذَا رَأَوْا أَدَقَّ صُوَرِ رَفَائِيلَ فِي تَصْوِيرِ الْإِنْسَانِ بِأَدَقِّ مَنَاظِرِ أَعْضَائِهِ وَشَمَائِلِهِ وَمَلَامِحِ صِفَاتِهِ النَّفْسِيَّةِ وَأَمَارَاتِ انْفِعَالَاتِهِ وَلَا سِيَّمَا الْمُتَقَارِبَةُ: كَالْخَوْفِ وَالْفَزَعِ، وَالْحُزْنِ وَالْغَمِّ، وَالْغَضَبِ، وَنَظَرِ الْإِقْرَارِ، وَنَظَرِ الْإِنْكَارِ، وَنَظَرِ الشَّهْوَةِ، وَنَظَرِ الْعَطْفِ وَالرَّحْمَةِ، وَنَظَرِ الْإِعْجَابِ وَالْعَجَبِ، وَنَظَرِ الْمُتَفَكِّرِ وَالْمُتَحَيِّرِ، فَقَدْ يُقِرُّونَ بِعَجْزِهِمْ عَنْ مُحَاكَاتِهَا وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ بِعَدَمِ إِمْكَانِهَا، بَلْ

يَقُولُونَ بِإِمْكَانِهَا وَبِقُرْبِ وُقُوعِهَا بِالْفِعْلِ إِذَا وُجِدَتِ الدَّاعِيَةُ الْقَوِيَّةُ كَمَنْفَعَةٍ مَالِيَّةٍ كَبِيرَةٍ أَوْ مَصْلَحَةٍ قَوْمِيَّةٍ أَوْ دَوْلِيَّةٍ عَظِيمَةٍ .

وَمِنَ الْمَعْلُومِ مِنْ تَارِيخِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعَ فُصَحَاءِ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ ، أَنَّهُ حَدَثَتْ لَهُمْ أَعْظَمُ الدَّوَاعِي وَالْمَصَالِحِ لِمُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ بَعْدَ تَحَدِّيهِمْ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ مُطْلَقًا ، وَالتَّحَدِّي بِعَشْرِ سُوَرٍ فِي الْمُكَرَّرِ وَلَوْ مُفْتَرًى ، فَأَيْقَنُوا بِعَجْزِهِمْ عَنِ الْإِتْيَانِ بِهَا وَبِهِنَّ ، وَلَوْ ظَاهَرَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعُ الْإِنْسِ عَلَى كَثْرَةِ بُلَغَائِهِمْ وَفُصَحَائِهِمْ ، وَالْجِنُّ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ مِنْهُمْ هَوَاجِسَ تُلَقِّنُهُمُ

الشِّعْرَ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُمْ ، وَكَذَا آلِهَتُهُمُ الْقَادِرُونَ بِخَصَائِصِهِمُ الْغَيْبِيَّةِ أَوْ بِمَكَانَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ - تَعَالَى - عَلَى كُلِّ مَا يُرِيدُونَ فِي هَذَا الْعَالَمِ بِزَعْمِهِمْ ، قَدْ عَجَزُوا مَعَ هَذَا كُلِّهِ وَاضْطُرُّوا إِلَى مُقَاوَمَةِ النَّبِيِّ بِالْقِتَالِ ، وَمَا أَعْقَبَهُمْ مِنْ خَسَارَةِ الْمَالِ ، وَسَبْيِ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ ، ثُمَّ مَا هُوَ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ وَهُوَ احْتِمَالُ الذُّلِّ

وَالنَّكَالِ ، وَرُوِيَ أَنَّ كُبَرَاءَهُمْ عَزَمُوا عَلَى التَّعَاوُنِ عَلَى الْمُعَارَضَةِ وَاسْتَعَدُّوا لَهَا فَسَمِعُوا هَذِهِ الْآيَةَ (وَقِيلَ يَا أَرْضُ) فَتَضَاءَلَتْ قُوَاهُمْ وَاسْتَخْذَتْ أَنْفُسُهُمْ وَرَجَعُوا عَنْ عَزْمِهِمْ كَمَا يَأْتِي قَرِيبًا .

عرف بُلَغاءُ قُرَيْشٍ مِنْ بَلاغة هذِهِ الْآية الرُّوحيَّة الْكَامِنَة فِي فَصَاحتِهَا اللَّفْظيَّة الظَّاهِرَة وَغَيْرِهَا مَا لَمْ يَعْرِفْهُ بُلَغاءُ الْفُنُونِ بَعْدَهُمْ مِنْهَا ، فَكَانَ هؤُلاءِ أَعْلَم بِمَا لِلْحُسْنِ وَالْجَمالِ الصُّورِيِّ فِي الْكَلَامِ مِنَ الْمَقَايِيسِ الْفَلْسَفِيَّةِ وَالْمَوازِينِ الْفَنِّيَّةِ وَدَرجَاتِ الرَّاجِحِ عَلَى الْمَرْجُوحِ . وكَانَ أُولَئِكَ أَدقَّ شُعُورًا بِمَا لِهَذَا الْحُسْنِ وَالْجَمالِ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى الْقُلُوبِ وَالْحُكْمِ عَلَى الْعُقُولِ .

مِثالُ ذَلِكَ أَنَّ لِلْجَمَالِ الْبَدَنِيِّ فِي حِسَانِ النِّسَاءِ مَقَايِيسَ وَمَوَازِينَ لِتَنَاسُبِ الْأَعْضَاءِ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ يُمْكِنُ ضَبْطُهَا ، وَالْعَدْلُ فِي الْحُكْمِ بَيْنَهَا ، وَأَمَّا الْجَمَالُ الْمَعْنَوِيُّ - وَهُوَ خِفَّةُ الرُّوحِ وَسُلْطَانُ التَّأْثِيرِ فِي الْقُلُوبِ - فَلَيْسَ لَهُ مِقْيَاسٌ وَلَا مِيزَانٌ عَشْرِيٌّ يُضْبَطُ بِهِ وَزْنُهُ أَوْ مِسَاحَتُهُ فَيُعْرَفُ الرَّاجِحُ مِنَ الْمَرْجُوحِ ، وَإِنَّمَا يُعْرَفُ هَذَا الْجَمَالُ الْأَعْلَى بِمَلَكَةٍ نَفْسِيَّةٍ ، لَا بِأَوْزَانٍ صِنَاعِيَّةٍ ، كَمَا قَالَ الطَّيِّبُ فِي الْخَيْلِ :

إِذَا لَمْ تُشَاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ شِيَاتِهَا وَأَعْضَائِهَا فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبُ

وَإِنَّمَا أَحْدَثَ الْقُرْآنُ فِي الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ مَا أَحْدَثَ مِنَ الثَّوْرَةِ الدِّينِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالِانْقِلَابِ الْعَالَمِيِّ بِالنَّوْعِ الثَّانِي مِنْ إِدْرَاكِ بَلَاغَتِهِ لَا الْأَوَّلِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا كَامِلٌ فِي بَابِهِ، كَمَا بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ عَهْدٍ قَرِيبٍ، وَإِنَّ كَثْرَةَ الْبَحْثِ فِي الثَّانِي لَيَشْغَلُ الْمُفَسِّرَ وَالْمُتَدَبِّرَ عَنِ الْأَوَّلِ الْخَاصِّ مِنْهُ بِالْهِدَايَةِ وَإِصْلَاحِ النَّفْسِ وَتَزْكِيَتِهَا، وَلِهَذَا نَقْتَصِرُ مِنْهُ فِي تَفْسِيرِنَا عَلَى مَا قَصَّرَ فِيهِ الْمُفَسِّرُونَ بِاخْتِصَارٍ لَا يَشْغَلُ عَنِ الْهِدَايَةِ الْمَقْصُودَةِ بِالذَّاتِ، وَقَدْ تَجْعَلُهُ مِنْ بَابِ الِاسْتِطْرَادِ بَعْدَ بَيَانِ مَعْنَى الْآيَةِ أَوِ الْآيَاتِ، وَلِهَذَا جَعَلْتُ مَا أَحْبَبْتُ بَيَانَهُ فِي بَلَاغَةِ هَذِهِ الْآيَةِ الْفَنِّيَّةِ عِلَاوَةً مِنْ هَذِهِ الْعِلَاوَاتِ، وَقَدْ أَطَالَ الْعُلَمَاءُ الْأَخِصَّائِيُّونَ فِيهَا حَتَّى أَفْرَدَهَا بَعْضُهُمْ بِمُصَنَّفَاتٍ خَاصَّةٍ، وَتَكَلَّمَ صَاحِبُ (الطِّرَازِ فِي عُلُومِ الْإِعْجَازِ) عَلَيْهَا فِي 25 صَفْحَةً، وَلَعَلَّهُ أَحْسَنُهُمْ فِيهَا كَلَامًا،

وَإِنْ كَانَ السَّكَّاكِيُّ هُوَ السَّابِقُ إِلَيْهِ، وَكُلُّهُمْ فِيهِ عِيَالٌ عَلَيْهِ، وَذَكَرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ جُمَلًا مُخْتَصَرَةً أَوْ وَسَطًا مِنْهُ أَنْقُلُ مِنْهَا هُنَا مَا لَخَّصَهُ السَّيِّدُ الْأُلُوسِيُّ فِي (رُوحِ الْمَعَانِي) مِنْ كَلَامِ السَّكَّاكِيِّ وَغَيْرِهِ بِتَصَرُّفٍ كَعَادَتِهِ قَالَ:

(وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ قَدْ بَلَغَتْ مِنْ مَرَاتِبِ الْإِعْجَازِ أَقَاصِيهَا ، وَاسْتَذَلَّتْ مَصَاقِعَ الْعَرَبِ فَسَفَعَتْ بِنَوَاصِيهَا ، وَجَمَعَتْ مِنَ الْمَحَاسِنِ مَا يَضِيقُ عَنْهُ نِطَاقُ الْبَيَانِ ، وَكَانَتْ مِنْ سَمْهَرِيِّ الْبَلَاغَةِ مَكَانَ السِّنَانِ .

(يُرْوَى أَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ قَصَدُوا أَنْ يُعَارِضُوا الْقُرْآنَ فَعَكَفُوا عَلَى لُبَابِ الْبُرِّ وَلُحُومِ الضَّأْنِ وَسُلَافِ الْخَمْرِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا لِتَصْفُوَ أَذْهَانُهُمْ ، فَلَمَّا أَخَذُوا فِيمَا قَصَدُوهُ وَسَمِعُوا هَذِهِ الْآيَةَ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : هَذَا الْكَلَامُ لَا يُشْبِهُ كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ فَتَرَكُوا مَا أَخَذُوا فِيهِ وَتَفَرَّقُوا .

وَيُرْوَى أَيْضًا أَنَّ ابْنَ الْمُقَفَّعِ وَكَانَ - كَمَا فِي الْقَامُوسِ - فَصِيحًا بَلِيغًا ، بَلْ قِيلَ إِنَّهُ أَفْصَحُ أَهْلِ وَقْتِهِ ، رَامَ أَنْ يُعَارِضَ الْقُرْآنَ فَنَظَمَ كَلَامًا وَجَعَلَهُ مُفَصَّلًا وَسَمَّاهُ سُوَرًا ، فَاجْتَازَ يَوْمًا بِصَبِيٍّ يَقْرَؤُهَا فِي مَكْتَبٍ فَرَجَعَ وَمَحَا مَا عَمِلَ ، وَقَالَ : أَشْهَدُ أَنَّ هَذَا لَا يُعَارَضُ أَبَدًا وَمَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ .

(142/379)

وَلَا يَخْفَى أَنَّ هَذَا لَا يَسْتَدْعِي أَلَّا يَكُونَ سَائِرُ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ مُعْجِزًا ، لِمَا أَنَّ حَدَّ الْإِعْجَازِ هُوَ الْمَرْتَبَةُ الَّتِي يَعْجِزُ الْبَشَرُ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهَا وَلَا تَدْخُلُ عَلَى قُدْرَتِهِ قَطْعًا ، وَهِيَ تَشْتَمِلُ عَلَى شَيْئَيْنِ : الْأَوَّلُ الطَّرَفُ الْأَعْلَى مِنَ الْبَلَاغَةِ ، أَعْنِي : مَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ الْبَلَاغَةُ وَلَا

يُتصوَّرُ تجاوُزها إيّاهُ، والثّاني: ما يَقْرُبُ مِنْ ذَلِكَ الطَّرَفِ، أَعْنِي المرَاتِبَ العَلِيّةَ الَّتِي تَتَقَاصَرُ الْقُوَى الْبَشَرِيَّةُ عَنْهَا أَيْضًا .

(ومَعْنَى إعْجَازِ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمَجِيدِ بِأَسْرِهَا ، هُوَ كَوْنُهَا مِمَّا تَتَقَاصَرُ الْقُوَى الْبَشَرِيَّةُ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهَا ، سَوَاءٌ كَانَتْ مِنَ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ أَوِ الثَّانِي ، فَلَا يَضرُّ تَفَاوُتُهَا فِي الْبَلَاغَةِ ، وَهُوَ الَّذِي قَالَهُ عُلَمَاءُ هَذَا الشَّأْنِ .

(وَقَدْ فَصَّلَ بَعْضَ مَزَايَا هَذِهِ الْآيَةِ الْمَهَرَةُ الْمُتْقِنُونَ ، وَتَرَكُوا مِنْ ذَلِكَ مَا لَا يَكَادُ يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ ، وَلَا بَأْسَ بِذِكْرِ شَيْءٍ مِمَّا ذُكِرَ إِفَادَةً لِجَاهِلٍ ، وَتَذْكِيرًا لِفَاضِلٍ غَافِلٍ ، فَنَقُولُ : جِهَاتُ بَلَاغَةِ الْآيَةِ الْأَرْبَعُ ، أَوَّلُهَا جِهَةُ عِلْمِ الْبَيَانِ :

(143/379)

ذَكَرَ الْعَلَّامَةُ السَّكَّاكِيُّ أَنَّ النَّظَرَ فِيهَا مِنْ أَرْبَعِ جِهَاتٍ : مِنْ جِهَةِ عِلْمِ الْبَيَانِ ، وَمِنْ جِهَةِ عِلْمِ الْمَعَانِي ، وَهُمَا مَرْجِعَا الْبَلَاغَةِ . وَمِنْ جِهَةِ الْفَصَاحَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ ، وَمِنْ جِهَةِ الْفَصَاحَةِ اللَّفْظِيَّةِ ، أَمَّا النَّظَرُ فِيهَا مِنْ جِهَةِ عِلْمِ الْبَيَانِ – وَهُوَ النَّظَرُ فِيمَا فِيهَا مِنَ الْمَجَازِ وَالِاسْتِعَارَةِ وَالْكِنَايَةِ وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ مِنَ الْقَرِينَةِ وَالتَّرْشِيحِ وَالتَّعْرِيضِ – فَهُوَ أَنَّهُ – عَزَّ سُلْطَانُهُ – لَمَّا أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ مَعْنَى : أَرَدْنَا أَنْ نَرُدَّ مَا انْفَجَرَ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى بَطْنِهَا فَارْتَدَّ ، وَأَنْ نَقْطَعَ طُوفَانَ

السَّمَاءِ فَانْقَطَعَ ، وَأَنْ نُغِيضَ الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ فَغَاضَ ، وَأَنْ نَقْضِيَ أَمْرَ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ إِنْجَازُ مَا كُنَّا

وَعَدْنَاهُ مِنْ إِغْرَاقِ قَوْمِهِ فَقُضِيَ ، وَأَنْ نُسَوِّيَ السَّفِينَةَ عَلَى الْجُودِيِّ فَاسْتَوَتْ ، وَأَبْقَيْنَا الظَّلَمَةَ غَرْقَى - بَنَى سُبْحَانَهُ الْكَلَامَ عَلَى تَشْبِيهِ الْمُرَادِ مِنْهُ بِالْمَأْمُورِ الَّذِي لَا يَتَأَتَّى مِنْهُ - لِكَمَالِ هَيْبَتِهِ مِنَ الْآمِرِ - الْعِصْيَانُ ، وَتَشْبِيهِ تَكْوِينِ الْمُرَادِ بِالْأَمْرِ الْجَزْمِ النَّافِذِ فِي تَكَوُّنِ الْمَقْصُودِ تَصْوِيرًا لِاقْتِدَارِهِ سُبْحَانَهُ الْعَظِيمِ ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَجْرَامَ الْعَظِيمَةَ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ تَابِعَةٌ لِإِرَادَتِهِ - تَعَالَى - إِيجَادًا وَإِعْدَامًا ، وَلِمَشِيئَتِهِ فِيهَا تَغْيِيرًا وَتَبْدِيلًا ، كَأَنَّهَا عُقَلَاءُ مُمَيِّزُونَ قَدْ عَرَفُوهُ - جَلَّ شَأْنُهُ - حَقَّ مَعْرِفَتِهِ ، وَأَحَاطُوا عِلْمًا بِوُجُوبِ الِانْقِيَادِ لِأَمْرِهِ ، وَالْإِذْعَانِ لِحُكْمِهِ ، وَتَحَتَّمَ بَذْلُ الْمَجْهُودِ عَلَيْهِمْ فِي تَحْصِيلِ مُرَادِهِ ، وَتَصَوَّرُوا مَزِيدَ اقْتِدَارِهِ ، فَعَظُمَتْ مَهَابَتُهُ فِي نُفُوسِهِمْ ، وَضَرَبَتْ سُرَادِقَهَا فِي أَفْنِيَةِ ضَمَائِرِهِمْ ، فَكَمَا يَلُوحُ لَهُمْ إِشَارَتُهُ - سُبْحَانَهُ - كَانَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ مُقَدَّمًا ، وَكَمَا يَرِدُ عَلَيْهِمْ أَمْرُهُ - تَعَالَى شَأْنُهُ - كَانَ الْمَأْمُورُ بِهِ مُتَمَّمًا ، لَا تَلَقِّيَ لِإِشَارَتِهِ بِغَيْرِ الْإِمْضَاءِ وَالِانْقِيَادِ ، وَلَا لِأَمْرِهِ بِغَيْرِ الْإِذْعَانِ وَالِامْتِثَالِ .

(ثُمَّ بَنَى عَلَى مَجْمُوعِ التَّشْبِيهَيْنِ نَظْمَ الْكَلَامِ فَقَالَ – جَلَّ وَعَلَا – : (قِيلَ) عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ عَنِ الْإِرَادَةِ مِنْ بَابِ ذِكْرِ الْمُسَبَّبِ وَإِرَادَةِ السَّبَبِ ; لِأَنَّ الْإِرَادَةَ تَكُونُ سَبَبًا لِوُقُوعِ الْقَوْلِ فِي الْجُمْلَةِ ، وَجَعَلَ قَرِينَةَ هَذَا الْمَجَازِ خِطَابَ الْجَمَادِ وَهُوَ (يَا أَرْضُ) (وَيَا سَمَاءُ) إِذْ يَصِحُّ أَنْ يُرَادَ حُصُولُ شَيْءٍ مُتَعَلِّقٍ بِالْجَمَادِ ، وَلَا يَصِحُّ الْقَوْلُ لَهُ . ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ كَمَا تَرَى : (يَا أَرْضُ) (وَيَا سَمَاءُ) مُخَاطِبًا لَهُمَا عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ لِلشَّبَهِ الْمَذْكُورِ . وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّ هُنَاكَ اسْتِعَارَةً بِالْكِنَايَةِ ، حَيْثُ ذَكَرَ الْمُشَبَّهَ أَعْنِي السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ الْمُرَادَ مِنْهُمَا حُصُولُ أَمْرٍ ، وَأُرِيدَ الْمُشَبَّهُ بِهِ ، أَعْنِي الْمَأْمُورَ الْمَوْصُوفَ بِأَنَّهُ لَا يَتَأَتَّى مِنْهُ الْعِصْيَانُ ادِّعَاءً بِقَرِينَةِ نِسْبَةِ الْخِطَابِ إِلَيْهِ وَدُخُولِ حَرْفِ النِّدَاءِ عَلَيْهِ ، وَهُمَا مِنْ خَوَاصِّ الْمَأْمُورِ الْمُطِيعِ وَيَكُونُ هَذَا تَخْيِيلًا . وَقَدْ يُقَالُ : أَرَادَ أَنَّ الِاسْتِعَارَةَ هَهُنَا تَصْرِيحِيَّةٌ تَبَعِيَّةٌ فِي حَرْفِ النِّدَاءِ بِنَاءً عَلَى تَشْبِيهِ تَعَلُّقِ الْإِرَادَةِ بِالْمُرَادِ مِنْهُ بِتَعَلُّقِ النِّدَاءِ وَالْخِطَابِ بِالْمُنَادَى الْمُخَاطَبِ ، وَلَيْسَ بِشَيْءٍ ، إِذْ لَا يَحْسُنُ هَذَا التَّشْبِيهُ ابْتِدَاءً ، بَلْ تَبَعًا لِتَشْبِيهِ الْأَوَّلِ فَكَيْفَ يُجْعَلُ أَصْلًا لِمَتْبُوعِهِ ؟ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ لِلشَّبَهِ الْمَذْكُورِ يَدْفَعُ هَذَا الْحَمْلَ .

(ثُمَّ اسْتَعَارَ لِغُئُورِ الْمَاءِ فِي الْأَرْضِ الْبَلْعَ الَّذِي هُوَ إِعْمَالُ الْجَاذِبَةِ فِي الْمَطْعُومِ لِلشَّبَهِ بَيْنَهُمَا وَهُوَ الذَّهَابُ إِلَى مَقَرٍّ خَفِيٍّ . وَفِي الْكَشَّافِ : جَعْلُ الْبَلْعِ مُسْتَعَارًا لِنَشْفِ الْأَرْضِ الْمَاءَ هُوَ أَوْلَى ، فَإِنَّ النَّشْفَ دَالٌّ عَلَى جَذْبٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْأَرْضِ لِمَا عَلَيْهَا كَالْبَلْعِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْحَيَوَانِ ، وَلِأَنَّ النَّشْفَ فِعْلُ الْأَرْضِ ، وَالْغُئُورَ فِعْلُ الْمَاءِ مَعَ الطِّبَاقِ بَيْنَ الْفِعْلَيْنِ تَعَدِّيًا .

ثُمَّ اسْتَعَارَ الْمَاءَ لِلْغِذَاءِ اسْتِعَارَةً بِالْكِنَايَةِ تَشْبِيهًا لَهُ بِالْغِذَاءِ لِتَقَوِّي الْأَرْضِ بِالْمَاءِ فِي الْإِنْبَاتِ لِلزُّرُوعِ وَالْأَشْجَارِ تَقَوِّيَ الْآكِلِ بِالطَّعَامِ ، وَجَعَلَ قَرِينَةَ الِاسْتِعَارَةِ لَفْظَةَ (ابْلَعِي) لِكَوْنِهَا مَوْضُوعَةً لِلِاسْتِعْمَالِ فِي الْغِذَاءِ دُونَ الْمَاءِ .

(وَلَا يَخْفَى عَلَيْكَ أَنَّهُ إِذَا اعْتُبِرَ مَذْهَبُ السَّلَفِ فِي الِاسْتِعَارَةِ ، يَكُونُ (ابْلَعِي) اسْتِعَارَةً تَصْرِيحِيَّةً ، وَمَعَ ذَلِكَ يَكُونُ بِحَسَبِ اللَّفْظِ قَرِينَةً لِلِاسْتِعَارَةِ بِالْكِنَايَةِ فِي الْمَاءِ عَلَى حَدِّ مَا قَالُوا فِي : (يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ) وَأَمَّا إِذَا اعْتُبِرَ مَذْهَبُهُ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْبَلْعُ بَاقِيًا عَلَى حَقِيقَتِهِ كَالْإِنْبَاتِ فِي : أَنْبَتَ الرَّبِيعُ الْبَقْلَ . وَهُوَ بَعِيدٌ ، أَوْ يُحْمَلُ مُسْتَعَارًا لِأَمْرٍ مُتَوَهَّمٍ كَمَا فِي : نَطَقَتِ الْحَالُ ، فَيَلْزَمُهُ الْقَوْلُ بِالِاسْتِعَارَةِ التَّبَعِيَّةِ كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ .

(ثُمَّ إِنَّهُ – تَعَالَى – أَمَرَ عَلَى سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ لِلتَّشْبِيهِ الثَّانِي ، وَخَاطَبَ فِي الْأَمْرِ تَرْشِيحًا لِاسْتِعَارَةِ النِّدَاءِ ، وَالْحَاصِلُ أَنَّ فِي لَفْظِ (ابْلَعِي) بِاعْتِبَارِ جَوْهَرِهِ اسْتِعَارَةً لِغُئُورِ الْمَاءِ ، وَبِاعْتِبَارِ صُورَتِهِ أَعْنِي كَوْنَهُ صُورَةَ أَمْرٍ اسْتِعَارَةً أُخْرَى لِتَكْوِينِ الْمُرَادِ ; وَبِاعْتِبَارِ كَوْنِهِ أَمْرَ خِطَابٍ تَرْشِيحٌ لِلاسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ الَّتِي فِي الْمُنَادَى ، فَإِنَّ قَرِينَتَهَا

النِّدَاءُ وَمَا زَادَ عَلَى قَرِينَةِ الْمَكْنِيَّةِ يَكُونُ تَرْشِيحًا لَهَا . وَأَمَّا جَعْلُ النِّدَاءِ اسْتِعَارَةً تَصْرِيحِيَّةً تَبَعِيَّةً حَتَّى يَكُونَ خِطَابُ الْآمِرِ تَرْشِيحًا لَهَا فَقَدْ عَرَفْتَ مَا فِيهِ .

(ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا : (مَاءَكِ) بِإِضَافَةِ الْمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ ، تَشْبِيهًا لِاتِّصَالِ الْمَاءِ بِالْأَرْضِ بِاتِّصَالِ الْمِلْكِ بِالْمَالِكِ ، وَاخْتَارَ ضَمِيرَ الْخِطَابِ لِأَجْلِ التَّرْشِيحِ . وَحَاصِلُهُ أَنَّ هُنَاكَ مَجَازًا لُغَوِيًّا فِي الْهَيْئَةِ الْإِضَافِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى الِاخْتِصَاصِ الْمِلْكِيِّ ، وَلِهَذَا جَعَلَ الْخِطَابَ تَرْشِيحًا لِهَذِهِ الِاسْتِعَارَةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْخِطَابَ يَدُلُّ عَلَى صُلُوحِ الْأَرْضِ لِلْمَالِكِيَّةِ ، فَمَا قِيلَ إِنَّ الْمَجَازَ عَقْلِيٌّ وَالْعِبَارَةَ مَصْرُوفَةٌ عَنِ الظَّاهِرِ لَيْسَ بِشَيْءٍ .

(ثُمَّ اخْتَارَ لِاحْتِبَاسِ الْمَطَرِ الْإِقْلَاعَ الَّذِي هُوَ تَرْكُ الْفَاعِلِ الْفِعْلَ لِلشَّبَهِ بَيْنَهُمَا فِي عَدَمِ مَا كَانَ مِنَ الْمَطَرِ أَوِ الْفِعْلِ ، فَفِي (أَقْلِعِي) اسْتِعَارَةٌ بِاعْتِبَارِ جَوْهَرِهِ ، وَكَذَا بِاعْتِبَارِ صِيغَتِهِ أَيْضًا ،

وَهِيَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى تَشْبِيهِ تَكْوِينِ الْمُرَادِ بِالْأَمْرِ الْجَزْمِ النَّافِذِ ، وَالْخِطَابُ فِيهِ أَيْضًا تَرْشِيحٌ لِاسْتِعَارَةِ النِّدَاءِ ، وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْكَلَامَ فِيهِ مِثْلُ مَا مَرَّ فِي ابْلَعِي .

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ : (وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا) فَلَمْ يُصَرِّحْ - جَلَّ وَعَلَا - بِمَنْ غَاضَ الْمَاءَ ، وَلَا بِمَنْ قَضَى الْأَمْرَ وَسَوَّى السَّفِينَةَ ، وَقَالَ : بُعْدًا كَمَا لَمْ يُصَرِّحْ - سُبْحَانَهُ - بِقَائِلِ : (يَا أَرْضُ) (وَيَا سَمَاءُ) فِي صَدْرِ الْآيَةِ سُلُوكًا فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ لِسَبِيلِ الْكِنَايَةِ ; لِأَنَّ تِلْكَ الْأُمُورَ الْعِظَامَ لَا تَصْدُرُ إِلَّا مِنْ ذِي قُدْرَةٍ لَا يُكْتَنَهُ ، قَهَّارٌ لَا يُغَالَبُ ، فَلَا مَجَالَ لِذَهَابِ الْوَهْمِ إِلَى أَنْ يَكُونَ غَيْرُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ قَائِلًا : (يَا أَرْضُ) (وَيَا سَمَاءُ) ، وَلَا غَائِضًا مَا غَاضَ ، وَلَا قَاضِيًا مِثْلَ ذَلِكَ الْأَمْرِ الْهَائِلِ ، أَوْ أَنْ يَكُونَ تَسْوِيَةُ السَّفِينَةِ وَإِقْرَارُهَا بِتَسْوِيَةِ غَيْرِهِ .

(وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْفِعْلَ إِذَا تَعَيَّنَ لِفَاعِلٍ بِعَيْنِهِ اسْتَتْبَعَ لِذَلِكَ أَنْ يُتْرَكَ ذِكْرُهُ وَيُبْنَى الْفِعْلُ لِمَفْعُولِهِ ، أَوْ يُذْكَرَ مَا هُوَ أَثَرٌ لِذَلِكَ الْفِعْلِ عَلَى صِيغَةِ الْمَبْنِيِّ لِلْفَاعِلِ وَيُسْنَدَ إِلَى ذَلِكَ الْمَفْعُولِ ، فَيَكُونَ كِنَايَةً عَنْ تَخْصِيصِ الصِّفَةِ الَّتِي هِيَ الْفِعْلُ بِمَوْصُوفِهَا ، وَهَذَا أَوْلَى مِمَّا قِيلَ فِي تَقْرِيرِ الْكِنَايَةِ

هُنَا : إِنَّ تَرْكَ ذِكْرِ الْفَاعِلِ وَبِنَاءَ الْفِعْلِ لِلْمَفْعُولِ مِنْ لَوَازِمِ الْعِلْمِ بِالْفَاعِلِ وَتَعْيِينِهِ لِفَاعِلِيَّةِ ذَلِكَ الْفِعْلِ فَذِكْرُ اللَّازِمِ وَأُرِيدَ الْمَلْزُومُ ; لِمَا أَنَّ (وَاسْتَوَتْ) غَيْرُ مَبْنِيٍّ لِلْمَفْعُولِ - كَ (قِيلَ) ، (وَغِيضَ) .

(ثُمَّ إِنَّهُ - تَعَالَى - خَتَمَ الْكَلَامَ بِالتَّعْرِيضِ تَنْبِيهًا لِسَالِكِي مَسْلَكِ أُولَئِكَ الْقَوْمِ فِي تَكْذِيبِ الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - ظُلْمًا لِأَنْفُسِهِمْ لَا غَيْرَ ، خَتَمَ إِظْهَارًا لِمَكَانِ السُّخْطِ وَلِجِهَةِ اسْتِحْقَاقِهِمْ إِيَّاهُ ، وَإِنَّ قِيَامَةَ الطُّوفَانِ وَتِلْكَ الصُّورَةَ الْهَائِلَةَ مَا كَانَتْ إِلَّا لِظُلْمِهِمْ ، كَمَا يُؤْذِنُ بِذَلِكَ الدُّعَاءُ بِالْهَلَاكِ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ ، وَالْوَصْفُ بِالظُّلْمِ مَعَ تَعْلِيقِ الْحُكْمِ بِهِ ، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْبُعْدَ فِي الْأَصْلِ ضِدُّ الْقُرْبِ وَهُوَ بِاعْتِبَارِ الْمَكَانِ وَيَكُونُ فِي الْمَحْسُوسِ ، وَقَدْ يُقَالُ فِي الْمَعْقُولِ نَحْوُ : ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا 4 : 167 وَاسْتِعْمَالُهُ فِي الْهَلَاكِ مَجَازٌ .

(قَالَ نَاصِرُ الدِّينِ : يُقَالُ : بَعُدَ بُعْدًا بِضَمٍّ فَسُكُونٍ ، وَبُعُدًا بِالتَّحْرِيكِ إِذَا بَعُدَ بُعْدًا بَعِيدًا بِحَيْثُ لَا يُرْجَى عَوْدُهُ ، ثُمَّ اسْتُعِيرَ لِلْهَلَاكِ وَخُصَّ بِدُعَاءِ السُّوءِ ، وَلَمْ يُفَرِّقْ فِي الْقَامُوسِ بَيْنَ صِيغَتَيِ الْفِعْلِ فِي الْمَعْنَيَيْنِ حَيْثُ قَالَ : الْبُعْدُ مَعْرُوفٌ وَالْمَوْتُ وَفِعْلُهُمَا كَكَرُمَ بُعْدًا وَبُعُدًا فَافْهَمْ .

(وزعم بعضهم أن الأرض والسماء أعطيتا ما يعقلان به الأمر، فقيل لهما حقيقة ما قيل، وأن القائل (بعدا) نوح - عليه السلام - ومن معه من المؤمنين، ولا يخفى أن هذا خلاف الظاهر ولا أثر فيه يعول عليه، والكلام على الأول أبلغ.

بلاغة الآية من جهة علم المعاني:

(151/379)

(وأما النظر فيها من جهة علم المعاني وهو النظر في فائدة كل كلمة فيها، وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها، فذلك أنه اختير (يا) دون سائر أخواتها لكونها أكثر في الاستعمال، وأنها دالة على بعد المنادى الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة وإبداء شأن العزة والجبروت، وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به، ولم يقل: يا أرض بالكسر؛ لأن الإضافة إلى نفسه جل شأنه تقتضي تشريفا للأرض وتكريما لها فترك إمدادا للتهاون، ولم يقل: يا أيتها الأرض! مع كثرته في نداء أسماء الأجناس، قصدا إلى الاختصار والاحتراز عن تكلف التنبيه المشعر بالغفلة التي لا تناسب ذلك المقام، واختير لفظ الأرض والسماء على سائر أسمائهما كالمقلة والغبراء، وكالمظلة والخضراء؛ لكونهما أخصر وأورد في الاستعمال، وأوفى بالمطابقة، فإن تقابلهما إنما اشتهر بهذين الاسمين،

وَاخْتِيرَ لَفْظُ (ابْلَعِي) عَلَى ابْتَلِعِي ; لِكَوْنِهِ أَخْصَرَ وَأَوْفَرَ تَجَانُسًا بِـ (أَقْلِعِي) ; وَلِأَنَّ هَمْزَةَ الْوَصْلِ إِنِ اعْتُبِرَتْ تَسَاوِيَا فِي عَدَدِ الْحُرُوفِ ، وَإِلَّا تَقَارَبَا

(152/379)

فِيهِ ، بِخِلَافِ ابْتَلِعِي ، وَقِيلَ : (مَاءَكِ) بِالْإِفْرَادِ دُونَ الْجَمْعِ ; لِمَا فِيهِ مِنْ صُورَةِ الِاسْتِكْثَارِ الْمُتَأَبِّي عَنْهَا مَقَامُ إِظْهَارِ الْكِبْرِيَاءِ ، وَهُوَ الْوَجْهُ فِي إِفْرَادِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلِ ابْلَعِي بِدُونِ الْمَفْعُولِ لِئَلَّا يَسْتَلْزِمَ تَرْكُهُ مَا لَيْسَ بِمُرَادٍ مِنْ تَعْمِيمِ الِابْتِلَاعِ لِلْجِبَالِ وَالتِّلَالِ وَالْبِحَارِ وَسَاكِنَاتِ الْمَاءِ بِأَسْرِهِنَّ نَظَرًا إِلَى مَقَامِ عَظَمَةِ الْآمِرِ الْمَهِيبِ وَكَمَالِ انْقِيَادِ الْمَأْمُورِ .

(وَلَمَّا عُلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ بَلْعُ الْمَاءِ وَحْدَهُ ، عُلِمَ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْإِقْلَاعِ إِمْسَاكُ السَّمَاءِ عَنْ إِرْسَالِ الْمَاءِ . فَلَمْ يَذْكُرْ مُتَعَلَّقَ أَقْلِعِي اخْتِصَارًا وَاحْتِرَازًا عَنِ الْحَشْوِ الْمُسْتَغْنَى عَنْهُ ، وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي تَرْكِ ذِكْرِ حُصُولِ الْمَأْمُورِ بِهِ بَعْدَ الْأَمْرِ ، فَلَمْ يَقُلْ : قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي فَبَلَعَتْ ، وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي فَأَقْلَعَتْ ; لِأَنَّ مَقَامَ الْكِبْرِيَاءِ وَكَمَالَ الِانْقِيَادِ يُغْنِي عَنْ ذِكْرِهِ الَّذِي رُبَّمَا أَوْهَمَ إِمْكَانَ الْمُخَالَفَةِ ، وَاخْتِيرَ وَغِيضَ عَلَى غُيِّضَ الْمُشَدَّدِ لِكَوْنِهِ أَخْصَرَ ، وَقِيلَ : الْمَاءُ دُونَ مَاءِ طُوفَانِ السَّمَاءِ ، وَكَذَا الْأَمْرُ دُونَ أَمْرِ نُوحٍ وَهُوَ إِنْجَازُ مَا وُعِدَ ; لِقَصْدِ الِاخْتِصَارِ

وَالِاسْتِغْنَاءِ بِحَرْفِ التَّعْرِيفِ عَنْ ذَلِكَ ، لِأَنَّهُ إِمَّا بَدَلٌ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْكُوفَةِ ، وَإِمَّا لِأَنَّهُ يُغْنِي غَنَاءَ الْإِضَافَةِ فِي الْإِشَارَةِ إِلَى الْمَعْهُودِ .

(153/379)

(وَاخْتِيرَ وَاسْتَوَتْ عَلَى (سُوِّيَتْ) أَيْ أُقِرَّتْ مَعَ كَوْنِهِ أَنْسَبَ بِأَخَوَاتِهِ الْمَبْنِيَّةِ لِلْمَفْعُولِ ، اعْتِبَارًا لِكَوْنِ الْفِعْلِ الْمُقَابِلِ لِلِاسْتِقْرَارِ – أَعْنِي الْجَرَيَانَ – مَنْسُوبًا إِلَى السَّفِينَةِ عَلَى صِيغَةِ الْمَبْنِيِّ لِلْفَاعِلِ فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى – : (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ) مَعَ أَنَّ وَاسْتَوَتْ أَخْصَرُ مِنْ سُوِّيَتْ ، وَاخْتِيرَ الْمَصْدَرُ أَعْنِي بُعْدًا عَلَى لِيَبْعُدَ الْقَوْمُ ، طَلَبًا لِتَأْكِيدِ مَعْنَى الْفِعْلِ بِالْمَصْدَرِ مَعَ الِاخْتِصَارِ فِي الْعِبَارَةِ وَهُوَ نُزُولُ بُعْدًا وَحْدَهُ مَنْزِلَةَ : لِيَبْعُدُوا بُعْدًا ، مَعَ فَائِدَةٍ أُخْرَى هِيَ الدَّلَالَةُ عَلَى اسْتِحْقَاقِ الْهَلَاكِ بِذِكْرِ اللَّامِ ، وَإِطْلَاقُ الظُّلْمِ عَنْ مُقَيِّدَاتِهِ فِي مَقَامِ الْمُبَالَغَةِ يُفِيدُ تَنَاوُلَ كُلِّ نَوْعٍ . فَيَدْخُلُ فِيهِ ظُلْمُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لِزِيَادَةِ التَّنْبِيهِ عَلَى فَظَاعَةِ سُوءِ اخْتِيَارِهِمْ فِي التَّكْذِيبِ ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ تَكْذِيبَهُمْ لِلرُّسُلِ ظُلْمًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، لِأَنَّ ضَرَرَهُ يَعُودُ إِلَيْهِمْ . (هَذَا مِنْ حَيْثُ النَّظَرِ إِلَى تَرْكِيبِ الْكَلِمِ ، وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ النَّظَرِ إِلَى تَرْتِيبِ الْجُمَلِ فَذَلِكَ أَنَّهُ قَدَّمَ النِّدَاءَ عَلَى الْأَمْرِ فَقِيلَ : (يَا أَرْضُ ابْلَعِي) (وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي) دُونَ أَنْ يُقَالَ : ابْلَعِي يَا أَرْضُ ، وَأَقْلِعِي يَا سَمَاءُ ، جَرْيًا عَلَى مُقْتَضَى اللَّازِمِ فِيمَنْ كَانَ مَأْمُورًا

(154/379)

حَقِيقَةً مِنْ تَقْدِيمِ التَّنْبِيهِ لِيَتَمَكَّنَ الْأَمْرُ الْوَارِدُ عَقِيبَهُ فِي نَفْسِ الْمُنَادَى . قَصْدًا بِذَلِكَ لِمَعْنَى التَّرْشِيحِ لِلاسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، ثُمَّ قَدَّمَ أَمْرَ الْأَرْضِ عَلَى أَمْرِ السَّمَاءِ لِكَوْنِهَا الْأَصْلَ ، نَظَرًا إِلَى كَوْنِ ابْتِدَاءِ الطُّوفَانِ مِنْهَا حَيْثُ فَارَ تَنُّورُهَا أَوَّلًا ، ثُمَّ جَعَلَ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ : (وَغِيضَ الْمَاءُ) تَابِعًا لِأَمْرِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ لِاتِّصَالِهِ بِقِصَّةِ الْمَاءِ وَأَخْذِهِ بِحُجْزَتِهَا ، أَلَا تَرَى أَصْلَ الْكَلَامِ : وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ فَبَلَعَتْ مَاءَهَا وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي عَنْ إِرْسَالِ الْمَاءِ فَأَقْلَعَتْ عَنْ إِرْسَالِهِ وَغِيضَ الْمَاءُ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ فَغَاضَ ، وَقُيِّدَ الْمَاءُ بِالنَّازِلِ وَإِنْ كَانَ فِي الْآيَةِ مُطْلَقًا : لِأَنَّ ابْتِلَاعَ الْأَرْضِ مَاءَهَا فُهِمَ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : (ابْلَعِي مَاءَكِ) وَاعْتُرِضَ بِأَنَّ الْمَاءَ الْمَخْصُوصَ بِالْأَرْضِ إِنْ أُرِيدَ بِهِ مَا عَلَى وَجْهِهَا فَهُوَ يَتَنَاوَلُ الْقَبِيلَيْنِ : الْأَرْضِيَّ وَالسَّمَائِيَّ . وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ مَا نَبَعَ مِنْهَا فَاللَّفْظُ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ بِوَجْهٍ ، وَلِهَذَا حَمَلَ الزَّمَخْشَرِيُّ الْمَاءَ عَلَى مُطْلَقِهِ ، وَأَشْعَرَ كَلَامُهُ بِأَنَّ : وَغِيضَ الْمَاءُ إِخْبَارٌ عَنْ حُصُولِ الْمَأْمُورِ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : (يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي) ، فَالتَّقْدِيرُ : قِيلَ لَهُمَا ذَلِكَ فَامْتَثَلَا الْأَمْرَ وَنَقَصَ الْمَاءُ .

(ورجّح الطّيبيّ ما ذهب إليه السّكّاكيّ ، زاعمًا أنّ معنى الغيض حينئذٍ ما قاله الجوهريّ وهو عنده مخالفٌ للمعنى الّذي ذكره الزّمخشريّ ، فقال : إنّ إضافة الماء إلى الأرض لمّا كانت ترشيحًا للاستعارة تشبيهًا لاتّصاله بها باتّصال الملك بالمالك ، ولذا جيء بضمير الخطاب ، اقتضت إخراج سائر المياه سوى الّذي بسببه صارت الأرض مهيّأةً للخطاب بمنزلة المأمور المطيع ، وهو المعهود في قوله – تعالى – : (وفار التّنّور) (40) وبهذا الاعتبار يحصل التّوغّل في تناسي التّشبيه والتّرشيح ، ولو أجريت الإضافة على غير هذا تكون كالتّجريد ، وكم بينهما ؟

(هذا ولو حمل على العموم لاستلزم تعميم ابتلاع المياه بأسرها لورود الأمر من مقام العظمة كما علمت من كلام السّكّاكيّ وليس بذاك ، وتعقّبه في الكشف بأنّه دعوى بلا دليل وردّ يمين ؟ إذ لا معهود ، والظّاهر ما على وجه الأرض من الماء ولا ينافي التّرشيح وإضافة المالكيّة . ثمّ الظّاهر من تنزيل الماء منزلة الغذاء أن تجعل الإضافة من باب إضافة الغذاء إلى المغتذي في النّفع والتّقوية وصيرورته جزءًا منه ، ولا نظر فيه إلى كونه مملوكًا أو غير ذلك ، وأمّا التّعميم فمطلوبٌ وحاصلٌ على التّفسيرين لانحصار

الْمَاءِ فِي الْأَرْضِيِّ وَالسَّمَائِيِّ وَقَدْ قُلْتُمْ بِنُضُوبِهِمَا مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ ابْلَعِي فَبَلَعَتْ ؟ وَقَوْلِهِ - تَعَالَى - وَغِيضَ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَا عِنْدَنَا مِنَ الْمَاءِ غَيْرُ مَاءِ الطُّوفَانِ .

(هَذَا وَالْمُطَابِقُ تَفْسِيرَ الزَّمَخْشَرِيِّ ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : فَالْتَقَى الْمَاءُ 54 : 12 أَيِ الْأَرْضِيُّ وَالسَّمَائِيُّ ، وَهَاهُنَا تَقَدَّمَ الْمَاءَانِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : (مَاءَكِ) (وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي) لِأَنَّ تَقْدِيرَهُ : عَنْ إِرْسَالِ الْمَاءِ عَلَى زَعْمِهِمْ ، فَإِذَا قِيلَ : وَغِيضَ الْمَاءُ رَجَعَ إِلَيْهِمَا لَا مَحَالَةَ لِتَقَدُّمِهِمَا . ثُمَّ إِذَا جُعِلَ مِنْ تَوَابِعِ أَقْلِعِي خَاصَّةً لَمْ يَحْسُنْ عَطْفُهُ عَلَى أَصْلِ الْقِصَّةِ ، أَعْنِي : (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي) كَيْفَ وَفِي إِيثَارِ هَذَا التَّفْسِيرِ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُ زَالَ كَوْنُهُ طُوفَانًا لِأَنَّ نُقْصَانَ الْمَاءِ غَيْرُ الْإِذْهَابِ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَإِلَى أَنَّ الْأَجْزَاءَ الْبَاطِنَةَ مِنَ الْأَرْضِ لَمْ تَبْقَ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ قُوَّةِ الْإِنْبَاعِ وَرَجَعَتْ إِلَى الِاعْتِدَالِ الْمَطْلُوبِ ، وَلَيْسَ فِي الِاخْتِصَاصِ بِالنُّضُوبِ هَذَا الْمَعْنَى أَلْبَتَّةَ اهـ .

(وَزَعَمَ الطَّبَرْسِيُّ أَنَّ أَئِمَّةَ الْبَيْتِ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ - عَلَى أَنَّ الْمَاءَ الْمُضَافَ هُوَ مَا نَبَعَ وَفَارَ ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي ابْتُلِعَ وَغَاضَ لَا غَيْرَ ، وَأَنَّ مَاءَ السَّمَاءِ صَارَ بِحَارًا وَأَنْهَارًا .

(وأَخْرَجَ ابْنُ عَسَاكِرَ مِنْ طَرِيقِ الْكَلْبِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَا يُؤَيِّدُهُ ، وَهَذَا مُخَالِفٌ لِمَا يَقْتَضِيهِ كَلَامُ السَّكَّاكِيِّ مُخَالفةً ظَاهِرَةً ، وَفِي الْقَلْبِ مِنْ صِحَّتِهِ مَا فِيهِ .

(ثُمَّ إِنَّهُ - تَعَالَى - أَتْبَعَ - وَغِيضَ الْمَاءُ - مَا هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَصْلِيُّ مِنَ الْقِصَّةِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ : (وَقُضِيَ الْأَمْرُ) ثُمَّ أَتْبَعَ ذِكْرَ الْمَقْصُودِ حَدِيثَ السَّفِينَةِ لِتَأَخُّرِهِ عَنْهُ فِي الْوُجُودِ ، ثُمَّ خُتِمَتِ الْقِصَّةُ بِالتَّعْرِيضِ الَّذِي عَلِمْتَهُ .

مَزَايَا الْآيَةِ مِنْ جِهَةِ الْفَصَاحَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَاللَّفْظِيَّةِ :

(هَذَا كُلُّهُ نَظَرٌ فِي الْآيَةِ مِنْ جَانِبِ الْبَلَاغَةِ ، وَأَمَّا النَّظَرُ فِيهَا مِنْ جَانِبِ الْفَصَاحَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ فَهِيَ كَمَا تَرَى نَظْمٌ لِلْمَعَانِي لَطِيفٌ ، وَتَأْدِيَةٌ لَهَا مُلَخَّصَةٌ مُبِينَةٌ لَا تَعْقِيدَ يُعَثِّرُ الْفِكْرَ فِي طَلَبِ الْمُرَادِ ، وَلَا الْتِوَاءَ يُشِيكُ الطَّرِيقَ إِلَى الْمُرْتَادِ ، بَلْ إِذَا جَرَّبْتَ نَفْسَكَ عِنْدَ اسْتِمَاعِهَا وَجَدْتَ أَلْفَاظَهَا تُسَابِقُ مَعَانِيَهَا ، وَمَعَانِيهَا تُسَابِقُ أَلْفَاظَهَا ، فَمَا مِنْ لَفْظَةٍ فِيهَا تَسْبِقُ إِلَى أُذُنِكَ ، إِلَّا وَمَعْنَاهَا أَسْبَقُ إِلَى قَلْبِكَ .

(وَأَمَّا النَّظَرُ فِيهَا مِنْ جَانِبِ الْفَصَاحَةِ اللَّفْظِيَّةِ ، فَأَلْفَاظُهَا عَلَى مَا تَرَى عَرَبِيَّةٌ مُسْتَعْمَلَةٌ

جَارِيَةٌ عَلَى قَوَانِينِ اللُّغَةِ سَلِيمَةٌ عَنِ التَّنَافُرِ ، بَعِيدَةٌ عَنِ الْبَشَاعَةِ ، عَذْبَةٌ عَلَى الْعَذَبَاتِ ، سَلِسَةٌ عَلَى الْأَسَلَاتِ ، كُلٌّ مِنْهَا كَالْمَاءِ فِي السَّلَاسَةِ ، وَكَالْعَسَلِ فِي الْحَلَاوَةِ ، وَكَالنَّسِيمِ فِي الرِّقَّةِ ، وَلِلَّهِ - تَعَالَى - دَرُّ التَّنْزِيلِ مَاذَا جَمَعَتْ آيَاتُهُ !

وَعَلَى تَفَنُّنِ وَاصِفِيهِ بِحُسْنِهِ يَفْنَى الزَّمَانُ وَفِيهِ مَا لَمْ يُوصَفِ

(وَمَا ذُكِرَ فِي شَرْحِ مَزَايَا هَذِهِ الْآيَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فِيهَا قَطْرَةٌ مِنْ حِيَاضٍ ، وَزَهْرَةٌ مِنْ رِيَاضٍ .

(159/379)

مَزَايَا الْآيَةِ مِنْ جِهَةِ الْمُحَسِّنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ : (وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ أَبِي الْأُصْبُعِ أَنَّ فِيهَا عِشْرِينَ ضَرْبًا مِنَ الْبَدِيعِ مَعَ أَنَّهَا سَبْعَ عَشْرَةَ لَفْظَةً ، وَذَلِكَ : الْمُنَاسَبَةُ التَّامَّةُ فِي ابْلَعِي وَأَقْلِعِي ، وَالِاسْتِعَارَةُ فِيهِمَا ، وَالطِّبَاقُ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَالْمَجَازُ فِي يَا سَمَاءُ فَإِنَّ الْحَقِيقَةَ يَا مَطَرَ السَّمَاءِ ، وَالْإِشَارَةُ فِي (وَغِيضَ الْمَاءُ) فَإِنَّهُ عَبَّرَ بِهِ عَنْ مَعَانٍ كَثِيرَةٍ ; لِأَنَّ الْمَاءَ لَا يَغِيضُ حَتَّى يُقْلِعَ مَطَرُ السَّمَاءِ وَتَبْلَعَ الْأَرْضُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَيَنْقُصُ مَا عَلَى الْأَرْضِ ، وَالْإِرْدَافُ فِي (وَاسْتَوَتْ) وَالتَّمْثِيلُ فِي (وَقُضِيَ الْأَمْرُ) وَالتَّعْلِيلُ فَإِنَّ غَيْضَ الْمَاءِ عِلَّةٌ لِلِاسْتِوَاءِ ، وَصِحَّةُ التَّقْسِيمِ ، فَإِنَّهُ اسْتَوْعَبَ أَقْسَامَ الْمَاءِ حَالَ نَقْصِهِ ، وَالِاحْتِرَاسُ فِي الدُّعَاءِ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّ الْغَرَقَ لِعُمُومِهِ

شَمِلَ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ الْهَلَاكَ ، فَإِنَّ عَدْلَهُ - تَعَالَى - يَمْنَعُ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى غَيْرِ مُسْتَحِقٍّ ، وَحُسْنُ النَّسَقِ ، وَائْتِلَافُ اللَّفْظِ مَعَ الْمَعْنَى ، وَالْإِيجَازُ فَإِنَّهُ - سُبْحَانَهُ - قَصَّ الْقِصَّةَ مُسْتَوْعَبَةً بِأَخْصَرِ عِبَارَةٍ ، وَالتَّسْهِيمُ ; لِأَنَّ أَوَّلَ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى آخِرِهَا ، وَالتَّهْذِيبُ ; لِأَنَّ مُفْرَدَاتِهَا مَوْصُوفَةٌ بِصِفَاتِ الْحُسْنِ ، وَحُسْنُ الْبَيَانِ مِنْ جِهَةِ أَنَّ السَّامِعَ لَا يَتَوَقَّفُ فِي فَهْمِ مَعْنَى الْكَلَامِ وَلَا يُشْكِلُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ ، وَالتَّمْكِينُ لِأَنَّ الْفَاصِلَةَ مُسْتَقِرَّةٌ فِي مَحَلِّهَا مُطْمَئِنَّةٌ فِي مَكَانِهَا ، وَالِانْسِجَامُ ،

(160/379)

وَزَادَ الْجَلَالُ السُّيُوطِيُّ بَعْدَ أَنْ نَقَلَ هَذَا عَنِ ابْنِ أَبِي
الْأُصْبُعِ : الِاعْتِرَاضَ ، وَزَادَ آخَرُونَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً إِلَّا أَنَّهَا كَكَلَامِ ابْنِ أَبِي الْأُصْبُعِ قَدْ أُشِيرَ إِلَيْهَا بِأُصْبُعِ الِاعْتِرَاضِ .
(وَقَدْ أَلَّفَ شَيْخُنَا عَلَاءُ الدِّينِ - أَعْلَى اللَّهُ تَعَالَى دَرَجَتَهُ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ - رِسَالَةً فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ جَمَعَ فِيهَا مَا ظَهَرَ لَهُ وَوَقَفَ عَلَيْهِ مِنْ مَزَايَاهَا ، فَبَلَغَ ذَلِكَ
مِائَةً وَخَمْسِينَ مَزِيَّةً ، وَقَدْ تَطَلَّبْتُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ لِأَذْكُرَ شَيْئًا مِنْ لَطَائِفِهَا فَلَمْ أَظْفَرْ بِهَا ، وَكَأَنَّ طُوفَانَ الْحَوَادِثِ أَغْرَقَهَا ، وَلَعَلَّ فِيمَا نَقَلْنَاهُ سَدَادًا مِنْ عَوَزٍ ، وَاللَّهُ - تَعَالَى - الْمُوَفِّقُ

لِلصَّوَابِ، وَعِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) انْتَهَى .

الْعِلَاوَةُ الثَّانِيَةُ :

(حَادِثَةُ الطُّوفَانِ فِي الْقُرْآنِ وَالتَّوْرَاةِ وَالتَّارِيخِ الْقَدِيمِ)

بَيَّنَّا مِرَارًا أَنَّ أَحْدَاثَ التَّارِيخِ وَضَبْطَ وَقَائِعِهِ وَأَزْمِنَتِهَا وَأَمْكِنَتِهَا لَيْسَ مِنْ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّ مَا فِيهِ مِنْ قَصَصِ الرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ فَإِنَّمَا هُوَ بَيَانٌ لِسُنَّةِ اللَّهِ فِيهِمْ، وَمَا تَتَضَمَّنُهُ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وَالْإِصْلَاحِ الَّتِي أَجْمَلْنَاهَا فِي بَيَانِ حِكْمَةِ التَّحَدِّي بِعَشْرِ سُوَرٍ مِنْهُ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ، بِعَشْرِ جُمَلٍ جَامِعَةٍ لِأَنْوَاعِ الْمَعَارِفِ وَالْفَوَائِدِ وَالْعِبَرِ وَالْمَوَاعِظِ وَالنُّذُرِ الْمُتَفَرِّقَةِ .

(161/379)

وَبَيَّنَّا أَنَّ قِصَّةَ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - جَاءَتْ فِي عِدَّةِ سُوَرٍ فِي كُلِّ سُورَةٍ مِنْهَا مَا لَيْسَ فِي سَائِرِهَا مِنْ ذَلِكَ، وَلِهَذَا لَمْ يُذْكَرْ فِيهَا مِنْ حَادِثَةِ الطُّوفَانِ إِلَّا مَا فِيهِ الْعِبْرَةُ وَالْمَوْعِظَةُ الْمَقْصُودَةُ بِالذَّاتِ مِنْهَا ، فَذُكِرَتْ فِي بَعْضِهَا بِآيَةٍ وَفِي بَعْضِهَا بِآيَتَيْنِ فَمَا فَوْقَهُمَا مِنْ جَمْعِ الْقِلَّةِ، وَمَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ هُوَ أَطْوَلُهَا وَأَجْمَعُهَا .

قِصَّةُ نُوحٍ فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ :

وأَمّا قِصّة نوحٍ في سِفرِ التَّكوينِ وهُوَ السِّفْرُ الْأَوّلُ مِنَ الْأَسْفَارِ الَّتي يُسمُّونَهَا التَّوْرَاة ، فَهيَ قِصّةٌ تَاريخيَّةٌ وَرَدَتْ في سِيَاقِ أَنْسَابِ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وتَسَلْسُلِهَا في السِّنِينَ الْمَعْدُودَةِ ، إِلَى أَنْ تَتَّصِل بِبَني إِسْرَائيلَ الْمَقْصُودِينَ بِالذَّاتِ الْمُؤَلَّفَةِ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْبَشَرِ ، وَهذَا التَّاريخُ نَقَضَهُ مِنْ أَسَاسِهِ عِلْمُ الْجِيُولُوجيّةِ وَمَا كُشِفَ مِنْ آثَارِ الْإِنْسَانِ الْمُتَحَجِّرَةِ وَغَيْرِهَا .

فِي الْفَصْلِ الْأَوّلِ مِنْ سِفرِ التَّكْوينِ بَيَانُ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ فِي سَادِسِهَا خَلْقَ آدَمُ ، وَفِي الْفَصْلِ الثَّاني تَفْصِيلٌ لِمَا خَلَقَ اللهُ فِي الْأَرْضِ ، وَمِنْهُ أَنَّهُ غَرَسَ جَنَّةً فِي عَدَنَ شَرْقًا وَوَضَعَ فِيهَا آدَمَ ، وَفِي آخِرِهِ ذِكْرُ خَلْقَ حَوَّاءَ مِنْ ضِلْعٍ مِنْ

(162/379)

أَضْلَاعِ آدَمَ الْيُسْرَى ، وَفِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ خَبَرُ مَعْصِيَةِ آدَمَ بِأَكْلِهِ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ طَاعَةً لِامْرَأَتِهِ الَّتي أَغْوَتْهَا الْحَيَّةُ وَحَمَلَتْهَا عَلَى الْأَكْلِ مِنْهَا ، وَفِي الْفَصْلِ الرَّابِعِ تَنَاسُلُ آدَمَ وَحَوَّاءَ ، وَفِي الْخَامِسِ مَوَالِيدُ آدَمَ

إِلَى نُوحٍ وَهُوَ الْبَطْنُ التَّاسِعُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ، وَكَانَ بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ وَوِلَادَةِ نُوحٍ 1056 سَنَةً مِنْهَا 930 سَنَةً مُدَّةُ حَيَاةِ آدَمَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – .

وَأَمَّا قِصَّةُ نُوحٍ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – فَاسْتَغْرَقَتْ فِيهِ أَرْبَعَةَ فُصُولٍ مِنْ 6 – 9 فِي آخِرِ التَّاسِعِ

مِنْهَا أَنَّ نُوحًا عَاشَ 950 سَنَةً ، وَفِي أَوَّلِ السَّادِسِ بَيَانُ سَبَبِ الطُّوفَانِ ، وَهُوَ بِمَعْنَى مَا فِي الْقُرْآنِ إِلَّا أَنَّهُ بِأُسْلُوبِ تِلْكَ الْكُتُبِ الَّتِي تُشَبِّهُ اللهَ – تَعَالَى – بِالْإِنْسَانِ فِي الصُّورَةِ وَالْمَعْنَى ، أَوْ مَا تَكَرَّرَ فِيهِ مِنْ أَنَّهُ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ (1 : 26 وَقَالَ اللهُ نَعْمَلُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ و 27000 فَخَلَقَ اللهُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ ، عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ ذَكَرًا وَأُنْثَى) وَهَذَا مَا يَعْنِينَا فِي هَذَا السِّفْرِ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ .

(163/379)

(6 : 5 وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الْإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ كُلَّ تَصَوُّرِ أَفْكَارِ قَلْبِهِ إِنَّمَا هُوَ شِرِّيرٌ كُلَّ يَوْمٍ 6 فَحَزِنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الْإِنْسَانَ فِي الْأَرْضِ وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ 7 فَقَالَ الرَّبُّ : أَمْحُو عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ الْإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ ، الْإِنْسَانَ مَعَ بَهَائِمَ وَدَبَّابَاتٍ وَطُيُورِ السَّمَاءِ لِأَنِّي حَزِنْتُ عَلَيْهِمْ أَنِّي عَمِلْتُهُمْ 8 وَأَمَّا نُوحٌ فَوَجَدَ نِعْمَةً فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ 9 هَذِهِ . مَوَالِيدُ نُوحٍ : كَانَ نُوحٌ رَجُلًا بَارًّا كَامِلًا فِي أَجْيَالِهِ وَسَارَ نُوحٌ مَعَ اللهِ 10 وَوَلَدَ نُوحٌ ثَلَاثَةَ بَنِينَ : سَامًا وَحَامًا وَيَافِثَ 11 وَفَسَدَتِ الْأَرْضُ أَمَامَ اللهِ وَامْتَلَأَتْ ظُلْمًا 12 وَرَأَى اللهُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ قَدْ فَسَدَتْ إِذْ كَانَ كُلُّ بَشَرٍ قَدْ أَفْسَدَ طَرِيقَهُ عَلَى الْأَرْضِ 13 فَقَالَ اللهُ لِنُوحٍ : نِهَايَةُ كُلِّ

بَشَرٍ قَدْ أَتَتْ أَمَامِي لِأَنَّ الْأَرْضَ امْتَلَأَتْ ظُلْمًا مِنْهُمْ فَهَا أَنَا مُهْلِكُهُمْ مَعَ الْأَرْضِ 14 اصْنَعْ لِنَفْسِكَ فُلْكًا مِنْ خَشَبِ جُفْرٍ إِلَخْ .

(164/379)

وَهَاهُنَا وَصَفَ طُولَ الْفُلْكِ وَعَرْضَهُ وَارْتِفَاعَهُ وَبَابَهُ فِي جَانِبِهِ وَطَبَقَاتِهِ الثَّلَاثَ ، وَمَنْ يَدْخُلُ فِيهِ مَعَهُ وَهُمُ امْرَأَتُهُ وَبَنُوهُ الثَّلَاثَةُ وَأَزْوَاجُهُمُ الثَّلَاثُ ، وَمِنْ كُلِّ حَيٍّ مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، وَكُلُّ مَنْ يَبْقَى فِي الْأَرْضِ وَتَحْتَ السَّمَاءِ يَهْلِكُ ، وَقَدْ كَرَّرَ ذِكْرَ مَنْ يَدْخُلُ الْفُلْكَ ، وَذَكَرَ تَارِيخَ دُخُولِ الْفُلْكِ مِنْ عُمُرِ نُوحٍ ، وَمُدَّةَ الْمَطَرِ وَهُوَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا ، وَمِقْدَارَ ارْتِفَاعِ الْفُلْكِ فَوْقَ الْجِبَالِ وَهُوَ 15 ذِرَاعًا ، وَبَقَاءَ الْمِيَاهِ عَلَى الْأَرْضِ 150 يَوْمًا .

كُلُّ ذَلِكَ فِي الْفَصْلَيْنِ السَّادِسِ وَالسَّابِعِ ، وَذَكَرَ فِي الْفَصْلِ الثَّامِنِ رُجُوعَ الْمِيَاهِ عَنِ الْأَرْضِ بِالتَّدْرِيجِ ، وَاسْتِقْرَارَ الْفُلْكِ عَلَى جِبَالِ أَرَارَاطَ ، وَمَا كَانَ مِنْ خُرُوجِ نُوحٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ السَّفِينَةِ (قَالَ) 8 : 20 وَبَنَى نُوحٌ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ ، وَأَخَذَ مِنْ كُلِّ الْبَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ وَمِنْ كُلِّ الطُّيُورِ الطَّاهِرَةِ وَأَصْعَدَ مُحَرَّقَاتٍ عَلَى الْمَذْبَحِ 21 فَتَنَسَّمَ الرَّبُّ رَائِحَةَ الرِّضَى ، وَقَالَ الرَّبُّ فِي قَلْبِهِ : لَا أَعُودُ أَلْعَنُ الْأَرْضَ أَيْضًا مِنْ أَجْلِ الْإِنْسَانِ ; لِأَنَّ تَصَوُّرَ قَلْبِ الْإِنْسَانِ شِرِّيرٌ مُنْذُ حَدَاثَتِهِ ،

وَلَا أَعُودُ أَيْضًا أُمِيتُ كُلَّ حَيٍّ كَمَا فَعَلْتُ 22 مُدَّةَ كُلِّ أَيَّامِ الْأَرْضِ زَرْعٌ وَحَصَادٌ وَبَرْدٌ وَحَرٌّ وَصَيْفٌ وَشِتَاءٌ وَنَهَارٌ وَلَيْلٌ لَا تَزَالُ) .

(165/379)

وَفِي الْفَصْلِ التَّاسِعِ مُبَارَكَةُ اللهِ لِنُوحٍ وَبَنِيهِ وَإِكْثَارُهُمْ لِيَمْلَئُوا الْأَرْضَ ، وَتَأْمِينُهُمْ مِنْ عَوْدَةِ الطُّوفَانِ بِإِعْطَائِهِمْ مِيثَاقَهُ وَهُوَ قَوْسُ السَّحَابِ ، بَلْ جَعَلَهَا أَمَانًا لِكُلِّ الْأَحْيَاءِ ، وَقَالَ فِي أَبْنَاءِ نُوحٍ 9 ، 19 هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ بَنُو نُوحٍ وَمِنْ هَؤُلَاءِ تَشَعَّبَتْ كُلُّ الْأَرْضِ) وَفِيهِ أَنَّ الرَّبَّ لَعَنَ كَنْعَانَ بْنَ يَافِثَ وَجَعَلَهُ وَذُرِّيَّتَهُ عَبِيدًا لِذُرِّيَّةِ سَامٍ وَحَامٍ لِأَنَّهُ نَظَرَ إِلَى عَوْرَةِ جَدِّهِ نُوحٍ إِذْ تَعَرَّى وَهُوَ سَكْرَانُ .

هَذِهِ خُلَاصَةُ قِصَّةِ نُوحٍ فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ ، وَلَيْسَ فِيهَا أَنَّهُ كَانَ رَسُولًا وَلَا أَنَّهُ دَعَا قَوْمَهُ إِلَى اللهِ ، وَلَا أَنَّهُ آمَنَ مَعَهُ أَحَدٌ ، وَلَا أَنَّهُ كَانَ لَهُ وَلَدٌ كَافِرٌ غَرِقَ مَعَ قَوْمِهِ وَلَا امْرَأَةٌ كَافِرَةٌ ، وَلَا نَدْرِي أَكَانَ كُفْرُهَا قَبْلَ الطُّوفَانِ فَغَرِقَتْ أَمْ بَعْدَهُ . وَلَكِنَّهُ يُوَافِقُ الْقُرْآنَ فِي أَنَّ سَبَبَ الطُّوفَانِ غَضَبُ اللهِ عَلَى الْبَشَرِ بِفَسَادِهِمْ وَظُلْمِهِمْ ، وَلَكِنْ بِأُسْلُوبِهِ الْمُشَبِّهِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ بِالْإِنْسَانِ فِي صِفَاتِهِ الْبَاطِنَةِ كَصُورَتِهِ الظَّاهِرَةِ .

عُمُرُ نُوحٍ وَتَعْلِيلُ طُولِهِ كَأَعْمَارِ مَنْ قَبْلَهُ :

(166/379)

ويُوافِقُ الْقُرْآنَ سِفْرُ التَّكْوِينِ تَقْرِيبًا فِي عُمُرِ نُوحٍ وهُوَ 950 سَنَةً ، ولَكِنَّ نَصَّ الْقُرْآنِ أَنَّهُ لَبِثَ فِي قَوْمِهِ هَذِهِ الْمُدَّةَ . وهِيَ مَسْأَلَةٌ قَدِ اشْتَبَهَ فِيهَا النَّاسُ مُنْذُ قُرُونٍ ، حَتَّى زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ السَّنَةَ عِنْدَ الْمُتَقَدِّمِينَ أَقَلُّ مِنَ السَّنَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْقُرُونِ الْمَعْرُوفَةِ بَعْدَ تَدْوِينِ التَّارِيخِ ، كَمَا أَنَّ الْأَيَّامَ والسِّنِينَ فِي زَمَنِ التَّكْوِينِ أَطْوَلُ مِنْ هَذِهِ الْأَزْمِنَةِ ، كَمَا قَالَ - تَعَالَى - : (وإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) (22 : 47) وتَقَدَّمَ هَذَا فِي مَحَلِّهِ ، ولَكِنَّ هَذَا الْقِيَاسَ بَاطِلٌ فَلَا بُدَّ مِنْ دَلِيلٍ آخَرَ ، والَّذِي نَرَاهُ فِي أَعْمَارِ آدَمَ وذُرِّيَّتِهِ إِلَى مَا قَبْلَ الطُّوفَانِ أَوْ قَبْلَ مَا كُشِفَ مِنْ آثَارِ التَّارِيخِ لَا يُقَاسُ بِمَا

عُرِفَ بَعْدَ ذَلِكَ ; لِأَنَّ طَبِيعَةَ الْعُمْرَانِ ومَعِيشَةَ الْإِنْسَانِ الْفِطْرِيَّةَ كَانَتْ أَسْلَمَ لِلْأَبْدَانِ ، وأَقَلَّ تَوْلِيدًا لِلْأَمْرَاضِ ، وقَوْلُ اللهِ هُوَ الْحَقُّ ويَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

(167/379)

سِفْرُ التَّكْوِينِ لَيْسَ مِنْ تَوْرَاةِ مُوسَى: وَسِفْرُ التَّكْوِينِ هَذَا لَيْسَ حُجَّةً قَطْعِيَّةً فِيمَا ذُكِرَ فِيهِ فَضْلًا عَمَّا سَكَتَ عَنْهُ، فَإِنَّ التَّوْرَاةَ الَّتِي كَتَبَهَا مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَوَضَعَهَا بِجَانِبِ تَابُوتِ الْعَهْدِ كَمَا ذُكِرَ فِي سِفْرِ التَّثْنِيَةِ قَدْ فُقِدَتْ هِيَ وَالتَّابُوتُ بِحَرِيقِ الْهَيْكَلِ، وَهَذِهِ الْأَسْفَارُ الْمُعْتَمَدَةُ عِنْدَ الْيَهُودِ قَدْ كُتِبَتْ كُلُّهَا بَعْدَ الرُّجُوعِ مِنْ سَبْيِ بَابِلَ فِي سَنَةِ 536 قَبْلَ مِيلَادِ الْمَسِيحِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وَيَقُولُونَ إِنَّ عِزْرَا هُوَ الَّذِي كَتَبَهَا وَجَمَعَهَا، وَلَيْسَ لَهَا سَنَدٌ مُتَّصِلٌ إِلَيْهِ وَعَمَّ اتِّصَالُهَا بِمَنْ قَبْلَهُ، وَقَدِ اشْتُهِرَ أَنَّ الْأُسْتَاذَ جَبْرَ ضُومَطَ مُدَرِّسُ الْبَلَاغَةِ فِي الْجَامِعَةِ الْأَمْرِيكَانِيَّةِ بِبَيْرُوتَ أَلَّفَ رِسَالَةً رَجَّحَ فِيهَا أَنَّ سِفْرَ التَّكْوِينِ
مَأْثُورٌ عَنْ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَلَمَّا نَطَّلِعْ عَلَيْهِ، وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ سَنَدٌ إِلَى مَنْ كَتَبَهُ، وَلَا يَقُومُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ - تَعَالَى -، وَلَكِنَّهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَثَرٌ تَارِيخِيٌّ قَدِيمٌ لَهُ قِيمَتُهُ.

وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَقَدْ قَامَتِ الْبَرَاهِينُ عَلَى أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ وَوَحْيُهُ إِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ كَمَا فَصَّلْنَاهُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ أَجْمَعُهَا (كِتَابُ الْوَحْيِ الْمُحَمَّدِيِّ).

الْإِسْرَائِيلِيَّاتُ فِي تَفْسِيرِ قِصَّةِ نُوحٍ:

وَأَمَّا مَا حَشَا الْمُفَسِّرُونَ بِهِ تَفَاسِيرَهُمْ مِنَ الرِّوَايَاتِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ وَغَيْرِهَا عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَغَيْرِهِمْ فَلَا يُعْتَدُّ بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَلَمْ يُرْفَعْ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِسَنَدٍ صَحِيحٍ وَلَا حَسَنٍ. وَأَمْثَلُ مَا رُوِيَ فِيهِ حَدِيثُ عَائِشَةَ فِي صُنْعِ السَّفِينَةِ، وَأُمِّ الْوَلَدِ الْكَافِرِ الَّذِي رَفَعَتْهُ لِيَنْجُوَ فَغَرِقَ مَعَهَا، وَهُوَ ضَعِيفٌ كَمَا تَقَدَّمَ، وَأَنْكَرُ مِنْهُ مَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ إِحْيَاءِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِطَلَبِ الْحَوَارِيِّينَ لِحَامِ بْنِ نُوحٍ وَتَحْدِيثِهِ إِيَّاهُمْ عَنِ السَّفِينَةِ فِي طُولِهَا وَعَرْضِهَا وَارْتِفَاعِهَا وَطَبَقَاتِهَا وَمَا فِي كُلٍّ مِنْهَا، وَدُخُولِ الشَّيْطَانِ فِيهَا بِحِيلَةٍ احْتَالَ بِهَا عَلَى نُوحٍ، وَمِنْ وِلَادَةِ خِنْزِيرٍ وَخِنْزِيرَةٍ مِنْ ذَنَبِ الْفِيلِ، وَسِنَّوْرٍ وَسِنَّوْرَةٍ (قِطٍّ وَقِطَّةٍ) مِنْ مَنْخِرِ الْأَسَدِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْأَبَاطِيلِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ الْمُنَفِّرَةِ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَقَدْ رَوَاهُ مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ بْنِ زَيْدِ بْنِ
جُدْعَانَ، وَقَدْ ضَعَّفَهُ الْأَئِمَّةُ كَأَحْمَدَ وَيَحْيَى وَغَيْرِهِمْ، وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ: كَانَ يَغْلُو فِي التَّشَيُّعِ وَمَعَ ذَلِكَ يُكْتَبُ حَدِيثُهُ. أَقُولُ: وَحَسْبُهُمْ هَذِهِ الرِّوَايَةُ حُجَّةً عَلَيْهِ.

خَبَرُ الطُّوفَانِ فِي الْأُمَمِ الْقَدِيمَةِ:

وَقَدْ ورَدَ فِي تَوَارِيخِ أَكْثَرِ الْأُمَمِ الْقَدِيمَةِ ذِكْرٌ لِلطُّوفَانِ ، مِنْهَا الْمُوَافِقُ لِخَبَرِ سِفْرِ التَّكْوِينِ إِلَّا قَلِيلًا ، وَمِنْهَا الْمُخَالِفُ لَهُ إِلَّا قَلِيلًا ، وَأَقْرَبُ الرِّوَايَاتِ إِلَيْهِ رِوَايَةُ الْكَلْدَانِيِّينَ وَهُمُ الَّذِينَ وَقَعَ الطُّوفَانُ فِي بِلَادِهِمْ ، فَقَدْ نَقَلَ عَنْهُمْ بَرْهُوشَعُ وَيُوسِفُوسُ أَنَّ زِيْزَسْتْرُوسَ رَأَى فِي الْحُلْمِ بَعْدَ مَوْتِ وَالِدِهِ أُوتِيرْتَ أَنَّ الْمِيَاهَ سَتَطْغَى وَتُغْرِقُ جَمِيعَ الْبَشَرِ ، وَأَمَرَهُ بِبِنَاءِ سَفِينَةٍ يَعْتَصِمُ فِيهَا هُوَ وَأَهْلُ بَيْتِهِ وَخَاصَّةُ أَصْدِقَائِهِ فَفَعَلَ ، وَهُوَ يُوَافِقُ سِفْرَ التَّكْوِينِ فِي أَنَّهُ كَانَ فِي الْأَرْضِ جِيلٌ مِنَ الْجَبَّارِينَ طَغَوْا فِيهَا وَأَكْثَرُوا الْفَسَادَ فَعَاقَبَهُمُ اللهُ بِالطُّوفَانِ ، وَقَدْ عَثَرَ بَعْضُ الْإِنْكِلِيزِ عَلَى أَلْوَاحٍ مِنَ الْآجُرِّ نُقِشَتْ فِيهَا هَذِهِ الرِّوَايَةُ بِالْحُرُوفِ الْمِسْمَارِيَّةِ فِي عَصْرِ أَشُورَ بَانِيبَالَ مِنْ نَحْوِ 660 سَنَةً قَبْلَ مِيلَادِ الْمَسِيحِ ، وَأَنَّهَا مَنْقُولَةٌ مِنْ كِتَابَةٍ قَدِيمَةٍ مِنَ الْقَرْنِ السَّابِعَ عَشَرَ قَبْلَ الْمَسِيحِ أَوْ قَبْلَهُ ، فَهِيَ أَقْدَمُ مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ .

وَرَوَى الْيُونَانُ خَبَرًا عَنِ الطُّوفَانِ أَوْرَدَهُ أَفْلَاطُونُ ، وَهُوَ أَنَّ كَهَنَةَ الْمِصْرِيِّينَ قَالُوا لِسُولُونَ (الْحَكِيمِ الْيُونَانِيِّ) إِنَّ السَّمَاءَ أَرْسَلَتْ طُوفَانًا غَيَّرَ وَجْهَ الْأَرْضِ فَهَلَكَ الْبَشَرُ مِرَارًا بِطُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ فَلَمْ يَبْقَ لِلْجِيلِ الْجَدِيدِ شَيْءٌ مِنْ آثَارِ مَنْ قَبْلَهُ وَمَعَارِفِهِمْ .

وَأَوْرَدَ مَانِيتُونُ خَبَرَ طُوفَانٍ حَدَثَ بَعْدَ هَرْمَسَ الْأَوَّلِ الَّذِي كَانَ بَعْدَ مِينَاسَ الْأَوَّلِ ، وَهَذَا أَقْدَمُ مِنْ تَارِيخِ التَّوْرَاةِ أَيْضًا .

وَرُوِيَ عَنْ قُدَمَاءِ الْيُونَانِ خَبَرُ طُوفَانٍ عَمَّ الْأَرْضَ كُلَّهَا إِلَّا دُوكَالِيُونَ وَامْرَأَتَهُ بِيرَا فَقَدْ نَجَوَا مِنْهُ ، وَرُوِيَ عَنْ قُدَمَاءِ الْفُرْسِ طُوفَانٌ أَغْرَقَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ بِمَا انْتَشَرَ فِيهَا مِنَ الْفَسَادِ وَالشُّرُورِ بِفِعْلِ (أَهْرِيمَانَ) إِلَهِ الشَّرِّ ، وَقَالُوا إِنَّ هَذَا الطُّوفَانَ فَارَ أَوَّلًا مِنْ تَنُّورِ الْعَجُوزِ (زَولَ كُوفَهْ) إِذْ كَانَتْ تَخْبِزُ خُبْزَهَا فِيهِ ، وَلَكِنَّ الْمَجُوسَ أَنْكَرُوا عُمُومَ الطُّوفَانِ وَقَالُوا إِنَّهُ كَانَ خَاصًّا بِإِقْلِيمِ الْعِرَاقِ ، وَانْتَهَى إِلَى حُدُودِ كُرْدِسْتَانَ .

وَكَذَا قُدَمَاءُ الْهُنُودِ يُثْبِتُونَ وُقُوعَ الطُّوفَانِ سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي شَكْلٍ خُرَافِيٍّ ، آخِرُهَا أَنَّ مَلِكَهُمْ نَجَا هُوَ وَامْرَأَتُهُ فِي سَفِينَةٍ عَظِيمَةٍ أَمَرَهُ بِصُنْعِهَا إِلَهُهُ فِشْنُو وَشَدَّهَا بِالدُّسُرِ حَتَّى اسْتَوَتْ عَلَى جَبَلِ جِيمَافَاتَ (حِمَلَايَا) وَلَكِنَّ الْبَرَاهِمَةَ كَالْمَجُوسِ يُنْكِرُونَ وُقُوعَ طُوفَانٍ عَامٍّ أَغْرَقَ الْهِنْدَ كُلَّهَا . وَيُرْوَى تَعَدُّدُ الطُّوفَانِ عَنِ الْيَابَانِ وَالصِّينِ وَعَنِ الْبَرَازِيلِ وَالْمَكْسِيكِ وَغَيْرِهِمَا ، وَكُلُّ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ تَتَّفِقُ فِي أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ عِقَابُ اللهِ لِلْبَشَرِ بِظُلْمِهِمْ وَشُرُورِهِمْ .

الْعِلَاوَةُ الثَّالِثَةُ :

(هَلْ كَانَ الطُّوفَانُ عَامًّا أَمْ خَاصًّا ؟)

نَصُّ التَّوْرَاةِ - أَوْ سِفْرِ التَّكْوِينِ - أَنَّ الطُّوفَانَ كَانَ عَامًّا مُهْلِكًا لِجَمِيعِ الْبَشَرِ إِلَّا ذُرِّيَّةَ نُوحٍ مِنْ أَبْنَائِهِ الثَّلَاثَةِ : سَامٍ وَحَامٍ وَيَافِثَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ غَيْرُهُمْ ، بِحَسَبِ مَا سَبَقَ فِيهِ خَبَرُهُ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَاللهُ - تَعَالَى - يَقُولُ : مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ 18 : 51 أَمَّا قَوْلُهُ فِي نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَعْدَ ذِكْرِ تَنْجِيَتِهِ وَأَهْلِهِ : وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ 37 : 77 فَالْحَصْرُ فِيهِمْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِضَافِيًّا ، أَيِ الْبَاقِينَ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ قَوْمِهِ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ : (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) (71 : 26) فَلَيْسَ نَصًّا فِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَرْضِ هَذِهِ الْكُرَةُ كُلُّهَا ، فَإِنَّ الْمَعْرُوفَ فِي كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَقْوَامِ وَفِي أَخْبَارِهِمْ أَنْ تُذْكَرَ الْأَرْضُ وَيُرَادَ بِهَا أَرْضُهُمْ وَوَطَنُهُمْ ، كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - حِكَايَةً عَنْ خِطَابِ فِرْعَوْنَ لِمُوسَى وَهَارُونَ : وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ 10 : 78 يَعْنِي أَرْضَ مِصْرَ ، وَقَوْلِهِ : (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا) (17 : 76) فَالْمُرَادُ بِهَا مَكَّةُ ، وَقَوْلُهُ :

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ 17 : 4 وَالْمُرَادُ بِهَا الْأَرْضُ الَّتِي كَانَتْ وَطَنَهُمْ ، وَالشَّوَاهِدُ عَلَيْهِ كَثِيرَةٌ .

وَلَكِنْ ظَوَاهِرُ الْآيَاتِ تَدُلُّ – بِمَعُونَةِ الْقَرَائِنِ وَالتَّقَالِيدِ الْمَوْرُوثَةِ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ – عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا فِي زَمَنِ نُوحٍ إِلَّا قَوْمُهُ ، وَأَنَّهُمْ هَلَكُوا كُلُّهُمْ بِالطُّوفَانِ وَلَمْ يَبْقَ بَعْدَهُ فِيهَا غَيْرُ ذُرِّيَّتِهِ ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الطُّوفَانُ فِي الْبُقْعَةِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مِنَ الْأَرْضِ سَهْلِهَا وَجِبَالِهَا لَا فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا ، إِلَّا إِذَا كَانَتِ الْيَابِسَةُ مِنْهَا فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ صَغِيرَةً لِقُرْبِ الْعَهْدِ بِالتَّكْوِينِ وَبِوُجُودِ الْبَشَرِ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ عُلَمَاءَ التَّكْوِينِ وَطَبَقَاتِ الْأَرْضِ (الْجِيُولُوجِيَّةِ) يَقُولُونَ : إِنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ عِنْدَ انْفِصَالِهَا مِنَ الشَّمْسِ كُرَةً نَارِيَّةً مُلْتَهِبَةً ، ثُمَّ صَارَتْ كُرَةً مَائِيَّةً ، ثُمَّ ظَهَرَتْ فِيهَا الْيَابِسَةُ بِالتَّدْرِيجِ .

وَقَدِ اسْتُفْتِيَ شَيْخُنَا الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ الشَّيْخُ مُحَمَّد عَبْده فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَأَفْتَى بِمَا نَنْقُلُهُ هُنَا بِنَصِّهِ مِنْ (ص 666) مِنَ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ تَارِيخِهِ وَهُوَ

: فَتْوَى الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ فِي طُوفَانِ نُوحٍ :

جَوَابُ سُؤَالٍ وَرَدَ عَلَى الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ مُفْتِي الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ مِنْ حَضْرَةِ الْأُسْتَاذِ الشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ الْقُدُومِيِّ خَادِمِ الْعِلْمِ الشَّرِيفِ بِمَدِينَةِ نَابُلُسَ ، وَفِيهِ نَصُّ السُّؤَالِ :

وَصَلَنَا مَكْتُوبُكُمُ الْمُؤَرَّخُ فِي 4 شَوَّالٍ سَنَةَ 1317 هـ الَّذِي أَنْهَيْتُمْ بِهِ أَنَّهُ ظَهَرَ قِبَلَكُمْ نَشْءٌ جَدِيدٌ مِنَ الطَّلَبَةِ دَيْدَنُهُمُ الْبَحْثُ فِي الْعُلُومِ وَالرِّيَاضَةِ ، وَالْخَوْضُ فِي تَوْهِينِ الْأَدِلَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ ، وَقَدْ سُمِعَ مِنْ مَقَالَتِهِمُ الْآنَ : أَنَّ الطُّوفَانَ لَمْ يَكُنْ عَامًّا لِأَنْحَاءِ الْأَرْضِ ، بَلْ هُوَ خَاصٌّ بِالْأَرْضِ الَّتِي كَانَ بِهَا قَوْمُ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَأَنَّهُ بَقِيَ نَاسٌ فِي أَرْضِ الصِّينِ لَمْ يُصِبْهُمُ الْغَرَقُ ، وَأَنَّ دُعَاءَ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِهَلَاكِ الْكَافِرِينَ لَمْ يَكُنْ عَامًّا بَلْ هُوَ خَاصٌّ بِكُفَّارِ قَوْمِهِ ; لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُرْسَلًا إِلَّا إِلَى قَوْمِهِ ، بِدَلِيلِ مَا صَحَّ (وَكَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً) .

فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : إِنَّ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةَ نَاطِقَةٌ بِخِلَافِ ذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - حِكَايَةً عَنْ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) (71 : 26) وَكَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ) (37 : 77) وَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : (لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ) (11 : 43) قَالُوا : هِيَ قَابِلَةٌ لِلتَّأْوِيلِ وَلَا حُجَّةَ فِيهَا ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : إِنَّ جَهَابِذَةَ الْمُحَدِّثِينَ أَجَابُوا بِأَنَّهُ صَحَّ فِي أَحَادِيثِ الشَّفَاعَةِ أَنَّ نُوحًا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَوَّلُ

رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ يَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ قَوْمُهُ أَهْلَ الْأَرْضِ ، وَيَكُونَ عُمُومُ بَعْثَتِهِ أَمْرًا اتِّفَاقِيًّا لِعَدَمِ وُجُودِ أَحَدٍ غَيْرَ قَوْمِهِ ، وَلَوْ وُجِدَ غَيْرُهُ لَمْ يَكُنْ مُرْسَلًا إِلَيْهِمْ - سَخِرُوا مِنَ الْمُحَدِّثِينَ ،

وَاسْتَنَدُوا إِلَى حِكَايَاتٍ مَنْسُوبَةٍ إِلَى أَهْلِ الصِّينِ ، وَرَغِبْتُمْ مِنَّا بِذَلِكَ الْمَكْتُوبِ كَشْفَ الْغِطَاءِ عَنْ سِرِّ هَذَا الْحَادِثِ الْعَظِيمِ ، وَالْإِفَادَةَ بِمَا يَقْتَضِيهِ الْحَقُّ ، وَيَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ .

(175/379)

وَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ : أَمَّا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فَلَمْ يَرِدْ فِيهِ نَصٌّ قَاطِعٌ عَلَى عُمُومِ الطُّوفَانِ ، وَلَا عَلَى عُمُومِ رِسَالَةِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَمَا وَرَدَ مِنَ الْأَحَادِيثِ - عَلَى فَرْضِ صِحَّةِ سَنَدِهِ - فَهُوَ آحَادٌ لَا يُوجِبُ الْيَقِينَ ، وَالْمَطْلُوبُ فِي تَقْرِيرِ مِثْلِ هَذِهِ الْحَقَائِقِ هُوَ الْيَقِينُ لَا الظَّنُّ ، إِذْ عُدَّ اعْتِقَادُهَا مِنْ عَقَائِدِ الدِّينِ .

وَأَمَّا الْمُؤَرِّخُ وَمُرِيدُ الِاطِّلَاعِ فَلَهُ أَنْ يَحْصُلَ مِنَ الظَّنِّ مَا تُرَجِّحُهُ عِنْدَهُ ثِقَتُهُ بِالرَّاوِي أَوِ الْمُؤَرِّخِ أَوْ صَاحِبِ الرَّأْيِ ، وَمَا يَذْكُرُهُ الْمُؤَرِّخُونَ وَالْمُفَسِّرُونَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لَا يُخْرِجُ عَنْ حَدِّ الثِّقَةِ بِالرِّوَايَةِ أَوْ عَدَمِ الثِّقَةِ بِهَا ، وَلَا تُتَّخَذُ دَلِيلًا قَطْعِيًّا عَلَى مُعْتَقَدٍ دِينِيٍّ .

وَأَمَّا مَسْأَلَةُ عُمُومِ الطُّوفَانِ فِي نَفْسِهَا فَهِيَ مَوْضُوعُ نِزَاعٍ بَيْنَ أَهْلِ الْأَدْيَانِ وَأَهْلِ النَّظَرِ فِي

طَبَقَاتِ الْأَرْضِ ، وَمَوْضُوعُ خِلَافٍ بَيْنَ مُؤَرِّخِي الْأُمَمِ ، أَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ وَعُلَمَاءُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَعَلَى أَنَّ الطُّوفَانَ كَانَ عَامًّا لِكُلِّ الْأَرْضِ ، وَوَافَقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ ، وَاحْتَجُّوا عَلَى رَأْيِهِمْ بِوُجُودِ بَعْضِ الْأَصْدَافِ وَالْأَسْمَاكِ الْمُتَحَجِّرَةِ فِي أَعَالِي الْجِبَالِ ; لِأَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مِمَّا لَا تَتَكَوَّنُ إِلَّا فِي الْبَحْرِ .

(176/379)

فَظُهُورُهَا فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَاءَ صَعِدَ إِلَيْهَا مَرَّةً مِنَ الْمَرَّاتِ ، وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ قَدْ عَمَّ الْأَرْضَ ، وَيَزْعُمُ غَالِبُ أَهْلِ النَّظَرِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَنَّ الطُّوفَانَ لَمْ يَكُنْ عَامًّا ، وَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ شَوَاهِدُ يَطُولُ شَرْحُهَا - غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِشَخْصٍ مُسْلِمٍ أَنْ يُنْكِرَ قَضِيَّةَ أَنَّ الطُّوفَانَ كَانَ عَامًّا لِمُجَرَّدِ احْتِمَالِ التَّأْوِيلِ فِي آيَاتِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ ، بَلْ عَلَى كُلِّ مَنْ يَعْتَقِدُ بِالدِّينِ أَلَّا يَنْفِيَ شَيْئًا مِمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الَّتِي صَحَّ سَنَدُهَا وَيَنْصَرِفُ عَنْهَا إِلَى التَّأْوِيلِ إِلَّا بِدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ يَقْطَعُ بِأَنَّ الظَّاهِرَ غَيْرُ الْمُرَادِ ، وَالْوُصُولُ إِلَى ذَلِكَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ يَحْتَاجُ إِلَى بَحْثٍ طَوِيلٍ ، وَعَنَاءٍ شَدِيدٍ ، وَعِلْمٍ غَزِيرٍ فِي طَبَقَاتِ الْأَرْضِ وَمَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ ، وَذَلِكَ يَتَوَقَّفُ عَلَى عُلُومٍ شَتَّى عَقْلِيَّةٍ وَنَقْلِيَّةٍ ، وَمَنْ هَذَى بِرَأْيِهِ بِدُونِ عِلْمٍ

يَقِينِيٍّ فَهُوَ مُجَازِفٌ لَا يُسْمَعُ لَهُ قَوْلٌ، وَلَا يُسْمَحُ لَهُ بِبَثِّ جَهَالَاتِهِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ) اهـ .

(177/379)

(أَقُولُ) : خُلَاصَةُ هَذِهِ الْفَتْوَى أَنَّ ظَوَاهِرَ الْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ أَنَّ الطُّوفَانَ كَانَ عَامًّا شَامِلًا لِقَوْمِ نُوحٍ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ غَيْرُهُمْ، فَيَجِبُ اعْتِقَادُهُ، وَلَكِنَّهُ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ عَامًّا لِلْأَرْضِ؛ إِذْ لَا دَلِيلَ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يُمَثِّلُونَ الْأَرْضَ، وَكَذَلِكَ وُجُودُ الْأَصْدَافِ وَالْحَيَوَانَاتِ الْبَحْرِيَّةِ فِي قُلَلِ الْجِبَالِ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا مِنْ أَثَرِ ذَلِكَ الطُّوفَانِ، بَلِ الْأَقْرَبُ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَثَرِ تَكَوُّنِ الْجِبَالِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْيَابِسَةِ فِي الْمَاءِ كَمَا قُلْنَا آنِفًا، فَإِنَّ صُعُودَ الْمَاءِ إِلَى الْجِبَالِ أَيَّامًا مَعْدُودَةً لَا يَكْفِي لِحُدُوثِ مَا ذُكِرَ فِيهَا، وَقَدْ قُلْنَا فِي الْعِلَاوَةِ الثَّانِيَةِ: إِنَّ هَذِهِ الْمَسَائِلَ التَّارِيخِيَّةَ لَيْسَتْ مِنْ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ، وَلِذَلِكَ لَمْ
يُبَيِّنْهَا بِنَصٍّ قَطْعِيٍّ. فَنَحْنُ نَقُولُ بِمَا تَقَدَّمَ إِنَّهُ ظَاهِرُ النُّصُوصِ، وَلَا نَتَّخِذُهُ عَقِيدَةً دِينِيَّةً قَطْعِيَّةً، فَإِنْ أَثْبَتَ عِلْمُ الْجِيُولُوجِيَّةِ خِلَافَهُ لَا يَضُرُّنَا؛ لِأَنَّهُ لَا يَنْقُضُ نَصًّا قَطْعِيًّا عِنْدَنَا .

الْعِلَاوَةُ الرَّابِعَةُ:

(178/379)

(فِي غَضَبِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ وَعِقَابِهِمْ بِبَعْضِ ظُلْمِهِمْ وَفُسُوقِهِمْ فِي الدُّنْيَا بِمُنَاسَبَةِ الْقِصَّةِ)

بَيَّنَّا أَنَّ طُوفَانَ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ عَذَابًا عَاقَبَ اللهُ بِهِ قَوْمَهُ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِجْرَامِهِمْ، وَأَنَّ رِوَايَةَ سِفْرِ التَّكْوِينِ مُوَافِقَةٌ لِلْقُرْآنِ فِي هَذَا، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا رُوِيَ عَنِ الْأُمَمِ الْقَدِيمَةِ مِنْ أَخْبَارِ الطُّوفَانِ الْعَامِّ أَوِ الْخَاصِّ قَدْ جَاءَ فِيهَا هَذَا الْمَعْنَى، فَهُوَ مُتَوَاتِرٌ عَنْ أَكْثَرِ الْأُمَمِ تَوَاتُرًا مَعْنَوِيًّا.

وَجَاءَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّ اللهَ - تَعَالَى - عَاقَبَ غَيْرَ قَوْمِ نُوحٍ مِنْ أَقْوَامِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِعَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ لَمَّا عَمَّهُمْ وَشَمَلَهُمُ الشِّرْكُ وَالظُّلْمُ وَالْفَسَادُ، كَمَا قَالَ بَعْدَ ذِكْرِ أَشْهَرِهِمْ فِي التَّارِيخِ: (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (29 : 40) وَسَيَأْتِي تَفْصِيلُ عِقَابِ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ بَعْدَ قِصَّةِ نُوحٍ هَذِهِ.

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي هَذَا التَّفْسِيرِ أَنَّ عَذَابَ الِاسْتِئْصَالِ إِنَّمَا وَقَعَ عَلَى الْأُمَمِ الَّتِي عَمَّهَا الْفَسَادُ وَأَنْذَرَهَا الرُّسُلُ وُقُوعَهُ فَلَمْ يَرْجِعُوا، وَأَنَّهُ مَا وَقَعَ عَلَى قَوْمٍ وَفِيهِمْ مُؤْمِنٌ صَالِحٌ، وَإِنَّمَا كَانَ

اللهُ – تَعَالَى – يُخرِجُ مِنْهُمْ رَسُولَهُ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ وَيُهْلِكُ الْبَاقِينَ كَمَا قَالَ : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (17 : 15) وَقَالَ : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ [28 : 58 و59] وَلَمَّا كَانَ فِي قَوْمِ فِرْعَوْنَ مُؤْمِنُونَ لَا يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ إِلَّا اللهُ – تَعَالَى – لَمْ يُغرِقْهُمْ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّمَا أَغْرَقَ مَنْ خَرَجُوا مَعَهُ لِإِعَادَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الِاسْتِعْبَادِ وَالظُّلْم .

وَبَيَّنَّا أَيْضًا أَنَّ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الَّتِي وُجِّهَتْ إِلَيْهَا دَعْوَتُهُ هُمْ جَمِيعُ الْبَشَرِ .

وَأَنَّ اللهَ – تَعَالَى – أَرْسَلَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ، وَلِهَذَا لَا يُهْلِكُهَا بِعَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ لِأَنَّهَا لَا تَجْمَعُ عَلَى الْكُفْرِ وَالْفَسَادِ

فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ هَلَاكُهَا الْعَامُّ بِقِيَامِ السَّاعَةِ الَّتِي يُهْلَكُ بِهَا الْبَشَرُ كُلُّهُمْ ، وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا عَمَّهُمُ الْكُفْرُ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ

وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَنَسٍ مَرْفُوعًا إِلَيْهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللَّهُ اللَّهُ).

وَقَدْ ثَبَتَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ أَنَّ الْعَذَابَ يَقَعُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ - أُمَّةِ الدَّعْوَةِ وَأُمَّةِ الْإِجَابَةِ - خَاصَّةً بِالظَّالِمِينَ وَالْفَاسِقِينَ لَا عَامًّا لِلْبَشَرِ كُلِّهِمْ، وَلَكِنَّهُ قَدْ يَعُمُّ أَفْرَادَ مَنْ يَقَعُ فِيهِمْ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) (6: 65) وَكُلُّ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ وَاقِعَةٌ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ فِيمَنْ يَأْتِي بَعْدُ، أَيْ بَعْدَ عَصْرِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَقَدْ ظَهَرَتْ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِأَشْكَالٍ لَمْ تَكُنْ تَخْطُرُ عَلَى بَالِ بَشَرٍ فِي الْعُصُورِ السَّابِقَةِ وَهِيَ عَذَابُ الطَّيَّارَاتِ الْجَوِّيَّةِ، وَالْأَلْغَامِ الْأَرْضِيَّةِ، وَالْغَوَّاصَاتِ الْبَحْرِيَّةِ، وَتَفَرُّقُ الْأَقْوَامِ إِلَى شِيَعٍ فِي الْعَدَاوَاتِ فَوْقَ الْمَعْهُودِ مِمَّنْ قَبْلَهُمْ، وَقَدْ فَصَّلْنَا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِهَا مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ.

كَذَلِكَ يَكْثُرُ فِي الْأُمَمِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي كُلِّ عَصْرٍ مِثْلَ مَا عُذِّبَ بِهِ الْأَقْوَامُ الْأَوَّلُونَ الْمُجْرِمُونَ الظَّالِمُونَ ، مِنَ الطُّوفَانِ الْخَاصِّ وَخَسْفِ الْأَرْضِ وَحُسْبَانِ النَّارِ مِنَ الْبَرَاكِينِ وَالصَّوَاعِقِ ، وَشِدَّةِ الْقَيْظِ الْمُحْرِقِ لِلنَّبَاتِ الْقَاتِلِ لِلْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ ، وَقَدِ اشْتَدَّتْ هَذِهِ الْأَنْوَاعُ فِي هَذَيْنِ الْعَامَيْنِ فَكَانَتْ عَلَى أَشُدِّهَا فِي صَيْفِ عَامِنَا هَذَا (1353 هـ - 1934 م) فِي أَمْرِيكَةَ وَأُورُبَّةَ وَلَا سِيَّمَا إِنْكِلْتِرَةُ وَالْهِنْدُ وَالتُّرْكُ وَالْفُرْسُ وَالشَّرْقُ الْأَقْصَى ، وَخُسِفَتْ بَعْضُ الْأَرْضِ بِالزَّلَازِلِ فِي الْهِنْدِ ، وَحَدَثَ فِي مِصْرَ وَسُورِيَّةَ وَالْعِرَاقِ وَشَمَالِ إِفْرِيقِيَّةَ شَيْءٌ مِنَ الْجُوعِ وَهَلَاكِ الْحَرْثِ وَنَقْصِ الْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَهِيَ مِمَّا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ أَيْضًا ، وَلَا يَزَالُ الْقَيْظُ عَلَى أَشُدِّهِ فِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ وَإِنْكِلْتِرَةَ .

وَنَسْأَلُ اللهَ - تَعَالَى - أَنْ يُجِيرَ مِصْرَ مِنْ طُغْيَانٍ فِي النِّيلِ كَطُغْيَانِ بَعْضِ أَنْهَارِ الصِّينِ وَالْهِنْدِ أَخِيرًا وَفَرَنْسَةَ قَبْلَهُمَا ، عِقَابًا لَنَا بِظُلْمِ الظَّالِمِينَ مِنْ حُكَّامِنَا وَفِسْقِ الْفَاسِقِينَ مِنْ دَهْمَائِنَا ، اللَّهُمَّ قَدْ كَثُرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَقَلَّ مَنْ يَعْرِفُكَ فِي الشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ ، وَمَنْ يَدْعُوكَ وَحْدَكَ فِي السَّرَّاءِ أَوِ الضَّرَّاءِ ، اللَّهُمَّ ،

وَلَا تُهْلِكْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ، وَأَدِمْ لَنَا هَذَا النِّيلَ رَحْمَةً ، وَلَا تَجْعَلْ مِنْهُ عُقُوبَةً لِلْأُمَّةِ .

اعْتِبَارُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمَصَائِبِ الْعَامَّةِ وَتَوْبَتُهُمْ رَجَاءَ رَفْعِهَا :

كَانَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ إِذَا وَقَعَ عَذَابٌ مِثْلُ هَذَا يَعْتَبِرُونَ وَيَتَذَكَّرُونَ اللهَ - تَعَالَى - فَيَتُوبُونَ إِلَيْهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ، كَمَا كَانَ أَنْبِيَاؤُهُمْ يُوصُونَهُمْ وَيُعَلِّمُونَهُمْ أَنَّ التَّوْبَةَ إِلَى اللهِ وَاسْتِغْفَارَهُ مِنَ الذُّنُوبِ - وَلَا سِيَّمَا الظُّلْمُ وَالْفِسْقُ - مِنْ أَسْبَابِ إِدْرَارِ الْغَيْثِ وَالرِّزْقِ كَمَا قَالَ - تَعَالَى - فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ : وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ 11 : 3

(183/379)

ثُمَّ قَالَ حِكَايَةً عَنْ نَبِيِّهِ هُودٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) (52) وَقَالَ حِكَايَةً عَنْ نُوحٍ فِي سُورَتِهِ : (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا) (71 : 10 - 12) وَلَمْ يَخْطُرْ فِي بَالِ رِجَالِ الدِّينِ وَلَا غَيْرِهِمْ فِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ وَإِنْكِلْتِرَةَ أَنْ يُذَكِّرُوا النَّاسَ بِغَضَبِ اللهِ - تَعَالَى - عَلَيْهِمْ بِفِسْقِهِمْ وَظُلْمِهِمْ عِنْدَمَا اشْتَدَّ الْقَيْظُ وَمُنِعَ الْمَطَرُ وَاحْتَرَقَتِ

الزُّرُوعُ وَهَلَكَتِ الْمَوَاشِي ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالِاسْتِسْقَاءِ الْعَامِّ ، (فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) (6 : 43 و44) أَيْ : خَائِبُونَ مُتَحَسِّرُونَ أَوْ يَائِسُونَ .

(184/379)

وَقَالَ فِي مُشْرِكِي أَهْلِ مَكَّةَ : (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) (8 : 32 و33) فَلَمَّا أُخْرِجَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْهُمْ وَدَعَا عَلَيْهِمْ أَصَابَهُمُ الْقَحْطُ الشَّدِيدُ حَتَّى أَكَلُوا الْعِلْهِزَ وَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ يَسْتَشْفِعُونَ بِهِ ، حَتَّى كَانَ أَبُو سُفْيَانَ أَعْدَى أَعْدَائِهِ هُوَ الَّذِي كَلَّمَهُ وَاسْتَعْطَفَهُ عَلَى قَوْمِهِ ، وَفِيهِمْ أَنْزَلَ اللهُ - تَعَالَى - : (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ
رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) (16 : 112 و113) وَمَا جَعَلَ اللهُ هَذَا مَثَلًا إِلَّا لِأَنَّهُ يَشْمَلُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، حَتَّى كَانَتْ أَغْنَى عَوَاصِمِ الْأَرْضِ وَقُرَاهَا

كَلَنْدَنَ وَبَارِيسَ ذَاقَتْ أَلَمَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ فِي سِنِي الْحَرْبِ الْعَامَّةِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (9 : 126) .

الْأَفْكَارُ الْمَادِّيَّةُ الْمَانِعَةُ مِنَ الِاتِّعَاظِ بِالنَّوَازِلِ :

(185/379)

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ أَكْثَرَ الظَّالِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَادِّيُّونَ ، يَعْتَقِدُونَ أَنَّ طُوفَانَ نُوحٍ الَّذِي اخْتُلِفَ فِيهِ ، هَلْ كَانَ عَامًّا هَلَكَ بِهِ جَمِيعُ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ نَجَا فِي السَّفِينَةِ ، أَوْ خَاصًّا بِقَوْمِ نُوحٍ ، يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ حَدَثَ بِأَسْبَابٍ طَبِيعِيَّةٍ كَمَا حَدَثَ فِي هَذَا الْعَامِ فِي مَوَاضِعَ فِي فَرَنْسَةَ وَغَيْرِهَا مِنْ أُورُبَّةَ وَفِي الْيَابَانِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ فَأَهْلَكَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ وَالْحَيَوَانِ ، وَأَتْلَفَ مِنَ الْمَبَانِي وَالْمَزَارِعِ مَا قُدِّرَتْ قِيمَتُهُ بِأُلُوفِ الْأُلُوفِ مِنَ الدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ ، وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الطُّوفَانَ الْعَامَّ لَمْ يَحْدُثْ فِي الْأَرْضِ بَعْدُ ، فَإِنَّ طُوفَانَ نُوحٍ إِنَّمَا كَانَ عَظِيمًا - عَامًّا كَانَ أَوْ خَاصًّا - لِأَنَّهُ كَانَ قَرِيبَ الْعَهْدِ بِتَكْوِينِ الْأَرْضِ ، إِذْ كَانَ أَكْثَرُهَا مَغْمُورًا بِالْمِيَاهِ ثُمَّ صَارَ يَتَقَلَّصُ

وَتَتَّسِعُ الْيَابِسَةُ بِالتَّدْرِيجِ . وَقَدْ صَرَّحَ الْمُتَكَلِّمُونَ مِنْ عُلَمَائِنَا بِهَذَا الرَّأْيِ ، فَفِي كِتَابِ

الْمَوَاقِفِ وَغَيْرِهِ : الْأَشْبَهُ أَنَّ هَذَا الْمَعْمُورَ كَانَ مَغْمُورًا بِالْمِيَاهِ بِدَلِيلِ مَا يُوجَدُ فِي أَعَالِي الْجِبَالِ مِنَ الْأَصْدَافِ الْبَحْرِيَّةِ وَالْأَسْمَاكِ الْمُتَحَجِّرَةِ .

وَهَكَذَا يَقُولُونَ فِيمَا يُعَذَّبُونَ بِهِ مِنَ الْأَحْدَاثِ الْجَوِّيَّةِ كَقَحْطِ الْمَطَرِ وَانْحِبَاسِهِ ، وَجَفَافِ الْمِيَاهِ وَغُئُورِهَا ، وَشِدَّةِ صَخَدِ الشَّمْسِ وَرَمْضَائِهَا ، وَقَدِ اشْتَدَّ هَذَا فِي أَكْثَرِ بِلَادِ الْإِنْكِلِيزِ وَأَمْرِيكَةَ ، فَاحْتَرَقَ جُلُّ زَرْعِهِمُ الصَّيْفِيُّ وَهَلَكَ بِهِ كَثِيرٌ مِنْ مَوَاشِيهِمْ ، بَلْ مَاتَ بِهِ أُلُوفٌ ، مِنْهُمْ مِئَاتٌ مِنْ أَهْلِ مَدِينَةِ نِيُويُورْكَ وَحْدَهَا وَهِيَ أَعْظَمُ ثُغُورِ الْعَالَمِ ، فَأَكْثَرُ بِلَادِ الْإِفْرِنْجِ فِي هَذَا الْعَامِ فِي سَخَطِ اللَّهِ - تَعَالَى - بَيْنَ حَرِيقٍ وَغَرِيقٍ جَزَاءً بِمَا أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ بِالْقَتْلِ وَالتَّخْرِيبِ وَالتَّدْمِيرِ فِي سِنِي الْحَرْبِ الْأَرْبَعِ الْأَخِيرَةِ ، ثُمَّ بِمَا أَسْرَفُوا بَعْدَهَا فِي الْفُجُورِ وَالشُّرُورِ وَإِبَاحَةِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ ، وَإِنْفَاقِ مَا زَادَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ عَلَى الِاسْتِعْدَادِ لِحَرْبٍ شَرٍّ مِنْهَا ، وَبِاشْتِدَادِ ظُلْمِهِمْ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ فِي مُسْتَعْمَرَاتِهِمُ الرَّسْمِيَّةِ وَغَيْرِ الرَّسْمِيَّةِ ، وَلَا يَعْتَبِرُ أَحَدٌ بِهَذِهِ الْمَصَائِبِ فَيَتُوبُوا

مِنْ ظُلْمِهِمْ وَفِسْقِهِمْ ; لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِأَنَّهَا عَذَابٌ وَلَا نُذُرٌ مِنَ اللهِ - تَعَالَى - ، فَأَمَّا الْمَادِّيُّونَ مِنْهُمْ فَأَمْرُهُمْ ظَاهِرٌ ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ إِلَهٍ لِلْعَالَمِ فَلَا يُسْنِدُونَ إِلَى مَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ إِلَّا مَا يَجْهَلُونَ لَهُ سَبَبًا مِنْ نِظَامِ الطَّبِيعَةِ ، وَيَظُنُّونَ أَنَّ كُلَّ مَا يَجْرِي فِي نِظَامِ الْأَسْبَابِ فَلَيْسَ لِلَّهِ - تَعَالَى - فِيهِ مَشِيئَةٌ وَحِكْمَةٌ غَيْرَ سَبَبِهِ ، وَأَنَّ الْأَسْبَابَ لَا تَتَبَدَّلُ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ صَلَاحًا وَفَسَادًا ، بَلْ يَعُدُّ الْمَادِّيُّونَ هَذِهِ الْمَعْرِفَةَ بِنِظَامِ الْأَسْبَابِ بُرْهَانًا عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّعْطِيلِ ، وَعَلَى جَهْلِ الْمُؤْمِنِينَ بِتَرَقِّي الْعُلُومِ . وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِيهِمْ أَنَّ الْمُسْتَحْوِذَ عَلَى عُقُولِهِمْ هُوَ مَا يُسَمُّونَهُ (نَظَرِيَّةَ الْمِيكَانِيكِيَّةِ) وَخُلَاصَةُ مَعْنَاهَا أَنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ كَآلَةٍ كَبِيرَةٍ تُدَارُ بِقُوَّةٍ كَهْرَبَائِيَّةٍ فَيَتَحَرَّكُ بَعْضُ أَجْزَائِهَا بِحَرَكَةِ الْآخَرِ ، وَلَيْسَ لِلْقُوَّةِ الْمُحَرِّكَةِ لَهَا كُلِّهَا عِلْمٌ وَلَا إِرَادَةٌ وَلَا اخْتِيَارٌ فِي شَيْءٍ مِنْهَا ، وَنَقُولُ لَهُمْ : مَنْ أَوْجَدَ الْقُوَّةَ وَمَنْ يُحَرِّكُهَا وَيَحْفَظُ وَحْدَةَ النِّظَامِ فِيهَا ؟ !

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَحْدَاثِ الْعَالَمِ سَبَبًا ، وَإِنَّ لِهَذِهِ الْأَسْبَابِ نَوَامِيسَ وَسُنَنًا ، وَإِنَّهَا عَامَّةٌ لَا خَاصَّةٌ ، فَصَحِيحٌ تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْمُحْكَمَةُ ، وَأَوَّلُهَا آيَاتُ الْقَدَرِ

وَالتَّقْدِيرِ، الَّتِي يَفْهَمُهَا الْجَمَاهِيرُ بِضِدِّ مَعْنَاهَا، وَمِنْهَا الْآيَاتُ النَّاطِقَةُ بِأَنَّ سُنَنَ اللهِ لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَحَوَّلُ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي الْمَصَائِبِ وَالنِّقَمِ: وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً 8 : 25 وَقَوْلُهُ فِي الْأَرْزَاقِ وَالنِّعَمِ: كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا 17 : 20 أَيْ مَا كَانَ مَمْنُوعًا عَنْ أَحَدٍ مِنْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ، وَلَا بَرٍّ وَلَا فَاجِرٍ.

وَلَكِنَّهُ أَخْبَرَنَا مَعَ هَذِهِ الْقَوَاعِدِ الْعَامَّةِ، أَنَّ لَهُ فِي بَعْضِ الْمَصَائِبِ مَشِيئَةً خَاصَّةً وَحِكْمَةً بَالِغَةً كَقَوْلِهِ: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (30 : 41) وَقَوْلِهِ: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) (42 : 30) فَإِنْ كَانَ هَذَا فِي أَسْبَابِ الْمَصَائِبِ الطَّبِيعِيَّةِ، فَمِمَّا جَاءَ فِي الْأَسْبَابِ الْمَعْنَوِيَّةِ

قَوْلُهُ: (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (3 : 117) الصِّرُّ بِالْكَسْرِ وَتَشْدِيدِ الرَّاءِ: الْبَرْدُ الشَّدِيدُ أَوِ الْحَرُّ الشَّدِيدُ، وَفِي مَعْنَاهُ مَثَلُ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ الظَّالِمِينَ

فِي سُورَةِ الْقَلَمِ ، وَمِثْلُ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ ، وَقَدْ أَهْلَكَ اللهُ جَنَّاتِهِمْ بِظُلْمِهِمْ ، وَلِلَّهِ فِي خَلْقِهِ عِقَابٌ خَفِيٌّ ، وَلَهُ فِيهِمْ لُطْفٌ خَفِيٌّ ، فَنَسْأَلُهُ اللُّطْفَ بِنَا . وَإِذَا أَرَادَ اللهُ شَيْئًا فَإِنَّهُ لَا يُنْفِذُهُ بِإِبْطَالِ السُّنَنِ وَالْأَقْدَارِ ، وَلَكِنْ بِالتَّرْجِيحِ أَوْ بِالتَّوْفِيقِ بَيْنَهَا كَمَا قَالَ : ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى 20 : 40 وَلِلَّهِ دَرُّ صَرِيعِ الْغَوَانِي حَيْثُ قَالَ :

وَتَوْفِيقُ أَقْدَارٍ لِأَقْدَارٍ وَرَاجِعْ تَفْسِيرَ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ) (10 : 23) [فِي ص 280 ج 11 ط الْهَيْئَةِ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 69. 95 ﴾

(190/379)

وقال ابن عاشور :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾

استئناف أريد منه الامتنان على النبي صلى الله عليه وسلم والموعظة والتسلية .

فالامتنان من قوله : ﴿ ما كنت تعلمها ﴾ .

والموعظة من قوله : ﴿ فاصبر ﴾ إلخ .

والتّسلية من قوله : ﴿ إن العاقبة للمتقين ﴾ .

والإشارة بـ ﴿ تلك ﴾ إلى ما تقدم من خبر نوح عليه السّلام ، وتأنيث اسم الإشارة بتأويل أن المشار إليه القصة .

والأنباء : جمع نَبأ ، وهو الخبر .

وأنباء الغيب الأخبار المغيبة عن الناس أو عن فريق منهم .

فهذه الأنباء مغيبة بالنسبة إلى العرب كلهم لعدم علمهم بأكثر من مجملاتها ، وهي أنه قد كان في الزمن الغابر نبيء يقال له : نوح عليه السلام أصاب قومَه طوفان ، وما عدا ذلك فهو غيب كما أشار إليه قوله : ﴿ ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ ، فإنهم لم ينكروا ذلك ولم يدّعوا علمه .

على أن فيها ما هو غيب بالنسبة إلى جميع الأمم مثل قصة ابن نوح الرابع وعصيانه أبَاه وإصابته بالغرق ، ومثل كلام الرّب مع نوح عليه السّلام عند هبوطه من السفينة ، ومثل سخرية قومه به وهو يصنع الفلك ، وما دار بين نوح عليه السّلام وقومه من المحاورة ، فإن ذلك كله مما لم يذكر في كتب أهل الكتاب .

وجملة ﴿ من أنبَاء الغيب ونوحيها وما كنتَ تعلمها ﴾ أخبار عن اسم الإشارة ، أو بعضها خبر وبعضها حال .

وضمير ﴿ أنت ﴾ تصريح بالضمير المستتر في قوله : ﴿ تَعلمها ﴾ لتصحيح العطف عليه .

وعطف ﴿ ولا قومك ﴾ من الترقي ، لأن في قومه من خالط أهل الكتاب ومن كان يقرأ ويكتب ولا يعلم أحد منهم كثيراً مما أوحي إليه من هذه القصة .

والإشارة بقوله : ﴿ مِن قبل هذا ﴾ إما إلى القرآن ، وإما إلى الوقت باعتبار ما في هذه القصة من الزيادة على ما ذكر في أمثالها مما تقدم نزوله عليها ، وإما إلى ﴿ تلك ﴾ بتأويل النبأ ، فيكون التذكير بعد التأنيث شبيهاً بالالتفات .

ووجه تفريع أمر الرسول بالصبر على هذه القصة أن فيها قياس حاله مع قومه على حال نوح عليه السّلام مع قومه ، فكما صبر نوح عليه السّلام فكانت العاقبة له كذلك تكون العاقبة لك على قومك .

وخبر نوح عليه السّلام مستفاد مما حكي من مقاومة قومه ومن ثباته على دعوتهم ، لأن ذلك الثبات مع تلك المقاومة من مسمى الصبر .

وجملة ﴿ إن العاقبة للمتقين ﴾ علة للصبر المأمور به ، أي اصبر لأن داعي الصبر قائم وهو أن العاقبة الحسنة تكون للمتقين ، فستكون لك وللمؤمنين معك .

والعاقبة : الحالة التي تَعقب حالةً أخرى .

وقد شاعت عند الإطلاق في حالة الخير كقوله : ﴿ والعاقبة للتّقوى ﴾ [طه : 132] .

والتعريف في ﴿ العاقبة ﴾ للجنس .

واللام في ﴿ للمتقين ﴾ للاختصاص والملك ، فيقتضي ملك المتقين لجنس العاقبة الحسنة ، فهي ثابتة لهم لا تفوتهم وهي منتفية عن أضدادهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(192/379)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾

وكلمة " تلك " إشارة وخطاب ، والمخاطب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و " التاء " إشارة إلى السفينة وما تبعها من أنباء الغيب ، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم معاصراً لها ولا يعلمها هو ، ولا يعلمها أحد من قومه .

وأنت يا رسول الله لم يُعلَم عنك إنك جلستَ إلى معلِّم ، ولم يذكر عنك أنك قرأت في كتاب ؛ ولذلك يأتي في القرآن :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَآ إلى مُوسَى الأمر ﴾ [القصص : 44] .

وجاء :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : 44] .

إذن : فما دمتَ يا محمد لم تقرأ ولم تتعلَّم عن معلِّم فمَن علَّمك ؟

إنما عَلَّمك الله سبحانه .

وكأن الله سبحانه وتعالى علَّم رسوله صلى الله عليه وسلم قصة نوح عليه السلام وأراد بها إلقاء الأسوة وإلقاء العبرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يثق بأن كل رسول إنما يصنع حركته الإيمانية المنهجية بعين من الله ، وأنه سبحانه لن يسلِّمه إلى خصومة ولا أعدائه .

ولذلك يأتي القول الكريم : ﴿ فاصبر ﴾ ؛ لأنك قد عرفت الآن نتيجة صبر نوح عليه السلام الذي استمر ألف سنة إلا خمسين ، ويأتي بعدها قوله سبحانه :

﴿ إِنَّ العاقبة لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود : 49] .

تأتي بعد ذلك قصة قوم عاد بعد قصة نوح ، ونحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يُرسل رسولاً إلا إذا عَمَّ الفساد .

إذن : فقد حصلت الغفلة من بعد نوح ، وانضمَّت لها أسوة الأبناء بالآباء فانطمس المنهج ، وعزَّ على الموجودين أن يقيموه .

(193/379)

والله سبحانه وتعالى لا يبعث برسلٍ جُددٍ إلا إذا لم يوجد في الأمة من يرفع كلمة الله ؛ لأننا نعلم أن المناعة الإيمانية في النفس الإنسانية قد تكون مناعة ذاتية ، بمعنى أن الإنسان قد تُحدِّثه نفسه بالانحراف عن منهج الله ، لكن النفس اللوَّامة تردعه وتردُّه إلى الإيمان .

أما إذا تصلَّبتْ ذاتُه ، ولم توجد لديه نفس لوَّامة ، فالمناعة الذاتية تختفي ، ولكن قد يقوم المجتمع المحيط بِلَوْمِه .

ولكن إذا اختفت المناعة الذاتية ، والمناعة من المجتمع فلا بد أن يبعث ربُّ العزة سبحانه برسولٍ جديدٍ ، وبيِّنة جديدة ، وبرهان جديد .

هكذا حدث من بعد نوح عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(194/379)

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك رضي الله عنه ﴿ تلك ﴾ يعني هذه ﴿ من أنباء ﴾ يعني أحاديث .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه قال : ثم رجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك ﴾ يعني العرب من قبل هذا القرآن .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ أي من قبل القرآن ، وما علم محمد صلى الله عليه وسلم وقومه بما صنع نوح وقومه ، لولا ما بيَّن الله عز وجل له في كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغيب ﴾ : كقوله : ﴿ ذلك مِنْ أَنْبَآءِ الغيب ﴾ [الآية : 44] في آل عمران . قوله : ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ ﴾ يجوز في هذه الجملة أن تكونَ حالاً من الكاف في " إليك " ، وأن تكون حالاً من المفعول في " نُوحيها " وأن تكونَ خبراً بعد خبر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 340 ﴾

(196/379)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49) ﴾

أعلمناكَ بهذه الجملة ، وأنبأناك بهذه القصص لما خصصناك من غير أن تتعلمَه من شخص ، أو من قراءةِ كتاب ؛ فإنْ قابَلَكَ قومك بالتكذيب فاصبِرْ ، فعَنْ قريبٍ تنقلب هذه الأمور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 140 ﴾

(197/379)

"فصل"

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49) ﴾

التفسير: لما أورد على الكفار أنواع الدلائل أكدها بالقصص على عادته من التفنن في الكلام والنقل من أسلوب إلى أسلوب في الموعظة فبدأ بقصة نوح. ومعنى ﴿ إني لكم ﴾ أي متلبساً بهذا الكلام وهو قوله: ﴿ إني لكم ﴾ فلما اتصل به الجار فتح ومن كسر فعلى إرادة القول. و ﴿ أن لا تعبدوا ﴾ بدل من ﴿ إني لكم نذير ﴾ أي أرسلناه بأن لا تعبدوا ﴿ إلا الله ﴾ أو يكون "أن" مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير.

(198/379)

ووصف اليوم بأليم لوقوع الألم فيه فيكون مجازاً . وكذا لو جعل الوصف للعذاب والجر بالجوار . ثم حكى أنه طعن أشراف قومه في نبوته من ثلاث جهات . الأولى أنه بشر مثلهم . الثانية أنه لم يتبعه إلا الأراذل يعنون أصحاب الحرف الخسيسة كالحياكة وغيرها قالوا : لو كنت صادقاً لاتبعك الأكياس من الناس والأشراف منهم . والأراذل جمع أرذل . وقيل : جمع الأرذال جمع رذل وهو الدون من كل شيء في منظره وحالاته . ومعنى ﴿ بادي الرأي ﴾ أول الرأي وهو نصب على الظرف أي اتبعك في ابتداء حدوث الرأي من غير روية ، أو معناه ظاهر الرأي من قولك بدا الشيء إذا ظهر ، ومنه البادية للبرية لظهورها وبروزها للناظر . وهذا تفسير من قرأ بغير همز . وعلى هذا فالمراد أنهم اتبعوك في الظاهر وباطنهم بخلافه ، أو اتبعوك وقت حدوث ظاهر رأيهم فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . ويجوز أن يتعلق ﴿ بادي الرأي ﴾ بقوله : ﴿ أراذلنا ﴾ أي كونهم كذلك أمر ظاهر لكل من يراهم عياناً ، ويتأكد هذا التأويل بما نقل عن مجاهد أنه قرأ ﴿ إلا الذين هم أراذلنا رأي العين ﴾ وإنما استرذلوا المؤمنين لاعتقادهم أن المزية عند الله سبحانه بالمال والجاه ولم يعلموا أن ذلك مبعد من الحق لا مقرب منه ، وأن الأنبياء ما بعثوا إلا لترك الدنيا والإقبال على الآخرة فكيف يجعل قلة المال طعناً في النبوة وفي متابعة النبي . الشبهة الثالثة : ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ لا في العقل ولا في كيفية رعاية المصالح ولا في قوة الجدل ﴿ بل نظنكم كاذبين ﴾ خطاب لنوح ولمن آمن به بتبعيته ، أو خطاب للأراذل كأنهم نسبوهم إلى

الكذب في ادعاء الإيمان. ثم حكى ما أجاب به نوح قومه وهو أن حصول المساواة في صفة البشرية لا يمنع من حصول المفارقة في صفة النبوة وذلك قوله: ﴿ أرأيتم إن كنت على بينة ﴾ برهان ﴿ من ربي وآتاني ﴾ بإيتاء تلك البينة ﴿ رحمة ﴾ وعلى هذا البينة هي الرحمة، ويجوز أن يريد بالبينة المعجزة وبالرحمة النبوة

(199/379)

وقيل بالعكس ﴿ فعميت ﴾ خفيت أو أخفيت البينة أو كل من البينة والرحمة أي صارت مظلمة مشتبهة في عقولكم. والبينة توصف بالإبصار والعمى مجازاً باعتبار نتيجتها كما أن دليل القوم إن كان بصيراً اهتدوا وإن كان أعمى بقول خابطين متحيرين. ثم قال: ﴿ أنلزمكموها ﴾ أي أنكرهكم على قبول البينة ﴿ وأنتم لها كارهون ﴾ والمراد أنا لا نقدر على إيصال حقيقة البينة إليك. وإنما يقدر على ذلك من هو قادر على الإيجاد والإعدام وتغيير الأحوال وتبديل الأخلاق. ثم ذكر أنه لا يطلب على تبليغ الرسالة مالاً حتى يتفاوت الحال بسبب كون المجيب غنياً أو فقيراً ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ عن ابن جريج أنهم قالوا: إن أحببت يا نوح أن نتبعك فاطردهم فإنا لا نرضى بمشاركتهم، فلم يبذل ملتمسهم وعلل ذلك بقوله ﴿ إنهم ملاقو ربهم ﴾ فيعاقب من يطردهم أو يلاقونه

فيجازيهم على ما في قلوبهم من الإيمان الصحيح أو النفاق بزعمكم ، أو المراد أنهم متقدون لقاء ربهم ﴿ ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ لقاء ربكم وأنهم خير منكم ، أو قوماً تسفهون حيث تسمون المؤمنين أراذل .

(200/379)

ثم أكد عدم طردهم بقوله : ﴿ ويا قوم من ينصرني من الله ﴾ من يمنعني من عقابه ﴿ إن طردتهم ﴾ لأن العقل والشرع توافقا على أنه لا بد من تعظيم المؤمن البر المتقي ومن إهانة الكافر الفاجر فكيف يليق بنبي الله أن يقلب هذه القضية . سؤال : إن كان طرد المؤمن لطلب مرضاة الكافر معصية فكيف فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نهي عنه بقوله : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾ ؟ الجواب أنه لم يكن ذلك طرداً مطلقاً وإنما عين لأجلهم أوقاتاً مخصوصة ، ولأشراف قريش أوقاتاً أخرى فعوتب على ذلك القدر . احتجت المعتزلة بالآية على عدم الشفاعة للفاسق إذ لو كانت جائزة لكانت في حق نوح أولى ، فلم يقل من الذي يخلصني من عذابه . وأجيب بأنه مخصوص بآيات العفو . ثم ذكر أنه كما لا يسألهم مالاً فإنه لا يدعي أن عنده خزائن الله حتى يجحدوا أن له فضلاً عليهم من هذه الجهة . ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ حتى أصل به إلى ما أريده لنفسي ولأتباعي وأطلع

على الضمائر ﴿ ولا أقول إني ملك ﴾ أتعظم بذلك عليكم بل طريقي الخضوع والتواضع وعدم الاستنكاف عن مخالطة الفقراء وقد مر في "الأنعام" سائر ما يتعلق بالآية. ومعنى ﴿ تزدري ﴾ تعيب وتحقر والازدراء افتعال من زرى عليه إذا عابه. وفي قوله تعالى ﴿ الله أعلم بما في أنفسهم ﴾ دلالة على أنهم كانوا ينسبون اتباعه مع الفقر والذلة الى النفاق ﴿ إني إذا ﴾ أي إن قلت شيئاً من ذلك كنت من الظالمين لنفسي. أو إن قلت إن الله لن يؤتيهم خيراً مع أنه لا وقوف لي على باطنهم. ثم إن قومه وصفوه بكثرة الجدال قائلين ﴿ يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾ قال أهل المعاني: أردت جدالنا وشرعت فيه فأكثرته كقوله: جاد لي فلان فأكثر. لم ترد أنه أعطى عطيتين أقل فأكثر بل تريد أن الوصف مقارن للموصوف. وفي الآية دلالة على أن الجدال في تقرير دلائل التوحيد من دأب أكابر الأنبياء. ثم استعجلوا العذاب الذي كان يتوعدهم به فأجاب نبي الله بأن ذلك ليس إليّ

وإنما هو بمشيئة الله وإرادته ولا يعجزه عن ذلك أحد. وقوله: ﴿ ولا ينفعكم نصحي ﴾ كقول القائل لامرأته: أنت طالق إن دخلت الدار إن أكلت الخبز لم يقع الطلاق إلا إذا دخل الدار فأكل الخبز.

ولهذا قال الفقهاء : المؤخر في اللفظ مقدم في المعنى فكأنه قيل : ﴿ إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ فإن أردت أن أنصح لكم لم ينفعكم نصحي . واحتجاج الأشاعرة بالآية ظاهر . وأجابت المعتزلة بأنه لا يلزم من فرض أمر وقوعه ، ولعل نوحاً إنا قال ذلك ليبين لهم أنه تعالى بنى أمر التكليف على الاختيار وإلا لم يكن للنصح فائدة ، ولو تشبث الخصم بالجبر لزم إفحام النبي . ومن الجائز أن يراد بالإغواء التعذيب من غوى الفصيل إذا بشم فهلك ، أو يراد به الخيبة كقوله : ﴿ فسوف يلقون غياً ﴾ [مريم : 59] أي خيبة من خير الآخرة ، أو يراد به منع الألطاف وقد تقدم أمثال ذلك مراراً . ثم أشار إلى المبدإ والمعاد بقوله : ﴿ هو ربكم وإليه ترجعون ﴾ ثم أنكر الله سبحانه عليهم قولهم إنما ادعاء نوح أنه أوحي إليه مفترى فقال : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ فأمره بأن يجيب بكلام منصف وهو قوله : ﴿ قل إن افتريته فعليّ إجرامي ﴾ أي عقاب إثمي وهو الافتراء . ﴿ وأنا بريء مما تجرمون ﴾ أي من إجرامكم وهو إسناد الافتراء إليّ وههنا إضمار كأنه قيل : لكني ما افتريته فالإجرام وعقابه عليكم وأنا بريء منه . وأكثر المفسرين على أن هذه الآية من تمام قصة نوح . وعن مقاتل أنها من قصة محمد صلى الله عليه وسلم وقعت في أثناء قصة نوح .

قوله سبحانه : ﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن ﴾ إقناط له من إيمانهم الذي كان يتوقعه منهم بدليل قوله : ﴿ إلا من قد آمن ﴾ فإن " قد " للتوقع . وقوله : ﴿ فلا تبتئس ﴾ تسلية له أي لا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك فقد حان وقت الانتقام منهم . قال أكثر المعتزلة : إنه لا يجوز أن ينزل الله عذاب الاستئصال على قوم يعلم أن فيهم من يؤمن أو في أولادهم من يؤمن بدليل دعاء نوح ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ [نوح : 26] إلى قوله : ﴿ إلا فاجراً كفاراً ﴾ [نوح : 27] علل الإهلاك بمجموع الأمرين فدل ذلك على أنهما لو لم يحصلا لم يجز الإهلاك . وذهب كثير منهم إلى الجواز ، فليس كل خبر معلوم بواجب الوقوع نعم كلما يقع يجب أن يكون على الوجه الأصلح . ومذهب الأشاعرة في هذا المعنى ظاهر فله أن يفعل في ملكه ما شاء . ثم عرفه وجه إهلاكهم وألهمه وجه خلاص من آمن فقال : ﴿ واصنع الفلك ﴾ وهو أمر إيجاب على الأظهر لأنه لا سبيل إلى صون روحه عن الهلاك في الطوفان إلا بذلك ، وصون النفس واجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وقيل : أمر إباحة كمن أمر أن يتخذ الإنسان لنفسه داراً يسكنها .

والإنصاف أن الأمر ظاهره الوجوب وإن قطعنا النظر عن فائدته وغايته . وقوله : ﴿ بأعيننا ووحينا ﴾ في موضع الحال أي متلبساً بذلك .

والسبب فيه أن إقدامه على صنعة السفينة مشروط بأمرين : أحدهما أن لا يمنعه أعداؤه عن ذلك العمل وأشار إليه بقوله : ﴿ بأعيننا ﴾ وليست العين بمعنى الجارحة لأنه منزه عن الجوارح والأعضاء فالمراد بها الحفظ والحياطة والكلاءة لأن العين آلة الحفظ والحراسة . والثاني أن يكون عالماً بكيفية تركيب الأخشاب ونحتها . عن ابن عباس : لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى الله تعالى إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر . وقيل : المراد عين الملك الذي كان يعرّفه كيفية اتخاذ السفينة . ثم قال : ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا ﴾ أي في شأنهم . وقيل : علل عدم الخطاب بقوله : ﴿ إنهم مغرقون ﴾ أي إنهم محكوم عليهم بالإغراق وقد جف القلم عليهم بذلك فلا فائدة للشفاعة . وقيل : لا تخاطبني في تعجيل عقابهم فإنهم يغرقون في الوقت المعين لذلك فلا فائدة في الاستعجال فلكل أمة أجل . وقيل : المراد بالذين ظلموا امرأته واعلة وكنعان ابنه . ثم حكى الحال الماضية بقوله : ﴿ ويصنع الفلك ﴾ الحال أنه ﴿ كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾ يحتمل أن يكون هذا جواباً ل "كلما " وقوله : ﴿ قال إن تسخروا ﴾ استئناف على تقدير سؤال سائل كأنه قيل : ماذا قال حينئذٍ ؟ ويحتمل أن يكون ﴿ سخروا ﴾ بدلاً من ﴿ مر ﴾ أو صفة ل ﴿ ملأ ﴾ و ﴿ قال ﴾ جواب ﴿ قيل ﴾ كانوا يقولون : يا نوح كنت نبياً فصرت نجاراً ، ولو كنت صادقاً في دعواك لكان إلهك يغنيك عن هذا العمل الشاق . وقيل : إنهم

ما رأوا السفينة قبل ذلك فكانوا يتعجبون ويسخرون. وقيل: إنها كانت كبيرة وكان يصنعها في مفازة بعيدة عن الماء فكانوا يقولون هذا من باب الجنون. وقيل: طالت مدته وكان ينذرهم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة وليس منه عين ولا أثر فغلب على ظنونهم كونه كاذباً فيسخرون منه فأجابهم بقوله: ﴿ إن تسخروا منا ﴾ في الحال ﴿ فإنا نسخر منكم ﴾ في المستقبل إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة. أو إن حكمتم علينا بالجهل فيما

نصنع فإنا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله، أو إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم في استجهالكم لأنكم لا تستجهلون إلا عن الجهل بحقيقة الأمر. والبناء على ظاهر الحال كما هو عادة الأغمار. وسمي جزاء السخرية سخرية كقوله: ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [الشورى: 40] ثم هددهم بقوله: ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ من الدنيا وهو عذاب الغرق ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ في الآخرة لازم لزوم الدين الحال للغريم. و "من" موصولة أو استفهامية وقد مر في "الأنعام". روي أن نوحاً عليه السلام اتخذ السفينة في سنتين وكان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها

خمسين ذراعاً وارتفاعها ثلاثين . وكانت من خشب الساج ، وجعل لها ثلاثة بطون : الأسفل للوحوش والسباع والهوام ، والأوسط للدواب والأنعام ، والأعلى للناس ولما يحتاجون إليه من الزد وحمل معه جسد آدم .

وقال الحسن : كان طولها ألفاً ومائتي ذراع وعرضها ستمائة .

(205/379)

قوله : ﴿ حتى إذا جاء أمرنا ﴾ هي غاية لقوله : ﴿ ويصنع الفلك ﴾ أي كان يصنعها إلى أن جاء وقت الأمر بالإهلاك . ﴿ وفار التنور ﴾ أي نبع الماء من بشدة وسرعة تشبيهاً بغليان القدر . والتنور هي التي يختبز فيها فقيل : هو ما استوى فيه العربي والعجمي . وقيل : معرب لأنه لا يعرف في كلام العرب نون قبل راء . عن ابن عباس والحسن ومجاهد : هو تنور نوح. وقيل : كان لآدم وحواء حتى صار لنوح وموضعه بناحية الكوفة قاله مجاهد والشعبي . وعن علي رضي الله عنه أنه في مسجد الكوفة وقد صلى فيه سبعون نبياً . وقيل : بالشام بموضع يقال له عين وردة قاله مقاتل . وقيل : بالهند . روي أن امرأته كانت تخبز فأخبرته بخروج الماء من ذلك التنور فاشتغل في تلك الحال بوضع الأشياء في السفينة وكان الله تعالى جعل هذه الحالة علامة لواقعة الطوفان . ويروى عن علي رضي

الله عنه أيضاً أن المراد بالتنور وجه الأرض لقوله : ﴿ وفجرنا الأرض عيوناً ﴾ [القمر : 12] وعنه أيضاً كرم الله وجهه أن معنى ﴿ فار التنور ﴾ طلع الصبح . وقيل : معناه اشتد الأمر كما يقال حمي الوطيس . والمراد إذا رأيت الأمر يشتد والماء يكثر فاركب في السفينة وذلك قوله ﴿ قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ﴾ والزوجان شيئان يكون أحدهما ذكراً والآخر أنثى . فمن قرأ بالإضافة فمعناه احمل من كل صنفين بهذا الوصف اثنين ، ومن قرأ بالتنوين . فالمراد حمل من كل شيء زوجين . واثنين للتأكيد ولا يبعد أن يكون النبات داخلاً فيه لاحتياج الناس إليه ﴿ وأهلك ﴾ معطوف على مفعول ﴿ احمل ﴾ وكذا ﴿ من آمن ﴾ وقوله ﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ قال الضحاك : أراد ابنه وامرأته قدر الله لهما الكفر إذا علم منهما ذلك . ثم قال ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ أي نفر قليل : عن مقاتل أنهم ثمانون وبهم سموا قرية الثمانين بناحة الموصل لأنهم لما خرجوا من السفينة بنوها . وقيل : اثنان وسبعون رجلاً وامرأة ، وأولاد نوح : سام وحام ويافث ونساؤهم . فالجميع

ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء . وعن محمد بن إسحق كانوا عشرة ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم كانوا ثمانية ، نوح وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم . وقيل في بعض الروايات : إن إبليس دخل معه السفينة وفيه بعد لأنه جسم ناري فلا يؤثر الغرق فيه .

قوله سبحانه وتعالى حكاية عن نوح وأهله ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرسيها ﴾ الآية . فيه أبحاث الأول : أن الركوب متعد بنفسه يقال : ركبت الدابة والبحر والسفينة أي علوتها . فما الفائدة في زيادة لفظة "في" ؟ قال الواحدي : فائدته أن يعلم أنه أمرهم بأن يكونوا في جوف الفلك لا على ظهره .

(207/379)

الثاني قوله : ﴿ بسم الله ﴾ إما أن تتعلق بقوله : ﴿ اركبوا ﴾ حالاً من الواو أي مسمين الله ، أو قائلين باسم الله ﴿ ومجريها ومرسيها ﴾ مصدران حذف منهما الوقت المضاف كقولهم : جئتك خفوق النجم ومقدم الحاج ، أو يراد مكان الإجراء والإرساء أو زمانها . وانتصابهما بما في بسم الله من معنى الفعل ، أو بالقول المقدر . وعلى التقادير يكون مجموع قوله : ﴿ وقال اركبوا ﴾ إلى قوله : ﴿ ومرساها ﴾ كلاماً واحداً . وإما أن يكون ﴿ باسم الله مجريها ومرساها ﴾ كلاماً آخر من مبتدإ وخبر أي باسم الله إجراؤها

وإرساؤها . يروى أنه كان إذا أراد أن تجري قال بسم الله فجرت ، وإذا أراد أن ترسو قال بسم الله فرست . ويجوز أن يقحم الاسم كقوله : ثم اسم السلام عليكما ، ويراد بالله إجراؤها وإرساؤها ، وكان نوح أمرهم بالركوب أوّلاً ثم أخبرهم بأن إجراءها وإرساءها بذكر اسم الله أو بأمره وقدرته . وجوز في الكشاف أن تكون هذه الجملة في موضع الحال من ضمير الفلك ولا تكون جملة مستأنفة ولكن فضلة من تتمة الكلام الأول كأنه قال اركبوا فيها مقدرين أن إجراءها وإرساءها باسم الله تعالى . يقال : رسا الشيء يرسو إذا ثبت ، وأرساه غيره . يروى أنها سارت لأول يوم من رجب أو لعشر مضين منه فسارت ستة أشهر ثم استوت على الجودي يوم العاشر من المحرم . ويروى أنها مرت بالبيت وطافت به سبعاً فأعتقها الله من الغرق . البحث الثالث قوله : ﴿ إن ربي لغفور رحيم ﴾ كيف ناسب مقام الإهلاك وإظهار العزة ؟ والجواب كان القوم اعتقدوا أنهم نجوا ببركة إيمانهم وعملهم ، فنبههم الله تعالى بهذا الذكر على أن الإنسان في كل حال من أحواله لا ينفك عن ظلمات الخطأ والزلل فيحتاج إلى مغفرة الله ورحمته . وفي الآية إشارة إلى أن العاقل إذ ركب في سفينة الفكر ينبغي أن يكون قد بريء من حوله وقوته وقطع النظر عن الأسباب وربط قلبه وعلق همته بفضل واهب العقل بلسان الحال بسم الله مجريها ومرسيها حتى تصل سفينة فكره

إلى ساحل الإيقان، وتتخلص عن أمواج الشبه والظنون والأوهام.

قال في الكشاف: ﴿ وهي تجري بهم ﴾ متصل بمحذوف كأنه قيل: فركبوا فيها يقولون باسم الله وهي تجري بهم وهم فيها ﴿ في موج كالجبال ﴾ في التراكم والارتفاع، فلعل الأمواج أحاطت بالسفينة من الجوانب فصارت كأنها في داخل تلك الأمواج. واختلف المفسرون في قوله: ﴿ ونادى نوح ابنه ﴾ فالأكثرون على أنه ابن له في الحقيقة لئلا يلزم صرف الكلام عن الحقيقة الى المجاز من غير ضرورة، ولا استبعاد في كون ولد النبي كافراً كعكسه. واعترض عل هذا القول بأنه كيف ناداه مع كفره وقد قال: ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ [نوح: 26] وأجيب بأنه كان منافقاً وظن نوح أنه مؤمن أو ظن أنه كافر إلا أنه توقع منه الإيمان عند مشاهدة العذاب بدليل قوله: ﴿ ولا تكن مع الكافرين ﴾ أو لعل شفقة الأبوة حملته على ذلك النداء.

وعن محمد بن علي الباقر والحسن البصري أنه كان ابن امرأته ويؤيده ما روي أن علياً رضي الله عنه قرأ ﴿ ونادى نوح ابنها ﴾ ويؤكد هذا الظن قوله: ﴿ إن ابني من أهلي ﴾ دون

أن يقول " إنه مني " وقيل : إنه ولد على فراشه لغير رشده وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ فخانتاهما ﴾ [التحريم : 10] ورد هذا القول بأنه يجب صون منصب الأنبياء عن مثل هذه الفضيحة لقوله : ﴿ الخبيثات للخبيثين ﴾ [النور : 26] وفسر ابن عباس تلك الخيانة بأن امرأة نوح كانت تقول زوجي مجنون . وامرأة لوط دلت الناس على ضيفه . وقوله : ﴿ وكان في معزل ﴾ هو مفعل من عزله عنه إذا نحاه أو أبعده أي كان في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن السفينة وعمن فيها ، أو كان في معزل عن دين أبيه . وقيل في معزل عن الكفار ولهذا ظن نوح أنه يريد مفارقة الكفرة ، ولكن قوله : ﴿ ولا تكن مع الكافرين ﴾ لا يساعد هذا القول . وقوله ﴿ يا بني ﴾ بكسر الياء لأجل الأكتفاء به عن ياء الإضافة ، وبفتحها اكتفاء به عن الألف المبدلة من الياء ، ويجوز أن يكون الياء والألف ساقطتين من اللفظ فقط لالتقاء الساكنين . ثم حكى إصرار ابنه على الكفر بأن قال ﴿ سآوي إلى جبل ﴾ فأجاب نوح بأنه ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾ واعترض عليه بأن معنى ﴿ من رحم ﴾ من رحمه الله وهو معصوم فكيف يصح استثناؤه من العاصم ؟ وأجيب بأن " من " فاعلة في المعنى لا مفعول ، والمراد نوح لأنه سبب الرحمة والنجاة كما أضيف الإحياء إلى عيسى عليه السلام ، أو الرحيم الذي مر ذكره في قوله : ﴿ إن ربي لغفور رحيم ﴾ وهو عاصم لا معصوم ، أو هو استثناء مفرغ والتقدير لا عاصم اليوم لأحد من أمر الله إلا لمن رحم ، أو العاصم بمعنى ذو العصمة كلابن وتامر . وذو العصمة المعصوم

أو المضاف محذوف والتقدير لا عاصم قط إلا مكان من رحمهم الله ونجاهم يعني السفينة ، أو هو استثناء منقطع كأنه قيل : ولكن من رحمه الله فهو المعصوم ﴿ وحال بينهما الموج ﴾ أي

بسبب هذه الحيلولة خرج من أن يخاطبه نوح فصار من جملة الغرقى .

وقوله سبحانه : ﴿ وقيل يأرض ﴾ الآية . مما اختص بمزيد البلاغة حتى صارت متداولة بين علماء المعاني فتكلموا فيها وفي وجوه محاسنها فلا علينا أن نورد ههنا بعض ما استفدنا منهم فنقول : النظر فيها من أربع جهات : من جهة علم البيان ، ومن جهة علم المعاني ، ومن جهتي الفصاحتين المعنوية واللفظية . أما من جهة علم البيان وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها . فالقول فيه أنه عز سلطانه أراد أن يبين معنى أردنا أن نرد ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد ، وأن نقطع طوفان السماء فانقطع ، وأن نغيض الماء النازل من السماء فغاض ، وأن نقضي أمر نوح وهو إنجاؤه وإغراق قومه كما وعدناه فقضي ، وأن تستوي السفينة على الجودي – وهو جبل بقرب الموصل – فاستوت ، وأبقينا الظلمة غرقى ، فبنى الكلام على تشبيه الأرض والسماء بالمأمور الذي لا يتأتى منه

- لكمال هيبته - العصيان ، وعلى تشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ في تكوّن المقصود تصويراً لاقتداره ، وأن السماء والأرض مع عظم جرمهما تابعتان لإرادته وإعداماً وتغييراً وتصريفاً كأنهما عقلاء مميزون قد أحاطا علماً يوجب الامتثال والإذعان لخالقهما ، فاستعمل ﴿ قيل ﴾ بدل " أريد " مجازاً إطلاقاً للمسبب على السبب ، فإن صدور القول إنما يكون بعد إرادته .

(211/379)

وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد بقوله : ﴿ يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء ﴾ والخطابان أيضاً على سبيل الاستعارة للشبه المذكور وهو كون السماء والأرض كالمأمورين المنقادين . وأيضاً استعار لغور الماء في الأرض البلع الذي هو إعمال القوة الجاذبة في الطعوم للشبه بين الغور والبلع وهو الذهاب إلى مقر خفيّ . ووجعل قرينة الاستعارة نسبه الفعل إلى المفعول ، وفي جعل الماء مكان الغذاء أيضاً استعارة لأنه شبه الماء بالغذاء لتقوى الأرض بالماء في الإنبات للزروع والأشجار تقوّي الآكل بالطعام ، وجعل قرينة الاستعارة لفظة ﴿ ابلعي ﴾ لكونها موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء . ثم أمر الجماد على سبيل الاستعارة للشبه المقدم ذكره وخاطب في الأمر دون أن يقول ليبلع ترشيحاً لاستعارة النداء إذ كونه

مخاطباً من صفات الحي كما أن كونه منادى من صفاته ثم قال ﴿ ماءك ﴾ بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز تشبيهاً لاتصال الماء بالأرض باتصال الملك بالمالك . واختار ضمير الخطاب دون أن يقول " ليبلع ماؤها " لأجل الترشيح المذكور . ثم اختار مستعيراً لاحتباس المطر الإقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم ما كان ثم أمر على سبيل الاستعارة وخاطب في الأمر لمثل ما تقدم في ﴿ ابلعي ﴾ من ترشيح استعارة النداء . ثم قال ﴿ وغيض الماء ﴾ غاض الماء قل ونضب ، وغاضه الله يتعدى ولا يتعدى ﴿ وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً ﴾ فلم يصرح بالفاعل سلوكاً لسبيل الكناية لأن هذه الأمور لا تتأتى إلا من قدير قهار فلا مجال لذهاب الوهم إلى غيره ، ومثله في صدر الآية ليستدل من ذكر الفعل وهو اللازم على الفاعل وهو الملزوم وهذا شأن الكناية ، ثم ختم الكلام بالتعريض لأنه ينبىء عن الظلم المطلق وعن علة قيام الطوفان .

وأما النظر فيها من جهة علم المعاني وهو النظر في فائدة كل كلمة منها ، وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها ، فذلك أنه اختير " يا " للنداء لأنها أكثر استعمالاً ولدلالتها على تبعيد المنادى الذي يستدعيه مقام العزة والهيبة ، ولهذا لم يقل " يا أرضي " بالإضافة

تهاوناً بالمنادى، ولم يقل "يا أيتها الأرض" للاختصار مع الاحتراز عن تكلف التنبيه لمن ليس من شأنه التنبيه.

(213/379)

واختير لفظ الأرض والسماء لكثرة دورانهما مع قصد المطابقة، واختير ﴿ ابلعي ﴾ على ﴿ ابتلعي ﴾ لكونه أخصر ولمجيء حظ التجانس بينه وبين ﴿ أقلعي ﴾ أوفر. وقيل: ﴿ ماءك ﴾ بلفظ المفرد لما في الجمع من الاستكثار المتأتي عنه مقام العزة والاقتدار، وكذا في إفراد الأرض والسماء. ولم يحذف مفعول ﴿ ابلعي ﴾ لئلا يلزم تعميم الابتلاع لكل ما على الأرض. ولما علم اختصاص الفعل فيه اقتصر عليه فحذف من ﴿ أقلعي ﴾ حذراً من التطويل. وإنما لم يقل "ابلعي ماءك فبلعت" لأن عدم تخلف المأمور به عن أمر الآمر المطاع معلوم. واختير ﴿ غيض ﴾ على غيض المشددة للاختصار ولمثل هذا عرف الماء والأمر دون أن يقال ماء الطوفان، أو أمر نوح للاستغناء عن الإضافة بالتعريف العهدي ولم يقل سويت لتناسب أول القصة وهي تجري بهم من بناء الفعل للفاعل، ولأن ﴿ استوت ﴾ أخصر لسقوط همزة الوصل. ثم قيل: ﴿ بعداً للقوم ﴾ دون أن يقال "ليبعد القوم من بعد" بالكسر يبعد بالفتح إذا هلك، للتأكيد مع الاختصار ودلالة "

لام " الملك على أن البعد حق لهم . وقول القائل " بعداً له " من المصادر التي لا يستعمل إظهار فعلها . ثم أطلق الظلم ليتناول ظلم أنفسهم وظلمهم غيرهم . وأما ترتيب الجمل فقدم النداء على الأمر ليتمكن الأمر الوارد عقيب النداء كما في نداء الحي ، وقدم نداء الأرض لابتداء الطوفان منها بدليل قوله : ﴿ وفار التنور ﴾ ثم بين نتيجة البلع والإقلاع بقوله : ﴿ وغيض الماء ﴾ ثم ذكر مقصود القصة وهو قوله ﴿ وقضي الأمر ﴾ أي أنجز الموعود من إهلاك الكفرة وإنجاء المؤمنين . ثم بين حال استقرار السفينة بقوله : ﴿ واستوت على الجودي ﴾ وكان جبلاً منخفضاً فكان استواء السفينة عليه دليلاً على انقطاع مادة الماء . ثم ختمت القصة بما ختمت من التعريض . قيل : كيف يليق بحكمة الله تغريق الأطفال بسبب إجرام الكفار ؟ وأجيب على أصول الأشاعرة بأنه لا يسأل عما يفعل ، وعلى أصول المعتزلة بأنه يعوض

الأطفال والحيوانات كما في ذبحها واستعمالها في الأعمال الشاقة . وقد روى جمع من المفسرين أنه سبحانه أعقم أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة فلم يغرق إلا من بلغ أربعين . وهذا مع تكلفه لا يتمشى في الجواب عن إهلاك سائر الحيوانات . والظاهر أن

القائل في قوله : ﴿ وقيل بعداً ﴾ هو الله تعالى لتناسب صدر الآية ، ويحتمل أن يكون القائل نوحاً وأصحابه لأن الغالب ممن يسلم من الأمر الهائل بسبب اجتماع القوم الظلمة أنه يقول مثل هذا الكلام ، ولأنه جارٍ مجرى الدعاء عليهم فجعله من كلام البشر أليق .

(215/379)

وأما النظر في الآية من جهة الفصاحة المعنوية فهي كما ترى نظم للمعاني لطيف ، وتأدية المراد بأبلغ وجه وأتمه . وأما من جهة الفصاحة اللفظية فهي كالعسل في الحلاوة ، وكالنسيم في الرقة عذبة على العذبات سلسة على الأسلات ، ولعل ما تركنا من لطائف هذه الآية بل كل آية أكثر مما نذكر والله تعالى أعلم بمراده من كلامه . ﴿ ونادى نوح ربه ﴾ أي أراد أن يدعوه ﴿ فقال رب إن ابني من أهلي ﴾ بعض سواء كان من صلبه أو ربيباً له ﴿ وإن وعدك ﴾ أي كل ما تعد به ﴿ الحق ﴾ الثابت الذي لا شك في إنجازه وقد وعدتني أن تنجي أهلي ﴿ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ أعلمهم وأعدلهم لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل ، ويجوز أن يكون الحاكم بمعنى ذي الحكمة كدارع . ﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلك ﴾ أي من أهلك دينك أو من أهلك الذين وعدتهم الإنجاء معك . ثم صرح بأن العبرة بقرابة الدين والعمل الصالح لا بقرابة النسب فقال : ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ من قرأ

على لفظ الفعل فمعناه أنه عمل عملاً غير صالح وهو الإشراك والتكذيب ، ومن قرأ على لفظ الاسم فللمبالغة كما يقال : فلان كرم وجود إذا غلب عليه الكرم والجود وفي قوله : ﴿ غير صالح ﴾ دون أن يقول " فاسد " تعريض بل تصريح بأنه إنما نجا من نجا بالصلاح ، ويحتمل على هذه القراءة أن يعود الضمير في ﴿ إنه ﴾ إلى سؤال نوح أي إن نداءك هذا المتضمن لسؤال إنجاء ابنك عمل غير صالح . وقيل : المراد أن هذا الابن ولد زنا وقد عرفت سقوطه . ثم نهاه عن مثل هذا السؤال ووبخه عليه بقوله : ﴿ فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ قال المحققون : الظاهر أن ابنه كان منافقاً فلذلك اشتبه أمره على نوح ، وحمله شفقة الأبوة أولاً على دعوته إلى ركوب السفينة ، فلما حال بينهما الموج لجأ إلى الله في خلاصه من الغرق ، فعوتب على ذلك لأنه لما وعده الله إنجاء أهله واستثنى منهم من سبق عليه القول كان عليه أن يتوكل على الله حق

(216/379)

توكله ويعلم أن كل من كان من أهله مؤمناً فإنه يخلص من الغرق لا محالة . ولما لم يصبر إلى تبين الحال توجه إليه العتاب على ترك الأولى فلذلك تنبه ورجع إلى الله قائلاً ﴿ رب إني أعوذ بك أن أسألك ﴾ فيما يستقبل من الزمان ﴿ ما ليس لي به علم ﴾ تأدباً بآدابك واتعاظاً

بعظتك . ﴿ وألا تغفر لي ﴾ ما فرط مني من الخطأ في باب الاجتهاد ، أو من قلة الصبر على ما يجب عليه الصبر ، وهذا التضرع مثل تضرع أبيه وأبينا آدم في قوله : ﴿ ربنا ظلمنا ﴾ [الأعراف : 23] الآية . فلذلك عفى عنه .

(217/379)

﴿ وقيل يا نوح اهبط ﴾ أي من السفينة بعد استوائها على الجبل ، أو انزل من الجبل إلى الفضاء ملتبساً ﴿ بسلام منا ﴾ بسلامة من التهديد والوعيد بل من جميع الآفات والمخافات ، لأنه لما خرج من السفينة كان خائفاً من عدم المأكول والملبوس وسائر جهات الحاجات لأنه لم يبق في الأرض شيء يمكن أن ينتفع به من النبات والحيوانات . وقيل : أي مسلماً عليك مكرماً . والبركات الخيرات النامية الثابتة ، وفسروها في هذا المقام بأنه وعد له بأن جميع أهل الأرض من الأشخاص الإنسانية يكون من نسله إما لأنه لم يكن في السفينة إلا من هو ذريته ، وإما لأنه لما خرج من السفينة مات من لم يكن من أهله وبقي النسل والتوالد في ذرّيته ، دليله قوله سبحانه ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ [الصافات : 77] فنوح آدم الأصغر . وقيل : لما وعده السلامة من الآفات وعده أن موجبات السلامة والراحة تكون في التزايد والثبات لا عليك وحدك بل ﴿ وعلى أمم ممن معك ﴾ إن كان "

من " للبيان فالمراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة لأنهم كانوا جماعات ، أو هم أصل الأمم التي انشعبت منه . وإن كان لابتداء الغاية فالمعنى على أمم ناشئة ممن معك إلى آخر الدهر . وهذا شأن الأمة المؤمنة ثم ذكر حال الأمة الكافرة المتوالدة فقال : ﴿ وأمم ﴾ وهو رفع على الابتداء والخبر محذوف أي وممن معك أمم ﴿ سنمتعهم ﴾ في الدنيا ﴿ ثم يمسهم ﴾ في الآخرة ﴿ منا عذاب أليم ﴾ عن ابن زيد : هبطوا والله عنهم راض ، ثم أخرج منهم نسلاً منهم من رحم ومنهم من عذب ، وخصص بعضهم الأمم الممتعة بقوم هود وصالح ولوط وشعيب و ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى قصة نوح وهو مبتدأ والجمل بعدها أخبار . وقوله ﴿ ولا قومك ﴾ للمبالغة كقول القائل : لا تعرف هذه المسألة لا أنت ولا قومك ولا أهل بلدك . والمراد تفاصيل القصة وإلا فمجملها أشهر من أن يخفى . ومعنى ﴿ من قبل هذا ﴾ أي من قبل هذا الإيحاء أو العلم الذي كسبته بالوحي ، أو من قبل هذا الوقت وكأن هذه

القصة أعيدت في هذه السورة تثبيتاً للنبي صلى الله عليه وسلم على إنذار قومه ولذلك ختمت بقوله : ﴿ فاصبر ﴾ كما صبر نوحو ﴿ إن العاقبة ﴾ الحميدة ﴿ للمتقين ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 17 . 28﴾

(219/379)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾

معنى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ﴾ دعاه ، والمراد : أراد دعاءه ، بدليل الفاء في : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابنى مِنْ أَهْلِى ﴾ وعطف الشيء على نفسه غير سائغ ، فلا بدّ من التقدير المذكور ، ومعنى قوله : ﴿ إِنَّ ابنى مِنْ أَهْلِى ﴾ أنه من الأهل الذين وعدتني بتنجيتهم بقولك : وأهلك .

فإن قيل : كيف طلب نوح عليه السلام إنجاز ما وعده الله بقوله : ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ وهو المستثنى منه ، وترك ما يفيده الاستثناء ، وهو : ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول ﴾ ؟ فيجاب بأنه لم يعلم إذ ذاك أنه ممن سبق عليه القول ، فإنه كان يظنه من المؤمنين ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق ﴾ الذي لا خلف فيه ، وهذا منه ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الحاكمين ﴾ أي : أتقن

المتقنين لما يكون به الحكم، فلا يتطرق إلى حكمك نقض، وقيل: أراد ب ﴿ أحكم الحاكمين ﴾ أعلمهم وأعدلهم: أي: أنت أكثر علماً وعدلاً من ذوي الحكم.

وقيل: إن الحاكم بمعنى: ذي الحكمة كدارع.

ثم أجاب الله سبحانه عن نوح ببيان أن ابنه غير داخل في عموم الأهل، وأنه خارج بقيد الاستثناء فقال: ﴿ يا نُوحِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ الذين آمنوا بك، وتابعوك، وإن كان من أهلك باعتبار القرابة؛ ثم صرح بالعلة الموجبة لخروجه من عموم الأهل المبينة له بأن المراد بالقرابة قرابة الدين، لا قرابة النسب، وحده، فقال: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِح ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ عمل ﴾ على لفظ المصدر.

وقرأ ابن عباس، وعكرمة، والكسائي، ويعقوب، ﴿ عمل ﴾ على لفظ الفعل؛ ومعنى القراءة الأولى المبالغة في ذمه، كأنه جعل نفس العمل، وأصله ذو عمل غير صالح ثم حذف المضاف وجعل نفس العمل، كذا قال الزجاج وغيره.

ومعنى القراءة الثانية ظاهر: أي إنه عمل عملاً غير صالح، وهو: كفره وتركه لمتابعة أبيه؛ ثم نهاه عن مثل هذا السؤال، فقال: ﴿ فَلا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ لما بين له بطلان

ما اعتقده من كونه من أهله، فرّع على ذلك النهي عن السؤال، وهو وإن كان نهياً عاماً بحيث يشمل كل سؤال، لا يعلم صاحبه أن حصول مطلوبه منه صواب، فهو يدخل تحته سؤاله هذا دخولاً أوّلياً، وفيه عدم جواز الدعاء بما لا يعلم الإنسان مطابقته للشرع، وسمى دعاءه سؤالاً لتضمنه معنى السؤال ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي: أحذرك أن تكون من الجاهلين، كقوله: ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً ﴾ [النور: 17] وقيل: المعنى: أرفعك أن تكون من الجاهلين.

قال ابن العربي: وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين، ويعليه بها إلى مقام العلماء العاملين.

ثم لما علم نوح بأن سؤاله لم يطابق الواقع، وأن دعاءه ناشىء عن وهم كان يتوهمه، بادر إلى الاعتراف بالخطأ، وطلب المغفرة والرحمة، فقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي: أعوذ بك أن أطلب منك ما لا علم لي بصحته وجوازه، ﴿ وإلا تَغْفِرْ لِي ﴾ ذنب ما دعوت به على غير علم مني ﴿ وَتَرْحَمْنِي ﴾ برحمتك التي وسعت كل شيء، فتقبل توبتي ﴿ أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ في أعمالي، فلا أربح فيها.

القائل : هو الله ، أو الملائكة ﴿ قِيلَ يا نوح اهبط ﴾ أي : انزل من السفينة إلى الأرض ، أو من الجبل إلى المنخفض من الأرض ، فقد بلعت الأرض ماءها ، وجفت ﴿ بسلام مِّنَّا ﴾ أي : بسلامة وأمن ، وقيل : بتحية ﴿ وبركات ﴾ أي : نعم ثابتة ، مشتق من بروك الجمل ، وهو ثبوته ، ومنه البركة لثبوت الماء فيها ، وفي هذا الخطاب له دليل على قبول توبته ومغفرة زلته ﴿ وعلى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ أي : ناشئة ممن معك ، وهم المتشعبون من ذرية من كان معه في السفينة .

وقيل : أراد من في السفينة ، فإنهم أمم مختلفة ، وأنواع من الحيوانات متباينة .

قيل : أراد الله سبحانه بهؤلاء الأمم الذين كانوا معه من صار مؤمناً من ذريتهم ، وأراد بقوله : ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ من صار كافراً من ذريتهم إلى يوم القيامة ، وارتفاع أمم في قوله : ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف : أي : ومنهم أمم .

وقيل : على تقدير : ويكون أمم .

وقال الأخفش : هو كما تقول : كلمت زيداً وعمرو جالس ، وأجاز الفراء في غير القراءة " وأمماً سنمتعهم " : أي : ونمتع أمماً ، ومعنى الآية : وأمم سنمتعهم في الدنيا بما فيها من المتاع ، ونعطيهم منها ما يعيشون به ، ثم يمسهم منا في الآخرة عذاب أليم .

وقيل : يمسهم إما في الدنيا أو في الآخرة .

والإشارة بقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ إلى قصة نوح ، وهي مبتدأ والجمل بعده أخبار ﴿ مِنْ أَنبَاء الغيب ﴾ من جنس أنباء الغيب ، والأنباء جمع نبأ وهو الخبر ، أي من أخبار الغيب التي مرّت بك في هذه السورة ، والضمير في ﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ راجع إلى القصة ، والمجيء بالمضارع لاستحضار الصورة ﴿ مَا كُنتُ ﴾ يا محمد ﴿ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ ﴾ يعلمها ﴿ قَوْمِكَ ﴾ بل هي مجهولة عندكم من قبل الوحي ، أو من قبل هذا الوقت ﴿ فاصبر ﴾ على ما تلاقيه من كفار زمانك ، والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها ﴿ إِنَّ العاقبة ﴾ المحمودة في الدنيا والآخرة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ لله المؤمنين بما جاءت به رسله ، وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتبشير له بأن الظفر للمتقين في عاقبة الأمر ، ولا اعتبار بمباديه .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الحسن ، قال : نادى نوح ربه فقال : ربّ إن ابني من أهلي ، وإنك قد وعدتني أن تنجي لي أهلي ، وإن ابني من أهلي .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن عساكر ، عن ابن عباس ، قال : ما بغت امرأة نبيّ قط .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ يقول : ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عنه ، قال : إن نساء الأنبياء لا يزنين ، وكان يقرؤها ﴿ إِنَّهُ عَمَلَ غَيْرُ صالح ﴾ يقول : مسألتك إياي يا نوح عمل غير صالح لا أرضاه لك .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ قال : بين الله لنوح أنه ليس بابنه .

وأخرج أبو الشيخ ، عن ابن زيد ، في قوله : ﴿ يا نوح اهبط بسلام مِّنَّا ﴾ قال : أهبطوا والله عنهم راض .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن محمد بن كعب القرظي ، قال : دخل في ذلك السلام والبركات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة .

(223/379)

ودخل في ذلك العذاب الأليم كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير ، عن الضحاك ﴿ وعلى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ يعني : ممن لم يولد ، أوجب الله لهم البركات لما سبق لهم في علم الله من السعادة ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ يعني : متاع الحياة الدنيا ﴿ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ لما سبق لهم في علم الله من الشقاوة .

وأخرج أبو الشيخ قال : ثم رجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الغيب نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ ﴾ يعني : العرب ﴿ مِّن قَبْلِ هذا ﴾ القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(224/379)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) ﴾

القصص في هذه السورة هو قوامها ؛ ولكنه لم يجئ فيها مستقلاً ، إنما جاء مصداقاً للحقائق الكبرى التي جاءت السورة لتقريرها . والتي أجملها السياق في مطلع السورة : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ، إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير ﴾ وقد تضمن مطلع السورة جولات متعددة حول هذه الحقائق . جولات في ملكوت السماوات والأرض ، وفي جنبات النفس ، وفي ساحة الحشر . . ثم أخذ في هذه الجولة الجديدة في جنبات الأرض وأطواء التاريخ مع قصص الماضين . . يستعرض حركة العقيدة

الإسلامية في مواجهة الجاهلية على مدار القرون .

والقصص هنا مفصل بعض الشيء وبخاصة قصة نوح والطوفان وهو يتضمن الجدل حول حقائق العقيدة التي وردت فى مطلع السورة ، والتي يجيء كل رسول لتقريرها ، وكأنما المكذبون هم المكذبون ، وكأنما طبيعتهم واحدة ، وعقليتهم واحدة على مدار التاريخ .

ويتبع القصص في هذه السورة خط سير التاريخ ، فيبدأ بنوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ويلم بإبراهيم في الطريق إلى لوط ، ثم شعيب ، ثم إشارة إلى موسى . . ويشير إلى الخط التاريخي ، لأنه يذكر التالين بمصير السالفين على التوالي بهذا الترتيب :

ونبدأ بقصة نوح مع قومه . أول هذا القصص في السياق . وأوله في التاريخ :

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه . إني لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله ، إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ . .

إنها تكاد تكون الألفاظ ذاتها التي أرسل بها محمد صلى الله عليه وسلم والتي تضمنها الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . وهذه المقاربة في ألفاظ التعبير عن المعنى الرئيسي الواحد مقصودة في السياق لتقرير وحدة الرسالة ووحدة

العقيدة ، حتى لتتوحد ألفاظ التعبير عن معانيها . وذلك مع تقدير أن المحكي هنا هو معنى ما قاله نوح عليه السلام لا ألفاظه . وهو الأرجح . فنحن لا ندري بأية لغة كان نوح يعبر .

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه : إني لكم نذير مبين ﴾ . .

ولم يقل قال : إني . . . لأن التعبير القرآني يحيي المشهد فكأنما هو واقعة حاضرة لا حكاية ماضية . وكأنما هو يقول لهم الآن ونحن نشهد ونسمع . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه يلخص وظيفة الرسالة كلها ويترجمها إلى حقيقة واحدة :

﴿ إني لكم نذير مبين ﴾ . .

وهو أقوى في تحديد هدف الرسالة وإبرازه في وجدان السامعين .

ومرة أخرى يبلور مضمون الرسالة في حقيقة جديدة :

﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ . .

فهذا هو قوام الرسالة ، و قوام الإنذار .

ولماذا ؟

﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ . .

فيتم الإبلاغ ويتم الإنذار ، في هذه الكلمات القصار . .

واليوم ليس أليماً . إنما هو مؤلم . والأليم إسم مفعول أصله : مألوم ! إنما هم المألومون في ذلك اليوم . ولكن التعبير يختار هذه الصيغة هنا ، لتصوير اليوم ذاته بأنه محمل بالألم ، شاعر به ،

فما بال من فيه ؟

﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما نراك إلا بشراً مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين ﴾ . .

ذلك رد العلية المتكبرين . . الملأ . . كبار القوم المتصدرين . . وهو يكاد يكون رد الملأ من قريش : ما نراك إلا بشراً مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين .

الشبهات ذاتها ، والاتهامات ذاتها ، والكبرياء ذاتها ، والاستقبال الغبي الجاهل المتعافي !

(226/379)

إنها الشبهة التي وقرت في نفوس جهال البشر : أن الجنس البشري أصغر من حمل رسالة الله ؛ فإن تكن رسالة فليحملها ملك أو مخلوق آخر . وهي شبهة جاهلة ، مصدرها عدم الثقة بهذا المخلوق الذي استخلفه الله في أرضه ، وهي وظيفة خطيرة ضخمة ، لا بد أن يكون الخالق قد أودع في هذا الإنسان ما يكافئها من الإستعداد والطاقة ، وأودع في جنسه القدرة على أن يكون من بينه أفراد مهيأون لحمل الرسالة ، باختيار الله لهم ، وهو أعلم بما أودع في كيانهم الخاص من خصائص هذا الجنس في عمومه .

وشبهة أخرى جاهلة كذلك . هي أنه إذا كان الله يختار رسولاً ، فلم لا يكون من بين هؤلاء الملأ الكبراء في قومهم ، المتسلطين العالين ؟ وهو جهل بالقيم الحقيقية لهذا المخلوق الإنساني ، والتي من أجلها استحق الخلافة في الأرض بعمومه ، واستحق حمل رسالة الله بخصوصيته في المختارين من صفوفه . وهذه القيم لا علاقة لها بمال أو جاه أو استطالة في الأرض ، إنما هي في صميم النفس ، واستعدادها للاتصال بالملأ الأعلى ، بما فيها من صفاء وتفتح وقدرة على التلقي ، واحتمال للأمانة وصبر على أدائها ومقدرة على إبلاغها . . إلى آخر صفات النبوة الكريمة . . وهي صفات لا علاقة لها بمال أو جاه أو استعلاء !

ولكن الملأ من قوم نوح ، كالملأ من قوم كل نبي تعميهم مكانتهم الدنيوية عن رؤية هذه الخصائص العلوية ، فلا يدركون مبرراً لاختصاص الرسل بالرسالة . وهي في زعمهم لا تكون لبشر . فإن كانت فهي لأمثالهم من الوجهاء العالين في الأرض !

﴿ وما نراك إلا بشراً مثلنا ﴾ . .

هذه واحدة . . أما الأخرى فأدهى :

﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ، بادي الرأي ﴾ ! !

وهم يسمون الفقراء من الناس " أراذل " . . كما ينظر الكبراء دائماً إلى الآخرين الذين لم يؤتوا المال والسلطان ! وأولئك هم أتباع الرسل السابقون غالباً ؛ لأنهم بفطرتهم أقرب إلى الإستجابة للدعوة التي تحرر الناس من العبودية للكبراء ، وتصل القلوب بإله واحد قاهر عال على الأعلياء .

ولأن فطرتهم لم يفسدها البطر والترف . ولم تعوقها المصالح عن الإستجابة ؛ ولأنهم لا يخافون من العقيدة في الله أن تضيع عليهم مكانة مسروقة لغفلة الجماهير واستعبادها للخرافات الوثنية في شتى صورها . وأول صور الوثنية الدينونة والعبودية والطاعة والاتباع للأشخاص الزائلة بدلاً من الإتجاه بهذا كله لله وحده دون شريك . فرسالات التوحيد هي حركات التحرير الحقيقية للبشر في كل طور وفي كل أرض . ومن ثم كان يقاومها الطغاة دائماً ، ويصدون عنها الجماهير ؛ ويحاولون تشويهها واتهام الدعاة إليها بشر التهم للتشويش والتنفير .

﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ﴾ . .

أي دون ترو ولا تفكير . . وهذه تهمة كذلك توجه دائماً من الملأ العالين لجموع المؤمنين . . أنها لا تتروى ولا تفكر في اتباع الدعوات . ومن ثم فهي متهمة في اتباعها واندفاعها ، ولا يليق بالكبراء أن ينهجوا نهجها ، ولا أن يسلكوا طريقها . فإذا كان الأراذل يؤمنون ، فما

يليق إذن بالكبراء أن يؤمنوا إيمان الأراذل ؛ ولا أن يدعوا الأراذل يؤمنون !

﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ . .

يدمجون الداعي بمن تبعوه من الأراذل ! ما نرى لكم علينا من فضل يجعلكم أقرب إلى الهدى ، أو أعرف بالصواب . فلو كان ما معكم خيراً وصواباً لاهتدينا إليه ، ولم تسبقونا أنتم إليه ! وهم يقيسون الأمور ذلك القياس الخاطئ الذي تحدثنا عنه . قياس الفضل بالمال ، والفهم بالجاه ، والمعرفة بالسلطان . . فذو المال أفضل . وذو الجاه أفهم . وذو السلطان أعرف ! ! ! هذه المفاهيم وتلك القيم التي تسود دائماً حين تغيب عقيدة التوحيد عن المجتمع ، أو تضعف آثارها ، فترتد البشرية إلى عهود الجاهلية ، وإلى تقاليد الوثنية في صورة من صورها الكثيرة وإن بدت في ثوب من الحضارة المادية قشيب . وهي انتكاسة للبشرية من غير شك ، لأنها تصغر من القيم التي بها صار الإنسان إنساناً ، واستحق الخلافة في الأرض ، وتلقى الرسالة من السماء ؛ وترجع به إلى قيم أقرب إلى الحيوانية العضلية الفيزيقية !

﴿ بل نظنكم كاذبين ﴾ . . .

وهي التهمة الأخيرة يقذفون بها في وجه الرسول وأتباعه. ولكنهم على طريقة طبقتهم..

"الأرستقراطية".. يلقونها في أسلوب التحفظ اللائق "بالأرستقراط!" ﴿ بل نظنكم!

﴾ لأن اليقين الجازم في القول والإتجاه من طبيعة الجماهير المندفعة بادي الرأي التي يترفع

عنها السادة المفكرون المتحفظون!

إنه النموذج المتكرر من عهد نوح، لهذه الطبقة المليئة الجيوب الفارغة القلوب، المتعاظمة

المدعية المنتفخة الأوداج والأمخاخ!!

ويتلقى نوح عليه السلام الإتهام والإعراض والاستكبار، في سماحة النبي وفي استعلائه وفي

ثقته بالحق الذي جاء به، واطمئنانه إلى ربه الذي أرسله؛ وفي وضوح طريقه أمامه

واستقامة منهجه في شعوره.

فلا يشتم كما شتموا، ولا يتهم كما اتهموا، ولا يدعي كما ادعوا، ولا يحاول أن يخلع على

نفسه مظهراً غير حقيقته ولا على رسالته شيئاً غير طبيعتها..

﴿ قال: يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي، وآتاني رحمة من عنده فعميّت عليكم.

أنلزمكموها وأنتم لها كارهون؟ ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله، وما أن

بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقو ربهم ، ولكني أراكم قوماً تجهلون . ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ؟ ولا أقول لكم : عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول : إني ملك ، ولا أقول للذين تزدري أعينكم : لن يؤتيهم الله خيراً . الله أعلم بما في أنفسهم ، إني إذن لمن الظالمين ﴾ . .

﴿ يا قوم ﴾ . . في سماحة ومودة بندائهم ونسبتهم إليه ، ونسبة نفسه إليهم . إنكم تعترضون فتقولون : ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلنا ﴾ . . فما يكون رأيكم إن كنت على اتصال بربي ، بيِّن في نفسي مستيقن في شعوري . وهي خاصية لم توهبوها . وإن كان الله آتاني رحمة من عنده باختياري للرسالة ، أو آتاني من الخصائص ما أستحق به حمل الرسالة وهذه رحمة ولا شك عظيمة ما رأيكم إن كانت هذه وتلك فخفيت عليكم خفاء عماية ، لأنكم غير متهيئين لإدراكها ، وغير مفتوحي البصائر لرؤيتها . ﴿ أنلزمكموها ؟ ﴾ إنه ما كان لي وما أنا بمستطيع أن ألزمكم الإذعان لها والإيمان بها ﴿ وأنتم لها كارهون ﴾ !

وهكذا يتلطف نوح في توجيه أنظارهم ولمس وجدانهم وإثارة حساسيتهم لإدراك القيم الخفية عليهم ، والخصائص التي يغفلون عنها في أمر الرسالة والإختيار لها : ويبصرهم بأن الأمر ليس موكولاً إلى الظواهر السطحية التي يقيسون بها . وفي الوقت ذاته يقرر لهم المبدأ العظيم القويم . مبدأ الإختيار في العقيدة ، والإقتناع بالنظر والتدبر ، لا بالقهر والسلطان

والإستعلاء !

﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً ، إن أجري إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقو ربهم ، ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ .

يا قوم إن الذين تدعونهم أراذل قد دعوتهم فآمنوا ، وليس لي عند الناس إلا أن يؤمنوا . إنني لا أطلب مالاً على الدعوة ، حتى أكون حفياً بالأثرياء غير حفي بالفقراء ؛ فالناس كلهم عندي سواء . . ومن يستغن عن مال الناس يتساو عنده الفقراء والأغنياء . .

﴿ إن أجري إلا على الله ﴾ . .

عليه وحده دون سواه .

﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ . .

ونفهم من هذا الرد أنهم طلبوا أو لوحوا له بطردهم من حوله ، حتى يفكروا هم في الإيمان به ، لأنهم يستنكفون أن يلتقوا عنده بالأراذل ، أو أن يكونوا وإياهم على طريق واحد ! لست بطاردهم ، فهذا لا يكون مني . لقد آمنوا وأمرهم بعد ذلك إلى الله لا لي :

﴿ إنهم ملاقو ربهم ﴾ . . ﴿ ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ . .

تجهلون القيم الحقيقية التي يقدر بها الناس في ميزان الله .

وتجهلون أن مرد الناس كلهم إلى الله .

﴿ ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم . أفلا تذكرون ؟ ﴾ . .

فهناك الله . رب الفقراء والأغنياء . ورب الضعفاء والأقوياء . هناك الله يقوِّم الناس بقيم أخرى . ويزنهم بميزان واحد . هو الإيمان . فهؤلاء المؤمنون في حماية الله ورعايته .

﴿ ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم ؟ ﴾ . .

من يعصمني من الله إن أنا أخللت بموازينه ، وبغيت على المؤمنين من عباده وهم أكرم عليه وأقررت القيم الأرضية الزائفة التي أرسلني الله لأعدّلها لا لأتبعها ؟

﴿ أفلا تذكّرون ؟ ﴾ . .

وقد أنساكم ما أنتم فيه ميزان الفطرة السليمة القويمة ؟

ثم يقدم لهم شخصه ورسالته مجردين عن كل زخرف وكل طلاء وكل قيمة من تلك القيم العرضية الزائفة . يقدمها لهم في معرض التذكير ، ليقرر لهم القيم الحقيقية ، ويزدري أمامهم القيم الظاهرية ، بتخليه عنها ، وتجرده منها . فمن شاء الرسالة كما هي ، بقيمها ، بدون زخرف ، بدون ادعاء ، فليتقدم إليها مجردة خالصة لله :

﴿ ولا أقول لكم عندي خزائن الله . . ﴾

فأدعي الثراء أو القدرة على الإثراء . . .

﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ . .

فأدعي قدرة ليست للبشر أو صلة بالله غير صلة الرسالة . .

﴿ ولا أقول : إني ملك ﴾ . .

فأدعي صفة أعلى من صفة الإنسانية في ظنكم لأرتفع في أعينكم ، وأفضل نفسي بذاتي عليكم .

﴿ ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً ﴾ . .

إرضاء لكبريائكم ، أو مسايرة لتقديركم الأرضي وقيمكم العرضية .

﴿ الله أعلم بما في أنفسهم ﴾ . .

فليس لي إلا ظاهرهم ، وظاهرهم يدعو إلى التكريم ، وإلى الرجاء في أن يؤتيهم الله خيراً . .

﴿ إني إذن لمن الظالمين ﴾ . .

إن إدعيت أية دعوى من هذه الدعاوي . الظالمين للحق وقد جئت أبلغه ؛ والظالمين

لنفسي فأعرضها لغضب الله ؛ والظالمين للناس فأنزلهم غير ما أنزلهم الله .

وهكذا ينفي نوح عليه السلام عن نفسه وعن رسالته كل قيمة زائفة وكل هالة مصطنعة يتطلبها الملأ من قومه في الرسول والرسالة . ويتقدم إليهم بها مجردة إلا من حقيقتها العظيمة التي لا تحتاج إلى مزيد من تلك الأعراض السطحية . ويردهم في نصاعة الحق وقوته ، مع سماحة القول ووده إلى الحقيقة المجردة ليواجهوها ، ويتخذوا لأنفسهم خطة على هداها . بلا ملق ولا زيف ولا محاولة استرضاء على حساب الرسالة وحقيقتها البسيطة . فيعطي أصحاب الدعوة في أجيالها جميعاً نموذجاً للداعية ودرساً في مواجهة أصحاب السلطان بالحق المجرد ، دون استرضاء لتصوراتهم ، ودون ممالأة لهم ، مع المودة التي لا تنحني معها الرؤوس !

وعند هذا الحد كان الملأ من قوم نوح قد يئسوا من مناهضة الحجة بالحجة ؛ فإذا هم على عادة طبقتهم قد أخذتهم العزة بالإثم ، واستكبروا أن تغلبهم الحجة ، وأن يذعنوا للبرهان العقلي والفطري . وإذا هم يتركون الجدل إلى التحدي :

﴿ قالوا : يا نوح قد جادلتنا ، فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ .

.

إنه العجز يلبس ثوب القدرة ، والضعف يرتدي رداء القوة ؛ والخوف من غلبة الحق يأخذ

شكل الإستهانة والتحدي :

﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ . .

وأنزل بنا العذاب الأليم الذي أنذرتنا به فلسنا نصدقك ، ولسنا نبالي وعيدك .

أما نوح فلا يخرجه هذا التكذيب والتحدي عن سمت النبي الكريم ، ولا يقعده عن بيان الحق لهم ، وإرشادهم إلى الحقيقة التي غفلوا عنها وجهلوها في طلبهم منه أن يأتيهم بما أوعدهم ، وردهم إلى هذه الحقيقة وهي أنه ليس سوى رسول ، وليس عليه إلا البلاغ ، أما العذاب فمن أمر الله ، وهو الذي يدبر الأمر كله ، ويقدر المصلحة في تعجيل العذاب أو تأجيله ، وسنته هي التي تنفذ . . وما يملك هو أن يردها أو يحولها . . إنه رسول . وعليه أن يكشف عن الحق حتى اللحظة الأخيرة ، فلا يقعده عن إبلاغه وبيانه أن القوم يكذبونه ويتحدونه :

﴿ قال : إنما يأتيكم به الله إن شاء ، وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ، هو ربكم وإليه ترجعون ﴾ . .

فإذا كانت سنة الله تقتضي أن تهلكوا بغوايتكم ، فإن هذه السنة ستمضي فيكم ، مهما

بذلت لكم من النصح . لا لأن الله سيصدكم عن الانتفاع بهذا النصح ، ولكن لأن تصرفكم بأنفسكم يجعل سنة الله تقتضي أن تضلوا ، وما أنتم بمعجزين لله عن أن ينالكم ما يقدر لكم ، فأنتم دائماً في قبضته ، وهو المدبر والمقدر لأمركم كله ؛ ولا مفر لكم من لقائه وحسابه وجزائه :

﴿ هو ربكم وإليه ترجعون ﴾ . .

وعند هذا المقطع من قصة نوح ، يلتفت السياق لفتة عجيبة ، إلى استقبال مشركي قريش لمثل هذه القصة ، التي تشبه أن تكون قصتهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم ودعواهم أن محمداً يفتري هذا القصص . فيرد هذا القول قبل أن يمضي في استكمال قصة نوح :

﴿ أم يقولون افتراه ؟ قل : إن افتريته فعليّ إجرامي ، وأنا بريء مما تجرمون ﴾ . .

فالافتراء إجرام ، قل لهم : إن كنت فعلته فعليّ تبعته . وأنا أعرف أنه إجرام فمستبعد أن أرتكبه ، وأنا بريء مما تجرمون من تهمة الافتراء إلى جوار غيرها من الشرك والتكذيب .

وهذا الاعتراض لا يخالف سياق القصة في القرآن ، لأنها إنما جاءت لتأدية غرض من هذا في السياق .

ثم يمضي السياق في قصة نوح؛ يعرض مشهداً ثانياً. مشهد نوح يتلقى وحي ربه وأمره:

﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن. فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا، ولا تخاطبني في الذين ظلموا، إنهم مغرقون ﴾..

فقد انتهى الإنذار، وانتهت الدعوة، وانتهى الجدل!

﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾.

.

فالقلوب المستعدة للإيمان قد آمنت، أما البقية فليس فيها استعداد ولا اتجاه. هكذا أوحى الله إلى نوح، وهو أعلم بعباده، وأعلم بالممكن والممتنع، فلم يبق مجال للمضي في دعوة لا تفيد. ولا عليك مما كانوا يفعلونه من كفر وتكذيب وتحد واستهزاء:

﴿ فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾..

أي لا تحس بالبؤس والقلق، ولا تحفل ولا تهتم بهذا الذي كان منهم، لا على نفسك فما هم بضاريك بشيء، ولا عليهم فإنهم لا خير فيهم.

دع أمرهم فقد انتهى..

﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾.

برعايتنا وتعليمنا.

﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا، إنهم مغرقون ﴾..

فقد تقرر مصيرهم وانتهى الأمر فيهم. فلا تخاطبني فيهم.. لا دعاء بهدايتهم، ولا دعاء عليهم وقد ورد في موضع آخر أنه حين يئس منهم دعا عليهم، والمفهوم أن اليأس كان بعد هذا الوحي فمتى انتهى القضاء امتنع الدعاء..

والمشهد الثالث من مشاهد القصة: مشهد نوح يصنع الفلك، وقد اعتزل القوم وترك دعوتهم وجدالهم:

﴿ ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه: قال: إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون. فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾..

والتعبير بالمضارع. فعل الحاضر.. هو الذي يعطي المشهد حيويته وجدته. فنحن نراه ماثلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير. يصنع الفلك. ونرى الجماعات من قومه المتكبرين يمرون به فيسخرون. يسخرون من الرجل الذي كان يقول لهم: إنه رسول ويدعوهم، ويجادلهم فيطيل جدالهم؛ ثم إذا هو ينقلب نجاراً يصنع مركباً.. إنهم يسخرون لأنهم لا يرون إلا ظاهر الامر، ولا يعلمون ما وراءه من وحي وأمر. شأنهم دائماً في إدراك الظواهر والعجز

عن إدراك ما وراءها من حكمة وتقدير . فأما نوح فهو واثق عارف وهو يخبرهم في اعتزاز وثقة وطمأنينة واستعلاء أنه يبادلهم سخرية بسخرية :

﴿ قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ . .

نسخر منكم لأنكم لا تدركون ما وراء هذا العمل من تدبير الله وما ينتظركم من مصير :

﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يوم مقيم ﴾ . .

أنحن أم أنتم : يوم ينكشف المستور ، عن المحذور !

ثم مشهد التعبئة عندما حلت اللحظة المرتقبة :

﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا : احمل فيها من كل زوجين اثنين ، وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل . وقال : اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها ، إن ربي لغفور رحيم ﴾ .

وتتفرق الأقوال حول فوران التنور ، ويذهب الخيال ببعضها بعيداً ، وتبدو رائحة الإسرائيليات فيها وفي قصة الطوفان كلها واضحة . أما نحن فلا نضرب في متاهة بغير دليل ، في هذا الغيب الذي لا نعلم منه إلا ما يقدمه لنا النص ، وفي حدود مدلوله بلا زيادة .

وأقصى ما نملك أن نقوله : إن فوران التنور والتنور الموقد قد يكون بعين فارت فيه ، أو بفوارة بركانية .

وأن هذا الفوران ربما كان علامة من الله لنوح ، أو كان مصاحباً مجرد مصاحبة لمجيء الأمر ، وبدءاً لنفاذ هذا الأمر بفوران الأرض بالماء . وسح الوابل من السماء .

لما حدث هذا ﴿ قلنا : احمل فيها من كل زوجين اثنين . . . ﴾ كأن نظام العملية كان يقتضي أن يؤمر نوح بمراحلها واحدة واحدة في حينها . فقد أمر أولاً بصنع الفلك فصنعه ، ولم يذكر لنا السياق الغرض من صنعه ، ولم يذكر أنه أطلع نوحاً على هذا الغرض كذلك .

﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ﴾ . . أمر بالمرحلة التالية . .

﴿ قلنا : احمل فيها من كل زوجين اثنين ، وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ﴾ . . ومرة أخرى تتفرق الأقوال حول ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾ وتشيع في الجو رائحة الإسرائيليات قوية . أما نحن فلا ندع الخيال يلعب بنا ويشتط حول النص : ﴿ احمل فيها من كل زوجين اثنين ﴾ . . مما يملك نوح أن يمسك وأن يستصحب من الأحياء . وما وراء ذلك خبط عشواء . .

﴿ وأهلك إلا من سبق عليه القول ﴾ . .

أي من استحق عذاب الله حسب سنته .

﴿ ومن آمن ﴾ . .

من غير أهلك .

﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ . .

﴿ وقال : اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها ﴾ . .

فنفذ الأمر وحشر من حشر وما حشر .

﴿ وقال : اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها ﴾ . . وهذا تعبير عن تسليمها للمشيئة في جريانها ورسوها ، فهي في رعاية الله وحماه . . وماذا يملك البشر من أمر الفلك في اللجة الطاغية بله الطوفان ؟ !

ثم يأتي المشهد الهائل المرهوب : مشهد الطوفان :

﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال . سآوي إلى جبل يعصمني من الماء . قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ . .

إن الهول هنا هولان . هول في الطبيعة الصامته ، وهول في النفس البشرية يلتقيان :

﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾ . .

وفي هذه اللحظة الرهيبة الحاسمة يبصر نوح ، فإذا أحد أبنائه في معزل عنهم وليس معهم ،

وتستيقظ في كيانه الأبوة الملهوفة ، ويروح يهتف بالولد الشارد :

﴿ يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ﴾ . .

(236/379)

ولكن البنوة العاقة لا تحفل بالأبوة الملهوفة ، والفتوة المغرورة لا تقدر مدى الهول الشامل :

﴿ قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ﴾ . .

ثم ها هي ذي الأبوة المدركة لحقيقة الهول وحقيقة الأمر ترسل النداء الأخير :

﴿ قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾ .

لا جبال ولا مخابئ ولا حامٍ ولا واقٍ . إلا من رحم الله .

وفي لحظة تتغير صفحة المشهد . فها هو ذا الموج الغامر يبتلع كل شيء :

﴿ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ .

.

وإننا بعد آلاف السنين ، لنمسك أنفاسنا ونحن نتابع السياق والهول يأخذنا كأننا نشهد المشهد . وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ونوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء . وابنه الفتى المغرور يأبى إجابة الدعاء ، والموجة الغامرة تحسم الموقف في سرعة خاطفة راجفة

وينتهي كل شيء ، وكأن لم يكن دعاء ولا جواب !

وإن الهول هنا ليقاس بمداه في النفس الحية بين الوالد والمولود كما يقاس بمداه في الطبيعة ، والموج يطغى على الذرى بعد الوديان . وإنهما لمتكافئان ، في الطبيعة الصامته وفي نفس الإنسان . وتلك سمة بارزة في تصوير القرآن .

وتهدأ العاصفة ، ويخيم السكون ، ويقضى الأمر ، ويتمشى الاستقرار كذلك في الألفاظ وفي إيقاعها في النفس والأذن :

﴿ وقيل : يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي وغيض الماء ، وقضي الأمر ، واستوت على الجوديّ ، وقيل بعداً للقوم الظالمين ﴾ . .

ويوجه الخطاب إلى الأرض وإلى السماء بصيغة العاقل ، فتستجيب كلتاهما للأمر الفاصل فتبلع الأرض ، وتكف السماء :

﴿ وقيل : يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ﴾ .

﴿ وغيض الماء ﴾ . .

ابتلعته الأرض في جوفها وغار من سطحها .

﴿ وقضي الأمر ﴾ . .

ونفذ القضاء

﴿ واستوت على الجودي ﴾ . .

ورست رسو استقرار على جبل الجودي . .

﴿ وقيل بعداً للقوم الظالمين ﴾ . .

وهي جملة مختصرة حاسمة معبرة عن جوها أعمق تعبير . . ﴿ قيل ﴾ على صيغة المجهول فلا يذكر من قال ، من قبيل لف موضوعهم ومواراته :

(237/379)

﴿ وقيل بعداً للقوم الظالمين ﴾ . .

بعداً لهم من الحياة فقد ذهبوا ، وبعداً لهم من رحمة الله فقد لعنوا ، وبعداً لهم من الذاكرة فقد انتهوا . . وما عادوا يستحقون ذكراً ولا ذكرى !

والآن وقد هدأت العاصفة ، وسكن الهول ، واستوت على الجودي . الآن تستيقظ في نفس نوح لهفة الوالد المفجوع :

﴿ ونادى نوح ربه ، فقال : رب إن ابني من أهلي ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين ﴾ .

رب إن ابني من أهلي ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين . فلا تقضي إلا عن حكمة وتدبير . .

قالها يستنجز ربه وعده في نجاة أهله ، ويستنجزه حكمته في الوعد والقضاء . .

وجاء الرد بالحقيقة التي غفل عنها . فالأهل عند الله وفي دينه وميزانه ليسوا قرابة الدم ، إنما هم قرابة العقيدة. وهذا الولد لم يكن مؤمناً ، فليس إذن من أهله وهو النبي المؤمن . .

جاء الرد هكذا في قوة وتقرير وتوكيد ؛ وفيما يشبه التقريع والتأنيب والتهديد :

﴿ قال : يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم . إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ . .

إنها الحقيقة الكبيرة في هذا الدين . حقيقة العروة التي ترجع إليها الخيوط جميعاً . عروة العقيدة التي تربط بين الفرد والفرد ما لا يربطه النسب والقرابة :

﴿ إنه ليس من أهلك . إنه عمل غير صالح ﴾ . .

فهو مُنبتٌّ منك وأنت منبت منه ، ولو كان ابنك من صلبك ، فالعروة الأولى مقطوعة ، فلا رابطة بعد ذلك ولا وشيجة .

ولأن نوحاً دعا دعاء من يستنجز وعداً لا يراه قد تحقق . . كان الرد عليه يحمل رائحة التأنيب والتهديد :

﴿ فلا تسألن ما ليس لك به علم . إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ . .

إني أعظك خشية أن تكون من الجاهلين بحقيقة الوشائج والروابط ، أو حقيقة وعد الله وتأويله ، فوعد الله قد أُول وتحقق ، ونجا أهلك الذين هم أهلك على التحقيق .

ويرتجف نوح ارتجافة العبد المؤمن يخشى أن يكون قد زل في حق ربه ، فيلجأ إليه ، يعوذ به ، ويطلب غفرانه ورحمته :

﴿ قال : رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ، وإلا تغفرلي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾ . .

وأدركت رحمة الله نوحاً ، تطمئن قلبه ، وتباركه هو والصالح من نسله ، فأما الآخرون فيمسهم عذاب أليم :

﴿ قيل : يا نوح اهبط بسلام منا ، وبركات عليك وعلى أمم ممن معك . وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ . .

وكانت خاتمة المطاف : النجاة والبشرى له ولمن يؤمن من ذريته ؛ والوعيد والتهديد لمن يريدون منهم متاع الحياة الدنيا ثم يمسهم العذاب الأليم . . ذات البشرى وذات الوعيد ، اللذان مرا في مقدمة السورة . فجاء القصص ليترجمهما في الواقع المشهود . .

ومن ثم يجيء التعقيب :

﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر

إن العاقبة للمتقين ﴾ .

فيحقق هذا التعقيب من أهداف القصص القرآني في هذه السورة :

حقيقة الوحي التي ينكرها المشركون . فهذا القصص غيب من الغيب ، ما كان يعلمه النبي ، وما كان معلوماً لقومه ، ولا متداولاً في محيطه . إنما هو الوحي من لدن حكيم خبير .

وحقيقة وحدة العقيدة من لدن نوح أبي البشر الثاني . فهي هي . والتعبير عنها يكاد يكون هو التعبير .

وحقيقة تكرار الإعتراضات والإتهامات من المكذبين على الرغم من الآيات والعبر والبينات التي لا تمنع جيلاً أن يرددها وقد بدت باطلة في جيل .

وحقيقة تحقق البشرى والوعيد ، كما يبشر النبي وينذر ، وهذا شاهد من التاريخ .

وحقيقة السنن الجارية التي لا تتخلف ولا تحابي ولا تحيد : ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ . . فهم الناجون وهم المستخلفون .

وحقيقة الرابطة التي تربط بين فرد وفرد وبين جيل وجيل . . إنها العقيدة الواحدة التي تربط المؤمنين كلهم في إله واحد يلتقون في الدينونة له بلا منازع ولا شريك .

وبعد . . أكان الطوفان عاماً في الأرض ؟ أم إنه كان في تخوم الأرض التي بعث فيها نوح ؟ وأين كانت هذه الأرض ؟ وأين تخومها في العالم القديم وفي العالم الحديث ؟ اسئلة لا جواب عليها إلا الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً ؛ وإلا الإسرائيليات التي لا تستند إلى دليل صحيح . . وليس لها بعد ذلك قيمة في تحقيق أهداف القصص القرآني في كثير ولا قليل .

ولكن هذا لا يمنع من القول بأن ظاهر النصوص القرآنية يلهم أن قوم نوح كانوا هم مجموع البشرية في ذلك الزمان . وأن الأرض التي يسكنونها كانت هي الأرض المعمورة في ذلك الحين . وأن الطوفان قد عم هذه الرقعة ، وقضى على جميع الخلائق التي تقطنها فيما عدا ركب السفينة الناجين .

وهذا حسبنا في إدراك طبيعة ذلك الحادث الكوني الذي جاءنا خبره من المصدر الوحيد الوثيق عن ذلك العهد السحيق ، الذي لا يعرف " التاريخ " عنه شيئاً . وإلا فيومها أين كان " التاريخ " ؟ ! إن التاريخ مولود حدث لم يسجل من أحداث البشرية إلا القليل ! وكل ما سجله قابل للخطأ والصواب ، والصدق والكذب ، والتجريح والتعديل ! وما ينبغي قط أن يستفتى ذات يوم في شأن جاءنا به الخبر الصادق . ومجرد استفتائه في مثل هذا الشأن قلب للأوضاع ، وانتكاسه لا تصيب عقلاً قد استقرت فيه حقيقة هذا الدين !

ولقد حفلت أساطير شتى الشعوب وذكرياتها الغامضة بذكر طوفان أصاب أرضها في تاريخ قديم مجهول، بسبب معصية ذلك الجيل الذي شهد ذلك الحادث الكبير. .

وأساطير بني إسرائيل المدونة فيما يسمونه "العهد القديم" تحوي كذلك ذكرى طوفان نوح. . ولكن هذا كله شيء لا ينبغي أن يذكر في معرض الحديث القرآني عن الطوفان؛ ولا ينبغي أن يخلط الخبر الصادق الوثيق بمثل هذه الروايات الغامضة وهذه الأساطير المجهولة المصدر والأسانيد. وإن كان لوجود هذه الأخبار الغامضة عن الطوفان عند شعوب شتى دلالته في أن الطوفان قد كان في أرض هذه الأقوام؛ أو على الأقل قد رحلت ذكرياته مع ذراري الناجين حين تفرقوا في الأرض بعد ذلك وعمروا الأرض من جديد. .

وينبغي أن نذكر أن ما يسمى "بالكتاب المقدس" سواء في ذلك "العهد القديم" المحتوي على كتب اليهود أو "العهد الجديد" المحتوي على أناجيل النصارى ليس هو الذي نزل من عند الله. فالتوراة التي أنزلها الله على موسى قد حرقت نسخها الأصلية على يد البابليين عند سبي اليهود. ولم تعد كتابتها إلا بعد قرون عديدة قبيل ميلاد المسيح بنحو خمسة قرون وقد كتبها عزرا وقد يكون هو عزير وجمع فيها بقايا من التوراة. أما سائرها فهو مجرد تأليف! وكذلك الأناجيل فهي جميعاً لا تحوي إلا ما حفظته ذاكرة تلامذة المسيح وتلامذتهم بعد نحو قرن من وفاة المسيح عليه السلام ثم خلطت به حكايات كثيرة

وأساطير ! . . ومن ثم لا يجوز أن يطلب عند تلك الكتب جميعها يقين في أمر من الأمور !

ونخلص من هذه القضية العرضية إلى عبرة هذا الحادث الكوني العظيم . . وهي في الحقيقة عبر شتى ، لا عبرة واحدة .

وسنحاول أن نلم بشيء منها في الصفحات التالية ، قبل أن ننتقل من قصة نوح إلى قصة هود :

(241/379)

إن قوم نوح - عليه السلام هؤلاء الذين شهدنا مدى جاهليتهم ، ومدى إصرارهم على باطلهم ، ومدى استنكارهم لدعوة الإسلام الخالص التي حملها نوح عليه السلام إليهم ، وخلاصتها : التوحيد الخالص الذي يفرد الله سبحانه بالدينونة والعبودية ؛ ولا يجعل لأحد معه صفة الربوبية . .

إن قوم نوح هؤلاء . . هم ذرية آدم . . وآدم كما نعلم من قصته في سورة الأعراف من قبل وفي سورة البقرة كذلك قد هبط إلى الأرض ليقوم بمهمة الخلافة فيها وهي المهمة التي خلقها الله لها وزوده بالكفايات والإستعدادات اللازمة لها بعد أن علمه ربه كيف يتوب من الزلة التي زلها ، وكيف تلقى من ربه كلمات فتاب عليه بها . وكيف أخذ عليه ربه العهد

والميثاق هو وزوجه وبنوه أن ﴿ يتبع ﴾ ما يأتيه من هدى الله ، ولا يتبع الشيطان وهو عدوه وعدو بنيه إلى يوم الدين .

وإذن فقد هبط آدم إلى الأرض مسلماً لله متبعاً هداه . . وما من شك أنه علم بنيه الإسلام جيلاً بعد جيل ؛ وأن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض ؛ حيث لم تكن معها عقيدة أخرى ! فإذا نحن رأينا قوم نوح وهم من ذرية آدم بعد أجيال لا يعلم عددها إلا الله قد صاروا إلى هذه الجاهلية التي وصفتها القصة في هذه السورة فلنا أن نجزم أن هذه الجاهلية طارئة على البشرية بوثنيتها وأساطيرها وخرافاتها وأصنامها وتصوراتها وتقاليدها جميعاً . وأنها انحرفت عن الإسلام إليها بفعل الشيطان المسلط على بني آدم ؛ وبفعل الثغرات الطبيعية في النفس البشرية . تلك الثغرات التي ينفذ منها عدو الله وعدو الناس ، كلما تراخوا عن الاستمساك بهدى الله ، واتباعه وحده ، وعدم اتباع غيره معه في كبيرة ولا صغيرة . . ولقد خلق الله الإنسان ومنحه قدراً من الاختيار هو مناط الابتلاء وبهذا القدر يملك أن يستمسك بهدى الله وحده فلا يكون لعدوه من سلطان عليه ، كما يملك أن ينحرف ولو قيد شعرة عن هدى الله إلى تعاليم غيره ؛ فيجتاله الشيطان حتى

يقذف به بعد أشواط - إلى مثل تلك الجاهلية الكالحة التي انتهت إليها ذراري آدم النبي المسلم بعد تلك الأجيال التي لا يعلمها إلا الله.

وهذه الحقيقة.. حقيقة أن أول عقيدة عرفت في الأرض هي الإسلام القائم على توحيد الدينونة والربوبية والقوامة لله وحده.. تقودنا إلى رفض كل ما يخبط فيه من يسمونهم "علماء الأديان المقارنة" وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طوراً متاخراً من أطوار العقيدة.

سبقته أطوار شتى من التعدد والتثنيه للآلهة. ومن تأليه القوى الطبيعية وتأليه الأرواح، وتأليه الشموس والكواكب.. إلى آخر ما تخبط فيه هذه "البحوث" التي تقوم ابتداء على منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة؛ يهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلهي والرسالات من عند الله وإثبات أن الأديان من صنع البشر؛ وأنها من ثم تطورت بتطور الفكر البشري على مدار الزمان!

وينزلق بعض من يكتبون عن الإسلام مدافعين؛ فيتابعون تلك النظريات التي يقررها الباحثون في تاريخ الأديان وفق ذلك المنهج الموجه! من حيث لا يشعرون! وبينما هم يدافعون عن الإسلام متحمسين يحطمون أصل الإعتقاد الإسلامي الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم. حين يقرر أن آدم عليه السلام هبط إلى الأرض بعقيدة الإسلام. وأن نوحاً عليه السلام واجه ذراري آدم الذين اجتالهم الشيطان عن الإسلام إلى الجاهلية الوثنية بذلك الإسلام نفسه.. القائم على التوحيد المطلق.. وأن الدورة تجددت بعد نوح فخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية؛ وأن الرسل جميعاً أرسلوا بعد ذلك بالإسلام.. القائم على التوحيد المطلق.. وإنه لم يكن قط تطور في العقيدة السماوية في أصل الإعتقاد إنما كان الترقي والتركيب والتوسع في الشرائع المصاحبة للعقيدة الواحدة وأن ملاحظة ذلك التطور في العقائد الجاهلية لا يدل على أن الناس صاروا إلى التوحيد بناء على تطور في أصل العقيدة. إنما يدل على أن عقيدة التوحيد على يد كل رسول كانت تترك رواسب في الأجيال التالية حتى بعد انحراف الأجيال عنها ترقي عقائدهم الجاهلية ذاتها؛ حتى تصير أقرب إلى أصل التوحيد الرباني. أما عقيدة التوحيد في أصلها فهي أقدم في تاريخ البشرية من العقائد الوثنية جميعاً! وقد وجدت هكذا كاملة منذ وجدت، لأنها ليست نابعة من أفكار البشر ومعلوماتها المترقية؛ إنما هي آتية لهم من عند الله سبحانه. فهي

حق منذ اللحظة الأولى ، وهي كاملة منذ اللحظة الأولى . .

هذا ما يقرره القرآن الكريم ؛ ويقوم عليه التصور الإسلامي . فلا مجال إذن لباحث مسلم وبخاصة إذا كان يدافع عن الإسلام ! أن يعدل عن هذا الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم ، إلى شيء مما تخبط فيه نظريات علم الأديان المقارنة . تلك النظريات النابعة من منهج موجه كما أسلفنا !

ومع أننا هنا في ظلال القرآن لا نناقش الأخطاء والمزالق في الكتابات التي تكتب عن الإسلام إذ أن مجال هذه المناقشة بحث آخر مستقل . . ولكننا بنموذج واحد ، نعرضه في مواجهة المنهج القرآني والتقريرات القرآنية في هذه القضية . .

كتب الأستاذ العقاد في كتابه : " الله " في فصل أصل العقيدة :

.

. " ترقى الإنسان في العقائد . كما ترقى في العلوم والصناعات .

فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته . فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الديانات والعبادات ، وليست عناصر الحقيقة في

واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى .

وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات . لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلباً وأطول طريقاً من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التي يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى .

وقد جهل الناس شأن الشمس الساطعة ، وهي أظهر ما تراه العيون وتحسه الأبدان ، ولبثوا إلى زمن قريب يقولون بدورانها حول الأرض ، ويفسرون حركاتها وعوارضها كما يفسر الألغاز والأحلام . ولم يخطر لأحد أن ينكر وجود الشمس لأن العقول كانت في ظلام من أمرها فوق ظلام . ولعلها لا تزال .

فالرجوع إلى أصل الأديان في عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان التدين ، ولا على أنها تبحث عن محال . وكل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة شاملة في عصر واحد ؛ وأن الناس يستعدون لعرفانها عصراً بعد عصر ، وطوراً بعد طور . واسلوباً بعد أسلوب ، كما يستعدون لعرفان الحقائق الصغرى ، بل على نحو أصعب وأعجب من استعدادهم لعرفان هذه الحقائق التي يحيط بها العقل ويتناولها الحس والعيان .

وقد أسفر علم المقابلة بين الأديان عن كثير من الضلالات والأساطير التي آمن بها الإنسان الأول ، ولا تزال لها بقية شائعة بين القبائل البدائية ، أو بين أمم الحضارة العريقة . ولم يكن من المنظور أن يسفر هذا العلم عن شيء غير ذلك ، ولا أن تكون الديانات الأولى على غير ما كانت عليه من الضلالة والجهالة . فهذه هي وحدها النتيجة المعقولة التي لا يترقب العقل نتيجة غيرها . وليس في هذه النتيجة جديد يستغربه العلماء ، أو يبنون عليه جديداً في الحكم على جوهر الدين . فإن العالم الذي يخطر له أن يبحث في الأديان البدائية ليثبت أن الأولين قد عرفوا الحقيقة الكونية الكاملة منزهة عن شوائب السخف والغباء ، إنما يبحث عن محال . . . " .

كذلك كتب في فصل : " أطوار العقيدة الإلهية " في الكتاب نفسه :

" يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاث أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب :

وهى دور التعدد Polytheism

ودور التمييز والترجيح Henotheism

ودور الوحدانية Monotheism

" ففى دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أرباباً تعد بالعشرات ، وقد تتجاوز

العشرات إلى المئات . ويوشك فى هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبده ، أو تعويذة تنوب عن الرب فى الحضور ، وتقبل الصلوات والقرابين .

" وفى الدور الثانى وهو دور التمييز والترجيح تبقى الأرباب على كثرتها ، ويأخذ رب منها فى البروز والرجحان على سائرها .

إما لأنه رب القبيلة الكبرى التى تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة ، وتعتمد عليها فى شؤون الدفاع والمعاش ، وإما لأنه يحقق لعباده جميعاً مطلباً أعظم وألزم من سائر المطالب التى تحققها الأرباب المختلفة ، كأن يكون رب المطر والإقليم فى حاجة إليه ، أو رب الزوابع والرياح وهى موضع رجاء أو خشية يعلو على موضع الرجاء والخشية عند الأرباب القائمة على تسيير غيرها من العناصر الطبيعة .

" وفي الدور الثالث تتوحد الأمة ، فتتجمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المتفرقة . ويحدث في هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها ، ويحدث أيضاً أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلها ، مع بقائه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع ، والحاشية للملك

المطاع.

" ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلّا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة، ويتعذّر فيها على العقل قبول الخرافات التي كانت سائغة في عقول الهمج وقبائل الجاهلية، فتصف الله بما هو أقرب إلى الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة في أطوارها السابقة، وتقترن العبادة بالتفكير في أسرار الكون وعلاقتها بإرادة الله وحكمته العالية، وكثيراً ما يتفرد الإله الأكبر في هذه الأمم بالربوبية الحقة، وتنزل الأرباب الأخرى إلى مرتبة الملائكة أو الأرباب المطرودين من الحظيرة السماوية.. " الخ.

وواضح سواء من رأي الكاتب نفسه أو مما نقله ملخصاً من آراء علماء الدين المقارن ان البشر هم الذين ينشئون عقائدهم بأنفسهم؛ ومن ثم تظهر فيها أطوارهم العقلية والعلمية والحضارية والسياسية. وأن التطور من التعدد إلى التثنية إلى التوحيد تطور زمني مطرد على الإجمال..

وهذا واضح من الجملة الأولى في تقديم المؤلف لكتابه: " موضوع هذا الكتاب نشأة العقيدة الإلهية، منذ أن اتخذ الإنسان رباً، إلى أن عرف الله الأحد، واهتدى إلى نزاهة التوحيد "..

والذي لا شك فيه أن الله سبحانه يقرر في كتابه الكريم، تقريراً واضحاً جازماً، شيئاً آخر غير ما يقرره صاحب كتاب: "الله" متأثراً فيه بمنهج علماء الأديان المقارنة.. وأن الذي يقرره الله سبحانه أن آدم وهو أول البشر عرف حقيقة التوحيد كاملة، وعرف نزاهة التوحيد غير مشوبة بشائبة من التعدد والتثنية، وعرف الدينونة لله وحده باتباع ما يتلقى منه وحده. وأنه عرّف بنيه بهذه العقيدة، فكانت هنالك أجيال في أقدم تاريخ البشرية لا تعرف إلا الإسلام ديناً، وإلا التوحيد عقيدة.. وأنه لما طال الأمد على الأجيال المتتابعة من ذرية آدم انحرفت عن التوحيد.. ربما إلى التثنية وربما إلى التعدد.. ودانت لشتى الأرباب الزائفة... حتى جاءها نوح عليه السلام بالتوحيد من جديد. وأن الذين بقوا على الجاهلية أغرقهم الطوفان جميعاً؛ ولم ينج إلا المسلمون الموحدون الذين يعرفون "نزاهة التوحيد" وينكرون التعدد والتثنية وسائر الأرباب والعبادات الجاهلية! ولنا أن نجزم أن أجيالاً من ذراري هؤلاء الناجين عاشت كذلك بالإسلام القائم على التوحيد المطلق. قبل أن يطول عليهم الأمد، ويعودوا إلى الإنحراف عن التوحيد من جديد.. وأنه هكذا كان شأن كل رسول: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ والذي لا شك فيه أن هذا شيء، والذي يقرره علماء الأديان المقارنة ويتابعهم فيه مؤلف كتاب: "الله" شيء آخر. وبينهما تقابل تام في منهج النظر وفي النتائج

التي ينتهي إليها . . وآراء الباحثين في تاريخ الأديان ليست سوى نظريات يعارض بعضها بعضاً ، فهي ليست الكلمة النهاية حتى في مباحث البشر الفانين !

وما من شك أنه حين يقرر الله سبحانه أمراً يبينه في كتابه الكريم هذا البيان القاطع ، ويقرر غيره أمراً آخر مغايراً له تمام المغايرة ، فإن قول الله يكون أولى بالاتباع . بخاصة ممن يدافعون عن الإسلام ؛ ويكتبون ما يكتبون بقصد دفع الشبهات عنه وعن أصل الدين جملة . . وأن هذا الدين لا يخدم بنقض قاعدته الإعتقادية في أن الدين جاء وحيا من عند الله ، ولم يبتدعه البشر من عند أنفسهم ؛ وأنه جاء بالتوحيد منذ أقدم العصور ولم يجىء بغير التوحيد في أية فترة من فترات التاريخ ، ولا في أية رسالة . كما أنه لا يخدم بترك تقريراته إلى تقريرات علماء الأديان المقارنة وبخاصة حين يعلم أن هؤلاء إنما يعملون وفق منهج موجه لتدمير القاعدة الأساسية لدين الله كله ؛ وهي أنه وحي من الله ، وليس من وحي الفكر البشري المترقي المتطور ! وليس وقفاً على ترقي العقل البشري في العلم المادي والخبرة التجريبية !

ولعل هذه اللمحة المختصرة التي لا نملك الاستطراد فيها في كتاب الظلال تكشف لنا عن

مدى الخطورة في تلقي مفهوماتنا الإسلامية في أي جانب من جوانبها عن مصدر غير إسلامي . كما تكشف لنا عن مدى تغلغل مناهج الفكر الغربية ومقرراتها في أذهان الذين يعيشون على هذه المناهج والمقررات ويستقون منها . حتى وهم يتصدون لرد الافتراءات عن الإسلام من أعدائه . . ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ ونقف وقفة أخرى مع قصة نوح . . نقف مع نوح وابنه الذي ليس من أهله !

إنها وقفة على مَعلم واضح بارز في طبيعة هذه العقيدة وفي خطها الحركي أيضاً . . وقفة على مفرق الطريق تكشف معالم الطريق . .

﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون .

واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون . . . ﴾

﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا : احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل .

. . ﴾

﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل : يا بني اركب معنا ، ولا تكن مع الكافرين . قال : سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ، قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . . ﴾

﴿ ونادى نوح ربه ، فقال : رب إن ابني من أهلي ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين . قال : يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إني أعظك أن تكون من الجاهلين . قال : رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾

. . إن الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين ، وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج الرباني الكريم .

إن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب ؛ وليست وشيجة الأرض والوطن ، وليست وشيجة القوم والعشيرة ، وليست وشيجة اللون واللغة ، وليست وشيجة الجنس والعنصر ، وليست وشيجة الحرفة والطبقة . . إن هذه الوشائج جميعها قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد ؛ كما قال الله سبحانه وتعالى لعبده نوح عليه السلام وهو يقول : ﴿ رب إن ابني من أهلي ﴾ . . ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك ﴾ ثم بين له لماذا يكون ابنه . . ليس من أهله . . ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ . . إن وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما يا نوح : ﴿ فلا تسألن ما ليس لك به علم ﴾ فأنت تحسب أنه من أهلك ، ولكن

هذا الحسبان خاطئ. أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك، ولو كان هو ابنك من صلبك!

وهذا هو الْمَعْلَم الواضح البارز على مفرق الطريق بين نظرة هذا الدين إلى الوشائج والروابط، وبين نظرات الجاهلية المتفرقة... إن الجاهليات تجعل الرابطة آنا هي الدم والنسب؛ وآناً هي الأرض والوطن، وآناً هي القوم والعشيرة، وآناً هي اللون واللغة، وآناً هي الجنس والعنصر، وآناً هي الحرفة والطبقة! تجعلها آناً هي المصالح المشتركة، أو التاريخ المشترك. أو المصير المشترك.. وكلها تصورات جاهلية على تفرقها أو تجمعها تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامي!

والمنهج الرباني القويم ممثلاً في هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم وفي توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم وهي من هذا القرآن وعلى نسقه واتجاهه قد أخذ الأمة المسلمة بالتربية على ذلك الأصل الكبير. . والْمَعْلَم الواضح البارز في مفرق الطريق..

وهذا المثل الذي يضربه في هذه السورة من نوح وابنه فما يكون بين الولد والوالد ، ضرب أمثاله لشتى الوشائج والروابط الجاهلية الأخرى، ليقرر من وراء هذه الأمثال حقيقة

الوشيجة الوحيدة التي يعتبرها .

.

* ضرب لها المثل فيما يكون بين الولد والوالد وذلك فيما كان بين إبراهيم عليه السلام وأبيه وقومه كذلك :

﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم ، إنه كان صديقاً نبياً . إذ قال لأبيه : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا ؟ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك ، فاتبعني أهدك صراطاً سوياً . يا أبت لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عصياً . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً . . قال : أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك ! واهجرني ملياً . قال سلام عليك سأستغفر لك ربي ، إنه كان بي حفياً ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي ، عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً ؛ ووهبنا لهم من رحمتنا ، وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ [مريم : 41 50] .

* وضرب لها المثل فيما كان بين إبراهيم وذريته كما علمه الله سبحانه ولقنه ، وهو يعطيه عهده وميثاقه . ويبشره ببقاء ذكره وامتداد الرسالة في عقبه :

﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ، فأتمهن ، قال : إني جاعلك للناس إماما ، قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين . . ﴾ ﴿ وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر . قال : ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ [البقرة : 124 126]

* وضرب لها المثل فيما يكون بين الزوج وزوجه ، وذلك فيما كان بين نوح وامرأته ، و لوط وامرأته . وفي الجانب الآخر ما كان بين امرأة فرعون و فرعون :

﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئًا ، وقيل : ادخلا النار مع الداخلين ﴾

﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ، إذ قالت : رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، ونجني من فرعون وعمله ، ونجني من القوم الظالمين ﴾ [التحريم : 10 11]

* وضربَ لها المثل فيما يكون بين المؤمنين وأهلهم وقومهم ووطنهم وأرضهم وديارهم وأموالهم ، ومصالحهم وماضيهم ومصيرهم . وذلك فيما كان بين إبراهيم والمؤمنين به مع قومهم . وما كان من الفتية أصحاب الكهف مع أهلهم وقومهم ودورهم وأرضهم . . .

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده . . . ﴾ [الممتحنة : 4] .

﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ؟ إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً ، فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ، ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً ، نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذن شططاً . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة . لولا يأتون عليهم بسلطان بين ! فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ؟ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً ﴾

[الكهف : 169] .

وبهذه الأمثلة التي ضربها الله للأمة المسلمة من سيرة الرهط الكريم من الأنبياء والمؤمنين .

الذين سبقوها في موكب الإيمان الضارب في شعاب الزمان ، وضحت معالم الطريق لهذه الأمة ؛ وقام هذا المَعْلَم البارز أمامها عن حقيقة الوشيجة التي يجب أن يقوم عليها المجتمع المسلم ، ولا يقوم على سواها . وطالبها ربها بالإستقامة على الطريق في حسم ووضوح يتمثلان في مواقف كثيرة ، وفي توجيهات من القرآن كثيرة . . هذه نماذج منها . .

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ [المجادلة : 22] ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي ، تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ [الممتحنة : 1]

﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم ، والله بما تعملون بصير ، قد

كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه . . . الخ ﴾ [الممتحنة: 43] ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾ [التوبة: 23].

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [المائدة: 51].

وهكذا تقررت تلك القاعدة الأصيلة الحاسمة في علاقات المجتمع الإسلامي؛ وفي طبيعة بنائه وتكوينه العضوي الذي يتميز به عن سائر المجتمعات الجاهلية قديماً وحديثاً إلى آخر الزمان. ولم يعد هناك مجال للجمع بين "الإسلام" وبين إقامة المجتمع على أية قاعدة أخرى غير القاعدة التي اختارها الله للأمة المختارة.

والذين يدعون صفة الإسلام، ثم يقيمون مجتمعاتهم على قاعدة أو أكثر من تلك العلاقات الجاهلية التي أحل الإسلام محلها قاعدة العقيدة، إما أنهم لا يعرفون الإسلام؛ وإما أنهم يرفضونه. والإسلام في كلتا الحالتين لا يعترف لهم بتلك الصفة التي يدعونها لأنفسهم وهم لا يطبقونها، بل يختارون غيرها من مقومات الجاهلية فعلاً!

وندع هذه القاعدة وقد صارت واضحة تماماً لننظر في جوانب من حكمة الله في إقامة المجتمع الإسلامي على هذه القاعدة . .

* إن العقيدة تمثل أعلى خصائص " الإنسان " التي تفرقه من عالم البهيمة ؛ لأنها تتعلق بالعنصر الزائد في تركيبه وكينونته عن تركيب البهيمة وكينونتها وهو العنصر الروحي الذي به صار هذا المخلوق إنساناً في هذه الصورة وحتى أشد الملحدين إلحاداً وأكثر الماديين مادية ، قد انتبهوا أخيراً إلى أن العقيدة خاصة من خواص الإنسان تفرقه فرقاً أساسياً عن الحيوان .

ومن ثم ينبغي أن تكون العقيدة في المجتمع الإنساني الذي يبلغ ذروة الحضارة الإنسانية هي آصرة التجمع . لأنها العنصر الذي يتعلق بأخص خصائص الإنسان المميزة له عن البهائم . ولا تكون آصرة التجمع عنصراً يتعلق بشيء يشترك فيه الإنسان مع البهائم ! من مثل الأرض والمرعى والمصالح والحدود التي تمثل خواص الحظيرة ، وسياج الحظيرة ! ولا تكون كذلك هي الدم والنسب والعشيرة والقوم والجنس والعنصر واللون واللغة . . فكلها مما يشترك فيه الإنسان مع البهيمة . وليس هناك إلا شؤون العقل و القلب التي يختص بها الإنسان دون البهيمة !

* كذلك تتعلق العقيدة بعنصر آخر يتميز به الإنسان عن البهائم . . هو عنصر الاختيار والإرادة ، فكل فرد على حدة يملك أن يختار عقيدته بمجرد أن يبلغ سن الرشد ؛ وبذلك

يقرر نوع المجتمع الذي يريد أن يعيش فيه مختاراً ؛ ونوع المنهج الاعتقادي والاجتماعي والسياسي والإقتصادي والخلقي الذي يريد بكامل حريته أن يتمذهب به ويعيش . .

ولكن هذا الفرد لا يملك أن يقرر دمه ونسبه ولونه وقومه وجنسه . كما لا يملك أن يقرر الأرض التي يحب أن يولد فيها ، ولغة الأم التي يريد أن ينشأ عليها . . إلى آخر تلك المقومات التي تقام عليها مجتمعات الجاهلية ! . . إن هذه الأمور كلها يقضى فيها قبل مجيئه إلى هذه الأرض ، ولا يؤخذ له فيها مشورة ولا رأي ؛ إنما هي تفرض عليه فرضاً سواء أحب أم كره ! فإذا تعلق مصيره في الدنيا والآخرة معاً أو حتى في الدنيا وحدها بمثل هذه المقومات التي تفرض عليه فرضاً لم يكن مختاراً ولا مريداً ؛ وبذلك تسلب إنسانيته مقوماً من أخص مقوماتها ؛ وتهدر قاعدة أساسية من قواعد تكريم الإنسان ؛ بل من قواعد تركيبه وتكوينه الإنساني المميز له من سائر الخلائق !

ومن أجل المحافظة على خصائص الإنسان الذاتية ، والمحافظة على الكرامة التي وهبها الله له متمشية مع تلك الخصائص ؛ يجعل الإسلام العقيدة التي يملك كل فرد اختيارها بشخصه منذ أن يبلغ سن الرشد هي الآصرة التي يقوم عليها التجمع الإنساني في المجتمع الإسلامي ؛

والتي يتقرر على أساسها مصير كل فرد بإرادته الذاتية .

وينفي أن تكون تلك العوامل الاضطرارية ، التي لا يد له فيها ، ولا يملك كذلك تغييرها باختياره ، هي آصرة التجمع التي تقرر مصيره طول حياته .

* ومن شأن قيام المجتمع على آصرة العقيدة وعدم قيامه على العوامل الاضطرارية الأخرى أن ينشئ مجتمعاً إنسانياً عالمياً مفتوحاً ؛ يجيء إليه الأفراد من شتى الأجناس والألوان واللغات والأقوام والدماء والأنساب والديار والأوطان بكامل حريتهم واختيارهم الذاتي ؛ لا يصدهم عنه صاد ، ولا يقوم في وجوههم حاجز ، ولا تقف دونه حدود مصطنعة ، خارجة عن خصائص الإنسان العليا . وأن تصب في هذا المجتمع كل الطاقات والخواص البشرية ، وتجتمع في صعيد واحد ، لتنشىء "حضارة إنسانية" تنتفع بكل خصائص الأجناس البشرية ؛ ولا تغلق دون كفاية واحدة ، بسبب من اللون أو العنصر أو النسب والأرض . . .

" ولقد كان من النتائج الواقعية الباهرة للمنهج الإسلامي في هذه القضية ؛ ولإقامة التجمع الإسلامي على آصرة العقيدة وحدها ، دون أواصر الجنس والأرض واللون واللغة

والمصالح الأرضية القريبة ، والحدود الإقليمية السخيفة ! ولإبراز " خصائص الإنسان " في هذا التجمع وتنميتها وإعلائها ، دون الصفات المشتركة بينه وبين الحيوان . . كان من النتائج الواقعية الباهرة لهذا المنهج أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعاً مفتوحاً لجميع الأجناس والألوان واللغات ، بلا عائق من هذه العوائق الحيوانية السخيفة ! وأن صبت في بوتقة المجتمع الإسلامي خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها ، وانصهرت في هذه البوتقة وتمازجت ، وأنشأت مركباً عضوياً فائقاً في فترة تعد نسبياً قصيرة . وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة ضخمة ، تحوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعة ، على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال في ذلك الزمان . "

" لقد اجتمع في المجتمع الإسلامي المتفوق : العربي والفارسي والشامي والمصري والمغربي والتركي والصيني والهندي والروماني والإغريقي والأندونيسي والإفريقي . . . إلى آخر الأقوام والأجناس . . . وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية . ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوماً ما " عربية " إنما كانت دائماً " إسلامية " ولم تكن يوماً ما " قومية " إنما كانت دائماً " إسلامية " ولم تكن يوماً ما " قومية " إنما كانت دائماً " عقيدية " .

" ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة ، وبآصرة الحب . وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة . فبذلوا جميعاً أقصى كفاياتهم ، وأبرزوا أعمق خصائص أجناسهم ، وصبوا

خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية والتاريخية فى بناء هذا المجتمع الواحد الذي ينتسبون إليه جميعاً على قدم المساواة ، وتجمع فيه بينهم آصرة تتعلق بربهم الواحد ، وتبرز فيها إنسانيتهم وحدها بلا عائق .

(258/379)

وهذا ما لم يجتمع قط لأى تجمع آخر على مدار التاريخ !

" لقد كان أشهر تجمع بشري في التاريخ القديم هو تجمع الإمبراطورية الرومانية مثلاً . فقد جمعت بالفعل أجناساً متعددة ، ولغات متعددة ، وألواناً متعددة ، وأمزجة متعددة .

ولكن هذا كله لم يقم على " آصرة إنسانية " ولم يتمثل في قيمة عليا كالعقيدة . . لقد كان هناك تجمع طبقي على أساس طبقة الأشراف وطبقة العبيد في الإمبراطورية كلها من ناحية ؛ وتجمع عنصري على أساس سيادة الجنس الروماني بصفة عامة وعبودية سائر الأجناس الأخرى . ومن ثم لم يرتفع قط إلى أفق التجمع الإسلامي ؛ ولم يؤت الثمار التي آتاها التجمع الإسلامي . "

(259/379)

"كذلك قامت في التاريخ الحديث تجمعات أخرى . . تجمع الإمبراطورية البريطانية مثلاً . . ولكنه كان كالتجمع الروماني ، الذي هو وريثه ! تجمعاً قومياً استغلالياً ، يقوم على أساس سيادة القومية الانجليزية ، واستغلال المستعمرات التي تضمها الإمبراطورية . . ومثله الإمبراطوريات الأوربية كلها . . الإمبراطورية الإسبانية والبرتغالية في وقت ما ، والإمبراطورية الفرنسية . . كلها في ذلك المستوى الهابط البشع المقيت ! وأرادت الشيوعية أن تقيم تجمعاً من نوع آخر ، يتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللغة واللون . ولكنها لم تقمه على قاعدة " إنسانية " عامة ، إنما أقامته على القاعدة " الطبقية " . فكان هذا التجمع هو الوجه الآخر للتجمع الروماني القديم . . هذا تجمع قاعدة طبقة " الأشراف " وذلك تجمع على قاعدة طبقة " الصعاليك " (البروليتريا) ؛ والعاطفة التي تسوده هي عاطفة الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى ! وما كان لمثل هذا التجمع الصغير البغيض أن يثمر إلا أسوأ ما في الكائن الإنساني . . فهو ابتداء قائم على أساس إبراز الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها . باعتبار أن " المطالب الأساسية " للإنسان هي " الطعام والمسكن والجنس " وهي مطالب الحيوان الأولية وباعتبار أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام ! ! "

" لقد تفرد الإسلام بمنهجه الرباني في إبراز أخص خصائص الإنسان وتنميتها وإعلائها في

بناء المجتمع الإنساني . . وما يزال متفرداً . . والذين يعدلون عنه إلى أي منهج آخر ، يقوم على أية قاعدة أخرى ، من القوم أو الجنس أو الأرض أو الطبقة . . إلى آخر هذا النتن السخيف ، هم أعداء "الإنسان" حقاً ! هم الذين لا يريدون لهذا الإنسان أن يتفرد في هذا الكون بخصائصه العليا كما فطره الله ؛ ولا يريدون لمجتمعه أن ينتفع بأقصى كفايات أجناسه وخصائصها وتجاربها في امتزاج وتناسق " .

---

* ويحسن أن نذكر أن أعداء هذا الدين ، الذين يعرفون مواضع القوة في طبيعته وحركته ؛ وهم الذين يقول الله تعالى فيهم :

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ لم يفتهم أن يدركوا أن التجمع على أساس العقيدة سر من أسرار قوة هذا الدين ، وقوة المجتمع الإسلامي الذي يقوم على هذا الأساس . . ولما كانوا بصدد هدم ذلك المجتمع أو إضعافه إلى الحد الذي يسهل عليهم السيطرة عليه ؛ وشفاء ما في صدورهم من هذا الدين وأهله ؛ ولاستغلالهم كذالك و استغلال مقدراتهم وديارهم وأموالهم . . لما كانوا بصدد تلك المعركة مع هذا المجتمع لم يفتهم أن يوهنوا من القاعدة التي يقوم عليها ؛ وأن يقيموا لأهله المجتمعين على إله واحد ،

أصناماً تعبد من دون الله ، اسمها تارة " الوطن " واسمها تارة " القوم " واسمها تارة " الجنس " . وظهرت هذه الأصنام على مراحل التاريخ تارة باسم " الشعوبية " وتارة باسم " الجنسية الطورانية " وتارة باسم " القومية العربية " وتارة بأسماء شتى ، تحملها جبهات شتى ، تتصارع فيما بينها في داخل المجتمع الإسلامي الواحد القائم على أساس العقيدة ، المنظم بأحكام الشريعة . . إلى أن وهنت القاعدة الأساسية تحت المطارق المتوالية ، وتحت الإيحاءات الخبيثة المسمومة ؛ وإلى أن أصبحت تلك " الأصنام " مقدسات يعتبر المنكر لها خارجاً على دين قومه ! أو خائناً لمصالح بلده ! ! !

وأخبث المعسكرات التي عملت وما زالت تعمل في تخريب القاعدة الصلبة التي كان يقوم عليها التجمع الإسلامي الفريد في التاريخ . . كان هو المعسكر اليهودي الخبيث ، الذي جرب سلاح " القومية " في تحطيم التجمع المسيحي ، و تحويله إلى قوميات سياسية ذات كنائس قومية . . وبذلك حطموا الحصار المسيحي حول الجنس اليهودي ؛ ثم ثنوا بتحطيم الحصار الإسلامي حول ذلك الجنس الكنود !

وكذلك فعل الصليبيون مع المجتمع الإسلامي بعد جهد قرون كثيرة في إثارة النعرات الجنسية والقومية والوطنية بين الأجناس الملتحمة في المجتمع الإسلامي . . ومن ثم استطاعوا أن يرضوا أحقادهم الصليبية القديمة على هذا الدين وأهله . كما استطاعوا أن يمزقوهم ويروضوهم على الإستعمار الأوروبي الصليبي . وما يزالون . . حتى يأذن الله بتحطيم تلك الأصنام الخبيثة الملعونة ؛ ليقوم التجمع الإسلامي من جديد ، على أساسه المتين الفريد . .

* وأخيراً فإن الناس ما كانوا ليخرجوا من الجاهلية الوثنية بكلياتهم حتى تكون العقيدة وحدها هي قاعدة تجمعهم . ذلك أن الدينونة لله وحده لا تتم تمامها إلا بقيام هذه القاعدة في تصورهم وفي تجمعهم .

يجب أن تكون هناك قداسة واحدة لمقدس واحد ، وألا تتعدد " المقدسات " ! ويجب ان يكون هناك شعار واحد ، وألا تتعدد " الشعارات " ويجب أن تكون هناك قبلة واحدة يتجه إليها الناس بكلياتهم وألا تتعدد القبلات والمتجهات . .

إن الوثنية ليست صورة واحدة هي وثنية الأصنام الحجرية والآلهة الأسطورية ! إن الوثنية يمكن أن تتمثل في صور شتى ؛ كما أن الأصنام يمكن أن تتخذ صوراً متعددة ؛ وآلهة الأساطير يمكن أن تتمثل مرة أخرى في المقدسات والمعبودات من دون الله أياً كانت أسماؤها .

وأياً كانت مراسمها .

وما كان الإسلام ليخلص الناس من الأصنام الحجرية والأرباب الأسطورية ، ثم يرضى لهم بعد ذلك أصنام الجنسيات والقوميات والأوطان . . وما إليها . . يتقاتل الناس تحت راياتها وشعاراتها . وهو يدعوهم إلى الله وحده ، وإلى الدينونة له دون شيء من خلقه !

لذلك قسم الإسلام الناس إلى أمتين اثنتين على مدار التاريخ البشري . . أمة المسلمين من أتباع الرسل كل في زمانه حتى يأتي الرسول الأخير إلى الناس كافة وأمة غير المسلمين من عبدة الطواغيت والأصنام في شتى الصور والأشكال على مدار القرون . .

(262/379)

وعندما أراد الله أن يعرف المسلمين بأمتهم التي تجمعهم على مدار القرون ، عرفها لهم في صورة أتباع الرسل كل في زمانه وقال لهم في نهاية استعراض أجيال هذه الأمة : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ ولم يقل للعرب : إن أمتكم هي الأمة العربية في جاهليتها وإسلامها سواء ! ولا قال لليهود : إن أمتكم هي بنو إسرائيل أو العبرانيون في جاهليتهم وإسلامهم سواء ! ولا قال لسلمان الفارسي : إن أمتك هي فارس ! ولا لصهيب الرومي : إن أمتك هي الرومان ! ولا لبلال الحبشي : إن أمتك هي الحبشة ! إنما

قال للمسلمين من العرب والفرس والروم والحبش : إن أمتكم هي المسلمون الذين أسلموا حقاً على أيام موسى وهارون ، وإبراهيم ، ولوط ، ونوح ، وداود وسليمان ، وأيوب ، وإسماعيل وإدريس وذي الكفل وذي النون ، وزكريا ويحيى ، ومريم . . كما جاء في سورة الأنبياء : [آيات 48 91] .

هذه هي أمة " المسلمين " في تعريف الله سبحانه . . فمن شاء له طريقاً غير طريق الله فليسلكه . ولكن ليقل : إنه ليس من المسلمين ! أما نحن الذين اسلمنا لله ، فلا نعرف لنا أمة إلا الأمة التي عرفها لنا الله . والله يقص الحق وهو خير الفاصلين . .

وحسبنا هذا القدر مع إلهامات قصة نوح في هذه القضية الأساسية في هذا الدين .

ثم نقف الوقفة الأخيرة مع قصة نوح لنرى قيمة الحفنة المسلمة في ميزان الله سبحانه :

إن حفنة من المسلمين من أتباع نوح عليه السلام ، تذكر بعض الروايات انهم اثنا عشر ، هم كانوا حصيلة دعوة نوح في ألف سنة إلا خمسين عاماً كما يقرر المصدر الوحيد المستيقن الصحيح في هذا الشأن . .

إن هذه الحفنة وهي ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل قد استحقت أن يغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون ؛ وأن يجري لها ذلك الطوفان الذي يغمر كل شيء وكل حي في المعمور وقتها من الأرض !

وأن يجعل هذه الحفنة وحدها هي وارثة الأرض بعد ذلك ، وبذرة العمران فيها والإستخلاف من جديد . .

(263/379)

. . وهذا أمر خطير . .

إن طلائع البعث الإسلامي التي تواجه الجاهلية الشاملة في الأرض كلها ؛ والتي تعاني الغربة في هذه الجاهلية والوحشة ؛ كما تعاني من الأذى والمطاردة والتعذيب والتنكيل .

. إن هذه الطلائع ينبغي أن تقف طويلاً أمام هذا الأمر الخطير ، وأمام دلالته التي تستحق التدبر والتفكير !

إن وجود البذرة المسلمة في الأرض شيء عظيم في ميزان الله تعالى . . شيء يستحق منه سبحانه أن يدمر الجاهلية وأرضها وعمرانها ومنشآتها وقواها ومدخراتها جميعاً ؛ كما يستحق منه سبحانه ان يكلأ هذه البذرة ويرعاها حتى تسلم وتنجو وترث الأرض وتعمرها من جديد !

لقد كان نوح عليه السلام يصنع الفلك بأعين الله ووحيه ، كما قال تعالى : ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ . .

وعندما لجأ نوح إلى ربه والقوم يطاردونه ويزجرونه ويفترونه عليه كما قال الله تعالى في سورة القمر :

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ عندما لجأ نوح إلى ربه يعلن أنه ﴿ مغلوب ﴾ ويدعو ربه أن " ينتصر " هو وقد غُلب رسوله . . عندئذ أطلق الله القوى الكونية الهائلة لتكون في خدمة عبده المغلوب :

﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴾ وبينما كانت تلك القوى الهائلة تزاول عملها على هذا المستوى الكوني الرائع الموهوب . . كان الله سبحانه بذاته العلية مع عبده المغلوب :

﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجري بأعيننا . . جزاء لمن كان كفر . . ﴾ هذه هي الصورة الهائلة التي يجب أن تقف طلائع البعث الإسلامي في كل مكان وفي كل زمان أمامها حين تطاردها الجاهلية ؛ وحين " تغلبها " الجاهليه !

إنها تستحق أن يسخر الله لها القوى الكونية الهائلة . . وليس من الضروري أن تكون هي الطوفان . فما الطوفان إلا صورة من صور تلك القوى ! ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾

وإنه ليس عليها إلا أن تثبت وتستمر في طريقها ؛ وإلا أن تعرف مصدر قوتها وتلجأ إليه ؛ وإلا أن تصبر حتى يأتي الله بأمره ، وإلا أن تثق أن وليها القدير لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . وأنه لن يترك أولياءه إلى أعدائه ، إلا فترة الإعداد والابتلاء ؛ وأنها متى اجتازت هذه الفترة فإن الله سيصنع لها وسيصنع بها في الأرض ما يشاء .

وهذه هي عبرة الحادث الكوني العظيم . .

إنه لا ينبغي لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام أن يظن أن الله تاركه للجاهلية وهو يدعو إلى إفراد الله سبحانه بالربوبية . كما أنه لا ينبغي له أن يقيس قوته الذاتية إلى قوى الجاهلية فيظن أن الله تاركه لهذه القوى وهو عبده الذي يستنصر به فيدعوه : ﴿ أني مغلوب فانتصر ﴾ إن القوى في حقيقتها ليست متكافئة ولا متقاربة . . إن الجاهلية تملك قواها . . ولكن الداعي إلى الله يستند إلى قوة الله .

والله يملك أن يسخر له بعض القوى الكونية – حينما يشاء وكيفما يشاء وأيسر هذه القوى يدمر على الجاهلية من حيث لا تحتسب !

وقد تطول فترة الابتلاء لأمر يريده الله . . ولقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ؛ قبل أن يأتي الأجل الذي قدره الله . ولم تكن حصيلة هذه الفترة الطويلة إلا اثني عشر مسلماً . . ولكن هذه الحفنة من البشر كانت في ميزان الله تساوي تسخير تلك القوى

الهائلة ، والتدمير على البشرية الضالة جميعاً ، وتوريث الأرض لتلك الحفنة الطيبة تعمرها من جديد وتستخلف فيها . .

إن عصر الخوارق لم يمض ! فالخوارق تتم في كل لحظة وفق مشيئة الله الطليقة ولكن الله يستبدل بأنماط من الخوارق أنماطاً أخرى ، تلائم واقع كل فترة ومقتضياتها . وقد تدِق بعض الخوارق على بعض العقول فلا تدركها ؛ ولكن الموصولين بالله يرون يد الله دائماً ، ويلابسون آثارها المبدعة .

والذين يسلكون السبيل إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا واجبهم كاملاً ، بكل ما في طاقتهم من جهد ؛ ثم يدَعوا الأمور لله في طمأنينة وثقة . وعندما يُغلبون عليهم أن يلجأوا إلى الناصر المعين وأن يجأروا إليه كما جأر عبده الصالح نوح : ﴿ فدعا ربه أني مغلوب ، فانتصر ﴾ ثم ينتظروا فرج الله القريب . وانتظار الفرج من الله عبادة ؛ فهم على هذا الانتظار مأجورون .

ومرة أخرى نجد أن هذا القرآن لا يكشف عن أسراره إلا للذين يخوضون به المعركة ويجاهدون به جهاداً كبيراً . . إن هؤلاء وحدهم هم الذين يعيشون في مثل الجو الذي تنزل

فيه القرآن ؛ ومن ثم يتذوقونه ويدركونه ؛ لأنهم يجدون أنفسهم مخاطبين خطاباً مباشراً به ، كما خوطبت به الجماعة المسلمة الأولى ، فتذوقته وأدركته وتحركت به . .

. . والحمد لله في الأولى والآخرة . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 1870 . 1894 ﴾

(266/379)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ما نراك إلا بشرا مثلنا ﴾ أي مخلوقاً محتاجاً مثلنا . وفيه أن النفس بنظرها السفلي ترى الروح العلوي سفلياً فلهذا تنظر إلى النبي ولا ترى نبوته الحميدة ، بل تراه بنظر الكذب والسحر والجنون ﴿ إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ﴾ والأراذل من اتباع الروح البدن والجوارح الظاهرة ، فإن الغالب على الخلق أن البدن يقبل دعوة الروح ويستعمل الجوارح بالأفعال الشرعية ، ولكن النفس الأمارة تكون على كفرها ولا تخلي البدن أن يشتغل بالأعمال الشرعية الدينية إلا لغرض فاسد ومصلحة دنيوية كما هو المعتاد لأكثر الخلق .

﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ من طبع النفس أن تتأذى من استعمال البدن وجوارحه في التكاليف الشرعية فتقول للروح: إن ترد أن أومن بك وأتخلق بأخلاقك فأمتع البدن وجوارحه في التكاليف ﴿ من ينصرني من الله ﴾ من يمنعني من قهره إن منعت البدن من الطاعة، فاقتصر على مجرد إيمان النفس وتخلقها بأخلاق الروح كما هو معتقد أهل الفلسفة والإباحة يقولون: إن أصل العبودية معرفة الربوبية وجمعية الباطن والتحلي بالأخلاق الحميدة. ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أن جميعة الباطن ونوره من نتائج استعمال الشرع في الظاهر؟ فالنور في الشرع والظلمة في الطبع، وإنما بعث الأنبياء ليخرجوا الخلق من ظلمات الطبع إلى نور الشرع ﴿ لن يؤتيهم الله خيراً ﴾ أي استعداداً لتحصيل الدرجات العلوية وإنهم مخلوقون من السفليات الله أعلم بما في نفس كل جارحة من استعداد تحصيل الكمال ﴿ وأنا بريء مما تجرمون ﴾ من التكذيب. وفيه أن ذنوب النفس لا تؤثر في صفاء الروح ولا يتكدر بها ما كان الروح متبرئاً من ذنوب النفس متأسفاً على معاملات النفس وتتبع هواها. ﴿ وأوحي إلى نوح ﴾ الروح ﴿ أنه لن يؤمن من قومك ﴾ وهم القلب وصفاته والسر والنفس وصفاتها والبدن وجوارحه ﴿ إلا من قد آمن ﴾ من خواص

العباد وهم القلب وصفاتها والسر وصفات النفس والبدن وجوارحه . فأما النفس فإنها لا تؤمن أبداً اللهم إلا نفوس الأنبياء وخواص الأولياء فإنها تسلم أحياناً دون الإيمان ﴿ فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ لأن أعمال الشر لنفوس السعداء كالجسد للإكسير ينقلب ذهباً مقبولاً عند طرح الروح عليها ، فكذلك تنقلب أعمال الشر خيراً عند طرح التوبة عليها ﴿ أولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ ولا تبتئس على نفوس الأشقياء لأن أعمالها حجة الله على شقاوتهم ، وبتلك السلاسل يسحبون في النار على وجوههم ﴿ واصنع الفلك ﴾ اتخذ يا نوح الروح سفينة الشريعة بنظرنا لا بنظرك فإن نظرك تبع الحواس يبصر ظاهرها ويغفل عن أسرارها ﴿ ولا تخاطبني

في الذين ظلموا ﴾ فإن الظلم من شيم النفوس ﴿ إنهم مغرقون ﴾ في بحر الدنيا وشهواتها . ﴿ وكلما مر عليه ملأ ﴾ هم النفس وهواها وصفاتها ﴿ يسخرون ﴾ من استعمال أركان الشريعة إذ لم يفهموا حقائقها ﴿ حتى إذا جاء أمرنا ﴾ وهو حد البلوغ والركوب في سفينة الشريعة ﴿ وفار ﴾ ماء الشهوة من تنور القالب ﴿ قلنا احمل ﴾ في سفينة الشريعة من كل صفة وزوجها : كالشهوة وزوجها العفة . والحرص وزوجها القناعة

، والبخل وزوجها السخاء ، والغضب وزوجه الحلم ، وكذا الحقد مع السلامة ، والعداوة مع المحبة ، والكبر مع التواضع ، والتأني مع العجلة ﴿ وأهلك ﴾ وهم صفات الروح لا النفس ﴿ ومن آمن ﴾ وهم القلب والسر . وفي قوله تعالى : ﴿ وقال اركبوا فيها باسم الله ﴾ إشارة إلى أن من ركب سفينة الشرع بالطبع وتقليد الآباء والمعلمين لم يحصل له النجاة الحقيقية كما ركب إبليس بالطبع في سفينة نوح وإنما النجاة لمن ركب بأمر الله وذكره مجراها من الله ومرساها إلى الله كقوله :

﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ [النجم : 42] ﴿ في موج ﴾ من الفتن ﴿ كالجبال ونادى نوح ﴾ الروح ﴿ ابنه ﴾ كنعان النفس المتولد بينه وبين القالب ﴿ وكان في معزل ﴾ من معرفة الله وطلبه ﴿ سآوي إلى جبل ﴾ العقل ﴿ يعصمني من الماء ﴾ الفتن ﴿ لا عاصم اليوم ﴾ أي إذا نبع ماء الشهوات من أرض البشرية ونزل ماء ملاذ الدنيا وزينتها من سماء القضاء فلا يتخلص منه إلا من يرحمه الله بالاعتصام بسفينة الشريعة ﴿ ابلعي ﴾ ماء شهواتك ﴿ اقلعي ﴾ عن إنزال مطر الآفات ﴿ وغيض ﴾ ماء الفتن ببركة الشرع ﴿ وقضي الأمر ﴾ ما كان مقدراً من طوفان الفتن للابتلاء والتربية ، ﴿ واستوت ﴾

سفينة الشريعة ﴿ على الجودي ﴾ وهو مقام التمكين بعد مقامات التلوين ﴿ وإن وعدك الحق ﴾ وهو ما وعد نوح الروح عند إهباطه إلى العالم السفلي من الرجوع إلى العالم العلوي : ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ وكان للروح أربعة بنين : ثلاثة من المؤمنين وهم القلب والسر والعقل ، وواحد كافر وهو النفس . فنفى عن النفس أهلية الدين والملة لأنها خلقت للأمارية ﴿ اهبط ﴾ من سفينة الشريعة عند مفارقة الجسد والخلاص من طوفان الفتن ﴿ وأمم سنمتعهم ﴾ هم النفوس متعت بالحظوظ الدنيوية ﴿ ثم يمسهم ﴾ في الآخرة عذاب البعد عن المألوفات ، ﴿ فاصبر ﴾ على تربية الروح والنفس ﴿ إن العاقبة ﴾ لمن اتقى طوفان فتن الدنيا والنفس والهوى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 30.28 ﴾

(270/379)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ ﴾ الخ لما كان مقتضى الطباع البشرية عدم نشاط المتكلم إذا لم يجد محلاً قابلاً لكلامه وضيق صدره من ذلك

هيج جل شأنه نشاط نبيه صلى الله عليه وسلم بما أنزل عليه من هذه الآية الكريمة، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ ولا يخلو الإنذار عن إحدى فائدتين: رفع الحجاب عمن وفق وإلزام الحجة لمن خذل ﴿ والله على كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود: 12] فكل الهداية إليه ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ﴾ بعمله الذي هو بظاهره من أعمال الآخرة ﴿ قَالُوا لَن ﴾ كالجاه والمدح ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي جزاءها فيها إن شئنا ﴿ وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ﴾ [هود: 15] أي لا ينقصون شيئاً منها ﴿ أُوْلَئِكَ الذين لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخرة إِلاَّ النار ﴾ لتعذب قلوبهم بالحجب الدنيوية ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا ﴾ [هود: 16] من أعمال البر فلم ينتفعوا بها، وجاء "إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى" الحديث ﴿ أَفَمَن كَانَ على بَيّنَةٍ مّن رَّبِهِ ﴾ أي يقين برهاني عقلي أو وجداني كشفي ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مّنْهُ ﴾ وهو القرآن المصدق لذلك، ومن هنا تؤيد الأدلة العقلية بالآيات النقلية القرآنية.

ويحكم بكون الكشف صحيحاً إذا شهدت له ووافقته، ولذا قالوا: كل كشف خالف ما جاء عن الله تعالى ليس بمعتبر ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى ﴾ أي يتبع البرهان من قبل هذا الكتاب كتاب موسى عليه السلام في حالة كونه ﴿ إِمَاماً ﴾ يؤتم به في تحقيق المطالب ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ [هود: 17] لمن يهتدي به، وهذا وجه في الآية ذكره بعضهم، وقد قدمنا ما فيها من الاحتمالات؛ وقد ذكروا أن المراد بيان بعد ما بين مرتبتي من يريد الحياة الدنيا ومن هو على بينة من ربه.

وللصوفية قدست أسرارهم عبارات شتى في البينة فقال رويم : هي الإشراف عن القلوب والحكم على الغيوب ، وقال سيد الطائفة : هي حقيقة يؤيدها ظاهر العلم ، وقيل : غير ذلك ، وعن أبي بكر بن طاهر أن من كان على بينة من ربه كانت جوارحه وقفاً على الطاعات والموافقات ولسانه مشغولاً بالذكر ونشر الآلاء والنعماء وقلبه منوراً بأنوار التوفيق وضياء التحقيق وسره وروحه مشاهدين للحق في جميع الأوقات وكان عالماً بما يبدو من مكنون الغيوب ورؤيته يقين لا شك فيه وحكمه على الخلق كحكم الحق لا ينطق إلا بالحق ولا يرى إلا الحق لأنه مستغرق به فأنى يرى سواه

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾ [هود : 18] الخ جعله بعضهم إشارة إلى المثبتين لغيره سبحانه وجوداً وهم أهل الكثرة والحجاب ، وفسر الإشهاد بالموحدين الذين لا يشهدون في الدار غيره سبحانه دياراً .

ومن الناس من عكس الأمر وجعلها رداً على أهل الوحدة القائلين : إن كل ما شاهدته بعينك أو تصورته بفكرك فهو الله سبحانه بمعنى كفر النصارى إيمان بالنسبة إليه وحاشا أهل الله تعالى من القول به على ما يشعر به ظاهره ، ومنهم من جعلها مشيرة إلى حال من يزعم أنه ولي الله ويتزيا بزي السادات ويتكلم بكلماتهم وهو في الباطن أفسق من فرد وأجهل من حمار تومه ﴿ مَثَلُ الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع ﴾ قيل : ﴿ البصير ﴾ من عاين ما يراد به وما يجري له وعليه في جميع أوقاته ﴿ والسميع ﴾ من يسمع ما يخاطب به من تقريع وتأديب وحث وندب لا يغفل عن الخطاب في حال من الأحوال ، وقيل : ﴿ البصير ﴾ الناظر إلى الأشياء بعين الحق فلا ينكر شيئاً ولا يتعجب من شيء ﴿ والسميع ﴾ من يسمع من الحق فيميز الإلهام من الوسواس ، وقيل : ﴿ البصير ﴾ هو الذي يشهد أفعاله بعلم اليقين وصفاته بعين اليقين وذاته بحق اليقين فالغائبات له حضور والمستورات له كشف ﴿ والسميع ﴾ من يسمع من دواعي العلم شرعاً ، ثم من خواطر التعريف قدراً ، ثم يكاشف بخطاب من الحق سراً ، وقيل : وقيل : ﴿ السميع ﴾ من لا يسمع إلا كلام حبيبه ، و﴿ البصير ﴾ من لا يشاهد إلا أنواره فهو في ضيائها ليلاً ونهاراً ، وإلى هذا يشير قول قائلهم :

ليلي من وجهك شمس الضحى . . .

وإنما السدفة في الجو

الناس في الظلمة من ليلهم . . .

ونحن من وجهك في الضو

(273/379)

وفسر كل من الأعمى والأصم بضد ما فسر به ﴿ البصير والسميع ﴾ والمراد من قوله سبحانه : ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ [هود : 24] أنهما لا يستويان لما بينهما من التقابل والتباعد إلى حيث لا تتراءى ناراهما ، ثم إنه تعالى ذكر من قصة نوح عليه السلام مع قومه ما فيه إرشاد وتهديد وعظة ما عليها مزيد ﴿ فَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ ﴾ أي الأشراف المليؤون بأمور الدنيا الذي حجبوا بما هم فيه عن الحق ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ لكونهم واقفين عند حد العقل المشوب بالوهم فلا يرون لأحد طوراً وراء ما بلغوا إليه ولم يشعروا بمقام النبوة ومعناها ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرأى ﴾ وصفوهم بذلك لفقرهم حيث كانوا لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ولم يعلموا أن الشرف بالكمال لا بالمال .

﴿ وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ وتقدم يؤهلكم لما تدعونه ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذبين ﴾

(274/379)

[هود : 27] فلا نبوة لك ولا علم لهم ﴿ قَالَ يَا ءادمُ قَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ يجب عليكم الإذعان بها ﴿ قَالَ يا قوم ﴾ هداية خاصة كشفية متعالية عن درجة البرهان ﴿ مِّنْ عِندِهِ ﴾ فوق طور عقولكم من العلوم اللدنية ومقام النبوة ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ لاحتجابكم بالظاهر عن الباطن وبالخليقة عن الحقيقة ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ ونجبركم عليها ﴿ وَأَنتُمْ لَهَا كارهون ﴾ [هود : 28] لا تلتفتون إليها كأنه عليه السلام أراد أنه لا يكون إلزام ذلك مع الكراهة لكن إن شئتم تلقيه فزكوا أنفسكم واتركوا إنكاركم حتى يظهر عليكم أثر نور الإرادة فتقبلوا ذلك، وفيه إشارة إلى أن المنكر لا يمكن له الاستفاضة من أهل الله تعالى ولا يكاد ينتفع بهم ما دام منكراً ومن لم يعتقد لم ينتفع ﴿ كارهون ويا قوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً ﴾ أي ليس لي مطمح في شيء من أموالكم التي ظننتم أن الشرف بها ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى الله ﴾ فهو يثيبني بما هو خير وأبقى ﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الذين ءامَنُواْ إِنَّهُمْ ملاقوا رَبِّهِمْ ﴾ أي إنهم أهل الزلفى عنده تعالى وهم حمائم أبراج الملكوت وبزاة معارج الجبروت ﴿ ولكنى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [هود : 29] تسفهون عليهم وتؤذونهم ﴿ تَجْهَلُونَ ويا قوم مَن يَنصُرُنِى مِنَ الله إِن طَرَدتُّهُمْ ﴾ كما تريدون وهم بتلك المثابة ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود : 30] لتعرفوا التماس طردهم ضلال، وفيه إشارة إلى أن الإعراض عن فقراء المؤمنين مؤد إلى سخط رب العالمين.

قال أبو عثمان : في الآية ﴿ مَا أَنَاْ ﴾ بمعرض عمن أقبل على الله تعالى ، فإن من أقبل على الله تعالى بالحقيقة أقبل الله تعالى عليه ، ومن أعرض عمن أقبل الله تعالى عليه فقد أعرض عن الله سبحانه ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللهِ ﴾ الخ أي أنا لا أدعي الفضل بكثرة المال ولا بالاطلاع على الغيب ولا بالملكية حتى تنكروا فضلي بفقدان ذلك وبمنافاة البشرية لما أنا عليه ﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ ﴾ تنظرون إليهم بعين الحقارة ﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا ﴾ كما تقولون أنتم إذ الخير عندي ما عند الله تعالى لا المال ﴿ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ من الخير مني ومنكم وهو أعلم بقدرهم وخطرهم ﴿ إِنِّى إِذًا ﴾ أي إذ نفيت ﴿ لَّمِنَ الظالمين ﴾ [هود : 31] مثلكم ﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا ﴾ قيل : فيه إشارة إلى عين الجمع المشار إليه بخبر "لا زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل" الحديث .

وقيل : أي كن في أعين رعايتنا وحفظنا ولا تكن في رؤية عملك والاعتماد عليه ، فإن من نظر إلى غيري احتجب به عني ، وقال بعضهم : أي أسقط عن نفسك تدبيرك واصنع ما أنت صانع من أفعالك على مشاهدتنا دون مشاهدة نفسك أو أحد من خلقي ، وقيل :

أي اصنع الفلك ولا تعتمد عليه فإنك بأعيننا رعاية وكلاءة فإن اعتمدت على الفلك وكلت إليه وسقطت من أعيننا

﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود : 37] فيه إشارة إلى رقة قلبه عليه السلام بعد احتمال جفوتهم وأذيتهم ، وهكذا شأن الصديقين ، والكلام في باقي الآية ظاهر ، ولا يخفى أنه يجب الإيمان بظاهرها والتصديق بوقوع الطوفان حسبما قص الله سبحانه وإنكار ذلك كفر صريح ، لكن ذكر بعض السادة أنه بعد الإيمان بذلك يمكن احتمال التأويل على أنه حظ الصوفي من الآية وذلك بأن يؤول الفلك بشريعة نوح التي نجا بها هو ومن آمن معه ، والطوفان باستيلاء بحر الهيولى وإهلاك من لم يتجرد عنها بمتابعة نبي وتزكية نفس كما جاء في مخاطبات إدريس عليه السلام لنفسه ما معناه إن هذه الدنيا بحر مملوء ماءاً فإن اتخذت سفينة تركبها عند خراب البدن نجوت منها إلى عالمك وإلا غرقت فيها وهلكت ، وعلى هذا يقال : معنى ﴿ وَيَصْنَعُ الفلك ﴾ يتخذ شريعة من ألواح الأعمال الصالحة ودسر العلوم تنتظم بها الأعمال وتحكم ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ كما هو المشاهد في أرباب الخلاعة المطتين غارب الهوى يسخرون من

المتشرعين المتقيدين بقيود الطاعة ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا ﴾ بجهلكم ﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ عند ظهور وخامة عاقبتكم ﴿ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود : 38] ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عند ذلك ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ في الدنيا من حلول ما لا يلائم غرضه وشهوته ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود : 39] في الآخرة من استيلاء نيران الحرمان وظهور هيئات الرذائل المظلمة ﴿ حتى إِذَا جَاء أَمْرُنَا ﴾ بإهلاك أمته ﴿ وَفَارَ التنور ﴾ باستيلاء الأخلاط الفاسدة والرطوبات الفضلية على الحرارة الغريزية وقوة طبيعة ماء الهيولى على نار الروح الحيوانية ، أو ﴿ أَمْرُنَا ﴾ بإهلاكهم المعنوي ﴿ وَفَارَ التنور ﴾ باستيلاء ماء هوى الطبيعة على القلب وإغراقه في بحر الهيولى الجسماني ﴾

(277/379)

قُلْنَا احمل فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ﴾ أي من كل صنفين من نوع اثنين هما صورتاهما النوعية والصنفية الباقيتان عند فناء الأشخاص .

ومعنى حملهما فيها علمه ببقائهما مع بقاء الأرواح الإنسية فإن علمه جزء من السفينة المتركبة من العلم والعمل فمعلوميتهما محموليتهما وعالميته بهما حامليته إياهما فيها ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ ومن يتصل بك في سيرتك من أقاربك ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول ﴾ أي الحكم

بإهلاكه في الأزل لكفره ﴿ وَمَنْ ءامَنَ ﴾ [هود : 40] من أمتك ﴿ وَقَالَ اركبوا فِيهَا بِسْمِ الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ أي بسم الله تعالى الأعظم الذي هو وجود كل عارف كامل من أفراد نوع الإنسان إجراء أحكامها وترويجها في بحر العالم الجسماني وإثباتها وأحكامها كما ترى من إجراء كل شريعة وأحكامها بوجود الكامل ممن ينسب إليها ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ ﴾ لهيآت نفوسكم البدنية المظلمة وذنوب ملابس الطبيعة المهلكة إياكم المغرقة في بحرها وذلك بمتابعة الشريعة

﴿ رَّحِيمٌ ﴾ [هود : 41] بإفاضة المواهب العلمية والكشفية والهيآت النورانية التي ينجيكم بها ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ ﴾ من بحر الطبيعة الجسمانية ﴿ كالجبال ﴾ الحاجبة للنظر المانعة من السير وهم لا يبالون بذلك محفوظون من أن يصيبهم شيء من ذلك الموج، وهذا الجريان يعرض للسالك في ابتداء أمره ولولا أنه محفوظ في لزوم سفينة الشرع لهلك.

(278/379)

ولعل في الآية على هذا تغليباً ﴿ ونادى نُوحٌ ابنه ﴾ المحجوب بالعقل المشوب بالوهم ﴿ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ ﴾ لذلك الحجاب عن الدين والشريعة ﴿ مَعْزِلٍ يا بنى اركب مَّعَنَا ﴾ أي

ادخل في ديننا ﴿ وَلَا تَكُن مَّعَ الكافرين ﴾ [هود : 42] المحجوبين الهالكين بأمواج هوى النفس المغرقين في بحر الطبع ﴿ قَالَ سَاوِى إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الماء ﴾ أي سألتجيء إلى الدماغ وأستعصم بالعقل المشرق هناك ليحفظني من استيلاء بحر الهيولى فلا أغرق فيه ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ وهو الله الذي رحم أهل التوحيد وأفاض عليهم من شآبيب لطفه ما عرفوا به دينه الحق ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الموج ﴾ أي موج هوى النفس واستيلاء ماء بحر الطبيعة وحجب عن الحق ﴿ فَكَانَ مِنَ المغرقين ﴾ [هود : 43] في بحر الهيولى الجسمانية ، وقيل : من جهة الحق على لسان الشرع لأرض الطبيعة ﴿ وَقِيلَ يا أرض ابلعى مَاءكِ ﴾ وقفي على حد الاعتدال ، ولسماء العقل المحجوبة بالعادة والحس المشوبة بالوهم المغيمة بغيم الهوى ﴿ مَاءكِ ويا سماء أَقْلِعِى ﴾ عن إمداد الأرض ﴿ وَغِيضَ الماء ﴾ أي ماء قوة الطبيعة الجسمانية ومدد الرطوبة الحاجبة لنور الحق المانعة للحياة الحقيقية ﴿ وَقُضِىَ الأمر ﴾ بإنجاء من نجا وإهلاك من هلك ﴿ واستوت ﴾ أي سفينة شريعته ﴿ على ﴾ وهو جبل وجود نوح ﴿ الجودى وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ [هود : 44] الذين عبدوا الهوى دون الحق ووضعوا الطبيعة مكان الشريعة ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ ﴾ [هود : 45] الخ الكلام على هذا الطرز فيه ظاهر ﴿ قِيلَ يا نوح نُوحٌ ﴾ من محل الجمع وذروة مقام الولاية والاستغراق في التوحيد إلى مقام التفصيل وتشريع النبوة بالرجوع إلى الخلق ومشاهدة الكثرة في عين الوحدة غير معطل

للمراتب ﴿ اهبط بسلام مّنّا ﴾ أي سلامة عن الاحتجاب بالكثرة ﴿ وبركات ﴾ من تقنين قوانين الشرع ﴿ عَلَيْكَ

وعلى أُمَمٍ ﴾ ناشئة ﴿ مّمَّن مَّعَكَ ﴾ على دينك إلى آخر الزمان ﴿ وَأُمَمٌ ﴾ أي وينشأ ممن معك أمم ﴿ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مّنّا ﴾ في العقبى ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود : 48] بإحراقهم بنار الآثار وتعذيبهم بالهيآت المظلمة .

هذا ثم ذكر أنه إذا شئت التطبيق على ما في الأنفس أولت نوحاً بروحك .

والفلك بكمالك العلمي والعملي الذي به نجاتك عند طوفان بحر الهيولى .

والتنور بتنور البدن .

وفورانه استيلاء الرطوبة الغريبة والأخلاط الفاسدة ، وما أشار إليه

﴿ مِن كُلّ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ [هود : 40] بجيوش القوى الحيوانية والطبيعية وطيور القوى الروحانية ، وأولت ما جاء في القصة من البنين الثلاثة .

والزوجة بجام القلب .

وسام العقل النظري .

ويافث العقل العملي .

وزوجة النفس المطمئنة .

والابن الآخر الوهم .

والزوجة الأخرى الطبيعة الجسمانية التي يتولد منها الوهم .

والجبل بالدماغ .

واستواءها على الجودي وهبوطه بمثل نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان انتهى ، ومن نظر بعين الإنصاف لم يعول إلا على ظاهر القصة وكان له به غنى عن هذا التأويل ، واكتفى بما أشار إليه من أن النسب إذا لم يحط بالصلاح كان غريقاً في بحر العدم .

فما ينفع الأصل من هاشم . . .

إذا كانت النفس من باهله

ومن أنه ينبغي للإنسان التحري بالدعاء وأن لا تشغله الشفقة عن ذلك إلى غير ما ذكر ، والآية نص في كفر قوم نوح عليه السلام الذين أغرقهم الله تعالى ، وفي نصوص الحكم للشيخ الأكبر قدس سره ما هو نص في إيمانهم ونجاتهم من العذاب يوم القيامة وذلك أمر لا نفهمه من كتاب ولا سنة ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

فصل فى قصة نوح عليه السلام

قال ابن كثير :

هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ وهو إدريس بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام كان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة فيما

ذكره ابن جرير وغيره وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة وكان بينهما عشرة قرون كما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان في صحيحه حدثنا محمد بن عمر بن يوسف حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه حدثنا أبو توبة حدثنا معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام سمعت أبا سلام سمعت أبا أمامة أن رجلا قال يا رسول الله أنبي كان آدم قال نعم مكلم قال فكم كان بينه وبين نوح قال عشرة قرون قلت وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام فإن كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس فبينهما ألف سنة لا محالة لكن لا ينفى أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام اذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام لكن حديث أبي أمامة يدل على الحصر في عشرة قرون وزادنا ابن عباس أنهم كلهم كانوا على

الإسلام وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب أن قابيل وبنيه عبدوا النار والله أعلم

وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما في قوله تعالى وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وقوله ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين وقال تعالى وقرونا بين ذلك كثيرا وقال وكم أهلكنا قبلهم من قرن وكقوله عليه السلام خير القرون قرني الحديث فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهر الطويلة فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين والله أعلم

وبالجملة فنوح عليه السلام انما بعثه الله تعالى لما عبدت الأصنام والطواغيت وشرع الناس في الضلالة والكفر فبعثه الله رحمة للعباد فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض كما يقول له أهل الموقف يوم القيامة وكان قومه يقال لهم بنو راسب فيما ذكره ابن جبير وغيره

واختلفوا في مقدار سنه يوم بعث فقيل كان ابن خمسين سنة وقيل ابن ثلاثمائة وخمسين سنة وقيل ابن أربعمائة وثمانين سنة حكاها ابن جرير وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان وكيف أنجاه وأصحاب السفينة في غير ما موضع من كتابه العزيز ففي الأعراف ويونس وهود والأنبياء

والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت وأنزل فيه سورة كاملة فقال في سورة

الأعراف لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره اني أخاف

عليكم عذاب يوم عظيم قال الملأ من قومه انا لنراك في ضلال مبين قال يا قوم ليس بي ضلالة

ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون

أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون

فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين وقال

في سورة يونس واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر

عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن

أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الي ولا تنظرون فإن توليتم فما سألتكم من أجر ان أجري الا

على الله وأمرت أن أكون من المسلمين فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم

خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين وقال تعالى في سورة

هود ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه انى لكم نذير مبين أن لا تعبدوا الا الله إني أخاف عليكم

عذاب يوم أليم فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا

الذين هم اراذلنا بادى الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين قال يا قوم أرأيتم
إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت علكيم أنلزمكموها وأنتم لها
كارهون ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم
ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون ويا قوم من ينصرني من الله ان طردتهم أفلا تذكرون
ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول اني ملك ولا أقول للذين تزدري
أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين قالوا يا نوح قد جادلتنا
فاكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم
بمعجزين ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم
وإليه ترجعون أم يقولون افتراه قل ان افتريته فعلى إجرامي وأنا بريء مما تجرمون وأوحى إلى
نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون واصنع الفلك بأعيننا
ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه
سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه
عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل
زوجين اثنين

وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولاتكن مع الكافرين قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكانا من المغرقين وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من أهلي وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم والا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت

تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين وقال تعالى في سورة الأنبياء ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم

الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين قال رب انصرني بما كذبون فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين وقال تعالى في سورة الشعراء كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون قال وما علمي بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين قال رب إن قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم وقال تعالى في سورة العنكبوت ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما

فأخذهم الطوفان وهم ظالمون فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين وقال تعالى في سورة

(285/379)

والصافات ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ونجيناه وأهله من الكرب العظيم وجعلنا ذريته هم الباقين وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين إنا كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين ثم أغرقنا الآخرين وقال تعالى في سورة اقتربت كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر فدعا ربه إني مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر وقد تركناها آية فهل من مدكر فكيف كان عذابي ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر وقال تعالى بسم الله الرحمن الرحيم إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم قال يا قوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي إلا فرارا وإني كلما دعوتهم

لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم إني دعوتهم جهارا ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم أسرارا فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا قال نوح رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا ومكروا مكرا كبارا وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين الا ضلالا مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا وقد تكلمنا على كل موضع من هذه في التفسير وسنذكر مضمون القصة مجموعا من هذه الأماكن المتفرقة ومما دلت عليه الأحاديث والآثار وقد جرى ذكره

أيضا في مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه وذم من خالفه فقال تعالى في سورة النساء إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما وقال في سورة الأنعام وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان

وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم الآيات وتقدمت قصته في الأعراف وقال في سورة براءة ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا

أنفسهم يظلمون وتقدمت قصته في يونس وهود وقال في سورة إبراهيم ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب وقال في سورة سبحان ذرية من حملنا مع نوح أنه كان عبدا شكورا وقال فيها أيضا وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب

عباده خبيرا بصيرا وتقدمت قصته في الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت وقال في سورة الأحزاب وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا وقال في سورة ص كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب إن كل الا كذب الرسل فحق عقاب وقال في سورة غافر كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار وقال في سورة الشورى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى

وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب وقال تعالى في سورة ق كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد وقال في الذاريات وقوم نوح من قبل أنهم كانوا قوما فاسقين وقال في النجم وقوم نوح من قبل أنهم كانوا هم أظلم وأطغى وتقدمت قصته في سورة اقتربت الساعة وقال تعالى في سورة الحديد ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون وقال تعالى في سورة التحريم ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئًا وقيل ادخلا النار مع الداخلين وأما مضمون ما جرى له مع قومه مأخوذا من الكتاب والسنة والآثار فقد قدمنا عن ابن عباس أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام رواه البخاري وذكرنا أن المراد بالقرن الجيل أو المدة على ما سلف ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت ان آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام وكان سبب ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن

جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تدرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا قال هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت

قال ابن عباس وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن إسحاق

وقال ابن جرير في تفسيره حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس قال كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون

دب إليهم إبليس فقال إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم وروى ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير أنه قال ود ويغوث ويعوق وسواع ونسر أولاد آدم وكان ود أكبرهم وأبرهم به

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن منصور حدثنا الحسن بن موسى حدثنا يعقوب عن أبي المطهر قال ذكروا عند أبي جعفر هو الباقر وهو قائم يصلي بزيد بن المهلب قال فلما انفتل من صلاته قال ذكرتم يزيد بن المهلب أما إنه قتل في أول أرض عبد فيها غير الله قال ذكر ودا رجلا صالحا وكان محببا في قومه فلما مات عكفوا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه في صورة إنسان ثم قال إني أرى جزعكم على هذا الرجل فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه قالوا نعم فصور لهم مثله قال ووضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه فلما رأى ما بهم من ذكره قال هل لكم أن اجعل في منزل كل واحد منكم تمثالا مثله ليكون له في بيته فتذكرونه قالوا نعم قال فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به قال وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به قال وتناسلوا ودرس أثر ذكرهم اياه حتى اتخذوه الها يعبدونه من دون الله اولاد أولادهم فكان أول ما عبد غير الله ودا الصنم الذي سموه ودا

ومقتضى هذا السياق أن كل صنم من هذه عبده طائفة من الناس وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لهم ثم عبدت بعد ذلك من دون الله عز وجل ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جدا قد ذكرناها في مواضعها من كتابنا التفسير ولله الحمد والمنة

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لما ذكرت عنده أم سلمة

وأم حبيبة تلك الكنيسة التي رأينها بأرض الحبشة يقال لها مارية فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها قال أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ثم صوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل

والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض وعم البلاد بعباد الأصنام فيها بعث الله عبده ورسوله نوحا عليه السلام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له وينهى عن عبادة ما سواه فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي حيان عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم في حديث الشفاعة قال فيأتون آدم فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا فيقول ربي قد غضب غضبا شديدا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ونهاني عن الشجرة فعصيت نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحا فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبدا شكورا ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى إلى ما بلغنا ألا تشفع لنا إلى ربك عز وجل فيقول ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله

مثله ولا يغضب بعده

مثله نفسي نفسي وذكر تمام الحديث بطوله كما أورده البخاري في قصة نوح

(292/379)

فلما بعث الله نوحا عليه السلام دعاهم إلى أفراد العبادة لله وحده لا شريك له أن لا يعبدوا معه صنما ولا تمثالا ولا طاغوتا وأن يعترفوا بوحدانيته وأنه لا إله غيره ولا رب سواه كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته كما قال تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين وقال فيه وفي إبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب أي كل نبي من بعد نوح فمن ذريته وكذلك إبراهيم قال الله تعالى ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت وقال تعالى واسئل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون وقال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ولهذا قال نوح لقومه اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم وقال ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم وقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون وقال يا قوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون قال رب إني

دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي إلا فرارا وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم إني دعوتهم جهارا ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا الآيات الكريمات فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار والسر والإجهار بالترغيب تارة والترهيب أخرى وكل هذا فلم ينجح فيهم بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان وتنقصوه وتنقصوا من آمن به وتوعدوهم بالرجم والاخراج ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم قال

الملأ من قومه أي السادة الكبراء منهم إنا لنراك في ضلال مبين قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين أي لست كما تزعمون من أني ضال بل على الهدى المستقيم رسول من رب العالمين أي الذي يقول للشيء كن فيكون أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون وهذا شأن الرسول أن يكون بليغا أي فصيحا ناصحا أعلم

الناس بالله عز و جل وقالوا له فيما قالوا ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين تعجبوا أن يكون بشرا رسولا وتنقصوا بمن اتبعه ورأوهم أراذلهم وقد قيل أنهم كانوا من أقياد الناس وهم ضعفاؤهم كما قال هرقل وهم أتباع الرسل وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق وقولهم بادى الرأي أي بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية وهذا الذي رموهم به هو عين ما يمدحون بسببه رضي الله عنهم فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه و سلم مادحا للصديق ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر فإنه لم يتلعثم ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة أيضا سريعة من غير نظر ولا روية لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة رضي الله عنهم ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لما أراد أن يكتب الكتاب الذي أراد أن ينص فيه على خلافته فتركه وقال يأبى الله والمؤمنون الا أبا بكر رضي الله عنه وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به وما نرى لكم علينا من فضل أي لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزية علينا بل نظنكم كاذبين قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون

وهذا تلطف في الخطاب معهم وترفق بهم في الدعوة إلى الحق كما قال تعالى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى وقال تعالى ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن وهذا منه يقول لهم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده أي النبوة والرسالة فعميت عليكم أي فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها أنلزمكموها أي انغضبكم بها ونجبركم عليها وأنتم لها كارهون أي ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله أي لست أريد منكم أجرة على إبلاغي إياكم ما ينفعكم في دنياكم وأخراكم إن أطلب ذلك إلا من الله الذي ثوابه خير لي وابقى مما تعطونني أنتم وقوله وما أنا بطارد الذين آمنوا أنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك فأبى عليهم ذلك وقال إنهم ملاقوا ربهم أي فأخاف إن طردتهم أن يشكوني إلى الله عز وجل ولهذا قال ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين كعمار وصهيب وبلال وخباب وأشباههم نهاه الله عن ذلك كما بيناه في سورتي الأنعام والكهف ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك أي بل أنا عبد رسول لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمني به ولا أقدر إلا على ما أقدرني عليه ولا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولا أقول للذين

تزدري أعينكم يعني من اتباعه لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين أي لا أشهد عليهم بانهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة الله أعلم بهم وسيجازيهم على ما في نفوسهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر كما قالوا في المواضع الأخر أنؤمن لك واتبعك الأرذلون قال وما علمي بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا

(295/379)

نذير مبين

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما

(296/379)

فأخذهم الطوفان وهم ظالمون أي ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم وكان كل ما نقرض جيل وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه أن لا يؤمن بنوح أبدا ما عاش ودائما ما بقي وكانت

سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق ولهذا قال ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ولهذا قالوا قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين أي إنما يقدر على ذلك الله عز وجل فإنه الذي لا يعجزه شيء ولا يكترثه أمر بل هو الذي يقول للشيء كن فيكون ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون أي من يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الفعال لما يريد وهو العزيز الحكيم العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن تسلية له عما كان منهم إليه فلا تبتئس بما كانوا يفعلون وهذه تعزية لنوح عليه السلام في قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن أي لا يسوأنك ما جرى فإن النصر قريب والنبأ عجيب واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون وذلك أن نوحا عليه السلام لما يئس من صلاحهم وفلاحهم ورأى أنهم لا خير فيهم وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال دعا عليهم دعوة غضب فلبى الله دعوته وأجاب طلبته قال الله تعالى ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ونجيناه وقومه من الكرب العظيم وقال تعالى ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم وقال تعالى قال رب إن قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني

ومن معي من المؤمنين وقال تعالى فدعا ربه أني مغلوب فانتصر وقال تعالى قال رب انصرني بما كذبون

(297/379)

وقال تعالى مما خطيآتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفار فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها وقدم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمره وحل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم فإنه ليس الخبر كالمعاينة ولهذا قال ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه أي يستهزئون به استعباد الوقوع ما توعدهم به قال إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون أي نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم في استمراركم على كفركم وعنادكم الذي يقتضي وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم فسوف تعلمون من يأتيه

عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ في الدنيا وهكذا في الآخرة فإنهم يجحدون أيضا أن يكون جاءهم رسول كما قال البخاري حدثنا موسى بن إسمعيل حدثنا عبدالواحد بن زياد حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يجيء نوح عليه السلام وأمته فيقول الله عز وجل هل بلغت فيقول نعم أي رب فيقول لأمته هل بلغكم فيقولون لا ما جاءنا من نبي فيقول لنوح من يشهد لك فيقول محمد وأمته فتشهد أنه قد بلغ وهو قوله وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا والوسط العدل فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق بأن الله قد بعث نوحا بالحق وأنزل عليه الحق وأمره به وأنه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها ولم يدع شيئا مما ينفعهم في دينهم إلا وقد أمرهم به ولا شيئا مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه وهكذا شأن جميع الرسل حتى أنه حذر قومه المسيح الدجال وإن كان لا يتوقع خروجه في زمانهم حذرا عليهم وشفقة ورحمة بهم كما قال البخاري حدثنا عبدان حدثنا عبد الله عن يونس عن الزهري قال سالم قال ابن عمر قام رسول الله صلى الله عليه و سلم في الناس فأثنى على الله

بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال إني لأنذركموه وما من نبي إلا وقد أنذره قومه لقد أنذره نوح قومه ولكني أقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه تعلمون أنه أعور وأن الله ليس بأعور وهذا الحديث في الصحيحين أيضا من حديث شيبان بن عبد الرحمن عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال ألا أحدثكم عن الدجال حديثا ما حدث به نبي قومه أنه أعور وأنه يجيء معه بمثال الجنة والنار والتي يقول عليها الجنة هي النار وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه لفظ البخاري

وقد قال بعض علماء السلف لما استجاب الله له أمره أن يغرس شجرا ليعمل منه السفينة فغرسه وانتظره مائة سنة ثم نجره في مائة أخرى وقيل في أربعين سنة فالله أعلم قال محمد بن إسحاق عن الثوري وكان من خشب الساج وقيل من الصنوبر وهو نص التوراة قال الثوري وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا وأن يطلى ظاهرها وباطنها بالقار وأن يجعل لها جؤجؤا أزور يشق الماء وقال قتادة كان طولها ثلثمائة ذراع في عرض خمسين ذراعا وهذا الذي في التوراة على ما رأيته

وقال الحسن البصري ستمائة في عرض ثلثمائة وعن ابن عباس ألف ومائتا ذراع في عرض

ستمائة ذراع وقيل كان طولها ألفي ذراع وعرضها مائة ذراع قالوا كلهم وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعا وكانت ثلاث طبقات كل واحدة عشر أذرع فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للناس والعليا للطيور وكان بابها في عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها قال الله تعالى قال رب انصرني بما كذبون فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا أي بأمرنا لك وبمرأى منا لصنعتك لها ومشاهدتنا لذلك

لنرشدك إلى الصواب في صنعتها فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين واهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون فتقدم إليه بأمره العظيم العالي أنه إذا جاء أمره وحل بأسه أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها وأن يحمل معه أهله أي أهل بيته إلا من سبق عليه القول منهم أي إلا من كان كافرا فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد ووجب عليه حلول البأس الذي لا يرد وأمر أنه لا يراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعاينه من العذاب العظيم الذي قد حتمه عليهم الفعال لما يريد كما قدمنا بيانه قبل

والمراد بالتنور عند الجمهور وجه الأرض أي نبعت الأرض من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير التي هي محال النار وعن ابن عباس التنور عين في الهند وعن الشعبي بالكوفة وعن قتادة بالجزيرة وقال علي بن أبي طالب المراد بالتنور فلق الصبح وتنوير الفجر أي إشراقه وضياؤه أي عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين اثنين وهذا قول غريب وقوله تعالى حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل هذا أمر بأن عند حلول النقمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين وفي كتاب أهل الكتاب أنه أمر أن يحمل من كل ما يؤكل سبعة أزواج ومما لا يؤكل زوجين ذكرا وأنثى وهذا مغاير لمفهوم قوله تعالى في كتابنا الحق إثنين إن جعلنا ذلك مفعولا به وأما إن جعلناه توكيدا لزوجين والمفعول به محذوف فلا ينافي والله أعلم

وذكر بعضهم ويروى عن ابن عباس أن أول ما دخل من الطيور الدرة وآخر ما دخل من الحيوانات الحمار ودخل إبليس متعلقا بذنب الحمار وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن صالح حدثني الليث حدثني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه وكيف نطمئن أو كيف تطمئن المواشي ومعنا الأسد فسلط الله عليه الحمى فكانت أول حمى نزلت في الأرض ثم شكوا الفارة فقالوا الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها هذا مرسل وقوله واهلك إلا

من سبق عليه القول أي من استجيبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر فكان منهم ابنه يام الذي غرق كما سيأتي بيانه ومن آمن أي واحمل فيها من آمن بك من أمتك قال الله تعالى وما آمن معه إلا قليل هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ودعوتهم الأكيدة ليلا ونهارا بضروب المقال وفنون التلطفات والتهديد والوعيد تارة والترغيب والوعد أخرى

وقد اختلف العلماء في عدة من كان معه في السفينة فعن ابن عباس كانوا ثمانين نفسا معهم نساؤهم

وعن كعب الأحبار كانوا اثنين وسبعين نفسا وقيل كانوا عشرة وقيل إنما كانوا نوحا وبنيه الثلاثة وكنائنه الأربع بامرأة يام الذي انخزل وانعزل وسلل عن طريق النجاة فما عدل إذ عدل وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية بل هي نص في أنه قد ركب معه غير أهله طائفة ممن آمن به كما قال ونجني ومن معي من المؤمنين وقيل كانوا سبعة وأما امرأة نوح وهي أم أولاده

كلهم وهم حام وسام ويافث ويام وتسميه أهل الكتاب كعنان وهو الذي قد غرق وعابر

وقد ماتت قبل الطوفان قيل إنها غرقت مع من غرق وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها

وعند أهل الكتاب أنها كانت في السفينة فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك أو أنها أنظرت ليوم

القيامة والظاهر الأول لقوله لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا قال الله تعالى فإذا

استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين وقل رب

أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة

فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه واقر عينه ممن خالفه وكذبه كما قال تعالى الذي خلق

الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة

ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا

لمنقلبون وهكذا يؤمر بالدعاء في ابتداء الأمور أن يكون على الخير والبركة وأن تكون

عاقبتها محمودة كما قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم حين هاجر وقل رب أدخلني

مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا وقد امتثل نوح

عليه السلام هذه الوصية وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم

أي على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاؤه إن ربي لغفور رحيم أي وذو عقاب اليم مع كونه

غفورا رحيما لا يرد بأسه عن القوم المجرمين كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا

غيره قال الله تعالى وهي تجري بهم في موج كالجبال وذلك أن الله

تعالى أرسل من السماء مطرا لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده كان كأفواه القرب وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها كما قال تعالى فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر والدسر السائر تجري بأعيننا أي بحفظنا وكلاأتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها جزاء لمن كان كفر

وقد ذكر ابن جرير وغيره أن الطوفان كان في ثالث عشر شهر آب في حساب القبط وقال تعالى إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية أي السفينة لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية قال جماعة من المفسرين ارتفع الماء على أعلى جبل بالأرض خمسة عشر ذراعا وهو الذي عند أهل الكتاب وقيل ثمانين ذراعا وعم جميع الأرض طولها والعرض سهلها وحزنها وجبالها وقفارها ورمالها ولم يبق

على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف ولا صغير ولا كبير قال الإمام مالك عن زيد بن أسلم كان أهل ذلك الزمان قد ملأوا السهل والجبل وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لم تكن بقعة في الأرض الا ولها مالك وحائز رواهما ابن أبي حاتم ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بنيهما الموج فكان من المغرقين وهذا الابن هو يام أخو سام وحام ويافث وقيل اسمه كنعان وكان كافرا عمل عملا غير صالح فخالف أباه في دينه ومذهبه فهلك مع من هلك هذا وقد نجا مع أبيه الأجانب في النسب لما كانوا موافقين في الدين والمذهب وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين أي لما فرغ من أهل الأرض ولم يبق منها أحد ممن عبد غير الله عز وجل أمر الله الأرض أن تبلع ماءها وأمر السماء أن تقلع أي تمسك عن المطر وغيض الماء أي نقص عما كان وقضى الأمر أي وقع بهم الذي كان قد سبق في علمه وقدره من إحلاله بهم ما حل بهم وقيل بعدا للقوم الظالمين أي نودي عليهم بلسان القدرة بعدا لهم من الرحمة والمغفرة كما قال تعالى فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا أنهم كانوا قوما عمين وقال تعالى فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين وقال تعالى ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين وقال تعالى

فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم وقال تعالى فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين وقال تعالى ثم أغرقنا الآخرين وقال ولقد تركناها آية فهل من مدكر فكيف كان عذابي ونذر ولقد يسرنا القرآن

للذكر فهل من مدكر وقال تعالى مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله انصارا وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا انك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدو إلا فاجرا كفارا وقد استجاب الله تعالى وله الحمد والمنة دعوته فلم يبق منهم عين تطرف

وقد روى الإمامان أبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبي حاتم في تفسيريهما من طريق يعقوب بن محمد الزهري عن قائد مولى عبد الله بن أبي رافع أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره أن عائشة أم المؤمنين أخبرته أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال فلو رحم الله من قوم نوح أحدا لرحم ام الصبي قال رسول الله صلى الله عليه و سلم مكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة يعني الا خمسين عاما وغرس مائة سنة الشجر فعظمت وذهبت

كل مذهب ثم قطعها ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون تعمل سفينة في البر كيف تجري قال سوف تعلمون فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حبا شديدا خرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبي وهذا حديث غريب وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد وغير واحد شبيه لهذه القصة وأحرى بهذا الحديث أن يكونا موقوفا متلقى عن مثل كعب الأحبار والله أعلم

والمقصود أن الله لم يبق من الكافرين ديارا فكيف يزعم بعض المفسرين ان عوج بن عنق ويقال ابن عناق كان موجودا من قبل نوح إلى زمان موسى ويقولون كان كافرا متمردا جبارا عنيدا ويقولون كان لغير رشدة بل ولدته أمه عنق بنت آدم من زنا وإنه كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحار ويشويه في عين الشمس وإنه كان يقول لنوح وهو في السفينة ما هذه القصيعة التي لك ويستهزيء به ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاث مائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلثا إلى غير ذلك من الهذيانات التي لولا أنها مسطرة في كثير من كتب

التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لما تعرضنا لحكايتها لسقاطتها وركاكتها ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول

أما المعقول فكيف يسوغ فيه أن يهلك الله ولد نوح لكفره وأبوه نبي الأمة وزعيم أهل الإيمان ولا يهلك عوج بن عنق ويقال عناق وهو أظلم وأطغى على ما ذكروا وكيف لا يرحم الله منهم أحدا ولا أم الصبي ولا الصبي ويترك هذا الدعى الجبار العنيد الفاجر الشديد الكافر الشيطان المريد على ما ذكروا

وأما المنقول فقد قال الله تعالى ثم أغرقنا الآخرين وقال رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ثم هذا الطول الذي ذكروه مخالف لما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى أنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن أي لم يزل الناس في نقصان في طولهم من آدم إلى يوم أخره بذلك وهلم جر إلى يوم القيامة

وهذا يقتضي أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه فكيف يترك هذا يا هل عنه ويصار إلى أقوال الكذبة الكفرة من أهل الكتاب الذين بدلوا كتب الله المنزلة وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها فما ظنك بما هم يستقلون بنقله أو يؤتمنون عليه وما أظن أن هذا الخبر عن عوج بن عناق الا اختلافا من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء والله أعلم

ثم ذكر الله تعالى مناشدة نوح ربه في ولده وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف ووجه السؤال أنك وعدتني بنجاة أهلي معي وهو منهم وقد غرق فأجيب بأنه ليس من أهلك أي الذين

وعدت بنجاتهم أي أما قلنا لك وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأن سيغرق بكفره ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان ثم قال تعالى قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض وأمكن السعي فيها والاستقرار عليها أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودى وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور وقد قدمنا ذكره عند خلق الجبال بسلام منا وبركات أي اهبط سالما مباركا عليك وعلى أمم ممن سيولد بعد أي من أولادك فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلا

ولا عقبا سوى نوح عليه السلام قال تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم سام وحام ويافث

قال الإمام أحمد حدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن سمرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم ورواه الترمذي عن بشر بن معاذ العقدي عن يزيد بن زريع عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة مرفوعا نحوه وقال الشيخ أبو عمرو بن عبد البر وقد روى عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه و سلم مثله قال والمراد بالروم هنا الروم الأول وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن لبطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام ثم روى من حديث اسمعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال ولد نوح ثلاثة سام ويافث وحام وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة فولد سام العرب وفارس والروم وولد يافث الترك والسقالبة ويأجوج ومأجوج وولد حام القبط والسودان والبربر قلت وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حدثنا إبراهيم بن هانىء وأحمد بن حسين بن عباد أبو العباس قالا حدثنا محمد بن يزيد بن سنان الرهاوي حدثني أبي عن يحيى بن سعيد عن

سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ولد لنوح سام وحام ويافث فولد لسام العرب وفارس والروم والخير فيهم وولد ليافث يأجوج ومأجوج والترك والسقالبة ولا خير فيهم وولد لحام القبط والبربر والسودان ثم قال لا نعلم يروى مرفوعا الا من هذا الوجه تفرد به محمد بن يزيد بن سنان عن أبيه وقد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه ورواه غيره عن يحيى بن سعيد مرسلا ولم يسنده وإنما جعله من قول سعيد قلت وهذا الذي ذكره أبو عمرو هو المحفوظ عن سعيد قوله وهكذا روى عن وهب بن منبه مثله والله أعلم ويزيد بن سنان أبو فروة الرهاوي ضعيف بمرة لا يعتمد عليه وقد قيل إن نوحا عليه السلام لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد الا بعد الطوفان وإنما ولد له قبل السفينة كنعان الذي غرق وعابر مات قبل

الطوفان والصحيح أن الأولاد الثلاثة كانوا معه في السفينة هم ونساؤهم وأمهم وهو نص التوراة وقد ذكر أن حاما واقع امرأته في السفينة فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته فولد له ولد أسود وهو كنعان بن حام جد السودان وقيل بل رأى أباه نائما وقد بدت عورته فلم يسترها وسترها أخواه فلهذا دعا عليه أن تغير نطفته وأن يكون أولاده عبيدا لإخوته

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير من طريق علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه قال قال الحواريون لعيسى بن مريم لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فحدثنا عنها قال فانطلق بهم حتى أتى إلى كثيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب بكفه قال أتدرون ما هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا كعب حام بن نوح قال وضرب الكثيب بعصاه وقال قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب فقال له عيسى عليه السلام هكذا هلكت قال لا ولكني مت وأنا شاب ولكني ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت قال حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات فطبقة فيها الدواب والوحش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير فلما كثر أرواث الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فاقبلا على الروث ولما وقع الفار يخرز السفينة بقرضه أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اضرب بين عيني الأسد فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفار فقال له عيسى كيف علم نوح عليه السلام أن البلاد قد غرقت قال بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا

يألف البيوت قال ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها فعلم أن البلاد قد غرقت فطوقها الخضرة التي في عنقها ودعا لها أن تكون في أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت قال فقالوا يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا قال كيف يتبعكم من لا رزق له قال فقال له عد بإذن الله فعاد ترابا وهذا أثر غريب جدا وروى غلباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس قال كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلا معهم أهلوهم وإنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوما وإن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوما ثم وجهها إلى الجودى فاستقرت عليه فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب

فوقع على الجيف فأبطأ عليه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين فعرف نوح أن الماء قد نضب فهبط إلى أسفل الجودى فابتنى قرية وسماها ثمانين فأصحبوا ذات يوم وقد تبلبلت السنتهم على ثمانين لغة إحداها العربي وكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنه

وقال قتادة وغيره ركبوا في السفينة في اليوم العاشر من شهر رجب فساروا مائة وخمسين

يوما واستقرت بهم على الجودى شهرا وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشرواء من المحرم وقد روى

ابن جرير خبرا مرفوعا يوافق هذا وأنهم صاموا يومهم ذلك وقال الإمام أحمد حدثنا أبو جعفر حدثنا عبدالصمد بن حبيب الأزدي عن أبيه حبيب بن عبد الله عن شبل عن أبي هريرة قال مر النبي صلى الله عليه و سلم بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال ما هذا الصوم فقالوا هذا اليوم الذي نجا الله موسى وبني إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودى فصام نوح وموسى عليهما السلام شكرا لله عز و جل فقال النبي صلى الله عليه و سلم أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم وقال لأصحابه من كان منكم أصبح صائما فليتم صومه ومن كان منكم قد أصاب من غد أهله فليتم بقية يومه وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من وجه آخر والمستغرب ذكر نوح أيضا والله أعلم

وأما ما يذكره كثير من الجهلة أنهم أكلوا من فضول أزوادهم ومن حبوب كانت معهم قد استصحبوها واطحنوا الحبوب يومئذ واكتحلوا بالاثمد لتقوية أبصارهم لما انهارت من الضياء بعد ما كانوا في ظلمة السفينة فكل هذا لا يصح فيه شيء وإنما يذكر فيه آثار منقطعة عن بني إسرائيل لا يعتمد عليها ولا يقتدي بها والله أعلم

وقال محمد بن إسحاق لما أراد الله أن يكف ذلك الطوفان أرسل ريحا على وجه الأرض فسكن لماء وانسدت ينابيع الأرض فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر وكان استواء الفلك فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشر ليلة مضت منه وفي أول يوم من الشهر العاشر رئيت رؤس الجبال فلما مضى بعد ذلك أربعون يوما فتح نوح كوة الفلك التي صنع فيها ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء فلم يرجع إليه فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم يجد لرجلها موضعا فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ثم مضت سبعة ايام ثم أرسلها لتنظر له ما فعل الماء فلم ترجع فرجعت حين أمست وفي فيها ورق زيتونة فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه فعلم نوح أن الأرض قد برزت فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين برز وجه الأرض وظهر البر وكشف نوح غطاء الفلك وهذا الذي ذكره ابن إسحاق هو بعينه مضمون سياق التوراة التي بأيدي أهل الكتاب قال ابن إسحاق وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين في ست وعشرين ليلة منه قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم وفيما ذكر أهل الكتاب أن الله كلم نوحا قائلا له اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك وجميع الدواب التي معك ولينموا وليكبروا في الأرض فخرجوا وابتنى

نوح مذبحا لله عز وجل وأخذ من جميع الدواب الحلال والطير الحلال فذبحها قربانا إلى الله عز وجل وعهد الله إليه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض وجعل تذكارا لميثاقه إليه القوس الذي في الغمام وهو قوس قزح الذي قدمنا عن ابن عباس أنه أمان من الغرق قال بعضهم فيه إشارة إلى أنه قوس بلا وتر أي أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة

وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان واعترف به آخرون منهم وقالوا إنما كان بأرض بابل ولم يصل إلينا قالوا ولم نزل نتوارث الملك كابرا عن كابر من لدن كيومرث يعنون آدم إلى زماننا هذا وهذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عباد النيران وأتباع الشيطان

وهذه سفسطة منهم وكفر فظيع وجهل بليغ ومكابرة للمحسوسات وتكذيب لرب الأرض والسموات وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن مع ما تواتر عند الناس في سائر الأزمان على وقوع الطوفان وأنه عم جميع البلاد ولم يبق الله احدا من كفرة العباد استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم وتنفيذ لما سبق في القدر المحتوم

ذكر شيء من أخبار نوح عليه السلام

قال الله تعالى إنه كان عبدا شكورا قيل إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله وقال الإمام أحمد حدثنا أبو أسامة حدثنا زكريا بن أبي زائدة عن سعيد بن أبي بردة عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث أبي أسامة والظاهر أن الشكور هو الذي يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية فإن الشكر يكون بهذا وبهذا كما قال الشاعر . . . أفادتكم النعماء مني ثلاثة . . . يدي ولساني والضمير المحجبا . . .

صومه عليه السلام

وقال ابن ماجه باب صيام نوح عليه السلام حدثنا سهل بن أبي سهل حدثنا سعيد بن أبي مريم عن ابن لهيعة عن جعفر بن ربيعة عن أبي فراس أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر ويوم الأضحى هكذا رواه ابن ماجه من طريق عبد الله بن لهيعة بإسناده ولفظه وقد قال

الطبراني حدثنا أبو الزنباع روح بن فرج حدثنا عمرو بن خالد الحراني حدثنا ابن لهيعة عن أبي قتادة عن يزيد بن رباح أبي فراس أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى وصام داود نصف الدهر وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر صام الدهر وأفطر الدهر

حجه عليه السلام

وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا أبي عن زمعة هو ابن أبي صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال حج رسول الله صلى الله عليه و سلم فلما أتى وادي عسفان قال يا أبا بكر أي واد هذا قال هذا وادي عسفان قال لقد مر بهذا الوادي نوح وهود وإبراهيم على بكرات لهم حمر خطمهم الليف أزرهم العباء وارديتهم النمار يحجون البيت العتيق فيه غرابة

وصيته لولده

قال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن الصقعب بن زهير عن زيد بن أسلم قال حماد أظنه عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال كنا عند رسول

الله صلى الله عليه و سلم فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيحان مزرورة بالديباج

فقال ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس بن فارس أو قال يريد أن يضع كل فارس بن

فارس ورفع كل راع بن راع قال فأخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم بمجامع جبته وقال

لا أرى عليك لباس من لا يعقل ثم قال إن نبي الله نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال

لابنه إني قاص عليك الوصية آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين آمرك بلا إله إلا الله فإن

السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا إله في كفة رجحت

بهن لا إله إلا الله ولو أن السموات السبع والارضين السبع كن حلقة مبهمة فضمتهن لا إله إلا

الله وسبحان الله وبحمده فإن بها صلات كل شيء وبها يرزق الخلق وأنهاك عن الشرك

والكبر قال قلت أو قيل يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر أن يكون لاحدنا

نعلان حسنان لهما شرا كان حسنان قال لا قال هو أن يكون لاحدنا حلة يلبسها قال لا قال

هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها قال لا قال هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه قال لا

قلت أو قيل يا رسول الله فما الكبر قال سفه الحق وغمض الناس وهذا إسناد صحيح ولم

يخرجوه ورواه أبو القاسم الطبراني من حديث عبد الرحيم بن سليمان عن محمد ابن

إسحاق عن عمرو بن دينار عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال

كان في وصية نوح لابنه أوصيتك بخصلتين وأنهاك عن خصلتين فذكر نحوه وقد رواه أبو بكر

البزار عن إبراهيم بن سعيد عن أبي معاوية الضرير عن محمد بن إسحاق عن عمرو بن

دينار عن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن النبي صلى الله عليه و سلم بنحوه والظاهر أنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه أحمد والطبراني والله أعلم

ويزعم أهل الكتاب أن نوحا عليه السلام لما ركب السفينة كان عمره ستمائة سنة وقدمنا عن ابن عباس مثله وزاد وعاش بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة وفي هذا القول نظر ثم إن لم يمكن الجمع

بينه وبين دلالة القرآن فهو خطأ محض فإن القرآن يقتضى أن نوحا مكث في قومه بعد البعثة وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك فإن كان ما ذكر محفوظا عن ابن عباس من أنه بعث وله أربع مائة وثمانون سنة وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة

وأما قبره عليه السلام فروى ابن جرير والأزرقي عن عبد الرحمن بن سابط أو غيره من التابعين مرسلا أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام وهذا أقوى وأثبت من الذكر الذي يذكره كثير من المتأخرين من أنه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم بكرك نوح وهناك جامع قد بنى

بسبب ذلك فيما ذكره والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البداية والنهاية حـ 1 صـ 100 . 120 ﴾

(317/379)

أبحاث حول قصة نوح في فصول وهى أبحاث قرآنية وروائية وتاريخية وفلسفية لصاحب الميزان

قال رحمه الله :

1 - الإشارة إلى قصته : ذكر اسمه عليه السلام في القرآن في بضع وأربعين موضعا يشار فيها إلى شئ من قصته إجمالا أو تفصيلا ، ولم تستوف قصته عليه السلام في شئ منها استيفاء على نهج الاقتصاص التاريخي بذكر نسبه وبيته ومولده ومسكنه ونشوئه وشغله وعمره ووفاته ومدفنه وسائر ما يتعلق بحياته الشخصية لما أن القرآن لم ينزل كتاب تاريخ يقتص تواريخ الناس من بر أو فاجر .

وإنما هو كتاب هداية يصف للناس ما فيه سعادتهم ، ويبين لهم الحق الصريح ليأخذوا به فيفوزوا في حياتهم الدنيا والاخرة ، وربما أشار إلى طرف من قصص الأنبياء والأمم لتظهر به سنة الله في عباده ، ويعتبر به من شملته العناية ووفق للكرامة ، وتتم به الحجة على الباقين

.

وقد فصلت قصة نوح عليه السلام في ست من السور القرآنية وهى سورة الأعراف وسورة هود ، وسورة المؤمنون ، وسورة الشعراء ، وسورة القمر ، وسورة نوح

وأكثرها تفصيلا سورة هود التى ذكرت قصته عليه السلام فيها في خمس وعشرين آية (25 - 49) .

2 - قصته عليه السلام في القرآن .

بعثه وإرساله : كان الناس بعد آدم عليه السلام يعيشون أمة واحدة على بساطة وسذاجة ، وهم على الفطرة الإنسانية حتى فشا فيهم روح الاستكبار وآل إلى استعلاء البعض على البعض تدريجيا واتخاذ بعضهم بعضا أربابا وهذه هي النواة الاصلية التى لو نشأت واخضرت وأينعت لم تثمر إلا دين الوثنية والاختلاف الشديد بين الطبقات الاجتماعية باستخدام القوى للضعيف ، واسترقاق العزيز واستدراره للذليل ، وحدوث المنازعات والمشاجرات بين الناس .

فشاع في زمن نوح عليه السلام الفساد في الأرض ، وأعرض الناس عن دين التوحيد وعن سنة العدل الاجتماعي وأقبلوا على عبادة الأصنام ، وقد سمى الله سبحانه منها ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا (سورة نوح) .

وتباعدت الطبقات فصار الاقوياء بالاموال والاولاد يضيعون حقوق الضعفاء الجبابرة يستضعفون من دونهم ويحكمون عليهم بما تهواه أنفسهم (الاعراف هود – نوح) .

فبعث الله نوحا عليه السلام وأرسله إليهم بالكتاب و الشريعة يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه وخلع الانداد والمساواة فيما بينهم (البقرة آية 213) بالتبشير والإنذار .

دينه وشريعته عليه السلام : كان عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه ورفض الشركاء (كما يظهر من جميع قصصه القرآنية) والإسلام لله (كما يظهر من سورتي نوح ويونس وسورة آل عمران آية 19) والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (كما يظهر من سورة هود آية 27) والصلاة (كما يظهر من آية 103 من سورة النساء وآية 8 من سورة الشورى)

والمساواة والعدالة وأن لا يقربوا الفواحش والمنكرات وصدق الحديث والوفاء بالعهد (سورة الأنعام آية 151 – 152) وهو عليه السلام أول من حكى عنه في القرآن التسمية باسم الله في الأمور الهامة (سورة هود آية 41) .

اجتهاده عليه السلام في دعوته : وكان عليه السلام يدعو قومه إلى الإيمان بالله وآياته ، ويبذل في ذلك غاية وسعه فيندبهم إلى الحق ليلا ونهارا وإعلانا وإسرارا فلا يجيبونه إلا بالعناد والاستكبار وكلما زاد في دعائهم زادوا في عتوهم وكفرهم ، ولم يؤمن به غير أهله

وعدة قليلة من غيرهم حتى أيس من إيمانهم وشكا ذلك إلى ربه وطلب منه النصر (سورة نوح والقمر والمؤمنون) .

لبثه في قومه : لبث عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله سبحانه فلم يجيبوه إلا بالهزء والسخرية ورميه بالجنون وأنه يقصد به أن يتفضل عليهم حتى استنصر ربه (سورة العنكبوت) فأوحى إليه ربه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن وعزاه فيهم (سورة هود) فدعا عليهم بالتبار والهلاك ، وأن يطهر الله الأرض منهم عن آخرهم (سورة نوح) فأوحى الله إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا (سورة هود) .

صنعه عليه السلام الفلك : أمره الله تعالى أن يصنع الفلك بتأييده سبحانه وتسديده فأخذ في صنعها وكان القوم يمرون عليه طائفة بعد طائفة فيسخرون منه وهو يصنعها على بسيط الأرض من غير ماء ، ويقول عليه السلام : إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم (سورة هود) وقد نصب الله لنزول العذاب علما وهو ان يفور الماء من التنور (سورتا هود و المؤمنون) .

نزول العذاب ومجئ الطوفان : حتى إذا تمت صنعة الفلك وجاء أمر الله وفار التنور أوحى

الله تعالى إليه ان يحمل في السفينة من كل من الحيوان زوجين اثنين وأن يحمل اهله إلا من سبق عليه القول الإلهى بالغرق وهو امرأته الخائنة وابنه الذى تخلف عن ركوب السفينة ، وأن يحمل الذين آمنوا (سورتا هود والمؤمنون) فلما حملهم وركبوا جميعا فتح الله أبواب السماء بماء منهمر وفجر الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر (سورة القمر) وعلا الماء وارتفعت السفينة عليه وهى تسير في موج كالجبال (سورة هود) فأخذ الناس الطوفان وهم ظالمون وقد امره الله تعالى إذا استوى هو ومن معه على الفلك ان يحمد الله على ما نجاه من القوم الظالمين وان يسأله البركة في نزوله فيقول : الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين ، ويقول : رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين .

قضاء الأمر ونزوله ومن معه إلى الأرض : فلما عم الطوفان وأغرق الناس (كما يظهر من سورة الصافات آية 77) أمر الله الأرض أن تبلع ماءها والسماء أن تقلع وغيض الماء واستوت السفينة على جبل الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين ، وأوحى إلى نوح عليه السلام أن اهبط إلى الأرض بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك فلا يأخذهم بعد هذا طوفان عام ، ومنهم أمم سيمتعهم الله بأمتعة الحياة ثم يمسهم عذاب أليم فخرج هو ومن معه

ونزلوا الأرض يعبدون الله بالتوحيد والإسلام ، وتوارثت ذريته عليه السلام الأرض وجعل الله ذريته هم الباقين (سورتا هود والصافات) .

قصة ابن نوح الغريق : كان نوح عليه السلام عند ما ركب السفينة لم يركبها واحد من أبنائه ، وكان لا يصدق أباه في أن من تخلف عنها فهو غريق لا محالة فرآه ابوه وهو في معزل فناداه : يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين فرد على ابيه قائلا : سآوى إلى جبل يعصمني من الماء قال نوح عليه السلام : لا عاصم اليوم من الله إلا من رحم – يريد أهل السفينة – فلم يلتفت الابن إلى قوله وحال بينهما الموج فكان من المغرقين .

ولم يكن نوح عليه السلام يعلم منه إبطان الكفر كما كان يعلم ذلك من امرأته ولو كان علم ذلك لم يحزنه أمره وهو القائل في دعائه : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) الدعاء نوح : 27 وهو القائل : (فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين) الشعراء : 118 وقد مع قوله تعالى فيما اوحى إليه : (ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون) هود : 37 .

فوجد نوح عليه السلام وحزن فنادى ربه من وجده قائلا : رب إن ابني من أهلى وإن وعدك الحق وعدتني بإنجاء أهلى وأنت احكم الحاكمين لا تجور في حكمك ولا تجهل في قضائك ، فما الذى جرى على ابني ؟ فأخذته العناية الإلهية وحالت بينه وبين أن يصرح بالسؤال في نجاة ابنه – وهو سؤال لما ليس له به علم – وأوحى الله إليه : يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فإياك أن تواجهني فيه بسؤال النجاة فيكون سؤالا فيما ليس لك به علم إنى اعظك أن تكون من الجاهلين .

فانكشف الأمر لنوح عليه السلام والتجأ إلى ربه تعالى قائلا رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم أسألك أن تشملنى بعنايتك وتستر على بمغفرتك ، وتعطف على برحمتك ، ولولا ذلك لكنت من الخاسرين .

3 – خصائص نوح عليه السلام : هو عليه السلام أول أولى العزم سادة الأنبياء أرسله الله إلى عامة البشر بكتاب وشريعة فكتابه اول الكتب السماوية المشتملة على شرائع الله ، وشريعته اول الشرائع الإلهية .

وهو عليه السلام الأب الثاني للنسل الحاضر من الإنسان إليه ينتهى أنسابهم والجميع ذريته لقوله تعالى : (وجعلنا ذريته هم الباقين) الصافات : 77 وهو عليه السلام أبو الأنبياء المذكورين في القرآن ما عدا آدم وإدريس عليهما السلام قال تعالى : (وتركنا عليه في الاخرين) الصافات : 78 .

وهو عليه السلام اول من فتح باب التشريع وأتى بكتاب وشريعة وكلم الناس بمنطق العقل وطريق الاحتجاج مضافا إلى طريق الوحى فهو الأصل الذى ينتهى إليه دين التوحيد في العالم فله المنة على جميع الموحدين إلى يوم القيامة ، ولذلك خصه الله تعالى بسلام عام لم يشاركه فيه أحد غيره فقال عز من قائل : (سلام على نوح في العالمين) الصافات : 79 .

وقد اصطفاه الله على العالمين (آل عمران آية 33) وعده من المحسنين (الانعام 84 الصافات 80) وسماه عبدا شكورا (أسرى آية 3) وعده من عباده المؤمنين (الصافات 81) وسماه عبدا صالحا (التحريم 10) .

وآخر ما نقل من دعائه قوله : (رب اغفر لى ولوالدي ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا) نوح : 28 .

4 - قصته عليه السلام في التوراة الحاضرة : وحدث (1) لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات .

فاتخذوا لانفسهم نساء من كل ما اختاروا .

فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الابد .

لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مائة وعشرين سنة .

كان في الأرض طغاة في تلك الايام .

وبعد ذلك أيضا إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادا هؤلاء هم الجبابرة الذين

منذ الدهر ذوو اسم .

ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض .

وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم .

فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض .

وتأسف في قلبه .

فقال الرب : أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته .

الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء .

لانى حزنت أنى عملتهم .

وأما نوح فوجد نعمة في عين الرب .

هذه مواليد نوح .

كان نوح رجلا بارا كاملا في أجياله – وسار نوح مع الله .

وولد نوح ثلاثة بنين ساما وحاما ويافث .

وفسدت الأرض أمام الله وامتلات الأرض ظلما .

ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت .

إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض .

---

(1) الاصحاح السادس من سفر التكوين .

فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي .

لأن الأرض امتلات ظلما منهم .

فها أنا مهلكهم مع الأرض .

اصنع لنفسك فلكا من خشب جفر ، تجعل الفلك مساكن .

وتطليه من داخل ومن خارج بالقار .

وهكذا تصنعه .

ثلاث مائة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعا عرضه وثلاثين ذراعا ارتفاعه .

وتصنع كوا للفلك وتكمله إلى حد ذراع من فوق .

وتضع باب الفلك في جانبه .

مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله .

فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لاهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء .

كل ما في الأرض يموت .

ولكن أقيم عهدي معك .

فتدخل الفلك انت وبنوك امرأتك ونساء بنيك معك .

ومن كل حى من كل ذى جسد اثنين من كل تدخل إلى الفلك لاستبقائها معك .

تكون ذكرا وانثى .

من الطيور كأجناسها .

ومن البهائم كأجناسها ومن كل دبابات الأرض كأجناسها .

اثنين من كل تدخل اليك لاستبقائها .

وأنت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل واجمعه عندك .

فيكون لك ولها طعاما .

ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله .

هكذا فعل .

وقال (1) الرب لنوح : ادخل أنت وجميع بنيك إلى الفلك .

لانى إياك رأيت بارا لدى في هذا الجيل .

من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكرا وانثى .

ومن البهائم التى ليست بطاهرة اثنين ذكر وانثى .

ومن طيور السماء أيضا سبعة سبعة ذكرا وانثى .

لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض .

لانى بعد سبعة ايام أيضا أمطر على الأرض اربعين يوما وأربعين ليلة .

وأمحو عن وجه الأرض كل قائم عملته .

ففعل نوح حسب كل ما أمره به الرب .

ولما كان نوح ابن ستمائة سنة صار طوفان الماء على الأرض .

فدخل نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان .

ومن البهائم الطاهرة والبهائم التى ليست بطاهرة ومن الطيور وكل ما يدب على الأرض .

دخل اثنان اثنان إلى نوح إلى الفلك ذكر وأنثى .

كما أمر الله نوحا .

---

(1) الاصحاح السابع من سفر التكوين .

وحدث بعد السبعة الايام أن مياه الطوفان صارت على الأرض .

في سنة ستمائة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر في ذلك اليوم

انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء .

وكان المطر على الأرض اربعين يوما وأبعين ليلة .

في ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح وامرأة نوح وثلاث نساء بنيه معهم

إلى الفلك .

هم وكل الوحوش كأجناسها وكل الدبابات التى تدب على الأرض كأجناسها وكل الطيور

كأجناسها كل عصفور ذى جناح .

ودخل إلى نوح إلى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياة .

والداخلات دخلت ذكرا وانثى من كل ذى جسد كما أمره الله .

وأغلق الرب عليه .

وكان الطوفان أربعين يوما على الأرض .

وتكاثرت المياه ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض .

وتعاظمت المياه كثيرا جدا على الأرض فكان الفلك يسير على وجه المياه .

وتعاظمت المياه كثيرا جدا على الأرض فتغطت جميع الجبال الشامخة التى تحت كل

السماء .

خمسة عشرة ذراعا في الارتفاع تعاظمت المياه فتغطت الجبال .

فمات كل ذى جسد كان يدب على الأرض من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التى كانت تزحف على الأرض وجميع الناس .

كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات .

فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض .

الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء فانمحت من الأرض .

وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط .

وتعاظمت المياه على الأرض مائة وخمسين يوما .

ثم (1) ذكر الله نوحا وكل الوحوش وكل البهائم التى معه في الفلك وأجاز الله ريحا على الأرض فهدأت المياه .

وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء فامتنع المطر من السماء .

ورجعت المياه عن الأرض رجوعا متواليا وبعد مائة وخمسين يوما نقصت المياه .

واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط .

وكانت المياه تنقص نقصا متواليا إلى الشهر العاشر وفي العاشر في أول الشهر ظهرت رءوس الجبال .

---

(1) الاصحاح الثامن من سفر التكوين .

وحدث من بعد أربعين يوما ان نوحا فتح طاقة الفلك التى كان قد عملها .

وأرسل الغراب فخرج مترددا حتى نشفت المياه عن الأرض .

ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلت المياه عن وجه الأرض .

فلم تجد الحمامة مقرا لرجلها فرجعت إليه إلى الفلك لأن مياها كانت على وجه كل الأرض

فمد يده وأخذها وأدخلها عنده إلى الفلك .

فلبث أيضا سبعة أيام أخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك .

فأتت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتون خضراء في فمها فعلم نوح ان المياه قد قلت عن الأرض .

فلبث أيضا سبعة ايام أخر فأرسل الحمامة فلم يعد يرجع إليه أيضا .

وكان في السنة الواحدة والستمائة في الشهر الأول في اول الشهر ان المياه نشفت عن الأرض

فكشف نوح الغطاء عن الفلك ونظر فإذا وجه الأرض قد نشف .

وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفت الأرض .

وكلم الله نوحا قائلا : اخرج من الفلك انت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك .

وكل الحيوانات التى معك من كل ذى جسد الطيور والبهائم وكل الدبابات التى تدب على الأرض أخرجها معك ولتتوالد في الأرض وتثمر وتكثر على الأرض .

فخرج نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه ، وكل الحيوانات وكل الدبابات وكل الطيور كل ما يدب على الأرض كأنواعها خرجت من الفلك .

وبنى نوح مذبحا للرب .

وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح .

فتنسم الرب رائحة الرضا وقال الرب في قلبه : لا اعود ألعن الأرض أيضا من اجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته ولا اعود أيضا أميت كل حى كما فعلت .

مدة كل ايام الأرض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء ونهار وليل لا يزال .

وبارك الله (1) نوحا وبنيه وقال لهم أثمروا واكثروا واملاوا الأرض ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء مع كل ما يدب على الأرض وكل أسماك البحر قد دفعت إلى أيديكم .

كل دابة حية تكون لكم طعاما

---

(1) الاصحاح التاسع من سفر التكوين .

كالعشب الاخضر دفعت اليكم الجميع .

غير أن لحما بجنابة دمه لا تأكلوه .

وأطلب أنا دمكم لانفسكم فقط من يد كل حيوان أطلبه ومن يد الإنسان أطلب نفس الإنسان من يد الإنسان أخيه .

سافك دم الإنسان بالانسان يسفك دمه لأن الله على صورته عمل الإنسان .

فأثمروا أنتم واكثروا وتوالدوا في الأرض وتكاثروا فيها .

وكلم الله نوحا وبنيه معه قائلا .

وها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم .

ومع كل ذوات الانفس الحية التى معكم الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التى معكم من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الأرض .

أقيم ميثاقي معكم فلا ينقرض كل ذى جسد أيضا بمياه الطوفان ولا يكون أيضا طوفان ليخرب الأرض .

وقال الله هذه علامة الميثاق الذى أنا واضعه بينى وبينكم وبين كل ذوات الانفس الحية التى معكم إلى أجيال الدهر .

وضعت قوسى في السحاب فتكون علامة ميثاق بينى وبين الأرض .

فيكون متى أنشر سحابا على الأرض وتظهر القوس في السحاب .

أنى أذكر ميثاقي الذى بينى وبينكم وبين كل نفس حية في كل جسد فلا يكون أيضا المياه

طوفانا لتهلك كل ذى جسد .

فمتى كانت القوس في السحاب أبصرها لاذكر ميثاقا أبديا بين الله وبين كل نفس حية في كل

جسد على الأرض .

وقال الله لنوح : هذه علامة الميثاق الذى أنا أقمته بينى وبين كل ذى جسد على الأرض .

وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساما وحاما ويافث وحام هو ابو كنعان هؤلاء الثلاثة

هم بنو نوح ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض .

وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما .

وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه .

فأبصر حام ابو كنعان عورة ابيه وأخبر أخويه خارجا .

فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة ابيهما

ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما .

فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير .

فقال : ملعون كنعان عبد العبيد يكون لاخوته .

وقال : مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبدا لهم .

ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبدا لهم .

وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثماوة وخمسين سنة .

فكانت كل ايام نوح تسعماءة وخمسين سنة ومات .

انتهى ما قصدنا إيراده .

وهو - كما ترى - يخالف ما جاء في القرآن الكريم من وجوه : منها : أنه لم يذكر فيه حديث استثناء امرأة نوح بل صرح بدخولها الفلك ونجاتها مع بعلها ، وقد اعتذر عنه بعض : أن من الجائز أن يكون لنوح زوجان أغرقت إحداهما ونجت الاخرى .

ومنها : أنه لم يذكر فيه ابن نوح الغريق وقد قصه القرآن .

ومنها : أنه لم يذكر فيه المؤمنون غير نوح وأهله بل اقتصر عليه وعلى بنيه وامرأته ونساء بنيه .

ومنها : أنه ذكر فيه جملة عمر نوح تسعماءة وخمسين سنة ، وظاهر الكتاب العزيز أنها المدة التى لبث فيها بين قومه يدعوهم إلى الله قبل الطوفان .

قال تعالى : (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) العنكبوت : 14 .

ومنها : ما ذكر فيه من حديث قوس قزح وقصة إرسال الغراب والحمامة للاستخبار وخصوصيات السفينة من عرضها وطولها وارتفاعها وطبقاتها الثلاث ومدة الطوفان وارتفاع الماء وغير ذلك فهى خصوصيات لم تذكر في القرآن الكريم وبعضها بعيد مستبعد كالميثاق بالقوس ، وقد كثر الاقتصاص بمثل هذه المعاني في قصة نوح عليه السلام في لسان الصحابد والتابعين ، وأكثرها بالاسرائيليات أشبه .

5 - ما جاء في أمر الطوفان في أخبار الأمم وأساطيرهم : قال صاحب المنار في تفسيره : قد ورد في تواريخ الأمم القديمة ذكر للطوفان منها الموافق لخبر سفر التكوين إلا قليلا ومنها المخالف له إلا قليلا .

وأقرب الروايات إليه رواية الكلدانيين ، وهم الذين وقع الطوفان في بلادهم

فقد نقل عنهم (برهوشع) و (يوسيفوس) أن (زيزسترُوس) رأى في الحلم بعد موت والده (أوتيرت) أن المياه ستطغى وتغرق جميع البشر ، وأمره ببناء سفينة يعتصم فيها هو وأهل بيته وخاصة أصدقائه ففعل .

وهو يوافق سفر التكوين في أنه كان في الأرض جيل من الجبارين طغوا فيها وأكثروا الفساد فعاقبهم الله بالطوفان .

وقد عثر بعض الانجليز على ألواح من الاجر نقشت فيها هذه الرواية بالحروف المسمارية في عصر آشور بانيبال من نحو ستماءة وستين سنة قبل ميلاد المسيح ، وأنها منقولة من كتابة قديمة من القرن السابع عشر قبل المسيح أو قبله فهى أقدم من سفر التكوين .

وروى اليونان خبرا عن الطوفان أورده افلاطون وهو أن كهنة المصريين قالوا لسولون – الحكيم اليونانى – أن السماء أرسلت طوفانا غير وجه الأرض فهلك البشر مرارا بطرق مختلفة فلم يبق للجيل الجديد شئ من آثار من قبله ومعارفهم .

وأورد (مانيتون) خبر طوفان حدث بعد هرمس الأول الذى كان بعد ميناس الأول ، وهذا أقدم من تاريخ التوراة أيضا ، وروى عن قدماء اليونان خبر طوفان عم الأرض كلها إلا (دوكاليون) وامرأته (بيرا) فقد نجوا منه .

وروى عن قدماء الفرس طوفان أغرق الله به الأرض بما انتشر فيها من الفساد والشرور بفعل أهريمان إله الشر ، وقالوا : إن هذا الطوفان فار أولا من تنور العجوز (زول كوفه) إذ كانت تخبز خبزها فيه ، ولكن المجوس أنكروا عموم الطوفان وقالوا : إنه كان خاصا بإقليم العراق وانتهى إلى حدود كردستان .

وكذا قدماء الهنود يثبتون وقوع الطوفان سبع مرات في شكل خرافي آخرها ان ملكهم نجا هو وامرأته في سفينة عظيمة أمره بصنعها إلهه فشنو وسدها بالدسر حتى استوت على جبل جيمافات – هملايا – ولكن البراهمة كالمجوس ينكرون وقوع طوفان عام أغرق الهند كلها ، وروى تعدد الطوفان عن اليابان والصين وعن البرازيل والمكسيك وغيرهما ، وكل هذه الروايات تتفق في أن سبب ذلك عقاب الله للبشر بظلمهم وشرورهم .

انتهى .

وقد (1) وقع في (أوستا) وهو كتاب المجوس المقدس أن (أهورامزدا) أوحى إلى (إيما) (وتعتقد المجوس أنه جمشيد الملك) أنه سيقع طوفان يغرق الأرض ، وأمره أن يبنى حائطا مرتفعا غايته يحفظ من في داخله من الغرق ، وأن يجمع في داخله جماعة من الرجال والنساء صالحة للنسل ، ويدخل فيه من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين ، ويبنى في داخل السور بيوتا وقبابا في طبقات مختلفة يسكنها الناس المجتمعون هناك ويأوى إليها الدواب والطيور ، وأن يغرس في داخله ما ينفع في حياة الناس من الاشجار المثمرة ، ويحرث ما يرتزق به الناس من الحبوب الكريمة فيحتفظ بذلك ما به حياة الدنيا وعمارتها .

وفي تاريخ الأدب الهندي (2) في قصة الطوفان : أنه بينما كان (مانو) (هو ابن الإله عند الوثنيين) يغسل يديه إذ جاءت في يده سمكة ، ومما اندهش به أن السمكة كلمته وطلبت انقاذها من الهلاك ووعدته جزاء عليه أنها ستنقذ (مانو) في المستقبل من خطر عظيم ، والخطر العظيم المحدق الذى أنبأت به السمكة كان طوفانا سيجرف جميع المخلوقات ، وعلى ذلك حفظ (مانو) السمكة في المرتبان .

فلما كبرت أخبرت (مانو) عن السنة التى سيأتي فيها الطوفان ثم أشارت على مانو أن يصنع سفينة كبيرة ويدخل فيها عند طوفان الماء قائلة : أنا أنقذك من الطوفان ، فمانو صنع السفينة والسمكة كبرت أكثر من سعة المرتبان لذلك ألقاها في البحر .

ثم جاء الطوفان كما أنبأت السمكة ، وحين دخل (مانو) السفينة عامت السمكة إليه فربط السفينة بقرن على رأسها فجرتها إلى الجبال الشمالية ، وهنا ربط مانو السفيند بشجرة ، وعند ما تراجع الماء وجف بقى مانو وحده .

انتهى .

6 – هل كانت نبوته عليه السلام عامة للبشر ؟ مسألة اختلفت فيها آراء العلماء .

فالمعروف عند الشيعة عموم رسالته ، وقد ورد من طرق أهل البيت عليهم *

---

(1) ترجمة كتاب أوستا بالفرنسية المطبوعة بباريس .

(2) على ما في قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار .

السلام ما يدل عليه ، وعلى أن اولى العزم من الأنبياء وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (صلى الله عليه وآله وعليهم) كانوا مبعوثين إلى الناس كافة .

وأما أهل السنة فمنهم من قال بعموم رسالته مستندا إلى ظاهر الآيات الناطقة بشمول الطوفان لاهل الأرض كلهم كقوله : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) نوح : 26 وقوله : (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) هود : 43 ، وقوله : (وجعلنا ذريته هم الباقين) الصافات : 77 ، وما ورد في الصحيح من حديث الشفاعة أن نوحا أول رسول أرسله الله إلى اهل الأرض ولازمه كونه مبعوثا إليهم كافة .

ومنهم من انكر ذلك مستندا إلى ما ورد في الصحيح عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : (وكان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة) وأجابوا عن الآيات انها قابلة للتأويل فمن الجائز ان يكون المراد بالارض هي التى كانوا يسكنونها وهى وطنهم كقول فرعون لموسى وهارون : (وتكون لكما الكبرياء في الأرض) يونس : 78 .

فمعنى الآية الأولى : لا تذر على هذه الأرض من كافرى قومي ديارا ، وكذا المراد بالثانية : لا عاصم اليوم لقومي من أمر الله ، والمراد بالثالثة : وجعلنا ذريته هم الباقين من قومه .

والحق أن البحث لم يستوف حقه في كلامهم ، والذى ينبغى أن يقال : ان النبوة إنما ظهرت في المجتمع الإنساني عن حاجة واقعية إليها ورابطة حقيقية بين الناس وبين ربهم وهى تعتمد على حقيقة تكوينية لا اعتبارية جزافية فإن من القوانين الحقيقية الحاكمة في نظام الكون ناموس تكميل الأنواع وهدايتها إلى غاياتها الوجودية ، وقد قال تعالى : (الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى) الأعلى : 3 ، وقال : (الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى) طه : 50 .

فكل نوع من أنواع الكون متوجه منذ أول تكونه إلى كمال وجوده وغاية خلقه الذى فيه خيره وسعادته ، والنوع الإنساني أحد هذه الأنواع غير مستثنى من بينها فله كمال وسعادة يسير إليها ويتوجه نحوها أفراده فرادى ومجتمعين .

ومن الضرورى عندنا أن هذا الكمال لا يتم للإنسان وحده لوفور حوائجه الحيوية وكثرة الأعمال التى يجب أن يقوم بها لاجل رفعها فالعقل العملي الذى يبعثه إلى الاستفادة من كل ما يمكنه الاستفادة منه واستخدام الجماد وأصناف النبات والحيوان في سبيل منافعه يبعثه إلى الانتفاع بأعمال غيره من بنى نوعه .

غير أن الافراد أمثال وفي كل واحد منهم من العقل العملي والشعور الخاص الإنساني ما في الاخر ويبعثه من الانتفاع إلى مثل ما يبعث إليه الاخر ما عنده من العقل العملي ، واضطرهم ذلك إلى الاجتماع التعاوني بأن يعمل الكل للكل وينتفع من عمل الغير بمثل ما ينتفع الغير من عمله فيتسخر كل لغيره بمقدار ما يسخره كما قال تعالى : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) الزخرف : 32 .

وهذا الذى ذكرناه من بناء الإنسان على الاجتماع التعاوني اضطرارى له ألزمه عليه حاجة الحياة وقوة الرقباء فهو في الحقيقة مدنى تعاوني بالطبع الثاني وإلا فطبعه الأولى أن ينتفع بكل ما يتيسر له الانتفاع حتى أعمال أبناء نوعه ، ولذلك مهما قوى لانسان واستغنى واستضعف غيره عدا عليه وأخذ يسترق الناس ويستثمرهم من غير عوض قال تعالى : (إن الإنسان لظلوم كفار) إبراهيم : 34 وقال : (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى إن إلى ربك الرجعى) العلق : 8 .

ومن الضروري أن الاجتماع التعاوني بين الافراد لا يتم إلا بقوانين يحكم فيها وحفاظ تقوم بها ، وهذا مما استمرت سيرة النوع عليه فما من مجتمع من المجتمعات الإنسانية كاملا كان أو ناقصا ، راقيا كان أو منحطا إلا ويجرى فيه رسوم وسنن جريانا كليا أو أكثريا 7 التاريخ والتجربة والمشاهدة أعدل شاهد في تصديقه وهذه الرسوم والسنن وإن شئت فسمها القوانين هي مواد وقضايا فكرية تطبق عليها أعمال الناس تطبيقا كليا أو أكثريا في المجتمع فينتج سعادتهم حقيقة أو ظنا فهى أمور متخللة بين كمال الإنسان ونقصه ، وأشياء متوسطة بين الإنسان وهو في أول نشأته وبينه وهو مستكمل في حياته عائش في مجتمعه تهدى الإنسان إلى غاية وجوده فافهم ذلك .

وقد علم أن من الواجب في عناية الله أن يهدى الإنسان إلى سعادة حياته وكمال وجوده على حد ما يهدى سائر الأنواع إليه فكما هداه بواجب عنايته من طريق الخلقة والفطرة إلى ما فيه خيره وسعادته وهو الذى يبعثها إليه نظام الكون والجهازات التى جهز بها إلى أن يشعر بما فيه نفعه ويميز خيره من شره وسعادته من شقائه كما قال تعالى : (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) الشمس : 10 .

يهديه بواجب عنايته إلى أصول وقوانين اعتقادية وعملية يتم له بتطبيق شؤون حياته عليها كماله وسعاته فإن العناية الإلهية بتكميل الأنواع بما يناسب نوع وجودها توجب هذا النوع

من الهداية كما توجب الهداية التكوينية المحضة .

ولا يكفى في ذلك ما جهز به الإنسان من العقل – وهو ههنا العملي منه – فإن العقل كما سمعت يبعث نحو الاستخدام ويدعو إلى الاختلاف ، ومن المحال أن يفعل شئ من القوى الفعالة فعلين متقابلين ويفيد أثرين متناقضين ، على أن المتخلفين من هذه القوانين والمجرمين بأنواع الجرائم المفسدة للمجتمع كلهم عقلاء ممتعون بمتاع العقل مجهزون به .

فظهر أن هناك طريقا آخر لتعليم الإنسان شريعة الحق ومنهج الكمال والسعادة غير طريق التفكر والتعقل وهو طريق الوحى ، وهو نوع تكليم إلهى يعلم الإنسان مايفوز بالعمل به والاعتقاد له في حياته الدنيوية والاخروية .

فإن قلت : الأمر سواء فإن شرع النبوة لم يأت بأزيد مما لو كان العقل لاتى به فان العالم الإنساني لم يخضع لشرائع الأنبياء كما لم يصغ إلى نداء العقل ، ولم يقدر الوحى أن يدير المجتمع الإنساني ويركبه صراط الحق فما هي الحاجة إليه ؟ قلت : لهذا البحث جهتان : جهة أن العناية الإلهية من واجبها ان تهدى المجتمع الإنساني إلى تعاليم تسعده وتكمله لو عمل بها وهى الهداية بالوحى ولا يكفى فيها العقل ، وجهة ان الواقع في الخارج والمتحقق بالفعل ما

هو ؟ وانما نبحث في المقام من الجهة الأولى دون الثانية ، ولا يضر بها ان هذه الطريقة لم تجر بين الناس إلى هذه الغاية إلا قليلا .

وذلك كما ان العناية الإلهية تهدى انواع النبات والحيوان إلى كمال خلقها وغاية وجودها ومع ذلك يسقط اكثر افراد كل نوع دون الوصول إلى غايته النوعية ويفسد ويموت قبل البلوغ إلى عمره الطبيعي .

وبالجملة فطريق النبوة مما لا مناص منه في تربية النوع بالنظر إلى العناية الإلهية وإلا لم تتم الحجة بمجرد العقل لأن له شغلا غير الشغل وهو دعوة الإنسان إلى ما فيه صلاح نفسه ، ولو دعاه إلى شئ من صلاح النوع فإنما يدعوه إليه بما فيه صلاح نفسه فأفهم ذلك وأحسن التدبر في قوله تعالى : (إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما) النساء : 165 .

فمن الواجب في العناية أن ينزل الله على المجتمع الإنساني دينا يدينون به وشريعة يأخذون بها في حياتهم الاجتماعية دون ان يخص بها قوما ويترك الاخرين سدى لا عناية بهم ، ولازمه الضروري أن يكون أول شريعة نزلت عليهم شريعة عامة .

وقد اخبر الله سبحانه عن هذه الشريعة بقوله عز من قائل : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) البقرة : 213 ، فبين أن الناس كانوا أول ما نشأوا وتكاثروا على فطرة ساذجة لا يظهر فيهم أثر الاختلافات والمنازعات الحيوية ثم ظهر فيهم الاختلافات فبعث الله الأنبياء بشريعة وكتاب يحكم بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه ، ويحسم مادة الخصومة والنزاع .

ثم قال تعالى فيما امتن به على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى) الشورى : 13 .

ومقام الامتنان يقضى بأن الشرائع الإلهية المنزلة على البشر هي هذه التى ذكرت لا غير ، واول ما ذكر من الشريعة هي شريعة نوح ، ولو لم يكن عامة للبشر كلهم وخاصة في زمنه عليه السلام لكان هناك إما نبى آخر ذو شريعة أخرى لغير قوم نوح ولم يذكر في الآية ولا في موضع آخر من كلامه تعالى ، وإما إهمال سائر الناس غير قومه عليه السلام في زمنه وبعده إلى حين .

فقد بان أن نبوة نوح عليه السلام كانت عامة ، وأن له كتابا وهو المشتمل على شريعته الرافعة للاختلاف ، وأن كتابه اول الكتب السماوية المشتملة على الشريعة ، وأن قوله تعالى في الآية السابقة (وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) هو كتابه أو كتابه وكتاب غيره من أولى العزم : إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

وظهر أيضا ان ما يدل من الروايات على عدم عموم دعوته عليه السلام مخالف للكتاب وفي حديث الرضا عليه السلام ان اولى العزم من الأنبياء خمسة لكل منهم شريعة وكتاب ونبوتهم عامة لجميع من سواهم نبيا أو غير نبى ، وقد تقدم الحديث في ذيل قوله تعالى : (كان الناس أمة واحدة) البقرة 213 ، في الجزء الثاني من الكتاب .

7 - هل الطوفان كانت عامة لجميع الأرض ؟ تبين الجواب عن هذا السؤال في الفصل السابق فإن عموم دعوته عليه السلام يقضى بعموم العذاب ، وهو نعم القرينة على أن المراد بسائر الآيات الدالة بظاهرها على العموم ذلك كقوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) نوح : 26 ، وقوله حكاية عنه : (لا عاصم

اليوم من أمر الله إلا من رحم) هود : 43 ، وقوله : و (جعلنا ذريته هم الباقين) الصافات : 77 .

ومن الشواهد من كلامه تعالى على عموم الطوفان ما ذكر في موضعين من كلامه تعالى أنه أمر نوحا أن يحمل من كل زوجين اثنين فمن الواضح أنه لو كان الطوفان خاصا بصقع من أصقاع الأرض وناحية من نواحيها كالعراق - كما قيل - لم يكن أي حاجة إلى ان يحمل في السفينة من كل جنس من اجناس الحيوان زوجين اثنين .

وهو ظاهر .

واختار بعضهم كون الطوفان خاصا بأرض قوم نوح عليه السلام قال صاحب المنار في تفسيره : أما قوله في نوح عليه السلام بعد ذكر تنجيته وأهله : (وجعلنا ذريته هم الباقين) فالحصر فيهم يجوز أن يكون إضافيا أي الباقين دون غيرهم من قومه ، وأما

قوله : (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) فليس نصا في أن المراد بالارض هذه الكرة كلها فإن المعروف من كلام الأنبياء والاقوام وفي أخبارهم أن تذكر الأرض ويراد بها ارضهم ووطنهم كقوله تعالى حكاية عن خطاب فرعون لموسى وهارون :

(وتكون لكما الكبرياء في الأرض) يعنى ارض مصر ، وقوله : (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) فالمراد بها مكة ، وقوله : (وقضينا إلى بنى إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين) والمراد بها الأرض التى كانت وطنهم ، والشواهد عليه كثيرة .

ولكن ظواهر الآيات تدل بمعونة القرائن والتقاليد الموروثة عن اهل الكتاب على أنه لم يكن في الأرض كلها في زمن نوح إلا قومه وانهم هلكوا كلهم بالطوفان ولم يبق بعده فيها غير ذريته ، وهذا يقتضى ان يكون الطوفان في البقعة التى كانوا فيها من الأرض سهلها وجبلها لا في الأرض كلها إلا إذا كانت اليابسة منها في ذلك الزمن صغيرة لقرب العهد بالتكوين وبوجود البشر عليها فإن علماء التكوين وطبقات الأرض - الجيولوجية - يقولون إن الأرض كانت عند انفصالها من الشمس كرة نارية ملتهبة ثم صارت كرة مائية ثم ظهرت فيها اليابسة بالتدريج .

ثم اشار إلى ما استدل به بعض اهل النظر على عموم الطوفان لجميع الأرض من أنا نجد بعض الاصداف والاسماك المتحجرة في اعالي الجبال وهذه الأشياء مما لا تتكون إلا في البحر فظهورها في رؤس الجبال دليل على ان الماء قد صعد إليها مرة من المرات ، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عم الأرض هذا .

ورد عليه بأن وجود الاصداف والحيوانات البحرية في قلل الجبال لا يدل على انه من اثر

ذلك الطوفان بل الاقرب انه من اثر تكون الجبال وغيرها من اليابسة في الماء كما قلنا آنفا فإن صعود الماء إلى الجبال اياما معدودة لا يكفى لحدوث ما ذكر فيها .

(337/379)

ثم قال ما ملخصه : ان هذه المسائل التاريخية ليست من مقاصد القرآن ولذلك لم يبينها بنص قطعي فنحن نقول بما تقدم إنه ظاهر النصوص ولا نتخذه عقيده دينية قطعية فإن اثبت علم الجيولوجية خلافه لا يضرنا لأنه لا ينقض نصا قطعيا عندنا . انتهى .

أقول : اما ما ذكره من تأويل الآيات فهو من تقييد الكلام من غير دليل ، وأما قوله في رد قولهم بوجود الاصداف والاسماك في قلل الجبال : إن صعود الماء إليها في ايام معدودة لا يكفى في حدوثها ! ففيه أن من الجائز ان تحملها امواج الطوفان العظيمة إليها ثم تبقى عليها بعد النشف فإن ذلك من طوفان يغمر الجبال الشامخة في ايام معدودة غير عزيز .

وبعد ذلك كله قد فاته ما ينص عليه الآيات أنه عليه السلام أمر ان يحمل من كل جنس من اجناس الحيوان زوجين اثنين فإن ذلك كالنص في ان الطوفان عم البقاع اليابسة من الأرض جميعا أو معظمها الذى هو بمنزلة الجميع .

فالحق ان ظاهر القرآن الكريم – ظهورا لا ينكر – ان الطوفان كان عاما للارض ، وان من

كان عليها من البشر أغرقوا جميعا ، ولم يقم لهذا الحين حجة قطعية تصرفها عن هذا الظهور .

وقد كنت سألت صديقى الفاضل الدكتور سحابي المحترم استاذ الجيولوجيا بكلية طهران ان يفيدني بما يرشد إليه الأبحاث الجيولوجية في أمر هذا الطوفان العام إن كان فيها ما يؤيد ذلك على وجه كلى فأجابني بإيفاد مقال محصله ما يأتي مفصلا في فصول : 1 - الاراضي الرسوبية : تطلق الاراضي الرسوبية في الجيولوجيا على الطبقات الارضية التى كونتها رسوبات المياه الجارية على سطح الأرض كالبطائح والمسيلات التى غطتها الرمال ودقاق الحصى .

نعرف الاراضي الرسوبية بما تراكم فيها من الرمال ودقاق الحصى الكروية المدورة فإنها كانت في الأصل قطعات من الحجارة حادة الاطراف والزوايا حولتها إلى هذه الحالة الاصطكاكات الواقعة بينها في المياه الجارية والسيول العظيمة ثم إن الماء حملها وبسطها على الأرض في غايات قريبة أو بعيدة بالرسوب .

وليست تنحصر الاراضي الرسوبية في البطائح فغالب الاراضي الترابية من هذا القبيل

تخالطها أو تكونها رمال بالغة في الدقة ، وقد حملها لدقتها وخفتها إليها جريان المياه والسيول .

نجد الاراضي الرسوبية وقد غطتها طبقات مختلفة من الرمل والتراب بعضها فوق بعض من غير ترتيب ونظم ، وذلك – أولا – امارة ان تلك الطبقات لم تتكون في زمان واحد بعينه – وثانيا – ان مسير المياه والسيول أو شدة جريانها قد تغير بحسب اختلاف الازمنة .

ويتضح بذلك ان الاراضي الرسوبية كانت مجارى ومسايل في الازمنة السابقة لمياه وسيول هامة وإن كانت اليوم في معزل من ذلك .

وهذه الاراضي التى تحكى عن جريان مياه كثيرة جدا وسيلان سيول هائلة عظيمة توجد في اغلب مناطق الأرض منها اغلب نقاط إيران كأراضي طهران وقزوين وسمنان وسبزوار ويزد وتبريز وكرمان وشيراز وغيرها ، ومنها مركز بين النهرين وجنوبه ، وما وراء النهر ، وصحراء الشام ، والهند ، وجنوب فرنسا ، وشرقي الصين ، ومصر ، وأكثر قطعات امريكا ، وتبلغ صخامة الطبقة الرسوبية في بعض الاماكن إلى مئات الامتار كما أنها في أرض طهران تجاوز أربعماءة مترا .

وينتج مما مر أولا : أن سطح الأرض في عهد ليس بذاك البعيد (على ما سيأتي توضيحه) كان مجرى سيول هائلة عظيمة ربما غطت معظم بقاعها .

وثانيا : أن الطغيان والطوفان - بالنظر إلى صخامة القشر الرسوبي في بعض الاماكن - لم يحدث مرة واحدة ولا في سنة أو سنين معدودة بل ام أو تكرر في مئات من السنين كلما حدث مرة كون طبقة رسوبية ثم إذا انقطع غطتها طبقة ترابية ثم إذا عاد كون أخرى وهكذا وكذلك اختلاف الطبقات الرسوبية في دقة رمالها وعدمها يدل على اختلاف السيلان بالشدة والضعف .

2 - الطبقات الرسوبية أحدث القشور والطبقات الجيولوجية : ترسب الطبقات الرسوبية عادة رسوبا افقيا ولكن ربما وقعت اجزاؤها المتراكمة تحت ضغطات جانبية قوية شديدة على ما بها من الدفع من فوق ومن تحت فتخرج بذلك تدريجا عن الافقية إلى التدوير والالتواء ، وهذا غير ظاهر الاثر في الازمنة القصيرة المحدودة لكن إذا تمادى الزمان بطوله كمرور الملايين من السنين ظهر الاثر وتكونت بذلك الجبال بسلاسلها الملتوية بعض تلالها في بعض وترتفع بقللها من سطوح البحار .

ويستنتج من ذلك ان الطبقات الرسوبية والقشور الافقية الباقية على حالها من احدث الطبقات المتكونة على البسيط ، والدلائل الفنية الموجودة تدل على ان عمرها لا يجاوز عشرة آلاف إلى خمس عشرة ألف سنة من زماننا هذا (1) .

3 - انبساط البحار واتساعها بانحدار المياه إليها .

كان تكون القشور الرسوبية الجديدة عاملا في انبساط أكثر بحار الكرة واتساعها بأطرافها فارتفعت مياهها وغطت أكثر سواحلها ، وملت جزائر في السواحل أحاطت بها من معظم جوانبها .

---

(1) ويستثنى من ذلك بعض ما في أطراف بالتيك وسائر المناطق الشمالية من طبقات رسوبية أفقية باقية على حالها من أقدم العهود الجيولوجية لجهات مذكورة في محلها .

فمن ذلك جزيرة بريطانية انقطعت في هذا الحين من فرنسا وانفصلت من أوربا بالكلية ، وكانت أوربا من ناحية جنوبها وإفريقا من ناحية شمالها مرتبطتين برابط برى إلى هذا الحين فانفصلتا باتساع البحر المتوسط (مديترانه) وتكون بذلك شبه جزيرة إيطاليا وشبه جزيرة تونس من شمالها الشرقي وجزائر صقلية وسردينيا وغيرها وكانت جزائر أندونيسيا من ناحية جاوا وسوماترا إلى جنوبى جزيرة اليابان متصلة بآسيا من جهة الجنوب الشرقي إلى هذا الحين فانفصلت وتحولت إلى صورتها الفعلية ، وكذا انقطاع إمريكا الشمالية من جهة شمالها عن شمال أوربا احد الاثار الباقية من هذا العهد عهد الطوفان .

وللحركات والتحولات الارضية الداخلية آثار في سير هذه المياه واستقرارها في البقاع

الخافضة المنحدرة ولذلك كان ينكشف الماء عن بعض البقاع الساحلية المغمورة بماء البحار في حين كان الطوفان مستوليا على اكثر البسيط يكون بحيرات

(341/379)

ويوسع بحارا ، ومن هذا الباب سواحل خوزستان الجنوبية انكشف عنها ماء الخليج (1) .

4 – العوامل المؤثرة في ازدياد المياه وغزارة عملها في عهد الطوفان .

الشواهد الجيولوجية التى أشرنا إلى بعضها تؤيد أن النزولات الجوية كانت غير عادية في اوائل الدور الحاضر من ادوار الحياة الإنسانية وهو عهد الطوفان ، وقد كان ذلك عن تغيرات جوية هامة خارقة للعادة قطعا .

فكان الهواء حارا في هذه الدورة نسبة لكن كان ذلك مسبوقا ببرد شديد وقد غطى معظم النصف الشمالي من الكرة الثلج والجمد والجليد فمن المحتمل قويا ان المتراكم من جمد الدورة السابقة عليه كان باقيا لم يذب بعد في النجود في اكثر بقاع المنطقة المعتدلة الشمالية .

فعمل الحرارة في سطح الأرض في دورتين متواليتين على ما به من متراكم الجمد والجليد

يوجب تغيرا شديدا في الجو وانقلابا عظيما مؤثرا في ارتفاع بخار الماء إليه وتراكمه فيه تراكما هائلا غير عادى وتعقبه نزولات شديدة وأمطار غزيرة غير معهودة .

نزول هذه الامطار الغزيرة الهاطلة ثم استدامتها النزول على الارتفاعات والنجود وخاصة على سلاسل الجبال الجديدة الحدوث في جنوب آسيا ومغربها وجنوب أوربا وشمال إفريقا كجبال (2) ألبرز وهيماليا وآلب وفي مغرب إمريكا عقب جريان سيول عظيمة هائلة عليها تنحت الصخور وتحفر الأرض وتقلع احجارا وتحملها إلى الاراضي والبقاع المنحدرة وتحدث اودية جديدة وتعمق أخرى قديمة وتوسعها ثم تبسط ما تحمله من الحجارة والحصى والرمل تجاهها قشورا رسوبية جديدة .

ومما كان يمد الطوفان السماوي في شدة عمله يزيد حجم السيول الجارية أن حفر الاودية الجديدة كان يكشف عن ذخائر مائية في بطن الأرض هي منابع

---

(1) وقد كانت مدينة شوش وقصر الكرخة في زمن الملوك الهخامنشية بايران على ساحل البحر وكانت السفن الشراعية الجارية في خليج فارس تلقى مراسيها امام القصر .

(2) فهى أقل عمرا من سائر جبال الأرض لم تعمر أكثر من مليونى سنة ولذلك كانت أشهق جبال الأرض وأعلى قللا من غيرها لقلة ما ورد عليها من اسباب النحت كالا مطار والرياح .

الابار والعيون الجارية فيزيل القشور الحافظة لها المانعة من سيلانها فيفجر العيون ويجريها مع السيول المطرية ، ويزيد في قوة تخريبها ويعينها في إغراق ما على الأرض من سهل وجبل وغمره .

غير أن الذخائر الارضية متناهية محدودة تنفد بالسيلان وبنفادها وإمساك السماء عن الامطار ينقضى الطوفان وتنحدر المياه إلى البحار والاراضي المنخفضة وإلى بعض الخلاء والسرب الموجود في داخل الأرض الذى أفرغته السيول بالتفجير والمص .

5 - نتيجة البحث .

وعلى ما قدمناه من البحث الكلى يمكن أن ينطبق ما قصه الله تعالى من خصوصيات الطوفان الواقع في زمن نوح عليه السلام كقوله تعالى : (ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر) القمر : 12 ، وقوله : (حتى إذا جاء امرنا وفار التنور) هود : 40 ، وقوله : (وقيل يا ارض ابلعى ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضى والأمر) هود : 44 .

انتهى .

ومما يناسب هذا المقام ما نشره بعض جرائد (1) طهران في هذه الايام وملخصه : ان جماعة من رجال العلم من إمريكا بهداية من بعض رجال الجند التركي عثروا في بعض قلل جبل آراراط في شرقي تركيا في مرتفع 1400 قدم على قطعات اخشاب يعطى القياس انها قطعات متلاشية من سفينة قديمة وقعت هناك تبلغ بعض هذه القطعات من القدمة 2500 قبل الميلاد .

والقياس يعطى انها قطعات من سفينة يعادل حجمه ثلثى حجم مركب (كوئين مارى) الانجليزية التى طولها 1019 قدما وعرضها 118 قدما ، وقد حملت الاخشاب إلى سانفرانسيسكو لتحقيق امرها وانها هل تقبل الانطباق على ما تعتقده ارباب النحل من سفينة نوح ؟ عليه السلام .

8 - عمره عليه السلام الطويل : القرآن الكريم يدل على انه عليه السلام عمر طويلا ، * (

هامش) (1) جريدة كيهان المنتشرة اول سبتامبر 1962 المطابق لغرة ربيع الأول 1382 الهجرية القمرية عن لندن .

آسوشتيد برس .

وانه دعا قومه الف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله سبحانه ، وقد استبعده بعض الباحثين لما ان الاعمار الإنسانية لا تتجاوز في الاغلب المائة أو المائة والعشرين سنة حتى ذكر بعضهم ان القدماء كانوا يعدون كل شهر من الشهور سنة فالالف سنة إلا خمسين عاما

يعدل ثمانين سنة إلا عشرة شهور .

وهو بعيد غايته .

(343/379)

وذكر بعضهم ان طول عمره عليه السلام كان كرامة له خارقة للعادة ، قال الثعلبي في قصص الأنبياء في خصائصه عليه السلام : وكان اطول الأنبياء عمرا وقيل له اكبر الأنبياء وشيخ المرسلين ، وجعل معجزته في نفسه لأنه عمر الف سنة ولم ينقص له سن ولم تنقص له قوة .

انتهى .

والحق أنه لم يقم حتى الان دليل على امتناع أن يعمر الإنسان مثل هذه الاعمار بل الاقرب في الاعتبار أن يعمر البشر الأولى بأزيد من الاعمار الطبيعية اليوم بكثير لما كان لهم من بساطة العيش وقلة الهموم وقلة الامراض المسلطة علينا اليوم وغير ذلك من الأسباب الهادمة للحياة ، ونحن كلما وجدنا معمرا عمر مائة وعشرين إلى مائة وستين وجدناه بسيط العيش قليل الهم ساذج الفهم فليس من البعيد أن يرتقى بعض الاعمار في السابقين إلى مئات من السنين .

على أن الاعتراض على كتاب الله في مثل عمر نوح عليه السلام وهو يذكر من معجزات

الأنبياء الخارقة للعادة شيئا كثيرا لعجيب .

وقد تقدم كلام في المعجزة في الجزء الأول من الكتاب .

9 - أين هو جبل الجودى : ذكروا انه بديار بكر من موصل في جبال تتصل بجبال أرمينية ، وقد سماه في التوراة أراراط .

قال فى القاموس : و الجودى جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام ، ويسمى في التوراة (أراراط) انتهى ، وقال في مراصد الاطلاع : الجودى مشددة جبل مطل على جزيرة ابن عمر في شرقي دجلة من اعمال الموصل استوت عليه سفينة نوح لما نضب الماء .

10 - ربما قيل : هب إنه أغرق قوم نوح بذنبهم فما هو ذنب سائر الحيوان الذى على الأرض حيث هلكت بطاغية المياه ؟ وهذا من أسقط الاعتراض فما كل هلاك ولو كان عاما عقوبة وانتقاما ، والحوادث العامة التى تهلك الالوف ثم الألوف مثل الزلازل والطوفانات والوباء والطاعون كثير الوقوع في الدهر ، ولله فيما يقضى حكم .

(كلام في عبادة الأصنام في فصول) 1 – الإنسان واطمئنانه إلى الحس : الإنسان يجرى في حياته الاجتماعية على اعتبار قانون العلية والمعلولية الكلى وسائر القوانين الكلية التى اخذها من هذا النظام العام المشهود ، وهو على خلاف ما نشاهده من اعمال سائر الحيوان وأفعاله يجرى في التفكر والاستدلال أعنى القياس والاستنتاج إلى غايات بعيدة . وهو مع ذلك لا يستقر في فحصه وبحثه على قرار دون أن يحكم في علة هذا العالم المشهود الذى هو احد أجزائه بشئ من الاثبات والنفى لما يرى أن سعادة حياته التى لا بغية عنده أحب منها تختلف على تقديري إثبات هذه العلة الفاعلة المسماة بالاله عز اسمه ونفيه اختلافا جوهريا فمن البين أن لا مضاهاة بين حياة الإنسان المتأله الذى يثبت للعالم إلها حيا عليما قديرا لا مناص عن الخضوع لعظمته وكبريائه والجرى على ما يحبه ويرضاه ، وبين حياة الإنسان الذى يرى العالم سدى لا مبدء له ولا غاية ، وليس فيه للإنسان إلا الحياة المحدودة التى تفنى بالموت وتبطل بالفوت ، ولا موقف للانسانية فيه إلا ما للحيوان العجم من موقف الشهوة والغضب وبغية البطن والفرج .

فهذه نزعة فكرية أولى للإنسان إلى الحكم بأنه : هل للوجود من إله ؟ وتتلوه نزعة ثانية وهى القضاء الفطري بالاثبات ، والحكم بأن للعالم إلها خلق كل شئ بقدرته وأجرى النظام العام بربوبيته فهدى كل شئ إلى غايته وكمال وجوده بمشيته وسيعود كل إلى ربه كما بدئ .

هذا .

ثم إن مزاولة الإنسان للحس والمحسوس مدى حياته وانكبابه على المادة وإخلاده إلى الأرض عوده أن يمثل كل ما يعقله ويتصوره تمثيلا حسيا وإن كان مما لا طريق للحس والخيال إليه البتة كالكليات والحقائق المنزهة عن المادة على أن الإنسان إنما ينتقل الى المعقولات من طريق الاحساس والتخيل فهو انيس الحس وأليف الخيال .

وقد قضت هذه العادة اللازمة على الإنسان أن يصور لربه صورة خيالة على حسب ما يألفه من الأمور المادية المحسوسة حتى أن اكثر الموحدين ممن يرى تنزه ساحة رب العالمين تعالى وتقدس عن الجسمية وعوارضها يثبت في ذهنه له تعالى صورة مبهمة خيالية معتزلة للعالم تبادر ذهنه إذا توجه إليه في مسألة أو حدث عنه بحديث غير أن التعليم الدينى أصلح ذلك بما قرر من الجمع بين النفى والاثبات والمقارنة بين التشبيه والتنزيه يقول الموحد المسلم : إنه تعالى شئ ليس كمثله شئ له قدرة لا كقدرة خلقه ، وعلم لا كالعلوم وعلى هذا القياس .

وقل أن يتفق لانسان أن يتوجه إلى ساحة العزة والكبرياء ونفسه خالية عن هذه المحاكاة ، وما أشذ أن يسمح الوجود برجل قد أخلص نفسه لله سبحانه غير متعلق القلب بمن دونه ،

ولا ممسوس بالتسويلات الشيطانية ، قال تعالى : (سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين) الصافات : 160 ، وقال حكاية عن إبليس : (قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) ص : 83 .

وبالجملة الإنسان شديد الولع بتخيل الأمور غير المحسوسة في صورة الأمور المحسوسة فإذا سمع أن وراء الطبيعة الجسمية ما هو أقوى وأقدر وأعظم وأرفع من الطبيعة وأنه فعال فيها محيط بها أقدم منها مدبر لها حاكم فيها لا يوجد شئ إلا بأمره ولا يتحول عن حال إلى حال إلا بإرادته ومشيته لم يتلق من جميع ذلك إلا ما يضاهي أوصاف الجسمانيات وما يتحصل من قياس بعضها إلى بعض .

وكثيرا ما حكاه في نفسه بصورة إنسان فوق السماوات جالس على عرش الملك يدبر أمر العالم بالتفكر ويتممه بالإرادة والمشية والأمر والنهي ، وقد صرحت التوراة الموجودة بأن الله سبحانه كذلك ، وأنه تعالى خلق الإنسان على صورته ، وظاهر الاناجيل أيضا ذلك .

فقد تحصل أن الاقرب إلى طبع الإنسان وخاصة الإنسان الأولى الساذج أن يصنع لربه المنزه عن الشبه والمثل صورة يضاهي بها الذوات الجسمانية وتناسب

الاوصاف والنعوت التى يصفها بها كما يمثل الثالوث بإنسان ذو وجوه ثلاثة كأن كلا من النعوت العامة وجه للرب يواجه به خلقه .

2 – الاقبال إلى الله بالعبادة : إذا قضى الإنسان أن للعالم إلها خلقه بعلمه وقدرته لم يكن له بد من أن يخضع له خضوع عبادة اتباعا للناموس العالم الكونى وهو خضوع الضعيف للقوى ومطاوعة العاجز للقادر ، وتسليم الصغير الحقير للعظيم الكبير فانه ناموس عام جار في الكون حاكم في جميع أجزاء الوجود ، وبه يؤثر الأسباب في مسبباتها وتتأثر المسببات عن أسبابها .

وإذا ظهر الناموس المذكور لذوات الشعور والإرادة من الحيوان كان مبدء للخضوع والمطاوعة من الضعيف للقوى كما نشاهده من حال الحيوانات العجم إذا شعر الضعيف منها بقوة القوى آئسا من الظهور عليه والقدرة على مقاومته .

وظهوره في العالم الإنساني أوسع وأبين من سائر الحيوان لما في هذا النوع من عمق الادراك وخصيصة الفكر فهو متفنن في إجرائه في غالب مقاصده وأعماله جلبا للنفع أو دفعا للضرر كخضوع الرعية للسلطان والفقير للغنى والمرؤوس للرئيس والمأمور للامر والخادم للمخدوم والمتعلم للعالم والمحب للمحبوب والمحتاج للمستغنى والعبد للسيد والمربوب للرب .

وجميع هذه الخضوعات من نوع واحد وهو تذلل وهوان نفساني قبال عزة وقهر مشهود ،

والعمل البدني الذى يظهر هذا التذلل والهوان هي العبادة أيا ما كانت ؟ وممن ولمن تحققت ؟ ولا فرق في ذلك بين الخضوع للرب تعالى وبينه إذا تحقق من العبد بالنسبة إلى مولاه أو من الرعية بالنسبة إلى السلطان أو من المحتاج بالنسبة إلى المستغنى أو غير ذلك فالجميع عبادة .

وعلى أي حال لا سبيل إلى ردع الإنسان عن هذا الخضوع لاستناده إلى قضاء فطرى ليس للإنسان أن يتجافى عنه إلا أن يتبين له أن الذى كان يظنه قويا ويستضعف نفسه دونه ليس على ما كان يظنه بل هما سواء مثلا .

ومن هنا ما نرى أن الإسلام لم ينه عن اتخاذ آلهة دون الله وعبادتهم إلا بعد ما بين للناس أنهم مخلوقون مربوبون أمثالهم ، وأن العزة والقوة لله جميعا قال تعالى : (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) الأعراف : 194 وقال : (والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون) الأعراف : 198 وقال تعالى : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن

تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) آل عمران : 64 ختم الآية بحديث التسليم لله تعالى بعد ما دعاهم إلى ترك عبادة غير الله تعالى من الالهة ورفض الخضوع لسائر المخلوقين المماثلين لهم وقال تعالى : (أن القوة لله جميعا) البقرة : 165 ، وقال : (فإن العزة لله جميعا) النساء : 139 وقال : (ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع) ألم السجدة : 4 إلى غير ذلك من الآيات .

فليس عند غيره تعالى ما يدعو إلى الخضوع له فلا يسوغ الخضوع لاحد ممن دونه إلا أن يؤول إلى الخضوع لله ويرجع تعزيره أو تعظيمه وولايته إلى ناحيته قال تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبي الامي – إلى أن قال – فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه اولئك هم المفلحون) الأعراف : 157 ، وقال : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا – إلى قوله – وهم راكعون) المائدة : 55 ، وقال : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) التوبة : 71 ، وقال : (ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) الحج : 32 .

فلا خضوع في الإسلام لاحد دون الله إلا ما يرجع إليه تعالى ويقصد به .

3 - كيف نشأت الوثنية ؟ وبما ذا بدأت ؟ اتضح في الفصل المتقدم أن الإنسان في مزلة من تجسيم الأمور المعنوية وسبك غير المحسوس في قالب المحسوس بالتمثيل والتصوير وهو مع ذلك مفطور للخضوع أمام أي قوة فائقة قاهرة والاعتناء بشأنها .

ولذا كانت روح الشرك والوثنية سارية في المجتمع الإنساني سراية تكاد لا تقبل التحرز والاجتناب حتى في المجتمعات الراقية الحاضرة وحتى في المجتمعات المبنية على أساس رفض الدين فترى فيها من النصب وتماثيل الرجال وتعظيمها

واحترامها والبلوغ في الخضوع لها ما يمثل لك وثنية العهود الأولى والإنسان الأولى .

على أن اليوم من الوثنية على ظهر الأرض ما يبلغ مآت الملايين قاطنين في شرقها وغربها .

ومن هنا يتأيد بحسب الاعتبار أن تكون الوثنية مبتدئة بين الناس باتخاذ تماثيل الرجال العظماء ونصب اصنامهم وخاصة بعد الموت ليكون في ذلك ذكرى لهم ، وقد ورد في روايات أئمة اهل البيت ما يؤيد ذلك ففى تفسير القمى مضمر أو في علل الشرائع مسندا عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : (وقالوا لا تذرن آلهتكم) الآية ، قال : كانوا يعبدون الله عزوجل فماتوا فضج قومهم وشق ذلك عليهم فجاءهم إبليس لعنه الله وقال لهم : أتخذ لكم أصناما على صورهم فتنظرون إليهم وتأنسون بهم وتعبدون الله ، فأعد لهم اصناما على مثالهم فكانوا يعبدون الله عزوجل وينظرون إلى تلك الأصنام ، فلما جاءهم الشتاء والامطار أدخلوا الأصنام البيوت .

فلم يزالوا يعبدون الله عزوجل حتى هلك ذلك القرن ونشأ أولادهم فقالوا : إن آباءنا كانوا يعبدون هؤلاء فعبدوهم من دون الله عزوجل فذلك قول الله تبارك وتعالى : (ولا تذرن ودا ولا سواعا) الآية .

(349/379)

وكان رب البيت في الروم واليونان القديمين – على ما يذكره التاريخ – يعبد في بيته فإذا مات اتخذ له صنم يعبده أهل بيته ، وكان كثير من الملوك والعظماء معبودين في قومهم ، وقد ذكر القرآن الكريم منهم نمرود الملك المعاصر لابراهيم عليه السلام الذى حاجه في ربه ، وفرعون موسى .

وهوذا يوجد في بيوت الأصنام الموجودة اليوم وكذا بين الاثار العتيقة المحفوظة عنهم أصنام كثير من عظماء رجال الدين كصنم بوذا وأصنام كثير من البراهمة وغيرهم .

واتخاذهم أصنام الموتى وعبادتهم لها من الشواهد على أنهم كانوا يرون أنهم لا يبطلون بالموت وأن ارواحهم باقية بعده ، لها من العناية والاثر ما كان في حال حياتهم بل هي بعد الموت اقوى وجودا وأنفذ إرادة وأشد تأثيرا لما أنها خلصت من شوب المادة ونجت من التأثرات الجسمانية والانفعالات الجرمانية ، وكان فرعون موسى يعبد أصناما له وهو إله

ومعبود في قومه ، قال تعالى : (وقال الملا من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك) الأعراف : 127 .

4 - اتخاذ الأصنام لارباب الأنواع وغيرهم : كأن اتخاذ تماثيل الرجال هو الذى نبه الناس على اتخاذ صنم الإله إلا أنه لم يعهد منهم ان يتخذوا تمثالا لله سبحانه المتعالى أن يحيط به حد أو يناله وهم ، وكأن هذا هو الذى صرفهم عن اتخاذ صنمه بل تفرقوا في ذلك فأخذ كل ما يهمه من جهات التدبير المشهود في العالم فتوسلوا إلى عبادة الله بعبادة من وكله إلى الله على تدبير تلك الجهة المعنى بها بزعمهم .

فالقاطنون في سواحل البحار عبدوا رب البحر لينعم عليهم بفوائدها ويسلموا من الطوفان والطغيان ، وسكان الاودية رب الوادي ، وأهل الحرب رب الحرب ، وهكذا .

(350/379)

ولم يلبثوا دون ان اتخذ كل منهم ما يهواه من إله فيما يتوهمه من الصورة والشكل ، ومما يختاره من فلز أو خشب أو حجارة أو غير ذلك حتى روى أن بنى حنيفة من اليمامة اتخذوا لهم صنما من أقط ثم أصابهم جدب وشملهم الجوع فهجموا عليه فأكلوه .

وكان الرجل إذا وجد شجرة حسنة أو حجرا حسنا وهواه عبده ، وكانوا يذبحون غنما

أو ينحرون إبلا فيلطخونه بدمه فإذا أصاب مواشيهم داء جاءوا بها إليه فمسحوها به ، وكانوا يتخذون كثيرا من الاشجار أربابا فيتبركون بها من غير أن يمسوها بقطع أو كسر ويتقربون إليها بالقرابين ويأتون إليها بالنذورات والهدايا .

وساقهم هذا الهرج إلى ان ذهبوا في أمر الأصنام مذاهب شتى لا يكاد يضبطها ضابط ، ولا يحيط بها إحصاء غير أن الغالب في معتقداتهم انهم يتخذونها شفعاء يستشفعون بها إلى الله سبحانه ليجلب إليهم الخير ويدفع عنهم الشر ، وربما أخذها بعض عامتهم معبودة لنفسها مستقلة بالالوهية من غير أن تكون شفعاء ، وربما كانوا يتخذونها شفعاء ويقدمونها أو يفضلونها على الله سبحانه كما يحكيه القرآن في قوله تعالى : (فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم) الآية ، الأنعام : 136 .

وكان بعضهم يعبد الملائكة ، وآخرون يعبدون الجن ، وقوم يعبدون الكواكب الثابتة كشعري ، وطائفة تتخذ بعض السيارات إلها – وقد أشير إلى جميع ذلك في الكتاب الإلهى – كل ذلك طمعا في خيرها أو خوفا من شرها .

وقل أن يتخذ إله من دون الله ولا يتخذ له صنم يتوجه إليه في العبادات به بل كانوا إذا اتخذوا شيئا من الأشياء إلها شفيعا عملوا له صنما من خشب أو حجر أو فلز ، ومثلوا به ما يتوهمونه عليه من صورة الحياة فيسوونه في صورة إنسان أو حيوان وإن كان صاحب الصنم

على غير الهيأة التى حكوه بها كالكواكب الثابتة والسيارة وإله العلم والحب والرزق والحرب ونحوها .

(351/379)

وكان الوجه في اتخاذ أصنام الشركاء قولهم : إن الإله لتعاليه عن الصورة المحسوسة كأرباب الأنواع وسائر الالهة غير المادية أو لعدم ثباته على حالة الظهور كالكوكب الذى يتحول من طلوع الغروب يصعب التوجه إليه كلما أريد بالتوجه فمن الواجب أن يتخذ له صنم يمثله في صفاته ونعوته فيصمد إليه بوسيلته كلما أريد .

5 - الوثنية الصابئة .

الوثنية وإن رجعت - بالتقريب - إلى أصل واحد هو اتخاذ الشفعاء إلى الله وعبادة أصنامها وتماثيلها ، ولعلها استولت على الأرض وشملت العالم البشرى مرارا كما يحكيه القرآن الكريم عن الأمم المعاصرة لنوح وإبراهيم وموسى عليه السلام إلا أن اختلاف المنتحلين بها بلغ من التشتت واتباع الاهواء والخرافات مبلغا كان حصر المذاهب الناشئة فيها كالمحال وأكثرها لا تبتنى على أصول متقررة وقواعد منتظمة متلائمة .

ومما يمكن أن يعد منها مذهبا قريبا من الانتظام والتحصل مذهب الصابئة والوثنية البرهمية

والبوذية : أما الوثنية الصابئة فهى تبتنى على ربط الكون والفساد وحوادث العالم الارضى إلى الاجرام العلوية كالشمس والقمر وعطارد والزهرة ومريخ والمشترى وزحل وأنها بما لها من الروحانيات المتعلقة بها هي المدبرة للنظام المشهود يدبر كل منها ما يتعلق به من الحوادث على ما يصفه فن أحكام النجوم ، ويتكرر بتكرر دوراتها الأدوار والأكوار من غير أن تقف أو تنتهى إلى أمد .

فهى وسائط بين الله سبحانه وبين هذا العالم المشهود تقرب عبادتها الإنسان منه تعالى ثم من الواجب أن يتخذ لها أصنام وتماثيل فيتقرب إليها بعبادة تلك الأصنام والتماثيل .

(352/379)

وذكر المؤرخون أن الذى أسس بنيانها وهذب أصولها وفروعها هو (يوذاسف) المنجم ظهر بأرض الهند في زمن طهمورث ملك إيران ، ودعا إلى مذهب الصابئة فاتبعه خلق كثير ، وشاع مذهبه في أقطار الأرض كالروم واليونان وبابل وغيرها ، وبنيت لها هياكل ومعابد مشتملة على أصنام الكواكب 7 ولهم أحكام وشرائع وذبائح وقرابين يتولاها كهنتهم .

وربما ينسب إليهم ذبح الناس .

وهؤلاء يوحدون الله في ألوهيته لا في عبادته ، وينزهونه عن النقائص والقبائح ، ويصفونه

بالنفى لا بالاثبات كقولهم : لا يعجز ولا يجهل ولا يموت ولا يظلم ولا يجور ، ويسمون ذلك بالأسماء الحسنى مجازا وليسوا بقائلين باسم حقيقة وقد قدمنا شيئًا من تاريخهم في تفسير قوله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين) الآية ، البقرة : 62 في الجزء الأول من هذا الكتاب .

6 – الوثنية البرهمية : والبرهمية – على ما تقدم – من مذاهب الوثنية المتأصلة ، ولعلها أقدمها بين الناس فإن المدنية الهندية من أقدم المدنيات الإنسانية لا يضبط بدء تاريخي لها على التحقيق ، ولا يضبط بدء تاريخي لوثنية الهند غير أن بعض المؤرخين كالمسعودي وغيره ذكروا أن برهمن اسم أول ملوك الهند الذى عمر بلادها وأسس قواعد المدنية فيها وبسط العدل بين أهلها .

ولعل البرهمية نشأت بعده باسمه فكثيرا ما كانت الأمم الماضية يعبدون ملوكهم والاعاظم من أقوامهم لاعتقادهم أنهم ذووا سلطة غيبية وأن اللاهوت ظهر فيهم نوع ظهور ، ويؤيده بعض التأييد أن الظاهر من (ويدا) وهو كتابهم المقدس أنه مجموع من رسائل ومقالات شتى ألف كل شطر منها بعض رجال الدين في أزمنة مختلفة ورثوها من بعدهم فجمعت وألفت كتابا يشير إلى دين ذى نظام وقد صرح به علماء سانسكريت ولازم ذلك أن يكون البرهمية كغيرها من مذاهب الوثنية مبتدئة من أفكار عامية غير قيمة ، متطورة في مراحل التكامل حتى بلغت حظها من الكمال .

ذكر البستانى في دائرة المعارف ما ملخصه : برهم (بفتحتين فسكون أو بفتح الباء والهاء وسكون الراء) هو المعبود الأول والأكبر عند الهنود ، وهو عندهم أصل كل الموجودات واحد غير متغير وغير مدرك أزلى مطلق سابق كل مخلوق خلق العالم كله بمجرد ما أراد دفعة واحدة بقوله : أوم أي كن .

وحكاية برهم تشبه من كل وجه حكاية (أي بوذة) فليس الفرق إلا في الاسم والصفات وكثيرا ما يجعلون نفس برهم اسما للاقانيم الثلاثة المؤلف منها ثالوث الهنود ، وهى : (برهما ووشنو وسيوا) ويقال لعبدة برهم : البرهميون أو البراهمة .

وأما برهما فهو نفس برهم معبود الهنود بعد ان شرع في أعماله (بدليل زيادة الالف في آخره وهو من اصطلاحاتهم) وهو الاقنوم الأول من الثالوث الهندي أي إن برهم ينبثق في نفسه في ثلاثة اقانيم كل مرة في اقنوم فالاقنوم الأول الذى يظهر به اول مرة هو برهما ، والثانى وشنو ، والثالث سيوا .

فلما انبثق برهما لبث مدة طويلة جالسا على سدرة تسمى بالهندية (كمالا) وبالسنسكريتية بدما ، وكان ينظر من كل جهة ، وكان له اربعة رؤوس بثماني أعين فلم ير

إلا فضاء واسعا مظلما مملوء ماء فارتاع لذلك ولم يقدر أن يدرك سر أصله فلبث ساكتا أبكم غارقا في التأملات .

فمضت على ذلك اجيال وإذا بصوت قد طرق أذنيه بغتة ونبهه من سباته وأشار عليه ان يفزع إلى (باغادان) وهو لقب برهم فظهر برهم بصورة رجل له الف رأس فسجد له برهما وجعل يسبحه فانشرح صدر باغادان وأبدع النور وكشف الظلمات ، وأظهر لعبده حالة كينونته والكائنات بصور جراثيم متخدرة وأعطاه القوة لاخراجها من هذا الخمول .

فبقى برهما يتأمل في ذلك مائة سنة إلهية وهى عبارة عن ستة و ثلاثين الف سنة شمسية ثم ابتدأ بالعمل فأبدع اولا سبع السماوات المسماة عندهم (سورغة)

(354/379)

وأنارها بالاجرام المسماة (ديقانة) ثم أبدع (مريثلوكا) أي مقر الموت ثم الأرض وقمرها ، ثم المساكن السبعة السفلى المسماة بتالة ، وأنارها بثمانية جواهر موضوعة على رؤوس ثمانى حيات .

فالسماوات السبع والمساكن السفلى السبعة هي العوالم الأربعة عشر في الميثولوجيا الهنديه

.

ثم خلق الازواج السبعة لكى تعينه في أعماله فامتنع من مساعدته عشرة منها وهى (مونى) والريشة التسعة التى منها (ناريدا أو نوردام) واقتصرت على التأملات الدنيوية فتزوج حينئذ أخته (ساراسواتى) وأولدها مائة ولد ، وكان البكر اسمه (دكشا) فولد لدكشا خمسون بنتا فتزوجت ثلث عشرة منهن (كاسيابا) الذى يسمونه احيانا برهمان الأول ، وهو الذى ولد لبرهما ولدا يسمى (مارتشى) .

وولدت احدى البنات المذكورات واسمها (أديتى) الارواح المنيرة المسماة (ديفانة) وهى التى تفعل الخير وتسكن السماوات ، وأما أختها (ديتي) فولدت جمهورا غفيرا من الارواح الشريرة المسماة (داتينة) أو (اسورة) وهى سكان الظلام وفاعلة كل شر في العالم .

وكانت الأرض إلى ذلك الوقت خالية من السكان فقال بعضهم : إن برهما أخرج من نفسه (مانوسويامبوقا) الذى يقول الاخرون : إنه سابق له وأنه نفس برهم المعبود الواحد ثم إن برهما زوجه (ساتاروبا) وقال لهما أن يكثرا وينميا .

وقال آخرون : إن برهما ولد اربعة اولاد وهم برهمان وكشتريا وقايسيا وسودارا فالاول خرج من فمه ، والثانى من ذراعه اليمنى ، والثالث من فخذه اليمنى والرابع من رجله اليمنى فكانوا أربع أرومات لاربع فرق أصلية .

وتزوج الثلاثة الاخيرون بثلاث نساء منه أيضا خرجت واحدة من ذراعه اليمنى والثانية من فخذه اليسرى ، والثالثة من رجله اليسرى ، وسمين باسم بعولتهن بزيادة علامة التأنيث

وهى (نى) ، وتزوج برهما ن أيضا زوجة من أبيه ، ولكن كانت من نسل الاسورة الشريرة ، فهذا ما في الفيداس عن كيفية خلق العالم .

ثم إن برهما بعد أن كان الإله الخالق القدير سقط عن رتبة وشنو الاقنوم الثاني وسيوا الاقنوم الثالث وذلك أنه انتفخ بالكبرياء والعجب ، وظن نفسه نظير العلى فسقط في ناراك أي الجحيم ، ولم ينل العفو إلا بشرط أن يتجسد مرة في كل من الاجيال الأربعة ، فتجسد أول مرة بصورة غراب شاعر اسمه (كاكا بوسندا) وفي الثانية بصورة (بار باقلميكى) فكان أولا لصا ثم رجلا عبوسا رزينا نادما ثم ترجمانا مشهورا للفيداس ومؤلفا للراميانا ، وفي المرة الثالثة بصورة (قياسا) وهو شاعر ومؤلف (المها بارانا) والبغاقة وعدة بورانات ، وفي المرة الرابعة وهو العصر الحالى المسمى (كالى يوغ) بصورة (كاليداسا) الشاعر التشخيصى العظيم ومؤلف (ساكنتالا) ومنقح مؤلفات (قلميكى) .

ثم إن برهما ظهر في ثلاث أحوال ، ففى الحال الأولى كان الواحد الصمد والكل الأعظم العلى ، وفي الحال الثانية ظهر منبثقا من الأول أي شارعا في العمل وفي الحال الثالثة ظهر متجسدا بصورة انسان وحكيم .

وليس لبرهما عبادة عامة في الهند ، وله هناك هيكل واحد فقط غير أن البراهمة يجعلونه موضوع عبادتهم ، ويدعونه مساء وصباحا ، وهم يرمون الماء ثلاث مرات براحة أيديهم على الأرض ونحو الشمس ، ويجددون له عبادتهم وقت الظهر بتقديمهم له زهرة ، وفي تقديس النار يقدمون له سمنا مصفى كما يقدمون لاله النار ، وهذا التقديس أهم وأقدس من كل ما سواه .

واسمه هوم أو هوما ورغيب .

ويمثل برهما بصورة رجل ذى لحية طويلة بإحدى يديه سلسلة الكائنات وبالاخرى الاناء الذى فيه ماء الحياة السماوي راكبا الهمسا وهو الطير الإلهى الذى يشبه اللقلق والنسر .

وأما برهمان فهو ابن برهما البكر أخرجه من فيه كما تقدم ، وجعل نصيبه أربعة الكتب المقدسة المسماة (فيداس) كناية عن الكلمات الاربع التى نطق بها بأفواهه الأربعة .

فلما أراد برهمان أن يتزوج نظير إخوته قال له برهما : إنك ولدت للدرس والصلاة فيجب أن تبتعد عن العلاقات الجسدية فلم يقتنع برهمان بقول أبيه فغضب برهما وزوجه بواحدة من جنيات الشر المسماة أسورة ، ومن هذا ولد البراهمة وهم الكهنة المقدسون الذين خصوا

بتفسير الفيداس ، وكانوا يتولون أمر كل التقدمات التى يقدمها الهنود للالهة .

وولد كشتريا صنف الحربيين من البراهمة ، وقايسيا صنف أهل الزراعة منهم ، وسودرا صنف العبيد ، فالبراهمة أربعه أصناف ، انتهى ملخصا من دائرة المعارف للبستاني .

وذكر غيره أن البرهمية منقسمة إلى طبقات أربع هم البراهمة (علماء المذهب) والحربيون والزراع والتجار ، ولا يعبؤ بغيرهم كالنساء والعبيد ، وقد نقلنا في ذيل قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) الآية ، المائدة : 105 في الجزء السادس من الكتاب في بحث علمي عن كتاب ما للهند من مقولة لابي ريحان البيرونى شيئا من وظائف البراهمة وعباداتهم ، وكذا عن الملل والنحل للشهرستاني شطرا من شرائع الصابئين .

والمذاهب الوثنية الهندية وكان الصابئين مثلهم أيضا مطبقون على القول بالتناسخ وهو أن العوالم غير متناهية من ناحيتى الازل والابد ولكل منها حظا من البقاء مؤجلا فإذا انقضى أمد بقائه بطلت صورته وتولد منه عالم آخر يعيش فيموت فيحدث ثالث وهكذا ، والنفوس الإنسانية المتعلقة بالابدان لا تموت بموت أبدانها بل موت أبدانها مبدء حياة جديدة لها فإنها تتعلق بأبدان أخر تعيش فيها عيشة سعيدة إن كسبت في بدنها السابق فضائل نفسانية وعملت عملا صالحا ، وعيشة شقية إن تلبست بالرذائل واقترفت السيئات إلا الكاملون في معرفة البرهم (الله سبحانه) فإنهم أحياء بحياة الابد آمنون من التولد الثاني خارجون عن سلطان التناسخ .

7 – الوثنية البوذية : وقد أصلحت الوثنية البرهمية (1) بالبوذية منسوبة إلى بوذا (سقيا مونى) المتوفى سنة خمسماءة وثلاث وأربعين قبل المسيح على ما نقل عن التاريخ السيلانى وقيل غير ذلك حتى أن الاختلاف في ذلك ينسحب إلى ألفى سنة ، ولذلك ربما ظن أنه شخص

---

(1) ملخص ما في دائرة المعارف للبستاني .

خرافي لا حقيقة له لكن الحفريات الاخيرة التى وقعت في غايا الحديثة وآثارا أخرى في بطنة دلت على صحة وجوده ، وقد انكشفت بها آثار أخرى من تاريخ حياته وتعاليمه التى ألقاها إلى تلامذته وأتباعه .

وكان بوذا من بيت الملك ابن ملك يدعى (سوذودانا) فعزفت نفسه الدنيا وشهواتها واعتزل الناس في شبابه ولبث في بعض الغابات الموحشة سنين من عمره مكبا على التزهد والارتياض حتى تنورت نفسه بالمعرفة فخرج إلى الناس وهو ابن ست وثلاثين سنة على ما قيل فدعاهم إلى التخلص عن الشقاء والالام والفوز بالراحة الكبرى والحياة السماوية الابدية السرمدية ، ووعظهم وحثهم على التمسك بذيل شريعته بالتخلق بالاخلاق الكريمة

ورفض الشهوات واجتناب الرذائل .

وكان بوذا – على ما نقل – يقول عن نفسه من دون كبرياء برهمية : (أنا (1) متسول ، ولا توجد إلا شريعة واحدة للجميع ، وهى العقاب الشديد للمجرمين والثواب العظيم للصالحين ، وشريعتي شريعة نعمة للجميع ، وفيها كالسماء مكان للرجال والنساء والصبيان والبنات والاغنياء والفقراء على أنه يعسر على الغنى أن يسلك طريقها) .

وكان تعليمه على ما عند البوذيين : أن الطبيعة ذات فراغ وأنها وهمية خداعة وأن العدم يوجد في كل مكان وكل زمان ، وهو مملوء من الغش ، ونفس هذا العدم يزيل كل الحواجز بين أصناف الناس وجنسياتهم وأحوالهم الدنيوية ، ويجعل أحقر الديدان إخوة للبوذيين .

وهم يعتقدون أن آخر عبارة نطق بها سقيامونى هي (كل مركب فان) والغاية القصوى عندهم هي نجاة النفس من كل ألم وغرور ، وأن دور التناسخ الذى لا نهاية له ينتهى أو ينقطع بمنع النفس أن تولد ثانية ، ويتوصل إلى ذلك بتطهيرها حتى من رغبة الوجود .

فهذه القواعد الاساسية للبوذية موجودة صريحا في أقدم تعليمها المدرج في

---

(1) أي تصيبني التسويلات والوساوس النفسانية وفى كلامه هذا نسخ لحكم الطبقات في الشريعة البرهمية القاضى بتفاوت الناس في التشرف بالسعادة الدينية وتحريم بعضهم كالنساء والصبيان منها .

(الاريانى ستيانس) وهى أربع حقائق سامية تنسب إلى سقياموني ذكرها في عظته الأولى التى قام بها في غابة تعرف بغابة الغزال بالقرب من بنارس .

وتلك الحقائق الاربع تتعلق بالالم وأصله وملاشاته وبالطريقة المؤدية إلى الملاشاة فالالم هو الولادة والسن والمرض والموت ومصادفة المكروه ومفارقة المحبوب والعجز عما يرام ، وأسباب الالم الشهوات النفسانية والجسدية والاهواء ، وملاشاة جميع هذه الأسباب هي الحقيقة الثالثة ، ولطريقة الملاشاة أيضا ثمانية أقسام وهى : نظر صحيح وحس صحيح ، ونطق صحيح ، وفعل صحيح ، ومركز صحيح ، وجد صحيح وذكر صحيح ، وتأمل صحيح ، فهذه صورة الإيمان عندهم وقد وجدت محفورة على أبنية كثيرة ومدونة في عدة كتب .

وأما خلاصة الأدب البوذى فهى اجتناب كل شئ ردى ، وعمل كل شئ صالح وتهذيب العقل .

فهذا هو الذى سلموه من تعليم بوذا ، وما عداه من العبادات والذبائح والكهنوت والفلسفة والاسرار أمور أضيفت إليه بكرور الايام ومرور الدهور ، وهى تشتمل على أقاويل وآراء

عجيبة في خلق العالم ونظمه وغير ذلك .

ومما يقال إن بوذا لم يتكلم عن الإله قط ، غير ان ذلك لم يكن لاعراض منه عن مبدء الوجود ولا لانكار بل لأن الرجل كان يبذل كل جهده في تجهيز الناس بالزهد عن زهرة الحياة الدنيا وتنفيرهم عن هذه الدار الغارة .

(359/379)

---

8 – وثنية العرب .

وهم أول من عارضهم الإسلام بالدعوة إلى التوحيد من عبدة الاوثان ، كان معظم العرب في عهد الجاهلية بدويين واهل الحضارة منهم كاليمن في طبع البداوة يحكم فيهم من السنن والاداب رسوم مختلطة مختلفة مأخوذة من جيرانهم الاقوياء كالفرس والروم ومصر والحبشة والهند ، ومنها السنن الدينية .

وكان أسلافهم الاقدمون وهم العرب العاربة ومنهم عاد إرم وثمود على دين الوثنية كما يحكيه الله سبحانه في كتابه عن قوم هود وصالح وعن أصحاب مدين وعن اهل سبأ في قصة سليمان والهدهد ، حتى أن جاء إبراهيم عليه السلام بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى ارض مكة وهى واد غير ذى زرع وبها قبيلة جرهم ، وأسكنهما هناك فنشأ إسماعيل

عليه السلام وبنيت بلدة مكة ، وبنى إبراهيم عليه السلام الكعبة البيت الحرام ودعا الناس إلى دينه الحنيف وهو الإسلام فاستجيب له في الحجاز وما والاها وشرع لهم الحج كما يدل على جملة ذلك قول الله تعالى له فيما يحكيه القرآن : (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) ، الحج : 27 ثم تهود بعض الاعراب لمعاشرة كانت بينهم وبين اليهود النازلين بالحجاز ، وتسربت النصرانية إلى بعض أقطار الجزيرة ، والمجوسية إلى بعضها الاخر .

ثم وقعت وقائع بين آل إسماعيل وجرهم بمكة حتى آل إلى غلبة آل إسماعيل وإجلاء جرهم منها واستولى عمرو بن لحى على مكة وما والاها .

(360/379)

ثم إنه مرض مرضا شديدا فقيل له : إن البلقاء من أرض الشام حمة لو استحممت بها برئت فقصدها واستحم بها فبرئ ، ورأى هناك قوما يعبدون الأصنام فسألهم عنها فقالوا : هذه ارباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والاشخاص البشرية نستنصر بها فننصر ونستسقي بها فنسقى فأعجبه ذلك فطلب منهم صنما من اصنامهم فدفعوا إليه هبل فرجع إلى مكة ووضعه على الكعبة ، وكان معه إساف ونائلة وهما صنمان على شكل

زوجين – كما في الملل والنحل – أو شابين – كما في غيره – فدعا الناس إلى عبادة الأصنام وروج ذلك بين قومه فعادوا يعبدونها بعد إسلامهم وقد كانوا يسمون حنفاء لاتباعهم ملة إبراهيم عليه السلام فبقى عليهم الاسم وهجرهم المعنى وصار الحنفاء اسما للوثنيين (1) منهم .

وكان مما يقربهم إلى الوثنية أن الكعبة المشرفة كان يعظمها اليهود والنصارى والمجوس والوثنية جميعا فكان لا يظعن من مكة ظاعن إلا حمل معه شيئًا من حجارة الحرم تبركا وصبابة ، وحيثما حلوا وضعوه وطافوا به تيمنا وحبا للكعبة والحرم .

وعن هذه الأسباب شاعت الوثنية بين العرب عاربهم ومستعربهم ولم يبق من أهل التوحيد بينهم إلا آحاد لا يذكرون ، وكان من الأصنام المعروفة بينهم هبل وإساف ونائلة ، وهى التى أتى بها عمرو بن لحى ودعا إليها الناس ، واللات والعزى

---

(1) ولعل هذا هو الوجه في اصرار القرآن على توصيف إبراهيم بالحنيف والإسلام بالحنيفية .

ومناة وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وقد ذكرت هذه الثمان في القرآن ونسبت الخمس الاواخر منها إلى قوم نوح.

وروى في الكافي بإسناده إلى عبد الرحمن بن الاشل بياع الانماط عن الصادق عليه السلام أن يغوث كان موضوعا قبالة باب الكعبة ، وكان يعوق عن يمين الكعبة ونسر عن يسارها .

وفي الرواية أيضا أن هبل كان على سطح الكعبة وإساف ونائلة على الصفا والمروة.

وفي تفسير القمى قال : كانت ود لكلب ، وكانت سواع لهذيل ويغوث لمراد ، وكانت يعوق لهمدان ، وكانت نسر لحصين .

وكانت في الوثنية التى عندهم آثار من وثنية الصابئة كالغسل من الجنابة وغيره .

وفيها آثار من البرهمية كالقول بالانواء والقول بالدهر كما تقدم عن وثنية بوذه قال تعالى : (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) الجاثية : 24 وإن ذكر بعضهم أنه قول الماديين المنكرين لوجود الصانع .

وفيها شئ من الدين الحنيف وهو اسلام إبراهيم عليه السلام كالختنة والحج إلا أنهم خلطوه بسنن وثنية كالتمسح بالاصنام التى حول الكعبة والطواف عريانا ، والتلبية بقولهم : لبيك لبيك اللهم لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

وعندهم أمور أخر اختلقوه من عند أنفسهم كالقول بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام والقول بالصدى والهام والانصاب والازلام وأمور أخر مذكورة في التواريخ وقد تقدم تفسير

البحيرة والسائبة والوصيلة والحام في سورة المائدة في ذيل آية 103 وكذا ذكر الازلام والانصاب في ذيل آية 3 وآية 90 .

9 – دفاع الإسلام عن التوحيد و منازلته الوثنية .

لم تزل الدعوة الإلهية تخاصم الوثنية وتقاومه وتندب إلى التوحيد كما ذكره الله في كتابه فيما يقصه من دعوة الأنبياء والرسل كنوح وهود وصالح وإبراهيم وشعيب وموسى عليهم السلام ، وأشير إلى ذلك في قصص عيسى ولوط ويونس عليهم السلام .

وقد أجمل القول في ذلك في قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) الأنبياء : 25 .

وقد بدأ النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في دعوته العامة بدعاء الوثنيين من قومه إلى التوحيد بالحكمة والموعظة والجدال بالتى هي أحسن فلم يجيبوه إلا بالاستهزاء والاذى وفتنة من آمن به منهم وتعذيبه أشد العذاب حتى اضطر جمع من المسلمين إلى ترك مكة والهجرة إلى الحبشة ، ثم مكروا لقتله (صلى الله عليه وآله وسلم) فهاجر إلى المدينة ثم هاجر إليها بعده عدة من المؤمنين .

ولم يلبثوا حتى تعلقوا به بالقتال ، وقاتلوه ببدر وأحد والخندق وفي غزوات أخرى كثيرة حتى أظهره الله تعالى عليهم بفتح مكة فظهر (صلى الله عليه وآله وسلم) البيت والحرم من أوثانهم ، وكسر الأصنام المنصوبة حول الكعبة المشرفة ، وكان هبل منصوبا على سطح الكعبة فأصعد عليا عليه السلام إليه فرماه إلى الأرض وكان - على ما يقال - أعظم أصنامهم فدفن - على ما ذكروه - في عتبة باب المسجد .

والإسلام شديد العناية بحسم مادة الوثنية وتخلية القلوب عن الخواطر الداعية إليها وصرف النفوس حتى عن الحومان حولها والاشراف عليها ، وذلك مشهود مما ندب إليه من المعارف الاصلية والاخلاق الكريمة والاحكام الشرعية فتراه بعد الاعتقاد الحق أنه لا إله إلا الله له الأسماء الحسنى يملك كل شئ ، له الوجود الاصيل الذي يستقل بذاته وهو الغنى عن العالمين ، وكل ما هو غيره منه يبتدئ واليه يعود ، واليه يفتقر في جميع شؤون ذاته حدوثا وبقاء فمن أسند إلى شئ شيئا من الاستقلال بالقياس إليه تعالى - لا بالقياس إلى غيره - في شئ من ذاته أو صفاته أو اعماله فهو مشرك بحسبه .

وتراه يأمر بالتوكل على الله ، والثقة بالله ، والدخول تحت ولاية الله ، والحب في الله ، والبغض في الله ، وإخلاص العمل لله ، رو ينهى عن الاعتماد بغير الله ، والركون إلى غيره ، والاطمئنان إلى الأسباب الظاهرة ورجاء من دونه ، والعجب والكبر إلى غير ذلك مما يوجب إعطاء الاستقلال لغيره والشرك به .

وتراه ينهى عن السجدة لغيره تعالى ، وينهى عن اتخاذ التماثيل ذوات الاظلال وعن تصوير ذوى الارواح ، وينهى عن طاعة غير الله والاصغاء إليه فيما يأمر وينهى إلا ما رجع إلى طاعة الله كطاعة الأنبياء وأئمة الدين ، وينهى عن البدعة واتباعها وعن اتباع خطوات الشيطان .

والاخبار المأثورة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام متظافرة في أن الشرك ينقسم إلى جلى وخفى ، وأن الشرك ذو مراتب كثيرة لا يسلم من جميعها إلا المخلصون ، وأنه أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء ، وقد روى في الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) الشعراء : 89 ، القلب السليم الذى يلقى ربه ليس فيه أحد سواه . قال : وكل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط وإنما أرادوا بالزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للاخرة .

وورد أيضا أن عبادته تعالى طمعا في الجنة عبادة الاجراء ، وعبادته خوفا من النار عبادة العبيد ، وحق العبادة أن يعبد تعالى حبا له وتلك عبادة الكرام ، وهذا مقام مكنون لا يمسه

إلا المطهرون وقد تقدمت عدة من هذه الروايات في بعض الأبحاث السابقة من الكتاب .

10 - بناء سيرة النبي على التوحيد ونفى الشركاء : أجمل تعالى سيرته (صلى الله عليه وآله وسلم) التى أمره باتخاذها والسير بها في المجتمع البشرى في قوله : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) آل عمران : 64 ، وقال تعالى يشير إلى ما داخل دينهم من عقائد الوثنية : (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل) المائدة : 77 .

وقال أيضا يذم أهل الكتاب : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) التوبة : 31 .

وكان (صلى الله عليه وآله وسلم) قد سوى بين الناس في إجراء الأحكام والحدود وقارب بين طبقات المجتمع كالحاكم والمحكوم ، والرئيس والمرؤوس ، والخادم والمخدوم ، والغنى والفقير ، والرجل والمرأة ، والشريف والوضيع فلا كرامة ولا فخر ولا تحكم لاحد

على أحد إلا كرامة التقوى والحساب إلى الله والحكم إليه .

وكان (صلى الله عليه وآله وسلم) يقسم بالسوية ، وينهى عن تظاهر القوى بقوته بما يتأثر وينكسر به قلب الضعيف المهين كتظاهر الاغنياء بزينتهم على الفقير المسكين ، والحكام والرؤساء بشوكتهم على الرعية .

وكان (صلى الله عليه وآله وسلم) يعيش كأحد من الناس لا يمتاز منهم في مأكل أو مشرب أو ملبس أو مجلس أو مشية أو غير ذلك ، وقد تقدم جوامع سيرته في آخر الجزء السادس من هذا الكتاب .

(كلام آخر ملحق بالكلام السابق) نزن فيه تعليم القرآن الكريم بقياسه إلى تعاليم ويدا ، و أوستا ، والتوراة ، والانجيل على نحو الاجمال والكلية في فصول وهذا بحث تحليلي شريف .

---

1 - التناسخ عند الوثنيين : من الاصول الاولية التى تبتنى عليها البرهمية ومثلها البوذية والصابئية هو التناسخ وهو أن العالم محكوم بالكون والفساد دائما فهذا العالم المشهود لنا وكذا ما فيه من الاجزاء مكون عن عالم مثله سابق عليه وهكذا إلى غير النهاية ،

وسيفسد هذا العالم كما لا يزال يفسد أجزاؤه ويتكون منه عالم آخر وهكذا إلى غير النهاية ، والإنسان يعيش في كل من هذه العوالم على ما اكتسبه في عالم يسبقه فمن عمل صالحا واكتسب ملكة حسنة فستتعلق نفسه بعد مفارقة البدن بالموت ببدن سعيد ويعيش على السعادة ، وهو ثوابه ، ومن أخلد إلى الأرض واتبع هواه فسوف يعيش بعد الموت في بدن شقى ويقاسي فيه أنواع العذاب إلا من عرف البرهم واتحد به فإنه ينجو من الولادة الثانية ويعود ذاتا أزلية أبدية هي عين البهاء والسرور والحياة والقدرة والعلم لا سبيل للفناء والبطلان إليها .

ولذلك كان من الواجب الدينى على الإنسان أن يؤمن بالبرهم (وهو الله أصل كل شئ) ويتقرب إليه بالقرابين والعبادات ، ويتحلى بالاخلاق الكريمة والاعمال الصالحة فإن عزفت نفسه الدنيا وتخلق بكرائم الاخلاق وتحلى بصوالح الأعمال وعرف البرهم بمعرفة نفسه صار برهمنا واتحد بالبرهم وصار هو هو ، وهو السعادة الكبرى والحياة البحتة ، وإلا فليؤمن بالبرهم وليعمل صالحا حتى يسعد في حياته التالية وهى آخرته .

لكن البرهم لما كان ذاتا مطلقة محيطا بكل شئ غير محاط لشئ كان أعلى وأجل من أن يعرفه الإنسان إلا بنوع من نفى النقائص أو يناله بعبادة أو قربان فمن الواجب علينا أن نتقرب بالعبادة إلى اوليائه وأقوياء خلقه حتى يكونوا شفعاء لنا عنده ، وهؤلاء هم الالهة الذين يعبدون من دون الله بعبادة اصنامهم ، وهم على كثرتهم إما من الملائكة أو من الجن أو من أرواح المكملين من البراهمة ، وإنما يعبد الجن خوفا من شرهم ، وغيرهم طمعا في رحمتهم وخوفا من سخطهم ومنهم الأزواج والبنون والبنات لله تعالى .

فهذه جمل ما تتضمنه البرهمية ويعلمه علماء المذهب من البراهمة .

لكن الذى يتحصل من (أوبانيشاد) (1)

وهو القسم الرابع من كتاب (ويدا) المقدس ربما لم يوافق ما تقدم من كليات عقائدهم وإن اوله علماء المذهب من البراهمة .

فإن الباحث الناقد يجد أن رسائل (أوبانيشاد) المعلمة للمعارف الإلهية وإن كانت تصف العالم الالوهى والشؤون المتعلقة به من الأسماء والصفات والافعال من إبداء وإعادة وخلق ورزق وإحياء وإماتة وغير ذلك بما يوصف به الأمور الجسمانية المادية كالانقسام والتبعض والسكون والحركة والانتقال والحلول والاتحاد والعظم والصغر وسائر الأحوال الجسمانية المادية إلا أنها تصرح في مواضع منها أن برهم (2) ذات مطلقة متعالية من أن يحيط به حد له الأسماء الحسنى والصفات العليا من حياة وعلم وقدرة ، منزه عن نعوت النقص

وأعراض المادة ، والجسم ليس كمثله شئ .

وتصرح (3) بأنه تعالى أحدى الذات لم يولد من شئ ولم يلد شيئًا وليس له

---

(1) أوبانيشاد كالخاتمة لكتب (ويدا) المقدسة وهى رسائل متفرقة مأثورة من كبار رجال الدين من عرفائهم القدماء الاقدمين تحتوى جمل ما حصلوه من المعارف الإلهية بالكشف ويعتبرها البراهمة وحيا سماويا .

(2) هذا كثير الورود يعثر عليه الراجع في أغلب فصول أوبانيشاد .

(3) (لم يولد منه شئ ولم يتولد من شئ وليس له كفوا أحد) اوبانيشاد (شيت استر) ادهيا السادس آية 8 (السر الأكبر) .

كفوو مثل البتة .

وتصرح (1) بأن الحق أن لا يعبد غيره تعالى ولا يتقرب إلى غيره بقربان بل الحرى بالعبادة هو وحده لا شريك له .

وتصرح (2) كثيرا بالقيامة وأنه الأجل الذى ينتهى إليه الخلقة ، وتصف ثواب الأعمال وعقابها بعد الموت بما لا يأبى الانطباق على البرزخ من دون أن يتعين حمله على التناسخ .

ولا خبر في هذه الأبحاث الإلهية الموردة فيها عن الاوثان والاصنام وتوجيه العبادات وتقديم القرابين إليها .

وهذه التى نقلناها من (أوبانيشاد) – وما تركناه اكثر – حقائق سامية ومعارف حقة تطمئن إليها الفطرة الإنسانية السليمة ، وهى – كما ترى – تنفى جميع أصول الوثنية الموردة في اول البحث .

والذى يهدى إليه عميق النظر أنها كانت حقائق عالية كشفها آحاد من أهل ولاية الله ثم أخبروا بما وجدوا بعض تلامذتهم الاخذين منهم غير أنهم تكلموا غالبا بالرمز واستعملوا في تعاليمهم الامثال .

ثم جعل ما أخذ من هؤلاء أساسا تبتنى عليه سنة الحياة التى هي الدين المجتمع عليه عامة الناس ، وهى معارف دقيقة لا يحتملها إلا الاحاد من أهل المعرفة لارتفاع سطحها عن الحس والخيال اللذين هما حظ العامة من الادراك وكمال صعوبة إدراكها على العقول الراجلة غير المتدربة في المعارف الحقة .

واختصاص نيلها بالاقلين من الناس وحرمان الأكثرين من ذلك وهى دين إنساني أول المحذور فإن الفطرة أنشأت العالم الإنساني مغروزة على الاجتماع المدنى ، وانفصال بعضهم عن بعض في سنة الحياة وهى الدين إلغاء لسنة الفطرة وطريقة الخلقة .

على أن في ذلك تركا لطريق العقل وهو أحد الطرق الثلاث : الوحى والكشف

(1) قال شبت استر : (اعمل الصالحات لتلك الذات النورانية إلى أي ملك اقدم القربان وأترك تلك الذات الظاهرة ؟) اوبانيشاد شيت استر .

ادهيا الرابع آية 13 .

(2) وهذا كثير الورود في فصول اوبانيشاد يعثر عليه المراجع .

والعقل ، وأعمها وأهمها بالنظر إلى حياة الإنسان الدنيوية فالوحي لا يناله إلا أهل العصمة من الأنبياء المكرمين ، والكشف لا يكرم به إلا الاحاد من أهل الاخلاص واليقين ، الناس حتى أهل الوحى والكشف في حاجة مبرمة إلى تعاطى الحجة العقلية في جميع شؤون الحياة الدنيوية ولا غنى لها عن ذلك ، وفي إهمال هذا الطريق تسليط التقليد الاجباري على جميع شؤن المجتمع الحيوية من اعتقادات وأخلاق وأعمال ، وفي ذلك سقوط الإنسانية .

على أن في ذلك إنفاذا لسنة الاستعباد في المجتمع الإنساني ويشهد بذلك التجارب التاريخي المديد في الأمم البشرية التى عاشت في دين الوثنية أو جرت فيهم سنن الاستعباد باتخاذ أرباب من دون الله .

2 – سريان هذه المحاذير إلى سائر الاديان : الاديان العامة الاخر على ما فيها من القول بتوحيد الألوهية لم تسلم من شرك العبادة فساقهم ذلك إلى الابتلاء بعين ما ابتليت به الوثنية البرهمية من المحاذير التى أهمها الثلاثة المتقدمة .

أما البوذية والصابئة فذلك فيهم ظاهر والتاريخ يشهد بذلك ، وقد تقدم شئ مما يتعلق بعقائدهم وأعمالهم .

وأما المجوس فهم يوحدون (أهورامزدا) بالالوهية لكنهم يخضعون بالتقديس ليزدان وأهرمن والملائكة الموكلين بشؤون الربوبية وللشمس والنار وغير ذلك ، والتاريخ يقص ما كانت تجرى فيهم من سنة الاستعباد واختلاف الطبقات والتدبر والاعتبار يقضى أنه إنما تسرب ذلك كله إليهم من ناحية تحريف الدين الاصيل ، وقد ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيهم : (أنه كان لهم نبى فقتلوه وكتاب فأحرقوه) .

وأما اليهود فالقرآن يقص كثيرا من أعمالهم وتحريفهم كتاب الله واتخاذهم العلماء أربابا من دون الله ، وما ابتلاهم الله به من انتكاس الفطرة ورداءة السليقة .

وأما النصارى فقد فصلنا القول فيما انحرفوا فيه من النظر والعمل في الجزء الثالث من الكتاب فراجع وإن شئت فطبق مفتتح إنجيل يوحنا ورسائل بولس على سائر الاناجيل وتممه بمراجعة تاريخ الكنيسة فالكلام في ذلك طويل .

فالبحث العميق في ذلك كله ينتج أن المصائب العامة في المجتمعات الدينية في العالم الإنساني من مواريث الوثنية الأولى التى أخذت المعارف الإلهية والحقائق العالية الحقة مكشوفة القناع مهتوكة الستر فجعلتها أساس السنن الدينية ، وحملتها على الافهام العامة التى لا تأنس إلا بالحس والمحسوس فأنتج ذلك ما أنتج .

3 - إصلاح الإسلام لهذه المفاسد : أما الإسلام فإنه أصلح هذه المفاسد إذ قلب هذه المعارف العالية في قالب البيان الساذج الذى يصلح لهضم الافهام الساذجة والعقول العادية فصارت تلامسها من وراء حجاب وتتناولها ملفوفة محفوفة ، وهذا هو الذى يصلح به حال العامة وأما الخاصة فإنهم ينالونها مسفرة مكشوفة في جمالها الرائع وحسنها البديع آمنين مطمئنين وهم في زمرة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، قال الله تعالى : (والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) الزخرف : 4 ، وقال : (إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون) الواقعة : 79 ، وقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : (إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم) .

وعالج غائلة الشرك والوثنية في مرحلة التوحيد بنفى الاستقلال في الذات والصفات عن كل شئ إلا الله سبحانه فهو تعالى القيوم على كل شئ ، وركز الافهام في معرفة الألوهية بين التشبيه والتنزيه فوصفه تعالى بأن له حياة لكن لا كحياتنا ، وعلما لا كعلمنا ، وقدرة لا كقدرتنا وسمعا لا كسمعنا ، وبصرا لا كبصرنا ، وبالجملة ليس كمثله شئ وأنه أكبر من أن يوصف ، وأمر الناس مع ذلك أن لا يقولوا في ذلك قولا إلا عن علم ، ولا يركنوا إلى اعتقاد إلا عن حجة عقلية يهضمها عقولهم وأفهامهم .

فوفق بذلك أولا لعرض الدين على العامة والخاصة شرعا سواء ، وثانيا أن استعمل العقل السليم من غير أن يترك هذه الموهبة الإلهية سدى لا ينتفع بها ، وثالثا أأن قرب بين الطبقات المختلفة في المجتمع الإنساني غاية ما يمكن فيها من التقريب من غير ان ينعم على هذا ويحرم ذاك أو يقدم واحدا ويؤخر آخر قال تعالى : (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) الأنبياء : 92 وقال : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) الحجرات : 13 .

وهذا إجمال من القول يمكنك أن تعثر على تفصيل القول في أطرافه في أبحاث متفرقة

تقدمت في هذا الكتاب والله المستعان .

4 - ربما يظن أن ما ورد في الادعية من الاستشفاع بالنبي آله المعصومين صلوات الله عليهم ومسألته تعالى بحقهم وزيارة قبورهم وتقبيلها والتبرك بتربتهم وتعظيم آثارهم من الشرك المنهى عنه وهو الشرك الوثني محتجا بأن هذا النوع من التوجه العبادي فيه إعطاء تأثير ربوبي لغيره تعالى وهو شرك وأصحاب الاوثان إنما أشركوا لقولهم في أوثانهم : إن هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

وقولهم : إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، ولا فرق في عبادة غير الله سبحانه بين أن يكون ذلك الغير نبيا أو وليا أو جبارا من الجبابرة أو غيرهم فالجميع من الشرك المنهى عنه .

وقد فاتهم أولا : أن ثبوت التأثير سواء كان ماديا أو غير مادى في غيره تعالى ضروري لا سبيل إلى إنكاره ، وقد أسند تعالى في كلامه التأثير بجميع أنواعه إلى غيره ، ونفى التأثير عن غيره تعالى مطلقا يستلزم إبطال قانون العلية والمعلولية العام الذى هو الركن في جميع أدلة التوحيد ، وفيه هدم بنيان التوحيد .

نعم المنفى من التأثير عن غيره تعالى هو الاستقلال في التأثير ولا كلام لاحد فيه ، وأما نفى

مطلق التأثير ففيه إنكار بديهة العقل والخروج عن الفطرة الإنسانية .

ومن يستشفع بأهل الشفاعة الذين ذكرهم الله في مثل قوله : (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) الزخرف : 86 وقوله : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) الأنبياء : 28 .

أو يسأل الله بجاههم ويقسمه بحقهم الذى جعله لهم عليه بمثل قوله مطلقا : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون) الصافات : 173 وقوله : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا) المؤمن : 51 .

أو يعظمهم ويظهر حبهم بزيارة قبورهم وتقبيلها والتبرك بتربتهم بما أنهم آيات الله وشعائره تمسكا بمثل قوله تعالى : (ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) الحج : 32 ، وآية القربى وغير ذلك من كتاب وسنة .

فهو في جميع ذلك يبتغى بهم إلى الله الوسيلة وقد قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة) المائدة : 35 فشرع به ابتغاء الوسيلة ، وجعلهم بما شرع من حبهم وتعزيرهم وتعظيمهم وسائل إليه ، ولا معنى لإيجاب حب شئ وتعظيمه وتحريم آثار ذلك فلا مانع من التقرب إلى الله بحبهم وتعظيم أمرهم وما لذلك من الآثار إذا كان على وجه التوسل والاستشفاع من غير أن يعطوا استقلال التأثير والعبادة البتة .

وثانيا : أنه فاتهم الفرق بين أن يعبد غير الله رجاء أن يشفع عند الله أو يقرب إلى الله ، وبين أن يعبد الله وحده مع الاستشفاع والتقرب بهم إليه ففى الصورة الأولى إعطاء الاستقلال وإخلاص العبادة لغيره تعالى وهو الشرك في العبودية والعبادة ، وفي الصورة الثانية يتمحض الاستقلال لله تعالى ويختص العبادة به وحده لا شريك له .

وإنما ذم تعالى المشركين لقولهم : (إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى) حيث أعطوهم الاستقلال وقصدوهم بالعبادة دون الله سبحانه ، ولو قالوا : إنما نعبد الله وحده ونرجو مع ذلك أن يشفع لنا ملائكته أو رسله وأولياؤه بإذنه أو نتوسل إلى الله بتعظيم شعائره وحب أوليائه ، لما كفروا بذلك بل عادت شركاؤهم كمثل الكعبة في الإسلام هي وجهة وليست بمعبودة ، وإنما يعبد بالتوجه إليها الله .

وليت شعرى ما ذا يقول هؤلاء في الحجر الاسود وما شرع في الإسلام من استلامه وتقبيله ؟ وكذا في الكعبة ؟ فهل ذلك كله من الشرك المستثنى من حكم الحرمة ؟ فالحكم حكم ضروري عقلي لا يقبل تخصصا ولا استثناء ، أو أن ذلك من عبادة الله محضا وللحجر حكم الطريق والجهة ، وحينئذ فما الفرق بينه وبين غيره إذا لم يكن تعظيمه على وجه إعطاء الاستقلال وتمحيض العبادة ، ومطلقات تعظيم شعائر الله وتعزير النبي (صلى الله

عليه وآله وسلم) وحبه ومودته وحب أهل بيته ومودتهم وغير ذلك في محلها . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 10 صـ 247.296 ﴾

(373/379)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثمانون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/380)

الجزء الثمانون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 50 ﴾ من سورة هود عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 60 ﴾ من نفس السورة

(4/380)

قوله تعالى ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (50) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (51) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تم من ذلك ما هو كفيل بغرض السورة ، وختم بأن العاقبة دائماً للمتقين ، أتبع بالدليل

على ذلك من قصص الأنبياء مع الوفاء بما سيقت له قصة نوح - على جميعهم السلام - من الحث على المجاهرة بالإنذار فقال تعالى: ﴿وإلى﴾ أي ولقد ارسلنا إلى ﴿عاد أخاهم﴾ وبينه فقال: ﴿هوداً﴾ ولما تقدم أمر نوح مع قومه، استشرف السامع إلى معرفة ما قال هود عليه السلام هل هو مثل قوله أو لا؟ فاستأنف الجواب بقوله: ﴿قال يا قوم﴾ الذين هم أعز الناس لدي ﴿اعبدوا الله﴾ أي ذا الجلال والإكرام وحده؛ ثم صرح وعلل فقال: ﴿ما لكم﴾ وأغرق في النفي فقال: ﴿من إله﴾ أي معبود بحق ﴿غيره﴾ فدعا إلى أصل الدين كما هو دأب سائر النبين والمرسلين؛ ثم ختم ذلك بمواجهتهم بما يسوءهم من الحق وما ثناه عن ذلك رجاء ولا خوف فقال: ﴿إن﴾ أي ما ﴿أنتم إلا مفترون﴾ أي متعمدون الكذب على الله في إشراككم به سبحانه لأن ما على التوحيد من أدلة العقل غير خاف على عاقل فكيف مع تنبيه النقل! وذلك مكذب لمن أشرك، أي فاحذروا عقوبة المفتري؛ ثم نفى أن يكون له في ذلك غرض غير نصحهم بقوله موضع "إني ناصح لكم بهذا الأمر فلا يسوءكم مواجهتي لكم فيه بما تكرهون" ﴿يا قوم﴾ مكرراً لاستعطاف ﴿لا أسألكم﴾ أي في المستقبل كما لم أسالكم في الماضي ﴿عليه﴾ أي على هذا الإنذار ﴿أجراً﴾ أي فلست موضع تهمة ﴿إن﴾ أي ما؛ ﴿أجري﴾ ثم وصف من توكل عليه سبحانه بما يدل على الكفاية فعليّ وجوب شكره فقال: ﴿إلا على الذي فطرني﴾ أي أبتدأ خلقي ولم يشاركه فيّ أحد فهو الغني المطلق لا أوجه رغبتي

إلى غيره كما يجب على كل أحد لكونه فطرة .

ولما كان الخلاف الذي لا حظ فيه جهة الدنيا لا يحتاج الإنسان في الدلالة على أن صاحبه ملجأ إليه من جهة الله ، وأنه لا نجاة إلا به إلى غير العقل ، سبب عن قوله هذا الإنكار عليهم في قوله : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ .

(5/380)

ولما دعاهم مشيراً إلى ترهيبهم مستدلاً على الصدق بنفي الغرض ، رغبهم في إدامة الخوف مما مضى بقوله : ﴿ ويا قوم ﴾ ومن هم أعز الناس عليّ ولهم قدرة على ما طلب منهم ﴿ استغفروا ربكم ﴾ أي اطلبوا غفرانه بطاعتكم له لما يجب له بإحسانه إليكم .

وأشار إلى علو رتبة التوبة بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ أي تسموا عالي هذه الرتبة بأن تطلبوا ستر الله لذنوبكم ثم ترجعوا إلى طاعته بالندم والإقلاع والاستمرار ﴿ يرسل السماء ﴾ أي الماء النازل منها أو السحاب بالماء ﴿ عليكم مدراراً ﴾ أي هاطلة بمطر غزير متتابع ﴿ ويزدكم قوة ﴾ أي عظيمة مجموعة ﴿ إلى قوتكم ﴾ ثم عطف على قوله ﴿ استغفروا ﴾ قوله : ﴿ ولا تتولوا ﴾ أي تكلفوا أنفسكم غير ما جبلت عليه من سلامة الانقياد فتبالغوا في الإعراض - بما أشار إليه إثبات التاء ﴿ مجرمين ﴾ أي

قاطعين لأنفسكم - ببناء أمركم على الظنون الفاسدة عن خيرات الدنيا والآخرة. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 3 صـ 541.542﴾

(6/380)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله:

القراءات: ﴿ فطرني ﴾ بفتح الياء: أبو جعفر ونافع والبزي غير الخزاعي ﴿ إني أشهد ﴾ بالفتح: أبو جعفر ونافع. ﴿ فإن تولوا ﴾ بتشديد التاء: البزي وابن فليح. ﴿ ويستخلف ﴾ بالجزم: الخزاز عن هبيرة. الباقون بالرفع ﴿ يومئذ ﴾ بفتح الميم وكذلك في " المعارج ": أبو جعفر ونافع غير إسماعيل وعلي الشموني والبرجمي وعباس. الآخرون بالجر. ﴿ ألا ان ثمود ﴾ غير منصرف والوقف بغير الألف: حمزة وحفص وسهل ويعقوب. الباقون بالتنوين والوقف بالألف. ﴿ لثمود ﴾ بالتنوين في الوصل: علي.

الوقوف: ﴿ هوداً ﴾ ط ﴿ غيره ﴾ ط ﴿ مفترون ﴾ 5 ﴿ أجراً ﴾ ط ﴿ فطرني ﴾ ط ﴿ تعقلون ﴾ 5 ﴿ مجرمين ﴾ 5 ﴿ بمؤمنين ﴾ 5 ﴿ بسوء ﴾ ط ﴿ تشركون ﴾ 5 لا ﴿ لا تنظرون ﴾ 5 ﴿ وربكم ﴾ ط ﴿ بناصيتها ﴾ ط ﴿

مستقيم ﴾ 5 ﴿ به إليكم ﴾ ط للاستئناف إلا لمن قرأ ﴿ ويستخلف ﴾ بالجزم ﴿ غيركم ﴾ ج لاحتمال ما بعده الاستئناف والحال ﴿ شيئاً ﴾ ط ﴿ حفيظ ﴾ 5 ﴿ منا ﴾ ج لحق المحذوف أي وقد نجيناهم ﴿ غليظ ﴾ 5 ط ﴿ عنيد ﴾ 5 ﴿ ويوم القيامة ﴾ ط ﴿ ربهم ﴾ ط ﴿ هود ﴾ 5 ﴿ صالحاً ﴾ م لما مر في "الأعراف".

﴿ غيره ﴾ ط ﴿ إليه ﴾ ط ﴿ مجيب ﴾ 5 ﴿ مريب ﴾ 5 ﴿ تخسير ﴾ 5 ﴿ قريب ﴾ 5 ﴿ أيام ﴾ ط ﴿ مكذوب ﴾ ط ﴿ يومئذٍ ﴾ ط ﴿ العزيز ﴾ 5 ﴿ جاثمين ﴾ 5 لا لكاف التشبيه ﴿ فيها ﴾ ط ﴿ ربهم ﴾ ط ﴿ لثمود ﴾ 5. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 30. 31 ﴾

(7/380)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾

اعلم أن هذا هو القصة الثانية من القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة، واعلم أن هذا معطوف على قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ [الحديد : 26] والتقدير : ولقد

أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً وقوله : ﴿ هُودًا ﴾ عطف بيان .

واعلم أنه تعالى وصف هوداً بأنه أخوهم ومعلوم أن تلك الأخوة ما كانت في الدين ، وإنما كانت في النسب ، لأن هوداً كان رجلاً من قبيلة عاد ، وهذه القبيلة كانت قبيلة من العرب وكانوا بناحية اليمن ، ونظيره ما يقال للرجل يا أخا تميم ويا أخا سليم ، والمراد رجل منهم .

فإن قيل : إنه تعالى ، قال في ابن نوح ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود : 46] فبين أن قرابة النسب لا تفيد إذا لم تحصل قرابة الدين ، وههنا أثبت هذه الأخوة مع الاختلاف في الدين ، فما الفرق بينهما ؟

قلنا : المراد من هذا الكلام استمالة قوم محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن قومه كانوا يستبعدون في محمد ، مع أنه واحد من قبيلتهم ، أن يكون رسولاً إليهم من عند الله ، فذكر الله تعالى أن هوداً كان واحداً من عاد ، وأن صالحاً كان واحداً من ثمود ؛ لإزالة هذا الاستبعاد .

واعلم أنه تعالى حكى عن هود عليه السلام ، أنه دعا قومه إلى أنواع من التكاليف .

فالنوع الأول : أنه دعاهم إلى التوحيد ، فقال : ﴿ ياقوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴾ وفيه سؤال وهو أنه كيف دعاهم إلى عبادة الله تعالى قبل أن أقام الدلالة على ثبوت الإله تعالى ؟

قلنا : دلائل وجود الله تعالى ظاهرة ، وهي دلائل الآفاق والأنفس وقلما توجد في الدنيا

طائفة ينكرون وجود الإله تعالى ، ولذلك قال تعالى في صفة الكفار : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ .

(8/380)

قال مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازي رحمه الله وختم له بالحسن ، دخلت بلاد الهند فرأيت أولئك الكفار مطبقين على الاعتراف بوجود الإله ، وأكثر بلاد الترك أيضاً كذلك ، وإنما الشأن في عبادة الأوثان ، فإنها آفة عمت أكثر أطراف الأرض وهكذا الأمر كان في الزمان القديم ، أعني زمان نوح وهود وصالح عليهم السلام ، فهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، كانوا يمنعونهم من عبادة الأصنام ، فكان قوله : ﴿ اعبدوا الله ﴾ معناه لا تعبدوا غير الله والدليل عليه أنه قال عقيبه : ﴿ مَالَكُمْ مّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ وذلك يدل على أن المقصود من هذا الكلام منعهم عن الاشتغال بعبادة الأصنام .

وأما قوله : ﴿ مَالَكُمْ مّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ فقرىء ﴿ غَيْرُهُ ﴾ بالرفع صفة على محل الجار والمجرور ، وقرىء بالجر صفة على اللفظ .

ثم قال : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴾ يعني أنكم كاذبون في قولكم إن هذه الأصنام تحسن عبادتها ، أو في قولكم إنها تستحق العبادة ، وكيف لا يكون هذا كذباً وافتراء وهي

جمادات لا حس لها ولا إدراك ، والإنسان هو الذي ركبها وصورها فكيف يليق بالإنسان الذي صنعها أن يعبدها وأن يضع الجبهة على التراب تعظيماً لها ، ثم إنه عليه الصلاة والسلام لما أرشدهم إلى التوحيد ومنعهم عن عبادة الأوثان قال : و ﴿ يا قوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى الذى فَطَرَنِى ﴾ وهو عين ما ذكره نوح عليه السلام ، وذلك لأن الدعوة إلى الله تعالى إذا كانت مطهرة عن دنس الطمع ، قوي تأثيرها في القلب .

ثم قال ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يعني أفلا تعقلون أني مصيب في المنع من عبادة الأصنام ، وذلك لأن العلم بصحة هذا المنع ، كأنه مركوز في بدائه العقول .

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثاني من التكاليف التي ذكرها هود عليه السلام لقومه ، وذلك لأنه في المقام الأول دعاهم إلى التوحيد ، وفي هذا المقام دعاهم إلى الاستغفار ثم إلى التوبة ، والفرق بينهما قد تقدم في أول هذه السورة .

قال أبو بكر الأصم : استغفروا ، أي سلوه أن يغفر لكم ما تقدم من شرككم ثم توبوا من بعده بالندم على ما مضى وبالعزم على أن لا تعدوا إلى مثله ؛ ثم إنه عليه السلام قال : " إنكم متى فعلتم ذلك فالله تعالى يكثر النعم عندكم ويقويكم على الانتفاع بتلك النعم " وهذا غاية ما يراد من السعادات ، فإن النعم إن لم تكن حاصلة تعذر الانتفاع وإن كانت حاصلة ، إلا أن الحيوان قام به المنع من الانتفاع بها لم يحصل المقصود أيضاً ، أما إذا كثرت النعمة وحصلت القوة الكاملة على الانتفاع بها ، فههنا تحصل غاية السعادة والبهجة فقوله تعالى : ﴿ يُرْسِلِ السماء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ إشارة إلى تكثير النعم لأن مادة حصول النعم هي الأمطار الموافقة ، وقوله : ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ ﴾ إشارة إلى كمال حال القوى التي بها يمكن الانتفاع بتلك النعمة ، ولا شك أن هذه الكلمة جامعة في البشارة بتحصيل السعادات وأن الزيادة عليها ممتنعة في صريح العقل ، ويجب على العاقل أن يتأمل في هذه اللطائف ليعرف ما في هذا الكتاب الكريم من الأسرار المخفية ، وأما المفسرون فإنهم قالوا القوم كانوا مخصوصين في الدنيا بنوعين من الكمال : أحدهما : أن بساتينهم ومزارعهم كانت في غاية الطيب والبهجة ، والدليل عليه قوله : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ العماد التى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى البلاد ﴾ [الفجر : 7 ، 8] والثاني : أنهم كانوا في غاية القوة والبطش ولذلك قالوا : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت : 15] ، ولما كان القوم مفتخرين على سائر الخلق بهذين الأمرين وعدهم

هود عليه السلام ، أنهم لو تركوا عبادة الأصنام واشتغلوا بالاستغفار والتوبة فإن الله تعالى يقوي حالهم في هذين المطلوبين ويزيدهم فيها درجات كثيرة ، ونقل أيضاً أن الله تعالى لما بعث هوداً عليه السلام إليهم وكذبوه وحبس الله عنهم المطر سنين وأعقم أرحام نسائهم فقال لهم هود : إن آمنتم بالله أحيا الله

(11/380)

بلادكم ورزقكم المال والولد ، فذلك قوله : ﴿ يُرْسِلِ السماء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ والمدرار الكثير الدر وهو من أبنية المبالغة وقوله : ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ ﴾ ففسروا هذه القوة بالمال والولد ، والشدة في الأعضاء ، لأن كل ذلكم ما يتقوى به الإنسان .

فإن قيل : حاصل الكلام هو أن هوداً عليه السلام قال : لو اشتغلتم بعبادة الله تعالى لانفتحت عليكم أبواب الخيرات الدنيوية ، وليس الأمر كذلك ، لأنه عليه الصلاة والسلام قال : " خص البلاء بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل " فكيف الجمع بينهما ، وأيضاً فقد جرت عادة القرآن بالترغيب في الطاعات بسبب ترتيب الخيرات الدنيوية والأخروية عليها ، فأما الترغيب في الطاعات ، لأجل ترتيب الخيرات الدنيوية عليها ، فذلك لا يليق بالقرآن بل هو طريق مذكور في التوراة .

الجواب : أنه لما أكثر الترغيب في السعادات الأخروية لم يبعد الترغيب أيضاً في خير الدنيا بقدر الكفاية .

وأما قوله : ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ فمعناه : لا تعرضوا عني وعما أدعوكم إليه وأرغبكم فيه مجرمين أي مصرين على إجرامكم وآثامكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 8.11 ﴾

(12/380)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وإلى عَادٍ ﴾ يعني : أرسلنا إلى عاد ﴿ أخاهم ﴾ نبيُّهم ﴿ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ قَوْمُ اعبدوا الله ﴾ يعني : وحّدُوا الله ، ﴿ مَا لَكُم مّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ يعني : ليس لكم من رب سواه ، ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ يعني : ما أنتم إلا تكذبون في مقالتكم بأن لله شريكاً .

قوله تعالى : ﴿ الصالحات قل لَّا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي : على الإيمان ﴿ أَجْراً ﴾ يعني : جعلاً ، ورشوة .

ومعناه لست بطامع في أموالكم ، ﴿ إِنْ أَجْرِىَ ﴾ يعني : ما ثوابي ﴿ إِلَّا عَلَى الذى

فَطَرَنِى ﴾ يعني : خلقني ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أن الذي خلقكم هو ربكم ، وهو أحق بعبادتكم من غيره؟ ثم قال : ﴿ إِسْرَارًا فَقُلْتُ استغفروا رَبَّكُمْ ﴾ قال الضحاك : يعني : وحّدوا ربكم.

وقال الكلبي : يعني : صلُّوا لربكم.

ويقال معناه : قولوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، ﴿ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ يعني : توبوا إليه من شرككم ﴿ يُرْسِلِ السماء عَلَيْكُمْ مُّدْرَارًا ﴾ يعني : إن تبتم يغفر لكم ذنوبكم ، ويرسل عليكم المطر متتابعاً دائماً ، وينبت لكم كل ما تحتاجون إليه ، ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ ﴾ يعني : شدة مع شدتكم بالماء والولد.

ويقال : صحة الجسم ، وطول العمر.

﴿ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾ يقول : لا تُعْرِضُوا كافرين.

ويقال : لا تعرضوا عما أدعوكم إليه من الإيمان والتوحيد.

﴿ قَالُواْ يا هُودِ مَا جِئْتَنَا بِبَيّنَةٍ ﴾ يعني : بحجة وبيان ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِى ءالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ يقول : لا نترك عبادة آلهتنا بقولك ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني : لا نصدقك بأنك رسول الله ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعتراك ﴾ يعني : ما نقول : إلا أصابك ﴿ بَعْضُ ءالِهَتِنَا بِسُوء ﴾ يعني : بشرٍّ من بعض الأوثان ، الجنون ، والخبل فاجتنبها سالماً.

ويقال : ما نقول لك إلا نصيحة ، كيلا يصيبك من بعض آلهتنا شدة .

فردّ عليهم هود ف ﴿ قَالَ إِنِّى أُشْهِدُ اللهَ واشهدوا ﴾ أنتم ﴿ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ من الأوثان ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ﴾ يعني : اعملوا بي أنتم وآلهتكم ما استطعتم ، واحتالوا في هلاكي ﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ أي لا تمهلون .

ثمّ قال تعالى : ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ ﴾ يعني : فوّضت أمري إلى الله ، ﴿ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ﴾ يعني : خالقي وخالقكم ، ورازقي ورازقكم ، ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ يعني : قادراً عليها يحييها ويميتها ، وهو يرزقها ، وهي في ملكه ، وسلطانه .

ثمّ قال : ﴿ إِنَّ رَبِّى على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يعني : على الحقّ ، وإن كان هو قادراً على كل شيء ، فإنه لا يشاء إلا العدل .

وقال مجاهد : إن ربي على صراط مستقيم ، يعني : على الحق .

ويقال : على صراط مستقيم ، يعني : بيده الهدى ، وهو يهدي إلى صراط مستقيم ، وهو دين الإسلام .

ويقال : يعني : يدعوكم إلى طريق الإسلام .

ويقال معناه : أمرني ربي أن أدعوكم إلى صراط مستقيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 154.156 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ يُرْسِلِ السماء عليكم مدراراً ﴾

فيه وجهان : أحدهما : أنه المطر في إبانه ، قاله هارون التيمي .

الثاني : المطر المتتابع ، قاله ابن عباس .

ويحتمل وجهين آخرين :

أحدهما : يُدرُّه عند الحاجة .

والثاني : يُدرُّ به البركة ، وهو مأخوذ من درور اللبن من الضرع . ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : يعني شدة إلى شدتك ، قاله مجاهد .

الثاني : خصباً إلى خصبكم ، قاله الضحاك .

الثالث : عزاً إلى عزكم بكثرة عددكم وأموالكم ، قاله علي بن عيسى . الرابع : أنه ولد الولد ، قاله عكرمة . ويحتمل خامساً يزدكم قوة في إيمانكم إلى قوتكم في أبدانكم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(15/380)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾

﴿ وإلى عاد ﴾ عطف على قوله ﴿ إلى قومه ﴾ [هود : 25] في قصة نوح ، و ﴿ عاد ﴾ قبيلة وكانت عرباً – فيما ذكر – و " هود " عليه السلام منهم ، وجعله ﴿ أخاهم ﴾ بحسب النسب والقرابة ؛ فإن فرضناه ليس منهم فالأخوة بحسب المنشأ واللسان والجيرة . وأما قول من قال هي أخوة بحسب النسب الآدمي فضعيف .

وقرأ جمهور الناس : " يا قومِ " بكسر الميم ، وقرأ ابن محيصن : " يا قومُ " برفع الميم ، وهي لغة حكاها سيبويه ، وقرأ جمهور الناس : " غيرُه " بالرفع على النعت أو البدل من موضع قوله : ﴿ من إله ﴾ . وقرأ الكسائي وحده بكسر الراء ، حملاً على لفظ : ﴿ إله ﴾ وذلك أيضاً على النعت أو البدل ويجوز " غيرَه " نصباً على الاستثناء .

(16/380)

و ﴿ مفترون ﴾ معناه كاذبون أفحش كذب في جعلكم الألوهية لغير الله تعالى ، والضمير في قوله : ﴿ عليه ﴾ عائد على الدعاء إلى الله تعالى ، والمعنى : ما أجرى وجزائي إلا من عند الله ، ثم وصفه بقوله ﴿ الذي فطرني ﴾ فجعلها صفة رادة عليهم في عبادتهم الأصنام واعتقادهم أنها تفعل ، فجعل الوصف بذلك في درج كلامه ، منبهاً على أفعال الله تعالى ، وأنه هو الذي يستحق العبادة ، و" فطر " معناه اخترع وأنشأ ، وقوله : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ توقيف على مجال القول بأن غير الفاطر إله ، ويحتمل أن يريد : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ إذ لم أطلب عرضاً من أعراض الدنيا إني إنما أريد النفع لكم والدار الآخرة ؛ والأول أظهر ، و" الاستغفار " طلب المغفرة ، وقد يكون ذلك باللسان ، وقد يكون بإنابة القلب وطلب الاسترشاد والحرص على وجود المحجة الواضحة ، وهذه أحوال يمكن أن تقع من الكفار ، فكأنه قال لهم : اطلبوا غفران الله بالإنابة ، وطلب الدليل في نبوتي ، ثم توبوا بالإيمان من كفركم ، فيجيء الترتيب على هذا مستقيماً وإلا احتيج في ترتيب التوبة بعد الاستغفار إلى تحيل كثير فإما أن يكون : ﴿ توبوا ﴾ أمراً بالدوام ، و" الاستغفار " طلب المغفرة بالإيمان ، وإلى هذا ذهب الطبري ، وقال أبو المعالي في الإرشاد : " التوبة " في اصطلاح المتكلمين هي الندم ، بعد أن قال : إنها في اللغة الرجوع ، ثم ركب على هذا أن قال إن الكافر إذا آمن ليس إيمانه توبة وإنما توبته ندمه بعد .

قال القاضي أبو محمد : والذي أقول : إن التوبة عقد في ترك متوب منه يتقدمها علم بفساد المتوب منه وصلاح ما يرجع إليه ، ويقترن بها ندم على فارط المتوب منه لا ينفك منه وهو من شروطها ؛ فأقول إن إيمان الكافر هو توبته من كفره ، لأنه هو نفس رجوعه ، و" تاب " في كلام العرب معناه رجع إلى الطاعة والمثلى من الأمور ، وتصرف اللفظة في القرآن ب " إلى " يقتضي أنها الرجوع لا الندم ، وإنما لا حق لازم للتوبة كما قلنا ، وحقيقة التوبة ترك مثل ما تيب منه عن عزمة معتقدة على ما فسرناه ، والله المستعان .

و" مدراراً " هو بناء تكثير وكان حقه أن تلحقه هاء ، ولكن حذفت على نية النسب وعلى أن ﴿ السماء ﴾ المطر نفسه ، وهو من در يدر ؛ ومِفعال قد يكون من اسم الفاعل الذي هو من ثلاثي ، ومن اسم الفاعل الذي هو من رباعي : وقول من قال : إنه ألزم للرباعي غير لازم .

ويروى أن عاداً كان الله تعالى قد حبس عنها المطر ثلاث سنين ، وكانوا أهل حرث وبساتين وثمار ، وكانت بلادهم شرق جزيرة العرب ، فلهذا وعدهم بالمطر ، ومن ذلك فرحهم حين رأوا العارض ، وقولهم : ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ [الأحقاف : 24] وحضهم على استنزال المطر بالإيمان والإنابة ، وتلك عادة الله في عباده ، ومنه قول نوح عليه السلام " استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً " ، ومنه فعل

عمر رضي الله حين جعل جميع قوله في الاستسقاء ودعائه استغفاراً فسقي ، فسئل عن ذلك ، فقال : لقد استنزلت المطر بمجاديح السماء .

(18/380)

وقوله : ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ ، ظاهره العموم في جميع ما يحسن الله تعالى فيه إلى العباد ، وقالت فرقة : كان الله تعالى قد حبس نسلهم ، فمعنى قوله : ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ أي الولد ، ويحتمل أن خص القوة بالذكر إذ كانوا أقوى العوالم فوعدوا بالزيادة فيما بهروا فيه ، ثم نهاهم عن التولي عن الحق والإعراض عن أمر الله . و﴿ مجرمين ﴾ حال من الضمير في ﴿ تتولوا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(19/380)

وقال القرطبى :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ﴾ أي وأرسلنا ، فهو معطوف على ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾

نُوحاً ﴾ .

وقيل له أخوهم لأنه منهم ، وكانت القبيلة تجمعهم ؛ كما تقول : يا أخا تميم .

وقيل : إنما قيل له أخوهم لأنه من بني آدم كما أنهم من بني آدم ؛ وقد تقدّم هذا في "الأعراف"

وكانوا عبدة الأوثان .

وقيل : هم عادان ، عاد الأولى وعاد الأخرى ، فهؤلاء هم الأولى ؛ وأما الأخرى فهو شدّاد

ولقمان المذكوران في قوله تعالى : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ العماد ﴾ [الفجر : 7] .

وعاد اسم رجل ثم استمر على قوم انتسبوا إليه .

﴿ قَالَ يا قوم اعبدوا الله مَا لَكُم مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ بالخفض على اللفظ ، و"غيره" بالرفع على

الموضع ، و"غيرَه" بالنصب على الاستثناء .

﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴾ أي ما أنتم في اتخاذكم إلهاً غيره إلا كاذبون عليه جلّ وعزّ .

قوله تعالى : ﴿ يا قوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الذي فطرني ﴾ تقدّم

معناه .

والفِطرة ابتداء الخلق .

﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ ما جرى على قوم نوح لما كذبوا الرسل .

قوله تعالى : ﴿ ويا قوم استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ ﴾ تقدّم في أوّل السورة .

﴿ يُرْسِلِ السمآء ﴾ جزم لأنه جواب وفيه معنى المجازاة .

﴿ عَلَيْكُمْ مِّدْرَارًا ﴾ نصب على الحال ، وفيه معنى التكثير ؛ أي يرسل السماء بالمطر متتابعاً يتلو بعضه بعضاً ؛ والعرب تحذف الهاء في مِفعال على النسب ، وأكثر ما يأتي مِفعال من أفعل ، وقد جاء هاهنا من فَعل ؛ لأنه من درّت السماء تَدِر وتَدُر فهي مدرار . وكان قوم هود أعني عاداً أهل بساتين وزروع وعمارة ، وكانت مساكنهم الرمال التي بين الشام واليمن كما تقدّم في "الأعراف" .

﴿ وَيَزِدْكُمْ ﴾ عطف على يرسل .

﴿ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ قال مجاهد : شدّة على شدّتكم .

الضحاك : خصباً إلى خصبكم .

علي بن عيسى : عزّاً على عزّكم .

عِكرمة : ولداً إلى ولدكم .

وقيل : إن الله حبس عنهم المطر (وأعقم الأرحام) ثلاث سنين فلم يولد لهم ولد ؛ فقال لهم هود : إن آمنتم أحيى الله بلادكم ورزقكم المال والولد ؛ فتلك القوّة .

وقال الزجاج : المعنى يزدكم قوّة في النِّعم .

﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ أي لا تعرضوا عما أدعوكم إليه ، وتقيموا على الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(21/380)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وإلى عاد ﴾

يعني وأرسلنا إلى عاد ﴿ أخاهم هوداً ﴾ يعني أخاهم في النسب لا في الدين ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ يعني وحدوا الله ولا تشركوا معه شيئاً في العبادة ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ يعني أنه تعالى هو إلهكم لا هذه الأصنام التي تعبدونها فإنها حجارة لا تضر ولا تنفع ﴿ إن أنتم إلا مفترون ﴾ يعني ما أنتم إلا كاذبون في عبادتكم غيره .

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾

يعني على تبليغ الرسالة ﴿ أجراً ﴾ يعني جعلاً آخذه منكم ﴿ إن أجري ﴾ يعني ما ثوابي ﴿ إلا على الذي فطرني ﴾ يعني : خلقني فإنه هو الذي رزقني في الدنيا ويثيبني في الآخرة ﴿ أفلا تعقلون ﴾ يعني فتتعظون ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ﴾ أي آمنوا به فالاستغفار هنا بمعنى الإيمان لأنه هو المطلوب أولاً ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ يعني من شرككم

وعبادتكم غيره ومن سالف ذنوبكم ﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ يعني : ينزل المطر عليكم متتابعاً مرة بعد مرة في أوقات الحاجة إليه وذلك أن بلادهم كانت مخصبة كثيرة الخير والنعم فأمسك الله عنهم المطر مدة ثلاث سنين فأجدبت بلادهم وقحطت بسبب كفرهم فأخبرهم هود عليه السلام أنهم إن آمنوا بالله وصدقوه أرسل الله إليهم المطر فأحيا به بلادهم كما كانت أول مرة ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ يعني شدة مع شدتكم ، وقيل : معناه أنكم إن آمنتم يقوّكم بالأموال والأولاد وذلك أنه سبحانه وتعالى أعقم أرحام نسائهم فلم تلد فقال لهم هود عليه السلام إن آمنتم أرسل الله المطر فتزدادون مالاً ويعيد أرحام الأمهات إلى ما كانت عليه فيلدن فتزدادون قوة بالأموال والأولاد وقيل : تزدادون قوة في الدين إلى قوة الأبدان ﴿ ولا تتولوا مجرمين ﴾ يعني ولا تعرضوا عن قبول قولي ونصحي حال كونكم مشركين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(22/380)

وقال أبو حيان :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾

وإلى عاد أخاهم معطوف على قوله : أرسلنا نوحاً إلى قومه ، عطف الواو على المجرور ،

والمنصوب على المنصوب ، كما يعطف المرفوع والمنصوب على المرفوع والمنصوب نحو : ضرب زيد عمراً ، وبكر خالداً ، وليس من باب الفصل بالجار والمجرور بين حرف العطف والمعطوف نحو : ضربت زيداً ، وفي البيت عمراً ، فيجيء منه الخلاف الذي بين النحويين : هل يجوز في الكلام ، أو يختص بالشعر ؟ وتقدير الكلام في هود وعاد وأخوته منهم في الأعراف ، وقراءة الكسائي غيره بالخفض ، وقيل : ثم فعل محذوف أي : وأرسلنا إلى عاد أخاهم ، فيكون إذ ذاك من عطف الجمل ، والأول من عطف المفردات ، وهذا أقرب لطول الفصل بالجمل الكثيرة بين المتعاطفين .

وهوداً بدل أو عطف بيان .

وقرأ محيصن : يا قوم بضم الميم كقراءة حفص : قل رب احكم بالحق بالضم ، وهي لغة في المنادى المضاف حكاها سيبويه وغيره ، وافتراؤهم قال الحسن : في جعلهم الألوهية لغير الله تعالى .

وقال الزمخشري : باتخاذكم الأوثان له شركاء .

والضمير في عليه عائد على الدعاء إلى الله ، ونبه بقوله : الذي فطرني ، على الرد عليهم في عبادتهم الأصنام ، واعتقادهم أنها تفعل ، وكونه تعالى هو الفاطر للموجودات يستحق إفراده بالعبادة .

وأفلا تعقلون توقيف على استحالة الألوهية لغير الفاطر ، ويحتمل أن يكون أفلا تعقلون

راجعاً إلى أنه إذا لم أطلب عرضاً منكم ، وإنما أريد نفعكم فيجب انقيادكم لما فيه نجاتكم ، كأنه قيل : أفلا تعقلون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله تعالى ، وهو ثواب الآخرة ، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك .

(23/380)

وتقدّم الكلام في ﴿ استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ أول هذه السورة قصد هود استمالتهم إلى الإيمان وترغيبهم فيه بكثرة المطر وزيادة القوة ، لأنهم كانوا أصحاب زورع وبساتين وعمارات حراصاً عليها أشد الحرص ، فكانوا أحوج شيء إلى الماء ، وكانوا مدلين بما أوتوا من هذه القوة والبطش والبأس مهيئين في كل ناحية .

وقيل : أراد القوة في المال ، وقيل : في النكاح.

قيل : وحبس عنهم المطر ثلاث سنين ، وعقمت أرحام نسائهم .

وقد انتزع الحسن بن علي رضي الله عنه من هذا ومن قوله : ويمددكم بأموال وبنين ، أن كثرة الاستغفار قد يجعله الله سبباً لكثرة الولد .

وأجاب من سأله وأخبره أنه ذو مال ولا يولد له بالاستغفار ، فأكثر من ذلك فولد له عشر بنين .

وروى أبو صالح عن ابن عباس في قوله : ويزدكم قوة إلى قوتكم ، أنه الولد وولد الولد .

وقال مجاهد وابن زيد : في الجسم والبأس ، وقال الضحاك : خصباً إلى خصبكم ، وقيل : نعمة إلى نعمته الأولى عليكم ، وقيل : قوة في إيمانكم إلى قوة في أبدانكم . انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(24/380)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِلَى عَادٍ ﴾

متعلقٌ بمضمر معطوفٌ على قوله تعالى : ﴿ أرسلنا ﴾ في قصة نوحٍ وهو الناصبُ لقوله تعالى : ﴿ أَخَاهُم ﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم أي واحداً منهم في النسَب كقولهم : يا أخا العرب ، وتقديمُ المجرورِ على المنصوب هاهنا للحِذارِ عن الإضمار قبل الذكر ، وقيل : متعلّقٌ بالفعل المذكورِ فيما سبق وأخاهم معطوفٌ على نوحاً وقد مر في سورة الأعراف وقوله تعالى : ﴿ هُوداً ﴾ عطفُ بيانٍ لأخاهم وكان عليه الصلاة والسلام من جملتهم فإن هودُ بنُ عبدِ اللَّه بنِ رباحِ بن الخلود بن العوص بن إرمَ بنِ سامِ بن نوحٍ عليه الصلاة والسلام ، وقيل : هودُ بنُ شالحِ بنِ أرفخشذَ بنِ سامِ بن نوحٍ بنِ عمّ أبي عاد ، وإنما جعل منهم لأنهم

أفهمُ لكلامه وأعرفُ بحاله وأرغبُ في اقتفائه ﴿ قَالَ ﴾ لما كان ذكرُ إرسالِه عليه الصلاة والسلام إليهم مظنةً للسؤال عما قال لهم ودعاهم إليه أُجيب عنه بطريق الاستئنافِ فقيل : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أي وحده كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ فإنه استئنافٌ يجري مَجرى البيانِ للعبادة المأمورِ بها ، والتعليلُ للأمر بها كأنه قيل : خُصّوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئاً ، إذ ليس لكم من إله سواه ، وغيرُه بالرفع صفةٌ لإله باعتبار محلِّه وقرىء بالجر حملاً له على لفظه ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ ما أنتم باتخاذكم الأصنامَ شركاءَ له أو بقولكم : إن الله أمرنا بعبادتها ﴿ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴾ عليه تعالى عن ذلك علواً كبيراً ﴿ يا قَومِ لاَ أَسْأَلُكُم عَلَيهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ خاطبَ به كلُّ نبيَ قومَه إزاحةً لما عساهم يتوهّمونه وإمحاضاً للنصيحة فإنها ما دامت مشوبةً بالمطامع بمعزل عن التأثير ، وإيرادُ الموصولِ للتفخيم ، وجعلُ الصلةِ فعلَ الفطرةِ لكونه أقدامَ النعمِ الفائضةِ من جناب الله تعالى المستوجبةِ للشكر الذي لا يتأتى إلا بالجريانِ على موجب أمرِه الغالبِ

مُعرِضاً عن المطالب الدنيوية التي من جملتها الأجرُ ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أي أتغفلون عن هذه القضيةِ أو ألا تتفكرون فيها فلا تعقِلونها أو أتجهلون كلَّ شيءٍ فلا تعقلون شيئاً أصلاً فإن

هذا مما لا ينبغي أن يخفى على أحد من العقلاء .

﴿ ويَا قَومِ اسْتَغْفِرُوا ربّكُم ﴾ اطلُبوا مغفرَته لما سلف منكم من الذنوب بالإيمان والطاعة ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ أي توسّلوا إليه بالتوبة ، وأيضاً التبرُّؤ من الغير إنما يكون بعد الإيمان بالله تعالى والرغبةِ فيما عنده ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ ﴾ أي المطرَ ﴿ عَلَيكُمْ مّدْرَاراً ﴾ أي كثيرَ الدّرور ﴿ ويزدْكُمْ قُوَّةً ﴾ مضافةً ومنضمّةً ﴿ إِلَى قُوّتِكُم ﴾ أي يضاعفْها لكم ، وإنما رغّبهم بكثرة المطرِ لأنهم كانوا أصحابَ زروعٍ وعمارات ، وقيل : حبس الله تعالى عنهم القطرَ وأعقم أرحامَ نسائِهم ثلاث سنين فوعدهم عليه الصلاة والسلام كثرةَ الأمطارِ وتضاعُفَ القوة بالتناسل ، على الإيمان والتوبة ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا ﴾ أي لا تُعرضوا عما دعوتُكم إليه ﴿ مُجْرِمِينَ ﴾ مصرّين على ما كنتم عليه من الإجرام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(26/380)

وقال الآلوسى :

﴿ وإلى عَادٍ ﴾

متعلق بمحذوف معطوف على قوله سبحانه : ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ [هود : 25] في قصة نوح

وهو الناصب لقوله تعالى : ﴿ أخاهم ﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم أي واحداً منهم في النسب كقولهم : يا أخا العرب ، وقدم المجرور ليعود الضمير عليه ، وقيل : إن ﴿ إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ ﴾ عطف على قوله تعالى : ﴿ نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ ﴾ [هود : 25] المنصوب على المنصوب .

والجار والمجرور على الجار والمجرور ، وهو من العطف على معمولي عامل واحد وليس من المسألة المختلف فيها ، نعم الأول أقرب كما في "البحر" لطول الفصل بالجمل الكثيرة بين المفردات المتعاطفة ، وقوله سبحانه : ﴿ هُودًا ﴾ عطف بيان لأخاهم وجوز أن يكون بدلاً منه وكان عليه السلام ابن عم أبي عاد وأرسل إليه من هو منهم ليكون ذلك أدعى إلى اتباعه ﴿ قَالَ ﴾ استئناف بياني حيث كان إرساله عليه السلام مظنة للسؤال عما قال لهم ودعاهم كأنه قيل : فما قال لهم حين أرسل إليهم ؟ فقيل : قال : ﴿ عَلَيْهِ قَوْمٌ ﴾ ناداهم بذلك استعطافاً لهم ، وقرأ ابن محيصن ﴿ عَلَيْهِ قَوْمٌ ﴾ بالضم وهي لغة في المنادى المضاف إلى الياء حكاها سيبويه .

(27/380)

وغيره ﴿ اعبدوا الله ﴾ أي وحده وكانوا مشركين يعبدون الأصنام ؛ ويدل على أن المراد ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ فإنه استئناف يجري مجرى البيان للعبادة المأمور بها ، والتعليل للأمر بها كأنه قيل : أفردوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئاً إذ ليس لكم إله غيره سبحانه على أنه لا اعتداد بالعبادة مع الإشراك ، فالأمر بها يستلزم الأمر بإفراده سبحانه بها و﴿ غَيْرُهُ ﴾ بالرفع صفة لإله باعتبار محله لأنه فاعل للظرف لاعتماده على النفي ، وقرأ الكسائي بالجر على أنه صفة له جار على لفظه ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ ما أنتم بجعلكم الألوهية لغيره تعالى كما قال الحسن أو بقولكم : إن الله تعالى أمرنا بعبادة الأصنام ﴿ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ عليه تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

﴿ يا قوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الذى فَطَرَنِى ﴾

(28/380)

خاطب به كل رسول قومه إزاحة لما عسى أن يتوهموه وتمحيضاً للنصيحة فإنها ما دامت مشوبة بالمطامع بمعزل عن التأثير ؛ وإيراد الموصول للتفخيم ، وجعل الصلة فعل الفطر الذي هو الإيجاد والإبداع لكونه أبعد من أن يتوهم نسبته إلى شركائهم ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] مع كونه أقدم النعم الفائضة من جناب الله

تعالى المستوجبة للشكر الذي لا يتأتى إلا بالجريان على موجب أمره سبحانه الغالب معرضاً عن المطالب الدنيوية التي من جملتها الأجر ، ولعل فيه إشارة إلى أنه عليه السلام غني عن أجرهم الذي إنما يرغب فيه للاستعانة به على تدبير الحال وقوام العيش بالله تعالى الذي أوجده بعد أن لم يكن وتكفل له بالرزق كما تكفل لسائر من أوجده من الحيوانات ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أي أتغفلون عن ذلك فلا تعقلون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله تعالى ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك فتنقادون لما يدعوكم إليه ؛ أو تجهلون كل شيء فلا تعقلون شيئاً أصلاً فإن الأمر مما لا ينبغي أن يخفى على أحد من العقلاء .

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾

من الشرك ﴿ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ أي ارجعوا إليه تعالى بالطاعة أو توبوا إليه سبحانه وأخلصوا التوبة واستقيموا عليها ، وقيل : الاستغفار كناية عن الإيمان لأنه من روادفه ، وحيث أن الإيمان بالله سبحانه لا يستدعي الكفر بغيره لغة قيل : ﴿ ثُمَّ تُوبُواْ ﴾ فكأنه قيل : آمنوا به ثم توبوا إليه تعالى من عبادة غيره ، وتعقب بأن قوله سبحانه : ﴿ اعْبُدُواْ اللهَ ﴾ [هود : 50] دل على اختصاصه تعالى بالعبادة فلو حمل ﴿ استغفروا ﴾ على ما ذكر لم يفد

فائدة زائدة سوى ما علق عليه ، وقد كان يمكن تعليقه بالأول ، والحمل على غير الظاهر مع قلة الفائدة مما يجب الاحتراز عنه في كلام الله تعالى المعجز ، وقيل : المراد بالاستغفار التوبة عن الشرك وبالتوبة التوبة عما صدر منهم غير الشرك ، وأورد عليه أيضاً أن الإيمان يجبّ ما قبله ، وقيل : المراد بالأول طلب المغفرة بالإيمان .

وبالثاني التوسل إليه سبحانه بالتوبة عن الشرك ، وأورد عليه أن التوسل المذكور لا ينفك عن طلب المغفرة بالإيمان لأنه من لوازمه فلا يكون بعده كما تؤذن به ﴿ ثُمَّ ﴾ وقيل : وقد تقدم بعض الكلام في ذلك أول السورة .

﴿ يُرْسِلِ السماء ﴾ أي المطر كما في قوله

: إذا (نزل السماء) بأرض قوم . . .

رعيناه وإن كانوا غضابا ﴾

عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ كثير الدر متتابعة من غير إضرار فمفعال للمبالغة كمعطار .

ومقدام .

﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ أي عزاً مضموماً إلى عزكم أو مع عزكم ويرجع هذا إلى قوله تعالى : ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ [نوح : 12] لأن العز الدنيوي بذلك ، وعن الضحاك تفسير القوة بالخصب ، وعن عكرمة تفسيرها بولد الولد ، وقيل : المراد بها قوة الجسم ، ورغبهم عليه السلام بكثرة المطر وزيادة القوة لأنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات ، وقيل : حبس الله تعالى عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين فوعدهم هود عليه السلام على الاستغفار والتوبة كثرة الأمطار وتضاعف القوة بالتناسل ، وقيل : القوة الأولى في الإيمان .

والثانية في الأبدان أي يزدكم قوة في إيمانكم إلى قوة في أبدانكم ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا ﴾ أي لا تعرضوا عما دعوتكم إليه ﴿ مُجْرِمِينَ ﴾ مصرين على ما أنتم عليه من الإجرام ، وقيل : مجرمين بالتولي وهو تكلف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 12 صـ ﴾

(31/380)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾

عطف على ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ [هود : 25] ، فعطف ﴿ وإلى عاد ﴾

على ﴿ إلى قومه ﴾ [هود : 25] ، وعطف ﴿ أخاهم ﴾ على ﴿ نوحاً ﴾ [هود : 25] ، والتقدير : وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً .

وهو من العطف على معمولَيْ عامل واحد .

وتقديم المجرور للتنبيه على أن العطف من عطف المفردات لا من عطف الجمل لأن الجارّ لا بد له من متعلّق ، وقضاءً لحق الإيجاز لِيُحْضَرَ ذكر عَاد مرتين بلفظه ثم بضميره .

ووصف (هود) بأنه أخو عاد لأنه كان من نسبهم كما يقال : يا أخا العرب ، أي يا عربي .

وتقدم ذكر عاد وهود في سورة الأعراف .

وجملة ﴿ قال ﴾ مبينة للجملة المقدّرة وهي ﴿ أرسلنا ﴾ [هود : 25] .

ووجه التصريح بفعل القول لأن فعل (أرسلنا) محذوف ، فلو بين بجملة ﴿ يا قوم اعبدوا ﴾ كما بين في قوله : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين ﴾ [هود : 25] لكان بياناً لمعدوم وهو غير جليّ .

وافتتاح دعوته بنداء قومه لاسترعاء أسماعهم إشارة إلى أهمية ما سيلقي إليهم .

وجملة ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ حال من ضمير ﴿ اعبدوا ﴾ أو من اسم الجلالة .

والإتيان بالحال الاستقصاد إبطال شركهم بأنّهم أشركوا غيره في عبادته في حال أنهم لا إله لهم غيره ، أو في حال أنّه لا إله لهم غيره .

وذلك تشنيع للشّرك .

وجملة ﴿ إن أنتم إلا مفترون ﴾ توبيخ وإنكار .

فهي بيان لجملة ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ ، أي ما أنتم إلاّ كاذبون في ادّعاء إلهية غير الله تعالى .

وجملة ﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجراً ﴾ إن كان قالها مع الجملة التي قبلها فإعادة النداء في أثناء الكلام تكرير للأهمية ، يقصد به تهويل الأمر واسترعاء السمع اهتماماً بما يستسمعونه ، والنداء هو الرابط بين الجملتين ؛ وإن كانت مقولة في وقت غير الذي قيلت فيه الجملة الأولى ، فكونها ابتداء كلام ظاهر .

(32/380)

وتقدم تفسير ﴿ لا أسألكم عليه أجراً ﴾ في قصة نوح عليه السّلام ، أي لا أسألكم أجراً على ما قلته لكم .

والتعبير بالموصول ﴿ الذي فطرني ﴾ دون الاسم العلم لزيادة تحقيق أنّه لا يسألهم على الإرشاد أجراً بأنه يعلم أن الذي خلقه يسوق إليه رزقه ، لأن إظهار المتكلم علمه بالأسباب يكسب كلامه على المسببات قوة وتحقيقاً .

ولذلك عطف على ذلك قوله : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ بفاء التفريع عاطفة استفهاماً إنكارياً

عن عدم تعقلهم، أي تأملهم في دلالة حاله على صدقه فيما يبلغ ونصحه لهم فيما يأمرهم.

والعقل: العلم.

وعطف جملة ﴿ ويا قوم ﴾ مثل نظيرها في قصة نوح عليه السّلام آنفاً.

والاستغفار: طلب المغفرة للذنب، أي طلب عدم المؤاخذة بما مضى منهم من الشرك، وهو هنا مكنى به عن ترك عقيدة الشرك، لأن استغفار الله يستلزم الاعتراف بوجوده ويستلزم اعتراف المستغفر بذنب في جانبه ولم يكن لهم ذنب قبل مجيء هود عليه السّلام إليهم غير ذنب الإشراك إذ لم يكن له شرع من قبل.

وأما ذنب الإشراك فهو متقرر من الشرائع السابقة جميعها فكان معلوماً بالضرورة فكان الأمر بالاستغفار جامعاً لجميع هذه المعاني تصريحاً وتكنية.

والتوبة: الإقلاع عن الذنب في المستقبل والندم على ما سلف منه.

وفي ماهية التوبة العزم على عدم العود إلى الذنب فيؤول إلى الأمر بالدّوام على التوحيد ونفي الإشراك.

و﴿ ثم ﴾ للترتيب الرتبي، لأن الدوام على الإقلاع أهم من طلب العفو عمّا سلف.

و﴿ يرسل السماء عليكم ﴾ جواب الأمر من ﴿ استغفروا ﴾.

والإرسال: بعْث من مكان بعيد فأطلق الإرسال على نزول المطر لأنه حاصل بتقدير الله فشبّه بإرسال شيء من مكان المرسل إلى المبعوث إليه.

والسماء من أسماء المطر تسمية للشيء باسم مصدره .

وفي الحديث : " خَطَبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أثر سماء .

" و ﴿ مدراراً ﴾ حال من السماء صيغة مبالغة من الدرور وهو الصبّ ، أي غزيراً .

(33/380)

جعل جزاءهم على الاستغفار والتوبة إمدادهم بالمطر لأنّ ذلك من أعظم النّعم عليهم في الدنيا إذ كانت عاد أهل زرع وكروم فكانوا بحاجة إلى الماء ، وكانوا يجعلون السّداد لخزن الماء .

والأظهر أن الله أمسك عنهم المطر سنين فتناقص نسلهم ورزقهم جزاء على الشرك بعد أن أرسل إليهم هوداً عليه السّلام ؛ فيكون قوله : ﴿ يرسل السماء ﴾ وعْداً وتنبيهاً على غضب الله عليهم ، وقد كانت ديارهم من حضرموت إلى الأحْقاف مدناً وحللاً وقباباً .

وكانوا أيضاً معجبين بقوة أمتهم وقالوا : ﴿ مَنْ أشد منا قوةً ﴾ [فصلت : 15] فلذلك جعل الله لهم جزاء على ترك الشرك زيادةَ قوتهم بكثرة العدد وصحة الأجسام وسعة الأرزاق ، لأن كلّ ذلك قوة للأمة يجعلها في غنى عن الأمم الأخرى وقادرة على حفظ استقلالها ويجعل أمماً كثيرة تحتاج إليها .

و ﴿ إلى قوتكم ﴾ متعلق بـ ﴿ يزدكم ﴾ .

وإنما عدّي بـ ﴿ إلى ﴾ لتضمينه معنى يَضُمّ .

وهذا وعد لهم بصلاح الحال في الدنيا رضي الله عنهم .

وعطف عليه ﴿ ولا تتولوا مجرمين ﴾ تحذيراً من الرجوع إلى الشرك .

والتّولي : الانصراف .

وهو هنا مجاز عن الإعراض .

و ﴿ مجرمين ﴾ حال من ضمير ﴿ تتولوا ﴾ أي متصفين بالإجرام ، وهو الإعراض عن قبول أمر الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(34/380)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾

يفتتح الحق سبحانه الآية بتحنينهم ومؤانستهم بالمرسَل إليهم ، فيُخبرهم أنه أخوهم ، ولا يمكن للأخ أن يريد لهم العَنَتَ ، بل هو ناصح ، مأمون عليهم ، وعلى ما يبلغهم به .

وحين يقول لهم :

﴿ يا قوم ﴾ [هود : 50] .

فهذا للإيناس أيضاً .

ثم يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده ؛ لأنهم اتخذوا غير الله إلهاً ، وهذا قمة الافتراء .

والله سبحانه لم يقل :

﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴾ [هود : 50] .

إلا لأن الفساد قد طَمَّ .

ويقول سبحانه بعد ذلك ما جاء على لسان هود : ﴿ يا قوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾

وكأن هوداً عليه السلام يقول لهم : ما الذي يشقُّ عليكم فيما آمركم به وأدعوكم إليه ، إنني أقدِّم لكم هذا البلاغ من الله تعالى ، ولا أسألكم عليه أجراً ، فليس من المعقول أن أنقلكم مما ألفتم ، ثم آخذ منكم مالاً مقابل ذلك ، ولا يمكن أن أجمع عليكم مشقة تَرْك ما تَعوَّدْتُم عليه وكذلك أجر تلك الدعوة .

وما دُمْتُ لن آخذ منكم أجراً ، إذن : فلا مشقة أكلِّفكم بها ، كما أنني في غِنًى عن ذلك الأجر ؛ لأن أجري على من أرسلني .

﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الذي فطرني أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [هود : 51] .

أي : أنَّ أجري على مَنْ خَلَقني مُعَدّا لهذه الرسالة ؛ لأن الفطرة تعني التكوين الأساسي للإنسان .

والحق سبحانه قد أعدَّ هوداً عليه السلام ليكون رسولاً ، ونحن نعلم أيضاً أن الأجر يكون عادة مقابلاً للمنفعة .

وسبق أن ضربنا المثل بمن يشتري بيتاً ، فهو يدفع ثمن البيت لصاحبه ، وتُسَمَّى هذه العملية بيعاً وشراءً .

أما إذا استأجر الإنسان بيتاً فهو يدفع إيجاراً مقابل انتفاعه بالسكن فيه .

وقول هود عليه السلام :

﴿ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ [هود : 51] .

(35/380)

يفيد أنه كان من الواجب أن يدفعوا أجراً كبيراً مقابل منفعتهم بما يدعوهم إليه ؛ لأن الأجر الذي تدفعونه في المستأجرات العامة لكم إنما يكون مقابلاً لمنافع موقوتة ، لكن ما يقدمه لهم هود عليه السلام هو منفعة غير موقوتة !

ولذلك ترك هود عليه السلام الأجر لمن يقدر عليه ، وهو الله سبحانه وتعالى . فهو القادر على كل شيء .

وقد أوضحنا من قبل أن كل مواكب الرسل جاءت بهذه العبارة :

﴿ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ [هود : 51] .

إلا إبراهيم وموسى عليهما السلام ؛ فسيدنا إبراهيم لم يَقُلْها بسبب أبيه ، وسيدنا موسى لم يقلها ؛ لأن فرعون قال له :

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ [الشعراء : 18] .

إذن : كان يجب على قوم هود أن يعقلوا الفائدة الجَمَّة ، وهي المنهج الرِّسالي الذي جاء به هود عليه السلام .

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان هود عليه السلام مخاطباً قومه : ﴿ ويا قوم استغفروا ربَّكُمْ ﴾

وهكذا نعلم أن الاستغفار هو إقرار بالتقصير وارتكاب الذنوب ، فنقول يارب اغفر لنا .

وساعة تطلب المغفرة من الله تعالى ، فهذا إعلان منك بالإيمان ، واعتراف بأن تكليف الحق لك هو تكليف حق .

وما دام الإنسان قد طلب من الله تعالى أن يغفر له الذي فات من ذنوب ، فعليه ألا يرتكب ذنوباً جديدة ، وبعد التوبة على العبد أن يحرص على تجنب المعاصي .

وعلى الإنسان أن يتذكَّر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأن الكائنات المسخرة هي مسخرة بأمر الله تعالى ؛ فلا تنسيك رتابة الحياة عن مسببها الواهب لكل النعم .

والحق سبحانه وتعالى حين يرسل رسولاً ، فأول ما ينزل به الرسول إلى الأمة هو أن يصحّح العقيدة في قمتها ، ويدعوهم إلى الإيمان بإله واحد يتلقَّون عنه " افعل " و " لا تفعل " .

(36/380)

وهنا يكون الكلام من هود عليه السلام إلى قومه " قوم عاد " ، والدعوة إلى الإيمان بإله واحد وعبادته ، والأخذ بمنهجه لا يمكن أن يقتصر على الطقوس فقط من الشهادة بوحدانية الله تعالى ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج .

ولكن عبادة الله تعالى هي أن تؤدِّي الشعائر والعبادات ، وتتقن كل عمل في ضوء منهج الله ، فلا تعزل الدين عن حركة الحياة .

والذين يخافون من دخول الإسلام في حركة الحياة ، يريدون منّا أن نقصر الدين على الطقوس ، ونقول لهم : إن الإسلام حينما دخل في حركة الحياة غزا الدنيا كلها ، وحارب حضارتين عريقتين ؛ حضارة الفرس في الشرق ، وحضارة الرومان في الغرب .

وهؤلاء كانوا أمماً لها حضارات قديمة وقوية ، وثقافات وقوانين ، ومع ذلك جاء قوم من البدو الأمّيين ؛ يقود عقيدتهم رجل أمّيٌّ أرسله الله سبحانه وتعالى ؛ فيطيح بكل هؤلاء ؛ نظماً وثقافات وارتقاءات بمستوى الحياة إلى مستوى طموح العقل .

يريد هؤلاء إذن أن يقوقعوا الإسلام في الأركان الخمسة فقط ؛ ليعزلوه عن حركة الحياة .

ونقول لهم : لا ، لا يمكنكم أن تقصروا العبادات على الأركان الخمسة فقط ؛ لأن العبادة معناها أن يوجد عابد لمعبود حقٍّ ، وأن يطيع العابد أوامر المعبود ؛ وتتمَّثل أوامر المعبود في " افعل " و " لا تفعل " ؛ وما لم يَرِدْ فيه " افعل " و " لا تفعل " ؛ فهو مباح ؛ إن شئت فعلته وإن شئت لم تفعله ؛ وبفعله أو عدم فعله لا يفسد الكون .

إذن : فالعبادة هي كل أمر صادر من الله تعالى ؛ فلا تعزلوها في الطقوس ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبلغنا ؛ وأوضح لنا أن أركان الإسلام الخمس هي التي بني عليها الإسلام ؛ وليست هي كل الإسلام .

إذن : فالإسلام بناء يقوم على أركان ؛ لذلك لا يمكن أن نحصر الإسلام في أركانه فقط ؛ فالإسلام هو كل حركة في الحياة ، ولا بد أن تنتظم حركات البشر تبعاً لمنهج الله ، لتنتظم الحياة كما انتظم الكون من حولنا .

فالعبادة تستوعب كل حركة في الحياة ، وقد فهم البعض خطأً أن العبادة تنحصر في باب العبادات في تقسيم الفقهاء ، وأغفلوا أن باب المعاملات هو من العبادة أيضاً ، واستقامة

الناس في المعاملات تؤدي إلى انتظام حياة الناس .

وفي الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ ويا قوم استغفروا ربَّكُمْ ﴾ [هود : 52] .

والاستغفار لا يكون إلا عن ذنوب سبقت ؛ وإذا كان هذا هو أول ما قاله هود عليه السلام لقومه ؛ إذن : فالاستغفار هنا عن الذنوب التي ارتكبوها مخالفة لمنهج الرسول الذي جاء من قبله ، أو هي الذنوب التي ارتكبوها بالفطرة .

ثم يدعوهم بقوله : ﴿ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ ﴾ [هود : 52] .

والتوبة تقتضي العزم على ألا تُنشئوا ذنوباً جديدة .

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ يُرْسِلِ السمآءَ عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود : 52] .

ولقائل أن يقول : وما صلة الاستغفار بهذه المسألة الكونية ؟

ونقول : إن للكون مالكاً لكلِّ ما فيه ؛ جماده ونباته وحيوانه ؛ وهو سبحانه قادر ، ولا يقدر كائن أن يعصي له أمراً ؛ وهو القادر أن يخرج الأشياء عن طبيعتها ؛ فإذا جاءت غيمة وتحسب أنها ممطرة ؛ قد يأمرها الحق سبحانه فلا تمطر .

مثلما قال سبحانه في موضع آخر من كتابه الكريم :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ

رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف : 24] .

إذن : فلا تأخذ الأسباب على أنها رتابة ؛ إنما ربُّ الأسباب يملكها ؛ فإن شاء فعل ما يشاء .

وإذا ما عبدتَ الله تعالى العبادة التي تنتظم بها كل حركة في الحياة ؛ فأنت تُقبل على عمارة الأرض ؛ وتوفِّر لنفسك القُوْتَ باستنباطه من الأسباب التي طمرها الله سبحانه وتعالى في الأرض .

(38/380)

والقوت كما نعلم من جنس الأرض ؛ لذلك لا بد أن نزرع الأرض ؛ وتَمُدَّ البذور جذورها الضارعة المسبِّحة الساجدة لله تعالى ؛ فيُمطر الحقُّ سبحانه السماءَ ؛ فتأخذ البذور حاجتها من الماء المتسرِّب إليها عبر الأرض ؛ ونأخذ نحن أيضاً حاجتنا من هذا الماء .

والسماء هي كل ما عَلاك فأظلَّكَ ؛ أما السماء العليا فهذا موضوع آخر ، وكل الأشياء دونها .

وانظروا قول الحق سبحانه :

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدنيا والآخرة فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السمآء ثُمَّ لْيَقْطَعْ

فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ [الحج : 15] .

أي : من كان يظن أن الله تعالى لن ينصر رسوله فليأت بحبل أو أي شيء ويربطه فيما علاه ويعلّق نفسه فيه ؛ ولسوف يموت ، وغيظه لن يرحل عنه .

﴿ يُرْسِلِ السمآءَ عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ [هود : 52] .

والمدرار : هو الذي يُدِرُّ بتتابع لا ضرر فيه ؛ لأن المطر قد يهطل بطغيان ضارٍّ ، كما فتح الله سبحانه أبواب السماء بماء منهمر .

إذن : المدرار هو المطر الذي يتوالى توالياً مُصلحاً لا مُفسداً .

ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يقول حين ينزل المطر : " اللهم حوالينا ولا علينا " .

ومتى أرسِل المطر مدراراً متتابعاً مصلحاً ؛ فالأرض تخضرُّ ؛ وتعمر الدنيا ؛ ونزداد قوة إلى قوتنا .

أما مَنْ يتولَّى ؛ فهو يُجرم في حقِ نفسه ؛ لأن إجرام العبد إنما يعود على نفسه ؛ لا تظنّ أن إجرام أيِّ عبدٍ بالمعصية يؤذي غيره .

والحق سبحانه يقول :

﴿ ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس : 44] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ﴾ : معطوفان على قوله ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ ﴾ [هود : 25] : مرفوعٌ على مرفوع ، ومجرور على مجرور ، كقولك : " ضرب زيد عمراً وبكر خالداً " ، وليس من باب ما فُصِل فيه بين حرف العطف والمعطوف بالجارِّ/ والمجرور نحو : " ضربت زيداً وفي السوق عمراً " فيجيءُ الخلاف المشهور . وقيل : بل هو على إضمار فعلٍ ، أي : وأَرْسَلْنا هوداً ، وهذا أوفق لطول الفصل . و " هوداً " بدلٌ أو عطفُ بيان لأخيهم .

وقرأ ابن محيصن " يا قومُ " بضم الميم ، وهي لغةٌ للعرب يَبْنون المضافَ للياء على الضم كقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ احكم ﴾ [الأنبياء : 112] بضمِّ الباء ، ولا يجوز أن يكونَ غيرَ مضاف للياء لما سيأتي في موضعه إن شاء الله .

وقوله : ﴿ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ قد ذُكر في الأعراف ما يتعلق به قراءةً وإعراباً .

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (51) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فطرني ﴾ : قرأ نافع والبزي بفتح الياء ، وأبو عمرو وقنبل بإسكانها .

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ

وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِّدْرَاراً ﴾ : منصوبٌ على الحال ، ولم يؤنَّثْه وإن كان مِنْ مؤنث لثلاثةِ أوجه ، أحدُهما : أن المراد بالسماء السحاب فذكَّر على المعنى . والثاني : أن مِفْعالاً للمبالغة فيستوي فيه المذكر والمؤنث كصبور وشكور وفعيل . الثالث : أن الهاء حُذِفَتْ مِنْ مِفْعال على طريق النَّسَب قاله مكي ، وقد تقدَّم إيضاحُه في الأنعام .

(40/380)

قوله : ﴿ إلى قُوَّتِكُمْ ﴾ يجوز أن يتعلَّقَ ب "يَزِدْكم" على التضمين ، أي : يُضِفْ إلى قوتكم قوةً أخرى ، أو يُجعل الجار والمجرور صفةً ل "قوة" فيتعلَّق بمحذوف . وقدَّره أبو البقاء "مضافةً إلى قوتكم" وهذا يأباه النحاة لأنهم لا يقدِّرون إلا الكونَ المطلقَ في مثله ، أو تُجْعل "إلى" بمعنى مع أي : مع قوتكم كقولِه تعالى : ﴿ إلى أَمْوَالِكُمْ ﴾ [النساء : 2] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 340.342 ﴾

(41/380)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (50) ﴾

كَلَّفَ الأنبياء - عليهم السلام- بالذهاب إلى الخَلْق لا سيما وقد عاينوا - بالحق - مَنْ تَقَدَّمَهُم من فترة الملأ ، ولكنهم تَحَمَّلُوا ذلك حين أَمرهُم الحقُّ بالتوجُّهِ إليهم فرَضُوا ، وأظهروا الدلالةَ ، وأَدَّوْا الرسالةَ ، ولكن ما زاد الناسُ إلا نفرةً على نفرة .

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (51) ﴾

لم يأتِ نبيٌّ من الأنبياء - عليهم السلام- إلاَّ وأَخْبَرَ أنه ليس له أنْ يطلبَ في الجملة أجْراً من اللّهِ لا من غيرِ الله .

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52) ﴾

استغفروا ربكم ثم توبوا إليه بعد الاستغفار ، مِنْ توهمكم أن نجاتكم باستغفاركم . بل تَحقَّقُوا بأنكم لا تجدون نجاتَكم إلا بفضلِ ربِّكم ؛ فَبِفَضْلِه وبتوفيقه توصَّلْتُم إلى استغفاركم لا باستغفاركم ، وصلتم إلى نجاتكم ، وبرحمته أَهَّلَكُم إلى استغفاركم ، وإلاَّ لَمَا وصلتم إلى توبتكم ولا إلى استغفاركم .

والاستغفار قَرْع باب الرزق ، فإذا رجع العبد إلى الله بحسن تضرعه ، فتح عليه أبوابَ رحمته ، ويَّسر َله أسبابَ نعمته .

ويقال يُنزِّل على ظواهركم أمطارَ النِّعمة ، وعلى ضمائركم وسرائركم يُنزِّل أنواعَ المِنَّة ، ويزيدكم قوة على قوة ؛ قوة تحصلون بها توسعة أنواع الرزْقِ ، وقوةً تحصلون بها تحسين أصناف الخُلُقِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 140 . 141 ﴾

(42/380)

قوله تعالى ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آَلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آَلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما محّض لهم النصح على غاية البيان ، ما كان جوابهم إلا أن ﴿ قالوا ﴾ أي عاد بعد أن أظهر لهم هود عليه السلام من المعجزات ما مثله آمن عليه البشر ﴿ يا هود ﴾ نادوه باسمه

غلظة وجفاء ﴿ ما جئتنا ببينة ﴾ فأوضحوا لكل ذي لب أنهم مكا برون لقويم العقل وصريح النقل ، فهم مفترون كما كان العرب يقولون للنبي - صلى الله عليه وسلم - بعد أن أتاهم من الآيات على يده ما يفوت الحصر ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ ﴿ وما نحن ﴾ وأغرقوا في النفي فقالوا : ﴿ بتاركي آلهتنا ﴾ مجاوزين لها أو صادرين ﴿ عن قولك ﴾ وتركهم للعطف بالفاء - المؤذنة بأن الأول سبب الثاني أي الواو في قولهم : ﴿ وما نحن لك ﴾ أي خاصة ، وأغرقوا في التفي فقالوا : ﴿ بمؤمنين ﴾ - دليل على أنهم تركوا إتباعه عناداً ، لا أنهم يعتقدون أنه لم يأت ببينة ؛ وإلى ذلك يرشد أيضاً تعبيرهم بالاسمية التي تدل على الثبات فإذا نفي لم ينتف الأصل ؛ والبينة : الحجة الواضحة في الفصل بين الحق والباطل ، والبيان : فصل المعنى من غيره حتى يظهر للنفس محرراً مما سواه ، والحامل على ترك البينة بعد ظهورها صد الشبهة عنها أو تقليد الرؤساء في دفعها واتهام موردها أو اعتقاد أصول فاسدة تدعو إلى جحدها أو العناد للحسد ونحوه ، والجامع له كله وجود الشبهة .

ولما قالوا هذا الكلام البين الفساد من غير تعرض لنقض ما قال لهم بنوع شبهة ، كان كأنه قيل لهم : هذا الذي قلته لكم وهو لا أبين منه ولا أعدل ، افرضوا أنه ما ظهر لكم صحته فما تقولون إنه حملني عليه مع أن فيه منابذ تكم وأنتم أولاد عمي وأعز الناس عليّ ؟ فقالوا : ﴿ إن نقول إلا اعتراك ﴾ أي أصابك وغشيك غشياناً التصق بك التصاق العروة بما هي

فيه مع التعمد والقوة ﴿ بعض آلهتنا بسوء ﴾ من نحو الجنون والخبال فذاك الحامل لك على النهي عن عبادتها .

(43/380)

ولما كان الطبع البشري قاضياً بأن الإنسان يخشى ممن مسه بسوء وهو يتوهم أنه قادر على ضرره فلا يواجهه بما يكره ، وكان قولهم محركاً للسامع إلى الاستعلام عن حوابه لهم ، استأنف سبحانه الإخبار عنه بقوله : ﴿ قال ﴾ نافياً لما قالوا مبيناً أن آلهتهم لا شيء ضاماً لهم معها ، وأكد لأنهم بحيث لا يظنون أن أحداً لا يقول ما قاله ﴿ إني أشهد الله ﴾ أي الملك الأعظم ليقوم عذري عنده وعدل أدباً مع الله عن أن يقول : وأشهدكم - لئلا يتوهم تسوية - إلى صيغة الأمر تهاوناً بهم فقال : ﴿ واشهدوا ﴾ أي أنتم لتقويم الحجة عليكم لأيكم ويبين عجزكم ويعرف كل أحد أنكم بحيث يتهاون بكم وبدينكم ولا يبالي بكم ولا به ﴿ أني بريء مما تشركون ﴾ ويبين سفولها بقوله : ﴿ من دونه ﴾ كائناً ما كان ومن كان ، فكيف إذا لم يكن إلا جماداً ﴿ فكيدوني ﴾ حال كونكم ﴿ جميعاً ﴾ أي فرادى إن شئتم أو مجتمعين أنتم وآلهتكم .

(44/380)

ولما كانت المعاجلة في الحرب أهول ، وكان شأنها أصعب وأخطر ، بين عظمها بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم لا تنظرون ﴾ والكيد : طلب الغيظ بالسر في مكر ، وهذه الآية من أعلام النبوة الواضحة لهود عليه السلام ، فكأنه قيل : هب أن آلهتنا لا شيء ، فما حملك على الاجتراء على مخالفتنا نحن وأنت كثرتنا وقوتنا وأنت لا تزيد على أن تكون واحداً منا فقال : ﴿ إني ﴾ أي جسرت على ذلك لأني ﴿ توكلت ﴾ معتمداً ﴿ على الله ﴾ الملك المرهوب عقابه الذي لا ملك سواه ولا رب غيره ؛ وبين إحاطة ملكه بقوله : ﴿ ربي وربكم ﴾ أي الذي أوجدنا ودبر أمورنا قبل أن يخلقنا فعلم ما يعمل كل منا في حق الآخرة لأنه ﴿ ما من دابة ﴾ أي صغرت أو كبرت ﴿ إلا هو آخذ ﴾ أي أخذ قهر وغلبة ﴿ بناصيتها ﴾ أي قادر عليها ، وقد صار الأخذ بالناصية عرفاً في القدرة ، لأن الكل جارون مع مراده لا مع مرادهم بل لا ينفك أحد عن كراهة لبعض ما هو فيه فدل ذلك قطعاً على أنه بغير مراده وإنما هو بمراد قاهر قهره على ذلك وهو الملك الأعلى سبحانه ؛

والناصية : شعر مقدم الرأس ، ومن أخذ بناصيته فقد انقاد لأخذه لا يستطيع ميلاً ﴿ إن ﴾ أي لأن ﴿ ربي ﴾ أي المحسن إليّ بما أقامني فيه ﴿ على صراط ﴾ أي طريق واسع بين ﴿ مستقيم ﴾ ظاهر أمره لكل أحد لا لبس فيه أصلاً ولا خلل ولا اضطراب ولا اعوجاج بوجه ، فلذلك كان كل من في الكون يتألهه ويدعو ويخافه ويرجوه وإن اتخذ بعضهم

من دونه شركاء ، وأما ما يعبد من دونه فلا يعظمه إلا عابده ، وأما غير عابده فإنه لا يقيم له وزناً ؛ فصح بهذا غالب على كل شيء غلبة يعلمها كل موجود من غير خفاء أصلاً ، فهو مرجو مرهوب بإجماع العقلاء بخلاف معبوداتكم ، والحاصل أنه يلزم الصراط المستقيم الظهور ، فيلزم عدم الاختلاف لانتفاء اللبس ، فمن كان عليه كان عليّ القدر شهير الأمر ، بصيراً بما يريد ، مع الثبات والتمكن ، مرهوب العاقبة ، مقصوداً بالاتباع والمحبة ، من لم يقبل إليه ضل ، ومن أعرض عنه أخذ لكثرة

أعوانه وعز سلطانه ، فظهرت قدرته على عصمة من يتوكل عليه وعجز معبوداتهم معهم ، لأن نواصي الكل بيده وهو ربها وربهم ورب كل شيء ، فقد انطبق ختام الآية على قولهم ﴿ ما جئتنا ببينة ﴾ رداً له لأن من كان على صراط مستقيم لم يكن شيء أبين من أمره ، وعلى جوابه في توكله وما في حيزه أتم انطباق ؛ والناصية : مقدم الشعر من الرأس ، وأصلها الاتصال من قولهم : مفازة تناصي مفازة - إذا كانت متصلة بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 542 . 544 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن هود عليه السلام ما ذكره للقوم ، حكى أيضاً ما ذكره القوم له وهو أشياء : أولها : قولهم : ﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ أي بحجة ، والبينة سميت بينة لأنها تبين الحق من الباطل ، ومن المعلوم أنه عليه السلام كان قد أظهر المعجزات إلا أن القوم بجهلهم أنكروها ، وزعموا أنه ما جاء بشيء من المعجزات .

وثانيها : قولهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِى ءالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ وهذا أيضاً ركيك ، لأنهم كانوا يعترفون بأن النافع والضار هو الله تعالى وأن الأصنام لا تنفع ولا تضر ، ومتى كان الأمر كذلك فقد ظهر في بديهة العقل أنه لا تجوز عبادتها وتركهم آلهتهم لا يكون عن مجرد قوله بل عن حكم نظر العقل وبديهة النفس .

وثالثها : قوله : ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وهذا يدل على الإصرار والتقليد والجحود .

ورابعها : قولهم : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعتراك بَعْضُ ءالِهَتِنَا بِسُوء ﴾ يقال : اعتراه كذا إذا غشيه وأصابه .

والمعنى : أنك شتمت آلهتنا فجعلتك مجنوناً وأفسدت عقلك ، ثم إنه تعالى ذكر أنهم لما

قالوا ذلك قال هود عليه السلام : ﴿ إِنِّى أُشْهِدُ اللهَ واشهدوا أَنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ ﴾ وهو ظاهر .

ثم قال : ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ وهذا نظير ما قاله نوح عليه السلام لقومه : ﴿ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ﴾ [يونس : 71] إلى قوله : ﴿ وَلَا تُنظِرُونَ ﴾ [يونس : 71] .

واعلم أن هذا معجزة قاهرة ، وذلك أن الرجل الواحد إذا أقبل على القوم العظيم وقال لهم : بالغوا في عداوتي وفي موجبات إيذائي ولا تؤجلون ؛ فإنه لا يقول هذا إلا إذا كان واثقاً من عند الله تعالى بأنه يحفظه ويصونه عن كمد الأعداء .

(47/380)

ثم قال : ﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ قال الأزهري : الناصية عند العرب منبت الشعر في مقدم الرأس ويسمى الشعر النابت هناك ناصية باسم منبته .

واعلم أن العرب إذا وصفوا إنساناً بالذلة والخضوع قالوا : ما ناصية فلان إلا بيد فلان ، أي أنه مطيع له ، لأن كل من أخذت بناصيته فقد قهرته ، وكانوا إذا أسروا الأسير فأرادوا إطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره فخوطبوا في القرآن بما يعرفون

فقوله: ﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ أي ما من حيوان إلا وهو تحت قهره وقدرته، ومنقاد لقضائه وقدره.

ثم قال: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وفيه وجوه: الأول: أنه تعالى لما قال: ﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ أشعر ذلك بقدرة عالية وقهر عظيم فأتبعه بقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي أنه وإن كان قادراً عليهم لكنه لا يظلمهم ولا يفعل بهم إلا ما هو الحق والعدل والصواب، قالت المعتزلة قوله: ﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ يدل على التوحيد وقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يدل على العدل، فثبت أن الدين إنما يتم بالتوحيد والعدل.

والثاني: أنه تعالى لما ذكر أن سلطانه قهر جميع الخلق أتبعه بقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يعني أنه لا يخفى عليه مستتر، ولا يفوته هارب، فذكر الصراط المستقيم وهو يعني به الطريق الذي لا يكون لأحد مسلك إلا عليه، كما قال:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: 14] الثالث: أن يكون المراد ﴿ إِنَّ رَبِّى ﴾ يدل على الصراط المستقيم، أي يحث، أو يحملكم بالدعاء إليه. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 11. 12﴾

وقال ابن عطية :

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

المعنى : ﴿ ما جئتنا ﴾ بآية تضطرنا إلى الإيمان بك ونفوا أن تكون معجزاته آية بحسب ظنهم وعماهم عن الحق ، كما جعلت قريش القرآن سحراً وشعراً ونحو هذا ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر " الحديث ، وهذا يقضي بأن هوداً وغيره من الرسل لهم معجزات وإن لم يعين لنا بعضها .

وقوله : ﴿ عن قولك ﴾ أي لا يكون قولك سبب تركنا إذ هو مجرد عن آية ، وقولهم : ﴿ إن نقول ﴾ الآية ، معناه ما نقول إلا أن بعض الآلهة لما سببتها وضللت عبدتها أصابك بجنون ، يقال : عر يعر واعترى يعتري إذا ألم بالشيء ، فحينئذ جاهرهم هود عليه السلام بالتبري من أوثانهم وحضهم على كيده هم وأصنامهم ، ويذكر أن هذه كانت له معجزة وذلك أنه حرض جماعتهم عليه مع انفراده وقوتهم وكفرهم فلم يقدروا على نيله بسوء .

و ﴿ تنظرون ﴾ معناه تؤخروني أي عاجلوني بما قدرتم عليه ، وقوله تعالى : ﴿ إني توكلت على الله ﴾ الآية ، المعنى : أن توكلي على الله الذي هو ربي وربكم مع ضعفي وانفرادي وقوتكم وكثرتكم يمنعني منكم ويحجز بيني وبينكم ؛ ثم وصف قدرة الله تعالى

وعظم ملكه بقوله : ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ وعبر عن ذلك ب " الناصية " ، إذ هي في العرف حيث يقبض القادر المالك ممن يقدر عليه ، كما يقاد الأسير والفرس ونحوه حتى صار الأخذ بالناصية عرفاً في القدرة على الحيوان ، وكانت العرب تجز ناصية الأسير الممنون عليه لتكون تلك علامة أنه قدر عليه وقبض على ناصيته . و" الدابة " : جميع الحيوان ، وخص بالذكر إذ هو صنف المخاطبين والمتكلم .

(49/380)

وقوله : ﴿ إن ربي على صراط مستقيم ﴾ يريد أن أفعال الله عز وجل هي في غاية الإحكام ، وقوله الصدق ، ووعده الحق ؛ فجاءت الاستقامة في كل ما ينضاف إليه عز وجل . فعبر عن ذلك بقوله : ﴿ إن ربي على صراط مستقيم ﴾ على تقدير مضاف .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(50/380)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يا هود مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾

أي حجة واضحة .

﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ إصراراً منهم على الكفر .

قوله تعالى : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعتراك ﴾ أي أصابك .

﴿ بَعْضُ آلِهَتِنَا ﴾ أي أصنامنا .

﴿ بسوء ﴾ أي بجنون لسبّك إياها ، عن ابن عباس وغيره .

يقال : عراه الأمر واعتراه إذا أَلَمَّ به .

ومنه ﴿ وَأَطْعِمُوا القانع والمعتر ﴾ [الحج : 36] .

﴿ قَالَ إني أُشْهِدُ الله ﴾ أي على نفسي .

﴿ واشهدوا ﴾ أي وأشهدكم ؛ لا أنهم كانوا أهل شهادة ، ولكنه نهاية للتقرير ؛ أي لتعرفوا

﴿ أَنِّي بريء مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أي من عبادة الأصنام التي تعبدونها .

﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ﴾ أي أنتم وأوثانكم في عداوتي وضري .

﴿ ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ ﴾ أي لا تؤخرون .

وهذا القول مع كثرة الأعداء يدلّ على كمال الثقة بنصر الله تعالى .

وهو من أعلام النبوّة ، أن يكون الرسول وحده يقول لقومه : "فَكِيدُونِي جَمِيعاً" .

وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لقريش .

وقال نوح صلى الله عليه وسلم : ﴿ فأجمعوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُم ﴾ [يونس : 71] الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ أي رضيت بحكمه ، ووثقت بنصره .

﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ ﴾ أي نفس تدب على الأرض ؛ وهو في موضع رفع بالابتداء .

﴿ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ أي يصرفها كيف يشاء ، ويمنعها مما يشاء ؛ أي فلا تصلون إلى ضري .

وكل ما فيه رُوح يقال له دابّ ودابّة ؛ والهاء للمبالغة .

وقال الفراء : مالكها ، والقادر عليها .

وقال القتبيّ : قاهرها ؛ لأن من أخذتَ بناصيته فقد قهرتَه .

وقال الضحّاك : يحييها ثم يميتها ؛ والمعنى متقارب .

والناصية قُصاص الشّعر في مقدم الرأس .

ونَصوتُ الرجل أَنصوه نَصْواً أي مددت ناصيته .

قال ابن جريج : إنما خص الناصية ؛ لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنساناً بالذلّة والخضوع ؛ فيقولون : ما ناصية فلان إلا بيد فلان ؛ أي إنه مطيع له يصرفه كيف يشاء .

وكانوا إذا أسروا أسيراً وأرادوا إطلاقه والمنّ عليه جزوا ناصيته ليعرفوا بذلك فخراً عليه ؛ فخاطبهم بما يعرفونه في كلامهم .

وقال الترمذيّ الحكيم في "نوادر الأصول" قوله تعالى : ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ وجهه عندنا أن الله تعالى قدّر مقادير أعمال العباد ، ثم نظر إليها ، ثم خلق خلقه ، وقد نفذ بصره في جميع ما هم فيه عاملون من قبل أن يخلقهم ، فلما خلقهم وضع نور تلك النظرة في نواصيهم فذلك النور آخذ بنواصيهم ، يجريهم إلى أعمالهم المقدّرة عليهم يوم المقادير .

وخلق الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ؛ رواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة " .

ولهذا قويت الرسل وصاروا من أولي العزم لأنهم لاحظوا نور النواصي ، وأيقنوا أن جميع خلقه منقادون بتلك الأنوار إلى ما نفذ بصره فيهم من الأعمال ، فأوفرهم حظاً من الملاحظة أقواهم في العزم ، ولذلك ما قوي هود النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال : ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ ﴾ .

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ .

وإنما سمِّيت ناصية لأن الأعمال قد نصّت وبرزت من غيب الغيب فصارت منصوصة في المقادير ، قد نفذ بصر الخالق في جميع حركات الخلق بقدرة ، ثم وضعت حركات كل من دبّ على الأرض حياً في جبهته بين عينيه ، فسُمّي ذلك الموضع منه ناصية ؛ لأنها تنص حركات العباد بما قدّر ؛ فالناصية مأخوذة بمنصوص الحركات التي نظر الله تعالى إليها قبل أن يخلقها .

(52/380)

ووصف ناصية أبي جهل فقال : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ [العلق : 16] يخبر أن النواصي فيها كاذبة خاطئة ؛ فعلى سبيل ما تأوّلوه يستحيل أن تكون الناصية منسوبة إلى الكذب والخطأ .

(والله أعلم) .

﴿ إِنَّ رَبِّي على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ قال النحاس : الصّراط في اللغة المنهاج الواضح ؛ والمعنى أن الله جلّ ثناؤه وإن كان يقدر على كل شيء فإنه لا يأخذهم إلا بالحق .

وقيل : معناه لا خَلل في تدبيره ، ولا تفاوت في خلقه سبحانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(53/380)

وقال الخازن :

﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة ﴾

(54/380)

أي ببرهان وحجة واضحة على صحة ما تقول ﴿ وما نحن بتاركي ألهتنا عن قولك ﴾ يعني وما نترك عبادة آلهتنا لأجل قولك ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ يعني بمصدقين ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ يعني إنك يا هود لست تتعاطى ما تتعاطاه من مخالفتنا وسب آلهتنا إلا أن بعض آلهتنا أصابك بخبل وجنون لأنك سببتهم فانتقموا منك بذلك ولا نحمل أمرك إلا على هذا ﴿ قال ﴾ يعني قال هود مجيباً لهم ﴿ إني أشهد الله ﴾ يعني على نفس واشهدوا يعني واشهدوا أنتم أيضاً علي : ﴿ أني بريء مما تشركون من دونه ﴾ يعني هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿ فكيدوني جميعاً ﴾ يعني احتالوا في كيدي وضري أنتم وأصنامكم التي تعتقدون أنها تضر وتنفع فإنها لا تضر ولا تنفع ﴿ ثم لا

تنظرون ﴾ يعني ثم لا تمهلون وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السلام وذلك أنه كان وحيداً في قومه فما قال لهم هذه المقالة ولم يهبهم ولم يخف منهم مع ما هم فيه من الكفر والجبروت إلا لثقته بالله وتوكله عليه وهو قوله تعالى : ﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم ﴾ يعني أنه فوض مره إلى الله واعتمد عليه ﴿ ما من دابة ﴾ يعني تدب على الأرض ويدخل في هذا جميع بني آدم والحيوان لأنهم يدبون على الأرض ﴿ إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ يعني أنه تعالى هو مالكها والقادر عليها وهو يقهرها لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته ، والناصية مقدم الرأس وسمي الشعر الذي عليه ناصية للمجاورة قيل : إنما خصَّ الناصية بالذكر لأن العرب تستعمل ذلك كثيراً في كلامهم فإذا وصفوا إنساناً بالذلة مع غيره يقولون ناصية فلان بيد فلان وكانوا إذا أسروا أسيراً وأرادوا إطلاقه جزوا ناصيته ليمنوا عليه ويعتدوا بذلك فخراً عليه فخاطبهم الله سبحانه وتعالى بما يعرفون من كلامهم ﴿ إن ربي على صراط مستقيم ﴾ يعني إن ربي وإن كان قادراً وأنتم في قبضته كالعبد الذليل فإنه سبحانه وتعالى لا يظلمكم ولا يعمل إلا بالإحسان والإنصاف والعدل فيجازي المحسن بإحسانه

والمسيء بعصيانه ، وقيل معناه أن دين ربي هو الصراط المستقيم وقيل فيه إضمار تقديره إن ربي يحملكم على صراط مستقيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾

اعتراه بكذا : أصابه به ، وقيل افتعل من عراه يعروه .

الناصية : منبت الشعر في مقدم الرأس ، ويسمى الشعر النابت هناك ناصية باسم منبته .

ونصوت الرجل انصوه نصواً ، مددت ناصيته .

﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾ : ببينة أو بحجة واضحة تدل على صدقك ، وقد كذبوا في ذلك وبهتوه كما كذبت قريش في قولهم :

﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ وقد جاءهم بآيات كثيرة ، أو لعمائهم عن الحق وعدم نظرهم في الآيات اعتقدوا ما هو آية ليس بآية فقالوا : ما جئتنا ببينة تلجئنا إلى الإيمان ، وإلا فهود وغيره من الأنبياء لهم معجزات وإن لم يعين لنا بعضها .

ألا ترى إلى قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما

مثله آمن عليه البشر " وعن في عن قولك حال من الضمير في تاركي آلهتنا ، كأنه قيل : صادرين عن قولك ، قاله الزمخشري .

وقيل : عن للتعليل كقوله تعالى : ﴿ إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ فتتعلق بتاركي ، كأنه قيل لقولك ، وقد أشار إلى التعليل والسبب فيها ابن عطية ، فقال : أي لا يكون قولك سبباً لتركنا ، إذ هو مجرد عن آية ، والجملة بعدها تأكيد وتقنيط له من دخولهم في دينه ، ثم نسبوا ما صدر منه من دعائهم إلى الله وإفراده بالألوهية إلى الخبل والجنون ، وأن ذلك مما اعتراه به بعض آلهتهم لكونه سبها وحرض على تركها ودعا إلى ترك عبادتها ، فجعلته يتكلم مكافأة بما يتكلم به المجانين ، كما قالت قريش : معلم مجنون ﴿ أم يقولون به جنة ﴾ واعتراك جملة محكية بنقول ، فهي في موضع المفعول ، ودلت على بله شديد وجهل مفرط ، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم .

وقول هود لهم في جواب ذلك : إني أشهد الله إلى آخره ، حيث تبرأ من آلهتهم ، وحرضهم كلهم مع انفراده وحده على كيده بما يشاؤون ، وعدم تأخره من أعظم الآيات على صدقه وثقته بموعود ربه من النصر له ، والتأييد والعصمة من أن ينالوه بمكروه ، هذا وهم حريصون

على قتله يرمونه عن قوس واحدة .

ومثله قول نوح لقومه : ﴿ ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون ﴾ وأكد براءته من آلهتهم وشركهم ، ووفقها بما جرت عليه عادة الناس من توثيقهم الأمر بشهادة الله وشهادة العباد .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : هلا قيل : إني أشهد الله وأشهدكم (قلت) : لأنّ إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد ، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب ، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما ، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة انتهى .

وإني بريء تنازع فيه أشهد واشهدوا ، وقد يتنازع المختلفان في التعدي الاسم الذي يكون صالحاً ، لأن يعملا فيه تقول أعطيت زيداً ووهبت لعمرو ديناراً ، كما يتنازع اللازم والمتعدي نحو : قام وضربت زيداً .

وما في ما تشركون موصولة ، إما مصدرية ، وإما بمعنى الذي أي : بريء من إشراككم آلهة من دونه ، أو من الذين تشركون ، وجميعاً حال من ضمير كيدوني الفاعل ، والخطاب إنما هو لقومه .

وقال الزمخشري : أنتم وآلهتكم انتهى .

قيل : ومجاهرة هود عليه السلام لهم بالبراءة من أديانهم ، وحضه إياهم على كيده هم وأصنامهم معجزة لهود ، أو حرض جماعتهم عليه مع انفراده وقوتهم وكثرتهم ، فلم يقدروا على نيله بسوء ، ثم ذكر توكله عل الله معلماً أنه ربه وربهم ، ومنبهاً على أنه من حيث هو ربكم يجب عليكم أن لا تعبدوا إلا إياه ، ومفوضاً أمره إليه تعالى ثقة بحفظه وانجاز موعوده ، ثم وصف قدرة الله تعالى وعظيم ملكه من كون كل دابة في قبضته وملكه وتحت قهره وسلطانه ، فأنتم من جملة أولئك المقهورين .

وقوله : آخذ بناصيتها تمثيل ، إذ كان القادر المالك يقود المقدور عليه بناصيته ، كما يقاد الأسير والفرس بناصيته ، حتى صار الأخذ بالناصية عرفاً في القدرة على الحيوان ، وكانت العرب تجز ناصية الأسير الممنون عليه علامة أنه قد قدر عليه وقبض على ناصيته .

قال ابن جريج : وخص الناصية لأن العرب إذا وصفت إنساناً بالذلة والخضوع قالت : ما ناصية فلان إلا بيد فلان ، أي أنه مطيع له يصرفه كيف يشاء ثم أخبر أنّ أفعاله تعالى في غاية الإحكام ، وعلى طريق الحق والعدل في ملكه ، لا يفوته ظالم ولا يضيع عنده من توكل عليه ، قوله الصدق ، ووعده الحق . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾

أي بحجة تدل على صحة دعواك وإنما قالوه لفَرْط عنادِهم وعدمِ اعتدادِهم بما جاءهم من البينات الفائتةِ للحصر .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا ﴾ أي بتاركي عبادتِها ﴿ عَنْ قَوْلِكَ ﴾ أي صادرين عنه أي صادراً تركُنا عن ذلك بإسناد حالِ الوصفِ إلى الموصوف ومعناه التعليلُ على أبلغ وجهٍ لِدلالته على كونه علةً فاعليةً ، ولا يفيده الباءُ واللام وهذا كقولهم المنقولِ عنهم في سورة الأعراف ﴿ أجئتَنا لنعبُدَ الله وحدَه ونذرَ ما كان يعبُد آباؤُنا ﴾ ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي بمصدقين في شيء مما تأتي وتذر فيندرج تحته ما دعاهم إليه من التوحيد وتركِ عبادةِ الآلهةِ ، وفيه من الدلالة على شدة الشكيمة وتجاوزِ الحدّ في العتو ما لا يخفى ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ ﴾ أي ما نقول إلا قولَنا اعتراك أي أصابك ﴿ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ بجنون لِسبِّك إياها وصدِّك عن عبادتها وحطِّك لها عن رتبة الألوهيةِ والمعبوديةِ بما مر من قولك : ﴿ ما لكم من إله غيرُه إن أنتم إلا مفترون ﴾ ، والتنكيرُ في سوءٍ للتقليل كأنهم لم يبالغوا في السوء كما ينبىء عنه نسبةُ ذلك إلى بعض آلهتِهم دون كلّها ، والجملةُ مقولُ القولِ وإلا لغوٌ لأن الاستثناءَ مفرَّغٌ ، وهذا الكلامُ مقرِّرٌ لما مر من قولهم : ﴿ وما نحن بتاركي آلهتِنا عن قولك

وما نحن لك بمؤمنين ﴾ فإن اعتقادَهم بكونه عليه الصلاة والسلام كما قالوا وحاشاه عن ذلك يوجب عدمَ الاعتدادِ بقوله وعدّه من قبيل الخُرافاتِ فضلاً عن التصديق والعملِ بمقتضاه، يعنون إنا لا نعُدّ كلامَك إلا من قبيل ما لا يحتمل الصّدقَ والكذِبَ من الهذَيانات الصادرةِ عن المجانين فكيف نصدّقه ونؤمن به ونعمل بموجبه، ولقد سلكوا في طريقةَ المخالفةِ والعناد إلى سبيل الترقّي من الأدنى إلى الأعلى حيث أَخبَروا أولاً عن عدم مجيئِه بالبينة مع احتمال كونِ ما جاء به عليه الصلاة والسلام حجةً في نفسه وإن لم تكن واضحةَ الدِلالة على المراد، وثانياً عن ترك الامتثالِ بقوله عليه الصلاة والسلام بقولهم: ﴿ وما

(59/380)

نحن بتاركي آلهتِنا عن قولك ﴾ مع إمكان تحققِ ذلك بتصديقهم له عليه الصلاة والسلام في كلامه ثم نفَوا تصديقَهم له عليه الصلاة والسلام بقولهم: ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ مع كون كلامِه عليه الصلاة والسلام مما يقبل التصديقَ ثم نفَوْا عنه تلك المرتبةَ أيضاً حيث قالوا ما قالوا قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾.

(60/380)

﴿ مِن دُونِهِ ﴾ أي من إشراككم من دون الله أي من غير أن ينزِّل به سلطاناً كما قال في سورة الأعراف : ﴿ أتجادِلونني في أسماءٍ سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما نزّل الله بها من سلطان ﴾ أو مما تشركونه من آلهة غيرِ الله ، أجاب به عن مقالتهم الحمقاءِ المبنيةِ على اعتقاد كونِ آلهتِهم مما يضرُّ أو ينفع وأنها بمعزل من ذلك ، ولما كان ما وقع أولاً منه عليه الصلاة والسلام في حق آلهتِهم من كونها بمعزل عن الألوهية إنما وقع في ضمن الأمرِ بعبادة الله تعالى واختصاصِه بها وقد شق عليهم ذلك وعدّوه مما يورِث شيْناً حتى زعَموا أنها تصيبُه عليه الصلاة والسلام بسوء مجازاةٍ لصنيعه معها صرّح عليه الصلاة والسلام بالحق وصدَع به حيث أُخبر ببراءته القديمةِ عنها بالجملة الاسميةِ المصدّرةِ بإنّ وأَشهد الله على ذلك وأمرهم بأن يسمعوا ذلك ويشهدوا به استهانةً بهم ثم أمرهم بالاجتماع والاحتشادِ مع آلهتهم جميعاً دون بعضٍ منها حسبما يُشعر به قولُهم : ﴿ بعضُ آلهتنا ﴾ والتعاونِ في إيصال الكيدِ إليه عليه الصلاة والسلام ونهاهم عن الإنظار والإمهالِ في ذلك فقال : ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرونِ ﴾ أي إن صح ما لوحتم به من كون آلهتِكم مما يقدِر على إضرار مَنْ ينال منها ويصُدّ عن عبادتها ولو بطريق ضِمنيَ فإني بريءٌ منها فكونوا أنتم معها جميعاً وباشروا كيدي ثم لا تُمهلوني ولا تسامحوني في ذلك ، فالفاءُ لتفريع الأمرِ على زعمهم في قدرة آلهتِهم على ما قالوا وعلى البراءة كليهما ، وهذا من أعظم المعجزاتِ ، فإنه عليه

الصلاة والسلام كان رجلاً مفْرَداً بين الجمِّ الغفير والجمعِ الكثير من عُتاة عادٍ الغلاظِ الشّدادِ ، وقد خاطبهم بما خاطبهم وحقّرهم وآلهتَهم وهيَّجهم على مباشرة مبادىءِ المُضارّة وحثّهم على التصدّي لأسباب المُعازّة والمعارّة فلم يقدروا على مباشرة شيءٍ مما كلفوه وظهر عجزُهم عن ذلك ظهوراً بيناً كيف لا وقد التجأ إلى

(61/380)

ركن منيعٍ رفيعٍ واعتصم بحبل متينٍ حيث قال :

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ يعني أنكم وإن بذلتم في مُضارّتي مجهودَكم لا تقدرون على شيء مما تريدون بي فإني متوكلٌ على الله تعالى ، وإنما جيء بلفظ الماضي لكونه أدلَّ على الإنشاء المناسبِ للمقام ، وواثقٌ بكلاءتي وحفظي عن غوائلكم وهو مالكي ومالككم لا يصدُرُ عنكم شيءٌ ولا يصيبني أمرٌ إلا بإرادته ومشيئتِه ثم برهن عليه بقوله : ﴿ مَا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ أي إلا هو مالكٌ لها قادرٌ عليها يُصرّفها كيف يشاء غيرَ مستعْصيةٍ عليه فإن الأخذَ بالناصية تمثيلٌ لذلك ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ تعليلٌ لما يدل عليه التوكلُ من عدم قدرتِهم على إضراره أي هو على الحق والعدلِ فلا يكاد يسلِّطكم عليّ إذ لا يَضيعُ عنده معتصِمٌ ولا يفتاتُ عليه ظالمٌ . والاقتصارُ

على إضافة الربّ إلى نفسه إما بطريق الاكتفاءِ لظهور المرادِ وإما لأن فائدةَ كونِه تعالى مالكاً لهم أيضاً راجعةٌ إليه عليه الصلاة والسلام. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(62/380)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾

أي بحجة واضحة تدل على صحة دعواك، وإنما قالوه لفرط عنادهم أو لشدة عماهم عن الحق وعدم نظرهم في الآيات فاعتقدوا أن ما هو آية ليس بآية وإلا فهو وغيره من الأنبياء عليهم السلام جاؤوا بالبينات الظاهرة والمعجزات الباهرة وإن لم يعين لنا بعضها، ففي الخبر "ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر" ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِى ءالِهَتِنَا ﴾ أي بتاركي عبادتها ﴿ عَن قَوْلِكَ ﴾ أي بسبب قولك المجرد عن البينة فعن للتعليل كما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ [التوبة : 114] وإلى هذا يشير كلام ابن عطية.

وغيره، فالجار والمجرور متعلق ﴿ بِتَارِكِى ﴾.

وذهب بعض المحققين إلى أنه متعلق بمحذوف وقع حالاً من الضمير المستتر فيه أي صادرين وهو من الصدر مقابل الورد بمعنى الرجوع عن الماء ، وقد شاع في كلامهم استعمال الصدر والورد كناية عن العمل والتصرف ، ومنه قوله

: ما أمس الزمان حاجاً إلى من . . .

يتولى الإيراد والإصدارا

(63/380)

أي يتصرف في الأمور بصائب رأيه ، وقد يكتفي بالصدر في ذلك لاستلزامه للورد فيقولون : لا يصدر إلا عن رأيه ، والمعنى هنا حينئذٍ ما نحن ﴿ قَالُواْ يا هود ﴾ عاملين بقولك ، والنفي فيه راجع إلى القيد والمقيد جميعاً لأنهم لا يتركون آلهتهم ولا يعملون بقوله عليه السلام ، وقيل : إن صادرين بمعنى معرضين وهو قيد للنفي ، والمعنى انتفى تركنا عبادة آلهتنا معرضين ﴿ عَن قَوْلِكَ ﴾ ويكون هذا جواباً لقوله : ﴿ لاَ تَتَوَلَّوْاْ ﴾ [هود : 52] وجعل بعضهم إرادة ذلك من باب التضمين لا من باب تقدير المتعلق بقرينة ﴿ عَنْ ﴾ وجعله كناية كما علمت ، وكلام الزمخشري ظاهر في هذا كما يكشف عنه كلام الكشف ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي بمصدقين فيما جئت به أو في كل ما تأتي وتذر ، ويندرج

فيه ذلك ، وقد بالغوا في الإباء عن الإجابة فأنكروا الدليل على نبوته عليه السلام ، ثم قالوا مؤكدين لذلك ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ﴾ الخ ، ثم كرروا ما دل عليه الكلام السابق من عدم إيمانهم بالجملة الاسمية مع زيادة الباء ، وتقديم المسند إليه المفيد للتقوى دلالة على أنهم لا يرجى منهم ذلك بوجه من الوجوه ، وفي ذلك من الدلالة على الإقناط ما فيه .

(64/380)

﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ﴾ أي أصابك من عراه يعروه ، وأصله من اعتراه بمعنى قصد عراه أي محله وناحيته ﴿ اعتراك بَعْضُ ءالِهَتِنَا بِسُوء ﴾ أرادوا به قاتلهم الله تعالى الجنون ، والباء للتعدية والتنكير فيه قيل : للتقليل كأنهم لم يبالغوا في العتو كما ينبىء عنه نسبة ذلك إلى بعض آلهتهم دون كلها ، وقيل : للتكثير إشارة إلى أن ما قاله لا يصدر إلا عمن أصيب بكثير سوء مبالغة في خروجه عن قانون العقل ، وذكر البعض تعظيماً لأمر آلهتهم وأن البعض منها له من التأثير ما له ، والجملة مقول القول وإلا لغو لأن الاستثناء مفرغ ، وأصله أن نقول قولاً إلا قولنا هذا فحذف المستثنى منه وحذف القول المستثنى وأقيم مقوله مقامه ، أو ﴿ اعتراك ﴾ هو المستثنى لأنه أريد به لفظه فلا حاجة إلى تقدير قول بعد ﴿ إِلا ﴾ وليس مما استثنى فيه الجملة ، ومعنى هذا أنه أفسد عقلك بعض آلهتنا لسبك إياها وصدك عن عبادتها

وحطك لها عن رتبة الألوهية بما مر من قولك : ﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [هود : 50] وغرضهم من هذا على ما قيل : بيان سبب ما صدر عن هود عليه السلام بعد ما ذكروا من عدم التفاتهم لقوله عليه السلام ، وقيل : هو مقرر لما مر من قولهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ﴾ الخ ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ ﴾ [هود : 53] الخ فإن اعتقادهم بكونه عليه السلام كما قالوا وحاشاه عن ذلك يوجب عدم الاعتداد بقوله ، وعده من قبيل الخرافات فضلاً عن التصديق والعمل بمقتضاه يعنون أنا لا نعتقد كلامك إلا ما لا يحتمل الصدق من الهذيانات الصادرة عن المجانين فكيف نؤمن به ونعمل بموجبه ؟! ولقد سلكوا طريق المخالفة والعناد إلى سبيل الترقي من السيء إلى الأسوأ حيث أخبروا أولاً عن عدم مجيئه بالبينة مع احتمال كون ما جاء به حجة في نفسه وإن لم تكن واضحة الدلالة على المراد .

وثانياً عن ترك الامتثال لقوله عليه السلام : بقولهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ [هود : 53] مع إمكان تحقق ذلك بتصديقهم له في كلامه .

ثم نفوا عنه تصديقهم له عليه السلام بقولهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : 53]

مع كونه كلامه عليه السلام مما يقبل التصديق ، ثم نفوا عنه تلك المرتبة أيضاً حيث قالوا ما قالوا قاتلهم الله أنى يؤفكون انتهى .

وللبحث فيه مجال ، ولعل الإتيان بهذه الجملة غير مقترنة بالعاطف كالجملتين الأولين يؤيد كونها ليست مسوقة للتأكيد مثلهما ، نعم تضمنها لتقرير ما تقدم مما لا يكاد ينكر فتدبر .

﴿ قَالَ إِنِى أُشْهِدُ اللهَ واشهدوا أَنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ مِن دُونِهِ ﴾ أي مما أنتم تجعلونه شريكاً وهو سبحانه لم يجعله شريكاً ولم ينزل به سلطاناً فما موصولة ، و ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ متعلق بتشركون لا حال من فاعله أي تشركون مجاوزين الله تعالى في هذا الحكم إذ لا فائدة في التقييد به ، وجوز أن تكون مصدرية أيضاً أي من إشراككم ، وقد جوز كلا الاحتمالين الزمشري فقال : أي من إشراككم آلهة من دونه أو مما تشركونه آلهة من دونه وأمر تعلق الجار فيهما واح ، وتقدير آلهة لإيضاح المعنى والإشارة إلى أن المفعول مراد لسوق الكلام ولا يصلح أن يكون الظرف صفة له على الوجهين لأن بيانه حاصلهما بنحو ما ذكرناه في بيان حاصل الأول إنما يستقيم إذا تعلق بالفعل المذكور وليس المعنى على آلهة غير الله على ذلك التفسير ، وللطيبي ما يخالف ذلك وليس بذاك ، ﴿ وَإِنِّى بَرِىءٌ ﴾ [هود : 54] متنازع فيه للفعلين قبله وقد يتنازع المختلفان في التعدي الاسم الذي يكون صالحاً لأن يعملا فيه تقول : أعطيت ووهبت لعمرو درهماً كما يتنازع اللازم والمتعدي نحو قام وضربت زيداً .

وقد أجاب عليه السلام بهذا عن مقالتهم الشنعاء المبنية على اعتقاد كون آلهتهم تضر وتنفع ، ولما كان ما وقع أولاً منه عليه السلام في حقها من كونها بمعزل عن الألوهية إنما وقع إنما وقع في ضمن الأمر بعبادة الله تعالى واختصاصه بها وقد شق ذلك عليهم وعدّوه مما يورث شيناً حتى زعموا ما زعموا صرح عليه السلام بالحق وصدع به حيث أخبر ببراءته القديمة عنها بالجملة الاسمية المصدرة بأن وأكد ذلك بأشهد الله فإنه كالقسم في إفادة التأكيد وأمرهم بأن يسمعوا ذلك ويشهدوا به ، والمقصود منه الاستهانة والاستهزاء كما يقول الرجل لخصمه إذا لم يبال به : أشهد على أني قائل لك كذا ، وكأنه غاير بين الشهادتين لذلك ، وعطف الإنشاء على الأخبار جائز عند بعض ، ومن لم يجوزه قدر قولاً أي وأقول ﴿ اشهدوا ﴾ ويحتمل أن يكون إشهاد الله تعالى إنشاء أيضاً وإن كان في صورة الخبر ، وحينئذٍ لا قيل ولا قال ، وجوز أن يكون إشهاده عليه السلام لهم حقيقة إقامة للحجة عليهم .

وعدل عن الخبر فيه تمييزاً بين الخطابين فهو خبر في المعنى كما هو المشهور في الأول لكن الأولى الحمل على المجاز ، ثم أمرهم بالاجتماع والاحتشاد مع آلهتهم جميعاً دون بعض منها

حسبما يشعر به قولهم ﴿ بَعْضُ ءالِهَتِنَا ﴾ [هود : 54] والتعاون في إيصال الكيد إليه عليه السلام ، ونهاهم عن الإنظار والإمهال في ذلك فقال :

(67/380)

﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ ﴾ أي إن صح ما لوحتم به من كون آلهتكم مما يقدرون على إضرار من ينال منها ويصد عن عبادتها ولو بطريق ضمني فإني بريء منها فكونوا أنتم معها جميعاً وباشروا كيدي ثم لا تمهلوني ولا تسامحوني في ذلك ، فالفاء لتفريع الأمر على زعمهم من قدرة آلهتهم على ما قالوا وعلى البراءة كليهما ، والخطاب للقوم وآلهتهم ، ويفهم من كلام بعض أنه للقوم فقط ، وفيه نفي قدرة آلهتهم على ضره بطريق برهاني فإن الأقوياء الأشداء إذا لم يقدروا مع اجتماعهم واحتشادهم على الضر كان عدم قدرة الجمادات عليه معلوماً من باب أولى ، وأياً مّا كان فذاك من أعظم المعجزات بناءاً على ما قيل : إنه كان عليه السلام مفرداً بين جمع عتاة جبابرة عطاش إلى إراقة دمه يرمونه عن قوس واحدة ، وقد خاطبهم بما خاطبهم وحقرهم وآلهتهم وهيجهم على ما هيجهم فلم يقدروا على مباشرة شيء مما كلفوه ، وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً ، وفي ذلك دلالة على مزيد

ثقته بالله سبحانه وكمال عنايته به وعصمته له ، وقد قرر ذلك بإظهار التوكل على من كفاه ضرهم في قوله :

(68/380)

﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ﴾ وفيه تعليل لنفي ضرهم بطريق برهاني يعني أنكم وإن لم تبقوا في القوس منزعاً وبذلتم في مضادتي مجهودكم لا تقدرون على شيء مما تريدون بي فإني متوكل على الله تعالى واثق بكلاءته وهو مالكي ومالككم لا يصدر عنكم شيء ولا يصيبني أمر إلا بإرادته ، وجيء بلفظ الماضي لأنه أدل على الإنشاء المناسب للمقام ، ثم إنه عليه السلام برهن على عدم قدرتهم على ضره مع توكله عليه سبحانه بقوله : ﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ ءاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ أي إلا هو مالك لها قادر عليها يصرفها كيف يشاء غير مستعصية عليه سبحانه ، والناصية مقدم الرأس وتطلق على الشعر النابت عليها ، واستعمال الأخذ بالناصية في القدرة والتسلط مجاز أو كناية ، وفي "البحر" أنه صار عرفاً في القدرة على الحيوان ، وكانت العرب تجز الأسير الممنون عليه علامة على أنه قد قدر عليه وقبض على ناصيته ، وقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّى على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ مندرج في البرهان وهو تمثيل واستعارة لأنه تعالى مطلع على أمور العباد مجاز لهم بالثواب والعقاب كاف لمن

اعتصم به كمن وقف على الجادة فحفظها ودفع ضرر السابلة بها ، وهو كقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : 14] ، وقيل : معناه إن مصيركم إليه تعالى للجزاء وفصل القضاء ، ولعل الأول أولى ، وفي "الكشف" إن في قوله : ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ ﴾ الآية من اللطائف ما يبهرك تأمله من حسن التعليل ، وما يعطيه أن من توكل عليه لم يبال بهول ما ناله ثم التدرج إلى تعكيس التخويف بقوله : ﴿ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ﴾ فكيف يصاف من لزم سدّة العبودية وينجو من تولى مع ما يعطيه من وجوب التوكل عليه سبحانه إذا كان كذلك وترشيحه بقوله : ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ ﴾ إلى تمام التمثيل فإنه في الاقتدار على المعرض أظهر منه في الرأفة على المقبل خلاف الصفة الأولى ، وما فيه من تصوير ربوبيته واقتداره تعالى

(69/380)

وتصوير ذل المعبودين بين يدي قهره أياً مّا كان ، والختم بما يفيد الغرضين على القطع كفاية من إياه تولى وخزاية من أعرض عن ذكره وتولى بناءاً على أن معناه أنه سبحانه على الحق والعدل لا يضيع عنده معتصم ولا يفوته ظالم ، وفي قوله : ﴿ رَبِّى ﴾ من غير إعادة ﴿ وَرَبِّكُمْ ﴾ كما في الأول نكتة سرية بعد اختصار المعنى عن الحشو فيه ما يدل على زيادة

اختصاصه به وأنه رب الكل استحقاقاً وربه دونهم تشريفاً وإرفاقاً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(70/380)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آَلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ﴾

﴿ قَالُواْ ياهود مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بتاركى ءالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعتراك بَعْضُ ءالِهَتِنَا بسوء ﴾ .

محاورة منهم لهود عليه السّلام بجواب عن دعوته ، ولذلك جردت الجملة عن العاطف .

وافتتاح كلامهم بالنداء يشير إلى الاهتمام بما سيقولونه ، وأنه جدير بأن يتنبه له لأنهم نزلوه منزلة البعيد لغفلته فنادوه ، فهو مستعمل في معناه الكنائيّ أيضاً .

وقد يكون مراداً منه مع ذلك توبيخه ولومه فيكون كناية ثانية ، أو استعمال النّداء في حقيقته ومجازه .

وقولهم : ﴿ ما جئتنا ببينة ﴾ بهتان لأنه أتاهم بمعجزات لقوله تعالى : ﴿ وتلك عادٌ جحدوا بآيات ربهم ﴾ [هود : 59] وإن كان القرآن لم يذكر آية معينة لهود عليه السّلام .

ولعل آيته أنّه وعدهم عند بعثته بوفرة الأرزاق والأولاد واطّراد الخصب وفرة مطردة لا تنالهم في خلالها نكبة ولا مصيبة بحيث كانت خارقة لعادة النعمة في الأمم ، كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وقالوا مَن أشد منا قوةً ﴾ [فصلت : 15] .

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من الأنبياء نبي إلاّ أُوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر " الحديث .

وإنما أرادوا أن البيّنات التي جاءهم بها هود عليه السّلام لم تكن طبقاً لمقترحاتهم .

وجعلوا ذلك علة لتصميمهم على عبادة آلهتهم فقالوا : ﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ﴾ .

ولم يجعلوا ﴿ وما نحن بتاركي ﴾ مفرّعاً على قولهم : ﴿ ما جئتنا ببينة ﴾ .

و﴿ عن ﴾ في ﴿ عن قولك ﴾ للمجاوزة ، أي لا نتركها تركاً صادراً عن قولك ، كقوله : ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾ [الكهف : 82] .

والمعنى على أن يكون كلامه علة لتركهم آلهتهم .

وجملة ﴿ إن نقول إلاّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ استئناف بياني لأنّ قولهم : ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ من شأنه أن يثير للسامع ومن معه في أنفسهم أن يقولوا إن لم تؤمنوا بما جاء به أنّه من عند الله فماذا تعدُّون دعوته فيكم ، أي نقول إنك ممسوس من بعض آلهتنا ، وجعلوا ذلك من فعل بعض الآلهة تهديداً للنّاس بأنه لو تصدّى له جميعُ الآلهة لدكوه دكّاً .

والاعتراء : النزول والإصابة .

والباء للملابسة ، أي أصابك بسوء .

ولا شك أنهم يعنون أن آلهتهم أصابته بمسّ من قَبْل أن يقوم بدعوة رفض عبادتها لسبب آخر ، وهو كلام غير جار على انتظام الحجّة ، لأنه كلام ملفّق من نوع ما يصدر عن السفسطائيين ، فجعلوه مجنوناً وجعلوا سبب جنونه مسّاً من آلهتهم ، ولم يتفطنوا إلى دخَل كلامهم وهو أن الآلهة كيف تكون سبباً في إثارة ثائر عليها .

والقول مستعمل في المقول اللساني ، وهو يقتضي اعتقادهم مَا يقولونه .

﴿ قَالَ إِنِي أُشْهِدُ الله واشهدوا أَنِي بريء مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ﴿ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ ءاخِذُ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

لما جاءوا في كلامهم برفض ما دعاهم إليه وبجحد آياته وبتصميمهم على ملازمة عبادة أصنامهم وبالتنويه بتصرف آلهتهم أجابهم هود عليه السّلام بأنه يشهد الله عليهم أنّه أبلغهم

وأنّهم كابروا وجحدوا آياته .

وجملة ﴿ أشهد الله ﴾ إنشاء لإشهاد الله بصيغة الإخبار لأنّ كل إنشاء لا يظهر أثره في الخلق من شأنه أن يقع بصيغة الخبر لما في الخبر من قصد إعلام السامع بما يضمره المتكلم ، ولذلك كان معنى صيغ العقود إنشاءً بلفظ الخبر .

ثمّ حمَلهم شهادة له بأنه بريء من شركائهم مبادرة بإنكار المنكر وإن كان ذلك قد أتوا به استطراداً ، فلذلك كان تعَرّضه لإبطاله كالاعتراض بين جملة ﴿ إني أشهد الله ﴾ وجملة ﴿ فإن تولوا ﴾ [هود : 57] بناء على أن جملة ﴿ فإن توَلوا ﴾ إلى آخرها من كلام هود عليه السّلام ، وسيأتي .

ومعنى إشهاده فيراد من شركائهم تحقيق ذلك وأنه لا يتردّد على أمر جازم قد أوجبه المشهود عليه على نفسه .

وأتى في إشهادهم بصيغة الأمر لأنه أراد مزاجة إنشاء الإشهاد دون رائحة معنى الإخبار .

و(ما) في قوله : ﴿ مما تشركون ﴾ موصولة .

والعائد محذوف .

والتقدير : مما يشركونه .

وماصدق الموصول الأصنام ، كما دل عليه ضمير الجمع المؤكّدُ في قوله : ﴿ فكيدوني جميعاً ﴾ .

ولما كانت البراءة من الشركاء تقتضي اعتقاد عجزها عن إلحاق إضرار به فرع على البراءة جملة ﴿ فكيدوني جميعاً ﴾ .

وجعل الخطاب لقومه لئلا يكون خطابه لما لا يعقل ولا يسمع ، فأمر قومه بأن يكيدوه .

وأدخل في ضمير الكائدين أصنامهم مجاراة لاعتقادهم واستقصاء لتعجيزهم ، أي أنتم وأصنامكم ، كما دل عليه التفريع على البراءة من أصنامهم .

والأمر بـ (كيدوني) مستعمل في الإباحة كناية عن التعجيز بالنسبة للأصنام وبالنسبة لقومه ، كقوله تعالى : ﴿ فإن كان لكم كيدٌ فكيدون ﴾ [المرسلات : 39] .

وهذا إبطال لقولهم : ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ .

و﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبيّ ؛ تحدّاهم بأن يكيدوه ثم ارتقى في رتبة التعجيز والاحتقار فنهاهم عن التأخير بكيدهم إياه ، وذلك نهاية الاستخفاف بأصنامهم وبهم وكناية عن كونهم لا يصلون إلى ذلك .

وجملة ﴿ إنّي توكلت ﴾ تعليل لمضمون ﴿ فكيدوني ﴾ وهو التعجيز والاحتقار .

يعني : أنه واثق بعجزهم عن كيده لأنه متوكل على الله ، فهذا معنى ديني قديم .

وأُجري على اسم الجلالة صفة الربوبية استدلالاً على صحة التوكل عليه في دفع ضرهم عنه ، لأنه مالكهم جميعاً يدفع ظلم بعضهم بعضاً .

(73/380)

وجملة ﴿ ما من دابة إلاّ هو آخذ بناصيتها ﴾ في محل صفة لاسم الجلالة ، أو حال منه ، والغرض منها مثل الغرض من صفة الربوبية .

والأخذ : الإمساك .

والناصية : ما انسدل على الجبهة من شعر الرأس .

والأخذ بالناصية هنا تمثيل للتمكّن ، تشبيهاً بهيئة إمساك الإنسان من ناصيته حيث يكون رأسه بيد آخذه فلا يستطيع انفلاتاً .

وإنما كان تمثيلاً لأن دواب كثيرة لا نواصي لها فلا يلتئم الأخذ بالناصية مع عموم ﴿ ما من دابة ﴾ ، ولكنه لما صار مثلاً صار بمنزلة : ما من دابة إلا هو متصرف فيها .

ومن بديع هذا المثل أنّه أشدّ اختصاصاً بالنوع المقصود من بين عموم الدّواب ، وهو نوع الإنسان .

والمقصود من ذلك أنّه المالك القاهر لجميع ما يدبّ على الأرض ، فكونه مالكاً للكلّ يقتضي

أن لا يفوته أحد منهم ، وكونه قاهراً لهم يقتضي أن لا يعجزه أحد منهم .

وجملة ﴿ إن ربّي على صراط مستقيم ﴾ تعليل لجملة ﴿ إنّي توكّلت على الله ﴾ ، أي توكّلت عليه لأنّه أهل لتوكلي عليه ، لأنه متّصف بإجراء أفعاله على طريق العدل والتّأييد لرسله .

و﴿ على للاستعلاء المجازي ، مثل أولئك على هدىً من ربهم ﴾ [البقرة : 5] مستعارة للتمكّن المعنوي ، وهو الاتّصاف الراسخ الذي لا يتغير .

والصراط المستقيم مستعار للفعل الجاري على مقتضى العدل والحكمة لأنّ العدل يشبّه بالاستقامة والسواء .

قال تعالى : ﴿ فاتبعني أهدك صراطاً سويّاً ﴾ [مريم : 43] .

فلا جرم لا يُسْلم المتوكّل عليه للظّالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(74/380)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾

وهم هنا ينكرون أن هوداً قد أتاهم ببيِّنة أو مُعجزةٍ .

والبيِّنة كما نعلم هي الأمارة الدالة على صدق الرسول .

وصحيح أن هوداً هنا لم يذكر معجزته ؛ وتناسوا أن جوهر أي معجزة هو التحدي ؛ فمعجزة نوح عليه السلام هي الطوفان ، ومعجزة إبراهيم عليه السلام أن النار صارت برداً وسلاماً عليه حين ألقوه فيها .

ونحن نلحظ أن المعجزة العامة لكل رسول يمثلها قول نوح عليه السلام :

﴿ يا قومِ إن كانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فعَلَى اللهِ تَوكَّلْتُ فأجمعوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونَ ﴾ [يونس : 71] .

أي : إن كنتم أهلاً للتحدي ، فها أنا ذا أمامكم أحارب الفساد ، وأنتم أهل سيطرة وقوة وجبروت وطغيان .

وأحْكِموا كيدكم ؛ لكنكم لن تستطيعوا قتل المنهج الرباني ؛ لأن أحداً لن يستطيعَ إطفاء نور الله في يد رسول من رسله ؛ أو أن يخلِّصوا الدنيا منه بقتله . . ما حدث هذا أبداً .

إذن : فالبيِّنة التي جاء بها هود عليه السلام أنه وقف أمامهم ودعاهم إلى ترك الكفر ؛ وهو تحدي القادرين عليه ؛ لأنهم أهل طغيان ؛ وأهل بطش ؛ ومع ذلك لم يقدروا عليه ؛ مثلما لم يقدر كفار قريش على رسولنا صلى الله عليه وسلم .

ونحن نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء ومعه المعجزة الجامعة الشاملة وهي

القرآن الكريم ؛ وسيظل القرآن معجزة إلى أن تقوم الساعة .

ونعلم أن غالبية الرسل عليهم جميعاً السلام قد جاءوا بمعجزات حسية كونية ؛ انتهى أمدها بوقوعها ، ولولا أن القرآن يخبرنا بها ما صدّقناها ، مثلها مثل عود الثقاب يشتعل مرة ثم ينطفىء .

(75/380)

فمثلاً شفى عيسى عليه السلام الأكمه والأبرص بإذن ربه فمَنْ رآه آمن به ، ومَنْ لم يَرَه قد لا يؤمن ، وكذلك موسى عليه السلام ضرب البحر بالعصا فانفلق أمامه ؛ ومن رآه آمن به ، وانتهت تلك المعجزات ؛ لكن القرآن الكريم باقٍ إلى أن تقوم الساعة .

ويستطيع أي واحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قبل قيام الساعة أن يقول : محمد رسول الله ومعجزته القرآن ؛ لأن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء رسولاً عامّا ؛ ولا رسول من بعده ؛ لذلك كان لا بد أن تكون معجزته من الجنس الباقي ؛ ومع ذلك قالوا له :

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 9290] .

وكل ما طلبوه مسائل حسية ؛ لذلك يأتي الرد :

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾

[العنكبوت : 51] .

ومع ذلك كذّبوا .

وأضاف قوم عاد :

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : 53] .

هم إذن قد خدعوا أنفسهم بتسميتهم لتلك الأصنام " آلهة " ؛ لأن الإله مَنْ يُنزل منهجاً يحدّد من خلاله كيف يُعْبَد ؛ ولم تَقُل الأصنام لهم شيئاً ؛ ولم تُبلغهم منهجاً .

إذن : فالقياس المنطقي يُلغي تَصوُّر تلك الأصنام كآلهة ؛ فلماذا عبدوها ؟

لقد عبدوها ؛ لأن الفطرة تنادي كل إنسان بأن تكون له قوة مألوه لها ؛ والقوة المألوه لها إن كان لها أوامر تحدُّ من شهوات النفس ، فهذه الأوامر قد تكون صعبة على النفس ، أما إن كانت تلك الآلهة بلا أوامر أو نواهي فهذه آلهة مريحة لمن يخدع نفسه بها ، ويعبدها مظنة أنها تنفع أو تضر .

وهذه هي حُجَّة كل ادّعاء نبوة أو ادّعاء مَهديّة في هذا العصر ، فيدَّعي النبيُّ الكاذب النبوَّة ، ويدعو للاختلاط مع النساء ، وشرب الخمر ، وارتكاب الموبقات ، ويسمّى ذلك ديناً .

وتجد مثل هذه الدَّعاوي في البهائية والقاديانية ؛ وغيرها من المعتقدات الزائفة .

وقولهم :

﴿ وَمَا نَحْنُ بتاركي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ [هود : 53] .

يعني : وما نحن بتاركي آلهتنا بسبب قولك .

وقولهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : 53] .

أي : وما نحن لك بمصدّقين ، لأن (آمن) تأتي بمعاني متعددة .

فإنْ عدَّيتها بنفسها مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : 4] .

وإنْ عدَّيتها بحرف " الباء " مثل قول الحق سبحانه :

﴿ مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ [البقرة : 62] .

فالمعنى يتعلّق باعتقاد الألوهية .

وإن عدَّيتها بحرف " اللام " ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا آمَنَ لموسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ على خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ [يونس :

. [83

تكون بمعنى التصديق .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعتراك بَعْضُ آلِهَتِنَا بسوء ﴾

و" إن " التي تُفتتح بها الآية الكريمة أداة شرطية ، وأداة " إن " الشرطية يأتي بعدها جملة شرط ، وجواب شرط ، فإن لم تكن كذلك فهي تكون بمعنى النفي ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللائي وَلَدْنَهُمْ ﴾ [المجادلة : 2] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعتراك ﴾ [هود : 54] .

أي : " ما نقول إلا اعتراك " .

وهكذا نعلم أن كلمة " إنْ " هنا جاءت بمعنى النفي .

و " إلا " هي أداة استثناء ، وقبلها فعل هو " نقول " ، وإذا وجدت أداة استثناء ، ولم يذكر المستثنى منه صراحة ، فاعلم أنه واحد من ثلاثة : إما أن يكون مصدر الفعل ، وإما أن

يكون ظرف الفعل ، وإما أن يكون حال الفعل .

وعلى ذلك فمعنى الآية الكريمة :

وما نقول لك إلا أنَّ آلهتنا أصابتك بسوء ؛ لأنك سَفَّهتهم وأبطَلتَ ألوهيّتهم ، وجئتَ بإلهٍ جديدٍ من عندك ، فأصابتك الآلهة بسوء يراد به الجنون فأخذتَ تخلط في الكلام الذي ليس له معنى .

ويردُّ عليهم هود عليه السلام بما جاء في نفس الآية :

﴿ قَالَ إنِي أُشْهِدُ اللهَ واشهدوا أَنِي بريءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [هود : 54] .

وهو يُشهِد الله الذي يثق أنه أرسله ، ويحمي ذاته ، ويحمي عقله ؛ لأن عقل الرسول هو الذي يدير كيفية أداء البلاغ عن الله .

والحق سبحانه وتعالى لا يمكن أن يرسل رسولاً ولا يحميه .

وقد قال الكافرون عن سيدنا رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أنه مجنون ؛ فأنزل الحق سبحانه وتعالى قوله الكريم :

﴿ مَا أَنت بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 24] .

ونحن نعلم أن المجنون لا خُلُق له ، وفي هذا البيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قمة العقل ؛ لأنه في قمة الخُلُق الطيِّب .

وهنا يُشهد هود عليه السلام قومه ويطالبهم أن يرجعوا إلى الفطرة السليمة ، ويحكموا : أهو مجنون أم لا ، ويشهدهم أيضاً أنه بريء من تلك الآلهة التي يُشركون بعبادتها من دون الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان هود عليه السلام : ﴿ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ ﴾

(78/380)

وقوله : ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ أي : من دون الله ، فهم قد عبدوا أصناماً من دون الله سبحانه ، ومطلب هود عليه السلام منهم أن يكيدوا له جميعاً ، وهم كثرة طاغية ، وهو فرد واحد ؛ وإن كادت الكثرة المتجبِّرة لواحد ، فمن المتوقع أن يغلبوه ، وهو عليه السلام هنا يتحداهم ويطلب منهم أن يعملوا كل مكرهم وكيدهم ، وأن يقتلوه لو استطاعوا ، وهذه قمة التحدي .

والتحدي هنا معجزة ؛ لأنه ساعة يتحداهم فهو يعلم أن الله سبحانه وتعالى ينصره ، وهو عليه السلام متأكد من قوله :

﴿ أُشْهِدُ اللهَ ﴾ [هود : 54] .

الذي قاله في الآية السابقة ، ولا يمكن أن يرمي مثل هذا التحدي جزافاً ، لأن الإنسان لا يجازف بحياته في كلمة .

وهو لم يَقُلْ : ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ ﴾ [يونس : 55] إلا إذا كان قد آوى إلى ركن شديد ، وإنه ينطق بالكلمة عن إيمان بأن الحق سبحانه سيهبه قدرة على نفاذ الكلمة .

وهو قد أشهد الله تعالى ، والله سبحانه هو أول من شهد لنفسه ، يقول الحق سبحانه :

﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ [آل عمران : 18] .

وكذلك شهدت الملائكة وأولو العلم ، والله سبحانه وتعالى حين شهد لنفسه فإنما يطمئننا أنه إذا ألقى أمراً علم أنه مُنفَّذ لا محالة .

وقد أشهد هود عليه السلام ربَّه سبحانه ، وهو واثق من حمايته له وما كان الحق سبحانه ليرسل رسولاً لُيمكِّن منه قوماً يُزيحوه من حركة الرسالة .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان هود عليه السلام : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى الله رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾

يعلن لهم هود عليه السلام حقيقة أنه يتوكَّل على الله تعالى الذي لا يعلوهم فقط ، ولا يرزقهم وحدهم ، بل هو الآخذ بناصية كل دابَّة تدُب في الأرض ولها حرية وحركة ، والناصية هي مقدّم الرأس ، وبها خصلة من الشعر .

وحين تريد إهانة واحد فأنت تمسكه من خصلة الشعر هذه وتشدُّه منها .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

(79/380)

﴿ يُعْرَفُ المجرمون بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بالنواصي والأقدام ﴾ [الرحمن : 41] .

وفي آية أخرى يقول الله سبحانه :

﴿ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بالناصية ﴾ [العلق : 15] .

إذن : فكيف لم يجرؤ قوم عاد على أن يسلِّطوا مجموعة ثعابين ، وأعداداً من الكلاب المتوحشة مثلاً على سيدنا هود عليه السلام .

لم يستطيعوا ذلك ، وقد أعلن لهم سبب عجزهم عن الإضرار به حين قال لهم :

﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : 56] .

ونحن نلحظ أنه عليه السلام قال في صدر الآية :

﴿ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ [هود : 56] ، وفي عَجزُ الآية قال : ﴿ إِنَّ رَبِّي ﴾ [هود : 56] ، والسبب في قوله : ﴿ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ [هود : 56] أنهم كانوا قادحين في مسألة ربوبية الحق سبحانه .

لذلك قال عليه السلام في مجال السيطرة : ﴿ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ أما في عجز الآية فقال :

﴿ إِنَّ رَبِّي على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : 56] .

أي : أن الإله الواحد سبحانه له مطلق العدالة ، ولم يأتِ هنا بشيء يخصُّ أربابهم ؛ لأنه هنا يتحدث عن مطلق عدالة الحق سبحانه .

والحق سبحانه وتعالى على صراط مستقيم في منتهى قُدرته ، وقَهْره وسيطرته ، ولا شيء يُفلت منه ، ومع كل قدرة الله تعالى اللامتناهية فهو لا يستعمل قهره في الظلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(80/380)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آَلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53) ﴾

قوله تعالى : ﴿ بِبَيِّنَةٍ ﴾ : يجوز أن تكونَ الباء للتعدية ، فيتعلَّق بالفعل قبلها ، أي : ما أظهرْتَ لنا بينةً قط . والثاني : أن يتعلَّق بمحذوف على أنها حالٌ ، إذ التقدير : مستقراً أو

ملتبساً ببينة .

قوله : ﴿ عَن قَوْلِكَ ﴾ حالٌ من الضمير في " تاركي " ، أي : وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك . ويجوز أن تكون " عن " للتعليل ، كهي في قولِه تعالى ﴿ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا آإِيَّاهُ ﴾ [التوبة : 114] ، أي : إلا لأجل موعدة . والمعنى هنا : بتاركي آلهتِنا لقولك ، فيتعلَّق بتاركي . وقد أشار إلى التعليل ابنُ عطية ، ولكنَّ المختارَ الأول ، ولم يذكر الزمخشري غيره .

﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ اعتراك ﴾ : الظاهرُ أن ما بعد " إلا " مفعول بالقول قبله ، إذ المرادُ : إن نقول إلا هذا اللفظَ فالجملة محكيةٌ نحو قولك : " ما قلت إلا زيد قائم " . وقال أبو البقاء : " الجملةُ مفسرةٌ لمصدرٍ محذوف ، التقدير : إن نقول إلا قولاً هو اعتراك ، ويجوز أن يكونَ موضعُها نصباً ، أي : ما نذكر إلا هذا القول " وهذا غير مُرْضٍ ؛ لأن الحكاية بالقول معنى ظاهر لا يَحْتاج إلى تأويل ، ولا إلى تضمينِ القول بالذِّكْرِ .

وقال الزمخشري : " اعتراك " مفعول " نقول " و " إلا " لغوٌ ، أي : ما نقول إلا قولنا " اعتراك " . انتهى . يعني بقوله " لَغُو " أنه استثناءٌ مفرغ ، وتقديره بعد ذلك تفسيرُ معنى لا إعراب ، إذ ظاهرُه يقتضي أن تكونَ الجملةُ منصوبةً بمصدر محذوف ، ذلك المصدرُ منصوبٌ ب " نقول " هذا الظاهر . ويُقال : اعتراه بكذا يَعْتريه ، وهو افتعل مِنْ عَراه يَعْرُوه إذا أصابَه ، والأصل : اعْتَرَوَ من العَرْوْ ، مثل : اغترَوا مِن الغَزْو ، فتحرك حرفُ العلة وانفتح ما قبله فقُلِب ألفاً ، وهو يتعدَّى لاثنين ثانيهما بحرف الجر .

قوله : ﴿ أَنِّي بريء ﴾ يجوز أن يكون من باب الإِعمال لأنَّ " أُشْهِدُ " يطلبُه ، و " اشْهدوا " يطلبه أيضاً ، والتقدير : أُشْهِد اللَّه على أنه بريء ، واشهدوا أنتم عليه أيضاً ، ويكون من إعمال الثاني ، لأنه لو أَعْمل الأول لأضمر في الثاني : ولا غَرْوَ في تنازع المختلفين في التعدي واللزوم .

و " مِمَّا تُشْرِكون " يجوز أن تكونَ " ما " مصدريةً ، أي : مِنْ إشراككم آلهةً مِنْ دونه ، أو بمعنى الذي ، أي : مِن الذين تشركونه مِن آلهةٍ مِن دونه ، أي أنتم الذين تجعلونها شركاءَ .

﴿ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ جَمِيعاً ﴾ : حالٌ من فاعل " فكيدون " . وأثبت سائرُ القراء ياء " فكيدوني " في الحالين ، وحَذَفوها في المرسلات .

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56) ﴾

والناصِيَةُ مَنْبتُ الشَّعْرِ في مُقَدَّمِ الرأس، ويُسَمَّى الشعرُ النَّابِتُ أيضاً " ناصِية " باسم محلِّه، ونَصَوْتُ الرجل: أَخَذْتُ بناصِيته، فلامُها واو، ويقال: ناصاة بقَلْب يائها ألفاً، وفي الأَخْذِ بالناصية عبارةٌ عن الغَلَبة والتسلُّط وإن لم يكن آخذاً بناصيته، ولذلك كانوا إذا مَنُّوا على أسيرٍ جَزُّوا ناصيته. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 342. 344﴾

(83/380)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آَلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53) ﴾

ما زادهم هودُ عليه السلام بَسْطاً في الآية وإيضاحاً في المعجزة إلا زادهم اللَّهِ تعالى عَمىً

على عَمىً ، ولم يرزقهم بصيرةً ولا هدىً ، ولم يزيدوا في خطابهم إلا بما دَلَّوا على فَرطِ جهالتهم ، وشدة ضلالتهم بعد إطنابهم وأتهابهم .

﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آَلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) ﴾

وكيف ظَنّوا أنّ آلهتهم تمسّ أعداءَهم بسوءٍ وهي تضرُّ أعداءها ولا تنفع أولياءَها ؟ فهؤلاء الغواية عليهم مُسْتَوْلية . ثم إن هوداً عليه السلام أفْصَحَ عن فضل ربِّه عليه ؛ وصَرَّحَ بإخلاصه وحُسْنِ يقينه فقال : ﴿ إِنِى بَرِىءٌ مِمَّا تُشرِكُونَ ﴾ .

﴿ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) ﴾

فلم يَحْتَجْ معهم إلى تضرع واستجداء ، ولا راوَدُهم في سِلْمٍ واستمهال ، ولم يَتَّصفْ في ذلك بركونٍ إلى حَوْله ومُنَّته ، ولم يستند إلى جدّه وقوّته بل قال :

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56) ﴾

أخبر أنه بموعودِ الله له بنُصْرته واثق ، وأنه في خلوص طاعته لربه وفي صفاء معرفته (غيرُ مُفَارِقٍ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 141.142 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما استوفى تشييده أمره وهدم قولهم ، أخذ يحذرهم فقال مبيناً أن العدول عما جاء به لا يكون إلا بمعالجة الطبع السليم : ﴿ فإن تولوا ﴾ ولو أدنى تولية – بما يشير إليه حذف التاء ، فعليكم اللوم دوني ، لأني فعلت ما عليّ ﴿ فقد ﴾ أي بسبب أني قد ﴿ أبلغتكم ما ﴾ أي كل شيء ﴿ أرسلت ﴾ أي تقدم إرسالي من عند من لا مرسل في الحقيقة غيره ﴿ به إليكم ﴾ كاملاً لم أدع منه شيئاً رجاء لإقبالكم ولا خوفاً من إعراضكم ، فأبيتم إلا التكذيب لي والاستكبار عما جئت به ، فالذي أرسلني ينتقم منكم فيهلككم

﴿ ويستخلف ربي ﴾ أي يوجد المحسن إليّ بإقامتي فيما يرضيه ﴿ قوماً غيركم ﴾ يخلفونكم في دياركم وأموالكم ، فتكونون أعداءه ، ويكون المستخلفون متعرضين لأن يكونوا أولياء مع كونهم ذوي بأس وقوة فيختص الضرر بكم ﴿ ولا تضرونه ﴾ أي الله بإعراضكم ﴿ شيئاً ﴾ ثم علل وعيده لهم بقوله مؤكداً لأن العاصي فاعل بعصيانه فعل من يظن أن الله غافل عنه : ﴿ إن ربي ﴾ أي المحسن إليّ المدبر لمصالحي .

ولما كان الأهم في هذا السياق بيان استعلائه وقدرته ، قدم قوله : ﴿ على كل شيء ﴾ صغيراً أو كبيراً جليل أو حقير ﴿ حفيظ ﴾ أي عالم بكل شيء وقادر على كل شيء وبالغ الحفظ له ، فيعلم ما يعمل محفوظه فيجازيه بما يستحق من نعمه ونقمه ، فهو تعليل لاستخلاف غيرهم وتنزهه عن لحوق ضرر ، لأن الحفظ : الحراسة ، ويلزمها العلم والقدرة ، فمن القدرة حافظ العين ، أي لا يغلبه نوم ، والحفيظة – للحمية والغضب ، ومنهما معاً المحافظة – للمواظبة على الشيء ؛ والتوالي عن الشيء : الذهاب إلى غير جهته إعراضاً عنه ؛ والإبلاغ : إلحاق الشيء نهايته ؛ والاستخلاف : جعل الثاني بدلاً من الأول يقوم مقامه ؛ والضر : إيجاب الألم بفعله أو التسبب له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 545.544 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ يعني فإن تتولوا ثم فيه وجهان : الأول تقدير الكلام فإن تتولوا لم أعاتب على تقصير في الإبلاغ وكنتم محجوبين كأنه يقول : أنتم الذين أصررتم على التكذيب .

الثاني : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يعني يخلق بعدكم من هو أطوع لله منكم ، وهذا إشارة إلى نزول عذاب الاستئصال ولا تضرونه شيئاً ، يعني أن إهلاككم لا ينقص من ملكه شيئاً .

ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ وفيه ثلاثة أوجه : الأول : حفيظ لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها .

الثاني : يحفظني من شركم ومكركم .

الثالث : حفيظ على كل شيء يحفظه من الهلاك إذا شاء ويهلكه إذا شاء . انتهى انتهى ا .

هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 12 . 13 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾

يعني : تتولوا ، ومعناه ، إن أعرضتم عن الإيمان ، فلم تؤمنوا .

وهذا كقوله : ﴿ هَا أَنتُمْ هؤلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ الله فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ والله الغنى وَأَنتُمُ الفقرآء وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يكونوا أمثالكم ﴾ [محمد : 38] .

ثمّ قال : ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ يعني : إن تتولوا ، فأنا معذور ، لأني قد أبلغتكم الرسالة ، ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ إن شاء .

ويقال : قد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، من التوحيد ، ونزول العذاب في الدنيا .

﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبّى ﴾ بعد هلاككم ﴿ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ يعني : خيراً منكم وأطوع لله تعالى .

﴿ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ﴾ يعني : إن لم تؤمنوا به ، فلا تنقصون من ملكه شيئاً .

ويقال : إهلاككم لا ينقصه شيئاً ﴿ إِنَّ رَبّى على كُلّ شَىْء حَفِيظٌ ﴾ يعني : حافظاً ، ولا

يغيب عنه شيء .

ويقال : معناه : حفظ كل شيء عليه .

ثمّ قال : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ يعني : عذابنا ، وهو الريح العقيم ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا والذين ءامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ يعني : بنعمة منا ﴿ وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ يعني : من العذاب الذي عذب به عاد في الدنيا ومما يعذبون به في الآخرة ثم قال عز وجل : ﴿ عَادٌ جَحَدُوا بآيات رَبِّهِمْ وَعَصَوْا ﴾ يعني : كذبوا بعذاب ربهم ، أنه غير نازل بهم ، ومعناه يا أهل مكة ، انظروا إلى حالهم ، كيف عذبوا في الدنيا ، وفي الآخرة .

(88/380)

وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظلموا إِنَّ فِى ذلك لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل : 52] فكذلك هاهنا ، ﴿ عَادٌ جَحَدُوا بآيات رَبِّهِمْ وَعَصَوْا ﴾ بَيَّنَ جرمهم ، ثمّ بَيَّنَ عقوبتهم ، فقال : ﴿ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾ يعني : هوداً خاصة ، ويقال : معناه كذبوا هوداً ، بما أخبرهم عن الرشد ، ﴿ واتبعوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ يعني : عملوا بقول كل جبار .

ويقال : أخذوا بدين كل جبار .

والجبار الذي يضرب ، ويقتل عند الغضب ، ﴿ عَنِيدٍ ﴾ يعني : معرضاً ، ومجانباً عن

الحق .

ثمّ بيّنَ عقوبتهم ، فقال : ﴿ واتبعوا ﴾ يعني : ألحقوا ﴿ فِى هذه الدنيا لَعْنَةً ﴾ يعني : العذاب والهلاك ، وهي الريح العقيم .

﴿ وَيَوْمَ القيامة ﴾ لعنة أُخرى ، وهو عذاب النار إلى الأبد ﴿ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ ، وهذا تنبيه للكفار أن عاداً كفروا ربهم ، فأهلكهم الله تعالى ، فاحذروا كيلا يصيبكم بكفركم ، ما أصابهم بكفرهم ، ويقال : ﴿ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ يعني : ينادي مناد يوم القيامة ، لإظهار حالهم ﴿ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ وقال الضّحّاك : ترفع لهم راية الغدر يوم القيامة ، فينادي منادٍ يوم القيامة : هذه غدرة قوم عاد ، فيلعنهم الملائكة ، وجميع الخلق .

فذلك قوله تعالى : ﴿ أَلاَ بُعْدًا ﴾ يعني : خزياً وسحقاً ﴿ لّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 156 . 157 ﴾

(89/380)

وقال ابن عطية :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾

قرأ الجمهور : " تولَّوا " بفتح اللام والتاء على معنى تتولوا ، وقرأ عيسى الثقفي والأعرج : " تُوُلوا " بضم التاء واللام ، و﴿ إن ﴾ شرط ، والجواب في الفاء وما بعدها من قوله ﴿ فقد أبلغتكم ﴾ ، والمعنى أنه ما علي كبير همّ منكم إن توليتم فقد برئت ساحتي بالتبليغ ، وأنتم أصحاب الذنب في الإعراض عن الإيمان . ويحتمل أن يكون ﴿ تولوا ﴾ فعلاً ماضياً ، ويجيء في الكلام رجوع من غيبة إلى خطاب ، أي فقل : قد أبلغكم .

وقرأ جمهور " ويستخلفُ " بضم الفاء على معنى الخبر بذلك ، وقرأ عاصم – فيما روى هبيرة عن حفص عنه – " ويستخلفْ " بالجزم عطفاً على موضع الفاء من قوله ﴿ فقد ﴾ .

وقوله : ﴿ ولا تضرونه شيئاً ﴾ يحتمل من المعنى وجهين :

أحدهما ولا تضرونه بذهابكم وهلاككم شيئاً أي لا ينتقص ملكه ، ولا يختل أمره ، وعلى هذا المعنى قرأ عبد الله بن مسعود : " ولا تنقصونه شيئاً " .

والمعنى الآخر : ﴿ ولا تضرونه ﴾ أي ولا تقدرون إذا أهلككم على إضراره بشيء ولا على الانتصار منه ولا تقابلون فعله بكم بشيء يضره . ثم أخبرهم أن ربه ﴿ حفيظ ﴾ على كل شيء عالم به ، وفي ترديد هذه الصفات ونحوها تنبيه وتذكير . انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾

في موضع جزم ؛ فلذلك حذفت منه النون ، والأصل تتولوا ، فحذفت التاء لاجتماع تاءين .

﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ بمعنى قد بيّنت لكم .

﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ أي يهلككم ويخلق من هو أطوع له منكم يوحدونه ويعبدونه .

"وَيَسْتَخْلِفُ" مقطوع مما قبله فلذلك ارتفع ؛ أو معطوف على ما يجب فيما بعد الفاء من قوله : "فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ" .

وروي عن حفص عن عاصم "وَيَسْتَخْلِفْ" بالجزم حملاً على موضع الفاء وما بعدها ؛ مثل : ﴿ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف : 186] .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً ﴾ أي بتوليكم وإعراضكم .

﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أي لكل شيء حافظ .

"على" بمعنى اللام ؛ فهو يحفظني من أن تنالوني بسوء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾

﴿ فإن تولوا ﴾ يعني تتولوا بمعنى تعرضوا عن الإيمان بما أرسلت به إليكم ﴿ فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ﴾ يعني أني لم يقع مني تقصير في تبليغ ما أرسلت به إليكم إنما التقصير منكم في قبول ذلك ﴿ ويستخلف ربي قوماً غيركم ﴾ يعني أنكم إن أعرضتم عن الإيمان وقبول ما أرسلت به إليكم يهلككم الله ويستبدل بكم قوماً غيركم أطوع منكم يوحدونه ويعبدونه فيه إشارة إلى عذاب الاستئصال فهو وعيد وتهديد ﴿ ولا تضرونه شيئاً ﴾ يعني بتوليكم إنما تضرون أنفسكم بذلك وقيل لا تنقصونه شيئاً إذا أهلككم لأن وجودكم وعدمكم عنده سواء ﴿ إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى حافظ لكل شيء فيحفظني من أن تنالوني بسوء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾

وقرأ الجمهور : فإن تولوا أي تتولوا مضارع تولى .

وقرأ الأعرج وعيسى الثقفي : تولوا بضم التاء ، واللام مضارع ولّى ، وقيل : تولوا ماض ويحتاج في الجواب إلى إضمار قول ، أي : فقل لهم قد أبلغتكم ، ولا حاجة تدعو إلى جعله ماضياً وإضمار القول .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون تولوا فعلاً ماضياً ، ويكون في الكلام رجوع من غيبة إلى خطاب أي : فقد أبلغتكم انتهى .

فلا يحتاج إلى إضمار ، والظاهر أنّ الضمير في تولوا عائد على قوم هود ، وخطاب لهم من تمام الجمل المقولة قبل .

وقال التبريزي : هو عائد على كفار قريش ، وهو من تلوين الخطاب ، انتقل من خطاب قوم هود إلى الإخبار عمن بحضرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وكأنه قيل : أخبرهم عن قصة قوم هود ، وادعهم إلى الإيمان بالله لئلا يصيبهم كما أصاب قوم هود ، فإن تولوا فقل لهم : قد أبلغتكم .

وجواب الشرط هو قوله : فقد أبلغتكم ، وصح أن يكون جواباً ، لأن في إبلاغه إليهم رسالته تضمن ما يحل بهم من العذاب المستأصل ، فكأنه قيل : فإن تتولوا استؤصلتم

بالعذاب .

ويدل على ذلك الجملة الخبرية وهي قوله : ويستخلف ربي قوماً غيركم .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : الإبلاغ كان قبل التولي ، فكيف وقع جزاء للشرط ؟ (قلت) : معناه فإن تولوا لم أعاقب على تفريط في الإبلاغ ، فإنّ ما أرسلت به إليكم قد بلغكم فأبيتم إلا تكذيب الرسالة وعداوة الرسول .

وقال ابن عطية : المعنى أنه ما عليّ كبيرهم منكم إن توليتم فقد برئت ساحتي بالتبليغ ، وأنتم أصحاب الذنب في الإعراض عن الإيمان .

وقرأ الجمهور : ويستخلف بضم الفاء على معنى الخبر المستأنف أي : يهلككم ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم .

وقرأ حفص في رواية هبيرة : بجزمها عطفاً على موضع الجزاء ، وقرأ عبد الله كذلك ، وبجزم ولا تضروه ، وقرأ الجمهور : ولا تضرونه أي شيئاً من الضرر بتوليتكم ، لأنه تعالى لا تجوز عليه المضار والمنافع .

قال ابن عطية : يحتمل من المعنى وجهين : أحدهما : ولا تضرونه بذهابكم وهلاككم

شيئاً أي : لا ينقص ملكه ، ولا يختل أمره ، وعلى هذا المعنى قرأ عبد الله بن مسعود ولا تنقصونه شيئاً .

والمعنى الآخر : ولا تضرونه أي : ولا تقدرون إذا أهلككم على إضراره بشيء ، ولا على انتصار منه ، ولا تقابلون فعله بشيء يضره انتهى .

وهذا فعل منفي ومدلوله نكرة ، فينتفي جميع وجوه الضرر ، ولا يتعين واحد منها .

ومعنى حفيظ رقيب محيط بالأشياء علماً لا يخفى عليه أعمالكم ، ولا يغفل عن مؤاخذتكم ، وهو يحفظني مما تكيدونني به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(94/380)

وقال أبو السعود :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾

أي تتولَّوا بحذف إحدى التاءين أي أن تستمرّوا على ما كنتم عليه من التولي والإعراض ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ أي لم أعاتَبْ على تفريط في الإبلاغ وكنتم محجوجين بأن بلّغتكم الحقَّ فأبيتم إلا التكذيبَ والجحود ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوماً غَيرَكُم ﴾

استئنافٌ بالوعيد لهم بأن الله تعالى يهلكهم ويستخلف في ديارهم وأموالِهم قوماً آخرين ، أو عطفٌ على الجواب بالفاء ، ويؤيده قراءةُ ابنِ مسعود رضي الله عنه بالجزْم عطفاً على الموضع ، كأنه قيل : فإن تولّوا يعذرْني ويُهلككم ويستخلفْ مكانكم آخرين ، وفي اقتصار إضافةِ الربِّ عليه عليه السلام رمزٌ إلى اللطف به والتدميرِ للمخاطبين ﴿ وَلاَ تَضُرُّونَهُ ﴾ بتولّيكم ﴿ شَيْئاً ﴾ من الضرر لاستحالة ذلك عليه ، ومن جزَمَ (وَيَسْتَخْلِفْ) أسقط منه النون ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أي رقيبٌ مهيمنٌ فلا تخفى عليه أعمالُكم فيجازيكم بحسبها أو حافظٌ مستولٍ على كل شيء فكيف يضرّه شيءٌ وهو الحافظُ للكل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(95/380)

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾

أي تتولوا فهو مضارع حذف منه إحدى التاءين وحمل على ذلك لاقتضاء أبلغتكم له ، وجوز ابن عطية كونه ماضياً ، وفي الكلام التفات ولا يظهر حسنه ولذا قدر غيره ممن جعله كذلك فقل أبلغتكم لكنه لا حاجة إليه ، ويؤيد ذلك قراءة الأعرج .

وعيسى الثقفي ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ بضم التاء واللام مضارع ولى ، والمراد فإن تستمروا على ما كنتم عليه من التولي والإعراض لوقوع ذلك منهم فلا يصلح للشرط ، وجوز أن يبقى على ظاهره بحمله على التولي الواقع بعد ما حجهم ، والظاهر أن الضمير لقوم هود والخطاب معهم ، وهو من تمام الجمل المقولة قبل ، وقال التبريزي : إن الضمير لكفار قريش وهو من تلوين الخطاب ، وقد انتقل من الكلام الأول إلى الإخبار عمن بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكأنه قيل : أخبرهم عن قصة قوم هود وادعهم إلى الإيمان بالله تعالى لئلا يصيبهم كما أصاب قوم هود عليه السلام ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ فقل لهم قد أبلغتكم الخ وهو من البعد بمكان كما لا يخفى ، وقوله سبحانه : ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ دليل جواب الشرط أي إن تتولوا لم أعاتب على تفريط في الإبلاغ فإن ما أرسلت به إليكم قد بلغكم فأبيتم إلا تكذيب الرسالة وعداوة الرسول ، وقيل : التقدير إن تتولوا فما عليّ كبيرهمّ منكم فإنه قد برئت ساحتي بالتبليغ وأنتم أصحاب الذنب في الإعراض عن الإيمان ، وقيل : إنه الجزاء باعتبار لازم معناه المستقبل باعتبار ظهوره أي فلا تفريط مني ولا عذر لكم ، وقيل : إنه جزاء باعتبار الإخبار لأنه كما يقصد ترتب المعنى يقصد ترتب الإخبار كما في ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ [النحل : 53] على ما مر وكل ذلك لما أن الإبلاغ واقع قبل توليهم ، والجزاء يكون مستقبلاً بالنظر إلى زمان الشرط .

وزعم أبو حيان أن صحة وقوعه جواباً لأن في إبلاغه إليهم رسالته تضمن ما يحل بهم من العذاب المستأصل فكأنه قيل : فإن تتولوا استؤصلتم بالعذاب ، ويدل على ذلك الجملة الخبرية ، وهي قوله سبحانه :

﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ وفيه منع ظاهر ، وهذا كما قال غير واحد : استئناف بالوعيد لهم بأن الله تعالى يهلكهم ويستخلف قوماً آخرين في ديارهم وأموالهم وهو استئناف نحوي عند بعض بناءاً على جواز تصديره بالواو .

وقال الطيبي : المراد به أن الجملة ليست بداخلة في الجملة الشرطية جزاءاً بل تكون جملة برأسها معطوفة على الجملة الشرطية وهو خلاف الظاهر من العبارة ، وعليه تكون مرتبة على قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبِّى على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : 56] والمعنى أنه على العدل ينتقم منكم ويهلككم ، وقال الجلبي : لا مانع عندي من حمله على الاستئناف البياني جواباً عما يترتب على التولي وهو الظاهر كأنه قيل : ما يفعل بهم إذا تولوا ؟ فقيل : ﴿ يستخلف ﴾ الخ .

وتعقبه بعضهم بأن الاستئناف البياني لا يقترن بالواو ، وجوز أن يكون عطفاً على الجواب لكن على ما بعد الفاء لأنه الجواب في الحقيقة ، والفاء رابطة له ودخول الفاء على المضارع هنا لأنه تابع يتسامح فيه .

وقيل : تقديره فقل : ﴿ يستخلف ﴾ الخ ، وقرأ حفص برواية هبيرة و ﴿ يستخلف ﴾ بالجزم وهو عطف على موضع الجملة الجزائية مع الفاء كأنه قيل : ﴿ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ يعذرني ويهلككم ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ ﴾ مكانكم آخرين .

(97/380)

وجوز أبو البقاء كون ذلك تسكيناً لتوالي الحركات ، وقرأ عبد الله كذلك ، ويجزم قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ﴾ ، وقيل : إن من جزم الأول جزم هذا لعطفه عليه وهو الظاهر ، والمعنى لا تضرونه بهلاككم شيئاً أي لا ينتقص ملكه ولا يختل أمره ، ويؤيد هذا ما روي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قرأ ولا تنقصونه شيئاً ، ونصب ﴿ شَيْئًا ﴾ على أنه مفعول مطلق لتضرون أي شيئاً من الضرر لأنه لا يتعدى لاثنين ، وجعله بعضهم مفعولاً ثانياً مفسراً له بما يتعدى لهما لمكان الرواية ، وجوز ابن عطية أن يكون المعنى إنكم لا تقدرون إذا أهلككم على إضراره بشيء ولا على الانتصار منه ولا تقابلون فعله بشيء يضره تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، والأول أظهر ، وقدر بعضهم التولي بدل الإهلاك أي ولا تضرونه بتوليكم شيئاً من الضرر لاستحالة ذلك عليه سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أي رقيب محيط بالأشياء علماً فلا يخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن

مؤاخذتكم .

فالحفظ كناية عن المجازاة ، ويجوز أن يكون الحفيظ بمعنى الحافظ بمعنى الحاكم المستولي أي أنهس بجانه حافظ مستول على كل شيء ، ومن شأه ذلك كيف يضره شيء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(98/380)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾

تفريع على جملة ﴿ إنّي أشهد الله ﴾ [هود : 54] .

وما بينهما اعتراض أوجبه قصد المبادرة بإبطال باطلهم لأنّ مضمون هذه الجملة تفصيل لمضمون جملة ﴿ إنّي أشهد الله ﴾ [هود : 54] بناء على أنّ هذا من كلام هود عليه السّلام .

وعلى هذا الوجه يكون أصل ﴿ تولوا ﴾ تتولوا فحذفت إحدى التّاءين اختصاراً ، فهو مضارع ، وهو خطاب هود عليه السّلام لقومه ، وهو ظاهر إجراء الضمائر على وتيرة واحدة .

ويجوز أن تكون فعلاً ماضياً ، والواو لأهل مكّة فيكون كالاعتراض في إجراء القصة لقصد العبرة بمنزلة الاعتراض الواقع في قصّة نوح عليه السّلام بقوله : ﴿ أم يقولون افتراه قل إن افتريته ﴾ [هود : 35] الآية .

خاطب الله نبيّه صلى الله عليه وسلم وأمره بأن يقول لهم : ﴿ قد أبلغتكم ﴾ .

والفاء الأولى لتفريع الاعتبار على الموعظة وتكون جملة ﴿ فقد أبلغتكم ﴾ من كلام النبي صلى الله عليه وسلم مقولَ قول مَأمور به محذوف يدلّ عليه السياق .

والتقدير : فقل قد أبلغتكم .

وهذا الأسلوب من قبيل الكلام الموجّه المحتمل معنيين غير متخالفين ، وهو من بديع أساليب الإعجاز ، ولأجله جاء فعل ﴿ تولوا ﴾ بتاء واحدة بخلاف ما في قوله : ﴿ وَإِنْ تتولوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ [محمد : 38] .

والتّولي : الإعراض .

وقد تقدّم في قوله تعالى : ﴿ ومن تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ ، في سورة [النساء : 80] .

وجعل جوابُ شرط التوّلي قوله : فقد أبلغتكم ﴾ مع أنّ الإبلاغ سابق على التوّلي المجعول شرطاً لأنّ المقصود بهذا الجواب هو لازم ذلك الإبلاغ ، وهو انتفاء تبعة تولّيهم عنه وبراءته من جرمهم لأنّه أدّى ما وجب عليه من الإبلاغ ، فإنْ كان من كلام هود عليه السّلام ف ﴿

ما أرسلت به ﴾ هو ما تقدّم ، وإنْ كان من كلام النبي صلى الله عليه وسلم فما أرسل به هو الموعظة بقصّة قوم هود عليه السّلام .

وعلى كلا الوجهين فهو كناية عن الإنذار بتبعة التّولّي عليهم ونزول العقاب بهم ، ولذلك عطف ﴿ ويستخلف ربّي قوماً غيركم ﴾ أي يزيلكم ويخلفكم بقوم آخرين لا يتولون عن رسولهم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ [محمد : 38] .

وارتفاع ﴿ يستخلف ﴾ في قراءة الكافّة لأنّه معطوف على الجواب مجاز فيه الرفع والجزم .

وإنما كان الرفع هنا أرجح لإعطاء الفعل حكم الكلام المستأنف ليكون مقصوداً بذاته لا تبعاً للجواب ، فبذلك يكون مقصوداً به إخبارهم لإنذارهم بالاستئصال .

وكذلك جملة ﴿ ولا تضرونه شيئاً ﴾ والمراد لا تضرون الله بتولّيكم شيئاً و ﴿ شيئاً ﴾ مصدر مؤكد لفعل ﴿ تضرونه ﴾ المنفي .

وتنكيره للتّقليل كما هو شأن تنكير لفظ الشيء غالباً .

والمقصود من التّأكيد التّنصيص على العموم بنفي الضر لأنّه نكرة في حيّز النفي ، أي فالله يلحق بكم الاستئصال ، وهو أعظم الضر ، ولا تضرونه أقلّ ضر ؛ فإنّ المعروف في المقارعات والخصومات أنّ الغالب المضرّ بعدوّه لا يخلو من أن يَلحقه بعض الضرّ من جرّاء المقارعة والمحاربة .

وجملة ﴿ إنّ ربّي على كل شيء حفيظ ﴾ تعليل لجملة ﴿ ولا تضرّونه شيئاً ﴾ ، فموقع ﴿ إنّ ﴾ فيها موقع فاء التفريع .

والحفيظ : أصله مبالغة الحافظ ، وهو الذي يضع المحفوظ بحيث لا يناله أحد غير حافظه ، وهو هنا كناية عن القدرة والقهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(100/380)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾

الفعل " تولَّوا " أصله : " تتولَّوا " ، وفي اللغة : إذا ابتدأ فعل بتاءين يُقتصَر على تاء واحدة .

وهكذا يكون المعنى :

إن تتولَّوا فقد أبلغتكم المنهج الذي أرسلت به إليكم ، ولا عُذر لكم عندي ؛ لأن الحق

سبحانه لا يعذِّب قوماً وهم غافلون ؛ لذلك أرسلني إليكم .

أو أن الخطاب من الله سبحانه لهود عليه السلام ليبيِّن له : فإن تولَّوا فقل لهم : ﴿ أَبْلَغْتُكُمْ مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ [هود : 57] .

والاستخلاف أن يوجد قوم خلفاء لقوم ، إما أن يكونوا عادلين ؛ فلا يقفوا من المناهج ولا من الرسالات مثلما وقف قوم عاد .

وإما أن يكونوا غير عادلين ، مثل من قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصلاة واتبعوا الشهوات ﴾ [مريم : 59] .

والحق سبحانه قد وعد المؤمنين وعداً طيِّباً :

﴿ وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور : 55] .

إذن : فالاستخلاف إما أن يكون الخلف فيه صاحب عمل صالح ، أو أن يبدد المنهج فلا يتبعه ، بل يتبع الشهوات .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ هَا أَنتُمْ هؤلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ الله فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ والله الغني وَأَنتُمُ الفقرآء وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يكونوا أَمْثَالَكُم ﴾ [محمد : 38] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً ﴾ [هود : 57] .

(101/380)

لأن المنهج الذي نزل على الخَلْق ، أنزله الحق سبحانه وتعالى لصلاح العباد ، وهو سبحانه خَلَق أولاً بكل صفات الكمال فيه ، ولن يزيده العباد وصفاً من الأوصاف ، ولن يسلبه أحد وصفاً من الأوصاف .

ولذلك نقول للمتمردين على عبوديتهم لله كفراً ، وللمتمردين على المنهج بالمعصية : أنتم ألفتم التمرد ؛ إما التمرد في القمة وهو الكفر بالله ، وإما التمرد على أحكام الله بمخالفتها ، فلماذا لا يتمرد أحدكم على المرض ، ويقول : "لن أمرض" ؟ ولماذا لا يتمرد أحدكم على الموت ويرفض أن يموت ؟

إذن : فما دُمْتَ قد عرفت التمرد فيما لك فيه اختيار ، فهل تستطيع التمرد على أحكام الله القهرية فيك ؟

إنك لن تستطيع ؛ لأنك مأخوذ بناصيتك . والحق سبحانه إن شاء أن يوقف القلب ، فلن تستطيع أن تأمر قلبك بعدم التوقف .

لذلك قال هود عليه السلام :

﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [هود : 57] .

فالله سبحانه رقيب ؛ لأنه قيوم قائم على كل أمور كونه .

وبعض الفلاسفة قالوا : إن الله قد خلق الكون ، وخلق النواميس والقوانين ، ثم تركها تقوم بعملها .

ولهؤلاء نقول : لا ؛ فأنتم أقررتم بصفات الخالق القادر ، فأين صفات القيومية لله القائم على كل نفس بما كسبت ، وهو سبحانه القائل لعبيده عن نفسه :

﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : 255] .

وهو سبحانه حين يقول هذا إنما يطمئن العباد ؛ ليناموا ويرتاحوا ؛ لأنه سبحانه مُنزَّه عن الغَفْلة أو النوم ، بل هو سبحانه قيوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(102/380)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾

أي : تَتَوَلَّوا فحذف إحدى التاءَيْن ، ولا يجوز أن يكونَ ماضياً كقوله : " أَبْلَغْتكم " ، ولا يجوزُ أَن يدعى فيه الالتفات ، إذ هو ركاكةٌ في التركيب وقد جوَّزَ ذلك ابنُ عطية فقال : " ويُحْتمل أن يكون " تولَّوا " ماضياً ، ويجيءُ في الكلام رجوعٌ من غَيْبة إلى خطاب " . وقلت : ويجوزُ أن يكونَ ماضياً لكن لمَدْرَكٍ آخرَ غيرِ الالتفات : وهو أن يكونَ على إضمار القول ، أي : فقل لهم : قد أبلغْتُكم . ويترجَّح كونُه ماضياً بقراءة عيسى والثقفي والأعرج " فإن تُوُلُّوا " بضم التاء واللام ، مضارعَ ولى بضم التاءِ واللام مضارعَ وَلِي ، والأصل تُوُلِّيُوا فأُعِلَّ .

قال الزمخشري : " فإن قلتَ : الإِبلاغ كان قبل التولِّي فكيف وقع جزاءً للشرط ؟ قلت : معناه فإنْ تتولَّوا لم أعاتِبْ على تفريطٍ على الإِبلاغ ، وكنتم محجوجين بأنَّ ما أَرْسَلْتُ به إليكم قد بلغكم فأبيتم إلا التكذيب .

قوله : ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ ﴾ العامَّةُ على رفعِه استئنافاً . وقال أبو البقاء " هو معطوفٌ على الجواب بالفاء " . وقرأ عبد اللَّه بن مسعود بتسكينه ، وفيه وجهان : أحدهما : أن يكون سُكِّن تخفيفاً لتوالي الحركات : والثاني : أن يكونَ مجزوماً عطفاً على الجواب المقترن بالفاء ، إذ مَحَلُّه الجزمُ وهو نظيرُ قولِه : ﴿ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ ﴾ وقد تقدَّم تحقيقُه ، إلا أن القراءتين ثَمَّ في المتواتر .

قوله : ﴿ وَلاَ تَضُرُّونَهُ ﴾ العامَّة على النون ، لأنه مرفوعٌ على ما تقدَّم ، وابنُ مسعودٍ بحذفها ، وهذا يُعيِّن أن يكونَ سكونُ " يستخلف " جزماً ، ولذلك لم يذكر الزمخشري غيره

؛ لأنه ذكر جزمَ الفعلين ، ولمَّا لم يذكرْ أبو البقاء الجزم في " تَضرُّونه " جوَّز الوجهين في " يَسْتخلف " .

و" شيئاً " مصدرٌ ، أي : شيئاً من الضرر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 345.344 ﴾

(103/380)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57) ﴾

أوحينا إليه أنْ قُلْ لهم : نْ تَوَلَّوْا ولم تؤْمنوا بي فقد بَلَّغْتُ ما حُمِّلت من رسالتي ، وإني واثقٌ بأَنَّ الله إذا أهلككم يأتِ بأقوام آخرين سواكم أطوَعَ له منكم ، وإنْ أفنا كم ما اختلَّ مُلْكُه ؛ إذْ الحقُّ - سبحانه - بوجود الأغيار لا يلحقه زَيْنٌ - وإنْ وَحَّدُوا ، وبفقدهم لا يَمَّسه شَيْنٌ - وإنْ جحدوا وألحدوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 142 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (60) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تم ذلك كان كأنه قيل : فلم يرجعوا ولم يرعووا لبينة ولا رغبة ولا رهبة فأنزلنا بهم أمرنا ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ أي وقت إرادتنا لإهلاك عاد ﴿ نجينا ﴾ أي تنجية عظيمة بما لنا من العظمة ﴿ هوداً والذين آمنوا ﴾ كائنين ﴿ معه ﴾ في الإيمان والنجاة من قومهم فلم يقدروا أن يصلوا إليهم بسوء مع اجتهادهم في ذلك وإعجابهم بقواهم ويقال : إن الذين آمنوا كانوا أربعة آلاف .

ولما كان سبحانه بحيث لا يجب عليه لأحد شيء لأنه لا يقدر أحد أن يقدره حق وإن اجتهد في طاعته ، فإن طاعته نعمة منه عليه ، أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ برحمة منا ﴾

تحقيقاً لتوكل عبدنا ؛ ولما بين إنجاءهم من قومهم بين إنجاءهم مما أهلكهم به فقال مكرراً ذكر التنجية دلالة على أن عذابهم كان في غاية الفظاعة : ﴿ ونجيناهم ﴾ أي بما لنا من العظمة ، وبين فظاعة ما أهلك به أعداءهم بقوله : ﴿ من عذاب غليظ ﴾ أي أهلكنا به مخالفيهم وهو الريح الصرصر ، وهذا أولى من حمله على عذاب الآخرة لما يأتي من قوله ﴿ ومن خزي يومئذ ﴾ كأنهم كانوا إذا رأوا مخايل العذاب قصدوا نبيهم ومن آمن به ليهلكوهم قبلهم كما صرح به في قصة صالح ؛ والنجاة : السلامة من الهلاك ؛ وحقيقة الغلاظة عظم الجثة ، فاستعير للعذاب لثقله على النفس وطول مكثه .

(105/380)

ولما تمت قصتهم على هذا الوجه لابديع والأسلوب المطرب ، قال تعالى عاطفاً على قوله ﴿ تلك من أنباء الغيب ﴾ : ﴿ وتلك عاد ﴾ أي قصة القوم البعداء البغضاء ، ما كنت تعلمها على هذا التفصيل أنت ولا قومك ولا أهل الكتاب ، وإنما نفيت عن أهل الكتاب لأنهم لا يعلمون إلا ما له أصل عن أنبيائهم ، وهذه وقصة ثمود ليستا في التوراة ولا شيء من أسفار أنبيائهم ، وسألت بعض علمائهم فلم أجد عنده شيئاً من علمها ولا حرفاً واحداً ولا سمع بعاد ولا هود ، وتلخيص قصتهم أنهم ﴿ جحدوا ﴾ أي كذبوا عناداً واستهانة

﴿ بآيات ربهم ﴾ المحسن إليهم ﴿ وعصوا رسله ﴾ فإن من عصى واحداً منهم فقد عصى الكل لاتفاقهم على أمر واحد مع التساوي في مطلق المعجزة ﴿ واتبعوا ﴾ أي بغاية جهدهم ﴿ أمر كل جبار ﴾ أي قاهر بليغ القهر يجبر غيره على ما يريد ، وهذا يدل على أنه لا عذر في أصل الدين بوجه فإن الضمائر لا يعلمها إلا الله فيمكن كل أحد مخالفة الجبار فيه ﴿ عنيد ﴾ أي طاغ باغ لا يقبل الحق بوجه ، فأهلكوا ولم يمنعهم تجبرهم ولا أغنى عنهم عنادهم وتكبرهم ﴿ وأُتبعوا ﴾ جميعاً بعد إهلاكهم بأيسر وجه لعظيم قدرة المتبع ﴿ في هذه الدنيا ﴾ حقرها في هذه العبارة بما أشارت إليه الإشارة مع التصغير ، وبما دل على الدنو وبأن من اغتربها فهو ممن وقف مع الشاهد لما له من الجمود ﴿ لعنة ﴾ أي طرداً وبعداً وإهلاكاً ﴿ ويوم القيامة ﴾ أي كذلك بل أشد ، فكأنه قيل : أفما لمصيبتهم من تلاف ؟ فقيل : لا ، ﴿ ألا ﴾ مفتتحاً للإخبار عنهم بهذه الأداة التي لا تذكر إلا يين يدي كلام يعظم موقعه ويجل خطبه ، والتأكيد في الإخبار بكفرهم تحقيق لحالهم ، وفيه من أدلة النبوة وأعلام الرسالة الرد على طائفة قد حدثت بالقرب من زماننا يصوّبون جيمع الملل وخصوا عاداً هذه لكونها أغناهم بأن قالوا : إنهم من المقربين إلى الله وإنهم بعين الرضى منه ، فالله المسؤول في الإدالة عليهم وشفاء الصدور منهم ، وهم أتباع ابن عربي الكافر العنيد أهل

الاتحاد ، المجاهرون بعظيم الإلحاد ، المستخفون برب العباد ، فلذلك قال تعالى مبيناً لحالهم بياناً لا خفاء معه : ﴿ إن عاداً كفروا ﴾ ولم يقصر الفعل ، بل عداه إعظاماً لطغيانهم فقال : ﴿ ربهم ﴾ أي غطوا جميع أنوار الظاهر الذي لا يصح أصلاً خفاءه لأنه لا نعمة على مخلوق إلا منه ، فكان كفرهم أغلظ الكفر ، ومع ذلك فلم ينثن هود عليه السلام عن إبلاغهم جميع ما أمر به ولا ترك شيئاً مما أوحي إليه فلك به أسوة حسنة وفيهم قدوة ، ومن كفر من أحسن إليه بعد بعداً لا قرب معه .

ولما كان الأمر عظيماً والخطب جليلاً ، كرر الأداة التي تقال عند الأمور الجليلة فقال : ﴿ ألا بعداً لعاد ﴾ هو من بعد - بكسر العين إذا كان بعده بالهلاك ، وبينهم بقوله : ﴿ قوم هود ﴾ تحقيقاً لهم لأنهم عادان : الأولى والآخرة ، وإيماء إلى أن استحقاقهم للإبعاد بما جرى لهو عليه السلام معهم من الإنكار والدعاء عليهم بعد الهلاك كناية عن الإخبار بأنهم كانوا مستحقين للهلاك ؛ والجحد : الخبر عما يعلم صحته أنه لا يعلمها ، وهو ضد الاعتراف كما أن النفي ضد الإثبات ، فهو خبر بمجرد العدم فهو أعم ؛ والعصيان خلاف ما أمر به الداعي على طريق الإيجاب ؛ واللعنة : الدعاء بالإبعاد ، وأصلها الإبعاد من الخير ؛ والإتباع : جعل الثاني على أثر الأول ، والإبلاغ أخص منه ، والمراد هنا بلوغها لهم لأن

الذي قضى بذلك قادر وقد ألحق بهم عذاب الدنيا المبعد لهم من مظان الرحمة. انتهى

انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 3 صـ 545. 547﴾

(107/380)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أي عذابنا وذلك هو ما نزل بهم من الريح العقيم عذبهم الله بها سبع ليال وثمانية أيام، تدخل في مناخرهم وتخرج من أدبارهم وتصرعهم على الأرض على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية.

فإن قيل : فهذه الريح كيف تؤثر في إهلاكهم ؟

قلنا : يحتمل أن يكون ذلك لشدة حرها أو لشدة بردها أو لشده قوتها ، فتخطف الحيوان من الأرض، ثم تضربه على الأرض، فكل ذلك محمل.

وأما قوله : ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا ﴾ فاعلم أنه يجوز إتيان البلية على المؤمن وعلى الكافر معاً ،

وحينئذ تكون تلك البلية رحمة على المؤمن وعذاباً على الكافر ، فأما العذاب النازل بمن يكذب الأنبياء عليهم السلام فإنه يجب في حكمة الله تعالى أن ينجي المؤمن منه ، ولولا ذلك لما عرف كونه عذاباً على كفرهم ، فلهذا السبب قال الله تعالى ههنا : ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ .

وأما قوله : ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ ففيه وجوه : الأول : أراد أنه لا ينجو أحد وإن اجتهد في الإيمان والعمل الصالح إلا برحمة من الله ، والثاني : المراد من الرحمة : ما هداهم إليه من الإيمان بالله والعمل الصالح .

الثالث : أنه رحمهم في ذلك الوقت ، وميزهم عن الكافرين في العقاب .

وأما قوله : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ فالمراد من النجاة الأولى هي النجاة من عذاب الدنيا ، والنجاة الثانية من عذاب القيامة ، وإنما وصفه بكونه غليظاً تنبيهاً على أن العذاب الذي حصل لهم بعد موتهم بالنسبة إلى العذاب الذي وقعوا فيه كان عذاباً غليظاً ، والمراد من قوله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ ﴾ أي حكمنا بأنهم لا يستحقون ذلك العذاب الغليظ ولا يقعون فيه .

واعلم أنه تعالى لما ذكر قصة عاد خاطب قوم محمد صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿ عَادٌ جَحَدُواْ ﴾ فهو إشارة إلى قبورهم وآثارهم، كأنه تعالى قال: سيروا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا.

ثم إنه تعالى جمع أوصافهم ثم ذكر عاقبة أحوالهم في الدنيا والآخرة، فأما أوصافهم فهي ثلاثة.

الصفة الأولى: قوله: ﴿ جَحَدُواْ بآيات رَبّهِمْ ﴾ والمراد: جحدوا دلالة المعجزات على الصدق، أو الجحد، ودلالة المحدثات على وجود الصانع الحكيم، إن ثبت أنهم كانوا زنادقة.

الصفة الثانية: قوله: ﴿ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ ﴾ والسبب فيه أنهم إذا عصوا رسولاً واحداً، فقد عصوا جميع الرسل لقوله تعالى: ﴿ لاَ نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مّن رُّسُلِهِ ﴾ [البقرة: 285] وقيل: لم يرسل إليهم إلا هود عليه السلام.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿ واتبعوا أَمْرَ كُلّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ والمعنى أن السفلة كانوا يقلدون الرؤساء في قولهم: ﴿ مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ مّثْلُكُمْ ﴾ [المؤمنون: 24] والمراد من الجبار المرتفع المتمرد العنيد العنود والمعاند، وهو المنازع المعارض.

واعلم أنه تعالى لما ذكر أوصافهم ذكر بعد ذلك أحوالهم فقال: ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هذه الدنيا لَعْنَةً وَيَوْمَ القيامة ﴾ أي جعل اللعن رديفاً لهم، ومتابعاً ومصاحباً في الدنيا وفي الآخرة،

ومعنى اللعنة الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير .

ثم إنه تعالى بين السبب الأصلي في نزول هذه الأحوال المكروهة بهم فقال : ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ قيل : أراد كفروا بربهم فحذف الباء ، وقيل : الكفر هو الجحد فالتقدير : ألا إن عاداً جحدوا ربهم .

وقيل : هو من باب حذف المضاف ، أي كفروا نعمة ربهم .

ثم قال : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ وفيه سؤالان :

السؤال الأول : اللعن هو البعد ، فلما قال : ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هذه الدنيا لَعْنَةً وَيَوْمَ القيامة ﴾ فما الفائدة في قوله : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ ﴾ .

والجواب : التكرير بعبارتين مختلفتين يدل على غاية التأكيد .

السؤال الثاني : ما الفائدة في قوله : ﴿ لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ .

الجواب : كان عاد عادين ، فالأولى : القديمة هم قوم هود ، والثانية : هم إرم ذات العماد ، فذكر ذلك لإزالة الاشتباه .

والثاني : أن المبالغة في التنصيص تدل على مزيد التأكيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 14.13 ﴾

(110/380)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾

و" الأمر " واحد الأمور ، ويحتمل أن يكون مصدر أمر يأمر ، أي أمرنا للريح أو لخزنتها ونحو ذلك ، وقوله ﴿ برحمة ﴾ ، إما أن يكون إخباراً مجرداً عن رحمة من الله لحقتهم ، وإما أن يكون قصداً إلى الإعلام أن النجاة إنما كملت بمجرد رحمة الله لا بأعماله ؛ فتكون الآية - على هذا - في معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يدخل أحد الجنة بعمله " قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال " ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمته " .

وقوله ﴿ ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ يحتمل أن يريد : عذاب الآخرة ، ويحتمل أن يريد : وكانت النجاة المتقدمة من عذاب غليظ يريد الريح ، فيكون المقصود على هذا ، تعديد النعمة ومشهور عذابهم بالريح هو أنها كانت تحملهم وتهدم مساكنهم وتنسفها وتحمل الظعينة كما هي ونحو هذا . وحكى الزجاج أنها كانت تدخل في أبدانهم وتخرج من

أدبارهم وتقطعهم عضواً عضواً . وتعدى ﴿ جحدوا ﴾ بحرف جر لما نزل منزلة كفروا ، وانعكس ذلك في الآية بعد هذا ، وقوله : ﴿ وعصوا رسله ﴾ ، شنعة عليهم وذلك أن في تكذيب رسول واحد تكذيب سائر الرسل وعصيانهم ، إذ النبوات كلها مجمعة على الإيمان بالله والإقرار بربوبيته : ويحتمل أن يراد هود . وآدم ، ونوح و" العنيد " : فعيل من عَنِدَ " إذا عتا . ومنه قول الشاعر : [الرجز] .

إني كبير لا أطيق العندا . . . أي الصعاب من الإبل ، وكان التجبر والعناد من خلق عاد لقوتهم ، وقوله ﴿ وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ﴾ الآية ، حكم عليهم بهذا الحكم لكفرهم وإصرارهم حتى حل العذاب بهم ، و" اللعنة " : الإبعاد والخزي ، وقد تيقن أن هؤلاء وافوا على الكفر فيلعن الكافر الموافي على كفره ولا يلعن معين حي ، لا من كافر ، ولا من فاسق ، ولا من بهيمة ، كل ذلك مكروه بالأحاديث . و ﴿ يوم ﴾ ظرف معناه أن اللعنة عليهم في الدنيا وفي يوم القيامة . ثم ذكرت العلة الموجبة لذلك وهي كفرهم بربهم ؛ وتعدى " كفر " بغير الحرف إذ هو بمعنى ﴿ جحدوا ﴾ كما تقول شكرت لك وشكرتك ، وكفر

نعمته وكفر بنعمته ، و﴿ بعداً ﴾ منصوب بفعل مقدر وهو مقام ذلك الفعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(112/380)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾

أي عذابنا بهلاك عاد .

﴿ نَجَّيْنَا هُوداً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ لأن أحداً لا ينجو إلا برحمة الله تعالى ، وإن كانت له أعمال صالحة .

وفي صحيح مسلم والبخاريّ وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم : "لن يُنجي أحداً منكم عملُه قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ ! قال : ولا أنا إلا أن يَتغمّدني الله برحمة منه " .

وقيل : معنى "بِرَحْمَةٍ مِنَّا" بأن بيّنا لهم الهدى الذي هو رحمة .

وكانوا أربعة آلاف .

وقيل : ثلاثة آلاف .

﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أي عذاب يوم القيامة .

وقيل: هو الريح العقيم كما ذكر الله في "الذاريات" وغيرها وسيأتي.

قال القُشيريّ أبو نصر: والعذاب الذي يتوعد به النبي أمته إذا حضر ينجي الله منه النبي والمؤمنين معه؛ نعم لا يبعد أن يبتلي الله نبياً وقومه فيعمهم ببلاء فيكون ذلك عقوبة للكافرين، وتمحيصاً للمؤمنين، إذا لم يكن مما توعدهم النبي به.

قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ ابتداء وخبر.

وحكى الكسائيّ أن من العرب من لا يصرف "عاداً" فيجعله اسما للقبيلة.

﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي كذّبوا بالمعجزات وأنكروها.

﴿ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾ يعني هودا وحده؛ لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ يا أيها الرسل كُلُوا مِنَ الطيبات ﴾ [المؤمنون: 51] يعني النبي صلى الله عليه وسلم وحده؛ لأنه لم يكن في عصره رسول سواه؛ وإنما جمع ها هنا لأن من كذّب رسولاً واحداً فقد كفر بجميع الرسل.

وقيل: عصوا هوداً والرسل قبله، وكانوا بحيث لو أرسل إليهم ألف رسول لجحدوا الكل.

﴿ واتبعوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أي اتبع سقّاطهم رؤساءهم.

والجبار المتكبر.

والعنيد الطاغي الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له.

قال أبو عبيد : العَنِيد والعَنود والعانِد والمعاند المعارض بالخلاف ، ومنه قيل للعِرق الذي ينفجر بالدم عانِد .

وقال الراجز :

إنّي كبيرٌ لا أطيقُ العُنَّدَا . . .

قوله تعالى : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هذه الدنيا لَعْنَةً ﴾ أي أُلحقوها .

﴿ وَيَوْمَ القيامة ﴾ أي واتبعوا يوم القيامة مثل ذلك ؛ فالتمام على قوله : "وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ" .

﴿ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ قال الفرّاء : أي كفروا نعمة ربهم ؛ قال : ويقال كفرته وكفَرت به ، مثل شكرته وشكرت له .

﴿ أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ أي لا زالوا مبعدين عن رحمة الله .

والبعد الهلاك .

والبُعد التّباعد من الخير .

يقال : بَعُدَ يَبعُد بُعْداً إذا تأخر وتباعد .

وبَعِد يبعَد بَعَداً إذا هلك ؛ قال :

لا يَبعَدَنْ قومي الذين هُمُ . . .

سَمُّ العُداةِ وآفَةُ الجُزْرِ

وقال النابغة :

فلا تَبعَدنْ إنّ المنية مَنهَلٌ . . .

وكل امرئ يوماً به الحالُ زائل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(114/380)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾

يعني بإهلاكهم وعذابهم ﴿ نجينا هوداً والذين آمنوا معه ﴾ وكانوا أربعة آلاف ﴿ برحمة منا ﴾ وذلك أن العذاب إذا نزل قد يعم المؤمن والكفار فلما أنجى الله المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه ﴿ ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ يعني الريح التي أهلكت بها عاد وذلك أن الله سبحانه وتعالى أرسل على عاد ريحاً شديدة غليظة سبع ليلاو ثمانية أيام حسوماً وهي الأيام النحسات فأهلكتهم جميعاً وأنجى الله المؤمنين جميعاً فلم تضرهم شيئاً ، وقيل : المراد بالعذاب الغليظ هو عذاب الآخرة وهذا هو الصحيح ليحصل الفرق بين العذابين والمعنى أنه تعالى كما أنجاهم من عذاب الدنيا كذلك ينجيهم من عذاب الآخرة ووصف عذاب الآخرة بكونه غليظاً لأنه أعظم من عذاب الدنيا ﴿ وتلك

عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ﴾ لمكا فرغ من ذكر قصة عاد خاطب أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) فقال وتلك عاد رده إلى القبيلة وفيه إشارة إلى قبورهم وآثارهم كأنه قال سيروا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا بها ثم وصف حالهم بقوله تعالى جحدوا بآيات ربهم يعني المعجزات التي أتى بها هود عليه السلام وعصوا رسله يعني هوداً وحده إنما أتى به بلفظ الجمع إما للتعظيم أو لأن من كذب برسول فقد كذب كل الرسل ﴿ واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ يعني أن السفلة منهم اتبعوا الرؤساء والمراد من الجبار الرفيع في نفسه المتمرد على الله والعنيد المعاند الذي لا يقبل الحق ولا يتبعه.

﴿ وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ﴾

يعني أردفوا لعنة تتبعهم وتلحقهم وتنصرف معهم واللعنة الطرد والإبعاد من رحمة الله ﴿ ويوم القيامة ﴾ يعني وفي يوم القيامة أيضاً تتبعهم اللعنة كما تتبعهم في الدنيا، ثم ذكر سبحانه وتعالى السبب الذي استحقوا به هذه اللعنة فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ألا إن عاداً كفروا ربهم ﴾ أي كفروا بربهم ﴿ ألا بعداً لعاد ﴾ يعني هلاكاً لهم وقيل بعداً عن الرحمة.

فإن قلت: اللعنة معناها الإبعاد والهلاك فما الفائدة في قوله ألا بعداً لعاد لأن الثاني هو

الأول بعينه .

قلت : الفائدة فيه أن التكرار بعبارتين مختلفتين يدل على نهاية التأكيد وأنهم كانوا مستحقين له ﴿ قوم هود ﴾ عطف بيان لعاد .

فإن قلت : هذا البيان حاصل مفهوم فما الفائدة في قوله قوم هود ؟

قلت : إن عاداً كانا قبيلتين عاد الأولى القديمة التي هم قوم هود وعاد الثانية وهم إرم ذات العماد وهم العماليق فأتى بقوله قوم هود ليزول الاشتباه وجواب آخر وهو أن المبالغة في التنصيص تدل على تقوية التأكيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(116/380)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾

الجبار : المتكبر .

العنيد : الطاغي الذي لا يقبل الحق ولا يصغي إليه ، من عند يعند حاد عن الحق إلى جانب ، وقيل : ومنه عندي كذا أي : في جانبي .

وقال أبو عبيدة : العنيد والعنود والمعاند والعاند المعارض بالخلاف ، ومنه قيل للعرق الذي

ينفجر بالدم : عاند .

﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ .

وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود ﴾ : الأمر واحد الأمور ، فيكون كناية عن العذاب ، أو عن القضاء بهلاكهم .

أو مصدر أمر أي أمرنا للريح أو لخزنتها .

والذين آمنوا معه قيل : كانوا أربعة آلاف ، قيل : ثلاثة آلاف .

والظاهر تعلق برحمة منا بقوله : نجينا أي ، نجيناهم بمجرد رحمة من الله لحقتهم ، لا بأعمالهم الصالحة .

أو كنى بالرحمة عن أعمالهم الصالحة ، إذ توفيقهم لها إنما هو بسبب رحمته تعالى إياهم .

ويحتمل أن يكون متعلقاً بآمنوا أي : أنّ إيمانهم بالله وبتصديق رسوله إنما هو برحمة الله تعالى إياهم ، إذ وفقهم لذلك .

وتكررت التنجية على سبيل التوكيد ، ولقلق من لو لاصقت منا فأعيدت التنجية وهي الأولى ، أو تكون هذه التنجية هي من عذاب الآخرة ولا عذاب أغلظ منه ، فأعيدت لأجل اختلاف متعلقيها .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : فما معنى تكرير التنجية ؟ (قلت) : ذكر أولاً أنه حين

أهلك عدوهم نجاهم ثم قال ونجيناهم من عذاب غليظ على معنى ، وكانت التنجية من عذاب غليظ قال : وذلك أن الله عز وعلا بعث عليهم السموم ، فكانت تدخل في أنوفهم وتخرج من أدبارهم وتقطعهم عضواً عضواً انتهى .

وهذا قاله الزجاج .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يريد ، وكانت النجاة المتقدمة من عذاب غليظ يريد الريح ، فيكون المقصود على هذا تعديد النعمة ، والمشهور في عذابهم بالريح أنها كانت تحملهم وتهدم مساكنهم وتنسفها ، وتحمل الظعينة كما هي ، ونحو هذا .

وتلك عاد إشارة إلى قبورهم وآثارهم كأنه قال : ﴿ فسيحوا في الأرض ﴾ فانظروا إليها واعتبروا ، ثم استأنف الإخبار عنهم فقال : جحدوا بآيات ربهم أي : أنكروها .

وأضاف الآيات إلى ربهم تنبيهاً على أنه مالكهم ومربيهم ، فأنكروا آياته ، والواجب إقرارهم بها .

وأصل جحد أن يتعدى بنفسه ، لكنه أجرى مجرى كفر فعدى بالباء ، كما عدى كفر بنفسه في قوله : ألا أن عادا كفروا ربهم ، إجراء له مجرى جحد .

وقيل : كفر كشكر يتعدى تارة بنفسه ، وتارة بحرف جر .

وعصوا رسله ، قيل : عصوا هوداً والرسل الذين كانوا من قبله ، وقيل : ينزل تكذب الرسول الواحد منزلة تكذيب الرسل ، لأنهم كلهم مجمعون على الإيمان بالله والإقرار بربوبيته كقوله :

﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ وأتبعوا أي : اتبع سقاطهم أمر رؤسائهم وكبرائهم ، والمعنى : أنهم أطاعوهم فيما أمروهم به .

قال الكلبي : الجبار هو الذي يقتل على الغضب ، ويعاقب على المعصية ، وقال الزجاج : هو الذي يجبر الناس على ما يريد .

وذكر ابن الأنباري : أنه العظيم في نفسه ، المتكبر على العباد .

والظاهر أن قوله : واتبعوا عام في جميع عاد .

وقال الزمخشري : لما كانوا تابعين له دون الرسل جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين تكبهم على وجوههم في عذاب الله انتهى .

فظاهر كلامه يدل على أن اللعنة مختصة بالتابعين للرؤساء ، ونبه على علة اتباع اللعنة لهم في الدارين بأنهم كفروا ربهم ، فالكفر هو الموجب للعنة .

ثم كرر التنبيه بقوله : ألا في الدعاء عليهم تهويلاً لأمرهم ، وتفظيعاً له ، وبعثاً على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم .

وفائدة قوله : قوم هود مزيد التأكيد للمبالغة في التنصيص ، أو تعيين عاد هذه من عاد ارم ، لأنّ عاداً إثنان ولذلك قال تعالى : وأنه أهلك ، عاداً الأولى ، فتحقق أن الدعاء على عاد هذه ، ولم تلتبس بغيرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾

أي نزل عذابُنا ، وفي التعبير عنه بالأمر مضافاً إلى ضميره جل جلاله وعن نزوله بالمجيء ما لا يخفى من التفخيم والتهويلِ أو ورد أمرُنا بالعذاب ﴿ نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ وكانوا أربعةَ آلافٍ ﴿ بِرَحْمَةٍ ﴾ عظيمةٍ كائنةٍ لهم ﴿ مِنَّا ﴾ وهي الإيمانُ الذي أنعمنا به عليهم بالتوفيق له والهدايةِ إليه ﴿ وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أي كانت تلك التنجيةُ تنجيةً من عذاب غليظ وهي السَّمومُ التي كانت تدخل أنوفَ الكفرة وتخرج من أدبارهم

فتقطعهم إرْباً إرْباً ، وقيل : أريد بالثانية التنجيةُ من عذاب الآخرةِ ولا عذابَ أغلظُ وأشدُّ ، وهذه التنجيةُ وإن لم تكن مقيدةً بمجيء الأمرِ لكن جيء بها تكملةً للنعمة عليهم وتعريضاً بأن المهلَكين كما عُذّبوا في الدنيا بالسَّموم فهم معذبون في الآخرة بالعذاب الغليظ ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ أُنّث اسمُ الإشارةِ باعتبار القبيلةِ أو لأن الإشارةَ إلى قبورهم وآثارهِم ﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِم ﴾ كفروا بها بعد ما استيقنوها ﴿ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾ جمعَ الرسلَ مع أنه لم يرسِلْ إليهم غيرَ هودٍ عليه الصلاة والسلام تفظيعاً لحالهم وإظهاراً لكمال كفرِهم وعنادِهم ببيان أن عصيانَهم له عليه الصلاة والسلام عصيانٌ لجميع الرسلِ السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتِهم على التوحيد ﴿ لا نفرّق بين أحد من رسله ﴾ فيجوز أن يراد بالآت ما أتى به هودٌ وغيرُه من الأنبياء عليهم السلام ، وفيه زيادةُ ملاءمةٍ لما تقدم من جميع الآياتِ وما تأخر من قوله : ﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ من كبرائهم ورؤسائِهم الدعاةِ إلى الضلال وإلى تكذيب الرسلِ فكأنه قيل : عصوَا كلَّ رسولٍ واتبعوا أمرَ كلِّ جبارٍ ، وهذا الوصفُ ليس كما سبق من جحود الآياتِ وعصيانِ الرسلِ في الشمول لكل فردٍ فردٌ منهم فإن الاتباعَ للأمر من أوصاف الأسافلِ دون الرؤساءِ ، وعنيدٌ فعيل من عنَد عِنْداً

وعنَداً إذا طغى والمعنى عصَوا مَنْ دعاهم إلى الهدى وأطاعوا من حداهم إلى الردى .

﴿ وأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾

إبعاداً عن الرحمة وعن كل خير ، أي جُعلت اللعنة لازمةً لهم ، وعبّر عن ذلك بالتبعية للمبالغة فكأنها لا تفارقهم وإن ذهبوا كلَّ مذهب بل تدور معهم حيثما داروا ، ولوقوعه في صحبة اتباعهم رؤساءهم يعني أنهم لما اتّبعوهم أُتبعوا ذلك جزاءً لصنيعهم جزاءً وفاقاً

﴿ ويومَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي أُتبعوا يوم القيامة أيضاً لعنةً وهي عذابُ النارِ المخلد حُذفت لدِلالة الأولى عليها ، وللإيذان بكون كلٍ من اللعنتين نوعاً برأسه لم تُجمعا في قرن واحد بأن يقال : وأتبعوا في هذه الدنيا ويومَ القيامة لعنةً كما في قوله تعالى : ﴿ واكتبْ لنا في هذه الدنيا حسنةً وفي الآخرة ﴾ إيذاناً باختلاف نوعي الحسنتين ، فإن المرادَ بالحسنة الدنيويةِ نحوُ الصحةِ والكفافِ والتوفيقِ للخير وبالحسنة الأخروية الثوابُ والرحمةُ ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُم ﴾ أي بربهم أو نعمةَ ربهم حملاً له على نقيضه الذي هو الشكرُ ، أو جحدوه ﴿ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ ﴾ دعاءٌ عليهم بالهلاك مع كونهم هالكين أيَّ هلاك ، تسجيلاً عليهم باستحقاق الهلاكِ واستيجابِ الدمار ، وتكريرُ حرفِ التنبيهِ وإعادةُ عادٍ للمبالغة في تفظيع حالِهم والحثّ على الاعتبار بقصتهم ﴿ قومِ هُود ﴾ عطفُ بيانٍ لعاد فائدتُه التمييزُ عن عادِ إرمَ ، والإيماءُ إلى أن استحقاقَهم للبعد بسبب ما جرى بينهم وبين هودٍ عليه الصلاة والسلام وهم قومُه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾

أي نزل عذابنا على أن الأمر واحد الأمور ، قيل : أو المأمور به ، وفي التعبير عنه بذلك مضافاً إلى ضمير جل جلاله ، وعن نزوله بالمجيء ما لا يخفى من التفخيم والتهويل .

وجوز أن يكون واحد الأوامر أي وورد أمرنا بالعذاب ، والكلام على الحقيقة إن أريد أمر الملائكة عليهم السلام ، ويجوز أن يكون ذلك مجازاً عن الوقوع على سبيل التمثيل ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا والذين ءامَنُواْ مَعَهُ ﴾ قيل : كانوا أربعة آلاف ، وقيل : ثلاثة آلاف ، ولعل الانتصار للأنبياء عليهم السلام لم يكن مأذوناً به للمؤمنين إذ ذاك فلا ينافي ما تقدم نقله من أنه عليه السلام كان وحده ، ولذا عد مواجهته للجم الغفير معجزة له صلى الله عليه وسلم لكن لا بد لهذا من دليل كدعوى انفراده عنهم حين المقاولة ؛ وفي "الحواشي الشهابية" أنه لا مانع من ذلك باعتبار حالين وزمانين فتأمل ، والظاهر أن ما كان من المقاولة إنما هو في ابتداء الدعوة ومجيء الأمر كان بعد بكثير وإيمان من آمن كان في البين فترتفع المنافاة ﴿ بِرَحْمَةٍ ﴾ عظيمة كائنة ﴿ مِنَّا ﴾ وهي الإيمان الذي أنعمنا به عليهم .

وروي هذا عن ابن عباس .

والحسن ، وذكره الزمخشري ولشم بعضهم منه رائحة الاعتزال لم يلتفت إليه ولا بأس بأن تحمل الرحمة عن الفضل فيفيد أن ذلك بمحض فضل الله تعالى إذ له سبحانه تعذيب المطيع كما أن له جل وعلا إثابة العاصي ، والجار والمجرور الأول متعلق بنجينا وهو الظاهر الذي عليه كثير من المفسرين .

(122/380)

وجوز أبو حيان كونه متعلقاً بآمنوا أي إن إيمانهم بالله تعالى ورسوله عليه السلام برحمة من الله تعالى إذ وفقهم إليه ، ولعل ترتيب الإنجاء على النزول باعتبار ما تضمنه من تعذيب الكفار فيكون قد صرح بالإنجاء اهتماماً ، ورتب باعتبار الآخر إشارة إلى أنه مقصود منه ، ويجوز أن تكون لما لمجرد الحين ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ تكرير لأجل بيان ما نجاهم عنه وهي الريح التي كانت تحمل الظعينة وتهدم المساكن وتدخل في أنوف أعداء الله تعالى وتخرج من أدبارهم فتقطعهم إرباً إرباً ، أو المراد بهذا الإنجاء من عذاب الآخرة وبالأول الإنجاء من عذاب الدنيا ، ورجح الأول بأنه أوفق لمقتضى المقام ، وحاصله أن الأول إخبار بأن الإيمان الذي وفقوا له صار سبب إنجائهم .

والثاني بأن ذلك الإنجاء كان من عذاب أي عذاب دلالة على كمال الامتنان وتحريضاً على الإيمان وليس من أسلوب أعجبني زيد وكرمه في شيء كما ظنه العلامة الطيبي .

وقد أورد على الثاني إن إنجاءهم من عذاب الآخرة ليس في وقت نزول العذاب في الدنيا ولا مسبباً عنه إلا أن يجاب بأنه عطف على القيد والمقيد كما قيل في قوله سبحانه :

﴿ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [سبأ : 30] قيل : ولا يخفى ما فيه من التكلف من غير داع لأن الموافق للتعبير بالماضي المفيد لتحققه حتى كأنه وقع أن يجعل باعتبار ذلك واقعاً في وقت النزول تجوزاً أو المعنى حكما بذلك وتبين ما يكون لهم لأن الدنيا أنموذج الآخرة وأياً مّا كان فالمراد بغلظ العذاب تضاعفه ، وقد يقال على الاحتمال الأول في وصف العذاب الذي كان بالريح : بالغلظ الذي هو ضد الرقة التي هي صفة الريح ما لا يخفى من اللطف ، وفيه أيضاً مناسبة لحالهم فإنهم كانوا غلاظاً شداداً .

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾

(123/380)

أنث اسم الإشارة باعتبار القبيلة على ما قيل ، فالإشارة إلى ما في الذهن وصيغة البعيد لتحقيرهم أو لتنزيلهم منزلة البعيد لعدمهم ، أو الإشارة إلى قبورهم ومصارعهم ، وحينئذٍ

الإشارة للبعيد المحسوس والإسناد مجازي أو هو من مجاز الحذف أي تلك قبور عاد ، وجوز أن يكون بتقدير أصحاب تلك عاد ، والجملة مبتدأ وخبر ، وكان المقصود الحث على الاعتبار بهم والاتعاظ بأحوالهم ، وقوله سبحانه :

﴿ جَحَدُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ الخ استئناف لحكاية بعض قبائحهم أي كفروا بآيات ربهم التي أيد بها رسوله الداعي إليه ودل بها على صدقه وأنكروها فقالوا : يا هود ما جئتنا ببينة ، أو أنكروا آياته سبحانه في الآفاق والأنفس الدالة عليه تعالى حسبما قال لهم هود عليه والسلام .

وجوز أن يراد بها الآيات التي أتى بها هود .

وغيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ويلائمه جمع الرسل الآتي على قول ، وعدي جحد بالباء حملاً له على كفر لأنه المراد ، أو بتضمينه معناه كما أن كفر يجري مجرى جحد فيعدي بنفسه نحو قوله سبحانه : ﴿ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ [هود : 60] ، وقيل : كفر كشكر يتعدى بنفسه وبالباء ، وظاهر كلام "القاموس" أن جحد كذلك ﴿ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ ﴾ قيل : المراد بالرسل هود عليه السلام والرسل الذين كانوا معه من قبله وهو خلاف الظاهر ، وقيل : المراد بهم هود عليه السلام وسائر الرسل من قبله تعالى للأمم من قبله ومن بعده عليه السلام بناءاً على أن عصيانه عليه السلام وكذا عصيان كل رسول بمنزلة عصيان الرسل جميعهم لأن الجميع متفقون على التوحيد فعصيان واحد عصيان

للجميع فيه ، أو على أن القوم أمرهم كل رسول من قبل بطاعة الرسل والإيمان بهم إن أدركوهم فلم يمتثلوا ذلك الأمر ﴿ واتبعوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ ﴾ متعال عن قبول الحق ، وقال الكلبي : هو الذي يقتل على الغضب ويعاقب على المعصية .

(124/380)

وقال الزجاج : هو الذي يجبر الناس على ما يريد ، وذكر ابن الأنباري أنه العظيم في نفسه المتكبر على العباد ﴿ عَنِيدٍ ﴾ أي طاغ من عند بتثليث النون عنداً بالإسكان وعنداً بالتحريك وعنوداً بضم العين إذا طغا وجاوز الحد في العصيان ، وفسره الراغب بالمعجب بما عنده ، والجوهري بمن خالف الحق ورده وهو يعرفه ، وكذا عاند ، ويطلق الأخير على البعير الذي يجور عن الطريق ويعدل عن القصد ، وجمعه عند كراكع .

وركع ، وجمع العنيد عند كرغيف .

ورغف ، والعنود قيل : بمعنى العنيد .

وزعم بعضهم أنه يقال : بعير عنود ، ولا يقال : عنيد ، ويجمع الأول على عندة .

والثاني على عند ، وآخر أن العنود العادل عن الطريق المحسوس .

والعنيد العادل عن الطريق في الحكم ؛ وكلاهما من عند وأصل معناه على ما قيل : اعتزل

في جانب لأن العند بالتحريك الجانب يقال : يمشي وسطاً لا عنداً ، ومنه عند الظرفية ، ويقال للناحية أيضاً : العند مثلثة ، وهذا الحكم ليس كالحكمين السابقين من جحود الآيات وعصيان الرسل في الشمول لكل فرد فرد منهم فإن اتباع الأمر من أحكام الأسافل دون الرؤساء .

وقيل : هو مثل ذلك في الشمول ، والمراد بالأمر الشأن وبكل جبار عنيد من هذه صفته من الناس لا أناس مخصوصون من عاد متصفون بذلك ، والمراد باتباع الأمر ملازمته أو الرضا به على أتم وجه ، ويؤول ذلك إلى الاتصاف أي إن كلاً منهم اتصف بصفة كل جبار عنيد ، ولا يخفى ما فيه من التكلف الظاهر ، وقد يدعي العموم من غير حاجة إلى ارتكاب مثله ، والمراد على ما تقدم أنهم عصوا من دعاهم إلى سبيل الهدى وأطاعوا من حداهم إلى مهاوي الردى .

(125/380)

﴿ وَأُتْبِعُوا فِى هذه الدنيا لَعْنَةً ﴾ أي إبعاداً عن الرحمة وعن كل خير أي جعلت اللعنة لازمة لهم ، وعبر عن ذلك بالتبعية للمبالغة فكأنها لا تفارقهم وإن ذهبوا كل مذهب بل تدور معهم حسبما داروا ، أو لوقوعه في صحبة اتباعهم ، وقيل : الكلام على التمثيل

بجعل اللعنة كشخص تبع آخر ليدفعه في هوة قدامه ، وضمير الجمع لعاد مطلقاً كما هو الظاهر .

وجوز أن يكون للمتبعين للجبارين منهم ، وما حال قوم قدامهم الجبارون أهل النار وخلفهم اللعنة والبوار ، ويعلم من لعنة هؤلاء لعنة غيرهم المتبوعين على ما قيل بالطريق الأولى ﴿ وَيَوْمَ القيامة ﴾ أي واتبعوا يوم القيامة أيضاً لعنة وهي عذاب النار المخلد حذف ذلك لدلالة الأول عليه وللإيذان بأن كلاً من اللعنين نوع برأسه لم يجتمعا في قرن واحد بأن يقال : وأتبعوا في هذه الدنيا ويوم القيامة لعنة ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ واكتب لَنَا فِى هذه الدنيا حَسَنَةً وَفِي الآخرة ﴾ [الأعراف : 156] وعبر بيوم القيامة بدل الآخرة هنا للتهويل الذي يقتضيه المقام .

﴿ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ أي بربهم .

أو كفروا نعمته ولم يشكروها بالإيمان .

أو جحدوه ﴿ أَلاَ بُعْدًا لّعَادٍ ﴾ دعاء عليهم بالهلاك مع أنهم هالكون أيّ هلاك تسجيلاً عليهم باستحقاق ذلك والاستئهال له ، ويقال في الدعاء بالبقاء واستحقاقه : لا يبعد فلان ، وهو في كلام العرب كثير ، ومنه قوله

: لا يبعدن قومي الذين هم . . .

سم العداة وآفة الجزر

وجوز أن يكون دعاء باللعن كما في "القاموس" : البعد .

والبعاد اللعن ، واللام للبيان كما في قولهم : سقياً لك ، وقيل : للاستحقاق وليس بذاك ، وتكرير حرف التنبيه وإعادة عاد للمبالغة في تفظيع حالهم والحث على الاعتبار بقصتهم ، وقوله سبحانه : ﴿ قَوْمِ هُودٍ ﴾ عطف بيان على ﴿ عَادٍ ﴾ وفائدته الإشارة إلى أن عاداً كانوا فريقين : عاداً الأولى .

وعاداً الثانية ، وهي عاد إرم في قول ، وذكر الزمخشري في الفجر أن عقب عاد بن عوض ابن إرم بن سام بن نوح قيل لهم : عاد كما يقال لبني هاشم : هاشم ، ثم قيل : للأولين منهم عاد الأولى وإرم تسمية لهم باسم جدهم ، ولمن بعدهم عاد الأخيرة ، وأنشد لابن الرقيات : مجداً تليداً بناه أوله . . .

أدرك عاداً وقبلها إرما

ولعله الأوفق للنقل مع الإيماء إلى أن استحقاقهم للبعد بسبب ما جرى بينهم وبين هود عليه السلام وهم قومه ، وليس ذلك لدفع اللبس إذ لا لبس في أن عاداً هذه ليست إلا قوم هود عليه السلام للتصريح باسمه وتكريره في القصة ، وقيل : ذكر ليفيد مزيد تأكيد بالتنصيص

عليهم مع ما في ذلك من تناسب فواصل الآي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(127/380)

وقال صاحب روح البيان :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾

أي : عذابنا فيكون واحد الأمور أو أمرنا بالعذاب فيكون مصدر أمر .

نجينا هوداً والذين آمنوا معه وكانوا أربعة آلاف برحمة عظيمة كائنة منا أي : نجيناهم بمجرد رحمة وفضل لا بأعمالهم لأنه لا ينجوا أحد وإن اجتهد في الأعمال والعمل الصالح إلا برحمة الله تعالى كما هو مذهب أهل السنة ونجيناهم من عذاب غليظ شديد ، وهو تكرير لبيان ما نجيناهم منه أي : كانت تلك التنجية تنجية من عذاب غليظ وهي السموم التي كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أدبارهم فتقطعهم أرباً أرباً وقد سبق تفصيل القصة في سورة الأعراف فارجع إليها .

وفيه إشارة إلى أن العذاب نوعان خفيف وغليظ ، فالخفيف ، هو عذاب الشقاوة المقدرة قبل خلق الخلق ، والغليظ : هو عذاب الشقي بشقاوة معاملات الأشقياء التي تجري عليه

مع شقاوته المقدرة له قبل الوجود كما في التأويلات النجمية روى أن الله تعالى لما أهلك عاداً ونجى هوداً والمؤمنين معه أتوا مكة وعبدوا الله تعالى فيها حتى ماتوا .

قال في إنسان العيون : كل نبي من الأنبياء كان إذا كذبه قومه خرج من بين أظهرهم وأتى مكة يعبد الله تعالى حتى يموت وجاء ما بين الركن اليماني والركن الأسود روضة من رياض الجنة وإن قبر هود وشعيب وصالح وإسماعيل عليهم السلام في تلك البقعة

وتلك القبيلة يا قوم محمد عاد قال العلامة الطيبي : كأنه تعالى أذن بتصوير تلك القبيلة في الذهن ثم أشار إليها وجعلها خبراً للمبتدأ لمزيد الإبهام فيحسن التفسير بقوله جحدوا بآيات ربهم كل الحسن لمزيد الإجمال والتفصيل انتهى .

ويجوز أن تكون إشارة إلى قبورهم وآثارهم كأنه تعالى قال : سيروا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا ففي الكلام مجاز حذف إما قبل المبتدأ أي : أصحاب تلك وإما قبل الخبر أي : قبور عاد كفروا بآيات ربهم بعد ما استيقنوها يعني : أنهم كانوا يعرفون أنها حق لكنهم جحدوها كما يجحد المودع الوديعة ويستمر على جحوده ولا يرعوي وعصوا رسله لأنهم عصوا رسولهم ومن عصى رسوله فقد عصى الكل لاتفاق كلمتهم على التوحيد وأصول

الشرائع .

قيل لم يرسل إليهم إلا هود وحده وهذا الجحود والعصيان شامل لكل فرد منهم أي :

لرؤسائهم وأسافلهم .

واتبعوا أي : الأسافل أمر كل جبار

قال في التبيان : الجبار المتعظم في نفسه المتكبر على العباد ، والعنيد الذي لا يقول الحق ولا

يقبله .

وقال القاضي : أي : من كبرائهم الطاغين .

قال سعدي المفتي : أشار إلى أن الجبار بمعنى المتكبر فإنه يأتي بمعنى المتكبر الذي لا يرى

لأحد عليه حقاً ويقال : عند إذا طغى ، والمعنى عصوا من دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم

وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرديهم واتبعوا أي : التابعون والرؤساء في هذه الدنيا

لعنة أي : إبعاداً عن الرحمة وعن كل خير ، أي : جعلت تابعة لهم ولازمة تكبهم في العذاب

كمن يأتي خلف شخص فيدفعه من خلف فيكبه ، وإنما عبر عن لزوم اللعنة لهم بالتبعية

للمبالغة فكأنها لا تفارقهم وإن ذهبوا كل مذهب بل تدور معهم حيثما داروا ولوقوعه في

صحبة اتباعهم رؤساءهم ، يعني : أنهم لما اتبعوا اتبعوا ذلك جزاء لصنيعهم جزاء وفاقاً .

ويوم القيمة أي : اتبعوا في يوم القيامة أيضاً لعنة وهي عذاب النار المخلد حذفت لدلالة

الأولى عليها .

ألا إن عادا كفروا ربهم جحدوه كأنهم كانوا من الدهرية وهم الذين يرون محسوساً ولا يرون معقولاً وينسبون كل حادث إلى الدهر .

قال في الكواشي : كفر يستعمل متعدياً ولازماً كشكرته وشكرت له ألا بعداً لعاد (بدانيد كه دوريست مر عاديا نرا يعني : ازرحمت دورند) كما قال في التبيان : أبعدهم الله فبعدوا بعداً .

قوم هود عطف بيان لعاد لأن عادا عادان عاد هود القديمة وعاد إرم الحديثة ، وإنما كرر ألا ودعاءه عليهم وأعاد ذكرهم تهويلاً لأمرهم وتفظيعا له وحثاً على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم .

ثم قوله : ألا بعداً لعاد قوم هود دعاء عليهم بالهلاك ، أي : ليبعد عاد بعداً وليهلكوا والمراد به الدلالة على إنهم كانوا مستوجبين لما نزل عليهم بسبب ما حكى عنهم وذلك ، لأن الدعاء بالهلاك بعد هلاكهم ، ففائدته ما ذكر ثم اللام تدل أيضاً على الاستحقاق وعلى البيان كأنه قيل لمن ؟ فقيل : لعاد .

قال سعدى المفتى : ويجوز أن يكون دعاء عليهم باللعن .

وفي القاموس البعد والبعاد اللعن انتهى .

وفي الكفاية شرح الهداية اللعن على ضربين .

أحدهما : الطرد من رحمة الله تعالى وذلك لا يكون إلا للكافر .

والثاني : الإبعاد عن درجة الأبرار ومقام الصالحين وهو المراد بقوله عليه السلام : المحتكر ملعون لأن أهل السنة والجماعة لا يخرجون أحداً من الإيمان بارتكاب الكبيرة وجاء في اللعن العام لعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من آوى محدثاً ، ولعن الله من غير منار الأرض .

قوله محدثاً بكسر الدال معناه الآتي بالأمر المنكر مما نهى عنه وحرم عليه ، أي : من آواه وحماه وذب عنه ولم يكن ينكر عليه ويردعه ، ومنار الأرض العلامات التي تكون في الطرق والحد بين الأراضي وفي الحديث : لعن الله آكل الربا ، وموكله ، وكاتبه ، وشاهده ، والواشمة ، والموشومة ، ومانع الصدقة ، والمحلل ، والمحلل له .

الوشم هو الزرقة الحاصلة في البدن بغرز الإبرة فيه وجعل النيلة أو الكحل في موضعه ، والواشمة : الفاعلة ، والموشومة المفعول بها ذلك ، وفي الحديث : لعن الله الراشي والمرتشى

والرائش أي : الذي يسعى بينهما وفي الحديث : لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وأكل ثمنها ويكره للمسلم أن يؤجر نفسه من كافر لعصر العنب كما في الأشباه ويجوز بيع العصير لمن يتخذه خمراً لأن عين العصير عار عن المعصية ، وإنما يلحقه الفساد بعد تغيره بخلاف بيع السلاح في أيام الفتنة ، لأن عينه آلة بلا تغيير ، يعني : يكره بيع السلاح أيام الفتنة إذا علم أن المشتري من أهل الفتنة لأنه يكون سبباً للمعصية وإذا باع مسلم خمراً وقبض الثمن وعليه دين كره لرب الدين أخذه منه ، لأن الخمر ليست بمال متقوم في حق الذمي فملك الثمن فحل الأخذ منه وفي الحديث : لعن المسلم كقتله .

قال ابن الصلاح : في فتاواه قاتل الحسين رضي الله عنه لا يكفر بذلك ، وإنما ارتكب ذنباً عظيماً وإنما يكفر بالقتل قاتل نبي من الأنبياء .

ثم قال : والناس في يزيد ثلاث فرق ، فرقة تتولاه وتحبه ، وفرقة تسبه وتلعنه ، وفرقة متوسطة في ذلك لا تتولاه ولا تلعنه وتسلك به مسالك سائر ملوك الإسلام وخلفائهم غير الراشدين في ذلك وهذه الفرقة هي المصيبة ، ومذهبها هو اللائق بمن يعرف سير الماضين ، ويعلم قواعد الشريعة المطهرة انتهى .

وقال سعد الدين التفتازاني :

اللعن على يزيد في الشرع يجوز

واللاعن يجزي حسنات ويفوز

قد صح لدى إنه معتل

واللعن مضاعف وذلك مهموز

وباقي البحث فيه قد سبق في سورة البقرة ألا لعنة الله على الظالمين.

قال في حياة الحيوان:

إن الله تعالى لم يجعل الدنيا مقصودة لنفسها بل جعلها طريقة موصلة إلى ما هو المقصود لنفسه، وإنه لم يجعلها دار إقامة ولا جزاء وإنما جعلها دار رحلة وبلاء، وإنه ملكها في الغالب الجهلة والكفرة وحماها الأنبياء والأولياء والأبدال وحسبك بها هواناً إنه سبحانه صغرها وحقرها وأبغضها وأبغض أهلها ومحبها ولم يرض لعاقل فيها إلا بالتزود للارتحال عنها وفي الحديث: الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله ومن والاه وعالماً أو متعلماً ولا يفهم من هذا إباحة لعن الدنيا وسبها مطلقاً، كما روى أبو موسى الأشعري إن النبي قال: لا تسبوا الدنيا فنعمت مطية المؤمن عليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر أن العبد إذا قال: لعن الله الدنيا قالت: الدنيا لعن الله من عصى ربه وهذا يقتضي المنع من سب الدنيا ولعنها

، ووجه الجمع بينهما أن المباح لعنه من الدينا ما كان منها مبعداً عن الله تعالى وشاغلاً عنه كما قال : السلف كل ما شغلك عن الله سبحانه من مال وولد فهو مشؤوم عليك ، وأما ما كان من الدنيا يقرب من الله ويعين على عبادته فهو المحمود بكل لسان المحبوب لكل إنسان ، فمثل هذا لا يسب بل يرغب ويحب ، وإليه الإشارة حيث قال : إلا ذكر الله ومن والاه و عالماً أو متعلماً وهو المصرح به في قوله : نعمت مطية المؤمن الخ وبهذا يرتفع التعارض بين الحديثين .

واعلم أن حقيقة اللعن هو الطرد عن الحضرة الإلهية إلى طلب شهوات الدنيا وتعب وجدانها وتعب فقدانها ، فهو اللعنة الدنيوية وأما اللعنة يوم القيامة ، فبالبعد والخسران والحرمان وعذاب النيران فالنفس إذا لم تقبل نصيحة هود القلب ، وتركت مشارب القلب الدينية الباقية من لوامع النورانية وطوامع الروحانية وشواهد الربانية ، وأقبلت على المشارب الدنيوية الفانية من الشهوات والمستلذات الحيوانية وثناء الخلق والجاه عندهم وأمثال هذا فقد جاء في حقها ألا بعدا أي : طرداً وفرقة وقطيعة وحسرة لها عصمنا الله ،

وإياكم من مكايد النفس الأمارة وشرفنا بصلاح الحال إلى آخر الأعمال والآجال. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح البيان حـ 4 صـ 197. 201﴾

(133/380)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

قِصَّةُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

تَقَدَّمَتْ قِصَّتُهُ فِي ثَمَانِي آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَهِيَ هُنَا فِي إِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا سِيَاقٌ وَأُسْلُوبٌ وَنَظْمٌ، وَفِي كُلٍّ مِنْهُمَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعِبْرَةِ وَالْمَوْعِظَةِ مَا لَيْسَ فِي الْأُخْرَى، وَسَتَأْتِي فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ بِأُسْلُوبٍ وَنَظْمٍ وَسِيَاقٍ آخَرَ، وَكَذَا فِي سُورَتَي : (الْمُؤْمِنُونَ) وَ(الْأَحْقَافِ) بِدُونِ ذِكْرِ اسْمِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَذِكْرِ عِقَابِ قَوْمِهِ (عَادٍ) فِي سُوَرٍ : فُصِّلَتْ وَالذَّارِيَاتِ وَالْقَمَرِ وَالْحَاقَّةِ وَالْفَجْرِ .

وَقَدْ ذَكَرْتُ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِهَا مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ مَا وَرَدَ فِيهَا مِنَ الرِّوَايَاتِ الْمَأْثُورَةِ، وَمِنْهَا أَنَّ هُودًا أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَهُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ لِأَوَّلِ أُمَّةٍ مِنْ وَلَدِ سَامِ بْنِ نُوحٍ الْأَبِ الثَّانِي لِلْبَشَرِ، وَبِهَذَا يَكُونُ أَوَّلُ رَسُولٍ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ عَرَبِيًّا، وَآخِرُ رَسُولٍ وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ عَرَبِيًّا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ

غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ .

هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ فِي تَبْلِيغِ هُودٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَوْمَهُ دَعْوَةَ رَبِّهِ .

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا) هَذَا مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ) (25) أَيْ : وَأَرْسَلْنَا إِلَى عَادٍ الْأُولَى أَخَاهُمْ فِي النَّسَبِ وَالْقَوْمِيَّةِ هُودًا (قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ) وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا (مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) فَإِنَّ الْإِلَهَ الْحَقَّ لِلنَّاسِ رَبُّهُمُ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَيُرَبِّيهِمْ بِنِعَمِهِ ، وَهُوَ وَاحِدٌ بِاعْتِرَافِكُمْ (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ) أَيْ : مَا أَنْتُمْ فِي عِبَادَةِ غَيْرِهِ (إِلَّا مُفْتَرُونَ) كَذِبًا عَلَيْهِ بِاتِّخَاذِ الْأَنْدَادِ وَالْأَوْلِيَاءِ شُرَكَاءَ ، وَتَسْمِيَتِهِمْ شُفَعَاءَ ، تَتَقَرَّبُونَ بِهِمْ أَوْ بِقُبُورِهِمْ أَوْ بِصُوَرِهِمْ وَتَمَاثِيلِهِمْ إِلَيْهِ ، وَتَرْجُونَ النَّفْعَ وَكَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ بِجَاهِهِمْ عِنْدَهُ .

(يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا) تَقَدَّمَ مِثْلُهُ آنِفًا فِي قِصَّةِ نُوحٍ، وَالْمُرَادُ: إِنِّي نَاصِحٌ مُخْلِصٌ أَمِينٌ فِي هَذَا الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، لَا أَسْأَلُكُمْ أَجْرًا فَتَتَّهِمُونِي بِطَلَبِ الْمَنْفَعَةِ لِنَفْسِي (إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي) أَيْ: مَا أَجْرِي الَّذِي أَرْجُوهُ عَلَى تَبْلِيغِكُمْ إِيَّاهُ إِلَّا عَلَى اللهِ الَّذِي خَلَقَنِي عَلَى الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ مِنْ هَذِهِ الْبِدَعِ الْوَثَنِيَّةِ، الَّتِي ابْتَدَعَهَا قَوْمُ نُوحٍ بِتَصْوِيرِ الصَّالِحِينَ مِنْهُمْ لِحِفْظِ ذِكْرَاهُمْ، فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ تَعْظِيمَ صُوَرِهِمْ وَتَمَاثِيلِهِمْ فَعِبَادَتَهَا كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) مَا يُقَالُ لَكُمْ فَتُمَيِّزُوا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالنَّافِعِ وَالضَّارِّ، وَأَنَّ الْأَخَ لَا يَغُشُّ إِخْوَتَهُ، وَلَا يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِغَضَبِ قَوْمِهِ بِدَعْوَتِهِمْ إِلَى مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُ.

- (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) تَقَدَّمَ هَذَا الْأَمْرُ بِلَفْظِهِ فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ (يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا) هَذَا الْجَزَاءُ الْأَوَّلُ لِلْأَمْرِ قَبْلَهُ، وَالسَّمَاءُ هُنَا الْمَطَرُ أَوِ السَّحَابُ الْمُمْطِرُ، وَإِرْسَالُهُ إِمْطَارُهُ، وَالْمِدْرَارُ الْكَثِيرُ الدُّرُورِ، وَأَصْلُهُ كَثْرَةُ دَرِّ اللَّبَنِ، يُقَالُ: دَرَّتِ الشَّاةُ تَدِرُّ دَرًّا وَدُرُورًا فَهِيَ دَارٌّ (بِغَيْرِ هَاءٍ). أَيْ كَثُرَ فَيْضُ لَبَنِهَا، وَلَعَلَّ نُكْتَةَ

التَّعْبِيرِ بِهِ الْإِشَارَةُ إِلَى الْكَثْرَةِ النَّافِعَةِ ; فَإِنَّ بَعْضَهُ قَدْ يَكُونُ ضَارًّا وَقَدْ يَكُونُ عَذَابًا ، وَكَانَتْ بِلَادُهُمُ الْأَحْقَافُ (جَمْعُ حِقْفٍ وَهُوَ الرَّمْلُ الْمَائِلُ) شَدِيدَةَ الْحَاجَةِ إِلَى الْمَطَرِ لِزَرْعِهَا وَشَجَرِهَا ; لِأَنَّ الرَّمْلَ يُسْرِعُ إِلَيْهِ الْجَفَافُ إِذَا قَلَّ الْمَطَرُ ، وَرُوِيَ عَنِ الضَّحَّاكِ أَنَّ اللهَ أَمْسَكَ عَنْهُمُ الْمَطَرَ الثَّلَاثَ سِنِينَ فَأَجْدَبَتْ بِلَادُهُمْ وَقَحَطَتْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ ، وَلَا أَدْرِي مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ هَذِهِ الرِّوَايَةُ ، وَلَكِنْ يَدُلُّ

عَلَى شِدَّةِ حَاجَتِهِمْ إِلَى الْمَطَرِ أَنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَادِرَةَ الْعَذَابِ الَّذِي أُنْذِرُوا بِهِ اسْتَبْشَرُوا إِذْ ظَنُّوا أَنَّهُ سَحَابٌ يُمْطِرُهُمْ ، قَالَ - تَعَالَى - فِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ : (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) (46 : 24 و25) ، (وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ) هَذَا الْجَزَاءُ الثَّانِي لِلْأَمْرِ ، وَهُوَ مِمَّا كَانُوا يَطْلُبُونَهُ وَيُعْنَوْنَ بِهِ وَيَفْخَرُونَ عَلَى النَّاسِ ، إِذْ كَانُوا قَدْ بُسِطَ لَهُمْ فِي الْأَجْسَامِ وَأُعْطُوا الْقُوَّةَ فِيهَا كَمَا تَرَاهُ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - :

(فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي

خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ) (41 : 15 و16) وقَوْلِه : (وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (26 : 130) فَيَا لَيْتَ دُوَلَ أُورُبَّةَ الْمُسْتَكْبِرَةِ بِقُوَّتِهَا الَّتِي يُهَدِّدُ بَعْضُهَا بَعْضًا تَعْتَبِرُ بِهَذَا . وَإِنِّي وَهُمْ أَشَدُّ مِنْ قَوْمِ عَادٍ كُنُوزًا ؟

(وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) أَيْ لَا تَنْصَرِفُوا مُعْرِضِينَ عَمَّا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِمَّا يَكُونُ سَبَبًا لِنِعْمَةِ الْمَعِيشَةِ وَسَعَةِ الرِّزْقِ وَزِيَادَةِ الْقُوَّةِ وَهِيَ جَزَاءُ الِاسْتِقَامَةِ عَلَى الْحَقِّ .

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِي إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ .

هَذِهِ الْآيَاتُ الْخَمْسُ فِي رَدِّ قَوْمِهِ لِلدَّعْوَةِ وَجُحُودِهِمْ لِلْبَيِّنَةِ ، وَحُجَّتِهِ عَلَيْهِمْ وَإِنْذَارِهِ لَهُمْ .

(قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ) أَيْ بِحُجَّةٍ نَاهِضَةٍ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ مِنَ اللهِ - تَعَالَى - (وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ) أَيْ وَمَا نَحْنُ بِالَّذِينَ نَتْرُكُ عِبَادَةَ آلِهَتِنَا صَادِرِينَ عَنْ قَوْلِكَ ، أَوْ تَرْكًا صَادِرًا عَنْ قَوْلِكَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِكَ وَأَنْتَ بَشَرٌ مِثْلُنَا (وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) أَيْ وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ لَكَ اتِّبَاعَ إِيمَانٍ وَتَصْدِيقٍ بِرِسَالَتِكَ الَّتِي لَا بَيِّنَةَ لَكَ عَلَيْهَا ، وَمَا قَوْلُهُمْ هَذَا إِلَّا جُحُودٌ وَعِنَادٌ ، فَإِنَّ حُجَّتَهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مُوَافِقَةٌ لِلْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ .

(إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ) أَيْ : مَا نَجِدُ مِنْ قَوْلٍ نَقُولُهُ فِيكَ إِلَّا أَنَّ بَعْضَ آلِهَتِنَا أَصَابَكَ بِجُنُونٍ أَوْ خَبَلٍ - وَهُوَ الْهَوَجُ وَالْبَلَهُ - لِإِنْكَارِكَ لَهَا وَصَدِّكَ إِيَّانَا عَنْهَا (قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ) هَذَا بَدْءُ جَوَابٍ يَتَضَمَّنُ عِدَّةَ مَسَائِلَ :

الْأُولَى : الْبَرَاءَةُ مِنْ شِرْكِهِمْ أَوْ شُرَكَائِهِمُ الَّتِي افْتَرَوْهَا وَلَا حَقِيقَةَ لَهَا . (الثَّانِيَةُ) : إِشْهَادُ اللهِ عَلَى ذَلِكَ لِثِقَتِهِ بِأَنَّهُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ فِيهِ - وَإِشْهَادُهُ إِيَّاهُمْ عَلَيْهِ أَيْضًا لِإِعْلَامِهِمْ بِعَدَمِ مُبَالَاتِهِ بِهِمْ

وبِمَا يَزْعُمُونَ مِنْ قُدْرَةِ شُرَكَائِهِمْ عَلَى إِيذَائِهِ . (الثَّالِثَةُ) : قَوْلُهُ : (فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ) أَيْ فَأَجْمِعُوا أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ مَا تَسْتَطِيعُونَ مِنَ الْكَيْدِ لِلْإِيقَاعِ بِي ثُمَّ لَا تُمْهِلُونِي ، وَلَا تُؤَخِّرُوا الْفَتْكَ بِي إِنِ اسْتَطَعْتُمْ ، أَيْ أَنَّهُ لَا يَخَافُهُمْ وَلَا يَخَافُ آلِهَتَهُمْ . وَتَقَدَّمَ مِثْلُ هَذَا فِي تَلْقِينِ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - بَعْدَ تَقْرِيرِ عَجْزِ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ وَهُوَ : (قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ) (7 : 195) وَمِثْلُهُ حِكَايَةً عَنْ نُوحٍ فِي سُورَةِ يُونُسَ : فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ 10 : 71 وَقَدْ قَدَّمَ نُوحٌ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ تَوَكُّلَهُ عَلَى اللهِ - تَعَالَى - ، وَأَخَّرَهُ هُودٌ بِقَوْلِهِ وَهُوَ الْمَسْأَلَةُ (الرَّابِعَةُ) .

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ) هَذَا احْتِجَاجٌ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ مِنْ عَدَمِ الْخَوْفِ مِنْهُمْ وَمِنْ آلِهَتِهِمْ ، يَقُولُ : إِنِّي وَكَّلْتُ أَمْرَ حِفْظِي وَخِذْلَانِكُمْ إِلَى

اللهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِ وَحْدَهُ إِذْ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ، أَيْ : مَالِكُ أَمْرِي وَأُمُورِكُمْ ، الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا ؛ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : (مَا مِنْ دَابَّةٍ) تَدِبُّ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ (إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) أَيْ : مُسَخِّرُهَا وَمُتَصَرِّفٌ فِيهَا ، وَالتَّعْبِيرُ بِالْأَخْذِ بِالنَّاصِيَةِ - وَهُوَ مُقَدَّمُ شَعْرِ الرَّأْسِ - تَمْثِيلٌ

لِتصرُّفِ الْقهرِ والْخضوعِ الَّذِي لَا مَهْرَبَ مِنْهُ وَلَا مَفَرَّ ، وَتَقَدَّمَتِ الْجُمْلَةُ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ السَّادِسَةِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَيُؤَيِّدُهُ مِنْ سُورَةِ الْعَلَقِ : (كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ) (96 : 15) أَيْ : لَنَأْخُذَنَّ بِهَا أَخْذَ الْقَاهِرِ الْمُؤَدِّبِ . قَالَ فِي الْأَسَاسِ : وَسَفَعَ بِنَاصِيَةِ الْفَرَسِ لِيُلْجِمَهُ أَوْ يَرْكَبَهُ ، وَسَفَعَ بِنَاصِيَةِ الرَّجُلِ لِيَلْطِمَهُ وَيُؤَدِّبَهُ اهـ . (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) أَيْ : عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، لَا يُسَلِّطُ أَهْلَ الْبَاطِلِ مِنْ أَعْدَائِهِ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ مِنْ رُسُلِهِ وَمُتَّبِعِيهِمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ ، وَلَا يُضِيعُ حَقًّا ، وَلَا يَفُوتُهُ ظَالِمٌ .

(142/380)

(فَإِنْ تَوَلَّوْا) أَيْ : فَإِنْ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ وَلَمْ تَنْتَهُوا بِنَهْيِي لَكُمْ عَنِ التَّوَلِّي ، وَلَمْ تُطِيعُوا أَمْرِي لَكُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وَتَرْكِ الْإِشْرَاكِ بِهِ (فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ) أَيْ : فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي الَّتِي أَرْسَلَنِي بِهَا إِلَيْكُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيَّ غَيْرُ الْبَلَاغِ وَلَزِمَتْكُمُ الْحُجَّةُ ، وَحَقَّتْ عَلَيْكُمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ (وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ) إِذَا هُوَ أَهْلَكَكُمْ بِإِصْرَارِكُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ وَإِجْرَامِكُمْ (وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا) مَا مِنَ الضَّرَرِ بِتَوَلِّيكُمْ عَنِ الْإِيمَانِ ، فَإِنَّهُ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَعَنْ إِيمَانِكُمْ (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) (39 : 7) وَيَسْتَلْزِمُ هَذَا أَنَّكُمْ لَا تَضُرُّونَ رَسُولَهُ ، وَلَعَلَّهُ هُوَ الْمُرَادُ ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ : (إِنَّ

رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) أَيْ: قَائِمٌ وَرَقِيبٌ عَلَيْهِ بِالْحِفْظِ وَالْبَقَاءِ، عَلَى مَا اقْتَضَتْهُ سُنَّتُهُ وَتَعَلَّقَتْ بِهِ مَشِيئَتُهُ، وَمِنْهُ أَنَّهُ يَنْصُرُ رُسُلَهُ وَيَخْذُلُ أَعْدَاءَهُ وَأَعْدَاءَهُمْ إِذَا أَصَرُّوا عَلَى الْكُفْرِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ.

(143/380)

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ

(144/380)

هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ فِي إِنْجَاءِ هُودٍ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، وَالْجَزَاءِ وَالْعُقُوبَةِ لِقَوْمِهِ الْمُعَانِدِينَ، (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا) عَذَابُنَا أَوْ وَقْتُهُ (نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا) أَيْ بِرَحْمَةٍ مِنْ لَدُنَّا خَاصَّةٍ بِهِمْ. مُخَالِفَةٍ لِلْعَادَةِ فِي أَسْبَابِ النَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ الْعَارِضِ الَّذِي يُصِيبُ بَعْضَ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ، وَهِيَ الَّتِي أُشِيرَ إِلَيْهَا فِي قَوْلِ نُوحٍ لِوَلَدِهِ: (لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا

مَنْ رَحِمَ) (43) (وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) أَعَادَ فِعْلَ التَّنْجِيَةِ لِلْفَصْلِ بَيْنَ (مِنَّا) الَّتِي هِيَ صِفَةُ الرَّحْمَةِ وَبَيْنَ (مِنْ) الدَّاخِلَةِ عَلَى الْعَذَابِ. أَيْ: وَإِنَّمَا نَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ شَدِيدِ الْغِلْظَةِ، فَظِيعٍ شَدِيدِ الْفَظَاعَةِ، غَيْرِ مَعْهُودٍ فِي الْعَالَمِ، وَهُوَ مَا عَبَّرَ عَنْهُ بِالرِّيحِ الْعَقِيمِ، الَّتِي لَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ، وَبِقَوْلِهِ: (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ) (54: 19 و20) وَقَوْلِهِ فِي وَصْفِ هَذِهِ الرِّيحِ الْعَاتِيَةِ: (فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ) (69: 7 و8).

(وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ

رَبِّهِمْ) أَيْ: كَفَرُوا بِجِنْسِ الْآيَاتِ الَّتِي يُؤَيِّدُ بِهَا رُسُلَهُ بِجُحُودِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ رَسُولُهُمْ مِنْهَا، أَنَّثَ الْإِشَارَةَ إِلَيْهِمْ عَلَى إِرَادَةِ الْقَبِيلَةِ، وَقِيلَ: إِشَارَةٌ إِلَى آثَارِهِمْ، وَالْجُحُودُ بِالْآيَاتِ تَكْذِيبُ الدَّلَائِلِ الْوَاضِحَةِ عِنَادًا فِي الظَّاهِرِ دُونَ الْبَاطِنِ، كَمَا قَالَ فِي قَوْمِ فِرْعَوْنَ: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) (27: 14) (وَعَصَوْا رُسُلَهُ) أَيْ: عَصَوْا جِنْسَهُمْ بِعِصْيَانِ رَسُولِهِ إِلَيْهِمْ وَإِنْكَارِ رِسَالَتِهِ; فَإِنَّ عِصْيَانَ الْوَاحِدِ عِصْيَانٌ

لِلْجِنْسِ كُلِّهِ ، إِذْ هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى رَفْضِ الرِّسَالَةِ نَفْسِهَا ، بِادِّعَاءِ أَنَّ الرَّسُولَ لَا يَكُونُ بَشَرًا (وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) أَيْ وَاتَّبَعَ سَوَادُهُمْ وَدَهْمَاؤُهُمْ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِنْ رُؤَسَائِهِمُ الطُّغَاةِ الْعُتَاةِ الْمُسْتَبِدِّينَ فِيهِمْ بِالْقَهْرِ ، فَالْجَبَّارُ الْقَاهِرُ الَّذِي يُجْبِرُ غَيْرَهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ بِالْقَهْرِ وَالْإِذْلَالِ ، أَوْ مَنْ يَجْبُرُ نَقْصَ نَفْسِهِ بِالْكِبْرِ وَدَعْوَى الْعَظَمَةِ ، وَالْعَنِيدُ : الطَّاغِي الَّذِي يَأْبَى الْحَقَّ وَلَا يُذْعِنُ لَهُ ، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُ وَقَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ عِنْدَهُ ، فَهَلْ يَعْتَبِرُ بِهَذِهِ بَقَايَا الْمُلُوكِ الْجَبَّارِينَ فِي الْأَرْضِ قَبْلَ انْقِرَاضِهِمْ ؟

(وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً) إِتْبَاعُ الشَّيْءِ الشَّيْءَ : لُحُوقُهُ بِهِ وَإِدْرَاكُهُ إِيَّاهُ بِحَيْثُ لَا يَفُوتُهُ ، أَيْ لَحِقَتْ بِهِمْ لَعْنَةٌ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، فَكَانَ كُلُّ مَنْ عَلِمَ بِحَالِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَنْ أَدْرَكَ آثَارَهُمْ ، وَكُلُّ مَنْ بَلَّغَهُ الرُّسُلُ مِنْ بَعْدِهِمْ خَبَرَهُمْ يَلْعَنُونَهُمْ (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ) وَتَتْبَعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَمَا يَلْعَنُ الْأَشْهَادُ الظَّالِمِينَ أَمْثَالَهُمْ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ . قَالَ قَتَادَةُ : تَتَابَعَتْ عَلَيْهِمْ لَعْنَتَانِ مِنَ اللهِ : لَعْنَةٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَعْنَةٌ فِي الْآخِرَةِ : (أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ) هَذِهِ شَهَادَةٌ مُؤَكَّدَةٌ عَلَيْهِمْ بِالْكُفْرِ ، أَيْ : كَفَرُوا نِعَمَهُ عَلَيْهِمْ بِجُحُودِهِمْ بِآيَاتِهِ وَتَكْذِيبِهِمْ

لِرُسُلِهِ كِبْرًا وَعِنَادًا ، يُقَالُ : كَفَرَهُ وَكَفَرَ بِهِ ، وَشَكَرَهُ وَشَكَرَ لَهُ ، وَمَعْنَى مَادَّةِ الْكُفْرِ فِي الْأَصْلِ التَّغْطِيَةُ ، (أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ) دُعَاءٌ عَلَيْهِمْ بِالْهَلَاكِ وَالْبُعْدِ مِنَ الرَّحْمَةِ حِكَايَةً لِبَدْئِهِ ، وَتَسْجِيلًا لِدَوَامِهِ ، كَرَّرَ أَلَا الْمُنَبِّهَةَ لِمَا بَعْدَهَا تَعْظِيمًا لِأَمْرِهِ ، وَكَرَّرَ اسْمَهُمْ وَوَصْفَهُمْ بِقَوْمِ هُودٍ لِيُفِيدَ السَّامِعَ بِالتَّكْرِيرِ تَقْرِيرَ اسْتِحْقَاقِهِمْ لِلَّعْنَةِ وَالْإِبْعَادِ وَسَبَبِهِ ، وَأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ شُبْهَةُ عُذْرٍ لِرَدِّ الدَّعْوَةِ الْمُعَقِّبَةِ لِلْحِرْمَانِ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنْ خَيْرٍ وَنِعْمَةٍ ، وَالِانْتِهَاءِ إِلَى ضِدِّهِ مِنْ شَقَاءٍ وَنِقْمَةٍ .

قِصَّةُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

(147/380)

هُوَ النَّبِيُّ الرَّسُولُ الثَّانِي مِنَ الْعَرَبِ ، وَتَقَدَّمَ ذِكْرُ قِصَّتِهِ فِي سَبْعِ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ ، ذَكَرْتُ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِهَا مَسَاكِنَ قَبِيلَتِهِ ثَمُودَ وَهِيَ : الْحِجْرُ بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ ، وَهَا هِيَ ذِي قَدْ ذُكِرَتْ هُنَا فِي ثَمَانِي آيَاتٍ تُضَاهِي تِلْكَ السَّبْعَ ، وَسَتَجِيءُ فِي 19 آيَةً مِنْ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ أَقْصَرَ مِنْ آيَاتِ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ ، ثُمَّ

فِي تِسْعٍ مِنْ سُورَةِ النَّمْلِ تُنَاهِزُ آيَاتِ الْأَعْرَافِ ، ثُمَّ فِي تِسْعٍ مِنْ سُورَةِ الْقَمَرِ قِصَارٍ ، وَذُكِرَتْ قَبْلَهُنَّ فِي خَمْسٍ مِنْ سُورَةِ الْحِجْرِ ، وَبَعْدَهُنَّ فِي خَمْسٍ مِنْ سُورَةِ الشَّمْسِ ، وَثَلَاثٍ مِنْ

سُورَةِ الذَّارِيَاتِ ، وَثِنْتَيْنِ مِنْ سُورَةِ النَّجْمِ ، وَفِي كُلٍّ مِنَ الْمَوْعِظَةِ وَالْعِبْرَةِ فِي مَوْضِعِهَا مَا يَلِيقُ بِهَا ، وَلَا يُغْنِي عَنْهَا غَيْرُهَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 95. 100 ﴾

(148/380)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾

استعمال الماضي في قوله : ﴿ جاء أمرنا ﴾ بمعنى اقتراب المجيء لأن الإنجاء كان قبل حلول العذاب .

والأمر أطلق على أثر الأمر ، وهو ما أمر الله به أمر تكوين ، أي لمّا اقترب مجيء أثر أمرنا ، وهو العذاب ، أي الريح العظيم .

ومتعلّق ﴿ نجّينا ﴾ الأول محذوف ، أي من العذاب الدال عليه قوله : ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ .

وكيفيّة إنجاء هود عليه السّلام ومن معه تقدّم ذكرها في تفسير سورة الأعراف .

والباء في ﴿ برحمة منّا ﴾ للسببيّة ، فكانت رحمة الله بهم سبباً في نجاتهم .

والمراد بالرحمة فضل الله عليهم لأنّه لو لم يرحمهم لشملهم الاستئصال فكان نقمة للكافرين وبَلوى للمؤمنين .

وجملة ﴿ ونجّيناهم من عذاب غليظ ﴾ معطوفة على جملة ﴿ ولمّا جاء أمرنا ﴾ .

والتّقدير وأيضاً نجّيناهم من عذاب شديد وهو الإنجاء من عذاب الآخرة وهو العذاب الغليظ .

ففي هذا منّة ثانية على إنجاء ثان ، أي نجّيناهم من عذاب الدّنيا برحمة منّا ونجّيناهم من عذاب غليظ في الآخرة ، ولذلك عطف فعل ﴿ نجّيناهم ﴾ على ﴿ نجّينا ﴾ ، وهذان الإنجاءان يقابلان جمع العذابين لعاد في قوله : ﴿ وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ﴾ [هود : 60] .

وقد ذكر هنا متعلّق الإنجاء وحذف السبب عكس ما في الجملة الأولى لظهور أنّ الإنجاء من عذاب الآخرة كان بسبب الإيمان وطاعة الله كما دلّ عليه مقابلته بقوله : ﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ﴾ [هود : 59] .

والغليظ حقيقته : الخشن ضدّ الرقيق ، وهو مستعار للشّديد .

واستعمل الماضي في ﴿ ونجّيناهم ﴾ في معنى المستقبل لتحقق الوعد بوقوعه .

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾

الإشارة بـ ﴿ تِلك ﴾ حاضر في الذّهن بسبب ما أجري عليه من الحديث حتى صار كأنّه حاضر في الحسّ والمشاهدة.

كقوله تعالى: ﴿ تلك القرى نقصّ عليك من أنبائها ﴾ [الأعراف: 101] وكقوله: ﴿ أولئك على هدىً من ربّهم ﴾ [البقرة: 5]، وهو أيضاً مثله في أنّ الإتيان به عقب الأخبار الماضية عن المشار إليهم للتنبيه على أنّهم جديرون بما يأتي بعد اسم الإشارة من الخبر لأجل تلك الأوصاف المتقدّمة.

وتأنيث اسم الإشارة بتأويل الأمّة.

و﴿ عاد ﴾ بيان من اسم الإشارة.

وجملة ﴿ جحدوا ﴾ خبر عن اسم الإشارة.

وهو وما بعده تمهيد للمعطوف وهو ﴿ وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ﴾ لزيادة تسجيل التّمهيد بالأجرام السّابقة، وهو الذي اقتضاه اسم الإشارة كما تقدّم، لأنّ جميع ذلك من أسباب جمع العذابين لهم.

والجحد: الإنكار الشّديد، مثل إنكار الواقعات والمشاهدات.

وهذا يدلّ على أنّ هوداً أتاهم بآيات فأنكروا دلالتها .

وعدي ﴿ جَحدوا ﴾ بالباء مع أنّه متعدّ بنفسه لتأكيد التّعدية ، أو لتضمينه معنى كفروا فيكون بمنزلة ما لو قيل : جحدوا آيات ربّهم وكفروا بها ، كقوله : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ [النمل : 14] .

وجمع الرسل في قوله : ﴿ وعصَوا رُسلَه ﴾ وإنّما عَصَوْا رَسولاً واحداً ، وهو هود عليه السّلام لأنّ المراد ذكر إجرامهم فناسب أن يناط الجرم بعصيان جنس الرسل لأن تكذيبهم هوداً لم يكن خاصاً بشخصه لأنهم قالوا له : ﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ﴾ [هود : 53] ، فكل رسول جاء بأمر ترك عبادة الأصنام فهم مكذبون به .

ومثله قوله تعالى : ﴿ كذّبت عادٌ المرسلين ﴾ [الشعراء : 123] .

ومعنى اتباع الآمر : طاعة ما يأمرهم به ، فالاتّباع تمثيل للعمل بما يملى على المتبع ، لأنّ الآمر يشبه الهادي للسائر في الطريق ، والممتثلَ يشبه المتبع للسائر .

والجبار : المتكبّر .

والعنيد : مبالغة في المعاندة.

يقال: عند مثلث النون إذا طغى، ومن كان خلقه التجبّر، والعنود لا يأمر بخير ولا يدعو إلاّ إلى باطل، فدلّ اتّباعهم أمر الجبابرة المعاندين على أنّهم أطاعوا دعاة الكفر والضلال والظلم.

و﴿ كل ﴾ من صيغ العموم، فإنْ أريد كلّ جبار عنيد من قومهم فالعموم حقيقي، وإنْ أريد جنس الجبابرة ف﴿ كلّ ﴾ مستعملة في الكثرة كقول النابغة:

بها كلّ ذيّال وخنساءَ ترعوي

ومنه قوله تعالى: ﴿ يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامرٍ ﴾ في سورة [الحج: 27].

وإتْباع اللعنة إيّاهم مستعار لإصابتها إيّاهم إصابة عاجلة دون تأخير كما يتبع الماشي بمن يلحقه.

وممّا يزيد هذه الاستعارة حسناً ما فيها من المشاركة ومن مماثلة العقاب للجرم لأنّهم اتّبعوا الملعونين فأتبعوا باللّعنة.

وبني فعل أتبعوا ﴾ للمجهول إذْ لاَ غرض في بيان الفاعل، ولم يسند الفعل إلى اللعنة مع استيفائه ذلك على وجه المجاز ليدل على أنّ إتْبَاعها لهم كان بأمر فاعل للإشعار بأنّها تبعتهم عقاباً من الله لا مجرّد مصادفة.

واللّعنة: الطرد بإهانة وتحقير.

وقرن الدنيا باسم الإشارة لقصد تهوين أمرها بالنّسبة إلى لعنة الآخرة، كما في قول قيس بن

الخطيم :

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة

لنفسي إلاّ قدْ قضيت قضاءها . . .

أوما إلى أنّه لا يكترث بالموت ولا يهابه .

وجملة ﴿ ألاَ إنّ عاداً كفروا ربّهم ﴾ مستأنفة ابتدائية افتتحت بحرف التنبيه لِتهويل الخبر ومؤكدة بحرف ﴿ إنّ ﴾ لإفادة التعليل بجملة ﴿ وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ﴾ تعريضاً بالمشركين ليعتبروا بما أصاب عاداً .

وعدّيَ ﴿ كفروا ربّهم ﴾ بدون حرف الجر لتضمينه معنى عَصَوْا في مقابلة ﴿ واتّبعوا أمر كلّ جبّارٍ عنيدٍ ﴾ ، أو لأنّ المراد تقدير مضاف ، أي نعمة ربّهم لأنّ مادّة الكفر لا تتعدّى إلى الذات وإنما تتعدى إلى أمر معنوي .

وجملة ﴿ ألا بعداً لعاد ﴾ ابتدائية لإنشاء ذمّهم .

ونقدّم الكلام على ﴿ بعْداً ﴾ عند قوله في قصّة نوح عليه السّلام ﴿ وقيل بعداً للقوم الظالمين ﴾ [هود : 44] .

و﴿ قوم هود ﴾ بيان ل(عاد) أو وصف ل(عاد) باعتبار ما في لفظ ﴿ قوم ﴾ من معنى الوصفية.

وفائدة ذكره الإيماء إلى أنّ له أثراً في الذمّ بإعراضهم عن طاعة رسولهم، فيكون تعريضاً بالمشركين من العرب، وليس ذكره للاحتراز عن عاد أخرى وهم إرَم كما جوّزه صاحب "الكشاف" لأنّه لا يعرف في العرب عاد غير قوم هود وهم إرم، قال تعالى: ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بِعادٍ إرَم ذات العماد ﴾ [الفجر: 6، 7]. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(152/380)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾

وساعة تسمع ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ فأنت تعرف أن هناك آمراً وأمراً مُطاعاً، وبمجرد صدور الأمر من الآمر سبحانه يكون التنفيذ؛ لأنه يأمر مَنْ له قدرة على التنفيذ:

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ إِذَا السمآء انشقت * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الإنشقاق: 12].

إذن : فهي بمجرد السمع نَفَّذت أمر الحق سبحانه .

وحين شاء الحق سبحانه أن يُنجي موسى عليه السلام من الذبح الذي أمر به فرعون ؛

أوحى الله سبحانه لأمِّ موسى قائلاً :

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين ﴾ [القصص : 7] .

وكيف تفعل أمٌّ ذلك .

إن كل أمٍّ إنما تحرص على ابنها ؛ والذبح لموسى أمر مظنون ، والإلقاء في البحر موت محقَّق ، لكن أم موسى استقبلت الوحي ؛ ولم تتردد ؛ مما يدل على أنها تُناقش الأمر بمقاييس البشر ، بل بتنفيذ إلهام واردٍ إليها من الله سبحانه ؛ إلهام لا ينازعه شَكٌّ أو شيطان .

وبعد ذلك يأمر الله سبحانه البحر :

﴿ فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل ﴾ [طه : 39] .

وقد استقبل البحرُ الأمرَ الإلهي ؛ لأنه أمر من قادر على الإنفاذ ، كما قام بتنفيذ الضد .

في قصة نوح عليه السلام قال الحق سبحانه :

﴿ حتى إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التنور ﴾ [هود : 40] .

وحدث الطوفان ؛ ليغرق الكافرين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ [هود : 58] .

يعني : مجيء الأمر بالعذاب للمخالفين لدعوة هود عليه السلام ، وقد تحقَّق هذا العذاب بطريقة خاصة ودقيقة ؛ تتناسب في دقتها مع عظمة الآمر بها سبحانه وتعالى .

(153/380)

فحين تأتي رِيحٌ صَرْصَرٌ أو صَيحةٌ طاغيةٌ ، فهذا العذاب من خارجهم ، وما دام العذاب من الخارج ، وبقوة من قوى الطبيعة الصادرة بتوجيه الله ؛ فقد يَعُمُّ المكذِّبين لسيدنا هود ، ومعهم المصدِّقون به وبرسالته ، فكيف يتأتَّى أن تذهب الصيحة إلى آذان المكذِّبين فقط ، وتخرق تلك الآذان ؛ وتترك آذان المؤمنين ؟

إنها قدرة التقدير لا قوة التدمير . إن مُوجِّه الصيحة قد حدَّد لها مَنْ تُصيب ومن تترك ، وهي صيحة موجَّهة ، مثلها مثل حجارة سِجِّيل التي رمتها طير أبابيل على أبرهة الحبشي وجنوده ؛ مع نجاةَ جنود قريش بنفس الحجارة ؛ ولم تكن إصابة بالطاعون كما ادَّعى بعضٌ من المتفلسفين .

وهذه من أسرار عظمة الحق سبحانه فهو يأخذ بشيء واحد ؛ ولكنه يُنجي المؤمن ؛ ويعذِّب الكافر ؛ فلا يوجد ناموس يحكم الكون بدون قدرة مسيطرة عليه .

يقول المتنبي :

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مِنَّا بيضَ أوجُهِنا . . . ومَا تُسَوِّدُ بيضَ العَيْنِ واللَّمَمِ

وكَانَ حَالُهُما فِي الحُكْمِ واحِدَةً . . . لو احْتَكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إلى حَكَمِ

وهكذا يضرب المتنبي المثل بأن جلوس الواحد منا في الشمس ؛ يجعل بشرة الأبيض تميل إلى السمرة ولا تسود بياض الشعر ، لكن إن تركت شيئاً أسود في الشمس فترة لوجدته يميل إلى الأبيض ؛ ويحدث ذلك رغم أن الفاعل واحد ؛ لكن القابل مختلف .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ ولَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً والذين آمَنُوا مَعَهُ بِرحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ [هود : 58] .

فلا تقل كيف نجوا من العذاب الجامع والعذاب العام ؛ لأن هذه هي الرحمة .

والرحمة كما نعلم هي ألا يمس الداء الإنسان من أول الأمر ؛ أما الشفاء فهو يعالج الداء .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ونُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء : 82] .

ونحن نلحظ هنا أن الحق سبحانه يذكر في نفس الآية الكريمة نجاتين :

النجاة الأولى : من العذاب الجامع ؛ الريح الصرصر ؛ من الصيحة ؛ من الطاغية ، يقول سبحانه :

﴿ نَجَّيْنَا هُوداً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود : 58] .

والنجاة الثانية : هي نجاة من عذاب الآخرة الغليظ ، فعذاب الدنيا رغم قسوته ، إلا أنه موقوت بعمر الدنيا .

أما عذاب الآخرة فهو عذاب بلا نهاية ، ووصفه الحق سبحانه بالغلظة .

وغلظ الشيء يعطي له القوة والمتانة ، وهو عذاب غليظ على قدر ما يستوعب الحكم .

ولذلك حينما يُملِّك الحقُّ سبحانه رجلاً بُضْع امرأة بعقد الزواج ، ويصف ذلك بالميثاق الغليظ ، والنفعية هنا متصلة بالعفة والعِرْض ، ولم يُملِّك الرجل النفعية المطلقة من المرأة التي يتزوجها ؛ فالزوج يُمكَّن من عورة زوجته بعقد الزواج .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ [النساء : 21] .

وكانت نجاة هود عليه السلام والمؤمنين معه من العذاب الأول مقدمة للنجاة من العذاب الغليظ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾

و" تلك " إشارة إلى المكان الذي عاش فيه قوم عاد ؛ لأن الإشارة هنا لمؤنث ، ولنتذكر أن المتكلم هنا هو الله سبحانه وتعالى .

وهكذا فصل بين " عاد " المكان ، و" عاد " المكين ، وهم قوم عاد ؛ لذلك قال سبحانه ﴿ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ [هود : 59] فهم قد ذهبوا وبقيت آثارهم .

و" عاد " إما أن تطلق على المكان والمحل ، وإما أن تطلق على الذوات التي عاشت في المكان ، فإذا أشار سبحانه ب ﴿ تِلْكَ ﴾ فهي إشارة إلى الديار ، والديار لم تجحد بآيات الله ؛ ولذلك جاء بعدها بقوله تعالى :

﴿ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ [هود : 59] .

والجحود هو النكران مع قوة الحجة والبرهان .

والآيات كما نعلم جمع آية ، وهي الأمور العجيبة الملفتة للنظر التفاتاً يوحي بإيمان بما تنص عليه .

ومن الآيات ما يدل على قمة العقيدة ، وهو الإيمان بواجب الوجود ؛ بالله الرب الخالق الحكيم القادر سبحانه وتعالى ، مثل آيات الليل والنهار والشمس والقمر ، ورؤية الأرض

خاشعة إلى آخر تلك الآيات التي في القمة .

وكذلك هناك آيات أخرى تأتي مصدقة لمن يخبر أنه جاء رسولاً من عند الله تعالى ، وهي المعجزات .

وآيات أخرى فيها الأحكام التي يريدها الله سبحانه بمنهجه لضمان صحة حركة الحياة في خلقه .

وقوم عاد جحدوا بكل هذه الآيات ؛ جحدوا الإيمان ، وجحدوا تصديق الرسول بالمعجزة ، وأهملوا وتركوا منهج الله جحوداً بإعراض .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ ﴾ [هود : 59] .

وهود عليه السلام هو الذي أرسله الحق سبحانه إلى قوم عاد ، فهل هو المعنيُّ بالعصيان هنا ؟

نقول : لا ؛ لأن الله عز وجل قال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النبيين لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾ [آل عمران : 81] .

إذن : فكل أمة من الأمم عندها بلاغ من رسولها بأن تصدق أخبار كل رسول يُرسَل .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ كُلٌّ آمَنَ بالله وملائكته وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [البقرة : 285]

.

فهم قد انقسموا إلى قسمين ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ واتبعوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [هود : 59] .

أي : أن هناك مُتَّبِعاً ، ومُتَّبَعاً .

والمقصود بالجبار العنيد هم قمم المجتمع ، سادة الطغيان والصنف الثاني هم من اتبعوا الجبابرة .

ومن رحمته سبحانه أنه حين يتكلم عن الفِرَق الضالة ، فهو يتكلم أيضاً عن الفرق المضلة ، فهناك ضالٌّ في ذاته ، وهناك مُضِلٌّ لغيره .

والمضل لغيره عليه وزران : وزر ضلالة في ذاته ، ووزر إضلال غيره .

(156/380)

أما الذين اتَّبعوا فلهم بعض العذر ؛ لأنهم اتَّبعوا بالجبروت والقهر ، لا بالإقناع والبينة .

وانظر إلى القرآن الكريم حين يعالج هذه القضية ، فيتحدث عن الفئة التي ضلت في ذاتها ويقول :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكتاب إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة : 78] .

ويتحدث الحق سبحانه بعد ذلك عن الفئة المضلة فيقول :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ [البقرة : 79] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هذه الدنيا لَعْنَةً ﴾

والزمان بالنسبة للخلق ثلاثة أقسام : حياتهم زمن أول ، ومن لحظة الموت إلى أن تقوم الساعة زمن ثان وهو زمن البرزخ ، وساعة يبعثون هي الزمن الثالث .

والحياة الأولى فيها العمل ، وحياة البرزخ فيها عرض الجزاء ، مجرد العرض ، والحياة الثالثة هي الآخرة إما إلى الجنة وإما إلى النار .

يقول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : 28] .

هذه هي الأزمنة الثلاثة حياة ، وبرزخ ، وبعث وكل وقت منها له ظرف .

ويعبر القرآن عن هذا ، فيقول عن عذاب آل فرعون منذ أن أغرقهم الله سبحانه في البحر :

﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة أدخلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب ﴾ [غافر : 46] .

وفي هذا دليل على عرض الجزاء في البرزخ مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " القبر إما روضة من رياض الجنة ، وإما حفرة من حفر النار " .

إذن : فهنا زمنان : زمن عرضهم على النار غدوّاً وعشيّاً ، وزمن دخولهم النار .

(157/380)

وهذا يثبت عذاب البرزخ ؛ لأن الإنسان الكافر يرى فيه موقعه من النار ، ويرى نصيبه من العذاب ، ثم تقوم الساعة ليأخذ نصيبه من العذاب .

وبالنسبة لقوم عاد ، أذاقهم الله سبحانه العذاب في الدنيا ، ثم يدخلهم النار يوم القيامة .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود : 60] .

وكلمة " ألا " هي أداة تنبيه كما قلنا من قبل تنبه السامع إلى أهمية ما يلقيه المتكلم حتى لا يجابه السامع بالكلام وهو غافل ، ولأن المتكلم هو الذي يقود زمام الكلام ، فيجب ألا يستقبله السامع غافلاً ، فتأتي كلمة " ألا " كجرس ينبه إلى ما بعدها من كلام .

والكلام عن قوم عاد الذين نالوا عذاباً في الدنيا بالريح العقيم ، ثم أتبعوا لعنة من البرزخ ، وسوف يُستقبلون يوم القيامة باللعنات ؛ فهذه لعنات ثلاث .

وجاء الحق سبحانه وتعالى بحيثية هذه اللعنات مخافة أن يرى قلب السامع من كثرة ما يقع عليهم من لعن ، فبيَّن بكلمة " ألا " أي : تنبهوا إلى أن قوم عاد كفروا ربهم .

وللجريمة زمن ، وللعقوبة عليها زمن ، وكفرهم بربهم حدث في الدنيا ، وهو كفر في القمة ؛ لذلك نالوا عقاباً في الدنيا .

والخطر كل الخطر أن يتأخر زمن العقوبة عن زمن الجريمة ، فلا تأخذكم بهم الرحمة الحمقاء ، لأن كفرهم هو الكفر بالقمة العقدية ؛ لذلك تواصل لعنهم في البرزخ ، ثم تأتي لهم لعنة الآخرة .

وهم لم يكفروا بنعمة ربهم ، بل كفروا بربهم .

والحق سبحانه لم يطلب من أحد عبادته قبل سن التكليف ، وقدم لهم كما يقدم لكل الخلق نعمه التي لا تعد ولا تحصى ؛ ولذلك فهم يستحقون اللعنات وهي الجزاء العادل .

وقد أوضح لهم هود عليه السلام :

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : 56] .

أي : أن الحق سبحانه عادل .

وأنت حين تسمع جريمتهم ؛ تنفعل وتطلب أقصى العقاب لهم ؛ ولذلك يأتي قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود : 60] .

فأنت لا تكتفي بلعنتهم الأولى ، بل تلعنهم مرة أخرى .

ولسائل أن يقول : ولماذا يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود : 60] .

ونقول : لقد قال الحق سبحانه وتعالى في موضع آخر من القرآن :

﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴾ [النجم : 50] .

وهذا يوضح لنا أن " عاداً " كانت اثنتين : عاداً الأولى ، وهم قوم عاشوا وضلُّوا فأهلكهم الله ، وهناك عاد الثانية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(159/380)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى { وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا } { هود : 58 } ، وقال في قصة شعيب عليه السلام : { وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا } { هود : 94 } ، فعطفت لما على ما قبلها بواو النسق في هذين الموضوعين وخالفت قصة صالح وقصة لوط ، عليهما السلام ، في الحرف المعطوف به هذه الجملة المصدرة بحرف الوجوب فقيل في قصة صالح عليه السلام : { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا } { هود : 66 } ، وفي قصة لوط عليه السلام : { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا } { هود : 82 } ، بعطف لما على ما قبلها من هتين الآيتين بفاء التعقيب ، فللسائل أن يسأل عن وجه اختصاص آيتي هود وشعيب بالواو وآيتي صالح ولوط ، عليهما السلام ، { فاء التعقيب ؟ وهل ذلك بواجب ؟ } .

(160/380)

والجواب عن ذلك ، والله أعلم : أن آيتي صالح وهود ورد فيهما ما يقتضي معناه أن يربط بالفاء المقتضية التعقيب ، أما قصة صالح منهما فتقدمها قوله تعالى : { فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ } { هود : 65 } ، فكأن قد قيل : فلما انقضت ، فالموضوع للفاء لمقصود التعقيب . ومثل هذا من غير فرق قوله تعالى في قصة لوط عليه السلام : { إِنَّ

مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) (هود : 81) ، ولا شك أن المعنى يستدعي تقدير فلما أصبح تحقيقا لصدق الوعيد ، وإعقاباً لا يتحصل بغير الفاء ، فهذا يوجب خصوص الفاء بهذين الموضعين . وأما قصة هود عليه السلام ، فلم يرد فيها ما يستدعي تعقيباً ، بل قبلها ما يقتضي أن ينسق ما بعده عليه بواو العطف ، وذلك قوله تعالى مخبراً عن قوم هود : (وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا) (هود : 57) ، ثم قال : (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا) (هود : 58) ، فعطف هذه الجمل بعضها على بعض بما يعطي ذلك ، ويناسب العطف بالواو ، وعلى هذا وردت آية شعيب عليه السلام ، فورد قبلها : (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) (هود : 93) ثم بعد ذلك : (وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) (هود : 93) ، وليس هذا ما يقتضي تعقيباً بل بابه حمل الآي بعضها على بعض بحرف التشريك ، فجاء كل على ما يناسب ، والله أعلم بما أراد .

قوله تعالى في قصة هود : (وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً) (هود : 60) ، وفي قصة موسى بعد من هذه السورة : (وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً) (هود : 99) فجمع في قصة هود بين اسم الإشارة ولفظ الدنيا الجاري عليه وصفا ، واكتفي في قصة موسي باسم الإشارة دون

التابع ، فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك ؟ وهل كان يجوز عكس الوارد ؟

والجواب عن ذلك : أن الوارد عليه كلا من الآيتين لا يحسن خلافه ولا يناسب ، وذلك لوجهين : أحدهما أن قصة هود ، عليه السلام ، في هذه السورة أكثر استيفاء من قصة موسي عليه السلام ، بكثير فناسب الطول الطول والإيجاز الإيجاز ، ولا يليق العكس .

والوجه الثاني أن قوله تعالى في قصة هود : (وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً) (هود : 60) ، وارد على الأصل من الجمع بين التابع نعتاً أو عطف بيان و بين متبوعه ، وجاء في قصة موسى عليه السلام : ((وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً) على حذف الوصف للإكتفاء باسم الإشارة ، وكل فصيح ، فجيء بما هو في الأصل أولاً ، ثم جيء ثانياً بما هو ثان عنه على ما ينبغي ، ولا يحسن العكس لأن ذلك شبه التفسير وبابه أن يتقدم ، فما يحذف يكون لما تقدم من ما يدل عليه ويحذف لما سيأتي بعد إلا في قليل نحو قوله : نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض ، والرأي مختلف ، وهذا الوجه كاف . والوجه الأول أنسب لراعي النظم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 257. 259 ﴾

(162/380)

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (50) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه ﴿ إلا على الذي فطرني ﴾ أي خلقني .

وأخرج ابن عساكر عن الضحاك رضي الله عنه قال : أمسك عن عاد القطر ثلاث سنين فقال لهم هود ﴿ استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ فأبوا إلا تمادياً .

وأخرج ابن سعد في الطبقات وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر وأبن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في سننه عن الشعبي رضي الله عنه قال : خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستسقي فلم يزد على الاستغفار حتى يرجع . فقيل له : ما رأيناك استسقيت ؟ قال : لقد طلبت المطر بمخاديج السماء التي يستنزل بها المطر ، ثم قرأ ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ و ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾ [نوح: 10] ﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ [نوح: 11].

وأخرج أبو الشيخ عن هرون التيمي في قوله ﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ قال : يدر ذلك عليهم مطراً ومطراً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ قال : ولد الولد .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ قال : أصابتك بالجنون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ قال : أصابتك الأوثان بجنون .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : ما يحملك على ذم آلهتنا إلا أنه قد أصابك منها سوء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن سعيد قال : ما من أحد يخاف لصاً عادياً ، أو سبعاً ضارياً ، أو شيطاناً مارداً ، فيتلو هذه الآية ﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴾ إلا صرفه الله عنه .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ إن ربي على صراط مستقيم ﴾ قال : الحق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك رضي الله عنه في قوله ﴿ عذاب غليظ ﴾ قال : شديد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ كل جبار عنيد ﴾ المشرك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال ﴿ كل جبار عنيد ﴾ قال : الميثاق .

وأخرج ابن المنذر عن إبراهيم النخعي عنيد قال : تمالت عن الحق .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنة ﴾ قال : لم يبعث نبي بعد عاد إلا لُعِنَتْ عاد على لسانه .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ﴾ قال : لعنة أخرى .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : تتابعت عليهم لعنتان من الله لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور جـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) ﴾

قوله تعالى : ﴿ جَحَدُوا ﴾ : جملةٌ مستأنفة سِيقت للإِخبار عنهم بذلك ، وليسَتْ حالاً مِمَّا قبلها ، و " جَحَد " يتعدى بنفسه ، ولكنه ضُمِّن معنى كفر ، فيعدى بحرفه ، كما ضَمَّن " كفر " معنى " جحد " فتعدى بنفسه في قوله بعد ذلك في قوله : ﴿ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ [هود : 60] . وقيل : إنَّ " كفر " ك " شكر " في تعدِّيه بنفسِه تارةً وبحرف الجر أخرى .

والجَبَّار تقدَّم اشتقاقه والعنيد : / الطاغي المتجاوزُ في الظلم مِنْ قولهم " عَنَدَ يَعْنِد " إذا حادَ عن الحق من جانب إلى جانب . قيل : ومنه " عندي " الذي هو ظرف ؛ لأنه في معنى جانِب ، من قولك : عندي كذا ، أي في جانبي . وعن أبي عبيد : العنيد والعنود والعاند والمُعاند كلُّه المعارِض بالخلاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 345 . 346 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58) ﴾

ولما جاء أمْرنا بإهلاكِهم نَجّينا هوداً والذين آمنوا برحمتنا ، ولم يَقُلْ باستحقاقه النجاة بوسيلةِ نُبوته ، أو لجسامة طاعته ورسالته بل قال : ﴿ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ ، ليَعْلَمَ الكافةُ أنَّ الأنبياء - عليهم السلام - ومَنْ دونهم عتيقُ رحمته ، وغريقُ مِنّته ، لا لاستحقاقِ أحدٍ ولا لواجب على الله في شيء .

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) ﴾

في إنزالِ قصصهم تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم وآله - فيما كان يقاسي من العناء ، وللمؤمنين فيما بذلوا من حسن البلاء ، والعِدَةُ بتبديل - ما كانوا يلقَوْنه من الشِدّة - بالرجاء .

﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (60) ﴾

أخبر أنهم خسروا الدنيا والآخرة ، أمّا في هذه الدنيا فبالاستئصال بأليم الشدة وما تَبِعَه من اللَّعنة ، ثم ما يلقونه في الآخرة من تأبيد العقوبة . وبقاؤهم عن رحمة الله أصعبُ من

صنوف كل تلك المحنة ، كما قيل :

تَبَدَّلَتْ وتبدلنا واحسرتا . . . لِمَنْ ابتغى عوضاً لِسَلْمى فَلَمْ يَجِد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 142.143 ﴾

(166/380)

فصل

قال الثعلبى فى الآيات السابقة :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي ﴾

وقد وعدتني أن تنجيني وأهلي ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق ﴾ أي الصدق ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الحاكمين ﴾ أي تحكم على قوم بالنجاة وعلى قوم بالهلاك .

﴿ قَالَ يا نوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ وقرأ أهل الكوفة [عَمِلَ] بكسر الميم وفتح اللام ، غير بنصب الراء على الفعل ومعناه : إنه عمل الشرك والكفر ، وقرأ الباقون عَمَلٌ بفتح الميم وضمّ اللام وتنوين غير بالرفع ومعناه : إنّ سؤالك إياي أن أنجيه عملٌ غيرُ صالح .

﴿ فَلاَ تَسْئَلْنِ ﴾ يا نوح ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ بما لا تعلم وقرأ ابن كثير بتشديد النون

وفتحه، وقرأ أهل المدينة والشام بتشديد النون وكسره.

﴿ إني أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ واختلفوا في هذا الابن فقال بعضهم: إنه لم يكن ابن نوح، ثم اختلفوا فيه، فقال بعضهم: كان ولد خبث من غيره، ولم يعلم بذلك نوح، فقال الله تعالى: إنه ليس من أهلك أي من ولدك، وهو قول مجاهد والحسن، وقال قتادة: سألت الحسن عنه فقال: والله ما كان بابنه، وقرأ ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ [التحريم: 10] فقال: إن الله حكى عنه إنه قال: إن ابني من أهلي، وقال: ونادى نوح ابنه وأنت تقول: لم يكن ابنه، وإن أهل الكتابين لا يختلفون في انه كان ابنه. فقال الحسن: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب، إنهم يكذبون.

وقال ابن جريج: ناداه وهو يحسب أنه ابنه، وكان ولدَ على فراشه، وقال عبيد بن عمير، نرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما قضى أن الولد للفراش من أجل ابن نوح، وقال بعضهم: إنه كان ابن امرأته واستدلّوا بقول نوح: إن ابني من أهلي ولم يقل: منّي، وهو قول أبي جعفر الباقر.

وقال الآخرون : كان ابنه ومن فصيلته ، ومعنى قوله : إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم ، وقالوا : ما بغت امرأته ولا امرأة لوط وإنما كانت خيانتهما في الدين لا في الفراش ، وذلك أن هذه كانت تخبر الناس أنه مجنون ، وهذه كانت تدلّ على الأضياف ، وهو قول ابن عباس وعكرمة والضحاك وسعيد بن جبير وميمون بن مهران .

قال أبو معاوية البجلي : قال رجل لسعيد بن جبير : قال نوح إن ابني من أهلي ، أكان ابن نوح ؟ فسبّح طويلا ، وقال : لا إله إلاّ الله يحدث الله محمداً صلى الله عليه وسلم انه ابنه وتقول ليس ابنه ، كان ابنه ولكنه كان مخالفاً في النية والعمل والدين ، فمن ثم قال تعالى : انه ليس من أهلك ، وهذا القول أولى بالصواب وأليق بظاهر الكتاب .

فقال نوح (عليه السلام) عند ذلك ﴿ رَبِّ إِني أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وترحمني أَكُن مِّنَ الخاسرين * قِيلَ يا نوح اهبط ﴾ انزل من السفينة إلى الأرض ﴿ بِسَلاَمٍ ﴾ بأمن وسلامة ﴿ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وعلى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ وهم الذين كانوا معه في السفينة .

وقال أكثر المفسّرين : معناه وعلى قرون تجيء من ذريّة من معك من الذين آمنوا معك من ولدك ، وهم المؤمنون وأهل السعادة من ذريته ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِّنَّا ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهم الكافرون وأهل الشقاوة . وقال محمد بن كعب القرضي : داخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ، وكذلك داخل

في ذلك العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة .

قال الضحاك : زعم أُناس إن من غرق من الولدان مع آبائهمن وإنّما ليس كذلك وإنّما الولدان بمنزلة الطير ، وسائر من أغرق الله يعود لابنه ولكن حضرت آجالهم فماتوا لآجالهم والمذكورين من الرجال والنساء ممّن كان الغرق عقوبة من الله لهم في الدنيا ثم مصيرهم إلى النار .

(168/380)

﴿ تِلْكَ ﴾ الذي ذكرت ﴿ مِنْ أَنبَآءِ الغيب نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هذا ﴾ من قبل إخباري إياك ﴿ فاصبر ﴾ على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته وما تلقى من أذى الكفار كما صبر نوح ﴿ إِنَّ العاقبة ﴾ آخر الأمر بالسعادة والظفر والمغفرة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ كما كان لمؤمني قوم نوح وسائر الأمم .

﴿ وإلى عَادٍ ﴾ أي فأرسلنا إلى عاد ﴿ أَخَاهُمْ هُوداً ﴾ في النسب لا في الدين ﴿ قَالَ يا قوم اعبدوا الله ﴾ وحّدوا الله وأكثروا العبادة في القرآن بمعنى التوحيد ﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴾ ما أنتم في إشراككم معه الأوثان إلاّ كاذبون .

﴿ يا قوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على تبليغ الرسالة ولا أبتغي جعلا ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى

الذي فطرني ﴾ والفطرة ابتداء الخلقة ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ وذلك أن الأمم قالت للرسل : ما تريدون إلاّ أن تأخذوا أموالنا فقالت الرسل لهم هذا .

﴿ ويا قوم استغفروا ربّكُمْ ﴾ أي آمنوا به يغفر لكم ، والإستغفار هنا بمعنى الإيمان ﴿ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ ﴾ من عبادتكم غيره وسالف ذنوبكم ، وقال الفرّاء : معناه وتوبوا إليه لأن التوبة استغفار والاستغفار توبة .

﴿ يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ متتابعاً ، وقال مقاتل بن حيان وخزيمة بن كيسان : غزيراً كثيراً .

﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ ﴾ شدّة مع شدّتكم ، وذلك أن الله حبس عنهم القطر في سنين وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين فقال لهم هود : إن آمنتم أحيا الله بلادكم ورزقكم المال والولد .

﴿ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ ﴾ ولا تدبروا مشركين ﴿ قَالُواْ ياهود مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ بيان وبرهان على ما تقول فنقر ونسلّم لك ﴿ وَمَا نَحْنُ بتاركي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ أي بقولك ، والعرب تضع الباء موضع عن ، وعن موضع الباء .

﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ بمصدّقين ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعتراكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بسوء ﴾ يعني لست تتعاطى ما تتعاطاه من مخالفتنا وسبّ آلهتنا إلاّ أن بعض آلهتنا اعتراك وأصابك بسوء ، بل جنون ، وهذيان ، هو الذي يحملك على ما تقول وتفعل ، ولا نقول فيك إلاّ هذا ولا نحمل أمرك إلاّ على هذا ، فقال لهم هود : ﴿ إِني أُشْهِدُ الله ﴾ على نفسي ﴿ واشهدوا أَنِّي بريء مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ ﴾ يعني الأوثان ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ﴾ فاحتالوا جميعاً في ضرّي ومكري أنتم وأوثانكم ﴿ ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى الله رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ .

قال الضحاك : يحييها ويميتها ، قال الفرّاء : مالكها والقادر عليها ، قال القتيبي : يقهرها لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته ، قال ابن جرير : إنما خصّ الناصية لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنساناً بالذلة والخضوع فيقولون : ما ناصية فلان إلاّ بيد فلان أي إنه مطيع له يصرفه كيف شاء ، وكانوا إذا أسروا الأسير فأرادوا اطلاقه والمنّ عليه جزوا (ناصيته) ليغتروا بذلك فخراً عليه ، فخاطبهم بما يعرفون في كلامهم .

﴿ إِنَّ رَبِّي على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يقول : إنّ ربي على طريق الحق يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بمعصيته ولا يظلم أحداً غيّاً ولا يقبل إلاّ الإسلام ، والقول فيه إضمار أنيّ : إنّ ربي يدلّ أو يحثّ أو يحملكم على صراط مستقيم .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ﴾ أي قل يا محمد : فقد أبلغتكم ﴿ مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ يوحّدونه ويعبدونه ﴿ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً ﴾ بتوليكم وإعراضكم وإنما تضرون أنفسكم ، وقيل : معناها لا تقدرون له على خير إن أراد أن يضلكم ، وقرأ عبد الله : ولا يضره هلاككم إذا أهلككم ولا تنقصونه شيئاً ، لأنه سواء عنده كنتم أو لم تكونوا .

﴿ إِنَّ رَبِّي على كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أي لكل شيء حافظ ، على بمعنى اللام ، فهو يحفظني من أن تنالوني بسوء .

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ عذابنا ﴿ نَجَّيْنَا هُوداً والذين آمَنُواْ مَعَهُ ﴾ وكانوا أربعة آلاف ﴿ بِرَحْمَةٍ ﴾ بنعمة ﴿ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ وقيل : الريح ، قيل : أراد بالعذاب الغليظ عذاب القيامة أي كما نجّيناهم في الدنيا من العذاب كذلك نجّيناهم في الآخرة من العذاب .

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ رده إلى القبيلة ﴿ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ ﴾ يعني هوداً وحده لأنه لم يُرسل إليهم من الرسل سوى هود ، ونظيره قوله تعالى ﴿ يا أيها الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات ﴾ [المؤمنون : 51] يعني النبي صلى الله عليه وسلم وإنه لم يكن في عصره رسول سواه ، وإنما جمع ها هنا لأن من كذّب رسولا واحداً فقد كذّب جميع الرسل .

﴿ واتبعوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ متكبّر لا يقبل الحق ولا يذعن له، قال أبو عبيد: العنيد والعنود والعاند والمعاند: المعارض لك بالخلاف، ومنه قيل للعرق الذي يفجر دماً فلا يرقى: عاند قال الراجز:

(171/380)

إنّي كبيرٌ لا أطيقُ العندا . . . ﴿ وَأُتْبِعُوا ﴾ ألحقوا وأردفوا ﴿ فِي هذه الدنيا لَعْنَةً ﴾ يعني بعداً وعذاباً وهلاكاً ﴿ وَيَوْمَ القيامة ﴾ أي وفي يوم القيامة أيضاً كذلك لعنوا في الدنيا والآخرة ﴿ ألا إِنَّ عَادا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ أي بربهم، كما يقال: شكرته وشكرت له، وكفرته وكفرت به ونصحته ونصحت له، قيل بمعنى: كفروا نعمة ربهم.

﴿ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ البُعد بعدان: أحدهما البُعد ضد القرب، يقال: بعد يبعد بُعداً، والآخر بمعنى الهلاك ويقال منه: بَعد يَبعد بَعداً وبُعْداً. انتهى انتهى. ا هـ

﴿الكشف والبيان حـ 5 صـ 172. 175﴾

(172/380)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ (45) ﴾

نداؤه ربه : دعاؤه له ، وهو قوله رَبِّ مع ما بعده من اقتضاء وعده في تنجية أهله .

فإن قلت : فإذا كان النداء هو قوله رَبِّ فكيف عطف فَقالَ رَبِّ على نادى بالفاء ؟

قلت : أريد بالنداء إرادة النداء ، ولو أريد النداء نفسه لجاء ، كما جاء قوله إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا قالَ رَبِّ بغير فاء إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي أى بعض أهلى ، لأنه كان ابنه من صلبه ، أو كان ربيبا له فهو بعض أهله وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وأن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به ، وقد وعدتني أن تنجي أهلى ، فما بال ولدى ؟ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ أى أعلم الحكام وأعدلهم «1» ، لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل . ورب غريق في الجهل

---

(1) . قال محمود : «قال أى أعلم الحكام وأعدلهم ، لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم . . . الخ» قال أحمد :

ثم حدث بعد الزمخشري ترفع عن أقضى القضاة إلى قاضى القضاة ، والذي تلاحظوا به في ارتفاع هذه الثانية على الأولى :

أن الأولى تقتضي مشاركة القضاة لأقضاهم في الوصف ، وأن يزاد عليهم ، فترفعوا أن

يشركهم أحد في وصفهم ممن دونهم في المنصب ، فعدلوا عما يشاركه فيه إلى ما ليس كذلك ، فأفردوا رئيسهم بتلقيبه بقاضى القضاة : أى هو الذي يقضى بين القضاة ولا يشاركهم منهم أحد في وصفه ، وجعلوا الذي يليه في الرتبة أقضى القضاة إلا أنهم إنما يعنون قاضى قضاة زمانه أو إقليمه . وإذا جاز أن يطلق على أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرّم اللّه وجهه أقضى قضاة الصحابة في زمانه كما أطلقه عليه النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال «أقضاكم على» فدخل في المخاطبين القضاة وغيرهم ، فلا حرج إن شاء اللّه أن يطلق على أعدل قضاة الزمان أو الإقليم وأعلمهم : قاضى القضاة ، وأقضى القضاة ، أى قضاة زمانه وبلده ، وكل قرن ناجم في زمن فهو شبيه زمن فيه بدا هذا اللقب .

والجور من متقلدي الحكومة في زمانك قد لقب أقضى القضاة ، ومعناه أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر . ويجوز أن يكون من الحكمة ، على أن يبنى من الحكمة حاكم بمعنى النسبة كما قيل دارع من الدرع ، وحائض وطالق على مذهب الخليل إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ تعليل لانتفاء كونه من أهله . وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب ، وأنّ نسيبك في دينك ومعتقدك من الأباعد في المنصب «1» وإن كان حبشياً وكنت قرشياً لصيقك

وخصيصك. ومن لم يكن على دينك - وإن كان أمس أقاربك رحماً - فهو أبعد بعيد منك ، وجعلت ذاته عملا غير صالح ، مبالغة في ذمّه ، كقولها :

فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ «2»

وقيل : الضمير لنداء نوح ، أى : إنّ نداءك هذا عمل غير صالح وليس بذاك - فإن قلت : فهلا قيل : إنه عمل فاسد «3» ؟ قلت : لما نفاه عن أهله ، نفى عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستبقى معها لفظ المنفي ، وآذن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم ، لا لأنهم أهلك وأقاربك. وإنّ هذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوّتك ، كقوله كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وقرئ : عمل غير صالح أى عمل عملا غير صالح. وقرئ :

فلا تسئلنّ ، بكسر النون بغير ياء الإضافة وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء ، يعنى فلا تلتمس منى ملتمساً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب ، حتى تقف على كنهه. وذكر المسألة

---

(1) . قوله «من الأباعد في المنصب» لعله تحريف ، وأصله في النسب. (ع)

(2) . مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 218 فراجعه إن شئت اه مصححه.

(3) . قال محمود : «فهلا قيل : إنه عمل فاسد قلت لما نفاه عن أهله نفى عنه . . . الخ» قال أحمد. ولهذا المعنى والله أعلم قيل له عليه الصلاة والسلام وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ

وإن كان مأموراً بالإنذار على العموم، ولكن لما كانت أهلية النبي عليه الصلاة والسلام مظنة الاتكال والفتور عن العمل، خص أهله بالإنذار إيذانا بذلك، واللّه أعلم. ولهذا لما نزلت أنذرهم النبي صلى اللّه عليه وسلم وقال: إني لا أملك لكم من اللّه شيئاً، أو قال ذلك ولكل واحد منهم بخصوصه.

(174/380)

دليل على أنّ النداء كان قبل أن يغرق حين خاف عليه. فإن قلت: لم سمى نداؤه سؤالا ولا سؤال فيه؟ قلت: قد تضمن دعاؤه معنى السؤال وإن لم يصرح به، لأنه إذا ذكر الموعد بنجاة أهله في وقت مشارفة ولده الغرق فقد استنجز. وجعل سؤال ما لا يعرف كنهه جهلا وغباوة، ووعظه أن لا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين. فإن قلت: قد وعده أن ينجي أهله، وما كان عنده «1» أن ابنه ليس منهم ديناً، فلما أشفى على الغرق تشابه عليه الأمر، لأن العدة قد سبقت له وقد عرف اللّه حكيما لا يجوز عليه فعل القبيح وخلف الميعاد، فطلب إماطة الشبهة وطلبُ إماطة الشبهة واجب، فلم زجر وسمى سؤاله جهلا؟ قلت: إن اللّه عز وعلا قدّم له الوعد بإنجاء أهله مع استثناء من سبق عليه القول منهم، فكان عليه أن يعتقد أن في جملة أهله من هو مستوجب للعذاب لكونه غير

صالح ، وأن كلهم ليسوا بناجين ، وأن لا تخالجه شبهة حين شارف ولده الغرق في أنه من المستثنين لا من المستثنى منهم ، فعوتب على أن اشتبه عليه ما يجب أن لا يشتبه .

[سورة هود (11) : آية 47]

قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ (47)

أَنْ أَسْئَلَكَ من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته ، تأدبا بأدبك واتعاظا بموعظتك وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي ما فرط منى من ذلك وَتَرْحَمْنِي بالتوبة علىّ أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ أعمالا .

---

(1) . قال محمود : «فان قلت قد وعده اللّه أن ينجي أهله وما كان عنده . . . الخ» قال أحمد : وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه يعتقد أن نوحا عليه السلام صدر منه ما أوجب نسبة الجهل إليه ومعاتبته على ذلك ، وليس الأمر كما تخيله الزمخشري ، ونحن نوضح الحق في الآية منزلا على نصها مع تنزيه نوح عليه السلام مما توهم الزمخشري نسبته إليه فنقول : لما وعد نوح أولا تنجية أهله إلا من سبق عليه القول منهم ولم يكن كاشفا لحال ابنه المذكور ولا مطلعا على باطن أمره بل معتقدا بظاهر الحال أنه مؤمن ، بقي على التمسك بصيغة العموم للأهلية الثابتة ولم يعارضها يقين في كفر ابنه حتى يخرج من الأهل ويدخل في المستثنين ، فسأل اللّه فيه بناء على ذلك ، فتبين له أنه في علمه من المستثنين ، وأنه هو لا

علم له بذلك ، فلذلك سأل فيه ، وهذا بأن يكون إبانة عذر أولى منه أن يكون عتباً ، فان نوحا عليه السلام لا يكلفه اللّه علما استأثر به غيبا . وأما قوله إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ فالمراد منه النهى عن وقوع السؤال في المستقبل بعد أن أعلمه اللّه باطن أمره ، وأنه إن وقع في المستقبل في السؤال كان من الجاهلين . والغرض من ذلك تقديم ما يبقيه عليه السلام على سمة العصمة ، والموعظة لا تستدعي وقوع ذنب ، بل المقصد منها أن لا يقع الذنب في الاستقبال ، ولذلك مثل عليه الصلاة والسلام ذلك ، واستعاذ باللّه أن يقع منه ما نهى عنه واللّه أعلم .

[سورة هود (11) : آية 48]

قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (48)

وقرئ : يا نوح اهبط ، بضم الباء بِسَلامٍ مِنَّا مسلما محفوظاً من جهتنا أو مسلماً عليك مكرّماً وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ ومباركا عليك ، والبركات الخيرات النامية . وقرئ : وبركة ، على التوحيد وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ يحتمل أن تكون من للبيان . فيراد الأمم الذين كانوا معه في

السفينة ، لأنهم كانوا جماعات . أو قيل لهم أمم ، لأنّ الأمم تتشعب منهم ، وأن تكون لإبداء الغاية أى :

على أمم ناشئة ممن معك ، وهي الأمم إلى آخر الدهر وهو الوجه . وقوله وَأُمَمٌ رفع بالابتداء . وسَنُمَتِّعُهُمْ صفة ، والخبر محذوف تقديره : وممن معك أمم سنمتعهم ، وإنما حذف لأنّ قوله مِمَّنْ مَعَكَ يدل عليه . والمعنى : أنّ السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤن ممن معك ، وممن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار ، وكان نوح عليه السلام أبا الأنبياء ، والخلق بعد الطوفان منه وممن كان معه في السفينة . وعن كعب بن محمد القرظي :

دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ، وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر .

وعن ابن زيد : هبطوا والله عنهم راض ثم أخرج منهم نسلا ، منهم من رحم ومنهم من عذب .

وقيل : المراد بالأمم الممتعة : قوم هود وصالح ولوط وشعيب .

[سورة هود (11) : آية 49]

تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49)

تِلْكَ إشارة إلى قصة نوح عليه السلام. ومحلها الرفع على الابتداء، والجمل بعدها أخبار، أى تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك، مجهولة عندك وعند قومك مِنْ قَبْلِ هذا من قبل إيحائى إليك وإخبارك بها. أو من قبل هذا العلم الذي كسبته بالوحي. أو من قبل هذا الوقت فَاصْبِرْ على تبليغ الرسالة وأذى قومك، كما صبر نوح وتوقع في العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما قيض لنوح ولقومه إِنَّ الْعاقِبَةَ في الفوز والنصر والغلبة لِلْمُتَّقِينَ. وقوله وَلا قَوْمُكَ معناه: إنّ قومك الذين أنت منهم على كثرتهم ووفور عددهم إذا لم يكن ذلك شأنهم ولا سمعوه ولا عرفوه، فكيف برجل منهم كما تقول لم يعرف هذا عبد اللّه ولا أهل بلده.

(176/380)

[سورة هود (11) : الآيات 50 إلى 52]

وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (50) يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ (51) وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52)

أَخاهُمْ واحداً منهم، وانتصابه للعطف على أرسلنا نوحا. وهُوداً عطف بيان. وغَيْرُهُ

بالرفع : صفة على محل الجار والمجرور . وقرئ : غيره ، بالجرّ صفة على اللفظ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ تفترون على اللّه الكذب باتخاذكم الأوثان له شركاء . ما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول ، لأنّ شأنهم النصيحة ، والنصيحة لا يمحصها ولا يمحضها إلا حسم المطامع ، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع أَفَلا تَعْقِلُونَ إذ تردّون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من اللّه . وهو ثواب الآخرة ، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك ، قيل اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ آمنوا به ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ من عبادة غيره ، لأن التوبة لا تصلح إلا بعد الإيمان ، والمدرار : الكثير الدرور ، كالمغزار . وإنما قصد استمالتهم إلى الإيمان وترغيبهم فيه بكثرة المطر وزيادة القوّة ، لأنّ القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات ، حرّاصاً عليها أشد الحرص ، فكانوا أحوج شيء إلى الماء . وكانوا مدلين «1» بما أوتوا من شدّة القوّة والبطش والبأس والنجدة ، مستحرزين بها من العدوّ ، مهيبين في كل ناحية . وقيل : أراد القوّة في المال.

وقيل : القوّة على النكاح وقيل : حبس عنهم القطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم . وعن الحسن بن علىّ رضى اللّه عنهما أنه وفد على معاوية ، فلما خرج تبعه بعض حجابه فقال : إنى رجل ذو مال ولا يولد لي ، فعلمني شيئاً لعلّ اللّه يرزقني ولداً ، فقال : عليك بالاستغفار ، فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة ، فولد له عشرة بنين ، فبلغ ذلك معاوية فقال : هلا سألته ممّ قال ذلك ، فوفد وفدة أخرى ، فسأله الرجل فقال : ألم تسمع قول هود عليه السلام وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ وقول نوح عليه السلام

وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ.

وَلا تَتَوَلَّوْا ولا تعرضوا عنى وعما أدعوكم إليه وأرغبكم فيه مُجْرِمِينَ مصرّين على إجرامكم وآثامكم.

[سورة هود (11) : آية 53]

قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53)

---

(1) . قوله «وكانوا مدلين» من الدل. وفي الصحاح: الدل قريب من الهدى، وهما من السكينة والوقار. (ع)

ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ كذب منهم وجحود، كما قالت قريش لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: لولا أنزل عليه آية من ربه، مع فوت آياته الحصر عَنْ قَوْلِكَ حال من الضمير في تاركي آلهتنا، كأنه قيل: وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيما يدعوهم إليه، إقناطا له من الإجابة.

[سورة هود (11) : الآيات 54 إلى 55]

إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ

(54) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ (55)

اعْتَراكَ مفعول نقول، وإلا لغو. والمعنى: ما نقول إلا قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، أى خبلك ومسك بجنون لسبك إياها وصدّك عنها وعداوتك لها. مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فمن ثم تتكلم بكلام المجانين وتهذى بهذيان المبرسمين «1». وليس بعجب من أولئك أن يسموا التوبة والاستغفار خبلا وجنوناً وهم عاد أعلام الكفر وأوتاد الشرك. وإنما العجب من قوم من المتظاهرين بالإسلام سمعناهم يسمون التائب من ذنوبه مجنونا والمنيب إلى ربه مخبلا، ولم نجدهم معه على عشر مما كانوا عليه في أيام جاهليته من الموادّة، وما ذاك إلا لعرق من الإلحاد أبى إلا أن ينبض، وضب من الزندقة «2» أراد أن يطلع رأسه.

وقد دلت أجوبتهم المتقدّمة على أنّ القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد، لا يبالون بالبهت «3» ولا يلتفتون إلى النصح. ولا تلين شكيمتهم للرشد. وهذا الأخير دال على جهل مفرط وبله متناه، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم، ولعلهم حين أجازوا العقاب كانوا يجيزون الثواب. من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمّة عطاشا إلى إراقة دمه. يرمونه عن قوس واحدة، وذلك لثقته بربه وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبهم. ونحو ذلك قال نوح عليه السلام لقومه ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ أكد براءته من آلهتهم وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة اللّه وشهادة

العباد ، فيقول الرجل :

اللّه شهيد على أنى لا أفعل كذا ، ويقول لقومه : كونوا شهداء على أنى لا أفعله . فإن قلت : هلا قيل : إنى أشهد اللّه وأشهدكم ؟ «4» قلت : لأنّ إشهاد اللّه على البراءة من الشرك إشهاد

---

(1) . قوله «المبرسمين» في الصحاح «البرسام» علة معروفة . (ع)

(2) . قوله «و ضب من الزندقة» في الصحاح «الضب» الحقد . والضب : واحد ضباب النخل ، وهو طلعه . (ع)

(3) . قوله «لا يبالون بالبهت» رمى الشخص بما ليس فيه . (ع)

(4) . قال محمود : «إن قلت هلا قيل أشهد اللّه وأشهدكم . . . الخ» قال أحمد : وتلخيص ما قاله أن صيغة الخبر لا تحتمل سوى الاخبار بوقوع الاشهاد منه ، فلما كان إشهاده للّه واقعا محققا عبر عنه بصيغة الخبر ، لأنه إشهاد صحيح ثابت ، وعبر في جانبهم بصيغة الأمر التي تتضمن الاستهانة بدينهم وقلة المبالاة به ، وهو مراده في هذا المقام معهم . ويحتمل أن يكون إشهاده لهم حقيقة ، والغرض إقامة الحجة عليهم ، وإنما عدل إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر ، التمييز بين خطابه للّه تعالى وخطابه لهم ، بأن يعبر عن خطاب اللّه تعالى بصيغة الخبر التي هي أجل وأوقر للمخاطب من صيغة الأمر ، واللّه الموفق الصواب .

صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشدّ معاقده ، وأمّا إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب ، فعدل به عن لفظ الأوّل لاختلاف ما بينهما ، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة ، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه . اشهد على أنى لا أحبك ، تهكما به واستهانة بحاله مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ من إشراككم آلهة من دونه ، أو مما تشركونه من آلهة من دونه ، أى أنتم تجعلونها شركاء له ، ولم يجعلها هو شركاء . ولم ينزل بذلك سلطانا فَكِيدُونِي جَمِيعاً أنتم وآلهتكم أعجل ما تفعلون ، من غير إنظار ، فإنى لا أبالى بكم وبكيدكم ، ولا أخاف معرّتكم وإن تعاونتم علىّ وأنتم الأقوياء الشداد ، فكيف تضرني آلهتكم ، وما هي إلا جماد لا تضر ولا تنفع ، وكيف تنتقم منى إذا نلت منها وصددت عن عبادتها ، بأن تخبلنى وتذهب بعقلي .

[سورة هود (11) : الآيات 56 إلى 57]

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (56) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57)

ولما ذكر توكله على اللّه وثقته بحفظه وكلاءته من كيدهم ، وصفه بما يوجب التوكل عليه

من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم ، من كون كل دابة في قبضته وملكته وتحت قهره وسلطانه

، والأخذ بنواصيها ، تمثيل لذلك إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ يريد أنه على طريق الحق

والعدل في ملكه ، لا يفوته ظالم ، ولا يضيع عنده معتصم به فَإِنْ تَوَلَّوْا فإن تتولوا . فإن قلت :

الإبلاغ كان قبل التولي ، فكيف وقع جزاء للشرط ؟ قلت : معناه فإن تتولوا لم أعاتب على

تفريط في الإبلاغ ، وكنتم محجوجين بأنّ ما أرسالات به إليكم قد بلغكم فأبيتم إلا تكذيب

الرسالة وعداوة الرسول وَيَسْتَخْلِفُ كلام مستأنف ، يريد : ويهلككم اللّه ويجيء بقوم

آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم وَلا تَضُرُّونَهُ بتوليكم شَيْئاً من ضرر قط ، لأنه لا يجوز

عليه المضارّ والمنافع ، وإنما تضرون أنفسكم . وفي قراءة عبد اللّه : ويستخلف ، بالجزم .

وكذلك : ولا تضروه ، عطفاً على محل فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ والمعنى : إن يتولوا يعذرني ويستخلف

قوماً غيركم ولا تضروا إلا أنفسكم عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ أى رقيب عليه مهيمن ، فما

تخفى

عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم. أو من كان رقيباً على الأشياء كلها حافظاً لها وكانت مفتقرة إلى حفظه من المضارّ، لم يضر مثله مثلكم.

[سورة هود (11) : آية 58]

وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (58)

وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قيل: كانوا أربعة آلاف. فإن قلت: ما معنى تكرير التنجية؟ قلت: ذكر أولا أنه حين أهلك عدوهم نجاهم ثم قال وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ على معنى:

وكانت تلك التنجية من عذاب غليظ، وذلك أنّ الله عز وجل بعث عليهم السموم فكانت تدخل في أنوفهم وتخرج من أدبارهم فتقطعهم عضواً عضواً. وقيل: أراد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة، ولا عذاب أغلظ منه وأشدّ. وقوله: برحمة منا، يريد: بسبب الإيمان الذي أنعمنا عليهم بالتوفيق له.

[سورة هود (11) : الآيات 59 إلى 60]

وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ (60)

وَتِلْكَ عادٌ إشارة إلى قبورهم وآثارهم، كأنه قال: سيحوا في الأرض فانظروا إليها

واعتبروا ، ثم استأنف وصف أحوالهم فقال جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ لأنهم إذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسل اللّه ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ قيل لم يرسل إليهم إلا هود وحده كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ يريد رؤساءهم وكبراءهم ودعاتهم إلى تكذيب الرسل .

ومعنى اتباع أمرهم : طاعتهم . ولما كانوا تابعين لهم دون الرسل جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين تكبهم على وجوههم في عذاب اللّه . وألَا وتكرارها مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم ، تهويل لأمرهم وتفظيع له ، وبعث على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم .

فإن قلت : بُعْداً دعاء بالهلاك ، فما معنى الدعاء به عليهم بعد هلاكهم ؟ قلت : معناه الدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له : ألا ترى إلى قوله :

إخْوتى لَا تَبْعَدُوا أبداً وَبَلَى وَاللَّهِ قَدْ بَعِدُوا «1»

---

(1) إخوتى لا تبعدوا أبدا وبلى واللّه قد بعدوا

ما أمرّ العيش بعدكم كل عيش بعدكم نكد

ليت شعري كيف شربكم إن شربى بعدكم ثمد

لفاطمة بنت الأحجم الخزاعية . وتقول العرب : بعد بالضم في ضد القرب ، وبالكسر في الهلاك ، ومضارع الأول مضموم ، ومضارع الثاني مفتوح . وما في البيت منه . وما أمر : تعجب ، وشبهت العيش وهو الحياة أو ما يعاش به بشيء مر على طريق المكنية ، وإثبات

المرارة تخييل ، أو استعارتها للنقص على طريق التصريحية . والنكد : العسر الضيق المنغص . والثمد : الماء القليل الذي لا مادة له فينقطع سريعاً . ورجل مثمود ، إذا كثر عليه السؤال من العلم أو المال حتى نفد ما عنده . والمعنى : أن سروري بعدكم منقطع كالماء القليل ، وعبرت بذلك لمشاكلة ما قبله .

ويروى لها بعد البيت الأول :

لو تملتهم عشيرتهم لاقتناء العز أو ولدوا

هان من بعض الرزية أو هان من بعض الذي أجد

كل ما حي وإن أمروا وارد والحوض الذي وردوا

ومعنى تملتهم : عاشوا معهم مليا من الزمان ، وأقحمت «من» مع إغباء «بعض» عنها ، للدلالة على تبغيض البغض .

و«ما» مقحمة ، بنى كل حي مبالغة في العموم . وأمروا بالكسر : كثروا . والحوض : تمثيل للموت .

قَوْمِ هُودٍ عطف بيان لعاد : فإن قلت : ما الفائدة في هذا البيان «1» والبيان حاصل بدونه ؟

قلت : الفائدة فيه أن يوسموا بهذه الدعوة وسما ، وتجعل فيهم أمراً محققاً لا شبهة فيه بوجه من الوجوه ، ولأنّ عاداً عادان : الأولى القديمة التي هي قوم هود والقصة فيهم ، والأخرى إرم . انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 398. 406﴾

---

(1) . قال محمود : «إن قلت ما الفائدة في هذا البيان وجعل قوم هود عطف بيان على عاد . . . الخ» قال أحمد :

فيه أيضا فائدتان جليلتان ، إحداهما : النسبة بذكر هود الذي إنما استحقوا الهلاك بسببه على موجب الدعاء عليهم ، وكأنه قيل : عاد قوم هود الذي كذبوه ، والأخرى تناسب الآي بذلك ، فان قبلها وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وقبل ذلك حفيظ وغليظ ، وغير ذلك مما هو على وزن فعيل المناسب لفعول في القوافي ، والله أعلم .

وقال ابن الجوزى فى الآيات السابقة :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ

﴿ (45) ﴾

قوله تعالى : ﴿ رب إِنَّ ابني من أهلي ﴾ إنما قال نوح هذا ، لأن الله تعالى وعده نجاة أهله ، فقال : ﴿ وإِن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴾ قال ابن عباس : أعدل العادلين .

وقال ابن زيد : فأنت أحكم الحاكمين بالحق .

واختلفوا في هذا الذي سأل فيه نوح على قولين .

أحدهما : أنه ابن نوح لصلبه ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، والضحاك ، والجمهور .

والثاني : أنه ولد على فراشه لغير رِشدة ولم يكن ابنه .

روى ابن الأنباري باسناده عن الحسن أنه قال : لم يكن ابنَه ، إِن امرأته فجرت .

وعن الشعبي قال : لم يكن ابنه ، إِن امرأته خانته ، وعن مجاهد نحو ذلك .

وقال ابن جريج : ناداه نوح وهو يحسب أنه ابنه ، وكان وُلد على فراشه .

فعلى القول الأول ، يكون في معنى قوله : ﴿ إِنه ليس من أهلك ﴾ قولان :

أحدهما : ليس من أهل دينك .

والثاني : ليس من أهلك الذين وعدتك نجاتهم .

قال ابن عباس : ما بغت امرأة نبي قط ، وإِنما المعنى : ليس من أهلك الذين وعدتك نجاتهم .

وعلى القول الآخر : الكلام على ظاهره ، والأول أصح ، لموافقته ظاهر القرآن ، ولاجتماع الأكثرين عليه ، وهو أولى من رمي زوجة نبي بفاحشة .

قوله تعالى : ﴿ إنه عملٌ غيرُ صالح ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة : "إنه عملٌ" رفع منون "غيرُ صالح" برفع الراء ، وفيه قولان :

أحدهما : أنه يرجع إلى السؤال فيه ، فالمعنى : سؤلك إياي فيه عمل غير صالح ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، وهذا ظاهر ، لأنه قد تقدم السؤال فيه في قوله : "رب إن ابني من أهلي" فرجعت الكناية إليه .

والثاني : أنه يرجع إلى المسؤول فيه .

وفي هذا المعنى قولان .

أحدهما : أنه لغير رِشدة ، قاله الحسن .

والثاني : أن المعنى : إنه ذو عمل غير صالح ، قاله الزجاج .

قال ابن الأنباري : من قال : هو لغير رِشدة ، قال : المعنى : إن أصل أبنك الذي تظن أنه أبنك عملٌ غير صالح .

ومن قال: إنه ذو عمل غير صالح، قال: حذف المضاف، وأقام العمل مقامه، كما تقول العرب: عبد الله إقبال وإدبار، أي: صاحب إقبال وإدبار.

وقرأ الكسائي: "عَمِلَ" بكسر الميم وفتح اللام "غيرَ صالح" بفتح الراء، يشير إلى أنه مشرك.

قوله تعالى: ﴿ فلا تسألنِ ما ليس لك به علم ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: "فلا تسألنَّ" بفتح اللام، وتشديد النون، غير أن نافعاً، وابن عامر، كسرا النون، وفتحها ابن كثير، وحذفوا الياء في الوصل والوقف.

وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، بسكون اللام وتخفيف النون، غير أن أبا عمرو، وأبا جعفر، أثبتا الياء في الوصل، وحذفاها في الوقف، ووقف عليها يعقوب بالياء، والباقون يحذفونها في الحالين.

قال أبو علي: من كسر النون، فقد عدّى السؤال إلى مفعولين، أحدهما: اسم المتكلم، والآخر: الاسم الموصول، وحذفت النون المتصلة بياء المتكلم لاجتماع النونات.

وأما إثبات الياء في الوصل فهو الأصل، وحذفها أخف، والكسرة تدل عليها، وتُعلِمُ أن المفعول مراد في المعنى.

ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال:

أحدها : أنه نسبته إِليه ، وليس منه .

والثاني : في إِدخاله إِياه في جملة أهله الذين وعده نجاتهم .

والثالث : سؤاله في إِنجاء كافر من العذاب .

قوله تعالى : ﴿ إِني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن تكون من الجاهلين في سؤالك مَنْ ليس مِنْ حزبك .

والثاني : من الجاهلين بوعدي ، لأني وعدت بانجاء المؤمنين .

والثالث : من الجاهلين بنسبك ، لأنه ليس من أهلك .

قوله تعالى : ﴿ يا نوح اهبط ﴾ قال ابن عباس : يريد : من السفينة إِلى الأرض .

﴿ بسلام منا ﴾ أي : بسلامه .

(183/380)

قوله تعالى : ﴿ وبركات عليك ﴾ قال المفسرون : البركات عليه : أنه صار أباً للبشر جميعاً ، لأن جميع الخلق من نسله .

﴿ وعلى أُمم ممن معك ﴾ قال ابن عباس : يريد : من ولدك .

قال ابن الأنباري : المعنى : من ذراري من معك ، والمراد : المؤمنون من ذريته .

ثم ذكر الكفار ، فقال : ﴿ وأُممٌ ﴾ أي : من الذرية أيضاً ، والمعنى : وفيمن نَصِفُ لك أُمم ، وفيمن نقصُّ عليك أمره أُمم .

﴿ سنمتِّعهم ﴾ أي : في الدنيا ﴿ ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ في الآخرة .

قال محمد بن كعب القرظي : لم يبق مؤمن ولا مؤمنة في أصلاب الرجال وأرحام النساء يومئذ إِلى أن تقوم الساعة إِلا وقد دخل في ذلك السلام والبركات ، ولم يبق كافر إِلا دخل في ذلك المتاع والعذاب .

قوله تعالى : ﴿ تلك من أنباء الغيب ﴾ في المشار إليه ب "تلك" قولان :

أحدهما : قصة نوح.

والثاني : آيات القرآن ، والمعنى : تلك من أخبار ما غاب عنك وعن قومك .

فإن قيل : كيف قال هاهنا : "تلك" وفي مكان آخر "ذلك" ؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري ، فقال : "تلك" إِشارة إِلى آيات القرآن ، و"ذلك" إِشارة إِلى الخبر والحديث ، وكلاهما معروف في اللغة الفصيحة ، يقول الرجل : قد قدم فلان ، فيقول سامعٌ قولَه : قد فرحت به ، وقد سررت بها ، فإذا ذكّر ، عنى القدوم ، وإِذا أنَّث ، ذهب إِلى القَدْمَة .

قوله تعالى : ﴿ من قبل هذا ﴾ يعني : القرآن .

﴿ فاصبر ﴾ كما صبر نوح على أذى قومه ﴿ إِن العاقبة ﴾ أي : آخر الأمر بالظفر والتمكين ﴿ للمتقين ﴾ أي : لك ولقومك كما كان لمؤمني قوم نوح.

قوله تعالى : ﴿ إِن أنتم إِلا مفترون ﴾ أي : ما أنتم إِلا كاذبون في إِشراككم مع الله الأوثان .

وما بعد هذا قد سبق تفسيره [يونس : 72] إِلى قوله : ﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ وهذا أيضاً قد سبق تفسيره في [سورة الأنعام 61] .

والسبب في قوله لهم ذلك ، أن الله تعالى حبس المطر عنهم ثلاث سنين ، وأعقم أرحام نسائهم ، فوعدهم إِحياء بلادهم وبسط الرزق لهم إِن آمنوا .

قوله تعالى : ﴿ ويزدكم قوَّةً إِلى قوَّتكم ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الولد وولد الولد ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : يزدكم شدة إِلى شدتكم ، قاله مجاهد ، وابن زيد .

والثالث : خِصباً إِلى خصبكم ، قاله الضحاك .

قوله تعالى : ﴿ ولا تتولَّوا مجرمين ﴾ قال مقاتل : لا تُعرضوا عن التوحيد مشركين .

قوله تعالى : ﴿ ما جئتنا ببينة ﴾ أي : بحجة واضحة .

﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا ﴾ يعنون الأصنام .

﴿ عن قولك ﴾ أي : بقولك ، و"الباء" و"عن" يتعاقبان .

قوله تعالى : ﴿ إِن نقول ﴾ أي : ما نقول في سبب مخالفتك إِيانا إِلا أن بعض آلهتنا أصابك بجنون لسبِّك إِياها ، فالذي تُظهر من عيبها لِما لحق عقلك من التغيير .

قال ابن قتيبة : يقال : عراني كذا ، واعتراني : إِذا أَلَّمَ بي .

ومنه قيل لمن أتاك يطلب نائلك : عارٍ ، ومنه قول النابغة :

أَتَيْتُكَ عَارِيًا خَلَقًا ثيابي . . .

على خَوْفٍ تُظَنُّ بِيَ الظُّنُونُ

قوله تعالى : ﴿ إِني أشهد الله . . .

﴾ إِلى آخر الآية .

حرك ياء "إِنيَ" نافع .

ومعنى الآية : إِن كنتم تقولون : إِن الآلهة عاقبتني لطعني عليها ، فاني على يقين من عيبها والبراءةِ منها ، وها أنا ذا أزيد في الطعن عليها ، ﴿ فكيدوني جميعاً ﴾ أي : احتالوا أنتم وأوثانكم في ضرِّي ، ثم لاتمهلون .

قال الزجاج : وهذا من أعظم آيات الرسل ، أن يكون الرسول وحده وأُمَتُه متعاونة عليه ، فيقول لهم : كيدوني ، فلا يستطيع أحد منهم ضرَّه ، وكذلك قال نوح لقومه : ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ [يونس : 71] .

وقال محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ فإِن كان لكم كيد فكيدونِ ﴾ [المرسلات : 39] .

قوله تعالى : ﴿ إِلا هو آخذٌ بناصيتها ﴾ قال أبو عبيدة : المعنى : أنها في قبضته ومِلكه وسلطانه .

(185/380)

فإن قيل : لم خص الناصية ؟ فالجواب : أن الناصية هي شعر مقدَّم الرأس ، فإذا أخذت بها من شخص ، فقد ملكت سائر بدنه ، وذلّك .

قوله تعالى : ﴿ إِن ربي على صراط مستقيم ﴾ قال مجاهد : على الحق .

وقال غيره : في الكلام إِضمار ، تقديره : إِن ربي يدل على صراط مستقيم .

فإن قيل : ما وجه المناسبة بين قوله : ﴿ إِلا هو آخذ بناصيتها ﴾ وبين كونه على صراط مستقيم ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أنه لما أخبر أنه آخذ بنواصي الخلق ، كان معناه : أنهم لا يخرجون عن قبضته ، فأخبر أنه على طريق لا يعدل عنه هارب ، ولا يخفي عليه مستتر .

والثاني : أن المعنى : أنه وإِن كان قادراً عليهم ، فهو لا يظلمهم ، ولا يريد إِلا العدل ، ذكرهما ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ فإِن تولَّوا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه فعل ماضي ، معناه : فإن أعرضوا .

فعلى هذا ، في الآية إِضمار ، تلخيصه : فإن أعرضوا فقل لهم : قد أبلغتكم ، هذا مذهب مقاتل في آخرين .

والثاني : أنه خطاب للحاضرين ، وتقديره : فإن تتولَّوا ، فاستثقلوا الجمع بين تاءين متحركتين ، فاقتُصر على إِحداهما ، وأسقطت الأخرى ، كما قال النابغة :

المرءُ يَهْوى أَنْ يَعْي . . .

شَ وطُوْلُ عَيْشٍ قد يَضرُّهْ

تَفْنَى بَشَاشَتُه ويَبْ . . .

قَى بَعْد حُلْوِ العَيْشِ مُرُّهْ

وتَصرَّفُ الأَيامُ حت . . .

ى ما يَرَى شيئاً يَسُرُّهْ

أراد : وتتصرف الأيام ، فأسقط إِحدى التاءين ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ ويستخلفُ ربي قوماً غيركم ﴾ فيه وعيد لهم بالهلاك .

﴿ إِن ربي على كل شيء حفيظ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : حفيظ على أعمال العباد حتى يجازيَهم بها .

والثاني : أن "على" بمعنى اللام ، فالمعنى : لكل شيء حافظ ، فهو يحفظني من أن تنالوني بسوء .

قوله تعالى : ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : جاء عذابنا ، قاله ابن عباس .

والثاني : جاء أمرنا بهلاكهم .

قوله تعالى : ﴿ نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمةٍ منّا ﴾

فيه قولان :

أحدهما : نجيناهم من العذاب بنعمتنا .

والثاني : نجيناهم بأن هديناهم إِلى الإِيمان ، وعصمناهم من الكفر ، روي القولان عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ أي : شديد ، وهو ما استحقه قوم هود من عذاب الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وتلك عاد ﴾ يعني القبيلة .

﴿ وعصوا رسله ﴾ لقائل أن يقول : إنما أُرسل إليهم هود وحده ، فكيف ذُكر بلفظ الجمع ؟ فالجواب من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه قد يذكر لفظ الجمع ويراد به الواحد ، كقوله : ﴿ أم يحسدون الناس ﴾ [النساء : 54] والمراد به النبي صلى الله عليه وسلم وحده .

والثاني : أن من كذَّب رسولاً واحداً فقد كذَّب الكلَّ .

والثالث : أن كل مرة ينذرهم فيها هي رسالة مجدَّدة وهو بها رسول .

قوله تعالى : ﴿ واتَّبعوا ﴾ أي : واتبع الأتباعُ أمر الرؤساء .

والجبار : الذي طال وفات اليد .

وللعلماء في الجبار أربعة أقوال :

أحدها : أنه الذي يقتل على الغضب ويعاقب على الغضب ، قاله الكلبي .

والثاني : أنه الذي يجبر الناس على ما يريد ، قاله الزجاج .

والثالث : أنه المسلَّط .

والرابع : أنه العظيم في نفسه ، المتكبّر على العباد ، ذكرهما ابن الأنباري .

والذي ذكرناه يجمع هذه الأقوال ، وقد زدنا هذا شرحاً في [المائدة : 22] .

وأما العنيد : فهو الذي لا يقبل الحق .

قال ابن قتيبة : العَنود ، والعنيد ، والعاند : المعارض لك بالخلاف عليك .

قوله تعالى : ﴿ وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنةً ﴾ أي : أُلحقوا لعنة تنصرف معهم .

﴿ ويوم القيامة ﴾ أي : وفي يوم القيامة لُعنوا أيضاً .

﴿ ألا إِن عاداً كفروا ربهم ﴾ أي : بربهم ، فحذف الباء ، وأنشدوا :

أَمَرتُكَ الخيرَ فَافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ . . .

فقد تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَشَبِ

قال الزجاج : قوله : "ألا" ابتداء وتنبيه ، و"بُعداً" منصوب على معنى : أبعدهم الله

فبعدوا بعداً ، والمعنى : أبعدهم من رحمته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ

﴾

(187/380)

وقال النسفي :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ ﴾

نداؤه ربه دعاؤه له وهو قوله ﴿ رب ﴾ مع ما بعده من اقتضاء وعده في تنجية أهله ﴿

إِنَّ ابنى مِنْ أَهْلِى ﴾ أي بعض أهلي لأنه كان ابنه من صلبه أو كان ربيباً له فهو بعض أهله

﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق ﴾ وإن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء

به ، وقد وعدتني أن تنجي أهلي فما بال ولدي ﴿ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ أي أعلم الحكام وأعدلهم إذ لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل .

ورب غريق في الجهل والجور من متقلدي الحكومة في زمانك قد لقب أقضى القضاة ، ومعناه أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ ﴾ ثم علل لانتفاء كونه من أهله بقوله ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ ﴾ وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب وأن نسيبك في دينك وإن كان حبشياً وكنت قرشياً لصيقك ، ومن لم يكن على دينك وإن كان أمسّ أقاربك رحماً فهو أبعد بعيد منك ، وجعلت ذاته عملاً غير صالح مبالغة في ذمه كقولها : فإنما هي إقبال وإدبار

أو التقدير : إنه ذو عمل ، وفيه إشعار بأنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم لا لأنهم أهله ، وهذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوته .

(188/380)

﴿ عِمل غير صالح ﴾ علي قال الشيخ أبو منصور رحمه الله : كان عند نوح عليه السلام أن ابنه كان على دينه لأنه كان ينافق وإلا لا يحتمل أن يقول ﴿ ابني من أهلي ﴾ ويسأله نجاته ، وقد سبق منه النهي عن سؤال مثله بقوله ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم

مغرقون ﴾ فكان يسأله على الظاهر الذي عنده كما كان أهل النفاق يظهرون الموافقة لنبينا عليه السلام ويضمرون الخلاف له ولم يعلم بذلك حتى أطلعه الله عليه ، وقوله ﴿ ليس من أهلك ﴾ أي من الذين وعدت النجاة لهم وهم المؤمنون حقيقة في السر والظاهر ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِى ﴾ اجتزاء بالكسر عن الياء : كوفي ﴿ تسألني ﴾ بصري ﴿ تسألني ﴾ مدني ﴿ تسألَن ﴾ شامي فحذف الياء واجتزأ بالكسرة والنون نون التأكيد ﴿ تسألن ﴾ مكي ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ بجواز مسألته ﴿ إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ هو كما نهى رسولنا بقوله ﴿ فلا تكونن من الجاهلين ﴾ [الأنعام : 35] قَالَ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي من أن أطلب منك من المستقبل ما لا علم لي بصحته تأدباً بأدبك واتعاظاً بموعظتك ﴿ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِى ﴾ ما فرط مني ﴿ وَتَرْحَمْنِى ﴾ بالعصمة عن العود إلى مثله ﴿ أَكُن مِّنَ الخاسرين قِيلَ يا نوح اهبط بسلام مِّنَّا ﴾ بتحية منا أو بسلامة من الغرق ﴿ وبركات عَلَيْكَ ﴾ هي الخيرات النامية وهي في حقه بكثرة ذريته وأتباعه ، فقد جعل أكثر الأنبياء من ذريته وأئمة الدين في القرون الباقية من نسله ﴿ وعلى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ "من" للبيان ، فتراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة لأنهم كانوا جماعات أو قيل لهم أمم لأن الأمم تتشعب منهم ، أو لابتداء الغاية أي على أمم ناشئة ممن معك وهي الأمم إلى آخر الدهر وهو الوجه ﴿ وَأُمَمٌ ﴾ رفع بالابتداء ﴿ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ في الدنيا بالسعة في الرزق والخفض في العيش صفة والخبر محذوف تقديره ، وممن معك

أمم سنمتعهم ، وإنما حذف لأن ممن معك يدل عليه ﴿ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي في الآخرة ، والمعنى أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤون ممن معك . وممن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار وكان نوح عليه السلام أبا الأنبياء ، والخلق بعد الطوفان منه وممن كان معه في السفينة ، وعن محمد بن كعب : دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر .

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى قصة نوح عليه السلام ومحلها الرفع على الابتداء والجمل بعدها وهي ﴿ مِنْ أَنبَاء الغيب نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ ﴾ أخبار أي تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك مجهولة عندك وعند قومك ﴿ مِّن قَبْلِ هذا ﴾ الوقت أو من قبل إيحائي إليك وإخبارك بها ﴿ فاصبر ﴾ على تبليغ الرسالة وأذى قومك كما صبر نوح ، وتوقع في العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما كان لنوح وقومه ﴿ إِنَّ العاقبة ﴾ في الفوز والنصر والغلبة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ عن الشرك .

﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ ﴾ واحداً منهم ، وانتصابه للعطف على ﴿ أرسلنا نوحاً ﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم ﴿ هُودًا ﴾ عطف بيان ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعبدوا الله ﴾ وحدوه

﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ بالرفع : نافع صفة على محل الجار والمجرور ، وبالجر : عليّ على اللفظ ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ تفترون على الله الكذب باتخاذكم الأوثان له شركاء ﴿ يا قوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الذى فَطَرَنِى ﴾ ما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول لأن شأنهم النصيحة والنصيحة لا يمحضها إلا حسم المطامع ، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ إذ تردون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله وهو ثواب الآخرة ، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك .

(190/380)

﴿ وَيَا قَوْمِ استغفروا رَبَّكُمْ ﴾ آمنوا به ﴿ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ من عبادة غيره ﴿ يُرْسِلِ السماء ﴾ أي المطر ﴿ عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ حال أي كثير الدرر ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ ﴾ إنما قصد استمالتهم إلى الإيمان بكثرة المطر وزيادة القوة لأنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين فكانوا أحوج شيء إلى الماء .

وكانوا مدلين بما أوتوا من شدة البطش والقوة .

وقيل : أراد القوة بالمال أو على النكاح .

وقيل حبس عنهم القطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم فوعدهم هود عليه السلام

المطر والأولاد على الإيمان والاستغفار .

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه وفد على معاوية ، فلما خرج قال له بعض حجابه : إني رجل ذو مال ولا يولد لي علمني شيئاً لعل الله يرزقني ولدا .

فقال الحسن : عليك بالاستغفار ، فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة ، فولد له عشرة بنين ، فبلغ ذلك معاوية فقال : هلا سألته مم قال ذلك ؟ فوفد وفدة أخرى فسأله الرجل فقال : ألم تسمع قول هود : ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ وقول نوح : ﴿ ويمددكم بأموال وبنين ﴾ [نوح : 12] ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا ﴾ ولا تعرضوا عني وعما أدعوإليه ﴿ مُجْرِمِينَ ﴾ مصرين على إجرامكم وآثامكم

(191/380)

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ كذب منهم وجحود كما قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ [الرعد : 27] مع فوت آياته الحصر ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ﴾ هو حال من من الضمير في ﴿ تاركي آلهتنا ﴾ كأنه قيل : وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيما يدعوهم إليه أقناطاً له من الإجابة ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ

ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ "إن" حرف نفي فنفى جميع القول إلا قولاً واحداً وهو قولهم ﴿ اعتراك ﴾ أصابك ﴿ بعض آلهتنا بسوء ﴾ بجنون وخبل وتقدير ما نقول قولًا إل هذه المقالة أي قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾

أي من إشراككم آلهة من دونه ، والمعنى إني أشهد الله أني بريء مما تشركون واشهدوا أنتم أيضاً إني بريء من ذلك .

(192/380)

وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه : أشهد على أني لا أحبك تهكما به واستهانة بحاله ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ﴾ أنتم وآلهتكم ﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ لا تمهلون فإني لا أبالي بكم وبكيدكم ولا أخاف معرتكم وإن تعاونتم علي ، وكيف تضرني آلهتكم وما هي إلا جماد لا يضر ولا ينفع ؟ وكيف تنتقم مني إذا نلت منها وصددت عن عبادتها بأن تخبلني وتذهب بعقلي ؟ ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ أي مالكها ، ولما ذكر توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته من كيدهم ، وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم ، ومن

كون كل دابة في قبضته وملكته وتحت قهره وسلطانه والأخذ بالناصية تمثيل لذلك ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ إن ربي على الحق لا يعدل عنه ، أو إن ربي يدل على صراط مستقيم ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ هو في موضع فقد ثبتت الحجة عليكم ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ كلام مستأنف أي ويهلككم الله ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم ﴿ وَلاَ تَضُرُّونَهُ ﴾ بتوليكم ﴿ شَيْئًا ﴾ من ضرر قط إذ لا يجوز عليه المضار وإنما تضرون أنفسكم ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ رقيب عليه مهيمن فما تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم ، أو من كان رقيباً على الأشياء كلها حافظاً لها وكانت الأشياء مفتقرة إلى حفظه عن المضار لم يضر مثله مثلكم .

(193/380)

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءامَنُواْ مَعَهُ ﴾ وكانوا أربعة آلاف ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ أي بفضل منا لا بعملهم أو بالإيمان الذي أنعمنا عليهم ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ وتكرار ﴿ نجينا ﴾ للتأكيد أو الثانية من عذاب الآخرة ولا عذاب أغلظ منه ﴿ تِلْكَ عَادٌ ﴾ إشارة إلى قبورهم وآثارهم كأنه قال : سيحوا في الأرض فانظروا إليها

واعتبروا ، ثم استأنف وصف أحوالهم فقال : ﴿ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ ﴾ لأنهم إذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسل الله لا نفرق بين أحد من رسله ﴿ واتبعوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ يريد رؤساءهم ودعاتهم إلى تكذيب الرسل لأنهم الذين يجبرون الناس على الأمور ويعاندون ربهم ومعنى اتباع أمرهم طاعتهم ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هذه الدنيا لَعْنَةً وَيَوْمَ القيامة ﴾ لما كانوا تابعين لهم دون الرسل جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين ﴿ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ ﴾ تكرار "ألا" مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم تهويل لأمرهم وبعث على الاعتبار ، بهم والحذر من مثل حالهم ، والدعاء ب ﴿ بعداً ﴾ بعد هلاكهم وهو دعاء بالهلاك للدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له ﴿ قَوْمِ هُودٍ ﴾ عطف بيان ﴿ لعاد ﴾ وفيه فائدة لأن عادا عادان : الأولى القديمة التي هي قوم هود والقصة فيهم ، والأخرى إرم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 191. 195 ﴾

(194/380)

وقال البيضاوى فى الآيات السابقة :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ ﴾

وأراد نداءه بدليل عطف قوله : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابنى مِنْ أَهْلِى ﴾ فإنه النداء . ﴿ وَإِنَّ

وَعْدَكَ الحق ﴾ وإن كل وعد تعده حق لا يتطرق إليه الخلف، وقد وعدت أن تنجي أهلي فما حاله، أو فما له لم ينج، ويجوز أن يكون هذا النداء قبل غرقه. ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الحاكمين ﴾ لأنك أعلمهم وأعدلهم، أو لأنك أكثر حكمة من ذوي الحكم على أن الحاكم من الحكمة كالدارع من الدرع.

﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ لقطع الولاية بين المؤمن والكافر وأشار إليه بقوله: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالح ﴾ فإنه تعليل لنفي كونه من أهله، وأصله إنه ذو عمل فاسد فجعل ذاته ذات العمل للمبالغة كقول الخنساء تصف ناقة:

ترتع مَا رتعت حَتى إِذَا ادَّكَرَت . . . فإِنَّمَا هي إقبالٌ وإِدْبَارُ

ثم بدل الفاسد بغير الصالح تصريحاً بالمناقضة بين وصفيهما وانتفاء ما أوجب النجاة لمن نجا من أهله عنه. وقرأ الكسائي ويعقوب ﴿ إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صالح ﴾ أي عمل عملاً غير صالح. ﴿ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ما لا تعلم أصواب هو أم ليس كذلك، وإنما سمي نداءه سؤالاً لتضمن ذكر الوعد بنجاة أهله استنجازه في شأن ولده أو استفسار المانع للانجاز في حقه، وإنما سماه جهلاً وزجر عنه بقوله: ﴿ إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ لأن استثناء من سبق عليه القول من أهله قد دله على الحال وأغناه عن السؤال، لكن أشغله حب الولد عنه حتى اشتبه عليه الأمر. وقرأ ابن كثير بفتح اللام والنون الشديدة وكذلك نافع وابن عامر غير أنهما كسرا النون على أن أصله تسألنني فحذفت نون الوقاية

لاجتماع النونات وكسرت الشديدة للياء ، ثم حذفت اكتفاء بالكسرة وعن نافع برواية روس إثباتها في الوصل .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ ﴾ فيما يستقبل . ﴿ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ ما لا علم لي بصحته . ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي ﴾ وإن لم تغفر لي ما فرط مني في السؤال . ﴿ وَتَرْحَمْنِي ﴾ بالتوبة والتفضل علي . ﴿ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أعمالاً .

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ﴾ انزل من السفينة مسلماً من المكاره من جهتنا أو مسلماً عليك . ﴿ وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ ومباركاً عليك أو زيادات في نسلك حتى تصير آدماً ثانياً . وقرىء ﴿ اهبط ﴾ بالضم "وبركة" على التوحيد وهو الخير النامي . ﴿ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾ وعلى أمم هم الذين معك ، سموا أمماً لتحزبهم أو لتشعب الأمم منهم ، أو وعلى أمم ناشئة ممن معك والمراد بهم المؤمنون لقوله : ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ أي وممن معك سنمتعهم في الدنيا . ﴿ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة والمراد بهم الكفار من ذرية من معه . وقيل هم قوم هود وصالح ولوط وشعيب ، والعذاب ما نزل بهم .

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى قصة نوح ومحلها الرفع بالابتداء وخبرها : ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾

أي بعضها . ﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ خبر ثان والضمير لها أي موحاة إليك ، أو حال من ال ﴿ أَنْبَاء ﴾ أو هو الخبر و﴿ مِنْ أَنْبَاء ﴾ متعلق به أو حال من الهاء في ﴿ نُوحِيهَا ﴾ . ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هذا ﴾ خبر آخر أي مجهولة عندك وعند قومك من قبل ايحائنا إليك ، أو حال من الهاء في نوحيها أو الكاف في ﴿ إِلَيْكَ ﴾ أي : جاهلاً أنت وقومك بها ، وفي ذكرهم تنبيه على أنه لم يتعلمها إذ لم يخالط غيرهم وأنهم مع كثرتهم لما لم يسمعوها فكيف بواحد منهم . ﴿ فاصبر ﴾ على مشاق الرسالة وأذية القوم كما صبر نوح. ﴿ إِنَّ العاقبة ﴾ في الدنيا بالظفر وفي الآخرة بالفوز . ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ عن الشرك والمعاصي .

(196/380)

﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ عطف على قوله ﴿ نُوحاً إلى قَوْمِهِ ﴾ و﴿ هُودًا ﴾ عطف بيان ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعبدوا الله ﴾ وحده. ﴿ مَا لَكُمْ مّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ وقرىء بالجر حملاً على المجرور وحده. ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴾ على الله باتخاذ الأوثان شركاء وجعلها شفعاء .

﴿ يا قوم لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى الذى فَطَرَنِى ﴾ خاطب كل رسول به

قومه إزاحة للتهمة وتمحيضاً للنصيحة فإنها لا تنجع ما دامت مشوبة بالمطامع . ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا المحق من المبطل والصواب من الخطأ .

﴿ وَيَا قَوْمِ استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ اطلبوا مغفرة الله بالإيمان ثم توسلوا إليها بالتوبة وأيضاً التبري من الغير إنما يكون بعد الإيمان بالله والرغبة فيما عنده . ﴿ يُرْسِلِ السماء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ كثير الدر . ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ ﴾ ويضاعف قوتكم ، وإنما رغبهم بكثرة المطر وزيادة القوة لأنهم كانوا أصحاب زروع وعمارات . وقيل حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاثين سنة فوعدهم هود عليه السلام على الإيمان والتوبة بكثرة الأمطار وتضاعف القوة بالتناسل . ﴿ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ ﴾ ولا تعرضوا عما أدعوكم إليه . ﴿ مُّجْرِمِينَ ﴾ مصرين على إجرامكم .

﴿ قَالُواْ يا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيّنَةٍ ﴾ بحجة تدل على صحة دعواك وهو لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِى ءالِهَتِنَا ﴾ بتاركي عبادتهم . ﴿ عَن قَوْلِكَ ﴾ صادرين عن قولك حال من الضمير في تاركي . ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ إقناط له من الإجابة والتصديق .

﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعۡتَرَاكَ ﴾ ما نقول إلا قولنا ﴿ اعتراك ﴾ أي أصابك من عراه يعروه إذا أصابه. ﴿ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ ﴾ بجنون لسبك إياها وصدك عنها ومن ذلك تهذي وتتكلم لخرافات، والجملة مقول القول وإلا لغو لأن الاستثناء مفرغ. ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ .

﴿ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ أجاب به عن مقالتهم الحمقاء بأن أشهد الله تعالى على براءته من آلهتهم وفراغه عن إضرارهم تأكيداً لذلك وتثبيتاً له، وأمرهم بأن يشهدوا عليه استهانة بهم، وأن يجتمعوا على الكيد في إهلاكه من غير إنظار حتى إذا اجتهدوا فيه ورأوا أنهم عجزوا عن آخرهم وهم الأقوياء الأشداء أن يضروه لم يبق لهم شبهة أن آلهتهم التي هي جماد لا يضر ولا ينفع لا تتمكن من إضراره انتقاماً منه، وهذا من جملة معجزاته فإن مواجهة الواحد الجم الغفير من الجبابرة الفتاك العطاش إلى إراقة دمه بهذا الكلام ليس إلا لثقته بالله وتثبطهم عن إضراره ليس إلا بعصمته إياه ولذلك عقبه بقوله :

﴿ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ ﴾ تقريراً له والمعنى أنكم وإن بذلتم غاية وسعكم لن تضروني فإني متوكل على الله واثق بكلاءته وهو مالكي ومالككم لا يحيق بي ما لم يرده، ولا يقدرون على ما لم يقدره ثم برهن عليه بقوله : ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ ﴾ أي إلا وهو مالك لها قادر عليها يصرفها على ما يريد بها والأخذ بالنواصي تمثيل لذلك .

﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي أنه على الحق والعدل لا يضيع عنده معتصم ولا يفوته ظالم.

(198/380)

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ فإن تتولوا. ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ﴾ فقد أديت ما علي من الإِبلاغ وإلزام الحجة فلا تفريط مني ولا عذر لكم فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم. ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ استئناف بالوعيد لهم بأن الله يهلكهم ويستخلف قوماً آخرين في ديارهم وأموالهم، أو عطف على الجواب بالفاء ويؤيده القراءة بالجزم على الموضع كأنه قيل: وإن تتولوا يعذرني ربي ويستخلف. ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ ﴾ لتوليكم. ﴿ شَيْـًٔا ﴾ من الضرر ومن جزم يستخلف أسقط النون منه. ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ رقيب فلا تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مجازاتكم، أو حافظ مستول عليه فلا يمكن أن يضره شيء.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ عذابنا أو أمرنا العذاب. ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ وكانوا أربعة آلاف. ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ تكرير لبيان ما نجاهم منه وهو السموم، كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أدبارهم فتقطع أعضاءهم، أو المراد

به تنجيتهم من عذاب الآخرة أيضاً ، والتعريض بأن المهلكين كما عذبوا في الدنيا بالسموم فهم معذبون في الآخرة بالعذاب الغليظ .

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ أنث اسم الإشارة باعتبار القبيلة أو لأن الإشارة إلى قبورهم وآثارهم . ﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ كفروا بها . ﴿ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ ﴾ لأنهم عصوا رسولهم ومن عصى رسولاً فكأنما عصى الكل لأنهم أمروا بطاعة كل رسول . ﴿ واتبعوا أَمْرَ كُلّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ يعني كبراءهم الطاغين و ﴿ عَنِيدٍ ﴾ من عند عنداً وعنداً وعنوداً إذا طغى ، والمعنى عصوا من دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرديهم .

(199/380)

﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هذه الدنيا لَعْنَةً وَيَوْمَ القيامة ﴾ أي جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين تكبهم في العذاب . ﴿ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ جحدوه أو كفروا نعمه أو كفروا به فحذف الجار . ﴿ أَلاَ بُعْداً لّعَادٍ ﴾ دعاء عليهم بالهلاك ، والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل عليهم بسبب ما حكي عنهم ، وإنما كرر ألا وأعاد ذكرهم تفظيعاً لأمرهم وحثاً على الاعتبار بحالهم . ﴿ قَوْمِ هُودٍ ﴾ عطف بيان لعاد ، وفائدته تمييزهم

عن عاد الثانية عاد إرم ، والإِيماء إلى أن استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين هود . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 237.242 ﴾

(200/380)

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

﴿ ونادى نوح ربه ﴾

أي : دعاه وسأله ﴿ فقال رب إنّ ابني من أهلي ﴾ وقد وعدتني أن تنجيني وأهلي ﴿ وإن وعدك الحق ﴾ أي : الصدق الذي لا خلف فيه ﴿ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ لأنك أعلمهم وأعدلهم .

فإن قيل : إذا كان النداء هو قوله ربّ فكيف عطف قال رب على نادى بالفاء ؟

أجيب : بأن الفاء تفصيل لمجمل نادى ، مثلها في : توضأ فغسل . وقيل : نادى ، أي : أراد نداءه فقال رب .

﴿ قال ﴾ الله تعالى له ﴿ يا نوح إنه ﴾ أي : هذا الابن الذي سألت نجاته ﴿ ليس من أهلك ﴾ أي : المحكوم بنجاتهم لإيمانهم وكفره ، ولهذا علل بقوله تعالى : ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ وقرأ الكسائي بكسر الميم ونصب اللام بغير تنوين ونصب الراء ، أي : عمل الكفر

والتكذيب وكل هذا غير صالح والباقون بفتح الميم ورفع اللام منونة ورفع الراء ، أي : ذو عمل غير صالح أو صاحب عمل غير صالح ، فجعل ذات العمل للمبالغة كقول الخنساء تصف ناقة ترتع:

*فإنما هي إقبال وإدبار

واختلف علماء التفسير هل كان ذلك الولد ابن نوح أو لا على أقوال : الأوّل : وهو قول ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والأكثرين : إنه ابنه حقيقة ويدل عليه أنه تعالى نص عليه فقال : ﴿ ونادى نوح ابنه ﴾ ونوح أيضاً نص عليه فقال : ﴿ يا بنيّ ﴾ وصرف هذا اللفظ إلى أنه رباه وأطلق عليه اسم الابن لهذا السبب صرف للكلام عن حقيقته إلى مجازه من غير ضرورة. القول الثاني : أنه كان ابن امرأته وهو قول محمد بن علي الباقر ، وقول الحسن البصري. والقول الثالث : وهو قول مجاهد والحسن : أنه ولد حنث ولد على فراشه ولم يعلم نوح بذلك ، واحتج هذا القائل بقوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط ﴿ فخانتاهما ﴾ (التحريم ،) . قال الرازي : وهذا قول واهٍ حيث يجب صون منصب الأنبياء عن هذه الفضيحة لا سيما وهو خلاف نص القرآن. وقد قيل لابن عباس : ما

كانت تلك الخيانة؟ فقال: كانت امرأة نوح تقول: زوجي مجنون، وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه إذا نزل به. ﴿ فلا تسألني ما ليس لك به علم ﴾ أي: بما لا تعلم أصواب هو أم لا؟ لأنّ اللائق بأمثالك من أولي العزم بناء أمورهم على التحقيق. وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بفتح اللام وتشديد النون والباقون بسكون اللام وتخفيف النون وأثبت الياء بعد النون. في الوصل دون الوقف ورش وأبو عمرو وحذفها الباقون وقفاً ووصلاً ﴿ إني أعظك ﴾ أي: بمواعظي كراهة ﴿ أن تكون من الجاهلين ﴾ فتسأل كما يسألون. وإنما سمى نداءه سؤالاً لتضمن ذكر الوعد بنجاة أهله واستنجازه في شأن ولده.

﴿ قال ﴾ نوح ﴿ رب إني أعوذ بك أن ﴾ أي: من أن ﴿ أسألك ﴾ في شيء من الأشياء ﴿ ما ليس لي به علم ﴾ تأدباً بأدبك واتعاظاً بوعظك ﴿ وإلا تغفر لي ﴾ أي: الآن ما فرط مني وفي المستقبل ما يقع مني ﴿ وترحمني ﴾ أي: تستر زلاتي وتمحها وتكرمني ﴿ أكن من الخاسرين ﴾ أي: الغريقين في الخسارة. فإن قيل: هذا يدل على عصمة الأنبياء لوقوع هذه الزلة من نوح عليه السلام؟

أجيب : بأنّ الزلة الصادرة من نوح إنما هي كونه لم يستقص ما يدل على نفاق ابنه وكفره ؛ لأنّ قومه كانوا على ثلاثة أقسام : كافر يظهر كفره ، ومؤمن يخفي إيمانه ، ومنافق لا يعلم حاله في نفس الأمر . وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة وحكم الكافرين هو الغرق ، وكان ذلك معلوماً ، وأما أهل النفاق فبقي أمرهم مخفياً ، وكان ابن نوح منهم ، وكان يجوز فيه كونه مؤمناً ، وكانت الشفقة المفرطة التي تكون للأب في حق الابن تحمله على حمل أعماله وأفعاله لا على كونه كافراً بل على الوجوه الصحيحة فأخطأ في ذلك الاجتهاد كما وقع لآدم عليه السلام في الأكل من الشجرة فلم يصدر عنه إلا الخطأ في الاجتهاد ، فلم تصدر منه معصية ، فلجأ إلى ربه تعالى وخشع له ودعاه وسأله المغفرة والرحمة كما قال آدم عليه السلام : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (الأعراف ،) لأنّ حسنات الأبرار سيئات المقرّبين .

﴿ قيل ﴾ أي : قال الله تعالى أو ملك بأمره تعالى : ﴿ يا نوح اهبط ﴾ أي : انزل من السفينة أو من الجبل إلى الأرض المستوية ﴿ بسلام ﴾ أي : بعظم وأمن وسلامة ﴿ منا ﴾ وذلك أنّ الغرق لما كان عاماً في جميع الأرض فعندما خرج نوح عليه السلام من السفينة علم

أنه ليس في الأرض شيء مما ينتفع به من النبات والحيوان فكان كالخائف في أنه كيف يعيش وكيف يدفع جهات الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب ، فلما قال الله تعالى : ﴿ اهبط بسلام منا ﴾ زال عنه ذلك الخوف ؛ لأنّ ذلك يدل على حصول السلامة وأن لا يكون إلا مع الأمن وسعة الرزق . ثم إنه تعالى لما وعده بالسلامة أردفه بأن وعده بالبركة بقوله تعالى : ﴿ وبركات عليك ﴾ وهو عبارة عن الدوام والبقاء والثبات ؛ لأنّ الله تعالى صير نوحاً عليه السلام أبا البشر ؛ لأنّ جميع من بقي كانوا من نسله ؛ لأنّ نوحاً لما خرج من السفينة مات كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل إلا من ذريته فالخلق كلهم من نسله ، أو أنه لم يكن معه في السفينة إلا من كان من نسله وذريته ، وعلى التقديرين فالخلق كلهم من ذريته . ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ (الصافات ،) فثبت أنّ نوحاً كان آدم الأصغر فكان أبا الأنبياء والخلق بعد الطوفان كلهم منه ومن ذريته وكان بين نوح وآدم ثمانية أجداد . وقوله تعالى : ﴿ وعلى أمم ممن معك ﴾ يحتمل أن تكون من للبيان فيراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة ؛ لأنهم كانوا جماعات أو قيل لهم أمم ؛ لأنّ الأمم تتشعب منهم ، وأن تكون لابتداء الغاية ، أي : على أمم ناشئة ممن معك وهي الأمم إلى آخر الدهر . قال في "الكشاف" : وهو الوجه ، وقوله تعالى : ﴿ وأمم ﴾ بالرفع على الابتداء ، وقوله تعالى : ﴿ سنمتعهم ﴾ أي : في الدنيا صفة والخبر محذوف تقديره : وممن

معك أمم سنمتعهم . وإنما حذف لأنّ قوله ممن معك يدل عليه ، والمعنى أنّ السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤون ممن معك ، وممن معك أمم

ممتعون في الدنيا

﴿ ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ في الآخرة وهم الكفار . وعن محمد بن كعب القرظي : دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ، وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر وقيل : المراد بالأمم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب . ولما شرح تعالى قصة نوح عليه السلام على التفصيل قال تعالى:

﴿ تلك ﴾ أي : قصة نوح التي شرحناها ، ومحلّ تلك رفع على الابتداء وخبرها ﴿ من أنباء الغيب ﴾ أي : من الأخبار التي كانت غائبة عن الخلق . وقوله تعالى : ﴿ نوحيها إليك ﴾ خبر ثان والضمير لها ، أي : موحاة إليك . وقوله تعالى : ﴿ ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ أي : نزول القرآن خبر آخر ، والمعنى أنّ هذه القصة مجهولة عندك وعند قومك من قبل إيحائنا إليك ، ونظير هذا أن يقول إنسان لآخر : لا تعرف هذه المسألة لا أنت ولا أهل بلدك . فإن قيل : قد كانت قصة طوفان نوح مشهورة عند أهل

العلم . أجيب : بأنّ ذلك كان بحسب الإجمال ، وأمّا التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة ، أو بأنه صلى الله عليه وسلم كان أمّياً لم يقرأ الكتب المتقدّمة ولم يعلمها . وكذلك كانت أمته . ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فاصبر ﴾ أي : أنت وقومك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على أذى أولئك الكفار . ﴿ إنّ العاقبة للمتقين ﴾ الشرك والمعاصي وفي هذا تنبيه على أنّ عاقبة الصبر لنبينا صلى الله عليه وسلم النصر والفرج ، أي : السرور كما كان لنوح ولقومه . فإن قيل : هذه القصة ذكرت في يونس فما الحكمة والفائدة في إعادتها ؟

(205/380)

أجيب : بأنّ القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه ، ففي السورة الأولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب فذكر تعالى قصة نوح في بيان أنّ قومه كانوا يكذبونه بسبب أنّ العذاب ما كان يظهر ثم في العاقبة ظهر فكذا في واقعة محمد صلى الله عليه وسلم وفي هذه السورة ذكرت لأجل أنّ الكفار كانوا يبالغون في الإيحاش فذكرها الله تعالى لبيان أنّ إقدام الكفار على الإيذاء والإيحاش كان

حاصلاً في زمان نوح عليه السلام ، فلما صبر فاز وظفر ، فكن يا محمد كذلك لتنال

المقصود ، ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة في كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خالياً عن الحكمة والفائدة .

القصة الثانية : من القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة هود عليه السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ اله غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلا مُفْتَرُونَ * يَاقَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى أفلا تعقلون * وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ * قَالُوا يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِى ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّى أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ تُنظِرُونِ ﴾

﴿ وإلى عاد ﴾ أي : وأرسلنا إلى عاد ﴿ أخاهم ﴾ فهو معطوف على قوله تعالى نوحاً ، وقوله تعالى : ﴿ هوداً ﴾ عطف بيان ومعلوم أنّ تلك الأخوة ما كانت في الدين ، وإنما كانت في النسب لأنّ هوداً كان رجلاً من قبيلة عاد قبيلة من العرب كانوا بناحية اليمن . فإن قيل

: إنه تعالى قال في ابن نوح إنه ليس من أهلك فبيّن أنّ قرابة النسب لا تفيد إذا لم تحصل قرابة الدين ، وهنا أثبت هذه الأخوة مع الاختلاف في الدين ؟

أجيب : بأنّ قوم محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يستبعدون أن يكون رسولاً من عند الله تعالى مع أنه واحد من قبيلتهم ، فذكر الله تعالى أنّ هوداً كان واحداً من عاد ، وأنّ صالحاً كان واحداً من ثمود لإزالة هذا الاستبعاد ، ولما تقدّم أمر نوح عليه السلام مع قومه استشرف السامع إلى معرفة ما قال هود عليه السلام هل هو مثل قوله أولاً ؟ فاستأنف الجواب بقوله : ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ أي : وحدوه ولا تشركوا معه شيئاً في العبادة. ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ أي : هو إلهكم ؛ لأنّ هذه الأصنام التي تعبدونها حجارة لا تضر ولا تنفع. فإن قيل : كيف دعاهم إلى عبادة الله تعالى قبل إقامة الدليل على ثبوت الإله ؟

أجيب : بأنّ دلائل وجود الله تعالى ظاهرة وهي دلائل الآفاق والأنفس وقلما يوجد في الدنيا طائفة ينكرون وجود الإله ، ولذلك قال تعالى في صفة الكفار : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله ﴾ (لقمان ،) . وقرأ الكسائي بكسر الراء والهاء صفة على اللفظ والباقون بالرفع صفة على محل الجار والمجرور ومن زائدة ﴿ إن أنتم إلا مفترون ﴾ أي : كاذبون في عبادتكم غيره. وكرر قوله:

﴿ يا قوم ﴾ للاستعطاف ، وقوله : ﴿ لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني ﴾ أي : خلقني ، خاطب به كل رسول قومه إزالة للتهمة وتمحيضاً للنصيحة فإنها

لا تنجع ما دامت مشوبة بالمطامع ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي : افلا تستعملون عقولكم فتعرفوا المحق من المبطل والصواب من الخطأ فتتعظون . ثم قال:

(207/380)

﴿ ويا قوم ﴾ أيضاً لما ذكر ﴿ استغفروا ربكم ﴾ أي : آمنوا به ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ من عبادة غيره ؛ لأنّ التوبة لا تصح إلا بعد الإيمان ﴿ يرسل السماء ﴾ أي : المطر ﴿ عليكم مدراراً ﴾ أي : كثير الدر ﴿ ويزدكم قوّة إلى قوّتكم ﴾ أي : ويضاعف قوّتكم ، وإنما رغبهم بكثرة المطر وزيادة القوّة ؛ لأنّ القوم كانوا أصحاب زرع وبساتين وعمارات حراصاً عليها أشدّ الحرص ، فكانوا أحوج شيء إلى الماء ، وكانوا مذلين غيرهم بما أوتوا من شدّة القوّة والبطش والبأس والنجدة ، مهابين في كل ناحية ، وقيل : أراد القوّة في المال . وقيل : القوة على النكاح . وقيل : حبس عنهم المطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم . وعن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما أنه وفد على معاوية ، فلما خرج تبعه بعض حجابه فقال : إني رجل ذو مال ولا يولد لي فعلمني شيئاً لعل الله يرزقني ولداً . فقال : عليك بالاستغفار . فكان يكثر الاستغفار حتى ربّما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرّة فولد له عشر بنين ، فبلغ ذلك معاوية فقال : هلا سألته ممّ قال ذلك ؟ فوفد مرّة أخرى فسأله

الرجل فقال : ألم تسمع قول هود : ﴿ ويزدكم قوّة إلى قوّتكم ﴾ وقول نوح : ﴿ ويمددكم بأموالٍ وبنين ﴾ (نوح ،) . ﴿ ولا تتولوا ﴾ أي : ولا تعرضوا عن قبول قولي ونصحي حالة كونكم ﴿ مجرمين ﴾ أي : مشركين . ولما حكى الله تعالى عن هود ما ذكره لقومه حكى أيضاً ما ذكره قومه له وهو أشياء : أوّلها : ذكره تعالى بقوله:

(208/380)

﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة ﴾ أي : بحجة تدل على صحة دعواك . وسميت بينة ؛ لأنها تبين الحق ، ومن المعلوم أنه عليه الصلاة والسلام كان قد أظهر لهم المعجزات إلا أن القوم لجهلهم أنكروها وزعموا أنه ما جاء بشيء من المعجزات . وثانيها : قولهم : ﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا ﴾ أي : عبادتها ، وقولهم : ﴿ عن قولك ﴾ أي : صادرين عن قولك حال من الضمير في تاركي ، وهذا أيضاً من جهلهم فإنهم كانوا يعرفون أنّ النافع والضارّ هو الله تعالى وأن الأصنام لا تضر ولا تنفع وذلك حكم فطرة العقل وبديهة النفس ، وثالثها : قولهم : ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ أي : مصدّقين ، وفي ذلك إقناط له من الإجابة والتصديق . ورابعها : قولهم:

﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ نقول ﴾ في شأنك ﴿ إلا اعتراك ﴾ أي : أصابك ﴿ بعض آلهتنا

بسوء ﴾ لسبك إياها فجعلتك مجنوناً وأفسدت عقلك ، ثم إنه تعالى ذكر أنهم لما قالوا ذلك ﴿ قال ﴾ هود عليه السلام مجيباً لهم : ﴿ إني أشهد الله ﴾ عليّ ﴿ واشهدوا ﴾ أنتم أيضاً عليّ ﴿ أني بريء مما تشركون ﴾ . ﴿ من دونه ﴾ أي : الله وهو الأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿ فكيدوني ﴾ أي : احتالوا في هلاكي ﴿ جميعاً ﴾ أنتم وأصنامكم التي تعتقدون أنها تضر وتنفع فإنها لا تضرّ ولا تنفع .

فائدة : اتفق القراء على إثبات الياء في كيدوني هنا وقفاً ووصلاً لثباتها في المصحف ﴿ ثم لا تنظرون ﴾ أي : تمهلون ، وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السلام ؛ لأنه كان وحيداً في قومه وقال لهم هذه المقالة ولم يهبهم ولم يخف منهم مع ما هم فيه من الكفر والجبروت ثقة بالله تعالى كما قال تعالى:

(209/380)

﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم ﴾ أي : فوضت أمري إليه واعتمدت عليه ﴿ ما من دابة ﴾ تدب على الأرض ويدخل في هذا جميع بني آدم والحيوان ؛ لأنّهم يدبون على الأرض . ﴿ إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ أي : مالكها وقاهرها فلا يقع نفع ولا ضر إلا بإذنه والناصية كما قال الأزهري : عند العرب منبت الشعر في مقدّم الرأس ، وسمي الشعر

النابت هنا ناصية باسم منبته ، والعرب إذا وصفوا إنساناً بالذلة والخضوع قالوا : ما ناصية فلان إلا بيد فلان ، وكانوا إذا أسروا الأسير وأرادوا إطلاقه والمنّ عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره ، فخوطبوا في القرآن بما يعرفون من كلامهم ﴿ إن ربي على صرط مستقيم ﴾ أي : طريق الحق والعدل فلا يظلمهم ولا يعمل إلا بالإحسان والإنصاف فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيانه . وقوله تعالى:

﴿ فإن تولّوا ﴾ فيه حذف إحدى التاءين ، أي : تعرضوا ﴿ فقد أبلغتكم ﴾ جميع ﴿ ما أرسلت به إليكم ﴾ فإن قيل : الإبلاغ كان قبل التولي فكيف وقع جزاء للشرط ؟ أجيب : بأنّ معناه فإن تتولوا لم أعاتب على تقصير من جهتي وصرتم محجوجين ؛ لأنكم أنتم الذين أصررتم على التكذيب وقوله ﴿ ويستخلف ربي قوماً غيركم ﴾ استئناف بالوعيد لهم بأنّ الله تعالى يهلكهم ويستخلف قوماً آخرين في ديارهم وأموالهم يوحدونه تعالى ويعبدونه ﴿ ولا تضرّونه ﴾ أي : الله بإشراككم ﴿ شيئاً ﴾ من الضرر إنما تضرون أنفسكم . وقيل : لا تنقصونه شيئاً إذا أهلككم ؛ لأنّ وجودكم وعدمكم عنده سواء ﴿ إنّ ربي على كلِّ شيء ﴾ صغير أو كبير ، حقير أو جليل .

﴿ حفيظ ﴾ ، أي : رقيب عالم بكل شيء وقادر على كل شيء فيحفظني أن تنالوني بسوء أو حفيظ لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها ، أو حفيظ على كل شيء يحفظه من الهلاك إذا شاء ويهلكه إذا شاء .

﴿ ولما ﴾ لم يرجعوا ولم يرعووا ببينة ولا رغبة ولا رهبة ﴿ جاء أمرنا ﴾ أي : عذابنا ، وذلك هو ما نزل بهم من الريح العقيم عذبهم الله تعالى بها سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً تدخل في مناخرهم وتخرج من أدبارهم وترفعهم وتضربهم على الأرض على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية ، وهنا همزتان مفتوحتان من كلمتين . قرأ قالون والبزي وأبو عمرو بإسقاط الأولى ، وقرأ ورش وقنبل بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية والباقون بتحقيقهما ، ﴿ نجينا هوداً والذين آمنوا معه ﴾ ، أي : من هذا العذاب وكانوا أربعة آلاف ﴿ برحمةٍ منا ﴾ لأنّ العذاب إذا نزل قد يعمّ المؤمن والكافر ، فلما أنجى الله تعالى المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه ﴿ ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ هو عذاب الآخرة . ووصفه بالغلظ ؛ لأنه أغلظ من عذاب الدنيا أو نجينا هوداً والذين آمنوا معه من أن يصل إليهم الكفار بسوء مع اجتهادهم في ذلك ، ونجيناهم من عذاب غليظ هو الريح المذكورة . ولما ذكر الله تعالى قصة عاد خاطب أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال :

﴿ وتلك عاد ﴾ وهو إشارة إلى قبورهم وآثارهم كأنه تعالى قال : سيحوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا ، ثم إنه تعالى جمع أوصافهم ثم ذكر عاقبة أحوالهم في الدنيا والآخرة

، أمّا أوصافهم فثلاثة: الصفة الأولى: قوله تعالى: ﴿ جحدوا بآيات ربهم ﴾ ، أي: بالمعجزات التي أتى بها هود عليه السلام. الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿ وعصوا رسله ﴾ ، أي: هوداً وحده، وإنما أتى به بلفظ الجمع إمّا للتعظيم، أو لأنّ من عصى رسولاً فقد عصى جميع الرسل لقوله تعالى: ﴿ لا نفرّق بين أحد من رسله ﴾ (البقرة،) .

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿ واتبعوا أمر كل جبارٍ عنيد ﴾ ، أي: أنّ السفلة كانوا يقلدون الرؤساء في قولهم ما هذا إلا بشر مثلكم، فأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرديهم، وعصوا من دعاهم إلى الإيمان ولا يرديهم، والجبار: المرتفع المتمرد، والعنيد والعنود والمعاند هو المنازع

المعارض. ولما ذكر تعالى أوصافهم ذكر أحوالهم بقوله تعالى:

﴿ وأتبعوا في هذه الدنيا لعنةً ويوم القيامة ﴾ ، أي: جعل اللعن رديفاً لهم ومتابعاً ومصاحباً في الدنيا والآخرة. ومعنى اللعنة: الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير، وقيل: اللعنة في الدنيا من الناس وفي الآخرة لعنة على رؤوس الأشهاد. ثم إنه تعالى بين السبب الأصلي في نزول هذه الأحوال المكروهة بهم بقوله تعالى: ﴿ ألا إن عاداً كفروا

ربهم ﴾ ، أي : كفروا بربهم ، فحذف الباء أو أنّ المراد بالكفر الجحد ، أي : جحدوا ربهم . وقيل : هو من باب حذف المضاف ، أي : كفروا نعمة ربهم .

تنبيه : ألا أداة استفتاح لا تذكر إلا بين كلام يعظم موقعه ويجل خطبه ، ثم قال : ﴿ ألا بعداً لعاد ﴾ دعاء عليهم بالهلاك . والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل بهم بسبب ما حكي عنهم ، وإنما كرر ألا وأعاد ذكرهم تفظيعاً لأمرهم وحثاً على الاعتبار بحالهم . وقوله تعالى : ﴿ قوم هود ﴾ عطف بيان لعاد وفائدته تمييزهم من عاد الثانية عاد إرم والإيماء إلى استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين هود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 88.96 ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾

قوله : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ معطوف على ﴿ ولقد وأرسلنا نوحاً ﴾ : أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم : أي : واحداً منهم ، وهوداً عطف بيان ، وقوم عاد كانوا عبدة أوثان ، وقد تقدّم مثل هذا في الأعراف .

وقيل : هم عاد الأولى وعاد الأخرى ، فهؤلاء هم عاد الأولى ، وعاد الأخرى هم : شداد ولقمان وقومهما المذكورون في قوله : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ العماد ﴾ [الفجر : 7] ، وأصل عاد ، اسم رجل ، ثم صار اسماً للقبيلة كتميم وبكر ، ونحوهما ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ قرىء " غيره " بالجرّ على اللفظ .

وبالرفع على محل من إله ، وقرىء بالنصب على الاستثناء ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴾ أي : ما أنتم باتخاذ إله غير الله إلا كاذبون على الله عزّ وجلّ ، ثم خاطبهم فقال : ﴿ لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ أي : لا أطلب منكم أجراً على ما أبلغه إليكم ، وأنصحكم به من الإرشاد إلى عبادة الله وحده ، وأنه لا إله لكم سواه ، فالضمير راجع إلى مضمون هذا الكلام .

وقد تقدّم معنى هذا في قصة نوح ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى الذى فَطَرَنِى ﴾ أي : ما أجري الذي أطلب إلا من الذي فطرني : أي : خلقني فهو الذي يثيبني على ذلك ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أن أجر الناصحين إنما هو من ربّ العالمين .

قيل : إنما قال فيما تقدّم في قصة نوح : مالاً ، وهنا قال : أجراً لذكر الخزائن بعده في قصة نوح ، ولفظ المال بها أليق ، ثم أرشدهم إلى الاستغفار والتوبة .

والمعنى : اطلبوا مغفرته لما سلف من ذنوبكم ، ثم توسلوا إليه بالتوبة .

وقد تقدّم زيادة بيان لمثل هذا في قصة نوح ، ثم رغبهم في الإيمان بالخير العاجل ، فقال : ﴿ يُرْسِلِ السماء ﴾ أي : المطر ﴿ عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ أي : كثير الدرور ، وهو منصوب على الحال ، درّت السماء تدرّ ، وتدرّ ، فهي : مدرار ، وكان قوم هود أهل بساتين ، وزرع ، وعمارة ، وكانت مساكنهم الرمال التي بين الشام واليمن ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ ﴾ معطوف على يرسل : أي : شدّة مضافة إلى شدّتكم ، أو خصباً إلى خصبكم ، أو عزّاً إلى عزّكم .

قال الزجاج : المعنى يزدكم قوّة في النعم ﴿ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾ أي : لا تعرضوا عما أدعوكم إليه ، وتقيموا على الكفر مصرّين عليه ، والإجرام : الآثام كما تقدّم .

ثم أجابه قومه بما يدلّ على فرط جهالتهم ، وعظيم غباوتهم ، فقالوا ﴿ ياهود مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ أي : بحجة واضحة نعمل عليها ، ونؤمن لك بها غير معترفين بما جاءهم به من حجج الله وبراهينه ، عناداً وبعداً عن الحق ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِى ءالِهَتِنَا ﴾ التي نعبدها من دون الله ، ومعنى : ﴿ عَن قَوْلِكَ ﴾ صادرين عن قولك ، فالظرف في محل نصب على

الحال ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : بمصدّقين في شيء مما جئت به ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعتراك بَعْضُ ءالِهَتِنَا بِسُوء ﴾ أي : ما نقول إلا أنه أصابك بعض آلهتنا التي تعيبها ، وتسفه رأينا في عبادتها بسوء بجنون ، حتى نشأ عن جنونك ما تقوله لنا ، وتكرره علينا من التنفير عنها ، يقال عراه الأمر واعتراه : إذا ألّم به ، فأجابهم بما يدلّ على عدم مبالاته بهم ، وعلى وثوقه بربه وتوكله عليه ، وأنهم لا يقدرون على شيء مما يريده الكفار به ، بل الله سبحانه هو الضارّ النافع فقال ﴿ إِنِى أُشْهِدُ اللهَ واشهدوا ﴾ أنتم ﴿ إِنّى بَرِىء مّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ به ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ أي : من إشراككم من دون الله من غير أن ينزل به سلطاناً ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ﴾ أنتم وآلهتكم إن كانت كما تزعمون من أنها تقدر على الإضرار بي ، وأنها اعترتني بسوء ﴿ ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ ﴾ أي : لا تمهلوني ، بل عاجلوني واصنعوا ما بدا لكم ؛ وفي هذا من إظهار عدم المبالاة بهم وبأصنامهم التي يعبدونها ما يصكّ مسامعهم ، ويوضح عجزهم ، وعدم قدرتهم على شيء .

﴿ إِنّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبّى وَرَبّكُمْ ﴾ فهو : يعصمني من كيدكم ، وإن بلغتم في تطلب وجوه الإضرار بي كل مبلغ ، فمن توكل على الله كفاه .

ثم لما بين لهم توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته ، وصفه بما يوجب التوكل عليه والتفويض إليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم ، وأنه مالك للجميع ، وأن ناصية كل دابة من دوابّ الأرض بيده ، وفي قبضته وتحت قهره ، وهو تمثيل لغاية التسخير ونهاية التذليل ، وكانوا إذا أسروا الأسير وأرادوا إطلاقه ، والمنّ عليه جزوا ناصيته ، فجعلوا ذلك علامة لقهره .

قال الفراء : معنى آخذ بناصيتها : مالكها والقادر عليها ، وقال القتيبي : قاهرها لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته .

والناصية : قصاص الشعر من مقدّم الرأس ؛ ثم علل ما تقدّم بقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّى على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي : هو على الحق والعدل ، فلا يكاد يسلطكم عليّ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أي : تتولوا فحذفت إحدى التاءين ، والمعنى : فإن تستمروا على الإعراض عن الإجابة والتصميم على ما أنتم عليه من الكفر ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ ليس عليّ إلا ذلك ، وقد لزمتكم الحجة ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ جملة مستأنفة لتقرير الوعيد بالهلاك ، أي يستخلف في دياركم وأموالكم قوماً آخرين ، ويجوز أن يكون عطفاً على ﴿ فقد أبلغتكم ﴾ .

وروى حفص عن عاصم أنه قرأ ﴿ ويستخلف ﴾ بالجزم حملاً على موضع فقد أبلغتكم ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ﴾ أي : بتوليكم ، ولا تقدرون على كثير من الضرر ولا حقير ﴿ إِنَّ

رَبِّى على كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أي رقيب مهيمن عليه يحفظه من كل شيء ، قيل : و " على " بمعنى اللام ، فيكون المعنى : لكل شيء حفيظ ، فهو يحفظني من أن تنالوني بسوء .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أي : عذابنا الذي هو إهلاك عاد ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا والذين ءامَنُواْ مَعَهُ ﴾ من قومه ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ أي : برحمة عظيمة كائنة منا ؛ لأنه لا ينجو أحد إلا برحمة الله ، وقيل هي الإيمان ﴿ مّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أي : شديد ، قيل : وهو السموم التي كانت تدخل أنوفهم ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ مبتدأ وخبر ، وأنث الإشارة اعتباراً بالقبيلة . قال الكسائي : إن من العرب من لا يصرف عاد ويجعله أسماء للقبيلة ﴿ جَحَدُواْ بآيات رَبِّهِمْ ﴾ أي : كفروا بها ، وكذبوها وأنكروا المعجزات ﴿ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ ﴾ أي : هوداً وحده ؛ لأنه لم يكن في عصره رسول سواه ، وإنما جمع هنا ؛ لأنّ من كذب رسولاً فقد كذب جميع الرسل .

وقيل : إنهم عصوا هوداً ومن كان قبله من الرسل ، أو كانوا بحيث لو بعث الله إليهم رسلاً متعدّدين لكذبوهم ﴿ واتبعوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ الجبار : المتكبر ، والعنيد : الطاغي الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له .

قال أبو عبيدة : العنيد العنود والعاند والمعاند ، وهو المعارض بالخلاف منه ، ومنه قيل للعرق الذي يتفجر بالدم ، عاند .

قال الراجز :

إني كبير لا أطيق العندا . . . ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هذه الدنيا لَعْنَةً ﴾ أي : ألحقوها ، وهي : الإبعاد من الرحمة والطرد من الخير ، والمعنى : أنها لازمة لهم لا تفارقهم ما داموا في الدنيا وأتبعوها ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ فلعنوا هنالك كما لعنوا في الدنيا ﴿ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ أي : بربهم .

وقال الفراء : كفروا نعمة ربهم ، يقال : كفرته وكفرت به : مثل : شكرته وشكرت له ﴿ أَلاَ بُعْدًا لّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ أي : لا زالوا مبعدين من رحمة الله ، والبعد : الهلاك ، والبعد : التباعد من الخير ، يقال : بعد يبعد بعداً : إذا تأخر وتباعد ، وبعد يبعد بعداً : إذا هلك ، ومنه قول الشاعر :

لا يبعدن قومي الذين هم . . . سم العداة وآفة الجزر

وقال النابغة :

فلا تبعدن إنّ المنية منهل . . . وكل امرىء يوماً به الحال زائل

ومنه قول الشاعر :

ما كان ينفعني مقال نسائهم . . . وقتلت دون رجالهم لا تبعد

وقد تقدّم أن العرب تستعمله في الدعاء بالهلاك .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ﴿ إِلاَّ عَلَى الذى فَطَرَنِى ﴾ أي : خلقني .

وأخرج ابن عساكر ، عن الضحاك ، قال : أمسك الله عن عاد القطر ثلاث سنين ، فقال لهم هود ﴿ استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السماء عَلَيْكُمْ مّدْرَاراً ﴾ فأبوا إلا تمادياً .

وأخرج أبو الشيخ ، عن هارون التيمي ، في قوله : ﴿ يُرْسِلِ السماء عَلَيْكُمْ مُّدْرَاراً ﴾ قال : المطر .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ ﴾ قال : شدّة إلى شدّتكم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن عكرمة ، في قوله : ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ ﴾ قال : ولد الولد .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعتراك بَعْضُ ءالِهَتِنَا بِسُوء ﴾ قال : أصابتك بالجنون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن سعيد قال: ما من أحد يخاف لصاً عادياً، أو سبعاً ضارياً، أو شيطاناً مارداً فيتلو هذه الآية إلا صرفه الله عنه.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ قال: الحق.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي مالك، في قوله: ﴿ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ قال: شديد.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، في قوله: ﴿ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ قال: المشرك.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن السديّ، قال: العنيد المشاقّ.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ، في قوله: ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ قال: لم يبعث نبيّ بعد عاد إلا لعنت على لسانه.

وأخرج ابن المنذر، عن قتادة، في الآية قال: تتابعت عليهم لعنتان من الله: لعنة في الدنيا، ولعنة في الآخرة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ﴾ عطف على قوله (نوحاً) . أي : وأرسلنا إلى عاد و (أخاهم) بمعنى (واحداً) منهم كما يقولون : (يا أخا العرب) ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ ﴾ أي : وحده ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴾ أي : باتخاذ الأوثان شركاء وجعلها شفعاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [51] .

﴿ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ إنما خاطب كل رسول به قومه ، إزاحة للتهمة ، وتمحيضاً للنصيحة ، فإنها لا تنجع ما دامت مشوبة بالمطامع ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أي : تتفكرون ، إذ تردون نصيحة من لا يسألكم أجراً ، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك ، أو تتدبرون الصواب من الخطأ .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾ [52] .

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ﴾ أي : من الوقوف مع الهوى بالشرك : ﴿ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ أي : من عبادة غيره ، بالتوجه إلى التوحيد : ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً ﴾ أي : كثيرة الدر ، أي : الأمطار ، منصوب على الحال من (السماء) ولم يؤنث مع أنه من مؤنث ، إما لأن المراد بالسماء السحاب أو المطر ، فذكر على المعنى ، أو (مفعال) للمبالغة ، يستوي فيه المذكر والمؤنث كصبور ، أو الهاء حذفت من (مفعال) على طريق النسب – أفاده السمين – : ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ أي : مضمومة إليها أو معها . أي : شدة إلى شدتكم بالقوة البدنية ، أو بالمال أو البنين . وإنما استمالهم إلى الإيمان ورغبهم فيه بكثرة المطر ، وزيادة القوة ؛ لأن القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين ، حراصاً على التقوى بما ذكر ، لثراء مالهم وترهيب أعدائهم وقد كانوا مثلاً في القوة ، كما قالوا : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت : من الآية 15] ، ﴿ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ ﴾ أي : تعرضوا عما أدعوكم إليه : ﴿ مُجْرِمِينَ ﴾ أي : مصرين على إجرامكم وآثامكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [53] .

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ أي : بحجة تدل على صحة دعواك ، وذلك لقصور فهمهم ، وعمى بصيرتهم عن إدراك البرهان ؛ لمكان الغشاوات الطبيعية ، وإذا لم يدركوه أنكروه بالضرورة : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا ﴾ أي : عبادتها : ﴿ عَن قَوْلِكَ ﴾ حال من ضمير (تاركي) أي : تركا صادراً عن قولك ، أو (عن) للتعليل ، كهي في قوله : ﴿ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَة ﴾ [التوبة : من الآية 114] ، أي : لأجلها ، فتتعلق (بتاركي) والأول أبلغ ؛ لدلالته على كونه علة فاعلية ، ولا يفيده (الباء واللام) . وهذا كقولهم في الأعراف : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ [الأعراف : من الآية 70] .

﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : مصدقين . إقناطا له من الإجابة .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ ﴾ [54 – 55] .

﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ ﴾ أي : مسّك : ﴿ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ أي : بجنون ، لسبك

إياها ، وصدك عنها ، وعداوتك لها ، مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء ، ومن ثم تتكلم بما تتكلم .

(221/380)

قال الزمخشري : دلت أجوبتهم المتقدمة على أنهم كانوا جفاة ، غلاظ الأكباد ، لا يبالون بالبهت ، ولا يلتفتون إلى النصح ، ولا تلين شكيمتهم للرشد ، وهذا الأخير دال على جهل مفرط وبله متناه ، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم ﴿ قَالَ إِنِّيَ أُشْهِدُ اللّهِ ﴾ أي : علي : ﴿ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ ﴾ قال الزمخشري : من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه يرمونه عن قوس واحد ، وذلك لثقته بربه ، وأنه يعصمه منهم ، فلا تنشب فيه مخالبهم ، ونحو ذلك قال نوح عليه السلام لقومه : ﴿ ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس : من الآية 71] .

أكد براءته من آلهتهم وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة الله ، وشهادة العباد ، فيقول الرجل : الله شهيد على أني لا أفعل كذا ، ويقول لقومه : كونوا شهداء على أني لا أفعله . ولما جاهر بالبراءة مما يعبدون ، أمرهم بالاحتشاد والتعاون في إيصال الكيد إليه ، عليه السلام ، دون إمهال ، بقوله : ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ﴾ أي : أنتم

وآلهتكم : ﴿ ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ ﴾ يعني إن صح ما لوحتم به ، من كون آلهتكم لها تأثير في ضر ، فكونوا معها فيه ، وباشروه أعجل ما تفعلون دون إمهال .

قال أبو السعود : فالفاء لتفريع الأمر على زعمهم في قدرة آلهتهم على ما قالوا ، وعلى البراءة كليهما ، وهذا من أعظم المعجزات ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان رجلاً مفرداً بين الجم الغفير والجمع الكثير ، من عتاة عاد ، الغلاظ الشداد . وقد خاطبهم بما خاطبهم ، وحقرهم وآلهتهم ، وهيجهم على مباشرة مبادئ المضادة والمضارة ، وحثهم على التصدي لأسباب المعازّة والمعارّة ، فلم يقدروا على مباشرة شيء مما كلفوه ، وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً ، كيف لا وقد التجأ إلى ركن منيع رفيع ، حيث قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

(222/380)

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [56]

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ أي : فلا تصلون إلى بسوء لتوكلي على الله : ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ أي : مالك لها ، قادر عليها ، يصرفها كيف شاء .

قال القاشاني : بيّن وجوب التوكل على الله ، وكونه حصناً حصيناً أولاً بأن ربوبيته شاملة لكل أحد ، ومن يرب يدبر أمر المربوب ويحفظه ، فلا حاجة له إلى كلاءة غيره وحفظه ، ثم بأن كل ذي نفس تحت قهره وسلطانه ، أسير في يد تصرفه ومملكته وقدرته عاجز عن الفعل والقوة والتأثير في غيره ، لا حراك به بنفسه ، كالميت ، فلا حاجة إلى الاحتراز منه – انتهى – .

والناصية : منبت الشعر من مقدم الرأس ، وتطلق على الشعر النابت فيها أيضاً ، تسمية للحال باسم المحل ، يقال : نصوت الرجل : أخذت بناصيته .

وفي " العناية " : وقولهم : ناصيته بيده ، أي : منقاد له . والأخذ بالناصية عبارة عن القدرة والتسلط ، مجازاً أو كناية .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ تعليل لما يدل عليه التوكل ، من عدم قدرتهم على إضراره ، أي : هو على طريق الحق والعدل في ملكه ، فلا يسلطكم علي ، إذ لا يضيع عنده معتصم به ، ولا يفوته ظلم .

قال في " العناية " : هو تمثيل واستعارة ؛ لأنه مطلع على أمور العباد ، مجاز لهم بالثواب والعقاب ، كاف لمن اعتصم ، كمن وقف على الجادة فحفظها ، ودفع ضرر السابلة بها .

وهو كقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : 14] والاقتصار على إضافة الرب إلى نفسه ، إما بطريق الاكتفاء لظهور المراد ، وإما للإشارة إلى أن اللطف والإعانة مخصوصة به

دونهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

(223/380)

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [57]

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي : تتولوا ، بحذف إحدى التاءين : ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ أي : فقامت الحجة عليكم : ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ استئناف بالوعيد لهم . أي : فيهلكهم ، ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم : ﴿ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً ﴾ أي : بتوليكم ؛ لاستحالته عليه ، بل تضرون أنفسكم . أو بذهابكم وهلاككم لا ينقص من ملكه شيء : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أي : رقيب عليه مهيمن ، فلا تخفى عليه أعمالكم ، فيجازيكم بحسبها ، أو حافظ حاكم مستول على كل شيء ، فلا يمكن أن يضره شيء .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ

﴾ [58] .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أي: عذابنا، أو أمرنا بالعذاب، وهو الريح العقيم: ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ وقد بين في غير آية، منها قوله: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: 6 - 7] .

فإن قلت: ما معنى تكرير التنجية؟ فالجواب: لا تكرير فيه؛ لأن الأول إخبار بأن نجاتهم برحمة الله وفضله، والثاني بيان ما نجوا منه، وأنه أمر شديد عظيم لا سهل، فهو للامتنان عليهم، وتحريض لهم على الإيمان. أو الأول إنجاء من عذاب الدنيا، والثاني من عذاب الآخرة، تعريضاً بأن المهلكين كما عذبوا في الدنيا بالسموم فهم معذبون في الآخرة بالعذاب الغليظ. ويرجح الأول بملاءمته لمقتضى المقام.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [59]

.

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾ تأنيث اسم الإشارة باعتبار القبيلة . وصيغة البعيد لتحقيرهم ، أو لتنزيلهم منزلة البعيد ؛ لعدمهم . وإذا كانت الإشارة لمصارعهم ، فهي للبعيد المحسوس ، وتعدى الجحود بالباء حملاً له على الكفر ؛ لأنه المراد . أو بتضمينه معناه ، كما أن (كفر) جرى مجرى (جحد) . فتعدى بنفسه في قوله : ﴿ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ [هود : 60] . وقيل : (كفر) ك : (شكر) يتعدى بنفسه وبالحرف . وظاهر كلام القاموس : أن (جحد) كذلك .

والمعنى : كفروا بالله ، وأنكروا آياته التي في الأنفس والآفاق الدالة على وحدانيته . وجمع (الرسل) مع أنه لم يرسل إليهم غير هود عليه الصلاة والسلام ؛ تفظيعاً لحالهم ، وإظهاراً لكمال كفرهم وعنادهم ، ببيان أن عصيانهم له عليه الصلاة والسلام عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين ؛ لاتفاق كلمتهم على التوحيد : ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [البقرة : من الآية 285] كذا في " العناية " وأبي السعود .

﴿ وَاتَّبَعُوا ﴾ أي : أطاعوا في الشرك : ﴿ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ لا يستدل بدليل ، ولا يقبله من غيره . يريد : رؤساءهم وكبراءهم ، ودعاتهم إلى تكذيب الرسل .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [60] .

﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ﴾ أي : جعلت تابعة لهم في الدارين ، أي : لازمة .

قال أبو السعود : والتعبير عن ذلك بالتبعية للمبالغة ، فكأنها لا تفارقهم ، وإن ذهبوا كل مذهب ، بل تدور معهم حيثما داروا . ولوقوعه في صحبة إتباعهم رؤساءهم . يعني : أنهم لما اتبعوهم أُتبعوا ذلك جزاء وفاقاً .

﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ﴾ إذ عبدوا غيره - وتقدم تعدية (كفر) - : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ دعا عليهم بالهلاك أو باللعنة ، وفيه من الإشعار بالسخط عليهم والمقت ما لا يخفى فظاعته . وتكرير حرف التنبيه وإعادة (عاد) للمبالغة في تهويل حالهم ، والحث على الاعتبار بنبئهم . و (قوم هود) عطف بيان لـ (عاد) فائدته النسبة بذكره عليه السلام ، الذي إنما استحقوا الهلاك بسببه ، كأنه قيل : عاد قوم هود الذين كذبوه .

وتناسب الآي بذلك أيضاً ، فإن قبلها : ﴿ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [هود : من الآية 59] . وقبل ذلك (حفيظ) و (غليظ) ، وغير ذلك مما هو على وزن (فعيل)

المناسب لـ (فعول) في القوافي – والله أعلم – . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 114.109 ﴾

(226/380)

فصل فى قصة هود عليه السلام

قال ابن كثير :

وهو هود بن شالخ بن أرفحشذ بن سام بن نوح عليه السلام ويقال إن هودا هو عابر بن شالخ ابن ارفحشذ بن سام بن نوح ويقال هود بن عبد الله بن رباح بن الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ذكره ابن جرير وكان من قبيلة يقال لهم عاد بن عوص بن سام بن نوح وكانوا عربا يسكنون الأحقاف وهي جبال الرمل وكانت باليمن من عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر واسم واديهم مغيث وكانوا كثيرا ما يسكنون الخيام ذوات الاعمدة الضخام كما قال تعالى ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد أي عاد إرم وهم عاد الأولى وأما عاد الثانية فمتأخرة كما سيأتي بيان ذلك في موضعه وأما عاد الأولى فهم عاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد أي مثل القبيلة وقيل مثل العمد والصحيح الأول كما بيناه في التفسير

ومن زعم أن إرم مدينة تدور في الأرض فتارة في الشام وتارة في اليمن وتارة في الحجاز وتارة في غيرها فقد أبعد النجعة وقال ما لا دليل عليه ولا برهان يعول عليه ولا مستند يركن إليه

وفي صحيح ابن حبان عن أبي ذر في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه منهم أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر ويقال إن هودا عليه السلام أول من تكلم بالعربية وزعم وهب بن منبه أن أباه أول من تكلم بها وقال غيره أول من تكلم بها نوح وقيل آدم وهو الأشبه قبل غير ذلك والله أعلم

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام العرب العاربة وهم قبائل كثيرة منهم عاد وثمود وجرهم وطسم وجديس وأميم ومدين وعملاق وعبيل وجاسم وقحطان وبنو يقطن وغيرهم

وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل وكان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى ولكن انطقه الله بها في غاية الفصاحة والبيان وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله صلى الله عليه و سلم

والمقصود أن عادا وهم عاد الأولى كانوا من عبد الأصنام بعد الطوفان وكان أصنامهم ثلاثة صدا وصمودا وهرا فبعث الله فيهم أخاهم هودا عليه السلام فدعاهم إلى الله كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح وما كان من أمرهم في سورة الأعراف وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح في سورة هود وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون ويا

قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا
تتولوا مجرمين قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك
بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون
من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو
آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم
ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربي على كل شيء حفيظ ولما جاء أمرنا
نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة

منا ونجيناهم من عذاب غليظ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر
كل جبار عنيد وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد
قوم هود وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون بعد قصة قوم نوح ثم أنشأنا من بعدهم قرنا
آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون وقال الملأ من
قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل
مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا

مثلكم إنكم إذا لخاسرون أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين قال رب انصرني بما كذبون قال عما قليل ليصبحن نادمين فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين وقال تعالى في سورة الشعراء بعد قصة قوم نوح أيضا كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعذبين فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم وقال تعالى في سورة حم السجدة وأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة

الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون وقال تعالى في سورة الأحقاف واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به إليكم ولكني أراكم قوما تجهلون فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين وقال تعالى في الذاريات وفي عاد إذ أرسلنا عليكم

الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم وقال تعالى في النجم وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى فبأي آلاء ربك تتمارى وقال تعالى في سورة اقتربت كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابي ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر وقال في الحاقة وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما

فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل يرى لهم من باقية وقال في سورة الفجر ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد وقد تكلمنا على كل من هذه القصص في أماكنها من كتابنا التفسير ولله الحمد والمنة

وقد جرى ذكر عاد في سورة براءة وإبراهيم والفرقان والعنكبوت وفي سورة ص وفي سورة ق ولنذكر مضمون القصة مجموعا من هذه السياقات مع ما يضاف إلى ذلك من الأخبار وقد قدمنا أنهم أول الأمم عبدوا الأصنام بعد الطوفان وذلك بين في قوله لهم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة أي جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش وقال في المؤمنون ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين وهم قوم هود على الصحيح وزعم آخرون أنهم ثمود لقوله فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء قالوا وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية وهذا الذي قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة والريح العاتية عليهم كما سيأتي في قصة أهل مدين أصحاب الأيكة فإنه اجتمع عليهم أنواع من العقوبات ثم لا خلاف أن عادا قبل ثمود

والمقصود أن عادا كانوا عربا جفاة كافرين عتاة متمردين في عبادة الأصنام فأرسل الله فيهم رجلا منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والاخلاص له فكذبوه وخالفوه وتنقصوه فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم في طاعته واستغفاره ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة أي هذا الأمر الذي تدعونا إليه سفه بالنسة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التي يرتجى منها النصر والرزق ومع هذا نظن أنك تكذب في دعواك أن الله أرسلك قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين أي ليس الأمر كما تظنون ولا ما تعتقدون أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المبلغ وعدم الزيادة فيه والنقص منه ويستلزم إبلاغه بعباة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم لا يبتغي منهم أجرا ولا يطلب منهم جعلا بل هو مخلص لله عز وجل في الدعوة إليه والنصح لخلقه لا يطلب أجره إلا من الذي أرسله فإن خير الدنيا والآخرة كله في يديه وأمره إليه ولهذا قال يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون أي ما لكم عقل تميزون به وتفهمون أني أدعوكم إلى الحق المبين الذي تشهد به فطركم التي خلقتم عليها وهو

دين الحق الذي بعث الله به نوحا وأهلك من خالفه من الخلق وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجرا عليه بل أبتغي ذلك عند الله مالك الضر والنفع ولهذا قال مؤمن يس اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون وقال قوم هود له فيما قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء يقولون ما جئتنا

بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به وما نحن بالذين

نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك بلا دليل أقمته ولا برهان نصبته وما نظن إلا أنك مجنون فيما تزعمه وعندنا إنما أصابك هذا أن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك في عقلك فاعتراك جنون بسبب ذلك وهو قولهم إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون وهذا تحد منه لهم وتبر من آلهتهم وتنقص منه لها وبيان أنها لا تنفع شيئًا ولا تضر وأنها جماد حكمها حكمه وفعلها فعله فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر فها أنا بريء منها لاعن لها فكيدوني ثم لا تنظرون أنتم جميعا بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه

ولا تؤخروني ساعة واحدة ولا طرفة عين فإني لا أبالي بكم ولا أفكر فيكم ولا أنظر إليكم إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم أي أنا متوكل على الله ومتأيد به وواثق بجنابه الذي لا يضيع من لاذ به واستند إليه فلست أبالي مخلوقا سواه ولست أتوكل إلا عليه ولا أعبد إلا إياه وهذا وحده برهان قاطع على أن هودا عبد الله ورسوله وأنهم على جهل وضلال في عبادتهم غير الله لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولا نالوا منه مكروها فدل على صدقه فيما جاءهم به وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح عليه السلام قبله في قوله يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون وهكذا قال الخليل عليه السلام ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من

نشاء إن ربك حكيم عليم وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون استبعدوا أن يبعث الله رسولا بشريا وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديما وحديثا كما قال تعالى أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وقال تعالى وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدي إلا أن قالوا أبعث الله شبرا رسولا قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ولهذا قال لهم هود عليه السلام أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم أي ليس هذا بعجيب فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته وقوله أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحى وما نحن بمبعوثين إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين قال

ربي انصرني استبعدوا المعاد وانكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها ترابا وعظاما وقالوا هيهات هيهات أي بعيد بعيد هذا الوعد إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحى وما نحن بمبعوثين أي يموت قوم ويحيى آخرون وهذا هو اعتقاد الدهرية كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة أرحام تدفع وأرض تبلغ

وأما الدورية فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى هذه الدار بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة وهذا كله كذب وكفر وجهل وضلال وأقوال باطلة وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل يستميل عقل الفجرة الكفرة من بني آدم الذين لا يعقلون ولا يهتدون كما قال تعالى ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون وقال لهم فيما وعظهم به أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون يقول لهم أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيما هائلا كالقصور ونحوها تعبثون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه وما ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام كما قال تعالى ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد فعاد إرم هم عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الأعمدة التي تحمل الخيام

ومن زعم أن إرم مدينة من ذهب وفضة وهي تتنقل في البلاد فقد غلط وأخطأ وقال ما لا دليل عليه وقوله وتتخذون مصانع قيل هي القصور وقيل بروج الحمام وقيل مآخذ الماء لعلكم تخلدون أي رجاء منكم أن تعمروا في هذه الدار أعمارا طويلة وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات

وعيون إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم وقالوا له مما قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين أي أجئتنا لنعبد الله وحده ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه فإن كنت صادقا فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال فإنا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك كما قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعذبين أما على قراءة فتح الخاء فالمراد به اختلاق الأولين أي أن هذا الذي جئت به الا اختلاق منك وأخذته من كتب الأولين هكذا فسره غير واحد من الصحابة والتابعين وأما على قراءة ضم الخاء واللام فالمراد به الدين أي أن هذا الدين الذي نحن عليه الا دين الآباء والأجداد من أسلافنا ولن نتحول عنه ولا نتغير ولا نزال متمسكين به ويناسب كلا القراءتين الأولى والثانية قولهم وما نحن بمعذبين قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين أي قد استحقيتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام أنتم نحتموها وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان أي لم ينزل على ما ذهبتم إليه دليلا ولا

برهانا وإذا أبيتم قبول الحق وتماديتم في الباطل وسواء عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم وبأسه الذي لا يرد ونكاله الذي لا يصد وقال تعالى قال رب انصرني بما كذبون قال عما قليل ليصبحن نادمين فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين وقال تعالى قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوما تجهلون فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين وقد ذكر الله تعالى خبر اهلاكهم في غير ما آية كما تقدم مجملا ومفصلا كقوله فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين وكقوله ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم الا بعدا لعاد قوم هود وكقوله فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبدا للقوم الظالمين وقال تعالى فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم

وأما تفصيل إهلاكهم فلما قال تعالى فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما أستعجلتم به ريح فيها عذاب أليم كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب أنهم كانوا ممحلين مسنتين فطلبوا السقيا فرأوا عارضا في السماء وظنوه سقيا رحمة فإذا هو سقيا عذاب ولهذا قال تعالى بل هو ما استعجلتم به أي من وقوع العذاب وهو قولهم فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ومثلها في الأعراف وقد ذكر المفسرون وغيرهم ههنا الخبر الذي ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن بشار قال فلما أبو إلا الكفر بالله عز وجل أمسك عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك قال وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه إنما يطلبونه بحرمه ومكان بيته وكان معروفا عند أهل ذلك الزمان وبه العماليق مقيمون وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وكان سيدهم إذ ذاك رجلا يقال له معاوية بن بكر وكانت أمه من قوم عاد واسمها جلهدة ابنة الخيبري قال فبعث عاد وفدا قريبا من سبعين رجلا ليستقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر يغنيهم الجرادتان قينتان لمعاوية وكانوا قد وصلوا إليه في شهر فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه واستحيى منهم أن

يأمرهم بالانصراف عمل شعرا فيعرض لهم بالانصراف وأمر القينتين أن تغنيهم به فقال

. . . ألا يا قيل ويحك قم فهيم . . . لعل الله يمنحنا غماما . . . فيسقي أرض عاد ان

عادا . . . قد أمسوا لا يبينون الكلاما

من العطش الشديد فليس نرجو . . . به الشيخ الكبير ولا الغلاما . . . وقد كانت

نساؤهم بخير . . . فقد أمست نساؤهم أياما . . . وإن الوحش يأتيهم جهارا . . . ولا

يخشى لعادي سهاما . . . وأنتم ههنا فيما اشتهيتم . . . نهاركم وليلكم تماما . . . فقبح

وفدكم من وفد قوم . . . ولا لقوا التحية والسلاما . . .

قال فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم فدعا داعيهم وهو قيل ابن عنز فأنشأ الله سحابات ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء اختر لنفسك ولقومك من هذا السحاب فقال اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه اخترت رمادا رمددا لا تبقى من عاد أحدا لا والدا يترك ولا ولدا إلا جعلته همدا إلا بني اللودية الهمدا قال وهو بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم قال ومن بقي من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة قال وساق الله السحابة

السوداء التي اختارها قيل ابن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا فيقول تعالى بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها أي كل شيء أمرت به فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها فهد فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت فلما أفاقت قالوا ما رأيت يا فهد قالت رأيت ريحا فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها فسحرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما والحسوم الدائمة فلم تدع من عاد أحدا إلا هلك قال واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لي في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ما يصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود ويلتذ الأنفس وإنها لتمر على عاد بالطعن فيما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة وذكر تمام القصة

وقد روى الإمام أحمد حديثا في مسنده يشبه هذه القصة فقال حدثنا زيد بن الحباب حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي حدثنا عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن الحارث وهو ابن حسان ويقال ابن يزيد البكري قال خرجت أشكو العلا بن الحضرمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمررت بالربذة فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها فقالت

لي يا عبد الله إن لي إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم حاجة فهل أنت مبلغي إليه قال

فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله وإذا راية سوداء تخفق وإذا بلال متقلد

السيف بين يدي رسول الله صلى الله عليه و سلم فقلت ما شأن الناس قالوا يريد أن يبعث

عمرو بن العاص وجها قال فجلست قال فدخل منزله أو قال رحله فاستأذنت عليه فأذن

لي فدخلت فسلمت فقال هل كان بينكم وبين بني تميم شيء فقلت نعم وكانت لنا الدبرة

عليهم ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها فسألتني أن أحملها إليك وها هي بالباب فأذن

لها فدخلت فقلت يا رسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزا فاجعل الدهنا

فإنها كانت لنا قال فحميت العجوز واستوفزت وقالت يا رسول الله فإلى أين تضطر مضرك

قال فقلت إن مثلي ما قال الأول معزى حملت حتفها حملت هذه الأمة ولا أشعر أنها كانت

لي خصما أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد قال هيه وما وافد عاد وهو أعلم

بالحديث منه ولكن يستطعمه قلت أن عادا قحطوا فبعثوا وفدا لهم يقال له قيل فمر بمعاوية

بن بكر فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر ويغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان فلما مضى الشهر

خرج إلى جبال تهامة فقال اللهم إنك تعلم أني لم أجىء إلى مريض فأداويه ولا إلى أسير

فأفاديه اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه فمرت به سحابات سود فنودي منها اختر فأومى إلى سحابة منها سوداء فنودي منها خذها رمادا رمددا لا تبقى من عاد أحدا قال فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح الا كقدر ما يجري في خاتمي هذا من الريح حتى هلكوا قال أبو وائل وصدق وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وفدا لهم قالوا لا تكن كوافد عاد وهكذا رواه الترمذي عن عبد بن حميد عن زيد بن الحباب به ورواه النسائي من حديث سلام أبي المنذر عن عاصم بن بهدلة ومن طريقه رواه ابن ماجه وهكذا أورد هذا الحديث وهذه القصة عند تفسير هذه القصة غير واحد من المفسرين كابن جرير وغيره وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة فإن فيما ذكره ابن إسحاق وغيره ذكر لمكة ولم تبن الا بعد إبراهيم الخليل حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل فنزلت جرهم عندهم كما سيأتي وعاد الأولى قبل الخليل وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى لا يشبه كلام المتقدمين وفيه أن في تلك السحابة شرر نار وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر وقد قال ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من أئمة التابعين هي الباردة والعاتية الشديدة الهبوب سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما أي كوامل متتابعات قيل كان أولها الجمعة وقيل الأربعاء فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية شبههم

بأعجاز النخل التي لا رؤوس لها وذلك لأن الريح كانت تجيء إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس كما قال إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر أي في يوم نحس عليهم مستمر عذابه عليهم تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ومن قال إن اليوم النحس المستمر هو يوم الأربعاء وتشاءم به لهذا الفهم فقد أخطأ وخالف القرآن فإنه قال في الآية الأخرى فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات فلو كانت نحسات في أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشؤمة وهذا لا يقوله أحد وإنما المراد في أيام نحسات أي عليهم وقال تعالى وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم أي التي لا تنتج خيرا فإن الريح المفردة لا تنثر سحابا ولا تلقح شجرا بل هي عقيم لا نتيجة خير لها ولهذا قال ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم أي كالشيء البالي الفاني الذي لا ينتفع به بالكلية وقد ثبت في الصحيحين من حديث شعبة عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه

قال نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور وأما قوله تعالى واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم فالظاهر أن عادا هذه هي عاد الأولى فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود وهم الأولى ويحتمل أن يكون المذكورون في هذه القصة هم عاد الثانية ويدل عليه ما ذكرنا وما سيأتي من الحديث عن عائشة رضي الله عنها وأما قوله فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا فإن عادا لما رأوا هذا العارض وهو الناشيء في الجو كالسحاب ظنوه سحاب مطر فإذا هو سحاب عذاب اعتقدوه رحمة فإذا هو نقمة رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر قال الله تعالى بل هو ما استعجلتم به أي من العذاب ثم فسره بقوله ريح فيها عذاب أليم يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب التي استمرت عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية فلم تبق منهم أحدا بل تتبعتهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيران فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة فكما منوا بقوتهم وشدتهم وقالوا من أشد منا قوة سلط الله عليهم ما هو أشد منهم قوة وأقدر عليهم وهو الريح العقيم ويحتمل أن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة ظن من بقي منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغياث لمن بقي منهم فأرسلها الله عليهم شررا ونارا كما ذكره غير واحد ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار وهو أشد ما يكون

من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة مع الصيحة التي ذكرها في سورة قد أفلح المؤمنون والله أعلم

وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس حدثنا ابن فضل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح وما فيها قالوا هذا عارض ممطرنا فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة وقد رواه الطبراني عن عبدان بن احمد عن إسماعيل بن زكريا الكوفي عن أبي مالك عن مسلم الملائي عن مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ما فتح الله على عاد من الريح الأمثل موضع الخاتم ثم أرسلت عليهم البدو إلى الحضر فلما رآها أهل الحضر قالوا هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا وكان أهل البوادي فيها فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا قال عتت على خزائنها حتى خرجت من خلال الأبواب قلت وقال غيره خرجت بغير حساب

والمقصود أن هذا الحديث في رفعه نظر ثم اختلف فيه على مسلم الملائي وفيه نوع اضطراب والله أعلم وظاهر الآية أنهم رأوا عارضا والمفهوم منه لمعة السحاب كما دل عليه حديث الحارث بن حسان البكري أن جعلناه مفسرا لهذه القصة وأصرح منه في ذلك ما رواه مسلم في صحيحه حيث قال

حدثنا أبو الطاهر حدثنا ابن وهب سمعت ابن جريج يحدثنا عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا عصفت الريح قال اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به قالت وإذا عببت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا امطرت سرى عنه فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال لعله يا عائشة كما قال قوم عاد فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ابن جريج

طريق أخرى قال الإمام أحمد حدثنا هارون بن معروف أنبأنا عبد الله بن وهب أنبأنا عمرو وهو ابن الحارث أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار عن عائشة أنها قالت ما

رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم مستجمعا ضاحكا قط حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم وقالت كان إذا رأى غيما أو ريحا عرف ذلك في وجهه قالت يا رسول الله الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية فقال يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب قد عذب قوم نوح بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا فهذا الحديث كالصريح في تغاير القصتين كما أشرنا إليه أولا فعلى هذا تكون القصة المذكورة في سورة الأحقاف خبرا عن قوم عاد الثانية وتكون بقية السياقات في القرآن خبرا عن عاد الأولى والله أعلم بالصواب وهكذا رواه مسلم عن هارون بن معروف وأخرجه البخاري وأبو داود من حديث ابن وهب وقدمنا حج هود عليه السلام عند ذكر حج نوح عليه السلام وروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه ذكر صفة قبر هود عليه السلام في بلاد اليمن وذكر آخرون أنه بدمشق وبجامعها مكان في حائطه القبلي يزعم بعض الناس أنه قبر هود عليه السلام والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البداية والنهاية جـ 1 صـ 120 . 130 ﴾

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة هود (11) : الآيات 6 إلى 11]

وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (6) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (7) وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (8) وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10)

إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (11)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (من) حرف جرّ زائد (دابّة) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ (في الأرض) جارّ ومجرور نعت لدابّة، (إلّا) أداة حصر (على اللّه) جارّ ومجرور خبر مقدّم (رزق) مبتدأ مؤخّر مرفوع و (ها) ضمير مضاف إليه في محلّ جرّ (الواو) عاطفة (يعلم) مضارع مرفوع، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (مستقرّ) مفعول به منصوب و (ها) مثل الأول (الواو) عاطفة (مستودعها) مثل مستقرّها ومعطوف عليه (كلّ) مبتدأ مرفوع " 1 "

، (في كتاب) جارّ ومجرور خبر المبتدأ (مبين) نعت لكتاب مجرور.

جملة: "ما من دابّة... " لا محلّ لها استئنافيّة.

(247/380)

وجملة: "على اللّه رزقها" في محلّ رفع خبر المبتدأ دابّة.

وجملة: "يعلم... " في محلّ رفع معطوفة على جملة الخبر السابقة.

وجملة: "كلّ في كتاب... " لا محلّ لها استئنافيّة تعليليّة.

(الواو) عاطفة (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر المبتدأ (خلق) فعل ماض، والفاعل هو، وهو العائد (السموات) مفعول به منصوب، وعلامة النصب الكسرة (الأرض) معطوف على السموات بالواو منصوب (في ستة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خلق)، (أيام) مضاف إليه مجرور (الواو) اعتراضيّة (كان) فعل ماض ناقص - ناسخ - (عرش) اسم كان مرفوع و (الهاء) ضمير مضاف إليه في محلّ جرّ (على الماء) جارّ ومجرور خبر كان (اللام) للتعليل (يبلو) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام و (كم) ضمير في محلّ نصب مفعول به.

---

(1) الذي سوّغ الابتداء بالنكرة أنّها دالّة على عموم ، وأنها على تقدير مضاف أي : كلّ شيء في الحياة . . أو كلّ ما ذكر في مستهلّ الآية .

(248/380)

والمصدر المؤوّل (أن يبلوكم . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (خلق) ، (أيّ) اسم استفهام مبتدأ مرفوع و (كم) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (أحسن) خبر مرفوع (عملا) تمييز منصوب (الواو) استئنافيّة (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (قلت) فعل ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط (إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و (كم) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (مبعوثون) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (مبعوثون) (الموت) مضاف إليه مجرور (اللام) لام القسم (يقولنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . و (النون) نون التوكيد (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (كفروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (إن) حرف ناف (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (إلّا) أداة حصر (سحر) خبر مرفوع (مبين) نعت لسحر مرفوع .

وجملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة ما من دابة . .

وجملة: " خلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الذي.

وجملة: "كان عرشه على الماء " لا محلّ لها اعتراضيّة.

وجملة: "يبلوكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة: " أيّكم أحسن . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل البلاء المعلّق عن العمل بالاستفهام " 1 " .

وجملة: " قلت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) هذا على رأي الزمخشريّ وتبعه أبو حيّان لأن البلوى فيها معنى العلم، ولكن ابن هشام رفض هذا التخريج فالجملة استئنافيّة لا محلّ لها.

(249/380)

وجملة: " إنّكم مبعوثون . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " يقولنّ الذين كفروا " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . .

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم.

وجملة: "كفروا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " إن هذا إلّا سحر " في محلّ نصب مقول القول الثاني.

(الواو) عاطفة (لئن أخّرنا) مثل لئن قلت (عن) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أخّرنا)، (العذاب) مفعول به منصوب (إلى أمّة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أخّرنا)، (معدودة) نعت لأمّة مجرور (اللام) لام القسم (يقولنّ) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون، وقد حذفت لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين ضمير في محلّ رفع فاعل، و (النون) نون التوكيد (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يحبس) مضارع مرفوع، و (الهاء) ضمير مفعول به، والفاعل هو. (ألا) أداة تنبيه (يوم) ظرف زمان منصوب متعلق بـ (مصروفا)، (يأتي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة عي الياء، والفاعل هو أي العذاب و (هم) ضمير مفعول به (ليس) فعل ماض ناقص جامد - ناسخ - واسمه ضمير مستتر تقديره هو (مصروفا) خبر ليس منصوب (عنهم) مثل الأول متعلّق بـ (مصروفا)، (الواو) عاطفة (حاق) فعل ماض (بهم) مثل عنهم متعلّق بـ (حاق)، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (كانوا) فعل ماض ناقص - ناسخ - مبنيّ على الضمّ.. والواو ضمير متّصل مبنيّ في محلّ رفع اسم كان (به) مثل عنهم متعلّق بـ (يستهزئون) وهو فعل مضارع وعلامة الرفع ثبوت النون.. والواو فاعل.

وجملة: "إن أخرنا..." لا محلّ لها معطوفة على جملة إن قلت.

وجملة: "يقولنّ..." لا محلّ لها جواب القسم.. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم.

وجملة : " ما يحبسه " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يحبسه " في محلّ رفع خبر ما .

وجملة : " يأتيهم " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ليس مصروفا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " حاق بهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ليس مصروفا .

وجملة : " كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يستهزئون " في محلّ نصب خبر كانوا .

(250/380)

(الواو) عاطفة (لئن أذقنا) مثل لئن قلت (الإنسان) مفعول به منصوب (من) حرف جرّ و (نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من رحمة - نعت تقدّم على المنعوت - (رحمة) مفعول به ثان منصوب (ثمّ) حرف عطف (نزعنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (نا) ضمير فاعل ، والفعل في محلّ جزم معطوف على (أذقنا) ، و (ها) ضمير مفعول به (منه) مثل منّا متعلّق بـ (نزعنا) ، (إنّ) حرف مشبه بالفعل و (الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) المزحلقة تفيد التوكيد " 1 " . (يئوس) خبر إنّ مرفوع مرفوع (كفور) خبر ثان

مرفوع.

وجملة: "إن أذقنا ... "لا محلّ لها معطوفة على جملة إن قلت ..

وجملة: "نزعناها ... "لا محلّ لها معطوفة على جملة إن أذقنا.

وجملة: "إنّه ليؤوس ... "لا محلّ لها جواب القسم المقدّر ..

---

(1) وهذه اللام واجبة هنا لأن الجملة جواب القسم، فاللام بحكم لام القسم. [.....]

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم.

(الواو) وعاطفة (لئن أذقنا) مثل لئن قلت، و (الهاء) ضمير مفعول به (نعماء) مفعول به ثان منصوب، ومنع من التنوين لأنه منته بألف التأنيث الممدودة (بعد) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (أذقناه)، (ضرّاء) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة فهو مثل نعماء (مسّ) فعل ماض، و (التاء) تاء التأنيث، و (الهاء) ضمير مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (ليقولنّ) مثل الأول والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (ذهب) مثل خلق (السيّئات) فاعل مرفوع (عنّي) مثل عنهم، وفيه نون الوقاية قبل ياء المتكلّم، متعلّق بـ (ذهب)، (إنّه لفرح فخور) مثل إنّه ليؤوس كفور.

وجملة : " إن أذقناه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن قلت .

وجملة : " مسّته . . . " في محلّ جرّ نعت لضرّاء .

وجملة : " يقولنّ " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

وجملة : " ذهب السيّئات " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّه لفرح . . . " في محلّ نصب حال من الضمير المجرور فهي حال مؤكّدة لمضمون الجملة قبلها " 1 " .

(إلّا) حرف استثناء " 2 " ، (الذين) اسم موصول مبنيّ على الفتح في محلّ نصب على الاستثناء المتّصل " 3 " (صبروا) مثل كفروا ، ومثله (عملوا) ، (الصالحات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (أولئك)

---

(1) أو هي استئنافيّة لا محلّ لها .

(2) وقد تكون بمعنى لكن ، وما بعدها جملة اسميّة من مبتدأ وخبر .

(3) من الإنسان المتقدّم في الآية السابقة الدال على الجنس . . وقد يكون الاستثناء منقطعا إذا كان الإنسان رجلا بعينه.

(253/380)

اسم إشارة مبنيّ على الكسر في محلّ رفع مبتدأ . . و (الكاف) حرف خطاب (اللام) حرف جرّ و (هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (مغفرة) مبتدأ مؤخّر مرفوع (أجر) معطوف على مغفرة بالواو مرفوع (كبير) نعت لأجر مرفوع.

وجملة: " صبروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة: " أولئك لهم مغفرة . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " لهم مغفرة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

الصرف:

(مصروفا) ، اسم مفعول من صرف الثلاثيّ، ووزنه مفعول.

(حاق) ، فيه إعلال بالقلب أصله حيق، مضارعه يحيق، جاءت الياء متحرّكة بعد فتح

قلبت ألفا . . وانظر الآية (10) من سورة الأنعام .

(يئوس) ، مبالغة اسم الفاعل من يئس ييئس باب فرح ، وزنه فعول . . وقد يكون صفة مشبّهة .

(كفور) مبالغة اسم الفاعل من كفر يكفر باب نصر ، وزنه فعول . .

الصرف :

(نوفّ) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، أصله نوفّي ، وقد يكون صفة مشبّهة .

(نعماء) ، اسم بمعنى النعمى ، من نعم ينعم من الأبواب الأول والثالث والرابع ، وزنه فعلاء ، والهمزة زائدة للتأنيث .

البلاغة

---

1 - قوله تعالى : " إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ " أي مثله في الخديعة والبطلان ، فالتركيب من التشبيه البليغ ، والمراد إنكار البعث بطريق الكناية الإيمائية .

2 - الاستعارة المكنية : في قوله تعالى " وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً " أي أعطيناه نعمة من صحة وأمن وجدة ، والإذاقة في الأصل تناول الشيء بالفم لإدراك الطعام ، ثم أستعير

للذات ، تشبيها لها بما يذاق ثم يزول بسرعة كما تزول الطعوم .

3 – الطباق : بين النعماء والضراء .

الفوائد

– تعليق الفعل عن العمل :

ورد في هذه الآية قوله تعالى لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا في هذه الآية نقول بأن الفعل (يبلوكم) علّق عن نصب المفعول به لمجيء المفعول به جملة اسمية مصدرة باستفهام ، ونقول في الإعراب : أيكم مبتدأ مرفوع والكاف ضمير متصل في محل جر بالإضافة والميم للجمع ، أحسن خبر مرفوع ، وجملة أيكم أحسن في محل نصب مفعول به ثان للفعل يبلوكم .

ومن المفيد في هذا المقام أن نذكر نبذة عما يتعلق بهذا البحث الهام :

1 – قد يعلق الفعل المتعدي لمفعول واحد عن العمل ، وذلك عند ما تصدّر الجملة باستفهام كقوله تعالى فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً وقوله تعالى يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ 2 – وقد يعلق الفعل المتعدي إلى مفعولين عن العمل ، إذا تصدرت الجملة باستفهام . ونعربها جملة سدت مسد المفعولين . كقوله تعالى وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى

[سورة هود (11) : آية 12]

فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ

مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (12)

الإعراب:

(255/380)

(الفاء) استئنافيّة (لعلّ) حرف مشبّه بالفعل للترجي " 1 " - ناسخ - (الكاف) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (تارك) خبر مرفوع (بعض) مفعول به لاسم الفاعل تارك منصوب (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (يوحى) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو، وهو العائد (إلى) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يوحى) ، (الواو) عاطفة (ضائق) معطوف على تارك مرفوع " 2 " ، (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بضائق (صدر) فاعل اسم الفاعل ضائق مرفوع و (الكاف) مضاف إليه (أن) حرف مصدريّ ونصب (يقولوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون.. والواو فاعل (لولا) حرف تحضيض بمعنى هلّا (أنزل) فعل ماض مبنيّ للمجهول (على) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنزل) ، (كنز) نائب الفاعل مرفوع (أو) حرف عطف (جاء) فعل ماض (مع) ظرف منصوب متعلّق بـ (جاء) " 3 " ، و (الهاء) ضمير مضاف إليه (ملك) فاعل مرفوع.

والمصدر المؤوّل (أن يقولوا) في محلّ نصب مفعول لأجله على حذف مضاف أي خشية أن يقولوا " 4 " (إنّما) كافّة ومكفوفة (أنت) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (نذير) خبر المبتدأ مرفوع (الواو) عاطفة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (على كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بوكيل (شيء) مضاف إليه مجرور (وكيل)

---

(1) وقيل هو للتقرير.. وقيل هو للاستفهام.. وقيل هو للتبعيد لأن الترجّي المقتضي التوقّع لا يليق بمقام النبوّة.

(2) أو هو خبر مقدّم و (صدرك) مبتدأ مؤخّر.. والجملة معطوفة على تارك.

(3) أو متعلّق بحال من ملك.

(4) يجوز أن يكون مجرورا بلام التعليل المقدّرة المنفيّة أي لئلّا يقولوا...

خبر مرفوع.

جملة: "لعلّك تارك..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يوحى إليك..." لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "يقولوا..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة : " أنزل عليه كنز " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " جاء معه ملك " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " أنت نذير " لا محلّ لها تعليل لمقدّر أي : لا تسمع لهم لأنك نذير لهم .

وجملة : " اللّه . . وكيل " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنت نذير .

الصرف :

(تارك) ، اسم فاعل من ترك الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

(ضائق) ، اسم فاعل من ضاق الثلاثيّ ، وزنه فاعل ، وقد قلب حرف العلّة فيه إلى همزة ، وهذا شأن كلّ فعل معتلّ أجوف .

(كنز) ، اسم بمعنى المكنوز من فعل كنز يكنز باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون .

الفوائد

- هل يكتم الرسول (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) بعض ما أنزل عليه ؟

ورد في هذه الآية قوله تعالى : فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ الخطاب للنبي (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) . يقول اللّه عز وجل لنبيه : فلعلك تارك بعض ما يوحي إليك ربك أن تبلغه إلى من أمرك أن تبلغ ذلك إليه . وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ يعنى ويضيق صدرك بما يوحى إليك ، فلا تبلغهم إياه ، وذلك لأن كفار مكة قالوا : ائت بقرآن غير هذا ، ليس فيه سب آلهتنا . فهمّ النبي (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) أن يترك ذكر آلهتهم ظاهرا ،

فأنزل اللّه عز وجل : فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ من ذكر آلهتهم . هذا ما ذكره المفسرون وأجمع المسلمون على أن النبي (صلى اللّه عليه وآله وسلم) فيما كان طريقه البلاغ ، فإنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منه ، وأنه (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) بلّغ جميع ما أنزل اللّه عليه إلى أمته ، ولم يكتم منه شيئا وأجمعوا على أنه لا يجوز على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) خيانة في الوحي والإنذار ، ولا ترك شيئا مما أوحي إليه ، وقد ردّ العلماء على هذه الشبهة في الآية بقولهم : إن الكفار كانوا يستهزئون بالقرآن ، ويضحكون منه ، وكان رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلم) يضيق صدره بذلك ، فأمره اللّه سبحانه وتعالى بتبليغ ما أوحى إليه ، وأن لا يلتفت إلى استهزائهم ، وبين له أن تحمل ضررهم أهون من كتم شيء من الوحي عنهم وقيل : إن اللّه سبحانه وتعالى ، مع علمه بأن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) لا يترك شيئا من الوحي ، هيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة باستهزائهم ، وقال تعالى يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ

[سورة هود (11) : آية 13]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

صادِقِينَ (13)

الإعراب:

(258/380)

(أم) هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة (يقولون) مضارع مرفوع.. والواو فاعل (افترى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف و (الهاء) ضمير مفعول به، والفاعل هو (قل) فعل أمر، والفاعل أنت (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر يفسّره الشرط الآتي (ائتوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون.. والواو فاعل (بعشر) جارّ ومجرور متعلّق ب (ائتوا)، (سور) مضاف إليه مجرور (مثل) نعت لعشر مجرور و (الهاء) ضمير مضاف إليه (مفتريات) نعت لعشر مجرور " 1 "، (الواو) عاطفة (ادعوا) مثل ائتوا (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (استطعتم) فعل ماض مبنيّ على السكون.. و (تم) ضمير فاعل (من دون) جارّ ومجرور حال من العائد المحذوف (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه

---

(1) أو حال من عشر لأن النكرة مختصّة بالإضافة، منصوبة.

(259/380)

مجرور (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط. والضمير (تم) في محلّ رفع اسم كان (صادقين) خبر كنتم منصوب وعلامة النصب الياء.

جملة: "يقولون ..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "افتراه" في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "قل ..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "ائتوا ...." في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي: إن كنتم صادقين في ما تدّعون فأتوا بعشر ....

وجملة: "ادعوا ..." معطوفة على جملة ائتوا.

وجملة: "استطعتم ..." لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "كنتم صادقين" لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "كنتم صادقين ......" لا محلّ لها استئنافيّة.. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه الكلام المتقدّم.

الصرف:

(مفتريات) ، جمع مفتراة مؤنّث مفترى ، وهو اسم مفعول من الخماسيّ افترى ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وفتح العين . . وفي كلمة (مفترى) إعلال بالقلب ، أصله مفتري - بياء في آخره - جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا ، وقد عادت الياء في الجمع .

[سورة هود (11) : آية 14]

فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (إن) مثل المتقدّم (لم) حرف نفي (يستجيبوا) مضارع مجزوم فعل الشرط " 1 " ، وعلامة الجزم حذف النون . .

---

(1) انظر الآية (24) من سورة البقرة ففيها مزيد تفصيل حول جزم فعل الشرط المسبوق ب (لم) .

والواو فاعل (اللام) حرف جر و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يستجيبوا) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (اعلموا) مثل ائتوا " 1 " ، (أنّما) كافّة ومكفوفة (أنزل) فعل ماض مبنيّ للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي القرآن (بعلم) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من نائب الفاعل أي ملتبسا بعلم اللّه (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه (الواو) عاطفة (أن) مخفّفة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف (لا) نافية للجنس (إله) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب ، وخبر لا محذوف تقديره موجود (إلّا) حرف للاستثناء (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع بدل من الضمير المستكنّ في الخبر (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (هل) حرف استفهام فيه معنى الأمر (أنتم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (مسلمون) خبر مرفوع ، وعلامة الرفع الواو .

جملة : " يستجيبوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : " اعلموا . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " أنزل بعلم اللّه " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي اعلموا " 3 " .

وجملة : " لا إله إلّا هو " في محلّ رفع خبر أن المخفّفة .

وجملة : " هل أنتم مسلمون " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن أنزل القرآن بعلم اللّه فهل أنتم مسلمون " 4 " .

والمصدر المؤوّل (أن لا إله إلّا هو) في محلّ نصب معطوف على

(1) في الآية السابقة (13) .

(2) أو معطوفة على الجملة المقدّرة بعد قل في الآية السابقة في محلّ نصب .

(3) يحتمل أن تكون الجملة صلة لـ (ما) الموصولة وهي اسم أنّ ، والخبر بعلم اللّه ، وحينئذ تكتب أنّ ما منفصلة .

(4) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(262/380)

محلّ أنّما أنزل بعلم اللّه .

[سورة هود (11) : آية 15]

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ (15)

الإعراب :

(من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (كان) فعل ماض ناقص مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط ، واسمه ضمير مستتر تقديره هو يعود على اسم الشرط (يريد) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (الحياة) مفعول به منصوب (الدنيا) نعت للحياة منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (زينة) معطوف على الحياة منصوب و (ها)

ضمير مضاف إليه (نوفّ) مضارع مجزوم جواب الشرط وعلامة الجزم حذف حرف العلّة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (إلى) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نوفّ) ، (أعمال) مفعول به منصوب و (هم) ضمير مضاف إليه (في) حرف جرّ و (ها) ضمير في محلّ جر متعلّق بـ (نوفّ) ، (أعمال) مفعول به منصوب و (هم) ضمير مضاف إليه (في) حرف جرّ و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نوفّ) ، (الواو) عاطفة (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (فيها) مثل الأول متعلّق بـ (يبخسون) ، (لا) نافية (يبخسون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع . . والواو نائب الفاعل .

جملة : " من كان يريد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(263/380)

وجملة : "كان يريد . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : "يريد الحياة . . . " في محلّ نصب خبر كان .

وجملة : "نوفّ . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا . [. . . . .]

وجملة : " هم . . لا يبخسون " لا محلّ لها معطوفة على جواب الشرط.

وجملة : " لا يبخسون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

[سورة هود (11) : الآيات 16 إلى 17]

أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (16) أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (17)

الإعراب :

(أولئك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ . . والكاف حرف خطاب (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر (ليس) فعل ماض ناقص (اللام) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر ليس (في الآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بالخبر المقدّر " 1 " ، (إلّا) أداة حصر (النار) اسم ليس مؤخّر مرفوع (الواو) عاطفة (حبط) فعل ماض (ما) حرف مصدريّ " 2 " ، (صنعوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (فيها) مثل المتقدّم

" 3 " متعلّق بـ (صنعوا) .

والمصدر المؤوّل (ما صنعوا) في محلّ رفع فاعل حبط .

(الواو) عاطفة (باطل) خبر مقدّم مرفوع (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر والعائد محذوف " 4 " .

---

(1) أو متعلّق بحال من النار .

(2) أو اسم موصول في محلّ رفع فاعل ، والعائد محذوف .

(3) في الآية (15) من هذه السورة .

(4) أو هو حرف مصدريّ ، والمصدر المؤوّل في محلّ رفع مبتدأ ، أي باطل عملهم .

(كانوا) فعل ماض ناقص - ناسخ - والواو اسم كان (يعملون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " أولئك الذين . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " ليس لهم . . إلّا النار " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " حبط ما صنعوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة: " صنعوا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

وجملة: " باطل ما كانوا... " لا محلّ لها معطوفة على جملة حبط..

وجملة: " كانوا يعملون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: " يعملون " في محلّ نصب خبر كانوا.

(الهمزة) للاستفهام (الفاء) عاطفة (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ، خبره محذوف تقديره كغيره، أو: كمن ليس كذلك (كان) مثل السابق " 1 "، (على بيّنة) جارّ ومجرور متعلّق بخبر كان (من ربّ) جارّ ومجرور نعت لبيّنة و (الهاء) مضاف إليه، (الواو) عاطفة (يتلو) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الواو (الهاء) ضمير مفعول به (شاهد) فاعل مرفوع (من) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لشاهد، والضمير عائد على الله، (الواو) عاطفة (من قبل) جارّ ومجرور حال من كتاب، و (الهاء) ضمير مضاف إليه (كتاب) معطوف على شاهد " 2 " مرفوع (موسى) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة المقدّرة

---

(1) في الآية (15) من هذه السورة.

(2) لا مانع من عطف (كتاب) على (شاهد) مع وجود الفاصل لأنّ الفاصل هو الجار.. ويجوز أن يكون (كتاب) مبتدأ خبره الجارّ والمجرور قبله، والعطف هو من عطف الجمل.

على الألف فهو ممنوع من الصرف (إماما) حال منصوبة من كتاب عاملها يتلوه، (الواو) عاطفة (رحمة) معطوفة على (إماما) منصوب (أولئك) مثل الأول (يؤمنون) مثل يعملون (به) مثل منه متعلّق بـ (يؤمنون)، (الواو) عاطفة (من) مرّ إعرابه " 1 "، (يكفر) مضارع مجزوم فعل الشرط، والفاعل هو (به) مثل منه متعلّق بـ (يكفر)، (من الأحزاب) جارّ ومجرور متعلّق بحال من فاعل يكفر (الفاء) رابطة لجواب الشرط (النار) مبتدأ مرفوع (موعد) خبر مرفوع و (الهاء) مضاف إليه (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (لا) ناهية جازمة (تك) مضارع مجزوم وعلامة الجزم السكون الظاهر على النون المحذوفة للتخفيف، واسمه ضمير مستتر تقديره أنت " 2 "، (في مرية) جارّ ومجرور متعلّق بخبر تك (منه) مثل الأول متعلّق بنعت لمرية (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و (الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (الحقّ) خبر مرفوع (من ربّ) مثل الأول متعلّق بحال من الحقّ..

و (الكاف) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (لكن) حرف مشبّه بالفعل للاستدراك (أكثر) اسم لكنّ منصوب (الناس) مضاف إليه مجرور (لا) نافية (يؤمنون) مثل يعملون.

وجملة: " من كان علي بيّنة... " لا محلّ لها معطوفة على جملة أولئك الذين...

وجملة : "كان على بيّنة . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : "يتلوه شاهد . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : "أولئك يؤمنون به . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : "يؤمنون به . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

---

(1) في الآية (15) من هذه السورة .

(2) الخطاب للرسول عليه السلام والمقصود به غيره .

(267/380)

وجملة : "من يكفر به . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة أولئك يؤمنون به .

وجملة : "يكفر به . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : "النار موعده" في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : "لا تك في مرية" لا محلّ لها معطوفة على جملة مقدّرة استئنافيّة أي تنبّه فلا تك في مرية " 2 " .

وجملة : "إنّه الحقّ . . . "لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : "لكنّ أكثر الناس . . . "لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

وجملة : "لا يؤمنون" في محلّ رفع خبر لكنّ .

الصرف :

(موعد) ، اسم مكان من فعل وعد الثلاثيّ ، وزنه مفعل بفتح الميم وكسر العين لأنه معتل مثال محذوف الفاء في المضارع .

(مرية) ، اسم مصدر من (ماري) الرباعيّ ، وهنا بمعنى الشكّ بكسر الميم ، وزنه فعلة ، وقد تضمّ عند أسد وتميم .

الفوائد

- من الاستفهامية :

ورد في هذه الآية قوله تعالى أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ من : اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ ، ومن المعلوم أن (من) تأتي استفهامية وموصولة وشرطيه وموصوفة ، ولكننا سنتكلم عن جانب منها وهو الاستفهام :

1 - هي اسم مبني على السكون ، يفيد الاستفهام ، كقوله تعالى : مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا ؟

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(2) الرابط هو رابط السببية ولذا يصح أن تكون الجملة جوابا لشرط مقدر يفهم من السياق السابق أي : إن كان القرآن من عند الله فلا تك في مرية منه . . .

فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى . وفي قوله تعالى وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ فمن في الآية استفهامية أشربت معنى النفي أي لا يغفر الذنوب إلا اللّه . ولا يشترط بمن التي أشربت معنى الاستفهام أن تسبق بالواو ، خلافا لابن مالك ، بدليل قوله تعالى مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ .

2 – إذا قيل : من ذا لقيت ؟ فمن مبتدأ وذا خبر موصول والعائد محذوف : أي ذا اسم موصول بمعنى الذي في محل رفع خبر ، والعائد في الفعل لقيت محذوف تقديره (من ذا لقيته)

.

3 – يكون إعرابها كما يلي :

آ – مبتدأ : إذا وليها اسم كقوله تعالى فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى . ويجوز كونها خبرا مقدما وما بعدها مبتدأ مؤخر ، وكذلك إذا وليها فعل لازم مثل : (من جار على أخيه أولا ؟ وكذلك إذا وليها فعل متعد استوفى مفعوله مثل قوله تعالى مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا .

ب – وتعرب في محل نصب مفعولا به مقدما ، إذا وليها فعل متعد لم يستوف مفعوله .

مثل : (من أكرم الأمير) .

ج- وتعرب في محل نصب خبر مقدم لكان أو إحدى أخواتها، إذا وليها فعل ناقص، مثل (من أصبح صديقك) (من كان جارك).

[سورة هود (11) : الآيات 18 إلى 19]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (19)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (من) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أظلم) خبر مرفوع (من) حرف جرّ (من) اسم موصول مبني في محلّ جرّ متعلّق بأظلم (افترى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر،

والفاعل هو (على الله) جارّ ومجرور متعلّق بـ (افترى) (كذبا) مفعول به " 1 "، منصوب (أولئك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ.. و (الكاف) حرف خطاب (يعرضون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع...

و(الواو) نائب الفاعل (على ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يعرضون) ، و (هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (يقول) مضارع مرفوع (الأشهاد) فاعل مرفوع (ها) حرف تنبيه (أولاء) اسم إشارة مبتدأ (الذين) اسم موصول خبر (كذبوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (على ربّهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كذبوا) ، و (الهاء) مضاف إليه (ألا) حرف تنبيه (لعنة) مبتدأ مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (على الظالمين) جارّ ومجرور متعلّق بخبر محذوف .

جملة : " من أظلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " افترى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " أولئك يعرضون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يعرضون على ربّهم " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

وجملة : " يقول الأشهاد . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يعرضون ، والرابط مقدّر أي يقول الأشهاد فيهم " 2 " .

وجملة : " هؤلاء الذين . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : "كذبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لعنة اللّه على الظالمين " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو هو مفعول مطلق نائب عن المصدر لأن الكذب مرادف للافتراء ، ومفعول افترى

محذوف.

(2) يجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة الاستئناف (أولئك يعرضون..) فلا محلّ لها.

(270/380)

(الذين) موصول في إعرابه عدّة وجوه: الأول: في محلّ جرّ نعت للظالمين. الثاني: في محلّ رفع بدل من (الذين) المتقدّم. الثالث: في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف وجوبا على الذمّ تقديره هم " 1 ". الرابع:

في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره أذمّ. (يصدّون) مضارع مرفوع.. والواو فاعل (عن سبيل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يصدّون)، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (يبغون) مثل يصدّون و (ها) ضمير مفعول به (عوجا) مصدر في موضع الحال منصوب (الواو) عاطفة (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (بالآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كافرون) خبر المبتدأ مرفوع (هم) الثاني توكيد لفظيّ للأول.

وجملة: "يصدّون..." لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "يبغونها..." لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة: "هم... كافرون" لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

الصرف:

(الأشهاد)، جمع شاهد زنة فاعل أو شهيد زنة فعيل، صفة مشتقّة من شهد يشهد باب فرح.

(يبغون)، فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف، أصله يبغيون بضمّ الياء الثانية، استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت - وهو إعلال بالتسكين - ونقلت حركتها إلى الغين قبلها، ثمّ حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة - إعلال بالحذف - وزنه يفعون.

---

(1) والجملة استئنافيّة.

[سورة هود (11) : آية 20]

أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ (20)

الإعراب:

(أولئك) مبتدأ "1"، (لم) حرف نفي وجزم (يكونوا) مضارع ناقص مجزوم وعلامة الجزم

حذف النون . . والواو اسم كان (معجزين) خبر المبتدأ منصوب وعلامة النصب الياء (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بمعجزين (الواو) عاطفة (ما) نافية (كان) ماض ناقص - ناسخ - (اللام) حرف جرّ و (هم) ضمير في محل جرّ متعلّق بمحذوف خبر كان (من دون) جارّ ومجرور حال من أولياء (من) حرف جرّ زائد (أولياء) مجرور لفظا مرفوع محلّا اسم كان مؤخّر، وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من الصرف، اسم منته بألف التأنيث الممدودة على وزن أفعلاء (يضاعف) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع (لهم) مثل الأول متعلّق بـ (يضاعف)، (العذاب) نائب الفاعل (ما) مثل الأولى " 2 "، (كانوا) فعل ماض ناقص مبنيّ على الضمّ . . والواو اسم كان (يستطيعون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (السمع) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (ما كانوا يبصرون) مثل ما كانوا يستطيعون.

جملة: " أولئك لم يكونوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " لم يكونوا معجزين . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ أولئك.

وجملة: " ما كان لهم . . . أولياء " في محلّ رفع معطوفة على جملة الخبر.

---

(1) انظر الآية (18) من هذه السورة. [. . . . . .]

(2) أجاز العكبريّ جعلها مصدريّة ظرفيّة أي مدّة استطاعتهم السمع . .

وجملة: "يضاعف لهم العذاب" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ما كانوا يستطيعون..." لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "يستطيعون السمع" في محلّ نصب خبر كانوا (الأول).

وجملة: "ما كانوا يبصرون" لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة.

وجملة: "يبصرون" في محلّ نصب خبر كانوا (الثاني).

البلاغة

الاستعارة التصريحية التبعية: في قوله تعالى "ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ" أي أنهم كانوا يستثقلون سماع الحق الذي جاء به الرسول صلّى اللّه عليه وآله وسلم ويستكرهونه إلى أقصى الغايات، حتى كأنهم لا يستطيعونه، وهو نظير قول القائل: العاشق لا يستطيع أن يسمع كلام العاذل.

[سورة هود (11): آية 21]

أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (21)

الإعراب :

(أولئك الذين) مبتدأ وخبر - وقد مرّ إعرابهما " 1 " - ، (خسروا) مثل كذبوا " 2 " ، (أنفس) مفعول به منصوب و (هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ضلّ) فعل ماض (عن) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ضلّ) بتضمينه معنى غاب (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به ، والعائد محذوف (كانوا يفترون) مثل كانوا يستطيعون " 3 " .

جملة : " أولئك الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خسروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

---

(1) في الآية (16) من هذه السورة .

(2) في الآية (18) من هذه السورة .

(3) في الآية السابقة (20) .

وجملة : " ضلّ . . ما كانوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " كانوا يفترون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يفترون " في محلّ نصب خبر كانوا .

[سورة هود (11) : آية 22]

لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (22)

الإعراب :

(لا) نافية للجنس (جرم) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب " 1 " ، (أنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و (هم) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (في الآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (الأخسرون) ، (هم) ضمير فصل " 2 " ، (الأخسرون) خبر أنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

والمصدر المؤوّل (أنهم . . الأخسرون) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف تقديره في أو من أي : في أنهم . . أو من أنّهم . متعلّق بخبر لا .

جملة : " لا جرم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(جرم) ، قد يكون اسما بمعنى محالة أو بمعنى حدّ أو منع أو قطع . . وقد يكون فعلا بمعنى كسب أو بمعنى حقّ وثبت . . وزنه فعل بفتحتين " 3 "

---

(1) آثرنا إعراب الجمهور - خلافا لسيبويه - لأنه أسهل ولا يحتاج إلى تأويل .

ويجوز إعراب الآية كما يلي : لا : نافية . جرم : فعل ماض بمعنى وجب أو حقّ أو ثبت . .

والمصدر المؤوّل (أنّهم .. الأخسرون) في محلّ رفع فاعل أي: ثبت خسرانهم في الآخرة.

وقد يجمع اللفظان (لا جرم) بكلمة واحدة بمعنى حقّا، فهو في محلّ نصب مفعول مطلق.. والمصدر المؤوّل في محلّ رفع فاعل للمصدر حقا أي: حقّا خسرانهم. وثمّة أوجه أخرى ضربنا الصفح عنها لبعدها.

(2) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره الأخسرون.. والجملة الاسميّة خبر أنّ.

(3) هكذا ورد في المخطوط، قال في المنجد: جرم النخل: قطف ثمره، وجرم الشيء: أتمّه، واجترم لأهله: اكتسب.

(275/380)

[سورة هود (11) : آية 23]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (23)

الإعراب:

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب اسم إنّ (آمنوا) فعل ماض وفاعله (الواو) عاطفة (عملوا) ومثل آمنوا (الصالحات) مفعول به منصوب وعلامة

النصب الكسرة (الواو) عاطفة (أخبتوا) مثل آمنوا (إلى ربّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أخبتوا) و (هم) ضمير مضاف إليه (أولئك) مبتدأ كالسابق " 1 " ، (أصحاب) خبر مرفوع (الجنة) مضاف إليه مجرور (هم) ضمير منفصل مبتدأ (في) حرف جرّ و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (خالدون) وهو خبر المبتدأ هم مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " إنّ الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " أخبتوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " أولئك أصحاب . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " هم فيها خالدون " في محلّ نصب حال من أصحاب " 2 " .

[سورة هود (11) : آية 24]

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ (24)

الإعراب :

(مثل) مبتدأ مرفوع (الفريقين) مضاف إليه مجرور وعلامة

---

(1) في الآية (16) من هذه السورة .

(2) أو في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (أولئك) .

الجرّ الياء (كالأعمى) جارّ ومجرور خبر المبتدأ على حذف مضاف أي كمثل الأعمى، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الأصمّ) معطوف على الأعمى بالواو مجرور ومثله (البصير) على حذف مضاف أي مثل البصير، مجرور (السميع) معطوفة على البصير بالواو مجرور (هل) حرف استفهام للإنكار " 1 " (يستويان) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون..

و(الألف) ضمير متّصل في محلّ رفع فاعل (مثلا) تمييز منصوب (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) عاطفة (لا) نافية (تذكّرون) مضارع مرفوع وحذف منه إحدى التاءين.. والواو فاعل.

جملة: " مثل الفريقين... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " هل يستويان... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " تذكّرون " لا محلّ لها معطوفة على جملة مستأنفة مقدّرة أي أجهلتم فلا تذكّرون.

الصرف:

(الأصمّ)، صفة مشبّهة على وزن أفعل من صمّ يصمّ باب فتح مؤنثة صمّاء وجمعه صمّ

وصمان بضمّ الصاد فيهما (تذكّرون) ، حذفت فيه إحدى التاءين للتخفيف ، أصله تتذكّرون .

البلاغة

التشبيه : في قوله تعالى " مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ " أي كحال من جمع بين العمى والصمم ، ومن جمع بين البصر والسمع . فهناك تشبيهان : الأول تشبيه حال الكفرة الموصوفين بالتعامي والتصامّ عن آيات اللّه بحال من خلق أعمى أصم لا تنفعه عبارة ولا إشارة والثاني تشبيه حال الذين آمنوا وعملوا الصالحات فانتفعوا بأسماعهم وأبصارهم ، بحال من هو بصير سميع ، يستفيء بالأنوار في الظلام ، ويستفيء بمغانم الإنذار والإشارة فوزا

---

(1) أو للنفي أي لا يستويان مثلا .

بالمرام .

ويحتمل أن يكون هناك أربع تشبيهات ، بأن يعتبر تشبيه حال كل من الفريقين : الفريق الكافر والفريق المؤمن ، بحال اثنين . أي مثل الفريق الكافر كالأعمى ، ومثله أيضا كالأصم ومثل

الفريق المؤمن كالبصير، ومثله أيضا كالسميع وللآية على احتمالاتها شبه في الجملة بقول امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي

ففي البيت تشبيه قلوب الطير الرطبة بالعناب، وتشبيه قلوب الطير اليابسة بالحشف البالي.

ولكن الآية زادت بتشبيه اثنين بأربعة كما هو واضح. فقد شبهت كل واحد من الكافر والمؤمن تشبيهين.

[سورة هود (11) : الآيات 25 إلى 27]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنا وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (27)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (أرسلنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (نا) ضمير فاعل (نوحا) مفعول به منصوب (إلى قوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أرسلنا) ، و (الهاء) ضمير مضاف إليه (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و (الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جر متعلّق بـ (نذير) وهو خبر إنّ مرفوع (مبين) نعت لنذير مرفوع .

جملة : " أرسلنا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . وجملة القسم وجوابها لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّي لكم نذير . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر . . والقول المقدّر حال من (نوحا) .

(أن) حرف تفسير " 1 " ، (لا) ناهية جازمة (تعبدوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل (إلّا) أداة حصر (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (إنّي) مثل الأول (أخاف) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (عليكم) مثل لكم متعلّق بـ (أخاف) " 2 " ، (عذاب) مفعول به منصوب (يوم) مضاف إليه مجرور (أليم) نعت ليوم مجرور " 3 " .

وجملة : " لا تعبدوا . . . " لا محلّ لها تفسيرية .

وجملة : " إنّي أخاف . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " أخاف . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(الفاء) عاطفة (قال) فعل ماض (الملأ) فاعل مرفوع (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع نعت للملأ ، (كفروا) فعل ماض وفاعله (من قوم) جارّ ومجرور متعلّق بحال من فاعل كفروا و (الهاء) مضاف إليه (ما) نافية (نرى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن و (الكاف) ضمير مفعول به (إلّا) أداة

---

(1) سبق الحرف بفعل فيه معنى القول دون حروفه وهو قوله : إنّي لكم نذير مبين أي أنذركم أي أقول لكم منذرا وثمّة توجيهات أخرى جائزة كما في الآية (2) من هذه السورة (الجزء 11) .

(2) أو بمحذوف حال من عذاب .

(3) الألم يصف العذاب لا اليوم ، ولذا فهو من الإسناد المجازيّ .

حصر (بشرا) مفعول به ثان منصوب " 1 " ، (مثل) نعت لـ (بشرا) منصوب و (نا) ضمير مضاف إليه " 2 " ، (الواو) عاطفة (ما نراك) مثل الأولى (اتّبع) فعل ماض و (الكاف) مفعول به (إلّا) مثل الأولى (الذين) موصول في محلّ رفع فاعل " 3 " ، (هم) ضمير منفصل

مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أراذل) خبر مرفوع و (نا) ضمير مضاف إليه (بادي) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (اتّبع) " 4 " ، (الرأي) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (ما نرى) مثل الأولى (لكم) مرّ إعرابه متعلّق بمحذوف مفعول به ثان لـ (نرى) ، (على) حرف جرّ و (نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف حال من فضل - نعت تقدّم على المنعوت - (من) حرف جرّ زائد (فضل) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به أوّل (بل) حرف إضراب (نظنّكم) مثل نراك ، والضمّة ظاهرة (كاذبين) مفعول به ثان منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة : " قال الملأ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة القسم المقدّرة .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ما نراك (الأولى) " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) أو حال إذا كانت الرؤية بصريّة . [. . . . .]

(2) أو حال ثانية من ضمير الخطاب .

(3) يجوز أن يكون (إلّا) حرفا للاستثناء ، والذين بدل من الفاعل المقدّر أي ما نراك اتّبعك إنسان إلّا الذين . . ويجوز أن يكون الموصول منصوبا على الاستثناء .

(4) أو بفعل نراك . وقد جاء في لسان العرب : " وانتصاب من همز ومن لم يهمز - أي بادئ أو بادي - بالاتباع على مذهب المصدر أي اتبعوك اتّباعا ظاهرا أو اتّباعا مبتدأ . وإذا

كانت بادي الرأي بمعنى ظاهر الرأي يجوز إعرابها منصوبة على نزع الخافض أي: في بادي الرأي" .

(280/380)

وجملة: " ما نراك (الثانية) " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

وجملة: " اتّبعك إلّا الذين . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لـ (نراك) الثانية " 1 " .

وجملة: " هم أراذلنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " ما نرى . . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

وجملة: " نظنّكم كاذبين " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(أراذل) ، جمع أرذل - بضمّ الذال - وهو جمع رذل - بسكونها - صفة مشتقّة غلبت عليها الاسميّة ولا يكاد يذكر الموصوف معها ، كالأبطح والأبرق. وقيل (أراذل) هو جمع أرذل زنة أكبر فهو ليس جمع الجمع ، ووزن أراذل أفاعل.

(بادي) ، إمّا من فعل بدأ وزنه فاعل أي بادئ ثمّ خفّفت الهمزة فانقلب ياء لانكسار ما قبله . . أو هو من فعل بدا يبدو وزنه فاعل ، وفيه إعلال بقلب الواو ياء لسكونها وانكسار ما

قبلها أصله بادو . . وفي كلا الاعتبارين هو مصدر مثل العافية والعاقبة .

(الرأي) ، وهو الرؤية بالعقل كما الرؤية بالعين . . انظر الآية (13) من سورة آل عمران .

البلاغة

التعريض : في قوله تعالى " فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ " . وغرضهم هنا منه

---

(1) وإذا كانت رأي بصريّة ، فالجملة في محلّ نصب حال بتقدير قد .

(281/380)

التعريض بأنهم أحق منه بالنبوة وأن اللّه لو أراد أن يجعلها في أحد لجعلها فيهم ، وقد زعم هؤلاء أنهم يحجون نوحا من وجهين : أحدهما أن المتبعين أراذل ليسوا قدوة ولا أسوة ، والثاني أنهم مع ذلك لم يتروّوا في اتباعه ، ولا أمعنوا الفكرة في صحة ما جاء به ، وإنما بادروا إلى ذلك ارتجالا وفي غير فكرة ولا رويّة .

الفوائد

- (أن) وما فيها من وجوه الإعراب :

ورد في هذه الآية قوله تعالى أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ (أن) في هذه الآية ، فيها ثلاثة أوجه ،

سنوردها ونبين ما يترتب على ما بعدها من إعراب :

1 - أن : حرف تفسير ، ولا ناهية جازمة ، والفعل بعدها مجزوم .

2 - أن : مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، ولا ناهية جازمة ، والفعل بعدها مجزوم . والتقدير أنه لا تعبدوا إلا اللّه .

3 - أن حرف ناصب ، ولا نافية لا عمل لها ، والفعل تعبدوا منصوب بأن .

[سورة هود (11) : الآيات 28 إلى 31]

قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (28) وَيا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (29) وَيا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (30) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31)

الإعراب :

(قال) فعل ماض ، والفاعل هو (يا) أداة نداء (قوم) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء

المحذوفة و (الياء) المحذوفة للتخفيف مضاف إليه (الهمزة) للاستفهام (رأيتم) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (تم) ضمير فاعل بمعنى أخبروني ، ومفعول رأيتم محذوف دلّ عليه لفظ البيّنة بعد الشرط أي أرأيتم البيّنة (إن) حرف شرط جازم (كنت) فعل ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط . . و (التاء) اسم كان (على بيّنة) جارّ ومجرور خبر كنت (من ربّ) جارّ ومجرور نعت لبيّنة و (الياء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (آتى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف و (النون) للوقاية و (الياء) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (رحمة) مفعول به ثان منصوب (من عند) جارّ ومجرور نعت لرحمة و (الهاء) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (عمّيت) فعل ماض مبنيّ للمجهول . . و (التاء) للتأنيث ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هي - أي البيّنة - (على) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (عمّيت) ، (الهمزة) للاستفهام (نلزم) مضارع مرفوع و (كم) ضمير مفعول به و (الواو) زائدة هي حركة إشباع الميم و (ها) ضمير مفعول به ثان .

والفاعل نحن للتعظيم (الواو) واو الحال (أنتم) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (اللام) حرف جرّ و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (كارهون) وهو خبر المبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يا قوم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أرأيتم . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : "كنت على بيّنة . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة وقعت بين الفعل ومفعوله . .

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

وجملة : " آتاني رحمة . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة بين جملة كنت

على بيّنة وجملة عمّيت المعطوفة عليها " 1 " .

وجملة : " عمّيت عليكم " لا محلّ لها معطوفة على جملة كنت على بيّنة .

وجملة : " أنلزمكموها " في محلّ نصب مفعول به ثان لـ (رأيتم) .

وجملة : " أنتم لها كارهون " في محلّ نصب حال من ضمير الخطاب مفعول الفعل .

(الواو) عاطفة (يا قوم) مثل الأولى (لا) نافية (أسأل) مضارع مرفوع و (كم) ضمير مفعول به ، والفاعل أنا (عليه) مثل عليكم متعلّق بحال من (مالا) وهو مفعول به ثان منصوب (إن) حرف نفي (أجري) مبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدرة على ما قبل الياء . . و (الياء) مضاف إليه (إلّا) أداة حصر (على اللّه) جارّ ومجرور خبر المبتدأ (الواو) عاطفة

(ما) نافية عاملة عمل ليس (أنا) ضمير منفصل في محلّ رفع اسم ما (الباء) حرف جرّ زائد (طارد) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما (الذين) موصول في محلّ جرّ مضاف إليه (آمنوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . و (الواو) فاعل (إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و (هم) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (ملاقو) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو ، وحذفت النون للإضافة (ربّهم) مضاف إليه مجرور . . و (الهاء) مضاف إليه ، و (الميم) لجمع الذكور (الواو) عاطفة (لكنّ) حرف مشبّه بالفعل للاستدراك و (الياء) ضمير في محلّ نصب اسم لكنّ (أرى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف و (كم) ضمير مفعول به ، والفاعل أنا (قوما) مفعول به ثان منصوب (تجهلون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

---

(1) يجوز أن يكون الضمير في عمّيت يعود على رحمة . . وحينئذ تعطف جملة آتاني . . على جملة كنت على بيّنة .

وجملة : " يا قوم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة النداء الأولى .

وجملة : " لا أسألكم . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أن أجري . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " ما أنا بطارد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " آمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " إنّهم ملاقو . . . " لا محلّ لها تعليلية لعدم الطرد .

وجملة : " لكنّي أراكم . . . " لا محل لها معطوفة على التعليليّة الثانية أو على جملة جواب النداء المعطوفة ما أنا بطارد .

وجملة : " أراكم . . . " في محلّ رفع خبر لكنّ .

وجملة : " تجهلون " في محلّ نصب نعت لـ (قوما) .

(الواو) عاطفة (يا قوم) مثل الأولى (من) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (ينصر) مضارع مرفوع و (النون) نون الوقاية و (الياء) ضمير مفعول به (من اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ينصر) بتضمينه معنى يمنع ويحمي (أن) حرف شرط جازم (طردت) فعل ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . و (التاء) فاعل و (هم) ضمير مفعول به (الهمزة) للاستفهام (الفاء) عاطفة (لا) نافية (تذكّرون) مثل تجهلون وقد حذف إحدى التاءين للتخفيف .

وجملة النداء : " يا قوم " في محلّ نصب معطوفة على جملة النداء الأولى " 1 " .

---

(1) وتكرار النداء (يا قوم) للاستدراج.

وجملة: " من ينصرني . . . " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: " ينصرني . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من).

وجملة: " طردتهم " لا محلّ لها استئناف بيانيّ . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه الكلام المتقدّم.

وجملة: " تذكّرون " لا محلّ لها معطوفة على جملة مقدّرة مستأنفة أي أ تجهلون فلا تذكّرون . . .

(الواو) عاطفة (لا أقول) مثل لا أسأل (لكم) مثل لها متعلّق بـ (أقول)، (عندي) ظرف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء، متعلّق بمحذوف خبر مقدّم، و (الياء) مضاف إليه (خزائن) مبتدأ مؤخّر مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (لا أقول) مثل لا أسأل (إنّي) مثل إنّهم (ملك) خبر إنّ مرفوع (الواو) عاطفة (لا أقول) مثل لا أسأل (اللام) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أقول) " 1 "، (تزدري) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء (أعين) فاعل مرفوع و (كم) ضمير مضاف إليه، والعائد محذوف أي تزدريهم (لن) حرف ناصب

وناف (يؤتي) مضارع منصوب و (هم) ضمير مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (خيرا) مفعول به ثان منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (أعلم) خبر مرفوع (الباء) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما و (هم) مضاف إليه (إنّي) مثل إنّهم (إذا) حرف جواب لا عمل له (اللام) هي المزحلقة (من الظالمين) جارّ ومجرور متعلّق بخبر إنّ.

(1) اللام بمعنى (في)، وفي الكلام حذف مضاف أي في شأن الذين . . .

وجملة: "لا أقول (الأولى) . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء الأول أو الثاني (لا أسألكم).

وجملة: "عندي خزائن . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "لا أعلم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا أقول.

وجملة: "لا أقول (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا أقول الأولى.

وجملة: "إنّي ملك " في محلّ نصب مقول القول الثاني.

وجملة: "لا أقول (الثالثة) " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا أقول الأولى.

وجملة: " تزدري أعينكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " لن يؤتيهم الله . . . " في محلّ نصب مقول القول الثالث .

وجملة: " الله أعلم . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة: " إنّي . . لمن الظالمين " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف:

(طارد) ، اسم فاعل من (طرد) الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

(تزدري) ، فيه إبدال التاء دالا وأصله تزتري ، جاءت التاء بعد الزاي قلبت دالا ، وكذا شأن التاء في كلّ حال تأتي بعد الزاي ، وزنه تفتعل .

البلاغة

الاستعارة التبعية: في قوله تعالى " فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ " أي أخفيت ، حيث شبه خفاء الدليل بالعمى ، في أن كلا منهما يمنع الوصول إلى المقاصد . وقيل: الكلام على القلب ، والأصل فعميتم عنها ، كما تقول العرب: أدخلت القلنسوة في رأسي ، ومنه قول الشاعر: ترى الثور فيها يدخل الظل رأسه ، وقوله تعالى:

" فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ " وفي هذه الآيات فن رفيع من فنون البديع ، وهو الجمع مع التقسيم . وهو أن يجمع المتكلم بين شيئين أو أكثر ، ثم يقسم ما جمع . وفي هذه الآيات رد على ما أورده من شبه ، حيث قالوا " ما نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنا وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ " فرد عليهم ردا يمكن إرجاعه إلى ما أوردوه من شبه ، فكأنه يقول : إن كان نفيكم الفضل عني متعلقا بفضل المال والجاه ، فأنا لم أدّعه ، ولم أقل لكم إن خزائن اللّه عندي حتى تنازعوني في ذلك وتنكروه .

الفوائد

1 - الكلمة الموحية :

(288/380)

ورد في هذه الآية قوله تعالى أَنُلْزِمُكُمُوها وقد جاءت هذه الكلمة في سياق خطاب نوح عليه الصلاة والسلام إلى قومه ، وقد أعرضوا عن الهدى ، وصمموا على رفض الهدى والإسلام ، لذا فإن نوحا عليه الصلاة والسلام أحس بالصعوبة الشديدة في إبلاغهم الهداية ، بل هي مستحيلة ، وكأنك ترغم إنسانا على شيء وهو كاره له نافر منه ، فجاءت كلمة

(أ نلزمكموها) بلفظها المديد أولا ، وقد حشر فيها الضميران الكاف (وها) ، وأشبعت حركة الميم التي هي ضمة فأصبحت واوا ثانيا ، وورود الاستفهام الاستنكاري في بدايتها ثالثا ، وجرس حروفها وإيقاعها رابعا ، لتتضافر هذه العوامل ، وترسم معنى الإكراه ومحاولة إبلاغ الشيء بصعوبة شديدة إلى من يرفضه ويأباه ، ولو وضعنا بديلا عنها أ نلزمكم إياها لتلاشى ذلك الجرس والإيقاع الذي كان لها ، وضعفت فيها القوة التي كانت تؤديها فهذا سرّ من أسرار الإعجاز ، وهو أن كلام اللّه عز وجل - بتنسيقه وتأليفه وترتيبه واختياره - يتميز بروح قوية سارية تمنحه قوة وحيوية ، وتميزه عن كلام البشر ، فيغدو الفرق بعيدا بعيدا بين كلام الخالق والمخلوق ، كالفرق بين تمثال أصم جامد وبين بشر ناطق عاقل حيّ .

2 - الأنبياء أفضل أم الملائكة ؟

ورد في هذه الآية قوله تعالى ، على لسان نوح عليه الصلاة والسلام : (وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ) .

وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء قال :

لأن نوحا عليه الصلاة والسلام قال : وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ لأن الإنسان إذا قال أنا لا أدعي كذا وكذا لا يحسن إلا إذا كان ذلك الشيء أفضل وأشرف من أحوال ذلك القائل ، فلما قال نوح عليه الصلاة والسلام هذه المقالة وجب أن يكون الملك أفضل منه . والجواب : أن نوحا عليه الصلاة والسلام ، قال هذه المقالة في مقابلة قولهم ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا ، لما كان في ظنهم أن الرسل لا يكونون من البشر إنما يكونون من الملائكة ، فأعلمهم بأن هذا ظن باطل وأن الرسل إلى البشر إنما يكونون من البشر ، فلهذا قال سبحانه وتعالى وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ولم يرد أن درجة الملائكة أفضل من درجة الأنبياء .

[سورة هود (11) : آية 32]

قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32)

الإعراب :

(قالوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . و (الواو) فاعل (يا) حرف نداء (نوح) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (قد) حرف تحقيق (جادلت) فعل ماض وفاعله و (نا) ضمير مفعول به (الفاء) عاطفة (أكثرت) مثل جادلت (جدال) مفعول به منصوب و (نا) ضمير مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ائت) فعل أمر مبنيّ على حذف حرف العلّة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (نا) مفعول به (الباء) حرف جر (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (ائت) ، والعائد محذوف (تعد) مضارع مرفوع ، والفاعل

أنت و (نا) مفعول به (إن) حرف شرط جازم (كنت) فعل ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . و (التاء) ضمير اسم كان (من الصادقين) جارّ ومجرور خبر كنت .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " النداء يا نوح . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قد جادلتنا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

(290/380)

وجملة : " أكثرت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " ائتنا . . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدر أي : إن كنت صادقا في ما تقول فأتنا .

وجملة : " تعدنا " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " إن كنت من الصادقين " لا محلّ لها تفسير للشرط المقدّر " 1 " . .

[سورة هود (11) : الآيات 33 إلى 34]

قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34)

الإعراب:

(قال) فعل ماض، والفاعل هو (إنّما) كافّة ومكفوفة (يأتي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء و (كم) ضمير مفعول به (الباء) حرف جرّ (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يأتي)، (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (إن) حرف شرط (شاء) فعل ماض في محلّ جزم فعل الشرط، والفاعل هو، والمفعول محذوف أي شاء تعجيله لكم (الواو) واو الحال (ما) نافية عاملة عمل ليس (أنتم) ضمير منفصل في محلّ رفع اسم ما (الباء) حرف جرّ زائد زيد في الخبر (معجزين)

---

(1) أو هي استئنافيّة شرطيّة.. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي: إن كنت من الصادقين فأتنا...

(291/380)

منصوب محلا، مجرور لفظا وعلامة الجرّ الياء.

جملة: "قال..." لا محلّ لها استئناف بياني.

وجملة: "يأتيكم به اللّه" في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "إن شاء..." لا محلّ لها اعتراضيّة، وجواب الشرط محذوف أي فإنّ أمره إلى

اللّه .

وجملة : " ما أنتم بمعجزين " في محلّ نصب حال من ضمير الخطاب في يأتيكم .

(الواو) عاطفة (لا) نافية (ينفع) مضارع مرفوع و (كم) ضمير مفعول به (نصحي) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء . . و (الياء) مضاف إليه (إن أردت) مثل إن شاء . . و (التاء) فاعل (أن) حرف مصدريّ ونصب (أنصح) مضارع منصوب ، والفاعل أنا (اللام) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنصح) ، (إن كان) مثل كنت " 1 " ، (اللّه) لفظ الجلالة اسم كان مرفوع (يريد) مثل ينفع ، والفاعل هو (أن يغوي) مثل أن أنصح و (كم) مفعول به (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (ربّكم) خبر مرفوع ومضاف إليه (الواو) عاطفة (إلى) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ترجعون) وهو مضارع مبني للمجهول مرفوع . . والواو نائب الفاعل .

والمصدر المؤوّل (أن أنصح) في محلّ نصب مفعول به عامله أردت .

والمصدر المؤوّل (أن يغويكم) في محلّ نصب مفعول به عامله يريد .

وجملة : " لا ينفعكم نصحي " في محلّ نصب معطوفة على جملة يأتيكم به اللّه .

---

(1) في الآية السابقة (32) .

وجملة: "أردت ..." لا محلّ لها استئنافيّة.. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي: فلا ينفعكم نصحي.

وجملة: "إن كان اللّه ..." لا محلّ لها استئنافيّة.. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه الشرط الأول وجوابه أي: إن كان اللّه يريد أن يغويكم فإن أردت أن أنصح لكم فلا ينفعكم نصحي" 1 ".

وجملة: "أنصح ..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: "أن يغويكم" لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني.

وجملة: "هو ربّكم" لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "ترجعون" لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة.

الصرف:

(نصح)، مصدر سماعيّ لفعل نصح ينصح باب فتح، وزنه فعل بضمّ الفاء، وثمّة مصادر أخرى هي نصح بفتح النون ونصاحة بفتح النون وكسرها، ونصاحية بفتح النون.

---

(1) جاء في حاشية الجمل ما يلي: "وجواب الشرط الثاني هو الشرط الأول وجوابه، والتقدير: وإن كان اللّه يريد أن يغويكم فإن أردت أن أنصح لكم فلا ينفعكم نصحي وذلك

لأنه إذا اجتمع في الكلام شرطان وجواب يجعل الشرط الثاني شرطا في الأول فلا يقع الجواب إلّا إذا حصل الشرط الثاني ووجد في الخارج قبل وجود الأول لأن الشرط مقدّم على المشروط في الخارج فلو انعكس الأمر بأن وجد الأول أولا لم يقع المعلّق ، فلو قال لعبده : أنت حرّ إن كلّمت زيدا إن دخلت داره لم يعتق إلّا إذا وجد دخول الدار قبل كلام زيد . .

وعبارة البيضاوي هكذا تقرير الكلام : إن كان اللّه يريد أن يغويكم فإن أردت أن أنصح لكم فلا ينفعكم نصحي " أ ه أي إن نفع النصح إن أراده الرسول لا يتمّ إلّا بشرط إرادة اللّه .

الفوائد

- اعتراض شرط على آخر :

ورد في هذه الآية الكريمة شرطان ، وهو قوله تعالى وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ قال ابن هشام : في هذه الآية نظر ، إذ لم يتوال شرطان وبعدهما جواب ، كما في قول الشاعر :

إن تستغيثوا بنا إن تذعروا تجدوا منا معاقيل عزّ زانها كرم

إذ الآية الكريمة لم يذكر فيها جواب، وإنما تقدم على الشرطين ما هو جواب في المعنى للشرط الأول، فينبغي أن يقدر إلى جانبه. ويكون الأصل: إن أردت أن أنصح لكم فلا ينفعكم نصحي إن كان اللّه يريد أن يغويكم. وقد بنى الفقهاء على ذلك حكما وهو: إذا قال أحدهم: إن أكلت إن شربت فأنت طالق. فإن المرأة لا تطلق حتى تقدم المؤخر ونؤخر المقدم، وذلك لأن التقدير حينئذ: إن شربت فإن أكلت فأنت طالق، وجواب الشرط للسابق منهما.

[سورة هود (11): آية 35]

(294/380)

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (35)

الإعراب:

(أم يقولون افتراه قل) مرّ إعرابها " 1 "، (إن افتريت) مثل إن أردت " 2 "، و (الهاء) ضمير مفعول به (الفاء) رابطة لجواب الشرط (على) حرف جرّ و (الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (إجرامي) مبتدأ مؤخّر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء.. و (الياء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (أنا) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ

(بريء) خبر مرفوع (من) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ (تجرمون) مضارع مرفوع.. والواو فاعل.

والمصدر المؤوّل (ما تجرمون) في محلّ جرّ بـ (من) متعلّق ببريء.

---

(1) في الآية (13) من هذه السورة.

(2) في الآية السابقة (34).

(295/380)

جملة: "يقولون..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "افتراه..." في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "قل..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "إن افتريته..." في محلّ نصب مقول القول الثاني.

وجملة: "عليّ إجرامي" في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

وجملة: "أنا بريء" في محلّ جزم معطوفة على جملة جواب الشرط "1".

الصرف:

(إجرام)، مصدر قياسيّ لفعل أجرم الرباعيّ، وزنه أفعال.

[سورة هود (11) : الآيات 36 إلى 37]

وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (36)

وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (أوحي) فعل ماض مبنيّ للمجهول (إلى نوح) جارّ ومجرور متعلّق ب (أوحي) ، (أنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد (الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ- وهو ضمير الشأن- (لن) حرف نفي ونصب (يؤمن) مضارع منصوب (من قوم) جارّ ومجرور حال من فاعل يؤمن و (الكاف) ضمير مضاف إليه (إلّا) أداة حصر (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل يؤمن (قد) حرف تحقيق (آمن) فعل ماض، والفاعل هو وهو العائد (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة (تبتئس) مضارع مجزوم، والفاعل أنت (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 2 "، (كانوا) فعل ماض ناقص- ناسخ- مبنيّ على

---

(1) يجوز أن تكون الجملة حاليّة من ضمير المتكلّم في (عليّ) ، والعامل فيها معنى الاستقرار.

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ، والجملة بعده صلة، والعائد محذوف أي: يفعلونه. [.....]

الضمّ . . والواو اسم كان (يفعلون) مضارع مرفوع والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (تبتئس) .

والمصدر المؤوّل (أنّه لن يؤمن . .) في محلّ رفع نائب الفاعل لفعل أوحي .

جملة : " أوحي إلى نوح . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لن يؤمن . . . " في محلّ رفع خبر (أنّ) .

وجملة : " قد آمن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول .

وجملة : " لا تبتئس " في محلّ جزم (الواو) جواب شرط مقدّر أي إن كان المؤمنون قلّة فلا تبتئس .

وجملة : " كانوا يفعلون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يفعلون " في محلّ نصب خبر كانوا .

(الواو) عاطفة (اصنع) فعل أمر ، والفاعل أنت (الفلك) مفعول به منصوب (بأعين) جارّ ومجرور حال من فاعل اصنع و (نا) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (وحينا) معطوف على أعيننا ، ومضاف إليه (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تخاطب) فعل مضارع مجزوم ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت و (النون) للوقاية و (الياء) ضمير مفعول به (في) حرف جرّ (الذين) موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (تخاطب) على حذف مضاف أي في أمر الذين . . . (ظلموا) فعل ماض وفاعله (إنّ) حرف مشبه بالفعل - ناسخ - و (هم) ضمير متّصل مبنيّ في محلّ نصب اسم إنّ (مغرقون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

وجملة : " اصنع . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة لا تبتئس .

وجملة : " لا تخاطبني " معطوفة على جملة اصنع الفلك .

وجملة : " ظلموا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " إنّهم مغرقون " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(أعين) ، جمع عين ، اسم للعضو المعروف ، وهنا مستعمل على المجاز أي بحفظنا ورعايتنا .

(وحي) ، هو مصدر وحي يحي باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون ، وقد يطلق على ما يرسله اللّه إلى الأنبياء أو هو الملك الذي ينقل رسالة اللّه إلى النبيّ .

(مغرقون) ، جمع مغرق ، اسم مفعول من أغرق الرباعيّ ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين .

البلاغة

في قوله تعالى "إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ" مجيء الخبر إنكاريا مؤكدا بإن تأكيدا للكلام وتنزيلا للسامع منزلة المتردد ، لأنه للنفس اليقظى مظنة التردد في حكم الخبر ، ومؤونة الطلب له ، فقال أولا : ولا تخاطبني في الذين ظلموا ، أي لا تدعني يا نوح في استدفاع العذاب عنهم ، ثم قال : إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ، لأن الكلام مظنة أن يتردد نوح بأنه هل يصيبهم بأس بل بأنهم هل هم مغرقون ، بملاحظة ما تقدم من قوله واصنع الفلك ، فأورد الخبر مؤكدا ، فقال : إنهم محكوم عليهم بالإغراق .

[سورة هود (11) : الآيات 38 إلى 39]

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (39)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (يصنع) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (الفلك) مفعول به منصوب (الواو) استئنافيّة " 1 " (كلّما) ظرف زمان متضمّن معنى الشرط " 2 " متعلّق بـ (سخروا) ، (مرّ) فعل ماض (على) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (مرّ) ، (ملأ) فاعل مرفوع (من قوم) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لملأ و (الهاء) مضاف إليه (سخروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (منه) مثل عليه متعلّق بـ (سخروا) ، (قال) مثل مرّ (إن) حرف شرط جازم (تسخروا) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف النون . . والراو فاعل (منّا) مثل عليه متعلّق بـ (تسخروا) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – و (نا) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (نسخر) مضارع مرفوع ، والفاعل نحن (منكم) حرف جرّ وضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نسخر) ، (الكاف) حرف تشبيه وجرّ (ما) حرف مصدريّ (تسخرون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (ما تسخرون) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بـ (نسخر) .

جملة : " يصنع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " مرّ عليه ملأ . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . والشرط وفعله وجوابه جملة لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف .

وجملة : " سخروا منه " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " إن تسخروا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) أو هي واو الحال ، والجملة بعدها في محلّ نصب حال .

(2) أو (كلّ) ظرف نائب عن مقدّر أي : كلّ وقت مرور . . و (ما) حرف مصدريّ ، والمصدر المؤوّل مضاف إليه في محلّ جرّ .

وجملة : " إنّا نسخر . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " نسخر منكم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " تسخرون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

(الفاء) عاطفة (سوف) حرف استقبال (تعلمون) مثل تخسرون (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به " 1 " (يأتي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء و (الهاء) ضمير مفعول به (عذاب) فاعل مرفوع (يخزيه) مثل يأتيه ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود على عذاب (الواو) عاطفة (يحلّ) مثل يصنع (عليه) مثل الأول متعلّق بـ (يحل) ، (عذاب) فاعل مرفوع (مقيم) نعت لعذاب مرفوع .

وجملة : " سوف تعلمون . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة: "يأتيه عذاب... " لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "يخزيه... " في محلّ رفع نعت لعذاب (الأول).

وجملة: "يحلّ عليه عذاب " لا محل لها معطوفة على جملة الصلة.

[سورة هود (11) : آية 40]

حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَما آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (40)

الإعراب:

(حتّى) حرف ابتداء (إذا) ظرف للزمن المستقبل فيه معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق ب (قلنا) ، (جاء) فعل ماض (أمر) فاعل مرفوع و (نا) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (فار التنور) مثل جاء أمرنا (قلنا) فعل ماض وفاعله (احمل) فعل أمر والفاعل أنت (في) حرف جرّ

---

(1) أو اسم استفهام مبتدأ، والجملة بعده خبر، وقد سدّت جملة الاستفهام مسدّ مفعولي تعلمون.

و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (احمل) ، (من كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من زوجين " 1 " - نعت تقدّم على المنعوت - (زوجين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء (اثنين) نعت لزوجين منصوب وعلامة النصب الياء فهو ملحق بالمثنى (الواو) عاطفة (أهل) معطوف على زوجين منصوب و (الكاف) مضاف إليه (إلّا) حرف للاستثناء (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب على الاستثناء (سبق . . القول) مثل جاء أمرنا (عليه) مثل فيها متعلّق بـ (سبق) ، (الواو) عاطفة (من آمن) مثل من سبق ومعطوف عليه (الواو) واو الحال (ما) نافية (آمن) مثل جاء (مع) ظرف منصوب متعلّق بـ (آمن) ، (الهاء) ضمير مضاف إليه (إلّا) أداة حصر (قليل) فاعل مرفوع.

جملة : " جاء أمرنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة : " فار التّنور . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة جاء أمرنا .

وجملة : " قلنا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة : " احمل . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة : " سبق عليه القول " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " آمن " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني.

وجملة : " آمن (الثانية) " في محلّ نصب حال " 2 " .

(فار) فيه إعلال بالقلب أصله فور بفتحتين قلبت الواو ألفا لمجيئها بعد فتح وزنه فعل.

الصرف :

(التّنور) ، جاء في لسان العرب مادة (ت ن ر) : " التنور :

---

(1) أو متعلّق بـ (احمل) .

(2) أو استئناف بيانيّ لا محلّ لها .

الذي يخبز فيه ، يقال هو في جميع اللغات كذلك ، وقال أحمد بن يحيى : التّنور تفعول من النار ، قال ابن سيده : وهذا من الفساد بحيث تراه وإنّما هو أصل لم يستعمل إلّا في هذا الحرف وبالزيادة ، وصاحبه تنّار . والتنور : وجه الأرض فارسيّ معرّب ، وقيل هو بكلّ لغة " أ ه ، فوزن تنّور فعّول لأن اشتقاقه من (تنر) .

[سورة هود (11) : آية 41]

وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (قال) فعل ماض ، والفاعل هو أي نوح بحسب الظاهر (اركبوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . و (الواو) فاعل (فيها) كالسابقة " 1 " متعلّق بـ (اركبوا)

بتضمينه معنى ادخلوا (باسم) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدّم " 2 " ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (مجرى) مبتدأ مؤخّر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف و (ها) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (مرساها) مثل مجراها ومعطوف عليه عليه (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (ربّ) اسم إنّ منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء و (الياء) ضمير مضاف إليه (اللام) المزحلقة (غفور) خبر إنّ مرفوع (رحيم) خبر ثان مرفوع.

جملة: " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " اركبوا فيها . . . " في محلّ نصب مقول القول.

---

(1) في الآية (40) السابقة.

(2) يجوز أن يكون الجارّ متعلّقا بمحذوف حال من فاعل اركبوا أي قائلين أو متبرّكين باسم اللّه، وحينئذ يعرب مجرى ظرفا للزمان أو المكان متعلّقا بحال، أو هو ظرف للزمان فقط على نيّة الحذف كما تقول جئتك مقدم الحاج أي وقت قدومه . . أو هو حال إن كان مصدرا ميميّا كقولنا آتيك خفوق النجم. وهذا التخريج ينطبق على (مرسى) لأنه معطوف عليه.

وجملة: " باسم اللّه مجراها... " في محلّ نصب حال من الضمير في (فيها) "

.

وجملة: " إنّ ربّي لغفور... " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

الصرف:

(باسم)، رسمت في المصحف بحذف همزة الوصل (بسم)، والقاعدة الإملائيّة بعدم الحذف لأن حذف همزة الوصل لا يتمّ إلّا في البسملة الكاملة (بسم اللّه الرحمن الرحيم)، أمّا إذا قلت باسم الله آكل، أو باسم اللّه أركب فلا حذف.

(مجرى)، اسم زمان أو مكان من فعل جرى الثلاثيّ، ووزنه مفعل بفتح الميم والعين، وهو مصدر ميميّ من الفعل نفسه والوزن نفسه لأن الفعل معتّل ناقص.

(مرسى)، اسم زمان أو مكان من فعل أرسى الرباعيّ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين، أو هو مصدر ميميّ من الفعل نفسه، والوزن نفسه.

[سورة هود (11): آية 42]

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ وَكانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ (42)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (هي) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (تجري) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء، والفاعل هي (الباء) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من الفاعل (في موج) جارّ ومجرور حال ثانية من فاعل تجري (كالجبال) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لموج (الواو) عاطفة لا للترتيب (نادى) فعل ماض

---

(1) لا يجوز أن تكون حالا من فاعل اركبوا لأنه ليس فيها عائد عليه.. ويجوز أن تكون استئنافيّة في حيّز القول.

مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف (نوح) فاعل مرفوع (ابن) مفعول به منصوب و(الهاء) مضاف إليه (الواو) اعتراضيّة "1"، (كان) فعل ماض ناقص - ناسخ - واسمه ضمير مستتر تقديره هو (في معزل) جارّ ومجرور خبر كان (يا) أداة نداء (بنيّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة و(الياء) المحذوفة تخفيفا ضمير مضاف إليه (اركب) فعل أمر، والفاعل أنت (معنا) مثل معه "2" متعلّق بـ (اركب)، (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تكن) مضارع ناقص مجزوم، واسمه ضمير مستتر تقديره أنت (مع) مثل السابق "3" متعلّق بخبر تكن (الكافرين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء.

جملة : " هي تجري . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 4 " .

وجملة : " تجري . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ هي .

وجملة : " نادى . . . " معطوفة على جملة هي تجري .

وجملة : " كان في معزل . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " يا بنيّ . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول محذوف أي نادى يقول يا بني " 5 " .

وجملة : " اركب معنا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " لا تكن مع الكافرين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

---

(1) أو حاليّة والجملة في محلّ نصب حال .

(2 ، 3) في الآية (40) من هذه السورة .

(4) يجوز أن تكون (الواو) واو الحال ، والجملة في محلّ نصب حال من مقدّر أي : ركبوا وساروا وهي تجري .

(5) أو لا محلّ لها تفسير للنداء في قوله : نادى نوح ابنه . . وانظر الآية (22) من سورة الأعراف .

الصرف :

(معزل) ، اسم مكان من عزل الثلاثيّ باب ضرب ، وزنه مفعل بفتح الميم وكسر العين لأن عينه في المضارع مكسورة.

(بنيّ) ، هو تصغير ابن ، وأصله بثلاث ياءات ، الأولى ياء التصغير والثانية لام الكلمة - أو عينها على الأصل - والثالثة ياء المتكلّم ، ثمّ حذفت ياء المتكلّم تخفيفا وأدغمت ياء التصغير في لام الكلمة.

[سورة هود (11) : آية 43]

قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43)

الإعراب :

(قال) فعل ماض ، والفاعل هو أي ابن نوح (السين) حرف استقبال (آوي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل أنا (إلى جبل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (آوي) ، (يعصمني) مضارع مرفوع . . و (النون) للوقاية و (الياء) مفعول به ، والفاعل هو (من الماء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يعصم) ، (قال) مثل الأول ، والفاعل هو أي نوح (لا) نافية للجنس (عاصم) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بحال من أمر الله " 1 " ، (من أمر) جارّ ومجرور متعلّق بخبر لا (الله) لفظ الجلالة مضاف

إليه مجرور (إلّا) أداة استثناء (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب على الاستثناء المتّصل أو المنقطع بحسب تأويل معنى عاصم " 2 " ، (رحم) فعل ماض ، والفاعل هو أي اللّه " 3 " (الواو) عاطفة (حال) فعل ماض (بين) ظرف مكان منصوب

---

(1) لا يجوز أن يكون (عاصم) عاملا في اليوم ، إذ لو كان كذلك لنّون . . وأجاز بعضهم تعليق (اليوم) بخبر لا ورده العكبري .

(2) فعلى المتّصل أي لا عاصم إلّا اللّه ، وعلى المنقطع أي لكن من رحمه اللّه يعصم ، وقد يكون (عاصم) بمعنى معصوم فالاستثناء متّصل . [. . . . . .]

(3) ومفعول (رحم) محذوف وهو العائد .

(305/380)

متعلّق بـ (حال) ، و (هما) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه (الموج) فاعل مرفوع (الفاء) عاطفة (كان) ماض ناقص ، واسمه ضمير مستتر تقديره هو (من المغرقين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر كان .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " سآوي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة: " يعصمني . . . " في محلّ جرّ نعت لجبل.

وجملة: " قال (الثانية) . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " لا عاصم . . من أمر الله . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " رحم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: " حال . . الموج . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: " كان من المغرقين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة حال.

[سورة هود (11) : آية 44]

وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (قيل) فعل ماض مبنيّ للمجهول (يا) أداة نداء (أرض) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (ابلعي) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . و (الياء) ضمير متّصل في محلّ رفع فاعل (ماءك) مفعول به منصوب . . و (الكاف) مضاف

إليه (الواو) عاطفة (يا سماء أقلعي) مثل يا أرض ابلعي (الواو) عاطفة (غيض) مثل قيل ، (الماء) نائب الفاعل مرفوع (الواو) عاطفة (قضي الأمر) مثل غيض الماء (الواو) عاطفة (استوت) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . والتاء للتأنيث ، والفاعل هي أي السفينة

(على الجوديّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (استوت) ، (الواو) عاطفة (قيل) مثل الأول (بعدا) مفعول مطلق لفعل محذوف أي ابعدوا أو بعدوا على الدعاء (للقوم) جارّ ومجرور متعلّق بالمصدر (بعدا) " 1 " ، (الظالمين) نعت للقوم مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " قيل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يا أرض . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 2 " .

وجملة : " ابلعي . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " يا سماء . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يا أرض .

وجملة : " أقلعي . . . " لا محلّ لها جواب النداء الثاني .

وجملة : " غيض الماء . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " قضي الأمر . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " استوت على الجوديّ " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة: " قيل (الثانية) . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: " (بعد) بعدا . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 3 " .

الصرف:

(غيض)، فيه عودة الألف إلى الياء وكسر فاء الكلمة.

---

(1) قال أبو حيّان: واللام في (للقوم) من صلة المصدر، ومنع جماعة التعليق بالمصدر فقالوا تتعلّق بقوله و (قيل)، والتقدير: وقيل لأجل الظالمين إذ لا يمكن أن يخاطب الهالك إلّا على سبيل المجاز. وقال غيره: هي للتخصيص والتبيين متعلّقة بـ (قيل) . . وقيل: الجار والمجرورة متعلق بخبر والمبتدأ محذوف تقديره الدعاء: أي الدعاء للقوم الظالمين . . فثمة جملتان في التركيب . .

(2، 3) لأنها في الأصل مقول القول . . والجمهور يجعل نائب الفاعل محذوفا تقديره (القول)، والجملة مفسّرة.

لمناسبة الياء .

(استوت) ، فيه إعلال بالحذف لالتقاء الساكنين ، جاءت الألف ساكنة قبل تاء التأنيث فحذفت ، وزنه افتعت .

(الجوديّ) ، اسم جامد لجبل بعينه ، ويقال : كلّ جبل يقال له جوديّ .

(بعدا) ، مصدر سماعيّ لفعل بعد يبعد باب كرم وزنه فعل بضمّ فسكون .

البلاغة

1 - النظر في هذه الآية الكريمة من أربع جهات : من جهة علم البيان ومن جهة علم المعاني ، وهما مرجعا البلاغة ومن جهة الفصاحة المعنوية ومن جهة الفصاحة اللفظية . أما النظر فيها من جهة علم البيان وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بذلك من القرينة والترشيح والتعريض ، فهو أنه عز سلطانه لما أراد أن يبني معنى : أردنا أن نردّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتدّ ، وأن نقطع طوفان السماء فانقطع ، وأن نفيض الماء النازل من السماء ففاض ، وأن نقضي أمر نوح عليه السلام وهو إنجاز ما كنا وعدناه من إغراق قومه فقضي ، وأن نسوي السفينة على الجودي فاستوت وأبقينا الظّلمة غرقى بنى سبحانه الكلام على تشبيه المراد منه بالمأمور الذي لا يتأتّى منه - لكمال هيبته من الآمر - العصيان وتشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ في تكون المقصود تصويرا لاقتداره سبحانه العظيم ، وأن هذه الأجرام العظيمة من السموات والأرض تابعة لإرادته تعالى

إيجادا وإعداما لمشيئته فيها تغييرا وتبديلا كأنها عقلاء مميزون ثم بنى على مجموع التشبيهين نظم الكلام فقال جل وعلا : " قيل . . . " على سبيل المجاز عن الإرادة من باب ذكر المسبب وإرادة السبب ، لأن الإرادة تكون سببا لوقوع القول في الجملة ، وجعل قرينة هذا

المجاز خطاب الجماد وهو " يا أرض . . . " " ويا سماء . . . " ، وهذا الخطاب للأرض والسماء على سبيل الاستعارة للشبه المذكور ، والظاهر أنه أراد أن هناك استعارة بالكناية حيث ذكر المشبه (أعني السماء والأرض المراد منهما حصول أمر) وأريد المشبه به (أعني المأمور الموصوف بأنه لا يتأتى منه العصيان ادعاء) بقرينة نسبة الخطاب إليه ودخول حرف النداء عليه – وهما من خواص المأمور المطيع – ويكون هذا تخييلا . ثم استعار لغور الماء في الأرض البلع الذي هو عمل الجذب في المطعوم للشبه بينهما وهو الذهاب إلى مقر خفي .

وفي الكشاف : جعل البلع مستعارا لنشف الأرض الماء وهو أولى ، فإن النشف دال على جذب من أجزاء الأرض لما عليها كالبلع بالنسبة إلى الحيوان ، ولأن النشف فعل الأرض

والغور فعل الماء ، مع الطباق بين الفعلين تعديا ، ثم استعار الماء للغذاء استعارة بالكناية تشبيها له بالغذاء لتقوى الأرض بالماء في الإنبات للزروع والأشجار تقوي الآكل بالطعام ، وجعل قرينة الاستعارة لفظة " ابلعي . . . " لكونها موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء .

ثم قال جل وعلا : " ماءك . . . " بإضافة الماء إلى الأرض ، على سبيل المجاز تشبيها لاتصال الماء بالأرض باتصال الملك بالمالك ، واختار ضمير الخطاب لأجل الترشيح ، وحاصله أن هناك مجازا لغويا في الهيئة الإضافية الدالة على الاختصاص الملكي ، ولهذا جعل الخطاب ترشيحا لهذه الاستعارة من حيث أن الخطاب يدل على صلوح الأرض للمالكية .

ثم اختار لاحتباس لمطر الإقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم ما كان من المطر أو الفعل ، ففي " أقلعي . . . " استعارة باعتبار جوهره ، وكذا باعتبار صيغته أيضا . وهي مبنية على تشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ ، والخطاب فيه أيضا ترشيح لاستعارة النداء .

ثم قال سبحانه " وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ

بُعْداً . . . "

فلم يصرح جل وعلا بمن غاض الماء ، ولا بمن قضى الأمر وسوى السفينة وقال بعدا . كما لم يصرح سبحانه بقائل "يا أَرْضُ . . . " "وَيا سَماءُ . . . "في صدر الآية ، سلوكا في كل واحد من ذلك لسبيل الكناية ، لأن تلك الأمور العظام لا تصدر إلا من ذي قدرة لا يكتنه ، قهار لا يغالب فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره جلت عظمته قائلا : "يا أَرْضُ . . . "و "يا سَماءُ . . . " ، ولا غائضا ما غاض ، ولا قاضيا مثل ذلك الأمر الهائل ، أو أن يكون تسوية السفينة وإقرارها بتسوية غيره .

ثم إنه تعالى ختم الكلام بالتعريض ، تنبيها لسالكي مسلك أولئك القوم ، في تكذيب الرسل عليهم السلام ، ظلما لأنفسهم لا غير وإظهارا لمكان السخط ولجهة استحقاقهم إياه ، وأن قيامة الطوفان ، وتلك الصورة الهائلة ، ما كانت إلا لظلمهم ، كما يؤذن بذلك الدعاء بالهلاك بعد هلاكهم ، والوصف بالظلم مع تعليق الحكم به .

وأما النظر فيها من جهة علم المعاني ، وهو النظر في فائدة كل كلمة فيها ، وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها ، فذلك أنه اختير "يا . . . "دون سائر أخواتها لكونها أكثر في الاستعمال ، وأنها دالة على بعد المنادي الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة ، وإبداء شأن العزة والجبروت . وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل ، فذلك أنه قدم النداء على الأمر ،

فقيل : " يا أَرْضُ ابْلَعِي . . . " " وَيَا سَماءُ أَقْلِعِي . . . "

دون أن يقال : ابلعي يا أرض واقلعي يا سماء ، جريا على مقتضى اللازم – فيمن كان مأمورا حقيقة – من تقديم التنبيه ، ليتمكن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادي ، قصدا بذلك لمعنى الترشيح للاستعارة المكنية في الأرض والسماء ، ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء ، لكونها الأصل ، نظرا إلى كون ابتداء الطوفان منها حيث فار تنورها أولا .

هذا كله نظرا في الآية من جانبي البلاغة ، وقد ذكر ابن أبي الإصبع أن فيها عشرين ضربا من البديع مع أنها سبع عشرة لفظة ، وذلك : المناسبة التامة في " ابلعي . . . " و " اقلعي . . . " ، والاستعارة فيها ، والطباق بين الأرض والسماء ، والمجاز في

" يا سَماءُ . . . " فإن الحقيقة يا مطر السماء ، والإشارة في " وَغِيضَ الْماءُ . . . " فإنه عبر به عن معان كثيرة لأن الماء لا يفيض حتى يقلع مطر السماء وتبلع الأرض ما يخرج منها فينقص ما على وجه الأرض ، والإرداف في " وَاسْتَوَتْ . . . " ، والتمثيل في " وَقُضِيَ الْأَمْرُ . . . " ، والتعليل فإن غيض الماء علة للاستواء ، وصحة التقسيم فإنه استوعب أقسام الماء حال نقصه ، والاحتراس في الدعاء لئلا يتوهم أن الغرق لعمومه شمل من لا

يستحق الهلاك فإن عدله تعالى يمنع أن يدعو على غير مستحق ، وحسن النسق ، وائتلاف اللفظ مع المعنى ، والإيجاز فإنه سبحانه قص القصة مستوعبة بأخصر عبارة ، والتسهيم لأن أول الآية يدل على آخرها ، والتهذيب لأن مفرداتها موصوفة بصفات الحسن ، وحسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام ولا يشكل عليه شيء منه ، والتمكين لأن الفاصلة مستقرة في محلها مطمئنة في مكانها والانسجام ، وزاد الجلال السيوطي الاعتراض .

الفوائد

1 - الإعجاز البلاغيّ في القرآن :

لقد اشتملت هذه الآية على فنون من البلاغة تجاوزت خمسة وعشرين فنا ، قد ذكرها علماء البلاغة مفصلة ولا مجال لعرضها ، ولا يسع الإنسان إلا أن يخر ساجدا لعظمة اللّه عز وجل ، وينحني أمام بيانه المعجز ، مقرا بأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . ويروى أن عالما كبيرا حاول أن ينتقد القرآن الكريم وذلك باكتشاف عيب بسيط فيه ، واستمرت المحاولة شهورا ، وكان له جماعه يترددون عليه

ويسألونه ما صنع ؟ ولكنه في نهاية المطاف كسر القلم والدواة وقال : هذا كلام اللّه لا يناقش ، ثم مر على مسجد فسمع غلاما يتلو هذه الآية فقال : ما كان لبشر أن يقول مثل هذا الكلام.

2 - تعليق الإمام النسفي على هذه الآية :

ومن جهة الفصاحة المعنوية ، وهي كما ترى نظم للمعاني لطيف ، وتأدية لها ملخصة مبينة ، لا تعقيد يعتري الفكر في طلب المراد ، ولا التواء يشكّك الطريق إلى المرتاد . ومن جهة الفصاحة اللفظية ، فألفاظها على ما ترى عربية مستعملة ، سليمة عن التنافر ، بعيدة عن البشاعة ، عذبة على العذبات ، سلسة على الأسلات ، كل منها كالماء في السلاسة ، وكالعسل في الحلاوة ، وكالنسيم في الرقة ومن ثم أطبق المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية . وللّه درّ شأن التنزيل ، لا يتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر ، ولا تظنّن الآية مقصورة على المذكور ، فلعلّ المتروك أكثر من المسطور.

[سورة هود (11) : آية 45]

وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ (45)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (نادى نوح ربّه) مثل نادى نوح ابنه " 1 " ، (الفاء) عاطفة (قال) فعل ماض ، والفاعل هو (ربّ) منادى مضاف منصوب ، حذف منه أداة النداء ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف . . و (الياء) المحذوفة مضاف إليه (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (ابني) اسم إنّ منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء . . و (الياء) مضاف إليه (من أهل) جارّ ومجرور بخبر إنّ و (الياء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (إنّ وعدك) مثل إنّ ابني ، والفتحة ظاهرة (الحقّ) خبر إنّ مرفوع (الواو) عاطفة (أنت) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أحكم) خبر مرفوع (الحاكمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء جملة : " نادى نوح . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نادى وهو عطف تفسير أو تفصيل .

---

(1) في الآية (42) من هذه السورة .

وجملة : " ربّ . . . " في محلّ نصب مقول القول " 1 " .

وجملة : " إنّ ابني من أهلي " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " إنّ وعدك الحقّ " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " أنت أحكم الحاكمين " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

الفوائد

هل كنعان الغريق ابن نوح؟ أكثر المفسرين أنه ابن نوح من صلبه .

وهذا هو القول الصحيح . وما سوى ذلك فهو باطل . وقد نقل الجمهور ما صح عن ابن عباس أنه قال : ما بغت (ما زنت) امرأة نبي قط . ونص تعالى بقوله وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ كما ناداه أبوه بقوله (يا بني اركب معنا) . وقال المفسرون : إذا كفرت زوجة النبي فهذا لا يعيبه ولا يمس شرفه ، أما الزنى فإنه معيب ولا يجوز أن يقع من زوجة نبي قط ، كما ورد عن ابن عباس والذي يظهر لي والله أعلم أن قوله تعالى : إنه ليس من أهلك أي أنه باختياره الكفر قد انقطعت القرابة المعنوية بينه وبين أبيه ، لأن الإيمان هو الرابط الأساسي والقرابة الحق .

[سورة هود (11) : آية 46]

قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (46)

الإعراب :

(قال يا نوح) مرّ إعرابها " 2 " ، (إنّ) حرف مشبه بالفعل - ناسخ - و (الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إن (ليس) فعل ماض ناقص جامد ، واسمه ضمير مستتر تقديره هو (من أهلك) مثل من أهلي

---

(1) أو هي اعتراضيّة لا محلّ لها ، والجملة بعدها مقول القول.

(2) في الآية (32) من هذه السورة.

(315/380)

متعلّق بخبر ليس " 1 " (إنّه) مثل الأول (عمل) خبر إنّ مرفوع على حذف مضاف أي ذو عمل (غير) نعت لعمل مرفوع (صالح) مضاف إليه مجرور (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية حازمة (تسألن) مضارع مجزوم .. و (النون) للوقاية و (الياء) المحذوفة للتخفيف ضمير مفعول به (ما) اسم موصول " 2 " مبنيّ في محلّ نصب مفعول به ثان (ليس) مثل الأول (اللام) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدم (به) مثل لك متعلق بحال من (علم) وهو اسم لبس مؤخّر مرفوع (إنّي) مثل إنه (أعظ) مضارع مرفوع ، والفاعل أنا و (الكاف) ضمير مفعول به (أن) حرف مصدريّ (تكون) مضارع ناقص منصوب واسمه ضمير مستتر تقديره أنت (من الجاهلين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف

خبر تكون.

والمصدر المؤوّل (أن تكون) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف تقديره من متعلّق بـ (أعظك) بمعنى أنهاك " 3 " .

جملة: " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " يا نوح . . . " في محلّ نصب مقول القول " 4 " .

وجملة: " إنّه ليس من أهلك " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: " ليس من أهلك " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: " إنّه عمل . . . " لا محلّ لها تعليلية.

---

(1) في الآية السابقة (45) .

(2) أو هو نكرة موصوفة بمعنى شيء . . والجملة بعده في محلّ نصب نعت له.

(3) أو هو في محلّ نصب مفعول لأجله على حذف مضاف أي: أعظك كراهة أن تكون من الجاهلين.

(4) أو هي اعتراضيّة لا محلّ لها، والجملة بعدها مقول القول.

وجملة : " لا تسألن . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : أي إن جاءك علم هذا فلا تسألني . . .

وجملة : " ليس لك به علم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " إنّي أعظك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أعظك . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " تكون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

الفوائد

1 - عصمة الأنبياء :

استدل بهذه الآيات من لا يرى عصمة الأنبياء ، بأن قوله تعالى إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ المراد منه السؤال ، وهو محظور ، فلهذا نهاه عنه بقوله فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، وقوله سبحانه وتعالى إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ يدل على أن ذلك السؤال كان جهلا ، ففيه زجر وتهديد ، وطلب المغفرة والرحمة له يدل على صدور الذنب . والجواب أن اللّه عز وجل كان قد وعد نوحا عليه الصلاة والسلام بأن ينجيه وأهله ، فأخذ نوح ظاهر اللفظ واتبع التأويل بمقتضى الظاهر ، ولم يعلم ما غاب عنه ولم يشك في وعد اللّه سبحانه وتعالى ، فأقدم على هذا السؤال لهذا السبب ، فعاتبه اللّه عز وجل على سؤاله ما ليس له به علم ، وبين له أنه ليس من أهله الذين وعده بنجاتهم ، لكفره وعمله الذي هو غير صالح ، وأعلمه

اللّه سبحانه وتعالى أنه مغرقه مع الذين ظلموا ، ونهاه عن مخاطبته فيهم ، فأشفق نوح من إقدامه على سؤال ربه ، فيما لم يؤذن له فيه وخاف من ذلك الهلاك فلجأ إلى ربه عز وجل ، وخشع له وعاذ به ، وسأله المغفرة والرحمة ، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وليس في الآية ما يقتضي صدور ذنب ومعصية من نوح عليه الصلاة والسلام سوى تأويله وإقدامه على سؤال ما لم يؤذن له فيه ، وهذا ليس بذنب ولا معصية . ويقال في هذه الحادثة ما قيل في فداء النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلم لأسرى بدر ، واللّه أعلم .

2 – حذف الياء تخفيفا :

ورد في القرآن الكريم حذف الياء من بعض الأسماء والأفعال دون سبب نحوي يقتضي ذلك ، وقال النحويون بأن سبب حذفها هو التخفيف ، وأثناء الإعراب نعتبرها موجودة ونعربها ، وقد وردت في هذه الآية في قوله تعالى : فلا تسألن : أصلها فلا تسألني ، حذفت الياء للتخفيف ، وهي ضمير متصل في محل نصب مفعول به ، وورد في سورة الكهف قوله تعالى ذِلكَ ما كُنَّا نَبْغِ أي نبغي ، وورد أيضا في موضع آخر من القرآن الكريم وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وورد في الآية السابقة رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي أي (ربي) وهذه سمة لكلام اللّه عز

وجل تميزه عن كلام البشر ، وحذف الياء فيه مغزى وحكمة وتناسق وانسجام للنغم الموسيقي المتآلف في القرآن الكريم ، وفيه لفتة إلى بعض المعاني اللطيفة . ففي قوله تعالى مثلا رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ فيه لفتة إلى قرب اللّه عز وجل من العبد واستجابته له قبل أن يتم كلمة (ربي) . واللّه أعلم .

[سورة هود (11) : آية 47]

قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ (47)

الإعراب :

(قال ربّ) مرّ إعرابها " 1 " ، (إنّي) مثل إنّه " 2 " ، (أعوذ) مثل أعظ " 3 " ، (الباء) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أعوذ) ، (أن) حرف مصدريّ ونصب (أسأل) مضارع منصوب ، والفاعل أنا و (الكاف) ضمير مفعول به (ما ليس لي به علم) مثل ما ليس لك به علم " 4 " .

والمصدر المؤوّل (أن أسألك . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف تقديره من أن أسألك . . متعلّق بـ (أعوذ) .

---

(1) في الآية (45) من هذه السورة .

(2 ، 3 ، 4) في الآية (46) السابقة .

(الواو) عاطفة (إنّ) حرف شرط جازم (لا) نافية (تغفر) مضارع مجزوم، والفاعل أنت (لي) مثل لك، متعلّق بـ (تغفر)، (الواو) عاطفة (ترحم) مضارع مجزوم معطوف على (تغفر)، و (النون) للوقاية و (الياء) ضمير مفعول به، والفاعل أنت (أكن) مضارع ناقص مجزوم جواب الشرط، واسمه ضمير مستتر تقديره (أنا) (من الخاسرين) جارّ ومجرور خبر أكن.

جملة: "قال ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ربّ ... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "إنّي أعوذ ... " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "أعوذ ... " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "أسألك ... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: "ليس لي به علم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) " 1 ".

وجملة: "إلّا تغفر ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء.

وجملة: "ترحمني ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة تغفر.

وجملة: " أكن من الخاسرين " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء.

[سورة هود (11) : آية 48]

قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (48)

---

(1) أو في محلّ نصب نعت لـ (ما) النكرة الموصوفة بمعنى شيء.

الإعراب:

(قيل) ماض مبنيّ للمجهول (يا نوح) مرّ إعرابها " 1 "، (اهبط) فعل أمر، والفاعل أنت (بسلام) جار ومجرور حال من فاعل اهبط (من) حرف جرّ و (نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لسلام " 2 "، (الواو) عاطفة (بركات) معطوف على سلام مجرور (على) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لبركات " 3 "، (الواو) عاطفة (على أمم) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لبركات - أو ببركات - فهو معطوف على المجرور الأول بإعادة الجار (من) حرف جرّ (من) اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق بنعت لأمم (مع) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة من و (الكاف) مضاف إليه (الواو) استئنافيّة (أمم)

مبتدأ مرفوع . . خبره محذوف أي : من ذرّيتك أمم (السين) حرف استقبال (نمتع) مضارع مرفوع و (هم) ضمير مفعول به ، والفاعل نحن للتعظيم (ثمّ) حرف عطف (يمسّهم) مثل نمتّعهم (منّا) مثل الأول متعلّق بحال من (عذاب) وهو فاعل يمسّهم مرفوع (أليم) نعت لعذاب مرفوع.

جملة : " قيل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يا نوح . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 4 " .

وجملة : " اهبط بسلام " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " من ذرّيتك أمم " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " سنمتّعهم " في محلّ رفع نعت لأمم .

وجملة : " يمسّهم منّا عذاب . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة سنمتّعهم .

---

(1) في الآية 32 من هذه السورة . [. . . . .]

(2) أو متعلّق بسلام .

(3) أو متعلّق ببركات .

(4) لأنها في الأصل مقول القول . . وانظر الآية (11) من سورة البقرة .

[سورة هود (11) : آية 49]

تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49)

الإعراب :

(تلك) اسم إشارة مبني على السكون الظاهرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، و (اللام) للبعد ، و (الكاف) للخطاب (من أنباء) جارّ ومجرور متعلّق بخبر المبتدأ " 2 " ، (الغيب) مضاف إليه مجرور (نوحي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة ، والفاعل نحن للتعظيم و (ها) ضمير مفعول به (إلى) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نوحيها) ، (ما) نافية (كنت) فعل ماض ناقص - ناسخ - واسمه (تعلمها) مثل نوحيها والفاعل أنت ضمير مستتر (أنت) ضمير بارز منفصل مبنيّ في محلّ رفع توكيد للفاعل (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (قوم) معطوف على الضمير المستتر فاعل تعلم ، مرفوع و (الكاف) مضاف إليه (من قبل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تعلمها) ، (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه " 3 " ، (الفاء) استئنافيّة " 4 " ، (اصبر) فعل أمر ، والفاعل أنت (إنّ العاقبة) حرف مشبّه بالفعل واسمه المنصوب (للمتّقين) جارّ ومجرور خبر إنّ .

جملة: " تلك من أنباء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " نوحيها . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ تلك " 5 " .

---

(1) والإشارة إلى الآيات التي تروي قصة نوح عليه السلام.

(2) أو حال من الضمير الظاهر في (نوحيها) .

(3) والإشارة إلى القرآن الكريم.

(4) أو رابطة لجواب شرط مقدّر.

(5) أو في محلّ نصب حال من أنباء.

(321/380)

وجملة: " ما كنت تعلمها " في محلّ رفع خبر ثالث " 1 " .

وجملة: " تعلمها " في محلّ نصب خبر كنت.

وجملة: " اصبر " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة: " إنّ العاقبة للمتّقين " لا محلّ لها تعليليّة.

[سورة هود (11) : آية 50]

وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (50)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إلى عاد) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف تقديره أرسلنا " 3 " ، (أخاهم) مفعول به للمحذوف منصوب وعلامة النصب الألف . . (وهم) ضمير مضاف إليه (هودا) بدل من (أخاهم) منصوب (قال) فعل ماض (يا) حرف نداء (قوم) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف ، و (الياء) المحذوفة مضاف إليه (اعبدوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . و (الواو) فاعل (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به (ما) نافية (اللام) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (من) حرف جرّ زائد (إله) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (غير) نعت لإله مرفوع تبعه محلّا و (الهاء) مضاف إليه (إن) حرف نفي (أنتم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (إلّا) أداة

---

(1) يجوز أن تكون حالا . . إمّا من ضمير المفعول في (نوحيها) ، أو من الضمير المجرور في إليك) .

(2) أو في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن أوذيت في تبليغ ما أرسل إليك فاصبر .

(3) يجوز أن يكون المجرور معطوفا على المجرور في قوله (أرسلنا نوحا إلى قومه) - الآية 25 - ، (أخاهم) معطوفة على (نوحا) ، والعطف حينئذ من عطف المفردات كما نقول

: ضرب زيد عمرا وبكر خالدا . . ولكن الإعراب أعلاه أقرب لطول الفصل ، والعطف فيه من عطف الجمل كما يأتي .

(322/380)

حصر (مفترون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " (أرسلنا) إلى عاد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم : أرسلنا نوحا " 1 " .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة : " يا قوم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اعبدوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " ما لكم من إله غيره " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " إن أنتم إلّا مفترون " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

[سورة هود (11) : الآيات 51 إلى 52]

يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ (51) وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا

مُجْرِمِينَ (52)

الإعراب:

(يا قوم) مثل السابقة " 3 "، (لا أسألكم... على الذي) مرّ إعراب نظيرها " 4 "، (فطر) فعل ماض، والفاعل هو أي اللّه، وهو العائد و (النون) للوقاية و (الياء) ضمير مفعول به (الهمزة) للاستفهام (الفاء) عاطفة (لا) نافية (تعقلون) مضارع مرفوع.. والواو فاعل.

جملة: " يا قوم... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " لا أسألكم... " لا محلّ لها جواب النداء.

---

(1) في الآية (25) من هذه السورة.

(2) أو في محلّ نصب حال من (أخاهم) بتقدير قد.

(3) في الآية (50) السابقة. [.....]

(4) في الآية (29) من هذه السورة.

وجملة: " إن أجري إلّا على الذي . . " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: " فطرني " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة: " لا تعقلون " لا محلّ لها معطوفة على جملة مستأنفة مقدّرة أي: أجهلتم فلا تعقلون.

(324/380)

(الواو) عاطفة (يا قوم) مثل السابقة، (استغفروا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (ربّ) مفعول به منصوب و (كم) ضمير مضاف إليه (ثمّ) حرف عطف (توبوا) مثل استغفروا (إلى) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (توبوا) ، (يرسل) مضارع مجزوم جواب الطلب وعلامة الجزم السكون وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين والفاعل هو (السماء) مفعول به منصوب على حذف مضاف أي ماء السماء " 1 " ، (على) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يرسل) بتضمينه معنى ينزّل (مدرارا) حال منصوبة من السماء " 2 " ، (الواو) عاطفة (يزد) مضارع مجزوم معطوف على (يرسل) ، والفاعل هو و (كم) ضمير مفعول به (قوّة) مفعول به ثان منصوب (إلى قوّة) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لقوّة و (كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا) ناهية

جازمة (تتولّوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون والواو فاعل (مجرمين) حال من فاعل تتولّوا.

جملة النداء: "يا قوم... "لا محلّ لها معطوفة على جملة النداء في السابقة.

وجملة: "استغفروا... "لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "توبوا إليه "لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء.

---

(1) أو هو مجاز مرسل علاقته المكانيّة.

(2) انظر الآية (6) من سورة الأنعام ففيها مزيد شرح وإيضاح.

(325/380)

وجملة: "يرسل... "لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء.

وجملة: "يزدكم... "لا محلّ لها معطوفة على جملة يرسل.

وجملة: "لا تتولّوا... "لا محلّ لها معطوفة على جملة استغفروا.

[سورة هود (11): آية 53]

قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53)

الإعراب:

(قالوا) فعل ماض وفاعله (يا هود) مثل يا نوح " 1 " ، (ما) نافية (جئتنا) فعل ماض وفاعله ومفعوله (ببيّنة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جئتنا) " 2 " (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (نحن) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع اسم ما (الباء) حرف جرّ زائد (تاركي) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما ، وعلامة الجرّ الياء ، وحذفت النون للإضافة (آلهتنا) مضاف إليه مجرور . . و (نا) ضمير مضاف إليه (عن قول) جارّ ومجرور متعلّق بحال من الضمير في تاركي أي صادرين عن قولك (الواو) عاطفة (ما نحن) مثل الأولى (اللام) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمؤمنين (بمؤمنين) مثل بتاركي .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء : " يا هود . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ما جئتنا ببيّنة " لا محلّ لها جواب النداء ، استئنافيّة .

وجملة : " ما نحن بتاركي . . . " لا محل لها معطوفة على جملة جواب النداء .

---

(1) في الآية (46) من هذه السورة .

(2) أو بمحذوف حال من فاعل جئت .

وجملة : " ما نحن لك بمؤمنين " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

الفوائد

- زيادة الباء :

ورد في هذه الآية قوله تعالى وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فقد زيدت الباء بخبر (ما) النافية التي تعمل عمل ليس ، فنقول الباء حرف جر زائد ، مؤمنين : مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما ، وسنورد فيما يلي مواضع زيادة الباء إكمالا للفائدة مع العلم أن الباء الزائدة تزيد المعنى توكيدا .

1 - تزاد مع الفاعل . وزيادتها غالبة وواجبة كما في قولنا أحسن بزيد والأصل أحسن زيد ، وتغلب زيادتها في فاعل كفى كقوله تعالى كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً 2 - في المفعول به ، كقوله تعالى وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ 3 - في المبتدأ ، كقولنا (بحسبك درهم) و (خرجت فإذا بزيد في الباب) .

4 - في الخبر، مثل قوله تعالى أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ ووَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ 5 - في الحال المنفي عاملها، كقول القحيف العقيلي:

فما رجع بخائبة ركاب حكيم بن المسيب منتهاها

الشاهد فيه قوله (بخائبة) والأصل فما رجعت خائبة.

[سورة هود (11): الآيات 54 إلى 56]

إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (56)

الإعراب:

(إن) حرف نفي (نقول) مضارع مرفوع، والفاعل نحن

(إلّا) أداة حصر (اعترى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف و(الكاف) ضمير مفعول به (بعض) فاعل مرفوع (آلهتنا) مثل السابق " 1 "، (بسوء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اعتراك)، (قال) فعل ماض، والفاعل هو (إنّي أشهد) مثل إنّي أعوذ " 2 "، (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب، والمشهود عليه محذوف دلّ عليه الآتي (الواو) عاطفة (اشهدوا) فعل مثل استغفروا " 3 "، (أنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و(الياء) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (بريء) خبر مرفوع (من) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ

(تشركون) مضارع مرفوع.. والواو فاعل.

جملة: "إن نقول... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "اعتراك" في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "قال... "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "إنّي أشهد ... "في محلّ نصب مقول القول الثاني.

وجملة: "أشهد اللّه" في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "اشهدوا ... "في محلّ نصب معطوفة على جملة إنّي أشهد..

وجملة: "تشركون" لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

والمصدر المؤوّل (أنّي بريء..) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف أي بأنّي بريء.. متعلّق بـ (اشهدوا).

والمصدر المؤوّل (ما تشركون) في محلّ جرّ بحرف جرّ من متعلّق ببريء.

---

(1) في الآية (53) السابقة.

(2) في الآية (47) من هذه السورة.

(3) في الآية (52) من هذه السورة.

(من دون) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لمفعول تشركون المحذوف أي تشركون آلهة من دونه و (الهاء) ضمير مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (كيدوا) مثل استغفروا " 1 " ، و (النون) للوقاية و (الياء) ضمير مفعول به (جميعا) حال من فاعل كيدوا منصوبة (ثمّ) حرف عطف (لا تنظروا) مثل لا تولّوا " 2 " ، و (النون) للوقاية و (الياء) المحذوفة تخفيفا ضمير مفعول به.

وجملة: "كيدوني . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن استطعتم أن تكيدوني فكيدوني.

وجملة: "لا تنظرون" معطوفة على جملة كيدوني.

(إنّي) مثل الأول (توكّلت) فعل ماض وفاعله (على اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (توكّلت) ، (ربّ) بدل من لفظ الجلالة مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على آخره و (الياء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ربّكم) معطوف على ربّ الأول مجرور . . و (كم) مضاف إليه (ما) حرف نفي (من) حرف جرّ زائد (دابّة) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ (إلّا) أداة حصر (هو) ضمير منفصل مبتدأ (آخذ) خبر هو مرفوع (بناصيتها) جارّ ومجرور متعلّق بآخذ . . و (ها) مضاف إليه (إنّ ربّي) مرّ إعرابها " 3 " (على صراط) جارّ ومجرور متعلّق بخبر إنّ (مستقيم) نعت لصراط مجرور.

وجملة: "إنّي توكّلت . . . "لا محلّ لها تعليل لما سبق.

وجملة: "توكّلت . . . "في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "ما من دابة إلّا هو آخذ . . . "لا محلّ لها تعليل آخر.

وجملة: "هو آخذ . . . "في محلّ رفع خبر دابّة.

(1، 2) في الآية (52) من هذه السورة.

(3) في الآية (41) من هذه السورة.

وجملة: "إنّ ربّي على صراط . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(اعتراك)، فيه إعلال بالقلب، أصله اعتري، جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا فأصبح اعترى - بألف أخيرة - وزنه افتعل، والياء التي هي لام الكلمة منقلبة عن واو مجرّده عرا يعرو، والمصدر عروة.

(ناصية)، اسم لمقدم الرأس، أو الشعر النابت في المقدّمة، وفي الكلمة إعلال بالقلب: تقول نصوت الرجل أي أخذت بناصيته، والأصل ناصوة - بكسر الصاد وفتح الواو -

فلمّا تحرّكت الواو وكسر ما قبلها قلبت ياء فأصبح ناصية ، وزنه فاعلة ، والأخذ بالناصية كناية عن الغلبة والقهر .

البلاغة

1 – في قوله تعالى " قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ " .

فإنه إنما قال : أشهد اللّه واشهدوا ، ولم يقل وأشهدكم ليكون موازنا له وبمعناه ، لأن إشهاده اللّه على البراءة من الشرك صحيح ثابت ، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ، ودلالة على قلة المبالاة بهم ، ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما ، وجيء به على لفظ الأمر ، كقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه : اشهد عليّ أني لا أحبك ، تهكما به واستهانة بحاله هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فإن صيغة الخبر لا تحتمل سوى الإخبار بوقوع الاشهاد منه ، فلما كان إشهاده للّه واقعا ومحققا عبر عنه بصيغة الخبر ، لأنه إشهاد صحيح وثابت ، وعبر في جانبهم بصيغة الأمر التي تتضمن الاستهانة بدينهم ، وهو مراده في هذا المقام ، ومن جهة ثالثة إنما عدل إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر ، للتمييز بين خطابه اللّه تعالى وخطابه لهم ، بأن يعبر عن خطاب اللّه تعالى بصيغة الخبر التي هي أجل وأشرف وأوفر للمخاطب من صيغة الأمر .

2 – المجاز : في قوله تعالى " ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها " أي إلا هو مالك

لها ، قادر عليها ، يصرفها كيف يشاء ، غير مستعصية عليه سبحانه واستعمال الأخذ بالناصية في القدرة والتسلط مجاز أو كناية .

3 - التمثيل : في قوله تعالى " إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ " مندرج في البرهان ، وهو تمثيل واستعارة ، لأنه تعالى مطلع على أمور العباد ، مجاز لهم بالثواب والعقاب ، كاف لمن اعتصم به ، كمن وقف على الجادة فحفظها ، وهو كقوله سبحانه وتعالى : " إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ "

.

[سورة هود (11) : آية 57]

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (تولّوا) مضارع مجزوم حذفت منه إحدى التاءين وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل (الفاء) تعليليّة " 1 " (قد) حرف تحقيق (أبلغت) فعل ماض وفاعله و (كم) ضمير مفعول به (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (أرسلت) فعل ماض مبنيّ للمجهول . . و (التاء) ضمير نائب الفاعل (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أرسلت) " 2 " ، (إلى) حرف جرّ و

(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أرسلت) . (الواو) استئنافيّة (يستخلف) مضارع مرفوع (ربّي) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء . . و (الياء) مضاف إليه (قوما) مفعول به منصوب (غيركم) نعت لـ (قوما) منصوب . . و (كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا) نافية (تضرّون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل و (الهاء)

---

(1) أو رابطة لجواب الشرط، والجملة بعدها في محلّ جزم جواب الشرط وإن كان فيها معنى التعليل.

(2) أو متعلّق بمحذوف حال من نائب الفاعل أي أرسلت مكلّفا بتبليغه إليكم، وفي الكلام حذف مضاف.

ضمير مفعول به (شيئا) مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه من نوع الصفة أي ضررا ما (إنّ ربّي على كلّ) مثل المتقدّمة " 1 "، والجارّ متعلّق بحفيظ (شيء) مضاف إليه مجرور (حفيظ) خبر إنّ مرفوع.

جملة: " إن تولّوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " قد أبلغتكم . . . " لا محلّ لها تعليل لجواب الشرط المقدّر أي إن تتولّوا لا أبال

لأنني قد أبلغتكم .

وجملة : " أرسلت به . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يستخلف ربّي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا تضرّونه شيئا " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " إنّ ربّي . . . . حفيظ " لا محلّ لها تعليليّة .

الفوائد

- حذف جملة جواب الشرط :

1 - يجب حذف جواب الشرط إذا تقدم ما يدل عليه ، مثل : هو ظالم إن فعل والتقدير إن فعل فهو ظالم .

2 - ويجوز حذف الجواب في غير ذلك ، كقوله تعالى فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أي فافعل . ووَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أي لما آمنوا به ، بدليل وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ .

3 - التحقيق والصواب أن من الحالات التي يحذف بها الجواب : قوله تعالى مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ لأن الجواب سبب عن الشرط ، وأجل اللّه آت سواء وجد الرجاء أم لم يوجد ، وإنما الأصل أن جواب الشرط محذوف وتقديره : فليبادر بالعمل فإن أجل اللّه لآت . ومثله قوله تعالى وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ أي

(1) في الآية السابقة (56) .

(332/380)

فاصبر فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ. وقوله تعالى إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ أي فاصبروا فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ. ومن قبيل ذلك ما ورد في الآية التي نحن بصددها ، فقد حذف جواب الشرط (فَإِنْ تَوَلَّوْا) أي الجواب فلا لوم علي (فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ) .

[سورة هود (11) : آية 58]

وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (58)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بـ (نجينا) ، (جاء) فعل ماض (أمر) فاعل مرفوع و (نا) ضمير مضاف إليه (نجّينا) فعل ماض وفاعله (هودا) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب معطوف على (هودا) ، (آمنوا) فعل ماض وفاعله (مع) ظرف منصوب متعلّق بـ (آمنوا) ، و (الهاء) مضاف إليه (برحمة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نجينا) والباء سببيّة (من) حرف جرّ و (نا)

ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لرحمة (الواو) واو الاستئناف (نجّينا) مثل الأولى و (هم) ضمير مفعول به (من عذاب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نجّيناهم) ، (غليظ) نعت لعذاب مجرور.

جملة: "جاء أمرنا ... " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "نجّينا ... " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "آمنوا ... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: "نجّيناهم ... " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

---

(1) النجاة الأولى في الدنيا ، والثانية في الآخرة فلا تتقيّد بالشرط فلم تعطف على الأولى.

[.....]

(333/380)

[سورة هود (11) : الآيات 59 إلى 60]

وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ (60)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (تلك) مرّ إعرابها " 1 " ، (عاد) خبر مرفوع (جحدوا) فعل ماض وفاعله (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جحدوا) ، (ربّهم) مضاف إليه مجرور . . و (هم) مضاف إليه (الواو) عاطفة (عصوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . و (الواو) فاعل (رسل) مفعول به منصوب و (الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (اتّبعوا) مثل جحدوا (أمر) مفعول به منصوب (كلّ) مضاف إليه مجرور (جبّار) مثل كلّ (عنيد) نعت لجبّار مجرور .

جملة : " تلك عاد . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة : " جحدوا . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ تلك " 2 " .

وجملة : " عصوا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة جحدوا .

وجملة : " اتّبعوا " في محلّ رفع معطوفة على جملة جحدوا .

(الواو) عاطفة (أتبعوا) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على الضمّ . .

والواو نائب الفاعل (في) حرف جرّ (ها) حرف تنبيه (ذه) اسم إشارة مبنيّ على الكسر في محلّ جرّ متعلّق بـ (أتبعوا) ، (الدنيا) بدل من اسم الإشارة تبعه في الجرّ وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (لعنة) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق ب

---

(1) في الآية (49) من هذه السورة.

(2) أو لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

(أتبعوا) فهو معطوف شبه الجملة (في هذه) ، (القيامة) مضاف إليه مجرور (ألا) أداة تنبيه (إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - (عادا) اسم إنّ منصوب (كفروا) مثل جحدوا (ربّهم) مفعول به منصوب بتضمين كفروا معنى جحدوا ، كما ضمّن جحدوا معنى كفروا في الآية السابقة . . و (هم) ضمير مضاف إليه (ألا) مثل الأول (بعدا) مفعول مطلق لفعل محذوف (لعاد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (بعدا) " 1 " ، (قوم) بدل من عاد مجرور (هود) مضاف إليه مجرور.

وجملة : " أتبعوا . . . " معطوفة على جملة جحدوا تأخذ إعرابها.

وجملة: " إنّ عادا كفروا . . . " لا محلّ لها تعليل لما سبق.

وجملة: "كفروا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: " (أبعدوا) بعدا " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(عنيد) ، صفة مشبهة من فعل عند يعند باب نصر وباب ضرب وباب فرح وباب كرم، وزنه فعيل، مخالف للحقّ وهو عارف به.

(هود) ، صرف لأنه ليس أعجميّا، فهو عربيّ: قال ابن هشام في الشذور " 2 ". ليس بين الأنبياء من هو عربيّ إلّا هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم صلوات اللّه وسلامه.

وزنه فعل بضمّ فسكون.

البلاغة

الاسناد المجازي: في قوله تعالى " وَتِلْكَ عادٌ " الإشارة للبعيد المحسوس والاسناد المجازي.

أو هو من مجاز الحذف، أي تلك قبور عاد. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ الجدول حـ 12 صـ 299.221 ﴾

---

(1) انظر إعراب: بعدا للقوم الظالمين (الآية - 44 - من هذه السورة).

(2) الشذور ص: (555).

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (6) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (8)

(الدابة) : الحي الذي من شأنه أن يدب ، وقد صار في العرف مختصا بنوع من الحيوان ، وفي المصباح : دب الصغير يدّب من باب ضرب ، إذا مشى ودب الجيش دبيبا سار سيرا لينا ، وكل حيوان في الأرض دابة .

الاعراب :

(أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ) ألا أداة استفتاح وتنبيه وإن واسمها وجملة يثنون صدورهم خبرها واللام للتعليل ويستخفوا مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام . (أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ) ألا تأكيد للتنبيه وحين ظرف والعامل فيه

مقدر وهو يستخفون ويجوز أن يكون ظرفا ليعلم أي ألا يعلم سرهم وعلنهم حين يفعلون كذا وجملة يستغشون مضافة للظرف وثيابهم منصوب بنزع الخافض ويعلم فعل مضارع وفاعله هو اللّه وما مفعول به وجملة يسرون صلة وما يعلنون عطف عليه. (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ)

(337/380)

إن واسمها وخبرها وبذات الصدور متعلقان بعليم. (وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها) الجملة مستأنفة مسوقة لبيان كونه تعالى محيطا بجميع الكائنات عالما بكل ما هب ودب، وما نافية ومن زائدة ودابة مبتدأ محلا مجرور بمن للعموم أي كل واحد من الدواب وستأتي أحكام "كل" في باب الفوائد، وفي كتاب خبر ومبين صفة. (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) الواو عاطفة وهو مبتدا والذي خبر وجملة خلق السموات والأرض صلة وفي ستة أيام متلقان بخلق. (وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ) كان واسمها وعلى الماء خبرها وفي الصورة تجسيد للاحاطة. (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) اللام للتعليل ويبلوكم مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ولام التعليل الجارة ومدخولها متعلقان بخلق وأيكم مبتدأ وأحسن خبر وعملا تمييز والجملة في محل نصب معمولة ليبلوكم وعلق

عنها بأي الاستفهامية ، وقد أحسن الزمخشري في تقريره إذ قال : " فإن قلت كيف جاز تعليق فعل البلوى ؟ قلت لما في الاختبار من معنى العلم لأنه طريق اليه فهو ملابس له كما تقول انظر أيهم أحسن وجها واستمع أيهم أحسن صوتا لأن النظر والاستماع من طرق العلم . (وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم ولا يجوز أن تكون للابتداء لأنها دخلت على إن التي هي للجزاء ولام

الابتداء من خصائص الاسم أو ما يضارع الاسم وإن حرف شرط جازم وقلت فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وإن واسمها ومبعوثون خبرها ومن بعد الموت متعلقان بمبعوثون . (لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) اللام جواب القسم وجواب الجزاء مستغنى عنه بجواب القسم لأنه إذا جاء في صدر الكلام غلب عليه وقد تقدم ذلك ، ويقولن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم كما تقدم وإن نافية وهذا مبتدأ وإلا أداة حصر وسحر خبر ومبين صفة وسيأتي بحث اللام وأقسامها في باب الفوائد . (وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ) لئن عطف على ما تقدم وقد تقدم إعراب لئن وعنهم متعلقان بأخرنا والعذاب مفعول به والى أمة متعلقان

بأخرنا والمراد بالأمة الطائفة من الأزمنة وهي في الأصل للطائفة من الناس ومعدودة صفة الأمة. (لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ) اللام جواب القسم ويقولن فعل مضارع مرفوع لأنه مفصول عن نون التوكيد بفاصل وهو واو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين والأصل ليقولونّ حذفت إحدى النونات لتوالي الأمثال وحذفت الواو لالتقاء الساكنين والضمة على اللام دليل عليها وقد تقدم تحقيق ذلك وأعدناه للتذكير وما اسم استفهام مبتدأ وجملة يحبسه خبر والاستفهام للانكار والاستهزاء والسخرية حسب اعتقادهم. (أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ) ألا أداة استفهام وتنبيه وهي داخلة على ليس في المعنى ويوم يأتيهم نصب على الظرف وهو معمول لخبر ليس واسمها مستتر فيها يعود على العذاب ومصروفا خبر ليس وعنهم جار ومجرور متعلقان بمصروفا وستأتي الاشارة إلى جواز تقديم خبر ليس عليها في باب الفوائد

).

وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ) الواو عاطفة وجملة حاق عطف على جملة ليس فهو في حيز ألا وبهم متعلقان

بحاق وما فاعل حاق وجملة كانوا صلة والواو اسم كان وبه متعلقان بيستهزئون وجملة يستهزئون خبر كانوا .

الفوائد :

1- (كُلُّ) اسم موضوع لاستغراق أفراد المتعدد أو لعموم أجزاء الواحد ولا تستعمل إلا مضافة لفظا أو تقديرا وتقيد التكرار بدخول ما المصدرية الظرفيّة عليها نحو كلما أتاك أكرمه وقد تقدم في كلما عند قوله "كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا " وأنها منصوبة على الظرفية باتفاق وناصبها الفعل الذي هو جواب في المعنى والجملة بعدها لا محل لها لانها صلة موصول حرفي وتكون "كل " نعتا لنكرة أو معرفة فتدل على أنه كامل بلغ الغاية فيما تصفه به نحو هو العالم كل العالم وتكون توكيدا لمعرفة أو نكرة نحو " فسجد الملائكة كلهم " وأقمنا حولا كاملا كله ولفظة كل حكمها الافراد والتذكير ومعناها بحسب ما تضاف اليه فإن أضيف إلى مذكر وجب مراعاة معناها وجاء الضمير بعدها مفردا مذكرا " وكل شيء فعلوه في الزبر " أو مفردا مؤنثا نحو "كل نفس ذائقة الموت " أو مثنى كقول الفرزدق :

وكل رفيقي كل رحل وإن هما تعاطى القنا قوما هما اخوان

ولابن هشام تعسف وخبط في إعراب هذا البيت نكتفي بالاشارة إليه ليرجع اليه من شاء في مغني اللبيب .

أو مجموعا مذكرا كقول لبيد :

وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفر منها الأنامل

أو مجموعا مؤنثا كقول الآخر :

وكل مصيبات الزمان وجدتها سوى فرقة الأحباب هينة الخطب

وإن أضيفت إلى معرفة جاز مراعاة لفظها ومراعاة معناها فيقال :

كل القوم حضر وكل القوم حضروا وإن قطعت عن الاضافة لفظا فقيل تجوز مراعاة اللفظ ومراعاة المعنى نحو كل حضر وكل حضروا وقيل إذا كان المقدر مفردا نكرة فيجب الإفراد وان كان جمعا معرفا فيجب الجمع ، والتنوين في المنقطعة عن الإضافة لفظا عوض عن المضاف اليه والتقدير في المثال الأول كل أحد وفي الثاني كلهم وإن وقعت كل بعد النفي ثابتا لبعض الأفراد نحو ما جاء كل القوم وإن وقع النفي بعدها ثبت لكل فرد نحو كلهم لم يقوموا ولا تدخلها أل إلا إذا كانت عوضا عن المضاف اليه أو أريد لفظها كما يقال الكل لا حاطة الأفراد .

2- اللام : اللام على ثلاثة أقسام : عاملة للجر وعاملة للجزم وغير عاملة .

وأقسامها :

ا- اللام الجارة : تكون مكسورة مع الاسم الظاهر نحو لزيد إلا مع المستغاث المباشر ل " يا " فهي مفتوحة نحو يا لله وتكون مفتوحة مع الضمير إلا مع الياء فهي مكسورة نحو لك ولي .

واللام الجارة قسمان :

آ- اللام الداخلة على الاسم ولها معان كثيرة مذكورة في كتب النحو المطولة وأشهرها الاختصاص نحو " الجنة للمؤمن " والاستحقاق نحو " العزة لله " والملك نحو " لله ما في السموات وما في الأرض " والتبليغ نحو " قلت له " والتعدية نحو " ما أشد حب زيد لعمرو " والقسم نحو " لله لأفعلن هذا " أي والله والصيرورة نحو " ولد الإنسان لحياة أبدية " وتأتي أيضا بمعنى إلى وعلى وعند وفي وبعد ، وقد تكون زائدة نحو ضربت لزيد .

ب- أما اللام الداخلة على الفعل فإن الفعل بعدها ينصب بأن المصدرية مضمرة وتكون أن وما في حيزها في تأويل مصدر مجرور باللام وهذه تكون أما للتعليل نحو " جئتك لتعلمني " وإما للصيرورة نحو " فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا " وأما لتوكيد النفي وهي المسبوقة بكون منفي وتسمى لام الجحود نحو ما كان زيد ليكذب .

2- اللام الجازمة : وهي لام الأمر وتسمى لام الطلب وتكون مكسورة نحو " لينفق ذو سعة من سعته " وقد تفتح ، وإسكانها بعد الفاء والواو أكثر من تحريكها نحو " فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي " وقد تسكن بعد ثم نحو " ثم ليقض " .

3- غير العاملة : وتكون مفتوحة أبدا وهي :

آ- لام الابتداء نحو " لزيد قائم " و" إن زيدا لقائم " وتسمى بعد إن : اللام المزحلقة .

ب- لام الجواب بعد لو ولولا والقسم نحو " لو عدتم لعدنا " و" لولا زيد لهلكنا " و" واللّه لزيد كريم " .

ج- اللام الزائدة كما في قوله " أراك لشاتمي " .

د- لام البعد اللاحقة لأسماء الاشارة وأصلها السكون كما في تلك وإنما كسرت مع ذلك لالتقاء الساكنين .

3- ليس واسمها وخبرها :

تختص ليس من بين أخوات كان بأمور :

1- ليس فعل لا يتصرف بحال لأنها وضعت موضع الحرف في أنها لا يفهم معناها إلا مع متعلقها .

2- لا يجوز أن يتقدم خبرها عليها عند جمهور النحاة وأجازه بعضهم من قدماء البصريين والفراء وابن برهان والزمخشري من المتأخرين بقوله تعالى " ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم

" وتقرير الحجة منه أن يوم يأتيهم معمول لمصروفا وقد تقدم على ليس وتقديم المعمول لا يصح إلا حيث يصح تقديم عامله فلولا أن الخبر وهو مصروفا يجوز تقديمه على ليس لما جاز تقديم معموله عليها وأجيب بأن المعمول ظرف فيتسع فيه ما لا يتسع في غيره أو بأن يوم معمول المحذوف تقديره يعرفون يوم يأتيهم ، وليس مصروفا جملة حالية مؤكدة أو مستأنفة وقال أبو حيان " وقد تتبعت جملة من دواوين العرب فلم أظفر بتقديم خبر ليس عليها ولا بتقديم معموله إلا ما دل عليه ظاهر الآية " .

4- تعقيب لابن هشام على الزمخشري في تعليقه على قوله تعالى :

" ليبلوكم أيكم أحسن عملا " وقد اضطرب كلام الزمخشري ثم أورد ما نقلناه عنه وقال : " ولم أقف على تعليق النظر البصري والاستماع إلا من جهته " .

(342/380)

وذكر الرضي أن أفعال الحواس تعلق لأنها طرق للعلم وقال عبد القادر البغدادي في شرح شواهده على الكافية : إن كتاب الرضي لم ينقل للقاهرة إلا بعد موت ابن هشام فكذلك قال ولم أقف إلخ . . .

[سورة هود (11) : الآيات 9 إلى 11]

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (11)

الإعراب:

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً) تقدم القول في لئن وأذقنا فعل ماض في محل جزم فعل الشرط ونا فاعل والإنسان مفعول به ومنّا حال لأنه كان في الأصل صفة لرحمة وتقدمت عليها ورحمة مفعول به ثان.

(ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ) ثم حرف عطف للترتيب والتراخي ونزعناها فعل وفاعل ومفعول به ومنه جار ومجرور متعلقان بنزعناها وان واسمها واللام المزحلقة ويئوس خبر إن وكفور خبر ثان لإن.

(

وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ) تقدم اعراب مثيلتها وبعد ظرف متعلق بمحذوف صفة لنعماء وضراء مضاف اليه ومنع من الصرف لانتهائه بألف التأنيث الممدودة وجملة مسته صفة. (لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي) اللام جواب القسم وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم ويقولن فعل مضارع مبني على الفتح وجملة ذهب السيئات مقول القول

وعني متعلقان بذهب . ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ إن واسمها واللام المزحلقة وفرح خبر أول وفخور خبر ثان لإن . ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ إلا أداة

(343/380)

استثناء والذين مستثنى من الإنسان لأن اللام فيه للجنس فهو متصل ويجوز أن يكون استثناء منقطعا إذ المراد شخص معين وعلى كل حال هو في محل نصب وجملة صبروا صلة وعملوا الصالحات معطوفة ، وأولئك مبتدأ ولهم خبر مقدم ومغفرة مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر أولئك .

البلاغة :

1- في الاذاقة استعارة مكنية لأنه في الأصل تناول الشيء بالفم لإدراك الطعام ثم استعير للذات تشبيها لها بما يذاق ثم يزول بسرعة كما تزول الطعوم .

2- بين النعماء والضراء طباق وجميع هذه الأبحاث تقدم البحث فيها .

الفوائد :

السراء والنعماء والضراء قيل انها مصادر بمعنى المسرة والنعمة والمضرة والصواب انها أسماء للمصادر وليست أنفسها فالسراء الرخاء والنعماء النعمة والضراء الشدة فهي

أسماء لهذه المعاني فإذا قلنا إنها مصادر كانت عبارة عن نفس الفعل الذي هو المعنى وإذا كانت أسماء لها كانت عبارة عن المحصّل لهذه المعاني.

[سورة هود (11) : الآيات 12 إلى 14]

فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (12) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (13) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14)

اللغة:

(ضائِقٌ) : اسم فاعل من ضاق وهو أولى بالآية من ضيق لوجهين أحدهما انه عارض وليس على جهة الثبوت وثانيهما أنه أشبه بتارك.

الاعراب:

(فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ) الفاء استئنافية. ولعل على بابها من الترجي بالنسبة للمخاطب وقيل هي للاستفهام الانكاري كقوله صلى الله عليه وسلم

لعلنا أعجلناك وسيأتي القول في لعل في باب الفوائد ، والكاف اسمها وتارك خبرها وبعض مفعول به لتارك وما اسم موصول مضاف لبعض وجملة يوحى صلة وإليك متعلقان بيوحى أو بمحذوف حال وضائق عطف على تارك وبه متعلقان بضائق وصدرك فاعل لضائق ويجوز أن يكون ضائق خبرا مقدما وصدرك مبتدأ مؤخرا والجملة خبر ثان للعلك فيكون قد أخبر بخبرين أحدهما مفرد والثاني جملة عطفت على مفرد لأنها بمعناه .

(أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ) أن وما في حيزها

مصدر في موضع نصب مفعول من أجله أي مخافة قولهم وأعربه بعضهم بدلا من الهاء في قوله وضائق به صدرك وليس ببعيد ولولا تحضيضية وأنزل فعل ماض مبني للمجهول وعليه جار ومجرور متعلقان به وكنز نائب فاعل ، أو حرف عطف وجاء فعل ماض ومعه ظرف متعلق بجاء وملك فاعل . (إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) إنما كافة ومكفوفة وأنت مبتدأ ونذير خبره والله مبتدأ وعلى كل شيء متعلقان بوكيل ووكيل خبر الله . (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) أم منقطعة بمعنى بل ويقولون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون وجملة افتراه مقول القول وهو تقرير في صورة الاستفهام والتقدير بل أيقولون افتراه .

)

(قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ) الفاء الفصيحة وأتوا فعل أمر وفاعل وبعشر متعلقان به وسور مضاف اليه ومثله صفة، ومثل وان كانت بلفظ الافراد فانها يوصف بها المثنى والمجموع والمؤنث كقوله تعالى "أنؤمن لبشرين مثلنا" وتجوز المطابقة، قال تعالى: "وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون". (وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) وادعوا عطف على فأتوا والواو فاعل ومن مفعول به وجملة استطعتم صلة ومن دون الله جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال وإن شرطية وكنتم كان واسمها وهو فعل الشرط وصادقين خبر كنتم وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي فأتوا وادعوا. (فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ) الفاء عاطفة وإن شرطية ولم حرف نفي وقلب وجزم ويستجيبوا مجزوم بلم وهو فعل الشرط والواو فاعل والضمير يعود على من استطعتم ولكم متعلقان بيستجيبوا والفاء رابطة واعلموا فعل أمر وفاعل وأنما كافة ومكفوفة وقد سدت مع مدخولها مسد مفعولي اعلموا وأنزل فعل ماض مبني للمجهول وبعلم الله حال أي متلبسا بعلم الله فالباء للملابسة. (وَأَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

وأن الواو عاطفة وأن مخففة من الثقيلة وهي منسوقة على أن قبلها ولا إله إلا هو تقدم إعرابه مستوفى والفاء عاطفة وهل حرف استفهام وأنتم مبتدأ ومسلمون خبر.

الفوائد :

)

(346/380)

لعل) هي للتوقع وعبر عنه قوم بالترجي في الشيء المحبوب نحو لعل الحبيب قادم وقوله تعالى "لعل اللّه يحدث بعد ذلك أمرا " والإشفاق في الشيء المكروه نحو " فلعلك باخع نفسك " أي قاتل نفسك والمعنى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من اسلام قومك فتوقع المحبوب يسمى ترجيا وتوقع المكروه يسمى إشفاقا وقال الأخفش والكسائي :

وتأتي لعل للتعليل نحو " افرغ من عملك لعلنا نتغدى " ومنه قوله تعالى : " لعله يتذكر " أي ليتذكر وقال الكوفيون تأتي لعل للاستفهام ، قال في المغني ولهذا علق به الفعل نحو " لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا " وقوله تعالى " وما يدريك لعله يزكى " وبعض العرب يجرون بها ويستشهدون على ذلك بقوله :

فقلت ادع أخرى وارفع الصوت جهرة لعل أبي المغوار منك قريب

إذا عرفت ما قرره النحاة فأي من معاني لعل ينطبق على الآية التي نحن بصددها ؟ إذا كانت للتوقع فتوقع ترك التبليغ لا يليق بمقام النبوة وأجابوا عن هذا الاعتراض بأننا لا نسلم أن

لعل على بابها من الترجي بل هي هنا للتبعيد فانها تستعمل لذلك أيضا وجواب آخر وهو

أن

تكون هنا للاستفهام الانكاري كما تقدم والمعنى انك بلغ الجهد في تبليغهم انهم يتوقعون منك

ترك التبليغ لبعضه وهو جميل جدا .

[سورة هود (11) : الآيات 15 إلى 16]

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ (15)

أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

(16)

اللغة :

(وَزِينَتَها) الزينة تحسين الشيء بغيره من لبسة أو حلية أو هيئة ، يقال زانه يزينه زينة وزّينه

يزينه تزيينا .

(نُوَفِّ) : التوفية تأدية الحق على التمام .

)

يُبْخَسُونَ) : البخس نقصان الحق وكل ظالم باخس وفي المثل " تحسبها حمقاء وهي باخس

. "

الاعراب :

(مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ) من اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ واسم كان ضمير مستتر يعود على من وجملة يريد الحياة الدنيا خبر كان وكان فعل الشرط مجزوم محلا وزينتها عطف على الحياة ونوفّ جواب الشرط مجزوم بحذف حرف العلة وإليهم جار ومجرور متعلقان بنوفّ وأعمالهم مفعول به وفيها متعلقان بمحذوف حال وهم الواو حالية وهم مبتدأ وفيها متعلقان بيبخسون وجملة لا يبخسون خبرهم ، وقال الفراء :

كان هنا زائدة وتقديره من يرد الحياة الدنيا ، وهو قول جميل وضريف لولا أنه غير مطرد ولا يسوغ حمل القرآن عليه . (أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ) اسم الاشارة مبتدأ والذين خبره وجملة ليس صلة ولهم خبر مقدم لليس وفي الآخرة حال وإلا أداة حصر والنار اسم ليس المؤخر . (وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ) الواو عاطفة وحبط فعل ماض وما فاعله وجملة صنعوا صلة ويجوز أن تكون ما مصدرية وهي مع مدخولها في تأويل مصدر فاعل حبط ، وفيها متعلقان بصنعوا أو بحبط وباطل الواو عاطفة وباطل خبر مقدم وما اسم موصول مبتدأ مؤخر ويجوز أن تكون ما مصدرية وهي مع مدخولها في

تأويل مصدر مبتدأ مؤخر وكانوا كان واسمها وجملة يعملون خبرها .

[سورة هود (11) : الآيات 17 إلى 22]

أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (17) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (19) أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ (20) أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (21)

لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (22)

اللغة :

(البينة) : الحجة الفاصلة بين الحق والباطل .

(مِرْيَةٍ) : المرية بالكسر والضم الشك ففيها لغتان أشهرهما الكسر وهي لغة أهل الحجاز والضم لغة بني أسد .

(لا جَرَمَ) : قال السيوطي في الإتقان : " وردت في القرآن في خمسة مواضع متلوة بأن واسمها ولم يجىء بعدها فعل واختلف فيها فقيل لا نافية لما تقدم وقيل زائدة " .

هذا وفي هذه اللفظة خلاف طويل بين النحاة ويتلخص ذلك الخلاف فيما يلي :

الأول : ما ذهب اليه الخليل وسيبويه وهو انها مركبة من لا النافية وجرم ، بنيتا على تركيبهما تركيب خمسة عشر وصار معناهما معنى فعل وهو حق فعلى هذا يرتفع ما بعدهما بالفاعلية فقوله تعالى :

"

(349/380)

لا جرم أن لهم النار " أي حق وثبت كون النار لهم أو استقرارها لهم .

الثاني : ان لا جرم بمنزلة لا رجل في كون لا نافية للجنس وجرم اسمها مبني على الفتح وهي واسمها في موضع رفع بالابتداء وما بعدهما خبر لا وصار معناها لا محالة ولا بد في أنهم في الآخرة أي في خسرانهم وهذا مذهب الفراء .

الثالث : ان لا نافية لكلام متقدم تكلم به الكفرة فرد اللّه عليهم ذلك بقوله لا ، كما ترد هذه قبل القسم في قوله " لا أقسم " ثم أتى بعدها بجملة فعلية وهي جرم أن لهم كذا وجرم فعل ماض معناه كسب وفاعله مستتر يعود على فعلهم المدلول عليه بسياق الكلام وأن وما في حيزها في موضع المفعول به لأن جرم يتعدى إذا كان بمعنى كسب وعلى هذا فالوقف على لا ثم يبتدأ بجرم بخلاف ما تقدم .

الرابع : ان معناها لا حد ولا منع ويكون جرم بمعنى القطع تقول : جرمت أي قطعت فيكون جرم اسم لا مبنيا معها على الفتح كما تقدم وخبرها أن وما في حيزها على حذف حرف الجر أي لا منع من خسرانهم .

وفي هذه اللفظة لغات : لا جرم بكسر الجيم ولا جرم بضمها ولا جر بحذف الميم ولا ذا جرم ولا ذو جرم وغير ذلك وعلى كل فإن هذا التعبير يستعمل في أمر يقطع عليه ولا يرتاب فيه .

الاعراب :

)

أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ) الهمزة للاستفهام التقريري والفاء

استئنافية ومن موصولية مبتدأ خبره محذوف تقديره كغيره أو كمن ليس كذلك وجواب الاستفهام محذوف أيضا تقديره : لا يستويان وكان فعل ماض ناقص واسمها مستتر يعود على من وعلى بينة خبرها ومن ربه صفة لبينة . (وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ) الواو عاطفة ويتلوه شاهد فعل مضارع ومفعول به وفاعل ومنه صفة لشاهد . (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً) الواو عاطفة أيضا ومن قبله حال من كتاب موسى المعطوف على شاهد عطف المفردات ، هذا ما أعربه معظم المفسرين وأرى أن الحق مع البيضاوي الذي أعرب من قبله جارا ومجرورا متعلقين بمحذوف خبر مقدم وكتاب موسى مبتدأ مؤخرا ففي هذا الاعراب سلامة من المعاظلة الناشئة عن الفصل بين حرف العطف والمعطوف عليه وإماما حال من كتاب موسى ورحمة عطف على إماما . (أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) أولئك مبتدأ وجملة يؤمنون به خبر . (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ) الواو عاطفة ومن شرطية مبتدأ ويكفر فعل الشرط وبه متعلقان بيكفر ومن الأحزاب حال والفاء رابطة والنار مبتدأ وموعده خبر والجملة الاسمية جواب الشرط . وفي جعل النار موعدا إشعار بأن فيها ما لا يحيط به الوصف من أفانين العذاب ، وقد تعلق حسان بأهداب هذا التعبير فقال :

أوردتموها حياض الموت ضاحية فالنار موعدها والموت لاقيها

(فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ) الفاء الفصيحة ولا ناهية وتك فعل مضارع مجزوم وعلامة جزمه

السكون المقدرة على النون المحذوفة للتخفيف واسم تك مستتر تقديره أنت وفي مرية خبر ومنه صفة لمرية (إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ)

إن واسمها والحق خبرها ومن ربك متعلقان بمحذوف حال والواو حالية ولكن واسمها والناس مضاف اليه وجملة لا يؤمنون خبر لكن . (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لذكر أوصافهم الأربعة عشر والتي أولها افتراء الكذب وآخرها كونهم في الآخرة أخسر من غيرهم ، ومن استفهامية مبتدأ والاستفهام هنا معناه النفي أي لا أحد أظلم وممن متعلقان بأظلم وجملة افترى صلة وعلى اللّه متعلقان بافترى وكذبا مفعول به . (أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ) أولئك مبتدأ وجملة يعرضون خبره والواو نائب فاعل وعلى ربهم متعلقان بيعرضون .

)

وَيَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) ويقول عطف على يعرضون والأشهاد فاعل وهؤلاء مبتدأ والذين خبره وجملة كذبوا على ربهم صلة الموصول وألا أداة تنبيه ولعنة اللّه مبتدأ وعلى الظالمين خبر. (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً) الذين بدل من الظالمين وجملة يصدون صلة وعن سبيل اللّه متعلقان بيصدون ويبغونها عطف على يصدون وهو فعل وفاعل ومفعول وعوجا حال أي معوجة. (وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ) الواو عاطفة وهم مبتدأ وبالآخرة متعلقان بكافرون وهم الثانية تأكيد لهم الأولى وكافرون خبر "هم" الأولى. (أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ) أولئك مبتدأ وجملة لم يكونوا خبر ومعجزين خبر يكونوا وفي الأرض حال أي أنهم لا يخرجون عن قبضته على كل حال. (وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ) الواو عاطفة وما نافية وكان فعل ماض ناقص ولهم خبر كان المقدم ومن دون اللّه حال ومن حرف جر زائد وأولياء اسم كان محلا. (يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ) يضاعف فعل مضارع مبني للمجهول ولهم متعلقان به

والعذاب نائب فاعل والجملة مستأنفة، وما نافية وكانوا كان واسمها وجملة يستطيعون السمع خبر كان والسمع مفعول به وجملة ما كانوا يستطيعون السمع تعليل لمضاعفة العذاب وجملة وما كانوا يبصرون عطف على ما كانوا يستطيعون السمع وسيرد في باب البلاغة معنى هذا الكلام. (أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ)

أولئك مبتدأ والذين خبر وجملة خسروا أنفسهم صلة وضل عنهم عطف وما فاعل ضل وجملة كانوا يفترون صلة (لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ) لا نافية وجرم فعل ماض وأنهم: أن وما في حيزها في محل رفع فاعل جرم وقد تمشينا على مذهب سيبويه والخليل وانظر باب اللغة وفي الآخرة حال وهم ضمير فصل أو مبتدأ والأخسرون خبر أن أو خبرهم والجملة خبر أن، وقد تقدمت لضمير الفصل نظائر .

البلاغة :

في قوله تعالى " ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون " تشبيه تمثيلي لأنه تشبيه مركب بمركب شبههم في فرط تصامهم عن استماع الحق ونبو أسماعهم عنه بمن لا يستطيع السمع وذلك لوجوه عديدة :

أولها : يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع فلا يسمعون وبما كانوا يستطيعون الابصار فلا يبصرون عنادا واصرارا منهم على الخطل والصدوف عن الحق وهذا يقضي أن تكون ما مصدرية والمصدر المؤول منصوب بنزع الخافض وهو الباء على حد قول الشاعر :

نغالي اللحم للأضياف نيا وتبذله إذا نضج القدور

أراد نغالي باللحم وقد ذهب إلى هذا المذهب الفراء .

وثانيها : انه لاستثقالهم استماع آيات اللّه وكراهتهم تذكرها وتفهمها جروا مجرى من لا يستطيع السمع وان أبصارهم لم تنفعهم مع اعراضهم عن نذر الآيات فكأنهم لم يبصروا . ومما يجري هذا المجرى قول الأعشى في مطلع معلقته :

ودّع هريرة إنّ الرّكب مرتحل وهل تطيق وداعا أيّها الرّجل

ومن المعلوم أن الأعشى كان يقدر على الوداع وإنما نفى الطاقة عن نفسه من حيث الكراهية والاستثقال .

وثالثها - ان ما هنا ظرفية مصدرية تجري مجرى سأذكرك ما حييت والمعنى أنهم معذبون ما داموا أحياء .

[سورة هود (11) : الآيات 23 إلى 24]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (23) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَفَلا

تَذَكَّرُونَ (24)

اللغة :

(أَخْبَتُوا) سكنوا واطمأنوا وأنابوا ، والإخبات الطمأنينة وأصله

الاستواء من الخبت وهو الأرض المطمئنة المستوية الواسعة فكأن الإخبات خشوع مستمر على استواء فيه وهو يتعدى بالى وباللام فإذا قلت أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن اليه وإذا قلت أخبت له فمعناه خشع وخضع . وللخاء والباء فاء وعينا للكلمة خاصة غريبة إذ أن الكلمة تدل على معنى التغطية والستر والخفاء أو ما هو قريب من ذلك أو بيت إليه بصلة ، فقولهم خبأ الشيء ستره وأخفاه وله خبيئة خبأها ليوم حاجة ومن أمثالهم "لا مخبأ لعطر بعد عروس" والله يخرج الخبء وخبّات الجارية وجارية مخبّاة ونساء مخبآت وخبّ الرجل نزل المنهبط من الأرض ليجهل منزله وخبّ الفرس خبا وخبيبا راوح في عدوه بين يديه ورجليه ، والخب بكسر الخاء الخداع وهو إخفاء المكر وفي حديث عمر بن الخطاب " ما تكلم أحد بالفارسية إلا خبّ وما خبّ إلا ذهبت مروءته " وخبث فلان ضد طاب والخبيث يضمر خلاف ما يظهر وخبر الشيء علمه عن تجربة أي نفذ إلى دخائله واستوضحها ، وخبز الخبز معروف وإيداعه إلى اخفائه فيه ، واختبس الشيء تناوله وغنمه ، وخبش الأشياء جمعها من هاهنا وهاهنا . وخبص الشيء بالشيء خلطه به ، وخبط البعير بيده الأرض ، وبات يختبط الظلماء وهو خابط عشوة للجاهل ،

وخبع في المكان دخل فيه ويقال جارية خبعة طلعة أي تخبأ نفسها مرة وتبديها مرة .

وخبله أفسده أو أفسد عقله وفساد العقل ذهابه قال :

أرى المال أفياء الظلال فتارة يؤوب وأخرى يخبل المال خابله

(355/380)

وخبن الثوب عطفه وخاطه ، وخبن الشاعر أتى بالخبن في شعره وهو حذف ثاني الجزء ساكنا وخبت النار خمدت وسكنت واستخبأ

الخباء دخله ولو شئنا أن نستقيض في النقل من هذه المادة لأريناك العجب العجب

وحسبك من القلادة ما أحاط بالجيد .

الاعراب :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ) إن واسمها وجملة آمنوا صلة وجملة وعملوا الصالحات عطف على آمنوا وكذلك جملة وأخبتوا إلى ربهم . (أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ) أولئك مبتدأ وأصحاب الجنة خبر وهم مبتدأ وفيها متعلقان بخالدون وخالدون خبر هم وجملة أولئك أصحاب الجنة خبر إن وجملة هم فيها خالدون خبر ثان لان (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ) مثل مبتدأ والفريقين

مضاف اليه وكالاعمى خبر أو الكاف اسم بمعنى مثل خبر وما بعده عطف عليه. (هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا أَفَلا تَذَكَّرُونَ) هل استفهام معناه النفي ويستويان فعل مضارع مرفوع بثبوت النون ومثلا تمييز محول عن الفاعل والأصل هل يستوي مثلهم، أفلا تذكرون: الاستفهام للانكار والتوبيخ.

البلاغة:

في قوله تعالى "مثل الفريقين إلخ" تشبيه تمثيلي أي مثل فريق المسلمين كالبصير والسميع ومثل فريق الكافرين كالأعمى والأصم وقد زادت الآية على جميع أمثلة التشبيه التمثيلي كقول امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي

وقول بشار:

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا، ليل تهاوى كواكبه

ففي البيت الاول تشبيه قلوب الطير الرطبة بالعناب وتشبيه قلوب الطير اليابسة بالحشف البالي وفي البيت الثاني تشبيه الغبار القاتم والسيوف الملتمعة فيه بالليل الذي تنقض فيه الشهب والكواكب.

أما الآية فقد زادت بتشبيه اثنين بأربعة كما هو واضح فقد شبهت كل واحد من الكافر والمؤمن تشبيهين.

هذا ولو جاءت الآية على وجه الطباق خلاف نظمها بأن يقال:

كالأعمى والبصير والأصم والسميع لفسد المعنى وان حصل الطباق في اللفظ لأنه سبحانه قسم المشبه به إلى قسمين كالمشبه لأنه قسمان مبتلى ومعافى وضاد بينهما ليصح السؤال بينهما على قصد التوبيخ.

[سورة هود (11) : الآيات 25 إلى 28]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنا وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (27) قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (28)

اللغة:

(أَراذِلُنا) أسافلنا وفيه وجهان أحدهما أنه جمع الجمع فهو جمع أرذل بضم الذال جمع رذل بسكونها ككلب وأكلب وأكالب وثانيهما أنه جمع مفرد وهو أرذل كأكبر وأكابر وأبطح

وأباطح وأبرق وأبارق والأرذل المرغوب عنه لرداءته ، واختار الزمخشري الوجه الثاني ورجحه صاحب القاموس .

(بادِيَ الرَّأْيِ) ظاهر الرأي وقد يهمز فيقال بادىء الرأي فمن لم يهمز أراد : أنت فيما بدا من الرأي ، ومن همز أراد :

أنت أول الرأي ومبتداه ، ولأبي علي بحث طريف في هذا التعبير ننقله بنصه لفائدته :

"

المعنى فيمن قال بادي الرأي بلا همز فجعله من بدا إذا ظهر أي ما اتبعك إلا الأراذل فيما ظهر لهم من الرأي إن لم يتعقبوه بنظر فيه وروية ، وهاتان الكلمتان تتقاربان في المعنى لأن الهمزة في اللام معناها ابتداء الشيء وأوله واللام إذا كانت واوا كان المعنى الظهور ، وابتداء الشيء يكون ظهورا فلذلك يستعمل كل منهما مكان الآخر وجاز في اسم الفاعل أن يكون ظرفا كما جاز في فعيل نحو قريب ومليء لأن فاعلا وفعيلا يتعاقبان على المعنى نحو عالم وعليم وشاهد وشهيد وحسن ذلك إضافته إلى الرأي وقد أجروا المصدر أيضا في إضافته اليه في قولهم اما جهد رأيي فإني منطلق فهذا لا يكون إلا ظرفا " إلى آخر هذا

البحث الممتع وسيرد المزيد في الاعراب .

(الرَّأْيِ) : مصدر رأى رأيا ويجمع على آراء والرأي هو التفكر في مبادئ الأمور والنظر في عواقبها والعلم بما تئول اليه من الخطأ والصواب ، وأصحاب الرأي عند الفقهاء هم أصحاب القياس والتأويل وقد أجمع الشعراء على امتداح الرأي فقال أبو فراس الحمداني :

ولا أرضى الفتى ما لم يكمل برأي الكهل أقدام الغلام

وقال أبو الطيب المتنبي :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

فإذا هما اجتمعا لنفس حرة بلغت من العلياء كل مكان

الاعراب :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ) جملة مستأنفة مسوقة للشروع في ذكر عدد من القصص تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم واعتبارا بها ، وتأسيا بما لاقاه أصحابها وقد احتوت هذه السورة على سبع قصص واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وأرسلنا فعل وفاعل ونوحا مفعول به والى قومه جار ومجرور متعلقان بأرسلنا وإني بكسر الهمزة على إرادة القول وكثيرا ما يضمر وهو غني عن الشواهد وان واسمها ولكم متعلقان بنذير ونذير خبر إن ومبين صفته .

(

أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ) أن مفسرة ولا ناهية وتعبدوا فعل مضارع مجزوم بلا والواو فاعل وإلا أداة حصر ولفظ الجلالة مفعول به وإن واسمها وجملة أخاف خبرها وعليكم متعلقان بأخاف وعذاب يوم مفعول أخاف وأليم صفة ليوم. (فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ)

الفاء عاطفة وقال الملأ فعل وفاعل والذين صفة للملأ وجملة كفروا صلة ومن قومه حال.

(ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ) الجملة مقول القول وما نافية ونراك فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وإلا أداة حصر والرؤية تحتمل القلبية والبصرية فبشرا مفعول به ثان على الأولى وحال على الثانية ومثلنا صفة وما نراك عطف على ما نراك الأولى وهي أيضا تحتمل القلبية والبصرية فجملة اتبعك إما مفعول به ثان واما حال وإلا أداة حصر والذين فاعل اتبعك وهم أراذلنا مبتدأ وخبر والجملة صلة وبادي الرأي منصوب على الظرفية أي أول الرأي والعامل فيه اتبعك وقد تقدم القول مسهبا فيه، وقيل انتصب حالا من ضمير نوح في اتبعك أي وأنت مكشوف الرأي لا حصافة لك. (وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ) وما نرى عطف على ما تقدم ولكم متعلقان

بنرى وعلينا متعلقان بفضل ومن حرف جر زائد وفضل مجرور لفظا مفعول به منصوب محلا وبل حرف إضراب وعطف ونظنكم عطف على ما نرى والكاف مفعول به أول وكاذبين مفعول به ثان .)

(359/380)

قال يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ) الجملة مستأنفة مسوقة للتلطف بهم في الخطاب ومنا صفتهم ويا قوم منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة وأرأيتم تقدم الكلام عليه مفصلا ورأيتم فعل وفاعل أي اخبروني وهنا يتطلب البينة مفعولا به ، وكنت تتطلب البينة مجرورة بعلى فأعمل الثاني وأضمر في الأول والتقدير أرأيتم البينة من ربي إن كنت عليها أنلزمكموها فحذف المفعول الأول والجملة الاستفهامية هي المفعول الثاني وجواب الشرط محذوف للدلالة عليه ، وإن شرطية وكنت فعل الشرط والتاء اسمها وعلى بينة خبر كنت ومن ربي صفة ومعنى على هنا الاستعلاء لأن صاحب البينة يكون مستعليا على سواه وقيل هي للمصاحبة بمعنى مع وليس ببعيد ، وآتاني الواو عاطفة وآتاني فعل وفاعل مستتر ومفعول به ورحمة مفعول به ثان ومن عنده صفة لرحمة . (فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ) الفاء عاطفة وعميت فعل

ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هي وعليكم جار ومجرور متعلقان بعميت وسيأتي بيان حقيقة هذا التعبير في باب البلاغة وأنلزمكموها الهمزة للاستفهام أي أنكرهكم عليها وفي هذا الفعل ثلاثة ضمائر الأول مستتر تقديره نحن وهو الفاعل والثاني ضمير المخاطب أي الكاف وهو المفعول الأول والثالث ضمير الغائب أي الهاء وهو المفعول الثاني ، والميم علامة جمع الذكور والواو لإشباع حركة الضم على الميم وليست ضميرا وقد روعي الترتيب فيها لأن المتكلم أخص بالفعل ثم ضمير المخاطب ثم ضمير الغائب ، وأنتم الواو للحال وأنتم مبتدأ ولها متعلقان بكارهون وكارهون خبر والجملة حالية وتقدم القول في جملة أنلزمكموها .

البلاغة :

1- في إسناد العمى إلى البينة مجاز عقلي تنزيلا لها منزلة من يعقل وحقيقته أن الحجة والبينة جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عميا لأن الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره فعميت عليكم البينة فلم تهدكم كما لو عمي على القوم رائدهم الذي يسير بهم في المتاهات المظلمة والبوادي المتشعبة فبقوا حائرين يتخبطون ويلتمسون النجاة من حيرتهم وجملة بعضهم من

باب القلب أي أنهم هم الذين عموا فيكون من باب أدخلت الخاتم في إصبعي وأدخلت القلنسوة في رأسي وقال الشاعر :

ترى الشوك فيها مدخلا ظل رأسه وسائره باد إلى الشمس أجمع

2- التعريض في قوله " قال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي " وقد تقدم القول في التعريض وغرضهم هنا منه التعريض بأنهم أحق منه بالنبوة وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد لجعلها فيهم وقد زعم هؤلاء أن يحجوا نوحا من وجهين أحدهما أن المتبعين أراذل ليسوا قدوة ولا أسوة والثاني انهم مع ذلك لم يتروّوا في اتباعه ولا أمعنوا الفكرة في صحة ما جاء به وإنما بادروا إلى ذلك ارتجالا ومن غير فكر ولا روية .

[سورة هود (11) : الآيات 29 إلى 31]

وَيا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (29) وَيا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (30) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31)

اللغة :

(

بِطارِدِ) : الطرد : الإبعاد ، وتطارد الأقوال حمل بعضها على بعض .

(تَزْدَرِي) : الإزدراء : الاحتقار والعيب افتعال من الزراية يقال زريت عليه إذا عبته وأزرت به إذا قصرت ، قال الشاعر :

رأوه فازدروه وهو خرق وينفع أهله الرجل القبيح

ولم يخشوا مقالته عليهم وتحت الرغوة اللبن الصريح

الاعراب :

(وَيا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالًا) عطف على ما تقدم ولا نافية وأسألكم فعل وفاعل مستتر ومفعول به وعليه حال ومالا مفعول به ثان . (إِنْ أَجرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ) إن نافية وأجري مبتدأ وياء المتكلم مضافة وإلا أداة حصر وعلى الله خبر . (وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا) الواو عاطفة وما حجازية تعمل عمل ليس وأنا اسمها والباء حرف جر زائد وطارد مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما والذين مضاف اليه وجملة آمنوا صلة . (إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ) إن واسمها وملاقوا خبرها وربهم مضاف اليه ولكني الواو حالية أو عاطفة ولكن واسمها وجملة أراكم خبرها والكاف مفعول أول لأراكم وقوما

مفعول به ثان وجملة تجهلون صفة . (وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) عطف على ما قبله ومن اسم استفهام مبتدأ وجملة ينصرني خبر من اللّه جار ومجرور متعلقان بينصرني وإن شرطية وطردتهم فعل الشرط وهو فعل ماض وفاعل ومفعول به والجواب محذوف دل عليه ما قبله أي فمن ينصرني ، وأفلا تذكرون الهمزة

(362/380)

للاستفهام الانكاري وهي اما داخلة على مقدر تقديره أتأمروني بطردهم فلا تذكرون وإما مقدمة من تأخير والأصل فألا تذكرون وقدمت الهمزة على الفاء لأن لها الصدارة وقد تقدم تقرير ذلك وتذكرون مضارع حذفت منه إحدى التاءين وأصله تتذكرون . (وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) الواو عاطفة ولا نافية وأقول فعل مضارع فاعله أنا ولكم متعلقان بأقول وعندي ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم وخزائن اللّه مبتدأ مؤخر ولا أعلم الغيب معطوف على عندي خزائن اللّه أي ولا أقول لكم إني أعلم الغيب ولكن يشكل على هذا العطف أنه يترتب عليه أن يكون معمولا لأقول المنفية فيصير التقدير ولا أقول لا أعلم الغيب وهو غير صحيح والأحوط أن يكون معطوفا على لا أقول لا على مقولها فيزول الاشكال ، ولا أعلم كيف غرب هذا عن الزمخشري وغيره من كبار

المعربين . (وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ) نسق على لا أقول الأولى أيضا وان واسمها وخبرها مقول القول .

(وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً) عطف أيضا وللذين متعلقان بأقول وجملة تزدري أعينكم صلة ولن حرف نفي ونصب واستقبال ويؤتيهم منصوب بها والهاء مفعول يؤتي الأول والله فاعل وخيرا مفعول يؤتي الثاني . (اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ) الله مبتدأ وأعلم خبر وبما متعلقان بأعلم وفي أنفسهم صلة الموصول وان واسمها واذن حرف جواب وجزاء مهمل واللام المزحلقة ومن الظالمين خبر إن والجملة تعليلية لا محل لها .

البلاغة :

في هذه الآيات فن رفيع من فنون البديع وهو الجمع مع التقسيم وهو أن يجمع المتكلم بين شيئين أو أكثر ثم يقسم ما جمع وفي هذه

الآيات رد على ما أوردوه من شبه حيث قالوا " ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين " فرد عليهم ردا

يمكن ارجاعه إلى ما أوردوه من شبه فكأنه يقول : إن كان نفيكم الفضل عني متعلقا بفضل المال والجاه فأنا لم أدعه ولم أقل لكم إن خزائن اللّه عندي حتى تنازعوني في ذلك وتنكروه.

وقد رمق أبو فراس هذه السماء بقوله :

إنّا إذا اشتد الزما ن وناب خطب واد لهم

ألفيت حول بيوتنا عدد الشجاعة والكرم

للقا العدا بيض السيوف وللندى حمر النعم

هذا وهذا دأبنا يودى دم ويراق دم

[سورة هود (11) : الآيات 32 إلى 35]

قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32) قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (35)

اللغة :

(الجدال) والمجادلة : المقابلة بما يفتل الخصم من مذهبه بحجة أو شبهة وهو الجدل أي شدة الفتل يقال : جدل الحبل فتله ، وزمام مجدول وهو الجديل ويقولون : كأن في الجديل ، إحدى بنات جديل ، وطعنه فجدّله أي ألقاه على الجدالة وهي الأرض قال :

قد أركب الآلة بعد الآله وأترك العاجز بالجداله

ويقال للصقر أجدل لأنه من أشد الجوارح ويقولون : إن وقفن فجادل وإن مررن فأجادل ،

أي إن وقفن فقصور ، وان مررن فصقور ، قال الأعشى :

في مجدل شيّد بنيانه يزلّ عنه ظفر الطائر

(364/380)

و من المجاز : امرأة مجدولة الخلق : قضيفة ، ودرع مجدولة وجدلاء أي محكمة ، وعمل على جديلته أي على شاكلته التي جدل عليها واستقام جدول القوم إذا انتظم أمرهم كالجدول إذا اطّرد وتتابع جريه ، ونظر أعرابي إلى قافلة الحاج متتابعة فقال : أما الحاج فقد استقام جدولهم . ومن متابعة اشتقاق هذه المادة تبين أن كل ما كانت فاؤه وعينه جيما ودالا دل على الشدة والفتل والمرة فجدب المكان جدوبة وجدب وأجدب ضد أخصب ولا يخفى ما في ذلك من شدة وبلاء على الذين تجدب أرضهم ، والجدث القبر ومن أقوالهم " شر الأحداث ، نزول الأجداث " وجدح السويق واللبن بالمجدح وهو عود في رأسه عودان معترضان يخاض به حتى يختلط وأرسلت السماء مجاديح الغيث ، والمجاديح جمع المجدح أي الدّبران ونوءه غزير

وفي حديث عمر بن الخطاب : " لقد استسقيت بمجاديح السماء " أراد الاستغفار ، ورجل مجدود وليس في الدنيا أقوى من أفاعيل الجد بفتح الجيم أي الحظ والجد بالكسر الجهد والتعب ومشى على الجادّة وامشوا على الجوادّ وهو جمع الجادة وأجد المسير وجدّ قال :

أشوقا ولما يمض لي غير ليلة فكيف إذا جدّ المطي بنا عشرا

وجدره ناداه من وراء الجدار وهو جدير بكذا أي قوي ينهض به قال زهير :

بخيل عليها جنّة عبقرية جديرون يوما أن ينالوا فيستعلوا

وجدر الصبي وجدّر ، وهو مجدور الوجه ومجدّر ومن أماليح ابن المعتز :

بي قمر جدّر لما استوى فزاده حسنا وزالت هموم

أظنه غنى لشمس الضحى فنقطته طربا بالنجوم

وجدع أنفه وأذنه فهو مجدوع وإذا لزم النعت قيل أجدع وهي جدعاء وجادع صاحبه شارّه وشاتمه وجدّعه إذا قال له جدعا لك ، وجدف الملّاح السفينة إذا دفعها بالمجداف قال أعشى همدان :

لمن الظّعائن سيرهنّ تزحّف عوم السفين إذا تقاعس تجدف

وخفق الطائر بمجدافيه أي بجناحيه وهما قوته ، والجدا والجذوى العطاء وما أقواه ، واستجديته سألته وجدوته واجتديته مثله قال :

جدوت أناسا موسرين فما جدوا ألا اللّه أجدوه إذا كنت جاديا

وقد فطن أحد أدبائنا القدامى إلى هذه المادة وسر اجتماع الجيم والدال فأحصى ذلك نظما نورده فيما يلي :

عظمة والقطع حظ جدّ والاجتهاد ضد هزل جدّ

وجانب وجاء جمعا جدّ واسم لما بين الكلا من بئّر

أمّ أب وأمّ أمّ جدّه ومصدر الشيء الجديد جدّه

مدينة أي بالحجاز جدّه والضمّ والكسر لشط النهر

للنبت والحائط قيل جدر وللنبات قيل أيضا جدر

وجمع جدر أي جدار جدر وآفة الأطفال داء الجدري

والسنة الشديدة الجداع أما الجدال فاسمه جداع

والكلأ الذاّوي هو الجداع كذا وضيم الكلم المضرّ

الفتل والصرع وعود جدل والصدر بالفتح وكسر جدل

جمع جديل أي زمام جدل وجمع جدلاء لدرع الكر

وهذا من الغرابة بمكان.

الاعراب:

(قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا) قالوا فعل وفاعل ويا أداة نداء ونوح منادى مفرد علم مبني على الضم وقد حرف تحقيق

و جادلتنا فعل وفاعل ومفعول به فأكثرت عطف على جادلتنا وجدالنا مفعول به. (فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) الفاء الفصيحة أي ان كنت صادقا فأتنا، وبما متعلقان بالفعل وجملة تعدنا صلة والعائد محذوف ويصح أن تكون ما مصدرية أي بوعدك إيانا وان كنت من الصادقين شرط جوابه دل عليه ما قبله أي فأتنا ومن الصادقين خبر كنت. (قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) إنما كافة ومكفوفة ويأتيكم فعل مضارع ومفعول به وبه متعلقان بيأتيكم والله فاعل وإن شاء شرط وفعله والجواب محذوف وما الواو حالية وما حجازيه وأنتم اسمها وبمعجزين خبرها منصوب محلا بسبب حرف الجر الزائد. (وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ) الواو عاطفة ولا نافية وينفعكم نصحي فعل ومفعول به وفاعل وإن أردت شرط وفعله وأن وما

في حيزها مفعول أردت ولكم متعلقان بأنصح ، وإن كان شرط وفعله أيضا واللّه اسم كان وجملة يريد خبر كان وأن يغويكم أن وما في حيزها مفعول يريد ووجه ترادف الشرطين أن جواب الشرط الثاني وهو إن كان اللّه يريد أن يغويكم جوابه ما دل عليه قوله لا ينفعكم نصحي ويكون الشرط الثاني وجوابه جواب الأول وسيأتي تفصيل ذلك ومعناه في باب الفوائد . (هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) هو مبتدأ وربكم خبر واليه متعلقان بترجعون وترجعون بالبناء للمجهول والواو نائب فاعل . (أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ) أم منقطعة ويقولون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون وجملة افتراه مقول القول . (

قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ) إن شرطية وافتريته فعل وفاعل ومفعول به وهو فعل الشرط والفاء رابطة وعلي خبر مقدم واجرامي مبتدأ مؤخر وأنا مبتدأ وبريء خبر ومما متعلقان ببريء وجملة تجرمون صلة .

الفوائد :

إذا اجتمع في الكلام شرطان وجواب يجعل الشرط الثاني شرطا في الأول فلا يقع الجواب إلا ان حصل الشرط الثاني ووجد في الخارج قبل وجود الأول ونظير هذه الآية من مسائل

الفقهاء قول القائل :

" أنت طالق إن شربت إن أكلت " وهي المترجمة بمسألة اعتراض الشرط على الشرط فالمنقول انها ان شربت ثم أكلت لم يحنث وان أكلت ثم شربت حنث ، وقد قرر المفسرون في الآية انه إذا طرأ شرط على شرط كان الثاني مقدما على الأول في المعنى وإن كان مؤخرا في اللفظ ، والتقدير ولا ينفعكم نصحي ان كان اللّه يريد أن يغويكم إن أردت أن أنصح لكم وقال البيضاوي : " هكذا تقرير الكلام إن كان اللّه يريد أن يغويكم فإن أردت أن أنصح لكم فلا ينفعكم نصحي لذلك ولو قال أنت طالق ان دخلت الدار ان كلمت زيدا فدخلت ثم كلمت زيدا لم تطلق .

وقال ابن هشام في المغني :

ذكروا أنه إذا اعترض شرط على آخر نحو إن أكلت إن شربت فأنت طالق فإن الجواب المذكور للسابق منهما ، وجواب الثاني محذوف مدلول عليه بالشرط الأول وجوابه (أي والشرط الأول وجوابه متأخر معنى لكونه دليل الجواب) كما قالوا في الجواب المتأخر عن القسم والشرط ولهذا قال محققو الفقهاء في المثال المذكور انها لا تطلق حتى تقدم المؤخر وتؤخر المقدم وذلك لأن التقدير حينئذ إن شربت إن أكلت فأنت طالق وهذا كله حسن ولكنهم جعلوا منه قوله تعالى : ولا ينفعكم

نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان اللّه يريد أن يغويكم ، وفيه نظر إذ لم يتوال شرطان

وبعدهما جواب كما في المثال وكما في قول الشاعر :

إن تستغيثوا بنا إن تذعروا تجدوا منّا معاقل عزّ زانها كرم

وقول ابن دريد :

فإن عثرت بعدها إن وألت نفسي من ها تا فقولا : لا لعا

إذ الآية الكريمة لم يذكر فيها جواب وإنما تقدم على الشرطين ما هو جواب في المعنى للشرط الأول فينبغي أن يقدر إلى جانبه ويكون الأصل إن أردت أن أنصح لكم فلا ينفعكم نصحي إن كان اللّه يريد أن يغويكم وأما أن يقدر الجواب بعدهما ثم يقدر بعد ذلك مقدما إلى جانب الشرط فلا وجه له.

وقال في الدرر : وإذا دخل شرط على شرط فتارة يكون بعطف وتارة يكون بغيره فإن كان بعطف فأطلق ابن مالك أن الجواب لا ولهم لسبقه ، وفصل غيره فقال إن كان العطف بالواو فالجواب لهما لأن الواو لمطلق الجمع نحو " إن تأتني وإن تحسن الي أحسن إليك " وان كان العطف بأو فالجواب لأحدهما لأن " أو " لأحد الشيئين نحو ان جاء زيد أو إن جاءت هند فأكرمه أو فأكرمها وإن كان العطف بالفاء فالجواب للثاني والثاني وجوابه جواب للأول وإن

كان بغير عطف فالجواب لأولهما والشرط الثاني مقيد للأول كتقييده بحال واقعة موقعه كما في بيت الشاهد وإذا دخل الاستفهام على الشرط فعن يونس ان الجواب للاستفهام لتقدمه على الشرط قياسا على مسألة تقدم القسم على الشرط نحو إن قام زيد تقوم؟

خلاصة مفيدة:

توضيح المسألة: إنه قد وجد في هذه الصورة شرطان وليس فيها ما يصلح للجواب إلا شيء واحد فلا يخلو إما أن يجعل جوابا لهما معا ولا سبيل إليه لما يلزم عليه من اجتماع عاملين على معمول واحد وهو باطل.

وإما أن لا يجعل جوابا لهما ولا سبيل إليه لما يلزم عليه من الآيتان بما لا مدخل له في الكلام وترك ما له مدخل وهو عبث.

وإما ان يجعل جوابا للآخر دون الأول وهذا لا سبيل اليه لأنه يلزم عليه ان يكون الثاني وجوابه جوابا للأول فيجب الإتيان بالفاء الرابطة ولا فاء فتعين القسم الرابع وهو ان يكون جوابا للاول دون الثاني ويكون الأول وجوابه دليل جواب الثاني فالأصل إن شربت فإن أكلت فانت طالق وهو لو قال هذا الكلام لم تطلق حتى تشرب ثم تأكل فكذلك ما هو بمعناه.

[سورة هود (11) : الآيات 36 إلى 39]

وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (39)

اللغة:

(الابتئاس) حزن في استكانة قال:

ما يقسم الله اقبل غير مبتئس منه واقعد كريما ناعم البال

وهو افتعال من البؤس وفي المختار " ولا تبتئس أي لا تحزن ولا تشتك والمبتئس الكاره الحزين " .

(

الْفُلْكَ) الجمهور على أنه بضم الفاء وسكون اللام وقيل انه يقال فلك بضمتين أيضا وأشار الرضي في شرح الشافية إلى جواز أن يكون بصمتين هو الأصل وان ضم الأول وتسكين الثاني لعله تخفيف منه كعنق، وأطال في توجيهه وفي القاموس " والفلك بالضم السفينة ويذكر وهو للواحد والجميع، أو الفلك التي هي جمع تكسير للفلك التي هي واحد " وهذا

بعينه ورد في الصحاح أيضا والعباب قال ابن بري صوابه الفلك الذي هو واحد لأنك إذا جعلت الفلك واحد فهو مذكر لا غير وان جمعته جمعا فهو مؤنث لا غير وقيل إن الفلك يؤنث وان كان واحدا قال تعالى : " قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين " وعليه فلا تصويب .

الاعراب :

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ) الواو عاطفة واوحي فعل ماض مبني للمجهول وأن وما في حيزها نائب الفاعل

(370/380)

و جملة لن يؤمن خبر أن وإلا اداة حصر ومن فاعل يؤمن وجملة قد آمن صلة . (فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) الفاء عاطفة ولا ناهية وتبتئس مجزوم بلا وبما متعلقان بتبتئس وجملة كانوا صلة وجملة يفعلون خبر كانوا . (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا) واصنع عطف على ما تقدم والفلك مفعول به وبأعيننا في موضع نصب على الحال أي مكلوءا بأعيننا وحقيقته ملتبسا كأن للّه معه أعينا تكلؤه ووحينا عطف على أعيننا . (وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) لا ناهية وتخاطبني مجزوم بها والياء مفعول به وفي الذين متعلقان

بتخاطبني وجملة ظلموا صلة وانهم مغرقون ان واسمها وخبرها والجملة تعليلية لعدم الخطاب. (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ) حكاية حال ماضية فالجملة ابتدائية مسوقة لهذا الغرض والتقدير وجعل يصنع الفلك، والفلك مفعول به والواو حالية وكلما ظرف زمان متضمن معنى الشرط متعلق بسخروا منه وقد مر القول في كلما، ومر عليه ملأ فعل وفاعل وعليه متعلقان بمرّ وجملة سخروا منه لا محل لها لانها جواب شرط غير جازم. (قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ) قال فعل ماض وإن شرطية وتسخروا فعل الشرط ومنا متعلقان بتسخروا والفاء رابطة وان واسمها وجملة نسخر منكم خبر ان وكما تسخرون الكاف صفة لمصدر محذوف وقد مرت له نظائر كثيرة. (

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ) الفاء استئنافية وسوف حرف ينقل الفعل من الحال إلى الاستقبال والفرق بينها وبين السين ان في سوف معنى من التسويف وهو تعليق النفس بما يكون من الأمور التي يمكن أن تحدث، وتعلمون فعل مضارع وفاعل ومن يجوز أن تكون موصولة في محل نصب بتعلمون وتعلمون بمعنى العرفان فتنصب مفعولا واحدا، ويجوز أن تكون استفهامية وتكون

أيضا مفعولا به ، ويجوز أن تكون تعلمون يقينية فيكون المفعول الثاني محذوفا ويأتيه فعل ومفعول به وعذاب فاعل وجملة يخزيه صفة عذاب . (وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ) ويحل معطوف على يأتيه وعليه متعلقان بيحل وعذاب فاعل ومقيم صفة .

البلاغة :

في قوله " انهم مغرقون " مجيء الخبر إنكاريا مؤكدا بإن تأكيدا للكلام وتنزيلا للسامع منزلة المتردد لأنه للنفس اليقظى مظنة التردد في حكم الخبر ومؤونة الطلب له فقال أولا : ولا تخاطبني في الذين ظلموا أي لا تدعني يا نوح في استدفاع العذاب عنهم ثم قال : انهم مغرقون لأن الكلام مظنة أن يتردد نوح بأنه هل يصيبهم بأس بل بأنهم هل هم مغرقون بملاحظة ما تقدم من قوله واصنع الفلك فأورد الخبر مؤكدا فقال انهم محكوم عليهم بالإغراق .

[سورة هود (11) : الآيات 40 إلى 43]

حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَما آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (40) وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ وَكانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ (42) قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ

الْمُغْرَقِينَ (43)

اللغة :

(فارَ) الفور الغليان وأصله الارتفاع وفي المصباح " فار الماء يفور فورا نبع وجرى وفارت القدر فورا وفورانا غلت " ومنه قولهم فعل ذلك من فوره أي من قبل أن يسكن ، وشرب فورة العقار وهي طفاوتها وما فار منها .

(372/380)

(التَّنُّورُ) قيل وزنه تفعول فقلبت الواو الأولى همزة لانضمامها ثم حذفت تخفيفا ثم شدّدت النون للعوض عن المحذوف قال هذا ثعلب وقال أبو علي الفارسي وزنه فعول وقيل هو أعجمي والمشهور أنه مما اتفقت فيه لغة العرب والعجم كالصابون وقال في القاموس والتاج : التنور الكانون يخبز فيه وصانعه تنّار ووجه الأرض وكل مفجر ما ومحفل ماء الوادي وعقبه التاج بقوله يقال هو في جميع اللغات كذلك وقال الليث التنور عمت بكل لسان قال أبو منصور وهذا يدل على أن الاسم في الأصل أعجمي فعربته العرب فصار عربيا على بناء فعول ، ثم قيل هو تنور معروف فالكلام حقيقي ، وقيل هو مجاز ومعنى قولهم فار التنور اشتد به الغضب كما يقولون حمي الوطيس إذا اشتدت الحرب وفار قدر القوم إذا اشتدت

حربهم قال الشاعر :

تفور علينا قدرهم فنديمها ونفثؤها عنا إذا حميها غلا

(الاثنان) الوجه في قراءة حفص بالتنوين " ومن كلّ زوجين اثنين " ان الاثنين زوجان قال

تعالى " ومن كل شيء خلقنا زوجين " والمرأة زوج الرجل والرجل زوجها وقد يقال للاثنين

هما زوج قال لبيد :

من كل محفوف يظلّ عصيّه زوج عليه كلة وقرامها

ومعنى البيت : الهوادج محفوفة بالثياب فعيدانها تحت ظلال ثيابها والمضر بعد القرام

للعصي أو للكلة .

الاعراب :

(حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ) حتى متعلقة بقوله واصنع الفلك بأعيننا أي إلى هذا

الوقت فهي حرف غاية وجر وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن وجملة جا أمرنا في محل جر

بالإضافة وجملة وفار التنور معطوفة على جملة جاء أمرنا . (قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ

زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) الجملة لا محل لها لأنها جواب إذا واحمل فعل أمر وفيها متعلقان باحمل ومن

كل حال من زوجين لأنه كان في الأصل صفة له وزوجين مفعول به واثنين صفة للتأكيد والتشديد كما قال : "لا تتخذوا إلهين اثنين" . (وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) وأهلك عطف على زوجين وإلا أداة استثناء ومن مستثنى متصل وجملة سبق عليه القول صلة . (وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) ومن آمن عطف على أهلك وما الواو عاطفة وما نافية وآمن فعل ماض ومعه ظرف متعلق بآمن والا أداة حصر وقليل فاعل آمن . (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) الواو عاطفة وقال فعل ماض وجملة اركبوا فيها مقول القول وفيها

(374/380)

متعلقان باركبوا ، باسم الله خبر مقدم ومجراها مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية حال من الواو أو الهاء أي اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين باسم الله ومرساها عطف على مجراها وهما مصدران ميميان الأول من جرى ولذلك جاء مجرى والثاني من أرسى ولذلك جاء مرسى بضم الميم وقرىء الاثنان بالضم على أنهما مصدران ميميان أيضا ، ويجوز أن يكونا اسمين للزمان أو المكان أي وقت جريانها وارسائها وبسم الله حال أي متبركين باسم الله ويتعلق الظرفان بهذا المحذوف فهو من باب خفوق النجم ومقدم الحاج وهنا أقوال أخرى للمعربين

ضربنا عنها صفحا . (إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) إن واسمها واللام المزحلقة وغفور خبر إن الأول ورحيم خبر إن الثاني . (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ) حال من محذوف أي فركبوا فيها والحال انها تجري بهم ويجوز أن تكون مستأنفة ، وهي مبتدأ وجملة تجري خبر وبهم متعلقان بمحذوف حال وفي موج متعلقان بتجري والكاف صفة لموج (وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ وَكانَ فِي مَعْزِلٍ) الواو عاطفة ونادى نوح ابنه فعل وفاعل ومفعول ، وكان الواو حالية وكان فعل ماض ناقص واسمها مستتر تقديره هو يعود على الابن وهو كنعان وفي معزل خبر كان .

)

يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ) يا حرف نداء وبني منادى مضاف لياء المتكلم وأصله بثلاث ياءات الأولى ياء التصغير والثانية ياء الكلمة والثالثة ياء المتكلم فحذفت ياء المتكلم تخفيفا وأدغمت ياء التصغير في لام الكلمة فيقرأ بكسر الياء وفتحها فمن قرأ بالكسر جعل الكسرة دالة على الياء المحذوفة ومن فتح فقد أراد الاضافة كما أرادها في قوله يا بني إذا كسر الياء التي هي لام الفعل كأنه قال يا بنيي بإثبات باء الاضافة ثم أبدل من الكسرة الفتحة ومن الياء الألف فصار يا بنيا ثم حذف الألف كما كان حذف الياء والقراءتان سبعيتان واركب فعل أمر ومعنا

ظرف متعلق باركب ولا ناهية وتكن فعل مضارع ناقص مجزوم بلا واسمها مستتر تقديره أنت ومع الكافرين ظرف متعلق بمحذوف خبر. (قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ) جملة سآوي مقول القول والى جبل جار ومجرور متعلقان بآوي وجملة يعصمني صفة لجبل ومن الماء متعلقان بيعصمني. (قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ) لا نافية للجنس وعاصم اسمها مبني على الفتح واليوم ظرف متعلق بأمر الله لأنه بمعنى المصدر، وأحسن من ذلك أن يكون خبر "لا" محذوفا لأنه إذا علم كهذا الموضع التزم حذفه بنو تميم وكثر حذفه عند أهل الحجاز لأنه لما قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال له نوح: لا عاصم أي لا عاصم موجود ويكون اليوم منصوبا على إضمار فعل يدل عليه عاصم أي لا عاصم يعصم اليوم من أمر اللّه ومن أمر جار ومجرور متعلقان بذلك الفعل المحذوف ولا يجوز أن يكون اليوم منصوبا بقوله لا عاصم ولا أن يكون "من أمر اللّه" متعلقا به لأن اسم لا إذ ذاك كان يكون مطولا وإذا كان مطولا لزم تنوينه وإعرابه ومن أمر اللّه خبر لا وإلا أداة استثناء أو حصر والاستثناء إما متصل فيكون من مستثنى وجملة رحم صلة. وإما منقطع وإلا بمعنى لكن ومن مبتدأ وجملة رحم صلة والخبر محذوف تقديره هو المعصوم ومن المفيد أن نورد هنا ما قاله أبو البقاء: "قوله تعالى لا عاصم اليوم فيه ثلاثة أوجه أحدها انه اسم فاعل على بابه فعلى هذا يكون قوله إلا من رحم فيه وجهان أحدهما هو استثناء متصل

ومن رحم بمعنى الراحم أي لا عاصم إلا اللّه والثاني انه منقطع أي لكن من رحمه اللّه يعصم ، الوجه الثاني أن عاصما بمعنى معصوم مثل ماء دافق أي مدفوق فعلى هذا يكون الاستثناء متصلا أي إلا من رحمه اللّه والثالث إن عاصما بمعنى ذا عصمة على النسب مثل حائض

و طالق فالاستثناء على هذا متصل أيضا فأما خبر لا فلا يجوز أن يكون اليوم لأن ظرف الزمان لا يكون خبرا عن الجثة بل الخبر من أمر اللّه واليوم معمول من أمر اللّه ولا يجوز أن يكون اليوم معمول عاصم إذ لو كان كذلك لنون " . وأورد صاحب الانتصاف كلاما جميلا نورده فيما يلي : "إن الاحتمالات الممكنة هنا أربعة : لا عاصم إلا راحم ولا معصوم إلا مرحوم ولا عاصم إلا مرحوم ولا معصوم إلا راحم فالأولان استثناء من الجنس والآخران استثناء من غير الجنس فيكون منقطعا . (وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) الواو عاطفة وحال فعل ماض وبينهما متعلقان بحال والموج فاعل فكان عطف على حال واسم كان مستتر ومن المغرقين خبر كان .

[سورة هود (11) : آية 44]

وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44)

اللغة :

(البلع) معروف والفعل منه مكسور العين ومفتوحها بلع وبلع حكاهما الكسائي والفراء وفي المصباح : بلعت الطعام بلعا من باب تعب والماء والريق بلعا ساكن اللام وبلعته بلعا من باب نفع لغة وابتلعته ، ومن مجاز هذا الفعل : أبلعني ريقي أي أمهلني حتى أقول أو أفعل .

قال الزمخشري في أساس البلاغة : وقلت لبعض شيوخي : ابلعني ريقي فقال : قد أبلعتك الرافدين .

(الاقلاع) إذهاب الشيء من أصله حتى لا يرى له أثر يقال :

أقلعت السماء إذا ذهب مطرها حتى لا يبقى منه شيء وأقلع عن الأمر إذا تركه رأسا .

)

غِيضَ) مبني للمجهول إذ يستعمل لازما ومتعديا والغيض النقصان وفعله لازم ومتعد فمن اللازم قوله تعالى " وما تغيض الأرحام " أي تنقص ومن المتعدي الآية التي نحن بصددها لأنه

لا يبنى للمجهول من غير واسطة حرف جر إلا المتعدي بنفسه وفي المختار : غاض الماء : قلّ ونضب وبابه باع وانغاض مثله وغيض الماء فعل به ذلك وغاضه اللّه يتعدى ويلزم ، وأغاضه اللّه أيضا ، وغيّض الدمع تغييضا نقصه وحبسه ويقال : غاض الكرام أي قلّوا وفاض اللئام أي كثروا .

(الْجُودِيِّ) : جبل بأرض الجزيرة استوت عليه السفينة عند انتهاء الطوفان .

الاعراب :

(وَقِيلَ : يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي) الواو عاطفة وقيل فعل ماض مبني للمجهول ويا حرف نداء وأرض منادى نكرة مقصودة مبني على الضم وابلعي فعل أمر والياء فاعل وماءك مفعول به ويا سماء أقلعي عطف على يا أرض ابلعي . (وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ) جمل معطوفة بعضها على بعضها الآخر وسيأتي في البلاغة من أسرارها ما يدهش العقول . (وَقِيلَ : بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) بعدا منصوب على المصدر بفعل مقدر أي وقيل بعدوا بعدا فهو مصدر

بمعنى الدعاء عليهم وللقوم جار ومجرور متعلقان بمحذوف والتقدير إرادتي ونحوه أو بقيل أي قيل لأجهلم هذا القول والظالمين صفة للقوم .

البلاغة :

في هذه الآية من أفانين البلاغة وبدائع الفصاحة ما يذهل اللب ويشده العقول وسنورد أهم

الفنون التي تلفت النظر وتستهوي الموهوب ليحذو حذوها وينسج على منوالها .

1- المساواة :

(378/380)

ونبدأ بالفن الذي يتناول الآية عموما وقد عرفوه بأن يكون اللفظ مساويا للمعنى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه وهو من أعظم أبواب البلاغة بل هو البلاغة عينها كما وصف بعض الوصاف بعض البلغاء فقال : كانت أوصافه قوالب لمعانيه وكما قال العتابي : " الألفاظ أجساد والمعاني أرواح " وهو ميزة كل لغة ، قال إميل فاكيه في وصف فيكتور هيغو " هيغو من الخالدين لأن الذي يخلد هو جمال الأسلوب " وجمال الأسلوب هو الملاءمة بين اللفظ والمعنى والآية التي نحن بصددها خير مثال لهذه المساواة فإنه سبحانه أراد اقتصاص من هذه القصة بأوجز لفظ وأبلغه فجاء بها مرتبة الألفاظ والجمل على حسب ما وقع في صور لا تفصل عن معانيها لا وتقصر عنها فإن قيل : لفظة " القوم " زائدة تمنع الآية من أن توصف بالمساواة لأنها إذا طرحت استقلّ الكلام بدونها بحيث يقال : " وقيل بعدا للظالمين " قلت :

لا يستغني الكلام عنها وذلك انه لما قال في أول القصة " وكلما مر عليه

ملأ من قومه سخروا منه " وقال بعد ذلك " ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون "
جاءت لفظة القوم في آخر القصة ، ووصفهم بالظلم ليرتد عجز الكلام على صدره .

2- رد العجز على الصدر :

وهو الفن الثاني من فنون هذه الآية ، وليعلم أن القوم الذين هلكوا بالطوفان هم الذين كانوا يسخرون من نوح فهم مستحقون للعقاب لئلا يتوهم ضعيف أن الطوفان لعمومه ربما أهلك من لا يستحق الهلاك فأخبر الله سبحانه أن الهالكين هم الذين تقدم ذكرهم وما كانوا يفعلونه مع نبيه من السخرية التي استحقوا بها الهلاك ، وانهم الذين وصفهم بالظلم ووعد نبيه باغراقهم ونهاه عن مخاطبته فيهم ليرفع ذلك الاحتمال فيعلم أن الله سبحانه قد أنجز نبيه ما وعده وأهلك القوم الظالمين الذين قدم ذكرهم ووصفهم ووعد باغراقهم .

3- الاشارة :

(379/380)

الفن الثالث من فنون هذه الآية فن الاشارة وقد تقدم بحثه وعرفه قدامة فقال : هو أن يكون اللفظ القليل دالا على الكثير من المعاني حتى تكون دلالة اللفظ بمثابة الإشارة باليد أو الايماءة بالحاجب والعين فانها تشير بحركة واحدة سريعة إلى أشياء كثيرة تستوعب

العبارات الطويلة ومن أمثلتها في الآية التي نحن بصددها قوله " وغيض الماء " فإن غيض الماء يشير إلى انقطاع مادة الماء من نبع الأرض ومطر السماء ولولا ذلك لما غاض الماء .

4- الارداف :

أما الفن الرابع فهو فن عجب في بابه ، وهو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له ، ولا بلفظ الاشارة الدال على المعاني الكثيرة بل بلفظ هو ردف المعنى الخاص وتابعه قريب من لفظ المعنى قرب الرديف من الردف وهو هنا في قوله تعالى " وقضي الأمر " وحقيقة ذلك : وهلك من قضى اللّه هلاكه ونجا من قضى نجاته وانما عدل عن هذه الحقيقة إلى لفظ الارداف من الإيجاز والتنبيه على أن هلاك الهالك ونجاة الناجي كان بأمر آمر مطاع ، وقضاء من لا يرد قضاؤه ، والأمر يستلزم آمرا وقضاؤه يدل على قدرة الآمر به وطاعة المأمور تدل على قدرة الآمر وقهره ، وان الخوف من عقابه ورجاء ثوابه يحضّان على طاعة الآمر ، ولا يحصل ذلك كله من اللفظ الخاص .

هذا ومن أمثلة الارداف في الشعر قول أبي الطيب المتنبي :

لو كنت حشو قميصي فوق نمرقها سمعت للجن في غيطانها زجلا

ومراده نفسه بقوله " حشو قميصي " ، يقول : لو كنت بدلي تحت ثيابي وفوق نمرق ناقتي وهو الذي يلقي عليه الراكب فخذه للاستراحة ، لسمعت جلبة الجن وأصواتهم في منخفض هذه المفاوز البعيدة لأنها مأوى الجن لبعدها عن الإنس ، والعرب تجعل المكان

البعيد مسكنا للجن تهويلا له واستيحاشا منه .

5- الاحتراس :

(380/380)

والفن الخامس في هذه الآية هو الاحتراس وتعريفه أن يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه فيه دخل فيفطن لذلك حال العمل فيأتي في أصل الكلام بما يخلصه من ذلك ، ومن أمثلته قوله تعالى فيها : " وقيل بعدا للقوم الظالمين " فإنه سبحانه لما أخبر بهلاك من هلك بالطوفان أعقبه بالدعاء على الهالكين ووصفهم بالظلم ليعلم أن جميع من هلك كان مستحقا للعذاب مستأهلا له احتراسا من ضعيف يتوهم أن الهلاك بعمومه قد شمل من لا يستحق العذاب فلما دعا على الهالكين علم أن كل من هلك كان مستحقا للهلاك لأنه قد ثبت بالبرهان أنه عادل فلا يدعو إلا على من يستحق الدعاء ووصفهم بعد الدعاء عليهم بالظلم فإن لم يكونوا ظالمين فقد دخل خبره الخلف وخبره منزه عن ذلك فوقع هذا الدعاء وهذا الوصف احتراسا من ذلك الذي قدر توهمه والاحتراس يبدو جملا في الشعر ومنه قول طرفة المشهور :

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمي

فقوله " غير مفسدها " احتراس من محو معالمها وطمس آثارها وقد جنح أبو الطيب اليه كثيرا فقال :

ويحتقر الدنيا احتقار مجرب يرى كل ما فيها ، وحاشاك ، فانيا

فقوله " وحاشاك " احتراس من دخوله في كل من فيها .

وقوله أيضا :

إذا خلت منك حمص لا خلت أبدا فلا سقاها من الوسمي باكره

فقوله " لا خلت أبدا " احتراس من توهم الدعاء عليه .

6- حسن النسق :

(381/380)

و الفن السادس من فنون هذه الآية العجيبة هو فن النسق وهو عبارة عن أن يأتي المتكلم بالكلمات من النثر والأبيات من الشعر متتاليات متلاحمات تلاحما سليما مستحسنا لا معيبا مستهجنا ، والآية من أولها إلى آخرها من شواهد هذا الفن فقد ترادفت الجمل منسوقة بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة لأنه سبحانه بدأ بالأهم إذ كان المراد اطلاق أهل السفينة من سجنها ولا يحصل ذلك ولا يتأتى إلا بانحسار

الماء عن الأرض فلذلك بدأ بالأرض فأمرها بالابتلاع وثنى بالسماء فأمرها بالإقلاع لئلا يتأذى بذلك أهل السفينة ثم أخبر بغيض الماء عند ما ذهب ماء الأرض وانقطع ماء السماء ثم قال " وقضي الأمر " أي هلك من جفّ القلم بهلاكه ، ونجا من سبق العلم بنجاته وهذه حقيقة المعجزة وكنه الآية ولا بد أن تكون معلومة لأهل السفينة ولا يتسنى علمهم بها إلا بعد خروجهم منها وخروجهم موقوف على ما تقدم فلذلك اقتضت البلاغة أن تأتي هذه الجملة رابعة الجمل وكذلك استقرار السفينة على الجودي أي استقرارها على المكان الذي استقرت عليه استقرارا لا حركة معه لتبقى آثارها آية لمن يأتي بعد أهلها وعدل عن لفظة استقرت إلى لفظة

استوت لما يحتمله الاستقرار من الزيغ والميل ويدل عليه الاستواء من استقامة وعدم انحراف وفي هذا طمأنينة أهل السفينة وأمنهم بعد المخافة وأفراخ روعهم إذا كان استقرارها استقرارا فقط بحيث لا تؤمن معه الحركة لكانت حالهم في مكابدة الحركة واضطراب القلوب ووجيفها واحدة في حال سيرها ووقوفها ثم قال أخيرا " وبعدا للقوم الظالمين " وهذا دعاء أوجبه الاحتراس ممن يظن أن الغرق لشموله الأرض ربما أودى بمن لا يستحق العذاب فدعا على الهالكين ووصفهم بالظلم ليعلم أن الهلاك إنما شمل من يستحق العذاب دون سواهم احتراسا من هذا الاحتمال .

7- التنظير :

والفن السابع فيها هو فن التنظير وقد تكلم عنه ابن الأثير في كتابه الاستدراك تحت اسم المفاضلة بين الشعراء ليظهر الأفضل منهما وهو إلى النقد أقرب منه إلى فنون البديع ، وحدّه أن ينظر الإنسان بين كلامين إما متفقي المعاني أو مختلفي المعاني ليظهر الأفضل منهما ، والآية التي نحن بصددها تناولت قصة الطوفان التي انطوت على الكثير من العقد والحلول والعبر فإذا نظرتها بغيرها من القصص وجدتها سامية عليها جميعا باستقصاء جميع ما اتفق فيها وما سنح .

8- المناسبة اللفظية :

بين ابلعي واقلعي وهي تشبه المناسبة التي مرت في قوله " لهم شراب من حميم وعذاب أليم " بسورة يونس .

9- الجناس الناقص :

بين ابلعي واقلعي ويسميه بعضهم المضارعة ويكون أنواعا منها أن يختلف حرف في الكلمتين بعد أن تتفق بقية الأحرف ومثله قوله تعالى " وهم ينهون عنه وينأون عنه " وقال النبي صلى اللّه عليه وسلم لرجل سمعه وهو ينشد على سبيل الافتخار وقيل بل سأله عن

نسبه فقال :

إني امرؤ حميري حين تنسبني لا من ربيعة آبائي ولا مضر

فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : " ذلك واللّه ألأم لجدك ، وأضرع لخدك ، وأقل لعدك ، وأبعد لك عن اللّه ورسوله " .

10- الطباق :

والفن العاشر هو الطباق فقد طابق بين السماء والأرض .

11- الاستعارة :

والفن الحادي عشر هو الاستعارة المكنية الكائنة في نداء الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميز على لفظ التحضيض والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات وهو قوله يا أرض ويا سماء ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله ابلعي ماءك واقلعي من الدلالة على الاقتدار العظيم والبلع عبارة عن تغدير الماء وشربه في بطنها مستعار لهذا المعنى من بلع الحيوان أي ازدراده لطعامه وشرابه والبلع هو أثر القوة الجاذبة في المطعوم لكمال الشبه بينهما وهو

الذهاب إلى مقر خفي ومع هذا فهي قرينة للاستعارة المكنية التي في الماء أي استعارة الماء للغذاء لجامع تقوي الأرض بالماء في الإنبات تقوي الآكل بالطعام .

12- المجاز المرسل :

وذلك في قوله " يا سماء " فان الحقيقة : ويا مطر السماء اقلعي ، والعلاقة في هذا المجاز السببية لأن الماء سبب المطر أو المحلية لأنها محلها بما يتجمع فيها من سحب واضافة الماء إلى الأرض مجاز أيضا تشبيها لاتصاله بها باتصال الملك بالمالك ، وفيها نكتة أخرى وهي التنبيه على حدوث هذا الماء من الأرض أيضا لا من السماء فقط كما يدل عليه قوله تعالى " وفار التنور " .

13- التمثيل :

وهو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الخاص ولا بلفظي الاشارة والارداف بل بلفظ هو أبعد من لفظ الارداف قليلا يصلح أن يكون مثلا للفظ الخاص لأن المثل لا يشبه المثل من جميع الوجوه ولو تماثل المثلان من كل الوجوه لاتحدا ، وقد تقدم تفصيل هذا الفن في قوله " واستوت على الجودي " فإن حقيقة ذلك : وجلست على ذلك المكان فعدل عن الحقيقة إلى التمثيل لما في الاستواء من الاشعار بجلوس متمكن لا زيغ فيه ولا ميل ولا حركة معه ولا اضطراب .

14- الإيجاز :

فقد اقتص سبحانه القصة بلفظها مستوعبة بحيث لم يخلّ منها بشيء في أخصر عبارة وبألفاظ غير مطولة .

15- التسهيم :

وهو أن يكون ما تقدم من الكلام دليلا على ما يتأخر منه أو بالعكس والتسهيم في الآية هو أن أول الآية يقتضي آخرها .

16- التهذيب :

لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن ، وكل لفظة سهلة مخارج الحروف ، سلمت من التنافر والغرابة ومخالفة القياس .

17- التمكين :

لأن الفاصلة مستقرة في قرارها مطمئنة في مكانها غير قلقة ولا ناشزة .

18- الانسجام :

وهو تحديد الكلمات بسهولة وعذوبة مع الجزالة التي يقتضيها المقام ويتطلبها مقتضى الحال .

19- الارصاد :

وهو أن يحدس القارئ بالفاصلة قبل أن يتلفظ بها .

20- ائتلاف اللفظ مع المعنى :

وهو ما يسميه أهل الفن المزاوجة بين الألفاظ حتى لقد قال أناتول فرانس الكاتب الفرنسي : " ان بين الألفاظ زواجا كاثوليكيا "

وكل لفظة لا يصلح في موضعها غيرها ، وقد كان أبو تمام يحرص في شعره على هذا الفن فاستمع إلى قوله :

وفي الكلمة الوردية اللون جؤذر من الانس يمشي في رقاق المجاسد

رمته بخلف بعد أن عاش حقبة له رسفان في قيود المواعد

وفاعل رمته في أبيات سبقت ، وهذا أمر تعجز الألفاظ عن إيجاد حدود له وانما هو مما يستشعره الذوق وحده على حد قول فولتير :

" ذوقك أستاذك " .

21- الاستعارة المتكررة :

فاذا أضفت إلى ما تقدم أن الاستعارة وقعت فيها في موقعين وهما استعارة الابتلاع والإقلاع حصل لك واحد وعشرون فنا .

هذا وقد أضاف بعض البلاغيين إلى هذه الفنون ما يلي :

1- ومنها انه تعالى لم يصرح بفاعل غيض وقضي وقيل ، كما لم يصرح في صدر الآية بقائل

قيل وكذا لم يصرح بمن سوى السفينة تنبيها على أن تلك الأمور العظام لا يتصور وقوعها إلا من قادر لا يكتنه وقهار لا يغالب فلا يذهب الوهم إلى فاعل غيره ولا ينشط الخيال إلى مدى أبعد من هذا المدى وقيل في وجه العدول عن تصريح الفاعل

اشارة إلى أن هذه الأمور أهون عند اللّه تعالى من أن ينسبها إلى قدرته صراحة .

2- ومنها إفراد الماء إشعارا بأن هذا الماء لم يحصل من اجتماع المياه وتكاثرها بل هو نوع واحد حصل بقدرته تعالى دفعة واحدة .

3- ومنها افراد " أرض " إشارة إلى شمول هذا الماء الكل بحيث صار الكل بمثابة شيء واحد باعتبار هذا الشمول ، وأيضا افراد " سماء " إشارة إلى أن المراد بها هاهنا جهة العلو الذي لا يكتنه مداه لا الاجرام العلوية .

4- ومنها التعريض الذي اختتم به الكلام تنبيها لسالكي مسلكهم والجانحين جنوحهم في تكذيب الرسل إلى أن ما حل بهم من إغراق شمل العالم بأسره لم يكن إلا لظلمهم وإمعانهم في اللجاج والتمادي في الإنكار .

5- ومنها ذكر مفعول ابلعي لئلا يعم بالحذف ابتلاع البحار وسواكن الماء كما يقتضيه مقام

الكبرياء .

6- ومنها تقديم أمر الأرض على السماء لابتداء الطوفان منها .

هذا وقد ذكر السكاكي أسرارا أخرى أضربنا عنها لما فيها من تكلف قد يحيل الأمر إلى العكس .

الفوائد :

1- قد يقام المصدر المؤكد مقام فعله المستعمل أو المهمل فيمتنع ذكره معه وهو نوعان :

أ- ما لا فعل له أصلا من لفظه نحو ويلك وويحك وبله الأكف وسبحان اللّه .

ب- ما له فعل مستعمل من لفظه وهو نوعان : نوع واقع في الطلب وهو الوارد في دعاء بخير أو ضده فالأول كسقيا ورعيا والأصل سقاك اللّه سقيا ورعاك اللّه رعيا أو الوارد نهيا أو أمرا نحو قياما لا قعودا وكذلك النوعي نحو " فضرب الرقاب " أي فاضربوا ضرب الرقاب ونوع واقع في الخبر نحو حمدا وشكرا لا كفرا ، ولها أنواع مذكورة في المطولات والجار والمجرور الواقعان بعد نحو سقيا لك وبعدا للقوم الظالمين متعلق بمحذوف خرج مخرج البيان التقدير إرادتي لهم ولا تتعلق بالمصدر فنحو سقيا لك على هذا جملتان .

2- لام التبيين

ويجدر بنا هنا أن نورد خلاصة وجيزة لهذه اللام التي شغلت النحاة كثيرا ولم يوفوها حقها من الشرح وهي ثلاثة أنواع :

أ – ما تبين المفعول من الفاعل وضابطها أن تقع بعد فعل تعجب أو اسم تفضيل مفهمين حبا أو بغضا تقول : ما أحبني وما أبغضني فإن قلت : لفلان ، فأنت فاعل الحب والبغض وهو مفعولهما وإن قلت :

الى فلان ، فالأمر بالعكس .

(386/380)

ب وج : ما يبين فاعلية غير ملتبسة بمفعولية وما يبين مفعولية غير ملتبسة بفاعلية ومصحوب كل منهما إما غير معلوم مما قبلها أو معلوم لكن استؤنف بيانه تقوية للبيا ن وتوكيدا له واللام في ذلك كله

متعلقه بمحذوف . مثال المبينة للمفعولية : سقيا لك وجدعا لك فهذه اللام ليست متعلقة بالمصدرين ولا بفعليهما المقدرين لأنهما متعديا ن بنفسيهما كالمصدرين و " لا " هي ومجرورها صفة للمصدر فتتعلق بالاستقرار لأن الفعل لا يوصف فكذا ما أقيم مقامه وإنما هي لام مبينة للمدعو له أو عليه والتقدير إرادتي لك ، ومثال المبينة للفاعلية :

تبا لزيد وويحا له ، فإنه في معنى خسر وهلك وحينئذ فزيد هو الفاعل واللام متعلقة بمحذوف إرادتي كائنة لزيد .

[سورة هود (11) : الآيات 45 إلى 49]

وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ (45) قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (46) قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ (47) قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (48) تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49)

الاعراب :

)

(387/380)

(وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ : رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) الواو استئنافية والنداء على ما يبدو كان قبل سير السفينة لأنه سؤال في نجاة ابنه ولا معنى للسؤال إلا عند إمكان النجاة ، ونادى نوح فعل وفاعل وربه مفعول به ، فقال الفاء حرف عطف وقال فعل ماض معطوف على نادى عطف تفسير لأن القول المذكور هو عين النداء ورب منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة

وإن واسمها ومن أهلي خبرها وإنما أورد ذلك لأن اللّه تعالى وعده بنجاة أهله . وللمفسرين كلام طويل حول بنوة هذا الابن يخرج عن نطاق هذا الكتاب . (وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ) الواو عاطفة وان واسمها وخبرها وأنت أحكم الحاكمين مبتدأ وخبر والجملة معطوفة أيضا . (قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) قال فعل ماض وضمير اللّه فاعله المستتر وان واسمها وجملة ليس من أهلك خبر إن ومن أهلك خبر ليس . (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ) ان واسمها والضمير يعود إلى ابنه ولا مبرر لقول من قال إن الضمير يعود إلى سؤاله كما ذهب الجلال وغيره لأن بلاغة الكلام تستبعده وعمل خبر إن وهو من باب إقامة الصفة مقام الموصوف عند ظهور المعنى وقد تقدمت الاشارة إليه ومنه قول عمر بن أبي ربيعة :

أيها القائل في غير الصواب أخّر النصح وأقلل من عتابي

وقوله أيضا :

وكم من قتيل لا يباء به دم ومن غلق رهنا إذا ضمّه منى

ومن مالىء عينيه من شيء غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

أراد أيها الإنسان القائل وكم من إنسان قتيل . وقول الخنساء :

ترتع ما رتعت حتى إذا ادّكرت فإنما هي إقبال وإدبار

وغير صالح صفة لعمل والجملة تعليل لانتفاء كونه من أهله الناجين . (فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) الفاء الفصيحة ولا ناهية وتسأل فعل مضارع مجزوم بلا والنون للوقاية وياء المتكلم المحذوفة للتخفيف مفعول به وما مفعول به ثان وجملة ليس صلة واسم ليس علم ولك خبرها المقدم وبه جار ومجرور متعلقان بعلم . (إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ) إن واسمها وجملة أعظك خبرها وان وما في حيزها في محل نصب بنزع الخافض أي أخوفك من أن تكون ، والجار والمجرور متعلقان بأعظك واسم تكون مستتر تقديره أنت ومن الجاهلين خبر تكون وسيأتي في باب الفوائد معنى تسمية سؤال نوح جهلا (قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ) إن واسمها وجملة أعوذ خبرها وبك متعلقان بأعوذ وأن وما في حيزها منصوب بنزع الخافض وما ليس لي به علم تقدم إعرابها . (وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ) الواو عاطفة وإن شرطية ولا نافية وتغفر فعل الشرط ولي جار ومجرور متعلقان به وترحمني عطف على تغفر وأكن جواب الشرط واسمها مستتر تقديره أنا ومن الخاسرين خبرها . (قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ) اهبط فعل أمر وبسلام جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من فاعل اهبط أي متلبسا بسلام ومنّا صفة لسلام أو بنفس سلام وبركات عطف على سلام وعليك صفة . (وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ)

و على أمم عطف على عليك وممن صفة لأمم ومعك ظرف مكان صلة الموصول . (وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ) الواو استئنافية وأمم مبتدأ وساغ الابتداء به لأنه موصوف تقديره أي وأمم ممن معك وجملة سنمتعهم خبرها أو تجعل سنمتعهم صفة والمحذوف هو الخبر وإنما حذف لأن قوله ممن معك يدل عليه ، ثم حرف عطف للتراخي ويمسهم فعل مضارع ومفعول به ومنا حال لأنه كان صفة لعذاب وعذاب فاعل وأليم صفة ثانية . (تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ) تلك مبتدأ ومن أنباء الغيب خبر أول وجملة نوحيها إليك خبر ثان وإن شئت كان في موضع الحال أي تلك كائنة من أنباء الغيب موحاة إليك . (ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا) خبر ثالث وهذا أولى الأعاريب وكان واسمها وجملة تعلمها خبر كنت و" ها " مفعول به وأنت تأكيد لفاعل تعلمها المستتر ولا قومك عطف على أنت ومن قبل هذا حال من الهاء في نوحيها أو الكاف في إليك أي جاهلا أنت وقومك بها . (فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) الفاء الفصيحة أي ان عرفت هذه القصة ومنطوياتها وما آلت إليه حادثة الطوفان فاصبر وجملة إن العاقبة للمتقين من إن واسمها وخبرها تعليلية وهذا هو المقصود من قصة نوح والقصص التي ستتلوها .

الفوائد :

للمفسرين كلام طويل في هذه الآية وتعليل وصف سؤال نوح بالجهل وهو يدل على عدم العصمة حتى لقد ذهب الزمخشري إلى أن نوحا عليه السلام صدر عنه ما يوجب نسبة الجهل اليه ومعاتبته على ذلك ويطول بنا القول إن أردنا أن ننقل ما أوردوه أو نلخصه على الأقل وأقرب ما يقال في ذلك انه لما صدر الوعد إلى نوح بنجاة أهله إلا من

سبق عليه القول منهم ولم يكن كاشفا لحال ابنه المذكور ولا مطلعا على دخيلة نفسه وحقيقة أمره بل معتقدا بظاهر الحال أنه مؤمن بقي على التمسك بصيغة العموم للأهلية الثابتة ولم يعارضها يقين في كفر ابنه حتى يخرج من الأهل ويدخل في المستثنين فسأل اللّه فيه بناء على ذلك فتبين له أنه في علمه من المستثنين وانه هو لا علم له بذلك فلذلك سأل فيه وهذا بأن يكون ابانة عذر أولى منه أن يكون عتبا وأما قوله :

"إني أعظك أن تكون من الجاهلين" فالمراد منه النهي عن وقوع السؤال في المستقبل بعد أن أعلمه اللّه باطن أمره وأنه إن وقع في المستقبل السؤال كان من الجاهلين والغرض من ذلك تقديم ما يبقيه على سمة العصمة ، والموعظة لا تستدعي وقوع ذنب وقد أشفق نوح من

اقدامه على سؤال ربه فيما لم يؤذن له فخاف من ذلك الهلاك فلجأ إلى ربه وخشع له ودعاه
وسأله المغفرة والرحمة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

[سورة هود (11) : الآيات 50 إلى 60]

وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (50)
يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ (51) وَيا قَوْمِ
اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا
مُجْرِمِينَ (52) قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَما نَحْنُ لَكَ
بِمُؤْمِنِينَ (53) إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ
مِمَّا تُشْرِكُونَ (54)

(391/380)

مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ما مِنْ
دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (56) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما
أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ
حَفِيظٌ (57) وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ

عَذابٍ غَلِيظٍ (58) وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59)

وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ (60)

اللغة :

(فَطَرَنِي) : فطر اللّه الخلق وهو فاطر السموات مبتدعها وافتطر الأمر ابتدعه " وكل مولود يولد على الفطرة " أي على الجبلة وقد فطر هذه البئر وفطر اللّه الشجر بالورق فانفطر به وتفطّر ، وتفطّرت الأرض بالنبات ، وتفطرت اليد والثوب : تشققت وفطر ناب البعير : طلع وفطرت المرأة العجين ، وهذا كلام يفطر الصوم أي يفسده .

(مِدْراراً) : المدرار : الكثير الدرور كالمغزار ولم يؤنثه وإن كان من مؤنث لثلاثة أسباب أحدها أن المراد بالسماء السحاب أو المطر فذكر على المعنى والثاني أن مفعالا للمبالغة فيستوي فيه المذكر والمؤنث كصبور وشكور والثالث أن الهاء حذفت من مفعال على طريق النسب وفي القاموس : درت السماء بالمطر درا ودرورا فهي مدرار .

)

الناصية) : منبت الشعر من مقدّم الرأس ويسمى الشعر النابت أيضا ناصية باسم محله ونصوت الرجل أخذت بناصيته فلامها واو ويقال له ناصاة فقلبت ياؤها ألفا فالأخذ بالناصية عبارة عن الغلبة والقهر وإن لم يكن ثمة أخذ بناصيته ولذا كانوا إذا منّوا على أسير جزوا ناصيته .

الاعراب :

(وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً) عطف على قصة نوح والمعطوف محذوف أي وأرسلنا إلى عاد فيكون من عطف الجمل لا من عطف المفردات لطول الفصل وعاد اسم قبيلة وصرفها لأنه أراد الحي ولو أراد القبيلة لم تصرف وأخاهم مفعول لأرسلنا المحذوفة وأراد إخوتهم في النسب وهودا بدل أو عطف بيان وسيرد في باب الفوائد الفرق الدقيق بين البدل وعطف البيان. (قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ)

اعبدوا الله فعل أمر وفاعل ومفعول به وما نافية ولكم خبر مقدم ومن حرف جر زائد وإله مجرور لفظا مرفوع محلا لأنه مبتدأ مؤخر وغيره صفة لإله على المحل ويجوز الجر صفة على اللفظ وقد قرىء بها .

(إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ) إن نافية وأنتم مبتدأ وإلا أداة حصر ومفترون خبر أنتم (يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً) لا نافية وأسألكم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به أول وعليه

حال وأجرا مفعول به ثان .

)

(393/380)

إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ) إن نافية وأجري مبتدأ وإلا أداة حصر وعلى الذي خبر وجملة فطرني صلة والهمزة للاستفهام والفاء حرف عطف وقد تقدم بحث هذا التركيب وتعقلون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل . (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً) استغفروا ربكم فعل أمر وفاعل ومفعول به ، ثم توبوا اليه عطف على استغفروا ، ويرسل فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب والسماء مفعول به وعليكم جار ومجرور متعلقان بمدرارا ومدرارا حال من السماء وقد تقدم ذكر السبب في عدم تأنيثها . (وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) ويزدكم عطف على يرسل والكاف مفعول به أول وقوة مفعول به ثان وإلى قوتكم صفة والى بمعنى مع ولا تتولوا لا ناهية وتتولوا مجزوم بلا ومجرمين حال من الواو . (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ) يا حرف نداء وهود منادى مفرد علم مبني على الضم وما نافية وجئتنا فعل وفاعل ومفعول به وببينة جار ومجرور متعلقان بجئتنا فتكون الباء للتعدية ويجوز أن تتعلق بمحذوف على أنها حال

أي مستقرا أو متلبسا ببينة .

(وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ) الواو عاطفة وما حجازية ونحن اسمها والباء حرف جر زائد وتاركي مجرور لفظا منصوب محلا على

أنه خبر ما وعن قولك حال من الضمير في تاركي كأنه قال وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك ويجوز أن تكون عن للتعليل والمعنى وما نحن بتاركي آلهتنا لقولك فيتعلق بنفس تاركي .

(وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) الواو عاطفة وما حجازية نحن اسمها ولك متعلقان بمؤمنين والباء حرف جر زائد ومؤمنين مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما .

)

إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ) إن نافية ونقول فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره نحن وإلا أداة حصر وجملة اعتراك معمول لنقول أي منصوبة بمصدر محذوف ، وذلك المصدر منصوب بنقول أي : إلا قولنا اعتراك ، والكاف مفعول به وبعض آلهتنا فاعل وبسوء جار ومجرور متعلقان باعتراك والمعنى ما نقول إلا قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء وسيأتي مزيد بحث عن هذه الفائدة في باب الفوائد .

(قالَ : إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) إن واسمها وقد كسرت همزتها بعد القول وجملة أشهد خبرها واشهدوا فعل أمر وأن المفتوحة الهمزة وما في حيزها معمول لاشهدوا أو لأشهد الله ، على أن المسألة من باب التنازع وسيأتي بحث التنازع في باب الفوائد ، وان واسمها وخبرها ومما متعلقان ببريء وجملة تشركون صلة ويجوز أن تكون ما مصدرية أي من اشراككم . (مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ) من دونه حال ، فكيدوني الفاء الفصيحة وكيدوني فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والنون للوقاية والياء المحذوفة للتخفيف مفعول به وجميعا حال ثم حرف عطف ولا ناهية وتنظرون فعل مضارع مجزوم بلا والياء المحذوفة للتخفيف مفعول به . (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ) اني : ان واسمها وجملة توكلت خبرها وعلى اللّه جار ومجرور متعلقان بتوكلت وربي بدل أو صفة وربكم عطف على ربي .

(ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها) ما نافية ومن حرف جر زائد ودابة مبتدأ وساغ الابتداء بالنكرة لسبقها بالنفي وإلا أداة حصر وهو مبتدأ وآخذ خبر وبناصيتها جار ومجرور متعلقان بآخذ . (إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) إن واسمها وعلى صراط خبرها ومستقيم صفة .

)

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ) الفاء عاطفة وإن شرطية وتولوا فعل مضارع حذفت فيه إحدى التاءين والأصل تتولوا وهو فعل الشرط مجزوم بحذف النون والواو فاعل والفاء رابطة وقد حرف تحقيق وأبلغتم فعل وفاعل ومفعول به وما مفعول به ثان وجملة أرسلت صلة وبه متعلقان بأرسلت وإليكم حال. (وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً) كلام مستأنف ولذلك رفعه ولم ينسقه على الجواب على أنه قرىء بالجزم أيضا على الموضع وهو صحيح لا غبار عليه وربي فاعل وقوما مفعول به وغيركم صفة لقوما ولا تضرونه عطف على يستخلف وشيئا مفعول مطلق أي شيئا من الضرر. (إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) إن واسمها وعلى كل شيء متعلقان بحفيظ وحفيظ خبر إن. (وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا) لما ظرفية حينية متعلقة بنجينا أو رابطة وجاء أمرنا فعل وفاعل ونجينا هودا فعل وفاعل ومفعول به والذين عطف على هود وجملة آمنوا صلة ومعه ظرف مكان متعلق بآمنوا وبرحمة متعلقان بنجينا ومنا صفة لرحمة.

(وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ) ونجيناهم فعل وفاعل ومفعول به ومن عذاب جار ومجرور متعلقان بنجيناهم وغليظ صفة لعذاب.

(وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة سيقت

لتلخيص القبائح التي ارتكبها قوم عاد وتلك مبتدأ وعاد بدل أو عطف بيان وجملة جحدوا خبر تلك ولك أن تجعل تلك عاد مبتدأ وخبرا ثم تستأنف ، وبآيات متعلقان بجحدوا وربهم مضاف

(396/380)

و عصوا رسله فعل وفاعل ومفعول به . (وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) واتبعوا عطف على جحدوا وأمر مفعول به وكل مضاف إليه وجبار مضاف لكل وعنيد صفة لجبار .

(وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ) واتبعوا عطف على ما تقدم وهو فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل وفي هذه الدنيا متعلقان بأتبعوا والدنيا بدل من اسم الاشارة ولعنة مفعول به ثان ويوم القيامة ظرف متعلق بفعل محذوف تقديره اتبعوا ، وأجاز الفارسي أن يكون يوم القيامة عطفا على محل هذه لأن قوله في هذه جار ومجرور متعلقان بأتبعوا فهو عامل في محل النصب ولا مانع من عطف الزمان على الدنيا لأنها ظرف مكان فاشتركا في الظرفية . (أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ) ألا أداة تنبيه وان واسمها وكفروا فعل وفاعل وربهم منصوب بنزع الخافض ولك أن تنصبه على المفعولية بتضمين كفروا معنى جحدوا . (أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ) ألا أداة تنبيه تأكيد للأولى وبعدا تقدم اعرابها وتقدم معنى اللام

وتعليقها مفصلا في موضع قريب فجدد به عهدا ، وقوم بدل أو عطف وهود مضاف إليه .

البلاغة :

في قوله تعالى : " قال إني أشهد اللّه واشهدوا اني بريء مما تشركون " فإنه إنما قال : أشهد اللّه واشهدوا ، ولم يقل وأشهدكم ليكون موازنا له وبمعناه لأن إشهاده اللّه على البراءة من الشرك صحيح ثابت وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر كقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه اشهد عليّ اني لا أحبك تهكما

(397/380)

به واستهانة بحاله ، هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن صيغة الخبر لا تحتمل سوى الاخبار بوقوع الاشهاد منه فلما كان اشهاده للّه واقعا ومحققا عبر عنه بصيغة الخبر لأنه إشهاد صحيح وثابت وعبر في جانبهم بصيغة الأمر التي تتضمن الاستهانة بدينهم وهو مراده في هذا المقام ومن جهة ثالثة إنما عدل إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر للتمييز بين خطابه للّه تعالى وخطابه لهم بأن يعبر عن خطاب اللّه تعالى بصيغة الخبر التي هي أجل وأشرف وأوقر للمخاطب من صيغة الأمر .

الفوائد :

1- الفرق بين عطف البيان والبدل :

أوجه الشبه بينهما :

أوجه الشبه بين عطف البيان والبدل أربعة وهي :

1- ان فيه بيانا كما في البدل للثاني .

2- انه يكون بالأسماء الجوامد كالبدل .

3- انه يكون لفظه لفظ الاول على جهة التأكيد .

4- كلاهما تابع .

أوجه المفارقة بينهما :

أما أوجه المفارقة بينهما فهي :

1- ان البدل يكون هو المقصود بالحكم دون المبدل منه وأما عطف البيان فليس هو المقصود بل ان المقصود بالحكم هو المتبوع وإنما جيء بعطف البيان توضيحا له وكشفا عن المراد منه .

2- كل ما جاز أن يكون عطف بيان جاز أن يكون بدل الكل من الكل إذا لم يمكن الاستغناء عنه أو عن متبوعه فيجب حينئذ أن يكون عطف بيان فمثال عدم جواز الاستغناء عن التابع قولك : فاطمة جاء حسين أخوها ، لأنك لو حذفت " أخوها " من

الكلام لفسد التركيب .

3- ان عطف البيان يجري على ما قلبه في تعريفه وليس كذلك البدل لأنه يجوز أن تبدل النكرة من المعرفة والمعرفة من النكرة ولا يجوز ذلك في عطف البيا ن .

4- ان البدل يكون با لمظهر والمضمر وكذلك المبدل منه ولا يجوز ذلك في عطف البيا ن وان البدل قد يكون غير الاول كقولك : سلب زيد ثوبه ، وعطف البيان لا يكون غير الاول .

2- الفائدة الثانية :

"

(398/380)

إن نقول إلا اعتراك " إن حرف نفي لحقت نقول فنفت جميع القول إلا قولا واحدا وهو قولهم اعتراك بعض آلهتنا بسوء والتقدير ما نقول قولا إلا هذه المقالة والفعل يدل على المصدر وعلى الظرف وعلى الحال ويجوز أن يذكر الفعل ثم يستثنى من مدلوله ما دلّ عليه من المصادر والظروف والأحوال فنقول اعتراك مستثنى من المصدر الذي دل عليه ، نقول كقوله تعالى " فما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى " فنصب

موتتنا على الاستثناء لأنه مستثنى من ضروب الموت الذي دل عليه قوله بميتين ومما جاء من

ذلك في الظروف قوله " ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار " فساعة استثناء مما دل عليه لم يلبثوا من لأوقات ، ومما جاء من ذلك في الحال قوله " ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله " التقدير ضربت عليهم الذلة في جميع الأحوال أينما ثقفوا إلا متمسكين بحبل أي بعهد من الله .

3- الفائدة الثالثة : التنازع :

هو أن يتقدم فعلان متصرفان أو اسمان يشبهانهما ويتأخر عنهما معمول وهو مطلوب لكل منهما كقوله تعالى " آتوني أفرغ عليه قطرا " ولك أن تعمل في الاسم المذكور أي العاملين شئت ، فإن أعملت الثاني فلقربه وإن أعملت الأول فلسبقه فإن أعملت الاول في الظاهر أعملت الثاني في ضميره مرفوعا كان أم غيره نحو : قام وقعدوا أخواك واجتهد فأكرمتهما أخواك ووقف فسلمت عليهما أخواك وأكرمت فسرا أخويك وأكرمت فشكر لي خالدا ، ومن النحاة من أجاز حذفه إن كان غير ضمير رفع كقوله :

بعكاظ يعشي الناظرين إذا هم لمحوا شعاعه وإن أعملت الثاني في الظاهر أعملت الأول في ضميره إن كان مرفوعا نحو قاما وقعد أخواك واجتهدا فأكرمت أخويك ووقفا فسلمت على أخويك ومنه قول الشاعر :

جفوني ولم أجف الأخلاء إنني لغير جميل من خليلي مهمل

وإن كان ضميره غير مرفوع حذفته نحو أكرمت فسر أخواك وأكرمت فشكر لي خالد

وأكرمت وأكرمني سعيد ومررت ومر بي علي .

وهناك أحكام أخرى للتنازع يرجع إليها في كتب النحو المطولة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 4 صـ 313. 386﴾

(399/380)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والثمانون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/381)

الجزء الحادى والثمانون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 61 ﴾ من سورة هود عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 68 ﴾ من نفس السورة

(4/381)

قوله تعالى ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (61) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (62) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انقضت قصة عاد على ما أراد سبحانه ، أتبعها قصة من كانوا عقبهم في الزمن ومثلهم في سكنى أرض العرب وعبادة الأوثان والمناسبة في الأمر المعذب به لأن الموصل للصيحة إلى الأسماع هو الريح وفي خفاء أمرهم ، مفصلاً على أهل ذلك الزمان فقال : ﴿ وإلى ﴾ أي ولقد أرسلنا إلى ﴿ ثمود أخاهم ﴾ وبينه بقوله : ﴿ صالحاً ﴾ ثم أخرج قوله. صلى الله عليه وسلم. على تقدير سؤال فقال : ﴿ قال يا قوم ﴾ أي يا من يعز عليّ أن يحصل لهم سوء ﴿ اعبدوا الله ﴾ أي الملك الأعظم وحده لأن عبادتكم له مع غيره ليست بشيء ؛ ثم استأنف تفسير ذلك فقال : ﴿ ما لكم ﴾ أغرق في النفي فقال : ﴿ من إله غيره ﴾ جرياً على منهاج الدعاة إلى الله في أصل الدين ، وهو إفراد المنعم بالعبادة .

ولما أمرهم بذلك ، ذكرهم قدرته ونعمته مرغباً مرهباً فقال : ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ أنشأكم ﴾ أي ابتدأ خلقكم ﴿ من الأرض ﴾ بخلق آدم عليه السلام منها بغير واسطة وبخلقكم من المني من الدم وهو من الغذاء وهو من النبات وهو من الأرض كما أنشأ أوثانكم منها ﴿ و ﴾ وفع مقداركم عليه بأن ﴿ استعمركم ﴾ أي أهلكم لما لم يؤهل له الأوثان من أن تكونوا عماراً ﴿ فيها ﴾ فلا تنسوا حق إلهكم وما فضلكم به من حق أنفسكم بخضوعكم لما لا يساويكم فكيف بمن أنشأكم وإياها ؛ والإنشاء : الابتداء بالإيجاد من غير استعانة بشيء من الأسباب .

(5/381)

ولما بين لهم سبحانه عظمته ، وكان الشيطان قد شبه عليهم لأنه لعظمته لا يوصل إليه بوسيلة كما هو حال الملوك وألقى إليهم أن الأوثان وسائل ، نفى ذلك مبيناً طريق الرجوع إليه بقوله : ﴿ فاستغفروه ﴾ أي فأقبلوا بكل قلوبكم عليه طالبين أن يستر ذنوبكم ؛ وذكر شرط المغفرة بقوله مشيراً بأداة البعد إلى عظيم المنزلة : ﴿ ثم توبوا ﴾ أي ارجعوا بجميع قلوبكم ﴿ إليه ﴾ ثم علل ذلك بلطفه وعطفه ترغيباً في الإقبال إليه فقال مؤكداً لأن من يرى إمهاله للعصاة يظن الظنون ومن عصاه كان عمله عمل من ينكر قربه وإجابته : ﴿ إن ربي ﴾ الذي أخلصت له العبادة لإحسانه إليّ وأدعوكم إلى الإخلاص له لإحسانه إليكم ﴿ قريب ﴾ من كل من أقبل إليه من غير حاجة إلى معاناة مشي ولا حركة جارحة ﴿ مجيب ﴾ لكل من ناداه لا كمعبوداتكم في الأمرين معاً .

(6/381)

ولما دعاهم إلى الحق ونصب لهم عليه من الأدلة ما هم به معترفون وذكرهم نعمه مومئاً إلى التحذير من نقمه، وسهل لهم طريق الوصول إليه، ما كان جوابهم إلا أن سلخوه من طور البشرية لمحض التقليد، فلذلك استأنف الإخبار عن جوابهم بقوله: ﴿قالوا﴾ أي ثمود ﴿يا صالح﴾ نادوه باسمه قلة أدب منهم وجفاء ﴿قد كنت فينا﴾ أي فيما بيننا إذا تذاكرنا أمرك ﴿مرجواً﴾ أي في حيز من يصح أن يرجى أن يكون فيه خير وسؤدد ورشد وصلاح، واستغرقوا الزمان فحذفوا الجار وقالوا: ﴿قبل هذا﴾ أي الذي دعوتنا إليه فأما بعد هذا فانسلخت من هذا العداد؛ ثم بينوا ما أوجب سقوطه عندهم بقولهم منكرين إنكار محترق ﴿أتنهانا﴾ أي مطلق نهي ﴿أن نعبد﴾ أي دائماً ﴿ما يعبد آباؤنا﴾ وعبروا بصيغة المضارع تصويراً للحال كأن آباءهم موجودون فلا تمكن مخالفتهم إجلالاً لهم، فأجلوا من يرونه سبباً قريباً في وجودهم ولم يهابوا من أوجدهم وآباءهم أولاً من الأرض وثانياً من النطف، ثم خولهم فيما هم فيه، ثم فزعوا - في أصل الدين بعد ذكر الحامل لهم على الكفر المانع لهم من تركه - إلى البهت بأن ما يوجب القطع لكل عاقل من آيته الباهرة لم يؤثر عندهم إلا ما هو دون الظن في ترك إجابته، فقالوا مؤكدين لأن شكهم حقيق بأن ينكر لأنه في أمر واضح جداً لا يحتمل الشك أصلاً: ﴿وإننا لفي شك﴾ وزادوا التأكيد بالنون واللام وبالإشارة بالظرف إلى إحاطة الشك بهم ﴿مما﴾ ولما كان الداعي واحداً وهو صالح عليه السلام لم يلحق بالفعل غير نون واحدة هي ضميرهم بخلاف ما في

سورة إبراهيم عليه السلام فلذلك قالوا : ﴿ تدعونا إليه ﴾ من عبادة الله وحده

﴿ مريب ﴾ أي موقع في الريبة وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين ؛ والرجاء : تعلق النفس بمجيء الخير على جهة الظن ، ونظيره الأمل والطمع ؛ والنهي : المنع من الفعل بصيغة لا تفعل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 547 . 548 ﴾

(7/381)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة وهي قصة صالح مع ثمود ، ونظمها مثل النظم المذكور في قصة هود ، إلا أن ههنا لما أمرهم بالتوحيد ذكر في تقريره دليلين :

الدليل الأول : قوله : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مّنَ الأرض ﴾ وفيه وجهان :

الوجه الأول : أن الكل مخلوقون من صلب آدم ، وهو كان مخلوقاً من الأرض .

وأقول : هذا صحيح لكن فيه وجه آخر وهو أقرب منه ، وذلك لأن الإنسان مخلوق من المني ومن دم الطمث ، والمني إنما تولد من الدم ، فالإنسان مخلوق من الدم ، والدم إنما تولد من الأغذية ، وهذه الأغذية إما حيوانية وإما نباتية ، والحيوانات حالها كحال الإنسان ، فوجب انتهاء الكل إلى النبات وظاهر أن تولد النبات من الأرض ، فثبت أنه تعالى أنشأنا من الأرض .

والوجه الثاني : أن تكون كلمة ﴿ مِنْ ﴾ معناها في التقدير : أنشأكم في الأرض ، وهذا ضعيف لأنه متى أمكن حمل الكلام على ظاهره فلا حاجة إلى صرفه عنه ، وأما تقرير أن تولد الإنسان من الأرض كيف يدل على وجود الصانع فقد شرحناه مراراً كثيرة .

الدليل الثاني : قوله : ﴿ واستعمركم فِيهَا ﴾ وفيه ثلاثة أوجه : الأول : جعلكم عمارها ، قالوا : كان ملوك فارس قد أكثروا في حفر الأنهار وغرس الأشجار ، لا جرم حصلت لهم الأعمار الطويلة فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربه ، ما سبب تلك الأعمار ؟ فأوحى الله تعالى إليه أنهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي ، وأخذ معاوية في إحياء أرض في آخر عمره فقيل له ما حملك عليه ، فقال : ما حملني عليه إلا قول القائل :

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به . . ولا يكون له في الأرض آثار

الثاني : أنه تعالى أطال أعماركم فيها واشتقاق ﴿ واستعمركم ﴾ من العمر مثل استبقاكم من البقاء .

والثالث : أنه مأخوذ من العمرى ، أي جعلها لكم طول أعماركم فإذا متم انتقلت إلى غيركم .

واعلم أن في كون الأرض قابلة للعمارات النافعة للإنسان ، وكون الإنسان قادراً عليها دلالة عظيمة على وجود الصانع ، ويرجع حاصله إلى ما ذكره الله تعالى في آية أخرى وهي قوله : ﴿ والذى قَدَّرَ فهدى ﴾ [الأعلى : 3] وذلك لأن حدوث الإنسان مع أنه حصل في ذاته العقل الهادي والقدرة على التصرفات الموافقة يدل على وجود الصانع الحكيم وكون الأرض موصوفة بصفات مطابقة للمصالح موافقة للمنافع يدل أيضاً على وجود الصانع الحكيم .

أما قوله : ﴿ فاستغفروه ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ فقد تقدم تفسيره .

وأما قوله : ﴿ إِنَّ رَبّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ يعني أنه قريب بالعلم والسمع ﴿ مُّجِيبٌ ﴾ دعاء المحتاجين بفضله ورحمته ، ثم بين تعالى أن صالحاً عليه السلام لما قرر هذه الدلائل ﴿ قَالُواْ ياصالح قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّا قَبْلَ هذا ﴾ وفيه وجوه : الأول : أنه لما كان رجلاً قوي العقل قوي الخاطر وكان من قبيلتهم قوي رجاؤهم في أن ينصر دينهم ويقوي مذهبهم ويقرر طريقتهم لأنه متى حدث رجل فاضل في قوم طمعوا فيه من هذا الوجه .

الثاني : قال بعضهم المراد أنك كنت تعطف على فقرائنا وتعين ضعفاءنا وتعود مرضانا فقوي رجاؤنا فيك أنك من الأنصار والأحباب ، فكيف أظهرت العداوة والبغضة ثم إنهم أضافوا إلى هذا الكلام التعجب الشديد من قوله : ﴿ فقالوا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ والمقصود من هذا الكلام التمسك بطريق التقليد ووجوب متابعة الآباء والأسلاف ، ونظير هذا التعجب ما حكاه الله تعالى عن كفار مكة حيث قالوا :

(9/381)

﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها واحدا إنَّ هذا لَشَيْء عُجَابٌ ﴾ [ص : 5] ثم قالوا : ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكّ مّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ والشك هو أن يبقى الإنسان متوقفاً بين النفي والإثبات والمريب هو الذي يظن به السوء فقوله : ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكّ ﴾ يعني به أنه لم يترجح في اعتقادهم صحة قوله وقوله : ﴿ مُرِيبٍ ﴾ يعني أنه ترجح في اعتقادهم فساد قوله وهذا مبالغة في تزييف كلامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 15.14 ﴾

(10/381)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

نَسَبَهُمْ إلَى الْأَرْضِ لِأَنَّ أَصْلَهُمْ وَهُوَ آدَم خُلِقَ مِنْ تُرَابِ الْأَرْضِ وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقِيلَ : إنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ خَلَقَكُمْ فِي الْأَرْضِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ يَعْنِي : أَمَرَكُمْ مِنْ عِمَارَتِهَا بِمَا تَحْتَاجُونَ إلَيْهِ .

وَفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى وُجُوبِ عِمَارَةِ الْأَرْضِ لِلزِّرَاعَةِ ، وَالْغِرَاسِ ، وَالْأَبْنِيَةِ .

وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ : " مَعْنَاهُ : أَعْمَرَكُمْ بِأَنْ جَعَلَهَا لَكُمْ طُولَ أَعْمَارِكُمْ " ، وَهَذَا كَقَوْلِ الْقَائِلِ : " أَعْمَرْتُك دَارِي هَذِهِ " يَعْنِي مَلَّكْتُك طُولَ عُمْرِك .

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَنْ أُعْمِرَ عُمْرَى فَهِيَ لَهُ وَلِوَرَثَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ، وَالْعُمْرَى هِيَ الْعَطِيَّةُ إلَّا أَنَّ مَعْنَاهَا رَاجِعٌ إلَى تَمْلِيكِهِ طُولَ عُمْرِهِ ، فَأَجَازَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعُمْرَى ، وَالْهِبَةَ وَأَبْطَلَ الشَّرْطَ فِي تَمْلِيكِهِ عُمْرَهُ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْقِدُونَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ بَعْدَ مَوْتِهِ يَرْجِعُ إلَى الْوَاهِبِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 ص ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْلُهُ : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إلَيْهِ إنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ .

قَالَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الشَّافِعِيَّةِ : الِاسْتِعْمَارُ طَلَبُ الْعِمَارَةِ ، وَالطَّلَبُ الْمُطْلَقُ مِنْ اللَّهِ عَلَى الْوُجُوبِ .

قَالَ الْقَاضِي الْإِمَامُ : تَأْتِي كَلِمَةُ اسْتَفْعَلَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ عَلَى مَعَانٍ ، مِنْهَا اسْتَفْعَلَ بِمَعْنَى طَلَبَ الْفِعْلَ ، كَقَوْلِهِ : اسْتَحْمَلْته فُلَانًا أَيْ طَلَبْت مِنْهُ حُمْلَانًا .

وَمِنْهَا اسْتَفْعَلَ بِمَعْنَى اعْتَقَدَ ، كَقَوْلِهِمْ : اسْتَسْهَلْت هَذَا الْأَمْرَ ، أَيْ اعْتَقَدْته سَهْلًا ، أَوْ وَجَدْته سَهْلًا ، وَاسْتَعْظَمْته أَيْ اعْتَقَدْته عَظِيمًا .

وَمِنْهَا اسْتَفْعَلَ بِمَعْنَى أَصَبْت الْفِعْلَ ، كَقَوْلِك : اسْتَجَدْته ، أَيْ أَصَبْته جَيِّدًا ، وَقَدْ يَكُونُ طَلَبْته جَيِّدًا .

وَمِنْهَا بِمَعْنَى فَعَلَ ، كَقَوْلِهِ ، قَرَّ فِي الْمَكَانِ وَاسْتَقَرَّ .

وَقَالُوا : إنَّ قَوْلَهُ يَسْتَهْزِئُونَ ، وَيَسْتَحْسِرُونَ مِنْهُ ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : " اسْتَعْمَرَكُمْ " : خَلَقَكُمْ لِعِمَارَتِهَا عَلَى مَعْنَى اسْتَجْدَتُهُ وَاسْتَسْهَلْته ، أَيْ أَصَبْته جَيِّدًا وَسَهْلًا ، وَهَذَا يَسْتَحِيلُ فِي الْخَالِقِ ، فَتَرْجِعُ إلَى أَنَّهُ خَلَقَ ؛ لِأَنَّهُ الْفَائِدَةُ ، وَيُعَبَّرُ عَنْ الشَّيْءِ بِفَائِدَتِهِ مَجَازًا ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي الْأُصُولِ ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ إنَّهُ طَلَبَ مِنْ اللَّهِ ضِمَارَتَهَا ؛ فَإِنَّ هَذَا اللَّفْظَ لَا يَجُوزُ فِي حَقِّهِ ، أَمَّا إنَّهُ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ : إنَّهُ اسْتَدْعَى عِمَارَتَهَا فَإِنَّهُ جَاءَ بِلَفْظِ اسْتَفْعَلَ ، وَهُوَ اسْتِدْعَاءُ الْفِعْلِ بِالْقَوْلِ مِمَّنْ هُوَ دُونَهُ إذَا كَانَ أَمْرٌ ، أَوْ طَلَبَ الْفِعْلِ إذَا كَانَ مِنْ الْأَدْنَى إلَى الْأَعْلَى رَغْبَةً ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي الْأُصُولِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(13/381)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . هو أنشأكم من الأرض ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : خلقكم من الأرض لأنكم من آدم وآدم من الأرض ، قاله السدي .

والثاني : معناه أنشأكم في الأرض .

والثالث : أنشأكم بنبات الأرض .

﴿ واستعمركم فيها ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه أعمركم فيها بأن جعلكم فيها مدة أعماركم ، قاله مجاهد ، من قولهم أعمر فلان فلاناً داره فهي له عمرى .

الثاني : امركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها بناء مساكن وغرس أشجار قاله علي بن عيسى .

الثالث : أطال فيها أعمالكم ، قال الضحاك ، كانت أعماركم ألف سنة إلى ثلاثمائة سنة .

قوله عز وجل ﴿ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجُوّاً قَبل هذا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أي مؤملاً برجاء خيرك .

الثاني : أي حقيراً من الإرجاء وهو التأخير ، فيكون على الوجه الأول عتباً ، وعلى الثاني زجراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(14/381)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾

التقدير : وأرسلنا إلى ثمود وقد تقدم القول في مثل هذا وفي معنى الأخوة في قصة هود .

وقرأ الجمهور : " وإلى ثمودَ " بغير صرف ، وقرأ ابن وثاب والأعمش " وإلى ثمود " بالصرف حيث وقع ، فالأولى على إرادة القبيلة ، والثانية على إرادة الحي ، وفي هذه الألفاظ الدالة على الجموع ما يكثر فيه إرادة الحي كقريش وثقيف وما لا يقال فيه بنو فلان ؛ وفيها ما يكثر فيه إرادة القبيلة كتميم وتغلب ، ألا ترى أنهم يقولون تغلب ابنة وائل ، وقال الطرماح : [الطويل]

" إذا نهلت منه تميم وعلّت " . . . وقال الآخر : [المتقارب]

" تميم ابن مر وأشياعها " . . . وفيها ما يكثر فيه الوجهان كثمود وسبأ ، فالقراءتان هنا فصيحتان مستعملتان . وقرأت فرقة " غيرُه " برفع الراء ، وقد تقدم آنفاً .

و﴿ أنشأكم من الأرض ﴾ ، أي اخترعكم وأوجدكم ، وذلك باختراع آدم عليه السلام : فكأن إنشاء آدم إنشاء لبنيه . ﴿ واستعمركم ﴾ ، أي اتخذكم عماراً ، كما تقول : استكتب واستعمل . وذهب قوم إلى أنها من العمر أي عمركم ، وقد تقدم مثل قوله : ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه ﴾ .

﴿ إن ربي قريب مجيب ﴾ ، أي إجابته وغفرانه قريب ممن آمن وأناب ، و﴿ مجيب ﴾ ، معناه بشرط المشيئة والظاهر الذي حكاه جمهور المفسرين أن قوله : ﴿ مرجواً ﴾ معناه : مسوداً ؛ نؤمل فيك أن تكون سيداً ساداً مسدّ الأكابر ، ثم قرروه على جهة التوبيخ في زعمهم بقولهم : ﴿ أتنهانا ﴾ وحكى النقاش عن بعضهم أنه قال : معناه حقيراً .

قال القاضي أبو محمد : فأما أن يكون لفظ ﴿ مرجواً ﴾ بمعنى حقير فليس ذلك في كلام العرب ، وإنما يتجه ذلك على جهة التفسير للمعنى ، وذلك أن القصد بقولهم : ﴿ مرجواً ﴾ يكون : لقد كنت فينا سهلاً مرامك قريباً رد أمرك ، ممن لا يظن أن يستفحل من أمره مثل هذا فمعنى " مرجو " أي مرجو اطراحه وغلبته ونحو هذا ، فيكون ذلك على جهة الاحتقار ، فلذلك فسر بحقير ، ويشبه هذا المعنى قول أبي سفيان بن حرب : لقد أمر أمر ابن أبي كبشة . . . الحديث ؛ ثم يجيء قولهم : ﴿ أتنهانا ﴾ على جهة التوعد والاستشناع لهذه المقالة منه .

و﴿ ما يعبد آباؤنا ﴾ يريدون به الأوثان والأصنام ، ثم أوجبوا أنهم في شك من أمره وأقاويله ، وأن ذلك الشك يرتابون به زائداً إلى مرتبته من الشك قال القاضي : ولا فرق بين هذه الحال وبين حالة التصميم على الكفر ، و﴿ مريب ﴾ معناه ملبس متهم ، ومنه قول الشاعر : [الرجز]

يا قوم ما بال أبي ذؤيب . . . كنت إذا أتيته من غيب

يشم عطفي ويمس ثوبي . . . كأنني أربته بريب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(16/381)

وقال القرطبى :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وإلى ثَمُودَ ﴾ أي أرسلنا إلى ثمود ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ أي في النسب .

﴿ صَالِحاً ﴾ .

وقرأ يحيى بن وثّاب "وَإِلَى ثَمُودٍ" بالتنوين في كل القرآن ؛ وكذلك روي عن الحسن .

واختلف سائر القرّاء فيه فصرفوه في موضع ولم يصرفوه في موضع .

وزعم أبو عبيدة أنه لولا مخالفة السواد لكان الوجه ترك الصرف ؛ إذ كان الأغلب عليه التأنيث .

قال النحاس : الذي قال أبو عبيدة رحمه الله من أن الغالب عليه التأنيث كلام مردود ؛ لأن ثموداً يقال له حيّ ؛ ويقال له قبيلة ، وليس الغالب عليه القبيلة ، بل الأمر على ضدّ ما قال

عند سيبويه.

والأجود عند سيبويه فيما لم يقُل فيه بنو فلان الصَّرف؛ نحو قريش وثقيف وما أشبههما، وكذلك ثمود، والعلة في ذلك أنه لما كان التذكير الأصل، وكان يقع له مذكر ومؤنث كان الأصل الأخف أولى.

والتأنيث جيد بالغ حسن.

وأنشد سيبويه في التأنيث:

غَلبَ المساميحَ الوليدُ سَمَاحةً . . .

وكَفَى قريشَ المعضِلاتِ وسادَهَا

الثانية: قوله تعالى: ﴿ قَالَ يا قوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ تقدّم.

﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأرض ﴾ أي ابتدأ خلقكم من الأرض، وذلك أن آدم خلق من الأرض على ما تقدّم في "البقرة" و"الأنعام" وهم منه.

وقيل: أنشأكم في الأرض.

ولا يجوز إدغام الهاء من "غيره" في الهاء من "هو" إلا على لغة من حذف الواو في الإدراج.

﴿ واستعمركم فِيهَا ﴾ أي جعلكم عُمّارها وسكّانها.

قال مجاهد: ومعنى "اسْتَعْمَرَكُمْ" أعمركم من قوله: "أعْمر فلان فلاناً داره؛ فهي له عُمْرى.

وقال قَتَادة : أسكنكم فيها ؛ وعلى هذين القولين تكون استفعل بمعنى أفعل ؛ مثل استجاب بمعنى أجاب .

وقال الضّحاك : أطال أعماركم ، وكانت أعمارهم من ثلثمائة إلى ألف .

ابن عباس : أعاشكم فيها .

(17/381)

زيد بن أسلم : أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن ، وغرس أشجار .

وقيل : المعنى ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها .

الثالثة : قال ابن العربيّ قال بعض علماء الشافعية : الاستعمار طلب العمارة ، والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب ؛ قال القاضي أبو بكر : تأتي كلمة استفعل في لسان العرب على معان : منها ؛ استفعل بمعنى طلب الفعل كقوله : استحملته أي طلبت منه حملاناً ؛ وبمعنى اعتقد ، كقولهم : استسهلت هذا الأمر اعتقدته سهلاً ، أو وجدته سهلاً ، واستعظمته أي اعتقدته عظيماً ووجدته ؛ ومنه استفعلت بمعنى أصبت ، كقولهم : استجدته أي أصبته جيداً : ومنها بمعنى فَعل ؛ كقوله : قرّ في المكان واستقر ؛ وقالوا وقوله : "يَسْتَهْزِئُونَ" و"يَسْتَسْخِرُونَ" منه ؛ فقوله تعالى : "اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا" خلقكم لعمارتها ، لا

على معنى استجدته واستسهلته ؛ أي أصبته جيداً وسهلاً ، وهذا يستحيل في الخالق ، فيرجع إلى أنه خلق ؛ لأنه الفائدة ، وقد يعبر عن الشيء بفائدته مجازاً ؛ ولا يصح أن يقال : إنه طلبٌ من الله تعالى لعمارتها ، فإن هذا اللفظ لا يجوز في حقه ، أما إنه يصح أن يقال : أنه استدعى عمارتها فإنه جاء بلفظ استفعل ، وهو استدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه إذا كان أمراً ، وطلب للفعل إذا كان من الأدنى إلى الأعلى (رغبة) .

قلت : لم يذكر استفعل بمعنى أفعل ، مثل قوله : استوقد بمعنى أوقد ، وقد ذكرناه وهي :

الرابعة : ويكون فيها دليل على الإسكان والعمرى وقد مضى القول في "البقرة" في السُّكنى والرُّقْبى .

(18/381)

وأما العُمْرى فاختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال : أحدها : أنها تمليك لمنافع الرقبة حياةَ المُعْمَر مدة عمره ؛ فإن لم يذكر عقباً فمات المعمر رجعت إلى الذي أعطاها أو لورثته هذا قول القاسم بن محمد ويزيد بن قُسيط والليث بن سعد ، وهو مشهور مذهب مالك ، وأحد أقوال الشافعي ، وقد تقدّم في "البقرة" حجة هذا القول .

الثاني : أنها تمليك الرقبة ومنافعها وهي هبة مبتولة ؛ وهو قول أبي حنيفة والشافعي

وأصحابهما والثّوري والحسن بن حيّ وأحمد بن حنبل وابن شُبْرمة وأبي عُبيد ؛ قالوا : من أعمر رجلاً شيئاً حياته فهو له حياته ، وبعد وفاته لورثته ؛ لأنه قد ملك رقبتها ، وشرط المعطي الحياة والعمر باطل ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " العمرى جائزة " .

و" العمرى لمن وُهبت له " .

الثالث : إن قال عُمرك ولم يذكر العقب كان كالقول الأوّل : وإن قال لعقبك كان كالقول الثاني ؛ وبه قال الزهريّ وأبو ثور وأبو سلَمة بن عبد الرحمن وابن أبي ذئب ، وقد رُوي عن مالك ؛ وهو ظاهر قوله في الموطأ .

والمعروف عنه وعن أصحابه أنها ترجع إلى المُعْمِر ؛ إذا انقرض عقب المُعْمَر ؛ إن كان المُعْمِر حيّا ، وإلا فإلى من كان حيّا من ورثته ، وأولى الناس بميراثه .

ولا يملك المُعْمَر بلفظ العمرى عند مالك وأصحابه رقبة شيء من الأشياء ، وإنما يملك بلفظ العُمْرى المنفعة دون الرقبة .

وقد قال مالك في الحبس أيضاً : إذا حبس على رجل وعقبه أنه لا يرجع إليه .

وإن حبس على رجل بعينه حياته رجع إليه ، وكذلك العُمْرى قياساً ، وهو ظاهر الموطأ .

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أيُّما

رجلٍ أعْمر رجلاً عُمْرى له ولعقبه فقال قد أعطيتُكَها وعقِبَك ما بقي منكم أحد فإنها لمن أعطِيها وأنها لا ترجع إلى صاحبها من أجلِ أنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث " .

(19/381)

وعنه قال : إن العمرى التي أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : هي لك ولعقبِك ، فأما إذا قال : هي لك ما عِشتَ فإنها ترجع إلى صاحبها ؛ قال مَعْمَر : وبذلك كان الزّهري يفتي .

قلت : معنى القرآن يجري مع أهل القول الثاني ؛ لأن الله سبحانه قال : "واستعمركم" بمعنى أعمركم ؛ فأعمر الرجل الصالح فيها مدة حياته بالعمل الصالح ، وبعد موته بالذكر الجميل والثناء الحسن ؛ وبالعكس الرجل الفاجر ؛ فالدنيا ظرف لهما حياةً وموتاً .

وقد يقال : إن الثناء الحسن يجري مجرى العقِب .

وفي التنزيل : ﴿ واجعل لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين ﴾ [الشعراء : 84] أي ثناء حسناً .

وقيل : هو محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا ذرِيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ [الصافات : 77] وقال : ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ

وعلى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ [الصافات : 113] .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ فاستغفروه ﴾ أي سلوه المغفرة من عبادة الأصنام .

﴿ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ ﴾ أي ارجعوا إلى عبادته .

﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ أي قريب الإجابة لمن دعاه .

وقد مضى في "البقرة" عند قوله : ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداع ﴾ [البقرة : 186]

القولُ فيه .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يا صالح قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هذا ﴾

أي كنا نرجو أن تكون فينا سيّداً قبل هذا ؛ أي قبل دعوتك النبوّة .

وقيل : كان صالح يعيب آلهتهم ويشنؤها ، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم ، فلما دعاهم

إلى الله قالوا : انقطع رجاؤنا منك .

﴿ أَتَنْهَانَآ ﴾ استفهام معناه الإنكار .

﴿ أَن نَّعْبُدَ ﴾ أي عن أن نعبد .

﴿ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ فأن في محل نصب بإسقاط حرف الجر .

﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ ﴾ وفي سورة "إبراهيم" "وَإِنَّا" والأصل وإننا ؛ فاستثقل ثلاث نونات

فأسقط الثالثة .

﴿ مِمَّا تَدْعُونآ ﴾ الخطاب لصالح ، وفي سورة "إبراهيم" "تَدْعُونَنا" لأن الخطاب للرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) ﴿ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ من أربته فأنا أريبه إذا فعلت به فعلاً يوجب لديه الريبة .

قال الهذلي :

كنتُ إذا أتوتُهُ من غَيْبِ . . .

يَشُمُّ عِطْفِي ويَبُزُّ ثَوْبِي

كأنَّما أربتُهُ بِرَيْبِ . . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(21/381)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾

يعني وأرسلنا إلى ثمود وهم سكان الحجر أخاهم صالحاً يعني في النسب لا في الدين ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ أي وحدوا الله وخصوه بالعبادة ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ يعني هو إلهكم المستحق للعبادة لا هذه الأصنام ثم ذكر سبحانه وتعالى الدلائل الدالة على

وحدانيته وكمال قدرته فقال تعالى : ﴿ هو أنشأكم من الأرض ﴾ يعني أنه هو ابتدأ خلقكم من الأرض وذلك أنهم من بني آدم وآدم خلق من الأرض ﴿ واستعمركم فيها ﴾ يعني وجعلكم عمارها وسكانها ، وقال الضحاك : أطال أعماركم فيها حتى كان الواحد منهم يعيش ثلاثمائة سنة إلى ألف سنة وكذلك كان قوم عاد وقال مجاهد : أعمركم من العمرى أي جعلها لكم ما عشتم ﴿ فاستغفروه ﴾ يعني : من ذنوبكم ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ يعني من الشرك ﴿ إن ربي قريب ﴾ يعني من المؤمنين ﴿ مجيب ﴾ لدعائهم ﴿ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ﴾ يعني : قبل هذا القول الذي جئت به والمعنى إنا كنا نرجوا أن تكون فينا سيداً لأنه كان من قبيلتهم وكان يعين ضعيفهم ويغني فقيرهم ، وقيل : معناه أنا كنا نطمع أن تعود إلى ديننا فلما أظهر دعاءهم إلى الله وعاب الأصنام انقطع رجاؤهم منه ﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ يعني الآلهة ﴿ وإننا لفي شك مما تدعونا إليه ﴾ يعني من عبادة الله ﴿ مريب ﴾ يعني انا مرتابون في قولك من أرابه إذا أوقعه في الريبة وهي قلق النفس ووقوعها في التهمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾

قرأ ابن وثاب والأعمش : وإلى ثمود بالصرف على إرادة الحي ، والجمهور على منع الصرف ذهاباً إلى القبيلة .

أنشأكم اخترعكم وأوجدكم ، وذلك باختراع آدم أصلهم ، فكان إنشاء الأصل إنشاء للفرع .

وقيل : من الأرض باعتبار الأصل المتولد منه النبات ، المتولد منه الغذاء ، المتولد منه المني ودم الطمث ، المتولد منهما الإنسان .

وقيل : من بمعنى في واستعمركم جعلكم عماراً .

وقيل : استعمركم من العمر أي : استبقاكم فيها قاله الضحاك أي ، أطال أعماركم .

وقيل : من العمرى ، قاله مجاهد : فيكون استعمر في معنى أعمر ، كاستهلكه في معنى أهلكه .

والمعنى : أعمركم فيها دياركم ، ثم هو وارثها منكم .

أو بمعنى : جعلكم معمرين دياركم فيها ، لأنّ من ورث داره من بعده فإنه أعمره إياها ، لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره .

وقال زيد بن أسلم : استعمركم أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه من بناء مساكن وغرس

أشجار .

وقيل : ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها ، إن ربي قريب أي : داني الرحمة ، مجيب لمن دعاه .

قد كنت فينا مرجواً .

قال كعب : كانوا يرجونه للمملكة بعد ملكهم ، لأنه كان ذا حسب وثروة .

وعن ابن عباس : فاضلاً خيراً نقدمك على جميعنا .

وقال مقاتل : كانوا يرجعون رجوعه إلى دينهم ، إذ كان يبغض أصنامهم ، ويعدل عن دينهم ، فلما أظهر إنذارهم انقطع رجاؤهم منه .

وذكر الماوردي يرجون خيره ، فلما أنذرهم انقطع رجاؤه خيره .

وبسط الزمخشري هذا القول فقال : فينا فيما بيننا مرجواً كانت تلوح فيك مخايل الخير وجمارات الرشد ، فكنا نرجوك لننتفع بك ، وتكون مشاوراً في الأمور مسترشداً في التدابير ، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجاؤنا عنك ، وعلمنا أنْ لا خير فيك انتهى .

وقيل : لما كان قوى الخاطر ، وكان من قبيلتهم ، قوي رجاؤهم في أنْ ينصر دينهم ويقوي مذهبهم .

وقال ابن عطية : والظاهر الذي حكاه الجمهور أن قوله : مرجواً مشوراً ، نؤمل فيك أن تكون سيداً ساداًّ مسدّ الأكابر ، ثم قرروه على التوبيخ في زعمهم بقولهم : أتنهانا .

وحكى النقاش عن بعضهم أنه قال : معناه حقيراً ، فإما أن يكون لفظ مرجو بمعنى حقير ، فليس ذلك في كلام العرب ، وإنما يتجه ذلك على جهة التفسير للمعنى ، وذلك أنّ القصد بقولهم : مرجواً بقول : لقد كنت فينا سهلاً مرامك ، قريباً رد أمرك ممن لا يظن أنْ يستعجل من أمره مثل هذا .

فمعنى مرجواً أي : مؤخراً اطراحه وغلبته .

ونحو هذا فيكون ذلك على جهة الاحتقار ، ولذلك فسر بحقير ، ثم يجيء قولهم : أتنهانا ، على جهة التوعد والاستبشاع لهذه المقالة منه انتهى .

وما يعبد آباؤنا حكاية حال ماضية ، وأنا وإننا لغتان لقريش .

قال الفراء : من قال إننا أخرج الحرف على أصله ، لأن كناية المتكلمين ن ، فاجتمعت ثلاث نونات .

ومن قال : أنا استثقل ، اجتماعها ، فأسقط الثالثة وأبقى الأولتين انتهى .

والذي أختاره أن ن ضمير المتكلمين لا تكون المحذوفة ، لأن في حذفها حذف بعض اسم وبقي منه حرف ساكن ، وإنما المحذوفة النون الثانية من أنّ فحذفت لاجتماع الأمثال ،

وبقي من الحرف الهمزة والنون الساكنة ، وهذا أولى من حذف ما بقي منه حرف .

وأيضاً فقد عهد حذف هذه النون مع غير ضمير المتكلمين ، ولم يعهد حذف نون ن ، فكان حذفها من أن أولى .

ومريب اسم فاعل من متعد ، أرابه أوقعه في الريبة ، وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة .

أو من لازم أراب الرجل إذا كان ذا ريبة ، وأسند ذلك إلى الشك إسناداً مجازياً ، ووجود مثل هذا الشك كوجود التصميم على الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(24/381)

وقال أبو السعود :

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾

عطفٌ على ما سبق من قوله تعالى : ﴿ وإلى عادٍ أخاهم هُوداً ﴾ وثمودُ هي قبيلةٌ من العرب سُمّوا باسم أبيهم الأكبرِ ثمودَ بنِ عابر بن إرمَ بنِ سام وقيل : إنما سُمّوا بذلك لقلة مائِهم من الثَّمْد وهو الماءُ القليل ، وصالح عليه الصلاة والسلام هو ابنُ عُبيدِ بنِ آسف بنِ ماشج بن عبيدِ بن جادر بن ثمودَ ، ولما كان الإخبارُ بإرساله إليهم مظِنّةً لأن يسأل ويقال : ماذا

قال لهم ؟ قيل جواباً عنه بطريق الاستئنافِ : ﴿ قَالَ يَا قومِ اعْبدُوا الله ﴾ أي وحدَه وعلل ذلك بقوله : ﴿ مَا لَكُم مِّن إِله غيرُهُ ﴾ ثم زيد فيما يبعثهم على الإيمان والتوحيدِ ويحثّهم على زيادة الإخلاصِ فيه بقوله : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ ﴾ أي هو كوّنكم وخلقَكم منها لا غيرُه ، قصرُ قلبٍ أو قصرُ إفرادٍ فإن خلق آدمَ عليه الصلاة والسلام منها خلقٌ لجميع أفرادِ البشر منها لما مر مراراً من أن خِلقتَه عليه الصلاة والسلام لم تكن مقصورةً على نفسه بل كانت أُنموذجاً منطوياً على خلق جميعِ ذرياتِه التي ستوجد إلى يوم القيامة انطواءً إجمالياً ، وقيل : إن خلقَ آدمَ عليه الصلاة والسلام وإنشاءَ موادِّ النطَفِ التي منها خُلق نسلُه من التراب إنشاءٌ لجميع الخلقِ من الأرض فتدبر ﴿ واسْتَعمركُم ﴾ من العمر أي عمّركم واستبقاكم ﴿ فِيهَا ﴾ أو من العِمارة أي أقدركم على عِمارتها أو أمركم بها ، وقيل : هو من العمرى بمعنى أعمركم فيها ديارَكم ويرثها منكم بعد انصرامِ أعمارِكم أو جعلكم معمّرين ديارَكم تسكُنونها مدةَ عمرِكم ثم تتركونها لمثلكم ﴿ فاسْتَغفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيه ﴾ فإن ما فُصل من فنون الإحسانِ داعٍ إلى الاستغفار عما وقع منهم من التفريط والتوبةِ عما كانوا يباشرونه من القبائح ، وقد زيد في بيان ما يوجب ذلك فقيل : ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيب ﴾ أي قريبُ الرحمةِ كقوله تعالى :

﴿ إن رحمةَ اللهِ قريبٌ من المحسنين ﴾ ﴿ مُّجيبٌ ﴾ لمن دعاه وسأله ، وقد روعيَ في النظم الكريمِ نكتةٌ حيث قُدّم ذكرُ العلةِ الباعثةِ المتقدمةِ على الأمر بالاستغفار والتوبةِ وأُخّر عنه ذكرُ الغائيةِ المتأخرةِ عنهما في الوجود أعني الإجابة .

﴿ قَالُوا يا صَالِحُ قد كُنتَ فينَا مَرْجُوّاً ﴾

أي كنا نرجو منك لِما كنا نرى منك من دلائل السَّداد ومخايلِ الرشاد أن تكون لنا سيداً ومستشاراً في الأمور . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : فاضلاً خيّراً نقدّمك على جميعنا . وقيل : كنا نرجو أن تدخُلَ في ديننا وتوافقَنا على ما نحن عليه . ﴿ قَبْلَ هَذَا ﴾ الذي باشرتَه من الدعوة إلى التوحيد وتركِ عبادةِ الآلهة ، أو قبل هذا الوقتِ فكأنهم لم يكونوا إلى الآن على يأس من ذلك ولو بعد الدعوةِ إلى الحق فالآن قد انصرمَ عنك رجاؤُنا . وقرأ طلحةُ مرجُوءاً بالمد والهمزة ﴿ أَتَنْهَانا أَن نَعْبُد مَا يعبد آبَاؤنا ﴾ أي عبَدوه ، والعدولُ إلى صيغة المضارعِ لحكاية الحالِ الماضية ﴿ وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيهِ ﴾ من التوحيد وتركِ عبادةِ الأوثانِ وغيرِ ذلك من الاستغفار والتوبة ﴿ مُرِيب ﴾ أي مُوقعٌ في الريبة ، مِنْ أرابه أي أوقعه في الريبة ، أي قلقِ النفسِ وانتفاءِ الطمُأنينة أو من أراب إذا كان ذا ريبةٍ وأيّهما كان فالإسنادُ مجازيٌّ والتنوينُ فيه وفي (شك) للتفخيم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

الكلام فيه كالكلام في نظيره السابق آنفاً ، وجمهور القراء على منع صرف ﴿ ثَمُودُ ﴾ ذهاباً إلى القبيلة ، وقرأ ابن وثاب .

والأعمش بالصرف على إرادة الحي ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأرض ﴾ أي ابتدأ خلقكم منها فإنها المادة الأولى وآدم الذي هو أصل البشر خلق منها ، وقيل : الكلام على حذف مضاف أي أنشأ أباكم ، وقيل : ﴿ مِنْ ﴾ بمعنى في ، وليس بشيء ، والمراد الحصر كما يفهمه كلام بعض الأجلة كأن القول لعدم أدائهم حقه سبحانه قد اعتقدوا أن الفاعل لذلك غيره تعالى ، أو هو مع غيره فخوطبوا على وجه قصر القلب أو قصر الإفراد بذلك ، واحتمال أنهم كانوا يعتقدون أحد الأمرين حقيقة لا تنزيلاً يستدعي القول بأنهم كانوا طبيعية أو ثنوية وإلا فالوثنية وإن عبدوا معه سبحانه غيره لا يعتقدون خالقية غيره لهم بوجه من الوجوه ، وأخذ الحصر على ما قيل : من تقديم الفاعل المعنوي ، وقيل : إنه مستفاد من السياق لأنه لما حصر الإلهية فيه تعالى اقتضى حصر الخالقية أيضاً ، فبيان ما

خلقوا منه بعد بيان أنه الخالق لا غيره يقتضي هذا فتدبر ، والظاهر أن من يقول بالحصر هنا يقول به في قوله سبحانه : ﴿ واستعمركم فِيهَا ﴾ لمكان العطف وكونه معطوفاً بعد اعتبار التقديم فلا ينسحب على ما بعده مما لا فائدة في التزامه أي وهو الذي جعلكم عمارها وسكانها فالاستفعال بمعنى الإفعال يقال : أعمرته الأرض واستعمرته إذا جعلته عامرها وفوضت إليه عمارتها ، وإلى هذا ذهب الراغب .

(27/381)

وكثير من المفسرين ، وقال زيد بن أسلم : المعنى أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه من بناء مساكن وحفر أنهار وغرس أشجار وغير ذلك ، فالسين للطلب ، وإلى هذا ذهب الكيا ، واستدل بالآية على أن عمارة الأرض واجبة لها الطلب ، وقسمها في "الكشاف" إلى واجب كعمارة القناطر اللازمة والمسجد الجامع .

ومندوب كعمارة المساجد .

ومباح كعمارة المنازل .

وحرام كعمارة الحانات ، وما يبنى للمباهاة أو من مال حرام كأبنية كثير من الظلمة ، واعترض على الكيا بأنه لم يكن هناك طلب حقيقة ولكن نزل جعلهم محتاجين لذلك

وإقدارهم عليه وإلهامهم كيف يعمرون منزلة الطلب ، وقال الضحاك : المعنى عمركم فيها واستبقاكم وكان أحدهم يعمر طويلاً حتى أن منهم من يعمر ألف سنة ، والمشهور أن الفعل من العمر وهو مدة الحياة بالتشديد ومن العمارة نقيض الخراب بالتخفيف ففي أخذ ذلك من العمر تجوز .

وعن مجاهد أن استعمر من العمرى بضم فسكون مقصور ، وهي كما قال الراغب في العطية أن تجعل له شيئاً مدة عمرك أو عمره ، والمعنى أعمركم فيها ورباكم أي أعطاكم ذلك ما دمتم أحياء ثم هو سبحانه وارثها منكم ، أو المعنى جعلكم معمرين دياركم فيها لأن الرجل إذا ورث داره من بعده فكأنما أعمره إياها لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره ﴿ فاستغفروه ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ تفريع على ما تقدم فإن ما ذكر من صنوف إحسانه سبحانه داع إلى الاستغفار والتوبة ، وقوله : ﴿ إِنَّ رَبّى قَرِيبٌ ﴾ أي قريب الرحمة لقوله سبحانه :

(28/381)

﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ [الأعراف : 56] والقرآن يفسر بعضه بعضاً ﴿ مُّجِيبٌ ﴾ لمن دعاه وسأله زيادة في بيان ما يوجب ذلك ، والأول علة باعثة ، وهذا علة غائية وما ألطف التقديم والتأخير ، وصرح بعضهم أن ﴿ قَرِيبٌ ﴾ ناظر لتوبوا و ﴿

مُّجِيبٌ ﴾ لاستغفروا كأنه ، قيل : ارجعوا إلى الله تعالى فإنه سبحانه ﴿ قَرِيبٌ ﴾ منكم أقرب من حبل الوريد واسألوه المغفرة فإنه جلا وعلا ﴿ مُّجِيبٌ ﴾ السائلين ولا يخلو عن حسن .

﴿ قَالُوا۟ يا صالح قَدْ كُنتَ فِينَا ﴾ أي فيما بيننا ﴿ مَرْجُوّا ﴾ فاضلاً خيراً تقدمك على جميعنا على ما روي عن ابن عباس .

وقال ابن عطية مشوراً نأمل منك أن تكون سيداً ساداً مسدّ الأكابر ، وقال كعب : كانوا يرجونه للملك بعد ملكهم لأنه كان ذا حسب وثروة .

وقال مقاتل : كانوا يرجون رجوعه إلى دينهم إذ كان يبغض أصنامهم ويعدل عن دينهم ﴿ قَبْلَ هذا ﴾ أي الذي باشرته من الدعوة إلى التوحيد وترك عبادة الآلهة فلما سمعنا منك ما سمعناه انقطع عنك رجاؤنا ، وقيل : كانوا يرجون دخوله في دينهم بعد دعواه إلى الحق ثم انقطع رجاؤهم فقبل هذا قبل هذا الوقت لا قبل الذي بشاره من الدعوة ، وحكى النقاش عن بعضهم أن ﴿ مَرْجُوّا ﴾ بمعنى حقيراً وكأنه فسره أولاً بمؤخراً غير معتنى به ولا مهتم بشأنه ، ثم أراد منه ذلك وإلا فمرجواً بمعنى حقير لم يأت في كلام العرب ، وجاء قولهم : ﴿

أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَا ﴾ على جهة التوعد والاستبشاع لتلك المقالة منه والتعبير بيعبد لحكاية الحال الماضية، وقرأ طلحة ﴿ مرجؤا ﴾ بالمد والهمز ﴿ ءابَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكّ مّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد وترك عبادة الآلهة وغير ذلك من الاستغفر والتوبة ﴿ مُرِيبٍ ﴾ اسم فاعل من أرابه المتعدي بنفسه إذا أوقعه في الريبة وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين، أو من أراب الرجل اللازم إذا كان ذا ريبة، والإسناد على الوجهين مجازي إلا أن بينهما كما قال بعض المحققين فرقاً، وهو أن الأول منقول من الأعيان إلى المعنى.

والثاني منقول من صاحب الشك إلى الشك كما تقول: شعر شاعر، فعلى الأولى هو من باب الإسناد إلى السبب لأن وجود الشك سبب لتشكيك المشكك ولولاه لما قدر على التشكيك، والتنوين في ﴿ مُرِيبٍ ﴾ وفي ﴿ شَكٍّ ﴾ للتفخيم، ﴿ وَإِنَّنَا ﴾ بثلاث نوات، ويقال: إنا بنونين وهما لغتان لقريش.

قال الفراء: من قال: إننا أخرج الحرف على أصله لأن كناية المتكلمين ن فاجتمعتث لاث نونات، ومن قال: إنا استثل اجتماعها فأسقط الثالثة وأبقى الأولين.

واختار أبو حيان أن المحذوف النون الثانية لا الثالثة لأن في حذفها إجحافاً بالكلمة إذ لا يبقى منها إلا حرف واحد ساكن دون حذف الثانية لظهور بقاء حرفين بعده على أنه قد عهد حذف النون الثانية من إن مع غير ضمير المتكلمين ولم يعهد حذف نون ن ولا ريب في أن ارتكاب المعهود أولى من ارتكاب غير المعهود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(31/381)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً إلى قوله غيره ﴾ الكلام فيه كالذي في قوله : ﴿ وإلى عَاد أخاهم هودا ﴾ [هود : 50] إلخ .

وذكر ثمود وصالح عليه السّلام تقدّم في سورة الأعراف .

وثمود : اسم جدّ سميت به القبيلة ، فلذلك منع من الصرف بتأويل القبيلة .

وجملة ﴿ هو أنشأكم من الأرض ﴾ في موضع التّعليل للأمر بعبادة الله ونفي إلهية غيره ، وكأنهم كانوا مثل مشركي قريش لا يدّعون لأصنامهم خلقاً ولا رزقاً ، فلذلك كانت الحجّة

عليهم ناهضة واضحة.

والإنشاء: الإيجاد والإحداث، وتقدّم في قوله تعالى: ﴿وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ في [الأنعام: 6].

وجَعل الخبرين عن الضمير فعلين دون: هو منشئكم ومستعمركم لإفادة القَصر، أي لم ينشئكم من الأرض إلاّ هو، ولم يستعمركم فيها غيره.

والإنشاء من الأرض خلق آدم من الأرض لأنّ إنشاءه إنشاء لنسله، وإنّما ذكر تعلّق خلقهم بالأرض لأنّهم كانوا أهل غرس وزرع، كما قال في سورة [الشعراء: 146 148] ﴿أتْتركون فيما هاهنا آمنين في جنّات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيمٌ﴾ ولأنّهم كانوا ينحتون من جبال الأرض بيوتاً ويبنون في الأرض قصوراً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وبوّأكم في الأرض تتّخذون من سهولها قصُوراً وتنحتون الجبال بيوتاً﴾ [الأعراف: 74]، فكانت لهم منافع من الأرض تناسب نعمة إنشائهم من الأرض فلأجل منافعهم في الأرض قيّدت نعمة الخلق بأنّها من الأرض التي أنشئوا منها، ولذلك عطف عليه ﴿واستعمركم فيها﴾.

والاستعمار: الإعمار، أي جعلكم عامرينها، فالسّين والتاء للمبالغة كالتي في استبقَى واستفاق.

ومعنى الإعمار أنهم جَعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع لأنّ ذلك يعدّ تعميراً للأرض حتى سمي الحرث عِمارة لأنّ المقصود منه عَمر الأرض .

(32/381)

وفرع على التذكير بهذه النعم أمرهم باستغفاره والتّوبة إليه ، أي طلب مغفرة أجرامهم ، والإقلاع عمّا لا يرضاه من الشرك والفساد .

ومن تفنّن الأسلوب أن جعلت هذه النعم علّة لأمرهم بعبادة الله وحده بطريق جملة التّعليل ، وجعلت علّة أيضاً للأمر بالاستغفار والتّوبة بطريق التّفريع .

وعطف الأمر بالتّوبة بحرف التّراخي للوجه المتقدّم في قوله : ﴿ ويا قوم استغفروا ربّكم ثم توبوا إليه ﴾ [هود : 51] في الآية المتقدمة .

وجملة ﴿ إنّ ربّي قريب مجيب ﴾ استئناف بيانيّ كأنهم استعظموا أن يكون جرمهم ممّا يقبل الاستغفار عنه ، فأجيبوا بأنّ الله قريب مجيب ، وبذلك ظهر أنّ الجملة ليست بتعليل .

وحرف ﴿ إنّ ﴾ فيها للتّأكيد تنزيلاً لهم في تعظيم جرمهم منزلة من يشكّ في قبول استغفاره .

والقرب : هنا مستعار للرأفة والإكرام ، لأنّ البعد يستعار للجفاء والإعراض .

قال جبير بن الأضبط :

تباعد عنّي مطحل إذ دعوته

أمين فزاد الله ما بيننا بعداً . . .

فكذلك يستعار ضدّه لضدّه ، وتقدّم في قوله : ﴿ فإنّي قريبٌ أجيب دعوة الداعِ ﴾ في سورة [البقرة : 186] .

والمجيب هنَا : مجيب الدّعاء ، وهو الاستغفار .

وإجابة الدّعاء : إعطاء السائل مسؤوله .

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا ﴾

هذا جوابهم عن دعوته البليغة الوجيزة الملأى إرشاداً وهدياً .

وهو جواب مُلىء بالضلال والمكابرة وضعف الحجة .

وافتتاح الكلام بالنّداء لقصد التوبيخ أو الملام والتّنبيه ، كما تقدّم في قوله : ﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببيّنة ﴾ [هود : 53] .

وقرينة التّوبيخ هنا أظهر ، وهي قولهم : ﴿ قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ﴾ فإنّه تعريض بخيبة رجائهم فيه فهو تعنيف .

و﴿ قد ﴾ لتأكيد الخبر .

وحذف متعلّق ﴿ مرجواً ﴾ لدلالة فعل الرجاء على أنّه ترقب الخير، أي مرجواً للخير، أي والآن وقع اليأس من خيرك.

(33/381)

وهذا يفهم منه أنّهم يَعدّون ما دعاهم إليه شرّاً، وإنما خاطبوه بمثل هذا لأنّه بعث فيهم وهو شاب (كذا قال البغوي في تفسير سورة الأعراف) أي كنت مرجواً لخصال السيادة وحماية العشيرة ونصرة آلهتهم.

والإشارة في ﴿ قبل هذا ﴾ إلى الكلام الذي خاطبهم به حين بعثه الله إليهم.

وجملة ﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ بيان لجملة ﴿ قد كنت فينا مرجواً ﴾ باعتبار دلالتها على التعنيف، واشتمالها على اسم الإشارة الذي تبيّنه أيضاً جملة ﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾.

والاستفهام: إنكار وتوبيخ.

وعبّروا عن أصنامهم بالموصول لِمَا في الصّلة من الدّلالة على استحقاق تلك الأصنام أن يعبدوها في زعمهم اقتداءً بآبائهم لأنّهم أسوة لهم، وذلك ممّا يزيد الإنكار اتّجاهاً في اعتقادهم.

وجملة ﴿ وإنّنا لفي شك ﴾ معطوفة على جملة ﴿ يا صالح قد كنت فينا مرجواً ﴾ ، فبعد أن ذكروا يأسهم من صلاح حاله ذكروا أنّهم يشكون في صدق أنه مرسل إليهم وزادوا ذلك تأكيداً بحرف التأكيد .

ومن محاسن النّكت هنا إثبات نون (إنّ) مع نون ضمير الجمع لأنّ ذلك زيادة إظهار لحرف التوكيد والإظهار ضرب من التحقيق بخلاف ما في سورة إبراهيم (9) من قول الأمم لرسلهم : ﴿ وإنّا لفي شكّ ممّا تدعوننا ﴾ لأنّ الحكاية فيها عن أمم مختلفة في درجات التّكذيب ، ولأنّ ما في هاته الآية خطاب لواحد ، فكان ﴿ تدعونا ﴾ بنون واحدة هي نون المتكلم ومَعَهُ غيره فلم يقع في الجملة أكثر من ثلاث نونات بخلاف ما في سورة إبراهيم لأنّ الحكاية هنالك عن جمع من الرسل في (تدعُوننا) فلو جاء (إنّنا) لاجتمع أربع نونات .

والمريب : اسم فاعل من أراب إذا أوقع في الريب ، يقال : رابه وأرابه بمعنى ، ووصف الشك بذلك تأكيد كقولهم : جدّ جدّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾

ونحن نلحظ أن الحق سبحانه يبيِّن لنا هنا أنه أرسل إلى ثمود واحداً منهم هو صالح عليه السلام .

وجاء الحق سبحانه بلفظ ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ ليبين العلاقة التي بين صالح عليه السلام وقومه ، فهو قد نشأ بينهم ، وعرفوه وخبروه ، فإذا ما جاءهم بدعوة وقد لمسوا صدقه فلا بد أن يؤمنوا بما جاء به من منهج .

وناداهم صالح عليه السلام : ﴿ يا قوم ﴾ ، وهي من القيام ، يعني : يا من تقومون للأمور . والذي يقوم على الأمر عادة هم الرجال ؛ لأن أمر النساء مستور دائماً في طي الرجال ، فليس كل حكم من أحكام الدين يأتي فيه ذكر المرأة ، بل نجد كثيراً من الأحكام تنزل للرجال ، والنساء مطويات على الستر في ظل الرجال ، والرجل يشقى ويكدح ، والمرأة تدير حياة السُكْنى وتربية الأولاد .

ونحن نجد من النساء ومن الرجال من يتراضون عند الزواج على ألا تخرج المرأة للعمل . إن للمرأة حق العمل إن احتاجت ولم تجد من يعولها ، ولكن إن وجدت من يقوم عليها ، فلماذا لا تلتفت إلى عمل لا يقل أهمية عن عمل الرجل ، وهو رعاية الأسرة ؟

وكذلك يجد من يقوم باسم الحرية بالهجوم على الحجاب ، ونقول لمن يفعل ذلك : إذا كنت لم

تنتقد التهتك في الملابس ، ووَصَفْتَهُ بأنه " حرية " ، فلماذا تتدخل في أمر الحجاب ، ولا تعتبره " حرية " أيضاً .

ونعود إلى الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها ﴿ اعبدوا اللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ [هود : 61] والعبادة تقتضي تلقي أوامر الإله المعبود ب " افعل " و " لا تفعل " في كل حركة من حركات الحياة .

فكان أول شيء طلبه صالح من قومه ثمود ﴿ اعبدوا الله ﴾ وأمر عبادة الله وحده مطلوب من كل أحد ، ولا يسع أحداً مخالفته .

﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ [هود : 61] .

تقرير واقع لا تستطيعون تغييره ، فليس لكم إله آخر غير الله ، مهما حاولتم ادعاء آلهة أخرى .

(35/381)

ويقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأرض واستعمركم فِيهَا ﴾ [هود : 61] .

والإنشاء هو الإيجاد ابتداء من غير واسطة شيء ، ويقال : أنشأ ، أي : أوجد وجوداً

ابتداءً من غير الاستعانة بشيء آخر .

لذلك لا نقول لمن اخترع : إنه " أنشأ " لأنه استعان بأشياء كثيرة ليصل إلى اختراعه ؛ فقد يكون مستعيناً بمادة أخذها من الجبال ، وبخبره تجارب صنعها من سبقوه ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذي ينشيء من عدم .

والوجود من العدم قسمان : قسم أوجدته باستعانة بموجود ، وقسم أوجدته من عدم محض ، وهذا الأخير هو الإنشاء ولا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى .

والحق سبحانه جلّت مشيئته في الإنشاء ، فهو ينشيء الإنسان من التقاء الزوج والزوجة ، وإن أرجعت هذا الإنشاء إلى البداية الأولى في آدم عليه السلام ، فستجد أن الحق سبحانه وتعالى قد خلقه من نفس مادة الأرض ، والأرض مخلوق من مخلوقات الله .

فمنيُّ الزوج وبويضة الزوجة يتكونان من خلاصة الدم ، الذي هو خلاصة الأغذية وهي تأتي من الأرض ، فسواء رمزت لآدم بإنشائه من الأرض ، أو أبقيتها في ذريته ، فكل شيء مَردُّه إلى الأرض .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَنشَأَكُم مِّنَ الأرض واستعمركم فِيهَا ﴾ [هود : 61] .

نجد فيه كلمة ﴿ استعمركم ﴾ وساعة ترى الألف والسين والتاء فاعلم أنها للطلب ، وهكذا يكون معنى كلمة " استعمر " هو طلب التعمير .

ومن الخطأ الشائع تسمية البلاد التي تحتل بلاداً أخرى : " دول الاستعمار " .

أقول : إن ذلك خطأ ، لأنهم لو كانوا دول استعمار ، فهذا يعني أنهم يرغبون في عمارة الأرض ، ولكنهم في حقيقة الأمر كانوا يخربون في الأرض ؛ ولذلك كان يجب أن تسمى " دول الاستخراب " .

﴿ واستعمركم فِيهَا ﴾ أي : طلب منكم عمارتها ، وهذا يتطلب أمرين اثنين : أن يبقي الناس الأمر الصالح على صلاحه ، أو يزيدوه صلاحاً .

(36/381)

وكما ضربت المثل من قبل بتحسين وسائل وصول المياه إلى المنازل بعد اكتشاف نظرية الأواني المستطرقة ، فقد كان الناس يشربون الماء من الترع ، ثم تم اختراع كيفية تكرير المياه ، ثم جاءت نظرية الأواني المستطرقة ، فاستغلها الناس في بناء خزانات عالية ، وتوصيل الماء بواسطة مواسير تدخل لكل بيت .

وهكذا تصل المياه النقية لكل منزل ، وهكذا يزداد في الأمر الصالح صلاحاً .

وأيضاً إن استصلحنا الأرض البور ، فنحن نزيد الأرض رقعة صالحة لإنتاج الغذاء لمقابلة الزيادة في عدد السكان .

وما دام عدد السكان في زيادة فلا بد من زيادة رقعة الأرض بالاستصلاح؛ لأن الأزمة التي نعاني منها الآن، هي نتيجة للغفلة التي مرت علينا، فزاد التكاثر عن الاستصلاح، وكان الواجب يقتضي أن نزيد من الاستصلاح بما يتناسب مع الزيادة في السكان.

وهكذا نفهم معنى استعمار الأرض.

ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أنه تجلَّى على الخَلْق بصفات من صفاته، فالقويُّ يعين الضعيف، والحق سبحانه له مطلق القوة، ويَهَبُ الخلق من حكمته حكمة، ومن قبضه قبضاً، ومن بسطه بسطاً، ومن غناه غنىً؛ ولكن الصفات الحسنى كلها ذاتية فيه وموهوبة منه لنا.

والدليل على ذلك أن القوي فينا يصير إلى ضعف، والغني منا قد يصيبه الفقر؛ حتى لا نفهم أن هذه الصفات ذاتية فينا، وأن الحق سبحانه وتعالى قد أعطانا من صفاته قدرة لنفعل.

ومن أعطاه الله تعالى قدرة ليفعل؛ عليه أن يلاحظ أنه انتفع بفعل من سبقه، فإن أكل اليوم تمراً على سبيل المثال فعليه أن يتذكر أن الذي زرع له النخلة هو من سبقه، فليزرع من يأكل البلح الآن نخلة لتفيده بعد سبع سنين وهو الزمن اللازم لتطرح النخلة بلحاً وليستفيد بها من يأتي من بعده.

ويقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان صالح عليه السلام لقومه " ثمود " في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

(37/381)

﴿ فاستغفروه ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود : 61] .

فإن استغفر الإنسان ، فالحق سبحانه قريب من كل عبد يستغفر عن ذنوب لا تمثل حقوقاً للناس ، والله سبحانه وتعالى يجيب لطالب المغفرة .

فماذا كان الرد من قوم ثمود ؟

يقول الحق عز وجل ما جاء على ألسنتهم : ﴿ قَالُواْ يا صالح قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هذا ﴾

كانوا ينظرون إلى صالح عليه السلام بتقدير ورجاء قبل أن يدعوهم لعبادة الله تعالى وحده ، ولا إله غيره .

والمرجُوّ هو الإنسان المؤمَّل فيه الخير ، ذكاءً ، وطموحاً ، وأمانة ، وأية خصلة من الخصال التي تبشر بأنه له مستقبلاً حسناً .

ولكن ما إن دعاهم صالح عليه السلام إلى عبادة الله سبحانه وتعالى أعلنوا أنه بتلك الدعوة

إنما يفسد رجاءهم فيه وما كانوا يأملون فيه .

وقد أوضح لهم صالح عليه السلام ما أوضحه الرسل من قبله ومن بعده ، أن اتخاذ الأصنام أو الأشجار أو الشمس آلهة تُعْبد هو أمر خاطىء ؛ لأن العبادة تقتضي أوامر ونواهي ينزل بها منهج ؛ يتبعه من يعبدون ، وتلك الكائنات المعبودة لا منهج لها ، ولا عبادة دون منهج .

وأضاف قوم ثمود :

﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود : 62] .

والشك هو استواء الطرفين : النفي والإثبات .

إذن : فهم ليسوا على يقين أن عبادتهم لما عبد آباؤهم هي عبادة صادقة ، ودعوة صالح عليه السلام لهم جعلتهم يترددون في أمر تلك العبادة ؛ وهذا يُظهر أن خصال الخير في صالح عليه السلام جعلتهم يترددون في أمر عبادتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(38/381)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ ﴾ : كالذي قبله . والعامَّة على مَنْع " ثمود " الصرفَ هنا لعلتين : وهما العلمية والتأنيث ، ذهبوا به مذهبَ القبيلة ، والأعمش ويحيى بن وثاب صرفوه ، ذهبا به مذهب الحيّ . وسيأتي بيان الخلاف في غير هذا الموضع .

قوله : ﴿ مِّنَ الأرض ﴾ : يجوز أن تكونَ لابتداء الغاية ، أي : ابتداء إنشائكم منها : إمَّا إنشاءُ أصلكم وهو آدم ، أو لأن كلَّ واحد خُلق مِنْ تُرْبته ، أو لأن غذاءَهم وسببَ حياتهم من الأرض . وقيل : " مِن " بمعنى " في " ولا حاجة إليه .

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (62) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّنَا ﴾ : هذا هو الأصل ، ويجوز " وإنَّا " بنونٍ واحدة مشددة كما في السورة الأخرى . وينبغي أن يكون المحذوفُ النونَ الثانية من " إنَّ " لأنه قد عُهِد حَذْفُها دون اجتماعِها مع " ن " فَحَذْفُها مع " ن " أولى ، وأيضاً فإنَّ حَذْف بعضِ الأسماء ليس بسهلٍ . وقال الفراء : " مَنْ قال " إننا " أَخرج الحرفَ على أصله ؛ لأنَّ كتابةَ المتكلمين " ن " فاجتمع ثلاثُ نونات ، ومَنْ قال : " إنَّا " استثقل اجتماعَها فأسقط الثالثة ، وأبقى الأوَّلَيْن " . انتهى . وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك أولَ هذا الموضوع .

قوله : ﴿ مُرِيبٍ ﴾ اسم فاعل مِنْ أراب ، و " أراب " يجوز أن يكونَ متعدِّياً مِنْ " أرابه " ، أي : أوقعه في الريبة أو قاصراً مِنْ " أراب الرجلُ " ، أي : صار ذا ريبة . ووُصِف الشكّ

بكونه مُربياً بالمعنيين المتقدمين مجازاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 346 . 347 ﴾

(39/381)

قوله تعالى ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (63) وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آَيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (64) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (65) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أبرزوا له أمرهم في قالب الشك على سبيل الجزم ، قابلهم بمثله على سبيل الفرض إنصافاً لهم لئلا يلائم الخطاب حال المخاطبين ، فاستأنف سبحانه الإخبار عنه بذلك في قوله : ﴿ قال ﴾ أي صالح نادياً لهم إلى النظر في أمره برفق ﴿ يا قوم أرءيتم ﴾ أي أخبروني ﴿ إن كنت ﴾ أورده بصيغة الشك لأن خطابه للجاحدين ﴿ على بينة من ربي ﴾ أي المحسن إليّ ، لا شك عندي فيها ﴿ وآتاني منه رحمة ﴾ أي أوامر هي سبب الرحمة

﴿ فمن ينصرني ﴾ وأظهر موضع الإضمار وعبر بالاسم الأعظم لاقتضاء المقام التهويل فقال : ﴿ من الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ إن عصيته ﴾ أي إن وقوعكم في الشك على زعمكم حملكم على هيئة الإباء في التلبس بأعمالهم مع زوالهم واضمحلالهم لو كانوا موجودين وعصيتموهم لم تبالوا بهم ، وأما أنا فالذي أمرني بعبادته حي قادر على جزاء من يطيعه أو يعصيه ، وأقل ما يحمل على طاعته الشك في عقوبته ، وهو كاف للعاقل في ترك الخطر ﴿ فما ﴾ أي فتسبب عن نهيكم لي عن الدعاء إليه سبحانه أنكم ما

﴿ تزيدونني ﴾ بذلك شيئاً في عملي بما ترمونه مني من عطفي عنه باتباعكم في عملكم أو الكف عنكم لأصير في عداد من يرجى عندكم ممن له عقل ﴿ غير تخسير ﴾ أي إيقاعي في الخسارة على هذا التقدير : فلا تطمعوا في تركي لشيء من مخالفتكم ما دمتم على ما أنتم عليه ، والآية كما ترى ناظرة إلى قوله تعالى ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ﴾ .

(40/381)

ولما أخبرهم أن معصية الله خسران ، ذكرهم أمر الناقة التي أخرجها سبحانه لهم من الأرض شاهداً على كونهم مساوين للأوثان في كونهم منها مفضلين عليها بالحياة محذراً لهم من شديد انتقامه فقال : ﴿ ويا قوم هذه ﴾ إشارة إلى حاضر ، وذلكم بعد أن أخرجها

لهم سبحانه عندما دعاه صالح عليه السلام ؛ وبين الإشارة بقوله : ﴿ ناقة الله ﴾ أي الملك الأعلى ، ثم بني حالاً من ﴿ آية ﴾ مقدماً عليها لئلا يكون صفة لها فقال : ﴿ لكم ﴾ أي خاصة لنظركم إياها عندما خرجت ولكل من سمع بها بعدكم ، وليس الخبر كالمعاينة ، أشير إليها حال كونها ﴿ آية ﴾ بكون الله تعالى أخرجها لكم من صخرة ، وهي عشراء على حسب ما اقترحتم وأنتم تشاهدون وبكونها تنفرد بشرب يوم ، وتنفردون كلكم بشرب يوم وتنفرد برعي يوم ، وتنفرد جميع الحيوانات من دوابكم ووحوش بلادكم برعي يوم إلى غير ذلك مما أنتم له مبصرون وبه عارفون ﴿ فذروها ﴾ أي اتركوها على أيّ حالة كان ترككم لها ﴿ تأكل ﴾ أي مما أرادت ﴿ في أرض الله ﴾ أي الملك الذي له الأمر كله التي خلقها منها ﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ والأكل : مضغ يقع عند بلع ؛ والمس مطلق الإصابة ويكون بين الحيوان وغيره ، واللمس أخص منه لما فيه من الإدراك ﴿ فيأخذكم ﴾ أي فيتسبب عن ذلك أن يأخذكم ﴿ عذاب قريب ﴾ أي من زمن إصابتكم لها بالسوء ؛ ثم اشار إلى قرب مخالفتهم لأمره فيها بقوله مسبباً عن أوامره ونواهيه ومعقباً : ﴿ فعقروها ﴾ أي الناقة ﴿ فقال ﴾ أي عند بلوغه الخبر ﴿ تمتعوا ﴾ أي أنتم تعيشون ﴿ في داركم ﴾ أي داركم هذه ، وهي بلدة الحجر ﴿ ثلاثة أيام ﴾ أي بغير زيادة عليها ، فانظروا ماذا يغني عنكم تلذذكم وترفهكم وإن اجتهدتم فيه .

ولما كان كأنه قيل : هل في هذا الوعيد مثنوية ، قال مجيباً : ﴿ ذلك ﴾ أي الوعد العالي الرتبة في الصدق والغضب ﴿ وعد غير مكذوب ﴾ أي فيه ؛ والتمتع : التلذذ بالمدركات الحسان من المناظر والأصوات وغيرها مما يدرك بالحواس ، وسميت البلاد داراً لأنها جامعة لأهلها - كما تجمع الدار - ويدار فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 550.549 ﴾

(42/381)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ إِن كُنتُ على بَيّنَةٍ مّن رَّبّى ﴾ ورد بحرف الشك وكان على يقين تام في أمره إلا أن خطاب المخالف على هذا الوجه أقرب إلى القبول ، فكأنه قال : قدروا أني على بينة من ربي وأني نبي على الحقيقة ، وانظروا أني إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره فمن يمنعني من عذاب الله فما تزيدونني على هذا التقدير غير تخسير ، وفي تفسير هذه

الكلمة وجهان : الأول : أن على هذا التقدير تخسرون أعمالي وتبطلونها .

الثاني : أن يكون التقدير فما تزيدونني بما تقولون لي وتحملوني عليه غير أن أخسركم أي أنسبكم إلى الخسران ، وأقول لكم إنكم خاسرون ، والقول الأول أقرب لأن قوله : ﴿ فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ [هود : 63] كالدلالة على أنه أراد إن أتبعكم فيما أنتم عليه من الكفر الذي دعوتموني إليه لم أزدد إلا خسراناً في الدين فأصير من الهالكين الخاسرين .

﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ﴾

اعلم أن العادة فيمن يدعي النبوة عند قوم يعبدون الأصنام أن يبتدىء بالدعوة إلى عبادة الله ثم يتبعه بدعوى النبوة لا بد وأن يطلبوا منه المعجزة ، وأمر صالح عليه السلام هكذا كان ، يروى أن قومه خرجوا في عيد لهم فسألوه أن يأتيهم بآية وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا إليها ناقة ، فدعا صالح ربه ، فخرجت الناقة كما سألوا .

واعلم أن تلك الناقة كانت معجزة من وجوه ، الأول : أنه تعالى خلقها من الصخرة وثانيها : أنه تعالى خلقها في جوف الجبل ثم شق عنها الجبل .

وثالثها : أنه تعالى خلقها حاملاً من غير ذكر .

ورابعها : أنه خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة من غير ولادة ، وخامسها : ما روي أنه كان لها شرب يوم ولكل القوم شرب يوم آخر ، وسادسها : أنه كان يحصل منها لبن كثير يكفي الخلق العظيم ، وكل من هذه الوجوه معجز قوي وليس في القرآن ، إلا أن تلك الناقة كانت آية ومعجزة ، فأما بيان أنها كانت معجزة من أي الوجوه فليس فيه بيانه .

ثم قال : ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ﴾ والمراد أنه عليه السلام رفع عن القوم مؤنتها ، فصارت مع كونها آية لهم تنفعهم ولا تضرهم ، لأنهم كانوا ينتفعون بلبنها على ما روي أنه عليه السلام خاف عليها منهم لما شاهد من إصرارهم على الكفر ، فإن الخصم لا يحب ظهور حجة خصمه ، بل يسعى في إخفاءها وإبطالها بأقصى الإمكان ، فلهذا السبب كان يخاف من إقدامهم على قتلها ، فلهذا احتاط وقال : ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ وتوعدهم إن مسوها بسوء بعذاب قريب ، وذلك تحذير شديد لهم من الإقدام على قتلها ، ثم بين الله تعالى أنهم مع ذلك عقروها وذبحوها ، ويحتمل أنهم عقروها لإبطال تلك الحجة ، وأن يكون لأنها ضيقت الشرب على القوم ، وأن يكون لأنهم رغبوا في شحمها ولحمها ، وقوله : ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ يريد اليوم الثالث ، وهو قوله : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ﴾ ثم بين تعالى أن القوم عقروها ، فعند ذلك قال لهم صالح عليه السلام : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ ومعنى التمتع : التلذذ بالمنافع والملاذ التي تدرك بالحواس ، ولما كان التمتع لا يحصل

إلا للحي عبر به عن الحياة ، وقوله : ﴿ فِى دَارِكُمْ ﴾ فيه وجهان : الأول : أن المراد من الدار البلد ، وتسمى البلاد بالديار ، لأنه يدار فيها أي يتصرف يقال : ديار بكر أي بلادهم .

الثاني : أن المراد بالديار الدنيا .

(44/381)

وقوله : ﴿ ذلك وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ أي غير مكذب والمصدر قد يرد بلفظ المفعول كالمجلود والمعقول وبأيكم المفتون ، وقيل غير مكذوب فيه ، قال ابن عباس رضي الله عنهما أنه تعالى لما أمهلهم تلك الأيام الثلاثة فقد رغبهم في الإيمان ، وذلك لأنهم لما عقروا الناقة أنذرهم صالح عليه السلام بنزول العذاب ، فقالوا وما علامة ذلك ؟ فقال : تصير وجوهكم في اليوم الأول مصفرة ، وفي الثاني محمرة ، وفي الثالث مسودة ، ثم يأتيكم العذاب في اليوم الرابع ، فلما رأوا وجوههم قد اسودت أيقنوا بالعذاب فاحتاطوا واستعدوا للعذاب فصبحهم اليوم الرابع وهي الصيحة والصاعقة والعذاب .

فإن قيل : كيف يعقل أن تظهر فيهم هذه العلامات مطابقة لقول صالح عليه السلام ، ثم يبقون مصرين على الكفر .

قلنا : ما دامت الأمارات غير بالغة إلى حد الجزم واليقين لم يمتنع بقاؤهم على الكفر وإذا صارت يقينية قطعية ، فقد انتهى الأمر إلى حد الإلجاء والإيمان في ذلك الوقت غير مقبول .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 17.16 ﴾

(45/381)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كُنتُ على بينةٍ من ربي ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : على حق بَيّن .

الثاني : على حجة ظاهرةٍ . وقال الكلبي على دين من ربي .

﴿ وآتاني منه رحمة ﴾ قال ابن جرير الطبري يعني النبوة والحكمة .

﴿ فمن ينصرني من الله إن عصيته ﴾ أي فمن يدفع عني عذاب الله إن عصيته بطاعتكم .

﴿ فما تزيدونني غير تخسير ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني ما تزيدونني في احتجاجكم بتباع آبائكم إلا خساراً تخسرونه أنتم ، قاله مجاهد .

الثاني : فما تزيدونني مع الرد والتكذيب إن أجبتم إلى ما سألتم إلا خساراً لاستبدال الثواب بالعقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(46/381)

وقال ابن عطية :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾

قوله : ﴿ أرأيتم ﴾ هو من رؤية القلب ، أي أتدبرتم ؟ والشرط الذي بعده وجوابه يسد مسد مفعولي ﴿ أرأيتم ﴾ ، و" البينة " : البرهان واليقين ، والهاء في " بيّنة " للمبالغة ، ويحتمل أن تكون هاء تأنيث ، و" الرحمة " في هذه الآية : النبوة وما انضاف إليها ، وفي الكلام محذوف تقديره أيضرني شككم أو أيمكنني طاعتكم ونحو هذا مما يليق بمعنى الآية . وقوله ﴿ فما تزيدونني غير تخسير ﴾ معناه : فما تعطونني فيما أقتضيه منكم من الإيمان وأطلبكم به من الإنابة غير تخسير لأنفسكم ، وهو من الخسارة ، وليس التخسير في هذه الآية إلا لهم وفي حيزهم ، وأضاف الزيادة إليه من حيث هو مقتض لأقوالهم موكل بإيمانهم ، كما تقول لمن توصيه : أنا أريد بك خيراً وأنت تريد بي شراً .

فكأن الوجه البيّن ؛ وأنت تزيد شراً ولكن من حيث كنت مريد خير به ومقتضي ذلك -

حسن أن تضيف الزيادة إلى نفسك .

وقوله تعالى : ﴿ ويا قوم هذه ناقة الله ﴾ الآية ، اقتضب في هذه الآية ذكر أول أمر الناقة ، وذلك أنه روي أن قومه طلبوا منه آية تضطرهم إلى الإيمان ، فأخرج الله ، جلت قدرته ، لهم الناقة من الجبل ، وروي أنهم اقترحوا تعيين خروج الناقة من تلك الصخرة ، فروي أن الجبل تمخض كالحامل ، وانصدع الحجر ، وخرجت منه ناقة بفصيلها ، وروي أنها خرجت عشراء ، ووضعت بعد خروجها ، فوقفهم صالح وقال لهم : ﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ ، ونصب ﴿ آية ﴾ على الحال .

وقرأت فرقة " تأكلْ " بالجزم على جواب الأمر ، وقرأت فرقة : " تأكلُ " على طريق القطع والاستئناف ، أو على أنه الحال من الضمير في ﴿ ذروها ﴾ .

(47/381)

وقوله ﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ عام في العقر وغيره ، وقوله : ﴿ فيأخذكم عذاب قريب ﴾ هذا بوحي من الله إليه أن قومك إذا عقروا الناقة جاءهم عذاب قريب المدة من وقت المعصية ، وهي الأيام الثلاثة التي فهمها صالح عليه السلام من رغاء الفصيل على جبل القارة . وأضاف العقر إلى جميعهم لأن العاقر كان منهم وكان عن رضى منهم وتمالؤ ،

وعاقرها قدار ، وروي في خبر ذلك أن صالحاً أوحى الله إليه أن قومك سيعقرون الناقة وينزل بهم العذاب عند ذلك ، فأخبرهم بذلك فقالوا : عياذاً بالله أن نفعل ذلك ، فقال : إن لم تفعلوا أنتم ذلك أوشك أن يولد فيكم من يفعله ، وقال لهم : صفة عاقرها أحمر أزرق أشقر ، فجعلوا الشرط مع القوابل وأمروهم بتفقد الأطفال ، فمن كان على هذه الصفة قتل ، وكان في المدينة شيخان شريفان عزيزان ، وكان لهذا ابن ولهذا بنت ، فتصاهرا فولد بين الزوجين قدار ، على الصفة المذكورة ، فهم الشرط بقتله ، فمنع منه جداه حتى كبر ، فكان الذي عقرها بالسيف في عراقيبها ، وقيل : بالسهم في ضرعها وهرب فصيلها عن ذلك ، فصعد على جبل يقال له القارة ، فرغا ثلاثاً ، فقال صالح : هذا ميعاد ثلاثة أيام للعذاب ، وأمرهم قبل رغاء الفصيل أن يطلبوه عسى أن يصلوا إليه فيندفع عنه العذاب به ، فراموا الصعود إليه في الجبل ، فارتفع الجبل في السماء حتى ما تناله الطير ، وحينئذ رغا الفصيل .

وقوله ﴿ في داركم ﴾ هي جمع دارة كما تقول ساحة وساح وسوح ، ومنه قول أمية بن أبي الصلت : [الوافر]

له داع بمكة مشمعلّ . . . وآخر عند دارته ينادي

ويمكن أن يسمى جميع مسكن الحي داراً ، و" الثلاثة الأيام " تعجيز قاس الناس عليه الاعذار إلى المحكوم عليه ونحوه .

قال القاضي أبو محمد : وذلك عندي مفترق لأنها في المحكوم عليه والغارم في الشفعة ونحوه توسعة ، وهي هنا توقيف على الخزي والتعذيب ، وروى قتادة عن ابن عباس أنه قال : لو صعدتم على القارة لرأيتم عظام الفصيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(49/381)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يا قوم أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾

تقدّم معناه في قول نوح.

﴿ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ الله إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ استفهام معناه النفي ؛ أي لا ينصرني منه إن عصيته أحد .

﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ أي تضليل وإبعاد من الخير ؛ قاله الفرّاء .

والتخسير لهم لا له صلى الله عليه وسلم ؛ كأنه قال : غير تخسير لكم لا لي .

وقيل : المعنى ما تزيدونني باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم ؛ عن ابن عباس .

قوله تعالى: ﴿ ويا قوم هذه نَاقَةُ اللهِ ﴾ ابتداء وخبر.

﴿ لَكُمْ آيَةً ﴾ نصب على الحال، والعامل معنى الإشارة أو التنبيه في "هَذِهِ".

وإنما قيل: ناقة الله؛ لأنه أخرجها لهم من جبل على ما طلبوا على أنهم يؤمنون.

وقيل: أخرجها من صخرة صمّاء منفردة في ناحيةِ الحجر يقال لها الكاثبة، فلما خرجت الناقة على ما طلبوا قال لهم (نبي الله) صالح: ﴿ هذه نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً ﴾.

﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ ﴾ أمر وجوابه؛ وحذفت النون من "فذروها" لأنه أمر.

ولا يقال: وَذِر ولا وَاذِرٌ إلا شاذاً.

وللنحويين فيه قولان؛ قال سيبويه: استغنوا عنه بتَرَكَ.

وقال غيره: لما كانت الواو ثقيلة وكان في الكلام فِعل بمعناه لا واو فيه ألغوه؛ قال أبو إسحاق الزّجاج: ويجوز رفع "تأكل" على الحال والاستئناف.

﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا ﴾ جزم بالنهي.

﴿ بسوء ﴾ قال الفرّاء: بعَقْر.

﴿ فَيَأْخُذَكُمْ ﴾ جواب النهي.

﴿ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ أي قريب من عقْرِها.

قوله تعالى:

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ﴾.

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ إنما عقرها بعضهم ؛ وأضيف إلى الكل لأنه كان برضا الباقين.

وقد تقدّم الكلام في عقرها في "الأعراف" .

ويأتي أيضاً .

(50/381)

﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُوا ﴾ أي قال لهم صالح تمتعوا ؛ أي بنعم الله عزّ وجلّ قبل العذاب .

﴿ فِي دَارِكُمْ ﴾ أي في بلدكم ، ولو أراد المنزل لقال في دوركم .

وقيل : أي يتمتع كل واحد منكم في داره ومسكنه ؛ كقوله : ﴿ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ [غافر : 67] أي كل واحد طفلاً .

وعبر عن التمتع بالحياة لأن الميّت لا يتلذذ ولا يتمتع بشيء ؛ فعقرت يوم الأربعاء ، فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد .

وإنما أقاموا ثلاثة أيام ؛ لأن الفصيل رغا ثلاثاً على ما تقدّم في "الأعراف" فاصفرّت ألوانهم في اليوم الأول ، ثم احمرت في الثاني ، ثم اسودت في الثالث ، وهلكوا في الرابع ؛ وقد تقدّم في

"الأعراف" .

الثانية : استدلّ علماؤنا بإرجاء الله العذاب عن قوم صالح ثلاثة أيام على أن المسافر إذا لم يُجمع على إقامة أربع ليال قصر ؛ لأن الثلاثة الأيام خارجة عن حكم الإقامة .

وقد تقدّم في "النساء" ما للعلماء في هذا .

قوله تعالى : ﴿ ذلك وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ أي غير كذب .

وقيل : غير مكذوب فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(51/381)

وقال الخازن :

﴿ قال ﴾ يعني قال صالح مجيباً لقومه ﴿ يا قوم أرأيتم الله ﴾ أي فمن يمنعني من عذاب الله ﴿ إن عصيته ﴾ يعني إن خالفت أمره ﴿ فما تزيدونني غير تخسير ﴾ قال ابن عباس معناه غير خسارة في خسارتكم وقال الحسن بن الفضل : لم يكن صالح في خسارة حتى يقول فما تزيدونني غير تخسير وإنما المعنى فما تزيدونني بما تقولون إلا نسبتي إلى الخسارة .

﴿ ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية ﴾

وذلك أن قومه طلبوا أن يخرج لهم ناقة من صخرة كانت هناك أشاروا إليها فدعا الله

فأخرج لهم من تلك الصخرة ناقة عشراء ثم ولدت فصيلاً يشبهها وقوله ناقة الله إضافة تشريف كبيت الله وعبد الله فكانت هذه الناقة لهم آية ومعجزة دالة على صدق صالح عليه السلام ﴿ فذروها تأكل ﴾ يعني من العشب والنبات ﴿ في أرض الله ﴾ يعني فليس عليكم مؤنتها ﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ يعني يعقر ﴿ فيأخذكم ﴾ يعني إن قتلتموها ﴿ عذاب قريب ﴾ يعني في الدنيا ﴿ فعقروها ﴾ يعني فخالفوا أمر ربهم فعقروها ﴿ فقال ﴾ يعني فقال لهم صالح ﴿ تمتعوا ﴾ يعني عيشوا ﴿ في داركم ﴾ أي في بلدكم ﴿ ثلاثة أيام ﴾ يعني ثم تهلكون ﴿ ذلك ﴾ يعني العذاب الذي أوعدهم به بعد ثلاثة أيام ﴿ وعد غير مكذوب ﴾ أي هو غير كذب روى أنه قال لهم يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام فتصبحون في اليوم الأول ووجوهكم مصفرة وفي اليوم الثاني محمرة وفي اليوم الثالث مسودة فكان كما قال وأتاهم العذاب في اليوم الرابع وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(52/381)

وقال أبو حيان :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ ﴾

تقدم الكلام في أرأيتم في قصة نوح ، والمفعول الثاني هنا لأرأيتم محذوف يدل عليه قوله : فمن ينصرني من الله إن عصيته ، والتقدير : أعصيه في ترك ما أنا عليه من البينة .

وقال ابن عطية : أرأيتم هو من رؤية القلب ، والشرط الذي بعده وجوابه يسد مسد مفعولي علمت وأخواتها ، وإدخال أداة الشرط التي هي إن على جملة محققة ، وهي كان على بينة من ربه ، لكنه خاطب الجاحدين للبينة فكأنه قال : قدروا أني على بينة من ربي وانظروا إنْ تابعتكم وعصيت ربي في أوامره ، فمن يمنعني من عذابه ؟ قال ابن عطية : وفي الكلام محذوف تقديره : أيضرني شككم ، أو أيمكنني طاعتكم ، ونحو هذا مما يليق بمعنى الآية انتهى .

وهذا التقدير الذي قدره استشعار منه بالمفعول الثاني الذي يقتضيه أرأيتم ، وأن الشرط وجوابه لا يقعان ولا يسدان مسد مفعولي أرأيتم ، والذي قدرناه نحن هو الظاهر لدلالة قوله : فمن ينصرني من الله إن عصيته ، فما تزيدونني غير تخسير .

قال الزمخشري : غير أن أخسركم أي أنسبكم إلى الخسران ، وأقول أنكم خاسرون انتهى .

يفعل هذا للنسبة كفسقته وفجرته أي : نسبته أي الفسق والفجور .

قال ابن عباس : معناه ما تزيدونني بعبادتكم إلا بصارة في خسرانكم انتهى .

فهو على حذف مضاف أي : غير بصارة تخسيركم .

وقال مجاهد : ما تزدادون أنتم باحتجاجكم بعبادة آبائكم إلا خساراً ، وأضاف الزيادة إلى نفسه لأنهم أعطوه ذلك وكان سألهم الإيمان .

(53/381)

وقال ابن عطية : فما تعطوني فيما اقتضيته منكم من الإيمان غير تخسير لأنفسكم ، وهو من الخسارة وليس التخسير إلا لهم ، وفي حيزهم ، وأضاف الزيادة إليه من حيث هو مقتض لأقوالهم موكل بإيمانهم كما تقول لمن توصيه : أنا أريدك خيراً وأنت تريدني سوءاً ، وكان الوجه البين أن يقول : وأنت تريد شراً ، لكن من حيث كنت مريد خير ، ومقتضى ذلك حسن أن يضيف الزيادة إلى نفسك انتهى .

وقيل : التقدير فما تحملونني عليه ، غير أني أخسركم أي : أرى منكم الخسران .

وقيل : التقدير تخسروني أعمالكم وتبطلونها .

قيل وهذا أقرب ، لأن قوله : فمن ينصرني من الله إن عصيته كالدلالة على أنه أراد إن اتبعتكم فيما أنتم عليه ودعوتموني إليه لم أزدد إلا خسراناً في الدين ، فأصير من الهالكين الخاسرين .

وانتصب آية على الحال ، والخلاف في الناصب في نحو هذا زيد منطلقاً ، أهو حرف

التنبيه؟ أو اسم الإشارة؟ أو فعل محذوف؟ جاز في نصب آية ولكم في موضع الحال، لأنه لو تأخر لكان نعتاً لآية، فلما تقدم على النكرة كان حالاً، والعامل فيها محذوف.

وقال الزمخشري: (فإن قلت): فبم يتعلق لكم؟ (قلت): بآية حالاً منها متقدمة، لأنها لو تأخرت لكان صفة لها، فلما تقدمت انتصب على الحال انتهى.

وهذا متناقض، لأنه من حيث تعلق لكم بآية كان لكم معمولاً لآية، وإذا كان معمولاً لها امتنع أن يكون حالاً منها، لأنّ الحال تتعلق بمحذوف، فتناقض هذا الكلام، لأنه من حيث كونه معمولاً لها كانت هي العاملة، ومن حيث كونه حالاً منها كان العامل غيرها، وتقدم الكلام على الجمل التي بعد آية.

وقرأت فرقة: تأكل بالرفع على الاستئناف، أو على الحال.

وقريب عاجل لا يستأخر عن مسكموها بسوء إلا يسيراً، وذلك ثلاثة أيام، ثم يقع عليكم، وهذا الإخبار بوحي من الله تعالى، فعقروها نسب إلى جميعهم وإن كان العاقر واحداً لأنه كان برضا منهم، وتمالؤ.

ومعنى تمتعوا استمتعوا بالعيش في داركم في بلدكم ، وتسمى البلاد الديار لأنها يدار فيها أي : يتصرف ، يقال : ديار بكر لبلادهم قاله الزمخشري .

وقال ابن عطية : في داركم جمع دارة ، كساحة وساح وسوح ، ومنه قول أمية بن أبي الصلت :

له داع بمكة مشمعل . . .

وآخر فوق دارته ينادي

ويمكن أن يسمي جميع مسكن الحي داراً انتهى .

ذلك أي : الوعد بالعذاب غير مكذوب ، أي صدق حق .

والأصل غيره مكذوب فيه ، فاتسع فحذف الحرف وأجرى الضمير مجرى المفعول به ، أو جعل غير مكذوب لأنه وفى به فقد صدق ، أو على أنّ المكذوب هنا مصدر عند من يثبت أنّ المصدر يجيء على زنة مفعول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(55/381)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَءيْتُمْ ﴾

أي أخبروني ﴿ إِن كُنتُ ﴾ في الحقيقة ﴿ على بَيِّنَةٍ ﴾ أي حجةٍ ظاهرةٍ وبرهانٍ وبصيرة ﴿ مِّن رَّبِّى ﴾ مالكي ومتولّي أمري ﴿ وَآتَانِى مِنْهُ ﴾ من جهته ﴿ رَحْمَةً ﴾ نبوّةً ، وهذه الأمورُ وإن كانت محقّقة الوقوعِ لكنها صُدّرت بكلمة الشك اعتباراً لحال المخاطبين ورعايةً لحسن المحاورةِ لاستنزالهم عن المكابرة ﴿ فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ اللهِ ﴾ أي ينجّيني من عذابه ، والعدول إلى الإظهار لزيادة التهويلِ والفاءُ لترتيب إنكارِ النُّصرةِ على ما سبق من إيتاء النبوةِ وكونِه على بينة من ربه على تقديرِ العصيانِ حسبما يُعرب عنه قوله تعالى : ﴿ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ أي بالمساهلة في تبليغ الرسالةِ والمجاراةِ معكم فيما تأتون وتذرون فإن العصيانَ ممنْ ذلك شأنه أبعدُ والمؤاخذةَ عليه ألزمُ وإنكارَ نُصرته أدخل ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِى ﴾ إذن باستتباعكم إيايَ كما ينبىء عنه قولُهم : ﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا ﴾ أي لا تفيدونني إذ لم يكن فيه أصل الخُسران حتى يزيدوه ﴿ غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ أي غيرَ أن تجعلوني خاسراً بإبطال أعمالي وتعريضي لسخط الله تعالى أو فما تزيدونني بما تقولون غيرَ أن أنسُبَكم إلى الخسران وأقول لكم : إنكم الخاسرون ، فالزيادةُ على معناه ، والفاءُ لترتيب عدمِ الزيادةِ على انتفاء الناصِرِ المفهومِ من إنكاره على تقدير العصيان مع تحقق ما ينفيه من كونه عليه الصلاة السلام على بينة من ربه وإيتائِه النبوة .

﴿ وَيَا قَوْمِ هذه نَاقَةُ اللهِ ﴾

الإضافةُ للتشريف والتنبيهِ على أنها مفارقةٌ لسائر ما يجانسها من حيث الخِلْقةُ ومن حيث الخلق ﴿ لَكُمْ آيَةً ﴾ معجزةً دالّةً على صدق نبوّتي وهي حالٌ من ناقةُ اللهِ والعاملُ ما في هذه من معنى الفعلِ ولكم حالٌ من آيةً متقدمةٌ عليها لكونها نكرةً ، ولو تأخرت لكانت صفةً لها ويجوز أن يكون ناقةُ اللهِ بدلاً من هذه أو عطفَ بيانٍ ولكم خبراً وعاملاً في آية ﴿ فَذَرُوهَا ﴾ خلّوها وشأنَها ﴿ تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ ﴾ ترعى نباتَها وتشرب ماءَها ، وإضافةُ الأرضِ إلى الله تعالى لتربية استحقاقِها لذلك وتعليلِ الأمرِ بتركها وشأنَها ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ بولغ في النهي عن التعرّض لها بما يضرها حيث نُهيَ عن المس الذي هو من مبادئ الإصابةِ ونُكر السوءِ أي لا تضربوها ولا تطرُدوها ولا تقربوها بشيء من السوء فضلاً عن عقرها وقتلِها ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ أي قريبُ النزول . ورُوي أنهم طلبوا منه أن يُخرج من صخرة تسمّى الكاثبةَ ناقةً عُشَراءَ مخترجةً جوفاءَ وبراءَ ، وقالوا : إن فعلتَ ذلك صدقناك فأخذ صالحٌ عليه الصلاة والسلام عليهم مواثيقَهم : لئن فعلتُ ذلك لتؤمِنُنّ ؟ فقالوا : نعم ، فصلى ودعا ربَّه فتمخّضت الصخرةُ تمخضَ النَّتوجِ بولدها فانصدعت عن ناقة عُشراءَ كما وصفوا وهم ينظُرون ثم أنتجت ولداً مثلَها في العِظَم فآمن به جُندَعُ بنُ عمْروٍ في جماعة ، ومَنَع الباقين من الإيمان دوأبُ بنُ عمرو والحُبابُ صاحبُ أوثانهم وربابُ كاهنُهم فمكثت الناقةُ مع ولدها ترعى الشجرَ وتردُ الماءَ غِبًّا فما

ترفع رأسَها من البئر حتى تشربَ كلَّ ما فيها ثم تتفحّج فيحلُبون ما شاءوا حتى تمتلىء أوانيهم فيشربون ويدّخرون وكانت تصِيّف بظهر الوادي فتهرُب منها أنعامُهم إلى بطنه وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره فشق عليهم ذلك .

(57/381)

﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ قيل : زَيَّنت عقرَها لهم عُنيزةُ أمُّ غَنَم وصدَقةُ بنتُ المختارِ فعقروها واقتسموا لحمها فرقِي سَقْبُها جبلاً اسمه قارة فرَغا ثلاثاً ، فقال صالح لهم : أدرِكوا الفصيلَ عسى أن يرفعَ عنكم العذاب فلم يقدِروا عليه وانفجرت الصخرةُ بعد رغائِه فدخلها ﴿ فَقَالَ ﴾ لهم صالح ﴿ تَمَتَّعُواْ ﴾ أي عيشوا ﴿ فِى دَارِكُمْ ﴾ أي في منازلكم أو في الدنيا ﴿ ثلاثةَ أيّامٍ ﴾ قيل : قال لهم : تصبح وجوهُكم غداً مصفرّةً وبعد غدٍ مُحمرّةً واليومَ الثالثَ مُسودةً ثم يصبّحكم العذابُ ﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما يدل عليه الأمرُ بالتمتع ثلاثةَ أيام من نزول العذاب عَقيبَها ، والمرادُ بما فيه من معنى البُعد تفخيمُه ﴿ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ أي غيرُ مكذوبٍ فيه فحُذف الجارُّ للاتساع المشهور كقوله :

ويومٍ شهِدناه سليماً وعامراً . . . أو غيرُ مكذوب ، كأن الواعدَ قال له : أفي بك فإن وفى

به صدّقه وإلا كذّبه ، أو وعدُ غيرُ كذِبٍ على أنه مصدرٌ كالمجلود والمعقول . انتهى ا . هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(58/381)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ﴾

أخبروني ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيّنَةٍ ﴾ حجة ظاهرة وبرهان وبصيرة ﴿ مّن رَّبّى ﴾ مالكي ومتولي أموري ﴿ الكتاب مِنْهُ ﴾ من قبله سبحانه ﴿ رَحْمَةً ﴾ نبوة ، وهذا من الكلام المنصف ، والاستدراج إذ لا يتصور منه عليه السلام شك فيما في حيز إن ، وأصل وضعها أنها لشك المتكلم ﴿ فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ الله ﴾ أي فمن يمنعني من عذابه ، ففي الكلام مضاف مقدر والنصرة مستعملة في لازم معناها أو أنّ الفعل مضمن معنى المنع ، ولذا تعدى بمن والعدول إلى الإظهار لزيادة التهويل والفاء لترتيب إنكار النصر على ما سبق من كونه على بينة وإيتاء الرحمة على تقدير العصيان حسبما يعرب عنه قوله : ﴿ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ أي في المساهلة في تبليغ الرسالة والمنع عن الشرك به تعالى والمجاراة معكم فيما تشتهون فإن العصيان ممن ذلك شأنه أبعد والمؤاخذة عليه ألزم وإنكار نصرته أدخل ﴿ فَمَا

تَزِيدُونَنِى ﴾ إذن باستتباعكم إياي أي لا تفيدونني إذ لم يكن فيه أصل الخسران حتى يزيدوه ﴿ غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ أي غير أن تجعلوني خاسراً بإبطال أعمالي وتعريضي لسخط الله تعالى ، أو ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِى ﴾ بما تقولون غير أن أنسبكم إلى الخسران ، وأقول لكم : إنكم لخاسرون لا أن أتبعكم .

وروي هذا عن الحسن بن الفضل ، فالفاعل على الأول هم والمفعول صالح ، وعلى الثاني بالعكس والتفعيل كثيراً ما يكون للنسبة كفسقته وفجرته ، والزيادة على معناها والفاء لترتيب عدم الزيادة على انتفاء الناصر المفهوم من إنكاره على تقدير العصيان مع تحقق ما ينفيه من كونه عليه السلام على بينة من ربه وإيتائه النبوة .

(59/381)

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن المعنى ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ ﴾ مضارة في خسرانكم ، فالكلام على حذف مضاف ، وعن مجاهد ما تزدادون أنتم باحتجاجكم بعبادة آبائكم إلا خساراً ، وأضاف الزيادة إلى نفسه لأنهم أعطوه ذلك وكان قد سألهم الإيمان ، وقال ابن عطية : المعنى فما تعطوني فيما اقتضيه منكم من الإيمان ﴿ غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ لأنفسكم ، وأضاف الزيادة إلى نفسه من حيث أنه مقتض لأقوالهم موكل

بإيمانهم كما تقول لمن توصيه : أنا أريد بك خيراً وأنت تريد بي سوءاً وكان الوجه البين أن تقول : وأنت تريد شراً لكن من حيث كنت مريد خير ومقتضى ذلك حسن أن تضيف الزيادة إلى نفسك ، وقيل : المعنى فما تزيدونني غير تخسيري إياكم حيث أنكم كلما ازددتم تكذيباً إياي ازدادت خسارتكم ، وهي أقوال كما ترى .

﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾

الإضافة للتشريف والتنبيه على أنها مفارقة لسائر ما يجانسها خلقاً وخلقاً ﴿ لَكُمْ ءايَةً ﴾ معجزة دالة على صدقي في دعوى النبوة ، وهي حال من ﴿ نَاقَةُ اللهِ ﴾ ، والعامل ما في اسم الإشارة من معنى الفعل .

وقيل : معنى التنبيه ، والظاهر أنها حال مؤسسة ، وجوز فيها أن تكون مؤكدة كهذا أبوك عطوفاً لدلالة الإضافة على أنها آية ، و﴿ لَكُمْ ﴾ كما في "البحر" .

(60/381)

وغيره حال منها فقدمت عليها لتنكيرها ولو تأخرت لكانت صفة لها ، واعترض بأن مجيء الحال من الحال لم يقل به أحد من النحاة لأن الحال تبين هيئة الفاعل أو المفعول وليست الحال شيئاً منهما ، وأجيب بأنها في معنى المفعول للإشارة لأنها متحدة مع المشار إليه

الذي هو مفعول في المعنى ولا يخفى ما فيه من التكلف ، وقيل : الأولى أن يقال : إن هذه الحال صفة في المعنى لكن لم يعربوها صفة لأمر تواضع النحويون عليه من منع تقدم ما يسمونه تابعاً على المتبوع فحديث إن الحال تبين الهيئة مخصوص بغير هذه الحال ، واعترض بأن هذا ونحوه لا يحسم مادة الاعتراض لأن المعترض نفى قول أحد من النحاة بمجيء الحال من الحال ، وبما ذكر لا يثبت القول وهو ظاهر ، نعم قد يقال : إن اقتصار أبي حيان . والزمخشري وهما من تعلم في العربية على هذا النحو من الإعراب كاف في الغرض على أتم وجه ، وأراد الزمخشري بالتعلق في كلامه التعلق المعنوي لا النحوي فلا تناقض فيه على أنه بحث لا يضر .

وقيل : ﴿ لَكُمْ ﴾ حال من ﴿ نَاقَةُ ﴾ و﴿ ءايَةً ﴾ حال من الضمير فيه فهي متداخلة ، ومعنى كون الناقة للمخاطبين أنها نافعة لهم ومختصة بهم وهي منافعها فلا يرد أنه لا اختصاص لذات الناقة بهم ، وإنما المختص كونها آية لهم ، وقيل : ﴿ لَكُمْ ﴾ حال من الضمير في ﴿ ءايَةً ﴾ لأنها بمعنى المشتق ، والأظهر كون ﴿ لَكُمْ ﴾ بيان من هي ﴿ ءايَةً ﴾ له ، وجوز كون ﴿ نَاقَةُ ﴾ بدلاً أو عطف بيان من اسم الإشارة ، و﴿ لَكُمْ ﴾ خبره ، و﴿ ءايَةً ﴾ حال من الضمير المستتر فيه ﴿ فَذَرُوهَا ﴾ دعوها ﴿ تَأْكُلْ فِى أَرْضِ الله ﴾ فليس عليكم مؤنتها والفعل مجزوم لوقوعه في جواب الطلب ، وقرىء بالرفع على الاستئناف أو على الحال كما في "البحر" والمتبادر من الأكل معناه الحقيقي لكن قيل :

في الآية اكتفاءاً أي تأكل وتشرب ، وجوز أن يكون مجازاً عن التغذي مطلقاً والمقام قرينة لذلك .

(61/381)

﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوء ﴾ أي بشيء منه فضلاً عن العقر والقتل ، والنهي هنا على حدّ النهي في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم ﴾ [الأنعام : 152] الخ ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ ﴾ لذلك ﴿ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ عاجل لا يستأخر عن مسكم إياها بسوء إلا يسيراً وذلك ثلاثة أيام ثم يقع عليكم ، وقيل : أراد من وصفه بالقرب كونه في الدنيا ، وإلى الأول ذهب غير واحد من المفسرين وكان الإخبار عن وحي من الله تعالى .

﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أي فخالفوا ما أمروا به فعقروها ، والعقر قيل : قطع عضو يؤثر في النفس .

وقال الراغب : يقال : عقرت البعير إذا نحرته ، ويجيء بمعنى الجرح أيضاً كما في "القاموس" وأسند العقر إليهم مع أن الفاعل واحد منهم وهو قدار كهمام في قول ، ويقال له : أحمر ثمود ، وبه يضرب المثل في الشؤم لرضاهم بفعله ، وقد جاء أنهم اقتسموا لحمها جميعاً ﴿ فَقَالَ ﴾ لهم صالح عليه السلام ﴿ تَمَتَّعُواْ ﴾ عيشوا .

﴿ فِى دَارِكُمْ ﴾ أي بلدكم ، وتسمى البلاد الديار لأنها يدار فيها أي يتصرف يقال : ديار بكر لبلادهم ، وتقول العرب الذي حوالى مكة : نحن من عرب الدار يريدون من عرب البلد ، وإلى هذا ذهب الزمخشري ، وقال ابن عطية : هو جمع دارة كساحة وساح وسوح ، ومنه قول أمية بن أبي الصلت يمدح عبد الله بن جدعان

: له داع بمكة مشمعل . . .

وآخر فوق (دارته) ينادي

ويمكن أن يسمى جميع مسكن الحي داراً وتطلق الدار وتطلق الدار على الدنيا أيضاً ، وبذلك فسرها بعضهم هنا ، وفسر الطبرسي التمتع بالتلذذ أي تلذذوا بما تريدون ﴿ ثلاثة أَيَّامٍ ﴾ ثم يأخذكم العذاب ، قيل : إنهم لما عقروا الناقة صعد فصيلها الجبل ورغا ثلاث رغوات فقال صالح عليه السلام : لكل رغوة أجل يوم ، وابتداء الأيام على ما في بعض الروايات الأربعاء ، وروي أنه عليه السلام قال لهم : تصبح وجوهكم غداً مصفرة .

وبعد غد محمرة .

واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب فكان كما قال : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما يدل عليه الأمر بالتمتع ثلاثة أيام من نزول العذاب عقيبها وما فيه من معنى البعد للتفخيم ﴿ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ أي غير مكذوب فيه فحذف الجار وصار المجرور مفعولاً على التوسع لأن الضمير لا يجوز نصبه على الظرفية والجار لا يعمل بعد حذفه ، ويسمون هذا الحذف والإيصال ، وهو كثير في كلامهم ويكون في الاسم كمشترك وفي الفعل كقوله

: ويوم شهدناه سليماً وعامرا . . .

قليل سوى طعن النهار نوافله

أو (غير مكذوب) على المجاز كأن الواعد قال له : أفي بك فإن وفى به صدقه وإلا كذبه فهناك استعارة مكنية تخييلية ، وقيل : مجاز مرسل بجعل ﴿ مَكْذُوبٍ ﴾ بمعنى باطل ومتخلف ، أو وعد غير كذب على أن مكذوب مصدر على وزن مفعول كمجلود ومعقول بمعنى عقل وجلد فإنه سمع منهم ذلك لكنه نادر ، ولا يخفى ما في تسمية ذلك وعداً من المبالغة في التهكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾

جواب عن كلامهم فلذلك لم تعطف جملة ﴿ قال ﴾ وهو الشّأن في حكاية المحاورات كما تقدّم غير مرة .

وابتداء الجواب بالنّداء لقصد التّنبيه إلى ما سيقوله اهتماماً بشأنه .

وخاطبهم بوصف القوميّة له للغرض الذي تقدّم في قصة نوح .

والكلام في قوله : ﴿ أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربّي وآتاني منه رحمة ﴾ كالكلام على نظيرها في قصة نوح .

وإنّما يتّجه هنا أن يسأل عن موجب تقديم ﴿ منه ﴾ على ﴿ رحمة ﴾ هنا ، وتأخير ﴿ من عنده ﴾ [هود : 28] عن ﴿ رحمة ﴾ [هود : 28] في قصة نوح السابقة .

فالجواب لأنّ ذلك مع ما فيه من التّفنن بعدم التزام طريقة واحدة في إعادة الكلام المتماثل ، هو أيضاً أسعد بالبيان في وضوح الدّلالة ودفع اللبس .

فلمّا كان مجرور (من) الابتدائية ظرفاً وهو (عند) كان صريحاً في وصف الرّحمة بصفة تدلّ على الاعتناء الرّبانيّ بها وبمَن أوتيَها .

ولمّا كان المجرور هنا ضمير الجلالة كان الأحسن أن يقع عقب فعل ﴿ آتاني ﴾ ليكون تقييدُ الإيتاء بأنّه من الله مشير إلى إيتاء خاص ذي عناية بالمؤتى إذ لولا ذلك لكان كونه من

الله تحصيلاً لما أفيد من إسناد الإيتاء إليه، فتعيّن أن يكون المراد إيتاءً خاصاً، ولو أوقع ﴿ منه ﴾ عقب ﴿ رحمة ﴾ لتوهّم السامع أنّ ذلك عوض عن الإضافة، أي عن أن يقال: وآتاني رحمته، كقوله: ﴿ ولنجعله آيةً للنّاس ورحمةً منا ﴾ [مريم: 21] أي ورحمتنا لهم، أي لنعظَهم ونرحَمَهم.

وجملة ﴿ فمن ينصرني من الله ﴾ جواب الشرط وهو ﴿ إن كنت على بيّنة ﴾ .

والمعنى إلزام وجدل، أي إن كنتم تنكرون نبوءتي وتوبّخونني على دعوتكم فأنا مؤمن بأنّي على بيّنة من ربّي، أفترون أنّي أعدل عن يقيني إلى شكّكم، وكيف تتوقّعون منّي ذلك وأنتم تعلمون أنّ يقيني بذلك يجعلني خائفاً من عذاب الله إن عصيته ولا أحد ينصرني.

(64/381)

والكلام على قوله: ﴿ مَنْ ينصرني من الله إن عصيته ﴾ كالكلام على قوله: ﴿ من ينصرني من الله إن طردتهم ﴾ [هود: 30] في قصة نوح.

وفُرع على الاستفهام الإنكاري جملة: ﴿ فما تزيدونني غيرَ تخسير ﴾ أي إذ كان ذلك فما دعاؤكم إيّاي إلا سعي في خسراني.

والمراد بالزيادة حدوث حال لم يكن موجوداً لأنّ ذلك زيادة في أحوال الإنسان، أي فما

يحدث لي إن اتّبعتكم وعصيتُ الله إلاّ الخسرانُ ، كقوله تعالى حكاية عن نوح عليه السّلام : ﴿ فلم يزدهم دعائي إلاّ فِرارا ﴾ [نوح : 6] ، أي كنت أدعوهم وهم يسمعون فلمّا كرّرت دعوتهم زادوا على ما كانوا عليه ففرُّوا ، وليس المعنى أنّهم كانوا يفرّون فزادوا في الفرار لأنّه لو كان كذلك لقيل هنالك : فلم يزدهم دعائي إلاّ من فرار ، ولقيل هنا : فما تزيدونني إلاّ من تخسير .

والتّخسير ، مصدر خسر ، إذا جعله خاسراً .

﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ﴾

هذا جواب عن قولهم : ﴿ وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ [هود : 62] فأتاهم بمعجزة تزيل الشك .

وإعادة ﴿ ويا قوم ﴾ لمثل الغرض المتقدّم في قوله في قصة نوح ﴿ ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم ﴾ [هود : 30] .

والإشارة بهذه إلى الناقة حين شاهدوا انفلاق الصّخرة عنها .

وإضافة النّاقة إلى اسم الجلالة لأنّها خُلقت بقدرة الله الخارقة للعادة .

و﴿ آية ﴾ و ﴿ لكم ﴾ حالان من ناقة ، وتقدّم نظير هذه الحال في سورة الأعراف .

وستجيء قصة في إعرابها عند قوله تعالى : ﴿ وهذا بعلي شيخاً ﴾ في هذه السورة : [72] .

وأوصاهم بتجنب الاعتداء عليها لتوقّعه أنّهم يتَصَدّون لها من تصلبهم في عنادهم .

وقد تقدّم عقرها في سورة الأعراف .

والتمتع : الانتفاع بالمتاع .

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ومتاعٌ إلى حينٍ ﴾ في سورة [الأعراف : 24] .

(65/381)

والدّار : البلد ، وتقدّم في قوله تعالى : ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ في سورة [الأعراف : 78] ، وذلك التأجيل استقصاءٌ لهم في الدعوة إلى الحقّ .

والمكذوب : الذي يُخبر به الكاذب .

يقال : كذَب الخبرَ ، إذا اختلقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(66/381)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾

وكأن صالحاً قد ارتضاهم حكماً فقال : أخبروني إذا كنت أنا على بينة من ربي ويقين بأنه أرسلني وأيدني ، وأنا إن خدعت الناس جميعاً فلن أخدع نفسي ، فهل أترك ما أكرمني به ربي وأنزل إليّ منهجاً أدعوكم إليه ؟ هل أترك ذلك وأستمع لكلامكم ؟ هل أترك يقيني بأنه أرسلني بهذه الرسالة ﴿ وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ [هود : 63] وهي النبوة ؟

﴿ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ [هود : 63] .

وساعة يستفهم إنسان عن شيء في مثل هذا الموقف فهو لا يستفهم إلا عن شيء يثق أن الإجابة ستكون بما يرضيه .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان صالح عليه السلام :

﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ [هود : 63] .

ونحن نعلم أن الخسارة ضد المكسب ، ومعنى الخسارة أن يقل رأس المال . فهل التخسير واقع منه عليهم أم واقع منهم عليه .

إن ثراء الأسلوب القرآني هنا يوضح لنا هذه المعاني كلها ، فإن أطاعهم صالح عليه السلام وعصى ربه ، فهو قد أزاد في خسارته ، أو أنه ينسبهم إلى الخسران أكثر ، لأنهم غير مهديين ، ويريدون له أن يضل ويتبع ما يعبدون من دون الله تعالى .

إذن : فالتخسير إما أن يكون واقعاً عليهم من صالح عليه السلام وإما أن يكون واقعاً منهم على صالح .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان صالح عليه السلام :

﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾

وكان قوم صالح قد طلبوا آية ، فقالوا له : إن كنت نبيّاً فأخرج لنا ناقة من تلك الصخرة ، وأشاروا إلى صخرة ما ، وهم قوم كانوا نابغين في نحت بيوتهم في الجبال . ومن يَزُورْ المنطقة الواقعة بين الشام والمدينة ، يمكنه أن يشاهد مدائن صالح ، وهي منحوتة في الجبال .

وقد قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً فَارِهِينَ ﴾ [الشعراء : 149] .

(67/381)

هم إذن قد حددوا الآية ، وهي خروج ناقة من صخرة أشاروا إليها ، فخرجت الناقة وهي حامل .

وبعد أن وُجدت الناقة على وفق ما طلبوها لم يطيقوا أن يعلنوا التصديق ، وقد قال لهم صالح عليه السلام :

﴿ ويا قوم هذه نَاقَةُ الله ﴾ [هود : 64] .

وساعة تسمع شيئاً مضافاً إلى الله تعالى ، فاعلم أن له عظمة بعظمة المضاف إليه .

مثلما نقول : " بيت الله " ، وهذا القول إن أُطلق فالمقصود به الكعبة المشرفة ، وإن حددنا موقعاً وقلنا عنه : " بيت الله " فنحن نبني عليه مسجداً ، وتكون أرضه قد حُكرت لتكون مُصَلّى ، ولا يُزاوَل فيها أي عمل آخر .

هكذا تكون الكعبة هي بيت الله باختيار الله تعالى ، وتكون هناك مساجد أخرى هي بيوت لله باختيار خَلْق الله .

ولذلك فبيت الله باختيار الله هو قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله .

إذن : فإن أضيف شيء لله تعالى ، فهو يأخذ عظمة الحق سبحانه وتعالى ، وقد قال لهم صالح : ﴿ هذه نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ [هود : 64] وهي ليست ناقة زيد أو ناقة عمرو .

ولم يلتفت قوم صالح إلى ما قاله صالح عليه السلام ، ولم يلحظوا أن الشيء المنسوب لله تعالى له عظمة من المضاف إليه .

ومثال ذلك : " ابن أبي لهب ، وكان قد تزوج ابنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحين اشتد عناد أبي لهب للرسول صلى الله عليه وسلم ، قال أبو لهب لابنه : طلق بنت محمد ، فطلقها ، وفعل فعلاً يدل على الازدراء ، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " أما إني أسأل الله أن يسلط عليه كلبه " .

فقال أبو لهب : إني لأتوجس شرّاً من دعوة محمد .

ثم سافر ابن أبي لهب مع بعض قومه في رحلة ، وكانوا إذا ناموا طلب أبو لهب مكاناً في

وسط رحال الركب كله خوفاً على ابنه من دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا بأسد يقفز من الرحال ويأكل الولد " ، فهنا نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر إلى الله فقال : " أكلك كلب من كلاب الله " فكان كلب الله أسداً .

(68/381)

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يوضح لهم صالح عليه السلام : هذه الناقة هي الآية التي طلبتموها وقد جاءت من الصخر .

وكان يقدر أن يأتي لهم بالجنس الأرقى من الجماد ، وهو النبات ، ولكن الحق سبحانه استجاب للآية التي طلبوها وهي من جنس الحيوان .

ونحن نعلم أن الكائنات الأرضية إما أن تكون جماداً ، وإما أن يأخذ الجماد صفة النمو فيصير نباتاً ، وإما أن يأخذ صفة الحس والحركة فيصير حيواناً ، وإما أن يأخذ صفة الحس والحركة والفكر فيصير إنساناً .

وكان من الممكن أن يأتي لهم صالح عليه السلام بشجرة من الصخر ، وهذا أمر فيه إعجاز أيضاً ، ولكن الحق سبحانه أرسل الآية كما طلبوها ؛ ناقة من جنس الحيوان ، وحامل في الوقت نفسه .

وطالبهم صالح عليه السلام أن يحافظوا عليها ؛ لأنها معجزة ، عليهم ألا يتعرضوا لها .

وقال لهم :

﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود : 64] .

وهكذا وعظهم ، وطلب منهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ، وإن مسّوها بسوء ولم يأخذهم عذاب ، فمن آمن به لا بد أن يكفر .

إذن : فلا بد أن يأتي العذاب القريب إن هم مسّوها .

وهم قد مسّوها بالفعل ، وهو ما تبينه الآية الكريمة التالية : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ﴾

وجلسوا في منازلهم ثلاثة أيام ثم جاءهم العذاب .

ولقائل أن يقول : ولِمَ الإمهال بثلاثة أيام ؟

ونقول : إن العذاب إذا جاء فالألم الحسِّي ينقطع من المعذَّب ، ويشاء الله تعالى أن يعيشوا في ذلك الألم طوال تلك المُدَّة حتى يتألموا حِسِّيًا ، وكل يوم يمرُّ عليهم تزداد آلامهم من قرب الوعيد الذي قال فيه الله تعالى :

﴿ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : 65] .

الحق سبحانه هو الذي يَعِدُ ، وهو القادر على إنفاذ الوعد ، ولا تقوم قوة أمامه ؛ لذلك فهو وعد صادق غير مكذوب .

(69/381)

على عكس الإنسان منا حين يَعِدُ بشيء ، فمن الممكن أن يأتي وقت تنفيذ الوعد ولا يستطيع .

لذلك يقول لنا الحق سبحانه :

﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ ﴾ [الكهف : 2324] .

لأنك إن قلت : " أفعل ذلك غداً " ، وتعد إنساناً بلقائه لكذا وكذا ؛ فقل : " إن شاء الله " ؛ لأن الله تعالى لا يمنع ترتيب أمور لزمن يأتي ، وإنما يجب أن يردف من يرتب الأمور " بمشيئة القوي القادر " حتى إذا لم ينجز ما وعد به ؛ يكون قد خرج عن الكذب ، لأن الله تعالى لم يشأ ، لأن الإنسان إذا وعد ، فهو لا يعتمد على إرادته ، ولكن مشيئة الله تعالى تعلو كل شيء .

والفعل كما نعلم يقتضي فاعلاً ، ومفعولاً ، وزمناً ، وسبباً دافعاً ، وقدرة تمكِّن الإنسان من الفعل ، فهل يملك أحدٌ شيئاً من كل هذا ؟

إن الإنسان لا يملك نفسه أن يعيش إلى الغد ، ولا يملك من بعده أن يوجد غداً حتى يلقاه ، ولا يملك أن يظل السبب سبباً لِلّقاء ؛ فربما انتهى السبب ، ولا يملك حين تجتمع الأسباب كلها أن توجد له قدرة وقوة على إنفاذ السبب .

إذن : فإذا قال : " أفعل ذلك غداً مع فلان " ؛ يكون قد جازم وتكلم في شيء لا يملك عنصراً واحداً من عناصره ، فقل : " إن شاء الله " ، أي : أنك تستعين بمشيئة من يملك كل هذه العناصر .

ويعطي الحق سبحانه في كل لقطة إيمانية من اللقطات ، قدرته على خلقه فهو سبحانه القائل :

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذلك وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : 65] .

وقوله : ﴿ فِي دَارِكُمْ ﴾ لأن من هؤلاء الذين كفروا قوماً في مكان يختلف عن مكان آخر يوجد به أيضاً قوم كافرون ، ومنهم المسافر ، ومنهم العائد من سفر ، فتتبعهم العذاب حيثما كانوا ، فلم ينزل على مكان واحد ، إنما نزل على المكين منهم في أي مكان .

ولم يَنْجُ من هذه المسألة إلا واحد اسمه " أبو رغال " ، وكان يحج إلى بيت الله ، فلم يتبعه عذابه في بيت الله ؛ لأن الله سبحانه طلب منا نحن عباده أن نؤمِّن من دخل بيته ، فهو سبحانه وتعالى أوْلى بأن يؤمِّن من دخل البيت الحرام ، وظل الحجر الذي سيُضرب به ، أو الصيحة التي كان عليها أن تأخذه ، ظلت إلى أن خرج من الحرم فوقعت عليه .

. وعَمَّ العذابُ الكافرين من قوم صالح ، وتتبع من في الديار إلا هذا الرجل ، وما إن خرج من البيت الحرام حتى وقع عليه العذاب .

ولذلك كان قاتل الأب أو الإنسان الذي عليه دم نتيجة أنه ارتكب جريمة قتل ، إذا ما دخل البيت الحرام فهو يُؤمَّن إلى أن يخرج ، وكانوا يُضيِّقون عليه ، فلا يطعمه أحد ، ولا يسقيه أحد ليضطر إلى الخروج ، فيتم القصاص منه بعد خروجه من البيت الحرام ، ولتظل حرمة البيت الحرام مُصَانة .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه أراد من تحريم القتال في البيت الحرام ، صيانة وتكريماً للكرامة الإنسانية .

ونحن نعلم أيضاً أن كل حدث من الأحداث يقتضي زماناً ، ويقتضي مكاناً .

وكان العرب دائمي الغارات على بعضهم البعض ، فأراد الحق سبحانه أن يوجد مكان يحرم فيه القتال ؛ فخصَّ البيت الحرام بذلك ، وأراد سبحانه أن يوجد زمان يحرم فيه القتال ؛ فكانت الأشهر الحرم ؛ لان الحرب قد تكون سجالاً بين الناس وتوقظ فيهم الحمية والأنفة

والعزة .

وكل واحد منهم يحب في ذاته أن ينتهي من الحرب ، ولكنه لا يحب أن يجبن أمام الناس ، فأراد الحق سبحانه أن يجعل لهم شيئاً يتوارون فيه من الزمان ومن المكان ، فحرم القتال في الأشهر الحرم .

وما إن تأتي الأشهر الحرم حتى يعلن المقاتل من هؤلاء : لولا الأشهر الحرم لكنت قد أنزلت بخصمي الهزيمة الساحقة ، وهو يقول ذلك ليداري كبرياءه ؛ لأنه في أعماقه يتمنى انتهاء الحرب .

وكذلك حين يدخل مقاتل إلى البيت الحرام ، هنا يقول مَنْ كان يحاربه : لو لم يدخل الحرم ؛ لأذقته عذاب الهزيمة .

وبمضِيّ الزمان وبالمكث في المكان ينعم الناس بالأمن والسلام ، وربما عشقوه فانتهوا من الحرب . انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير الشعراوى صـ ﴾

(71/381)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ : إلى آخره : قد تقدَّم نظيره ، والمفعول الثاني هنا محذوفٌ تقديره : أأَعْصيه ، ويدلُّ عليه " إن عصيته " . وقال ابن عطية : " هي مِنْ رؤية القلب ، والشرط الذي بعده وجوابه يَسُدُّ مَسَدَّ مفعولَيْن ل " أرأيتم " . قال الشيخ : " والذي تقرَّر أنَّ " أرأيت " ضُمِّن معنى أخبرْني ، وعلى تقدير أن لا يُضَمَّن ، فجملةُ الشرط والجواب لا تسدُّ مسدَّ مفعولَيْ علمت وأخواتها .

قوله : ﴿ غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ الظاهر أنَّ " غيرَ " مفعولٌ ثانٍ لتزيدونني . قال أبو البقاء : " الأقوى هنا أن تكون " غير " استثناءً في المعنى ، وهي مفعولٌ ثانٍ ل " تزيدونني " ، أي : فما تزيدونني إلا تخسيراً " . ويجوز أن تكون " غير " صفةً لمفعولٍ محذوف ، أي : شيئاً غير تخسير ، وهو جيد في المعنى . ومعنى التفعيل هنا النسبةُ ، والمعنى : غيرَ أن أُخْسِرَكم ، أي : أُنسبكم إلى التخسير ، قاله الزمخشري . وقيل : هو على حَذْفِ مضافٍ ، أي : غير بضارِّه تخسيركم ، قاله ابن عباس .

﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (64) ﴾

قوله تعالى : ﴿ آيَةً ﴾ : نصب على الحال بمعنى علامة ، والناصب لها : إمَّا ها التنبيه أو اسمُ الإشارة ؛ لِما تضمَّناه من معنى الفعل ، أو فعلٍ محذوف .

قوله: ﴿ لَكُمْ ﴾ في محلِ نصبٍ على الحال من "آيةٍ"؛ لأنه لو تأخَّر لكان نعتاً لها، فلما قُدِّم انتصبَ حالاً. قال الزمخشري: "فإن قلت بم تتعلَّقُ "لكم"؟ قلت: "بآية" حالاً منها متقدمة، لأنها لو تأخَّرَتْ لكانت صفةً لها، فلما تقدَّمت انتصبت على الحال". قال الشيخ: "وهذا متناقض لأنه من حيث تعلَّق "لكم" ب"آية" كان معمولاً ل"آية"، وإذا كان معمولاً لها امتنع أن يكون حالاً منها، لأنَّ الحال تتعلَّق بمحذوف". قلت: ومثل هذا كيف يُعترض به على مِثْل الزمخشري بعد إيضاحه المعنى المقصودَ بأنه التعلُّقُ المعنويُّ؟

وقرأت فرقة: "تأكلُ" بالرفع: إمَّا على الاستئناف، وإمَّا على الحال.

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (65) ﴾

قوله تعالى: ﴿ فِي دَارِكُمْ ﴾: قيل: هو جمعُ "دارَة" كساحة وساح وسُوح، وأنشدوا لأمية بن أبي الصلت:

2671 له داعٍ بمكةَ مُشْمَعِلٌّ... وآخرُ فوق دارَتِه يُنادي

قوله: ﴿ مَكْذُوبٍ ﴾ يجوز أن يكونَ مصدرا على زنة مفعول، وقد جاء منه أُلَيْفاظ نحو: "المَجْلود والمَعْقول والميسور والمفتون، ويجوز أن يكونَ اسمَ مفعولٍ على بابه، وفيه

حينئذ تأويلان، أحدُهما: غيرُ مكذوب فيه، ثم حُذف حرف الجر فاتصل الضمير مرفوعاً مستتراً في الصفةِ، ومثله ﴿ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود: 103] وقوله:

2672 ويومٍ شَهِدْناه سليمى وعامراً ... قليلٌ سوى الطَّعْنِ النّهالِ نوافلُهْ

والثاني: أنه جُعل هو نفسُه غيرَ مكذوب، لأنه قد وُفّي به فقد صُدّق. انتهى. ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 347. 349 ﴾

(73/381)

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (67) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (68) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى:

وأشار إلى تعقب العذاب للأيام وتسببه عن الوعيد المعين بقوله: ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ بالفاء بخلاف ما في قصة هود وشعيب عليهما السلام، أي مع مضي الأيام كان أول ما فعالنا أن ﴿ نجينا ﴾ بنا لنا من العظمة أولياءنا ﴿ صالحاً والذين آمنوا معه ﴾ من كيد

قومهم ، وبين أن إحسانه سبحانه لا يكون إلا فضلاً منه بقوله : ﴿ برحمة منا ﴾ وذلك أنه عليه السلام قال لهم : تصبحون غداً يوم مؤنس – يعني الخميس – ووجوهكم مصفرة ، ثم تصبحون يوم عروبة – يعني الجمعة – ووجوهكم محمرة ، ثم تصبحون يوم شبار ووجوهكم مسودة ، ثم يصبحكم العذاب يوم أول – أي الأحد – فقال التسعة رهط الذين عقروا الناقة : هلم فلنقتل صالحاً ، فإن كان صادقاً عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذباً قد كنا ألحقناه بناقته ، فأتوه ليلاً ليبيتوه في أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطؤوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ! ثم هموا به فقامت عشيرته دونهم ولبسوا السلاح وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبداً فقد وعدكم أن العذاب يكون بكم بعد ثلاث ، فإن كان صادقاً لم تزيدوا ربكم عليكم إلا غضباً ، وإن كان كاذباً فأنتم وراء ما تريدون ، فانصرفوا فلما أصبحت وجوههم مصفرة عرفوا أنه قد صدقهم ، فطلبوه ليقتلوه فجاء إلى بطن منهم يقال له (بنو غنم) فنزل على سيدهم رجل فغيبه عنده ، فعدوا على أصحاب صالح يعذبونهم ليدلوهم عليه فقالوا : يا نبي الله ! إنهم يعذبوننا لندلهم عليك ، أفندلهم ؟ قال : نعم ، فدلوهم عليه فأتوه فقال الغنمي : نعم عندي ولا سبيل إليه ، فتركوه وشغلهم عنه ما أنزل الله بهم كذا ذكر ذلك البغوي عن ابن اسحاق ووهب وغيرهما مطولاً .

ولما ذكر نجاتهم من كل هلكة ، ذكر نجاتهم من خصوص ما عذب به قومهم فقال :

﴿ ومن ﴾ أي ونجيناهم من ﴿ خزي ﴾ أي ذل وفضيحة ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم إذ جاء أمرنا بإهلاكهم بالصيحة وحل بهم دونهم فرقاً بين أوليائنا وأعدائنا ، وحذف " نجينا " هنا يدل على أن عذابهم دون عذاب عاد ؛ ثم عقب ذلك بتعليله إهلاكاً وإنجاء باختصاصه بصفات القهر والغلبة والانتقام فقال : ﴿ إن ربك ﴾ أي المحسن إليك كما أحسن إلى الأنبياء من قبلك ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ القوي ﴾ فهو يغلب كل شيء ﴿ العزيز ﴾ أي القادر على منع غيره من غير أن يقدر أحد عليه أو على الامتناع منه ، من عز الشيء أي امتنع ، ومنه العزاز - للأرض الصلبة الممتنعة بذلك عن التصرف فيها ؛ والخزي : العيب الذي تظهر فضيحته ويستحي من مثله ؛ ثم بين إيقاعه بأعدائه بعد إنجائه لأوليائه فقال معظماً للأخذ بتذكير الفعل : ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾ وأشار إلى عظمة هذه الصيحة بإسقاط علامة التأنيث وسبب عنها قوله : ﴿ فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ أي ساقطين على وجوههم ، وقيل : جاثين على الركب موتى لا حراك بهم ، وتقدم سر التعبير بالديار مع الصيحة والدار مع الرجفة في الأعراف ، وخصت هود بما ذكر فيها لأن مقصودها أعظم نظر إلى التفصيل ، وكل من الديار والصيحة أقرب إلى ذلك .

ولما كان الجثوم كناية عن الموت أوضحه بقوله : ﴿ كأن ﴾ أي كأنهم ﴿ لم يغنوا ﴾ أي يقيموا أغنياء لاهين بالغناء ﴿ فيها ﴾ ثم نبه - على ما استحقوا به ذلك لمن لعله يغفل فيسأل - بقوله مفتتحاً بالأداة التي لا تقال إلا عند الأمور الهائلة : ﴿ ألا إن ثموداً ﴾ قراءة الصرف دالة على الاستخفاف بهم لطيشهم في المعصية ﴿ كفروا ربهم ﴾ أي أوقعوا التغطية والستر على المحسن إليهم بالخلق والرزق والإرسال وهو الظاهر وبصفاته وأفعاله ، فلا يخفى على أحد أصلاً ، فإيصال الفعل دون قصره كما في أكثر أضرابه بيان لغلاظة كفرهم ؛ ثم كرر ذلك تأكيداً له وإعلاماً بتأبيد هلاكهم بقوله : ﴿ ألا بعداً لثمود ﴾ ترك صرفهم في قراءة غير الكسائي إيذاناً بدوام لبثهم في الطرد والبعد ؛ والصيحة : صوت عظيم من فم حي ، والجثوم لدوام مكان واحد أو السقوط على الوجه ، وقيل : القعود على الركب ؛ وقال ﴿ أصبحوا ﴾ زيادة في التخويف والتأسيف بما وقع لهم من التحسير لو أدركه أحد منهم لأن الإنسان يفرح إذا أصبح بقيامه من نومه مستريحاً قادراً على ما يريد من الحركات للاستمتاع بما يشتهي من التصرفات ، فأصبح هؤلاء - بعد هذه الصفة على ما قص الله - خفوتاً أجمعين كنفس واحدة رجالاً ونساء صغاراً وكباراً كأنهم لم يكونوا

أصلاً، ولا أصدروا فصلاً ولا وصلاً كأنهم لم يكونوا للعيون قرة، ولم يعدوا في الأحياء مرة كأن لم يغنوا أي يقيموا لانقطاع آثارهم إلا ما بقي من أجسادهم الدالة على الخزي؛ والمغاني : المنازل، وأصل الغناء الاكتفاء؛ ومعنى "ألا" التنبيه؛ قال الرماني : وهي ألف الاستفهام دخلت على "لا" فالألف تقتضي معنى، و "لا" تنفي معنى، فاقتضى الكلام بهما معنى التنبيه مع نفي الغفلة - انتهى.

(76/381)

وكان حقيقته - والله أعلم - أن "لا" دخلت على ما بعدها فنفته، ثم دخلت عليها همزة الإنكار فنفتها، ومن المعلوم أن نفي النفي إثبات فرجع المعنى كما كان على أتم وجوه التنبيه والتأكيد، لأن إثبات المعنى بعد نفيه آكد من إثباته عرياً عن النفي ولا سيما إذا كان المفيد لذلك الإنكار، وهذا المعنى مطرد في ألا العرضية وهلا التخصيصية ونحوهما، ويمشي في كل صلة بأن تردها إلى أصل مدلولها في اللغة ثم تتصرف بما يقتضيه الحال - والله الهادي! ولما جاز الصرف في ثمود باعتبار أنه اسم أبي القبيلة وعدمه باعتبار إطلاقه على القبيلة اختير الصرف في النصب فقط لخفته. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 3 صـ 550 - 552﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾

اعلم أن مثل هذه الآية قد مضى في قصة عاد ، وقوله : ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ فيه مسائل :

المسألة الأولى :

الواو في قوله : ﴿ وَمِنْ خِزْيِ ﴾ واو العطف وفيه وجهان : الأول : أن يكون التقدير : نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا من العذاب النازل بقومه ومن الخزي الذي لزمهم وبقي العار فيه مأثوراً عنهم ومنسوباً إليهم ، لأن معنى الخزي العيب الذي تظهر فضيحته ويستحيا من مثله فحذف ما حذف اعتماداً على دلالة ما بقي عليه .

الثاني : أن يكون التقدير : نجينا صالحا برحمة منا ونجيناهم من خزي يومئذ .

المسألة الثانية :

قرأ الكسائي ونافع في رواية ورش وقالون وإحدى الروايات عن الأعشى ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بفتح

الميم ، وفي المعارج ﴿ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ ﴾ [المعارج : 11] والباقون بكسر الميم فيهما فمن قرأ بالفتح فعلى أن يوم مضاف إلى إذ وأن إذ مبني ، والمضاف إلى المبني يجوز جعله مبنياً ألا ترى أن المضاف يكتسب من المضاف إليه التعريف والتنكير فكذا ههنا ، وأما الكسر في إذ فالسبب أنه يضاف إلى الجملة من المبتدأ والخبر تقول : جئتك إذ الشمس طالعة ، فلما قطع عن المضاف إليه نون ليدل التنوين على ذلك ثم كسرت الذال لسكونها وسكون التنوين ، وأما القراءة بالكسر فعلى إضافة الخزي إلى اليوم ولم يلزم من إضافته إلى المبني أن يكون مبنياً لأن هذه الإضافة غير لازمة .

المسألة الثالثة :

الخزي الذل العظيم حتى يبلغ حد الفضيحة ولذلك قال تعالى في المحاربين ﴿ ذلك لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدنيا ﴾ [المائدة : 33] وإنما سمى الله تعالى ذلك العذاب خزياً لأنه فضيحة باقية يعتبر بها أمثالهم ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ القوى العزيز ﴾ وإنما حسن ذلك ، لأنه تعالى بين أنه أوصل ذلك العذاب إلى الكافر وصان أهل الإيمان عنه ، وهذا التمييز لا يصح إلا من القادر الذي يقدر على قهر طبائع الأشياء فيجعل الشيء الواحد بالنسبة إلى إنسان بلاء وعذاباً

وبالنسبة إلى إنسان آخر راحة وريحاناً ثم إنه تعالى بين ذلك الأمر فقال : ﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

إنما قال : ﴿ أَخَذَ ﴾ ولم يقل أخذت لأن الصيحة محمولة على الصياح ، وأيضاً فصل بين الفعل والاسم المؤنث بفاصل ، فكان الفاصل كالعوض من تاء التأنيث ، وقد سبق لها نظائر .

المسألة الثانية :

ذكروا في الصيحة وجهين .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : المراد الصاعقة الثاني : الصيحة صيحة عظيمة هائلة سمعوها فماتوا أجمع منها فأصبحوا وهم موتى جاثمين في دورهم ومساكنهم ، وجثومهم سقوطهم على وجوههم ، يقال إنه تعالى أمر جبريل عليه السلام أن يصيح بهم تلك الصيحة التي ماتوا بها ، ويجوز أن يكون الله تعالى خلقها ، والصياح لا يكون إلا الصوت الحادث في حلق وفم وكذلك الصراخ ، فإن كان من فعل الله تعالى فقد خلقه في حلق حيوان وإن كان فعل جبريل عليه السلام فقد حصل في فمه وحلقه ، والدليل عليه أن صوت الرعد أعظم من كل صيحة ولا يسمى بذلك ولا بأنه صراخ .

فإن قيل : فما السبب في كون الصيحة موجبة للموت ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها : أن الصيحة العظيمة إنما تحدث عند سبب قوي يوجب تموج الهواء وذلك التموج الشديد ربما يتعدى إلى صماخ الإنسان فيمزق غشاء الدماغ فيورث الموت .

(79/381)

والثاني : أنها شيء مهيب فتحدث الهيبة العظيمة عند حدوثها والأعراض النفسانية إذا قويت أوجبت الموت الثالث : أن الصيحة العظيمة إذا حدثت من السحاب فلا بد وأن يصحبها برق شديد محرق ، وذلك هو الصاعقة التي ذكرها ابن عباس رضي الله عنهما .

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَارِهِمْ جاثمين ﴾ والجثوم هو السكون يقال للطير إذا باتت في أوكارها أنها جثمت ، ثم إن العرب أطلقوا هذا اللفظ على ما لا يتحرك من الموت فوصف الله تعالى هؤلاء المهلكين بأنهم سكنوا عند الهلاك ، حتى كأنهم ما كانوا أحياء وقوله : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ أي كأنهم لم يوجدوا ، والمغنى المقام الذي يقيم الحي به يقال : غني الرجل بمكان كذا إذا أقام به .

ثم قال تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لّثَمُودَ ﴾ قرأ حمزة وحفص عن عاصم ﴿ أَلا إِنَّ ثَمُودَ ﴾ غير منون في كل القرآن ، وقرأ الباقون ﴿ ثمودًا ﴾ بالتنوين ولثمود كلاهما

بالصرف ، والصرف للذهاب إلى الحي ، أو إلى الأب الأكبر ومنعه للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 19.17 ﴾

(80/381)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحةُ ﴾

فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن جبريل عليه السلام صاح بهم .

الثاني : أن الله تعالى أحدثها في حيوان صاح بهم .

الثالث : أن الله تعالى أحدثها من غير حيوان .

﴿ فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ لأن الصيحة أخذتهم ليلاً فأصبحوا منها هلكى . ﴿

في ديارهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : في منازلهم وبلادهم ، من قولهم هذه ديار بكر وديار ربيعة .

الثاني : في دار الدنيا لأنها دار لجميع الخلق .

وفي ﴿ جاثمين ﴾ وجهان :

أحدهما : مبيتين ، لأن الصحية كانت بياتاً في الليل ، قاله عبد الرحمن بن زيد . الثاني : هلكى بالجثوم .

وفي الجثوم تأويلان :

أحدهما : أنه السقوط على الوجه .

الثاني : أنه القعود على الرُّكب .

قوله عز وجل : ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : كأن لم يعيشوا فيها .

الثاني : كأن لم ينعموا فيها .

﴿ ألا إنَّ ثمود كفروا ربهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : كذبوا وعيد ربهم . الثاني : كفروا بأمر ربهم .

﴿ ألا بُعْداً لثمود ﴾ فقضى عليهم بعذاب الاستئصال فهلكوا جيمعاً إلا رجلاً منهم وهو أبو رِغال كان في حرم الله تعالى فمنعه الحرم من عذاب الله تعالى . انتهى . اهـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾

" الأمر " جائز أن يراد به المصدر من أمر ، وجائز أن يراد به : واحد الأمور . وقوله : ﴿ برحمة منا ﴾ يحتمل أن يقصد أن التنجية إنما كانت بمجرد الرحمة ، ويحتمل أن يكون وصف حال فقط : أخبر أنه رحمهم في حال التنجية . وقوله : ﴿ منا ﴾ الظاهر أنه متعلق ب ﴿ رحمة ﴾ ويحتمل أن يتعلق بقوله ﴿ نجينا ﴾ .

وقرأت فرقة : " ومن خزيٍ يومَئذ " بتنوين خزي وفتح الميم من ﴿ يومئذ ﴾ وذلك يجوز فيه أن تكون فتحة الميم إعراباً ، ويجوز أن يكون بني الظرف لما أضيف إلى غير متمكن ، فأنت مخير في الوجهين . والروايتان في قول الشاعر :

على حين عاتبت المشيب على الصبا . . . وقلت ألَّما أصح والشيب وازع

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو " ومن خزيِ يومِئذ " بإضافة " خزي " وكسر الميم من ﴿ يومئذ ﴾ وهذا توسع في إضافة المصدر إلى الظرف كما قال : ﴿ مكر الليل والنهار ﴾ [سبأ : 33] ونحو هذا ، وقياس هذه القراءة أن يقال سير عليه " يومُئذ " برفع الميم ، وهذه قراءتهم في قوله تعالى : ﴿ من عذاب يومئذ ﴾ [المعارج : 11] ، و ﴿ من فزع يومئذ ﴾ [النمل : 89] ، وقرأ عاصم وحمزة كذلك إلا في قوله ﴿ من فزع يومئذ ﴾ [النمل : 89] فإنهما نونا العين وفتحا الميم واختلفت عن نافع في كسر الميم وفتحها ، وهو يضيف

في الوجهين ، وقرأ الكسائي " من خزي يومَئذ " بترك التنوين وفتح الميم من ﴿ يومئذ ﴾ وهذا جمع بين الإضافة وبناء الظرف .

(82/381)

وقرأ ﴿ ومن فزع ﴾ [النمل : 89] كعاصم وحمزة وأما " إذ " فكان حقها : " إذ " ساكنة إلا أنها من حقها أن تليها الجمل فلما حذفت لها ها هنا الجملة عوضت بالتنوين ، والإشارة بقوله : ﴿ يومئذ ﴾ إلى يوم التعذيب ، وقوله تعالى : ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾ الآية ، روي أن صالحاً عليه السلام قال لهم حين رغا الفصيل : ستصفر وجوهكم في اليوم الأول وتحمر في الثاني وتسود في الثالث ، فلما كان كذلك تكفنوا في الأنطاع واستعدوا للهلاك وأخذتهم صيحة فيها من كل صوت مهول ، صدعت قلوبهم وأصابت كل من كان منهم في شرق الأرض وغربها ، إلا رجلاً كان في الحرم فمنعه الحرم من ذلك ثم هلك بعد ذلك : ففي مصنف أبي داود : قيل يا رسول الله من ذلك الرجل؟ قالوا أبو رغال .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا نظر ، وخلافه في السير . وذكر الفعل المسند إلى الصيحة إذ هي بمعنى الصياح ، وتأنيثها غير حقيقي . وقيل : جاز ذلك وهي مؤنثة لما فصل بين

الفعل وبينها . كما قالوا : حضر القاضي اليوم امرأة ؛ والأول أصوب ، و" الصيحة " إنما تجيء مستعملة في ذكر العذاب لأنها فعلة تدل على مرة واحدة شاذة ، والصياح يدل على مصدر متطاول ، وشذ في كلامهم قولهم : لقيته لقاءة واحدة ، والقياس لقية ، و ﴿ جاثمين ﴾ أي باركين قد صعق بهم ، وهو تشبيه بجثوم الطير ، وبذلك يشبه جثوم الأثافي وجثوم الرماد .

و ﴿ يغنوا ﴾ مضارع من غني في المكان إذا أقام فيه في خفض عيش وهي المغاني : وقرأ حمزة وحده : " ألا ان ثمود " وكذلك في الفرقان والعنكبوت والنجم ، وصرفها الكسائي كلها . وقوله : ﴿ ألا بعداً لثمود ﴾ واختلف عن عاصم : فروى عنه حفص ترك الإجراء كحمزة ، وروى عنه أبو بكر إجراء الأربعة وتركه في قوله : ﴿ الا بعداً لثمود ﴾ وقرأ الباقون : " ألا إن ثموداً " فصرفت " ألا بعد لثمود " غير مصروف ؛ والقراءتان فصيحتان ؛ وكذلك صرفوا في الفرقان والعنكبوت والنجم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾

أي عذابنا .

﴿ نَجَّيْنَا صَالِحاً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ تقدّم .

﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ أي ونجيناهم من خزي يومئذ ؛ أي من فضيحته وذلّته .

وقيل : الواو زائدة ؛ أي نجيناهم من خزي يومئذ .

ولا يجوز زيادتها عند سيبويه وأهل البصرة ، وعند الكوفيين يجوز زيادتها مع "لما" و"حتى" لا غير .

وقرأ نافع والكسائيّ "يَوْمَئِذٍ" بالنصب .

الباقون بالكسر على إضافة "يوم" إلى "إذ" .

وقال أبو حاتم : حدّثنا أبو زيد عن أبي عمرو أنه قرأ "وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ" أدغم الياء في الياء ، وأضاف ، وكسر الميم في "يومئذ" .

قال النحاس : الذي يرويه النحويون مثل سيبويه ومن قاربه عن أبي عمرو في مثل هذا الإخفاء ؛ فأما الإدغام فلا يجوز ، لأنه يلتقي ساكنان ، ولا يجوز كسر الزاي .

قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة ﴾ أي في اليوم الرابع صِيح بهم فماتوا ؛ وذَكَّر لأن الصّيحة والصِّياح واحد .

قيل : صيحة جبريل .

وقيل : صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة ، وصوت كل شيء في الأرض ، فتقطعت قلوبهم وماتوا .

وقال هنا : "وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ" وقال في "الأعراف" ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ [الأعراف : 18] وقد تقدّم بيانه هناك .

وفي التفسير : أنهم لما أيقنوا بالعذاب قال بعضهم لبعض ما مقامكم أن يأتيكم الأمر بغتة ؟! قالوا : فما نصنع ؟ فأخذوا سيوفهم ورماحهم وعُدَدهم ، وكانوا فيما يقال اثني عشر ألف قبيلة ، في كل قبيلة اثنا عشر ألف مقاتل ، فوقفوا على الطرق والفِجاج ، زعموا يلاقون العذاب ؛ فأوحى الله تعالى إلى المَلَك الموكل بالشمس أن يعذبهم بحرّها ، فأدناها من رؤوسهم فاشتوت أيديهم ، وتدلت ألسنتهم على صدورهم من العطش ، ومات كل ما كان معهم من البهائم .

وجعل الماء يتفوّر من تلك العيون من غليانه حتى يبلغ السماء ، لا يسقط على شيء إلا أهلكه من شدّة حره ، فما زالوا كذلك ، وأوحى الله إلى ملَك الموت ألا يقبض أرواحهم

تعذيباً لهم إلى أن غربت الشمس؛ فصيح بهم فأهلكوا .

﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ أي ساقطين على وجوههم ، قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جَثَمت .

﴿ أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ ﴾ تقدّم معناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(85/381)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾

يعني العذاب ﴿ نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ أي بنعمة منا بأن هديناهم إلى الإيمان فآمنوا ﴿ ومن خزي يومئذ ﴾ يعني ونجيناهم من عذاب يومئذ سمي خزياً لأن فيه خزي الكافرين ﴿ إن ربك ﴾ الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) يعني إن ربك يا محمد ﴿ هو القوي ﴾ يعني هو القادر على إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين ﴿ العزيز ﴾ يعني القاهر الذي لا يغلبه شيء ثم أخبر عن عذاب قوم صالح فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وأخذ الذين ظلموا ﴾ يعني أنفسهم بالكفر ﴿ الصيحة ﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام

صاح بهم صيحة واحدة فهلكوا جميعاً وقيل أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض فتقطعت قلوبهم في صدورهم فماتوا جميعاً ﴿ فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ يعني صرعى هلكى.

﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ يعني كأن لم يقيموا في تلك الديار ولم يسكنوها مدة من الدهر يقال غنيت بالمكان إذا أتيته أقمت به ﴿ ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴾ وهذه القصص قد تقدمت مستوفاة في تفسير سورة الأعراف. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(86/381)

وقال أبو حيان:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾

الصيحة: فعلة للمرة الواحدة من الصياح، يقال: صاح يصيح إذا صوت بقوة.

﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴾: والكلام في جاء أمرنا كالكلام السابق في قصة قوم

هود .

قيل : الواو زائدة في ومن أي من خزي يومئذ فيتعلق من بنجينا ، وهذا لا يجوز عند البصريين ، لأن الواو لا تزاد عندهم بل تتعلق من بمحذوف أي : ونجيناهم من خزي ، أي وكانت التنجية من خزي يومئذ .

وقرأ طلحة وأبان بن تغلب : ومن خزي بالتنوين ، ونصب يومئذ على الظرف معمولاً لخزي .

وقرأ الجمهور بالإضافة ، وفتح الميم نافع والكسائي ، وهي فتحة بناء لإضافته إلى إذ ، وهو غير متمكن .

وقرأ باقي السبعة بكسر الميم وهي حركة إعراب ، والتنوين في إذ تنوين عوض من الجملة المحذوفة المتقدمة الذكر أي : ومن فضيحة يوم إذ جاء الأمر وحل بهم .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يريد بيومئذ يوم القيامة ، كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة انتهى .

وهذا ليس بجيد ، لأن التنوين في إذ تنوين العوض ولم يتقدم إلا قوله ، فلما جاء أمرنا ولم تتقدم جملة فيها ذكر يوم القيامة ولا ما يكون فيها ، فيكون هذا التنوين عوضاً من الجملة التي تكون في يوم القيامة .

وناسب مجيء الأمر وصفه تعالى بالقوي العزيز ، فإنهما من صفات الغلبة والقهر والانتقام ،

والجملة التي بعد هذا تقدم الكلام عليها في الأعراف ألا إن ثمود ، منع حمزة وحفص صرفه ، وصرفه الباقون ، لثمود صرفه الكسائي ، ومنعه باقي السبعة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(87/381)

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا ﴾

أي عذابُنا أو أمرُنا بنزوله وفيه ما لا يخفى من التهويل ﴿ نَجَّيْنَا صالحا والذين ءامَنُواْ مَعَهُ ﴾ متعلقٌ بنجينا أو بآمنوا ﴿ بِرَحْمَةٍ ﴾ بسبب رحمةٍ عظيمة ﴿ مِنَّا ﴾ وهي بالنسبة إلى صالحٍ النبوةُ وإلى المؤمنين الإيمانُ كما مر أو ملتبسين برحمة ورأفةٍ منا ﴿ وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ﴾ أي ونجيناهم من خزي يومئذٍ ، وهو هلاكُهم بالصيحة كقوله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ مّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ على معنى أنه كانت تلك التنجيةُ تنجيةً من خزي يومئذ ، أي من ذِلته ومهانته أو ذلِّهم وفضيحتِهم يومَ القيامة كما فسر به العذابُ الغليظُ فيما سبق فيكون المعنى ونجيناهم من عذاب يومِ القيامةِ بعد تنجيتِنا إياهم من عذاب الدنيا ، وعن نافع بالفتح على اكتساب المضافِ البناءَ من المضاف إليه هنا وفي المعارج في قوله تعالى :

﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ ﴾ وقرئ بالتنوين ونصب يومئذ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ هُوَ القوى العزيز ﴾ القادر على كل شيء والغالبُ عليه لا غيرُه ولكون الإخبار بتنجية الأولياءِ لا سيما عند الإنباءِ بحلول العذاب أهمَّ ذكرَها أولاً ثم أخبر بهلاك الأعداءِ فقال : ﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ ﴾ عدل عن المضمر إلى المظهر تسجيلاً عليهم بالظلم وإشعاراً بعلّيته لنزول العذاب بهم ﴿ الصيحة ﴾ أي صيحةُ جبريلَ عليه الصلاة والسلام ، وقيل : أتتهم من السماء صحيةٌ فيها صوتُ كلِّ صاعقةٍ وصوتُ كلِّ شيء في الأرض فتقطعت قلوبُهم في صدورهم وفي سورة الأعراف : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ ولعلها وقعت عَقيبَ الصيحةِ المستتبِعةِ لتموُّج الهواء ﴿ فَأَصْبَحُواْ ﴾ أي صاروا ﴿ فِى دِيَارِهِمْ ﴾ أي بلادهم أو مساكِنِهم ﴿ جاثمين ﴾ هامدين موتى لا يتحركون ، والمرادُ كونُهم كذلك عند ابتداءِ نزولِ العذابِ بهم من غير اضطرابٍ وحركةٍ كما يكون ذلك عند الموتِ المعتاد ولا يخفى ما فيه من الدلالة على شدة

(88/381)

الأخذِ وسرعتِه ، اللهم إنا نعوذ بك من حلول غضبك .

قيل : لما رأوا العلاماتِ التي بيّنها صالحٌ من اصفرار وجوهِهم واحمرارِها واسودادِها

عمَدوا إلى قتله عليه الصلاة والسلام فنجاه الله تعالى إلى أرض فلسطين ولما كان ضحوةُ اليوم الرابع وهو يوم السبت تحنّطوا وتكفنوا بالأنطاع فأتتهم الصيحةُ فتقطعت قلوبُهم فهلكوا ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ ﴾ أي كأنهم لم يقيموا ﴿ فِيهَا ﴾ في بلادهم أو في مساكنهم ، وهو في موقع الحالِ أي أصبحوا جاثمين مماثلين لمن لم يوجَدْ ولم يُقِمْ في مقام قطُّ ﴿ أَلا إِنَّ ثَمُودَ ﴾ وُضع موضعَ الضمير لزيادة البيان ، ونوّنه أبو بكرٍ هنا وفي النجم وقرأ حفصٌ هنا وفي الفرقان والعنكبوت بغير تنوين ﴿ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ صرح بكفرهم مع كونه معلوماً مما سبق من أحوالهم تقبيحاً لحالهم وتعليلاً لاستحقاقهم بالدعاء عليهم بالبعد والهلاكِ في قوله تعالى : ﴿ أَلاَ بُعْدًا لّثَمُودَ ﴾ وقرأ الكسائي بالتنوين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(89/381)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا ﴾

أي عذابنا أو أمرنا بنزوله ، وفيه ما لا يخفى من التهويل ﴿ نَجَّيْنَا صالحا والذين ءامَنُواْ مَعَهُ ﴾ متعلق بنجينا أو بآمنوا ﴿ بِرَحْمَةٍ مّنَّا ﴾ أي بسببها أو ملتبسين بها ، وفي التنوين

والوصف نوعان من التعظيم ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ أي نجيناهم من خزي يومئذٍ وهو الهلاك بالصيحة وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود : 58] على معنى إنا نجيناهم ، وكانت تلك التنجية من خزي يومئذٍ ، وجوز أن يراد ونجيناهم من ذل وفضيحة يوم القيامة أي من عذابه ، فهذه الآية كآية هود سواء بسواء .

وتعقب أبو حيان هذا بأنه ليس بجيد إذ لم تتقدم جملة ذكر فيها يوم القيامة ليكون التنوين عوضاً عن ذلك ، والمذكور إنما هو جاء أمرنا فليقدر يوم إذ جاء أمرنا وهو جيد ، والدفع بأن القرينة قد تكون غير لفظية كما هنا فيه نظر ، وقيل : القرينة قوله سبحانه فيما مر : ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٍ ﴾ [هود : 58] وفيه ما فيه ، وقيل : الواو زائدة فيتعلق ﴿ مِنْ ﴾ بنجينا المذكور ، وهذا لا يجوز عند البصريين لأن الواو لا تزاد عندهم فيوجبون هنا التعلق بمحذوف وهو معطوف على ما تقدم ، وقرأ طلحة .

وأبان ﴿ وَمِنْ خِزْيِ ﴾ بالتنوين ونصب ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ على الظرفية معمولاً لخزى ، وعن نافع .

والكسائي أنهما قرآ بالإضافة وفتح يوم لأنه مضاف إلى إذ وهو غير متمكن ، وهذا كما فتح حين في قوله النابغة

: على (حين) عاتبت المشيب على الصبا . . .

فقلت : ألما أصح والشيب وازع ﴾

﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ هُوَ القوى العزيز ﴾ أي القادر على كل شيء والغالب عليه في كل وقت ويندرج في ذلك الإنجاء والإهلاك في ذلك اليوم .

﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ ﴾

(90/381)

قوم صالح ، وعدل عن الضمير إلى الظاهر تسجيلاً عليهم بالظلم وإشعاراً بعليته لنزول العذاب بهم ﴿ الصيحة ﴾ أي صيحة جبريل أو صيحة من السماء فيها كل صاعقة وصوت مفزع ، وهي على ما في "البحر" فعلة للمرة الواحدة من الصياح ، يقال : صاح يصيح إذا صوت بقوة ، وأصل ذلك كما قال الراغب تشقيق الصوت من قولهم : إنصاح الخشب . أو الثوب إذا انشق فسمع منه صوت ، وصيح الثوب كذلك ، وقد يعبر بالصيحة عن الفزع ، وفي الأعراف ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ [الأعراف : 78 ، 91] قيل : ولعلها وقعت عقيب الصيحة المستتبعة لتموج الهواء ، وقد تقدم الكلام منا في ذلك ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي ديارهم ﴾ أي منازلهم ومساكنهم ، وقيل : بلادهم ﴿ جاثمين ﴾ هامدين موتى لا يتحركون ، وقد مر تمام الكلام في ذلك معنى وإعراباً .

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ ﴾ أي كأنهم لم يقيموا ﴿ فِيهَا ﴾ أي في ديارهم ، والجملة قيل : في موضع

الحال أي أصبحوا ﴿ جاثمين ﴾ مماثلين لمن لم يوجد ولم يقم في مقام قط ﴿ إِلا أَنْ ﴾ وضع موضع المضمر لزيادة البيان ، ومنعه من الصرف حفص .

وحمزة نظراً إلى القبيلة ، وصرفه أكثر السبعة نظراً إلى الحي كما قدمنا آنفاً ، وقيل : نظراً إلى الأب الأكبر يعني يكون المراد به الأب الأول وهو مصروف وحينئذٍ يقدر مضاف كنسل وأولاد ونحوه ، وقيل : المراد أنه صرف نظراً لأول وضعه وإن كان المراد به هنا القبيلة ﴿ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ صرح بكفرهم مع كونه معلوماً مما سبق من أحوالهم تقبيحاً لحالهم وتعليلاً لاستحقاقهم الدعاء عليهم بالبعد والهلاك في قوله سبحانه : ﴿ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ ، وقرأ الكسائي لا غير بالتنوين ، وقد تقدم الكلام في شرح قصتهم على أتم وجه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(91/381)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ فِي تَبْلِيغِ دَعْوَةِ صَالِحٍ لِقَوْمِهِ وَرَدِّهِمْ لَهَا وَاحْتِجَاجِهِ عَلَيْهِمْ .

- وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ - هَذَا نَصُّ مَا تَقَدَّمَ

فِي تَبْلِيغِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ قَالَ : - هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ - أَيْ هُوَ بَدَأَ خَلْقَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِخَلْقِ أَبِيكُمْ آدَمَ مِنْهَا مُبَاشَرَةً ، ثُمَّ يَخْلُقُ كُلًّا مِنْكُمْ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينِ الْأَرْضِ ، فَإِنَّ النُّطْفَةَ الَّتِي تَتَحَوَّلُ فِي الرَّحِمِ إِلَى عَلَقَةٍ فَمُضْغَةٍ فَهَيْكَلٍ عَظْمِيٍّ يُحِيطُ بِهِ لَحْمٌ هِيَ مِنَ الدَّمِ ، وَالدَّمُ مِنَ الْغِذَاءِ ، وَالْغِذَاءُ الْغَالِبُ إِمَّا نَبَاتٌ مِنَ الْأَرْضِ ، وَإِمَّا لَحْمٌ يَرْجِعُ إِلَى النَّبَاتِ فِي طَوْرٍ وَاحِدٍ أَوْ أَكْثَرَ - وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا - أَيْ : وَجَعَلَكُمْ عُمَّارًا فِيهَا مِنَ الْعُمْرَانِ ، فَقَدْ كَانُوا زُرَّاعًا وَصُنَّاعًا وَبَنَّائِينَ : وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ 15 : 82 وَقِيلَ : مِنَ الْعُمْرِ ، أَيْ أَطَالَ أَعْمَارَكُمْ فِيهَا ،

(92/381)

وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ ، وَاسْتُعْمِلَ الِاسْتِعْمَارُ فِي عَصْرِنَا بِمَعْنَى اسْتِيلَاءِ الدُّوَلِ الْقَوِيَّةِ عَلَى بِلَادِ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَاسْتِثْمَارِهَا وَاسْتِعْبَادِ أَهْلِهَا لِمَصَالِحِهِمْ ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ هُوَ الْمُنْشِئُ لِخَلْقِكُمْ وَالْمُمِدُّكُمْ بِأَسْبَابِ الْعُمْرَانِ وَالنِّعَمِ فِيهَا ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ تَعْبُدُوا فِيهَا غَيْرَهُ ; لِأَنَّهُ هُوَ صَاحِبُ الْفَضْلِ كُلِّهِ ، وَالْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ - فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ - أَيْ : فَاسْأَلُوهُ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ مَا أَشْرَكْتُمْ وَمَا أَجْرَمْتُمْ ، ثُمَّ تُوبُوا وَارْجِعُوا إِلَيْهِ كُلَّمَا وَقَعَ مِنْكُمْ ذَنْبٌ أَوْ خَطَأٌ ، وَتَقَدَّمَ مِثْلُهُ فِي دَعْوَةِ هُودٍ قَرِيبًا وَفِي دَعْوَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي أَوَّلِ السُّورَةِ - إِنَّ

رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ - قَرِيبٌ مِنْ عِبَادِهِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ اسْتِغْفَارِهِمْ ، وَالْبَاعِثُ عَلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِهِمْ ،

مُجِيبٌ لِدُعَاءِ مَنْ دَعَاهُ مُؤْمِنًا مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : - وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ 2 : 186 فَيُرَاجَعُ تَفْسِيرُهَا الْمُفَصَّلُ هُنَالِكَ .

(93/381)

- قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا - أَيْ : قَدْ كُنْتَ مَوْضِعَ رَجَائِنَا لِمُهِمَّاتِ أُمُورِنَا ، لِمَا لَكَ مِنَ الْمَكَانَةِ فِي بَيْتِكَ وَفِي صِفَاتِكَ الشَّخْصِيَّةِ مِنَ الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ ، قَبْلَ هَذَا الَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ مِنْ تَبْدِيلِ دِينِنَا بِمَا تَزْعُمُ مِنْ بُطْلَانِهِ فَانْقَطَعَ رَجَاؤُنَا مِنْكَ - أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا - ؟ الِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّعَجُّبِ ، أَيْ : أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلِنَا وَاسْتَمَرَّ فِينَا لَا يُنْكِرُهُ وَلَا يَسْتَقْبِحُهُ أَحَدٌ ؟ فَالْآبَاءُ يَشْمَلُ الْغَابِرِينَ وَالْحَاضِرِينَ ، وَلَوْ قَالُوا : مَا عَبَدَ آبَاؤُنَا لَمَا أَفَادَ هَذَا ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ التَّعْبِيرَ بِالْمُضَارِعِ حِكَايَةٌ مُصَوِّرَةٌ لِلْحَالِ الْمَاضِيَةِ فِي صُورَةِ الْحَاضِرَةِ - وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ - أَيْ : وَإِنَّا لَوَاقِعُونَ فِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا نَتَوَسَّلُ إِلَيْهِ بِأَحَدٍ مِنْ أَوْلِيَائِهِ

وأَحِبَّائِه الشُّفَعاءِ لَنَا عِنْدَهُ الْمُقَرِّبِينَ لَنَا إلَيْهِ ، ولَا بِتَعْظِيمِ مَا وضَعَهُ آبَاؤُنَا لَهُمْ مِنَ الصُّوَرِ والتَّمَاثِيلِ الْمُذَكِّرَةِ بهِمْ ، لا نَدْرِي مُرادَك وغَرضَك مِنْهُ ، فَإِنَّهُ مُوجِبٌ لِلرَّيْبِ وسُوءِ الظَّنِّ . قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ : الرَّيْبُ : الظَّنُّ والشَّكُّ ، ورَابَنِي الشَّيْءُ يَرِيبُنِي إذَا جَعَلَكَ شَاكًّا ، قَالَ أَبُو زَيْدٍ : رَابَنِي مِنْ فُلَانٍ أَمْرٌ يَرِيبُنِي رَيْبًا : إذَا اسْتَيْقَنْتُ مِنْهُ الرِّيبَةَ ، فَإِذَا أَسَاءْتَ بِهِ

(94/381)

الظَّنَّ

ولَمْ تَسْتَيْقِنْ مِنْهُ الرِّيبَةَ ، قُلْتَ : أَرَابَنِي مِنْهُ أَمْرٌ هُوَ فِيهِ إرَابَةٌ ، وأَرَابَنِي فُلَانٌ إرَابَةً فَهُوَ مُرِيبٌ : إذَا بَلَغَكَ عَنْهُ شَيْءٌ أَوْ تَوَهَّمْتَهُ اهـ .

(95/381)

- قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً - تَقَدَّمَ مِثْلُ هَذَا حِكَايَةً عَنْ نُوحٍ فِي الْآيَةِ 28 إلَّا أَنَّهُ قَالَ : - رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ - أَيْ : أَخْبِرُونِي عَنْ حَالِي مَعَكُمْ إنْ كُنْتُ عَلَى حُجَّةٍ واضِحَةٍ قَطْعِيَّةٍ مِنْ رَبِّي فِيمَا أَدْعُوكُمْ إلَيْهِ ، ووَهَبَنِي رَحْمَةً خَاصَّةً مِنْهُ

جعلني بها نبيًّا مرسلًا إليكم - فمن ينصرني من الله إن عصيته - بكتمان الرسالة أو ما يسوءكم من بطلان عبادة أصنامكم وأوثانكم تقليدًا لآبائكم ؟ أي لا أحد ينصرني من الله ويدفع عني عقابه في هذه الحالة ، وإذن لا أبالي بفقد رجائكم في ، ولا بما أنتم فيه من شك وارتياب في أمري - فما تزيدونني غير تخسير - أي ما تزيدونني بحرصي على رجائكم في واتقاء سوء ظنكم وارتيابكم ، غير إيقاع في الخسران بإيثار ما عندكم على ما عند الله ، واشتراء رضاكم بسخط الله - تعالى - ، أو غير إيقاع في الهلاك ، قال في مجاز الأساس : وخسّره سوء عمله : أهلكه ، وفي المصباح المنير : وخسّرت فلانًا بالتثقيل أبعدته ، وخسّرته : نسبته إلى الخسران ، مثل كذّبته بالتثقيل إذا نسبته إلى الكذب ، مثله فسّقته وفجّرته إذا نسبته إلى هذه الأفعال ، وقال الفراء في الجملة : فما تزيدونني غير تضليل وإبعاد من الخير ، وقال

مجاهد وعطاء الخراساني : ما تزدادون أنتم إلا خسارًا . انتهى . . . ولعل مرادهما : ما تزيدونني بقولكم إلا علمًا بخساركم باستبدال الشرك بالتوحيد .

ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم

عَذَابٌ قَرِيبٌ (64) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (65) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا

وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (67) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (68)

هَذِهِ الْآيَاتُ الْخَمْسُ فِي بَيِّنَةِ اللهِ لِصَالِحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهِيَ آيَتُهُ عَلَى رِسَالَتِهِ ، وَإِنْذَارِهِمُ الْهَلَاكَ وَعَذَابَ الِاسْتِئْصَالِ إِذَا هُمْ مَسُّوهَا بِسُوءٍ ، وَوُقُوعِ ذَلِكَ بِالْفِعْلِ .

(97/381)

- وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً - أَيِ : النَّاقَةُ الَّتِي شَرَّفَهَا اللهُ بِإِضَافَتِهَا إِلَى اسْمِهِ بِجَعْلِهَا مُمْتَازَةً دُونَ الْإِبِلِ بِمَا تَرَوْنَ مِنْ أَمْرِهَا وَأَكْلِهَا وَشُرْبِهَا ، أُشِيرَ إِلَيْهَا حَالَ كَوْنِهَا لَكُمْ آيَةً مِنْهُ بَيِّنَةً دَالَّةً عَلَى هَلَاكِكُمْ إِنْ خَالَفْتُمْ أَمْرَهُ فِيهَا - فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ - مِمَّا فِيهَا مِنَ الْمَرَاعِي لَا يَعْرِضُ لَهَا أَحَدٌ بِمَنْعٍ - وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ - أَيْ : لَا يَمَسَّهَا أَحَدٌ مِنْكُمْ بِأَذًى فَيَأْخُذَكُمْ كُلَّكُمْ عَذَابٌ عَاجِلٌ لَا يَتَأَخَّرُ عَنْ مَسِّكُمْ إِيَّاهَا بِعَقْرٍ أَوْ غَيْرِهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا الْإِنْذَارُ بِنَصِّهِ فِي قِصَّتِهِ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ هُنَاكَ : عَذَابٌ أَلِيمٌ 7 : 73 وَكُلٌّ مِنَ الْوَصْفَيْنِ حَقٌّ ، وَقَدْ تَكَلَّمْتُ هُنَالِكَ عَلَى هَذِهِ النَّاقَةِ وَمَعْنَى

إِضَافَتِهَا إِلَى اللهِ – تَعَالَى – ، وَمَا جَاءَ فِيهَا مِنَ السُّوَرِ الْأُخْرَى ، وَمِنْهُ قِسْمَةُ الْمَاءِ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُمْ (فَيُرَاجَعُ فِي ص 447 و450 مِنْ ج 8 ط الْهَيْئَةِ) .

(98/381)

– فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ – يَقُولُونَ : عَقَرَ النَّاقَةَ (مِنْ بَابِ ضَرَبَ) بِالسَّيْفِ إِذَا ضَرَبَ قَوَائِمَهَا لَهُ أَوْ نَحْرَهَا ، أَيْ فَقَتَلُوا النَّاقَةَ عَقِبَ ذَلِكَ الْإِنْذَارِ غَيْرَ مُصَدِّقِينَ لَهُ وَلَا مُبَالِينَ بِالْوَعِيدِ ، فَضَرَبَ لَهُمْ صَالِحٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مَوْعِدًا يَتَمَتَّعُونَ بِهَا فِي وَطَنِهِمْ كَمَا كَانُوا فِي مَعَايِشِهِمْ – ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ – أَيْ : وَعْدٌ مِنَ اللهِ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فِيهِ ، وَكَذَّبَ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ فَيُقَالُ : كَذَّبَ فُلَانًا حَدِيثًا وَكَذَّبَهُ الْحَدِيثَ أَيْ كَذَبَ عَلَيْهِ فِيهِ ، وَالْوَعْدُ خَبَرٌ مَوْقُوتٌ ،

كَأَنَّ الْوَاعِدَ قَالَ لِلْمَوْعُودِ : إِنَّنِي أَفِي بِهِ فِي وَقْتِهِ ، فَإِنْ وَفَى فَقَدْ صَدَقَهُ وَلَمْ يَكْذِبْهُ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَكْذُوبٌ مَصْدَرًا ، وَلَهُ نَظَائِرُ كَالْمَفْتُونِ وَالْمَجْلُودِ وَمِنْهُ : بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ

(99/381)

---

68 : 6 - فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ -

أَيْ : فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بِإِنْجَازِ وَعْدِنَا بِعَذَابِهِمْ نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ، وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ خِزْيِ ذَلِكَ الْيَوْمِ : أَيْ ذُلِّهِ وَنَكَالِهِ بِاسْتِئْصَالِ الْقَوْمِ مِنَ الْوُجُودِ ، وَمَا يَتْبَعُهُ مِنْ سُوءِ الذِّكْرِ وَلَعْنَةِ الْإِبْعَادِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - ، وَأَصْلُ التَّعْبِيرِ : نَجَّيْنَاهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنَّا مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ، فَفَصَلَ بَيْنَ (مِنْ) الَّتِي هِيَ صِفَةُ الرَّحْمَةِ ، وَ (مِنْ) الْمُوصِلَةِ لِلْعَذَابِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي قِصَّةِ هُودٍ بِدُونِ إِعَادَةِ فِعْلِ التَّنْجِيَةِ الَّذِي صَرَّحَ بِهِ هُنَاكَ ، وَقَدَّرَ هُنَا اسْتِغْنَاءً عَنْ ذِكْرِهِ بِقُرْبِ مِثْلِهِ .

(100/381)

فَهَذِهِ الْآيَةُ كَالْآيَةِ (58) فِي قِصَّةِ هُودٍ وَمَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ ، إِلَّا أَنَّ هَذِهِ جَاءَتْ بِالْفَاءِ - فَلَمَّا - وَتِلْكَ بِالْوَاوِ ، وَهُوَ الْأَصْلُ فِي مِثْلِ هَذَا الْعَطْفِ ، وَإِنَّمَا كَانَتِ الْفَاءُ هِيَ الْمُنَاسِبَةُ لِمَا هُنَا ؛ لِأَنَّ مَا قَبْلَهَا جَاءَ بِالْفَاءَاتِ الْمُتَعَاقِبَةِ الْوَاقِعَةِ فِي مَوَاقِعِهَا مِنْ أَمْرِ الْإِنْذَارِ فَالْوَعِيدِ عَلَى الْمُخَالَفَةِ فَالْمُخَالَفَةِ فَتَحْدِيدِ مَوْعِدِ الْعَذَابِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فَالْإِخْبَارِ بِإِنْجَازِهِ وَوُقُوعِهِ - فَمَا كَانَ الْمُنَاسِبُ فِي هَذَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ بِالْفَاءِ تَعْقِيبًا عَلَى مَا قَبْلَهُ ، كَمَا قَالَ فِي آخِرِ سُورَةِ الشَّمْسِ : - فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ

فَسَوَّاهَا 91 : 13 و14 وَإِنَّمَا بَيَّنْتُ هَذَا مِنْ نُكَتِ الْبَلَاغَةِ لِأَنَّنِي لَمْ أَرَهُ فِي التَّفَاسِيرِ الَّتِي تُعْنَى بِهَا .

فَلْيَتَأَمَّلِ الْقَارِئُ هَذِهِ الدِّقَّةَ الْغَرِيبَةَ فِي اخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ عَنِ الْمَعْنَى الْوَاحِدِ فِي الْمَوْضُوعِ الْوَاحِدِ وَالْفُرُوقِ الدَّقِيقَةِ فِي الْعَطْفِ ، فَإِنَّهَا لَا تُوجَدُ فِي كَلَامِ أَحَدٍ مِنْ بُلَغَاءِ الْبَشَرِ أَلْبَتَّةَ ، وَلْيَعْذُرِ الَّذِينَ يَفْهَمُونَهَا إِذَا جَعَلُوا بَلَاغَةَ الْقُرْآنِ هِيَ الَّتِي أَعْجَزَتِ الْعَرَبَ وَالْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَنِ الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، وَإِنْ كَانَ إِعْجَازُهُ الْعِلْمِيُّ مِنْ وُجُوهِهِ الْكَثِيرَةِ أَعْلَى .

(101/381)

- إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ - إِنَّ رَبَّكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ الَّذِي فَعَلَ هَذَا قَادِرٌ عَلَى فِعْلِ مِثْلِهِ بِقَوْمِكَ إِذَا أَصَرُّوا عَلَى الْجُحُودِ ، فَإِنَّهُ هُوَ الْقَوِيُّ الْمُقْتَدِرُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ إِنْجَازُ وَعْدِهِ ، الْعَزِيزُ الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ .

قَرَأَ الْجُمْهُورُ : - يَوْمِئِذٍ - بِجَرِّ يَوْمِ بِالْإِضَافَةِ ، وَقَرَأَهُ نَافِعٌ وَالْكِسَائِيُّ بِالْفَتْحِ وَهُمَا لُغَتَانِ ، وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ الْمَعَارِجِ : - لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ - 70 : 11 .

- وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ - الْأَخْذُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ التَّنَاوُلُ بِالْيَدِ ، وَاسْتُعْمِلَ

(102/381)

فِي الْمَعَانِي كَأَخْذِ الْمِيثَاقِ وَالْعَهْدِ وَفِي الْإِهْلَاكِ ، وَالصَّيْحَةُ : الْمَرَّةُ مِنَ الصَّوْتِ الشَّدِيدِ ، وَالْمُرَادُ بِهَا هُنَا صَيْحَةُ الصَّاعِقَةِ الَّتِي نَزَلَتْ بِقَوْمِ صَالِحٍ فَأَحْدَثَتْ رَجْفَةً فِي الْقُلُوبِ وَزَلْزَلَةً فِي الْأَرْضِ ، وَصُعِقَ بِهَا جَمِيعُ الْقَوْمِ - فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ - أَيْ : سَاقِطِينَ عَلَى وُجُوهِهِمْ مَصْعُوقِينَ لَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، شُبِّهُوا بِالطَّيْرِ فِي لُصُوقِهَا بِالْأَرْضِ . يُقَالُ : جَثَمَ الطَّائِرُ وَالْأَرْنَبُ (مِنْ بَابِ ضَرَبَ) جُثُومًا ، وَهُوَ كَالْبُرُوكِ مِنَ الْبَعِيرِ . وَتَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ : - فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ - 7 : 87 إِلَخْ . وَقَدْ فَصَّلْنَا فِي تَفْسِيرِهَا مَا وَرَدَ مِنَ اخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ فِيهَا وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَمِثْلُهَا آيَةُ (44) سُورَةِ الذَّارِيَاتِ حَيْثُ قَالَ : - فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ - وَفِي سُورَةِ فُصِّلَتْ آيَةُ 17 فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ - وَبَيَّنَّا مَعْنَى الصَّاعِقَةِ الَّذِي عُرِفَ مِنْ سُنَنِ اللهِ - تَعَالَى - فِي نَوْعَيِ الْكَهْرَبَائِيَّةِ الْإِيجَابِيِّ وَالسَّلْبِيِّ فَيُرَاجَعُ فِي (ص 451 و452 ج 8 ط الْهَيْئَةِ) وَمِنْهُ يُعْلَمُ غَلَطُ مَنْ قَالَ : إِنَّ " الصَّيْحَةَ " صَوْتُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

- كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا - هُوَ مِنْ غَنِيَ بِالْمَكَانِ (كَرَضِيَ) إِذَا أَقَامَ فِيهِ ، أَيْ كَأَنَّهُمْ فِي سُرْعَةِ زَوَالِهِمْ ، وَعَدَمِ بَقَاءِ أَحَدٍ مِنْهُمْ فِي دِيَارِهِمْ ، لَمْ يُقِيمُوا فِيهَا أَلْبَتَّةَ - أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ - تَقَدَّمَ مِثْلُهُ آنِفًا فِي قَوْمِ هُودٍ ، وَفِي ثَمُودَ قِرَاءَتَانِ سَبْعِيَّتَانِ مَشْهُورَتَانِ : تَنْوِينُهُ لِأَنَّهُ مَصْرُوفٌ بِمَعْنَى الْحَيِّ أَوِ الْقَوْمِ ، وَمَنْعُهُ مِنَ الصَّرْفِ بِمَعْنَى الْقَبِيلَةِ ، وَهَذِهِ قِرَاءَةُ أَكْثَرِ النَّاسِ فِي زَمَانِنَا .

إِبْرَاهِيمُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

ذِكْرَ إِبْرَاهِيمُ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ - فِي 24 سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، مِنْهَا مَا هُوَ فِي قِصَّتِهِ مَعَ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ فِي وَطَنِهِ مُجْمَلًا وَمُفَصَّلًا عَلَى مَا عَلِمْنَاهُ مِنْ سُنَّةِ الْقُرْآنِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي بَيَانِ إِمَامَتِهِ وَكَوْنِ مِلَّتِهِ أَسَاسَ دِينِ اللهِ - تَعَالَى - عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ مِنْ عَهْدِهِ إِلَى خَاتَمِهِمْ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي بِشَارَتِهِ بِوَلَدَيْهِ إِسْمَاعِيلَ فَإِسْحَاقَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَمَا وَعَدَهُ اللهُ لَهُ وَلَهُمَا وَلِذُرِّيَّتِهِمَا ، وَمَا هُوَ خَاصٌّ بِإِسْمَاعِيلَ وَقَوْمِهِ الْعَرَبِ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَإِسْكَانِهِ هُنَالِكَ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي بِشَارَةِ الْمَلَائِكَةِ إِيَّاهُ بِإِسْحَاقَ وَإِخْبَارِهِ بِإِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ ، وَمِنْهُ هَذِهِ الْآيَاتُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 101 . 105 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾

تقدّم الكلام على نظائر بعض هذه الآية في قصّة هود في سورة الأعراف .

ومتعلّق ﴿ نجينا ﴾ محذوف .

وعطف ﴿ ومن خِزي يومئذٍ ﴾ على متعلّق ﴿ نجّينا ﴾ المحذوف ، أي نجّينا صالحاً عليه السّلام ومَن معه من عذاب الاستئصال ومن الخزي المكيّف به العذاب فإنّ العذاب يكون على كيفيات بعضها أخزى من بعض .

فالمقصود من العطف عطف منّة على منّة لا عطف إنجاء على إنجاء ، ولذلك عطف المتعلّق ولم يعطف الفعل ، كما عطف في قصة عاد ﴿ نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منّا ونجّيناهم من عذاب غليظ ﴾ [هود : 58] لأنّ ذلك إنجاء من عذاب مغاير للمعطوف عليه .

وتنوين ﴿ يومئذٍ ﴾ تنوين عوض عن المضاف إليه .

والتقدير : يوم إذ جاء أمرنا .

والخزي : الذّلّ ، وهو ذلّ العذاب ، وتقدّم الكلام عليه قريباً .

وجملة ﴿ إنّ ربّك هو القوي العزيز ﴾ معترضة .

وقد أكد الخبر بثلاث مؤكدات للاهتمام به .

وعبّر عن ثمود بالّذين ظلموا للإيماء بالموصول إلى علّة ترتب الحكم ، أي لظلمهم وهو ظلم الشّرك .

وفيه تعريض بمشركي أهل مكّة بالتّحذير من أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك لأنّهم ظالمون أيضاً .

والصيحة : الصّاعقة أصابتهم .

ومعنى ﴿ كأنْ لم يغنوا فيها ﴾ كأن لم يقيموا .

وتقدّم شعيب في الأعراف .

وقرأ الجمهور "ألا إنّ ثموداً" بالتنوين على اعتبار ثمود اسم جَدّ الأمة .

وقرأه حمزة ، وحفص عن عاصم ، ويعقوب ، بدون تنوين على اعتباره اسماً للأمّة أو القبيلة .

وهما طريقتان مشهورتان للعرب في أسماء القبائل المسمّاة بأسماء الأجداد الأعلين .

وتقدّم الكلام على ﴿ بُعداً ﴾ في قصة نوح ﴿ وقيل بعداً للقوم الظالمين ﴾ [هود : 44] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾

حين شاء الحق أن يُنزل العذاب بثمود ، بعد مُضيِّ المدة التي أنذروا بنزول العذاب بعدها ، نجَّى الحق صالحاً عليه السلام والذين آمنوا برسالته من الهلاك ، فحفظتهم رحمة الله ؛ لأنهم آمنوا بما نزل على صالح من منهج ، ولم يُعانِ المؤمنون برسالة صالح ما عانى منه قوم ثمود من الذل والفضيحة .

هذا الذل وتلك الفضيحة التي حاقت بثمود .

ويذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ القوي العزيز ﴾ [هود : 66] .

هذا خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم تسلية وتسرية عنه وتقوية لعزمه ، فالحق سبحانه مقتدر يأخذ كل كافر ، ولا يغلبه أحد ولا يعجزه شيء ، وفي هذا إنذار لمن كفروا برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة ﴾

ويسمي الحق سبحانه هنا العذاب الذي نزل على ثمود " الصيحة " وسمّاه في موضع آخر " الطاغية " :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بالطاغية ﴾ [الحاقة : 5] .

وسمّاه في موضع آخر " صاعقة " فقال سبحانه :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فقل أَنذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِّثْل صاعِقَةِ عادٍ وثَمُودَ ﴾ [فصلت : 13] .

وفي سورة الأعراف سمّاه " الرجفة " ، وكل من الصاعقة والصيحة والرجفة تؤدي معنى الحدث الذي يَدْهَمُ ، ولا يمكن الفكاك منه .

ولقائل أن يقول : لماذا لم يقل الحق سبحانه هنا : " وأخذت الذين ظلموا الصيحة " ؟ لماذا اختفت تاء التأنيث من الفعل ، وقال سبحانه :

﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة ﴾ [هود : 67] .

ونقول : إن الذي يتكلم هنا هو رب العباد سبحانه ، ولا يصح أن نفهم الصيحة على أنها جاءت لتعبر عن صيحة واحدة ، فتاء التأنيث تعبر عن الصيحة لمرة واحدة ، أما إذا تكررت وصارت صياحاً كثيراً تأخذهم كل صيحة من الصياح .

وهنا نلمح أن الصيحة فيها ضعف الأنوثة ، أما الصياح ففيه عزيمة وقوة الرجولة ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع الأمرين ، فقال : " أخذ " ولم يقل : " أخذت " .

ثم قال سبحانه :

﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [هود : 67] .

أي : مُلْقون على رُكَبهم وعلى جباههم بلا حركة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾

ومادة " غَنِيَ " . . " غِنىً " ، أو " غَنَاءً " كلها متساوية ؛ لأن الغَنَاء هو الوجود ؛ وجود شيء يُغْنِي عن شيء ، فالغِنَى هو وجود مال يغنيك عن غيرك ، والغناء هو ما نسمعه من المُغَنِّين ، والأغنية التي يعجب الإنسان من كلماتها ولحنها ، فهو يقيم معها إقامة تطرد ما سواها مما سمع من الكلام على كثرة ما سمع أو قرأ ، والغَنَاء هو للإقامة .

والحق سبحانه يقول :

﴿ حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالأمس ﴾ [يونس : 24] .

أي : كأنها لم توجد من قبل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾ [هود : 68] .

أي : لم يقيموا فيها ، لأنها صارت حصيداً .

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية : ﴿ أَلاَ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ [هود : 68] ، وهذه

هي حيثية العذاب الذي نزل بهم .

وعادة ما تتعدى كلمة "كفر" بالباء ، ويقال : كفروا بربهم ، ولكن الحق سبحانه يقول هنا :

﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ [هود : 68] .

والفارق كبير بين المعنيين ، فمعنى ﴿ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ أي : ستروا وجوده ، فلا وجود له ، ولكن معنى "كفروا بربهم" هو اعتراف بالله الموجود ، لكنهم لم يؤمنوا به .

(107/381)

وقول الحق سبحانه : ﴿ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ يرد على الملاحدة الذين لا يقرون بوجود الله ، لأن ذنب إنكار وجود الله ليس بعده ذنب ، ولا يوجد ما هو أكثر منه في الذنوب .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود : 68] .

أي : أنهم : يستحقون ما وقع عليهم من إهلاك وطرد من رحمة الله ، ولن يعطف عليهم أحد لضخامة ذنبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(108/381)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : في قصة صالح : (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍقالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوًّا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شكّ مما تدعونا إليه مريب) (هود : 62) ، وقال في سورة إبراهيم عليه السلام : (وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) (إبراهيم : 9) ، للسائل أن يسأل عن ثبات النونين وهما للمضاعفة الداخلة للتأكيد ونون الضمير في ((إننا)) في سورة هود (وسقوط إحدى النونين في سورة إبراهيم من ((إنّا)) ؟ وعن إفراد النون في سورة هود : (في)) (تَدْعُونَا) والحاق نون ثانية في (تَدْعُونَنَا) من سورة إبراهيم ؟

(109/381)

والجواب عن ذلك : أن ((إننا)) الواردة في سورة هود المضموم فيها إلى أن المشددة الناصبة للإسم والرافعة للخبر نون الضمير المنصوب وارده على ما يجب وعلى الأصل في

إتصال الضمير المنصوب ، ثم يجوز حذف إحدى المضاعفين تخفيفاً فنقول : (إنا) فنكتفي بالضمير عن النون المحذوفة ، وذلك من فصيح كلامهم ، والأصل الأول ، وإذا تقرب هذا فاعلم أن الضمير المتصل بالفعل في (تدعونا) في سورة هود ضمير مفرد مستتر وهو ضمير صالح ، عليه السلام ، ورفع هذا الفعل بالضمة المقدرة في الواو من (تدعونا) ضمير قوم صالح . ولا نون هنا غير هذه ، وأما قوله في سورة إبراهيم عليه السلام : (مِمَّا تَدْعُونَنَا) فالواو ضمير الرسل المقول لهم : (إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ) ، ورفع هذا الفعل بالنون الأولى والنون الثانية ضمير المدعوّين ، فلابد هنا من النونين في (تدعوننا) ، فلما لزمت النونان هنا جيء معهما بإن المحذوفة النون لتقارب اللفظ أعني قرب إن من تدعوننا ، فكان في مظنة الإستثقال فحسن الحذف حيث يجوز فقيل : (وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) (إبراهيم : 9) ، ولما لم يكن في (تدعونا) في سورة هود إلا نون واحدة وهي نون الضمير لم يستثقل ، فجيء بإننا على الأصل فجاء كل على ما يجب ، والله أعلم بما أراد .

(110/381)

قوله تعالى في قصة صالح : (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) (هود : 67) ، وقال في هذه السورة في قصة شعيب عليه السلام : (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا

شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) (هود : 94) ، يسأل عن سقوط علامة التأنيث من الفعل في قوله : (وَأَخَذَ) في قصة صالح وثبوتها فيه في قصة شعيب مع التساوي في الفاعل وهي الصيحة والتساوي في الفصل الواقع بين الفعل وفاعله الرافع له ؟

والجواب عن ذلك : أن التأنيث على ضربين حقيقي وغير حقيقي ، فالحقيقي لا تحذف تاء التأنيث من فعله غالباً إلا أن يقع فصل نحو قام اليوم هند ، وكلما كثر الفصل حسن الحذف ، ومن كلامهم حضر القاضي اليوم امرأة ، والإثبات مع الحقيقي أولى ما لم يكن جمعاً . وأما التانيث غير الحقيقي فالحذف فيه مع الفصل حسن ، قال تعالى : (فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى) (البقرة : 275) ، وهو كثير ، فإن كثر الفصل ازداد حسناً ، (ومنه) (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ) ، فالحذف والإثبات هنا جائزان والحذف أحسن ، فجاء الفعل في الآية الأولى على الأولى ، ثم ورد في قصة شعيب وهي الثانية بإثبات علامة التأنيث على الوجه الثاني ، جمعاً بين الوجهين إذ الآيتان في سورة واحدة وتقدمها الأولى على ما ينبغي ، والله أعلم . وهذا ما لم يكن الفاعل ضمير مؤنث فله أحكام تخصه .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴾ (هود : 68) وقرئ ثمود في الموضوعين بالوجهين من الصرف وعدمه إلا أن أكثر القراء على الصرف في الأول ومنعه في الثاني ، فيترتب على قراءة الأكثرين سؤال وهو لم صرف في الأول في قراءة غير حفص وحمزة ومنع الثاني الصرف في قراءة الجماعة غير الكسائي ؟

ووجه ذلك ، والله أعلم : التفات شيء في خفاء يراعي مثله وذلك أن الاسم النكرة إذا تكرر وأريد بالثاني الأول ولم يرد غيره لزمت الألف واللام التي للعهد فصار معرفة تقول : رأيت رجلاً فضربت الرجل تريد المذكور ولا تعيده نكرة بوجهه ، ولك أن تأتي به مضمراً فتقول رأيت رجلاً فضربته فإذا تكلمت (بهذا) في المعرفة فالأكثر أن تأتي به مضمراً أو موصوفاً كقولك المذكور أو ما لا يخرج عن الأول حتى لا يظن أنك تريد سواه فتقول : رأيت زيداً فكلمته ولقيت عمراً فضربت المذكور أو ضربت عمراً المذكور ، والثاني المكرر أبداً إن كان الأول نكرة كان هو معرفة بأداة العهد ، وإن كان الأول معرفة كان الثاني أمكن في التعريف إذ قد يدخل الأول اشتراك لوجود أمثله ممن سمّي باسمه ، أما الثاني فلا يدخله اشتراك من حيث هو إلا أن يسري له الاشتراك من الأول ، (فقد) ثبت على كل حال أنه أبعد من الاشتراك والالتباس من الأول وذلك شفوف له عليه ، فكأنه أعرف منه فإذا تكرر غيرر مضمر ولا منعوت وكان علماً مما يجوز في مثله الوجهان من الصرف وعدمه وذلك

الثلاثي الساكن الوسط ، والعرب قد تصرفه لخفته ومنهم من يمنعه الصرف لوجود علتين ولا يراعى خفته ، وقد أنشدوا عليه :

لم تتلفع بفضل مئزرها دعدّ ولم تسق دعدُ في العلبِ

فصرف أولاً ولم يصرف آخر ، فإذا كان أكد تعريفاً كان الوجه منع صرفه إشعاراً

لتمكن تعريفه ، إذ هذا الضرب من التعريف من موانع الصرف ولا اعتبار بما دونه من المعارف في منع الصرف إلا لموانع أخر ، فلهذا كان الثاني في قوله : (ألا بعداً لثمود) أولى بمنع الصرف ، والله أعلم ، وعلى هذا ورد ما أنشدوه (من قوله) :

لم تتلفع بفضل مئزرها دعدٌ ولم تسق دعدُ في العلبِ

فالمؤنث الثلاثي الساكن الوسط إذا لم يكن منقولاً عن مذكر فيه الوجهان الصرف وعدمه ، إلا أن في اختصاص مكرره بالمنع تأنيس لما ذكرناه وإن لم ترد به الشواهد إذ باب هذا معروف ومفهوم لا توقف فيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ ملاك التأويل صـ 259 . 261 ﴾

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (61) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه ﴿ هو أنشأكم من الأرض ﴾ قال : خلقكم من الأرض .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ واستعمركم فيها ﴾ قال : أعمركم فيها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه ﴿ واستعمركم فيها ﴾ قال : استخلفكم فيها .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ فما تزيدونني غير تخسير ﴾ يقول : ما تزدادون أنتم إلا خساراً .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عطاء الخراساني ﴿ فما تزيدونني غير تخسير ﴾ قال : ما تزيدونني بما تصنعون إلا شراً لكم وخسراناً تخسرونه .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج في قوله ﴿ ثلاثة أيام ﴾ قال : كان بقي من أجل قوم صالح

عند عقر الناقة ثلاثة أيام فلم يعذبوا حتى أكملوها .

وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ نجينا صالحاً والذين آمنوا . . . ﴾ الآية . قال : نجاه الله برحمة منه ، ونجاه من خزي يومئذ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ قال : ميتين .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ قال : كأن لم يعيشوا فيها .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ قال : كأن لم يعمروا فيها .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف والابتداء والطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ قال : كأن لم يكونوا فيها يعني في الدنيا حين عذبوا ولم يعمروا فيها . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت لبيد بن ربيعة وهو يقول :

وغنيت شيئاً قبل نحري وأحسن . . . لو كان للنفس اللجوج خلود

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ قال : كأن لم ينعموا فيها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(115/381)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ : متعلِّقٌ بمحذوفٍ، أي : ونَجَّيْناهم مِنْ/ خزي .

وقال الزمخشري : " فإن قلت : علامَ عُطِف ؟ قلت : على " نَجَّينا " لأنَّ تقديرَه :

ونَجَّيْناهم من خزي يومئذ كما قال : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود : 58]،

أي : وكانت التنجيةُ مِنْ خزي : وقال غيره : " إنه متعلِّقٌ ب " نَجَّيْنا " الأول " . وهذا لا

يجوزُ عند البصريين غيرَ الأخفش، لأن زيادةَ الواوِ غيرُ ثابتة .

وقرأ نافع والكسائي بفتح ميم " يومئذ " على أنها حركةُ بناء لإِضافته إلى غير متمكن كقوله

:

2673 على حينَ عاتَبْتُ المشيبَ على الصِّبا . . . فقلت ألَمَّا أَصْحُ والشيبُ وازع

وقرأ الباقون بخفض الميم . وكذلك الخلافُ جارٍ في ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ ﴾ [المعارج : 1] .

وقرأ طلحة وأبان بن تغلب بتنوين " خزي " و " يومئذ " نصب على الظرف بالخزي .

وقرأ الكوفيون ونافع في النمل ﴿ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ بالفتح أيضاً ، والكوفيون وحدهم بتنوين " فزع " ونصب " يومئذ " به .

ويحتمل في قراءة مَنْ نوَّن ما قبل " يومئذ " أن تكون الفتحة فتحةَ إعرابٍ أو فتحةَ بناء ، و " إذ " مضافةٌ لجملة محذوفة عُوِّض منها التنوينُ تقديرُه : إذْ جاء أمرُنا . وقال الزمخشري : " ويجوز أن يُراد يومُ القيامة ، كما فُسِّر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة " . قال الشيخ : " وهذا ليس بجيدٍ ؛ لأنه لم يتقدَّم ذِكْرُ يومِ القيامة ، ولا ما يكون فيها ، فيكون هذا التنوين عوضاً من الجملةِ التي تكون في يوم القيامة " . قلت : قد تكون الدلالة لُفظيةً ، وقد تكون معنويةً وهذه من المعنوية .

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (67) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ الذين ﴾ : حُذِفت تاءُ التأنيث : إما لكونِ المؤنث مجازياً ، أو للفصل بالمفعول ، أو لأنَّ الصيحة بمعنى الصياح ، والصَّيْحة : فَعْلة تدل على المرَّة من الصياح ، وهي الصوتُ الشديد : صاح يصيح صِياحاً ، أي : صوَّت بقوة .

﴿ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (68) ﴾

وقرأ حمزة وحفص : ﴿ أَلا إِنَّ ثَمُودَ ﴾ هنا ، وفي الفرقان : ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَاْ ﴾ [الآية : 38] ، وفي العنكبوت : ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم ﴾ [الآية : 38] ، وفي النجم : ﴿ وَثَمُودَ فَمَآ أبقى ﴾ [الآية : 51] جميعُ ذلك بمنعِ الصرفِ ، وافقهم أبو بكر على الذي في النجم .

وقوله : ﴿ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ ﴾ منعه القراءُ الصرفَ إلا الكسائيَّ فإنه صَرَفَه . وقد تقدم أنَّ مَنْ منع جعله اسماً للقبيلة ، ومَنْ صَرَف جعله اسماً للحيّ ، وأنشد على المنع :

2674 - ونادى صالحٌ يا ربِّ أنزلْ ... بآلِ ثمودَ منك عذاباً

وأنشد على الصرف :

2675 دعَتْ أُمُّ عمروٍ أمرَ شرٍّ علمتُه ... بأرضِ ثمودٍ كلِّها فأجابها

وقد تقدَّم الكلامُ على اشتقاق هذه اللفظة في سورة الأعراف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 349 . 351 ﴾

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾

عُقَيْبَ ما مضى من قصة عادٍ ذَكَرَ ثمود ، وثمودهم قوم لصالح ، وقد انخرطوا في الغيّ في سِلْكِ مَنْ سَبَقَهم ، فَلَحِقَتُ العقوبة بجميعهم . ثم أخبر أنهم قابلوا نَبِيَّهم - عليه السلام - بالتكذيب ، ولم يقفوا على ما نبّههم عليه من التوبة والتصديق وأصرُّوا على الإقرار أنهم في شأنه لفي شكٍ مريب .

ثم بيّن أنّ صالحاً لم يُعرِّج - في التبليغ - على تقصير .

وبَعْدَ تمرُّدِهم وامتناعهم عن الإنابةِ ، وإصرارهم على تَرْكِ الإجابة حقّ عليهم ما توعدهم به من عذاب غير مكذوب ، ونجّى نبيَّهم - عليه السلام - ، ونجّى مَنْ اتَّبعَه من كل عقوبة . . . سُنَّةٌ منه - سبحانه - في إنجاءِ أوليائه أمضاها ، وعادةٌ في تلطفه ورحمته بالمستحقين أجراها . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 144 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحا ﴾

يعني : وأرسلنا إلى ثمود .

وإنما لم ينصرف ، لأنه اسم لقبيلة ، وفي الموضع الذي ينصرف ، جعله اسماً للقوم .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعبدوا الله ﴾ أي : وَحّدُوا الله ، وأطيعوه ، ﴿ مَا لَكُم مّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ يعني : ليس لكم رب غيره ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ ﴾ يعني : هو الذي خلقكم ، ﴿ مّنَ الأرض ﴾ يعني : خلق آدم من أديم الأرض ، وأنتم ولده ، ﴿ واستعمركم فِيهَا ﴾ يعني : أسكنكم وأنزلكم فيها ، وأصله أعمركم .

يقال : أعمرته الدار إذا جعلتها له أبداً ، وهي العُمْرَى .

وقال مجاهد : ﴿ واستعمركم ﴾ يعني : أطال عمركم فيها ﴿ فاستغفروه ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ يعني : توبوا من شرككم ، ﴿ إِنَّ رَبّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ يعني : قريباً ممن دعاه ، مجيباً بالإجابة لمن دعاه ، من أهل طاعته .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يا صالح قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هذا ﴾ يعني : كنا نرجو أن ترجع إلى ديننا ، قبل أن تدعونا إلى دين غير دين آبائنا ، ﴿ قَالُواْ يا صالح قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هذا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ﴾ يعني : يربينا أمرك ، ودعاؤك إيانا ، إلى هذا الدين .

ومعناه : إنا مريبون في أمركم .

﴿ قَالَ ﴾ لهم صالح : ﴿ قَالَ يا قوم أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مّن رَّبّى ﴾ ، يقول : أخبروني إن كنت على بيان ، وحجة ، ودين ، أتاني من ربي ، ﴿ قَالَ يا قوم أَرَءيْتُمْ ﴾ يقول : أكرمني الله تعالى بالإسلام ، والنبوة ؛ أيجوز لي أن أترك أمره ، ولا أدعوكم إلى الله ، وإلى دينه ؟ ﴿ فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ الله إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ يقول : فمن يمنعني من عذاب الله ، إن رجعت إلى دينكم ، وتركت دين الله تعالى .

﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ يقول ما تزيدونني في مقالتكم ، إلا بصيرة في خسارتكم .

(119/381)

ويقال : معناه : فما تزيدونني غير تكذيب ، لأن التكذيب سبب لخسارتهم .

ويقال : معناه : فما تزيدونني ، إن تركت ما أوجب الله عليَّ من الدعوة غير تخسير ؛ لأن العذاب إذا نزل بي لا تقدرون على دفعه عني .

ثم قال تعالى : ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ هذه نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أنه قال : " إِنَّ صَالِحاً ، لَمَّا دَعَا قَوْمَهُ إلى الإِسلامِ كَذَّبوهُ ، فَضَاقَ صَدْرُهُ ، فَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِنْدِهِمْ ، فَأَذِنَ لَهُ فَخَرَجَ وَانْتَهَى إلى سَاحِلِ البَحْرِ ، فَإِذا رَجُلٌ يَمْشِي عَلَى المَاءِ ، فقال لَهُ صالِحٌ : وَيْحَكَ مَنْ أَنْتَ ؟ فقال : أنا مِنْ عِبادِ اللَّهِ .

قال : كُنْتُ فِي سَفِينَةٍ كَانَ قَوْمُها كَفَرَةً غَيْرِي ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَنَجَّانِي مِنْهُم ، فَخَرَجْتُ إلى جَزِيرَةٍ أَتَعَبَّدُ هُناكَ ، فَأَخْرُجُ أَحْيَاناً وَأَطْلُبُ شَيْئاً مِنْ رِزْقِ اللَّهِ تَعَالَى ، ثُمَّ أَرْجِعُ إلى مَكَانِي فَمَضَى صَالِحٌ ، وَانْتَهَى إلى تَلٍّ عَظِيمٍ ، فَرَأَى رَجُلاً يَتَعَبَّدُ ، فَانْتَهَى إِلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلامَ ، فقال لَهُ صَالِحٌ مَنْ أَنْتَ ؟ قال : كَانَتْ هاهُنا قَرْيَةٌ ، كَانَ أَهْلُهَا كُفَّاراً غَيْرِي ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تعالى ، وَنَجَّانِي مِنْهُم ، فَجَعَلْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ تَعَالَى هاهنا إلى المَوْتِ ، وَقَدْ أَنْبَتَ اللَّهُ تَعَالَى لِي شَجَرَةَ رُمَّانٍ ، وَأَظْهَرَ لِي عَيْنَ ماءٍ ، فَآكُلُ مِنَ الرُّمَّانِ ، وَأَشْرَبُ مِنْ ماءِ العَيْنِ ، وَأَتَوَضَّأُ مِنْهُ .

فَذَهَبَ صالِحٌ ، وَانْتَهَى إلى قَرْيَةٍ كَانَ أَهْلُها كُفَّاراً كُلُّهُمْ ، غَيْرَ أَخَوَيْنِ مُسْلِمَيْنِ يَعْمَلانِ عَمَلَ الخُوصِ فَضَرَبَ النبي صلى الله عليه وسلم : مثلاً قال : لَوْ أَنَّ مُؤْمِناً دَخَلَ قَرْيَةً فِيها أَلفُ

رَجُلٍ ، كُلُّهُمْ كُفّارٌ ، وفِيهَا مُؤْمِنٌ واحِدٌ ، فلا يَسْكُنُ قَلْبُهُ معَ أحَدٍ ، حتَّى يجد المُؤْمِنَ .

ولَوْ أنَّ مُنافِقاً دَخَلَ قَرْيَةً فِيهَا أَلْفُ رَجُلٍ مُؤْمِنٍ ، ومُنافِقٌ واحِدٌ ، فلا يَسْكُنُ قَلْبُ المُنَافِقِ مَعَ أحَدٍ ، ما لَمْ يَجِدِ المُنَافِقَ .

فَدَخَلَ صالِحٌ ، فانتهى إلى الأخوَيْن ، ومَكَثَ عِنْدَهُمَا أياماً .

وَسَأَلَهُمَا عَنْ حالِهِما ، فَأَخْبَرَاهُ أَنَّهُمَا يَصْبِرانِ عَلَى إيذاءِ المُشْرِكِينَ ، وأَنَّهُما يَعْمَلانِ عَمَلَ الخُوصِ ، ويُمْسِكانِ قُوتَهُمَا ، ويَتَصَدَّقانِ بالفَضْلِ .

فَقَالَ صَالِحٌ : الحَمْدُ للهِ الَّذِي أرانِي في الأَرْضِ مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ ، الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى أذى الكُفَّارِ ، فأنا أَرْجِعُ إلى قَوْمِي ، وأَصْبِرُ عَلَى أذاهُمْ .

فَرَجَعَ إليْهِمْ ، وقَدْ كانُوا خَرَجُوا إلى عِيدٍ لَهُمْ فدَعَاهُمْ إلى الإيمانِ فسَألُوا مِنْهُ أنْ يُخْرِجَ لَهُمْ نَاقَةً مِنَ الصَّخْرَةِ ، فدَعَا اللهَ تَعَالَى ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ ناقةً عُشَرَاءَ " .

فذلك قوله : ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ أي : علامة وعبرة ، ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ اللَّهِ ﴾ يعني : في أرض الحجر ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ يعني : لا تعقروها ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ ﴾ ، يعني : يصيبكم ﴿ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ .

فولدت الناقة ولداً وكانت لهم بئر واحدة عذبة ، قال ابن عباس : كان للناقة شرب يوم لا يقربونها ، ولهم شرب يوم ، وهي لا تحضرها ، وكانوا يستقون الماء في يومهم ما يكفيهم للغد ، فيقسمونه فيما بينهم ، فإذا كان يوم شربها ، كانت ترتع في الوادي ، ثم تجيء إلى البئر ، فتبرك ، فتدلي رأسها في البئر ، فتشرب منها ، ثم تعود فترعى ، ثم تعود إلى البئر ، فتشرب منها ، فتفعل ذلك نهارها كله .

وكان في المدينة تسعة رهط ، يفسدون في الأرض ، ولا يصلحون .

منهم : قدار بن سالف ، ومصدع بن دهر وكانت في تلك القرية امرأة جميلة غنية ، وكانت تتأذى بالناقة لأجل سايمتها فقالت : مَنْ عقر الناقة ، أزوج نفسي منه .

فخرج قدار بن سالف ، ومصدع بن دهر ، وكمن لها مصدع في مضيق من ممرها ، ورماها بسهم ، فأصاب رجلها .

فَمَرَّتْ بقدار ، وهي تجر رجلها ، فضربها بالسيف فعقرها ، وقسموا لحمها على جميع أهل القرية .

وكان في القرية تسعمائة أهل بيت ويقال ألف وخمسمائة .

فذلك قوله ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ ﴾ لهم صالح : ﴿ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ﴾ يعني : عيشوا ، وانتفعوا في داركم ، ﴿ ثلاثة أَيَّامٍ ﴾ ثمَّ يأتيكم العذاب ، ﴿ ذلك وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾

فقالوا له : ما العلامة في ذلك ؟ قال : أن تصبحوا في اليوم الأول وجوهكم مصفرة ، وفي اليوم

الثاني محمرة، وفي اليوم الثالث مسودة.

ثم خرج صالح من بينهم.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ يعني: عذابنا ﴿ نَجَّيْنَا صالحا والذين ءامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ يعني: بنعمة منا، ﴿ وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ﴾ يعني: من عذاب يومئذ.

قرأ نافع، والكسائي: ﴿ وَمِنْ خِزْىِ يَوْمَئِذٍ ﴾ بنصب الميم، لأنه إضافة إلى اسم غير متمكن، فيجوز النصب.

وقرأ الباقون: ﴿ يَوْمِئِذٍ ﴾، بكسر الميم، على معنى الإضافة.

(122/381)

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ القوى العزيز ﴾ أخبر الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم، أنه قادر في أخذه المنيع، ممن عصاه.

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة ﴾ يعني: صيحة جبريل صاح صيحة، فماتوا كلهم، ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَارِهِمْ جاثمين ﴾ يعني: صاروا خامدين ميتين، ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ يعني: صاروا كأن لم يكونوا في الدنيا.

ويقال: كأن لم ينزلوا في ديارهم، ولم يكونوا.

﴿ إِلا أَنْ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ يعني: جحدوا وحدانية الله فهذا تنبيه، وتخويف لمن بعدهم ﴿ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ يعني: خزياً، وسحقاً لثمود في الهلاك.

قرأ الكسائي: ﴿ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ بكسر الدال مع التنوين، وجعله اسماً للقوم، فلذلك جعله منصرفاً.

وقرأ الباقون بنصب الدال، لأنه اسم القبيلة.

وإنما يجري في قوله: ﴿ ألا إن ﴾ اتباعاً للكتابة في مصحف الإمام، وأما الكسائي، فأجراه لقربه من قوله: ﴿ ألا إن ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾. انتهى انتهى. ا هـ ﴿بحر العلوم حـ 2 صـ 157.160﴾

(123/381)

وقال الثعلبى فى الآيات السابقة:

﴿ وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يا قوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ ﴾ ابتدأ خلقكم ﴿ مِّنَ الأرض ﴾ وذلك أن آدم خلق من الأرض وهم منه ﴿ واستعمركم فِيهَا ﴾ وجعلكم عمّارها وسكانها، قال ابن عباس: أعاشكم فيها، الضحّاك: أطال أعماركم، مجاهد: أعمركم من العمر أي جعلها داركم وسكنكم، قتادة: أسكنكم

فيها .

﴿ فاستغفروه ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ ﴾ ممّن رجاه ﴿ مُّجِيبٌ ﴾ لمن دعاه .

﴿ قَالُواْ ﴾ يعني قوم ثمود ﴿ يا صالح قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هذا ﴾ القول أي كنا نرجو أن تكون فينا سيّداً ، وقيل : كنا نرجو أن تعود إلى ديننا ﴿ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ من الآلهة .

﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ موقع في الريبة وموجب إليها ، يقال : أربته إرابة إذا فعلت به فعلاً يوجب لديه الريبة ، قال الهذلي :

كنت إذا أتيته من غيب . . . يشم عطفي ويبز ثوبي

كأنما أربته بريب . . . ﴿ قَالَ يا قوم أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ نبوة وحكمة ﴿ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ الله ﴾ لا يمنعني من عذاب الله ﴿ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ قال ابن عباس : غير خسارة في خسارتكم ، الفرّاء : تضليل ، قال الحسين بن الفضيل : لم يكن صالح في خسارة حين قال ، علمت علم العرب ، فما تزيدونني غير تخسير ، وإنما المعنى ما تزيدونني ، كما يقولون : ما أسبق إياكم إلى الخسارة ، وهو قول العرب : فسقته وفجرته إذا نسبته إلى الفسق والفجور ، وكذلك خسرته : نسبته إلى الخسران .

﴿ ويا قوم هذه نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ نصب على الحال والقطع ﴿ فَذَرُوهَا ﴾ أي دعوها تأكل في أرض الله من العشب والنبات فليس عليكم رزقها ولا مؤنتها .

(124/381)

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بسوء ﴾ ولا تصيبوها بعقر ونحر ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ ﴾ إن قتلتموها ﴿ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ من عقرها ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ ﴾ لهم صالح ﴿ تَمَتَّعُوا ﴾ حتى يحين (عذابه) ﴿ فِي دَارِكُمْ ﴾ منازلكم ﴿ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ تمهلون ﴿ ذلك وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ غير كذب وقيل : غير مكذوب فيه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً والذين آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ نعمة وعصمة ﴿ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ عذابه وهوانه .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ القوي العزيز * وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة ﴾ يعني صيحة جبريل ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ صرعى ، هلكى ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ ﴾ يقيموا ويكونوا ﴿ فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَاْ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِّثَمُودَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ 177.175 ﴾

(125/381)

وقال ابن الجوزى فى الآيات السابقة :

وقال ابن الجوزى :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (61) ﴾

قوله تعالى : ﴿ هو أنشأكم من الأرض ﴾

فيه قولان :

أحدهما : خلقكم من آدم ، وآدم خُلق من الأرض .

والثاني : أنشأكم في الأرض .

وفي قوله : ﴿ واستعمركم فيها ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : أعمركم فيها ، أي : جعلكم ساكنيها مدة أعماركم ، ومنه العمرى ، وهذا قول مجاهد .

والثاني : أطال أعماركم ، وكانت أعمارهم من ألف سنة إلى ثلاثمائة ، قاله الضحاك .

والثالث : جعلكم عُمَّارها ، قاله أبو عبيدة .

قوله تعالى : ﴿ قد كنتَ فينا مرجُوّاً قبل هذا ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم كانوا يرجونه للمملكة بعد ملكهم ، لأنه كان ذا حسب وثروة ، قاله كعب .

والثاني : أنه كان يبغض أصنامهم ويعدل عن دينهم ، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم ، فلما أظهر إنذارهم ، انقطع رجاؤهم ، منه وإلى نحو هذا ذهب مقاتل .

والثالث : أنهم كانوا يرجون خيره ، فلما أنذرهم ، زعموا أن رجاءهم لخيره قد انقطع ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ وإننا لفي شك ﴾ إن قال قائل : لم قال هاهنا : "وإننا" وقال في (إبراهيم) : "وإنا" ؟

فالجواب : أنهما لغتان من لغات قريش السبع التي نزل القرآن عليها .

قال الفراء : من قال : "إننا" أخرج الحرف على أصله ، لأن كناية المتكلمين "نا" فاجتمعت ثلاث نونات ، نونا "إن" والنون المضمومة إلى الألف ، ومن قال : "إنا" استثقل الجمع بين ثلاث نونات ، وأسقط الثالثة ، وأبقى الأولتين ؛ وكذلك يقال : إني وإنني ، ولعلّي ولعلني ، وليتي وليتني ، قال الله في اللغة العليا : ﴿ لعلّي أبلغ الأسباب ﴾ [غافر : 36] ، وقال الشاعر في اللغة الأخرى :

أريني جواداً مات هَزْلاً لعلَّني . . .

أرى ما تَرَيْنَ أو بخيلاً مخلَّدا

وقال الله تعالى : ﴿ يا ليتني كنتُ معهم ﴾ [النساء : 73] ، وقال الشاعر :

كمُنيةِ جابرٍ إذ قال ليتي . . .

أصادفُه وأُتلفُ بعضَ مالي

فأما المريب ، فهو الموقع للريبة والتهمة .

والرحمة يراد بها هاهنا : النبوَّة .

قوله تعالى : ﴿ فما تزيدونني غير تخسير ﴾ التخسير : النقصان .

وفي معنى الكلام قولان :

أحدهما : فما تزيدونني غير بَصَارَةٍ في خسارتكم ، قاله ابن عباس .

وقال الفراء : المعنى : فما تزيدونني غير تخسيرٍ لكم ، أي : كلما اعتذرتم عندي بعذر فهو يزيدكم تخسيراً .

وقال ابن الأعرابي : غير تخسير لكم ، لا لي .

وقال بعضهم : المعنى : فما تزيدونني بما قلتم إلا نسبتي لكم إلى الخسارة .

والقول الثاني : فما تزيدونني غير الخسران إن رجعتُ إلى دينكم ، وهذا معنى قول مقاتل .

فإن قيل : فظاهر هذا أنه كان خاسراً ، فزادوه خساراً ، فقد أسلفنا الجواب في قوله :

﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ﴾ [التوبة : 47] .

قوله تعالى : ﴿ هذه ناقةُ الله لكم آيةً ﴾ قد شرحناها في سورة [الأعراف : 73] قوله تعالى : ﴿ تمتعوا في داركم ﴾ أي : استمتعوا بحياتكم ، وعبَّر عن الحياة بالتمتع ، لأن الحيَّ يكون متمتِّعاً بالحواسِّ .

(127/381)

قوله تعالى : ﴿ ثلاثةَ أيام ﴾ قال المفسرون : لمَّا عُقرت الناقة صَعِدَ فصيلُها إلى الجبل ، ورغا ثلاث مرات ، فقال صالح : لكل رغوة أجل يوم ، ألا إن اليوم الأول تصبح وجوهُكم مُصْفَرَّةً ، واليوم الثاني مُحْمَرَّةً ، واليوم الثالث مُسْوَدَّةً ؛ فلما أصبحوا في اليوم الأول ، إذا وجوههم مصفرة ، فصاحوا وضجوا ، وبَكَوْا ، وعَرَفوا أنَّه العذاب ، فلما أصبحوا في اليوم الثاني ، إذا وجوههم محمرة ، فضجوا ، وبكوا ، فلما أصبحوا في اليوم الثالث ، إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار ، فصاحوا جميعاً : ألا قد حضركم العذاب ؛ فتكفَّنوا وألقَوْا أنفسهم بالأرض ، لا يدرون من أين يأتيهم العذاب ، فلما أصبحوا في اليوم الرابع ، أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كلِّ صاعقة ، فتقطَّعتْ قلوبُهم في صدورهم .

وقال مقاتل : حفروا لأنفسهم قبوراً ، فلما ارتفعت الشمس من اليوم الرابع ، ولم يأتهم

العذاب ، ظنوا أن الله قد رحمهم ، فخرجوا من قبورهم يدعو بعضهم بعضاً ، إذ نزل جبريل ، فقام فوق المدينة فسدّ ضوءَ الشمس ، فلما عاينوه ، دخلوا قبورهم ، فصاح بهم صيحة : موتوا ، عليكم لعنة الله ، فخرجت أرواحهم ، وتزلزلت بيوتهم فوقعت على قبورهم .

قوله تعالى : ﴿ ذلك وعدٌ ﴾ أي : العذاب ﴿ غير مكذوب ﴾ أي : غير كذب .

قوله تعالى : ﴿ ومن خِزْيِ يومِئذٍ ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر "يومِئذٍ" بكسر الميم .

وقرأ الكسائي بفتحها مع الإضافة .

قال مكي : من كسر الميم ، أعرب وخفض ، لإضافة الخزي إلى اليوم ، ولم يَبْنِه ؛ ومن فتح ، بنى اليوم على الفتح ، لإضافته إلى غير متمكّن ، وهو "إذ" وقرأ ابن مسعود "ومن خزيٍ" بالتنوين ، "يومَئذ" بفتح الميم .

قال ابن الأنباري : هذه الواو في قوله : "ومن خزي" معطوفة على محذوف ، تقديره : نجيناهم من العذاب ومن خزي يومئذ .

قال : ويجوز أن تكون دخلت لفعل مضمر ، تأويله : نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من خِزْيِ يومئذ .

قال : وإنما قال : "وأخذ" لأن الصيحة محمولة على الصياح .

قوله تعالى : ﴿ ألا بعداً لثمود ﴾ اختلفوا في صرف "ثمود" وترك إجرائه في خمسة مواضع : في [هود : 69] ﴿ ألا إن ثموداً كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴾ وفي [الفرقان : 38] ﴿ وعاداً وثموداً وأصحابَ الرسّ ﴾ وفي [العنكبوت : 38] ﴿ وعاداً وثموداً وقد تبين لكم ﴾ وفي [النجم : 51] ﴿ وثمودَ فما أبقي ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع ، وابن عامر بالتنوين في أربعة مواضع منها ، وتركوا ﴿ ألا بعداً لثمود ﴾ فلم يصرفوه .

وقرأ حمزة بترك صرف هذه الخمسة الأحرف ، وصرفهنّ الكسائي .

واختلف عن عاصم ، فروى حسين الجعفي عن أبي بكر عنه أنه أجرى الأربعة الأحرف مثل أبي عمرو ؛ وروى يحيى بن آدم أنه أجرى ثلاثة ، في [هود : 69]

﴿ ألا إن ثموداً ﴾ وفي [الفرقان : 38] و [العنكبوت : 38] .

وروى حفص عنه أنه لم يجر شيئاً منها مثل حمزة .

واعلم أن ثموداً يراد به القبيلة تارة ، ويراد به الحي تارة .

فإذا أريد به القبيلة ، لم يصرف ، وإذا أريد به الحي ، صرف .

وما أخللنا به ، فقد سبق تفسيره [الأعراف : 73 ، والتوبة : 70] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(129/381)

وقال النسفى :

﴿ وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحا قَالَ يا قوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مّنْ إله غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مّنَ الأرض ﴾

لم ينشئكم منها إلا هو وإنشاؤهم منها خلق آدم من التراب ثم خلقهم من آدم ﴿ واستعمركم فِيهَا ﴾ وجعلكم عمارها وأراد منكم عمارتها ، أو استعمركم من العمر أي أطال أعماركم فيها وكانت أعمارهم من ثلثمائة إلى ألف ، وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار وغرس الأشجار وعمروا الأعمار الطوال مع ما فيهم من الظلم فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميرهم ، فأوحى الله إليه أنهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي ﴿ فاستغفروه ﴾ فاسألوا مغفرته بالإيمان ﴿ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبّى قَرِيبٌ ﴾ داني الرحمة ﴿ مُّجِيبٌ ﴾ لمن دعاه .

﴿ قَالُواْ يا صالح قَدْ كُنتَ فِينَا ﴾ فيما بيننا ﴿ مَرْجُوّاً قَبْلَ هذا ﴾ للسيادة والمشاورة

في الأمور أو كنا نرجو أن تدخل في ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه ﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ حكاية حال ماضية ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد ﴿ مُرِيبٍ ﴾ موقع في الريبة من أرابه إذا أوقعه في الريبة وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة ﴿ قَالَ يَا قومِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَانِى مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ نبوة، أتى بحرف الشك مع أنه على يقين أنه على بينة لأن خطابه للجاحدين فكأنه قال قدروا أني على بينة من ربي، وأنني نبي على الحقيقة وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره ﴿ فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ اللَّهِ ﴾ فمن يمنعني من عذاب الله ﴿ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ في تبليغ رسالته ومنعكم عن عبادة الأوثان ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِى ﴾ بقولكم: ﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ ﴿ غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ بنسبتكم إياي إلى الخسار أو بنسبتي إياكم إلى الخسران.

(130/381)

﴿ يا قوم هذه نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ نصب على الحال قد عمل فيها ما دل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل و ﴿ لكم ﴾ متعلق ﴿ بآية ﴾ حالاً منها متقدمة، لأنها لو تأخرت لكانت صفة لها فلما تقدمت انتصبت على الحال ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ ﴾ أي ليس عليكم رزقها مع أن لكم نفعها ﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ عقر أو نحر ﴾

﴿ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴾ عاجل ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ يوم الأربعاء ﴿ فَقَالَ ﴾ صالح ﴿ تَمَتَّعُواْ ﴾ استمتعوا بالعيش ﴿ فِى دَارِكُمۡ ﴾ في بلدكم وتسمى البلاد الديار لأنه يدار فيها أي يتصرف أو في دار الدنيا ﴿ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ ثم تهلكون فهلكوا يوم السبت ﴿ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٍ ﴾ أي غير مكذوب فيه فاتسع في الظرف بحذف الحرف وإجرائه مجرى المفعول به، أو وعد غير كذب على أن المكذوب مصدر كالمعقول.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا ﴾ بالعذاب أو عذابنا ﴿ نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا ﴾ قال الشيخ رحمه الله: هذا يدل على أن من نجى إنما نجى برحمة الله تعالى لا بعمله كما قال عليه السلام: "لا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله" ﴿ وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍ ﴾ بإضافة الخزي إلى اليوم وانجرار اليوم بالإضافة.

وبفتحها مدني وعلي، لأنه مضاف إلى "إذ" وهو مبني، وظروف الزمان إذا أضيفت إلى الأسماء المبهمة والأفعال الماضية بنيت واكتسبت البناء من المضاف إليه كقوله: على حين

عاتبت المشيب على الصبا

والواو للعطف وتقديره: ونجيناهم من خزي يومئذ أي من ذله وفضيحته، ولا خزي أعظم من خزي من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه.

وجاز أن يريد ب ﴿ يومئذ ﴾ يوم القيامة كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ القوى ﴾ القادر على تنجية أوليائه ﴿ العزيز ﴾ الغالب بإهلاك أعدائه ﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة ﴾ أي صيحة جبريل عليه السلام ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَارِهِمْ ﴾ منازلهم ﴿ جاثمين ﴾ ميتين ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ لم يقيموا فيها ﴿ ألا إن ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ ﴿ ثمودَ ﴾ حمزة وحفص ﴿ أَلاَ بُعْدًا لّثَمُودَ ﴾ ﴿ لِثَمودٍ ﴾ علي : فالصرف للذهاب إلى الحي أو الأب الأكبر ، ومنعه للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 195.196 ﴾

(132/381)

وقال البيضاوى فى الآيات السابقة :

﴿ وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحا قَالَ يا قوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مّنْ إله غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مّنَ الأرض ﴾

هو كونكم منها لا غيره فإنه خلق آدم ومواد النطف التي خلق نسله منها من التراب . ﴿ واستعمركم فِيهَا ﴾ عمركم فيها واستبقاكم من العمر ، أو أقدركم على عمارتها وأمركم

بها ، وقيل هو من العمري بمعنى أعمركم فيها دياركم ويرثها منكم بعد انصرام أعماركم ، أو جعلكم معمرين دياركم تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها لغيركم . ﴿ فاستغفروه ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ ﴾ قريب الرحمة . ﴿ مُّجِيبٌ ﴾ لداعيه .

﴿ قَالُواْ يا صالح قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّا قَبْلَ هذا ﴾ لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد أن تكون لنا سيداً ومستشاراً في الأمور ، أو أن توافقنا في الدين فلما سمعنا هذا القول منك انقطع رجاؤنا عنك . ﴿ أَتَنْهَانَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ على حكاية الحال الماضية .

﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد والتبري عن الأوثان . ﴿ مُرِيبٍ ﴾ موقع في الريبة من أرابه ، أو ذي ريبة على الإسناد المجازي من أراب في الأمر .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ بيان وبصيرة وحرف الشك باعتبار المخاطبين . ﴿ وَءَاتَانِى مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ نبوة . ﴿ فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ الله ﴾ فمن يمنعني من عذابه ﴿ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ في تبليغ رسالته والمنع عن الإشراك به . ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِي ﴾ إذن باستتباعكم إياي . ﴿ غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ غير أن تخسروني بإبطال ما منحني الله به والتعرض لعذابه ، أو فما تزيدونني بما تقولون لي غير أن أنسبكم إلى الخسران .

﴿ ويا قوم هذه نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ ءايَةً ﴾ انتصب آية على الحال وعاملها معنى الإشارة، ولكم حال منها تقدمت عليها لتنكيرها. ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللهِ ﴾ ترع نباتها وتشرب ماءها. ﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ عاجل لا يتراخى عن مسكم لها بالسوء إلا يسيراً وهو ثلاثة أيام.

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ﴾ عيشوا في منازلكم أو في داركم الدنيا. ﴿ ثلاثة أَيَّامٍ ﴾ الأربعاء والخميس والجمعة ثم تهلكون. ﴿ ذلك وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ أي غير مكذوب فيه فاتسع فيه بإجرائه مجرى المفعول به كقوله:

وَيَوْمَ شَهِدْنَاهُ سُلِيماً وَعَامِراً ... أو غير مكذوب على المجاز، وكأن الواعد قال له أفي بك فإن وفى به صدقة وإلا كذبه، أو وعد غير كذب على أنه مصدر كالمجلود والمعقول.

﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صالحا والذين ءامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ﴾ أي ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة أو ذلهم وفضيحتهم يوم القيامة. وعن نافع ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بالفتح على اكتساب المضاف البناء من المضاف إليه هنا وفي "المعارج" في قوله: ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ ﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ القوي العزيز ﴾ القادر على كل شيء والغالب عليه.

﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَارِهِمْ جاثمين ﴾ قد سبق تفسير ذلك في سورة "الأعراف".

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ نَوَّنَهُ أبو بكر ها هنا وفي "النجم" والكسائي في جميع القرآن وابن كثير ونافع وابن عامر وأبو عمرو في قوله: ﴿ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ ذهاباً إلى الحي أو الأب الأكبر. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 242. 244 ﴾

(134/381)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة:

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (50) ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (68) ﴾

التفسير: قد مر في "الأعراف" تفسير قوله: ﴿ وإلى عاد ﴾ الآية. ومعنى قوله: ﴿ إن أنتم إلا مفترون ﴾ أنكم كاذبون في قولكم إن هذه الأصنام يحسن عبادتها مع أنها لا حس لها ولا شعور. ثم قال مثل قول نوح ﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجراً ﴾ لأن النصيحة لا يمحضها إلا حسم المطامع ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أن نصح من لا يطلب الأجر إلا من الله لا

يكون من التهمة في شيء . قيل : إنما قال في قصة نوح ﴿ مالاً ﴾ دون ﴿ أجراً ﴾ لذكر الخزائن بعده ، فلفظ المال بها أليق . وحذف الواو من ﴿ يا قوم ﴾ لأنه أراد الاستئناف أو البدل دون العطف . ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ قد مر مثله في أول السورة . وقال الأصم : المراد سلوه أن يغفر لكم ما تقدم لكم من إسرافكم ثم اعزموا على أن لا تعودوا إلى مثله . ثم قصد استمالتهم وترغيبهم في الإيمان بكثرة المطر وزيادة القوة لأن القوم كانوا حراصاً على جميع الأموال من وجوه العمارة والزراعة مفتخرين بما أوتوا من البطش والقوة ، فقدم إليهم في باب الدعوة إلى الدين والترغيب فيه ما كانت همتهم معقودة به ليحصل في ضمنه الغرض الكلي والمقصود الأصلي وهو الفوز بالسعادات الأخروية ، وكأنه إنما خصص هذين النوعين من السعادات الدنيوية لأن الأول أصل جميع النعم ، والثاني أصل في الانتفاع بتلك النعم .

وقيل : المراد بالقوة الزيادة في المال . وقيل في النكاح . وروي أنه حبس عنهم القطر بشؤم التكذيب ثلاث سنين وأعقم نساؤهم فوعدوا أنهم إن آمنوا أحيا الله بلادهم ورزقهم المال والولد . والمدرار الكثير الدر كما مر في أول " الأنعام " . عن الحسن بن علي رضي الله عه

أنه وفد على معاوية فلما خرج تبعه بعض حجابه فقال : إني رجل ذو مال لا يولد لي فقال : عليك بالاستغفار . فكان يكثر الاستغفار حتى إنه ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة فولد له عشرة بنين فبلغ ذلك معاوية فقال : هلا سألته مم قال ذلك ؟ فوفد وفدة أخرى فسأله الرجل فقال : ألم تسمع قول هود ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ وقول نوح ﴿ ويمددكم بأموال وبنين ﴾ [نوح : 12] ثم قول هود ﴿ لا تتولوا ﴾ أي لا تعرضوا عما أدعوكم إليه ﴿ مجرمين ﴾ مصرين على الإجرام والآثام . فجحدوا هوداً وقالوا ما جئتنا ببينة كما قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ [الرعد : 27] ولم يشتهر منه معجزة ولكن العلماء قالوا : إظهار الدعوة مع أولئك الأقوام من غير مبالاة وتوانٍ آية من الآيات . وقوله : ﴿ عن قولك ﴾ حال من الضمير كأنه قيل : وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ لا يصدق مثلنا مثلك أبداً . ثم زعموا أن بعض آلهتهم اعتراه بسوء أي غشيه وأورثه الخبل والجنون لأنه كان يسب آلهتهم وذلك قولهم : ﴿ إن نقول إلا اعتراك ﴾ وإلا لغو أي ما نقول شيئاً إلا هذا القول فمن ثم يتكلم بكلام المجانين . والمراد أن الأصنام كافأته على سوء فعله بسوء الجزاء فأظهر نبي الله الجلادة والثقة بالله فيما هو بصدده وتبرأ منهم ومن شركهم فأشهد الله وذلك إشهاد صحيح . وأشهدهم أيضاً وهذا كالتهاون وقلة المبالاة بهم كقول الرجل لمن نوى قطعه

بالكلية : أشهد عليَّ أني لا أحبك تهكماً به . وقد مر قوله : ﴿ فكيدوني ﴾ الآية في آخر سورة الأعراف . وقوله : ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾

(136/381)

تمثيل لغاية التسخير ونهاية التدليل ، وكانوا إذا أسروا الأسير فأرادوا إطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته فكان علامة لقهره . قالت المعتزلة : هذا دليل التوحيد لدلالته على أنه لا مالك إلا هو . وقوله : ﴿ إن ربي على صراط مستقيم ﴾ دليل العدل . والأشاعرة قالوا : معناه معنى . ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ [الفجر : 14] أي لا يخفى عليه شيء ولا يفوته هارب ﴿ فإن تولوا فقد أبلغتكم ﴾ كقول القائل إن أكرمتني الآن فقد أكرمتك فيما مضى . والمراد فإن تتولوا فأنا غير معاتب ولا مقصر لأني قد قضيت حق الرسالة . وفي قوله : ﴿ ويستخلف ﴾ إشارة إلى عذاب الاستئصال وأنه يخلق بعدهم من هو أطوع منهم وأنه لا ينقص من ملكه شيئاً ﴿ إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾ يحفظ أعمال العباد حتى يجازيهم عليها ، أو يحفظني من شرككم وكيدكم ، أو يحفظني من الهلاك ﴿ والذين آمنوا معه ﴾ قيل : كانوا أربعة آلاف ﴿ برحمة منا ﴾ أي بفضل وامتنان أو بسبب ما هم فيه من الإيمان والعمل الصالح ﴿ ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ أطلق التنجية أوّلاً

ثم قيدها على معنى وكانت تلك التنجية من عذاب غليظ سموم تدخل في أفواههم وتخرج من أدبارهم فتقطعهم عضواً عضواً .

ويحتمل أن يراد بالثانية النجاة من عذاب الآخرة ولا عذاب أغلظ منه .

(137/381)

ولما ذكر قصتهم خاطب محمداً وأشار إلى قبورهم وآثارهم بقوله : ﴿ وتلك عاد ﴾ فانظروا واعتبروا . ثم استأنف وصف أحوالهم مجملة فقال : ﴿ جحدوا بآيات ربهم ﴾ فلم يتسلقوا من المعجزات إلى صدق الأنبياء ، ولم يرتقوا من الممكنات إلى وجود الواجب بالذات ﴿ وعصوا رسله ﴾ قيل : لم يرسل إليه إلا هود ، وصح الجمع لأن عصيان رسول واحد يتضمن عصيان كلهم ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ [البقرة : 285] ﴿ واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ أطاعوا رؤساءهم وكبراءهم المتمردة والمعاندة ولهذا جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين . وفي تكرير " ألا " والنداء على كفرهم ، والدعاء عليهم بالبعد بعد إهلاكهم دلالة على تفظيع شأنهم وأنهم كانوا مستأهلين للدعاء عليهم بالهلاك ، ويحتمل أن يراد البعد من رحمة الله في الآخرة . وقوله : ﴿ قوم هود ﴾ عطف بيان لعاد إما للتأكيد ومزيد التقرير ، وإما لأن عاداً عاداً القديمة التي هي قوم هود ، والأخرى وهي

إِرم. قوله في قصة ثمود ﴿ هو أنشأكم ﴾ تقديم الضمير للحصر أي لم ينشئكم إلا هو، ومعنى الإنشاء من الأرض أن الكل مخلوق من صلب آدم وهو مخلوق من الأرض. ويمكن أن يقال: إن الإنسان مخلوق من المني وهو يحصل من الغذاء والغذاء ينتهي إلى النبات ثم إلى الأرض. وقيل: إن "من" بمعنى "في". ﴿ واستعمركم ﴾ من العمارة أي جعلكم عماراً للأرض، وأمركم بالعمارة. فمنها واجب وندب ومباح ومكروه، وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار وغرس الأشجار فعمروا الأعمار الطوال مع ما كان منهم من الظلم. فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميرهم فأوحى إليه أنهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي وقيل: من العمر نحو استبقاكم من البقاء. وقيل: من العمرى. ومعناه أعمركم الله فيها دياركم ثم هو وارثها منكم عند انقضاء أعماركم. أو جعلكم معمرين دياركم فيها لأن الرجل إذا ورّث داره من بعده فكأنه أعمره إياها لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لوارثه.

ومعنى كونه تعالى قريباً قد مر في قوله: ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ﴾ [البقرة: 186] وذلك في "البقرة" ﴿ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً ﴾ عن ابن عباس:

فاضلاً خيراً نقدمك على جميعنا . وقيل : كنا نظن بك الرشد والصلاح وكمال العقل وإصابة الرأي . وقيل : كنت تعطف على فقيرنا وتعيد ضعيفنا وتعود مرضانا فظننا أنك من الأنصار والأحباب وأهل الموافقة في الدين ، فكيف أظهرت العداوة والبغضاء ؟ ثم أضافوا إلى هذا الكلام التمسك بالتقليد ومتابعة الآباء ، ثم صرحوا بالتوقف والريب في أمره .

ومريب من أرابه إذا أوقعه في الريبة ، أو من أراب الرجل إذا كان ذا ريبة وهو من الإسناد المجازي واعلم أن قوله ﴿ وإنا لفي شك ﴾ بنون الوقاية ههنا على الأصل ، وأما في سورة إبراهيم فإنما قال : ﴿ وإنا ﴾ بغير نون الوقاية لقوله بعده : ﴿ تدعوننا ﴾ [الآية : 9] على الجمع فكان اجتماع النونات مستكرهاً . فأجابهم هو بقوله : ﴿ إن كنت على بينة ﴾ الآية . وبنى أمره على الفرض والتقدير لأن خطاب المخالف على هذا الوجه أقرب إلى القبول كأنه قال : قدروا أني على بينة ﴿ من ربي ﴾ وأني نبي على الحقيقة فمن يمنعني من عذاب الله ﴿ إن عصيته ﴾ في أوامره ﴿ فما تزيدونني غير تخسير ﴾ أي على هذا التقدير تخسرون أعمالي وتبطلونها ، أو فما تزيدونني بما تحملونني عليه إلا أني أنسبكم إلى الخسران وأقول إنكم خاسرون . والمعنى الأول أقرب لأنه كالدلالة على أن متابعتهم لا تزيده إلا خسران الدارين . ﴿ ويا قوم هذه ناقة الله ﴾ قد مر تفسيره في "الأعراف" . ومعنى ﴿ عذاب قريب ﴾ عاجل لا يستأخر إلا ثلاثة أيام و ﴿ غير مكذوب ﴾ من

باب الاتساع أي غير مكذوب فيه فحذف الحرف . وأجرى الضمير مجرى المفعول به أو من باب المجاز كأن الوعد إذا أوفى به فقد صدق ولم يكذب أو المكذوب مصدر كالمجلود وصف به .

(139/381)

قوله : ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ بالفاء . وفي قصة هود بالواو ولمكان التعقيب ههنا بدليل قوله : ﴿ عذاب قريب ﴾ ومثله في قصة لوط لقوله : ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ [هود : 81] وأما في قصة هود فإنه قال : ﴿ ويستخلف ﴾ بلفظ المستقبل ومثله في قصة شعيب ﴿ سوف تعلمون من يأتيه ﴾ بحرف التسويف فلم يكن الفاء مناسباً .

واعتبر هذا المعنى في سائر المواضع كما في سورة يوسف قال : ﴿ ولما جهزهم ﴾ [الآية : 59] بالواو أولاً لأن التعقيب لم يكن مراداً ثم قال : ﴿ فلما جهزهم ﴾ [الآية : 70] لمكان التعقيب والله أعلم . قوله : ﴿ ومن خزي يومئذٍ ﴾ معطوف على محذوف والتقدير نجينا صالحاً ومن معه من العذاب النازل بقومه ومن الخزي الذي لزمهم ، أو يتعلق بمعطوف محذوف أي ونجيناهم من خزي يومئذ كما قال : ﴿ ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ والمعنيان كما قلنا هناك . والقراءتان في ﴿ يومئذٍ ﴾ لأن الظرف المضاف إلى " إذ "

يجوز بناؤه على الفتح ، والتنوين في " إذ " عوض من المضاف إليه أعني الجملة ، والتقدير يوم إذ كان كذا وكسر الذال للساكنين ﴿ إن ربك هو القوي العزيز ﴾ القادر الغالب فمن قدرته ميز المؤمن من الكافر ، ومن عزته وقهره أهلك الكفار بالصيحة التي سمعوها من جانب السماء إما بواسطة جبرائيل وإما لإحداثها في سحاب مع برق شديد محرق . وإنما تصير الصيحة سبباً للهلاك لأن التموج الشديد في الهواء يوجب تأذي صماخ الإنسان ، وقد يتمزق غشاء الدماغ بذلك ، والأعراض النفسانية أيضاً إذا قويت أوجبت الموت وتمام القصة مذكور في سورة الأعراف ، وقوله : ﴿ ألا إن ثمود ﴾ إلى آخره . شبيه بما مر في قصة هود ، والتأويل كما مر في سورة الأعراف والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 31 ـ 35 ﴾

(140/381)

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

القصة الثالثة : التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة صالح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى :

﴿ وإلى ثمود ﴾ وهم سكان الحجر ، أي : وأرسلنا إلى ثمود ﴿ أخاهم ﴾ فهو معطوف

على قوله تعالى نوحاً كما عطف عليه وإلى عاد وقوله تعالى : ﴿ صالحاً ﴾ عطف بيان ، وتلك الأخوة كانت في النسب لا في الدين ، كما مرّ في هود ، ثم أخرج قوله عليه السلام على تقدير سؤال بقوله : ﴿ قال يا قوم ﴾ ، أي : يا من يعز عليّ أن يحصل لهم سوء ﴿ اعبدوا الله ﴾ ، أي : وحدوه وخصوه بالعبادة ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ هو إلهكم المستحق للعبادة لا هذه الأصنام ، ثم ذكر الدلائل الدالة على وحدانيته تعالى بقوله : ﴿ هو أنشاكم ﴾ ، أي : ابتدأ خلقكم ﴿ من الأرض ﴾ وذلك أنهم من بني آدم وآدم خلق من الأرض ، أو أنّ الإنسان مخلوق من المني وهو متولد من الدم والدم متولد من الأغذية وهي إمّا حيوانية وإمّا نباتية ، فأمّا الحيوانية فحالها كحال الإنسان فوجب انتهاء الكل إلى النبات والنبات متولد من الأرض ، فثبت أنه تعالى أنشأ الإنسان من الأرض . وقيل : من بمعنى في كما في قوله تعالى : ﴿ إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ﴾ (الجمعة ،) . ﴿ واستعمركم فيها ﴾ ، أي : جعلكم عمارها وسكانها ، وقال الضحاك : أطال أعماركم فيها حتى أنّ الواحد منهم كان يعيش ثلاثمائة سنة إلى ألف سنة وكذا كان قوم عاد ، وروي أنّ ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار وغرس الأشجار وحصلت لهم الأعمار الطويلة ، فسأل نبيّ من أنبياء زمانهم ربه ما سبب تلك الأعمار فأوحى الله إليه أنهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي ، وأخذ معاوية في إحياء الأرض في آخرة عمره فقيل له ذلك فقال : ما حملني عليه إلا قول القائل:

*ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ** ولا يكون له في الأرض آثار

وقال مجاهد : استعمركم من العمرى ، أي : جعلها لكم ما عشتم فإذا متم انتقلت إلى غيركم .

(141/381)

ولما بيّن لهم عليه السلام عظمة الله تعالى بين لهم طريق الرجوع إليه بقوله :

﴿ فاستغفروه ﴾ ، أي : آمنوا به ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ من عبادة غيره ؛ لأنّ التوبة لا تصح إلا بعد الإيمان وقد مرّ مثل ذلك ﴿ إنّ ربي قريب ﴾ من خلقه بعلمه لكل من أقبل عليه من غير حاجة إلى حركة ﴿ مجيب ﴾ لكل من ناداه لا كمعبوداتكم في الأمرين . ولما قرّر لهم عليه السلام هذه الدلائل .

(142/381)

﴿ قالوا ﴾ له ﴿ يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ﴾ ، أي : القول الذي جئت به لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد ، فإنك كنت تعطف على فقيرنا وتعين ضعيفنا وتعود

مرضانا ، فقوي رجاؤنا فيك أن تنصر ديننا فكيف أظهرت العداوة ؟ . ثم إنهم أضافوا إلى هذا التعجب الشديد فقالوا : ﴿ أتنهانا أن نعبد ما ﴾ كان ﴿ يعبد آباؤنا ﴾ من الآلهة ، ومقصودهم بذلك التمسك بطرف التقليد ووجوب متابعة الآباء والأسلاف ، ونظير هذا التعجب ما حكاه الله تعالى عن كفار مكة حيث قالوا : ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنّ هذا لشيء عجاب ﴾ (ص ،) ثم قالوا : ﴿ وإننا لفي شك مما تدعونا إليه ﴾ من التوحيد وترك عبادة الأصنام ﴿ مريب ﴾ ، أي : موقع في الريبة وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين ، والرجاء : تعلق النفس بمجيء الخير على جهة الظنّ ، ونظيره الأمل والطمع ، والنهي : المنع من الفعل بصيغة لا تفعل . وقولهم هذا مبالغة في تزييف كلامه ﴿ قال ﴾ صالح عليه السلام مجيباً لهم ﴿ يا قوم أرأيتم ﴾ ، أي : أخبروني ﴿ إن كنت على بيّنة ﴾ ، أي : بيان وبصيرة ﴿ من ربي ﴾ وأتى بحرف الشك على سبيل الجزم ليلائم الخطاب حال المخاطبين ﴿ وآتاني منه رحمة ﴾ ، أي : نبوّة ورسالة ﴿ فمن ينصرني ﴾ ، أي : يمنعني ﴿ من الله ﴾ ، أي : عذابه ﴿ إن عصيته ﴾ ، أي : إن خالفت أمره في تبليغ رسالته والمنع عن الإشراك به ﴿ فما تزيدونني ﴾ ، أي : بأمركم لي بذلك ﴿ غير تخسير ﴾ ، أي : غير تضليل . قال الحسن بن الفضل : لم يكن صالح في خسارة حتى يقول فما تزيدونني غير تخسير ، وإنما المعنى فما تزيدونني بما تقولون إلا نسبتي إياكم

إلى الخسارة. ولما كانت العادة فيمن يدعي النبوّة عند قوم يعبدون الأصنام أن يطلبوا المعجزة وأمر صالح عليه السلام. هكذا كان يروى أن قومه خرجوا في عيد لهم فسألوه أن يأتيهم بآية وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا إليها ناقة، فدعا ربه فخرجت كما سألوا. أشار إليها بقوله: ﴿ويا قوم هذه ناقة الله﴾ وإضافتها إلى الله إضافة تشريف كبيت الله ﴿لكم آية﴾، أي: معجزة من وجوه: أحدها: أنه خلقها الله تعالى من الصخرة. ثانيها: أنه تعالى خلقها في جوف الجبل ثم شق الجبل عنها. ثالثها: أنه تعالى خلقها حاملاً من غير ذكر ثم ولدت فصيلاً يشبهها. رابعها: أنه تعالى خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة. خامسها: ما روي أنه كان لها شرب يوم ولكل القوم شرب يوم آخر. سادسها: أنه كان يحصل منها لبن كثير فيكفي الخلق العظيم به، فكل واحد من هذه الوجوه معجز قويّ، وليس في القرآن إلا أنّ هذه الناقة كانت آية معجزة، وأمّا بيان أنها كانت آية معجزة من أي الوجوه فليس فيه بيانه.

تنبيه: آية نصب على الحال وعاملها معنى الإشارة ولكن حال منها تقدّمت عليها لتنكيرها ولو تأخرت لكانت صفة لها فلما تقدّمت انتصبت على الحال ثم قال لهم: ﴿فذروها﴾، أي: اتركوها على، أي: حالة كان ترككم لها ﴿تأكل﴾ مما أرادت ﴿في أرض الله﴾ من العشب والنبات فليس عليكم مؤنتها فصارت مع كونها آية لهم

تنفعهم ولا تضرّهم؛ لأنهم كانوا ينتفعون بلبنها ثم إنه عليه السلام خاف عليها منهم لما شاهد من إصرارهم على الكفر فإنّ الخصم لا يحب ظهور حجة خصمه بل يسعى في إخفائها وإبطالها بأقصى الإمكان، فلهذا السبب كان يخاف من إقدامهم على قتلها فلهذا احتاط وقال: ﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ ، أي: بعقر أو غيره ثم توعدهم بقوله: ﴿ فيأخذكم ﴾ إن مسستموها بسوء ﴿ عذاب قريب ﴾ ، أي: في الدنيا لا يتأخر عن مسكم لها إلا يسيراً وذلك تحذير شديد لهم في الإقدام على قتلها فخالفوه.

(144/381)

﴿ فعقروها ﴾ وذبحوها ﴿ فقال ﴾ لهم عند بلوغه الخبر ﴿ تمتعوا ﴾ ، أي: عيشوا ﴿ في داركم ﴾ والتمتع التلذذ بالمنافع والملاذ التي تدرك بالحواس وذلك لا يحصل إلا للحي. وفي المراد من الدار وجهان: أحدهما: البلد وتسمى البلد الديار لأنه يدار فيها، أي: يتصرّف فيها، يُقال ديار بكر لبلادهم. الثاني: دار الدنيا، أي: تمتعوا في الدنيا ﴿ ثلاثة أيام ﴾ وذلك أنهم لما عقروا الناقة أنذرهم صالح عليه الصلاة والسلام بنزول العقاب بعد هذه المدّة قال ابن عباس: إنه تعالى لما أمهلهم تلك الأيام الثلاثة فقد رغبهم في الإيمان ثم قالوا لصالح عليه السلام وما علامة ذلك؟ قال: تصير وجوهكم في اليوم الأول

مصفرة وفي الثاني محمرة وفي الثالث مسودّة ثم يأتيكم العذاب في اليوم الرابع ، فلما رأوا وجوههم مسودّة أيقنوا حينئذٍ بالعذاب فتحنطوا واستعدوا للعذاب فصبحهم اليوم الرابع كما قال تعالى : ﴿ ذلك ﴾ ، أي : الوعد العالي الرتبة في الصدق ﴿ وعد غير مكذوب ﴾ ، أي : فيه فاتسع في الظرف بحذف الحرف وإجرائه مجرى المفعول به كقوله : ويومٍ شهدناه أي ورب يوم شهدنا فيه سليماً وعامراً . أو غير مكذوب على المجاز أو وعد غير كذب على أنه مصدر قوله تعالى:

﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ في تفسيره ، وقراءة الهمزتين وعدد الذين آمنوا معه مثل ما تقدّم في قصة عاد ﴿ و ﴾ نجيناهم ﴿ من خزي يومئذ ﴾ وهو هلاكهم بالصيحة أو ذلهم أو فضيحتهم يوم القيامة . وقرأ نافع والكسائي بفتح الميم من يومئذ على البناء لإضافتها إلى مبني ، وكسرها الباقون على الإعراب والأوّل أكثر ﴿ إنّ ربك هو القويّ ﴾ فهو يغلب كل شيء ﴿ العزيز ﴾ ، أي : القادر على منع غيره من غير أن يقدر أحد عليه ، ثم أخبر تعالى عن عذاب قوم صالح بقوله:

﴿ وأخذ الذين ظلموا ﴾ ، أي : أنفسهم بالكفر ﴿ الصيحة ﴾ ، أي : صيحة جبريل عليه السلام ، صاح بهم صيحة واحدة فهلكوا جميعاً أو أتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم في صدورهم فماتوا جميعاً ، كما قال تعالى : ﴿ فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ ، أي : باركين على الركب ميتين .

تنبيه : إنما قال تعالى وأخذ ولم يقل وأخذت ؛ لأنّ الصيحة محمولة على الصياح ، وأيضاً فصل بين الفعل والاسم المؤنث بفاصل فكان الفاصل كالعوض من تاء التأنيث . وقوله تعالى:

﴿ كأن ﴾ مخففة من الثقيلة واسمها محذوف ، أي : كأنهم ﴿ لم يغنوا ﴾ ، أي : يقيموا ﴿ فيها ﴾ ، أي : ديارهم ولم يسكنوها مدة من الدهر يقال : غنيت بالمكان إذا أقمت به . وقوله تعالى : ﴿ ألا إنّ ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴾ تفسيره ما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ ألا إن عاداً كفروا ربهم ﴾ (هود ،) الآية . وقرأ حفص وحمزة ألا إن ثمود بغير تنوين للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة ، والباقون بالتنوين للذهاب إلى الحيّ أو إلى الأب الأكبر . ومَنْ نوّن وقف على ألف بعد الدال ، ومن لم ينون وقف على الدال ساكنة . وقرأ الكسائي بعداً لثمودٍ بتنوين ثمود مع الكسر لما مرّ ، والباقون بغير تنوين مع الفتح لما مرّ أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 96.99 ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾

قوله : ﴿ وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحا ﴾ معطوف على ما تقدّم .

والتقدير : وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً ، والكلام فيه ، وفي قوله : ﴿ يا قوم اعبدوا الله مَا لَكُم مّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ كما تقدّم في قصة هود .

وقرأ الحسن ويحيى بن وثاب : "وإلى ثمود" بالتنوين في جميع المواضع .

واختلف سائر القراء فيه ، فصرفوه في موضع ولم يصرفوه في موضع ، فالصرف باعتبار التأويل بالحيّ ، والمنع باعتبار التأويل بالقبيلة ، وهكذا سائر ما يصح فيه التأويلان ، وأنشد سيبويه في التأنيث باعتبار التأويل بالقبيلة :

غلب المساميح الوليد جماعة . . . وكفى قريش المعضلات وسادها

﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مّنَ الأرض ﴾ أي : ابتدأ خلقكم من الأرض ، لأن كل بني آدم من صلب آدم ، وهو مخلوق من الأرض ﴿ واستعمركم فِيهَا ﴾ أي : جعلكم عمارها وسكانها ، من قولهم أعمر فلان فلاناً داره ، فهي له عمرى ، فيكون استفعل بمعنى أفعل : مثل استجاب

بمعنى أجاب .

وقال الضحاك : معناه : أطال أعماركم ، وكانت أعمارهم من ثلثمائة إلى ألف .

(147/381)

وقيل : معناه أمركم بعمارتها من بناء المساكن وغرس الأشجار ﴿ فاستغفروه ﴾ أي : سلوه المغفرة لكم من عبادة الأصنام ﴿ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ أي : ارجعوا إلى عبادته ﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ أي : قريب الإجابة لمن دعاه ، وقد تقدّم القول فيه في البقرة عند قوله تعالى : ﴿ فَإِنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداعى ﴾ [البقرة : 186] ﴿ قَالُواْ ياصالح قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّا قَبْلَ هذا ﴾ أي : كنا نرجو أن تكون فينا سيداً مطاعاً ننتفع برأيك ، ونسعد بسيادتك قبل هذا الذي أظهرته من ادّعائك النبوّة ، ودعوتك إلى التوحيد .

وقيل : كان صالح يعيب آلهتهم ، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم ، فلما دعاهم إلى الله قالوا انقطع رجاؤنا منك ، والاستفهام في قوله : ﴿ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ للإنكار ، أنكروا عليه هذا النهي ، وأن نعبد في محل نصب بحذف الجار : أي بأن نعبد ، ومعنى ما يعبد آباؤنا : ما كان يعبد آباؤنا ، فهو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكّ مّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ من أربته ، فأنا أريبه : إذا فعلت به فعلاً يوجب له

الريبة، وهي: قلق النفس وانتفاء الطمأنينة، أو من أراب الرجل: إذا كان ذا ريبة، والمعنى: إننا لفي شك مما تدعونا إليه من عبادة الله وحده، وترك عبادة الأوثان موقع في الريب.

(148/381)

﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ أي: حجة ظاهرة وبرهان صحيح ﴿ وَآتَانِي مِنْهُ ﴾ أي: من جهته ﴿ رَحْمَةً ﴾ أي: نبوّة، وهذه الأمور وإن كانت متحققة الوقوع، لكنها صدّرت بكلمة الشك اعتباراً بحال المخاطبين، لأنهم في شك من ذلك، كما وصفوه عن أنفسهم ﴿ فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ اللهِ ﴾ استفهام معناه النفي: أي لا ناصر لي يمنعني من عذاب الله ﴿ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ في تبليغ الرسالة، وراقبتكم وفترت عما يجب عليّ من البلاغ ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِى ﴾ بتثبيطكم إياي ﴿ غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ بأن تجعلوني خاسراً بإبطال عملي، والتعرّض لعقوبة الله لي.

قال الفراء: أي تضليل وإبعاد من الخير.

وقيل: المعنى: فما تزيدونني باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم.

قوله: ﴿ ويا قوم هذه نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ ءايَةً ﴾ قد مرّ تفسير هذه الآية في الأعراف، ومعنى

﴿ لكم آية ﴾ : معجزة ظاهرة ، وهي منتصبة على الحال ، ولكم في محل نصب على الحال من ﴿ آية ﴾ مقدّمة عليها ، ولو تأخرت لكانت صفة لها .

وقيل : إن ناقة الله بدل من هذه ، والخبر لكم ، والأوّل : أولى ، وإنما قال : ﴿ ناقة الله ﴾ لأنه أخرجها لهم من جبل على حسب اقتراحهم .

وقيل : من صخرة صماء ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ ﴾ أي : دعوها تأكل في أرض الله مما فيها من المراعي التي تأكلها الحيوانات .

قال أبو إسحاق الزجاج : ويجوز رفع تأكل على الحال والاستئناف ، ولعله يعني في الأصل على ما تقتضيه لغة العرب لا في الآية ، فالمعتمد القراءات المروية على وجه الصحة ﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوء ﴾ قال الفراء : بعقر ، والظاهر أن النهي عما هو أعمّ من ذلك ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ جواب النهي : أي قريب من عقرها .

(149/381)

وذلك ثلاثة أيام ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أي : فلم يمتثلوا الأمر من صالح ولا النهي ، بل خالفوا كل ذلك فوقع منهم العقر لها ﴿ فَقَالَ ﴾ لهم صالح ﴿ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ أي : تمتعوا بالعيش في منازلكم ثلاثة أيام ، فإن العقاب نازل عليكم بعدها .

قيل : إنهم عقروها يوم الأربعاء ، فأقاموا الخميس والجمعة والسبت ، وأتاهم العذاب يوم الأحد ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما يدل عليه الأمر بالتمتع ثلاثة أيام ﴿ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ أي : غير مكذوب فيه ، فحذف الجارّ اتساعاً ، أو من باب المجاز ، كأن الوعد إذا وفى به صدق ولم يكذب ، ويجوز أن يكون مصدراً : أي وعد غير كذب .

﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا ﴾ أي : عذابنا ، أو أمرنا بوقوع العذاب ﴿ نَجَّيْنَا صالحا والذين ءامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مّنَّا ﴾ قد تقدّم تفسير هذا في قصة هود ﴿ وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ﴾ أي : ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة ، والخزي : الذل والمهانة .

وقيل : من عذاب يوم القيامة ، والأوّل : أولى .

وقرأ نافع والكسائي بفتح " يوم " على أنه اكتسب البناء من المضاف إليه .

وقرأ الباقون بالكسر ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ القوى العزيز ﴾ القادر الغالب الذي لا يعجزه شيء

﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة ﴾ أي : في اليوم الرابع من عقر الناقة ، صيح بهم فماتوا ، وذكر الفعل لأن الصيحة والصياح واحد ، مع كون التأنيث غير حقيقي .

قيل : صيحة جبريل ، وقيل : صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وماتوا ، وتقدّم في الأعراف

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ [الأعراف : 78] قيل : ولعلها وقعت عقب الصيحة ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَارِهِمْ جاثمين ﴾ أي : ساقطين على وجوههم موتى قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جثمت ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ أي : كأنهم لم يقيموا في بلادهم أو ديارهم ، والجملة في محل نصب على الحال والتقدير : مماثلين لمن لم يوجد ولم يقم في مقام قط ﴿ إِلا إن ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر ؛ لزيادة البيان ، وصرح بكفرهم مع كونه معلوماً تعليلاً للدعاء عليهم بقوله : ﴿ أَلاَ بُعْدًا لّثَمُودَ ﴾ وقرأ الكسائي بالتنوين .

وقد تقدم تفسير هذه القصة في الأعراف بما يحتاج إلى مراجعته ليضم ما في إحدى القصتين من الفوائد إلى الأخرى .

وقد أخرج أبو الشيخ ، عن السديّ ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مّنَ الأرض ﴾ قال : خلقكم من الأرض .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ﴿ واستعمركم فِيهَا ﴾ قال : أعمركم فيها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿ واستعمركم فِيهَا ﴾ قال : استخلفكم فيها .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ يقول : ما تزدادون أنتم إلا خساراً .

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عطاء الخراساني نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد، في قوله: ﴿ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جاثمين ﴾ قال: ميتين.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ قال: كأن لم يعيشوا فيها.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه، قال: كأن لم يعمروا فيها.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، قال: كأن لم ينعموا فيها. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(151/381)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة:

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (50) ﴾

مضى قوم نوح في التاريخ، الأكثرون المكذبون طواهم الطوفان وطواهم التاريخ؛

واستبعدوا من الحياة ومن رحمة الله سواء، والناجون استخلفوا في الأرض تحقيقاً لسنة

الله ووعده : ﴿ إن العاقبة للمتقين ﴾ ولقد كان وعد الله لنوح : ﴿ يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ فلما دارت عجلة الزمن ومضت خطوات التاريخ جاء وعد الله . وإذا عاد من نسل نوح الذين تفرقوا في البلاد ومن بعد هم ثمود ممن حقت عليهم كلمة الله : ﴿ وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ لقد عادت الجاهلية مرة أخرى كما عادت من قبل بعد أجيال لا يعلمها إلا الله من المسلمين من ذرية آدم . . فلا بد أن أجيالاً من ذرية آدم بعد استخلافه في الأرض قد ولدت مسلمة وعاشت بالإسلام الذي كان عليه أبواهم . حتى اجتالتهم الشياطين عن دينهم ، وانحرفت بهم إلى الجاهلية التي واجهها نوح عليه السلام ثم جاء نوح فنجا معه من نجا من المسلمين ، وأهلك الباقون ولم يعد على الأرض من الكافرين ديار كما دعا نوح ربه . ولا بد أن أجيالاً كثيرة من ذرية نوح عاشت بالإسلام بعده . . حتى اجتالتهم الشياطين مرة أخرى فانحرفوا كذلك إلى الجاهلية . وكانت عاد وكانت ثمود بعدها من أمم الجاهلية . .

فأما عاد فكانوا قبيلة تسكن الأحقاف (والحقف كثيب الرمل المائل) في جنوب الجزيرة العربية ، وأما ثمود فكانت قبيلة تسكن مدائن الحِجر في شمال الجزيرة بين تبوك والمدينة

وبلغت كل منهما في زمانها أقصى القوة والمنعة والرزق والمتاع . ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا ممن حقت عليهم كلمة الله ، بما عتوا عن أمر الله ، واختاروا الوثنية على التوحيد ، والدينونة للعبيد على الدينونة لله ، وكذبوا الرسل شر تكذيب . وفي قصصهم هنا مصداق ما في مطلع السورة من حقائق وقضايا كقصة نوح .

﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترون . يا قوم لا أسألكم عليه أجراً . إن أجري إلا على الذي فطرني . أفلا تعقلون ؟ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين ﴾ . .

وكان هود من عاد . فهو أخوهم . واحد منهم ، تجمعه كانت آصرة القربى العامة بين أفراد القبيلة الواحدة . وتبرز هذه الآصرة هنا في السياق ، لأن من شأنها أن تقوم الثقة والتعاطف والتناصح بين الأخ وإخوته ، وليبدو موقف القوم من أخيهم ونبيهم شاذاً ومستقبحاً ! ثم لتقوم المفاصلة في النهاية بين القوم وأخيهم على أساس إفتراق العقيدة . ويبرز بذلك معنى إنقطاع الوشائج كلها حين تنقطع وشيجة العقيدة .

لتتفرد هذه الوشيجة وتبرز في علاقات المجتمع الإسلامي ، ثم لكي تتبين طبيعة هذا الدين وخطه الحركي . . فالدعوة به تبدأ والرسول وقومه من أمة واحدة تجمع بينه وبينها أواصر القربى والدم والنسب والعشيرة والأرض . . . ثم تنتهي بالإفتراق وتكوين أمتين مختلفتين من القوم الواحد . . أمة مسلمة وأمة مشركة . . وبينهما فُرقة ومفاصلة . . وعلى أساس هذه المفاصلة يتم وعد الله بنصر المؤمنين وإهلاك المشركين . ولا يجيء وعد الله بهذا ولا يتحقق إلا بعد أن تتم المفاصلة ، وتتم المفارقة ، وتتميز الصفوف ، وينخلع النبي والمؤمنون معه من قومهم ، ومن سابق روابطهم ووشائجهم معهم ، ويخلعوا ولاءهم لقومهم ولقيادتهم السابقة ، ويعطوا ولاءهم كله لله ربهم ولقيادتهم المسلمة التي دعتهم إلى الله وإلى الدينونة له وحده وخلع الدينونة للعباد . . وعندئذٍ فقط لا قبله يتنزل عليهم نصر الله . .

﴿ وإلى عاد أخاهم هودا ﴾ . .

أرسلناه إليهم كما أرسلنا نوحاً إلى قومه في القصة السابقة .

﴿ قال : يا قوم ﴾ . .

بهذا التودد ، والتذكير بالأواصر التي تجمعهم ، لعل ذلك يستشير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم إليه فيما يقول . فالرائد لا يكذب أهله ، والناصح لا يغش قومه .

﴿ قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ . .

القولة الواحدة التي جاء بها كل رسول وكانوا قد انحرفوا كما أسلفنا عن عبادة الله الواحد التي هبط بها المؤمنون مع نوح من السفينة . ولعل أول خطوة في هذا الإنحراف كانت هي تعظيم ذكرى الفئة المؤمنة القليلة التي حملت في السفينة مع نوح ! ثم تطور هذا التعظيم جيلاً بعد جيل فإذا أرواحهم المقدسة تتمثل في أشجار وأحجار نافعة ؛ ثم تتطور هذه الأشياء فإذا هي معبودات ، وإذا وراءها كهنة وسدنة يعبّدون الناس للعباد منهم باسم هذه المعبودات المدعاة في صورة من صور الجاهلية الكثيرة . ذلك أن الإنحراف خطوة واحدة عن نهج التوحيد المطلق . الذي لا يتجه بشعور التقديس لغير الله وحده ولا يدين بالعبودية إلا لله وحده . . الإنحراف خطوة واحدة لا بد أن تتبعه مع الزمان خطوات وانحرافات لا يعلم مداها إلا الله .

على أية حال لقد كان قوم هود مشركين لا يدينون لله وحده بالعبودية ، فإذا هو يدعوهم تلك الدعوة التي جاء بها كل رسول :

﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ . . ﴿ إن أنتم إلا مفترون ﴾ . .

مفترون فيما تعبدونه من دون الله ، وفيما تدعونه من شركاء لله .

ويبادر هود ليوضح لقومه أنها دعوة خالصة ونصيحة ممحضة ، فليس له من ورائها هدف . وما يطلب على النصح والهداية أجراً . إنما أجره على الله الذي خلقه فهو به كفيل

:

﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجراً . إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون ؟ ﴾ .

مما يشعر أن قوله : ﴿ لا أسألكم عليه أجراً ﴾ كان بناء على اتهام له أو تلميح بأنه يبتغي أجراً أو كسب مال من وراء الدعوة التي يدعوها .

وكان التعقيب : ﴿ أفلا تعقلون ؟ ﴾ للتعجيب من أمرهم وهم يتصورون أن رسولاً من عند الله يطلب رزقاً من البشر ، والله الذي أرسله هو الرزاق الذي يقوِّت هؤلاء الفقراء !

(155/381)

ثم يوجههم إلى الإستغفار والتوبة . ويكرر السياق التعبير ذاته الذي ورد في أول السورة على لسان خاتم الأنبياء ، ويعدهم هود ويحذرهم ما وعدهم محمد وحذرهم بعد ذلك بالآف السنين :

﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويزدكم قوة إلى قوتكم . ولا تتولوا مجرمين ﴾ . .

استغفروا ربكم مما أنتم فيه ، وتوبوا إليه فابدأوا طريقاً جديداً يحقق النية ويترجمها إلى عمل يصدق النية . .

﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ . .

وكانوا في حاجة إلى المطر يسقون به زروعهم ودوابهم في الصحراء ، ويحتفظون به بالخصب الناشئ من هطول الأمطار في تلك البقاع .

﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ . .

هذه القوة التي عرفتم بها . .

﴿ ولا تتولوا مجرمين ﴾ . .

مرتكبين لجريمة التولي والتكذيب .

وننظر في هذا الوعد . وهو يتعلق بإدرار المطر ومضاعفة القوة . وهي أمور تجري فيها سنة الله وفق قوانين ثابتة في نظام هذا الوجود ، من صنع الله ومشيئته بطبيعة الحال . فما علاقة الإستغفار بها وما علاقة التوبة ؟

فأما زيادة القوة فالأمر فيها قريب ميسور ، بل واقع مشهود ، فإن نظافة القلب والعمل الصالح في الأرض يزيدان التائبين العاملين قوة . يزيدانهم صحة في الجسم بالإعتدال والاقتصار على الطيبات من الرزق وراحة الضمير وهدوء الأعصاب والإطمئنان إلى الله والثقة برحمته في كل آن ؛ ويزيدانهم صحة في المجتمع بسيادة شريعة الله الصالحة التي تطلق الناس أحراراً كراماً لا يدينون لغير الله على قدم المساواة بينهم أمام قهار واحد تعنو له الجباه . . كما تطلقان طاقات الناس ليعملوا وينتجوا ويؤدوا تكاليف الخلافة في الأرض ؛

غير مشغولين ولا مسخرين بمراسم التأليه للأرباب الأرضية وإطلاق البخور حولها ودق الطبول ، والنفخ فيها ليل نهار لتملأ فراغ الإله الحق في فطرة البشر !

(156/381)

والملحوظ دائماً أن الأرباب الأرضية تحتاج ويحتاج معها سدنتها وعبادها أن يخلعوا عليها بعض صفات الألوهية من القدرة والعلم والإحاطة والقهر والرحمة . . أحياناً . . كل ذلك ليدين لها الناس ! فالربوبية تحتاج إلى ألوهية معها تخضع بها العباد ! وهذا كله يحتاج إلى كد ناصب من السدنة والعبَّاد وإلى جهد ينفقه من يدينون لله وحده في عمارة الأرض والنهوض بتكاليف الخلافة فيها ، بدلاً من أن ينفقه عبَّاد الأرباب الأرضية في الطبل والزمر والتراتيل والتسابيح لهذه الأرباب المفتراة !

ولقد تتوافر القوة لمن لا يحكّمون شريعة الله في قلوبهم ولا في مجتمعهم ، ولكنها قوة إلى حين . تنتهي الأمور إلى نهايتها الطبيعية وفق سنة الله ، وتتحطم هذه القوة التي لم تستند إلى أساس ركين . إنما استندت إلى جانب واحد من السنن الكونية كالعمل والنظام ووفرة الإنتاج .

وهذه وحدها لا تدوم . لأن فساد الحياة الشعورية والاجتماعية يقضي عليها بعد حين .

فأما إرسال المطر مدراراً . فالظاهر للبشر أنه يجري وفق سنن طبيعية ثابتة في النظام الكوني . ولكن جريان السنن الطبيعية لا يمنع أن يكون المطر محيياً في مكان وزمان ، ومدمراً في مكان وزمان ؛ وأن يكون من قدر الله أن تكون الحياة مع المطر لقوم ، وأن يكون الدمار معه لقوم ، وان ينفذ الله تبشيره بالخير ووعيده بالشر عن طريق توجيه العوامل الطبيعية ؛ فهو خالق هذه العوامل ، وجاعل الأسباب لتحقيق سننه على كل حال . ثم تبقى وراء ذلك مشيئة الله الطليقة التي تصرف الأسباب والظواهر بغير ما اعتاد الناس من ظواهر النواميس وذلك لتحقيق قدر الله كيفما شاء . حيث شاء . بالحق الذي يحكم كل شيء في السماوات والأرض غير مقيد بما عهده الناس في الغالب .

تلك كانت دعوة هود ويبدوا أنها لم تكن مصحوبة بمعجزة خارقة . ربما لأن الطوفان كان قريباً منهم ، وكان في ذاكرة القوم وعلى لسانهم ، وقد ذكرهم به في سورة أخرى فأما قومه فظنوا به الظنون . .

﴿ قالوا . يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . . ﴾ .

إلى هذا الحد بلغ الإنحراف في نفوسهم ، إلى حد أن يظنوا أن هوداً يهذي ، لأن أحد آلهتهم المفتراة قد مسه بسوء ، فأصيب بالهذيان !

﴿ يا هود ما جئتنا ببينة ﴾ . . .

والتوحيد لا يحتاج إلى بينة ، إنما يحتاج إلى التوجية والتذكير ، وإلى استجاشة منطق الفطرة ، واستنباء الضمير .

﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ﴾ . .

أي لمجرد أنك تقول بلا بينة ولا دليل !

﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ . .

أي مستجيبين لك ومصدقين . . وما نعلل دعوتك إلا بأنك تهذي وقد أصابك أحد آلهتنا بسوء !

وهنا لم يبق لهود إلا التحدي . وإلا التوجه إلى الله وحده والإعتماد عليه . وإلا الوعيد والإنذار الأخير للمكذبين . وإلا المفاصلة بينه وبين قومه ونفض يده من أمرهم إن أصروا على التكذيب :

﴿ قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه ، فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربي قوماً غيركم

ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾ . .

إنها انتفاضة التبرؤ من القوم وقد كان منهم وكان أخاهم وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم وقد اتخذوا غير طريق الله طريقاً . وانتفاضة المفاصلة بين حزبين لا يلتقيان على وشيجة وقد انبتت بينهما وشيجة العقيدة .

وهو يشهد الله على براءته من قومه الضالين وانعزاله عنهم وانفصاله منهم .

ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم في وجوههم ؛ كي لا تبقى في أنفسهم شبهة من نفوره وخوفه أن يكون منهم !

وذلك كله مع عزة الإيمان واستعلائه . ومع ثقة الإيمان واطمئنانه !

وإن الإنسان ليدهش لرجل فرد يواجه قوماً غلاظاً شداداً حمقى . يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أن هذه المعبودات الزائفة تمس رجلاً فيهذي ؛ ويروا في الدعوة إلى الله الواحد هذياناً من أثر المس ! يدهش لرجل يواجه هؤلاء القوم الواثقين بآلهتهم المفتراة هذه الثقة ، فيسفه عقيدتهم ويقرعهم عليها ويؤنبهم ؛ ثم يهيج ضراوتهم بالتحدي . لا يطلب مهلة ليستعد استعدادهم ، ولا يدعهم يتريثون فيفثأ غضبهم .

إن الإنسان ليدهش لرجل فرد يقتحم هذا الاقتحام على قوم غلاظ شداد . ولكن الدهشة تزول عندما يتدبر العوامل والأسباب . .

إنه الإيمان . والثقة . والاطمئنان . . الإيمان بالله ، والثقة بوعده ، والإطمئنان إلى نصره . . الإيمان الذي يخالط القلب فإذا وعد الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يشك فيها لحظة . لأنها ملء يديه ، وملء قلبه الذي بين جنبيه ، وليست وعداً للمستقبل في ضمير الغيب ، إنما هي حاضر واقع تتملاه العين والقلب .

﴿ قال : إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه ﴾ . إني أشهد الله على براءتي مما تشركون من دونه . واشهدوا أنتم شهادة تبرئني وتكون حجة عليكم : أنني عالنتكم بالبراءة مما تشركون من دون الله . ثم تجمعوا أنتم وهذه الآلهة التي تزعمون أن أحدها مسني بسوء . تجمعوا أنتم وهي جميعاً ثم كيدوني بلا ريث ولا تمهل ، فما أباليكم جميعاً ، ولا أخشاكم شيئاً :

﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم ﴾ . .

ومهما أنكرتم وكذبتم . فهذه الحقيقة قائمة . حقيقة ربوبية الله لي ولكم . فالله الواحد هو ربي وربكم ، لأنه رب الجميع بلا تعدد ولا مشاركة . .

﴿ ما من دابة إلا هو أخذ بناصيتها ﴾ . .

وهي صورة محسوسة للقهر والقدرة تصور القدرة آخذة بناصية كل دابة على هذه الأرض ، بما فيها الدواب من الناس . والناصية أعلى الجبهة . فهو القهر والغلبة والهيمنة ، في صورة حسية تناسب الموقف ، وتناسب غلظة القوم وشدتهم ، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم ، وتناسب غلظ حسهم ومشاعرهم . . وإلى جانبها تقرير استقامة السنة الإلهية في اتجاهها الذي لا يحيد :

﴿ إن ربي على صراط مستقيم ﴾ . .

فهي القوة والاستقامة والتصميم .

وفي هذه الكلمات القوية الحاسمة ندرك سر ذلك الإستعلاء وسر ذلك التحدي . . إنها ترسم صورة الحقيقة التي يجدها نبي الله هود عليه السلام في نفسه من ربه . . إنه يجد هذه الحقيقة واضحة . . إن ربه ورب الخلائق قوي قاهر : ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ . . وهؤلاء الغلاظ الأشداء من قومه إن هم إلا دواب من تلك الدواب التي يأخذ ربه بناصيتها ويقهرها بقوته قهراً . فما خوفه من هذه الدواب وما احتفاله بها ؛ وهي لا تسلط عليه إن سلطت إلا بإذن ربه ؟ وما بقاؤه فيها وقد اختلف طريقها عن طريقه ؟

إن هذه الحقيقة التي يجدها صاحب الدعوة في نفسه ، لا تدع في قلبه مجالاً للشك في عاقبة أمره ؛ ولا مجالاً للتردد عن المضي في طريقه .

إنها حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب الصفوة المؤمنة ابداً .

وعند هذا الحد من التحدي بقوة الله ، وإبراز هذه القوة في صورتها القاهرة الحاسمة ،

يأخذ هود في الإنذار والوعيد :

﴿ فإن تولوا فقد ابلغتكم ما أرسلت به إليكم ﴾ . .

فأديت واجبي لله ، ونفضت يدي من أمركم لتواجهوا قوة الله سبحانه :

﴿ ويستخلف ربي قوماً غيركم ﴾ . .

يليقون بتلقي دعوته ويستقيمون على هدايته بعد إهلاككم ببغيكم وظلمكم وانحرافكم .

﴿ ولا تضرونه شيئاً ﴾ . .

فما لكم به من قوة ، وذهابكم لا يترك في كونه فراغاً ولا نقصاً . .

﴿ إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾ . .

يحفظ دينه وأولياءه وسننه من الأذى والضياع ، ويقوم عليكم فلا تفلتون ولا تعجزونه

هرباً ! وكانت هي الكلمة الفاصلة . وانتهى الجدل والكلام . ليحق الوعيد والإنذار :

﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا . ونجيناهم من عذاب غليظ

﴾ .

لما جاء أمرنا بتحقيق الوعيد ، وإهلاك قوم هود ، نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة مباشرة منا ، خلصتهم من العذاب العام النازل بالقوم ، واستثنتهم من أن يصيبهم بسوء . وكانت نجاتهم من عذاب غليظ حل بالمكذبين . ووصف العذاب بأنه غليظ بهذا التصوير المجسم ، يتناسق مع الجو ، ومع القوم الغلاظ العتاة .

والآن وقد هلكت عاد . يشار إلى مصرعها إشارة البعد ، ويسجل عليها ما اقترفت من ذنب ، وتشيع باللعنة والطرد ، في تقرير وتكرار وتوكيد :

﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة . ألا إن عاداً كفروا ربهم . ألا بعداً لعاد قوم هود ﴾ . .

﴿ وتلك عاد ﴾ . . بهذا البعد . وقد كان ذكرهم منذ لحظة في السياق ، وكان مصرعهم معروفاً على الأنظار . . ولكنهم انتهوا وبعدوا عن الأنظار والأفكار . .

﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ﴾ . .

وهم عصوا رسولاً واحداً . ولكن أليست هي رسالة واحدة جاء بها الرسل جميعاً ؟ فمن لم يسلم لرسول بها فقد عصى الرسل جميعاً . ولا ننسى أن هذا الجمع في الآيات وفي الرسل مقصود من ناحية أسلوبية أخرى لتضخيم جريمتهم وإبراز شناعتها . فهم جحدوا آيات ، وهم عصوا رسلاً . فما أضخم الذنب وما أشنع الجريمة !

﴿ واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ . .

امر كل متسلط عليهم ، معاند لا يسلم بحق ، وهم مسؤولون أن يتحرروا من سلطان المتسلطين ، ويفكروا بأنفسهم لأنفسهم . ولا يكونوا ذيولاً فيهدروا آدميتهم .

وهكذا يتبين أن القضية بين هود وعاد كانت قضية ربوبية الله وحده لهم والدينونة لله وحده من دون العباد . . كانت هي قضية الحاكمية والاتباع .

. كانت هي قضية : من الرب الذي يدينون له ويتبعون أمره ؟ يتجلى هذا في قول الله تعالى :

﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ . .

فهي المعصية لأمر الرسل والاتباع لأمر الجبارين ! والإسلام هو طاعة أمر الرسل لأنه أمر الله ومعصية أمر الجبارين . وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية والإسلام وبين الكفر والإيمان . . في كل رسالة وعلى يد كل رسول .

وهكذا يتبين أن دعوة التوحيد تصر أول ما تصر على التحرر من الدينونة لغير الله ؛ والتمرد على سلطان الأرباب الطغاة ؛ وتعد إلغاء الشخصية والتنازل عن الحرية ، واتباع الجبارين المتكبرين جريمة شرك وكفر يستحق عليها الخانعون الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة .

لقد خلق الله الناس ليكونوا أحراراً لا يدينون بالعبودية لأحد من خلقه ، ولا ينزلون عن حريتهم هذه لطاغية ولا رئيس ولا زعيم . فهذا مناط تكريمهم . فإن لم يصونوه فلا كرامة لهم عند الله ولا نجاة . وما يمكن لجماعة من البشر أن تدعي الكرامة ، وتدعي الإنسانية ، وهي تدين لغير الله من عباده . والذين يقبلون الدينونة لربوبية العبيد وحاكميتهم ليسوا بمعذورين أن يكونوا على أمرهم مغلوبين . فهم كثرة والمتجبرون قلة . ولو أرادوا التحرر لضحوا في سبيله بعض ما يضحونه مرغمين للأرباب المتسلطين من ضرائب الذل في النفس والعرض والمال .

لقد هلكت عاد لأنهم اتبعوا امر كل جبار عنيد . . هلكلوا مشيعين باللعنة في الدنيا وفي الآخرة :

﴿ وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ﴾ . .

ثم لا يتركهم قبل أن يسجل عليهم حالهم وسبب ما أصابهم في إعلان عام وتنبيه عال :

﴿ ألا إن عاداً كفروا ربهم ﴾ . .

ثم يدعو عليهم بالطرد والبعد البعيد :

﴿ ألا بعداً لعاد قوم هود ﴾ . .

بهذا التحديد والإيضاح والتوكيد . كأنما يحدد عنوانهم للعنة المرسلة عليهم حتى

تقصدهم قصداً :

﴿ ألا بعداً لعاد قوم هود ﴾ ! ! !

(162/381)

ونقف وقفات قصيرة أمام ما تلهمه قصة هود مع قومه في سياق هذه السورة ، قبل ان ننتقل منها إلى قصة صالح . ذلك أن استعراض خط سير الدعوة الإسلامية على هذا النحو إنما يجيء في القرآن الكريم لرسم معالم الطريق في خط الحركة بهذه العقيدة على مدار القرون . . ليس فقط في ماضيها التاريخي ، ولكن في مستقبلها إلى آخر الزمان . وليس فقط للجماعة المسلمة الأولى التي تلقت هذا القرآن أول مرة . وتحركت به في وجه الجاهلية يومذاك ؛ ولكن كذلك لكل جماعة مسلمة تواجه به الجاهلية إلى آخر الزمان . . وهذا ما يجعل هذا القرآن كتاب الدعوة الإسلامية الخالد ؛ ودليلها في الحركة في كل حين .

ولقد أشرنا إشارات سريعة إلى اللمسات القرآنية التي سنعيد الحديث عنها كلها تقريباً . . ولكنها مرت في مجال تفسير النصوص القرآنية مروراً عابراً لمتابعة السياق . وهي تحتاج إلى وقفات امامها أطول في حدود الإجمال :

* نقف أمام الدعوة الواحدة الخالدة على لسان كل رسول وفي كل رسالة .

. ودعوة توحيد العبادة والعبودية لله ، المتمثلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول : ﴿ قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ . . ولقد كنا دائماً نفسر " العبادة " لله وحده بأنها " الدينونة الشاملة " لله وحده . في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة . ذلك أن هذا هو المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي . . فإن " عبد " معناها : دان وخضع وذلل . وطريق معبد طريق مذلل ممهد . وعبّده جعله عبداً أي خاضعاً مذللاً . . ولم يكن العربي الذي خوطب بهذا القرآن اول مرة يحصر مدلول هذا اللفظ وهو يؤمر به في مجرد أداء الشعائر التعبدية . بل إنه يوم خوطب به أول مرة في مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية ! إنما كان يفهم منه عندما يخاطب به ان المطلوب منه هو الدينونة لله وحده في أمره كله ؛ وخلع الدينونة لغير الله من عنقه في كل أمره . . ولقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم " العبادة " نصاً بأنها هي " الاتباع " وليست هي الشعائر التعبدية . وهو يقول لعدي ابن حاتم عن اليهود والنصارى واتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً : " بلى . إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال . فاتبعوهم . فذلك عبادتهم إياهم " . إنما أطلقت لفظة " العبادة " على " الشعائر التعبدية " باعتبارها صورة من صور الدينونة لله في شأن من

الشؤون . . صورة لا تستغرق مدلول " العبادة " بل إنها تجيء بالتبعية لا بالأصالة ! فلما بهت مدلول " الدين " ومدلول " العبادة " في نفوس الناس صاروا يفهمون أن عبادة غير الله التي يخرج بها الناس من الإسلام إلى الجاهلية هي فقط تقديم الشعائر التعبدية لغير الله ، كتقديمها للأصنام والأوثان مثلاً ! وأنه متى تجنب الإنسان هذه الصورة فقد بعد عن الشرك والجاهلية وأصبح " مسلماً " لا يجوز تكفيره ! وتمتع بكل ما يتمتع به المسلم في المجتمع المسلم من صيانة دمه وعرضه وماله . . . إلى أخر حقوق المسلم على المسلم !

(164/381)

وهذا وهم باطل ، وانحسار وانكماش ، بل تبديل وتغيير في مدلول لفظ " العبادة " التي يدخل بها المسلم في الإسلام أو يخرج منه وهذا المدلول هو الدينونة الكاملة لله في كل شأن ورفض الدينونة لغير الله في كل شأن . وهو المدلول الذي تفيده اللفظة في أصل اللغة ؛ والذي نص عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم نصاً وهو يفسر قول الله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ وليس بعد تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم لمصطلح من المصطلحات قول لقائل .

هذه الحقيقة هي التي قررناها كثيراً في هذه الظلال وفي غيرها في كل ما وفقنا الله لكتابته

حول هذا الدين وطبيعته ومنهجه الحركي . فالآن نجد في قصة هود كما تعرضها هذه السورة لمحة تحدد موضوع القضية ومحور المعركة التي كانت بين هود وقومه ؛ وبين الإسلام الذي جاء به والجاهلية التي كانوا عليها ؛ وتحدد ما الذي كان يعنيه وهو يقول لهم : "يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره" . .

إنه لم يكن يعني : يا قوم لا تتقدموا بالشعائر التعبدية لغير الله ! كما يتصور الذين انحسر مدلول "العبادة" في مفهوماتهم ، وانزوى داخل إطار الشعائر التعبدية ! إنما كان يعني الدينونة لله وحده في منهج الحياة كلها ؛ ونبذ الدينونة والطاعة لأحد من الطواغيت في شؤون الحياة كلها . . والفعلة التي من أجلها استحق قوم هود الهلاك واللعنة في الدنيا والآخرة لم تكن هي مجرد تقديم الشعائر التعبدية لغير الله . . فهذه صورة واحدة من صور الشرك الكثيرة التي جاء هود ليخرجهم منها إلى عبادة الله وحده أي الدينونة له وحده إنما كانت الفعلة النكراء التي استحقوا من أجلها ذلك الجزاء هي : جحودهم بآيات ربهم ، وعصيان رسله . واتباع أمر الجبارين من عبيده : ﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم ، وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ . كما يقول عنهم أصدق القائلين الله رب العالمين . .

وجحودهم بآيات ربهم إنما يتجلى في عصيان الرسل، واتباع الجبارين.. فهو أمر واحد لا أمور متعددة.. ومتى عصى قوم أوامر الله المتمثلة في شرائعه المبلغة لهم من رسله بألا يدينوا لغير الله. ودانوا للطواغيت بدلاً من الدينونة لله؛ فقد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله؛ وخرجوا بذلك من الإسلام إلى الشرك وقد تبين لنا من قبل أن الإسلام هو الأصل الذي بدأت به حياة البشر على الأرض؛ فهو الذي نزل به آدم من الجنة واستخلف في هذه الأرض؛ وهو الذي نزل به نوح من السفينة واستخلف في هذه الأرض. إنما كان الناس يخرجون من الإسلام إلى الجاهلية، حتى تأتي إليهم الدعوة لتردهم من الجاهلية إلى الإسلام.. وهكذا إلى يومنا هذا..

والواقع أنه لو كانت حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات؛ وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان! إنما الذي استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد. وردهم إلى الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن؛ وفي منهج حياتهم كله للدنيا والآخرة سواء.

إن توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد القوامه، وتوحيد الحاكمية، وتوحيد

مصدر الشريعة ، وتوحيد منهج الحياة ، وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونه الشاملة .

(166/381)

. . إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من اجله كل هؤلاء الرسل ، و أن تبذل في سبيله كل هذه الجهود ؛ و أن تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات و الآلام على مدار الزمان . . لا لأن الله سبحانه في حاجة إليه ، فالله سبحانه غني عن العالمين . ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح حياة لائقة " بالإنسان " إلا بهذا التوحيد الذي لا حد لتاثيره في الحياة البشرية في كل جانب من جوانبها . (وهذا ما نرجو أن نزيده بياناً إن شاء الله في نهاية قصص الرسل في ختام السورة) . .

* ونقف أمام الحقيقة التي كشف عنها هود لقومه وهو يقول لهم : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين ﴾ . . . وهي ذات الحقيقة التي ذكرت في مقدمة السورة بصدد دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لقومه بمضمون الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . وذلك في قوله تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسنا إلى أجل

مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴾ إنها حقيقة العلاقة بين القيم الإيمانية والقيم الواقعية في الحياة البشرية ، وحقيقة اتصال طبيعة الكون ونواميسه الكلية بالحق الذي يحتويه هذا الدين . . . وهي حقيقة في حاجة إلى جلاء وتثبيت ؛ وبخاصة في نفوس الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ؛ والذين لم تصقل أرواحهم وتشف حتى ترى هذه العلاقة أو على الأقل تستشعرها . .

إن الحق الذي نزل به هذا الدين غير منفصل عن الحق المتمثل في ألوهية الله سبحانه والحق الذي خلقت به السماوات والأرض ، المتجلي في طبيعة هذا الكون ونواميسه الأزلية . . والقرآن الكريم كثيراً ما يربط بين الحق المتمثل في ألوهية الله سبحانه والحق الذي قامت به السماوات والأرض ؛ والحق المتمثل في الدينونة لله وحده . . والحق المتمثل في دينونة الناس لله يوم الحساب بصفة خاصة ، والحق في الجزاء على الخير والشر في الدنيا والآخرة . .

وذلك في مثل هذه النصوص :

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا . . إن كنا فاعلين . . . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم

الويل مما تصفون ، وله من في السماوات والأرض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون . أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنشرون ، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة قل : هاتوا برهانكم . هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون . وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾

[الأنبياء : 16 25]

﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج . . ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾ [الحج : 5 7] .

﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم . ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم . الملك يومئذ ، لله يحكم بينهم ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين . والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً ، وإن الله لهو خير الرازقين ، ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حليم . ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله ، إن الله لعفو غفور ، ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وأن الله سميع بصير . ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلي الكبير . ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ؟ إن الله لطيف خبير . له ما في السماوات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد . ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم . وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ، إن الإنسان لكفور . لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه ، فلا ينازعنك في الأمر ، وادع إلى ربك ، إنك لعلى هدى مستقيم . . . ﴾ [الحج : 54 - 67] .

وهكذا نجد في هذه النصوص وأمثالها في القرآن الكريم العلاقة الواضحة بين كون الله

سبحانه هو الحق ، وبين خلقه لهذا الكون وتدبيره بنواميسه ومشيئته بالحق ، وبين الظواهر الكونية التي تتم بالحق . وبين تنزيل هذا الكتاب بالحق ، وبين الحكم بين الناس في الدنيا والآخرة بالحق .

. فكله حق واحد موصول ينشأ عنه جريان قدر الله بما يشاء ، وتسليط القوى الكونية بالخير والشر على من يشاء ؛ وفق ما يكون من الناس من الخير والشر في دار الابتلاء . ومن هنا كان ذلك الربط بين الاستغفار والتوبة ، وبين المتاع الحسن وإرسال السماء مدراراً . . . فكل أولئك موصول بمصدر واحد هو الحق المتمثل في ذات الله سبحانه وفي قضائه وقدره ، وفي تدبيره وتصريفه ، وفي حسابه وجزائه ، في الخير وفي الشر سواء . .

ومن هذا الارتباط يتجلى أن القيم الإيمانية ليست منفصلة عن القيم العملية في حياة الناس . فكلتاهما تؤثر في هذه الحياة . سواء عن طريق قدر الله الغيبي المتعلق بعالم الأسباب من وراء علم البشر وسعيهم . أو عن طريق الآثار العملية المشهودة التي يمكن للبشر رؤيتها وضبطها كذلك . وهي الآثار التي ينشئها في حياتهم الإيمان أو عدم الإيمان ، من النتائج المحسوسة المدركة .

وقد أسلفنا الإشارة إلى بعض هذه الآثار العملية الواقعية حين قلنا مرة : إن سيادة المنهج الإلهي في مجتمع معناه أن يجد كل عامل جزاءه العادل في هذا المجتمع ، وان يجد كل فرد الأمن والسكينة والاستقرار الاجتماعي فضلاً على الأمن والسكينة والاستقرار القلبي بالإيمان ومن شأن هذا كله أن يمتع الناس متاعاً حسناً في هذه الدنيا قبل أن يلقوا جزاءهم الأخير في الآخرة . . وحين قلنا مرة : إن الدينونة لله وحده في مجتمع من شأنها أن تصون جهود الناس وطاقاتهم من أن تنفق في الطبل والزمر والنفخ والتراتيل والتسابيح والترانيم والتهاويل التي تطلق حول الأرباب المزيفة ، لتخلع عليها شيئاً من خصائص الألوهية حتى تخضع لها الرقاب ! ومن شأن هذا أن يوفر هذه الجهود والطاقات للبناء في الأرض والعمارة والنهوض بتكاليف الخلافة فيكون الخير الوفير للناس . فضلاً على الكرامة والحرية والمساواة التي يتمتع بها الناس في ظل الدينونة لله وحده دون العباد . . وليست هذه إلا نماذج من ثمار الإيمان حين تتحقق حقيقته في حياة الناس . . (وسيرد عنها بعض التفصيل في نهاية استعراض قصص الرسل في ختام السورة إن شاء الله) .

* ونقف أمام تلك المواجهة الأخيرة من هود لقومه ؛ وأمام تلك المفاصلة التي قذف بها في

وجوههم في حسم كامل ، وفي تحد سافر ، وفي استعلاء بالحق الذي معه ، وثقة في ربه الذي يجد حقيقته في نفسه بينة :

﴿ قال : إني أشهد الله ، واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه ، فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً ، إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾ . .

إن أصحاب الدعوة إلى الله في كل مكان وفي كل زمان في حاجة إلى أن يقفوا طويلاً أمام هذا المشهد الباهر .

. رجل واحد ، لم يؤمن معه إلا قليل ، يواجه أعتى أهل الأرض وأغنى أهل الأرض وأكثر أهل الأرض حضارة مادية في زمانهم ، كما جاء عنهم في قول الله تعالى فيهم حكاية عما واجههم به أخوهم هود في السورة الأخرى :

﴿ كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود : ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين . أتبنون

بكل ريع آية تعبثون ؟ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . إن هذا إلا خلق الأولين . وما نحن بمعذبين ﴾ [الشعراء : 123 138]

فهؤلاء العتاة الجبارون الذين يبطشون بلا رحمة ؛ والذين أبطرتهم النعمة ؛ والذين يقيمون المصانع يرجون من ورائها الامتداد والخلود ! . . هؤلاء هم الذين واجههم هود عليه السلام هذه المواجهة . في شجاعة المؤمن واستعلائه وثقته واطمئنانه ؛ وفاصلهم هذه المفاصلة الحاسمة الكاملة وهم قومه وتحداهم أن يكيدوه بلا إمهال . وأن يفعلوا ما في وسعهم فلا يباليهم بحال !

لقد وقف هود عليه السلام هذه الوقفة الباهرة ، بعدما بذل لقومه من النصح ما يملك ؛ وبعد أن تودد إليهم وهو يدعوهم غاية التودد . . ثم تبين له عنادهم وإصرارهم على محادة الله وعلى الاستهتار بالوعيد والجرأة على الله . .

لقد وقف هود عليه السلام هذه الوقفة الباهرة لأنه يجد حقيقة ربه في نفسه ، فيوقن أن أولئك الجبارين العتاة المتمعين المتبطرين إنما هم من الدواب ! وهو مستيقن أنه ما من دابة إلا وربه آخذ بناصيتها ؛ ففيم يحفل إذن هؤلاء الدواب ؟ ! وأن ربه هو الذي استخلفهم في الأرض ، وأعطاهم من نعمة ومال وقوة وبنين وقدرة على التصنيع والتعدين ! للابتلاء لا لمطلق العطاء . وأن ربه يملك أن يذهب بهم ويستخلف غيرهم إذا شاء ، ولا يضرونه شيئاً ، ولا يردون له قضاء . . ففيم إذن يهوله شيء مما هم فيه ، وربه هو الذي يعطي ويسلب حين يشاء كيف يشاء ؟ . .

إن أصحاب الدعوة إلى الله لا بد أن يجدوا حقيقة ربهم في نفوسهم على هذا النحو حتى يملكوا أن يقفوا بإيمانهم في استعلاء أمام قوى الجاهلية الطاغية من حولهم . . أمام القوة المادية . وقوة الصناعة . وقوة المال . وقوة العلم البشري . وقوة الأنظمة والأجهزة والتجارب والخبرات . . وهم مستيقنون أن ربهم آخذ بناصية كل دابة ؛ وأن الناس كل الناس إن هم إلا دواب من الدواب !

وذات يوم لا بد أن يقف أصحاب الدعوة من قومهم موقف المفاصلة الكاملة ؛ فإذا القوم الواحد أمتان مختلفتان .

. أمة تدين لله وحده وترفض الدينونة لسواه . وأمة تتخذ من دون الله أرباباً ، وتحاد الله !

ويوم تتم هذه المفاصلة يتحقق وعد الله بالنصر لأوليائه ، والتدمير على أعدائه في صورة

من الصور التي قد تخطر وقد لا تخطر على البال ففي تاريخ الدعوة إلى الله على مدار التاريخ ! لم يفصل الله بين أوليائه وأعدائه إلا بعد أن فاصل أولياؤه أعداءه على أساس العقيدة فاختاروا الله وحده . . وكانوا هم حزب الله الذين لا يعتمدون على غيره والذين لا يجدون لهم ناصراً سواه .

وحسبنا هذه الوقفات مع إلهامات قصة هود وعاد . لنتابع بعدها سياق السورة مع قصة صالح وثمود .

(173/381)

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا . قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها . فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربي قريب مجيب ﴾ . .

إنها الكلمة التي لا تتغير :

﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ . .

وإنه كذلك المنهج الذي لا يتبدل :

﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه ﴾ . .

ثم هو التعريف بحقيقة الألوهية كما يجدها في نفسه الرسول :

﴿ إن ربي قريب مجيب ﴾ . .

وذكرهم صالح بنشأتهم من الأرض . نشأة جنسهم ، ونشأة أفرادهم من غذاء الأرض أو من عناصرها التي تتألف منها عناصر تكوينهم الجسدي . ومع أنهم من هذه الأرض . من عناصرها . فقد استخلفهم الله فيها ليعمروها . استخلفهم بجنسهم واستخلفهم بأشخاصهم بعد الذاهبين من قبلهم .

ثم هم بعد ذلك يشركون معه آلهة اخرى . .

﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه ﴾ . .

واطمئنوا إلى استجابته وقبوله :

﴿ إن ربي قريب مجيب ﴾ . .

والإضافة في ﴿ ربي ﴾ ولفظ ﴿ قريب ﴾ ولفظ ﴿ مجيب ﴾ واجتماعها وتجاورها . . ترسم صورة لحقيقة الألوهية كما تتجلى في قلب من قلوب الصفوة المختارة ، وتخلع على الجو أنساً واتصالاً ومودة ، تنتقل من قلب النبي الصالح إلى قلوب مستمعيه لو كانت لهم قلوب !

ولكن قلوب القوم كانت قد بلغت من الفساد والاستغلاق والانطماس درجة لا تستشعر معها جمال تلك الصورة ولا جلالها ، ولا تحس بشاشة هذا القول الرفيق ، ولا وضاءة هذا الجو الطليق . . وإذا بهم يفاجأون ، حتى ليظنون بأخيهم صالح الظنون !

﴿ قالوا : يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ! أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ . .

لقد كان لنا رجاء فيك . كنت مرجواً فينا لعلمك أو لعقلك أو لصدقك أو لحسن تدبيرك ، أو لهذا جميعه . ولكن هذا الرجاء قد خاب . .

﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ . .

إنها للقاصمة ! فكل شيء يا صالح إلا هذا ! وما كنا لنتوقع أن تقولها ! فيا لخيبة الرجاء فيك ! ثم إننا لفي شك مما تدعونا إليه . شك يجعلنا نرتاب فيك وفيما تقول :

﴿ إننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ . .

وهكذا يعجب القوم مما لا عجب فيه ؛ بل يستنكرون ما هو واجب وحق ، ويدهشون لأن يدعوهم أخوهم صالح إلى عبادة الله وحده .

لماذا ؟ لا لحجة ولا لبرهان ولا لتفكير . ولكن لأن آباءهم يعبدون هذه الآلهة !

وهكذا يبلغ التحجر بالناس أن يعجبوا من الحق البين . وأن يعللوا العقائد بفعل الآباء !

وهكذا يتبين مرة وثانية وثالثة أن عقيدة التوحيد هي في صميمها دعوة للتحرر الشامل

الكامل الصحيح . ودعوة إلى إطلاق العقل البشري من عقال التقليد ، ومن أوهاق الوهم والخرافة التي لا تستند إلى دليل .

وتذكرنا قولة ثمود لصالح :

﴿ قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ﴾ . .

تذكرنا بما كان لقريش من ثقة بصدق محمد صلى الله عليه وسلم وأمانته . فلما أن دعاهم إلى ربوبية الله وحده تنكروا له كما تنكر قوم صالح ، وقالوا : ساحر . وقالوا : مفتر . ونسوا شهادتهم له وثقتهم فيه !

إنها طبيعة واحدة ، ورواية واحدة تتكرر على مدى العصور والدهور . .

ويقول صالح كما قال جده نوح :

﴿ قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة ، فمن ينصرني من الله إن عصيته ؟ فما تزيدونني غير تخسير ﴾ . .

يا قوم : ماذا ترون إن كنت أجد في نفسي حقيقة ربي واضحة بينة ، تجعلني على يقين من أن هذا هو الطريق ؟ وآتاني منه رحمة فاختارني لرسالته وأمدني بالخصائص التي تؤهلني لها . فمن ينصرني من الله إن أنا عصيته فقصرت في إبلاغكم دعوته ، احتفاظاً برجائكم فيّ ؟ أفنافعي هذا الرجاء وناصري من الله ؟ كلا :

﴿ فمن ينصرني من الله إن عصيته ؟ فما تزيدونني غير تخسير ﴾ . .

ما تزيدونني إلا خسارة على خسارة . . غضب الله وحرماني شرف الرسالة وخزي الدنيا وعذاب الآخرة . وهي خسارة بعد خسارة . ولا شيء إلا التخسير ! والتثقيل والتشديد !

﴿ ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ﴾

ولا يذكر السياق صفة لهذه الناقة التي اشار إليها صالح لتكون آية لهم وعلامة . ولكن في إضافتها لله : ﴿ هذه ناقة الله ﴾ وفي تخصيصها لهم : ﴿ لكم آية ﴾ ما يشير إلى أنها كانت ذات صفة خاصة مميزة ، يعلمون بها أنها آية لهم من الله . ونكتفي بهذا دون الخوض في ذلك الخضم من الأساطير والإسرائيليات التي تفرقت بها أقوال المفسرين حول ناقة صالح فيما مضى وفيما سيجيء !

﴿ هذه ناقة الله لكم آية . فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء ﴾ . .

وإلا فسيعاجلكم العذاب . يدل على هذه المعالجة فاء الترتيب في العبارة . ولفظ قريب :

﴿ فيأخذكم عذاب قريب ﴾ . .

يأخذكم أخذاً . وهي حركة أشد من المس أو الوقوع .

﴿ فعقروها . . فقال : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام . ذلك وعد غير مكذوب ﴾ . .

ودل عقرهم للناقة ، أي ضربهم لها بالسيف في قوائمها وقتلها على هذا النحو . دل على فساد قلوبهم واستهتارهم .

والسياق هنا لا يطيل بين إعطائهم الناقة وعقرهم إياها ، لأنها لم تحدث في نفوسهم تجاه الدعوة تغييراً يذكر . ثم ليتابع السياق عجلة العذاب . فهو يعبر هنا بفاء التعقيب في كل الخطوات :

﴿ فعقروها . فقال : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ﴾ . .

فهي آخر ما بقي لكم من متاع هذه الدنيا ومن أيام هذه الحياة :

﴿ ذلك وعد غير مكذوب ﴾ . .

فهو وعد صادق لن يحيد

وبالفاء التعقيبية يعبر كذلك . فالعذاب لم يتأخر :

﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ ، إن ربك هو القوي العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ . .

فلما جاء موعد تحقيق الأمر وهو الإنذار أو الإهلاك نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا . . خاصة ومباشرة . . نجيناه من الموت ومن خزي ذلك اليوم ، فقد كانت ميتة ثمود ميتة مخزية ، وكان مشهدهم جاثمين في دورهم بعد الصاعقة المدوية التي تركتهم موتى على هيئتهم مشهداً مخزياً .

﴿ إن ربك هو القوي العزيز ﴾ . .

يأخذ العتاة أخذاً ولا يعز عليه أمر ، ولا يهون من يتولاه ويرعاه .

ثم يعرض السياق مشهدهم ، معجّباً منهم ، ومن سرعة زوالهم :

﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ . .

كان لم يقيموا ويتمتعوا . . وإنه لمشهد مؤثر ، وإنها للمسة مثيرة ، والمشهد معروض ، وما بين الحياة والموت بعد أن يكون إلا لمحة كومضة العين ، وإذا الحياة كلها شريط سريع . كأن لم يغنوا فيها . .

ثم الخاتمة المعهودة في هذه السورة : تسجيل الذنب ، وتشييع اللعنة ، وانطواء الصفحة من الواقع ومن الذكرى :

﴿ ألا إن ثمود كفروا ربهم . ألا بعداً لثمود ! ﴾ . .

ومرة أخرى نجدنا أمام حلقة من حلقات الرسالة على مدار التاريخ . . الدعوة فيها هي

الدعوة. وحقيقة الإسلام فيها هي حقيقته . . عبادة الله وحده بلا شريك ، والدينونة لله وحده بلا منازع . . ومرة اخرى نجد الجاهلية التي تعقب الإسلام ، ونجد الشرك الذي يعقب التوحيد فثمود كعاد هم من ذراري المسلمين الذين نجوا في السفينة مع نوح ولكنهم انحرفوا فصاروا إلى الجاهلية ، حتى جاءهم صالح ليردهم إلى الإسلام من جديد . . ثم نجد أن القوم يواجهون الآية الخارقة التي طلبوها ، لا بالإيمان والتصديق ، ولكن بالجحود وعقر الناقة !

ولقد كان مشركوا العرب يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم خارقة كالخوارق السابقة كي يؤمنوا . فها هم أولاء قوم صالح قد جاءتهم الخارقة التي طلبوا . فما أغنت معهم شيئاً ! إن الإيمان لا يحتاج إلى الخوارق . إنه دعوة بسيطة تتدبرها القلوب والعقول . ولكن الجاهلية هي التي تطمس على القلوب والعقول : ! ! !

(177/381)

ومرة أخرى نجد حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلب من قلوب الصفوة المختارة . قلوب الرسل الكرام . نجدها في قولة صالح التي يحكيها عنه القرآن الكريم : ﴿ قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ، وآتاني منه رحمة ، فمن ينصرني من الله إن عصيته ؟ فما

تزيدونني غير تخسير ﴾ . . .

. وذلك بعد أن يصف لهم ربه كما يجده في قلبه : ﴿ إن ربي قريب مجيب ﴾ . .

وما تتجلى حقيقة الألوهية قط في كمالها وجلالها وروائها وجمالها كما تتجلى في قلوب تلك الصفوة المختارة من عباده . فهذه القلوب هي المعرض الصافي الرائق الذي تتجلى فيه هذه الحقيقة على هذا النحو الفريد العجيب !

ثم نقف من القصة أمام الجاهلية التي ترى في الرشد ضلالاً ؛ وفي الحق عجيبة لا تكاد تتصورها ! فصالح الذي كان مرجواً في قومه ، لصلاحه ولرجاحة عقله وخلقه ، يقف منه قومه موقف اليائس منه ، المفجوع فيه ! لماذا ؟ لأنه دعاهم إلى الدينونة لله وحده . على غير ما ورثوا عن آبائهم من الدينونة لغيره !

إن القلب البشري حين ينحرف شعرة واحدة عن العقيدة الصحيحة ، لا يقف عند حد في ضلاله وشروده . حتى إن الحق البسيط الفطري المنطقي ليبدو عنده عجيبة العجائب التي يعجز عن تصورها ؛ بينما هو يستسيغ الانحراف الذي لا يستند إلى منطق فطري أو منطق عقلي على الإطلاق !

إن صالحاً يناديهم : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . . هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها . . ﴾ . . فهو يناديهم بما في نشأتهم ووجودهم في الأرض من دليل فطري

منطقي لا يملكون له رداً . . وهم ما كانوا يزعمون أنهم هم أنشأوا أنفسهم ، ولا أنهم هم كفلوا لأنفسهم البقاء ، ولا أعطوا أنفسهم هذه الأرزاق التي يستمتعون بها في الأرض . .

(178/381)

وظاهر أنهم لم يكونوا يجحدون أن الله سبحانه هو الذي أنشأهم من الأرض ، وهو الذي أقدرهم على عمارتها . ولكنهم ما كانوا يُتبعون هذا الاعتراف بألوهية الله سبحانه وإنشائه لهم واستخلافهم في الأرض ، بما ينبغي أن يتبعه من الدينونة لله وحده بلا شريك ، واتباع أمره وحده بلا منازع . . وهو ما يدعوهم إليه صالح بقوله : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ . .

لقد كانت القضية هي ذاتها . . قضية الربوبية لا قضية الألوهية . قضية الدينونة والحاكمية قضية الاتباع والطاعة . . إنها القضية الدائمة التي تدور عليها معركة الإسلام مع الجاهلية ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 1910.1895 ﴾

(179/381)

فصل في قصة صالح نبي ثمود عليه السلام

قال ابن كثير:

وهم قبيلة مشهورة يقال ثمود باسم جدهم ثمود أخي جديس وهما ابنا عابر بن إرم بن سام بن نوح وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك وقد مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين كما سيأتي بيانه وكانوا بعد قوم عاد وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك فبعث الله فيهم رجلا منهم وهو عبد الله ورسوله صالح بن عبد بن ماسح (1) بن عبيد بن حاجر

ابن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يشركوا به شيئا فآمنت به طائفة منهم وكفر جمهورهم ونالوا منه بالمقال والفعال وهموا بقتله وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر كما قال تعالى في سورة الأعراف وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم

في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون من الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا
في الأرض مفسدين قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم
أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي
آمنتم به كافرون فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من
المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم
رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين وقال تعالى في سورة هود وإلى ثمود
أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم
فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل
هذا أتنهانا أن نترك ما يعبد آباؤنا واننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب قال يا قوم أرأيتم إن
كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير
تخسير ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم
عذاب قريب فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب فلما جاء
أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز
وأخذ الذين ظلموا الصحية

فأصبحوا في دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعد الثمود وقال تعالى في سورة الحجر ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين فأخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون وقال سبحانه وتعالى في سورة سبحان وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا وقال تعالى في سورة الشعراء كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتتركون فيما هاهنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون قالوا إنما أنت من المسحرين ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا

تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب إن في
ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم وقال تعالى في سورة النمل ولقد
أرسلنا ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون قال يا قوم لم
تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا أطيرنا بك وبمن
معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في
الأرض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله
وإنا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم
أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا
الذين آمنوا وكانوا يتقون وقال تعالى في سورة حم السجدة وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا
العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا
وكانوا يتقون وقال تعالى في سورة اقتربت كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه
إنا إذا لفي ضلال وسعر أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر سيعلمون غدا من
الكذاب الأشر انا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل
شرب محتضر فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر فكيف كان عذابي ونذر إنا أرسلنا عليهم
صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر وقال تعالى
كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه

فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها وكثيرا ما يقرن الله في كتابه بين ذكر عاد وثمود كما في سورة براءة وإبراهيم والفرقان وسورة ص وسورة ق والنجم والفجر ويقال إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة ولكن في القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما كما قال تعالى في

سورة إبراهيم وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات الآية الظاهران هذا من تمام كلام موسى مع قومه ولكن لما كان هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيدا ولا اعتنوا بحفظه وإن كان خبرهما كان مشهورا في زمان موسى عليه السلام وقد تكلمنا على هذا كله في التفسير متقصيا ولله الحمد والمنة والمقصود الآن ذكر قصتهم وما كان من أمرهم وكيف نجى الله نبيه صالحا عليه السلام ومن آمن به وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم ومخالفتهم رسولهم عليه السلام قد قدمنا أنهم كانوا عربا وكانوا بعد عاد ولم يعتبروا بما كان من أمرهم ولهذا قال لهم نبيهم

عليه السلام اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله

ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين أي إنما جعلكم خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان أمرهم وتعملوا بخلاف عملهم وأباح لكم هذه الأرض تبنون في سهولها القصور وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين أي حاذقين في صنعتها واتقانها وإحكامها فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح والعبادة له وحده لا شريك له وإياكم ومخالفته والعدول عن طاعته فإن عاقبة ذلك وخيمة ولهذا وعظهم بقوله انتركون فيما ههنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم أي متراكم كثير حسن بهي ناضج وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون وقال لهم أيضا يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها أي هو الذي خلقكم فأنشأكم من الأرض وجعلكم عمارها أي أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار فهو

الخالق الرزاق فهو الذي يستحق العبادة وحده لا سواه فاستغفروه ثم توبوا إليه أي أقلعوا عما أنتم فيه وأقبلوا على عبادته فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم إن ربي قريب مجيب قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أي قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملا قبل هذه المقالة وهي دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة وترك ما كنا نعبده من الأنداد والعدول عن دين الآباء والأجداد ولهذا قالوا أتنهانا أن نترك ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير وهذا تلطف منه لهم في العبارة ولين الجانب وحسن تأت في الدعوة لهم إلى الخير أي فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه ماذا عذركم عند الله وماذا يخلصكم بين يديه وأنتم تطلبون مني أن اترك دعائكم

إلى طاعته وأنا لا يمكنني هذا لأنه واجب علي ولو تركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرني منه ولا ينصرني فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له حتى يحكم الله بيني وبينكم وقالوا له أيضا إنما أنت من المسحرين أي من المسحورين يعنون مسحورا لا تدري ما تقول في دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده وخلع ما سواه من الأنداد وهذا

القول عليه الجمهور إن المراد بالمسحرين المسحورين وقيل من المسحرين أي ممن له سحر وهي الرئة كأنهم يقولون إنما أنت بشر له سحر والأول أظهر لقولهم بعد هذا ما أنت إلا بشر مثلنا وقولهم فأت بآية إن كنت من الصادقين سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم وقال قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم وقال تعالى وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها

(186/381)

وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوما في ناديهم فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم فقالوا له إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة وأشاروا إلى صخرة هناك ناقة من صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافا سموها ونعتوها وتعنتوا فيها وأن تكون عشراء طويلة من صفتها كذا وكذا فقال لهم النبي صالح عليه السلام أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به قالوا نعم فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قدر له ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا فأمر الله عز وجل تلك

الصخرة أن تنفظ عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب الذي طلبوا أو على الصفة التي نعتوا فلما عاينوها كذلك رأوا أمرا عظيما ومنظرا هائلا وقدرة باهرة ودليلا قاطعا وبرهانا ساطعا فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ولهذا قال فظلموا بها أي جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها أي أكثرهم وكان رئيس الذين آمنوا جندع بن عمرو بن محلاه بن لبيد بن جواس وكان من رؤساهم وهم بقية الأشراف بالإسلام قصدهم ذؤاب بن عمر بن لبيد والخباب صاحبا أوثانهم ورباب بن صمعر بن جلمس ودعا جندع بن عمه شهاب بن خليفة وكان من أشرافهم فهم بالإسلام فنهاه أولئك فمال إليهم فقال في ذلك رجل من المسلمين يقال له مهرش بن غنمة بن الذميل رحمه الله

. . . وكانت عصبة من آل عمرو . . . إلى دين النبي دعوا شهابا . . . عزيز ثمود كلهم جميعا . . . فهم بأن يجيب ولو أجابا . . . لأصبح صالح فينا عزيزا . . . وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا . . . ولكن الغواة من آل حجر . . . تولوا بعد رشدهم ذآبا (1) . . .

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام هذه ناقة الله لكم آية أضافها لله سبحانه وتعالى تشريف وتعظيم كقوله بيت الله وعبد الله لكم آية أي دليلا على صدق ما جئتكم به فذروها تأكل

في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يوما بعد يوم وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم ويقال إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم ولهذا قال لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولهذا قال تعالى إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم أي اختبار لهم أيؤمنون بها أم يكفرون والله أعلم بما يفعلون فارتقبهم أي انتظر ما يكون من أمرهم واصطبر على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر فلما طال عليهم الحال هذا اجتمع ملؤهم واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم وزين لهم الشيطان

أعمالهم قال الله تعالى فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم قدار بن سالف بن جندع وكان أحمر أزرق أصهب وكان يقال إنه ولد زانية ولد على فراش سالف وهو ابن رجل يقال له صبيان وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم فلهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم

وذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسرين أن امرأتين من ثمود اسم أحداهما صدوق ابنة المحيا ابن زهير بن المختار وكانت ذات حسب ومال وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته فدعت ابن عم لها يقال له مصرع بن مهرج بن المحيا وعرضت عليه نفسها أن هو عقر الناقة واسم الأخرى عنيزة بنت غنيم بن مجلز وتكنى أم عثمان وكانت عجوزا كافرة لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو أحد الرؤساء فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالف أن هو عقر الناقة له أي بناتها شاء فانتدب هذان الشابان لعقرها وسعوا في قومهم بذلك فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة وهم المذكورون في قوله تعالى وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون وسعوا في بقية القبيلة وحسنوا لهم عقرها فأجابوهم إلى ذلك وطاوعوهم في ذلك فانطلقوا يرصدون الناقة فلما صدرت من وردها كمن لها مصرع فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها وجاء النساء يزمرن القبيلة في قتلها وحسرن عن وجوههن ترغيبا لهم فابتدرهم قدار بن سالف فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذر ولدها ثم طعن في لبتها فنحرها وانطلق سقبها وهو فصيلها فصعد جبلا منيعا ودعا ثلاثا وروى عبد الرزاق عن معمر عمن سمع الحسن أنه قال يا رب أين أمي ثم دخل في صخرة فغاب فيها ويقال بل اتبعوه فعقروه أيضا قال الله تعالى فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر فكيف كان عذابي ونذر وقال تعالى إذ انبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله

وسقياها أي احذروها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها

(189/381)

قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا هاشم هو أبو عزرة عن أبيه عبد الله بن زمعة قال خطب رسول الله صلى الله عليه و سلم فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال إذ انبعثت أشقاها انبعث لها رجل من غارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة أخرجاه من حديث هشام بن عارم أي شهم عزيز أي رئيس منيع أي مطاع في قومه وقال محمد بن إسحاق حدثني يزيد بن محمد بن خيثم عن محمد بن كعب عن محمد بن خيثم عن يزيد عن عمار بن ياسر قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لعلي ألا أحدثكم بأشقى الناس قال بلى قال رجلان أحدهما أحيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك يا علي على هذا يعني قرنه حتى تبتل منه هذه يعني لحيته رواه ابن أبي حاتم وقال تعالى فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا

(190/381)

يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه منها أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية ومنها أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين أحدهما الشرط عليهم في قوله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب وفي آية عظيم وفي الأخرى أليم والكل حق والثاني استعجالهم على ذلك ومنها أنهم كذبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه وهم يعلمون ذلك علما جازما ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم قال الله تعالى فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها قدار بن سالف لعنه الله فعرقبها فسقطت إلى الأرض ثم ابتدروها بأسيافهم يقطعونها فلما عاين ذلك سقبها وهو ولدها شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك ورغا ثلاث مرات فلهذا قال لهم صالح تمتعوا في داركم ثلاثة أيام أي غير يومهم ذلك فلم يصدقوه أيضا في هذا الوعد الأكيد بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا فيما يزعمون أن يلحقوه بالناقة قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله أي لنكبسنه في داره مع أهله فلنقتلنه ثم نجحدن قتله وننكرن ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه ولهذا قالوا ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك اهله وإنا لصادقون وقال الله تعالى ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم

أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم سلفا وتعجيلا قبل قومهم وأصبحت ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما أنذرهم صالح عليه السلام فلما أمسوا نادوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام

(191/381)

التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم ! محمرة فلما أمسوا نادوا ألا قد مضى يومان من الأجل ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة فلما أمسوا نادوا ألا قد مضى الأجل فلما كان صبيحة يوم الأحد تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة لا يدرون كيف يفعل بهم ولا من أي جهة يأتيهم العذاب فلم أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وسكنت الحركات وخشعت الأصوات وحقت الحقائق فأصبحوا في دارهم جاثمين جثثا لا أرواح فيها ولا حراك بها قالوا ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة واسمها كلبة بنت السلق ويقال لها الذريعة وكانت شديدة الكفر

والعداوة لصالح عليه السلام فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع

شيء فأتت حيا من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها واستسقتهم ماء فلما شربت

ماتت قال الله تعالى كأن لم يغنوا فيها أي لم يقيموا فيها في سعة ورزق وغناء ألا إن

ثمود كفروا ربهم إلا بعدا لثمود أي نادى عليهم لسان القدر بهذا

قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر حدثنا عبد الله بن عثمان بن خيثم عن

أبي الزبير عن جابر قال لما مر رسول الله صلى الله عليه و سلم بالحجر قال لا تسألوا الآيات

فقد سألها قوم صالح فكانت يعني الناقة ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن

أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها فأخذتهم

صيحة أهمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحدا كان في حرم الله فقالوا من هو

يا رسول الله قال هو أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه وهذا الحديث

على شرط مسلم وليس هو في شيء من الكتب الستة والله أعلم

(192/381)

وقد قال عبد الرزاق أيضا قال معمر أخبرني إسماعيل بن أمية أن النبي صلى الله عليه و

سلم مر بقبر أبي رغال فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا قبر أبي رغال

رجل من ثمود كان في حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ههنا ودفن معه غصن من ذهب فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن قال عبد الرزاق قال معمر قال الزهري أبو رغال أبو ثقيف هذا مرسل من هذا الوجه وقد جاء من وجه آخر متصلا كما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة عن إسماعيل بن أمية عن بجير بن أبي بجير سمعت عبد الله بن عمرو سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر فقال إن هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف وكان من ثمود وكان بهذا الحرم يدفع عنه فلما خرج منه أصابته النقمة التي اصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن وهكذا رواه أبو داود من طريق محمد بن إسحاق به قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي رحمه الله هذا حديث حسن عزيز قلت تفرد به بجير بن أبي بجير هذا ولا يعرف إلا بهذا الحديث ولم يرو عنه سوى إسماعيل ابن أمية قال شيخنا فيحتمل أنه وهم في رفعه وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو من زاملته والله أعلم قلت لكن في المرسل الذي قبله وفي حديث جابر أيضا شاهد له والله أعلم وقوله تعالى فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين إخبار عن صالح عليه السلام أنه خاطب قومه بعد هلاكهم وقد أخذ في الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلا لهم يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم أي

جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنني وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونيتي ولكن لا تحبون الناصحين أي لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمر

(193/381)

بكم المتصل إلى الأبد وليس لي فيكم حيلة ولا لي بالدفع عنكم يدان والذي وجب على من اداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم ولكن الله يفعل ما يريد وهكذا خاطب النبي صلى الله عليه و سلم أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل

من آخر الليل فقال يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا وقال لهم فيما قال بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم كذبتموني وصدقني الناس وأخرجتموني وآواني الناس وقاتلتموني ونصرني الناس فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم فقال له عمر يا رسول الله تخاطب أقواما قد جيفوا فقال والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يجيبون وسيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله ويقال إن صالحا عليه السلام انتقل إلى حرم الله فأقام به حتى مات

قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال لما مر النبي صلى الله عليه و سلم بوادي عسفان حين حج قال يا أبا بكر أي واد هذا قال وادي عسفان قال لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمها الليف أزرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق إسناد حسن وقد تقدم في قصة نوح عليه السلام من رواية الطبراني وفيه نوح وهود وإبراهيم

مرور النبي بوادي الحجر من أرض ثمود عام

(194/381)

تبوك قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال لما نزل رسول الله صلى الله عليه و سلم بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور فأمرهم رسول الله فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم ان يدخلوا على القوم الذين عذبوا إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم وقال احمد أيضا حدثنا عفان حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله

عليه و سلم وهو بالحجر لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم أخرجاه في الصحيحين من غير وجه وفي بعض الروايات أنه عليه السلام لما مر بمنازلهم قنع رأسه وأسرع راحلته ونهى عن دخول منازلهم إلا أن تكونوا باكين وفي رواية فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم صلوات الله وسلامه عليه

وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون حدثنا المسعودي عن إسمعيل بن أوسط عن محمد بن أبي كبشة الأنباري عن أبيه واسمه عمرو بن سعد ويقال عامر بن سعد رضي الله عنه قال لما كان في غزوة تبوك فسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه و سلم فنادى في الناس الصلاة جامعة قال فأتيت النبي صلى الله عليه و سلم وهو ممسك بعيره وهو يقول ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم فناداه رجل نعجب منهم يا رسول الله قال أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان

قبلكم وما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئًا وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئًا إسناد حسن ولم يخرجوه وقد ذكر أن قوم صالح كانت

أعمارهم طويلة فكانوا يبنون البيوت من المدر فتخرب قبل موت الواحد منهم فنحتوا لهم بيوتا في الجبال وذكروا أن صالحا عليه السلام لما سألوه آية فأخرج الله لهم الناقة من الصخرة أمرهم بها وبالولد الذي كان في جوفها وحذرهم بأس الله إن هم نالوها بسوء وأخبرهم أنهم سيعقرونها ويكون سبب هلاكهم ذلك وذكر لهم صفة عاقرها وأنه أحمر أزرق أصهب فبعثوا القوابل في البلد متى وجدوا مولودا بهذه الصفة يقتلنه فكانوا على ذلك دهرا طويلا وانقرض جيل وأتى جيل آخر فلما كان في بعض الأعصار خطب رئيس من رؤسائهم على ابنه بنت آخر مثله في الرياسه فزوجه فولد بينهما عاقر الناقة وهو قدار بن سالف فلم تتمكن القوابل من قتله لشرف أبويه وجديه فيهم فنشأ نشأة سريعة فكان يشب في الجمعة كما يشب غيره في شهر حتى كان من أمره أن خرج مطاعا فيهم رئيسا بينهم فسولت له نفسه عقر الناقة واتبعه على ذلك ثمانية من أشرافهم وهم التسعة الذين أرادوا قتل صالح عليه السلام فلما وقع من أمرهم ما وقع من عقر الناقة وبلغ ذلك صالحا عليه السلام جاءهم باكيا عليها فتلقوه يعتذرون إليه ويقولون إن هذا لم يقع عن ملأمنا وإنما فعل هذا هؤلاء الأحداث فينا فيقال إنه أمرهم باستدراك سقبها حتى يحسنوا إليه عوضا عنها فذهبوا وراءه فصعد جبلا هناك فلما تصاعدوا فيه وراءه تعالى الجبل حتى ارتفع فلا يناله الطير وبكى الفصيل حتى سالت دموعه ثم استقبل صالحا عليه السلام ودعا ثلاثا فعندها قال صالح تمتعوا في داركم ثلاثة أيام وذلك وعد غير مكذوب وأخبرهم أنهم يصبحون من

غدهم صفرا ثم تحمر وجوههم في الثاني وفي اليوم الثالث تسود وجوههم فلما كان في اليوم الرابع أتتهم صيحة فيها صوت كل صاعقة فأخذتهم فأصبحوا في دارهم جاثمين وفي بعض هذا السياق

(196/381)

نظر ومخالفة لظاهر ما يفهم من القرآن في شأنهم وقصتهم كما قدمنا والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب. انتهى انتهى. اهـ ﴿البداية والنهاية حـ 1 صـ 130. 139﴾

(197/381)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثاني والثمانون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/382)

الجزء الثاني والثمانون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 69 ﴾ من سورة هود عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 80 ﴾ من نفس السورة

(4/382)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (70) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (71) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما انقضت القصة على هذا الوجه الرائع ، أتبعها قصة لوط عليه السلام إذ كانت أشهر الوقائع بعدها وهي أفظع منها وأروع ، وقدم عليها ما يتعلق بها من أمر إبراهيم عليها لسلام ذكر بشراه لما في ذلك كله من التنبيه لمن تعنت بطلب إنزال الملائكة في قولهم ﴿ أو جاء معه ملك ﴾ على أن ذلك ليس عزيزاً عليه .

وقد أكثر من فعله ولكن نزولهم مرهب ، وأمرهم عند المكاشفة مرعب ، وأما مع الستر فلا يقطع تعنتهم ، هذا مع ما في ذلك من مناسبة أمر هذا الولد لأمر الناقة في تكوين كل منهما بخارق للعادة إشارة إلى تمام القدرة وكمال العلم المبني عليه أمر السورة في إحكام الكتاب وتفصيله وتناسب جدالي نوح وإبراهيم عليهما السلام في أن كلاًّ منهما شفقة على

الكافرين ورجاء لنجاتهم من العذاب بحسن المثاب ، ولعله سبحانه كرر " لقد " في صدرها عطفاً على ما في قصة نوح للتنبيه على مثل الأغراض ، لأن " قد " للتوقع فجاءت لتؤذن بأن السامع في حال توقع لذلك لأنه إذا انقضت قصة الخبر عما بعدها فقال تعالى :

﴿ ولقد ﴾ قال الرماني : ودخلت اللام لتأكيد الخبر كما يؤكد القسم ﴿ جاءت رسلنا ﴾ أي الذين عظمتهم من عظمتنا ، قيل : كانوا جبرئيل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام ﴿ إبراهيم ﴾ هو خليل الله عليه السلام ﴿ بالبشرى ﴾ أي التي هي من أعظم البشائر وهي إكرامه بإسحاق عليه السلام ولداً له من زوجته سارة. رضى الله عنهم.ا ، جاءوه في الصفة التي يحبها وهي صفة الأضياف ، فلم يعرفهم مع أنه الخليل بل إنكارهم كما قال تعالى في الذاريات ﴿ قال سلام قوم منكرون ﴾ [الذاريات : 25] فيحمل إنكاره أولاً على الاستغراب بمعنى أنه لم ير عليهم زيّ أهل تلك البلاد ولا أثر سفر ، فكأنه قيل : ما كان من أمرهم ؟ فقيل : ﴿ قالوا سلاماً ﴾ أي سلمنا عليك سلاماً عظيماً ﴿ قال سلام ﴾ أي ثابت دائم عليكم لا زوال له أبداً ، فللرفع مزية على النصب لأنه إخبار عن ثابت ، والنصب تجديد ما لم يكن ، فصار مندرجاً في ﴿ فحيوا بأحسن منها ﴾ [النساء : 86] ثم أكرم نزلهم وذهب يفعل ما طبعه الله عليه من سجايا الكرم وأفعال الكرام في أدب الضيافة من التعجيل مع الإتقان ﴿ فما لبث ﴾ أي فتسبب عن مجيئهم وتعقبه أنه ما تأخر

﴿ أن جاء بعجل حنيذ ﴾ أي مشوي على حجارة محماة في أخدود وفوقه حجارة محماة ليشتد نضجه ، فكان بعد الشيّ

(5/382)

يقطر دسمه لأنه سمين ، كل ذلك وهو لا يعرف أنهم ملائكة ، بل هو قاطع بأنهم ممن يأكل ، وهذا ناظر إلى قول قوم نوح ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ وقوله ﴿ ولا أقول للذين تزدري أعينكم ﴾ الآية ، أي إن الله جعل المعاني في القلوب وناط بها السعادة والشقاوة ، وقد تخفي تلك المعاني كما خفي على أكمل أهل ذلك الزمان أن ضيفه ملائكة حتى خاف منهم وقد أتوه بالبشرى ، فلا ينبغي لأحد أن يحتقر أحداً إلا بما أذن الله فيه .

(6/382)

ولما وضع الطعام بين أيديهم لم يلموا به ﴿ فلما رأى أيديهم ﴾ أي الرسل عقب الوضع سواء ﴿ لا تصل إليه ﴾ أي إلى العجل الذي وضعه ليأكلوه ﴿ نكِرهم ﴾ أي اشتدت نكارته لهم وانفعل لذلك ، وهذا يدل على ما قال بعض العلماء : إن نكر أبلغ من أنكر ﴿ وأوجس ﴾

أي أضمر مخفياً في قلبه ﴿ منهم خيفة ﴾ أي عظيمة لما رأى من أحوالهم وشاهد من جلالهم ، وأصل الوجوس : الدخول ، والدليل - على أن خوفه كان لعلمه بالتوسم أنهم ملائكة نزلوا لأمر يكرهه من تعذيب من يعز عليه أو نحو هذا - أنهم ﴿ قالوا لا تخف ﴾ ثم عللوا ذلك بقولهم ﴿ إنآ أرسلنآ ﴾ أي ممن لا يرد أمره ﴿ إلى قوم لوط ﴾ فإنهم نفوا الخوف عنه بالإعلام بمن أرسلوا إليه ، لا بكونهم ملائكة ، قالوا ذلك وبشروه بالولد ﴿ وامرأته ﴾ أي جاءته الرسل بالبشرى أي ذكروها له والحال أن زوجة إبراهيم التي هي كاملة المروءة وهي سارة ﴿ قآئمة ﴾ قيل : على باب الخيمة لأجل ما لعلها تفوز به من المعاونة على خدمتهم ، فسمعت البشارة بالولد التي دل عليها فيما مضى قوله ﴿ بالبشرى ﴾

﴿ فضحكت ﴾ أي تعجبت من تلك البشرى لزوجها مع كبره ، وربما ظنته من غيرها لأنها - مع أنها كانت عقيماً - عجوز ، فهو من إطلاق المسبب على السبب إشارة إلى أنه تعجب عظيم ﴿ فبشرناها ﴾ أي فتسبب عن تعجبها أنا أعدنا لها البشرى مشافهة بلسان الملائكة تشريفاً لها وتحقيقاً أنه منها ﴿ بإسحاق ﴾ تلده ﴿ ومن ورآء إسحاق يعقوب ﴾ أي يكون يعقوب ابناً لإسحاق ، والذي يدل على ما قدّرته - من أنهم بشروه بالولد قبل امرأته فسمعت فعجبت - ما يأتي عن نص التوراة ، والحكم العدل على ذلك كله قوله تعالى في الذاريات ﴿ قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها ﴾ [الذاريات : 28-29] - الآية .

ولما شافهوها بذلك ، صرحت بوجه العجب من أنه جامع بين عجبين في كونه منه ومنها بأن ﴿ قالت يا ويلتي ﴾ وهي كلمة تؤذن بأمر فظيع تخف على أفواه النساء ويستعملنها إلى اليوم ، لكنهن غيرن في لفظها كما غير كثير من الكلام ؛ والويل : حلول الشر ؛ والألف في آخره بدل عن ياء الإضافة ، كنى بها هنا عن العجب الشديد لما فيه من الشهرة ومراجمة الظنون ؛ وقال الرماني : إن معناها الإيذان بورود الأمر الفظيع كما تقول العرب : يا للدواهي ! أي تعالين فإنه من أحيانك فحضور ما حضر من أشكالك .

ولما كان ما بشرت به منكراً في نفسه بحسب العادة قالت : ﴿ ءَألد وأنا ﴾ أي والحال أني ﴿ عجوز وهذا ﴾ أي من هو حاضري ﴿ بعلي شيخاً ﴾ ثم ترجمت ذلك بما هو نتيجته فقالت مؤكدة لأنه - لما له من خرق العوائد - في حيز المنكر عند الناس : ﴿ إن هذا ﴾ أي الأمر المبشر به ﴿ لشيء عجيب ﴾ فكأنه قيل : فماذا قيل لها ؟ فقيل : ﴿ قالوا ﴾

أي الملائكة متعجبين من تعجبها ﴿ أتعجبين من أمر الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ، وهو لا ينبغي لك لأنك معتادة من الله بما ليس لغيركم من الخوارق ، والعجب إنما يكون مما خرج عن أشكاله وخفي سببه ، وأنت - لثبات علمك بالسبب الذي هو قدرة الله على كل شيء وحضوره لديك مع اصطفاء الله لكم وتكرر خرقه للعوائد في شؤونكم - لست كغيرك ممن ليس كذلك ؛ ثم عللوا إنكارهم لتعجبها بقولهم : ﴿ رحمت الله ﴾ أي كرامة الذي له الإحاطة بصفات الجلال والإكرام ﴿ وبركاته ﴾ أي خيراته النامية الثابتة ﴿ عليكم ﴾ وبينوا خصوصيتهم بإسقاط أداة النداء مدحة لهم فقال : ﴿ أهل البيت ﴾ قد تمرنتم على مشاهدة العجائب لكثرة ما ترون من آثاره بمثل ذلك وغيره ؛ ثم علل إحسانه إليهم مؤكداً تثبيتاً لأصل الكلام الذي أنكرته فقال : ﴿ إنه ﴾ أي بخصوص هذا الإحسان ﴿ حميد مجيد ﴾ أي كثير التعرف إلى من يشاء من جلائل التعمم وعظيم المقدور بما يعرف أنه مستحق الحمد على المجد ، وهو الكرم الذي ينشأ عنه الجود . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 552 . 554 ﴾

(9/382)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ سلم ﴾ بكسر السين بلا ألف فيهما . حمزة وعلي ﴿ ويعقوب ﴾ بالنصب : ابن عامر وحمزة وحفص ، الآخرون بالرفع . ﴿ سيء بهم ﴾ وبابه كضرب مجهولاً : أبو جعفر ونافع وابن عامر وعلي ورويس . الآخرون ﴿ سيء ﴾ مثل ﴿ قيل ﴾ ﴿ تخزوني ﴾ بالياء في الحالين : سهل ويعقوب وابن شنبوذ عن قنبل . وافق أبو عمرو ويزيد وإسماعيل في الوصل ﴿ ضيفي ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو ﴿ فاسر ﴾ وبابه بهمزة الوصل : أبو جعفر ونافع وابن كثير وعباس من طريق الموصلي وحمزة في الوقف وإن شاء لين الهمزة ﴿ إلا امرأتك ﴾ بالرفع : ابن كثير وأبو عمرو . الباقون بالنصب .

الوقوف : ﴿ سلاماً ﴾ ط ﴿ حنيذ ﴾ ط ﴿ خيفة ﴾ ط ﴿ قوم لوط ﴾ 5 ط ﴿ بإسحق ﴾ ط لمن قرأ ﴿ يعقوب ﴾ بالرفع ﴿ يعقوب ﴾ 5 ﴿ شيخاً ﴾ ط ﴿ عجيب ﴾ 5 ﴿ أهل البيت ﴾ ط ﴿ مجيد ﴾ 5 ﴿ في قوم لوط ﴾ ط ﴿ منيب ﴾ 5 ﴿ عن هذا ﴾ ج لاحتمال التعليل ﴿ أمر ربك ﴾ ج للابتداء بأن مع اتصال المعنى . ﴿ مردود ﴾ 5 ﴿ عصيب ﴾ 5 ﴿ إليه ﴾ ج للعطف ولاختلاف النظم ﴿ السيئات ﴾ ط ﴿ ضيفي ﴾ ط ﴿ رشيد ﴾ 5 ﴿ من حق ﴾ ج لما مر ﴿ ما

نريد ﴾ 5 ﴿ شديد ﴾ ه. ﴿ إلا امرأتك ﴾ ط ﴿ أصابهم ﴾ ط ﴿ الصبح ﴾ ط ﴿ بقريب ﴾ 5 ﴿ منضود ﴾ 5 لا لأن ما بعده صفة حجارة ﴿ عند ربك ﴾ ط ﴿ ببعيد ﴾ 5. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 35. 36﴾

(10/382)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا ﴾

اعلم أن هذا هو القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة وهنا مسائل :

المسألة الأولى :

قال النحويون : دخلت كلمة "قد" هنا لأن السامع لقصص الأنبياء عليهم السلام يتوقع قصة بعد قصة، وقد للتوقع، ودخت اللام في "لقد" لتأكيد الخبر، ولفظ ﴿ رُسُلُنَا ﴾ جمع وأقله ثلاثة فهذا يفيد القطع بحصول ثلاثة، وأما الزائد على هذا العدد فلا سبيل إلى إثباته إلا بدليل آخر، وأجمعوا على أن الأصل فيهم كان جبريل عليه السلام، ثم اختلفت الروايات فقيل : أتاه جبريل عليه السلام ومعه اثنا عشر ملكاً على صورة الغلمان الذين

يكونون في غاية الحسن وقال الضحاك كانوا تسعة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام، وهم الذين ذكرهم الله في سورة والذاريات في قوله: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إبراهيم ﴾ [الذاريات: 24] وفي الحجر ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الحجر: 51].

المسألة الثانية:

اختلفوا في المراد بالبشرى على وجهين: الأول: أن المراد ما بشره الله بعد ذلك بقوله: ﴿ فبشرناها بإسحاق وَمِن وَرَاء إسحاق يَعْقُوبَ ﴾ الثاني: أن المراد منه أنه بشر إبراهيم عليه السلام بسلامة لوط وبإهلاك قومه.

وأما قوله: ﴿ قَالُواْ سلاما قَالَ سلام ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى:

قرأ حمزة والكسائي ﴿ قَالُواْ سلام قَالَ سلام ﴾ بكسر السين وسكون اللام بغير ألف، وفي والذاريات مثله.

قال الفراء: لا فرق بين القراءتين كما قالوا حل وحلال وحرم وحرام لأن في التفسير أنهم لما جاؤا سلموا عليه.

قال أبو علي الفارسي : ويحتمل أن يكون سلم خلاف العدو والحرب كأنهم لما امتنعوا من تناول ما قدمه إليهم نكرهم وأوجس منهم خيفة قال إنا سلم ولست بحرب ولا عدو فلا تمتنعوا من تناول طعامي كما يمتنع من تناول طعام العدو ، وهذا الوجه عندي بعيد ، لأن على هذا التقدير ينبغي أن يكون تكلم إبراهيم عليه السلام بهذا اللفظ بعد إحضار الطعام ، إلا أن القرآن يدل على أن هذا الكلام إنما وجد قبل إحضار الطعام لأنه تعالى قال :

﴿ قَالُواْ سلاما قَالَ سلام فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : 69] والفاء للتعقيب ، فدل ذلك على أن مجيئه بذلك العجل الحنيذ كان بعد ذكر السلام .

المسألة الثانية :

قالوا سلاماً تقديره : سلمنا عليك سلاماً قال سلام تقديره : أمري سلام ، أي لست مريداً غير السلامة والصلح .

قال الواحدي : ويحتمل أن يكون المراد : سلام عليكم ، فجاء به مرفوعاً حكاية لقوله كما قال : وحذف عنه الخبر كما حذف من قوله : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف : 18] وإنما يحسن هذا الحذف إذا كان المقصود معلوماً بعد الحذف ، وههنا المقصود معلوم فلا جرم حسن الحذف ، ونظيره قوله تعالى :

﴿ فاصفح عَنْهُمْ وَقُلْ سلام ﴾ [الزخرف : 89] على حذف الخبر .

واعلم أنه إنما سلم بعضهم على بعض ، رعاية للإذن المذكور في قوله تعالى : ﴿ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلّمُواْ على أَهْلِهَا ﴾ .

المسألة الثالثة :

أكثر ما يستعمل ﴿ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ بغير ألف ولام ، وذلك لأنه في معنى الدعاء ، فهو مثل قولهم : خير بين يديك .

فإن قيل : كيف جاز جعل النكرة مبتدأ ؟

(12/382)

قلنا : النكرة إذا كانت موصوفة جاز جعلها مبتدأ ، فإذا قلت سلام عليكم : فالتنكير في هذا الموضع يدل على التمام والكمال ، فكأنه قيل : سلام كامل تام عليكم ، ونظيره قولنا : سلام عليك ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ سلام عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِي ﴾ [مريم : 47] وقوله : ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مّن رَّبّ رَّحِيمٍ ﴾ [ياس : 58] ﴿ سلام على نُوحٍ فِى العالمين ﴾ [الصافات : 79] ﴿ الملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مّن كُلّ بَابٍ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ [الرعد : 23 ، 24] فأما قوله تعالى : ﴿ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ [طه : 47] فهذا أيضاً جائز ، والمراد منه الماهية والحقيقة .

وأقول : قوله : ﴿ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ أكمل من قوله : السلام عليكم ، لأن التنكير في قوله : ﴿ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ يفيد الكمال والمبالغة والتمام .

وأما لفظ السلام : فإنه لا يفيد إلا الماهية .

قال الأخفش : من العرب من يقول : سلام عليكم فيعرى قوله : سلام عن الألف واللام والتنوين ، والسبب في ذلك كثرة الاستعمال أباح هذا التخفيف ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ قالوا : مكث إبراهيم خمس عشرة ليلة لا يأتيه ضيف فاغتم لذلك ، ثم جاءه الملائكة فرأى أضيافاً لم ير مثلهم ، فعجل وجاء بعجل حنيذ ، فقوله : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ معناه : فما لبث في المجيء به بل عجل فيه ، أو التقدير : فما لبث مجيئه والعجل ولد البقرة .

أما الحنيذ : فهو الذي يشوى في حفرة من الأرض بالحجارة المحماة ، وهو من فعل أهل البادية معروف ، وهو محنوذ في الأصل كما قيل : طبيخ ومطبوخ ، وقيل : الحنيذ الذي يقطر دسمه .

يقال : حنذت الفرس إذا ألقيت عليه الجل حتى تقطر عرقاً .

ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى العجل ، وقال الفراء : إلى الطعام ، وهو ذلك العجل ﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ أي أنكرهم .

يقال : نكره وأنكره واستنكره .

واعلم أن الأضياف إنما امتنعوا من الطعام لأنهم ملائكة والملائكة لا يأكلون ولا يشربون ، وإنما أتوه في صورة الأضياف ليكونوا على صفة يحبها ، وهو كان مشغوفاً بالضيافة .

وأما إبراهيم عليه السلام .

فنقول : إما أن يقال : إنه عليه السلام ما كان يعلم أنهم ملائكة ، بل كان يعتقد فيهم أنهم من البشر ، أو يقال : إنه كان عالماً بأنهم من الملائكة .

أما على الاحتمال الأول فسبب خوفه أمران : أحدهما : أنه كان ينزل في طرف من الأرض بعيد عن الناس ، فلما امتنعوا من الأكل خاف أن يريدوا به مكروهاً ، وثانيها : أن من لا يعرف إذا حضر وقدم إليه طعام فإن أكل حصل الأمن وإن لم يأكل حصل الخوف .

وأما الاحتمال الثاني : وهو أنه عرف أنهم ملائكة الله تعالى ، فسبب خوفه على هذا التقدير أيضاً أمران : أحدها : أنه خاف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله تعالى عليه : والثاني : أنه خاف أن يكون نزولهم لتعذيب قومه .

فإن قيل : فأي هذين الاحتمالين أقرب وأظهر ؟

قلنا : أما الذي يقول إنه ما عرف أنهم ملائكة الله تعالى فله أن يحتج بأمور : أحدها : أنه

تسارع إلى إحضار الطعام ، ولو عرف كونهم من الملائكة لما فعل ذلك .

وثانيها : أنه لما رآهم ممتنعين من الأكل خافهم ، ولو عرف كونهم من الملائكة لما استدل بترك الأكل على حصول الشر ، وثالثها : أنه رآهم في أول الأمر في صورة البشر ، وذلك لا يدل على كونهم من الملائكة .

وأما الذي يقول : إنه عرف ذلك احتج بقوله : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف بأي سبب أرسلوا ، ثم بين تعالى أن الملائكة أزالوا ذلك الخوف عنه فقالوا : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ومعناه : أرسلنا بالعذاب إلى قوم لوط ، لأنه أضمر لقيام الدليل عليه في سورة أخرى ، وهو قوله : ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً ﴾ [الذاريات : 32 ، 33] .

(14/382)

ثم قال تعالى : ﴿ وامرأته قَآئِمَةٌ ﴾ يعني سارة بنت آزر بن باحورا بنت عم إبراهيم عليه السلام ، وقوله : ﴿ قَآئِمَةٌ ﴾ قيل : كانت قائمة من وراء الستر تستمع إلى الرسل ، لأنها ربما خافت أيضاً .

وقيل : كانت قائمة تخدم الأضياف وإبراهيم عليه السلام جالس معهم ، ويأكد هذا التأويل

قراءة ابن مسعود ﴿ وامرأته قَائِمَةٌ ﴾ وهو قاعد .

ثم قال تعالى : ﴿ فَضَحِكَتْ فبشرناها بإسحاق ﴾ واختلفوا في الضحك على قولين :

منهم من حمله على نفس الضحك ، ومنهم من حمل هذا اللفظ على معنى آخر سوى الضحك .

أما الذين حملوه على نفس الضحك فاختلفوا في أنها لم ضحكت ، وذكروا وجوهاً : الأول : قال القاضي إن ذلك السبب لا بد وأن يكون سبباً جرى ذكره في هذه الآية ، وما ذاك إلا أنها فرحت بزوال ذلك الخوف عن إبراهيم عليه السلام حيث قالت الملائكة : ﴿ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إلى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ وعظم سرورها بسبب سروره بزوال خوفه ، وفي مثل هذه الحالة قد يضحك الإنسان ، وبالجملة فقد كان ضحكها بسبب قول الملائكة لإبراهيم عليه السلام ﴿ لاَ تَخَفْ ﴾ فكان كالبشارة ، فقيل لها : نجعل هذه البشارة بشارتين ، فكما حصلت البشارة بزوال الخوف ، فقد حصلت البشارة أيضاً بحصول الولد الذي كنتم تطلبونه من أول العمر إلى هذا الوقت وهذا تأويل في غاية الحسن .

الثاني : يحتمل أنها كانت عظيمة الإنكار على قوم لوط لما كانوا عليه من الكفر والعمل الخبيث ، فلما أظهروا أنهم جاؤا لإهلاكهم لحقها السرور فضحكت .

الثالث : قال السدي قال إبراهيم عليه السلام لهم : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ قالوا : لا نأكل طعاماً إلا بالثمن ، فقال : ثمنه أن تذكروا اسم الله تعالى على أوله وتحمدوه على آخره ، فقال

جبريل لميكائيل عليهما السلام: "حق لمثل هذا الرجل أن يتخذه ربه خليلاً" فضحكت امرأته فرحاً منها بهذا الكلام.

(15/382)

الرابع: أن سارة قالت لإبراهيم عليه السلام أرسل إلى ابن أخيك وضمه إلى نفسك، فإن الله تعالى لا يترك قومه حتى يعذبهم، فعند تمام هذا الكلام دخل الملائكة على إبراهيم عليه السلام، فلما أخبروه بأنهم إنما جاؤا لإهلاك قوم لوط صار قولهم موافقاً لقولها، فضحكت لشدة سرورها بحصول الموافقة بين كلامها وبين كلام الملائكة.

الخامس: أن الملائكة لما أخبروا إبراهيم عليه السلام أنهم من الملائكة لا من البشر وأنهم إنما جاؤا لإهلاك قوم لوط طلب إبراهيم عليه السلام منهم معجزة دالة على أنهم من الملائكة فدعوا ربهم بإحياء العجل المشوي فطفر ذلك العجل المشوي من الموضع الذي كان موضوعاً فيه إلى مرعاه، وكانت امرأة إبراهيم عليه السلام قائمة فضحكت لما رأت ذلك العجل المشوي قد طفر من موضعه.

السادس: أنها ضحكت تعجباً من أن قوماً أتاهم العذاب وهم في غفلة.

السابع: لا يبعد أن يقال إنهم بشروها بحصول مطلق الولد فضحكت، إما على سبيل

التعجب فإنه يقال إنها كانت في ذلك الوقت بنت بضع وتسعين سنة وإبراهيم عليه السلام ابن مائة سنة ، وإما على سبيل السرور .

ثم لما ضحكت بشرها الله تعالى بأن ذلك الولد هو إسحق ومن وراء إسحق يعقوب .

الثامن : أنها ضحكت بسبب أنها تعجبت من خوف إبراهيم عليه السلام من ثلاث أنفس حال ما كان معه حشمه وخدمه .

التاسع : أن هذا على التقديم والتأخير والتقدير : وامرأته قائمة فبشرناها بإسحق فضحكت سروراً بسبب تلك البشارة فقدم الضحك ، ومعناه التأخير .

(16/382)

الثاني : هو أن يكون معنى فضحكت حاضت وهو منقول عن مجاهد وعكرمة قالا : ضحكت أي حاضت عند فرحها بالسلامة من الخوف ، فلما ظهر حيضها بشرت بحصول الولد ، وأنكر الفراء وأبو عبيدة أن يكون ضحكت بمعنى حاضت ، قال أبو بكر الأنباري هذه اللغة إن لم يعرفها هؤلاء فقد عرفها غيرهم ، حكى الليث في هذه الآية ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ طمثت ، وحكى الأزهري عن بعضهم أن أصله من ضحاك الطلعة يقال ضحكت الطلعة إذا انشقت .

واعلم أن هذه الوجوه كلها زوائد .

وإنما الوجه الصحيح هو الأول .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب بالنصب والباقون بالرفع أما وجه النصب ، فهو أن يكون التقدير : بشرناها بإسحق ومن وراء إسحق وهبنا لها يعقوب ، وأما وجه الرفع فهو أن يكون التقدير : ومن وراء إسحق يعقوب مولود أو موجود .

المسألة الثانية :

في لفظ وراء قولان : الأول : وهو قول الأكثرين أن معناه بعد أي بعد إسحق يعقوب وهذا هو الوجه الظاهر .

والثاني : أن الوراء ولد الولد ، عن الشعبي أنه قيل له هذا ابنك ، فقال نعم من الوراء ، وكان ولد ولده ، وهذا الوجه عندي شديد التعسف ، واللفظ كأنه ينبو عنه .

﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال الفراء أصل الويل وي ، وهو الخزي ، ويقال : وي لفلان أي خزي له فقوله ويلك أي خزي

لك ، وقال سيبويه : ويح زجر لمن أشرف على الهلاك ، وويل لمن وقع فيه .

قال الخليل : ولم أسمع على بنائه إلا ويح ، وويس ، وويك ، وويه ، وهذه الكلمات متقاربة في المعنى وأما قوله : ﴿ يا ويلتا ﴾ فمنهم من قال هذه الألف ألف الندبة وقال صاحب "الكشاف" : الألف في ويلتا مبدلة من ياء الإضافة في ﴿ يا ويلتي ﴾ وكذلك في يا لهفا ويا عجبا ثم أبدل من الياء والكسرة الألف والفتحة ، لأن الفتح والألف أخف من الياء والكسرة .

(17/382)

أما قوله : ﴿ ءأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وهذا بَعْلِى شَيْخاً ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو آلد بهمزة ومدة ، والباقون بهمزتين بلا مد .

المسألة الثانية :

لقائل أن يقول إنها تعجبت من قدرة الله تعالى والتعجب من قدرة الله تعالى يوجب الكفر ، بيان المقدمة الأولى من ثلاثة أوجه : أولها : قوله تعالى حكاية عنها في معرض التعجب ﴿ ءألد وَأَنَاْ عَجُوزٌ ﴾ وثانيها : قوله : ﴿ إِنَّ هذا لَشَىْء عَجِيبٌ ﴾ وثالثها : قول الملائكة

لها ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ وأما بيان أن التعجب من قدرة الله تعالى يوجب الكفر ، فلأن هذا التعجب يدل على جهلها بقدرة الله تعالى ، وذلك يوجب الكفر .

والجواب : أنها إنما تعجبت بحسب العرف والعادة لا بحسب القدرة فإن الرجل المسلم لو أخبره مخبر صادق بأن الله تعالى يقلب هذا الجبل ذهباً إبريزاً فلا شك أنه يتعجب نظراً إلى أحوال العادة لا لأجل أنه استنكر قدرة الله تعالى على ذلك .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ وهذا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ فاعلم أن شيخاً منصوب على الحال ، قال الواحدي رحمه الله : وهذا من لطائف النحو وغامضه فإن كلمة هذا للإشارة ، فكان قوله : ﴿ وهذا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ قائم مقام أن يقال أشير إلى بعلي حال كونه شيخاً ، والمقصود تعريف هذه الحالة المخصوصة وهي الشيخوخة .

المسألة الرابعة :

قرأ بعضهم ﴿ وهذا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هذا بعلي وهو شيخ ، أو بعلي بدل من المبتدأ وشيخ خبر أو يكونان معاً خبرين ، ثم حكى تعالى أن

الملائكة قالوا : ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ والمعنى : أنهم تعجبوا من تعجبها ، ثم قالوا : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ ﴾ والمقصود من هذا الكلام ذكر ما يزيل ذلك التعجب وتقديره : إن رحمة الله عليكم متكاثرة وبركاته لديكم متوالية متعاقبة ، وهي النبوة والمعجزات القاهرة والتوفيق للخيرات العظيمة فإذا رأيت أن الله خرق العادات في تخصيصكم بهذه الكرامات العالية الرفيعة وفي إظهار خوارق العادات وإحداث البينات والمعجزات ، فكيف يليق به التعجب .

وأما قوله : ﴿ أَهْلَ البيت ﴾ فإنه مدح لهم فهو نصب على النداء أو على الاختصاص ، ثم أكدوا ذلك بقولهم : ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ والحميد هو المحمود وهو الذي تحمد أفعاله ، والمجيد الماجد ، وهو ذو الشرف والكرم ، ومن محامد الأفعال إيصال العبد المطيع إلى مراده ومطلوبه ، ومن أنواع الفضل والكرم أن لا يمنع الطالب عن مطلوبه ، فإذا كان من المعلوم أنه تعالى قادر على الكل وأنه حميد مجيد ، فكيف يبقى هذا التعجب في نفس الأمر فثبت أن المقصود من ذكر هذه الكلمات إزالة التعجب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 19. 24 ﴾

وقال الجصاص:

قَوْله تَعَالَى: ﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾

مَعْنَى الْأَوَّلِ: سَلَّمْت سَلَامًا وَلِذَلِكَ نَصَبَهُ، وَالثَّانِي جَوَابُهُ: عَلَيْكُمْ سَلَامٌ، وَلِذَلِكَ رَفَعَهُ.

وَمَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ، إلَّا أَنَّهُ خُولِفَ بَيْنَهُمَا لِئَلَّا يَتَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ الْحِكَايَةَ.

وَفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ السَّلَامَ قَدْ كَانَ تَحِيَّةَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَأَنَّهُ تَحِيَّةُ الْمَلَائِكَةِ.

وقَوْله تَعَالَى: ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾، فَإِنَّهَا مَعَ عِلْمِهَا بِأَنَّ ذَلِكَ فِي مَقْدُورِ اللَّهِ تَعْجَبُ بِطَبْعِ الْبَشَرِيَّةِ قَبْلَ الْفِكْرِ وَالرَّوِيَّةِ، كَمَا وَلَّى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُدْبِرًا حِينَ صَارَتْ عَصَاهُ حَيَّةً حَتَّى قِيلَ لَهُ: ﴿ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إنَّك مِنْ الْآمِنِينَ ﴾، وَإِنَّمَا تَعَجَّبَتْ؛ لِأَنَّ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُقَالُ: إنَّهُ كَانَ لَهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً وَلِسَارَةَ تِسْعُونَ سَنَةً.

قَوْله تَعَالَى: ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾

(20/382)

يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ سَمَّتْ امْرَأَةَ إبْرَاهِيمَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَكَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي مُخَاطَبَةِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ قَدْ دَخَلَ فِيهِ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِأَنَّ ابْتِدَاءَ الْخِطَابِ لَهُنَّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص جـ 3 صـ ﴾

(21/382)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ .

فِيهَا تِسْعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَدْ بَيَّنَّا فِي الرِّسَالَةِ الْمُلْجِئَةِ إعْرَابَ الْآيَةِ ، وَقَدْ قَالَ الطَّبَرِيُّ : إنَّهُ عَمِلَ فِي " سَلَامٍ " الْأَوَّلِ الْقَوْلُ ، كَأَنَّهُ قَالَ : قَالُوا قَوْلًا وَسَلَّمُوا سَلَامًا .

وَقَالَ الزَّجَّاجُ : مَعْنَاهُ سَلَامًا .

قَالَ شَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَغْرِبِيُّ : إنَّ نَصْبَهُ عَلَى الْمَصْدَرِ أَظْهَرُ وُجُوهِهِ ؛ لِأَنَّهُ إنْ عَمِلَ فِيهِ الْقَوْلُ كَانَ عَلَى مَعْنَى السَّلَامِ ، وَلَمْ يَكُنْ عَمَلُ لَفْظِهِ ، كَأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ عَلَى الْمَعْنَى ، كَمَا تَقُولُ :

قُلْت حَقًّا ، وَلَمْ يَنْطِقْ بِالْحَاءِ وَالْقَافِ ، وَإِنَّمَا قُلْت قَوْلًا مَعْنَاهُ حَقٌّ ، وَهُمْ إنَّمَا تَكَلَّمُوا بِسَلَامٍ ، وَلِذَا أَجَابَهُمْ بِالسَّلَامِ ، وَعَلَى هَذَا جَرَى قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ .

قَالَ : فَإِنَّهُ يَقُولُ أَمْرِي سَلَامٌ ، أَجَابَهُمْ عَلَى الْمَعْنَى .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا قَوْلُهُ : { قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ } .

يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَحِيَّةَ الْمَلَائِكَةِ هِيَ تَحِيَّةُ بَنِي آدَمَ .

قَالَ الْقَاضِي الْإِمَامُ : الصَّحِيحُ أَنَّ " سَلَامًا " هَاهُنَا مَعْنَى كَلَامِهِمْ لَا لَفْظُهُ ، وَكَذَلِكَ هُوَ فِي قَوْلِهِ : { وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } ، وَلَوْ كَانَ لَفْظُ كَلَامِهِمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ فَإِنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ ذِكْرَ اللَّفْظِ ، وَإِنَّمَا قَصَدَ ذِكْرَ الْمَعْنَى الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ لَفْظُ سَلَامٍ .

(22/382)

أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا أَرَادَ ذِكْرَ اللَّفْظِ قَالَ بِعَيْنِهِ ، فَقَالَ مُخْبِرًا عَنْ الْمَلَائِكَةِ : { سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ } .

{ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ } ، وَأَبْدَعُ مِنْهُ فِي الدَّلَالَةِ أَنَّهُ قَالَ : { وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ } .

وَقَالَ أَيْضًا : { وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إلْ يَاسِينَ } .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : قَوْلُهُ : ﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السَّلَامَ يُرَدُّ بِمِثْلِهِ ، كَمَا رَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْقَارِي قَالَ : كُنْت مَعَ ابْنِ عُمَرَ فَيُسَلَّمُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، وَيُرَدُّ كَمَا يُقَالُ .

قَالَ الْقَاضِي الْإِمَامُ : هَذَا عَلَى أَنَّ الْقَوْلَ هَاهُنَا سَلَامٌ بِلَفْظِهِ أَوْ بِمَعْنَاهُ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ .

قَدَّمَهُ إلَيْهِمْ نُزُلًا وَضِيَافَةً ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ ضَيَّفَ الضَّيْفَ حَسْبَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ .

وَفِي الإسرائيليات أَنَّهُ كَانَ لَا يَأْكُلُ وَحْدَهُ ، فَإِذَا حَضَرَ طَعَامُهُ أَرْسَلَ يَطْلُبُ مَنْ يَأْكُلُ مَعَهُ ؛ فَلَقِيَ يَوْمًا رَجُلًا فَلَمَّا جَلَسَ مَعَهُ عَلَى الطَّعَامِ قَالَ لَهُ إبْرَاهِيمُ : سَمِّ اللَّهَ .

قَالَ لَهُ الرَّجُلُ : لَا أَدْرِي مَا اللَّهُ ؛ قَالَ لَهُ : فَاخْرُجْ عَنْ طَعَامِي .

(23/382)

فَلَمَّا خَرَجَ الرَّجُلُ نَزَلَ إلَيْهِ جِبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ : يَقُولُ [اللَّهُ] : إنَّهُ يَرْزُقُهُ عَلَى كُفْرِهِ مَدَى عُمُرِهِ ، وَأَنْتَ بَخِلْت عَلَيْهِ بِلُقْمَةٍ ، فَخَرَجَ إبْرَاهِيمُ مُسْرِعًا فَرَدَّهُ ، فَقَالَ : [ارْجِعْ قَالَ] : لَا أَرْجِعُ ؛ تُخْرِجُنِي ثُمَّ تَرُدُّنِي لِغَيْرِ مَعْنًى ، فَأَخْبَرَهُ بِالْأَمْرِ ، فَقَالَ : هَذَا رَبٌّ كَرِيمٌ .

آمَنْت .

وَدَخَلَ وَسَمَّى اللَّهَ ، وَأَكَلَ مُؤْمِنًا .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : ذَهَبَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ إلَى أَنَّ الضِّيَافَةَ وَاجِبَةٌ ؛ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، جَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ صَدَقَةٌ } .

وَفِي رِوَايَةٍ [أَنَّهُ قَالَ] : { ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِيَ عِنْدَهُ حَتَّى يُحْرِجَهُ } .

وَهَذَا حَدِيثٌ [صَحِيحٌ] خَرَّجَهُ الْأَئِمَّةُ وَلَفْظُهُ لِلتِّرْمِذِيِّ .

وَذَهَبَ عُلَمَاءُ الْفِقْهِ إلَى أَنَّ الضِّيَافَةَ لَا تَجِبُ ؛ إنَّمَا هِيَ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَحُسْنِ الْمُعَامَلَةِ بَيْنَ الْخَلْقِ ، وَتَأَوَّلُوا هَذَا الْحَدِيثَ بِأَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى النَّدْبِ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : { فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ } ؛ وَالْكَرَامَةُ مِنْ خَصَائِصِ النَّدْبِ دُونَ الْوُجُوبِ .

وَقَدْ قَالَ قَوْمٌ : إنَّ هَذَا كَانَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ نُسِخَ ، وَهَذَا ضَعِيفٌ ؛ فَإِنَّ الْوُجُوبَ لَمْ يَثْبُتْ وَالنَّاسِخُ لَمْ يَرِدْ .

(24/382)

أَمَا إنَّهُ قَدْ رَوَى الْأَئِمَّةُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : { نَزَلْنَا بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَاسْتَضَفْنَاهُمْ ، فَأَبَوْا ، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيِّ فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ فَلَمْ يَنْفَعْهُ .

فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا ، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ ، فَقَالُوا : يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ ؛ إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ ، وَقَدْ سَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ فَلَمْ يَنْفَعْهُ ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ شَيْءٌ ؟ قَالَ بَعْضُهُمْ : إِنِّي وَاللَّهِ أَرْقِي ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا ، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا .

فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنْ الْغَنَمِ ، فَانْطَلَقَ يَتْفُلُ عَلَيْهِ ، وَيَقْرَأُ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَكَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ ، فَانْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلَبَةٌ .

قَالَ : فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمْ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ .

فَقَالَ بَعْضُهُمْ : اقْسِمُوا ، وَقَالَ

الَّذِي رَقَى : لَا تَفْعَلُوا ، حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَذْكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ ، فَنَنْظُرَ الَّذِي يَأْمُرُنَا بِهِ .

فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرُوا لَهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ : وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ ثُمَّ قَالَ : اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا .

فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴾ .

فَقَوْلُهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ : فَاسْتَضَفْنَاهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُونَا ، ظَاهِرٌ فِي أَنَّ الضِّيَافَةَ لَوْ كَانَتْ حَقًّا لَلَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقَوْمَ الَّذِينَ أَبَوْا وَبَيَّنَ ذَلِكَ لَهُمْ ، وَلَكِنَّ الضِّيَافَةَ حَقِيقَةً فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ قَالَ : إنَّهَا وَاجِبَةٌ فِي الْقُرَى حَيْثُ لَا طَعَامَ وَلَا مَأْوَى ، بِخِلَافِ الْحَوَاضِرِ ، فَإِنَّهَا مَشْحُونَةٌ بِالْمَأْوِيَّاتِ وَالْأَقْوَاتِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الضَّيْفَ كَرِيمٌ ، وَالضِّيَافَةَ كَرَامَةٌ ، فَإِنْ كَانَ عَدِيمًا فَهِيَ فَرِيضَةٌ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَوْله تَعَالَى : { فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ } قَالَ كُبَرَاءُ النَّحْوِيِّينَ : فَمَا لَبِثَ حَتَّى جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ، وَأَعْجَبُ لَهُمْ كَيْفَ اسْتَجَازُوا ذَلِكَ مَعَ سَعَةِ مَعْرِفَتِهِمْ . وَقَالَ غَيْرُهُمْ مَا قَدْ اسْتَوْفَيْنَا ذِكْرَهُ فِي الْمُلْجِئَةِ ، وَحَقَّقْنَا [أَنَّ مَوْضِعَ] " أَنْ جَاءَ " مَنْصُوبٌ عَلَى حُكْمِ الْمَفْعُولِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : مُبَادَرَةُ إبْرَاهِيمَ بِالنُّزُولِ حِينَ ظَنَّ أَنَّهُمْ أَضْيَافٌ مَشْكُورَةٌ مِنْ اللَّهِ مَتْلُوَّةٌ مِنْ كَلَامِهِ فِي الثَّنَاءِ بِهَا عَلَيْهِ ، تَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي إنْزَالِهِ فِيهِ حِينَ قَالَ فِي مَوْضِعٍ : فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ .

وَفِي آخَرَ : فَجَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ أَيْ مَشْوِيٍّ ، وَوَصَفَهُ بِالطِّيبَيْنِ : طِيبِ السِّمَنِ ، وَطِيبِ الْعَمَلِ بِالْإِشْوَاءِ ، وَهُوَ أَطْيَبُ لِلْمُحَاوَلَةِ فِي تَنَاوُلِهِ ؛ فَكَانَ لِإِبْرَاهِيمَ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ : الضِّيَافَةُ ، وَالْمُبَادَرَةُ بِهَا جَيِّدًا لِسِمَنٍ فِيهَا وَصْفًا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ: قَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا: كَانَتْ ضِيَافَةً قَلِيلَةً فَشَكَرَهَا الْحَبِيبُ مِنْ الْحَبِيبِ، وَهَذَا تَحَكُّمٌ بِالظَّنِّ فِي مَوْضِعِ الْقَطْعِ وَبِالْقِيَاسِ فِي مَوْضِعِ النَّقْلِ، مِنْ أَيْنَ عَلِمَ أَنَّهُ قَلِيلٌ؟ بَلْ قَدْ نَقَلَ الْمُفَسِّرُونَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانُوا ثَلَاثَةً: جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ، وَعِجْلٌ لِثَلَاثَةٍ عَظِيمٌ، فَمَا هَذَا التَّفْسِيرُ فِي كِتَابِ اللَّهِ بِالرَّأْيِ؟ هَذَا بِأَمَانَةِ اللَّهِ هُوَ التَّفْسِيرُ الْمَذْمُومُ، فَاجْتَنِبُوهُ فَقَدْ عَلِمْتُمُوهُ.

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ: السُّنَّةُ إذَا قُدِّمَ لِلضَّيْفِ الطَّعَامُ أَنْ يُبَادِرَ الْمُقَدَّمُ إلَيْهِ بِالْأَكْلِ مِنْهُ، فَإِنَّ كَرَامَةَ صَاحِبِ الْمَنْزِلِ الْمُبَادَرَةُ بِالْقَبُولِ، فَلَمَّا قَبَضَ الْمَلَائِكَةُ أَيْدِيَهُمْ نَكِرَهُمْ إبْرَاهِيمُ؛ لِأَنَّهُمْ خَرَجُوا عَنْ الْعَادَةِ، وَخَالَفُوا السُّنَّةَ، وَخَافَ أَنْ يَكُونَ وَرَاءَهُمْ مَكْرُوهٌ يَقْصِدُونَهُ.

وَقَدْ كَانَ مِنْ الْجَائِزِ كَمَا يَسَّرَ اللَّهُ لِلْمَلَائِكَةِ أَنْ يَتَشَكَّلُوا فِي صِفَةِ الْآدَمِيِّ جَسَدًا وَهَيْئَةً أَنْ يُيَسِّرَ لَهُمْ أَكْلَ الطَّعَامِ، إلَّا أَنَّهُ فِي قَوْلِ الْعُلَمَاءِ، أَرْسَلَهُمْ فِي صِفَةِ الْآدَمِيِّينَ، وَتَكَلَّفَ إبْرَاهِيمُ الضِّيَافَةَ حَتَّى إذَا رَأَى التَّوَقُّفَ، وَخَافَ جَاءَتْهُ الْبُشْرَى فَجْأَةً، وَأَكْمَلُ الْمُبَشِّرَاتِ مَا جَاءَ فَجْأَةً وَلَمْ يَظُنَّهُ الْمَسْرُورُ حِسَابًا. انتهى انتهى. ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى جـ 3 ص

وقال السمرقندى :

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إبراهيم بالبشرى ﴾

يعني : ببشارة الولد .

وذلك أن مدينة يقال لها : سدوما .

ويقال : سدوم ، وكانت بلدة فيها من السعة والخير ، ما لم يكن في سائر البلدان وكان الغرباء يحضرون من سائر البلدان ، في أيام الصيف ، ويجمعون من فضل ثمارهم ، مما كان خارجاً من الكروم ، والحدائق .

فجاء إبليس لعنه الله ، فشبه نفسه بغلام أمرد ، وجعل يدخل كرومهم ، وحدائقهم ، ويراودهم إلى نفسه ، حتى أظهر فيهم الفاحشة .

وجاء إلى نسائهم ، وقال : إن الرجال قد استغنوا عنكن ، فعلَّمَهُنَّ أن يستغنين عن الرجال ، حتى استغنى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء .

فأوحى الله تعالى إلى لوط ، ليدعوهم إلى الإيمان ، ويمتنعوا عن الفواحش ، فلم يمتنعوا .

فبعث الله جبريل ، ومعه أحد عشر من الملائكة بإهلاكهم ، فجاؤوا إلى إبراهيم كهيئة الغلمان ، فدخلوا على إبراهيم ، فنظر فرأى اثني عشر غلاماً أمرد ، ويقال : كانوا ثلاثة جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، ويقال : كانو أربعة ، فسلموا عليه ﴿ قَالُواْ سلاما قَالَ

سلام ﴾ يعني : ردّ عليهم السلام .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، ﴿ قَالُواْ سلاما قَالَ سلام ﴾ ،

كلاهما سلام ، إلا أن الأول صار نصباً ، لوقوع الفعل عليه ؛ والآخر رفعاً بالحكاية .

ومعناه : قال : قولاً : فيه سلام .

وقرأ حمزة ، والكسائي : ﴿ قَالُواْ سلاما قَالَ سلام ﴾ بكسر السين ، وسكون اللام ، يعني

: أمري سلم ، ما أريد إلا السلامة .

﴿ فَمَا لَبِثَ ﴾ يعني : فما مكث ﴿ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ قال السّدِيّ : الحنيذ

السمين ، كما قال في آية أُخرى : ﴿ فَرَاغَ إلى أَهْلِهِ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ [الذاريات : 26

] ويقال : حنيذ ، يعني : نضيج .

ويقال : المشوي الذي يقطر منه الدسم .

وقال أهل اللغة بأجمعهم : الحنيذ ، المشوي بغير تنور ، وهو أن يتخذ له في الأرض حنذاً ،

فيلقى فيه .

قال مقاتل : إنما جاءهم بعجل ، لأنه كان أكثر ماله البقر ، فلما قربه إليهم ووضع بين أيديهم كفوا ولم يأكلوا ، ولم يتناولوا منه .

﴿ فَلَمَّا رَأَى ﴾ إبراهيم ﴿ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ ﴾ يعني : لا تصل إلى الطعام ﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ يقول : أنكرهم ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ يعني : وأضمر منهم خوفاً ، حيث لم يأكلوا من طعامه ، وظن أنهم لصوص .

وذلك أنه في ذلك الزمان إذا لم يأكل أحد من طعام إنسان ، يخاف عليه عائلته ، ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ بهلاكهم .

وقال السدي : لما لم يأكلوا من الطعام ، قال لهم إبراهيم : ما لكم لا تأكلون طعامي ؟ قالوا : إنا قوم لا نأكل طعاماً إلا بثمن .

فقال إبراهيم : إن لطعامي ثمناً ، فأصيبوا منه .

قالوا : وما ثمنه ؟ قال : تذكرون اسم الله عليه في أوله ، وتحمدونه في آخره .

فقال جبريل لميكائيل : حق له أن يتخذه الله خليلاً .

قوله تعالى ﴿ وامرأته قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾ وفي الآية تقديم ، يعني : بشرناها بإسحاق ، فضحكت سروراً .

ويقال : ضحكت تعجباً من خوف إبراهيم ، ورعدته في حشمه ، وخدمه ، ولم يخف ، ولم يرتعد من نمرود الجبار حين قذفه في النار ، وهذا قول القتبي .

وقال عكرمة : ضحكت ، يعني : حاضت .

يقال : ضحكت الأرنب ، إذا حاضت .

وغيره من المفسرين يجعلها الضحك بعينه ، وكذلك هو في التوراة .

قرأت فيها أنها حين بشرت بالغلام ، ضحكت في نفسها ، وقالت : من بعد ما بليت ، أعود شابة ؟ وقال قتادة : ضحكت من أمر القوم ، وغفلتهم ، وجبريل جاءهم بالعذاب ، يعني : قوم لوط ﴿ فبشرناها بإسحاق وَمِن وَرَاءِ إسحاق يَعْقُوبَ ﴾ قال الشعبي : الوراء ، ولد الولد .

وروى حبيب بن أبي ثابت ، أن رجلاً دخل على ابن عباس ، ومعه ابن ابنه ، فقال له : من هذا ؟ فقال ابن ابني .

(29/382)

فقال : ابنك من وراء فوجد الرجل في نفسه ، فقرأ ابن عباس : ﴿ وَمِن وَرَاءِ إسحاق يَعْقُوبَ ﴾ وقال مقاتل : يعني : ومن بعد إسحاق يعقوب .

وقال أبو عبيدة : الوراء ولد الولد .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وعاصم في رواية حفص ، بنصب الباء ، وقرأ الباقون بالضم .

فمن قرأ بالضم ، فهو على معنى الابتداء ، يعني : ويكون من وراء إسحاق ، يَعْقُوبُ .

ومن قرأ بالنصب ، فهو عطف على الباء في قوله : ﴿ بإسحاق ﴾ فيكون في موضع الخفض ، إلا أنه لا ينصرف .

﴿ قَالَتْ يا أيها ءأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وهذا ﴾ يعني : عقيماً لم ألد قط ، وقد كبرت في السن ، ﴿ وهذا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ قال الكلبي : كانت سارة بنت ثمان وتسعين سنة ، وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة ، أكبر منها بسنة .

وقال الضحاك : كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة ، وسارة بنت تسع وتسعين سنة ، ﴿ إِنَّ هذا لَشَىْء عَجِيبٌ ﴾ أي : لأمر عجيب ﴿ قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ يعني : من قدرة الله ﴿ قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ﴾ يعني : نعمته وسعادته عليكم ، ﴿ أَهْلَ البيت ﴾ يعني : يا أهل البيت .

ويقال : أتعجبين ؟ أي ألا تعلمين أن رحمة الله ، وبركاته عليكم ، أن يستخرج الأنبياء كلهم من هذا البيت ؟ وقال السدي : أخذ جبريل عوداً من الأرض يابساً ، فدلكه بين أصبعيه ، فإذا هو شجرة تهتز ، فعرفت أنه من الله تعالى .

ثم قال ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ ﴾ في فعاله ، ويقال : حميد لأعمالكم ، ﴿ مَّجِيدٌ ﴾ يعني : شريف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 160. 162 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ﴾ .

أما إبراهيم ففيه وجهان :

أحدهما : أنه اسم أعجمي ، قاله الأكثرون . وقيل معناه أب رحيم .

الثاني : أنه عربي مشتق من البرهمة وهي إدامة النظر .

والرسل جبريل ومعه ملكان قيل إنهما ميكائيل وإسرافيل عليه السلام وروى أبو صالح عن ابن عباس أنه كان المرسل مع جبريل اثني عشر ملكاً .

وفي البشرى التي جاءوه بها أربعة أقاويل :

أحدها : بشروه بنبّوته ، قاله عكرمة .

الثاني : بإسحاق ، قاله الحسن .

الثالث : بشروه بإخراج محمد صلى الله عليه وسلم من صلبه وأنه خاتم الأنبياء .

الرابع : بشروه بهلاك قوم لوط ، قاله قتادة .

﴿ قالوا سلاماً قال سلامٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما تحية من الملائكة لإبراهيم عليه السلام فحياهم بمثله فدل على أن السلام تحية الملائكة والمسلمين جميعاً .

الثاني : سلمت أنت وأهلك من هلاك قوم لوط .

وقوله ﴿ سلام ﴾ أي الحمد لله الذي سلّمني ، فمعنى سلام : سلمت . وقرأ حمزة والكسائي ﴿ سِلم ﴾ بكسر السين وإسقاط الألف .

واختلف في السلم والسلام على وجهين : أحدهما : أن السلم من المسالمة والسلام من السلامة .

الثاني : أنهما بمعنى واحد ، قال الشاعر ، وقد أنشده الفراء لبعض العرب :

وقفنا فقلنا إيه سِلْم فسَلّمَتْ . . . كما اكتَلَّ بالبرْقِ الغمامُ اللوائحُ

﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ ظنّ رُسُل ربه أضيافاً لأنهم جاؤوه في صورة الناس فعجل لهم الضيافة فجاءهم بعجل حنيذ . وفي الحنيذ قولان :

أحدهما : أنه الحار ، حكاه أبان بن تغلب عن علقمة النحوي .

الثاني : هو المشوي نضيجاً وهو المحنوذ مثل طبيخ ومطبوخ وفيه قولان :

أحدهما : هو الذي حُفر له في الأرض ثم غُمّ فيها ، قال الشاعر :

اذا ما اعتبطنا اللحم للطالب القِرى . . . حنذناه حتى عَيَن اللحم آكله

الثاني : هو أن يوقد عل الحجارة فإذا اشتد حرها ألقيت في جوفه ليسرع نضجه ، قال طرفة بن العبد :

لهم راحٌ وكافور ومسكٌ . . . وعِقر الوحش شائله حنوذ

قوله عز وجل : ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ﴾ في نكرهم وأنكرهُم وجهان :

أحدهما : أن معناهما مختلف ، فنكرهم إذا لم يعرفهم ونكرهم إذا وجدهم على منكر .

الثاني : أنهما بمعنى واحد ، قال الأعشى :

وأنكَرَتْني وما كان الذي نكرت . . . من الحوادث إلا الشيب والصّلَعا

واختلف في سبب إنكاره لهم على قولين :

أحدهما : أنهم لم يطعموا ، ومن شأن العرب إذا نزل بهم ضيف فلم يطعم من طعامهم ظنوا به سوءاً وخافوا منه شراً ، فنكرهم إبراهيم لذلك ، قاله قتادة . والثاني : لأنه لم تكن لهم أيدي فنكرهم ، قاله يزيد بن أبي حبيب . وامتنعوا من طعامه لأنهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون .

﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أضمر في نفسه خوفاً منهم .

والثاني : أحسّ من نفسه تخوفاً منهم ، كما قال يزيد بن معاوية :

جاء البريد بقرطاس يُخَبُّ به . . . فأوجس القلبُ من قرطاسه جزعا

﴿ قالوا لا تخف إنا أُرسلنا إلى قوم لوط ﴾ يعني بهلاكهم . وفي إعلامهم إبراهيم بذلك

وجهان :

أحدهما : ليزول خوفه منهم .

والثاني : لأن إبراهيم قد كان يأتي قوم لوط فيقول : ويحكم أينها كم عن الله أن تتعرضوا لعقوبته فلا يطيعونه . ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَتٌ فَضَحِكَتْ ﴾ وفي قيامها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها كانت قائمة من وراء الستر تسمع كلامهم ، قاله وهب .

الثاني : أنها كانت قائمة تخدمهم ، قاله مجاهد .

الثالث : أنها كانت قائمة تُصَلّي ، قاله محمد بن إسحاق . ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني حاضت ، قاله مجاهد والعرب تقول ضحكت المرأة إذا حاضت ، والضحك الحيض في كلامهم ، قال الشاعر :

وضحك الأرانب فوق الصفا . . . كمثل دم الخوف يوم اللّقا

والثاني : أن معنى ضحكت : تعجبت ، وقد يسمى التعجب ضحكاً لحدوث الضحك عنه ، ومنه قول أبي ذؤيب .

فجاء بمزجٍ لم ير الناس مثله . . . هو الضحك إلاّ انه عمل النحل

الثالث : أنه الضحك المعروف في الوجه ، وهو قول الجمهور .

فإن حمل تأويله على الحيض ففي سبب حيضها وجهان : أحدهما : أنه وافق وقت عاتها فخافت ظهور دمها وأرادت شداده فتحيرت مع حضور الرسل .

والقول الثاني : ذعرت وخافت فتعجل حيضها قبل وقته ، وقد تتغير عادة الحيض باختلاف الأحوال وتغير الطباع .

ويحتمل قولاً ثالثاً : أن يكون الحيض بشيراً بالولادة لأن من لم تحض لا تلد .

وإن حمل تأويله على التعجب ففيما تعجب منه أربعة أقاويل :

أحدها : أنها تعجبت من أنها وزوجها يخدمان الأضياف تكرمة لهم وهم لا يأكلون ، قاله السدي .

الثاني : تعجبت من أن قوم لوط قد أتاهم العذاب وهم غافلون ، قاله قتادة .

الثالث : أنها عجبت من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها ، قاله وهب بن منبه .

الرابع : أنها تعجبت من إحياء العجل الحنيذ لأن جبريل عليه السلام مسحه بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه وأم العجل في الدار ، قاله عون بن أبي شداد .

وإن حمل تأويله على ضحك الوجه ففيما ضحكت منه أربعة أقاويل :

أحدها : ضحكت سروراً بالسلامة .

الثاني : سروراً بالولد . الثالث : لما رأت ما بزوجها من الورع ، قاله الكلبي .

الرابع : أنها ضحكت ظناً بأن الرسل يعملون عمل قوم لوط ، قاله محمد بن عيسى .

﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ وفي ﴿ وراء ﴾ ها هنا قولان :

أحدهما : أن الوراء ولد الولد ، قاله ابن عباس والشعبي .

الثاني : أنه بمعنى بعد ، قاله مقاتل ، وقال النابغة الذبياني :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة . . . وليس وراءَ اللهِ للمرء مذهبُ

فعجلوا لها البشرى بالولدين مظاهرة للنعمة ومبالغة في التعجب ، فاحتمل أن يكون البشارة بهما باسميهما فيكون الله تعالى هو المسمى لهما ، واحتمل أن تكون البشارة بهما وسماها أبوهما .

فإن قيل : فلم خصت سارة بالبشرى من دون إبراهيم ؟

قيل عن هذا ثلاثة أجوبة :

أحدها : أنها لما اختصت بالضحك خصت بالبشرى .

الثاني : أنهم كافأُوها بالبشرى مقابلة على استعظام خدمتها .

الثالث : لأن النساء في البشرى بالولد أعظم سروراً وأكثر فرحاً .

قال ابن عباس : سمي إسحاق لأن سارة سحقت بالضحك حين بشرت به .

قوله عز وجل : ﴿ قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوزٌ وهذا بَعْلي شيخا ﴾ لم تقصد بقولها يا ويلتا الدعاء على نفسها بالويل ولكنها كلمة تخفُّ على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبن منه ، وعجبت من ولادتها وهي عجوز وكون بعلها شيخاً لخروجه عن العادة ، وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر .

واختلف في سنها وسن إبراهيم حينئذ ، فقال مجاهد : كان لسارة تسع وتسعون سنة وكان لإبراهيم مائة سنة .

وقال محمد بن إسحاق : كانت سارة بنت تسعين سنة وكان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة .

وقال قتادة : كان كل واحد منهما ابن تسعين سنة . وقيل انها عرّضت بقولها ﴿ وهذا بعلي شيخاً ﴾ عن ترك غشيانه لها ، والبعل هو الزوج في هذا الموضع ، ومنه قوله تعالى ﴿ وبعولتهن أحق بردّهن في ذلك ﴾ [البقرة : 228] .

والبعل : المعبود ، ومنه قوله تعالى ﴿ أتدعون بعلاً ﴾ [الصافات : 125] أي إلها معبوداً .

والبعل السيد ، ومنه قول لبيد .

حاسري الديباج عن أذرعهم . . . عند بعل حازم الرأي بَطل

فسمي الزوج بعلاً لتطاوله على الزوجة كتطاول السيد على المسود .

﴿ إن هذا لشيء عجيب ﴾ أي منكر ، ومنه قوله تعالى ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ [ق : 2] أي أنكروا . ولم يكن ذلك منها تكذيباً ولكن استغراباً له . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(34/382)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا ﴾

" الرسل " الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل . وقالت فرقة : بدل إسرافيل عزرائيل - ملك الموت - وروي أن جبريل منهم كان مختصاً بإهلاك قرية لوط ، وميكائيل مختصاً بتبشير إبراهيم بإسحاق . وإسرافيل مختصاً بإنجاء لوط ومن معه .

قال القاضي أبو محمد : وهذه الآية تقضي باشتراكهم في البشارة بإسحاق وقالت فرقة - وهي الأكثر - " البشرى " هي بإسحاق . وقالت فرقة : " البشرى " هي بإهلاك قوم

لوط .

وقوله : ﴿ سلاماً ﴾ نصب على المصدر ، والعامل فيه فعل مضمر من لفظة كأنه قال : أسلم سلاماً ، ويصح أن يكون : ﴿ سلاماً ﴾ حكاية لمعنى ما قالوه لا للفظهم - قاله مجاهد والسدي - فلذلك عمل فيه القول ، كما تقول - الرجل قال : لا إله إلاَّ الله - قلت حقاً أو إخلاصاً ؛ ولو حكيت لفظهم لم يصح أن تعمل فيه القول وقوله : ﴿ قال : سلام ﴾ حكاية للفظه ، و﴿ سلام ﴾ مرتفع إما على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره عليكم ، وإما على خبر ابتداء محذوف تقديره أمري سلام ، وهذا كقوله : ﴿ فصبر جميل ﴾ [يوسف : 18] إما على تقدير فأمري صبر جميل ، وإما على تقدير : فصبر جميل أجمل .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم : " قالوا : سلاماً قال : سلاَم " وقرأ حمزة والكسائي : " قالوا سلاماً ، قال : سلم " وكذلك اختلافهم في سورة الذاريات . وذلك على وجهين : يحتمل أن يريد به السلام بعينه ، كما قالوا حل وحلال وحرم وحرام ومن ذلك قول الشاعر : [الطويل]

مررنا فقلنا ابه سلم فسلمت . . . كما اكتلّ بالبرق الغمام اللوائح

اكتلّ : اتخذ إكليلاً أو نحو هذا قال الطبري وروي : كما انكلّ - ويحتمل أن يريد ب " السلم " ضد الحرب ، تقول نحن سلم لكم .

وكان سلام الملائكة دعاء مرجواً – فلذلك نصب – وحيي الخليل بأحسن مما حيي وهو الثابت المتقرر ولذلك جاء مرفوعاً .

(35/382)

وقوله : ﴿ فما لبث أن جاء ﴾ يصح أن تكون ﴿ ما ﴾ نافية ، وفي ﴿ لبث ﴾ ضمير إبراهيم وإن جاء في موضع نصب أي بأن جاء ، ويصح أن تكون ﴿ ما ﴾ نافية وإن جاء بتأويل المصدر في موضع رفع ب ﴿ لبث ﴾ أي ما لبث مجيئه ، وليس في ﴿ لبث ﴾ على هذا ضمير إبراهيم ، ويصح أن يكون ﴿ ما ﴾ بمعنى الذي وفي ﴿ لبث ﴾ ضمير إبراهيم – وإن جاء خبر ﴿ ما ﴾ أي فلبث إبراهيم مجيئه بعجل حنيذ ، وفي أدب الضيف أن يجعل قراه من هذه الآية .

و" الحنيذ " بمعنى المحنوذ ومعناه بعجل مشوي نضج يقطر ماؤه ، وهذا القطر يفصل الحنيذ من جملة المشويات ، ولكن هيئة المحنوذ في اللغة الذي يغطى بحجارة أو رمل محمي أو حائل بينه وبين النار يغطى به والمعرض من الشواء الذي يصفف على الجمر ؛ والمهضب : الشواء الذي بينه وبين النار حائل ، يكون الشواء عليه لا مدفوناً له ، والتحنيذ في تضمير الخيل هو أن يغطى الفرس بجل على جل لينتصب عرقه .

وقوله تعالى : ﴿ فلما رأى أيديهم . . . ﴾ الآية ، روي أنهم كانوا ينكتون بقداح كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل أيديهم إليه ، وفي هذه الآية من أدب الطعام أن لصاحب الضيف أن ينظر من ضيفه هل يأكل أم لا ؟

قال القاضي أبو محمد : وذلك ينبغي أن يكون بتلفت ومسارقة لا بتحديد النظر ، فروي أن أعرابياً أكل مع سليمان بن عبد الملك ، فرأى سليمان في لقمة الأعرابي شعرة فقال له : أزل الشعرة عن لقمتك ، فقال له : أتنظر إلي نظر من يرى الشعر في لقمتي والله لا أكلت معك .

و﴿ نكرهم ﴾ – على ما ذكر كثير من الناس – معناه : أنكرهم ، واستشهد لذلك بالبيت الذي نحله أبو عمرو بن العلاء الأعشى وهو : [البسيط]

وأنكرتني وما كان الذي نكرت . . . من الحوادث إلا الشيب والصلعا

(36/382)

وقال بعض الناس : " نكر " هو مستعمل فيما يرى بالبصر فينكر ، وأنكر هي مستعملة فيما لا يقرر من المعاني ، فكأن الأعشى قال : وأنكرتني مودتي وأدمتي ونحوه ، ثم جاء ب " نكر " في الشيب والصلع الذي هو مرئي بالبصر ، ومن هذا قول أبي ذؤيب : [الكامل]

فنكرنه فنفرن وامترست به . . . هوجاء هادية وهاد جرشع

والذي خاف منه إبراهيم عليه السلام ما يدل عليه امتناعهم من الأكل ، فعرف من جاء بشر أن لا يأكل طعام المنزول به ، و﴿ أوجس ﴾ معناه أحس في نفسه خيفة منهم ، و" الوجيس " : ما يعتري النفس عند الحذر وأوائل الفزع ، فأمنوه بقولهم : ﴿ لا تخف ﴾ وعلم أنهم الملائكة ، ثم خرجت الآية إلى ذكر المرأة وبشارتها فقالت فرقة : معناه : ﴿ قائمة ﴾ خلف ستر تسمع محاورة إبراهيم مع أضيافه ، وقالت فرقة : معناه ﴿ قائمة ﴾ في صلاة ، وقال السد معناه ﴿ قائمة ﴾ تخدم القوم ، وفي قراءة ابن مسعود : " وهي قائمة وهو جالس " . وقوله ﴿ فضحكت ﴾ قال مجاهد : معناه : حاضت ، وأنشد على ذلك اللغويون :

وضحك الأرانب فوق الصفا . . . كمثل دم الجوق يوم اللقاء

وهذا القول ضعيف قليل التمكن ، وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى : حاضت وقرره بعضهم ، ويقال ضحك إذا امتلأ وفاض : ورد الزجّاج قول مجاهد ، وقال الجمهور : هو الضحك المعروف ، واختلف مم ضحكت ؟ فقالت فرقة : ضحكت من تأمينهم لإبراهيم بقولهم : ﴿ لا تخف ﴾ . وقال قتادة : ضحكت هزؤاً من قوم لوط أن يكونوا على غفلة وقد نفذ من أمر الله تعالى فيهم ما نفذ .

وقال وهب بن منبه : ضحكت من البشارة بإسحاق ، وقال : هذا مقدم بمعنى التأخير ، وقال محمد بن قيس : ضحكت لظنها بهم أنهم يريدون عمل قوم لوط ؛ قال القاضي :

وهذا قول خطأ لا ينبغي أن يلتفت إليه ، وقد حكاه الطبري ، وإنما ذكرته لمعنى التنبيه على فساده ، وقالت فرقة : ضحكت من فزع إبراهيم من ثلاثة وهي تعهده يغلب الأربعين من الرجال ، وقيل : المائة .

(37/382)

وقال السدي : ضحكت من أن تكون هي تخدم وإبراهيم يحفد ويسعى والأضياف لا يأكلون . وقيل : ضحكت سروراً بصدق ظنها ، لأنها كانت تقول لإبراهيم ، إنه لا بد أن ينزل العذاب بقوم لوط ، وروي أن الملائكة مسحت العجل فقام حياً فضحكت لذلك .

وقرأ محمد بن زياد الأعرابي : " فضحَكت " بفتح الحاء .

وامرأة إبراهيم هذه هي سارة بنت هارون بن ناحور ، وهو إبراهيم بن آزر بن ناحور فهي ابنة عمه ، وقيل : هي أخت لوط .

قال القاضي أبو محمد : وما أظن ذلك إلا أخوة القرابة لأن إبراهيم هو عم لوط فيما روي :

وذكر الطبري أن إبراهيم لما قدم العجل قالوا له : إنّا لا نأكل طعاماً إلا بثمن ، فقال لهم : ثمنه أن تذكروا الله تعالى عليه في أول ، وتحمدوه في آخر ، فقال جبريل لأصحابه : بحق اتخذ الله هذا خليلاً .

وقوله : ﴿ فبشرناها ﴾ أضاف فعل الملائكة إلى ضمير اسم الله تعالى إذ كان بأمره ووحيه ، وبشر الملائكة سارة ﴿ بإسحاق ﴾ وبأن إسحاق سيلد يعقوب ، ويسمى ولد الولد الولد من الوراء ، وهو قريب من معنى وراء في الظروف إذ هو ما يكون خلف الشيء وبعده ؛ ورأى ابن عباس رجلاً معه شاب ، فقال له : من هذا ؟ فقال له : ولد ولدي ، فقال : هو ولدك من الوراء ، فغضب الرجل ، فذكر له ابن عباس الآية .

(38/382)

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي "يعقوبُ" بالرفع على الابتداء والخبر المقدم ، وهو على هذا دخل في البشرى ، وقالت فرقة : رفعه على القطع بمعنى : ومن وراء إسحاق يحدث يعقوب ، وعلى هذا لا يدخل في البشارة وقرأ ابن عامر وحمزة "يعقوبَ" بالنصب واختلف عن عاصم ، فمنهم من جعله معطوفاً على ﴿ إسحاق ﴾ إلا أنه لم ينصرف ، واستسهل هذا القائل أن فرق بين حرف العطف والمعطوف بالمجرور ، وسيبويه لا يجيز هذا إلا على إعادة حرف الجر ، وهو كما تقول : مررت بزيد اليوم وأمس عمرو ، فالوجه عنده : وأمس بعمرو ، وإذا لم يعد ففيه كبير قبيح ، والوجه في نصبه أن ينتصب بفعل مضمر ، تدل عليه البشارة وتقديره : ومن وراء إسحاق وهبنا يعقوب ، هذا رجح

أبو علي .

قال القاضي أبو محمد : وروي أن سارة كانت في وقت هذه البشارة بنت تسع وتسعين سنة ، وإبراهيم ابن مائة سنة .

وهذه الآية تدل على أن الذبيح هو إسماعيل وأنه أسن من إسحاق وذلك أن سارة كانت في وقت إخدام الملك الجائر هاجر أم إسماعيل امرأة شابة جميلة حسبما في الحديث ، فاتخذها إبراهيم عليه السلام أو ولد ، فغارت بها سارة ، فخرج بها وبابنها إسماعيل من الشام على البراق وجاء من يومه مكة فتركهما – حسبما في السير – وانصرف إلى الشام من يومه ثم كانت البشارة بإسحاق ، وسارة عجوز متجالة ، وأما وجه دلالة الآية على أن إسحاق ليس بالذبيح فهو أن سارة وإبراهيم بشرا بإسحاق وأنه يولد له يعقوب ، ثم أمر بالذبح حين بلغ ابنه معه السعي ، فكيف يؤمر بذبح ولد قد بشر قبل أنه سيولد لابنه ذلك ، وأيضاً فلم يقع قط في أثر أن إسحاق دخل الحجاز وإجماع أن أمر الذبح كان بمنى ، ويؤيد هذا الغرض قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"أنا ابن الذبيحين" يريد أباه عبد الله وأباه إسماعيل، ويؤيده ما نزع به مالك رحمه الله من الاحتجاج برتبة سورة الصافات فإنه بعد كمال أمر الذبيح قال: ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيّاً من الصالحين ﴾ [الصافات: 112].

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا كله موضع معارضات لقائل القول الآخر: إن الذبيح هو إسحاق، ولكن هذا الذي ذكرناه هو الأرجح والله أعلم.

﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) ﴾

اختلف الناس في الألف التي في قوله: ﴿ يا ويلتى ﴾ وأظهر ما فيها أنها بدل ياء الإضافة، أصلها: يا ويلتي، كما تقول: يا غلاما ويا غوثا؛ وقد تردف هذه الألف بهاء في الكلام، ولم يقرأ بها، وأمال هذه الألف عاصم والأعمش وأبو عمرو.

ومعنى ﴿ يا ويلتى ﴾ في هذا الموضع: العبارة عما دهم النفس من العجب في ولادة عجوز، وأصل هذا الدعاء بالويل ونحوه في التفجع لشدة أو مكروه يهم النفس، ثم استعمل بعد في عجب يدهم النفس وقال قوم: إنما قالت: ﴿ يا ويلتى ﴾ لما مر بفكرها من ألم الولادة وشدتها، ثم رجعت بفكرها إلى التعجب ونطقت بقولها ﴿ أألد وأنا عجوز ﴾ ؟ الآية.

وقرأت فرقة: "أألد" بتحقيق الهمزتين، وقرأت فرقة بتخفيف الأولى وتحقيق الثانية، وفي

النطق بهذه عسر ، وقرأت فرقة : بتحقيق الأولى وتخفيف الثانية ، والتخفيف هنا مدها ، وقرأت فرقة " ءا ألد " بتحقيق الهمزتين ومدة بينهما .

و " العجوز " المسنة ، وقد حكى بعض الناس : أن العرب تقول : العجوزة ، و" البعل " : الزوج ، و﴿ شيخاً ﴾ نصب على الحال وهي حال من مشار إليه لا يستغنى عنها لأنها مقصود الإخبار ، وهي لا تصح إلا إذا لم يقصد المتكلم التعريف بذي الحال ، مثل أن يكون المخاطب يعرفه ؛ وأما إذا قصد التعريف به لزم أن يكون التعريف في الخبر قبل الحال ، وتجيء الحال على بابها مستغنى عنها ، ومثال هذا قولك : هذا زيد قائماً ، إذا أردت التعريف بزيد . أو كان معروفاً وأردت التعريف بقيامه ، وأما إن قصد المتكلم أن زيد يته إنما هي مادام قائماً ، فالكلام لا يجوز .

وقرأ الأعمش " هذا بعلي شيخ " ، قال أبو حاتم وكذلك في مصحف ابن مسعود ، ورفعه على وجوه : منها : أنه خبر بعد خبر كما تقول : هذا حلو حامض ، ومنها : أن يكون خبر ابتداء مضمر تقديره : هو شيخ وروي أن بعض الناس قرأه : " وهذا بعلي هذا شيخ " ، وهذه القراءة شبيهة بهذا التأويل . ومنها : أنه بدل من ﴿ بعلي ﴾ ومنها : أن يكون قولها

﴿ بعلي ﴾ بدلاً من ﴿ هذا ﴾ أو عطف بيان عليه، ويكون "شيخ" خبر ﴿ هذا ﴾.

ويقال شيخ وشيخة - وبعض العرب يقول في المذكر والمؤنث شيخ. وروي أن سارة كانت وقت هذه المقالة من تسع وتسعين سنة، وقيل: من تسعين -قاله ابن إسحاق- وقيل من ثمانين؛ وكذلك قيل في سن إبراهيم، إنه كان مائة وعشرين سنة، وقيل: مائة سنة، وغير ذلك مما يحتاج إلى سند.

والضمير في قوله: ﴿ قالوا ﴾ للملائكة، وقوله: ﴿ من أمر الله ﴾ يحتمل أن يريد واحد الأمور، أي من الولادة في هذه السن، ويحتمل أن يريد مصدر أمر، أي مما أمر الله في هذه النازلة.

وقوله: ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ يحتمل اللفظ أن يكون دعاء وأن يكون إخباراً، وكونه إخباراً أشرف، لأن ذلك يقتضي حصول الرحمة والبركة لهم، وكونه دعاء إنما يقتضي أنه أمر يترجى ولم يتحصل بعد. ونصب ﴿ أهلَ البيت ﴾ على الاختصاص - هذا مذهب سيبويه، ولذلك جعل هذا والنصب على المدح في بابين. كأنه ميز النصب

على المدح بأن يكون المنتصب لفظاً يتضمن بنفسه مدحاً كما تقول : هذا زيد عاقل قومه ، وجعل الاختصاص إذا لم تتضمن اللفظة ذلك ، كقوله : إنا معاشر الأنبياء وإنا بني نهشل .

قال القاضي أبو محمد : ولا يكون الاختصاص إلا بمدح أو ذم ، لكن ليس في نفس اللفظة المنصوبة .

وهذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل بيته لأنها خوطبت بهذا ، فيقوى القول في زوجات النبي عليه السلام بأنهن من أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس ، بخلاف ما تذهب إليه الشيعة ، وقد قاله أيضاً بعض أهل العلم ، قالوا : " أهل بيته " الذين حرموا الصدقة ، والأول أقوى وهو ظاهر جلي من سورة الأحزاب لأنه ناداهن بقوله : ﴿ يا نساء النبي ﴾ [الأحزاب : 32] ثم بقوله : ﴿ أهل البيت ﴾ [الأحزاب : 33] .

قال القاضي أبو محمد : ووقع في البخاري عن ابن عباس قال : أهل بيته الذين حرموا الصدقة بعده ؛ فأراد ابن عباس : أهل بيت النسب الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم : " إن الصدقة لا تحل لأهل بيتي إنما هي أوساخ الناس " .

و﴿ البيت ﴾ في هذه الآية وفي سورة الأحزاب بيت السكنى ففي اللفظ اشتراك ينبغي أن يتحسس إليه . ففاطمة رضي الله عنها من أهل بيت محمد صلى الله عليه وسلم بالوجهين وعلي رضي الله عنه بالواحد ، وزوجاته بالآخر ، وأما الشيعة فيدفعون الزوجات بغضاً في عائشة رضي الله عنها . و﴿ حميد ﴾ أي أفعاله تقتضي أن يحمد ،

و﴿ مجيد ﴾ أي متصف بأوصاف العلو ، ومجد الشيء إذا حسنت أوصافه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(42/382)

وقال القرطبى :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بالبشرى ﴾ هذه قصة لوط عليه السلام ، وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام لَحًّا ، وكانت قرى لوط بنواحي الشام ، وإبراهيم ببلاد فلسطين ، فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونزلوا عنده ، وكان كل من نزل عنده يحسن قِراه ، وكانوا مروا ببشارة إبراهيم ، فظنهم أضيافاً .

وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام ؛ قاله ابن عباس .

الضحّاك : كانوا تسعة .

السّدي : أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الحسان الوجوه ، ذوو وضاءة وجمال بارع .

"بِالْبُشْرَى" قيل : بالولد .

وقيل : بإهلاك قوم لوط .

وقيل : بشروه بأنهم رسل الله عزّ وجلّ ، وأنه لا خوف عليه .

﴿ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ نصب بوقوع الفعل عليه ؛ كما تقول : قالوا خيراً .

وهذا اختيار الطبريّ .

وأما قوله : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ ﴾ [الكهف : 22] فالثلاثة اسم غير (قول) مقول .

ولو رفعا جميعاً أو نصبا جميعاً ﴿ قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ ﴾ جاز في العربية .

وقيل : انتصب على المصدر .

وقيل : "قالوا سلاماً" أي فاتحوه بصواب من القول .

كما قال : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] أي صواباً ؛

فسلاماً معنى قولهم لا لفظه ؛ قال معناه ابن العربيّ واختاره .

قال : ألا ترى أن الله تعالى لما أراد ذكر اللفظ قاله بعينه فقال مخبراً عن الملائكة : ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [الرعد : 24] ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ [الزمر : 73] .

وقيل : دَعَوا له ؛ والمعنى سَلِمت سَلاماً .

﴿ قَالَ سَلاَمٌ ﴾ في رفعه وجهان : أحدهما : على إضمار مبتدأ أي هو سلام ، وأمري سلام .

والآخر بمعنى سلام عليكم إذا جعل بمعنى التحية ؛ فأضمر الخبر .

وجاز سلام على التنكير لكثرة استعماله ، فحذف الألف واللام كما حذفت من لاهمّ في قولك اللهم .

وقرىء "سِلْمٌ" قال الفرّاء : السّلم والسّلام بمعنى ؛ مثل الحِلّ والحلال .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ فيه أربع عشرة مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ ﴾ "أن" بمعنى حتى ، قاله كبراء النحويين ؛ حكاه ابن العربيّ .

التقدير : فما لبث حتى جاء .

وقيل : "أن" في موضع نصب بسقوط حرف الجر ؛ التقدير : فما لبث عن أن جاء ؛ أي ما أبطأ عن مجيئه بعجل ؛ فلما حذف حرف الجر بقي "أن" في محل النصب .

وفي "لبث" ضمير اسم إبراهيم .

و"ما" نافية ؛ قاله سيبويه .

وقال الفراء : فما لبث مجيئه ؛ أي ما أبطأ مجيئه ؛ فأن في موضع رفع ، ولا ضمير في "لبث" ، و"ما" نافية ؛ ويصح أن تكون "ما" بمعنى الذي ، وفي "لبث" ضمير إبراهيم و"أن جاء" خبر "ما" أي فالذي لبث إبراهيم هو مجيئه بعجل حنيذ .

و﴿ حَنِيذٍ ﴾ مشويّ .

وقيل: هو المشوي بحر الحجارة من غير أن تمسه النار.

يقال حنذت الشاة أحنِذها حنذاً أي شويتها، وجعلت فوقها حجارة مُحْمَاة لتنضجها فهي حنيذ.

وحَنَذْت الفرس أحنِذه حَنْذاً، وهو أن تحُضِره شوطا أو شوطين ثم تُظاهِر عليه الجِلال في الشمس ليعرَق، فهو محنوذ وحنِيذ؛ فإن لم يعرق قيل: كَبَا.

وحَنَذٌ موضع قريب من المدينة.

وقيل: الحَنِيذ السَّمِيط.

ابن عباس وغيره: حنيذ نضِيج.

وحنِيذٍ بمعنى محنوذ؛ وإنما جاء بعجل لأن البقر كانت أكثر أمواله.

الثانية: في هذه الآية من أدب الضّيف أن يُعجّل قِراه، فيقدّم الموجود الميسّر في الحال، ثم يتبعه بغيره إن كان له جِدَة، ولا يتكلف ما يضرّ به.

والضيافة من مكارم الأخلاق، ومن آداب الإسلام، ومن خلق النبيين والصالحين.

وإبراهيم أوّل من أضاف على ما تقدّم في "البقرة" وليست بواجبة عند عامة أهل العلم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " الضّيافة ثلاثة أيامٍ وجائِزته يوم وليلة فما كان وراء ذلك فهو صدقة " والجائزة العطية والصلة التي أصلها على النّدب .

وقال صلى الله عليه وسلم : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه " .

وإكرام الجار ليس بواجب إجماعاً ، فالضيافة مثله .

والله أعلم .

وذهب الليث إلى وجوبها تمسكاً بقوله صلى الله عليه وسلم : "ليلة الضّيف حقّ " إلى غير ذلك من الأحاديث .

وفيما أشرنا إليه كفاية ، والله الموفق للهداية .

قال ابن العربيّ : وقد قال قوم : إن وجوب الضِّيافة كان في صدر الإسلام ثم نسخ ، وهذا ضعيف ؛ فإن الوجوب لم يثبت ، والناسخ لم يرِد ؛ وذكر حديث أبي سعيد الخدريّ خرجه الأئمة ، وفيه : " فاستضفناهم فأبوا أن يُضيّفونا فلُدِغ سيّد ذلك الحيّ " الحديثَ .

وقال : هذا ظاهر في أن الضيافة لو كانت حقاً لَلاَمَ النبيّ صلى الله عليه وسلم القوم الذين أَبَوا ، ولَبيّن لهم ذلك .

الثالثة : اختلف العلماء فيمن يخاطب بها ؛ فذهب الشافعي ومحمد بن عبد الحكم إلى أن

المخاطب بها أهل الحضر والبادية .

وقال مالك : ليس على أهل الحضر ضيافة .

قال سُحْنون : إنما الضّيافة على أهل القُرى ، وأما الحضر فالفُنْدق ينزل فيه المسافر (حكى اللغتين صاحب العين وغيره) .

واحتجوا بحديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الضّيافة على أهل الوبَر وليست على أهل المَدَر " .

وهذا حديث لا يصح ، وإبراهيم ابن أخي عبد الرزاق متروك الحديث منسوب إلى الكذب ، وهذا مما انفرد به ، ونسب إلى وضعه ؛ قاله أبو عمر بن عبد البر .

(45/382)

قال ابن العربيّ : الضيافة حقيقة فرض على الكفاية ، ومن الناس من قال : إنها واجبة في القرى حيث لا طعام ولا مأوى ، بخلاف الحواضر فإنها مشحونة بالمأْوَاة والأقوات ؛ ولا شك أن الضّيف كريم ، والضيافة كرامة ؛ فإن كان غريباً فهي فريضة .

الرابعة : قال ابن العربيّ قال بعض علمائنا : كانت ضيافة إبراهيم قليلة فشكرها الحبيب من الحبيب ، وهذا حكم بالظن في موضع القطع ، وبالقياس في موضع النقل ؛ من أين عِلم أنه

قليل ؟! بل قد نقل المفسرون أن الملائكة كانوا ثلاثة ؛ جبريل وميكائيل وإسرافيل صلى الله عليهم وسلم ؛ وعجل لثلاثة عظيم ؛ فما هذا التفسير لكتاب الله بالرأي ؟! هذا بأمانةِ الله هو التفسير المذموم فاجتنبوه فقد علمتموه .

الخامسة : السنة إذا قُدِّم للضّيف الطعام أن يبادر المقدّمِ إليه بالأكل ؛ فإن كرامة الضّيف تعجيل التقديم ، وكرامة صاحب المنزل المبادرة بالقبول ؛ فلما قبضوا أيديهم نكرهم إبراهيم ؛ لأنهم خرجوا عن العادة ، وخالفوا السنة ، وخاف أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه .

وروي أنهم كانوا يَنكُتُون بِقداح كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل أيديهم إلى اللحم ، فلما رأى ذلك منهم .

﴿ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أي أضمر .

وقيل : أحس ؛ والوجوس الدخول ؛ قال الشاعر :

جاء البريدُ بقرطاسٍ يَخُبُّ بِهِ . . .

فأوجسَ القلبُ من قرطاسه جزعَا

"خِيفَةً" خوفاً ؛ أي فزعاً .

وكانوا إذا رأوا الضيف لا يأكل ظنوا به شراً ؛ فقالت الملائكة ﴿ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ .

السادسة: من أدب الطعام أن لصاحب الضّيف أن ينظر في ضيفه هل يأكل أم لا؟ وذلك ينبغي أن يكون بتلفت ومسارقة لا بتحديد النظر.

روي أن أعرابيا أكل مع سليمان بن عبد الملك، فرأى سليمان في لقمة الأعرابيّ شعرة فقال له: أزل الشعرة عن لقمتك؛ فقال له: أتنظر إليّ نظر من يرى الشّعرة في لقمتي! والله لا أكلت معك.

(46/382)

قلت: وقد ذُكر أن هذه الحكاية إنما كانت مع هشام بن عبد الملك لا مع سليمان، وأن الأعرابي خرج من عنده وهو يقول:

وللموتُ خيرٌ من (زيارة) باخل . . .

يُلاحظُ أُطرافَ الأَكيل على عَمْدِ

السابعة: قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ يقول: أنكرهم، تقول: نَكِرتك (وأنكرتك) واستنكرتك إذا وجدته على غير ما عهدته؛ قال الشاعر:

وأَنكرتِني وما كان الذي نَكِرتْ . . .

من الحوادِث إلا الشّيبَ والصّلَعَا

فجمع بين اللغتين.

ويقال: نكِرت لما تراه بعينك.

وأنكرت لما تراه بقلبك.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿ وامرأته قَآئِمَةٌ ﴾ ابتداء وخبر، أي قائمة بحيث ترى الملائكة.

قيل: كانت من وراء الستر.

وقيل: كانت تخدم الملائكة وهو جالس.

وقال محمد بن إسحق: قائمة تصلي.

وفي قراءة عبد الله بن مسعود "وامرأته قائِمة وهو قاعِد".

التاسعة: قوله تعالى: ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ قال مجاهد وعِكرمة: حاضت، وكانت آيسة؛

تحقيقاً للبشارة؛ وأنشد على ذلك اللغويون:

وإني لآتي العِرسَ عند طُهورها . . .

وأهجرُها يوماً إذا تَكُ ضاحِكَا

وقال آخر:

وضِحْكُ الأرانب فوق الصَّفَا . . .

كمثْلِ دمِ الجوفِ يوم اللّقا

والعرب تقول: ضحكت الأرنب إذا حاضت؛ وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما

وعِكرمة؛ أخذاً من قولهم: ضحكت الكافورة وهي قشرة الطلعة إذا انشقّت.

وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحِكت بمعنى حاضت.

وقال الجمهور: هو الضحك المعروف، واختلفوا فيه؛ فقيل: هو ضحك التعجّب؛ قال أبو ذؤيب:

فجاءَ بمزجٍ لم يرَ الناسُ مثله . . .

هو الضَّحْكُ إلا أنه عمل النَّحْلِ

وقال مقاتل: ضحكت من خوف إبراهيم، ورِعدته من ثلاثة نفر، وإبراهيم في حشمه وخدمه؛ وكان إبراهيم يقوّم وحده بمائة رجل.

قال: وليس الضحك الحيض في اللغة بمستقيم.

(47/382)

وأنكر أبو عبيد والفراء ذلك؛ قال الفراء: لم أسمعه من ثقة؛ وإنما هو كناية.

وروي أن الملائكة مسحت العجل، فقام من موضعه فلحق بأمه، فضحكت سارة عند ذلك فبشّروها بإسحق.

ويقال: كان إبراهيم عليه السلام إذا أراد أن يكرم أضيافه أقام سارة تخدمهم، فذلك قوله:

﴿ وامرأته قَآئِمَةٌ ﴾ أي قائمة في خدمتهم .

ويقال : "قَائِمَةٌ" لروع إبراهيم "فَضَحِكَتْ" لقولهم : "لاَ تَخَفْ" سروراً بالأمن .

وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير ؛ المعنى : فبشرناها بإسحق فضحكت ، أي ضحكت سروراً بالولد ، وقد هرِمت ؛ والله أعلم أيّ ذلك كان .

قال النحاس فيه أقوال : أحسنها أنهم لما لم يأكلوا أنكرهم وخافهم ؛ فلما قالوا لا تخف ، وأخبروه أنهم رُسُل (الله) ، فرح بذلك ، فضحكت امرأته سروراً بفرحه .

وقيل : إنها كانت قالت له : أحسب أن هؤلاء القوم سينزل بهم عذاب فضم لوطاً إليك ، فلما جاءت الرسل بما قالته سرّت به فضحكت ؛ قال النحاس : وهذا إن صح إسناده فهو حسن .

والضحك انكشاف الأسنان .

ويجوز أن يكون الضحك إشراق الوجه ؛ تقول : رأيت فلاناً ضاحكاً ؛ أي مشرقاً .

وأتيت على رَوْضة تضحك ؛ أي مشرقة .

وفي الحديث : " إن الله سبحانه يبعث السّحاب فيضحك أحسن الضَّحِك " .

جعل انجلاءه عن البرق ضَحِكا ؛ وهذا كلام مستعار .

وروي عن رجل من قرّاء مكة يقال له محمد بن زياد الأعرابي .

"فَضَحَكت" بفتح الحاء ؛ قال المهدوي : وفتح "الحاء" من "فضحكت" غير معروف .

وضَحِك يضحَك ضَحْكا ً وضِحكا ً وضِحِكا ً (وضَحِكا) أربع لغات .

والضَّحْكة المرّة الواحدة ، ومنه قول كُثيّر :

غَلِقت لضَحكتِه رقابُ المال . . .

قاله الجوهري .

العاشرة : روى مسلم عن سهل بن سعد قال : دعا أبو أُسَيْدٍ الساعديّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في عُرْسه ، فكانت امرأته يومئذ خادمهم وهي العَروس .

(48/382)

قال سهل : أتدرون ما سقت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أنقعت له تمراتٍ من الليل في تَوْر ، فلما أكل سقته إياه .

وأخرجه البخاري وترجم له "باب قيام المرأة على الرجال في العُرْس وخدمتهم بالنفس" .

قال علماؤنا : فيه جواز خدمة العَروس زوجها وأصحابه في عُرْسها .

وفيه أنه لا بأس أن يعرض الرجل أهله على صالح إخوانه ، ويستخدمهنّ لهم .

ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول الحجاب .

والله أعلم .

الحادية عشرة : ذكر الطبريّ أن إبراهيم عليه السلام لما قدّم العجل قالوا : لا نأكل طعاماً إلا بثمن ؛ فقال لهم : "ثمنه أن تذكروا الله في أوّله وتحمدوه في آخره" فقال جبريل لأصحابه : بحق اتخذ الله هذا خليلاً.

قال علماؤنا : ولم يأكلوا لأن الملائكة لا تأكل.

وقد كان من الجائز كما يَسَّرَ الله للملائكة أن يتشكّلوا في صفة الآدمي جسداً وهيئة أن ييسر لهم أكل الطعام ؛ إلا أنه في قول العلماء أرسلهم في صفة الآدمي وتكلّف إبراهيم عليه السلام الضّيافة حتى إذا رأى التوقف وخاف جاءته البشرى فجأة.

الثانية عشرة : ودلّ هذا على أن التسمية في أوّل الطعام، والحمد في آخره مشروع في الأمم قبلنا ؛ وقد جاء في الإسرائيليات أن إبراهيم عليه السلام كان لا يأكل وحده ؛ فإذا حضر طعامه أرسل يطلب من يأكل معه، فلقي يوماً رجلاً، فلما جلس معه على الطعام، قال له إبراهيم : سمّ الله، قال الرجل لا أدري ما الله؟ فقال له : فاخرج عن طعامي، فلما خرج نزل إليه جبريل فقال له : يقول الله إنه يرزقه على كفره مدى عمره وأنت بخلت عليه بلقمة ؛ فخرج إبراهيم فزعاً يجرّ رداءه، وقال : ارجع، فقال : لا أرجع حتى تخبرني لم تردّني لغير معنى؟ فأخبره بالأمر ؛ فقال : هذا رب كريم، آمنت ؛ ودخل وسمّى الله وأكل مؤمناً.

الثالثة عشرة : قوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾ لما ولد لإبراهيم إسماعيل من هاجر تمنّت سارة أن يكون لها ابن ، وأَيِست لكبر سنّها ، فبشرت بولد يكون نبياً ويلد نبياً ، فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها .

الرابعة عشرة : قوله تعالى : ﴿ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ قرأ حمزة وعبد الله بن عامر "يعقوبَ" بالنصب .

ورفع الباقون ؛ فالرفع على معنى : ويحدث لها من وراء إسحاق يعقوبُ .

ويجوز أن يرتفع بالفعل الذي يعمل في "من" كأن المعنى : وثبت لها من وراء إسحق يعقوبُ .

ويجوز أن يرتفع بالابتداء ، ويكون في موضع الحال ؛ أي بشّروها بإسحاق مقابلاً له يعقوب .

والنصب على معنى : ووهبنا لها من وراء إسحاق يعقوبُ .

وأجاز الكسائيّ والأخفش وأبو حاتم أن يكون "يعقوب" في موضع جرّ على معنى : وبشرناها من وراء إسحاق بيعقوب .

قال الفراء : ولا يجوز الخفض إلا بإعادة الحرف الخافض ؛ قال سيبويه ولو قلت : مررت بزيد أوّل من أمس وأمس عمروٍ كان قبيحاً (خبيثاً) ؛ لأنك فرقت بين المجرور وما يشركه وهو الواو ، كما تفرق بين الجار والمجرور ؛ لأن الجار لا يفصل بينه وبين المجرور ، ولا بينه وبين الواو .

﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72)

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ ياويلتى ﴾

قال الزجاج : أصلها يا ويلتي ؛ فأبدل من الياء ألفاً ، لأنها أخفّ من الياء والكسرة ؛ ولم ترد الدعاء على نفسها بالويل ، ولكنها كلمة تخفّ على أفواه النساء إذا طرأ عليهنّ ما يعجبن منه ؛ وعجبت من ولادتها (ومن) كون بعلها شيخاً لخروجه عن العادة ، وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر .

و﴿ أَأَلِدُ ﴾ استفهام معناه التعجب .

﴿ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾ أي شيخة .

ولقد عَجَزت تَعْجِزُ عَجْزاً وعَجَّزت تعجيزاً ؛ أي طعنت في السنّ .

وقد يقال : عجوزة أيضاً .

وعجزت المرأة بكسر الجيم ؛ عظمت عجيزتها عُجْزاً وعَجَزاً بضم العين وفتحها .

قال مجاهد : كانت بنت تسع وتسعين سنة .

وقال ابن إسحاق : كانت بنت تسعين (سنة) .

وقيل غير هذا .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وهذا بَعْلِي ﴾ أي زوجي .

﴿ شَيْخاً ﴾ نصب على الحال ، والعامل فيه التنبيه أو الإشارة .

"وَهَذَا بَعْلِي" ابتداء وخبر .

وقال الأخفش : وفي قراءة ابن مسعود وأُبيّ "وهذا بعلي شيخ" قال النحاس : كما تقول هذا زيد قائم ؛ فزيد بدل من هذا ؛ وقائم خبر الابتداء .

ويجوز أن يكون "هذا" مبتدأ "وزيد قائم" خبرين ؛ وحكى سيبويه : هذا حلوٌ حامضٌ .

وقيل : كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة .

وقيل : ابن مائة فكان يزيد عليها في قول مجاهد سنة .

وقيل : إنها عرضت بقولها : "وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً" أي عن ترك غِشْيانه لها .

وسارّة هذه امرأة إبراهيم بنت هاران بن ناحور بن شاروع بن أرغو بن فالغ ، وهي بنت عم إبراهيم .

﴿ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أي الذي بشرتموني به لشيء عجيب .

﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ قالوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ لما قالت : "وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً" وتعجبت ، أنكرت الملائكة عليها تعجّبها من أمر الله ، أي من قضائه وقدره ، أي لا عجب من أن يرزقكما الله الولد ، وهو إسحاق .

وبهذه الآية استدل كثير من العلماء على أن الذَّبيح إسماعيل ، وأنه أسنّ من إسحاق ؛ لأنها بشّرت بأن إسحاق يعيش حتى يولد له يعقوب .

وسيأتي الكلام في هذا ؛ وبيانه في "الصافات" إن شاء الله تعالى .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ رَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ ﴾ مبتدأ ، والخبر ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ .

وحكى سيبويه "عليكِم" بكسر الكاف لمجاورتها الياء .

(51/382)

وهل هو خبر أو دعاء ؟ وكونه إخباراً أشرف ؛ لأن ذلك يقتضي حصول الرحمة والبركة لهم ، المعنى : أوصل الله لكم رحمته وبركاته أهل البيت .

وكونه دعاء إنما يقتضي أنه أمر يُترجّى ولم يتحصّل بعد .

ونصب ﴿ أَهْلَ البيت ﴾ على الاختصاص ؛ وهذا مذهب سيبويه .

وقيل : على النداء .

الثالثة : هذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل البيت ؛ فدلّ هذا على أن أزواج الأنبياء من أهل البيت ؛ فعائشة رضي الله عنها وغيرها من جملة أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ممن قال الله فيهم : ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ وسيأتي .

الرابعة : ودلّت الآية أيضاً على أنّ منتهى السلام "وَبَرَكَاتُهُ" كما أخبر الله عن صالحي عباده "رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ" .

والبركة النموّ والزيادة ؛ ومن تلك البركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا في ولد إبراهيم وسارّة .

وروى مالك عن وهب بن كَيْسَان أبي نعيم عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : كنت جالساً عند عبد الله بن عباس فدخل عليه رجل من أهل اليمن فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ؛ ثم زاد شيئاً مع ذلك ؛ فقال ابن عباس وهو يومئذ قد ذهب بصره مَن هذا ؟ فقالوا اليمانيّ الذي يغشاك ، فعرّفوه إياه ، فقال : إن السلام انتهى إلى البركة .

ورُوي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال : دخلت المسجد فإذا أنا بالنبي صلى الله عليه وسلم في عصبة من أصحابه ، فقلت : السلام عليكم ؛ فقال : " وعليك السلام ورحمة الله عشرون لي وعشرة لك " قال : ودخلت الثانية ؛ فقلت : السلام عليكم ورحمة الله فقال : " وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لي وعشرون لك " فدخلت الثالثة فقلت :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته : فقال : " وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لي وثلاثون لك أنا وأنت في السلام سواء" " ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ أي محمود ماجد . وقد بيناهما في "الأسماء الحسنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(52/382)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ﴾

(53/382)

أراد بالرسل الملائكة واختلفوا في عددهم ، فقال ابن عباس وعطاء : كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل ، وقال الضحاك : كانوا تسعة وقال مقاتل كانوا اثني عشر ملكاً ، وقال محمد بن كعب القرظي : كان جبريل ومعه سبعة أملاك وقال السدي : كانوا أحد عشر ملكاً على صور الغلمان الحسان الوجوه وقول ابن عباس : هو الأولى لأن أقل الجمع ثلاثة وقوله رسلنا جميع فيحمل على الأقل وما بعده غير مقطوع به بالبشرى يعني بالبشارة

بإسحاق ويعقوب وقيل : بإهلاك قوم لوط ﴿ قالوا سلاماً ﴾ يعني أن الملائكة سلموا سلاماً ﴿ قال ﴾ يعني لهم إبراهيم ﴿ سلام ﴾ أي عليكم أو أمركم سلام ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ يعني : مشوياً والمحنوذ هو المشوي على الحجارة المحماة في حفرة من الأرض وهو من فعل أهل البادية وكان سميناً يسيل منه الودك قال قتادة : كان عامة مال إبراهيم عليه السلام البقر ، وقيل : مكث إبراهيم عليه السلام خمس عشرة ليلة لم يأته ضيف فاغتم لذلك وكان يحب الضيف ولا يأكل إلا معه فلما جاءت الملائكة رأى أضيافاً لم ير مثلهم قط فعجل قراهم وجاءهم بعجل سمين مشوي ﴿ فلما رأى أيديهم ﴾ يعني أيدي الأضياف ﴿ لا تصل إليه ﴾ يعني إلى العجل المشوي ﴿ نكرهم ﴾ يعني أنكرهم وأنكر حالهم وإنما أنكر حالهم لامتناعهم من الطعام ﴿ وأوجس منهم خيفة ﴾ يعني ووقع في قلبه خوف منهم والوجوس هو رعب القلب وإنما خاف إبراهيم (صلى الله عليه وسلم) منهم لأنه كان ينزل ناحية من الناس فخاف أن ينزلوا به مكروهاً لامتناعهم من طعامه ولم يعرف أنهم ملائكة وقيل إن إبراهيم عرف أنهم ملائكة لما قدمه إليهم لعلمه أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولأنه خافهم ولو عرف أنهم ملائكة وإنما خاف أن يكونوا نزلوا بعذاب قومه فخاف من ذلك والأقرب أن إبراهيم عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة في أول الأمر ويدل على صحة هذا أنه عليه السلام قدم إليهم الطعام ولو عرف أنهم ملائكة لما خافهم فلما رأت

الملائكة خوف إبراهيم عليه السلام ﴿ قالوا لا تخف ﴾ يا إبراهيم ﴿ إنا ﴾ ملائكة الله ﴿ أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته ﴾ يعني سارة زوجة إبراهيم وهي ابنة هاران بن ناحوراء وهي ابنة عم إبراهيم ﴿ قائمة ﴾ يعني من وراء الستر تسمع كلامهم ، وقيل : كانت قائمة في خدمة الرسل وإبراهيم جالس معهم ﴿ فضحكت ﴾ أصل الضحك انبساط الوجه من سرور يحصل للنفس ولظهور الأسنان عنده سميت مقدمات الأسنان الضواحك ويستعمل في السرور المجرد وفي التعجب المجرد أيضاً وللعلماء في تفسير هذا الضحك قولان أحدهما أنه الضحك المعروف وعليه أكثر المفسرين ثم اختلفوا في سبب هذا الضحك فقال السدي لما قرب إبراهيم الطعام إلى أضيافه فلم يأكلوا خاف إبراهيم منهم ثم اختلفوا في سبب هذا الضحك فقال السدي لما قرب إبراهيم الطعام إلى أضيافه فلم يأكلوا خاف أبراهيم فقال ألا تأكلون فقالوا إنا لا نأكل طعاماً إلا بثمن قال فإن له ثمناً قالوا وما ثمنه قال تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل وقال حق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً فلما رأى إبراهيم وسارة أيديهم لا تصل إليه ضحكت سارة وقال يا عجباً لأضيافنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لا يأكلون طعامنا ، وقال قتادة :

ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم ، وقال مقاتل والكلبي : ضحكت من خوف إبراهيم من ثلاثة وهو فيما بين خدمه وحشمه وخواصه وقيل : ضحكت من زوال الخوف عنها وعن إبراهيم وذلك أنها خافت لخوفه فحين قالوا لا تخف ضحكت سروراً وقيل ضحكت سروراً بالبشارة ، وقال ابن عباس ووهب : ضحكت تعجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها فعلى هذا القول يكون في الآية تقديم وتأخير تقديره فبشّرناها بإسحاق فضحكت يعني تعجباً من ذلك وقيل إنها قالت لإبراهيم أضمم إليك ابن أخيك لوطاً فإن العذاب نازل بقومه فلما جاءت الرسل وبشّرت بعذابهم سُرّت سارة بذلك وضحكت لموافقة ما ظنت .

(55/382)

القول الثاني : في معنى قوله فضحكت قال عكرمة ومجاهد أي حاضت في الوقت وأنكر بعض أهل اللغة ذلك ، قال الراغب : وقول من قال حاضت ليس ذلك تفسيراً لقوله فضحكت كما تصوره بعض المفسرين فقال ضحكت بمعنى حاضت وإنما ذكر ذلك تنصيصاً لحالها فإن جعل ذلك أمارة لما بشرت به بحيضها في الوقت لتعلم أن حملها ليس بمنكر لأن المرأة ما دامت تحيض فإنها تحمل وقال الفراء : ضحكت بمعنى حاضت لم

نسمعه من ثقة ، وقال الزجاج : ليس بشيء ضحكت بمعنى حاضت ، وقال ابن الأنباري : قد أنكر الفراء وأبو عبيدة أن يكون ضحكت بمعنى حاضت وقد عرفه غيرهم وأنشد :

تضحك الضبع لقتلى هذيل . . .

وترى الذئب بها يستهل

قال : أراد أنها تحيض فرحاً وقال الليث في هذه الآية فضحكت أي طمثت وحكى الأزهري عن بعضهم في قوله فضحكت أي حاضت قال : ويقال أصله من ضحاك الطلعة إذا انشقت ، قال : وقال الأخطل فيه بمعنى الحيض :

تضحك الضبع من دماء سليم . . .

إذ رأتها على الحراب تمور

وقال في المحكم : ضحكت المرأة حاضت وبه فسر بعضهم قوله سبحانه وتعالى فضحكت فبشرناها بإسحاق وضحكت الأرنب ضحكاً يعني حاضت حيضاً قال :

وضحك الأرنب فوق الصفا . . .

كمثل دم الخوف يوم اللقا

يعني الحيض فيما زعم بعضهم وأجاب عن هذا من أنكر أن يكون الضحك بمعنى الحيض ، قال : كان ابن دريد يقول من شاهد الضبع كند كشرها علم أنها تحيض وإنما أراد الشاعر

تكشر لأكل اللحوم وهذا سهو منه لأنه جعل كشرها حيضاً ، وقيل : معناه أنها تستبشر بالقتلى فتهز بعضها على بعض فجعل هزيزها ضحكاً ، وقيل : لأنها تسر بهم فجعل سرورها ضحكاً .

(56/382)

فإن قلت أي القولين أصح في معنى الضحك قلت إن الله حكى عنها أنها ضحكت وكلا القولين محتمل في معنى الضحك فالله أعلم أي ذلك كان وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ يعني : ومن بعد إسحاق يعقوب وهو ولد الولد فبشرت سارة بأنها تعيش حتى ترى ولد ولدها فلما بشرت بالولد صكت وجهها أي ضربت وجهها وهو من صنيع النساء وعادتهن وإنما فعلت ذلك تعجباً .

﴿ قالت يا ويلتى ﴾

نداء ندبة وأصلها يا ويلتاه وهي كلمة يستعملها الإنسان عند رؤية ما يتعجب منه مثل ما عجباه ﴿ أألد وأنا عجوز ﴾ وكانت بنت تسعين سنة في قول ابن إسحاق ، وقال مجاهد : كانت بنت تسع وتسعين سنة ﴿ وهذا بعلي ﴾ يعني زوجي والبعل هو المستعلي على غيره ولما كان زوج المرأة مستعلياً عليها قائماً بأمرها سمي بعلاً لذلك ﴿ شيخاً ﴾ وكان

سن إبراهيم يومئذ مائة وعشرين سنة في قول محمد بن إسحاق وقال مجاهد مائة سنة وكان بين الولادة والبشارة سنة ﴿ إن هذا لشيء عجيب ﴾ لم تنكر قدرة الله سبحانه وتعالى وإنما تعجبت من كون الشيخ الكبير والعجوز الكبير يولد لهما ﴿ قالوا ﴾ يعني قالت الملائكة لسارة ﴿ أتعجبين من أمر الله ﴾ معناه لا تعجبي من ذلك فإن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء فإذا أراد شيئاً كان سريعاً ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ يعني : بيت إبراهيم عليه السلام وهذا على معنى الدعاء من الملائكة لهم بالخير والبركة فيه دليل على أن أزواج الرجل من أهل بيته ﴿ إنه حميد ﴾ يعني : هو المحمود الذي يحمد على أفعاله كلها وهو المستحق لأن يحمد في السراء والضراء والشدة والرخاء فهو محمود على كل حال ﴿ مجيد ﴾ ومعناه المنيع الذي لا يرام ، وقال الخطابي : المجيد الواسع الكرم ، وأصل المجد في كلامهم : السعة يقال رجل ماجد إذا كان سخياً كريماً واسع العطاء وقيل الماجد هو ذو الشرف والكرم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(57/382)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا ﴾

حنذت الشاة أحنذها حنذا شويتها ، وجعلت فوقها حجارة لتنضجها فهي حنيذ ،

وحنذت الفرس أحضرته شوطاً أو شوطين ثم ظاهرت عليه الجلال في الشمس ليعرق .

أوجس الرجل قال الأخفش : خامر قلبه ، وقال الفراء : استشعر ، وقيل : أحس .

والوجيس ما يعتري النفس عند أوائل الفزع ، ووجس في نفسه كذا خطر بها يجس وجسا

ووجوساً وتوجس تسمع وتحسس .

قال :

وصادقتا سمع التوجس للسرى . . .

لهجس خفي أو لصوت مندد

الضحك معروف ، وكان ينبغي أن يذكر في سورة التوبة في قوله : ﴿ فليضحكوا قليلاً ﴾

ويقال : ضحك بفتح الحاء ، والضحكة الكثير الضحك ، والضحكة المضحوك منه ،

ويقال : ضحكت الأرنب أي حاضت ، وأنكر أبو عبيدة والفراء وأبو عبيد : ضحك

بمعنى حاض ، وعرف ذلك غيرهم .

وقال الشاعر أنشده اللغويون :

وضحك الأرانب فوق الصفا . . .

كمثل دم الجوف يوم اللقا

وقال الآخر :

وعهدي بسلمى ضاحكاً في لبانة . . .

ولم يعد حقاً ثديها أن يحلما

أي حائضاً في لبانة ، واللبانة والعلاقة والشوذر واحد .

ومنه ضحكت الكافورة إذا انشقت ، وضحكت الشجرة سال منها صمغها وهو شبه الدم ، وضحك الحوض امتلأ وفاض .

الشيح : معروف ، والفعل شاخ يشيخ ، وقد يقال للأنثى : شيخة .

قال :

وتضحك مني شيخة عبشمية . . .

ويجمع على أشياخ وشيوخ وشيخان ، ومن أسماء الجموع مشيخة ومشيوخاء .

المجيد قال ابن الأعرابي : الرفيع .

يقال : مجد يمجد مجداً ومجادة ومجد ، لغتان أي كرم وشرف ، وأصله من قولهم : مجدت الإبل تمجد مجداً شبعت .

وقال : أمجدت الدابة أكثرت علفها ، وقال أبو حية النميري :

تزيد على صواحبها وليست . . .

بماجدة الطعام ولا الشراب

أي : ليست بكثيرة الطعام ولا الشراب .

وقال الليث : أمجد فلان عطاء ومجده إذا كثره ، ومن أمثالهم "في كل شجر نار" واستمجد المرخ والعفار أي استكثر من النار .

(58/382)

وقال ابن عطية : مجد الشيء إذا حسنت أوصافه .

الروع : الفزع قال الشاعر :

إذا أخذتها هزة الروع أمسكت . . .

بمنكب مقدام على الهول أروعا

﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنّا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قالت يويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴿ إنه حميد مجيد ﴾ : تقدم أن ترتيب قصص هذه السورة كترتيب قصص الأعراف ، وإنما أدرج شيئاً من أخبار إبراهيم عليه السلام بين قصة صالح ولوط ، لأنّ له مدخلاً في قصة لوط ، وكان ابراهيم بن خالة لوط .

والرسل هنا الملائكة ، بشرت إبراهيم بثلاث بشائر : بالولد ، وبالخلة ، وبإنجاء لوط ومن آمن معه .

قيل : كانوا اثنى عشر ملكاً ، روى ذلك عن ابن عباس .

وقال السدي : أحد عشر ، وحكى صاحب الغنيان عشرة منهم جبريل .

وقال الضحاك : تسعة ، وقال محمد بن كعب : ثمانية ، وحكى الماوردي : أربعة ، وقال ابن عباس وابن جبير : ثلاثة جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل .

وقال مقاتل : جبريل ، وميكائيل ، وملك الموت .

وروي : أن جبريل عليه السلام كان مختصاً بإهلاك قوم لوط ، وميكائيل ببشرى إبراهيم بإسحاق عليهما السلام ، وإسرافيل بإنجاء لوط ومن آمن معه .

قيل : وكانت الملائكة جرداً مرداً على غاية من الحسن والجمال والبهجة ، ولهذا يضرب بهم المثل في الحسن كما قال تعالى حكاية عما قيل في يوسف : ﴿ ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾ وقال الغزي :

قوم إذا قوبلوا كانوا ملائكة . . .

حسناً وإن قوتلوا كانوا عفاريتا

وانتصب سلاماً على إضمار الفعل أي : سلمنا عليك سلاماً ، فسلاماً قطعه معمولاً للفعل المضمر المحكى بقالوا ، قال ابن عطية : ويصح أن يكون سلاماً حكاية لمعنى ما قالوا ، لا حكاية للفظهم ، قاله : مجاهد ، والسدي .

ولذلك عمل فيه القول ، كما تقول لرجل قال : لا إله إلا الله قلت : حقاً وإخلاصاً ، ولو حكيت لفظهم لم يصح أن يعمل فيه القول انتهى .

ويعني لم يصح أن يعمل في لفظهم القول ، يعني في اللفظ ، وإن كان ما لفظوا به في موضع المفعول للقول .

وسلام خبر مبتدأ محذوف أي : أمري أو أمركم سلام ، أو مبتدأ محذوف الخبر أي : عليكم سلام ، والجملة محمية وإن كان حذف منها أحد جزءيها كما قال :

إذا ذقت فاها قلت طعم مدامة . . .

أي طعمه طعم مدامة .

وقرأ الإخوان قال : سلم ، والسلم السلام كحرم وحرام ، ومنه قول الشاعر :

مررنا فقلنا ايه سلم فسلمت . . .

كما اكتل بالبرق الغمام اللوائح

اكتل اتخذ إكليلاً .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يريد بالسلم ضد الحرب تقول : نحن سلم لكم انتهى .

ونصب سلاماً يدل على التجدد ، ورفع سلام يدل على الثبوت والاستقرار ، والأقرب في إعراب فما لبث أن تكون ما نافية ، ولبث معناه تأخر وأبطأ ، وأن جاء فاعل بلبث التقدير فما تأخر مجيئه قاله : الفراء .

وجوزوا أن يكون في لبث ضمير إبراهيم فهو فاعل ، وأن جاء على إسقاط الحرف فقدر بأن وبعن ، وبفي ، وجعل بعضهم أن بمعنى حتى حكاه ابن العربي .

وأن تكون ما مصدرية ، وذلك المصدر في موضع رفع بالابتداء ، وأن تكون بمعنى الذي أي : فلبثه ، أو الذي لبثه ، أو الذي لبثه ، والخبر أن جاء على حذف أي : قدر مجيئه ، وهذا من أدب الضيافة ، وهو تعجيل القرى .

وكان مال إبراهيم البقر ، فقدم أحسن ما فيه وهو العجل .

قال مجاهد : حنيذ مطبوخ ، وقال الحسن : نضيج مشوي سمين يقطر ودكا .

وقال السدي : سمين ، وقيل : سميط لا يصل إليه ، أي إلى العجل .

والمعنى : لا يمدون أيديهم إلى أكله ، فلم ينف الوصول الناشىء عن المد بل جعل عدم الوصول استعارة عن امتناعهم من الأكل .

نكرهم أي أنكرهم قال الشاعر :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت . . .

من الحوادث إلا الشيب والصلعا

وقيل : نكر فيما يرى ، وأنكر فيما لا يرى من المعاني ، فكأنّ الشاعر قال : وأنكرت مودتي ثم جاءت بنكر الشيب والصلع مما يرى بالبصر .

ومنه قول أبي ذؤيب :

فنكرنه فنفرن وامترست به . . .

هوجاء هادية وهاد جرشع

وروي أنهم كانوا ينكثون بقداح كانت بأيديهم في اللحم ولا تصل أيديهم إليه ، وينبغي أن ينظر من الضيف هل يأكل أو لا ويكون بتلفت ومسارعة ، لا بتحديد النظر ، لأن ذلك مما يجعل الضيف مقصراً في الأكل .

قيل : كان إبراهيم عليه السلام ينزل في طرف من الأرض مخافة أن يريدوا به مكروهاً .

وقيل : كانت عادتهم إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوا وإلا خافوه .

قال الزمخشري : ويظهر أنه أحس بأنهم ملائكة ونكرهم ، لأنه تخوف أن يكون نزولهم لأمر

أنكره الله عليه، أو لتعذيب قومه.

ألا ترى إلى قولهم: لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط، وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف فيما أرسلوا.

قال مقاتل: فأوجس وقع في قلبه.

وقال الحسن: حدث به نفسه، قيل: وأصل الوجوس الدخول، فكأن الخوف دخل عليه.

والظاهر أنه لم يعرف أنهم ملائكة لمجيئهم في صورة البشر، وكان مشغوفاً بإكرام الأضياف، فلذلك جاؤوا في صورهم، ولمسارعته إلى إحضار الطعام إليهم، ولأنّ امتناع الملائكة من الأكل لا يدل على حصول الشر، وإنما عرف أنهم ملائكة بقولهم: لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط، فنهوه عن شيء وقع في نفسه، وعرفوا خيفته بكون الله جعل لهم من الاطلاع ما لم يجعل لغيرهم كقوله تعالى: ﴿ يعلمون ما تفعلون ﴾ وفي الحديث الصحيح: " قالت الملائكة ربي عبدك هذا يريد أن يعمل سيئة " الحديث، أو بما يلوح في صفحات وجه الخائف.

وامرأته قائمة جملة من ابتداء وخبر قال الحوفي وأبو البقاء : في موضع الحال ، قال أبو البقاء : من ضمير الفاعل في أرسلنا ، يعني المفعول الذي لم يسم فاعله ، والزمخشري يسميه فاعلاً لقيامه مقام الفاعل .

وقال الحوفي : والتقدير أرسلنا إلى قوم لوط في حال قيام امرأته ، يعني امرأة ابراهيم .

والظاهر أنه حال من ضمير قالوا أي : قالوا لا إبراهيم لا تخف في حال قيام امرأته وهي سارة بنت هاران بن ناخور وهي ابنة عمه ، قائمة أي : لخدمة الأضياف ، وكانت نساؤهم لا تحتجب كعادة الأعراب ، ونازلة البوادي والصحراء ، ولم يكن التبرج مكروهاً ، وكانت عجوزاً ، وخدمة الضيفان مما يعد من مكارم الأخلاق قاله : مجاهد .

وجاء في شريعتنا مثل هذا من حديث أبي أسيد الساعدي : وكانت امرأته عروساً ، فكانت خادمة الرسول ومن حضر معه من أصحابه .

وقال وهب : كانت قائمة وراء الستر تسمع محاورتهم .

وقال ابن إسحاق : قائمة تصلي .

وقال المبرد : قائمة عن الولد .

قال الزمخشري : وفي مصحف عبد الله وامرأته قائمة وهو قاعد .

وقال ابن عطية : وفي قراءة ابن مسعود : وهي قائمة وهو جالس .

ولم يتقدّم ذكر امرأة ابراهيم فيضمر ، لكنه يفسره سياق الكلام .

قال مجاهد وعكرمة : فضحكت حاضت .

قال الجمهور : هو الضحك المعروف .

فقيل : هو مجاز معبر به عن طلاقة الوجه وسروره بنجاة أخيها وهلاك قومه ، يقال : أتيت على روضة تضحك أي مشرقة .

وقيل : هو حقيقة .

فقال مقاتل : وروي عن ابن عباس ضحكت من شدّة خوف إبراهيم وهو في أهله وغلمانه .

والذين جاؤوه ثلاثة ، وهي تعهده يغلب الأربعين ، وقيل : المائة .

وقال قتادة : ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم .

وقال السدي : ضحكت من إمساك الأضياف عن الأكل وقالت : عجباً لأضيافنا نخدمهم بأنفسنا ، وهم لا يأكلون طعامنا .

وقال وهب بن منبه : وروي عن ابن عباس : ضحكت من البشارة بإسحاق ، وقال : هذا مقدم بمعنى التأخير .

وذكر ابن الأنباري أنّ ضحكها كان سروراً بصدق ظنها ، لأنها كانت تقول لابراهيم : اضمم إليك ابن أخيك لوطاً وكان أخاها ، فإنه سينزل العذاب بقومه .

وقيل : ضحكت لما رأت من المعجز ، وهو أنّ الملائكة مسحت العجل الحنيذ فقام حياً يطفر ، والذي يظهر والله أعلم أنهم لما لم يأكلوا ، وأوجس في نفسه خيفة بعدما نكر حالهم ، لحق المرأة من ذلك أعظم ما لحق الرجل .

فلما قالوا : لا تخف ، وذكروا سبب مجيئهم زال عنه الخوف وسرّ ، فلحقها هي من السرور ان ضحكت ، إذ النساء في باب الفرح والسرور أطرب من الرجال وغالب عليهن ذلك .

وقد أشار الزمخشري إلى طرف من هذا فقال : فضحكت سروراً بزوال الخيفة .

وذكر محمد بن قيس سبباً لضحكها تركنا ذكره لفظاعته ، يوقف عليه في تفسير ابن عطية : وقرأ محمد بن زياد الأعرابي رجل من قراء مكة : فضحكت بفتح الحاء .

قال المهدوي : وفتح الحاء غير معروف ، فبشرناها هذا موافق لقوله تعالى : ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ، والمعنى : فبشرناها على لسان رسلنا بشرتها الملائكة بإسحاق ، وبأن إسحاق سيلد يعقوب .

قال ابن عطية : أضاف فعل الملائكة إلى ضمير اسم الله تعالى ، إذ كان ذلك بأمره ووحيه .

وقال غيره : لما ولد لابراهيم اسماعيل عليهما السلام من هاجر تمنت سارة أن يكون لها ابن ، وأيست لكبر سنها ، فبشرت بولد يكون نبياً ويلد نبياً ، فكان هذا بشارة لها بأن ترى

ولد ولدها .

وإنما بشروها دونه ، لأنّ المرأة أعجل فرحاً بالولد ، ولأن إبراهيم قد بشروه وأمنوه من خوفه ، فأتبعوا بشارته ببشارتها .

وقيل : خصت بالبشارة حيث لم يكن لها ولد ، وكان لإبراهيم عليه السلام ولده إسماعيل .

والظاهر أن وراء هنا ظرف استعمل اسماً غير ظرف بدخول من عليه كأنه قيل : ومن بعد إسحاق ، أو من خلف إسحاق ، وبمعنى بعد ، روي عن ابن عباس واختاره مقاتل وابن قتيبة ، وعن ابن عباس أيضاً : أن الوراء ولد الولد ، وبه قال الشعبي : واختاره أبو عبيدة .

(63/382)

وتسميته وراء هي قريبة من معنى وراء الظرف ، إذ هو ما يكون خلف الشيء وبعده .

فإن قيل : كيف يكون يعقوب وراء لإسحاق وهو ولده لصلبه ، وإنما الوراء ولد الولد ؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري فقال : المعنى ومن الوراء المنسوب إلى إسحاق يعقوب ، لأنه قد كان الوراء لإبراهيم من جهة إسحاق ، فلو قال : ومن الوراء يعقوب ، لم يعلم أهذا الوراء منسوب إلى إسحاق أم إلى إسماعيل ، فأضيف إلى إسحاق لينكشف المعنى ويزول

اللبس انتهى .

وبشرت من بين أولاد إسحاق بيعقوب ، لأنها رأته ولم تر غيره ، وهذه البشارة لسارة كانت وهي بنت تسع وتسعين سنة ، وابراهيم ابن مائة سنة .

وقيل : كان بينهما غير ذلك ، وهي أقوال متناقضة .

وهذه الآية تدل على أنّ إسماعيل هو الذبيح ، لأن سارة حين أخدمها الملك الجبار هاجر أم إسماعيل كانت شابة جميلة ، فاتخذ إبراهيم هاجر سرية ، فغارت منها سارة ، فخرج بها وبابنها إسماعيل من الشام على البراق ، وجاء من يومه مكة ، وانصرف إلى الشام من يومه ، ثم كانت البشارة بإسحاق وسارة عجوز محالة ، وسيأتي الدليل على ذلك أيضاً من سورة والصافات .

ويجوز أن يكون الله سماها حالة البشارة بهذين الاسمين ، ويجوز أن يكون الإسمان حدثا لها وقت الولادة ، وتكون البشارة بولد ذكر بعده ولد ذكر ، وحالة الإخبار عن البشارة ذكراً باسمها كما يقول المخبر : إذا بشر في النوم بولد ذكر فولد له ولد ذكر فسماه مثلاً عبد الله : بشرت بعبد الله .

وقرأ الحرميان ، والنحويان ، وأبو بكر يعقوب : بالرفع على الابتداء ومن وراء الخبر كأنه قيل : ومن وراء إسحاق يعقوب كائن ، وقدره الزمخشري مولود أو موجود .

قال النحاس : والجملة حال داخلة في البشارة أي : فبشرناها بإسحاق متصلاً به يعقوب .

وأجاز أبو علي أنْ يرتفع بالجار والمجرور ، كما أجازه الأخفش أي : واستقرّ لها من وراء إسحاق يعقوب .

وقالت فرقة : رفعه على القطع بمعنى ومن وراء إسحاق يحدث يعقوب .

وقال النحاس : ويجوز أن يكون فاعلاً بإضمار فعل تقديره : ويحدث من وراء إسحاق يعقوب .

قال ابن عطية : وعلى هذا لا تدخل البشارة انتهى .

ولا حاجة إلى تكلف القطع والعدول عن الظاهر المقتضى للدخول في البشارة .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وحفص ، وزيد بن علي : يعقوب بالنصب .

قال الزمخشري : كأنه قيل ووهبنا له إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب على طريقة قوله : ليسوا مصلحين عشيرة ، ولا ناعب ، انتهى .

يعني أنه عطف على التوهم ، والعطف على التوهم لا ينقاس ، والأظهر أن ينتصب يعقوب بإضمار فعل تقديره : ومن وراء إسحاق وهبنا يعقوب ، ودل عليه قوله : فبشرناها ، لأن البشارة في معنى الهبة ، ورجح هذا الوجه أبو علي ومن ذهب إلى أنه مجرور معطوف على

لفظ بإسحاق ، أو على موضعه .

فقوله ضعيف ، لأنه لا يجوز الفصل بالظرف أو المجرور بين حرف العطف ومعطوفه المجرور ، لا يجوز مررت بزيد اليوم وأمس عمرو ، فإن جاء ففي شعر .

فإنْ كان المعطوف منصوباً أو مرفوعاً ، ففي جواز ذلك خلاف نحو : قام زيد واليوم عمرو ، وضربت زيداً واليوم عمراً والظهر أن الألف في يا ويلتا بدل من ياء الإضافة نحو : يا لهفا ويا عجباً ، وأمال الألف من يا ويلتا عاصم وأبو عمرو والأعشى ، إذ هي بدل من الياء .

وقرأ الحسن : يا ويلتي بالياء على الأصل .

وقيل : الألف ألف الندبة ، ويوقف عليها بالهاء .

وأصل الدعاء بالويل ونحوه في التفجع لشدة مكروه يدهم النفس ، ثم استعمل بعد في عجب يدهم النفس .

ويا ويلتا كلمة تخف على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبن منه ، واستفهمت بقولها أألد استفهام إنكار وتعجب ، وأنا عجوز وما بعده جملتا حال ، وانتصب شيخاً على الحال عند البصريين ، وخبر التقريب عند الكوفيين .

ولا يستغنى عن هذه الحال إذا كان الخبر معروفاً عند المخاطب ، لأنّ الفائدة إنما تقع بهذه الحال ، أما إذا كان مجهولاً عنده فأردت أن تفيد المخاطب ما كان يجهله ، فتجيء الحال على بابها مستغنى عنها .

وقرأ ابن مسعود وهو في مصحفه والأعمش ، شيخ بالرفع .

وجوزوا فيه .

وفي بعلي أن يكونا خبرين كقولهم : هذا حلو حامض ، وأن يكونن بعلى الخبر ، وشيخ خبر مبتدأ محذوف ، أو بدل من بعلي ، وأن يكون بعلي بدلاً أو عطف بيا ن ، وشيخ الخبر .

والإشارة بهذا إلى الولادة أو البشارة بها تعجبت من حدوث ولد بين شيخين هرمين ، واستغربت ذلك من حيث العادة ، لا إنكاراً لقدرة الله تعالى .

قالوا : أي الملائكة أتعجبين ؟ استفهام إنكار لعجبها .

قال الزمخشري : لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادة ، فكان عليها أن تتوفر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء في غير بيت النبوة ، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب .

وإلى ذلك أشارت الملائكة في قولهم : رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، أرادوا أنّ هذه وأمثالها مما يكرمكم رب العزة ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوّة ؟ فليست بمكان عجيب ، وأمر الله قدرته وحكمته .

وقوله : رحمة الله وبركاته عليكم كلام مستأنف علل به إنكار التعجب ، كأنه قيل : إياك والتعجب ، فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم .

وقيل : الرحمة النبوة ، والبركات الأسباط من بني إسرائيل ، لأن الأنبياء منهم ، وكلهم من ولد إبراهيم انتهى .

وقيل : رحمته تحيته ، وبركاته فواضل خيره بالخلة والإمامة .

وروي أن سارة قالت لجبريل عليه السلام : ما آية ذلك ؟ فأخذ عوداً يابساً فلواه بين أصابعه ، فاهتز أخضر ، فسكن روعها وزال عجبها .

وهذه الجملة المستأنفة يحتمل أن تكون خبراً وهو الأظهر ، لأنه يقتضي حصول الرحمة والبركة لهم ، ويحتمل أن يكون دعاء وهو مرجوح ، لأن الدعاء إنما يقتضي أنه أمر يترجى ولم يتحصل بعد .

وأهل منصوب على النداء ، أو على الاختصاص ، وبين النصب على المدح والنصب على الاختصاص فرق ، ولذلك جعلهما سيبويه في بابين وهو أنّ المنصوب على المدح لفظ يتضمن بوضعه المدح ، كما أن المنصوب على الذم يتضمن بوضعه الذم ، والمنصوب على

الاختصاص لا يكون إلا لمدح أو ذم ، لكن لفظه لا يتضمن بوضعه المدح ولا الذم كقوله : بنا

تميماً يكشف الضباب .

وقوله : ولا الحجاج عيني بنت ماء .

وخطاب الملائكة أياها بقولهم : أهل البيت ، دليل على اندراج الزوجة في أهل البيت ،

وقد دل على ذلك أيضاً في سورة الأحزاب خلافاً للشيعة إذ لا يعدون الزوجة من أهل بيت

زوجها ، والبيت يراد به بيت السكنى .

إنه حميد : وقال أبو الهيثم تحمد أفعاله وهو بمعنى المحمود .

وقال الزمخشري : فاعل ما يستوجب من عباده ، مجيد كريم كثير الإحسان إليهم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(67/382)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ ﴾

وهم الملائكةُ . عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم جبريلُ وملكانِ . وقيل : هم جبريلُ

وميكائيلُ وإسرافيلُ عليهم السلام . وقال الضحاك : كانوا تسعةً ، وعن محمد بن كعب

جبريلُ ومعه سبعةٌ. وعن السدي أحدَ عشرَ على صور الغلمان الوِضاءِ وجوهُهم. وعن مقاتل كانوا اثني عشر ملَكاً وإنما أسند إليهم مطلقُ المجيءِ بالبشرى دون الإرسالِ لأنهم لم يكونوا مرسَلين إليه عليه السلام بل إلى قوم لوطٍ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾، وإنما جاؤوه لداعية البُشرى ولما كان المقصودُ في السورة الكريمةِ ذكرَ سوءِ صنيعِ الأممِ السالفةِ مع الرسل المرسلةِ إليهم ولحوقِ العذابِ بهم بسبب ذلك ولم يكن جميعُ قومِ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام ممن لحق بهم العذابُ بل إنما لحِق بقوم لوطٍ منهم خاصةً غيّر الأسلوبُ المطردُ فيما سبق من قوله تعالى: ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ ﴿ وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحا ﴾ ثم رُجع إليه حيث قيل: ﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً ﴾ ﴿ بالبشرى ﴾ أي ملتبسين بها قيل: هي مطلقُ البشرى المنتظمةِ للبشارة بالولد من سارةَ لقوله تعالى: ﴿ فبشرناها بإسحاق ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ فبشرناه بغلام حَلِيمٍ ﴾ وقوله: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بغلام عَلَيمٍ ﴾ وللبشارة بعدم لحوقِ الضررِ به لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبراهيم الروع وَجَاءتْهُ البشرى ﴾ لظهور تفرّعِ المجادلةِ على مجيئها كما سيأتي وقيل: هي البشارةُ بهلاك قوم لوطٍ ويأباه مجادلتُه عليه الصلاة والسلام في شأنهم، والأظهرُ أنها البشارةُ بالولد وستعرِف سرَّ تفرُّعِ المجادلةِ على ذلك ولما كان الإخبارُ بمجيئهم بالبشرى مظِنةً لسؤال السامع بأنهم ما قالوا أجيب بأنهم ﴿ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ أي سلّمنا أو نسلّم عليك

سلاماً ويجوز أن يكون نصبُه بقالوا أي قالوا قولاً ذا سلامٍ أو ذكروا سلاماً ﴿ قَالَ سلام ﴾ أي عليكم سلامٌ أو سلامٌ عليكم حياهم

بأحسن من تحيتهم وقرىء سَلِم كحَرِم في حرام ، وقرأ ابن أبي عبلة قال : سلاماً وعنه أنه قرأ بالرفع فيهما ﴿ فَمَا لَبِثَ ﴾ أي إبراهيم ﴿ أَن جَاء بِعِجْلٍ ﴾ أي في المجيء به أو ما لبث مجيئَه بعجل ﴿ حَنِيذٍ ﴾ أي مشويٍّ بالرَّضْف في الأُخدود وقيل : سمين يقطُر ودَكُه لقوله : بعجل سمين من حنذت الفرس إذا عرقته بالجِلال .

﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ ﴾ لا يُمدون إليه أيديَهم للأكل ﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ أي أنكرهم يقال : نكِرَه وأنكره واستنكره بمعنى ، وإنما أنكرهم لأنهم كانوا إذا نزل بهم ضيفٌ ولم يأكُلْ من طعامهم ظنوا أنه لم يجىء بخير ، وقد روي أنهم كانوا ينكُتون بقداح كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل إليه أيديهم وهذا الإنكارُ منه عليه الصلاة والسلام راجعٌ إلى فعلهم المذكور وأما إنكارُه المتعلقُ بأنفسهم فلا تعلقَ له برؤية عدمِ أكلِهم ، وإنما وقع ذلك عند رؤيته لهم لعدم كونِهم من جنس ما كان يعهده من الناس ، ألا يُرى إلى قوله تعالى في سورة الذاريات :

﴿ سلام قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ ﴾ أي أحسّ أو أضمر من جهتهم ﴿ خِيفَةً ﴾ لما ظنّ أن نزولهم لأمر أنكره الله تعالى عليه أو لتعذيب قومِه، وإنما أُخّر المفعولُ الصريحُ على الظرف، لأن المرادَ الإخبارُ بأنه عليه الصلاة والسلام أوجس من جهتهم شيئاً هو الخيفةُ لا أنه أوجس الخِيفةَ من جهتهم لا من جهة غيرِهم، وتحقيقُه أن تأخيرَ ما حقُّه التقديمُ يوجب ترقّبَ النفسِ إليه فيتمكن عند ورودِه عليها فضلَ تمكن ﴿ قَالُواْ لاَ تَخَفْ ﴾ ما قالوه بمجرد ما رأوا منه مخايلَ الخوفِ إزالةً له منه بل بعد إظهارِه عليه الصلاة والسلام له قال تعالى في سورة الحِجر: ﴿ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ ولم يُذكر ذلك هاهنا اكتفاءً بذلك ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا ﴾ ظاهرُه أنه استئنافٌ في معنى التعليلِ للنهي المذكور كما أن قولَه تعالى: ﴿ إِنَّا نُبَشّرُكَ ﴾ تعليلٌ لذلك فإن إرسالَهم إلى قوم آخرين يوجب أمنَهم من الخوف أي أُرسلنا بالعذاب ﴿ إلى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ خاصةً إلا أنه ليس كذلك فإن قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ صريحٌ في أنهم قالوه جواباً عن سؤاله عليه الصلاة والسلام، وقد أُوجز الكلامُ اكتفاء بذلك.

﴿ وامرأته قَائِمَةٌ ﴾

وراءَ الستر بحيث تسمع محاورتَهم أو على رؤوسهم للخدمة حسبما هو المعتادُ ، والجملةُ حالٌ من ضمير قالوا أي قالوه وهي قائمةٌ تسمع مقالتَهم ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ سروراً بزوال الخوفِ أو بهلاك أهلِ الفساد أو بهما جميعاً ، وقيل : بوقوع الأمرِ حسبما كانت تقولُ فيما سلف ، فإنها كانت تقول لإبراهيمَ اضمُمْ إليك لوطاً فإني أرى أن العذابَ نازلٌ بهؤلاء القوم ، وقيل : ضحكت حاضَتْ ، ومنه ضحِكت الشجرةُ إذا سال صمغُها وهو بعيد ، وقرىء بفتح الحاء ﴿ فبشرناها بإسحاق ﴾ أي عقّبنا سرورَها بسرور أتَمَّ منه على ألسنة رسلِنا ﴿ وَمِن وَرَاء إسحاق يَعْقُوبَ ﴾ بالنصب على أنه مفعولٌ لما دل عليه قولُه : بشرناها أي ووهبنا لها من وراء إسحاقَ يعقوبَ ، وقرىء بالرفع على الابتداء خبرُه الظرف أي من بعد إسحاقَ يعقوبُ مولودٌ أو موجودٌ ، وكلا الاسمين داخلٌ في البشارة كيحيي أو واقعٌ في الحكاية بعد أن وُلدا فسمِّيا بذلك ، وتوجيهُ البشارة هاهنا إليها مع أن الأصلَ في ذلك إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام وقد وُجِّهت إليه حيث قيل : ﴿ فبشرناه بغلام حَلِيمٍ ﴾ ﴿ وَبَشَّرُوهُ بغلام عَلَيمٍ ﴾ للإيذان بأن ما بُشّر به يكون منهما ولكونها عقيمةً حريصةً على الولد .

﴿ قَالَتْ ﴾ استئنافٌ وردَ جواباً عن سؤال مَنْ سأل وقال : فما فعلت إذ بُشّرت بذلك ؟ فقيل : قالت : ﴿ ياويلتى ﴾ أصلُ الويلِ الخزيُ ثم شاع في كل أمرٍ فظيع ، والألفُ مُبْدلةٌ من ياء الإضافةِ كما في يا لهفا ويا عجبا ، وقرأ الحسن على الأصل ، وأمالها أبو عمرو ، وعاصمٌ ، في رواية ومعناه يا ويلتي احضُري فهذا أوانُ حضورِك وقيل : هي ألفُ النُّدبةِ ويوقف عليها بهاء السكْت ﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ ﴾ بنتُ تسعين أو تسعٍ وتسعين سنةً ﴿ وهذا ﴾ الذي تشاهدونه ﴿ بَعْلِى ﴾ أي زوجي ، وأصلُ البعلِ القائمُ بالأمر ﴿ شَيْخًا ﴾ وكان ابنَ مائةٍ وعشرين سنةً ، ونصبُه على الحال والعاملُ معنى الإشارةِ وقرىء بالرفع على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي هو شيخٌ أو خبرٌ بعد خبرٍ ، أو هو الخبرُ وبعلي بدلٌ من اسمِ الإشارةِ أو بيانٌ له ، وكلتا الجملتين وقعت حالاً من الضمير في أألد لتقرير ما فيه من الاستبعاد وتعليله ، أي أألد وكلانا على حالة منافيةٍ لذلك ، وإنما قُدّمت بيانُ حالِها على بيان حالِه عليه الصلاة والسلام لأن مُباينةَ حالِها لما ذُكر من الولادة أكثرُ ، إذ ربما يولد للشيوخ من الشوابِّ ، أما العجائزُ داؤُهن عقامٌ ولأن البشارةَ متوجهةٌ إليها صريحاً ، ولأن العكسَ في البيان ربما يُوهم من أول الأمر نسبةَ المانعِ من الولادة إلى جانب إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام وفيه ما لا يخفى من المحذور ، واقتصارُ الاستبعادِ على ولادتها من غير تعرضٍ لحال النافلةِ لأنها المستبعَد ، وأما ولادةُ ولدِها فلا يتعلق بها استبعادٌ ﴿ إِنَّ هَذَا

﴿ أي ما ذُكر من حصول الولد من هَرِمَين مثلِنا ﴿ لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ بالنسبة إلى سنة الله تعالى المسلوكةِ فيما بين عباده، وهذه الجملةُ لتعليل الاستبعادِ بالنسبة إلى قُدرته سبحانه وتعالى.

﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾

(72/382)

أي قدرتِه وحكمتِه أو تكوينه أو شأنِه أنكروا عليها تعجباً من ذلك لأنها كانت ناشئةً في بيت النبوة ومهبِطِ الوحي والآيات، ومظهَرِ المعجزة والأمورِ الخارقةِ للعادات فكان حقُّها أن تتوقرَ ولا يزدهِيَها ما يزدهي سائرَ النساء من أمثال هذه الخوارقِ من ألطاف الله تعالى الخفيةِ ولطائفِ صنعِه الفائضةِ على كل أحدٍ مما يتعلق بذلك مشيئتُه الأزليةُ لا سيما على أهل بيتِ النبوة الذين ليست مرتبتُهم عند الله سبحانه كمراتب سائرِ الناس وأن تسبحَ الله تعالى وتحمَدَه وتمجّدَه وإلى ذلك أشاروا بقوله تعالى: ﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ ﴾ التي وسِعتْ كلَّ شيءٍ واستتبعت كلَّ خير، وإنما وُضع المظهرُ موضعَ المضمر لزيادة تشريفِها ﴿ وبركاته ﴾ أي خيراتُه الناميةُ المتكاثرةُ في كل باب التي من جملتها هبةُ الأولادِ، وقيل: الرحمةُ النبوةُ والبركاتُ الأسباطُ من بني إسرائيل لأن الأنبياءَ منهم وكلُّهم من ولد إبراهيمَ عليهم الصلاة

والسلام ﴿ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت ﴾ نصبَ على المدح أو الاختصاصِ لأنهم أهلُ بيتِ خليلِ الرحمن ، وصرفُ الخطاب من صيغة الواحدة إلى جمع المذكر لتعميم حكمِه لإبراهيمَ عليه الصلاة والسلام أيضاً ليكون جوابُهم لها جواباً له أيضاً إن خطر بباله مثلُ ما خطر ببالها ، والجملة كلامٌ مستأنَفٌ عُلّل به إنكارُ تعجّبُها كأنه قيل : ليس المقامُ مقامَ التعجيبِ فإن الله تعالى على كل شيء قديرٌ ولستم يا أهل بيتِ النبوةِ والكرامةِ والزلفى كسائر الطوائفِ بل رحمتُه المستتبِعةُ لكل خيرٍ الواسعةُ لكل شيء ، وبركاتُه أي خيراتُه النامية الفائضةُ منه بواسطة تلك الرحمةِ الواسعةِ لازمةٌ لكم لا تفارقكم ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ ﴾ فاعلٌ ما يستوجب الحمدَ ﴿ مَّجِيدٌ ﴾ كثيرُ الخير والإحسان إلى عباده . والجملةُ لتعليل ما سبق من قوله : ﴿ قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(73/382)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ ﴾

وهم الملائكة ؛ روي عن ابن عباس أنهم كانوا اثني عشر ملكاً .

وقال السدي : أحد عشر على صورة الغلمان في غاية الحسن والبهجة ، وحكى صاحب

الفينان أنهم عشرة منهم جبريل ، وقال الضحاك : تسعة ، وقال محمد بن كعب : ثمانية ،

وحكى الماوردي أنهم أربعة ولم يسمهم .

وجاء في رواية عن عثمان بن محيصن أنهم جبريل .

وإسرافيل .

وميكائيل .

ورفائيل عليهم السلام ، وفي رواية عن ابن عباس .

وابن جبير أنهم ثلاثة الأولون فقط ، وقال مقاتل : جبرائيل .

وميكائيل .

(74/382)

وملك الموت عليهم السلام ، واختار بعضهم الاقتصار على القول بأنهم ثلاثة لأن ذلك أقل ما يدل عليه الجمع وليس هناك ما يعول عليه في الزائد وإنما أسند إليهم المجىء دون الإرسال لأنهم لم يكونوا مرسلين إليه عليه السلام بل إلى قوم لوط لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود : 70] وإنما جاءوه لداعية البشرى ، قيل : ولما كان المقصود في السورة الكريمة ذكر صنيع الأمم السالفة مع الرسل المرسلة إليهم ولحوق العذاب بهم ولم يكن جميع

قوم إبراهيم عليه السلام من لحق بهم العذاب بل إنما لحق بقوم لوط منهم خاصة غير الأسلوب المطرد فيما سبق من قوله تعالى : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [هود : 50] ﴿ وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحا ﴾ [هود : 61] ثم رجع إليه حيث قيل : ﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً ﴾ [هود : 84] والباء في قوله تعالى : ﴿ بالبشرى ﴾ للملابسة أي ملتبسين بالبشرى ، والمراد بها قيل : مطلق البشارة المنتظمة بالبشارة بالولد من سارة لقوله تعالى : ﴿ فبشرناها بإسحاق ﴾ [هود : 71] الآية ، وقوله سبحانه : ﴿ فبشرناه بغلام حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : 101] إلى غير ذلك ، وللبشارة بعدم لحوق الضرر به لقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبراهيم الروع وَجَاءتْهُ البشرى ﴾ [هود : 74] لظهور تفرع المجادلة على مجيئها ، وكانت البشارة الأولى على ما قيل : من ميكائيل .

والثانية من إسرافيل عليهما السلام ، وقيل : المراد بها البشارة بهلاك قوم لوط عليه السلام فإن هلاك الظلمة من أجل ما يبشر به المؤمن .

(75/382)

واعترض بأنه يأباه مجادلته عليه السلام في شأنهم ، واستظهر الزمخشري أنها البشارة بالولد وهي المرادة بالبشرى فيما سيأتي ، وسر تفرع المجادلة عليها سيذكر إن شاء الله تعالى ،

وعلل في "الكشف" استظهار ذلك بقوله : لأنه الأنسب بالإطلاق ، ولقوله سبحانه في الذاريات : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بغلام عَلَيمٍ ﴾ [الذاريات : 28] ثم قال بعده : ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون ﴾ [الذاريات : 31] ثم قال : وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبراهيم ﴾ [هود : 74] الخ ، وإن كان يحتمل أن ثمة بشارتين فيحمل في كل موضع على واحدة لكنه خلاف الظاهر انتهى ، ولما كان الإخبار بمجيء الرسل عليهم السلام مظنة لسؤال السامع بأنهم ما قالوا : أجيب بأنهم ﴿ قَالُواْ سلاما ﴾ أي سلمنا أو نسلم عليك سلاماً فهو منصوب بفعل محذوف ، والجملة مقول القول قال ابن عطية : ويصح أن يكون مفعول ﴿ قَالُواْ ﴾ على أنه حكاية لمعنى ما قالوا لا حكاية للفظهم .

وروي ذلك عن مجاهد .

والسدي ، ولذلك عمل فيه القول ، وهذا كما تقول لرجل قال : لا إله إلا الله : قلت حقاً وإخلاصاً .

وقيل : إن النصب بقالوا لما فيه من معنى الذكر كأنه قيل : ذكروا سلاماً ﴿ قَالَ سلام ﴾ أي عليكم سلام أو سلام عليكم ، والابتداء بنكرة مثله سائغ كما قرر في النحو ، وقد حياهم عليه السلام بأحن من تحيتهم لأنها بجملة اسمية دالة على الدوام والثبات فهي أبلغ ، وأصل معنى السلام السلامة مما يضر .

وقرأ حمزة .

والكسائي سلم في الثاني بدون ألف مع كسر السين وسكون اللام وهو على ما قيل : لغة في

﴿ سلام ﴾ كحرم .

وحرام ، ومنه قوله

: مررنا فقلنا : أيه (سلم) فسلمت . . .

كما اكتّل بالبرق الغمام اللوائح

(76/382)

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يراد بالسلم ضد الحرب ، ووجه بأنهم لما امتنعوا طعامه وخاف منهم قاله أي أنا مسالم لا محارب لأنهم كانوا لا يأكلون طعام من بينهم وبينه حرب ، واعترض بأنه يدل على أن قوله هذا بعد تقديم الطعام .

وقوله سبحانه : ﴿ فَمَا لَبِثَ ﴾ الخ صريح في خلافه ، وذكر في "الكشاف" أن حمزة .

والكسائي قرءا بكسر السين وسكون اللام في الموضعين وهو مخالف للمنقول في كتب القراءات ، وقرأ ابن أبي عبلة قال سلاماً بالنصب كالأول ، وعنه أنه قرأ بالرفع فيهما ﴿ فَمَا لَبِثَ ﴾ أي فما أبطأ إبراهيم عليه السلام .

﴿ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ أي في مجيئه به أو عن مجيئه به ﴿ فَمَا ﴾ نافية ، وضمير ﴿

لَبِثَ ﴾ لإبراهيم ، و﴿ أَن جَاء ﴾ بتقدير حرف جر متعلق بالفعل وحذف الجار قبل أن وأن مطرد ، وحكى ابن العربي أن ﴿ إن ﴾ بمعنى حتى ، وقيل : ﴿ إن ﴾ وما بعدها فاعل ﴿ لَبِثَ ﴾ أي فما تأخر مجيئه ، وروي ذلك عن الفراء ، واختاره أبو حيان .

وقيل : ما مصدرية والمصدر مبتدأ أو هي اسم موصول بمعنى الذي كذلك ، و﴿ أَن جَاء ﴾ على حذف مضاف أي قدر وهو الخبر أي فلبثه أو الذي لبثه قدر مجيئه وليس بشيء ، والعجل ولد البقرة ، ويسمى الحسيل والخبش بلغة أهل السراة ، والباء فيه للتعدية أو الملابسة ، والحنيذ السمين الذي يقطر ودكه من حنذت الفرس إذا عرقته بالجلال كأنه ودكه كالجلال عليه ، أو كأن ما يسيل منه عرق الدابة المجللة للعرق ، واقتصر السدي على السمين في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ ، [الذاريات : 26] وقيل : هو المشوي بالرضف في أخدود ، وجاء ذلك في رواية عن ابن عباس .

ومجاهد .

(77/382)

وقتادة ، وفي رواية عن مجاهد تفسيره بالمطبوخ ، وإنما جاء عليه السلام بالعجل لأن ماله كان البقر وهو أطيب ما فيها ، وكان من دأبه عليه السلام إكرام الضيف ، ولذا عجل القرى

، وذلك من أدب الضيافة لما فيه من الاعتناء بشأن الضيف ، وفي مجيئه بالعجل كله مع أنهم بحسب الظاهر يكفيهم بعضهم دليل على أنه من الأدب أن يحضر للضيف أكثر مما يأكل ، واختلف في هذا العجل هل كان مهيئاً قبل مجيئهم أو أنه هيىء بعد أن جاؤوا ؟ قولان اختار أبو حيان أولهما لدلالة السرعة بالإتيان به على ذلك ، ويختار الفقير ثانيهما لأنه أزيد في العناية وأبلغ في الإكرام ، وليست السرعة نصاً في الأول كما لا يخفى .

﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ ﴾

(78/382)

كناية عن أنهم لا يمدون إليه أيديهم ويلزمه أنهم لا يأكلون ، وقيل : ﴿ لا ﴾ كناية بناءاً على ما روي أنهم كانوا ينكتون اللحم بقداح في أيديهم وليس بشيء ، وفي القلب من صحة هذه الرواية شيء إذ هذا النكت أشبه شيء بالعبث ، والملائكة عليهم السلام يجلون عن مثله ؛ و﴿ رأى ﴾ قيل : علمية فجملة ﴿ لَا تَصِلُ ﴾ مفعول ثان ، والظاهر أنها بصرية ، والجملة في موضع الحال ففيه دليل على أن من أدب الضيافة النظر إلى الضيف هل يأكل أولاً لكن ذكروا أنه ينبغي أن يكون بتلفت ومسارقة لا بتحديد النظر لأن ذلك مما يجعل الضيف مقصراً في الأكل أي لما شاهد منهم ذلك ﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ أي نفرهم ﴿ وَأَوْجَسَ ﴾ أي

استشعر وأدرك ، وقيل : أضمر ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي من جهتهم ﴿ خِيفَةً ﴾ أي خوفاً ، وأصلها الحالة التي عليها الإنسان من الخوف ، ولعل اختيارها بالذكر للمبالغة حيث تفرس لذلك مع جهالته لهم من قبل وعدم معرفته من أي الناس يكونون كما ينبىء عنه ما في الذاريات من قوله سبحانه حكاية عنه : ﴿ قَالَ سلام قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ [الذاريات : 25] أنهم ملائكة ، وظن أنهم أرسلوا لعذاب قومه أو لأمر أنكره الله تعالى عليه ﴿ قَالُواْ ﴾ حين رأوا أثر ذلك عليه عليه السلام ، أو أعلمهم الله تعالى به ، أو بعد أن قال لهم ما في الحجر ﴿ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ [الحجر : 52] فإن الظاهر منه أن هناك قولاً بالفعل لا بالقوة كما هو احتمال فيه على ما ستراه إن شاء الله تعالى ، وجوز أن يكون ذلك لعلمهم أن علمه عليه السلام أنهم ملائكة يوجب الخوف لأنهم لا ينزلون إلا بعذاب ، وقيل : إن الله تعالى جعل للملائكة مطلقاً ما لم يجعل لغيرهم من الاطلاع كما قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الإنفطار : 12] وفي " الصحيح " قالت الملائكة رب عبدك هذا يريد أن يعمل سيئة " الحديث ، وهو قول بأن الملائكة يعلمون الأمور القلبية .

وفي الأخبار الصحيحة ما هو صريح بخلافه ، والآية.

والخبر المذكوران لا يصلحان دليلاً لهذا المطلب ، وإسناد القول إليهم ظاهر في أن الجميع قالوا ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ ويحتمل أن القائل بعضهم ، وكثيراً ما يسند فعل البعض إلى الكل في أمثال ذلك ، وظاهر قوله سبحانه : ﴿ أَنَّا أَرْسَلْنَا ﴾ أنه استئناف في معنى التعليل للنهي المذكور كما أن قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ [الحجر : 53] استئناف كذلك فإن إرسالهم إلى قوم آخرين يوجب أمنه من الخوف أي ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ بالعذاب ﴿ إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ خاصة ، ويعلم مما ذكرنا أنه عليه السلام أحس بأنهم ملائكة ، وإليه ذهب ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وقد يستدل له بقولهم : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا ﴾ فإنه كما لا يخفى على من له أدنى ذوق إنما يقال لمن عرفهم ولم يعرف فيم أرسلوا فخاف ، وأن الإنكار المدلول عليه بنكرهم غير المدلول عليه بما في الذاريات فلا إشكال في كون الإنكار هناك قبل إحضار الطعام وهنا بعده ، وأصل الإنكار ضد العرفان ، ونكرت وأنكرت واستنكرت بمعنى ، وقيل : إن أنكر فيما لا يرى من المعاني ونكر فيما يرى بالبصر ، ومن ذلك قول الشاعر

: وأنكرتني وما كان الذي نكرت . . .

من الحوادث إلا الشيب والصلعا

فإنه أراد في الأول على ما قيل : أنكرت مودتي ، وقال الراغب : إن أصل ذلك أن يرد على

القلب ما لا يتصوره وذلك ضرب من الجهل وبه فسر ما فيه الآية ، وفرق بعضهم بين ما هنا وبين ما وقع في الذاريات بأن الأول راجع إلى حالهم حين قدم إليهم العجل .

والثاني متعلق بأنفسهم ولا تعلق له برؤية عدم أكلهم بل وقع عند رؤيته عليه السلام لهم لعدم كونهم من جنس ما يعهده من الناس ، ويحتاج هذا إلى اعتبار حذف المضاف أو ملاحظة الحيثية ، واعترض ما قدمناه بأن فيه ارتكاب مجاز ، ولعل الأمر فيه سهل .

(80/382)

وذهب بعضهم إلى أنه عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة حتى قالوا له : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا ﴾ وكأن سبب خوفه منهم أنهم لم يتخرحموا بطعامه فظن أنهم يريدون به سوءاً إذ كانت العادة إذ ذاك كذلك ، وكان عليه السلام نازلاً في طرف من الأرض منفرداً عن قومه ، وهي رواية عن ابن عباس أخرجه إسحاق بن بشر .

وابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عنه ، وقيل : كان سبب خوفه أنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت .

وقال العلامة الطيبي : الحق أن الخوف إنما صدر عن مجموع كونهم منكرين وكونهم ممتنعين من الطعام كما يعلم من الآيات الواردة في هذه القصة ولأنه لو عرفهم بأنهم ملائكة لم يحضر بين

أيديهم الطعام ولم يحرضهم على الأول وإنما عدلوا إلى قولهم : ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ليكون جامعاً للمعاني بحيث يفهم منه المقصود أيضاً انتهى .

وفيه إشارة إلى الردّ على الزمخشري ، وقد اختلف كلامه في تعليل الخوف فعلله تارة بعرفانه أنهم ملائكة وأخرى بأنهم لم يتحرموا طعامه ، ولعله أراد بذلك العرفان العرفان بعد إحضار الطعام ، وما ذكره الطيبي من أنه لو عرفتهم بأنهم ملائكة لم يحضر الخ غير قادح إذ يجوز أن يخافهم بعد الإحضار أولاً لعدم التحرم ثم بعد تفرس أنهم ملائكة خافهم لأنهم ملائكة أرسلوا للعذاب ، والزمخشري حكى أحد الخوفين في موضع والآخر في آخر .

(81/382)

قال بعض المحققين والتعليل بأنهم ملائكة هو الوجه لينتظم قوله سبحانه : ﴿ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر : 35] مع ما قبله إذ لو كان الوجل لكونهم على غير زي من عرف ونحوه لم يحسن التعليل بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ فإنه إنما هو تعليل للنهي عن الوجل من أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب كأنهم قالوا : ﴿ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ و﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ فجاء على اختصارات القرآن بذكر أحد التعليلين في أحد الموضعين والآخر في الآخر ، ولا شك أن في الحجر اختصاراً لطي حديث الرواع ،

والتعجيل بالعجل الحنيذ وعدم تحرمهم بطعامه لما أن المقصود من سوق القصة هنالك الترغيب والترهيب للاعتبار بحال إبراهيم عليه السلام وما لقي من البشرى والكرامة ، وحال قوم لوط عليه السلام وما منوا به من السوأى والملامة ، ألا ترى إلى قوله سبحانه : ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفور الرحيم ﴾ إلى قوله جل وعلا :

﴿ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الحجر : 49-51] فاقتصر على ما يفيد ذلك الغرض ، وأما في هذه السورة فجيء بها للإرشاد الذي بنى عليه السورة الكريمة مع إدماج التسلية ورد ما رموه به عليه الصلاة والسلام من الافتراء ، وفي كل من أجزاء القصة ما يسد من هذه الأغراض فسرد على وجهها ، وفي سورة الذاريات للأخيرين فقط فجيء بما يفيد ذلك فلا عليك إن رأيت اختصاراً أن تنقل إليه من المبسوط ما يتم به الكلام بعد أن تعرف نكتة الاختصار ، وهذا من خواص كتاب الله تعالى الكريم انتهى ولا يخلو عن حسن ، وفيه ذهاب إلى كون جملة ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إلى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ استئنافاً في موضع التعليل كما هو الظاهر .

وقال شيخ الإسلام عليه الرحمة: الظاهر ما ذكر إلا أنه ليس كذلك فإن قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ [الحجر: 57، 58] صريح في أنهم قالوه جواباً عن سؤاله عليه السلام، وقد أوجز الكلام اكتفاءاً بذلك انتهى.

وتعقب بأنه قد يقال: إن ذلك لا يقدح في الحمل على الظاهر لجواز أن يكونوا قالوا ذلك على معنى التعليل للنهي عن الخوف، ولكنه وإن أريد منه الإرسال بالعذاب لقوم لوط عليه السلام مجمل لم يؤت به على وجه يظهر منه ما نوع هذا العذاب هل هو استئصال أم لا؟ فسأل عليه السلام لتحقيق ذلك فكأنه قال: أيها المرسلون إلى قوم لوط ما هذا الأمر العظيم الذي أرسلتم به؟ فأجابوه بما يتضمن بيان ذلك مع الإشارة إلى علة نزول ذلك الأمر بهم وهو قولهم: ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: 58، 59] الآية فإن انفهام عذاب الاستئصال لقوم لوط عليه السلام من ذلك ظاهر، وكذا الإشارة إلى العلة.

والحاصل أن السؤال في تلك الآية عن الخطب وهو في الأصل الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب، ويراد من السؤال عنه تحقيق أمر لم يعلمه عليه السلام من كلامهم قبل إما لأنه لم يعلم ذلك منه.

أو لأنه كان مشغولاً عن كمال التوجه ليعلم عليه السلام منه ذلك، وفي خطابه عليه السلام لهم عليهم السلام بعنوان الرسالة ما يؤيد تقدم قولهم: ﴿ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ﴾ على هذا السؤال

لكنه أسقط هناك تعويلاً على ما هنا ولا بدع في الإسقاط من المتأخر تعويلاً على المتقدم ، وتأخر الحجر .

(83/382)

والذاريات عن هود تلاوة مما لا كلام فيه ، وتأخرهما نزولاً مما رواه ابن ضريس في فضائل القرآن عن محمد بن عبد الله بن أبي جعفر الرازي عن عمر بن هارون عن عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه عن ابن عباس ، وذكر أنها كلها نزلت بمكة وأن بين هود .

والحجر سورة واحدة ، وبين الحجر .

والذاريات ثلاث عشرة سورة فليتأمل في هذا المقام ، ويفهم من كلام بعضهم أنه عليه السلام لم يتحقق كونهم ملائكة إلا بعد أن مسح جبريل عليه السلام العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأنه فحينئذ عرفهم وأمن منهم ، ولم يتحقق صحة الخبر عندي ، والذي أميل إليه أنه عليه السلام عرفهم قبل ذلك وأن خوفه منهم لكونهم ملائكة لم يدر لأي شيء نزلوا ، ويبعد عند من عرف حال إبراهيم عليه السلام القول بأنه خاف بشراً وبلغ منه الخوف حتى ﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ [الحجر : 52] لا سيما إذا قلنا : إنا من خافهم كانوا ثلاثة وأنه عليه السلام لم يكن في طرف من الأرض بل كان بين أصحابه ، أو كان هناك لكن بين خدمه

وغلمانه .

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾

(84/382)

﴿ وامرأته ﴾ سارة بنت هاران بن ناحور وهي بنت عمه ﴿ قَآئِمَةً ﴾ في الخدمة كما أخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد وكانت نساؤهم لا تحتجب لا سيما العجائز منهم ، وكانت رضي الله تعالى عنها عجوزاً ، وقال وهب : كانت قائمة وراء الستر تسمع محاورتهم ، وأخذ منه بعضهم أن تستر النساء كان لازماً ، والظاهر أنه لم يكن كذلك لتأخر آية الحجاب ، ويجوز أن يقال : إن القيام وراء الستر كان اتفاقياً ، وعن ابن إسحاق أنها كانت قائمة تصلي ، وقال المبرد : كانت قائمة عن الولد وهو خلاف المشهور في الاستعمال ، وأخرج ابن المنذر عن المغيرات قال في مصحف ابن مسعود : وامرأته قائمة وهو جالس ، وفي الكشاف بدل وهو جالس وهو قاعد ، وعن ابن عطية بدل ﴿ وامرأته قَآئِمَةٌ ﴾ وهي قائمة ففيه الإضمار من غير تقدم ذكر ، وكأن ذلك إن صح للتعويل على انفهام المرجع من سياق الكلام ، والجملة إما في موضع الحال من ضمير ﴿ قَالُواْ ﴾ وإما مستأنفة للأخبار ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ من الضحك المعروف والمراد به حقيقته عند الكثير ، وكان

ذلك عند بعضهم سروراً بزوال الخوف عن إبراهيم عليه السلام ، والنساء لا يملكن أنفسهم كالرجال إذا غلب عليهن الفرح ، وقيل : كان سروراً بهلاك أهل الفساد ، وقيل : بمجموع الأمرين ، وقال ابن الأنباري : إن ضحكها كان سروراً بصدق ظنها لأنها كانت تقول لإبراهيم : اضمم إليك لوطاً فإني أرى العذاب سينزل بقومه وكان لوط ابن أخيه .

(85/382)

وقيل : ابن خالته وقيل : كان أخا سارة وقد مر آنفاً أنها بنت عم إبراهيم عليه السلام ، وعن ابن عباس أنها ضحكت من شدة خوف إبراهيم وهو في أهله وغلمانه ، والذين جاؤوه ثلاثة وهي تعهده يغلب الأربعين ، وقيل : المائة ، وقال قتادة : كان ذلك من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم ، وقال السدى : ضحكت من إمساك الأضياف عن الأكل وقالت : عجبا لأضيافنا نخدمهم بأنفسنا وهم لا يأكلون طعامنا ، وقال وهب بن منبه : وروي أيضاً عن ابن عباس أنها ضحكت من البشارة بإسحق ، وفي الكلام على ذلك تقديم وتأخير ، وقيل : ﴿ ضحكت ﴾ من المعجز الذي تقدم نقله عن جبريل عليه السلام ، ولعل الأظهر ما ذكرناه أولاً عن البعض ، وذهب بعضهم إلى أن المراد بالضحك التبسم ويستعمل في السرور المجرد نحو ﴿ مسفرة ضاحكة ﴾ ، [عبس : 38 ، 39]

ومنه قولهم : روضة تضحك ، وأخرج عبد بن حميد .

وأبو الشيخ .

وغيرهما عن ابن عباس أن ﴿ ضحكت ﴾ بمعنى حاضت ، وروي ذلك عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما .

ومجاهد .

وعكرمة ، وقولهم : ضحكت الأرنب بهذا المعنى أيضاً ، وأنكر أبو عبيدة .

وأبو عبيد .

والفراء مجيء ضحك بمعنى حاض ، وأثبت ذلك جمهور اللغويين ، وأنشدوا له قوله :

وضحك الأرانب فوق الصفا . . .

كمثل دم الجوق يوم اللقا

وقوله :

وعهدي بسلمي (ضاحكا) في لبابة . . .

ولم يعد حقا ثديها أن تحلما

وقوله :

إني لآتي العرس عند طهورها . . .

وأهجرها يوماً إذا تك (ضاحكا)

والمثبت مقدم على النافي .

(86/382)

ومن حفظ حجة على من لم يحفظ ، نعم قال ابن المنير : إنه يبعد الحمل على ذلك هنا قولها : ﴿ ءأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وهذا ﴾ [هود : 72] الخ فإنه لو كان الحيض قبل البشارة لما تعجبت إذ لا عجب في حمل من تحيض ، والحيض في العادة معيار على إمكان الحمل ، ودفع بأن الحيض في غير أوانه مؤكد للتعجب أيضاً ، ولأنه يجوز أن تظن أن دمها ليس بحيض بل استحاضة فلذا تعجبت ، وقرأ محمد بن زياد الأعرابي من قراء مكة ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ بفتح الحاء ، وزعم المهدوي أنه غير معروف وأن ﴿ ضحك ﴾ بالكسر هو المعروف ، ومصدره ضحكاً وضحكاً بسكون الحاء وفتح الضاد وكسرها ، وضحكاً وضحكاً بكسر الحاء مع فتح الضاد وكسرها ، والظاهر أن هذه مصادر ضحك بأي معنى كان ، ويفهم من مجمع البيان أن مصدر ضحك بمعنى حاضت إنما هو ضحكا بفتح الضاد وسكون الحاء ، ولم نر هذا التخصيص في غيره ، وعن بعضهم أن فتح الحاء في الماضي خصوص بضحك بمعنى حاض ، وعليه فالقراءة المذكورة تؤيد تفسير ضحكت على

قراءة الجمهور بحاضت.

﴿ فبشرناها بإسحاق ﴾ قيل: أي عقبنا سرورها بسرور أتم منه على ألسنة رسلنا ﴿ وَمِن وَرَاء إسحاق يَعْقُوبَ ﴾ بالنصب، وهي قراءة ابن عامر.

وحمزة.

وحفص.

وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما على أنه منصوب بتقدير فعل يفسره ما يدل عليه الكلام أي ووهبنا لها من وراء إسحاق يعقوب، ورجح ذلك أبو علي، واعترضه البعض بأنه حينئذ لا يكون ما ذكر داخلاً تحت البشارة، ودفع بأن ذكر هذه الهبة قبل وجود الموهوب بشارة معنى، وقيل: هو معطوف على محل ﴿ بإسحاق ﴾ لأنه في محل نصب، واعترض أنه إنما يتأتى العطف على المحل إذا جاز ظهور المحل في فصيح الكلام كقوله:

ولسنا بالجبال ولا الحديدا...

وبشر لا تسقط باؤه من المبشر به في الفصيح، وزعم بعضهم أن العطف على ﴿ بإسحاق ﴾ على توهم نصبه لأنه في معنى وهبنا لها إسحاق فيكون كقوله:

(مشائيم) ليسوا مصلحين عشيرة...

ولا ناعب إلا بين غرابها

إلا أنه توهم في هذا وجود الباء في المعطوف عليه على عكس ما في الآية الكريمة ، ويقال لمثل هذا : عطف التوهم ، ولا يخفى ما في هذه التسيمة هنا من البشاعة على أن هذا العطف شاذ لا ينبغي التخريج عليه مع وجود غيره ، وبهذا اعترض على الزمخشري من حمل كلامه حيث قال : وقرىء بالنصب كأنه قيل : وهبنا لها إسحاق ومن ورلء إسحاق يعقوب على طريقة قوله

: مشائيم . . .

البيت عليه لما أنه الظاهر منه ، وقال في الكشف أراد أنه عطف معنوي ومثله شائع مستفيض في العطف والاضمار على شريطة التفسير وغيرهما ، وإنما شبهه بقوله :

ولا ناعب . . .

تنبيهاً على أن ذلك مع بعده لما كان واقعاً فهذا أجدر ، والغرض من التشبيه أن غير الموجود في اللفظ جعل بمنلته وأعمل ، ولا يخفى أنه خلاف المتبادر من عبارته ، وقيل : إنه معطوف على لفظ ﴿ إسحاق ﴾ وفتحته للجر لأنه غير مصروف للعلمية والعجمة ، وعلى هذا دخوله في البشارة ظاهر إلا أنه قيل عليه : إنه يلزمه الفصل بين نائب الجار مجروره وهو أبعد منه بين الجار ومجروره ، وفي البحر أن من ذهب إلى أنه معطوف على ما ذكر فقوله ضعيف لأنه لا يجوز الفصل بالظرف أو المجرور بين حرف العطف ومعطوفه

المجرور ، فلا يجوز مررت بزيد اليوم وأمس عمرو فإن جاء ففي شعر ، فإن كان المعطوف منصوباً أو مرفوعاً ففي جواز ذلك خلاف نحو قام زيد واليوم عمرو .

وضربت زيداً واليوم عمرا ، وقرأ الحرميات .

والنحويان .

وأبو بكر و ﴿ يَعْقُوبَ ﴾ بالرفع على الابتداء ، ﴿ وَمِن وَرَاءِ ﴾ الخبر كأنه قيل ومن وراء إسحاق يعقوب كائن .

أو موجود .

أو مولود قال النحاس : والجملة حال داخلة في البشارة أي فبشرناها باسحق متصلاً به يعقوب .

وأجزا أبو علي أن يرتفع بالجار والمجرور كما أجازه الأخفش ، وقيل : إنه جائز على مذهب الجمهور أيضاً لاعتماده على ذي الحال ، وتعقب بأنه وهم لأنه الجار والمجرور إذا كان حالاً لا يجوز اقترانه بالواو فليتدبر .

وجوز النحاس أيضاً أن يكون فاعلاً باضمار فعل تقديره ويحدث من وراء إسحاق يعقوب .

قال ابن عطية : وعلى هذا لا يدخل في البشارة ، وقد مر ما يعلم منه الجواب ، ودوراء ﴾ هنا بمعنى خلف وبذلك فسرها الراغب .

وغيره هنا ، وهو رواية عن ابن عباس ، وفي رواية أخرى عنه تفسيرها بولد الولد وهو أحد معانيها كما في الصحاح ، والقاموس ، وبذلك قال الشعبي ، واختاره أبو عبيدة ،

واستشكل بأن ﴿ ﴾ هنا بمعنى خلف وبذلك فسرها الراغب .

وغيره هنا ، وهو رواية عن ابن عباس ، وفي رواية أخرى عنه تفسيرها بولد الولد وهو أحد معانيها كما في الصحاح ، والقاموس ، وبذلك قال الشعبي ، واختاره أبو عبيدة ،

واستشكل بأن ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إبراهيم بالبشرى قَالُواْ سلاما قَالَ سلام فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وامرأته قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فبشرناها بإسحاق وَمِن وَرَاء ﴾ بالنسبة إليها أي وراؤها من إسحاق كأنهم بشروها بأن تعيش حتى ترى ولد ولدها ، أو بأن يولد لولدها ولد ، قيل : وهذا أقرب ، والمنقول عن الزمخشري أظهر ، والمعول عليه تفسيره بمعنى خلف إذ في كلا الوجهين تكلف لا يخفى ، والاسمان يحتمل وقوعهما في البشارة كما في قوله تعالى : ﴿ نُبَشّرُكَ بغلام

اسمه يحيى ﴾ [مريم : 7] وهو الأظهر .

وروي عن السدى : ويحتمل أنها بشرت بولد وولد ولد من غير تسمية ثم سميا بعد الولادة ، وتوجيه البشارة إليها مع أن الأصل في ذلك إبراهيم عليه السلام ، وقد وجهت إليه في آيتي الحجر .

والذاريات للإيذان بأن ما بشر به يكون منهما ولكونها عقيمة حريصة على الولد وكانت قد تمنته حينما ولد لهاجر إسماعيل عليه السلام .

(89/382)

﴿ قَالَتْ ﴾ استئناف بياني كأن سائلا سأل ما فعلت حين بشرت ؟ فقيل : قالت : ﴿ ياويلتي ﴾ من الويل وأصله الخزي ، ويستعمل في كل أمر فظيع ، والمراد هنا التعجب وقد كثرت هذه الكلمة على أفواه النساء إذ طرأ عليهن ما يتعجبن منه ، والظاهر أن الألف بدل من ياء المتكلم ، ولذا أمالها أبو عمرو .

وعاصم في رواية ، وبهذا يلغز فيقال : ما ألف هي ضمير مفرد متكلم .

وقرأ الحسن ﴿ يا ويلتي ﴾ بالياء على الأصل ، وقيل : إنها ألف الندبة ولذا يلحقونها الهاء فيقولون .

يا ويلتاه ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَا ءَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ ﴾ ابنة تسعين سنة على ما روي عن ابن إسحاق ، أو تسع وتسعين على ما روي عن مجاهد .

﴿ وهذا ﴾ الذي تشاهدونه ﴿ بَعْلِى ﴾ أي زوجي ، وأصل البعل القائم بالأمر فأطلق على الزوج لأنه يقوم بأمر الزوجة ، وقال الراغب : هو الذكر من الزوجين وجمعه بعولة نحو فحل وفحولة ، ولما تصوروا من الرجل استعلاءً على المرأة فجعل سائسها والقائم عليها ؛ وسمي به شبه كل مستعل على غيره به فسمي باسمه ، ومن هنا سمي العرب معبودهم الذي يتقربون به إلى الله تعالى بعلا لاعتقادهم ذلك فيه ﴿ شَيْخًا ﴾ ابن مائة سنة.

أو مائة وعشرين ، وهو من شاخ يشيخ ، وقد يقال : للأنثى شيخة كما قال

: وتضحك مني (شيخة) عبشمية . . .

ويجمع على أشياخ.

وشيوخ.

وشيخان ونصبه على الحال عند البصريين ، والعامل فيه ما في هذا من معنى الإشارة أو التنبيه .

قال الزجاج: ومثل هذه الحال من لطيف النحو وغامضه إذ لا تجوز إلا حيث يعرف الخبر؛ ففي قولك: هذا زيد قائماً لا يقال إلا لمن يعرفه فيفيده قيامه ولو لم يكن كذلك لزم أن لا يكون زيداً عند عدم القيام وليس بصحيح فهنا بعليته معروفة، والمقصود بيان شيوخته وإلا لزم أن لا يكون بعلها قبل الشيخوخة قاله الطيبي، ونظر فيه بأنه إنما يتوجه إذا لم تكن الحال لازمة غير منفكة أما في نحو هذا أبوك عطوفاً فلا يلزم المحذور، والحال ههنا مبينة هيئة الفاعل أو المفعول لأن العامل فيها ما أشير إليه وبذلك التأويل يتحد عامل الحال وذيها، وذهب الكوفيون إلى أن هذا يعمل عمل كان و﴿ شَيْخًا ﴾ خبره وسموه تقريباً".

وقرأ ابن مسعود وهو في مصحفه والأعمش شيخ بالرفع على أنه خبر محذوف أي هو شيخ، أو خبر بعد خبر، وفي البحر إن الكلام على هذا كقولهم: هذا حلو حامض، أو هو الخبر، و﴿ بَعْلِى ﴾ بدل من اسم الإشارة.

أو بيان له، وجوز أن يكون ﴿ بَعْلِى ﴾ الخبر، وشيخ تابعاً له، وكلتا الجملتين وقعت حالا من الضمير في ﴿ ءأَلِدُ ﴾ لتقرير ما فيه من الاستبعاد وتعليله أي أألد وكلانا على حالة منافية لذلك، وإنما قدمت بيان حالها على بيان حاله عليه السلام لأن مباينة حالها لما

ذكر من الولادة أكثر إذ ربما يولد للشيوخ من الشواب أما العجائز داؤهن عقام ، ولأن البشارة متوجهة إليها صريحاً ولأن العكس في البيان ربما يوهم من أول الأمر نسبة المانع عن الولادة إلى جانب إبراهيم عليه السلام وفيه ما لا يخفى من المحذور ، واقتصارها في الاستبعاد على ولادتها من غير تعرض لحال النافلة لأنها المستبعدة وأما ولادة ولدها فلا يتعلق بها استبعاد قاله سيخ الإسلام ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي ما ذكر من حصول الولد من هرمين مثلنا ، وقيل : هو إشارة إلى الولادة أو البشارة بها ، والتذكير لأن المصدر في تأويل ﴿ إن ﴾ مع الفعل ولعل المآل أن هذا الفعل ﴿ لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أي من سنة الله تعالى المسلوكة في عباده ، والجملة تعليل بطريق الاستئناف التحقيقي ومقصدها كما قيل : استعظام نعمة الله تعالى عليها في ضمن الاستعجاب العادي لا استبعاد ذلك من حيث القدرة .

﴿ قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ أي قدرته وحكمته .

(92/382)

أو تكوينه وشأنه سبحانه أنكروا عليها تعجبها لأنها كانت ناشئة في بيت النبوة ومهبط الوحي ومحل الخوارق فكان حقها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء من أمثال هذه الخوارق من ألطاف الله سبحانه الخفية ولطائف صنعه الفائضة على كل أحد ممن

يتعلق بإفاضته عليه مشيئته تعالى الأزلية لا سيما أهل بيت النبوة الذين هم عم وأن تسبح

الله تعالى وتمجده وتحمده ، وإلى ذلك أشاروا بقوله عالى : ﴿ رَحْمَتَ اللهِ ﴾ المستتبعة

كل خير ووضع المظهر موضع المضمر لزيادة تشريفها والإيماء إلى عظمتها ﴿ وبركاته ﴾

أي خيراته التامة المتكاثرة التي من جملتها هبة الأولاد ، وقيل : الرحمة النبوة .

والبركات الأسباط من بني إسرائيل لأن الأنبياء عليهم السلام منهم وكلهم من ولد إبراهيم

عليه السلام ؛ وقيل : رحمته تحيته .

وبركاته فواضل خيره بالخلة والإمامة .

﴿ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت ﴾ نصب على المدح .

أو الاختصاص كما ذهب إليه كثير من المعربين ، قال أبو حيان : وبينهما فرق ولذلك

جعلهما سيبويه في بابين وهو أن المنصوب على المدح لفظ يتضمن بوضعه المدح كما أن

المنصوب على الذم يتضمن بوضعه الذم والمنصوب على الاختصاص يقصد به المدح .

أو الذم لكن لفظه لا يتضمن بوضعه ذلك كقول رؤبة

: بنا تميما يكشف الضباب . . .

انتهى ، وفي الهمع أن النصب في الاختصاص بفعل واجب الإضمار وقدره سيبويه بأعنى

ويختص بأن الواقعة بعد ضمير المتكلم كأنا أفعل كذا أيها الرجل .

وكاللهم اغفر لنا أيتها العصابة ، وحكمها في هذا الباب إلا عند السيرافي .

والأخفش حكمها في باب النداء ويقوم مقامها في الأكثر كما قال سيبويه بنو نحو قوله :

نحن بني ضبة أصحاب الجمل . . .

ومنه قوله

: نحن بنات طارق . . .

نمشي على النمارق

ومعشر كقوله

: لنا معشر الأنصار مجد مؤثل . . .

بإرضائنا خير البرية أحمدا

وفي الحديث " نحن معاشر الأنبياء لا نورث " وآل .

(93/382)

وأهل ، وأبو عمرو لا ينصب غيرهما وليس بشيء ، وقلّ كون ذلك علماً كما في بيت رؤبة

السابق في كلام أبي حيان ، ولا يكون اسم إشارة .

ولا غيره .

ولا نكرة البتة .

ولا يجوز تقديم اسم الاختصاص على الضمير ، وقلّ وقوع الاختصاص بعد ضمير المخاطب كسبحانك الله العظيم ، وبعد لفظ غائب في تأويل المتكلم أو المخاطب نحو على المضارب الوضيعة أيها البائع ، فالمضرب لفظ غيبة لأنه ظاهر لكنه في معنى على أو عليك ، ومنع ذلك الصفار البتة لأن الاختصاص شبه النداء فكما لا ينادي الغائب فكذلك لا يكون فيه الاختصاص انتهى مع أدنى زيادة وتغيير ، ومنه يعلم بعض ما في كلام أبي حيان وأن حمل ما في الآية الكريمة على الاختصاص انتهى مع أدنى زيادة وتغيير ، ومنه يعلم بعض ما في كلام أبي حيان وأن حمل ما في الآية الكريمة على الاختصاص من ارتكاب ما قل في كلامهم ، وجوز في الكشاف نصبه على النداء ، وقدمه على احتمال النصب على الاختصاص ، ولعله أشار بذلك إلى ترجيحه على الاحتمال الثاني لكن ذكر بعض الأفاضل إن في ذلك فوات معنى المدح المناسب للمقام ، والمراد من البيت كما في البحر بيت السكنى ، وأصله مأوى الإنسان بالليل ، ثم قد يقال من غير اعتبار الليل فيه ، ويقع على المتخذ من حجر .

ومن مدر .

ومن صوف .

ووبر ، وعبر عن مكان الشيء بأنه بيته ويجمع على بيوت وأبيات ، وجمع الجمع أبابيت .

وبيوتات .

وأبياوات ، ويصغر على بييت .

وبييت بالكسر ، ويقال : بويت كما تقوله العامة ، وصرف الخطاب من صيغة الواحدة إلى الجمع ليكون جوابهم عليهم السلام لها جواباً لمن يخطر بباله مثل ما خطر ببالها من سائر أهل البيت .

(94/382)

والجملة كلام مستأنف علل به إنكار تعجبها فهي جملة خبرية ، واختاره جمع من المحققين ، وقيل : هي دعائية وليس بذاك ، واستدل بالآية على دخول الزوجة في أهل البيت ، وهو الذي ذهب إليه السنيون ، ويؤيده ما في سورة الأحزاب ، وخالف في ذلك الشيعة فقالوا : لا تدخل إلا إذا كانت قريب الزوج ، ومن نسبه فإن المراد من البيت بيت النسب لا بيت الطين والخشب ، ودخول سارة رضي الله تعالى عنها هنا لأنها بنت عمه ، وكأنهم حملوا البيت على الشرف كما هو أحد معانيه ، وبه فسر في قول العباس رضي الله تعالى عنه يمدح النبي صلى الله عليه وسلم

: حتى احتوى (بيتك) المهيمن من . . .

خندف علياء تحتها النطف

ثم خصوا الشرف بالشرف النسبي وإلا فالبيت بمعنى النسب مما لم يشع عند اللغويين، ولعل الذي دعاهم لذلك بغضهم لعائشة رضي الله تعالى عنها فراموا إخراجها من حكم ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرجس أَهْلَ البيت وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب : 33] وسيأتي إن شاء الله تعالى تفصيل الكلام في هذا المقام، واستدل بالآية على كراهة الزيادة في التحية على السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وروي ذلك عن غير واحد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

(95/382)

أخرج البيهقي في الشعب عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً قال له: سلام عليك ورحمة الله وبركاته ومغفرته فانتهره ابن عمر وقال: حسبك ما قال الله تعالى، وأخرج عن ابن عباس أن سائلاً قام على الباب وهو عند ميمونة فقال: السلام عليكم أهل البيت ما قال الله تعالى، وأخرج عن ابن عباس أن سائلاً قام على الباب وهو عند ميمونة فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته وصلواته ومغفرته، فقال: انتهوا بالتحية إلى ما قال الله سبحانه، وفي رواية عن عطاء قال: كنت جالساً عند ابن عباس فجاء سائل فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفته ورضوانه فقال: ما هذا

السلام ؟! وغضب حتى احمرت وجنتاه إن الله تعالى حد للسلام حداً ثم انتهى ونهى عما وراء ذلك ثم قرأ ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ ﴾ ﴿ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ ﴾ قال أبو الهيثم : أي تحمد أفعاله ، وفي الكشاف أي فاعل ما يستوجب به الحمد من عباده ففعيل بمعنى مفعول ، وجوز الراغب أن يكون ﴿ حَمِيدٌ ﴾ هنا بمعنى حامد ولعل الأول أولى ﴿ مَّجِيدٌ ﴾ أي كثير الخير والإحسان ، وقال ابن الأعرابي : هو الرفيع يقال : مجد كنصر وكرم مجداً ومجادة أي كرم وشرف ؛ وأصله من مجدت الابل إذا وقعت في مرعى كثير واسعد ، وقد أمجدها الراعي إذا أوقعها في ذلك ، وقال الأصمعي : يقال : أمجدت الدابة إذا أكثرت علفها ، وقال الليث : أمجد فلان عطاءه ومجده إذا كثره ، ومن ذلك قول أبي حية النميري : تزيد على صواحبها وليست . . .

(بما جدة) الطعام ولا الشراب

أي ليست بكثيرة الطعام ولا الشراب ، ومن أمثالهم في كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفا رأي استكثر من ذلك ، وقال الراغب : أي تحري السعة في بذل الفضل المختص به ، وقال ابن عطية : مجد الشيء إذا حسنت أوصافه ، والجملة على ما في الكشف تذييل

حسن لبيان أن مقتضى حالها أن تحمد مستوجب الحمد المحسن إليها بما أحسن وتمجده إذ شرفها بما شرف، وقيل: هي تعليل لما سبق من قوله سبحانه: ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(97/382)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا ﴾

عطف قصة على قصة.

وتأكيد الخبر بحرف (قد) للاهتمام به كما تقدّم في قوله : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ [هود : 25] .

والغرض من هذه القصّة هو : الموعظة بمصير قوم لوط إذْ عصوا رسول ربّهم فحلّ بهم العذاب ولم تغن عنهم مجادلة إبراهيم .

وقدّمت قصة إبراهيم لذلك وللتنويه بمقامه عند ربّه على وجه الإدماج، ولذلك غيّر أسلوب الحكاية في القصص الّتي قبلها والتي بعدها نحو ﴿ وإلى عاد ﴾ [هود : 50] إلخ.

والرّسل : الملائكة .

قال تعالى : ﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ [فاطر : 1] .

والبشرى : اسم .

للتبشير والبشارة .

وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وبشّر الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات ﴾ في أوّل سورة [البقرة : 25] .

هذه البشرى هي التي في قوله : فبشّرناها بإسحاق ﴾ لأنّ بشارة زوجه بابنٍ بشارة له أيضاً .

والباء في ﴿ بالبشرى ﴾ للمصاحبة لأنّهم جاءوا لأجل البشرى فهي مصاحبة لهم كمصاحبة الرسالة للمرسل بها .

وجملة ﴿ قالوا سلاماً ﴾ في موضع البيان ل ﴿ البشرى ﴾ ، لأنّ قولهم ذلك مبدأ البشرى ، وإنّ ما اعترض بينها حكاية أحوال ، وقد انتهى إليها في قوله : ﴿ فبشّرناها بإسحاق إلى قوله إنّه حميد مجيد ﴾ .

والسّلام : التحيّة .

وتقدّم في قوله : ﴿ وإذا جاءك الّذين يؤمنون بآياتنا فقل سلامٌ عليكم ﴾ في سورة [الأنعام : 54] .

وسلاماً ﴾ مفعول مطلق وقع بَدَلاً من الفعل.

والتّقدير: سلّمنا سلاماً.

و﴿ سلام ﴾ المرفوع مصدر مرفوع على الخبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أمري سلام، أي لكم، مثل ﴿ فصبرٌ جميل ﴾ [يوسف: 18].

ورفع المصدر أبلغ من نصبه، لأنّ الرّفع فيه تناسي معنى الفعل فهو أدلّ على الدّوام والثّبات.

ولذلك خالف بينهما للدّلالة على أنّ إبراهيم عليه السّلام ردّ السّلام بعبارة أحسن من عبارة الرسل زيادة في الإكرام.

(98/382)

قال ابن عطيّة: حيّاً الخليل بأحسن ممّا حُيِّيَ به، أي نظراً إلى الأدب الإلهي الذي عَلّمَهُ لَنَا في القرآن بقوله: ﴿ وإذا حيّيتم بتحيةٍ فَحَيّوا بأحسن منها أو رُدُّوها ﴾ [النساء: 86]، فَحكيَ ذلك بأوجز لفظ في العربية أداءً لمعنى كلام إبراهيم عليه السّلام في الكلدانيّة.

وقرأ الجمهور ﴿ قال سَلامٌ ﴾ بفتح السّين وبألِف بعد اللاّم.

وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف: ﴿ قال سِلْم ﴾ بكسر السّين وبدون ألِف بعد اللاّم

وهو اسم المسالمة .

وسمّيت به التحية كما سمّيت بمرادِفه (سَلام) فهو من باب اتّحاد وزن فَعال وفِعْل في بعض الصفات مثل : حرام وحِرم ، وحلال وحلّ .

والفاء في قوله : ﴿ فما لبث ﴾ للدّلالة على التعقيب إسراعاً في إكرام الضّيف ، وتعجيل القرى سنّة عربيّة : ظنهم إبراهيم عليه السّلام ناساً فبادر إلى قراهم .

واللّبث في المكان يقتضي الانتقال عنه ، أيْ فما أبطأ .

و﴿ أن جاء ﴾ يجوز أن يكون فاعل ﴿ لَبِثَ ﴾ ، أي فما لبث مجيئه بعجل حنيذ ، أي فما أبطأ مَجيئه مصاحباً له ، أي بل عجّل .

ويجوز جعل فاعل ﴿ لبث ﴾ ضمير إبراهيم عليه السّلام فيقدّر جارّ ل﴿ جاء ﴾ .

والتّقدير : فما لبث بأن جاء به .

وانتفاء اللبث مبالغة في العجل .

والحنيذ : المشوي ، وهو المحنوذ .

والشيُّ أسْرَع من الطبخ ، فهو أعون على تعجيل إحضار الطعام للضيف .

و﴿ لا تصل إليه ﴾ أشد في عدم الأخذ من (لا تتناوله) .

ويقال : نكر الشيء إذا أنكره أي كرهه .

وإنّما نكرهم لأنّه حسب أنّ إمساكهم عن الأكل لأجل التبرّؤ من طعامه ، وإنّما يكون ذلك

في عادة النّاس في ذلك الزّمان إذا كان النّازل بالبيت يضمر شرّاً لمضيّفه ، لأنّ أكل طعام القرى كالعهد على السّلامة من الأذى ، لأنّ الجزاء على الإحسان بالإحسان مركوز في الفطرة ، فإذا انكفّ أحد عن تناول الإحسان فذلك لأنّه لا يريد المسالمة ولا يرضى أن يكون كفوراً للإحسان .

(99/382)

ولذلك عقب قوله ﴿ نكرهم ﴾ بـ ﴿ أوجس منهم خيفة ﴾ ، أي أحسّ في نفسه خيفة منهم وأضمر ذلك .

ومصدره الإيجاس .

وذلك أنّه خشي أن يكونوا مضمرين شرّاً له ، أي حسبهم قطّاعاً ، وكانوا ثلاثة وكان إبراهيم عليه السّلام وحده .

وجملة ﴿ قالوا لا تخف ﴾ مفصولة عمّا قبلها ، لأنّها أشبهت الجواب ، لأنّه لمّا أوجس منهم خيفة ظهر أثرها على ملامحه ، فكان ظهور أثرها بمنزلة قوله إنّي خفت منكم ، ولذلك أجابوا ما في نفسه بقولهم : ﴿ لا تَخف ﴾ ، فحكي ذلك عنهم بالطّريقة الّتي تحكى بها المحاورات ، أو هو جواب كلام مقدّر دلّ عليه قوله : ﴿ وأوجس منهم خيفة

﴾ ، أي وقال لهم : إنّي خفت منكم ، كما حكي في سورة [الحجر : 52] ﴿ قال إنّا منكم وَجِلون ﴾ ومن شأن النّاس إذا امتنع أحد من قبول طعامهم أن يقولوا له : لعلّك غادر أو عَدوّ ، وقد كانوا يقولون للوافد : أحَرْبٌ أم سِلْمٌ .

وقولهم : ﴿ إنّا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ مكاشفة منهم إيّاه بأنّهم ملائكة .

والجملة استئناف مبينة لسبب مجيئهم .

والحكمةُ من ذلك كرامة إبراهيم عليه السّلام وصدورهم عن علم منه .

وحذف متعلّق ﴿ أرسلنا ﴾ أي بأي شيء ، إيجازاً لظهوره من هذه القصّة وغيرها .

وعبّر عن الأقوام المراد عذابهم بطريق الإضافة ﴿ قوم لوط ﴾ إذ لم يكن لأولئك الأقوام اسم يجمعهم ولا يرجعون إلى نسب بل كانوا خليطاً من فصائل عرفوا بأسماء قراهم ، وأشهرها سدوم كما تقدّم في الأعراف .

وجملة ﴿ وامرأته قائمة فضحكت ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ أوجس ﴾ ، لأنّ امرأة إبراهيم عليه السّلام كانت حاضرة تقدّم الطّعام إليهم ، فإن عادتهم كعادة العرب من بعدهم أنّ ربة المنزل تكون خادمة القوم .

وفي الحديث " والعروس خادمهم " وقال مرّة بن محكان التميمي

يا ربّة البيت قومي غير صاغرة . . .

ضُمّي إليك رجال القوم والغربا

وقد اختصرت القصة هنا اختصاراً بديعاً لوقوعها في خلال الحوار بين الرسل وإبراهيم عليهم السّلام ، وحكاية ذلك الحوار اقتضت إتمامه بحكاية قولهم : ﴿ لا تخف إنّا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ .

وأمّا البشرى فقد حصلت قبل أن يخبروه بأنّهم أرسلوا إلى قوم لوط كما في آية سورة [الذاريات : 28] ﴿ فأوجس منهم خيفةً قالوا لا تخَف وبشّروه بغلامٍ عليمٍ .

فلمّا اقتضى ترتيب المحاورة تقديم جملة قالوا لا تخف ﴾ حكيت قصة البشرى وما تبعها من المحاورة بطريقة الحال ، لأنّ الحال تصلح للقبْليّة وللمقارَنة وللبعدية ، وهي الحال المقدّرة .

وإنّما ضحكت امرأة إبراهيم عليه السّلام من تبشير الملائكة إبراهيم عليه السّلام بغلام ، وكان ضحكها ضحك تعجّب واستبعاد .

وقد وقع في التّوراة في الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين "وقالوا له : أين سارة امرأتك ؟ فقال : ها هي في الخيمة .

فقالوا : يكون لسارة امرأتك ابن ، وكانت سارة سامعة في باب الخيمة فضحكت سارة في

باطنها قائلة : أفبالحقيقة أَلِدُ وأنا قد شِخت ؟ فقال الربّ : لماذا ضحكتْ سارة ؟ فأنكرت سارة قائلة لم أضحك ، لأنّها خافت ، قال : لا بل ضحكت" .

وتفريع ﴿ فبشّرناها بإسحاق ﴾ على جملة ﴿ ضحكت ﴾ باعتبار المعطوف وهو ﴿ ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ لأنّها ما ضحكت إلاّ بعد أن بشّرها الملائكة بابن ، فلمّا تعجبت من ذلك بشّروها بابن الابن زيادة في البشرى .

والتّعجيب بأن يولد لها ابن ويعيش وتعيش هي حتّى يولد لابنها ابن .

وذلك أدخل في العجب لأن شأن أبناء الشيوخ أن يكونوا مهزولين لا يعيشون غالباً إلاّ معلولين ، ولا يولد لهم في الأكثر ولأن شأن الشيوخ الذين يولد لهم أن لا يدركوا يفع أولادهم بله أولاد أولادهم .

ولما بشّروها بذلك صرحت بتعجبها الذي كتمته بالضحك ، فقالت : ﴿ يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إنّ هذا لشيءٌ عجيب ﴾ ، فجملة ﴿ قالت ﴾ جواب للبشارة .

و (يعقوب) مبتدأ ﴿ ومن وراء إسحاق ﴾ خبر ، والجملة على هذا في محلّ الحال .

وهذه قراءة الجمهور .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وحفص ﴿ يعقوبَ ﴾ بفتحة وهو حينئذٍ عطف على ﴿ إسحاق ﴾ .

وفصل بين حرف العطف والمعطوف بالظرف وخطبه سهل وإن استعظمه ظاهرية النحاة كأبي حيان بقياس حرف العطف النائب هنا مناب الجار على الجار نفسه ، وهو قياس ضعيف إذ كون لفظ بمعنى لفظ لا يقتضي إعطاءه جميع أحكامه كما في "مغني اللبيب" .

والنداء في ﴿ يا ويلتا ﴾ استعارة تبعية بتنزيل الويلة منزلة من يعقل حتّى تنادى ، كأنها تقول : يا ويلتي احضر هنا فهذا موضعك .

والويلة : الحادثة الفظيعة والفضيحة .

ولعلّها المرة من الويل .

وتستعمل في مقام التعجب ، يقال : يا ويلتي .

واتّفق القرّاء على قراءة ﴿ يا ويلتا ﴾ بفتحة مشبعة في آخره بألف .

والألف التي في آخر ﴿ يا ويلتا ﴾ هنا يجوز كونها عوضاً عن ياء المتكلم في النداء .

والأظهر أنها ألف الاستغاثة الواقعة خلَفاً عن لام الاستغاثة .

وأصله : يا لَويلة .

وأكثر ما تجيء هذه الألف في التعجّب بلفظ عجب ، نحو : يا عجباً ، وباسم شيء متعجب منه ، نحو : يا عشبا .

وكتب في المصحف بإمالة ولم يقرأ بالإمالة ، قال الزجاج : كتب بصورة الياء على أصل ياء المتكلم .

والاستفهام في ﴿ أألد وأنا عجوز ﴾ مستعمل في التعجب .

وجملة ﴿ أنا عجوز ﴾ في موضع الحال ، وهي مناط التعجب .

والبعل : الزوج.

وسيأتي بيانه عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ولا يبدين زينتهن إلاّ لبعولتهن ﴾ في سورة [النور : 31] ، فانظره .

وزادت تقرير التعجب بجملة ﴿ إنّ هذا لشيء عجيب ﴾ وهي جملة مؤكدة لصيغة التعجب فلذلك فصلت عن التي قبلها لكمال الاتّصال ، وكأنّها كانت متردّدة في أنهم ملائكة فلم تطمئنّ لتحقيق بشراهم .

وجملة ﴿ هذا بعلي ﴾ مركبة من مبتدأ وخبر لأنّ المعنى هذا المشار إليه هو بعلي ، أي كيف يكون له ولد وهو كما ترى .

وانتصب ﴿ شيخاً ﴾ على الحال من اسم الإشارة مبينة للمقصود من الإشارة .

وقرأ ابن مسعود ﴿ وهذا بعلي شيخ ﴾ برفع شيخ على أن (بعلي) بيان من (هذا) و (شيخ) خبر المبتدأ .

ومعنى القراءتين واحد .

وقد جرت على هذه القراءة النادرة لطيفة وهي : ما أخبرنا شيخنا الأستاذ الجليل سالم بوحاجب أنّ أبا العبّاس المبرّد دُعي عند بعض الأعيان في بغداد إلى مأدبة ، فلمّا فرغوا من الطّعام غنّت من وراء الستار جارية لرب المنزل ببيتين :

وقالوا لها هذا حبيبك معرضٌ

فقالت : ألاَ إعراضه أهون الخطب . . .

فما هي إلاّ نظرة وابتسامة

فتصطكّ رجلاه ويسقط للجنب . . .

فطرب كل من بالمجلس إلاّ أبا العبّاس المبرد فلم يتحرك ، فقال له رب المنزل : ما لك لم يطربك هذا ؟ .

فقالت الجارية : مَعذُور يحسبني لحنت في أن قلت : معرضٌ بالرفع ولم يعلم أنّ عبد الله بن مسعود قرأ "وهذا بعلي شيخٌ" فطرب المبرد لهذا الجواب .

وجواب الملائكة إياها بجملة ﴿ أتعجبين من أمر الله ﴾ إنكار لتعجبها لأنه تعجبٌ مراد منه الاستبعاد .

و﴿ أمر الله ﴾ هو أمر التكوين ، أي أتعجبين من قدرة الله على خرق العادات .

وجوابهم جار على ثقتهم بأن خبرهم حق منبىء عن أمر الله .

وجملة ﴿ رحمت الله وبركاته عليكم ﴾ تعليل لإنكار تعجبها ، لأن الإنكار في قوة النفي ، فصار المعنى : لا عجب من أمر الله لأنّ إعطاءك الولد رحمة من الله وبركة ، فلا عجب في تعلّق قدرة الله بها وأنتم أهل لتلك الرحمة والبركة فلا عجب في وقوعها عندكم .

ووجه تعليل نفي العجب بهذا أن التعجب إمّا أن يكون من صدور هذا من عند الله وإما أن يكون في تخصيص الله به إبراهيم عليه السّلام وامرأته فكان قولهم ﴿ رحمت الله وبركاته عليكم ﴾ مفيداً تعليل انتفاء العجبين .

وتعريف ﴿ البيت ﴾ تعريف حضور ، وهو البيت الحاضر بينهم الذي جرى فيه هذا التحاور ، أي بيت إبراهيم عليه السّلام .

والمعنى أهل هذا البيت .

والمقصود من النداء التنويه بهم ويجوز كونه اختصاصاً لزيادة بيان المرَاد من ضمير الخطاب .

وجملة ﴿ إنّه حميد مجيد ﴾ تعليل لتوجه رحمته وبركاته إليهم بأنّ الله يحمد من يطيعه ، وبأنّه مَجِيدٌ ، أي عظيم الشأن لاَ حَدّ لِنعَمِه فلا يعظم عليه أن يعطيها ولداً ، وفي اختيار وصف الحميد من بين الأسماء الحسنى كناية عن رضى الله تعالى على إبراهيم عليه السّلام وأهله . انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(104/382)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا ﴾

وكلمة " رسل " جمع " رسول " ، والرسول هو المرسَل من جهة إلى جهة ، وأي إنسان تبعثه إلى جهة ما ؛ اسمه رسول ، ولكن المعنى الشرعي للرسول : أن يكون مُرسَلاً من الله .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ اللّهُ يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس ﴾ [الحج : 75] .

واصطفاء الملائكة كرسل لتيسير التلقّي عن الخالق سبحانه ؛ لأن القوة التي تتلقى عن

الخالق سبحانه وتعالى لا بد أن تكون قوة عالية ، والإنسان منا لا يقدر على أن يتلقى مباشرة عن الحق سبحانه .

لذلك يأتي لنا الله جَلَّ عُلاَه بالرسل ، فيصطفي من الملائكة المخصوصين القادرين على التلقي لينزلوا على المصطفى من البشر القادر على حمل الرسالة .

وهكذا نعلم أن الملائكة ليست كلها قادرة على التلقي من الله تعالى ، ولا كل البشر بقادرين على التلقي عن الله أو عن الملائكة .

وهذه الحلقات في الإبلاغ أرادها الحق سبحانه ، لتؤهل للضعيف أن يأخذ من الأقوى ؛ والبشر يلجأون إلى ذلك في حياتهم .

وسبق أن ضربت المثل ، بأننا أثناء الليل نطفىء نور المنزل ، لكننا نترك ضوءاً خافتاً يوضح لنا ملامح البيت ، فإن قمنا ليلاً من النوم ؛ لا نصطدم بمتاع البيت ، فيتحطم ما نصطدم به إن كان أضعف منا ، أو نُصَاب نحن إن اصطدمنا بما هو أقوى منا .

والنور الضعيف يتيح لنا أن نرى مكان مفتاح الضوء القوي .

وكذلك يفعل الله سبحانه وتعالى ، فيأتي بمصطفى من الملائكة ، يتلقى عن الحق سبحانه ويبلغ المَلَكُ من هؤلاء الرسولَ المصطفى من البشر .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ

مَا يَشَاءُ ﴾ [الشورى : 51] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

(105/382)

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بالبشرى ﴾ [هود : 69] .

والبشرى هي الإخبار بشيء يسرُّ قبل أوان وقوعه ، وهي عكس الإنذار الذي يعني الإخبار بشيء محزن قبل أوانه .

وقبل أن يوضح الرسل لإبراهيم عليه السلام البشارة التي جاءوا من أجلها ، يعلمنا الحق سبحانه المقدمات اللازمة للدخول إلى الأماكن ، فمن أدب الدخول إلى أي مكان أن نسلِّم على أهل هذا المكان ، والحق سبحانه القائل :

﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا على أَهْلِهَا ﴾ [النور : 27] .

ولذلك يأتي الحق سبحانه هنا بما قالته الملائكة من قبل إبلاغ البشرى :

﴿ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [هود : 69] .

وجاء سبحانه بردِّ إبراهيم عليه السلام :

﴿ قَالَ سَلاَمٌ ﴾ [هود : 69] .

ونحن نلحظ أن السلام جاء على ألسنتهم بالنصب ، والرد بالسلام جاء بالرفع ، وقولهم :

﴿ سَلاَماً ﴾ دل على فعل يوضح التجدد ، والرد جاء بكلمة ﴿ سَلاَمٌ ﴾ بالرفع ؛ ليدل على الثبات والإصرار .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾

[النساء : 86] .

هكذا استقبل إبراهيم عليه السلام رسل الحق سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : 69] .

والعجل هو ولد البقر .

وهناك آيات كثيرة في القرآن تعرضت لقصة إبراهيم عليه السلام في أكثر من موضع من مواضع القرآن ، لا بقصد التكرار ، ولكن لأن كل لقطة في أي موضع هي لقطة مقصودة لها دلائلها وأسرارها ، فإذا جُمِعَتْ اللقطات فسوف تكتمل لك قصة إبراهيم عليه السلام في شمول متكامل .

وعلى سبيل المثال : يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ نري إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السماوات والأرض ﴾ [الأنعام : 75] .

(106/382)

وفي موضع آخر يتعرض الحق سبحانه للتربية اليقينية التي أرادها لإبراهيم ، فيقول سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اليل رَأَى كَوْكَباً قَالَ هذا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لاا أُحِبُّ الآفلين * فَلَمَّا رَأَى القمر بَازِغاً قَالَ هذا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين * فَلَماَّ رَأَى الشمس بَازِغَةً قَالَ هذا رَبِّي هاذآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يا قوم إِنِّي بريء مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السماوات والأرض حَنِيفاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ المشركين ﴾ [الأنعام : 7679] .

إن هذه الآيات تبين وظيفة الحواس إدراكاً ، ووظيفة الوجدان انفعالاً ، ووظيفة الاختيار توحيداً وإذعاناً بيقين .

ثم يقول الحق سبحانه في موضع آخر على لسان إبراهيم عليه السلام فخاطب عمه باحترام لمكانته التي تساوي منزلة الأب .

يقول الحق سبحانه :

﴿ واذكر فِي الكتاب إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ ياأبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً * ياأبت إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ العلم مَا لَمْ يَأْتِكَ فاتبعني أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً * ياأبت لاَ تَعْبُدِ الشيطان إِنَّ الشيطان كَانَ للرحمن عَصِيّاً * ياأبت إني أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ [مريم : 4145] .

فهذه الآية تبين رفق الداعي مع جمال العرض .

فأصرَّ العَمُّ على الشرك ، فقال إبراهيم عليه السلام :

﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ربي ﴾ [مريم : 47] .

وبعد ذلك يتبرأ منه لإصراره على الكفر .

ثم هناك لقطة من يُحاجج إبراهيم في ربه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ الله الملك إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة : 258] .

وكانت تلك سفسطة في القول ناتجة عن عجز في التعبير ، فليس إصدار حكم بالقتل على

إنسان ، ثم العفو عنه ، هو إحياء وإماتة ، فأخذه إبراهيم عليه السلام إلى منطقة لا يجرؤ عليها أحد ، وقال :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة : 258] .

وهذه الآية تبين منطق الحق أمام زيف الباطل ، ثم يأتي في موضع آخر من القرآن ليبين المقارنة بين فكرة الكفر ، وفكرة الإيمان ، فيقول سبحانه :

﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾

[الشعراء : 6974] .

وفي هذه الآية أمثلة تحمل جواب الإسكات .

ثم يقول الحق سبحانه ، على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿ الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * والذي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين ﴾ [الشعراء : 7882] .

يقول رب العزة سبحانه في سورة الأنبياء :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هذه التماثيل التي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُواْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قالوا أَجِئْتَنَا بالحق أَمْ أَنتَ مِنَ اللاعبين * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السماوات والأرض الذي فطَرَهُنَّ وَأَنَاْ على ذلكم مِّنَ الشاهدين ﴾ [الأنبياء : 5156] .

هذه هي التربية اليقينية التي أرادها الحق سبحانه لإبراهيم عليه السلام ليعلمنا كيف يكون الإيمان ؟

وكان قوم إبراهيم يعبدون آلهة غير الله ، لكن إبراهيم عليه السلام توصَّل إلى عبادة مَنْ خلَقه وخَلَق الكون ، وهو الصانع الذي يضع قانون صيانة ما يصنع سبحانه وتعالى :

ولذلك نلاحظ قوله :

﴿ الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 78] .

فلم يقل : " الذي خلقني يهديني " لأن هذه دعوى ؛ ستُدَّعى ، وسيضع الناس قوانين لأنفسهم ، فبيَّن الحق سبحانه أن الذي خَلَق هو الذي يَهْدِي .

وجاء الحق سبحانه بكلمة " هو " لحصر الأمر حتى لا يشارك الخلق خالقهم فيه ، لكن الأمر الذي لم يُدَّع ، لم يأت فيه بكلمة " هو " كقوله :

﴿ والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء : 81] .

فما لا شركة فيه عند الخَلْق يأتي به القرآن من غير تأكيد الضمير ، ولكن في الأمر الآخر يأتي بتأكيد الضمير كقوله :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : 80] .

فقد قال : " إن الطبيب هو الذي يشفيني " ، ولكن ذلك غير حقيقي ؛ لأن الله سبحانه هو الذي يضع العلم ، وهو الذي خلق الداء وخلق الدواء .

ثم بعد ذلك يقول الحق سبحانه في قصة إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القواعد مِنَ البيت ﴾ [البقرة : 127] .

(109/382)

إذن : فكل مناسبة تأتي لتأكيد معنى من معاني الإيمان تأتي معها لقطة من لقطات قصة إبراهيم عليه السلام ، وإذا جُمِعت اللقطات كلها تجد قصة إبراهيم كاملة .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يريد أن يقص على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم القصص ، فذلك لتثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : 120] .

لأن النبي صلى الله عليه وسلم يتعرض لكثير من الأحداث فيذكِّره الله سبحانه بما حدث

للرسل عليهم السلام ويأتي باللقطات الإيمانية ليثبت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴾ [هود : 69] .

وفي موضع آخر يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ﴾ [الحجر : 52] .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه هذا الموقف :

﴿ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴾ [الذاريات : 28] .

أي : أحس في نفسه الخوف ، وهذا من أمر المواجيد ؛ لأن كل فعل من الأفعال له مقدمات تبدأ بالإدراك ، ثم النزوع ، ثم الفعل ؛ فحين رآهم إبراهيم عليه السلام أوجس في نفسه خيفة ، ثم نزع إلى فعل هو السلام .

والشرع لا يتدخل في الإدراك أو المواجيد ، ولكنه يتدخل في النزوع ، إلا في أمر واحد من مدركات الإنسان ، وهو إدراك الجمال في المرأة .

لذلك أمر الشرع بغض البصر ؛ حتى لا يدرك الإنسان ذلك فينزع إلى سلوك ليس له حق فيه ، ولأن إدراك حُسْن المرأة قد يدفع الغرائز إلى السلوك الفوري ؛ لأن الغرائز لا تفصل النزوع عن الوجدان والإدراك .

وهنا بيّن الحق مواجيد إبراهيم عليه السلام حين قال :

﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ [هود : 70] .

وجاء بالمعنى النزوعي حين قال :

(110/382)

﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾ [هود : 69] .

وهو حين التأكيد والتثبيت .

وقال الحق سبحانه :

﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : 69] .

وهو : العجل السمين المشوي على الحجارة ؛ لأن الشواء كما نعلم قد يكون على اللهب أو على الفحم ، أو على الحجارة .

ومثل ذلك يحدث في البلاد العربية حين يأتون بحجر رقيق جدّاً ، ويحمُّونه على النار ، ثم يشوون عليه اللحم ، وهذا ما يضمن عدم حدوث تفاعلات بين اللحم والحجر ؛ لأن هناك تفاعلات تحدث من الحديد أو من الفحم ؛ ولذلك فهذه أنظف طريقة للشواء .

أو أن كلمة : ﴿ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : 69] .

أي : ينزل منه الدهن بعد الشواء .

وقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : 69] .

لأن طبيعة سيدنا إبراهيم عليه السلام هي محبة الضيوف وإكرامهم .

ومن عادة الكرام أن يُعجّلوا بإكرام الضيف ، وتقديم الطعام له ، والكريم هو من يفعل ذلك ؛ لأنه لا يعلم ما قد مر على الضيف دون طعام ، فإن كان الضيف جائعاً ؛ أكل ، وإن كان شبعان فهو يعلن ذلك .

ويقول الحق سبحانه ما حدث بعد أن جاء لهم إبراهيم عليه السلام بالعجل المشوي : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾

وحين رأى إبراهيم أن أيديهم لا تصل إلى الطعام توجس من ذلك شرّاً ونكرهم ، أي : استنكر أنهم لم يأكلوا من طعام قدَّمه لهم ، فهل علم إبراهيم أنهم ملائكة ؟

لقد علم إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة من كلامهم .

وقد بيّن ذلك قول الحق سبحانه في موضع آخر من القرآن :

﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُواْ لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي على أَن مَّسَّنِيَ الكبر فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بالحق فَلاَ تَكُن مِّنَ القانطين * قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضآلون * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون * قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَا إلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ [الحجر : 5258] .

إذن : فهم لم يقولوا له مثلما قالوا للوط عليه السلام :

﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ [هود : 81] .

وهنا حين قالوا لإبراهيم عليه السلام :

﴿ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إلى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود : 70] .

أي : أنهم فهموا أن إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم ملائكة ؛ لأن المَلَك قد يتشكل في هيئة إنسان ، مثلما تشكَّل جبريل عليه السلام أمام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وكذلك الجن لهم قدرة على التشكل ، إلا أن هناك فارقاً بين تشكل الملك وتشكل الجن ، فالجن إن تشكل تحكمه الصورة ، فإن تشكل في صورة رجل فيمكنك أن تمسك به وتؤذيه .

ألم يَقُلْ رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إن عفريتاً من الجن تفلَّت البارحة ليقطع عليّ صلاتي ، فأمكنني الله منه ، فأخذته ، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد ، حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت

دعوة أخي سليمان :

﴿ قَالَ رَبِّ اغفر لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بعدي إِنَّكَ أَنتَ الوهاب ﴾ [ص : 35] .

فرددته خاسئاً " .

إذن : إذا تشكل الجن حكمته الصورة ، ويمكن أن نضربه مثلاً ، أما الملاك إذا تشكل فالصورة لا تحكمه .

(112/382)

وحُكْم الصورة عند تشكل الجني هي التي تحمينا من مخاوفنا ، وهو أيضاً يخاف منا مثلما نخاف منه ، ولذلك لا يظهر الجني متشكلاً في صورة إلا لحظة قصيرة ليختفي على الفور ؛ لأنه يخاف أن تكون قد علمتم أن الصورة التي تشكل عليها تحكمه وتستطيع أن تفتك به ؛ لذلك فالجن يخافون من البشر .

وشاء الحق سبحانه ذلك الأمر حتى لا يفزع الجنُّ الناسَ .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ [هود : 70] .

وكلمة ﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ تقتضي أن ننظر في مادة " النون والكاف والراء " وكلمة " نكر " وكلمة " أنكر " كلتاهما مستعملة في القرآن .

والشاعر يقول :

وَأَنْكَرَتْنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرَتْ . . . مِنَ الحَوادِثِ إلاّ الشَّيبَ والصَّلَعا

والاستعمال اللغوي يدل على أن المقابح من ألوان السلوك تسمى منكرات ، أي : ينكرها الإنسان بفطرته .

وهنا حين رأى إبراهيم عليه السلام أن أيديهم لا تصل إلى العجل الحنيذ نكرهم ، وأوجس في نفسه خيفة ، فلاحظوا ذلك ، وقالوا :

﴿ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إلى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود : 70] .

وهكذا عرف لمن جاءوا ، واطمأن أن قومه لم يأتوا بفعل يستحقون عليه العذاب ، وخصوصاً أن كتب التاريخ تقول : إن إمرأة إبراهيم عليه السلام قالت له : ألا تضم ابن أخيك إلى كنفك هنا ؛ لأن قومه يوشك أن يعمهم الله بالعذاب .

وحين سمعت أن الرسل إنما جاءت إلى قوم لوط سُرَّتْ من فراستها ، وتبسَّمت لأنها تنبهت إلى هذه المسألة .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ قالوا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ

لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الذاريات : 3234] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ وامرأته قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾

(113/382)

فعندما كانت أمرأته قائمة على خدمة الضيوف ، وسمعت كلام الملائكة اطمأنت على أنه لا عذاب على قومهم ، وتحققت فراستها فضحكت فأزادها الله سروراً ، وبشّرتها الملائكة بإسحق ، ومن وراء إسحق يعقوب .

فبعد دفع العذاب ، وبيان أمر العذاب لقوم آخرين مجرمين ، تأتي البشارة بتحقيق ما كان إبراهيم عليه السلام وزوجه يصبوان إليه ، وإن كان أوانها قد فات ؛ لأن زوجة إبراهيم كانت قد بلغت التسعين من عمرها ، وبلغ هو المائة والعشرين عاماً . وفي هذا امتنان على إبراهيم بمجيء ابن الابن أيضاً ، وكذلك يمتن الله سبحانه على عباده حين يقول :

﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل : 72] .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : 71] .

فالإنسان يحب أن يكون له ابن ، ويحب أكثر أن يرى ابن ابنه ، لأن هذا يمثل امتداداً له .

وهكذا توالت البشارات ، فقد أعلنت الملائكة أنها جاءت لتعذب قوم لوط ، هؤلاء الذين اختلف معهم إبراهيم عليه السلام ؛ لما جاءوا به من الفواحش ، وكذلك لأن إبراهيم عليه السلام وامرأته قد علما أنهما لم يأتيا بأي أمر يغضب الله تعالى .

والثالثة من البشارات هي الغلام ، وكان ذلك حُلْماً قديماً عند امرأة إبراهيم عليه السلام لأنها عاقر ، واستقبلت امرأة إبراهيم البشارة الأولى بالضحك ، واستقبلت البشارة بالابن بالدهشة .

وهذا ما يقول فيه الحق سبحانه : ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾

والشيء العجيب هو الذي يخالف نواميس الكون المعتادة ، ولكن هناك فرقاً بين النواميس وخالق النواميس ، الذي هو قادر على أن يخرق النواميس .

وها هو سيدنا إبراهيم يقول في موضع آخر :

﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ ﴾ [الحجر : 54] .

ولم يأت هنا بقول امرأة إبراهيم التي قالت :

﴿ يا ويلتى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وهذا بَعْلِي شَيْخاً ﴾ [هود : 72] .

وتسمية الزوج بعلاً فيها دقة شديدة ؛ لأن البعل هو الذي يقوم بأمر المبعول ولا يحوجه لأحد .

كذلك الزوج يقوم بأمر زوجته فيما لا يستطيع أبوها ولا أخوها أن يقوما به ، وهو الإحساس بالأنوثة والإخصاب ، وهو أهم ما تطلبه المرأة .

وأيضاً سُمِّي النخل بالبعل ، لأنه لا يطلب من زارعة أن يسقيه ، وإنما يكتفي النخل بما يمتصه من الأرض ، وما ينزل له من مطر السماء .

وكذلك سُمِّي نوع من الفول " بالفول البعلي " ، وهو الذي لا يحتاج إلى إرواء .

إذن : فالبعل هو الزوج الذي يقوم على أمر زوجته فلا يُحوجها إلى غيره في أي شيء من الأشياء .

وهنا تتعجب زوجة إبراهيم عليه السلام من أمر الإنجاب ؛ لأن هذا شيء عجيب يقع على غير انتظار ؛ ولذلك يرد الملائكة عليها .

ويقول الحق سبحانه عن ذلك : ﴿ قالوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله ﴾

والعجب إذن إنما يكون من قانون بشري ، وإنما القادر الأعلى سبحانه له طلاقة القدرة في أن يخرق الناموس . . ومن خرق النواميس جاءت المعجزات لتثبت صدق البلاغ عن الله تعالى ، فالمعجزات أمر خارق للعادة الكونية .

والقصة التي حدثت لإبراهيم عليه السلام وامرأته تكررت في قصة زكريا عليه السلام ، والحق سبحانه هو الذي أعطى مريم عليها السلام بشارة التذكير لزكريا عليه السلام حين سألها :

﴿ أنى لَكِ هذا ﴾ [آل عمران : 37] .

فقالت مريم :

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 37] .

إذن : فالحساب يكون بين الخلق وبعضهم ، لا بين الخالق سبحانه وخَلْقه .

ولذلك يأتي قول الحق عز وجل :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ [آل عمران : 38] .

وما دام زكريا عليه السلام قد تذكَّر بقول مريم :

﴿ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 37] .

فمن حقه أن يدعو :

﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً ﴾ [آل عمران : 38] .

فأوحى له الله سبحانه وتعالى :

﴿ يازكريا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ اسمه يحيى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ [مريم : 7] .

أي : أن الحق سبحانه لم يرزقه الابن فقط ، بل وسماه له أيضاً باسم لم يسبقه إليه أحد .

وتسمية الله تعالى غير تسمية البشر ، فإن كان بعض البشر قد سموا من بعد ذلك بعض أبنائهم باسم " يحيى " فقد فعلوا ذلك من باب الفأل الحسن في أن يعيش الابن .

لكن الحق سبحانه حين يسمي اسماً ، فقد سماه " يحيى " ليحيا بالفعل ، ويبلغ سن الرشد ، ثم لا يأتي الموت ؛ لذلك قُتِل يحيى وصار شهيداً ، والشهيد حيٌّ عند ربه لا يأتي إليه موتٌ أبداً .

وهذا عكس تسمية البشر ؛ لأن الإنسان قد يسمي ابنه " سعيد " ويعيش الابن حياته في منتهى الشقاء .

والشاعر يقول عن الإنسان الذي سمى ابنه " يحيى " :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا فَلَمْ يَكُنْ . . . لِرَدِّ قَضَاءِ الله فيه سَبِيلُ

وحين نرجع إلى أن مريم عليها السلام هي التي نبهت إلى قضية الرزق من الله ، نجد أن زكريا عليه السلام قد دعا ، وذكر أنه كبير السن وأن زوجه عاقر .

ولا بد أن زكريا عليه السلام يعرف أن الحق سبحانه وتعالى يعلم كل شيء أزلاً ، ولذلك

شاء الله سبحانه أن يطمئن زكريا عليه السلام بأنه سيرزقه الولد ويسميه ، ويأتي قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كذلك قَالَ رَبُّكَ ﴾ [مريم : 9] .

وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذي قرّر ، فلا رادّ لما أراده ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم : 9] .

وهكذا توالت الأحداث بعد أن نبهت مريم زكريا عليه السلام إلى قضية خَرْق النواميس التي تعرضت هي لها بعد ذلك ، حينما تمثّل لها المَلك بشراً ، وبشّرها بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام .

(116/382)

وتساءلت مريم عن كيفية حدوث ذلك وهي التي لم يمسسها بشر فيذكِّرها الملك بأنها هي التي أجرى الله سبحانه وتعالى على لسانها قوله الحق في أثناء كلامها مع زكريا عليه السلام :

﴿ إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 37] .

وكان لا بد من طمأنتها ؛ لأن إنجابها للمسيح عيسى عليه السلام دون أب هي مسألة

عرض ، ويجب أن تُقبل عليها وهي آمنة ، غير مرتابٍ فيها ولا متهمة .

والآية التي نحن بصددها هنا تتعرض لامرأة إبراهيم عليه السلام حين جاءتها البشارة بالطفل ، وكيف أوضحت لها الملائكة أنه لا عجب مما قدّره الله تعالى وأراده ، خلافاً للناموس الغالب في خلقه ؛ لأن رحمة الله تبارك وتعالى بكل خير فيها قد وسعت أهل بيت النبوة ، ومن تلك الرحمة والبركات هبة الأبناء في غير الأوان المعتاد .

ولهذا قال الحق سبحانه هنا :

﴿ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت ﴾ [هود : 73] .

وينهي الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود : 73] .

أي : أنه سبحانه يستحق الحمد لذاته ، وكل ما يصدر عنه يستوجب الحمد له من عباده ، فلا حد لخيره وإحسانه ، والله تعالى مُطْلَقُ صفات المجد .

وكلمة " حميد " في اللغة من " فَعِيل " وتَرِدُ على معنيين : إما أن تكون بمعنى فاعل مثل قولنا : " الله رحيم " بمعنى أنه راحم خلقه . وإما أن تكون بمعنى مفعول ؛ كقولنا : " قتيل " بمعنى " مقتول " .

وكلمة " حميد " هنا تأتي بالمعنيين معاً : " حامدٌ " و " محمودٌ " ، مثل قول الحق سبحانه عن نفسه أنه " الشكور " ؛ لأنه سبحانه يشكر من يشكره على نعمه بطاعته . والله

سبحانه "حميدٌ" ؛ لأنه حامدٌ لمن يطيعه طاعة نابعة من الإيمان ، والله سبحانه "محمودٌ" ممن أنعم عليهم نعمه السابغة .

والله سبحانه هو المجيد الذي يعطي قبل أن يُسأل .

(117/382)

ولذلك نجد عارفاً بالله تعالى قد جاءه سائل ، فأخرج كيساً ووضعه في يده ، ثم رجع إلى أهله يبكي ، فقالت له امرأته : وما يبكيك وقد أديت له حق سؤاله ؟ قال : أنا أبكي لأني تركته ليسأل ، وكان المفروض ألا أجعله يقف موقف السائل .

والحق سبحانه وتعالى أعطانا ، حتى قبل أن نعرف كيف نسأل ، ومثال ذلك : هو عطاء الحق سبحانه وتعالى للجنين في بطن أمه ، والجنين لم يتعلم الكلام والسؤال .

والحق سبحانه وتعالى في كل لقطة من لقطات القرآن يعطي فكرة اجتماعية مأخوذة من الدين ، فها هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يقدم العجل الحنيذ للضيوف ، ليعلمنا أنه إذا جاء لك ضيف ، وعرضت عليه الطعام ، ولم يأكل ، فلا ترفع الطعام من أمامه ، بل عليك أن تسأله أن يأكل ، فإن رد بعزيمة ، وقال : لقد أكلت قبل أن أحضر إليك ، فلَكَ أن ترفع الطعام من أمامه بعد أن أكدت عليه في تناول الطعام .

ويروي بعض العارفين أن سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما قال : ألا تأكلون ؟ قالت الملائكة : لا نأكل إلا إذا دفعنا ثمن الطعام . فقال إبراهيم ، بما آتاه الله من حكمة النبوة ووحي الإلهام : ثمنه أن تُسمُّوا الله أوله ، وتحمدوه آخره .

وأنت إذا أقبلت على طعام وقلت في أوله : " بسم الله الرحمن الرحيم " وإذا انتهيت منه وقلت : " الحمد لله " ؛ تكون قد أديت حق الطعام مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ [التكاثر : 8] .

وهكذا بيَّن لنا الحق سبحانه أن إبراهيم عليه السلام وزوجه قد أطمأنا على أن الملائكة قد جاءت لهما بالبشرى ، وأنها لا تريد بإبراهيم أو بقومه سوءاً ، بل هي مكلفة بتعذيب قوم لوط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(118/382)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن عثمان بن محسن رضي الله عنه في ضيف إبراهيم كانوا أربعة.

جبريل عليه السلام، وميكائيل، وإسرافيل، ورفائيل.

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير رضي الله عنه أنه قرأ: قالوا سلاماً قال سلام وكل شيء سلمت عليه الملائكة فقالوا سلاماً قال سلام.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ بعجل حنيذ ﴾ قال: نضيج.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ حنيذ ﴾ قال: مشوي.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ بعجل حنيذ ﴾ قال: سميط.

وأخرج الطستي عن ابن عباس: أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ بعجل حنيذ ﴾ قال: الحنيذ النضيج ما يشوى بالحجارة. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر وهو يقول:

لهم راح وفار المسك فيهم... وشاوهم إذا شاوا حنيذ

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ بعجل حنيذ ﴾ قال: الحنيذ الذي أنضِج بالحجارة.

وأخرج أبو الشيخ عن شمر بن عطية قال: الحنيذ الذي شوي وهو يسيل منه الماء.

أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن كعب رضي الله عنه قال : بلغنا أن إبراهيم عليه السلام كان يشرف على سدوم فيقول : ويلك يا سدوم يوم مالك ، ثم قال ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ نضيج وهو يحسبهم أضيافاً ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أُرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ قال : ولد الولد ﴿ قالت ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب ﴾ فقال لها جبريل ﴿ أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ وكلمهم إبراهيم في أمر قوم لوط إذ كان فيهم إبراهيم قالوا : ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ﴾ [هود : 76] إلى قوله ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم ﴾ [هود : 77] قال : ساءه مكانهم لما رأى منه من الجمال ﴿ وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب ﴾ قال : يوم سوء من قومي ، فذهب بهم إلى منزله ، فذهبت امرأته لقومه ﴿ فجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال : يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ [هود : 78] تزوّجوهن ﴿ أليس منكم رجل رشيد ، قالوا : لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ﴾ [هود : 79] وجعل الأضياف في بيته وقعد على باب البيت ﴿ قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد

﴾ [هود : 80] قال : إلى عشيرة تمنع ، فبلغني أنه لم يبعث بعد لوط عليه السلام رسول إلا في عز من قومه ، فلما رأت الرسل ما قد لقي لوط في سيئتهم ﴿ قالوا يا لوط إنا رسل ربك ﴾ [هود : 81] إنا ملائكة ﴿ لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ﴾ [هود : 81] إلى قوله ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ [هود : 81] فخرج عليهم جبريل عليه السلام ، فضرب وجوههم بجناحه ضربة فطمس أعينهم والطمس ذهاب الأعين ، ثم احتمل جبريل وجه أرضهم حتى

(120/382)

سمع أهل سماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم ثم قلبها عليهم ﴿ وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ قال : على أهل بواديهم ، وعلى رعاتهم ، وعلى مسافرهم فلم يبق منهم أحد .

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما رأى إبراهيم أنه لا تصل إلى العجل أيديهم نكرهم وخافهم ، وإنما كان خوف إبراهيم أنهم كانوا في ذلك الزمان إذا هم أحدهم بأمر سوء لم يأكل عنده يقول : إذا أكرمت بطعامه حرم عليّ أذاه ، فخاف إبراهيم أن يريدوا به سوءاً ، فاضطربت مفاصله ،

وامرأته سارة قائمة تخدمهم ، وكان إذا أراد أن يكرم أضيافه أقام سارة لتخدمهم ، فضحكت سارة وإنما ضحكت انها قالت : يا إبراهيم وما تخاف أنهم ثلاثة نفر وأنت وأهلك وغلمانك ؟ قال لها جبريل : أيتها الضاحكة أما أنك ستلدين غلاماً يقال له إسحاق ، ومن ورائه غلام يقال له يعقوب ﴿ فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها ﴾ فأقبلت والهة تقول : واويلتاه .

(121/382)

. . ! ووضعت يدها على وجهها استحياء . فذلك قوله ﴿ فصكت وجهها وقالت أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ﴾ قال : لما بشر إبراهيم بقول الله ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى ﴾ باسحاق ﴿ يجادلنا في قوم لوط ﴾ وإنما كان جداله أنه قال : يا جبريل أين تريدون ، وإلى من بعثتم ؟ قال : إلى قوم لوط وقد أمرنا بعذابهم . فقال إبراهيم ﴿ إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته ﴾ [العنكبوت : 32] وكانت فيما زعموا تسمى والقة فقال إبراهيم : إن كان فيهم مائة مؤمن تعذبونهم ؟ قال جبريل : لا . قال : فإن كان فيهم تسعون مؤمنون تعذبونهم ؟ قال جبريل : لا ، قال : فإن كان فيهم ثمانون مؤمنون تعذبونهم ؟ قال جبريل : لا ، حتى انتهى في العدد إلى واحد

مؤمن ؟ قال جبريل : لا ، فلما لم يذكروا لإبراهيم أن فيها مؤمناً واحداً قال : ﴿ إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته ﴾ [العنكبوت : 32] .

(122/382)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن وهب بن منبه رضي الله عنه . أن إبراهيم عليه السلام حين أخرجه قومه بعدما ألقوه في النار خرج بامرأته سارة ومعه أخوها لوط وهما ابنا أخيه ، فتوجها إلى أرض الشام ثم بلغوا مصر ، وكانت سارة رضي الله عنها من أجمل الناس ، فلما دخلت مصر تحدث الناس بجمالها وعجبوا له حتى بلغ ذلك الملك ، فدعا ببعلها وسأله ما هو منها فخاف إن قال له زوجها أن يقتله ، فقال : أنا أخوها . فقال : زوجنيها . فكان على ذلك حتى بات ليلة ، فجاءه حلم فخنقه وخوّفه ، فكان هو وأهله في خوف وهول حتى علم أنه قد أتي من قبلها ، فدعا إبراهيم فقال : ما حملك على أن تَغُرَّني زعمت أنها أختك ؟ فقال : إني خفت إن ذكرت أنها زوجتي أن يصيبني منك ما أكره ، فوهب لها هاجر أم إسمعيل وحملهم وجهزهم حتى استقر قرارهم على جبل إيليا ، فكانوا بها حتى كثرت أموالهم ومعايشهم ، فكان بين رعاء إبراهيم ورعاء لوط جوار وقتال : فقال لوط لابراهيم : إن هؤلاء الرعاء قد فسد ما بينهم وكانت تضيق فيهم المراعي ،

ونخاف أن لا تحملنا هذه الأرض فإن أحببت أن أخف عنك خففت . قال إبراهيم : ما شئت إن شئت فانتقل منها وإن شئت انتقلت منك . قال لوط عليه السلام : لا بل أنا أحق أن أخف عنك . ففر بأهله وماله إلى سهل الأردن ، فكان بها حتى أغار عليه أهل فلسطين فسبوا أهله وماله .

فبلغ ذلك إبراهيم عليه السلام فأغار عليهم بما كان عنده من أهله ورقيقه ، وكان عددهم زيادة على ثلاثمائة من كان مع إبراهيم ، فاستنقذ من أهل فلسطين من كان معهم من أهل لوط حتى ردهم إلى قرارهم ، ثم انصرف إبراهيم إلى مكانه وكان أهل سدوم الذين فيهم لوط قوم قد استغنوا عن النساء بالرجال ، فلما رأى الله كان عند ذلك بعث الملائكة ليعذبوهم ، فأتوا إبراهيم فلما رآهم راعه هيئتهم وجمالهم فسلموا عليه وجلسوا إليه ، فقام ليقرب إليهم قِرىً فقالوا : مكانك .

قال : بل دعوني آتيكم بما ينبغي لكم فإن لكم حقاً لم يأتنا أحد أحق بالكرامة منكم ، فأمر بعجل سمين فحنذ له - يعني شوي لهم - فقرب إليهم الطعام ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ﴾ وسارة رضي الله عنها وراء الباب تسمع ﴿ قالوا لا

تخف إنا نبشرك بغلام حليم ﴾ مبارك فبشر به امرأته سارة فضحكت وعجبت كيف يكون له مني ولد وأنا عجوز وهذا شيخ كبير . . . ! ﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله ﴾ فإنه قادر على ما يشاء ، وقد وهبه الله لكم فابشروا به . فقاموا وقام معهم إبراهيم عليه السلام فمشوا معاً ، وسألهم قال : أخبروني لم بعثتم وما دخل بكم ؟ قالوا : إنا أرسلنا إلى أهل سدوم لندمرها فإنهم قوم سوء وقد استغنوا بالرجال عن النساء . قال إبراهيم : إن فيها قوماً صالحين فكيف يصيبهم من العذاب ما يصيب أهل عمل السوء ؟ قالوا : وكم فيها ؟ قال : أرأيتم إن كان فيها خمسون رجلاً صالحاً . قالوا : إذن لا نعذبهم . قال : إن كان فيهم أربعون ؟ قالوا : إذن لا نعذبهم . فلم يزل ينقص حتى بلغ إلى عشرة ، ثم قال : فأهل بيت ؟ قالوا : فإن كان فيها بيت صالح . قال : فلوط وأهل بيته ؟ قالوا : إن امرأته هواها معهم فكيف يصرف عن أهل قرية لم يتم فيها أهل بيت صالحين .

فلما يئس منهم إبراهيم عليه السلام انصرف وذهبوا إلى أهل سدوم ، فدخلوا على لوط عليه السلام ، فلما رأتهم امرأته أعجبها هيئتهم وجمالهم ، فأرسلت إلى أهل القرية أنه قد نزل بنا قوم لم ير قط أحسن منهم ولا أجمل . فتسامعوا بذلك فغشوا دار لوط من كل ناحية

وتسوروا عليهم الجدران ، فلقيهم لوط عليه السلام فقال : يا قوم لا تفضحوني في بيتي وأنا أزوجكم بناتي فهن أطهر لكم . قالوا : لو كنا نريد بناتك لقد عرفنا مكانك ولكن لا بد لنا من هؤلاء القوم الذين نزلوا بك فخل بيننا وبينهم واسلم منا ، فضاق به الأمر ف ﴿ قال لو أن لي بكم قوّة أو آوي إلى ركن شديد ﴾ فوجد عليه الرسل في هذه الكلمة فقالوا : إن ركنك لشديد ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ، ومسح أحدهم أعينهم بجناحه فطمس أبصارهم فقالوا : سحرنا انصرف بنا حتى ترجع إليهم تغشاهم الليل ، فكان من أمرهم ما قص الله في القرآن ، فأدخل ميكائيل وهو صاحب العذاب جناحه حتى بلغ أسفل الأرض ، ثم حمل قراهم فقلبها عليهم ، ونزلت حجارة من السماء فتتبعت من لم يكن منهم في القرية حيث كانوا ، فأهلكهم الله تعالى ونجا لوط وأهله إلا امرأته .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي يزيد البصري رضي الله عنه في قوله ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه ﴾ قال : لم ير لهم أيدياً فنكرهم .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ نكرهم ﴾ الآية قال : كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير وإنه يحدث نفسه بشر ، ثم حدثوه عند ذلك بما جاؤوا فيه فضحكت امرأته .

وأخرج ابن المنذر عن عمرو بن دينار رضي الله عنه قال : لما تضيفت الملائكة عليهم السلام إبراهيم عليه السلام قدم لهم العجل فقالوا : لا نأكله إلا بثمن . قال : فكلوا وأدوا ثمنه . قالوا : وما ثمنه ؟ قال : تسمون الله إذا أكلتم وتحمدونه إذا فرغتم . قال : فنظر بعضهم إلى بعض فقالوا : لهذا اتخذك الله خليلاً .

وأخرج ابن جرير عن السدي قال : لما بعث الله الملائكة عليهم السلام لتهلك قوم لوط أقبلت تمشي في صورة رجال شباب حتى نزلوا على إبراهيم عليه السلام فضيفوه ، فلما رآهم أجلهم فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فذبحه ثم شواه في الرضف ، فهو الحنيذ وأتاهم فقعد معهم ، وقامت سارة رضي الله عنها تخدمهم ، فذلك حين يقول ﴿ وامرأته قائمة ﴾ وهو جالس في قراءة ابن مسعود ﴿ فلما قربه إليهم قال ألا تأكلون ﴾ ؟ قالوا : يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاماً إلا بثمن . قال : فإن لهذا ثمناً . قالوا : وما ثمنه ؟ قال : تذكرون اسم الله على أوّله وتحمدونه على آخر . فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال : حق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً . فلما رأى إبراهيم أيديهم لا تصل إليه يقول : لا يأكلون ، فزع منهم وأوجس منهم خيفة ، فلما نظرت إليه سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم ضحكت ، وقالت : عجباً لاضيافنا هؤلاء انا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لا يأكلون طعامنا . ! قال لها جبريل : ابشري بولد اسمه إسحق ، ومن وراء إسحق يعقوب . فضربت وجهها

عجباً فذلك قوله ﴿ فصكت وجهها وقالت أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب ، قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ قالت سارة رضي الله عنها : ما آية ذلك ؟ فأخذ بيده عوداً يابساً فلواه بين أصابعه فاهتز أخضر . فقال إبراهيم عليه السلام : هو لله إذن ذبيحاً .

وأخرج ابن المنذر عن المغيرة رضي الله عنه قال : في مصحف ابن مسعود " وامرأته قائمة وهو جالس " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وامرأته قائمة ﴾ قال : في خدمة أضياف إبراهيم عليه السلام .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه قال : لما أوجس إبراهيم خيفة في نفسه حدثوه عند ذلك بما جاؤوا فيه ، فضحكت امرأته تعجباً مما فيه قوم لوط من الغفلة ومما أتاهم من العذاب .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فضحكت ﴾ قال : فحاضت وهي بنت ثمان وتسعين سنة .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ فضحكت ﴾ قال : حاضت وكانت ابنة بضع وتسعين سنة ، وكان إبراهيم عليه السلام ابن مائة سنة .

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ فضحكت ﴾ قال : حاضت .

قال الشاعر :

إني لآتي العرس عند طهورها . . . وأهجرها يوماً إذا هي ضاحك

وأخرج ابن عساكر عن الضحاك رضي الله عنه قال : كان اسم سارة يسارة فلما قال لها جبريل عليه السلام : يا سارة . قالت : إن اسمي يسارة فكيف تسمينني سارة ؟ قال الضحاك : يسارة العاقر التي لا تلد ، وسارة الطالق الرحم التي تلد . فقال لها جبريل عليه السلام : كنت يسارة لا تحملين فصرت سارة تحملين الولد وترضعينه . فقالت سارة رضي الله عنها : يا جبريل نقصت اسمي قال جبريل : إن الله قد وعدك بأن يجعل هذا الحرف في اسم ولد من ولدك في آخر الزمان ، وذلك أن اسمه عند الله حي فسماه يحيى .

وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان حسن سارة رضي الله عنها حسن حواء عليها السلام .

وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن سارة بنت ملك من الملوك ، وكانت قد أوتيت حسناً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ قال : هو ولد الولد .

(127/382)

وأخرج ابن الأنباري في كتاب الوقف والابتداء عن حسان بن أبجر قال : كنت عند ابن عباس ، فجاءه رجل من هذيل فقال له ابن عباس : ما فعل فلان ؟ قال : مات ، وترك أربعة من الولد وثلاثة من الوراء . فقال ابن عباس : ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ قال : ولد الولد .

وأخرج ابن الأنباري عن الشعبي رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ قال : ولد الولد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ضمرة بن حبيب . أن سارة لما بشرها الرسل بإسحق قال : بينا هي تمشي وتحدثهم حين أتت بالحيضة ، فحاضت قبل أن تحمل بإسحق ، فكان من قولها للرسل حين بشروها : قد كنت شابة وكان إبراهيم شاباً فلم أحبل فحين كبرت وكبر أألد ؟ قالوا : أتعجبين من ذلك يا سارة ، فإن الله قد صنع بكم ما هو أعظم من ذلك ، إن الله قد جعل رحمته وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد .

وأخرج ابن الأنباري وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ﴾ قال: وهي يومئذ ابنة سبعين، وهو يومئذ ابن تسعين سنة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك رضي الله عنه في قوله ﴿ بعلي ﴾ قال: زوجي.

وأخرج أبو الشيخ عن ضرار بن مرة عن شيخ من أهل المسجد قال: بشر إبراهيم بعد سبع عشرة ومائة سنة.

وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن علي رضي الله عنه قال: قالت سارة رضي الله عنها لما بشرتها الملائكة عليهم السلام ﴿ يا ويلتاه أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب ﴾ فقالت الملائكة ترد على سارة ﴿ أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ قال: فهو كقوله ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ [الزخرف: 28] بمحمد صلى الله عليه وسلم وآله من عقب إبراهيم.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه في قوله ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ قال: كنت عند ابن عباس إذ جاءه رجل فسلم عليه، فقلت: وعليكم السلام ورحمة الله

وبركاته ومغفرته . فقال ابن عباس : انته إلى ما انتهيت إليه الملائكة ، ثم تلا ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس أن سائلاً قام على الباب وهو عند ميمونة رضي الله عنها فقال : السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته وصلواته ومغفرته ، فقال ابن عباس : انتهوا بالتحية إلى ما قال الله ﴿ ورحمة الله وبركاته ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ والبيهقي في الشعب عن عطاء قال : كنت عند ابن عباس رضي الله عنهما ، فجاء سائل فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته وصلواته . فقال ابن عباس : ما هذا السلام ، وغضب حتى احمرت وجنتاه ، إن الله حد للسلام حداً ثم انتهى ونهى عما وراء ذلك ، ثم قرأ ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ .

وأخرج البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما . أن رجلاً قال له : سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته . فانتهره ابن عمر وقال : حسبك إذا انتهيت إلى وبركاته إلى ما قال الله .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال السمين :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ : في نصبه وجهان ، أحدهما : أنه مفعول به ، ثم هو محتملٌ لأمرين ، أحدهما : أن يراد قالوا هذا اللفظ بعينه ، وجاز ذلك لأنه يتضمَّن معنى الكلام . والثاني : أنه أراد قالوا معنى هذا اللفظ ، وقد تقدم ذلك في نحو قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ [البقرة : 58] . وثاني الوجهين : أن يكون منصوباً على المصدر بفعل محذوف ، وذلك الفعل في محل نصب بالقول ، تقديرُه : قالوا : سَلَّمْنا سلاماً ، وهو من باب ما ناب فيه المصدرُ عن العامل فيه ، وهو واجبُ الإِضمار .

قوله : ﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ في رفعه وجهان ، أحدهما : أنه مبتدأٌ وخبرُه محذوفٌ ، أي : سلامٌ عليكم . والثاني : أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : أمري أو قولي سلام . وقد تقدَّم أولَ هذا الموضعِ أن الرفعَ أدلُّ على الثبوت من النصب ، والجملة بأسرها وإن كان أحدُ جُزْأيها محذوفاً في محل نصب بالقول كقوله :

2676 إذا ذُقْتُ فاها قلت طعمُ مُدامةٍ . . . .

وقرأ الأخوان : " قال سِلْم " هنا وفي سورة الذاريات بكسر السين وسكون اللام . ويلزم بالضرورة سقوطُ الألف فقيل : هما لغتان كحِرْم وحَرام وحِلّ وحَلال ، وأنشد :

2677 مَرَرْنا فقُلنا إيه سِلْمٌ فسَلَّمَتْ . . . كما اكْتَلَّ بالبرق الغمامُ اللوائحُ

يريد : سلام ، بدليل : فسلَّمت . وقيل : " السِلْم " بالكسر ضد الحرب ، وناسَب ذلك لأنه نَكِرَهم فقال : أنا مسالمكم غيرُ محارِب لكم

(130/382)

قوله : { فَمَا لَبِثَ } يجوزُ في " ما " هذه ثلاثةُ أوجه ، أظهرها : أنها نافيةٌ ، وفي فاعل " لَبث " حينئذ وجهان ، أحدهما : أنه ضميرُ إبراهيم عليه السلام ، أي : فما لبث إبراهيم ، وإن جاء على إسقاطِ الخافض ، فقدَّروه بالباء وب " عن " وب " في " ، أي : فما تأخر في أَنْ ، أو بأن ، أو عن أن . والثاني : أن الفاعل قوله : " أن جاء " ، والتقدير : فلما لبث ، أي : ما أبطأ ولا تأخَّر مجيئُه بعجل سمين .

وثاني الأوجه : أنها مصدريةٌ ، وثالثها : أنها بمعنى الذي . وهي في الوجهين الأخيرين مبتدأ ، وإن جاء خبرُه على حَذْف مضاف تقديره : فلُبْثُه أو الذي لَبثه قَدْرَ مجيئه .

والحَنيذ : المَشْويُّ بالرصْف في أخدود . حَنَذْتُ الشاةَأَحْنِذها حَنْزاً فهي حَنيذ ، أي

محنوذة . وقيل : حنيذ بمعنى يَقْطُرُ دَسَمُه من قولهم : حَنَذْتُ الفرس ، أي : سُقْتُه شوطاً أو شوطين وتضع عليه الجُلَّ في الشمس ليَعْرَق .

﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (70) ﴾

قوله تعالى : ﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ : أي : أنكرهم ، فهما بمعنى وأنشدوا :

2678 وأَنْكَرَتْني وما كان الذي نَكِرَتْ . . . من الحوادثِ إلا الشَّيْبَ والصَّلَعا

وفرّق بعضهم بينهما فقال : / الثلاثي فيما يرى بالبصر ، والرباعي فما لا يُرى من المعاني ، وجعل البيتَ من ذلك ، فإنها أَنْكَرَتْ مودتَه وهي من المعاني التي لا ترى ، ونَكِرَتْ شيبتَه وصَلَعه ، وهما يُبْصَران ، ومنه قول أبي ذؤيب :

2679 فنَكِرْنَه فَنَفَرْنَ وامْتَرَسَتْ به . . . هَوْجاءُ هادِيَةٌ وهادٍ جُرْشُعُ

والإِيجاس : حديث النفس ، وأصلُه من الدخول كأن الخوف داخله .

(131/382)

وقال الأخفش : "خامَرَ قلبه" . وقال الفراء : "استشعر وأحسَّ" . والوجيس : ما يَعْتري النفس أوائل الفزع ، ووَجَسَ في نفسه كذا أي : خطَر بها ، يَجِسُ وَجْساً ووُجوساً

ووَجيساً ، ويَوْجَس ويَجِس بمعنى يسمع ، وأنشدوا ،

2680 وصادقتا سَمْعِ التوجُّسِ للسُّرى . . . لِلَمْحِ خَفِيٍّ أو لصوتٍ مُنَدَّدِ

فخيفةً مفعول به أي : أحسَّ خيفة أو أضمر خيفة .

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (71) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وامرأته قَآئِمَةٌ ﴾ : في محلِّ نصب على الحال من مرفوع " أُرْسِلْنا " . وقال أبو البقاء : " من ضمير الفاعل في " أرسلنا " وهي عبارةٌ غيرُ مشهورة ، إذ مفعولُ ما لم يُسَمَّ فاعلُه لا يُطْلَقُ عليه فاعلٌ على المشهور ، وعلى الجملة فَجَعْلُها حالاً غيرُ واضح بل هي استئنافُ إخبار ، ويجوز جَعْلُها حالاً من فاعل " قالوا " أي : قالوا ذلك في حال قيام امرأته .

قوله : ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ العامَّة على كسر الحاء ، وقرأ محمد بن زياد الأعرابي رجل من مكة بفتحها ، وهي لغتان ، يقال : ضَحِك وضَحَكَ . وقال المهدوي : " الفتح غير معروف " . والجمهور على أن الضحك على بابه . واختلف أهلُ التفسير في سببه ، وقيل : بمعنى حاضَتْ ، ضحكت الأرنب : أي : حاضَتْ ، وأنكره أبو عبيدة وأبو عبيد والفراء . وأنشد غيرهم على ذلك :

2681 وضِحْكُ الأرانبِ فوق الصَّفا . . . كمثلِ دمِ الجَوْفِ يومَ اللِّقا

وقال آخر :

2682 وعهدي بسلمى ضاحكاً في لَبانةٍ . . . ولم يَعْدُ حُقّاً ثَدْيُها أن يُحَمَّلا

أي : حائضاً . وضحِكت الكافورة : تَشَقَّقت . وضحكت الشجرة : سال صمغُها .

وضَحِك الحوضُ : امتلأ وفاض . وظاهرُ كلام أبي البقاء أن ضَحَك بالفتح مختص بالحيض

فإنه قال : " بمعنى حاضت ، يقال : ضحَكت الأرنب بفتح الحاء " .

(132/382)

قوله : ﴿ يَعْقُوبَ ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم بفتح الباء ، والباقون برفعها

. فأمَّا القراءةُ الأولى فاختلفوا فيها : هل الفتحة علامةُ نصب أو جر ؟ والقائلون بأنها

علامة نصب اختلفوا : فقيل : هو منصوبٌ عطفاً على قوله : " بإسحاق " قال الزمخشري

: "كأنه قيل : ووهَبْنا له إسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب على طريقة قوله :

2683 . . . . ليسوا مصلحين عشيرةً . . . ولا ناعِبٍ . . . .

. . . .

يعني أنه عطف على التوهم فنصب ، كما عطف الشّاعرُ على توهُّم وجود الباء في خبر "

ليس " فجرَّ ، ولكنه لا ينقاس . وقيل : هو منصوبٌ بفعلٍ مقدر تقديرُه : ووهبْنا يعقوب ،

وهو على هذا غيرُ داخلٍ في البشارة . ورجَّح الفارسيُّ هذا الوجه . وقيل : هو منصوبٌ

عطفاً على محل " بإسحاق " لأن موضعه نصب كقوله : ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ [المائدة : 6] بالنصب عطفاً على " برؤوسكم " . والفرق بين هذا والوجه الأول : أن الأولَ ضمَّن الفعل معنى : " وَهَبْنا " توهُّماً ، وهنا باقٍ على مدلوله من غير توهُّم .

ومن قال بأنه مجرورٌ جعله عطفاً على " بإسحاق " والمعنى : أنها بُشِّرت بهما . وفي هذا الوجه والذي قبله بحثٌ : وهو الفصلُ بالظرف بين حرف العطف والمعطوف ، وقد تقدَّم ذلك مستوفى في النساء فعليك بالالتفات إليه .

ونسب مكي الخفضَ للكسائي ثم قال : " وهو ضعيف إلا بإعادة الخافض ، لأنك فَصَلْت بين الجار والمجرور بالظرف " .

قوله : " بإعادة الخافض " ليس ذلك لازماً ، إذ لو قُدِّم ولم يُفْصَل لم يُلْتزم الإِتيان به .

(133/382)

وأمَّا قراءةُ الرفع ففيها أوجه ، أحدها : أنه مبتدأ وخبره الظرف السابق فقدَّره الزمخشري " مولود أو موجود " وقدّره غيره بكائن . ولمَّا حكى النحاس هذا قال : " والجملة حالٌ داخلة في البشارة أي : فَبَشَّرْناها بإسحاق متصلاً به يعقوبُ " . والثاني : أنه مرفوع على الفاعلية بالجارِّ قبله ، وهذا يجيء على رَأْي الأخفش . والثالث : أن يرتفع بإضمار فعل

أي : ويحدث من وراء إسحاق يعقوب ، ولا مَدْخَلَ له في البشارة . والرابع : أنه مرفوعٌ على القطع يَعْنُون الاستئناف ، وهو راجع لأحد ما تقدَّم مِنْ كونه مبتدأ وخبراً ، أو فاعلاً بالجارّ بعده ، أو بفعل مقدر .

﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ياويلتى ﴾ : الظاهر كونُ الألف بدلاً من ياء المتكلم/ ولذلك أمالها أبو عمرو وعاصم في روايةٍ ، وبها قرأ الحسن "يا ويلتي" بصريح الياء . وقيل : هي ألف الندبة ، ويوقف عليها بهاء السكت .

قوله : ﴿ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وهذا بَعْلِي شَيْخاً ﴾ الجملتان في محل نصب على الحال من فاعل "أَلِدُ" أي : كيف تقع الولادة في هاتين الحالتين المنافيتين لها ؟

والجمهورُ على نصب "شيخاً" وفيه وجهان ، المشهور : أنه حال والعامل فيه : إمَّا التنبيهُ وإمَّا الإشارة ، وإمَّا كلاهما . والثاني : أنه منصوبٌ على خبر التقريب عند الكوفيين ، وهذه الحالُ لازمةٌ عند مَنْ لا يجهل الخبرَ ، أمَّا مَنْ جهله فهي غير لازمة . وقرأ ابن مسعود والأعمش وكذلك في مصحف ابن مسعود "شيخٌ" بالرفع ، وذكروا فيه أوجهاً : خبرٌ بعد خبر ، أو خبران في معنى خبر واحد نحو : هذا حلو حامض ، أو خبر "هذا" و "بعلي" بيان أو بدل ، أو "شيخ" بدل من "بعلي" ، أو "بعلي" مبتدأ و "شيخ" خبره ، والجملة خبرُ الأول ، أو "شيخ" خبرُ مبتدأ مضمر أي هو شيخ .

والشيخ يقابله عجوز ، ويقال شَيْخة قليلاً ، كقوله :

2684 - وتَضْحك مني شَيْخة عَبْشَمِيَّةٌ . . . .

. . . .

وله جموعٌ كثيرة ، فالصريح منها : أَشْياخ وشُيوخ وشِيخان ، وشِيْخَة عند مَنْ يرى أن فِعْلَة جمعٌ لا اسم جمع كغِلْمة وفِتْيَة . ومن أسماءِ جَمْعه مَشِيخَة وشِيَخَة ومَشْيُوخاء .

﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73)

﴾

قوله تعالى : ﴿ أَهْلَ البيت ﴾ : في نصبه وجهان ، أحدهما : أنه منادى . والثاني : أنه منصوبٌ على المدح . وقيل : على الاختصاص ، وبين النصبين فرق : وهو أن المنصوب على المدح لفظ يتضمن بوضعه المدح كما أن المذموم لفظٌ يتضمن بوضعه الذمَّ .

والمنصوبُ على الاختصاص لا يكون إلا لمدحٍ أو ذم ، لكن لفظَه لا يتضمَّن بوَضْعِه ولا الذمَّ كقوله :

2685 بنا تميماً يُكْشَفُ الضبابُ . . . كذا قاله الشيخ ، واستند إلى أن سيبويه جعلها

في بابين ، وفيه نظر .

والمجيد : فَعيل ، مثال مبالغة مِنْ مَجد يَمْجُد مَجْداً ومَجادة ، ويقال : مَجْد كشَرُف وأصلُه الرِّفْعَة . وقيل : من مَجَدَتِ الإبل تَمْجُد مَجادة ومَجْداً أي : شَبعت ، وأنشدوا لأبي حية النميري :

2686 تزيدُ على صواحبِها وليسَتْ . . . بماجدةِ الطعامِ ولا الشراب

أي : ليسَتْ بكثيرةِ الطعامِ ولا الشراب . وقيل : مَجَد الشيءُ : أي حَسُنَتْ أوصافُه .

وقال الليث : " أمجد فلانٌ عطاءَه ومَجَّده أي : كثَّره " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 351 . 359 ﴾

(135/382)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى نكر)

النَّكِرَةُ : ضِدُّ المَعْرفة : وقد نَكِرْتُ الرّجلَ بالكسر نُكْرًا ونُكُورا ، وأَنْكَرْتُه واسْتَنْكَرْتُه ، كلُّه بمعنًى .

قال الأَعشى :

*وأَنْكَرَتْنِى وما كان الَّذِى نَكِرَتْ * من الحَوادث إِلاَّ الشَّيْبَ والصَّلَعا *

وقد نَكَّرَه فتنكَّر ، أَى غَيَّره فتَغَيَّر إِلى مَجْهول .

والمنْكَر واحد المَناكِير .

[وأَصل الإِنكار أَن يَرِد على القَلْب ما لا يتَصَوّرُه وذلك ضربٌ من الجهل] قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ .

وقد يستعمل ذلك فيما يُنْكَر باللسان ، وسبب الإِنكار باللسان الإِنكار بالقلب ، لكن ربّما ينكر اللسان الشىءَ وصورتُه فى القَلْب حاضرة ، ويكون [فى] ذلك كاذباً .

وعلى هذا قولُه تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ .

والمُنْكَرُ : كلّ فِعْل تحكُم العقولُ الصّحيحة بقُبحه أَو تتوقَّف/ فى استقباحِه العقولُ فتحكم الشَّريعةُ بقُبْحه ، وإِلى هذا القَصْدُ فى قوله تعالى : ﴿ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ .

وتنكير الشىء من حيث المعنى جعله بحيث لا يُعرف ، قال تعالى : ﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا ﴾ .

والنَّكير : الإِنْكار ، قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أَى إِنكارِى والنُكْر : المُنْكَرُ ، قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ ، وقد يُحرّك مثل عُسْرٍ وعُسُر قال :

وكانوا أَتَوْ، ى بشيءٍ نُكُر

وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ .

والإِنْكارُ : تغيير المنكر .

ورجل نَكِرٌ ونَكُرٌ ، أَى داهٍ مُنْكر .

ونَكُر الأَمْرُ ككَرُمَ : اشْتَدَّ وصَعُبَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 121.120 ﴾

(136/382)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾

أخبر أن الملائكة أتوا إبراهيمَ - عليه السلام - بالبشارة . وأخبر أن إبراهيمَ - عليه السلام - أَنْكَرَهُم ، ولم يَعْرِفْ أنهم ملائكةٌ . فيُحتمل أنَّه - سبحانه - أراد أن تكونَ تلك البشارة فجأةً من غير تنبيهٍ لتكونَ أتمَّ وأبلغ في إيجاد السرور ، ولا سيما وقد كانت بعد

خوف لأنه قال : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ .

ويقال إن إبراهيم - عليه السلام - كان صاحبَ النبوة والخُلَّة والرسالة فلا بُدَّ أن تكون فراستُه أعلى من فراسة كلِّ أحدٍ ، ولكنه في هذه الحالة لم يَعْرِفْ الملائكةَ ليُعْلَمَ أنَّ الحقَّ - سبحانه وتعالى - إذا أراد إمضاءِ حُكْمٍ يَسُدُّ على مَنْ أرادَ عيونَ الفراسة ، وإنْ كان صاحبُ الفراسة هو خليل الله ، كما سَدَّ الفراسة ، على نبيِّنا - صلى الله عليه وسلم - في قصة الإفْكِ إلى الوقت الذي نزل فيه الوحيُ ، وكذلك التبس على لوطٍ - عليه السلام - إلى أن تبيَّن له الأمر .

وتكلموا في هذه " البشرى " ما كانت ؛ فقيل كانت البشارة بإسحاق ؟ أنَّه سيولد له ولد ومن نَسْله وسُلالته ؛ قال تعالى : ﴿ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ .

ويقال بسلامة قومه - حيث كانوا مُرْسَلين بإهلاك قوم لوط - عليه السلام .

ويقال بشارة بالخُلَّة وتمام الوصلة .

ويقال إن الخُلَّة والمحبة بناؤهما كتمان السِّرِ ؛ فَيَعْلَمَ أنهم أُرْسِلُوا بشارةٍ ما ولم يكن للغير اطلاع ، قال قائلهم :

بين المحبين قولٌ لست أفهمه . . . ويقال إن تلك البشارة هي قولهم : " سلاماً " وأن ذلك كان من الله ، وأيُّ بشارة أتمُّ من سلام الحبيب ؟ وأيُّ صباح يكون مُفْتَتَاً بسلام الحبيب فصَبَاحٌ مباركٌ ، وكذلك المبيتُ بسلام الحبيب فهو مباركٌ .

قوله : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : 69] : لمَّا توهمهم أضيافاً بحقّ الضيافة ، فقدَّم خَيْرَ ما عنده مما شكره الحقُّ عليه حيث قال في موضع آخر : ﴿ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ [الذاريات : 26] . والمحبةُ توجِبُ استكثارَ القليلِ من الحبيبِ واستقلالَ ما مِنْك للحبيب ، وفي هذا إشارة إلى أنه إذا نَزَلَ الضيفُ فالواجبُ المبادرةُ إلى تقديم السُّفرة مِمَّا حضر في الوقت .

قوله : ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ [هود : 70] تمامُ إحسانِ الضيف أن تتناولَ يَدُه ما يُقَدَّمُ إليه من الطعام ، والامتناعُ عن أكل ما يُقدَّمُ إليه معدودٌ في جملة الجفاء في مذهب أهل الظَّرْف . والأكل في الدعوة واجبٌ على أحد الوجهين .

﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ : أي خاف أنه وقع له خَلَلٌ في حاله حيث امتنع الضِّيفانُ عن أكل طعامه ؛ فأوجس الخيفةَ لهم لا منهم .

وقيل إن الملائكة في ذلك الوقت ما كانوا ينزلون جهراً إلا لعقوبة ؛ فلمَّا امتنعوا عن الأكل ، وعَلِمَ أنهم ملائكةٌ خافَ أَنْ يكونوا قد أُرْسِلوا لعقوبة قومه .

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (71) ﴾

كانت امرأته قائمة بخدمة الأضياف ، فضحكت تعجُّباً من أن يكون لمثلها في هذه السن ولد .

وقيل كان سرورها السلامة . ويحتمل أنه ضحكت تعجباً من امتناع الضيفان عن الأكل .

أو تَعَجبَتْ من كوْن الملائكة في صورة البشر لَمَّا عَلِمَتْ أنهم ملائكة ويحتمل أنها ضحكت لاستبشارها بالوَلَد وقد بُشّرَتْ باستحقاقه ومن ورائه يعقوب ، ثم أفصَحَتْ عما ينطوي عليه قلبُها من التعجب فقالت : ﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِى شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ !

(138/382)

فأحال الملائكة خَلْقَ الوَلَدِ على التقدير : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ؟ فزال موضعُ التعجب ، وقالوا : ﴿ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ فبقي الدعاء في شريعتنا بآخر الآية حيث يقول الداعي : كما صَلَّيْتَ وباركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

والبركة الزيادة ؛ فقد اتصل النَّسْلُ من الخليل ، وبنو إسرائيل منهم – وهم خَلْقٌ كثير ،

والعرب من أولاد إسماعيل - وهم الجَمُّ الغفير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 147.145 ﴾

(139/382)

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فلما سمعوا ذلك واطمأنوا ، أخذ في قص ما كان بعده ، فقال مشيراً بالفاء إلى قلة زمن الإنكار الذي هو سبب الفزع : ﴿ فلما ذهب ﴾ بانكشاف الأمر ﴿ عن إبراهيم الروعُ ﴾ أي الخوف والفزع الشديد ﴿ وجآءته البشرى ﴾ فامتلأ سروراً ﴿ يجادلنا ﴾ أي أخذ يفعل معنا بمجادلة رسلنا فعل المجادل الذي يكثر كلامه إرادة الفتل مخاطبه عما يقوله ﴿ في قوم لوط ﴾ أي يسألنا في نجاتهم سؤالاً يحرص فيه حرص المجادل في صرف الشيء ، من الجدل وهو الفتل ، ووضع المضارع موضع الماضي إشارة إلى تكرر المجادلة مع تصوير الحال

، أي جادلنا فيهم جدالاً كثيراً ؛ ثم علل مجادلته بقوله : ﴿ إن إبراهيم لحليم ﴾ أي بليغ الحلم ، وهو إمهال صاحب الذنب على ما يقتضيه العقل ﴿ أواه ﴾ أي رجاع للتأوه خوفاً من التقصير ﴿ منيب ﴾ أي رجاع إلى الله بالسبق في ارتقاء درج القرب ، فهو - لما عنده هذه المحاسن - لا يزال يتوقع الإقلاع من العصاة .

ولما كان أكثر المجادلة لما عنده من الشفقة على عباد الله لما له من هذه الصفات الجليلة ، أعلمه الله أن الأمر قد ختم بقوله حكاية أن الرسل قالت له بعد طول المجادلة منادين بالأداة التي هي أم الباب إعلاماً بأن ما بعدها عظيم الشأن عالي المنزلة : ﴿ يا إبراهيم أعرض ﴾ أي بكليتك ﴿ عن هذا ﴾ أي السؤال في نجاتهم ؛ ثم علل ذلك بقوله مؤكداً لأنه بمجادلته في حيز من ينكر بتّ الأمر : ﴿ إنه قد ﴾ افتتحه بحرف التوقع لأنه موضعه ﴿ جآء أمر ربك ﴾ أي الذي عودك بإحسانه الجم ، فلولا أنه حتم الأمر بعذابهم لأمهلهم لأجلك ، ولذا عطف على العلة قوله مؤكداً إعلاماً بأنه أمر قد انبرم ومضى : ﴿ وإنهم آتيهم ﴾ أي إتياناً ثابتاً ﴿ عذاب غير مردود ﴾ أي بوجه من الوجوه من أحد كائناً من كان ؛ الإعراض : الانصراف ، وحقيقته الذهاب عن الشيء في جهة العرض ؛ والرد : إذهاب الشيء إلى ما جاء منه كالرجع ؛ والدفع أعم لأنه قد يكون إلى جهة القدام ؛ فلما علم مراد الله فيهم ، قدمه على مراده ولم ينطق بعده ببنت شفة .

ذكر هذه القصة من التوراة : قال في السفر الأول : واستعلن الله لإبراهيم في مرج – وفي نسخة : بين بلوط ممرى الأموراني – وكان جالساً على باب خيمته إذ اشتد النهار ، فرفع عينيه فنظر فإذا هو بثلاثة رجال وقوف على رأسه ، فلما رآهم أحضر إليهم من باب الخيمة وسجد على الأرضِ وقال : يا رب – وفي نسخة : يا ولي الله – إن كان لي عندك مودة فلا تبعد عن عبدك حتى آتي بما أغسل به أرجلكم ، واتكئوا تحت الشجرة وأصيبوا شيئاً من الطعام تقرون به أنفسكم ، ثم حينئذٍ تجوزون لأنكم مررتم بعبدكم بغتة فقالوا له : اصنع كما قلت ، فاستعجل إبراهيم فأحضر إلى الخيمة إلى سارة وقال : عجلي بثلاثة آصع من درمك – وفي نسخة : دقيق سميد – فاعجنيه واخبزي منه مليلاً ، وسعى إلى قطيع البقر فأخذ عجلاً سميناً شاباً فدفعه إل الغلام وأمر بتعجيل صنعته وأخذ سمناً ولبناً والعجل الذي صنع له أيضاً فقربه إليهم ، وكان هو واقفاً بين أيديهم تحت الشجرة وقالوا له : أين سارة امرأتك ؟ فقال : في الخيمة ، فقال له : إني أرجع إليك في مثل هذا الحين من قابل وهي في الحياة ولها منك ابن ، فسمعت سارة وهي على باب الخيمة مستترة وكان هو خلفها ، وكان إبراهيم وسارة قد شاخا وقدم سنهما وانقطع عن سارة سبيل النساء ، فضحكت سارة في قلبها وقالت : أمن بعد ما بليت أرجع شابة وسيدي قد شاخ ؟ فقال الله لإبراهيم : لم ضحكت سارة وقالت : أني لي بالولد وقد شخت ؟ أيعسر هذا على

الله ؟ إني أرجع إليك في مثل هذا الحين من قابل وهي حية ولها ابن ، فجحدت سارة

وقالت : كلا ما ضحكت ، لأنها فزعت ، فقال : كلا ! ولكنك قد ضحكت ، ثم قام

الرجال وتعمدوا طريق سدوم وعامورا ، وانطلق معهم إبراهيم ليشيعهم .

(141/382)

وقال الله : أأكتم عبدي إبراهيم شيئاً مما أصنع ؟ وإبراهيم يكون رئيساً لشعب عظيم كبير ، وتتبارك به شعوب الأرض ، لأني عالم أنه يوصي بنيه وأهل بيته من بعده أن يحفظوا طرق الرب ليعملوا بالبر والعدل ، لأن الرب يكمل لإبراهيم جميع ما وعده به .

فقال الرب لإبراهيم : لقد وصل إليّ حديث سدوم وعامورا وقد كثرت خطاياهم جداً ، ثم ولى القوم ومضوا إلى سدوم ، وكان إبراهيم بعد واقفاً قدام الرب ، فدنا إبراهيم وقال : يا رب ! تهلك الأبرار مع الفجار بغضب واحد ؟ إن كان في القرية خمسون باراً أتهلكهم بغضب واحد ؟ حاشاك يا رب أن تصنع هذا الصنيع وتهلك البريء مع السقيم ، ويكون البريء بحال السقيم ، حاشا لك يا حاكم الأرض كلها ! لا يكون هذا من صنيعك ! فقال الرب : إن وجدت بسدوم خمسين باراً في القرية عفوت عن جميع البلد من أجلهم ، فأجاب إبراهيم وقال : إني قد بدأت بالكلام بين يدي الرب ، وإنما أنا تراب ورماد ، فإن نقص من

الخمسين باراً خمسة تخرب القرية كلها من أجل الخمسة ؟ فقال : لا أخربها إن وجدت بها خمسة وأربعين باراً ، فعاد إبراهيم وقال له : فإن وجد فيها أربعون ؟ فقال : لا أخربها إن وجدت فيها أربعين ، فقال : لا يمكن الرب كلامي فأتكلم ، فإن كان هناك ثلاثون ؟ فقال : لا أخربها إن وجدت فيها ثلاثين ، فقال : إني قد أمعنت في الكلام بين يدي الرب ، فإن وجد بها عشرون ؟ فقال : لا أخربها من أجل العشرين ، فقال لا تشتق على الرب ، فأتكلم هذه المرة يا رب فقط ، فإن وجد بها عشرة رهط ؟ فقال : لا أفسدها من أجل العشرة ؛ فارتفع استعلان الرب عن إبراهيم لما فرغ إبراهيم من كلامه ورجع إبراهيم إلى موضعه – انتهى .

وقد مضى أمر حبل سارة وولادها في البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 556.554 ﴾

(142/382)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾

اعلم أن هذا هو القصة الخامسة وهي قصة لوط عليه السلام ، واعلم أن الروع هو الخوف وهو ما أوجس من الخيفة حين أنكر أضيافه والمعنى : أنه لما زال الخوف وحصل السرور بسبب مجيء البشرى بحصول الولد ، أخذ يجادلنا في قوم لوط وجواب لما هو قوله : ﴿ أَخَذَ ﴾ إلا أنه حذف في اللفظ لدلالة الكلام عليه ، وقيل تقديره : لما ذهب عن إبراهيم الروع جادلنا .

واعلم أن قوله : ﴿ يجادلنا ﴾ أي يجادل رسلنا .

فإن قيل : هذه المجادلة إن كانت مع الله تعالى فهي جراءة على الله ، والجراءة على الله تعالى من أعظم الذنوب ، ولأن المقصود من هذه المجادلة إزالة ذلك الحكم وذلك يدل على أنه ما كان راضياً بقضاء الله تعالى وأنه كفر وإن كانت هذه المجادلة مع الملائكة فهي أيضاً عجيبة ، لأن المقصود من هذه المجادلة أن يتركوا إهلاك قوم لوط ، فإن كان قد اعتقد فيهم أنهم من تلقاء أنفسهم يجادلون في هذا الإهلاك فهذا سوء ظن بهم .

وإن اعتقد فيهم أنهم بأمر الله جاؤا فهذه المجادلة تقتضي أنه كان يطلب منهم مخالفة أمر الله تعالى وهذا منكر .

والجواب : من وجهين :

الوجه الأول : وهو الجواب الإجمالي أنه تعالى مدحه عقيب هذه الآية فقال : ﴿ إِنَّ إبراهيم لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ ولو كان هذا الجدل من الذنوب لما ذكر عقيبه ما يدل على المدح

العظيم.

والوجه الثاني: وهو الجواب التفصيلي أن المراد من هذه المجادلة سعي إبراهيم في تأخير العذاب عنهم وتقريره من وجوه:

الوجه الأول: أن الملائكة قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هذه القرية﴾ فقال إبراهيم: أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلاً من المؤمنين أتهلكونها؟ قالوا: لا.

قال: فأربعون قالوا: لا.

قال: فثلاثون قالوا لا.

حتى بلغ العشرة قالوا: لا.

قال: أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا.

(143/382)

فعند ذلك قال: إن فيها لوطاً وقد ذكر الله تعالى هذا في سورة العنكبوت فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا إبراهيم بالبشرى قَالُواْ إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هذه القرية إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظالمين * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين﴾ [العنكبوت: 31، 32].

ثم قال : ﴿ وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُواْ لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امرأتك ﴾ فبان بهذا أن مجادلة إبراهيم عليه السلام ، إنما كانت في قوم لوط بسبب مقام لوط فيما بينهم .

الوجه الثاني : يحتمل أن يقال إنه عليه السلام كان يميل إلى أن تلحقهم رحمة الله بتأخير العذاب عنهم رجاء أنهم أقدموا على الإيمان والتوبة عن المعاصي ، وربما وقعت تلك المجادلات بسبب أن إبراهيم كان يقول إن أمر الله ورد بإيصال العذاب ومطلق الأمر لا يوجب الفور بل يقبل التراخي فاصبروا مدة أخرى ، والملائكة كانوا يقولون إن مطلق الأمر يقبل الفور ، وقد حصلت هناك قرائن دالة على الفور ، ثم أخذ كل واحد منهم يقرر مذهبه بالوجوه المعلومة فحصلت المجادلة بهذا السبب ، وهذا الوجه عندي هو المعتمد .

الوجه الثالث : في الجواب لعل إبراهيم عليه السلام سأل عن لفظ ذلك الأمر وكان ذلك الأمر مشروطاً بشرط فاختلفوا في أن ذلك الشرط هل حصل في ذلك القوم أم لا فحصلت المجادلة بسببه ، وبالجملة نرى العلماء في زماننا يجادل بعضهم بعضاً عند التمسك بالنصوص ، وذلك لا يوجب القدح في واحد منها فكذا ههنا .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ إبراهيم لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ وهذا مدح عظيم من الله تعالى لإبراهيم ، أما الحليم فهو الذي لا يتعجل بمكافأة غيره ، بل يتأنى فيه فيؤخر ويعفو ومن هذا حاله فإنه يحب من غيره هذه الطريقة ، وهذا كالدلالة على أن جداله كان في أمر متعلق بالحلم وتأخير العقاب ، ثم ضم إلى ذلك ماله تعلق بالحلم وهو قوله : ﴿ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ لأن من يستعمل الحلم في غيره فإنه يتأوه إذا شاهد وصول الشدائد إلى الغير فلما رأى مجيء الملائكة لأجل إهلاك قوم لوط عظم حزنه بسبب ذلك وأخذ يتأوه عليه فلذلك وصفه الله تعالى بهذه الصفة ، ووصفه أيضاً بأنه مُنيب ، لأن من ظهرت فيه هذه الشفقة العظيمة على الغير فإنه ينيب ويتوب ويرجع إلى الله في إزالة ذلك العذاب عنهم ، أو يقال : إن من كان لا يرضى بوقوع غيره في الشدائد فأن لا يرضى بوقوع نفسه فيها كان أولى ، ولا طريق إلى صون النفس عن الوقوع في عذاب الله إلا بالتوبة والإنابة فوجب فيمن هذا شأنه يكون منيباً .

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ ياإبراهيم أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾ معناه : أن الملائكة قالوا له : اترك هذه المجادلة لأنه قد جاء أمر ربك بإيصال هذا العذاب إليهم وإذا لاح وجه دلالة النص على هذا الحكم فلا سبيل إلى دفعه فلذلك أمروه بترك المجادلة ، ولما ذكروا ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ ولم يكن في هذا اللفظ دلالة على أن هذا الأمر بماذا جاء لا جرم بين الله تعالى أنهم

آتيهم عذاب غير مردود ، أي عذاب لا سبيل إلى دفعه ورده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 24.26 ﴾

(145/382)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ يَعْنِي : لَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ الْفَزَعُ جَادَلَ الْمَلَائِكَةَ حَتَّى قَالُوا : إنَّا أُرْسِلْنَا إلَى قَوْمِ لُوطٍ لِنُهْلِكَهُمْ ، فَقَالَ : إنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا : نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ يُرْوَى ذَلِكَ عَنْ الْحَسَنِ وَقِيلَ : إنَّهُ سَأَلَهُمْ فَقَالَ : أَتُهْلِكُونَهُمْ إنْ كَانَ فِيهَا خَمْسُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالُوا : لَا ، ثُمَّ نَزَّلَهُمْ إلَى عَشَرَةٍ ، فَقَالُوا : لَا ، يُرْوَى ذَلِكَ عَنْ قَتَادَةَ .

وَيُقَالُ : جَادَلَهُمْ لِيَعْلَمَ بِأَيِّ شَيْءٍ اسْتَحَقُّوا عَذَابَ الِاسْتِئْصَالِ وَهَلْ ذَلِكَ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ أَمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِخَافَةِ لِيُقْبِلُوا إلَى الطَّاعَةِ .

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَحْتَجُّ بِذَلِكَ فِي جَوَازِ تَأْخِيرِ الْبَيَانِ ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَخْبَرَتْ أَنَّهَا تُهْلِكُ قَوْمَ لُوطٍ وَلَمْ تُبَيِّنْ الْمُنَجِّينَ مِنْهُمْ ، وَمَعَ ذَلِكَ ، فَإِنَّ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَادَلَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ : أَتُهْلِكُونَهُمْ وَفِيهِمْ كَذَا رَجُلًا فَيَسْتَدِلُّونَ بِذَلِكَ عَلَى جَوَازِ تَأْخِيرِ الْبَيَانِ ، وَهَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ ؛ لِأَنَّ

إِبْرَاهِيمَ سَأَلَهُمْ عَنْ الْوَجْهِ الَّذِي بِهِ اسْتَحَقُّوا عَذَابَ الِاسْتِئْصَالِ وَهَلْ ذَلِكَ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ ، أَوْ عَلَى سَبِيلِ التَّخْوِيفِ لِيَرْجِعُوا إلَى الطَّاعَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(146/382)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبراهيم الروع ﴾

يعني : الفزع من الرسل ﴿ وَجَاءتْهُ البشرى ﴾ بالولد ، ﴿ يجادلنا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ يعني : يخاصم ويتشفع في قوم لوط .

وكان لوط ابن أخيه ، وهو لوط بن هازر بن آزر وإبراهيم بن آزر ، ويقال : ابن عمه ، وسارة كانت أخت لوط ؛ فلما سمعا بهلاك قوم لوط ، اغتما لأجل لوط .

وروى معمر ، عن قتادة ، قال لهم : أرأيتم لو كان فيها خمسون من المسلمين ، أتعذبونهم ؟

قالوا : لا نعذبهم .

قال : أربعون ؟ قالوا : ولا أربعون .

قال : ثلاثون ؟ قالوا ولا ثلاثون ، حتى بلغوا عشرة .

قال مقاتل : فما زال ينقص خمسة خمسة ، حتى انتهى إلى خمسة أبيات ، يعني : لو كان فيها

خمسة أبيات من المسلمين لم يعذبهم .

ثمّ قال ﴿ إِنَّ إبراهيم لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ الأواه : الذي إذا ذكر الله تعالى تأوه .

منيب : أي راجع إليه بالتوبة .

وقد ذكرناه في سورة التوبة .

ثم قال جبريل ﴿ يا إبراهيم أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾ يعني : اترك جدالك ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ

رَبِّكَ ﴾ يعني : عذاب ربك ﴿ وَإِنَّهُمْ ءاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ يعني : غير مصروف

عنهم .

ثم خرجوا من عند إبراهيم ، متوجهين إلى قوم لوط ، فانتهوا إليهم نصف النهار ، فإذا هم

بجواري يسقين من الماء ، فأبصرتهم ابنة لوط ، وهي تستقي من الماء ، فقالت لهم : ما

شأنكم ؟ ومن أين أقبلتم ؟ وأين تريدون ؟ قالوا أقبلنا من مكان كذا ، ونريد مكان كذا .

فأخبرتهم عن حال أهل المدينة ، وخبثهم ، فأظهروا الغم من أنفسهم ، فقالوا : هل أحد

يضيفنا ؟ قالت : ليس فيها أحد يضيفكم ، إلا ذلك الشيخ ، وأشارت إلى أبيها لوط ، وهو

على بابه .

فأتوا لوطاً فلما رآهم وهيئتهم ، ساءه ذلك ، فذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77)

﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 163.162 ﴾

(147/382)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الرّوع ﴾

يعني الفزع ، والرُّوع بضم الراء النفس ، ومنه قولهم ألقى في رُوعي أي في نفْسي .

﴿ وجاءتْهُ البشرى ﴾ أي بإسحاق ويعقوب .

﴿ يجادلنا في قوم لوط ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه جادل الملائكة بقوله ﴿ إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينة وأهله

﴾ [العنكبوت : 32] قاله الحسن .

الثاني : أنه سألهم أتعذبونهم إن كان فيها خمسون من المؤمنين ؟ قالوا لا ، قال : فإن كان فيها

أربعون ؟ قالوا : لا ، إلى أن أنزلهم إلى عشرة ، فقالوا : لا ، قاله قتادة . الثالث : أنه سألهم

عن عذابهم هل هو عذاب الاستئصال فيقع بهم لا محالة على سبيل التخويف ليؤمنوا ،

فكان هذا هو جداله لهم وإن كان سؤالاً لأنه خرج مخرج الكشف عن أمر غامض .

قال أبو مالك : ولم يؤمن بلوط إلا ابنتاه رقية وهي الكبرى وعروبة وهي الصغرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(148/382)

وقال ابن عطية :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾

﴿ الروع ﴾ : الفزع والخيفة التي تقدم ذكرها ، وكان ذهابه بإخبارهم إياه أنهم ملائكة .

و﴿ البشرى ﴾ : تحتمل أن يريد الولد ، ويحتمل أن يريد البشرى بأن المراد غيره ، والأول أبين . وقوله : ﴿ يجادلنا ﴾ فعل مستقبل جائز أن يسد مسد الماضي الذي يصلح لجواب ﴿ لما ﴾ ، لا سيما والإشكال مرتفع بمضي زمان الأمر ومعرفة السامعين بذلك ، ويحتمل أن يكون التقدير ظل أو أخذ ونحوه يجادلنا ، فحذف اختصاراً لدلالة ظاهر الكلام عليه ، ويحتمل أن يكون قوله ، ﴿ يجادلنا ﴾ حالاً من ﴿ إبراهيم ﴾ أو من الضمير في قوله : ﴿ جاءته ﴾ ، ويكون جواب ﴿ لما ﴾ في الآية الثانية : " قلنا : يا إبراهيم أعرض عن هذا " واختار هذا أبو علي ، و" المجادلة " : المقابلة في القول والحجج ، وكأنها أعم من المخاصمة فقد يجادل من لا يخاصم كإبراهيم .

وفي هذه النازلة وصف إبراهيم " بالحلم " قيل : إنه لم يغضب قط لنفسه إلا أن يغضب لله .
و" الحلم " : العقل إلا إذا انضاف إليه أناة واحتمال . وال ﴿ أواه ﴾ معناه : الخائف الذي يكثر التأوه من خوف الله تعالى ؛ ويروى أن إبراهيم عليه السلام كان يسمع وجيب قلبه من الخشية ، قيل : كما تسمع أجنحة النسور وللمفسرين في " الأواه " عبارات كلها ترجع إلى ما ذكرته وتلزمه . وال ﴿ منيب ﴾ : الرجاع إلى الله تعالى في كل أمره .

(149/382)

وصورة جدال إبراهيم عليه السلام كانت أن قال إبراهيم : إن كان فيهم مائة مؤمن أتعذبونهم ؟ قالوا لا . قال : أفتسعون ؟ قالوا لا . قال : أفثمانون ؟ فلم يزل كذلك حتى بلغ خمسة ووقف عند ذلك ؛ وقد عد في بيت لوط امرأته فوجدهم ستة بها فطمع في نجاتهم ولم يشعر أنها من الكفرة ، وكان ذلك من إبراهيم حرصاً على إيمان تلك الأمة ونجاتها ، وقد كثر اختلاف رواة المفسرين لهذه الأعداد في قول إبراهيم عليه السلام ، والمعنى كله نحو مما ذكرته ، وكذلك ذكروا أن قوم لوط كانوا أربعمائة ألف في خمس قرى .
وقالت فرقة : المراد ﴿ يجادلنا ﴾ في مؤمني قوم لوط – وهذا ضعيف – وأمره بالإعراض عن المجادلة يقتضي أنها إنما كانت في الكفرة حرصاً عليهم ، والمعنى : قلنا يا إبراهيم

أعرض عن المجادلة في هؤلاء القوم والمراجعة فيهم ، فقد نفذ فيهم القضاء ، و﴿ جاء أمر ربك ﴾ الأمر هنا : واحد الأمور بقرينة وصفه بالمجيء ، فإن جعلناه مصدر أمر قدرنا حذف مضاف ، أي جاء مقتضى أمر ربك ونحو هذا ؛ وقوله ﴿ آتيهم عذاب ﴾ ابتداء وخبر ؛ جملة في موضع خبر " إن " وقيل : ﴿ آتيهم ﴾ خبر " إن " فهو اسم فاعل معتمد ، و﴿ عذاب ﴾ فاعل ب ﴿ آتيهم ﴾ .

وهذه الآية مقتضية أن الدعاء إنما هو أن يوفق الله الداعي إلى طلب المقدور ، فأما الدعاء في طلب غير المقدور فغير مجد ولا نافع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(150/382)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الروع ﴾

أي الخوف ؛ يقال : ارتاع من كذا إذا خاف ؛ قال النابغة :

فارتاعَ من صَوْتِ كلاَّب فبات له . . .

طوعَ الشَّوامِتِ من خوفٍ ومن صَرَدِ

﴿ وَجَآءَتْهُ البشرى ﴾ أي بإسحق ويعقوب .

وقال قَتَادة : بشروه بأنهم إنما أتوا بالعذاب إلى قوم لوط ، وأنه لا يخاف .

﴿ يُجَادِلُنَا ﴾ أي يجادل رسلنا ، وأضافه إلى نفسه ، لأنهم نزلوا بأمره .

وهذه المجادلة رواها حُميد بن هلال عن جُنْدب عن حُذَيفة ؛ وذلك أنهم لما قالوا : ﴿ إِنَّا مهلكوا أَهْلِ هذه القرية ﴾ [العنكبوت : 31] قال لهم : أرأيتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونهم ؟ قالوا : لا .

قال : فأربعون ؟ قالوا : لا .

قال : فثلاثون ؟ قالوا : لا قال : فعشرون ؟ قالوا : لا .

قال : فإن كان فيها عشرة أو خمسة شك حميد قالوا : لا .

قال قَتَادة : نحواً منه ؛ قال فقال يعني إبراهيم : قوم ليس فيهم عشرة من المسلمين لا خير فيهم .

وقيل إن إبراهيم قال : أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها ؟ قالوا : لا .

فقال إبراهيم عند ذلك : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ [العنكبوت : 32] .

وقال عبد الرحمن بن سَمُرة : كانوا أربعمائة ألف .

ابن جُرَيج .

وكان في قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف .

ومذهب الأخفش والكسائيّ أنّ "يجادلنا" في موضع "جادلنا" .

قال النحاس : لما كان جواب "لمّا" يجب أن يكون بالماضي جعل المستقبل مكانه ؛ كما أن الشرط يجب أن يكون بالمستقبل فجعل الماضي مكانه .

وفيه جواب آخر أن يكون "يجادلنا" في موضع الحال ؛ أي أقبل يجادلنا ؛ وهذا قول الفرّاء .

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ تقدّم في "براءة" معنى "لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ" .

والمنيب الراجع ؛ يقال : أناب إذا رجع .

(151/382)

وإبراهيم صلى الله عليه وسلم كان راجعاً إلى الله تعالى في أموره كلها .

وقيل : الأوّاه المتأوّه أسفاً على ما قد فات قوم لوط من الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ يَإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَاذَآ ﴾ أي دع عنك الجدال في قوم لوط .

﴿ إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي عذابه لهم .

﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ ﴾ أي نازل بهم .

﴿ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ أي غير مصروف عنهم ولا مدفوع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع ﴾

يعني: الفزع والخوف الذي حصل له عند امتناع الملائكة من الأكل ﴿ وجاءته البشرى ﴾ يعني زال عنه الخوف بسبب البشرى التي جاءته وهي البشارة بالولد ﴿ يجادلنا ﴾ فيه إضمار تقديره أخذ يجادلنا أو جعل يجادلنا ويخاصمنا وقيل معناه يكلمنا ويسألنا ﴿ في قوم لوط ﴾ لأن العبد لا يقدر أن يخاصم ربه وقال جمهور المفسرين: معناه يجادل رسلنا في قوم لوط وكانت مجادلة إبراهيم مع الملائكة أن قال لهم أرأيتم لو كان في مدائن قوم لوط خمسون رجلاً من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا قال فما زال كذلك حتى بلغ خمسة قالوا لا قال أرأيتم لو كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا لا قال إبراهيم فإن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين وقيل إنما طلب إبراهيم تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون أو يرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصي، قال ابن جريج: كان في قرى قوم لوط أربعة آلاف مقاتل ﴿ إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب ﴾ تقدم تفسيره في سورة التوبة فعند ذلك قالت الملائكة لإبراهيم

﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ﴾ يعني أعرض عن هذا المقال واترك هذا الجدال ﴿ إنه قد جاء أمر ربك ﴾ يعني : إن ربك قد حكم بعذابهم فهو نازل بهم وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ يعني أن العذاب الذي نزل بهم غير مصروف ولا مدفوع عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(153/382)

وقال أبو حيان :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾

والفعل راع يروع قال :

ما راعني إلا حمولة أهلها . . .

وسط الديار نسف حب الخمخم

وقال النابغة :

فارتاع من صوت كلاب فبات له . . .

طوع الشوامت من خوف ومن صرد

والروع بضم الراء النفس ، لأنها موضع الروع .

﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب .

يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ : الروع الخيفة التي كان أوجسها في نفسه حين نكر أضيافه ، والمعنى : اطمأن قلبه بعلمه أنّهم ملائكة .

والبشرى تبشيره بالولد ، أو بأنَّ المراد بمجيئهم غيره .

وجواب لما محذوف كما حذف في قوله : ﴿ فلما ذهبوا به ﴾ وتقديره : اجترأ على الخطاب اذ فطن للمجادلة ، أو قال : كيت وكيت .

ودل على ذلك الجملة المستأنفة وهي يجادلنا ، قال معناه الزمخشري .

وقيل : الجواب يجادلنا وضع المضارع موضع الماضي ، أي جادلنا .

وجاز ذلك لوضوح المعنى ، وهذا أقرب الأقوال .

وقيل : يجادلنا حال من إبراهيم ، وجاءته حال أيضاً ، أو من ضمير في جاءته .

وجواب لما محذوف تقديره : قلنا يا إبراهيم أعرض عن هذا ، واختار هذا التوجيه أبو علي .

وقيل : الجواب محذوف تقديره : ظل أو أخذ يجادلنا ، فحذف اختصاراً لدلالة ظاهر الكلام عليه .

والمجادلة قيل : هي سؤاله العذاب واقع بهم لا محالة ، أم على سبيل الإخافة ليرجعوا إلى الطاعة .

وقيل : تكلماً على سبيل الشفاعة ، والمعنى : تجادل رسلنا .

وعن حذيفة انهم لما قالوا له : إنا مهلكوا أهل هذه القرية قال : أرأيتم ان كان فيها خمسون من المسلمين ، أتهلكونها ؟ قالوا : لا ، قال : فأربعون ؟ قالوا : لا .

قال : فثلاثون ؟ قالوا : لا ، قال : فعشرون ؟ قالوا : لا .

قال : فإن كان فيهم عشرة أو خمسة شك الراوي ؟ قالوا : لا .

قال : أرأيتم إن كان فيها رجل .

واحد من المسلمين أتهلكونها ؟ قالوا : لا ، فعند ذلك قال : إنَّ فيها لوطاً ، قالوا : نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله .

وكان ذلك من إبراهيم حرصاً على إيمان قوم لوط ونجاتهم ، وكان في القرية أربعة آلاف ألف إنسان وتقدم تفسير حليم وأواه ومنيب .

يا إبراهيم أي : قالت الملائكة ، والاشارة بهذا إلى الجدال والمحاورة في شيء مفروغ منه ،

والأمر ما قضاه وحكم به من عذابه الواقع بهم لا محالة.

ولا مرد له بجدال، ولا دعاء، ولا غير ذلك.

وقرأ عمرو بن هرم: وإنهم أتاهم بلفظ الماضي، وعذاب فاعل به عبر بالماضي عن المضارع لتحقق وقوعه كقوله ﴿ أتى أمر الله ﴾. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(155/382)

وقال الثعالبى:

قوله: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبراهيم الروع وَجَاءَتْهُ البشرى يجادلنا ﴾: أي: أخذ يُجادِلُنا «في قومِ لوطٍ».

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إبراهيم لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ وُصِفَ عليه السلام بالحِلْمِ، لأنه لم يَغْضَبْ قطُّ لنفسه إلاَّ أَنْ يغضب لله، وأَمْرُهُ بالإِعراض عن المُجَادلة يقتضي أنها إِنَّما كَانَتْ في الكَفَرَة، حرصاً على إِسلامهم، و ﴿ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ واحدُ الأمور، أي: نفذ فيهم قضاؤُهُ سبحانه، وهذه الآية مقتضيةٌ أَنَّ الدعاء إِنما هو أنْ يوفِّق اللَّه الداعِيَ إِلى طَلَبِ المَقْدور، فأما الدُّعاء في طَلَبِ غير المقدورِ، فغير مُجْدٍ ولا نافع.

* ت * : والكلام في هذه المسألة متّسعٌ رَحْبٌ ، ومن أحسن ما قيل فيها قولُ الغَزَّالِيّ في «الإِحياء» :

فإِنْ قلْتَ : فما فائدةُ الدُّعاءِ ، والقَضَاءُ لا يُرَدُّ ؟ فالجوابُ : أَنَّ من القضاءِ رَدَّ البلاءِ بالدعاءِ ، فالدعاءُ سَبَبٌ لردّ البلاء ، واستجلاب الرحمة ؛ كما أن التُّرْسَ سببٌ لردّ السهم ، والماء سببٌ لخروجِ النباتِ ، انتهى . وقد أطال في المسألة ، ولولا الإطالة لأَتَيْتُ بِنُبَذٍ يثلج لها الصِدْرُ ، وخرَّجَ الترمذيُّ في «جامعه» عن أبي خزامة ، واسمه رِفَاعَةُ ، عن أبيه ، قال : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَرَأَيْتَ رقًى نَسْتَرْقِيهَا ، وَدَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ ، وتُقَاةً نَتَّقِيهَا ، هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئاً ؟ قَالَ : «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ» ، قال أبو عيسَى : هذا حديثٌ حسن ، وفي بعض نُسَخِهِ : حسنٌ صحيحٌ ، انتهى . فليس وراء هذا الكلام من السيّد المعصوم مرمًى لأَحدٍ ، وتأمّل جواب الفارُوق لأبي عُبَيْدة ، حِينَ هَمَّ بالرجوعِ مِنْ أجْلِ الدخول علَى أرْضٍ بها الطاعُونُ ، وهي الشام . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبراهيم الروع ﴾

أي ما أوجس منهم من الخِيفه واطمأن قلبُه بعِرفانهم وعرفانِ سببِ مجيئِهم ، والفاءُ لربط بعض أحوالِ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام ببعضٍ غِبَّ انفصالِها بما ليس بأجنبي من كل وجهٍ بل له مدخلٌ تامٌّ في السباق والسياق ، وتأخيرُ الفاعلِ عن الظرف لأنه مصبُّ الفائدةِ ، فإن بتأخير ما حقُّه التقديمُ تبقى النفسُ منتظرةً إلى وروده فيتمكن فيها عند ورودِه إليها فضلُ تمكّنٍ ﴿ وَجَاءتْهُ البشرى ﴾ إن فُسِّرت البُشرى بقولهم : لا تخف فسببيّهُ ذهابِ الخوفِ ومجيءِ السرور للمجادلة المدلولِ عليها بقوله تعالى : ﴿ يجادلنا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ أي جادل رسلَنا في شأنهم . وعُدل إلى صيغة الاستقبالِ لاستحضار صورتِها أو طفِقَ يجادلنا ظاهرةٌ ، وأما إن فُسّرت ببشاره الولدِ أو بما يعُمها فلعل سببيّتَها لها من حيث إنها تفيد زيادةَ اطمئنانِ قلبه بسلامته وسلامةِ أهلِه كافةً ، ومجادلتُه إياهم أنه قال لهم حين قالوا له : إنا مُهلكوا أهلِ هذه القريةِ : أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلاً من المؤمنين أتُهلكونها ؟ قالوا : لا ، قال : فأربعون ؟ قالوا : لا ، فثلاثون ؟ قالوا : لا ، حتى بلغ العشرةَ قالوا : لا ، قال : أرأيتم إن كان فيها رجلٌ مسلمٌ أتهلكونها ؟ قالوا : لا ، فعند ذلك قال : إن فيها لوطاً قالوا : نحن أعلمُ بمن فيها لَنُنجِّينه وأهلَه .

إن قيل : المتبادرُ من هذا الكلامِ أن يكون إبراهيمُ عليه السلام قد علِم أنهم مرسَلون لإهلاكِ قومِ لوطٍ قبل ذهابِ الرَّوعِ عن نفسه ولكن لم يقدِر على مجادلتهم في شأنهم لاشتغاله بشأنِ نفسِه فلما ذهب عنه الروعُ فرَغ لها مع أن ذهابَ الروعِ إنما هو قبل العِلم بذلك لقوله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ قلنا : كان لوطٌ عليه السلام على شريعةِ إبراهيمَ عليه السلام وقومُه مكلّفين بها فلما رأى من الملائكة ما رأى خاف على نفسه وعلى كافةِ أمتِه التي من جملتهم قومُ لوط ، ولا ريب في تقدم هذا الخوفِ على قولهم : لا تخف ، وأما الذي علمه عليه السلام بعد النهي عن الخوف فهو اختصاصُ قومِ لوطٍ بالهلاكِ لا دخولُهم تحت العموم فتأمّلْ والله الموفق .

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ ﴾

غيرُ عَجولٍ على الانتقام ممن أساء إليه ﴿ أَوَّٰهٌ ﴾ كثيرُ التأوّه على الذنوب والتأسفِ على الناس ﴿ مُّنِيبٌ ﴾ راجعٌ إلى الله تعالى والمقصودُ بتعداد صفاتِه الجميلةِ المذكورةِ بيانُ ما حَمله عليه السلام على ما صدر عنه من المجادلة .

﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ أي قالت الملائكةُ : يا إبراهيمُ ﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ﴾ الجدالِ ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ أي الشأنَ ﴿ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي قدَرُه الجاري على وفق قضائِه الأزليّ الذي هو عبارةٌ عن الإرادةِ الأزليةِ والعنايةِ الإلهيةِ المقتضيةِ لنظام الموجوداتِ على ترتيب خاصَ

حسب تعلُّقِها بالأشياء في أوقاتها ، وهو المعبّر عنه بالقدر ﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ لا بجدال ولا بدعاء ولا بغيرهما . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(158/382)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾

أي الخوف والفزع ، قال الشاعر

: إذا أخذتها هزة (الروع) أمسكت . . .

بمنكب مقدام على الهول أروعا

والفعل راع ، ويتعدى بنفسه كما في قوله

: (ما راعني) إلا حمولة أهلها . . .

وسط الديار تسف حب الخمخم

والروع بضم الراء النفس وهي محل الروع ، والفاء لربط بعض أحوال إبراهيم عليه السلام ببعض غب انفصالها بما ليس بأجنبي من كل وجه بل له مدخل في السياق والسباق ،

وتأخر الفاعل عن الظرف لكونه مصب الفائدة ، والمعنى لما زال عنه ما كان أوجسه منهم من الخيفة وأطمأنت نفسه بالوقوف على جلية أمرهم ﴿ وَجَاءتْهُ البشرى يجادلنا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ أي يجادل رسلنا في حالهم وشأنهم ، ففيه مجاز في الإسناد ، وكانت مجادلته عليه السلام لهم ما قصه الله سبحانه في قوله سبحانه في سورة العنكبوت : ﴿ وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا إبراهيم بالبشرى قَالُواْ إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هذه القرية إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظالمين قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً ﴾ [العنكبوت : 31 ، 32] فقوله عليه السلام : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطاً ﴾ مجادلة وعد ذلك مجادلة لأن مآله على ما قيل : كيف تهلك قرية فيها من هو مؤمن غير مستحق للعذاب ؟ ولذا أجابوه بقولهم : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته ﴾ [العنكبوت : 32] وهذا القدر من القول هو المتيقن .

وعن حذيفة أنهم لما قالوا لع عليه السلام ما قالوا ، قال : أرأيتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونها ؟ قالوا : لا ، قال : فثلاثون ؟ قالوا : لا ، قال : فعشرون ، قالوا : لا ، قال : فإن كان فيهم عشرة .

أو خمسة شك الرواي ؟ قالوا : لا ، قال : أرأيتم إن كان فيها رجل واحد من المسلمين أتهلكونها ؟ قالوا : لا ، فعند ذلك قال : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطاً ﴾ [العنكبوت : 32] فأجابوه بما أجابوه ، وروي نحو ذلك عدة روايات الله تعالى أعلم بصحتها ، وفسر بعضهم المجادلة بطلب الشفاعة ، وقيل : هي سؤاله عن العذاب هل هو واقع بهم لا محالة أم على سبيل الإخافة ليرجعوا إلى الطاعة ؟ وأياً مّا كان فيجادلنا جواب لما وكان الظاهر جادلنا إلا أنه عبر بالمضارع لحكاية الحال الماضية واستحضار صورتها ، وقيل : إن لما كلو تقلب المضارع ماضياً كما أن أن تقلب الماضي مستقبلاً ، وقيل : الجواب محذوف ، وهذه الجملة في موضع الحال من فاعله أي أخذ أو أقبل مجادلالنا ، وآثر هذا الوجه الزجاج ولكنه جعله مع حكاية الحال وجهاً واحداً لأنه قال : ولم يذكر في الكلام أخذ لأن الكلام إذا أريد به حكاية حال ماضية قدر فيه أخذ وأقبل لأنك إذا قلت : قام زيد دل على فعل ماض ، وإذا قلت : أخذ زيد يقوم دل على حال ممتدة من أجلها ذكر أخذ وأقبل ، وصنيع الزمخشري يدل على أنهما وجهان ، وتحقيقه على ما في الكشف أنه إذا أريد استمرار الماضي فهو كما ذكره الزجاج ، وإن أريد التصوير المجرد فلا ، وقيل : الجواب محذوف .

والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً أو بيانياً وهي دليل عليه ، والتقدير اجترأ على خطابنا أو فطن بمجادلتنا وقال : كيت وكيت ، واختاره في الكشاف ، وقيل : إن هذه الجملة وكذا الجملة التي قبلها في موضع الحال من ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ على الترادف أو التداخل وجواب لما

قلنا يقدر قبل ﴿ يإبراهيم أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾ [هود : 76] ، وأقرب الأقوال أولها ، والبشرى إن فسرت بقولهم : ﴿ لاَ تَخَفْ ﴾ [هود : 0] فسببية ذهاب الخوف ومجيء السرور للمجادلة ظاهرة ، وأما إن فسرت ببشارة الولد كما أخرجه ابن جرير .
وابن المنذر .

(160/382)

وغيرهما عن قتادة واختاره جمع أو بما يعمها فلعل سببيتها لها من حيث أنها تفيد زيادة اطمئنان قبله عليه السلام بسلامته وسلامة أهله كافة كذا قاله مولانا شيخ الإسلام ، ثم قال : إن قيل : إن المتبادر من هذا الكلام أن يكون إبراهيم عليه السلام قد علم أنهم مرسلون لإهلاك قوم لوط قبل ذهاب الروع عن نفسه ولكن لم يقدر على مجادلتهم في شأنهم لاشتغاله بشأن نفسه ، فلما ذهب عنه الروع فرغ لها مع أن ذهاب الروع إنما هو قبل العلم بذلك لقوله سبحانه : ﴿ قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إلى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود : 70] قلنا : كان لوط عليه السلام على شريعة إبراهيم عليه السلام وقومه مكلفين بها فلما رأى من الملائكة عليهم السلام ما رأى خاف على نفسه وعلى كافة أمته التي من جملتهم قوم لوط ، ولا ريب في تقدم هذا الخوف على قولهم : ﴿ لاَ تَخَفْ ﴾ [هود : 70] وأما الذي علمه

عليه السلام بعد النهي فهو اختصاص قوم لوط بالهلاك لا دخول لهم تحت العموم فتأمل

انتهى .

(161/382)

وفيه أن كون الكل أمته في حيز المنع ، وما أشار إليه من اتحاد الشريعتين إن أراد به الاتحاد في الأصول كاتحاد شريعة نبينا صلى الله عليه وسلم مع شريعة إبراهيم عليه السلام فمسلم لكن لا يلزم منه ذلك ، وإن أراد به الاتحاد في الأصول والفروع فغير مسلم ولو سلم ففي لزوم كون الكل أمته له تردد على أنه لو سلمنا كل ذلك فلقائل أن يقول : سلمنا أنه عليه السلام لما رأى من الملائكة عليهم السلام ما رأى حصل له خوف على نفسه وعلى كافة أمته التي من جملتهم قوم لوط عليه السلام لكن لا نسلم أن هذا الخوف كان عن علم بأن أولئك الملائكة كانوا مرسلين لاهلاك الكل المندرج فيه قوم لوط بل عن تردد وتحير في أمرهم ، وحينئذ لا ينحل السؤال بهذا الجواب كما لا يخفى على المتبصر ، وكأنه لذلك أمر بالتأمل ؛ وقد يقال : المفهوم من الكلام تحقق المجادلة بعد تحقق مجموع الأمرين ذهاب الروع ومجيء البشارة ، وهو لا يستدعي إلا سبق العلم بأنهم مرسلون لإهلاك قوم لوط على تحقق المجموع ، ويكفي في ذلك سبقه على تحقق البشارة ، وهذا العلم مستفاد من قولهم له :

﴿ لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود : 70] وكأنه عليه السلام إنما لم يجادل بعد هذا العلم ، وأخر المجادلة إلى مجيء البشارة ليرى ما ينتهي إليه كلام الملائكة عليهم السلام ، أو لأنه لم يقع فاصل سكوت في البين ليجادل فيه إلا أن هذا لا يتم إلا أن يكون الإخبار بالإرسال إلى قوم لوط سابقاً على البشارة بالولد ، وفيه تردد .

(162/382)

وفي بعض الآيات ما هو ظاهر في سبق البشارة على الإخبار بذلك ، نعم يمكن أن يلتزم سبق الأخبار على البشارة ، ويقال : إنهم أخبروه أولا ثم بشروه ثانياً ، ثم بعد أن تحقق مجموع الأمرين قال : ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون ﴾ [الحجر : 57] ويقال : الرماد منه السؤال عن حال العذاب هل هو واقع بهم لا محالة أم هو على سبيل الإخافة ليرجعوا إلى الإيمان ؟ وتفسير المجادلة به كما مر عن بعض فتدبر ذاك والله سبحانه يتولى هداك .

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ ﴾

غير عجول على الانتقام إلى المسيء إليه ﴿ أواه ﴾ كثير التأوة من الذنوب والتأسف على الناس ﴿ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ راجع إلى الله تعالى ، والمقصود من وصفه عليه السلام بهذه الصفات المنبئة عن الشفقة ورقة القلب بيان ما حمله على ما صدر عنه من المجادلة ،

وحمل الحلم على عدم العجلة والتأني في الشيء مطلقاً ، وجعل المقصود من الوصف بتلك الصفات بيان ما حمله على المجادلة وإيقاعها بعد أن تحقق ذهاب الروع ومجيء البشرى لا يخفي حاله .

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾

على تقدير القول ليرتبط بما قبل أي قالت الملائكة ، أو قلنا ﴿ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

﴿ أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾ الجدال ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي الشأن ﴿ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي قدره تعالى المقضى بعذابهم ، وقد يفسر بالعذاب ، ويراد بالمجيء المشارفة فلا يتكرر مع قوله سبحانه :

﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ أي لا بجدال ولا بدعاء ولا بغيرهما إذ حاصل ذلك حينئذ شارفهم ثم وقع بهم ، وقيل : لا حاجة إلى اعتبار المشارفة ، والتكرار مدفوع بأن ذاك توطئة لذكر كونه غير مردود .

وقرأ عمرو بن هرم وإنهم أتاهم بلفظ الماضي ، و ﴿ عَذَابِ ﴾ فاعل به ، وعبر بالماضي لتحقيق الوقوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(163/382)

وقال صاحب المنار في الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا ﴾ .

هَذِهِ الْآيَاتُ الْخَمْسُ خَاصَّةٌ بِبِشَارَةِ الْمَلَائِكَةِ لِإِبْرَاهِيمَ وَامْرَأَتِهِ بِإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ .

- وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى - خَبَرٌ مُؤَكَّدٌ بِالْقَسَمِ لِغَرَابَتِهِ عِنْدَ الْعَرَبِ ، مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ - تَعَالَى - : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا : 25 أَوْ عَلَى مَا عُطِفَ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ لَا عَلَى مَا قَبْلَهُ مُبَاشَرَةً مِنْ قِصَّةِ صَالِحٍ الَّتِي عُطِفَتْ عَلَى قِصَّةِ هُودٍ لِتَمَاثُلِهِمَا ، وَالْمُرَادُ بِالرُّسُلِ : جَمَاعَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ اخْتَلَفَتِ الرِّوَايَةُ فِيهِمْ ، فَعَنْ عَطَاءٍ أَنَّهُمْ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ أَنَّهُمْ جِبْرِيلُ وَسَبْعَةُ أَمْلَاكٍ مَعَهُ ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ ، وَهُوَ مِمَّا لَا يُعْلَمُ إِلَّا بِتَوْقِيفٍ مِنَ الْوَحْيِ وَلَا تَوْقِيفَ فِيهِ .

وَسَتُذْكَرُ الْبُشْرَى بَعْدَ التَّحِيَّةِ وَالضِّيَافَةِ : - قَالُوا سَلَامًا - أَيْ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ سَلَامًا ، أَوْ ذَكَرُوا هَذَا اللَّفْظَ - قَالَ سَلَامٌ - أَيْ : أَمْرُكُمْ سَلَامٌ ، أَوْ عَلَيْكُمْ سَلَامٌ ، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : إِنَّ الرَّفْعَ أَبْلَغُ مِنَ النَّصْبِ ; فَقَدْ حَيَّاهُمْ بِأَحْسَنَ مِنْ تَحِيَّتِهِمْ ، أَيْ عَلَى عَادَتِهِ وَدَأْبِهِ فِي إِكْرَامِ الضَّيْفِ وَظَنَّ أَنَّهُمْ أَضْيَافٌ - فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ - أَيْ : مَا مَكَثَ وَمَا أَبْطَأَ

عَنْ مَجِيئِهِ إِيَّاهُمْ بِعِجْلٍ سَمِينٍ حَنِيذٍ : أَيْ مَشْوِيٍّ بِالرَّضْفِ وَهِيَ الْحِجَارَةُ الْمَحْمِيَّةُ - وَالْمَشْوِيُّ عَلَيْهَا يَكُونُ أَنْظَفَ مِنَ الْمَشْوِيِّ عَلَى النَّارِ وَأَلَذَّ طَعْمًا ، وَقَدِ اهْتَدَى الْبَشَرُ إِلَى شَيِّ اللَّحْمِ مِنْ صَيْدٍ وَغَيْرِهِ عَلَى الْحِجَارَةِ الْمَحْمِيَّةِ بِحَرِّ الشَّمْسِ قَبْلَ اهْتِدَائِهِمْ لِطَبْخِهِ بِالنَّارِ ، وَفِي سُورَةِ الذَّارِيَاتِ بَعْدَ السَّلَامِ : - فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ - 51 : 16 و27 وَهُوَ نَصٌّ فِي الْمُبَادَرَةِ إِلَى الْإِتْيَانِ بِهِ بِدُونِ مُهْلَةٍ كَأَنَّهُ كَانَ مَشْوِيًّا مُعَدًّا لِمَنْ يَجِيءُ مِنَ الضَّيْفِ ، أَوْ شُوِيَ عِنْدَ وُصُولِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَرَيُّثٍ .

(165/382)

- فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ - أَيْ لَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ لِلتَّنَاوُلِ مِنْهُ كَمَا يَمُدُّ الْآكِلُ يَدَهُ إِلَى الطَّعَامِ - نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً - نَكِرَ الشَّيْءَ (كَعَلِمَ وَتَعِبَ) وَأَنْكَرَهُ ضِدُّ عَرَفَهُ ، أَيْ نَكِرَ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَوَجَدَهُ عَلَى غَيْرِ مَا يَعْهَدُ مِنَ الضَّيْفِ ، فَإِنَّ الضَّيْفَ لَا يَمْتَنِعُ مِنْ طَعَامِ الْمُضِيفِ إِلَّا لِرِيبَةٍ أَوْ قَصْدٍ سَيِّءٍ ، وَأَحَسَّ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مِنْهُمْ وَفَزَعًا ، أَوْ أَدْرَكَ ذَلِكَ وَأَضْمَرَهُ إِذْ شَعَرَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بَشَرًا ، أَوْ أَنَّهُمْ رُبَّمَا كَانُوا مِنْ مَلَائِكَةِ الْعَذَابِ وَالْوَجْسِ (كَالْوَعْدِ) الصَّوْتُ الْخَفِيُّ ، وَيُطْلَقُ عَلَى مَا يَعْتَرِي النَّفْسَ مِنَ الشُّعُورِ وَالْخَوَاطِرِ عِنْدَ الْفَزَعِ - قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ - أَيْ : قَالُوا وَقَدْ عَلِمُوا مَا يُسَاوِرُ نَفْسَهُ مِنَ الْوَجْسِ : لَا تَخَفْ فَنَحْنُ لَا نُرِيدُ

بِكَ سُوءًا ، وَإِنَّمَا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ لِإِهْلَاكِهِمْ ، وَلُوطٌ ابْنُ أَخِيهِ وَأَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ ، وَكَانَ مَكَانُهُ مِنْ مُهَاجَرِهِ قَرِيبًا مِنْ مَكَانِهِ ، وَفِي سُورَةِ الْحِجْرِ أَنَّهُ صَارَحَهُمْ بِخَوْفِهِ وَوَجَلِهِ مِنْهُمْ ، فَطَمْأَنُوهُ بِأَنَّهُمْ مُبَشِّرُونَ لَهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ 15 : 53 وَكَذَا فِي سُورَةِ الذَّارِيَاتِ - قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ 51 : 28 وَفِيهَا أَنَّهُ بَعْدَ الْبِشَارَةِ لَهُ سَأَلَهُمْ عَنْ خَطْبِهِمْ وَمَا جَاءُوا لِأَجْلِهِ فَأَخْبَرُوهُ فَجَادَلَهُمْ فِيهِ كَمَا يُذْكَرُ هُنَا مُجْمَلًا .

(166/382)

- وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ - وَكَانَتِ امْرَأَةُ إِبْرَاهِيمَ فِي تِلْكَ الْحَالِ قَائِمَةً أَيْ : وَاقِفَةً - وَلَعَلَّ قِيَامَهَا كَانَ لِلْخِدْمَةِ - فَضَحِكَتْ . قِيلَ : تَعَجُّبًا مِمَّا رَأَتْ وَسَمِعَتْ ، وَقِيلَ : سُرُورٌ بِالْأَمْنِ مِنَ الْخَوْفِ أَوْ بِقُرْبِ عَذَابِ قَوْمِ لُوطٍ لِكَرَاهَتِهَا لِسِيرَتِهِمُ الْخَبِيثَةِ ، وَقِيلَ : تَعَجُّبًا مِنَ الْبِشَارَةِ بِالْوَلَدِ ، وَهَذَا يَكُونُ أَوْلَى إِنْ كَانَتِ الْبِشَارَةُ قَبْلَ الضَّحِكِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا بَعْدَهُ لِعَطْفِهَا عَلَيْهِ بِالْفَاءِ وَهُوَ - فَبَشَّرْنَاهَا

بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ - وَزَعَمَ الْفَرَّاءُ أَنَّ فِيهِ تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا ، وَلَا مُقْتَضَى وَلَا مُصَوِّغَ لَهُ ; لِأَنَّ لِضَحِكِهَا أَسْبَابٌ ذَكَرْنَا بَعْضَهَا وَزَادَ غَيْرُنَا عَلَيْهَا ، عَلَى أَنَّ بِشَارَتَهَا كَانَتْ بِالتَّبَعِ لِبِشَارَةِ بَعْلِهَا وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ ، وَصَرَّحَ بِهِ فِي سُوَرِ : الْحِجْرِ ، وَالصَّافَّاتِ ،

وَالذَّارِيَاتِ خَاصًّا بِهِ ، أَيْ بَشَّرْنَاهَا بِالتَّبَعِ لِتَبْشِيرِهِ بِإِسْحَاقَ ، وَمِنْ بَعْدِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ، يَعْنِي أَنَّهُ سَيَكُونُ لِإِسْحَاقَ وَلَدٌ أَيْضًا . قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَحَمْزَةُ وَحَفْصٌ (يَعْقُوبَ) مَنْصُوبًا بِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ تُفَسِّرُهُ قَرِينَةُ الْكَلَامِ كَوَهَبْنَاهَا مِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ، كَمَا قَالَ : - وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ - 6 : 84 وَقَرَأَهُ الْبَاقُونَ مَرْفُوعًا بِالِابْتِدَاءِ ، وَالتَّقْدِيرُ : وَيَعْقُوبُ مِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْوَرَاءَ وَلَدُ الْوَلَدِ .

(167/382)

- قَالَتْ يَا وَيْلَتَا - أَصْلُهَا يَا وَيْلِي (كَمَا قَالَ : يَا عَجَبًا بَدَلَ : يَا عَجَبِي) وَهِيَ كَلِمَةٌ تُقَالُ عِنْدَمَا يَفْجَأُ الْإِنْسَانَ أَمْرٌ مُهِمٌّ مِنْ بَلِيَّةٍ أَوْ فَجِيعَةٍ أَوْ فَضِيحَةٍ تَعَجُّبًا مِنْهُ أَوِ اسْتِكْبَارًا لَهُ أَوْ شَكْوَى مِنْهُ ، وَأَكْثَرُ مَا يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَةِ النِّسَاءِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، وَنِسَاءُ مِصْرَ يَقُلْنَ : "يَا دَهْوَتِي " - أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ - عَقِيمٌ لَا يَلِدُ مِثْلُهَا - وَهَذَا بَعْلِي - وَأَشَارَتْ إِلَيْهِ - كَمَا تَرَوْنَ - شَيْخًا - كَبِيرًا لَا يُولَدُ لِمِثْلِهِ - إِنَّ هَذَا - الَّذِي بَشَّرْتُمُونَا بِهِ ، - لَشَيْءٌ عَجِيبٌ - فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ عُمْرُهُ يَوْمَئِذٍ مِائَةَ سَنَةٍ ، وَأَنَّ زَوْجَهُ سَارَةَ هَذِهِ كَانَتِ ابْنَةَ تِسْعِينَ سَنَةً وَمِثْلُهَا لَا يَلِدُ ، بَلِ الْغَالِبُ أَنْ يَنْقَطِعَ حَيْضُ الْمَرْأَةِ فِي سِنِّ الْخَمْسِينَ فَيَبْطُلُ اسْتِعْدَادُهَا لِلْحَمْلِ وَالْوِلَادَةِ ، عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ عَقِيمًا كَمَا فِي سُورَةِ الذَّارِيَاتِ . فَأَمَّا الرِّجَالُ

فَلَا يَزَالُ يُوجَدُ فِي الْمُعَمِّرِينَ مِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ لَهُ فِي سِنِّ الْمِائَةِ وَمَا بَعْدَهَا وَلَكِنَّهُ نَادِرٌ . وَقَدْ حَدَّثَتْنَا صُحُفُ الْأَخْبَارِ عَنْ رَجُلٍ تُرْكِيٍّ مِنْهُمْ اسْمُهُ (زَارُو أَغَا) مَاتَ فِي هَذَا الْعَامِ (1353 هـ) عَنْ مِائَةٍ وَخَمْسَةٍ وَثَلَاثِينَ عَامًا . ثُمَّ عَنْ رَجُلٍ عَرَبِيٍّ فِي الْعِرَاقِ قَرِيبٍ مِنْ عُمْرِهِ لَا يَزَالُ حَيًّا وَقَدْ وُلِدَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا بَعْدَ الْمِائَةِ ، ثُمَّ عَنْ رَجُلٍ عَرَبِيٍّ سُورِيٍّ مِنْ مَجْدَلِ زَوِينَ التَّابِعِ لِقَضَاءِ صُورَ اسْمُهُ : السَّيِّدُ حُسَيْن هَاشِم عُمْرُهُ 125 سَنَةً

(168/382)

بِشَهَادَةِ الْمَحْكَمَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَمُخْتَارِ بَلْدَتِهِ ، وَهُوَ لَا يَزَالُ مُنْتَصِبَ الْقَامَةِ جَيِّدَ الصِّحَّةِ قَوِيَّ الذَّاكِرَةِ ، وَقَدْ تَزَوَّجَ أَوَّلًا وَهُوَ فِي سِنِّ الْعِشْرِينَ ، وَثَانِيًا وَهُوَ فِي الْعِشْرِينَ بَعْدَ الْمِائَةِ ، رُزِقَ مِنَ الْأُولَى 14 وَلَدًا مِنْهُمْ 12 ذَكَرًا وَمِنَ الثَّانِيَةِ وَلَدًا وَاحِدًا ، وَيَعِيشُ عِيشَةً فِطْرِيَّةً إِسْلَامِيَّةً .

وَالظَّاهِرُ أَنَّ سَارَةَ عَلِمَتْ مِنْ حَالِ بَعْلِهَا أَنَّهُ بَعْدَ وِلَادَةِ هَاجَرَ لِابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ بِزَمَنٍ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ فَقَدَ الِاسْتِعْدَادَ لِإِتْيَانِ النِّسَاءِ ، أَوْ كَانَتْ تَعْتَقِدُ كَمَا يُعْتَقَدُ أَنَّ مِثْلَهُ فِي تِلْكَ السِّنِّ لَا يُولَدُ لَهُ ، فَقَدْ قَالَ هُوَ لِلْمَلَائِكَةِ : - أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ - 15 : 54 وَيَكْفِي فِي خَرْقِ الْعَادَةِ أَنْ يَكُونَ مِنْ قِبَلِهَا هِيَ وَلِذَلِكَ أَنْكَرُوا عَلَيْهَا .

- قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ - هَذَا الِاسْتِفْهَامُ إِنْكَارٌ لِاسْتِفْهَامِهَا التَّعَجُّبِيِّ ، أَيْ لَا يَنْبَغِي لَكِ أَنْ تَعْجَبِي مِنْ شَيْءٍ هُوَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ، - إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ - 36 : 82 وَإِنَّمَا يَصِحُّ الْعَجَبُ مِنْ وُقُوعِ مَا يُخَالِفُ سُنَّتَهُ - تَعَالَى - فِي خَلْقِهِ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ وَاضِعُ السُّنَنِ وَنِظَامِ الْأَسْبَابِ هُوَ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَسْتَثْنِيَ مِنْهَا وَاقِعَةً يَجْعَلُهَا مِنْ آيَاتِهِ ; لِحِكْمَةٍ مِنْ حِكَمِهِ فِي عِبَادِهِ : - رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ - هَذِهِ جُمْلَةٌ دُعَائِيَّةٌ اسْتُجِيبَتْ ، فَمَعْنَاهُ الَّذِي فَسَّرَهُ الزَّمَانُ إِلَى الْآنِ : رَحْمَةُ اللَّهِ الْخَاصَّةُ وَبَرَكَاتُهُ الْكَثِيرَةُ الْوَاسِعَةُ عَلَيْكُمْ يَا مَعْشَرَ أَهْلِ بَيْتِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ ، تَتَّصِلُ وَتَتَسَلْسَلُ فِي نَسْلِكُمْ وَذُرِّيَّتِكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَلَا مَحَلَّ لِلْعَجَبِ أَنْ يَكُونَ مِنْ آيَاتِهِ - تَعَالَى - أَنْ يَهَبَ رَسُولَهُ وَخَلِيلَهُ الْوَلَدَ مِنْكُمَا فِي كِبَرِكُمَا وَشَيْخُوخَتِكُمَا ، فَمَا هِيَ بِأَوَّلِ آيَاتِهِ لَهُ وَقَدْ نَجَّاهُ مِنْ نَارِ قَوْمِهِ الظَّالِمِينَ ، وَآوَاهُ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكَ فِيهَا لِلْعَالَمِينَ .

وهَذِهِ الرَّحْمَةُ وَالْبرَكَاتُ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِمْ ، إرْثٌ أَوْ تَجْدِيدٌ لِمَا هَبَطَ بِهِ نُوحٌ مِنَ السَّلَامِ وَالْبرَكَاتِ عَلَيْهِ " وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَهُ " كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ (48) - إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ - إِنَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ - مُسْتَوْجِبٌ لِأَنْوَاعِ الثَّنَاءِ وَالْحَمْدِ ، حَقِيقٌ بِأَسْنَى غَايَاتِ الْمَجْدِ ، وَبِتَأْثِيلِهِمَا لِأَهْلِ الْبَيْتِ . وَالْجُمْلَةُ تَعْلِيلٌ لِمَا قَبْلَهَا ، وَأَصْلُ الْمَجْدِ فِي اللُّغَةِ أَنْ تَقَعَ إِبِلٌ فِي أَرْضٍ وَاسِعَةِ الْمَرْعَى ، يُقَالُ : مَجدَتْ تَمْجُدُ (مِنْ بَابِ نَصَرَ) مَجْدًا وَمُجَادَةً ، وَأَمْجَدَهَا الرَّاعِي ، وَالْمَجْدُ فِي الْبُيُوتِ وَالْأَنْسَابِ مَا يَعُدُّهُ الرَّجُلُ مِنْ سَعَةِ كَرَمِ آبَائِهِ وَكَثْرَةِ نَوَالِهِمْ ، وَوَصَفَ اللهُ كِتَابَهُ بِالْمَجِيدِ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِهِ لِسَعَةِ هِدَايَةِ كِتَابِهِ ، وَسَعَةِ كَرَمِهِ وَفَضْلِهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَخَذَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دُعَاءَ الصَّلَاةِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ أُمَّتَهُ عَقِبَ التَّشَهُّدِ الْأَخِيرِ مِنَ الصَّلَاةِ .

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ

(75) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ . (76)

- فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ - أَيْ : فَمَا سُرِّيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ وَانْكَشَفَ مَا رَاعَهُ مِنَ الْخِيفَةِ وَالرُّعْبِ ، إِذْ عَلِمَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الرُّسُلَ مِنْ مَلَائِكَةِ الْعَذَابِ ،

وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى بِالْوَلَدِ وَاتِّصَالِ النَّسْلِ ، أَخَذَ يُجَادِلُ رُسُلَنَا فِيمَا أَرْسَلْنَاهُمْ بِهِ مِنْ عِقَابِ قَوْمِ لُوطٍ ، جُعِلَتْ مُجَادَلَتُهُمْ وَمُرَاجَعَتُهُمْ مُجَادَلَةً لَهُ - تَعَالَى - ; لِأَنَّهَا مُجَادَلَةٌ فِي تَنْفِيذِ أَمْرِهِ ، وَإِنَّمَا قَالَ : - يُجَادِلُنَا - دُونَ (جَادَلَنَا) - وَالْأَصْلُ فِي جَوَابِ ، " لَمَّا " أَنْ يَكُونَ فِعْلًا مَاضِيًا - لِتَصْوِيرِ تِلْكَ الْحَالِ كَأَنَّهَا حَاضِرَةٌ ، أَوْ لِتَقْدِيرِ مَاضٍ قَبْلَهُ كَالَّذِي قُلْنَا ، وَالْمُرَادُ بِالْمُجَادَلَةِ مَا ذُكِرَ فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ - وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ 29 : 31 و32 .

- إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ - هَذَا تَعْلِيلٌ لِمُجَادَلَةِ إِبْرَاهِيمَ فِي عَذَابِ قَوْمِ لُوطٍ ، وَهُوَ أَنَّهُ كَانَ حَلِيمًا لَا يُحِبُّ الْمُعَاجَلَةَ بِالْعِقَابِ ، كَثِيرَ التَّأَوُّهِ مِمَّا يَسُوءُ وَيُؤْلِمُ ، مُنِيبٌ يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ وَصْفُهُ بِالْأَوَّاهِ الْحَلِيمِ فِي الْآيَةِ (9 : 114) .

وَهَذِهِ الْمُجَادَلَةُ الْمُشَارُ إِلَيْهَا هُنَا الْمُجْمَلَةُ فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ مُفَصَّلَةٌ فِي الْفَصْلِ الثَّامِنَ عَشَرَ مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ ، وَجُعِلَتْ فِيهِ مُجَادَلَةً لِلرَّبِّ سُبْحَانَهُ لَا لِرُسُلِهِ ، فَفِي أَوَّلِهِ أَنَّ الرَّبَّ ظَهَرَ لِإِبْرَاهِيمَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي بَابِ الْخَيْمَةِ فَظَهَرَ لَهُ ثَلَاثَةُ رِجَالٍ ، وَذَكَرَ خَبَرَ ضِيَافَتِهِ لَهُمْ بِالْعِجْلِ وَخُبْزِ الْمِلَّةِ وَأَنَّهُمْ أَكَلُوا وَبَشَّرُوهُ بِالْوَلَدِ ، وَأَنَّ امْرَأَتَهُ سَارَةَ سَمِعَتْ فَضَحِكَتْ وَتَعَجَّبَتْ ، وَعَلَّلَتْ تَعَجُّبَهَا بِكِبَرِهَا وَانْقِطَاعِ عَادَةِ النِّسَاءِ عَنْهَا (13 فَقَالَ الرَّبُّ لِإِبْرَاهِيمَ لِمَاذَا ضَحِكَتْ سَارَةُ هَلْ يَسْتَحِيلُ عَلَى الرَّبِّ شَيْءٌ ؟) إِلَخْ .

ثُمَّ قَالَ : 22 وَانْصَرَفَ الرِّجَالُ (يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ) مِنْ هُنَاكَ وَذَهَبُوا نَحْوَ سَدُومَ (أَيْ : قَرْيَةِ قَوْمِ لُوطٍ) وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَكَانَ لَمْ يَزَلْ قَائِمًا أَمَامَ الرَّبِّ 23 فَتَقَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ

وَقَالَ : أَفَتُهْلِكُ الْبَارَّ مَعَ الْأَثِيمِ 24 عَسَى أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ خَمْسُونَ بَارًا فِي الْمَدِينَةِ ، أَفَتُهْلِكُ الْمَكَانَ وَلَا تَصْفَحُ عَنْهُ مِنْ أَجْلِ الْخَمْسِينَ بَارًّا الَّذِينَ فِيهِ ؟ (26 فَقَالَ الرَّبُّ : إِنْ وَجَدْتُ فِي سَدُومَ خَمْسِينَ بَارًّا فَإِنِّي أَصْفَحُ عَنِ الْمَكَانِ كُلِّهِ مِنْ أَجْلِهِمْ) ثُمَّ كَلَّمَهُ إِبْرَاهِيمُ مِثْلَ هَذَا فِي خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ ثُمَّ فِي أَرْبَعِينَ ثُمَّ فِي ثَلَاثِينَ ثُمَّ فِي عِشْرِينَ ثُمَّ فِي عَشَرَةٍ ، وَالرَّبُّ يَعِدُهُ فِي كُلٍّ مِنْ هَذِهِ الْأَعْدَادِ بِأَنَّهُ مِنْ أَجْلِهِمْ لَا يُهْلِكُ الْقَوْمَ (ثُمَّ قَالَ) 33 وَذَهَبَ الرَّبُّ عِنْدَمَا فَرَغَ مِنْ

الْكَلَامِ مَعَ إِبْرَاهِيمَ إِلَى مَكَانِهِ " اهـ

فَتَأَمَّلِ الْفَرْقَ بَيْنَ عِبَارَاتِ الْقُرْآنِ الْوَجِيزَةِ الْمُفِيدَةِ الْمُنَزِّهَةِ لِلرَّبِّ - تَعَالَى - عَنْ مُشَابَهَةِ الْخَلْقِ ، وَعِبَارَاتِ مَا يُسَمُّونَهُ التَّوْرَاةَ فِي تَشْبِيهِ اللهِ بِعِبَادِهِ وَتَطْوِيلِهَا غَيْرِ الْمُفِيدِ !

- يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا - بَيَانٌ مُسْتَأْنَفٌ لِمَا أَجَابَتْهُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ عَنِ اللهِ - تَعَالَى - ، أَيْ أَعْرِضْ عَنِ الْجِدَالِ فِي أَمْرِ قَوْمِ لُوطٍ وَالِاسْتِرْحَامِ لَهُمْ : - إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ - أَيْ : إِنَّ الْحَالَ وَالشَّأْنَ فِيهِمْ قَدْ قُضِيَ بِمَجِيءِ أَمْرِ رَبِّكَ الَّذِي قَدَّرَهُ لَهُمْ - وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ - بِجِدَالٍ وَلَا شَفَاعَةٍ فَهُوَ وَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ .

(174/382)

فَهَلْ يَعْتَبِرُ بِهَذَا مَنْ يَتَّخِذُونَ لِلَّهِ أَنْدَادًا مِنْ أَوْلِيَائِهِ أَوْ أَوْلِيَائِهِمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَتَصَرَّفُونَ فِي الْكَوْنِ كَمَا يَشَاءُونَ ، وَأَنَّ قَوْلَهُ - تَعَالَى - فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ : لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ 39 : 34 و42 : 22 هُوَ لِهَؤُلَاءِ الْأَوْلِيَاءِ فِي الدُّنْيَا ، فَلَا يَرُدُّ لَهُمْ طَلَبًا وَلَا شَفَاعَةً وَلَا يُرِيدُ مَا لَا يُرِيدُونَهُ ! يَكْذِبُونَ عَلَى اللهِ وَيُحَرِّفُونَ كِتَابَهُ ، وَهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ مُؤْمِنُونَ بِأَنَّ أَفْضَلَ الْخَلْقِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ جَدُّهُ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِمَا وَآلِهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؟

قِصَّةُ لُوطٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَإِهْلَاكُ قَوْمِهِ :

فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ أَنَّ لُوطًا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ابْنُ هَارُونَ أَخِي إِبْرَاهِيمَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَنَّهُ هَاجَرَ مَعَهُ مِنْ مَسْقَطِ رَأْسِهِمَا (أُورَ الْكَلْدَانِيِّينَ) فِي الْعِرَاقِ إِلَى أَرْضِ الْكَنْعَانِيِّينَ، وَسَكَنَ إِبْرَاهِيمُ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَلُوطٌ فِي مُدُنِ دَائِرَةِ الْأُرْدُنِّ، وَقَاعِدَتُهَا سَدُومُ، وَيَلِيهَا عَمُّورَةُ فَصُوغَرُ، وَإِنَّمَا افْتَرَقَا اتِّقَاءَ اخْتِلَافِ رُعْيَانِهِمَا وَإِيقَاعِهِمَا فِي الْخُصُومَةِ الَّتِي لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ بَيْنَ الْآخَرِينَ (أَيِ الْعَمِّ وَابْنِ أَخِيهِ) وَكَانَ لُوطٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ

- فِي سَدُومَ، وَيَظُنُّ الْكَثِيرُونَ مِنَ الْبَاحِثِينَ أَنَّ بُحَيْرَةَ لُوطٍ قَدْ غَمَرَ مَوْضِعُهَا بَعْدَ الْخَسْفِ فَلَا يُعْلَمُ مَوْضِعُهُ بِالضَّبْطِ .

وَقِيلَ إِنَّهُ عُثِرَ عَلَى آثَارِهَا فِي هَذَا الْعَهْدِ . انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 110.105 ﴾

(175/382)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾

التعريف في ﴿ الرّوع ﴾ وفي ﴿ البشرى ﴾ تعريف العهد الذكري، وهما المذكوران آنفاً

، فالرّوع: مرادف الخيفة.

وقوله: ﴿ يجادلنا ﴾ هو جواب ﴿ لمّا ﴾ صيغ بصيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة كقوله: ﴿ ويَصنع الفلك ﴾ [هود: 38].

والمجادلة: المحاورة.

وقد تقدّمت في قوله: ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾ في سورة [النساء: 107].

وقوله: في قوم لوط ﴾ على تقدير مضاف، أي في عقاب قوم لوط.

وهذا من تعليق الحكم باسم الذّات، والمراد حال من أحوالها يعيّنه المقام، كقوله: ﴿ حرمْت عليكم الميتة ﴾ [المائدة: 3] أي أكلها.

والمجادلة هنا: دعاء ومناجاة سأل بها إبراهيم عليه السّلام ربّه العفو عن قوم لوط خشية إهلاك المؤمنين منهم.

وقد تكون المجادلة مع الملائكة.

وعديّت إلى ضمير الجلالة لأنّ المقصود من جدال الملائكة التعرّض إلى أمر الله بصرف العذاب عن قوم لوط.

وال ﴿ حليم ﴾ الموصوف بالحلم وهو صفة تقتضي الصفح واحتمال الأذى.

وال ﴿ أوّاه ﴾ أصله الذي يكثر التأوُّه، وهو قول: أوّه.

وأوّه : اسم فعل نائب مناب أتوجع ، وهو هنا كناية عن شدة اهتمامه بهموم الناس .

وال ﴿ منيب ﴾ من أناب إذا رجع ، وهو مشتق من النوب وهو النزول .

والمراد التّوبة من التقصير ، أي محاسب نفسه على ما يَحذر منه .

وحقيقة الإنابة : الرجوع إلى الشيء بعد مفارقته وتركه .

وجملة ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ﴾ مقول محذوف دل عليه المقام وهو من بديع الإيجاز ، وهو وحي من الله إلى إبراهيم عليه السّلام ، أو جواب الملائكة إبراهيم عليه السّلام .

فإذا كان من كلام الله فقوله : ﴿ أمر ربك ﴾ إظهار في مقام الإضمار لإدخال الرّوع في ضمير السامع .

و﴿ أمر الله ﴾ قضاؤه ، أي أمر تكوينه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾

والجدل هو أن تأخذ حُجَّة من مقابل ؛ وتعطيه حُجَّة ؛ لتصل إلى حق . والجدل يختلف عن المراء فالمراء يعني أنك تعرف الحقيقة وتجادل بالباطل لأنك لا تريد أن تصل إلى الحق .

وقد نهانا الحق سبحانه عن المراء ، وأمرنا بأن نجادل بشرط أن يكون الجدال بالتي هي أحسن .

وهنا يبيِّن لنا الحق سبحانه أن إبراهيم بعد أن ذهب عنه الروع وجاءته البشرى بأن الله تعالى سيرزقه بغلام ، وعلم إبراهيم من الملائكة أنهم ذاهبون لتعذيب قوم لوط :

﴿ قَالُوا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ [الذاريات : 32 34] .

ومجادلة سيدنا إبراهيم في عقاب قوم لوط ، لم تكن ردّاً لأمر الله ، ولكن طلباً للإمهال لعلهم يؤمنون ؛ ذلك أن قلب إبراهيم عليه السلام ؛ قلب رحيم .

ولذلك يأتي الحق سبحانه بالعلة في المجادلة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾

إذن : فالعلة في الجدال أنه حليم لا يُعجِّل بالعقوبة ، وأوّاه ؛ أي : يتأوه من القلب ، والتأوه رقة في القلب ، وإن كان التأوه من الأعلى فهذا يعني الخوف من ألا يكون قد أدى حق الله تعالى ، وإن كان التأوه للأقل فهو رحمة ورأفة .

ولذلك فقد طلب إبراهيم عليه السلام من الله تعالى تأجيل العذاب لقوم لوط لعلهم يؤمنون ،

وتأوُّهُهُ هنا لله تعالى ، وعلى هؤلاء الجهلة بما ينتظرهم من عذاب أليم .

وقال الحق سبحانه في صفات إبراهيم أنه " منيب " أي : يرجع إلى الحكم وإلى الحق في قضاياه .

ألم يَقُلْ الحق سبحانه في موضع آخر من كتابه العزيز :

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ [التوبة : 114] .

(177/382)

وبعد أن بحث إبراهيم عليه السلام عن الحق ، وأناب إليه ، يبين لنا الله سبحانه وتعالى مظهرية الإنابة في قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة : 114] .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خوطرنا عنها والتي أوضحت تأوه إبراهيم لله عز وجل وتأوهه رحمة بهؤلاء الذين لم يؤمنوا ، وهم قوم لوط ، وأيضاً كانت حجة إبراهيم عليه السلام في الجدال ما قاله الحق سبحانه في سورة العنكبوت :

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً ﴾ [العنكبوت : 3132] .

وكان سؤال إبراهيم للملائكة : كيف تُهلكون أهل هذه القرية وفيهم من هو يؤمن بالله وعلى رأسهم نبي من الله هو لوط عليه السلام ، وردت عليه الملائكة :

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ [العنكبوت : 32] .

وكأن إبراهيم خليل الرحمن يعلم أن وجود مؤمنين مع الكافرين في قرية واحدة ، يبيح له الجدال عن أهل القرية جميعاً .

ويتلقى إبراهيم الرد هنا في سورة هود في الآية التالية :

﴿ يا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾

وقول الملائكة :

﴿ يا إبراهيم أَعْرِضْ عَنْ هذآ ﴾ [هود : 76] .

يعني إبلاغ إبراهيم أن مسألة تعذيب من لم يؤمن من قوم لوط أمرٌ مُنتهٍ ومحسوم ، فهم قد جاءوا لينفذوا ، لا ليهدّدوا ؛ وأبلغوا إبراهيم :

﴿ إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ [هود : 76] .

وإذا ما كان الأمر قد جاء من الله ، فإبراهيم عليه السلام لأنه ﴿ مُّنِيبٌ ﴾ يعلم أن أي أمر من الله تعالى لا بد أن يُنفَّذ ، فلا بد أن يَتقبَّل أمر الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود : 76] .

أي : لا أحد بقادر على أن يرد عذاب الله . وكما أن هناك وعداً من الله تعالى غير مكذوب ، فهناك أيضاً عذاب غير مردود .

ويُروى أن إبراهيم عليه السلام في جداله قال للملائكة : إذا كان في قوم لوط خمسون قد آمنوا بالله تعالى ، أتعذبونهم ؟ قالوا : لا . قال : وإن كان فيهم عشرة يؤمنون بالله ، أتعذبونهم ؟ قالوا : لا . قال وإن كان فيهم واحد هو لوط ؟ فردَّت الملائكة :

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته ﴾ [العنكبوت : 32] .

وانتهى الجدال ، وذهبت الملائكة إلى مهمتها التي هي إيقاع العذاب بقوم لوط . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [75]

قال : إن الله تعالى أشرفه على حركة النفس الطبيعية وسكونها ، ولم يشرفه على علمه ، لأنه ممحو عنه أو مثبت عليه ، لئلا يسقط الخوف والرجاء عن نفسه ، فكان إذا ذكره تأوه منه وسكت عن مسألة علم الخاتمة إذ لم يكن له مع الله عزَّ وجلَّ اختيار .

ثم قال سهل : إن الخوف رجل وإن الرجاء أنثى ، ولو قسم ذرة من خوف الخائفين على أهل الأرض لسعدوا بذلك .

فقيل له : فكم يكون مع الخائفين هكذا ؟ فقال : مثل الجبل الجبل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير التسترى صـ 80 ﴾

(180/382)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى ﴾ قال : الغرق ﴿ يجادلنا في قوم لوط

﴾ قال : يخاصمنا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع ﴾ قال : الخوف ﴿ وجاءته البشرى ﴾ بإسحق .

وأخرج عبد الرزاق وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ وجاءته البشرى ﴾ قال : حين اخبروه أنهم أرسلوا إلى قوم لوط وأنهم ليسوا إياه يريدون ﴿ يجادلنا في قوم لوط ﴾ قال : إنه قال لهم يومئذ : أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين ؟ قالوا : إن كان فيهم خمسون لم نعذبهم . قال : أربعون ؟ قالوا : وأربعون . قال : ثلاثون ؟ قالوا : وثلاثون حتى بلغ عشرة قالوا : وإن كان فيها عشرة ؟ قال : ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير . قال قتادة : إنه كان في قرية لوط أربعة آلاف ، ألف إنسان أو ما شاء الله من ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ يجادلنا في قوم لوط ﴾ قال : لما جاء جبريل ومن معه إلى إبراهيم عليه السلام ، وأخبره أنه مهلك قوم لوط قال : أتهلك قرية فيها أربعمائة مؤمن ؟ قال : لا . قال : ثلثمائة مؤمن ؟ قال : لا . قال : فمائتا مؤمن ؟ قال : لا . قال : فمائة ؟ قال : لا . قال : فخمسون مؤمناً ؟ قال : لا . قال : فأربعون مؤمناً ؟ قال : لا . قال : فأربعة عشر مؤمناً ؟ قال : لا . وظن إبراهيم أنهم أربعة عشر بامرأة لوط ، وكان فيها ثلاثة عشر مؤمناً وقد عرف ذلك جبريل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما جاءت الملائكة إلى إبراهيم قالوا لإِبراهيم : إن كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب .

(181/382)

أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الحلم يجمع لصاحبه شرف الدنيا والآخرة ، ألم تسمع الله وصف نبيه صلى الله عليه وسلم بالحلم فقال ﴿ إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن ضمرة رضي الله عنه قال : الحلم ارفع من العقل ، لأن الله عز وجل تسمى به .

وأخرج أبو الشيخ عن عمرو بن ميمون رضي الله عنه قال : الأوّاه الرحيم ، والحليم الشيخ .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب ﴾ قال : كان إذا قال : قال الله ، وإذا عمل عمل لله ، وإذا نوى نوى لله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : المنيب المقبل إلى طاعة الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه قال : المنيب إلى الله المطيع لله الذي أناب

إلى طاعة الله وأمره، ورجع إلى الأمور التي كان عليها قبل ذلك.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال: المنيب المخلص في عمله لله عز وجل.

انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(182/382)

فائدة

قال حجة الإسلام الغزالى:

فإن قلت فما فائدة الدعاء والقضاء لا مرد له فاعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة كما أن الترس سبب لرد السهم والماء سبب لخروج النبات من الأرض فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح وقد قال تعالى خذوا حذركم وأن لا يسقي الأرض بعد بث البذر فيقال إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر وإن لم يسبق لم ينبت بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذي هو كلمح البصر أو هو أقرب وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدريج والتقدير هو القدر والذي قدر الخير قدره بسبب والذي قدر الشر قدر لدفعه سببا فلا

تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته ثم في الدعاء من الفائدة ما ذكرناه في الذكر فإنه يستدعي حضور القلب مع الله وهو منتهى العبادات ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الدعاء مخ العبادة.

والغالب على الخلق أنه لا تنصرف قلوبهم إلى ذكر الله عز وجل إلا عند إلمام حاجة وإرهاق ملمة فإن الإنسان إذا مسه الشر فذو دعاء عريض فالحاجة تحوج إلى الدعاء والدعاء يرد القلب إلى الله عز وجل بالتضرع والاستكانة فيحصل به الذكر الذي هو أشرف العبادات ولذلك صار البلاء موكلا بالأنبياء عليهم السلام ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل لأنه يرد القلب بالافتقار والتضرع إلى الله عز وجل ويمنع من نسيانه وأما الغنى فسبب للبطر في غالب الأمور فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى فهذا ما أردنا أن نورده من جملة الأذكار والدعوات والله الموفق للخير. انتهى انتهى. اهـ ﴿الإحياء جـ 1 صـ 329.328﴾

(183/382)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) ﴾

والرَّوْع : الفزع ، قال الشاعر :

2687 إذا أَخذَتْها هِزَّةُ الرَّوْعِ أَمْسَكَتْ . . . بمَنْكِبِ مِقْدامٍ على الهَوْلِ أَرْوَعَا

يقال : راعه يَرُوْعُه أي : أفزعه ، قال عنترة :

2688 ما راعني إلا حَمولةُ أَهلِها . . . وسطَ الديار تَسِفُّ حَبَّ الخِمْخِمِ

وارتاع : افتعل منه . قال النابغة :

2689 فارتاعَ من صَوْتِ كَلاَّبٍ فباتَ له . . . طَوْعَ الشَّوامِتِ من خوفٍ ومن صَرَدِ

وأمَّا الرُّوْعُ بالضم فهي النفسُ لأنها محلُّ الرَّوْع ، ففرَّقوا بين الحالِّ والمَحَلِّ . وفي الحديث : " إنَّ رُوْحَ القدس نفث في رُوْعي " .

قوله : ﴿ وَجَآءَتْهُ البشرى ﴾ عطف على " ذَهَب " وجوابُ " لَمَّا " على هذا محذوفٌ أي : فلما اكن كيت وكيت اجترأ على خطابهم ، أو فَطِن لمجادلتهم ، وقوله : " يُجادلنا " على هذا جملةٌ مستأنفة ، وهي الدالَّةُ على ذلك الجوابِ المحذوفِ . وقيل : تقديرُ الجواب : أقبل يجادِلُنا ، فيجادلنا على هذا حالٌ من فاعل " أَقبل " . وقيل : جوابها قوله : " يجادِلُنا " وأوقع المضارعَ موقعَ الماضي . وقيل : الجوابُ قولُه ﴿ وَجَآءَتْهُ البشرى ﴾ ، وهو الجوابُ والواوُ زائدةٌ . وقيل : " يجادلنا " حال من " إبراهيم " ، وكذلك قولُه : " وجاءَتْه البشرى " و " قد " مقدرةٌ . ويجوز أن يكونَ " يجادِلُنا " حالاً من ضمير المفعول في

"جاءَته" . و "في قوم" أي: في شأنهم .

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) ﴾

قوله تعالى: و ﴿ أَوَّاهٌ ﴾ : فعَّال مِنْ أوَّهَ، وقد تقدم اشتقاقه .

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76) ﴾

(184/382)

قوله تعالى: ﴿ آتِيهِمْ عَذَابٌ ﴾ : يجوز أن يكون جملةً من مبتدأ وخبر في محلِّ رفع خبراً ل "إنهم" . ويجوز أن يكون "آتيهم" الخبر و "عذاب" المبتدأ، وجاز ذلك لتخصُّصِه بالوصف، ولتنكير "آتيهم" لأنَّ إضافته غيرُ محضة . ويجوز أن يكون "آتيهم" خبرَ "إنَّ" و "عذاب" فاعلٌ به، ويدل على ذلك قراءةُ عمرو بن هَرِم : "وإنهم أتاهم" بلفظ الفعل الماضي. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 359 . 360﴾

(185/382)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) ﴾

لما كانت مراجعته مع الله في أمر قوم لوطٍ بحقّ الله لا لحظّ نفْسه سَلِمَ له الجدال ، وهذا يدلُّ على علوّ شأنه حيث تجاوز عنه ذلك .

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) ﴾

والإشارة فيه أنه كان يقابل ما وَرَدَ على ماله ونفْسه وولده بالاحتمال ، ولمَّا كان حقُّ الحقّ في حديثِ قوم لوط أخذ في الجدال إلى أن أبَانَ له سلامة لوط – عليه السلام – .

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76) ﴾

يا إبراهيم أعْرِضْ عن هذا فإنَّ الحُكْمَ بعذابهم قد نزَل ، ووقتُ الانتقامِ منهم قد حصل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات جـ 2 صـ 147 . 148 ﴾

(186/382)

فصل

قال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾

هذه قصة لوط عليه السلام وقومه ، وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام ، وكانت قرى لوط بنواحي الشام ، وإبراهيم ببلاد فلسطين .

فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط ، مرّوا بإبراهيم ونزلوا عنده ، وكان كل من نزل عنده يحسن قراه ، وكان مرورهم عليه لتبشيره بهذه البشارة المذكورة ، فظنهم أضيافاً ، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل .

وقيل : كانوا تسعة .

وقيل : أحد عشر ، والبشرى التي بشروه بها هي بشارته بالولد .

وقيل : بإهلاك قوم لوط .

والأولى : أولى .

﴿ قَالُواْ سَلَاماً ﴾ منصوب بفعل مقدر : أي سلمنا عليك سلاماً ﴿ قَالَ سَلَام ﴾ ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف : أي أمركم سلام ، أو مرتفع على أنه مبتدأ والخبر محذوف ، والتقدير : عليكم سلام ﴿ فَمَا لَبِثَ ﴾ أي : إبراهيم ﴿ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ

﴿ قال أكثر النحويين " أن " هنا بمعنى حتى أي : فما لبث حتى جاء .

وقيل : إنها في محل نصب بسقوط حرف الجر ، والتقدير فما لبث عن أن جاء : أي ما أبطأ إبراهيم عن مجيئه بعجل ، و " ما " نافية قاله : سيبويه .

وقال الفراء : فما لبث مجيئه ، أي ما أبطأ مجيئه .

وقيل : إن " ما " موصولة وهي : مبتدأ والخبر ﴿ أن جاء بعجل حنيذ ﴾ .

والتقدير : فالذي لبث إبراهيم هو مجيؤه بعجل حنيذ ، والحنيذ : المشويّ مطلقاً .

وقيل : المشويّ بحرّ الحجارة من غير أن تمسه النار ، يقال : حنذ الشاة يحنذها : جعلها فوق حجارة محماة لتنضجها فهي : حنيذ .

وقيل : معنى حنيذ : سمين .

وقيل : الحنيذ : هو : السميط .

وقيل : النضيج ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، وإنما جاءهم بعجل ، لأن البقر كانت أكثر أمواله

﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ ﴾ أي : لا يمدونها إلى العجل كما يمدّ يده من يريد الأكل

﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ يقال : نكرته وأنكرته واستنكرته : إذا وجدته على غير ما تعهد ، ومنه

قول الشاعر :

فأنكرتني وما كان الذي نكرت . . . من الحوادث إلا الشيب والصلعا

فجمع بين اللغتين ، ومما جمع فيه بين اللغتين قول الشاعر :

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها . . . خرجت مع البازي عليّ سواد

وقيل : يقال : أنكرت لما تراه بعينك ، ونكرت لما تراه بقلبك ، قيل : وإنما استنكر منهم ذلك ، لأن عادتهم أن الضيف إذا نزل بهم ولم يأكل من طعامهم ظنوا أنه قد جاء بشرّ ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ ﴾ أي : أحسّ في نفسه منهم ﴿ خِيفَةً ﴾ أي : خوفاً وفزعاً .

وقيل : معنى أوجس : أضمر في نفسه خيفة ، والأول ألصق بالمعنى اللغوي ، ومنه قول الشاعر :

جاء البريد بقرطاس يحث به . . . فأوجس القلب من قرطاسه فزعا

وكأنه ظنّ أنهم قد نزلوا به لأمر ينكره ، أو لتعذيب قومه ﴿ قَالُواْ لاَ تَخَفْ ﴾ قالوا له هذه المقالة مع كونه لم يتكلم بما يدل على الخوف ، بل أوجس ذلك في نفسه ، فلعلهم استدلوا على خوفه بأمارات كظهور أثره على وجهه ، أو قالوه له بعد ما قال عقب ما أوجس في نفسه من الخيفة قولاً يدلّ على الخوف ، كما في قوله في سورة الحجر :

﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ [الحجر : 52] ، ولم يذكر ذلك ها هنا اكتفاء بما هنالك ، ثم علّلوا نهيه عن الخوف بقولهم : ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إلى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ أي : أرسلنا إليهم خاصة ،

ويمكن أن يكون إبراهيم عليه السلام قد قال قولاً يكون هذا جواباً عنه ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ [الذاريات : 31 ، 32] .

(188/382)

وجملة ﴿ وامرأته قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾ في محل نصب على الحال ، قيل : كانت قائمة عند تحاورهم وراء الستر .

وقيل : كانت قائمة تخدم الملائكة وهو جالس .

والضحك هنا هو الضحك المعروف الذي يكون للتعجب أو للسرور كما قاله الجمهور .

وقال مجاهد وعكرمة : إنه الحيض ، ومنه قول الشاعر :

وإني لآتي العرس عند طهورها . . . وأهجرها يوماً إذا تك ضاحكاً

وقال الآخر :

وضحك الأرانب فوق الصفا . . . كمثل دم الخوف يوم اللقا

والعرب تقول ضحكت الأرانب : إذا حاضت .

وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت .

﴿ فبشرناها بإسحاق ﴾ ظاهره أن التبشير كان بعد الضحك .

وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير.

والمعنى : فبشرناها فضحكت سروراً بالولد .

وقرأ محمد بن زياد من قراء مكة " فضحكت " بفتح الحاء ، وأنكره المهدوي.

﴿ وَمِن وَرَاءِ إسحاق يَعْقُوبَ ﴾ قرأ حمزة ، وابن عامر ، وحفص بنصب ﴿ يعقوب ﴾ على أنه مفعول فعل دل عليه ﴿ فبشرناها ﴾ ، كأنه قال : ووهبنا لها من وراء إسحاق يعقوب .

وأجاز الكسائي ، والأخفش ، وأبو حاتم أن يكون ﴿ يعقوب ﴾ في موضع جرّ .

وقال الفراء : لا يجوز الجرّ إلا بإعادة حرفه .

قال سيبويه : ولو قلت : مررت بزيد أوّل من أمس ، وأمس عمر ، كان قبيحاً خبيثاً ، لأنك فرقت بين المجرور ، وما يشركه ، كما يفرق بين الجار والمجرور .

وقرأ الباقون برفع " يعقوب " على أنه مبتدأ وخبره الظرف الذي قبله .

وقيل : الرفع بتقدير فعل محذوف ، أي ويحدث لها ، أو وثبت لها .

وقد وقع التبشير هنا لها ، ووقع لإبراهيم في قوله تعالى : ﴿ فبشرناه بغلام حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : 101] ﴿ وَبَشَّرُوهُ بغلام عَلَيمٍ ﴾ [الذاريات : 28] ، لأن كل واحد منهما مستحق للبشارة به لكونه منهما .

وجملة : ﴿ قَالَتْ يا ويلتا ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل : فماذا قالت ؟ قال الزجاج : أصلها يا ويلتي ، فأبدل من الياء ألف لأنها أخفّ من الياء والكسرة ، وهي لم ترد الدعاء على نفسها بالويل ، ولكنها كلمة تقع كثيراً على أفواه النساء إذا طرأ عليهنّ ما يعجبن منه ، وأصل الويل : الخزي ، ثم شاع في كل أمر فظيع ، والاستفهام في قولها : ﴿ ءأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ ﴾ للتعجب : أي : كيف ألد وأنا شيخة قد طعنت في السنّ ، يقال : عجزت تعجز مخففاً ومثقلاً عجزاً وتعجيزا : أي : طعنت في السنّ .

ويقال : عجوز وعجوزة ، وأما عجزت بكسر الجيم : فمعناه عظمت عجيزتها .

قيل : كانت بنت تسع وتسعين ، وقيل : بنت تسعين ﴿ وهذا بَعْلِى شَيْخاً ﴾ أي : وهذا زوجي إبراهيم شيخاً لا تحبل من مثله النساء ، و ﴿ شيخاً ﴾ منتصب على الحال ، والعامل فيه معنى الإشارة .

قال النحاس : وفي قراءة أبيّ وابن مسعود " شيخ " بالرفع على أنه خبر المبتدأ ، أو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف ، وعلى الأول يكون ﴿ بعلى ﴾ بدلاً من اسم الإشارة .

قيل : كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة .

وقيل : ابن مائة ، وهذه المبشرة هي سارة امرأة إبراهيم .

وقد كان ولد لإبراهيم من هاجر أمته إسماعيل ، فتمنت سارة أن يكون لها ابن ، وأيست

منه لكبر سنها ، فبشرها الله به على لسان ملائكته ﴿ إِنَّ هذا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أي : ما ذكرته الملائكة من التبشير بحصول الولد ، مع كونها في هذه السنّ العالية التي لا يولد لمثلها شيء يقضي منه العجب .

وجملة ﴿ قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والاستفهام فيها للإنكار : أي كيف تعجبين من قضاء الله وقدره ، وهو لا يستحيل عليه شيء ، وإنما أنكروا عليها مع كون ما تعجبت منه من خوارق العادة لأنها من بيت النبوّة ، ولا يخفى على مثلها أن هذا من مقدوراته سبحانه ، ولهذا قالوا : ﴿ رَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت ﴾ أي : الرحمة التي وسعت كل شيء ، والبركات وهي : النموّ والزيادة .

وقيل الرحمة : النبوّة ، والبركات : الأسباط من بني إسرائيل لما فيهم من الأنبياء ، وانتصاب ﴿ أهل البيت ﴾ على المدح أو الاختصاص ، وصرف الخطاب من صيغة الواحدة إلى الجمع لقصد التعميم ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ ﴾ أي : يفعل موجبات حمده من عباده على سبيل الكثرة ﴿ مَّجِيدٌ ﴾ كثير الإحسان إلى عباده بما يفيضه عليهم من الخيرات ، والجملة تعليل لقوله : ﴿ رَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت ﴾ .

قوله : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبراهيم الروع ﴾ أي : الخيفة التي أوجسها في نفسه ، يقال ارتاع من كذا : إذا خاف ، ومنه قول النابغة :

فارتاع من صوت كلاب فبات له . . . طوع الشوامت من خوف ومن حذر

﴿ وَجَاءتْهُ البشرى ﴾ أي : بالولد ، أو بقولهم : لا تخف ، قوله : ﴿ يجادلنا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ قال الأخفش والكسائي : إن ﴿ يجادلنا ﴾ في موضع جادلنا ، فيكون هو جواب ﴿ لما ﴾ .

لما تقرّر من أن جوابها يكون بالماضي لا بالمستقبل .

قال النحاس : جعل المستقبل مكانه كما يجعل الماضي مكان المستقبل في الشرط ، وقيل : إن الجواب محذوف ، و ﴿ يجادلنا ﴾ في موضع نصب على الحال ، قاله الفراء .

وتقديره : فلما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى اجترأ على خطابنا حال كونه يجادلنا : أي يجادل رسلنا .

وقيل : إن المعنى : أخذ يجادلنا ، ومجادلته لهم قيل : إنه سمع قولهم :

﴿ إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هذه القرية ﴾ [العنكبوت : 31] قال : أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين أتهلكونهم ؟ قالوا : لا ، قال : فأربعون ؟ قالوا : لا ، قال : فعشرون ؟ قالوا : لا ، ثم قال : فعشرة ، فخمسة ؟ قالوا : لا .

قال : فواحد ؟ قالوا : لا ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ [العنكبوت : 32] الآية ، فهذا معنى مجادلته في قوم لوط ، أي في شأنهم وأمرهم .

ثم أثنوا على إبراهيم ، أو أثنى الله عليه فقال : ﴿ إِنَّ إبراهيم لَحَلِيمٌ ﴾ أي : ليس بعجول في الأمور ، ولا بموقع لها على غير ما ينبغي .

والأوّاه : كثير التأوّه ، والمنيب : الراجع إلى الله .

وقد تقدّم في براءة الكلام على الأوّاه .

قوله : ﴿ ياإبراهيم أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾ هذا قول الملائكة له : أي أعرض عن هذا الجدال في أمر قد فرغ منه ، وجفّ به القلم ، وحقّ به القضاء ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبّكَ ﴾ الضمير للشأن ، ومعنى مجيء أمر الله : مجيء عذابه الذي قدّره عليهم ، وسبق به قضاؤه ﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ أي : لا يردّه دعاء ولا جدال ، بل هو واقع بهم لا محالة ، ونازل بهم على كل حال ، ليس بمصروف ولا مدفوع .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن عثمان بن محصن ، في ضيف إبراهيم قال : كانوا أربعة : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، ورافئيل .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ قال : نضيج .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عنه ، قال : مشويّ .

وأخرج أبو الشيخ ، عنه ، أيضاً قال : سميط .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الضحاك قال : الحنيذ : الذي أنضج بالحجارة .

(192/382)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن يزيد بن أبي يزيد البصري ، في قوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ ﴾ قال : لم ير لهم أيدياً فنكرهم ، وأخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ قال : كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير ، وأنه يحدّث نفسه بشرّ ، ثم حدّثوه عند ذلك بما جاءوا فيه ، فضحكت امرأته .

وأخرج ابن المنذر ، عن المغيرة قال : في مصحف ابن مسعود "وامرأته قائمة وهو جالس" .

وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد ﴿ وامرأته قَائِمَةٌ ﴾ قال: في خدمة أضياف إبراهيم.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: لما أوجس إبراهيم في نفسه خيفة حدّثوه عند ذلك بما جاءوا فيه، فضحكت امرأته تعجباً مما فيه قوم لوط من الغفلة، ومما أتاهم من العذاب.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ قال: فحاضت وهي: بنت ثمان وتسعين سنة.

وأخرج ابن جرير، عن مجاهد، في قوله: ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ قال: حاضت، وكانت ابنة بضع وتسعين سنة، وكان إبراهيم ابن مائة سنة.

وأخرج أبو الشيخ، عن عكرمة قال: حاضت.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عمر مثله.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس، في قوله: ﴿ وَمِن وَرَاءِ إِسحاق يَعْقُوبَ ﴾ قال: هو ولد الولد.

وأخرج ابن الأنباري في كتاب الوقف والابتداء، عن حسان بن أبجر قال: كنت عند ابن عباس، فجاء رجل من هذيل، فقال له ابن عباس: ما فعل فلان؟ قال: مات وترك أربعة من الولد وثلاثة من الوراء، فقال ابن عباس ﴿ فبشرناها بإسحاق وَمِن وَرَاءِ إسحاق يَعْقُوبَ ﴾ قال: ولد الولد.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وأبو الشيخ، والبيهقي في الشعب من طرق، عن ابن عباس أنه كان ينهى عن أن يزاد في جواب التحية على قولهم: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ويتلو هذه الآية ﴿ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت ﴾ .

وأخرج البيهقي عن ابن عمر نحوه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد، في قوله: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبراهيم الروع ﴾ قال: الفرق ﴿ يجادلنا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ قال: يخاصمنا.

وأخرج عبد الرزاق، وأبو الشيخ، عن قتادة في تفسير المجادلة قال: إنه قال لهم يومئذ: أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين؟ قالوا: إن كان فيهم خمسون لم نعذبهم، قال: أربعون؟ قالوا: وأربعون.

قال: ثلاثون؟ قالوا: وثلاثون، حتى بلغوا عشرة، قالوا: إن كان فيهم عشرة لم نعذبهم، قال: ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير؟ قال قتادة: إنه كان في قرية لوط أربعة آلاف ألف إنسان، أو ما شاء الله من ذلك.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس قال: لما جاءت الملائكة إلى إبراهيم قالوا

لإبراهيم : إن كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب .

وأخرج أبو الشيخ ، عن عمر بن ميمون قال : الأوّاه : الرحيم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، قال : المنيب ، المقبل إلى طاعة الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : المنيب المخلص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(194/382)

وقال القاسمى :

﴿ وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [69] .

﴿ وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا ﴾ أي : الملائكة الذين أرسلناهم لإهلاك قوم لوط : ﴿ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ أي : بولد وولده . ثم بين أنهم قدموا على التبشير ما يفيد سروراً ، ليكون التبشير سروراً فوق سرور ، بقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ سَلاَمًا ﴾ أي : سلمنا عليك سلاماً ﴿ قَالَ سَلاَمٌ ﴾ أي : عليكم سلام ، أو سلام عليكم ، رفعه إجابة بأحسن من تحيتهم ؛ لأن الرفع أدل على الثبوت من النصب .

ثم أشار إلى إحسان ضيافتهم بقوله : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ أي : مشوي ، أو سمين يقطر ودكه ، لقوله : ﴿ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ [الذاريات : من الآية 26] .

في (ما) ثلاثة أوجه : أظهرها أنها نافية ، وفاعل (لبث) إما ضمير (إبراهيم) ، و : ﴿ أَنْ جَاءَ ﴾ مقدر بحرف جر متعلق به ، أي : ما أبطأ في ، أو بأن أو عن (أن جاء) ، وإما (أن جاء) أي : فما أبطأ ، ولا تأخر مجيئه بعجل . وثاني الأوجه : أنها مصدرية ، وثالثها : أنها بمعنى (الذي) وهي فيهما مبتدأ ، و (أن جاء) خبره على حذف مضاف . أي : فلبثه ، أو الذي لبثه قدر مجيئه .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [70] .

(195/382)

﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ ﴾ أي : لا يمدون إليه أيديهم : ﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ أي : أنكرهم ﴿ وَأَوْجَسَ ﴾ أي : أحس : ﴿ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ لظنه أنهم بشر أرادوا به مكروهاً . والضيف إذا همَّ بفتك لا يأكل من الطعام في عادتهم ﴿ قَالُواْ ﴾ أي : له لما

علموا منه الخوف بإخباره لهم ، كما في آية : ﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لا تَوْجَلْ ﴾ [الحجر : من الآية 52 – 53] . كما قيل هنا : ﴿ لا تَخَفْ ﴾ أي : إنا لا نأكل لأنا ملائكة ، ولم ننزل بالعذاب عليكم : ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ أي : لإهلاكهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴾ [71]

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾ أي : سروراً بزوال الخيفة ، أو بهلاك أهل الخبائث ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴾ . أي : يولد له . والاسمان يحتمل وقوعهما في البشارة ، أو أنهما حكيا بعد أن ولدا وسُمِّيا بذلك . وتوجيه البشارة إليها هنا ، مع ورود البشارة إلى إبراهيم في آية أخرى ، كآية : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : 101] ، ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات : من الآية 28] ؛ إيذان بمشاركتها لإبراهيم في ذلك حين ورودها ، وإشارة إلى أن ذكر أحدهما فيه اكتفاء عن الآخر ، والمقام أمس بذكره وأبلغ . أو للتوصل إلى سوق نبئها في ذلك ، وخرق العادة فيه ، كما لوح به تعجبها في قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [72]

.

﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى ﴾ أي: يا عجبي . وأصله للدعاء بالويل ونحوه، في جزع التفجع لشدة مكروه يدهم النفس، ثم استعمل في التعجب . وألفه بدل من ياء المتكلم، ولذلك أمالها أبو عَمْرو وعاصم في رواية، وبها قرأ الحسن (يا ويلتي) . وقيل: هي ألف الندبة، ويوقف عليها بهاء السكت .

﴿ أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ ﴾ أي: امرأة مسنة - والأفصح ترك الهاء معها - وسمع من بعض العرب (عجوزة) - حكاه يونس -: ﴿ وَهَذَا بَعْلِي ﴾ أي: زوجي إبراهيم: ﴿ شَيْخاً إِنَّ هَذَا ﴾ أي: التولد من هرمين: ﴿ لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أي: غريب، لم تجر به العادة .

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [73] .

﴿ قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ ﴾ أي: أتستبعدين من شأنه وقدرته خلق الولد من الهرمين ؟ .

قال الزمخشري : وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ؛ لأنها كانت في بيت الآيات ، ومهبط المعجزات ، والأمور الخارقة للعادات ، فكان عليها أن تتوقر ، ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيت النبوة ، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب ، وإلى ذلك أشارت الملائكة صلوات الله عليهم في قولهم : ﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ أردوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ، ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة ، فليست بمكان عجب . والكلام مستأنف ، علل به إنكار التعجب ، كأنه قيل : (إياك والتعجب) فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم – انتهى – .

فالجملة خبرية ، وجوز كونها دعائية . و (أهل البيت) نصب على النداء أو التخصيص ؛ لأن أهل البيت مدح لهم ؛ إذ المراد أهل بيت خليل الرحمن .

(197/382)

﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ ﴾ أي : مستحق للمحامد ، لما وهبه من جلائل النعم : ﴿ مَّجِيدٌ ﴾ أي : كريم واسع الإحسان ، فلا يبعد أن يعطي الولد بعد الكبر . وهو تذييل بديع لبيان أن مقتضى حالها أن تحمد مستوجب الحمد المحسن إليها بما أحسن وتمجده ؛ إذ شرفها بما شرف .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [74] .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾ أي : خيفة إرادة المكروه منهم بعرفانهم : ﴿ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى ﴾ أي : بدل الروع : ﴿ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ أي : في هلاكهم استعطافاً لدفعه .

روي أنه قال : أتهلك البار مع الأثيم ، أتهلكها وفيهم خمسون باراً ؟ حاشا لك ! .

فقيل له : إن وجد فيهم خمسون باراً فنصفح عن الجميع لأجلهم ! .

فقال : أو أربعون ؟ .

فقيل : أو أربعون ! .

وهكذا إلى أن قال : أو عشرة ، فقيل له . لا نهلكها من أجل العشرة ، إلا أنه ليس فيها عشرة أبرار ، بل جميعهم منهمك في الفاحشة . فقال : إنه فيها لوطاً ! فقيل : نحن أعلم بمن فيها لننجينه .

و : ﴿ يُجَادِلُنَا ﴾ جواب (لما) جيء به مضارعاً على حكاية الحال . أو أن (لما) ك (لو) تقلب المضارع ماضياً ، كما أن (إن) تقلب الماضي مستقبلاً ، أو الجواب محذوف ، والمذكور دليله أو متعلق به .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ [75] .

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ ﴾ أي : غير عجول على الانتقام من المسيء : ﴿ أَوَّاهٌ ﴾ كثير التأسف : ﴿ مُنِيبٌ ﴾ أي : راجع إلى الله في كل ما يحبه ويرضاه . والمقصود بتعداد صفاته الجميلة المذكورة ؛ بيان الحامل على المجادلة ، وهو رقة القلب وفرط الترحم .

القول في تأويل قوله تعالى :

(198/382)

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [76] .

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ أي : قيل له : يا إبراهيم : ﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ أي : الجدال : ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي : حكمه بهلاكهم : ﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ أي : بجدال ولا بدعاء ، ولا بغيرهما .

فوائد :

قال بعض المفسرين : لهذه الآيات ثمرات : وهي أن حصول الولد المخصص بالفضل نعمة ، وهلاك العاصي نعمة ، لأن البشرى قد فسرت بولادة إسحاق ، كما في آخر الآية ، وهي :

﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾ الخ وفسرت بهلاك قوم لوط .

ومنها : استحباب نزول المبشِر على المبشَّر ؛ لأن الملائكة أرسلهم الله بذلك .

ومنها : أنه يستحب للمبشَّر تلقي ذلك بالطاعة ، شكراً لله تعالى على ما بُشر به .

وحكى الأصم أنهم جاؤوه في أرض يعمل فيها ، فلما فرغ غرز مسحاته ، وصلى ركعتين .

ومنها : أن السلام مشروع ، وأنه ينبغي أن يكون الرد أفضل ؛ لقول إبراهيم : ﴿ سَلَامٌ ﴾ بالرفع ، كما تقدم شرحه – انتهى – .

ومنها : مشروعية الضيافة ، والمبادرة إليها ، واستحباب مبادرة الضيف بالأكل منها .

ومنها : استحباب خدمة الضيف ، ولو للمرأة لقول مجاهد : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ ﴾ أي : في خدمة أضياف إبراهيم . قال في " الوجيز " : وكن لا يحتجبن ، كعادة العرب ونازلة البوادي ، أو كانت عجوزاً ، وخدمة الضيفان من مكارم الأخلاق .

ومنها : جواز مراجعة المرأة الأجانب في القول ، وأن صوتها ليس بعورة . كذا في " الإكليل "

.

ومنها : أن امرأة الرجل من أهل بيته ، فيكون أزواجه عليه الصلاة والسلام من أهل بيته .

ويأتي ذلك أيضاً في آية : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ [هود : من الآية 81] و [الحجر : 65] .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 117 . 121 ﴾

فصل

قال صاحب الميزان :

﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾

(بيان) تتضمن الآيات قصة بشرى إبراهيم عليه السلام بالولد ، وإنها كالتوطئة لما سيذكر بعده من قصة ذهاب الملائكة الى لوط النبي عليه السلام لاهلاك قومه فإن تلك القصة ذيل هذه القصة وفي آخر قصة البشرى ما يتبين به وجه قصة الاهلاك وهو قوله : (إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) الآية .

قوله تعالى : (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) إلى آخر الآية ، البشرى هي البشارة ، والعجل ولد البقرة ، والحنيذ فعيل بمعنى المفعول أي المحنوذ وهو اللحم المشوى على حجارة محماة بالنار كما أن القديد هو المشوى على حجارة محماة بالشمس على ما ذكره بعض اللغويين ، وذكر بعضهم أنه المشوى الذى يقطر ماء وسمنا ، وقيل : هو مطلق المشوى ، وقوله تعالى في سورة الذاريات في القصة : (فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين) لا يخلو من تأيید ما للمعنى الثاني .

وقوله : (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) معطوف على قوله سابقا : (ولقد أرسلنا

نوحا إلى قومه) قال في المجمع : وإنما دخلت اللام لتأكيد الخبر ومعنى قد ههنا أن السامع لقصص الأنبياء يتوقع قصة بعد قصة ، وقد للتوقع فجاءت لتؤذن أن السامع في حال توقع . انتهى .

والرسل هم الملائكة المرسلون إلى إبراهيم للبشارة وإلى لوط لاهلاك قومه وقد اختلفت كلمات المفسرين في عددهم مع القطع بكونهم فوق الاثنين لدلالة لفظ الجمع - الرسل - على ذلك ، وفي بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنهم كانوا أربعة من الملائكة الكرام ، وسيأتي نقلها إن شاء الله في البحث الروائي .

(200/382)

والبشرى التي جاءت بها الرسل إبراهيم عليه السلام لم يذكر بلفظها في القصة ، والتي ذكرت فيها منها هي البشارة لامرأته ، وإنما ذكرت بشارة إبراهيم نفسه في غير هذا المورد كسورتي الحجر والذاريات ، ولم يصرح فيهما باسم من بشر به إبراهيم أهو إسحاق أم إسماعيل عليهم السلام أو أنهم بشروه بكليهما ؟ وظاهر سياق القصة في هذه السورة أنها البشارة بإسحاق ، وسيأتي البحث المستوفى عن ذلك في آخر القصة .

وقوله : (قالوا سلاما قال سلام) أي تسالموا هم وإبراهيم فقالوا : سلاما أي سلمنا عليك

سلاما ، وقال إبراهيم : سلام أي عليكم سلام .

والسلام الواقع في تحية إبراهيم عليه السلام نكرة ووقوعه نكرة في مقام التحية دليل على ان المراد به الجنس أو أن له وصفا محذوفا للتفخيم ومزيد التكريم والتقدير : عليكم سلام زاك طيب أو ما في معناه ، ولذا ذكر بعض المفسرين : ان رفع السلام أبلغ من نصبه فقد حياهم بأحسن تحيتهم فبالغ في إكرامهم ظنا منه أنهم ضيف .

وقوله : (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) أي ما أبطأ في أن قدم إليهم عجلا مشويا يقطر ماء وسمنا وأسرع في ذلك .

قوله تعالى : (فلما رأى ايديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة) عدم وصول ايديهم إليه كناية عن أنهم ما كانوا يمدون أيديهم إلى الطعام ، وذلك أمارة العداوة وإضمار الشر ، ونكرهم وأنكرهم بمعنى واحد وإنما كان أنكرهم لانكاره ما شاهد منهم من فعل غير معهود .

والايجاس الخطور القلبى ، قال الراغب : الوجس الصوت الخفى ، والتوجس التسمع ، والايجاس وجود ذلك النفس قال : وأوجس منهم خيفة ، والواجس قالوا : هو حالة تحصل من النفس بعد الهاجس لأن الهاجس مبتدأ التفكير ثم يكون الواجس الخاطر .

انتهى .

فالجملة من الكناية كأن لطروق الخيفة – وهو النوع من الخوف – وخطوره في النفس صوتا تسمع بالسمع القلبى ، والمراد أنه استشعر في نفسه خوفا ولذلك أمنوه وطيبوا نفسه بقولهم : (لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) .

ومعنى الآية أن إبراهيم عليه السلام لما قدم إليهم العجل المشوى رآهم لا يأكلون منه كالممتنع من الأكل – وذلك أمارة الشر – استشعر في نفسه منهم خوفا قالوا تأمينا له وتطييبا لنفسه : لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط فعلم أنهم من الملائكة الكرام المنزهين من الأكل والشرب وما يناظر ذلك من لوازم البدن المادية ، وأنهم مرسلون لخطب جليل .

ونسبة استشعار الخوف إلى إبراهيم عليه السلام لا ينافى ما كان عليه من مقام النبوة الملازم للعصمة الإلهية من المعصية والرذائل الخلقية فإن مطلق الخوف وهو تأثر النفس عن مشاهدة المكروه التى تبعثها إلى التحذر منه والمبادرة إلى دفعه ليس من الرذائل ، وإنما الرذيلة هي التأثر الذى يستوجب بطلان مقاومة النفس وظهور العى والفزع والذهول عن التدبير لدفع المكروه وهو المسمى بالجبن كما أن عدم التأثر عن مشاهدة المكروه مطلقا وهو المسمى تهورا ليس من الفضيلة في شئ .

وذلك أن الله سبحانه لم يخلق هذه الحالات النفسانية التى تظهر في النفوس ومنها التأثر والانفعال عند مشاهدة المكروه والشر كالشوق والميل والحب وغير ذلك عند

مشاهدة المحبوب والخير عبثا باطلا فإن جلب الخير والنفع ودفع الشر والضرر مما فطر على ذلك أنواع الموجودات على كثرتها ، وعليه يدور رحى الوجود في نظامه العام .

ولما كان هذا النوع المسمى بالانسان إنما يسير في مسير بقائه بالشعور والإرادة كان عمل الجلب والدفع فيه مترشحا عن شعوره وإرادته ، ولا يتم إلا عن تأثر نفساني يسمى في جانب الحب ميلا وشهوة وفي جانب البغض والكراهة خوفا ووجلا .

(202/382)

ثم لما كانت هذه الأحوال النفسانية الباطنة ربما ساقت الإنسان إلى أحد جانبى الافراط والتفريط كان من الواجب على الإنسان أن يقوم من الدفع على ما ينبغي وهو فضيلة الشجاعة كما أن من الواجب عليه أن يبادر من الجلب إلى ما ينبغي على ما ينبغي ، وهو فضيلة العفة وهما حدا الاعتدال بين الافراط والتفريط ، وأما انتفاء التأثر بأن يلقى الإنسان بنفسه إلى التهلكة الصريحة في باب الدفع وهو التهور ، اولا تنزع نفسه إلى شئ مطلوب قط في باب الجلب والشهوة وهو الخمول وكذا بلوغ التأثر من القوة إلى حيث ينسى الإنسان نفسه ويذهل عن واجب رأيه وتدبيره فيجزع عن كل شبح يتراآى له في باب الدفع وهو الجبن أو ينكب على كل ما تهواه نفسه وتشتهيه كالبهيمة على عليقها في باب الشهوة وهو الشره

فجميع هذه من الرذائل .

والذى آثر الله سبحانه به انبياءه من العصمة إنما يثبت في نفوسهم فضيلة الشجاعة دون التهور ، وليست الشجاعة تقابل الخوف الذى هو مطلق التأثر عن مشاهدة المكروه ، وهو الذى يدعو النفس إلى القيام بواجب الدفع ، وإنما تقابل الجبن الذى هو بلوغ التأثر النفساني إلى حيث يبطل الرأى والتدبير ويستتبع العى والانهزام .

قال تعالى : (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله) الاحزاب : 39 ، وقال مخاطبا لموسى عليه السلام : (لا تخف إنك أنت الاعلى) طه : 68 ، وقال حكاية عن قول شعيب له عليهما السلام : (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) القصص : 25 ، وقال مخاطبا لنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) : (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء) الانفال : 58 .

والخليل عليه السلام هو النبي الكريم الذى قام بالدعوة الحقة إذ لا يذكر اسم الله وحده ، ونازع وثنية قومه فحاج أباه آزر وقومه وحاج الملك الجبار نمرود وكان يدعى الألوهية ، وكسر أصنام القوم حتى ألقوه في النار فأنجاه الله من النار فلم يجبنه شئ من تلك المهاول ،

ولا هزمه في جهاده في سبيل الله هازم ، ومثل هذا النبي على ما له من الموقف الروحي إن خاف من شئ أو وجل من احد أو ارتاعه أمر – على اختلاف تعبير الآيات – فإنما يخافه خوف حزم ولا يخافه خوف جبن ، وإذا خاف من شئ على نفسه أو عرضه أو ماله فإنما يخاف لله لا لهوى من نفسه .

قوله تعالى : (وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) ضحكت من الضحك بفتح الضاد أي حاضت ، ويؤيده تفريع البشارة عليه في قوله عقيبه : (فبشرناها) الخ ، ويكون ضحكها أمارة تقرب البشرى إلى القبول ، وآية تهيئ نفسها للاذعان بصدقهم فيما يبشرون به ، ويكون ذكر قيامها لتمثيل المقام وأنها ما كانت تخطر ببالها أنها ستحيض وهى عجوز ، وإنما كانت قائمة تنظر ما يجرى عليه الأمر بين بعله وبين الضيفان النازلين به وتحادثهم .

والمعنى أن إبراهيم عليه السلام كان يكلمهم ويكلمونه في أمر الطعام والحال أن امرأته قائمة هناك تنظر إلى ما يجرى بين الضيفان وبين إبراهيم وما كان يخطر ببالها شئ دون ذلك ففاجأها انها حاضت فبشرته الملائكة بالولد .

وأكثر المفسرين اخذوا الكلمة من الضحك بكسر الضاد ضد البكاء ثم اختلفوا في توجيه سببه ، وأقرب الوجوه هو أن يقال : إنها كانت قائمة هناك وقد ذعرت من امتناع الضيوف من الأكل وهو يهتف بالشر فلما لاحت لها أنهم ملائكة مكرمون نزلوا ببيتهم وأن لا شر في

ذلك يتوجه إليهم سرت وفرحت فضحكت فبشروه بإسحاق ومن وراء إإسحاق يعقوب
.

وهناك وجوه أخر ذكروها خالية عن الدليل كقولهم : إنها ضحكت تعجبا من غفله قوم لوط ، وقولهم : إنها ضحكت تعجبا من امتناع الضيوف من الأكل

والحال أنها تخدمهم بنفسها ، وقولهم : إنها كانت اشارت إلى إبراهيم ان يضم إليه لوطا لأن فحشاء قومه سيعقبهم العذاب والهلاك فلما سمعت من الملائكة قولهم : إنا أرسلنا إلى قوم لوط سرت وضحكت لاصابتها في الرأى ، وقولهم : إنها ضحكت تعجبا مما بشروها به من الولد وهى عجوز عقيم ، وعلى هذا ففى الكلام تقديم وتأخير والتقدير : فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فضحكت .

وقوله : (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) إسحاق هو ابنها من إبراهيم ، ويعقوب هو ابن إسحاق عليهما السلام فالمراد أن الملائكة بشروها بأنها ستلد إسحاق وإسحاق سيولد له يعقوب ولد بعد ولد .

هذا على قراءة يعقوب بالفتح وهو منزوع الخافض وقرئ برفع يعقوب وهو بيان لتتمة

البشارة ، والأولى ارجح .

وكأن في هذا التعبير : (ومن وراء إسحاق يعقوب) إشارة إلى وجه تسمية يعقوب عليه السلام بهذا الاسم ، وهو أنه كان يعقب بحسب هذه البشارة أباه إسحاق وقد ذكر فيها أنه وراءه ، ويكون فيها تخطئة لما في التوراة من السبب في تسمية يعقوب به .

قال في التوراة الحاضرة : وكان إسحاق ابن اربعين سنة لما اتخذ لنفسه زوجه (رفقه) بنت بنوئيل الارامى أخت لابان الارامى من فدان الارام ، وصلى إسحاق إلى الرب لاجل امرأته لانها كانت عاقرا فاستجاب له الرب فحبلت رفقة امرأته وتزاحم الولدان في بطنها فقالت : إن كان هكذا فلما ذا انا ، فمضت لتسأل الرب فقال لها الرب : في بطنك أمتان ، ومن احشائك يفترق شعبان : شعب يقوى على شعب ، وكبير يستعبد لصغير .

فلما كملت ايامها لتلد إذا في بطنها توأمان فخرج الأول احمر كله كفروة شعر فدعوا اسمه عيسو ، وبعد ذلك خرج اخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعى اسمه يعقوب .

انتهى موضع الحاجة وهذا من لطائف القرآن الكريم .

قوله تعالى : (قالت يا ويلتىٔ ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشئ عجيب) الويل القبح وكل مساءة توجب التحسر من هلكة أو مصيبة أو فجيعة أو فضيحة ، ونداؤه كناية عن حضوره وحلوله يقال : يا ويلى أي حضرني وحل بى ما

فيه تحسرى ، ويا ويلتا بزيادة التاء عند النداء مثل يا أبتا .

والعجوز الشيخة من النساء ، والبعل زوج المرأة والأصل في معناه القائم بالأمر المستغنى عن الغير يقال للنخل الذى يستغنى بماء السماء عن سقى الانهار والعيون بعل ، ويقال للصاحب وللرب : بعل .

ومنه بعلبك لأنه كان فيه هيكل بعض أصنامهم .

والعجيب صفة مشبهة من العجب وهو الحال العارض للإنسان من مشاهدة ما لا يعلم سببه ، ولذا يكثر في الأمور الشاذة النادرة للجهل بسببها عادة وقولها : (يا ويلتىٔ ألد) الخ ، وارد مورد التعجب والتحسر فإنها لما سمعت بشارة الملائكة تمثل لها الحال بتولد ولد من عجوز عقيم وشيخ هرم بالغين في الكبر لا يعهد من مثلهما الاستيلاد فهو أمر عجيب على ما فيه من العار والشين عند الناس فيضحكون منهما ويهزؤن بهما وذلك فضيحة .

قوله تعالى : (قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) المجد هو الكرم والمجيد الكريم كثير النوال وقد تقدم معنى بقية مفردات الآية .

وقولهم : (أتعجبين من أمر الله) استفهام إنكارى انكرت الملائكة تعجبها عليها لأن

التعجب إنما يكون للجهل بالسبب واستغراب الأمر ، والأمر المنسوب إلى الله سبحانه وهو الذي يفعل ما يشاء وهو على كل شئ قدير لا وجه للتعجب منه .

على أنه تعالى خص بيت إبراهيم بعنايات عظيمة ومواهب عالية يتفردون بها من بين الناس فلا ضير إن ضم إلى ما مضى من نعمه النازلة عليهم نعمة أخرى مختصة بهم من بين الناس وهو ولد من زوجين شائخين لا يولد من مثلهما ولد عادة .

ولهذا الذى ذكرنا قالت الملائكة لها في إنكار ما رأوا من تعجبها أولا : (أتعجبين من أمر الله) فأضافوا الأمر إلى الله لينقطع بذلك كل استعجاب واستغراب لأن ساحة الألوهية لا يشق شئ عليها وهو الخالق لكل شئ .

وثانيا : (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) فنبهوها بذلك أن الله انزل رحمته وبركاته عليهم أهل البيت ، وألزمهم ذلك فليس من البعيد ان يكون من ذلك تولد مولود من والدين في غير سنهما العادى المألوف لذلك .

وقوله : (إنه حميد مجيد) في مقام التعليل لقوله : (رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت) أي إنه تعالى مصدر كل فعل محمود ومنشأ كل كرم وجود يفيض من رحمته وبركاته على من

يشاء من عباده .

قوله تعالى : (فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط) الروع الخوف والرعب والمجادلة في الأصل الالحاح في البحث والمسألة للغلبة في الرأى ، والمعنى انه لما ذهب عن إبراهيم ما اعتراه من الخيفة بتبين ان النازلين به لا يريدون به سوءا ولا يضمرون له شرا .

وجاءته البشرى بأن الله سيرزقه وزوجه إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب اخذ يجادل الملائكة في قوم لوط يريد بذلك ان يصرف عنهم العذاب .

فقوله : (يجادلنا في قوم لوط) لحكاية الحال الماضية أو بتقدير فعل ماض قبله وتقديره : اخذ يجادلنا الخ ، لأن الأصل في جواب لما ان يكون فعلا ماضيا .

ويظهر من الآية ان الملائكة اخبروه اولا : بأنهم مرسلون إلى قوم لوط ثم ألقوا إليه البشارة ثم جرى بينهم الكلام في خصوص عذاب قوم لوط فأخذ إبراهيم عليه السلام يجادلهم ليصرف عنهم العذاب فأخبروه بأن القضاء حتم ، والعذاب نازل لا مرد له .

والذى ذكره الله من مجادلته عليه السلام الملائكة هو قوله في موضع آخر : (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا اهل هذه القرية إن اهلها كانوا ظالمين قال إن فيها لوطا قالوا نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله إلا امرأته كانت من الغابرين) العنكبوت : 32 .

قوله تعالى : (إن إبراهيم لحليم اواه منيب) الحليم هو الذى لا يعاجل العقوبة والانتقام ، والاواه كثير التأوه مما يصيبه أو يشاهده من السوء ، والمنيب من الانابة وهو الرجوع والمراد الرجوع في كل أمر إلى الله .

والآية مسوقة لتعليل قوله في الآية السابقة : (يجادلنا في قوم لوط) وفيه مدح بالغ لابراهيم عليه السلام وبيان أنه إنما كان يجادل فيهم لأنه كان حليما لا يعاجل نزول العذاب على الظالمين رجاء أن يأخذهم التوفيق فيصلحوا ويستقيموا ، وكان

كثير التأثر من ضلال الناس وحلول الهلاك بهم مراجعا إلى الله في نجاتهم .

لا أنه عليه السلام كان يكره عذاب الظالمين وينتصر لهم بما هم ظالمون وحاشاه عن ذلك .

قوله تعالى : (يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) هذا حكاية قول الملائكة لابراهيم عليه السلام وبذلك قطعوا عليه جداله فانقطع حيث علم أن الالحاح في صرف العذاب عنهم لن يثمر ثمرا فإن القضاء حتم والعذاب واقع لا محالة .

فقولهم : (يا إبراهيم أعرض عن هذا) أي انصرف عن هذا الجدال ولا تطمع في نجاتهم فإنه طمع فيما لا مطمع فيه .

وقولهم : (إنه قد جاء أمر ربك) أي بلغ أمره مبلغا لا يدفع بدافع ولا يتبدل بمبدل ويؤيده قوله في الجملة التالية : (وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) فإن ظاهره المستقبل ولو كان الأمر صادرا لم يتخلف القضاء عن المقضى البتة ويؤيده أيضا قوله في ما سيأتي من آيات قصة قوم لوط : (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها) الخ ، آية : 82 من السورة .

(208/382)

وقولهم : (وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) أي غير مدفوع عنهم بدافع فلله الحكم لا معقب لحكمه ، والجملة بيان لما أمر به جئ بها تأكيدا للجملة السابقة والمقام مقام التأكيد ، ولذلك جئ في الجملة الأولى بضمير الشأن وقد المفيد للتحقيق ، وصدرت الجملتان معا بإن ، وأضافوا الأمر إلى رب إبراهيم عليه السلام دون أمر الله ليعينهم ذلك على انقطاعه عن الجدال .

(بحث روائي) في الكافي باسناده عن أبى يزيد الحمار عن أبى عبد الله عليه السلام قال : إن الله بعث اربعة املاك في إهلاك قوم لوط : جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وكروبيل فمروا

بإبراهيم فسلموا عليه وهم معتمون فلم يعرفهم ، ورأى هيئة حسنة فقال : لا يخدم هؤلاء إلا انا بنفسى وكان صاحب ضيافة فشوى لهم عجلا سمينا حتى أنضجه فقربه إليهم فلما وضع بين ايديهم رآى ايديهم لا تصل إليه فنكرهم واوجس منهم خيفة فلما راى ذلك جبرئيل حسر العمامة عن وجهه فعرفه إبراهيم فقال : انت هو ؟

قال : نعم فمرت به امرأته فبشرها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فقالت : ما قال الله عزوجل وأجابوها بما في الكتاب .

فقال لهم إبراهيم : لما ذا جئتم ؟ فقالوا في إهلاك قوم لوط .

قال : إن كان فيها مائة من المؤمنين أتهلكونها ؟ قال جبرئيل : لا .

قال : وإن كان فيهم خمسون ؟ قال : لا .

قال : وإن كان فيهم ثلاثون ؟ قال : لا .

قال : وإن كان فيهم عشرون ؟ قال : لا .

قال : وان كان فيهم عشرة ؟ قال : لا .

قال : وان كان فيهم خمسة ؟ قال : لا .

قال : وان كان فيهم واحد ؟ قال : لا .

قال : فإن فيها لوطا .

قالوا : نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله إلا امرأته كانت من الغابرين ثم مضوا .

قال : وقال الحسن بن على : لا اعلم هذا القول إلا وهو يستبقيهم وهو قول الله عزوجل : (يجادلنا في قوم لوط) الحديث وله تتمة ستوافيك في قصة لوط .

(209/382)

أقول : وقوله : (لا اعلم هذا القول الا وهو يستقبيهم) يمكن استفادته من قوله تعالى : (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) فإنه انسب بكون غرضه استبقاء القوم لا استبقاء نبى الله لوط .

على أن قوله : (يجادلنا في قوم لوط) وقوله : (إنهم آتيهم عذاب غير مردود) انما يناسب استبقاء القوم .

وفي تفسير العياشي عن عبد الله بن سنان قال : سمعت ابا عبد الله عليه السلام يقول : جاء بعجل حنيذ مشويا نضيجا .

وفي معاني الاخبار بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبى عبد الله عليه السلام في قول الله عزوجل : فضحكت فبشرناها بإسحاق قال : حاضت .

وفي الدر المنثور اخرج اسحاق بن بشر وابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : لما راى إبراهيم انه لا تصل إلى العجل ايديهم نكرهم وخافهم ، وإنما كان خوف

إبراهيم أنهم كانوا في ذلك الزمان إذا هم أحدهم بامرء سوء لم يأكل عنده يقول : إذا أكرمت بطعامه حرم على أذاه ، فخاف إبراهيم ان يريدوا به سوء فاضطربت مفاصله .

وامراته سارة قائمة تخدمهم ، وكان إذا اراد ان يكرم ضيفا اقام سارة ليخدمهم فضحكت سارة ، وانما ضحكت أنها قالت : يا إبراهيم وما تخاف ؟ انهم ثلاثة نفر وانت واهلك وغلمانك .

قال لها جبرئيل : ايتها الضاحكة أما إنك ستلدين غلاما يقال له : اسحاق ومن ورائه غلام يقال له : يعقوب فاقبلت في صرة فصكت وجهها فأقبلت والهة تقول : واويلتاه ووضعت يدها على وجهها استحياء فذلك قوله : فصكت وجهها ، وقالت : ءألد وانا عجوز وهذا بعلى شيخا .

قال : لما بشر إبراهيم يقول الله : فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى بإسحاق يجادلنا في قوم لوط ، وكان جداله انه قال : يا جبرئيل اين تريدون ؟ وإلى من بعثتم ؟ قال : إلى قوم لوط وقد أمرنا بعذابهم .

فقال إبراهيم ان فيها لوطا .

قالوا : نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله إلا امراته ، وكانت فيما زعموا تسمى والقة .

فقال إبراهيم : ان كان فيهم مائة مؤمن اتعذ بونهم ؟ قال جبرئيل : لا .

قال : فإن كان فيهم تسعون مؤمنون تعذ بونهم ؟ قال جبرئيل : لا .

قال : فإن كان فيهم ثمانون مؤمنون تعذ بونهم ؟ قال جبرئيل : لا .

حتى انتهى في العدد إلى واحد مؤمن قال جبرئيل : لا .

فلما لم يذكروا لابراهيم ان فيها مؤمنا واحدا قال : إن فيها لوطا .

قالوا نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله الا امراته .

أقول : وفي متن الحديث اضطراب ما من حيث ذكره قول إبراهيم : ان فيها لوطا اولا وثانيا لكن المراد واضح .

وفي تفسير العياشي عن أبى حمزة الثمالى عن أبى جعفر عليه السلام قال : ان الله تبارك وتعالى لما قضى عذاب قوم لوط وقدره أحب ان يعوض إبراهيم من عذاب قوم لوط بغلام عليم يسلى به مصابه بهلاك قوم لوط .

قال : فبعث الله رسلا إلى إبراهيم يبشرونه بإسماعيل .

قال : فدخلوا عليه ليلا ففزع منهم وخاف ان يكونوا سراقا فلما رأته الرسل فزعا مذعورا قالوا : سلاما .

قال : سلام انا منكم وجلون .

قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم .

قال أبو جعفر عليه السلام : والغلام العليم اسماعيل من هاجر فقال إبراهيم للرسل :

أبشرتموني على أن مسنى الكبر فبم تبشرون .

قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين .

قال إبراهيم للرسل : فما خطبكم بعد البشارة ؟ قالوا : انا أرسلنا إلى قوم مجرمين قوم لوط

انهم كانوا قوما فاسقين لننذرهم عذاب رب العالمين ، قال أبو جعفر عليه السلام : قال

إبراهيم : ان فيها لوطا .

قالوا : نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين .

(211/382)

فلما عذبهم الله ارسل الله إلى إبراهيم رسلا يبشرونه بإسحاق ويعزونه بهلاك قوم لوط ،

وذلك قوله : ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فما

لبث أن جاء بعجل حنيذ يعنى زكيا مشويا نضيجا فلما راى ايديهم لا تصل إليه نكرهم

واوجس منهم خيفة قالوا لا تخف انا أرسلنا إلى قوم لوط وامراته قائمة .

قال أبو جعفر عليه السلام : انما عنوا سارة قائمة فبشروها بإسحاق ومن وراء اسحاق

يعقوب فضحكت يعني فعجبت من قولهم .

أقول : والرواية – كما ترى – تجعل قصة البشارة قصتين : البشارة بإسماعيل والبشارة بإسحاق وقد ولد بعد اسماعيل بسنين .

ثم تحمل آيات سورة الحجر – ولم يذكر فيها تقديم العجل المشوى إلى الضيوف – على البشرى بإسماعيل ولما يقع العذاب على قوم لوط حين ذاك ، وتحمل آيات سورتي الذاريات وهود – وقد اختلطتا في الرواية – على البشرى لسارة بإسحاق ويعقوب ، وأنها إنما كانت بعد هلاك قوم لوط فراجعوا إبراهيم وأخبروه بوقوع العذاب وبشروه البشارة الثانية .

أما آيات سورة الحجر فإنها في نفسها تحتمل الحمل على البشارة باسماعيل وكذا الآيات الواقعة في سورة الذاريات تحتمل اقتص عما بعد هلاك قوم لوط وتكون البشرى بإسحاق ويعقوب عند ذلك .

وأما آيات سورة هود فإنها صريحة في البشرى بإسحاق ويعقوب ، ولكن ما في ذيلها من قوله : (يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم اواه منيب) إلى آخر الآيات تأبى ان تنطبق على ما بعد هلاك قوم لوط ، وإن كان ما في صدرها من قوله : (إنا أرسلنا إلى قوم لوط) لا يأبى وحده الحمل على ما بعد الهلاك ، وكذا جملة (إنه قد جاء أمر ربك) لولا ما يحفها من قيود الكلام .

وبالجملة مفاد الآيات في سورة هود هو وقوع البشرى بإسحاق قبل هلاك قوم لوط ، وعند ذلك كان جدال إبراهيم عليه السلام ، ومقتضى ذلك أن تكون ما وقع من القصة في سورة الذاريات هي الواقعة قبل هلاك القوم لا بعد الهلاك ، وكذا كون ما وقع من القصة في سورة الحجر وفيه التصريح بكونه قبل هلاكهم وفيه جدال إبراهيم عليه السلام خاليا عن بشرى إسحاق ويعقوب لا بشرى اسماعيل .

والحاصل أن اشتمال آيات هود على بشرى اسحاق وجدال إبراهيم عليه السلام الظاهر في كونها قبل هلاك قوم لوط يوجب ان يكون المذكور من البشرى في جميع السور الثلاث : هود والحجر والذاريات قصة واحدة هي قصة البشرى بإسحاق قبل وقوع العذاب ، وهذا مما يوهن الرواية جدا .

وفي الرواية شئ آخر وهو انها اخذت الضحك بمعنى العجب وأخذت قوله : (فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) من التقديم والتأخير ، وأن التقدير : فبشرناها بإسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب فضحكت) وهو خلاف الظاهر من غير نكتة ظاهرة .

وفي تفسير العياشي أيضا عن الفضل بن أبى قرة قال : سمعت ابا عبد الله عليه السلام يقول : اوحى الله إلى إبراهيم انه سيلد لك فقال لسارة فقالت : ءألد وأنا عجوز ؟ فأوحى الله

إليه انها ستلد ويعذب اولادها اربعمائة سنة بردها الكلام على .

قال : فلما طال على بنى إسرائيل العذاب ضجوا وبكوا إلى الله اربعين صباحا فأوحى الله إلى موسى وهارون ان يخلصهم من فرعون فحط عنهم سبعين ومائة سنة .

قال : وقال أبو عبد الله عليه السلام : هكذا انتم .

لو فعلتم فرج الله عنا فأما إذا لم تكونوا فإن الأمر ينتهى إلى منتهاه .

(213/382)

أقول : وجود الرابطة بين احوال الإنسان وملكاته وبين خصوصيات تركيب بدنه مما لا شك فيه فلكل من جانبى الربط استدعاء وتأثير خاص في الاخرة ثم النطفة مأخوذة من المادة البدنية حاملة لما في البدن من الخصوصيات المادية والروحية طبعا فمن الجائز ان يرث الاخلاف بعض خصوصيات اخلاق اسلافهم المادية والروحية .

وقد تقدم كرارا في المباحث السابقة ان بين صفات الإنسان الروحية واعماله وبين الحوادث الخارجية خيرا وشرا رابطة تامة كما يشير إليه قوله تعالى : (ولو إن اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) الأعراف : 96 ، وقوله : (وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم) الشورى : 30 .

فمن الجائز ان يصدر عن فرد من افراد الإنسان أو عن مجتمع من المجتمعات الإنسانية عمل من الأعمال صالح اوطالح أو تظهر صفة من الصفات فضيلة أو رذيلة ثم يظهر اثره الجميل أو وباله السيئ في اعقابه ، والملاك في ذلك نوع من الوراثة كما مر ، وقد تقدم في ذيل قوله تعالى : (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم) النساء : 9 كلام في هذا المعنى في الجزء الرابع من الكتاب .

وفيه عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبى جعفر عليه السلام وعن عبد الرحمن عن أبى عبد الله عليه السلام في قول الله : (إن إبراهيم لحليم اواه منيب) قال : دعاء .

أقول : وروى في الكافي عن زرارة عن أبى جعفر عليه السلام مثله .

وفيه عن أبى بصير عن احدهما عليهما السلام قال : ان إبراهيم جادل في قوم لوط وقال : ان فيها لوطا .

قالوا : نحن اعلم بمن فيها فزاده إبراهيم فقال جبرئيل : يا إبراهيم اعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك وأنهم آتيهم عذاب غير مردود .

وفي الدر المنثور اخرج ابن الانباري في كتاب الوقف والابتداء عن حسان بن ابجر قال : كنت عند ابن عباس فجاءه رجل من هذيل فقال له ابن عباس : ما فعل فلان ؟ قال : مات وترك اربعة من الولد وثلاثة من الوراء .

فقال ابن عباس : (فبشرناها بإسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب) قال : ولد الولد .

(كلام في قصة البشرى) قصة البشرى وسماها الله تعالى حديث ضيف إبراهيم عليه السلام وقعت في خمس من السور القرآنية كلها مكية وهى على ترتيب القرآن سورة هود والحجر والعنكبوت والصافات والذاريات .

فالاولى ما في سورة هود 69 - 76 قوله تعالى : (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ .

فلما راى ايديهم لا تصل إليه نكرهم واوجس منهم خيفة قالوا لا تخف انا أرسلنا إلى قوم لوط .

وامراته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب .

قالت يا ويلتى ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشئ عجيب .

قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت انه حميد مجيد .

فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط .

ان إبراهيم لحليم أواه منيب .

يا إبراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك وأنهم آتيهم عذاب غير مردود) .

والثانية ما في سورة الحجر : 51 - 60 قوله تعالى : (ونبئهم عن ضيف إبراهيم .

إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون .

قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم .

قال ابشرتمونى على ان مسنى الكبر فبم تبشرون .

قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين .

قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون .

قال فما خطبكم ايها المرسلون .

قالوا انا أرسلنا إلى قوم مجرمين .

الا آل لوط انا لمنجوهم اجمعين .

الا امراته قدرنا إنها لمن الغابرين) .

والثالثة ما في سورة العنكبوت : 31 – 32 قوله تعالى : (ولما جاءت رسلنا إبراهيم

بالبشرى قالوا انا مهلكوا اهل هذه القرية ان اهلها كانوا ظالمين .

قال إن فيها لوطا قالوا نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله الا امرأته كانت من الغابرين) .

والرابعة ما في سورة الصافات : 99 – 113 قوله تعالى : (وقال إنى ذاهب إلى ربى

سيهدين .

رب هب لى من الصالحين .

فبشرناه بغلام حليم .

فلما بلغ معه السعي قال يا بنى إنى ارى في المنام أنى اذبحك فانظر ما ذا ترى قال يا ابت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين .

فلما اسلما وتله للجبين .

وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين .

إن هذا لهو البلاء المبين .

وفديناه بذبح عظيم .

وتركنا عليه في الاخرين .

سلام على إبراهيم كذلك نجزى المحسنين .

انه من عبادنا المؤمنين .

وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين .

وباركنا عليه وعلى اسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) .

والخامسة ما في سورة الذاريات : 24 - 30 قوله تعالى : (هل اتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين .

إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ إلى اهله فجاء بعجل سمين .

فقربه إليهم قال الا تأكلون .

فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم فأقبلت امراته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم .

قالوا كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم) .

ويقع البحث في قصة البشرى من وجوه : احدها : أنها هل هي بشرى واحدة وهى المشتملة على بشرى إبراهيم وسارة بإسحاق ويعقوب وقد وقعت قبيل هلاك قوم لوط أو انها قصتان : إحداهما تشتمل على البشرى بإسماعيل والاخرى تتضمن البشرى بإسحاق ويعقوب .

ربما رجح الثاني بناء على ان ما وقع من القصة في سورة الذاريات صريح في تقديم العجل المشوى ، وأن إبراهيم خافهم لما امتنعوا من الأكل ثم بشروه وامرأته العجوز العقيم وهى سارة أم إسحاق قطعا ، وذيل الآيات ظاهر في كون ذلك بعد إهلاك قوم لوط حيث يقول الملائكة : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين - إلى ان قالوا - فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الاليم) الآيات ونظير ذلك ما في سورة هود وقد قال فيها الملائكة لازالة الروع عن إبراهيم ابتداء .

إنا أرسلنا إلى قوم لوط .

وأما ما في سورة الحجر فليس يتضمن حديث تقديم العجل المشوى بل ظاهره أن إبراهيم واهله خافوهم لدى دخولهم عليه فأسكنوا رعبه بالبشارة كما يقول تعالى : (إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم) وذيل الآيات ظاهر في كون ذلك قبل هلاك لوط .

ونظيره ما في سورة العنكبوت من القصة وهى اظهر في كون ذلك قبل الهلاك ويتضمن جدال إبراهيم في قوم لوط ، وقد تقدمت في البحث الروائي السابق حديث العياشي في هذا المعنى .

لكن الحق أن الآيات في جميع السور الاربع سورة هود والحجر والعنكبوت والذاريات إنما تقص قصة البشارة بإسحاق ويعقوب دون اسماعيل .

وأما ما في ذيل آيات الذاريات من قوله : (قالوا إنا أرسلنا) الظاهر في المضى والفراغ عن الأمر فنظيره واقع في آيات الحجر مع تسليمهم أنها تقص ما قبل الفراغ .

على أن قول الملائكة المرسلين وهم بعد في الطريق : (أنا أرسلنا) لا مانع منه بحسب اللغة والعرف .

وأما قوله : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين) إلى آخر الآيات فهو من كلامه تعالى وليس من تتمة كلام الملائكة لابراهيم كما يدل عليه سياق القصص الواردة في سورة الذاريات .

واما ذكر الوجل في آيات الحجر في اول القصة بخلاف سورتي الذاريا ت وهود فالوجه فيه عدم ذكر تقديم العجل المشوى في آيات الحجر بخلافهما ، على أن الارتباط التام بين اجزاء قصة مما يجوز أن يقدم بعضها على بعض حينا ويعكس الامر حينا آخر كما أنه تعالى يذكر انكار إبراهيم في آيات الذاريات في صدر القصة بعد سلامهم وفي سورة هود في وسط القصة بعد امتناعهم من الأكل ، وهذا كثير الورود في نظم القرآن .

على ان آيات هود صريحة في البشرى بإسحاق ويعقوب وهى تتضمن جدال إبراهيم في قوم لوط في سياق لا يشك معه أنه كان قبل هلاك لوط ، ولازمه كون بشرى اسحاق قبله لا بعده

.

(217/382)

على أن من المتفق عليه أن اسماعيل كان اكبر سنا من اسحاق وبين ولادتيهما سنون ، ولو كانت هؤلاء الملائكة بشروا إبراهيم بإسماعيل في مسيرهم إلى هلاك قوم لوط قبيل الهلاك وبشروه بإسحاق في منصرفهم عن هلاكهم بعيده كان الفصل بين البشريين يوما أو يومين فيكون الفصل بين البشرى بإسحاق وبين ولادته سنون من الزمان والبشرى لا تطلق إلا على الاخبار بالجميل إذا كان مشرفا على الوقوع الا إذا كانت هناك عناية خاصة واما

الاخبار بمطلق الجميل فهو وعد ونحو ذلك .

وثانيها أنه هل هناك بشرى بإسماعيل ؟ والحق أن ما ذكرت من البشرى في صدر آيات الصافات انما هي بشرى بإسماعيل وهى غير ما ذكرت في ذيل الآيات من البشرى بإسحاق صريحا فإن سياق الآيات في ذيل قوله : (فبشرناه بغلام حليم)

ثم استئناف البشارة بإسحاق في قوله اخيرا : (وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين) لا يدع ريبا لمرتاب ان الغلام الحليم الذى بشر به اولا غير اسحاق الذى بشر به ثانيا ، وليس الا اسماعيل .

وذكر الطبري في تاريخه ان المراد بالبشارة الأولى في هذه السورة أيضا البشارة بإسحاق قياسا على ذكر من البشارة في سائر السور ، وهو كما ترى .

وقد تقدم كلام في هذا المعنى في قصص إبراهيم عليه السلام في الجزء السابع من الكتاب .

وثالثها : البحث في القصة من جهة تطبيق ما في التوراة الحاضرة منها على ما استفيد من القرآن الكريم ، وسيوافيك ذلك عند الكلام على قصة لوط عليه السلام في ذيل الآيات التالية .

ورابعها : البحث فيها من جهة جدال إبراهيم الملائكة وقد وقع فيها مثل قوله : (يجادلنا في قوم لوط) وقوله : (يا إبراهيم أعرض عن هذا) .

وقد تقدم أن سياق الآيات وخاصة قوله : (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) لا يدل إلا على

نعته بالجميل فلم يكن جداله الا حرصا منه في نجاة عباد الله رجاء أن يهتدوا إلى صراط الإيمان. انتهى انتهى. اهـ ﴿الميزان حـ 10 صـ 230.236﴾

(218/382)

قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (79) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (80) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما انقضى أمر إنبائهم ببشارة الأولياء وهلاك الأعداء ، وعلم من ذلك أنهم لا ينزلون إلاّ للأمور الهائلة والأحوال المعجبة ، أخذ يقص أمرهم مع لوط عليه السلام ، فقال عاطفاً على ما تقديره : فعلوا مع إبراهيم انفصالهم عن إبراهيم عليه السلام ما ذكر ، ثم فارقوه نحو لوط ، ولم يذكر الحرف المصدري لأن سياقه ومقصود السورة لا يقتضي ذلك كما نشير إليه

في العنكبوت : ﴿ ولما جاءت رسلنا ﴾ على ما قارنهم من عظمتنا ﴿ لوطاً ﴾ بعد انفصالهم عن إبراهيم عليه السلام ، وبين البلدين ثمانية أميال ، وقيل : أربعة فراسخ ، استضافوه فلم يجد بداً من قبولهم على ما أوصى الله بالضيف مطابقاً لعوائد أهل المكارم ، فقبلهم وأزمع المقاتلة عنهم لما رأى من حسن أشكالهم ورونق جمالهم مع ما يعلم من قبح أفعال قومه وخبث سرائرهم ، ولما جاؤوه على هذه الصفة ﴿ سيء بهم ﴾ أي حصلت له المساءة بسبب مجيئهم إلى قريته لما يعلم من لؤم أهلها ، والتعبير عن هذا المعنى بالمبني للمفعول أحضر وأوقع في النفس وأرشق ﴿ وضاق بهم ذرعاً ﴾ أي ذرعه أي اتساعه في كل وقت قوة أوتيها ، وهو مثل يقال لمن لم يجد من المكروه مخلصاً ، ومادة ذرع - بأيّ ترتيب كان - تدور على الاتساع لأنه لا يذرع إلاّ الكثير ، وذرع الرمل : اتسع ، وموت ذريع : فاش ، والمذرع : الذي أمه عربية وأبوه غير عربي ، فهو أكثر أنتشاراً ممن انحصر في أحدهما ؛ والذريعة : ما يختلي به الصيد ، فهو يوسع له من الأمل ما يحمله على الإقدام ، وحلقة يتعلم عليها الرمي ، لأنها تسع السهم ، أو لأن مصيبها واسع الأمر في صناعة الرمي ، والوسيلة لأنها توصل المتوسل ؛ والذعر : الخوف ، لاتساع الفكر فيه وتجويز أدنى احتمال ؛ والعذر : إيساع الحيلة في وجه يزيل ما ظهر من التقصير ، من العذوّر - للحمار الواسع الجوف ، وهو أيضاً الملك لسعته ، والعذار : أوسع ما في الوجه ، وأعذرت الغلام : ختنته ، أي أوسعت أكرته ، والإعذار - لطعام الختان ونحوه منه

، وعذرة الجارية موجبة لعذرها في النفرة للخوف على نفسها ، والعذرة : وجع في الحلق ، وهو سقوطه حتى يغمز ، كأنه شبه بعذرة البكر في سده الحلق بما يوجب الغمز ، وكذا العذرة – للناصية لبذل الجهد في المدافعة عنها ، والعذراء : نجم إذا طلع اشتد الحر فاتسع بساط الأرض ، والعذرة – بفتح ثم كسر : فناء الدار ، وبه سمي الحدث ، والعذراء : شيء من حديد يعذب به الإنسان ، كأنه سمي لأنه يوسع الخوف بما يجنب ما يوجب الاعتذار ، فلا تزال تلك الحديدة بكراً لا يوجد من يعذب بها ، وأما عذر – بالتشديد – إذا قصر فهو للسلب ، أي فعل ما لا يوجد له عذر ، وكذا تعذر الأمر أي صعب ، يعني أنه تجنّب العذر فلم يبق لسهولته وجه ، وأعذر – إذا كثرت عيوبه ، أي دخل فيما يطلب له العذر كأنجد .

ولما ذكر حاله ، ذكر قاله بقوله : ﴿ وقال ﴾ أي لوط ﴿ هذا ﴾ أي اليوم ﴿ يوم عصيب ﴾ أي شديد جداً لما أعلم من جهالة مَن أنا بين ظهرانيهم ، وهو مشتق من العصب وهو أطناب المفاصل وروابطها ، ومدراه على الشدة ﴿ وجاءه قومه ﴾ أي الذين فيهم قوة المحاولة ﴿ يهرعون ﴾ أي كأنهم يحملهم على ذلك حامل لا يستطيعون دفعه

﴿ إليه ﴾ أي في غاية الإسراع فعل الطامع الخائف فوت ما يطلبه ، فهو يضطرب لذلك ، أو لأجل الرعب من لوط عليه السلام أو من الملائكة عليهم السلام .

ولما كان وجدانهم – فكيف عصيانهم – لم يستغرق زمن القبل ، أدخل الجار فقال :

﴿ ومن قبل ﴾ أي قبل هذا المجيء ﴿ كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ يعملون ﴾ أي مع الاستمرار ﴿ السيئات ﴾ أي الفواحش التي تسوء غاية المساءة فضربوا بها ومرنوا عليها حتى زال عندهم استقباحها ، فهو يعرف ما يريدون ، وكأنهم كانوا لا يدعون مليحاً ولا غيره من الغرباء ، فلذلك لم يذكر أن الرسل عليهم السلام كانوا على هيئة المرد الحسان ، ولا قيد الذكران في قصتهم في موضع من المواضع بالمرودية .

(220/382)

فكأنه قيل : فما قال لهم ؟ فقيل : ﴿ قال يا قوم ﴾ مستعطفاً لهم ﴿ هؤلاء بناتي ﴾ حادياً لهم إلى الحياء والكرم .

(221/382)

ولما كان كأنه قيل : ما نفعل بهن ؟ قال : ﴿ هن ﴾ ولما كان في مقام المدافعة باللين ، قال إرخاء للعنان في تسليم طهارة ما يفعلونه على زعمهم مشيراً بلطافة إلى خبث ما يريدونه : ﴿ أطهر لكم ﴾ وليس المراد من هذا حقيقته ، بل تنبيه القوم على أنهم لا يصلون إليهم إلا إن وصلوا إلى بناته لأن الخزي فيهما على حد سواء أو في الضيف أعظم ، ومثل هذا أن يشفع الإنسان فيمن يضرب ، فإذا عظم الأمر ألقى نفسه عليه فصورته أنه فعله ليقيه الضرب بنفسه ، ومعناه احترامه باحترامه ، وعلى هذا يدل قوله في الآية الأخرى ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ وهنا قوله : ﴿ فاتقوا الله ﴾ أي الملك الأعظم في هذا الأمر الذي تريدونه ﴿ ولا تخزون ﴾ أي توقعوا بي الفضيحة التي فيها الذل والهوان والعار ﴿ في ضيفي ﴾ إذ لا يشك ذو مسكة من أمره في أن التقوى إذا حصلت منعت من الأمرين ، وأن الخزي على تقدير عدمها في البنات أعظم لأنه عار لازم للزوم البنات للأب ، وكل هذا دليل على أنه لا يشك أنهم آدميون ولم يلم بخاطر أنهم ملائكة ، فهو تنبيه للكفار على أنه لا ينتفع بإنزال الملائكة إلا البار الراشد التابع للحق ؛ ثم أنكر أشد الإنكار حالهم في أنهم لا يكون منهم رشيد حثاً على الإقلاع عن الغي ولزوم سبيل الرشد فقال : ﴿ أليس منكم رجل ﴾ أي كامل الرجولية ﴿ رشيد ﴾ كامل الرشد ليكفكم عن هذا القبيح ، فلم يكن منهم ذلك ، بل ﴿ قالوا لقد علمت ﴾ أي يا لوط مجرين الكلام على حقيقته غير معرجين على ما كني به عنه ﴿ ما لنا في بناتك ﴾ وأغرقوا في النفي فقالوا : ﴿ من حق ﴾ أي حاجة ثابتة ، ولم

يريدوا به ضد الباطل لأن البنات والضيف في نفي حقهم عنهم سواء ، وأكدوا معلمين بما لهم من الرغبة في الفجور وقاحة وجرأة فقالوا : ﴿ وإنك لتعلم ﴾ أي علماً لا تشك فيه ﴿ ما نريد ﴾ وهو إتيان الذكور للتطرق والتطرف ، فحملوا عرضه لبناته على الحقيقة خبثاً منهم وشرعوا يبنون على ذلك بوقاحة وعدم مبالاة بالعظائم ، فأخبر تعالى عن قوله لهم على

طريق الاستئناف بقوله : ﴿ قال ﴾ أي متمنياً أن يكون له بهم طاقة ليروا ما يصنع من الإيقاع بهم متفجعاً على فوات ذلك ﴿ لو أن لي بكم ﴾ أي في دفعكم ﴿ قوة ﴾ بنفسي ﴿ أو ﴾ لو أني ﴿ آوي ﴾ من الأعوان والأنصار ﴿ إلى ركن شديد ﴾ أي جماعة هم كالركن الموصوف بالشدة لحلت بينكم وبين ما جئتم له ، وحذفه أبلغ لذهاب النفس فيه كل مذهب ؛ والسوء : ما يظهر مكروهه لصاحبه ؛ والعصيب : الشديد في الشر خاصة كأنه التف شره ؛ والقوة خاصة يمكن أن يقع بها الفعل وأن لا يقع ؛ والركن : معتمد البناء بعد الأساس ، والركن هنا من هو مثله ؛ والشدة : مجمع يصعب معه الإمكان ، ووصفه الركن بالشدة وهو يتضمنها تأكيد يدل على أن قومه كانوا في غاية القوة والجلادة ، وأنه كان يود

معاجلتهم لو قدر .

وذلك أن مادة (ركن) بكل ترتيب تدور على الرزانة ، من ركن - بالضم بمعنى رزن ، ويلزمهما القوة ، ومنه الركن للجانب الأقوى والأمر العظيم وما يتقوى به من ملك وجند وغيره والعز والمنعة ، ومن ذلك النكر بالضم للدهاء والفطنة ، والنكر للمنكر والأمر الشديد وما يخرج من الزحير من دم أو قيح ، ونكر الأمر : صعب وطريق ينكور : على غير قصد ، والمنكر ضد المعروف لأن الشيء إذا جهل صعب أمره ، وتناكر القوم : تعادوا ، والتنكر : التغير من حال يسر إلى حال يكره ، والمكنر - كمحدث : الضخم السمج ، ويلزم الرزانة أيضاً الميل والسكون ، ومنه ركن إليه - بالفتح : مال وسكن ، وركن بالمنزل - بالكسر : أقام ؛ والكنارة - بالكسر والتشديد : الشقة من ثياب الكتان ، لأنه يمال إليه لبهجته ، وكذا الكنارات للعيدان والطبول ، والكران ككتاب للعود أو الصنج ، أو يكون ذلك من الشدة لقوة أصواتها - والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 3 ص 559.557﴾

(223/382)

فصل

قال الفخر :

ثم قال : ﴿ وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ وهؤلاء الرسل هم الرسل الذين بشروا إبراهيم بالولد عليهم السلام .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط وبين القريتين أربع فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بني آدم وكانوا في غاية الحسن ولم يعرف لوط أنهم ملائكة الله وذكروا فيه ستة أوجه : الأول : أنه ظن أنهم من الإنس فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجزوا عن مقاومتهم .

الثاني : ساءه مجيئهم لأنه ما كان يجد ما ينفقه عليهم وما كان قادراً على القيام بحق ضيافتهم .

والثالث : ساءه ذلك لأن قومه منعوه من إدخال الضيف داره .

الرابع : ساءه مجيئهم ، لأنه عرف بالحذر أنهم ملائكة وأنهم إنما جاؤا لإهلاك قومه ، والوجه الأول هو الأصح لدلالة قوله تعالى : ﴿ وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ [هود : 78] وبقي في الآية ألفاظ ثلاثة لا بد من تفسيرها :

اللفظ الأول : قوله : ﴿ سِيءَ بِهِمْ ﴾ ومعناه ساء مجيئهم وساء يسوء فعل لازم مجاوز يقال سؤته فسيء مثل شغلته فشغل وسررته فسر .

قال الزجاج : أصله سوىء بهم إلا أن الواو سكنت ونقلت كسرتها إلى السين .

واللفظ الثاني : قوله : ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ قال الأزهري : الذرع يوضع موضع الطاقة والأصل فيه البعير يذرع بيديه في سيره ذرعاً على قدر سعة خطوته ، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فضعف ومد عنقه ، فجعل ضيق الذرع عبارة عن قدر الوسع والطاقة .

فيقال : مالي به ذرع ولا ذراع أي مالي به طاقة ، والدليل على صحة ما قلناه أنهم يجعلون الذراع في موضع الذرع فيقولون ضقت بالأمر ذراعاً .

واللفظ الثالث : قوله : ﴿ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ أي يوم شديد ، وإنما قيل للشديد عصيب ؛ لأنه يعصب الإنسان بالشر .

﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أنه لما دخلت الملائكة دار لوط عليه السلام مضت امرأته عجوز السوء فقالت لقومه دخل دارنا قوم ما رأيت أحسن وجوهاً ولا أنظف ثياباً ولا أطيب رائحة منهم ﴿ فَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي يسرعون ، وبين تعالى أن إسراعهم ربما كان لطلب العمل الخبيث بقوله : ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ نقل أن القوم دخلوا دار لوط وأرادوا أن يدخلوا البيت الذي كان فيه جبريل عليه السلام ، فوضع جبريل عليه السلام يده على الباب ، فلم يطيقوا فتحه حتى كسروه ، فمسح أعينهم بيده فعموا ، فقالوا : يا لوط قد أدخلت علينا السحرة وأظهرت الفتنة .

ولأهل اللغة في ﴿ يُهْرَعُونَ ﴾ قولان :

القول الأول : أن هذا من باب ما جاءت صيغة الفاعل فيه على لفظ المفعول ولا يعرف له فاعل نحو : أولع فلان في الأمر ، وأرعد زيد ، وزهى عمرو من الزهو .

والقول الثاني : أنه لا يجوز ورود الفاعل على لفظ المفعول ، وهذه الأفعال حذف فاعلوها فتأويل أولع زيد أنه أولعه طبعه وأرعد الرجل أرعده غضبه وزهى عمرو معناه جعله ماله زاهياً وأهرع معناه أهرعه خوفه أو حرصه ، واختلفوا أيضاً فقال بعضهم : الإهراع هو الإسراع مع الرعدة .

وقال آخرون : هو العدو الشديد .

أما قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ ففيه قولان : قال قتادة : المراد

بنا ته لصلبه .

وقال مجاهد وسعيد بن جبير : المراد نساء أمته ؛ لأنهن في أنفسهن بنات ولهن إضافة إليه بالمتابعة وقبول الدعوة .

قال أهل النحو : يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب ، لأنه كان نبياً لهم فكان كالأب لهم .

(225/382)

قال تعالى : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ [الأحزاب : 6] وهو أب لهم وهذا القول عندي هو المختار ، ويدل عليه وجوه : الأول : أن إقدام الإنسان على عرض بناته على الأوباش والفجار أمر متبعد لا يليق بأهل المروءة فكيف بأكابر الأنبياء ؟ الثاني : وهو أنه قال : ﴿ هَؤُلاَءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ فبناته اللواتي من صلبه لا تكفي للجمع العظيم .

أما نساء أمته ففيهن كفاية للكل .

الثالث : أنه صحت الرواية أنه كان له بنتان ، وهما : زنتا ، وزعوراً ، وإطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة ، فأما القائلون بالقول الأول فقد اتفقوا على أنه عليه السلام ما دعا القوم إلى الزنا بالنسوان بل المراد أنه دعاهم إلى التزوج بهن ، وفيه قولان : أحدهما : أنه دعاهم إلى التزوج بهن بشرط أن يقدموا الإيمان .

والثاني : أنه كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر في شريعته ، وهكذا كان في أول الإسلام بدليل أنه عليه السلام زوج ابنته زينب من أبي العاص بن الربيع وكان مشركاً وزوج ابنته من عتبة بن أبي لهب ثم نسخ ذلك بقوله :

﴿ وَلَا تَنْكِحُواْ الْمشركات حتى يُؤْمِنَّ ﴾ [البقرة : 221] وبقوله : ﴿ وَلَا تُنكِحُواْ المشركين حتى يُؤْمِنُواْ ﴾ [البقرة : 221] واختلفوا أيضاً ، فقال الأكثرون : كان له بنتان ، وعلى هذا التقدير ذكر الاثنين بلفظ الجمع ، كما في قوله : ﴿ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ ﴾ [النساء : 11] ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم : 4] وقيل : إنهن كن أكثر من اثنتين .

أما قوله تعالى : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

ظاهر قوله : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ يقتضي كون العمل الذي يطلبونه طاهراً ومعلوم أنه فاسد ولأنه لا طهارة في نكاح الرجل ، بل هذا جار مجرى قولنا : الله أكبر ، والمراد أنه كبير ولقوله تعالى : ﴿ أذلك خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزقوم ﴾ [الصافات : 62] ولا خير فيها ولما قال أبو

سفيان : اعل أحداً واعل هبل قال النبي : " الله أعلى وأجل " ولامقاربة بين الله وبين الصنم .

المسألة الثانية :

روي عن عبد الملك بن مروان والحسن وعيسى بن عمر أنهم قرؤا ﴿ هُنَّ أَطْهَرَ لَكُمْ ﴾ بالنصب على الحال كما ذكرنا في قوله تعالى : ﴿ وهذا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ [هود : 72] إلا أن أكثر النحويين اتفقوا على أنه خطأ قالوا لو قرىء ﴿ هَؤُلاء بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ ﴾ كان هذا نظير قوله : ﴿ وهذا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ إلا أن كلمة "هن" قد وقعت في البين وذلك يمنع من جعل أطهر حالاً وطولوا فيه ، ثم قال : ﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ أبو عمرو ونافع ولا تخزوني بإثبات الياء على الأصل ، والباقون بحذفها للتخفيف ودلالة الكسر عليه .

المسألة الثانية :

في لفظ ﴿ لا تخزوني ﴾ وجهان : الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا تفضحوني في أضيافي ، يريد أنهم إذا هجموا على أضيافه بالمكروه لحقته الفضيحة .

والثاني : لا تخزوني في ضيفي أي لا تخجلوني فيهم ، لأن مضيف الضيف يلزمه الخجالة من

كل فعل قبيح يوصل إلى الضيف يقال : خزي الرجل إذا استحيا .

المسألة الثالثة :

الضيف ههنا قائم مقام الأضياف ، كما قام الطفل مقام الأطفال .

في قوله تعالى : ﴿ أَوِ الطفل الذين لَمْ يَظْهَرُواْ ﴾ [النور : 31] ويجوز أن يكون الضيف مصدراً فيستغنى عن جمعه كما يقال : رجال صوم .

ثم قال : ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ وفيه قولان : الأول : ﴿ رَّشِيدٌ ﴾ بمعنى مرشد أي يقول الحق ويرد هؤلاء الأوباش عن أضيافي .

(227/382)

والثاني : رشيد بمعنى مرشد ، والمعنى : أليس فيكم رجل أرشده الله تعالى إلى الصلاح وأسعده بالسداد والرشاد حتى يمنع عن هذا العمل القبيح ، والأول أولى .

ثم قال تعالى : ﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقّ ﴾ وفيه وجوه : الأول : مالنا في بناتك من حاجة ولا شهوة ، والتقدير أن من احتاج إلى شيء فكأنه حصل له فيه نوع حق ، فلهذا السبب جعل نفي الحق كناية عن نفي الحاجة .

الثاني : أن نجري اللفظ على ظاهره فنقول : معناه إنهن لسن لنا بأزواج ولا حق لنا فيهن

ألبتة .

ولا يميل أيضاً طبعنا إليهن فكيف قيامهن مقام العمل الذي نريده وهو إشارة إلى العمل الخبيث .

الثالث : ﴿ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقّ ﴾ لأنك دعوتنا إلى نكاحهن بشرط الإيمان ونحن لا نجيبك إلى ذلك فلا يكون لنا فيهن حق .

ثم إنه تعالى حكى عن لوط أنه عند سماع هذا الكلام قال : ﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ اوِى إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

جواب "لو" محذوف لدلالة الكلام عليه والتقدير : لمنعتكم ولبالغت في دفعكم ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قرآنا سُيّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ [الرعد : 31] وقوله : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النار ﴾ [الأنعام : 27] قال الواحدي وحذف الجواب ههنا لأن الوهم يذهب إلى أنواع كثيرة من المنع والدفع .

المسألة الثانية :

﴿ لَوْ أَنَّ بِكُمْ قُوَّةً ﴾ أي لو أن لي ما أتقوى به عليكم وتسمية موجب القوة بالقوة جائز قال الله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا استطعتم مّن قُوَّةٍ وَمِن رّبَاطِ الخيل ﴾ [الأنفال : 60] والمراد السلاح ، وقال آخرون القدرة على دفعهم ، وقوله : ﴿ أَوْ آوِى إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾

المراد منه الموضع الحصين المنيع تشبيهاً له بالركن الشديد من الجبل .

فإن قيل : ما الوجه ههنا في عطف الفعل على الاسم ؟

قلنا : قال صاحب "الكشاف" : قرىء ﴿ أَوْ آوِى ﴾ بالنصب بإضمار أن ، كأنه قيل لو أن لي بكم قوة أو آوياً .

واعلم أن قوله : ﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ اوِى إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ لا بد من حمل كل واحد من هذين الكلامين على فائدة مستقلة ، وفيه وجوه : الأول : المراد بقوله : ﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً ﴾ كونه بنفسه قادراً على الدفع وكونه متمكناً إما بنفسه وإما بمعاونة غيره على قهرهم وتأديبهم ، والمراد بقوله : ﴿ أَوْ آوِى إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ هو أن لا يكون له قدرة على الدفع لكنه يقدر على التحصن بحصن ليأمن من شرهم بواسطته .

الثالث : أنه لما شاهد سفاهة القوم وإقدامهم على سوء الأدب تمنى حصول قوة قوية على الدفع ، ثم استدرك على نفسه وقال : بلى الأولى أن آوى إلى ركن شديد وهو الاعتصام بعناية الله تعالى ، وعلى هذا التقدير فقوله : ﴿ أَوْ اوِى إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ كلام منفصل عما قبله ولا تعلق له به ، وبهذا الطريق لا يلزم عطف الفعل على الاسم ، ولذلك قال النبي

عليه السلام : " رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 26. 29 ﴾

(229/382)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولما جاءَت رُسُلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذراعاً ﴾

قال ابن عباس : ساء ظنه بقومه وضاق ذرعاً بأضيافه .

ويحتمل وجهاً آخر أنه ساء ظنه برسل ربه ، وضاق ذراعاً بخلاص نفسه لأنه نكرهم قبل معرفتهم .

﴿ وقال هذا يومٌ عصيب ﴾ أي شديد لأنه خاف على الرسل من قومه أن يفضحوهم على قول ابن عباس ، وعلى الاحتمال الذي ذكرته خافهم على نفسه فوصف يومه بالعصيب وهو الشديد ، قال الشاعر :

وإنك إلاّ ترض بكر بن وائل . . . يكن لك يومٌ بالعراق عصيب .

قال أبو عبيدة : وإنما قيل له عصيب لأنه يعصب الناس بالشر ، قال الكلبي : كان بين قرية إبراهيم وقف لوط أربعة فراسخ .

قوله عز وجل : ﴿ وجاءه قومُه يهرعون إليه ﴾ أي يسرعون ، والإهراع بين الهرولة والجمزى . قال الكسائي والفراء : لا يكون الإهراع إلا سراعاً مع رعدة .

وكان سبب إسراعهم إليه أن امرأة لوط أعلمتهم بأضيافه وجمالهم فأسرعوا إليه طلباً للفاحشة منهم .

﴿ ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من قبل إسراعهم اليه كان ينكحون الذكور ، قاله السدي .

الثاني : أنه كانت اللوطية في قوم لوط في النساء قبل الرجال بأربعين سنة ، قاله عمر بن أبي زائدة .

﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتي هُنَّ أطهر لكم ﴾ قال لهم لوط ذلك ليفتدي أضيافه منهم .

﴿ هؤلاء بناتي ﴾ فيهن قولان :

أحدهما : أنه أراد نساء أمته ولم يرد بنات نفسه . قال مجاهد وكل نبي أبو أمّته وهم أولاده .

وقال سعيد بن جبير : كان في بعض القرآن : النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزاجه أمهاتهم وهو أب لهم .

الثاني : أنه أراد بنات نفسه وأولاد صلبه لأن أمره فيهن أنفذ من أمره في غيرهن ، وهو معنى قول حذيفة بن اليمان .

فإن قيل : كيف يزوجهم ببناته مع كفر قومه وإيمان بناته ؟

قيل عن هذا ثلاثة أجوبة :

أحدها : أنه كان في شريعة لوط يجوز تزويج الكافر بالمؤمنة ، وكان هذا في صدر الإسلام جائزاً حتى نسخ ، قاله الحسن .

الثاني : أنه يزوجهم على شرط الإيمان كما هو مشروط بعقد النكاح .

الثالث : أنه قال ذلك ترغيباً في الحلال وتنبيهاً على المباح ودفعاً للبادرة من غير بذل نكاحهن ولا بخطبتهن ، قاله ابن أبي نجيح .

﴿ هن أطهر لكم ﴾ أي أحل لكم بالنكاح الصحيح .

﴿ فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لا تذلوني بعار الفضيحة ، ويكون الخزي بمعنى الذل . الثاني : لا تهلكوني بعواقب فسادكم ، ويكون الخزي بمعنى الهلاك . الثالث : أن معنى الخزي ها هنا الاستحياء ، يقال خزي الرجل إذا استحى ، قال الشاعر :

من البيض لا تخزى إذا الريح ألصقت . . . بها مِرطها أو زايل الحلي جيدها

والضيف : الزائر المسترقد ، ينطلق على الواحد والجماعة ، قال الشاعر :

لا تعدمي الدهر شفار الجازر . . . للضيف والضيف أحق زائر

﴿ أليس منكم رجلٌ رشيد ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أي مؤمن ، قاله ابن عباس .

الثاني : آمر بالمعروف وناهٍ عن المنكر ، قاله أبو مالك . ويعني : رجل رشيد ليدفع عن أضيافه ، وقال ذلك تعجباً من اجتماعهم على المنكر . قوله عز وجل : ﴿ قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ما لنا فيهن حاجة ، قاله الكلبي .

الثاني : ليس لنا بأزواج ، قاله محمد بن إسحاق .

﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تعلم أننا لا نتزوج إلا بامرأة واحدة وليس منا رجل إلا له امرأة ، قاله الكلبي .

الثاني : أننا نريد الرجال .

قوله عز وجل : ﴿ قال لو أن لي بكم قوة ﴾

يعني أنصاراً . وقال ابن عباس : أراد الولد . ﴿ أو آوي إلى ركنٍ شديد ﴾ يعني إلى عشيرة مانعة . وروى أبو سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد " . يعني الله تعالى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فما بعث الله بعده نبياً إلا في ثروة من قومه

" . قال وهب بن منبه : لقد وجدت الرسل على لوط وقالوا : إن ركنك لشديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾

" الرسل " هنا هم الملائكة الذين كانوا أضياف إبراهيم عليه السلام، وذلك أنهم لما خرجوا إلى بلد لوط - وبينه وبين قرية إبراهيم ثمانية أميال - وصلوه، فقيل : وجدوا لوطاً في حرث له، وقيل : وجدوا ابنته تستقي ماء في نهر سدوم - وهي أكبر حواضر قوم لوط - فسألوها الدلالة على من يضيفهم، ورأت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط، وقالت لهم : مكانكم ؛ وذهبت إلى أبيها فأخبرته، فخرج إليهم، فقالوا له : نريد أن تضيفنا الليلة، فقال لهم : أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم ؟ فقالوا وما عملهم ؟ فقال أشهد بالله لهم شر قوم في الأرض وقد كان الله عز وجل قال للملائكة : لا تعذبوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلما قال لوط هذه قال جبريل لأصحابه : هذه واحدة وتردد القول بينهم حتى كرر لوط الشهادة أربع مرات، ثم دخل لوط بهم المدينة وحينئذ ﴿ سيء بهم ﴾ أي

أصابه سوء . و﴿ سيء ﴾ فعل بني للمفعول ، و" الذرع " : مصدر مأخوذ من الذراع ، ولما كان الذراع موضع قوة الإنسان قيل في الأمر الذي لا طاقة له به : ضاق بهذا الأمر ذراع فلان ، وذرع فلان ، أي حيلته بذراعه ، وتوسعوا في هذا حتى قلبوه فقالوا : فلان رحب الذراع ، إذا وصفوه باتساع القدرة ومنه قول الشاعر :

يا سيد ما أنت من سيد . . . موطأ الأكناف رحب الذراع

وقوله : ﴿ هذا يوم عصيب ﴾ أشار به إلى ما كان يتخوفه من تعدي قومه على أضيافه واحتياجه إلى المدافعة مع ضعفه عنها ، و﴿ عصيب ﴾ بناء اسم فاعل معناه : يعصب الناس بالشر كما يعصب الخابط السلمة إذا أراد خبطها ونفض ورقها ، ومنه قول الحجاج في خطبته : ولأعصبنكم عصب السلمة ، فهو من العصابة ثم كثر وصفهم اليوم بعصيب ، ومنه قول الشاعر ، وهو عدي بن زيد : [الوافر]

وكنت لزاز خصمك لم أعرد . . . وقد سلكوك في يوم عصيب

ومنه قول الآخر : [الطويل]

فإنك إلا ترض بكر بن وائل . . . يكنْ لك يوم بالعراق عصيب

ف "عصيب" - بالجملة - في موضع شديد وصعب الوطأة، واشتقاقه كما ذكرنا .

وقوله تعالى : ﴿ وجاءه قومه ﴾ الآية، روي أن امرأة لوط الكافرة لما رأت، الأضياف ورأت جمالهم وهيئتهم خرجت حتى أتت مجالس قومها فقالت لهم : إن لوطاً أضاف الليلة فتية ما ريء مثلهم جمالاً وكذا وكذا، فحينئذ جاءوا ﴿ يهرعون إليه ﴾ ، ومعناه يسرعون، والإهراع هو أن يسرع أمر بالإنسان حتى يسير بين الخبب والخَمَر، فهي مشية الأسير الذي يسرع به، والطامع المبادر إلى أمر يخاف فوته، ونحو هذا ؛ يقال هرع الرجل وأهرعه طمع أو عدو أو خوف ونحوه .

والقراءة المشهورة : "يُهرعون" بضم الياء أي يهرعون الطمع، وقرأت فرقة : "يَهرعون" بفتح الياء، من هرع، ومن هذه اللفظة قول مهلهل : [الوافر]

فجاءوا يَهرعون وهم أسارى . . . تقودُهم على رغم الأنوف

وقوله : ﴿ ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾ ، أي كانت عادتهم إتيان الفاحشة في الرجال، فجاءوا إلى الأضياف لذلك فقام إليهم لوط مدافعاً، وقال : ﴿ هؤلاء بناتي ﴾ فقالت فرقة أشار إلى بنات نفسه وندبهم في هذه المقالة إلى النكاح، وذلك على أن كانت سنتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة، أو على أن في ضمن كلامه أن يؤمنوا . وقالت فرقة : إنما كان الكلام مدافعة لم يرد إمضاؤه، روي هذا القول عن أبي عبيدة، وهو ضعيف، وهذا

كما يقال لمن ينهى عن مال الغير: الخنزير أحل لك من هذا وهذا التنطع ليس من كلام الأنبياء صلى الله عليهم وسلم، وقالت فرقة: أشار بقوله: ﴿ بناتي ﴾ إلى النساء جملة إذ نبي القوم أب لهم، ويقوي هذا أن في قراءة ابن مسعود ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ﴾ [الأحزاب: 6] وهو أب لهم وأشار أيضاً لوط - في هذا التأويل - إلى النكاح.

(233/382)

وقرأت فرقة - هي الجمهور - "هن أطهرُ" برفع الراء على خبر الابتداء، وقرأ الحسن وعيسى بن عمر ومحمد بن مروان وسعيد بن جبير: "أطهرَ" بالنصب قال سيبويه: هو لحن، قال أبو عمرو بن العلاء: احتبى فيه ابن مروان في لحنه، ووجهه عند من قرأ به النصب على الحال بأن يكون ﴿ بناتي ﴾ ابتداء و﴿ هن ﴾ خبره، والجملة خبر ﴿ هؤلاء ﴾.

قال القاضي أبو محمد: وهو إعراب مروي عن المبرد، وذكره أبو الفتح وهو خطأ في معنى الآية، وإنما قوم اللفظ فقط والمعنى إنما هو في قوله: ﴿ أطهر ﴾ وذلك قصد أن يخبر به فهي حال لا يستغنى عنها - كما تقدم في قوله: ﴿ وهذا بعلي شيخاً ﴾ [هود: 72]،

والوجه أن يقال : ﴿ هؤلاء بناتي ﴾ ابتداء وخبر ، و﴿ هن ﴾ فصل و﴿ أطهر ﴾ حال وإن كان شرط الفصل أن يكون بين معرفتين ليفصل الكلام من النعت إلى الخبر ، فمن حيث كان الخبر هنا في ﴿ أطهر ﴾ ساغ القول بالفصل ، ولما لم يستسغ ذلك أبو عمرو ولا سيبويه لحنا ابن مروان ، وما كانا ليذهب عليهما ما ذكر أبو الفتح ، و" الضيف " : مصدر يوسف به الواحد والجماعة والمذكر والمؤنث ؛ ثم وبخهم بقوله : ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ أي يزعكم ويردكم .

وقوله تعالى : ﴿ قالوا : لقد علمت مَا لنا في بناتك من حق ﴾ الآية ، روي أن قوم لوط كانوا قد خطبوا بنات لوط فردهم ، وكانت سنتهم أن من رد في خطبة امرأة لم تحل له أبداً ، فلذلك قالوا : ﴿ لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ﴾ .

(234/382)

قال القاضي أبو محمد : وبعد أن تكون هذه المخاطبة ، فوجه الكلام : إنا ليس لنا إلى بناتك تعلق ، ولا هم قصدنا ولا لنا عادة نطلبها في ذلك وقولهم : ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ ، إشارة إلى الأضياف ؛ فلما رأى استمرارهم في غيهم وغلبتهم وضعفه عنهم قال – على جهة التفجع والاستكانة – ﴿ لو أن لي بكم قوة ﴾ و﴿ أن ﴾ في موضع رفع بفعل مضمر

تقديره : لو اتفق أو وقع ونحو هذا ، - وهذا مطرد في " أن " التابعة ل " لو " - وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف وحذف مثل هذا أبلغ ، لأنه يدع السامعين ينتهي إلى أبعد تخيلاته ، والمعنى لفعلت كذا وكذا .

وقرأ جمهور : " أو آوي " بسكون الياء ، وقرأ شيبة وأبو جعفر : " أو آويَ " بالنصب ، التقدير أو أن آوي ، فتكون " أن " مع " آوي " بتأويل المصدر ، كما قالت ميسون بنت بجدل :

للبس عباءة وتقر عيني . . . . ويكون ترتيب الكلام لو أن لي بكم قوة أو أوياً ، و " أوى " معناه : لجأ وانضوى ، ومراد لوط عليه السلام بال ﴿ ركن ﴾ العشيرة والمنعة بالكثرة ، وبلغ به قبيح فعلهم إلى هذا - مع علمه بما عند الله تعالى - ، فيروى أن الملائكة وجدت عليه حين قال هذه الكلمات ، وقالوا : إن ركنك لشديد ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي ﴿ إلى ركن شديد ﴾ ، فالعجب منه لما استكان " .

قال القاضي أبو محمد : وهذا نقد لأن لفظ بهذه الألفاظ ، وإلا فحالة النبي صلى الله عليه وسلم وقت طرح سلا الجزور ومع أهل الطائف وفي غير ما موطن تقتضي مقالة لوط لكن محمداً صلى الله عليه وسلم لم ينطق بشيء من ذلك عزامة منه ونجدة ، وإنما خشي لوط أن يمهل الله أولئك العصابة حتى يعصوه في الأضياف كما أمهلهم فيما قبل ذلك من معاصيهم ، فتمنى ركناً من البشر يعاجلهم به ، وهو يعلم أن الله تعالى من وراء عقابهم ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لم يبعث الله تعالى بعد لوط نبياً إلا في ثروة من قومه " أي في منعة وعزة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(236/382)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ ﴾

لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم ، وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ بصرت بنتا لوط وهما تستقيان بالملائكة ورأتا هيئة حسنة ؛ فقالتا : ما شأنكم ؟ ومن أين أقبلتم ؟ قالوا : من موضع كذا نريد هذه القرية قالتا : فإن أهلها أصحاب الفواحش ؛ فقالوا : أَبِها من يضيفنا ؟ قالتا : نعم هذا الشيخ وأشارتا إلى لوط ؛ فلما رأى لوط هيئتهم خاف قومه

عليهم .

﴿ سِيءَ بِهِمْ ﴾ أي ساءه مجيئهم ؛ يقال : ساء يسوء فهو لازم ، وساءه يسوءه فهو متعدّ أيضاً ، وإن شئت ضممت السين ؛ لأن أصلها الضمّ ، والأصل سُوِىءَ بهم من السوء ؛ قلبت حركة الواو على السين فانقلبت ياء ، وإن خففت الهمزة ألقيت حركتها على الياء فقلت : "سِيَ بِهِم" مخففاً ، ولغة شاذة بالتشديد .

﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ﴾ أي ضاق صدره بمجيئهم وكرهه .

وقيل : ضاق وسعه وطاقته .

وأصله أن يَذْرَعَ البعير بيديه في سيره ذَرْعاً على قدر سعة خَطْوِه ؛ فإذا حُمِل على أكثر من طَوْقه ضاق عن ذلك ، وضعف ومدّ عنقه ؛ فضيق الذّرع عبارة عن ضيق الوُسع .

وقيل : هو من ذَرَعه القيء أي غلبه ؛ أي ضاق عن حبسه المكروه في نفسه ، وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من جمالهم ، وما يعلم من فسق قومه .

﴿ وَقَالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ أي شديد في الشر .

وقال الشاعر :

وإنَّكَ إلاَّ تُرضِ بكرَ بن وائلٍ . . .

يكنْ لكَ يومٌ بالعراقِ عصِيبُ

وقال آخر :

يومٌ عصِيبٌ يَعصِبُ الأبطالا . . .

عَصْبَ القَويّ السَّلَمَ الطِوالا

ويقال : عصِيبٌ وعَصَبْصَبٌ على التكثير ؛ أي مكروه مجتمع الشر وقد عصب ؛ أي عصب بالشر عِصابة ؛ ومنه قيل : عُصبة وعِصابة أي مجتمعو الكلمة ؛ أي مجتمعون في أنفسهم .

وعَصَبَة الرجل المجتمعون معه في النسب ؛ وتعصّبت لفلان صرت كعصبته ، ورجل معصوب ، أي مجتمع الخَلْق .

(237/382)

قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ في موضع الحال .

"يُهْرَعُونَ" أي يسرعون .

قال الكسائي والفراء وغيرهما من أهل اللغة : لا يكون الإهراع إلا إسراعاً مع رِعدة ؛ يقال : أُهْرِع الرجل إهراعاً أي أسرع في رِعدة من بَرْد أو غضب أو حُمَّى ، وهو مُهرَع ؛ قال مُهلهِل :

فجاؤوا يُهرَعون وهُمْ أسارى . . .

نَقودُهُمُ على رَغْمِ الأُنوفِ

وقال آخر :

بمعجَلاتٍ نحوه مهَارِعِ . . .

وهذا مثل : أُولِع فلان بالأمر ، وأرعِد زيد ، وزُهِي فلان .

وتجيء ولا تستعمل إلا على هذا الوجه .

وقيل : أهرِع أي أهرعه حِرصُه ؛ وعلى هذا "يُهْرَعُونَ" أي يُستحثّون عليه .

ومن قال بالأول قال : لم يسمع إلا أُهْرِع الرجل أُي أسرع ؛ على لفظ ما لم يسمّ فاعله .

قال ابن القوطيّة : هُرِع الإنسان هَرَعا ، وأُهرِع : سِيق واستعجِل .

وقال الهروي : يقال : هُرِع الرجل وأُهْرِع أي استحث .

قال ابن عباس وقتادة والسّديّ : "يُهرعون" يهرولون .

الضحاك : يَسعون .

ابن عُيينة : كأنهم يدفعون .

وقال شِمر بن عطية : هو مشي بين الهرولة والجَمزَى .

وقال الحسن : مشيٌ بين مشيين ؛ والمعنى متقارب .

وكان سبب إسراعهم ما روي أن امرأة لوط الكافرة ، لما رأت الأضياف وجمالهم وهيئتهم ، خرجت حتى أتت مجالس قومها ، فقالت لهم : إن لوطاً قد أضاف الليلة فِتية ما رؤي

مثلهم جمالاً ؛ وكذا وكذا ؛ فحينئذ جاؤوا يُهرعون إليه .

ويذكر أن الرسل لما وصلوا إلى بلد لوط وجدوا لوطاً في حرث له .

(238/382)

وقيل : وجدوا ابنته تستقي ماء من نهر سَدوم ؛ فسألوها الدلالة على من يضيفهم ورأت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط ، وقالت لهم : مكانكم وذهبت إلى أبيها فأخبرته ؛ فخرج إليهم ؛ فقالوا : نريد أن تضيفنا الليلة ؛ فقال لهم : أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم ؟ فقالوا : وما عملهم ؟ فقال أشهد بالله إنهم لشر قوم في الأرض وقد كان الله عزّ وجل قال لملائكته لا تعذبوهم حتى يشهد لوط عليهم أربع شهادات فلما قال لوط هذه المقالة ، قال جبريل لأصحابه : هذه واحدة ، وتردّد القول بينهم حتى كرر لوط الشهادة أربع مرات ، ثم دخل بهم المدينة .

قوله تعالى : ﴿ وَمِن قَبْلُ ﴾ أي ومن قبل مجيء الرسل .

وقيل : من قبل لوط .

﴿ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ أي كانت عادتهم إتيان الرجال .

فلما جاؤوا إلى لوط وقصدوا أضيافه قام إليهم لوط مدافعاً ، وقال : ﴿ هؤلاء بَنَاتِي ﴾

ابتداء وخبر.

وقد اختلف في قوله: "هَؤُلاءِ بَنَاتِي" فقيل: كان له ثلاث بنات من صُلبه.

وقيل: بنتان؛ زيتا وزعوراء؛ فقيل: كان لهم سيّدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه.

وقيل: ندبهم في هذه الحالة إلى النكاح، وكانت سنتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة؛ وقد كان هذا في أول الإسلام جائزاً ثم نسخ؛ فزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنتاً له من عُتْبَة بن أبي لهب، والأخرى من أبي العاص بن الربيع قبل الوحي، وكانا كافرين.

وقالت فرقة منهم مجاهد وسعيد بن جُبير أشار بقوله: "بَنَاتِي" إلى النساء جملة؛ إذ نبيّ القوم أب لهم؛ ويقوّي هذا أن في قراءة ابن مسعود: "النبي أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أنفسهم وَأَزواجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وهو أبٌ لهم".

وقالت طائفة: إنما كان الكلام مدافعة ولم يرد إمضاءه؛ روي هذا القول عن أبي عبيدة؛ كما يقال لمن يُنهى عن أكل مال الغير: الخنزير أحل لك من هذا.

وقال عِكرمة: لم يعرض عليهم بناته ولا بنات أمته، وإنما قال لهم هذا لينصرفوا.

قوله تعالى : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ ابتداء وخبر ؛ أي أزوّجكموهنّ ؛ فهو أطهر لكم مما تريدون ، أي أحلّ .

والتطهر التنزّه عما لا يحل .

وقال ابن عباس : كان رؤساؤهم خطبوا بناته فلم يجبهم ، وأراد ذلك اليوم أن يفدي أضيافه ببناته .

وليس اِلف "أطهر" للتفضيل حتى يتوهم أن في نكاح (الرجال) طهارة ، بل هو كقولك : الله أكبر وأعلى وأجلّ ، وإن لم يكن تفضيلاً ؛ وهذا جائز شائع في كلام العرب ، ولم يكابر الله تعالى أحدٌ حتى يكون الله تعالى أكبر منه .

وقد قال أبو سفيان بن حرب يوم أُحد : اعل هُبَلُ اعل هُبَلُ ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : "قل الله أعلى وأجلّ" .

وهبل لم يكن قط عالياً ولا جليلاً .

وقرأ العامة برفع الراء .

وقرأ الحسن وعيسى بن عمرو "هُنَّ أطهرَ" بالنصب على الحال .

و"هُنّ" عِماد .

ولا يجيز الخليل وسيبويه والأخفش أن يكون "هُنّ" ها هنا عماداً ، وإنما يكون عماداً فيما لا يتم الكلام إلا بما بعدها ، نحو كان زيد هو أخاك ، لتدلّ بها على أن الأخ ليس بنعت .

قال الزجاج : ويدلّ بها على أنّ كان تحتاج إلى خبر .

وقال غيره : يدلّ بها على أن الخبر معرفة أو ما قارنها .

قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ أي لا تهينوني ولا تذلّوني .

ومنه قول حسان :

فأخزاك ربي يا عُتيبَ بن مالِك . . .

ولقاكَ قبل الموت إحدى الصَّواعِق

مددتَ يميناً للنبي تعمُّداً . . .

ودَمَّيْتَ فاهُ قُطِّعتْ بالبَوارِق

ويجوز أن يكون من الخَزَاية ، وهو الحياء ، والخجل ؛ قال ذو الرُّمة :

خزاية أدركته بعد جولتِهِ . . .

من جانبِ الحبلِ مخلوطاً بها الغضب

وقال آخر :

من البيضِ لا تَخزَى إذا الريحُ ألصقتْ . . .

بها مِرْطَهَا أو زايلَ الحَلْيُ جيدَهَا

وضيف يقع للاثنين والجميع على لفظ الواحد ؛ لأنه في الأصل مصدر ؛ قال الشاعر :

لا تَعدمي الدهرَ شِفار الجازِر . . .

لِلضّيفِ والضيفُ أحقّ زائر

(240/382)

ويجوز فيه التثنية والجمع ؛ والأوّل أكثر كقولك : رجال صُوْمٍ وفِطر وزَوْرٍ .

وخزي الرجل خُزَايَةً ؛ أي استحيا مثل ذَلّ وهان .

وخَزِي خِزياً إذا افتضح ؛ يَخْزَى فيهما جميعاً .

ثم وبخهم بقوله : ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ أي شديد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

وقيل : "رشيد" أي ذو رَشَد .

أو بمعنى راشد أو مرشِد ، أي صالح أو مصلِح .

ابن عباس : مؤمن .

أبو مالك : ناه عن المنكر .

وقيل : الرشيد بمعنى الرّشَد ؛ والرَّشَد والرّشاد الهدى والاستقامة .

ويجوز أن يكون بمعنى المرشد ؛ كالحكيم بمعنى المحكِم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ روي أن قوم لوط خطبوا بناته فردّهم ، وكانت سنتهم أن من ردّ في خِطبة امرأة لم تحل له أبداً ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ وبعد ألاّ تكون هذه الخاصيّة .

فوجه الكلام أنه ليس لنا إلى بناتك تعلق ، ولا هنّ قصدنا ، ولا لنا عادة نطلب ذلك .

﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ إشارة إلى الأضياف .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ لما رأى استمرارهم في غيهم ، وضعف عنهم ، ولم يقدر على دفعهم ، تمنى لو وجد عوناً على ردهم ؛ فقال على جهة التفجع والاستكانة : "لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً" أي أنصاراً وأعواناً .

وقال ابن عباس : أراد الولد .

و"أنّ" في موضع رفع بفعل مضمر ، تقديره : لو اتفق أو وقع .

وهذا يطرد في "أن" التابعة لِـ"لو" .

وجواب "لو" محذوف ؛ أي لرددت أهل الفساد ، وحلت بينهم وبين ما يريدون .

﴿ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ أي ألجأ وأنضوي .

وقرىء "أو آويَ" بالنصب عطفاً على "قوّة" كأنه قال : "لو أن لي بكم قوّة" أو إيواء إلى ركن شديد ؛ أي وأن آوى ، فهو منصوب بإضمار "أن" .

ومراد لوط بالركن العشيرة ، والمنعة بالكثرة .

وبلغ بهم قبيح فعلهم إلى قوله هذا مع علمه بما عند الله تعالى ؛ فيروى أن الملائكة وَجَدت عليه حين قال هذه الكلمات ، وقالوا : إن ركنك لشديد .

وفي البخاري عن أبي هُريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد " الحديث ؛ وقد تقدّم في "البقرة" .

وخرجه الترمذيّ وزاد "ما بعث الله بعده نبياً إلا في ثروة من قومه" .

قال محمد بن عمرو : والثروة الكثرة والمنعة ؛ حديث حسن .

ويروى أن لوطاً عليه السلام لما غلبه قومه ، وهمّوا بكسر الباب وهو يمسكه ، قالت له الرسل : تنحّ عن الباب ؛ فتنحّى وانفتح الباب ؛ فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم ، وعَمُوا وانصرفوا على أعقابهم يقولون : النجاء ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴾ [القمر : 37] .

وقال ابن عباس وأهل التفسير : أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار ، وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب ، وهم يعالجون تسوّر الجدار ؛ فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكرب والنّصب بسببهم ، قالوا : يا لوط إن ركنك لشديد ، وأنهم آتيهم عذاب غير

مردود ، وإنا رسل ربك ؛ فافتح الباب ودعنا وإياهم ؛ ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه على ما تقدّم .

وقيل : أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها في وجوههم ، فأوصل الله إلى عين مَن بَعُد ومَن قَرُب من ذلك التراب فطمس أعينهم ، فلم يعرفوا طريقاً ، ولا اهتدوا إلى بيوتهم ، وجعلوا يقولون : النجاء النجاء فإن في بيت لوط قوماً هم أسحر من على وجه الأرض ، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا .

وجعلوا يقولون : يا لوط كما أنت حتى نصبح فسترى ؛ يتوعدونه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(242/382)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطاً ﴾

(243/382)

يعني : هؤلاء الملائكة الذين كانوا عند إبراهيم وكانوا على صورة غلمان مرد حسان الوجوه ﴿ سيء بهم ﴾ يعني أحزن لوط بمجيئهم إليه وساء ظنه بقومه ﴿ وضاق بهم ذرعاً ﴾ قال الأزهري : الذي يوضع موضع الطاقة والأصل فيه أن البعير يذرع بيديه في سيره ذرعاً على قدر سعة خطوه فإذا حمل عليه أكثر من طوقه ضاق ذرعه من ذلك وضعف ومد عنقه فجعل ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع والطاقة والمعنى وضاق بهم ذرعاً إذا لم يجد من المكروه في ذلك الأمر مخلصاً ، وقال غيره : معناه ضاق بهم قلباً وصدراً ولا يعرف أصله إلا أن يقال إن الذرع كناية عن الوسع ، والعرب تقول : ليس هذا في يدي يعنون ليس هذا في وسعي لأن الذراع من اليد ويقال ضاق فلان ذرعاً بكذا إذا وقع في مكروه ولا يطيق الخروج منه وذلك أن لوطاً عليه السلام لما نظر إلى حسن وجوههم وطيب روائحهم أشفق عليهم من قومه وخاف أن يقصدوهم بمكروه أو فاحشة وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عنهم ﴿ وقال ﴾ يعني لوطاً ﴿ هذا يوم عصيب ﴾ أي : شديد كأنه قد عصب به الشر والبلاء أي شد به مأخوذ من العصابة التي تشد به الرأس ، قال قتادة والسدي : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فأتوا لوطاً نصف النهار وهو يعمل في أرض له وقيل أنه كان يحتطب وقد قال الله سبحانه وتعالى للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فاستضافوه فانطلق بهم فلما مشى ساعة قال لهم أما بلغكم أمر هذه القرية قالوا وما أمرهم قال أشهد بالله إنها لشر قرية في الأرض عملاً يقول

ذلك أربع مرات فمضوا معه حتى دخلوا منزله وقيل : إنه لما حمل الحطب ومعه الملائكة مر على جماعة من قومه فتغامزوا فيما بينهم فقال لوط إن قومي شر خلق الله تعالى ، فقال جبريل : هذه واحدة فمر على جماعة أخرى فتغامزوا فقال مثله ثم مر على جماعة أخرى ففعلوا ذلك وقال لوط مثل ما قال أولاً حتى قال ذلك أربع مرات وكلما قال لوط هذا القول قال جبريل للملائكة اشهدوا وقيل

إن الملائكة جاءوا إلى بيت لوط فوجدوه في داره فدخلوا عليه ولم يعلم أحد بمجيئهم إلا أهل بيت لوط فخرجت امرأته الخبيثة فأخبرت قومها وقالت : إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط ولا أحسن منهم .

﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه ﴾

قال ابن عباس وقتادة يسرعون إليه وقال مجاهد يهرولون ، وقال الحسن : الإهراع هو مشي بين مشيين وقال شمر هو بين الهرولة والخبب والجمز ﴿ ومن قبل ﴾ يعنى من قبل مجيء الرسل إليهم قيل ومن قبل مجيئهم إلى لوط ﴿ كانوا يعملون السيئات ﴾ يعني الفعلات الخبيثة والفاحشة القبيحة وهي إتيان الرجال في أدبارهم ﴿ قال ﴾ يعني : قال لوط لقومه حين قصدوا أضيافه وظنوا أنهم غلمان من بني آدم ﴿ يا قوم هؤلاء بناتي ﴾ يعني أزواجكم إياهن وقى أضيافه ببناته قيل إنه كان في ذلك الوقت وفي تلك الشريعة تزويج المرأة المسلمة بالكافر ، وقال الحسن بن الفضل : عرض بناته عليهم بشرط الإسلام ، وقال مجاهد وسعيد بن جبير : أراد ببناته نساء قومه وأضافهن إلى نفسه لأن كل نبي أبو أمته وهو كالوالد لهم وهذا القول هو الصحيح وأشبه بالصواب إن شاء الله تعالى والدليل عليه أن بنات لوط كانتا إثنتين وليستا بكافيتين للجماعة وليس من المروءة أن يعرض الرجل بناته على أعدائه ليزوجهن إياهم فكيف يليق ذلك بمنصب الأنبياء أن يعرضوا بناتهم على الكفار وقيل إنما قال ذلك لوط على سبيل الدفع لقومه لا على سبيل التحقيق وفي قوله ﴿ هن أطهر لكم ﴾ سؤال وهو أن يقال أن قوله هو أطهر لكم من باب أفعل التفضيل فيقتضي أن يكون الذي يطلبونه من الرجال طاهراً ومعلوم أنه محرم فاسد نجس لا طهارة فيه البتة فكيف قال هن أطهر لكم والجواب عن هذا السؤال إن هذا جار مجرى قوله ذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم ومعلوم أن شجرة الزقوم لا خير فيها وكقوله (صلى الله عليه وسلم) لما قال

يوم أحد اعل هبل قال الله أعلى وأجل إذ لا مماثلة بين الله والصنم وإنما هو كلام خرج مخرج المقابلة ولهذا نظائر كثيرة.

(246/382)

وقوله ﴿ فاتقوا الله ﴾ يعني خافوه وراقبوه واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والعصيان ﴿ ولا تخزون في ضيفي ﴾ يعني ولا تسوءني في أضيافي ولا تفضحوني معهم ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ أي صالح سديد عاقل، وقال عكرمة: رجل يقول لا إله إلا الله، وقال محمد بن إسحاق: رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى ينهى عن هذا الفعل القبيح ﴿ قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ﴾ يعني ليس لنا بهن حاجة ولا لنا فيهن شهوة وقيل معناه ليست بناتك لنا بأزواج ولا مستحقين نكاحهن وقيل معناه مالنا في بناتك من حاجة لأنك دعوتنا إلى نكاحهن بشرط الإيمان ولا نريد ذلك ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ يعني من إتيان الرجال في أدبارهم فعند ذلك ﴿ قال ﴾ لوط عليه السلام ﴿ لو أن لي بكم قوة ﴾ أي لو أني أقدر أن أتقوى عليكم ﴿ أو آوي إلى ركن شديد ﴾ يعني أو أنضم إلى عشيرة يمنعوني منكم، وجواب لو محذوف تقديره لو وجدت قوة لقاتلتكم أو لوجدت

عشرة لانضممت إليهم قال أبو هريرة : ما بعث الله نبياً بعده إلا في منعة من عشيرته (ق)

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

" يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأجبته " قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله : المراد بالركن الشديد هو الله فإنه أشد الأركان وأقواها وأمنعها ومعنى الحديث أن لوطاً عليه السلام لما خاف على أضيافه ولم تكن له عشيرة تمنعهم من الظالمين ضاق ذرعه واشتد حزنه عليهم فغلب ذلك عليه فقال في تلك الحال لو أن لي بكم قوة في الدفع بنفسي أو آوي إلى عشيرة تمنع لمنعتكم وقصد لوط إظهار العذر عند أضيافه وأنه لو استطاع لدفع المكروه عنهم ومعنى باقي الحديث فيما يتعلق بيوسف عليه السلام يأتي في موضعه من سورة يوسف إن شاء الله تعالى ، قال ابن عباس وأهل التفسير : أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار وجعل يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب وقومه يعالجون سور الدار فلما رأت الملائكة ما لقي لوط بسببهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾

الذرع مصدر ذرع البعير بيديه في سيره إذا سار على قدر خطوه ، مأخوذ من الذراع ، ثم وضع موضع الطاقة فقيل : ضاق به ذرعاً .

وقد يجعلون الذراع موضع الذرع قال :

إليك إليك ضاق بها ذرعاً . . .

وقيل : كنى بذلك عن ضيق الصدر .

العصيب والعصبصب والعصوصب الشديد اللازم ، الشر الملتف بعضه ببعض قال :

وكنت لزاز خصمك لم أعدد . . .

وقد سلكوك في يوم عصيب

قال أبو عبيدة : سمى عصيباً لأنه يعصب الناس بالشر ، والعصبة والعصابة الجماعة المجتمعة كلمتهم ، أو المجتمعون في النسب .

وتعصبت لفلان وفلان معصوب أي : مجتمع الخلق .

الإهراع : قال شمر مشي بين الهرولة والجمز .

وقال الهروي : هرع الرجل وأهرع استحث .

الضيف : مصدر ، وإذا أخبر به أو وصف لم يطابق في تثنية ولا جمع ، هذا المشهور .

وسمع فيه ضيوف وأضياف وضيفان .

الركن : معروف وهو الناحية من البيت ، أو الجبل .

ويقال : ركن بضم الكاف ، ويجمع على أركان وأركن .

وركنت إلى فلان انضويت إليه .

﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد .

قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ﴾ : خرجت الملائكة من قرية إبراهيم إلى قرية لوط وبينهما قيل : ثمانية أميال .

وقيل : أربعة فراسخ ، فأتوها عشاء .

وقيل : نصف النهار ، ووجدوا لوطا في حرث له .

وقيل : وجدوا ابنته تستقي ماء في نهر سدوم ، وهي أكبر حواضر قوم لوط ، فسألوها الدلالة على من يضيفهم ، ورأت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط وقالت لهم : مكانكم ، وذهبت إلى أبيها فأخبرته ، فخرج إليهم فقالوا : إنّا نريد أنْ تضيفنا الليلة فقال لهم : أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم ؟ فقالوا : وما عملهم ؟ فقال : أشهد بالله انهم شر قوم في الأرض . وقد كان الله قال للملائكة : لا تعذبوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات ، فلما قال هذه قال جبريل : هذه واحدة ، وتردد القول منهم حتى كرر لوط الشهادة أربع مرات ، ثم دخل لوط المدينة فحينئذ سيء بهم أي : لحقه سوء بسببهم ، وضاق ذرعه بهم ، وقال : هذا يوم عصيب أي شديد ، لما كان يتخوفه من تعدى قومه على أضيافه .

وجاءه قومه يهرعون إليه ، لما جاء لوط بضيفه لم يعلم بذلك أحد إلا أهل بيته ، فخرجت امرأته حتى أتت مجالس قومها فقالت : إن لوطاً قد أضاف الليلة فتية ما رؤي مثلهم جمالاً وكذا وكذا ، فحينئذ جاؤوا يهرعون أي : يسرعون ، كما يدفعون دفعاً فعل الطامع الخائف فوت ما يطلبه .

وقرأ الجمهور : يهرعون مبنياً للمفعول من أهرع أي يهرعهم الطمع .

وقرأت فرقة : يهرعون بفتح الياء من هرع .

وقال مهلهل :

فجاؤوا يهرعون وهم أسارى . . .

يقودهم على رغم الانوف

ومن قبل كانوا يعملون السيآت أي : كان ذلك ديدنهم وعادتهم ، أصروا على ذلك ومرنوا عليه ، فليس ذلك بأول انشاء هذه المعصية ، جاؤا يهرعون لا يكفهم حياء لضراوتهم عليها ، والتقدير في ومن قبل أي : من قبل مجيئهم.

إلى هؤلاء الاضياف وطلبهم إياهم .

وقيل : ومن قبل بعث لوط رسولاً إليهم .

وجمعت السيآت وإن كان المراد بها معصية اتيان الذكور ، إما باعتبار فاعليها ، أو باعتبار تكررها .

وقيل : كانت سيآت كثيرة باختلاف أنواعها ، منها اتيان الذكور ، واتيان النساء في غير المأتي ، وحذف الحصا ، والحيق في المجالس والاسواق ، والمكاء ، والصفير ، واللعب بالحمام ، والقمار ، والاستهزاء بالناس في الطرقات ، ووضع درهم على الأرض وهم بعيدون منه فمن أخذه صاحوا عليه وخجلوه ، وإنْ أخذه صبي تابعوه وراودوه .

هؤلاء بناتي : الاحسن أنْ تكون الإضافة مجازية ، أي : بنات قومي ، أي البنات أطهر لكم

، إذ النبي يتنزل منزلة الاب لقومه .

وفي قراءة ابن مسعود : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ﴾ وهو أب لهم ويدل عليه أنَّه فيما قيل : لم يكن له الا ابنتان ، وهذا بلفظ الجمع .

وأيضاً فلا يمكن أنْ يزوج ابنتيه من جميع قومه .

وقيل : أشار إلى بنات نفسه وندبهم إلى النكاح ، إذْ كان من سنتهم تزويج المؤمنة بالكافر .

أو على أنَّ في ضمن كلامه أنْ يؤمنوا .

وقيل : كان لهم سيدان مطاعان فاراد أنْ يزوجهما ابنتيه زغورا وزيتا .

وقيل : كنّ ثلاثاً .

ومعنى أطهر : أنظف فعلاً .

وقيل : أحل وأطهر بيتاً ليس أفعل التفضيل ، إذ لا طهارة في اتيان الذكور .

وقرأ الجمهور : أطهر بالرفع والأحسن في الإعراب أنّ يكون جملتان كل منهما مبتدأ وخبر .

وجوز في بناتي أنْ يكون بدلاً ، أو عطف بيان ، وهن فصل وأطهر الخبر .

وقرأ الحسن ، وزيد بن علي ، وعيسى بن عمر ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن مروان السدي : أطهر بالنصب .

وقال سيبويه : هو لحن .

وقال أبو عمرو بن العلاء : احتبي فيه ابن مروان في لحنه يعني : تربع .

ورويت هذه القراءة عن مروان بن الحكم ، وخرجت هذه القراءة على أنَّ نصب أطهر على الحال .

فقيل : هؤلاء مبتدا ، وبناتي هنّ مبتدأ وخبر في موضع خبر هؤلاء ، وروي هذا عن المبرد .

وقيل : هؤلاء بناتي مبتدأ وخبر ، وهن مبتدأ ولكم خبره ، والعامل قيل : المضمر .

وقيل : لكم بما فيه من معنى الاستقرار .

وقيل : هؤلاء بناتي مبتدأ وخبر ، وهن فصل ، وأطهر حال .

(251/382)

ورد بأنَّ الفصل لا يقع إلا بين جزءي الجملة ، ولا يقع بين الحال وذي الحال .

وقد أجاز ذلك بعضهم وادعى السماع فيه عن العرب ، لكنه قليل .

ثم أمرهم بتقوى الله في أنْ يؤثروا البنات على الاضياف .

ولا تخزون : يحتمل أنْ يكون من الخزي وهو الفضيحة ، أو من الخزاية وهو الاستحياء ، لأنّه إذا خزي ضيف الرجل أو جاره فقد خزي هو ، وذلك من عراقة الكرم وأصل المروءة .

أليس منكم رجل يهتدي إلى سبيل الحق وفعل الجميل ، والكف عن السوء ؟ وفي ذلك

توبيخ عظيم لهم ، حيث لم يكن منهم رشيد البتة .

قال ابن عباس : رشيد مؤمن .

وقال أبو مالك : ناه عن المنكر .

ورشيد ذو رشد ، أو مرشد كالحكيم بمعنى المحكم ، والظاهر أنَّ معنى من حق من نصيب ، ولا من غرض ولا من شهوة ، قالوا له ذلك على وجه الخلاعة .

وقيل : من حق ، لأنك لا ترى منا كحتنا ، لأنّهم كانوا خطبوا بناته فردهم ، وكانت سنتهم أنّ من رد في خطبة امرأة لم تحل له أبداً .

وقيل : لما اتخذوا اتيان الذكران مذهباً كان عندهم أنّه هو الحق ، وإن نكاح الاناث من الباطل .

وقيل : لأنّ عادتهم كانت أنْ لا يتزوج الرجل منهم إلا واحدة ، وكانوا كلهم متزوجين .

وإنك لتعلم ما نريد يعني : من اتيان الذكور ، وما لهم فيه من الشهوة .

قال : لو أنّ لي بكم قوة ، قال ذلك على سبيل التفجع .

وجواب لو محذوف كما حذف في : ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ﴾ وتقديره : لفعلت بكم وصنعت .

والمعنى في إلى ركن شديد : من يستند إليه ويمتنع به من عشيرته ، شبه الذي يمتنع به بالركن من الجبل في شدته ومنعته ، وكأنه امتنع عليه أن ينتصر ويمتنع بنفسه أو بغيره مما يمكن أن

يستند إليه .

وقال الحوفي ، وأبو البقاء : أو آوي عطف على المعنى تقديره : أو أني آوي .

والظاهر أن أو عطف جملة فعلية ، على جملة فعلية إن قدرت إني في موضع رفع على الفاعلية على ما ذهب إليه المبرد أي : لو ثبت أن لي بكم قوة ، أو آوي .

(252/382)

ويكون المضارع المقدر وآوى هذا وقعاً موقع الماضي ، ولو التي هي حرف لما كان سيقع لوقوع غيره نقلت المضارع إلى الماضي ، وإن قدرت أن وما بعدها جملة اسمية على مذهب سيبويه فهي عطف عليها من حيث أنّ لو تأتي بعدها الجملة المقدرة اسمية إذا كان الذي ينسبك إليها أنّ ومعمولاها .

وقال أبو البقاء : ويجوز أن يكون أو آوي مستأنفاً انتهى .

ويجوز على رأي الكوفيين أن تكون أو بمعنى بل ، ويكون قد أضرب عن الجملة السابقة وقال : بل آوى في حالي معكم إلى ركن شديد ، وكنى به عن جناب الله تعالى .

وقرأ شيبة ، وأبو جعفر : أو آوي بنصب الياء بإضمار أن بعد ، أو فتتقدر بالمصدر عطفاً على قوله : قوة .

ونظيره من النصب بإضمار أنْ بعد أو قول الشاعر :

ولولا رجال من رزام أعزة . . .

وآل سبيع أو يسوؤك علقما

أي أو ومساءتك علقماً . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(253/382)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما : انطلَقوا من عند إبراهيمَ عليه السلام إلى لوط عليه السلام وبين القريتين أربعةُ فراسخَ ودخلوا عليه في صور غِلمانٍ مُرْدٍ حسانِ الوجوه فلذلك ﴿ سِيء بِهِمْ ﴾ أي ساءه مجيئُهم لظنه أنهم أناسٌ فخاف أن يقصِدهم قومُه ويعجِزَ عن مدافعتهم ، وقرأ نافعٌ وابن عامر ، والكسائي وأبو عمرو : سيء وسيئت بإشمام السينِ الضمَّ . روي أن الله تعالى قال للملائكة : "لا تُهلكوهم حتى يشهد عليهم لوطٌ أربعَ شهادات" فلما مشى معهم منطلقاً بهم إلى منزله قال لهم : أما بلغكم أمرُ هذه القريةِ ؟ قالوا : وما أمرُها ؟ قال : أشهد بالله إنها لشرُّ قريةٍ في الأرض عملاً ، يقول ذلك أربعَ مراتٍ

فدخلوا معه منزلَه ولم يعلم بذلك أحدٌ فخرجت امرأتُه فأخبرت به قومَها وقالت: إن في بيت لوطٍ رجالاً ما رأيتُ مثلَ وجوهِهم قط ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ أي ضاق بمكانهم صدرُه أو قلبُه أو وسعُه وطاقتُه وهو كنايةٌ عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروهِ والاحتيال فيه، وقيل: ضاقت نفسُه عن هذا الحادثِ، وذِكرُ الذرعِ مثلٌ وهو المساحة، وكأنه قدْرُ البدنِ مجازاً أي إن بدنَه ضاق قدرُه من احتمال ما وقع، وقيل: الذراعُ اسمٌ للجارحة من المِرْفق إلى الأنامل، والذرْعُ مدُّها، ومعنى ضيقِ الذرعِ في قوله تعالى: ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ قصرُها كما أن معنى سعتِها وبسطتها طولُها، ووجهُ التمثيلِ بذلك أن القصيرَ الذراعِ إذا مدها ليتناول ما يتناول الطويلُ الذراعِ تقاصر عنه وعجز عن تعاطيه، فضُرب مثلاً للذي قصُرت طاقتُه دون بلوغِ الأمر ﴿ وَقَالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ شديدٌ، من عصَبه إذا شدّه.

﴿ وجَاءَهُ ﴾

أي لوطاً وهو في بيته مع أضيافه ﴿ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي يسرعون كأنما يُدفعون دفعاً لطلب الفاحشة من أضيافه، والجملةُ حالٌ من قومه وكذا قوله تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلُ ﴾ أي

من قبلِ هذا الوقت ﴿ كَانُوا يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ أي جاءوا مسرعين والحال أنهم كانوا منهمكين في علم السيئات فضرُوا بها وتمرّنوا فيها حتى لم يبقَ عندهم قباحتُها ولذلك لم يستحيُوا مما فعلوا من مجيئهم مهرعين مجاهرين ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاء بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ فتزوّجُوهن وكانوا يطلُبونهن من قبل ولا يُجيبهم لخبثهم وعدمِ كفاءتِهم لا لعدم مشروعيته فإن تزويجَ المسلماتِ من الكفار كان جائزاً وقد زوج النبيُّ عليه الصلاة والسلام ابنتيه من عُتبةَ بنِ أبي لهبٍ، وأبي العاص بنِ الربيع قبل الوحي وهما كافران، وقيل: كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه وأيا ما كان فقد أراد به وقايةَ ضيفِه وذلك غايةُ الكرم، وقيل: ما كان ذلك القولُ منه مُجرًى على الحقيقة من إرادة النكاحِ بل كان ذلك مبالغةً في التواضع لهم وإظهاراً لشدة امتعاضِه مما أرادوه عليه طمعاً في أن يستحيوا منه ويرِقّوا له إذا سمعوا ذلك فينزجروا عما أقدموا عليه مع ظهور الأمر واستقرارِ العلم عنده وعندهم بأن لا مناكحةَ بينهم وهو الأنسبُ بقولهم: لقد علمتَ ما لنا في بناتك من حق كما ستقف عليه ﴿ فاتقوا الله ﴾ بترك الفواحش أو بإيثارهن عليهم ﴿ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى ﴾ أي لا تفضحوني في شأنهم فإن إخزاءَ ضيفِ الرجل وجارِه إخزاءٌ له أو لا تخجلوني من الخَزاية وهي الحياء ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ يهتدي إلى الحق الصريح ويرعوي عن الباطل القبيح.

﴿ قَالُواْ ﴾ معرضين عما نصحهم به من الأمر بتقوى الله والنهي عن إخزائه مجيبين عن أول كلامه ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقّ ﴾ مستشهدين بعلمه بذلك يعنون إنك قد علمتَ ألا سبيلَ إلى المناكحة بيننا وبينك وما عرْضُك إلا عرضٌ سابرِيّ ولا مطمعَ لنا في ذلك ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ من إتيان الذكرانِ ، ولما يئس عليه السلام من ارعوائهم عما هم عليه من الغي ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً ﴾ أي لفعلتُ بكم ما فعلت وصنعتُ ما صنعت كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيّرَتْ بِهِ الجبال أَوْ قُطّعَتْ بِهِ الأرض أَوْ كُلّمَ بِهِ الموتى ﴾ ﴿ أَوْ اوِى إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ عطفٌ على أن لي بكم إلى آخره لما فيه من معنى الفعلِ أي لو قوِيتُ على دفعكم بنفسي أو أويت إلى ناصر عزيزٍ قويّ أتمنّع به عنكم ، شبّهه بركن الجبل في الشدة والمنعة . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم : " رحِم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد " روي أنه عليه السلام أغلق بابَه دون أضيافِه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوّروا الجدارَ فلما رأت الملائكةُ ما على لوط من الكرب . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسي :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا ﴾

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : انطلقوا من عند إبراهيم عليه السلام وبين القريتين أربعة فراسخ ودخلوا عليه في صورة غلمان مرد حسان الوجوه فلذلك ﴿ سِيءَ بِهِمْ ﴾ أي أحدث له عليه السلام مجيئهم المساءة لظنه أنهم أناس فخاف أن يقصدهم قومه ويعجز عن مدافعتهم ، وقيل : كان بين القريتين ثمانية أميال فأتوها عشاءاً ، وقيل نصف النهار ووجدوا لوطاً في حرث له .

وقيل : وجدوا بنتاً له تستقي ماءاً من نهر سدوم وهي أكبر محل للقوم فسألوها الدلالة على من يضيفهم ورأت هيأتهم فخافت عليهم من قوم أبيها فقالت لهم : مكانكم وذهبت إلى أبيها فأخبرته فخرج إليهم فقالوا : إنا نريد أن تضيفنا الليلة ، فقال : أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم ؟ فقالوا : وما عملهم ؟ فقال : أشهد بالله تعالى أنهم شر قوم في الأرض ، وقد كان الله تعالى قال للملائكة لا تعذبوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات ، فلما قال هذه قال جبريل عليه السلام : هذه واحدة وتكرر القول منهم حتى كرر لوط الشهادة فتمت الأربع ثم دخل المدينة فدخلوا معه منزله ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ أي طاقة وجهداً ، وهو في الأصل مصدر ذرع البعير بيديه يذرع في مسيره إذا سار ماداً خطوه مأخوذ من الذراع وهي العضو المعروف ، ثم توسع فيه فوضع موضع الطاقة والجهد ، وذلك أن اليد كما تجعل مجازاً عن

القوة فالذراع المعروفة كذلك ، وفي "الصحاح" يقال : ضقت بالأمر ذرعاً إذا لم تطقه ولم تقو عليه ، وأصل الذرع بسط اليد فكأنك تريد مددت يدي إليه فلم تنله ، وربما قالوا : ضقت به ذراعاً ، قال حميد بن ثور يصف ذئباً

: وإن بات وحشاً ليلة لم يضق بها . . .

(ذراعاً) ولم يصبح لها وهو خاشع

(257/382)

وفي "الكشاف" جعلت العرب ضيق الذراع والذرع عبارة عن فقد الطاقة كما قالوا : رحب الذراع بكذا إذا كان مطيقاً له ، والأصل فيه أن الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله القصير الذراع فضرب ذلك مثلاً في العجز والقدرة ، ونصبه على أنه تمييز محول عن الفاعل أي ضاق بأمرهم وحالهم ذرعه ، وجوز أن يكون الذرع كناية عن الصدر والقلب ، وضيقه كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه ، وهو على ما قيل : كناية متفرعة على كناية أخرى مشهورة ؛ وقيل : إنه مجاز لأن الحقيقة غير مرادة هنا ؛ وأبعد بعضهم في تخريج هذا الكلام فخرجه على أن المراد أن بدنه ضاق قدر عن احتمال ما وقع ﴿ وَقَالَ هذا ﴾ اليوم ﴿ يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ أي شديد ، وأصله من العصب بمعنى

الشد كأنه لشدة شره عصب بعضه ببعض ، وقال أبو عبيدة : سمي بذلك لأنه يعصب الناس بالشر ، قال الراجز

: يوم عصيب يعصب الأبطالا . . .

عصب القوى السلم الطوالا

وفي معناه العصبصب والعصوصب .

﴿ وَجَاءَهُ ﴾ أي لوطاً وهو في بيته مع أضيافه ﴿ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ قال أبو عبيدة : أي يستحثون إليه كأنه يحث بعضهم بعضاً ، أو يحثهم كبيرهم ويسوقهم ، أو الطمع في الفاحشة ، والعامة على قراءته مبنياً للمفعول ، وقرأ جماعة ﴿ يُهْرَعُونَ ﴾ بفتح الياء مبنياً للفاعل من هرع ، وأصله من الهرع وهو الدم الشديد السيلان كأن بعضه يدفع بعضاً ، وجاء أهرع القوم إذا أسرعوا ، وفسر بعضهم الإهراع بالمشي بين الهرولة والجمز ، وعن ابن عباس أنه سئل عما في الآية ، فقال : المعنى يقبلون إليه بالغضب ، ثم أنشد قول مهلهل

: فجاءوا يهرعون وهم أسارى . . .

نقودهم على رغم الأنوف

وفي رواية أخرى عنه أنه فسر ذلك بيسرعون وهو بيا ن للمراد ويستقيم على القرائين ، وجملة ﴿ يُهْرَعُونَ ﴾ في موضع الحال من قومه أي جاؤوا مهرعين إليه ، روي أنه لما جاء لوط بضيفه لم يعلم ذلك أحد إلا أهل بيته فخرجت امرأته حتى أتت مجالس قومها فقالت : إن لوطاً قد أضاف الليلة فئة ما رؤي مثلهم جمالاً فحينئذٍ جاؤوا يهرعون إليه ﴿ وَمِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل وقت مجيئهم ، وقيل : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ بعث لوط رسولاً إليهم ﴿ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ قيل : المراد سيئة إتيان الذكور إلا أنها جمعت باعتبار تكررها أو باعتبار فاعليها .

وقيل : المراد ما يعم ذلك ، وإتيان النساء في محاشهن .

والمكاء .

والصفير .

واللعب بالحمام .

والقمار .

والاستهزاء بالناس .

وغير ذلك ، والمراد من ذكر عملهم السيئات من قبل بيا ن أنهم اعتادوا المنكر فلم يستحيوا فلذلك أسرعوا لطلب الفاحشة من ضيوفه مظهرين غير مكترثين ، فالجملة معترضة لتأكيد ما قبلها .

وقيل : إنها بيان لوجه ضيق صدره لما عرف من عادتهم ، وجعلها شيخ الإسلام في موضع الحال كالتي قبلها أي جاؤوا مسرعين ، والحال أنهم كانوا منهمكين في عمل السيئات .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ فتزوجوهن وكانوا يطلبونهن من قبل ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لعدم مشروعية تزويج المؤمنات من الكفار فإنه كان جائزاً ، وقد زوج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته زينب لأبي العاص بن الربيع .

(259/382)

وابنته رقية لعتبة بن أبي لهب قبل الوحي وكانا كافرين إلا أن عتبة لم يدخل بها وفارقها بطلب أبيه حين نزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد : 1] فتزوّجها عثمان رضي الله تعالى عنه ، وأبا العاص كان قد دخل بها لكن لما أسر يوم بدر وفادى نفسه أخذ النبي صلى الله عليه وسلم العهد عليه أن يردها إذا عاد فأرسل عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار في طلبها فجاءا بها ثم أنه أسلم وأتى المدينة فردها عليه الصلاة والسلام إليه بنكاح جديد أو بدونه على الخلاف .

وقال الحسن بن الفضل : إنه عليه السلام عرض بناته عليهم بشرط الإسلام ، وإلى ذلك ذهب الزجاج ، وهو مبني على أن تزويج المسلمات من الكفار لم يكن جائزاً إذ ذاك ، وقيل

: كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه ولم يكن له عليه السلام سواهما ، واسم

إحداهما على ما في بعض الآثار زعوراء .

والأخرى زيتاء ، وقيل : كان له عليه السلام ثلاث بنات ، وأخرجه الحاكم وصححه عن

ابن عباس ، ويؤيده ظاهر الجمع وإن جاء إطلاقه على اثنين ، وأياً ما كان فقد أراد عليه

السلام بذلك وقاية ضيفه وهو غاية الكرم فلا يقال : كيف يليق به عليه السلام أن يعرض

بناته على أعدائه ليزوجهن إياهم ؟! نعم استشكل عرض بناته بناءاً على أنهن اثنتان كما

هو المشهور ، أو ثلاث كما قيل على أولئك المهرعين ليتزوجوهن مع القول بأنهم أكثر منهن إذ

لا يسوغ القول بحل تزوج الجماعة بأقل منهم في زمان واحد ، ومن هنا قال بعض أجلة

المفسرين : إن ذلك القول لم يكن منه عليه السلام مجرياً على الحقيقة من إرادة النكاح بل كان

ذلك مبالغة في التواضع لهم وإظهاراً لشدة امتعاضه مما أوردوا عليه طمعاً في أن يستحيوا

منه ويرقوا له إذا سمعوا ذلك فيتركوا ضيوفه مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده وعندهم

أن لا مناكحة بينه وبينهم وهو الأنسب بجوابهم الآتي ، وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس .

وابن أبي حاتم عن ابن جبير .

ومجاهد .

وابن أبي الدنيا .

وابن عساكر عن السدي أن المراد ببناته عليه السلام نساء أمته ، والإشارة بهؤلاء لتنزيلهن منزلة الحاضر عنده وإضافتهن إليه لأن كل نبي أب لأمته ، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله تعالى عنه النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم .

وقرأ أبي رضي الله تعالى عنه مثل ذلك لكنه قدم ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ [الأحزاب : 6] علي وهو أب لهم وأراد عليه السلام بقوله : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ أنظف فعلاً ، أو أقل فحشاً كقولك : الميتة أطيب من المغصوب وأحل منه ، ويراد من الطهارة على الأول الطهارة الحسية وهي الطهارة عما في اللواطة من الأذى والخبث ، وعلى الثاني الطهارة المعنوية وهو التنزه عن الفحش والإثم ، وصيغة أفعل في ذلك مجاز ، والظاهر إن هؤلاء بناتي مبتدأ وخبر ، وكذلك ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ وجوز أبو البقاء كون ﴿ بَنَاتِى ﴾ بدلاً أو عطف بيان ﴿ وَهَنَ ﴾ ضمير فصل ، و﴿ أَطْهَرُ ﴾ هو الخبر ، وكون ﴿ هُنَّ ﴾ مبتدأ ثانياً ، و﴿ أَطْهَرُ ﴾ خبره ، والجملة خبر ﴿ هَؤُلاء ﴾ .

وقرأ الحسن وزيد بن علي .

وعيسى الثقفي .

وسعيد بن جبير .

والسدي ﴿ أَطْهَرُ ﴾ بالنصب ، وقد خفي وجهه حتى قال عمرو بن العلاء : إن من قرأ ﴿ أَطْهَرُ ﴾ بالنصب فقد تربع في لحنه وذلك لأن انتصابه على أن يجعل حالاً عمل فيها ما في ﴿ هَؤُلاء ﴾ من الإشارة أو التنبيه أو ينصب ﴿ هَؤُلاء ﴾ بفعل مضمر كونه قيل : خذوا هؤلاء و﴿ بَنَاتِى ﴾ بدل ، ويعمل هذا المضمر في الحال و﴿ هُنَّ ﴾ في الصورتين فصل وهذا لا يجوز لأن الفصل إنما يكون بين المسند والمسند إليه ، ولا يكون بين الحال وذيها كذا قيل ، وهذا المنع هو المروى عن سيبويه وخالف في ذلك الأخفش فأجاز توسط الفصل بين الحال وصاحبها فيقول : جاء زيد هو ضاحكاً ، وجعل من ذلك هذه الآية على هذه القراءة ، وقيل : بوقوعه شذوذاً كما في قولهم : أكثر أكلي التفاحة هي نضيجة ، ومن منع ذلك خرج هذا على إضمار كان ، والآية الكريمة على أن ﴿ هُنَّ ﴾ مبتدأ و﴿ لَكُمْ ﴾ الخبر ، و﴿ أَطْهَرُ ﴾ حال من الضمير في الخبر ، واعترض بأن فيه تقديم الحال على عاملها الظرفي ، والأكثرون على منعه أو على أن يكون ﴿ هَؤُلاء ﴾ مبتدأ و﴿ بَنَاتِى هُنَّ ﴾ جملة في موضع خبر المبتدأ كقولك : هذا أخي هو ، ويكون ﴿ أَطْهَرُ ﴾ حالاً وروي هذا عن المبرد .

وابن جني ، أو على أن يكون ﴿ هَؤُلاء ﴾ مبدأ و﴿ بَنَاتِى ﴾ بدلاً منه أو عطف بيان و﴿ هُنَّ ﴾ خبر و﴿ أَطْهَرُ ﴾ على حاله.

(262/382)

وتعقب بأنه ليس فيه معنى طائل ، ودفع بأن المقصود بالإفادة الحال كما في قولك : هذا أبوك عطوفاً ، وادعى في "الكشف" أن الأوجه أن يقدروا خذوا هؤلاء أطهر لكم ، وقوله : ﴿ بَنَاتِى هُنَّ ﴾ جملة معترضة تعليلاً للأمر وكونهن أولى قدمت للاهتمام كأنه قيل خذوا هؤلاء العفائف أطهر لكم إن بناتي هن وأنتم تعلمون طهارتي وطهارة بناتي ؛ ويجوز أن يقال ﴿ هُنَّ ﴾ تأكيد للمستكن في ﴿ بَنَاتِى ﴾ لأنه وصف مشتق لا سيما على المذهب الكوفي فافهم ولا تغفل ﴿ فاتقوا الله ﴾ بترك الفواحش أو بإيثارهن عليهم ﴿ وَلاَ تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى ﴾ أي لا تفضحوني في شأنهم فإن إخزاء ضيف الرجل إخزاء له ، أو لا تخجلوني فيهم ، والمصدر على الأول الخزي وعلى الثاني الخزاية ، وأصل معنى خزي لحقه انكسار إما من نفسه وهو الحياء المفرط ، وإما من غيره وهو الاستخفاف والتفضيح ، والضيف في الأصل مصدر ، ولذا إذا وصف به المثنى أو المجموع لم يطابق على المشهور ، وسمع فيه ضيوف ، وأضياف ، وضيفان ، ﴿ وَلاَ ﴾ ناهية ، والفعل مجزوم بحذف النون

، والموجودة نون الوقاية ، والياء محذوفة اكتفاءاً بالكسرة ، وقرىء بإثباتها على الأصل ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ يهتدي إلى الحق الصريح ويرعوي عن الباطل القبيح ، وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أنه قال : يأمر بمعروف أو ينهي عن منكر ، وهو إما بمعنى ذو رشد أو بمعنى مرشد كالحكيم بمعنى المحكم ، والاستفهام للتعجب ، وحمله على الحقيقة لا يناسب المقام .

﴿ قَالُواْ ﴾ معرضين عما نصحهم به من الأمر بالتقوى والنهي عن الإخزاء عن أول كلامه ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقّ ﴾ أي حق وهو واحد الحقوق ، وعنوا به قضاء الشهوة أي ما لنا حاجة في بناتك ، وقد يفسر بما يخالف الباطل أي ما لنا في بناتك نكاح حق لأنك لا ترى جواز نكاحنا للمسلمات ، وما هو إلا عرض سابري كذا قيل ، وهو ظاهر في أنه كان من شريعته عليه السلام عدم حل نكاح الكافر المسلمة .

وقيل : إنما نفوا أن يكون لهم حق في بناته لأنهم كانوا قد خطبوهن فردهم وكان من سنتهم أن من رد في خطبة امرأة لم تحل له أبداً ، وقيل : إنهم لما اتخذوا إتيان الذكور مذهباً كان عندهم هو الحق وأن نكاح الإناث من الباطل فقالوا ما قالوا ، وقيل : قالوا ذلك لأن عادتهم

كانت أن لا يتزوج الرجل منهم إلا واحدة وكانوا كلهم متزوجين ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ أي من إتيان الذكور ، والظاهر أن ﴿ مَا ﴾ مفعول لتعلم ، وهو بمعنى تعرف ، وهي موصولة والعائد محذوف أي الذي نريده ، وقيل : إنها مصدرية فلا حذف أي إرادتنا . وجوز أن تكون استفهامية وقعت مفعولاً لنريد وهي حينئذٍ معلقة لتعلم ولما يئس عليه السلام من إرعوائهم عما هم عليه من الغي .

(264/382)

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً ﴾ أي لو ثبت أن لي قوة ملتبسة بكم بالمقاومة على دفعكم بنفسي لفعلت فلو شرطية وجوابها محذوف كما حذف في قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ [الرعد : 31] وجوز أن تكون للتمني ، و﴿ بِكُمْ ﴾ حال من ﴿ قُوَّةَ ﴾ كما هو المعروف في صفة النكرة إذا قدمت عليها ، وضعف تعلقه بها لأن معمول المصدر لا يتقدم عليه في المشهور ، وقوله : ﴿ أَوْ ءاوِى إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ عطف على ما قبله بناءاً على ما علمت من معناه الذي يقتضيه مذهب المبرد ، والمضارع واقع موقع الماضي ، واستظهر ذلك أبو حيان ، وقال الحوفي : إنه عطف على ما تقدم باعتبار أن المراد أو أنى آوى ، وجوز ذلك أبو البقاء ، وكذا جوز أن تكون الجملة مستأنفة ، والركن في

الأصل الناحية من البيت أو الجبل ، ويقال : ركن بضم الكاف ، وقد قرىء به ويجمع على أركان ، وأراد عليه السلام به القوى شبهه بركن الجبل في شدته ومنعته أي أو أنضم إلى قوى أتمنع به عنكم وأنتصر به عليكم ، وقد عد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القول منه عليه السلام بادرة واستغربه ، فقد أخرج البخاري .

ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : " رحم الله تعالى أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد " يعني عليه الصلاة والسلام به الله تعالى فإنه لا ركن أشد منه عز وجل

: إذا كان غير الله للمرء عدة . . .

أتته الرزايا من وجوه الفوائد

وجاء أنه سبحانه لهذه الكلمة لم يبعث بعد لوط نبياً إلا في منعة من عشيرته ، وفي "البحر" أنه يجوز على رأي الكوفيين أن تكون ﴿ أَوْ ﴾ بمعنى بل ويكون عليه السلام قد أضرب عن الجملة السابقة ، وقال : بل آوى في حالي معكم إلى ركن شديد وكني به عن جناب الله تعالى ولا يخفى أنه يأبى الحمل على هذه الكناية تصريح الأخبار الصحيحة بما يخالفها ، وقرأ شيبة .

وأبو جعفر ﴿ أَوَى ﴾ بالنصب على إضمار أن بعد ﴿ أَوْ ﴾ فيقدر بالمصدر عطفاً على ﴿ قُوَّةً ﴾ ونظير ذلك قوله

: ولولا رجال من رزام أعزة . . .

وآل سبيع أو أسوأك علقماً

أي لو أن لي بكم قوة أو أوياً ، روي أنه عليه السلام أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادل قومه عنهم من وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة عليهم السلام ما على لوط من الكرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(266/382)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾

قد علم أن الملائكة ذاهبون إلى قوم لوط من قوله : ﴿ إنّا أُرسلنا إلى قوم لوط ﴾ [هود : 70] .

فالتقدير : ففارقوا إبراهيم وذهبوا إلى لوط عليهما السّلام فلما جاءوا لوطاً ، فحذف ما

دل عليه المقام إيجازاً قرآنياً بديعاً .

وقد جاءوا لوطاً كما جاءوا إبراهيم عليهما السّلام في صورة البشر ، فظنهم ناساً وخشي أن يعتدي عليهم قومه بعادتهم الشنيعة ، فلذلك سيء بهم .

ومعنى ﴿ ضاق بهم ذرعاً ﴾ ضاق ذرعه بسببهم ، أي بسبب مجيئهم فحوّل الإسناد إلى المضاف إليه وجعل المسند إليه تمييزاً لأن إسناد الضيق إلى صاحب الذرع أنسب بالمعنى المجازي ، وهو أشبه بتجريد الاستعارة التمثيلية .

والذرع : مدُّ الذراع فإذا أسند إلى الآدمِيّ فهو تقدير المسافة .

وإذا أسند إلى البعير فهو مَدّ ذراعيه في السير على قدر سعة خطوِته ، فيجوز أن يكون : ضاق ذرعاً تمثيلاً بحال الإنسان الذي يريد مَدّ ذراعه فلا يستطيع مَدّهَا كما يريد فيكون ذَرعه أضيق من معتاده .

ويجوز أن يكون تمثيلاً بحال البعير المثقل بالحمل أكثر من طاقته فلا يستطيع مَدّ ذراعيه كما اعتاده .

وأيّاً ما كان فهو استعارة تمثيلية لحال مَنْ لم يجد حيلة في أمر يريدُ علمه ؟ بحال الذي لم يستطع مدّ ذراعه كما يشاء .

وقوله : ﴿ هذا يوم عصيب ﴾ قاله في نفسه كما يناجي المرء نفسه إذا اشتد عليه أمر .

والعصيب : الشديد فيما لا يرضي .

يقال : يوم عصيب إذا حدث فيه أمر عظيم من أحوال الناس أو أحوال الجوّ كشدة البرد وشدة الحرّ .

وهو بزنة فعيل بمعنى فاعل ولا يُعرف له فعل مجرد وإنما يقال : اعْصوصب الشرُّ ؛ اشتدّ .

قالوا : هو مشتق من قولك : عصبتُ الشيء إذا شددته .

وأصل هذه المادة يفيد الشدّ والضغط ، يقال : عصب الشيء إذا لَواه ، ومنه العِصابة .

ويقال : عصبتْهم السنون إذا أجَاعتهم .

ولم أقف على فعل مجرّد لوصف اليوم بعصيب .

(267/382)

وأراد : أنه سيكون عصيباً لِمَا يَعلم من عادة قومه السيئة وهو مقتض أنهم جاءوه نهاراً .

ومن بديع ترتيب هذه الجمل أنها جاءت على ترتيب حصولها في الوجود ، فإن أول ما يسبق إلى نفس الكاره للأمر أن يُساء به ويتطلب المخلص منه ، فإذا عَلم أنه لا مخلص منه ضاق به ذرعاً ، ثم يصدر تعبيراً عن المعاني وترتيباً عنه كلاماً يُريح به نفسه .

وتصلح هذه الآية لأن تكون مثالاً لإنشاء المنشىء إنشاءه على حسب ترتيب الحصول في نفس الأمر ، هذا أصل الإنشاء ما لم تكن في الكلام دواعي التقديم والتأخير ودواعي

الحذف والزيادة .

﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾

أي جاءه بعضُ قومه .

وإنما أسند المجيء إلى القوم لأن مثل ذلك المجيء دأبهم وقد تمالؤوا على مثله ، فإذا جاء بعضهم فسيعقبه مجيء بعض آخر في وقت آخر .

وهذا من إسناد الفعل إلى القبيلة إذا فعله بعضها ، كقول الحارث بن وعلة الجرمي :

قومي همُ قتلوا أمَيْمة أخي

فإذا رميتُ يصيبني سهمي . . .

و ﴿ يُهرعون ﴾ بضم الياء وفتح الراء على صيغة المبني للمفعول فسّروه بالمشي الشبيه بمشي المدفوع ، وهو بين الخبب والجَمْز ، فهو لا يكون إلا مبنيّاً للمفعول لأن أصله مشي الأسير الذي يُسرَع به .

وهذا البناء يقتضي أن الهَرْع هو دفع الماشي حين مشيه ؛ إلاّ أن ذلك تنوسِيَ ، وبقي أهرع بمعنى سار سيراً كسير المدفوع ، ولذلك قال جمع من أهل اللغة : إنّه من الأفعال التي التزموا فيها صيغة المفعول لأنها في الأصل مسندة إلى فاعلٍ غير معلوم .

وفسّره في "الصحاح" و"القاموس" بأنه الارتعاد من غضب أو خوف ، وعلى الوجهين فجملة ﴿ يهرعون ﴾ حال .

وقد طوى القرآن ذكر الغرض الذي جاؤوا لأجله مع الإشارة إليه بقوله : ﴿ ومن قبل كانوا يعملون السيّئات ﴾ فقد صارت لهم دأباً لا يسعون إلاّ لأجله .

(268/382)

وجملة ﴿ قال يا قوم ﴾ إلخ مستأنفة بيانياً ناشئاً عن جملة ﴿ وجاءه قومه ﴾ ، إذ قد علم السامع غرضهم من مجيئهم ، فهو بحيث يسأل عمّا تلقّاهم به .

وبادرهم لوط عليه السّلام بقوله : ﴿ يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ .

وافتتاح الكلام بالنّداء وبأنّهم قومه ترقيق لنفوسهم عليه ، لأنّه يعلم تصلبهم في عادتهم الفظيعة كما دلّ عليه قولهم : ﴿ لقد علمتَ ما لنا في بناتك من حق ﴾ [هود : 79] ، كما سيأتي .

والإشارة بـ ﴿ هؤلاء ﴾ إلى ﴿ بناتي ﴾ .

و﴿ بناتي ﴾ بدل من اسم الإشارة ، والإشارة مستعملة في العَرض ، والتقديرُ : فخذوهن .

وجملة ﴿ هنّ أطهر لكم ﴾ تعليل للعرض .

ومعنى ﴿ هنّ أطهر ﴾ أنهنّ حلال لكم يَحُلْنَ بينكم وبين الفاحشة ، فاسم التفضيل

مسلوب المفاضلة قصد به قوّة الطهارة .

و﴿ هؤلاء ﴾ إشارة إلى جمع ، إذ بُيِّنَ بقوله : ﴿ بناتي ﴾ .

وقد رُوِيَ أنه لم يكن له إلاّ ابنتان ، فالظّاهر أن إطلاق البنات هنا من قبيل التشبيه البليغ ،

أي هؤلاء نساؤهن كبناتي .

وأراد نساءً من قومه بعدد القوم الذين جاءوا يُهرعون إليه .

وهذا معنى ما فسر به مجاهد ، وابن جبير ، وقتادة ، وهو المناسب لجعلهنّ لقومه إذ قال :

﴿ هنّ أطهر لكم ﴾ ، فإن قومه الذين حضروا عنده كثيرون ، فيكون المعنى : هؤلاء

النساء فتَزَوّجوهنّ .

وهذا أحسن المحامل .

وقيل : أراد بنات صلبه ، وهو رواية عن قتادة .

وإذ كان المشهور أنّ لوطاً عليه السّلام له ابنتان صار الجمع مستعملاً في الاثنين بناء على أن

الاثنين تعامل معاملة الجمع في الكلام كقوله تعالى : ﴿ فقد صَغَت قلوبكما ﴾ [التحريم :

4] .

وقيل : كان له ثلاث بنات .

وتعترض هذا المَحمل عقبتان:

الأولى : أنّ القوم كانوا عدداً كثيراً فكيف تكفيهم بنتان أو ثلاث ؟ .

الثانية: أن قوله: ﴿ هؤلاء بناتي ﴾ عرض عليهم كما علمت آنفاً، فكيف كانت صفة هذه التخلية بين القوم وبين البنات وهم عدد كثير، فإن كان تزويجاً لم يكفين القوم وإن كان غير تزويج فما هو؟.

والجواب عن الأول: أنه يجوز أن يكون عدد القوم الذين جاؤوه بقدر عدد بناته أو أن يكون مع بناته حتى من قومه.

وعن الثاني: أنه يجوز أن يكون تصرف لوط عليه السّلام في بناته بوصف الأبوة، ويجوز أن يكون تصرفاً بوصف النبوءة بالوحي للمصلحة أن يكون من شرع لوط عليه السّلام إباحة تمليك الأب بناته إذا شاء، فإن كان أولئك الرهط شركاء في ملك بناته كان استمتاع كل واحد بكل واحدة منهنّ حلالاً في شريعته على نحو ما كان البغاء من بقايا الجاهلية في صدر الإسلام قبل أن ينسخ.

وأما لحاق النسب في أولاد من تحمل منهنّ فيجوز أن يكون الولد لاحقاً بالذي تُليطه أمه به من الرجال الذين دخلوا عليها، كما كان الأمر في البغايا في صدر الإسلام، ويجوز أن لا يلحق الأولاد بآباء فيكونوا لاحقين بأمّهاتهم مثل ابن الزنى وولد اللّعان، ويكون هذا

التحليل مباحاً ارتكاباً لأخف الضررين ، وهو ممّا يشرع شرعاً مؤقتاً مثل ما شرع نكاح المتعة في أوّل الإسلام على القول بأنه محرّماً وهو قول الجمهور .

وقد اشتغل المفسرون عن تحرير هذا بمسألة تزويج المؤمنات بالكفّار وهو فضول .

وفرع على قوله : ﴿ هنّ أطهر لكم ﴾ أن أمرهم بتقوى الله لأنّهم إذا امتثلوا ما عرض لهم من النساء فاتّقوا الله .

وقرأ الجمهور ﴿ ولا تخزون ﴾ بحذف ياء المتكلم تخفيفاً .

وأثبتها أبو عمرو .

والخزي : الإهانة والمذلة .

وتقدم آنفاً .

وأراد مذلته .

و﴿ في ﴾ للظرفية المجازيّة .

جعل الضيف كالظرف ، أي لا تجعلوني مخزياً عند ضيفي إذ يلحقهم أذى في ضيافتي ، لأنّ الضيافة جوار عند ربّ المنزل ، فإذا لحقت الضيف إهانة كانت عاراً على ربّ المنزل .

والضيف : الضائف ، أي النازل في منزل أحد نزولاً غير دائم ، لأجل مرور في سفر أو إجابة دعوة .

وأصل ضيف مصدر فعل ضاف يضيف ، ولذلك يطلق على الواحد وأكثر ، وعلى المذكر والمؤنث بلفظ واحد ، وقد يعامل معاملة غير المصدر فيجمع كما قال عمرو بن كلثوم:

نزلتم منزل الأضياف منّا

وقد ظن لوط عليه السّلام الملائكة رجالاً مارّين ببيته فنزلوا عنده للاستراحة والطعام والمبيت .

والاستفهام في ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ إنكار وتوبيخ لأنّ إهانة الضيف مسبّة لا يفعلها إلاّ أهل السفاهة .

وقوله : ﴿ منكم ﴾ بمعنى بعضكم أنكر عليهم تمالؤهم على الباطل وانعدام رجل رشيد من بينهم ، وهذا إغراء لهم على التعقل ليظهر فيهم من يتفطّن إلى فساد ما هم فيه فينهاهم ، فإنّ ظهور الرشيد في الفئة الضالة يفتح باب الرشاد لهم .

وبالعكس تمالُؤهم على الباطل يزيدهم ضراوة به .

﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾

فصلت جملة ﴿ قالوا ﴾ عن التي قبلها لوقوعها موقع المحاورة مع لوط عليه السّلام .

و ﴿ لقد علمت ﴾ تأكيد لكونه يعلم .

فأكد بتنزيله منزلةَ من ينكر أنه يعلم لأن حالة في عرضه بناته عليهم كحال من لا يعلم خُلقهم ، وكذلك التوكيد في ﴿ وإنك لتعلَم ما نريد ﴾ ، وكلا الخبرين مستعمل في لازم فائدة الخبر ، أي نحن نعلم أنك قد علمت ما لنا رغبة في بناتك وإنك تعلم مرادنا .

ومثله قوله حكاية عن قوم إبراهيم ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ [الأنبياء : 65] .

و ﴿ ما ﴾ الأولى نافية معلّقة لفعل العلم عن العمل ، و ﴿ ما ﴾ الثانية موصولة .

والحق : ما يحقّ ، أي يجب لأحد أو عليه ، فيقال : له حق في كذا ، إذا كان مستحقاً له ، ويقال : ما له حق في كذا ، بمعنى لا يستحقه ، فالظاهر أنه أطلق هنا كنايةً عن عدم التعلّق بالشيء وعن التجافي عنه .

وهو إطلاق لم أر مثله ، وقد تحيّر المفسرون في تقريره .

والمعنى : ما لنا في بناتك رغبة .

وجوابه بِ ﴿ لَوْ أنّ لي بكم قوة ﴾ جواب يائس من ارعوائهم .

و ﴿ لو ﴾ مستعملة في التمني ، وهذا أقصى ما أمكنه في تغيير هذا المنكر .

والباء في ﴿ بكم ﴾ للاستعلاء ، أي عليكم .

يقال : ما لي به قوة وما لي به طاقة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت ﴾ [البقرة : 249] .

ويقولون : مَا لي بهذا الأمر يَدان ، أي قدرة أو حيلة عليه .

والمعنى : ليت لي قوة أدفعكم بها ، ويريد بذلك قوة أنصار لأنّه كان غريباً بينهم .

ومعنى ﴿ أو آوى إلى ركن شديد ﴾ أو أعتصم بما فيه مَنعة ، أي بمكان أو ذي سلطان يمنعني منكم .

والركن : الشق من الجبل المتّصل بالأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾

أي : أن لوطاً شعر بالسوء ، وضاق بهم ذرعاً ، والذرع مأخوذ من الذراع التي فيها الكف والأصابع وندفع بها الأشياء ، وأي شيء تستطيع أن تمد إليه ذراعك لتدفع به ، وإن لم

تَطُله ذراعك ؛ قلت : " ضقت به ذرعاً " أي : أن يدي لم تطله ، وهو أمر فوق قوتي وطاقتي ، وفوق ما آتاني الله من الآلات ومن الحيل .

وما الذي يسيء لوطاً في مجيء الملائكة ؟

قيل : لأن الملائكة قد جاءوا على الشكل المعروف من الجمال ، فحين يُقال : " فلان ملاك " ، أي : شكله جميل .

ولوط عليه السلام يعلم أن آفة قومه هي إتيان الذكور ، وامرأته تعلم هذه الآفة ، لكن موقفها من ذلك غير موقف لوط ، فهي ترحب بتلك الآفة .

ويُقال : إنها تنبهت لمجيء الرجال الحِسان ولم تعرف أنهم ملائكة العذاب وصعدت إلى سطح المنزل ، وصفقت لعل القوم ينتبهون لها ، فلم يلتفت لها أحد ، فأشعلت ناراً فانتبه لها القوم ، وأشارت لهم بما يعبر عن مجيء ضيوف يتميزون بالجمال .

وهنا قال لوط عليه السلام :

﴿ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود : 77] .

أي : يوم شديد المتاعب .

ويقال : " يوم عصيب " و " يوم عصبصب " ، ومنه " العُصْبَة " وهم جماعة يتكاتفون على شيء ، ويقوى الفرد بمجموعهم ، وقد صدق ظن لوط .

وفي هذا يقول الحق سبحانه عن ذلك : ﴿ وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ [هود : 78] .

أي : يسرعون إليه في تدافق ، والإنسان إذا لم يكن قد مرن على الشر وله به دُربة ، يكون مترددا ً خائفاً ، أما من له دربة فهو يقبل على الشر بجرأة ونشاط .

(273/382)

وكلمة " يهرعون " هي من الألفاظ العجيبة في اللغة العربية ، وألفاظ اللغة تجد فيها فعلاً له فاعل ، كقولنا : " يضرب ُ زيدٌ عَمْراً " أي : أن الضارب هو " زيد " والمضروب هو " عمرو " ، ونقول : "يُضْرَبُ عمرو " أي : أننا بنينا الفعل للمجهول ، وسُمِّي عمرو " نائب فاعل " .

أما في الفعل "يُهْرَعُ" فلا نجد أحداً يقول : "يُهرع " إلا ويكون بعدها فاعل وليس نائب فاعل ، مثلها مثل الفعل " جُنَّ" فهل هناك من يأتي لنفسه بالجنون ، أم أن الجنون هو الذي جاءه ؟ لا أحد يعرف سبب الجنون ؛ ولذلك بُنيت الكلمة للمجهول ، ولكن ما يأتي بعدها يكون فاعلاً . وهذا من إعجاز البيان القرآني .

وكذلك نقول : " زُكِمَ فلان " فمن الذي أصابه بالزكام ؟ لا نعرف سبباً ظاهراً للزكام .

إذن : فإذا جُهِلَ الفاعل فنحن نبني الفعل للمجهول ، ولكن ما يأتي بعده يكون فاعلاً .

وقول تعالى :

﴿ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ [هود : 78] .

يبيِّن أنهم أقبلوا باندفاع ، كأنهم يعشقون ما يذهبون إليه ؛ لأن كلاً منهم له دربة على ذلك الفعل المشين ، أو أن كلاً منهم ذاهب إلى ما يحب دون تَهيُّب ، باندفاع من نفسه ودَفْع من غيره ، مثلما تقول : " سنوزع تموينا بالمجان " ؛ هنا تجد الناس يتدافعون ، كل منهم من تلقاء نفسه ، وغيره يدفعه ليرتد إلى الوراء .

وقوم لوط كانوا على دُرْبة بتلك الفاحشة .

يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ [هود : 78] .

أي : أن هذه المسألة عندهم كانت محببة ، ولهم دربة عليها وخفيفة على قلوبهم ، ولا حياء يمنعهم عنها .

فالحياء يعني أن بعض الناس يعمل السيئة ويخشى الآخرون أن يفعلوها ، لكن إذا ما كانوا يحبون تلك السيئة ، فلن يخجل أحد من الآخر .

وماذا يكون موقف لوط عليه السلام في هذا اليوم العصيب ؟ لقد أقبلوا عليه بسرعة ، وفي كوكبة واندفاع ، وهو يعلم نياتهم ويعلم سوابقهم ، وفكَّر لوط عليه السلام في أن يصرفهم انصرافاً من جنس اندفاعهم .

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ يا قوم هؤلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ [هود : 78] .

وقد قال ذلك لأن المرأة مخلوقة لذلك ، ومن الممكن أن يتزوجوا من بناته .

وكان العُرْف في أيام لوط عليه السلام لا يمنع أن يزوِّج المؤمن ابنته لغير المؤمن ؟ وقد زَوَّجَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إحدى بناته لعُتبة بن أبي لهب ، وأخرى لأبي العاص بن الربيع ؟ قبل تحريم الحق سبحانه تزويج المؤمنة لغير المؤمن .

فهل كان المقصود : بناته من صُلبه أم بنات أمته ، أم بنات المؤمنين به ؟ وقد قيل : إنه لم يؤمن بالله إلا لوط وابنتاه ، فكيف يكون الزواج لابنتين من كل هذا العدد من الرجال المتدافعين ؟ وقيل : إنه بحث عن السادة الأقوياء الذين بيدهم القرار ، وأراد أن يراضيهم بهذا الزواج ؛ لعلهم يرجعون عن الفواحش والسيئات ، وفي هذا طهر لهم ، وبذلك يحفظون كرامته أمام ضيوفه .

يقول لوط عليه السلام :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ هود : 78] .

وكلمة " ضيف " كما نعلم جاءت هنا مفردة ، ولكنها تطلق أيضاً على الجمع ، والمثنى ، وتصلح للدلالة على المذكر وعلى المؤنث أيضاً ، فإن جاء ضيف واحد تقول : " هذا ضيفي " ، وإن جاء اثنان تقول : " هذان ضيفي " ، وإن كانت امرأة تقول : " هذه ضيفي " ، وإن كانتا امرأتين تقول : " هاتان ضيفي " ، وإن جاءت جماعة تقول : " هؤلاء ضيفي "

.

والحق سبحانه يقول :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المكرمين ﴾ [الذاريات : 24] .

وهناك ألفاظ أخرى كذلك في اللغة مثل : كلمة " طفل " فهي مفرد ؛ ولكنها قد تطلق على الجماعة ، إلا أن كلمة " طفل " وُجِد لها جمع هو " أطفال " .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بني إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التابعين غَيْرِ أُوْلِي الإربة مِنَ الرجال أَوِ الطفل

الذين لَمْ يَظْهَرُواْ على عَوْرَاتِ النسآء ﴾ [النور : 31] .

إذن : فكلمة " طفل " تطلق أيضاً ، ويراد بها الجماعة .

وهنا يطلب لوط عليه السلام من قومه ألا يخزوه في ضيفه ، والخزي فضيحة أمام النفس وأمام الناس .

والإنسان قد تهون عليه نفسه ويُقبل على العمل السيىء ما لم يره أحد ، أما أن يراه الناس ، ففي هذا فضح له ؛ فالفضيحة تكون بين جمهرة الناس ، والهوان أن يكون العمل السيىء بينه وبين نفسه .

ويتساءل لوط عليه السلام :

﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود : 78] .

أي : ألا يوجد بينكم رجل له عقل ومروءة وكرامة ، يمنع هذه المسألة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ ﴾

هذه الآية تحمل رد المتدافعين طلباً للفحشاء من قوم لوط ؛ فقد قالوا له : أنت تعلم مقصدنا ، وليس لنا في بناتك أية حاجة نعتبرها غاية لمجيئنا .

وكان هذا يعني الإعراض عن قبول نصحه لهم بالتزوج من بناته بدلاً من طلب فعل الفاحشة مع ضيوف لوط ، وهم الملائكة الذين جاءوا في هيئة رجال بلغوا مبلغ الكمال في الجمال .

ويأتي الحق سبحانه برد لوط عليه السلام : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾

وساعة تقرأ كلمة " لو " فهذا هو التمني ، أي : رجاء أن يكون له قوة يستطيع أن يدفع بها هؤلاء ، وكان لا بد من وجود شرط ، مثل قولنا : " لو أن زيداً عندك لجئت " ، لكن نجد هنا شرطاً ولا جواب ، كأن يقال : " لو أن لي بكم قوة لفعلت كذا وكذا " .

ولذلك يقال إن الملائكة قالت له : إن ركنك لشديد ؛ ولذلك قال :

﴿ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود : 80] .

والشيء الشديد هو المتجمِّع تجمُّعاً يصعب فَصْلُه ، أو المختلط اختلاطاً بمزجٍ يصعب تحلُّله ؛ لأنك حين تجمع الأشياء ؛ فإما أن تجمع أشياء أجناسها منفصّلة ، ولكنك تربطها ربطاً قوياً ، مثل أن تربط المصلوب على شجرة برباط قوي ، لكن كليهما المصلوب والشجرة ، منفصل عن الآخر وله ذاته ، وهناك ما يُسمَّى خلطاً ، وهناك ما يُسمَّى مزجاً ، والخلط هو أن تخلط أشياء ، وكل شيء منها متميز عن غيره بحيث تستطيع أن تفصله ، أما المزج فلا يمكن فصل الأشياء الممتزجة ببعضها .

ومثال ذلك : أنك قد تخلط فول التدميس مثلاً مع حبات من الفول السوداني ، وتستطيع أن تفصل الاثنين بعضهما عن بعض ؛ لأنك جمعتهما على استقلال . ولكن إن قُمْتَ بعصر

ليمون على كوب من الماء المحلى بالسكر ؛ فهذا مزج يصعب حلُّه .

وقد قال لوط عليه السلام ذلك لأنه لم يكن في مَنعةٍ من قومه ، أهل " سدوم " ويقال : إنها خمس قرى قريبة من " حمص " .

وقد تعجَّب رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول لوط ، فقال فيما رواه البخاري :

" رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد " .

فَلهوْل ما عانى لوط عليه السلام من كرب المفاجأة قال ذلك ، وهو يعلم أنه لا يوجد سند أو ركن أشد من الحق سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(277/382)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77) ﴾

قوله تعالى : ﴿ سيء ﴾ : فعل مبنيٌّ للمفعول . والقائمُ مقامُ الفاعل ضميرُ لوط مِنْ قولِك " ساءني كذا " أي : حَصَل / لي سُوْءٌ . و " بهم " متعلقٌ به أي : بسببهم . و " ذَرْعاً " نصبٌ على التمييز ، وهو في الأصل مصدر ذَرَعَ البعير يَذْرَع بيديه في سَيْره إذا سار على قَدْر

خَطْوه ، اشتقاقاً من الذِّراع ، ثم تُوُسِّع فيه فوُضِع مَوْضِعَ الطاقة والجهد فقيل : ضاق ذَرْعُه أي : طاقتُه قال :

2690 . . . . فاقدِرْ بذَرْعِك وانظر أين تَنْسَلِكُ

وقد يقع الذِّراعُ موقِعَه قال :

2691 إذا التَّيَّارُ ذو العَضَلاتِ قُلْنا . . . إليك إليك ضاقَ بها ذِراعا

قيل : هو كنايةٌ عن ضِيق الصدر .

وقوله : ﴿ عَصِيبٌ ﴾ العَصِيْبُ والعَصَبْصَبُ والعَصُوب : اليوم الشديد ، الكثير الشرِّ الملتفُّ بعضُه ببعض قال :

2692 وكنت لِزازَ خَصْمِك لم أُعَرِّدْ . . . وقد سَلَكوك في يومٍ عصيب

وعن أبي عُبَيْد : " سُمِّي عَصِيباً لأنه يعصب الناسَ بالشرِّ " . والعِصَابَةُ : الجماعة من الناس سُمُّوا بذلك لإِحاطتهم إحاطةَ العَصابة .

قوله : ﴿ يُهْرَعُونَ ﴾ في محل نصب على الحال . والعامَّة على " يُهرعون " مبنياً للمفعول . والإِهراع : الإِسراع ويقال : وهو المَشْيُ بين الهَرْوَلة والجَمْز . وقال الهروي : هَرَع وأَهْرَع : اسْتَحَثَّ . وقرأت فرقة : " يَهْرعون " بفتح الياء مبنياً للفاعل مِنْ لغة " هَرَع " .

قوله : ﴿ هؤلاء بَنَاتِي ﴾ جملةٌ برأسها ، و " هنَّ أطهرُ لكم " جملةٌ أخرى ، ويجوز أن يكونَ " هؤلاء " مبتدأ ، و " بناتي " بدلٌ أو عطفُ بيان ، و " هنَّ " مبتدأ ، و " أَطْهَرُ " خبره ، والجملةُ خبر الأول . ويجوز أن يكونَ " هنَّ " فَصْلاً ، و " أطهر " خبر : إمَّا ل " هؤلاء " ، وإمَّا ل " بناتي " ، والجملةُ خبر الأول .

وقرأ الحسن وزيد بن علي وسعيد بن جبير وعيسى بن عمر والسدي : " أطهرَ " بالنصب . وخُرِّجت على الحال . فقيل : " هؤلا " مبتدأ ، و " بناتي هُنَّ " جملةٌ في محلِّ خبره ، و " أطهر " حال ، والعاملُ : إمَّا التنبيهُ وإمَّا الإشارةُ . وقيل : " هنَّ " فَصْلٌ بين الحال وصاحبها ، وجُعِل من ذلك قولُهم : " أكثر أكلي التفاحةَ هي نضيجةً " . ومنعه بعض النحويين ، وخرَّج الآيةَ على أن " لكم " خبر " هن " فلزمه على ذلك أن تتقدَّم الحالُ على عاملها المعنوي ، وخرَّجَ المَثَلَ المذكور على أن " نضيجة " منصوبة ب " كان " مضمرة .

قوله : ﴿ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ : الضيف في الأصل مصدرٌ ، ثم أطلق على الطارق لميلانه إلى المُضيف ، ولذلك يقع على المفرد والمذكر وضدَّيهما بلفظٍ واحدٍ ، وقد يُثنى فيقال : ضَيْفان ، ويُجْمع فيقال : أضايف وضُيوف كأبيات وبُيوت وضِيفان كحَوْض وحِيضان .

﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (79) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِنْ حَقٍّ ﴾ : يجوز أن يكون مبتدأ ، والجارُّ خبره ، وأن يكونَ فاعلاً بالجارِّ قبله لاعتماده على نفي ، و " مِنْ " مزيدةٌ على كلا القولين .

قوله : ﴿ مَا نُرِيدُ ﴾ يجوز أن تكونَ مصدريةً ، وأن تكونَ موصولةً بمعنى الذي . والعلم عرفانٌ ، فلذلك يتعدَّى لواحدٍ أي : لتعرف إرادتنا ، أو الذي نريده . ويجوز أن تكونَ " ما " استفهامية وهي مُعَلِّقة للعلم قبلها .

(279/382)

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (80) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنَّ ﴾ جوابُها محذوف تقديره : لفعلتُ بكم وصنعْتُ كقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ ﴾ [الرعد : 31] .

قوله : ﴿ أَوْ آوِي ﴾ يجوز أن يكونَ معطوفاً على المعنى ، تقديره : أو أني آوي ، قاله أبو البقاء والحوفي . ويجوز أن يكون معطوفاً على " قوة " لأنه منصوبٌ في الأصل بإضمار أن فلمَّا حُذِفَتْ " أن " رُفع الفعل كقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ ﴾ [الروم : 24] .

واستضعف أبو البقاء هذا الوجهَ بعدم نصبه . وقد تقدم جوابه . ويدلُّ على اعتبار ذلك قراءةُ شيبة وأبي جعفر " أو آويَ " بالنصب كقوله :

2693 ولولا رجالٌ من رِزامٍ أعزَّةٍ . . . وآلُ سبيعٍ أو أسُوْءَك عَلْقما

وقولها :

2694 لَلُبْسُ عباءةٍ وتقرَّ عَيْني . . . أحبُّ إليَّ من لُبْس الشُّفوف

ويجوز أن يكون عَطْفُ هذه الجملةِ الفعلية على مثلها إن قدَّرْتَ أنَّ " أنَّ " مرفوعة بفعل مقدرٍ بعد " لو " عند المبرد ، والتقدير : لو يستقر أو يثبت استقرار القوة أو آوي ، ويكون هذان الفعلان ماضيَيْ المعنى ؛ لأنها تَقلب المضارع إلى المضيِّ . وأمَّا على رأي سيبويه في كونِ أنَّ " أنَّ " في محل الابتداء ، فيكون هذا مستأنفاً . وقيل : " أو " بمعنى بل وهذا عند الكوفيين .

و " بكم " متعلق بمحذوفٍ لأنه حالٌ من " قوة " ، إذ هو في الأصل صفةٌ للنكرة ، ولا يجوز أن يتعلَّق ب " قوة " لأنها مصدر .

والرُّكْن بسكون الكاف وضمها الناحية من جبل وغيره ، ويُجمع على أركان وأَرْكُن قال :

2695 وزَحْمُ رُكْنَيْكَ شديدُ الأَرْكُنِ/ . . . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 364.360﴾

(280/382)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77) ﴾

أي أنه حزن بسبب خوفه عليهم أن يَجْري عليهم من قومه ما لا يجوز في دين الله ؛ فذلك الحزنُ كان لحقِ الله لا لنصيبٍ له أو حظٍّ لنفسه ، ولذلك حُمِدَ عليه لأنَّ مقاساةَ الحزنِ لحقِ الله محمودةٌ .

﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78) ﴾

قوله ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ : قيل إنه أراد به نساء أمته ، فنبيُّ كلِّ أمةٍ مثل الوالد لأولاده في الشفقة والنصيحة .

ويقال إنه أراد بناتِه من صُلْبه .

" أليس منكم رجل رشيد " يرتدي جلبابَ الحشمة ، ويؤثر حقَّ الله على ما هو مقتضى البشرية ، ويرعى حق الضيافة ، ويترك معصية الله ؟ .

﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (79) ﴾

أصرُّوا على عصيانهم ، وزهدوا في المأذون لهم شرعاً ، وانجرُّوا إلى ما قادهم إليه الهوى طبعاً ، وهذه صفة البهائم ؛ لا يردعها عقلٌ ، قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

﴾ [الأعراف : 179] .

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آَوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (80) ﴾

لو أن لي قوةً فأمنعكم عن ارتكابِ المعصية ؛ فإنَّ أهمَّ الأشياء على الأولياء ألا يَجْرِيَ من العصاةِ ما ليس الله فيه لا رضاء .

ويقال : لو كان لي قدرةٌ لإيصال الرحمةِ إليكم -مع ارتكابكم المعاصي- لَرَحِمْتُكم وتجاوزتُ عنكم .

ويقال لو أنَّ لي قوةً لهَدَيْتُكم إلى الدِّين ، ولَعَصَمْتُكم عن ارتكاب المخالفات . انتهى اتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 148. 149 ﴾

(281/382)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والثمانون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/383)

الجزء الثالث والثمانون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 81 ﴾ من سورة هود عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 86 ﴾ من نفس السورة

(4/383)

قوله تعالى ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فلما عظم الشقاق وضاق الخناق كان كأنه قيل : فما قال له الرسل ؟ فقيل : ﴿ قالوا ﴾ ودلوا بحرف النداء الموضوع للبعد على أنه كان قد خرج عن الدار وأجاف بابها وأن الصياح كان شديداً ﴿ يا لوط ﴾ إنك لتأوي إلى ركن شديد ؛ ثم عللوا ذلك بقولهم : ﴿ إنا رسل ربك ﴾ أي المحسن إليك بإحسانك وكل ما ترى مما يسوءك ويسرك ؛ ثم لما ثبت له ذلك كان من المحقق أنه سبب في ألا يدانيه معه سوء فأوضحوه بقولهم : ﴿ لن يصلوا إليك ﴾ من غير احتياج إلى الربط بالفاء ، أي ونحن مهلكوهم وقالبوا مدنهم بهم ﴿ فأسر ﴾ أي سر بالليل ماضياً ﴿ بأهلك ﴾ موقعاً ذلك السير والإسراء ﴿ بقطع ﴾ أي بطائفة ، أي والحال أنه قد بقي عند خروجك جانب ﴿ من الّيل ولا يلتفت ﴾ أي ينظر إلى ورائه ولا يتخلف ﴿ منكم أحد ﴾ أي لا تلتفت أنت ولا تدع أحداً من أهلك يلتفت

﴿ إلا امرأتك ﴾ استثناء من " أحد " بالرفع والنصب لأن المنهي كالمنفي في جواز الوجهين ، والنهي له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فالفعل بالنسبة إليه منهي ، وبالنسبة إليهم منفي .

(5/383)

ويمكن أن يكون أخرجها معه لأن معنى الاستثناء أنه غير مأمور بالإسراء بها إلا أنه منهي عنه ، واستثناءها من الالتفات معهم مفهم أنه لا حجر عليه في الإسراء بها ، أو أنه خلفها فتبعتهم والتفتت ، فيكون قراءة النصب من ﴿ أهلك ﴾ ، وقراءة الرفع من ﴿ أحد ﴾ ولا يلزم من ذلك أمرها بالالتفات بل مخالفتها للمستثنى منه في عدم النهي ، ولذلك عللوا ما أفهمه إهمالها من الإسراء والنهي من أنها تلتفت بقولهم مؤكدين لأن تعلق الأمل بنجاتها شديد رحمة لها : ﴿ إنه ﴾ أي الشأن ﴿ مصيبها ﴾ لا محالة ﴿ ما أصابهم ﴾ سواء التفت أو لا ، تخلفت أو لا ، ثم ظهر لي من التعبير في حقها باسم الفاعل وفي حقهم بالماضي أنه حكم بإصابة العذاب لهم عند هذا القول للوط عليه السلام لأن ذنوبهم تمت ، وأما هي فإنما يبرم الحكم بذلك في حقها عند تمام ذنوبها التي رتبت عليها الإصابة وذلك عند الالتفات .

ولما عبروا بالماضي تحقيقاً للوقوع وتنبيهاً على أنه تقدم دخولها معهم في أسباب العذاب ،

كان منبهاً لأن يقال : كان الإيقاع بهم قد دنا بهم جداً ؟ فقيل : نعم ، وأكد تحقيقاً للوقوع تلذيذاً به ولأنه - لقرب الوقت - بحيث ينكر : ﴿ إن موعدهم ﴾ أي لابتداء الأخذ ﴿ الصبح ﴾ وكأن لوطاً عليه السلام أبطأ في جميع أهله وما يصلحهم ، فكان فعله فعل من يستبعد الصبح ، فأنكروا ذلك بقولهم : ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ أي فأسرع الخروج بمن أمرت بهم ؛ والإسراء : سير الليل كالسرى .

(6/383)

ولما انقضى تسكين لوط عليه السلام والتقدم إليه فيما يفعل ، أخبر تعالى عن حال قومه فقال : ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ بالفاء لما مضى في قصة صالح عليه السلام من التسبيب والتعقيب ، أي فلما خرج منها لوط بأهله جاءنا أمرنا ، ولما جاء أمرنا الذي هو عذابنا والأمر به ﴿ جعلنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ عاليها ﴾ أي عالي مدنهم وهم فيها ﴿ سافلها وأمطرنا عليها ﴾ أي على مدنهم بعد قلبها من أجلهم وسيأتي في سورة الحجر سر الإتيان هنا بضمير " ها " دون ضمير " هم " ﴿ حجارة من سجيل ﴾ أي مرسلة من مكان هو في غاية العلو ﴿ منضود ﴾ بالحجارة هي فيه متراكبة بعضها على بعض حال كونها

﴿ مسومة ﴾ أي معلمة بعلامات تدل على أنها معدة للعذاب من السيما والسومة وهي العلامة تجعل للإبل السائمة لتتميز إذا اختلطت في المرعى ، وفي الذاريات

(7/383)

﴿ حجارة من طين ﴾ [الذاريات : 33] وذلك أن الحجارة أصلها تراب يجعل الله فيه بواسطة الماء قابلية للاستحجار كما جعل فيه قابلية التحول إلى المعدن من الذهب والفضة والحديد وغيرها ، فباعتبار أصله هو طين ، وباعتبار أوله حجر وكبريت ونار ، ولعل حجر الكبريت أثقل الحجارة مع ما فيه من قوة النار وقبح الريح ؛ ثم فخمها بقوله : ﴿ عند ربك ﴾ وعبر بالرب إشارة إلى كثرة إحسانه وإليه وأنه إنما أمره.صلى الله عليه وسلم.بالإنذار وحمة لأمته التي جعلها خير الأمم وسيجعلها أكثر الأمم ، ولا يهلكها كما أهلكهم ؛ ومادة سجل - بأي ترتيب كان - تدور على العلو ، من الجلس لما ارتفع عن الغور وهو النجد ، ويلزمه منه الغلظ والعلو ، ومن الغلظ الجلس للغليظ من الأرض والجمل الوثيق ، ويلزم العلو التصويب ومن جلس - إذا قعد ؛ والسجل للدلو العظيمة ، ويكون غالباً في مقابلتها أخرى ، كلما نزلت واحدة طلعت الأخرى ، فتاتي المساجلة بمعنى المباراة والمفاخرة ، والسجل : الضرع العظيم ، والسجل - بالكسر وشد اللام : الكتاب لأنه يذكر

فيه ما يكون به المفاخرة والمغالبة ؛ وسلج الطعام : بلعه ، والسلجان : نبات رخو ، كأنه سمي بذلك لأن أغصانه تأخذ إلى أسفل لرخاوتها ، وقد دل على هذا المعنى في هذه الآية بثلاثة أشياء : الإمطار ، ولفظ "على" ، وسجيل .

ولما كان المعنى أنها من مكان هو في غاية العلو ليعظم وقعها ، حسن كل الحسن اتباع ذلك قوله : ﴿ وما هي ﴾ على شدة بعد مكانها ﴿ من الظالمين ﴾ أي من أحد من العريقين في الظلم في ذلك الزمان ولا هذا ولا زمن من الأزمان ﴿ ببعيد ﴾ لئلا يتوهم الاحتياج في وصولها إلى المرمى بها إلى زمن طويل .

(8/383)

ذكر هذه القصة من التوراة : قال في السفر الأول بعد ما مضى في قصة بشرى إبراهيم عليه السلام : فأتى الملكان إلى سدوم عشاء ، وكان لوط جالساً على باب سدوم ، فنظر إليهما لوط فتلقاهما ، ثم خرّ على وجهه ساجداً على الأرض وقال : إني طالب إليكما يا سيدي ، اعدلا إلى منزل عبدكما فبيتا فيه واغسلا أقدامكما وبكرا فانطلقا في طريقكما ، فقالا : كلا ! ولكنا نبيت في السوق ، فألح عليهما لوط إلحاحاً شديداً فانصرفا معه ودخلا منزله فأعد لهما طعاماً ، ومن قبل وقت الهجوع إذا أهل القرية أهل سدوم قد أحاطوا بالباب من

الشبان إلى المشايخ جميع الشعب بأسره، فدعوا بلوط وقالوا له: أين الرجلان اللذان أتياك ممسيين أخرجهما إلينا فنعرفهما - وفي نسخة: حتى نواقعهما - فخرج لوط إليهم وأغلق الباب خلفه، فقال لهم لوط: لا تسيئوا بي يا إخوة! هذا لي بنتان لم يمسهما رجل، أخرجهما إليكم فاصنعوا بهما ما حسن في أعينكم، ولا ترتكبوا من هذين الرجلين شيئاً لأنهما ولجا ظلال بيتي، فقالوا له: تنح عنا، إن واحداً أتى ليسكن بيتنا فصار يحكم فينا، فالآن نسيء إليك أكثر منهما، فجاهد لوط القوم جداً فدنوا ليكسروا الباب فمد الرجلان أيديهما فأدخلا لوطاً إليهما إلى منزله، ثم إن القوم الذين كانوا بالباب ضربوا بالعشى من كبيرهم حتى صغيرهم فأعيوا في طلب الباب، فقال الملكان للوط: ما تصنع هاهنا؟ اعمد إلى أختانك وبنيك وبناتك وجميع ما لك في هذه القرية فأخرجهم من هذه البلدة لأنا نريد الخسف بالبلدة لأن فعالهم وخبث صنيعهم قد بلغ الرب، فأرسلنا الرب لنفسدها، فخرج لوط وكلم أختانه وأزواج بناته وقال لهم: قوموا فاخرجوا من هذه القرية فإن الرب مزمع لخرابها، وكان عند أختانه كالمستهزىء بهم، فلما كان عند طلوع الصبح ألح الملكان على لوط وقالا له: قم فأخرج امرأتك وابنتيك اللتين معك لكيلا تبتلي بخطايا أهل هذه القرية، فابطأ لوط فأخذ الملكان بيده وبيد

امرأته وابنتيه لأن الله رحمه فأخرجاه وصيراه خارجاً عن القرية ، فلما أخرجاهم خارجاً قالا له : انج بنفسك ولا تلتفتن إلى خلفك ولا تقف في شيء من جميع القاع ، والتجىء إلى جبل وخلص نفسك ، فقال لهما لوط : أطلب إليكما يا سيدي أن أظفر الآن لأن عبدكما برحمة ورأفة وكثرت نعماكما إليّ لتحيي نفسي ، لست أقدر أن أنجو إلى الجبل ، لعل الشر يرهقني فأموت ، وهذه القرية هي قريبة للهرب إليها وهي صغيرة ، أتأذنان لي بالهرب إليها لأنها حقيرة ، فلتحييا نفسي ، فقال له : قد شفعتك في هذا أيضاً فلا أقلب هذه القرية التي سألت ، أسرع فانج نفسك إلى هناك ، لأنا لسنا نقدر أن نعمل شيئاً حتى تدخلها ، ولذلك سميت تلك القرية صاغار – وفي نسخة : زغر – فشرقت الشمس على الأرض وقد دخل لوط صاغار ، وفي نسخة : زغر – فأهبط الرب على سدوم وعامورا ناراً وكبريتاً من بين يدي الرب من السماء فقلب هذه القرى والقاع بأسره ، وأهلك جميع سكانها وجميع من فيها وجمع نبت الأرض ، فالتفتت امرأته إلى خلفها لتنظر فصارت نصبة ملح ، فأدلج إبراهيم باكراً إلى الموضع الذي كان يقف فيه بين يدي الرب ؛ فمد بصره نحو سدوم وعامورا وإلى جميع أرض القاع فنظر فإذا دخان القرية يرتفع كدخان الأخدود ، فلما خسف الله قرى القاع ذكر الله إبراهيم فأرسل لوطاً من المأفوكة إذ قلب الله القرى التي كان ينزلها لوط فطلع لوط من صاغار – وفي نسخة : زغر – فسكن الجبل هو وابنتاه معه لأنه تخوف أن

يسكن صاغرا ، فجلس في مغارة . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 3 صـ 560 .
563﴾

(10/383)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾

اعلم أن قوله تعالى مخبراً عن لوط عليه السلام أنه قال : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود : 80] يدل على أنه كان في غاية القلق والحزن بسبب إقدام أولئك الأوباش على ما يوجب الفضيحة في حق أضيافه ، فلما رأت الملائكة تلك الحالة بشروه بأنواع من البشارات : أحدها : أنهم رسل الله .

وثانيها : أن الكفار لا يصلون إلى ما هموا به .

وثالثها : أنه تعالى يهلكهم .

ورابعها : أنه تعالى ينجيه مع أهله من ذلك العذاب .

وخامسها : إن ركنك شديد وإن ناصرك هو الله تعالى فحصل له هذه البشارات ، وروي

أن جبريل عليه السلام قال له إن قومك لن يصلوا إليك فافتح الباب فدخلوا فضرب جبريل عليه السلام بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ [القمر : 37] ومعنى قوله : ﴿ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ أي بسوء ومكروه فإنا نحول بينهم وبين ذلك .

ثم قال : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ قرأ نافع وابن كثير ﴿ فَأَسْرِ ﴾ موصولة والباقون بقطع الألف وهما لغتان ، يقال سريت بالليل وأسريت وأنشد حسان :

أسرت إليك ولم تكن تسري . . فجاء باللغتين فمن قرأ بقطع الألف فحجته قوله سبحانه وتعالى : ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء : 1] ومن وصل فحجته قوله : ﴿ والليل إِذَا يَسْرِ ﴾ [الفجر : 4] والسرى السير في الليل .

يقال : سرى يسري إذا سار بالليل وأسرى بفلان إذا سير به بالليل ، والقطع من الليل بعضه وهو مثل القطعة ، يريد اخرجوا ليلاً لتسبقوا نزول العذاب الذي موعده الصبح .

(11/383)

قال نافع بن الأزرق لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما : أخبرني عن قول الله ﴿ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ قال هو آخر الليل سحر ، وقال قتادة : بعد طائفة من الليل ، وقال آخرون هو نصف الليل فإنه في ذلك الوقت قطع بنصفين .

ثم قال : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ نهى من معه عن الالتفات والالتفات نظر الإنسان إلى ما وراءه ، والظاهر أن المراد أنه كان لهم في البلدة أموال وأقمشة وأصدقاء ، فالملائكة أمروهم بأن يخرجوا ويتركوا تلك الأشياء ولا يلتفتوا إليها ألبتة ، وكان المراد منه قطع القلب عن تلك الأشياء وقد يراد منه الانصراف أيضاً .

كقوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ [يونس : 78] أي لتصرفنا ، وعلى هذا التقدير فالمراد من قوله : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ النهي عن التخلف .

ثم قال : ﴿ إِلَّا امرأتك ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر ﴿ إِلَّا امرأتك ﴾ بالرفع والباقون بالنصب .

قال الواحدي : من نصب وهو الاختيار فقد جعلها مستثناة من الأهل على معنى فأسر بأهلك إلا امرأتك والذي يشهد بصحة هذه القراءة أن في قراءة عبد الله ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ إِلَّا امرأتك ﴾ فأسقط قوله : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ من هذا الموضع ، وأما الذين رفعوا فالتقدير ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امرأتك ﴾ .

فإن قيل : فهذه القراءة توجب أنها أمرت بالالتفات لأن القائل إذا قال لا يقم منكم أحد إلا

زيد كان ذلك أمراً لزيد بالقيام .

وأجاب أبو بكر الأنباري عنه فقال : معنى ﴿ إلا ﴾ ههنا الاستثناء المنقطع على معنى ، لا يلتفت منكم أحد ، لكن امرأتك تلتفت فيصيبها ما أصابهم ، وإذا أن هذا الاستثناء منقطعاً كان التفاتها معصية ويتأكد ما ذكرنا بما روي عن قتادة أنه قال إنها كانت مع لوط حين خرج من القرية فلما سمعت هذا العذاب التفتت وقالت يا قوماه فأصابها حجر فأهلكها .

(12/383)

واعلم أن القراءة بالرفع أقوى ، لأن القراءة بالنصب تمنع من خروجها مع أهله لكن على هذا التقدير الاستثناء يكون من الأهل كأنه أمر لوطاً بأن يخرج بأهله ويترك هذه المرأة فإنها هالكة مع الهالكين وأما القراءة بالنصب فإنها أقوى من وجه آخر ، وذلك لأن مع القراءة بالنصب يبقى الاستثناء متصلاً ومع القراءة بالرفع يصير الاستثناء منقطعاً .

ثم بين الله تعالى أنهم قالوا : إنه مصيبها ما أصابهم .

والمراد أنه مصيبها ذلك العذاب الذي أصابهم .

ثم قالوا : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح ﴾ روي أنهم لما قالوا : للوط عليه السلام : ﴿ إِنَّ

مَوْعِدَهُمُ الصبح ﴾ قال أريد أعجل من ذلك بل الساعة فقالوا : ﴿ أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ ﴾ قال المفسرون : إن لوطاً – عليه السلام – لما سمع هذا الكلام خرج بأهله في الليل .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في الأمر وجهان : الأول : أن المراد من هذا الأمر ما هو ضد النهي ويدل عليه وجوه : الأول : أن لفظ الأمر حقيقة في هذا المعنى مجاز في غيره دفعاً للاشتراك .

الثاني : أن الأمر لا يمكن حمله ههنا على العذاب ، وذلك لأنه تعالى قال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عاليها سَافِلَهَا ﴾ وهذا الجعل هو العذاب ، فدلت هذه الآية على أن هذا الأمر شرط والعذاب جزاء ، والشرط غير الجزاء ، فهذا الأمر غير العذاب ، وكل من قال بذلك قال إنه هو الأمر الذي هو ضد النهي .

والثالث : أنه تعالى قال : قبل هذه الآية ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إلى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود : 70] فدل هذا على أنهم كانوا مأمورين من عند الله تعالى بالذهاب إلى قوم لوط وبإيصال هذا العذاب إليهم .

إذا عرفت هذا فنقول : إنه تعالى أمر جمعاً من الملائكة بأن يخربوا تلك المدائن في وقت معين ، فلما جاء ذلك الوقت أقدموا على ذلك العمل ، فكان قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ إشارة إلى ذلك التكليف .

فإن قيل : لو كان الأمر كذلك ، لوجب أن يقال : فلما جاء أمرنا جعلوا عاليها سافلها ، لأن الفعل صدر عن ذلك المأمور .

قلنا : هذا لا يلزم على مذهبنا ، لأن فعل العبد فعل الله تعالى عندنا .

وأيضاً أن الذي وقع منهم إنما وقع بأمر الله تعالى وبقدرته ، فلم يبعد إضافته إلى الله عز وجل ، لأن الفعل كما تحسن إضافته إلى المباشر ، فقد تحسن أيضاً إضافته إلى السبب .

القول الثاني : أن يكون المراد من الأمر ههنا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل : 40] وقد تقدم تفسير ذلك الأمر .

القول الثالث : أن يكون المراد من الأمر العذاب وعلى هذا التقدير فيحتاج إلى الإضمار ، والمعنى : ولما جاء وقت عذابنا جعلنا عاليها سافلها .

المسألة الثانية :

اعلم أن ذلك العذاب قد وصفه الله تعالى في هذه الآية بنوعين من الوصف فالأول : قوله : ﴿ جَعَلْنَا عاليها سَافِلَهَا ﴾ روي أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه الواحد تحت

مدائن قوم لوط وقلعها وصعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الحمير ونباح الكلاب وصياح الديوك ، ولم تنكفئ لهم جرة ولم ينكب لهم إناء ، ثم قلبها دفعة واحدة وضربها على الأرض .

واعلم أن هذا العمل كان معجزة قاهرة من وجهين : أحدهما : أن قلع الأرض وإصعادها إلى قريب من السماء فعل خارق للعادات .

والثاني : أن ضربها من ذلك البعد البعيد على الأرض بحيث لم تتحرك سائر القرى المحيطة بها ألبتة ، ولم تصل الآفة إلى لوط عليه السلام وأهله مع قرب مكانهم من ذلك الموضع معجزة قاهرة أيضاً .

(14/383)

الثاني : قوله : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ واختلفوا في السجيل على وجوه :

الأول : أنه فارسي معرب وأصله سنككل وأنه شيء مركب من الحجر والطين بشرط أن يكون في غاية الصلابة ، قال الأزهري : لما عربته العرب صار عربياً وقد عربت حروفاً كثيرة كالديباج والديوان والاستبرق .

والثاني : سجيل ، أي مثل السجل وهو الدلو العظيم .

والثالث : سجيل ، أي شديد من الحجارة .

الرابع : مرسلة عليهم من أسجلته إذا أرسلته وهو فعيل منه .

الخامس : من أسجلته ، أي أعطيته تقديره مثل العطية في الإدرار ، وقيل : كان كتب عليها أسامي المعذبين .

السادس : وهو من السجل وهو الكتاب تقديره من مكتوب في الأزل أي كتب الله أن يعذبهم بها ، والسجيل أخذ من السجل وهو الدلو العظيمة لأنه يتضمن أحكاماً كثيرة ، وقيل : مأخوذ من المساجلة وهي المفاخرة .

والسابع : من سجيل أي من جهنم أبدلت النون لاماً ، والثامن : من السماء الدنيا ، وتسمى سجيلاً عن أبي زيد ، والتاسع : السجيل الطين ، لقوله تعالى : ﴿ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ [الذاريات : 33] وهو قول عكرمة وقتادة .

قال الحسن كان أصل الحجر هو من الطين ، إلا أنه صلب بمرور الزمان ، والعاشر : سجيل موضع الحجارة ، وهي جبال مخصوصة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ [النور : 43] .

واعلم أنه تعالى وصف تلك الحجارة بصفات :

فالصفة الأولى : كونها من سجيل ، وقد سبق ذكره .

الصفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ مَّنْضُودٍ ﴾ قال الواحدي : هو مفعول من النضد ، وهو

موضع الشيء بعضه على بعض ، وفيه وجوه : الأول : أن تلك الحجارة كان بعضها فوق بعض في النزول فأتى به على سبيل المبالغة .

والثاني : أن كل حجر فإن ما فيه من الأجزاء منضود بعضها ببعض ، وملتصق بعضها ببعض .

والثالث : أنه تعالى كان قد خلقها في معادنها ونضد بعضها فوق بعض ، وأعدها لإهلاك الظلمة .

واعلم أن قوله : ﴿ مَّنْضُودٍ ﴾ صفة للسجيل .

(15/383)

الصفة الثالثة : مسومة ، وهذه الصفة صفة للأحجار ومعناها المعلمة ، وقد مضى الكلام فيه في تفسير قوله : ﴿ والخيل المسومة ﴾ [آل عمران : 14] واختلفوا في كيفية تلك العلامة على وجوه : الأول : قال الحسن والسدي : كان عليها أمثال الخواتيم .

الثاني : قال ابن صالح : رأيت منها عند أم هانىء حجارة فيها خطوط حمر على هيئة الجزع .

الثالث : قال ابن جريج : كان عليها سيما لا تشارك حجارة الأرض ، وتدل على أنه تعالى

إنما خلقها للعذاب .

الرابع : قال الربيع : مكتوب على كل حجر اسم من رمى به .

ثم قال تعالى : ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي في خزائنه التي لا يتصرف فيها أحد إلا هو .

ثم قال : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ يعني به كفار مكة ، والمقصود أنه تعالى يرميهم بها .

عن أنس أنه قال : سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام عن هذا فقال : يعني عن ظالمي أمتك ، ما من ظالم منهم إلا وهو بمعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة .

وقيل : الضمير في قوله : ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ للقرى .

أي وما تلك القرى التي وقعت فيها هذه الواقعة من كفار مكة ببعيد ، وذلك لأن القرى كانت في الشام ، وهي قريب من مكة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 33.29 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قالوا يا لوط إنا رُسُل ربِّك لن يصلوا إليك ﴾

وفي اسمه وجهان :

أحدهما : أنه اسم أعجمي وهو قول الأكثرين . الثاني : أنه اسم عربي مأخوذ من قولهم : لطتُ الحوض إذا ملسته بالطين . وقيل إن لوطاً كان قائماً على بابه يمنع قومه من أضيافه ، فلما أعلموه أنهم رسل ربه مكّن قومه من الدخول فطمس جبريل عليه السلام على أعينهم فعميت ، وعلى أيديهم فجفت .

﴿ فأَسْرِ بأهلك ﴾ أي فسِرْ بأهلك ليلاً ، والسُري سير الليل ، قال عبد الله بن رواحة :

عند الصباح يحمد القوم السُرَى . . . وتنجلي عنهم غيابات الكرى

يقال وأسرى وفيها وجهان :

أحدهما : أن معناهما في سير الليل واحد .

الثاني : أن معناهما مختلف ، فأسرى إذا سار من أول الليل ، وسرى إذا سار في آخره ، ولا يقال في النهار إلا سار ، قال لبيد :

إذا المرءُ أسرى ليلة ظن أنه . . . قضى عملاً ، والمرءُ ما عاش عامِلُ

﴿ بقطعٍ من الليل ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : معناه سواد الليل ، قاله قتادة .

الثاني : أنه نصف الليل مأخوذ من قطعه نصفين ، ومنه قول الشاعر :

ونائحةٍ تنوح بقطع ليل . . . على رجلٍ بقارعة الصّعيد

الثالث : أنه الفجر الأول ، قاله حميد بن زياد . الرابع : أنه قطعة من الليل ، قاله ابن عباس .

﴿ ولا يلتفت منك أحد ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : لا ينظر وراءه منكم أحد ، قاله مجاهد . الثاني : يعني لا يتخلف منك أحد ، قاله ابن عباس :

الثالث : يعني لا يشتغل منكم أحد بما يخلفه من مال أو امتناع ، حكاه علي بن عيسى .

﴿ إلا امرأتك إنّه مُصيبها ما أصابهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن قوله ﴿ إلا امرأتك ﴾ استثناء من قوله ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل الا امرأتك ﴾ وهذا قول من قرأ ﴿ إلا امرأتك ﴾ بالنصب .

الثاني : أنه استثناء من قوله ﴿ ولا يلتفت منك أحد إلا امرأتك ﴾ وهو على معنى البدل إذا قرىء بالرفع .

﴿ إنه مصيبها ما أصابهم ﴾ فذكره قتادة أنها خرجت مع لوط من القرية فسمعت الصوت فالتفتت ، فأرسل الله عليهم حجراً فأهلكها . ﴿ إنّ موعدهم الصبح أليْسَ الصُّبحُ بقريبٍ ﴾ فروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن لوطاً لما علم أنهم رسل ربه قال : فالآن إذن فقال له جبريل عليه السلام ﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب " ويجوز أن يكون قد جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم لأن النفوس فيه أودع والناس فيه أجمع .

قوله عز وجل : ﴿ فلمّا جاء أمرُنا ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه أمر الله تعالى للملائكة . الثاني : أنه وقوع العذاب بهم .

الثالث : أنه القضاء بعذابهم .

﴿ جعلنا عاليَها سافلَها ﴾ قال محمد بن كعب القرظي إن الله تعالى بعث جبريل إلى مؤتفكات قوم لوط فاحتملها بجناحه ثم صعد بها حتى إن أهل السماء يسمعون نباح كلابهم وأصوات دجاجهم ، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها وأتبعها بحجارة من سجّيل حتى أهلكها وما حولها ، وكن خمساً : صبغة ومقرة وعمرة ودوما وسدوم وهي القرية العظمى .

وقال قتادة : كانوا في ثلاث قرى يقال لها سدوم بين المدينة والشام وكان فيها أربعة آلاف ألف .

﴿ وأمطرنا عليها حجارة من سجّيل ﴾ فيه ثمانية تأويلات : أحدها : أنه فارسي معرب وهو " سنك وكيل " فالسنك : الحجر ، والكيل الطين ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه طين قد طبخ حتى صار كالأرحاء ، ذكره ابن عيسى .

الثالث : أنه الحجارة الصلبة الشديدة ، قاله أبو عبيدة وأنشد قول ابن مقبل :

ورحلة يضربون البيض عن عَرَضٍ . . . ضربا تواصى به الأبطال سجّينا

إلا أن النون قلبت لاماً .

الرابع : من سجيل يعني من سماء اسمها سجيل ، قاله ابن زيد .

الخامس : من سجيل من جهنم واسمها سجين فقلبت النون لاماً .

(18/383)

السادس : أن السجيل من السجل وهو الكتاب وتقديره من مكتوب الحجارة التي كتب الله تعالى أن يعذب بها أو كتب عليها ، وفي التنزيل ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفي سجين . وما أدراك ما سجين . كتاب مرقوم ﴾ [المطففين : 7-9] السابع : أنه فِعّيل من السجل وهو الإرسال ، يقال أسجلته أي أرسلته ، ومنه سمي الدلو سجلاً لإرساله فكان السجل هو المرسل عليهم .

الثامن : أنه مأخوذ من السجل الذي هو العطاء ، يقال سجلت له سجلاً من العطاء ، فكأنه قال سُجلوا البلاء أي أعطوه .

﴿ منضود ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : قد نُضِّد بعضه على بعض ، قال الربيع .

الثاني : مصفوف ، قاله قتادة .

قوله عز وجل : ﴿ مسومة عند ربك ﴾ والمسومة : المعلّمة ، مأخوذ من السيماء وهي العلامة ، قال الشاعر :

غُلامٌ رماه الله بالحُسْن يافعا . . . له سيمياءٌ لا تشقُ على البصر

وفي علامنها قولان :

أحدهما : أنها كانت مختمة ، على كل حجر منها اسم صاحبه .

الثاني : معلمة ببياض في حمرة ، على قول ابن عباس ، وقال قتادة : مطوقة بسواد في حمرة .

﴿ عند ربك ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : في علم ربك ، قال ابن بحر .

الثاني : في خزائن ربك لا يملكها غيره ولا يتصرف فيها أحد إلا بأمره . ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه ذكر ذلك وعيداً لظالمي قريش ، قاله مجاهد .

الثاني : وعيد لظالمي العرب ، قال عكرمة .

الثالث : وعيد لظالمي هذه الأمة ، قاله قتادة .

الرابع : وعيد لكل ظالم ، قاله الربيع . وفي الحجارة التي أمطرت قولان :

أحدهما : أنه أمطرت على المدن حين رفعها . الثاني : أنها أمطرت على من لم يكن في المدن من أهلها وكان خارجاً عنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(19/383)

وقال ابن عطية :

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾

الضمير في ﴿ قالوا ﴾ ضمير الملائكة ، ويروى أن لوطاً لما غلبوه وهموا بكسر الباب وهو يمسكه قالت له الرسل : تنح عن الباب : فتنحى وانفتح الباب فضربهم جبريل عليه السلام بجناحه فطمس أعينهم وعموا ، وانصرفوا على أعقابهم يقولون : النجاء النجاء ، فعند لوط قوم سحرة ، وتوعدوا لوطاً ، ففزع حينئذ من وعيدهم ، فحينئذ قالوا له : ﴿ إنا رسل ربك ﴾ فأمن ، ذكر هذا النقاش ؛ وفي تفسير غيره ما يقتضي أن قولهم : ﴿ إنا رسل ربك ﴾ كان قبل طمس العيون ، ثم أمروه بالسرى وأعلموه أن العذاب نازل بالقوم ،

فقال لهم لوط : فعذبوهم الساعة ، قالوا له : ﴿ إن موعدهم الصبح ﴾ أي بهذا أمر الله ،
ثم أنسوه في قلقه بقولهم : ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ .

وقرأ نافع وابن كثير " فأسر " من سرى إذا سار في أثناء الليل ، وقرأ الباقون " فاسرِ " إذا سار في أول الليل و" القطع " القطعة من الليل ، ويحتمل أن لوطاً أسرى بأهله من أول الليل حتى جاوز البلد المقتلع ، ووقعت نجاته بسحر فتجتمع هذه الآية مع قوله : ﴿ إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴾ [القمر : 34] وبيت النابغة جمع بين الفعلين في قوله : [البسيط]

أسرت عليه من الجوزاء سارية . . . تزجي الشمال عليه جامد البرد

فذهب قوم إلى أن سرى وأسرى بمعنى واحد واحتجوا بهذا البيت .

قال القاضي أبو محمد : وأقول إن البيت يحتمل المعنيين ، وذلك أظهر عندي لأنه قصد وصف هذه الديمة ، وأنها ابتدأت من أول الليل وقت طلوع الجوزاء في الشتاء .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو " إلا امرأتُك " بالرفع على البدل من ﴿ أحد ﴾ وهذا هو الأوجه إذا استثني من منفي ، كقولك : ما جاءني أحد إلا زيد ، وهذا هو استثناء الملتفتين ، وقرأ الباقون " إلا امرأتَك " بالنصب ، ورأت ذلك فرقة من النحاة الوجه في الاستثناء من منفي ،

إذ الكلام المنفي في هذا مستقل بنفسه كالموجب، فإذ هو مثله في الاستقلال، فحكمه كحكمه في نصب المستثنى؛ وتأولت فرقة ممن قرأ: "إلا امرأَتَك" بالنصب أن الاستثناء وقع من الأهل كأنه قال: "فأسر بأهلك إلا امرأَتَك". وعلى هذا التأويل لا يكون إلا النصب، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: لو كان الكلام: "ولا يلتفتُ" - بالرفع - لصح الرفع في قوله: "إلا أمرأُتك" ولكنه نهي، فإذا استثنيت "المرأة" من ﴿ أحد ﴾ وجب أن تكون "المرأة" أبيح لها الالتفات فيفسد معنى الآية.

قال القاضي أبو محمد: وهذا الاعتراض حسن، يلزم الاستثناء من ﴿ أحد ﴾ رفعت التاء أو نصبت والانفصال عنه يترتب بكلام حكي عن المبرد، وهو أن النهي إنما قصد به لوط وحده، و"الالتفات" منفي عنهم بالمعنى، أي لا تدع أحداً منهم يلتفت، وهذا كما تقول لرجل: لا يقم من هؤلاء أحد إلا زيد، وأولئك لم يسمعوك، فالمعنى: لا تدع أحداً من هؤلاء يقوم والقيام بالمعنى منفي عن المشار إليهم.

(21/383)

قال القاضي أبو محمد: وجملة هذا أن لفظ الآية هو لفظ قولنا: لا يقم أحد إلا زيد، ونحن نحتاج أن يكون معناها معنى قولنا: لا يقم أحد إلا زيد وذلك اللفظ لا يرجع إلى هذا المعنى

إلا بتقدير ما حكيناه عن المبرد ، فتدبره . ويظهر من مذهب أبي عبيد أن الاستثناء ، إنما هو من الأهل . وفي مصحف ابن مسعود : " فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك " وسقط قوله : ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ . والظاهر في ﴿ يلتفت ﴾ أنها من التفات البصر ، وقالت فرقة : هي من لفت الشيء يلفته إذا ثناه ولواه ، فمعناه : ولا يتثبط . وهذا شاذ مع صحته وفي كتاب الزهراوي : أن المعنى : ولا يلتفت أحد إلى ما خلف ، بل يخرج مسرعاً مع لوط عليه السلام : وروي أن امرأة لوط لما سمعت الهدة ردت بصرها وقالت : واقوماه ، فأصابها حجر فقتلها .

وقرأت فرقة : " الصبُح " بضم الباء .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾

روي أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط واقتلعها ورفعها حتى سمع أهل السماء الدنيا صراخ الديكة ونباح الكلاب ، ثم أرسلها معكوسة ، وأتبعهم الحجارة من السماء ، وروي أن جبريل عليه السلام أخذهم بخوافي جناحه : ويروى أن مدينة منها نجيت كانت مختصة بلوط عليه السلام يقال لها : زغر .

و ﴿ أمرنا ﴾ في هذه الآية يحتمل أن يكون مصدراً من أمر ويكون في الكلام حذف مضاف تقديره مقتضى أمرنا ، ويحتمل أن يكون واحد الأمور ، والضمير في قوله : ﴿ عاليها سافلها ﴾ للمدن ، وأُجري ﴿ أمطرنا ﴾ عليها كذلك ، والمراد على أهلها ، وروي أنها

الحجارة استوفت منهم من كانوا خارج مدنهم حتى قتلتهم أجمعين . وروي أنه كان منهم في الحرم رجل فبقي حجره معلقاً في الهواء حتى خرج من الحرم فقتله الحجر ، و" أمطر " أبداً إنما يستعمل في المكروه ، ومطر يستعمل في المحبوب ، هذا قول أبي عبيدة .

(22/383)

قال القاضي أبو محمد : وليس كذلك وقوله تعالى : ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ [الأحقاف : 24] يرد هذا القول لأنهم إنما ظنوه معتاد الرحمة ، وقوله ﴿ من سجيل ﴾ اختلف فيه : فقال ابن زيد : ﴿ سجيل ﴾ : اسم السماء الدنيا .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، ويرده وصفه ب ﴿ منضود ﴾ . وقالت فرقة هو مأخوذ من لفظ السجل ، أي هي من أمر كتب عليهم .

قال القاضي أبو محمد : وهذا بعيد ، وقالت فرقة : هو مأخوذ من السجل إذا أرسل الشيء كما يرسل السجل وكما تقول : قالها مسجلة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، وقالت فرقة : ﴿ من سجيل ﴾ معناه : من جهنم لأنه يقال : سجيل وسجين حفظ فيها بدل النون لاماً ، كما قالوا : أصيلال وأصيلان . وقالت فرقة : ﴿ سجيل ﴾ معناه : شديد وأنشد الطبري في ذلك [ابن مقبلٍ

] :

ضرباً تواصى به الأبطال سجيلا . . . والبيت في قصيدة نونية : سجينا ، وقالت فرقة :

﴿ سجيل ﴾ لفظة أصلها غير عربية عربت أصلها سنج وكل . وقيل غير هذا في أصل اللفظة . ومعنى هذا اللفظ ماء وطين . هذا قول ابن عباس ومجاهد وابن جبير وعكرمة والسدي وغيرهم ، وذهبت هذه الفرقة إلى أن الحجارة التي رموا بها كانت كالآجر المطبوخ كانت من طين قد تحجر – نص عليه الحسن – .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول يشبه . وهو الصواب الذي عليه الجمهور . وقالت فرقة : معنى ﴿ سجيل ﴾ حجر مخلوط بطين أي حجر وطين . قال القاضي أبو محمد : ويمكن أن يرد هذا إلى الذي قبله ، لأن الآجر وما جرى مجراه يمكن أن يقال فيه حجر وطين لأنه قد أخذ من كل واحد منهما بحظه . هي طين من حيث هو أصلها . وحجر من حيث صلبت .

و﴿ منضود ﴾ معناه بعضه فوق بعض .

أي تتابع ؛ وهي صفة ل ﴿ سجيل ﴾ وقال الربيع بن أنس : "نضده" : إنه في السماء منضود معد بعضه فوق بعض .

و ﴿ مسومة ﴾ معناه معلمة بعلامة ، فقال عكرمة وقتادة : إنه كان فيها بياض وحمرة : ويحكى أنه كان في كل حجر اسم صاحبه ، وهذه اللفظة هي من سوم إذا أعلم ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر : " سوموا فقد سومت الملائكة " ويحتمل أن تكون ﴿ مسومة ﴾ ها هنا بمعنى : مرسلة ، وسومها من الهبوط.

وقوله ﴿ وما هي ﴾ إشارة إلى الحجارة . و﴿ الظالمين ﴾ قيل : يعني قريشاً . وقيل : يريد عموم كل من اتصف بالظلم ، وهذا هو الأصح لأنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سيكون في أمتي خسف ومسخ وقذف بالحجارة " ، وقد ورد أيضاً حديث : " إن هذه الأمة بمنجاة من ذلك " وقيل يعني ب ﴿ هي ﴾ : المدن ، ويكون المعنى : الإعلام بأن هذه البلاد قريبة من مكة – والأول أبين – وروي أن هذه البلاد كانت بين المدينة والشام ، وحكى الطبري في تسمية هذه المدن : صيعة ، وصعدة وعمزة ، ودوما وسدوم وهي القرية العظمى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يا لوط إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾

لما رأت الملائكة حزنه واضطرابه ومدافعته عرّفوه بأنفسهم ، فلما علم أنهم رسلٌ مكّن قومه من الدخول ، فأمرّ جبريل عليه السلام يده على أعينهم فعموا ، وعلى أيديهم فجفّت .

﴿ لَن يصلوا إِلَيْكَ ﴾ أي بمكروه ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ قرئ "فاسر" بوصل الألف وقطعها ؛ لغتان فصيحتان .

قال الله تعالى : ﴿ والليل إِذَا يَسْرِ ﴾ [الفجر : 4] وقال : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى ﴾ [الإسراء : 1] وقال النابغة : فجمع بين اللغتين :

أَسْرَتْ عليه من الجوزاء ساريةٌ . . .

تُزجي الشمالُ عليهِ جامِدَ البَرَدِ

وقال آخر :

حَيِّ النَّضيرةَ ربَّةَ الخِدْرِ . . .

أَسْرَتْ إليكَ ولم تَكنْ تَسْرِي

وقد قيل : "فَأَسْرِ" بالقطع إذا سار من أوّل الليل ، وسرى إذا سار من آخره ؛ ولا يقال في النهار إلا سار .

وقال لبيد :

إذا المرءُ أَسْرَى ليلةً ظَنّ أنَّهُ . . .

قَضَى عملاً والمرءُ ما عاش عامِلُ

وقال عبد الله بن رَوَاحَةَ :

عند الصّباحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرَى . . .

وتَنْجَلِي عنهم غَيَاباتُ الكرَى

قوله تعالى : ﴿ بِقِطْعٍ مِّنَ الليل ﴾ قال ابن عباس : بطائفة من الليل .

الضحّاك : ببقية من الليل .

قَتَادة : بعد مضي صدر من الليل .

الأخفش : بعد جنح من الليل .

ابن الأعرابي : بساعة من الليل .

وقيل : بظلمة من الليل .

وقيل : بعد هدءٍ من الليل .

وقيل : هزيع من الليل .

وكلها متقاربة ؛ وقيل : إنه نصف الليل ؛ مأخوذ من قطعه نصفين ؛ ومنه قول الشاعر :

ونائحةٍ تَنُوحُ بقطعِ ليلٍ . . .

على رجلٍ بقارعةِ الصّعيدِ

فإن قيل : السُّرى لا يكون إلا بالليل ، فما معنى "بقطع من الليل" ؟ فالجواب : أنه لو لم يقل : "بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ" جاز أن يكون أوّله .

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أي لا ينظر وراءه منكم أحد ؛ قاله مجاهد .

ابن عباس : لا يتخلف منكم أحد .

(25/383)

عليّ بن عيسى : لا يشتغل منكم أحد بما يخلفه من مال أو متاع .

﴿ إِلَّا امرأتك ﴾ بالنصب ؛ وهي القراءة الواضحة البيّنة المعنى ؛ أي فأسر بِأهلك إلا امرأتك .

وكذا في قراءة ابن مسعود "فأسر بِأهلِك إلا امرأتك" فهو استثناء من الأهل .

وعلى هذا لم يخرج بها معه .

وقد قال الله عز وجل : ﴿ كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ [الأعراف : 83] أي من الباقين .

وقرأ أبو عمرو وابن كثير : "إلا امرأتك" بالرفع على البدل من "أحد" .

وأنكر هذه القراءة جماعة منهم أبو عبيد ؛ وقال : لا يصح ذلك إلا برفع "يلتفت" ويكون نعتاً ؛ لأن المعنى يصير إذا أبدلت وجزمت أن المرأة أبيح لها الالتفات ، وليس المعنى كذلك .

قال النحاس : وهذا الحمل من أبي عبيد وغيره على مثل أبي عمرو مع جلالته ومحله من العربية لا يجب أن يكون ؛ والرفع على البدل له معنى صحيح ، والتأويل له على ما حكى محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد أن يقول الرجل لحاجبه : لا يخرج فلان ؛ فلفظ النهي لفلان ومعناه للمخاطب ؛ أي لا تدعه يخرج ؛ ومثله قولك : لا يقم أحد إلا زيد ؛ يكون معناه : انههم عن القيام إلا زيداً ؛ وكذلك النهي للوط ولفظه لغيره ؛ كأنه قال : انههم لا يلتفت منهم أحد إلا امرأتك .

ويجوز أن يكون استثناء من النهي عن الالتفات لأنه كلام تام ؛ أي لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فإنها تلتفت وتهلك ، وأن لوطاً خرج بها ، ونهى من معه ممن أسرى بهم ألا يلتفت ، فلم يلتفت منهم أحد سوى زوجته ؛ فإنها لما سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت : واقوماه فأدركها حجر فقتلها .

﴿ إِنَّهُ مُصِيبُهَا ﴾ أي من العذاب .

والكناية في "إنه" ترجع إلى الأمر والشأن ؛ أي فإن الأمر والشأن والقصة .

﴿ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح ﴾ لما قالت الملائكة : ﴿ إِنَّا مهلكوا أَهْلِ هذه القرية ﴾ [العنكبوت : 31] قال لوط : الآن الآن .

استعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه ؛ فقالوا : ﴿ أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ ﴾ وقرأ عيسى بن عمر "أليس الصُّبُحُ" بضم الباء وهي لغة .

ويحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم ؛ لأن النفوس فيه أودع ، والناس فيه أجمع .

وقال بعض أهل التفسير : إن لوطاً خرج بابنتيه ليس معه غيرهما عند طلوع الفجر ، وأن الملائكة قالت له : إن الله قد وكّل بهذه القرية ملائكة معهم صوت رعد ، وخطف برق ، وصواعق عظيمة ، وقد ذكرنا لهم أن لوطاً سيخرج فلا تؤذوه ؛ وأمارته أنه لا يلتفت ، ولا تلتفت ابنتاه فلا يهولنّك ما ترى .

فخرج لوط وطوى الله له الأرض في وقته حتى نجا ووصل إلى إبراهيم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ أي عذابنا .

﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ، وهي خمس سدوم وهي القرية العظمى وعامورا ، ودادوما ، وضعوه ، وقتم ، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها ؛ حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم وصياح ديكتهم ، لم تتكفىء لهم جرّة ، ولم ينكسر لهم إناء ، ثم نكسوا على رؤوسهم ، وأتبعهم الله بالحجارة .

مقاتل : أهلكت أربعة ، ونجت ضعوه .

وقيل غير هذا ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ دليل على أن من فعل فعلهم حكمه الرجم ؛ وقد تقدّم في "الأعراف" .

وفي التفسير : أمطرنا في العذاب ، ومطرنا في الرحمة .

وأما كلام العرب فيقال : مطرت السماء وأمطرت : حكاه الهرويّ .

واختلف في "السِّجِّيل" فقال النحاس : السجيل الشديد الكثير ؛ وسجيل وسِجِّين اللام والنون أختان .

وقال أبو عبيدة : السجيل الشديد ؛ وأنشد :

ضَرْباً تَوَاصَى به الأبطالُ سِجِّينَا . . .

(27/383)

قال النحاس : وردّ عليه هذا القول عبد الله بن مسلم وقال : هذا سجين وذلك سجيل فكيف يستشهد به ؟! قال النحاس : وهذا الرد لا يلزم ، لأن أبا عبيدة ذهب إلى أن اللام تبدل من النون لقرب إحداهما من الأخرى ؛ وقول أبي عبيدة يردّ من جهة أخرى ؛ وهي أنه لو كان على قوله لكان حجارة سجيلاً ؛ لأنه لا يقال : حجارة من شديد ؛ لأن شديداً

نعت .

وحكى أبو عبيدة عن الفراء أنه قد يقال لحجارة الأرحاء سجيل .

وحكى عنه محمد بن الجهم أن سجيلاً طين يطبخ حتى يصير بمنزلة الأرحاء .

وقالت طائفة منهم ابن عباس وسعيد بن جبير وابن إسحق : إن سجيلاً لفظة غير عربية عُرِّبت ، أصلها سَنْج وجِيلْ .

ويقال : سَنْك وكِيلْ ؛ بالكاف موضع الجيم ، وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما اسماً واحداً .

وقيل : هو من لغة العرب .

وقال قتادة وعِكرمة : السجيل الطين بدليل قوله : ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ [الذاريات : 33] .

وقال الحسن : كان أصل الحجارة طيناً فشدّدت .

والسجيل عند العرب كل شديد صُلْب .

وقال الضحاك : يعني الآجر .

وقال ابن زيد : طين طبخ حتى كان كالآجر ؛ وعنه أن سجيلاً اسم السماء الدنيا ؛ ذكره المهدويّ ؛ وحكاه الثعلبيّ عن أبي العالية ؛ وقال ابن عطية : وهذا ضعيف يرده وصفه ب"منضود" .

وعن عكرمة : أنه بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض منه نزلت الحجارة .

وقيل : هي جبال في السماء ، وهي التي أشار الله تعالى إليها بقوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ [النور : 43] .

وقيل : هو مما سجّل لهم أي كتب لهم أن يصيبهم ؛ فهو في معنى سِجين ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ [المطففين : 9 8] قاله الزجاج واختاره .

وقيل : هو فِعّيل من أسجلته أي أرسلته ؛ فكأنها مرسَلة عليهم .

وقيل : هو من أسجلته إذا أعطيتَه ؛ فكأنه عذاب أُعطوه ؛ قال :

(28/383)

مَنْ يُساجِلْني يُساجِلْ ماجداً . . .

يَمْلأ الدّلْوإلى عَقْدِ الكَرَب

وقال أهل المعاني : السجّيل والسجّين الشديد من الحَجَر والضَّرب ؛ قال ابن مُقْبل :

ورَجْلَةٍ يضربون البَيْضَ ضَاحِيَة . . .

ضَرْباً تَوَاصَى بِهِ الأبطالُ سِجّينا

﴿ مَّنْضُودٍ ﴾ قال ابن عباس : متتابع .

وقال قتادة : نُضد بعضها فوق بعض .

وقال الرّبيع : نُضد بعضه على بعض حتى صار جسداً واحداً .

وقال عِكرمة : مصفوف .

وقال بعضهم مرصوص ؛ والمعنى متقارب .

يقال : نَضَدت المتاع واللّبِن إذا جعلت بعضه على بعض ، فهو منضود ونَضِيد ونَضَدٌ ؛ قال :

ورفَّعَتْه إلى السِّجْفَين فالنَّضَدِ . . .

وقال أبو بكر الهُذَليّ : مُعدّ ؛ أي هو مما أعدّه الله لأعدائه الظّلمة .

﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ أي معلمَة ، من السِّيما وهي العلامة ؛ أي كان عليها أمثال الخواتيم .

وقيل : مكتوب على كل حجر اسم من رُمي به ، وكانت لا تشاكل حجارة الأرض .

وقال الفرّاء : زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد في بياض ، فذلك تسويمها .

وقال كعب : كانت معلمة ببياض وحمرة ، وقال الشاعر :

غلامٌ رماه اللَّهُ بالحسن يافِعاً . . .

له سِيمياء لا تَشقُّ على البَصَرْ

و"مُسَوَّمَةً" من نعت حجارة .

و"منضودٍ" من نعت "سِجّيل" .

وفي قوله : ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ دليل على أنها ليست من حجارة الأرض ؛ قاله الحسن .

﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ ﴾ يعني قوم لوط ؛ أي لم تكن تخطئهم .

وقال مجاهد : يُرهِب قريشاً ؛ المعنى : ما الحجارة من ظالمي قومك يا محمد ببعيد .

وقال قتادة وعِكرمة : يعني ظالمي هذه الأمة ؛ والله ما أجار الله منها ظالماً بعد .

(29/383)

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سيكون في آخر أمّتي قوم يكتفي رجالهم بالرجال ونساؤهم بالنساء فإذا كان ذلك فارتقبوا عذاب قومِ لوط أن يرسل الله عليهم حجارة من سجيل ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ ﴾ " وفي رواية عنه عليه السلام : " لا تذهب الليالي والأيام حتى تستحلّ هذه الأمة أدبار الرجال كما استحلوا أدبار النساء فتصيب طوائف من هذه الأمة حجارة من ربك " .

وقيل : المعنى ما هذه القرى من الظالمين ببعيد ؛ وهي بين الشام والمدينة .

وجاء "بِبَعِيدٍ" مذكراً على معنى بمكان بعيد .

وفي الحجارة التي أمطرت قولان : أحدهما : أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل .

الثاني : أنها أمطرت على من لم يكن في المدن من أهلها وكان خارجاً عنها . انتهى انتهى ا .

هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(30/383)

وقال الخازن :

﴿ قالوا يا لوط ﴾

(31/383)

ركنك شديد ﴿ إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ يعني بمكروه فافتح الباب ودعنا وإياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم فأذن له فتحول إلى صورته التي يكون فيها ونشر جناحية وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا أجلى الجبين ورأسه حبك مثل المرجان كأنه كالثلج بياضاً وقدماه إلى الخضرة فضرب بجناحية وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم فانصرفوا وهم يقولون النجاء النجاء في بيت لوط أسحر قوم في الأرض قد سحرونا وجعلوا

يقولون يا لوط كما أنت حتى تصبح وسترى ما تلقى منا غداً يوعدونه بذلك ﴿ فأسر بأهلك ﴾ يعني ببيتك ﴿ بقطع من الليل ﴾ قال ابن عباس : بطائفة من الليل ، وقال الضحاك : لبقية من الليل ، وقال قتادة : بعد مضي أوله وقيل أنه السحر الأول ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ يعني ولا يلتفت منكم أحد إلى ورائه ولا ينظر إلى خلفه ﴿ إلا امرأتك ﴾ فإنها من الملتفتات فتهلك مع من هلك من قومها وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إنه مصيبها ما أصابهم ﴾ فقال لوط : متى يكون هذا العذاب قالوا ﴿ إن موعدهم الصبح ﴾ قال لوط إنه بعيد أريد أسرع من ذلك فقالوا له ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ فلما خرج لوط من قريته أخذ أهله معه وأمرهم ألا يلتفت منهم أحد فقبلوا منه إلا امرأته فإنها لما سمعت هذه العذاب وهو نازل بهم التفتت وصاحت وا قوماه فأخذتها حجارة فأهلكتها معهم ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ يعني أمرنا بالعذاب ﴿ جعلنا عاليها سافلها ﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط وهي خمس مدائن أكبرها سدوم وهي المؤتفكات المذكورة في سورة براءة ويقال كان فيها أربعمائة ألف وقيل أربعة آلاف ألف فرفع جبريل المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب لم يكفأ لهم إناء ولم ينتبه لهم نائم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها ﴿ وأمطرنا عليها ﴾ يعني على شذاذها ومن كان خارجاً عنها من مسافريها وقيل بعد ما

قلبها أمطر عليهم ﴿ حجارة من سجيل ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير : معناه شنك كل فارسي معرب لأن العرب تكلمت بشيء من الفارسي صارت لغة للعرب ولا يضاف إلى الفارسي مثل قوله سندس وإستبرق ونحو ذلك فكل هذه ألفاظ فارسية تكلمت بها العرب واستعملتها في ألفاظهم فصارت عربية ، قال قتادة وعكرمة : السجيل الطين دليله قوله في موضع آخر حجارة من طين .

وقال مجاهد : أولها حجر وآخرها طين ، وقال الحسن : أصل الحجارة طين فشدت ، وقال الضحاك : يعني الآجر وقيل : السجيل اسم سماء الدنيا ، وقيل : هو جبل في سماء الدنيا ﴿ منضود ﴾ قال ابن عباس : متتابع يتبع بعضها بعضاً مفعول من النضد وهو وضع الشيء بعضه فوق بعض .

﴿ مسومة عند ربك ﴾

صفة للحجارة يعني معلمة قال ابن جريج : عليها سيما لا تشاكل حجارة الأرض ، وقال قتادة وعكرمة : عليها خطوط حمر على هيئة الجزع وقال الحسن والسدي : كانت مختومة عليها أمثال الخواتيم ، وقيل : كان مكتوباً عليها أي على كل حجر اسم صاحبه الذي يرمى به ﴿ وما هي ﴾ يعني تلك الحجارة ﴿ من الظالمين ﴾ يعني مشركي مكة ﴿ ببعيد ﴾ قال قتادة وعكرمة : يعني ظالمي هذه الآمة والله ما أجار الله منها ظالماً بعد وفي بعض

الآثار ما من ظالم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة ، وقيل : إن الحجارة اتبعت شذاذ قوم لوط حتى إن واحداً منهم دخل الحرم فوجد الحجر معلقاً في السماء أربعين يوماً حتى خرج ذلك الرجل من الحرم فسقط عليه الحجر فأهلكه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(33/383)

وقال أبو حيان :

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾

سرى وأسرى بمعنى واحد قاله أبو عبيدة والأزهري ، وعن الليث أسرى سار أول الليل ، وسرى سار آخره ، ولا يقال في النهار إلا سار .

السجيل والسجين الشديد من الحجر قاله أبو عبيدة .

وقال الفراء : طين طبخ حتى صار بمنزلة الآجر .

وقيل : هو فارسي ، وسنك الحجر ، وكل الطين يعرب فقيل : سجين .

المنضود : المجعول بعضه فوق بعض .

﴿ قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم

أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ : روي أن لوطاً عليه السلام غلبوه ، وهموا بكسر الباب وهو يمسكه قال له الرسل : تنح عن الباب فتنحى ، وانفتح الباب فضربهم جبريل عليه السلام بجناحه ، فطمس أعينهم وعموا ، وانصرفوا على أعقابهم يقولون : النجاة النجاة ، فعند لوط قوم سحرة وتوعدوا لوطاً ، فحينئذ قالوا له : إنا رسل ربك .

وروي أن جبريل نقب من خصاص الباب ، ورمى في أعينهم فعموا .

وقيل : أخذ قبضة من تراب وأذراها في وجوههم ، فأوصل إلى عين من بعد ومن قرب من ذلك التراب ، فطمست أعينهم فلم يعرفوا طريقاً ولم يهتدوا إلى بيوتهم .

وقيل : كسروا بابه وتهجموا عليه ، ففعل بهم جبريل ما فعل .

والجملة من قوله : لن يصلوا إليك ، موضحة للذي قبلها لأنهم إذا كانوا رسل الله لن يصلوا إليه ، ولم يقدروا على ضرره ، ثم أمروه بأنْ يسري بأهله .

وقرأ الحرميان : فاسر ، وان أسر بوصل الألف من سرى ، وباقي السبعة بقطعها ، وأهله ابنتاه ، وطائفة يسيرة من المؤمنين بقطع من الليل .

قال ابن عباس : بطائفة من الليل ، وقال الضحاك : ببقية من آخره ، وقال قتادة : بعد مضي صدر منه ، وقال ابن الأعرابي : أي ساعة من الليل ، وقيل : بظلمة ، وقيل : إنه نصف ، وقيل : إنه نصف الليل مأخوذ من قطعه نصفين .

وقال الشاعر :

ونائحة تنوح بقطع ليل . . .

على رجل بقارعة الصعيد

وقال محمد بن زياد : السحر ، لقوله : نجيناهم بسحر .

قال ابن عطية : ويحتمل أنه أسرى بأهله من أول الليل حتى جاوز البلد المقتلع ، ووقعت نجاته بسحر .

فتجتمع هذه الآية مع قوله ﴿ إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴾ انتهى .

وقال ابن الأنباري : القطع بمعنى القطعة ، مختص بالليل ، ولا يقال عندي قطع من الثوب .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : إلا امرأتك بالرفع ، وباقي السبعة بالنصب ، فوجه النصب على أنه استثناء من قوله بأهلك ، إذ قبله أمر ، والأمر عندهم كالواجب .

ويتعين النصب على الاستثناء من أهلك في قراءة عبد الله ، إذ سقط في قراءته وفي مصحفه : ولا يلتفت منكم أحد .

وجوزوا أن يكون منصوباً على الاستثناء من أحد وإن كان قبله نهى ، والنهي كالنفي على أصل الاستثناء ، كقراءة ابن عامر : ما فعلوه إلا قليلاً منهم بالنصب ، وإن كان قبله نفي .

ووجه الرفع على أنه بدل من أحد ، وهو استثناء متصل .

وقال أبو عبيد : لو كان الكلام ولا يلتفت برفع الفعل ، ولكنه نهى .

فإذا استثنيت المرأة من أحد وجب أن تكون المرأة أبيح لها الالتفات ، فيفيد معنى الآية يعني أنّ التقدير يصير إلا امرأتك ، فإنها لم تنه عن الالتفات .

قال ابن عطية : وهذا الاعتراض حسن يلزم أنّ الاستثناء من أحد رفعت التاء أو نصبت ، والانفصال عنه يترتب بكلام محكي عن المبرد وهو أنّ النهي إنما قصد به لوط وحده ، والالتفات منفي عنهم ، فالمعنى : أن لا تدع أحداً منهم يلتفت .

وهذا كما تقول لرجل : لا يقم من هؤلاء أحد ، وأولئك لم يسمعوك ، فالمعنى : لا تدع من هؤلاء يقوم ، والقيام في المعنى منفى عن المشار إليهم .

(35/383)

وقال الزمخشري : وفي إخراجها مع أهله روايتان : روي أنه أخرجها معهم وأمر أن لا يلتفت منهم أحد إلا هي ، فلما سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت : واقوماه ، فأدركها حجر

فقتلها .

وروي أنه أمر بأن يخلفها مع قومها ، وأن هواها إليهم ، ولم يسر بها .

واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين انتهى .

وهذا وهم فاحش إذ بنى القراءتين على اختلاف الروايتين من أنه سري بها ، أو أنه لم يسر بها ، وهذا تكاذب في الأخبار يستحيل أن تكون القراءتان وهما من كلام الله تترتبان على التكاذب .

وقيل في الاستثناء من الأهل إشكال من جهة المعنى ، إذ يلزم أن لا يكون سري بها ، ولما التفتت كانت قد سرت معهم قطعاً ، وزال هذا الإشكال أن يكون لم يسر بها ، ولكنها لما تبعتهم التفتت .

وقيل : الذي يظهر أن الاستثناء على كلتا القراءتين منقطع ، لم يقصد به إخراجها من المأمور بالإسراء بهم ، ولا من المنهيين عن الالتفات ، ولكن استؤنف الإخبار عنها ، فالمعنى : لكن امرأتك يجري لها كذا وكذا .

ويؤيد هذا المعنى أن مثل هذه الآية جاءت في سورة الحجر ، وليس فيها استثناء ألبتة قال تعالى : فاسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون ، فم تقع العناية في ذلك إلا بذكر من أنجاهم الله تعالى .

فجاء شرح حال امرأته في سورة هود تبعاً لا مقصوداً بالإخراج مما تقدم ، وإذا اتضح هذا

المعنى علم أن القراءتين وردتا على ما تقتضيه العربية في الاستثناء المنقطع ، ففيه النصب والرفع .

فالنصب لغة أهل الحجاز وعليه الأكثر ، والرفع لبني تميم وعليه اثنان من القرّاء انتهى .

(36/383)

وهذا الذي طول به لا تحقيق فيه ، فإنه إذا لم يقصد إخراجها من المأمور بالإسراء بهم ولا من المنهيين عن الالتفات ، وجعل استثناء منقطعاً كان الاستثناء المنقطع الذي لم يتوجه عليه العامل بحال ، وهذا النوع من الاستثناء المنقطع يجب فيه النصب بإجماع من العرب ، وليس فيه النصب والرفع باعتبار اللغتين ، وإنما هذا في الاستثناء المنقطع ، وهو الذي يمكن توجه العامل عليه .

وفي كلا النوعين يكون ما بعد إلا من غير الجنس المستثنى منه ، فكونه جاز فيه اللغتان دليل على أنه مما يمكن أن يتوجه عليه العامل ، وهو قد فرض أنه لم يقصد بالاستثناء إخراجها عن المأمور بالإسراء بهم ، ولا من المنهيين عن الالتفات ، فكان يجب فيه إذ ذاك النصب قولاً واحداً .

والظاهر أن قوله : ولا يلتفت ، من التفات البصر .

وقالت فرقة : من لفت الشيء يلفته إذا ثناه ولواه ، فمعناه : ولا يتثبط .

وفي كتاب الزهراوي أنّ المعنى : ولا يلتفت أحد إلى ما خلف بل يخرج مسرعاً .

والضمير في أنه ضمير الشأن ، ومصيبها مبتدأ ، وما أصابهم الخبر .

ويجوز على مذهب الكوفيين أن يكون مصيبها خبر إن ، وما أصابهم فاعل به ، لأنهم يجيزون أنه قائم أخواك .

ومذهب البصريين أنّ ضمير الشان لا يكون خبره إلا جملة مصرحاً بجزءيها ، فلا يجوز هذا الإعراب عندهم .

وقرأ عيسى بن عمر : الصبح بضم الباء .

قيل : وهي لغة ، فلا يكون ذلك اتباعاً وهو على حذف مضاف أي : إنّ موعد هلاكهم الصبح .

ويروى أن لوطاً عليه السلام قال : أريد أسرع من ذلك ، فقالت له الملائكة : أليس الصبح بقريب ؟ وجعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم ، لأنّ النفوس فيه أودع ، والراحة فيه أجمع .

ويروى أن لوطاً خرج بابنتيه ليس معه غيرهما عند طلوع الفجر ، وطوى الله له الأرض في وقته حتى نجا ، ووصل إلى إبراهيم عليهما السلام .

والضمير في عاليها عائد على مدائن قوم لوط ، جعل جبريل جناحه في أسفلها ثم رفعها إلى السماء ، حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ، ثم قلبها عليهم ، وأتبعوا الحجارة من فوقهم وهي المؤتفكات سبع مدائن .

وقيل : خمس عدّها المفسرون ، وفي ضبطها إشكال ، فأهملت ذكرها .

وسدوم في القرية العظمى ، وأمطرنا عليها أي على أهلها .

وروي أن الحجارة أصابت منهم من كان خارج مدنهم حتى قتلتهم أجمعين ، وأنّ رجلاً كان في الحرم فبقي الحجر معلقاً في الهواء حتى خرج من الحرم فقتله الحجر .

قال أبو العالية ، وابن زيد : السجيل اسم لسماء الدنيا ، وهذا ضعيف لوصفه بمنضود ، وتقدم شرحه في المفردات .

وقيل : من أسجله إذا أرسله ، وقيل : مما كتب الله أن يعذب به من السجل ، وسجل لفلان .

ومعنى هذه اللفظة : ماء وطين ، هذا قول : ابن عباس ، ومجاهد ، وابن جبير ، وعكرمة ، والسدّي ، وغيرهم .

وذهبوا إلى أنّ الحجارة التي رموا بها كانت كالآجر المطبوخ .

وقيل : حجر مخلوط بطين أي حجر وطين ، ويمكن أن يعود هذا إلى الآجر .

وقال أبو عبيدة : الشديد من الحجارة الصلب ، مسومة عليها سيما يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض قاله : ابن جريج .

وقال عكرمة وقتادة : إنه كان فيها بياض .

وقيل : مكتوب على كل حجر اسم من رمى به ، قاله الربيع .

وعن ابن عباس ، والحسن : بياض في حمرة .

وعن ابن عباس أيضاً : الحجر أبيض فيه نقطة سوداء ، وأسود فيه نقطة بيضاء .

وعن عكرمة وقتادة أيضاً : فيها خطوط حمر على هيئة الجزع .

وقيل : وكانت مثل رؤوس الإبل ، ومثل مبارك الإبل .

وقيل : قبضة الرجل .

قال ابن عباس ومقاتل : معنى من عند ربك ، جاءت من عند ربك .

وقيل : معدة عند ربك قاله : أبو بكر الهذلي .

قال ابن الأنباري : المعنى لزم هذا التسويم الحجارة عند الله إيذاناً بنفاذ قدرته وشدة عذابه .

والظاهر أن ضمير هي عائد على القرى التي جعل الله أعاليها أسافلها ، والمعنى : أنّ ذوات هذه المدن كانت بين المدينة والشام ، يمرّ عليها قريش في مسيرهم ، فالنظر إليها وفيها فيه اعتبار واتعاظ .

وقيل : وهي عائدة على الحجارة ، وهي أقرب مذكور .

وقال ابن عباس : وما عقوبتهم ممن يعمل عملهم ببعيد ، والظاهر عموم الظالمين .

وقيل : عنى به قريش .

وفي الحديث : " إنه سيكون في أمتي خسف ومسخ وقذف بالحجارة " وقيل : مشركو العرب .

وقيل : قوم لوط أي : لم تكن الحجارة تخطئهم .

وفي الحديث : " سيكون في أواخر أمتي قوم يكتفي رجالهم بالرجال والنساء بالنساء فإذا كان كذلك فارتقبوا عذاب قوم لوط أن يرسل الله عليهم حجارة من سجيل ثم تلا وما هي من الظالمين ببعيد " وإذا كان الضمير في قوله : وما هي ، عائد على الحجارة ، فيحتمل أن يراد بشيء بعيد ، ويحتمل أن يراد بمكان بعيد ، لأنها وإن كانت في السماء وهي مكان بعيد إلا أنها إذا هويت منها فهي أسرع شيء لحوقاً بالمرمى ، فكأنها بمكان قريب منه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قَالُواْ ﴾

أي الرسل لمّا شاهدوا عجزَه عن مدافعة قومِه ﴿ يالوط إِنَّا رُسُلُ رَبّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ ﴾ بضرر ولا مكروهٍ فافتح الباب ودعنا وإياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريلُ عليه السلام ربَّه ربَّ العزة جل جلاله في عقوبتهم فأذِن له فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحَه وله جناحان وعليه وشاح من دُرّ منظوم وهو برّاق الثُنايا فضرب بجناحه وجوهَهم فطمَس أعينَهم وأعماهم كما قال عز وعلا : ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ فصاروا لا يعرِفون الطريق فخرجوا وهم يقولون : النجاءَ فإن في بيت لوطٍ قوماً سحَرة ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ بالقطع ، من الإسراء ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، بالوصل حيث جاء في القرآن من السُّرى ، والفاءُ لترتيب الأمر بالإسراءِ على الإخبار برسالتهم المؤذِنة بورود الأمرِ والنهي من جنابه عز وجل إليه عليه السلام ﴿ بِقِطْعٍ مّنَ الليل ﴾ في طائفة منه .

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ ﴾ أي لا يتخلفْ أو لا ينظرْ إلى ورائه ﴿ أَحَدٌ ﴾ منك ومن أهلك ، وإنما نُهوا عن ذلك ليجدّوا في السير فإن من يلتفتُ إلى ما وراءه لا يخلو عن أدنى وقفةٍ أو لئلا تروا ما ينزل من العذاب فترقّوا لهم ﴿ إِلَّا امرأتك ﴾ استثناءٌ من قوله تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ ويؤيده أنه قرئ فأسرِ بأهلك بقطْعٍ من الليل إلا امرأتَك ، وقرئ بالرفع على البدل من أحدٌ ، فالالتفاتُ بمعنى التخلف ، لا بمعنى النظر إلى الخَلف كيلا يلزمَ التناقضُ بين القراءتين المتواترتين فإن النصبَ يقتضي كونَه عليه السلام غيرَ مأمورٍ بالإسراء بها ، والرفعَ كونَه مأموراً بذلك ، والاعتذارُ بأن مقتضى الرفعِ إنما هو مجردُ كونِها معهم وذلك لا يستدعي الأمرَ بالإسراء بها حتى يلزمَ المناقضةَ لجواز أن تسريَ هي بنفسها كما يُروى أنه عليه السلام لما أَسْرى بأهله تبِعَتْهم فلما سمعت هدّةَ العذابِ التفتت وقالت : يا قوماه فأدركها حجرٌ فقتلها وأن يسرِيَ بها عليه السلام من غير أمرٍ بذلك إذ موجبُ النصبِ إنما هو عدمُ الأمر بالإسراء بها لا النهيُ عن الإسراء بها حتى يكونَ عليه السلام بالإسراء بها مخالفاً للنهي لا يجدي نفعاً لأن انصرافَ الاستثناءِ إلى الالتفات يستدعي بقاءَ الأهل على العموم فيكون الإسراءُ بها مأموراً به قطعاً ، وفي حمل الأهليةِ في إحدى القراءتين على الأهلية الدينية وفي الأخرى على النسَبية مع أن فيه ما لا يخفى من التحكم والاعتساف كرٌّ على ما فُرّ منه من المناقضة ، فالأَولى حينئذ جعلُ الاستثناءِ على القراءتين من قوله : ﴿ لا يَلْتَفِتْ ﴾ مثلَ الذي في قوله تعالى : ﴿ مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ فإن ابنَ عامر قرأه بالنصب وإن كان

الأفصحَ الرفعُ على البدل، ولا بُعد في كون أكثرِ القراءِ على غير الأفصح ولا يلزم من ذلك أمرُها بالالتفات بل عدمُ نهيِها عنه بطريق الاستصلاح ولذلك علله على طريقة

(41/383)

الاستئنافِ بقوله: ﴿ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ من العذاب، وهو إمطارُ الأحجار وإن لم يصبْها الخسفُ، والضميرُ في إنه للشأن وقوله تعالى: ﴿ مُصِيبُهَا ﴾ خبرٌ وقوله: ﴿ مَا أصابهم ﴾ مبتدأٌ والجملةُ خبرٌ لإن الذي اسمُه ضميرُ الشأنِ، وفيه ما لا يخفى من تفخيم شأنِ ما أصابهم، ولا يحسُن جعلُ الاستثناءِ منقطعاً على قراءة الرفع.

﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح ﴾ أي موعدَ عذابِهم وهلاكهم، تعليلٌ للأمر بالإسراء والنهيِ عن الالتفات المُشعرِ بالحث على الإسراع ﴿ أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ ﴾ تأكيد للتعليل فإن قربَ الصبح داعٍ إلى الإسراع في الإسراء للتباعد عن مواقع العذاب، وروي أنه قال للملائكة: متى موعدُ هلاكِهم؟ قالوا: الصبحُ، قال: أريد أسرعَ من ذلك فقالوا ذلك. وإنما جُعل ميقاتُ هلاكِهم الصبحَ لأنه وقتُ الدعةِ والراحةِ فيكون حلولُ العذاب حينئذ أفظعَ ولأنه أنسبُ بكون ذلك عبرةً للناظرين.

﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا ﴾

أي وقت عذابنا وموعدُه وهو الصبح ﴿ جَعَلْنَا عاليها ﴾ أي عاليَ قُرى قومِ لوطٍ وهي التي عبّر عنها بالمؤتفكات، وهي خمسُ مدائنَ فيها أربعُمائةِ ألفِ ألفٍ ﴿ سَافِلَهَا ﴾ أي قلبناها على تلك الهيئةِ وجُعل عالِيها مفعولاً أولَ للجعل وسافلَها مفعولاً ثانياً له وإن تحقق القلبُ بالعكس أيضاً لتهويل الأمرِ وتفظيعِ الخطبِ لأن جعلَ عالِيها الذي هو مَقارُّهم ومساكنُهم سافلَها أشدُّ عليهم وأشقُّ من جعل سافِلها عاليَها وإن كان مستلزماً له. روي أنه جعلَ جبريلُ عليه السلام جناحَه في أسفلها ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهلُ السماء نُباحَ الكلاب وصياحَ الديكَةِ ثم قلبها عليهم، وإسنادُ الجعل والإمطار إلى ضميره سبحانه باعتبار أنه المسبّبُ لتفخيم الأمرِ وتهويلِ الخطب ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ على أهل المدائنِ أو شُذّاذهم ﴿ حِجَارَةً مّن سِجّيلٍ ﴾ من طين متحجّر كقوله: ﴿ حِجَارَةً مّن طِينٍ ﴾ وأصله سنك كل فعُرّب وقيل: هو من أسْجله إذا أرسله أو أدرّ عطيتَه والمعنى: من مِثْلِ الشيءِ المرسَل أو مثلِ العطيةِ في الإدرار أو من السِّجل أي مما كتب الله تعالى أن يعذبهم به، وقيل: أصله من سِجّينٍ أي من جهنم فأبدلت نونه لاماً ﴿ مَّنْضُودٍ ﴾ نُضِد في السماء نضْداً معدّاً للعذاب، وقيل: يُرسَل بعضُه إثرَ بعضٍ كقِطار الأمطار ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ مُعْلَمة

للعذاب . وقيل : معلمةً ببياض وحُمرة أو بسِيما تتميز به عن حجارة الأرض أو باسم مَنْ ترمى به ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ في خزائنه التي لا يتصرّف فيها غيرُه عز وجل ﴿ وَمَا هِىَ ﴾ أي الحجارةُ الموصوفة ﴿ مِنَ الظالمين ﴾ من كل ظالمٍ ﴿ بِبَعِيدٍ ﴾ فإنهم بسبب ظلمِهم مستحقون لها وملابَسون بها ، وفيه وعيدٌ شديد لأهل الظلمِ كافةً . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبريلَ عليه السلام فقال : يعني ظالمي أمتِك ما من ظالم منهم إلا وهو بمعرض حجرٍ يسقط عليه من ساعة إلى ساعة .

وقيل : الضميرُ للقُرى أي هي قريبةٌ من ظالمي مكةَ يمرّون بها في مسايرهم وأسفارِهم إلى الشام ، وتذكيرُ البعيدِ على تأويل الحجارة بالحجر أو إجرائه على موصوف مذكّرٍ أي بشي بعيد أو بمكان بعيد فإنها وإن كانت في السماء وهي في غاية البُعد من الأرض إلا أنها حين هَوَت منها فهي أسرعُ شيء لُحوقاً بهم فكأنها بمكان قريبٍ منهم . أو لأنه على زِنة المَصْدرِ كالزفير والصهيل والمصادر يستوي في الوصف بها المذكرُ والمؤنث . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾

بضرر ولا مكروه فافتح الباب ودعنا وإياهم ، ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام رب العزة في عقوبتهم فأذن له فلما دنوا طمس أعينهم فانطلقوا عمياً يركب بعضهم بعضاً وهم يقولون : النجاء النجاء فإن في بيت لوط قوماً سحرة ، وفي رواية أنه عليه السلام أغلق الباب على ضيفه فجاؤوا فكسروا الباب فطمس جبريل أعينهم فقالوا : يا لوط جئتنا بسحرة وتوعدوه فأوجس في نفسه خيفة قال : يذهب هؤلاء ويذروني فعندها قال جبريل عليه السلام : ﴿ لاَ تَخَفْ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ بالقطع من الإسراء ، وقرأ ابن كثير .

ونافع بالوصل حيث جاء في القرآن من السرى ، وقد جاء سرى .

وهما بمعنى واحد عند أبي عبيدة .

والأزهري ، وعن الليث أسرى سار أول الليل وسرى سار آخره ، ولا يقال في النهار : إلا سار وليس هو مقلوب سرى ، والفاء لترتيب الأمر بالإسراء على الإخبار برسالتهم المؤذنة بورود الأمر والنهي من جنابه عز وجل إليه عليه السلام ، والباء للتعدية أو للملابسة أي سر ملابساً بأهلك ﴿ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيلِ ﴾ قال ابن عباس : بطائفة منه ، وقال قتادة : بعد مضي

صدر منه ، وقيل : نصفه ، وفي رواية أخرى عن الحبر آخره وأنشد قول مالك بن كنانة

: ونائحة تقوم بقطع ليل . . .

على رحل أهانته شعوب

وليس من باب الاستدلال ، وإلى هذا ذهب محمد بن زياد لقوله سبحانه : ﴿ نجيناهم بِسَحَرٍ ﴾ [القمر : 34] وتعقبه ابن عطية بأنه يحتمل أنه أسرى بأهله من أول الليل حتى جاوزوا البلد المقتلع ، ووقعت نجاتهم بسحر ، وأصل القطع القطعة من الشيء لكن قال ابن الأنباري : إن ذلك يختص بالليل فلا يقال : عندي قطع من الثوب .

(45/383)

وفسر بعضهم القطع من الليل بطائفة من ظلمته ، وعن الحبر أيضاً تفسيره بنفس السواد ، ولعله من باب المساهة ﴿ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أي لا يتخلف كما روي عن ابن عباس ، أو لا ينظر إلى ورائه كما روي عن قتادة ، قيل : وهذا هو المعنى المشهور الحقيق للالتفات ، وأما الأول فلأنه يقال : لفته عن الأمر إذا صرفته عنه فالتفت أي انصرف ، والتخلف انصراف عن المسير ، قال تعالى : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاؤُنَا ﴾ [يونس : 78] أي تصرفنا كذا قال الراغب .

وفي الأساس أنه معنى مجازي ، والنهي في اللفظ لأحد ، وفي المعنى للوط عليه السلام على ما نقل عن المبرد ، وهذا كما تقول لخادمك : لا يقم أحد في أن النهي في الظاهر لأحد ، وهو في الحقيقة للخادم أن لا يدع أحداً يقوم ، فالمعنى هنا فأسر بأهلك ولا تدع أحداً منهم يلتفت ؛ ولا يخفى أنه على هذا تتم المناسبة بين المعطوف عليه والمعطوف لأن الأول لأمره عليه السلام .

والثاني لنهيه ، ويعلم من هذا أن ضمير ﴿ مِّنكُمْ ﴾ للأهل .

وقد صرح بذلك شهاب فلك الفضل الخفاجي ، فقال : وههنا لطيفة وهو أن المتأخرين من أهل البديع اخترعوا نوعاً من البديع سموه تسمية النوع ، وهو أن يؤتى بشيء من البديع ويذكر اسمه على سبيل التورية كقوله في البديعية في الاستخدام

: واستخدموا العين مني فهي جارية . . .

وكم سمحت بها في يوم بينهم

وتبجحوا باختراعه ، وأنا بمنّ الله تعالى أقول : إنه وقع في القرآن في هذه الآية لأن قوله سبحانه : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ الخ وقع فيه ضمير ﴿ مِّنكُمْ ﴾ للأهل فقوله جل وعلا : ﴿ لاَ يَلْتَفِتْ ﴾ من تسمية النوع وهذا من بديع النكات انتهى ، وسر النهي عن الالتفات بمعنى التخلف ظاهر ، وأما سره إذا كان بمعنى النظر إلى وراء فهو أن يجدوا في السير فإن

من يلتفت إلى ورائه لا يخلو عن أدنى وقفة أو أن لا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم .

(46/383)

وذكر بعضهم أن النهي وكذا الضمير للوط عليه السلام ولأهله أي لا يلتفت أحد منك ومن أهلك .

﴿ إِلاَّ امرأتك ﴾ بالنصب وهو قراءة أكثر السبعة .

وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو بالرفع ؛ وقد كثر الكلام في ذلك فقال الزمخشري : إنه سبحانه استثناها من قوله : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ ويدل عليه قراءة عبد الله ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ بقطع من الليل إلا امرأتك ويجوز أن ينتصب من لا يلتفت على أصل الاستثناء ، وإن كان الصيح هو البدل أعني قراءة من قرأ بالرفع فأبدلها من أحد ، وفي إخراجها مع أهله روايتان : روي أنه أخرجها معهم وأمر أن لا يلتفت منهم أحد إلا هي فلما سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت : يا قوماه فأدركها حجر فقتلها .

وروي أنه لما أمر أن يخلفها مع قومها فإن هواها إليهم فلم يسر بها ، واختلاف القراءتين

لاختلاف الروايتين انتهى ، وأورد عليه ابن الحاجب ما خلاصته أنه إما أن يسري بها فالاستثناء من أحد متعين .

أولاً فيتعين من ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ والقصة واحدة فأحد التأويلين باطل قطعاً ، والقراءاتان الثابتتان قطعاً لا يجوز حملهما على ما يوجب بطلان أحدهما ، فالأولى أن يكون ﴿ إِلَّا امرأتك ﴾ رفعاً ونصباً مثل ﴿ مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ [النساء : 66] ولا يبعد أن يكون بعض القراء على الوجه الأقوى ، وأكثرهم على ما دونه بل جوز بعضهم أن تتفق القراء على القراءة بغير الأقوى .

(47/383)

وأجاب عنه بعض المغاربة بما أشار إليه في "الكشف" من منع التنافي لأن الاستثناء من الأهل يقتضي أن لا يكون لوط عليه السلام مأموراً بالإسراء بها ، ولا يمنع أنها سرت بنفسها ، ويكفي لصحة الاستثنائين هذا المقدار كيف ولم ينه عن إخراجها ولكنه أمر بإخراج غيرها ، نعم يرد على قوله : واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين أنه يلزم الشك في كلام لا ريب فيه من رب العالمين ، ويجاب بأن معناه اختلاف القراءتين جالب وسبب لاختلاف الروايتين كما تقول : السلاح للغزو أي أداة وصالح مثلاً له ، ولم يرد أن اختلاف القراءتين

لأجل اختلاف الروايتين قد حصل ، ولا شك أن كل رواية تناسب قراءة وإن أمكن الجمع ، وأما قوله : وأمر أن لا يلتفت منهم أحد إلا هي فنقل للرواية لا تفسير للفظ القرآن ، وإنما الكائن فيه استثناؤها عن الحكم الذي للاستصلاح إذ لم يعن بها ، وإلى معنى ما أشار إليه صاحب الكشف في منع التنافي أشار أبو شامة فقال : وقع في تصحيح ما أعربه النحاة معنى حسن ، وذلك أن يكون في الكلام اختصار نبه عليه اختلاف القراءتين فكأنه قيل : فأسر بأهلك إلا امرأتك كما قرأ به عبد الله .

ورواه أبو عبيدة عن مصحفه ، فهذا دليل على أن استثناءها من السري بهم ، ثم كأنه قال سبحانه : فإن خرجت معكم وتبعتكم من غير أن تكون أنت سريت بها فإنه أهلك عن الالتفات غيرها فإنها ستهلك ويصيبها ما يصيب قومها ، فكانت قراءة النصب دالة على المعنى المتقدم ، وقراءة الرفع دالة على هذا المعنى المتأخر ومجموعهما دال على جملة المعنى المشروح ، ولا يخفى ما في ذلك من التكلف كما قال ابن مالك ، ولذا اختار أن الرفع على أن الاستثناء منقطع ، و﴿ امرأتك ﴾ مبتدأ ، والجملة بعدها خبره وإلا بمعنى لكن .

وقال ابن هشام في "المغني" في الجهة الثامنة من الباب الخامس : إن ما ذكره الزمخشري وقد سبقه إليه غيره في الآية خلاف الظاهر ، والذي حمل القائلين عليه أن النصب قراءة الأكثرين فإذا قدر الاستثناء من أحد كانت قراءتهم على الوجه المرجوح ، وقد التزم بعضهم جواز مجيء الأمرين مستدلاً بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] فإن النصب في ذلك عند سيبويه على حد قولهم : زيداً ضربته ، ولم ير خوف إلباس المفسر بالصفة مرجحاً كما رآه بعض المتأخرين ، ثم قال : والذي أجزم به أن قراءة الأكثرين لا تكون مرجحة ، وأن الاستثناء على القراءتين من جملة الأمر بدليل سقوط ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ ﴾ الخ في قراءة ابن مسعود ، والاستثناء منقطع بدليل سقوطه في آية الحجر ، ولأن المراد بالأهل المؤمنون وإن لم يكونوا من أهل بيته لا أهل بيته وإن لم يكونوا مؤمنين كما في قوله تعالى لنوح عليه السلام : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود : 46] ووجه الرفع أنه على الابتداء ، وما بعده الخبر والمستثنى الجملة ، ونظيره ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ إِلاَّ مَن تولى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ الله ﴾ [الغاشية : 22-24] .

واختار أبو شامة ما اخترته من أن الاستثنا منقطع لكنه قال : وجاء النصب على اللغة الحجازية والرفع على التميمية ، وهذا يدل على أنه جعل الاستثناء من جملة النهي ، وما قدمته أولى لضعف اللغة التميمية ، ولما قدمت من سقوط جملة النهي في قراءة عبد الله انتهى .

واستظهر ذلك الحمصي في حواشيه على التصريح واستحسنه غير واحد ، وقد نقل أبو حيان القول بالانقطاع على القراءتين وتخريج النصب على اللغة الحجازية والرفع عن الأخرى ، ثم قال إنه كلام لا تحقيق فيه فإنه إذا لم يقصد إخراجها من المأمور بالإسراء بهم ولا من المنهيين عن الالتفات وكان المعنى لكن امرأتك يجري عليها كذا وكذا كان من الاستثناء الذي لا يتوجه إليه العامل ، وهذا النوع من الاستثناء المنقطع يجب فيه النصب بإجماع العرب ، وإنما الخلاف في المنقطع الذي يمكن توجه العامل إليه وفيه نظر ، ففي التوضيح لابن مالك حق المستثنى بإلا من كلام تام موجب مفرداً كان أو مكملاً معنى بما بعده كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا امرأته قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الغابرين ﴾ [الحجر : 59-60] النصب ، ولا يعرف أكثر المتأخرين من البصريين إلا النصب ، وقد غفلوا عن وروده مرفوعاً بالابتداء ثابت الخبر كقول أبي قتادة : أحرموا كلهم إلا أبو قتادة لم يحرم ، ومحذوفه نحو ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ نفسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ إلا الله ، ﴿ وَإِلَّا ﴾ في ذلك بمعنى لكن أي لكن أبو قتادة لم يحرم ولكن الله يعلم انتهى ، وما نحن فيه من قبيل هذا ، وفي حاشيتي البدر الدماميني .

وتقي الدين الشمني أن الرضى قد أجاب بما يقتضي أن الاستثناء متصل ولا تناقض ، وذلك أنه قال : ولما تقرر أن الأتباع هو الوجه مع الشرائط المذكورة وكان أكثر القراء على النصب في ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ ﴾ الخ تكلف الزمخشري لئلا تكون قراءة الأكثر محمولة على وجه غير مختار بما تكلف ، واعترضه ابن الحاجب بلزوم التناقض لأن الاستثناء من أسر بأهلك يقتضي كونها غير مسرى بها ، ومن لا يلتفت منكم أحد يقتضي كونها مسري بها لأن الالتفات بالإسراء ، والجواب أن الإسراء وإن كان مطلقاً في الظاهر إلا أنه في المعنى مقيد بعدم الالتفات .

(50/383)

فمآله أسر بأهلك إسراءً لا التفات فيه إلا امرأتك فإنك تسري بها إسراءً مع الالتفات فاستثن على هذا إن شئت من أسر أو لا يلتفت ولا تناقض وهذا كما تقول : امش ولا تتبختر أي امش مشياً لا تتبختر فيه فكأنه قيل : ولا يلتفت منكم أحد في الإسراء ، وكذا امش ولا تتبختر في المشي فحذف الجار والمجرور للعلم به انتهى .

وأورد عليه السيد السند في حواشيه أن الاستثناء إذا رجع إلى القيد كان المعنى فأسر بجميع أهلك إسراءً لا التفات فيه إلا من امرأتك فيكون الإسراء بها داخلاً في المأمور به

وإذا رجع إلى المقيد لم يكن الإسراء بها داخلاً في المأمور به فيكون المحذور باقياً بحاله ولا مخلص عنه إلا بأن يقال : إن تناول العام إياها ليس قطعياً لجواز أن يكون مخصوصاً فلا يلزم من رجوع الاستثناء إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ ﴾ كونه عليه السلام مأموراً بالإسراء بها ، وحينئذٍ يوجه الاستثناء بما ذكر من أنها تبعتهم أو أسرى بها مع كونه غير مأمور بذلك إذ لا يلزم من عدم الأمر به النهي عنه فتأمل انتهى .

وبحث فيه الشهاب ولم يرتض احتمال التخصيص لما أنه لا دليل عليه ويفهم صنيعه ارتضاء كلام الرضى ، ثم قال : ومراده بالتقييد أنه ذكر شيآن متعاطفان ، فالظاهر أن المراد الجمع بينهما لا أن الجملة حالية فلا يرد عليه أن الحمل على التقييد مع كون الواو للنسق ممنوع ، وكذا جعلها للحال مع لا الناهية ، وأيضاً القراءة بإسقاطها تدل على عدم اعتبار ذلك التقييد ولا يخلو عن شيء ، هذا وقد ألفت في تحقيق هذا الاستثناء عدة رسائل : منها رسالة للحمصي .

(51/383)

وأخرى للعلامة الكافيجي ألفها لبعض سلاطين آل عثمان غمرهم الله سبحانه بصنوف الفضل والإحسان حين طلب منه لبحث وقع في مجلسه ذلك ، وبالجملة القول بالانقطاع أقل

تكلفاً فيما يظهر ، والقول بأنه حينئذٍ لا يبقى ارتباط لقوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ ناشيء من عدم الالتفات فلا ينبغي أن يلتفت إليه كما لا يخفى على من أحاط خبراً بما تقدم نقله فتأمل ، وضمير ﴿ أَنَّهُ ﴾ للشأن ، و﴿ مَا أصابهم ﴾ مبتدأ ، و﴿ مُصِيبُهَا ﴾ خبره ، والجملة خبر إن الذي اسمه ضمير الشأن ، وفي "البحر" إن ﴿ مُصِيبُهَا ﴾ مبتدأ ، و﴿ مَا أصابهم ﴾ خبره ، والجملة خبر إن ، ويجوز على مذهب الكوفيين أن يكون ﴿ مُصِيبُهَا ﴾ خبر إن و﴿ مَا ﴾ فاعل به لأنهم يجوزون أنه قائم أخواك ، ومذهب البصريين أن ضمير الشأن لا يكون خبره إلا جملة مصرحاً بجزأيها فلا يجوز هذا الإعراب عندهم ، والأولى ما ذكر أولاً ؛ والجملة إما تعليل على طريقة الاستئناف أو خبر لامرأتك على قراءة الرفع ، والمراد من ﴿ مَا ﴾ العذاب ، ومن ﴿ أَصَابَهُمُ ﴾ يصيبهم والتعبيرية دونه للإيذان بتحقق الوقوع ، وفي الإبهام .

واسمية الجملة .

والتأكيد ما لا يخفى .

﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح ﴾ أي موعد عذابهم وهلاكهم ذلك ، وكأن هذا على ما قيل : تعليل للأمر بالإسراء والنهي عن الالتفات المشعر بالحث على الإسراع ، وقوله سبحانه : ﴿ أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ ﴾ تأكيد للتعليل ، فإن قرب الصبح داع إلى الإسراع للتباعد عن مواقع العذاب ، وروي أنه عليه السلام سأل الملائكة عليهم السلام عن وقت هلاكهم فقالوا

: موعدهم الصبح ، فقال : أريد أسرع من ذلك ، فقالوا له : ﴿ أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ ﴾ .
ولعله إنما جعل ميقات هلاكهم الصبح لأنه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذٍ أفظع ولأنه أنسب بكون ذلك عبرة للناظرين .
وقرأ عيسى بن عمر ﴿ الصبح ﴾ بضم الباء قيل : وهي لغة فلا يكون ذلك اتباعاً .

(52/383)

﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا ﴾ أي عذابنا .
أو الأمر به ، فالأمر على الأول واحد الأمور ، وعلى الثاني واحد الأوامر ، قيل : ونسبة المجيء إليه بالمعنيين مجازية ، والمراد لما حان وقوعه ولا حاجة إلى تقدير الوقت مع دلالة لما عليه .
وقيل : إنه يقدر على الثاني أي جاء وقت أمرنا لأن الأمر نفسه ورد قبله ، ونحن في غنى عن ادعاء تكراره ، ورجح تفسير الأمر بما هو واحد الأوامر أعني ضد النهي بأنه الأصل فيه لأنه مصدر أمره ، وأما كونه بمعنى العذاب فيخرجه عن المصدرية الأصلية وعن معناه المشهور الشائع ، وبجعل التعذيب مسبباً عنه بقوله سبحانه : ﴿ جَعَلْنَا عاليها سَافِلَهَا ﴾ فإنه جواب ﴿ لَمَّاً ﴾ والتعذيب نفس إيقاع العذاب فلا يحسن جعله مسبباً عن ذلك بل

العكس أولى إلا أن يؤول المجيء بإرادته، وضمير ﴿ عاليها عاليها سَافِلَهَا ﴾ لمدائن قوم لوط المعلومة من السياق وهي المؤتفكات، وهي خمس مدائن: ميعة.

وصعره.

وعصره.

ودوما.

وسدوم.

وقيل: سبع أعظمها سدوم، وهي القرية التي كان فيها لوط عليه السلام، وكان فيها على ما روي عن قتادة أربعة آلاف ألف إنسان أو ما شاء الله تعالى من ذلك، وقيل: إن هذا العدد إنما كان في المدائن كلها، وقيل: إن ما كان في المدائن أكثر من ذلك بكثر، والله تعالى أعلم.

ونصب (عاليها وسافلها) على أنهما مفعولان للجعل، والمراد قلبناها على تلك الهيئة وهو جعل العالي سافلا، وإنما قلبت كذلك ولم يعكس تهويلاً للأمر وتفظيعاً للخطب لأن جعل (عاليها) الذي هو مقرهم ومسكنهم (سافلها) أشق من جعل سافلها عاليها وإن

كان مستلزماً له ، روي أن لوطاً عليه السلام سرى بمن معه قبل الفجر وطوى الله تعالى له الأرض حتى وصل إلى إبراهيم عليه السلام ، ثم إن جبريل عليه السلام اقتلع المدائن بيده ، وفي رواية أدخل جناحه تحت المدائن فرفعها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب ثم قلبها ، وما أعظم حكمة الله تعالى في هذا القلب الذي هو أشبه شيء بما كانوا عليه من إتيان الأعجاز والاعراض عما تقتضيه الطباع السليمة ؛ ولا ينبغي أن يجعل الكلام كناية عن إنزال أمر عظيم فيها كما يقول القائل : اليوم قلبت الدنيا على فلان لما فيه من العدول عن الظاهر والانحراف عما نطقت به الآثار من غير داع سوى استبعاد مثل ذلك وما ذلك ببعيد ، وإسناد الجعل إلى ضميره تعالى باعتبار أنه المسبب فهو إسناد مجازي باعتبار اللغة وإن كان سبحانه هو الفاعل الحقيقي ، والنكتة في ذلك تعظيم الأمر وتهويله فإن ما يتولاه العظيم من الأمور فهو عظيم ، ويقوي ذلك ضمير العظمة أيضاً وعلى هذا الطرز قوله سبحانه : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ أي على المدائن أو شذاذ أهلها ﴿ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ وكان ذلك زيادة في تفظيع حالهم أو قطعاً لشأفتهم واستئصالاً لهم .

روي أن رجلاً منهم كان بالحرم فبقي حجر معلق بالهواء حتى خرج منه فوقع عليه وأهلكه ، والسجيل الطين المتحجر لقوله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ [الذاريات : 33] والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، ويتعين إرجاع بعضه لبعض في قصة واحدة ،

وهو كما أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس .

ومجاهد معرب سنك كل .

(54/383)

وقال أبو عبيدة : السجيل كالسجين الشديد من الحجارة ، وقيل : هو من أسجله إذا أرسله أو أدر عطيته ، والمعنى حجارة كائنة من مثل الشيء المرسل أو مثل العطية في الإدرار وهو على هذا خارج مخرج التهكم ، وقيل : من السجل بتشديد اللام وهو الصك ، ومعنى كونه من ذلك أنه مما كتب الله تعالى عليهم أن يعذبهم به ، وقيل : أصله من سجين وهو اسم لجهنم أو لواد فيها ، فأبدلت نونه لاماً .

وقال أبو العالية .

وابن زيد : السجيل اسم لسماء الدنيا .

قال أبو حيان : وهو ضعيف لوصفه بقوله سبحانه :

﴿ مَّنْضُودٍ ﴾ أي نضد وضع بعضه على بعض معداً لعذابهم ، أو نضد في الإرسال يرسل بعضه إثر بعض كقطار الأمطار ، ولا يخفى أن هذه المعاني كما تأبى ما قال أبو العالية .

وابن زيد تأبى بحسب الظاهر ما قيل : إن المراد به جهنم ، وتكلف بعضهم فقال : يمكن

وصف جهنم بذلك باعتبار المعنى الأول بناءاً على أنه دركات بعضها فوق بعض أو أن

الأصل منضود فيه فاتسع ، وقد يتكلف بنحو هذا لما قاله أبو العالية .

وابن زيد ، وجوز أن يكون ﴿ مَّنْضُودٍ ﴾ صفة حجارة على تأويل الحجر .

وجره للجوار ، وعليه فالأمر ظاهر إلا أنه من التكلف بمكان .

﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ أي عليها سيما يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض قاله ابن جريج ،

وقيل : معلمة ببياض وحمرة ، وروي ذلك عن ابن عباس .

والحسن ، وجاء في رواية أخرى عن ابن عباس أنه كان بعضها أسود فيه نقطة بيضاء

وبعضها أبيض فيه نقطة سوداء .

وعن الربيع أنها كانت معلمة باسم من يرمي بها ، وكان بعضها كما قيل : مثل رؤوس الإبل .

وبعضها مثل مباركها .

وبعضها مثل قبضة الرجل ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي في خزائنه التي لا يملكها غيره سبحانه ولا

يتصرف بها سواه عز وجل ، والظرف قيل : منصوب بمسومة أو متعلق بمحذوف وقع صفة

له ، والمروى عن مقاتل أن المعنى أنها جاءت من عن ربك ، وعن أبي بكر الهذلي أنها معدة

عنده سبحانه .

وقال ابن الأنباري : المراد ألزم هذا التسويم للحجارة عنده تعالى إيذاناً بقدرته وشدة عذابه فليفهم .

﴿ وَمَا هِىَ ﴾ أي الحجارة الموصوفة بما ذكر ﴿ مِنَ الظالمين ﴾ من كل ظالم ﴿ بِبَعِيدٍ ﴾ فانهم بسبب ظلمهم مستحقون لها ، وفيه وعيد لأهل الظلم كافة ، وروي هذا عن الربيع .

وأخرج ابن جيرير .

وغيره عن قتادة أن المراد من الظالمين ظالمو هذه الأمة ، وجاء في خبر ذكره الثعلبي ، وقال فيه العراقي : لم أقف له على إسناد أنه صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عليه السلام عن ذلك فقال : يعني ظالمي أمتك ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة ، وقيل : المراد بالظالمين قوم لوط عليه السلام ، والمعنى لم تكن الحجارة لتخطئهم .

وعن ابن عباس أن المعنى وما عقوبتهم ممن يعمل عملهم ببعيد ، وظاهره أن الضمير للعقوبة المفهومة من الكلام ، و﴿ الظالمين ﴾ من يشبههم من الناس ، ويمكن أن يقال : إن مراده بيان حاصل المعنى لا مرجع الضمير .

وذهب أبو حيان إلى أن الظاهر أن يكون ضمير ﴿ هِىَ ﴾ للقرى التي جعل ﴿ عاليها

سَافِلَهَا ﴾ والمراد من ﴿ الظالمين ﴾ ظالمو مكة ، وقد كانت قريبة إليهم يمرون عليها في أسفارهم إلى الشام ، وتذكير البعيد يحتمل أن يكون على تأويل الحجارة بالحجر المراد به الجنس ، أو إجرائه على موصوف مذكر أي بشيء بعيد ، أو بمكان بعيد فإنها وإن كانت في السماء وهي في غاية البعد من الأرض ءلا أنها إذا هوت منها فهي أسرع شيء لحوقاً بهم فكأنها بمكان قريب منهم ، أو لأنه على زنة المصدر كالزفير .

والصهيل والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(56/383)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77) ﴾

هَذِهِ الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ فِي إِهْرَاعِ قَوْمِ لُوطٍ إِلَيْهِ لِلِاعْتِدَاءِ عَلَى ضَيْفِهِ وَسُوءِ حَالِهِ مَعَهُمْ - وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا - بَعْدَ ذَهَابِهِمْ مِنْ عِنْدِ إِبْرَاهِيمَ - سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا - أَيْ : وَقَعَ فِيمَا سَاءَهُ وَغَمَّهُ بِمَجِيئِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعُهُ أَيْ عَجَزَ عَنِ احْتِمَالِ ضِيَافَتِهِمْ ، فَذَرْعُ الْإِنْسَانِ مُنْتَهَى طَاقَتِهِ الَّتِي يَحْمِلُهَا بِمَشَقَّةٍ ; ذَلِكَ لِمَا يَتَوَقَّعُهُ مِنِ اعْتِدَاءِ قَوْمِهِ عَلَيْهِمْ

كَعَادَتِهِمْ ، وَرُوِيَ أَنَّهُمْ جَاءُوهُ بِشَكْلِ غِلْمَانٍ حِسَانِ الْوُجُوهِ – وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ – شَدِيدُ الْأَذَى ، مَرْهُوبُ الشَّذَى ، مُشْتَقٌّ مِنَ الْعَصْبِ بِفَتْحٍ فَسُكُونٍ ، أَيِ الشَّدُّ فَهُوَ بِمَعْنَى مَعْصُوبٍ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى عَاصِبٍ ، وَالْعَصَبُ بِالتَّحْرِيكِ أَطْنَابُ الْمَفَاصِلِ ، وَمِنْهُ الْعِصَابَةُ الَّتِي يُشَدُّ بِهَا الرَّأْسُ .

– وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ – أَيْ جَاءُوهُ يُهَرْوِلُونَ مُتَهَيِّجَةً أَعْصَابُهُمْ ، كَأَنَّ سَائِقًا يَسُوقُهُمْ ، قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ : هُرِعَ وَأُهْرِعَ بِالْبِنَاءِ فِيهِمَا لِلْمَفْعُولِ إِذَا أُعْجِلَ عَلَى الْإِسْرَاعِ ، أَيْ حُمِلَ عَلَى الْعَجَلِ بِهِ اهـ . وَقَالَ الْكِسَائِيُّ وَالْفَرَّاءُ وَغَيْرُهُمَا : لَا يَكُونُ الْإِهْرَاعُ إِلَّا إِسْرَاعًا مَعَ رِعْدَةٍ مِنْ بَرْدٍ أَوْ غَضَبٍ ، أَوْ حُمَّى اهـ .

وَيَنْبَغِي أَنْ يُزَادَ عَلَيْهِ أَوْ شَهْوَةٍ

شَدِيدَةٍ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هُوَ مَشْيٌ بَيْنَ الْهَرْوَلَةِ وَالْعَدْوِ : – وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ – وَمِنْ قَبْلِ هَذَا الْمَجِيءِ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ الْكَثِيرَةَ ، وَشَرُّهَا أَفْظَعُ الْفَاحِشَةِ وَأَنْكَرُهَا فِي الْفِطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَالشَّرَائِعِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْوَضْعِيَّةِ ، وَهِيَ إِتْيَانُ الرِّجَالِ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ، وَمُجَاهَرَتُهُمْ بِهَا فِي أَنْدِيَتِهِمْ كَأَنَّهَا مِنَ الْفَضَائِلِ يَتَسَابَقُونَ إِلَيْهَا وَيَتَبَارَوْنَ فِيهَا ، كَمَا حَكَى اللهُ

عَنْهُ مِنْ قَوْلِهِ بَعْدَ رَمْيِهِمْ بِالْفَاحِشَةِ : - أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ - 29 : 29 فَمَاذَا فَعَلَ لُوطٌ وَلِمَ وَاجَهَهُمْ وَعَارَضَهُمْ ؟ - قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ - فَتَزَوَّجُوهُنَّ ، قِيلَ : أَرَادَ بَنَاتَهُ مِنْ صُلْبِهِ ، وَأَنَّهُ سَمَحَ بِتَزْوِيجِهِمْ بِهِنَّ بَعْدَ امْتِنَاعٍ لِصَرْفِهِمْ عَنْ أَضْيَافِهِ ، وَقِيلَ : أَرَادَ بَنَاتِ قَوْمِهِ فِي جُمْلَتِهِنَّ ; لِأَنَّ النَّبِيَّ فِي قَوْمِهِ كَالْوَالِدِ فِي عَشِيرَتِهِ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، وَيَدْخُلُ فِيهِ نِسَاؤُهُمُ الْمَدْخُولُ بِهِنَّ وَغَيْرُهُنَّ مِنَ الْمُعَدَّاتِ لِلزَّوَاجِ ، يَعْنِي أَنَّ الِاسْتِمْتَاعَ بِهِنَّ بِالزَّوَاجِ أَطْهَرُ مِنَ التَّلَوُّثِ بِرِجْسِ اللِّوَاطِ ; فَإِنَّهُ يَكْبَحُ جِمَاحَ الشَّهْوَةِ مَعَ الْأَمْنِ مِنَ الْفَسَادِ ، وَصِيغَةُ التَّفْضِيلِ هُنَا لِلْمُبَالَغَةِ فِي الطُّهْرِ فَلَا مَفْهُومَ لَهَا ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي اللُّغَةِ ، وَيَقُولُ النَّحْوِيُّونَ فِيهِ :

(58/383)

إِنَّ أَفْعَلَ التَّفْضِيلِ عَلَى غَيْرِ بَابِهِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ يَأْمُرُهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالِ الَّذِي هَاجَتْ فِيهِ شَهْوَتُهُمْ وَاشْتَدَّ شَبَقُهُمْ أَنْ يَأْتُوا نِسَاءَهُمْ ، كَمَا وَرَدَ فِي الْإِرْشَادِ النَّبَوِيِّ لِمَنْ رَأَى امْرَأَةً أَعْجَبَتْهُ أَنْ يَأْتِيَ امْرَأَتَهُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ الَّتِي هَاجَتْهُ فِيهَا رُؤْيَتُهَا .

وَزَعَمَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَرَضَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْفُسَّاقِ الْمُجْرِمِينَ بَنَاتَهُ أَنْ

يَسْتَمْتِعُوا بِهِنَّ كَمَا يَشَاءُونَ ، وَمِثْلُ هَذَا فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ (19 : 8) وَفِيهِ أَنَّهُمَا اثْنَتَانِ ، وَلَا يُعْقَلُ أَنْ يَقَعَ هَذَا الْأَمْرُ مِنْ أَيِّ رَجُلٍ صَالِحٍ فَضْلًا عَنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ ، وَلَا يَصِحُّ فِي مِثْلِهِ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْهُ بِأَنَّهُ أَطْهَرُ لَهُمْ ، فَغَسْلُ الدَّمِ بِالْبَوْلِ لَيْسَ مِنَ الطَّهَارَةِ فِي شَيْءٍ ، وَإِنْ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ لَا يُجِيبُونَهُ إِلَى هَذَا الْفِعْلِ ، بَلِ الذَّنْبُ فِي هَذِهِ الْحَالِ أَكْبَرُ ; لِأَنَّهُ أَمْرٌ بِالْمُنْكَرِ ، وَخُرُوجٌ عَنِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ إِيثَارًا لِلتَّجَمُّلِ الشَّخْصِيِّ ، وَهُوَ لَا يَتَعَارَضُ مَعَ قَوْلِهِ لَهُمْ بَعْدَهُ - فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي -

فَإِنَّ الزِّنَا لَيْسَ مِنَ التَّقْوَى بَلْ هُوَ هَدْمٌ لَهَا ، وَإِنَّمَا مَعْنَى هَذَا الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ : فَأَجْمِعُوا بِمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ بَيْنَ تَقْوَى

اللَّهِ بِاجْتِنَابِ الْفَاحِشَةِ ، وَبَيْنَ حِفْظِ كَرَامَتِي وَعَدَمِ إِذْلَالِي وَامْتِهَانِي بِفَضِيحَتِي فِي ضَيْفِي ، فَإِنَّ فَضِيحَةَ الضَّيْفِ فَضِيحَةٌ لِلْمُضِيفِ وَإِهَانَةٌ لَهُ . وَلَفْظُ الضَّيْفِ يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْمُثَنَّى وَالْجَمْعِ : - أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ - ذُو رُشْدٍ يَعْقِلُ هَذَا فَيُرْشِدُكُمْ إِلَيْهِ ؟

- قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ - فَإِنَّهُنَّ مُحَرَّمَاتٌ عَلَيْنَا فِي دِينِكَ، أَوْ يَعْنُونَ أَنَّ الْحَقَّ عِنْدَهُمْ نِكَاحُ الذُّكُورِ مُسْتَشْهِدِينَ بِعِلْمِهِ بِهِ تَهَكُّمًا، أَوِ الْحَقُّ هُنَا الْحَاجَةُ وَالْأَرَبُ، وَالْمَعْنَى: لَقَدْ عَلِمْتَ مِنْ قَبْلُ أَنَّهُ لَيْسَ لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَاجَةٍ أَوْ رَغْبَةٍ فِي تَزَوُّجِهِنَّ فَتَصْرِفَنَا بِعَرْضِهِنَّ عَلَيْنَا عَمَّا نُرِيدُهُ، أَوْ لَقَدْ عَلِمْتَ الَّذِي لَنَا فِي نِسَائِنَا اللَّوَاتِي تُسَمِّيهِنَّ بَنَاتِكَ مِنْ حَقِّ الِاسْتِمْتَاعِ وَمَا نَحْنُ عَلَيْهِ مَعَهُنَّ، فَلَا مَعْنَى لِعَرْضِكَ إِيَّاهُنَّ عَلَيْنَا لِصَرْفِنَا عَمَّا نُرِيدُهُ - وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ - مِنَ الِاسْتِمْتَاعِ بِالذُّكْرَانِ، وَأَنَّنَا لَا نُؤْثِرُ عَلَيْهِ شَيْئًا. أَيْ: تَعْرِفُ ذَلِكَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ لَا تَرْتَابُ فِيهِ، فَلِمَ تُحَاوِلُ صَدَّنَا عَنْهُ؟ فَعَلِمَ أَنَّهُمْ مُصِرُّونَ عَلَى إِرَادَتِهِمْ فَمَاذَا فَعَلَ؟. - قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً - أَيْ: قَالَ لُوطٌ لِأَضْيَافِهِ حِينَئِذٍ: لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً تُقَاتِلُ مَعِي هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ وَتَدْفَعُ لَقَاتَلْتُهُمْ، أَوْ أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أُلَاقِيهِمْ بِهَا، أَوْ قَالَ هَذَا لِقَوْمِهِ، وَالْمَعْنَى كَمَا قَالَ فِي الْكَشَّافِ: لَوْ قَوِيتُ عَلَيْكُمْ بِنَفْسِي - أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ - مِنْ أَصْحَابِ الْعَصَبِيَّاتِ الْقَوِيَّةِ الَّذِينَ يَحْمُونَ اللَّاجِئِينَ وَيُجِيرُونَ الْمُسْتَجِيرِينَ (كَزُعَمَاءِ الْعَرَبِ) تَمَنَّى ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ فَيَعْتَزَّ بِهِمْ، وَإِنْ سَمَّاهُمْ قَوْمَهُ بِمَعْنَى أَهْلِ جِوَارِهِ

ووَطَنِهِ الْجَدِيدِ ، وَإِنَّمَا هُوَ غَرِيبٌ جَاءَ مَعَ عَمِّهِ مِنْ أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ فِي الْعِرَاقِ .

وَيُرَجِّحُ الْأَوَّلَ جَوَابُ الْمَلَائِكَةِ لَهُ وَقَدْ رَأَوْا شِدَّةَ كَرْبِهِ وَمَا آلَتْ إِلَيْهِ حَالُهُ وَهُوَ :

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ .

هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ فِي إِنْجَاءِ لُوطٍ بِأَهْلِهِ إِلَّا امْرَأَتَهُ وَإِهْلَاكِ قَوْمِهِ .

(62/383)

- قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ - مِنْ مَلَائِكَتِهِ ، أَرْسَلَنَا لِتَنْجِيَتِكَ مِنْ شَرِّهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ - لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ - بِسُوءٍ فِي نَفْسِكَ وَلَا فِينَا ، وَحِينَئِذٍ طَمَسَ اللهُ أَعْيُنَهُمْ فَلَمْ يَعُودُوا يُبْصِرُونَ لُوطًا وَلَا مَنْ مَعَهُ كَمَا قَالَ - تَعَالَى - فِي سُورَةِ الْقَمَرِ : - وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ - 54 : 37 فَانْقَلَبُوا عُمْيَانًا يَتَخَبَّطُونَ : - فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ - أَيْ : فَاخْرُجْ مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ أَوِ الْقُرَى مَصْحُوبًا بِأَهْلِكَ بِطَائِفَةٍ مِنَ اللَّيْلِ تَكْفِي لِتَجَاوُزِ حُدُودِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ . وَالسُّرِيُّ (بِالضَّمِّ) وَالْإِسْرَاءُ فِي اللَّيْلِ كَالسَّيْرِ فِي النَّهَارِ ، قُرِئَ (أَسْرِ) بِقَطْعِ

الْهَمْزَةِ وَوَصْلِهَا مِنْهُمَا حَيْثُ وَقَعَتْ فِي الْقُرْآنِ . وَفِي سُورَةِ الذَّارِيَاتِ : - فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ - 51 : 35 و36 ، - وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ - إِلَى مَا وَرَاءَهُ لِئَلَّا يَرَى الْعَذَابَ فَيُصِيبَهُ ، وَفِي سُورَةِ الْحِجْرِ - وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ - 15 : 65 وَقَدْ بَيَّنَهُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ : - إِلَّا امْرَأَتَكَ - وَكَانَتْ كَافِرَةً خَائِنَةً ضِلْعُهَا مَعَ الْقَوْمِ - إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ - أَيْ مَقْضِيٌّ هَذَا عَلَيْهَا فَهُوَ وَاقِعٌ لَا بُدَّ مِنْهُ ، قُرِئَ " امْرَأَتَكَ " بِالنَّصْبِ وَبِالرَّفْعِ ، - إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ - أَيْ : مَوْعِدَ عَذَابِهِمْ يَبْتَدِئُ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ ، وَيَنْتَهِي بِشُرُوقِهَا كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْحِجْرِ : فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ

مُشْرِقِينَ 15 : 73 وَهَذَا تَعْلِيلٌ لِلْإِسْرَاءِ بِبَقِيَّةٍ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا قُلْنَا : -

أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ - أَيْ : مَوْعِدٍ قَرِيبٍ لَمْ يَبْقَ لَهُ إِلَّا لَيْلَةٌ وَاحِدَةٌ تَنْجُو فِيهَا بِأَهْلِكَ . وَهَذَا تَقْرِيرٌ مُؤَكِّدٌ لِمَا قَبْلَهُ ، وَجَوَابٌ عَنِ اسْتِعْجَالِ لُوطٍ لِهَلَاكِهِمْ ، وَحِكْمَتُهُ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ مُجْتَمِعِينَ فِيهِ فِي مَسَاكِنِهِمْ فَلَا يَلْفِتُ أَحَدٌ مِنْهُمْ .

- فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا - أَيْ: عَذَابُنَا أَوْ مَوْعِدُهُ - جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا - أَيْ: قَلَبْنَا أَرْضَهَا أَوْ قُرَاهَا كُلَّهَا وَخَسَفْنَا بِهَا الْأَرْضَ، وَسُنَّةُ اللهِ - تَعَالَى - فِي خَسْفِ الْأَرْضِ فِي قُطْرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ أَنْ يُحْدِثَ تَحْتَهَا فَرَاغٌ بِقَدْرِهَا، بِسَبَبِ تَحَوُّلِ الْأَبْخِرَةِ الَّتِي فِي جَوْفِهَا بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ فَيَنْقَلِبُ مَا فَوْقَهُ إِمَّا مُسْتَوِيًا وَإِمَّا مَائِلًا إِلَى جَانِبٍ مِنَ الْجَوَانِبِ إِنْ كَانَ الْفَرَاغُ تَحْتَهُ أَوْسَعَ، وَفِي بَعْضِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ يَكُونُ عَالِيهَا سَافِلَهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى جَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا؛ أَنَّ مَا كَانَ سَطْحًا لَهَا هَبَطَ وَغَارَ فَكَانَ سَافِلَهَا وَحَلَّ مَحَلَّهُ غَيْرُهُ مِنَ الْيَابِسَةِ الْمُجَاوِرَةِ أَوْ مِنَ الْمَاءِ، وَالْمُرَجَّحُ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْأَرْضِ أَنَّ قُرَى لُوطٍ الَّتِي خُسِفَ بِهَا تَحْتَ الْمَاءِ الْمَعْرُوفِ بِبَحْرِ لُوطٍ أَوْ بُحَيْرَةِ لُوطٍ، وَقِيلَ مِنْ عَهْدٍ قَرِيبٍ أَنَّ الْبَاحِثِينَ عَثَرُوا عَلَى بَعْضِ آثَارِهَا كَمَا تَقَدَّمَ - وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا - أَيْ: قَبْلَ الْقَلْبِ أَوْ فِي أَثْنَائِهِ، وَحِكْمَتُهُ أَنْ يُصِيبَ الشُّذَّاذَ الْمُتَفَرِّقِينَ مِنْ أَهْلِهَا حِجَارَةٌ مِنْ سِجِّيلٍ، وَفِي سُورَةِ الذَّارِيَاتِ - لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ - 51 : 33 فَالْمُرَادُ إِذًا حِجَارَةٌ مِنْ مُسْتَنْقَعٍ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَوَّلُهَا حَجَرٌ وَآخِرُهَا طِينٌ، وَقَالَ الْحَسَنُ: أَصْلُ الْحِجَارَةِ طِينٌ مُتَحَجِّرٌ، وَالْمَعْقُولُ مَا قُلْنَا، وَهُوَ مُوَافِقٌ لِقَوْلِ الرَّاغِبِ: السِّجِّيلُ: حَجَرٌ وَطِينٌ مُخْتَلِطٌ أَصْلُهُ

فَارِسِيٌّ فَعُرِّبَ ، وَقِيلَ إِنَّهُ مِنَ النَّارِ وَأَصْلُهُ سِجِّينٌ فَأُبْدِلَتْ نُونُهُ لَامًا . وَهُوَ مُوَافِقٌ لِرِوَايَةِ سِفْرِ التَّكْوِينِ ، فَإِنْ صَحَّ يَكُونُ مِنْ بُرْكَانٍ مِنَ الْبَرَاكِينِ ، وَمِثْلُ هَذَا الْمَطَرِ يَحْصُلُ عَادَةً بِإِرْسَالِ اللهِ إِعْصَارًا مِنَ الرِّيحِ يَحْمِلُ ذَلِكَ مِنْ بَعْضِ الْمُسْتَنْقَعَاتِ أَوِ الْأَنْهَارِ فَتُلْقِيهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، وَلَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ هَذَا بِتَدْبِيرِ الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِالْأَرْضِ - مَنْضُودٍ - أَيْ مُتَرَاكِبٍ بَعْضُهُ فِي أَثَرِ بَعْضٍ يَقَعُ طَائِفَةً بَعْدَ طَائِفَةٍ - مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ - لَهَا سُومَةٌ ، أَيْ عَلَامَةٌ خَاصَّةٌ فِي عِلْمِ رَبِّكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ ، أَيْ أَمْطَرْنَاهَا خَاصَّةً بِهَا لَا تُصِيبُ غَيْرَ أَهْلِهَا ، أَوْ هِيَ مِنْ قَوْلِهِمْ : سَوَّمْتُ فُلَانًا فِي مَالِي أَوْ فِي الْأَمْرِ إِذَا حَكَّمْتُهُ فِيهِ وَخَلَّيْتُهُ وَمَا يُرِيدُ ، لَا تُثْنَى لَهُ يَدٌ فِي تَصَرُّفِهِ ، وَقَدْ ظَهَرَ لِي هَذَا الْمَعْنَى الْآنَ مِنْ مُرَاجَعَةِ مَجَازِ الْأَسَاسِ ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ وَحَكَّمَهَا فِي

إِهْلَاكِهِمْ لَا يَمْنَعُهَا مِنْهُ شَيْءٌ ، كَمَا قَالَ فِي الْمَلَائِكَةِ الَّتِي أَمَدَّ اللهُ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ - مُسَوِّمِينَ - 3 : 125 وَزَعَمَ بَعْضُ الْمُسْرِفِينَ أَنَّ هَذَا التَّسْوِيمَ كَانَ حِسِّيًّا بِخُطُوطٍ فِي أَلْوَانِهَا ، وَأَمْثَالِ الْخَوَاتِيمِ عَلَيْهَا ، أَوْ بِأَسْمَاءِ أَهْلِهَا ، وَلَكِنَّ هَذَا مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ لَا يَثْبُتُ إِلَّا بِنَصٍّ عَنِ الْمَعْصُومِ وَلَا نَصَّ ، وَمَا قُلْنَاهُ مَفْهُومٌ مِنَ اللَّفْظِ ، وَمَعْقُولٌ فِي نَفْسِهِ لَيْسَ فِيهِ رَجْمٌ بِالْغَيْبِ .

(66/383)

-وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ- أَيْ وَمَا هَذِهِ الْعُقُوبَةُ أَوِ الْقُرَى أَوِ الْأَرْضُ الَّتِي حَلَّ بِهَا الْعَذَابُ الْمُخْزِي بِمَكَانٍ بَعِيدِ الْمَسَافَةِ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ بِتَكْذِيبِكَ وَالتَّمَارِي بِنُذُرِكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ، بَلْ هِيَ قَرِيبَةٌ مِنْهُمْ وَاقِعَةٌ عَلَى طَرِيقِهِمْ فِي رِحْلَةِ الصَّيْفِ إِلَى الشَّامِ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْحِجْرِ: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِيْنَ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ 15: 73 - 76 أَيْ فِي طَرِيقٍ ثَابِتٍ مَعْرُوفٍ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ، وَقَالَ فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ بَعْدَ ذِكْرِ هَلَاكِهِمْ: وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ 37: 137 و138 قَالَ الْجَلَالُ: -وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ- عَلَى آثَارِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ فِي أَسْفَارِكُمْ -مُصْبِحِينَ- أَيْ: وَقْتَ الصَّبَاحِ، يَعْنِي بِالنَّهَارِ -وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ- مَا حَلَّ بِهِمْ فَتَعْتَبِرُوا بِهِ. انْتَهَى.

(67/383)

وَالتَّعْبِيرُ بِصِفَةِ الظَّالِمِينَ وَكَوْنِ الْعُقُوبَةِ آيَةً مُرَادَةً لَا مُصَادِفَةً، يَجْعَلُ الْعِبَارَةَ عِبْرَةً لِكُلِّ الْأَقْوَامِ الظَّالِمَةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَإِنْ كَانَ الْعَذَابُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ مِنْ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ وَكَثْرَتِهِ وَعُمُومِهِ وَمَا دُونَهُمَا، وَقِيلَ: إِنَّ الْمَعْنَى الْمُتَبَادِرَ أَنَّ هَذِهِ الْعَاقِبَةَ لَيْسَتْ بِبَعِيدَةٍ مِنَ الظَّالِمِينَ مِنْ قَوْمِ لُوطٍ بَلْ نَزَلَتْ بِهِمْ عَنِ اسْتِحْقَاقٍ، أَوْ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ، وَقَدَّمَ هَذَا مَنْ قَدَّمَهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَأَخَّرَ مَا قُلْنَاهُ، وَلَكِنَّهُ هُوَ الَّذِي تُؤَيِّدُهُ شَوَاهِدُ الْقُرْآنِ.

وَفِي خُرَافَاتِ الْمُفَسِّرِينَ الْمَرْوِيَّةِ عَنِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ، أَنَّ جِبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَلَعَهَا مِنْ تُخُومِ الْأَرْضِ بِجَنَاحِهِ، وَصَعِدَ بِهَا إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ حَتَّى سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ أَصْوَاتَ الْكِلَابِ وَالدَّجَاجِ فِيهَا، ثُمَّ قَلَبَهَا قَلْبًا مُسْتَوِيًا فَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا، وَهَذَا تَصَوُّرٌ مَبْنِيٌّ عَلَى اعْتِقَادِ مُتَصَوِّرِهِ أَنَّ

الْأَجْرَامَ الْمَأْهُولَةَ بِالسُّكَّانِ مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَقْرُبَ مِنْهُمْ سُكَّانُ الْأَرْضِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْحَيَوَانِ وَيَبْقَوْنَ أَحْيَاءً. وَقَدْ ثَبَتَ بِالْمُشَاهَدَةِ وَالِاخْتِبَارِ الْفِعْلِيِّ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الَّتِي نَكْتُبُ هَذَا فِيهَا، أَنَّ الطَّيَّارَاتِ وَالْمَنَاطِيدَ الَّتِي

تُحَلِّقُ فِي الْجَوِّ تَصِلُ إِلَى حَيْثُ يَخِفُّ ضَغْطُ الْهَوَاءِ وَيَسْتَحِيلُ حَيَاةُ النَّاسِ فِيهَا ، وَهُمْ يَصْنَعُونَ أَنْوَاعًا مِنْهَا يَضَعُونَ فِيهَا مِنْ أُوكْسِجِينِ الْهَوَاءِ مَا يَكْفِي اسْتِنْشَاقَهُ وَتَنَفُّسَهُ لِلْحَيَاةِ فِي طَبَقَاتِ الْجَوِّ الْعُلْيَا وَيَصْعَدُونَ فِيهَا ، وَقَدْ أُشِيرَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ إِلَى مَا يَكُونُ لِلتَّصْعِيدِ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مِنَ التَّأْثِيرِ فِي ضِيقِ الصَّدْرِ مِنْ عُسْرِ التَّنَفُّسِ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ 6 : 125 .

(69/383)

(فَإِنْ قِيلَ) : إِنَّ هَذَا الْفِعْلَ الْمَرْوِيَّ عَنْ جِبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنَ الْمُمْكِنَاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَكَانَ وُقُوعُهُ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُجْعَلَ تَصْدِيقُهُ مَوْقُوفًا عَلَى مَا عُرِفَ مِنْ سُنَنِ الْكَائِنَاتِ : (قُلْتُ) : نَعَمْ ، وَلَكِنَّ الشَّرْطَ الْأَوَّلَ لِقَبُولِ الرِّوَايَةِ فِي أَمْرٍ جَاءَ عَلَى غَيْرِ السُّنَنِ وَالنَّوَامِيسِ الَّتِي أَقَامَ اللَّهُ بِهَا نِظَامَ الْعَالَمِ مِنْ عُمْرَانٍ وَخَرَابٍ ، أَنْ تَكُونَ الرِّوَايَةُ عَنْ وَحْيٍ إِلَهِيٍّ نُقِلَ بِالتَّوَاتُرِ عَنِ الْمَعْصُومِ أَوْ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ مُتَّصِلِ الْإِسْنَادِ لَا شُذُوذَ فِيهِ وَلَا عِلَّةَ عَلَى الْأَقَلِّ ، وَلَمْ يُذْكَرْ فِي كِتَابِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَلَمْ يَرِدْ فِيهِ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ إِلَى نَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَا تَظْهَرُ حِكْمَةُ اللَّهِ فِيهِ ، وَإِنَّمَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِ التَّابِعِينَ دُونَ الصَّحَابَةِ وَلَا شَكَّ أَنَّهُ

مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، وَمِمَّا قَالُوهُ فِيهَا أَنَّ عَدَدَ أَهْلِهَا كَانَ أَرْبَعَةَ آلَافِ أَلْفٍ ، وَبِلَادُ فِلَسْطِينَ كُلُّهَا لَا تَسَعُ هَذَا الْعَدَدَ فَأَيْنَ كَانَ هَؤُلَاءِ الْمَلَايِينُ يَسْكُنُونَ مِنْ تِلْكَ الْقُرَى الْأَرْبَعِ ؟

(70/383)

وَهَذِهِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتُ الْمُشَوَّهَةُ لِهَذِهِ الْقِصَّةِ كَغَيْرِهَا مِنْ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ مُخَالِفَةٌ لِمَا عِنْدَ بَاثِّيهَا مِنْ زَنَادِقَةِ الْيَهُودِ فِي تَوْرَاتِهِمْ ، وَمُلَخَّصُ مَا فِي الْفَصْلِ التَّاسِعِ مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ الْخَاصِّ بِلُوطٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَقَوْمِهِ أَنَّ الْمَلَكَيْنِ اللَّذَيْنِ أَتَيَاهُ بِصُورَةِ رَجُلَيْنِ ضَرَبَا بِالْعَمَى جَمِيعَ قَوْمِهِ وَقَالَا لَهُ : أَصْهَارَكَ وَبَنِيكَ وَبَنَاتِكَ وَكُلَّ مَنْ لَكَ فِي الْمَدِينَةِ أَخْرِجْ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ ؛ لِأَنَّنَا مُهْلِكَانِ أَهْلَ هَذَا الْمَكَانِ ; إِذْ قَدْ عَظُمَ صُرَاخُهُمْ أَمَامَ الرَّبِّ فَأَرْسَلَنَا الرَّبُّ لِنُهْلِكَهُ) فَخَرَجَ لُوطٌ وَكَلَّمَ أَصْهَارَهُ الْآخِذِينَ بَنَاتِهِ وَقَالَ قُومُوا وَاخْرُجُوا مِنْ هَذَا الْمَكَانِ لِأَنَّ الرَّبَّ مُهْلِكُ الْمَدِينَةِ ، فَكَانَ كَمَازِحٍ فِي أَعْيُنِ أَصْهَارِهِ ، وَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ كَانَ الْمَلَاكَانِ يُعَجِّلَانِ لُوطًا قَائِلَيْنِ : قُمْ خُذِ امْرَأَتَكَ وَابْنَتَيْكَ الْمَوْجُودَتَيْنِ لِئَلَّا تَهْلِكَ بِإِثْمِ الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ أَخْرَجَاهُ وَدَفَعَاهُ إِلَى

(71/383)

مَدِينَةٍ اسْمُهَا صَوْغَرُ وَوَعَدَاهُ بِعَدَمِ إِهْلَاكِهَا وَمَعَهُ امْرَأَتُهُ وَبِنْتَاهُ ، وَأَمَرَاهُ بِأَلَّا يَنْظُرَ وَرَاءَهُ (ثُمَّ قَالَ : وَإِذَا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ عَلَى الْأَرْضِ دَخَلَ لُوطٌ إِلَى صَوْغَرَ فَأَمْطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُّورَةَ كِبْرِيتًا وَنَارًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ ، وَقُلِبَتْ تِلْكَ الْمُدُنُ وَكُلُّ الدَّائِرَةِ وَجَمِيعُ سُكَّانِ الْمُدُنِ وَنَبَاتُ الْأَرْضِ ، وَنَظَرَتِ امْرَأَتُهُ مِنْ وَرَائِهِ فَصَارَتْ عَمُودَ مِلْحٍ ، وَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ فِي الْغَدِ إِلَى

الْمَكَانِ الَّذِي وَقَفَ فِيهِ أَمَامَ الرَّبِّ وَتَطَلَّعَ نَحْوَ سَدُومَ وَعَمُّورَةَ وَنَحْوَ كُلِّ أَرْضِ الدَّائِرَةِ ، وَنَظَرَ وَإِذَا دُخَانُ الْأَرْضِ يَصْعَدُ كَدُخَانِ الْأَتُونِ) .

وَمُقْتَضَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ أَنَّهُ لَمْ يَنْجُ مَعَ لُوطٍ إِلَّا ابْنَتَانِ لَهُ . وَقَدْ خَتَمَ الْفَصْلَ بِمَا يَتَبَرَّأُ مِنْهُ الْمُسْلِمُونَ كَغَيْرِهِ مِمَّا يُخَالِفُ الْقُرْآنَ ، وَهُوَ أَنَّ ابْنَتَيْ لُوطٍ النَّاجِيَتَيْنِ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا بِكْرًا وَالْأُخْرَى ثَيِّبًا ، وَأَنَّهُمَا أَسْكَرَتَا أَبَاهُمَا بِالْخَمْرِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى وَبَاتَتَا مَعَهُ فَحَمَلَتَا مِنْهُ ، وَوَلَدَتَا أَوْلَادًا وَبَقِيَ نَسْلُهُمَا مِنْهُ مُتَسَلْسِلًا . يَقُولُ الْكَاتِبُ : (إِلَى الْيَوْمِ) وَهُمُ الْمُوَابِيُّونَ وَبَنُو عَمُّونَ ! فَمَنْ كَتَبَ هَذَا وَمَتَى كَتَبَهُ ؟ هَذَا مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ - تَعَالَى - ، وَكُلُّ مَا خَالَفَ الْقُرْآنَ فَهُوَ بَاطِلٌ ، وَمَا فَسَّرْنَاهُ بِهِ هُوَ الظَّاهِرُ الْمُتَبَادِرُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 110. 116 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾

هذا كلام الملائكة للوط عليه السّلام كاشفوه بأنّهم ملائكة مرسلون من الله تعالى .

وإذ قد كانوا في صورة البشر وكانوا حاضري المجادلة حكى كلامهم بمثل ما تحكى به المحاورات فجاء قولهم بدون حرف العطف على نحو ما حكي قول : لوط عليه السّلام وقول قومه .

وهذا الكلام الذي كلّموا به لوطاً عليه السّلام وحي أوحاه الله إلى لوط عليه السّلام بواسطة الملائكة ، فإنه لمّا بلغ بلُوط توقعُ أذى ضيفه مبلغَ الجزع ونفاد الحيلة جاءه نصر الله على سنّة الله تعالى مع رسله ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ﴾ [يوسف : 110] .

وابتدأ الملائكة خطابهم لوطاً عليه السّلام بالتعريف بأنفسهم لتعجيل الطمأنينة إلى نفسه لأنّه إذا علم أنهم ملائكة علم أنهم ما نزلوا إلاّ لإظهار الحق .

قال تعالى : ﴿ ما تنزّل الملائكةُ إلاّ بالحق وما كانوا إذاً منْظرين ﴾ [الحجر : 8] .

ثم ألحقوا هذا التعريف بالبشارة بقولهم : ﴿ لن يصلوا إليك ﴾ .

وجيء بحرف تأكيد النفي للدّلالة على أنهم خاطبوه بما يزيل الشك من نفسه .

وقد صرف الله الكفّار عن لوط عليه السّلام فرجعوا من حيث أتوا ، ولو أزال عن الملائكة التشكّل بالأجساد البشرية فأخفاهم عن عيون الكفّار لحسبوا أنّ لوطاً عليه السّلام أخفاهم فكانوا يؤذون لوطاً عليه السّلام .

ولذلك قال له الملائكة ﴿ لن يصلوا إليك ﴾ ولم يقولوا لن ينالوا ، لأنّ ذلك معلوم فإنهم لمّا أعلموا لوطاً عليه السّلام بأنهم ملائكة ما كان يشك في أن الكفّار لا ينالونهم ، ولكنّه يخشى سورتهم أن يتّهموه بأنه أخفاهم .

ووقع في التوراة أن الله أعمى أبصار المراودين لوطاً عليه السّلام عن ضيفه حتى قالوا : إنّ ضيف لوط سَحرة فانصرفوا .

وذلك ظاهر قوله تعالى : في سورة [القمر : 37] ﴿ ولقد رَاودوه عن ضيفه فطمسْنا أعينهم .

﴿ وجملة لن يصلوا إليك ﴾ مبيّنة لإجمال جملة ﴿ إنّا رسُل ربّك ﴾ ، فلذلك فصلت فلم تعطف لأنها بمنزلة عطف البيان .

وتفريع الأمر بالسُرى على جملة ﴿ لن يصلوا إليك ﴾ لما في حرف ﴿ لَن ﴾ من ضمان

سلامته في المستقبل كلّه.

فلمّا رأى ابتداء سلامته منهم بانصرافهم حسن أن يبين له وجه سلامته في المستقبل منهم باستئصالهم وبنجاته، فذلك موقع فاء التفريع.

و(أسْر) أمر بالسُرى بضم السين والقصر.

وهو اسم مصدر للسير في الليل إلى الصباح.

وفعله: سَرى يقال بدون همزة في أوّله ويقال: أسرى بالهمزة.

قرأه نافع، وابن كثير، وأبو جعفر بهمزة وصل على أنه أمر من سَرى.

وقرأه الباقون بهمزة قطع على أنه من أسرى.

وقد جمعوه في الأمر مع أهله لأنه إذا سرى بهم فقد سرى بنفسه إذ لو بعث أهله وبقي هو لَمَا صحّ أن يقال: أسْر بهم للفرق بين أذهبت زيداً وبين ذهبت به.

والقِطْع بكسر القاف: الجزء من الليل.

وجملة ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ معترضة بين المستثنى والمستثنى منه.

والالتفات المنهي عنه هو الالتفات إلى المكان المأمور بمغادرته كَمَا دلّت عليه القرينة.

وسبب النهي عن الالتفات التقصي في تحقيق معنى الهجرة غضباً لحرمات الله بحيث يقطع التعلق بالوطن ولو تعلّق الرؤية.

وكان تعيين الليل للخروج كَيْلاَ يُلاَقِي ممانعة من قومه أو من زوجه فيشقُّ عليه دفاعهم.

و ﴿ إلاّ امرأتَك ﴾ استثناء من ﴿ أهلك ﴾ ، وهو منصوب في قراءة الجمهور اعتباراً بأنه مستثنى من ﴿ أهلك ﴾ وذلك كلام موجب ، والمعنى : لا تسْر بها ، أريد أن لا يعلمها بخروجه لأنها كانت مخلصة لقومها فتخبرهم عن زوجها .

وقرأه ابن كثير ، وأبو عمرو برفع ﴿ امرأتك ﴾ على أنه استثناء من ﴿ أحد ﴾ الواقع في سياق النهي ، وهو في معنى النفي .

قيل : إنّ امرأته خرجت معهم ثم التفتت إلى المدينة فحنّت إلى قومها فرجعت إليهم .

(74/383)

والمعنى أنه نهاهم عن الالتفات فامتثلوا ولم تمتثل امرأتُه للنهي فالتفتت ، وعلى هذا الوجه فالاستثناء من كلام مقدّر دلّ عليه النهي .

والتقدير : فلا يلتفتون إلاّ امرأتك تلتفتُ .

وجملة ﴿ إنّه مصيبها ما أصابهم ﴾ استئناف بياني ناشىء عن الاستثناء من الكلام المقدّر .

وفي قوله : ﴿ ما أصابهم ﴾ استعمال فعل المضي في معنى الحال ، ومقتضى الظاهر أن يقال : ما يصيبهم ، فاستعمال فعل المضي لتقريب زمن الماضي من الحال نحو قوله تعالى :

﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ [المائدة : 6] الآية ، أو في معنى الاستقبال تنبيهاً على تحقق وقوعه نحو قوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله ﴾ [النحل : 1] .

وجملة ﴿ إنّ موعدهم الصبح ﴾ مستأنفة ابتدائية قُطعت عن التي قبلها اهتماماً وتهويلاً .

والموعد : وقت الوعد .

والوعد أعمّ من الوعيد فيطلق على تعيين الشرّ في المستقبل .

والمراد بالموعد هنا موعد العذاب الذي علمه لوط عليه السّلام إما بوحي سابق ، وإما بقرينة الحال ، وإما بإخبار من الملائكة في ذلك المقام طَوته الآية هنا إيجازاً ، وبهذه الاعتبارات صحّ تعريف الوعد بالإضافة إلى ضميرهم .

وجملة ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ استئناف بيانيّ صدر من الملائكة جواباً عن سؤال بجيش في نفسه من استبطاء نزول العذاب .

والاستفهام تقريريّ ، ولذلك يقع في مثله التقرير على النفي إرخاء للعنان مع المخاطب المقرّر ليعرف خطأه .

وإنّما قالوا ذلك في أوّل الليل .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾

تقدّم الكلام على نظير ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ .

وقوله: ﴿ جعَلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ﴾ تعود الضّمائر الثلاثة المجرورة بالإضافة وبحرف (على) على القرية المفهومة من السياق.

والمعنى أن القرية انقلبت عليهم انقلاب خسففٍ حتى صار عالي البيوت سافلاً، أي وسافلها عالياً، وذلك من انقلاب الأرض بهم.

(75/383)

وإنما اقتصر على ذكر جعل العالي سافلاً لأنه أدخل في الإهانة.

والسجّيل: فُسّر بواد نارٍ في جهنّم يقال: سجّيل باللاّم، وسجّين بالنون.

و﴿ من ﴾ تبعيضية، وهو تشبيه بليغ، أي بحجارة كأنّها من سجيل جهنم، كقول كعب بن زهير:

وجلدها مِن أطوم البيت

وقد جاء في التّوراة: أن الله أرسل عليهم كبريتاً وناراً من السماء.

ولعلّ الخسف فجّر من الأرض براكين قذفت عليهم حجارة معادن محرقة كالكبريت، أو لعلّ بركاناً كان قريباً من مدنهم انفجر باضطرابات أرضية ثم زال من ذلك المكان بحوادث تعاقبت في القرون، أو طمى عليه البحر وبقيَ أثر البحر عليها حتّى الآن، وهو المسمّى

بُحيرة لوط أو البحرَ الميت .

وقيل : سجّيل معرب (سنك جيل) عن الفارسية أي حجر مخلوط بطين .

والمنضود : الموضوع بعضه على بعض .

والمعنى هنا أنها متتابعة متتالية في النزول ليس بينها فترة .

والمراد وصف الحجارة بذلك إلا أن الحجارة لمّا جعلت من سجّيل ، أجري الوصف على سجّيل وهو يفضي إلى وصف الحجارة لأنّها منه .

والمسوَّمَة : التي لها سِيما ، وهي العلامة .

والعلامات توضع لأغراض ، منها عدم الاشتباه ، ومنها سهولة الإحضار ، وهو هنا مكنّى به عن المُعدّة المهيّئة لأن الإعداد من لوازم التوسيم بقرينة قوله : ﴿ عند ربك ﴾ لأن تسويمها عند الله هو تقديره إياها لهم .

وضمير ﴿ وما هي ﴾ يصلح لأن يعود إلى ما عادت إليه الضمائر المجرورة قبله وهي المدينة ، فيكون المعنى وما تلك القرية ببعيد من المشركين ، أي العرب ، فمن شاء فليذهب إليها فينظر مصيرها ، فالمراد البعد المكانيّ .

ويصلح لأن يعود إلى الحجارة ، أي وما تلك الحجارة ببعيد ، أي أنّ الله قادر على أن يرمي المشركين بمثلها .

والبعد بمعنى تعذّر الحصول ونفيه بإمكان حصوله .

وهذا من الكلام الموجّه مع صحة المعنيين وهو بعيد .

(76/383)

وجرّد ﴿ بعيد ﴾ عن تاء التأنيث مع كونه خبراً عن الحجارة وهي مؤنث لفظاً ، ومع كون ﴿ بعيد ﴾ هنا بمعنى فاعل لا بمعنى مفعول ، فالشأن أن يطابق موصوفه في تأنيثه ، ولكن العرب قد يجرون فعيلاً الذي بمعنى فاعل مجرى الذي بمعنى مفعول إذا جرى على مؤنث غير حقيقي التأنيث زيادة في التخفيف ، كقوله تعالى في سورة الأعراف (56) ﴿ إنّ رحمت الله قريبٌ من المحسنين ﴾ وقوله : ﴿ وما يدريك لعلّ الساعة تكون قريباً ﴾ [الأحزاب : 63] وقوله : ﴿ قال مَن يُحيي العظام وهي رميم ﴾ [يس : 78] .

وقيل : إن قوله : ﴿ وما كانت أمك بغيا ﴾ [مريم : 28] من هذا القبيل ، أي باغية .

وقيل : أصله فعول بغوي فوقع إبدال وإدغام .

وتأوّل الزمخشري ما هنا على أنه صفة لمحذوف ، أي بمكان بعيد ، أو بشيء بعيد عن الاحتمالين في معاد ضمير ﴿ هي ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾

وهكذا علم لوط لأول مرة أنهم رسل من الله تعالى ، رغم أنهم حين تكلموا مع إبراهيم لم يقولوا أنهم رسل من الله ؛ ليدلنا على أن إبراهيم عليه السلام كان يعلم أنهم رسل من الحق سبحانه ، لكنه لم يكن يعلم سبب مجيئهم .

وهم حين أخبروا لوطاً : ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يصلوا إِلَيْكَ ﴾ [هود : 81] فمن باب أولى ألا يصلوا إليهم ، وتخبر الملائكة لوطاً أن يسري بأهله ليلاً أي : أخرج بأهلك في جزء من الليل ، وقد أوضحت الملائكة أن موعد النكال بقوم لوط هو الصبح :

﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ ﴾ [هود : 81] .

لذلك قالوا :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الليل ﴾ [هود : 81] .

والمقصود أن يترك ربع الليل الأول ، وربعه الآخر ، وأن يسير في نصف الليل الذي بعد ربع الليل الأول وينتهي عند ربع الليل الأخير ، وقيل : إن أليق ما يكون بالقطع هو النصف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ [هود : 81] .

والالتفات : هو الانصراف عن الشيء الموجود قبالتك ، ويسمى الانصراف عن المقابل .

فهل المقصود هو الالتفات الحسي أم الالتفات المعنوي ؟

نحن نعلم أن لوطاً سيصحب المؤمنين معه ؛ من ديارهم وأموالهم ، وما ألفوه من مقام ومن حياة ؛ لذلك تنبههم الملائكة ألا تتجه قلوبهم إلى ما تركوه ، وعليهم أن ينقذوا أنفسهم ، وسيعوضهم الله سبحانه خيراً مما فاتهم .

هذا هو المقصود بعد الالتفات المعنوي ، وأيضاً مقصود به عدم الالتفات الحسي .

وتوصي الملائكة لوطاً عليه السلام ألا يصحب امرأته معه ؛ لأنها خانته بموالاتها للقوم المفسدين ، وإفشائها للأسرار ، وعليه أن يتركها مع الذين يصيبهم العذاب .

(78/383)

ولكنها لحظة الخروج ادعت أنها مخلصة للوط ، وقالت : سأخرج حيث تخرج ، ثم نظرت إلى القوم وقالت : وا قوماه ورجعت لتمكث معهم ، ولينالها العذاب الذي نالهم في الموعد الذي حددته الملائكة وهو الصبح :

﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ ﴾ [هود : 81] .

وقد تحدد الصبح لإهلاكهم ؛ لأنه وقت الدعة والهدوء فيكون العذاب أشد نكالاً .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾

والحق سبحانه يبين لنا هنا أن الأمر بالعذاب حين يصدر ، فالمأمور يستجيب قهراً ، ويقال إن قرى قوم لوط خمس : قرية "سدوم" وقرية "دادوما" وقرية "ضعوه" ، وقرية "عامورا" وقرية "قتم" .

وقوله تعالى :

﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ [هود : 82] .

أي : انقلبت انقلاباً تامّاً .

ويقول القرآن في موضع آخر :

﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ [النجم : 53] .

والمؤتفكة من الإفك وهو الكذب المتعمّد ، أي : قول نسبة كلامية تخالف الواقع ، ولأن من يقول الإفك إنما يقلب الحقيقة إلى غير الحقيقة زعماً ، ويقلب غير الحقيقة إلى ما يشبه الحقيقة .

كذلك المؤتفكة ، أي : القرى التي جعل عاليها سافلها فانقلبت فيها الأوضاع .

ونفذ أمر الله بأن أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، وهو طين قد تحجّر .

والحق سبحانه يقول في آية أخرى ﴿ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ [الذرايات : 33] .

وكلمة " حجارة " تعطي الإحساس بالصلابة ، أما كلمة " طين " فتعطي إحساساً باللیونة ، ولكن الطين الذي نزل قد تحجر بأمر من الله تعالى ، وهو قد نزل منضوداً . أي : يتتابع في نظام ، وكأن كل حجر يعرف صاحبه ، لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾

وكلمة " مسوَّمة " أي : مُعلَّمة ، وكأن كل حجر قد تم توجيهه إلى صاحبه ، فهذا الحجر يذهب إلى فلان ، وذلك إلى فلان ، مثل الصواريخ الموجهة إلى البلاد ، ولكن الدقة في هذه الحجارة أن كل حجر يعرف على من بالتحديد سوف ينزل بالعذاب ، وقد جعلها الحق سبحانه لتعذيب المكين ، أي : الإنسان ، ولا تدمر البلاد .

وهي مُرتَّبة ؛ لأن الحق سبحانه قال :

﴿ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴾ [هود : 82] .

ووردت كلمة (سجيل) أيضاً في قول الحق سبحانه :

﴿ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الفيل : 34] .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : 83] .

والظالمون هنا مقصود بهم الكافرون برسالة الحق سبحانه وتعالى التي تتابعت في الموكب الرسالي وخاتمها هو محمد صلى الله عليه وسلم .

ونحن نعلم أن القصص القرآني قد نزل تسلية وثباتاً بيقين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتذكرة بالأسوة :

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : 120] .

وتحكي القصص المعارك التي قامت بين كل رسول مُؤيّد بمعجزة من الله ، وبين المنكرين له والكافرين به ، وقد انتهت كل هذه المعارك بنصرة الرسول على الكافرين ، إلا أن الرسل السابقين لم يُكلّفوا أن يقاتلوا من أجل الإيمان ، بل كان عليهم أن يعلنوا الحجة الإيمانية فقط ، وأن يبلغوا المنهج ، فإن عصى القوم ؛ فالسماء هي التي تتدخل لتأديب المخالفين .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد * وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد * الذين طَغَوْاْ فِي البلاد * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ [الفجر : 614] .

ولكن الأمر اختلف بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن دين محمد صلى الله عليه وسلم هو الدين الذي تقوم عليه الساعة ، وقومه مأمونون على البلاغ عن الله تعالى خلافة للرسول صلى الله عليه وسلم .

وعلى كل واحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يعلم حكماً من أحكام الله تعالى أن يبلغه ؛ لأنه قائم مقام الرسول صلى الله عليه وسلم .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَاس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة : 143] .

إذن : فكل واحد من أمته صلى الله عليه وسلم هو امتداد لرسالة الإسلام ، وبدلاً من أن السماء كانت تتدخل لتأديب الكافرين ، جعل الله سبحانه لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يقفوا بالقوة أمام الكافرين ، لا لفرض الإيمان ؛ لأن الإيمان لا يُفرض ، ولا يُكره عليه ؛ لأنك قد تُكره إنساناً في الأمور الحسية ، لكنك لا تستطيع أن تملك قلبه ، والحق سبحانه يريد الإيمان الغيبي الذي يملك القلوب .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : 34] .

إذن : فالحق سبحانه يريد قلوباً تخشع ، لا أعناقاً تخضع .

وهكذا فُوِّضَتْ أمة محمد صلى الله عليه وسلم تفويضين : فُوِّضَتْ في نقل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلى الأجيال ، وكل جيل ينقلها إلى الجيل الذي يليه .

وها هو صلى الله عليه وسلم يقول : " نَضَّر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وأداها إلى من لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلغٍ أوعى من سامع " .

وفُوِّضَتْ أمة محمد صلى الله عليه وسلم في أن تقف من الكافرين موقف تأديب ، لا لتفرض الدين ولكن لتحمي حق اختيار الدين ، فلم يحدث أن رُفع سيفٌ في الإسلام ليفرض ديناً ؛ بل رفع السيف ليحمي حرية اختيار الإنسان للدين .

(81/383)

يقول سبحانه :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] .

فإذا آمن فعليه الالتزام بالإيمان ، فلا يكسر حكماً من أحكام الإيمان ، وهذا تصعيب للدخول في الإسلام ، فمن أين يأتي ادعاء فرض الدين على المخالفين ؟ !

إذن : فقد آمن المؤمن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إيمانين : الإيمان الأول هو أن يؤمن بالإسلام ، والإيمان الثاني أن يبلغ الدعوة .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل " .

فهل المقصود بالعلماء هم من يعلمون العلم فقط ؛ لا ، بل يقصد كل من يعرف قضية من قضايا الإيمان معرفة سليمة وصحيحة وينساح بالدعوة في الأرض ليعلِّم غير المؤمنين ويترك الناس أحراراً في اختيار الدين .

وكذلك يقف المؤمنون برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأية قوة تحارب حرية اختيار الدين .

وهكذا جاءت قصص القرآن لتثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه قد بعث المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو في مكة ، فصرخ بالدعوة ، لا في آذان القبائل الواهية في أطراف الجزيرة ، ولكن في آذان سادة الجزيرة ، حتى لا يقال : إنه استضعف قوماً فناداهم إلى الإيمان به ، ولم يجرؤ على السادة ، وهم قريش ، التي أخذت السيادة بحكم إقامتها في مكان البيت العتيق ، وكان كل العرب يحجون إلى البيت الحرام ، فإذا ما تعرضت قبيلة لقريش بسوء ، فقريش قادرة على أن تنال من أبناء

تلك القبيلة حين يحجون إلى البيت الحرام .

وهكذا أخذت قريش هيبتها من وجودها حول البيت .

إذن : فالبيت هو الذي صنع السيادة لقريش ، وهو الذي صنع السيادة للآلهة المدَّعاة من الأصنام حين يأتي كل قوم بإلههم من الحجر ؛ ليضعوه في البيت ؛ ليكتسب الحجر قداسة من قداسة البيت .

(82/383)

إذن : فقد أخذت قريش السيادة من البيت الحرام ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلن الدعوة على أسماع السادة ، وسَفَّه أحلامهم ، ولم يُبَالِ بجبروتهم وسيادتهم على الجزيرة .

لكن الحق سبحانه قد شاء ألا يكون انتصار الإسلام على يد السادة من قريش في مكة ، بل جاء انطلاق الإسلام من المدينة ؛ لأن الله سبحانه أراد أن يُعلِّم الدنيا كلها أن العصبية لمحمد لم تخلق الإيمان بمحمد .

ولكن الله تعالى قد شاء أن يكون المستضعفون من أطراف الجزيرة هم الذين نصروا الدعوة ؛ فكأن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم هو الذي خلق العصبية لمحمد للحق الممثَّل في

رسالة محمد ، ولم تخلق العصبية لمحمد إيماناً به وبرسالته .

وإذا كان الحق سبحانه قد نعتهم بالظالمين ، وبيّن لهم أن المكان الذي قُلِبَ عاليه أسفله ، ليس ببعيد عنهم ، فهل لهم أن يتخذوا من ذلك عبرة ؟

والظلم كما نعلم هو مجاوزة الحق للغير ، أي : أن تأخذ حق الغير وتعطيه لغير ذي حق ، فإذا كان ظلماً في الألوهية ، فهذا هو الشرك العظيم ، وإن كان ظلماً في إعطاء حق من حقوق الدنيا للغير ، فهو ظلم للإنسانية ، والظلم درجات بحسب الجريمة .

وقد ظلمت قريش نفسها ظلماً عظيماً ؛ لأنها أشركت بالله ؛ وجعلت له شركاء في الألوهية ؛ وهذا أقصى أنواع الظلم .

والله سبحانه يريد أن يذكِّر هؤلاء الظالمين بأن عذاب الله حين يجيء ، أو أمر الله حين يأتي ؛ لا يمكن أن يقوم أمامه قائم يمنعه ، فتنبهوا جيداً إلى أنكم عُرْضة أن يُنزل الله تعالى بكم العذاب كما أنزل بهذه القرى ؛ وهي غير بعيدة عنكم ، فالمسافة بين المدينة والشام قد تبدو مسافة طويلة إلا أن الله تعالى قد جعلهم يمرون عليها في كل رحلة من رحلات الصيف إلى الشام .

إذن : فهي قرى تقع على طريق مسلوكة ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه عن موقعها :

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر : 76] .

أي: بطريق تمرون عليها، لا يجرفها سيل، ولا يغير معالمها ريح.

بل هي طريق ثابتة مقيمة تمرون عليها حينما تذهبون في رحلة الصيف إلى الشام، فكان من الواجب أن تأخذوا في كل مرور لقطة وعبرة؛ حتى لا تقعوا في ظلم آخر.

وقد نبهكم الله سبحانه أيضاً بمروركم على ديار قوم صالح الذين خاطبهم الحق سبحانه بقوله:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء: 128130].

هكذا ترون ديار ثمود وديار عاد وديار لوط وهي خاوية، وكان من الواجب معشر قريش ألا تبالغوا في الظلم، وأن تنتبهوا بالعبرة إلى مصير كل من يشرك بالله تعالى.

ويلفتهم الحق سبحانه إلى أنهم لم يكفروا بحق الألوهية فقط، ولكنهم ايضاً كفروا بشكر النعمة، وظلموا؛ لأن الله سبحانه هو الذي أنعم عليهم برحلة الشتاء إلى اليمن، وبرحلة الصيف إلى الشام، والرحلتان للتجارة التي تأتي بالزيادة لقريش؛ لأنهم يخرجون بالأموال ويعودون بالبضائع التي يبيعونها لأهل مكة، ولزوار بيت الله الحرام.

وقد أخذت قريش مهابتها عند كل قوم يمرون عليهم أثناء الرحلتين، من أنهم يعيشون حول البيت الحرام، لذلك يمتن الله سبحانه على قريش في قوله سبحانه:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيل * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيل * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل : 15] .

فالقوم الذين جاءوا ليهدموا البيت الحرام وهو رمز السيادة لو هدم وتحوّل الحجيج إلى صنعاء ، لسقطت مهابة قريش ، ولكن الله تعالى حمى البيت وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، وجعل الذين قصدوه بسوء كعصف مأكول .

لماذا صنع الله تعالى ذلك ؟

(84/383)

تأتي الإجابة في السورة التالية لسورة الفيل حيث يقول الحق سبحانه في سورة قريش :

﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا البَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : 14] .

إذن : كان من الواجب حين يمرون على هذه الديار أن يأخذوا منها عبرة ، وأنهم وإن كانوا يمرون على هذه الديار بقصد التجارة وهي سر معاشهم إذا لم يأخذوا من هؤلاء العبرة فهم يقترفون ظلماً جديداً آخر .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : 83] .

أو : أن الله سبحانه وتعالى أراد أن ينبه قريشاً إلى أن الهلاك الذي نزل بهؤلاء القوم المشركين ، ليس ببعيد أن يصيب قريشاً ، وأن يرسل الله سبحانه على كل واحد من الكافرين به حجراً مسوَّماً يصيبه في مكانه الذي يكون فيه .

والسطحيّون في اللغة يخطئون فيأخذون على القرآن مآخذ ، لا تلتفت إليها الملكة الصحيحة في اللغة ، ويقولون : كيف يقول الله :

﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : 83] .

وكلمة " ما هي " مؤنثة ، وتقتضي أن يقول : " بعيدة " بدلاً من كلمة " بعيد " ، أي : أن يكون القول : " وما هي من الظالمين ببعيدة " ونسوا أن المتكلم هو الله تعالى ، وأنهم لم يدرسوا اللغة دراسة صحيحة ؛ لأن " فعيل " إن جاءت بمعنى " مفعول " ، فهنا يستوي المذكر والمؤنث .

ومثال ذلك من القرآن الكريم أيضاً هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم : 4] .

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ الله قَرِيبٌ مِّنَ المحسنين ﴾ [الأعراف : 56] .

إذن : فعدم درايتهم باللغة هو الذي جعلهم يخطئون مثل هذا الخطأ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(85/383)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ) (هود : 77) ، وفي سورة العنكبوت : (وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ) (العنكبوت : 33)

فوردت آية العنكبوت بزيادة (أن) بعد (لما) بخلاف آية هود ، فللسائل أن يسأل عن ذلك ؟

الجواب عنه ، والله أعلم : أن (أن) هذه الخفيفة كثيراً ما تزاد ، وزيادتها على ضربين بقياس وغير قياس ، فالذي بغير قياس نحو قوله :

كأن الظبية تعطو إلى وارث السلم

فزيدت بعد كاف التشبيه بينها وبين مجهورها ، وأما التي تزاد بقياس فبعد لما ، ولما ورد في

آية هود قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ ثم ورد هذا اللفظ بجملته في سورة العنكبوت متكررا بعينه ورد أولا بغير ((أن)) على الأصل ، وورد ثانيا بزيادة أن على الثاني ليحصل (بين) التواردين ما يرفع تقصاقل اللفظ المذكور .

فإن قلت : فإنه قد تباعد ما بين الآيتين ومثل هذا ما يحصل فيه ما ذكرت ، فأقول : لما كان اللفظ اللفظ وكان زيادة (أن) وعدم زيادتها هنا هيناً فصيحاً جيء بالجائزين معاً وتأخرت الزيادة إذ هي غير الأصل إلى المتأخر من الآيتين .

فإن قلت : إن قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ ﴾ (يوسف : 96) لم يقع فيه تكرر فلم زيد فيه أن ولم يأت على الأصل ؟ قلت : لما كان مجيء البشير إلى يعقوب ، عليه السلام ، بعد طول الحزن وتباعد المدة ناسب ذلك زيادة أن لما في مقتدى وصفها من التراخي ، فورد كل من هذا على ما يجب ، والله أعلم .

(86/383)

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ (هود : 81) ، وقال في سورة الحجر : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ

تُؤْمَرُونَ) (الحجر : 85) هنا ثلاثة سؤالات : أحدها (إلا أمراتك) في سورة هود ، ولم يقع ذلك الإستثناء في الحجر ، والثاني : ما ورد في الحجر قوله : (وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ) ، والثالث قوله : (وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ) ولم يذكر في سورة هود .

والجواب عن الأول : أن آية الحجر ورد قبلها قوله في قصة إبراهيم عليه السلام : (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ *الوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ) (الحجر : 57-60) ، فلما ورد هنا استثناء المرأة وذكر حالها وقع بذلك الاكتفاء فلم يذكر في الآية بعد ، إذ ذلك كله كلام متصل بعضه ببعض ، ولم يتقدم لامرأة لوط ، عليه السلام ، في سورة هود ذكر تحتيجة إلى استثنائها .

والجواب عن السؤال الثالث أن قوله في سورة الحجر : (وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ) (الحجر : 65) زيادة إخبار بما ليس في سورة هود ، وقد تأخرت سورة الحجر عنها . فوفت بما لم يذكر في سورة هود ، ومصل هذا لا سؤال فيه .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ ﴿ هود : 82 ﴾ ، وفي صورة الحجر : ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ ﴿ الحجر : 74 ﴾ ، ففي الأولى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ والضمير للقرية والمراد أهلها ، وفي الثانية : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ والضمير لقوم لوط فللسائل ﴿ أن يسأل ﴾ عن وجه اختلاف الضمير مع اتحاد المقصود ؟ والجواب عن ذلك ، والله أعلم : أن كلا من الموضوعين مراعي فيه مناسبة ما تقدمه ، ولما تقدم آية الحجر قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ ﴿ الحجر : 58 ﴾ ، فذكر قوم لوط موصوفين بالإجرام الموجب لهلاكهم فروعي هذا المتقدم فقيل : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ ﴿ الحجر : 74 ﴾ ونظير هذا قوله تعالى في سورة الذاريات : ﴿ الُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ ﴿ الذاريات : 32-33 ﴾ ، فقيل : ﴿ عليهم ﴾ لما تقدم ﴿ قوله ﴾ : ﴿ إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ ، وأما آية هود فلم يتقدم فيها مثل هذا ، فكتفى بضمير القرية فقيل : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ ﴿ هود : 82 ﴾ ،

وأغنى ذلك عن ذكر المهلكين إذ هم المقصودون بالعذاب ، فورد كل على ما يناسب ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ ملاك التأويل صـ 261 . 263 ﴾

(88/383)

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً ﴾ قال : ساء ظناً بقومه وضاق ذرعاً باضيافه ، وقال ﴿ هذا يوم عصيب ﴾ يقول : شديد .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في الآية قال : ساء ظناً بقومه يتخوفهم على أضيافه وضاق ذرعاً باضيافه مخافة عليهم .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف والابتداء والطستي عن ابن عباس . أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ يوم عصيب ﴾ قال : يوم شديد . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت الشاعر وهو يقول :

هم ضربوا قوانس خيل حجر . . . بجنب الردء في يوم عصيب

وقال عدي بن زيد :

فكنت لو أني خصمك لم أعوّد . . . وقد سلكوك في يوم عصيب

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه ﴾ قال : يسرعون ﴿ ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾ قال : يأتون الرجال .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه ﴾ قال : ويسعون إليه .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ يهرعون إليه ﴾ قال : يقبلون إليه بالغضب . قال : وهل تعرف العرب ذلك؟ قال : نعم ، أما سمعت الشاعر وهو يقول :

أتونا يهرعون وهم أسارى . . . سيوفهم على رغم الأنوف

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾ قال : ينكحون الرجال .

(89/383)

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتي ﴾ قال : ما عرض لوط عليه السلام بناته على قومه لا سفاحاً ولا نكاحاً إنما قال : هؤلاء بناتي نساؤكم ، لأن النبي إذا كان بين ظهري قوم فهو أبوهم ، قال الله في القرآن ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ [الأحزاب : 6] وهو أبوهم في قراءة أبي رضي الله عنه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ هؤلاء بناتي ﴾ قال : لم تكن

بناته ولكن كن من أمته وكل نبي أبو أمته .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : إنما دعاهم إلى نسائهم ، وكل نبي أبو أمته .

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن عساكر عن السدي في قوله ﴿ هؤلاء بناتي ﴾ قال : عرض عليهم نساء أمته كل نبي فهو أبو أمته ، وفي قراءة عبد الله ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم ﴾ [الأحزاب : 6] .

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر من طريق جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : لما سمعت الفسقة بأضياف لوط جاءت إلى باب لوط ، فأغلق لوط عليهم الباب دونهم ثم اطلع عليهم فقال : هؤلاء بناتي . فعرض عليهم بناته بالنكاح والتزويج ولم يعرضها عليهم للفاحشة ، وكانوا كفاراً وبناته مسلمات ، فلما رأى البلاء وخاف الفضيحة عرض عليهم التزويج ، وكان اسم ابنتيه إحداهما رغوثا والأخرى رميثا ، ويقال : ديونا إلى قوله ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ أي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فلما لم يتناهوا ولم يردهم قوله ولم يقبلوا شيئاً مما عرض عليهم من أمر بناته قال ﴿ لو أن لي بكم قوّة أو آوي إلى ركن شديد ﴾ يعني عشيرة أو شيعة تنصرني لحلت بينكم وبين هذا ، فكسروا الباب ودخلوا عليه ، وتحوّل جبريل في صورته التي يكون فيها في السماء ، ثم قال : يا لوط لا تخف نحن الملائكة لن يصلوا إليك ، وأمرنا بعذابهم .

فقال لوط : يا جبريل الآن تعذبهم – وهو شديد الأسف عليهم – قال جبريل : موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب . قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن الله يعبي العذاب في أوّل الليل إذا أراد أن يعذب قوماً ثم يعذبهم في وجه الصبح .

قال : فهيئت الحجارة لقوم لوط في أول الليل لترسل عليهم غدوة الحجارة ، وكذلك عذبت الأمم عاد وثمود بالغداة ، فلما كان عند وجه الصبح عمد جبريل إلى قرى لوط بما فيها من رجالها ونسائها وثمارها وطيرها فحواها وطواها ثم قلعها من تخوم الثرى ، ثم احتملها من تحت جناحه ، ثم رفعها إلى السماء الدنيا فسمع سكان سماء الدنيا أصوات الكلاب والطير والنساء والرجال من تحت جناح جبريل ، ثم أرسلها منكوسة ، ثم أتبعها بالحجارة وكانت الحجارة للرعاة والتجار ومن كان خارجاً عن مدائنهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : عرض عليهم بناته تزويجاً ، وأراد أن يقي أضيافه بتزويج بناته .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ قال : أمرهم هود بتزويج النساء ، وقال : هن أطهر لكم .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه ﴿ ولا تخزونِ في ضيفي ﴾ يقول : ولا تفضحوني .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك رضي الله عنه ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ قال : رجل يأمر بمعروف وينهى عن المنكر .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ قال : رجل يأمر بمعروف وينهى عن منكر .

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ قال : واحد يقول لا إله إلا الله .

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة . مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ قالوا لقد علمنا ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ﴾ قال : إنما نريد الرجال ﴿ قال : لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ﴾ يقول : إلى جند شديد لقاتلتكم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ أو آوي إلى ركن شديد ﴾ قال : عشيرة .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن عساكر عن قتادة رضي الله عنه ﴿ أو آوي إلى ركن شديد ﴾ قال : العشيرة .

وأخرج أبو الشيخ عن علي رضي الله عنه . أنه خطب فقال عشيرة الرجل للرجل خير من الرجل لعشيرته . أنه إن كف يداً واحدة وكفوا عنه أيدياً كثيرة مع مودتهم وحفاظتهم ونصرتهم ، حتى لربما غضب الرجل للرجل وما يعرفه إلا بحسبه وسأتلو عليكم بذلك آيات من كتاب الله تعالى ، فتلا هذه الآية ﴿ لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ﴾ قال علي رضي الله عنه : والركن الشديد : العشيرة .

فلم يكن للوط عليه السلام عشيرة ، فوالذي لا إله إلا غيره ما بعث الله نبياً بعد لوط إلا في ثروة من قومه .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج في قوله ﴿ أو آوي إلى ركن شديد ﴾ قال : بلغني أنه لم يبعث نبيّ بعد لوط إلا في ثروة من قومه حتى النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير عن الحسن رضي الله عنه . أن هذه الآية لما نزلت ﴿ لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " رحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد فلأي شيء استكان " .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال " ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال : رحم الله لوطاً إن كان ليأوي إلى ركن شديد ، وذكر لنا أن الله لم يبعث نبياً بعد لوط إلا في ثروة من قومه ، حتى بعث الله نبيكم صلى الله عليه وسلم في ثروة من قومه " .

وأخرج ابن جرير عن وهب بن منبه قال لوط عليه السلام ﴿ لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ﴾ فوجد عليه الرسل ، وقالوا : يا لوط إن ركنك لشديد .

وأخرج سعيد بن منصور وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما بعث الله نبياً بعد لوط إلا في عز من قومه .

(92/383)

وأخرج البخاري في الأدب والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله ﴿ أو آوي إلى ركن شديد ﴾ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " رحم الله لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله تعالى - فما بعث الله بعده نبياً إلا في ثروة من قومه " .

وأخرج سعيد بن منصور والبخاري وابن مردويه من طريق الأعرج عن أبي هريرة رضي

الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يغفر الله للوط إنه كان ليأوي إلى ركن شديد " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " رحم الله لوطاً إن كان ليأوي إلى ركن شديد " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن بشر الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الناس كانوا أنذروا قوم لوط ، فجاءتهم الملائكة عشية فمروا بناديهم فقال قوم لوط بعضهم لبعض : لا تنفروهم ولم يروا قوماً قط أحسن من الملائكة ، فلما دخلوا على لوط عليه السلام راودوه عن ضيفه ، فلم يزل بهم حتى عرض عليهم بناته ، فأبوا فقالت الملائكة ﴿ إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ قال : رسل ربي ؟ قالوا : نعم . قال لوط : فالآن كذا " .

(93/383)

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : لما أرسلت الرسل إلى قوم لوط ليهلوكهم قيل لهم : لا تهلكوا قوم لوط حتى يشهد عليهم لوط ثلاث مرات ، وكان طريقهم على إبراهيم خليل الرحمن ﴿ فلما ذهب عن

إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ﴾ وكانت مجادلته إياهم قال : أرأيتم إن كان فيها خمسون من المؤمنين أتهلكونهم ؟ قالوا : لا . قال : فأربعون ؟ قالوا : لا . حتى انتهى إلى عشرة أو خمسة قال : فأتوا لوطاً وهو في أرض له يعمل فيها ، فحسبهم ضيفاناً ، فأقبل حتى أمسى إلى أهله ، فمشوا معه فالتفت إليهم فقال : ما ترون ما يصنع هؤلاء ؟ قالوا : وما يصنعون ؟ قال : ما من الناس أحد شر منهم . فمشوا معه حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فانتهى بهم إلى أهله فانطلقت عجوز السوء امرأته ، فأتت قومه فقالت : لقد تضيف لوط الليلة قوماً ما رأيت قط أحسن ولا أطيب ريحاً منهم ، فأقبلوا إليه يهرعون فدافعوه بالباب حتى كادوا يغلبون عليه . فقال ملك بجناحه فسفقه دونهم وعلا وعلوا معه ، فجعل يقول ﴿ هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ﴾ إلى قوله ﴿ أو آوي إلى ركن شديد ﴾ فقالوا ﴿ إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ فذلك حين علم أنهم رسل الله ، وقال ملك بجناحه فما عشى تلك الليلة أحد بجناحه إلا عمي فباتوا بشر ليلة عمياً ينتظرون العذاب ، فاستأذن جبريل عليه السلام في هلاكهم فأذن له ، فاحتمل الأرض التي كانوا عليها وأهوى بها حتى سمع أهل سماء الدنيا صغاء كلابهم ، وأوقد تحتهم ناراً ثم قلبها بهم ، فسمعت امرأة لوط الوجبة وهي معهم ، فالتفتت فأصابها العذاب ، وتبعت سفارهم الحجارة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما جاءت رسل الله لوطاً عليه السلام ظن أنهم ضيفان لقومه ، فادناهم حتى أقعدهم قريباً ، وجاء ببناته وهن ثلاثة فأقعدهن بين ضيفانه وبين قومه ، فجاءه قومه يهرعون إليه ، فلما رآهم قال ﴿ هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزونِ في ضيفي ، قالوا ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ، قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ﴾ فالتفت إليه جبريل عليه السلام فقال ﴿ إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ فلما دنو طمس أعينهم فانطلقوا عمياً يركب بعضهم بعضاً ، حتى إذا خرجوا إلى الذين بالباب قالوا : جئناكم من عند أسحر الناس ، ثم رفعت في جوف الليل حتى إنهم يسمعون صوت الطير في جوّ السماء ، ثم قلبت عليهم فمن أصابته الائتفاكة أهلكته ، ومن خرج منها اتبعته حيث كان حجراً فقتلته ، فارتحل ببناته حتى بلغ مكان كذا من الشام ماتت ابنته الكبرى ، فخرجت عندها عين ، ثم انطلق حيث شاء الله أن يبلغ فماتت الصغرى ، فخرجت عندها عين فما بقي منهن إلا الوسطى .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب العقوبات عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أغلق لوط على ضيفه الباب فجاؤوا فكسروا الباب فدخلوا ، فطمس جبريل أعينهم فذهبت أبصارهم قالوا : يا لوط جئتنا بسحرة فتوعدوه ، فأوجس في نفسه خيفة إذا قد ذهب

هؤلاء يؤذونني. قال جبريل ﴿ لا تخف إنا رسل ربك... ﴾ إن موعدهم الصبح، قال لوط: الساعة. قال جبريل ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ قال: الساعة. فرفعت حتى سمع أهل سماء الدنيا نبيح الكلاب، ثم أقبلت ورموا بالحجارة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ فأسر بأهلك ﴾ يقول: سر بهم.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ بقطع من الليل ﴾ قال: جوف الليل.

(95/383)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ بقطع ﴾ قال سواد من الليل.

وأخرج عبد الرزاق عن قتادة في قوله ﴿ بقطع من الليل ﴾ قال: بطائفة من الليل.

وأخرج ابن الأنباري في الوقف والابتداء عن ابن عباس رضي الله عنهما. أن نافع بن الأزرق رضي الله عنه قال له: أخبرني عن قول الله ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل ﴾ ما القطع؟ قال: آخر الليل سحر. قال مالك بن كنانة:

ونائحة تقوم بقطع ليل . . . على رجل أهانته شعوب

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولا يلتفت منكم أحداً ﴾ قال : لا يتخلف .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ولا يلتفت منكم أحداً ﴾ قال : لا ينظر وراءه أحد ﴿ إلا امرأتك ﴾ .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير عن هرون رضي الله عنه قال : في حرف ابن مسعود رضي الله عنه " فاسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : ذكر لنا أنها كانت مع لوط لما خرج من الطرية ، فسمعت الصوت فالتفتت ، فأرسل الله عليها حجراً فأهلكها . فهي معلوم مكانها شاذة عن القوم ، وهي في مصحف عبد الله " ولقد وفينا إليه أهله كلهم إلا عجوزاً في الغبر " قال : ولما قيل له إن موعدهم الصبح . قال : إني أريد أعجل من ذلك . قال ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال : قال لوط : أهلكوهم الساعة . قالوا : إنا لن نؤمر إلا بالصبح ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : قال له لوط : اهلكوهم الساعة . قال له جبريل عليه السلام ﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾ فأنزلت على لوط ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ قال : فأمره أن يسري بأهله بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأته ، فسار فلما كانت الساعة التي أهلكوا فيها أدخل جبريل عليه السلام جناحه ، فرفعها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب ، فجعل عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ، وسمعت امرأة لوط الهدة فقالت : واقوماه . . . ! فأدركها حجر فقتلها .

وأخرج ابن عدي وابن عساكر عن أبي الحلة قال : رأيت امرأة لوط قد مسخت حجراً تحيض عند كل رأس شهر .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ﴾ قال : لما أصبحوا عدا جبريل على قريتهم فنقلها من أركانها ، ثم أدخل جناحه ، ثم حملها على خوافي جناحيه بما فيها ، ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ، ثم قلبها فكان أول ما سقط منها سرادقها ، فلم يصب قوماً ما أصابهم إن الله طمس على أعينهم ، ثم قلب قريتهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل .

وأخرج ابن جرير عن السدي رضي الله عنه قال : لما اصبحوا نزل جبريل عليه السلام

فاقتلع الأرض من سبع أرضين ، فحملها حتى بلغ السماء الدنيا ، ثم أهوى بها جبريل إلى الأرض .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح . أن جبريل عليه السلام أتى قرية لوط فأدخل يده تحت القرية ، ثم رفعها حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح الكلاب وأصوات الدياك ، وأمطر الله عليهم الكبريت والنار .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه . أن جبريل عليه السلام اجتث مدينة قوم لوط من الأرض ، ثم رفعها بجناحه حتى بلغ بها حيث شاء الله ، ثم جعل عاليها سافلها .

(97/383)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه قال : حدثت أن الله تعالى بعث جبريل عليه السلام إلى المؤتفكة ، مؤتفكة قوم لوط فاحتملها بجناحه ، ثم صعد بها حتى أن أهل السماء ليسمعون نباح كلابهم وأصوات دجاجهم ، ثم اتبعها الله بالحجارة يقول الله تعالى ﴿ جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ﴾ فأهلكها الله ومن حولها من المؤتفكات ، فكن خمساً صنعة وصغرة وعصرة ودوماً وسدوم ، وهي القرية العظمى .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه قال : ذكر لنا أنها ثلاث قرى فيها من العدد ما شاء الله أن يكون من الكثرة ، ذكر لنا أنه كان منها أربعة آلاف ألف ، وهي سدوم قرية بين المدينة والشام .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ حجارة من سجيل ﴾ قال : من طين . وفي قوله ﴿ مسوّمة ﴾ قال : السوم بياض في حمرة .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ حجارة من سجيل ﴾ قال : هي بالفارسية سنك وكل حجر وطين . وفي قوله ﴿ مسوّمة ﴾ قال : معلمة .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ حجارة من سجيل ﴾ قال : بالفارسية أوّلها حجارة وآخرها طين . وفي قوله ﴿ مسوّمة ﴾ قال : معلمة .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ حجارة من سجيل ﴾ قال : هي كلمة أعجمية عربت سنك وكل .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ حجارة من سجيل ﴾ قال : حجارة فيها طين .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ حجارة من سجيل ﴾

قال : من طين ﴿ منضود ﴾ مصفوفة ﴿ مسوّمة ﴾ مطوّقة بها نصح من حمرة ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ لم يبرأ منها ظالم بعدهم .

(98/383)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الربيع رضي الله عنه في قوله ﴿ منضود ﴾ قال : قد نضد بعضه على بعض . وفي قوله ﴿ مسوّمة ﴾ قال : عليها سيما خطوط صفر .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج رضي الله عنه قال : حجارة مسوّمة لا تشاكل حجارة الأرض .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ حجارة من سجيل ﴾ قال : السماء الدنيا ، والسماء الدنيا اسمها سجيل .

وأخرج ابن شيبة عن ابن سابط رضي الله عنه في قوله ﴿ حجارة من سجل ﴾ قال : هي بالفارسية .

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر عن مجاهد رضي الله عنه . أنه سأل هل بقي من قوم لوط أحد ؟ قال : لا ، إلا رجل بقي أربعين يوماً ، كان تاجراً بمكة فجاءه حجر ليصيبه في

الحرم ، فقامت إليه ملائكة الحرم فقالوا للحجر رجع من حيث جئت فإن الرجل في حرم الله . فرجع الحجر فوقف خارجاً من الحرم أربعين يوماً بين السماء والأرض حتى قضى الرجل تجارته ، فلما خرج أصابه الحجر خارجاً من الحرم . يقول الله ﴿ ما هي من الظالمين ببعيد ﴾ يعني من ظالمي هذه الأمة ببعيد .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ قال : يرهب بها قريشاً أن يصيبهم ما أصاب القوم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ يقول : من ظلمة العرب إن لم يؤمنوا أن يعذبوا بها .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الربيع في الآية قال : كل ظالم فيما سمعنا قد جعل بحذائه حجر ينتظر متى يؤمر أن يقع به ، فخوف الظلمة فقال : وما هي من الظالمين ببعيد .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ قال : من ظالمي هذه الأمة ، ثم يقول : والله ما أجار الله منها ظالماً بعد .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي وابن المنذر والبيهقي في شعب الإِيمان عن محمد بن المنكدر ويزيد بن حفصة وصفوان بن سليم . أن خالد بن الوليد كتب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قد وجد رجلاً في بعض نواحي العرب ينكح كما كانت تنكح المرأة ، وقامت عليه بذلك البينة ، فاستشار أبو بكر رضي الله أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إن هذا ذنب لم يعص الله به أمة من الأمم إلا أمة واحدة ، فصنع الله بها ما قد علمتم ، أرى أن تحرقه بالنار . فاجتمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على أن يحرقوه بالنار ، فكتب أبو بكر رضي الله عنه إلى خالد رضي الله عنه أن احرقه بالنار ، ثم حرقهم ابن الزبير رضي الله عنه في إمارته ، ثم حرقهم هشام بن عبد الملك .

وأخرج ابن المنذر عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن الرأي قال : عذب الله قوم لوط فرماهم بحجارة من سجيل ، فلا ترفع تلك العقوبة عمن عمل عمل قوم لوط . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَسْرِ ﴾ : قرأ نافع وابن كثير : ﴿ فاسْرِ بأهلك ﴾ هنا وفي الحجر ، وفي الدخان : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ [الآية : 23] ، وقوله : ﴿ أَنْ أَسْرِ ﴾ [الآية : 77] في طه والشعراء ، جميع ذلك بهمزة الوصل تسقط دَرْجاً وتَثْبُتُ مكسورة ابتداءً . والباقون " فَأَسْرِ " بهمزة القطع تثبت مفتوحة دَرْجاً وابتداء ، والقراءتان مأخوذتان من لُغَتي هذا الفعل فإنه يُقال : سَرَى ، ومنه ﴿ والليل إذا يَسْرِ ﴾ [الفجر : 4] ، وأَسْرى ، ومنه : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى ﴾ [الإسراء : 1] وهل هما بمعنى واحدٍ أو بينهما فرقٌ ؟ خلافٌ مشهور . فقيل : هما بمعنى واحدٍ ، وهو قول أبي عبيد . وقيل : بل أَسْرى لأولِ الليل ، وسَرَى لآخره ، وهو قولُ الليث ، وأمّا سار فمختص بالنهار ، وليس مقلوباً مِنْ سَرَى .

قوله : ﴿ بِأَهْلِكَ ﴾ يجوز أَنْ تكونَ الباءُ للتعدية ، وأن تكونَ للحال أي : مصاحباً لهم .

وقوله : " بِقِطْعٍ " حال من " أهلك " أي : مصاحبين لِقِطْع ، على أن المرادَ به الظلمة . وقيل : الباء بمعنى " في " . والقِطْع هنا نصف الليل ، لأنه قطعةٌ منه مساويةٌ لباقيه ، وأنشدوا :

2696 ونائحةٍ تَنُوْحُ بِقِطْعِ ليلِ . . . على رَجُلٍ بقارعةِ الصعيد

وقد تقدَّم الكلامُ على القِطْعِ في يونس بأشبع من هذا .

(101/383)

قوله : ﴿ إِلاَّ امرأتك ﴾ ابن كثير وأبو عمرو برفع " امرأتك " والباقون بنصبها . وفي هذه الآية الكريمة كلامٌ كثيرٌ لا بد من استيفائه . أمّا قراءة الرفع ففيها وجهان ، أشهرُهما عند المعربين : أنَّه على البدل من " أحد " وهو أحسن من النصب ، لأنَّ الكلام غيرُ موجَب . وهذا الوجهُ قد ردَّه أبو عبيد بأنه يَلْزَمُ منه أنهم نُهوا عن الالتفات إلا المرأة ، فإنها لم تُنْهَ عنه ، وهذا لا يجوزُ ، ولو كان الكلامُ " ولا يلتفت " برفع " يلتفت " يعني على أنْ تكونَ " لا " نافيةً ، فيكون الكلام خبراً عنهم بأنهم لم يَلْتفتوا إلا امرأته فإنها تلتفت ، لكان الاستثناء بالبدلية واضحاً ، لكنه لم يقرأ برفع " يلتفت " أحد .

وقد استحسن ابنُ عطيةَ هذا الإِلزامَ من أبي عبيد ، وقال : " إنه واردٌ على القول باستثناءِ المرأة من " أحد " سواءً رَفَعْتَ المرأة أو نَصَبْتها " . قلت : وهذا صحيحٌ ، فإن أبا عبيد لم يُرِد الرفعَ لخصوصِ كونه رفعاً ، بل لفسادِ المعنى ، وفسادُ المعنى دائر مع الاستثناء من " أحد " ، وأبو عبيد يُخَرِّج النصبَ على الاستثناء من " بأهلك " ، ولكنه يَلْزم من ذلك

إبطالُ قراءة الرفع ، ولا سبيلَ إلى ذلك لتواترها .

وقد انفصل المبردُ عن هذا الإشكالِ الذي أورده أبو عبيد بأن النهيَ في اللفظ ل " أحد " وهو في المعنى للوط عليه السلام ، إذ التقدير : لا تَدَعْ منهم أحداً يلتفت ، كقولك لخادمك : " لا يَقُمْ أحدٌ " النهيُ لأحد ، وهو في المعنى للخادم ، إذ المعنى : " لا تَدعْ أحداً يقوم " .

قلت : فآل الجواب إلى أنّ المعنى : لا تَدَعْ أحداً يلتفت إلا امرأتك فَدَعْها تلتفت ، هذا مقتضى الاستثناء كقولك : " لا تَدَعْ أحداً يقوم إلا زيداً ، معناه : فَدَعْه يقوم . وفيه نظر ؛ إذ المحذور الذي قد فرّ منه أبو عبيد موجودٌ هو أو قريب منه هنا .

(102/383)

والثاني : أن الرفعَ على الاستثناءِ المنقطع ، والقائلُ بهذا جعل قراءةَ النصبِ أيضاً من الاستثناء المنقطع ، فالقراءتان عنده على حَدٍّ سواء ، ولنسْرُدْ كلامه لنعرفَه فقال : " الذي يظهر أن الاستثناء على كلتا القراءتين منقطع ، لم يُقْصَدْ به إخراجُها من المأمور بالإِسراء معهم ، ولا من المنهيين عن الالتفاتِ ، ولكن استؤنف الإِخبار عنها ، فالمعنى : لكن امرأَتك يَجْري لها كذا وكذا ، ويؤيد هذا المعنى أن مثلَ هذه الآية جاءت في سورة الحجر ، وليس فيها استثناءٌ البتةَ ، قال تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ الآية . فلم تقع العنايةُ في ذلك إلا بذكر

مَنْ أنجاهم اللَّه تعالى ، فجاء شرح حالِ امرأتِه في سورة هود تبعاً لا مقصوداً بالإِخراج مما تقدم ، وإذا اتضح هذا المعنى عُلم أن القراءتين وردتا على ما تقتضيه العربية في الاستثناء المنقطع ، وفيه النصب والرفع ، فالنصب لغة أهل الحجاز وعليه الأكثر ، والرفع لغة تميم وعليه اثنان من القراء " . قال الشيخ : " وهذا الذي طوّل به لا تحقيقَ فيه ، فإنه إذا لم يُقْصَدْ إخراجُها من المأمور بالإِسراء بهم ولا من / المَنْهِيّين عن الالتفاتِ ، وجُعل استثناءً منقطعاً ، كان من المنقطع الذي لم يتوجَّهْ عليه العامل بُحال ، وهذا النوع يجب فيه النصبُ على كلتا اللغتين ، وإنما تكون اللغتان في ما جاز توجُّهُ العاملِ عليه ، وفي كلا النوعين يكون ما بعد " إلا " من غير الجنس المستثنى ، فكونُه جازَ في اللغتان دليل على أنه يمكن أن يتوجَّه عليه العامل ، وهو قد فرض أنه لم يُقْصَدْ بالاستثناء إخراجُها من المأمور بالإِسراء بهم ولا من المنهيين عن الالتفات ، فكان يجب فيه إذ ذاك النصبُ قولاً واحداً " .

(103/383)

[قلت : القائل بذلك هو الشيخ شهاب الدين أبو شامة] . وأمَّا قولُه : " إنه لم يتوجَّهْ عليه العامل " ليس بمسلَّم ، بل يتوجَّه عليه في الجملة ، والذي قاله النحاة ممَّا لم يتوجَّهْ عليه العاملُ من حيث المعنى نحو : ما زاد إلا ما نقص ، وما نفع إلا ما ضر ، وهذا ليس مِنْ ذاك ،

فكيف يُعْترض به على أبي شامة ؟ .

وأمَّا النصبُ ففيه ثلاثة أوجه ، أحدها : أنه مستثنى مِنْ " بأهلك " ، واستَشْكلوا عليه إشكالاً من حيث المعنى : وهو أنه يلزم ألاَّ يكونَ سَرَى بها ، لكن الفرضِ أنه سرى بها ، يدلُّ عليه أنها التفَتَتْ ، ولو لم تكن معهم لمَا حَسُنَ الإِخبار عنها بالالتفات ، فالالتفاتُ يدلُّ على كونها سَرَتْ معهم قطعاً .

وقد أُجيب عنه بأنه لم يَسْرِ هو بها ، ولكن لمَّا سَرَى هو وبناته تَبِعَتْهم فالتفتت ، ويؤيِّد أنه استثناء من الأهل ما قرأ به عبد اللَّه وسقط مِنْ مصحفه " فَأَسْر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك " ولم يذكر قوله ﴿ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ .

والثاني : أنه مستثنى مِنْ " أحد " وإن كان الأحسنُ الرفعَ إلا أنه جاء كقراءة ابن عامر ﴿ مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ [النساء : 66] بالنصبِ مع تقدُّم النفي الصريح . وقد تقدَّم لك هناك تخريجٌ آخرُ لا يمكن ههنا .

والثالث : أنه مستثنى منقطعٌ على ما قدَّمْتُه عن أبي شامة . وقال الزمخشري : " وفي إخراجها مع أهله روايتان ، روي أنه أخرجها معهم ، وأُمِرَ أَنْ لا يلتفتَ منهم أحد إلا هي ، فلما سَمِعَتْ هِدَّةَ العذاب التفَتَتْ وقالت : يا قوماه ، فأدركها حجرٌ فقتلها ، ورُوي أنه أُمِر بأن يُخَلِّفَها مع قومها فإنَّ هواها إليهم ولم يَسْرِ بها ، واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين "

.

قال الشيخ : " وهذا وهمٌ فاحشٌ ، إذ بنى القراءتين على اختلاف الروايتين مِنْ أنه سرى بها أو لم يَسْرِ بها ، وهذا تكاذُبٌ في الإخبار ، يستحيل أن تكن القراءتان وهما مِنْ كلام اللَّه تعالى يترتبان على التكاذب " . قلت : وحاشَ للَّه أن تترتب القراءتان على التكاذُب ، ولكن ما قاله الزمخشري صحيحٌ ، الفرض أنه قد جاء في التفسير القولان ، ولا يَلْزم من ذلك التكاذبُ ، لأنَّ مَنْ قال إنه سرى بها يعني أنها سَرَتْ هي بنفسها مصاحِبةً لهم في أوائل الأمر ، ثم أخذها العذاب فانقطع سُراها ، ومن قال إنه لم يَسْرِ بها ، أي : لم يَأْمرها ولم يأخذها وأنه لم يَدُم سُراها معهم بل انقطع فَصَحَّ أن يقال : إنه سَرَى بها ولم يَسْرِ بها ، وقد أجاب الناسُ بهذا وهو حسنٌ .

وقال الشيخ أبو شامة : " ووقع لي في تصحيح ما أعربه النحاةُ معنى حسنٌ ، وذلك أن يكون في الكلام اختصارٌ نَبَّهَ عليه اختلافُ القراءتين فكأنه قيل : فَأَسْرِ بأهلِك إلا امرأتك ، وكذا روى أبو عبيدة وغيره أنها في مصحف عبد اللَّه هكذا ، وليس فيها ﴿ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ فهذا دليلٌ على استثنائها مِن السُّرى بهم ، ثم كأنه قال سبحانه : فإن خرجَتْ معكم وتَبِعَتْكم غيرَ أن تكونَ أنت سَرَيْتَ بها فانْهَ أهلك عن الالتفات غيرَها ،

فإنها ستلتفت فيُصيبها ما أصاب قومها ، فكانت قراءةُ النصب دالَّةً على المعنى المتقدم ، وقراءةُ الرفع دالَّةً على المعنى المتأخر ، ومجموعُهما دالٌّ على جملة المعنى المشروح " وهو كلامٌ حسنٌ شاهدٌ لما ذكرته .

قوله : ﴿ إِنَّهُ مُصِيبُهَا ﴾ الضميرُ ضمير الشأن ، و " مُصيبها " خبرٌ مقدم ، و " ما أصابهم " مبتدأ مؤخر وهو موصول بمعنى الذي ، والجملة خبرُ إنَّ ؛ لأن ضمير الشأن يُفَسَّر بجملةٍ مُصرَّحٍ بجزْأيها .

(105/383)

وأعرب الشيخ " مُصيبها " مبتدأً ، و " ما أصابهم " الخبر ، وفيه نظرٌ من حيث الصناعة : فإن الموصولَ معرفة ، فينبغي أن يكونَ المبتدأ و " مُصيبها " نكرةً لأنَّه عامل تقديراً فإضافتُه غيرُ محضةٍ ، ومن حيث المعنى : إنَّ المراد الإِخبار عن الذي أصابهم أنه مُصِيبها من غيرِ عكسٍ ، ويجوز عند الكوفيين أن يكونَ " مصيبُها " مبتدأً ، و " ما " / الموصولةُ فاعلٌ لأنهم يُجيزون أن يُفَسَّر ضميرُ الشأن بمفرد عاملٍ فيما بعده نحو : " إنه قائمٌ أبواك " .

قوله : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ﴾ ، أي : موعد هلاكهم . وقرأ عيسى بن عمر " الصبح " بضمتين فقيل : لغتان ، وقيل : بل هي إتباعٌ ، وقد تقدَّم البحثُ في ذلك .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) ﴾

قوله تعالى : ﴿ عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ : مفعولا الجعل الذي بمعنى التصيير ، و " سِجّيل " قيل : هو في الأصل مركَّب من : " سكر كل " وهو بالفارسية حجر وطين فعُرِّب وغُيِّرت حروفهُ . وقيل : سِجّيل اسمٌ للسماء وهو ضعيف أو غلط ؛ لوصفه بمَنْضود . وقيل : مِنْ أَسْجَلَ ، أي : أرسل فيكون فِعّيلاً ، وقيل : هو مِن التسجيل ، والمعنى : أنه مِمَّا كتب اللَّهُ وأَسْجل أن يُعَذَّب به قوم لوط ، وينصرُ الأول تفسيرُ ابن عباس أنه حجرٌ وطين كالآجرّ المطبوخ ، وعن أبي عبيد هو الحجر الصُّلْب . و " منضود " صفةٌ لسِجّيل . والنَّضْدُ : جَعْلُ الشيءِ بعضَه فوقَ بعضٍ ، ومنه ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ [الواقعة : 29] ، أي : متراكب ، والمرادُ وصفُ الحجارة بالكثرة .

﴿ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83) ﴾

(106/383)

و " مُسَوَّمَة " نعتٌ لحجارة ، وحينئذ يلزمُ تقدُّمُ الوَصْفِ غيرِ الصريح على الصريح لأنَّ " مِنْ سجيل " صفةٌ لحجارة ، والأَوْلى أن يُجْعل حالاً من حجارة ، وسوّغ مجيئَها مِن النكرة

تخصُّصُ النكرة بالوصف . والتَّسْوِيم . العلامَةُ . قيل : عُلِّم على كلِّ حجرٍ اسمُ مَنْ يرمى به ، وتقدَّم اشتقاقُه في آل عمران . و " عند " : إمَّا منصوبٌ ب " مُسَوَّمَة " ، وإمَّا بمحذوفٍ على أنها صفة ل " مُسَوَّمة " .

قوله : ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ الظاهرُ عَوْدُ هذا الضمير على القرى المُهْلَكة . وقيل : يعودُ على الحجارة وهي أقربُ مذكور . وقيل : يعودُ على العقوبة المفهومة من السياق . ولم يُؤَنِّث " ببعيد " : إمَّا لأنه في الأصلِ نعتٌ لمكانٍ محذوف تقديره : وما هي بمكان بعيدٍ بل هو قريبٌ ، والمرادُ به السماء أو القرى المهلَكة ، وإمَّا لأن العقوبةَ والعقابَ واحد ، وإمَّا لتأويل الحجارة بعذاب أو بشيءٍ بعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 364 . 371 ﴾

(107/383)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾

لمَّا ضَاقَ به الأمْرُ كَشَفَ اللَّهُ عنه الضرَّ فَعرَّفَ إليه الملائكةُ وقالوا : لا عليكَ فإنهم لا يصلون إليكَ بسوءٍ وإنَّا رُسُلُ ربك جئنا لإهلاكهم ، فاخرُجْ أنت وقومُك من بينهم ، واعلمْ أنَّ مَنْ شَارَكَهم في عملهم بنوعٍ فلَهُ مِنْ العذاب حِصَّة . ومن جملتهم امرأتك التي كانت تدل القوم على المَلَكِ لفعلة الفاحشة ، وإن العقوبة لاحقةٌ بها ، مُدْرِكَة لها .

والإشارة منه أن الجسارةَ على الزَّلةِ وخيمةُ العاقبةِ - ولو بعد حين ، ولا ينفع المرءَ اتصالُه بالأنبياء والأولياءِ إذا كان في الحكم والقضاء من جملة الأشقياء .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ .

ما هو كائِنٌ فقريبٌ ، والبعيدُ ما لا يكون . وإنَّ مَنْ أقْدَمَ على محظورٍ ثم حُوسِبَ عليه - ولو بعد دهورٍ خالية وأعوام غير محصورة ماضية - تصور له الحال كأنه وقتُ مبَاشرَته لتلك الزّلة .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) ﴾

سُنَّةُ الله في عباده قلبُ الأحوال عليهم ، والانقلابُ مِنْ سِمَاتِ الحدوث ، أمّا الذي لا يزول ولا يحول فهو الذي لم يزل ولا يزال بنعوته الصمدية .

وإنَّ مَنْ عاش في السرور دهراً ثم تبدل يُسْرُه عُسْراً فكَمَنْ لم يرَ قطُّ خيراً ، والذي قاسَى طولَ عمره ثم أُعطِي يُسْراً فكمن لم يرَ عُسْراً .

قال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : 110].

(108/383)

﴿ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83) ﴾

ذكر سبحانه ما نالهم من العقوبة على عصيانهم ، ثم أخبر أنَّ تلك العقوبة لاحقةٌ بمن سَلَكَ سبيلَهم تحذيراً لمن لم يعتبر بهم إذا عرف طريقَهم ، كما قيل :

ومَنْ يَرَني ولم يعتبر بَعْدِي . . . فإنَّ لكلِ معصيةٍ عقابا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 149.150 ﴾

(109/383)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِىء بِهِمْ ﴾

يقول: ساءه مجيئهم، ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ يعني: صدره اغتماماً، ومخافة عليهم، لا يدري أيأمرهم بالرجوع أم بالنزول؟ ﴿ وَقَالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ يعني: شديد.

ثم قال لامرأته: ويحك، قومي واخبزي، ولا تعلمي أحداً.

وكانت امرأته كافرة منافقة، فانطلقت تطلب بعض حاجاتها، وجعلت لا تدخل على أحد إلا أعلمته، وتقول: إن عندنا قوماً من هيئتهم كذا وكذا.

فلما علموا بذلك، جاؤوا إلى باب لوط.

فذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ يعني: يسرعون إليه، وهو مشي بين المشيتين، ويقال: يدفعون إليه دفعاً، ويقال يشتدون إليه شداً، ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ يعني: من قبل أن يبعث إليهم لوط، ويقال: من قبل إتيان الرسل، كانوا يعملون الفواحش، وهي اللواطة والكفر، فلما أرادوا الدخول، ﴿ قَالَ ﴾ لهم لوط: ﴿ قَالَ يا قوم هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ يعني: أحل لكم من ذلك، وكان لوط يناظرهم، ويقول: هن أطهر لكم، وكان جبريل مع أحد عشر من الملائكة، وكسروا الباب، فضرب أعينهم.

قال الضحاك: ﴿ هؤلاء بَنَاتِي ﴾ عرض عليهم بنات قومه.

وقال قتادة: أمرهم لوط أن يتزوجوا النساء، وقال: هن أطهر لكم، ولم يعرض عليهم بناته.

وروى سفيان عن ليث ، عن مجاهد ، قال : لم يكنّ بناته ، ولكن كُنّ من أمته ، وكل نبي هو أب أمته .

وروي عن ابن مسعود ، أنه كان يقرأ : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين مِنْ أَنفُسِهِمْ وأزواجه أمهاتهم وَأُوْلُو الارحام بَعْضُهُمْ أولى ببَعْضٍ فِى كتاب الله مِنَ المؤمنين والمهاجرين إِلاَّ أَن تفعلوا إلى أَوْلِيَآئِكُمْ مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِى الكتاب مَسْطُوراً ﴾ [الأحزاب : 6] وهو أب لهم ، وهي قراءة أبي بن كعب .

وهكذا قال سعيد بن جبير : إنه أراد بنات أمته .

ويقال : إن رؤساءهم كانوا خطبوا بناته ، وكان يأبى ، فقال لهم : إني أزوجكم بناتي ، هنّ أطهر لكم من الحرام ، وكان النكاح بين الكافر والمسلم جائزاً ﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى ﴾ يقول : لا تفضحوني في أضيافي ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ يعني : مرشداً صالحاً يزجركم عن هذا الأمر .

ويقال : رجل عاقل ، ويقال : رجل على الحق يستحي مني .

﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقّ ﴾ يعني : من حاجة ، ويقولون : ما لنا في

النساء من حاجة ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ إنما نريد الأضياف ف ﴿ قَالَ ﴾ لوط : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ يعني : منعة بالولد ﴿ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ ، أي : أرجع إلى عشيرة كثيرة ، يعني : لو كانت لي عشيرة ومنعة لمنعتكم مما تريدون .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" رَحِمَ اللَّهُ لُوطاً لَقَدْ أَوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ " يعني : إن الله ناصره وروى عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : ما بعث الله نبياً بعد لوط ، إلا في عز من قومه .

ويقال : لما أرادوا الدخول ، وضع جبريل يده على الباب ، فلم يقدروا على فتحه ، فكسروا الباب ودخلوا فامتلأت داره ، فمسح جبريل جناحه على وجوههم فذهبت أعينهم ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر : 37] فرجعوا وقالوا : يا لوط جئت بالسحرة حتى طمسوا أعيننا ، والله لنهلكنك غداً .

فلما سمع لوط تهديدهم إياه ، ساءه صنيع القوم وخاف ، فلمّا رأى جبريل ما دخله ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ يعني : لن يقدروا أن يصنعوا بك شيئاً ، ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ يعني : سر وادلج بأهلك ﴿ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ .

قال الكلبي : القطع من الليل ، آخر السحر ، وقد بقيت منه قطعة .

وقال السدي : سألت أعرابياً عن قوله : ﴿ بِقِطْعٍ مِّنَ الليل ﴾ قال : ربع الليل ﴿ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ يعني : لا يتخلف منكم أحد ﴿ إِلاَّ امرأتك إِنَّهُ مُصِيبُهَا ﴾ من العذاب ، ﴿ مَا أصابهم ﴾ .

قرأ ابن كثير ، ونافع : ﴿ فَأَسْرِ ﴾ بجزم الألف ، وقرأ الباقون : ﴿ فَأَسْرِ ﴾ ، ومعناهما واحد .

يقال : سريت وأسريت ، إذا سرت بالليل .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ﴿ إِلاَّ امرأتك ﴾ بضم التاء ، وقرأ الباقون بالنصب .

فمن قرأ بالنصب ، انصرف إلى الإسراء ، يعني : أسر بأهلك إلا امرأتَكَ ، على معنى الاستثناء ؛ وفي قراءة ابن مسعود : فاسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتَكَ .

ومن قرأ بالضم ، فهو ظاهر ، يعني : أنها تتخلف مع الهالكين .

وقال لوط ، لجبريل عليه السلام : إن أبواب المدينة قد أُغلقت ، فجمع لوط أهله وابنتيه ريثا وزغورا ، فحمل جبريل لوطاً ، وابنتيه ، وماله على جناحه إلى مدينة ذعر ، وهي إحدى مدائن لوط ، وهي خمس مدائن ، وهي على أربعة فراسخ من سدوما ، ولم يكونوا على مثل عملهم .

فقال له جبريل ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح ﴾ يعني : هلاكهم وقت الصبح .

فقال لوط : يا جبريل ، الآن عجل هلاكهم .

فقال له جبريل : ﴿ أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ ﴾ فلما كان وقت الصبح ، أدخل جبريل جناحه تحت أرض المدائن الأربعة ، فاقتلعها من الماء الأسود ، ثم صعد بها إلى السماء ، حتى سمع أهل السماء نباح وصياح الديك .

ثم قلبها فجعل عاليها سافلها ، فأقبلت تهوي من السماء إلى الأرض فذلك قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عاليها سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً ﴾ .

قال وهب بن منبه : لما رفعت إلى السماء ، أمطر الله عليهم الكبريت والنار ، ثم قلبت .

وقال مقاتل : أمطر على أهلها من كان خارجاً من المدائن الأربعة ، حجارة ﴿ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ يعني : من طين مطبوخ ، كما يطبخ الآجر ، ﴿ مَّنْضُودٍ ﴾ يعني : متتابع بعضه على أثر بعض .

وقال مجاهد : سجيل بالفارسية : سنج وجك ، كقوله : ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ [الذاريات : 33] وروي عن ابن عباس ، في بعض الروايات ، قال : سنك وكل .

وقال أبو عبيدة : السجيل : الشديد ، منضود : أي ملتزق بالحجارة .

﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ قال الفراء مخططة بالحمرة ، والسواد في البياض .

وقال أبو عبيدة : مسومة ، أي : معلمة .

ويقال : مكتوب على كل حجر ، اسم صاحبه الذي يصيبه .

ويقال : مختمة .

وقال وكيع : رفع إلي حجر منها بطرسوس .

ثم قال : ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ ﴾ يعني : من قوم لوط عليه السلام ويقال : هذا تهديد لأهل مكة ، وغيرهم من المشركين .

فقال : ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ ﴾ لكيلا يعملوا مثل عملهم .

ويقال : ما هن من الظالمين ببعيد .

قريات لوط ليست ببعيدة من أهل مكة ، فأمرهم بأن يعتبروا بها .

وقال الزجاج : سجيل ، يعني : ما كتب لهم أن يعذبوا به .

ويقال : سجيل من سجلته ، يعني : أرسلته ، ومعناه : حجارة مرسلة عليهم ، ويقال : كثيرة شديدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 163 . 165 ﴾

وقال الثعلبى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ ﴾

يعني الملائكة ، واختلفوا في عددهم ، فقال ابن عباس : كانوا ثلاثة : جبرئيل وميكائيل وإسرافيل . الضحّاك : تسعة ، السدّي : أحد عشر ، وكانوا على صورة الغلمان الوِضاء وجوههم .

﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ الخليل ﴿ بالبشرى ﴾ بالبشارة بإسحاق ويعقوب ، وبإهلاك قوم لوط ﴿ قَالُوْا ﴾ لإبراهيم ﴿ سَلاَمًا ﴾ سلّموا عليه ونصب ﴿ سَلاَمًا ﴾ بإيقاع القول عليه ، لأن السلام قول أي [مِثل] قالوا وسلّموا سلاماً (قال) إبراهيم (سلام) أي عليكم سلام ، وقيل : لكم سلام وقيل : رُفِع على الحكاية ، (قيل : الحمد لله) (وقولوا حطّة) ، وقرأ حمزة والكسائي سِلام بكسر السين من غير ألف ومثله في والذاريات ، وكذلك هو في مصحف عبد الله ومعناه : نحن سِلام صالح لكم غير حرب ، وقيل : هو بمعنى السِلم أيضاً كما يقال : حِل وحلال ، وحِرم وحرام . وأنشد الفراء :

مررنا فقلنا إيه سلّم فسلمت . . . كما اكتل بالبرق الغمام اللوائح

﴿ فَمَا لَبِثَ ﴾ فما أقام ومكث إبراهيم ﴿ أَن ﴾ بمعنى حتى بإسقاط الخافض أي بأن ﴿ جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ قال ابن عباس : مشوي بالحجارة الحارة في خد من الأرض ،

قتادة ومجاهد : نضج بالحجارة وشوي ، ابن عطية : شوي بعضه بحجارة ، أبو عبيدة : كل ما أسخنته فقد حنذته فهو حنيذ ومحنوذ وأصل يحنذ أن إذا ألقيت عليها الجلال بعضها على بعض لتعرق .

﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ ﴾ أي للعجل ﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ أي : أنكرهم ، ويقال : نكرت الشيء وأنكرته بمعنى واحد . قال الأعشى : وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلاّ الشيب والصلعا فجمع المعنيين في وقت واحد .

﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أضمر وأحسّ منهم خوفاً ، وقال مقاتل : وقع في قلبه ، الأخفش : خامر نفسه . الفرّاء : استشعر . الحسن : حدّث نفسه ، وأصل الوجوس الدخول ، وكان الخوف دخل قلبه . قتادة : وذلك أنهم كانوا إذا أتاهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجئ لخير وأنّه يحدّث نفسه بشرّ .

﴿ قَالُوا لا تَخَفْ ﴾ يا إبراهيم فإنّا ملائكة الله ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ قال الوالبي : لمّا عرف إبراهيم أنهم ملائكة خاف أنه وقومه المقصودون بالعذاب ؛ لأن الملائكة كانت تنزل إذ ذاك بالعذاب ، نظير ما في الحجر ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ [الحجر : 8]

أي بالعذاب ، قالت الملائكة : لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط لا إلى قومك .

﴿ وامرأته ﴾ سارة بنت هاران بن ناحور بن شاروع بن أرغوا بن فالغ وهي ابنة عم إبراهيم ﴿ قَآئِمَةٌ ﴾ من وراء الستر تسمع كلام الملائكة وكلام إبراهيم ، وقيل : كانت قائمة [. . . . . .] الرسل وإبراهيم جالس معهم فهو كلام أوّلي ، وقرأ ابن مسعود : وامرأته قائمة وهو جالس ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ .

واختلفوا في العلة الجالبة للضحك ، فقال السدي : لما قرب إليهم الطعام فلم يأكلوا خاف إبراهيم فظنهم لصوصاً ، فقال لهم : ألا تأكلون ؟ فقالوا : يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاماً إلاّ بثمن ، قال : فإن لهذا ثمناً ، قالوا : وما ثمنه ؟ قال : تذكرون اسم الله على أوّله وتحمدون على آخره ، فنظر جبريل إلى ميكائيل وقال : حق أن يتخذك خليلا ، فلما رأى إبراهيم وسارة أيديهم لا تصل إليه نكرهم ، فضحكت سارة وقالت : إنا قمنا لأضيافنا هؤلاء أنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم ، وهم لا يأكلون طعامنا .

وقال قتادة : فضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم ، وقال مقاتل والكلبي : فضحكت من خوف إبراهيم من ثلاثة نفر وهو فيما بين خدمه وحشمه ، وقال ابن عباس

ووهب : ضحكت عجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنّها وسنّ زوجها ، وقالوا : هو من التقديم الذي معناه التأخير ، وكان بمعنى : [. . . . . .] وامرأته قائمة .

﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ فضحكت وقالت ﴿ قَالَتْ ياويلتى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ ﴾ الآية ، وقيل : ضحكت سروراً بالأمن عليهم لما قالوا : لا تخف وقال مجاهد وعكرمة : فضحكت أي حاضت في الوقت ، تقول العرب : ضحكت الأرنب إذا حاضت ، وقال الشاعر :

وضحكت الأرانب فوق الصفا . . . كمثل دم الخوف يوم اللقا

﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ قال ابن عباس والشعبي : الوراء ولد الولد ، واختلف القرّاء في قوله : يعقوب ، فنصبه ابن عامر وعاصم وقيل : في موضع جر في الصفة أي من وراء إسحاق بيعقوب ، فلمّا حذف الباء نصب ، وقيل : بإضمار فعل له ، ووهبنا له يعقوب . ورفعه الآخرون على خبر حذف الصفة ، فلمّا بُشّرت بالولد والحفيد ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ [الذاريات : 29] أي ضر الله تعجباً ﴿ قَالَتْ ياويلتى ﴾ والأصل : يا ويلتاه ﴿ أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ ﴾ وكانت لتسعين سنة في قول ابن إسحاق ، وتسع وتسعين سنة في قول مجاهد .

﴿ وهذا بَعْلِي ﴾ زوجي سمي بذلك لأنه قيّم أمرها كما سمّي مالك الشيء بعله ،

والنخل الذي استغنى بالأمطار عن ماء الأنهار يسمّى بعلا ﴿ شَيْخاً ﴾ وكان إبراهيم ابن مائة سنة في قول مجاهد ، وعشرين ومائة سنة في قول ابن إسحاق .

(116/383)

﴿ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ فقالت الملائكة ﴿ قالوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت ﴾ يعني هنا إبراهيم ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ قال السدّي : قالت سارة لإبراهيم (عليه السلام) : ما آية قولك ؟ قال : فأخذ بيده عوداً يابساً فلواه بين أصابعه ، فاهتزّ أخضر فقال إبراهيم : هو لله إذاً ذبيحاً .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الروع ﴾ الخوف ﴿ وَجَآءَتْهُ البشرى ﴾ بإسحاق ويعقوب ﴿ يُجَادِلُنَا ﴾ في [. . . . . . .] لأنّ إبراهيم لا يجادل ربّه إنّما يسأله ويطلب إليه .

وقال عامّة أهل التفسير معناه يجادل رسلنا وذلك أنهم لما قالوا : إنا مهلكوا أهل هذه القرية ، قال لهم : أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين أتهلكونهم ؟ قالوا لا ، فقال إبراهيم : وأربعون ؟ قالوا : لا ، قال : أو ثلاثون ؟ قالوا : لا ، قال : حتى بلغ عشرة ، قالوا : لا ، فقال : خمسة قالوا : لا ، قال : أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونه ؟ قالوا : لا ، فقال إبراهيم عند ذلك : إن فيها لوطاً ، فقالوا : نحن أعلم بمن فيها لننجّينه وأهله إلاّ امرأته كانت من

الغابرين.

قال ابن جريج: وكان في قرى لوط أربعة آلاف ألف، قال قتادة: في هذه الآية لا يرى مؤمن إلاّ لوط المؤمن، فقالت الرسل عند ذلك لإبراهيم: ﴿ يا إبراهيم أَعْرِضْ عَنْ هذآ ﴾ أي دع عنك الجدال، وأعرض عن هذا المقال ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ عذاب ربك ﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ ﴾ نازل بهم، يعني قوم لوط ﴿ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ غير مدفوع ولا ممنوع.

(117/383)

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا ﴾ يعني الملائكة ﴿ لُوطاً سياء بِهِمْ ﴾ حزن لمجيئهم، يقال: سؤته فسيء مثل شغلته فانشغل، وسررته فانسر ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ﴾ قلباً ﴿ وَقَالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ شديد، ومنه عصبصب، كالعصب به الشر والبلاء أي شدّ ومنه عصابة الرأس، قال عدي بن زيد:

وكنت لزاز خصمك لم أعرد . . . وقد سلكوك في يوم عصيب

وقال آخر:

وانك إلاّ تُرض بكر بن وائل . . . يكن لك يوم بالعراق عصيب

وقال الراجز:

يوم عصيب يعصب الأبطالا . . . عصب القوي السلم الطوالا

وذلك أن لوطاً (عليه السلام) لم يكن يعلم أنهم رسل الله في تلك الحال، وعلم من قومه ما هم عليه من إتيان الفواحش فخاف عليهم، وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عن أضيافه قال قتادة والسدّي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم عليه الصلاة والسلام نحو قرية لوط فأتوا لوطاً وهو في أرض يعمل فيها، وقد قال الله تعالى لهم: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوطاً أربع شهادات، واستضافوه فانطلق معهم، فلمّا خشي عليهم، قال لهم: ما بلغكم، أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشرّ قرية في الأرض عملا يقول، ذلك أربع مرات، فدخلوا معه منزله، ولم يعلم بذلك أحد إلاّ أهل بيت لوط، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، وقالت: إن في بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط.

{ وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ } قال ابن عباس وقتادة والسدّي: يُسرعون، ومجاهد: يهرولون، الضحاك: يسعون، ابن عيينة: كأنهم يُدفعون، شمر بن عطية: مشي بين الهرولة والجمزى، الحسن: مشي بين مشيتين، قال أهل اللغة: يقال: أهرع الرجل من برد وغضب أو أهرع إذا أرعد فهو مُهرع إذا كان معجلا مسرعاً، قال مُهلهل:

فجاءوا يهرعون وهم أُسارى . . . يقودهم على رغم الأنوفِ

وقال الراجز:

بمعجلات نحوه مهارع . . . ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ أي من قبل مجيء الرسل إلى لوط كانوا يأتون الرجال في أدبارهم ، فقال لهم لوط حين قصدوا أضيافه وظنوا أنهم غلمان : ﴿ يا قوم هؤلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ واختلفوا في معنى قوله ، قال محمد بن الفضل : يعني على شريعة الإسلام . وقال تميم : فلعلّ ذلك إلاّ إذا كان تزويجه بناته من الكفرة جائزاً كما زوج النبي صلى الله عليه وسلم بنتيه من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن الربيع قبل الوحي وكانا كافرين ، وقال مجاهد وسعيد بن جبير : أراد بقوله بناتي : النساء ، وكلّ نبي أبو أمّته . وقرأ بعض القراء ﴿ النبي أولى بالمؤمنين مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب : 6] وهو أب لهم ، وقال بعضهم : كان لهم سيّدان مطاعان فأراد أن يزوجهما بنتيه ، زعوراء وريثا .

وقوله : (هنّ أطهر لكم) قراءة العامة برفع الراء ، وقرأ الحسن وعيسى بن عمرو : (أطهر) بالنصب على الحال ، فإن قيل : فأي طهارة في نكاح الرجال حتى قال لبناته هن أطهر لكم ؟ قيل : ليس هذا زيادة النسل ، إنما يقال ليس ألف "أطهر" للتفضيل وهذا سائغ جائز في كلام العرب كقول الناس : الله أكبر ، فهل يكابر الله أحد حتى يكون هو أكبر منه ؟ ويدلّ عليه ما روي "عن أبي سفيان حين قال يوم أحد : أعلُ هبل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : قل الله أعلى وأجل" ، وهبل لم يكن قط عالياً .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ أي لا تهينوني فيهم بركوبهم، وهم لا يركبون، وعجزي من دفعهم عنهم. وقيل: أراد ولا تشهروني بهم. تقول العرب: خزي خزياً إذا افتضح، وخزي يخزي خزاية بمعنى الاستحياء، قال ذو الرمة:

خزاية أدركته بعد جولته . . . من جانب الحبل مخلوطاً بها الغضب

﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ صالح، قال ابن عباس: معناه رجل يأمر المعروف وينهى عن المنكر.

(119/383)

﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ أي ليس لنا أزواجاً (نلتصقهنّ) بالتزويج ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ من إتيان الأضياف، فقال لهم لوط عند ذلك ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ أي منعة وشيعة تنصرني ﴿ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ أي ألجأ وأنضوي إلى عشيرة مانعة، وجواب ﴿ لَوْ ﴾ مضمر [تقديره: لرددت أهل الفساد]، وقالوا: ما بعث الله بعده نبياً إلاّ في ثروة من قومه، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية قال: " رحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ".

قال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار وهو يناظرهم

ويناشدهم من وراء الباب ، وهم يعالجون تسوّر الجدار ، فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب والنصب بسببهم ، قالوا : يا لوط إنّ ركنك لشديد وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يصلوا إِلَيْكَ ﴾ فافتح الباب ودعنا وإيّاهم ففتح الباب ودخلوا ، استأذن جبريل (عليه السلام) ربه في عقوبتهم فأذن له ، فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه وله جناحان [وعليه وشاح من در منظوم هو برّاق الثنايا أجلى الجبين ، ورأسه [حبك حبك] مثل المرجان وهو اللؤلؤ كأنّه ثلج ، وقدماه إلى الخضرة فقال : يا لوط إنّا رسل ربّك لن يصلوا إليك ، امضِ يا لوط من الباب ، ودعني وإيّاهم ، فتنحى لوط عن الباب فخرج عليهم فنشر جناحه فضرب به] وجوههم فطمس أعينهم فعموا وانصرفوا على أعقابهم فلم يعرفوا طريقاً ولم يهتدوا إلى بيوتهم .

فانصرفوا وهم يقولون : النجا النجا فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض وقد سحرونا ، وجعلوا يقولون : يا لوط كما أنت حتى نصبح ، يتوعدونه ، فقال لهم لوط : متى موعد هلاكهم ؟ فقالوا : الصبح قال : أريد أسرع من ذلك أن تهلكونهم الآن ، فقالوا : أليس الصبح بقريب قالوا له : فأسر بأهلك ، قرأ أهل الحجاز بوصل الألف من سرى يسري ويدلّ

عليه قوله تعالى : ﴿ والليلِ إذا يَسْرِ ﴾ [الفجر : 4] وقرأ الباقون بقطع الألف من أسرى يسري اعتباراً بقوله ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء : 1] وهما بمعنى واحد .

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اليل ﴾ قال ابن عباس : بطائفة من الليل ، الضحّاك : ببقية ، قتادة : بعد مضي صدره ، الأخفش : بعد جنح ، وقيل : بعد هدوء ، وبعضها قريب من بعض .

﴿ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امرأتك ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو : أمراتك برفع التاء على الاستثناء من الالتفات أي ولا يلتفت منكم أحد إلاّ امرأتُك فإنها تلتفت وتهلك ، وإنّ لوطاً خرج بها ، ونهى من معه ممن أُسرى بهم أن يلتفت سوى زوجته ، فإنها لما سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت : واقوماه فأدركها حجر فقتلها .

وقرأ الباقون بنصب المرأة على الاستثناء من الأهل ، أي فأسر بأهلك بقطع من الليل إلاّ امرأتك ولا يلتفت منكم أحد ، فإنه مصيبها ما أصابهم من العذاب غير مخطيها ولا يُخطيهم .

﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح ﴾ أي إن موعد هلاكهم هو الصبح ، فقال لوط : أُريد أسرع من ذلك ، فقالوا : ﴿ أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ عذابنا ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ وذلك أن جبريل (عليه السلام) أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط المؤتفكات

سدوم وعامورا ودادوما وصبوا ، فرفعها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب ، ثم جعل عاليها سافلها .

(121/383)

روي " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل (عليه السلام) : إن الله تبارك وتعالى سمّاك بأسماء ففسّرها لي ، قال الله في وصفك ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : 20-21] فأخبرْني عن قوّتك ، قال : يا محمد رفعت قرى قوم لوط من تخوم الأرض على جناحي في الهواء حتى سمعت ملائكة سماء الدنيا أصواتهم وأصوات الديكة ثم قلبتها ظهراً لبطن ، قال : فأخبرني عن قوله ﴿ مُّطَاعٍ ﴾ قال : إن رضوان خازن الجنان ، ومالكاً خازن النيران متى كلفتهما فتح أبواب الجنة والنار فتحاهما لي ، قال : فأخبرْني عن قوله ﴿ أَمِينٍ ﴾ قال : إن الله عزّ وجل أنزل من السماء مائة وأربعة كتب على أنبيائه لم يأتمن عليها غيري " .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ أي على شذاذها وسافليها ، وقال أبو عبيدة : مَطَر في الرحمة ، وأمطر في العذاب ﴿ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ قال مجاهد : أولها حجر وآخرها طين ، وقال ابن عباس ووهب وسعيد بن جبير (سنك) : و (كل) حجارة وطين ، قتادة

وعكرمة: السجّيل: الطين دليله قوله تعالى ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ [الذاريات: 33] قال الحسن: كان أصل الحجارة طيناً فشدّدت.

وروى عكرمة أيضاً أنه قال: هو حجر معلق في الهواء بين الأرض والسماء منه أنزل الحجارة، وقيل: هو جبال في السماء وهي التي أشار الله إليها فقال: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ [النور: 43] وقال أهل المعاني: السجّيل والسجّين واحد، وهو الشديد من الحجر والضرب. قال ابن مقبل:

ورجلة يضربون البيض عن عرض... ضرباً تواصت به الأبطال سجينا

(122/383)

والعرب تعاقب بين اللام والنون، قالوا: لأنّها كلها ذلقة من مخرج واحد ونظيره في الكلام هلّت العين وهنّت إذا أصيبت وبكت، وقيل: هو فعيل من قول العرب أسجلته إذا أرسلته فكأنها مرسلة عليهم، وقيل: من سجلت لهم سجلا إذا أعطيتهم كأنهم أُعطوا ذلك البلاء والعذاب، قال الفضل بن عباس:

من يُساجلْني يساجلْ ماجداً... يملأ الدلو إلى عقد الكرب

﴿ مَّنضُودٍ ﴾ قال ابن عباس: متابع، قتادة: بعضها فوق بعض، الربيع: قد نضد بعضه

على بعض ، عكرمة : مصفوف ، أبو بكر الهذلي : معدّ وهي من عدة (الله) التي أُعدت للظلمة .

﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ من نعت الحجارة ، وهي نصب على الحال ومعناها مُعلّمة قتادة وعكرمة : مطوقة بها نضح من حمرة ، ابن جريج : كانت لا تشاكل حجارة الأرض ، الحسن والسدّي : مختومة ، وقيل : مشهورة ، ربيع : مكتوب على كل حجر اسم من رُمي به .

﴿ وَمَا هِيَ ﴾ يعني تلك الحجارة ﴿ مِنَ الظالمين ﴾ من مشركي مكّة ﴿ بِبَعِيدٍ ﴾ قال مجاهد : يرهب بها قريشاً ، قتادة وعكرمة : يعني ظالمي هذه الأُمة والله ما أجار الله منها ظالماً بعد ، وقال أنس بن مالك : سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل (عليه السلام) عن قوله تعالى ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ ﴾ قال : يعني بها ظالمي أمتك ، ما من ظالم منهم إلاّ هو يعرف أي حجر سقط عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ 177 . 184 ﴾

(123/383)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ لم ينشئكم منها إلا هو ، ولم يستعمركم فيها غيره . وإنشاؤهم منها خلق آدم من التراب وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها وأمركم بالعمارة ، والعمارة متنوعة إلى واجب وندب ومباح ومكروه ، وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار وغرس الأشجار ، وعمروا الأعمار الطوال ، مع ما كان فيهم من عسف الرعايا ، فسأل نبى من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميرهم ، فأوحى إليه : إنهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي . وعن معاوية بن أبى سفيان أنه أخذ في إحياء الأرض في آخر أمره ، فقيل له ، فقال : ما حملني عليه إلا قول القائل :

لَيْسَ الْفَتَى بِفَتًى لَا يُسْتَضَاءُ بِهِ وَلَا تَكُونُ لَهُ فِى الْأَرْضِ آثَارُ «1»

وقيل : استعمركم من العمر ، نحو استبقاكم من البقاء ، وقد جعل من العمرى . وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكون استعمر في معنى أعمر ، كقولك استهلكه في معنى أهلكه ، ومعناه : أعمركم فيها دياركم ، ثم هو وارثها منكم عند انقضاء أعماركم . والثاني أن يكون بمعنى جعلكم معمرين دياركم فيها ، لأنّ الرجل إذا ورّث داره من بعده فكأنما أعمره إياها ، لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره قَرِيبٌ دانى الرحمة سهل المطلب مُجِيبٌ لمن دعاه وسأله فِينا فيما بيننا مَرْجُوًّا كانت تلوح فيك مخايل الخير وأمارات الرشد فكنا نرجوك لننتفع بك ، وتكون مشاوراً في الأمور ومسترشداً في التدابير ، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجاؤنا عنك وعلمنا أن لا خير فيك . وعن ابن عباس : فاضلا خيرا نقدّمك على

جميعنا . وقيل : كنا نرجو أن تدخل في ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه يَعْبُدُ آباؤُنا حكاية حال ماضية مُرِيبٍ من أرابه إذا أوقعه في الريبة وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين . أو من «أراب الرجل» إذا كان ذا ريبة على الإسناد المجازى . قيل إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي بحرف الشك وكان على

---

(1) . قوله «بفتى» خبر ليس . و«لا يستضاء به» صفته . ويجوز أنه حال من الفتى الأول ، شبهه في حسن الرأى وهداية المستشير بسراج منير . ويمكن أن شبهه بكوكب في السماء ، ليقابل الأرض بعده . والجامع ما مر . ويجوز أن الجامع أنه يكشف غمة الفقر ، كما أن المشية به يكشف ظلمة الليل ، وعلى كل حال فالاستضاءة تخييل . روى أنه قيل لمعاوية : لم أكثرت من حفر الأنهار وغرس الأشجار وإحياء القفار ؟ فقال : ما حملني عليه إلا هذا البيت ، فالآثار هي ما كان يفعله . ويحتمل أنها المكارم الموجبة للثناء بعد الفناء .

[. . . . .]

يقين أنه على بينة ، لأنّ خطابه للجاحدين ، فكأنه قال : قدّروا أنى على بينة من ربى ، وأنى نبىّ على الحقيقة ، وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربى في أوامره ، فمن يمنعني من

عذاب اللّه؟ فَما تَزِيدُونَنِي إذن حينئذ «1» غَيْرَ تَخْسِيرٍ يعنى تخسرون أعمالى وتبطلونها. أو فما تزيدونني بما تقولون لي وتحملوننى عليه غير أن أخسركم، أى أنسبكم إلى الخسران وأقول لكم إنكم خاسرون آيَةً نصب على الحال قد عمل فيها ما دلّ عليه اسم الإشارة من معنى الفعل. فإن قلت:

فبم يتعلق لَكُمْ قلت: بآية حالا منها متقدّمة، لأنها لو تأخرت لكانت صفة لها، فلما تقدمت انتصبت على الحال عَذابٌ قَرِيبٌ عاجل لا يستأجر عن مسكم لها بسوء إلا يسيرا، وذلك ثلاثة أيام ثم يقع عليكم تَمَتَّعُوا استمتعوا بالعيش فِي دارِكُمْ في بلدكم.

وتسمى البلاد الديار، لأنه يدار فيها أى يتصرف. يقال: ديار بكر، لبلادهم. وتقول العرب الذين حوالى مكة:

نحن من عرب الدار، يريدون من عرب البلد. وقيل: في دار الدنيا. وقيل: عقروها يوم الأربعاء وهلكوا يوم السبت غَيْرُ مَكْذُوبٍ غير مكذوب فيه، فاتسع في الظرف بحذف الحرف وإجرائه مجرى المفعول به، كقولك: يوم مشهود، من قوله:

وَيَوْمَ شَهِدْناهُ. «2» ....

أو على المجاز، كأنه قيل للوعد: نفى بك، فإذا وفي به فقد صدق ولم يكذب. أو وعد غير كذب، على أنّ المكذوب مصدر كالمجلود والمعقول، وكالمصدوقة بمعنى الصدق وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ قرئ مفتوح الميم لأنه مضاف إلى إذ، وهو غير متمكن، كقوله:

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ المَشِيبَ عَلَى الصِّبَا «3»

---

(1) . قوله «إذن حينئذ» لعل إحداهما مزيدة . (ع)

(2) ويوم شهدناه سليما وعامرا قليل سوى الطعن النهال نوافله

يقول : ورب يوم شهدنا فيه ، فحذف الجار وأوصل الضمير بالفعل ، فصار الفعل كأنه متعد لمفعولين : الأول الضمير ، والثاني : سليما ، أى قبيلتيهما «قليل» صفة ليوم . و «نوافله» فاعل به ، وقلة الغنائم لأن قومه لا تراعى حيازتها . أو المعنى أن أعداءه لا ينالون من قومه إلا الطعن ، تهكما بهم ، فالاستثناء متصل . ويجوز أنه منقطع .

ووصف المفرد بالجمع باعتبار أنواعه أو مراته ، فهو متعدد أيضا . والنهال : جمع ناهل ، أى ريان أو عطشان على التشبيه هنا ، فهو من الأضداد ، ووصف الطعن بأنه ناهل مجاز عقلى ، لأن الذي يوصف به الرمح أو الفارس .

والمعنى : أنهم يتشفون من غيظ قلوبهم بذلك الطعن .

(3) على حين عاتبت المشيب على الصبا فقلت ألما أصح والشيب وازع

النابغة الذبياني ، وبنى حين على الفتح لاضافته إلى مبنى ، وشبه المشيب بمن يصح معه العتاب على طريق المكنية والعتاب تخييل ، ويحتمل أن إيقاع العتاب على المشيب مجاز عقلى . والمعنى : عاتبت نفسي زمن الشيب على الصبا ، أى الميل إلى الهوى كما يفعل الشبان . وقوله «فقلت» بيان العتاب ، أى : إلى الآن لم أفق من سكرة الصبا ، والحال أن

الشيب زاجرا لي عن موجب العتاب ، والاستفهام توبيخي : أى لا ينبغي ذلك ، ووزعته فاتزع : كففته فامتنع ، فالوازع الذي يصلح الصف ويمنعه عن الاعوجاج ، وأوزعنى : ألهمنى ما يصلح شأنى .

(125/383)

فإن قلت : علام عطف ؟ قلت : على نجينا ، لأنّ تقديره ونجيناهم من خزى يومئذ ، كما قال وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ على : وكانت التنجية من خزى يومئذ ، أى من ذله ومهانته وفضيحته ، ولا خزى أعظم من خزى من كان هلاكه بغضب اللّه وانتقامه . ويجوز أن يريد بيومئذ يوم القيامة ، كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة . وقرئ أَلا إِنَّ ثَمُودَ ولِثَمُودَ كلاهما بالصرف وامتناعه ، فالصرف للذهاب إلى الحىّ أو الأب الأكبر ، ومنعه للتعريف والتأنيث ، بمعنى القبيلة .

[سورة هود (11) : الآيات 69 إلى 73]

وَلَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ (70) وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ

يَعْقُوبَ (71) قالَتْ يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73)

رُسُلُنا يريد الملائكة. عن ابن عباس: جاءه جبريل عليه السلام وملكان معه. وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل. وقيل: كانوا تسعة. وعن السدى: أحد عشر بِالْبُشْرى هي البشارة بالولد. وقيل: بهلاك قوم لوط، والظاهر الولد سَلاماً سلمنا عليك سلاما سَلامٌ أمركم سلام. وقرئ: فقالوا سلما قال سلم، بمعنى السلام. وقيل: سلم وسلام، كحرم وحرام، وأنشد:

مَرَرْنَا فَقُلْنَا إِيه سِلْمٌ فَسَلَّمَتْ كَمَا اكْتَلَّ بِالبَرْقِ الْغَمَامُ اللَّوَائِحُ «1»

فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ فما لبث في المجيء به، بل عجل فيه. أو فما لبث مجيئه. والعجل: ولد البقرة، ويسعى الحسيل والخبش بلغة أهل السراة، وكان مال إبراهيم عليه الصلاة والسلام

---

(1) . لذي الرمة غيلان بن عقبة، يقول: مررنا بديار المحبوبة مىّ، فقلنا إيه، أى حدثى واستأنسى، فأسرنا سلم، أى سلامة وأنس، فسلمت علينا ولمعت ثناياها وغابت بسرعة، كما لمع الغمام بلمعان البرق. وغاب البرق بسرعة.

واكتل اكتلالا: لمع لمعانا واللوائح الظواهر: صفة الغمام، لتعدده معنى.

البقر حَنِيذٍ مشويّ بالرضف «1» في أخدود . وقيل حَنِيذٍ يقطر دسمه ، من حنذت الفرس إذا ألقيت عليها الجل حتى تقطر عرقا ، ويدل عليه بِعِجْلٍ سَمِينٍ . يقال : نكره وأنكره واستنكره ، ومنكور قليل في كلامهم ، وكذلك : أنا أنكرك ، ولكن منكر ومستنكر ، وأنكرك . قال الأعشى :

وَأَنْكَرَتْنِى وَمَا كَانَ الَّذِى نَكِرَتْ مِنَ الْحَوَادِثِ إلّا الشَّيْبَ وَالصَّلَعَا «2»

قيل : كان ينزل في طرف من الأرض فخاف أن يريدوا به مكروها «3» . وقيل : كانت عادتهم أنه إذا مسّ من يطرقهم طعامهم أمنوه وإلا خافوه ، والظاهر أنه أحسّ بأنهم ملائكة ، ونكرهم لأنه تخوّف أن يكون نزولهم لأمر أنكره اللّه عليه أو لتعذيب قومه ، ألا ترى إلى قولهم لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف فيهم أرسلوا وَأَوْجَسَ فأضمر «4» . وإنما قالوا لا تَخَفْ لأنهم رأوا أثر الخوف والتغير في وجهه . أو عرفوه بتعريف اللّه . أو علموا أن علمه بأنهم ملائكة موجب للخوف ، لأنهم كانوا لا ينزلون إلا بعذاب وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ قيل : كانت قائمة وراء الستر تسمع تحاورهم . وقيل : كانت قائمة على رؤسهم تخدمهم . وفي مصحف عبد اللّه : وامرأته قائمة وهو قاعد

فَضَحِكَتْ سروراً بزوال الخيفة «5» أو بهلاك أهل الخبائث. أو كان ضحكها ضحك إنكار لغفلتهم وقد

---

(1). قوله «مشوى بالرضف» أى الحجارة المحماة، كما في الصحاح. (ع)

(2). للأعشى. ويقال: أنكره ونكره: جهله ونفر منه: أى جهلتنى المحبوبة، وما كان الذي أنكرته من الحوادث إلا الشيب والصلع وهو انحسار شعر الرأس. وقيل: إن أبا عبيدة سمع بشارا ينكر نسبة هذا البيت للأعشى ويقول: إنه مصنوع عليه لا يشبه كلامه، فتعجب أبو عبيدة من فطنته، كأنه صح عنده إنكاره.

(3). قال محمود: «قيل إنه كان ينزل في طرف من الأرض فخاف أن يريدوا به مكروها... الخ» قال أحمد:

وقد وردت قصة إبراهيم هذه في ثلاثة مواضع: هذا أحدها، وهو دال على أنه إنما أوجس منهم خيفة لعلمه أنهم ملائكة وعدم علمه فيم جاءوا. الثاني: في الحجر قوله وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ إلى قوله لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ فلم يطمئنوا بإعلامه أنهم ملائكة، ولكن بأنهم يبشرون له، فدل على استشعارهم أنه علم كونهم ملائكة ووجل مما جاءوا فيه. الثالث: في الذاريات فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ فهو أيضا كذلك. وأما لوط فلم يشعر أنهم ملائكة حتى أعلموه بذلك. ألا ترى إلى قوله تعالى قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فأول ما أعلموا به أنهم رسل، فالفرق بين هذه الآية وبين آي

إبراهيم ، مصداق لأن إبراهيم علم كونهم ملائكة ولوطا لم يعلم ذلك ، ولا يبعد من فضل إبراهيم على لوط أن يبعد على فراسته أن يعلم أنهم ملائكة دون لوط عليهما السلام .

(4) . عاد كلامه . قال : «و معنى أوجس أضمر وإنما قالوا لا تخف لأنهم رأوا أثر الخوف . . . الخ» قال أحمد :

وهذا التأويل وهم فيه الزمخشري والله أعلم ، لأنهم إنما علموا خوفه ووجله باخباره إياهم بذلك ، ويدل عليه قوله تعالى في آية أخرى قال إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لا تَوْجَلْ والقصة واحدة ، والله الموفق للصواب .

(5) . عاد كلامه . قال : «و ضحك زوجته لأنها سرت بذهاب الخيفة . . . الخ» قال أحمد : ويبعد هذا التأويل أنها قالت بعد يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ فلو كان حيضها قبل بشارتها لما تعجبت ، إذ لا عجب في حمل من تحيض ، والحيض في العادة مهماز على إمكان الحمل ، والله الموفق .

(127/383)

أظلهم العذاب . وقيل : كانت تقول لإبراهيم : اضمم لوطاً ابن أخيك إليك فإنى أعلم أنه ينزل بهؤلاء القوم عذاب ، فضحكت سروراً لما أتى الأمر على ما توهمت . وقيل

ضحكت فحاضت .

وقرأ محمد بن زياد الأعرابى فَضَحِكَتْ بفتح الحاء يَعْقُوبَ رفع بالابتداء ، كأنه قيل : ومن وراء إسحاق يعقوب مولود أو موجود ، أى من بعده . وقيل الوراء : ولد الولد ، وعن الشعبي أنه قيل له : أهذا ابنك ؟ فقال نعم ، من الوراء ، وكان ولد ولده . وقرئ يَعْقُوبَ بالنصب ، كأنه قيل . ووهبنا لها إسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، على طريقة قوله :

. . . لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً وَلَا نَاعِبٍ «1» . . .

الألف في يا وَيْلَتى مبدلة من ياء الإضافة ، وكذلك في «يا لهفاً» و«يا عجباً» وقرأ الحسن : يا ويلتى ، بالياء على الأصل . وشَيْخاً نصب بما دلّ عليه اسم الإشارة . وقرئ شيخ ، على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى : هذا بعلى هو شيخ . أو بعلى : بدل من المبتدأ ، وشيخ :

خبر ، أو يكونان معاً خبرين . قيل : بشرت ولها ثمان وتسعون سنة ، ولإبراهيم مائة وعشرون سنة إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ أن يولد ولد من هرمين ، وهو استبعاد من حيث العادة التي أجراها اللّه . وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ف قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات ، فكان عليها أن تتوقر ، ولا يزدهيها «2» ما يزدهى سائر النساء الناشئات في غير بيوت النبوة ، وأن تسبح اللّه وتمجده مكان التعجب ، وإلى ذلك أشارت الملائكة صلوات اللّه عليهم في قولهم

رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوّة، فليست بمكان عجب. وأمر اللّه: قدرته وحكمته: وقوله رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ كلام مستأنف علل به إنكار التعجب، كأنه قيل: إياك والتعجب، فإنّ أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من اللّه عليكم. وقيل: الرحمة النبوة، والبركات الأسباط من بنى إسرائيل، لأنّ الأنبياء منهم، وكلهم من ولد إبراهيم حَمِيدٌ فاعل ما يستوجب به الحمد من عباده مَجِيدٌ كريم كثير الإحسان إليهم. وأهل البيت: نصب على النداء أو على الاختصاص، لأن أَهْلَ الْبَيْتِ مدح لهم: إذ المراد: أهل بيت خليل الرحمن.

---

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 381 فراجعه إن شئت اه مصححه.

(2). قوله «ولا يزدهيها» في الصحاح: زهاه وازدهاه: استخفه وتهاون به. (ع)

(128/383)

[سورة هود (11): الآيات 74 إلى 75]

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَجاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْراهِيمَ

لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75)

الرَّوْعُ ما أوجس من الخيفة. حين نكر أضيافه. والمعنى: أنه لما اطمأن قلبه بعد الخوف وملئ سرورا بسبب البشرى بدل الغم، فرغ للمجادلة، فإن قلت: أين جواب لما؟ قلت: هو محذوف كما حذف قوله فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا وقوله يُجادِلُنا كلام مستأنف دال على الجواب. وتقديره: اجترأ على خطابنا، أو فطن لمجادلتنا، أو قال: كيت وكيت:

ثم ابتدأ فقال يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ وقيل في يُجادِلُنا: هو جواب لما، وإنما جيء به مضارعاً لحكاية الحال: وقيل: إن «لما» ترد المضارع إلى معنى الماضي، كما تردّ «إن» الماضي إلى معنى الاستقبال، وقيل: معناه أخذ يجادلنا، وأقبل يجادلنا. والمعنى: يجادل رسلنا. ومجادلته إياهم أنهم قالوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ فقال: أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها؟ قالوا: لا. قال: فأربعون؟ قالوا: لا. قال: فثلاثون؟ قالوا: لا. حتى بلغ العشرة. قالوا: لا. قال: أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا.

فعند ذلك قال إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ. فِي قَوْمِ لُوطٍ في معناهم. وعن ابن عباس: قالوا له: إن كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب. وعن قتادة:

ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير «1» . وقيل : كان فيها أربعة آلاف ألف إنسان إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ غير عجول على كل من أساء إليه أَوَّاهٌ كثير التأوّه من الذنوب مُنِيبٌ تائب راجع إلى اللّه بما يحب ويرضى . وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة ، فبين أنّ ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب ، ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة والإنابة كما حمله على الاستغفار لأبيه .

[سورة هود (11) : آية 76]

يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76)

يا إِبْراهِيمُ على إرادة القول : أى قالت له الملائكة أَعْرِضْ عَنْ هذا الجدال وإن كانت الرحمة ديدنك ، فلا فائدة فيه إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وهو قضاؤه وحكمه الذي لا يصدر إلا عن صواب وحكمة ، والعذاب نازل بالقوم لا محالة ، لا مردّ له بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك .

---

(1) . قوله «عشرة فيهم خير» لعله عشرة يصلون . (ع)

[سورة هود (11) : آية 77]

وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77)

كانت مساءة لوط وضيق ذرعه «1» لأنه حسب أنهم إنس، فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم. روى أنّ اللَّه تعالى قال لهم: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلما مشى معهم منطلقاً بهم إلى منزله قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا:

وما أمرهم؟ قال: أشهد باللَّه إنها لشر قرية في الأرض عملا، يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته فأخبرت بهم قومها. يقال: يوم عصيب، وعصبصب، إذا كان شديداً من قولك: عصبه، إذا شدّه.

[سورة هود (11) : الآيات 78 إلى 79]

وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78) قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ (79)

يُهْرَعُونَ يسرعون كأنما يدفعون دفعاً وَمِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش ويكثرونها، فضروا بها ومرنوا عليها وقل عندهم استقباحها، فلذلك جاءوا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء. وقيل معناه: وقد عرف لوط عادتهم في عمل الفواحش قبل ذلك هؤُلاءِ بَناتِي أراد أن يقي أضيافه ببناته، وذلك غاية الكرم، وأراد: هؤلاء بناتي فتزوّجوهنّ وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزاً، كما زوّج رسول

اللّه صلى اللّه عليه وسلم ابنتيه من عتبة بن أبى لهب وأبى العاص بن وائل قبل الوحى وهما كافران «2»

---

(1) . قوله «وضيق ذرعه» في الصحاح: يقال ضقت بالأمر ذرعا، إذا لم تطقه ولم تقو عليه. وأصل الذرع إنما هو بسط اليد، فكأنك تريد: مددت يدي إليه فلم تنله. (ع)

(2) . قلت: قوله «أبو العاص بن وائل» غلط فاحش وإنما هو أبو العاص بن الربيع، ليس في نسبته من اسمه وائل. وكأنه انتقل ذهنه إلى العاص بن وائل السهمي والد عمرو، وليس له في هذه القضية مدخل، وأما قصة تزويج أبى العاص بن الربيع بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. وكذا عتبة بن أبى لهب فذكرها ابن إسحاق في المغازي والطبراني من طريقه قال: كان أبو العاص بن الربيع من رجال مكة مالا وأمانة وكانت خديجة خالته. فسألت خديجة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يزوجه بزينب وكان لا يخالفها. وذلك قبل أن ينزل عليه فلما أكرم اللّه نبيه صلى اللّه عليه وسلم بالنبوة آمنت خديجة وبناته وثبت أبو العاص على شركه. قال: وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قد زوج عتبة بن أبى لهب بنته رقية. فلما دعا قريشا إلى أمرين قال بعضهم لبعض: قد فرغتم محمدا من همه ببناته. فردوهن عليه فمشوا إلى أبى العاص. فأبى عليهم. ثم مشوا إلى عتبة بن أبى لهب. ففارق رقية. وزوجوه بنت سعيد بن العاص. فتزوجها بعده عثمان بن عفان. فذكر قصة أبى العاص وأسره ببدر» وروى البيهقي في الدلائل من طريق قتادة «أن النبي

صلى اللّه عليه وسلم زوج ابنته أم كلثوم في الجاهلية عتبة ابن أبى لهب . ورقية أخاه . فلما جاء الإسلام أمر أبو لهب ولديه فطلقا البنتين . [. . . . .]

(130/383)

وقيل كان لهم سيدان مطاعان ، فأراد أن يزوجهما ابنتيه : وقرأ ابن مروان : هنّ أطهر لكم ، بالنصب ، وضعفه سيبويه وقال : احتبى ابن مروان في لحنه . وعن أبى عمرو بن العلاء : من قرأ هُنَّ أَطْهَرُ بالنصب فقد تربع في لحنه ، وذلك أنّ انتصابه على أن يجعل حالا قد عمل فيها ما في هؤلاء من معنى الفعل ، كقوله هذا بَعْلِي شَيْخاً أو ينصب هؤلاء بفعل مضمر ، كأنه قيل :

خذوا هؤلاء ، وبناتي : بدل ، ويعمل هذا المضمر في الحال ، وهُنَّ فصل ، وهذا لا يجوز لأنّ الفصل مختص بالوقوع بين جزأى الجملة ، ولا يقع بين الحال وذى الحال ، وقد خرّج له وجه لا يكون هُنَّ فيه فصلا ، وذلك أن يكون هؤلاء مبتدأ وبَناتِي هُنَّ جملة في موضع خبر المبتدإ ، كقولك : هذا أخى هو ، ويكون أَطْهَرُ حالا فَاتَّقُوا اللَّهَ بإيثارهنّ عليهم وَلا تُخْزُونِ ولا تهينونى ولا تفضحوني ، من الخزي . أو ولا تخجلوني ، من الخزاية وهي الحياء فِي ضَيْفِي في حق ضيوفى فإنه إذا خزى ضيف الرجل أو جاره فقد خزى الرجل ، وذلك من عراقة

الكرم وأصالة المروءة أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ رجل واحد يهتدى إلى سبيل الحق وفعل الجميل ، والكف عن السوء . وقرئ : ولا تخزون ، بطرح الياء . ويجوز أن يكون عرض البنات عليهم مبالغة في تواضعه لهم وإظهارا لشدّة امتعاضه «1» مما أوردوا عليه ، طمعاً في أن يستحيوا منه ويرقوا له إذا سمعوا ذلك ، فيتركوا له ضيوفه مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده وعندهم أن لا مناكحة بينه وبينهم ، ومن ثمّ قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مستشهدين بعلمه ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ لأنك لا ترى مناكحتنا ، وما هو إلا عرض سابرىّ «2» . وقيل : لما اتخذوا إتيان الذكران مذهبا ودينا لتواطؤهم عليه ، كان عندهم أنه هو الحق ، وأنّ نكاح الإناث من الباطل ، فلذلك قالوا : ما لنا في بناتك من حق قط ، لأنّ نكاح الإناث أمر خارج من مذهبنا الذي نحن عليه . ويجوز أن يقولوه على وجه الخلاعة ، والغرض نفى الشهوة لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ عنوا إتيان الذكور وما لهم فيه من الشهوة .

[سورة هود (11) : آية 80]

قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ (80)

---

(1) . قوله «لشدة امتعاضه» امتعض من الأمر : غضب منه وشق عليه ، كذا في الصحاح. (ع)

(2) . قوله «وما هو إلا عرض سابري» عرض سابري بفتح العين : نوع من الثياب رقيق ، منسوب إلى سابور من الأكاسرة ، كذا بهامش . وفي الصحاح : عرضت له الشيء . أى

أظهرته له وأبرزته إليه. يقال: عرضت له ثوبا مكان حقه. وفي المثل: عرض سابري، لأنه ثوب جيد يشترى بأول عرض ولا يبالغ فيه. (ع)

(131/383)

جواب «لو» محذوف، كقوله تعالى وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ يعنى لو أنّ لي بكم قوّة لفعلت بكم وصنعت. يقال: مالى به قوّة، وما لي به طاقة. ونحوه لا قِبَلَ لَهُمْ بها ومالى به يدان، لأنه في معنى لا اضطلع به ولا أستقلّ به. والمعنى لو قويت عليكم بنفسي، أو أويت إلى قوىّ أستند إليه وأتمنع به فيحمينى منكم. فشبه القوىّ العزيز بالركن من الجبل في شدّته ومنعته، ولذلك قالت الملائكة -وقد وجدت عليه-: إنّ ركنك لشديد. وقال النبي صلى اللّه عليه وسلم «رحم اللّه أخى لوطا، كان يأوى إلى ركن شديد» «1» وقرئ «أو آوى» بالنصب بإضمار «أن» كأنه قيل: لو أن لي بكم قوّة أو أويا، كقولها:

لَلبْسُ عَبَاءَةٍ وَتَقَرَّ عَيْنِى «2»

وقرئ «إلى ركن» بضمتين. وروى أنه أغلق بابه حين جاؤوا وجعل يرادّهم ما حكى اللّه عنه ويجادلهم، فتسوّروا الجدار.

[سورة هود (11): آية 81]

قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81)

فلما رأت الملائكة ما لقى لوط من الكرب قالوا : يا لوط ، إن ركنك لشديد إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فافتح الباب ودعنا وإياهم ، ففتح الباب فدخلوا ، فاستأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم فأذن له ، فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه - وله جناحان وعليه وشاح من درّ منظوم وهو براق الثنايا - فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم ، كما قال اللّه تعالى فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فصاروا لا يعرفون الطريق ، فخرجوا وهم يقولون : النجاء النجاء ، فإن في بيت لوط قوماً سحرة لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ جملة موضحة للتي قبلها ، لأنهم إذا كانوا

---

(1) . متفق عليه من حديث أبى هريرة في أثناء حديث .

(2) لبيت تخفق الأرواح فيه أحب إلى من قصر منيف

ولبس عباءة وتقر عينى أحب إلى من لبس الشفوف

لميسون بنت بحدل الكلبية أم يزيد بن معاوية ، ضاق صدرها من عشرة معاوية فقال : أنت اليوم في ملك لا تدرين قدره ، وكنت قبله في العباءة ، فقالت ذلك ، أى : لبيت من الشعر تضطرب الرياح فيه ، أحب إلى من قصر عال مرتفع ، من أناف إنافة : ارتفع . ومن العرب من يقول : أرياح في جمع ريح ، خوف الاشتباه بجمع روح ، كأعياد في عيد ، خوف الاشتباه

بالعود . ولبس : عطف على ما قبله ، ورواية «للبس» على أنه هو المبتدأ تحريف وأن كثرت . ولبس عباءة خشنة من الصوف وقرة عيني مع ذلك . وسروري ، أحب إلى من لبس الشفوف وسخونة عينى وحزنى . والشفوف – جمع شف – : الرقيق من الثياب ، كأنه لا يحجب ما وراءه . وشف يشف شفوفا . نحل جسمه . وشفه يشفه بالكسر شفا : نحله .

(132/383)

رسل اللّه لم يصلوا إليه ولم يقدروا على ضرره . قرئ : فَأَسْرِ بالقطع والوصل . وإِلَّا امْرَأَتَكَ بالرفع والنصب . وروى أنه قال لهم : متى موعد هلاكهم ؟ قالوا : الصبح . فقال : أريد أسرع من ذلك . فقالوا أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ وقرئ «الصبح» بضمتين . فإن قلت : ما وجه قراءة من قرأ إِلَّا امْرَأَتَكَ بالنصب ؟ قلت : استثناها من قوله فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ والدليل عليه قراءة عبد اللّه : فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك . ويجوز أن ينتصب عن لا يلتفت ، على أصل الاستثناء وإن كان الفصيح هو البدل ، أعنى قراءة من قرأ بالرفع ، فأبدلها عن أحد . وفي إخراجها مع أهله روايتان : روى أنه أخرجها معهم ، وأمر أن لا يلتفت منهم أحد إلا هي ، فلما سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت : يا قوماء ، فأدركها

حجر فقتلها .

وروى أنه أمر بأن يخلفها مع قومها ، فإن هواها إليهم ، فلم يسر بها . واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين .

[سورة هود (11) : الآيات 82 إلى 83]

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82)
مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83)

جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها جعل جبريل جناحه في أسفلها ، ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ، ثم قلبها عليهم وأتبعوا الحجارة من فوقهم مِنْ سِجِّيلٍ قيل هي كلمة معربة من سنككل ، بدليل قوله حجارة من طين . وقيل : هي من أسجله ، إذا أرسله لأنها ترسل على الظالمين . ويدل عليه قوله لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً وقيل : مما كتب اللّه أن يعذب به من السجل ، وسجل لفلان مَنْضُودٍ «1» نضد في السماء نضداً معدّاً للعذاب . وقيل يرسل بعضه في أثر بعض متتابعاً مُسَوَّمَةً معلمة للعذاب وعن الحسن كانت معلمة ببياض وحمرة . وقيل عليها سيما يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض . وقيل : مكتوب على كل واحد اسم من يرمى به وَما هِيَ من كل ظالم ببعيد . وفيه وعيد لأهل مكة . وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

أنه سأل جبريل عليه السلام ؟ فقال : يعنى ظالمي أمّتك ، ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض

حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة «2» . وقيل الضمير للقرى ، أي هي قريبة من ظالمي مكة يمرون بها في مسايرهم بِبَعِيدٍ بشيء بعيد . ويجوز أن يراد : وما هي بمكان بعيد ، لأنها وإن كانت في السماء وهي مكان بعيد ، إلا أنها إذا هوت منها فهي أسرع شيء لحوقا بالمرمى ، فكأنها بمكان قريب منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 416.407﴾

---

(1) . قوله «منضود» في الصحاح : نضد متاعه ينضده بالكسر نضداً ، أي : وضع بعضه فوق بعض . (ع)

(2) . ذكره الثعلبي عن أنس بغير سند .

وقال ابن الجوزى فى الآيات السابقة :

﴿ ولقد جاءت رسلنا إِبراهيم ﴾

والرسل هاهنا : الملائكة .

وفي عددهم ستة أقوال :

أحدها : أنهم كانوا ثلاثة ، جبريل ، وميكائيل ، وإِسرافيل ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن

جبير .

وقال مقاتل : جبريل ، وميكائيل ، وملك الموت .

والثاني : أنهم كانوا اثني عشر ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : ثمانية ، قاله محمد بن كعب .

والرابع : تسعة ، قاله الضحاك .

والخامس : أحد عشر ، قاله السدي .

والسادس : أربعة ، حكاه الماوردي .

وفي هذه البشرى أربعة أقوال :

أحدها : أنها البشرى بالولد ، قاله الحسن ، ومقاتل .

والثاني : بهلاك قوم لوط ، قاله قتادة .

والثالث : بنبوّته ، قاله عكرمة .

والرابع : بأن محمداً يخرج من صلبه ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ قالوا سلاماً ﴾ قال ابن الأنباري : انتصب بالقول ، لأنه حرف مقول ، والسلام الثاني مرفوع باضمار "عليكم" .

وقال الفراء : فيه وجهان .

أحدهما : أنه أضمر "عليكم" كما قال الشاعر :

فَقُلْنَا السَّلَامُ فَاتَّقَتْ مِنْ أَمِيرِهَا . . .

فما كان إِلَّا ومْؤُهَا بِالْحَوَاجِبِ

والعرب تقول : التقينا فقلنا : سلام سلام .

والثاني : أن القوم سلَّموا ، فقال حين أنكرهم هو : سلام ، فمن أنتم ؟ لإِنكاره إِياهم .

وقرأ حمزة ، والكسائي : "قال سِلْم" ، وهو بمعنى سلام ، كما قالوا : حِلّ وحلال ، وحِرم وحرام ؛ فعلى هذا يكون ، معنى "سِلم" : سلام عليكم .

قال أبو علي : فيكون معنى القراءتين واحداً وإِن اختلف اللفظان .

وقال الزجاج : من قرأ "سِلْم" فالمعنى : أَمْرُنا سِلْم ، أي : لا بأس علينا .

قوله تعالى : ﴿ فما لبث ﴾ أي : ما أقام حتى جاء بعجل حنيذ ، لأنه ظنهم أضيافاً ، وكانت الملائكة قد جاءته في صورة الغلمان الوِضَاء .

وفي الحنيذ ستة أقوال :

أحدها : أنه النضيج ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة .

والثاني : أنه الذي يَقْطُر ماؤه ودَسَمُه وقد شوي ، قاله شمر بن عطية .

والثالث : أنه ما حفرتَ الأرضَ ثم غممتَه ، وهو من فعل أهل البادية ، معروف ، وأصله : محنوذ ، فقيل : حنيذ كما قيل : طبيخ للمطبوخ ، وقتيل للمقتول .

هذا قول الفراء .

والرابع : أنه المشوي ، قاله أبو عبيدة .

والخامس : المشوي بالحجارة المحماة ، قاله مقاتل ، وابن قتيبة .

والسادس : السميط ، ذكره الزجاج ، وقال : يقال : إنه المشوي فقط ، ويقال : المشوي الذي يقطر ، ويقال : المشوي بالحجارة .

قوله تعالى : ﴿ فلما رأى أيديهم ﴾ يعنى الملائكة ﴿ لاَتَصِلُ إِليه ﴾ يعني العجل ﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ أي : أنكرهم .

قال أبو عبيدة : نَكِرهم وأنكرهم واستنكرهم ، سواء ، قال الأعشى :

فَأَنْكَرَتْنِي وَمَا كانَ الَّذي نَكِرَتْ . . .

مِنَ الحَوَادِثِ إلاَّ الشَّيْبَ والصَّلَعَا

قوله تعالى : ﴿ وأوجس منهم خيفةً ﴾ أي : أضمر في نفسه خوفاً .

قال الفراء : وكانت سُنَّةً في زمانهم إذا ورد عليهم القوم فأتوهم بالطعام فلم يمسُّوه ، ظنوا أنهم عدوٌّ أو لُصُوصٌ ، فهنالك أوجس في نفسه خيفة ، فرأوا ذلك في وجهه ، فقالوا : ﴿ لا تخف ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنا أُرسلنا إِلى قوم لوط ﴾ قال الزجاج : أي : أُرسلنا بالعذاب إِليهم .

قال ابن الأنباري : وإِنما أُضمر ذلك هاهنا ، لقيام الدليل عليه بذكر الله تعالى له في سورة أخرى .

قوله تعالى : ﴿ وامرأته قائمة ﴾ واسمها سارة .

واختلفوا أين كانت قائمة على ثلاثة أقوال :

أحدها : وراء الستر تسمع كلامهم ، قاله وهب .

والثاني : كانت قائمة تخدمهم ، قاله مجاهد ، والسدي .

والثالث : كانت قائمة تصلي ، قاله محمد بن إِسحاق .

وفي قوله : ﴿ فضحكت ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الضحك ها هنا بمعنى التعجب ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن معنى "ضحكت" : حاضت ، قاله مجاهد ، وعكرمة .

قال ابن قتيبة : وهذا من قولهم : ضحكت الأرنب : إِذا حاضت .

فعلى هذا ، يكون حيضها حينئذ تأكيد للبشارة بالولد ، لأنَ من لا تحيض لا تحمل .

وقال الفراء : لم نسمع من ثقة أن معنى "ضحكت" حاضت .

قال ابن الأنباري : أنكر الفراء ، وأبو عبيدة ، وأبو عبيد أن يكون "ضحكت" بمعنى حاضت ، وعرفه غيرهم .

قال الشاعر :

تَضْحَكُ الضَّبْعُ لِقَتْلى هُذَيْلٍ . . .
وَتَرَى الذِّئبَ لها يَسْتَهِلُّ

قال بعض أهل اللغة : معناه : تحيض .

والثالث : أنه الضحك المعروف ، وهو قول الأكثرين .

وفي سبب ضحكها ستة أقوال :

أحدها : أنها ضحكت من شدة خوف إبراهيم من أضيافه ، وقالت : من ماذا يخاف إبراهيم ، وإنما هم ثلاثة ، وهو في أهله وغلمانه ؟ ! رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال مقاتل .

والثاني : أنها ضحكت من بشارة الملائكة لإبراهيم بالولد ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً ، ووهب بن منبه ؛ فعلى هذا إنما ضحكت سروراً بالبشارة ، ويكون في الآية تقديم وتأخير ، المعنى : وامرأته قائمة فبشرناها فضحكت ، وهو اختيار ابن قتيبة .

والثالث : ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم ، قاله قتادة .

والرابع : ضكحت من إمساك الأضياف عن الأكل ، وقالت : عجباً لأضيافنا ، نخدمهم بأنفسنا ، وهم لا يأكلون طعامنا ! قاله السدي .

والخامس : ضحكت سروراً بالأمن ، لأنها خافت كخوف إبراهيم ، قاله الفراء .

والسادس : أنها كانت قالت لإبراهيم : اضمم إليك ابن أخيك لوطاً ، فانه سينزل العذاب بقومه ، فلما جاءت الملائكة بعذابهم ، ضحكت سروراً بموافقتها للصواب ، ذكره ابن الأنباري .

قال المفسرون : قال جبريل لسارة : أَبشِري أيتها الضاحكة بولد اسمه إسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، فبشروها أنها تلد إسحاق ، وأنها تعيش إلى أن ترى ولد الولد .

وفي معنى الوراء قولان :

أحدهما : أنه بمعنى "بعد" ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، واختاره مقاتل ، وابن قتيبة .

والثاني : أن الوراء : ولد الولد ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال الشعبي ، واختاره أبو عبيدة .

فإن قيل : كيف يكون يعقوب وراء إسحاق وهو ولده لصلبه ، وإنما الوراء : ولد الولد ؟

فقد أجاب عنه ابن الأنباري ، فقال : المعنى : ومن وراء المنسوب إلى إسحاق يعقوب ، لأنه قد كان الوراء لإبراهيم من جهة إسحاق ، فلو قال : ومن الوراء يعقوب ، لم يُعلم أهذا الوراء منسوب إلى إسحاق ، أم إلى إسماعيل ؟ فأضيف إلى إسحاق لينكشف المعنى ويزول اللبس .

قال : ويجوز أن ينسب ولد إبراهيم من غير إسحاق إلى سارة على جهة المجاز ، فكان تأويل الآية : من الوراء المنسوب إلى سارة ، وإلى إبراهيم من جهة إسحاق ، يعقوب .

ومن حمل الوراء على "بعد" لزم ظاهر العربية .

واختلف القراء في "يعقوب" ، فقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : "يعقوبُ" بالرفع .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وحفص عن عاصم : "يعقوبَ" بالنصب .

قال الزجاج : وفي رفع "يعقوب" وجهان .

أحدهما : على الابتداء المؤخَّر ، معناه التقديم ؛ والمعنى : ويعقوبُ يَحْدُثُ لها من وراء إسحاق .

والثاني : وثبت لها من وراء إسحاق يعقوبُ .

ومن نصبه ، حمله على المعنى ، والمعنى : وهبنا لها إسحاقَ ، ووهبنا لها يعقوبَ .

قوله تعالى : ﴿ يا ويلتي أألد وأنا عجوز ﴾ هذه الكلمة تقال عند الإِيذان بورود الأمر العظيم .

ولم تُرِد بها الدعاء على نفسها ، وإِنما هي كلمة تخفُّ على ألسنة النساء عند الأمر العجيب .

وقولها : ﴿ أألد ﴾ استفهام تعجب .

قال الزجاج : و ﴿ شيخاً ﴾ منصوب على الحال .

قال ابن الأنباري : إِنما أشارت بقولها هذا لتنبِه على شيخوخيَّته واختلفوا في سن إِبراهيم وسارة يومئذ على أربعة أقوال .

أحدها : أنه كان إِبراهيم ابن تسع وتسعين سنة .

وسارة بنت ثمان وتسعين سنة .

قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنه كان إِبراهيم ابن مائة سنة ، وسارة بنت تسع وتسعين ، قاله مجاهد .

والثالث : كان إِبراهيم ابن تسعين ، وسارة مثله ، قاله قتادة .

والرابع: كان إِبراهيم ابن مائة وعشرين سنة، وسارة بنت تسعين، قاله عبيد بن عمير، وابن إِسحاق.

قوله تعالى: ﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله ﴾ أي: من قضائه وقدرته، وهو إِيجاد ولد من بين كبيرين.

قال السدي: قالت سارة لجبرئيل: ما آية ذلك؟ فأخذ بيده عوداً يابساً فلواه بين أصابعه فاهتزَّ أخضر، فقالت: هو إِذن لله ذبيحٌ.

قوله تعالى: ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهلَ البيت ﴾ فيه وجهان.

أحدهما: أنه من دعاء الملائكة لهم.

والثاني: أنه إِخبار عن ثبوت ذلك لهم.

ومن تلك البركات وجود أكثر الأنبياء والأسباط من إِبراهيم وسارة.

والحميد بمعنى المحمود.

فأما المجيد، فقال ابن قتيبة: بمعنى الماجد، وهو الشريف.

وقال أبو سليمان الخطابي: هو الواسع الكرم.

وأصل المجد في كلامهم: السَّعَة، يقال: رجل ماجد: إِذا كان سخياً واسع العطاء.

وفي بعض الأمثال: في كل شجر نار، واستمجدَ المرْخُ والعَفَارُ، أي: استكثرا منها.

قوله تعالى: ﴿ فلما ذهب عن إِبراهيم الرَّوْعُ ﴾ يعني الفَزَع الذي أصابه حين امتنعوا من

الأكل .

﴿ يجادلنا ﴾ فيه إضمار أخذ وأقبل يجادلنا ، والمراد : يجادل رسلنا .

قال المفسرون : لما قالوا له : ﴿ إنا مهلكوا أهل هذه القرية ﴾ [العنكبوت 31] ، قال :

أتهلكون قرية فيها مائة مؤمن ؟ قالوا : لا .

قال : أتهلكون قرية فيها خمسون مؤمناً ؟ قالوا : لا .

قال : أربعون ؟ قالوا : لا .

فما زال ينقص حتى قال : فواحد ؟ قالوا : لا .

فقال حينئذ : ﴿ إن فيها لوطا ، قالوا نحن أعلم بمن فيها ﴾ [العنكبوت 31] ، هذا قول

ابن إسحاق .

وقال غيره : قيل له : إن كان فيهم خمسة لم نعذّبهم ، فما كان فيهم سوى لوط وابنتيه .

وقال سعيد بن جبير : قال لهم : أتهلكون قرية فيها أربعة عشر مؤمناً ؟ قالوا : لا ؛ وكان

إبراهيم يَعُدُّهم أربعة عشر مع امرأة لوط ، فسكتَ واطمأنَّتْ نفسه ؛ وإنما كانوا ثلاثة عشر

فأُهلكوا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إبراهيم لحليم أَوَّاهٌ ﴾ قد فسرناه في [براءة 114] .

فعند ذلك قالت الرسل لإبراهيم : ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ﴾ يعنون الجدال .

﴿ إنه قد جاء أمر ربك ﴾ بعذابهم .

وقيل : قد جاء عذاب ربك ، فليس بمردود ، لأن الله قد قضى به .

قوله تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطاً ﴾ قال المفسرون : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط ، فأَتَوْهَا عشاءً .

وقال السدي عن أشياخه : أَتَوْهَا نصف النهار ، فلما بلغوا نهر سدوم ، لقوا بنت لوط تستقي الماء لأهلها ، فقالوا : لها : ياجارية ، هل من منزل ؟ قالت : نعم ، مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم فَرَقاً عليهم من قومها ؛ فأتت أباها ، فقالت : يا أبتاه ، أدرك فتياناً على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم هي أحسن منهم ، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم ؛ وقد كان قومه نَهَوْهُ أن يضيف رجلاً ؛ فجاء بهم ، ولم يعلم بهم أحد إلا أهل بيت لوط ؛ فخرجت امرأته فأخبرت قومها ، فجاؤوا يُهْرَعُونَ إليه .

قوله تعالى : ﴿ سيء بهم ﴾ فيه قولان .

أحدهما : ساء ظنه بقومه ، قاله ابن عباس .

والثاني : ساءه مجيء الرسل ، لأنه لم يعرفهم ، وأشفق عليهم ، من قومه قاله ابن جرير .

قال الزجاج : وأصل ﴿ سيء بهم ﴾ سُوِىءَ بهم ، من السوء ، إلا أن الواو أسكنت

ونقلت كسرتها إلى السين.

قوله تعالى: ﴿ وضاق بهم ذرعاً ﴾ قال ابن عباس: ضاق ذرعاً بأضيافه.

قال الفراء: الأصل فيه: وضاق ذرعه بهم، فنُقل الفعل عن الذرع إلى ضمير لوط، ونُصب الذرع بتحول الفعل عنه، كما قال: ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ [مريم 4] ومعناه: اشتعل شيب الرأس.

قال الزجاج: يقال: ضاق فلان بأمره ذرعاً: إذا لم يجد من المكروه في ذلك الأمر مخلصاً.

وذكر ابن الأنباري فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أن معناه: وقع به مكروه عظيم لا يصل إلى دفعه عن نفسه، فالذرع كناية عن هذا المعنى.

والثاني: أن معناه: ضاق صبره وعظم المكروه عليه؛ وأصله من ذرع فلاناً القيءُ: إذا غلبه وسبقه.

والثالث: أن المعنى: ضاق بهم وُسْعُه، فناب الذرع والذراع عن الوسع، لأن الذراع من اليد، والعرب تقول: ليس هذا في يدي، يعنون: ليس هذا في وُسْعِي؛ ويدل على صحة

هذا أنهم يجعلون الذراع في موضع الذرع ، فيقولون : ضقت بهذا الأمر ذراعاً ، قال الشاعر :

إِلَيْكَ إِلَيْكَ ضَاقَ بِهِم ذِرَاعَا . . .

فأما العصيب ، فقال أبو عبيدة : العصيب : الشديد الذي يعصب الناس بالشر ، وأنشد :

يَوْمٌ عَصِيبٌ يَعْصِبُ الأَبْطَالاَ . . .

عَصْبَ القويِّ السَّلَمَ الطِّوالا

وقال أبو عبيد : يقال : يوم عصيب ، ويوم عصبصب : إِذا كان شديداً .

قوله تعالى : ﴿ يهرعون إِليه ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد : "يهرعون" يسرعون .

وقال الفراء ، والكسائي : لا يكون الإِهراع إِلا إِسراعاً مع رِعدة .

قال ابن قتيبة : الإِهراع شبيه بالرِعدة ، يقال : أُهرع الرجل : إِذا أسرع ، على لفظ ما لم يسم فاعله ، كما يقال : أُرعد .

قال ابن الأنباري : الإِهراع فعل واقع بالقوم وهو لَهم في المعنى ، كما قالت العرب : قد أُولع الرجل بالأمر ، فجعلوه مفعولاً ، وهو صاحب الفعل ، ومثله : أُرعد زيد ، وسُهي عمرو من السهو ، كل واحد من هذه الأفاعيل خرج الاسم معه مقدراً تقدير المفعول ، وهو صاحب الفعل لا يُعرف له فاعل غيره .

قال : وقال بعض النحويين : لا يجوز للفعل أن يُجعل فاعله مفعولاً ، وهذه الأفعال المذكورة

فاعلوها محذوفون، وتأويل "أولع زيد": أولعه طبعه وجبلَّته، "وأُرعد الرجل": أرعده غضبه، "وسهي عمرو" جعله ساهياً ماله أو جهله، و"أُهرع" معناه: أهرعه خوفه ورعبه؛ فلهذه العلة خرِّج هؤلاء الأسماء مخرج المفعول به.

قال: وقال بعض اللغويين: لا يكون الإِهراع إِلا إِسراع المذعور الخائف؛ لا يقال لكل مسرع: مهرع حتى ينضم إِلى إِسراعه جزع وذعر.

(140/383)

قال المفسرون: سبب إِهراعهم، أن امرأة لوط أخبرتهم بالأضياف.

﴿ ومن قبل ﴾ أي: ومن قبل مجيئهم إِلى لوط ﴿ كانوا يعملون السيئات ﴾ يعني فعلهم المنكر.

وفي قوله: ﴿ هؤلاء بناتي ﴾ قولان:

أحدهما: أنهن بناته لصلبه، قاله ابن عباس.

فإن قيل: كيف جمع، وقد كن اثنتين؟ فالجواب: أنه قد يقع الجمع على اثنين، كقوله: ﴿ وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ [الأنبياء 78].

والثاني: أنه عنى نساء أمته، لأن كل نبي أبو أمته، والمعنى: أنه عرض عليهم التزويج، أو

أمرهم أن يكتفوا بنسائهم ، وهذا مذهب مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وابن جريج .

فإن قيل : كيف عرض تزويج المؤمنات على الكافرين ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أنه قد كان يجوز ذلك في شريعته ، وكان جائزاً في صدر الإسلام حتى نسخ ، قاله الحسن .

والثاني : أنه عرض ذلك عليهم بشرط إسلامهم ، قاله الزجاج ، ويؤكده أن عرضهن عليهم موقوف على عقد النكاح ، فجاز أن يقف على شرط آخر .

قوله تعالى : ﴿ هن أطهر لكم ﴾ قال مقاتل : هن أحل من إتيان الرجال .

قوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ﴾ فيه قولان :

أحدهما : اتقوا عقوبته .

والثاني : اتقوا معصيته .

قوله تعالى : ﴿ ولا تُخزونِ في ضيفي ﴾ حرك ياء "ضيفي" أبو عمرو ، ونافع .

وفي معنى هذا الخزي ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الفضيحة ، قاله ابن عباس .

والثاني : الاستحياء ، والمعنى : لا تفعلوا بأضيافي فعلاً يلزمني الاستحياء منه ، لأن المضيف يلزمه الاستحياء من كل فعل يصل إلى ضيفه .

والعرب تقول : قد خزي الرجل يخزى خِزاية : إذا استحيى ، قال الشاعر :

مِنَ البيْضِ لا تَخْزَى إِذا الرِّيحُ أَلْصَقَتْ . . .

بها مِرْطَهَا أَوْ زَايَلَ الْحَلْيُ جِيْدَهَا

والثالث : أنه بمعنى الهلاك ، لأن المعرة التي تقع بالمضيف في هذه الحال تُلزمه هلكة ، ذكرهما ابن الأنباري .

قال ابن قتيبة : والضيف هاهنا : بمعنى الأضياف ، والواحد يدل على الجميع ، كما تقول : هؤلاء رسولي ووكيلي .

(141/383)

قوله تعالى : ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ في المراد بالرشيد قولان :

أحدهما : المؤمن .

والثاني : الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ، رويا عن ابن عباس .

قال ابن الأنباري : يجوز أن يكون الرشيد بمعنى المرشِد ، فيكون المعنى : أليس منكم مرشِد يعظكم ويعرفكم قبيح ما تأتون ؟ فيكون الرشيد من صفة الفاعل ، كالعليم ، والشهيد .

ويجوز أن يكون الرشيد بمعنى المرشَد ، فيكون المعنى : أليس منكم رجل قد أسعده الله بما منحه من الرشاد يصرفكم عن إتيان هذه المعرَّة ؟ فيجري رشيد مجرى مفعول ، كالكتاب الحكيم بمعنى المحكم .

قوله تعالى : ﴿ مالنا في بناتك من حق ﴾ فيه قولان :

أحدهما : مالنا فيهن حاجة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : لسن لنا بأزواج فنستحقهن ، قاله ابن إسحاق ، وابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ قال عطاء : وإنك لتعلم أنا نريد الرجال ، لا النساء .

قوله تعالى : ﴿ لو أن لي بكم قوة ﴾ أي : جماعة أقوى بهم عليكم .

وقيل : أراد بالقوة البطش .

﴿ أو آوي إلى ركن شديد ﴾ أي : أنضم إلى عشيرة وشيعة تمنعني .

وجواب "لو" محذوف على تقدير : لحُلْتُ بينكم وبين المعصية .

قال أبو عبيدة : قوله : "آوي" من قولهم .

أويت إليك ، فأنا آوي أُويّاً ، والمعنى : صرت إليك وانضممت .

ومجاز الركن هاهنا : العشيرة العزيزة الكثيرة المنيعة ، وأنشد :

يأوي إلى رُكْنٍ مِنَ الأَرْكَانِ . . .

في عدَدٍ طَيْسٍ ومجدٍ باني

والطَّيْس: الكثير، يقال: أتانا لبن طيس، وشراب طيس، أي: كثير.

(142/383)

واختلفوا أي وقت قال هذا لوط؛ فروي عن ابن عباس أن لوطاً كان قد أغلق بابه والملائكة معه في الدار، وهو يناظرهم ويناشدهم وراء الباب، وهم يعالجون الباب ويرومون تسوّر الجدار؛ فلما رأت الملائكة ما يلقى من الكرب، قالوا: يالوط إنا رسل ربك، فافتح الباب ودعنا وإياهم؛ ففتح الباب، فدخلوا، واستأذن جبريل ربه في عقوبتهم، فأذن له، فضرب بجناحه وجوههم فأعماهم، فانصرفوا يقولون: النجاءَ النجاءَ، فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض؛ وجعلوا يقولون: يالوط، كما أنت حتى تصبح، يوعدونه؛ فقال لهم لوط: متى موعد هلاكهم؟ قالوا: الصبح، قال لو أهلكتموهم الآن، فقالوا: أليس الصبح بقريب؟ وقال أبو صالح عن ابن عباس: إنهم لما تواعدوه، قال في نفسه: ينطلق هؤلاء القوم غداً من عندي، وأبقى مع هؤلاء فيهلكوني، فقال: لو أن لي بكم قوة.

قلت: وإنما يتوجه هذا إذا قلنا: إنه كان قبل علمه أنهم ملائكة.

وقال قوم: إنه إنما قال هذا لما كسروا بابه وهجموا عليه.

وقال آخرون : لما نهاهم عن أضيافه فأَبَوْا قال هذا .

وفي الجملة ، ما أراد بالركن نصر الله وعونه ، لأنه لم يخل من ذلك ، وإنما ذهب إلى العشيرة والأسرة .

وروى أبو هريرة عن رسول الله أنه قال : " رحم الله لوطاً ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، وما بعث الله نبياً بعده إلا في ثروة من قومه " .

قوله تعالى : ﴿ لن يصلوا إليك ﴾ قال مقاتل : فيه إضمار ، تقديره : لن يصلوا إليك بسوء ، وذلك أنهم قالوا للوط : إنا نرى معك رجالاً سحروا أبصارنا ، فستعلم غداً ما تَلْقى أنت وأهلُك ؛ فقال له جبريل : ﴿ إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فأسر بأهلك ﴾ قرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي "فأسر" باثبات الهمز في اللفظ من أسريت .

وقرأ ابن كثير ، ونافع "فاسر بأهلك" بغير همز من سريت ، وهما لغتان .

(143/383)

قال الزجاج : يقال : سريت ، وأسريت : إذا سرت ليلاً ، قال الشاعر :

سريت بهم حتى تكلَّ مَطيُّهم . . .

وحتى الجيادُ ما يُقَدْنَ بأرسان

وقال النابغة :

أَسْرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوْزَاءِ سَارِيَةٌ . . .

تُزجِي الشَّمَالُ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرَدِ

وقد رووه : سرت .

فأما أهله ، فقال مقاتل : هم امرأته وابنتاه .

واسم ابنتيه : رُبْثا وزُعَرثا .

وقال السدي : اسم الكبرى : ريَّة ، واسم الصغرى : عروبة .

والمراد بأهله : ابنتاه .

فأما القِطْع ، فهو بمعنى القطعة ؛ يقال : مضى قِطْع من الليل ، أي : قطعة .

قال ابن عباس : يريد به : آخر الليل .

وقال ابن قتيبة : "بِقِطْع" أي : ببقية تبقى من آخره .

وقال ابن الأنباري : ذكر القِطَع بمعنى القطعة مختص بالليل ، ولا يقال : عندي قِطْع من الثوب ، بمعنى : عندي قطعة .

قوله تعالى : ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه بمعنى : لا يتخلَّفْ منكم أحد ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني: أنه الالتفات المعروف، قاله مجاهد، ومقاتل.

قوله تعالى: ﴿ إِلا امرأتك ﴾ قرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بنصب التاء.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن جمّاز عن أبي جعفر برفع التاء.

قال الزجاج: من قرأ بالنصب، فالمعنى: فأسر بأهلك إِلا امرأتكَ.

ومن قرأ بالرفع، حمله على "ولا يلتفتْ منكم أحد إِلا امرأتك".

وإِنما أُمروا بترك الالتفات لئلا يَرَوْا عظيم ما ينزل بهم من العذاب.

قال ابن الأنباري: وعلى قراءة الرفع، يكون الاستثناء منقطعاً، معناه: لكن امرأتك، فإنها تلتفت فيصيبها ما أصابهم؛ فإذا كان استثناءً منقطعاً، كان التفاتُها معصيةً لربها، لأنه ندب إِلى ترك الالتفات.

قال قتادة: ذُكر لنا أنها كانت مع لوط حين خرج من القرية، فلما سمعت هَدّة العذاب، التفتت فقالت: واقوماه، فأصابها حجر فأهلكها، وهو قوله: ﴿ إِنه مصيبُها ما أصابهم إِن موعدهم ﴾ للعذاب (الصبح).

قوله تعالى : ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ قال المفسرون : قالت الملائكة : "إِن موعدهم الصبح" فقال : أريد أعجل من ذلك ، فقالوا له : "أليس الصبح بقريب" ؟

قوله تعالى : ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أمرُ اللهِ الملائكةَ بعذابهم .

والثاني : أن الأمر بمعنى العذاب .

والثالث : أنه بمعنى القضاء بعذابهم .

قوله تعالى : ﴿ جعلنا عاليها سافلها ﴾ الكناية تعود إِلى المؤتفكات ، وهي قرى قوم لوط ، وقد ذكرناها في [براءة : 70] ، ونحن نشير إِلى قصة هلاكهم هاهنا .

قال ابن عباس : أمر جبريل لوطاً بالخروج ، وقال : اخرج وأخرج غنمك وبقرك ، فقال : كيف لي بذلك وقد أُغلقت أبواب المدينة ؟ فبسط جناحه ، فحمله وبنتيه وما لهم من شيء ، فأخرجهم من المدينة ، وسأل جبريل ربَّه ، فقال : يا رب ولِّني هلاك هؤلاء القوم ، فأوحى الله إِليه أن تولّ هلاكهم ؛ فلما أن بدا الصبح ، غدا عليهم جبريل فاحتملها على جناحه ، ثم صَعِدَ بها حتى خرج الطير في الهواء لا يدري أين يذهب ، ثم كَفَأَهَا عليهم ، وسمعوا وَجْبَةً شديدة ، فالتفتت امرأة لوط ، فرماها جبريل بحجر فقتلها ، ثم صَعِدَ حتى أشرف على الأرض ، فجعل يُتْبِعُهمْ مُسافِرَهم ورَعَاتهم ومَنْ تحوّل عن القرية ، فرماهم بالحجارة حتى قتلهم .

وقال السدي : اقتلع جبريل الأرض من سبع أرضين ، فاحتملها حتى بلغ بها إِلى أهل السماء الدنيا ، حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ، ثم قلبها .

وقال غيره : كانت خمس قرى ، أعظمها سَدوم ، وكان القوم أربعة آلاف ألف .

وقيل : كان في كل قرية مائة ألف مقاتل ، فلما رفعها إِلى السماء ، لم ينكسر لهم إِناء ولم يسقط حتى قلبها عليهم .

وقيل : نجا من الخمس واحدة لم تكن تعمل مثل عملهم .

وانفرد سعيد بن جبير ، فقال : إِن جبريل وميكائيل تولَّيا قلبها .

قوله تعالى : ﴿ وأمطرنا عليها ﴾ في هاء الكناية قولان :

أحدهما : أنها ترجع إِلى القرى .

والثاني : إِلى الأمة .

وفي السِّجِل سبعة أقوال :

أحدها : أنها بالفارسية سَنْك وكِلْ ، السنك : الحجر ، والكل : الطين ، هذا قول ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير .

وقال مجاهد : أولها حجر ، وآخرها طين .

وقال الضحاك : يعني الآجرّ .

قال ابن قتيبة : من ذهب إلى هذا القول ، اعتبره بقوله : ﴿ حجارة من طين ﴾ [الذاريات 33] يعنى الآجر .

وحكى الفراء أنه طين قد طبخ حتى صار بمنزلة الأرحاء .

والثاني : أنه بحر معلّق في الهواء بين السماء والأرض ، ومنه نزلت الحجارة ، قاله عكرمة .

والثالث : أن السجيل : اسم السماء الدنيا ، فالمعنى : حجارة من السماء الدنيا ، قاله ابن زيد .

والرابع : أنه الشديد من الحجارة الصلب ، قاله أبو عبيدة ، وأنشد لابن مقبل :

وَرَجْلَةً يَضْرِبُونَ البَيْضَ عَنْ عُرُضٍ . . .

ضربا تواصَتْ به الأبطال سِجّينَا

وردّ هذا القول ابن قتيبة ، فقال : هذا بالنون ، وذاك باللام ، وإنما هو في هذا البيت فعيل من سجنت ، أي : حبست ، كأنه يثبت صاحبه .

والخامس : أن قوله : "من سجيل" كقولك : من سِجلّ ، أي : مما كُتب لهم أن يعذّبوا به ، وهذا اختيار الزجاج.

والسادس : أنه من أسجلته ، أي : أرسلته ، فكأنها مرسلة عليهم .

والسابع : أنه من أسجلت : إِذا أعطيت ، حكى القولين الزجاج .

وفي قوله : ﴿ منضود ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : يتبع بعضه بعضاً ، قاله ابن عباس .

والثاني : مصفوف ، قاله عكرمة ، وقتادة .

والثالث : نضد بعضه على بعض ، لأنه طين جُمع فجُعل حجارة ، قاله الربيع بن أنس .

قوله تعالى : ﴿ مسوَّمَةً ﴾ قال الزجاج : أي معلَّمة ، أُخذ من السُّومة ، وهي العلامة .

وفي علامتها ستة أقوال :

أحدها : بياض في حمرة ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال الحسن .

والثاني : أنها كانت مختومة ، فالحجر أبيض وفيه نقطة سوداء ، أو أسود وفيه نقطة بيضاء ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أنها المخططة بالسواد والحمرة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والرابع : عليها نضح من حمرة فيها خطوط حمر على هيأة الجِزع ، قاله عكرمة ، وقتادة .

والخامس : أنها كانت معلَّمة بعلامة يُعرف بها أنها ليست من حجارة الدنيا ، قاله ابن

جريج .

والسادس : أنه كان على كل حجر منها اسم صاحبه ، قاله الربيع .

وحكي عن بعض من رأى تلك الحجارة أنه قال : كانت مثل رأس الإبل ، ومثل مبارك الإِبل ، ومثل قبضة الرجل .

وفي قوله تعالى : ﴿ عند ربك ﴾ أربعة أقوال :

أحدها : أن المعنى : جاءت من عند ربك ، قاله ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : عند ربك معدَّة ، قاله أبو بكر الهزلي .

والثالث : أن المعنى : هذا التسويم لزم هذه الحجارة عند الله إِيذاناً بنفاذ قدرته وشدة عذابه ، قاله ابن الأنباري .

والرابع : أن معنى قوله : "عند ربك" في خزائنه التي لا يُتصرَّف في شيء منها إِلا بإذنه .

قوله تعالى : ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ في المراد بالظالمين هاهنا ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المراد بالظالمين هاهنا : كفار قريش ، خوَّفهم الله بها ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنه عام في كل ظالم ؛ قال قتادة : والله ما أجار الله منها ظالماً بعد قوم لوط ، فاتقوا الله وكونوا منه على حذر .

والثالث : أنهم قوم لوط ، فالمعنى : وما هي من الظالمين ، أي : من قوم لوط ببعيد ، والمعنى : لم تكن لتُخطئهم ، قاله الفراء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال النسفى :

﴿ وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا ﴾

جبريل وميكائيل وإسرافيل أو جبريل مع أحد عشر ملكاً ﴿ إبراهيم بالبشرى ﴾ هي البشارة بالولد أو بهلاك قوم لوط والأول أظهر ﴿ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ سلمنا عليك سلاماً ﴿ قَالَ سلام ﴾ أمركم سلام ﴿ سِلم ﴾ حمزة وعلي بمعنى السلام ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ ﴾ فما لبث في المجيء به بل عجل فيه، أو فما لبث مجيئه، والعجل ولد البقرة : وكان مال إبراهيم البقر ﴿ حَنِيذٍ ﴾ مشوي بالحجارة المحماة ﴿ فَلَمَّا رَءا أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ نكر وأنكر بمعنى وكانت عادتهم أنه إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه وإلا خافوه.

والظاهرة أنه أحس بأنهم ملائكة ونكرهم لأنه تخوف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه أو لتعذيب قومه دليله قوله ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أي أضمر منم خوفاً ﴿ قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إلى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ بالعذاب، وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف فيم أرسلوا ، وإنما قالوا ﴿ لا تخف ﴾ لأنهم رأوا أثر الخوف والتغير في وجهه ﴿ وامرأته قَائِمَةٌ ﴾

وراء الستر تسمع تحاورهم أو على رؤوسهم تخدمهم ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ سروراً بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الخبائث ، أو من غفلة قوم لوط مع قرب العذاب ، أو فحاضت ﴿ فبشرناها بإسحاق ﴾ وخصت بالبشارة لأن النساء أعظم سروراً بالولد من الرجال ، ولأنه لم يكن لها ولد وكان لإبراهيم ولد وهو إسماعيل ﴿ وَمِن وَرَاءِ إسحاق ﴾ ومن بعده ﴿ يَعْقُوبَ ﴾ بالنصب : شامي وحمزة وحفص ، بفعل مضمر دل عليه فبشرناها أي فبشرناها بإسحاق ووهبنا لها يعقوب من وراء إسحاق .

وبالرفع : غيرهم على الابتداء والظرف قبله خبر كما تقول "في الدار زيد" .

(148/383)

﴿ قَالَتْ ياويلتاى ﴾ الألف مبدلة من ياء الإضافة وقرأ الحسن يا ويلتي بالياء على الأصل ﴿ ءأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ ﴾ ابنة تسعين سنة ﴿ وهذا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ ابن مائة وعشرين سنة ، ﴿ هذا ﴾ مبتدأ و ﴿ بعلي ﴾ خبره و ﴿ شيخاً ﴾ حال ، والعامل معنى الإشارة التي دلت عليه ذا أو معنى التنبيه الذي دل عليه "هذا" ﴿ إِنَّ هذا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أن يولد ولد من هرمين وهو استبعاد من حيث العادة .

﴿ قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ قدرته وحكمته .

وإنما أنكرت الملائكة تعجبها لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات فكان عليها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيت النبوة ، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب وإلى ذلك أشارت الملائكة حيث قالوا ﴿ رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة فليست بمكان عجيب ، وهو كلام مستأنف علل به إنكار التعجب كأنه قيل : إياك والتعجب لأن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم .

وقيل : الرحمة : النبوة ، والبركات الأسباط من بني إسرائيل لأن الأنبياء منهم وكلهم من ولد إبراهيم وأهل البيت نصب على النداء أو على الاختصاص ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ ﴾ محمود بتعجيل النعم ﴿ مَّجِيدٌ ﴾ ظاهر الكرم بتأجيل النقم

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبراهيم الروع ﴾ الفزع وهو ما أوجس من الخيفة حين نكر أضيافه ﴿ وَجَاءتْهُ البشرى ﴾ بالولد ﴿ يجادلنا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ أي لما اطمأن قلبه بعد الخوف وملىء سروراً بسبب البشرى فرغ للمجادلة .

وجواب ﴿ لما ﴾ محذوف تقديره أقبل يجادلنا ، أو ﴿ يجادلنا ﴾ جواب ﴿ لما ﴾ وإنما جيء به مضارعاً لحكاية الحال ، والمعنى يجادل رسلنا .

ومجادلته إياهم أنهم قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية فقال : أرأيتم لو كان فيها خمسون مؤمناً أتهلكونها ؟ قالوا : لا ، قال : فأربعون ؟ قالوا : لا ، قال : فثلاثون ؟ قالوا : لا حتى بلغ العشرة قالوا : لا قال : أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها ؟ قالوا : لا فعند ذلك قال ﴿ إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله ﴾ العنكبوت : 32)

﴿ إِنَّ إبراهيم لَحَلِيمٌ ﴾ غير عجول على كل من أساء إليه أو كثير الاحتمال ممن آذاه ، صفوح عمن عصاه ﴿ أَوَّاهٌ ﴾ كثير التأوه من خوف الله ﴿ مُّنِيبٌ ﴾ تائب راجع إلى الله ، وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة فبين أن ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة كما حمله على الاستغفار لأبيه فقالت الملائكة .

﴿ يا إبراهيم أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾ الجدال وإن كانت الرحمة ديدنك ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ قضاؤه وحكمه ﴿ وَإِنَّهُمْ اتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ لا يرد بجدال وغير ذلك عذاب مرتفع باسم الفاعل وهو ﴿ آتيهم ﴾ تقديره وإنهم يأتيهم .

ثم خرجوا من عند إبراهيم متوجهين نحو قوم لوط وكان بين قرية إبراهيم وقوم لوط أربعة فراسخ .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً ﴾ لما أتوه ورأى هيئاتهم وجمالهم ﴿ سِيءَ بِهِمْ ﴾ أحزن

لأنه حسب أنهم إنس فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ تمييز أي وضاق بمكانهم صدره ﴿ وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ شديد .

روي أن الله تعالى قال لهم : لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات ، فلما مشى معهم منطلقاً بهم إلى منزله قال لهم : أما بلغكم أمر هذه القرية ؟ قالوا : وما أمرهم ؟ قال . أشهد الله إنها لشر قرية في الأرض عملاً .

قال ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فخرجت امرأته فأخبرت بهم قومها .

﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ يسرعون كأنما يدفعون دفعاً ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش حتى مرنوا عليها وقل عندهم استقباحها فلذلك جاؤوا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِى ﴾ فتزوجوهن أراد أن يقي أضيافه ببناته وذلك غاية الكرم ، وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزاً في ذلك الوقت كما جاز في الابتداء في هذه الأمة ، فقد زوج رسول الله صلى

الله عليه وسلم ابنتيه من عتبه بن أبي لهب وأبي العاص وهما كافران .

وقيل كان لهم سيدان مطاعان فأراد لوط أن يزوجهما ابنتيه ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ أحل ﴿ هؤلاء ﴾ مبتدأ ﴿ وبناتي ﴾ عطف بيان و ﴿ هن ﴾ فصل و ﴿ أطهر ﴾ خبر المبتدأ أو ﴿ بناتي ﴾ خبر و ﴿ هن أطهر ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ فاتقوا الله ﴾ بإيثارهن عليهم ﴿ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ ولا تهينوني ولا تفضحوني من الخزي ، أو ولا تخجلوني من الخزاية وهي الحياء ، وبالياء : أبو عمرو في الوصل ﴿ فِى ضَيْفِى ﴾ في حق ضيوفي فإنه إذا خزي ضيف الرجل أو جاره فقد خزى الرجل وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ أي رجل واحد يهتدي إلى طريق الحق وفعل الجميل والكف عن السوء .

﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقّ ﴾ حاجة لأن نكاح الإناث أمر خارج عن فمذهبنا إتيان الذكران ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ عنوا إتيان الذكور وما لهم فيه من الشهوة ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ اوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ جواب " لو " محذوف أي لفعلت بكم ولصنعت .

والمعنى لو قويت عليكم بنفسي أو أويت إلى قوي أستند إليه وأتمنع به فيحميني منكم ، فشبه القوي العزيز بالركن من الجبل في شدته ومنعته .

روي أنه أغلق بابه حين جاؤوا وجعل ترادّهم ما حكى الله عنه وتجادلهم .

فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب .

(151/383)

﴿ قَالُواْ يا لُوطٍ ﴾ إن ركنك لشديد ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبّكَ ﴾ فافتح الباب ودعنا وإياهم ، ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم فأذن له ، فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم كما قال الله تعالى ﴿ فطمسنا أعينهم ﴾ [القمر : 37] فصاروا لا يعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون : النجاء ، النجاء فإن في بيت لوط قوماً سحرة ﴿ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ ﴾ جملة موضحة للتي قبلها لأنهم إذا كانوا رسل الله لم يصلوا إليه ولم يقدروا على ضرره ﴿ فَأَسْرِ ﴾ ﴿ فاسر ﴾ بالوصل : حجازي من سرى ﴿ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مّنَ اللَّيْلِ ﴾ طائفة منه أو نصفه ﴿ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ بقلبه إلى ما خلف أو لا ينظر إلى ما وراءه أو لا يتخلف منكم أحد ﴿ إِلاَّ امرأتك ﴾ مستثنى من ﴿ فأسر بأهلك ﴾ .

وبالرفع : مكي وأبو عمرو على البدل من أحد ، وفي إخراجها مع أهله روايتان .

روي أنه أخرجها معهم وأمر أن لا يلتفت منهم أحد إلا هي ، فلما سمعت هدّة العذاب

التفتت وقالت : يا قوماه .

فأدركها حجر فقتلها .

وروي أنه أمر بأن يخلفها مع قومها فإنّ هواها إليهم فلم يسر بها ، واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين

﴿ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ أي إن الأمر .

وروي أنه قال لهم متى موعد هلاكهم ؟ قالوا : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح ﴾ فقال : أريد أسرع من ذلك فقالوا : ﴿ أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عاليها سَافِلَهَا ﴾ جعل جبريل عليه السلام جناحه في أسفلها أي أسفل قراها ، ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها عليهم وأتبعوا الحجارة من فوقهم وذلك قوله : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مّن سِجّيلٍ ﴾ هي كلمة معربة من سنك كل بدليل قوله ﴿ حجارة من طين ﴾) الذاريات : 33) ﴿ مَّنْضُودٍ ﴾ نعت لسجيل أي متتابع أو مجموع معه للعذاب .

﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ نعت ل ﴿ حجارة ﴾ أي معلمة للعذاب .

قيل : مكتوب على كل واحد اسم من يرمي به ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ في خزائنه أو في حكمه ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ ﴾ بشيء بعيد ، وفيه وعيد لأهل مكة فإن جبريل عليه السلام قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعني ظالمي أمتك ما من ظالم منهم إلا وهو بعرَض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة ، أو الضمير للقرى أي هي قريبة من ظالمي مكة يمرون بها في مسايرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 196 . 200 ﴾

(153/383)

وقال البيضاوى :

﴿ وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إبراهيم ﴾ يعني الملائكة ، قيل : كانوا تسعة ، وقيل ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل . ﴿ بالبشرى ﴾ ببشارة الولد . وقيل بهلاك قوم لوط . ﴿ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ سلمنا عليك سلاماً ويجوز نصبه ب ﴿ قَالُواْ ﴾ على معنى ذكروا سلاماً . ﴿ قَالَ سلام ﴾ أي أمركم أو جوابي سلام أو وعليكم سلام ، رفعه إجابة بأحسن من تحيتهم . وقرأ حمزة والكسائي "سلم" وكذلك في "الذاريات" وهما لغتان كحرم وحرام

وقيل المراد به الصلح . ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ فما أبطأ مجيئه به ، أو فما أبطأ في المجيء به ، أو فما تأخر عنه والجار في ﴿ أن ﴾ مقدر أو محذوف والحنيذ المشوي بالرضف . وقيل الذي يقطر ودكه من حنذت الفرس إذا عرقته بالجلال لقوله : ﴿ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ ﴾ لا يمدون إليه أيديهم . ﴿ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أنكر ذلك منهم وخاف أن يريدوا به مكروهاً ، ونكر وأنكر واستنكر بمعنى والإيجاس الإدراك وقيل الإضمار ﴿ قَالُواْ ﴾ له لما أحسوا منه أثر الخوف . ﴿ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ إنا ملائكة مرسلة إليهم بالعذاب ، وإنما لم نمد إليه أيدينا لأنا لا نأكل .

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ ﴾ وراء الستر تسمع محاورتهم أو على رؤوسهم للخدمة . ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ سروراً بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الفساد أو بإصابة رأيها فإنها كانت تقول لإبراهيم : اضمم إليك لوطاً فإني أعلم أن العذاب ينزل بهؤلاء القوم . وقيل فضحكت فحاضت قال الشاعر :

وَعَهْدِي بِسَلْمَى ضَاحِكاً فِي لِبَابَة . . . وَلَمْ يَعْدُ حُقاً ثَدْيُهَا أَنْ تَحَلَّمَا

ومنه ضحكت السمرة إذا سال صمغها وقرئ بفتح الحاء . ﴿ فبشرناها بإسحاق وَمِن وَرَاء إسحاق يَعْقُوبَ ﴾ نصبه ابن عامر وحمزة وحفص بفعل يفسره ما دل عليه الكلام وتقديره : ووهبناها من وراء إسحاق يعقوب . وقيل إنه معطوف على موضع ﴿ بإسحاق ﴾ أو على لفظ ﴿ إسحاق ﴾ ، وفتحته للجر فإنه غير مصروف ورد للفصل بينه وبين ما عطف عليه بالظرف . وقرأ الباقون بالرفع على أنه مبتدأ .

وخبره الظرف أي و﴿ يَعْقُوبَ ﴾ مولود من بعده . وقيل الوراء ولد الولد ولعله سمي به لأنه بعد الولد وعلى هذا تكون إضافته إلى ﴿ إسحاق ﴾ ليس من حيث أن يعقوب عليه الصلاة والسلام وراءه ، بل من حيث أنه وراء إبراهيم من جهته وفيه نظر . والاسمان يحتمل وقوعهما في البشارة كيحيى ، ويحتمل وقوعهما في الحكاية بعد أن ولدا فسميا به ، وتوجيه البشارة إليها للدلالة على أن الولد المبشر به يكون منها لا من هاجر ولأنها كانت عقيمة حريصة على الولد .

﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتِي ﴾ يا عجباً ، وأصله في الشر فأطلق على كل أمر فظيع . وقرئ بالياء على الأصل . ﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وهذا ﴾ ابنة تسعين أو تسع وتسعين . ﴿ وهذا بَعْلِى ﴾ زوجي وأصله القائم بالأمر . ﴿ شَيْخًا ﴾ ابن مائة أو مائة وعشرين ، ونصبه على الحال والعامل فيها معنى اسم الإِشارة . وقرئ بالرفع على أنه خبر محذوف أي هو شيخ ،

أو خبر بعد خبر أو هو الخبر و ﴿ بَعْلِى ﴾ بدل . ﴿ إِنَّ هذا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ يعني الولد من هرمين ، وهو استعجاب من حيث العادة دون القدرة ولذلك :

(155/383)

﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله رَحْمَتُ الله وبركاته عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت ﴾ منكرين عليها فإن خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ومهبط المعجزات ، وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ليس ببدع ولا حقيق بأن يستغربه عاقل فضلاً عمن نشأت وشابت في ملاحظة الآيات ، وأهل البيت نصب على المدح أو النداء لقصد التخصيص كقولهم : اللهم اغفر لنا أيتها العصابة . ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ ﴾ فاعل ما يستوجب به الحمد . ﴿ مَّجِيدٌ ﴾ كثير الخير والإحسان .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبراهيم الروع ﴾ أي ما أوجس من الخيفة واطمأن قلبه بعرفانهم . ﴿ وَجَاءتْهُ البشرى ﴾ بدل الروع . ﴿ يجادلنا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ يجادل رسلنا في شأنهم ومجادلته إياهم قوله : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطاً ﴾ وهو إما جواب لما جيء به مضارعاً على حكاية الحال أو لأنه في سياق الجواب بمعنى الماضي كجواب لو ، أو دليل جوابه المحذوف مثل اجترأ على خطابنا أو شرع في جدالنا ، أو متعلق به أقيم مقامه مثل أخذ أو أقبل

يجادلنا .

﴿ إِنَّ إبراهيم لَحَلِيمٌ ﴾ غير عجول على الانتقام من المسيء إليه . ﴿ أَوَّاهٌ ﴾ كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس . ﴿ مُّنِيبٌ ﴾ راجع إلى الله ، والمقصود من ذلك بيان الحامل له على المجادلة وهو رقة قلبه وفرط ترحمه .

﴿ يا إِبْرَاهِيمَ ﴾ على إرادة القول أي قالت الملائكة ﴿ يا إِبْرَاهِيمَ ﴾ . ﴿ أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾ الجدال ﴿ إِنَّهُ قَدْ جاء أَمْرُ رَبّكَ ﴾ قدره بمقتضى قضائه الأزلي بعذابهم وهو أعلم بحالهم . ﴿ وَإِنَّهُمْ اتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ مصروف بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك .

(156/383)

﴿ وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيْءَ بِهِمْ ﴾ ساءه مجيئهم لأنهم جاؤوه في صورة غلمان فظن أنهم أناس فخاف عليهم أن يقصدهم قومه فيعجز عن مدافعتهم . ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ وضاق بمكانهم صدره ، وهو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه . ﴿ وَقَالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ شديد من عصبه إذا شده .

﴿ وجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ يسرعون إليه كأنهم يدفعون دفعاً لطلب الفاحشة من

أضيافه . ﴿ وَمِن قَبْلُ ﴾ أي ومن قبل ذلك الوقت . ﴿ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ الفواحش فتمرنوا بها ولم يستحيوا منها حتى جاؤوا يهرعون لها مجاهرين . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هؤلاء بَنَاتِى ﴾ فدى بهن أضيافه كرماً وحمية ، والمعنى هؤلاء بناتي فتزوجوهن ، وكانوا يطلبونهن قبل فلا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لحرمة المسلمات على الكفار فإنه شرع طارىء أو مبالغة في تناهي خبث ما يرومونه حتى إن ذلك أهون منه ، أو إظهاراً لشدة امتعاضه من ذلك كي يرقوا له .

وقيل المراد بالبنات نساؤهم فإن كل نبي أبو أمته من حيث الشفقة والتربية وفي حرف ابن مسعود ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ وهو أب لهم ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ أنظف فعلاً وأقل فحشاً كقولك : الميتة أطيب من المغصوب وأحل منه . وقرىء ﴿ أَطْهَرُ ﴾ بالنصب على الحال على أن هن خبر بناتي كقولك : هذا أخي هو الأفضل فإنه لا يقع بين الحال وصاحبها . ﴿ فاتقوا الله ﴾ بترك الفواحش أو بإيثارهن عليهم . ﴿ وَلاَ تُخْزُونِ ﴾ ولا تفضحوني من الخزي ، أو ولا تخجلوني من الخزاية بمعنى الحياء . ﴿ فِى ضَيْفِى ﴾ في شأنهم فإن إخزاء ضيف الرجل إخزاؤه . ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ يهتدي إلى الحق ويرعوي عن القبيح .

﴿ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقّ ﴾ من حاجة ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ وهو إتيان الذكران .

(157/383)

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً ﴾ لو قويت بنفسي على دفعكم . ﴿ أَوْ اوِى إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ إلى قوي أبلغ به عنكم . شبهه بركن الجبل في شدته . وعن النبي صلى الله عليه وسلم " رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد " وقرىء ﴿ أَوْ آوِى ﴾ بالنصب بإضمار أن كأنه قال : لو أن لي بكم قوة أو أوياً وجواب لو محذوف تقديره لدفعتكم روي أنه أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار ، فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب .

(158/383)

﴿ قَالُواْ يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ لن يصلوا إلى إضرارك بإضرارنا فهون عليك ودعنا وإياهم ، فخلاهم أن يدخلوا فضرب جبريل عليه السلام بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم ، فخرجوا يقولون النجاء النجاء فإن في بيت لوط سحرة . ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ بالقطع من الإسراء ، وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث وقع في القرآن من

السرى. ﴿ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيلِ ﴾ بطائفة منه. ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ ولا يتخلف أو لا ينظر إلى ورائه والنهي في اللفظ لأحد وفي المعنى للوط. ﴿ إِلَّا امرأتك ﴾ استثناء من قوله: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ ويدل عليه أنه قرئ فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك، وهذا إنما يصح على تأويل الالتفات بالتخلف فإنه إن فسر بالنظر إلى الوراء في الذهاب ناقض ذلك قراءة ابن كثير وأبي عمرو بالرفع على البدل من أحد، ولا يجوز حمل القراءتين على الروايتين في أنه خلفها مع قومها أو أخرجها فلما سمعت صوت العذاب التفتت وقالت يا قوماه فأدركها حجر فقتلها، لأن القواطع لا يصح حملها على المعاني المتناقضة، والأولى جعل الاستثناء في القراءتين من قوله: ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ ﴾ مثله في قوله تعالى: ﴿ مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ ولا يبعد أن يكون أكثر القراء على غير الأفصح، ولا يلزم من ذلك أمرها بالالتفات بل عدم نهيها عنه استصلاحاً ولذلك علل طريقة الاستئناف بقوله: ﴿ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ ولا يحسن جعل الاستثناء منقطعاً على قراءة الرفع. ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح ﴾ كأنه علة الأمر بالإسراء. ﴿ أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ ﴾ جواب لاستعجال لوط واستبطائه العذاب.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ عذابنا أو أمرنا به ، ويؤيده الأصل وجعل التعذيب مسبباً عنه بقوله : ﴿ جَعَلْنَا عاليها سَافِلَهَا ﴾ فإنه جواب لما وكان حقه : جعلوا عاليها سافلها أي الملائكة المأمورون به ، فأسند إلى نفسه من حيث إنه المسبب تعظيماً للأمر فإنه روي : (أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت مدائنهم ورفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها عليهم) . ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ على المدن أو على شذاذها . ﴿ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ من طين متحجر لقوله : ﴿ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ وأصله سنك كل فعرب . وقيل إنه من أسجله إذا أرسله أو أدر عطيته ، والمعنى من مثل الشيء المرسل أو من مثل العطية في الإدرار ، أو من السجل أي مما كتب الله أن يعذبهم به وقيل أصله من سجين أي من جهنم فأبدلت نونه لاماً . ﴿ مَّنْضُودٍ ﴾ نضد معداً لعذابهم ، أو نضد في الإرسال بتتابع بعضه بعضاً كقطار الأمطار ، أو نضد بعضه على بعض وألصق به .

﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ معلمة للعذاب . وقيل معلمة ببياض وحمرةً . أو بسيما تتميز به عن حجارة الأرض ، أو باسم من يرمى بها . ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ في خزائنه . ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ ﴾ فإنهم بظلمهم حقيق بأن تمطر عليهم ، وفيه وعيد لكل ظالم . وعنه عليه الصلاة والسلام " أنه سأل جبريل عليه السلام فقال : يعني ظالمي أمتك ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة " وقيل الضمير للقرى أي هي قريبة من

ظالمي مكة يمرون بها في أسفارهم إلى الشام ، وتذكير البعيد على تأويل الحجر أو المكان .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 244.252 ﴾

(160/383)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83) ﴾

التفسير : الرسل ههنا الملائكة ، وأجمعوا على أن الأصل فيهم جبرائيل ، ثم اختلفوا فقيل : كان معه اثناء عشر ملكاً على أحسن ما يكون من صورة الغلمان . وقال الضحاك : كانوا تسعة . وقال ابن عباس : كانوا ثلاثة جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وهم الذين ذكر الله تعالى في سورة الحجر ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم ﴾ [الآية : 51] وفي الذاريات ﴿ هل أتاك حديث إبراهيم ﴾ [الآية : 24] والظاهر أن البشرى هي البشارة بالولد . وقيل : بهلاك قوم لوط . ومعنى ﴿ سلاماً ﴾ سلمنا عليك . ومعنى ﴿ سلام ﴾ أمركم سلام

أو سلام عليكم . ولأن الرفع يدل على الثبات والاستقرار ، والنصب يدل على الحدوث لمكان تقدير الفعل . قال العلماء : إن سلام إبراهيم كان أحسن اقتداء بقوله تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها ﴾ [النساء : 86] وإنما صح وقوع ﴿ سلام ﴾ مبتدأ مع كونه نكرة لتخصصها بالإضافة إلى المتكلم إذ أصله سلمت سلاماً فعدل إلى الرفع لإفادة الثبات . ومن قرأ ﴿ سلماً ﴾ فمعناه السلام أيضاً . قال الفراء . سلم وسلام كحل وحلال وحرم وحرام . وقال أبو علي الفارسي : يحتمل أن يراد بالسلم خلاف الحرب . قالوا : مكث إبراهيم خمس عشرة ليلة لا يأتيه ضيف فاغتم لذلك فجاءته الملائكة فرأى أضيافاً لم ير مثلهم فما لبث ﴿ أن جاء ﴾ أي فما لبث في أن جاء بل عجل أو فما لبث مجيئه ﴿ بعجل ﴾ هو ولد البقرة ﴿ حنيذ ﴾ مشوي في حرفة من الأرض بالحجارة المحماة وهو من فعل أهل البادية معروف . ومعناه محنوذ كطبيخ بمعنى مطبوخ.

وقيل : الحنيذ الذي يقطر دسماً لقوله : ﴿ بعجل سمين ﴾ [الذاريات : 26] تقول : حنذت الفرس إذا ألقيت عليها الجل حتى يقطر عرقاً ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه ﴾ إلى العجل أو الطعام ﴿ نكرهم ﴾ أي أنكرهم واستنكر فعلهم ﴿ وأوجس ﴾ أضمر

﴿ منهم خيفة ﴾ لأنه ما كان يعرف أنهم ملائكة وكان من عادة العرب أنه إذا نزل بهم الضيف ولم يتناول طعامهم وتوقعوا منه المكروه والشر . وقيل : إنه كان ينزل في طرف من الأرض بعيد عن الناس ، فلما امتنعوا من الأكل خاف أن يريدوا به شراً . وقيل : إنه كان يعرف أنهم ملائكة الله لقولهم : ﴿ لا تخف ﴾ . ﴿ وإنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ لم يقولوا لا تخف إنا ملائكة بل ذكروا سبب الإرسال وهو إهلاك قوم لوط . وعلى هذا فإنما خاف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله أو لتعذيب قومه ، والاحتمال الأول وهو أنه كان لا يعرف أنهم ملائكة أقرب بدليل إحضاره الطعام واستدلاله بترك أكلهم على توقع الشر منهم . وإنما ذكروا سبب الإرسال إيجازاً واختصاراً لدلالة الإرسال على كونهم رسلاً لا أضافياً . وإنما أتوه على صورة الأضياف ليكونوا على صفة يحبها لأنه كان مشغوفاً بالضيافة . وبم عرف الملائكة خوفه ؟ قيل : بالتغير في وجهه أو بتعريف الله ، أو علموا أن علمه بأنهم ملائكة موجب للخوف لأنهم كانوا لا ينزلون إلا بعذاب ﴿ وامرأته ﴾ وهي سارة بنت هاران بن ناحورا بنت عم إبراهيم ﴿ قائمة ﴾ وراء الستر تسمع تحاورهم ، أو كانت قائمة على رؤوسهم تخدمهم وهو قعود ﴿ فضحكت ﴾ .

قال العلماء : لا بد للضحك من سبب فقيل : سببه السرور بزوال الخيفة . وقيل : بهلاك أهل الخبائث . وعن السدي أن إبراهيم قال لهم : ألا تأكلون ؟ قالوا : إنا لا نأكل طعاماً إلا بالثمن . فقال : ثمنه أن تذكروا اسم الله على أوله وتحمدوه في آخره . فقال جبرائيل لميكائيل : حق لمصل هذا الرجل أن يتخذه ربه خليلاً ، فضحكت امرأته فرحاً بهذا الكلام . وقيل : كانت تقول لإبراهيم اضمم لوطاً ابن أخيك إليك فإني أعلم أنه ينزل بهؤلاء القوم عذاب ، ففرحت بموافقة قولهم لقولها فضحكت . وقيل : طلب إبراهيم صلى الله عليه وسلم منهم معجزة دالة على أنهم من الملائكة فدعوا ربهم بإحياء العجل المشوي فطفر ذلك العجل المشوي إلى مرعاه فضحكت سارة من طفرته . وقيل : ضحكت تعجباً من قوم أتاهم العذاب وهم غافلون . وقيل : تعجبت من خوف إبراهيم مع كثرة خدمه وحشمه من ثلاثة أنفس . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير أي فبشرناها بإسحق ، فضحكت سروراً . وعن مجاهد وعكرمة ضحكت أي حاضت ومنه ضحكت الطلعة إذا انشقت يعني استعدادها لعلوق الولد . من قرأ ﴿ يعقوب ﴾ بالرفع فعلى الابتداء والخبر محذوف أي يعقوب مولود أو موجود بعد إسحاق ، ومن قرأ بالنصب فعلى العبارة المتروكة كأنه قيل : ووهبنا لها إسحق ومن بعد إسحق يعقوب .

أقول من المحتمل أن يكون ﴿ يعقوب ﴾ مجروراً بالعبارة الموجودة أي وبشرناها بيعقوب من بعد إسحاق وقيل : الوراء ولد الولد ووجهه أن يراد بيعقوب أولاده كما يقال هاشم ويراد أولاده ﴿ يا ويلتي ﴾ كلمة تلهف وقد مرت في " المائدة " في ﴿ يا ويلتي أعجزت ﴾ [المائدة : 31] و ﴿ شيخاً ﴾ نصب الحال والعامل فيه ما في هذا من معنى أنبه أو أشير ﴿ إن هذا ﴾ يعني إن تولد ولد من هرمين ﴿ لشيء عجيب ﴾ عادة فأزال الملائكة تعجبها منكرين عليها بقولهم على سبيل الاستئناف ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم ﴾ يا أهل بيت خليل الرحمن . والمقصود أن رحمته عليكم متكاثرة وبركاته فيكم متواترة وخرق العادات في أهل بيت النبوة غير عجيب . ويحتمل أن يكون انتصاب ﴿ أهل البيت ﴾ على الاختصاص . وقيل : الرحمة النبوة والبركات الأسباط من بني إسرائيل لأن الأنبياء منهم وكلهم من ولد إبراهيم . ثم أكدوا إزالة التعجب بقولهم : ﴿ إنه حميد ﴾ محمود في أفعاله ﴿ مجيد ﴾ ذو الكرم الكامل فلا يليق به منع الطالب عن مطلوبه . ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع ﴾ الخوف الذي لحقه حين أنكر أضيافه ﴿ وجاءته البشرى ﴾ البشارة بحصول الولد ﴿ يجادلنا في قوم لوط ﴾ في معناهم وفي شأنهم وهو جواب " لما " على حكاية الحال ، أو لأن " لما " ترد المضارع إلى الماضي عكس " إن " ، ويحتمل أن يكون جواب " لما " محذوفاً دل عليه ﴿ يجادلنا ﴾ أي اجترأ على خطابنا أو قال كذا ، ثم ابتدأ

فقال : ﴿ يجادلنا ﴾ وقيل : معناه أخذ يجادلنا ولا بد من حذف مضاف أي يجادل رسلنا لا بمعنى مخالفة أمر الله فإن ذلك يكون معصية بل سعياً في تأخير العذاب عنهم رجاء إيمانهم وتوبتهم . ويروى أنهم قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية فقال : أرأيتم لو كان فيها خمسون من المؤمنين أتهلكونها ؟ قالوا : لا قال : فأربعون ؟ قالوا : لا حتى بلغ العشرة قالوا لا . قال : فإن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها ؟ قالوا : لا . فعند ذلك ﴿ قال إن فيها لوطاً قالوا

نحن أعلم بمن فيها لَنُنَجِّيَنَهُ وأهله ﴾ [العنكبوت : 32] قال الأصوليون : إن إبراهيم كان يقول : إن أمر الله ورد بإيصال العذاب ومطلق الأمر لا يوجب الفور ، والملائكة يدعون الفور إما للقرائن أو لأن مطلق الأمر يستدعي ذلك ، فهذه هي المجادلة . أو لعل إبراهيم كان يدعي أن الأمر مشروط لم يحصل بعد وهم لا يسلمون . وبالجملة فإن العلماء يجادل بعضهم بعضاً عند التمسك بالنصوص وليس يوجب القدح في واحد منهم فكذلك ههنا ولذلك مدحه بقوله : ﴿ إن إبراهيم لحليم ﴾ غير عجول في الأمور ﴿ أوّاه ﴾ كثير التأوّه من الذنوب ﴿ منيب ﴾ راجع إلى الله في كل ما يسنح له . وهذه الصفات تدل على رقة

القلب والشفقة على خلق الله حتى حملته على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع العذاب عنهم. ولما عرفت الملائكة أن العذاب قد حق عليهم قالوا: ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ﴾ الجدال ﴿ إنه قد جاء أمر ربك ﴾ بإهلاكهم ﴿ وإنهم آتيهم ﴾ لاحق بهم ﴿ عذاب غير مردود ﴾ فلا راد لقضائه فلا ينفع فيهم جدال ولا دعاء.

﴿ ولما جاءت رسلنا ﴾ المذكورون ﴿ لوطاً سيء بهم ﴾ أصله "سوىء" لأنه من ساءه يسوءه نقيض سره يسره، نقلت الكسرة إلى الفاء وأبدلت العين ياء، ومن قرأ ﴿ سيء ﴾ بإبدال العين ياء مكسورة فلكراهة اجتماع الواو والهمزة. ﴿ وضاق بهم ذرعاً ﴾ قال الأزهري: الذرع يوضع موضع الطاقة وأصله أن البعير يذرع بيده في سيره على قدر سعة خطوه، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فجعل ضيق الذرع عبارة عن قلة الوسع والطاقة، وربما قالوا ضقت بالأمر ذرعاً. ﴿ وقال هذا يوم عصيب ﴾ أي شديد من العصب الشد كأنه أريد اشتداد ما فيه من الأمور. عن ابن عباس: انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط وبين القريتين أربعة فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بني آدم في غاية الحسن، ولم يعرف لوط أنهم ملائكة الله فساءه مجيئهم واغتم

لذلك لأنه خاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم . وقيل : سبب المساءة أنه لم يكن قادراً على القيام بحق ضيافتهم لأنه ما كان يجد ما ينفق عليهم . وقيل : السبب أن قومه منعوه عن إدخال الضيف داره . وقيل : عرف أنهم ملائكة جاؤوا لإهلاك قومه فرق قلبه على قومه . والصحيح هو الأول . يروى أنه تعالى قال لهم : لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات . فلما مشى معهم منطلقاً به إلى منزله قال لهم : أما بلغكم أمر هذه القرية قالوا : وما أمرهم ؟ قال : أشهد بالله إنها لشر قرية في الأرض عملاً – يقول ذلك أربع مرات – فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فخرجت امرأته فأخبرت بهم قومها فذلك قوله : ﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه ﴾ قال أبو عبيدة : يستحثون إليه كأنه يحث بعضهم بعضاً . وقال الجوهري : الإهراع الإسراع . وأهرع الرجل على ما لم يسم فاعله فهو مهرع إذا كان يرعد من حمى أو غضب أو فزع . وقيل : إنما لم يسم فاعله للعلم به . والمعنى أهرعه خوفه أو حرصه . ثم بين إسراعهم إنما كان لأجل العمل الخبيث فقال : ﴿ ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾

الفواحش فمرنوا عليها فلذلك جاؤوا مجاهرين لا يكفهم حياء . وقيل : معناه وكان لوط قد عرف عادتهم في ذلك العمل قبل ذلك فأراد أن يقي أضيافه ببناته فقال : ﴿ هؤلاء بناتي ﴾ عن قتادة : بناته من صلبه . وعن مجاهد وسعيد بن جبير : أراد نساء أمته لأن النبي كالأب لأمته . واختير هذا القول لأن عرض البنات الحقيقيات على الفجار لا يليق بذوي المروءات . ولأن اللواتي من صلبه لا تكفي للجمع العظيم ، ولما روي أنه لم يكن له إلا بنتان وأقل الجمع ثلاثة .

والقائلون بالقول الأول قالوا ما دعا القوم إلى الزنا بهن وإنما دعاهم إلى التزوج بهن بعد الإيمان أو مع الكفر ، فلعل تزويج المسلمات من الكفار كان جائزاً كما في أول الإسلام ، زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنتيه من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن الربيع بن عبد العزى - وهما كافران - فنسخ بقوله : ﴿ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ﴾ [البقرة : 221] وقيل : كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه ، وقيل : إن بناته كن أكثر من ثنتين . ويجوز أن يكون قد عرض البنات عليهم لا بطريق الجد بل طمعاً فيهم أن يستحيوا منه ويرقوا له . و ﴿ أطهر ﴾ بمعنى الطاهر لأنه لا طهارة في نكاح الرجال ﴿ فاتقوا الله ﴾ بإيثارهن عليهم ﴿ ولا تخزون ﴾ ولا تفضحوني من الخزي أو لا تخجلوني من الخزاية وهي الحياء . ﴿ في ضيفي ﴾ في حق أضيافي فخزي الضيف والجار يورث للمضيف العار

والشنار . والضيف يستوي فيه الواحد والجمع ويجوز أن يكون مصدراً . ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ صالح أو مصلح مرشد يمنع أو يمنع عن مثل هذا العمل القبيح .

(167/383)

﴿ قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ﴾ من شهوة ولا حاجة لأن من احتاج إلى شيء فكأنه حصل له فيه نوع حق ولذلك قالوا ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ ويجوز أن يراد إنهن لسن لنا بأزواج فلا حق لنا فيهن من حيث الشرع ومن حيث الطبع ، أو يراد إنك دعوتنا إلى نكاحهن بشرط الإيمان ونحن لا نؤمن ألبتة فلا يتصور لنا حق فيهن . قال لوط ﴿ لو أن لي بكم قوّة ﴾ وجوابه محذوف أي لفعلت بكم وصنعت وبالغت في دفعكم . قال أهل المعاني : حذف الجواب أبلغ لأن الوهم يذهب إلى أنواع كثيرة من الدفع والمنع . والمراد لو أن لي ما أتقوى به عليكم فسمى موجب القوة بالقوة ، ويحتمل أن يريد بالقوة القدرة والطاقة ﴿ أو آوي ﴾ أنضم ﴿ إلى ركن شديد ﴾ حام منيع شبه الركن من الجبل في شدته . وقوله : ﴿ أو آوي ﴾ عطف على الفعل المقدر بعد " لو " . والحاصل أنه تمنى دفعهم بنفسه أو بمعاونة غيره ، قال ذلك من شدة القلق والحيرة في الأمر النازل به ولهذا قالت الملائكة وقد رقت عليه وحزنت له : إن ركنك لشديد . وقال النبي صلى الله عليه

وسلم " رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد فما بعث نبي بعد ذلك إلا في ثروة من قومه " ويحتمل أن يريد بالركن الشديد حصناً يتحصن به فيأمن من شرهم ، ويحتمل أنه لما شاهد سفاهة القوم وإقدامهم على سوء الأدب تمني حصول قوة قوية على الدفع . ثم استدرك وقال بل الأولى أن آوي إلى ركن شديد وهو الاعتصام بعناية الله .

روي أنه أغلق بابه لما جاؤوا فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب ﴿ قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ وهذه جملة موضحة للتي قبلها لأنهم إذا كانوا رسل الله لم يصل الأعداء إليه ولن يقدروا على ضرره ، فأمره الملائكة أن يفتح الباب فدخلوا فاستأذن جبرائيل ربه في عقوبتهم فأذن له ، فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم كما قال سبحانه ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ﴾ [القمر : 37] فصاروا لا يعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون إن في بيت لوط سحرة . ثم بين نزول العذاب ووجه خلاص لوط وأهله فقال : ﴿ فأسر بأهلك ﴾ الباء للتعدية إن كانت الهمزة للوصل من السرى ، أو زائدة وإن كانت للقطع من الإسراء . ﴿ بقطع من الليل ﴾ عن ابن عباس : أي في آخر الليل بسحر . وقال قتادة : بعد طائفة من الليل . وقيل نصف

الليل كأنه قطع نصفين ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ أي لا ينظر إلى ما رواءه ﴿ إلا امرأتك ﴾ أكثر القراء على النصب فاعترض بأن الفصيح في مثله هو البدل لأن الكلام غير موجب فكيف اجتمع القراء على غير فصيح ؟ فأجاب جار الله بأن الرفع بدل من ﴿ أحد ﴾ على القياس والنصب مستثنى من قوله : ﴿ فأسر ﴾ لا من قوله ﴿ لا يلتفت ﴾ وزيف بأن الاستثناء من ﴿ أسر ﴾ يقتضي كونها غير مسرى بها ، والاستثناء من ﴿ لا يلتفت ﴾ يقتضي كونها مسرياً بها لأن الالتفات بعد الإسراء فتكون مسرياً بها غير مسرى بها . ويمكن أن يجاب بأن ﴿ أسر ﴾ وإن كان مطلقاً في الظاهر إلا أنه في المعنى مقيد بعدم الالتفات إذ المراد أسر بأهلك إسراء لا التفات فيه إلا امرأتك فإنك تسري بها إسراء مع الالتفات ، فاستثن على هذا إن شئت من ﴿ أسر ﴾ وإن شئت من ﴿ لا يلتفت ﴾ ولا تناقض . وبعضهم - كابن الحاجب - جعل ﴿ إلا امرأتك ﴾ في كلتا القراءتين مستثنى من ﴿ لا يلتفت ﴾ ولم يستبعد اجتماع القراء على قراءة غير الأقوى . ويمكن أن يقال : إنما اجتمعوا على النصب ليكون استثناء من ﴿ أسر

﴾ إذ لو جعل استثناء من ﴿ لا يلتفت ﴾ لزم أن تكون مأمورة بالالتفات لأن القائل إذا قال لا يقم منكم إلا زيد كان ذلك أمراً لزيد بالقيام اللهم إلا أن يجعل الاستثناء منقطعاً على معنى ولا يلتفت منكم أحد لكن امرأتك تلتفت فيصيبها ما أصابهم ، وإذا كان هذا الاستثناء منقطعاً كان التفاتها موجباً للمعصية . قاله في الكشاف . وروي أنه أمر أن يخلفها مع قومها فلم يسر بها . واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين . أقول : في هذا الكلام خلل لا يمكن اجتماعهما على الصحة ، والقراءتان يجب اجتماعهما على الصحة لتواتر القراءات كلها . روي أنها لما سمعت هدّة العذاب أي صوته التفتت وقالت : يا قوماه : فأدركها حجر فقتلها .

وقيل : المراد بعدم الالتفات قطع تعلق القلب عن الأصدقاء والأموال والأمتعة . فعلى هذا يصح الاستثناءان من غير شائبة التناقض كأنه أمر لوطاً أن يخرج بقومه ويترك هذه المرأة فإنها هالكة من الهالكين . ثم أمر أن يقطعوا العلائق وأخبر أن امرأته تبقى متعلقة القلب بها .

يروى أنه قال لهم متى موعد هلاكهم فقيل له ﴿ إن موعدهم الصبح ﴾ فقال أريد أسرع من ذلك فقالوا : ﴿ أليس الصبح بقريب ؟ ﴾ ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ بإهلاكهم ﴿ جعلنا ﴾ أي جعل رسلنا ﴿ عاليها سافلها ﴾ روي أن جبرائيل أدخل جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوط وقلعها وصعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الحمير ونباح الكلاب وصياح الديوك لم يتبدد لهم طعام ولم يتكسر لهم إناء ، ثم قلبها دفعة وضربها على الأرض ، ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل – وهو معرب سنك وكل – كأنه مركب من حجر وطين وهو في غاية الصلابة . وقيل : سجيل أي مثل السجل وهي الدلو العظيمة أو مثلها في تضمن الأحكام الكثيرة ، وقيل : أي مرسلة عليهم من أسجلته إذا أرسلته . وقيل : أي مما كتب الله أن يعذب به أو كتب عليه أسماء المعذبين من السجل وقد سجل لفلان . وقيل : من سجين أي من جهنم فأبدلت النون لاماً . ويل : إنه اسم من أسماء السماء الدنيا . ومعنى ﴿ منضود ﴾ موضع بعضها فوق بعض في النزول يأتي على سبيل المتابعة والتلاصق . أو نضد في السماء نضداً معداً لإهلاك الظلمة وفي السماء معادنها في جبال مخصوصة كقوله : ﴿ من جبال فيها من برد ﴾ [النور : 43] ﴿ مسوّمة ﴾ معلمة للعذاب أو بياض وحمرة ، عن الحسن والسدي عليها أمثال الخواتيم . وقال ابن جريج كان عليها سيما لا تشاكل حجارة الأرض . وقال الربيع : مكتوب على كل حجر اسم من يرمى به . وقال أبو صالح : رأيت منها عند أم هانئ حجارة فيها خطوط حمر على هيئة الجزع .

ومعنى ﴿ عند ربك ﴾ أي في خزائنه لا يتصرف في شيء منها إلا هو، أو مقرر في علمه إهلاك من أهلك بكل واحد منها ﴿ وما هي ﴾ أي تلك الحجارة ﴿ من الظالمين ﴾ أي من كل ظالم ﴿ ببعيد ﴾ وهو وعيد لأهل مكة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبرائيل عن هذا فقال يعني من ظالمي أمتك ما من ظالم إلا وهو بصدد سقوط الحجر عليه ساعة فساعة. وقيل: أي تلك القرى ليست ببعيدة من ظالمي أهل مكة

يمرون بها في مسايرهم إلى الشام. وقيل: المراد أنها وإن كانت في السماء إلا أنها إذا هوت منها فهي أسرع شيء لحوقاً بالمرمى فكانت كأنها بمكان قريب والله تعالى أعلم بمراده.
انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 36 . 42﴾

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة:

القصة الرابعة: التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

المذكورة في قوله تعالى:

﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ﴾

أي: بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، والمراد بالرسل الملائكة، ولفظ رسلنا جمع وأقله ثلاثة، واختلف في الزائد على ذلك وأجمعوا على أنّ الأصل فيهم كان جبريل عليه السلام، واقتصر ابن عباس وعطاء على أقل الجمع فقالا: كانوا ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل وهم الذين ذكرهم الله تعالى في سورة الذاريات بقوله تعالى: ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ (الذاريات،) ، وفي الحجر: ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم ﴾ (الحجر،) . وقال الضحاك: كانوا تسعة. وقال محمد بن كعب القرظي: كان جبريل ومعه سبعة أملاك. وقال السدي: كان جبريل ومعه أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الذين يكونون في غاية الحسن. قال النحويون: ودخلت كلمة قد ههنا؛ لأنّ السامع لقصص الأنبياء يتوقع قصة بعد قصة، وقد للتوقع، ودخلت اللام في لقد لتأكيد الخبر. ﴿ قالوا سلاماً ﴾ ، أي: سلمنا عليك سلاماً، ويجوز نصبه بقالوا على معنى ذكروا سلاماً، أي: سلموا ﴿ قال سلام ﴾ ، أي: أمركم أو جوابي سلام أو عليكم سلام.

تنبيه: قوله سلام أكمل من قوله السلام، لأنّ التنكير يفيد الكمال والمبالغة والتمام، ولهذا صح وقوعه مبتدأ؛ لأنّ النكرة إذا كانت موصوفة جاز جعلها مبتدأ، أو لفظ السلام فإنه

لا يفيد إلا الماهية. فإن قيل: فلأي شيء ما كفى الأوّل في التحلل من الصلاة عند النوويّ ؟

(173/383)

أجيب: بأنّ ذلك سنة متبعة. وقرأ حمزة والكسائي بكسر السين وسكون اللام ولا ألف بعدها، والباقون بفتح السين واللام وبعدها ألف. قال الفراء: ولا فرق بين القراءتين كما يقال حل وحلال وحرم وحرام. وقيل سلم هو بمعنى الصلح، أي: نحن سلم صلح غير حرب. ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ (هود،) ، أي: فما أبطأ مجيئه به. والحنيذ: المشوي على الحجارة المحماة في حفرة من الأرض، وكان سميناً يقطر ودكه. كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿ فجاء بعجل سمين ﴾ . قال قتادة: كان عامة مال إبراهيم البقر. روي أنّ إبراهيم عليه السلام مكث خمس عشرة ليلة لم يأته ضيف فاغتمّ لذلك وكان يحب الضيف ولا يأكل إلا معه، فلما جاءته الملائكة رأى أضيافاً لم ير مثلهم فعجل قراهم وجاء بعجل سمين مشوي.

﴿ فلما رأى أيديهم ﴾ ، أي: الأضياف ﴿ لا تصل إليه ﴾ ، أي: لا يمدّون أيديهم إليه ﴿ نكرهم ﴾ أي: أنكرهم وأنكر حالهم لامتناعهم من الطعام ﴿ وأوجس ﴾ ، أي:

أضمر في نفسه ﴿ منهم خيفة ﴾ ، أي : خوفاً . قال قتادة : وذلك أنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير وإنما جاء بشر . ﴿ قالوا لا تخف ﴾ يا إبراهيم ﴿ إنا ﴾ ملائكة الله ﴿ أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ بالعذاب وإنما لم نمد له أيدينا لأنا لا نأكل .

﴿ وامرأته ﴾ ، أي : إبراهيم سارّة وهي ابنة عمّ إبراهيم ﴿ قائمة ﴾ وراء الستر تسمع محاورتهم أو على رؤوسهم للخدمة فسمعت البشارة بالولد التي دل عليها فيما مضى قوله بالبشرى ﴿ فضحكت ﴾ سروراً من تلك البشرى لزوجها مع كبره وربما ظنته من غيرها ؛ لأنها كانت عجوزاً عقيماً فأزيل ذلك الظنّ عنها بقوله تعالى : ﴿ فبشرناها ﴾ ، أي : على لسان الملائكة تشريفاً لها وتفخيماً لشأنها . ﴿ بإسحاق ﴾ تلده ﴿ ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ ، أي : يكون يعقوب عليه السلام ابنا لإسحاق عليه السلام فتعيش حتى ترى ولد ولدها . قال البقاعي : والذي يدل على هذا التقدير من أنهم بشروه بالولد قبل امرأته فسمعت فعجبت ما يأتي عن نص التوراة ، وساق عن التوراة عبارة مطوّلة. وقيل : سبب سرورها زوال الخيفة أو هلاك أهل الفساد . وقيل : فضحكت فحاضت

كما قال الشاعر:

*عهدي بسلمى ضاحكاً في لبانة

أي: حائضاً في جماعة من النساء.

وهذا يرد على الفراء حيث قال: ضحكت بمعنى حاضت لم نسمعه من ثقة، وقال آخر:

تضحك الضبع لقتلى هذيل. أراد أنها تحيض فرحاً.

تنبيه: ههنا همزتان مكسورتان من كلمتين، قرأ قالون والبزي بتسهيل الأولى مع المد والقصر، وقرأ ورش وقنبل بتسيهل الثانية وإبدالها أيضاً حرف مد. وقرأ أبو عمرو بإسقاط أحدهما مع المد والقصر، والباقون بتحقيق الهمزتين ولا ألف بينهما.

﴿ قالت يا ويلتى ﴾ هذه كلمة تقال عند أمر عظيم، والألف مبدلة من ياء الإضافة.

﴿ أألد وأنا عجوز ﴾ وكانت ابنة تسعين سنة في قول ابن إسحاق، وقول مجاهد: تسع وتسعين سنة، ﴿ وهذا بعلي ﴾، أي: زوجي سُمِّيَ بذلك لأنه قيّم أمرها، وقولها ﴿ شيخاً ﴾ نصب على الحال. قال الواحدي: وهذا من لطيف النحو وغامضه فإنّ كلمة هذا للإشارة فكان قولها ﴿ وهذا بعلي شيخاً ﴾ قائم مقام أن يقال: أشير إلى بعلي

حال كونه شيخاً ، والمقصود تعريف هذه الحالة المخصوصة وهي الشيخوخة ، وكان ابن

مائة وعشرين سنة في قول ابن إسحاق . وقال مجاهد : مائة سنة وكان بين البشارة والولادة

سنة ﴿ إن هذا لشيء عجيب ﴾ ، أي : إنّ الولد من هرمين فهو استعجاب من حيث

العادة دون القدرة ولذلك

﴿ قالوا ﴾ ، أي : الملائكة لسارة ﴿ أتعجبين من أمر الله ﴾ منكرين عليها ذلك ، أي : لا

تعجبين من ذلك فإنّ الله تعالى قادر على كل شيء ، وإذا أراد شيئاً كان سريعاً فإن

خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوّة ومهبط المعجزات ، وتخصيصهم بمزيد النعم

والكرامات ليس بمستغرب ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ ، أي : بيت

إبراهيم وأهل منصوب على المدح أو النداء لقصد التخصيص كقولهم : اغفر لنا أيتها

العصابة وهذا على معنى الدعاء من الملائكة لهم بالخير والبركة ، وفيه دليل على أنّ أزواج

الرجل من أهل بيته ﴿ إنه ﴾ تعالى ﴿ حميدٌ ﴾ ، أي : محمود على كل حال أو فاعل ما

يستوجب به الحمد ﴿ مجيد ﴾ ، أي : كثير الخير والإحسان .

القصة الخامسة : التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة لوط عليه السلام المذكورة قوله

تعالى:

﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع ﴾ ، أي : الخوف وهو ما أوجس من الخيفة حين أنكر أضيافه واطمأن قلبه بعرفانهم ﴿ وجاءته البشرى ﴾ بدل الروع بالولد أخذ ﴿ يجادلنا ﴾ ، أي : يجادل رسلنا ﴿ في ﴾ شأن ﴿ قوم لوط ﴾ وجواب "لما" أخذ يجادلنا إلا أنه حذف اللفظ لدلالة الكلام عليه . وقيل : تقديره لما ذهب عن إبراهيم الروع جادلنا . فإن قيل : كيف جادل إبراهيم الملائكة مع علمه بأنهم لا يمكنهم مخالفة أمر الله وهذا منكر ؟

أجيب : بأنّ المراد من هذه المجادلة تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون ويرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصي ، لأنّ الملائكة قالوا : ﴿ إنا مهلكوا أهل هذه القرية ﴾ (العنكبوت ،) أو أنّ مجادلته إنما كانت في قوم لوط بسبب مقام لوط فيهم ، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام : أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلاً من المؤمنين أتهلكونها ؟ قالوا : لا قال : أو أربعون ؟ قالوا : لا . قال : فثلاثون . قالوا : لا . قال : فعشرون ؟ قالوا : لا حتى بلغ خمسة قالوا : لا . قال : أرأيتم لو كان فيها رجل مسلم أتهلكونها ؟ قالوا : لا . فعند ذلك قال : إنّ فيها لوطاً . وقد ذكر الله تعالى هذا في سورة العنكبوت ، فقال : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إنّ أهلها كانوا ظالمين ، قال إنّ فيها لوطاً قالوا : نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ (العنكبوت ، ،) قال ابن جريج : وكان

في قرى لوط أربعة آلاف ألف ، ولو كانت هذه المجادلة مذمومة لما مدحه بقوله تعالى : ﴿ إنّ إبراهيم لحليم ﴾ ، أي : لا يتعجل مكافأة غيره بل يتأنى فيها فيؤخر أو يعفو . ومن هذا حاله يحب من غيره هذه الطريقة ، وهذا مدح عظيم من الله تعالى لإبراهيم ، ثم ضم إلى ذلك ما يتعلق بالحلم وهو قوله تعالى : ﴿ أوّاه ﴾ ، أي : كثير التأوّه من الذنوب والتأسف على الناس . ﴿ منيب ﴾ ، أي : رجاع فلما أطال مجادلتهم قالوا له:

(177/383)

﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ﴾ ، أي : الجدال وإن كانت الرحمة ديدنك فلا فائدة فيه : ﴿ إنه قد جاء أمر ربك ﴾ ، أي : قضاؤه الأزلي بعذابهم وهو أعلم بحالهم ﴿ وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ ، أي : لا سبيل إلى دفعه وردّه .

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَاذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَاؤُءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ وَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ

مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾

(178/383)

﴿ ولما جاءت رسلنا لوطاً ﴾ ، أي : هؤلاء الملائكة الذين بشروا إبراهيم بالولد . قال ابن عباس : انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط وهو ابن أخي إبراهيم عليهما الصلاة والسلام وبين القريتين أربعة فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بني آدم ، وكانوا في غاية الحسن ، ولم يعرف لوط أنهم ملائكة الله تعالى ﴿ سيء بهم ﴾ ، أي : حزن بسببهم ﴿ وضاق بهم ذرعاً ﴾ ، أي : صدراً ، يقال : ضاق ذرع فلان بكذا إذا وقع في مكروه لا يطيق الخروج منه . وذلك أنّ لوطاً نظر إلى حسن وجوههم وطيب روائحهم ، فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم . وقيل : ساءه ذلك لأنه ؛ عرف بالآخرة أنهم ملائكة الله تعالى وأنهم جاؤوا لإهلاك قومه ، فَرَقّ قلبه على قومه ﴿ وقال هذا يوم عصيب ﴾ ، أي : شديد كأنه قد عصب به الشرّ والبلاء ، أي : شد به مأخوذ من العصابة التي تشد بها الرأس ، قال قتادة : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط

فأتوا لوطاً نصف النهار وهو في أرض له يعمل فيها ، وروي أنه كان يحتطب وقد قال الله تعالى لهم : لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات ، فاستضافوه وانطلق بهم ، فلما مضى ساعة قال لهم ما بلغكم من أمر هذه القرية ؟ قالوا : وما أمرهم قال : أشهد بالله أنها لشرّ قرية في الأرض عملاً يقول ذلك أربع مرّات . وروي أنّ الملائكة جاؤوا إلى بيت لوط فوجدوه في داره ولم يعلم بذلك أحد إلا أهل بيت لوط ، فخرجت امرأته فأخبرت قومها وقالت : إنّ في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط .

(179/383)

﴿ وجاءه قومه ﴾ لما علموا بهم ﴿ يهرعون ﴾ ، أي : يسرعون ﴿ إليه ﴾ قاله ابن عباس وقال الحسن : الإهراع المشي بين مشيين . ﴿ ومن قبل ﴾ ، أي : قبل مجيئهم إلى لوط وقيل من قبل مجيء الرسل إليهم ﴿ كانوا يعملون السيئات ﴾ ، أي : الفعلات الخبيثة والفاحشة القبيحة وهي إتيان الرجال في أدبارهم . لوطٌ ﴿ قال ﴾ لقومه حين قصدوا أضيافه وظنوا أنهم غلمان من بني آدم ﴿ يا قوم هؤلاء بناتي ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير : أراد ببناته نساء قومه ، وأضافهنّ إلى نفسه ؛ لأنّ كل نبي هو أبو أمّته كالوالد لهم ، أي : فتزوجوا منهنّ . وقيل : أراد بنات نفسه عرضهنّ عليهم بشرط الإسلام . وقيل : كان في ذلك الوقت

وفي تلك الشريعة يباح تزويج المرأة المسلمة بالكافر كما زوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن الربيع قبل الوحي وهما كافران ، وقيل : كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوّجهما ابنتيه ﴿ هن أطهر لكم ﴾ ، أي : أنظف فعلاً . فإن قيل : أفعل التفضيل يقتضي كون العمل الذي يطلبونه طاهراً ومعلوم أنه فاسد ؛ لأنه لا طهارة في إتيان الرجال ؟

أجيب : بأنّ هذا جارٍ مجرى قوله تعالى : ﴿ أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم ﴾ (الصافات ،) ومعلوم أنّ شجرة الزقوم لا خير فيها وكقوله صلى الله عليه وسلم "لما قالوا يوم أحد : اعل هبل قال : الله أعلى وأجل" . ولا مماثلة بين الله تعالى والصنم وإنما هو كلام خرج مخرج المقابلة ولهذا نظائر كثيرة ﴿ فاتقوا الله ﴾ وراقبوه واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والمعاصي ﴿ ولا تخزون ﴾ ، أي : تفضحوني ﴿ في ضيفي ﴾ ، أي : أضيافي ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ يهتدي إلى الحق فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

﴿ قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ﴾ ، أي : حاجة ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ ، أي : من إتيان الذكور وما لنا فيه الشهوة فعند ذلك .

﴿ قال ﴾ ، أي : لوط عليه السلام ﴿ لو أنّ لي بكم قوّة ﴾ ، أي : طاقة ﴿ أو آوي إلى ركن شديد ﴾ ، أي : عشيرة تنصرني شبهت بركن الجبل في شدّته ، وعنه صلى الله عليه وسلم "رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد" ، والركن الشديد نصر الله ومعونته فكأن النبيّ صلى الله عليه وسلم استغرب من لوط عليه السلام قوله : ﴿ أو آوي إلى ركن شديد ﴾ وعدّه نادرة إذ لا يمكن أشدّ من الركن الذي كان يأوي إليه ، وجواب لو محذوف تقديره : لبطشت بكم أو لدفعتكم ، روي أنه أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوّروا الجدار فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب .

﴿ قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ بسوء فافتح الباب ودعنا وإياهم ، ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل ربه في عقوبتهم فأذن له ، فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه ، وله جناحان ، وعليه وشاح من درّ منظوم وهو براق الثنايا ، فضرب بجناحه وجوههم ، فطمس أعينهم كما قال تعالى : ﴿ فطمسنا أعينهم ﴾ (القمر ،) فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم ، فخرجوا وهم يقولون : النجاء النجاء ، فإنّ في بيت لوط قوماً سحرة .

تنبيه : لن يصلوا إليك جملة موضحة للتي قبلها ؛ لأنهم إذا كانوا رسل الله لن يصلوا إليه ، ولن يقدروا على ضرره ، ثم قالوا له : ﴿ فأسر بأهلك بقطع ﴾ ، أي : طائفة ﴿ من الليل ﴾ وقرأ نافع وابن كثير بعد الفاء بهمزة وصل من السرى والباقون بهمزة قطع من الإسراء .

﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ ، أي : لا ينظر إلى ورائه لئلا يرى عظيم ما نزل بهم . وقوله : ﴿ إلا امرأتك ﴾ قرأه ابن كثير وأبو عمرو برفع التاء على أنه بدل من أحد ، والباقون بالنصب على أنه استثناء من الأهل ، أي : فلا تسر بها ﴿ إنه مصيبها ما أصابهم ﴾ فلم يخرج بها ، وقيل : خرجت والتفت فقالت : واقوماه فجاءها حجر فقتلها . روي أنه قال لهم : متى موعد هلاكهم فقالوا له : ﴿ إنّ موعدهم الصبح ﴾ قال : أريد أسرع من ذلك فقالوا : ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ ، أي : فأسرع الخروج بمن أمرت بهم .

﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ ، أي : عذابنا بهلاكهم ﴿ جعلنا عاليها ﴾ ، أي : قراهم ﴿ سافلها ﴾ روي أنّ جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط المؤتفكات المذكورة في سورة براءة ، وكانت خمس مدائن ، وفيها أربعمائة ألف ، وقيل : أربعة آلاف ، ألف فرفع المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونهيق الحمير ونباح الكلاب ، لم يكفأ لهم إناء ولم ينتبه نائم ، ثم أسقطها مقلوبة إلى الأرض . ﴿ وأمطرنا عليها ﴾ ، أي : المدن بعد قلبها ، وقيل : على شُذّاذها وهو بضمّ الشين المعجمة وبذالين معجمتين أولاهما مشدّدة وهم الذين ليسوا من أهلها يكونون في القوم وليسوا منهم ﴿ حجارة من سجيل ﴾

، أي : من طين طبخ بالنار كما قال تعالى في موضع آخر ﴿ من طين ﴾ وقيل مثل السجل وهو الدلو العظيمة . ﴿ منضود ﴾ ، أي : متتابع يتبع بعضها بعضاً .

(182/383)

﴿ مسوّمة ﴾ ، أي : معلمة عليها اسم من يرمى بها . وقال أبو صالح : رأيت منها عند أم هانئ ، وهي حجارة فيها خطوط حمر على هيئة الجزع . وقال الحسن : عليها أمثال الخواتيم . وقال ابن جريج : كان عليها سيما يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض ، وقوله تعالى : ﴿ عند ربك ﴾ ظرف لها ﴿ وما هي ﴾ ، أي : تلك الحجارة ﴿ من الظالمين ﴾ ، أي : مشركي مكة ﴿ ببعيد ﴾ ، أي : بشيء بعيداً وبمكان بعيد ؛ لأنها وإن كانت في السماء وهي مكان بعيد إلا أنها إذا وقعت منها فهي أسرع شيء لحوقاً بالمرمي ، فكأنها بمكان قريب منه ، وفيه وعيد لهم ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم "سأل جبريل ؟ فقال : يعني ظالمي مكة ما من ظالم منهم إلا وهو يعرض عليه حجر فيسقط عليه من ساعة إلى ساعة" وقيل الضمير للقرى ، أي : هي قريبة من ظالمي مكة يمرّون عليها في مسيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 99. 106 ﴾

(183/383)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77) ﴾

لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم ، وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ ، جاءوا إلى لوط .

فلما رآهم لوط ، وكانوا في صورة غلمان حسان مرد ، ﴿ سِيءَ بِهِمْ ﴾ أي : ساءه مجيئهم ، يقال : ساءه يسوءه ، وأصل سيء بهم .

سويء بهم ، نقلت حركة الواو إلى السين فقلبت الواو ياء ، ولما خففت الهمزة ألقيت حركتها على الياء .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، والكسائي ، وأبو عمرو بإشمام السين الضم ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ قال الأزهري : الذرع يوضع موضع الطاقة ، وأصله أن البعير يذرع بيده في سيره على قدر سعة خطوه : أي يبسطها ، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ، ضاق ذرعه عن ذلك ، فجعل ضيق الذرع كناية عن قلة الوسع والطاقة وشدّة الأمر .

وقيل : هو من ذرعه القيء : إذا غلبه وضاق عن حبسه .

والمعنى : أنه ضاق صدره لما رأى الملائكة في تلك الصورة خوفاً عليهم من قومه ، لما يعلم من فسقهم وارتكابهم لفاحشة اللواط ﴿ وَقَالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ أي : شديد .

قال الشاعر :

وإنك إن لم ترض بكر بن وائل . . . يكن لك يوم بالعراق عصيب

يقال عصيب وعصيصب وعصوصب على التكثير ، أي : يوم مكروه يجتمع فيه الشر ، ومنه قيل : عصبة وعصابة : أي مجتمعو الكلمة ، ورجل معصوب : أي مجتمع الخلق ﴿ وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي : جاءوا لوطاً .

الجملة في محل نصب على الحال .

ومعنى ﴿ يهرعون إليه ﴾ : يسرعون إليه .

قال الكسائي ، والفراء ، وغيرهما من أهل اللغة : لا يكون الإهراع إلا إسراعاً مع رعدة ، يقال : أهرع الرجل إهراعاً : أي أسرع في رعدة من برد أو غضب أو حمى ، قال مهلهل :

فجاؤوا يهرعون وهم أسارى . . . نهودهم على رغم الأنوف

وقيل : يهرعون : يهرولون .

وقيل : هو مشي بين الهرولة والعدو ، والمعنى : أن قوم لوط لما بلغهم مجيء الملائكة في تلك الصورة أسرعوا إليه ، كأنما يدفعون دفعاً لطلب الفاحشة من أضيافه ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ

يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ أي : ومن قبل مجيء الرسل في هذا الوقت ، كانوا يعملون السيئات .

وقيل : ومن قبل لوط كانوا يعملون السيئات ، أي : كانت عادتهم إتيان الرجال ، فلما جاءوا إلى لوط ، وقصدوا أضيافه لذلك العمل ، قام إليهم لوط مدافعاً ﴿ وَقَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ أي : تزوّجوهنّ ، ودعوا ما تطلبونه من الفاحشة بأضيافي ، وقد كان له ثلاث بنات .

وقيل : اثنتان ، وكانوا يطلبون منه أن يزوجهم بهنّ ، فيمتنع لخبثهم ، وكان لهم سيدان مطاعان ، فأراد أن يزوجهما بنتيه .

وقيل : أراد بقوله : ﴿ هؤلاء بَنَاتِى ﴾ النساء جملة ، لأن نبيّ القوم أب لهم ، وقالت طائفة : إنما كان هذا القول منه على طريق المدافعة ، ولم يرد الحقيقة .

ومعنى : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ أي : أحلّ وأنزه .

والتطهر : التنزه عما لا يحلّ ، وليس في صيغة أطهر دلالة على التفضيل ، بل هي مثل "الله أكبر" .

وقرأ الحسن ، وعيسى بن عمر بنصب " أطهر " ، وقرأ الباقون بالرفع ؛ ووجه النصب أن يكون اسم الإشارة مبتدأ ، وخبره ﴿ بناتي ﴾ ، و ﴿ هنّ ﴾ ضمير فصل ، و ﴿ أطهر ﴾ حال .

وقد منع الخليل ، وسيبويه ، والأخفش مثل هذا ، لأن ضمير الفصل الذي يسمى عماداً

إنما يكون بين كلامين بحيث لا يتمّ الكلام إلا بما بعدها ، نحو كان زيد هو أخاك ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى ﴾ أي : اتقوا الله بترك ما تريدون من الفاحشة بهم ، ولا تذلوني وتجلبوا عليّ العار في ضيفي ، والضيف يطلق على الواحد والاثنين والجماعة ، لأنه في الأصل مصدر ، ومنه قول الشاعر :

لا تعدمي الدهر شفار الجازر . . . للضيف والضيف أحق زائر

ويجوز فيه التثنية والجمع ، والأوّل : أكثر .

يقال : خزي الرجل خزاية ، أي استحيا أو ذلّ أو هان ، وخزي خزياً : إذا افتضح ، ومعنى ﴿ في ضيفي ﴾ : في حق ضيفي ، فخزي الضيف : خزي للمضيف ، ثم وبخهم فقال : ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ يرشدكم إلى ترك هذا العمل القبيح ، ويمنعكم منه ، فأجابوا عليه معرضين عما نصحهم به ، وأرشدهم إليه ، بقوله : ﴿ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقّ ﴾ أي : ما لنا فيهم من شهوة ولا حاجة ، لأن من احتاج إلى شيء فكأنه حصل له فيه نوع حق .

ومعنى ما نسبوه إليه من العلم أنه قد علم منهم المكالبة على إتيان الذكور ، وشدّة الشهوة

إليهم ، فهم من هذه الحيثية كأنهم لا حاجة لهم إلى النساء ؛ ويمكن أن يريدوا : أنه لا حق لنا في نكاحهنّ ؛ لأنه لا ينكحهنّ ويتزوج بهن إلا مؤمن ، ونحن لا نؤمن أبداً .

وقيل : إنهم كانوا قد خطبوا بناته من قبل فردّهم ، وكان من سنتهم أن من خطب فردّ ، فلا تحل المخطوبة أبداً ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ من إتيان الذكور .

ثم إنه لما علم تصميمهم على الفاحشة ، وأنهم لا يتركون ما قد طلبوه ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ وجواب " لو " محذوف .

والتقدير : لدافعتكم عنهم ومنعتكم منهم ، وهذا منه عليه السلام على طريق التمني : أي لو وجدت معيناً وناصراً ، فسمي ما يتقوّى به قوّة ﴿ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ عطف على ما بعد " لو " لما فيه من معنى الفعل ، والتقدير : لو قويت على دفعكم ، أو آويت إلى ركن شديد .

وقرىء "أو آوى" بالنصب عطفاً على قوّة كأنه قال : لو أن لي بكم قوّة ، أو إيواء إلى ركن شديد ، ومراده بالركن الشديد : العشيرة ، وما يمتنع به عنهم هو ومن معه .

وقيل : أراد بالقوّة : الولد ، وبالركن الشديد : من ينصره من غير ولده .

وقيل : أراد بالقوّة : قوته في نفسه .

ولما سمعته الملائكة يقول هذه المقالة ، ووجدوا قومه قد غلبوه وعجز عن مدافعتهم ﴿ قَالُواْ يا لُوطٍ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ ﴾ أخبروه أوّلاً أنهم رسل ربه ، ثم بشّروه بقولهم : ﴿ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ ﴾ وهذه الجملة موضحة لما قبلها ؛ لأنهم إذا كانوا مرسلين من عند الله إليه لم يصل عدوّه إليه ولم يقدروا عليه ، ثم أمروه أن يخرج عنهم ، فقالوا له : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الليل ﴾ قرأ نافع وابن كثير بالوصل ، وقرأ غيرهما بالقطع ، وهما لغتان فصيحتان .

قال الله تعالى : ﴿ والليل إِذَا يَسْرِ ﴾ [الفجر : 4] وقال : ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى ﴾ [الإسراء : 1] وقد جمع الشاعر بين اللغتين فقال :

حي النضير وربة الخدر . . . أسرت عليه ولم تكن تسري

وقيل : إن أسرى للمسير من أول الليل ، وسرى للمسير من آخره ، والقطع من الليل : الطائفة منه .

قال ابن الأعرابي : ﴿ بقطع من الليل ﴾ : بساعة منه .

وقال الأخفش : بجنح من الليل .

وقيل : بظلمة من الليل .

وقيل : بعد هدوّ من الليل ، قيل : إن السرى لا يكون إلا في الليل ، فما وجه زيادة بقطع من

الليل ؟ قيل : لو لم يقل بقطع من الليل لجاز أن يكون في أوّله قبل اجتماع الظلمة ، وليس ذلك بمراد ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أي : لا ينظر إلى ما وراءه ، أو يشتغل بما خلفه من مال أو غيره .

قيل : وجه النهي عن الالتفات أن لا يروا عذاب قومهم ، وهول ما نزل بهم ، فيرحموهم ويرقوا لهم ، أو لئلا ينقطعوا عن السير المطلوب منهم بما يقع من الالتفات ، فإنه لا بدّ للملتفت من فترة في سيره ﴿ إِلَّا امرأتك ﴾ بالنصب على قراءة الجمهور ، وقرأ أبو عمرو ، وابن كثير بالرفع على البدل ، فعلى القراءة الأولى امرأته مستثناة من قوله : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ أي : أسر بأهلك جميعاً إلا امرأتك فلا تسر بها ، فإنه ﴿ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ من العذاب ، وهو رميهم بالحجارة لكونها كانت كافرة .

وأنكر قراءة الرفع جماعة منهم أبو عبيد وقال : لا يصح ذلك إلا برفع ﴿ يلتفت ﴾ ويكون نعتاً ، لأن المعنى يصير إذا أبدلت وجزمت أن المرأة أبيح لها الالتفات وليس المعنى كذلك .

قال النحاس : وهذا العمل من أبي عبيد وغيره على مثل أبي عمرو مع جلالته ومحله من العربية لا يجب أن يكون ، والرفع على البدل له معنى صحيح ، وهو أن يكون استثناء من

النهي عن الالتفات ، أي لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ، فإنها تلتفت وتهلك .

وقيل : إن الرفع على البدل من ﴿ أحد ﴾ ، ويكون الالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر إلى الخلف ، فكأنه قال : ولا يتخلف منكم أحد إلا امرأتك ، فإنها تتخلف ، والملجىء إلى هذا التأويل البعيد الفرار من تناقض القراءتين ، والضمير في ﴿ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ للشأن ، والجملة خبر إنّ ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح ﴾ هذه الجملة تقليل لما تقدّم من الأمر بالإسراء والنهي عن الالتفات ، والمعنى : أن موعد عذابهم الصبح المسفر عن تلك الليلة ، والاستفهام في ﴿ أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ ﴾ للإنكار التقريري ، والجملة تأكيد للتعليل .

وقرأ عيسى بن عمر " أليس الصبح " بضم الباء وهي لغة ، ولعلّ جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم لكون النفوس فيه أسكن ، والناس فيه مجتمعون لم يتفرّقوا إلى أعمالهم .

(188/383)

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أي : الوقت المضروب لوقوع العذاب فيه ، أو المراد بالأمر : نفس العذاب ﴿ جَعَلْنَا عاليها سَافِلَهَا ﴾ أي : عالي قرى قوم لوط سافلها ، والمعنى : أنه قلبها على هذه الهيئة ، وهي كون عاليها صار سافلها ، وسافلها صار عاليها ، وذلك لأن

جبريل أدخل جناحه تحتها فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء ثم قلبها عليهم ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ قيل : إنه يقال أمطرنا في العذاب ومطرنا في الرحمة .

وقيل : هما لغتان ، يقال : مطرت السماء وأمطرت حكى ذلك الهروي .

والسجيل : الطين المتحجر بطبخ أو غيره .

وقيل : هو الشديد الصلب من الحجارة .

وقيل : السجيل الكثير .

وقيل : إن السجيل لفظة غير عربية ، أصله سج وجيل ، وهما بالفارسية حجر وطين عرّبتهما العرب فجعلتهما اسماً واحداً .

وقيل : هو من لغة العرب .

وذكر الهروي : أن السجيل اسم لسماء الدنيا .

قال ابن عطية : وهذا ضعيف يردّه وصفه بمنضود .

وقيل : هو بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض .

وقيل : هي جبال في السماء .

وقال الزجاج : هو من التسجيل لهم ، أي ما كتب لهم من العذاب فهو في معنى سجين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ [المطففين : 8 ، 9] وقيل :

هو من أسجلته : إذا أعطيته ، فكأنه عذاب أعطوه ، ومنه قول الشاعر :

من يساجلني يساجل ماجدا . . . يملأ الدلو إلى عقد الكرب

ومعنى : ﴿ مَّنْضُودٍ ﴾ : أنه نضد بعضه فوق بعض .

وقيل : بعضه في أثر بعض ، يقال : نضدت المتاع : إذا جعلت بعضه على بعض ، فهو منضود ونضيد ، والمسوّمة : المعلمة ، أي التي لها علامة : قيل كان عليها أمثال الخواتيم .

وقيل : مكتوب على كل حجر اسم من رمى به .

وقال الفراء : زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد في بياض .

(189/383)

فذلك تسويمها ، ومعنى : ﴿ عِندَ رَبّكَ ﴾ في خزائنه ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ ﴾ أي : وما هذه الحجارة الموصوفة من الظالمين وهم قوم لوط ببعيد ، أو ما هي من كل ظالم من الظلمة ومنهم كفار قريش ومن عاضدهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ببعيد ، فهم لظلمهم مستحقون لها .

وقيل : ﴿ وَمَا هِىَ ﴾ أي : قرى ﴿ مِنَ الظالمين ﴾ من كفر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ بِبَعِيدٍ ﴾ فإنها بين الشام والمدينة .

وفي إمطار الحجارة قولان : أحدهما : أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل .

والثاني : أنها أمطرت على من لم يكن في المدن من أهلها ، وكان خارجاً عنها .

وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر ، أو إجراء له على موصوف مذكر : أي شيء بعيد ، أو مكان بعيد ، أو لكونه مصدراً كالزفير والصهيل ، والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ قال : ساء ظناً بقومه ، وضاق ذرعاً بأضيافه ﴿ وَقَالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ يقول : شديد .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عنه ، في قوله : ﴿ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ قال : يسرعون ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ قال : يأتون الرجال .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عنه ، أيضاً قال : ﴿ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ يستمعون إليه .

وأخرج أبو الشيخ ، عنه ، أيضاً في قوله : ﴿ هؤلاء بَنَاتِى ﴾ قال : ما عرض لوط بناته على قومه لا سفاحاً ولا نكاحاً ، إنما قال : هؤلاء نساؤكم ، لأن النبيّ إذا كان بين ظهراني قوم فهو أبوهم ، قال الله تعالى في القرآن : " وأزواجه أمهاتهم وهو أبوهم " في قراءة أبيّ .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ، قال : لم تكن بناته ولكن كنّ من أمته ، وكل نبيّ أبو أمته .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير نحوه .

وأخرج ابن أبي الدنيا ، وابن عساكر ، عن السديّ نحوه .

قال : وفي قراءة عبد الله : " النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم " .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن حذيفة بن اليمان ، قال : عرض عليهم بناته تزويجاً ، وأراد أن يقي أضيافه بتزويج بناته .

وأخرج أبو الشيخ ، عن السديّ ، في قوله : ﴿ وَلَا تُخۡزُونِ فِى ضَيۡفِىٓ ﴾ قال : لا تفضحوني .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي مالك ﴿ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴾ قال : رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

وأخرج أبو الشيخ ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس ﴿ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴾ قال : واحد يقول لا إله إلا الله .

وأخرج أبو الشيخ ، عن عكرمة مثله .

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السديّ ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ قال: إنما نريد الرجال ﴿ قَالَ ﴾ لوط ﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ يقول: إلى جند شديد لمقاتلتكم.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، ﴿ أو آوى إلى ركن شديد ﴾ قال: عشيرة.

وقد ثبت في البخاري وغيره من حديث أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " يغفر الله للوط إن كان يأوي إلى ركن شديد " وهو مرويّ في غير الصحيح من طريق غيره من الصحابة.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس ﴿ بِقِطْعٍ مّنَ الليل ﴾ قال: جوف الليل.

وأخرجا عنه قال: بسواد الليل.

وأخرج عبد الرزاق، عن قتادة، قال: بطائفة من الليل.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ قال: لا يتخلف.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ قال: لا ينظر وراءه أحد ﴿ إِلاَّ امرأتك ﴾.

وأخرج أبو عبيد ، وابن جرير ، عن هارون قال : في حرف ابن مسعود : "فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك" .

وأخرج ابن جرير ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عاليها سَافِلَهَا ﴾ قال : لما أصبحوا عدا جبريل على قريتهم ، فقلعها من أركانها ، ثم أدخل جناحه ثم حملها على خوافي جناحه بما فيها ، ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ، ثم قلبها ، فكان أوّل ما سقط منها سرادقها ، فلم يصب قوماً ما أصابهم ، ثم إن الله طمس على أعينهم ، ثم قلبت قريتهم ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل .

وقد ذكر المفسرون روايات وقصصاً في كيفية هلاك قوم لوط طويلة متخالفة ، وليس في ذكرها فائدة لا سيما وبين من قال بشيء من ذلك ، وبين هلاك قوم لوط دهر طويل لا يتيسر له في مثله إسناد صحيح ، وغالب ذلك مأخوذ عن أهل الكتاب ، وحالهم في الرواية معروف .

وقد أمرنا بأنا لا نصدّقهم ولا نكذبهم ، فاعرف هذا ، فهو الوجه في حذفنا لكثير من هذه الروايات الكائنة في قصص الأنبياء وقومهم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ ﴾ قال : يرهب بها قريش أن يصيبهم ما أصاب القوم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السديّ ، في الآية قال : من ظلمة العرب إن لم يؤمنوا فيعذبوا بها .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة قال : من ظالمي هذه الأمة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(192/383)

وقال القاسمى :

﴿ وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [77] .

﴿ وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً ﴾ أي : بعد منصرفها من عند إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وكان مقيماً في (بلوطممرا) التي بـ (حبرون) المدينة المعروفة اليوم بـ (الخليل) ؛ : ﴿ سِيءَ بِهِمْ ﴾ أي : ساءه مجيئهم ؛ لأنهم أتوه على صورة مُرد ، حسان الوجوه ، فخاف أن يقصدهم قومه ، لظنه أنهم بشر : ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ﴾ يقال : ضاق بالأمر ذرعه وذراعه ، وضاق به ذرعاً ، أي : ضعفت طاقته ، لم يجد من المكروه فيه مخلصاً .

قال الجوهري : أصل الذرع : بسط اليد ، فكأنك تريد : مددت يدك إليه فلم تنله . وقيل : وجه التمثيل : أن القصير الذراع لا ينال ما يناله الطويل الذراع ، ولا يطيق طاقته ، فضُرب

مثلاً للذي سقطت قوته ، دون بلوغ الأمر والاقتدار عليه .

وقال الأزهري : الذرع يوضع موضع الطاقة ، والأصل فيه : أن البعير يذرع بيديه في سيره ذرعاً ، على قدر سعة خطوه ، فإذا حمل عليه أكثر من طوقه طاق به ذرعاً عن ذلك وضعف ، ومدّ عنقه ، فجعل ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع والطاقة .

و(ذرعاً) تمييز ، لأنه خرج مفسراً محوّلاً . الأصل : ضاق ذرعي به ، وشاهد الذراع قوله :

~وإن بات وحشاً ليلة لم يضق بها ذراعاً ولم يُصبح لها وهو خاشع

﴿ وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ أي : شديد . وكيف لا يشتد عليه ، وقد ألم المحذور ، كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [78] .

﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي : يسرعون كأنما يدفعون دفعاً . وقرئ مبنياً للفاعل ﴿ وَمِن قَبْلُ ﴾ أي : قبل مجيئهم : ﴿ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي : الفواحش ويكثرونها ، فمرنوا عليها ، وقل عندهم استقباحها ، فلذلك جاءوا مسرعين مجاهرين ، لا يكفهم حياء ، فالجملة معترضة لتأكيد ما قبلها . وقيل : إنها بيان لوجه ضيق صدره ، أي : لما عرف لوط عادتهم في عمل الفواحش قبل ذلك : ﴿ قَالَ ﴾ أي : لوط : ﴿ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ أراد أن يقي أضيافه ببناته ، وذلك غاية الكرم ، أي : فتزوجوهن . أو كان ذلك مبالغة في تواضعه لهم ، وإظهار لشدة امتعاضه ، مما أوردوا عليه ، طمعاً في أن يستحيوا منه ، ويرقوا له إذا سمعوا ذلك فيتركوا ضيوفه - هذا ملخص ما في " الكشاف " ومن تابعه - وظاهر أنه عليه السلام كان واثقاً بأن قومه لا يؤثرونهن بوجه ما ، مهما أطرى وأطنب وشوق ورغب ، فكان إظهاره وقاية ضيفانه ، وفداءهم بهن ، مع وثوقه المذكور وجزمه ؛ - مبالغة في الاعتناء بحمايتهم ، وقياماً بالواجب في مثل هذا الخطب الفادح الفاضح ، الذي يدوم عاره وشناره ، من الدفاع عنهم بأقصى ما يمكن لكيلا ينسب إلى قصور ، وليعلم أن لا غاية وراء هذا لمن لا ركن له من عشيرة أو قبيلة ، فذلك غاية الغايات في حيطتهم ووقايتهم .

وفي قوله : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ من التشويق ، على مرأى من ضيفانه ومسمع ، ما فيه من زيادة الكرم والإكرام ، ورعاية الذمام . وبالجملة فهو ترغيب بمُحال الوقوع باطناً ، وإعذار

لنزلائه ظاهراً – والله أعلم – وفي هذا إرشاد إلى التطهر بالطرق المسنونة ، وهي النكاح .

وإشارة إلى تناهي وقاحة أولئك بما استأهلوا به أخذهم الآتي .

﴿ فَاتَّقُواْ اللّهَ ﴾ أي : أن تعصوه بما هو أشد من الزنى خبثاً .

(194/383)

﴿ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ أي : ولا تهينوني وتفضحوني في شأنهم ، فإنه إذا خزي ضيف الرجل أو جاره ؛ فقد خزي الرجل ، وذلك من عراقة الكرم ، وأصالة المروءة . و (تخزون) مجزوم بحذف النون ، والياء محذوفة اكتفاء بالكسرة ، وقرئ بإثباتها على الأصل

.

﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ أي : فيرعوي عن القبيح ، ويهتدي إلى الصواب .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [79] .

﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ أي : حاجة ؛ إذ لا نريدهن ، وفي تصدير كلامهم باللام المؤذنة بأن ما بعدها جواب القسم ، أي : والله لقد علمت ، إشارة إلى ما ذكرناه من أنه كان واثقاً وجازماً بعدم رغبتهم فيهن ، وأيد ذلك قولهم : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا

نُرِيدُ ﴾ استشهاداً بعلمه .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [80] .

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ أي : بدفعكم قوة ، بالبدن أو الولد : ﴿ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ أي : عشيرة كثيرة ، لأنه كان غريباً عن قومه ، شبهها بركن الجبل في الشدة والمنعة .

أي : لفعلت بكم ما فعلت ، وصنعت ما صنعت .

تنبيه :

قال الإمام ابن حزم رحمه الله في " الملل " :

ظن بعض الفرق أن ما جاء في الحديث الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم : < رحم الله لوطاً ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد > إنكار على لوط عليه السلام . ولا تخالف بين القولين ، بل كلاهما حق ، لأن لوطاً عليه السلام إنما أراد منعة عاجلة يمنع بها قومه مما هم عليه من الفواحش ، من قرابة أو عشيرة أو أتباع مؤمنين . وما جهل قط لوط عليه السلام

أنه يأوي من ربه تعالى إلى أمنع قوة ، وأشد ركن . ولا جناح على لوط عليه السلام في طلب قوة الناس ، فقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ [البقرة : من الآية 251] فهذا الذي طلب لوط عليه السلام . وقد طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار والمهاجرين منعه حتى يبلغ كلام ربه تعالى . فكيف ينكر على لوط أمراً هو فعله عليه السلام . تالله ما أنكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما أخبر أن لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد ، يعني من نصر الله له بالملائكة . ولم يكن لوط علم بذلك . ومن اعتقد أن لوطاً كان يعتقد أنه ليس له من الله ركن شديد ؛ فقد كفر ، إذ نسب إلى نبي من الأنبياء هذا الكفر . وهذا أيضاً ظن سخيف ؛ إذ من الممتنع أن يظن برب أراه المعجزات ، وهو دائباً يدعو إليه ، هذا الظن . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [81] .

﴿ قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ ﴾ أي : إلى إضرارك بإضرارنا : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ أي : بطائفة من آخره ، أي : ببقية سواد منه عند السحر ، وهو وقت استغراقهم في النوم ، فلا يمكنهم التعرض له ولا لأهله . وقرئ : ﴿ فَأَسْرِ ﴾ بالقطع والوصل .

﴿ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أي : لا ينظر إلى ورائه ، لئلا يلحقه أثر ما نزل عليهم : ﴿ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ أي : من العذاب ، فإنها لما سمعت وجبة العذاب التفتت فهلكت .

قال في " الإكليل " : فيه أن المرأة والأولاد من الأهل .

﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ أي : موعدهم بالهلاك الصبح ، والجملة كالتعليل للأمر بالإسراء ، أو جواب لاستعجال لوط واستبطائه العذاب ، أو ذكرت ليتعجل في السير ، فإن قرب الصبح داع إلى الإسراع في الإسراء ، للتباعد عن موقع العذاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ [82] .

﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا ﴾ أي : عذابنا : ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ أي : فقلبت تلك المدن

ونبتها بسكانها جميعاً ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أي : طين متحجر ، كقوله : ﴿ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ [الذاريات : من الآية 33] ، ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ أي : يرسل بعضه في إثر بعض متتابعاً .

قال المهايمي : اتصل بعضه ببعض ، ليرجموا رجم الزناة ، بما يناسب قسوتهم ورينهم الذي اتصل بقلوبهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [83] .

(197/383)

﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ معلمة عنده : ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ أي : تلك الحجارة : ﴿ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : بالشرك وغيره : ﴿ بِبَعِيدٍ ﴾ فإنهم بسبب ظلمهم مستحقون لها ، وملابسون بها . وفيه وعيد شديد لأهل الظلم كافة . وقيل : الضمير للقرى ، أي : هي قريبة من ظالمي مكة ، يمرون بها في أسفارهم إلى الشام ، وقد صار موضع تلك المدن بحر ماء أجاج لم يزل إلى يومنا هذا ، ويعرف بـ : (البحر الميت) لأن مياهه لا تغذي شيئاً من جنس الحيوان ، وبـ (بحر الزفت) أيضاً ؛ لأنه ينبعث من عمق مقره إلى سطحه ، فيطفو

فوقه، وبـ (بحيرة لوط) والأرض التي تليها قاحلة لا تنبت شيئاً .

قال أبو السعود : وتذكير (بعيد) على تأويل (الحجارة) بالحجر، أو إجرائه على موصوف مذكر، أي: بشيء بعيد، أو لأنه على أنه المصدر، كـ: (الزفير) و(الصهيل) . والمصادر يستوي في الوصف بها، المذكر والمؤنث. انتهى انتهى. اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 121.126 ﴾

(198/383)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) ﴾

يلم السياق في مروره التاريخي بالمستخلفين من عهد نوح، وبالأمم التي بوركت والأمم التي كتب عليها العذاب. . يلم بطرف من قصة إبراهيم، تتحقق فيه البركات، في الطريق إلى قصة قوم لوط الذين مسهم العذاب الأليم. وفي قصتي إبراهيم ولوط هنا يتحقق وعد الله بطرفيه لنوح: ﴿ قيل: يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك. وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ وقد كانت البركات في إبراهيم وعقبه من ولديه :

إسحاق وأبنائه أنبياء بني إسرائيل . وإسماعيل ومن نسله خاتم الأنبياء المرسلين .

﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ﴾ . .

ولا يفصح السياق عن هذه البشرى إلا في موعدها المناسب بحضور امرأة إبراهيم !

والرسل : الملائكة . وهم هنا مجهولون ، فلا ندخل مع المفسرين في تعريفهم وتحديد من هم بلا دليل .

﴿ قالوا : سلاماً . قال : سلام ﴾ . .

وكان ابراهيم قد هاجر من أرض الكلدانيين مسقط رأسه في العراق ، وعبر الأردن ، وسكن في أرض كنعان في البادية وعلى عادة البدو في إكرام الأضياف راح إبراهيم يحضر لهم الطعام وقد ظنهم ضيوفاً :

﴿ فما لبث إن جاء بعجل حنيذ ﴾ . .

أي سمين مشوي على حجارة الرضف المحماة .

ولكن الملائكة لا يأكون طعام أهل الأرض :

﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه ﴾ . .

أي لا تمتد إليه .

﴿ نكرهم وأوجس منهم خيفة ﴾ . .

فالذي لا يأكل الطعام يريب ، ويشعر بأنه ينوي خيانة أو غدراً بحسب تقاليد أهل البدو . .

وأهل الريف عندنا يتحرجون من خيانة الطعام، أي من خيانة من أكلوا معه طعاماً ! فإذا امتنعوا عن طعام أحد فمعنى هذا أنهم ينوون به شراً، أو أنهم لا يثقون في نياته لهم . .

وعند هذا كشفوا له عن حقيقتهم :

﴿ قالوا : لا تخف، إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ . .

(199/383)

وإبراهيم يدرك ما وراء إرسال الملائكة إلى قوم لوط ! ولكن حدث في هذه اللحظة ما غير مجرى الحديث :

﴿ وامرأته قائمة فضحكت ﴾ . .

وربما كان ضحكها ابتهاجاً بهلاك القوم الملوثين :

﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ . .

وكانت عقيماً لم تلد وقد أصبحت عجوزاً . ففاجأتها البشرى بإسحاق . وهي بشرى مضاعفة بأن سيكون لإسحاق عقب من بعده هو يعقوب . والمرأة وبخاصة العقيم يهتز كيانها كله لمثل هذه البشرى، والمفاجأة بها تهزها وتربكها :

﴿ قالت : يا ويلتا ! أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ؟ إن هذا لشيء عجيب ﴾ . .

وهو عجيب حقاً . فالمرأة ينقطع طمثها عادة في سن معينة فلا تحمل . ولكن لا شيء بالقياس إلى قدرة الله عجيب :

﴿ قالوا : أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت . إنه حميد مجيد ﴾ . .

ولا عجب من أمر الله . فالعادة حين تجري بأمر لا يكون معنى هذا أنها سنة لا تتبدل . وعندما يشاء الله لحكمة يريدها وهي هنا رحمته بأهل هذا البيت وبركاته الموعودة للمؤمنين فيه يقع ما يخالف العادة ، مع وقوعه وفق السنة الإلهية التي لا نعلم حدودها ، ولا نحكم عليها بما تجري به العادة في أمد هو على كل حال محدود ، ونحن لا نستقرئ جميع الحوادث في الوجود .

والذين يقيدون مشيئة الله بما يعرفونه هم من نواميسه لا يعرفون حقيقة الألوهية كما يقررها الله سبحانه في كتابه وقوله الفصل وليس للعقل البشري قول في ذلك القول وحتى الذين يقيدون مشيئة الله بما يقرر الله سبحانه أنه ناموسه لا يدركون حقيقة الألوهية كذلك !

فمشيئة الله سبحانه طليقة وراء ما قرره الله سبحانه من نواميس . ولا تتقيد هذه المشيئة بالنواميس .

نعم إن الله يجري هذا الكون وفق النواميس التي قدرها له . . ولكن هذا شيء والقول بتقيد إرادته بهذه النواميس بعد وجودها شيء آخر ! إن الناموس يجري وينفذ بقدر من الله في كل مرة ينفذ فيها . فهو لا يجري ولا ينفذ آلياً . فإذا قدر الله في مرة أن يجري الناموس بصورة أخرى غير التي جرى بها في مرات سابقة كان ما قدره الله ولم يقف الناموس في وجه القدر الجديد . . ذلك أن الناموس الذي تندرج تحته كل النواميس هو طلاقة المشيئة بلا قيد على الإطلاق ، وتحقق الناموس في كل مرة يتحقق فيها بقدر خاص طليق .

وإلى هنا كان إبراهيم عليه السلام قد اطمأن إلى رسل ربه ، وسكن قلبه بالبشرى التي حملوها إليه . ولكن هذا لم ينسه لوطاً وقومه وهو ابن أخيه النازح معه من مسقط رأسه والساكن قريباً منه وما ينتظرهم من وراء إرسال الملائكة من هلاك واستئصال . وطبيعة إبراهيم الرحيمة الودود لا تجعله يطيق هلاك القوم واستئصالهم جميعاً :

﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط . إن أبراهيم لحليم أواه منيب ﴾ .

والحليم الذي يحتمل أسباب الغضب فيصبر ويتأنى ولا يثور . والأوّاه الذي يتضرع في الدعاء من التقوى . والمنيب الذي يعود سريعاً إلى ربه . . وهذه الصفات كلها قد دعت إبراهيم أن يجادل الملائكة في مصير قوم لوط وإن كنا لا نعلم كيف كان هذا الجدال لأن النص

القرآني لم يفصله ، فجاءه الرد بأن أمر الله فيهم قد قضي وأنه لم يعد للجدال مجال :

﴿ يا أبراهيم أعرض عن هذا ، إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ . .

ويسكت السياق . وقد سكت ولا شك إبراهيم . . ويسدل الستار على مشهد إبراهيم وزوجه ليرفع هناك على مشهد حافل بالحركة والانفعال مع لوط . وقوم لوط في مدن الأردن : عمورية وسدوم .

﴿ ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً ، وقال : هذا يوم عصيب ! ﴾ .

(201/383)

لقد كان يعرف قومه . ويعرف ما أصاب فطرتهم من انحراف وشذوذ عجيبين . إذ يتركون النساء إلى الرجال ، مخالفين الفطرة التي تهتدي إلى حكمة خلق الأحياء جميعاً أزواجاً ، كي تمتد الحياة بالنسل ما شاء لها الله . والتي تجد اللذة الحقيقية في تلبية نداء الحكمة الأزلية ، لا عن تفكير وتدبير ، ولكن عن اهتداء واستقامة . والبشرية تعرف حالات مرضية فردية شاذة ، ولكن ظاهرة قوم لوط عجيبة . وهي تشير إلى أن المرض النفسي يعدي كالمرض الجسدي . وأنه يمكن أن يروج مرض نفسي كهذا نتيجة لاختلال المقاييس في

بيئة من البيئات ، وانتشار المثل السيئ ، عن طريق إيحاء البيئة المريضة . على الرغم من مصادمته للفطرة ، التي يحكمها الناموس الذي يحكم الحياة . الناموس الذي يقتضي أن تجد لذتها فيما يلبي حاجة الحياة لا فيما يصادمها ويعدمها . والشذوذ الجنسي يصادم الحياة ويعدمها ، لأنه يذهب ببذور الحياة في تربة خبيثة لم تعد لاستقبالها وإحيائها . بدلاً من الذهاب بها إلى التربة المستعدة لتلقيها وإنمائها . ومن أجل هذا تنفر الفطرة السليمة نفوراً فطرياً لا أخلاقياً فحسب من عمل قوم لوط . لأن هذه الفطرة محكومة بقانون الله في الحياة . الذي يجعل اللذة الطبيعية السليمة فيما يساعد على إنماء الحياة لا فيما يصدمها ويعطلها . ولقد نجد أحياناً لذة في الموت في سبيل غاية أسمى من الحياة الدنيا ولكنها ليست لذة حسية إنما هي معنوية اعتبارية . على أن هذه ليست مصادفة للحياة ، إنما هي إنماء لها وارتفاع بها من طريق آخر . وليست في شيء من ذلك العمل الشاذ الذي يعدم الحياة وخلاياها . .

سيئ لوط بأضيافه . وهو يعلم ما ينتظرهم من قومه ، ويدرك الفضيحة التي ستناله في أضيافه :

﴿ وقال : هذا يوم عصيب ﴾ !

وبدأ اليوم العصيب !

﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه ﴾ . . أي يسرعون في حالة تشبه الحمى .

﴿ ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾ . .

وكان هذا ما ساء الرجل بضيوفه ، وما ضيق بهم ذرعه ، وما دعاه إلى توقع يوم عصيب ! ورأى لوط ما يشبه الحمى في أجساد قومه المندفعين إلى داره ، يهددونه في ضيفه وكرامته . فحاول أن يوقظ فيهم الفطرة السليمة ، ويوجههم إلى الجنس الآخر الذي خلقه الله للرجال ، وعنده منه في داره بناته ، فهن حاضرات ، حاضرات اللحظة إذا شاء الرجال المحمومون تم الزواج على الفور ، وسكنت الفورة المحمومة والشهوة المجنونة !

﴿ قال : يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم . فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي . أليس منكم رجل رشيد ؟ ﴾ . .

﴿ هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ . .

أطهر بكل معاني الطهر . النفسي والحسي . فهن يلبين الفطرة النظيفة ، ويثرن مشاعر كذلك نظيفة . نظافة فطرية ونظافة أخلاقية ودينية . ثم هن أطهر حسياً . حيث أعدت القدرة الخالقة للحياة الناشئة مكمناً كذلك طاهراً نظيفاً .

﴿ فاتقوا الله ﴾ .

.

قالها يلمس نفوسهم من هذا الجانب بعد ان لمسها من ناحية الفطرة .

﴿ ولا تخزون في ضيفي ﴾ . .

قالها كذلك يلمس نخوتهم وتقاليد البدو في إكرام الضيف إطلاقاً .

﴿ أليس منكم رجل رشيد ؟ ﴾ . .

فالقضية قضية رشد وسفه إلى جوار أنها قضية فطرة ودين ومروءة . . ولكن هذا كله لم يلمس الفطرة المنحرفة المريضة ، ولا القلوب الميتة الآسنة ، ولا العقول المريضة المأفونة .

وظلت الفورة المريضة الشاذة في اندفاعها المحموم :

﴿ قالوا : لقد علمت ما لنا في بناتك من حق . وإنك لتعلم ما نريد ! ﴾ . .

لقد علمت لو أردنا بناتك لتزوجناهن . فهذا حقنا . . ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ . .

وهي إشارة خبيثة إلى العمل الخبيث .

وأسقط في يد لوط ، وأحس ضعفه وهو غريب بين القوم ، نازح إليهم من بعيد ، لا عشيرة له تحميه ، وليس له من قوة في هذا اليوم العصيب ؛ وانفرجت شفتاه عن كلمة حزينة أليمة :

﴿ قال : لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ! ﴾ . .

قالها وهو يوجه كلامه إلى هؤلاء الفتية الذين جاء الملائكة في صورتهم وهم صغار صباح الوجوه ؛ ولكنهم في نظره ليسوا بأهل بأس ولا قوة . فالتفت إليهم يتمنى أن لو كانوا أهل قوة فيجد بهم قوة . أو لو كان له ركن شديد يحتمي به من ذلك التهديد !

وغاب عن لوط في كربته وشدته أنه يأوي إلى ركن شديد . ركن الله الذي لا يتخلى عن أوليائه . كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو هذه الآية : " رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد "

وعندما ضاقت واستحكمت حلقاتها ، وبلغ الكرب أشده . . كشف الرسل للوط عن الركن الشديد الذي يأوي إليه :

﴿ قالوا : يا لوط ، إنا رسل ربك ، لن يصلوا إليك ﴾ . .

وأنبأوه نبأهم ، لينجو مع أهل بيته الطاهرين ، إلا امرأته فإنها كانت من القوم الفاسدين :

﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك . إنه مصيبها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح . أليس الصبح بقريب ؟ ﴾ . .

والسرى : سير الليل ، والقطع من الليل : بعضه ، ولا يلتفت منكم أحد . أي لا يتخلف ولا يعوق . لأن الصبح موعدهم مع الهلاك . فكل من بقي في المدينة فهو هالك مع الهالكين .

﴿ أليس الصبح بقريب ؟ ﴾ . .

سؤال لإنعاش نفس لوط بعد ما ذاق . لتقريب الموعد وتأكيده . فهو قريب . مع مطلع الصباح . ثم يفعل الله بالقوم بقوته ما لم تكن قوة لوط التي تمناها فاعله !

والمشهد الأخير . مشهد الدمار المروع ، اللائق بقوم لوط :

﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ . .

فلما جاء موعد تنفيذ الأمر ﴿ جعلنا عاليها سافلها ﴾ . . وهي صورة للتدمير الكامل الذي يقلب كل شيء ويغير المعالم ويمحوها .

وهذا القلب وجعل عاليها سافلها أشبه شيء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان . بل أحط من الحيوان ، فالحيوان واقف ملتزم عند حدود فطرة الحيوان . .

﴿ وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ﴾ . .

حجارة ملوثة بالطين . . وهي كذلك مناسبة وعلى قدر المقام :

﴿ منضود ﴾ . . متراكم بعضه يلاحق بعضاً .

هذه الحجارة . . ﴿ مسوّمة عند ربك ﴾ . . كما تسوم الماشية أي تربى وتطلق بكثرة . فكأنما هذه الحجارة مرباة ! ومطلقة لتنمو وتتكاثر ! لوقت الحاجة . . وهو تصوير عجيب يلقي ظله في الحس ، ولا يفصح عنه التفسير ، كما يفصح عنه هذا الظل الذي يلقيه . .

﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ . .

فهي قريبة وتحت الطلب ، وعند الحاجة تطلق فتصيب !

والصورة التي يرسمها السياق هنا لهذه النازلة التي أصابت قوم لوط هي أشبه شيء ببعض الظواهر البركانية التي تخسف فيها الأرض فتبتلع ما فوقها ويصاحب هذا حمم وحجارة ووحل . . وعند ربك للظالمين كثير ! ! !

ولا نقول هذا الكلام لنقول : إنه كان بركان من تلك البراكين ، ثار في ذلك الوقت ، فوقع ما وقع . إننا لا ننفي هذا . فقد يكون هو الذي وقع فعلاً . ولكننا لا نجزم به كذلك ولا نقيد قدر الله بظاهرة واحدة مألوفة . . وقوام القول في هذه القضية وأمثالها أنه جائز أن يكون في تقدير الله وقوع انفجار بركاني في موعده في هذا الموعد ليحقق قدر الله في قوم لوط كما قدر في علمه القديم . وهذا التوقيت والتوافق شأن من شؤون ألوهيته سبحانه وربوبيته للكون وتصريفه لكل ما يجري فيه متناسقاً مع قدره بكل شيء و بكل حي فيه .

وجائز كذلك أن تكون هذه الظاهرة وقعت بقدر خاص تعلقت به مشيئة الله سبحانه لإهلاك قوم لوط على هذه الصورة التي تم بها في ذلك الحين . وفهم علاقة مشية الله بالكون

على النحو الذي بيناه قريباً في التعليق على حادثة امرأة إبراهيم ، لا يبقي مجالاً لمشكلة تقوم في التصور الإنساني لمثل هذه الظواهر والأمور . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 1916.1911 ﴾

(205/383)

ومن فوائد الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77) ﴾

ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن لوطاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لما جاءته رسل ربه من الملائكة حصلت له بسبب مجيئهم مساءة عظيمة ضاق صدره بها ، وأشار في مواضع متعددة إلى أن سبب مساءته وكونه ضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب أنه ظن أنهم ضيوف من بني آدم كما ظنه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام . وظن ن قومه ينتهكون حرمة ضيوفه فيفعلون بهم فاحشة اللواط ، لأنهم إن علموا بقدوم ضيف فرحوا واستبشروا به ليفعلوا به الفاحشة المذكورة – من ذلك قوله هنا ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السيئات قَالَ يا قوم هؤلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا

تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [هود : 78 – 79] .

وقوله في الحجر : ﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ وَاتقوا الله وَلَا تُخۡزُونِ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ [الحجر : 67 – 72] .

وقوله ﴿ يُهۡرَعُونَ ﴾ أي يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك ، ومنه قول مهلهل :

فجاؤوا يهرعون وهم أسارى . . . تقدوهم على رغم الأنوف

وقوله : ﴿ وَلَا تُخۡزُونِ ﴾ أي لا تهينون ولا تذلون بانتهاك حرمة ضيفي . والاسم منه : الخزي – بكسر الخاء وإسكان الزاي – . ومنه قول حسان في عتبة بن أبي وقاص :

فأخزاك ربي يا عتيب بن مالك . . . ولقاك قبل الموت إحدى الصواعق

(206/383)

وقال بعض العلماء : قوله ﴿ وَلَا تُخۡزُونِ ﴾ من الخزاية ، وهي الخجل والاستحياء من الفضيحة . أي لا تفعلوا بضيفي ما يكون سبباً في خجلي واستحيائي ، ومنه قول ذي الرمة يصف ثوراً وحشياً تطارده الكلاب في جانب حبل من الرمل .

حتى إذا دومت في الأرض راجعة . . . كرّ ولو شثاء نجى نفسه الهرب

خزاية أدركته بعد جولته . . . من جانب الحبل مخلوطاً به الغضب

يعني أن هذا الثور لو شاء نجا ن الكلاب بالهرب ، ولكنه استحيا وأنف من الهرب فكر راجعاً إليها . ومنه قوله الآخر :

أجاعلة أم الثوير خزاية . . . على فراري أن لقيت بني عبس

والفعل منه : خزي يخزى ، كرضى يرضى . ومنه قول الشاعر :

من البيض لا تخزى إذا الريح ألصقت . . . بها مرطها أو زايل الحلي جيدها

وقول الآخر :

وإنّي لا أخزى إذا قيل مملق . . . سخى وأخزى أن يقال بخيل

وقوله ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ [الحجر : 72] معناه أقسم بحياتك . والله جل وعلا له أن يقسم بما شاء من خلقه ، ولم يقسم في القرآن بحياة أحد إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وفي ذلك من التشريف له صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى .

ولا يجوز لمخلوق أن يحلف بغير الله ، لقوله صلى الله عليه وسلم :

" من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت " .

وقوله ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ مبتدأ خبره محذوف ، أي لعمرك قسمى وسمع عن العرب تقديم الراء على اللام في لعمرك فتقول فيها : رعملكن ومنه قول الشاعر :

رعملك إن الطائر الواقع الذي . . . تعرض لي من طائر لصدوق

وقوله ﴿ لَفِي سَكْرَتِهِمْ ﴾ [الحجر : 72] اي عماهم وجهلهم وضلالهم . والعمه : عمى القلب ، فمعنى ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : 72] يترددون متحيرين لا يعرفون حقاً من باطل ، ولا نافعاً من ضار ، ولا حسناً من قبيح .

واختلف العلماء في المراد بقول لوط عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام : ﴿ هؤلاء بَنَاتِي ﴾ [هود : 78] في الموضعين على أقوال :

(207/383)

أحدها – أنه أراد المدافعة عن ضيفه فقط ، ولم يرد إمضاء ما قال ، وبهذا قال عكرمة وأبو عبيدة .

الثاني – أن المراد بناته لصلبه ، وأن المعنى : دعوا فاحشة اللواط وأزواجكم بناتي .

وعلى هذا فتزويج الكافر المسلمة كان جائزاً في شرعه ، كما كانت بنات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم تحت الكفار في أول الإسلام كما هو معروف . وقد أرسلت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم عقدها الذي زفتها به أمها خديجة بنت خويلد رضي الله عنها إلى زوجها أبي العاص بن الربيع ، أرسلته إليه في فداء زوجها أبي العاص المذكور لما

أسره المسلمون كافراً يوم بدر ، والقصة مشهورة ، وعقدها الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في مغازية بقوله في غزوة بدر :

وابن الربيع صهر هادي الملة . . . إذ في فداه زينب أرسلت

بعقدها الذي به أهدتها . . . له خديجة وزففتها

سرحه بعقدها وعهدا . . . إليه أن يردها له غدا الخ

القول الثالث – أن المراد بالبنات : جميع نساء قومه ، لأن نبي القوم أب ديني لهم ، كما يدل له قوله تعالى في نبينا صلى الله عليه وسلم : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب : 6] وفي قراءة أبي بن كعب : " وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم " وروي نحوها عن ابن عباس . وبهذا القول قال كثير من العلماء .

وهذا القول تقربه قرينة وتبعده وأخرى . أما القرينة التي تقربه فهي : أن بنات لوط لا تسع جميع رجال قومه كما هو ظاهر ، فإذا زوجهن لرجال بقدر عددهم بقي عامة رجال قومه لا أزواج لهم . فيتعين أن المراد عموم نساء قومه ، ويدل للعموم قوله : ﴿ أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ [الشعراء : 165-166] وقوله : ﴿ لَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً مِّن دُونِ النسآء ﴾ [الأعراف : 81] ونحو ذلك من الآيات .

وأما القرينة التي تبعده: فهي أن النّبي ليس أباً للكافرات، بل أبوة الأنبياء الدينية للمؤمنين دون الكافرين، كما يدل عليه قوله: ﴿ النبي أولى بالمؤمنين ﴾ [الأحزاب: 6] الآية.

وقد صرح تعالى في الذاريات: بأن قوم لوط ليس فيهم مسلم إلا أهل بيت واحد وهو أهل بيت لوط، وذلك في قوله ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المسلمين ﴾ [الذاريات: 36].

قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوي إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ قَالُواْ يالوط إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يصلوا إِلَيْكَ ﴾.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن نبيه لوطاً وعظ قومه ونهاهم أن يفضحوه في ضيفه، وعرض عليهم النساء وترك الرجال، فلم يلتفتوا إلى قوله، وتمادوا فيما هم فيه من إرادة الفاحشة فقال لوط: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ الآية. فأخبرته الملائكة بأنهم رسل ربه، وأن الكفار الخبثاء لا يصلون إليه بسوء.

وبين في القمر أنه تعالى طمس أعينهم، وذلك في قوله: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر: 37].

قوله تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الليل وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امرأتك إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ﴾.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة : أنه أمر نبه لوطاً أن يسري بأهله بقطع من الليل ، ولم يبين هنا هل هو من آخر الليل ، أو وسطه أو أوله ، ولكنه بين في القمر أن ذلك من آخر الليل وقت السحر ، وذلك في قوله : ﴿ إِلَّآ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ [القمر : 34] . ولم يبين هنا أنه أمره أن يكون من ورائهم وهم أمة ، ولكنه بين ذلك في الحجر بقوله : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الليل واتبع أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وامضوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ [الحجر : 65] .

(209/383)

وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امرأتك إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ .

قرأه جمهور القراء ﴿ إِلاَّ امرأتك ﴾ بالنصب ، وعليه فالأمر واضح . لأنه استثناء من الأهل ، أي أسر بأهلك إلا امرأتك فلا تسر بها ، واتركها في قومها فإنها هالكة معهم .

ويدل لهذا الوجه قوله فيها في مواضع . ﴿ كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ [الأعراف : 83]

والغابر : الباقي ، أي من الباقين في الهلاك .

وقرأ أبو عمرو وابن كثير ﴿ إِلاَّ امرأتك ﴾ بالرفع على أنه بدل من ﴿ أَحَدٌ ﴾ وعليه فالمعنى : أنه أمر لوطاً أن ينهى جميع أهله عن الالتفات إلا امرأته فإنه أوحى إليه أنها هالكة

لا محالة ، ولا فائدة في نهيها عن الالتفات لكونها من جملة الهالكين .

وعلى قراءة الجمهور فهو لم يسر بها . وظاهر قراءة ابن عمرو وابن كثير : أنه أسرى بها والتفتت فهلكت .

قال بعض العلماء : لما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت : واقوماه . فأدركها حجر فقتلها .

قال مقيدة – عفا الله عنه – الظاهر أن وجه الجمع بين القراءتين المذكورتين أن السر في أمر لوط بأن يسري بأهله هو النجاة من العذاب الواقع صبحاً بقوم لوط ، وامرأة لوط مصيبها ذلك العذاب الذي أصاب قومها لا محالة ، فنتيجة إسراء لوط بأهله لم تدخل فيها امرأته على كلا القولين ، وما لا فائدة فيه كالعدم ، فيستوي معنى أنه تركها ولم يسر بها أصلاً ، وأنه أسرى بها وهلكت مع الهالكين .

فمعنى القولين راجع إلى أنها هالكة وليس لها نفع في إسراء لوط بأهله . فلا فرق بين كونها بقيت معهم ، أو خرجت وأصابها ما أصابهم .

فمعنى القولين راجع إلى أنها هالكة وليس لها نفع في إسراء لوط بأهله . فلا فرق بين كونها بقيت معهم ، أو خرجت وأصابها ما أصابهم .

فإذا كان الإسراء مع لوط لم ينجها من العذاب ، فهي ومن لم يسر معه سواء – والعلم عند الله تعالى .

وقوله ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِك ﴾ قرأه نافع وابن كثير " فاسر " بهمزة وصل . من سرى يسري ،

وقرأه جمهور القراء ﴿ فَأَسْرِ بِأَهلِكَ ﴾ بقطع الهمزة ، من أسرى الرباعي على وزن أفعل .

وسرى وأسرى : لغتان وقراءتان صحيحتان سبعيتان ، ومن سرى الثلاثية ، قوله تعالى :

﴿ والليل إذا يَسْرِ ﴾ [الفجر : 4] فإن فتح ياء ﴿ يَسْرِ ﴾ يدل على أنه مضارع سرى

الثلاثية . وجمع اللغتين قول نابغة ذبيان :

أسرت عليه من الجوزاء سارية . . . تزجى الشمال عليها جامد البرد

فإنه قال : أسرت ، رباعية في أشهر روايتي البيت . وقوله : سارية . اسم فاعل سرى

الثلاثية ، وجمعهما أيضاً قول الآخر :

حتى النضيرة ربة الخدر . . . أسرت إليك ولم تكن تسري

بفتح تاء " تسري " واللغتان كثيرتان جداً في كلام العرب . ومصدر الرباعية الإسراء على

القياس ، ومصدر الثلاثية السرى – بالضم – على وزن فعل – بضم ففتح – على ير قياس

، ومنه قول عبد الله بن رواحة :

عند الصباح يحمد القوم السرى . . . وتنجلي عنهم غيابات الكرى

قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح ﴾ الآية .

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة : أن موعد إهلاك قوم لوط وقت الصبح من تلك الليلة ، وكذلك قال في الحجر في قوله : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر : 66] وزاد في الحجر أن صيحة العذاب وقعت عليهم وقت الإشارق وهو وقت طلوع الشمس بقوله ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة مُشْرِقِينَ ﴾ [الحجر : 73] .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ الآية .

(211/383)

اختلف العلماء في المراد بحجارة السجيل اختلافاً كثيراً ، والظاهر أنها حجارة من طين في غاية الشدة والقوة . والدليل على أن المراد بالسجيل : الطين . قوله تعالى في الذاريات في القصة بعينها : ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الذاريات : 33-34] ، وخير ما يفسر به القرآن : القرآن . والدليل على قوتها وشدتها : أن الله ما عذبهم بها في حاله غضبه عليهم إلا لأن النكال بها بالغ شديد . وأيضاً فإن بعض العلماء قالوا : السجيل والسجين : أختان ، كلاهما الشديد من الحجارة والضرب . ومنه قول ابن مقبل .

ورجله يضربون البيض ضاحية . . . ضرباً تواصى به الأبطال سجينا

وعلى هذا ، فمعنى من سجيل : أي من طين شديد القوة . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ ﴾ .

في هذه الآية الكريمة ثلاثة أوجه من التفسير للعلماء : اثنان منها كلاهما يشهد له القرآن ، وواحد يظهر أنه ضعيف .

أما الذي يظهر أنه ضعيف فهو أن المعنى : أن تلك الحجارة ليست بعيدة من قوم لوط . اي لم تكن تخطئهم .

(212/383)

قاله القرطبي وغيره . لأن هذا يكفي عنه قوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً ﴾ [هود : 83] ونحوها من الآيات . أما الوجهان اللذان يشهد لكل واحد منهما قرآن فالأول منهما : أن ديار قوم لوط ليست ببعيدة من الكفار المكذبين لنبينا . فكان عليهم أن يعتبروا بما وقع لأهلها إذا مروا عليها في أسفارهم إلى الشام ، ويخافوا أن يوقع الله بهم بسبب تكذيب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مثل ما وقع من العذاب بأولئك ، بسبب تكذيبهم لوطاً عليه الصلاة والسلام . والآيات الدالة على هذا كثيرة جداً . كقوله : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ

مُّصْبِحِينَ وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : 137 - 138] ، وقوله : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : 76 - 77] ، وقوله ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ العذاب الأليم ﴾ [الذاريات : 37] وقوله : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : 35] إلى غير ذلك من الآيات وعلى هذا القول فالضمير في قوله ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ راجع إلى ديار قوم لوط المفهومة من المقام .

الوجه الثاني - أن المعنى : وما تلك الحجارة التي أمطرت على قوم لوط ببعيد من الظالمين للفاعلين مثل فعلهم ، فهو تهديد لمشركي العرب كالذي قبله .

ومن الآيات الدالة على هذا الوجه قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [محمد صلى الله عليه وسلم : 10] فإن قوله : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَ ﴾ [محمد صلى الله عليه وسلم : 10] ظاهر جداً في ذلك ، والآيات بنحو ذلك كثيرة

تنبيه

اختلف العلماء في عقوبة من ارتكب فاحشة قوم لوط ، وسنذكر إن شاء الله أقوال العلماء في ذلك وأدلتهم وما يظه رجحانه بالدليل من ذلك فنقول وبالله جل وعلا نستعين :

قال بعض العلماء : الحكم في ذلك : أن يقتل الفاعل والمفعول به مطلقاً سواء كانا محصنين أو بكرين ، أو أحدهما محصناً والآخر بكراً .

ومن قال بهذا القول : مالك بن أنس وأصحابه ، وهو أحد قولي الشافعي ، وإحدى الروايتين عن أحمد . وحكى غير واحد إجماع الصحابة على هذا القول ، إلا أن القائلين به اختلفوا في كيفية قتل من فعل تلك الفاحشة .

قال بعضهم : يقتل بالسيف .

وقال بعضهم : يرجم بالحجارة .

وقال بعضهم : يحرق بالنار .

وقال بعضهم : يرفع على أعلى بناء في البلد فيرمى منه منكساً ويتبع بالحجارة .

وحجة من قال بقتل الفاعل والمفعول به في اللواط مطلقاً : ما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم والبيهقي عن عكرمة عن ابن عباس : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال :

" من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به " .

قال ابن حجر : ورجاله موثقون ، إلا أن فيه اختلافاً اه .

وما ذكره يحيى بن معين من أن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب ينكر عليه حديث عكرمة هذا عن ابن عباس ، فيه أن عمراً المذكور ثقة ، أخرج له الشيخان ومالك كما قدمناه مستوفى .

ويعتضد هذا الحديث بما رواه سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس في البكر يوجد على اللوطية : أنه يرجم . أخرجه أبو داود والنسائي والبيهقي .

وبما أخرجه الحاكم وابن ماجة عن أبي هريرة ، أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " اقتلوا الفاعل والمفعول به أحصنا أو لم يحصنا " قال الشوكاني وإسناده ضعيف .

قال ابن الطلاع في أحكامه : لم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رجم في اللواط ، ولا أنه حكم فيه ، وثبت عنه أنه قال : " اقتلوا الفاعل والمفعول به " رواه عنه ابن عباس وأبو هريرة . اه .

قال الحافظ : وحديث أبي هريرة لا يصح ، وقد أخرجه البزار من طريق عاصم بن عمر العمري عن سهيل عن أبيه عنه وعاصم متروك . وقد رواه ابن ماجه من طريقه بلفظ : " فارجموا الأعلى والأسفل " اه .

وأخرج البيهقي عن علي رضي الله عنه : أنه رجم لوطياً ، ثم قال : قال الشافعي : وبهذا نأخذ برجم اللوطي محصناً كان أو غير محصن .

وقال هذا قول ابن عباس قال : وسعيد بن المسيب يقول : السنة أن يرجم اللوطي أحصن أو لم يحصن .

وقال البيهقي أيضاً : وأخبرنا أبو نصر بن قتادة ، وأبو بكر محمد بن إبراهيم الفارسي قالا : ثنا أبو عمرو بن مطر ، ثنا إبراهيم بن علي ، ثنا يحيى بن يحيى ، أنبأ عبد العزيز بن أبي حازم ، انبأ داود بن بكر عن محمد بن المنكدر ، عن صفوان بن سليم أن خالد بن الوليد كتب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما في خلافته يذكر له : أنه وجد رجلاً في بعض نواحي العرب ينكح كما تنكح المرأة ، وأن أبا بكر رضي الله عنه جمع الناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم عن ذلك ، فكان من أشدهم يومئذ قولاً علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، قال : إن هذا ذنب لم تعص به أمة من الأمم إلا أمة واحدة صنع الله بها ما قد علمتم ، نرى أن نحرقه بالنار . فاجتمع رأي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يحرقه بالنار . فكتب أبو بكر رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد رضي عنه يأمره أن يحرقه بالنار .

هذا مرسل .

وروي من وجه آخر عن جعفر بن محمد ، عن أبيه عن علي رضي الله عنه في غير هذه

القصة قال : يرجم ويحرق بالنار .

ويذكر عن ابن أبي ليلى عن رجل من همدان : أن علياً رضي الله عنه رجم رجلاً محصناً في عمل قوم لوط . هكذا ذكره الثوري عنه مقدياً بالإحصان . وهشيم رواه عن ابن أبي ليلى مطلقاً اه منه بلفظه .

فهذه حجج القائلين بقتل الفاعل والمفعول به في اللواط .

وحجة من قال : إن ذلك القتل بالنار هو ما ذكرناه عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم آنفاً .

(215/383)

وحجة من قال : إن قتله بالسيف قوله صلى الله عليه وسلم : " فاقتلوا والفاعل والمفعول به " والقتل إذا أطلق انصرف إلى القتل بالسيف .

وحجة من قال : إن قتله بالرجم هو ما قدمنا من رواية سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس : أنه يرجم . وما ذكره البيهقي وغيره عن علي أنه رجم لوطياً ، ويستأنس بأن الله رمى أهل تلك الفاحشة بحجارة السجيل .

وحجة من قال : يرفع من أعلى بناء أو جبل ويلقى منكساً ويتبع بالحجارة : أن ذلك هو

الذي فعله الحكيم الخبير بقوم لوط، كما قال: ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [هود: 82].

قال مقيدة عفا الله عنه: وهذا الأخير غير ظاهر، لأن قوم لوط لم يكن عقابهم على اللواط وحده، بل عليه، وعلى الكفر، وتكذيب نبيهم صلى الله عليه وسلم. فهم قد جمعوا إلى اللواط ما هو أعظم من اللواط، وهو الكفر بالله، وإيذاء رسوله صلى الله عليه وسلم.

القول الثاني – هو أن اللواط زنى فيجلد مرتكبه مائة إن كان بكراً ويغرب سنة، ويرجم إن كان محصناً. وهذا القول هو أحد قولي الشافعي.

وذكر البيهقي عن الربيع بن سليمان: أن الشافعي رجع إلى أن اللواط زنى، فيجري عليه حكم الزنى، وهو إحدى الروايتين عن أحمد رحمهم الله تعالى.

ورواه البيهقي عن عطاء وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وهو قول أبي يوسف ومحمد وسعيد بن المسيب والحسن وقتادة والنخعي والثوري والأوزاعي وغيرهم.

واحتج أهل هذا القول بما رواه البيهقي عن محمد بن عبد الرحمن عن خالد الحذاء عن ابن سرين عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أتى الرجل الرجل

فهما زانيان ، وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان " أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، ثنا أبو العباس بن يعقوب ، ثنا يحيى بن أبي طالب ، ثنا أبو بدر ، ثنا محمد بن عبد الرحمن فذكره .

قال الشيخ : ومحمد بن عبد الرحمن هذا لا أعرفه ، وهو منكر بهذا الإسناد . انتهى منه بلفظه .

وقال الشوكاني رحمه الله في " نيل الأوطار " في هذا الحديث ، وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن كذبه أبو حاتم .

وقال البيهقي لا أعرفهن والحديث منكر بهذا الإسناد . ورواه ابو الفتح الأزدي في الضعفاء ، والطبراني في الكبير من وجه آخر عن أبي موسى . وفيه بشر بن المفضل البجلي وهو مجهول . وقد أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده عنه اه منه .

واستدل القائلون بهذا القول أيضاً بقياس اللواط على الزنى بجامع أن الكل إيلاج فرج في فرج محرم شرعاً ، مشتهى طبعاً .

ورد بأن القياس لا يكون في الحدود ، لأنها تدرأ بالشبهات . والأكثرون على جواز القياس في الحدود ، وعليخ درج في مراقي السعود بقوله :

والحد والكفارة التقدير . . . جوازه فيها هو المشهور

إلا أن قياس اللائط على الزاني يقدح فيه بالقادح المسمى : " فساد الاعتبار " ، لمخالفته لحديث ابن عباس المتقدم : أن الفاعل والمفعول به يقتلان مطلقاً ، أحصنا أو لم يحصنا ، ولا

شك أن صاحب الفطرة السليمة لا يشتهي اللواط ، بل ينفر منه غاية النفور بطبعه كما لا يخفى .

القول الثالث – أن اللائط لا يقتل ولا يحد حد الزنى ، وإنا يعزر بالضرب والسجن ونحو ذلك . وهذا قول أبي حنيفة .

(217/383)

واحتج أهل هذا القول بأن الصحابة اختلفوا فيه ، واختلافهم فيه يدل على أنه ليس فيه نص صحيح ، وأنه من مسائل الاجتهاد ، والحدود تدرأ بالشبهات قالوا : ولا يتناوله اسم الزنى ، لأن لكل منهما اسماً خاصاً به ، كما قال الشاعر :

من كف ذات حر في زنى ذي ذكر . . . لها محبان لوطي وزناء

قالوا : ولا يصح إلحاقه بالزنى لوجود الفارق بينهما . لأن الداعي في الزنى من الجانبين بخلاف اللواط ، ولأن الزنى يفضي إلى الاشتباه في النسب وإفساد الفراش بخلاف اللواط .

قال في مراقي السعود :

والفرق بين الأصل والفرع قدح . . . إبداء مختص بالأصل قد صلح

أو مانع في الفرع . . . . . . الخ . . . . .

واستدل أهل هذا القول أيضاً بقوله تعالى : ﴿ واللذان يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فآذُوهُمَا ﴾ [النساء : 16] الآية .

قالوا المراد بذلك : اللواط . والمراد بالإيذاء : السبّ أو الضرب بالنعال .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ واللذان يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ ﴾ قال : الرجلان الفاعلان .

وآخرج آدم والبيهقي في سننه عن مجاهد في قوله : ﴿ فَآذُوهُمَا ﴾ يعني سبا ، قاله صاحب " الدر المنثور " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(218/383)

قوله تعالى ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85) بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما انتهت القصة معلمة لما قام به لوط عليه السلام من أمر الله غير وانٍ لرغبة ولا رهبة وبما في إنزال الملائكة من الخطر ، أتبعت أقرب القصص الشهيرة إليها في الزمن فقال تعالى : ﴿ وإلى ﴾ أي ولقد أرسلنا إلى ﴿ مدين ﴾ وهم قبيلة أبيهم مدين بن إبراهيم عليه السلام ﴿ أخاهم شعيباً ﴾ فكأن قائلاً قال : ما قال لهم ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ ما قال إخوانه من الأنبياء في البداءة بأصل الدين : ﴿ يا قوم ﴾ مستعطفاً لهم مظهراً غاية الشفقة ﴿ اعبدوا الله ﴾ أي الملك الأعلى غير مشركين به شيئاً لأنه واحد ﴿ ما لكم ﴾ وأغرق في النفي فقال : ﴿ من إله غيره ﴾ فلقد اتفقت - كما ترى - كلمتهم واتحدت إلى الله وحده دعوتهم ، وهذا وحده قطعي الدلالة على صدق كل منهم لما علم قطعاً من تباعد أعصارهم وتنائي ديارهم وأن بعضهم لم يلم بالعلوم ولا عرف أخبار الناس إلا من الحي القيوم ؛ قال الإمام شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي في كتابه " رشف النصائح الإيمانية وكشف الفضائح اليونانية " في ذكر الأنبياء : اتحدت مصادرهم كأنهم بنيان مرصوص ، عبروا بألسنة مختلفة تنتهي إلى بحر متصل بالقلوب متحد بها يستمد من البحر المحيط بعالمي الشهادة والغيب ، واختلفت الموارد من الشرائع بحسب ما اقتضت الحكمة الإلهية من مصلحة أهل كل زمان وكل ملة ، فما ضر اختلافهم في الفروع مع اتحادهم في الأصول ، وقال قبل ذلك : إن الفلاسفة لما لم يغترفوا من بحار الأنبياء وقفت بهم أفراس أفكارهم في عالم الشهادة ، فلما حاولوا الخوض في الإلهيات انكشفت عورة جهلهم

وافتضحوا باضطرابهم واختلافهم ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ [الحشر : 14] القطع بهم سير الفكر في منتهى عالم الملك والشهادة ، ولم يدخل إسكندر نظرهم ظلمات عالم الغيوب حتى يظفروا بعين الحياة التي من شرب منها لا يموت - انتهى .

(219/383)

ولما دعا إلى العدل فيما بينهم وبين الله ، دعاهم إلى العدل فيما بينهم وبين عبيده في أقبح ما كانوا قد اتخذوه بعد الشرك ديدناً فقال : ﴿ ولا تنقصوا ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ المكيال والميزان ﴾ لا الكيل ولا آلته ولا الوزن ولا آلته ؛ والكيل : تعديل الشيء بالآلة في القلة والكثرة ؛ والوزن : تعديله في الخفة والثقل ، فالكيل للعدل في الكمية والوزن للعدل في الكيفية ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إني أراكم بخير ﴾ أي بسعة تغنيكم عن البخس - مرهباً ومرغباً بالإشارة إلى أن الكفر موجب للنقمة كما أن الشكر موجب للنعمة .

ولما كان كأنه قيل : فإني أخاف عليكم الفقر بالنقص ، عطف عليه مؤكداً لإنكارهم : ﴿ وإني أخاف عليكم ﴾ به وبالشرك ﴿ عذاب يوم محيط ﴾ بكم صغاراً وكباراً وبأموالهم طيباً وخبيثاً ، أي مهلك كقوله ﴿ وأحيط بثمره ﴾ [الكهف : 42] وأصله من إحاطة العدو ، ووصف اليوم بالإحاطة أبلغ لأنه محيط بما فيه من عذاب وغيره ،

والعذاب محيط بالمعذب فذكر المحيط بالمحيط أهول ، وهو الدائر بالشيء من كل جانب ، وذلك يكون بالتقاء طرفيه ؛ والنقصان : أخذ شيء من المقدار كما أن الزيادة ضم شيء إليه ، وكلاهما خروج عن المقدار ؛ والوزن ، تعديل الشيء بالميزان ، كما أن الكيل تعديله بالمكيال ، ومن الإحاطة ما رواه ابن ماجة عن ابن عمر -رضى الله عنهما- قال : " لم ينقص قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا " .

(220/383)

ولما كان عدم النقص قد يفهم منه التقريب ، أتبعه بما ينفي هذا الاحتمال وللتنبيه على أنه لا يكفي الكف عن تعمد التطفيف ، بل يلزم السعي في الإيفاء ولو بزيادة لا يتأتى بدونها ، ولأن التصريح بالأمر بالشيء بعد النهي عن ضده أوكد ، فقال مستعطفاً لهم بالتذكير بأنه منهم يسوءه ما يسوءهم وبأنهم لما أعطاهم الله من القوة جديرون بأن يعرضوا عن تعاطي سفساف الأخلاق ورذائلها : ﴿ ويا قوم ﴾ أي أيها الذين لهم قوة في القيام فيما ينوبهم ﴿ أوفوا ﴾ أي أتموا إتماماً حسناً ﴿ المكيال والميزان ﴾ أي ، المكيل والموزون وآلتهما ؛ وأكده بقوله : ﴿ بالقسط ﴾ أي العدل السوي ، فصار الوفاء مأموراً به في هاتين الجملتين

مراراً تأكيداً له وحرصاً عليه وإظهاراً لعموم نفعه وشمول بركته ، فزال بالمجموع توهم المجاز على أبلغ وجه ، وقد مضى في الأنعام ويأتي في هذه السورة عند ﴿ غير منقوص ﴾ أن الشيء يطلق مجازاً على ما قاربه ؛ ثم أكده أيضاً بتعميم النهي عن كل نقص بذلك وغيره في جميع الأموال فقال : ﴿ ولا تبخسوا ﴾ أي تنقصوا على وجه الجحد والإهانة ﴿ الناس أشياءهم ﴾ ثم بين أن أفعالهم ثمرة الهجوم عن غير فكر لأنها ليست ناشئة عن شرع فأولها سفه وآخرها فساد فقال : ﴿ ولا تعثوا في الأرض ﴾ أي تتصرفوا وتضطربوا فيها عن غير بصيرة ولا تأمل حال كونكم ﴿ مفسدين ﴾ أي فاعلين ما يكون فساداً في المعنى كما كان فساداً في الصورة ، فهو دعاء إلى تقديم التأمل والتروي على كل فعل وذلك لأن مادة " عثى " بكل ترتيب دائرة على الطلب عن غير بصيرة ، من العيث - للأرض السهلة ، فإنها لسهولتها يغتر بها فيسلكها الغبي بلا دليل فيأتي الخفاء والجهل ، ومنه التعييث - لطلب الأعمى الشيء ؛ والأعثى : الأحمق الثقيل ، واللون إلى السواد ، والكثير الشعر ، ويلزم ذلك اتباع الهوى فيأتي الإفساد والمسارعة فيه ، وذلك هو معنى العثى ؛ قال أئمة اللغة : عثى وعاث : أفسد ، وفي مختصر العين للزبيدي : عثى في الأرض بمعنى

عاث يعيث عيثاً ، وهو الإسراع في الفساد ، فالمعنى على ما قال الجمهور : ولا تفعلوا الفساد عمداً وهو واضح ، وعلى ما قدّرته من أصل المعنى الذي هو للمدار أوضح ، وعلى ما قال الزبيدي : ولا تسرعوا فيه ، فلا يظن أنه يكون الإسراع حينئذ قيداً حتى ينصب النهي إليه ، بل هو إشارة إلى أنه لا يكون الإقدام بلا تأمل إلا كذلك لملاءمته للشهوة - والله أعلم ؛ والوفاء : تمام الحق ؛ والبخس : النقص ، فهو أخص من الظلم لأنه وضع الشيء في غير موضعه .

ولما كان نظرهم بعد الشرك مقصوراً على الأموال ، وكان نهيه عما نهى عنه موجباً لمحقها في زعمهم ، كانوا كأنهم قالوا : إنا إذا اتبعناك فيما قلت فنيت أموالنا أو قلت فتضعضعت أحوالنا ، فلا يبقى لنا شيء ؟ فقال : ﴿ بقيت الله ﴾ أي فضل الملك الأعلى المستجمع لصفات الكمال ، وبركته في أموالكم وجميع أحوالكم وإبقائه عليكم نظره إليكم الموجب لعفوه الذي هو ثمرة اتباع أمره ﴿ خير لكم ﴾ مما تظنونه زيادة بالنقص والظلم ، وذلك أن بقية الشيء ما فضل منه ، وتكون أيضاً بمعنى البقيا ، من أبقى عليه يبقي إبقاء ، واستبقيت فلاناً - إذا عفوت عن ذنبه ، كأن ذلك الذنب أوجب فناء وده أو فناه عندك ، فإذا استبقيته فقد تركت ما كان وجب ، ويقولون : أراك تبقي هذا ببصرك - إذا كان ينظر إليه - قاله الإمام أبو عبد الله القزاز في ديوانه الجامع ، وسيأتي في آخر السورة بيان ما تدور عليه المادة .

ولما كانت خيرية ما يبقيه العدل من الظهور بمحل لا يخفى على ذي لب ، تركها وبين شرطها بقوله : ﴿ إن كنتم ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ مؤمنين ﴾ أي راسخين في الإيمان إشارة إلى أن خيريتها لغير المؤمن مبنية على غير أساس ، فهي غير مجدية إلا في الدنيا ، فهي عدم لسرعة الزوال والنزوح عنها والارتحال ، ودلت الواو العاطفة على غير مذكور أن المعنى : فآمنوا فاعلين ما أمرتكم به لتظفروا بالخير فإنما أنا نذير ﴿ وما أنا ﴾ وقدم ما يتوهمونه من قصده للاستعلاء نافياً له فقال : ﴿ عليكم ﴾ وأعرق في النفي فقال : ﴿ بحفيظ ﴾ أعلم جميع أعمالكم وأحوالكم وأقدر على كفكم عما يكون منها فساداً ؛ وأصل البقية ترك شيء من شيء قد مضى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 563.566 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات: ﴿ إني ﴾ بالفتح ﴿ أريكم ﴾ بالإمالة: أبو جعفر ونافع وأبو عمرو والبزي، وكذلك روى عن أهل مكة. ﴿ إني أخاف ﴾ ﴿ شقاقي أن ﴾ بفتح الياء فيهما: أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ وصلواتك ﴾ كما مر في سورة التوبة في قوله: ﴿ إن صلاتك سكن ﴾ ﴿ التوبة: 103] ﴿ توفيقي ﴾ بالفتح: أبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ونافع ﴿ أرهطي ﴾ بالفتح: أبو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ﴿ بعدت ثمود ﴾ بالإظهار: ابن كثير وأبو جعفر ونافع وخلف ويعقوب وعاصم غير الأعشى.

الوقوف: ﴿ شعيباً ﴾ ط ﴿ غيره ﴾ ط ﴿ محيط ﴾ 5 ﴿ مفسدين ﴾ 5 ﴿ مؤمنين ﴾ ج للابتداء بالنفي مع الواو ﴿ بحفيظ ﴾ 5 ﴿ ما نشاء ﴾ ط ﴿ الرشيد ﴾ 5 ﴿ حسناً ﴾ ط ﴿ عنه ﴾ ط ﴿ ما استطعت ﴾ ط ﴿ إلا الله ﴾ ط ﴿ أنيب ﴾ 5 ﴿ صالح ﴾ ط ﴿ ببعيد ﴾ 5 ﴿ إليه ﴾ ط ﴿ ودود ﴾ 5 ﴿ ضعيفاً ﴾ ج لأن "لولا" للابتداء مع الواو ﴿ لرجمناك ﴾ ز لحق النفي وكون الواو للحال أوجه ﴿ بعزيز ﴾ 5 ﴿ من الله ﴾ ط للفصل بين الاستخبار والاخبار واتحاد المقصود وجه للوصل ﴿ ظهرياً ﴾ ط ﴿ محيط ﴾ 5 ﴿ عامل ﴾ ط ﴿ تعلمون ﴾ 5 لا ﴿ كاذب ﴾ ط للفصل بين الخبر والطلب ﴿ رقيب ﴾ 5 ﴿ جاثمين ﴾ 5 لا ﴿ فيها ﴾ ط ﴿ ثمود ﴾ 5 ﴿ مبين ﴾ 5 لا لتعلق الجار ﴿ فرعون ﴾ ج للنفي مع الواو للعطف أو

للحال ﴿ برشيد ﴾ 5 ﴿ النار ﴾ ط ﴿ المورود ﴾ 5 ﴿ القيامة ﴾ ط ﴿ المرفود ﴾ 5 ﴿ وحصيد ﴾ 5 ﴿ أمر ربك ﴾ ج ﴿ تتبيب ﴾ 5 ﴿ ظالمة ﴾ ط ﴿ شديد ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 43.44 ﴾

(224/383)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

اعلم أن هذه هي القصة السادسة من القصص المذكورة في هذه السورة .

واعلم أن مدين اسم ابن لإبراهيم عليه السلام ، ثم صار اسماً للقبيلة ، وكثير من المفسرين يذهب إلى أن مدين اسم مدينة بناها مدين بن إبراهيم عليه السلام والمعنى على هذا التقدير : وأرسلنا إلى أهل مدين فحذف الأهل .

واعلم أنا بينا أن الأنبياء عليهم السلام يشرعون في أول الأمر بالدعوة إلى التوحيد ، فلهذا قال شعيب عليه السلام : ﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ ثم إنهم بعد الدعوة إلى التوحيد يشرعون في الأهم ثم الأهم ، ولما كان المعتاد من أهل مدين البخس في المكيال والميزان ،

دعاهم إلى ترك هذه العادة فقال : ﴿ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ والنقص فيه على وجهين : أحدهما : أن يكون الإيفاء من قبلهم فينقصون من قدره .

والآخر : أن يكون لهم الاستيفاء فيأخذون أزيد من الواجب وذلك يوجب نقصان حق الغير ، وفي القسمين حصل النقصان في حق الغير .

ثم قال : ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ وفيه وجهان : الأول : أنه حذرهم من غلاء السعر وزوال النعمة إن لم يتوبوا فكأنه قال : اتركوا هذا التطفيف وإلا أزال الله عنكم ما حصل عندكم من الخير والراحة .

والثاني : أن يكون التقدير أنه تعالى أتاكم بالخير الكثير والمال والرخص والسعة فلا حاجة بكم إلى هذا التطفيف .

ثم قال : ﴿ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ وفيه أبحاث :

البحث الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : أخاف أي أعلم حصول عذاب يوم محيط وقال آخرون : بل المراد هو الخوف ، لأنه يجوز أن يتركوا ذلك العمل خشية أن يحصل لهم العذاب ولما كان هذا التخويف قائماً فالحاصل هو الظن لا العلم .

البحث الثاني : أنه تعالى توعدهم بعذاب يحيط بهم بحيث لا يخرج منه أحد ، والمحيط من صفة اليوم في الظاهر ، وفي المعنى من صفة العذاب وذلك مجاز مشهور كقوله : ﴿ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود : 77] .

البحث الثالث : اختلفوا في المراد بهذا العذاب فقال بعضهم : هو عذاب يوم القيامة ، لأنه اليوم الذي نصب لإحاطة العذاب بالمعذبين ، وقال بعضهم : بل يدخل فيه عذاب الدنيا والآخرة وقال بعضهم : بل المراد منه عذاب الاستئصال في الدنيا كما في حق سائر الأنبياء والأقرب دخول كل عذاب فيه وإحاطة العذاب بهم كإحاطة الدائرة بما في داخلها فينالهم من كل وجه وذلك مبالغة في الوعد كقوله : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ [الكهف : 42] ثم قال : ﴿ وياقوم أَوْفُواْ المكيال والميزان بالقسط ﴾ .

فإن قيل : وقع التكرير في هذه الآية من ثلاثة أوجه لأنه قال أولاً ﴿ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان ﴾ ثم قال : ﴿ أَوْفُواْ المكيال والميزان ﴾ وهذا عين الأول .

ثم قال : ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءهُمْ ﴾ وهذا عين ما تقدم فما الفائدة في هذا التكرير ؟

قلنا : إن فيه وجوهاً :

الوجه الأول : أن القوم كانوا مصرين على ذلك العمل فاحتج في المنع منه إلى المبالغة والتأكيد ، والتكرير يفيد التأكيد وشدة العناية والاهتمام .

والوجه الثاني : أن قوله : ﴿ وَلَا تَنقُصُوا۟ المكيال والميزان ﴾ نهي عن التنقيص وقوله : ﴿ أَوْفُوا۟ المكيال والميزان ﴾ أمر بإيفاء العدل ، والنهي عن ضد الشيء مغاير للأمر به ، وليس لقائل أن يقول : النهي عن ضد الشيء أمر به ، فكان التكرير لازماً من هذا الوجه ، لأنا نقول : الجواب من وجهين : الأول : أنه تعالى جمع بين الأمر والشيء ، وبين النهي عن ضده للمبالغة ، كما تقول : صل قرابتك ولا تقطعهم ، فيدل هذا الجمع على غاية التأكيد .

الثاني : أن نقول لا نسلم أن الأمر كما ذكرتم لأنه يجوز أن ينهى عن التنقيص وينهى أيضاً عن أصل المعاملة ، فهو تعالى منع من التنقيص وأمر بإيفاء الحق ، ليدل ذلك على أنه تعالى لم يمنع عن المعاملات ولم ينه عن المبايعات ، وإنما منع من التطفيف ، وذلك لأن طائفة من الناس يقولون إن المبايعات لا تنفك عن التطفيف ومنع الحقوق فكانت المبايعات محرمة بالكلية ، فلأجل إبطال هذا الخيال ، منع تعالى في الآية الأولى من التطفيف وفي الآية الأخرى أمر بالإيفاء ، وأما قوله ثالثاً : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ الناس أَشْيَاءهُمْ ﴾ فليس بتكرير لأنه تعالى خص المنع في الآية السابقة بالنقصان في المكيال والميزان .

ثم إنه تعالى عم الحكم في جميع الأشياء فظهر بهذا البيان أنها غير مكررة ، بل في كل واحد

منها فائدة زائدة .

والوجه الثالث : أنه تعالى قال في الآية الأولى : ﴿ وَلَا تَنقُصُواْ المكيال والميزان ﴾ وفي الثانية قال : ﴿ أَوْفُواْ المكيال والميزان ﴾ والإيفاء عبارة عن الإتيان به على سبيل الكمال والتمام ، لا يحصل ذلك إلا إذا أعطى قدراً زائداً على الحق ، ولهذا المعنى قال الفقهاء : إنه تعالى أمر بغسل الوجه وذلك لا يحصل إلا عند غسل جزء من أجزاء الرأس .

فالحاصل : أنه تعالى في الآية الأولى نهى عن النقصان ، وفي الآية الثانية أمر بإعطاء قدر من الزيادة ولا يحصل الجزم واليقين بأداء الواجب إلا عند أداء ذلك القدر من الزيادة فكأنه تعالى نهى أولاً عن سعي الإنسان في أن يجعل مال غيره ناقصاً لتحصل له تلك الزيادة ، وفي الثاني أمر بالسعي في تنقيص مال نفسه ليخرج باليقين عن العهدة وقوله : ﴿ بالقسط ﴾ يعني بالعدل ومعناه الأمر بإيفاء الحق بحيث يحصل معه اليقين بالخروج عن العهدة فالأمر بإيتاء الزيادة على ذلك غير حاصل .

ثم قال : ﴿ وَلَا تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءهُمْ ﴾ والبخس هو النقص في كل الأشياء ، وقد ذكرنا أن الآية الأولى دلت على المنع من النقص في المكيال والميزان ، وهذه الآية دلت على

المنع من النقص في كل الأشياء .

ثم قال : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِى الأَرضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .

فإن قيل : العثو الفساد التام فقوله : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِى الأَرضِ مُفْسِدِينَ ﴾ جار مجرى أن يقال : ولا تفسدوا في الأرض مفسدين .

قلنا : فيه وجوه : الأول : أن من سعى في إيصال الضرر إلى الغير فقد حمل ذلك الغير على السعي إلى إيصال الضرر إليه فقوله : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِى الأَرضِ مُفْسِدِينَ ﴾ معناه ولا تسعوا في إفساد مصالح الغير فإن ذلك في الحقيقة سعي منكم في إفساد مصالح أنفسكم .

والثاني : أن يكون المراد من قوله : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِى الأَرضِ مُفْسِدِينَ ﴾ مصالح دنياكم وآخرتكم .

والثالث : ولا تعثوا في الأرض مفسدين مصالح الأديان .

ثم قال : ﴿ بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ قرىء تقية الله وهي تقواه ومراقبته التي تصرف عن المعاصي .

ثم نقول المعنى : ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خير من البخس والتطفيف يعني المال الحلال الذي يبقى لكم خير من تلك الزيادة الحاصلة بطريق البخس والتطفيف وقال الحسن : بقية الله أي طاعة الله خير لكم من ذلك القدر القليل ، لأن ثواب الطاعة يبقى أبداً ، وقال قتادة : حظكم من ربكم خير لكم ، وأقول المراد من هذه البقية إما المال الذي يبقى عليه في الدنيا ، وإما ثواب الله ، وأما كونه تعالى راضياً عنه والكل خير من قدر التطفيف ، أما المال الباقي فلأن الناس إذا عرفوا إنساناً بالصدق والأمانة والبعد عن الخيانة اعتمدوا عليه ورجعوا في كل المعاملات إليه فيفتح عليه باب الرزق ، وإذا عرفوه بالخيانة والمكر انصرفوا عنه ولم يخالطوه ألبتة فتضيق أبواب الرزق عليه ، وأما إن حملنا هذه البقية على الثواب فالأمر ظاهر ، لأن كل الدنيا تفنى وتنقرض وثواب الله باق ، وأما إن حملناه على حصول رضا الله تعالى فالأمر فيه ظاهر ، فثبت بهذا البرهان أن بقية الله خير .

ثم قال : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وإنما شرط الإيمان في كونه خيراً لهم لأنهم إن كانوا مؤمنين مقرين بالثواب والعقاب عرفوا أن السعي في تحصيل الثواب وفي الحذر من العقاب خير لهم من السعي في تحصيل ذلك القليل .

واعلم أن المعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط ، فهذه الآية تدل بظاهرها على أن من لم يحترز عن هذا التطفيف فإنه لا يكون مؤمناً .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ وفيه وجهان : الأول : أن يكون المعنى : إني نصحتكم وأرشدتكم إلى الخير ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ أي لا قدرة لي على منعكم عن هذا العمل القبيح .

(229/383)

الثاني : أنه قد أشار فيما تقدم إلى أن الاشتغال بالبخس والتطفيف يوجب زوال نعمة الله تعالى فقال : ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ يعني لو لم تتركوا هذا العمل القبيح لزالت نعم الله عنكم وأنا لا أقدر على حفظها عليكم في تلك الحالة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 33.35 ﴾

(230/383)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وإلى مَدِين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبُدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾

ومدين هم قوم شعيب ، وفي تسميتهم بذلك قولان :

أحدهما : لأنهم بنو مدين بن إبراهيم ، فقيل مدين والمراد بنو مدين ، كما يقال مضر والمراد بنو مضر .

الثاني : أن مدين اسم مدينتهم فنسبوا إليها ثم اقتصر على اسم المدينة تخفيفاً .

ثم فيه وجهان :

أحدهما : أنه اسم أعجمي .

الثاني : أنه اسم عربي وفي اشتقاقه وجهان :

أحدهما : أنه من قولهم مدن بالمكان إذا أقام فيه ، والياء زائدة ، وهذا قول من زعم أنه اسم مدينة .

الثاني : أنه مشتق من قولهم دَيَنْت أي ملكت والميم زائدة ، وهذا قول من زعم أنه اسم رجل . وأما شعيب فتصغير شعب وفيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه الطريق في الجبل .

الثاني : أنه القبيلة العظيمة .

الثالث : أنه مأخوذ من شَعْب الإناء المكسور .

﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴾ كانوا مع كفرهم أهل بخس وتطفيف فأمروا بالإيمان إقلاعاً عن الشرك ، وبالوفاء نهياً عن التطفيف .

﴿ إني أراكم بخير ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أنه رخص السعر ، قاله ابن عباس والحسن . الثاني : أنه المال وزينة الدنيا ، قال

قتادة وابن زيد . ويحتمل تأويلاً ثالثاً : أنه الخصب والكسب .

﴿ إني أخافُ عليكم عذاب يومٍ محيط ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : غلاء السعر ، وهو مقتضى قول ابن عباس والحسن . الثاني : عذاب الاستصال في الدنيا .

الثالث : عذاب النار بالآخرة .

قوله عز وجل : ﴿ بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾

فيها ستة أقاويل :

أحدها : يعني طاعة الله تعالى خير لكم ، قاله مجاهد .

الثاني : وصية من الله ، قاله الربيع .

الثالث : رحمة الله ، قاله ابن زيد .

الرابع : حظكم من ربكم خير لكم ، قاله قتادة .

الخامس : رزق الله خير لكم ، قاله ابن عباس .

السادس : ما أبقاه الله لكم بعد أن توفوا الناس حقوقهم بالمكيال والميزان خير لكم ، قاله ابن جرير الطبري .

﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾

يحتمل ثلاثة أوجه : أحدها : حفيظ من عذاب الله تعالى أن ينالكم .

الثاني : حفيظ لنعم الله تعالى أن تزول عنكم .

الثالث : حفيظ من البخس والتطفيف إن لم تطيعوا فيه ربكم . انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(232/383)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾

التقدير : ﴿ وإلى مدين ﴾ أرسلنا ﴿ أخاهم شعيباً ﴾ ، واختلف في لفظة ﴿ مدين ﴾ فقيل : هي بقعة ، فالتقدير على هذا : وإلى أهل مدين - كما قال : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يونس : 42] - وقيل كان هذا القطر في ناحية الشام ، وقيل ﴿ مدين ﴾ اسم رجل كانت القبيلة من ولده فسميت باسمه ، و﴿ مدين ﴾ لا ينصرف في الوجهين ، حكى النقاش أن ﴿ مدين ﴾ هو ولد إبراهيم الخليل لصلبه .

قال القاضي أبو محمد : وهذا بعيد وقد قيل : إن ﴿ شعيباً ﴾ عربي ، فكيف يجتمع هذا وليس للعرب اتصال بإبراهيم إلا من جهة إسماعيل فقط ، ودعاء " شعيب " إلى " عبادة الله " يقتضي أنهم كانوا يعبدون الأوثان ، وذلك بين من قولهم فيما بعد ، وكفرهم هو الذي استوجبوا به العذاب لا معاصيهم ، فإن الله لم يعذب قط أمة إلا بالكفر ، فإن انضافت إلى ذلك معصية كانت تابعة ، وأعني بالعذاب عذاب الاستئصال العام ، وكانت معصية هذه الأمة الشنيعة أنهم كانوا تواطأوا أن يأخذوا ممن يرد عليهم من غيرهم وافياً ويعطوا ناقصاً في وزنهم وكيلهم ، فنهاهم شعيب بوحي الله تعالى عن ذلك ، ويظهر من كتاب الزجاج أنهم كانوا تراضوا بينهم بأن يبخس بعضهم بعضاً .

وقوله ﴿ بخير ﴾ قال ابن عباس : معناه في رخص من الأسعار ، و ﴿ عذاب اليوم المحيط ﴾ هو حلول الغلاء المهلك . وينظر هذا التأويل إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : " ما نقص قوم المكيال والميزان إلا ارتفع عنهم الرزق " وقيل لهم قوله : ﴿ بخير ﴾ عام في جميع نعم الله تعالى ، و ﴿ عذاب اليوم ﴾ هو الهلاك الذي حل بهم في آخر ، وجميع ما قيل في لفظ " خير " منحصر فيما قلناه .

ووصف " اليوم " ب " الإحاطة " وهي من صفة العذاب على جهة التجوز إذ كان العذاب في اليوم : وقد يصح أن يوصف " اليوم " ب " الإحاطة " على تقدير : محيط شره . ونحو هذا .

وكرر عليهم الوصية في " الكيل والوزن " تأكيداً وبياناً وعظة لأن ﴿ لا تنقصوا ﴾ هو ﴿ أوفوا ﴾ بعينه . لكنهما منحيان إلى معنى واحد .

قال القاضي أبو محمد : وحدثني أبي رضي الله عنه ، أنه سمع أبا الفضل بن الجوهري على المنبر بمصر يعظ الناس في الكيل والوزن فقال : اعتبروا في أن الإنسان إذا رفع يده بالميزان فامتدت أصابعه الثلاث والتقى الإبهام والسبابة على ناصية الميزان جاء من شكل أصابعه صورة المكتوبة فكأن الميزان يقول : الله الله .

قال القاضي أبو محمد : وهذا وعظ مليح مذكر . و﴿ القسط ﴾ العدل ونحوه ، و" البخس " النقصان ، و﴿ تعثوا ﴾ معناه : تسعون في فساد ، وكرر ﴿ مفسدين ﴾ على جهة التأكيد ، يقال عثا يعثو أو عثى يعثي ، وعث يعث ، وعاث يعيث - إذا أفسد ونحوه من المعنى ، العثة : الدودة التي تفسد ثياب الصوف .

وقوله : ﴿ بقيت الله ﴾ قال ابن عباس معناه الذي يبقي الله لكم من أموالكم بعد توفيتكم الكيل والوزن حير لكم مما تستكثرون أنتم به على غير وجهه .

قال القاضي أبو محمد : وهذا تفسير يليق بلفظ الآية وقال مجاهد : معناه طاعة الله ، وقال

ابن عباس – أيضاً – معناه رزق الله ، وهذا كله لا يعطيه لفظ الآية ، وإنما المعنى عندي – إبقاء الله عليكم إن أطعتم . وقرأ إسماعيل بن جعفر عن أهل المدينة بتخفيف الياء وهي لغة .

وقوله : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ شرط في أن تكون البقية خيراً لهم ، وأما مع الكفر فلا خير لهم في شيء من الأعمال ، وجواب هذا الشرط ، متقدم ، و" الحفيظ " المراقب الذي يحفظ أحوال من يرقب ، والمعنى : إنما أنا مبلغ والحفيظ المحاسب هو الذي يجازيكم بالأعمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾

أي وأرسلنا إلى مدين ، ومدين هم قوم شعيب .

وفي تسميتهم بذلك قولان : أحدهما أنهم بنو مدين بن إبراهيم ؛ فقيل : مدين والمراد بنو مدين .

كما يقال مُضَر والمراد بنو مُضَر .

الثاني أنه اسم مدينتهم ، فنسبوا إليها .

قال النحاس : لا ينصرف مدين لأنه اسم مدينة ؛ وقد تقدّم في "الأعراف" هذا المعنى وزيادة .

﴿ قَالَ يا قوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ تقدّم .

﴿ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان ﴾ كانوا مع كفرهم أهل بخس وتطفيف ؛ كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد ، واستوفوا بغاية ما يَقدِرون (عليه) وظلموا ؛ وإن جاءهم مشترٍ للطعام باعوه بكيل ناقص ، وشحّحوا له بغاية ما يقدِرون ؛ فأمروا بالإيمان إقلاعاً عن الشرك ، وبالوفاء نهياً عن التطفيف .

﴿ إني أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ أي في سَعة من الرزق ، وكثرة من النِّعم .

وقال الحسن : كان سعرهم رخيصاً .

﴿ وإني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ وصف اليوم بالإحاطة ، وأراد وصف ذلك اليوم بالإحاطة بهم ؛ فإن يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاط العذاب بهم ، وهو كقولك : يوم شديد ؛ أي شديد حرّه .

واختلف في ذلك العذاب ؛ فقيل : هو عذاب النار في الآخرة .

وقيل : عذاب الاستئصال في الدنيا .

وقيل : غلاء السعر ؛ روي معناه عن ابن عباس .

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ما أظهر قوم البخس في المكيال والميزان إلا ابتلاهم الله بالقحط والغلاء " وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ ويا قوم أَوْفُواْ المكيال والميزان بالقسط ﴾ أمر بالإيفاء بعد أن نهى عن التطفيف تأكيداً .

والإيفاء الإتمام .

"بالقسطِ" أي بالعدل والحق ، والمقصود أن يصل كل ذي نصيب إلى نصيبه ؛ وليس يريد إيفاء المكيل والموزون لأنه لم يقل : أوفوا بالمكيال وبالميزان ؛ بل أراد ألا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود ، وكذا الصنجات .

(235/383)

﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَآءَهُمْ ﴾ أي لا تنقصوهم مما استحقوه شيئًا .

﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ بيّن أن الخيانة في المكيال والميزان مبالغة في الفساد في الأرض ، وقد مضى في "الأعراف" زيادة لهذا ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ بَقِيَّةُ الله خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي ما يبقيه الله لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر بركة ، وأحمد عاقبة مما تبقونه أنتم لأنفسكم من فضل التطفيف بالتجبّر والظلم ؛ قال معناه

الطبريّ وغيره .

وقال مجاهد : ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يريد طاعته .

وقال الرّبيع : وصية الله .

وقال الفرّاء : مراقبة الله .

ابن زيد : رحمة الله .

قتادة والحسن : حظكم من ربكم خير لكم .

وقال ابن عباس : رزق الله خير لكم .

﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ شرط هذا لأنهم إنما يعرفون صحة هذا إن كانوا مؤمنين .

وقيل : يحتمل أنهم كانوا يعترفون بأن الله خالقهم فخاطبهم بهذا .

﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ أي رقيب أرقبكم عند كيلكم ووزنكم ؛ أي لا يمكنني شهود كل معاملة تصدر منكم حتى أؤاخذكم بإيفاء الحق .

وقيل : أي لا يتهيأ لي أن أحفظكم من إزالة نعم الله عليكم بمعاصيكم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وإلى مدين ﴾

(237/383)

يعني وأرسلنا إلى مدين ﴿ أخاهم شعيباً ﴾ مدين اسم لابن إبراهيم الخليل عليه السلام ثم صار إسماً للقبيلة من أولاده وقيل هو اسم مدينة بناها مدين بن إبراهيم فعلى هذا يكون التقدير وأرسلنا إلى أهل مدين فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ يعني وحِّدوا الله ولا تعبدوا معه غيره كانت عادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يبدؤون بالأهم فالأهم ولما كانت الدعوة إلى توحيد الله وعبادته أهم الأشياء قال شعيب إعبدوا الله ما لكم من إله غيره ثم بعد الدعوة إلى التوحيد شرع فيما هم فيه ولما كان المعتاد من أهل مدين البخس في الكيل والوزن دعاهم إلى ترك هذه العادة القبيحة وهي تطفيف الكيل والوزن فقال ﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴾ النقص في الكيل والوزن على وجهين أحدهما : أن يكون الاستنقاص من قبلهم فيكيلون ويزنون للغير ناقصاً ، والوجه الآخر : هو استيفاء الكيل والوزن لأنفسهم زائداً عن حقهم فيكون نقصاً في مال الغير وكلا الوجهين مذموم فلهذا نهاهم شعيب عن ذلك بقوله ولا تنقصوا المكيال

والميزان ﴿ إني أراكم بخير ﴾ قال ابن عباس: كانوا موسرين في نعمة وقال مجاهد: كانوا في خصب وسعة فحذرهم زوال تلك النعمة وغلاء السعر وحصول النقمة إن لم يتوبوا ولم يؤمنوا وهو قوله: ﴿ وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ يعني: يحيط بكم فيهلككم جميعاً وهو عذاب الاستئصال في الدنيا أو حذرهم عذاب الآخرة ومنه قوله سبحانه وتعالى وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴿ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان ﴾ أي أتموهما ولا تطففوا فيهما ﴿ بالقسط ﴾ أي بالعدل، وقيل: بتقويم لسان الميزان وتعديل المكيال ﴿ ولا تبخسوا الناس ﴾ أي: ولا تنقصوا الناس ﴿ أشياءهم ﴾ يعني أموالهم فإن قلت قد وقع التكرار في هذه القصة من ثلاثة أوجه لأنه قال ولا تنقصوا المكيال والميزان، ثم قال: أوفوا المكيال والميزان وهذا عين الأول ثم قال ولا تبسخوا الناس

أشياءهم وهذا عين ما تقدم فما الفائدة في هذا التكرار.

قلت: إن القوم لما كانوا مصرين على ذلك العمل القبيح وهو تطفيف الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم احتيج في المنع إلى المبالغة في التأكيد والتكرير يفيد شدة الاهتمام والعناية بالتأكيد فلهذا كرر ذلك ليقوي الزجر والمنع من ذلك الفعل لأن قوله ولا تنقصوا المكيال

والميزان نهى عن التنقيص وقوله أوفوا المكيال والميزان أمر بإيفاء العدل وهذا غير الأول ومغاير له ولقائل أن يقول النهي ضد الأمر فالتكرار لازم على هذا الوجه قلنا الجواب عن هذا قد يجوز أن ينهى عن التنقيص ولا يأمر بإيفاء الكيل والوزن فلهذا جمع بينهما فهو كقولك صل رحمك ولا تقطعها فتريد المبالغة في الأمر والنهي وأما قوله ثانياً ولا تبخسوا الناس أشياءهم فليس بتكرير أيضاً لأنه سبحانه وتعالى لما خصص النهي عن التنقيص والأمر بإيفاء الحق في الكيل والوزن عمم الحكم في جميع الأشياء التي يجب إيفاء الحق فيها فيدخل فيه الكيل والوزن وغير ذلك فظهر بهذا البيان فائدة التكرار والله أعلم ؟ وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ يعني بتنقيص الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم .

﴿ بقيت الله خير لكم ﴾

قال ابن عباس يعني ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خير لكم مما تأخذونه بالتطفيف وقال مجاهد بقية الله يعني طاعة الله خير لكم وقيل بقية الله يعني ما أبقاه لكم من الثواب في الآخرة خير لكم مما يحصل لكم في الدنيا من المال الحرام ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ يعني مصدقين بما قلت لكم وأمرتكم به ونهيتكم عنه ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ يعني أحفظ أعمالكم قال بعضهم إنما قال لهم شعيب ذلك لأنه لم يؤمر بقتالهم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾

كان قوم شعيب عبدة أوثان ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده .

وبالكفر استوجبوا العذاب ، ولم يعذب الله أمة عذاب استئصال إلا بالكفر ، وإن انضافت إلى ذلك معصية كانت تابعة .

قال ابن عباس : بخير أي : في رخص الأسعار وعذاب اليوم المحيط ، هو حلول الغلاء المهلك .

وينظر هذا التأويل إلى قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : " ما نقص قوم المكيال والميزان إلا ارتفع عنهم الرزق " ونبه بقوله بخير على العلة المقتضية للوفاء لا للنقص .

وقال غيره : بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف ، أو بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون ، أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه .

يوم محيط أي : مهلك من قوله : ﴿ وأحيط بثمره ﴾ وأصله من إحاطة العدو ، وهو العذاب الذي حل بهم في آخره .

ووصف اليوم بالإحاطة أبلغ من وصف العذاب به ، لأن اليوم زمان يشتمل على الحوادث ، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه ، كما إذا أحاط بنعيمه .

ونهوا أولاً : عن القبيح الذي كانوا يتعاطونه وهو نقص المكيال والميزان ، وفي التصريح بالنهي نعي على المنهى وتعيير له .

وأمروا ثانياً : بإيفائهما مصرحاً بلفظهما ترغيباً في الإيفاء ، وبعثاً عليه .

وجيء بالقسط ليكون الإيفاء على جهة العدل والتسوية وهو الواجب ، لأنّ ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب إليه .

ونهوا ثالثاً : عن نقص الناس أشياءهم ، وهو عام في الناس ، وفيما بأيديهم من الأشياء كانت مما تكال وتوزن أو غير ذلك .

ونهوا رابعاً : عن الفساد في الأرض وهو أعم من أن يكون نقصاً أو غيره ، فبدأهم أولاً بالمعصية الشنيعة التي كانوا عليها بعد الأمر بعبادة الله ، ثم ارتقى إلى عام ، ثم إلى أعم منه وذلك مبالغة في النصح لهم ولطف في استدراجهم إلى طاعة الله .

وتفسير معاني هذه الجمل سبق في الأعراف .

بقية الله قال ابن عباس : ما أبقى الله لكم من الحلال بعد الإيفاء خير من البخس ، وعنه رزق الله .

وقال مجاهد والزجاج : طاعة الله .

وقال قتادة : حظكم من الله .

وقال ابن زيد : رحمة الله .

وقال قتادة : ذخيرة الله .

وقال الربيع : وصية الله .

وقال مقاتل : ثواب الله في الآخرة ، وذكر الفراء : مراقبة الله .

وقال الحسن : فرائض الله .

وقيل : ما أبقاه الله حلالاً لكم ولم يحرمه عليكم .

قال ابن عطية : وهذا كله لا يعطيه لفظ الآية ، وإنما المعنى عندي إبقاء الله عليكم إن أطعتم .

وقوله : إن كنتم مؤمنين ، شرط في أن يكون البقية خيراً لهم ، وأما من الكفر فلا خير لهم في شيء من الأعمال .

وجواب هذا الشرط متقدم .

والحفيظ المراقب الذي يحفظ أحوال من يرقب ، والمعنى : إنما أنا مبلغ ، والحفيظ المحاسب

هو الذي يجازيكم بالأعمال انتهى .

وليس جواب الشرط متقدماً كما ذكر ، وإنما الجواب محذوف لدلالة ما تقدم عليه على مذهب جمهور البصريين .

وقال الزمخشري : وإنما خوطبوا بترك التطفيف والبخس والفساد في الأرض وهم كفرة بشرط الإيمان ، ويجوز أن يريد ما يبقى لهم عند الله من الطاعات كقوله : ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً ﴾ وإضافة البقية إلى الله من حيث أنها رزقه الذي يجوز أن يضاف إليه ، وأما الحرام فلا يجوز أن يضاف إلى الله ، ولا يسمى رزقاً انتهى ، على طريق المعتزلة في الرزق ، وقرأ إسماعيل بن جعفر عن أهل المدينة : بقية بتخفيف الياء .

قال ابن عطية : هي لغة انتهى .

وذلك أن قياس فعل اللازم أن يكون على وزن فعل نحو : سجيت المرأة فهي سجية ، فإذا شددت الياء كان على وزن فعيل للمبالغة .

وقرأ الحسن : تقية بالتاء ، وهي تقواه ومراقبته الصارفة عن المعاصي . انتهى انتهى . اهـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ ﴾

أي أولاد مدينَ بن إبراهيم عليه السلام أو جعل اسماً للقبيلة بالغلبة أو أهلِ مدينَ وهو بلدٌ بناه مدينُ فسُمّي باسمه ﴿ أخاهم ﴾ أي نسيبهم ﴿ شُعَيْبًا ﴾ وهو ابن ميكيلَ بنِ يشجُرَ بنِ مدينَ وكان يقال له خطيبُ الأنبياءِ لحسن مراجعتِه قومَه ، والجملةُ معطوفةٌ على قوله تعالى : ﴿ إلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحا ﴾ أي وأرسلنا إلى مدينَ أخاهم شعيباً ﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ وقع جواباً عن سؤال نشأ عن صدر الكلام فكأنه قيل : فماذا قال لهم ؟ فقيل : قال كما قال مَنْ قبله من الرسل عليهم السلام ﴿ يَا قَومِ اعبدوا الله ﴾ وحده ولا تشركوا به شيئاً ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ تحقيقٌ للتوحيد وتعليلٌ للأمر به وبعد ما أمرهم بما هو مَلاكُ أمر الدينِ وأولُ ما يجب على المكلّفين نهاهم عن ترتيب مبادىءِ ما اعتادوه من البَخْس والتطفيف عادةً مستمرةً فقال : ﴿ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان ﴾ كي تتوسلوا بذلك إلى بخس حقوقِ الناس ﴿ إِنّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ أي ملتبسين بثروة واسعةٍ تُغنيكم عن ذلك أو بنعمة من الله تعالى حقها أن تقابل بغير ما تأتونه من المسامحة والتفضل على الناس شكراً عليها أو أراكم بخير فلا تُزيلوه بما أنتم عليه من الشر على كل حال ، علةٌ للنهي عُقّبت بعلة أخرى أعني قولَه عز وجل : ﴿ وَإِنّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ إن لم تنتهوا عن ذلك ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ لا يشِذّ منه شاذٌّ منكم ، وقيل : عذابَ يومٍ مُهلك من قوله تعالى : ﴿

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ وأصلُه من إحاطة العدو ، والمرادُ عذابُ يومِ القيامة أو عذابُ الاستئصالِ ، ووصفُ اليومِ بالإحاطة وهي حالُ العذاب على الإسناد المجازيِّ وفيه من المبالغة ما لا يخفى ، فإن اليومَ زمانٌ يشتمل على ما وقع فيه من الحوادث فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذَّب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه ، ويجوز أن يكون هذا تعليلاً للأمر والنهي جميعاً ﴿ ويا قوم أَوْفُوا

(242/383)

المكيال والميزان بالقسط ﴾ أي بالعدل من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ فإن الزيادةَ في الكيل والوزنِ وإن كان تفضلاً مندوباً إليه لكنها في الآلة محظورةٌ كالنقص ، فلعل الزائدَ للاستعمال عند الاكتيالِ والناقصَ للاستعمال وقت الكيل ، وإنما أُمر بتسويتهما وتعديلهما صريحاً بعد النهي عن نقصهما مبالغةً في الحمل على الإيفاء والمنعِ من البخس وتنبيهاً على أنه لا يكفيهم مجردُ الكفّ عن النقص والبخس بل يجب عليهم إصلاحُ ما أفسدوه وجعلوه معياراً لظلمهم وقانوناً لعدوانهم ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس ﴾ بسبب نقصِهما وعدمِ اعتدالِهما ﴿ أَشْيَاءهُمْ ﴾ التي يشترونها بهما ، وقد صرّح بالنهي عن البخس بعد ما عُلم ذلك في ضمن النهي عن نقص المعيار والأمرِ بإيفائه اهتماماً بشأنه وترغيباً في إيفاء الحقوقِ بعد الترهيبِ والزجر

عن نقصها ، ويجوز أن يكون المرادُ بالأمر بإيفاء المكيالِ والميزان الأمرَ بإيفاء المَكيلاتِ والموزوناتِ ، ويكونُ النهيُ عن البخس عاماً للنقص في المقدار وغيره تعميماً بعد التخصيص كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ فإن العَثَى يعم نقصَ الحقوقِ وغيرَه من أنواع الفسادِ ، وقيل : البخسُ المكسُ كأخذ العشورِ في المعاملات . قال زهير بن أبي سلمى :

أفي كل أسواقِ العراقِ إتاوة . . . وفي كل ما باع امرؤٌ مَكْسُ دِرهمِ

والعثى في الأرض السرقةُ وقطعُ الطريق والغارةُ ، وفائدةُ الحال إخراجُ ما يُقصد به الإصلاحُ كما فعله الخضرُ عليه السلام من خرق السفينةِ وقتلِ الغلام ، وقيل : معناه ولا تعثَوا في الأرض مفسدين أمرَ آخرتكم ومصالحَ دينكم .

﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ ﴾

(243/383)

أي ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزّة عن تعاطي المحرمات ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ مما تجمعون بالبخس والتطفيفِ فإن ذلك هباءٌ منثور بل شرٌّ محض وإن زعمتم أن فيه خيراً كقوله تعالى : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الربا وَيُرْبِى الصدقات ﴾ ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بشرط أن تؤمنوا فإن

خيريّتَها باستتباع الثواب مع النجاة ، وذلك مشروطٌ بالإيمان لا محالة أو إن كنتم مصدقين لي في مقالتي لكم ، وقيل : الطاعات كقوله عز وجل : ﴿ والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبّكَ ﴾ وقرىء تقيةُ الله بالفوقانية وهي تقواه عن المعاصي ﴿ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أحفظكم من القبائح أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم وإنما أنا ناصحٌ مبلِّغٌ وقد أعذرتُ إذ أنذرتُ ولم آلُ في ذلك جهداً أو ما أنا بحافظ ومستبْقٍ عليكم نِعمَ الله تعالى إن لم تتركوا ما أنتم عليه من سوء الصنيع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(244/383)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ ﴾

أي أولاد مدين بن إبراهيم عليه السلام فحذف المضاف أو جعل اسماً بالغلبة للقبيلة وكثيراً ما تسمى القبيلة باسم أبيهم كمضر .

وتميم ولعل هذا أولى ، وجوز أن يراد بمدين المدنية التي بناها مدين فسميت به فيقدر حينئذ مضاف أي وإلى أهل مدين ﴿ أخاهم ﴾ نسيبهم ﴿ شُعَيْبًا ﴾ قد مر ما قيل في نسبه عليه السلام ، والجملة معطوفة على قوله سبحانه : ﴿ وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحا ﴾

[هود : 61] أي وأرسلنا إلى مدين شعيباً .

﴿ قَالَ يا قوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ أمر بالتوحيد على وجه أكيد ولما كان ملاك الأمر قدمه على النهي عما اعتادوه من البخس المنافي للعدل المخل بحكمة التعاوض ، وإيصال الحقوق لأصحابها بقوله : ﴿ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان ﴾ قيل : أي لا تنقصوا الناس من المكيال والميزات يعني مما يكال ويوزن على ذكر المحل وإرادة الحال ، واستظهر أن المراد لا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود وكذا الصنجات ، وقد تقدم في الاعراف ﴿ الكيل ﴾ [الأعراف : 85] بدل ﴿ المكيال ﴾ فتذكر وتأمل ﴿ إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ أي ملتبسين بثروة واسعة تغنيكم عن ذلك أو بنعمة من الله تعالى حقها أن تقابل بغير ما أنتم عليه بأن تتفضلوا على الناس شكراً عليها ، فإن أجل شكر النعم الإحسان والتفضل على عباد الله تعالى ، أو أراكم بخير وغنى فلا تزيلوه بما تأتونه من الشر ، وعلى كل حال الجملة في موضع التعليل للنهي ؛ وعقب بعلة أخرى أعني قوله تعالى :

﴿ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ إن لم تنتهوا عن ذلك ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ وجوز أن يكون تعليلاً للأمر والنهي جميعاً ، وفسر المحيط بما لا يشذ منه أحد منهم ، وفسره الزمخشري ،

بالمهلك أخذاً من قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ [الكهف : 42] وأصله من إحاطة العدو ، وادعى أن وصف اليوم بالإحاطة أبلغ من وصف العذاب لأن اليوم زمان يشتمل على الحوادث فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه يعني أن اليوم لما كان زماناً مشتملاً على الحوادث الكائنة فيه عذاباً أو غيره فإذا أحاط بالمعذب ملتبساً بعذابه لأنه حادثة فقد اجتمع للمعذب الأمر الذي يشتمل عليه اليوم وهو العذاب كما إذا أحاط ملتبساً بنعيمه .

والحاصل أن إحاطة اليوم تدل على إحاطة كل ما فيه من العذاب ، وأما إحاطة العذاب على قوم فقد يكون بأن يصيب كل فرد منهم فرداً من أفراد العذاب ، وأما فيما نحن فيه فيدل على إحاطة أنواع العذاب المشتمل عليها اليوم بكل فرد ، ولا شك في أبلغية هذا كذا في الكشف وتمام الكلام فيه ، وقال بعض المحققين في بيان الأبلغية : إن اليوم زمان لجميع الحوادث فيوم العذاب زمان جميع أنواع العذاب الواقعة فيه فإذا كان محيطاً بالمعذب فقد اجتمع أنواع العذاب له ، وهذا كقوله

: إن المروءة والسماحة والندى . . .

في قبة ضربت على ابن الحشرج

فإن وقوع العذاب في اليوم كوجود الأوصاف في القبة ، وجعل اليوم محيطاً بالمعذب كضب القبة على الممدوح فكما أن هذا كناية عن ثبوت تلك الأوصاف له كذلك ذاك كناية عن ثبوت أنواع العذاب للمعذب ، وأما وصف العذاب بالإحاطة ففيه استعارة إحاطته لاشتماله على المعذب فكما أن المحيط لا يفوته شيء من أجزاء المحاط لا يفوت العذاب شيء من أجزاء المعذب ، وهذه الاستعارة تفيد أن العذاب لكل المعذب ؛ وتلك الكناية تفيد أن كل العذاب له ، ولا يخفى ما بينهما من التفاوت في الأبلغية ، وجوز أن يكون ﴿ مُحِيطٌ ﴾ نعتاً لعذاب وجر للجوار ، وقيل : هو نعت ليوم جار على غير من هو له ، والتقدير عذاب يوم محيط عذابه وليس بشيء كما لا يخفى ، وأياً مّا كان فالمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال في الدنيا ، وأخرج ابن جرير .

وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه فسر الخير برخص السعر .

والعذاب بغلائه .

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾

أي أتموهما ، وفائدة التصريح بذلك مع أن الانتهاء المطلوب من النهي السابق لا يتحقق بدون الاتمام فيكون مطلوباً تبعاً ، وهذا مسلم على المذاهب جعل النهي عن الشيء عين الأمر بالضد أو مستلزماً له تضمناً أو التزاماً لأن الخلاف في مقتضى اللفظ لا أن التحريم أو الوجوب ينفك عن مقابلة الضد غير واحدة النعي بما كانوا عليه من القبيح وهو النقص مبالغة في الكف ، ثم الأمر بالصد مبالغة في الترغيب وإشعاراً بأنه مطلوب أصالة وتبعاً مع الأشعار بتبعية الكف عكسا ، وتقييده بقوله سبحانه : ﴿ بالقسط ﴾ أي بالعدل من غير زيادة ولا نقصان ، ثم إدماج أن المطلوب من الاتمام العدل ، ولهذا قد يكون الفضل محرماً كما في الربويات ، وإلى هذا يشير كلام الزمخشري ، وظاهره حمل المكيال والميزان على ما يكال ويوزن ، وحملهما بعضهم في الموضعين على الآلتين المعروفتين ، وفسر القسط بما ذكرنا ثم قال : إن الزيادة في الكيل والوزن وإن كانت تفضلاً مندوباً إليه لكنها في الآلة محظورة كالنقص .

فلعل الزائد للاستعمال عن الأكتيال والناقص للاستعمال عند الكيل .

وفائدة الأمر بتسوية الآلتين وتعديلهما بعد النهي عن نقصهما المبالغة في الحمل على الإيفاء والمنع والبخس ، والتنبيه على أنه لا يكفيهم مجرد الكف عن النقص والبخس بل يجب عليهم إصلاح ما أفسدوه وجعلوه معياراً لظلمهم وقانوناً لعدوانهم ، وفيه حمل اللفظ على المتبادر منه ، فإن الحمل على المعنى الآخر مجاز كما أشرنا إليه ، وادعى الفاضل الجلبي أن

هذا الأمر بعد النهي السابق ليس من باب التكرار في شيء ، فقال : إن النهي قد كان عن نقص حجم المكيال وصنجات الميزان ، والأمر بإيفاء المكيال والميزان حقهما بأن لا ينقص في الكيل والوزن ، وهذا الأمر بعد مساواة المكيال والميزات للمعهود فلا تكرار كيف ولو كان تكريراً للتأكيد والمبالغة لم يكن موضع الواو لكمال الاتصال بين الجملتين انتهى .

وتعقب بأن حمل هذين اللفظين وقد تكررا في أحد الموضعين على أحد معنيين متغايرين خلاف الظاهر ، وأن في التكرار من الفوائد ما جعله أقوى من التأسيس فلا ينبغي الهرب منه ، وأما العطف فلأن اختلاف المقاصد في ذينك المتعاطفين جعلهما كالمتغايرين فحسن لذلك ، وقد صرح به أهل المعاني في قوله سبحانه : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العذاب وَيُذَبّحُونَ أَبْنَاءكُمْ ﴾ [إبراهيم : 6] انتهى .

وفي ورود ما تعقب به أولاً تأمل فتأمل ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءهُمْ ﴾ يحتمل أن يكون تعميماً بعد تخصيص فإنه يشمل الجودة والرداءة وغير المكيل والموزون أيضاً فهو تذييل وتتميم لما تقدم ، وكذا قوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ فإن العثى يعم تنقيص الحقوق وغيره لأنه عبارة عن مطلق الفساد ، وفعله من باب

رمي .

وسعي .

ورضى ، وجاء واوياً .

ويائياً ، ويحتمل أن يكون نهياً عن بخس المكيل والموزون بعد النهي عن نقص المعيار والأمر بإيفائه أي لا تنقصوا الناس بسبب نقص المكيال والميزان وعدم اعتدالهما أشياءهم التي يشترونها بهما ، والتصريح بهذا النهي بعد ما علم في ضمن النهي ، والأمرين السابقين للاهتمام بشأنه والترغيب في إيفاء الحقوق بعد الترهيب والزجر عن نقصها ، وإلى كل من الاحتمالين ذهب بعض ، وهو مبني على ما علمت من الاختلاف السابق في تفسير ما سبق ، وقيل : المراد بالبخس المكس كأخذ العشور على نحو ما يفعل اليوم ، والعثى السرقة وقطع الطريق والغارة ، و﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ حال من ضمير ﴿ تَعْثَوْا ﴾ ، وفائدة ذلك إخراج ما يقصد به الإصلاح كما فعل الخضر عليه السلام من قتل الغلام .

وخرق السفينة فهو حال مؤسسة ، وقيل : ليس الفائدة الاخراج المذكور فإن المعنى لا تعثوا في الأرض بتنقيص الحقوق مثلاً مفسدين مصالح دينكم وأمر آخرتكم ومآل ذلك على

ما قيل : إلى تعليل النهي كأنه قيل : لا تفسدوا في الأرض فإنه مفسد لدينكم وآخرتكم .

﴿ بَقِيَّتُ اللهِ ﴾ قال ابن عباس : أي ما أبقاه سبحانه من الحلال بعد الإيفاء ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ مما تجمعون بالبخس .

فإن ذلك هباء منثور بل هو شر محض وإن زعمتم أنه خير ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي بشرط أن تؤمنوا إذ مع الكفر لا خير في شيء أصلاً ، أو إن كنتم مصدقين بي في مقالتي لكم ، وفي رواية أخرى عن الحبر أنه فسر البقية بالرزق .

وقال الربيع هي وصيته تعالى ، وقال مقاتل : ثوابه في الآخرة ، وقال الفراء : مراقبته عز وجل ، وقال قتادة : ذخيرته ، وقال الحسن : فرائضه سبحانه .

وزعم ابن عطية أن كل هذا لا يعطيه لفظ الآية وإنما معناه الإبقاء وهو مأخوذ مما روي عن ابن جريج أنه قال : المعنى إبقاء الله تعالى النعيم عليكم خير لكم مما يحصل من النقص بالتطفيف ، وأياً مّا كان فجواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله على ما ذهب إليه جمهور البصريين وهو الصحيح ، وقرأ إسماعيل بن جعفر عن أهل المدينة ﴿ بَقِيَّتُ ﴾ بتخفيف الياء قال ابن عطية : وهي لغة ، قال أبو حيان : إن حق وصف فعل اللازم أن يكون على وزن فاعل نحو شجيت المرأة فهي شجية فإذا شددت الياء كان على وزن فعيل للمبالغة ، وقرأ الحسن تقية الله بالتاء والمراد تقواه سبحانه ومراقبته الصارفة عن المعاصي ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ أحفظكم من القبائح .

أو أحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم بها وإنما أنا ناصح مبلغ وقد أعذرت إذ أنذرت ولم آل جهداً .

وأو ما أنا بحافظ عليكم نعم الله تعالى لو لم تتركوا سوء صنيعكم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(250/383)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾

قوله : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً إلى قوله من إله غيره ﴾ نظير قوله : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ [هود : 61] الخ.

أمرهم بثلاثة أمور :

أحدها : إصلاح الاعتقاد ، وهو من إصلاح العقول والفكر .

وثالثها : صلاح الأعمال والتصرفات في العالم بأن لا يفسدوا في الأرض .

ووسط بينهما الثاني : وهو شيء من صلاح العمل خص بالنهي لأنّ إقدامهم عليه كان فاشياً فيهم حتّى نسوا ما فيه من قبح وفساد ، وهذا هو الكف عن نقص المكيال

والميزان .

فابتدأ بالأمر بالتوحيد لأنه أصل الصلاح ثم أعقبه بالنهي عن مظلمة كانت متفشية فيهم ،

وهي خيانة المكيال والميزان .

وقد تقدّم ذلك في سورة الأعراف .

وهي مفسدة عظيمة لأنها تجمع خصلتي السرقة والغدْر ، لأن المكتال مسترسل

مستسلم .

ونهاهم عن الإفساد في الأرض وعن نقص المكيَال والميزان فعزّزه بالأمر بضده وهو

إيفاؤهما .

وجملة ﴿ إني أراكم بخير ﴾ تعليل للنهي عن نقص المكيال والميزان .

والمقصود من ﴿ إني أراكم بخير ﴾ أنكم بخير .

وإنما ذكر رؤيته ذلك لأنها في معنى الشهادة عليهم بنعمة الله عليهم فحقّ عليهم شكرها .

والباء في ﴿ بخير ﴾ للملابسة .

والخير : حسن الحالة .

ويطلق على المال كقوله : ﴿ إن ترك خيراً ﴾ [البقرة : 180] .

والأوْلى حمله عليه هنا ليكون أدخل في تعليل النهي ، أي أنكم في غنى عن هذا التطفيف بما

أوتيتم من النعمة والثروة .

وهذا التعليل يقتضي قبْح ما يرتكبونه من التطفيف في نظر أهل المروءة ويقطع منهم العذر في ارتكابه .

وهذا حثّ على وسيلة بقاء النعمة .

ثم ارتقى في تعليل النهي بأنه يخاف عليهم عذاباً يحل بهم إمّا يوم القيامة وإما في الدنيا .

ولصلوحيته للأمرين أجمله بقوله : ﴿ عذاب يوم محيط ﴾ .

وهذا تحذير من عواقب كفران النعمة وعصيان واهِبهَا .

و﴿ محيط ﴾ وصف ل ﴿ يوم ﴾ على وجه المجاز العقلي ، أي محيط عذابه ، والقرينة هي إضافة العذاب إليه .

(251/383)

وإعادة النداء في جملة ﴿ ويا قوم أوفوا المكيال ﴾ لزيادة الاهتمام بالجملة والتنبيه لمضمونها ، وهو الأمر بإيفاء المكيال والميزان .

وهذا الأمر تأكيد للنّهي عن نقصهما .

والشيء يؤكد بنفي ضده ، كقوله تعالى : ﴿ وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ [طه : 79] .

لزيادة التّرغيب في الإيفاء بطلب حصوله بعد النهي عن ضده .

والباء في قوله ﴿ بالقسط ﴾ للملابسة .

وهو متعلق بـ ﴿ أوفوا ﴾ فيفيد أن الإيفاء يلابسه القسط ، أي العدل تعليلاً للأمر به ، لأنّ العدل معروف حسن ، وتنبيهاً على أنّ ضده ظلم وجور وهو قبيح منكر .

والقسط تقدم في قوله تعالى : ﴿ قائماً بالقسط ﴾ في [آل عمران : 18] .

والبخس : النقص .

وتقدم في قصته في سورة الأعراف مفسراً .

وذكر ذلك بعد النهي عن نقص المكيال والميزان تذييل بالتعميم بعد تخصيص .

لأنّ التطفيف من بخس الناس في أشيائهم ، وتعدية تبخسوا ﴾ إلى مفعولين باعتباره ضد أعطى فهو من باب كسا .

والعَثْيُ بالياء من باب سعَى ورمى ورضي ، وبالواو كدعا ، هو : الفساد .

ولذلك فقوله ﴿ مفسدين ﴾ حال مؤكدة لعاملها مثل التوكيد اللفظي مبالغة في النهي عن الفساد .

والمراد : النهي عن الفساد كله ، كما يدلّ عليه قوله : ﴿ في الأرض ﴾ المقصود منه تعميم أماكن الفساد .

والفساد تقدم في قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض ﴾ في أول سورة [

البقرة : 11] .

وقد حصل النهي عن الأعم بعد النهي عن العامّ ، وبه حصلت خمسة مؤكدات : بالأمر بعد النهي عن الفساد الخاص ، ثم بالتّعميم بعد التخصيص ، ثم بزيادة التعميم ، ثم بتأكيد التعميم الأعم بتعميم المكان ، ثمّ بتأكيده بالمؤكد اللفظي .

وسلك في نهيهم عن الفساد مسلك التدرج فابتدأه بنهيهم عن نوح من الفساد فاشٍ فيهم وهو التطفيف .

ثم ارتقى فنهاهم عن جنس ذلك النوع وهو أكل أموال الناس .

ثم ارتقى فنهاهم عن الجنس الأعلى للفساد الشامل لجميع أنواع المفاسد وهو الإفساد في الأرض كلّه .

(252/383)

وهذا من أساليب الحكمة في تهيئة النفوس بقبول الإرشاد والكمال .

وإذ قد كانت غاية المفسد من الإفساد اجتلابَ ما فيه نفع عاجل له من نوال ما يحبه أعقب شعيب موعظته بما ادّخره الله من الثواب على امتثال أمره وهو النفع الباقي هو خير لهم مما يقترفونه من المتاع العاجل .

ولفظ ﴿ بقيت ﴾ كلمة جامعة لمعان في كلام العرب ، منها : الدوام ، ومؤذنة بضده وهو الزوال ، فأفادت أن ما يقترفونه متاع زائل ، وما يدعوهم إليه حظ باق غير زائل ، وبقاؤه دنيوي وأخروي .

فأمّا كونه دنيوياً فلأن الكسب الحلال ناشىء عن استحقاق شرعي فطري ، فهو حاصل من تراض بين الأمة فلا يحنق المأخوذ منه على آخذه فيعاديه ويتربص به الدوائر فَبِتَجَنب ذلك تبقى الأمّة في أمن من توثّب بعضها على بعض ، ومن أجل ذلك قَرَنَ الأموال بالدماء في خطبة حجة الوداع إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم " إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام " فكما أن إهراق الدماء بدون حق يفضي إلى التقاتل والتفاني بين الأمة فكذلك انتزاع الأموال بدون وجهها يفضي إلى التواثب والتثاور فتكون معرّضة للابتزاز والزوال .

وأيضاً فلأنّ نوالَها بدون رضى الله عن وسائل أخذها كفران لله يعرّض إلى تسليط عقابه بسلبها من أصحابها .

قال ابن عطاء الله : "من لم يشكر النعَم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها " .

وأمّا كونه أخرويا فَلأنّ نهيَ الله عنها مقارنٌ للوعد بالجزاء على تركها ، وذلك الجزاء من النعيم الخالد كما في قوله تعالى : ﴿ والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ مردّاً ﴾ [مريم : 76] .

على أنّ لفظ (البقية) يحتمل معنى آخر من الفضل في كلام العرب ، وهو معنى الخير والبركة لأنّه لا يبقى إلاّ ما يحتفظ به أصحابه وهو النفائس ، ولذلك أطلقت (البقية) على الشيء النفيس المبارك كما في قوله تعالى:

﴿ فيه سكينةٌ من ربكم وبقيةٌ ممّا ترك آل موسى وآل هارون ﴾ [البقرة : 248] ، وقوله : ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض ﴾ [هود : 116] وقال عمرو بن معد يكرب أو رويشد الطائي :

إن تذنبوا ثم تأتيني بَقيتكم

فما عَليّ بذنب مِنكمُ فَوْت . . .

قال المرزوقي : المعنى ثم يأتيني خِياركم وأماثلكم يقيمون المعذرة وهذا كما يقال : فلان من بقية أهل ، أي من أفاضلهم .

وفي كلمة (البقية) معنى آخر وهو الإبقاء عليهم ، والعرب يقولون عند طلب الكفّ عن القتال : ابقوا علينا ، ويَقولون "البقيةَ البقيةَ" بالنصب على الإغراء ، قال الأعشى :

قالوا البقيةَ والهنديُّ يحصدهم

ولا بقيةَ إلا الثار وانكشفوا . . .

وقال مسور بن زيادة الحارثي :

أُذَكَّرُ بالبُقْيَا على مَنْ أصابني

وبُقْيَايَ أنِّي جاهد غير مؤتلي . . .

والمعنى إبقاء الله عليكم ونجاتكم من عذاب الاستئصال خير لكم من هذه الأعراض العاجلة السيِّئة العاقبة ، فيكون تعريضاً بوعيد الاستئصال .

وكل هذه المعاني صالحة هنا .

ولعلّ كلام شعيب عليه السّلام قد اشتمل على جميعها فحكاه القرآن بهذه الكلمة الجامعة .

وإضافة (بقية) إلى اسم الجلالة على المعاني كلها جمعا وتفريقاً إضافةُ تشريف وتيمّن .

وهي إضافة على معنى اللاّم لأن البقية من فضله أو ممّا أمر به .

ومعنى ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ إن كنتم مصدقين بما أرسلت به إليكم ، لأنهم لا يتركون مفاسدهم ويرتكبون ما أمروا به إلاّ إذا صَدقوا بأن ذلك من عند الله ، فهنالك تكون بقية الله خيراً لهم ، فموقع الشرط هو كون البقية خيراً لهم ، أي لا تكون البقية خيراً إلاّ للمؤمنين .

وجاء باسم الفاعل الذي هو حقيقة في الاتّصاف بالفعل في زمان الحال تقريباً لإيمانهم

بإظهار الحرص على حصوله في الحال واستعجالاً بإيمانهم لئَلاّ يفجأهم العذاب فيفوت التدارك.

وجملة ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ اعبُدوا ﴾ ونظائره، أي افعلوا ذلك باختياركم لأنه لصلاحكم ولست مكرهكم على فعله.

والحفيظ: المجبر، كقوله: ﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلاّ البلاغ ﴾ [الشورى: 48] وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ وما جعلناك عليهم حفيظاً ﴾ في سورة [الأنعام: 107].

والمقصود من ذلك استنزال طائرهم لئلا يشمئزّوا من الأمر.

وهذا استقصاء في الترغيب وحسن الجدال. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾

و" مدين " هو اسم ابن إبراهيم عليه السلام ، ولم يكن هذا الابن موجوداً وقت بعثة شعيب ، لكن القبيلة التي تناسلت منه سُمِّيت باسمه ، وكذلك القرية التي أقامت فيها القبيلة سميت باسمه ، فإن قلت إن شعيباً أرسل لقبيلة مدين ، فهذا قول سليم ، وإن قلت إنه أرسل لقرية مدين ، فهذا قول سليم أيضاً ؛ لأن القرية لا بد لها من سكان .

والحق سبحانه يقول على لسان إخوة يوسف عليه السلام :

﴿ وَسْئَلِ القرية التي كنَّا فِيهَا ﴾ [يوسف : 82] .

والمقصود " أسأل أهل القرية " .

إذن : فمرة يطلب الاسم على المكان ، ومرة يطلق المكان ويراد به المكين .

وقد بدأ شعيب رسالته مع قومه من حيث بدأ كل الرسل بالدعوة إلى قمة التدين ، وهو أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ولا إله غيره ، وهذا هو القدر المشترك في كل الرسالات .

والحق سبحانه يقول :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى المشركين مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ الله يجتبي إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ ويهدي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى : 13] .

إذن : فقمة الدين في قضية العقيدة الإيمانية ، وهي عبادة الله تعالى وحده ولا إله غيره ، لأن الحق سبحانه حين يوجه الأوامر التكليفية " افعل " و " لا تفعل " فالله سبحانه لا يوجهها إلا لمن آمن به إلهاً واحداً ، أما الذي لا يؤمن به ، فالله سبحانه لا يوجه إليه أي حكم .

ولذلك تجد حيثية كل حكم تكليفي في القرآن مُصَدَّرًا بقوله تعالى :

﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ ﴾ [البقرة : 178] .

سواء أكان الأمر صياماً ، أم قصاصاً ، ففي كل تكليف يُصدَّر بهذا القول ، لا بد أن يأتي المعنى : يا من آمنت بي إلهاً قادراً حكيماً ، اسمع مني التكليف .

(256/383)

ولذلك أقول دائماً :

إن علة كل تكليف هي الإيمان بالمكَلِّف ، ولا داعي للبحث عن علة أخرى .

فمثلاً حيث يُقَال : إن علة الوضوء النظافة ، نقول : وإن لم يوجد ماء ، فنحن نلمس التراب أو الحجر ثم نمسح وجوهنا في التيمم .

إذن : فالمقصد هو أن نتهيأ للصلاة بأي شكل يحقق مقصود العبادة وهو الطاعة للخالق

سبحانه وتعالى .

وإياك أن تؤخر تنفيذ الحكم إلى أن تبرره ؛ لأن مبرره هو صدوره عن الله سبحانه وتعالى .

وكذلك كل شيء يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم فنحن نتبعه ، ولا نبحث عن علة له ، وإلا لو كنا نؤجل الأحكام إلى أن تثبت تبريراتها العلمية مثل فساد لحم الخنزير بما يحمله من أمراض ، ومثل قدرة الخمر على إهلاك المخ وتدمير خلاياه ، فضلاً عن تدمير خلايا الكبد ، فنحن لو كنا قد أجلنا تلك الأحكام ، فماذا كان الموقف ؟

لقد طبَّق المسلمون هذه الأحكام فور نزولها ؛ لإيمانهم بالمنهج وحبهم في القرب من الله ، ثم أثبتت الأيام صدق الله تعالى في تكليفه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يا قوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ [هود : 84]

.

وعرفنا أن العبادة ليست محصورة في الصلاة أو الصوم أو الزكاة أو الحج ؛ لأن هذه هي الأركان الأساسية التي يقوم عليها الإسلام ؛ ولكن الإسلام أيضاً هو عمارة الأرض بتنفيذ كل التكاليف ، وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

فإقبال الإنسان على مهنة ما يحتاجها المجتمع هو عبادة ، وإذا خلتْ صنعة من صانع فعلى ولي الأمر أن يكلف ويرغم بعض الناس على تعلمها ؛ وأيضاً إتقان الصنعة عبادة .

وقول الحق سبحانه على لسان شعيب عليه السلام :

﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ﴾ [هود : 84] .

أي : إياك أن تأخذ حكماً تكليفياً من أحد آخر غير الله سبحانه وتعالى ، لأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

(257/383)

وإياك أن تستدرك من البشر حكماً على الله سبحانه وتعالى ، وتظلم نفسك وتقول : " لقد فات الله أن يقول لنا هذا الحكم ، ولنأتي لأنفسنا بحكم جديد " .

إياك أن تستدرك حكماً على الله . افهم الحكم أولاً ، فإن جاء حكماً محكماً فخذه ، وإنْ كان غير محكم بأن جاء مجملاً ، أو غير مبيَّن ، فانظر باجتهادك إلى أية جهة تصل .

ولذلك " نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل من أرسله مبعوثاً إلى اليمن فقال : " كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله . قال فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو ، قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدري ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله صلى الله عليه

وسلم لما يرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

وبعد أن دعا شعيب عليه السلام آل مدين لعبادة الله سبحانه وحده ، وهذا هو الأمر المشترك بين جميع الرسل عليه السلام تأتي الأحكام الأخرى ، فمن يعمل فاحشة له علاجه ، ومن ينقص في الكيل والميزان ، فالرسول يعالج هذا الأمر .

لأن العالم القديم كان عالم انعزال ، لا التحام فيه أو مواصلة ؛ فقد يوجد عيب وآفة في مكان ، ولا يوجد هذا العيب أو تلك الآفة في مكان آخر .

وكل رسول يأتي ليعالج عيباً محدداً في المكان الذي أرسله الله إليه ، ولكن رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم جاء وهو الرحمة المهداة للجميع وخاتم الأنبياء والمرسلين جاء صلى الله عليه وسلم والدنيا على ميعاد بالالتقاء الإيماني ، فلما تقاربت البلاد عن طريق سرعة الاتصالات ، وما يحدث في عصرنا الآن بقارة أمريكا نجده عندنا في نفس اليوم أو غداً ، فالعالم الآن عالم التقاء ، وتعددت الداءات فيه وتوحدت بسبب سرعة الالتقاء عن طريق عدم التمييز بين الخبيث والطيب .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم الرسل .

وكانت خيبة آل مدين هي عدم عبادة الله وحده ، وكذلك كانت فيهم خسيسة التطفيف في الكيل والميزان ، لذلك يقول الحق سبحانه على لسان شعيب عليه السلام :

﴿ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان إني أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ [هود : 84] .

وحين قرأ العلماء هذا القول الكريم لم يلتفتوا إلى أن المراد ليس نقص المكيل والموزون ، لأنه لو شاء لقال : " ولا تنقصوا المكيل أو الموزون " هذا إذا نظرنا إلى الأمر من وجهة ما يريد البائع ، ولكن القول هنا يقصد أن يأخذ كل ذي حق حقه ، أن يأخذ المشتري حقه من السلعة ، وأن يأخذ البائع حقه في الربح .

إذن : فهذا القول الكريم يشمل البائع والمشتري معاً .

والكيل كما نعرف هو تعديل شيء بشيء ، فإن كان في الخفة والثقل ؛ فالأمر يحتاج إلى ميزان ، وإن كان تعديل شيء بشيء في الكم ، فهذا يحتاج إلى الكيل ، وهذا هو الأمر المشهور في الكيل والميزان ، وأي تعديل شيء بشيء يحتاج إلى ما يناسبه ؛ فالقماش مثلاً يتم تعديله بالمتر ، والأرض يتم تعديلها بالمساحة ؛ أي : قياس الطول والعرض ، وبعض الأشياء تُباع بالحجم ، وهذا يعني قياس الطول والعرض والارتفاع واستخراج الناتج بعملية ضرب كل منهم في الآخر .

إذن : فالأمر المهم هو أن يأخذ كل إنسان حقه ، حتى وإن كان تأجير قوة عامل لينجز عملاً

، فأنت تعدل زمن وقوة العمل بالأجر الملائم ، والأمر المشهور هو الكيل والميزان ، لكن بقية التقييمات موجودة ؛ ليأخذ كل ذي حق حقه .

لأن الإنسان لو أخذ غير حقه لاستمرأ أن يأخذ حقوق الناس ، ولو أكل بعض الناس حقوق البعض الآخر ؛ لَزهِدَ من أُكلتْ حقوقهم في العمل .

وأنت حين تعطي للإنسان أقل مما يستحق ، أو تأخذ من جهده فوق ما تدفع له من أجر ، تجده يبطئ في العمل ، ولا ينجز المطلوب منه على تمام الدقة ، ومن هنا يحدث الخلل .

(259/383)

ولذلك أقول : إن إعطاء كل ذي حق حقه يزيد من جودة الأداء في العمل .

وعلينا أن نترك صاحب الطموح ليعمل ؛ بدلاً من أن يخزن ماله أو يكنزه ؛ لأن صاحب الطموح حين يقيم مشروعاً أو بناءً ؛ فهو يفيد الفقراء وينفعهم حتى وإن كان لا يفكر في ذلك فالذي يبني عمارة سكنية ينفع الصناع والعمال ومنتجي المواد اللازمة للبناء دون أن يقصد وسينتفع العامل الفقير دون أن يقصد صاحب العمل وربما انتفع كل الفقراء مما يصنعه صاحب العمل ، قبله فيما يفعل .

إذن : فمن المهم أن يأخذ كل إنسان حقه قبل أن يجف عرقه ؛ مصداقاً لقول رسول الله

صلى الله عليه وسلم : "أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه" .

وهكذا نعلم أن الدين في ظاهر الأمر يحض على الإيثار ، وفي واقع الأمر ، هو يحرص على تأكيد ثواب الإنسان عند ربه ؛ لأن الذي يؤثر غيره على نفسه ولو كان به خصاصة لو كان معه مال قليل وأعطاه لآخر عنده ضائقة ، وليس عند هذا الآخر مال ، هنا يكون صاحب المال القليل قد آثر الآخر على نفسه في ظاهر الأمر ، ولكنه سيأخذ أضعاف هذا المال ثواباً من عند الله تعالى .

وهكذا يعلمنا الدين النفعية الراقية ، وهي النفعية التي يعاملنا بها الله سبحانه ؛ وحين نترك قانون النفعية ليسيطر على حركة الناس ، فنحن نوفر سيولة الانتفاع في المجتمع .

وهنا في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها عرفنا أن شعيباً قال لأهل مدين :

﴿ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ ﴾ [هود : 84] .

أي : أنكم يا أهل مدين غير مضطرين لذلك ؛ لأن من يبيع منكم عنده سلع ، ومن يشتري إنما يملك نقوداً ، فاكتفوا بالخير الذي عندكم ، وليأخذ كل ذي حق حقه ، وهذه قضية يغفل عنها كثير من الناس ؛ فالذي يبيع قد يبيع صنفاً واحداً ، فإن غش في الكيل أو الميزان ، فسوف يغشه ويخدعه غيره في الأصناف الأخرى التي تلزمه لحياته .

وإن اشتغل واحد في إنقاص الكيل والميزان ، فالآخرون سيفعلون مثل ذلك في كل ما يخص حياته ؛ لأن المخادع الواحد ، سيلقي مخادعين كثيرين ، وهنا يقول شعيب عليه السلام : ما الذي يضطركم إلى ذلك وأنتم بخير ؟

ثم يقول محذراً :

﴿ وإني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ [هود : 84] .

لانك حين تنقص شيئاً وأنت تبيع أو تزيد شيئاً حين تشتري ، فأنت لا تخدع من تتعامل معه ، وإنما تخدع نفسك .

وكلنا يعلم أن الغفلة قد تطرأ على البائع ، وقد تطرأ على المشتري ، وقد يحاول بائع أن يستغل غفلة المشتري فيزيد من ثقل الميزان بإصبعه ، وقد يحاول المشتري أن يستغل غفلة البائع بأن يرفع كفة الميزان بإصبعه من غير أن يراه البائع ، فيأخذ غير حقه ، وهذا نوع من خداع النفس ؛ لأن الحق سبحانه إنما يأمر بالاستقامة في البيع والشراء ؛ لأن الانتفاع بأي شيء مهما كَثُر ، فهو موقوت بعمر الإنسان في الدنيا ، وعمر الإنسان موقوت ، ولكن الذي يغش ويخدع إنما يُعرِّض نفسه لعذاب الله سبحانه في الآخرة ، وهو عذاب بلا أمد ولا نهاية .

وهكذا يسلِّم الإنسان نفسه لفائدة قليلة في الدنيا الزائلة ، ثم يلقى عذاباً لا ينتهي في آخرة

غير زائلة .

والعذاب في الآخرة عذاب محيط ، بمعنى أن المعذَّب لا يستطيع أن يفلت منه ، فأنت في الدنيا بإمكانك أن تحتال في النجاة من العذاب ، وقد تلجأ إلى من هو أقوى منك ليحميك ، ولكنك في الآخرة تواجه يوماً لا بيع فيه ولا خُلَّة ولا شفاعة ، إن كنت من أهل النار .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك ما جاء على لسان شعيب مواصلاً الحديث إلى أهل مدين :

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾

وفي الآية الكريمة السابقة قال الحق سبحانه :

﴿ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان ﴾ [هود : 84] .

(261/383)

وهكذا نعلم أن عدم الإنقاص في الكيل والميزان مطلوب ، وكذلك توفية المكيال والميزان مطلوبة ؛ لأنهما أمر واحد ، والحق سبحانه لا يتكلم عن المكيل ولا عن الموزون إلا بإطلاقهما ، وهو كل عمل فيه واسطة بين البائع والمشتري .

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الذين إِذَا اكتالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ

يُخۡسِرُونَ ﴾ [المطففين : 13] .

ذلك لأن البائع قد يقول لك : أنت مأمون فزِنْ أنت لنفسك أو كِلْ أنت لنفسك ، وقد تخدع البائع فتأخذ أكثر من حقك ؛ وقد يفعل البائع عكس ذلك ، وفي مثل هذا بؤس للاثنين .

وهنا يقول شعيب عليه السلام :

﴿ ويا قوم أَوْفُواْ المكيال والميزان بالقسط ﴾ [هود : 85] .

والحق سبحانه هنا تكلم عن النقص وعن الإيفاء .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَآءَهُمْ ﴾ [هود : 85] .

وهذا كلام عام لا ينحصر في مكيل أو موزون ، فقد يأتي مشترٍ ليبخس من قيمة سلعة ما ، أو أن يأخذ رشوة لقضاء مصلحة ، أو يخطف ما ليس حقّاً له ، أو يغتصب ، أو يختلس ، وكلها أمور تعني : أخذ غير حق بوسائل متعددة .

ونحن نعلم أن الخطف إنما يعني أن يمد إنسان يده إلى ما يملكه آخر ويأخذه ويجري ، أما الغصب ، فهو أن يمد إنسان يده ليأخذ شيئاً ، فيقاومه صاحب الشيء ، لكن المغتصب يأخذ الشيء عنوة ، أما المختلس فهو المأمون على شيء فاختلسه ، والمرتشي هو من أخذ مالاً أو شيئاً مقابل خدمة هي حق لمن يطلبها .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ [هود : 85] .

تضم أشياء متعددة .

والبخس هو أن تضر غيرك ضرراً ، بإنقاص حقه ، سواء أكان له حجم ، أو ميزان ، أو كَمٌّ ، أو كَيْفٌ .

وكلمة " أشياء " مفردها : " شيء " ، ويقولون عن الشيء : " جنس الأجناس " فالثمرة يقال لها : " شيء " ، وكل الثمر يقال له : " شيء " .

(262/383)

والحق سبحانه وتعالى يوصينا ألا يغرنا أي شيء مهما كان قليلاً .

ونحن نلحظ هنا أن كلمة " الناس " جمع ، وكلمة " أشياءهم " جمع أيضاً ، وإذا قوبل جمع بجمع اقتضت القسمة آحاداً . أي : لا تبخس الفرد شيئًا ، وإنْ قَلَّ .

ونجد واحداً من العارفين بالله قد استأجر مطيَّة من خان ليذهب بها من مكان إلى مكان آخر ، فلما ركب المطية وقع منه السوط الذي يحركها به ، فأوقف الدابة مكانها وعاد ماشياً على قدميه إلى موقع سقوط السوط ليأخذه ، ثم رجع ماشياً إلى مكان الدابة ليركبها ، فقال له واحد من الناس : لماذا لم ترجع بالدابة إلى موقع السوط لتأخذه وتعود ؛

فأجاب العارف بالله : لقد استأجرتها لأصِلَ بها إلى مكان في اتجاه معين ، ولم يتضمن اتفاقي مع صاحبها أن أبحث بها عن السوط .

ونجد عارفاً آخر جلس يكتب كتاباً ، وكان الناس في ذلك الزمان يجففون الحبر الزائد بوضع قليل من الرمال فوق الصفحات المكتوبة ، ولم يجد العارف بالله ما يجفف به المكتوب ، فأخذ حفنة من تراب بجانب جدار ، ثم ذهب إلى صاحب الجدار وقال له : أنا أخذت تراباً من جانب جدارك فقوِّمه فقال صاحب الجدار : والله لِورَعِك لا أقوِّم ، أي : أنه قد تسامح في هذا الأمر .

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [هود : 85] .

وكلمة عثا ، يَعْثي ، ويعثوا ، وعثى . يعثي ؛ كلها تعني : زاول فساداً ، أي : أن يعمد الإنسان إلى الصالح في ذاته فيفسده ، مثل طَمْر بئر ماء ، أو حفر طريق يسير فيه الناس ، وهو كل أمر يخرج الصالح في ذاته عن صلاحه .

والمجتمع كله بكل فرد فيه مأمور بعدم مزاولة الفساد ، ولو طبَّق كل واحدٍ ذلك لصار المجتمع كله صالحاً ، ولكن الآفة أن بعض الناس يحب أن يكون غيره غير مفسد ، ولكنه هو نفسه يفسد ، ولا يريد من أحد أن يعترض عليه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾

أي : ما يبقى لكم من الأمر الحلال خير لكم ؛ لأن من يأخذ غير حقه يخطىء ؛ لأنه يزيل البركة عن الحلال بالحرام ؛ فمن يأخذ غير حقه يسلط الله عليه أبواباً تنهب منه الزائد عن حقه .

وأنت تسمع من يقول : " فلان هذا إنما يحيا في بركة " ، أي : أن دخله قليل ، ولكن حالته طيبة ، ويربي أولاده بيسر ، على عكس إنسان آخر قد يكون غنيّاً من غير حلال ، لكنه يحيا في ضنك العيش .

وقد تجد هذا الإنسان قد انفتحت عليه مصارف الدنيا فلا يكفي ماله لصد همومه ، لأن الله سبحانه قد جرَّاً عليه مصارف سوء متعددة .

وقد يستطيع الإنسان أن يخدع غيره من الناس ، ولكنه لن يستطيع أن يخدع ربه أبداً .

وقول الحق سبحانه :

﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [هود : 86] .

أي : أن الله تعالى يُذهِب عمن يراعي حقوق غيره مصارف السوء .

وسبق أن قلنا قديماً : فلننظر إلى رزق السلب لا إلى رزق الإيجاب ؛ لأن الناس في غالبيتها

تنظر إلى رزق الإيجاب ، بمعنى البحث عن المال الكثير ، وينسون أن الحق سبحانه وتعالى قد يسلط مصارف السوء على صاحب المال الكثير الذي جمعه من غير حق ، بينما يسلب عن الذي يرعى حقوق الناس تلك المصارف من السوء .

ومن يُربُّون أولادهم من سُحْت أو حرام ، لا يبارك الله فيهم ؛ لأن هناك في تكوينهم شيئاً حراماً . فنجد على سبيل المثال ابن المرتشي يأخذ دروساً خصوصية ويرسب ، بينما ابن المنضبط والملتزم بتحصيل الكسب الحلال مقبل على العلم وناجح . أو قد يرزق الله تعالى صاحب المال الحرام زوجة لا يرضيها أي شيء ، بل تطمع في المزيد دائماً ، بينما يعطي الله سبحانه من يرعى حقوق الناس زوجة تقدر كل ما يفعله .

يقول الحق سبحانه :

﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [هود : 86] .

أي : إن كنتم مؤمنين بأن الله تعالى رقيب ، وأنه سبحانه قيُّوم ؛ فلا تأخذ حقّاً غير حقك ؛ لأنك لن تستغل إلا نفسك ؛ لأن الله سبحانه وتعالى رقيب عليك .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ [هود : 86] .

أي : أن شعيباً عليه السلام قد أوضح لأهل مدين : أنا لن أقف على رأس كل مفسد لأمنعه من الإفساد ؛ لأن كل إنسان عليه أن يكون رقيباً على نفسه ما دام قد آمن بالله سبحانه ، وما دام قد عرف أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ بَقِيَّةُ اللهِ ﴾ [هود : 86] .

أي : أن ما يبقى إنما تشيع فيه البركة .

وهذه هي فائدة الإيمان : ما يأمر به وما ينهي عنه .

وهذا أمر يختلف عن القانون الوضعي ؛ لأن عين القانون الوضعي قاصرة عما يخفى من أمور الناس فكأنها تحميهم من الوقوع تحت طائلته .

. أما القانون الإلهي فهو محيط بأحوال الناس المعلنة ، والخافية .

ومن يتأمل الآيات الثلاث :

﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يا قوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان إني أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وإني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * ويا قوم أَوْفُواْ المكيال والميزان بالقسط وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَآءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ * بَقِيَّةُ الله خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ [هود : 8486] .

من يتأمل هذه الآيات يجد عناصر الصيانة للحركة في المجتمع كله ، والمجتمع إن لم تُصَنْ حركته يفسد ؛ لأن حركة المجتمع أرادها الحق سبحانه حركة تكاملية ، لا تكرار فيها ؛ ولو تكررت المواهب لما احتاج أحد إلى مواهب غيره .

والمصلحة العامة تقتضي أن يحتاج كل إنسان إلى موهبة الآخر ، فمن يدرس الدكتوراه فهو يحتاج إلى من يكنس الشارع ، ومن يعالج الناس ليشفيهم الله نجده يحتاج إلى من يقوم بإصلاح المجاري .

وماذا كان رد أهل مدين على قول شعيب ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(265/383)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنقُصُواْ ﴾ : " نَقَصَ " يتعدّى لاثنين ، إلى أولهما بنفسه ، وإلى ثانيهما

بحرف الجر ، وقد يُحذَفُ ، تقول : نَقَصْت زيداً مِنْ حقِّه ، وهو هنا كذلك ؛ إذ المرادُ : ولا تَنْقُصوا الناسَ من المكيال ، ويجوز أن يكون متعدِّياً لواحدٍ على المعنى ، والمعنى : لا تُقَلِّلوا وتُطَفِّفوا ، ويجوز أن يكون " المكيالَ " مفعولاً أول والثاني محذوف ، وفي ذلك مبالغة ، والتقدير : ولا تَنْقُصوا المكيالَ والميزانَ حَقَّهما الذي وَجَبَ لهما وهو أبلغُ في الأمر بوفائهما .

قوله : ﴿ مُّحِيطٍ ﴾ صفة لليوم ، ووُصِف به من قولهم : أحاط به العدوُّ ، وقوله : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ [الكهف : 42] . قال الزمخشري : " إنَّ وَصْفَ اليوم بالإحاطة أبلغُ مِنْ وصف العذاب بها " قال : " لأنَّ اليومَ زمانٌ يشتمل على الحوادث ، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذَّب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه " .

وزعم قومٌ أنه جُرَّ على الجوار ، لأنه في المعنى صفةٌ للعذاب ، والأصلُ : عذاب يوم محيطاً .

وقال آخرون : التقدير : عذاب يومٍ محيطٍ عذابُه . قال أبو البقاء : " وهو بعيدٌ ؛ لأنَّ محيطاً قد جرَى على غير مَنْ هوله ، فيجب إبراز فاعله مضافاً إلى ضمير الموصوف .

﴿ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ : قال ابن عطية : " وجواب هذا الشرط متقدم " يعني على مذهب مَنْ يراه لا على [مذهب] جمهور البصريين . والعامّة على تشديد ياء " بقيّة " . وقرأ إسماعيل بن جعفر من أهل المدينة بتخفيفها . قال ابن عطية : " وهي لغةٌ " . وهذا لا ينبغي أن يُقال ، بل يُقال : إنْ لم يُقْصد الدلالةُ على المبالغة جيء بها مخففةً ، وذلك أن فَعِل بكسر العين إذا كان لازماً فقياسُ الصفة منه فَعِل بكسر العين نحو : سَجِيَت المرأة فهي سَجِيَة فإن قَصَدْت المبالغة قيل : سَجِيَّة لأنَّ فعيلاً من أمثلة المبالغة فكذلك بقيَّة وبَقِية أي بالتشديد والتخفيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 371 . 372 ﴾

(267/383)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾

أخبر سبحانه عن قصتهم ، وما أصابهم من العذاب الأليم ، وما نالهم من البلاء العظيم .

وفي الظاهر لهم كانت أجرامُهم كاليسيرة ، ولعدم الفهم يعدون أمثالها صغيرة ، ولا يقولون إنها كبيرة ، وإن ذلك تطفيف في المكيال .

وليس قدْرُ الأَجرام لأعيانها ، ولكن لمخالفة الجبار عَظُمَ شأْنُها ، قال تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور : 15] .

﴿ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86) ﴾

يعني القليل من الحلالِ أجدى من الكثير المُعْقِب للوبال لم يقابلوا نصيحته لهم إلا بالعِناد والتمادي فيما هو دائمٌ من الجحد والكنود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 151 ﴾

(268/383)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والثمانون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/384)

الجزء الرابع والثمانون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 87 ﴾ من سورة هود عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 95 ﴾ من نفس السورة

(4/384)

قوله تعالى ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان الحاصل ما دعاهم إليه ترك ما كان عليه آباؤهم من السفه في حق الخالق بالشرك والخلائق بالخيانة ، وكان ذلك الترك عندهم قطيعة وسفهاً ، كان ذلك محكاً للعقول ومحزاً للآراء يعرف به نافذها من جامدها ، فكان كأنه قيل : ما قالوا ؟ فقيل : ﴿ قالوا يا شعيب ﴾ سموه باسمه جفاء وغلظة وانكروا عليه مستهزئين بصلاته ﴿ أصلواتك تأمرك ﴾ أي تفعل معك فعل من كان يأمر دائماً بتكليفنا ﴿ أن نترك ما يعبد ﴾ أي على سبيل المواظبة ﴿ آباؤنا أو ﴾ نترك ﴿ أن نفعل ﴾ أي دائماً ﴿ في أموالنا ما نشاء ﴾ من قطع الدرهم والدينار وإفساد المعاملة والمقامرة ونحوها مما يكون إفساداً للمال ، يعنون أن ما تأمرنا به لا يمشي على منهاج العقل ، فما يأمرك به إلا ما نراك تفعله من هذا الشيء الذي تسميه صلاة ، أي أنه من وداي : فعلك للصلاة ؛ ومادة صلا – واوية ويائية مهموزة وغير مهموزة بجميع تقاليبها – تدور على الوصلة ، فالصلاة لصلة العبد بربه ، وكذا الدعاء

والاستغفار ، وصلوات اليهود : كنائسهم اللاتي تجمعهم ، والصلا : وسط الظهر ومجمعه وما حول الذنب أيضاً ، والمصلى من الخيل : التابع للسابق ، وصال الفحل – إذا حمل على العانة ، ولصوت الرجل ولَصَيّته : عبته ، كأنك ألصقت به العيب ، والواصلة واضحة في ذلك ، وكأنها الحقيقة التي تفرعت منها جميع معاني المادة ، وسيأتي شرح ذلك عند قوله تعالى ﴿ بالغدو والآصال ﴾ في سورة الرعد إن شاء الله ، فمعنى الآية حينئذ : أما تعانيه من الصلوات : الحقيقية ذات الأركان ، والمعنوية من الدعاء والاستغفار وجميع أفعال البر الحاملة على أنواع الوصل الناهية عن كل قطيعة تأمرك بمجاهرتنا لآبائنا بالقطيعة مع تقدير حضورهم ومشاهدتهم لما نفعل مما يخالف أغراضهم وبترك التنمية لأموالنا بالنقص وهو مع مخالفة أفعال الآباء تبذير فهو سفه – فدارت شبهتهم في الأمرين على تقليد الآباء وتنزيههم عن الغلط لاحتمال أن يكون لأفعالهم وجه من الصواب خفي عنهم ، وزادت

في الأموال بظن التبذير – فقد صرت بدعائنا إلى كل من الأمرين حينئذ داعياً إلى ضد ما أنت متلبس به ﴿ إنك ﴾ إذاً ﴿ لأنت ﴾ وحدك ﴿ الحليم ﴾ في رضاك بما يغضب منه ذوو الأرحام ﴿ الرشيد ﴾ في تضييع الأموال ، يريدون بهذا كما زعموا – سلخه من كل ما

هو متصف به دونهم من هاتين الصفتين الفائقتين بما خيل إليهم سفههم أنه دليل عليه قاطع ، وعنوا بذلك نسبته إلى السفه والغي على طريق التهكم .

ولما اتهموه بالقطيعة والسفه ، شرع في إبطال ما قالوا ونفي التهمة فيهن وأخرج مخرج الجواب لمن كأنه قال : ما أجابهم به ؟ فقيل : ﴿ قال يا قوم ﴾ مستعطفاً لهم بما بينهم من عواطف القرابة منبهاً لهم على حسن النظر فيما ساقه على سبيل الفرض والتقدير ليكون أدعى إلى الوفاق والإنصاف ﴿ أرءيتم ﴾ أي أخبروني ﴿ إن كنت ﴾ أي كوناً هو في غاية الثبات ﴿ على بينة ﴾ أي برهان ﴿ من ربي ﴾ الذي أحسن إليّ بما هو إحسان إليكم ، وعطف على جملة الشرط المستفهم عنه قوله : ﴿ و ﴾ قد ﴿ رزقني ﴾ وعظم الرزق بقوله : ﴿ منه رزقاً حسناً ﴾ جليلاً ومالاً جماً حلالاً لم أظلم فيه أحداً ، والجواب محذوف لتذهب النفس فيه كل مذهب ، ويمكن أن يقال فيه : هل يسع عاقلاً أن ينسبني إلى السفه بتبذير المال بترك الظلم ، أو يسعني أن أحلم عمن عبد غيره وأترك دعاءكم إلى الله ، فقد بان بهذا أني ما أمرتكم بما يسوءكم من ترك ما ألفتم وتعرضت لغضبكم كلكم ، وتركت مثل أفعالكم إلا خوفاً من غضبه ورجاء لرضاه ، فظهر أن لا تهمة في شيء من أمري ولا خطأ ، ما فعلت قط ما نهيتكم عنه فيما مضى ﴿ وما أريد ﴾ أي في وقت من الأوقات ﴿ أن أخالفكم ﴾ أي بأن أذهب وحدي ﴿ إلى ما أنهاكم عنه ﴾ في المستقبل ، وما نقص مال بترك مثل أفعالكم ، فهو إرشاد إلى النظر في باب :

لا تنه عن خلق وتأتي بمثله . . .

عار عليك إذا فعلت عظيم

فابدأ بنفسك فانهها عن غيها . . .

فإذا انتهيت عنه فأنت حكيم

(6/384)

وقد نبهت هذه الأجوبة الثلاثة على أن العاقل يجب أن يراعي في كل ما يأتي ويذر أحد حقوق ثلاثه أهمها وأعلاها حق الله وثانيها حق النفس وثالثها حق العباد على وجه الإخلاص في الكل فثبت ببعده عن التهمة مع سداد الأفعال وحسن المقاصد - حلمه. صلى الله عليه وسلم. ورشده ، فلذلك أتبعه بما تضمن معناه مصرحاً به فقال : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ أريد ﴾ أي شيئاً من الأشياء ﴿ إلا الإصلاح ﴾ وأقر بالعجز فقال : ﴿ ما استطعت ﴾ أي مدة استطاعتي للاصلاح وهو كما أردت فإن مالي - مع اجتنابي ما أنتم عليه - صالح ، ليس بدون مال أحد منكم ، فعلم ، مشاهدة أن لا تبذير في العدل ، وأما التوحيد فهو - مع انتفاء التهمة عنى فيه - دعاء إلى القادر على كل شيء الذي لا خير إلى منه ولا محيص عن الرجوع إلأيه ؛ ثم تبرأ من الحول والقوة ، وأسند الأمر إلى من هو له فقال :

﴿ وما توفيقي ﴾ إي فيما استطعت من فعل الإصلاح ﴿ إلا بالله ﴾ أي الذي له الكمال كله ؛ ثم بين أنه الأهل لأن يرجى فقال مشيراً إلى محض التوحيد الذي هو أقصى مرتب العلم بالمبدأ ﴿ عليه ﴾ أي وحده ﴿ توكلت ﴾ ولما طلب التوفيق لإصابة الحق فيما يأتي ويذر من الله والاستعانة به في مجامع أمره وأقبل عليه بكليته وحسم أطماع الكفار عنه وأظهر الفراغ عنهم وعدم المبالاة بهم ، وكان في قوله ﴿ ما استطعت ﴾ إقرار بأنه محل التقصير ، أخبر بأنه لا يزال يجدد التوبة لعظم الأمر ، وعبر عن ذلك بعبارة صالحة للتحذير من يوم البعث تهديداً لهم فقال منبهاً على معرفة المعاد ليكمل الإيمان بالله واليوم الآخر : ﴿ وإليه ﴾ أي خاصة ﴿ أنيب ﴾ أي أرجع معنى سبقي للتوبة وحساً تيقني بالبعث بعد الموت ؛ والوفيق : خلق قدرة ما هو وفق الأمر من الطاعة ، من الموافقة للمطابقة ؛ والتوكل على الله : تفويض الأمر إليه على الرضاء بتدبيره مع التمسك بطاعته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 566 . 568 ﴾

(7/384)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ أصلاتك ﴾ بغير واو .

والباقون ﴿ أصلواتك ﴾ على الجمع .

المسألة الثانية :

اعلم أن شعيباً عليه السلام أمرهم بشيئين ، بالتوحيد وترك البخس فالقوم أنكروا عليه أمره بهذين النوعين من الطاعة ، فقوله : ﴿ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَا ﴾ إشارة إلى أنه أمرهم بالتوحيد وقوله : ﴿ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ إشارة إلى أنه أمرهم بترك البخس .

أما الأول : فقد أشاروا فيه إلى التمسك بطريقة التقليد ، لأنهم استبعدوا منه أن يأمرهم بترك عبادة ما كان يعبد آباؤهم يعني الطريقة التي أخذناها من آبائنا وأسلافنا كيف نتركها ، وذلك تمسك بمحض التقليد .

المسألة الثالثة :

في لفظ الصلاة وههنا قولان : الأول : المراد منه الدين والإيمان ، لأن الصلاة أظهر شعار الدين فجعلوا ذكر الصلاة كناية عن الدين ، أو نقول : الصلاة أصلها من الإتباع ومنه أخذ المصلي من الخيل الذي يتلو السابق لأن رأسه يكون على صلوى السابق وهما ناحيتا

الفخذين والمراد : دينك يأمرك بذلك .

والثاني : أن المراد منه هذه الأعمال المخصوصة ، روي أن شعيباً كان كثير الصلاة وكان قومه إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا ، فقصدوا بقولهم : أصلاتك تأمرك السخرية والهزؤ ، وكما أنك إذا رأيت معتوهاً يطالع كتباً ثم يذكر كلاماً فاسداً فيقال له : هذا من مطالعة تلك الكتب على سبيل الهزؤ والسخرية فكذا ههنا .

فإن قيل : تقدير الآية : أصلواتك تأمرك أن نفعل في أموالنا ما نشاء وهم إنما ذكروا هذا الكلام على سبيل الإنكار ، وهم ما كانوا ينكرون كونهم فاعلين في أموالهم ما يشاؤن ، فكيف وجه التأويل .

(8/384)

قلنا : فيه وجهان : الأول : التقدير : أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا وأن نترك فعل ما نشاء ، وعلى هذا فقوله : ﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ ﴾ معطوف على ما في قوله : ﴿ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَا ﴾ والثاني : أن تجعل الصلاة آمرة وناهية والتقدير : أصلواتك تأمرك بأن نترك عبادة الأوثان وتنهاك أن نفعل في أموالنا ما نشاء ، وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ أَوْ أَن تَفْعَلَ فِى أَمْوَالِنَا مَا تَشَاء ﴾ بتاء الخطاب فيهما وهو ما كان يأمرهم به من ترك التطفيف والبخس والاقتناع

بالحلال القليل وأنه خير من الحرام الكثير .

ثم قال تعالى حكاية عنهم : ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الحليم الرشيد ﴾ وفيه وجوه :

الوجه الأول : أن يكون المعنى إنك لأنت السفيه الجاهل إلا أنهم عكسوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية به ، كما يقال للبخيل الخسيس لو رآك حاتم لسجد لك .

والوجه الثاني : أن يكون المراد إنك موصوف عند نفسك وعند قومك بالحلم والرشد .

والوجه الثالث : أنه عليه السلام كان مشهوراً عندهم بأنه حليم رشيد ، فلما أمرهم بمفارقة طريقتهم قالوا له : إنك لأنت الحليم الرشيد المعروف الطريقة في هذا الباب ، فكيف تنهانا عن دين ألفيناه من آبائنا وأسلافنا ، والمقصود استبعاد مثل هذا العمل ممن كان موصوفاً بالحلم والرشد ، وهذا الوجه أصوب الوجوه .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى حكى عن شعيب عليه السلام ما ذكره في الجواب عن كلماتهم فالأول قوله :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً ﴾ وفيه وجوه :

الأول : أن قوله : ﴿ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ إشارة إلى ما آتاه الله تعالى من العلم والهداية والدين والنبوة وقوله : ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ إشارة إلى ما آتاه الله من المال الحلال ، فإنه يروى أن شعيباً عليه السلام كان كثير المال .

واعلم أن جواب إن الشرطية محذوف والتقدير : أنه تعالى لما آتاني جميع السعادات الروحانية وهي البينة والسعادات الجسمانية وهي المال والرزق الحسن فهل يسعني مع هذا الإنعام العظيم أن أخون في وحيه وأن أخالفه في أمره ونهيه ، وهذا الجواب شديد المطابقة لما تقدم وذلك لأنهم قالوا له : ﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد ﴾ فكيف يليق بك مع حلمك ورشدك أن تنهانا عن دين آبائنا فكأنه قال إنما أقدمت على هذا العمل ، لأن نعم الله تعالى عندي كثيرة وهو أمرني بهذا التبليغ والرسالة ، فكيف يليق بي مع كثرة نعم الله تعالى على أن أخالف أمره وتكليفه .

الثاني : أن يكون التقدير كأنه يقول لما ثبت عندي أن الاشتغال بعبادة غير الله والاشتغال بالبخس والتطفيف عمل منكر ، ثم أنا رجل أريد إصلاح أحوالكم ولا أحتاج إلى أموالكم لأجل أن الله تعالى آتاني رزقاً حسناً فهل يسعني مع هذه الأحوال أن أخون في وحي الله تعالى وفي حكمه .

الثالث : قوله : ﴿ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ أي ما حصل عنده من المعجزة وقوله : ﴿ وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ المراد أنه لا يسألهم أجراً ولا جعلاً وهو الذي ذكره سائر الأنبياء من قولهم : ﴿ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى رَبّ العالمين ﴾ .

المسألة الثانية :

(10/384)

قوله : ﴿ وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ يدل على أن ذلك الرزق إنما حصل من عند الله تعالى وبإعانته وأنه لا مدخل للكسب فيه ، وفيه تنبيه على أن الإعزاز من الله تعالى والإذلال من الله تعالى ، وإذا كان الكل من الله تعالى فأنا لا أبالي بمخالفتكم ولا أفرح بموافقتكم ، وإنما أكون على تقرير دين الله تعالى وإيضاح شرائع الله تعالى .

وأما الوجه الثاني : من الأجوبة التي ذكرها شعيب عليه السلام فقوله : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أنهاكم عَنْهُ ﴾ قال صاحب "الكشاف" : يقال خالفني فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مول عنه وخالفني عنه إذا ولّى عنه وأنت قاصده ، ويلقاك الرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه .

فيقول : خالفني إلى الماء ، يريد أنه قد ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صادراً ، ومنه قوله

: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أنهاكم عَنْهُ ﴾ يعني أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم فهذا بيان اللغة ، وتحقيق الكلام فيه أن القوم اعترفوا بأنه حليم رشيد ، وذلك يدل على كمال العقل ، وكمال العقل يحمل صاحبه على اختيار الطريق الأصوب الأصلح ، فكأنه عليه السلام قال لهم لما اعترفتم بكمال عقلي فاعلموا أن الذي اختاره عقلي لنفسي لا بد وأن يكون أصوب الطرق وأصلحها والدعوة إلى توحيد الله تعالى وترك البخس والنقصان يرجع حاصلهما إلى جزأين ، التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى وأنا مواظب عليهما غير تارك لهما في شيء من الأحوال ألبتة فلما اعترفتم لي بالحلم والرشد وترون أني لا أترك هذه الطريقة ، فاعلموا أن هذه الطريقة خير الطرق ، وأشرف الأديان والشرائع .

(11/384)

وأما الوجه الثالث : من الوجوه التي ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإصلاح مَا استطعت ﴾ والمعنى ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي ، وقوله : ﴿ مَا استطعت ﴾ فيه وجوه : الأول : أنه ظرف والتقدير : مدة استطاعتي للإصلاح وما دمت متمكناً منه لا آلو فيه جهداً .

والثاني : أنه بدل من الإصلاح ، أي المقدار الذي استطعت منه .

والثالث : أن يكون مفعولاً له أي ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه .

واعلم أن المقصود من هذا الكلام أن القوم كانوا قد أقروا بأنه حليم رشيد ، وإما أقروا له بذلك لأنه كان مشهوراً فيما بين الخلق بهذه الصفة ، فكأنه عليه السلام قال لهم إنكم تعرفون من حالي أني لا أسعى إلا في الإصلاح وإزالة الفساد والخصومة ، فلما أمرتكم بالتوحيد وترك إيذاء الناس ، فاعلموا أنه دين حق وأنه ليس غرضي منه إيقاع الخصومة وإثارة الفتنة ، فإنكم تعرفون أني أبغض ذلك الطريق ولا أدور إلا على ما يوجب الصلح والصلاح بقدر طاقتي ، وذلك هو الإبلاغ والإنذار ، وأما الإجبار على الطاعة فلا أقدر عليه ، ثم إنه عليه السلام أكد ذلك بقوله : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ وبين بهذا أن توكله واعتماده في تنفيذ كل الأعمال الصالحة على توفيق الله تعالى وهدايته .

واعلم أن قوله عليه السلام توكلت إشارة إلى محض التوحيد ، لأن قوله عليه السلام توكلت يفيد الحصر ، وهو أنه لا ينبغي للإنسان أن يتوكل على أحد إلا على الله تعالى وكيف وكل ما سوى الحق سبحانه ممكن لذاته فإن بذاته ، ولا يحصل إلا بإيجاده وتكوينه ، وإذا كان

كذلك لم يجز التوكل إلا على الله تعالى وأعظم مراتب معرفة المبدأ هو الذي ذكرناه ، وأما قوله : ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ فهو إشارة إلى معرفة المعاد ، وهو أيضاً يفيد الحصر لأن قوله : ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ يدل على أنه لا مرجع للخلق إلا إلى الله تعالى وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ذكر شعيب عليه السلام قال : " ذاك خطيب الأنبياء " لحسن مراجعته في كلامه بين قومه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 36 . 38 ﴾

(13/384)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَصَلَاتُك تَأْمُرُك أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ، أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ وَإِنَّمَا قِيلَ : أَصَلَاتُك تَأْمُرُك ؛ لِأَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ الْآمِرِ بِالْخَيْرِ وَالنَّاهِي عَنْ الشَّرِّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ ، وَالْمُنْكَرِ ﴾ وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ فِي حَالِ الصَّلَاةِ فَقَالَ : أَصَلَاتُك تَأْمُرُك بِمَا ذَكَرْت ؟ وَعَنْ الْحَسَنِ : أَدِينُك يَأْمُرُك ؟ أَيْ فِيهِ الْأَمْرُ بِهَذَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(14/384)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إنَّك لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : كَانَ شُعَيْبٌ كَثِيرَ الصَّلَوَاتِ مُوَاظِبًا لِلْعِبَادَةِ ، فَلَمَّا أَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ عَيَّرُوهُ بِمَا رَأَوْهُ يَسْتَمِرُّ عَلَيْهِ مِنْ كَثْرَةِ الطَّاعَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ : قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : قَالَ مَالِكٌ : كَانُوا يَكْسِرُونَ الدَّنَانِيرَ وَالدَّرَاهِمَ .

وَكَذَلِكَ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ ؛ وَكَسْرُ الدَّنَانِيرِ وَالدَّرَاهِمِ ذَنْبٌ عَظِيمٌ ؛ لِأَنَّهَا الْوَاسِطَةُ فِي تَقْدِيرِ قِيَمِ الْأَشْيَاءِ وَالسَّبِيلُ إلَى مَعْرِفَةِ كَمِّيَّةِ الْأَمْوَالِ وَتَنْزِيلِهَا فِي الْمُعَارَضَاتِ ، حَتَّى عَبَّرَ عَنْهَا بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إلَى أَنْ يَقُولُوا إنَّهَا الْقَاضِي بَيْنَ الْأَمْوَالِ عِنْدَ اخْتِلَافِ الْمَقَادِيرِ أَوْ جَهْلِهَا ، وَإِنَّ مَنْ حَبَسَهَا وَلَمْ يَصْرِفْهَا فَكَأَنَّهُ حَبَسَ الْقَاضِيَ وَحَجَبَهُ عَنْ النَّاسِ ، وَالدَّرَاهِمُ وَالدَّنَانِيرُ إذَا كَانَتْ صِحَاحًا قَامَ مَعْنَاهَا ، وَظَهَرَتْ فَائِدَتُهَا ، فَإِذَا كُسِرَتْ صَارَتْ سِلْعَةً ، وَبَطَلَتْ الْفَائِدَةُ فِيهَا ، فَأَضَرَّ ذَلِكَ بِالنَّاسِ ؛ فَلِأَجْلِهِ حُرِّمَ .

وَقَدْ قَالَ ابْنُ الْمُسَيِّبِ : قَطْعُ الدَّنَانِيرِ وَالدَّرَاهِمِ مِنْ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ، وَكَذَلِكَ قَالَ زَيْدُ بْنُ

أَسْلَمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَفَسَّرَهُ بِهِ.

وَمِثْلُهَا عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ مِنْ رِوَايَةِ مَالِكٍ عَنْهُمْ كُلِّهِمْ.

(15/384)

وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: إِنَّ ذَلِكَ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾.

وَقَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: كَانُوا يَكْسِرُونَ الدَّرَاهِمَ وَالدَّنَانِيرَ، وَالْمَعَاصِي تَتَدَاعَى.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: قَالَ أَصْبَغُ: قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْقَاسِمِ بْنِ خَالِدِ بْنِ جُنَادَةَ مَوْلَى زَيْدِ بْنِ الْحَارِثِ الْعُتَقِيِّ: مَنْ كَسَرَهَا لَمْ تُقْبَلْ شَهَادَتُهُ، وَإِنْ اعْتَذَرَ بِالْجَهَالَةِ لَمْ يُعْذَرْ، وَلَيْسَ هَذَا بِمَوْضِعِ عُذْرٍ، فَأَمَّا قَوْلُهُ: لَمْ تُقْبَلْ شَهَادَتُهُ، فَلِأَنَّهُ أَتَى كَبِيرَةً؛ وَالْكَبَائِرُ تُسْقِطُ الْعَدَالَةَ دُونَ الصَّغَائِرِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: لَا

يُقْبَلُ عُذْرُهُ بِالْجَهَالَةِ فِي هَذَا فَلِأَنَّهُ أَمْرٌ بَيِّنٌ لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ.

وَإِنَّمَا يُقْبَلُ الْعُذْرُ إذَا ظَهَرَ الصِّدْقُ فِيهِ أَوْ خَفِيَ وَجْهُ الصِّدْقِ فِيهِ، وَكَانَ اللَّهُ أَعْلَمَ بِهِ مِنْ

الْعَبْدِ كَمَا قَالَ مَالِكٌ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : إذَا كَانَ هَذَا مَعْصِيَةً وَفَسَادًا يَرُدُّ الشَّهَادَةَ فَإِنَّهُ يُعَاقَبُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ .

اُخْتُلِفَ فِي عُقُوبَتِهِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : [الْأَوَّلُ] : قَالَ مَالِكٌ : يُعَاقِبُهُ السُّلْطَانُ عَلَى ذَلِكَ هَكَذَا مُطْلَقًا مِنْ غَيْرِ تَحْدِيدٍ لِلْعُقُوبَةِ .

الثَّانِي : قَالَ ابْنُ الْمُسَيِّبِ وَنَحْوُهُ عَنْ سُفْيَانَ : إنَّهُ مَرَّ بِرَجُلٍ قَدْ جُلِدَ ، فَقَالَ ابْنُ الْمُسَيِّبِ : مَا هَذَا ؟ فَقَالُوا : رَجُلٌ كَانَ يَقْطَعُ الدَّرَاهِمَ .

(16/384)

قَالَ ابْنُ الْمُسَيِّبِ : هَذَا مِنْ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ وَلَمْ يُنْكِرْ جَلْدَهُ .

الثَّالِثُ : قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ التُّجِيبِيُّ : كُنْت عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَاعِدًا ، وَهُوَ إذْ ذَاكَ أَمِيرُ الْمَدِينَةِ ، فَأُتِيَ بِرَجُلٍ يَقْطَعُ الدَّرَاهِمَ ، وَقَدْ شَهِدَ عَلَيْهِ ، فَضَرَبَهُ وَحَلَقَهُ ، فَأَمَرَ فَطِيفَ بِهِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ : هَذَا جَزَاءُ مَنْ يَقْطَعُ الدَّرَاهِمَ ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُرَدَّ إلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ : إنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَقْطَعَ يَدَك إلَّا أَنِّي لَمْ أَكُنْ تَقَدَّمْت فِي ذَلِكَ قَبْلَ الْيَوْمِ ، فَقَدْ تَقَدَّمْت فِي ذَلِكَ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيَقْطَعْ .

قَالَ الْقَاضِي ابْنُ الْعَرَبِيِّ : أَمَّا أَدَبُهُ بِالسَّوْطِ فَلَا كَلَامَ فِيهِ ، وَأَمَّا حَلْقُهُ فَقَدْ فَعَلَهُ عُمَرُ كَمَا

تَقَدَّمَ .

وَقَدْ كُنْت أَيَّامَ الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَضْرِبُ وَأَحْلِقُ ؛ وَإِنَّمَا كُنْت أَفْعَلُ ذَلِكَ بِمَنْ يُرَبِّي شَعْرَهُ عَوْنًا عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَطَرِيقًا إلَى التَّجَمُّلِ بِهِ فِي الْفُسُوقِ ، وَهَذَا هُوَ الْوَاجِبُ فِي كُلِّ طَرِيقَةٍ لِلْمَعْصِيَةِ أَنْ يَقْطَعَ إذَا كَانَ ذَلِكَ غَيْرَ مُؤَثِّرٍ فِي الْبَدَنِ .

وَأَمَّا قَطْعُ يَدِهِ فَإِنَّمَا أَخَذَ ذَلِكَ عُمَرُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ فَصْلِ السَّرِقَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ قَرْضَ الدَّرَاهِمِ غَيْرُ كَسْرِهَا ، فَإِنَّ الْكَسْرَ إفْسَادُ الْوَصْفِ وَالْقَرْضَ تَنْقِيصُ الْقَدْرِ ، فَهُوَ أَخْذُ مَالٍ عَلَى جِهَةِ الِاخْتِفَاءِ .

فَإِنْ قِيلَ : لَيْسَ مِنْ حِرْزٍ ، وَالْحِرْزُ أَصْلٌ فِي الْقَطْعِ .

(17/384)

قُلْنَا : يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عُمَرُ رَأَى أَنَّ تَهْيِئَتَهَا لِلْفَصْلِ بَيْنَ الْخَلْقِ دِينَارًا أَوْ دِرْهَمًا حِرْزٌ لَهَا ، وَحِرْزُ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى قَدْرِ حَالِهِ .

وَقَدْ أَنْفَذَ بَعْدَ ذَلِكَ ابْنُ الزُّبَيْرِ ، وَقَطَعَ يَدَ رَجُلٍ فِي قَطْعِ الدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ .

وَقَدْ قَالَ عُلَمَاؤُنَا الْمَالِكِيَّةُ : إنَّ الدَّرَاهِمَ وَالدَّنَانِيرَ خَوَاتِيمُ اللَّهِ عَلَيْهَا اسْمُ اللَّهِ وَلَوْ قُطِعَ عَلَى قَوْلِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ مَنْ كَسَرَ خَاتَمًا لِلَّهِ لَكَانَ أَهْلًا لِذَلِكَ ، إذْ مَنْ كَسَرَ خَاتَمَ سُلْطَانٍ عَلَيْهِ اسْمُهُ

أُدِّبَ ، وَخَاتَمُ اللَّهِ تُقْضَى بِهِ الْحَوَائِجُ ، فَلَا يَسْتَوِيَانِ فِي الْعُقُوبَةِ .

وَأَرَى الْقَطْعَ فِي قَرْضِهَا دُونَ كَسْرِهَا ، وَقَدْ كُنْت أَفْعَلُ ذَلِكَ أَيَّامَ تَوْلِيَتِي الْحُكْمَ ، إلَّا أَنِّي كُنْت مَحْفُوفًا بِالْجُهَّالِ ، لَمْ أُجِبْ بِسَبَبِ الْمَقَالِ لِلْحَسَدَةِ الضُّلَّالِ ، فَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ يَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ فَلْيَفْعَلْهُ احْتِسَابًا لِلَّهِ تَعَالَى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(18/384)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ﴾ في ﴿ صلاتك ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : قراءتك ، قاله الأعمش .

الثاني : صلاتك التي تصليها لله تعبّداً .

الثالث : دينك الذي تدين به وأمرت باتباعه لأن أصل الصلاة الاتباع ، ومنه أخذ المصلي في الخيل . ﴿ تأمرك ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تدعوك إلى أمرنا .

الثاني : فيها أن تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا يعني من الأوثان والأصنام .

﴿ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : ما كانوا عليه من البخس والتطفيف .

الثاني : الزكاة ، كان يأمرهم بها فيمتنعون منها ، قاله زيد بن أسلم وسفيان الثوري .

الثالث : قطع الدراهم والدنانير لأنه كان ينهاهم عنه ، قال زيد بن أسلم . ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم قالوا ذلك استهزاء به ، قاله قتادة .

الثاني : معناه أنك لست بحليم ولا رشيد على وجه النفي ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنهم اعترفوا له بالحلم والرشد على وجه والحقيقة وقالوا أنت حليم رشيد فِلم تنهانا أن نفعل في أموالنا ما نشاء ؟ والحلم والرشد لا يقتضي منع المالك من فعل ما يشاء في ماله ، قال ابن بحر .

قوله عز وجل : ﴿ قال يا قوم أرأيتُم إن كُنتُ على بيِّنةٍ من ربي ﴾ قد ذكرنا تأويله . ﴿ ورزقني منه رِزقاً حسناً ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أنه المال الحلال ، قاله الضحاك .

قال ابن عباس وكان شعيب كثير المال .

الثاني : أنه النبوة ، ذكره ابن عيسى ، وفي الكلام محذوف وتقديره ، أفأعدل مع ذلك عن

عبادته .

ثم قال

﴿ وما أريدُ أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ أي لا أفعل ما نهيتكم عنه كما لا أترك ما أمرتكم به .

﴿ إنْ أريد إلا الإصلاح ما استطعت ﴾ ومعناه ما أريد إلا فعل الصلاح ما استطعت ، لأن الاستطاعة من شرط الفعل دون الإرادة .

﴿ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلْتُ وإليه أُنيب ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنّ الإنابة الرجوع ومعناه وإليه أرجع ، قاله مجاهد .

الثاني : أن الإنابة الدعاء ، ومعناه وإليه أدعو ، عبيد الله بن يعلى . انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾

قرأ جمهور الناس " أصلواتك " بالجمع ، وقرأ ابن وثاب " أصلاتك " بالإفراد ، وكذلك قرأ في براءة ﴿ إن صلاتك ﴾ [التوبة : 9] وفي المؤمنين : ﴿ على صلاتهم ﴾ [المؤمنون : 9] كل ذلك بالإفراد .

واختلف في معنى " الصلاة " هنا ، فقالت فرقة : أرادوا الصلوات المعروفة ، وروي أن شعيباً عليه السلام كان أكثر الأنبياء صلاة ، وقال الحسن : لم يبعث الله نبياً إلا فرض عليه الصلاة والزكاة . وقيل : أرادوا قراءتك . وقيل : أرادوا : أمساجدك ؟ وقيل : أرادوا : أدعواتك .

قال القاضي أبو محمد : وأقرب هذه الأقوال الأول والرابع وجعلوا الأمر من فعل الصلوات على جهة التجوز ، وذلك أن كل من حصل في رتبة من خير أو شر ففي الأكثر تدعوه رتبته إلى التزيد من ذلك النوع : فمعنى هذا : ألما كنت مصلياً تجاوزت إلى ذم شرعنا وحالنا ؟ فكأن حاله من الصلاة جسرته على ذلك فقيل : أمرته ، كما قال تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ [العنكبوت : 45] .

وقوله : ﴿ أن نترك ما يعبد آباؤنا ﴾ نص في أنهم كانوا يعبدون غير الله تعالى وقرأ جمهور الناس : " نفعل " و " نشاء " بنون الجماعة فيهما ؛ وقرأ الضحاك بن قيس " تفعل " و " تشاء

" بتاء المخاطبة فيهما : ورويت عن أبي عبد الرحمن : " نفعل " بالنون . " ما تشاء " بالتاء ، ورويت عن ابن عباس . فأما من قرأ بالنون فيهما ف ﴿ أن ﴾ الثانية عطف على ﴿ ما ﴾ لا على ﴿ أن ﴾ الأولى ، لأن المعنى يصير : أصلواتك تأمرك أن نفعل في أموالنا ما نشاء ؟ وهذا قلب ما قصدوه . وأما من قرأ بالتاء فيهما فيصح عطف ﴿ أن ﴾ الثانية على ﴿ ما ﴾ لا على ﴿ أن ﴾ الأولى ، قال بعض النحويين ، ويصح عطفها على ﴿ ما ﴾ ويتم المعنى في الوجهين .

(21/384)

قال القاضي أبو محمد : ويجيء ﴿ نترك ﴾ في الأول بمعنى نرفض ، وفي الثاني بمعنى نقرر ، فيتعذر عندي هذا الوجه لما ذكرته من تنوع الترك على الحكم اللفظي أو على حذف مضاف ، ألا ترى أن الترك في قراءة من قرأ بالنون في الفعلين إنما هو بمعنى الرفض غير متنوع ، وأما من قرأ بالنون في " نفعل " والتاء في " تشاء " ف ﴿ أن ﴾ معطوفة على الأولى ، ولا يجوز أن تنعطف على ﴿ ما ﴾ لأن المعنى -أيضاً- ينقلب ، فتدبره .

وظاهر فعلهم هذا الذي أشاروا إليه هو بخس الكيل والوزن الذي تقدم ذكره ، وروي أن الإشارة هي إلى قرضهم الدينار والدرهم وإجراء ذلك مع الصحيح على جهة التدليس ،

قاله بن كعب وغيره ، وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال : قطع الدراهم والدنانير من الفساد في الأرض ، فتأول ذلك بهذا المعنى المتقدم ، وتؤول أيضاً بمعنى أنه تبديل السكك التي يقصد بها أكل أموال الناس .

واختلف في قولهم : ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ فقيل : إنما كانت ألفاظهم : إنك لأنت الجاهل السفيه ، فكنى الله عن ذلك وقيل : بل هذا لفظهم بعينه ، إلا أنهم قالوه على جهة الاستهزاء - قاله ابن جريج وابن زيد - وقيل المعنى : إنك لأنت الحليم الرشيد عند نفسك . وقيل : بل قالواه على جهة الحقيقة وأنه اعتقادهم فيه ، فكأنهم فندوه ، أي أنه حليم رشيد فلا ينبغي لك أن تأمرنا بهذه الأوامر ، ويشبه هذا المعنى قول اليهود من بني قريظة ، حين قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا إخوة القردة" ، يا محمد ما علمناك جهولاً .

قال القاضي أبو محمد : والشبه بين الأمرين إنما هو المناسبة بين كلام شعيب وتلطفه ، وبين ما بادر به محمد عليه السلام بني قريظة .

وقوله تعالى : ﴿ قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة ﴾ ، الآية ، هذه مراجعة لطيفة واستنزال حسن واستدعاء رفيق ونحوها عن محاورة شعيب عليه السلام ، قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك خطيب الأنبياء . وجواب الشرط الذي في قوله : ﴿ إن كنت على بيّنة من ربي ﴾ محذوف تقديره : أأضل كما ضللتم وأترك تبليغ الرسالة ؟ ونحو هذا مما يليق بهذه المحاجة ؟ و﴿ بيّنة ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى : بيان أو بين ، ودخلت الهاء للمبالغة - كعلامة - ويحتمل أن تكون صفة لمحذوف ، فتكون الهاء هاء تأنيث .

وقوله : ﴿ ورزقني منه رزقاً حسناً ﴾ يريد : خالصاً من الفساد الذي أدخلتم أنتم أموالكم . ثم قال لهم : ولست أريد أن أفعل الشيء الذي نهيتكم عنه من نقص الكيل والوزن ، فأستأثر بالمال لنفسي ، وما أريد إلا إصلاح الجميع ، و﴿ أنيب ﴾ معناه : أرجع وأتوب وأستند . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(23/384)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يا شعيب أَصَلَوَاتُكَ ﴾

وقرىء "أَصَلاَتُكَ" من غير جمع .

﴿ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَآ ﴾ "أن" في موضع نصب ؛ قال الكسائي : موضعها خفض على إضمار الباء .

وروي أن شعيباً عليه السلام كان كثير الصلاة ، مواظباً على العبادة فرضها ونفلها ويقول : الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ؛ فلما أمرهم ونهاهم عيّروه بما رأوه يستمرّ عليه من كثرة الصلاة ، واستهزؤوا به فقالوا ما أخبر الله عنهم .

وقيل : إن الصلاة هنا بمعنى القراءة ؛ قاله سفيان عن الأعمش ، أي قراءتك تأمرك ؛ ودلّ بهذا على أنهم كانوا كفاراً .

وقال الحسن : لم يبعث الله نبيّاً إلا فرض عليه الصلاة والزكاة .

﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ في أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ زعم الفراء أن التقدير : أو تنهانا أن نفعل في أموالنا ما نشاء .

وقرأ السُّلَميّ والضّحاك بن قيس "أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء" بالتاء في الفعلين ، والمعنى : ما تشاء أنت يا شعيب .

وقال النحاس : "أو أن" على هذه القراءة معطوفة على "أن" الأولى .

ورُوي عن زيد بن أسلم أنه قال : كان مما نهاهم عنه حَذْف الدراهم .

وقيل : معنى .

"أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ" إذا تراضينا فيما بيننا بالبخس فلِم تمنعنا منه ؟! .

﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ يعنون عند نفسك بزعمك ؛ ومثله في صفة أبي جهل :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ ﴾ [الدخان : 49] أي عند نفسك بزعمك .

وقيل : قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية ، قاله قتادة .

ومنه قولهم للحبشي : أبو البيضاء ، وللأبيض أبو الْجَون ؛ ومنه قول خزنة جهنم لأبي جهل .

"ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ" .

وقال سفيان بن عُيَينة : العرب تصف الشيء بضدّه للتطيّر والتفاؤل ، كما قيل لِلَّدِيغ سَلِيم ، وللفلاة مَفازة .

(24/384)

وقيل : هو تعريض أرادوا به السبّ ؛ وأحسن من هذا كله ، ويدلّ ما قبله على صحته ، أي إنك أنت الحليم الرشيد حقاً ، فكيف تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا ويدلّ عليه .

﴿ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَآ ﴾ أنكروا لما رأوا من كثرة صلاته وعبادته ، وأنه حليم رشيد بأن يكون يأمرهم بترك ما كان يعبد آباؤهم ، وبعده أيضاً ما يدلّ عليه .

﴿ قَالَ يا قومِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً ﴾ أي أفلا أنهاكم عن الضلال ؟! وهذا كله يدلّ على أنهم قالوه على وجه الحقيقة ، وأنه اعتقادهم فيه .

ويشبه هذا المعنى قول اليهود من بني قريظة للنبي صلى الله عليه وسلم حين قال لهم : "يا إخوة القردة" فقالوا : يا محمد ما علمناك جهولا ! .

مسألة : قال أهل التفسير : كان مما ينهاهم عنه ، وعُذبوا لأجله قطع الدنانير والدراهم ؛ كانوا يقرضون من أطراف الصحاح لتفضل لهم القُراضة ، وكانوا يتعاملون على الصحاح عدّاً ، وعلى المقروضة وزنا ، وكانوا يبخسون في الوزن .

وقال ابن وهب قال مالك : كانوا يكسرون الدنانير والدراهم ، وكذلك قال جماعة من المفسرين المتقدّمين كسعيد بن المسيّب ، وزيد بن أسلم وغيرهما ؛ وكسرهما ذنب عظيم .

وفي كتاب أبي داود عن علقمة بن عبد الله عن أبيه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكسر سكّة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس ؛ فإنها إذا كانت صحاحاً قام معناها ، وظهرت فائدتها ، وإذا كسرت صارت سِلعة ، وبطلت منها الفائدة ؛ فأضر ذلك بالناس ؛ ولذلك حرم .

وقد قيل في تأويل قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي المدينة تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأرض وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل : 48] أنهم كانوا يكسرون الدراهم ؛ قاله زيد بن أسلم .

قال أبو عمر بن عبد البر : زعموا أنه لم يكن بالمدينة أعلم بتأويل القرآن من زيد بن أسلم بعد محمد بن كعب القُرَظيّ .

(25/384)

مسألة : قال أصْبغ قال عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جُنادة مولى زيد بن الحارث العُتَقيّ : من كسرها لم تقبل شهادته ، وإن اعتذر بالجهالة لم يعذر ، وليس هذا بموضع عذر ؛ قال ابن العربي : أما قوله : لم تقبل شهادته فلأنه أتى كبِيرةً ، والكبائر تسقط العدالة دون الصغائر ؛ وأما قوله : لا يقبل عذره بالجهالة في هذا فلأنه أمرٌ بيّنٌ لا يخفى على أحد ، وإنما يقبل العذر إذا ظهر الصدق فيه ، أو خفِي وجه الصدق فيه ، وكان الله أعلم به من العبد كما قال مالك .

مسألة : إذا كان هذا معصية وفساداً تردّ به الشهادة فإنه يعاقب من فعل ذلك .

ومرّ ابن المسيّب برجل قد جُلد فقال : ما هذا ؟ قال رجل : يقطع الدنانير والدراهم ؛ قال ابن المسيّب : هذا من الفساد في الأرض ؛ ولم ينكر جلده ؛ ونحوه عن سفيان .

وقال أبو عبد الرحمن التّجِيبي : كنت قاعداً عند عمر بن عبد العزيز وهو إذ ذاك أمير المدينة فأتى برجل (يقطع الدراهم) وقد شُهِد عليه فضربه وحلَقه ، وأمر فطِيف به ،

وأمره أن يقول : هذا جزاء من يقطع الدراهم ؛ ثم أمر أن يُرَدّ إليه ؛ فقال : إنه لم يمنعني أن أقطع يدك إلا أني لم أكن تقدّمت في ذلك قبل اليوم ، وقد تقدّمت في ذلك فمن شاء فليقطع .

(26/384)

قال القاضي أبو بكر بن العربيّ : أما أدبه بالسوط فلا كلام فيه ، وأما حلقه فقد فعله عمر ؛ وقد كنت أيام الحكم (بين الناس) أضرب وأحلق ، وإنما كنت أفعل ذلك بمن يرى شعره عوناً له على المعصية ، وطريقاً إلى التجمل به في الفساد ، وهذا هو الواجب في كل طريق للمعصية ، أن يقطع إذا كان غير مؤثر في البدن ، وأما قطع يده فإنما أخذ ذلك عمر من فصل السرقة ؛ وذلك أن قرض الدراهم غير كسرها ، فإن الكسر إفساد الوصف ، والقرض تنقيص للقدر ، فهو أخْذُ مالٍ على جهة الاختفاء ؛ فإن قيل : أليس الحِرز أصلاً في القطع ؟ قلنا : يحتمل أن يكون عمر يرى أن تهيئها للفصل بين الخلق ديناراً أو درهماً حِرز لها ، وحِرز كل شيء على قدر حاله ؛ وقد أنفذ ذلك ابن الزبير ، وقطع يد رجل في قطع الدنانير والدراهم .

وقد قال علماؤنا المالكية : إن الدنانير والدراهم خواتيم الله عليها اسمه ؛ ولو قطع على قول أهل التأويل من كسر خاتماً لله كان أهلاً لذلك ، أو من كسر خاتم سلطان عليه اسمه

أدّب ، وخاتم الله تقضى به الحوائج فلا يستويان في العقوبة .

قال ابن العربيّ : وأرى أن يقطع في قرضها دون كسرها ، وقد كنت أفعل ذلك أيام توليتي الحكم ، إلا أني كنت محفوفاً بالجهال ، فلم أجبن بسبب المقال للحسدة الضلال فمن قدر عليه يوماً من أهل الحق فليفعله احتساباً لله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يا قومِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ تقدم .

﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَنَاً ﴾ أي واسعاً حلالاً ، وكان شعيب عليه السلام كثير المال ، قاله ابن عباس وغيره .

وقيل : أراد به الهدى والتوفيق ، والعلم والمعرفة ، وفي الكلام حذف ، وهو ما ذكرناه ، أي أفلا أنهاكم عن الضلالا وقيل : المعنى "أرأيتم إن كنت على بينة من ربي" أتبع الضلال ؟ وقيل : المعنى "أرأيتم إن كنت على بينة من ربي" أتأمروني بالعصيان في البخس والتطفيف ، وقد أغناني الله (عنه) .

(27/384)

﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ ﴾ في موضع نصب ب"أُرِيدُ" .

﴿ إِلَى مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ أي ليس أنهاكم عن شيء وأرتكبه ، كما لا أترك ما أمرتكم به .

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصلاحَ مَا استطعت ﴾ أي ما أريد إلا فعل الصلاح؛ أي أن تصلحوا دنياكم بالعدل، وآخرتكم بالعبادة، وقال: "مَا اسْتَطَعْتُ" لأن الاستطاعة من شروط الفعل دون الإرادة.

و"ما" مصدرية، أي إن أريد إلا الإِصلاح جهدي واستطاعتي.

﴿ ومَا توفيقي ﴾ أي رشدي، والتوفيق الرشد.

﴿ إِلاّ بالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي اعتمدت.

﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي أرجع فيما ينزل بي من جميع النوائب.

وقيل: إليه أرجع في الآخرة.

وقيل: إن الإنابة الدعاء، ومعناه وله أدعو. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(28/384)

وقال الخازن:

﴿ قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ﴾

(29/384)

يعني من الأصنام ﴿ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ يعني من الزيادة والنقصان ، قال ابن عباس : كان شعيب كثير الصلاة فلذلك قالوا هذا وقيل إنهم كانوا يمرون ب فيرونه يصلي فيستهزئون به ويقولون هذه المقالة ، وقال الأعمش : أقراءتك لأن الصلاة تطلق على القراءة والدعاء وقيل المراد بالصلاة هنا الدين يعني أدينك يأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا وأن نفعل في أموالنا ما نشاء وذلك أنهم كانوا ينقصون الدراهم والدنانير فكان شعيب عليه السلام ينهاهم عن ذلك ويخبرهم أنه محرم عليهم وإنما ذكر الصلاة لأنها من أعظم شعائر الدين ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ قال ابن عباس : أرادوا السفيه الغاوي لأن العرب قد تصف الشيء بضده فيقولون للديغ سليم وللفلاة المهكلة مفازة ، وقيل : هو على حقيقته وإنما قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية ، وقيل : معناه إنك لأنت الحليم الرشيد في زعمك وقيل هو على بابه من الصحة ومعناه إنك يا شعيب فينا حليم رشيد فلا يحمل بك شق عصا قومك ومخالفتهم في دينهم ﴿ قال ﴾ يعني قال لهم شعيب ﴿ يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ﴾ يعني : على بصيرة وهداية وبيان ﴿ ورزقني منه رزقاً حسناً ﴾ يعني حلالاً قيل كان شعيب كثير المال الحلال والنعمة وقيل الرزق الحسن ما أتاه الله من العلم والهداية والنبوة والمعرفة وجواب إن الشرطية محذوف تقديره أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني المال الحلال والهداية والمعرفة والنبوة فهل يسعني مع هذه النعمة أن أخون في

وحيه أو أن أخالف أمره أو أتبع الضلال أو أبخس الناس أشياءهم ، وهذا الجواب شديد المطابقة لما تقدم ذلك أنهم قالوا له إنك لأنت الحليم الرشيد والمعنى فكيف يليق بالحليم الرشيد أن يخالف أمر ربه وله عليه نعم كثيرة وقوله : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ قال صاحب الكشاف يقول خالفني فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مول عنه وخالفني عنه إذا ولى عنه وأنت قاصده ويقال الرجل

(30/384)

صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول خالفني إلى الماء يريد أنه قد ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صداراً ومنه قوله ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ أي أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم .

قال الإمام فخر الدين الرازي : وتحقيق الكلام فيه أن القوم اعترفوا فيها بأنه حليم رشيد وذلك يدل على كمال العقل وكمال العقل يحمل صاحبه على اختيار الطريق الأصوب الأصلح فكأنه عليه السلام قال لهم لما اعترفتم بكمال عقلي فاعلموا أن الذي اخترته لنفسي هو أصوب الطرق وأصلحها وهو الدعوة إلى توحيد الله وترك البخس والنقصان فأنا مواظب عليها غير تارك لها فاعلموا أن هذه الطريقة خير الطرق وأشرفها لا ما أنتم

عليه وقال الزجاج: معناه إني لست أنهاكم عن شيء وأدخل فيه إنما أختار لكم لنفسي وقال ابن الأنباري بين أن الذي يدعوهم إليه من اتباع طاعة الله وترك البخس والتطفيف هو ما يرتضيه لنفسه وهو لا ينطوي إلا عليه فكان هذا محض النصيحة لهم ﴿ إن أريد ﴾ يعني ما أريد فيما آمركم به وإنهاكم عنه ﴿ إلا الإصلاح ﴾ يعني فيما بيني وبينكم ﴿ ما استطعت ﴾ يعني ما استطعت إلا الإصلاح وهو الإبلاغ والإنذار فقط ولا أستطيع إجباركم على الطاعة لأن ذلك إلى الله فإنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿ وما توفيقي إلا بالله ﴾ التوفيق تسهيل سبيل الخير والطاعة على العبد ولا يقدر على ذلك إلا الله تعالى فلذلك قال تعالى: ﴿ وما توفيقي إلا بالله ﴾ ﴿ عليه توكلت ﴾ يعني على الله اعتمدت في جميع أموري ﴿ وإليه أنيب ﴾ يعني وإليه أرجع فيما ينزل من النوائب وقيل إليه أرجع في معادي روي أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان إذا ذكر شعيباً قال " ذلك خطيب الأنبياء " لحسن مراجعته قومه. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(31/384)

وقال أبو حيان:

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾

لما أمرهم شعيب بعبادة الله وترك عبادة أوثانهم ، وبإيفاء المكيال والميزان ، ردّوا عليه على سبيل الاستهزاء والهزء بقولهم : أصلاتك ، وكان كثير الصلاة ، وكان إذا صلى تغامزوا وتضاحكوا أن نترك ما يعبد آباؤنا مقابل لقوله : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء مقابل لقوله : ﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴾ وكون الصلاة آمرة هو على وجه المجاز ، كما كانت ناهية في قوله : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ أو يقال : إنها تأمر بالجميل والمعروف أي : تدعو إليه وتبعث عليه . إلا أنهم ساقوا الكلام مساق الطنز ، وجعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهكم بصلاته .

والمعنى : فأمرك بتكليفنا أن نترك ، فحذف المضاف لأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره .

والظاهر أنه أريد بالصلاة الصلاة المعهودة في تلك الشريعة .

وقال الحسن : لم يبعث الله نبياً إلى فرض عليه الصلاة والزكاة .

وقيل : أريد قراءتك .

وقيل : مساجدك .

وقيل : دعواتك .

وقرأ ابن وثاب والأخوان وحفص : أصلاتك على التوحيد .

وقرأ الجمهور : أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء بالنون فيهما .

وقرأ الضحاك بن قيس ، وابن أبي عبلة ، وزيد بن علي : بالتاء فيهما على الخطاب ،

ورويت عن أبي عبد الرحمن .

وقرأ أبو عبد الرحمن وطلحة : نفعل بالنون ، ما نشاء بالتاء على الخطاب ، ورويت عن ابن عباس .

فمن قرأ بالنون فيهما فقوله : أو أن نفعل معطوف على قوله : ما يعبد أي : أن نترك ما يعبد آباؤنا وفعلنا في أموالنا ما نشاء .

ومن قرأ بالتاء فيهما أو بالنون فيهما فمعطوف على أن نترك أي : تأمرك بترك ما يعبد آباؤنا ، وفعلك في أموالنا ما تشاء ، أو وفعلنا في أموالنا ما تشاء .

وأو للتنويع أي : تأمرك مرة بهذا ، ومرة بهذا .

وقيل : بمعنى الواو .

(32/384)

والظاهر أنّ الذي كانوا يفعلونه في أموالهم هو بخس الكيل والوزن المقدّم ذكره .

وقال محمد بن كعب : قرضهم الدينار والدرهم ، وإجراء ذلك مع الصحيح على جهة التدليس ، وعن ابن المسيب : قطع الدنانير والدراهم من الفساد في الأرض .

وقيل : تبديل السكك التي يقصد بها أكل أموال الناس .

ومن قرأ بالتاء فيهما أو في نشاء ، والظاهر أنه إيفاء المكيال والميزان .

وقال سفيان الثوري : كان يأمرهم بالزكاة .

وقوله : إنك لأنت الحليم الرشيد ظاهره أنه إخبار منهم عنه بهذين الوصفين الجميلين ، فيحتمل أن يريدوا بذلك الحقيقة أي : أنك للمتصف بهذين الوصفين ، فكيف وقعت في هذا الأمر من مخالفتك دين آبائنا وما كانوا عليه ، ومثلك من يمنعه حلمه ورشده عن ذلك .

أو يحتمل أن يريدوا بذلك إنك لأنت الحليم الرشيد بزعمك إذ تأمرنا بما تأمر به .

أو يحتمل أن قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء والتهكم ، قاله قتادة .

والمراد : نسبته إلى الطيش والعي كما تقول للشحيح : لو رآك حاتم لسجد لك ، وقالوا للحبشي : أبو البيضاء .

قال : يا قوم أرأيتم إن كنت هذه مراجعة لطيفة واستنزال حسن ، واستدعاء رقيق ، ولذلك قال فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " ذلك خطيب الأنبياء " وهذا النوع يسمى استدراج المخاطب عند أرباب علم البيان ، وهو نوع لطيف غريب المغزى يتوصل به إلى بلوغ الغرض ، وقد ورد منه في قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه ، وفي قصة نوح وهود وصالح ، وفي قصة مؤمن آل فرعون مع قومه .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : أين جواب أرأيتم ، وما له لم يثبت كما ثبت في قصة نوح وصالح ؟ (قلت) : جوابه محذوف ، وإنما لم يثبت لأنّ إثباته في الصفتين دل على مكانه ،

ومعنى الكلام يناوي عليه ، والمعنى أخبروني إن كنت على حجة واضحة ويقين من ربي ، وكنت نبياً على الحقيقة ، أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصي ، والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك انتهى .

(33/384)

وتسمية هذا جواباً لأرأيتم ليس بالمصطلح ، بل هذه الجملة التي قدرها هي في موضع المفعول الثاني لأرأيتم ، لأنّ أرأيتم إذا ضمنت معنى أخبرني تعدت إلى مفعولين ، والغالب في الثاني أن يكون جملة استفهامية تنعقد منها ومن المفعول الأول في الأصل جملة ابتدائية كقول العرب : أرأيتك زيداً ما صنع .

وقال الحوفي : وجواب الشرط محذوف لدلالة الكلام عليه ، والتقدير : فاعدل عن ما أنا عليه من عبادته على هذه الحال .

وقال ابن عطية : وجواب الشرط الذي في قوله : إن كنت على بينة من ربي محذوف تقديره : أضل كما ضللتم ، أو أترك تبليغ الرسالة ونحو هذا مما يليق بهذه المحاجة انتهى .

وليس قوله : أضل جواباً للشرط ، لأنه إن كان مثبتاً فلا يمكن أن يكون جواباً لأنه لا يترتب على الشرط وإن كان استفهاما حذف منه الهمزة ، فهو في موضع المفعول الثاني لأرأيتم ،

وجواب الشرط محذوف تدل عليه الجملة السابقة مع متعلقها .

والظاهر في قوله : رزقاً حسناً أنه الحلال الطيب من غير بخس ولا تطفيف أدخلتموه أموالكم .

قال ابن عباس : الحلال ، وكان شعيب عليه السلام كثير المال .

وقيل : النبوة .

وقيل : العلم .

وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه المعنى : لست أريد أن أفعل الشيء الذي نهيتكم عنه من نقص الكيل والوزن واستأثر بالمال قاله : ابن عطية .

وقال قتادة : لم أكن لأنهاكم عن أمر ثم أرتكبه .

وقال صاحب الغنيان : ما أريد أنْ أخالفكم في السرّ إلى ما أنهاكم عنه في العلانية .

ويقال : خالفني فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مولّ عنه ، وخالفني عنه إذا ولّى عنه وأنت قاصده ، ويلقاك الرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه فتقول : خالفني إلى الماء ، تريد أنه قد ذهب إليه وارداً ، وأنا ذاهب عنه صادراً .

والمعنى أنّ أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها لاستبد بها دونكم ، فعلى هذا الظاهر أن قوله : أن أخالفكم في موضع المفعول لأريد ، أي وما أريد مخالفتكم ، ويكون خالف بمعنى خلف نحو : جاوز وجاز أي : وما أريد أن أخلفكم أي : أكون خلفاً منكم .

وتعلق إلى باخالفكم ، أو بمحذوف أي : مائلاً إلى ما أنهاكم عنه ، ولذلك قال بعضهم : فيه حذف يقتضيه إلى تقديره : وأميل إلى ، أو يبقى أن أخالفكم على ظاهر ما يفهم من المخالفة ، ويكون في موضع المفعول به بأريد ، وتقدر : مائلاً إلى ، أو يكون أن أخالفكم مفعولاً من أجله ، وتعلق إلى بقوله وما أريد بمعنى ، وما أقصد أي : وما أقصد لأجل مخالفتكم إلى ما أنهاكم عنه ، ولذلك قال الزجاج : وما أقصد بخلافكم إلى ارتكاب ما أنهاكم عنه .

والظاهر أن ما مصدرية ظرفية أي مدة استطاعتي للإصلاح ، وما دمت متمكناً منه لا آلوا فيه جهداً .

وأجاز الزمخشري في ما وجوهاً أحدها : أن يكون بدلاً من الإصلاح أي : المقدر الذي استطعته ، أو على حذف مضاف تقديره : إلا الإصلاح إصلاح ما استطعت ، فهذان وجهان في البدل .

والثالث : أن يكون مفعولاً كقوله :

ضعيف النكاية أعداءه .

أي ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه من فاسدكم ، وهذا الثالث ضعيف ، لأن المصدر المعرّف بأل لا يجوز إعماله في المفعول به عند الكوفيين ، وأما البصريون فإعماله عندهم فيه قليل .

وما توفيقي أي لدعائكم إلى عبادة الله وحده ، وترك ما نهاكم عنه إلا بمعونة الله .

أو وما توفيقي لأنْ تكون أفعالي مسددة موافقة لرضا الله لا بمعونته ، عليه توكلت لا على غيره ، وإليه أنيب أرجع في جميع أقوالي وأفعالي .

وفي هذا طلب التأييد من الله تعالى ، وتهديد للكفار وحسم لأطماعهم أن ينالوه بشر .

انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(35/384)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالُواْ يا شعيب أصلاتك تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا ﴾

من الأوثان أجابوا بذلك أمرَه عليه السلام إياهم بعبادة الله وحدَه المتضمنَ لنهيهم عن عبادة الأصنامِ ولقد بالغوا في ذلك وبلغوا أقصى مراتبِ الخلاعة والمُجون والضلال حيث لم يكتفوا بإنكار الوحي الآمرِ بذلك حتى ادّعَوا أن لا أمرَ به من العقل واللُّب أصلاً وأنه من أحكام

الوسوسةِ والجنون ، وعلى ذلك بنوا استفهامَهم وقالوا بطريق الاستهزاءِ : أصلاتُك التي هي من نتائج الوسوسةِ وأفاعيلِ المجانين تأمُرك بأن نترك عبادةَ الأوثان التي توارَثْناها أباً عن جد ؟ وإنما جعلوه عليه السلام مأموراً مع أن الصادرَ عنه إنما هو الأمرُ بعبادة الله وغيرُ ذلك من الشرائع ، لأنه عليه السلام لم يكن يأمرهم بذلك من تلقاء نفسه بل من جهة الوحي وأنه كان يعلمهم بأنه مأمورٌ بتبليغه إليهم ، وتخصيصُهم بإسناد الأمر إلى الصلاة من بين سائر أحكامِ النبوة لأنه عليه الصلاة والسلام كان كثيرَ الصلاةِ معروفاً بذلك ، وكانوا إذا رأوه يصلي يتغامزون ويتضاحكون فكانت هي من بين سائرِ شعائرِ الدينِ ضِحْكةً لهم وقرىء أصلواتُك ﴿ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِى أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ جوابٌ عن أمره عليه السلام بإيفاء الحقوقِ ونهيِه عن البخس والنقصِ معطوفٌ على ما ، أي أو أن نتركَ أن نفعلَ في أموالنا ما نشاء من الأخذ والإعطاءِ والزيادةِ والنقصِ ، وقرىء بالتاء في الفعلين عطفاً على مفعول تأمُرك أي أصلاتك تأمرك أن تفعل أنت في أموالنا ما تشاء ، وتجويزُ العطفِ على ما قيل يستدعي أن يراد بالترك معنيان متخالفان ، والمرادُ بفعله عليه السلام إيجابُ الإيفاءِ والعدلِ في معاملاتهم لا نفسُ الأيفاء ، فإن ذلك ليس من أفعاله عليه السلام بل من أفعالهم ، وإنما لم نقُلْ عطفاً على أن نتركُ لأن الترك ليس مأموراً به على الحقيقة ، بل المأمورُ به تكليفُه عليه السلام إياهم وأمرُه بذلك ، والمعنى أصلاتُك تأمُرك أن تكلِّفَنا أن نترك ما يعبدُ آباؤُنا ، وحملُه على معنى أصلاتُك

(36/384)

تأمرك بما ليس في وُسعك وعُهدتك من أفاعيل غيرِك ليكون ذلك تعريضاً منهم بركاكة رأيِه عليه السلام واستهزاءً به من تلك الجهةِ يأباه دخولُ الهمزةِ على الصلاة دون الأمرِ ويستدعي أن يصدُر عنه عليه السلام في أثناء الدعوةِ ما يدل على ذلك أو يوهمه وأبى ذلك فتأمل .

وقرىء بالنون في الأول والتاء في الثاني عطفاً على أن نترك أي أو أن نفعل نحن في أموالنا عند المعاملةِ ما تشاء أنت من التسوية والإيفاء

﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد ﴾ وصفوه عليه السلام بالوصفين على طريقة التهكم ، وإنما أرادوا بذلك وصفَه بضدّيهما كقول الخزَنة : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ ويجوز أن يكون تعليلاً لما سبق من استبعاد ما ذكروه على معنى إنك لأنت الحليمُ الرشيد على زعمك ، وأما وصفُه بهما على الحقيقة فيأباه مقامُ الاستهزاء ، اللهم إلا أن يُراد بالصلاة الدينُ كما قيل .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيّنَةٍ ﴾

(37/384)

أي حجة واضحةٍ وبرهانٍ نيّرٍ ، عبّر عما آتاه الله تعالى من النبوة والحكمة رداً على مقالتهم الشنعاءِ في جعلهم أمرَه ونهيَه غيرَ مستندٍ إلى سند ﴿ مِّن رَّبِّى ﴾ ومالكِ أموري ، وإيرادُ حرفِ الشرط مع جزمه عليه السلام بكونه على ما هو عليه من البينات والحججِ لاعتبار حال المخاطَبين ومراعاةِ حُسنِ المحاورةِ معهم كما ذكرناه في نظائره ﴿ وَرَزَقَنِى مِنْهُ ﴾ أي من لديه ﴿ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ هو النبوةُ والحِكمةُ أيضاً عبّر عنهما بذلك تنبيهاً على أنهما مع كونهما بينةً رزقٌ حسنٌ ، كيف لا وذلك مناطُ الحياةِ الأبديةِ له ولأمته ، وجوابُ الشرط محذوفٌ يدل عليه فحوى الكلامِ أي أتقولون والمعنى إنكم نظمتموني في سلك السفهاءِ والغُواةِ وعددتم ما صدر عني من الأوامر والنواهي من قبيل ما لا يصِح أن يتفوّه به عاقل وجعلتموه من أحكام الوسوسةِ والجنون واستهزأتم بي وبأفعالي حتى قلتم إن أمرتُكم به من التوحيد وتركِ عبادة الأصنامِ والاجتنابِ عن البخس والتطفيفِ ليس مما يأمر به آمرُ العقلِ ويقضي به قاضي الفِطنة ، وإنما تأمُر به صلاتُك التي هي من أحكام الوسوسةِ والجنون فأخبروني إن كنت من جهة ربي ومالكِ أموري ثابتاً على النبوة والحِكمةِ التي ليس وراءَها غايةٌ للكمال ولا مطمَحٌ لطامح ورزقني بذلك رزقاً حسناً أتقولون في شأني وشأنِ أفعالي ما تقولون مما لا خيرَ فيه ولا شرَّ وراءه هذا هو الجوابُ الذي يستدعيه السباقُ والسياقُ ويساعده النظمُ الكريمُ .

وأما ما قيل من أن المحذوفَ أيصِحّ لي أن لا آمركم بترك عبادةِ الأوثانِ والكفّ عن المعاصي ، أو أهل يسعُ لي مع هذا الإنعام الجامعِ للسعادات الروحانيةِ والجُسمانية أن أخونَ في وحيه وأخالفَه في أمره ونهيه فبمعزل من ذلك ، وإنما يناسب تقديرُه إن حمل كلامُهم على الحقيقة وأريد بالصلاة الدينُ على معنى : أدينُك يأمرُك أن تكلفنا بترك عبادةِ آلهتنا القديمة وتركِ التصرّفِ المطلق في أموالنا وتخالفنا في ذلك وتشُقّ عصانا ، وهذا مما لا ينبغي أن يصدُر عنك فإنك أنت المشهورُ بالحلم الفاضلِ والرشدِ الكاملِ فيما بيننا كما كان قولُ قومِ صالح ﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا ﴾ مسروداً على ذلك النمطِ فأُجيبوا بما أجيبوا به ، وعلى هذا الوجهِ يكون المرادُ بالرزق الحسنِ الحلالَ الذي آتاه الله تعالى ، والمعنى حينئذ أخبروني إن كنت نبياً من عند الله تعالى ورزقني مالاً حلالاً أستغني به عن العالمين أيصِحّ أن أخالف أمرَه وأوافقكم فيما تأتون وما تذرون .

﴿ وَمَا أُرِيدُ ﴾ بنهيي إياكم عما أنهاكم عنه من البخس والتطفيف ﴿ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إلى مَا أنهاكم عَنْهُ ﴾ أي أقصِدَه بعد ما وليتم عنه وأستبدّ به دونكم .

يقال: خالفت زيداً إلى كذا إذا قصدته وهو مولٍ عنه وخالفتُه عن كذا إذا كان الأمرُ على العكس ﴿ إِنْ أُرِيدُ ﴾ بما أباشره من الأمر والنهي ﴿ إِلَّا الإصلاح ﴾ إلا أن أُصلِحكم بالنصيحة والموعظة ﴿ مَا اسْتطعت ﴾ أي مقدارَ ما استطعتُه من الإصلاح، والتقييدُ به للاحتراز عن الاكتفاء بالإصلاح في الجملة لا عن إرادة ما ليس في وُسعه منه ﴿ وَمَا تَوْفِيقِى ﴾ أي كوني موفقاً لتحقيق ما أنتحيه من إصلاحكم ﴿ إِلَّا بالله ﴾ أي بتأييده ومعونتِه بل الإصلاحُ من حيث الخلقُ مستندٌ إليه سبحانه وإنما أنا من مباديه الظاهرة قاله عليه السلام تحقيقاً للحق وإزاحةً لما عسى يوهمه إسنادُ الاستطاعةِ إليه بإرادته من استبداده بذلك ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في ذلك مُعرِضاً عما عداه فإنه القادرُ على كل مقدورٍ وما عداه عاجزٌ محْضٌ في حد ذاتِه بل معدومٌ ساقطٌ عن درجة الاعتبار بمعزل عن مرتبة الاستمدادِ به والاستظهار ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي أرجعُ فيما أنا بصدده، ويجوز أن يكون المرادُ وما كوني موفقاً لإصابةِ الحقِ والصوابِ في كل ما آتي وأذر إلا بهدايته ومعونتِه عليه توكلتُ، وهو إشارةٌ إلى محض التوحيدِ الذاتي والفعليّ وإليه أنيب، أي عليه أقبل بشراشِر نفسي في مجامع أموري. وإيثارُ صيغةِ الاستقبالِ على الماضي الأنسبِ للتقرر والتحقّقِ كما في التوكل لاستحضار الصورةِ والدلالةِ على الاستمرار، ولا يخفى ما في جوابه عليه السلام من مراعاة لطفِ المراجعةِ ورِفق الاستنزالِ والمحافظةِ على قواعد حسنِ المجاراة

والمحاورَة وتمهيدِ معاقدِ الحقّ بطلب التوفيقِ من جناب الله تعالى والاستعانةِ في أموره ، وحسمِ أطماعِ الكفار وإظهار الفراغِ عنهم وعدمِ المبالاة بمعاداتهم ، وأما تهديدُهم بالرجوع إلى الله تعالى للجزاء كما قيل فلا لأن الإنابَة إنما هي الرجوعُ الاختياريُّ بالفعل إلى الله تعالى لا الرجوعُ الاضطراريُّ للجزاء أو ما يعمه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(40/384)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا ﴾

من الأصنام أجابوا بذلك أمره عليه السلام إياهم بعبادة الله تعالى وحده المتضمن لنهيهم عن عبادة الأصنام وغرضهم منه إنكار الوحي الآملا لكنهم بالغوا في ذلك إلى حيث أنكروا أن يكون هناك آمر من العقل وزعموا أن ذلك من أحكام الوسوسة والجنون قاتلهم الله أني يؤفكون ، وعلى هذا بنوا استفهامهم وأخرجوا كلامهم وقالوا بطريق الاستهزاء : ﴿ أصلاتك ﴾ التي هي من نتائج الوسوسة وأفاعيل المجانين تأمرك بأن نترك ما استمر على عبادته آباؤنا جيلاً بعد جيل من الأوثان والتماثيل .

وإنما جعلوه عليه السلام لم يكن يأمرهم من تلقاء نفسه بل من جهة الوحي وأنه كان يعلمهم بأنه مأمور بتبليغه إليهم ، وتخصيصهم إسناد الأمر إلى الصلاة من بين سائر أحكام النبوة لأنه عليه السلام كان كثير الصلاة معروفاً بذلك ، بل أخرج ابن عساكر عن الأحنف أنه عليه السلام كان أكثر الأنبياء صلاة ، وكانوا إذا رأوه يصلي يتغامزون ويتضاحكون فكانت هي من بين شعائر الدين ضحكة لهم ، وقيل : إن ذلك لأنه عليه السلام كان يصلي ويقول لهم : إن الصلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، وروي هذا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وإلى الأول ذهب غير واحد ، وهذا الإسناد حقيقي لا مجازي غاية ما في الباب أنهم قصدوا الحقيقة تهكماً ، واختيار المضارع ليدل على العموم بحسب الزمان ، وقوله سبحانه : ﴿ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ ﴾ على تقدير بتكليف أن نترك فحذف المضاف وهو تكليف ، فدخل الجار على ﴿ إن ﴾ ثم حذف وحذفه قبلها مطرد ، وعرف التخاطب في مثله يقتضي ذلك ، وقيل : إن الداعي إليه أن الشخص لا يكلف بفعل غيره لأنه غير مقدور له أصلاً ، وقيل : لا تقدير ، والمعنى أصلاتك تأمرك بما ليس في وسعك وعهدتك من أفاعيل غيرك وغرضهم من ذلك التعريض بركاكة رأيه وحاشاه عليه السلام ،

والاستهزاء به من تلك الجهة ، وتعقب بأنه يأباه دخول الهمزة على الصلاة دون الأمر ، ويستدعي أن يصدر عنه عليه السلام في أثناء الدعوة ما يدل على ذلك أو يوهمه ، وأني ذلك ؟ فتأمل ، وقرأ أكثر السبعة أصلواتك بالجمع ، وأمر الجمع بين القراءتين سهل ، وقوله تعالى : ﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِى أموالنا مَا نَشَؤُا ﴾ أجابوا به أمره عليه السلام بإيفاء الحقوق ونهيه عن البخس والنقص وهو عطف على ﴿ مَا ﴾ وأو بمعنى الواو أي وأن نترك فعلنا ما نشاء في أموالنا من التطفيف وغيره ، ولا يصح عطفه على ﴿ أَن نَّتْرُكَ ﴾ لاستحالة المعنى إذ يصير حينئذ تأمرك بفعلنا في أموالنا ما نشاء من التطفيف

(42/384)

وغيره وهم منهيون عن ذلك لا مأمورون به ، وحمل ﴿ مَا ﴾ على ما أشرنا إليه هو الظاهر ، وقيل : كانوا يقرضون الدراهم والدنانير ويجرونها مع الصحيحة على جهة التدليس فنهوا عن ذلك فقالوا ما قالوا ، وروي هذا عن محمد بن كعب ، وأدخل بعضهم ذلك الفعل في العثى في الأرض فيكون انلهي عنه نهياً عنه .

ولا مانع من اندراجه في عموم ﴿ مَا ﴾ ، وقرأ الضحاك بن قيس .

وابن أبي عبلة .

وزيد بن علي بالتاء في الفعلين على الخطاب فعالعطف على مفعول ﴿ تَأْمُرُكَ ﴾ أي أصلاتك تأمرك أن تفعل في أموالنا ما تشاء أي من إيفاء المكيال والميزان كما هو الظاهر، وقيل: من الزكاة، فقد كان عليه السلام يأمرهم بها كما روي عن سفيان الثوري، قيل: وفي الآية على هذا مع حمل الصلاة على ما يتبادر منها دليل على أنه كان في شريعته عليه السلام صلاة وزكاة، وأيد بما روي عن الحسن أنه قال: لم يبعث الله تعالى نبياً إلا فرض عليه الصلاة والزكاة، وأنت تعلم أن حمل ﴿ مَا تَشَاءُ ﴾ على الزكاة غير متعين بل هو خلاف ظاهر السوق، وحمل الصلاة على ذلك وإن كان ظاهراً إلا أنه روى ابن المنذر.

وغيره عن الأعمش تفسيرها بالقراءة، ونقل عن غيره تفسيرها بالدعاء الذي هو المعنى اللغوي لها.

وعن أبي مسلم تفسيرها بالدين لأنها من أجل أموره، وعلى تقدير أن يراد منها الصلاة بالمعنى الآخر لا تدل الآية على أكثر من أن يكون له عليه السلام صلاة، ولا تدل على أنها من الأمور المكلف بها أحد من أمته فيمكن أن يكون ذلك من خصوصياته عليه السلام، وما وري عن الحسن ليس نصاً في الغرض كما لا يخفى، هذا وجوز أن يكون العطف على هذه القراءة على ﴿ مَا ﴾ وتعقب بأنه يستدعي أن يحمل الترك على معنيين مختلفين ولا يترك على ما يتبادر منه.

وقرأ أبو عبد الرحمن.

وطلحة بالنون في الأول والتاء في الثاني ، والعطف على مفعول ﴿ تَأْمُرُكَ ﴾ والمعنى ظاهر مما تقدم ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الحليم الرشيد ﴾ وصفوه عليه السلام بهذين الوصفين الجليلين على طريقة الاستعارة التهكمية ، فالمراد بهما ضد معناهما ، وهذا هو المروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وإليه ذهب قتادة .

والمبرد .

وجوز أن يكونوا وصفوه بذلك بناءاً على الزعم ، والجملة تعليل لما سبق من استبعاد ما ذكروه كأنهم قالوا : كيف تكلفنا بما تكلفنا مع أنك أنت الحليم الرشيد بزعمك ؛ وقيل : يجوز أن يكون تعليلاً باقياً على ظاهره بناءاً على أنه عليه السلام كان موصوفاً عندهم بالحلم والرشد ، وكان ذلك بزعمهم مانعاً من صدور ما صدر منه عليه السلام ، ورجح الأول بأنه الأنسب بما قبله لأنه تهكم أيضاً ، ورجح الأخير بأنه يكون الكلام عليه نظير ما مر في قصة صالح عليه السلام من قوله له : ﴿ قَدْ كَانَتْ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هذا ﴾ [هود : 62] وتعقيبه بمثل ما عقب به ذلك حسبما تضمنه قوله سبحانه :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ ﴾

حجة ظاهرة ﴿ مِّن رَّبِّى ﴾ ومالك أموري ﴿ وَرَزَقَنِى مِنْهُ ﴾ من لدنه سبحانه ﴿ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ هو النبوة والحكمة يدل على ذلك ، والجواب عليه من باب إرخاء العنان .

والكلام المنصف كأنه عليه السلام قال : صدقتم فيما قلتم إني لم أزل مرشداً لكم حليماً فيما بينكم لكن ما جئت به ليس غير الإرشاد والنصيحة بكم ، أنظروا بعين الانصاف وأنتم ألباء إن كنت على حجة واضحة ويقين من ربي وكنت نبياً على الحقيقة أيصح لي وأنا مرشدكم والناصح لكم أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصي والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك ؟ ثم إنه عليه السلام أكد معنى الإرشاد ، وأدرج معنى الحلم فيما سيأتي من كلامه صلى الله عليه وسلم كذا قرره العلامة الطيبي .

(44/384)

واختار شيخ الإسلام عدم كونه باقياً على الظاهر لما أن مقام الاستهزاء آب عنه ، وذكر قدس سره أن المراد بالبينة والرزق الحسن النبوة والحكمة ، وأن التعبير عنهما بذلك للتنبيه على أنهما مع كونهما بينة رزق حسن كيف لا وذلك مناط الحياة الأبدية له عليه السلام ولأمته ؟ وأن هذا الكلام منه عليه السلام رد على مقالتهم الشنعاء المتضمنة زعم عدم استناد أمره ونهيه إلى سند ، ثم قال : وجواب الشرط محذوف يدل عليه فحوى الكلام أي

أتقولون .

والمعنى أنكم عددتم ما صدر عني من الأوامر والنواهي من قبيل ما لا يصح أن يتفوه به عاقبل وجعلتموه من أحكام الوسوسة والجنون واستهزأتم بي وبأفعالي وقلتم ، فأخبروني إن كنت من جهة ربي ومالك أموري ثابتاً على النبوة والحكمة التي ليس وراءها غاية للكمال ولا مطمح لطامح ورزقني لذلك رزقاً حسناً أتقولون في شأني وشأن أفعالي ما تقولون مما لا خير فيه ولا شر وراءه ؟! وادّعى أن هذا هو الجواب الذي يستدعيه السياق ويساعده النظم الكريم .

وفسر القاضي الرزق الحسن بما آتاه الله تعالى من المال الحلال ، ومعنى كون ذلك منه تعالى أنه من عنده سبحانه وباعانته بلا كد في تحصيله ، وقدر جواب الشرط فهل يسع لي مع هذا الأنعام الجامع للسعادة الروحانية والجسمانية أن أخون في وحيه وأخالفه في أمره ونهيه ، وذكر أن هذا الكلام منه عليه السلام اعتذارا عما أنكروا عليه من تغيير المألوف والنهي عن دين الآباء ، وقدر بعضهم ما قدره العلامة الطيبي .

وزعم شيخ الإسلام أن ذينك التقديرين بمعزل عما يستدعيه السياق ، وأنهما إنما يناسبان إن حمل كلامهم على الحقيقة ؛ وأريد بالصلاة الدين حسبما نقل عن أبي مسلم .

وعطاء ، ويكون المراد بالرزق الحسن على ذلك ما آتاه الله تعالى من الحلال فقط كما روي عن الضحاك .

ويكون المعنى حينئذ أخبروني إن كنت نبيا من عند الله تعالى ورزقني مالاً حلالاً أستغني به عن العالمين أيصح أن أخالف أمره أو أوافقكم فيما تأتون وما تذرون انتهى.

وأقول: لا يخفى أن المناسب للمقام حمل الرزق الحسن على ما آتاه الله تعالى من الحلال الخالي عن التطفيف والبخس، وتقدير جواب الشرط نحو ما قدره القاضي ليس في الكلام ما يأبى عنه، ولا يتوقف على حمل الكلام على الحقيقة والصلاة على الدين بل يتأتى تقدير ذلك، ولو كان الكلام على سبيل التهكم والصلاة بالمعنى المتابدر بأن يقال: إنهم قاتلهم الله تعالى لما قالوا في ظلال الضلال وقالوا ما قالوا في حق نبيهم وما صدر منه من الأفعال لم يكن لهم مقصود إلا ترك الدعوة وتركهم وما يفعلون، ولم يتعرض عليه السلام صريحاً لرد قولهم المتضمن لرميه وحاشاه بالوسوسة.

والجنون.

والسفه.

والغواية إيذاناً بأن ذلك مما لا يستحق جواباً لظهور بطلانه وتعرض لجوابهم عما قصدوه بكلامهم ذلك بما يكون فيه قطع أطماعهم من أول الأمر مع الإشارة إلى رد ما تضمنته

مقالتهم الشنعاء فكأنه عليه السلام قال لهم : يا قوم إنكم اجترأتم على هذه المقالة الشنيعة وضمنتموها ما هو ظاهر البطلان لقصد أن أترككم وشأنكم من عبادة الأوثان ونقص المكيال والميزان فأخبروني إن كنت نبياً من عند الله تعالى ومستنبئا بما رزقني من المال الحلال عنكم وعن غيركم أيصح أن أخالف وحيه وأوافق هواكم لا يكون ذلك من أصلا فإذن لا فائدة لكم في هذا الكلام الشنيع ، وربما يقال : إن في هذا الجواب إشارة إلى وصفهم بنحو ما وصفوه به عليه السلام كأنه قال : إن طلبكم مني ترك الدعوة وموافقة الهوى مع أني مأمور بدعوتكم وغنى عنكم مما لا يصدر عن عاقل ولا يرتكبه إلا سفيه غاو ، وكأن التعرض لذكر الرزق مع الكون على بينة للإشارة إلى وجود المقتضى وارتفاع ما يظن مانعاً ، ولا يخفى ما في إخراج الجواب على هذا الوجه من الحسن فتأمل .

(46/384)

بقي أن الذي ذكره النحاة على ما قال أبو حيان في مثل هذا الكلام أعني ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ ﴾ الخ أن تقدر الجملة الاستفهامية على أنها في موضع المفعول الثاني لأرأيتم المتضمنة معنى أخبروني المتعدية إلى مفعولين والغالب في الثاني أن يكون جملة استفهامية ، وجواب الشرط ما يدل عليه الجملة السابقة مع متعلقها ، والتقدير إن كنت على بينة من ربي

فأخبروني هل يسع لي الخ فافهم ولا تغفل ﴿ وَمَا أُرِيدُ ﴾ بنهي إياكم عما أنهاكم عنه من البخس والتطفيف ﴿ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنهاكم عَنْهُ ﴾ أي أقصده بعد ما وليتم عنه فأستبد به دونكم كما هو شأن بعض الناس في المنع عن بعض الأمور يقال: خالفني فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مول عنه، وخالفني عنه إذا ولى عنه وأنت قاصده.

قال في البحر: والظاهر على ما ذكروه أن ﴿ أَنْ أُخَالِفَكُمْ ﴾ في موضع المفعول به لأريد أي وما أريد مخلفتكم، ويكون خالف بمعنى خلف نحو جاوز وجاز، ويكون المعنى وما أريد أن أكون خلفاً منكم، و﴿ إلى ﴾ متعلقة بأخالف أو بمحذوف أي مائلاً إلى ما أنهاكم عنه، وقيل: في الكلام فعل محذوف معطوف على المذكور أي وأميل إلى الخ، ويجوز أن يبقى أخالف على ظاهره من املخالفة، ويكون ﴿ إن ﴾ وما بعدها في موضع المفعول به لأريد ويقدر مائلاً إلى كما تقدم، أو يكون ﴿ إن ﴾ وما بعدها في موضع المفعول له، و﴿ إِلَى مَا ﴾ متعلقاً بأريد أي وما أقصد لأجل مخالفتكم إلى ما أنهاكم عنه، وقال الزجاج في معنى ذلك: أي ما أقد بخلافكم إلى ارتكاب ما أنهاكم عنه ﴿ إِنْ أُرِيدُ ﴾ أي ما أريد بما أقول لكم ﴿ إِلَّا الإِصلاح ﴾ أي إلا أن أصلحكم بالنصيحة والموعظة ﴿ مَا استطعت ﴾ أي مدة استطاعتي ذلك وتمكني منه لا آلو فيه جهداً فما مصدرية ظرفية.

وجوز فيها أن تكون موصولة بدلاً من الإصلاح أي المقدار الذي استطعته أو ﴿ إِلَّا الإصلاح ﴾ إصلاح ما استطعت ، وهي إما بدل بعض أو كل لأن المتبادر من الإصلاح ما يقدر عليه ، وقيل : بدل اشتمال ، وعليه وعلى الأول يقدر ضمير أي منه لأنه في مثل ذلك لا بد منه ؛ وجوز أيضاً أن تكون مفعولاً به للمصدر المذكور كقوله

: ضعيف النكاية أعداءه . . .

يخال الفرار يراخي الأجل

أي ما أريد إلا أن أصلح ما استذعت إصلاحه من فاسدكم ، والأبلغ الأظهر ما قدمناه لأن في احتمال البدلية إضماراً وفوات المبالغة ؛ وفي الاحتمال الأخير إعمال المصدر المعروف في المفعول به ، وفيه مع أنه لا يجوز عند الكوفيين .

ويقل عند البصريين فواتها ، وزيادة إضمار مفعول ﴿ استطعت ﴾ ﴿ وَمَا تَوْفِيقِى ﴾ أي ما كوني موفقاً لتحقيق ما أتوخاه من إصلاحكم ﴿ إِلَّا بالله ﴾ أي بتأييده سبحانه ومعونته .

واختار بعضهم أن يكون المراد وما توفيقي لإصابة الحق والصواب في كل ما آتي وأذر إلا بهدايته تعالى ومعونته والظاهر أن المراد وما كل فرد من أفراد توفيقي لما صرحوا به من أن المصدر المضاف من صيغ العموم ، ويؤول إلى هذا ما قيل : إن المعنى ما جنس توفيقي لأن

انحصار الجنس يقتضي انحصار أفراده لكن على الأول بطريق المفهوم .

وعلى الثاني بطريق المنطوق ، وتقدير المضاف بعد الباء مما التزمه كثير ، وفيه على ما قيل : دفع الاستشكال بأن فاعل التوفيق هو الله تعالى ، وأهل العربية يستقبحون نسبة الفعل إلى الفاعل بالباء لأنها تدخل على الآلة فلا يحسن ضربي بزيد ، وإنما يقال : من زيد ، فالاستعمال الفصيح بناءاً على هذا وما توفيقي إلا من عند الله ووجه الدفع بذلك التقدير ظاهر لأن الدخول ليس على الفاعل حينئذ .

(48/384)

وجوز أن يكون ذلك التقدير لما أن التوفيق وهو كون فعل العبد موافقاً لما يحبه الله تعالى ويرضاه لا يكون إلا بدلالة الله تعالى عليه ، ومجرد الدلالة لا يجدي بدون المعونة منه عز شأنه ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في ذلك ، أو في جميع أمور لا على غيره فإنه سبحانه القادر المتمكن من كل شيء ، وغيره سبحانه عاجز في حد ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار كما أشار إليه الكتاب وعاينه أولو البصائر والألباب ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي أرجع فيما أنا بصدده ، أو أقبل بشراشرى في مجامع أموري لا إلى غيره ، والجملة معطوفة على ما قبلها ، وكأن إيثار صيغة الاستقبال فيها على الماضي الأنسب للتقرر والتحقق كما في

التوكل لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار ، ولا يخفى ما في جوابه عليه السلام مما لا يكاد يوجد في كلام خطيب إلا أن يكون نبياً .

وفي أنوار التنزيل أن لأجوبته عليه السلام الثلاثة يعني ﴿ يَسْتَقْدِمُونَ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ الخ ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ ﴾ الخ و﴿ إِنْ أُرِيدُ ﴾ الخ على هذا النسق شأناً ، وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعى في كل ما يأته ويذره ثلاثة حقوق أهمها وأعلاها حق الله تعالى ، فإن الجواب الأول : متضمن بيان حق الله تعالى من شكر نعمته والاجتهاد في خدمته .

وثانيها : حق النفس ، فإن الجواب الثاني متضمن بيان حق نفسه من كفها عما ينبغي أن ينتهي عنه غيره .

(49/384)

وثالثها : حق الناس فإن الجواب الثالث متضمن للإشارة إلى أن حق الغير عليه إصلاحه وإرشاده ؛ وإنما لم يعطف قوله : ﴿ إِنْ أُرِيدُ ﴾ الخ على ما قبله لكونه مؤكداً ومقرراً له لأنه لو أراد الاستئثار بما نهى عنه لم يكن مريداً للإصلاح ، ولا ينافي هذا كونه متضمناً لجواب آخر ، وكأن قوله : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِى ﴾ الخ إزاحة لما عسى أن يوهمه إسناد الاستطاعة إليه بإرادته من استبداده بذلك ، ونظير ذلك ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : 5]

وفيه مع ما بعده إشارة إلى محض التوحيد ، وقال غير واحد : إنه قد اشتمل كلامه عليه السلام على مراعاة لطف المراجعة ورفق الاستنزال والمحافظة على حسن المجاراة والمحاورة ، وتمهيد معاقد الحق بطلب التوفيق من جانبه تعالى والاستعانة به عز شأنه في أموره وحسم أطماع الكفار وإظهار الفراغ عنهم وعدم المبالاة بمعاداتهم ، قيل : وفيه أيضاً تهديدهم بالرجوع إلى الله تعالى للجزاء ، وذلك من قوله : ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ لأن الرجوع إليه سبحانه يكنى به عن الجزاء وهو وإن كان هنا مخصوصاً به لاقتضاء المقام له لكنه لا فرق فيه بينه وبين غيره ، وفيه مع خفاء وجه الإشارة أن الإنابة إنما هي الرجوع الاختياري بالفعل إليه سبحانه لا الرجوع الاضطراري للجزاء وما يعمه ، وقد يقال : إن في قوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ إشارة أيضاً إلى تهديدهم لأنه عز وجل الكافي المعين لمن توكل عليه لكن لا يتعين أن يكون ذلك تهديداً بالجزاء يوم القيامة . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(50/384)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾

كانت الصلاة من عماد الأديان كلّها .

وكان المكذبون الملحدون قد تمالؤوا في كل أمة على إنكارها والاستهزاء بفاعلها ﴿ أتواصوا به بل هم قومٌ طاغون ﴾ [الذاريات : 53] ، فلما كانت الصلاة أخص أعماله المخالفة لمعتادهم جعلوها المشيرة عليه بما بلّغه إليهم من أمور مخالفة لمعتادهم بناء على التناسب بين السبب والمسبب في مخالفة المعتاد قصداً للتهكم به والسخرية عليه تكذيباً له فيما جاءهم به ، فإسناد الأمر إلى الصلوات غير حقيقي إذ قد عِلم كل العقلاء أن الأفعال لا تأمر ; والمعنى أنّ صلاته تأمره بأنهم يتركون ، أي تأمره بأن يحملهم على ترك ما يعبد آباؤهم .

إذ معنى كونه مأموراً بعمل غيره أنه مأمور بالسعي في ذلك بأن يأمرهم بأشياء .

و﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ ما يعبد آباؤنا ﴾ موصولة صادقة على المعبودات .

ومعنى تركها ترك عبادتها كما يؤذن به فعل ﴿ يعبد ﴾ .

ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ مصدرية بتقدير : أن نترك مثل عبادة آبائنا .

وقرأ الجمهور "أصلواتك" بصيغة جمع صلاة .

وقرأه حمزة ، والكسائي ، وحفص ، وخلف "أصلاتك" بصيغة المفرد .

و﴿ أوْ ﴾ من قوله : ﴿ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ لتقسيم ما يأمرهم به لأن منهم من لا يتّجر فلا يطفف في الكيل والميزان فهو قسم آخر متميّز عن بقية الأمة بأنه مأمور بترك

التطفيف.

فقوله: ﴿أن نفعل﴾ عطف على ﴿ما يعبد آباؤنا﴾، أي أن نترك فِعْلَ ما نشاء في أموالنا فنكون طوع أمرك نفعل ما تأمرنا بفعله ونترك ما تأمرنا بتركه.

وبهذا تعلم أن لا داعي إلى جعل ﴿أو﴾ بمعنى واو الجمع، كما درج عليه كثير من المفسرين مثل البيضاوي والكواشي وجعلوه عطفاً على ﴿نترك﴾ فتوجّسوا عدم استقامة المعنى كما قال الطبري.

(51/384)

وتأوله بوجهين: أحدهما عن أهل البصرة والآخر عن أهل الكوفة، أحدهما مبني على تقدير محذوف والآخر على تأويل فعل ﴿تأَمرك﴾ وكلاهما تكلف.

وأما الأكثر فصاروا إلى صرف ﴿أو﴾ عن متعارف معناها وقد كانوا في سعة عن ذلك.

وسكت عنه كثير مثل صاحب "الكشاف".

وأومأ البغوي والنسفي إلى ما صرحنا به.

وجملة ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ استئناف تهكم آخر.

وقد جاءت الجملة مؤكدة بحرف (إنّ) ولام القسم ، وبصيغة القصر في جملة ﴿ لأنت الحليم الرشيد ﴾ فاشتملت على أربعة مؤكدات .

والحليم ، زيادة في التهكم : ذو الحلم أي العقل ، والرشيد : الحسن التدبير في المال .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾

تقدّم نظير الآية في قصة نوح وقصة صالح عليهما السّلام .

والمراد بالرزق الحسن هنا مثل المراد من الرحمة في كلام نوح وكلام صالح عليهما السلام وهو نعمة النبوءة ، وإنّما عبّر شعيب عليه السّلام عن النبوءة بالرزق على وجه التشبيه مشاكلة لقولهم : ﴿ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ [هود : 87] لأنّ الأموال أرزاق .

وجواب الشرط محذوف يدل عليه سياق الكلام ، أو يدل عليه ﴿ إن كنتُ على بينة من ربي ﴾ .

والتقدير : مَاذا يسعكم في تكذيبي ، أو ماذا ينجيكم من عاقبة تكذيبي ، وهو تحذير لهم على فرض احتمال أن يكون صادقاً ، أي فالحزم أن تأخذوا بهذا الاحتمال ، أو فالحزم أن تنظروا في كنه ما نهيتكم عنه لتعلموا أنّه لصلاحكم .

ومعنى ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ عند جميع المفسّرين من التّابعين فمَن بعدهم : ما أريد ممّا نهيتكم عنه أن أمنعكم أفعالاً وأنا أفعلها ، أي لم أكن لأنْهاكم عنْ شيء وأنا أفعله .

وبيّن في "الكشاف" إفادة التركيب هذا المعنى بقوله "يقال : خالفني فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مُوَلّ عنه . . .

(52/384)

ويلقاك الرجلُ صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول : خالفني إلى الماء ، يريد أنه قد ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صادراً" أ هـ .

وبيانه أن المخالفة تدل على الاتصاف بضد حاله ، فإذا ذُكرت في غرض دلّت على الاتصاف بضده ، ثم يبيّن وجه المخالفة بذكر اسم الشيء الذي حصل به الخلاف مدخولاً لحرف ﴿ إلى ﴾ الدّال على الانتهاء إلى شيء كما في قولهم : خالفني إلى الماء لتضمين ﴿ أخالفكم ﴾ معنى السعي إلى شيء .

ويتعلق ﴿ إلى ما أنهاكم ﴾ بفعل ﴿ أخالفكم ﴾ ، ويكون ﴿ أن أخالفكم ﴾ مفعول ﴿ أريد ﴾ .

فقوله : ﴿ أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ أي أن أفعل خلاف الأفعال التي نهيتكم عنها بأن أصرفكم عنها وأنا أصير إليها .

والمقصود : بيان أنه مأمور بذلك أمراً يعمّ الأمة وإياه وذلك شأن الشرائع ، كما قال علماؤنا

: إنّ خطاب الأمة يشمل الرسول عليه الصلاة والسّلام ما لم يدل دليل على تخصيصه بخلاف ذلك ، ففي هذا إظهار أنّ ما نهاهم عنه ينهى أيضاً نفسه عنه .

وفي هذا تنبيه لهم على مَا فِي النهي من المصلحة ، وعلى أن شأنه ليس شأن الجبابرة الذين ينهون عن أعمال وهم يأتونها ، لأن مثل ذلك يُنْبِئُ بعدم النصح فيما يأمرون وينهون ، إذ لو كانوا يريدون النصح والخير في ذلك لاختاروه لأنفسهم وإلى هذا المعنى يرمي التوبيخ في قوله تعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ [البقرة : 44] أي وأنتم تتلون كتاب الشريعة العامة لكم أفلا تعقلون فتعلموا أنكم أولَى بجلب الخير لأنفسكم .

والذي يظهر لي في معنى الآية أن المراد من المخالفة المعاكسة والمنازعة ؛ إما لأنه عرف من ملامح تكذيبهم أنهم توهّموه ساعياً إلى التملك عليهم والتجبر ، وإما لأنّه أراد أن يقلع من نفوسهم خواطر الشر قبل أن تهجس فيها .

(53/384)

وهذا المحمل في الآية يسمح به استعمال التركيب ومقاصد الرسل وهو أشمل للمعاني من تفسير المتقدّمين ، فلا ينبغي قصر تفسير الآية على ما قالوه لأنّه لا يقابل قول قومه ﴿

أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ [هود : 87] ،

فإنهم ظنوا به أنه مَا قَصَدَ إلاّ مخالفتهم وتخطئتهم ونفوا أن يكون له قصد صالح فيما دعاهم إليه ، فكان مقتضى إبطال ظِنّتهم أن يَنفي أن يريد مجرد مخالفتهم ، بدليل قوله عقبه ﴿ إن أريد إلاّ الإصلاح مَا استطعت ﴾ .

فمعنى قوله : ﴿ وما أريد أن أخالفكم ﴾ أنّه ما يريد مجرّد المخالفة كشأن المنتقدين المتقعرين ولكن يخالفهم لمقصد سام وهو إرادة إصلاحهم .

ومن هذا الاستعمال ما ورد في الحديث لمّا جاء وفد فزارة إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال أبو بكر الصديق : "أمّرْ الأقرع بن حابس ، وقال عمر : أمّرْ فلاناً ، فقال أبو بكر لعُمر : ما أردتَ إلى خلافي ، فقال عمر : ما أردتُ إلى خلافك" .

فهذا التفسير له وجه وجيه في هذه الآية .

وفي هذا ما يدلّ على أن المنتقدين قسمان قسم ينتقد الشيء ويقف عند حد النقد دون ارتقاء إلى بيان ما يصلح المنقود .

وقسم ينتقد ليبيّن وجه الخطأ ثم يعقبه ببيان ما يصلح خطأه .

وعلى هذا الوجه يتعلّق ﴿ إلى ما أنهاكم ﴾ بفعل ﴿ أريد ﴾ وكذلك ﴿ أن أخالفكم ﴾ يتعلق بـ ﴿ أريد ﴾ على حذف حرف لام الجر .

والتقدير : ما أريد إلى النهي لأجل أن أخالفكم ، أي لمحبة خلافكم .

وجملة ﴿ إن أريد إلاّ الإصلاح مَا استعطعت ﴾ بيان لجملة ﴿ ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ لأنّ انتفاء إرادة المخالفة إلى ما نهاهم عنه مجمل فيما يريد إثباته من أضداد المنفي فبيّنهُ بأنّ الضد المراد إثباته هو الإصلاح في جميع أوقات استطاعته بتحصيل الإصلاح، فالقصر قصر قلب.

(54/384)

وأفادت صيغة القصر تأكيد ذلك لأن القصر قد كان يحصل بمجرد الاقتصار على النفي والإثبات نحو أن يقول: ما أريد أن أخالفكم أريد الإصلاح، كقول عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي أو السموءل:

تسيل على حد الظبات نفوسنا

وليست على غير الظبات تسيل...

ولما بيّن لهم حقيقة عمله وكان في بيانه ما يجر الثناء على نفسه أعقبه بإرجاع الفضل في ذلك إلى الله فقال: ﴿ وما توفيقي إلاّ بالله ﴾ فسمّى إرادته الإصلاح توفيقاً وجعله من الله لا يحصل في وقت إلاّ بالله، أي بإرادته وهديه، فجملة ﴿ وما توفيقي إلاّ بالله ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ أريد ﴾.

والتوفيق : جعل الشيء وفقاً لآخر ، أي طبقاً له ، ولذلك عرفوه بأنه خلقُ القدرة والدّاعية إلى الطاعة .

وجملة ﴿ عليه توكّلت ﴾ في موضع الحال من اسم الجلالة ، أو من ياء المتكلم في قوله : ﴿ توفيقي ﴾ لأنّ المضاف هنا كالجزء من المضاف إليه فيسوغ مجيء الحال من المضاف إليه .

والتوكّل مضى عند قوله تعالى : ﴿ فإذا عزمت فتوكّل على الله ﴾ في سورة [آل عمران : 159] .

والإنابة تقدمت آنفاً في قوله : ﴿ إنّ إبراهيم لحليمٌ أوّاهٌ منيبٌ ﴾ [هود : 75] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(55/384)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا ﴾

أي : أيأمرك إلهك ودينك أن نترك ما يعبد آباؤنا ؟

ولقائل أن يقول : ولماذا قالوا : " أصلاتك " ؟

نقول : لأن الإسلام بُنِيَ على خمس : أولها شهادة ألاّ إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛

ويكفي أن يقولها الإنسان مرة واحدة في حياته كلها ، ثم إقامة الصلاة ، وبعد ذلك إيتاء الزكاة ، ثم صوم رمضان ، ثم حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

وأنت إن نظرت إلى هذه الأركان فقد تجد إنساناً لا يملك ما يزكِّي به أو ما يحج به ، وقد يكون مريضاً فلا صوم عليه ، وهو ينطق بالشهادة مرة واحدة في حياته ، ولا يبقى في أركان الدين إلا الصلاة ؛ ولذلك يقال عنها : " عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين " لأنها الركن الوحيد الذي يعلن العبد فيه الولاء لربه كل يوم خمس مرات ، دواماً في الولاء لله .

ولا تسقط الصلاة أبداً عن أي إنسان مهما كانت ظروفه ، فإن عجز عن الحركة ؛ فله أن يصلي برموش عينيه ، وإن عجز عن تحريك رموش عينيه فَلْيُجْرِ الصلاة على قلبه ، حتى في حالة الحرب والمسايفة فالإنسان المسلم يصلي صلاة الخوف .

إذن : فالصلاة هي الركن الذي لا يسقط أبداً ، ويُكرَّر في اليوم خمس مرات ، وقد أعطاها الحق سبحانه في التشريع ما يناسبها من الأهمية .

وكل تكليفات الإسلام جاءت بوحي من الله سبحانه وتعالى ، فجبريل عليه السلام يحمل الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ ويبلغنا الرسول صلى الله عليه وسلم إياه ، وتميزت الصلاة وحدها بأن الحق سبحانه قد كلَّف بها النبي صلى الله عليه وسلم في أثناء وجوده في الملأ الأعلى ؛ عند سدرة المنتهى ، وذلك لفرط أهميتها .

ومثال ذلك من حياتنا ولله المثل الأعلى نجد الرئيس في أي موقع من مواقع العمل ؛ وهو يستقبل البريد اليومي المتعلق بالعمل ، ويحول كل خطاب إلى الموظف المختص ليدرسه أو ليقترح بخصوصه اقتراحاً ، وإذا وجد الرئيس أمراً مهمّاً قادماً من أعلى المستويات ؛ فهو يستدعي الموظف المختص ؛ ويرتب معه الإجراءات والترتيبات الواجب اتخاذها ؛ وإذا كان هذا يحدث في الأمور البشرية ، فما بالنا بالتكليف من الله سبحانه وتعالى للرسول ؟ وقد شاء الحق سبحانه أن يكون تكليف الصلاة لأهميته هو التكليف الوحيد الذي نال تلك المنزلة ؛ لأنها الركن الذي يتكرر خمس مرات في اليوم الواحد ؛ ولا مناص منه .

فأنت قد لا تنطق الشهادة إلا مرة واحدة ؛ لكنك تقولها في كل صلاة .

وفي الزكاة تضحِّي ببعض المال ؛ وأنت لم تولد ومعك المال ؛ إلا إن كنت قد ورثت وأنت في بطن أمك ؛ ولا بد أن تزكِّي من مالك ؛ والمال لا يأتي إلا من العمل ؛ والعمل فرع من الوقت ؛ وأنت في الصلاة تضحِّي بالوقت نفسه ؛ والوقت أوسع من دائرة الزكاة .

وفي الصيام أنت تمتنع عن شهوتي البطن والفرج ؛ من الفجر إلى المغرب ؛ لكنك تمارس كل أنشطة الحياة ؛ أما في الصلاة فأنت تصوم عن شهوتي الفرج والطعام ؛ وتصوم أكثر عن

أشياء مباحة لك في الصيام .

وفي الحج أنت تتوجه إلى بيت الله الحرام ؛ وأنت في كل صلاة تتوجه إلى بيت الله الحرام .

وهكذا تجتمع كل أركان الإسلام في الصلاة .

وأهل مدين هنا في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها قد هزءوا برسولهم شعيب عليه السلام ، وصلاته ؛ مثلما فعل كفار قريش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال أهل مدين لشعيب عليه السلام :

﴿ أصلاوتك تَأْمُرُكَ ﴾ [هود : 87] .

وظنوا أنهم بهذا القول إنما يتهكمون عليه ؛ لأن شعيباً كان كثير الصلاة ؛ وهم ككفار قريش يجهلون أن الصلاة تأمر وتنهى .

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر ﴾ [العنكبوت : 45] .

(57/384)

إذن : فللصلاة أمر ، وللصلاة نهي ، وما دام قد ثبت لشيء حكم ؛ يثبت له مقابله ، وأنت تسمع من يقول لآخر : أنت تصلي لذلك فأنا أثق في أمانتك وتسمع إنساناً آخر ينصح

صديقاً بقوله : كيف تسمح لنفسك أن ترتكب هذا الإثم وأنت خارج من الصلاة ؟

وكثير من الناس يغفلون عن أن التقابل في الجهات إنما يحل مشاكل متعددة ؛ فيأخذون جهة ويتركون الأخرى .

ولذلك أقول : ما دام الحق سبحانه قد قال إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فلا بد أنها تأمر بالبر والخير .

ومثال آخر : نجده في قول الحق سبحانه عن غرق قوم فرعون :

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السمآء والأرض ﴾ [الدخان : 29] .

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد نفى بكاء السموات والأرض على قوم فرعون ؛ ففي المقابل فلا بد أنها تبكي على قوم آخرين ؛ لأن السموات والأرض من المسخّرات للتسبيح ، وقال الحق سبحانه عنهما :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾ [الأحزاب : 72] .

وبهذا القول اختارت كل من السموات والأرض مكانة الكائنات المسبِّحة ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] .

فإذا رأت السموات والأرض إنساناً مُسبِّحاً ؛ فلا بد أن تحبه ، وإن رأت إنساناً كافراً ،

معانداً ؛ فلا بد أن تكرهه .

وما دامت السموات والأرض لم تبكِ على قوم فرعون ؛ فذلك لأنهم ضالون ؛ لأنها لا تبكي إلا على المهديين .

وقد حلَّ لنا الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه هذه المسألة ؛ فقال : " إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع في الأرض ، وموضع في السماء ، أما موضعه الذي في الأرض ؛ فمصلاّه ، وأما موضعه في السماء فمصعد عمله " .

لأن موضعه الذي كان يصلي فيه ؛ يُحرم من أن واحداً كان يصلي فيه ، وأما موضعه الذي كان يصعد منه عمله ؛ فيفتقد رائحة عبور العمل الصالح .

(58/384)

فإن أردت بالصلاة الدين ؛ وهي رمز الدين ؛ فللصلاة أمر هو نفس أمر الدين ، وهي الأمر بالإيمان الحق ، لأن الإيمان المقلد لا نفع له .

إذن : فقد أراد أهل مدين التهكم على دعوة شعيب لهم ؛ وتساءلوا :

﴿ أصلاوتك تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَآ ﴾ [هود : 87] .

وهذا القول يحمل أيضاً ردهم على دعوته لهم ألاّ يعبدوا غير الله ؛ فلا إله غيره ؛ وردوا

كذلك على دعوته لهم ألّا ينقصوا الكيل والميزان ؛ وألّا يبخسوا الناس أشياءهم ؛ وأن يتيقنوا أن ما يبقى عند الله هو الخير لهم ، وألا يعثوا في الأرض مفسدين .

وقالوا : أتنهانا أيضاً عن أن نفعل بأموالنا ما نشاء ؟ وكأنهم قد عميت بصيرتهم ؛ لأنهم إن أباحوا لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون ؛ فغيرهم سيبيحون لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون ؛ وستصطدم المصالح ، ويخسر الجميع .

وقولهم : ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الحليم الرشيد ﴾ [هود : 87] .

استمرار في التهكم الذي بدءوه بقولهم :

﴿ أصلاوتك تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَآ ﴾ [هود : 87] .

مثلهم في ذلك مثل منافقي المدينة الذين قالوا للأنصار :

﴿ لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله حتى يَنفَضُّواْ ﴾ [المنافقون : 7] .

وكانوا يريدون أن يضربوا المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ؛ وقد قالوا : ﴿ رَسُولِ الله ﴾ تهكماً ؛ وهم يحرضون أثرياء المدينة على تجويع المهاجرين .

ومثلهم أيضاً مثل قوم لوط حين نهاهم عن فعل تلك الفحشاء ؛ فقالوا تهكماً منه وممن آمن معه :

﴿ أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 82] .

فهل تطهرهم علة للإخراج من القرية ، ولكنهم قالوا هذا لأنهم لا يريدون أن يكون بينهم من

يعكر ما هم فيه .

وهذا مثلما نسمع في حياتنا من يقول : " لا تستعن بفلان لأنه حنبلي " .

هم إذن قد قالوا :

﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد ﴾ [هود : 87] .

(59/384)

وهذا منطق السخرية منه ؛ لأنه لم يوافقهم على عبادة غير الله ؛ ولم يوافقهم على إنقاص الكيل والميزان ؛ ونهاهم عن بَخْس الناس أشياءهم .

وإذا قيل حُكْمٌ وهو حقٌّ ؛ ويقوله من لا يؤمن به ؛ فهو يقصد به الهُزْء والسخرية .

وهو لون من التهكم جاء في القرآن الكريم في مواضع متعددة ؛ فنجد الحق سبحانه يقول لمن تجبر وطغى في الدنيا ؛ ويلقى عذاب السعير في الآخرة :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] .

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه ﴾ [الكهف : 29] .

وفي كُلٍّ من القولين تهكم وسخرية ، وكذلك قولهم في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ أصلاوتك تَأْمُرُكَ ﴾ [هود : 87] .

وهذا قول يحمل التهكم بصلاته .

وكذلك قولهم :

﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد ﴾ [هود : 87] .

يعني التساؤل : كيف يصح لك وأنت العاقل الحليم أن تتورط وتقول لنا :

﴿ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ [هود : 84] .

وقد قالوا ذلك لأنهم قد ألفوا عبادة الأصنام ، وكذلك تهكموا على دعوته لهم بعدم إنقاص الكيل والميزان .

وأيضاً لم يقبلوا منه قوله بأن يحسنوا التصرف في المال ، والعلة التي برروا بها كل هذا السَّفَه أن شعيباً حليم رشيد ؛ فيكف يدعوهم إلى ما يخالف أهواءهم ؟

ويأتي الحق سبحانه بما قاله شعيب عليه السلام فيقول جَلَّ شأنه : ﴿ قَالَ يا قوم أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾

وهنا يعلن لهم شعيب عليه السلام أنه على يقين من أن الله سبحانه وتعالى قد أعطاه حجة ومنهجاً ، وقد رزقه الرزق الحسن الذي لا يحتاج معه إلى أحد ؛ فامور حياته ميسورة .

وقد يكون المقصود بالرزق الحسن رحمة النبوة .

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان شعيب عليه السلام :

﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود : 88] .

(60/384)

أي : أنني أطبق ما أدعوكم إليه على نفسي ؛ فلا أنقص كيلاً أو أخْسِر ميزاناً ، ولا أبخس أحداً أشياءه ؛ لأني لا أعبد غير الله .

وكلمة " أخالف " تدل على اتجاهين متضادين ، فإن كان قولك بهدف صرف إنسان عن فعل لكي تفعله أنت ؛ تكون قد خالفته " إلى " كذا ، وإن كنت تريده أن يفعل فعلاً كيلا تفعله أنت ؛ تكون قد خالفته " عن " كذا .

فشعيب عليه السلام يوضح لهم أنه لا ينهاهم عن أفعال ؛ ليفعلها هو ؛ بل ينهاهم عن الذي لا يفعله ؛ لأن الحق سبحانه قد أمره بألا يفعل تلك الأفعال ، فالحق سبحانه هو الذي أوحى له بالمنهج ، وهو الذي أنزل عليه الرسالة .

وشعيب عليه السلام لا ينهاهم عن أفعال يفعلها هو ؛ لأنه لا يستأثر لنفسه بما يرونه خيراً ؛ فليس في نقص الكيل والميزان ؛ أو الشرك بالله أدنى خير ، فكل تلك الأفعال هي الشر نفسه .

ويوضح لهم شعيب عليه السلام مهمة النبوة ؛ فيقول :

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصلاحَ مَا استطعت ﴾ [هود : 88] .

فالنبوات كلها لا يرسلها الله تعالى إلا حين يطم الفساد ، ويأتي النبي المُرسَل بمنهج يدل الناس إلى ما يصلح أحوالهم ؛ من خلال " افعل " و " لا تفعل " ويكون النبي المُرسَل هو الأسوة لتطبيق المنهج ؛ فلا يأمر أمراً هو عنه بنَجْوةٍ ؛ ويطبق على نفسه أولاً كل ما يدعو إليه .

ولذلك قال شعيب عليه السلام :

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصلاحَ مَا استطعت ﴾ [هود : 88] .

لأن الله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وما يدخل في طوعها .

ويقول شعيب عليه السلام بعد ذلك :

﴿ وَمَا توفيقي إِلاَّ بالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : 88] .

وهكذا نعلم أن هناك فرقاً بين العمل ؛ وبين التوفيق في العمل ؛ لأن جوارحك قد تنشغل بالعمل ؛ ولكن النية قد تكون غير خالصة ؛ عندئذ لا يأتي التوفيق من الله .

(61/384)

أما إن أقبلت على العمل ؛ وفي نيتك أن يوفقك الله سبحانه لتؤدي هذا العمل بإخلاص ؛ فستجد الله تعالى وهو يصوِّب لك أيَّ خطأ تقع فيه ؛ وستنجز العمل بإتقان وتشعر بجمال الإتقان ، وفي الجمال جلال .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا ما جاء على لسان شعيب عليه السلام : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ؛ أي : أنه لا يتوكل إلا على الله ؛ ولا يصح أن تعطف على هذا القول شيئاً ؛ لأنك إن عطفت على هذا القول وقلت " على الله توكلت وعليك " ؛ فتوقع ألا يوفقك الله ، لأنك أشركت أحداً غير الله .

ونجد في القرآن الكريم قول الحق سبحانه على لسان هود عليه السلام :

﴿ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ ﴾ [هود : 56] .

ويجوز لك هنا أن تعطف .

ولك أن تتذكر قول أحد العارفين : " اللهم إني أستغفرك من كل عملٍ قصدتُ به وجهك فخالفني فيه ما ليس لك " .

فلا تترك شيئاً يزحف على توكلك على الله تعالى ؛ لأنك إليه تنيب ؛ وترجع ؛ كما قال شعيب عليه السلام : ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَآ أَنْهَاكُمْ ﴾ [88] قال : كل عالم أعطي علم الشر ، وليس هو مجانباً للشر ، فليس بعالم ، ومن أعطي علم الطاعات وهو غير عامل بها ، فليس بعالم .

وقد سأل رجل سهلاً فقال : يا أبا محمد ، إلى من تأمرني أن أجلس إليه ؟ فقال : إلى من تحملك جوارحه لا لسانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 80 ﴾

(63/384)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) ﴾

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إني أراكم بخير ﴾

قال: رخص السعر ﴿ وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ قال: غلاء السعر.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ بقية الله ﴾ قال: رزق الله.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ بقية الله خير لكم ﴾ يقول: حظكم من ربكم خير لكم.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ بقية الله ﴾ يقول: طاعة الله.

وأخرج أبو الشيخ عن الربيع رضي الله عنه في قوله ﴿ بقية الله ﴾ قال: وصية الله ﴿ خير لكم ﴾.

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ بقية الله ﴾ قال: رزق الله خير لكم من بخسكم الناس.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الأعمش رضي الله عنه في قوله ﴿ أصلواتك تأمرك ﴾ قال: أقراءتك.

وأخرج ابن عساكر عن الأحنف رضي الله عنه. أن شعيباً كان أكثر الأنبياء صلاة.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ يا شعيب أصلواتك تأمرك... ﴾ الآية. قال: نهاهم عن قطع هذه الدنانير والدراهم فقالوا: إنما هي أموالنا نفعل فيها ما نشاء، إن شئنا قطعناها وإن شئنا أحرقناها، وإن شئنا طرحناها.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه قال : عذب قوم شعيب في قطعهم الدراهم ، وهو قوله ﴿ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ .

(64/384)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم رضي الله عنه ﴿ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ قال : قرض الدراهم ، وهو من الفساد في الأرض .

وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن المنذر وأبو الشيخ وعبد بن حميد عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال : قطع الدراهم والدنانير المثاقيل التي قد جازت بين الناس ، وعرفوها من الفساد في الأرض .

وأخرج أبو الشيخ عن ربيعة بن أبي هلال . أن ابن الزبير عاقب في قرض الدرهم .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ قال : يقولون : إنك لست بحليم ولا رشيد .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ استهزاء به .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ ورزقني منه رزقاً حسناً ﴾

قال : الحلال .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ يقول : لم أك لأنهاكم عن أمر واركبه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مسروق رضي الله عنه . أن امرأة جاءت إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقالت : اتنهى عن المواصلة ؟ قال : نعم . قالت : فلعله في بعض نسائك فقال : ما حفظت إذاً وصية العبد الصالح ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ .

وأخرج أحمد عن معاوية القشيري . أن أخاه مالكاً قال : يا معاوية إن محمداً أخذ جيراني فانطلق إليه ، فانطلقت معه إليه فقال : دع لي جيراني فقد كانوا أسلموا ، فأعرض عنه فقال : ألا والله إن الناس يزعمون أنك تأمر بالأمر وتخالف إلى غيره . فقال : أو قد فعلوها ؟ لئن فعلت ذلك لكان علي وما كان عليهم .

وأخرج أبو الشيخ عن مالك بن دينار رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ قال : بلغني أنه يدعى يوم القيامة بالمذكر الصادق ، فيوضع على رأسه تاج الملك ، ثم يؤمر به إلى الجنة فيقول : إلهي إن في مقام القيامة أقواماً قد كانوا

يعينوني في الدنيا على ما كنت عليه . قال : فيفعل بهم مثل ما فعل به ، ثم ينطلق يقودهم إلى الجنة لكرامته على الله .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي إسحق الفزاري رضي الله عنه قال : ما أردت أمراً قط فتلوت عنده هذه الآية إلا عزم لي على الرشد ﴿ إن أريد إلا الإِصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وإليه أنيب ﴾ قال : إليه أرجع .

وأخرج أبو نعيم في الحلية " عن علي قال : قلت : يا رسول الله أوصني قال " قل ربي الله ثم استقم . قلت : ربي الله وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . قال : ليهنك العلم أبا الحسن ، لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً " في إسناده محمد بن يونس الكريمي . انتهى

انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(66/384)

فصل

قال الإمام ابن قتيبة :

باب المقلوب

ومن المقلوب : أن يوصف الشيء بضدّ صفته للتطيّر والتفاؤل ، كقولهم للّديغ :

سليم ، تطيّرا من السّقم ، وتفاؤلا بالسّلامة . وللعطشان : ناهل أي سينهل . يعنون :

يروى . وللفلاة : مفازة . أي منجاة ، وهي مهلكة .

وللمبالغة في الوصف ، كقولهم للشمس : جونة ، لشدّة ضوئها . وللغراب : أعور ، لحدّة

بصره .

وللاستهزاء ، كقولهم للحبشيّ : أبو البيضاء . وللأبيض : أبو الجون .

ومن هذا قول قوم شعيب : إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ [هود : 87] .

كما تقول للرجل تستجهله : يا عاقل ، وتستخفه : يا حليم .

قال الشاعر "1" :

فقلت لسيّدنا : يا حليم إنّك لم تأس أسوا رفيقا

قال قتادة : ومن الاستهزاء قول اللّه تعالى : فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ (12)

لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ (13) [الأنبياء : 12 ،

13] .

وفي قول عبيد بن الأبرص لكندة - طرف من هذا المعنى "2" :

هلا سألت جموع كن دة يوم ولّوا : أين أينا ؟

يستهزىء بهم حين انهزموا ، يريد أين تذهبون ؟ ارجعوا .

(

1) يروى البيت بلفظ :

قلت لسيدنا يا حكي م إنّك لم تأس أسوا رفيقا

والبيت من المتقارب ، وهو لشتيم بن خويلد في لسان العرب (خفق) ، وكتاب الحيوان 3/ 82 ، 5/ 517 ، وبلا نسبة في كتاب الأضداد ص 325 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 214 .

(2) البيت من مجزوء الكامل ، وهو في ديوان عبيد بن الأبرص ص 142 ، ومختارات ابن الشجري 2/ 39 ، والشعر والشعراء 1/ 224 ، والأغاني 19/ 85 ، وبلا نسبة في كتاب الصناعتين ص 144 ، وإعجاز القرآن ص 94 ، ومعاني القرآن للفراء 1/ 177 .

وأما قول اللّه سبحانه : ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49) [الدخان : 49] .

فبعض الناس يذهب به هذا المذهب ، أي أنت الذليل المهان .

وبعضهم يريد : أنت العزيز الكريم عند نفسك . وهو معنى تفسير ابن عباس لأن أبا جهل قال : ما بين جبليها أعز مني ولا أكرم ، فقيل له : ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49) [الدخان : 49] .

ومن ذلك أن يسمّى المتضادّان باسم واحد ، والأصل واحد .

فيقال للصبح : صريم ، ولليل : صريم . قال اللّه سبحانه : فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) [القلم : 20] ، أي سوداء كالليل ، لأنّ الليل ينصرم عن النّهار ، والنهار ينصرم عن الليل .

وللظّلمة : سدفة . وللضوء : سدفة . وأصل السّدفة : السّترة ، فكأن الظلام إذا أقبل ستر للضّوء ، والضوء إذا أقبل ستر للظلام .

وللمستغيث : صارخ . وللمغيث : صارخ ، لأن المستغيث يصرخ في استغاثته ، والمغيث يصرخ في إجابته .

ولليقين : ظنّ ، لأنّ في الظن طرفا من اليقين . قال اللّه عز وجل : قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ [البقرة : 249] ، أي يستيقنون . وكذلك : إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ (20) [الحاقة : 20] ، وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها [الكهف : 53] ، وإِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ [البقرة : 230] ، هذا كلّه في معنى (اليقين) .

قال دريد بن الصّمة "1" :

فقلت لهم : ظنّوا بألفي مدجّج سراتهم في الفارسيّ المسرّد

أي تيقنوا بإتيانهم إيّاكم .

وكذلك جعلوا (عسى) شكّا ويقينا ، (ولعلّ) شكّا ويقينا . كقوله : فِجاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ [الأنبياء : 31] ، أي ليهتدوا .

---

(1) البيت من الطويل ، وهو في ديوان دريد بن الصمة ص 47 ، ولسان العرب (ظنن) ، والأصمعيات ص 112 ، وجمهرة أشعار العرب ص 117 ، وما اتفق لفظه واختلف معناه للمبرد ص 9 ، والأضداد لابن الأنباري ص 12 ، والأغاني 9/ 4 ، وتفسير الطبري 1/ 256 ، وتفسير البحر المحيط 1/ 185 ، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي 2/ 305 ، والبيت بلا نسبة في تفسير الطبري 25/ 83 ، وتفسير البحر المحيط 2/ 88 ، وأسرار العربية ص 156 ، وشرح المفصل 7/ 81 ، والمحتسب 2/ 342 ، ومجالس ثعلب ص 199 . [. . . . .]

وللمشتري : شار ، وللبائع : شار ، لأنّ كلّ واحد منهما اشترى .

وكذلك قولهم لكل واحد منهما : (بائع) لأنه باع وأخذ عوضا مما دفع ، فهو (شار) و (بائع)

.

قال اللّه عز وجل : وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ [يوسف : 20] ، أي باعوه . وقال : وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ [البقرة : 102] .

وقال ابن مفرّغ "1" :

وشريت بردا ليتني من بعد برد كنت هامه

(و برد) : غلام كان له فباعه وندم على بيعه .

و(وراء) تكون بمعنى (خلف) وبمعنى (قدّام) .

ومنها المواراة والتّواري . فكلّ ما غاب عن عينك فهو وراء ، كان قدّامك أو خلفك .

قال اللّه عز وجل : وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً [الكهف : 79] ، أي أمامهم .

وقال : مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ [الجاثية : 10] ، أي أمامهم .

وقال : وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ [إبراهيم : 17] .

وقالوا للكبير : (جلل) ، وللصغير : (جلل) ، لأنّ الصغير قد يكون كبيرا عند ما هو أصغر منه ، والكبير يكون صغيرا عند ما هو أكبر منه ، فكلّ واحد منهما صغير كبير .

ولهذا جعلت (بعض) بمعنى (كلّ) ، لأنّ الشيء يكون كلّه بعضا لشيء ، فهو بعض وكلّ .

وقال عز وجل : وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ [الزخرف : 63] (و كلّ) بمعنى (بعض) ، كقوله : وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ [النمل : 23] ، ويَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ

[النحل: 112]، وقال: تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها [الأحقاف: 25].

وجعلت (فوق) بمعنى (دون) في قول الله عز وجل:

---

(1) البيت من مجزوء الكامل، وهو في ديوان يزيد بن مفرغ ص 213، ولسان العرب (برد)، (شرى)، والشعر والشعراء 1/ 321، والأغاني 17/ 55، ومجاز القرآن 1/ 48، 304، وأمالي المرتضى 2/ 95- 96.

إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها [البقرة: 26]، أي فما دونها، لأن (فوق) قد تكون (دون) عند ما هو فوقها، و (دون) قد تكون (فوق) عند ما هو دونها.

و (خشيت) بمعنى: (علمت). قال عز وجل: فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً [الكهف: 80]، أي علمنا. وفي قراءة أبيّ: فخاف ربك.

ومثله: إِلَّا أَنْ يَخافا أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ [البقرة: 229]. وقوله: فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً [البقرة: 182]، أي علم.

وقوله: وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ [الأنعام: 51]، لأنّ في الخشية والمخافة طرفا من العلم.

و(رجوت) بمعنى: (خفت). قال اللّه سبحانه: ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً (13) [نوح: 13]، أي: لا تخافون لله عظمته، لأن الرّاجي ليس بمستيقن، ومعه طرف من المخافة.

قال الهذلي "1":

إذا لسعته النّحل لم يرج لسعها وحالفها في بيت نوب عوامل

أي: لم يخفها.

(70/384)

و (يئست) بمعنى: (علمت) من قول اللّه تعالى: أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً [الرعد: 31]، لأنّ في علمك الشيء وتيقّنك له يأسك من غيره.

قال لبيد "2":

---

(1) البيت من الطويل، وهو لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص 144، وتهذيب اللغة 11/ 182، والمخصص 8/ 178، 17/ 11، وتاج العروس (نوب)، (حلف)، وكتاب الجيم 2/ 41، وأساس البلاغة (نوب)، ومجاز القرآن 2/ 73، والخزانة 2/ 492، وما اتفق لفظه واختلف معناه للمبرد ص 7، والأضداد لابن الأنباري ص 9، والأضداد لابن السكيت ص 179، والمقصور والممدود لابن ولاد ص

45 ، وإصلاح المنطق ص 142 ، وتفسير الطبري 25/ 83 ، ومجمع البيان 1/ 313 ، والمخصص 8/ 178 ، ومقاييس اللغة 2/ 495 .

(2) البيت من الكامل ، وهو للبيد في ديوانه ص 311 ، ولسان العرب (قفل) ، (عصم) ، (دجن) ، وتهذيب اللغة 2/ 57 ، ومقاييس اللغة 4/ 333 ، وديوان الأدب 2/ 180 ، وكتاب الجيم 2/ 339 ، وتاج العروس (قفل) ، (عصم) ، (دجن) ، (منن) ، وبلا نسبة في لسان العرب (منن) ، والمخصص 8/ 73 .

(71/384)

حتّى إذا يئس الرّماة فأرسلوا غضفا دواجن قافلا أعصامها

أي : علموا ما ظهر لهم فيئسوا من غيره .

وقال آخر "1" :

أقول لهم بالشّعب إذ يأسرونني : ألم تيئسوا أنّي ابن فارس زهدم

أي : ألم تعلموا .

ومن المقلوب : أن يقدّم ما يوضّحه التأخير ، ويؤخّر ما يوضحه التقديم .

كقول اللّه تعالى : فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ [إبراهيم : 47] ، أي مخلف رسله

وعده ، لأنّ الإخلاف قد يقع بالوعد كما يقع بالرّسل ، فتقول : أخلفت الوعد ، وأخلفت الرّسل ، وكذلك قوله سبحانه : فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ (77) [الشعراء : 77] أي :

فإنّي عدوّ لهم ، لأنّ كل من عاديته عاداك .

وكذلك قوله : ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى (8) [النجم : 8] أي : تدلى فدنا ، لأنّه تدلّى للدّنوّ ، ودنا بالتّدلّي .

ومنه قوله سبحانه : بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14)

[القيامة : 14] أي : بل على الإنسان من نفسه بصيرة . يريد شهادة جوارحه عليه ، لأنها منه ، فأقامه مقامها .

قال الشاعر "2" :

ترى الثّور فيها مدخل الظّلّ رأسه وسائره باد إلى الشمس أجمع

أراد (مدخل رأسه الظلّ) فقلب ، لأن الظلّ التبس برأسه فصار كل واحد منهما داخلا في صاحبه . والعرب تقول : (اعرض النّاقة على الحوض) تريد : اعرض الحوض على الناقة ، لأنك إذا أوردتها الحوض : اعترضت بكل واحد صاحبه .

---

(1) البيت من الطويل ، وهو لسحيم بن وثيل اليربوعي في لسان العرب (يسر) ، (يأس) ، (زهدم) ، والتنبيه والإيضاح 2/ 310 ، وتهذيب اللغة 13/ 60 ، 142 ، وتاج

العروس (يسر) ، (يئس) ، (زهدم) ، (لزم) ، وديوان الأدب 4/ 216 ، وأساس البلاغة (يئس) ، والبرهان 1/ 100 ، ومجاز القرآن 1/ 332 ، وتفسير الطبري 13/ 103 ، والبيت بلا نسبة في مقاييس اللغة 6/ 154 ، وديوان الأدب 3/ 258 ، والمخصص 13/ 20 ، والمعاني الكبير 2/ 1148 ، والميسر والقداح ص 33 .

(2) البيت من الطويل ، وهو بلا نسبة في أمالي المرتضى 1/ 216 ، وخزانة الأدب 4/ 335 ، والدرر 6/ 37 ، والكتاب 1/ 181 ، وهمع الهوامع 2/ 132 .

(72/384)

وقال الحطيئة "1" :

فلما خشيت الهون والعير ممسك على رغمه ما أمسك الحبل حافره

وكان الوجه أن يقول : (ما أمسك حافره الحبل) فقلب ، لأنّ ما أمسكته فقد أمسكك ، والحافر ممسك للحبل لا يفارقه ما دام به مربوطا ، والحبل ممسك للحافر .

وقال الأخطل "2" :

على العيارات هدّاجون قد بلغت نجران أو بلغت سوآتهم هجر

وكان الوجه أن يقول : (سوآتهم – بالرفع – نجران وهجر) فقلب ، لأن ما بلغته فقد بلغك .

قال اللّه تعالى : وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ [آل عمران : 40] أي بلغته .

وقال آخر "3" :

قد سالم الحيات منه القدما الأفعوان والشجاع الشّجعما

(فنصب) الأفعوان والشجاع ، وكان الوجه أن يرفعهما ، لأن ما حالفته فقد حالفك ، فهما فاعلان ومفعولان .

وقال الشمّاخ يذكر أباه "4" :

منه ولدت ولم يؤشب به حسبي لمّا ، كما عصب العلباء بالعود

وكان الوجه أن يقول : (كما عصب العود بالعلباء) فقلب ، لأنك قد تقول : عصبت العباء على العود ، كما تقول : عصبت العود بالعلباء .

---

(1) البيت من الطويل ، وهو في ديوان الحطيئة ص 10 ، وتفسير الطبري 14/ 84 .

(2) البيت من الطويل ، وهو في ديوان الأخطل ص 110 ، وما اتفق لفظه واختلف معناه للمبرد ص 38 ، ولسان العرب (حفر) ، وأمالي ابن الشجري 1/ 330 ، والوساطة ص 482 ، وشرح شواهد المغني ص 328 ، والبيت بلا نسبة في أمالي المرتضى 2/ 116 .

(3) الرجز لمساور بن هند العبسي في لسان العرب (ضمز) ، (ضرزم) ، ولمساور بن هند العبسي أو لأبي حيان الفقعسي في التنبيه والإيضاح 2/ 244 ، وللديري أو لعبيد بن

علس في تاج العروس (خرزم) ، وبلا نسبة في تهذيب اللغة 1/ 331 ، 3/ 311 ، وجمهرة اللغة ص 1139 ، والمخصص 16/ 106 ، وتاج العروس (شجعم) .

(4) البيت من البسيط وهو في ديوان الشماخ بن ضرار ص 120 ، والأزهية ص 198 ، والمعاني الكبير 1/ 553 ، والوساطة ص 482 ، والبيت بلا نسبة في جمهرة اللغة ص 367 ، والمنصف 3/ 81 .

(73/384)

وقال ذو الرّمّة "1" :

وتكسو المجنّ الرّخو خصرا كأنه إهان ذوى عن صفرة فهو أخلق

وكان الوجه أن يقول : (و تكسو الخصر مجنا) فقلب ، لأنّ كسوت يقع على الثوب ، وعلى الخصر ، وعلى القميص ولابسه ، تقول : كسوت الثوب عبد اللّه ، وكسوت عبد اللّه الثوب .

وقال أبو النّجم "2" :

قبل دنوّ الأفق من جوزائه وكان الوجه أن يقول : (قبل دنوّ الجوزاء من الأفق) فقلب ، لأن كل شيء دنا منك فقد دنوت منه .

وقال الرّاعي يصف ثورا "3" :

فصبّحته كلاب الغوث يوسدها مستوضحون يرون العين كالأثر

وكان الوجه أن يقول : (يرون الأثر كالعين) لعلمهم بالصيد وآثاره فقلب ، لأنهم إذا رأوا الأثر كالعين ، فقد رأوا العين كالأثر .

وقال النابغة "4" :

وقد خفت حتى ما تزيد مخافتي على وعل في ذي المطارة عاقل

وكان الوجه أن يقول : (حتى ما تزيد مخافة وعل على مخافتي) فقلب ، لأن المخافتين استوتا .

---

(1) يروى صدر البيت بلفظ :

وتكسو الوشاح الرّخو خصرا كأنّه والبيت من الطويل ، وهو في ديوان ذي الرمة ص 463 ، وبلا نسبة في المخصص 4/ 98 .

(2) الرجز لأبي النجم في أمالي المرتضى 1/ 156 ، وسر الفصاحة ص 108 ، وبلا نسبة في مقاييس اللغة 1/ 115 .

(3) البيت من الطويل ، وهو للراعي النميري في المعاني الكبير 2/ 742 ، وأمالي المرتضى 1/ 156 .

(4) البيت من الطويل ، وهو في ديوان النابغة الذبياني ص 144 ، وأمالي المرتضى 1/

202 ، ومعجم ما استعجم ص 1026 ، وأمالي ابن الشجري 1/ 191 ، ومجمع البيان 1/ 262 ، 255 ، ومجاز القرآن 1/ 65 ، وما اتفق لفظه واختلف معناه للمبرد ص 32 ، والبيت بلانسبة في أمالي المرتضى 1/ 216 ، والإنصاف 1/ 372 ، ولسان العرب (خوف) ، ومجالس ثعلب ص 618 ، والمقتضب 3/ 231 ، ومعاني القرآن للفراء 1/ 99 ، والأضداد ص 328 .

وقال رؤبة بن العجّاج "1" :

ومهمه مغبرّة أرجاؤه كأنّ لون أرضه سماؤه

وكان الوجه أن يقول : (كأن لون سمائه من غبرتها لون أرضه) فقلب ، لأن اللونين استويا .

وقال الآخر "2" :

وصار الجمر مثل ترابها أي صار ترابها مثل الجمر .

وقال عز وجل : خُلِقَ الْإِنسانُ مِنْ عَجَلٍ [الأنبياء : 37] أي خلق العجل من الإنسان ، يعني العجلة . كذلك قال أبو عبيدة .

ومن المقلوب ما قلب على الغلط :

كقول خداش بن زهير "3" :

وتركب خيل لا هوادة بينها وتعصى الرّماح بالضّياطرة الحمر

---

(1) يروى الشطر الأول من الرجز بلفظ :

وبلد مغبرة أرجاؤه والرجز لرؤبة بن العجاج في ديوانه ص 3 ، والأشباه والنظائر 2/ 296 ، وخزانة الأدب 6/ 458 ، وشرح التصريح 2/ 339 ، وشرح شواهد المغني 2/ 971 ، ولسان العرب (عمى) ، ومعاهد التنصيص 1/ 178 ، ومغني اللبيب 2/ 695 ، والمقاصد النحوية 4/ 557 ، وتاج العروس (كبر) ، (عمى) ، وبلا نسبة في أمالي المرتضى 1/ 216 ، والإنصاف 1/ 377 ، وأوضح المسالك 4/ 342 ، وجواهر الأدب ص 164 ، وسر صناعة الإعراب 2/ 636 ، 637 ، وشرح شذور الذهب ص 414 ، وشرح المفصل 2/ 118 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 202 .

[. . . . .]

(2) يروى البيت بتمامه :

حتى إذا ما أوقدت فالجمر مثل ترابها

والبيت من المتقارب ، وهو في ديوان الأعشى ص 178 .

(3) يروى صدر البيت بلفظ :

ونركب خيلا لا هوادة بينها والبيت من الطويل ، وهو لخداش بن زهير في الأضداد ص

153 ، وأمالي المرتضى 1/ 466 ، ولسان العرب (ضطر) ، وجمهرة أشعار العرب ص 108 ، والكامل 1/ 274 ، وسر الفصاحة ص 106 ، ومجاز القرآن 2/ 110 ، والأضداد للسجستاني ص 153 ، وبلا نسبة في تفسير الطبري 20/ 69 ، والأضداد لابن الأنباري ص 85 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 203 ، وسر صناعة الإعراب 1/ 323 .

(75/384)

أي : (تعصي الضياطرة بالرّماح) وهذا ما لا يقع فيه التّأويل ، لأن الرماح لا تعصى بالضّياطرة وإنما يعصى الرجال بها ، أي يطعنون .

ومنه قول الآخر "1" :

أسلمته في دمشق كما أسلمت وحشيّة وهقا

أراد : (كما أسلم وحشية وهق) فقلب على الغلط .

وقال آخر "2" :

كانت فريضة ما تقول كما كان الزّناء فريضة الرجم

أراد (كما كان الرجم فريضة الزنى) .

وكان بعض أصحاب اللغة يذهب في قول اللّه تعالى : وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَنِداءً [البقرة : 171] إلى مثل هذا في القلب ، ويقول : وقع التشبيه بالراعي في ظاهر الكلام ، والمعنى للمنعوق به وهو الغنم . وكذلك قوله سبحانه : ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ [القصص : 76] أي : تنهض بها وهي مثقلة .

وقال آخر في قوله سبحانه : وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8) [العاديات : 8] أي : وإن حبّه للخير لشديد .

وفي قوله سبحانه : وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً [الفرقان : 74] أي : اجعل المتّقين لنا إماما في الخير .

وهذا ما لا يجوز لأحد أن يحكم به على كتاب اللّه عزّ وجلّ لو لم يجد له مذهبا ، لأنّ الشعراء تقلب اللفظ ، وتزيل الكلام على الغلط ، أو على طريق الضرورة للقافية ، أو لاستقامة وزن البيت .

---

(1) يروى صدر البيت بلفظ :

أسلموها في دمشق كما والبيت من المديد ، وهو لعبيد اللّه بن قيس الرقيات في ديوانه ص 128 ، والأضداد لابن الأنباري ص 86 ، والوساطة ص 482 ، وبلا نسبة في المحتسب 2/ 118 .

(2) البيت من الكامل ، وهو للنابغة الجعدي في ديوانه ص 35 ، ولسان العرب (زنى) ،

وبلا نسبة في معاني القرآن للفراء 1/ 99، 311، وأمالي المرتضى 1/ 155، وسر الفصاحة ص 106، والصاحبي في فقه اللغة ص 172، ومجاز القرآن 1/ 378، وخزانة الأدب 4/ 32، والإنصاف 1/ 373.

(76/384)

فمن ذلك قول لبيد "1":

نحن بنو أمّ البنين الأربعة قال ابن الكلبي: هم خمسة، فجعلهم للقافية أربعة.

وقال آخر يصف إبلا "2":

صبّحن من كاظمة الخصّ الخرب يحملن عبّاس بن عبد المطّلب

أراد: (عبد اللّه بن عباس) فذكر أباه مكانه.

وقال الصّلّتان "3":

أرى الخطفي بذّ الفرزدق شعره ولكنّ خيرا من كليب مجاشع

أراد: "أرى جريرا بذ الفرزدق شعره" فلم يمكنه فذكر جدّه.

وقال ذو الرّمة "4":

عشيّة فرّ الحارثيون بعد ما قضى نحبه في ملتقى القوم هوبر

قال ابن الكلبي : هو (يزيد بن هوبر) فاضطرّ .

وقال (أوس) "5" :

---

(1) الشطر الثاني من الرجز :

ونحن خير عامر بن صعصعه والرجز للبيد في ديوانه ص 341 ، والأغاني 15/ 295 ، وأمالي المرتضى 1/ 191 ، وخزانة الأدب 9/ 551 ، وسمط اللآلي ص 191 ، وشرح أبيات سيبويه 1/ 514 ، وشرح شواهد المغني 1/ 161 ، والكتاب 2/ 235 ، ولسان العرب (خضع) ، والمقاصد النحوية 2/ 68 ، وتاج العروس (خضع) ، وجمهرة اللغة ص 112 ، 353 ، والعمدة 1/ 27 ، والخزانة 4/ 171 ، والحيوان 5/ 173 ، وبلا نسبة في مجالس ثعلب 2/ 442 ، 449 ، وجمهرة اللغة ص 192 .

(2) يروى الشطر الأول من الرجز بلفظ :

صبّحن من كاظمة الحصن الخرب والرجز بلا نسبة في لسان العرب (نطس) ، (وصى) ، وجمهرة اللغة ص 1328 ، والمزهر للسيوطي 2/ 501 .

(3) البيت من الطويل ، وهو للصلتان العبدي في الشعر والشعراء 1/ 477 ، وأمالي القالي 2/ 141 .

(4) البيت من الطويل ، وهو لذي الرمة في ديوانه 2/ 647 ، وخزانة الأدب 4/ 371 ، والدرر 5/ 37 ، وشرح المفصل 3/ 23 ، ولسان العرب (هبر) ، وبلا نسبة في جمهرة

اللغة ص 1327 ، والمقرب 1/ 214 ، 2/ 205 ، وهمع الهوامع 2/ 51 .

(5) البيت من الطويل ، وهو لأوس بن حجر في ديوانه ص 111 ، وخزانة الأدب 4/ 370 ، 373 ، 376 ، وشرح شواهد الشافية ص 116 ، 117 ، ولسان العرب (نطس) ، (حذم) ، (إلى) ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص 838 ، 1327 ، والخصائص 2/ 453 ، وشرح المفصل 3/ 25 .

(77/384)

فهل لكم فيها إليّ فإنّني طبيب بما أعيا النّطاسيّ حذيما

أراد : (ابن حذيم) وهو طبيب كان في الجاهلية :

وقال ابن ميّادة وذكر بعيرا "1" :

كأنّ حيث تلتقي منه المحل من جانبيه وعلين ووعل

أراد : وعلين من كل جانب ، فلم يمكنه فقال : ووعل .

وقال أبو النجم "2" :

ظلّت وورد صادق من بالها وظلّ يوفي الأكم ابن خالها

أراد : فحلها : فجعله ابن خالها .

وقال آخر "3" :

مثل النصارى قتلوا المسيح أراد : اليهود :

وقال آخر "4" :

ومحور أخلص من ماء اليلب واليلب : سيور تجعل تحت البيض ، فتوهّمه حديدا .

---

(1) يروى الرجز بتمامه :

ثلاثة أشرفن في طود عتل كأنّ حيث تلتقي منه المحل

من قطريه وعلان ووعل والرجز لابن ميادة في ديوانه ص 218 ، ولسان العرب (رفل) ، وبلا نسبة في لسان العرب (عتل) ، (محل) ، وكتاب الجيم 2/ 310 ، وتاج العروس (محل) .

(2) يروى الرجز بلفظ :

وظل يوفي الأجمد ابن خالها مستبطئا للشمس في إقبالها

والرجز لأبي النجم في المخصص 13/ 201 .

(3) الرجز بلا نسبة في المعاني الكبير 2/ 879 ، ولسان العرب (مسح) ، وتهذيب اللغة 4/ 347 ، وكتاب العين 3/ 156 .

(4) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (يلب) ، وتهذيب اللغة 15/ 386 ، وكتاب العين 8/ 341 ، ومقاييس اللغة 6/ 158 ، ومجمل اللغة 4/ 566 .

وقال رؤبة "1" :

أو فضّة أو ذهب كبريت وقال أبو النجم "2" :

كلمعة البرق يبرق خلّبه أراد : بخلّب برقه ، فقلب .

وقال آخر "3" :

إنّ الكريم وأبيك يعتمل إن لم يجد يوما على من يتّكل

أراد : إن لم يجد يوما من يتكل عليه .

في أشباه لهذا كثيرة يطول باستقصائها الكتاب .

واللّه تعالى لا يغلط ولا يضطرّ ، وإنما أراد : ومثل الذين كفروا ومثلنا في وعظهم كمثل الناعق بما لا يسمع ، فاقتصر على قوله : وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا [البقرة : 171] ، وحذف ومثلنا ، لأنّ الكلام يدل عليه . ومثل هذا كثير في الاختصار .

وقال الفراء "4" :

أراد : ومثل واعظ الذين كفروا ، فحذف ، كما قال : وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها [يوسف : 82] ، أي : أهلها .

(1) قبله : هل ينفعني كذب سختيت والرجز لرؤبة بن العجاج في ديوانه ص 26 ، ولسان العرب (سخت) ، (كبرت) ، (كبر) ، وتهذيب اللغة 7/ 161 ، 10/ 435 ، وتاج العروس (سخت) ، (كبرت) ، وجمهرة اللغة ص 1190 ، وكتاب العين 4/ 194 ، 5/ 430 ، وديوان الأدب 2/ 75 ، وللعجاج في ديوانه 2/ 189 - 190 ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص 1111 ، ومجمل اللغة 4/ 237 ، والمخصص 3/ 88 . [. . . . .]

(2) الرجز لم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي .

(3) يليهما : فيكتسي من بعدها ويكتحل والرجز بلا نسبة في لسان العرب (عمل) ، والأشباه والنظائر 1/ 292 ، والجنى الداني ص 478 ، وخزانة الأدب 10/ 146 ، والخصائص 2/ 305 ، والدرر 4/ 108 ، وشرح أبيات سيبويه 2/ 205 ، وشرح الأشموني 2/ 294 ، وشرح التصريح 2/ 15 ، وشرح شواهد المغني ص 419 ، والكتاب 3/ 81 ، والمحتسب 1/ 281 ، وهمع الهوامع 2/ 22 ، وكتاب العين 2/ 153 ، ومقاييس اللغة 4/ 145 ، وديوان الأدب 2/ 416 ، وأساس البلاغة (عمل) ، (وجد) ، وتاج العروس (عمل) ، (وجد) .

(4) الفراء : هو الحافظ أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي ، الكوفي اللغوي ، المقري البغدادي ، المعروف بالفراء ، المتوفى بطريق مكة سنة 207 ه ، تقدمت ترجمته الوافية مع ذكر مؤلفاته .

. وأراد بقوله : ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ [القصص : 76] ، أي : تميلها من ثقلها .

قال الفراء أنشدني بعض العرب "1" :

حتى إذا ما التأمت مفاصله وناء في شقّ الشّمال كاهله

يريد : أنه لما أخذ القوس ونزع ، مال عليها .

قال : ونرى قولهم : (ما ساءك وناءك) ، من هذا . وكان الأصل (أناءك) فألقي الألف لما اتبعه (ساءك) كما قالوا : (هنأني ومرأني) ، فاتبع مرأني هنأني . ولو أفرد لقال : أمرأني .

وأراد بقوله : وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8) [العاديات : 8] ، أي : وإنه لحبّ المال لبخيل ، والشدة : البخل هاهنا ، يقال : رجل شديد ومتشدّد .

وقوله سبحانه : وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً [الفرقان : 74] ، يريد : اجعلنا أئمة في الخير يقتدي بنا المؤمنون ، كما قال في موضع آخر : وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا [السجدة : 24] ، أي : قادة ، كذلك قال المفسّرون .

وروي عن بعض خيار السلف : أنه كان يدعو اللّه أن يحتمل عنه الحديث ، فحمل عنه .

وقال بعض المفسرين في قوله : وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً [الفرقان : 74] ، أي :

اجعلنا نقتدي بمن قبلنا حتى يقتدي بنا من بعدنا . فهم على هذا التّأويل متّبعون ومتّبعون .

ومن المقدّم والمؤخّر قوله تعالى : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (1) قَيِّماً [الكهف : 1 ، 2] أراد : أنزل الكتاب قيّما ولم يجعل له عوجا .

وقوله : فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ [هود : 71] ، أي : بشرناها بإسحاق فضحكت .

وقوله : فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا [الشمس : 14] ، أي : فعقروها فكذّبوه بالعقر .

---

(1) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (نوأ) ، وتهذيب اللغة 15/ 540 ، ورواية الشطر الأول في اللسان والتهذيب :

حتى إذا ما التأمت مواصله

(80/384)

وقد يجوز أن يكون أراد : فكذّبوا قوله : إنها ناقة اللّه ، فعقروها .

قال الأعشى "1" :

لقد كان في حول ثواء ثويته تقضّي لبانات ويسأم سائم

أراد : لقد كان في ثواء حول ثويته .

وقال ذو الرّمّة يصف الدّار "2" :

فأضحت مباديها قفارا رسومها كأن لم سوى أهل من الوحش توهل

أراد : كأن توهل سوى أهل من الوحش .

وقد كان بعض القراء يقرأ : وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ [الأنعام : 137] ، أي : قتل شركائهم أولادهم .

ومن المقدّم والمؤخّر قوله سبحانه : إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ [التوبة : 55] .

وقال ابن عباس في رواية الكلبي : أراد : ولا تعجبك أموالهم وأولادهم في الدنيا ، إنما يريد اللّه أن يعذّبهم في الآخرة .

ومنه قوله سبحانه : وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى (129) [طه : 129] ، أي : ولولا كلمة سبقت وأجل مسمّى ، لكان العذاب لزاما .

ومنه قوله سبحانه : وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلَّا قَلِيلًا [النساء : 83] ، أراد : لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلا ، ولولا فضل اللّه عليكم ورحمته ،

---

(1) البيت من الطويل ، وهو للأعشى في ديوانه ص 127 ، والأغاني 2/ 206 ، والرد على النحاة ص 129 ، وشرح شواهد المغني 2/ 879 ، والكتاب 3/ 38 ، ومغني

اللبيب 2/ 506 ، والمقتضب 1/ 27 ، 2/ 26 ، 4/ 297 ، وبلا نسبة في أسرار العربية ص 299 ، ورصف المباني ص 423 ، وشرح عمدة الحافظ ص 590 ، وشرح المفصل 3/ 65 .

(2) يروى البيت بلفظ :

فأضحت مغانيها قفارا رسومها كأن لم سوى أهل من الوحش تؤهل

والبيت من الطويل ، وهو لذي الرمة في ديوانه ص 1465 ، وخزانة الأدب 9/ 5 ، والخصائص 2/ 410 ، والدرر 5/ 63 ، وشرح شواهد المغني 2/ 678 ، والمقاصد النحوية 5/ 445 ، وبلا نسبة في الجنى الداني ص 269 ، وشرح الأشموني 3/ 576 ، ومغني اللبيب 1/ 278 ، وهمع الهوامع 2/ 56 .

(81/384)

لاتبعتم الشيطان .

قال الشاعر "1" :

فاوردتها ماء كأنّ جمامه من الأجنّ حناء معا وصبيب

أي : فأوردتها ماء كأنّ جمامه حنّاء وصبيب معا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل

القرآن صـ 132.118 ﴾

---

(1) البيت من الطويل ، وهو لعلقمة بن عبدة في ديوانه ص 42 ، ولسان العرب (صبب) ، (أجن) ، وكتاب العين 6/ 183 ، وديوان الأدب 3/ 73 ، وشرح اختيارات المفضل ص 1585 ، وتاج العروس (صبب) ، (أجن) ، وتهذيب اللغة 12/ 122 ، وبلا نسبة في كتاب العين 7/ 90 ، ومجمل اللغة 3/ 221 ، ومقاييس اللغة 3/ 280 .

(82/384)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾

وتقدم الخلاف في قوله " أصلاتك " بالنسبة إلى الإفراد والجمع في سورة براءة .

قوله ﴿ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ ﴾ العامة على نون الجماعة أو التعظيم في " نفعل " و " نشاء " . وقرأ زيد بن علي وابن أبي عبلة والضحاك بن قيس بتاء الخطاب فيهما . وقرأ أبو عبد الرحمن وطلحة الأول بالنون والثاني بالتاء ، فمَنْ قرأ بالنون فيهما عَطفه على مفعول " نترك " وهو ما " الموصولة/ ، والتقدير : أصلواتك تأمرك أن نَتْرُكَ ما يعبدُ آباؤنا ، أو أن نترك أن نفعلَ في

أموالِنا ما نشاء ، وهو بَخْسُ الكَيْلِ والوَزْنِ المقدَّم ذكرُهما . و " أو " للتنويع أو بمعنى الواو ، قولان ، ولا يجوز عَطْفُه على مفعول " تأمرك " ؛ لأن المعنى يتغير ، إذ يصير التقدير : أصلواتُك تأمُرك أن نفعلَ في أموالنا .

ومَنْ قرأ بالتاء فيهما جاز أن يكونَ معطوفاً على مفعول " تأمرك " ، وأن يكونَ معطوفاً على مفعول " نترك " ، والتقدير : أصلواتك تأمرك أن تفعل أنت في أموالنا ما تشاء أنت ، أو أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نترك أن تفعل أنت في أموالنا ما تشاء أنت .

ومَنْ قرأ بالنون في الأول وبالتاء في الثاني كان " أن نفعل " معطوفاً على مفعول " تأمرك " ، فقد صار ذلك ثلاثةَ أقسام ، قسمٍ يتعينَّ فيه العطفُ على مفعول " نترك " وهي قراءةُ النونِ فيهما ، وقسمٍ يتعيَّن فيه العطفُ على مفعول " تأمرك " ، وهي قراءةُ النون في " نفعل " والتاء في " تشاء " ، وقسمٍ يجوز فيه الأمران وهي قراءةُ التاء فيهما . والظاهرُ من حيث المعنى في قراءة التاء فيهما أو في " تشاء " أن المراد بقولهم ذلك هو إيفاءُ المكيال والميزان ؛ لأنه كان يأمرهم بهما . وقال الزمخشري : " المعنى : تأمرك بتكليف أن نترك ، فحذف المضاف لأنَّ الإِنسان لا يُؤْمَرُ بفعل غيره " .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾

قوله تعالى: ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ : قد تقدَّم ذلك غيرَ مرة . وقال الزمخشري هنا : "فإنْ قلت : أين جوابُ "أرأيتم" وما له لم يَثْبت كما ثبت في قصة نوح وصالح؟ قلت: جوابُه محذوفٌ، وإنما لم يَثْبُتْ لأن إثباته في القصتين دلَّ على مكانه، ومعنى الكلام ينادي عليه، والمعنى: أخبروني إن كنت على حجة واضحةٍ ويقينٍ مِنْ ربي و [كنت] نبياً على الحقيقة، أيصحُّ أنْ لا آمرَكم بترك عبادة الأوثان والكفِّ عن المعاصي، والأنبياءُ لا يُبْعَثون إلا لذلك؟" .

قال الشيخ: "وتَسْمِيَةُ هذا جواباً لـ"أرأيتم" ليس بالمصطلح، بل هذه الجملةُ التي قَدَّرها في موضع المفعول الثاني لـ"أرأيتم" [لأن أرأيتم] إذا ضُمِّنَتْ معنى أخبرني تعدَّتْ إلى مفعولين، والغالبُ في الثاني أن يكون جملةً استفهاميةً ينعقد منها ومن المفعول الأول في الأصل جملةٌ ابتدائية كقول العرب: "أرأيتك زيداً ما صنع" وقال الحوفي: "وجوابُ الشرط محذوفٌ لدلالة الكلام عليه تقديره: أأَعْدِل عَمَّا أنا عليه" . وقال ابن عطية: "وجوابُ الشرط الذي في قوله "أن كنت" محذوفٌ تقديره: أَضِلُّ كما ضَلَلْتُمْ أو أترك تَبْليغ الرسالة، ونحو هذا ممَّا يليق بهذه المحاجَّة" . قال الشيخ: "وليس قوله "أضلُّ" جواباً للشرط؛ لأنه إن كان مثبتاً فلا يمكن أن يكونَ جواباً لأنه لا يترتَّب على الشرط، وإن كان استفهاماً حُذف منه الهمزةُ فهو في موضع المفعول الثاني لـ"أرأيتم"، وجوابُ الشرط محذوفٌ يدل عليه الجملةُ السابقة مع متعلَّقها .

قوله : ﴿ أَنْ أُخَالِفَكُمْ ﴾ قال الزمخشري : " خالفني فلان إلى كذا : إذا قصده وأنت مُوَلٍّ عنه ، وخالفني عنه : إذا ولى عنه وأنت قاصدُه ، ويلقاك الرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول : " خالَفَني إلى الماء " ، يريد أنه ذاهب إليه وارداً ، وأنا ذاهبٌ عنه صادراً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ يعني أن أسْبِقكم إلى شهواتكم التي نَهَيْتُكم عنها لأستبدَّ بها دونكم " . وهذا الذي ذكره أبو القاسم معنى حسنٌ لطيف ولم يتعرَّض لإِعراب مفرداته ، لأنَّ بفهم المعنى يُفهم الإِعراب ولنذكر ما فيه : فأقول : يجوز أن يكونَ " أن أخالفكم " في موضع مفعولٍ ب " أريد " ، أي : وما أريدُ مخالفَتكم ، ويكون فاعَلَ بمعنى فَعَل نحو : جاوزْتُ الشيءَ وجُزْته ، أي : وما أريد أن أخالفكم ، أي : أكونَ خَلَفاً منكم . وقولُه : ﴿ إِلَى مَآ أَنْهَاكُمْ ﴾ يتعلَّق ب " أخالفكم " ، ويجوز أن يتعلَّق بمحذوف على أنه حال ، أي : مائلاً إلى ما أنهاكم عنه ، ولذلك قدَّر بعضُهم محذوفاً يتعلَّق به هذا الجارُّ تقديرُه : وأميل إلى أن أخالفكم ، ويجوز أن يكونَ " أن أخالفكم " مفعولاً من أجله ، وتتعلق " إلى " بقوله " أريد " بمعنى : وما أقصد لأجل مخالفتكم إلى ما أنهاكم عنه ، ولذلك قال الزجاج : " وما أقصد بخلافكم إلى ارتكاب ما

أنهاكم عنه .

ويجوز أن يُراد بأن أخالفكم معناه من المخالفة ، وتكون في موضع المفعول به بأريد ، ويقدَّر مائلاً إلى .

(85/384)

قوله : ﴿ مَا استطعت ﴾ يجوز في " ما " هذه وجوه ، أحدها : أن تكونَ مصدريةً ظرفيةً أي : مدة استطاعتي . الثاني : أن تكون " ما " موصولة بمعنى الذي بدلاً من " الإِصلاح " والتقدير : إنْ أريد إلا المقدارَ الذي أستطيعه من الصلاح . الثالث : أن يكونَ على حَذْف مضاف ، أي : إلا الإِصلاحَ إصلاحَ ما استطعت ، وهو أيضاً بدل . الرابع : / أنها مفعول بها بالمصدرِ المُعَرَّف ، أي : إنْ أريد إلا أن أُصْلح ما استطعت إصلاحَه كقوله :

2697 ضعيفُ النّكايةِ أعداءَه . . . يخالُ الفِرارُ يُراخي الأَجَلْ

ذَكَرَ هذه الأَوجهَ الثلاثةَ الزمخشري ، إلا أن إعمال المصدر المعرَّف قليلٌ عند البصريين ، ممنوعٌ إعمالُه في المفعول به عند الكوفيين . وتقدم الجارّان في " عليه " و " إليه " للاختصاص أي : عليه لا على غيره ، وإليه لا إلى غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 376.372 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87) ﴾

استوطؤوا مركب الجهل ، واستحلبوا مشربَ التقليد ، وأغْفُوا قلوبهم من استعمال الفكرِ ، واستبصارِ طريقِ الرُّشدِ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ .

البَيِّنةُ نورٌ تَسْتَبْصِرُ به ما خَفِيَ عليك تحت غطاء الغفلة .

والرزق الحسن ما به دوام الاستقلال ، وما ذلك إلا مقتضى عنايته الأزلية ، وحُسْنُ توليه لشأنك- في جميع ما فيه صلاحك- من إتمام النعمة ودوام العصمة .

وقيل الرزق الحسنُ ما تعنَّي صاحبُه لِطَلَبه ، ولم يصبْه نَصَبٌ بسببه .

وقيل الرزق الحَسَنُ ما يستوفيه بشهود الرزق ويحفظه عند التنعم بوجود الرَّزّاق .

ويقال الرزق الحسن ما لا يُنْسِي الرزَّاق ، ويحمل صاحبَه على التوسعة والإنفاق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ .

يمكن للواعظ أو الناصح أنْ يساهِل المأمورَ في كل ما يأمره به ، ولكن يجب ألا يجيز له ما ينهاه عنه ؛ فإنّ الإتيانَ بجميع الطاعات غير مُمْكن ، ولكنّ التجرُّد عن جميع المحرَّمات واجبٌ .

ويقال مَنْ لم يكنْ له حُكْمٌ على نفسه في المنع عن الهوى لم يكن له حُكْمٌ على غيره فيما يرشده إليه من الهدى .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ .

مَدارُ الأمر إلى الأغراض المقضية حُسْنُ القصد بالإصلاح ، فيَقْرِنُ اللَّهُ به حسن التيسير ، ومَنْ انطوى على قصدٍ بالسوء وَكَلَ الحقَّ بشأنه التعويق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ .

(87/384)

حقيقةُ التوفيق ما ينفق به الشيء ، وفي الشريعة التوفيق ما تنفق به الطاعة ، وهو قدرة الطاعة ، ثم كل ما تقرب العبد به من الطاعة من توفير الدواعي وفنون المَنْهيات يُعدُّ من جملة التوفيق — على التوسُّع .

والتوفيق بالله ومن الله ، وهو – سبحانه – بإعطائه متفضّلٌ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

التوكل تفويض الأمر إلى الله ، وأمارته تركُ التدبير بشهود التقدير ، والثقة بالموعود عند عدم الموجود . ويتبين ذلك بانتفاء الاضطراب عند عدم الأسباب .

ويقال التوكلُ السكون ، والثقةُ بالمضمون .

ويقال التوكل سكون القلب بمضمون الربّ . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 151. 153﴾

(88/384)

قوله تعالى ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (89) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (91) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بين لهم عذره بما انتفت به تهمته، أتبعه بما يدلهم على أن الحق وضح لهم وضوحاً لم يبق معه إلا المعاندة، فحذرهم عواقبها وذكرهم أمر من ارتكابها فقال: ﴿ ويا قوم ﴾ وأعز الناس عليّ ﴿ لا يجرمنكم ﴾ أي يحملنكم ﴿ شقاقي ﴾ أي شقاقكم لي على ﴿ أن يصيبكم ﴾ من العذاب ﴿ مثل ما ﴾ أي العذاب الذي ﴿ أصاب قوم نوح ﴾ بعد طول أعمارهم وتنائي أقطارهم ﴿ أو قوم هود ﴾ على شدة أبدانهم وتمادي أمانهم ﴿ أو قوم صالح ﴾ مع نحتهم البيوت من الصخور وتشييدهم عوالي القصور.

ولما كان للمقاربة أثر المشاكلة والمناسبة، غير الأسلوب تعظيماً للتهويل فقال: ﴿ وما قوم لوط ﴾ أي على قبح أعمالهم وسوء حالهم وقوة أخذهم ووبالهم ﴿ منكم ببعيد ﴾ أي لا في الزمان ولا في المكان فأنتم أجدر الناس بذكر حالهم للاتعاظ بها، وإنما فسرت جرم بحمل لأن ابن القطاع نقل أنه يقال: جرمت الرجل: حملته على الشيء، وقد عزا الرماني تفسيرها بذلك للحسن وقتادة، ويجوز أن تفسر بما تدور عليه المادة من القطع، أي لا يقطعنكم شقاقي عن اتباع ما أدعوكم إليه خوف أن يصيبكم، وقد جوزه الرماني.

ولما رهبهم، أتبعه الترغيب في سياق مؤذن بأنهم إن لم يبادروا إلى المتاب بادرهم العذاب، بقوله عاطفاً لهذا الأمر على ذلك النهي المتقدم: ﴿واستغفروا ربكم﴾ أي اطلبوا ستر المحسن إليكم، ونبه على مقدار التوبة بأداة التراخي فقال: ﴿ثم توبوا إليه﴾ ثم علل ذلك مرغباً في الاقبال عليه بقوله: ﴿إن ربي﴾ أي المختص لي بما ترون من الإحسان ديناً ودنيا ﴿رحيم ودود﴾ أي بليغ الإكرام لمن يرجع إليه بأن يحفظه على ما يرضاه بليغ التحبب إليه، ولم يبدأه بالاستعطاف على عادته بقوله: يا قوم، إشارة إلى أنه لم يبق لي وقت آمن فيه وقوع العذاب حتى أشتغل فيه بالاستعطاف، فربما كان الأمر أعجل من ذلك فاطلبوا مغفرته بأن بأن تجعلوها غرضكم ثم توصلوا إليها بالتوبة؛ فثم على بابها في الترتيب، وأما التراخي فباعتبار عظم مقدار التوبة وعلو رتبتها لأن الغفران لا يحصل بالطلب إلا إن اقترن بها، هذا الشأن في كل كبيرة من أنها لا تكفر إلا بالتوبة، وذلك لأن الطاعة المفعولة بعدها يكون مثلها كبيرة في جنس الطاعات كما أن تلك كبيرة في جنس المعاصي فلا تقوى الطاعة على محوها وتكرر الطاعات يقابله تكرر المعاصي بالإصرار الذي هو بمنزلة تكرير المعصية في كل حال، فلما رأوه لا ينزع عنهم ولم يقدروا لكلامه على جواب، أيأسوه من الرجوع إليه بأن أنزلوا أنفسهم عناداً في الفهم لهذا الكلام الواضح جداً إلى عداد البهائم، وهددوه فأخبر تعالى عنهم بذلك استئنافاً في جواب من يقول: ما قالوا بعد هذا الدعاء الحسن؟ بقوله: ﴿قالوا يا شعيب﴾ منادين له باسمه جفاء وغلظة

﴿ ما نفقه ﴾ أي الآن لأن " ما " تخص بالحال ﴿ كثيراً مما تقول ﴾ وإذا لم يفهم الكثير من الكلام لم يفهم مقصوده ، يعنون : خفض عليك واترك كلامك فإنا لا نفهمه تهاوناً به كما يقول الإنسان لخصمه إذا نسبه إلى الهذيان : أنا لا أدري ما تقول ، ولما كان غرضهم مع العناد قطع الأمر ، خصوا عدم الفهم بالكثير ليكون

(90/384)

أقرب إلى الإمكان ، وكأنهم - والله أعلم - أشاروا إلى أنه كلام غير منتظم فلا حاصل له ولا لمضمونه وجود في الخارج.

ولما كان في ذلك إشارة إلى أنه ضعيف العقل لأن كلامة مثل كلام المجانين ، أتبعوه قولهم : ﴿ وإنا لنراك ﴾ أي رؤية مجددة مستمرة ﴿ فينا ضعيفاً ﴾ أي في البدن وغيره ، فلا تتعرض لسخطنا فإنك لا تقدر على الامتناع من مكروه نحله بك بقوة عقل ولا جسم ولا عشيرة ، وأشاروا إلى ضعف العشيرة بتعبيرهم بالرهط في قولهم : ﴿ ولولا رهطك لرجمناك ﴾ أي قتلناك شر قتلة - فإن الرهط من ثلاثة إلى عشرة وأكثر ما قيل : إن فخذه أربعون - فما أنت علينا بممتنع لضعفك وقلة قومك ﴿ وما أنت ﴾ أي خاصة ، لأن " ما " لنفي الحال اختصاص بالزمان ، والقياس أن يكون مدخولها فعلاً أو شبهه ، وحيث أوليت

الاسم لا سيما الضمير دل على أن التقديم للاهتمام والاختصاص ﴿علينا بعزيز﴾ بكريم مودود ، تقول : أعززت فلاناً – إذا كان له عندك ود ، بل قومك هم الأعزة عندنا لموافقتهم لنا ، ولو كان المراد : ما عززت علينا ، لكان الجواب : لم لا أعز وقد شرفني الله – أو نحو هذا ، ويصح أن يراد بالعزيز القوي الممتنع ، ويصير إفهامه لامتناع رهطه محمولاً على أن المانع لهم موافقتهم لهم لا قوتهم ؛ والفقه : فهم الكلام على ما تضمن من المعنى ، وقد صار اسماً لضرب من علوم الدين ، وأصل الرهط : الشدة ، من الترهيط لشدة الأكل ، ومنه الراهطاء : جحر اليربوع لشدته وتوثقه ليخبأ فيه ولد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 3 صـ 568.570﴾

(91/384)

فصل

قال الفخر :

وأما الوجه الرابع : من الوجوه التي ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله : ﴿ويا قوم لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى أَن يُصِيبَكُم﴾ قال صاحب "الكشاف" : جرم مثل كسب في تعديته تارة إلى مفعول واحد وأخرى إلى مفعولين يقال جرم ذنباً وكسبه وجرمه ذنباً وكسبه إياه ،

ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم ﴾ أي لا يكسبنكم شقاقي إصابة العذاب ، وقرأ ابن كثير ﴿ يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ بضم الياء من أجرمته ذنباً إذا جعلته جارماً له أي كاسباً له .

وهو منقول من جرم المتعدي إلى مفعول واحد ، وعلى هذا فلا فرق بين جرمته ذنباً وأجرمته إياه ، والقراءتان مستويتان في المعنى لا تفاوت بينهما إلا أن المشهورة أفصح لفظاً كما أن كسبه مالاً أفصح من أكسبه .

إذا عرفت هذا فنقول : المراد من الآية لا تكسبنكم معاداتكم إياي أي يصيبكم عذاب الاستئصال في الدنيا مثل ما حصل لقوم نوح عليه السلام من الغرق ، ولقوم هود من الريح العقيم ولقوم صالح من الرجفة ، ولقوم لوط من الخسف .

وأما قوله : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ ففيه وجهان : الأول : أن المراد نفي البعد في المكان لأن بلاد قوم لوط عليه السلام قريبة من مدين ، والثاني : أن المراد نفي البعد في الزمان لأن إهلاك قوم لوط عليه السلام أقرب الإهلاكات التي عرفها الناس في زمان شعيب عليه السلام ، وعلى هذين التقديرين فإن القرب في المكان وفي الزمان يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف على الأحوال فكأنه يقول اعتبروا بأحوالهم واحذروا من مخالفة الله تعالى ومنازعته حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب .

فإن قيل : لم قال : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ وكان الواجب أن يقال ببعيدين ؟

أجاب عنه صاحب "الكشاف" من وجهين : الأول : أن يكون التقدير ما إهلاكهم شيء بعيد .

(92/384)

الثاني : أنه يجوز أن يسوى في قريب وبعيد وكثير وقليل بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي الصهيل والنهيق ونحوهما .

وأما الوجه الخامس : من الوجوه التي ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله : واستغفروا ربكم من عبادة الأوثان ثم توبوا إليه عن البخس والنقصان إن ربي رحيم بأوليائه ودود .

قال أبو بكر الأنباري : الودود في أسماء الله تعالى المحب لعباده ، من قولهم وددت الرجل أوده ، وقال الأزهري في "كتاب شرح أسماء الله تعالى" ويجوز أن يكون ودود فعولاً بمعنى مفعول كركوب وحلوب ، ومعناه أن عباده الصالحين يودونه ويحبونه لكثرة إفضاله وإحسانه على الخلق .

واعلم أن هذا الترتيب الذي راعاه شعيب عليه السلام في ذكر هذه الوجوه الخمسة ترتيب لطيف وذلك لأنه بين أولاً أن ظهور البينة له وكثرة إنعام الله تعالى عليه في الظاهر والباطن يمنعه عن الخيانة في وحي الله تعالى ويصده عن التهاون في تكاليفه .

ثم بين ثانياً أنه مواظب على العمل بهذه الدعوة ولو كانت باطلة لما اشتغل هو بها مع اعترافكم بكونه حليماً رشيداً ، ثم بين صحته بطريق آخر وهو أنه كان معروفاً بتحصيل موجبات الصلاح وإخفاء موجبات الفتن ، فلو كانت هذه الدعوة باطلة لما اشتغل بها ، ثم لما بين صحة طريقته أشار إلى نفي المعارض وقال لا ينبغي أن تحملكم عداوتي على مذهب ودين تقعون بسببه في العذاب الشديد من الله تعالى ، كما وقع فيه أقوام الأنبياء المتقدمين ، ثم إنه لما صحح مذهب نفسه بهذه الدلائل عاد إلى تقرير ما ذكره أولاً وهو التوحيد والمنع من البخس بقوله : ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ ثم بين لهم أن سبق الكفر والمعصية منهم لا ينبغي أن يمنعهم من الإيمان والطاعة لأنه تعالى رحيم ودود يقبل الإيمان والتوبة من الكافر والفاسق لأن رحمته وحبه لهم يوجب ذلك ، وهذا التقرير في غاية الكمال .

(93/384)

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (91) ﴾

اعلم أنه عليه السلام لما بالغ في التقرير والبيان ، أجابوه بكلمات فاسدة .

فالأول : قولهم : ﴿ يا شعيب مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مّمَّا تَقُولُ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

لقائل أن يقول : أنه عليه السلام كان يخاطبهم بلسانهم ، فلم قالوا : ﴿ مَا نَفْقَهُ ﴾ والعلماء ذكروا عنه أنواعاً من الجوابات : فالأول : أن المراد : ما نفهم كثيراً مما تقول ، لأنهم كانوا لا يلقون إليه أفهامهم لشدة نفرتهم عن كلامه وهو كقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ [الأنعام : 25] الثاني : أنهم فهموه بقلوبهم ولكنهم ما أقاموا له وزناً ، فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة كما يقول الرجل لصاحبه إذ لم يعبأ بحديثه : ما أدري ما تقول .

الثالث : أن هذه الدلائل التي ذكرها ما أقنعتهم في صحة التوحيد والنبوة والبعث ، وما يجب من ترك الظلم والسرقة ، فقولهم : ﴿ مَا نَفْقَهُ ﴾ أي لم نعرف صحة الدلائل التي ذكرتها على صحة هذه المطالب .

المسألة الثانية :

من الناس من قال : الفقه اسم لعلم مخصوص ، وهو معرفة غرض المتكلم من كلامه واحتجوا بهذه الآية وهي قوله : ﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ فأضاف الفقه إلى القول ثم صار اسماً لنوع معين من علوم الدين ، ومنهم من قال : إنه اسم لمطلق الفهم .

يقال : أوتي فلان فقهاً في الدين ، أي فهماً .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين " أي يفهمه تأويله .

والنوع الثاني : من الأشياء التي ذكروها قولهم : ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ وفيه وجهان : الأول : أنه الضعيف الذي يتعذر عليه منع القوم عن نفسه ، والثاني : أن الضعيف هو الأعمى بلغة حمير.

(94/384)

واعلم أن هذا القول ضعيف لوجوه : الأول : أنه ترك للظاهر من غير دليل ، والثاني : أن قوله : ﴿ فِينَا ﴾ يبطل هذا الوجه ؛ ألا ترى أنه لو قال : إنا لنراك أعمى فينا كان فاسداً ، لأن الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم ، الثالث : أنهم قالوا بعد ذلك ﴿ وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لرجمناك ﴾ فنفوا عنه القوة التي أثبتوها في رهطه ، ولما كان المراد بالقوة التي أثبتوها للرهط هي النصرة ، وجب أن تكون القوة التي نفوها عنه هي النصرة ، والذين حملوا اللفظ على ضعف البصر لعلهم إنما حملوه عليه ، لأنه سبب للضعف .

واعلم أن أصحابنا يجوزون العمى على الأنبياء ، إلا أن هذا اللفظ لا يحسن الاستدلال به في إثبات هذا المعنى لما بيناه .

وأما المعتزلة فقد اختلفوا فيه فمنهم من قال : إنه لا يجوز لكونه متعبداً فإنه لا يمكنه الاحتراز عن النجاسات ، ولأنه يخل بجواز كونه حاكماً وشاهداً ، فلأن يمنع من النبوة كان

أولى ، والكلام فيه لا يليق بهذه الآية ، لأنا بينا أن الآية لا دلالة فيها على هذا المعنى .

والنوع الثالث : من الأشياء التي ذكروها قولهم : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لرجمناك ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قال صاحب "الكشاف" : الرهط من الثلاثة إلى العشرة ، وقيل إلى السبعة ، وقد كان رهطه على ملتهم .

قالوا لولا حرمة رهطك عندنا بسبب كونهم على ملتنا لرجمناك ، والمقصود من هذا الكلام أنهم بينوا أنه لا حرمة له عندهم ، ولا وقع له في صدورهم ، وأنهم إنما لم يقتلوه لأجل احترامهم رهطه .

المسألة الثانية :

الرجم في اللغة عبارة عن الرمي ، وذلك قد يكون بالحجارة عند قصد القتل ، ولما كان هذا الرجم سبباً للقتل لا جرم سموا القتل رجماً ، وقد يكون بالقول الذي هو القذف ، كقوله : ﴿ رَجْماً بالغيب ﴾ [الكهف : 22] وقوله : ﴿ وَيَقْذِفُونَ بالغيب مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [

سبأ : 53] وقد يكون بالشتم واللعن ، ومنه قوله : ﴿ الشيطان الرجيم ﴾ [النحل : 98] وقد يكون بالطرد كقوله : ﴿ رُجُوماً للشياطين ﴾ [الملك : 5] .

إذا عرفت هذا ففي الآية وجهان : الأول : ﴿ لرجمناك ﴾ لقتلناك .

الثاني : لشتمناك وطردناك .

النوع الرابع : من الأشياء التي ذكروها قولهم : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ ومعناه أنك لما لم تكن علينا عزيزاً سهل علينا الإقدام على قتلك وإيذائك .

واعلم أن كل هذه الوجوه التي ذكروها ليست دافعاً لما قرره شعيب عليه السلام من الدلائل والبينات ، بل هي جارية مجرى مقابلة الدليل والحجة بالشتم والسفاهة . انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 38.41 ﴾

(96/384)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي ﴾

في ﴿ يجرمنكم ﴾ تأويلان :

أحدهما : معناه لا يحملنكم ، قاله الحسن وقتادة .

والثاني : معناه لا يكسبنكم ، قاله الزجاج.

وفي قوله ﴿ شقاقي ﴾ ثلاثة تأويلات :

أحدها : إضراري ، قاله الحسن.

الثاني : عداوتي ، قاله السدي ومنه قول الأخطل :

ألا من مبلغ قيساً رسولاً . . . فكيف وجدتم طعمَ الشقاق

الثالث : فراقي ، قاله قتادة.

﴿ أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوحٍ ﴾ وهم أول أمة أهلكوا بالعذاب.

﴿ أو قوم هودٍ أو قوم صالحٍ وما قوم لوطٍ منكم ببعيدٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني بعد الدار لقربهم منهم ، قاله قتادة.

الثاني : بعد العهد لقرب الزمان.

ويحتمل أن يكون مراداً به قرب الدار وقرب العهد .

وقد أهلك قوم هود بالريح العاصف ، وقوم صالح بالرجفة والصيحة ، وقوم لوط بالرجم .

قوله عز وجل : ﴿ قالوا يا شعيبُ ما نفقهُ كثيراً مما تقول ﴾ أي ما نفهم ، ومنه سمي عِلم الدين فقهاً لأنه مفهوم ، وفيه وجهان :

أحدهما : ما نفقه صحة ما تقول من العبث والجزاء .

الثاني : أنهم قالوا ذلك إعراضاً عن سماعه واحتقاراً لكلامه .

﴿ وإنا لنراك ضعيفاً ﴾ فيه سبعة تأويلات :

أحدها : ضعيف البصر ، قاله سفيان .

الثاني : ضعيف البدن ، حكاه ابن عيسى .

الثالث : أعمى ، قاله سعيد بن جبير وقتادة .

الرابع : قليل المعرفة وحيداً ، قاله السدي .

الخامس : ذليلاً مهيناً ، قاله الحسن .

السادس : قليل العقل .

السابع : قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها .

﴿ ولولا رهطك ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عشيرتك ، وهو قول الجمهور .

الثاني : لولا شيعتك ، حكاه النقاش .

﴿ لرجمناك ﴾ فيه وجهان : أحدهما : لقتلناك بالرجم .

الثاني : لشتمناك بالكلام ، ومنه قول الجعدي .

تراجمنا بمُرِّ القول حتى . . . نصير كأننا فَرسَا رِهان

﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : بكريم .

الثاني : بممتنع لولا رهطك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(97/384)

وقال ابن عطية :

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ﴾

﴿ لا يجرمنكم ﴾ معناه : لا يكسبنكم ، يقال : جرمه كذا وكذا وأجرمه إذا أكسبه ، كما يقال : كسب وأكسب بمعنى ، ومن ذلك قول الشاعر :

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة . . . جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

وقرأ الجمهور "يَجرمنكم" بفتح الياء ، وقرأ الأعمش وابن وثاب "يُجرمنكم" بضمها ، و﴿ شقاقي ﴾ معناه : مشاقتي وعداوتي ، و﴿ أن ﴾ مفعولة ب﴿ يجرمنكم ﴾ .

وكانت قصة قوم لوط أقرب القصص عهداً بقصة قوم شعيب ، وقد يحتمل أن يريد وما منازل قوم لوط منكم ببعيد ، فكأنه قال : وما قوم لوط منكم ببعيد بالمسافة ، ويتضمن هذا القول ضرب المثل لهم بقوم لوط .

وقرأ الجمهور " مثلُ " بالرفع على أنه فاعل ﴿ يصبكم ﴾ وقرأ مجاهد والجحدري وابن أبي إسحاق " مثلَ " بالنصب ، وذلك على أحد وجهين : إما أن يكون " مثل " فاعلاً ، وفتحة اللام فتحة بناء لما أضيف لغير متمكن ، فإن " مثل " قد يجري مجرى الظروف في هذا الباب وإن لمن يكن ظرفاً محضاً .

وإما أن يقدر الفاعل محذوفاً يقتضيه المعنى ، ويكون " مثلَ " منصوباً على النعت لمصدر محذوف تقديره : إصابة مثل .

وقوله ﴿ واستغفروا ﴾ الآية ، تقدم القول في مثل هذا من ترتيب هذا الاستغفار قبل التوبة . و﴿ ودود ﴾ معناه : أن أفعاله ولطفه بعباده لما كانت في غاية الإحسان إليهم كانت كفعل من يتودد ويود المصنوع له .

(98/384)

وقوله تعالى : ﴿ قالوا : يا شعيب ﴾ الآية ، ﴿ نفقه ﴾ معناه : نفهم وهذا نحو قول قريش ﴿ قلوبنا في أكنة ﴾ [فصلت : 5] ومعنى : " ما نفقه ما تقول " أي ما نفقه صحة قولك ، وأما فقههم لفظه ومعناه فمتحصل ، وروي عن ابن جبير وشريك القاضي في قولهم : ﴿ ضعيفاً ﴾ أنه كان ضرير البصر أعمى ، وحكى الزهراوي : أن حمير تقول للأعمى :

ضعيف، كما يقال له: ضرير، وقيل: كان ناحل البدن زمنه.

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله ضعيف ولا تقوم عليه حجة بضعف بصره أو بدنه؛ والظاهر من قولهم: ﴿ ضعيفاً ﴾ أنه ضعيف الانتصار والقدرة، وأن رهطه الكفرة كانوا يراعون فيه.

و" الرهط " جماعة الرجل، ومنه الراهطاء لأن اليربوع يعتصم به كما يفعل الرجل برهطه.

و﴿ لرجمناك ﴾ قيل: معناه بالحجارة - وهو الظاهر وقاله ابن زيد - وقيل معناه: ﴿ لرجمناك ﴾ بالسب - وبه فسر الطبري. وهذا أيضاً تستعمله العرب. ومنه قوله تعالى: ﴿ لأرجمنك واهجرني ملياً ﴾ [مريم: 46]، وقولهم ﴿ بعزيز ﴾ أي بذي منعة وعزة ومنزلة في نفوسنا. انتهى انتهى. ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(99/384)

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ ويا قوم لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾

وقرأ يحيى بن وثاب "يُجْرِمَنَّكُمْ".

﴿ شقاقي ﴾ في موضع رفع.

﴿ أَن يُصِيبَكُم ﴾ في موضع نصب ، أي لا يحملنكم معاداتي على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار (قبلكم) ، قاله الحسن وقتادة .

وقيل : لا يكسبنكم شقاقي إصابتكم العذاب ، كما أصاب من كان قبلكم ، قاله الزجاج.

وقد تقدّم معنى "يجرمنكم" في "المائدة" و "الشقاق" في "البقرة" وهو هنا بمعنى العداوة ، قاله السدّي ، ومنه قول الأخطل :

ألاَ مَنْ مُبلغٌ عنّي رسولاً . . .

فكيف وجَدتُم طَعْمَ الشّقاق

وقال الحسن (البصري) : إضراري .

وقال قتادة : فِراقي .

﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ وذلك أنهم كانوا حديثي عهد بهلاك قوم لوط .

وقيل : وما ديار قوم لوط منكم ببعيد ، أي بمكان بعيد ، فلذلك وحد البعيد .

قال الكسائيّ : أي دورهم في دوركم .

قوله تعالى : ﴿ ويا قوم استغفروا ربّكمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ ﴾ تقدم .

﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ اسمان من أسمائه سبحانه ، وقد بيناهما في كتاب "الأسنى في شرح الأسماء الحسنى" .

قال الجوهريّ : وَدِدت الرجل أوده وداً إذا أحببته ، والودود المحب ، والوَد والوِد والوُد

والمودة المحبة .

وروي " عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ذكر شعيباً قال : "ذاك خطيب الأنبياء " .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يا شعيب مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ ﴾ أي ما نفهم ؛ لأنك تحملنا على أمور غائبة من البعث والنشور ، وتعظنا بما لا عهد لنا بمثله .

وقيل : قالوا ذلك إعراضاً عن سماعه ، واحتقاراً لكلامه ؛ يقال : فِقه يفقَه إذا فهم فِقْهاً ؛ وحكى الكسائي : فَقُه فَقَهاً وفِقْهاً إذا صار فقيهاً .

﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً ﴾ قيل : إنه كان مصاباً ببصره ؛ قاله سعيد بن جبير وقتادة .

وقيل : كان ضعيف البصر ؛ قاله الثوري وحكى عنه النحاس مثل قول سعيد بن جبير وقتادة .

قال النحاس : وحكى أهل اللغة أن حِمْيَر تقول للأعمى ضعيفاً ؛ أي قد ضعف بذهاب بصره ؛ كما يقال له ضرير ؛ أي قد ضرّ بذهاب بصره ؛ كما يقال له : مكفوف ؛ أي قد كف عن النظر بذهاب بصره .

قال الحسن : معناه مهين .

وقيل : المعنى ضعيف البدن ؛ حكاه عليّ بن عيسى .

وقال السدي : وحيداً ليس لك جند وأعوان تقدر بها على مخالفتنا .

وقيل : قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها .

و"ضعيفاً" نصب على الحال .

﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ ﴾ رفع بالابتداء ، ورهط الرجل عشيرته الذي يستند إليهم ويتقوّى بهم ؛ ومنه الرّاهِطَاء لِجُحر الَيْربُوع ؛ لأنه يَتوثق به ويخبِّىء فيه ولده .

ومعنى ﴿ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ لقتلناك بالرّجم ، وكانوا إذا قتلوا إنساناً رجموه بالحجارة ، وكان رهطه من أهل ملتهم .

وقيل : معنى "لَرَجَمْنَاكَ" لشتمناك ؛ ومنه قول الجعدي :

تَراجَمْنا بمُرِّ القولِ حتى . . .

نصير كأنّنا فَرسَا رِهانِ

والرجم أيضاً اللعن ؛ ومنه الشيطان الرجيم .

﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ أي ما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن:

قوله تعالى: ﴿ ويا يوم لا يجرمنكم شقاقي ﴾

أي لا يحملنكم خلافي وعداوتي ﴿ أن يصيبكم ﴾ يعني عذاب العاجلة على كفركم وأفعالكم الخبيثة ﴿ مثل ما أصاب قوم نوح ﴾ يعني الغرق ﴿ أو قوم هود ﴾ يعني الريح التي أهلكتهم ﴿ أو قوم صالح ﴾ يعني ما أصابهم من الصيحة حتى هلكوا جميعاً ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ وذلك أنهم كانوا حديثي عهد بهلاكهم وقيل معناه وما ديار قوم لوط منكم ببعيد وذلك انهم كانوا جيران قوم لوط وبلادهم قريبة من بلادهم.

﴿ واستغفروا ربكم ﴾ يعني من عبادة الأصنام ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ يعني من البخس والنقصان في الكيل والوزن ﴿ إن ربي رحيم ﴾ يعني بعباده إذا تابوا واستغفروا ﴿ ودود ﴾ قال ابن عباس: الودود المحبّ لعباده المؤمنين فهو من قولهم وددت الرجل أوده إذا أحببته، وقيل: يحتمل أن يكون ودود فعول بمعنى مفعول ومعناه أن عباده الصالحين يودونه ويحبونه لكثرة إفضاله وإحسانه إليهم.

وقال الحليمي : هو الوّاد لأهل طاعته أي الراضي عنهم بأعمالهم والمحسن إليهم لأجلهم والمادح لهم بها ، وقال أبو سليمان الخطابي : وقد يكون معناه من تودد إلى خلقه ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ﴾ يعني ما نفهم ما تدعونا إليه وذلك أن الله سبحانه وتعالى ختم على قلوبهم فصارت لا تعي ولا تفهم ما ينفعها وإن كانوا في الظاهر يسمعون ويفهمون ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ قال ابن عباس وقتادة : كان أعمى ، قال الزجاج : ويقال إن حمير كانوا يسمون المكفوف ضعيفاً وقال الحسن وأبو روق ومقاتل : يعني ذليلاً ، قال أبو روق : إن الله سبحانه وتعالى لم يبعث نبياً أعمى ولا نبياً به زمانة ، وقيل : كان ضعيف البصر وقيل المراد بالضعف العجز عن الكسب والتصرف وقيل هو الذي يتعذر عليه المنع عن نفسه ويدل على صحة هذا القول ما بعده وهو قوله ﴿ ولولا رهطك ﴾ يعني جماعتك وعشيرتك قيل الرهط ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وقيل : إلى السبعة ﴿ لرجمناك ﴾ يعني لقتلناك بالحجارة والرجم أسوأ القتلات وشرها ، وقيل : معناه لشتمناك وأغلظنا لك القول ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ يعني بكريم وقيل بممتنع منا والمقصود من هذا الكلام وحاصله أنهم بينوا لشعيب عليه السلام أنه لا حرمة له عندهم ولا في صدورهم وأنهم إنما لم يقتلوه ولم يسمعوه الكلام الغليظ الفاحش لأجل احترامهم رهطه وعشيرته وذلك لأنهم كانوا على دينهم وملتهم ولما قالوا لشعيب عليه السلام هذه المقالة أجابهم بقوله ﴿ قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

ومعنى لا يجرمنكم : لا يكسبنكم شقاقي ، أي خلافي وعداوتي .

قال السدي : كأنه في شق وهم في شق .

وقال الحسن : ضراري جعله من المشقة .

وقيل : فراقي .

وقرأ ابن وثاب والأعمش : بضم الياء من أجرم ، ونسبها الزمخشري إلى ابن كثير ، وجرم في التعدية مثل كسب يتعدى إلى واحد .

جرم فلان الذنب ، وكسب زيد المال ، ويتعدى إلى اثنين جرمت زيداً الذنب ، وكسبت زيداً المال .

وبالألف يتعدى إلى اثنين أيضاً ، أجرم زيد عمراً الذنب ، وأكسبت زيداً المال ، وتقدم الكلام في جرم في العقود .

وقرأ مجاهد ، والجحدري ، وابن أبي إسحاق ، ورويت عن نافع : مثل بفتح اللام ، وخرج على وجهين : أحدهما : أن تكون الفتحة فتحة بناء ، وهو فاعل كحاله حين كان مرفوعاً ،

ولما أضيف إلى غير متمكن جاز فيه البناء ، كقراءة من قرأ أنه لحق مثل ما أنكم تنطقون .

والثاني : أن تكون الفتحة فتحة إعراب ، وانتصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي :

إصابة مثل إصابة قوم نوح .

والفاعل مضمر يفسره سياق الكلام أي : ان يصيبكم هو أي العذاب .

وما قوم لوط منكم ببعيد ، إما في الزمان لقرب عهد هلاكهم من عهدكم ، إذ هم أقرب

الهالكين ، وإما في الكفر والمعاصي وما يستحق به الهلاك .

وأجرى بعيداً على قوم إما باعتبار الزمان أو المكان ، أي : بزمان بعيد ، أو بمكان بعيد .

أو باعتبار موصوف غيرهما أي : بشيء بعيد ، أو باعتبار مضاف إلى قوم أي : وما إهلاك

قوم لوط .

ويجوز أن يسوي في قريب وبعيد وكثير وقليل بين المفرد والجمع ، وبين المذكر والمؤنث ، كما

قالوا : هو صديق ، وهم صديق ، وهي صديق ، وهن صديق .

وودود بناء مبالغة من ودّ الشيء أحبه وآثره ، وهو على فعل .

وسمع الكسائي : وددت بفتح العين ، والمصدر ود وو داد وودادة .

وقال بعض أهل اللغة : يجوز أن يكون ودود فعول بمعنى مفعول .

وقال المفسرون : ودود متحبب إلى عباده بالإحسان إليهم .

وقيل : محبوب المؤمنين ورحمته لعباده ، ومحبته لهم سبب في استغفارهم وتوبتهم ، ولولا ذلك ما وفقهم إلى استغفاره والرجوع إليه ، فهو يفعل بهم فعل الوادّ بمن يودّه من الإحسان إليه .

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ ﴾

الرهط : قال ابن عطية جماعة الرجل ، وقيل : الرهط والراهط اسم لما دون العشرة من الرجال ، ولا يقع الرهط والعصبة والنفر إلا على الرجال .

وقال الزمخشري : من الثلاثة إلى العشرة .

وقيل : إلى التسعة ، ويجمع على أرهط ، ويجمع أرهط على أراهط ، فهو جمع جمع .

قال الرماني : وأصل الرهط الشد ، ومنه الرهيط شدة الأكل ، والراهط اسم لجحر اليربوع لأنه يتوثق به ويخبأ فيه ولده .

﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربي بما تعملون محيط ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا

بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾ : كانوا لا يلقون إليه أذهانهم ، ولا يصغون لكلامه رغبة عنه وكراهة له كقوله تعالى : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ﴾ أو كانوا يفهمونه ولكنهم لم يقبلوه ، فكأنهم لم يفقهوه ، أو قالوا ذلك على وجه الاستهانة به كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه : ما أدري ما تقول ، أو جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً لا يتفهم كثير منه ، وكيف لا يتفهم كلامه وهو خطيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ثم الذي جاورهم به من الكلام وخاطبهم به هو من أفصح الكلام وأجله وأدله على معانيه بحيث يفقهه من كان بعيد الفهم ، فضلاً عن الأذكياء العقلاء ، ولكن الله تعالى أراد خذلانهم .

ومعنى ضعيفاً : لا قوة لك ولا عز فيما بيننا ، فلا تقدر على الامتناع منه إن أردناك بمكروه ، وعن الحسن : ضعيفاً مهيناً .

وقيل : كان ناحل البدن زمنه لا يقع في القلب منه هيبة ولا في العين منه امتلاء ، والعرب تعظم بكبر الأجسام ، وتذم بدمامتها .

وقال الباقر : مهجوراً لا تجالس ولا تعاشر .

وقال مقاتل : ضعيفاً أي لم يؤمن بك رهطك .

وقال السدي : وحيداً في مذهبك واعتقادك .

وقال ابن جبير وشريك القاضي : ضعيفاً ضرير البصر أعمى .

وحكى الزهراوي والزمخشري : أنّ حمير تسمي الأعمى ضعيفاً ، ويبعده تفسيره هنا بأعمى أو بناحل البدن أو بضعيف البصر كما قاله الثوري .

وزعم أبو روق : أن الله لم يبعث نبياً أعمى ، ولا نبياً به زمانة ، بل الظاهر أنه ضعيف الانتصار والقدرة .

ولولا رهطك احترموه لرهطه إذ كانوا كفاراً مثلهم ، أو كان في عزة ومنعة منهم لرجمناك .

ظاهره القتل بالحجارة ، وهي من شر القتلات ، وبه قال ابن زيد ، وقال الطبري : رجمناك بالسب ، وهذا أيضاً تستعمله العرب ومنه :

﴿ لأرجمنك واهجرني ملياً ﴾ وقيل : لأبعدناك وأخرجناك من أرضنا .

وما أنت علينا بعزيز أي : لا تعز ولا تكرم حتى نكرمك من القتل ، ونرفعك عن الرجم .

وإنما يعز علينا رهطك لأنهم من أهل ديننا لم يختاروك علينا .

وقيل : بعزيز بذي منعة ، وعزة منزلة في نفوسنا .

وقيل : بذي غلبة .

وقيل : بملك ، وكانوا يسمون الملك عزيزاً .

قال الزمخشري : وقد دل إيلاء ضميره حرف النفي على أن الكلام واقع في الفاعل ، لا في الفعل ، كأنه قيل : وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة علينا ، ولذلك قال في جوابهم : أرهطي أعز عليكم من الله ؟ ولو قيل : وما عززت علينا لم يصح هذا الجواب .

(فإن قلت) : فالكلام واقع فيه وفي رهطه وأنهم الأعزة عليهم دونه ، فكيف صح قوله : أرهطي أعز عليكم من الله ؟ (قلت) : تهاونهم به وهو نبي الله تهاون بالله فحين عز عليهم رهطه دونه ، كان رهطه أعز عليهم من الله .

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ انتهى . انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(106/384)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾

أي لا يَكسِبنّكم ، من جرَمَته ذنباً مثل كسبته مالاً ﴿ شِقَاقِى ﴾ معاداتي وأصلُها أن أحد المتعادِيَين يكون في عُدوة وشقَ والآخرُ في آخرَ ﴿ أَن يُصِيبَكُمْ ﴾ مفعولٌ ثانٍ ليجرمنكم أي لا تكسِبْكم معاداتُكم لي أن يصيبكم ﴿ مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ ﴾ من

الغرق ﴿ أَوْ قَوْمَ هُودٍ ﴾ من الريح ﴿ أَوْ قَوْمَ صالح ﴾ من الصيحة والرجفةِ ، وقرأ ابن كثير بضم الياء من أجرمتُه ذنباً إذا جعلته جارِماً له أي كاسباً وهو منقول من جرم المتعدي إلى مفعولٍ واحد كما نقل أكسبه المالَ من كسب المالَ فكما لا فرق بين كسبته مالاً وأكسبته إياه لا فرق جرَمته ذنباً وأجرمتُه إياه في المعنى ، إلا أن الأولَ أصحُ وأدور على ألسنة الفصحاءِ وقرأ أبو حيوة مثلَ ما أصاب بالفتح لإضافته إلى غير متمكن كقوله :

لم يمنع الشربَ منها غير أن نطَقت . . . حمامةٌ في غصون ذاتُ أوقالِ

(107/384)

وهذا وإن كان بحسب الظاهرِ نهياً للشقاق عن كسب إصابةِ العذابِ لكنه في الحقيقة نهيٌ للكفرة عن مشاقّته عليه السلام على ألطف أسلوبٍ وأبدعِه كما مر في سورة المائدة عند قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَانُ قَوْمٍ ﴾ الآية ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ زماناً أو مكاناً ، فإن لم تعتبروا بمن قبلهم من الأمم المعدودةِ فاعتبروا بهم ، فكأنه إنما غير أسلوبَ التحذيرِ بهم ولم يصرِّح بما أصابهم بل اكتفى بذكر قربِهم إيذاناً بأن ذلك مغنٍ عن ذكره لشهرة كونِه منظوماً في سِمْطِ ما ذُكر من دواهي الأممِ المرقومة أو ليسوا ببعيد منكم في الكفر والمعاصي فلا يبعُد أن يُصيبكم مثلُ ما أصابكم ، وإفرادُ البعيدِ مع تذكيره لأن المراد وما

إهلاكُهم على نية المضافِ أو وما هم بشيء بعيد ، لأن المقصودَ إفادةُ عدم بعدِهم على الإطلاق لا من حيث خصوصية كونِهم قوماً أو ما هم في زمان بعيد أو مكان بعيد ، ولا يبعُد أن يكون ذلك لكونه على زنة المصادر كالنهيق والشهيق ، ولما أنذرهم عليه السلام بسوء عاقبة صنيعِهم عقّبه طمعاً في ارعوائهم عما كانوا فيه يعمهون من طغيانهم بالحمل على الاستغفار والتوبة فقال :

﴿ واستغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه ﴾

(108/384)

مر تفسيرُ مثله في أول السورة ﴿ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ ﴾ عظيمُ الرحمة للتائبين ﴿ وَدُودٌ ﴾ مبالِغٌ في فعل ما يفعل البليغُ المودةَ بمن يودّه من اللطف والإحسانِ ، وهذا تعليلٌ للأمر بالاستغفار والتوبةِ وحثٌّ عليهما ﴿ قَالُواْ يا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مّمَّا تَقُولُ ﴾ الفِقهُ غرضِ المتكلّم من كلامه أي ما نفهم مرادَك ، وإنما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائلَ الحقِّ المبينِ على أحسن وجهٍ وأبلغِه وضاقت عليهم الحيلُ وعيّتْ بهم العلل ، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلاً سوى الصدودِ عن منهاج الحقِ والسلوكِ إلى سبيل الشقاءِ كما هو ديدَنُ المُفحَمِ المحجوجِ يقابل البيناتِ بالسبّ والإبراق والإرعاد ، فجعلوا كلامَه المشتملَ على فنون

الحِكَم والمواعظِ وأنواعِ العلومِ والمعارفِ من قبيل ما لا يُفقه معناه ولا يُدرك فحواه وأدمجوا في ضمن ذلك أن في تضاعيفه ما يستوجب أقصى ما يكون من المؤاخذة والعقاب ، ولعل ذلك ما فيه من التحذير من عواقب الأممِ السالفة ولذلك قالوا : ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ﴾ فيما بيننا ﴿ ضَعِيفاً ﴾ لا قوة لك ولا قدرةَ على شيء من الضر والنفعِ والإيقاعِ والدفع ﴿ وَلَوْلاَ رَهْطُكَ ﴾ لولا مراعاةُ جانبِهم لا لولاهم يمانعوننا ويدافعوننا ﴿ لرجمناك ﴾ فإن ممانعةَ الرهطِ وهو اسمٌ للثلاثة إلى السبعة أو إلى العشرة لهم وهم ألوفٌ مؤلفةٌ مما لا يكاد يُتوّهم وقد أيد ذلك بقوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ مُكْرَمٌ محْترمٌ حتى نمتنع من رجمك ، وإنما نكفُ عنه للمحافظة على حرمة رهطِك الذين ثبتوا على ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا ، وإيلاءُ الضميرِ حرفَ النفي وإن لم يكن الخبرُ فعلياً غيرَ خالٍ عن الدِلالة على رجوع النفي إلى الفاعل دون الفعلِ لا سيما قرينة قولِه : ولولا رهطُك كأنه قيل : وما أنت علينا بعزيز بل رهطُك هم الأعزةُ علينا وحيث كان غرضُهم من عظيمتهم هذه عائداً إلى

نفي ما فيه عليه السلام من القوة والعزةِ الرّبانيّتين حسبما يوجبه كونُه على بينة من ربه مؤيَّداً من عنده ويقتضيه قضيةُ طلبِ التوفيقِ منه والتوكلِ عليه والإنابةِ إليه وإلى إسقاط ذلك كلّه عن درجة الاعتدادِ به والاعتبار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(110/384)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾

أي لا يكسبنكم ﴿ شِقَاقِى ﴾ أي معاداتي ، وأصلها أن أحد المتعادين يكون في عدوة وشق .

والآخر في آخر ، وروي هذا عن السدي ، وعن الحسن ضراري ، وعن بعض فراقي ، والكل متقارب ، وهو فاعل يجرمنكم والكاف مفعوله الأول ، وقوله سبحانه : ﴿ أَن يُصِيبَكُمُ ﴾ مفعوله الثاني ، وقد جاء تعدى جرم إلى مفعولين كما جاء تعديها لواحد وهي مثل كسب في ذلك ، ومن الأول قوله

: ولقد طعنت أبا عيينة طعنة . . .

(جرمت) فزارة بعدها أن يغضبوا

وإضافة شقاق إلى ياء المتكلم من إضافة المصدر إلى مفعوله أي لا يكسبنكم شقاقكم إياي أن يصيبكم ﴿ مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ ﴾ من الغرق ﴿ أَوْ قَوْمَ هُودٍ ﴾ من الريح ﴿ أَوْ قَوْمَ صالح ﴾ من الرجفة والصيحة ، ونهى الشقاق مجاز أو كناية عن نهيهم وهو أبلغ من توجيه النهي إليهم لأنه إذا نهى وهو لا يعقل علم نهي المشاقين بالطريق الأولى ، وقرأ ابن وثاب .

والأعمش ﴿ يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ بضم الياء ، وحكى أيضاً عن ابن كثير وهو حينئذٍ من أجرمته ذنباً إذا جعلته جارماً له أي كاسباً ، والهمزة للنقل من جرم المتعدي إلى مفعول واحد ، ونظيره في النقل كذلك كسب المال فإنه قال فيه أكسبه المال والقراءتان سواء في المعنى إلا أن المشهور جارية على ما هو الأكثر استعمالاً في كلام الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم ، وقرأ مجاهد والجحدري .

وابن أبي إسحاق ﴿ مَثَلُ ﴾ بالفتح ، وروي ذلك عن نافع ، وخرجه جمع على أن ﴿ مَثَلُ ﴾ فاعل أيضاً إلا أنه بني على الفتح لإضافته إلى غير متمكن ، وقد جوز فيه .

وكذا في غير مع ما .

وأن المخففة .

والمشددة ذلك كالظروف المضافة للمبنى ، وعلى هذا جاء قوله

: لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت . . .

حمامة في غصون ذات أو قال

(111/384)

وبعض على أنه نعت لمصدر محذوف والفتحة إعراب أي إصابة مثل إصابة قوم نوح ، وفاعل ﴿ يُصِيبَكُمُ ﴾ ضمير مستتر يعود على العذاب المفهوم من السياق وفيه تكلف ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ زمانا ً كما روي عن قتادة .

أو مكانا ً كما روي عن غيره ومراده عليه السلام أنكم إن لم تعتبروا بمن قبل لقدم عهد أو بعد مكان فاعتبروا بهؤلاء فإنهم بمرأى ومسمع منكم وكأنه إنما غير أسلوب التحذير بهم واكتفى بذكر قربهم إيذانا ً بأن ذلك مغن عن ذكر ما أصابهم لشهرة كونه منظوما ً في سمط ما ذكر من دواهي الأمم المرقومة ، وجوز أن يراد بالبعد البعد المعنوي أي ليسوا ببعيد منكم في الكفر والمساوىء ، فاحذروا أن يحل بكم ما حل بهم من العذاب ، وقد أخذ هذا المعنى بعض المتأخرين فقال

: فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم . . .

فما قوم لوط منكم ببعيد

وإفراد ﴿ بَعِيدٍ ﴾ وتذكيره مع كون المخبر عنه وهو قوم اسم جمع ، ومؤنثاً لفظاً على ما

نص عليه الزمخشري ، واستدل له بتصغيره على قويمة وذلك يقتضي أن يقال : ببعيدة

موافقة للفظ وببعداء موافقة للمعنى لأن المراد ، وما إهلاكهم أو وما هم بشيء بعيد ، أو

وما هم في زمان بعيد أو مكان بعيد ، وجوز أن يكون ذلك لأنه يستوي في بعيد المذكر

والمؤنث لكونه على زنة المصادر كالنهيق .

والصهيل .

وفي "الكشف" عن الجوهري أن القوم يذكر ويؤنث لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من

لفظها إذا كانت للآدميين تذكر وتؤنث مثل رهط .

ونفر .

وقوم وإذا صغرت لم تدخل فيه الهاء ، وقلت : قويم .

ورهيط ونفير ، ودخل الهاء فيما يكون لغير الآدميين مثل الإبل .

والغنم لأن التأنيث لازم وبينه وبين ما نقل عن الزمخشري بون بعيد ، وعليه فلا حاجة إلى

التأويل ، هذا ثم إنه عليه السلام لما أنذرهم سوء عاقبة صنيعهم عقبة طمعاً في ارو عائهم

عما هم فيه من الضلال بالحمل على الاستغفار والتوبة فقال :

﴿ واستغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ مر تفسير مثله ﴿ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ ﴾ عظيم الرحمة فيرحم من يطلب منه المغفرة ﴿ وَدُودٌ ﴾ أي كثير الود والمحبة فيحب من يتوب ويرجع إليه ، والمشهور جعل الودود مجازاً باعتبار الغاية أي مبالغ في فعل ما يفعل البليغ المودة بمن يوده من اللطف والإحسان .

وجوز أن يكون كناية عند من لم يشترط إمكان المعنى الأصلي ، والداعي لارتكاب المجاز أو الكناية على ما قيل : إن المودة بمعنى الميل القلب وهو مما لا يصح وصفه تعالى به ، والسلفي يقول : المودة فينا الميل المذكور ، وفيه سبحانه وراء ذلك مما يليق بجلال ذاته جل جلاله ، وقيل : معنى ﴿ وَدُودٌ ﴾ متحبب إلى عباده بالإحسان إليهم ، وقل : محبوب المؤمنين ، وتفسيره هنا بما تقدم أولى ، والجملة في موضع التعليل للأمر السابق ولم يعتبر الأكثر ما أشرنا إليه من نحو التوزيع ، فقال : عظيم الرحمة للتائبين مبالغ في اللطف والإحسان بهم ، وهو مما لا بأس به .

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ ﴾

أي ما نفهم ذلك كأنهم جعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف إذ ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل ولم يجدوا إلى محاورته عليه السلام سبيلاً من قبيل التخليط والهذيان الذي لا يفهم معناه ولا يدرك فحواه ، وقيل : قالوا ذلك استهانة به عليه السلام كما يقول الرجل لمن لا يعبأ به : لا أدري ما تقول ، وليس فيه كثير مغايرة للأول ، ويحتمل أن يكون ذلك لعدم توجههم إلى سماع كلامه عليه السلام لمزيد نفرتهم عنه أو لغباوتهم وقصور عقولهم ، قيل : وقولهم ﴿ كَثِيراً ﴾ للفرار عن المكابرة ولا يصح أن راد به الكل وإن ورد في اللغة لأن مما تقول يأبى ذلك كما أن ﴿ كَثِيراً ﴾ نفسه يأبى حمل كلامهم هذا على أنه كناية عن عدم القبول ، وزعم بعضهم أنهم إنما لم يفقهوا كثيراً مما يقول لأنه عليه السلام كان ألثغ ، وأظن أنه لم يفصح بذلك خبر صحيح على أن ظاهر ما جاء من وصفه عليه السلام بأنه خطيب الأنبياء يأبى ذلك .

ولعل صيغة المضارع للإيذان بالاستمرار ﴿ وَأَنَّا لَنُرَيكَ فِينَا ﴾ أي فيما بيننا ﴿ ضَعِيفاً ﴾ لا قوة لك ولا قدرة على شيء من الضر والنفع والإيقاع والدفع .

وروي عن ابن عباس .

وابن جبير .

وسفيان الثوري .

وأبي صالح تفسير الضعيف بالأعمى وهي لغة أهل اليمن ، وذلك كما يطلقون عليه ضريراً

وهو من باب الكناية على ما نص عليه البعض ، وإطلاق البصير عليه كما هو شائع من باب الاستعارة تمليحاً ، وضعف هذا التفسير بأن التقييد بقولهم : فينا بصر لغواً لأن من كان أعمى يكون أعمى فيهم وفي غيرهم وإرادة لازمة وهي الضعف بين من ينصره ويعاديه لا يخفى تكلفه ، ومن هنا قال الإمام : جوز بعض أصحابنا العمى على الأنبياء عليهم السلام لكن لا يحسن الحمل عليه هنا ، وأنت تعلم أن المصحح عند أهل السنة أن الأنبياء عليهم السلام ليس فيهم أعمى ، وما حكاه الله تعالى عن يعقوب عليه السلام كان أمراً عارضاً وذهب .

(114/384)

والأخبار المروية عمن ذكرنا في شعيب عليه السلام لم نقف على تصحيح لها سوى ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فإن الحاكم صحح بعض طرقه لكن تصحيح الحاكم كتضعيف ابن الجوزي غير معول عليه ، وربما يقال فيه نحو ما قيل في يعقوب عليه السلام ، فقد أخرج الواحدي .

وابن عساكر عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بكى شعيب عليه السلام من حب الله تعالى حتى عمي فرد الله تعالى عليه بصره وأوحى إليه يا

شعيب ما هذا البكاء أشوقاً إلى الجنة أم خوفاً من النار ، فقال : لا ولكن اعتقدت حبك بقلبي فإذا نظرت إليك فلا أبالي ما الذي تصنع بي ، فأوحى الله تعالى إليه يا شعيب إن يكن ذلك حقاً فهنيئاً لك لقائي يا شعيب لذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمي "

، وذهب بعض المعتزلة إلى أنه لا يجوز استنباء الأعمى لكونه صفة منفرة لعدم الاحتراز معه عن النجاسات ولأنه يخل بالقضاء والشهادة فإخلاله بمقام النبوة أولى ، وأجيب بأنا لا نسلم عدم الاحتراز معه عن النجاسات فإن كثيراً ممن نشاهده من العميان أكثر احترازاً عنها من غيره ، وبأن القاضي ، والشاهد يحتاجان إلى التمييز بين المدعي والمدعى عليه ، والنبي لا يحتاج لتمييز من يدعوه مع أنه معصوم فلا يخطىء كغيره كذا قيل ، فلينظر ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ ﴾ أي جماعتك قال الراغب : هم ما دون العشرة .

وقال الزمخشري : من الثلاثة إلى العشرة ، وقيل : إلى السبعة ، وقيل : بل يقال : إلى الأربعين ، ولا يقع فيما قل كالعصبة .

والنفر إلا على الرجال ، ومثله الراهط .

وجمعه أرهط .

وجمع الجمع أراهط ، وأصله على ما نقل عن الرماني الشد ، ومنه الرهيط لشدة الأكل ، والراهطاء لحجر اليربوع لأنه يتوثق به ويخبأ فيه ولده ، والظاهر أن مرادهم لولا مراعاة جانب رهطك ﴿ لرجمناك ﴾ أي لقتلناك برمي الأحجار ، وهو المروى عن ابن زيد ، وقيل : ذلك كناية عن نكاية القتل كأنهم قالوا : لقتلناك بأصعب وجه ؛ وقال الطبري : أرادوا لسببناك كما في قوله تعالى : ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ [مريم : 46] ، وقيل : لأبعدناك وأخرجناك من أرضنا ، ولم يجوزوا أن يكون المراد لولا ممانعة رهطك ومدافعتهم لأن ممانعة الرهط وهم عدد نزر لألوف مؤلفة مما لا يكاد يتوهم ؛ ومعنى ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ ما أنت بمكرم محترم حتى نمتنع من رجمك وإنما نكف عنك للمحافظة على حرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا ولم يختاروك علينا ، والجار الأول متعلق ﴿ بِعَزِيزٍ ﴾ وجاز لكون المعمول ظرفاً والباء مزيدة ، ولك أن تجعله متعلقاً بمحذوف يفسره الظاهر وهو خبر أنت ، وقد صرح السكاكي في المفتاح أنه قصد بتقدم هذا الضمر الذي هو فاعل معنوي وإن لم يكن الخبر فعلاً بل صفة مشبهة وإيلائه النفي الحصر والاختصاص أي اختصاص النفي بمعنى أن عدم العزة مقصور عليك لا يتجاوزك إلى رهطك لا بمعنى نفي الاختصاص بمعنى لست منفرداً بالعزة وهو ظاهر ، قاله العلامة الثاني ، وقال السيد السند : إنه قصد فيه نفي العزة عن شعيب عليه السلام وإثباتها لرهطه فيكون تخصيصاً للعزة بهم ويلزمه تخصيص عدمها به إلا أن المتبادر كما يشهد به الذوق السليم هو القصد

إلى الأول ، واستدل السكاكي على كون ذلك للاختصاص بقوله عليه السلام في جواب هذا الكلام ما حكى بقوله عز شأنه :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92) ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(116/384)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ﴾

تقدم الكلام على النكتة في إعادة النداء في الكلام الواحد لمخاطب متّحد قريباً .

وتقدم الكلام على ﴿ لا يجرمنكم ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ﴾ في أول [العقود : 2] ، أي لا يكسبنكم .

والشقاق : مصدر شاقّه إذا عاداه .

وقد مضت عند قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ في أول [الأنفال : 13] .

والمعنى : لا تجر إليكم عداوتكم إياي إصابتَكم بمثل ما أصاب قوم نوح إلى آخره ، فالكلام في ظاهره أنه ينهى الشقاق أن يجر إليهم ذلك .

والمقصود نهيهم عن أن يجعلوا الشّقاق سبباً للإعراض عن النظر في دعوته ، فيوقعوا أنفسهم في أن يصيبهم عذاب مثل ما أصاب الأمم قبلهم فيحسبوا أنهم يمكرون به بإعراضهم وما يمكرون إلاّ بأنفسهم .

ولقد كان فضْح سوء نواياهم الدّاعية لهم إلى الإعراض عن دعوته عقب إظهار حسن نيّته ممّا دعاهم إليه بقوله : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت ﴾ [هود : 88] مصادفاً مَحزّ جَوْدة الخطابة إذ رماهم بأنّهم يعملون بضدّ ما يعاملهم به .

وجملة ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ في موضع الحال من ضمير النّصب في قوله : ﴿ أن يصيبكم ﴾ والواو رابطة الجملة .

ولمعنى الحال هنا مزيد مناسبة لمضمون جملتها إذ اعتبر قرب زمانهم بالمخاطبين كأنّه حالة من أحوال المخاطبين .

والمراد بالبُعد بُعد الزمن والمكان والنسب ، فزمن لوط عليه السّلام غير بعيد في زمن شعيب عليه السّلام ، والدّيار قريبة من ديارهم ، إذ منازل مدين عند عقبة أيلة مجاورة

معان ممّا يلي الحجاز ، وديار قوم لوط بناحية الأردن إلى البحر الميت وكان مدين بن إبراهيم عليهما السّلام وهو جد القبيلة المسماة باسمه ، متزوجاً بابنة لوط .

(117/384)

وجملة ﴿ واستغفروا ربكم ﴾ عطف على جملة ﴿ لا يجرمنّكم شقاقي ﴾ .

وجملة ﴿ إن ربي رحيم ودود ﴾ تعليل الأمر باستغفاره والتوبة إليه ، وهو تعليل لما يقتضيه الأمر من رجاء العفو عنهم إذا استغفروا وتابوا .

وتفنن في إضافة الرب إلى ضمير نفسه مرة وإلى ضمير قومه أخرى لتذكيرهم بأنّه ربّهم كيلا يستمروا على الإعراض وللتشرف بانتسابه إلى مخلوقيته .

والرّحيم تقدّم .

والودود : مثال مُبالغة من الودّ وهو المحبّة .

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ودّوا لو تكفرون كما كفروا ﴾ في سورة [النساء : 89] .

والمعنى : أنّ الله شديد المحبة لمن يتقرّب إليه بالتّوبة .

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ ﴾

والفقه : الفهم .

وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ في سورة [النّساء : 78] ، وقوله : ﴿ انظر كيف نصرّف الآيات لعلّهم يفقهون ﴾ في سورة [الأنعام : 65] .

ومرادهم من هذا يحتمل أن يكون قصد المباهتة كما حكى الله عن المشركين ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنةٍ ممّا تدعونا إليه وفي آذاننا وقْرٌ ﴾ [فصلت : 5] وقوله عن اليهود : ﴿ وقالوا قلوبنا غلفٌ ﴾ [البقرة : 88] .

ويجوز أن يكون المراد ما تعقّله لأنه عندهم كالمحال لمخالفته ما يألفون ، كما حكى الله عن غيرهم بقوله : ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنّ هذا لشيءٌ عجابٌ ﴾ [ص : 5] ، وليس المراد عدم فهم كلامه لأنّ شعيباً عليه السّلام كان مقوالاً فصيحاً ، ووصفه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه خطيب الأنبياء .

فالمعنى : أنك تقول مَا لاَ نصدق به .

وهذا مقدمة لإدانته واستحقاقه الذم والعقاب عندهم في قولهم : ﴿ ولولا رهطك لرجمناك ﴾ ، ولذلك عطفوا عليه ﴿ وإنّا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ أي وإنّك فينا لضعيف ، أي غير ذي قوّة ولا منعة .

فالمراد الضعف عن المدافعة إذا راموا أذَاهُ وذلك ممّا يُرى لأنّه ترى دلائله وسماته .

وذكر فعل الرؤية هنا للتّحقيق، كما تقدّم في قوله تعالى: ﴿ ما نراك إلاّ بشراً مثلنا وما نراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا ﴾ [هود : 27] بحيث نزّلوه منزلة من تُظنون أنهم لا يرون ذلك بأبصارهم فصرحوا بفعل الرؤية.

وأكّدوه بِ (إنّ) وَلاَم الابتداء مبالغة في تنزيله منزلة من يجهل أنهم يعلمون ذلك فيه، أوْ مَنْ ينكر ذلك.

وفي هذا التنزيل تعريض بغباوته كما في قول حجل بن نضلة:

إن بني عمّك فيهم رماح

ومن فساد التفاسير تفسير الضعيف بفاقد البصر وأنه لغة حميرية فركبوا منه أنّ شعيباً عليه السّلام كان أعمى، وتطرّقوا من ذلك إلى فرض مسألة جواز العمى على الأنبياء، وهو بناء على أوهام.

ولم يعرف من الأثر ولا من كتب الأوّلين ما فيه أنّ شعيباً عليه السّلام كان أعمى.

وعطفوا على هذا قولهم: ﴿ وَلَوْلاَ رهطك لرجمناك ﴾ وهو المقصود ممّا مُهّد إليه من المقدمات، أي لا يصدّنا عن رجمك شيء إلاّ مكان رهطك فينا، لأنك أوجبت رجمك بطعنك في ديننا.

والرهط إذا أضيف إلى رجل أريد بِهِ القرابة الأدنَوْن لأنّهم لا يكونون كثيراً، فأطلقوا عليهم

لفظ الرهط الذي أصله الطائفة القليلة من الثلاثة إلى العشرة ، ولم يقولوا قومك ، لأنّ قومه قد نبذوه .

وكان رهط شعيب عليه السّلام من خاصة أهل دين قومه فلذلك وقّروهم بكفّ الأذى عن قريبهم لأنهم يكرهون ما يؤذيه لقرابته .

ولولا ذلك لما نصره رهطه لأّنهم لا ينصرون من سخطه أهل دينهم .

على أنّ قرابته ما هم إلاّ عددٌ قليل لا يُخشى بأسهم ولكن الإبقاء عليه مجرد كرامة لقرابته لأّنهم من المخلصين لدينهم .

(119/384)

فالخبر المحذوف بعد ﴿ لَوْلاَ ﴾ يُقَدّرُ بما يدلّ على معنى الكرامة بقرينة قولهم : ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ وقوله : ﴿ أرهطي أعزّ عليكم من الله ﴾ [هود : 92] ، فلمّا نفوا أن يكون عزيزاً وإنما عزة الرجل بحماته تعين أن وجود رهطه المانع من رجمه وجود خاص وهو وجود التكريم والتوقير ، فالتقدير : ولولا رهطك مكرمون عندنا لرجمناك .

والرجم : القتل بالحجارة رَمْياً ، وهو قِتلة حقارة وخزي .

وفيه دلالة على أن حكم من يخلع دينه الرجم في عوائدهم .

وجملة ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ مؤكدة لمضمون ﴿ ولولا رهطك لرجمناك ﴾ لأنّه إذا انتفى كونه قويّاً في نفوسهم تعيّن أن كفّهم عن رجمه مع استحقاقه إيّاه في اعتقادهم ما كان إلاّ لأجل إكرامهم رهطَه لا للخوف منهم .

وإنّما عطفت هذه الجملة على التي قبلها مع أنّ حق الجملة المؤكدة أن تفصل ولا تعطف لأنّها مع إفادتها تأكيد مضمون الّتي قبلها قد أفادت أيضاً حكماً يخصّ المخاطب فكانت بهذا الاعتبار جديرة بأن تعطف على الجمل المفيدة أحواله مثل جملة ﴿ ما نَفْقَهُ كثيراً ممّا تقول ﴾ والجمل بعدها .

والعزة : القوم والشدّة والغلبة .

والعزيز : وصف منه ، وتعديته بحرف (على) لما فيه من معنى الشّدة والوقْع على النفس كقوله تعالى : ﴿ عزيزٌ عليه ما عنتم ﴾ [التوبة : 128] ، أي شديد على نفسه ، فمعنى ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ أنك لا يعجزنا قتلك ولا يشتدّ على نفوسنا ، أي لأنّك هَيّنُ علينا ومحقّر عندنا وليس لك من ينصرك منّا .

وعزة المرء على قبيلة لا تكون غلبةَ ذاته إذْ لا يَغلب واحد جماعة ، وإنما عزّته بقومه وقبيلته ، كما قال الأعشى :

وإنما العِزّة للكاثِر

فمعنى ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ أنك لا تستطيع غلبتنا .

وقصدهم من هذا الكلام تحذيره من الاستمرار على مخالفة رهطه بأنّهم يوشك أن يخلعوه ويبيحوا لهم رجمه .

وهذه معان جدّ دقيقة وإيجاز جدّ بديع .

وليس تقديم المسند إليه على المسند في قوله : ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ بمفيد تخصيصاً ولا تقوياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(120/384)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ﴾

يقول لهم شعيب عليه السلام : أرجو ألا تحملكم عداوتكم لي على أن تُجرموا جُرْماً ؛ يكون سبباً في أن ينزل الحق سبحانه بكم عقاباً ، مثلما أصاب القوم الذين سبقوكم ؛ من الذين خالفوا رسلهم ؛ فأنزل الله عز وجل عليهم العذاب كالغرق ، و الرجفة ، والصيحة ، والصاعقة ، فاحذروا ذلك .

وشعيب عليه السلام ينصحهم هنا حرصاً منه عليهم ، على الرغم من علمه أنهم يكونون له

العداء ؛ لأنه دعاهم إلى ترك عبادة الأصنام التي عبدوها آباءهم ؛ ونهاهم عن إنقاص الكيل والميزان ، وألا يبخسوا الناس أشياءهم ؛ وسبق أن عذَّب الحق سبحانه المخالفين لشرع الله من الأمم السابقة ؛ ويذكرهم شعيب عليه السلام بأقرب من عُذِّبوا زماناً ومكاناً ؛ وهم قوم لوط .

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : ﴿ واستغفروا ربَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ ﴾

وهذه الآية تبين لنا أن الحق سبحانه لا يغلق أمام العاصي حتى المُصِرّ على شيء من المعصية باب التوبة .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة " .

ولنا أن نتخيل بماذا يشعر من فقد بعيره ؛ وهذا البعير يحمل زاد صاحبه ورَحْله ؛ ثم يعثر الرجل على بعيره هذا .

لا بد إذن أن يفرح صاحب البعير بالعثور عليه .

والحق سبحانه يقول هنا ما جاء على لسان شعيب عليه السلام لقومه :

﴿ واستغفروا ربَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ ﴾ [هود : 90] .

وما دمتم ستستغفرونه عن الذنوب الماضية ؛ وتتوبون إليه ؛ بألا تعودوا إلى ارتكابها مرة

أخرى ؛ فالحق سبحانه لا يرد مَنْ قصد بابه : ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود : 90]
لأن مغفرته تستر العذاب ، ورحمته تمنع العذاب .

(121/384)

وجاء الحق سبحانه هنا بأوسع المعاني : المغفرة ، والرحمة ، ومعهما صفته " الودود " ؛ وهي من الود ؛ والود هو الحب ؛ والحب يقتضي العطف على قدر حاجة المعطوف عليه .

ولله المثل الأعلى : نرى الأم ولها ولدان : أولهما قادر ثري يأتي لها بما تريد ؛ وثانيهما ضعيف فقير ؛ فنجد قلب الأم دائماً مع هذا الضعيف الفقير ؛ وتحِنّ قلب القويِّ القادر على الفقير الضعيف .

ونجد المرأة العربية القديمة تجيب على من سألها : أي أبنائك أحب إليك ؟ فتقول : الصغير حتى يكبر ؛ والغائب حتى يعود ؛ والمريض حتى يشفى .

إذن : فالحب يقتضي العطف على قدر الحاجة .

ويقول الحق سبحانه في الحديث القدسي :

" يا بن آدم ؛ لا تَخَافنَّ من ذي سلطان ؛ ما دام سلطاني باقياً ؛ وسلطاني لا ينفد أبداً . يا

بن آدم لا تَخْشَ من ضيق رزق ؛ وخزائني ملآنة ، وخزائني لا تنفد أبداً . يا بن آدم خلقتك للعبادة ؛ فلا تلعب ، وضمنت لك رزقك فلا تتعب ، فوَعِزّتي وجلالي إن رضيت بما قسمتُه لك أرحتُ قلبك وبدنك ؛ وكنتَ عندي محموداً ؛ وإن أنت لم ترض بما قسمتُه لك ؛ فوعزتي وجلالي لأسلِّطنَّ عليك الدنيا ، تركض فيها ركض الوحوش في البرية ؛ ثم لا يكون لك منها إلا ما قسمته لك . يا بن آدم خلقت السموات والأرض ولم أعْيَ بخلقهنَّ ؛ أيعييني رغيف عيش أسوقه لك ؟ يا بن آدم لا تسألني رزق غد كما أطلب منك عمل غدٍ . يا بن آدم أنا لك مُحِبٌّ ؛ فبحقي عليك كنْ لي مُحِبّاً " .

وهذا الحديث الكريم يبيِّن مدى مودة الله سبحانه لخلقه ؛ تلك المودة التي لا تستوعبها القلوب المشركة .

ويأتي الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك بقول أهل مدين ردّاً على شعيب عليه السلام :

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا ﴾

وهذا يُظاهي قول مشركي قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قالوا :

﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت : 5] .

والإيمان يتطلب قلباً غير ممتلىء بالباطل ؛ ليُحسن استقباله ؛ أما القلوب الممتلئة بالباطل ، فهي غير قادرة على استقبال الإيمان ؛ إلا إذا أخلت العقولُ تلك القلوبَ من الباطل ، وناقشت العقول كُلاًّ من الحق والباطل ، ثم تأذن لما اقتنعت به أن يدخل القلوب .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يطبع ويختم على القلوب الممتلئة بالكفر ؛ فلا يخرج منها الكفر ولا يدخل فيها الإيمان .

ولم يكتف أهل مدين بإعلان الكفر ؛ بل هددوا شعيباً وقالوا :

﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود : 91]

.

وهذا التهديد يحمل تحدّياً ، وكأنهم ظنوا أن بقدرتهم الفتك به ؛ لأنهم يبغضون حياته ؛ وأعلنوا حجة واهية ؛ وهي أن رهطه أي : قومه وأهله ؛ لأن الرهط هم الجماعة التي يتراوح عدد أفرادها بين ثلاثة وعشرة أفراد ما زالوا على عبادة الأصنام ؛ وأن هذا الرهط سيغضب لأي ضرر يصيب شعيباً ؛ وتناسوا أن الذي أرسل شعيباً عليه السلام لا بد أن يحميه ، وهم بتناسيهم هذا حققوا مشيئة الله عز وجل بأن يُسخِّر الكفر لخدمة الإيمان .

ومثال ذلك : هو بقاء عم النبي صلى الله عليه وسلم أبي طالب على دين قومه ؛ وقد

ساهم هذا الأمر في حماية محمد صلى الله عليه وسلم في ظاهر الأسباب . انتهى ا .

هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(123/384)

فصل

قال الإمام فخر الدين الرازى :

[قصة شعيب عليه السلام]

[وفيها شبه ثلاث]

[الأولى] ما معنى قوله (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه) والشىء لا يعطف على نفسه لا سيما بالحرف الذي يقتضى التراخي وهو (ثم) [جوابه] من وجوه ثلاثة : [الأول] أن يكون المعنى اجعلوا المغفرة غرضكم الذى تتوجهون إليه ، ثم توصلوا إليها بالتوبة . فالمغفرة أول في الطلب وآخر في السبب [الثاني] استغفروا ربكم أي سلوه للمؤمنين المغفرة بالمعونة عليها ، ثم توبوا إليه ، والشئ لا يعطف لان المسألة للتوفيق ينبغى أن يكون قبل التوبة [الثالث] وهو أن للتخلص من ضرر الذنب طريقين : * (أحدهما) * مغفرته تعالى وعونه . وذلك إنما يكون عند تقارب الذنب [والثانى] التوبة الماحية للذنب ، فكأنه عليه

السلام أرسل إلى طلب التخلص من تلك المعاصي بجميع الطرق الممكنة *

[الشبهة الثانية] ما معنى قول شعيب عليه السلام لموسى عليه السلام : (إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فان أتممت عشرا فمن عندك) فكيف يجوز في الصداق التخيير وأي فائدة للبنت فيما شرطه هو لنفسه وليس يعود عليها من ذلك نفع ؟ [جوابه] من وجهين : (الأول) يجوز أن تكون الغنم كانت لشعيب عليه السلام وكانت الفائدة لاستئجار من يرعاها عائدة إليه إلا أنه عوض ابنته عن قيمة رعيتها ، فيكون ذلك رعيا لها ، وأما التخيير فلم يكن إلا فيما زاد على ثماني حجج ، وذلك الزائد لم يكن من الصداق ، ويجوز أيضا أن تكون الغنم للبنت وكان الاب متوليا لامرها ، قابضا لصداقها *

[الثاني] يجوز أن يكون من شريعته العقد على التراضي من غير صداق معين ، ويكون قوله : (على أن تأجرني ثماني حجج) على غير وجه الصداق *

[الشبهة الثالثة]

قوله : (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا) الآيتين . فاعترف شعيب على أنه تعالى نجاه من

ملتهم التى هي الكفر ولا يعود فيها والعائد إلى الشئ هو من كان فيه ، فيرجع إليه بعد مفارقته وكذلك سبيل النجاة * (جوابه) * العود إلى الشئ قد يستعمل فيما لم يكن فيه قط ، فان الله تعالى سمى القيامة معادا وإن لم تكن فيها ، وكذلك النجاة قد تستعمل فيما لم تكن فيه ، فان السالم مما ابتلى به غيره قد يقول : الحمد لله الذى نجانا مما ابتلى به فلانا * (وجه آخر) * وهو أن الكناية في قوله : (بعد إذ نجانا الله منها) يرجع إلى الملة ، ويجوز أن يكون شعيب قبل الوحى مكلفا بتلك الملة ، ثم صارت منسوخة ، فدعوه إليها مرة أخرى فأجابهم شعيب عليه السلام بأنه ليس له أن يعود إليها بعد نسخها . انتهى . ا هـ ﴿ عصمة الأنبياء صـ 63 . 65 ﴾

(125/384)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ : العامَّةُ على فَتْح ياءِ المضارعة من جَرَم ثلاثياً . وقرأ

الأعمشُ وابنُ وثاب بضمِّها مِنْ أجرم . وقد تقدم أنَّ " جَرَمَ " يتعدَّى لواحدٍ ولاثنين مثل كسب ، فيقال : جَرَمَ زيدٌ مالاً نحو : كَسَبه ، وجَرَمْتُه ذَنْباً ، أي : كَسَبْتَه إياه فهو مثل كَسَب ، وأنشد الزمخشري على تعدِّيه لاثنين قولَ الشاعر :

2698 ولقد طَعَنْتُ أبا عُيَيْنَةَ طعنَةً . . . جَرَمَتْ فَزارةُ بعدها أن يَغْضَبوا

فيكون الكاف والميم هو المفعول الأول ، والثاني هو : أن يُصيبكم أي : لا تَكْسِبَنَّكُم عداوتي إصابةَ العذاب . وقد تقدم أن جَرَم وأَجْرم بمعنىً ، أو بينهما فرق . ونسب الزمخشري ضمَّ الياءِ مِنْ أجرم لابن كثير .

والعامَّةُ أيضاً على ضم لام " مثلُ " رفعاً على أنه فاعل " يُصيبكم " ، وقرأ مجاهد والجحدري بفتحها ، وفيها وجهان ، أحدهما : أنها فتحة بناء وذلك أنَّه فاعل كحاله في القراءة المشهورة ، وإنما بُني على الفتح لإِضافته إلى غير متمكن كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات : 23] وكقوله :

2699 لم يَمْنَعِ الشُّرْبَ منها غيرَ أَنْ نَطَقَتْ . . . حمامةٌ في غُصونٍ ذاتِ أَوْقالِ

وقد تقدَّم تحقيقُ هذه القاعدةِ في الأنعام . والثاني : أنه نعتٌ لمصدر محذوف فالفتحة للإِعراب ، والفاعلُ على هذا مضمرٌ يفسره سياقُ الكلام ، أي : يصيبكم العذاب إصابةً مثلَ ما أصابَ .

قوله : ﴿ بِبَعِيدٍ ﴾ أتى ب " بعيد " مفرداً وإن كان خبراً عن جمعٍ لأحد أوجهٍ : إمَّا لحَذف مضاف تقديرُه : وما إهلاك قومٍ ، وإمَّا باعتبار زمان ، أي : بزمانٍ بعيد ، وإما باعتبار مكان ، أي : بمكان بعيد ، وإمَّا باعتبار موصوفٍ غيرِهما ، أي : بشيءٍ بعيد ، كذا قدَّره الزمخشري ، وتبعه الشيخ ، وفيه إشكالٌ من حيث إنَّ تقديرَه بزمان يلزم فيه الإخبارُ بالزمان عن الجثَّة . وقال الزمخشري أيضاً : " ويجوز أن يسوى في " قريب " و " بعيد " و " قليل " و " كثير " بين المذكر والمؤنث لورودِها على زِنَةِ المصادر التي هي كالصَّهيل والنهيق ونحوهما " .

﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90) ﴾

والوَدُود بناءُ مبالغةٍ مِنْ وَدَّ الشيءَ يَوَدُّه وُدّاً ، ووِداداً ، ووِدادةً ووَدادةً أي أَحبَّه وآثره . والمشهور وَدِدْت بكسر العين ، وسمع الكسائي وَدَدْت بفتحها ، والوَدود بمعنى فاعل أي يَودُّ عبادَه ويرحمهم . وقيل : بمعنى مفعول بمعنى أن عبادَه يحبُّونه ويُوادُّون أولياءَه ، فهم بمنزلة " المُوادِّ " مجازاً .

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (91) ﴾

والرَّهْط جماعةُ الرجل . وقيل : الرَّهْط والرَّاهط لما دون العشرة من الرجال ، ولا يقع

الرَّهْطُ والعَصَب والنَّفر إلا على الرجال . وقال الزمخشري : " من الثلاثة إلى العشرة ، وقيل : إلى السبعة " ويُجْمع على أَرْهُط ، وأَرْهُط على أراهِط قال :

2700 يا بُؤْسَ للحرْب التي . . . وَضَعَتْ أراهِطَ فاستراحوا

قال الرمَّاني : " وأصلُ الكلمة من الرَّهْط ، وهو الشدُّ ، ومنه " التَّرْهيط " وهو شدَّةُ الأكل " والرَّاهِطاء اسم لجُحْر من جحِرَة اليَرْبوع لأنه يَتَوَثَّقُ به ويَحْيَا فيه أولادُه .

قوله : ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ قال الزمخشري : " وقد دلَّ إيلاءُ ضميرِه حرفَ النفي على أنَّ الكلامَ واقعٌ في الفاعل لا في المفعول كأنه قيل : وما أنت بعزيزٍ علينا بل رَهْطُك هم الأعزَّة علينا ، فلذلك قال في جوابهم : ﴿ أرهطي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّه ﴾ ولو قيل : " وما عَزَزْتَ علينا " لم يصحَّ هذا الجواب " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 376 . 379 ﴾

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ﴾

تورثكم مُخالَفَتُكم إياي فيما أدعوكم إليه من طاعةِ اللَّهِ أَنْ يلحقكم من أليم العقوبة ما أصاب مَنْ تقدَّمكم من الذين سِرْتُم على منهاجهم ، وما عهدكم ببعيد بمن تحققتم كيف حَلَّتْ بهم العقوبة ، وكيف أنهم ما زادتْهم كثرةُ النصحيةِ إلاَّ غُلُوّاً في ضلالتهم ، وعُتُوّاً في جهالتهم ، وكما قيل .

وكمْ صُغْتُ في آثاركم من نصيحةٍ . . . وقد يستفيد البغضةَ المُتَنَصِّحُ

﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90) ﴾

الاستغفار هو التوبة .

ومعنى قوله ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ أي توبوا ثم لا تُنْقِضُوا توبتكم ؛ فهو أمرٌ باستدامة التوبة ؛ فإذا لم يتصل وفاءُ المآلِ بصفاءِ الحال لم يحصل قَبُولٌ ، وكأن لم يكن لِمَا سَلَفَ حصولٌ .

﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ : يرحم العصاةَ ويودُّهم .

ويقال يرحمهم ولذلك يودونه ؛ فالودود يكون بمعنى المودود كَحَلُوب بمعنى محلوب . والرحمة تكون للعاصي لأنَّ المطيعَ بوصف استحقاقه للثواب على طاعاته ، ثم ليس كلُّ من يُحِبُّ

السلطانَ في محلّ الأكابر ، فالأصاغِرُ من الجُنْدِ قد يحبون المَلِكَ ، وأنشدوا :

ألا رُبَّ مَنْ يدنو ويزعم أنه . . . يودُّك ، والنّائي أودُّ وأقربُ

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (91) ﴾

لاحظوا شعيباً بعين الاستصغار فحُرِموا فَهْمَ معاني الخطاب ، وأقَرُّوا على أنفسِهم بالجهل ، وأحالوا إعفاءَهم إياه من الأذى على حشمتهم من رهطه وعشيرته ، فعاتَبَهُم عليه :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92) ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 153 . 154 ﴾

(129/384)

قوله تعالى ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (94) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (95) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان تخصيصهم نفي العزة به يفهم أن رهطه عليهم أعزة ، أنكر عليهم ذلك في سياق مهدد لهم فقال تعالى حاكياً عنه استئنافاً : ﴿ قال ﴾ أي شعيب ﴿ يا قوم ﴾ ولم يخل الأمر من جذب واستعطاف بذكر الرحم العاطفة ﴿ أرهطي ﴾ أي أقاربي الأقربون منكم ﴿ أعز عليكم من الله ﴾ أي المحيط بكل شيء علماً وقدرةً حتى نظرتم إليهم فيّ لقرابتي منهم ولم تنظروا إلى الله في قربي منه بما ظهر عليّ من كرامته ﴿ واتخذتموه ﴾ أي بما كلفتم به أنفسكم مما هو خلاف الفطرة الأولى ﴿ وراءكم ﴾ أي أعرضتم عنه إعراض من جعل الشيء وراءه ؛ وحقق معنى الوراء بقوله : ﴿ ظهرياً ﴾ أي جعلتموه كالشيء الغائب عنكم المنسي عندكم الذي لا يعبأ به ، ولم تراقبوه فيّ لنسبتي إليه بالرسالة والعبودية .

(130/384)

ولما كان معنى الكلام لأجل الإنكار : إنكم عكستم في الفعل فلم تعرفوا الحق لأهله إذ كان ينبغي لكم أن لا تنسوا الله بل تراقبوه في كل أموركم ، حسن تعليل هذا المفهوم بقوله : ﴿ إن ربي ﴾ أي المحسن إليّ ؛ ولما كان المراد المبالغة في إحاطة علمه تعالى بأعمالهم قدم قوله :

﴿ بما تعملون محيط ﴾ من جليل وحقير ، فهو مقتدر في كل فعل من أفعالكم على إنفاذه وإبطاله ، فهو محيط بكم لا يرده عن نصرتي منكم والإيقاع بكم مراعاة أحد لعزة ولا قوة ، بل لكم عنده أجل هو مؤخركم إليه لأنه لا يخشى الفوت ؛ والاتخاذ : أخذ الشيء لأمر يستمر في المستأنف كاتخاذ البيت ؛ والمحيط : المدير على الشيء كالحائط يحصره بحيث لا يفوته منه شيء .

ولما ختم الآية بتهديدهم بما بين أن تهديدهم له عدم لا يبالي به ، أتبعه ما يصدقه من أنه ليس بتارك شيئاً من عمله مما جبلوا به ، وزاد في التهديد فقال : ﴿ ويا قوم اعملوا ﴾ أي أوقعوا العمل لكل ما تريدون قارين مستعلين ﴿ على مكانتكم ﴾ أي حالكم الذي تتمكنون به من العمل ﴿ إني عامل ﴾ على ما صار لي مكانة ، أي حالاً أتمكن به من العمل لا أنفك عنه ما أنا عامل من تحذيري لمن كفر وتبشيري لمن آمن وقيامي بكل ما أوجب عليّ الملك غير هائب لكم ولا خائف منكم ولا طامع في مؤالفتكم ولا معتمد على سواه .

ولما كانت ملازمتهم لأعمالهم سبباً لوقوع العذاب المتوعد به ووقوعه سبباً للعلم بمن يخزي لمن يعلم أي هذين الأمرين يراد ، ذكره بعد هذا التهديد فحسن حذف الفاء من قوله : ﴿ سوف تعلمون ﴾ أي بوعد لا خلف فيه وإن تأخر زمانه ، وسوقه مساق الجواب لمن كأنه قال : ما المراد بهذا الأمر بالعمل المبالغ قبل في النهي عنه ؟ وقد تقدم في قصة نوح عليه السلام ما يوضحه .

وأحسن منه أنهم لما قالوا ﴿ ما نفقه كثيراً مما تقول ﴾ كذبهم - في إخراج الكلام على تقدير سؤال من هو منصب الفكر كله إلى كلامه - قائل : ماذا يكون إذا عملنا وعملت ؟ فهذا وصل خفي مشير إلى تقدير السؤال ولو ذكر الفاء لكان وصلاً ظاهراً ، وقد ظهر الفرق بين كلام الله العالم بالإسباب وما يتصل بها من المسبباب المأمور بها أشرف خلقه.صلى الله عليه وسلم.في سورة الأنعام والزمر والكلام المحكي عن نبيه شعيب عليه السلام في هذه السورة ﴿ من ﴾ أي أينا أو الذي ﴿ يأتيه عذاب يخزيه ﴾ ولما كان من مضمون قولهم ﴿ ما نفقه كثيراً مما تقول ﴾ النسبة إلى الكذب لأنه التكلم بما ليس له نسبة في الواقع تطابقه ، قال : ﴿ ومن هو كاذب ﴾ أي مني ومنكم ، فالتقدير إن كانت " من " موصولة : ستعلمون المخزي بالعذاب والكذب أنا وأنتم ، وإن كانت استفهامية : أينا يأتيه عذاب يخزيه وأينا هو كاذب ، فالزموا مكانتكم لا تتقدموا عنها ﴿ وارتقبوا ﴾ أي انتظروا ما يكون من عواقبها .

ولما كانوا يكذبونه وينكرون قوله ، أكد فقال : ﴿ إني معكم رقيب ﴾ لمثل ذلك ، وإنما قدرت هذا المعطوف عليه لفصل الكلام في قوله ﴿ سوف ﴾ ويجوز عطفه على

﴿ اعملوا ﴾ وجرد ولم يقل : مرتقب ، إشارة إلى أن همه الاجتهاد في العمل بما أمره الله لأنه مبالغ في ارتقاب عاقبته معهم استهانة بهم .

ولما كان كأنه قيل : فأخذوا الكلام على ظاهره ولم ينتفعوا بصادع وعيده وباهره ، فاستمروا على ما هم عليه من القبيح إلى أن جاء أمرنا في الأجل المضروب له ، قال عاطفاً عليه ، وكان العطف بالواو لأنه لم يتقدم وعيد بوقت معين - كما في قصتي صالح ولوط عليهما السلام - يتسبب عنه المجيء ويتعقبه : ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ أي تعلق إرادتنا بالعذاب ﴿ نجينا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ شعيباً ﴾ أي تنجية عظيمة ﴿ والذين آمنوا ﴾ كائنين ﴿ معه ﴾ منهم ومما عذبناهم به ، وكان إنجاءنا لهم ﴿ برحمة منا ﴾ ولما ذكر نجاة المؤمنين ، أتبعه هلاك الكافرين فقال : ﴿ وأخذت الذين ظلموا ﴾ أي أوقعوا الظلم ولم يتوبوا ﴿ الصيحة ﴾ وكأنها كانت دون صيحة ثمود لأنهم كانوا أضعف منهم فلذلك أبرز علامة التأنيث في هذه دون تلك .

ولما ذكر الصيحة ذكر ما تسبب عنها فقال : ﴿ فأصبحوا ﴾ أي في الوقت الذي يتوقع الإنسان فيه السرور وكل خير ﴿ في ديارهم جاثمين ﴾ أي ساقطين لازمين لمكانهم .

ولما كان الجثوم قد لا يكون بالموت ، أوضح المراد بقوله : ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ أي لم يقيموا في ديارهم أغنياء متصرفين مترددين مع الغواني لاهين بالغناء ؛ ولما كان مضمون ذلك الإبعاد أكده بقوله : ﴿ ألا بعداً لمدين ﴾ بعداً مع أنه بمعنى ضد القرب معه هلاك ، فهو من بعد بالكسر وأيد ما فهمته من أن أمرهم كان أخف من أمر ثمود بقوله : ﴿ كما بعدت ثمود ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 570 . 572 ﴾

(133/384)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾

اعلم أن الكفار لما خوفوا شعيباً عليه السلام بالقتل والإيذاء ، حكى الله تعالى عنه ما ذكره في هذا المقام ، وهو نوعان من الكلام :

النوع الأول : قوله : ﴿ ياقوم أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مّنَ الله واتخذتموه وَرَاءكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ والمعنى : أن القوم زعموا أنهم تركوا إيذاءه رعاية لجانب قومه .

فقال : أنتم تزعمون أنكم تتركون قتلي إكراماً لرهطي ، والله تعالى أولى أن يتبع أمره ، فكأنه

يقول: حفظتكم إياي رعاية لأمر الله تعالى أولى من حفظكم إياي رعاية لحق رهطي.

وأما قوله: ﴿ واتخذتموه وَرَاءكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ فالمعنى: أنكم نسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به.

قال صاحب "الكشاف": والظهري منسوب إلى الظهر، والكسر من تغيرات النسب ونظيره قولهم في النسبة إلى الأمس إمسي بكسر الهمزة، وقوله: ﴿ إِنَّ رَبّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ يعني أنه عالم بأحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها.

والنوع الثاني: قوله: ﴿ ويا قوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنّى عَامِلٌ ﴾ والمكانة الحالة يتمكن بها صاحبها من عمله، والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة وكل ما في وسعكم وطاقتكم من إيصال الشرور إلي فإني أيضاً عامل بقدر ما آتاني الله تعالى من القدرة.

ثم قال: ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى:

لقائل أن يقول لم يقل ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ والجواب : إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ، وإما بحذف الفاء فإنه يجعله جواباً عن سؤال مقدر والتقدير : أنه لما قال : ﴿ ويا قوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ﴾ فكأنهم قالوا فماذا يكون بعد ذلك ؟ فقال : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ فظهر أن حذف حرف الفاء ههنا أكمل في باب الفظاعة والتهويل .

ثم قال ﴿ وارتقبوا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ والمعنى : فانتظروا العاقبة إني معكم رقيب أي منتظر ، والرقيب بمعنى الراقب من رقبه كالضريب والصريم بمعنى الضارب والصارم ، أو بمعنى المراقب كالعشير والنديم ، أو بمعنى المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾

روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لم يعذب الله تعالى أمتين بعذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم ، وقوم شعيب أخذتهم من فوقهم وقوله : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه ولما جاء وقت أمرنا ملكاً من الملائكة بتلك الصيحة ، ويحتمل أن يكون المراد من الأمر العقاب ، وعلى التقديرين فأخبر الله أنه نجى شعيباً ومن معه من المؤمنين برحمة منه وفيه وجهان : الأول : أنه تعالى إنما خلصه من ذلك العذاب لمحض رحمته ، تنبيهاً على أن كل ما يصل إلى العبد فليس إلا بفضل الله ورحمته .

والثاني : أن يكون المراد من الرحمة الإيمان والطاعة وسائر الأعمال الصالحة وهي أيضاً ما حصلت إلا بتوفيق الله تعالى ، ثم وصف كيفية ذلك العذاب فقال : ﴿ وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ ﴾ وإنما ذكر الصيحة بالألف واللام إشارة إلى المعهود السابق وهي صيحة جبريل عليه السلام ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَارِهِمْ جاثمين ﴾ والجاثم الملازم لمكانه الذي لا يتحول عنه يعني أن جبريل عليه السلام لما صاح بهم تلك الصيحة زهق روح كل واحد منهم بحيث يقع في مكانه ميتاً ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ أي كأن لم يقيموا في ديارهم أحياء متصرفين مترددين .

ثم قال تعالى : ﴿ أَلاَ بُعْدًا لّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ وقد تقدم تفسير هذه اللفظة وإنما قاس حالهم على ثمود لما ذكرنا أنه تعالى عذبهم مثل عذاب ثمود . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 42.41 ﴾

(136/384)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله ﴾

أي تراعون رهطي فيّ ولا تراعون الله فيّ .

﴿ واتخذتموه وراءكم ظهرياً ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : اطرحتم أمره وراء ظهوركم لا تلتفتون إليه ولا تعملون به ، قاله السدي ، ومنه قول الشاعر :

. . . . وجَدْنا بني البرصاءِ من وَلَدِ الظَّهْرِ

أي ممن لا يلتفت إليهم ولا يعتد بهم .

الثاني : يعني أنكم حملتم أوزار مخالفته على ظهوركم ، قاله السدي ، من قولهم حملت فلاناً على ظهري اذا أظهرت عناده .

الثالث : يعني أنكم جعلتم الله ظهرياً إن احتجتم استعنتم به ، وإن اكتفيتم تركتموه . كالذي يتخذه الجمَّال من جماله ظهرياً إن احتاج إليها حمل عليها وإن استغنى عنها تركها ، قاله عبد الرحمن بن زيد .

الرابع : إن الله تعالى جعلهم وراء ظهورهم ظهرياً ، قاله مجاهد .

﴿ إنّ ربي بما تعملون محيط ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : حفيظ .

الثاني : خبير .

الثالث : مُجَازٍ .

قوله عز وجل: ﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾

فيه وجهان:

أحدهما: على ناحيتكم، قاله ابن عباس.

الثاني: على تمكنكم، قاله ابن عيسى.

وقوله ﴿ اعملوا ﴾ يريد ما وعدوه من إهلاكه، قال ذلك ثقة بربة.

ثم قال جواباً لهم فيه تهديد ووعيد ﴿ إني عاملٌ سوف تعلمون ﴾ فيه وجهان: أحدهما: تعلمون الإجابة. الثاني: عامل في أمر من يأتي بهلاككم ليطهر الأرض منكم، وسترون حلول العذاب بكم.

﴿ من يأتيه عذابٌ يخزيه ﴾ قال عكرمة: الغرق.

وفي ﴿ يخزيه ﴾ وجهان:

أحدهما: يذله.

الثاني: يفضحه.

﴿ ومن هو كاذب ﴾ فيه مضمر محذوف تقديره: ومن هو كاذب يخزى بعذاب الله، فحذفه اكتفاء بفحوى الكلام.

﴿ وارتقبوا ﴾ أي انتظروا العذاب.

﴿ إني معكم رقيب ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما : إني معكم شاهد .

الثاني : إني معكم كفيل .

وفيه وجه ثالث : إني منتظر ، قاله الكلبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 2 صـ

﴾

(137/384)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ قال يا قوم ارهطي ﴾ الآية ،

" الظهري " الشيء الذي يكون وراء الظهر ، وقد يكون الشيء وراء الظهر بوجهين : في

الكلام ، إما بأن يطرح ، كما تقول : جعلت كلامي وراء ظهرك ودبر أذنك ومنه قول

الفرزدق :

تميم بن زيد لا تكونن حاجتي . . . بظهر فلا يعيى عليّ جوابها

وإما بأن يسند إليه ويلجأ . ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه : " وألجأت

ظهري إليك " فقال جمهور المتأولين في معنى هذه الآية أنه : واتخذتم الله ظهرياً أي غير

مراعى وراء الظهر على معنى الاطراح - ورجحه الطبري .

قال القاضي أبو محمد : وهو عندي على حذف مضاف ولا بد ، وقال بعضهم : الضمير في قوله : ﴿ واتخذتموه ﴾ عائد على أمر الله وشرعه ، إذ يتضمنه الكلام .

وقالت فرقة : المعنى : أترون رهطي أعز عليكم من الله وأنتم تتخذون الله سند ظهوركم وعماد آمالكم .

قال القاضي أبو محمد : فقول الجمهور - على أن كان كفر قوم شعيب جحداً بالله تعالى وجهلاً به . وهذا القول الثاني - على أنهم كانوا يقرون بالخالق الرازق ويعتقدون الأصنام وسائط ووسائل ونحو هذا ؛ وها تان الفرقتان موجودتان في الكفرة .

ومن اللفظة الاستظهار بالبيّنة ، وقد قال ابن زيد : " الظهري " : الفضل ، مثل الجمال يخرج معه بإبل ظهارية يعدها إن احتاج إليها وإلا فهي فضلة .

قال القاضي أبو محمد : هذا كله مما يستند إليه .

وقوله ﴿ إن ربي بما تعملون محيط ﴾ خبر في ضمنه توعد . ومعناه محيط علمه وقدرته .

﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ﴾

﴿ على مكانتكم ﴾ معناه : على حالاتكم ، وهذا كما تقول : مكانة فلان في العلم فوق مكانة فلان ، يستعار من البقاع إلى المعاني .

وقرأ الحسن وأبو عبد الرحمن وعاصم : " مكاناتكم " بالجمع ، والجمهور على الإفراد .

وقوله : ﴿ اعملوا ﴾ تهديد ووعيد ، وهو نحو قوله : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [فصلت : 40] وقوله : ﴿ من يأتيه ﴾ يجوز أن تكون ﴿ من ﴾ مفعولة ب ﴿ تعلمون ﴾ والثانية عطف عليها ، قال الفراء : ويجوز أن تكون استفهاماً في موضع رفع بالابتداء .

قال القاضي أبو محمد : الأول أحسن لأنها موصولة ولا توصل في الاستفهام ، ويقضي بصلتها أن المعطوفة عليها موصولة لا محالة ، والصحيح أن الوقف في قوله : ﴿ إني عامل ﴾ ثم ابتداء الكلام بالوعيد ، و﴿ من ﴾ معمولة ل ﴿ تعلمون ﴾ وهي موصولة .

وقوله : ﴿ وارتقبوا ﴾ كذلك تهديد أيضاً .

وقوله تعالى : ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ الآية ، "الأمر" ها هنا يصح أن يكون مصدر أمر ويصح أن يكون واحد الأمور . وقوله : ﴿ برحمة منا ﴾ إما أن يقصد الإخبار عن الرحمة التي لحقت شعيباً لنبوته وحسن عمله وعمل متبعيه ، وإما أن يقصد أن النتيجة لم تكن إلا بمجرد رحمة لا بعمل من أعمالهم ، وأما ﴿ الصيحة ﴾ فهي صيحة جبريل عليه السلام ، وروي أنه صاح بهم ، صيحة جثم لها كل واحد منهم في مكانه حيث سمعها ميتاً قد تقطعت حجب قلبه ، و"الجثوم" أصله في الطائر إذا ضرب بصدره إلى الأرض ، ثم يستعمل في غيره إذا كان منه بشبه .

وقوله تعالى : ﴿ كان لم يغنوا فيها ﴾ الآية ، الضمير في قوله : ﴿ فيها ﴾ عائد على "

الديار " ، و﴿ يغنوا ﴾ معناه : يقيمون بنعمة وخفض عيش ، ومنه المغاني وهي المنازل المعمورة بالأهل ، وقوله : ﴿ ألا ﴾ تنبيه للسامع ، وقوله : ﴿ بعداً ﴾ مصدر ، دعا به ، وهذا كما تقول : سقياً لك ورعياً لك وسحقاً للكافر ونحو هذا ، وفارقت هذه قولهم : سلام عليك ، لأن هذا كأنه إخبار عن شيء قد وجب وتحصل ، وتلك إنما هي دعاء مترجى : ومعنى " البعد " – في قراءة من قرأ " بعِدت " بكسر العين – الهلاك – وهي قراءة الجمهور ومنه قول خرنق بنت هفان : [الكامل]

لا يبعدنْ قومي الذين همُ . . . سُمُّ العداةِ وآفة الجزرِ

ومنه قول مالك بن الريب : [الطويل]

يقولون لا تبعد وهم يدفنونني . . . وأين مكان البعد إلا مكانيا

وأما من قرأ " بعدت " وهو السلمي وأبو حيوة – فهو من البعد الذي ضده القرب ، ولا يدعى به إلا على مبغوض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يا قوم أرهطي ﴾

"أَرَهْطِيَ" رفع بالابتداء ؛ والمعنى أرهطي في قلوبكم ﴿ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ ﴾ وأعظم وأجل وهو يملككم .

﴿ واتخذتموه وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ أي اتخذتم ما جئتكم به من أمر الله ظهرياً ؛ أي جعلتموه وراء ظهوركم ، وامتنعتم من قتلي مخافة قومي ؛ يقال : جعلت أمره بظهرٍ إذا قصرت فيه ، وقد مضى في "البقرة" ، ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي من الكفر والمعصية .

﴿ مُحِيطٌ ﴾ أي عليم .

وقيل : حفيظ .

قوله تعالى : ﴿ ويا قوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تهديد ووعيد ؛ وقد تقدّم في "الأنعام" .

﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أي يهلكه .

و"من" في موضع نصب ، مثل ﴿ يَعْلَمُ المفسد مِنَ المصلح ﴾ [البقرة : 220] ﴿ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ عطف عليها .

وقيل : أي وسوف تعلمون من هو كاذب منا .

وقيل في محل رفع ؛ تقديره : ويخزي من هو كاذب .

وقيل : تقديره ومن هو كاذب فسيعلم كذبه ، ويذوق وبال أمره .

وزعم الفرّاء أنهم إنما جاؤوا ب "هو" في "وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ" لأنهم لا يقولون مَن قائم ؛ إنما يقولون : مَن قام ، ومَن يقوم ، ومَن القائم ؛ فزادوا "هو" ليكون جملة تقوم مقام فعل ويفعل .

قال النحاس : ويدل على خلاف هذا قوله :

مَنْ رَسُولِي إلى الثُّرَيّا بأنِّي . . .

ضِقْتُ ذِرْعاً بِهَجْرِهَا والكِتَابِ

﴿ وارتقبوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ أي انتظروا العذاب والسخطة ، فإني منتظر النصر والرحمة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ قيل : صاح بهم جبريل صيحة فخرجت أرواحهم من أجسادهم ﴿ نَجَّيْنَا شُعَيْباً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ ﴾ أي صيحة جبريل .

وأنث الفعل على لفظ الصيحة ، وقال في قصة صالح : ﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة ﴾ [هود : 67] فذكّر على معنى الصياح .

قال ابن عباس : ما أهلك الله أمتين بعذاب واحد إلا قوم صالح وقوم شعيب ، أهلكهم الله بالصيحة ؛ غير أن قوم صالح أخذتهم الصيحة من تحتهم ، وقوم شعيب أخذتهم الصيحة من فوقهم .

﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾

تقدّم معناه .

وحكى الكسائيّ أن أبا عبد الرحمن السلميّ قرأ "كَمَا بَعُدَتْ ثَمُودُ" بضم العين .

قال النحاس : المعروف في اللغة إنما يقال بعِد يَبْعَدُ بُعَدا وبُعْدا إذا هلك .

وقال المهدوي : من ضم العين من "بعدت" فهي لغة تستعمل في الخير والشر ، ومصدرها البعد ؛ وبعِدت تستعمل في الشر خاصة ؛ يقال : بَعِدَ يَبعَد بَعَداً ؛ فالبعد على قراءة الجماعة بمعنى اللّعنة ؛ وقد يجتمع معنى اللغتين لتقاربهما في المعنى ؛ فيكون مما جاء مصدره على غير لفظه لتقارب المعاني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن:

﴿ قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله ﴾ .

يعني أهيب عندكم من الله وأمنع حتى تركتم قتلي لمكان رهطي عندكم فالأولى أن تحفظوني في الله ولأجل الله لا لرهطي لأن الله أعز وأعظم ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهرياً ﴾ يعني ونبذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه كالشيء الملقى الذي لا يلتفت إليه ﴿ إن ربي بما تعملون محيط ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بأحوالكم جميعاً لا يخفى عليه منها شيء فيجازيكم بها يوم القيامة ﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ يعني على تؤدتكم وتمكنكم من أعمالكم وقيل المكانة الحالة والمعنى اعملوا حال كونكم موصفين بعناية المكنة والقدرة من الشر ﴿ إني عامل ﴾ يعني ما أقدر عليه من الطاعة والخير وهذا الأمر في قوله اعملوا فيه وعيد وتهديد عظيم ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ سوف تعلمون ﴾ أينا الجاني على نفسه المخطئ في فعله.

فإن قلت أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها في قوله سوف تعلمون.

قلت إدخال الفاء في قوله: فسوف تعلمون، وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ونزعها في قوله سوف تعلمون وصل خفي تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر كأنهم قالوا فما يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت فقال سوف تعلمون يعني عاقبة ذلك فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للتفنن في البلادة كما هو عادة بلغاء العرب وأقوى

الوصلين وأبلغهما الاستئناف للتفنن في البلادة كما هو عادة بلغاء العرب وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه والمعنى سوف تعلمون ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ يعني بسبب عمله السيء أو أينا الشقي الذي يأتيه عذاب يخزيه ﴿ ومن هو كاذب ﴾ يعني فيما يدعيه ﴿ وارتقبوا ﴾ يعني وانتظروا العاقبة ما يؤول إليه أمري وأمركم ﴿ إني معكم رقيب ﴾ أي منتظر ، والرقيب بمعنى المراقب .

﴿ ولما جاء أمرنا ﴾

يعني بعذابهم وإهلاكهم ﴿ نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ يعني بفضل منا بأن هديناهم للإيمان ووفقناهم للطاعة ﴿ وأخذت الذين ظلموا ﴾ يعني ظلموا أنفسهم بالشرك والبخس ﴿ الصيحة ﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة فخرجت أرواحهم وماتوا جميعاً ، وقيل : أتتهم صيحة واحدة من السماء فماتوا جميعاً ﴿ فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ يعني ميتين وهو إستعارة من قولهم جثم الطير إذا قعد ولطأ بالأرض ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ يعني كأن لم يقيموا بديارهم مدة من الدهر مأخوذ من قولهم غني بالمكان إذا أقام فيه مستغنياً به عن غيره ﴿ ألا بعداً ﴾ يعني هلاكاً ﴿ لمدين

كما بعدت ثمود ﴾ قال ابن عباس " لم تعذب أمتان قط بعذاب واحد إلى قوم شعيب وقوم صالح فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم وأما قوم شعيب فأخذتهم الصيحة من فوقهم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(144/384)

وقال أبو حيان :

﴿ قَالَ يا قوم أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مّنَ الله ﴾

والظاهر في قوله : واتخذتموه ، أن الضمير عائد على الله تعالى أي : ونسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به .

والظهري بكسر الظاء منسوب إلى الظهر من تغييرات النسب ، ونظيره قولهم في النسب إلى الأمس إمسى بكسر الهمزة ، ولما خاطبوه خطاب الإهانة والجفاء جرياً على عادة الكفار مع أنبيائهم ، خاطبهم خطاب الاستعطاف والتلطف جرياً على عادته في الإلانة القول لهم ، والمعنى : أعز عليكم من الله حتى جعلتم مراعاتي من أجلهم ولم يسندوها إلى الله ، وأنا أولى وأحق أن أراعي من أجله ، فالمراعاة لأجل الخالق أعظم من المراعاة لأجل المخلوق ، والظهري المنسي المتروك الذي جعل كأنه خلف الظهر .

وقيل : الضمير في واتخذتموه به عائد على الشرع الذي جاء شعيب عليه السلام .

وقيل : الظهري العون وما يتقوى به .

قال المبرد : فالمعنى واتخذتم العصيان عنده لدفعي انتهى .

فيكون على حذف مضاف أي : واتخذتموه أي عصيانه .

قال ابن عطية : وقالت فرقة : واتخذتموه أي وأنتم متخذون الله سند ظهوركم وعماد آمالكم .

فقول الجمهور : على أن كفر قوم شعيب كان جحداً بالله وجهلاً به ، وهذا القول الثاني على أنهم كانوا يقرون بالخالق الرازق ويعتقدون الأصنام وسائط ووسائل ، ومن اللفظة الاستظهار بالبينة .

وقال ابن زيد : الظهري الفضل ، مثل الحمال يخرج معه بابل ظهارية يعدها إن احتاج إليها ، وإلا فهي فضلة .

محيط أحاط بأعمالكم فلا يخفى عليه شيء منها ، وفي ضمنه توعد وتهديد ، وتقدم تفسير نظير قوله : ﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ وخلاف القراء في مكانتكم .

وجوز الفراء ، والزمخشري : في من يأتيه أن تكون موصولة مفعولة بقوله : تعلمون أي : تعلمون الشقي الذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب ، واستفهامية في موضع رفع على الابتداء ، وتعلمون معلق كأنه قيل : أينا يأتيه عذاب يخزيه ، وأينا هو كاذب .

قال ابن عطية : والأول أحسن ، يعني كونها مفعولة قال : لأنها موصولة ، ولا يوصل في الاستفهام ، ويقضي بصلتها إن المعطوفة عليها موصولة لا محالة انتهى .

وقوله : ويقضي بصلتها الخ لا يقضي بصلتها ، إذ لا يتعين أن تكون موصولة لا محالة كما قال ، بل تكون استفهامية إذا قدرتها معطوفة على من الاستفهامية ، كما قدّرناه وأينا هو كاذب .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها في سوف تعلمون ؟ (قلت) : أدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ، ونزعها وصل خفي تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر كأنهم قالوا : فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا ، وعملت أنت ؟ فقال : سوف تعلمون ، يوصل تارة بالفاء ، وتارة بالاستئناف ، كما هو عادة البلغاء من العرب .

وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف ، وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : قد ذكر عملهم على مكانتهم ، وعمله على مكانته ، ثم أتبعه ذكر عاقبة العاملين منه ومنهم ، فكان القياس أن يقول من يأتيه عذاب يخزيه ، ومن هو

صادق حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إلى الجاحدين ، ومن هو صادق إلى النبي المبعوث إليهم .

(قلت) : القياس ما ذكرت ، ولكنهم لما كانوا يعدونه كاذباً قال : ومن هو كاذب يعني في زعمكم ودعواكم تجهيلاً لهم انتهى .

وفي ألفاظ هذا الرجل سوء أدب ، والذي قاله ليس بقياس ، لأن التهديد الذي وقع ليس بالنسبة إليه ، ولا هو داخل في التهديد المراد بقوله : سوف تعلمون ، إذ لم يأت التركيب اعملوا على مكانتكم ، وأعمل على مكانتي ، ولا سوف تعلمون .

واعلم أن التهديد مختص بهم .

واستسلف الزمخشري قوله : قد ذكر عملهم على مكانتهم ، وعمله على مكانته ، فبنى على ذلك سؤالاً فاسداً ، لأن المترتب على ما ليس مذكوراً لا يصح البتة ، وجميع الآية والتي قبلها إنما هي بالنسبة إليهم على سبيل التهديد ، ونظيره في سورة تنزيل : ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ فهذا جاء بالنسبة للمخاطبين في قوله : قل يا قوم اعملوا على مكانتكم كما جاء هنا ، وارتقبوا : انتظروا العاقبة ، وما أقول

لكم .

والرقيب بمعنى الراقب فعيل للمبالغة ، أو بمعنى المراقب كالعشير والجليس ، أو بمعنى المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع ، ويحسن هذا مقابلة فارتقبوا .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : ما بال ساقتي قصة عاد وقصة مدين جاءتا بالواو والساقتان الوسطيان بالفاء ؟ (قلت) : قد وقعت الوسطيان بعد ذكر الوعد وذلك قوله : ﴿ إن موعدهم الصبح ﴾ ﴿ ذلك وعد غير مكذوب ﴾ فجيء بالفاء التي للتسبب كما تقول : وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت ، وأما الأخريان فلم يقعا بتلك المنزلة ، وإنما وقعتا مبتدأتين ، فكان حقهما أن يعطفا بحرف الجمع على ما قبلهما ؟ كما تعطف قصة على قصة انتهى .

وتقدم تفسير مثل ولما جاء أمرنا إلى قوله كان لم يغنوا فيها .

وقرأ السلمي وأبو حيوة : كما بعدت بضم العين من البعد الذي هو ضد القرب ، والجمهور بكسرها ، أرادت العرب التفرقة بين البعد من جهة الهلاك ، وبين غيره ، فغيروا البناء وقراءة السلمي جاءت على الأصل اعتبار المعنى البعد من غير تخصيص كما يقال : ذهب فلان ، ومضى في معنى القرب .

وقيل : معناه بعد الهم من رحمة الله كما بعدت ثمود منها .

وقال ابن قتيبة : بعد يبعد إذا كان بعده هلكة ، وبعد يبعد إذ أتاني .

وقال النحاس : المعروف في اللغة بعد يبعد بعداً وبعداً إذا هلك .

وقال المهدوي : بعد يستعمل في الخير والشر ، وبعد في الشر خاصة .

(147/384)

وقال ابن الأنباري : من العرب من يسوي بين الهلاك والبعد الذي هو ضد القرب ، فيقول فيهما بعد يبعد ، وبعد يبعد .

وقال مالك بن الريب : في بعد بمعنى هلك :

يقولون لا تبعدوهم يدفنونني . . .

وأين مكان البعد إلا مكانيا

وبعد الفلان دعاء عليه ، ولا يدعى به إلا على مبغض كقولك : سحقاً للكافرين .

وقال أهل علم البيان : لم يرد في القرآن استطراد إلا هذا الموضع ، والاستطراد قالوا : هو أن تمدح شيئاً أو تذمه ، ثم تأتي في آخر الكلام بشيء هو غرضك في أوله .

قال حسان :

إن كنت كاذبة الذي حدثتني . . .

فنجوت منجى الحرث بن هشام

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم . . .

ونجا برأس طمرة ولجام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(148/384)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام في جوابهم ﴿ يا قوم أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مّنَ الله ﴾ فإن الاستهانةَ بمن لا يَتعزّز إلا به عز وجل استهانةٌ بجنابه العزيز وإنما أنكر عليهم أعزِّيةَ رهطِه منه تعالى مع أن ما أثبتوه هو مطلقُ عزةِ رهطِه لا أعزِّيتُهم منه عز وجل مع الاشتراك في أصل العزة لتثنية التقريعِ وتكريرِ التوبيخ حيث أنكر عليهم أولاً ترجيح جنب الرهطِ على جنبة الله تعالى حظاً من العزة أصلاً ﴿ واتخذتموه ﴾ بسبب عدم اعتدادِكم بمن لا يرِدُ ولا يصدُر إلا بأمره ﴿ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ أي شيئاً منبوذاً وراء الظهر منسياً لا يبالى به ، منسوبٌ إلى الظهر ، والكسر لتغيير النسب كالإمسيّ في النسبة إلى الأمس ﴿ إِنَّ رَبّى بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الأعمال السيئة التي من جملتها عدمُ مراعاتِكم لجانبه ﴿ مُحِيطٌ ﴾ لا يخفى عليه منها خافيةٌ وإن جعلتموه منسياً فيجازيكم عليها . ويحتمل أن يكون الإنكارُ للرد والتكذيب

فإنهم لما ادّعَوا أنهم لا يكفّون عن رجمه عليه السلام لقوته وعزّته بل لمراعاة جانب رهطِه ردّ عليهم ذلك بأنكم ما قدّرتم الله حقّ قدرِه العزيز ولم تراعوا جنابَه القويّ فكيف تراعون جانبَ رهطي الأذلة ﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا ﴾ لما رأى عليه السلام إصرارَهم على الكفر وأنهم لا يرعوون عما هم عليه من المعاصي حتى اجترأوا على العظيمة التي هي الاستهانةُ به والعزيمةُ على رجمه لولا حُرمةُ رهطِه، قال لهم على طريقة التهديد: اعملوا ﴿ على مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي على غاية تمكّنِكم واستطاعتِكم يقال: مكُن مكانةً إذا تمكّن أبلغَ التمكّن وإنما قاله عليه السلام رداً لما ادّعَوا أنهم أقوياءُ قادرون على رجمه وأنه ضعيفٌ فيما بينهم لا عزةَ له، أو على ناحيتكم وجهتكم التي أنتم عليها من قولهم: مكانٌ ومكانة كمقام ومقامة، والمعنى اثبُتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمشاقةِ لي وسائرِ ما أنتم عليه مما لا خيرَ فيه

وابذُلوا جهدكم في مضارّتي وإيقاعي ما في نيتكم وإخراج ما في أمنيتكم من القوة إلى الفعل ﴿ إِنِّي عامل ﴾ على مكانتي حسبما يؤيدني الله ويوفقني بأنواع التأييدِ والتوفيق ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ لما هدّدهم عليه السلام بقوله: اعمَلوا على مكانتكم إني عاملٌ كان

مظِنّةَ أن يسألَ منهم سائلٌ فيقولَ : فماذا يكون بعد ذلك ؟ فقيل : سوف تعلمون ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ وصفَ العذابَ بالإخزاء تعريضاً بما أوعدوه عليه السلام به من الرجم فإنه مع كونه عذاباً فيه خِزيٌ ظاهرٌ حيث لا يكون إلا بجناية عظيمةٍ توجبه ﴿ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ عطفٌ على مَنْ يأتيه لا على أنه قسيمُه بل حيث أوعدوه بالرجم وكذبوه قيل : سوف تعلمون مَن المعذَّبُ ومن الكاذب ، وفيه تعريضٌ بكذبهم في ادعائهم القوة والقُدرةَ على رجمه عليه السلام وفي نسبته إلى الضعف والهوان وفي ادعائهم الإبقاءَ عليه جانبِ الرهطِ ، والاختلافُ بين المعطوفَين بالفعلية والاسميةِ لأن كذبَ الكاذب بمرتقَب كإتيان العذاب بل إنما المرتقَبُ ظهورُ الكذبِ السابق المستمرّ . و (من) إما استفهاميةٌ معلّقةٌ للعلم عن العمل كأنه قيل : سوف تعلمون أيُّنا يأتيه عذابٌ يُخزيه وأيُّنا كاذبٌ ، وإما موصولةٌ أي سوف تعرفون الذي يأتيه عذابٌ والذي هو كاذب ﴿ وارتقبوا ﴾ وانتظروا مآلَ ما أقول . ﴿ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ منتظرٌ ، فعيل بمعنى الراقب كالصريم ، أو المراقب كالشعير أو المرتقب كالرفيع وفي زيادة معكم إظهارٌ منه عليه السلام لكمال الوثوق بأمره .

﴿ وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا ﴾

أي عذابُنا كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أو وقتُه فإن الارتقابَ مؤذِنٌ بذلك ﴿ نَجَّيْنَا شُعَيْبًا والذين ءامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ وهي الإيمانُ الذي وفقناهم له أو برحمة كائنةٍ منّا لهم ، وإنما ذكر بالواو كما في قصة عادٍ لما أنه لم يسبقْه فيها ذكرُ وعدٍ يجري مجرى السببِ المقتضي لدخول الفاءِ في معلوله كما في قصتي صالحٍ ولوط . فإنه قد سبق هنالك سابقةُ الوعد بقوله : ﴿ ذلك وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح ﴾ ﴿ وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ ﴾ عدل إليه عن الضمير تسجيلاً عليهم بالظلم وإشعاراً بأن ما أخذهم إنما أخذهم بسبب ظلمِهم الذي فُصّل فيما سبق فنونُه ﴿ الصيحة ﴾ قيل : صاح بهم جبريلُ عليه السلام فهلكوا ، وفي سورة الأعراف ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ ، وفي سورة العنكبوت ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ أي الزلزلة ، ولعلها من روادف الصيحةِ المستتبعة لتموّج الهواء المفضي إليها كما مر فيما قبل ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَارِهِمْ جاثمين ﴾ ميتين لازمين لأماكنهم لا بَراحَ لهم منها ، ولمّا لم يُجعل متعلَّقُ العلمِ في قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ ﴾ الخ ، نفسَ مجيءِ العذاب بل من يجيئُه ذلك جُعل مجيئُه بعد ذلك أمراً مسلَّمَ الوقوعِ غنياً عن الإخبار به حيث جعل شرطاً وجُعل تنجيةُ شعيب عليه السلام وإهلاكُ الكفرة جواباً له ومقصودَ الإفادة ، وإنما قدّم تنجيتُه اهتماماً بشأنها وإيذاناً بسبق الرحمةِ التي هي مقتضى الربوبيةِ على الغضب الذي يظهر أثرُه بموجب جرائرِهم وجرائمهم ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ ﴾ أي لم يقيموا ﴿ فِيهَا ﴾ متصرفين في

أطرافها متقلبين في أكنافها ﴿ أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ العدولُ عن الإضمار إلى الإظهار ليكون أدلَّ على طغيانهم الذي أدّاهم إلى هذه المرتبةِ

(151/384)

وليكون أنسبَ بمن شُبّه هلاكُهم بهلاكهم أعني ثمود ، وإنما شُبّه هلاكُهم بهلاكهم لأنهما أُهلكتا بنوع من العذاب وهو الصيحة ، غير أن هؤلاءِ صيح بهم من فوقهم وأولئك من تحتهم وقرىء بعُدت بالضم على الأصل فإن الكسرَ تغييرٌ لتخصيص معنى البُعد بما يكون سببَ الهلاك والبعدُ مصدرٌ لهما والبُعدُ مصدرٌ للمكسور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(152/384)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ يا قوم أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مّنَ الله ﴾

أي من نبي الله على ما قال عليه الرحمة ، ووجه الاستدلال كما قال العلامة .

وغيره : إنه لو لم يكن قصدهم اختصاصه بنفي العزة بل مجرد الإخبار بعدم عزته عليهم لم يستقم هذا الجواب ولم يكن مطابقاً لمقالهم إذ لا دلالة لنفي العزة عنه على ثبوتها للغير ، وإنما يدل على ذلك اختصاصه بنفي العزة.

واعترض صاحب الإيضاح بأن هذا من باب أنا عارف وهو لا يفيد الاختصاص وفاقاً وإنما يفيده التقديم على الفعل مثل أنا عرفت ، وكون المشتقات قريبة من الأفعال في التقوى لا يقتضي كونها كالأفعال في الاختصاص والتمسك بالجواب ضعيف لجواز أن يكون جواباً لقولهم : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ [هود : 91] فإنه يدل على أن رهطه هم الأعزة حيث كان الامتناع عن رجمه بسببهم لا بسببه ومعلوم بحسب الحال والمقام أن ذلك لعزتهم لا لخوفهم ، وتعقبه السيد السند بأن صاحب الكشاف صرح بالتخصيص في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ [المؤمنون : 100] فكيف يقال : باب أنا عارف لا يفيد الاختصاص اتفاقاً وإن جعله جواباً لما ﴿ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ هو الظاهر بأن يجعل التنوين للتعظيم فيدل على ثبوت أصل العزة له عليه السلام ولا دلالة لقولهم : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ [هود : 91] على اشتراك العزة فلا يلائمه أرهطي أعز عليكم ، ثم قال : فإن قيل : شرط التخصيص عند السكاكي أن يكون المقدم بحيث إذا أخر كان فاعلاً معنوياً ولا يتصور ذلك فيما نحن فيه قلنا : إن الصفة بعد النفي تستقل مع فاعلها

كلاماً فجاز أن يقال : ما عزيز أن على أن يكون أنت تأكيداً للمستتر ثم يقدم ويدخل الباء على ﴿ عَزِيزٌ ﴾ بعد تقديم ﴿ أَنتَ ﴾ وجعله مبتدأ .

(153/384)

وكذلك قوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الذين ءامَنُواْ ﴾ [هود : 29] ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الأنعام : 107] مما لي حرف النفي وكان الخبر صفة ، وقد صرح صاحب الكشاف .

وغيره بإفادة التقديم الحصر في ذلك كله ، وأما صورة الإثبات نحو أنا عارف فلا يجري فيها ذلك فلا يفيد عنده تخصيصاً ، وإن كان مفيداً إياه عند من لا يشترط ذلك .

وأجاب صاحب الكشف عما قاله صاحب الإيضاح بعد نقل خلاصته : بأن ما فيه الخبر وصفاً كما يقارب ما فيه الخبر فعلاً في إفادة التقوى على ما سلمه المعترض يقاربه في إفادة الحصر لذلك الدليل بعينه ، وأن قولهم : ﴿ وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لرجمناك ﴾ [هود : 91] كفى به دليلاً أن حق الكلام أن يفاد التخصيص لا أصل العز ففهمه من ذلك لا ينافي كونه جواباً لهذا الكلام بل يؤكده ، وقد صرح الزمخشري بإفادة نحو هذا التركيب الاحتمالين في أنها كلمة هو قائلها ، وقال العلامة الطيبي : إن قوله تعالى :

﴿ لَوْلَا رَهْطُكَ لرجمناك ﴾ [هود : 91] وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود : 91] من باب الطرد والعكس عناداً منهم فلا بد من دلالتي المنطوق ، والمفهوم في كل من اللفظين انتهى .

ويعلم من جميع ما ذكر ضعف اعتراض صاحب الإيضاح والعجب من العلامة حيث قال : إنه اعتراض قوي ؛ وأشار السكاكي بتقدير المضاف إلى دفع الإشكال بأن كلامهم إنما وقع في شعيب عليه السلام وفي رهطه وأنهم هم الأعزة دونه من غير دلالة على أنهم أعز من الله تعالى .

وأجيب أضاً بأن تهاونهم بنبي الله تعالى تهاون به سبحانه فحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله تعالى أو بأن المعنى أرهطي أعز عليكم من الله تعالى حتى كان امتناعكم عن رجمي بسبب انتسابي إليهم وأنهم رهطي لا بسبب انتسابي إلى الله تعالى وأني رسوله .

ثم ما ذكره السيد قدس سره من جعل التنوين في عزيز للتعظيم وحينئذٍ يدل الكلام على ثبوت أصل العزة له عليه السلام فيلائمه أرهطي أعز ؟ الخ صحيح في نفسه إلا أن ذلك بعيد

جداً من حال القوم ، فإن الظاهر أنهم إنما قصدوا نفي العزة عنه عليه السلام مطلقاً وإثباتها لرهطه لا نفي العزة العظيمة عنه وإثباتها لهم ليدل الكلام على اشتراكهما في أصل العزة وزيادتها فيهم ، وذلك لأن العزة وإن لم تكن عظيمة تمنع من القتل بالحجارة الذي هو من أشر أنواع القتل ، ولا أظن إنكار ذلك إلا مكابرة ، وكأنه لهذا لم يعتبر مولانا أبو السعود عليه الرحمة جعل التنوين للتعظيم لتتأتى المشاركة فيظهر وجه إنكار الأعزية فاحتاج للكشف عن ذلك مع عدم المشاركة ، فقال : وإنما أنكر عليه السلام عليهم أعزية رهطه منه تعالى مع أن ما أثبتوه إنما هو مطلق عزة رهطه لا أعزيتهم منه عز وجل مع الاشتراك في أصل العزة لتثنية التقريع وتكرير التوبيخ حيث أنكر عليهم أولا ترجيح جنبة الرهط على جنبة الله تعالى .

وثانياً نفي العزة بالمرة ، والمعنى أرهطي أعز عليكم من الله فإنه مما لا يكاد يصح ، والحال أنكم لم تجعلوا له تعالى حظاً من العزة أصلاً ﴿ واتخذتموه ﴾ بسبب عدم اعتدادكم بمن لا يرد ولا يصدر إلا بأمره ﴿ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ شيئاً منبوذاً وراء الظهر منسياً انتهى .

وأنا أقول : قد ذكر الرضى أن المجرور بمن التفضيلية لا يخلو من مشاركة المفضل في المعنى إما تحقيقاً كما في زيد أحسن من عمرو أو تقديراً كقول علي كرم الله تعالى وجهه : لأن أصوم يوماً من شعبان أحب إلي من أن أفطر يوماً من رمضان وذلك لأن إفطار يوم الشك الذي يمكن أن يكون من رمضان محبوب عند المخالف فقدره علي كرم الله تعالى وجهه محبوباً إلى نفسه أيضاً ، ثم فضل صوم شعبان عليه فكأنه قال : هب أنه محبوب عندي أيضاً أليس صوم يوم من شعبان أحب منه انتهى ، وما في الآية يمكن تخريجه على طرز الأخير فيكون إنكاره عليه السلام عليهم أعزية رهطه منه تعالى على تقدير أن يكون عز وجل عزيزاً عندهم أيضاً ، ويعلم من ذلك إنكار ما هم عليه بطريق الأولى ، وكأن هذا هو الداعي لاختيار هذا الأسلوب من الإنكار ، ووقوعه في الجواب لا يأبى ذلك ، وإن قيل بجواز خلو المجرور بمن من مشاركة المفضل وإرادة مجرد المبالغة من أفعل المقرون بها بناءاً على مجيء ذلك بقلة كما قال الجلال السيوطي في "همع الهوامع" نحو العسل أحلى من الخل .

(156/384)

والصيف أحر من الشتاء ، واعتمد هنا على قرينة السباق والسياق فالأمر واضح ، واستحسن كون قوله تعالى : ﴿ واتخذتموه ﴾ الخ اعتراضاً وفائدته تأكيدتها ونهم بالله

تعالى ببيان أنهم قوم عادتهم أن لا يعبأوا بالله تعالى ويجعلوه كالشيء المنبوذ ، وجوز بعض كونه عطفاً على ما قبله على معنى أفضلتم رهطى على الله سبحانه وتهاونتم به تعالى ونسيتموه ولم تخشوا جزاءه عز وجل ، وقال غير واحد : إنه يحتمل أن يكون الغرض من قوله عليه السلام ﴿ أَرَهْطِى ﴾ الخ الرد والتكذيب لقومه فإنهم لما ادعوا أنهم لا يكفون عن رجمه عليه السلام لعزته بل لمراعاة جانب رهطه ردّ عليهم ذلك بأنكم ما قدرتم الله تعالى حق قدره ولم تراعوا جنابه القوي فكيف تراعون رهطى الأذلة ، وأياً مّا كان فضمير ﴿ اتخذتموه ﴾ عائد إلى الله تعالى وهو الذي ذهب إليه جمهور المفسرين ، وروي عن ابن عباس .

والحسن وغيرهما ، والظهري منسوب إلى الظهر ، وأصله المرمي وراء الظهر ، والكسر من تغييرات النسب كما قالوا في النسبة إلى أمس : أمسي بالكسر .

وإلى الدهر دهري بالضم ، ثم توسعوا فيه فاستعملوه للمنسي المتروك ، وذكروا أنه حتمل أن يكون في الكلام استعارة تصريحة وأن يكون استعارة تمثيلية .

وزعم بعضهم أن الضمير له تعالى ، والظهري العون وما يتقوى به ، والجملة في موضع الحال ، والمعنى أفضلتم الرهط على الله تعالى ولم تراعوا حقه سبحانه .

والحال أنكم تتخذونه سند ظهوركم وعماد آمالكم .

ونقل ابن عطية هذا المعنى عن جماعة ، وقيل : الظهري المنسي ، والضمير عائد على الشرع الذي جاء به شعيب عليه السلام وإن لم يذكر صريحاً ، وروي عن مجاهد أو على أمر الله ، ونقل عن الزجاج ، وقيل : الظهري بمعنى المعين ، والضمر لله تعالى ، وفي الكلام مضاف محذوف أي عصيانه والمعنى على ما قرره أبو حيان واتخذتم عصيانه تعالى عوناً وعدة لدفعي ، وقيل : لا حذف والضمير للعصيان وهو الذي يقتضيه كلام المبرد ، ولا يخفى ما في هذه الأقوال من الخروج عن الظاهر من غير فائدة ، ومما ينظم في سلكها تفسير العزيز بالملك زعماً أنهم كانوا يسمعون الملك عزيزاً على أن من له أدنى ذوق لا يكاد يسلم صحة ذلك فتفطن ، ونصب ﴿ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ على أنه مفعول ثان لاتخذتموه والهاء مفعوله الأول ، و ﴿ وَرَائِكُمْ ﴾ ظرف له أو حال من ﴿ ظِهْرِيّاً ﴾ .

﴿ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ تهديد عظيم لأولئك الكفرة الفجرة أي أنه سبحانه قد أحاط علماً بأعمالكم السيئة التي من جملتها رعايتكم جانب الرهط دون رعاية جنابه جل جلاله في فيجازيكم على ذلك

وكذا قوله :

﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾

أي غاية تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم ، وهو مصدر مكن يقال :

مكن مكانة إذا تمكن أبلغ تمكن ، والميم على هذا أصلية ، وفي "البحر" يقال : المكان والمكانة مفعل ومفعلة من الكون والميم حينئذٍ زائدة ، وفسر ابن زيد المكانة بالحال يقال : على مكانتك ا فلان إذا أمرته أن يثبت على حاله كأنك قلت : اثبت على حالك التي أنت عليها لا تنحرف ، وهو من استعارة العين للمعنى كما نص عليه غير واحد ، وحاصل المعنى ههنا اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمشاقة لي وسائر ما لا خير فيه .

وقرأ أبو بكر مكاناتكم على الجمع وهو باعتبار جمع المخاطبين كما أن الأفراد باعتبار الجنس ، والجار والمجرور كما قال بعضهم : يحتمل أن يكون متعلقاً بما عنده على تضمين الفعل على معنى البناء ونحوه كما تقول : عمل على الجد وعلى القوة ونحوهما ، وأن يكون في موضع الحال أي اعملوا قارين وثابتين على مكانتكم .

﴿ إِنّى عامل ﴾ على مكانتي حسبما يؤيدني الله تعالى ويوفقني بأنواع التأييد والتوفيق ، وكأنه حذف على مكانتي للاختصار ولما فيه من زيادة الوعيد ، وقوله سبحانه : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ استئناف وقع جواب سؤال مقدر نا شيء من تهديده عليه السلام إياهم بقوله : ﴿ اعملوا ﴾ الخ كأن سائلاً منهم سأل فماذا يكون بعد ذلك ؟ فقيل : ﴿ سَوْفَ

تَعْلَمُونَ ﴾ ولذا سقطت الفاء وذكرت في آية الأنعام للتصريح بأن الوعيد ناشىء ومتفرع على إصرارهم على ما هم عليه والتمكن فيه ، وما هنا أبلغ في التهويل للإشعار بأن ذلك مما يسئل عنه ويعتنى به ، والسؤال المقدر يدل على ما دلت عليه الفاء مع ما في ذلك من تكثير المعنى بتقليل اللفظ ، وكأن الداعي إلى الإتيان بالأبلغ هنا دون ما تقدم أن القوم قاتلهم الله تعالى بالغوا في الاستهانة به عليه السلام وبلغوا الغاية في ذلك فناسب أن يبالغ لهم في التهديد ويبلغ فيه الغاية وإن كانوا في عدم الانتفاع كالأنعام ، وما فيها نحو ذلك .

(159/384)

وقال بعض أجلة الفضلاء : إن اختيار إحدى الطريقين ثمة والأخرى هنا وإن كان مثله لا يسئل عنه لأنه دوري لأن أول الذكرين يقتضي التصريح فيناسب في الثاني خلافه انتهى ، وهو دون ما قلناه ، و﴿ مَنْ ﴾ في قوله سبحانه : ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ قيل : موصولة مفعول العلم وهو بمعنى العرفان ، وجملة ﴿ يَأْتِيهِ عَذَابٌ ﴾ صلة الموصول ، وجملة ﴿ يُخْزِيهِ ﴾ صفة ﴿ عَذَابٌ ﴾ ووصفه بالإخزاء تعريضاً بما أوعدوه عليه السلام من الرجم فإنه مع كونه عذاباً فيه خزي ظاهر ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ عطف على ﴿ مَن يَأْتِيهِ ﴾ و﴿ مَنْ ﴾ أيضاً موصولة ، وجوز أن تكون ﴿ مَنْ ﴾ في

الموضعين استفهامية ، والعلم على بابه وهي معلقة له عن العمل .

واستظهر أبو حيان الموصولية ، وليس هذا العطف من عطف القسيم على قسيمه كما في سيعلم الصادق .

والكاذب إذ ليس القصد إلى ذكر الفريقين ، وإنما القصد إلى الرد على القوم في العزم على تعذيبه بقولهم : ﴿ لرجمناك ﴾ [هود : 91] والتصميم على تكذيبه بقولهم : ﴿ أصلواتك تَأْمُرُكَ ﴾ [هود : 87] الخ فكأنه قيل : سيظهر لكم من المعذب أنتم أم نحن ومن الكاذب في دعواه أنا أم أنتم ؛ وفيه إدراج حال الفريقين أيضاً .

وفي الإرشاد أن فيه تعريضاً بكذبهم في ادعائهم القوة والقدرة على رجمه عليه السلام ، وفي نسبته إلى الضعف والهوان وفي ادعائهم الإبقاء عليه لرعاية جانب الرهط ، وقال الزمخشري : إنه كان القياس ، ومن هو صادر بدل هذا المعطوف لأنه قد ذكر عملهم على مكانتهم .

وعمله على مكانته ، ثم أتبعه ذكر عاقبة العاملين منه ومنهم فحينئذٍ ينصرف ﴿ مَن يَأْتِيهِ ﴾ الخ إلى الجاحدين ومن هو صادق إلى النبي المبعوث ولكنهم لما كانوا يدعونه عليه السلام

كاذباً قال: ومن هو كاذب بمعنى في زعمكم ودعواكم تجهيلاً لهم يعني أنه عليه السلام جرى في الذكر على ما اعتادوه في تسميته كاذباً تجهيلاً لهم، والمعنى ستعلمون حالكم وحال الصادق الذي سميتموه كاذباً لجهلكم، وليس المراد ستعلمون أنه كاذب في زعمكم فلا يرد ما توهم من أن كذبه في زعمهم واقع معلوم لهم الآن فلا معنى لتعليق علمه على المستقبل، وقال ابن المنير: الظاهر أن الكلامين جميعاً لهم فمن يأتيه الخ متضمن ذكر جزائهم، ﴿ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ متضمن ذكر جرمهم الذي يجازون به وهو الكذب، وهو من عطف الصفة على الصفة والموصوف واحد كما تقول لمن تهدده: ستعلم من يهان ومن يعاقب، وأنت تعني المخاطب في الكلامين فيكون في ذكر كذبهم تعريض لصدقه وهو أبلغ وأوقع من التصريح، ولذلك لم يذكر عاقبة شعيب عليه السلام استغناءاً بذكر عاقبتهم، وقد مر مثل ذلك أول السورة في قوله سبحانه: ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود: 39] حيث اكتفى بذلك عن أن يقول: ومن هو على خلاف ذلك، ونظيره ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عاقبة الدار ﴾ [الأنعام: 135] حيث ذكر فيه إحدى العاقبتين لأن المراد بهذه العاقبة عاقبة الخير لأنها متى أطلقت لا يعن إلا ذلك نحو ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ [الأعراف: 128] ولأن اللام في ﴿ لَهُ ﴾ يدل على أنها ليست عليه، واستغنى عن ذكر مقابلها انتهى، وتعقبه الطيبي بما رده عليه الفاضل الجلبي ﴿ وارتقبوا ﴾ أي انتظروا ما أقول لكم من حلول ما أعدكم به وظهور صدقه ﴿

إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ أي منتظر ذلك، وقيل: المعنى انتظروا العذاب إني منتظر النصرة والرحمة، وروي

(161/384)

ذلك عن ابن عباس، و﴿ رَقِيبٌ ﴾ إما بمعنى مرتقب كالرفيع بمعنى المرتفع.

أو راقب كالصريم بمعنى الصارم.

أو مراقب كعشير بمعنى معاشر، والأنسب على ما قيل بقوله: ﴿ ارتقبوا ﴾: الأول وإن كان مجيء فعيل بمعنى اسم الفاعل المزيد غير كثير وفي زيادة ﴿ طائركم مَّعَكُمْ ﴾ إظهار منه عليه السلام لكمال الوثوق بأمره.

﴿ وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا ﴾ أي عذابنا كما ينبىء عنه قوله سبحانه: ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [هود: 93] الخ أو وقته فإن الارتقاب يؤذن بذلك ﴿ نَجَّيْنَا شُعَيْبًا والذين ءامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مّنَّا ﴾ وهو الإيمان الذي وفقناهم له.

أو برحمة كائنة منا لهم وإنما جيء بالفاء في قصتي ثمود.

ولوط حيث قيل: ﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا ﴾ [هود: 82] وبالواو ههنا وفي قصة عاد حيث قيل: ﴿ وَلَمَّا جَاء ﴾ [هود: 66] الخ لأنه قد سبق هناك سابقة الوعد بقوله سبحانه

: ﴿ ذلك وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : 65] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح ﴾ [هود : 81] وهو يجري مجرى السبب المقتضى لدخول الفاء في معلوله ، وأما ههنا . وفي قصة عاد فلم يسبق مثل ذلك بل ذكر مجيء العذاب على أنه قصة بنفسه وما قبله قصة أخرى لكنهما متعلقان بقوم واحد فهما متشاركان من وجه مفترقان من آخر ، وذلك مقام الواو كذا قيل .

وتعقب بأن في الكلام ههنا ذكر الوعد أيضاً ، وهو قوله سبحانه : ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ رَقِيبٌ ﴾ [هود : 93] غاية الأمر أنه لم يذكر بلفظ الوعد ومثله لا يكفي الفرق ، وقيل : إن ذكر الفاء في الموضعين لقرب عذاب قوم صالح. ولوط للوعد المذكور فإن بين الأولين والعذاب ثلاثة أيام .

وبين الآخرين وبينه ما بين قول الملائكة : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح ﴾ [هود : 81]

والصبح : وهي سويعات يسيرة .

ولا كذلك عذاب قومي شعيب .

وهود عليهما السلام بل في قصة قوم شعيب عليه السلام ما يشعر بعدم تضييق زمان مجيء العذاب بناءاً على الشائع في استعمال ﴿ سَوْفَ ﴾ على أن من أنصف من نفسه لم يشك في الفرق بين الوعد في قصتي صالح.

ولوط عليهما السلام.

والوعد في غيرهما ، فإن الإشعار بالمجيء فيهما ظاهر فحسن تفريعه بالفاء ولا كذلك في غيرهما كذا قيل ، وفيه ما لا يخفى ، ولعل الاقتصار على التفرقة بالقرب وعدمه أقل غائلة مما قيل ، وكذا مما يقال : من أن الإتيان بالفاء لتقدم الوعد وتركها وإن كان هناك وعد للإشارة إلى سوء حال أولئك القومين ومزيد فظاعته حتى أن العذاب حل بهم لا لسبب سبق الوعد بل لمجرد ظلمهم وكأن وجه اعتبار ذلك فيهم دون قومي لوط.

وصالح عليهما السلام أنهم امتازوا عنهم برمي ذينك النبيين بالجنون ومشافهتهما بما لم يشافه به كل من قومي صالح.

ولوط نبيه فيما قص عنهما في هذه السورة الكريمة فإن في ذلك ما لا يكاد يخفى عليك فتدبر ﴿ وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ ﴾ عدل عن الضمير تسجيلاً عليهم بالظلم وإشعاراً بالعلية أي وأخذت أولئك الظالمين بسبب ظلمهم الذي فصل ﴿ الصيحة ﴾ قيل : صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا وكانت صيحة على الحقيقة ، وجوز البلخي أن يكون المراد بها نوعاً من العذاب ، والعرب تقول : صاح بهم الزمان إذا هلكوا ، وقال امرؤ القيس

: فدع عنك نهباً (صيح) في حجراته . . .

ولكن حديث ما حديث الرواحل

(163/384)

والمعول عليه الأول ، وقد سبق في الأعراف ﴿ الرجفة ﴾ [الأعراف : 78 ، 91] أي الزلزلة بدلها ، ولعلها كانت من مباديها فلا منافاة ، وقيل : غير ذلك فتذكر ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَارِهِمْ جاثمين ﴾ أي ميتين من جثم الطائر إذا ألصق بطنه بالأرض ، ولذا خص الجثمان بشخص الإنسان قاعداً ، ثم توسعوا فاستعملوا الجثوم بمعنى الإقامة ، ثم استعير من هذا الجاثم للميت لأنه لا يبرح مكانه ، ولما لم يجعل متعلق العلم في قوله سبحانه : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ ﴾ [هود : 93] الخ نفس مجيء العذاب بل من يجيئه ذلك جعل مجيئه بعد أمراً مسلم الوقوع غنياً عن الاخبار به حيث جعل شرطاً ، وجعل تنجية شعيب عليه السلام والمؤمنين وإهلاك الكفرة الظالمين جواباً له ومقصود الإفادة ، وإنما قدم التنجية اهتماماً بشأنها وإيذاناً بسبق الرحمة على الغضب قاله شيخ الإسلام ، وأصبح إما ناقصة .

أو تامة أي صاروا جاثمين .

أو دخلوا في الصباح حال كونهم جاثمين.

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ ﴾ أي لم يقيموا ﴿ فِيهَا ﴾ متصرفين في أطرافها متقلبين في أكنافها ،

والجملة إما خبر بعد خبر.

أو حال بعد حال.

﴿ أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ العدول عن الإضمار إلى الإظهار للمبالغة في تفظيع حالهم وليكون أنسب بمن شبه هلاكهم بهلاكهم ، وإنما شبه هلاكهم بهلاكهم لأن عذاب كل كان بالصيحة غير أنه روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن صيحة ثمود كانت من تحتهم.

وصيحة مدين كانت من فوقهم.

وقرأ السلمي.

وأبو حيوة (بعدت) بضم العين ، والجمهور بكسرها على أنه من بعد يبعد بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع بمعنى هلك ، ومنه قوله :

يقولون : (لا تبعد) وهم يدفونني . . .

وأين مكان البعد إلا مكانيا

وأما بعد يبعد بالضم فهو البعد ضد القرب قاله ابن قتيبة ، قيل : أرادت العرب بهذا التغيير الفرق بين المعنيين ، وقال ابن الأنباري : من العرب من يسوي بين الهلاك وبعد الذي هو ضد القرب ، وفي القاموس البعد المعروف والموت ، وفعلهما ككرم .

وفرح بعداً وبعداً بفتحتين ، وقال المهدوي : إن بعد بالضم يستعمل في الخير والشر .

وبعد بالكسر في الشر خاصة ، وكيفما كان الأمر فالمراد ببعدت على تلك القراءة أيضاً هلكت غاية الأمر أنه في ذلك إما حقيقة أو مجاز ، ومن هلك فقد بعد ونأى كما قال الشاعر :

من كان بينك في التراب وبينه . . .

شهران فهو في غاية (البعد)

وفي الآية ما يسمى الاستطراد ، قيل : ولم يرد في القرآن من هذا النوع إلا ما في هذا الموضع وقد استعملته العرب في أشعارها ، ومن ذلك قول حساب رضي الله عنه تعالى عنه :

إن كنت كاذبة الذي حدثتني . . .

فنجوت منجى الحرث بن هشام

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم . . .

ونجا برأس طمرّة ولجام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

قِصَّةُ شُعَيْب - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَعَ قَوْمِهِ :

تَقَدَّمَتْ قِصَّةُ شُعَيْبٍ فِي بِضْعِ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ مِنَ الْآيَةِ 85 - 93 ، وَهَا هِيَ ذِي نُسِّقَتْ هُنَا فِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ آيَةً مِنَ الْآيَةِ 84 - 95 ، وَفِي كُلٍّ مِنْهَا مِنَ الْحِكَمِ وَالْأَحْكَامِ وَالْمَوَاعِظِ مَا لَيْسَ فِي الْأُخْرَى ، مَعَ السَّلَامَةِ مِنَ الِاخْتِلَافِ وَالتَّفَاوُتِ وَالتَّعَارُضِ ، وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى نَسَبِهِ وَمَا وَرَدَ فِيهِ وَفِي قَوْمِهِ فِي تَفْسِيرِهَا مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ ، فَتُرَاجَعُ فِي (ص 468 - 471 ج 8 ط الْهَيْئَةِ) .

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85) بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86) .

هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ فِي تَبْلِيغِ شُعَيْبٍ قَوْمَهُ الدَّعْوَةَ وَهِيَ : الْأَمْرُ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ فِي الْعِبَادَةِ ، وَالنَّهْيُ عَنْ أَشَدِّ الرَّذَائِلِ فُشُوًّا فِيهِمْ ، وَالْأَمْرُ بِالْفَضِيلَةِ الَّتِي تُقَابِلُهَا .

-وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا - مَعْطُوفٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَهُ مِثْلُهُ ، أَيْ وَأَرْسَلْنَا إِلَى أَهْلِ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ فِي النَّسَبِ شُعَيْبًا - قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ - اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ

(166/384)

وَلَا تَعْبُدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ - مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ فَيُعْبَدُ ، وَهَذَا مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ جَمِيعُ رُسُلِ اللَّهِ كَمَا تَقَدَّمَ . ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى مَا هُوَ خَاصٌّ بِهِمْ مِنَ الْأَحْكَامِ الْعَمَلِيَّةِ فَقَالَ : وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ فِيمَا تَكِيلُونَ وَمَا تَزِنُونَ مِنَ الْمَبِيعَاتِ كَمَا هِيَ عَادَتُكُمْ ، وَكَانُوا تُجَّارًا مُطَفِّفِينَ - إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ - 83 : 2 و 3 أَيْ : يُنْقِصُونَ ، - إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ - أَيْ بِثَرْوَةٍ وَاسِعَةٍ فِي الرِّزْقِ ، يَجِبُ أَنْ تَرْفَعَ أَنْفُسَكُمْ عَنْ دَنَاءَةِ بَخْسِ حُقُوقِ النَّاسِ وَأَكْلِ أَمْوَالِهِمْ بِالْبَاطِلِ ، بِمَا تُنْقِصُونَ مِنَ الْمَبِيعِ لَهُمْ مِنْ مَكِيلٍ وَمَوْزُونٍ .

وَهُوَ كُفْرٌ لِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالْغِنَى وَالسَّعَةِ ، وَالْوَاجِبُ عَلَيْكُمْ شُكْرُهَا بِالزِّيَادَةِ عَلَى سَبِيلِ الْإِحْسَانِ ، فَالْجُمْلَةُ تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ عَنِ النُّقْصَانِ - وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ - أَيْ : عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ مَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ بِكُمْ إِذَا أَنْتُمْ أَصْرَرْتُمْ عَلَى شِرْكِكُمْ بِاللَّهِ

بِعبادَةِ غَيْرِه ، وكُفْرِكُمْ بِنعمِهِ بِنَقْصِ الْمِكْيَالِ والْمِيزَانِ . وهَذَا الْيَوْمُ يَصْدُقُ بيومِ الْقِيَامَةِ ويَوْمِ عَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ .

(167/384)

- ويَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ - لَا يَنْسَيَنَّ الْقَارِئُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ حِكْمَةِ تَكْرَارِ النِّدَاءِ بِلَقَبِ " قَوْمِي " مِنَ الِاسْتِعْطَافِ ، وهَذَا أَمْرٌ بِالْوَاجِبِ بَعْدَ النَّهْيِ عَنْ ضِدِّهِ لِتَأْكِيدِهِ ، وَتَنْبِيهٌ لِكَوْنِ عَدَمِ التَّعَمُّدِ لِلنَّقْصِ لَا يَكْفِي لِتَحَرِّي الْحَقِّ ، بَلْ يَجِبُ مَعَهُ تَحَرِّي الْإِيفَاءِ بِالْعَدْلِ وَالسَّوِيَّةِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ ، وَإِنْ كَانَتِ الثِّقَةُ

بِهِ لَا تَحْصُلُ أَوْ لَا تُتَيَقَّنُ إِلَّا بِزِيَادَةٍ قَلِيلَةٍ ، فَهِيَ قَدْ تَدْخُلُ فِي بَابِ " مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ " . وتَعَمُّدُهَا فِي الْكَيْلِ أَوِ الْوَزْنِ لِلنَّاسِ سَخَاءٌ فَهُوَ فَضِيلَةٌ مَنْدُوبٌ ، وَفِي الِاكْتِيَالِ أَوِ الْوَزْنِ عَلَيْهِمْ طَمَعٌ فَهُوَ رَذِيلَةٌ مَحْظُورٌ - وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ - هَذَا أَعَمُّ مِمَّا سَبَقَهُ ، فَإِنَّ الْبَخْسَ يَشْمَلُ النَّقْصَ وَالْعَيْبَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، يُقَالُ : بَخَسَهُ - مِنْ بَابِ نَفَعَ - حَقَّهُ وَبَخَسَهُ مَالَهُ وَبَخَسَهُ عِلْمَهُ وَفَضْلَهُ . وَالْأَشْيَاءُ جَمْعُ شَيْءٍ وَهُوَ أَعَمُّ الْأَلْفَاظِ ، وَجَمْعُهُ يَشْمَلُ مَا لِلْأَفْرَادِ وَمَا لِلْجَمَاعَاتِ وَالْأَقْوَامِ مِنْ مَكِيلٍ وَمَوْزُونٍ وَمَعْدُودٍ وَمَحْدُودٍ بِحُدُودِ الْحِسِّيَّةِ وَمِنْ حُقُوقٍ مَادِّيَّةٍ وَمَعْنَوِيَّةٍ ، وَقَدْ فَصَّلْنَا هَذَا وَبَيَّنَّا الْعِبْرَةَ فِيهِ بِتَعَامُلِ أَهْلِ

الشَّرْقِ مَعَ أَهْلِ الْغَرْبِ فِي هَذَا الْعَصْرِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ : (7 : 85) فَتُرَاجَعْ فِي (ص 472 وَمَا بَعْدَهَا ج 8 ط الْهَيْئَةِ) .

(168/384)

- وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ - أَيْ : وَلَا تُفْسِدُوا فِيهَا حَالَ كَوْنِكُمْ مُتَعَمِّدِينَ لِلْإِفْسَادِ ، يُقَالُ : عَثِيَ يَعْثَى (كَرَضِيَ يَرْضَى) عِثِيًّا بِكَسْرَتَيْنِ وَتَشْدِيدِ الْيَاءِ - وَعَثَا يَعْثُو (كَغَزَا يَغْزُو) عُثُوًّا بِضَمَّتَيْنِ وَالتَّشْدِيدُ أَيْضًا - أَفْسَدَ ، وَهَذَا نَهْيٌ آخَرُ عَامٌّ يَشْمَلُ غَيْرَ مَا تَقَدَّمَ ، كَقَطْعِ الطُّرُقِ وَتَهْدِيدِ الْأَمْنِ وَالْخُرُوجِ عَلَى السُّلْطَانِ وَقَطْعِ الشَّجَرِ وَقَتْلِ الْحَيَوَانِ ، وَقَيْدُهُ بِقَصْدِ الْإِفْسَادِ ؛ لِأَنَّ بَعْضَ مَا هُوَ إِفْسَادٌ فِي الظَّاهِرِ قَدْ يُرَادُ بِهِ الْإِصْلَاحُ أَوْ دَفْعُ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ ، كَالَّذِي يَقَعُ فِي الْحَرْبِ مِنْ قَطْعِ الْأَشْجَارِ ، أَوْ فَتْحِ سُدُودِ الْأَنْهَارِ ، أَوْ إِحْرَاقِ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ بِالنَّارِ ، وَمِنْهُ خَرْقُ الْخَضِرِ لِلسَّفِينَةِ الَّتِي كَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ لِمَنْعِ الْمَلِكِ الظَّالِمِ الَّذِي وَرَاءَهُمْ

مِنْ أَخْذِهَا إِذَا أَعْجَبَتْهُ . وَالْإِفْسَادُ : تَعْطِيلٌ يَشْمَلُ مَصَالِحَ الدُّنْيَا ، وَصِفَاتِ النَّفْسِ وَأَخْلَاقَهَا ، وَأُمُورَ الدِّينِ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْمَفَاسِدِ فَاشِيَةٌ فِي هَذَا الْعَصْرِ .

(169/384)

- بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ - أَيْ: مَا يَبْقَى لَكُمْ بَعْدَ إِيفَاءِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ مِنَ الرِّبْحِ الْحَلَالِ، خَيْرٌ لَكُمْ مِمَّا تَأْخُذُونَهُ بِالتَّطْفِيفِ وَنَحْوِهِ مِنَ الْحَرَامِ، أَوْ - بَقِيَّةُ اللهِ - الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الَّتِي يَبْقَى أَثَرُهَا الْحَسَنُ فِي الدُّنْيَا وَثَوَابُهَا فِي الْآخِرَةِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ رِزْقُ اللهِ، وَمُجَاهِدٌ: طَاعَةُ اللهِ، وَالرَّبِيعُ: وَصِيَّةُ اللهِ، وَالْفَرَّاءُ: مُرَاقَبَةُ اللهِ، وَقَتَادَةُ: حَظُّكُمْ مِنَ اللهِ - إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ - بِهِ حَقَّ الْإِيمَانِ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الَّذِي يُطَهِّرُ النَّفْسَ مِنْ دَنَاءَةِ الطَّمَعِ، وَيُحَلِّيهَا بِفَضِيلَةِ الْقَنَاعَةِ وَالْكَرَمِ وَالسَّخَاءِ - وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ - فَأَحْفَظُكُمْ مِنْ هَذِهِ الْمَعَاصِي وَالرَّذَائِلِ أَوْ أُعَاقِبُكُمْ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا أَنَا مُبَلِّغٌ عَلِيمٌ وَنَاصِحٌ أَمِينٌ.

(170/384)

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (89) وَاسْتَغْفِرُوا

رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90) .

هَذِهِ الْآيَاتُ اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ كَأَمْثَالِهَا مِنَ الْمُرَاجَعَاتِ فِي مُنَاقَشَةِ قَوْمِ شُعَيْبٍ لَهُ بِالْآرَاءِ التَّقْلِيدِيَّةِ فِي التَّدَيُّنِ وَالْإِيمَانِ ، وَالنَّظَرِيَّاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ فِي الْحُرِّيَّةِ وَالْأَمْوَالِ .

- قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا - قَرَأَ جُمْهُورُ الْقُرَّاءِ " صَلَوَاتُكَ " بِالْجَمْعِ وَاسْتُدِلَّ بِهَا عَلَى أَنَّهُ كَانَ كَثِيرَ الصَّلَاةِ ، وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ " صَلَاتُكَ " بِالْإِفْرَادِ ،

وَالِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِ وَبِعِبَادَتِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَالصَّلَاةُ تَنْهَى صَاحِبَهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ بِمَا تُكْسِبُهُ مِنْ مُرَاقَبَةِ اللهِ - تَعَالَى - ، وَمَنْ نَهَى نَفْسَهُ كَانَ جَدِيرًا بِأَنْ يَنْهَى غَيْرَهُ ، يَعْنُونَ : أَهَذِهِ الصَّلَاةُ الَّتِي تُدَاوِمُ عَلَيْهَا تَقْتَضِي بِتَأْثِيرِهَا فِي نَفْسِكَ أَنْ تَحْمِلَنَا عَلَى تَرْكِ مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُنَا مِنْ عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا تَقَرُّبًا إِلَى اللهِ بِهَا ، وَتَشَفُّعًا عِنْدَهُ بِجَاهِ الْأَرْوَاحِ الَّتِي تَحُلُّهَا ، أَوِ الْأَوْلِيَاءِ الَّتِي وُضِعَتْ لِذِكْرَاهُمْ ، وَمَا أَنْتَ خَيْرٌ مِنْهُمْ ، وَأَجْدَرُ بِاتِّبَاعِهِمْ - أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ - مِنْ تَنْمِيَةٍ وَاسْتِغْلَالٍ

، وَتَصَرُّفٍ فِي الْكَسْبِ مِنَ النَّاسِ بِمَا نَسْتَطِيعُ مِنْ حِذْقٍ وَاحْتِيَالٍ ، وَخَدِيعَةٍ وَاهْتِبَالٍ ، وَهُوَ حَجْرٌ عَلَى حُرِّيَّتِنَا ، وَتَحَكُّمٌ فِي ذَكَائِنَا ؟ رَدُّوا بِهَذَا وَبِمَا قَبْلَهُ عَلَيْهِ دَعْوَتَهُ مِنْ جَانِبِهَا الدِّينِيِّ وَالدُّنْيَوِيِّ نَشْرًا مُرَتَّبًا عَلَى لَفٍّ ، وَنَقْضًا لِمَا بُنِيَتْ عَلَيْهِ مِنْ حُجَّةٍ وَعَطْفٍ ، وَلِذَلِكَ ذَيَّلُوهُ بِمَا يُشِيرُ إِلَى هَذَا النَّقْضِ ، فَقَالُوا بِقَصْدِ التَّعْرِيضِ وَالتَّنْدِيدِ : - إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ - الْحَلِيمُ : الْعَاقِلُ الْكَامِلُ فِي أَنَاتِهِ وَتَرَوِّيهِ فَلَا يَتَعَجَّلُ بِأَمْرٍ قَبْلَ الثِّقَةِ مِنْ صِحَّتِهِ ، وَالرَّشِيدُ : الرَّاسِخُ فِي هِدَايَتِهِ وَهَدْيِهِ ، فَلَا يَأْمُرُ إِلَّا بِمَا اسْتَبَانَ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالرُّشْدِ ، وَوَصَفُوهُ بِهِمَا وَصْفًا مُؤَكَّدًا بِالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ وَ " إِنَّ " وَ " اللَّامِ " فِي تَعْلِيلِ إِنْكَارِهِمْ لِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ وَمَا نَهَاهُمْ عَنْهُ ، كِلَاهُمَا صَرِيحٌ فِي الِاسْتِهْزَاءِ بِهِ ، وَالتَّعْرِيضِ بِمَا يَعْتَقِدُونَ مِنَ اتِّصَافِهِ بِضِدِّهِمَا ، وَهُوَ الْجَهَالَةُ وَالسَّفَهُ فِي الرَّأْيِ ، وَالْغَوَايَةُ فِي الْفِعْلِ بِهَوَسِ الصَّلَاةِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - : يَقُولُونَ : إِنَّكَ لَسْتَ بِحَلِيمٍ وَلَا رَشِيدٍ . - قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي - أَيْ : يَا قَوْمِيَ الَّذِينَ أَنَا مِنْهُمْ وَهُمْ مِنِّي ، وَأُحِبُّ لَهُمْ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي ، أَخْبِرُونِي عَنْ شَأْنِي وَشَأْنِكُمْ ، إِنْ كُنْتُ عَلَى حُجَّةٍ وَاضِحَةٍ مِنْ رَبِّي فِيمَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ

فَكَانَ وَحْيًا مِنْهُ لَا رَأْيًا مِنِّي - وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا - فِي كَثْرَتِهِ وَفِي صِفَتِهِ ، وَهُوَ كَسْبُهُ بِالْحَلَالِ بِدُونِ تَطْفِيفٍ مِكْيَالٍ وَلَا مِيزَانٍ ، وَلَا بَخْسٍ لِحَقِّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ، فَأَنَا مُجَرِّبٌ فِي الْكَسْبِ الطَّيِّبِ وَمَا فِيهِ مِنْ خَيْرٍ وَبَرَكَةٍ ، لَا فَقِيرٌ مُعْدِمٌ أَخْتَرِعُ الْآرَاءَ النَّظَرِيَّةَ فِيمَا لَيْسَ لِي خِبْرَةٌ بِهِ ، أَيْ : أَرَأَيْتُمْ وَالْحَالَةُ هَذِهِ ، مَاذَا أَفْعَلُ وَمَاذَا أَقُولُ لَكُمْ غَيْرَ الَّذِي قُلْتُهُ عَنْ نُبُوَّةٍ رَبَّانِيَّةٍ ، وَتَجَارِبِ غِنًى مَالِيَّةٍ ؟ هَلْ يَسَعُنِي الْكِتْمَانُ أَوِ التَّقْصِيرُ فِي الْبَيَانِ ؟ - وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ - أَيْ وَإِنَّنِي عَلَى بَيِّنَتِي وَنِعْمَتِي ، مَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ فِي ذَلِكَ مَائِلًا إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ مُؤْثِرًا لِنَفْسِي عَلَيْكُمْ ، بَلْ أَنَا مُسْتَمْسِكٌ بِهِ قَبْلَكُمْ . وَأَصْلُ الْمُخَالَفَةِ أَنْ يَأْخُذَ كُلُّ وَاحِدٍ طَرِيقًا غَيْرَ طَرِيقِ الْآخَرِ فِي قَوْلِهِ ، أَوْ فِعْلِهِ أَوْ حَالِهِ ، وَأَنْ يُقَالَ : خَالَفَهُ فِي الشَّيْءِ ، فَإِذَا خَالَفَهُ فِيمَا هُوَ مُوَلٍّ عَنْهُ تَارِكٌ لَهُ قِيلَ : خَالَفَهُ إِلَيْهِ ، وَإِذَا خَالَفَهُ فِيمَا هُوَ مُقْبِلٌ عَلَيْهِ ، قِيلَ : خَالَفَهُ عَنْهُ ، وَفِي كُلٍّ مِنْهُمَا تَضْمِينُ الْفِعْلِ مَعْنَى الْمَيْلِ إِلَيْهِ أَوْ عَنْهُ ، أَوِ الرَّغْبَةِ فِيهِ أَوْ عَنْهُ . وَمِنَ الثَّانِي قَوْلُهُ - تَعَالَى - : - فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ

يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ - 24 : 63 أَيْ : يُخَالِفُونَ الرَّسُولَ رَاغِبِينَ عَنْ أَمْرِهِ مَائِلِينَ عَنْهُ - إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ - أَيْ : مَا أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ الْعَامَّ فِيمَا آمُرُ بِهِ وَفِيمَا

(175/384)

أَنْهَى عَنْهُ مَا دُمْتُ أَسْتَطِيعُهُ ; لِأَنَّهُ أَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ ، لَيْسَ لِي هَوًى وَلَا مَنْفَعَةٌ شَخْصِيَّةٌ خَاصَّةٌ بِي فِيهِمَا ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا فَعَلْتُهُ . قَالَ الْقَاضِي الْبَيْضَاوِيُّ : وَلِهَذِهِ الْأَجْوِبَةِ الثَّلَاثَةِ عَلَى هَذَا النَّسَقِ شَأْنٌ ، وَهُوَ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الْعَاقِلَ يَجِبُ أَنْ يُرَاعِيَ فِي كُلِّ مَا يَأْتِيهِ وَيَذَرُهُ أَحَدَ حُقُوقٍ ثَلَاثَةٍ - أَهَمُّهَا وَأَعْلَاهَا حَقُّ اللَّهِ - تَعَالَى - ، وَثَانِيهَا حَقُّ النَّفْسِ ، وَثَالِثُهَا حَقُّ النَّاسِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَقْتَضِي أَنْ آمُرَكُمْ بِمَا أَمَرْتُكُمْ وَأَنْهَاكُمْ عَمَّا نَهَيْتُكُمْ . وَ " مَا " مَصْدَرِيَّةٌ وَاقِعَةٌ مَوْقِعَ الظَّرْفِ ، وَقِيلَ : خَبَرِيَّةٌ بَدَلٌ مِنَ الْإِصْلَاحِ ، أَيِ الْمِقْدَارُ الَّذِي اسْتَطَعْتُهُ أَوْ إِصْلَاحُ مَا اسْتَطَعْتُهُ فَحُذِفَ الْمُضَافُ . انْتَهَى . وَفِي هَذَا إِثْبَاتٌ لِعَقْلِهِ وَرَوِيَّتِهِ وَلِرُشْدِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَهُوَ إِبْطَالٌ لِتَهَكُّمِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ بِلَقَبِ الْحَلِيمِ الرَّشِيدِ ، وَالنَّبِيُّ فَوْقَ ذَلِكَ - وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ - التَّوْفِيقُ ضِدُّ الْخِذْلَانِ ، وَهُوَ الْفَوْزُ وَالْفَلَاحُ فِي إِصَابَةِ الْإِصْلَاحِ وَكُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ وَسَعْيٍ حَسَنٍ ، فَإِنَّ حُصُولَهُ يَتَوَقَّفُ عَلَى التَّوْفِيقِ بَيْنَ شَيْئَيْنِ : أَحَدُهُمَا كَسْبُ

الْعَامِلِ وَطَلَبُهُ الشَّيْءَ مِنْ طَرِيقِهِ ، وَثَانِيهِمَا مُوَافَقَةُ الْأَسْبَابِ الْكَوْنِيَّةِ وَالْخَارِجِيَّةِ الَّتِي يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا النَّجَاحُ فِي كَسْبِهِ وَسَعْيِهِ ، وَتَسْخِيرُهَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ اللهِ وَحْدَهُ . وَالْمَعْنَى : وَمَا تَوْفِيقِي لِإِصَابَةِ ذَلِكَ فِيمَا

أَسْتَطِيعُهُ مِنْهُ إِلَّا بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ ، وَفَضْلِهِ وَمَعُونَتِهِ ، وَأَعْلَاهَا مَا خَصَّنِي بِهِ دُونَكُمْ مِنْ نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ - عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ - فِي أَدَاءِ مَا كَلَّفَنِي مِنْ تَبْلِيغِكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ، لَا عَلَى حَوْلِي وَقُوَّتِي - وَإِلَيْهِ أُنِيبُ - أَيْ وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ أَرْجِعُ فِي كُلِّ مَا نَابَنِي مِنَ الْأُمُورِ فِي الدُّنْيَا ، وَإِلَى الْجَزَاءِ عَلَى أَعْمَالِي فِي الْآخِرَةِ ، فَأَنَا لَا أَرْجُو مِنْكُمْ أَجْرًا ، وَلَا أَخَافُ مِنْكُمْ ضَرًّا .

- وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ - وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ يُجْرِمَنَّكُمْ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَكَسْرِ الرَّاءِ مِنْ جُرْمِ الذَّنْبِ وَالْمَالِ بِمَعْنَى كَسْبِهِ ، وَابْنُ كَثِيرٍ بِضَمِّهَا مِنْ أَجْرَمْتُهُ الذَّنْبَ إِذَا جَعَلْتُهُ جَارِمًا لَهُ . فَجَرَمَهُ وَأَجْرَمَهُ

كَكَسَبَهُ هُوَ وَكَسَّبَهُ إِيَّاهُ غَيْرُهُ ، يَتَعَدَّى الثُّلَاثِيُّ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا بِنَفْسِهِ إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ وَإِلَى مَفْعُولَيْنِ كَالرُّبَاعِيِّ .

وَالشِّقَاقُ : شِدَّةُ الْخِلَافِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ أَحَدُ الْمُخْتَلِفَيْنِ فِي شِقٍّ وَجَانِبٍ غَيْرِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْآخَرُ ، أَيْ لَا تَحْمِلَنَّكُمْ وَتَكْسِبَنَّكُمْ مُشَاقَّتُكُمْ وَعَدَاوَتُكُمْ لِي أَنْ تُفْضِيَ بِالْإِصْرَارِ عَلَيْهَا إِلَى إِصَابَتِكُمْ بِمِثْلِ مَا أَصَابَ مُكَذِّبِي الرُّسُلِ قَبْلَكُمْ : قَوْمَ نُوحٍ أَوْ هُودٍ أَوْ صَالِحٍ مِنْ عَذَابِ الْخِزْيِ وَالِاسْتِئْصَالِ – وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ – زَمَانًا وَلَا مَكَانًا وَلَا إِجْرَامًا ، قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : يَجُوزُ أَنْ يَسْتَوِيَ فِي : بَعِيدٍ ، وَقَرِيبٍ ، وَقَلِيلٍ ، وَكَثِيرٍ الْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ لِوُرُودِهَا عَلَى وَزْنِ الْمَصَادِرِ كَالصَّهِيلِ وَالشَّهِيقِ وَنَحْوِهِمَا . وَقُدِّرَ لِبَعِيدٍ قَبْلَ ذَلِكَ مَوْصُوفًا : بِشَيْءٍ بَعِيدٍ ، وَقَدَّرَ غَيْرُهُ : وَمَا إِهْلَاكُ قَوْمِ لُوطٍ . إِلَخْ ، وَيُقَاسُ عَلَيْهِ مِثْلُهُ .

– وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ – أَيِ اطْلُبُوا مِنْهُ الْمَغْفِرَةَ لِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي

بِتَرْكِهِمَا ، ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ كُلَّمَا وَقَعَ مِنْكُمْ مَعْصِيَةٌ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُ هَذَا غَيْرَ مَرَّةٍ – إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ – هَذَا تَعْلِيلٌ لِمَا قَبْلَهُ ، أَيْ : عَظِيمُ الرَّحْمَةِ لِلْمُسْتَغْفِرِينَ التَّائِبِينَ بِمَغْفِرَتِهِ وَعَفْوِهِ ، كَثِيرُ الْمَوَدَّةِ لَهُمْ بِإِحْسَانِهِ وَنِعَمِهِ ، وَالْمَوَدَّةُ فِي اللُّغَةِ عَطْفُ الصِّلَةِ وَالْإِكْرَامِ بِالْفِعْلِ كَمَا يُعْلَمُ

مِنَ اسْتِعْمَالِهَا ، وَتَسَاهَلَ أَوْ غَلَطَ مَنْ فَسَّرَهَا بِالْمَحَبَّةِ ، وَهَذَا وَعْدٌ قُفِّيَ بِهِ عَلَى الْوَعِيدِ الَّذِي قَبْلَهُ ، وَتَرْكُ لَهُمُ الْخِيَارِ فِيمَا يُرَجِّحُونَهُ مِنْهُمَا بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَالْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النَّدَمَ عَلَى فِعْلِ الْفَسَادِ وَالظُّلْمِ بِالتَّوْبَةِ وَاسْتِغْفَارِ الرَّبِّ - تَعَالَى - مِنْ أَسْبَابِ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا تَقَدَّمَ نَظِيرُهُ مُكَرَّرًا فِي هَذِهِ السُّورَةِ ، وَكَذَلِكَ يَقْتَضِيَانِ فِعْلَ الْعَدْلِ وَالصَّلَاحِ اللَّذَيْنِ هُمَا سَبَبُ الْعُمْرَانِ وَالْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا ، وَمَغْفِرَةِ اللهِ وَمَثُوبَتِهِ فِي الْآخِرَةِ ، وَقَدْ عَبَّرَ عَنْهُمَا هُنَا بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِمَا مِنْ صِفَاتِهِ - تَعَالَى - وَهِيَ الرَّحْمَةُ وَالْمَوَدَّةُ ، وَارْجِعْ إِلَى مَا عَبَّرَ بِهِ عَنْ فَائِدَةِ الِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ و52 و61 وَتَأَمَّلْ هَذِهِ الْبَلَاغَةَ وَالتَّفَنُّنَ فِي بَيَانِ الْمَعْنَى الْوَاحِدِ .

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (91) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ

جَاثِمِينَ (94) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (95) .

هَذِهِ الْآيَاتُ الْخَمْسُ فِي بَيَانِ تَحَوُّلِ قَوْمِ شُعَيْبٍ عَنْ مُجَادَلَتِهِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَى الْإِهَانَةِ وَالتَّهْدِيدِ ، وَمُقَابَلَتِهِ إِيَّاهُمْ بِالْإِنْذَارِ بِقُرْبِ الْوَعِيدِ ، وَنُزُولِ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ، وَوُقُوعِ ذَلِكَ بِالْفِعْلِ الْعَتِيدِ .

–

(180/384)

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ – حَقَّقْنَا فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (7 : 179) أَنَّ الْفِقْهَ فِي اللُّغَةِ أَخَصُّ مِنَ الْفَهْمِ وَالْعِلْمِ ، وَهُوَ الْفَهْمُ الدَّقِيقُ الْعَمِيقُ الْمُؤَثِّرُ فِي النَّفْسِ الْبَاعِثُ عَلَى الْعَمَلِ ، أَيْ : مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَرْمِي مِمَّا وَرَاءَ ظَوَاهِرِ أَقْوَالِكَ مِنْ بَوَاطِنِهَا وَتَأْوِيلِهَا ؛ كَبُطْلَانِ عِبَادَةِ آلِهَتِنَا وَقُبْحِ حُرِّيَّةِ التَّصَرُّفِ فِي أَمْوَالِنَا ، وَعَذَابٍ مُحِيطٍ يُبِيدُنَا ، وَإِصَابَتِنَا بِمِثْلِ الْأَحْدَاثِ الْجَوِّيَّةِ الَّتِي نَزَلَتْ بِمَنْ قَبْلَنَا ، كَأَنَّ أَمْرَهَا بِيَدِكَ وَتَصَرُّفِكَ أَوْ تَصَرُّفِ رَبِّكَ ، يُصِيبُ بِهَا مَنْ تَشَاءُ أَوْ يَشَاءُ لِأَجْلِكَ ، – وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا – لَا حَوْلَ لَكَ وَلَا قُوَّةَ تَمْتَنِعُ بِهَا مِنَّا إِنْ أَرَدْنَا أَنْ نَبْطِشَ

بِكَ ، وَأَنْتَ عَلَى ضَعْفِكَ تُنْذِرُنَا الْعَذَابَ الْمُحِيطَ الَّذِي لَا يَفْلِتُ مِنْهُ أَحَدٌ – وَلَوْلَا رَهْطُكَ

- أَيْ: عَشِيرَتُكَ الْأَقْرَبُونَ - وَالرَّهْطُ: الْجَمَاعَةُ مِنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى السَّبْعَةِ أَوِ الْعَشَرَةِ - لَرَجَمْنَاكَ - لَقَتَلْنَاكَ شَرَّ قِتْلَةٍ، وَهِيَ الرَّمْيُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى تُدْفَنَ فِيهَا - وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ - أَيْ بِذِي عِزَّةٍ وَمَنَعَةٍ عَلَيْنَا تَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ رَجْمِكَ، وَإِنَّمَا نُعِزُّ رَهْطَكَ وَنُكْرِمُهُمْ عَلَى قِلَّتِهِمْ لِأَنَّهُمْ مِنَّا وَعَلَى دِينِنَا الَّذِي نَبَذْتَهُ وَرَاءَ ظَهْرِكَ، وَأَهَنْتَهُ وَدَعَوْتَنَا إِلَى تَرْكِهِ لِبُطْلَانِهِ وَفَسَادِهِ فِي زَعْمِكَ.

- قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ - هَذَا اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ، أَيْ: أَرَهْطِي أَعَزُّ وَأَكْرَمُ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ بِأَمْرِهِ - وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا - أَيْ أَشْرَكْتُمْ بِهِ وَجَعَلْتُمُوهُ كَالشَّيْءِ اللَّقَا الَّذِي يُنْبَذُ وَرَاءَ الظَّهْرِ لِهَوَانِهِ عَلَى نَابِذِهِ وَعَدَمِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ، فَيُنْسَى حَتَّى لَا يُحْسَبَ لَهُ حِسَابٌ. تَقُولُ الْعَرَبُ: جَعَلَهُ بِظَهْرٍ وَظِهْرِيًّا وَاتَّخَذَهُ ظِهْرِيًّا بِالْكَسْرِ وَالتَّشْدِيدِ، أَيْ نَسِيًّا مَنْسِيًّا لَا يُذْكَرُ كَأَنَّهُ غَيْرُ مَوْجُودٍ، وَكَسْرُ الظَّاءِ مِنْ تَصَرُّفِهِمْ فِي النَّسَبِ، وَكَانَ الْقَوْمُ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَيُشْرِكُونَ بِهِ، وَلَا عَجَبَ مِنْ حَالِهِمْ هَذِهِ فَإِنَّهُ شَأْنُ أَكْثَرِ النَّاسِ الْيَوْمَ، لَا يُرَاقِبُونَ اللهَ فِي أَقْوَالِهِمْ وَلَا فِي أَعْمَالِهِمْ فَيَرْجُوهُ إِذَا أَحْسَنُوا، وَيَخَافُوهُ إِذَا أَسَاءُوا، أَوْ فَيَمْتَنِعُوا عَنِ الْإِسَاءَةِ وَيَتَسَابَقُوا إِلَى الْإِحْسَانِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ - إِنَّ رَبِّي بِمَا

تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ - عِلْمًا فَهُوَ يُحْصِيهِ عَلَيْكُمْ وَيَجْزِيكُمْ بِهِ ، وَأَمَّا رَهْطِي فَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا .

(182/384)

- وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ - هَذَا أَمْرُ تَهْدِيدٍ وَوَعِيدٍ مِنْ وَاثِقٍ بِقُوَّتِهِ بِرَبِّهِ ، عَلَى انْفِرَادِهِ فِي شَخْصِهِ ، وَضَعْفِ قَوْمِهِ عَلَى كَثْرَتِهِمْ ، وَإِدْلَالِهِمْ عَلَيْهِ وَتَهْدِيدِهِمْ لَهُ بِقُوَّتِهِمْ ، أَيِ اعْمَلُوا مَا اسْتَطَعْتُمْ عَلَى مُنْتَهَى تَمَكُّنِكُمْ فِي قُوَّتِكُمْ وَعَصَبِيَّتِكُمْ (مِنْ مَكُنَ مَكَانَةً كَضَخُمَ ضَخَامَةً - إِذَا تَمَكَّنَ كُلَّ التَّمَكُّنِ مِمَّا هُوَ فِيهِ وَبِصَدَدِهِ) أَوْ عَلَى مَكَانِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ ، إِذْ يُقَالُ : مَكَانٌ وَمَكَانَةٌ (كَمَقَامٍ وَمَقَامَةٍ) - إِنِّي عَامِلٌ - عَلَى مَكَانَتِي الَّتِي أَعْطَانِيهَا أَوْ وَهَبَنِيهَا رَبِّي مِنْ دَعْوَتِكُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَأَمْرِكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ - سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ - هَذَا

تَصْرِيحٌ بِالْوَعِيدِ بَعْدَ التَّلْمِيحِ لَهُ بِالْأَمْرِ بِالْعَمَلِ الْمُسْتَطَاعِ لِلتَّعْجِيزِ ،

وَهُوَ جَوَابُ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ ; وَلِذَلِكَ لَمْ يُقْرَنْ بِالْفَاءِ كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ : قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ 6 : 135 إِذِ الْمُرَادُ هُنَالِكَ أَنَّ مَا قَبْلَ " سَوْفَ " سَبَبٌ لِمَا بَعْدَهَا ، وَقَطْعُهَا هُنَا

أَشَدُّ مُبَالَغَةً فِي الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ ; لِاقْتِضَاءِ تَهْدِيدِ الْكُفَّارِ إِيَّاهُ بِالرَّجْمِ ، أَنْ يُبَالِغَ فِي تَهْدِيدِهِمْ وَإِظْهَارِ عِزَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ بِالْحَقِّ .

وَتَقْدِيرُهُمَا : فَإِنْ قُلْتُمْ : مَاذَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِكَ ؟ أَقُلْ لَكُمْ : - سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ - وَيُذِلُّهُ . أَنَا أَمْ أَنْتُمْ ، - وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ - فِي قَوْلِهِ وَمَنْ هُوَ صَادِقٌ مِنِّي وَمِنْكُمْ ؟ وَقَدْ كَانُوا أَنْذَرُوهُ غَيْرَ الرَّجْمِ الَّذِي وُجِدَ الْمَانِعُ مِنْهُ : أَنْذَرُوهُ إِنْذَارًا مُؤَكَّدًا بِالْقَسَمِ مَا حَكَاهُ اللهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ : - قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا - 7 : 88 إِلَخْ . فَهُوَ يُعَرِّضُ بِكَذِبِهِمْ فِي كُلِّ مَا صَدَرَ عَنْهُمْ مِمَّا حَكَاهُ اللهُ عَنْهُمْ هُنَا وَهُنَاكَ ، مُوقِنًا بِوُقُوعِ مَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ ، وَهُوَ بُرْهَانٌ عَلَى أَنَّهُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنَ اللهِ بِهِ - وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ - وَانْتَظِرُوا مُرَاقِبِينَ لِمَا سَيَقَعُ إِنِّي مَعَكُمْ مُرَاقِبٌ مُنْتَظِرٌ لَهُ ، رَقِيبٌ هُنَا بِمَعْنَى مُرَاقِبٍ ، كَعَشِيرٍ بِمَعْنَى مُعَاشِرٍ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى فَاعِلٍ .

- وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا - بِعَذَابِهِمُ الَّذِي أَنْذَرُوهُ - نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا - خَاصَّةً بِهِمْ دُونَ أَحَدٍ مِنَ الْقَوْمِ كَمَا تَقَدَّمَ مِثْلُهُ قَرِيبًا - وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ

فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ - أَيْ أَخَذَتْهُمْ صَيْحَةُ الْعَذَابِ الَّتِي أَخَذَتْ ثَمُودَ فَأَصْبَحُوا كُلُّهُمْ مَيِّتِينَ بَارِكِينَ عَلَى رُكَبِهِمْ، مُكَبِّينَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي دِيَارِهِمْ.

(184/384)

- كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا - أَيْ كَأَنَّهُمْ لَمْ يُقِيمُوا فِيهَا وَقْتًا مِنَ الْأَوْقَاتِ - أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ - أَيْ هَلَاكًا لَهُمْ وَبُعْدًا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ كَبُعْدِ الْهَلَاكِ وَاللَّعْنَةِ الَّتِي عُوقِبَتْ بِهَا ثَمُودُ مِنْ قَبْلِهِمْ فَإِنَّهُمَا مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الصَّيْحَةُ كَمَا فِي الْآيَةِ 67 وَسَيَأْتِي مِثْلُهُ فِي سُورَةِ الْحِجْرِ، أَوَّلًا: فِي قَوْمِ لُوطٍ (15: 73) وَذَكَرْنَاهُ فِي قِصَّتِهِمْ هُنَا، وَثَانِيًا: فِي أَصْحَابِ الْحِجْرِ وَهُوَ ثَمُودُ - فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ - 15: 83 وَكَذَا فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ بِدُونِ تَصْرِيحٍ بِاسْمِهِمْ: - فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ -

23: 41 وَفِي سُورَةِ الْقَمَرِ: - إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ - 54: 31 وَتَقَدَّمَ فِي عَذَابِ ثَمُودَ وَمَدْيَنَ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ أَنَّهُمْ " أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ " كَمَا فِي آيَتَيْ (7: 78 و91) وَمِثْلُهُمَا آيَةُ (155) فِي السَّبْعِينَ الْمُخْتَارِينَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى، وَسَيَأْتِي أَيْضًا فِي مَدْيَنَ مِنْ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ: - فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ - 29: 37 إِلَخْ. وَفِي سُورَةِ فُصِّلَتْ: " حم السَّجْدَةِ " فِي ثَمُودَ: - فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ

بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ - 41 : 17 وَفِي سُورَةِ الذَّارِيَاتِ : - فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ - 51 : 44 فَعُلِمَ بِهَذَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالصَّيْحَةِ صَوْتُ الصَّاعِقَةِ ، وَفِي (2 : 55 و 4 : 153) أَنَّ الصَّاعِقَةَ أَخَذَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ قَالُوا لِمُوسَى : أَرِنَا اللَّهَ

(185/384)

جَهْرَةً ، وَلَكِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - أَحْيَاهُمْ عَقِبَهَا : وَالرَّجْفَةُ : هِيَ الْهِزَّةُ وَالِاضْطِرَابَةُ الشَّدِيدَةُ ، وَهِيَ تَصْدُقُ بِاضْطِرَابِ أَبْدَانِهِمْ وَأَفْئِدَتِهِمْ كَأَرْضِهِمْ ، فَالْجَامِعُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - أَرْسَلَ عَلَى كُلٍّ مِنْ ثَمُودَ وَمَدْيَنَ صَاعِقَةً ذَاتَ صَوْتٍ شَدِيدٍ ; فَرُجِفُوا أَوْ رُجِفَتْ أَرْضُهُمْ وَزُلْزِلَتْ مِنْ شِدَّتِهَا وَخَرُّوا مَيِّتِينَ ، فَكَانَتْ صَاعِقَتُهُمْ أَشَدَّ مِنْ صَاعِقَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ; لِأَنَّ هَذِهِ تَرْبِيَةٌ لِقَوْمِ نَبِيٍّ فِي حَضْرَتِهِ ، وَتِلْكَ صَاعِقَةٌ كَانَتْ عَذَابَ خِزْيٍ وَهَوَانٍ لِمُشْرِكِينَ ظَالِمِينَ مُعَانِدِينَ أَنْجَى اللَّهُ نَبِيَّ كُلٍّ مِنْهُمْ وَمُؤْمِنِيهِمْ قَبْلَهَا ، وَأَمَّا قَوْلُ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ الصَّيْحَةَ الَّتِي أَخَذَتْ ثَمُودَ وَمَدْيَنَ كَانَتْ صَيْحَةً مِنْ جِبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، فَهُوَ مِنْ أَخْبَارِ الْغَيْبِ الَّتِي لَا تُقْبَلُ إِلَّا مِنْ نُصُوصِ الْوَحْيِ وَلَا نَصَّ ، فَتَعَيَّنَ أَنَّهُ مِنَ الرَّجْمِ بِالْغَيْبِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا أَسْبَابَ الصَّوَاعِقِ مِرَارًا آخِرُهَا فِي تَحْقِيقِ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَاتِ فِي هَلَاكِ ثَمُودَ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ .

وَمِنْ دَقِيقِ نُكَتِ الْبَلَاغَةِ فِي الْآيَاتِ قَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي إِهْلَاكِ مَدْيَنَ هُنَا : - وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا - إِلَخْ . فَعَطَفَ " لَمَّا " عَلَى مَا قَبْلَهَا بِالْوَاوِ ، وَمِثْلُهُ فِي قَوْمِ هُودٍ ، وَلَكِنَّهُ عَطَفَهَا بِالْفَاءِ فِي قِصَّةِ ثَمُودَ (66) وَقِصَّةِ قَوْمِ لُوطٍ . وَوَجْهُ هَذَا الْأَخِيرِ أَنَّ الْآيَتَيْنِ جَاءَتَا عَقِبَ الْإِنْذَارِ بِالْعَذَابِ وَاسْتِحْقَاقِهِ وَحُلُولِ مَوْعِدِهِ فَعُطِفَتَا بِالْفَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّعْقِيبِ . وَأَمَّا عَطْفُ مِثْلِهِمَا فِي قَوْمِ هُودٍ وَقَوْمِ شُعَيْبٍ فَلَيْسَ كَذَلِكَ ، فَعُطِفَ بِالْوَاوِ عَلَى الْأَصْلِ فِي الْعَطْفِ الْمُطْلَقِ .

أَمَّا الْأَوَّلُ فَظَاهِرٌ لِأَنَّهُ لَيْسَ قَبْلَ الْآيَةِ وَعِيدٌ بِالْعَذَابِ ،

وَأَمَّا الثَّانِي فَفِيهِ وَعِيدٌ مُسَوَّفٌ فِيهِ مَقْرُونٌ بِالِارْتِقَابِ لَا الِاقْتِرَابُ ، فَلَا يُنَاسِبُ الْعَطْفَ عَلَيْهِ الْفَاءُ الَّتِي تُفِيدُ التَّعْقِيبَ بِدُونِ انْفِصَالٍ ، فَهَلْ تُصَادِفُ مِثْلَ هَذِهِ الدَّقَائِقِ اللُّغَوِيَّةِ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ ؟ .

(خَتْمُ قِصَصِ الرُّسُلِ بِآيَاتٍ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ) :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (96) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا

أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98)
وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (99) .

(187/384)

حِكْمَةُ هَذِهِ الْآيَاتِ الْأَرْبَعِ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَعَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، هِيَ الْإِعْلَامُ بِأَنَّ عَاقِبَةَ فِرْعَوْنَ وَأَشْرَافِ قَوْمِهِ اللَّعْنَةُ وَالْهَلَاكُ كَكُفَّارِ أُولَئِكَ الْأَقْوَامِ الظَّالِمِينَ ، وَلَكِنَّ عَذَابَ الْخِزْيِ لَمْ يَشْمَلْ جَمِيعَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ لِمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَمْ نَرَ أَحَدًا سَبَقَنَا إِلَى مِثْلِهِ ، وَلَمَّا كَانَ إِرْسَالُ مُوسَى إِلَى فِرْعَوْنَ لَا يَصِحُّ أَنْ يُعْطَفَ عَلَى إِرْسَالِ شُعَيْبٍ إِلَى مَدْيَنَ لِأَنَّهُ لَا يُشَارِكُهُ فِي نَوْعِهِ الْمُشْتَرَكِ مَعَ إِرْسَالِ صَالِحٍ وَهُودٍ - عُطِفَ عَلَى قَوْلِهِ - وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى - 96 وَقَدْ بَيَّنَّا حِكْمَةَ اخْتِلَافِهِ عَمَّا قَبْلَهُ فَرَاجِعْهُ . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 116.125 ﴾

(188/384)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾

لمّا أرادوا بالكلام الذي وجّهوه إليه تحذيره من الاستمرار على مخالفة دينهم ، أجابهم بما يفيد أنه لم يكن قط معوّلاً على عزة رهطه ولكنّه متوكّل على الله الذي هو أعزّ من كل عزيز ، فالمقصود من الخَبَر لازمه وهو أنّه يعلم مضمون هذا الخبر وليس غافلاً عنه ، أي لقد علمتُ مَا رهطي أغلب لكم من الله فلا أحتاج إلى أن تعاملوني بأنّي غيرُ عزيز عليكم ولا بأنّ قرابتي فئة قليلة لا تعجزكم لو شئتم رجمي .

وإعادة النداء للتّنبيه لكلامه وأنه متبصّر فيه .

والاستفهام إنكاريّ ، أي الله أعز من رهطي ، وهو كناية عن اعتزازه بالله لا برهطه فلا يريبه عدم عزة رهطه عليهم ، وهذا تهديد لهم بأنّ الله ناصره لأنّه أرسله فعزّته بعزّة مُرسله .

وجملة ﴿ واتّخذتموه وراءَكم ظِهرياً ﴾ في موضع الحال من اسم الجلالة ، أي الله أعز في حال أنكم نسيتم ذلك .

والاتّخاذ : الجعل ، وتقدّم في قوله : ﴿ أتتّخذ أصْناما آلهةً ﴾ في سورة [الأنعام : 74] .

والظِهريّ بكسر الظاء نسبة إلى الظهر على غير قياس ، والتغييرات في الكلم لأجل النسبة كثيرة .

والمراد بالظهريّ الكناية عن النسيان ، أو الاستعارة لأن الشيء الموضوع بالوراء ينسى لقلة مشاهدته ، فهو يشبه الشيء المجعول خلف الظهر في ذلك ، فوقَع ﴿ ظهريّاً ﴾ حالاً مؤكّدة للظرف في قوله : ﴿ وراءكم ﴾ إغراقاً في معنى النسيان لأنّهم اشتغلوا بالأصنام عن معرفة الله أو عن ملاحظة صفاته .

وجملة ﴿ إنّ ربي بما تعملون محيط ﴾ استئناف ، أو تعليل لمفهوم جملة ﴿ أرهطي أعز عليكم من الله ﴾ الذي هو توكله عليه واستنصاره به .

والمحيط : الموصوف بأنه فاعل الإحاطة .

وأصل الإحاطة : حصار شيء شيئاً من جميع جهاته مثل إحاطة الظرف بالمظروف والسور بالبلدة والسِوار بالمعصم .

وفي "المقامات الحريرية" :

"وقد أحاطت به أخلاط الزمر ، إحاطة الهالة بالقمر ، والأكمام بالثمر" .

ويطلق مجازاً في قولهم : أحاط علمه بكذا ، وأحاط بكل شيء علماً ، بمعنى علم كل ما يتضمّن أن يعلم في ذلك ، ثم شاع ذلك فحذف التمييز وأسندت الإحاطة إلى العالم بمعنى :

إحاطة علمه، أي شمول علمه لجميع ما يعلم في غرض مّا، قال تعالى: ﴿ وأحاط بما لديهم ﴾ [الجن: 28] أي علمه.

ومنه قوله هنا: ﴿ إنّ ربي بما تعملون محيط ﴾ والمراد إحاطة علمه.

وهذا تعريض بالتهديد، وأنّ الله يوشك أن يعاقبهم على ما علمه من أعمالهم.

﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ﴾

عطف نداء على نداء زيادة في التنبيه، والمقصود عطف ما بعد النداء الثاني على ما بعد النداء الأوّل.

وجملة ﴿ اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون ﴾ تقدّم تفسير نظيرها في سورة الأنعام.

والأمر للتهديد.

والمعنى: اعملوا متمكّنين من مكانتكم، أي حالكم التي أنتم عليها، أي اعملوا ما تحبّون أن تعملوه بي.

وجملة ﴿ إني عامل ﴾ مستأنفة.

ولم يقرن حرف ﴿ سوف ﴾ في هذه الآية بالفاء وقرن في آية سورة الأنعام بالفاء؛ فجملة ﴿ سوف تعلمون ﴾ هنا جعلت مستأنفة استئنافاً بيانيّاً إذ لمّا فاتحهم بالتّهديد كان ذلك ينشىء سؤالاً في نفوسهم عما ينشأ على هذا التّهديد فيجاب بالتهديد بـ ﴿ سوف تعلمون

﴾ .

ولكونه كذلك كان مساوياً للتفريع بالفاء الواقع في آية الأنعام في المآل ، ولكنّه أبلغ في الدّلالة على نشأة مضمون الجملة المستأنفة عن مضمون التي قبلها ؛ ففي خطاب شعيب عليه السّلام قومه من الشدة ما ليس في الخطاب المأمور به النبيءُ صلى الله عليه وسلم في سورة الأنعام جرياً على ما أرسل الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم من اللين لهم ﴿ فبما رحمةٍ من الله لنت لهم ﴾ [آل عمران : 159] .

(190/384)

وكذلك التفاوت بين معمولي ﴿ تعلمون ﴾ فهو هنا غليظ شديد ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ﴾ وهو هنالك لين ﴿ مَن تكون له عاقبة الدّار ﴾ [الأنعام : 135] .

و﴿ من ﴾ استفهام معلق لفعل العلم عن العمل ، أي تعلمون جواب هذا السؤال .

والعذاب : خزي لأنّه إهانة .

والارتقاب : الترقّب ، وهو افتعال من رقبه إذا انتظره .

والرّقيب هنا فعيل بمعنى فاعل ، أي أني معكم راقب ، أي كل يرتقب ما يجازيه الله به إن

كان كاذباً أو مكذّباً .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾

عُطف ﴿ لما جاء أمرنا ﴾ هنا وفي قوله في قصة عاد ﴿ ولّما جاء أمرنا نجينا هوداً ﴾ [هود : 59] بالواو فيهما وعطف نظيراهما في قصة ثمود ﴿ فلمّا جاء أمرنا نجينا صالحاً ﴾ [هود : 66] وفي قصة قوم لوط ﴿ فلمّا جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ﴾ [هود : 82] لأن قصتَيْ ثمود وقوم لوط كان فيهما تعيين أجل العذاب الذي توعّدَ به النبيئان قومَهما ؛ ففي قصة ثمود ﴿ فقال تمتّعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعْدٌ غير مكذوبٍ ﴾ [هود : 65] ، وفي قصة قوم لوط ﴿ إن موعدهم الصّبح أليس الصّبح بقريب ﴾ [هود : 81] ؛ فكان المقام مقتضياً ترقب السّامع لما حل بهم عند ذلك الموعد فكان الموقع للفاء لتفريع ما حلّ بهم على الوعيد به .

وليس في قصة عاد وقصة مدين تعيين لموعد العذاب ولكنّ الوعيد فيهما مجمل من قوله : ﴿ ويستخلف ربّي قوماً غيركم ﴾ [هود : 57] ، وقوله : ﴿ وارتقبوا إنّي معكم رقيب ﴾ [هود : 9] .

وتقدم القول في معنى ﴿ جاء أمرنا ﴾ إلى قوله : ﴿ ألاَ بُعْداً لمدين ﴾ في قصة ثمود .

وتقدم الكلام على ﴿ بُعْداً ﴾ في قصة نوح في قوله : ﴿ وقيل بُعداً للقوم الظالمين ﴾ [هود

: 44].

وأما قوله: ﴿ كما بَعدت ثمود ﴾ فهو تشبيه البعد الذي هو انقراض مدين بانقراض ثمود .

(191/384)

ووجه الشبه التّماثل في سبب عقابهم بالاستئصال ، وهو عذاب الصيحة ، ويجوز أن يكون المقصود من التّشبيه الاستطراد بذمّ ثمود لأنهم كانوا أشدّ جرأة في مناواة رسل الله ، فلمّا تهيأ المقام لاختتام الكلام في قصص الأمم البائدة ناسب أن يعاد ذكر أشدّها كفراً وعناداً فَشُبّهَ هلك مدين بهلكهم .

والاستطراد فَنّ من البديع .

ومنه قول حسّان في الاستطراد بالهجاء بالحارث أخي أبي جهل:

إن كنت كاذبة الذي حدثتني . . .

فنجوت منجَى الحارث بن هشام

ترك الأحبّة أن يقاتل دُونهم . . .

ونَجا برأس طمرّة ولجام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(192/384)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾

وهنا يتساءل شعيب عليه السلام باستنكار : أوضعتم رهطي في كفة ؛ ومعزَّة الله تعالى في كفة ؟ وغلَّبتم خوفكم من رهطي على خوفكم من الله ؟ ! ولم يأبه شعيب عليه السلام باعتزازهم برهطه أمام اعتزازه بربه ؛ لأنه أعلن من قبل توكله على الله ؛ ولأنه يعلم أن العزة لله تعالى أولاً وأخيراً .

ولم يكتفوا بذلك الاعتزاز بالرهط عن الاعتزاز بالله ؛ بل طرحوا التفكير في الإيمان بالله وراء ظهورهم ؛ لأن شعيباً عليه السلام يقول لهم :

﴿ واتخذتموه وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ [هود : 92] .

أي : لم يجعلوا الله سبحانه أمامهم ، فلم يأبهوا بعزة الله ؛ ولا بحماية الله ؛ وجعلوا لبعض خلقه معزَّة فوق معزَّة الله .

ولم يقل : (ظِهْرِيًّا) نسبة إلى (الظهر) ، فعندما ننسب تحدث تغييرات ، فعندما ننسب إلى اليمن نقول : يمنيّ . ونقول : يمانيّ ، فالنسب هنا إلى الظهري ، وهي المنسي والمتروك ، فأنت ساعة تقول : أنت طرحت فلاناً وراء ظهرك ، يعني جعلته بعيداً عن الصورة بالنسبة للأحداث ، ولم تحسب له حساباً . إذن : فهناك تغييرات تحدث في باب النسب .

ويذكِّرهم شعيب عليه السلام بقوله :

﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [هود : 92] .

أي : أن كل ما تقولونه أو تفعلونه محسوب عليكم ؛ لأن الحق سبحانه لا تخفَى عليه خافية ،

وقد سبق أن عرفنا أن القول يدخل في نطاق العمل ؛ فكلُّ حدث يقال لهم : " عمل " ؛

وعمل اللسان هو القول ؛ وعمل بقية الجوارح هو الأفعال .

وقد شرَّف الحق سبحانه القول لأنه وسيلة الإعلام الأولى عنه سبحانه .

يقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما جاء على لسان شعيب عليه السلام :

﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾

إذن : فشعيب عليه السلام عنده القضية المخالفة ؛ لأن الله تعالى عنده أعزُّ من رهطه ؛

وباعتزازه بربه قد آوى إلى ركن شديد ، وبهذا الإيمان يعلن لهم : افعلوا ما في وُسْعكم ، وما

في مُكْنتكم هو ما في مُكْنة البشر ، وسأعمل ما في مُكْنتي ، ولست وحدي ، بل معي الله

سبحانه وتعالى ؛ ولن تتسامى قوتكم الحادثة على قدرة الله المطلقة .

ومهما فعلتم لمعارضة هذا الإصلاح الذي أدعوكم إليه ؛ فلن يخذلني الذي أرسلني ؛ وما

دمتم تريدون الوقوف في نفس موقف الأمم السابقة التي تصدت لموجات الإصلاح السماوية ؛ فهزمهم الله سبحانه بالصيحة ، وبالرجفة ، وبالريح الصرصر ، وبالقذف بأي شيء من هذه الأشياء ، وقال لهم : اعملوا على مكانتكم ، وإياكم أن تتوهموا أني أتودد إليكم ؛ فأنا على بينة من ربي ، ولكني أحب الخير لكم ، وأريد لكم الإصلاح .

ولم يَقُلْ شعيب عليه السلام هذا القول عن ضعف ، ولكن قاله ردًّا على قولهم :

﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ [هود : 91] .

وأبرز لهم مكانته المستمدة من قوة مَنْ أرسله سبحانه وتعالى ، وقال :

﴿ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ [هود : 93] .

وهكذا أوضح لهم : أنا لن أقف مكتوف الأيدي ، لأني سأعمل على مكانتي ، و ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وارتقبوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود : 93] .

أي : أن المستقبل سوف يبيّن مَنْ مِنَّا على الحق ومَنْ مِنَّا على الضلال ، ولم سيكون النصر والغلبة ، ومن الذي يأتيه الخزي ؛ أي : أن يشعر باحتقار نفسه وهوانها ؛ ويعاني من الفضيحة أمام الخلق ؛ ومَنْ مِنَّا الكاذب ، ومَنْ على الحق .

وكان لا بد أن تأتي الآية التالية : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً والذين آمَنُواْ مَعَهُ ﴾

ونلحظ أن الحق سبحانه قد أورد في هذه السورة : أسلوبين منطوقين أحدهما بالواو ، والآخر بالفاء .

الأول : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ [هود : 94] ، في قصة اثنين آخرين من الرسل .

الثاني : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ [هود : 66] .

في قصة اثنين من الرسل .

وقصة شعيب هي إحدى القصتين اللتين جاء فيهما ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ ولم يأت ب " الفاء " لأنها كما نعلم تقتضي التعقيب بسرعة ، وبدون مسافة زمنية ؛ وتسمى في اللغة " فاء التعقيب " ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ [عبس : 21] .

أما " ثم " فتأتي لتعقيب مختلف ؛ وهو التعقيب بعد مسافة زمنية ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ ﴾ [عبس : 22] .

وقد جاءت " الفاء " مرة في قصة قوم لوط ؛ لأن الحق سبحانه قد حدد الموعد الذي ينزل فيه العذاب ، وقال :

﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ ﴾ [هود : 81] .

فكان لا بد أن تسبق "الفاء" هذا الحديث عن عذابهم، فقال:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴾ [هود: 82].

أما هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها، فقد قال الحق سبحانه:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً والذين آمَنُواْ مَعَهُ ﴾ [هود: 94].

ولم يذكر وعداً ولم يحدد موعد العذاب.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ [هود: 94].

وكل أمر يقتضي آمراً؛ ويقتضي مأموراً؛ ويقتضي مأموراً به.

والآمر هنا هو الله سبحانه؛ وهو القادر على إنفاذ ما يأمر به، ولا يجرؤ مأمور ما على مخالفة ما يأمر به الحق سبحانه؛ فالكون كله يأتمر بأمر خالقه.

إذن: فحين يخبرنا الحق سبحانه وتعالى أن العذاب قد جاء لقوم؛ فمعنى ذلك أن الأمر قد صدر؛ ولم يتخلف العذاب عن المجيء؛ لأن التخلف إنما ينشأ من مجازفة أمر لمأمور قد لا

يطيعه ، ولا يجرؤ العذاب على المخالفة لأنه مُسخَّر ، لا اختيار له .

والقائل هنا هو الله سبحانه صاحب الأمر الكوني والأمر التشريعي ؛ فإذا قال الحق سبحانه حكماً من الأحكام وسجله في القرآن ؛ فتيقن من أنه حادث لا محالة ؛ لأن القضية الكونية هي من الحق سبحانه وتعالى ، ولا تتخلف أو تختلف مع مشيئته سبحانه ، والحكم التشريعي يسعد به مَنْ يُطبِّقه ؛ ويشقى من يخالفه .

والحق سبحانه يعطينا مثالاً لهذا في قصة أم موسى . . يقول جَلَّ شأنه :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم ﴾ [القصص : 7] .

فمنطق البشر يقول : كيف نقول لامرأة : إذا خِفْتِ على ابنك ألقيه في البحر ؟ كيف ننجيه من موت مظنون إلى موت محقق ؟

هذا وإن كان مخالفاً لسنن العادة إلا أن أم موسى سارعت لتنفيذ أمر الله سبحانه ؛ لأن أوامر الله بالإلهام للمقربين ، لا يأتي لها معارض في الذهن .

والحق سبحانه كما أمرها بإلقاء وليدها في اليم ، فقال :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إلى أُمِّكَ مَا يوحى * أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم ﴾ [طه : 3839] .

كذلك أمر الحق سبحانه وتعالى اليمَّ بإلقاء التابوت ، وفي داخله موسى للساحل ، ولذلك

فيقين أم موسى في أن أوامر الله لا تتخلف ، جعلها تسارع في تنفيذ ما أمرها الله به .

والحق سبحانه يريد أن يُربّبَ الإيمان ، أي : يزيده في قلوب عباده ، فَهَبْ أن الله قضى بقضية أو أمر بأمر ، ثم لم يأت الكون على وفق ما أمر الله ، فماذا يكون موقف الناس ؟

فما دام رب العزة سبحانه قد قال فلا بد أن يحدث ما أمر به ، فعندما يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 173] .

فلا بد أن تكون الغلبة لجنود الله ، فإذا ما غُلبوا فافهموا أن شرط الجندية لله قد تخلَّف ، وأن عنصراً من عناصر الجندية قد تخلف وهو الطاعة .

ومثال هذا : الذين خالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في البقاء على الجبل يوم أحد ، إنهم خالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فماذا يحدث لو أنهم انتصروا مع هذه المخالفة ؟

إذن : فقد انهزم المسلمون الذين اختلت فيهم صفة من صفات جنديتهم لله .

ولا بد أن تلتقي القضيتان : القرآنية والكونية ؛ لأن قائل القرآن هو صاحب سنن الكون سبحانه وتعالى .

ولأن أهل مدين هنا قد أعلنوا الكفر ؛ فلا بد أن يأتيهم العذاب .

وسمّى الحق سبحانه هنا العذاب بالصيحة ؛ وقال :

﴿ وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [هود : 94] .

وسمّى الحق سبحانه في سورة الأعراف العذاب الذي لحق بهم : " الرجفة " ؛ فقال :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف : 91] .

وسماه في قصة قوم عاد :

﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 6] .

وسمّاه بالخسف في عذاب قارون .

ومن عظمة التوجيه الإلهي أن العذاب كان ينتقي القوم الكافرين فقط ؛ ولا يصيب الذين آمنوا ، بدليل قول الحق سبحانه :

﴿ نَجَّيْنَا شُعَيْباً والذين آمَنُواْ مَعَهُ ﴾ [هود : 94] .

ولا يقدر على ذلك إلا إله قادر مقتدر ؛ يُصرِّف الأمور كما يشاء سبحانه .

وكلمة " نجينا " : من النجاة ؛ أي : أن يوجد بنجوة ؛ وهي المكان العالي ، والعرب قد عرفوا مبكراً طغيان الماء ؛ فقد كانوا يقيمون في اليمن ثم بعثرهم السيل مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ : 1516] .

هكذا تفرق العرب من اليمن ؛ وانتشروا في الجزيرة العربية ، وكانوا يخافون من الماء رغم أنه سر الحياة ؛ وفضَّلوا التعب في البحث عن الماء للشرب لهم ولأنعامهم ؛ بدلاً من الوجود بجانب الماء ، ومن عداوة الماء جاءت كلمة " نجا " أي : صعد إلى مكان مرتفع .

واستخدمت كلمة " نجا " في كل موقف ينجو فيه الإنسان من الخطر الداهم ، فيقال : " نجا من النار " ؛ " ونجا من العدو " ؛ " ونجا من الحيوان المفترس " ؛ وكلها مأخوذة من النجوة ، أي : المكان المرتفع . ويقال في الفعل (نجا) : نجا فلان ، إذا كانت قوته تسعفه ليخلص نفسه من العذاب .

أما إذا كانت قوته غير قادرة على تخليصه من العذاب ، فهو يحتاج إلى مَنْ يُنجيه ، ويُقال : " أنجاه " ، إذا كانت المسألة تحتاج إلى جهد ومعالجة صعبة ليتحقق الفوز .

ونسب الفعل فيها إلى الله ؛ فقال " نجينا " .

ويأتي الحق سبحانه في مثل هذا الأمر بضمير الجمع ، كقوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر : 1] .

فكل شيء فيه فعل من الحق سبحانه وتعالى يأتي الله فيه بضمير الجمع : إنَّا .

أما إذا كان الشيء متعلقاً بصفة من صفات الذات الإلهية ، فإن الحق سبحانه يأتي بضمير الإفراد (أنا) مثل قوله تعالى :

﴿ إنني أَنَا الله ﴾ [طه : 14] .

وقد أنجى الحق سبحانه شعيباً والذين آمنوا معه ؛ لأن شعيباً عليه السلام قال لقومه :

﴿ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ [هود : 93] .

(198/384)

وكان عمل شعيب عليه السلام فيه صحة وعزيمة التوكل ؛ لذلك أنجاه الله تعالى والذين آمنوا معه ، فهو سبحانه لا يريد من عباده إلا التوجه بالنية الخالصة الصادقة إليه ، فإذا توجَّه العبد بالنية الصادقة إلى الله ، فالحق سبحانه يريح العبد ، ويُعينه بالاطمئنان على أداء أي عمل .

ومجرد الإيمان بالله تعالى والاتجاه إليه بصدق وإخلاص ؛ يفتح أمام العبد آفاقاً من النجاح والرفعة . . والمفتاح في يد العبد ؛ لأن الحق سبحانه قد قال في الحديث القدسي :

" من ذكرني في نفسه ذكرته في ملأ خير منه " .

إذن : فالمفتاح في يد العبد .

والحق سبحانه هو القائل :

" ومن تقرَّب إليَّ شبراً تقرَّبتُ إليه ذراعاً " .

وهكذا يترك الحق سبحانه أمر التقرب إليه للعبد ، وعندما يتقرب العبد من الله تعالى ، فإنه سبحانه يتقرَّب إلى العبد أكثر وأكثر .

ثم يقول الحق سبحانه في حديثه القدسي :

" ومن جاءني يمشي أتيته هرولة " لأن المشي قد يُتعب العبد ، لكن لا شيء يُتعب الحق سبحانه أبداً ؛ لأنه مُنزَّه عن ذلك .

إذن : فالحق سبحانه يريد منا أن نُخلص النية في الالتحام بمعية الله تعالى ، ليضفي علينا ربنا سبحانه من صفات جلاله وصفات جماله .

وانظروا إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه في الغار . . يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾

[التوبة : 40] .

أي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى صاحبه عن الحزن بعلة معية الله سبحانه وتعالى ، ولا بد أن أبا بكر الصديق قد قال كلاماً يفيد الحزن ؛ لأن الحزن لم يأت له من تلقاء

نفسه ، بل من قانونٍ كوني ، حين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا " لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتكلم عن القانون الكوني ، لكنه يتكلم عن طلاقة قدرة المكوِّن سبحانه ، فقال : " ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ " .

(199/384)

فمعية الله أضفت عليهما شيئاً من جلاله وجماله ، والله سبحانه لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

وقد أنجى الحق سبحانه شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منه سبحانه ، والرحمة ألا يصيبك شيء .

ومثال ذلك : إن الإنسان يعالج فيشفى ، ومرة أخرى يحميه الله من الداء .

ولذلك انتبهوا إلى حقيقة أن القرآن قد جاء بأمرين : شفاء ، ورحمة ، فإذا كان هناك داء وترجعه إلى منهج الله ؛ فالحق سبحانه يشفيه ، والرحمة ألا يصيبك الداء من البداية .

وأما الذين ظلموا فقد أخذتهم الصيحة ، وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة ﴾ [هود : 67] .

وفي هذه الآية يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ ﴾ [هود : 94] .

لأن القرآن على جمهرته جاء على لغة قريش ، لا ليُعْلي قريشاً ؛ ولكن لأن لغة قريش كانت مُصفَّاة من جميع القبائل العربية ، فهي تملك صفوة لغة كل القبائل ، ولكن لم يكن ذلك يعني أن نطمس بقية القبائل .

ولذلك جاء في القرآن بعض من لغات القبائل الأخرى ، حتى لا يعطي لقريش سيادة في الإسلام كما كان لها سيادة في الجاهلية ، لذلك يأتي بلغات القبائل الأخرى ، فمرة ياتي بتاء التأنيث ومرة لا يأتي بها .

والتأنيث إما أن يكون حقيقياً أو مجازياً . والتأنيث الحقيقي هو المقابل للمذكر ، مثل : المرأة . والتأنيث المجازي مثل : " الصيحة " و " الحجرة " . وكانت القبائل العربية تتجاوز في المؤنث المجازي ؛ فمرة تأتي " التاء " ومرة لا تأتي .

وإن كان هناك فَصْل بين الفعل والفاعل ، فالفاصل قائم مقام التأنيث فيقول سبحانه :

﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة ﴾ [هود : 67] .

فكأن الصيحة لها مقدرة على أن تأخذ بما أودعه فيها مُرسِل الصيحة من قوة الأخذ ، وأخذه أليم شديد .

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [هود : 94] .

ونلحظ أن كل عذاب إنما يحدد له الحق سبحانه موعداً هو الصبح ، مثل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ ﴾ [هود : 81] .

ومثل قوله الحق :

﴿ فَسَآءَ صَبَاحُ المنذرين ﴾ [الصافات : 177] .

والصبح هو وقت الهجمة على الغافل الذي لم يغادره النوم بعد ، مثل زُوَّار الفجر الذين يقبضون على الناس قبيل النهار .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [هود : 94] .

ولم يقل سبحانه : " فأصبحوا في دارهم جاثمين " ؛ لأن بعضهم قد لا يكون في بيته ، بل في مكان آخر لزيارة أو تجارة .

ومثال ذلك : قصة أبي رغال ، وكان في مكة ، لكن الحجر الذي قتله بإرادة الله سبحانه نزل عليه في البقاع ولم ينزل عليه الحجر في مكة ؛ لأن الله سبحانه قد شاء ألا ينزل عليه الحجر في البيت الحرام ، الآمن ، وكأن الحجر قد تَتَّبعه ، مثلما تتبعت الصيحة الكفار من أهل

مدين .

ونلحظ في الكلمة الأخيرة من هذه الآية الكريمة وهي " جاثمين " أن حرفي " الجيم " و " الثاء " حين يجتمعان معاً بصرف النظر عن الحرف الثالث ، ففيهما شيء من الهلاك ، وشيء من الغنائية . ومعنى " جاثمين " أي : مُلقَون على بطونهم بلا حراك .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ [الجاثية : 28] .

أي : يركع كل مَنْ فيها على ركبتيه . ويقال عن الميت : " الجثة " .

وانظروا إلى عظمة الحق سبحانه حين يجعل الناس تنطق لفظ " الجثة " تعبيراً عن أي " ميت " عظيماً كان أم وضيعاً ، ثم توضع جثته في القبر ، لتحتضنه أمه الأولى ؛ الأرض .

ومن يرغب في تهدئة إنسان ملتاع وغاضب لموت عزيز عليه ، فَلْيَقُلْ له : هل تتحمل جثمانه أسبوعاً ؟ وسوف يجيب : " لا " .

إذن : فبمجرد أن ينزع الله سبحانه السر الذي به كان الإنسان إنساناً ، وهو الروح ، يصبح الإنسان جثة ثم يتخشب ، ثم يَرِمُّ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك وصفاً لمن أخذتهم الصيحة من أهل " مدين " : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾

أي : أن من يمر على أهل " مدين " بعد ذلك كأنهم لم يكن لهم وجود .

والحق سبحانه يقول :

﴿ حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا ﴾ [يونس : 24] .

فالإنسان الذي ارتقى حتى وصل إلى الحضارات المتعددة ، إلى حد أنه قد يطلب القهوة بالضغط على زر آلة ، فإذا شاء الله سبحانه أزال كل ذلك في لمح البصر .

هذه الحياة المرفهة يستمتع فيها الإنسان كمخدوم ، وهي غير الجنة التي ينال فيها الإنسان ما يشتهي بمجرد أن يخطر الأمر بباله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾ [هود : 95] .

ومادة " الغنى " منها : الغناء بكسر الغين وهو ما يغنيه المطربون ، ومنها الغناء بفتح الغين وهو يؤدي إلى الشيء الذي يغنيك عن شيء آخر ، فالغنى بالمال يكتفي عما في أيدي الناس .

وهكذا الغناء ؛ لأن الأذن تسمع كثيراً ، والعين تقرأ كثيراً ، لكن الإنسان لا يردد إلا الكلام

الذي يعجبه ، والملحّن بطريقة تعجبه ؛ فالغناء هو اللحن المستطاب الذي يغنيك عن غيره .

والغَناء ، أي : الإقامة في مكان إقامةً تغنيك عن الذهاب إلى مكان آخر ، وتتوطن في هذا المكان الذي يغنيك عن بقية الأماكن .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾ [هود : 95] .

أي : كأنهم لم يقيموا هنا ، ويستغنوا بهذا المكان عن أي مكان سواه .

ويقول الحق سبحانه في موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ [هود : 100] .

أي : أن الأطلال قائمة بما تحتويه من أحجار ورسوم ، مثل معابد قدماء المصريين ، وأنت حين تزورها لا تجد المعابد كلها سليمة ، بل تجد عموداً منتصباً ، وآخر مُلْقىً على الأرض ، وباباً غير سليم ، ولو كانت كلها حصيداً ؛ لاختفت تماماً ، ولكنها بقايا قائمة ، ومنها ما اندثر .

وهذا يثبت لنا صدق الأداء القرآني بأنه كانت هناك حضارات ، لأنها لو ذهبت كلها ؛ لما عرفنا أن هناك حضارات قد سبقت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود : 95] .

وكلمة " ألا " كما عرفنا من قبل هي " أداة استفتاح " ليلتفت السامع وينصت ، فلا تأخذه غفلة عن الأمر المهم الذي يتكلم به المتكلم ، وليستقبل السامع الكلام كله استقبال المستفيد .

وكلمة " بُعْداً " ليست دعاءً على أهل مدين بالبعد ؛ لأنها هلكت بالفعل ، ومادة كلمة " بُعْداً " هي : " الباء " و " العين " و " الدال " وتستعمل استعمالين : مرة تريد منها الفراق ؛ والفراق بينونة إلى لقاء مظنون ، إما إذا كانت إلى بينونة متيقنة ألا تكون ، ولذلك جاء بعدها :

﴿ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود : 95] .

وهي تدل على أنه بعدٌ لا لقاء بعده إلا حين يجمع الحق سبحانه الناس يوم القيامة .

والشاعر يقول :

يَقُولُون لا تبعدْ وهُمْ يَدفِنُونَني . . . وأينَ مَكَانُ البُعدِ إلا مَكانِيَا

فهذا هو البعد الذي يذهب إليه الإنسان ولا يعود .

ولما خَصَّ الحق سبحانه ثمود بالذكر هنا ، وقد سبق أن قال سبحانه عن أقوام آخرين : " ألا بعداً " ؟

لأن الصيحة قد جاءت لثمود ، وبذلك اتفقوا في طريقة العذاب .

وتنتهي هنا قصة شعيب عليه السلام مع مدين ، ونلحظ أن لها مساساً برسلٍ مثل موسى عليه السلام ، مثلما كان لقوم لوط مساس بإبراهيم عليه السلام .

وهكذا نعلم أن هناك رسلاً قد تعاصرت ، أي : أن كل واحد منهم أرسل إلى بيئة معينة ومكان معين . ولأن المرسل إليهم هم عبيد الله كلهم ؛ لذلك أرسل لكل بيئة رسولاً يناسب منهجه عيوب هذه البيئة .

وإبراهيم عليه السلام هو عم لوط عليه السلام ، وموسى عليه السلام هو صهر شعيب عليه السلام . وقد ذهب موسى إلى أهل مدين قبل أن يرسله الله إلى فرعون .

ونحن نعلم أن الأماكن في الأزمنة القديمة كانت منعزلة ، ويصعب بينها الاتصال ، وكل جماعة تعيش في موقع قد لا يدرون عن بقية المواقع شيئاً ، وكل جماعة قد يختلف داؤها عن الأخرى .

لكن حين أراد الحق سبحانه بعثة محمد صلى الله عليه وسلم كرسولٍ خاتمٍ ، فقد علم الحق سبحانه أزلاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم على ميعاد مع ارتقاء البشرية ، وقد توحدت الداءات .

فما يحدث الآن في أي مكان في العالم ، ينتقل إلينا عبر الأقمار الصناعية في ثوانٍ معدودة ، لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم .

أما تعدد الرسل اللقطات لكل رسول بالقرآن ، فليست تكراراً كما يظن السطحيون ؛ لأن الأصل في القصص القرآني أن الحق سبحانه قد أنزله لتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت الآيات تنزل من السماء الدنيا بالوحي لتناسب الموقف الذي يحتاج فيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تثبيت للفؤاد .

ويبيِّن الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتذكر إخوانه من الرسل وما حدث لهم مع أقوامهم وانتصار الله لهم في النهاية ، وحين أراد الحق سبحانه أن يقص قصة محبوكة جاء بسورة يوسف .

وهكذا فليس في القرآن تكرار ، بل كل لقطة إنما جاءت لتناسب موقعها في تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولنا أن نلحظ أن قصة شعيب عليه السلام مع قومه ، ما كان يجب أن تنتهي إلا بأن تأتي

فيها لقطة من قصة موسى عليه السلام ، وهو صهر شعيب عليه السلام .

والملاحظ أن الحق سبحانه قد ذكر هنا من قصة موسى عليه السلام لقطتين :

اللقطة الأولى : هي الإرسال بالآيات إلى فرعون .

واللقطة الثانية : هي خاتمة فرعون لا مع موسى عليه السلام ، ولكن مع الحق سبحانه يوم القيامة ، يقول تعالى :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار وَبِئْسَ الورد المورود * وَأُتْبِعُواْ فِي هذه لَعْنَةً وَيَوْمَ القيامة بِئْسَ الرفد المرفود ﴾ [هود] .

وكان لشعيب عليه السلام مهمة تثبيت قلب موسى عليه السلام من الهلع ، حين أعلن له أنه خائف من أن يقتله قوم فرعون لأنه قتل رجلاً منهم ، فقال له شعيب عليه السلام ما ذكره الحق سبحانه في قوله :

﴿ نَجَوْتَ مِنَ القوم الظالمين ﴾ [القصص : 25] .

وهكذا ثبّته وهيّأ له حياة يعيش فيها آمناً لمدة ثماني حجج أو أن يتمها عشر حجج ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابنتي هَاتَيْنِ على أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأجلين قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ والله على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص : 2728] .

وهكذا باشر شعيب عليه السلام مهمة في قصة موسى عليه السلام .

ومن هذا ومن ذلك يعطينا الحق سبحانه الدرس بأن الفطرة السليمة لها تقنينات قد تلتقي مع قانون السماء ؛ لأن الحق سبحانه لا يمنع عقول البشر أن تصل إلى الحقيقة ، لكن العقول قد تصل إلى الحقيقة بعد مرارة من التجربة ، مثلما قنَّن الحق سبحانه الطلاق في الإسلام ، ثم أخذت به بلاد أخرى غير مسلمة بعد أن عانت مُرَّ المعاناة .

ومثلما حرَّم الحق سبحانه الخمر ، ثم أثبت العلم مضارها على الصحة ، فهل كنا مطالبين بأن نؤجل حكم الله تعالى إلى أن يهتدي العقل إلى تلك النتائج ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه قد أنزل في القرآن قانون السماء الذي يقي الإنسان شر التجربة ؛ لأن الذي أنزل القرآن سبحانه هو الذي خلقنا وهو مأمون علينا ، وقد أثبتت الأيام صدق

حكم الله تعالى في كل ما قال بدليل أن غير المؤمنين بالقرآن يذهبون إلى ما نزل به القرآن ليطبقوه .

وفي قصة موسى عليه السلام مثل واضح على مشيئة الحق سبحانه ، فها هو فرعون الكافر قد قام بتربية موسى بعد أن التقطه لعله يكون قرة عين له ، رغم أن فرعون كان يُقتّل أطفال تلك الطائفة .

ثم تلحظ أخت موسى أخاها ، ويرد الحق سبحانه موسى عليه السلام إلى أمه .

وقد صوَّر الشاعر هذا الموقف بقوله :

إذا لَمْ تُصادِفْ في بَنِيكَ عِنَايةً . . . مِنَ اللهِ فقدْ كَذَبَ الرَّاجِي وخَابَ المؤَملُ

فَمُوسَى الذي ربَّاهُ جبريل كافرٌ . . . ومُوسَى الذي ربَّاه فِرْعونُ مُرسَلُ

وقد جاءت قصة موسى عليه السلام هنا موجزة ، في البداية وفي النهاية ؛ ليبيّن لنا الحق سبحانه أن لشعيب دوراً مع واحد من أولي العزم من الرسل ، وهو موسى عليه السلام ، وكان مقصود موسى عليه السلام قبل أن يبعث هو ماء مدين ، فحدث ما يمكن أن نجد فيه حلاً لمشاكل الجنسين الرجل والمرأة وهي رأس الحربة التي تُوجَّه إلى المجتمعات الإسلامية ؛ لأن البعض يريد أن تتبذل المرأة في مفاتنها ، لإغواء الشباب في أعز أوقات شراسة المراهقة .

لكن القرآن حَلَّ هذه المسألة في رحلة بسيطة ، ولنقرأ قول الحق سبحانه عن موسى :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ [القصص : 23] .

أي : تمنعان الماشية من الاقتراب من المياه ، وكان هذا المشهد مُلْفتاً لموسى عليه السلام ، وكان من الطبيعي أن يتساءل : ألم تأتيا إلى هنا لتسقيا الماشية ؟ ! وقال القرآن السؤال الطبيعي :

﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ [القصص : 23] .

فتأتيه الإجابة من المرأتين :

(206/384)

﴿ قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص : 23] .

وهكذا نعلم أن خروج المرأة له علة أن الأب شيخ كبير ، وأن خروج المرأتين لم يكن بغرض المزاحمة على الماء ، ولكن بسبب الضرورة ، وانتظرتا إلى أن يسقي الرعاة ، بل ظلَّتا محتجبتين بعيداً ؛ لذلك تقدم موسى عليه السلام ليمارس مهمة الرجل :

﴿ فَسَقَى لَهُمَا ﴾ [القصص : 24] .

وهذه خصوصية المجتمع الإيماني العام ، لا خصوصية قوم ، ولا خصوصية قربى ، ولا

خصوصية أهل ، بل خصوصية المجتمع الإيماني العام .

فساعة يرى الإنسان امرأة قد خرجت إلى العمل ، فيعرف أن هناك ضرورة ألجأتها إلى ذلك ، فيقضي الرجل المسلم لها حاجتها .

وأذكر حين ذهبت إلى مكة في عام 1950م أن نزل صديقي من سيارته أمام باب منزلٍ ، وكان يوجد أمام الباب لوح من الخشب عليه أرغفة من العجين التي لم تخبز بعد ، وذهب به إلى المخبز ، ثم عاد به بعد خبزه إلى نفس الباب . وقال لي : إن هذه هي عادة أهل مكة ، إن وجد إنسان لوحاً من العجين غير المخبوز ؛ فعليه أن يفعل ذلك ؛ لأن وجود هذا اللوح أمام الباب إنما يعني أن الرجل رب البيت غائب .

وهذا كله مأخوذ من كلمة :

﴿ فسقى لَهُمَا ﴾ [القصص : 24] .

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يأمر الجنود أن تدق الأبواب لتسأل أهل البيوت عن حاجاتهم .

والأمر الثالث والمهم هو أن المرأة التي تخرج إلى مهمة عليها ألا تستمرىء ذلك ، بل تأخذها على قدر الضرورة ، فإذا وجدت منفذاً لهذه الضرورة ، فعليها أن تسارع إلى هذا المنفذ ، ولذلك قالت الفتاة لأبيها شعيب :

﴿ يا أبت استأجره إِنَّ خَيْرَ مَنِ استأجرت القوي الأمين ﴾ [القصص: 26] .

وُينهي شعيب عليه السلام هذا الموقف إنهاءً إيمانياً حكيماً حازماً ، فيقول لموسى :

(207/384)

﴿ قَالَ إني أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابنتي هَاتَيْنِ على أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ ﴾ [القصص: 27] .

وهكذا يعلم موسى عليه السلام أن شعيباً لا يُلقي بابنته هكذا دون مهر ، لا . . بل لا بد أن يكون لها مهر ، وأيضاً تصبح أختها محرمة عليه .

وهذه القصة وضعت لنا مبادىء تحل كل المشكلات التي يتشدق بها خصوم الإسلام .

وهنا نحن نجد في الغرب صيحات معاصرة تطالب بأن تقوم المرأة بالبقاء في المنزل لرعاية الأسرة والأولاد ؛ ليس لأن المرأة ناقصة ، ولكن لأن كمال المرأة في أداء أسمى مهمة توكل إليها ، وهي تربية الأبناء .

ونحن نعلم أن طفولة الإنسان هي أطول أعمار الطفولة في كل الكائنات ، والأبناء الذين ينشأون برعاية أم متفرغة يكونون أفضل من غيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (89) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه ﴿ لا يجرمنكم شقاقي ﴾ لا يحملنكم فراقي .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه قال ﴿ شقاقي ﴾ قال : عدواني .

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك رضي الله عنه عن ابن عباس . أن شعيباً قال لقومه : يا قوم اذكروا قوم نوح وعاد وثمود ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ وكان قوم لوط أقربهم إلى شعيب ، وكانوا أقربهم عهداً بالهلاك ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ﴾ لمن تاب إليه من الذنب ﴿ ودود ﴾ يعني يحبه ، ثم يقذف له المحبة في قلوب عباده . فردوا عليه ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ كان أعمى ﴿ ولولا رهطك ﴾ يعني عشيرتك التي أنت بينهم ﴿

لرجمناك ﴾ يعني لقتلناك ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ ﴿ قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله ﴾ قالوا : بل الله . قال فاتخذتم الله وراءكم ﴿ ظهرياً ﴾ يعني تركتم أمره وكذبتم نبيه ، غير أن علم ربي أحاط بكم ، ﴿ إن ربي بما تعملون محيط ﴾ قال ابن عباس : وكان بعد الشرك أعظم ذنوبهم تطفيف المكيال والميزان ، وبخس الناس أشياءهم مع ذنوب كثيرة كانوا يأتونها ، فبدا شعيب فدعاهم إلى عبادة الله وكف الظلم وترك ما سوى ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن خلف بن حوشب قال : هلك قوم شعيب من شعيرة إلى شعيرة ، كانوا يأخذون بالرزينة ويعطون بالخفيفة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي . . . ﴾ الآية . قال : لا يحملنكم عدواتي على أن تمادوا في الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم .

(209/384)

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ قال : إنما كانوا حديثي عهد قريب بعد نوح وثمود .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن أبي ليلى الكندي رضي الله عنه قال : أشرف

عثمان رضي الله عنه على الناس من داره وقد أحاطوا به فقال ﴿ يا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ يا قوم لا تقتلوني ، إنكم إن قتلتموني كنتم هكذا ، وشبك بين أصابعه .

وأخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ قال : كان أعمى ، وإنما عمي من بكائه من حب الله عز وجل .

وأخرج الواحدي وابن عساكر عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" بكى شعيب عليه السلام من حب الله حتى عمي ، فرد الله عليه بصره وأوحى الله إليه : يا شعيب ما هذا البكاء أشوقاً إلى الجنة أم خوفاً من النار ؟ فقال : لا ، ولكن اعتقدت حبك بقلبي ، فإذا نظرت إليك فما أبالي ما الذي تصنع بي ، فأوحى الله إليه : يا شعيب إن يكن ذلك حقاً فهنيأً لك لقائي يا شعيب ، لذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمي " .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه والخطيب وابن عساكر من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ قال : كان ضرير البصر .

وأخرج أبو الشيخ عن سفيان في قوله ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ قال : كان أعمى ، وكان يقال له : خطيب الأنبياء عليهم السلام .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ قال : إنما أنت واحد .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ ولولا رهطك لرجمناك ﴾ قال : لولا أن نتقي قومك ورهطك لرجمناك .

وأخرج سعيد بن منصور عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : لو كان للوط مثل أصحاب شعيب لجاهد بهم قومه .

وأخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . أنه خطب فتلا هذه الآية في شعيب ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ قال : كان مكفوفاً ، فنسبوه إلى الضعف ﴿ ولولا رهطك لرجمناك ﴾ قال علي : فوالله الذي لا إله غيره ما هابوا جلال ربهم ، ما هابوا إلا العشيرة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهرياً ﴾ قال : نبذتم أمره .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهرياً ﴾ قال : قضاء قضى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهرياً ﴾ يقول : لا تخافونه .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهرياً ﴾ قال: جعلتموه خلف ظهوركم، فلم تطيعوه ولم تخافوه.

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهرياً ﴾ قال: تهاونتم به.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد رضي الله عنه ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهرياً ﴾ قال: الظهري الفضل مثل الجمال يحتاج معه إلى إبل ظهري فضل لا يحمل عليها شيئاً إلا أن يحتاج إليها، فيقول: إنما ربكم عندكم هكذا إن احتجتم إليه، فإن لم تحتاجوا فليس بشيء.

انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(211/384)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92) ﴾

قوله تعالى: ﴿ واتخذتموه ﴾: يجوز أن تكونَ المتعدية لاثنين، أولهما الهاء، والثاني " ظِهْرِيًّا ". ويجوز أنْ يكونَ الثاني هو الظرف و" ظِهْرِياً " حالٌ، وأن تكونَ المتعدية لواحد،

فيكون " ظِهْرِيّاً " حالاً فقط . ويجوز في " وراءكم " أن يكونَ ظرفاً للاتخاذ ، وأن يكونَ حالاً مِنْ " ظهريّاً " ، والضمير في " اتخذتموه " يعود على الله ؛ لأنهم يجهلون صفاتِه ، فجعلوه أي : جعلوا أوامره ظِهْرِيّاً ، أي : منبوذةً وراء ظهورهم .

والظِّهْرِيُّ : هو المنسوبُ إلى الظَّهْر وهو مِنْ تغييرات النسب كما قالوا في أَمْس : إمْسِيّ بكسر الهمزة ، وإلى الدَّهْر : دُهْرِيّ بضم الدال .

وقيل : الضمير يعودُ على العصيان ، أي : واتخذتم العصيان عوناً على عداوتي ، فالظِّهْرِيُّ على هذا بمعنى المُعِين المُقَوِّي .

﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾

(212/384)

قوله تعالى : ﴿ مَن يَأْتِيهِ ﴾ : قد تقدَّم نظيرُه في قصة نوح . قال ابن عطية بعد أن حكى عن الفراء أن تكون موصولةً مفعولةً ب " تَعْلمون " ، وأن تكونَ استفهاميةً مبتدأةً مُعَلِّقةً ل " تعلمون " : " والأول أحسن " ثم قال : " ويَقْضي بصلتها أن المعطوفة عليها موصولة لا محالة " . قال الشيخ : " لا يتعيَّن ذلك ، إذ من الجائز أن تكونَ الثانية استفهاميةً أيضاً معطوفة

على الاستفهامية قبلها ، والتقدير : سوف تعلمون أيُّنا يأتيه/ عذابٌ ، وأيُّنا هو كاذبٌ .

وقال الزمخشري : " فإن قلت : أيّ فَرْقٍ بين إدخالِ الفاء ونَزْعها في " سوف تعلمون " ؟ قلت : إدخالُ الفاءِ وَصْلٌ ظاهر بحرفٍ موضوعٍ للوصل ، ونَزْعُها وَصْلٌ خفيٌّ تقديريٌّ بالاستئناف الذي هو جوابٌ لسؤال مقدر كأنهم قالوا : فماذا يكون إذا عَمِلْنا نحن على مكانتنا وعَمِلْتَ أنت على مكانتك؟ فقيل : سوف تعلمون ، فَوَصَلَ تارةً بالفاء وتارةً بالاستئناف للتفنن في البلاغة ، كما هو عادةُ البلغاء من العرب ، وأقوى الوصلين وأبلغُهما الاستئنافُ ، وهو بابٌ من علم البيان تتكاثرُ محاسِنُه " .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ : قال الزمخشري : " فإن قلت : ما بال ساقَتَي قصة عاد وقصة مَدْيَن جاءتا بالواو ، والساقتان الوُسْطَيان بالفاء ؟ قلت : قد وقعتْ الوُسْطَيان بعد ذِكْر الوعد ، وذلك قوله ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح ﴾ ، ﴿ ذلك وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ فجاء بالفاء التي للتسبُّب كما تقول : " وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت " ، وأمَّا الأُخْرَيان فلم تقعا بتلك المنزلة ، وإنما وقعتا مبتدأتين فكان حقُّهما أن تُعْطَفا بحرف الجمع على ما قبلهما ، كما تُعْطَفُ قصة على قصة " ، وهذا من غُرَر كلام الزمخشري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 379 . 381﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92) ﴾ .

أترون مِنْ حقّ رهطي ما لا تَرَوْنَ من حقّ ربي ؛ وإنّ ربي يُكافئكم على أعمالكم بما تستوجبون في جميع أحوالكم .

﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾

أرخى لهم ستر الإمهال فلمّا أصرُّوا على تماديهم في الغواية حلّت بهم العقوبة ، وصاروا وكأن لم يكن بينهم نافخ نارٍ ، ولا في ديارِ الظالمين ديّار ، قال تعالى : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر : 2] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 154 . 155 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهم ﴾ يعني : وأرسلنا إلى مدين أَخَاهُمْ ﴿ شُعَيْبًا قَالَ يا قوم قَوْمِ اعبدوا الله ﴾ يعني : وحدوا الله وأطيعوه ، ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ يعني : ليس لكم رب سواه ، ﴿ وَلَا تَنقُصُواْ المكيال والميزان ﴾ في البيع والشِّراء ، ﴿ إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ يعني : بسعة في المال ، والنعمة ، ﴿ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ يعني : إن لم ترجعوا عن نقصان المكيال والميزان ، تزول عنكم النعمة والسعة ، ويصيبكم القحط والشدة وعذاب الآخرة .

وقال مجاهد : إني أراكم بخير يعني : برخص السعر .

﴿ ويا قوم أَوْفُواْ المكيال والميزان ﴾ ، يعني : أتموا الكيل والوزن ﴿ بالقسط ﴾ يقول : بالعدل ﴿ وَلَا تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءهُمْ ﴾ يعني : لا تنقصوا الناس حقوقهم ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ يعني : لا تسعوا في الأرض ، بالفساد والمعاصي ، ونقصان الكيل ، والوزن .

وقال سعيد بن المسيب : إذا أتيت أرضاً يوفون المكيال ، والميزان ، فأطل المقام بها ، وإذا أتيت أرضاً ينقصون المكيال والميزان ، فأقل المقام بها .

وقال عكرمة : أشهد أن كل كيال ووزان في النار .

قيل له : فمن وفى الكيل والوزن ؟ قال : ليس رجل في المدينة يكيل كما يكتال ، ولا يزن كما يتزن .

والله تعالى يقول : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [المطففين : 1] .

ثم قال تعالى ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ قال ابن عباس : ما أبقى الله لكم من الحلال ، خير لكم من الحرام ، ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يعني : مصدقين .

فصدقوني فيما أقول لكم .

وقال مجاهد : ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يعني : طاعة الله خير لكم .

ويقال : ثواب الله خير لكم في الآخرة .

﴿ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ يعني : رقيباً ووكيلاً ، وإنما عليّ البلاغ .

﴿ قَالُواْ يا شُعَيْبُ أصلواتك تَأْمُرُكَ ﴾ يعني : قال له قومه .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ، في رواية حفص ، ﴿ أصلاتُكَ ﴾ بلفظ الواحد يعني : أقراءتك .

ويقال : أدعاؤك .

وقرأ الباقون: ﴿ يا شعيب أصلواتك ﴾ بلفظ الجماعة، يعني: أكثرة صلواتك تأمرك ﴿ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَا ﴾ وكان شعيب كثير الصلاة، ﴿ قَالُواْ يا شعيب أصلواتك تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا ﴾ من نقصان الكيل والوزن؟ ﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد ﴾ يعني: السفيه الضال، استهزاء منهم به.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيّنَةٍ مّن رَّبّى ﴾ يعني: على دين، وطاعة، وبيان، وأتاني رحمة من ربي، ﴿ وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ يعني: بعثني بالرسالة فهداني لدينه، ووسع عليّ من رزقه.

وقال الزجاج: جواب الشرط ههنا متروك.

المعنى: إن كنت على بينة من ربي، أتبع الضلال: فترك الجواب لعلم المخاطبين بالمعنى.

ثم قال: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أنهاكم عَنْهُ ﴾ يعني: لا أنهاكم عن شيء، وأعمل ذلك العمل، من نقصان الكيل والوزن.

ومعناه: أختار لكم ما أختار لنفسي، نصيحة لكم وشفقة عليكم، ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإصلاح ﴾ يقول: ما أريد إلا العدل ﴿ مَا استطعت ﴾ يعني: ما قدرت يعني لا أترك جهدي في بيان ما فيه مصلحة لكم.

ثم قال ﴿ وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بالله ﴾ يعني: وما تركي هذه الأشياء ودعوتي إلا بالله، يعني:

إلا بتوفيق الله وبأمره ، ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ يعني : وثقت به ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ يعني : أقبل وأدعو إليه بالطاعة .

ثم قال تعالى : ﴿ ويا قوم لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى ﴾ يعني : لا يحملنكم بغضي وعداوتي ، أن لا تتوبوا إلى ربكم ، ﴿ أَن يُصِيبَكُم ﴾ يعني : يقع بكم العذاب ، ﴿ مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ ﴾ يعني : مثل عذاب قوم نوح بالغرق ، ﴿ أَوْ قَوْمَ هُودٍ ﴾ بالريح ، ﴿ أَوْ قَوْمَ صالح ﴾ الصيحة ، فإن طال عهدكم بهم ، فاعتبروا بمن أقرب منكم ، وهم قوم لوط ، فقال : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ يعني : كان هلاكهم قريباً منكم ، ولا يخفى عليكم أمرهم .

قوله تعالى : ﴿ واستغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ يعني : وتوبوا إلى الله ، ﴿ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ ﴾ بعباده ، ﴿ وَدُودٌ ﴾ يعني : متودد إلى أوليائه بالمغفرة ، ويقال : محب لأهل طاعته .

ويقال : الودود بمعنى الواد .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ يعني : لا نعقل ما تدعونا إليه ، من التوحيد ، ومن وفاء الكيل والوزن .

يعنون : إنك تدعونا إلى شيء ، خلاف ما كنا عليه وآباؤنا ، ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾

يعني : ومع ذلك أنت ضعيف فينا .

وقال مقاتل : يعني : ذليلاً لا قوة لك ، ولا حيلة .

وقال الكلبي : يعني : ضرير البصر .

ويقال : إنه ذهب بصره من كثرة بكائه من خشية الله تعالى ، ويقال : وحيداً لم يوافقك من عظمائنا أحد .

﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لرجمناك ﴾ يعني : لولا عشيرتك لقتلناك ، لأنهم كانوا يقتلون رجماً .

وقال القتبي : أصل الرجم : الرمي .

كقوله : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السمآء الدنيا بمصابيح وجعلناها رُجُوماً للشياطين وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السعير ﴾ [الملك : 5] ثم قد يستعار ويوضع موضع الشتم إذ الشتم رَمْيٌ ، كقوله : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِى يا إبراهيم لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهجرنى مَلِيّاً ﴾ [مريم : 46] يعني : لأشتمنك .

(217/384)

ويوضع موضع الظن ، كقوله : ﴿ سَيَقُولُونَ ثلاثة رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بالغيب وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل ربى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ

تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِّنْهُمْ أَحَداً ﴾ [الكهف : 22] أي ظناً .

والرجم أيضاً : الطرد واللعن ، وقيل للشيطان رجيم : لأنه طريد يرجم بالكواكب .

وقد يوضع الرجم موضع القتل ، لأنهم كانوا يقتلون بالرجم .

ولأن ابن آدم قتل أخاه بالحجارة .

فلما كان أول القتل رجماً ، سمي القتل رجماً ، وإن لم يكن بالحجارة .

ثم قالوا ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ يعني : بكريم ، ويقال : بعظيم ، يعني : لا خطر لك عندنا لولا حرمة عشيرتك .

ويقال : ما قتلك علينا بشديد .

ثمّ ﴿ قَالَ ﴾ لهم شعيب عليه السلام : ﴿ قَالَ يا قوم أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ ﴾ يعني : حرمة قرابتي أعظم عندكم من حرمة الله تعالى ؟ ويقال خوفكم من عقوبة قرابتي أكبر من خوف الله .

ويقال : عشيرتي أعظم عليكم من كتاب الله تعالى ، ومن أمره ؟ ﴿ واتخذتموه وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ يقول : تركتم أمر الله تعالى وراءكم ، خلف ظهوركم ، وتعظمون أمر رهطي ، وتتركون تعظيم الله تعالى ، ولا تخافونه ؟ وهذا قول الفراء .

وقال الزجاج : معناه : اتخذتم أمر الله وراءكم ظهرياً ، أي نبذتموه وراء ظهوركم ، والعرب تقول : لكل من لا يعبأ بأمر قد جعل فلان هذا الأمر بظهره .

وقال الأخفش ، وراءكم ظهريا ، يقول : لم تلتفوا إليه .

﴿ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ يعني : عالماً بأعمالكم ، من نقصان الكيل والوزن ، وغيره .

والإحاطة : هي إدراك الشيء بكماله .

(218/384)

ثم قال تعالى ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ يعني : اعملوا في هلاكي ، وفي أمري ، ﴿ إِنّى عامل ﴾ في أمركم ، والمكانة ، والمكان بمعنى واحد .

ثم قال : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ، وهذا وعيد لهم ، ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ يعني : يهلكه ويهينه ، ﴿ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ يعني : ستعلمون من هو كاذب .

ويقال معناه : من يأتيه عذاب يخزيه ، ويخزي أمره .

من هو كاذب على الله بأن معه شريكاً ، ﴿ وارتقبوا ﴾ يعني : انتظروا بي العذاب ﴿ إِنّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ يعني : منتظر بكم العذاب في الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا ﴾ يعني : عذابنا ، وذلك : أنه أصابهم حر شديد ، فخرجوا إلى غيضة لهم ، فدخلوا فيها ، فظهرت لهم سحابة كهيئة الظلة ، فأحرقت

الأشجار .

وصاح جبريل صيحة ، فماتوا كلهم ، كما قال في آية أُخرى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظلة إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : 189] وذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ يعني : عذابنا ﴿ نَجَّيْنَا شُعَيْبًا والذين ءامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مّنَّا وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ ﴾ يعني : صيحة جبريل ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَارِهِمْ جاثمين ﴾ يعني : صاروا في مواضعهم ميتين لا يتحركون .

قوله تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ يعني : كأن لم يعمروا فيها ، ﴿ أَلاَ بُعْدًا لّمَدْيَنَ ﴾ يعني : بعداً من رحمة الله تعالى ، ﴿ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ من رحمته .

وروى أبو صالح ، عن ابن عباس ، قال : لم تعذب أمتان بعذاب واحد ، إلا قوم شعيب وصالح ، صاح بهم جبريل فأهلكهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 165 . 169 ﴾

(219/384)

وقال الثعلبى فى الآيات السابقة :

﴿ وإلى مَدْيَنَ ﴾ يعني وأرسلنا إلى قوم مدين بن إبراهيم ، ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ بن

شرون بن أيوب بن مدين بن إبراهيم .

﴿ قَالَ يا قومِ اعبدوا الله مَا لَكُم مِّنْ إله غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان ﴾ وكانوا يطفِّفون ﴿ إني أَرَاكُم بِخَيْرٍ ﴾ قال ابن عباس (رضي الله عنه) : موسرين في نعمة ، الحسن : الغنى ورخص السعر ، قتادة : المال وزينة الدنيا ، الضحاك : رغد العيش وكثرة المال ، مجاهد : خصب وسعة ، وغيرهم في غلاء السعر وزوال النعمة وحلول النقمة إن لم يتوبوا ﴿ وإني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ محيط بكم فلا يفلت منكم أحد .

﴿ ويا قوم أَوْفُواْ المكيال والميزان ﴾ اكتالوا بالقسط ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ ﴾ ولا تنقصوا ﴿ الناس أَشْيَآءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ بَقِيَّةُ الله خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عباس : ما أبقى الله لكم من الحلال ، وإيفاء الكيل والوزن خير من البخس والتطفيف ، قال مجاهد : الطاعة ، سفيان : رزق الله ، قتادة : حظكم من ربكم ، ابن زيد : الهلاك في العذاب والبقية : الرحمة ، الفرّاء : مراقبة الله ﴿ وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ وإنما قال هذا لأن شعيباً لم يؤمر بالقتال .

﴿ قَالُواْ يا شعيب أصلاوتك تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَآ ﴾ من الأوثان ، قال ابن عباس : كان شعيب كثير الصلاة لذلك قالوا هذا ، قال الأعمش : يعني قراءتك ﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ يعني أو أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء ، وقرأ بعضهم : تفعل وتشاء بالتاء يعني : تأمرك أن تفعل في أموالنا ما تشاء فيكون راجعاً إلى الأمر لا إلى الترك .

قال أهل التفسير : كان هذا نهياً لهم عنه وعذبوا لأجله قطع الدنانير والدراهم . فلذلك قالوا : وأن نفعل ما نشاء ﴿ إِنَّكَ لأَنْتَ الحليم الرشيد ﴾ قال ابن عباس : السفية الغاوي . قال القاضي : والعرب تصف الشيء بضده ، للتطير والفأل كما قيل للدّيغ : سليم ، وللفأرة : مفازة .

وقيل : هو على الاستهزاء ، كقولهم للحبشي : أبو البيضاء ، وللأبيض : أبو الجون ، ومنه قول خزنة النار لأبي جهل : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] . وقيل : معناه الحليم الرشيد بزعمك وعندكن ومثله في صفة أبي جهل ، وقال ابن كيسان : هو على الصحة أي أنّك يا شعيب لنا حليم رشيد ، فليس يجمل بك شق عصا قومك ولا مخالفة دينهم ، كقول قوم صالح له : ﴿ يا صالح قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً ﴾ .

﴿ قَالَ يا قوم أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ ﴾ حجّة وبصيرة وبيان وبرهان ﴿ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً ﴾ حلالا طيبا من غير بخس ولا تطفيف ، وقيل : علماً ومعرفة ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إلى مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ ما أريد أن أنهاكم عن أمر وأرتكبه ﴿ إِنْ أُرِيدُ ﴾ ما أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه ﴿ إِلاَّ الإصلاح مَا استطعت وَمَا توفيقي إِلاَّ

بالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي أرجع فيما ينزل بي من النوائب ، وقيل : إليه أرجع في الآخرة .

﴿ ويا قوم لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ لا يحملنكم ﴿ شقاقي ﴾ خلافي وفراقي ﴿ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ﴾ من العذاب ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ وذلك أنهم كانوا حديثي عهد بهلاك قوم لوط ، وقيل : ما دارُ قوم لوط منكم ببعيد ﴿ واستغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ محبّ المؤمنين ، وقيل : مودود للمؤمنين ومحبوبهم .

(221/384)

﴿ قَالُواْ يا شعيب مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً ﴾ وذلك أنه كان ضريراً ، قال سفيان : كان ضعيف البصر ، وكان يقال له خطيب الأنبياء ﴿ وَلَوْلاَ رَهْطُكَ ﴾ عشيرتك وكان في عزة ومنعة من قومه ﴿ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ لقتلناك ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يا قوم أرهطي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ الله واتخذتموه وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ قيل : الهاء راجعة إلى الله وقيل : إلى أمر الله وما جاء به شعيب ، أي نبذتموه وراء ظهوركم وتركتموه ، يقال : جعلت أمري بظهر إذا قصر في أمره وأخلّ بحقه .

﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * ويا قوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي تؤدتكم ومكانكم ، يقال : فلان يعمل على مكانته ومكنته إذا عمل على تؤدّه تمكن . ويقال : مُكن يمكن مكناً مكاناً ومكانة ، ﴿ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أيّنا الجاني على نفسه ، والأخطى في فعله ، وذلك قوله ﴿ مَن يَأْتِيهِ عذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ قيل :

﴿ مَن ﴾ في محل النصب أي فسوف تعلمون من هو كاذب ، وقيل : ويخزي من هو كاذب ، وقيل : محله رفع تقديره : ومن هو كاذب فيعلم كذبه ويذوق وبال أمره ﴿ وارتقبوا ﴾ وانتظروا العذاب ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ منتظر .

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ ﴾ صيحة من السماء أخذتهم وأهلكتهم ، ويقال : إن جبريل صاح بهم صيحة فخرجت أرواحهم من أجسادهم .

﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ ميتين ساقطين هلكى صرعى ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ ﴾ يكونوا ﴿ فِيهَآ أَلاَ بُعْداً ﴾ هلاكاً وغضباً ﴿ لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ﴾ هلكت ﴿ ثَمُودُ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ 184.187 ﴾

(222/384)

وقال الزمخشري :

﴿ وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) ﴾

إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ يريد : بثروة واسعة تغنيكم عن التطفيف . أو أراكم بنعمة من اللّه حقها أن تقابل بغير ما تفعلون . أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه ، كقول مؤمن آل فرعون يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا يَوْمٍ مُحِيطٍ مهلك من قوله وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ وأصله من إحاطة العدوّ . فإن قلت : وصف العذاب بالإحاطة أبلغ ، أم وصف اليوم بها ؟ قلت : بل وصف اليوم بها ، لأن اليوم زمان يشتمل على الحوادث ، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه . فإن قلت : النهى عن النقصان أمر بالإيفاء « 1 » فما فائدة قوله أوفوا ؟ قلت : نهوا أولا عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ، لأنّ في التصريح بالقبيح نعياً على المنهي وتعييراً له ، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرحاً بلفظه ، لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه ، وجيء به مقيداً بالقسط : أى ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية ، من غير زيادة ولا نقصان ، أمراً بما هو الواجب ، لأن ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب إليه . وفيه توقيف على أنّ الموفى عليه أن ينوى بالوفاء بالقسط ، لأنّ الإيفاء وجه حسنه أنه قسط وعدل ، فهذه ثلاث فوائد .

البخس : الهضم والنقص . ويقال للمكس : البخس . قال زهير :

---

(1) . قال محمود : «إن قلت النهى عن النقصان أمر بالإيفاء . . . الخ» قال أحمد : ولمن قال إن الأمر بالشيء ليس نهيا عن ضده أن يستدل بهذه الآية ، فان الأمر لو كان عين النهى عن الضد ، لكان وروده عقيبه تكرارا . وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه وهم ، فاعتقد أن النهى في الآية قبل الأمر ، وذلك سهو وغفلة ، وكل مأخوذ من قوله ومتروك إلا المعصوم : وأما قوله : إن الإيفاء حسن في العقول ، فتفريع على قاعدة التحسين والتقبيح ، وقد سبق بطلانها ، وبينا أن التحسين والتقبيح موظفان من الشرع ، ولا مجال العقل في حكم سمعي .

وَفِى كُلِّ مَا بَاعَ امْرُؤٌ بَخْسُ دِرْهَمِ «1»

وروى : مكس درهم ، وكانوا يأخذون من كل شيء يباع شيئاً ، كما تفعل السماسرة . أو كانوا يمكسون الناس . أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء ، فنهوا عن ذلك . والعثى في الأرض نحو السرقة والغارة وقطع السبيل . ويجوز أن يجعل التطفيف والبخس عثيا منهم في الأرض بَقِيَّتُ اللَّهِ ما يبقى لكم من الحلال «2» بعد التنزه عما هو حرام

عليكم خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بشرط أن تؤمنوا ، وإنما خوطبوا بترك التطفيف والبخس والفساد في الأرض وهم كفرة بشرط الإيمان . فإن قلت : بقية اللّه خير للكفرة ، لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس «3» والتطفيف ، فلم شرط الإيمان ؟ قلت : لظهور فائدتها مع الإيمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب ، وخفاء فائدتها مع فقده لانغماس صاحبها في غمرات الكفر .

وفي ذلك استعظام للإيمان ، وتنبيه على جلالة شأنه . ويجوز أن يراد : إن كنتم مصدقين لي فيما أقول لكم وأنصح به إياكم . ويجوز أن يراد . ما يبقى لكم عند اللّه من الطاعات خير «4» لكم ،

---

(1) أفى كل أسواق العراق إتاوة وما كل ما باع امرؤ مكس درهم

ألا تستحي منا ملوك وتتقى محارمنا لا تتقى الدم بالدم

لزهير . وقيل : لجابر بن حيي التغلبي ، والاستفهام للتعجب أو للتوبيخ ، والاتاوة كالكتابة : الرشوة والجعالة :

يقال : أتوته أأتوه أتوا وإتاوة : أعطيته الخراج ، فهي في الأصل مصدر . والمكس : ما يأخذه العشار . ويروى «بخس درهم» أى نقص درهم» وكان أهل العراق يفعلون ذلك في أسواقهم مع العرب وغيرهم ، فقال زهير : لا ينبغي ذلك . و«ألا» في الأصل مركبة من همزة الاستفهام التوبيخي ولا النافية ، فصارت أداة تحضيض . ويقال : استحيا واستحى كما

هنا ، بنقل حركة الياء إلى الحاء وحذفها ، أي : لتستح منا الملوك ، وتتوقى عقوبة التعرض لمحارمنا وأموالنا ، لئلا تتوقى القتل منا لهم بقتلنا لبعضهم ، أي لئلا ترجع إلا بذلك ، أو لئلا تتوقى أخذ الدم بدل الدم .

وروى «ألا يستحى منا المليك ويتقى» إلى آخره ، وهو لغة في الملك ، والمراد به ملك العراق .

(2) . قال محمود : «بقية اللّه ما يبقى لكم من الحلال . . . الخ» قال أحمد : المنقول عن المعتزلة أن الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة ، لا نهيا ولا أمرا ، وقد جوز بعضهم خطابهم بالنهى . وهذه الآية تدل على أنهم مخاطبون في حال الكفر بشرط الايمان ، وقد قررها الزمخشري على ذلك .

(3) . عاد كلامه . قال : «فان قلت بقية اللّه خير للكفرة لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس . . . الخ» قال أحمد : وهذا أيضا من إقرار الزمخشري للآية على ظاهرها ، ومعنى السؤال : أن الكفار إذا قدرنا خطابهم بالفروع ، انتفعوا باجتناب المنهيات في الدار الآخرة ، لأن ثمرة الخلاف في مسألة خطاب الكفار إنما تظهر في الدار الآخرة ، وإذا كانوا ينتفعون بذلك فلا معنى لاشتراط الايمان والحال مع وجوده وعدمه في الانتفاع بالامتثال سواء . ومعنى الجواب : أن ظهور الانتفاع بالامتثال إنما يتحقق مع الايمان ، وأما مع الكفر فهم مخلدون في العذاب ، فإنما تظهر الفائدة على خفاء في تحقيق مأمن العذاب ، واللّه

الموفق .

(4) . عاد كلامه . قال : «ويجوز أن يراد ما يبقى لكم من الطاعات عند اللّه . . . الخ»

قال أحمد : قد تقدم أن عقيدة أهل السنة : أن لا خالق ولا رازق إلا اللّه ، إيمانا بقوله هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ وإذا كان الرزق عبارة عن كل ما يقيم به الخلق بنيتهم ، لزم اندراج الحرام في هذا الإطلاق عقدا وحقيقة . وأما إطلاق القول بإضافته على الخصوص إلى اللّه تعالى ، فأمر خارج عن الاعتقاد راجع إلى الاتباع ، واللّه الموفق .

(224/384)

كقوله وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ وإضافة البقية إلى اللّه من حيث أنها رزقه الذي يجوز أن يضاف إليه . وأمّا الحرام فلا يضاف إلى اللّه ولا يسمى رزقا «1» ، وإذا أريد بها الطاعة فكما تقول : طاعة اللّه . وقرئ : تقية اللّه ، بالتاء وهي تقواه ومراقبته التي تصرف عن المعاصي والقبائح وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ وما بعثت لأحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها ، وإنما بعثت مبلغا ومنبها على الخير وناصحا ، وقد أعذرت حين أنذرت .

[سورة هود (11) : آية 87]

قالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87)

كان شعيب عليه السلام كثير الصلوات، وكان قومه إذا رأوه يصلى تغامزوا وتضاحكوا، فقصدوا بقولهم أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ السخرية والهزء - والصلاة وإن جاز أن تكون آمرة على طريق المجاز، كما كانت ناهية في قوله إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وأن يقال: إنّ الصلاة تأمر بالجميل والمعروف، كما يقال: تدعو إليه وتبعث عليه - إلا أنهم ساقوا الكلام مساق الطنز «2» وجعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهكم بصلاته، وأرادوا أنّ هذا الذي تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحته، وأنّ مثله لا يدعوك إليه داعى عقل، ولا يأمرك به آمر فطنة، فلم يبق إلا أن يأمرك به آمر هذيان ووسوسة شيطان، وهو صلواتك التي تداوم عليها في ليلك ونهارك، وعندهم أنها من باب الجنون ومما يتولع به المجانين والموسوسون من بعض الأقوال والأفعال. ومعنى تأمرك أَنْ نَتْرُكَ تأمرك بتكليف أن نترك «3» ما يَعْبُدُ آباؤُنا لحذف المضاف الذي هو التكليف، لأنّ الإنسان لا يؤمر بفعل غيره. وقرئ أَصَلاتُكَ بالتوحيد. وقرأ ابن أبى عبلة: أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء، بتاء الخطاب فيهما، وهو ما كان يأمرهم به من ترك التطفيف والبخس، والاقتناع بالحلال القليل من الحرام الكثير.

---

(1). قوله «ولا يسمى رزقا» هذا مذهب المعتزلة وأما مذهب أهل السنة فالرزق ما

ينتفع به ولو حراماً . (ع)

(2) . قوله «مساق الطنز» في الصحاح : الطنز السخرية . وطنز يطنز فهو طناز ، وأظنه مولداً أو معربا اه . (ع)

(3) . قال محمود : «معناه تأمرك بتكليف أن نترك ما يعبد آباؤنا إلى قوله بتاء الخطاب فيهما» قال أحمد : فعلى هذه القراءة يكون أَنْ نَفْعَلَ معطوفا على أن نترك ، وعلى المشهور : لا يجوز ذلك والله أعلم لاستحالة المعنى ، فيتعين العطف فيها على ما يَعْبُدُ كأنهم قالوا : أصلواتك تأمرك أن نترك عبادة آبائنا أو معبود آبائنا ، على أنها مصدرية أو موصولة ، ثم قالوا : أو أن نفعل ، أى أو أن نترك فعلنا في أموالنا ما نشاء ، هذه لطيفة فتنبه لها ، ولا حاجة إلى إضمار الزمخشري لمضاف تقديره : تأمرك بتكليف أن نترك ، واحتجاجه لذلك بأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره إذاً والمسألة فرع من فروع خلق الأفعال ، ومع ذلك كله فتقدير المضاف في الآية متوجه ليس بناء على القراءة المذكورة ، ولكن لأن عرف التخاطب في مثله يقتضى ذلك ، والله أعلم . [. . . . .]

وقيل : كان ينهاهم عن حذف الدراهم «1» والدنانير وتقطيمها ، وأرادوا بقولهم إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ نسبته إلى غاية السفه والغىّ ، فعكسوا ليتهكموا به ، كما يتهكم بالشحيح الذي لا يبضّ حجره «2» فيقال له : لو أبصرك حاتم لسجد لك. وقيل : معناه إنك للمتواصف بالحلم والرشد في قومك ، يعنون أنّ ما تأمر به لا يطابق حالك وما شهرت به.

[سورة هود (11) : آية 88]

قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَما تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88)

وَرَزَقَنِي مِنْهُ أى من لدنه رِزْقاً حَسَناً وهو ما رزقه من النبوّة والحكمة. وقيل رِزْقاً حَسَناً حلالا طيباً من غير بخس ولا تطفيف. فإن قلت : أين جواب أَرَأَيْتُمْ وما له لم يثبت كما أثبت في قصة نوح ولوط؟ قلت : جوابه محذوف ، وإنما لم يثبت لأنّ إثباته في القصتين دلّ على مكانه ، ومعنى الكلام ينادى عليه. والمعنى : أخبرونى إن كنت على حجة واضحة ويقين من ربى وكنت نبياً على الحقيقة ، أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصي؟ والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك؟ يقال : خالفني فلان إلى كذا : إذا قصده وأنت مول عنه ، وخالفني عنه إذا ولى عنه وأنت قاصده. ويلقاك الرجل صادراً عن الماء

فتسأله عن صاحبه ؟

فيقول : خالفني إلى الماء ، يريد أنه قد ذهب إليه واردا وأنا ذاهب عنه صادرا . ومنه قوله تعالى وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ يعنى أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها ، لأستبد بها دونكم إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتى ونصيحتي وأمرى بالمعروف ونهي عن المنكر مَا اسْتَطَعْتُ ظرف ، أى : مدّة استطاعتي للإصلاح ، «3»

---

(1) . قوله «عن حذف الدراهم» الذي في الصحاح : حذفت من شعري ومن ذنب الدابة ، أى : أخذت اه (ع)

(2) . قوله «لا يبض حجره» في الصحاح : بض الماء بضيضا : سال قليلا قليلا . وفي المثل : ما يبض حجره ، أى ما تندى صفاته . (ع)

(3) . قال محمود : «ما استطعت ظرف أى مدة استطاعتي للإصلاح وما دمت متمكنا منه ، ويجوز أن يكون على حذف مضاف تقديره إلا الإصلاح إصلاح ما استطعت ، أو يكون مفعولا للمصدر كقوله : «ضعيف النكاية أعداءه» قال أحمد : والظاهر أنه ظرف . كهو في قوله فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وأما جعله مفعولا للمصدر وقد عرف بالألف واللام فبعيد ، لأن إعمال المصدر المعرف في المفعول الصريح ليس بذاك . قالوا : ولم يوجد في القرآن عاملا في مفعول صريح ولا في غيره إلا في قوله لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ فأعمله في

الجار والعدول عن إقفاء الإعراب إلى وجوعه وهي ممكنة عنيدة متعين خصوصا في أفصح الكلام. واللّه أعلم،

(226/384)

وما دمت متمكنا منه لا آلو فيه جهداً. أو بدل من الإصلاح، أى: المقدار الذي استطعته منه.

ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف على قولك: إلا الإصلاح إصلاح ما استطعت.

أو مفعول له كقوله:

ضَعِيفُ النّكَايِةِ أَعْدَاءَهُ «1»

أى ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه من فاسدكم وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ وما كوني موفقاً لإصابة الحق فيما آتى وأذر، ووقوعه موافقاً لرضا اللّه إلا بمعونته وتأييده. والمعنى: أنه استوفق ربه في إمضاء الأمر على سننه، وطلب منه التأييد والإظهار على عدوّه، وفي ضمنه تهديد للكفار وحسم لأطماعهم فيه.

[سورة هود (11): الآيات 89 إلى 90]

وَيا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (89) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90)

«جرم» مثل كسب في تعديه إلى مفعول واحد ، وإلى مفعولين تقول : جرم ذنبا وكسبه ، وجرمته ذنباً وكسبته إياه ، قال :

جَرِمَتْ فَزَارَةُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا «2»

ومنه قوله تعالى لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ أى لا يكسبنكم شقاقي إصابة العذاب . وقرأ ابن كثير بضم الياء ، من أجرمته ذنباً ، إذا جعلته جار ما له ، أى كاسباً ، وهو منقول من جرم المتعدي إلى مفعول واحد ، كما نقل : أكسبه المال ، من كسب المال . وكما لا فرق بين كسبته مالا وأكسبته إياه ، فكذلك لا فرق بين جرمته ذنباً وأجرمته إياه . والقراءتان مستويتان في المعنى لا تفاوت بينهما ، إلا أن المشهورة أفصح لفظاً ، كما إن كسبته مالا أفصح من أكسبته .

---

(1) ضعيف النكاية أعداءه يخال الفرار يراخى الأجل

نكأ القرح نكأ بالهمز : جرحه بعد اند ماله ، ونكى العدو نكاية : قتله وجرحه . وأعداءه : مفعول النكاية . وعمل المصدر المقرون بأل كما هنا نادر . يخال : أى يظن الهرب من العدو بطيل الأجل من جبنه .

(2) ولقد طعنت أبا عيينة طعنة جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

لزيادة بن أسماء . ويقال : جرم ذنبا إذا اكتسبه . وجرم النخل : قطعه . وجرمته كذا : إذا أكسبته إياه او حملته عليه . يقول : طعنت ذلك الرجل الفزاري طعنة قتلته . «جرمت فزارة» أي حق لها بعدها الغضب ، أو اكتسبت فزارة بعدها الغضب فقط ، واشتهر الرفع عنهم ، لكن قال الجوهري «فزارة» مفعول أول ، أي : أحقتهم الغضب ، أو أكسبتهم إياه ، أو حملتهم على أن يغضبوا بعدها ، فهو على إسقاط الخافض .

(227/384)

والمراد بالفصاحة : أنه على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدور ، وهم له أكثر استعمالا . وقرأ أبو حيوة ، ورويت عن نافع : مِثْلُ ما أَصابَ ، بالفتح لإضافته إلى غير متمكن ، كقوله :

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ نَطَقَتْ «1»

وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ يعنى أنهم أهلكوا في عهد قريب من عهدكم ، فهم أقرب الهالكين منكم . أولا يبعدون منكم في الكفر والمساوى وما يستحق به الهلاك . فان قلت : ما لبعيد لم يرد على ما يقتضيه قوم من حمله على لفظه أو معناه «2» ؟ قلت : إما أن يراد : وما إهلاكهم ببعيد ، أو ما هم بشيء بعيد أو بزمان أو مكان بعيد . ويجوز أن يسوى في

قريب وبعيد ، وقليل وكثير ، بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي الصهيل والنهيق ونحوهما رَحِيمٌ وَدُودٌ عظيم الرحمة للتائبين ، فاعل بهم ما يفعل البليغ المودّة بمن يودّه ، من الإحسان والإجمال.

---

(1) ثم ارعويت وقد طال الوقوف بنا فيها فصرت إلى وجناء شملال

تعطيك مشيا وإرقالا ودأدأة إذا تسربلت الآكام بالآل

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة فوق غصن ذات أوقال

لأبى قيس بن رقاعة يصف ناقته. وقوله «فيها» أى في دار المحبوبة. وللوجناء : الشديدة الصلبة. والشملال :

الخفيفة السريعة. والإرقال والدأدأة : نوعان من السير ، وقد شبه استتار الآكام وهي الجبال الصغيرة بالآل ، وهو السراب الذي يرى في الهاجرة أبيض يشبه الماء في جريانه على وجه الأرض ، بالتسربل وهو لبس السرابيل : أى الثياب على طريق التصريحية ، ثم وصفها بجدة الفؤاد وهو محمود عندهم ، أو بحنينها إلى وطنها ، وعطفها لما سمعت صوت الحمامة. والشرب – بالكسر : – النصيب من الماء. وبالضم المصدر. والأوقال : جمع وقل كجبل وهي الحجارة ، أو البقايا التي بقيت في جذع الشجرة بعد تقليم بعض أغصانها ، بارزة يمكن الارتقاء عليها. يقول : لم يمنع نصيبها من الماء عنها ، أو لم يمنعها من شربها الماء. ففيه قلب على الثاني وغير فاعل لأنه تضرع إليه العامل» وبنى على الفتح لاضافته

إلى مبنى ، واستعار النطق لتغريد الحمامة على سبيل التصريحية ، وكأنها كانت داخل الغصون فسمعت الناقة صوتها ولم ترها ففزعت . أو كانت على غصن من الشجرة فكان تغريدها مطربا لذيذا ، فحنت الناقة إلى وطنها . وذات أوقال : وصف لغصن ، لأنه جمع غصن كما قيل في فلك ، المفرد والجمع باعتبار التغير التقديري .

ويجوز أن يقرأ باضافة غصن إلى ذات ، والمعنى : غصن أرض أو شجرة ذات أوقال ، لكن الأول أحسن في الوزن .

وقد روى : في غصون ذات أوقال ، أى : ذات قطع بارزة بعد التعليم ، فتكون مشوهة المنظر توجب النفرة والوحشة ، أو صاحبه أحجار ، فتكون أنضر حيث ترى مخضرة وسط أرض قفرة ، أو لتكون في غير محلها فتوجب حنين الناقة إلى محلها أو فزعها لغرابة ذلك . وقيل : إنه جمع «وقل» بالسكون ، وهو شجر المقل . وقيل : يجوز أنه من وقل كوعد إذا صعد ، أى ذات ارتفاعات .

(2) . قوله «على ما يقتضيه قوم من عمله» وذلك بأن بعامل معاملة المؤنث ، نحو كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ أو معاملة جمع الذكور ، نحو إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ لأن الأول مقتضى حمله على لفظه ، كما سيأتى في سورة الشعراء ، من أن القوم مؤنثة وتصغيرها قويمة ، والثاني مقتضى حمله على معناه وهو ظاهر . (ع)

[سورة هود (11) : الآيات 91 إلى 95]

قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ (91) قالَ يا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92) وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93) وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (94) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ (95)

ما نَفْقَهُ ما نفهم كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ لأنهم كانوا لا يلقون إليه أذهانهم رغبة عنه وكراهية له، كقوله وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ. أو كانوا يفقهونه ولكنهم لم يقبلوه، فكأنهم لم يفقهوه. وقالوا ذلك على وجه الاستهانة به، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه: ما أدرى ما تقول. أو جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً، لا ينفعهم كثير منه، وكيف لا ينفعهم كلامه وهو خطيب الأنبياء، وقيل: كان ألثغ فِينا ضَعِيفاً لا قوة لك ولا عز فيما بيننا «1» ، فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروها. وعن الحسن ضَعِيفاً مهيناً. وقيل ضَعِيفاً أعمى. وحمير تسمى المكفوف: ضعيفاً، كما يسمى ضريراً، وليس بسديد، لأنّ فِينا يأباه.

ألا ترى أنه لو قيل إنا لنراك فينا أعمى، لم يكن كلاما، لأن الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم، ولذلك قللوا قومه حيث جعلوهم رهطا. والرهط: من الثلاثة إلى العشرة. وقيل: إلى السبعة.

وإنما قالوا: ولولاهم، احتراما لهم واعتدادا بهم، لأنهم كانوا على ملتهم، لا خوفا من شوكتهم وعزتهم لَرَجَمْناكَ لقتلناك شرّ قتلة وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ أى لا تعزّ علينا ولا تكرم، حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم. وإنما يعزّ علينا رهطك، لأنهم من أهل ديننا لم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا، وقد دلّ إيلاء ضميره حرف النفي على أنّ الكلام واقع

---

(1). قال محمود: «معنى قولهم ضعيفاً، أى: لا قوة لك ولا عز فيما بيننا... الخ» قال أحمد: وهذا من محاسن نكتة الدالة على أنه كان مليا بالحذاقة في علم البيان والله المستعان.

في الفاعل لا في الفعل، كأنه قيل: وما أنت علينا بعزيز، بل رهطك هم الأعزة علينا، ولذلك قال في جوابهم أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ولو قيل: وما عززت علينا، لم يصح هذا الجواب.

فإن قلت : فالكلام واقع فيه وفي رهطه وأنهم الأعزة عليهم دونه ، فكيف صح قوله أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ قلت : تهاونهم به – وهو نبىّ اللّه – تهاون باللّه ، فحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من اللّه . ألا ترى إلى قوله تعالى مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ ، وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا ونسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به ، والظهرىّ : منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب . ونظيره قولهم في النسبة إلى أمس : أمسىّ بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ قد أحاط بأعمالكم علماً ، فلا يخفى عليه شيء منها عَلى مَكانَتِكُمْ لا تخلو المكانة من أن تكون بمعنى المكان ، يقال : مكان ومكانة ، ومقام ومقامة . أو تكون مصدراً من مكن مكانة فهو مكين . والمعنى : اعملوا قارّين على جهتكم التي أنتم عليها من الشرك والشنآن لي . أو اعملوا متمكنين من عداوتي مطيقين لها إِنِّي عامِلٌ على حسب ما يؤتيني اللّه من النصرة والتأييد ويمكنني مَنْ يَأْتِيهِ يجوز أن تكون مَنْ استفهامية ، معلقة لفعل العلم عن عمله فيها ، كأنه قيل : سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه ، وأينا هو كاذب ، وأن تكون موصولة قد عمل فيها ، كأنه قيل : سوف تعلمون الشقىّ الذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب .

فإن قلت : أى فرق بين إدخال الفاء ونزعها في سَوْفَ تَعْلَمُونَ ؟ قلت : إدخال الفاء : وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ، ونزعها : وصل خفى تقديرىّ بالاستئناف الذي هو جواب

لسؤال مقدّر ، كأنهم قالوا : فما ذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت ؟ فقال : سوف تعلمون ، فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف ، للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب ، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف ، وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه وَارْتَقِبُوا وانتظروا العاقبة وما أقول لكم إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ أى منتظر . والرقيب بمعنى الراقب ، من رقبه ، كالضريب والصريم بمعنى الضارب والصارم . أو بمعنى المراقب ، كالعشير والنديم . أو بمعنى المرتقب ، كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع . فإن قلت : قد ذكر عملهم على مكانتهم «1» وعمله على مكانته ، ثم أتبعه ذكر عاقبة العاملين منه ومنهم ،

---

(1) . قال محمود : «إن قلت قد ذكر عملهم على مكانتهم . . . الخ» قال أحمد : والظاهر - والله أعلم - أن الكلامين جميعا لهم ، فالأول وهو قوله مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ مضمن ذكر جرمهم الذي يجازون به وهو الكذب ، ويكون من باب عطف الصفة على الصفة والموصوف واحد ، كما تقول لمن تهدده : ستعلم من يهان ومن يعاقب ، وإنما يعنى المخاطب في الكلامين ، فإذا ثبت صرف الكلامين إليهم لم يخل ذلك من دلالة على ذكر عاقبته هو ، لأن أحد الفريقين إذا كان مبطلا فالآخر هو المحق قطعا ، فذكره لإحدى العاقبتين صريحا يفهم ذكر الأخرى تعريضا :

والتعريض كما علمت في كثير من مواضعه أبلغ وأوقع من التصريح ، وهذا منه ، والذي يدل

على أن الكلامين لهما وأن عاقبة أمر شعيب لم تذكر ، استغناء عنها بذكر عاقبتهم ، كما بيناه في الآية التي في أول هذه السورة ، وهي قوله تعالى قال إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ ألا تراه كيف اكتفى بذلك عن أن يقول : ومن هو على خلاف ذلك ، وكذلك قوله في سورة الأنعام قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ فذكر هناك أيضا إحدى العاقبتين ، لأن المراد بهذه العاقبة عاقبة الخير ، ومتى أطلقت فلا يعنى إلا ذلك ، كقوله وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ واستغنى عن ذكر مقابلتها ، والله أعلم . فتأمل هذا الفصل فانه تحفة لمن همه نظم درر الكتاب العزيز ، وضم بعضها إلى بعض ، والله الموفق للصواب .

(230/384)

فكان القياس أن يقول : من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو صادق ، حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إلى الجاحدين ، ومن هو صادق إلى النبي المبعوث إليهم . قلت : القياس ما ذكرت ، ولكنهم لما كانوا يدعونه كاذبا قال وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ يعنى في زعمكم ودعواكم ، تجهيلا لهم . فإن قلت : ما بال ساقتى قصة «1» عاد وقصة مدين جاءتا بالواو ، والساقتان الوسطيان بالفاء ؟ قلت . قد وقعت الوسطيان بعد ذكر الوعد ، وذلك قوله إِنَّ

مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ، ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فجيء بالفاء الذي هو للتسبيب ، كما تقول : وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت . وأما الأخريان فلم تقعا بتلك المثابة . وإنما وقعتا مبتدأتين ، فكان حقهما أن تعطفا بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة . الجاثم : اللازم لمكانه لا يريم ، كاللابد ، «2» يعنى أن جبريل صاح بهم صيحة فزهق روح كل واحد منهم بحيث هو قعصا «3» كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا كأن لم يقيموا في ديارهم أحياء متصرفين متردّدين . البعد : بمعنى البعد وهو الهلاك ، كالرشد بمعنى الرشد . ألا ترى إلى قوله كَما بَعِدَتْ ؟ وقرأ السلمى : بعدت ، بضم العين ، والمعنى في البناءين واحد ، وهو نقيض القرب ، إلا أنهم أرادوا التفصلة بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره ، فغيروا البناء كما فرقوا بين ضماني الخير والشر فقالوا : وعد وأوعد ، وقراءة السلمى جاءت على الأصل اعتبارا لمعنى البعد من غير تخصيص ، كما يقال : ذهب فلان ومضى ، في معنى الموت . وقيل : معناه بعداً لهم من رحمة اللّه كما بعدت ثمود منها . انتهى انتهى . اهـ

﴿الكشاف حـ 2 صـ 417.425﴾

---

(1) . قوله «ساقتى قصة» في الصحاح : ساقة الجيش مؤخره اه . ومثله ساقة القصة هنا . (ع)

(2) . قوله «كاللابد» أى المتلبد اللاصق بالأرض ، أفاده الصحاح . (ع)

(3) . قوله «بحيث هو قعصا» في الصحاح : يقال مات فلان قعصا ، إذا أصابته ضربة فمات مكانه . (ع)

(231/384)

وقال ابن الجوزى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ وإِلى مدين ﴾

قد ذكرناه في [الأعراف : 85] .

قوله تعالى : ﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴾ أي : لا تطفِّفوا ؛ وكانوا يطفِّفون مع كفرهم .

قوله تعالى : ﴿ إِني أراكم بخير ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه رُخْص الأسعار ، قاله ابن العباس ، والحسن ، ومجاهد .

والثاني : سَعَةُ المال ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال قتادة ، وابن زيد .

وقال الفراء : أموالكم كثيرة ، وأسعاركم رخيصة ، فأي حاجة بكم إِلى سوء الوزن والكيل ؟!

قوله تعالى : ﴿ وإِني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه غلاء السعر ، قاله ابن عباس .

وقال مجاهد : القحط والجدب والغلاء .

والثاني : العذاب في الدنيا ، وهو الذي أصابهم ، قاله مقاتل .

والثالث : عذاب النار في الآخرة ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ أوفوا المكيال والميزان بالقسط ﴾ أي : أتمُّوا ذلك بالعدل .

والإِيفاء : الإِتمام .

﴿ ولا تَعْثَوْا في الأرض مفسدين ﴾ بنقص المكيال والميزان .

قوله تعالى : ﴿ بقيَّةُ الله خير لكم ﴾ فيه ثمانية أقوال :

أحدها : ما أبقى الله لكم الحلال بعد إِيفاء الكيل والوزن ، خير من البخس ، قاله ابن عباس .

والثاني : رزق الله خير لكم ، روى عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال سفيان .

والثالث : طاعة الله خير لكم ، قاله مجاهد ، والزجاج .

والرابع : حظُّكم من الله خير لكم ، قاله قتادة .

والخامس : رحمة الله خير لكم ، قاله ابن زيد .

والسادس : وصية الله خير لكم ، قاله الربيع .

والسابع : ثواب الله في الآخرة خير لكم ، قال مقاتل .

والثامن : مراقبة الله خير لكم ، ذكره الفراء .

وقرأ الحسن البصري : "تقية الله خير لكم" بالتاء .

قوله تعالى : ﴿ إِن كنتم مؤمنين ﴾ شرط الإِيمان في كونه خيراً لهم ، لأنهم إِن كانوا مؤمنين بالله عز وجل ، عرفوا صحة ما يقول .

وفي قوله : ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ ثلاثة أقوال :

(232/384)

أحدها : ما أُمرْتُ بقتالكم وإِكراهكم على الإِيمان .

والثاني : ما أُمرتُ بمراقبتكم عند كيلكم لئلا تبخسوا .

والثالث : ما أحفظكم من عذاب الله إِن نالكم .

قوله تعالى : ﴿ أصلواتك تأمرك ﴾ وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، وحفص : "أصلاتك" على التوحيد .

وفي المراد بصلواته ثلاثة أقوال : أحدها : دينة ، قاله عطاء .

والثاني : قراءته ، قاله الأعمش .

والثالث : أنها الصلوات المعروفة .

وكان شعيب كثيرَ الصلاة .

قوله تعالى : ﴿ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ قال الفراء : معنى الآية : أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء ؟

وفي معنى الكلام على قراءة من قرأ بالنون قولان .

أحدهما : أن فعلهم في أموالهم هو البخس والتطفيف ، قاله ابن عباس ؛ فالمعنى : قد تراضينا فيما بيننا بذلك .

والثاني : أنهم كانوا يقطعون الدراهم والدنانير ، فنهاهم عن ذلك ، قاله ابن زيد .

وقال القرظي : عُذِّبوا في قطعهم الدراهم .

قال ابن الأنباري : وقرأ الضحاك بن قيس الفهري "ما تشاء" بالتاء ، ونسق "أن تفعل" على "أن تترك" ، واستغنى عن الإضمار .

قال سفيان الثوري : في معنى هذه القراءة أنه أمرهم بالزكاة فامتنعوا .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، والضحاك ، وابن أبي عبلة : "أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء" بالتاء فيهما ؛ ومعنى هذه القراءة كمعنى قراءة الفهري .

وفي قوله : ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ أربعة أقوال :

أحدها : أنهم قالوه استهزاءً به ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والفراء .

والثاني : أنهم قالوا له : إنك لأنت السفيه الجاهل ، فكنى بهذا عن ذلك ، ذكره الزجاج .

والثالث : أنهم سبّوه بأنه ليس بحليم ولا رشيد ، فأثنى الله عز وجل عليه فقال : بل إنك لأنت الحليم الرشيد ، لا كما قال لك الكافرون ، حكاه أبو سليمان الدمشقي عن أبي الحسن المصيصي .

(233/384)

والرابع : أنهم اعترفوا له بالحلم والرشد حقيقة ، وقالوا : أنت حليم رشيد ، فَلِمَ تنهانا أن نفعل في أموالنا ما نشاء ؟ حكاه الماوردي ، وذهب إلى نحوه ابن كيسان .

قوله تعالى : ﴿ إِن كنتُ على بيّنةٍ من ربي ﴾ قد تقدم تفسيره [هود 28 و 63] .

وفي قوله : ﴿ ورزقني منه رزقاً حسناً ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الحلال ؛ قال ابن عباس : وكان شعيب كثيرَ المال .

والثاني : النبوّة .

والثالث : العلم والمعرفة .

قال الزجاج : وجواب الشرط هاهنا متروك ، والمعنى : إِن كنت على بينة من ربي ، أتبع الضلال ؟ فترك الجواب ، لعلم المخاطَبين بالمعنى ، وقد مرّ مثل هذا .

قوله تعالى : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ قال قتادة : لم أكن لأنهاكم عن

أمر ثم أرتكبه.

وقال الزجاج: ما أقصد بخلافكم القصد إِلى ارتكابه.

قوله تعالى: ﴿ إِن أريد إِلا الإِصلاح ما استطعت ﴾ أي: ما أريد بما آمركم به إِلا إِصلاح أموركم بقدر طاقتي.

وقدر طاقتي: إِبلاغكم لا إِجباركم.

قوله تعالى: ﴿ وما توفيقي إِلا بالله ﴾ فتح تاء "توفيقي" أهل المدينة، وابن عامر.

ومعنى الكلام: ما أصابتي الحق في محاولة صلاحكم إِلا بالله.

﴿ عليه توكلت ﴾ أي: فوضت أمري، وذلك أنهم تواعدوه بقولهم: ﴿ لنخرجنَّك يا شعيب ﴾ [الأعراف 88].

﴿ وإِليه أنيب ﴾ أي: أرجع.

قوله تعالى: ﴿ لا يجرمنّكم شِقاقيَ ﴾ حرك هذه الياء ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع.

قال الزجاج: لا تكسبنّكم عداوتكم إِيايَ أن تعذَّبوا.

قوله تعالى: ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنهم كانوا قريباً من مساكنهم.

والثاني: أنهم كانوا حديثي عهد بعذاب قوم لوط.

قال الزجاج: كان إِهلاك قوم لوط أقرب الإِهلاكات التي عرفوها.

قال ابن الأنباري : إنما وحّد بعيداً ، لأنه أزاله عن صفة القوم ، وجعله نعتاً مكان محذوف ، تقديره : وما قوم لوط منكم بمكان بعيد .

(234/384)

قوله تعالى : ﴿ إن ربي رحيم ودود ﴾ قد سبق معنى الرحيم .

فأما الودود : فقال ابن الأنباري : معناه : المحب لعباده ، من قولهم : ودِدت الرجل أوَدّه وُدّاً ووِدّاً ، ويقال : ودِدت الرجل وِداداً وَوَدادة ووِدادة .

وقال الخطابي : هو اسم مأخوذ من الوُدّ ؛ وفيه وجهان :

أحدهما : أن يكون فعولاً في محل مفعول ، كما قيل : رجل هيوب ، بمعنى مهيب ، وفرس ركوب ، بمعنى مركوب ، فالله سبحانه مودود في قلوب أوليائه لما يتعرّفونه من إحسانه إليهم .

والوجه الآخر : أن يكون بمعنى الوادّ ، أي : أنه يودّ عباده الصالحين ، بمعنى أنه يرضى عنهم بتَقَبُّلِ أعمالهم ؛ ويكون معناه : أن يودّدهم إلى خلقه كقوله : ﴿ سيجعل لهم الرحمن وُدّاً ﴾ [مريم 96] .

قوله تعالى : ﴿ ما نفقه كثيراً مما تقول ﴾ قال ابن الأنباري : معناه : ما نفقه صحة كثير مما

تقول، لأنهم كانوا يتديّنون بغيره، ويجوز أن يكونوا لاستثقالهم ذلك كأنهم لا يفقهونه.

قوله تعالى: ﴿ وإِنَّا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ وفيه أربعة أقوال:

أحدها: ضريراً؛ قال ابن عباس، وابن جبير، وقتادة: كان أعمى، قال الزجاج: ويقال: إِن حِمير تسمي المكفوف: ضعيفاً.

والثاني: ذليلاً، قاله الحسن، وأبو روق، ومقاتل.

وزعم أبو رَوْق أن الله لم يبعث نبياً أعمى، ولا نبياً به زمانة.

والثالث: ضعيف البصر، قاله سفيان.

والرابع: عاجزاً عن التصرف في المكاسب، ذكره ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿ ولولا رهطك لرجمناك ﴾ قال الزجاج: لولا عشيرتك لقتلناك بالرجم، والرجم من سيء القتلات، وكان رهطه من أهل ملَّتهم، فلذلك أظهروا الميل إِليهم والإِكرام لهم.

وذكر بعضهم أن الرجم هاهنا بمعنى الشتم والأذى.

قوله تعالى: ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ فيه قولان:

أحدهما: بكريم.

والثاني: بممتنع أن نقتلك.

قوله تعالى : ﴿ أرهطيَ أعزّ عليكم من الله ﴾ وأسكن ياء "رهطي" أهل الكوفة ، ويعقوب ، والمعنى : أتراعون رهطي فيَّ ، ولا تراعون الله فيّ ؟

قوله تعالى : ﴿ واتخذتموه وراءكم ﴾ في هاء الكناية قولان :

أحدهما : أنها ترجع إلى الله تعالى ، قاله الجمهور .

قال الفراء : المعنى : رميتم بأمر الله وراء ظهوركم .

قال الزجاج : والعرب تقول لكل من لا يعبأ بأمر : قد جعل فلان هذا الأمر بظهر ، قال الشاعر :

تميم بنَ قيس لا تكونَنَّ حاجَتي . . .

بظَهْرٍ فلا يَعْيَا عليَّ جَوَابُها

والثاني : أنها كناية عما جاء به شعيب ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ إن ربي بما تعملون محيط ﴾ أي : عالم بأعمالكم ، فهو يجازيكم بها .

وما بعد هذا قد سبق تفسيره إلى قوله : ﴿ سوف تعلمون ﴾ [الأنعام 135] .

فإن قال قائل : كيف قال هاهنا ﴿ سوف ﴾ وفي سورة أخرى ﴿ فسوف ﴾ [الأنعام 135] .

فالجواب : أن كلا الأمرين حسن عند العرب ، إن أدخلوا الفاء ، دلُّوا على اتصال ما بعد

الكلام بما قبله ، وإن أسقطوها ، بَنَوْا الكلام الأول على أنه قد تم ، وما بعده مستأنف ،

كقوله : ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً ﴾ [البقرة 67] ، والمعنى :

فقالوا : أتتخذنا ، بالفاء ، فحذفت الفاء لتمام ما قبلها .

قال امرؤ القيس :

فقالتْ يمينَ الله مالَكَ حِيلةٌ . . .

ومَا إنْ أرى عَنْكَ الغَوَايَة تَنْجلي

خَرَجْتُ بها أَمْشي تجُرّ ورَاءَنا . . .

عَلى إِثْرِنَا أَذْيَالَ مِرطٍ مُرحَّلِ

قال ابن الأنباري : أراد فخرجتُ ، فأسقط الفاء لتمام ما قبلها .

ويروى : فقمت بها أمشي .

قوله تعالى : ﴿ وارتقبوا إني معكم رقيب ﴾ قال ابن عباس : ارتقبوا العذاب ، فإني

أرتقب الثواب .

قوله تعالى : ﴿ وأخذت الذين ظلموا الصيحةُ ﴾ قال المفسرون : صاح بهم جبريل فماتوا

في أمكنتهم .

قال محمد بن كعب : عُذّب أهل مدين بثلاثة أصناف من العذاب ، أخذتهم رجفة في ديارهم ، حتى خافوا أن تسقط عليهم ، فخرجوا منها فأصابهم حرٌّ شديد ، فبعث الله الظُّلَّةَ ، فتنادَوا : هلم إلى الظل ؛ فدخلوا جميعاً في الظُّلَّة ، فصيح بهم صيحة واحدة فماتوا كلهم .

قال ابن عباس : لم تعذَّب أمتان قط بعذاب واحد ، إلا قوم شعيب وصالح ، فأما قوم صالح ، فأخذتهم الصيحة من تحتهم ، وأما قوم شعيب ، فأخذتهم من فوقهم ، نشأت لهم سحابة كهيئة الظُّلَّة فيها ريح بعد أن امتنعت الريح عنهم ، فأَتَوْها يستظلُّون تحتها فأحرقتهم .

قوله تعالى : ﴿ كما بَعِدت ثمود ﴾ أي : كما هلكت ثمود .

قال ابن قتيبة : يقال : بَعِدَ يَبْعَدُ : إذا كان بُعْده هلكة ؛ وبَعُدَ يبعُد : إذا نأى . انتهى ا . هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(237/384)

وقال النسفى :

﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً ﴾

هو اسم مدينتهم أو اسم جدهم مدين بن إبراهيم أي وأرسلنا شعيباً إلى ساكني مدين أو

إلى بني مدين ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال ﴾ أي

المكيل بالمكيال ﴿ والميزان ﴾ والموزون بالميزان ﴿ إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ بثروة وسعة

تغنيكم عن التطفيف ، أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون ﴿ وَإِنِّى

أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ مهلك من قوله ﴿ وأحيط بثمره ﴾ [الكهف : 42

] وأصله من إحاطة العدو والمراد عذاب الاستئصال في الدنيا أو عذاب الآخرة ﴿ ويا

قوم أَوْفُواْ المكيال والميزان ﴾ أتموهما ﴿ بالقسط ﴾ بالعدل .

نهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ، ثم ورد الأمر بالإيفاء

الذي هو حسن في العقول لزيادة الترغيب فيه ، وجيء به مقيداً بالقسط أي ليكن الإيفاء

على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءَهُمْ ﴾

البخس : النقص ، كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء فنهوا عن ذلك ﴿ وَلاَ

تَعْثَوْاْ فِى الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ العثى والعيث أشد الفساد نحو السرقة والغارة وقطع

السبيل ، ويجوز أن يجعل البخس والتطفيف عثيا منهم في الأرض ﴿ بَقِيَّتُ الله ﴾ ما

يبقى لكم من الحلال بعد التنزه عما هو حرام عليكم ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

بشرط أن تؤمنوا .

نعم بقية الله خير للكفرة أيضاً لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس والتطفيف إلا أن فائدتها

تظهر مع الإيمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب ولا تظهر مع عدمه لانغماس صاحبها في غمرات الكفر وفي ذلك تعظيم للإيمان وتنبيه على جلالة شأنه ، أو المراد إن كنتم مصدقين لي فيما أقول لكم وأنصح به إياكم ﴿ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ لنعمه عليكم فاحفظوها بترك البخس .

(238/384)

﴿ قَالُواْ يا شُعَيْبُ أصلواتك ﴾ وبالتوحيد .

كوفي غير أبي بكر ﴿ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أموالنا مَا نشاؤا ﴾ كان شعيب عليه السلام كثير الصلوات وكان قومه يقولون له ما تستفيد بهذا ؟ فكان يقول : إنها تأمر بالمحاسن وتنهى عن القبائح .

فقالوا على وجه الاستهزاء أصلواتك تأمرك أن تأمرنا بترك عبادة ما كان يعبد آباؤنا ، أو أن نترك التبسط في أموالنا ما نشاء من إيفاء ونقص .

وجاز أن تكون الصلوات آمرة مجازاً كما سماها الله تعالى ناهية مجازاً ﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد ﴾ أي السفية الضال وهذه تسمية على القلب استهزاء ، أو إنك حليم رشيد عندنا ولست تفعل بنا ما يقتضيه حالك ﴿ قَالَ يا قوم أَرَءيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيّنَةٍ مّن رَّبّى

وَرَزَقَنِى مِنْهُ ﴾ من لدنه ﴿ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ يعني النبوة والرسالة أو مالاً حلالاً من غير بخس وتطفيف .

وجواب أرأيتم محذوف أي أخبروني إن كنت على حجة واضحة من ربي وكنت نبياً على الحقيقة ، أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصي ، والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك ؟ يقال : خالفني فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مول عنه وخالفني عنه إذا ولى عنه وأنت قاصده .

ويلقاك الرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول : خالفني إلى الماء يريد ، أنه قد ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صادراً ، ومنه قوله : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ يعني أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإصلاح ﴾ ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي وأمري بالمعروف ونهي عن المنكر ﴿ مَا استطعت ﴾ ظرف أي مدة استطاعتي للإصلاح وما دمت متمكناً منه لا آلو فيه جهداً ﴿ وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بالله ﴾ وما كوني موفقاً لإصابة الحق فيما آتي وآذر إلا بمعونته وتأييده ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ اعتمدت ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أرجع في السراء

والضرآء .

"جرم" مثل "كسب" في تعديه إلى مفعول واحد وإلى مفعولين ومنه قوله :

﴿ ويا قوم لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى أَن يُصِيبَكُم ﴾ أي لا يكسبنكم خلافي إصابة العذاب ﴿ مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالح ﴾ وهو الغرق والريح والرجفة ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ في الزمان فهم أقرب الهالكين منكم ، أو في المكان فمنازلهم قريبة منكم أو فيما يستحق به الهلاك وهو الكفر والمساوىء .

وسُوِّي في قريب وبعيد وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي الصهيل والنهيق ونحوهما ﴿ واستغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ ﴾ يغفر لأهل الجفاء من المؤمنين ﴿ وَدُودٌ ﴾ يحب أهل الوفاء من الصالحين ﴿ قَالُوا يا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ أي لا نفهم صحة ما تقول وإلا فكيف لا يفهم كلامه وهو خطيب الأنبياء ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ لا قوة لك ولا عز فيما بيننا فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروهاً ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرجمناك ﴾ ولولا عشيرتك لقتلناك بالرجم وهو شر قتلة وكان رهطه من أهل ملتهم فلذلك أظهروا الميل إليهم والإكرام لهم ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا

بِعَزِيزٍ ﴾ أي لا تعز علينا ولا تكرم حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم ، وإنما يعز علينا رهطك لأنهم من أهل ديننا .

وقد دل إيلاء ضميره حرف النفي على أن الكلام واقع في الفاعل لا في الفعل كأنه قيل : وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة علينا ولذلك

﴿ قَالَ ﴾ في جوابهم ﴿ يا قوم أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مّنَ اللهِ ﴾ ولو قيل وما عززت علينا لم يصح هذا الجواب .

وإنما قال : ﴿ أرهطي أعز عليكم من الله ﴾ والكلام واقع فيه وفي رهطه وأنهم الأعزة عليهم دونه ، لأن تهاونهم به وهو نبي الله تهاون بالله ، وحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ ﴿ ﴾ [النساء : 80] ﴾ واتخذتموه وَرَاءكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ ونسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به والظهري منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب كقولهم في النسبة إلى الأمس أمسى ﴿ إِنَّ رَبّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ قد أحاط بأعمالكم علماً فلا يخفى عليه شيء منها .

﴿ وَيَا قَوْمِ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ هي بمعنى المكان يقال : مكان ومكانة ومقام ومقامة ، أو مصدر من مكن مكانة فهومكين إذا تمكن من الشيء يعني اعملوا قارين على جهتكم التي أنتم عليها من الشرك ، والشنآن لي ، أو اعملوا متمكنين من عداوتي مطيقين لها ﴿ إِنِّى عامل ﴾ على حسب ما يؤتيني الله من النصرة والتأييد ويمكنني ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ "من" استفهامية معلقة لفعل العلم من عمله فيها كأنه قيل : سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه أي يفضحه ، وأينا هو كاذب .

أو موصولة قد عمل فيها كأنه قيل : سوف تعلمون الشقي الذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب في زعمكم ودعواكم .

وإدخال الفاء في ﴿ سوف ﴾ وصل ظاهر بحرف وضع للوصل ، ونزعها وصل تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر كأنهم قالوا : فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت ؟ فقال : سوف تعلمون .

والإتيان بالوجهين للتفنن في البلاغة وأبلغهما الاستئناف ﴿ وارتقبوا ﴾ وانتظروا العاقبة وما أقول لكم ﴿ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ منتظر ، والرقيب بمعنى الراقب من رقبه كالضريب بمعنى الضارب ، أو بمعنى المراقب كالعشير بمعنى المعاشر ، أو بمعنى المرتقب كالرفيع بمعنى المرتفع .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا والذين ءامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ

الصَّيْحَةُ ﴾ صاح بهم جبريل صيحة فهلكوا .

وإنما ذكر في آخر قصة عاد ومدين ﴿ ولما جاء ﴾ وفي آخر قصة ثمود ولوط ﴿ فلما جاء ﴾ لأنهما وقعا بعد ذكر الموعد وذلك قوله : ﴿ إن موعدهم الصبح ﴾ ﴿ ذلك وعد غير مكذوب ﴾ فجيء بالفاء الذي هو للتسبيب كقولك "وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت" .

(242/384)

وأما الأخريان فقد وقعتا مبتدأتين فكان حقهما أن تعطفا بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَارِهِمْ جاثمين ﴾ الجاثم اللازم لمكانه لا يريم يعني أن جبريل صاح بهم صيحة فزهق روح كل واحد منهم بحيث هو بغتة ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ كأن لم يقيموا في ديارهم أحياء متصرفين مترددين ﴿ أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ ﴾ البعد بمعنى البعد وهو الهلاك كالرشد بمعنى الرشد ألا ترى إلى قوله : ﴿ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ وقرىء ﴿ كما بعُدت ﴾ والمعنى في البناءين واحد وهو نقيض القرب إلا أنهم فرقوا بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره ، فغيروا البناء كما فرقوا بين ضماني الخير والشر فقالوا : وعد وأوعد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 200 . 203 ﴾

وقال البيضاوى فى الآيات السابقة :

﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً ﴾

أراد أولاد مدين بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، أو أهل مدين وهو بلد بناه فسمي باسمه . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مّنْ إله غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان ﴾ أمرهم بالتوحيد أولاً فإنه ملاك الأمر ثم نهاهم عما اعتادوه من البخس المنافي للعدل المخل بحكمة التعاوض . ﴿ إِنّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ بسعة تغنيكم عن البخس ، أو بنعمة حقها أن تتفضلوا على الناس شكراً عليها لا أن تنقصوا حقوقهم ، أو بسعة فلا تزيلوها بما أنتم عليه وهو في الجملة علة للنهي . ﴿ وَإِنّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ لا يشذ منه أحد منكم . وقيل عذاب مهلك من قوله : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال ، ووصف اليوم بالإِحاطة وهي صفة العذاب لاشتماله عليه .

﴿ ويا قوم أَوْفُواْ المكيال والميزان ﴾ صرح بالأمر بالإِيفاء بعد النهي عن ضده مبالغة وتنبيهاً على أنه لا يكفيهم الكف عن تعمدهم التطفيف ، بل يلزمهم السعي في الإِيفاء ولو بزيادة لا يتأتى بدونها . ﴿ بالقسط ﴾ بالعدل والسوية من غير زيادة ولا نقصان ، فإن

الازدياد إيفاء وهو مندوب غير مأمور به وقد يكون محظوراً . ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ النَّاس أَشْيَاءهُمْ ﴾ تعميم بعد تخصيص فإنه أعم من أن يكون في المقدار ، أو في غيره وكذا قوله : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى الأَرضِ مُفْسِدِينَ ﴾ فإن العثو يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد . وقيل المراد بالبخس المكس كأخذ العشور في المعاملات ، والعثو السرقة وقطع الطريق والغارة . وفائدة الحال إخراج ما يقصد به الإصلاح كما فعله الخضر عليه الصلاة والسلام . وقيل معناه ولا تعثوا في الأرض مفسدين في أمر دينكم ومصالح آخرتكم .

﴿ بَقِيَّتُ اللَّه ﴾ ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزه عما حرم عليكم . ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ مما تجمعون بالتطفيف . ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بشرط أن تؤمنوا فإن خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالإيمان . أو إن كنتم مصدقين لي في قولي لكم . وقيل البقية الطاعة كقوله : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ وقرىء "تقية" الله بالتاء وهي تقواه التي تكف عن المعاصي .

﴿ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أحفظكم عن القبائح ، أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم عليها وإنما أنا ناصح مبلغ وقد أعذرت حين أنذرت ، أو لست بحافظ عليكم

نعم الله لو لم تتركوا سوء صنيعكم .

﴿ قَالُواْ يا شُعَيْبُ أصلواتك تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَا ﴾ من الأصنام ، أجابوا به آمرهم بالتوحيد على الاستهزاء به والتهكم بصلواته والإشعار بأن مثله لا يدعو إليه داع عقلي ، وإنما دعاك إليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه . وكان شعيب كثير الصلاة فلذلك جمعوا وخصوا الصلاة بالذكر . وقرأ حمزة والكسائي وحفص على الإفراد والمعنى : أصلاتك تأمرك بتكليف أن نترك ، فحذف المضاف لأن الرجل لا يؤمر بفعل غيره . ﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ عطف على ما أي وأن نترك فعلنا ما نشاء في أموالنا . وقرىء بالتاء فيهما على أن العطف على ﴿ أَن نَّتْرُكَ ﴾ وهو جواب النهي عن التطفيف والأمر بالإيفاء . وقيل كان ينهاهم عن تقطيع الدراهم والدنانير فأرادوا به ذلك . ﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد ﴾ تهكموا به وقصدوا وصفه بضد ذلك ، أو عللوا إنكار ما سمعوا منه واستبعاده بأنه موسوم بالحلم والرشد المانعين عن المبادرة إلى أمثال ذلك .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ إشارة إلى ما آتاه الله من العلم والنبوة.

﴿ وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ إشارة إلى ما آتاه الله من المال الحلال، وجواب الشرط محذوف تقديره فهل يسع مع هذا الإِنعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية أن أخون في وحيه، وأخالفه في أمره ونهيه. وهو اعتذار عما أنكروا عليه من تغيير المألوف والنهي عن دين الآباء، والضمير في ﴿ مِنْهُ ﴾ لله أي من عنده وبإعانته بلا كد مني في تحصيله.

﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إلى مَا أنهاكم عَنْهُ ﴾ أي وما أريد أن آتي ما أنهاكم عنه لأستبد به دونكم، فلو كان صواباً لآثرته ولم أعرض عنه فضلاً عن أن أنهى عنه، يقال خالفت زيداً إلى كذا إذا قصدته وهو مول عنه، وخالفته عنه إذا كان الأمر بالعكس، ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصلاح مَا استطعت ﴾ ما أريد إلا أن أصلحكم بأمري بالمعروف ونهيي عن المنكر ما دمت أستطيع الإِصلاح، فلو وجدت الصلاح فيما أنتم عليه لما نهيتكم عنه، ولهذه الأجوبة الثلاثة على هذا النسق شأن: وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعي في كل ما يأتيه ويذره أحد حقوق ثلاثة أهمها وأعلاها حق الله تعالى، وثانيها حق النفس، وثالثها حق الناس. وكل ذلك يقتضي أن آمركم بما أمرتكم به وأنهاكم عما نهيتكم عنه. و ﴿ مَا ﴾ مصدرية واقعة موقع الظرف وقيل خبرية بدل من ﴿ الإصلاح ﴾ أي المقدار الذي استطعته، أو إصلاح ما استطعته فحذف المضاف. ﴿ وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بالله ﴾ وما توفيقي لإِصابة الحق والصواب إلا بهدايته ومعونته. ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فإنه القادر

المتمكن من كل شيء وما عداه عاجز في حد ذاته ، بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار ، وفيه إشارة إلى محض التوحيد الذي هو أقصى مراتب العلم بالمبدأ . ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ إشارة إلى معرفة المعاد ، وهو أيضاً يفيد الحصر بتقديم الصلة على الفعل . وفي

هذه الكلمات طلب التوفيق لإصابة الحق فيما يأتيه ويذره من الله تعالى ، والاستعانة به في مجامع أمره والإقبال عليه بشراشره ، وحسم أطماع الكفار وإظهار الفراغ عنهم وعدم المبالاة بمعاداتهم وتهديدهم بالرجوع إلى الله للجزاء .

﴿ ويا قوم لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ لا يكسبنكم . ﴿ شِقَاقِى ﴾ معاداتي . ﴿ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ ﴾ من الغرق . ﴿ أَوْ قَوْمَ هُودٍ ﴾ من الريح . ﴿ أَوْ قَوْمَ صالح ﴾ من الرجفة و﴿ أن ﴾ بصلتها ثاني مفعولي جزم ، فإنه يعدى إلى واحد وإلى اثنين ككسب . وعن ابن كثير ﴿ يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ بالضم وهو منقول من المتعدي إلى مفعول واحد ، والأول أفصح فإن أجرم أقل دوراناً على ألسنة الفصحاء . وقرىء ﴿ مَثَلُ ﴾ بالفتح لإضافته إلى المبنى كقوله :

لَمْ يمْنع الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ نَطَقَت . . . حَمَامَةٌ فِي غُصُون ذات ارْقَالِ

﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ زمانا أو مكانا فإن لم تعتبروا بمن قبلهم فاعتبروا بهم، أو ليسوا ببعيد منكم في الكفر والمساوي فلا يبعد عنكم ما أصابهم، وإفراد البعيد لأن المراد وما إهلاكهم أو وما هم بشيء بعيد، ولا يبعد أن يسوي في أمثاله بين المذكر والمؤنث لأنها على زنة المصادر كالصهيل والشهيق.

﴿ واستغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ عما أنتم عليه. ﴿ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ ﴾ عظيم الرحمة للتائبين. ﴿ وَدُودٌ ﴾ فاعل بهم من اللطف والإحسان ما يفعل البليغ المودة بمن يوده، وهو وعد على التوبة بعد الوعيد على الإصرار.

(247/384)

﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ ﴾ ما نفهم. ﴿ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ كوجوب التوحيد وحرمة البخس وما ذكرت دليلاً عليهما، وذلك لقصور عقولهم وعدم تفكرهم. وقيل قالوا ذلك استهانة بكلامه، أو لأنهم لم يلقوا إليه أذهانهم لشدة نفرتهم عنه. ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ لا قوة لك فتمتنع منا إن أردنا بك سوءاً، أو مهينا لا عِزَّ لك، وقيل أعمى بلغة حمير وهو مع عدم مناسبته يرده التقييد بالظرف، ومنع بعض المعتزلة استنباء الأعمى قياساً على القضاء والشهادة والفرق بين. ﴿ وَلَوْلاَ رَهْطُكَ ﴾ قومك وعزتهم عندنا

لكونهم على ملتنا لا لخوف من شوكتهم ، فإن الرهط من الثلاثة إلى العشرة وقيل إلى التسعة . ﴿ لرجمناك ﴾ لقتلناك برمي الأحجار أو بأصعب وجه . ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ فتمنعنا عزتك عن الرجم ، وهذا ديدن السفيه المحجوج يقابل الحجج والآيات بالسب ، والتهديد وفي إيلاء ضميره حرف النفي تنبيه على أن الكلام فيه لا في ثبوت العزة ، وأن المانع لهم عن إيذائه عزة قومه ولذلك .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ واتخذتموه وَرَاءكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ وجعلتموه كالمنسي المنبوذ وراء الظهر بإشراككم به والإهانة برسوله فلا تبقون علي لله وتبقون علي لرهطي ، وهو يحتمل الإنكار والتوبيخ والرد والتكذيب ، و ﴿ ظِهْرِيّاً ﴾ منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب . ﴿ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ فلا يخفى عليه شيء منها فيجازي عليها .

﴿ ويا قوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عامل سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ سبق مثله في سورة "الأنعام" والفاء في ف ﴿ سَوْفَ تَعْلَمونَ ﴾ ثمة للتصريح بأن الإصرار والتمكن فيما هم عليه سبب لذلك ، وحذفها ها هنا لأنه جواب سائل قال : فماذا يكون بعد ذلك ؟ فهو أبلغ في التهويل .

﴿ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ عطف على من يأتيه لا لأنه قسيم له كقولك : ستعلم الكاذب والصادق ، بل لأنهم لما أوعدوه وكذبوه قال : سوف تعلمون من المعذب والكاذب مني ومنكم . وقيل كان قياسه ومن هو صادق لينصرف الأول إليهم والثاني إليه لكنهم لما كانوا يدعونه كاذباً قال : ومن هو كاذب على زعمهم . ﴿ وارتقبوا ﴾ وانتظروا ما أقول لكم .

﴿ إِنّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ منتظر فعيل بمعنى الراقب كالصريم ، أو المراقب كالعشير أو المرتقب كالرفيع .

﴿ وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا والذين ءامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مّنَّا ﴾ إنما ذكره بالواو كما في قصة عاد إذ لم يسبقه ذكر وعد يجري مجرى السبب له بخلاف قصتي صالح ولوط فإنه ذكر بعد الوعد وذلك قوله : ﴿ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح ﴾ فلذلك جاء بفاء السببية . ﴿ وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ ﴾ قيل صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا . ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَارِهِمْ جاثمين ﴾ ميتين ، وأصل الجثوم اللزوم في المكان .

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ كأن لم يقيموا فيها . ﴿ أَلاَ بُعْدًا لّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ شبههم بهم لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة ، غير أن صيحتهم كانت من تحتهم وصيحة مدين كانت من فوقهم . وقرىء ﴿ بَعُدَتْ ﴾ بالضم على الأصل فإن الكسر تغيير لتخصيص

معنى البعد بما يكون بسبب الهلاك ، والبعد مصدر لهما والبعد مصدر المكسور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 252 . 258 ﴾

(249/384)

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

القصة السادسة : التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة شعيب عليه السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ وإلى مدين ﴾

أي : وأرسلنا إلى مدين وهم قبيلة ؛ أبوهم مدين بن إبراهيم عليه السلام . وقيل : هو اسم مدينة بناها مدين المذكور ، وعلى هذا فالتقدير : وأرسلنا إلى أهل مدين ، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه ، ﴿ أخاهم ﴾ ، أي : في النسب لا في الدين و﴿ شعيباً ﴾ عطف بيان وكأنّ قائلاً قال : فما قال لهم ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ ما قال إخوته من الأنبياء في البداءة بأصل الدين . ﴿ يا قوم ﴾ مستعطفاً لهم مظهراً غاية الشفقة ﴿ اعبدوا الله ﴾ ، أي : وحدوه ولا تشركوا به شيئاً ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ فلقد اتفقت كما ترى كلمتهم ، واتحدت إلى الله تعالى دعوتهم ، وهذا وحده قطعي الدلالة على صدق كل منهم لما علم

قطعاً من تباعد أعصارهم، وتنائي ديارهم، وإن بعضهم لم يلمّ بالعلوم، ولا عرف أخبار الناس إلا من الحيّ القيوم، ولما دعاهم إلى العدل فيما بينهم وبين الله تعالى دعاهم إلى العدل فيما بينهم وبين عبيده في أقبح ما كانوا اتخذوه بعد الشرك تديناً فقال: ﴿ولا تنقصوا﴾ بوجه من الوجوه ﴿المكيال والميزان﴾، أي: لا الكيل ولا آلته ولا الوزن ولا آلته، والكيل تعديل الشيء بالآلة في القلة والكثرة، والوزن تعديله في الخفة والثقل، فالكيل العدل في الكمية والوزن العدل في الكيفية، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إني أراكم بخير﴾، أي: بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف. قال ابن عباس: كانوا موسرين في نعمة. وقال مجاهد: كانوا في خصب وسعة فحذرهم زوال تلك النعمة وغلاء السعر وحلول النقمة إن لم يؤمنوا ويتوبوا وهو قوله: ﴿وإني أخاف عليكم﴾ إن لم تؤمنوا ﴿عذاب

يوم محيط﴾، أي: يحيط بكم فيهلككم جميعاً وهو عذاب الاستئصال في الدنيا وعذاب النار في الآخرة، ومنه قوله تعالى: ﴿وإنّ جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ والمحيط من صفة اليوم في الظاهر، وفي المعنى من صفة العذاب وذلك مجاز مشهور، كقوله: ﴿هذا يوم عصيب﴾ (هود).

﴿ ويا قوم أوفوا ﴾ أي : أتموا اتماماً حسناً ﴿ المكيال والميزان ﴾ أي : الكيل والوزن وآلتهما . فإن قيل : النهي عن النقصان أمر بالإيفاء فما فائدة قوله تعالى ﴿ أوفوا ﴾ ؟

أجيب : بأنهم نهوا أوّلاً عن القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ؛ لأنّ في التصريح بالقبيح نفياً عن المنهي وتغييراً له ، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه وجيء به مقيداً . ﴿ بالقسط ﴾ ، أي : ليكون الإيفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان أمراً بما هو الواجب ؛ لأنّ ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب إليه غير المأمور به ، وقد يكون محظوراً كما في الربا وقوله تعالى : ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ تعميم بعد تخصيص فإنه أعم من أن يكون في المقدار أو في غيره ، فإنهم كانوا يأخذون من كل شيء يباع كما تفعل السماسرة وكانوا ، يمسكون الناس ، وكانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء ، فنهوا عن ذلك ، فظهر بهذا البيان أنّ هذه الأشياء غير مكررة بل في كل واحد منها فائدة زائدة . والحاصل : أنه تعالى نهى في الآية الأولى عن النقصان في المكيال والميزان ، وفي الثانية : أمر بإعطاء قدر الزيادة ولا يحصل الجزم واليقين بأداء الواجب إلا عند أداء ذلك القدر من الزيادة ، ولهذا

قال الفقهاء : إنه تعالى أمر بغسل الوجه وذلك لا يحصل إلا عند غسل جزء من الرأس ، فكأنه تعالى نهى أوّلاً عن سعي الإنسان في أن يجعل مال غيره ناقصاً لتحصل له تلك الزيادة . وفي الثاني : أمر بأن يسعى في تنقيص مال نفسه ليخرج بالتعيين عن العهدة كما قيده بقوله تعالى ﴿ بالقسط ﴾ ، وفي الآية الثالثة نهى عن

النقص في كل الأشياء وكذا قوله تعالى : ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ فإنّ العثو يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد ، ومفسدين حال مؤكدة لمعنى عاملها . وفائدتها : إخراج ما يقصد به الإصلاح كما فعله الخضر عليه السلام .

﴿ بقيت الله ﴾ قال ابن عباس : يعني ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن ﴿ خير لكم ﴾ مما تأخذونه بالتطفيف . وقال مجاهد : مما يحصل لكم في الدنيا من المال الحرام ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ ، أي : مصدّقين بما قلت لكم وأمرتكم به .

فائدة : ﴿ بقيت ﴾ رسمت هنا بالتاء المجرورة وقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي والباقون وقفوا عليها بالهاء . ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ أعلم جميع أعمالكم وأقدر على

كفكم عما يكون منها فساداً . ولما أمرهم شعيب عليه السلام بشيئين بالتوحيد وبترك البخس .

(253/384)

﴿ قالوا ﴾ له ﴿ يا شعيب ﴾ سموه باسمه استخفافاً وغلظة وأنكروا عليه متهزئين به ﴿ أصلواتك تأمرك ﴾ ، أي : تفعل معك فعل من يأمر دائماً بتكليفنا ﴿ أن نترك ما يعبد ﴾ ، أي : على سبيل المواظبة ﴿ آباؤنا ﴾ من الأصنام ، فحذف الذي هو التكليف ؛ لأنّ الإنسان لا يؤمر بفعل غيره ، قالوا له ذلك في جواب أمره لهم بالتوحيد ﴿ أو ﴾ نترك ﴿ أن نفعل ﴾ ، أي : دائماً ﴿ في أموالنا ما نشاء ﴾ من قطع الدراهم والدنانير وإفساد المعاملة والمقامرة ونحوها مما يكون إفساداً للمال ، قالوا ذلك في جواب النهي عن التطفيف والأمر بالإيفاء ، وإنما أضافوا ذلك إلى صلاته تهكماً واستهزاء بها وإشعاراً بأن مثل هذا لا يدعو إليه داع عقلي ، وإنما دعاك إليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه ، وكان شعيب عليه الصلاة والسلام كثير الصلاة في الليل والنهار ، وكان قومه إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا . وقصدوا بقولهم أصلواتك تأمرك السخرية والهزء ، كما أنك إذا رأيت معتوهاً يطالع كتباً ثم يذكر كلاماً فاسداً فيقال له : هذا فائدة مطالعة تلك الكتب

على سبيل الهزء فكذا هنا . وقرأ حفص وحمزة والكسائي : أصلاتك بالإفراد ، والباقون بالجمع والتاء بالرفع في القراءتين ، وغلظ ورش اللام في أصلواتك ، وقولهم له : ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ تهكم به ، وقصدوا وصفه بضدّ ذلك كما يقال للبخيل الخسيس : لو رآك حاتم لسجد لك ، وعللوا إنكار ما سمعوه منه واستبعدوه بأنه موسوم بالحلم والرشد المانعين من المبادرة إلى مثل ذلك ، ثم أخرج قوله عليه الصلاة والسلام على تقدير سؤال بقوله:

﴿ قال يا قوم ﴾ مستعطفاً لهم لما بينهم من عواطف القرابة منبهاً لهم على أحسن النظر فيما ساقه على سبيل الفرض ؛ والتقدير : ليكون أدعى إلى سبيل الوفاق والإنصاف ﴿ أرأيتم ﴾ ، أي : أخبروني ﴿ إن كنت على بينة ﴾ ، أي : برهان ﴿ من ربي ﴾ وعطف على جملة الشرط المستفهم عنه قوله : ﴿ ورزقني ﴾ والضمير في ﴿ منه ﴾ لله تعالى ، أي : من عنده بإعانته بلا كدّ مني في تحصيله . وعظم الرزق بقوله : ﴿ رزقاً حسناً ﴾ جليلاً ومالاً حلالاً لم أظلم فيه أحداً ، وجواب الشرط محذوف ، أي : فهل يسوغ مع هذا الإنعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية أن أخون في وحيه فأخالفه في

أمره ونهيه ، وهذا اعتذار عما أنكروا عليه من تغيير المألوف والنهي عن دين الآباء ﴿ وما أريد أن أخالفكم ﴾ ، أي : وأذهب ﴿ إلى ما أنهاكم عنه ﴾ فأرتكبه ﴿ إن ﴾ ، أي : ما ﴿ أريد ﴾ ، أي : فيما آمركم به وأنهاكم عنه ﴿ إلا الإصلاح ﴾ ، أي : ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي وأمري بالمعروف ونهي عن المنكر ﴿ ما استطعت ﴾ ، أي : وهو الإبلاغ والإنذار فقط ، ولا استطيع إجباركم على الطاعة ؛ لأنّ ذلك إلى الله تعالى فإنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿ وما توفيقي ﴾ ، أي : لإصابة الحق والصواب ﴿ إلا بالله ﴾ ، أي : إلا بمعونته وتأييده ﴿ عليه ﴾ لا على غيره ﴿ توكلت ﴾ ، أي : اعتمدت في جميع أموري ، فإنه القادر على كل شيء ، وما عداه عاجز ، وهذه الصيغة تفيد الحصر فلا ينبغي للإنسان أن يتوكل على أحد إلا على الله تعالى ، وفيه إشارة إلى محض التوحيد الذي هو أقصى مراتب المبدأ وأمّا قوله : ﴿ وإليه أنيب ﴾ ففيه إشارة إلى معرفة المعاد ، وهو أيضاً يفيد الحصر ؛ لأنّ قوله وإليه أنيب يدل على أنه لا مآب للخلق إلا إلى الله تعالى ، وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ذكر شعيباً قال : "خطيب الأنبياء" لحسن مراجعته قومه .

﴿ ويا قوم لا يجرمنكم ﴾ ، أي : لا يكسبنكم ﴿ شقاقي ﴾ ، أي : خلافي وهو فاعل بيجرم ، والضمير مفعول أوّل ، والمفعول الثاني ﴿ أن يصيبكم ﴾ عذاب العاجلة على كفركم وأفعالكم الخبيثة . قال في "الكشاف" : جرم مثل كسب في تعديه إلى مفعول واحد وإلى مفعولين ، تقول : جرم ذنباً وكسبه وجرمته ذنباً وكسبته إياه . ومنه قوله تعالى ﴿ لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم ﴾ . ﴿ مثل ما أصاب قوم نوح ﴾ من الغرق ﴿ أو قوم هود ﴾ من الريح العقيم ﴿ أو قوم صالح ﴾ من الرجفة ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ لا في الزمان ولا في المكان ؛ لأنهم كانوا حديثي عهد بهلاكهم ، وكانوا جيران قوم لوط وبلادهم قريبة من بلادهم ، فإن القرب في الزمان والمكان يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف على الأحوال ، فكأنه يقول : اعتبروا بأحوالهم واحذروا من مخالفة الله ومنازعته حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب . فإن قيل : لِمَ قال ببعيد ولم يقل ببعيدين ؟

أجيب : بأنّ التقدير : وما إهلاكهم بشيء بعيد ، وأيضاً يجوز أن يسوى في قريب وبعيد وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودهما على زنة المصادر التي هي الصهيل والنهيق ونحوهما انتهى .

﴿ واستغفروا ربكم ﴾ ، أي : آمنوا به ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ عن عبادة غيره ؛ لأنّ التوبة لا تصح إلا بعد الإيمان وقد مرّ مثل ذلك . ﴿ إن ربي رحيم ﴾ ، أي : عظيم الرحمة للتائبين ﴿ ودود ﴾ ، أي : محب لهم . ولما بلغ عليه السلام في التقرير والبيان أجابوه بأنواع

فاسدة.

الأوّل: ﴿ قالوا ﴾ له ﴿ يا شعيب ما نفقه ﴾، أي: ما نفهم ﴿ كثيراً مما تقول ﴾. فإن قيل: إنه كان يخاطبهم بلسانهم فلم قالوا ﴿ ما نفقه ﴾؟

(256/384)

أجيب: بأنهم كانوا لا يلقون إليه أذهانهم لشدّة نفرتهم عن كلامه وهو قوله تعالى: ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ﴾ أو أنهم فهموه ولكنهم ما أقاموا له وزناً، فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه: ما أدري ما تقول. النوع الثاني: قولهم له: ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾، أي: لا قوّة لك فتمتنع منا إن أردناك بسوء أو ذليلاً لا عز لك، وقيل: أعمى بلغة حمير، قاله قتادة، وفي هذا تجويز العمي على الأنبياء إلا أنّ هذا اللفظ لا يحسن الاستدلال به في إثبات هذا المعنى؛ لأنه ترك الظاهر من غير دليل، وقيل: ضعيف البصر، قاله الحسن. النوع الثالث: قولهم له: ﴿ ولولا رهطك ﴾، أي: عشيرتك وعزتهم عندنا لكونهم على ملتنا لا لخوف من شوكتهم ﴿ لرجمناك ﴾ بالحجارة حتى تموت، والرهط من الثلاثة إلى عشرة، وقيل: إلى السبعة، والمقصود من هذا الكلام أنهم بينوا له أنه لا حرمة له عندهم ولا وقع له في

صدورهم وأنهم إنما لم يقتلوه لأجل احترام رهطه. النوع الرابع: قولهم له: ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾، أي: لا تعز علينا ولا تكرم حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم، وإنما يعز علينا رهطك؛ لأنهم من أهل ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا، ولما خوّف الكفار شعيباً عليه السلام بالقتل والإيذاء حكى الله تعالى عنهم ما ذكروه في هذا المقام وهو نوعان: الأوّل:

(257/384)

﴿ قال ﴾ لهم ﴿ يا قوم ﴾ مستعطفاً لهم مع غلظتهم عليه ﴿ أرهطي أعز عليكم من الله ﴾ المحيط بكل شيء قدرة وعلماً حتى نظرتم إليهم في لقرابتي منهم، ولم تنظروا إلى الله تعالى في قربي منه لما ظهر عليّ من كرامته تعالى ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهرياً ﴾، أي: جعلتموه كالمنسيّ المنبوذ وراء الظهر بإشراككم به، والإهانة لرسوله. قال في "الكشاف": والظهريّ منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب، ونظيره قولهم في النسبة إلى الأمس أمسيّ بكسر الهمزة، وقوله: ﴿ إنّ ربي بما تعملون محيط ﴾، أي: إنه عليم بأحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها. النوع الثاني: قوله:

﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ والمكانة الحالة التي يمكن صاحبها من عمله، والمعنى

: اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة وكل ما في وسعكم وطاقتكم من إيصال الشرور إليّ ، ﴿ إني ﴾ أيضاً ﴿ عامل ﴾ بما آتاني الله من القدرة والطاعة ﴿ سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ﴾ فمن موصولة مفعول العلم . فإن قيل : لم لم يقل فسوف تعلمون ؟

أجيب : بأنّ إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل وأمّا حذف الفاء فيجعله جواباً عن سؤال مقدّر وهو المسمى في علم البيان بالاستئناف البياني ، تقديره أنه لما قال : ﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل ﴾ فكأنهم قالوا : فماذا يكون بعد ذلك فقال : سوف تعلمون ، فظهر أن حذف حرف الفاء ههنا أكمل في بيان الفصاحة والتهويل ؛ لأنه استئناف . ﴿ وارتقبوا ﴾ ، أي : انتظروا عاقبة أمركم ﴿ إني معكم رقيب ﴾ ، أي : منتظر ، والرقيب بمعنى الراقب من رقبه كالضريب والصريم ، بمعنى الضارب والصارم أو بمعنى المراقب كالعشير والنديم ، أو بمعنى المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع .

﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ بعذابهم وإهلاكهم ﴿ نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة ﴾ ، أي : بفضل ﴿ منا ﴾ بأن هديناهم للإيمان ووفقناهم للطاعة . فإن قيل : لم جاءت قصة عاد وقصة مدين بالواو وقصة صالح ولوط بالفاء ؟

أجيب : بأنّ قصة عاد ومدين لم يسبقهما ذكر وعد يجري مجرى السبب له بخلاف قصتي صالح ولوط فإنهما ذكرا بعد الوعد وذلك قوله تعالى : ﴿ وعد غير مكذوب ﴾ وقوله : ﴿ إنّ موعدهم الصبح ﴾ فلذلك جاءا بفاء السببية . ﴿ أخذت الذين ظلموا ﴾ ، أي : ظلموا أنفسهم بالشرك والبخس . ﴿ الصيحة ﴾ ، أي : صيحة جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة خرجت أرواحهم وماتوا جميعاً ، وقيل : أتتهم صيحة من السماء ﴿ فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ ، أي : باركين على الركب ميتين .

﴿ كأن لم يغنوا ﴾ ، أي : كأنهم لم يقيموا ﴿ فيها ﴾ ، أي : ديارهم مدّة من الدهر ، مأخوذ من قولهم : غني بالمكان إذا أقام فيه مستغنياً به عن غيره ﴿ ألا بعداً ﴾ ، أي : هلاكاً ﴿ لمدين كما بعدت ثمود ﴾ إنما شبههم بهم ؛ لأنّ عذابهم كان أيضاً بالصيحة لكن صيحتهم كانت من تحتهم وصيحة مدين كانت من فوقهم ، قال ابن عباس : لم يعذب الله تعالى أمّتين بعذاب إلا قوم شعيب وقوم صالح ؛ فأمّا قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم ، وأمّا قوم شعيب فأخذتهم الصيحة من فوقهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 112.106 ﴾

وقال الشوكاني فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾

أي وأرسلنا إلى مدين ، وهم قوم شعيب ، أخاهم في النسب شعيباً .

وسموا مدين باسم أبيهم ، وهو مدين ابن إبراهيم .

وقيل : باسم مدينتهم .

(260/384)

قال النحاس : لا ينصرف مدين لأنه اسم مدينة ، وقد تقدّم الكلام على هذا في الأعراف بأبسط مما هنا ، وقد تقدّم تفسير : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ في أوّل السورة ، وهذه الجملة مستأنفة ؛ كأنه قيل : ماذا قال لهم شعيب لما أرسله الله إليهم ؟ وقد كان شعيب عليه السلام يسمى خطيب الأنبياء لحسن مراجعته لقومه ، أمرّهم أوّلاً بعبادة الله سبحانه الذي هو الإله وحده لا شريك له ، ثم نهاهم عن أن ينقصوا المكيال والميزان ، لأنهم كانوا مع كفرهم أهل تطفيف ، كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد ،

وكذلك إذا وصل إليهم الموزون أخذوا بوزن زائد ، وإذا باعوا باعوا بكيل ناقص ووزن ناقص ؛ وجملة ﴿ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ تعليل للنهي : أي لا تنقصوا المكيال والميزان لأني أراكم بخير : أي بثروة وسعة في الرزق ، فلا تغيروا نعمة الله عليكم بمعصيته والإضرار بعباده ، ففي هذه النعمة ما يغنيكم عن أخذ أموال الناس بغير حقها ، ثم ذكر بعد هذه العلة علة أخرى ، فقال : ﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ فهذه العلة فيها الإذكار لهم بعذاب الآخرة كما أن العلة الأولى فيها الإذكار لهم بنعيم الدنيا ؛ ووصف اليوم بالإحاطة والمراد العذاب ، لأن العذاب واقع في اليوم ؛ ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم ، أنه لا يشذ منهم أحد عنه ، ولا يجدون منه ملجأ ولا مهرباً ، واليوم : هو يوم القيامة ، وقيل : هو يوم الانتقام منهم في الدنيا بالصيحة .

ثم أكد النهي عن نقص الكيل والوزن بقوله : ﴿ ويا قوم أَوْفُوا المكيال والميزان بالقسط ﴾ والإيفاء : هو الإتمام .

والقسط : العدل ، وهو عدم الزيادة والنقص وإن كان الزيادة على الإيفاء فضل وخير ، ولكنها فوق ما يفيده اسم العدل ، والنهي عن النقص ، وإن كان يستلزم الإيفاء ففي تعاضد

الدلالتين مبالغة بليغة وتأكيد حسن ، ثم زاد ذلك تأكيداً فقال : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ قد مرّ تفسير هذا في الأعراف ، وفيه النهي عن البخس على العموم ، والأشياء أعمّ مما يكال ويوزن ، فيدخل البخس بتطفيف الكيل والوزن في هذا دخولاً أوّلياً .

وقيل : البخس : المكس خاصة ، ثم قال : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ قد مرّ أيضاً تفسيره في البقرة ، والعثي في الأرض يشمل كل ما يقع فيها من الإضرار بالناس ، فيدخل فيه ما في السياق من نقص المكيال والميزان ، وقيده بالحال وهو قوله : ﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ ليخرج ما كان صورته من العثي في الأرض ، والمقصود به الإصلاح كما وقع من الخضر في السفينة ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي : ما يبقيه لكم من الحلال بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر خيراً وبركة مما تبقونه لأنفسكم من التطفيف والبخس ، والفساد في الأرض ، ذكر معناه ابن جرير وغيره من المفسرين .

وقال مجاهد : بقية الله : طاعته .

وقال الربيع : وصيته .

وقال الفراء : مراقبته ، وإنما قيد ذلك بقوله : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ لأن ذلك إنما ينتفع به المؤمن لا الكافر ، أو المراد بالمؤمنين هنا : المصدّقون لشعيب ﴿ وَمَا أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ أحفظكم من الوقوع في المعاصي من التطفيف والبخس وغيرهما ، أو أحفظ عليكم

أعمالكم ، وأحاسبكم بها وأجازيكم عليها .

وجملة : ﴿ قَالُوا۟ يَا شُعَيْبُ أصلواتك تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قالوا لشعيب ؟ وقرىء " أصلاتك " بالإفراد ، و ﴿ أن نترك ﴾ في موضع نصب .

(262/384)

وقال الكسائي : موضعها خفض على إضمار الباء ، ومرادهم بما يعبد آباؤهم ما كانوا يعبدون من الأوثان ، والاستفهام للإنكار عليه والاستهزاء به ، لأن الصلوات عندهم ليست من الخير الذي يقال لفاعله عند إرادة تليين قلبه وتذليل صعوبته كما يقال لمن كان كثير الصدقة إذا فعل ما لا يناسب الصواب : أصدقتك أمرتك بهذا .

وقيل : المراد بالصلاة هنا : القراءة .

وقيل : المراد بها : الدين ، وقيل : المراد بالصلوات : أتباعه ، ومنه المصلى الذي يتلو السابق ؛ وهذا منهم جواب لشعيب عن أمره لهم بعبادة الله وحده ، وقولهم : ﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ جواب له عن أمرهم بإيفاء الكيل والوزن ، ونهيهم عن نقصهما ، وعن بخس الناس ، وعن العثي في الأرض ، وهذه الجملة معطوفة على "ما" في ﴿ ما يعبد

آباؤنا ﴾ .

والمعنى : أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، وتأمرك أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء ، من الأخذ والإعطاء ، والزيادة والنقص .

وقرىء " تفعل ما تشاء " بالفوقية فيهما .

قال النحاس : فتكون ﴿ أو ﴾ على هذه القراءة للعطف على أن الأولى ، والتقدير : أصلواتك تأمرك أن تفعل في أموالنا ما تشاء .

وقرىء "نفعل" بالنون و "ما تشاء " بالفوقية ، ومعناه : أصلواتك تأمرك أن نفعل نحن في أموالنا ما تشاؤه أنت وندع ما نشاؤه نحن وما يجري به التراضي بيننا ؛ ثم وصفوه بوصفين عظيمين فقالوا : ﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد ﴾ على طريقة التهكم به ، لأنهم يعتقدون أنه على خلافهما ، أو يريدون إنك لأنت الحليم الرشيد عند نفسك ، وفي اعتقادك ، ومعناهم : أن هذا الذي نهيتنا عنه وأمرتنا به يخالف ما تعتقده في نفسك من الحلم والرشد .

وقيل : إنهم قالوا ذلك لا على طريقة الاستهزاء بل هو عندهم كذلك ، وأنكروا عليه الأمر والنهي منه لهم بما يخالف الحلم والرشد في اعتقادهم .

وقد تقدّم تفسير الحلم والرشد .

وجملة : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ مستأنفة كالجمل التي قبلها .

والمعنى : أخبروني إن كنت على حجة واضحة من عند ربي فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ ﴾ أي من فضله وخزائن ملكه ﴿ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أي : كثيراً واسعاً حلالاً طيباً ، وقد كان عليه السلام كثير المال .

وقيل : أراد بالرزق : النبوّة .

وقيل : الحكمة ، وقيل : العلم .

وقيل : التوفيق ، وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه سياق الكلام تقديره : أترك أمركم ونهيكم ، أو أتقولون في شأني ما تقولون مما تريدون به السخرية والاستهزاء ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ أي : وما أريد بنهيي لكم عن التطفيف والبخس أن أخالفكم إلى ما نهيتكم عنه فأفعله دونكم ، يقال : خالفه إلى كذا إذا قصده وهو مولّ عنه ، وخالفته عن كذا في عكس ذلك ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ ﴾ أي : ما أريد بالأمر والنهي إلا الإصلاح لكم ، ودفع الفساد في دينكم ومعاملاتكم ﴿ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ ما بلغت إليه استطاعتي ، وتمكنت منه طاقتي ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ أي : ما صرت موفقاً هادياً نبياً مرشداً إلا بتأييد الله سبحانه ، وإقداري عليه ومنحي إياه ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في جميع أموري التي منها أمركم ونهيكم ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي : أرجع في كل ما نابني من الأمور

، وأفوّض جميع أموري إلى ما يختاره لي من قضائه وقدره ، وقيل : معناه : وإليه أرجع في الآخرة .

وقيل : إن الإنابة : الدعاء .

ومعناه : وله أدعوا .

قوله : ﴿ ويا قوم لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى ﴾ قال الزجاج : معناه لا يكسبنكم شقاقي إصابة العذاب إياكم ، كما أصاب من كان قبلكم .

وقيل : معناه : لا يحملنكم شقاقي ، والشقاق : العداوة ، ومنه قول الأخطل :

ألا من مبلغ عني رسولا . . . فكيف وجدتم طعم الشقاق

(264/384)

و ﴿ أَن يُصِيبَكُم ﴾ في محل نصب على أنه مفعول ثان ليجرمنكم ﴿ مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ ﴾ من الغرق ﴿ أَوْ قَوْمَ هُودٍ ﴾ من الريح ﴿ أَوْ قَوْمَ صالح ﴾ من الصيحة ، وقد تقدّم تفسير يجرمنكم وتفسير الشقاق ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ يحتمل أن يريد ليس مكانهم ببعيد من مكانكم ، أو ليس زمانهم ببعيد من زمانكم ، أو ليسوا ببعيد منكم في السبب الموجب لعقوبتهم ، وهو مطلق الكفر ، وأفرد لفظ ﴿ بَعِيدٍ ﴾ لمثل ما سبق في ﴿

وَمَا هِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ .

ثم بعد ترهيبهم بالعذاب أمرهم بالاستغفار والتوبة ، فقال : ﴿ واستغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ وقد تقدّم تفسير الاستغفار مع ترتيب التوبة عليه في أوّل السورة ، وتقدّم تفسير الرحيم ، والمراد هنا : أنه عظيم الرحمة للتائبين ، والودود : المحبّ . قال في الصحاح : وددت الرجل أودّه ودّاً : إذا أحببته ، والودود المحب ، والودّ والوُدّ والوَدّ : المحبة ، والمعنى هنا : أنه يفعل بعباده ما يفعله من هو بليغ المودّة بمن يودّه من اللطف به ، وسوق الخير إليه ، ودفع الشرّ عنه .

وفي هذا تعليل لما قبله من الأمر بالاستغفار والتوبة .

جملة : ﴿ قَالُواْ ياشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ مستأنفة كالجمل السابقة ، والمعنى : أنك تأتينا بما لا عهد لنا به من الإخبار بالأمور الغيبية ، كالبعث والنشور ، ولا نفقه ذلك : أي نفهمه كما نفهم الأمور الحاضرة المشاهدة ، فيكون نفي الفقه على هذا حقيقة لا مجازاً .

وقيل : قالوا ذلك إعراضاً عن سماعه ، واحتقار الكلام مع كونه مفهوماً لديهم معلوماً عندهم ، فلا يكون نفي الفقه حقيقة بل مجازاً ، يقال : فقه يفقه : إذا فهم فِقْهاً وفَقَها ،

وحكى الكسائي فقهانا ، ويقال : فقه فقهاً : إذا صار فقيهاً ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾

أي : لا قوّة لك تقدر بها على أن تمنع نفسك منا ، وتتمكن بها من مخالفتنا .

وقيل : المراد أنه ضعيف في بدنه ، قاله عليّ بن عيسى .

وقيل : إنه كان مصاباً ببصره .

قال النحاس : وحكى أهل اللغة أن حمير تقول للأعمى : ضعيف ، أي قد ضعف بذهاب بصره كما يقال له ضرير ، أي قد ضرّ بذهاب بصره .

وقيل : الضعيف : المهين ، وهو قريب من القول الأوّل ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ رهط الرجل : عشيرته الذين يستند إليهم ، ويتقوّى بهم ، ومنه الراهط لجحر اليربوع ، لأنه يتوثق به ويخبأ فيه ولده ، والرهط يقع على الثلاثة إلى العشرة ، وإنما جعلوا رهطه مانعاً من إنزال الضرر به مع كونهم في قلة ، والكفار ألوف مؤلفة ؛ لأنهم كانوا على دينهم ، فتركوه احتراماً لهم لا خوفاً منهم ، ثم أكدوا ما وصفوه به من الضعف بقولهم : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ حتى نكفّ عنك لأجل عزتك عندنا ، بل تركنا رجمك لعزة رهطك علينا ، ومعنى ﴿ لرجمناك ﴾ لقتلناك بالرجم ، وكانوا إذا قتلوا إنساناً رجموه بالحجارة وقيل : معنى ﴿ لرجمناك ﴾ لشتمناك ، ومنه قول الجعدي :

تراجمنا بمرّ القول حتى . . . نصير كأننا فرسا رهان

ويطلق الرجم على اللعن، ومنه الشيطان الرجيم، وجملة: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ مستأنفة، وإنما قال: أعزّ عليكم من الله، ولم يقل: أعزّ عليكم مني؛ لأن نفي العزّة عنه وإثباتها لقومه كما يدل عليه إيلاء الضمير حرف النفي استهانة به، والاستهانة بأنبياء الله استهانة بالله عزّ وجلّ، فقد تضمن كلامهم أن رهطه أعزّ عليه من الله، فاستنكر ذلك عليهم، وتعجب منه، وألزمهم ما لا مخلص لهم عنه، ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام، وفي هذا من قوّة المحاجة ووضوح المجادلة وإلقام الخصم الحجر ما لا يخفى، ولأمر ما سمي شعيب خطيب الأنبياء، والضمير في ﴿ واتخذتموه ﴾ راجع إلى الله سبحانه.

والمعنى: واتخذتم الله عزّ وجلّ بسبب عدم اعتدادكم بنبيه الذي أرسله إليكم ﴿ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ أي: منبوذاً وراء الظهر لا تبالون به.

وقيل: المعنى: واتخذتم أمر الله الذي أمرني بإبلاغه إليكم، وهو ما جئتكم به وراء ظهوركم، يقال: جعلت أمره بظهر: إذا قصرت فيه، و ﴿ ظِهْرِيًّا ﴾ منسوب إلى الظهر، والكسر لتغيير النسب ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم.

﴿ ويا قوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عامل سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ لما رأى إصرارهم على الكفر وتصميمهم على دين آبائهم، وعدم تأثير الموعظة فيهم، توعدهم بأن يعملوا على غاية تمكنهم ونهاية استطاعتهم، يقال: مكن مكانة: إذا تمكن أبلغ تمكن، وأخبرهم أنه عامل على حسب ما يمكنه ويقدّر الله له، ثم بالغ في التهديد والوعيد بقوله: ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: عاقبة ما أنتم فيه من عبادة غير الله والإضرار بعباده، وقد تقدّم مثله في الأنعام ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ "من" في محل نصب ب ﴿ تعلمون ﴾ : أي: سوف تعلمون من هو الذي يأتيه العذاب المخزي الذي يتأثر عنه الذلّ والفضيحة والعار ﴿ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ معطوف على ﴿ من يأتيه ﴾ ؛ والمعنى: ستعلمون من هو المعذب ومن هو الكاذب؟ وفيه تعريض بكذبهم في قولهم: ﴿ لَوْلَا رَهْطُكَ لرجمناك وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾.

وقيل: إن "من" مبتدأ، وما بعدها صلتها، والخبر محذوف، والتقدير: من هو كاذب فسيعلم كذبه ويذوق وبال أمره.

قال الفراء: إنما جاء بهو في ﴿ مَنْ هُوَ كاذب ﴾ لأنهم لا يقولون من قائم، إنما يقولون: من

قام ، ومن يقوم ، ومن القائم ، فزادوا هو ليكون جملة تقوم مقام فعل ويفعل .

قال النحاس : ويدل على خلاف هذا قول الشاعر :

من رسولي إلى الثريا فإني . . . ضقت ذرعاً بهجرها والكتاب

(268/384)

﴿ وارتقبوا إِنّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ أي : انتظروا إني معكم منتظر لما يقضي به الله بيننا ﴿ وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا والذين ءامَنُواْ مَعَهُ ﴾ أي : لما جاء عذابنا ، أو أمرنا بعذابهم ، نجينا شعيباً وأتباعه الذين آمنوا به ﴿ بِرَحْمَةٍ مّنَّا ﴾ لهم بسبب إيمانهم ، أو برحمة منا لهم : وهي هدايتهم للإيمان ﴿ وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ ﴾ غيرهم بما أخذوا من أموالهم بغير وجه ، وظلموا أنفسهم بالتصميم على الكفر ﴿ الصيحة ﴾ التي صاح بهم جبرائيل حتى خرجت أرواحهم من أجسادهم ، وفي الأعراف ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ [الأعراف : 78] وكذا في العنكبوت .

وقد قدّمنا أن الرجفة : الزلزلة ، وأنها تكون تابعة للصيحة لتموّج الهوى المفضي إليها ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَارِهِمْ جاثمين ﴾ أي : ميتين ، وقد تقدّم تفسيره وتفسير ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ قريباً ، وكذا تفسير ﴿ أَلاَ بُعْدًا لّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ وحكى الكسائي أن

أبا عبد الرحمن السلمي قرأ "كما بعدت ثمود " بضم العين .

قال المهدوي : من ضم العين من " بعدت " فهي لغة تستعمل في الخير والشرّ ، و " بعدت " بالكسر على قراءة الجمهور تستعمل في الشرّ خاصة ، وهي هنا بمعنى اللعنة .

وقد أخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ قال : رخص السعر ﴿ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ قال : غلاء السعر ، وأخرج ابن جرير ، عنه ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ ﴾ قال : رزق الله .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يقول : حظكم من ربكم خير لكم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد قال : طاعة الله .

(269/384)

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن الأعمش في قوله : ﴿ أصلواتك تَأْمُرُكَ ﴾ قال : أقراءتك .

وأخرج ابن عساكر ، عن الأحنف : أن شعيباً كان أكثر الأنبياء صلاة .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن ابن زيد ، في قوله : ﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ قال : نهاهم عن قطع هذه الدنانير والدراهم فقالوا : إنما هي أموالنا نفعل فيها ما نشاء ، إن شئنا قطعناها ، وإن شئنا أحرقناها ، وإن شئنا طرحناها .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن محمد بن كعب نحوه .

وأخرجا عن زيد بن أسلم نحوه أيضاً .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن سعد ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، وعبد بن حميد ، عن سعيد بن المسيب ، نحوه أيضاً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ قال : يقولون إنك لست بحليم ولا رشيد .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة قال : استهزاء به .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الضحاك ، في قوله : ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ قال : الحلال .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ قال : يقول لم أكن لأنهاكم عن أمر وأركبه .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ قال : إليه أرجع .

وأخرج أبو نعيم في الحلية، عن عليّ، قال: "قلت: يا رسول، الله أوصني، قال: " قل الله ربي ثم استقم" ، قلت: ربي الله وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، قال: " ليهنك العلم أبا الحسن، لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً " وفي إسناده محمد بن يوسف الكديمي.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة ﴿ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾ لا يحملنكم فراقي.

وأخرج ابن المنذر، عن مجاهد، قال: شقاقي عداوتي.

(270/384)

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ قال: لا تحملنكم عداوتي.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة، في قوله: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ قال: إنما كانوا حديثي عهد قريب بعد نوح وثمود.

وأخرج أبو الشيخ، وابن عساكر، عن سعيد بن جبير ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ قال: كان أعمى، وإنما عمي من بكائه من حبّ الله عزّ وجلّ.

وأخرج الواحدي، وابن عساكر، عن شدّاد بن أوس، قال: قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : " بكى شعيب عليه السلام من حبّ الله حتى عمي " وأخرج ابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والخطيب ، وابن عساكر من طرق ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ قال : كان ضرير البصر .

وأخرج أبو الشيخ ، عن أبي صالح ، مثله .

وأخرج أبو الشيخ ، عن سفيان في قوله : ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ قال : كان أعمى ، وكان يقال له خطيب الأنبياء .

وأخرج أبو الشيخ ، عن السديّ ، قال : معناه إنما أنت واحد .

وأخرج أبو الشيخ ، عن عليّ بن أبي طالب ، أنه خطب فتلا هذه الآية في شعيب ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ قال : كان مكفوفاً ، فنسبوه إلى الضعف ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ قال عليّ : فوالله الذي لا إله غيره ما هابوا جلال ربهم ما هابوا إلا العشيرة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ واتخذتموه وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ قال : نبذتم أمره .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة ، قال في الآية : لا تخافونه .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : تهاونتم به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ [84] .

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ ﴾ أي : وأرسلنا إلى مدين ، عطف على ما قبله و (مدين) بلد بين الحجاز والشام ، على مقربة من (معان) ويطلق على أهلها ، وهم قوم من العرب كانوا يعمرونها .

﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ أي : لتبخسوا الناس أشياءهم بالباطل : ﴿ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ ﴾ أي : نعمة وثروة في رزقكم ومعيشتكم ، وعافية وتمتع في وجودكم . يعني : فلا تتعرضوا لزوال ذلك عنكم بما تأتونه مما تنهون عنه ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ أي : مهلك ، أو لا يشذ منه أحد .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [85]

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ أي : العدل .

قال الزمخشري : فإن قلت : النهي عن النقصان أمر بالإيفاء ، فما فائدة قوله : ﴿ أَوْفُواْ ﴾ ؟ .

(272/384)

قلت : نهوا أولاً عن عين القبح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ؛ لأن في التصريح بالقبيح بغياً على المنهي ، وتعييراً له . ثم ورد الأمر بالإيفاء ، الذي هو حسن في العقول ، مصرحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه ، وبعث عليه ، وجيء به مقيداً (بالقسط) أي : ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية ، من غير زيادة ولا نقصان أمراً بما هو الواجب ؛ لأن ما جاوز العدل فضل ، وأمر مندوب إليه ، وفيه توقيف على أن الموفي عليه أن ينوي بالوفاء القسط ؛ لأن الإيفاء وجه حسنه أنه قسط وعدل . فهذه ثلاث فوائد . انتهى - .

﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ ﴾ أي : لا تنقصوهم حقوقهم بطريق من الطرق ، كالكيل والوزن وغيرهما ، فهو تعميم بعد تخصيص ؛ لأنه أعم من أن يكون في المقدار وغيره .

والبخس : الهضم والنقص . ويقال للمكس : البخس ، قال زهير :

~أفي كل أسواق العراق إتاوة وفي كل ما باع امرؤ بخس درهم

~ألا تستحي منا ملوك وتتقي محارمنا لا تتقي الدم بالدم

وروي (مكس درهم) . يريد زهير : أخذ الخراج وما هو اليوم في الأسواق من رسوم وظلم . وكان قوم شعيب يأخذون من كل شيء يباع شيئاً ، كما تفعل السماسرة ، أو كانوا يمكسون الناس ، أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء ، فنهوا عن ذلك ، كذا في " الكشاف " و " شرحه " .

(273/384)

قال القاشاني : لما رأى شعيب عليه السلام ، ضلالتهم بالشرك ، واحتجابهم عن الحق بالجبت ، وتهالكهم على كسب الحطام بأنواع الرذائل ، وتماديهم في الحرص على جمع المال بأسوأ الخصال ؛ نهاهم عن ذلك ، وقال : إني أراكم بخير في استعدادكم من إمكان حصول كمال وقبول هداية ، وإني أخاف عليكم إحاطة خطيئاتكم ؛ لاحتجابكم عن الحق ، ووقوفكم مع الغير ، وصرف أفكاركم بالكلية إلى طلب المعاش ، وإعراضكم عن المعاد ، وقصور هممكم على إحراز الفاسدات الفانيات عن تحصيل الباقيات الصالحات ، فلازموا التوحيد والعدالة واعتزلوا عن الشرك والظلم ، الذي هو جماع الرذائل وأم الغوائل .

﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ أي : لا تعملوا فيها الفساد . يعم أيضاً تنقيص الحقوق وغيره ، كالسرقة ، والدعاء إليه ، والصد عن الإيمان ونحوها .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [86] .

﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ ﴾ أي : ثوابه الباقي على وفاء الكيل والوزن ، أو ما أبقاه عليكم بعد التنزه عن الحرام ، أو ما تفضل عليكم من الربح بعد وفائهما : ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي : في دينكم ودنياكم : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإن المؤمن يبارك له إذا تنزه عن الحرام . أو مصدقين بما أقول .

وقال القاشاني : أي : إن كنتم مصدقين ببقاء شيء ، فما يبقى لكم عند الله من الكمالات والسعادات الأخروية ، خير لكم من تلك المكاسب الفانية التي تشقون بها ، وتشقون على أنفسكم في كسبها وتحصيلها ، ثم تتركونها بالموت ، ولا يبقى منها معكم شيء إلا وبال التبعات والعذاب اللازم ، لما في نفوسكم من رواسخ الهيئات .

﴿ وَمَا أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ أي : رقيب لأحفظكم عن القبائح وأكفكم عنها بسيطرة . وإنما أنا مبلغ نذير .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [87] .

﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ أي : من الأصنام ، أجابوا به أمرهم بالتوحيد على الاستهزاء والتهكم بصلواته ، والإشعار بأن مثله لا يدعو إليه داع عقلي ، وإنما دعاك إليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه . وكان شعيب كثير الصلاة ، فلذلك جمعوا وخصوا الصلاة بالذكر . وقرئ : (أصلاتك) بالإفراد – قاله القاضي .

﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء ﴾ من نقص ونحوه : ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ أي : الموصوف بالحلم والرشد في قومك ، يعنون أن ما تأمر به لا يطابق حالك ، وما شهرت به .

كما قال قوم صالح عليه السلام : ﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا ﴾ [هود : من الآية 62] ، أو قالوا ذلك تهكماً به ، والمراد أنه على الضد من ذلك . قيل : وهذا أرجح ؛ لأنه أنسب بتهكمهم قبله ، والأدق هو الأول لمماثلته لما خوطب به صالح ، وتعقيبه بمثل ما عقب به ، وهو قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ

أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [88] .

(275/384)

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ أي : أخبروني إن كنت على برهان يقيني مما أتاني ربي من العلم والنبوة : ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً ﴾ أي : مالاً حلالاً مكتسباً بلا بخس وتطفيف ، أو حكمة ونبوة ، وكمالاً وتكميلاً ، بالاستقامة على التوحيد . هل يصح لي أن أخون الوحي ، وأترك النهي عن الشرك والظلم ، والإصلاح بالتزكية والتحلية . وهو اعتذار عما أنكروه عليه من تغيير المألوف والنهي عن دين الآباء . وحذف جواب (أرأيتم) لما دل عليه في مثله ، كما مر في نبأ نوح وصالح عليهما السلام ، وعلى خصوصيته هنا من قوله : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ أي : وما أريد أن آتي ما أنهكم عنه ، لأستبد به دونكم ، فلو كان صواباً لآثرته ، ولم أعرض عنه ، فضلاً عن أن أنهى عنه – أفاده القاضي – .

وفي " التاج " : يقال خالفه إلى الشيء : عصاه إليه ، أو قصده بعد ما نهاه عنه ، وهو من ذلك .

قال القاشاني : أي : ما أقصد إلى جر المنافع الدنيوية الفانية ، بارتكاب الظلم الذي أنهاكم عنه .

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ أي : إصلاح نفوسكم بالتزكية ، والتهيئة لقبول الحكمة ، ما دمت مستطيعاً متمكناً منه ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ ﴾ أي : وما كوني موفقاً للإصلاح إلا بمعونة الله وتأييده ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي : أعتمد : ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي : أرجع في السراء والضراء .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [89] .

(276/384)

﴿ وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾ أي : لا يكسبنكم عدواتي : ﴿ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ﴾ من الغرق والريح والصيحة : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ فإن منازلهم قريبة منكم ، وقد علمتم ما نزل بهم من قلب الأرض وإمطار الحجارة . وذلك لأن مخالفة الرسل تقتضي أحد هذه الأمور .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [90] .

﴿ وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ﴾ أي : من عبادة الأصنام : ﴿ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ﴾ أي : بالتوحيد ، أو بالرجوع عن البخس والتطفيف : ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ ﴾ أي : للمستغفرين التائبين : ﴿ وَدُودٌ ﴾ أي : مبالغ في المحبة لهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [91] .

﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ ﴾ أي : ما نفهم : ﴿ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ كالتوحيد ، وحرمة البخس . يعنون أنهم لا يقبلونه ، أو قالوا ذلك استهانة به ، كما يقول الرجل لمن لا يعبأ بحديثه : ما أدري ما تقول ! أو جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً لا ينفعهم كثير منه ، و (الكثير) مراد به الكل ، أو قالوه فراراً من المكابرة .

قال أبو السعود : الفقه معرفة غرض المتكلم من كلامه . أي : ما نفهم مرادك ، وإنما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائل الحق البين على أحسن وجه وأبلغه ، وضاقت عليهم الحيل ، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلاً ، سوى الصدود عن منهاج الحق ، والسلوك إلى سبيل الشقاء ، كما هو ديدن المفحم المحجوج ، يقابل البينات بالسب والإبراق والإرعاد . فجعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ ، وأنواع العلوم والمعارف ، من قبيل ما لا يفهم معناه ، ولا يدرك فحواه ، وأدمجوا في ضمن ذلك أن في تضاعيفه ما يستوجب أقصى ما يكون من المؤاخذة والعقاب . ولعل ذلك ما فيه من التحذير من عواقب الأمم السالفة ، ولذلك قالوا :

﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً ﴾ أي : لا قوة لك ، فتمتنع منا إن أردنا بك سوءاً : ﴿ وَلَوْلاَ رَهْطُكَ ﴾ أي : قومك وأنهم على ملتنا : ﴿ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ أي : قتلناك برمي الأحجار ، أو شر قتلة : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ أي : لا تعز علينا ولا تكرم حتى نكرمك ونمنعك من الرجم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [92] .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي : من أمره ووحيه ودينه ﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ

وَرَاءكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ أي : نسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به ، و (الظهري) منسوب إلى الظهر ، والكسر من تغييرات النسب كما قالوا : (إمسي) بالكسر في النسبة إلى (أمس) و (دُهري) بالضم بالنسبة إلى (الدهر) : ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أي : عالم لا يخفى عليه فيجازيكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

(278/384)

﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [93] .

﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي : غاية تمكنكم واستطاعتكم ، أو على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها ، من كفركم وعداوتكم : ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ أي : على مكانتي التي كنت عليها من الثبات على الإسلام والمصابرة .

﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ أي : منتظر لهلاككم . وفي زيادة (معكم) إظهار منه عليه السلام لكمال الوثوق بأمره .

قال الزمخشري : فإن قلت : أي : فرق بين إدخال الفاء ونزعها في : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

؟ قلت : إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ، ونزعها وصل خفي تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر ، كأنهم قالوا : فما يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا ، وعلمت أنت ؟ فقال : سوف تعلمون ! فوصل تارة بالفاء ، وتارة بالاستئناف ، للتفنن في البلاغة ، كما هو عادة بلغاء العرب ، وأقوى الوصلين ، وأبلغهما الاستئناف ؛ للإشعار بأنه مما يسأل عنه ، ويعتني به ، ولذا كان أبلغ في التهويل .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [94] .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ إنما ذكره بالواو ، كما في قصة عاد ، إذ لم يسبقه ذكر وعد يجري مجرى السبب له بخلاف قصتي صالح ولوط ، فإنه ذكر بعد الوعد ، وذلك قوله : ﴿ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : من الآية 65] ، وقوله : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ﴾ [هود : من الآية 81] ، فلذلك جاء بفاء السببية . أفاده القاضي .

﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ ﴾ أي : بالعذاب : ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ أي : ميتين .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [95] .

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ ﴾ أي : يقيموا : ﴿ فِيهَا أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ شبههم بهم ، لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة ، وكانوا قريباً منهم في المنزل ، نظراءهم في الكفر وقطع الطريق ، وكانوا أعراباً مثلهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 126 . 132 ﴾

(280/384)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) ﴾

وهذا دور من أدوار الرسالة الواحدة بالعقيدة الخالدة ، ينهض به شعيب في قومه أهل مدين . . ومع الدعوة إلى عقيدة التوحيد قضية أخرى ، هي قضية الأمانة والعدالة في

التعامل بين الناس ، وهي وثيقة الصلة بالعقيدة في الله ، والدينونة له وحده ، واتباع شرعه وأمره . وإن كان أهل مدين قد تلقوها بدهشة بالغة ، ولم يدركوا العلاقة بين المعاملات المالية والصلاة المعبرة عن الدينونة لله !

وتجري القصة على نسق قصة هود مع عاد ، وقصة صالح مع ثمود ، وإن كانت أقرب في نهايتها وأسلوب عرضها . والتعبير عن خاتمتها إلى قصة صالح ، حتى لتشترك معها في نوع العذاب وفي العبارة عن هذا العذاب .

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً . قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . . . ﴾ .

إنها الدينونة لله وحده قاعدة العقيدة الأولى . وقاعدة الحياة الأولى . وقاعدة الشريعة الأولى . وقاعدة المعاملات الأولى . . . القاعدة التي لا تقوم بغيرها عقيدة ولا عبادة ولا معاملة . .

﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إني أراكم بخير ، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين . وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ . .

والقضية هنا هي قضية الأمانة والعدالة بعد قضية العقيدة والدينونة أو هي قضية الشريعة والمعاملات التي تنبثق من قاعدة العقيدة والدينونة . . فقد كان أهل مدين وبلادهم تقع في الطريق من الحجاز إلى الشام ينقصون المكيال والميزان ، ويبخسون الناس أشياءهم ، أي ينقصونهم قيمة أشيائهم في المعاملات . وهي رذيلة تمس نظافة القلب واليد كما تمس المروءة والشرف . كما كانوا بحكم موقع بلادهم يملكون أن يقطعوا الطريق على القوافل الذاهبة الآيبة بين شمال الجزيرة وجنوبها . ويتحكموا في طرق القوافل ويفرضوا ما يشاءون من المعاملات الجائرة التي وصفها الله في هذه السورة .

ومن ثم تبدو علاقة عقيدة التوحيد والدينونة لله وحده بالأمانة والنظافة وعدالة المعاملة وشرف الأخذ والعطاء ، ومكافحة السرقة الخفية سواء قام بها الأفراد أم قامت بها الدول . فهي بذلك ضمانة لحياة إنسانية أفضل ، وضمانة للعدل والسلام في الأرض بين الناس . وهي الضمانة الوحيدة التي تستند إلى الخوف من الله وطلب رضاه ، فتستند إلى أصل ثابت ، لا يتأرجح مع المصالح والأهواء . .

إن المعاملات والأخلاق لا بد أن تستند إلى أصل ثابت لا يتعلق بعوامل متقلبة . . هذه هي نظرة الإسلام . وهي تختلف من الجذور مع سائر النظريات الاجتماعية والأخلاقية التي ترتكن إلى تفكيرات البشر وتصوراتهم وأوضاعهم ومصالحهم الظاهرة لهم !

وهي حين تستند إلى ذلك الأصل الثابت ينعدم تأثرها بالمصالح المادية القريبة ؛ كما ينعدم تأثرها بالبيئة والعوامل السائدة فيها .

فلا يكون المتحكم في أخلاق الناس وقواعد تعاملهم من الناحية الأخلاقية هو كونهم يعيشون على الزراعة أو يعيشون على الرعي أو يعيشون على الصناعة . . إن هذه العوامل المتغيرة تفقد تأثيرها في التصور الأخلاقي وفي قواعد المعاملات الأخلاقية ، حين يصبح مصدر التشريع للحياة كلها هو شريعة الله ؛ وحين تصبح قاعدة الأخلاق هي إرضاء الله وانتظار ثوابه وتوقي عقابه ، وكل ما يهرف به أصحاب المذاهب الوضعية من تبعية الأخلاق للعلاقات الاقتصادية وللطور الاجتماعي للأمة يصبح لغواً في ظل النظرة الأخلاقية الإسلامية !

﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان . إني أراكم بخير ﴾ . .

فقد رزقكم الله رزقاً حسناً ، فلستم في حاجة إلى هذه الدناءة لتزيدوا غنى ، ولن يفقركم أو يضركم أن لا تنقصوا المكيال والميزان . . بل إن هذا الخير ليهدده ما أنتم عليه من غش في المعاملة ، أو غضب في الأخذ والعطاء .

﴿ وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ . .

إما في الآخرة عند الله . وإما في هذه الأرض حين يؤتي هذا الغش والغضب ثمارهما المرة في حالة المجتمع وفي حركة التجارة . وحين يذوق الناس بعضهم بأس بعض ، في كل حركة من الحركات اليومية وفي كل تعامل وفي كل احتكاك .

ومرة أخرى يكرر شعيب نصحه في صورة إيجابية بعد صورة النهي السلبية :

﴿ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ﴾ . .

وإيفاء الكيل والميزان أقوى من عدم نقصهما ، لأنه أقرب إلى جانب الزيادة .

وللعبارات ظل في الحس . وظل الإيفاء غير ظل عدم النقص ، فهو أكثر سماحة ووفاء .

﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ . .

وهذه أعم من المكيلات والموزونات . فهو يشمل حسن تقويم أشياء الناس من كل نوع . تقويمها كيلاً أو وزناً أو سعراً أو تقديراً . وتقويمها مادياً او معنوياً . وقد تدخل في ذلك الأعمال والصفات . لأن كلمة " شيء " تطلق أحياناً ويراد بها غير المحسوسات .

وبخس الناس أشياءهم فوق أنه ظلم يشيع في نفوس الناس مشاعر سيئة من الألم أو الحقد ، أو اليأس من العدل والخير وحسن التقدير . . وكلها مشاعر تفسد جو الحياة والتعامل والروابط الاجتماعية والنفوس والضمائر ، ولا تبقى على شيء صالح في الحياة .

﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ . .

والعثو هو الإفساد ، فلا تفسدوا متعمدين الإفساد ، قاصدين إلى تحقيقه . ثم يوقظ وجدانهم إلى خير أبقى من ذلك الكسب الدنس الذي يحصلون عليه بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم في التقدير :

﴿ بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ . .

فما عند الله أبقى وأفضل . . وقد دعاهم في أول حديثه إلى عبادة الله وحده أي الدينونة له بلا شريك فهو يذكرهم بها هنا ، مع ذكر الخير الباقي لهم عند الله إن آمنوا كما دعاهم ، واتبعوا نصيحته في المعاملات . وهي فرع عن ذلك الإيمان .

﴿ بقية الله خير لكم .

. إن كنتم مؤمنين ﴾ . .

ثم يخلي بينهم وبين الله الذي دعاهم إليه ، ويبين لهم أنه لا يملك لهم شيئاً ، كما أنه ليس موكلاً بحفظهم من الشر والعذاب . وليس موكلاً كذلك بحفظهم من الضلال ولا مسؤولاً عنهم إن هم ضلوا ، إنما عليه البلاغ وقد أداه :

﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ . .

ومثل هذا الأسلوب يشعر المخاطبين بخطورة الأمر ، وبثقل التبعة ، ويقفهم وجهاً لوجه أمام العاقبة بلا وسيط ولا حفيظ .

ولكن القوم كانوا قد عتوا ومردوا على الانحراف والفساد ، وسوء الاستغلال :

﴿ قالوا . يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد ! ﴾ . .

وهو رد واضح التهكم ، بيّن السخرية في كل مقطع من مقاطعة . وإن كانت سخرية الجاهل المطموس ، والمعاند بلا معرفة ولا فقه .

﴿ أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ؟ ﴾ . .

فهم لا يدركون أولا يريدون أن يدركوا أن الصلاة هي من مقتضيات العقيدة ، ومن صور العبودية والدينونة . وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله ، ونبذ ما يعبدون من دونه هم وآباؤهم ، كما أنها لا تقوم إلا بتنفيذ شرائع الله في التجارة وفي تداول الأموال وفي كل شأن من شئون الحياة والتعامل . فهي لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع

الحياة وعن أوضاع الحياة .

وقبل أن نمضي طويلاً في تسفيه هذا التصور السقيم لارتباط الشعائر بالعقيدة .

وارتباطهما معاً بالمعاملات . . قبل أن نمضي طويلاً في تسفيه هذا التصور من أهل مدين قبل ألوف السنين ، يحسن أن نذكر أن الناس اليوم لا يفترقون في تصورهم ولا في إنكارهم لمثل هذه الدعوة عن قوم شعيب . وأن الجاهلية التي نعيش فيها اليوم ليست أفضل ولا أذكى ولا أكثر إدراكاً من الجاهلية الأولى ! وأن الشرك الذي كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الشرك الذي تزاوله اليوم البشرية بجملتها بما فيها أولئك الذين يقولون : إنهم يهود أو نصارى أو مسلمون فكلهم يفصل بين العقيدة والشعائر . والشريعة والتعامل . فيجعل العقيدة والشعائر لله ووفق أمره ، ويجعل الشريعة والتعامل لغير الله ، ووفق أمر غيره . . وهذا هو الشرك في حقيقته وأصله . .

وإن كان لا يفوتنا أن اليهود وحدهم اليوم هم الذين يتمسكون بأن تكون أوضاعهم ومعاملاتهم وفق ما يزعمونه عقيدتهم وشريعتهم وذلك بغض النظر عما في هذه العقيدة من انحراف وما في هذه الشريعة من تحريف فلقد قامت أزمة في " الكنيست " مجلس تشريعهم في إسرائيل بسبب أن باخرة إسرائيلية تقدم لركابها من غير اليهود أطعمة غير شرعية . وأرغمت الشركة والسفينة على تقديم الطعام الشرعي وحده مهما تعرضت للخسارة فأين من يدعون أنفسهم " مسلمين ! " من هذا الاستمساك بالدين ؟ ! !

إن بيننا اليوم ممن يقولون : إنهم مسلمون ! من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والأخلاق ، وبخاصة أخلاق المعاملات المادية .

(285/384)

وحاصلون على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم . يتساءلون أولا في استنكار : وما للإسلام وسلوكنا الشخصي ؟ ما للإسلام والعري في الشواطئ ؟ ما للإسلام وزي المرأة في الطريق ؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل ؟ ما للإسلام وتناول كأس الخمر لإصلاح المزاج ؟ ما للإسلام وهذا الذي يفعله " المتحضرون " ؟ ! . فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين : ﴿ أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ؟ ﴾ . .

وهم يتساءلون ثانياً . بل ينكرون بشدة وعنف . أن يتدخل الدين في الاقتصاد ، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد ، أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد . . . فما للدين والمعاملات الربوية ؟ وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي ؟ لا بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت في الأقتصاد تفسده . وينكرون حتى على بعض أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية النظرية الأخلاقية مثلاً ويعدونها تخليطاً من أيام

زمان !

فلا يذهبن بنا الترفع كثيراً على أهل مدين في تلك الجاهلية الأولى . ونحن اليوم في جاهلية أشد جهالة ، ولكنها تدعي العلم والمعرفة والحضارة ، وتتهم الذين يربطون بين العقيدة في الله ، والسلوك الشخصي في الحياة ، والمعاملات المادية في السوق . . تتهمهم بالرجعية والتعصب والجمود ! ! !

وما تستقيم عقيدة توحيد الله في القلب ، ثم تترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض . فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد . والشرك ألوان . منه هذا اللون الذي نعيش به الآن . وهو يمثل أصل الشرك وحقيقته التي يلتقي عليها المشركون في كل زمان وفي كل مكان !

ويسخر أهل مدين من شعيب كما يتوقع بالسخرية اليوم ناس على دعاة التوحيد فيقولون :

﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ! ﴾ . .

وهم يعنون عكس معناها . فالحلم والرشد عندهم أن يعبدوا ما يعبد آباؤهم بلا تفكير ، وأن يفصلوا بين العبادة والتعامل في السوق ! وكذلك هو عند المثقفين المتحضرين اليوم الذين

يعيبون على المتعصبين الرجعيين ! ! !

ويتلطف شعيب تلطف صاحب الدعوة الواثق من الحق الذي معه ؛ ويعرض عن تلك السخرية لا يباليها وهو يشعر بقصورهم وجهلهم . . يتلطف في إشعارهم أنه على بينة من ربه كما يجده في ضميره وقلبه ؛ وأنه على ثقة مما يقول لأنه أوتي من العلم ما لم يؤتوا ، وأنه إذ يدعوهم إلى الأمانة في المعاملة سيتأثر مثلهم بنتائجها لأنه مثلهم ذو مال وذو معاملات ؛ فهو لا يبغي كسباً شخصياً من وراء دعوته لهم ؛ فلن ينهاهم عن شيء ثم يفعله هو لتخلو له السوق ! إنما هي دعوة الإصلاح العامة لهم وله وللناس . وليس فيما يدعوهم إليه خسارة عليهم كما يتوهمون :

﴿ قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ، ورزقني منه رزقاً حسناً ؟ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ .

.

﴿ يا قوم . . . ﴾ . .

في تودد وتقرب ، وتذكير بالأواصر القريبة .

﴿ أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ؟ ﴾ . .

أجد حقيقته في نفسي وأستيقن أنه هو يوحي إلي ويأمرني بما أبلغكم إياه . وعن هذه البينة

الواضحة في نفسي ، أصدر واثقاً مستيقناً .

﴿ ورزقني منه رزقاً حسناً ﴾ . .

ومنه الثروة التي أتعامل مع الناس مثلكم فيها .

﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ . .

فأنهاكم ثم أذهب من خلفكم فأفعل ما نهيتكم عنه لأحقق لنفسي نفعاً به !

﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ﴾ . .

الإصلاح العام للحياة والمجتمع الذي يعود صلاحه بالخير على كل فرد وكل جماعة فيه ؛ وإن خيل إلى بعضهم أن اتباع العقيدة والخلق يفوت بعض الكسب الشخصي ، ويضيع بعض الفرص . فإنما يفوت الكسب الخبيث ويضيع الفرص القذرة ؛ ويعوض عنهما كسباً طيباً ورزقاً حلالاً ، ومجتمعاً متضامناً متعاوناً لا حقد فيه ولا غدر ولا خصام !

﴿ وما توفيقي إلا بالله ﴾ . .

فهو القادر على إنجاح مسعاي في الإصلاح بما يعلم من نيتي ، وبما يجزي على جهدي .

﴿ عليه توكلت ﴾ . .

عليه وحده لا أعتمد على غيره .

﴿ وإليه أنيب ﴾ . .

إليه وحده أرجع فيما يحزبني من الأمور ، وإليه وحده أتوجه بنيتي وعملي ومسعاي .

ثم يأخذ بهم في واد آخر من التذكير ، فيطل بهم على مصارع قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط : فقد يفعل هذا في مثل تلك القلوب الجاسية ما لم يفعله التوجيه العقلي اللين الذي يحتاج إلى رشد وتفكير : ﴿ ويا قوم لا يجرمنّكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح . وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ . .

لا يحملنكم الخلاف معي والعناد في مواجهتي على أن تلجوا في التكذيب والمخالفة ، خشية أن يصيبكم ما أصاب الأقوام قبلكم . وهؤلاء قوم لوط قريب منكم في المكان . وقريب كذلك في الزمان . فمدين كانت بين الحجاز والشام .

ثم يفتح لهم وهم في مواجهة العذاب والهلاك باب المغفرة والتوبة ، ويطمعهم في رحمة الله والقرب منه بأرق الألفاظ وأحناها :

﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، إن ربي رحيم ودود ﴾ . . وهكذا يطوف بهم في مجالات العظة والتذكر والخوف والطمع ، لعل قلوبهم تتفتح وتخشع وتلين .

ولكن القوم كانوا قد بلغوا من فساد القلوب ، ومن سوء تقدير القيم في الحياة ، وسوء التصور لدوافع العمل والسلوك ، ما كشف عنه تبجحهم من قبل بالسخرية والتكذيب :

﴿ قالوا : يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز ﴾ .

.

(288/384)

فهم ضيقو الصدور بالحق الواضح ، لا يريدون أن يدركوه :

﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ﴾ . .

وهم يقيسون القيم في الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة :

﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ . .

فلا وزن عندهم للحقيقة القوية التي يحملها ويواجههم بها .

﴿ ولولا رهطك لرجمناك ﴾ . .

ففي حسابهم عصبية العشيرة ، لا عصبية الاعتقاد ، وصلة الدم لا صلة القلب . ثم هم يغفلون عن غيرة الله على أوليائه فلا يضعونها في الحساب .

﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ . .

لا عزة التقدير والكرامة ولا عزة الغلب والقهر . ولكننا نحسب حساب الأهل والعشيرة !

وحين تفرغ النفوس من العقيدة القويمة والقيم الرفيعة والمثل العالية ؛ فإنها تقبع على الأرض ومصالحها القريبة وقيمها الدنيا ؛ فلا ترى حرمة يومئذ لدعوة كريمة ، ولا لحقيقة كبيرة ؛ ولا تتحرج عن البطش بالداعية إلا أن تكون له عصبة تؤويه ؛ وإلا أن تكون معه قوة مادية تحميه . أما حرمة العقيدة والحق والدعوة فلا وزن لها ولا ظل في تلك النفوس الفارغة الخاوية .

وعندئذ تأخذ شعيباً الغيرة على جلال ربه ووقاره ؛ فيتنصل من الاعتزاز برهطه وقومه ؛ ويجبههم بسوء التقدير لحقيقة القوى في هذا الوجود ، وبسوء الأدب مع الله المحيط بما يعلمون . ويلقي كلمته الفاصلة الأخيرة . ويفاصل قومه على أساس العقيدة ، ويخلي بينهم وبين الله ، وينذرهم العذاب الذي ينتظر أمثالهم ، ويدعهم لمصيرهم الذي يختارون :

﴿ قال : يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً ؟ إن ربي بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل ، سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب ﴾ . .

﴿ أرهطي أعز عليكم من الله ؟ ﴾ . .

أجماعة من البشر مهما يكونوا من القوة والمنعة فهم ناس ، وهم ضعاف ، وهم عباد من عباد الله . . أهؤلاء أعز عليكم من الله ؟ . . أهؤلاء أشد قوة ورهبة في نفوسكم من الله ؟

﴿ واتخذتموه وراءكم ظهرياً ﴾ . .

وهي صورة حسية للترك والإعراض ، تزيد في شناعة فعلتهم ، وهم يتركون الله ويعرضون عنه ، وهم من خلقه ، وهو رازقهم وممتعهم بالخير الذي هم فيه . فهو البطر وجحود النعمة وقلة الحياء إلى جانب الكفر والتكذيب وسوء التقدير .

﴿ إن ربي بما تعملون محيط ﴾ . .

والإحاطة أقصى الصور الحسية للعلم بالشيء والقدرة عليه .

إنها غضبة العبد المؤمن لربه أن يستباح جلاله سبحانه ووقاره . الغضبة التي لا يقوم إلى جوارها شيء من الاعتزاز بنسبه ورهطه وعشيرته وقومه . . إن شعيباً لم ينتفخ ولم ينتفش أن يجد القوم يرهبون رهطه ، فلا تمتد إليه أيديهم بالبطش الذي يريدونه ! ولم يسترح ولم يطمئن إلى أن يكون رهطه هم الذين يحمونه ويمنعونه من قومه الذين افترق طريقهم عن طريقه وهذا هو الإيمان في حقيقته . . أن المؤمن لا يعتز إلا بربه ؛ ولا يرضى أن تكون له عصبة تخشى ولا يُخشى ربه ! فعصبية المسلم ليست لرهطه وقومه ، إنما هي لربه ودينه .

وهذا هو مفرق الطريق في الحقيقة بين التصور الإسلامي والتصور الجاهلي في كل أزمانه وبيئاته !

ومن هذه الغضبة لله . والتنصل من الاعتزاز أو الاحتماء بسواه ، ينبعث ذلك التحدي الذي يوجهه شعيب إلى قومه ؛ وتقوم تلك المفاصلة بينه وبينهم بعد أن كان واحداً منهم ويفترق الطريقان فلا يلتقيان :

﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ . .

وامضوا في طريقكم وخطتكم ، فقد نفضت يديّ منكم .

﴿ إني عامل ﴾ . .

على طريقتي ومنهجي .

﴿ سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ﴾ . .

أنا أم أنتم ؟

﴿ وارتقبوا إني معكم رقيب ﴾ . .

للعاقبة التي تنتظرني وتنتظركم . . وفي هذا التهديد ما يوحي بثقته بالمصير . كما يوحي بالمفاصلة وافتراق الطريق . .

ويسدل الستار هنا . على هذه الكلمة الأخيرة الفاصلة وعلى هذا الافتراق والمفاصلة ، ليرفع هناك على مصرع القوم ، وعلى مشهدهم جاثمين في ديارهم ، أخذتهم الصاعقة التي أخذت قوم صالح ، فكان مصيرهم كمصيرهم ، خلت منهم الدور ، كأن لم يكن لهم فيها دور ، وكأن لم يعمروها حيناً من الدهر . مضوا مثلهم مشيعين باللعنة ، طويت صفحتهم في الوجود وصفحتهم في القلوب :

﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها . ألا بعداً لمدين ، كما بعدت ثمود . . . ﴾ .

وطويت صفحة أخرى من الصفحات السود ، حق فيها الوعيد على من كذبوا بالوعيد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 1917 . 1923 ﴾

(291/384)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : قوله سبحانه في قصة هود عليه السلام : ﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ

هُوَ ءاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : 56] فيه إشارة إلى أن كل ذي نفس تحت قهره سبحانه وسلطانه أسير في يد تصرفه وملكته عاجز عن الفعل إلا بإذنه وأنه عز وجل لا يسلط أحداً على أحد إلا عن استحقاق ذنب أو رفع درجة وإعلاء منزلة لأنه تبارك وتعالى على طريق العدل الذي لا إعوجاج فيه ، وذكر الشيخ الأكبر قدس سره في فصوصه : إن كل ما سوى الحق فهو دابة فإنه ذو روح وما ثم من يدب بنفسه وإنما يدب بغيره بحكم التبعية للذي هو على صراط مستقيم فكل ماش فهو على الصراط المستقيم وحينئذ فلا مغضوب عليه ولا ضال من هذا الوجه ، نعم إن الناس على قسمين : أهل الكشف .

وأهل الحجاب ، فالأولون يمشون على طريق يعرفونها ويعرفون غايتها فهي في حقهم صراط مستقيم كما أنها في نفس الأمر كذلك ، والآخرون يمشرون على طريق يجهلونها ولا يعرفون غايتها وأنها تنتهي إلى الحق فهي في حقهم ليست صراطاً مستقيماً وإن كانت عند العارف ونفس الأمر صراطاً مستقيماً ، واستنبط قدس سره من الآية أن مآل الخلق كلهم إلى الرحمة التي وسعت كل شيء ، وهي الرحمة السابقة على الغضب ، وادعى أن فيها بشارة للخلق أي بشارة .

وقال القيصري في تفسيرها : أي ما من شيء موجود إلا هو سبحانه آخذ بناصيته وإنما جعل دابة لأن الكل عند صاحب الشهود وأهل الوجود حي ، فالمعنى ما من حي إلا والحق آخذ بناصيته ومتصرف فيه بحسب أسمائه يسلك به أي طريق شاء من طرقه وهو على صراط مستقيم ؛ وأشار بقوله سبحانه : ﴿ أَخَذَ ﴾ إلى هوية الحق الذي مع كل من الأسماء ومظاهرها ، وإنما قال : ﴿ إِنَّ رَبِّى على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ بإضافة الرب إلى نفسه ، وتنكير الصراط تنبيهاً على أن كل رب على صراطه المستقيم الذي عين له من الحضرة الآلهية ، والصراط المستقيم الجامع للطرق هو المخصوص بالاسم الإلهي ومظهره لذلك قال في الفاتحة المختصة بنبينا صلى الله عليه وسلم : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] بلام العهد .

أو الماهية التي منها تتفرع جزئياتها ، فلا يقال : إذا كان كل أحد على الصراط المستقيم فما فائدة الدعوة ؟ لأنا نقول : الدعوة إلى الهادي من المضل .

وإلى العدل من الجائر كما قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ [مريم : 85] انتهى بحروفه ، وأعظم من هذا إشكالاً التكليف مع القول بالوحدة وكذا التنعيم والتعذيب فإن الظاهر من التقرير لكلام المحققين من الصوفية أن المكلف عبارة عن موجود هو حصة من الوجود المطلق المفاض على حقائق الممكنات المتعين بتعينات مختلفة اقتضتها

الاستعدادات الذاتية للحقائق التي هي المعدومات المتميزة في نفس الأمر المستعدة باستعدادات ذاتية غير مجعولة ، فالمكلف مقيد من مقيدات الوجود المطلق المفاض ، والمقيد لا يوجد بدون المطلق لأنه قيومه ، والمطلق من حيث الإطلاق عين الحق ، ولا شك أن قاعدة التكليف تقتضي أن يكون بينهما مغايرة ومباينة حقيقية ذاتية حتى يصح التكليف وما يترتب عليه من التعذيب والتنعيم .

وأجيب بأن حقيقة الممكن أمر معدوم متميز في نفسه بتميز ذاتي غير مجعول ووجوده خاص مقيد بخصوصية ما اقتضاها استعداده الذاتي لماهيته العدمية فهو مركب من الوجود والعدم وحقيقته مغايرة لوجوده تعقلاً لتمايزهما ذهنا ، ولا ينافي ذلك قول الأشعري : وجود كل شيء عين حقيقته لما بين في محله وحقيقة الحق تعالى لا تغاير وجوده ووجوده سبحانه هو الوجود المطلق بالإطلاق الحقيقي حسبما حققه محققو الصوفية ، فالمغايرة الذاتية بين المكلف والمكلف في غاية الظهور لأن المكلف هو المعدوم اللابس لحصة من الوجود المتعين بمقتضى حقيقته ، والمكلف سبحانه هو الحق عز وجل الذي هو عين الوجود المطلق الغير المقترن بماهية عدمية ، وبعبارة أخرى : إن حقيقة الممكن أمر

معدوم .

وحقيقة الواجب سبحانه الوجود المطلق حتى عن قيد الإطلاق وقد وقع في البين تجلى الهوية في العبد وذلك التجلي هو الجامع للقدرة وغيرها من الكمالات التي يتوقف عليها التلكيف بمقتضى الحكمة ومحقق للمغايرة .

وحاصل ذلك أن حقيقة المزج بين تجلي الهوية والصورة الخلقية المتعينة بمقتضى الحقيقة العدمية هي التي أحدثت ما به يصح التكليف وما يترتب عليه ، وكون الحق سبحانه قيوماً للوجود المقيد غير قادح في ذلك بل القيومية هي المصححة له لما تبين من النصوص أنه لا تكليف إلا بالوسع ولا وسع للممكن إلا بقيوميته تعالى بنص ﴿ مَا شَاء اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ ﴾ [الكهف : 39] وما هو بالله فهو لله تعالى ، والبحث في ذلك طويل ، وبعض كلماتهم يتراءى منها عدم المغايرة بين المكلف والمكلف من ذلك ما قيل :

لقد كنت دهراً قبل أن يكشف الغطا . . .

إخالك أني ذاكر لك شاكر

فلما أضاء الليل أصبحت شاهدا . . .

بأنك مذكور وذكر وذاكر

لكن ينبغي أن لا يبادر سمعها بالإنكار ، ويرجع في المراد منها إلى العارفين بدقائق الأسرار ، هذا وقد تقدم الكلام في ناقة صالح عليه السلام ، وفيما قص الله تعالى ههنا عن إبراهيم عليه السلام إشارة إلى بعض آداب الفتوة ، فقد قالوا : إن من آدابها إذا نزل الضيف أن يبدأ بالكرامة في الإنزال ؛ ثم يثني بالكرامة بالطعام ، وإنما أوجس عليه السلام في نفسه خيفة لأنه ظن الغضب ، والخليل يخشى غضب خليله ومناه رضاه ، ولله در من قال :

لعلك غضبان ولست بعالم . . .

سلام على الدارين إن كنت راضياً

وفي هذه القصة دليل على أنه قد ينسد باب الفراسة على الكاملين لحكم يريدها الله تعالى ، ومن ذلك لم يعرف إبراهيم وكذا لوط عليهما السلام الملائكة عليهم السلام في أول الأمر ، وكانت مجادلته عليه السلام من آثار مقام الإدلال على ما قيل ، وقوله تعالى عن لوط عليه السلام : ﴿ لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ﴾ [هود : 80] قيل : يشير بالقوة إلى الهمة وهي عندهم القوة المؤثرة في النفوس لأن القوة منها جسمانية .

ومنها روحانية وهذه المسماة بالهمة وهي أقوى تأثيراً لأنها قد تؤثر في أكثر العالم .

أو كله بخلاف الجسمانية ، وقصد عليه السلام بالركن الشديد القبيلة لأنه يعلم أن أفعال الله تعالى لا تظهر في الخارج إلا على أيدي المظاهر فتوجه إلى الله سبحانه وطلب منه أن يجعل

له أنصاراً ينصرونه على أعداء الله تعالى ، وردد الأمر بين ذلك وأن يجعل له همة مؤثرة من نفسه ليقاوم بها الأعداء ، وقد علمت ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من قوله :

" يرحم الله تعالى أخي لوطاً " الخبرة .

وذكر الشيخ الأكبر قدس سره أنه عليه الصلاة والسلام نبه بذلك الخبر أن لوطاً كان مع الله تعالى من أنه سبحانه (ركن شديد) والإشارة في قصة شعيب عليه السلام إلى أنه ينبغي لمن كان في حيز أن لا يعصى الله تعالى ، وللواعظ أن لا يخالف فعله قوله :

لا تنه عن خُلق وتأتي مثله . . .

عار عليك إذا فعلت عظيم

وأنه لا ينبغي أن يكون شيء عند العبد أعز عليه من الله تعالى إلى غير ذلك ، والله تعالى الهادي إلى سبيل الرشاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

فصل فى قصة مدين قوم شعيب عليه السلام

قال ابن كثير:

قال الله تعالى في سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جائتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين وان كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين قد أفترينا على الله كذبا ان عدنا

في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شي علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين وقال الملأ اللذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في

دارهم جاثمين الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين
فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فيكف آسي على قوم
كافرين وقال في سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضا وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم
اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف
عليكم عذاب يوم محيط ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشيائهم
ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ قالوا
يا شعيب أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا وأن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت
الحليم الرشيد قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وما أريد
أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه
توكلت وإليه أنيب ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم
هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم
ودود قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما
أنت علينا بعزيز قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه ورائكم ظهريا إن ربي بما
تعلمون محيط ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه
ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه

برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود وقال

في الحجر بعد قصة قوم لوط أيضا وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وإنهما لبامام مبين وقال تعالى في الشعراء بعد قصتهم كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلى على رب العالمين أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين واتقوا الله الذي خلقكم والجبلة الأولين قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين قال ربي أعلم بما تعملون فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم

كان أهل مدين قوما عربا يسكنون مدينتهم مدين التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط وكانوا بعدهم بمدة قريبة ومدين قبيلة

عرفت بهم القبيلة

وهم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل وشعيب نبيهم هو ابن ميكيل (1) بن يشجن (2) ذكره ابن اسحاق قال ويقال له بالسريانية بنزون (3) وفي هذا نظر ويقال شعيب بن يشخر بن لاوي بن يعقوب ويقال شعيب بن نويب بن عيفا (4) بن مدين بن إبراهيم ويقال شعيب بن ضيفور بن عيفا (5) بن ثابت بن مدين بن إبراهيم وقيل غير ذلك في نسبه

قال ابن عساكر ويقال جدته ويقال أمه بنت لوط وكان ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه ودخل معه دمشق وعن وهب ابن منبه أنه قال شعيب وملغم ممن آمن بإبرأهيم (6) يوم أحرق بالنار وهاجرا معه إلى الشام فزوجهما بنتي لوط عليه السلام ذكره ابن قتيبة وفي هذا كله نظر أيضا والله أعلم

وذكر أبو عمر بن عبد البر في الاستعباب في ترجمة سلمة بن سعد العنزي قدم على رسول الله صلى الله عليه و سلم فأسلم وانتسب إلى عنزة فقال نعم الحي عنزة مبغى عليهم منصورون قوم شعيب وأختان (7) موسى فلو صح هذا لدل على أن شعيبا من موسى

وأنه من قبيلة من العرب العاربة يقال لهم عنزة لا أنهم من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان فإن هؤلاء بعده بدهر طويل والله أعلم

وفي حديث أبي ذر الذي في صحيح ابن حبان في ذكر الأنبياء والرسل قال أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر وكان بعض السلف يسمى شعيبا خطيب الأنبياء يعني لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته وقد روى ابن إسحاق بن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا ذكر شعيبا قال ذاك خطيب الأنبياء وكان أهل مدين كفارا يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها وكانوا من أسوء الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيهما يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص فبعث الله فيهم رجلا منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشيائهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم حتى أحل الله بهم البأس الشديد وهو الولي الحميد كما قال تعالى وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جائتكم بينة من ربكم أي دلالة وحجة واضحة وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وانه أرسلني وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التي لم تنقل إلينا تفصيلا وإن كان هذا اللفظ قد دل عليها إجمالا

فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشيائهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم وتوعدهم على خلاف ذلك فقال ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ولا تقعدوا بكل صراط أي طريق توعدون أي تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك وتخيفون السبل قال السدي في تفسيره عن الصحابة ولا تقعدوا بكل صراط توعدون أنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة وقال إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال كانوا قوما طغاة بناة يجلسون على الطريق يبخسون الناس يعني يعشرونهم وكانوا أول من سن ذلك وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا فنهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية والمعنوية الدينية واذكروا أذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ذكرهم بنعمة الله تعالى عليهم في تكثيرهم بعد القلة وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه كما قال لهم في القصة الأخرى ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط أي لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه فيمحق الله بركة ما في أيديكم ويفقركم ويذهب ما به يغنيكم وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة ومن جمع له هذا وهذا فقد باء بالصفقة

الخاسرة فنهاهم أولا عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف وحذرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم وعذابه الأليم في أخراهم وعنفهم أشد تعنيف ثم قال لهم آمرا بعد ما كان عن ضده زاجرا ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشيائهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ قال ابن عباس والحسن البصري بقيت الله خير لكم أي رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس وقال ابن جرير ما فضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف قال وقد روى هذا عن ابن عباس وهذا الذي قاله وحكاه حسن وهو شبيه بقوله تعالى قل لا يستوي

الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث يعني أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام فإن الحلال مبارك وإن قل والحرام ممحوق وإن كثر كما قال تعالى يمحق الله الربا ويربي الصدقات وقال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن الربا وإن كثر فإن مصيره إلى قل رواه أحمد أي إلى قلة وقال رسول الله صلى الله عليه و سلم البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما والمقصود أن الربح

الحلال مبارك فيه وإن قل والحرام لا يجدي وان كثر ولهذا قال نبي الله شعيب بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وقوله وما أنا علكيم بحفيظ أي افعلوا ما آمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه لا لأراكم أنا وغيري قالوا يا شعيب أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء أنك لأنت الحليم الرشيد يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكم أصلوتك هذه التي تصليها هي الآمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد الا إلهك

ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون أو أن لا نتعامل إلا على الوجه الذي ترتضيه أنت ونترك المعاملات التي تأباها وإن كنا نحن نرضاها إنك لأنت الحليم الرشيد قال ابن عباس وميمون ابن مهران وابن جريج وزيد بن أسلم وابن جرير يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الإستهزاء قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب هذا تلطف معهم في العبارة ودعوة لهم إلى الحق بابين إشارة يقول لهم أرأيتم أيها المكذبون إن كنت على بينة من ربي أي على أمر بين من الله تعالى أنه أرسلني

إليكم ورزقني منه رزقا حسنا يعني النبوة والرسالة يعني وعمى عليكم معرفتها فأي حيلة لي بكم وهذا كما تقدم عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه سواء وقوله وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه أي لست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أول من يتركه وهذه هي الصفة المحمودة العظيمة وضدها هي المردودة الذميمة كما تلبس بها علماء بني إسرائيل في آخر زمانهم وخطباؤهم الجاهلون قال الله تعالى أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون وذكر عندها في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يؤتى بالرجل فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه أي تخرج أمعاؤه من بطنه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار فيقولون يا فلان مالك ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه وهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء فأما السادة من النجباء والألباء من العلماء الذين يخشون ربهم بالغب فحالهم كما قال نبي الله شعيب وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد الاصلاح ما استطعت أي ما أريد في جميع أمري إلا الاصلاح في الفعال

والمقال بجهدي وطاقتي وما توفيقي أي في جميع أحوالي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب أي عليه أتوكل في سائر الأمور وإليه مرجعي ومصيري في كل أمري وهذا مقام ترغيب ثم انتقل إلى نوع من الترهيب فقال ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد أي لا تحملنكم مخالفتي وبغضكم ما جئتم به على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم فيحل الله بكم من العذاب والنكال نظير ما أحله بنظرائكم وأشباهكم من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين وقوله وما قوم لوط منكم ببعيد قيل معناه في الزمان أي ما بالعهد من قدم مما قد بلغكم ما أحل بهم على كفرهم وعتوهم وقيل معناه وما هم منكم ببعيد في المحلة والمكان وقيل في الصفات والأفعال المستقبحات من قطع الطريق وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بأنواع الحيل والشبهات والجمع بين هذه الأقوال ممكن فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زمانا ولا مكانا ولا صفات ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال واستغفروا ربكم ثم توبوا

إليه إن ربي رحيم ودود أي أقلعوا عما أنتم فيه وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود فإنه من تاب إليه تاب عليه فإنه رحيم بعباده أرحم بهم من الوالدة بولدها ودود وهو الحبيب ولو بعد

التوبة على عبده ولو من الموبقات العظام قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا روى عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثوري أنهم قالوا كان ضرير البصر وقد روى في حديث مرفوع أنه بكى من حب الله حتى عمى فرد الله عليه بصره وقال يا شعيب أتبكي خوفا من النار أو من شوقك إلى الجنة فقال بل من محبتك فإذا نظرت إليك فلا أبالي ماذا يصنع بي فأوحى الله إليه هنيئا لك يا شعيب لقائي فلذلك أخدمتك موسى ابن عمران كليمي رواه الواحدي عن أبي الفتح محمد بن علي الكوفي عن علي بن الحسن بن بندار عن أبي عبد الله محمد بن إسحاق التربلي (1) عن هشام بن عمار عن إسمعيل بن عباس عن يحيى بن سعيد عن شداد بن أمين عن النبي صلى الله عليه و سلم بنحوه وهو غريب جدا وقد ضعفه الخطيب البغدادي وقولهم ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز وهذا من كفرهم البليغ وعنادهم الشنيع حيث قالوا ما نفقه كثيرا مما تقول أي ما نفهمه ولا نعقله لأنا لا نحبه ولا نريده وليس لنا همة إليه ولا إقبال عليه وهو كما قال كفار قريش لرسول الله صلى الله عليه و سلم وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون وقولهم وإنا لنراك فينا ضعيفا أي مضطهدا مهجورا ولولا رهطك أي قبيلتك وعشيرتك فينا لرجمناك وما أنت علينا بعزيز قال يا قوم ارهطي أعز عليكم من الله أي تخافون قبيلتي وعشيرتي وترعوني بسببهم ولا تخافون جنبة الله ولا تراعوني لأني رسول الله فصار رهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا

أي جانب الله وراء ظهوركم إن ربي بما تعملون محيط أي هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه محيط بذلك كله وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه ويا قوم اعملوا

على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب وهذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد بان يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ومن يحل عليه الهلاك والبوار من يأتيه عذاب يخزيه أي في هذه الحياة الدنيا ويحل عليه عذاب مقيم أي في الأخرى ومن هو كاذب أي مني ومنكم فيما أخبر وبشر وحذر وارتقبوا إني معكم رقيب وهذا كقوله وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح

بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم فانتصب شعيب للحاجة عن قومه فقال أولو كنا كارهين أي هؤلاء لا يعودون إليكم اختيارا وإنما يعودون إليه إن عادوا اضطرارا مكرهين وذلك لأن الإيمان إذا خالطته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد ولا يرتد أحد عنه ولا محيد لأحد منه ولهذا قال قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا أي فهو كافينا وهو العاصم لنا وإليه ملجاؤنا في جميع أمرنا ثم استفتح على قومه واستنصر ربه عليه في تعجيل ما يستحقونه إليهم فقال ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين أي الحاكمين فدعا عليهم والله لا يرد دعاء رسله إذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه ورسوله خالفوه ومع هذا صمموا على ما هم عليه مشتملون وبه متلبسون وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون قال الله تعالى فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ذكر في سورة الأعراف أنهم اخذتهم رجفة أي رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالا شديدا أزهقت أرواحهم من أجسادها وصيرت حيوانات أرضهم كجمادها وأصبحت جثتهم جاثية لا أرواح فيها ولا حركات بها ولا حواس لها وقد جمع الله عليهم أنواعا من العقوبات وصنوفا من المثلات وأشكالا من البليات وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات

سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات وظلة أرسل الله عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها في سباق قصة الأعراف ارجفوا نبي الله وأصحابه وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودن في ملتهم راجعين فقال تعالى فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين فقابل الإرجاف بالرجفة والإخافة بالخيفة وهذا مناسب لهذا السياق

(307/384)

ومتعلق بما تقدمه من السباق وأما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والإستهزاء والتنقص أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة وكان ذلك إجابة لما طلبوا وتقريبا إلى ما إليه رغبوا فإنهم قالوا إنما أنت من المسحرين وما أن إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين

فاسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين قال رب أعلم بما تعلمون قال الله تعالى وهو السميع العليم فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إن كان عذاب يوم عظيم ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير اهل مدين فقوله ضعيف وإنما

عمدتهم شيئان أحدهما أنه قال كذب اصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ولم يقل اخوهم كما قال وإلى مدين أخاهم شعيبا والثاني أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة والجواب عن الأول أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله كذب اصحاب الأيكة المرسلين لأنه وصفهم بعبادة الأيكة فلا يناسب ذكر الأخوة ههنا ولما نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة وأما إحتجاجهم بيوم الظلة فإن كان دليلا بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى فليكن تعداد الإنتقام بالرجفة والصيحة دليلا على أنهما أمتان أخريان وهذا لا يقوله أحد يفهم شيأ من هذا الشأن فأما الحديث الذي أورده الحافظ ابن عساكر في ترجمة النبي شعيب عليه السلام من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن أبيه عن معاوية بن هشام عن هشام بن سعد عن شفيق

بن ابي هلال عن ربيعة بن سيف عن عبد الله بن عمرو مرفوعا إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبا النبي عليه السلام فإنه حديث غريب وفي رجاله من تكلم فيه والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بني إسرائيل والله أعلم

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان فدل على أنهم أمة واحدة أهلكوا بأنواع من العذاب وذكر في كل موضع ما يناسب من الخطاب وقوله فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ذكروا أنهم أصابهم حر شديد وأسكن الله هبوب الهوا عنهم سبعة أيام فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل ولا دخولهم في الإسراب فهربوا من محلتهم إلى البرية فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة من السماء فأزهقت الأرواح وخرجت الأشباح فأصبحوا في دارهم جاثمين الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين ونجى الله شعيبا ومن معه من المؤمنين كما قال تعالى وهو أصدق القائلين ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا

معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود وقال تعالى وقال الملأ من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين وهذا في مقابلة قولهم لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون ثم ذكر تعالى عن نبيهم أنه نعاهم إلى أنفسهم موبخا ومؤنبا ومقرعا فقال تعالى يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين أي أعرض عنهم موليا عن محلتهم بعد هلكتهم قائلا يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم أي قد أديت ما كان واجبا علي من البلاغ التام والنصح الكامل وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه فلم

ينفعكم ذلك لأن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين فلست أتأسف بعد هذا عليكم لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة ولا تخافون يوم الفضيحة ولهذا قال فكيف آسى أي احزن على قوم كافرين أي لا تقبلون الحق ولا ترجعون إليه ولا ! تلتفون إليه فحل بهم من بأس الله الذي لا يرد ما لا يدافع ولا يمانع ولا محيد لأحد أريد به عنه ولا مناص منه

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس أن شعيبا عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام وعن وهب بن منبه أن شعيبا عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني سهم

باب ذرية إبراهيم

قد قدمنا قصته مع قومه وما كان من امرهم وما آل إليه أمره عليه السلام والتحية والإكرام وذكرنا ما وقع في زمانه من قصة قوم لوط وأتبعنا ذلك بقصة مدين قوم شعيب عليه السلام لأنها قرينتها في كتاب الله عز وجل في مواضع متعددة فذكر تعالى بعد قصة قوم لوط قصة مدين وهم أصحاب الأيكة على الصحيح كما قدمنا فذكرناها تبعا لها اقتداء بالقرآن العظيم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿البداية والنهاية حـ 1 صـ 183. 191﴾

(311/384)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والثمانون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخامس والثمانون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 96 ﴾ من سورة هود عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 109 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (96) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (99) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان شعيب ختن موسى عليهما السلام ، كان ذكر قصته هنا متوقعاً مع ما حرك إلى توقعها من ذكر كتابه أول السورة وما في عصا موسى من مناسبة ناقة من ختم بالتشبيه بحالهم ، فذكرها بعدها مفتتحاً لها بحرف التوقع فقال مؤكداً تنبيهاً على أن فرعون فعل فعل قريش في الإدبار عن الآيات العظيمة ولم يترك موسى عليه السلام شيئاً مما أوحي إليه من إنذاره : ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ أعاد الفعل وأبرزه في مظهر العظمة إشارة إلى باهر معجزاته ﴿ موسى بآياتنا ﴾ أي المعجزات التي أظهرها ﴿ وسلطان ﴾ أي أمر قاهر للقبط ، والظاهر أنه حكاية موسى عليه السلام منه على ما كان له من السطوة والتحرق عليه ﴿ مبين ﴾ أي بين بنفسه ، وهو في قوة بيانه كأنه مبين لغيره ما فيه من الأسرار ، والآية تعم الأمارة والدليل القاطع ، و السلطان يخص القاطع ، والمبين يخص ما فيه جلاء ﴿ إلى فرعون ﴾ طاغية القبط ﴿ وملئه ﴾ أي أشراف قومه الذين تبعهم الأذناب ، لأن القصد الأكبر رفع أيديهم عن بني إسرائيل .

ولما كان الناصح لنفسه من لا يتبع أحداً إلا فيما يعلم أنه صواب ، قال معجباً من الملأ مشيراً إلى سرعة تكذيبهم بالبينات وإتباعهم فيما ضلاله لا يخفى على من له مسكة : ﴿ فاتبعوا ﴾ أي فتسبب عن هذا الأمر الباهر أن عصى فرعون وحمل ملؤه أنفسهم على أن تبعوا لإرادتنا ذلك منهم ﴿ أمر فرعون ﴾ أي كل ما يفهمون عنه أنه يهواه ويأمره به وتبعهم السفلة فأطبقوا على المنابذة إلا من شاء الله منهم ﴿ وما ﴾ أي والحال أنه ما ﴿ أمر فرعون برشيد ﴾ أي سديد ، مع أن في هذا التعقيب بعد ذكر ثمود من التذكير بآيتي الناقة والعصا إشارة إلى القدرة على البعث المذكور أول السورة الموجب خوفه لكل خير كما أن ذلك أيضاً كان من فوائد تعقيب قصة إبراهيم لقصة صالح عليهما السلام ، واقتصر هنا على ذكر فرعون وقومه لأن المقصود من هذه القصص - كما تقدم - التثبيت في المكافحة بإبلاغ الإنذار وإن اشتدت كراهية المبلغين وقل المتبع منهم ، وأن لا يترك شيء منه خوف إصرارهم أو إدبارهم ولا رجاء إقبالهم وكثرة مؤمنيهم ، وهذه حال آل فرعون ، وأما بنو إسرائيل فإنهم لم يتوقفوا إلا خوفاً من فرعون في أول الأمر ، ثم أطبق كلهم على الإتباع ، ثم صاروا بعد ذلك كل قليل يبدلون لا كراهية للإنذار بل لغير ذلك من الأمور

وعجائب المقدور كما بين في قصصهم ؛ والملأ : الأشراف الذين تملأ الصدور هيبتهم عند رؤيتهم ؛ والإتباع ، طلب ، طلب الثاني للتصرف بتصرف الأول في أي جهة أخذ ، وقد يكون عن كره بخلاف الطاعة ؛ والأمر : الإيجاب بصيغة " أفعل " وهو يتضمن إرادة المأمور به في الجملة ، وقد لا يراد امتثال عين المأمور ؛ والرشيد : القائد إلى الخير الهادي إليه ؛ ثم أوضح عدم رشد أمر فرعون بقوله : ﴿ يقدم قومه ﴾ أي الذين كان لهم قوة المدافعة ﴿ يوم القيامة ﴾ ويكونون له تبعاً كما كانوا في الدنيا ، وأشار بإيراد ما حقه المضارع ماضياً إلى تحقق وقوعه تحقق ما وقع ومضى فقال : ﴿ فأوردهم النار ﴾ أي كما أوردهم في

(6/385)

الدنيا غطاءها وهو البحر .

ولما كان التقدير : فبئس الواردون ، عطف عليه بيان الفعل والمفعول فقال : ﴿ وبئس الورد المورود ﴾ كما كان البحر إذ وردوه أقبح ورد ورده إنسان ، لأن الورد يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد ، وهذا يفيد ضد ذاك .

ولما كان فرعون موصوفاً بعظم الحال وكثرة الجنود والأموال وضخامة المملكة ، حقر تعالى دنياه بتحقير جميع الدنيا التي هي منها بإسقاطها في الذكر اكتفاء بالإشارة إليها ولم يثبتها

كما في قصة عاد فقال : ﴿ وأتبعوا ﴾ ببنائه للمفعول لأن المنكي الفعل لا كونه من معين ﴿ في هذه ﴾ أي الحياة الخسيسة ﴿ لعنة ﴾ فهم يلعنون فيها من كل لاعن من المسلمين وغيرهم من أهل الملل فلعنة الله على من حسَّن حالهم وارتضى ضلالهم لإضلال العباد من أهل الإلحاد بفتنة الاتحاد ﴿ ويوم القيامة ﴾ أيضاً يلعنهم اللاعنون ، حتى أهل الاتحاد الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ؛ ثم بين ما يحق أن يقوله سامع ذلك بقوله : ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ أي التبع المتبوع والعون المعان ، فإن اللعنة تابعة لعذابهم في الدنيا ومتبوعة باللعنة في الآخرة والعذاب رفد لها وهي رفد له ، ومادة " رفد " تدور على التبع ، أو يكون المراد أن لعنهم لا يزال مترادفاً تابعاً بعضه لبعض ، فكل لعنة تابعة لشيء من الخزي : عذاب أو لعن ، متبوعة بلعنة مضافة إليها ، وسمي ذلك رفداً وهو حقيقة العون من باب قولهم : تحية بينهم ضرب وجيع ومعنى ﴿ يقدم ﴾ أنه يكون قدامهم غير سائق لهم ، بل هم على أثره متلاحقين ، فيكون دخولهم إلى النار معاً ؛ والقيامة : القومة من الموت للحساب ؛ والإتباع : طلب الثاني للحاق بالأول كيف تصرف ؛ واللعن من الله : الإبعاد من الرحمة بالحكم بذلك ، ومن العباد : الدعاء به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 572 . 574 ﴾

(7/385)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾

واعلم أن هذه هي القصة السابعة من القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة وهي آخر القصص من هذه السورة ، أما قوله : ﴿ بآياتنا وسلطان مُّبِينٍ ﴾ ففيه وجوه : الأول : أن المراد من الآيات التوراة مع ما فيها من الشرائع والأحكام ، ومن السلطان المبين المعجزات القاهرة الباهرة والتقدير : ولقد أرسلنا موسى بشرائع وأحكام وتكاليف وأيدناه بمعجزات قاهرة وبينات باهرة الثاني : أن الآيات هي المعجزات والبينات وهو كقوله : ﴿ إِنْ عِندَكُمْ مّن سُلْطَانٍ بهذا ﴾ [يونس : 68] وقوله : ﴿ مَّا أَنزَلَ الله بِهَا مِن سلطان [النجم : 23] وعلى هذا التقدير ففي الآية وجهان : الأول : أن هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوته .

الثاني : أن يراد بالسلطان المبين العصا ، لأنه أشهرها وذلك لأنه تعالى أعطى موسى تسع آيات بينات ، وهي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص من الثمرات والأنفس .

ومنهم من أبدل نقص الثمرات والأنفس بإظلال الجبل وفلق البحر ، واختلفوا في أن الحجة لم

سميت بالسلطان .

فقال بعض المحققين : لأن صاحب الحجة يقهر من لا حجة معه عند النظر كما يقهر السلطان غيره ، فلهذا توصف الحجة بأنها سلطان ، وقال الزجاج : السلطان هو الحجة والسلطان سمي سلطاناً لأنه حجة الله في أرضه واشتقاقه من السليط والسليط ما يضاء به ومن هذا قيل للزيت السليط وفيه قول ثالث : وهو أن السلطان مشتق من التسليط ، والعلماء سلاطين بسبب كمالهم في القوة العلمية والملوك سلاطين بسبب ما معهم من القدرة والمكنة ، إلا أن سلطنة العلماء أكمل وأقوى من سلطنة الملوك ، لأن سلطنة العلماء لا تقبل النسخ والعزل وسلطنة الملوك تقبلهما ولأن سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلماء وسلطنة العلماء من جنس سلطنة الأنبياء وسلطنة الملوك من جنس سلطنة الفراعنة .

(8/385)

فإن قيل : إذا حملتم الآيات المذكورة في قوله : ﴿ بآياتنا ﴾ على المعجزات والسلطان أيضاً على الدلائل والمبين أيضاً معناه كونه سبباً للظهور فما الفرق بين هذه المراتب الثلاثة ؟

قلنا : الآيات اسم للقدر المشترك بين العلامات التي تفيد الظن ، وبين الدلائل التي تفيد اليقين وأما السلطان فهو اسم لما يفيد القطع واليقين ، إلا أنه اسم للقدر المشترك بين الدلائل التي

تؤكد بالحس ، وبين الدلائل التي لم تتأكد بالحس ، وأما الدليل القاطع الذي تأكد بالحس فهو السلطان المبين ، ولما كانت معجزات موسى عليه السلام هكذا لا جرم وصفها الله بأنها سلطان مبين .

ثم قال : ﴿ إلى فِرْعَوْنَ وملائه ﴾ يعني وأرسلنا موسى بآياتنا بمثل هذه الآيات إلى فرعون وملائه ، أي جماعته .

ثم قال : ﴿ فاتبعوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ ويحتمل أن يكون المراد أمره إياهم بالكفر بموسى ومعجزاته ويحتمل أن يكون المراد من الأمر الطريق والشأن .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أي بمرشد إلى خير ، وقيل رشيد أي ذي رشد .

واعلم أن بعد طريق فرعون من الرشد كان ظاهراً لأنه كان دهرياً نافياً للصانع والمعاد وكان يقول : لا إله للعالم وإنما يجب على أهل كل بلد أن يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية لمصلحة العالم وأنكر أن يكون الرشد في عبادة الله ومعرفته فلما كان هو نافياً لهذين الأمرين كان خالياً عن الرشد بالكلية ، ثم إنه تعالى ذكر صفته وصفة قومه فقال : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : من حيث اللغة يقال : قدم فلان فلاناً بمعنى تقدمه ، ومنه قادمة الرجل كما يقال قدمه بمعنى تقدمه ، ومنه مقدمة الجيش .

والبحث الثاني : من حيث المعنى وهو أن فرعون كان قدوة لقومه في الضلال حال ما كانوا في الدنيا وكذلك مقدمهم إلى النار وهم يتبعونه ، أو يقال كما تقدم قومه في الدنيا فأدخلهم في البحر وأغرقهم فكذلك يتقدمهم يوم القيامة فيدخلهم النار ويحرقهم ، ويجوز أيضاً أن يريد بقوله : ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أي وما أمره بصالح حميد العاقبة ويكون قوله : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ ﴾ تفسيراً لذلك ، وأيضاحاً له ، أي كيف يكون أمره رشيداً مع أن عاقبته هكذا .

فإن قيل : لم لم يقل : يقدم قومه فيوردهم النار ؟ بل قال : يقدم قومه فأوردهم النار بلفظ الماضي .

قلنا : لأن الماضي قد وقع ودخل في الوجود فلا سبيل ألبتة إلى دفعه ، فإذا عبر عن المستقبل بلفظ الماضي دل على غاية المبالغة ، ثم قال : ﴿ وَبِئْسَ الورد المورود ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : لفظ "النار" مؤنث ، فكان ينبغي أن يقال : وبئست الورد المورود إلا أن لفظ "الورد" مذكر ، فكان التذكير والتأنيث جائزين كما تقول : نعم المنزل دارك ، ونعمت

المنزل دارك ، فمن ذكر غلب المنزل ومن أنث بنى على تأنيث الدار هكذا قاله الواحدي .

البحث الثاني : الورد قد يكون بمعنى الورود فيكون مصدراً وقد يكون بمعنى الوارد .

قال تعالى : ﴿ وَنَسُوقُ المجرمين إلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ [مريم : 86] وقد يكون بمعنى المورود عليه كالماء الذي يورد عليه .

قال صاحب "الكشاف" : الورد المورود الذي حصل وروده .

فشبه الله تعالى فرعون بمن يتقدم الواردة إلى الماء وشبه أتباعه بالواردين إلى الماء ، ثم قال بئس الورد الذي يوردونه النار ، لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد ، والنار ضده .

(10/385)

ثم قال : ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هذه لَعْنَةً وَيَوْمَ القيامة ﴾ والمعنى أنهم أتبعوا في هذه الدنيا لعنة وفي يوم القيامة أيضاً ، ومعناه أن اللعن من الله ومن الملائكة والأنبياء ملتصق بهم في الدنيا وفي الآخرة لا يزول عنهم ، ونظيره قوله في سورة القصص : ﴿ وأتبعناهم فِى هَذِهِ الدنيا لَعْنَةً وَيَوْمَ القيامة هُمْ مّنَ المقبوحين ﴾ [القصص : 42] .

ثم قال : ﴿ بِئْسَ الرفد المرفود ﴾ والرفد هو العطية وأصله الذي يعين على المطلوب سأل

نافع بن الأزرق ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله: ﴿ بِئْسَ الرفد المرفود ﴾ قال هو اللعنة بعد اللعنة.

قال قتادة: ترادفت عليهم لعنتان من الله تعالى لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة وكل شيء جعلته عوناً لشيء فقد رفدته به. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 43. 45﴾

(11/385)

وقال الماوردى:

قوله عز وجل: ﴿ وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة ﴾

فيه وجهان:

أحدهما: أن اللعنة في الدنيا من المؤمنين وفي الآخرة من الملائكة.

الثاني: أنه عنى بلعنة الدنيا الغرق، وبلعنة الآخرة النار، قاله الكلبي ومقاتل.

﴿ بئس الرِّفد المرفود ﴾ فيه ثلاث أوجه:

أحدها: بئس العون المعان، قاله أبو عبيدة.

الثاني: أن الرَّفد بفتح الراء: القدح، والرفد بكسرها ما في القدح من الشراب، حكي

ذلك عن الأصمعي فكأنه ذم بذلك ما يُسقونه في النار .

الثالث : أن الرفد الزيادة ، ومعناه بئس ما يرفدون به بعد الغرق النار ، قاله الكلبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(12/385)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾

" الآيات " : العلامات ، و" السلطان " : البرهان والبيان في الحجة ؛ قيل : هو مشتق من السليط الذي يستضاء به ، وقيل : من أنه مسلط على كل مناو ومخاصم ، و" الملأ " : الجمع من الرجال والمعنى : أرسلناه إليهم ليؤمنوا بالله تعالى ، فصدهم فرعون فاتبعوا أمره ولم يؤمنوا وكفروا ، ثم أخبر تعالى عن أمر فرعون أنه ليس ﴿ برشيد ﴾ أي ليس بمصيب في مذهبه ولا مفارق للسفاهة .

وقوله : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة ﴾ الآية ، أخبر الله تعالى في هذه الآية عن فرعون أنه يأتي يوم القيامة مع قومه المغرقين معه ، وهو يقدمهم إلى النار : وأوقع الفعل الماضي في ﴿ أوردهم ﴾ موقع المستقبل ، لوضوح الأمر وارتفاع الإشكال عنه ، ووجه الفصاحة من

العرب في أنها تضع أحياناً الماضي موضع المستقبل أن الماضي أدل على وقوع الفعل وحصوله ، و" الورود " في هذه الآية هو ورود الدخول وليس بورود الإشراف على الشيء والإشفاء كقوله تعالى : ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ [القصص : 23] وقال ابن عباس : في القرآن أربعة أوراد : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ [مريم : 71] وقوله : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾ [مريم : 86] وهذه في مريم ، وفي الأنبياء : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ [الأنبياء : 98] قال : وهي كلها ورد دخول ، ثم ينجي الله الذين اتقوا و ﴿ المورود ﴾ صفة لمكان الورد – على أن التقدير : ﴿ وبئس ﴾ مكان ﴿ الورد المورود ﴾ – وقيل : ﴿ المورود ﴾ ابتداء والخبر مقدم ، والمعنى : المورود بئس الورد .

(13/385)

وقوله : ﴿ في هذه ﴾ يريد دار الدنيا ، و" اللعنة " إبعادهم بالغرق والاستئصال وقبيح الذكر غابر الدهر ، وقوله : ﴿ ويوم القيامة ﴾ أي يلعنون أيضاً بدخولهم في جهنم ، قال مجاهد : فلهم لعنتان ، وذهب قوم إلى أن التقسيم هو أن لهم في الدنيا لعنة ويوم القيامة بئس ما يرفدون به فهي لعنة واحدة أولاً ، وقبح إرفاد آخراً ، وقوله : ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾

أي بئس العطاء المعطى لهم، و﴿ الرفد ﴾ في كلام العرب: العطية وسمي العذاب هنا رفداً لأن هذا هو الذي حل محل الرفد، وهذا كما تقول: يا فلان لم يكن خيرك إلا أن تضربني أي لم يكن الذي حل محل الخير منك، والإرفاد: المعونة. ومنه رفادة قريش: معونتهم لفقراء الحج بالطعام الذي كانوا يطعمونه في الموسم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(14/385)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَا ﴾

بين أنه أتبع النبي النبيّ لإقامة الحجة، وإزاحة كل علّة "بِآيَاتِنَا" أي بالتوراة.

وقيل : بالمعجزات.

﴿ وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي حجة بيّنة؛ يعني العصا.

وقد مضى في "آل عمران" معنى السلطان واشتقاقه فلا معنى للإعادة.

﴿ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فاتبعوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي شأنه وحاله، حتى اتخذوه إلها، وخالفوا أمر الله تعالى.

﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أي بسديد يؤدّي إلى صواب : وقيل : "بِرَشِيدٍ" أي بمرشد إلى خير .

قوله تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة ﴾ يعني أنه يتقدمهم إلى النار إذ هو رئيسهم .

يقال : قَدَمهم يقدُمُهم قدماً وقُدُوماً إذا تقدّمهم .

﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النار ﴾ أي أدخلهم فيها .

ذُكِر بلفظ الماضي ؛ والمعنى فيوردهم النار ؛ وما تحقق وجوده فكأنه كائن ؛ فلهذا يُعبَّر عن المستقبل بالماضي .

﴿ وَبِئْسَ الورد المورود ﴾ أي بئس المدخل المدخول ؛ ولم يقل بئست لأن الكلام يرجع إلى المورود ، وهو كما تقول : نعم المنزل دارك ، ونعمت المنزل دارك .

والمورود الماء الذي يورد ، والموضع الذي يورد ؛ وهو بمعنى المفعول .

قوله تعالى : ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هذه لَعْنَةً ﴾ أي في الدنيا .

﴿ وَيَوْمَ القيامة ﴾ أي ولعنة يوم القيامة ؛ وقد تقدّم هذا المعنى .

﴿ بِئْسَ الرفد المرفود ﴾ حكى الكسائي وأبو عبيدة : رَفَدْتُه أَرْفِدُه رَفْداً ؛ أي أعنته وأعطيته .

واسم العطية الرِّفْد ؛ أي بئس العطاء والإعانة .

والرفد أيضاً القدح الضخم ؛ قاله الجوهري ، والتقدير : بئس الرفد رِفد المرفود .

وذكر الماوردي : أن الرَّفد بفتح الراء القدح ، والرفد بكسرها ما في القدح من الشراب ؛ حكي ذلك عن الأصمعي ؛ فكأنه ذمّ بذلك ما يسقونه في النار .

وقيل : إن الرفد الزيادة ؛ أي بئس ما يرفدون به بعد الغرق النارُ ؛ قاله الكلبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(15/385)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾

يعي بحججنا والبراهين التي أعطيناه الدالة على صدقه ونبوته ﴿ وسلطان مبين ﴾ يعني ومعجزة باهرة ظاهرة دالة على صدقة أيضاً قال بعض المفسرين المحققين سميت الحجة سلطاناً لأن صاحب الحجة يقهر من لا حجة معه كالسلطان يقهر غيره ، وقال الزجاج : السلطان هو الحجة وسمي السلطان سلطاناً لأنه حجة الله في الأرض ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ يعني أتباعه وأشراف قومه ﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾ يعني ما هو عليه من الكفر وترك الإيمان بما جاءهم به موسى ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾ يعني وما طريق فرعون وما هو عليه بسديد ولا حميد العاقبة ولا يدعو إلى خير ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار

﴿ يعني كما تقدم قومه فأدخلهم البحر في الدنيا كذلك يتقدم قومه يوم القيامة فيدخلهم النار ويدخل هو أمامهم ، والمعنى كما كان قدوتهم في الضلال والكفر في الدنيا فكذلك هو قدوتهم وإمامهم في النار ﴿ وبئس الورد المورود ﴾ يعني : وبئس الدخل المدخول فيه وقيل شبه الله تعالى فرعون في تقدمه على قومه إلى النار بمن يتقدم على الوارد إلى الماء وشبه أتباعه بالواردين بعده ولما كان ورود الماء محموداً عند الواردين لأنه يكسر العطش قال في حق فرعون وأتباعه فأوردهم النار وبئس الورد المورود لأن الأصل فيه قصد الماء واستعمل في ورود النار على سبيل الفظاعة ﴿ وأتبعوا في هذه ﴾ يعني في هذه الدنيا ﴿ لعنة ﴾ يعني طرداً وبعداً عن الرحمة ﴿ ويوم القيامة ﴾ يعني وأتبعوا لعنة أخرى يوم القيامة مع اللعنة التي حصلت لهم في الدنيا ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ يعني بئس العون المعان وذلك أن اللعنة في الدنيا رفد للعنة في الآخرة وقيل معناه بئس العطاء المعطى وذلك أن ترادف عليهم لعنتان لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾

الورد قال ابن السكيت : هو ورود القوم الماء ، والورد الإبل الواردة انتهى .

فيكون مصدراً بمعنى الورود ، واسم مفعول في المعنى كالطحن بمعنى المطحون .

رفد الرجل يرفده رفاً ورفداً أعطاه وأعانه ، من رفد الحائط دعمه ، وعن الأصمعي الرفد بالفتح القدح ، والرفد بالكسر ما في القدح من الشراب .

وقال الليث : أصل الرفد العطاء والمعونة ، ومنه رفادة قريش يقال رفده يرفده رفداً ورفداً بكسر الراء وفتحها ، ويقال بالكسر الاسم وبالفتح المصدر .

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين .

إلى فرعون وملإيه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد .

يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود .

وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾ : الآيات المعجزات التسع : العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، ومنهم من أبدل النقص بإظلال الجبل .

وقيل : الآيات التوراة ، وهذا ليس بسديد ، لأنه قال إلى فرعون وملائه ، والتوراة إنما نزلت بعد هلاك فرعون وملائه .

والسلطان المبين هو الحجج الواضحة ، ويحتمل أن يريد بقوله : وسلطان مبين فيها أي في الآيات ، وهي دالة على صدق موسى عليه السلام .

ويحتمل أن يريد بها العصا لأنها أبهر تلك الآيات ، فنص عليها كما نص على جبريل وميكائيل بعد ذكر الملائكة على سبيل التشريف بالذكر .

والظاهر أن يراد بقوله : أمر فرعون أمره إياهم بالكفر وجحد معجزات موسى ، ويحتمل أن يريد الطريق والشان .

وما أمر فرعون برشيد : نفى عنه الرشد ، وذلك تجهيل لمتبعيه حيث شايعوه على أمره ، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل .

وذلك أنه ادعى الإلهية وهو بشر مثلهم .

عاينوا الآيات والسلطان المبين في أمر موسى عليه السلام ، وعلموا أن معه الرشد والحق ، ثم عدلوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس في اتباعه رشد .

ويحتمل أن يكون رشيد بمعنى راشد ، ويكون رشيد بمعنى مرشد أي بمرشد إلى خير .

وكان فرعون دهرياً نافياً للصانع والمعاد ، وكان يقول : لا إله للعالم ، وإنما يجب على أهل كل

بلد أن يشتغلوا بطاعة سلطانهم ، فلذلك كان أمره خالياً عن الرشد بالكلية .

والرشد يستعمل في كل ما يحمد ويرتضى ، والغي ضده .

ويقال : قدم زيد القوم يقدم قدماً ، وقدوماً تقدمهم والمعنى : أنه يقدم قومه المغرقين إلى النار ، وكما كان قدوة في الضلال متبعاً كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه ، ويحتمل أن يكون قوله : برشيد بحميد ، العاقبة ، ويكون قوله : يقدم قومه ، تفسيراً لذلك وإيضاحاً أي : كيف يرشد أمر من هذه عاقبته ؟ وعدل عن فيوردهم إلى فأوردهم لتحقق وقوعه لا محالة ، فكأنه قد وقع ، ولما في ذلك من الإرهاب والتخويف .

أو هو ماض حقيقة أي : فأوردهم في الدنيا النار أي : موجبه وهو الكفر .

ويبعد هذا التأويل الفاء والورود في هذه الآية .

ورود الخلود وليس بورود الإشراف على الشيء والإشفاء كقوله : ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ ويحتمل أن تكون النار تصيبه على إعمال الثاني لأنه تنازعه يقدم أي : إلى النار وفأوردهم ، فأعمل الثاني وحذف معمول الأول .

والهمزة في فأوردهم للتعدية ، ورد يتعدى إلى واحد ، فلما أدخلت الهمزة تعدى إلى اثنين ، فتضمن وارداً وموروداً .

ويطلق الورد على الوارد ، فالورد لا يكون المورود ، فاحتيج إلى حذف ليطابق فاعل بئس

المخصوص بالذم ، فالتقدير : وبئس مكان الورد المورود ويعني به النار .

فالورد فاعل ببئس ، والمخصوص بالذم المورود وهي النار .

(18/385)

ويجوز في إعراب المورود ما يجوز في زيد من قولك : بئس الرجل زيد ، وجوز ابن عطية وأبو البقاء أن يكون المورود صفة للورد أي : بئس مكان الورد المورود النار ، ويكون المخصوص محذوفاً لفهم المعنى ، كما حذف في قوله : ﴿ فبئس المهاد ﴾ وهذا التخريج يبتني على جواز وصف فاعل نعم وبئس ، وفيه خلاف .

ذهب ابن السراج والفارسي إلى أن ذلك لا يجوز ، وقال الزمخشري : والورد المورود الذي وردوه شبهه بالفارط الذي يتقدم الواردة إلى الماء ، وشبه اتباعه بالواردة ، ثم قيل : بئس الورد الذي يردونه النار ، لأن الورد إنما يورد لتسكين العطش وتبريد الأكباد ، والنار ضده انتهى .

وقوله : والورد المورود إطلاق الورد على المورود مجاز ، إذ نقلوا أنه يكون صدراً بمعنى الورود ، أو بمعنى الواردة من الإبل وتقديره : بئس الورد الذي يردونه النار ، يدل على أنّ المورود صفة للورد ، وأن المخصوص بالذم محذوف ، ولذلك قدّره النار .

وقد ذكرنا أن ذلك يبتني على جواز وصف فاعل بئس ونعم .

وقيل : التقدير بئس القوم المورود بهم هم ، فيكون الورد عنى به الجمع الوارد ، والمورود صفة لهم ، والمخصوص بالذم الضمير المحذوف وهو هم ، فيكون ذلك ذماً للواردين ، للا ذماً لموضع الورود .

والإشارة بقوله : في هذه إلى الدنيا وقد جاء مصرحاً بها في قصة هود ، ودل عليها قوله : ويوم القيامة ، لأنه الآخرة .

فيوم معطوف على موضع في هذه ، والمعنى : أنهم ألحقوا لعنة في الدنيا وفي الآخرة .

قال الكلبي : في هذه لعنة من المؤمنين أو بالغرق ، ويوم القيامة من الملائكة أو بالنار .

وقال مجاهد : فلهم لعنتان ، وذهب قوم إلى أنّ التقسيم هو أنّ لهم في الدنيا لعنة ، ويوم القيامة يرفدون به فهي لعنة واحدة أولاً ، وقبح ارفاداً آخراً انتهى .

وهذا لا يصح لأنّ هذا التأويل يدل على أنّ يوم القيامة معمول لبئس ، وبئس لا يتصرف ، فلا يتقدم معمولها عليها ، فلو تأخر يوم القيامة صح كما قال الشاعر :

(19/385)

ولنعم حشو الدرع أنت إذا . . .

دعيت نزال ولج في الذعر

وقال الزمخشري : بئس الرفد المرفود رفدهم ، أي : بئس العون المعان ، وذلك أنّ اللعنة في الدنيا رفد للعذاب ومدد له ، وقد رفدت باللعنة في الآخرة .

وقيل : بئس العطاء المعطى انتهى .

ويظهر من كلامه أنّ المرفود صفة للرفد ، وأنّ المخصوص بالذم محذوف تقديره : رفدهم ، وما ذكر من تفسيره أي بئس العون المعان هو قول أبي عبيدة ، وسمى العذاب رفداً على نحو قولهم : تحية بينهم ضرب وجيع .

وقال الكلبي : الرفد الرفادة أي بئس ما يرفدون به بعد الغرق النار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(20/385)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا ﴾

وهي الآياتُ التسعُ المفصّلاتُ التي هي العصا واليدُ البيضاءُ والطوفانُ والجرادُ والقُمّلُ

والضفادعُ والدمُ ونقصُ الثمراتِ والأنفسِ ومن جعلهما آيةً واحدةً وعدّ منها إظلالَ الجبل وليس كذلك فإنه لقبولِ أحكامِ التوراةِ حين أباه بنو إسرائيلَ ، والباءُ متعلقةٌ بمحذوف وقع حالاً من مفعولِ أرسلنا أو نعتاً لمصدره المؤكّد أي أرسلناه حال كونِه ملتبساً بآياتنا أو أرسلناه إرسالاً ملتبساً ﴿ وسلطانٍ مُّبِينٍ ﴾ هو المعجزاتُ الباهرةُ منها أو هو العصا ، والإفرادُ بالذكر لإظهار شرفِها لكونها أبهرَها أو المرادُ بالآيات ما عداها أو هما عبارتان عن شيء واحد ، أي أرسلناه بالجامع بين كونِه آياتنا وبين كونِه سلطاناً له على نبوّته واضحاً في نفسه أو موضّحاً إياها ، من أبان لازماً ومتعدّياً ، أو هو الغلبةُ والاستيلاءُ كقوله تعالى : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سلطانا ﴾ ويجوز أن يكون المرادُ ما بيّنه عليه السلام في تضاعيف دعوتِه حين قال له فرعونُ : ﴿ مِنْ * رَّبُّكُمَا ﴾ ﴿ فَمَا بَالُ القرون الاولى ﴾ من الحقائق الرائقةِ والدقائقِ اللائقةِ وجعلُه عبارةً عن التوراة وإدراجُها في جملة الآيات يردّه قولُه عز وجل : ﴿ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ فإن نزولَها إنما كان بعد مهلك فرعونَ وقومِه قاطبةً ليعمل بها بنو إسرائيلَ فيما يأتون وما يذرون ، وأما فرعونُ وقومُه فإنما كانوا مأمورين بعبادة ربّ العالمين عزّ سلطانُه وتركِ العظيمةِ الشنعاءِ التي كان يدعيها الطاغيةُ وتقبلها منه فئتُه الباغية ، وبإرسال بني إسرائيلَ من الأسر والقسْرِ ، وتخصيصُ ملئه بالذكر مع عموم رسالتِه عليه السلام لقومه كافة لأصالتهم في الرأي وتدبيرِ الأمور واتباعِ غيرِهم لهم في الورود والصدور ،

وإنما لم يصرِّح بكفر فرعونَ بآيات الله تعالى وانهماكه فيما كان عليه من الضلال والإضلال بل اقتصر على ذكر شأن ملِئه فقال : ﴿ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي أمرَه بالكفر

(21/385)

بما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين للإيذان بوضوح حالِه فكأن كفرَه وأمْرَ ملِئه بذلك أمرٌ محققُ الوجودِ غيرُ محتاجٍ إلى الذكر صريحاً ، وإنما المحتاجُ إلى ذلك شأن ملِئه المترددين بين هادٍ إلى الحق وداعٍ إلى الضلال فنعى عليهم سوءَ اختيارِهم ، وإيرادُ الفاء في اتّباعهم المترتبِ على أمر فرعونَ المبنيّ على كفره المسبوقِ بتبليغ الرسالةِ للإشعار بمفاجأتهم في الاتباع ومسارعةِ فرعونَ إلى الكفر وأمرِهم به ، فكأن ذلك كلّه لم يتراخَ عن الإرسال والتبليغِ بل وقع جميعُ ذلك في وقت واحد فوقع إثرَ ذلك اتباعُهم . ويجوز أن يرادَ بأمر فرعونَ شأنُه المشهورُ وطريقتُه الزائغة فيكون معنى فاتبعوا فاستمرّوا على الاتّباع ، والفاءُ مثلُ ما في قولك : وعظتُه فلم يتعظْ وصِحْتُ به فلم ينزجِرْ ، فإن الإتيانَ بالشيء بعد ورودِ ما يوجب الإقلاعَ عنه وإن كان استمراراً عليه لكنه بحسب العُنوانِ فعلٌ جديدٌ وصنعٌ حادثٌ فتأمل . وتركُ الإضمارِ لدفع توهُّمِ الرجوعِ إلى موسى عليه السلام من أول الأمرِ ولزيادة تقبيحِ حال المتبعين ، فإن فرعونَ علَمٌ في الفساد والإفساد والضلالِ والإضلال

فاتباعُه لفَرْط الجهالِة وعدمِ الاستبصار ، وكذا الحالُ في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ الرُّشدُ ضدُّ الغيِّ وقد يراد به محموديّةُ العاقبةِ فهو على الأول بمعنى المُرشد حقيقةٌ لغويةٌ والإسنادُ مجازيٌّ وعلى الثاني مجازٌ والإسناد حقيقيٌّ .

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ ﴾

(22/385)

جميعاً من الأشراف وغيرِهم ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ أي يتقدّمهم ، من قدمه بمعنى تقدّمه وهو استئنافٌ لبيان حالِه في الآخرة أي كما كان قدوةً لهم في الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه ، أو لتوضيح عدمِ صلاحِ مآلِ أمرِه وسوءِ عاقبتِه ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النار ﴾ أي يوردهم ، وإيثارُ صيغةِ الماضي للدلالة على تحقق الوقوعِ لا محالة ، شُبّه فرعونُ بالفارط الذي يتقدم الواردةَ إلى الماء ، وأتباعُه بالواردة ، والنارُ بالماء الذي يرِدُونه ثم قيل : ﴿ وَبِئْسَ الورد المورود ﴾ أي بئس الوردُ الذي يردونه النارُ ، لأن الورد إنما يراد لتسكين العطشِ وتبريدِ الأكباد والنارُ على ضد ذلك .

﴿ واتبعوا ﴾ أي الملأُ الذين اتّبعوا أمرَ فرعون ﴿ فِى هذه ﴾ أي في الدنيا ﴿ لَّعْنَةً ﴾ عظيمةً حيث يلعنهم مَنْ بعدهم من الأمم إلى يوم القيامة ﴿ وَيَوْمَ القيامة ﴾ أيضاً حيث

يلعنهم أهلُ الموقفِ قاطبةً فهي تابعةٌ لهم حيثما ساروا دائرةٌ معهم أينما داروا في الموقف ، فكما اتّبعوا فرعونَ اتبعتْهم اللعنةُ في الدارين جزاء وفاقاً ، واكتُفي ببيان حالِهم الفظيعِ وشأنِهم الشنيعِ عن بيان حالِ فرعونَ إذ حين كان حالُهم هكذا فما ظنُّك بحال مَن أغواهم وألقاهم في هذا الضلال البعيد وحيث كان شأنُ الأتباع أن يكونوا أعواناً للمتبوع جُعلت اللعنةُ رِفداً لهم على طريقة التهكّم فقيل : ﴿ بِئْسَ الرفد المرفود ﴾ أي بئس العونُ المُعانُ ، وقد فُسر الرفدُ بالعطاء ولا يلائمه المقام ، وأصلُه ما يضاف إلى غيره ليُعمّده والمخصوصُ بالذم محذوفٌ أي رفدُهم وهي اللعنةُ في الدارين ، وكونُه مرفوداً من حيث أن كلَّ لعنة منها مُعِيْنةٌ ومُمِدّةٌ لصاحبتها ومؤيدةٌ لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(23/385)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا ﴾

وهي الآيات التسع العصا .

واليد البيضاء .

والطوفان .

والجراد .

والقول والقمل .

والضفادع.

والدم .

والنقص من الثمرات والأنفس ، والباء متعلقة بمحذوف وقع حالاً من مفعول ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ أو نعتاً لمصدره المؤكد أي أرسلناه حال كونه ملتبساً بآياتنا .

أو أرسلناه إرسالاً ملتبساً بها .

﴿ وسلطان مُّبِينٍ ﴾ هو المعجزات الباهرة منها وهو العصا والإفراد بالذكر لإظهار شرفها لكونها أبهرها ، والمراد بالآيات ما عداها ، ويجوز أن يراد بهما واحد ، والعطف باعتبار التغاير الوصفي أي أرسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وكونه سلطاناً له على نبوته واضحاً في نفسه أو موضحاً إياها من أبان لازماً بمعنى تبين ومتعدياً بمعنى بين ، وجعل بعضهم الآيات والسلطان شيئاً واحداً في نفس الأمر إلا أن في ذلك تجريداً نحو مررت بالرجل الكريم .

والنسمة المباركة كأنه جرد من الآيات الحجة وجعلها غيرها وعطفت عليها لذلك ، وجوز أن يكون المراد بالآيات ما سمعت وبالسلطان ما بينه عليه السلام في تضاعيف دعوته حين قال له فرعون : ﴿ مِنْ رَّبُّكُمَا ﴾ [طه : 49] ﴿ فَمَا بَالُ القرون الاولى ﴾ [طه : 51

] من الحقائق الرائقة .

والدقائق اللائقة ، أو هو الغلبة والاستيلاء كما في قوله سبحانه : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سلطانا ﴾ [القصص : 35] وجعله عبارة عن التوراة ، أو إدراجها في جملة الآيات يرده كما قال أبو حيان قوله عز وجل :

(24/385)

﴿ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِ ﴾ فإن نزولها إنما كان بعد مهلك فرعون وقومه قاطبة ليعمل بها بنو إسرائيل فيما يأتون ويذرون ، وأما فرعون وقومه فإنما كانوا مأمورين بعبادة رب العالمين وترك العظيمة الشنعاء التي كان يدعيها الطاغية وتقلبها منه فئته الباغية وبإرسال بني إسرائيل من الأسر والقسر ، ومن هذا يعلم ما في عند النقص من الثمرات والنقص من الأنفس آية واحدة من الآيات التسع ، وعد إظلال الجبل منها لأن ذلك إنما كان لقبول التوراة حين أباه بنو إسرائيل فهو متأخر أيضاً ضرورة .

ومثل ذلك عد فلق البحر وإظلال الغمام بدلهما لأن هذا الإظلال أيضاً متأخر عن مهلك فرعون وقومه .

وأجاب بعض الأفاضل عن الاعتراض على جعل التوراة من الآيات بأت التصحيح ممكن ،

أما أولاً : فبما صرحوا به من جواز إرجاع الضمير وتعلق الجار ونحوه بالمطلق الذي في ضمن المقيد فقوله سبحانه : ﴿ إلى فِرْعَوْنَ ﴾ يجوز أن يتعلق بالإرسال المطلق لا المقيد بكونه بالتوراة ، وأما ثانياً : فبأن يقال : إن موسى عليه السلام كما أرسل إلى الفراعنة أرسل إلى بني إسرائيل أيضاً فيجب أن يحمل ملأ فرعون على ما يشملهم فيجيء الكلام على التوزيع على معنى أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين وإلى وملائه بالتوراة فيكون لفاً ونشراً غير مرتب ، ويقال نحو هذا على تقدير عدّ إظلال الجبل .

أو الغمام من الآيات ، وفي مجموعة سرى الدين المصري أن هذا السؤال مما أورد الحافظ الطاشكندي على مخدوم الملك فأجاب بأن قوله سبحانه : ﴿ بآياتنا ﴾ [هود : 96] حال مقدرة أي مقدرين تلبسه أو نصرته بالآيات والسلطان إلى فرعون وملائه فلا يقدح فيه ظهور بعضها بعد هلاك فرعون كالتوراة .

وانفجار الماء .

(25/385)

وغير ذلك ، وبأنه قيل : إن إعطاء التوراة مجموعاً مرتباً مكتوباً في الألواح بعد غرق فرعون ، وأوحى بها إلى موسى عليه السلام في حياة فرعون وكان يأمر بها قومه ويبلغها إلى فرعون

وملائه ، ويؤيده ما قيل : إن بعض الألواح كان منزلاً قبل نزول التوراة بتمامها وكانت تلك الألواح من خشب والألواح التي كانت فيها التوراة بتمامها كانت من زمرد أو من ياقوت أحمر أو من صخرة صماء انتهى ، ولا يخفى أن الذهاب إلى كون الحال مقدرة مما لا يكاد يقبله الذوق السليم ، وما حكى من أن إعطاء التوراة مجموعاً كان بعض والإيحاء بها كان قبل الخ مما لا مستند له من الأخبار الصحيحة ، وما ذكر أولاً : من حديث التعلق بالمطلق .

وثانياً : من حمل ﴿ الملأ ﴾ على ما يشمل بني إسرائيل الخ مما ينبغي أن ينزه ساحة التنزيل عنه ، وكيف يحمل الملأ على ما يشمل بني إسرائيل مع الإضافة إليه وجعلهم من أهل النار ، ولا أظنك في مرية من القول بعدم صحة ذلك ؛ وقيل : لو جعل ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ متعلقاً ﴿ بسلطان مُّبِينٍ ﴾ [هود : 96] لفظاً أو معنى على تقدير وسلطان مرسل به إلى فرعون لم يبعد مع المناسبة بينه وبين السلطان ، وفيه ما لا يخفى فتأمل .

(26/385)

وتخصيص الملأ بالذكر مع عموم رسالة موسى عليه السلام للقوم كافة لأصالتهم في الرأي وتدبير الأمور واتباع الغير لهم في الورود والصدور ، ولم يصرح بكفر فرعون بالآيات وانهماكه فيما كان عليه من الضلال والإضلال بل اقتصر على ذكر شأنه ملائه فقيل : ﴿

فاتبعوا ﴿ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي أمره بالكفر بما جاء به موسى عليه السلام من الحق للإيذان بوضوح حاله فكأن كفره وأمر ملائه بذلك أمر متحقق الوجود غير محتاج إلى الذكر صريحاً ، وإنما المحتاج إلى ذلك شأن ملائه المترددين بين هاد إلى الحق وهو موسى عليه السلام وداع إلى الضلال وهو فرعون فنعى عليهم سوء اختيارهم ، وإيراد الفاء للإشعار بمفاجأتهم في الاتباع ومسارعة فرعون إلى الكفر والأمر به ، فكأن ذلك لم يتراخ عن الإرسال والتبليغ .

وجوز أن يراد من الأمر الطريقة والشأن ، قيل : ومعنى ﴿ فاتبعوا ﴾ فاستمروا على الاتباع ، والفاء مثل ما في قولك : وعظته فلم يتعظ وزجرته فلم ينزجر ، فإن الإتيان بالشيء بعد ورود ما يوجب الإقلاع عنه وإن كان استمراراً عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث ، ويجوز أن يكون المراد فاتصفوا بما اتصف به فرعون من الكفر بما جاء به موسى عليه السلام والتكذيب له ووافقوه في ذلك ، وإيراد الفاء للاشعار بمفاجأتهم في الموافقة لفرعون في الكفر ومسارعته إليه فكأنه حين حصل الإرسال والتبليغ حصل كفر فرعون بما جاء به موسى عليه السلام ووقع على أثره الموافقة منهم ، ولا تتوهمن أن هذه الموافقة كانت حاصلة لهم قبل لأنها تتوقف على اتصاف فرعون بالكفر بما جاء به موسى عليه السلام ، وذلك إنما تجدد له بعد الإرسال والتبليغ فلا ضرورة إلى الحمل على الاستمرار ، وجعل الفاء كما في قولك : زجرته فانزجر فتأمل .

وعدل عن أمره إلى أمر فرعون لدفع توهم رجوع الضمير إلى موسى عليه السلام من أول

الأمر ولزيادة تقبيح حال المتبعين فإن فرعون علم في الفساد .

والإفساد .

والضلال .

(27/385)

والإضلال ، فاتباعه لفرط الجهالة وعدم الاستبصار ، وكذا الحال في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أي براشد أو بذي رشد ، والرشد ضد الغي وإسناده إلى الأمر مجازي وكأن في العدول عن وأمر فرعون غي وضلال إلى ما في النظم الكريم زيادة في تقبيح فعلهم وتحسيراً لهم على فوات ما فيه صلاح الدارين أعني الرشد .

ويجوز أن يجعل الرشد كناية عن المحمودية والإسناد حقيقي أي وما أمر فرعون بصالح حميد العاقبة وقوله سبحانه :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار ﴾ على الأول : استئناف وقع جواباً لمن سأل عن حال المتبوع والتابع مآلاً ، وعلى الثاني : تفسير وإيضاح لعدم صلاح عاقبته أي كيف يرشد أمر من هذه عاقبته ، وجملة ﴿ وَمَا أَمْرُ ﴾ [هود : 97] الخ جوز أن تكون حالاً من فاعل اتبعوا وأن تكون حالاً من مفعوله قيل : وهو مختار الزمخشري ، والمراد بالقوم ما يشمل

الملأ وغيرهم ، و ﴿ يَقْدُمُ ﴾ كينصر من قدم كنصر بمعنى تقدم ، ومنه قادمة الرحل ، وهذا كما يقال : قدمه بمعنى تقدمه ، ومنه مقدمة الجيش وأقدم بمعنى تقدم ، ومنه مقدم العين فإنه بالكسر لا غير كما قاله المرزوقي ، ومثله مؤخر العير كما في المزهر ، والمراد من أوردهم يوردهم ، والتعبير به دونه للإيذان بتحقق وقوعه لا محالة ، والقول : بأنه باق على حقيقته والمراد فأوردهم في الدنيا النار أي موجبها وهو الكفر ليس بشيء ، ونصب النار على أنه مفعول اثن لأوردهم وهي استعارة مكنية تهكمية للضدّ وهو الماء ، وفي قرينتها احتمالاً كما شاع في ﴿ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ ﴾ [البقرة : 27] وعلى احتمال المجاز يكون الإيراد مستعاراً استعارة تبعية لسوقهم إلى النار .

وجوز أن يقال : إنه شبه فرعون بالفارط وهو الذي يتقدم القوم للماء ففيه استعارة مكنية ، وجعل اتباعه واردة وإثبات الورود لهم تخييل ، وجوز أيضاً جعل المجموع تمثيلاً .

(28/385)

وجوز بعضهم كون ﴿ يَقْدُمُ ﴾ وأورد متنازعين في النار إلا أنه أعمل الثاني وحذف مفعول الأول وليس بذلك .

﴿ وَبِئْسَ الورد المورود ﴾ أي بئس الورد الذي يردونه النار لأن الورد إنما يورد لتسكين

العطش وتبريد الأكبار وفي النار تقطع الأكباد واشتعالها كذا قيل ، فالورد على هذا بمعنى النصيب من الماء ﴿ والمورود ﴾ صفته ، والمخصوص بالذم محذوف وهو النار ، وتعقب بأنه لا بد من تصادق فاعل ﴿ بالالقاب بِئْسَ ﴾ ومخصوصها ولا تصادق على هذا ، وأيضاً في جواز وصف فاعل نعم .

وبئس خلاف ، وابن السراج ، والفارسي على عدم الجواز .

وجوز ابن عطية كون (المورود) صفة والمخصوص الناس إلا أنه جعل الكلام على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، فالتصادق حاصل في الحقيقة أي بئس مكان الورود المورود النار ومنهم من يجعل ﴿ المورود ﴾ هو المخصوص بالذم ، والمراد به النار ، ويقدر المضاف ليحصل التصادق أيضاً أي بئس مكان الورد النار ومن يجعل الورد فاعل ﴿ بِئْسَ ﴾ ويفسره بالجمع الوارد .

و ﴿ المورود ﴾ صفة لهم والمخصوص بالذم ضميرهم المحذوف أي بئس القوم المورود بهم هم فيكون ذماً للواردين لا لموضع الورود .

﴿ وَأُتْبِعُوا ﴾ أي الملأ الذين اتبعوا أمر فرعون ، وقيل : القوم مطلقاً ﴿ فِى هذه ﴾ أي في الدنيا ﴿ لَعْنَة ً ﴾ عظيمة حيث يلعنهم من بعدهم من الأمم ﴿ وَيَوْمَ القيامة ﴾ أيضاً حيث يلعنهم أهل الموقف قاطبة فهي تابعة لهم حيثما ساروا ودائرة أينما داروا فكما اتبعوا أمر فرعون اتبعتهم اللعنة في الدارين جزاءاً وفاقاً .

وقال الكلبي : اللعنة في الدنيا من المؤمنين أو بالغرق ، ويوم القيامة من الملائكة أو بالنار .

﴿ بِئْسَ الرفد المرفود ﴾ أي بئس العون المعان كما نقل عن أبي عبيدة ، والمخصوص بالذم محذوف أي رفدهم ، ويكون ﴿ الرفد ﴾ بمعنى العطية كما يكون بمعنى العون .

(29/385)

قال أبو حيان : يقال : رفد الرجل يرفده رفداً ورفداً إذا أعطاه وأعانه من رفد الحائط دعمه ، وعن الأصمعي الرفد بالفتح القدح.

والرفد بالكسر ما فيه من الشراب ، وقال الليث : أصل الرفد العطاء والمعونة ، ومنه رفادة قريش وهي معاونتهم للحاج بشيء يخرجونه للفقراء ، ويقال رفده رفداً ورفداً بكسر الراء وفتحها ، ويقال : بالكسر الاسم .

وبالفتح المصدر ، وفسره هنا بالعطاء غير واحد .

وزعم أن المقام لا يلائمه ليس بشيء ؛ نعم تفسيره بالعون جاء في صحيح البخاري ، والمراد به على التفسرين اللعنة وتسميتها عوناً على التفسير الأول من باب الاستعارة التهكمية ، وأما كونها معاناً فلأنها أرفدت في الأخرة بلعنة أخرى لتكونا هاديتين إلى صراط الجحيم ، وكان القياس أن يسند المرفود إليهم لأن اللعنة في الدنيا تتبعهم وكذا في الآخرة لقوله سبحانه

: ﴿ واتبعوا ﴾ الخ، ولكن أسند إلى الرفد الذي هو اللعنة على الإسناد المجازي نحو جدّ جدّه.

وجنونك مجنون، وكذا يعتبر الاستعارة والمجاز المذكوران على التفسير الثاني كذا قيل.

وقال بعض المدققين: إن في قول الزمخشري في بيان الآية على المعنى الأول المنقول عن أبي عبيدة وذلك أن اللعنة في الدنيا رفد للعذاب ومدد له، وقد رفدت باللعنة في الآخرة ما يشعر بأنه ليس من الاستعارة التهكمية في شيء إذ لو كان رفداً للمعذبين لكان من ذلك القبيل، ثم قال: وجعله من باب جد جده أبعد وأبعد لأنه ذكر أنه رفد أعين برد أما لو فسر بالتفسير الثاني ففيه الأول لا الثاني لأنه ليس مصدراً وإنما العطاء بمعنى ما يعطى فكثيراً ما يطلق عليه انتهى وفيه نظر لا يخفى، ثم إن القول بأن هناك لعنتين رفدت إحداهما بالأخرى هو المروي عن مجاهد.

وغيهر فيوم معطوف على محل في الدنيا.

(30/385)

وذهب قوم إلى أن التقسيم هو أن لهم في الدنيا لعنة ويوم القيامة بئس ما يرفدون به فهي لعنة واحدة أولاً وقبح إرفاد آخراً انتهى، وتعقبه في "البحر" بأن هذا لا يصح لأنه يدل على أن

﴿ يَوْمٍ ﴾ معمول ﴿ بِئْسَ ﴾ وهي لا تتصرف فلا يتقدم معمولها عليها ، ولو كان ﴿ يَوْمٍ ﴾ متأخراً صح ذلك كما قال الشاعر

: ولنعم حشو الدرع أنت إذا . . .

دعيت نزال ولج في الذعر

وهو كلام وجيه ، والآية ظاهرة في سوء حال فرعون يوم القيامة لأنه إذا كان حال الاتباع ما قص الله سبحانه فما ظنك بحال من أغواهم وألقاهم في هذا الضلال البعيد ؟ وهذا يعكر على من ذهب إلى أنه قبض طاهراً مطهراً بل قال بعضهم : إنها نص في رد ذلك لأنه تعالى سلب عنه فيها الرشاد بعد موته والمؤمن الطاهر المطهر لا يسلب عنه الرشاد بعد الموت ، ولعل من ذهب إلى ذلك يقول : باب التأويل واسع .

وباب الرحمة أوسع منه . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(31/385)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾

عطف قصة على قصة .

وعقّبت قصة مدين بذكر بعثة موسى عليه السّلام لقرب ما بين زمنيهما ، ولشدة الصلة بين النبيئين فإن موسى بعث في حياة شعيب عليهما السّلام وقد تزوّج ابنة شعيب .

وتأكيد الخبر بـ (قد) مثل تأكيد خبر نوح عليه السّلام في قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ [هود : 25] .

والباء في ﴿ بآياتنا ﴾ للمصاحبة فإن ظهور الآيات كان مصاحباً لزمن الإرسال إلى فرعون وهو مدّة دعوة موسى عليه السّلام فرعون وملأه .

والسلطان : البرهان المبين ، أي المُظهر صدق الجائي به وهو الحجّة العقليّة أو التأييد الإلهي .

وقد تقدّم ذكر فرعون ومَلإه في سورة الأعراف .

وعُقب ذكر إرسال موسى عليه السّلام بذكر اتّباع الملإ أمرَ فرعون لأنّ اتّباعهم أمر فرعون حصل بإثر الإرسال ففهم منه أنّ فرعون أمرهم بتكذيب تلك الرسالة .

وإظهار اسم فرعون في المرّة الثانية دون الضمير والمرة الثالثة للتّشهير بهم ، والإعلان بذمّه وهو انتفاء الرشد عن أمره .

وجملة ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾ حال من ﴿ فرعون ﴾ .

والرشيد : فعيل من رشد من باب نصر وفرح ، إذا اتّصف بإصابة الصواب .

يقال : أرشدك الله .

وأجري وصف رشيد على الأمر مجازاً عقلياً .

وإنّما الرشيد الآمر مبالغة في اشتمال الأمر على ما يقتضي انتفاء الرشد فكأنّ الأمر هو الموصوف بعدم الرشد .

والمقصود أن أمر فرعون سَفَهٌ إذْ لاَ واسطة بين الرشد والسفه .

ولكن عدل عن وصف أمره بالسّفيه إلى نفي الرشد عنه تجهيلاً للذين اتبعوا أمرَه لأنّ شأن العقلاء أن يَتطلبوا الاقتداء بما فيه صلاح وأنهم اتبعوا ما ليس فيه أمارة على سداده واستحقاقه لأن يتّبع فماذا غرّهم باتباعه .

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾

(32/385)

جملة ﴿ يقدم قومَه ﴾ يجوز أن تكون في موضع الحال من ﴿ فرعون ﴾ [هود : 97] المذكور في الجملة قبلها .

ويجوز أن تكون استئنافاً بيانياً .

والإيراد : جعل الشيء وارداً ، أي قاصداً الماء ، والذي يوردهم هو الفارط ، ويقال له : الفَرَط .

والوِرد بكسر الواو : الماء المورود ، وهو فِعْل بمعنى مَفعول ، مثل ذِبْح .

وفي قوله : ﴿ فأوردهم النار وبئس الورد المورود ﴾ استعارة الإيراد إلى التقدّم بالناس إلى العذاب ، وهي تهكمّية لأن الإيراد يكون لأجل الانتفاع بالسقي وأمّا التقدّم بقومه إلى النار فهو ضد ذلك .

و﴿ يقدُم ﴾ مضارع قدَم بفتح الدّال بمعنى تقدّم المتعدي إذا كان متقدّماً غيره .

وإنما جاء ﴿ فأوردهم ﴾ بصيغة الماضي للتّنبِيه على تحقيق وقوع ذلك الإيراد وإلاّ فقرينة قوله : ﴿ يوم القيامة ﴾ تدلّ على أنّه لم يقع في الماضي :

وجملة ﴿ وبئس الورد المورود ﴾ في موضع الحال والضمير المخصوص بالمدح المحذوف هو الرابط وهو تجريد للاستعارة ، كقوله تعالى : ﴿ بئس الشراب ﴾ [الكهف : 29] ، لأن الورد المشبه به لا يكون مذموماً .

والإتْبَاع : الإلحاق .

واللعنة : هي لعنة العذاب في الدّنيا وفي الآخرة .

و﴿ يوم القيامة ﴾ متعلق بـ ﴿ أتبعوا ﴾ ، فعلم أنّهم أتبعوا لعنة يوم القيامة ، لأنّ اللّعنة الأولى قيّدت بالمجرور بحرف ﴿ في ﴾ الظرفية ، فتعيّن أنّ الإتباع في يوم القيامة بلعنة أخرى .

وجملة ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ مستأنفة لإنشاء ذمّ اللّعنة .

والمخصوص بالذمّ محذوف دل عليه ذكر اللّعنة ، أي بئس الرفد هي .

والرفد بكسر الرّاء اسم على وزن فِعل بمعنى مفعول مثل ذبح ، أي ما يرفد به .

أي يُعطى .

يقال : رفده إذا أعطاه ما يعينه به من مال ونحوه .

وفي حذف المخصوص بالمدح إيجاز ليكون الذمّ متوجّهاً لإحدى اللّعنتين لا على التعيين لأنّ

كلتيهما بَئِيس .

وإطلاق الرّفد على اللّعنة استعارة تهكّمية ، كقول عمرو بن معد يكرب :

تحية بينهم ضرب وجيع

(33/385)

والمرفود : حقيقته المعطَى شيئًا .

ووصف الرفد بالمرفود لأنّ كلتا اللّعنتين معْضودة بالأخرى ، فشبّهت كل واحدة بمَن أعطي

عطاء فهي مرفودة .

وإنما أجري المرفود على التذكير باعتبار أنّه أطلق عليه رفد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾

ونحن نعلم أن الآيات إذا وردت في القرآن إنما تنصرف إلى ثلاثة أشياء :

آيات كونية تعاصر كل الناس ويراها كل واحد ، مثل آيات الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والأرض الخاشعة إذا ما نزل عليها الماء اهتزت وربت ، وكلها آيات كونية تلفت العقل إلى النظر في أن وراء هذا الكون الدقيق تكويناً هندسياً أقامه إله قادر .

وهناك آيات تأتي لبيان صدق الرسول في البلاغ عن الله ، وهي المعجزات مثل : ناقة ثمود المبصرة ، وشفاء عيسى عليه السلام للأكمه والأبرص بإذن الله .

ثم آيات الأحكام التي تبيِّن مطلوبات المنهج ب " افعل " و " لا تفعل " .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : 96] .

فهناك آيات تدل على صدقه ، وفوق ذلك سلطان ظاهر ، إما أن يكون سلطاناً يقهر الغالب ، أو سلطان حجة تقنع العقل .

وسلطان القوة قد يقهر الغالب ، لكنه لا يقهر القلب ، والله سبحانه يريد قلوباً ، لا قوالب ؛

لذلك قال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السماء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : 34] .

إذن : فالحق سبحانه يطلب القلوب لا القوالب ، قلوب تأتي إلى الله تعالى طواعية بدون إكراه .

لذلك فالسطان الأهم هو سلطان الحجة ؛ لأنه يقنع الإنسان أن يفعل . . ولم يكن لموسى عليه السلام سلطانٌ من القوة ليظهر ، بل كان له سلطان الحجة ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ موسى يافرعون إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العالمين * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لاَّ أَقُولَ عَلَى الله إِلاَّ الحق قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بني إِسْرَائِيلَ ﴾ [الأعراف : 104105]

.

(35/385)

فيرد عليه فرعون :

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصادقين * فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ

مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الأعراف : 106108] .

وبياض اليد مسألة ذاتية في موسى عليه السلام ، وطارئة أيضاً ، فلم تكن مرضاً كالبهاق مثلاً ، بدليل الاحتياط في قوله تعالى :

﴿ واضمم يَدكَ إلى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء ﴾ [طه : 22] .

أما العصا فهي الحجة التي دفعت فرعون إلى أن يأتي بالسحرة ، ليغلبهم موسى أمام فرعون والملأ ، فيتبع السحرة موسى ويؤمنوا برب موسى وهارون .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه قد أرسل موسى عليه السلام بتسع آيات هي : العصا التي تصير ثعباناً يلقف ما صنع السحرة ، واليد البيضاء من غير سوء ، ثم أخذ آل فرعون بالسنين ، ونقص في الأنفس والثمرات ، لأن الجدب يمنع الزرع ، ونقص الأموال يحقق المجاعة ، وكذلك أرسل الحق سبحانه على قوم فرعون الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع ، هذه هي الآيات التسع التي أرسلها الحق سبحانه على آل فرعون ، بسبب عدم إيمانهم برسالة موسى عليه السلام .

وهناك آيات آخرى أرسلها الحق سبحانه لقوم موسى بواسطة موسى عليه السلام ؛ هي نتق الجبل ، وضرب البحر بالعصا ، ثم ضرب الحجر بالعصا لتتفجر اثنتا عشرة عيناً ، وكذلك نزول التوراة في ألواح .

إذن : فالكلام في الآيات التسع المقصود بها الآيات التي أرسل بها موسى إلى فرعون ، أما

هذه الآيات فقد كانت بعد الخروج من مصر أو مصاحبة له كضرب البحر بالعصا .

والدليل على أن قصة موسى مع فرعون خاصة ، أن موسى كانت له رسالتان : الرسالة الأولى مع فرعون ، والرسالة الثانية مع بني إسرائيل .

ولذلك نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى يخبرنا في آخر السورة بالخلاف بين موسى عليه السلام وبني إسرائيل :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى الكتاب فاختلف فِيهِ ﴾ [هود : 110] .

(36/385)

إذن : فقصته مع بني إسرائيل تأتي بعد إيتائه الكتاب ، أي : التوراة .

وهنا يتكلم الحق سبحانه عن آيات موسى عليه السلام مع فرعون فيقول :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : 96] .

أي : سلطان محيط لا يدع للخصم مكاناً أو فكاكاً .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾

والملأ : هم القوم الذين يملأون العيون ، ويتصدرون المجالس . ويقال : " فلان ملء العين " أي : لا تقتحمه العيون ؛ لأنه واضح ظاهر .

فالملأ إذن هم أشراف القوم ، وهم عادة الذين يزينون للطاغية الاستخفاف بالرعية .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فاستخف قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ [الزخرف : 54] .

وحين يتكلم الحق سبحانه عن فرعون والملأ والقوم ، نجده يبيِّن ويفصل بين الملأ من جهة ، وفرعون من جهة أخرى ، وكذلك يفصل بين الفرعون والملأ من جهة ، والقوم من جهة أخرى . . فلكل طرف من تلك الأطراف الثلاثة أسلوب يعامله الحق سبحانه به .

وهنا يبيِّن لنا الله سبحانه أن الملأ قد اتبعوا أمر فرعون ، هذا الأمر الذي يصفه الحق سبحانه بقوله :

﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [هود : 97] .

والرشد يقابله الغيُّ ، وهذا القول يدلنا على أن الملأ من قوم فرعون لم يتدارسوا أمر فرعون بتأنٍّ ، ولم تستقبله عقولهم بالبحث ، وهم لو فعلوا ذلك لما اتبعوا أمر فرعون .

ويبيِّن الحق سبحانه لنا عدم رشد أمر فرعون ، فهو يذكر لنا ما يحدث له يوم القيامة هو وقومه ، فيقول تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة ﴾

وكلمة " يقدم " هي من مادة " القاف " و " الدال " و " الميم " . وعند استخدام هذه المادة في التعبير قولاً أو كتابة ، فهي تدل على الإقبال بالمواجهة ؛ فيقال : " قدم فلان " دليل إقباله عليك مواجهة . وإذا قيل : " أقبل فلان " فهذا يعني الإقبال بشيءٍ من العزم . و " قدم القوم يقدمهم " أي : أنهم يتقدمون في اتجاه واحد ، ومن يقودهم يتقدمهم .

ويُفهم من هذا أن فرعون اتبعه الملأ ، والقوم اتبعوا الملأ وفرعون ، وما داموا قد اتَّبعوه في الأولى ؛ فلا بد أن يتبعوه في الآخرة .

ويأتي القرآن بآيات ويُبيِّنها ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ والشياطين ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً * ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين هُمْ أولى بِهَا صِلِيّاً ﴾ [مريم : 6870] .

فالحق سبحانه ينزع من كل جماعة الأشد فتوة وسطوة ، ويلقيه في النار ، لأنه أعلم بمن يجب أن يَصْلَى السعير .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً * ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ [مريم : 7172] .

ولم يقل الحق سبحانه : " وإنْ منهم إلاّ واردُها " .

وإنما قال : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] .

وبذلك عمَّم الخطاب للكل ، أو أنه يستحضر الكفار ويترك المؤمنين بمعزل .

وهنا يقول الحق سبحانه عن قوم فرعون :

﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النار وَبِئْسَ الورد المورود ﴾ [هود : 98] .

(38/385)

وحين تكلم كتاب الله الكريم عن " الورود " ، وهو الكتاب الذي نزل بلسان عربي مبين ، نجد أن الورود يأتي بمعنى الذهاب إلى الماء دون شرب من الماء ، قلت : " ورد يَردُ وروداً " ، وإن أردت التعبير عن شرب الماء مع الورود ، فقل : " ورد يَردُ وِرْداً " بدليل أن الحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَبِئْسَ الورد المورود ﴾ [هود : 98] .

أي : إنهم يشعرون بالبؤس لحظة أن يروا ماء جهنم ويشربون منه .

إذن : فكلمة " الوِرْد " تطلق على عملية الشرب من الماء ، وقد تطلق على ذات الورادين مثل قوله :

﴿ وَنَسُوقُ المجرمين إلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ [مريم : 86] .

وقد قال الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى في معلقته :

فَلمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرقاً جِمَامُهُ . . . وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخيِّمِ

والشاعر هنا يصف الرَّكْب ساعة يرى المياه الزرقاء الخالية من أي شيء يعكرها أو يُكدِّرها ، فوضع القوم عصا الترحال .

وكان الغالب قديماً أن يحمل كل من يسير عصاً في يده ، مثل موسى عليه السلام حين قال :

﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخرى ﴾ [طه : 18] .

ويقول الشاعر :

فألقتْ عصَاها واستقرَّ بها النَّوَى . . . كمَا قَرَّ عيناً بالإياب المُسَافرُ

فساعة رأى الركب المياه زرقاء ، فهذا يعني أنها مياه غير مكدَّرة .

ونحن نعلم أن المياه لا لون لها ، ولكنها توصف بالزُّرْقة إن كانت خالية من الشوائب ، شديدة الصفاء ، فتنعكس عليها صورة السماء الزرقاء .

والشاعر يصف قومه ساعة أن وصلوا إلى الماء الصافي وتوقفوا وأقاموا في المكان .

وهكذا نجد أن الورود يعني الذهاب إلى الماء دون الشرب منه . والورد للماء يُفرح النفس أولاً ، ثم يورده ويرويه ما يشربه منها ، ومن يرد الماء لا شك أنه يعاني من ظمأ يريد أن يرويه ،

وحرارة كبد يريد أن يبردها .

وهنا يقول الحق سبحانه :

(39/385)

﴿ وَبِئْسَ الورد المورود ﴾ [هود : 98] .

وفي هذا تهكم شديد ، لأنهم قوم فرعون ساعة يرون الماء يشعرون بقرب ري الظمأ وإبراد الحرارة ، ولكنهم يشربون من ماء جهنم ، فبئس ما يشربون ، فهو يُطمعهم أولاً ، ثم يؤيسهم بعد ذلك .

كما في قوله سبحانه :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه ﴾ [الكهف : 29] .

فهم ساعة يسمعون كلمة " يغاثوا " يفهمون أن هناك فرجاً قادماً لهم ، فإذا ما علموا أنه ماء كالمهل يشوي الوجوه ، عانوا من مرارة التهكم .

ولله المثل الأعلى : فأنت تجد من يدعوك لأطايب الطعام ، وبعد ذلك تغسل يديك ، فيلح عليك من دعاك إلى تناول الحلوى ، فتستشرف نفسك إلى تناول الحلوى ، بينما يكون من دعاك قد أوصى الطباخ أن يخلط الحلوى بنبات " الشطة " فيلتهب جوفك ؛ أليس في هذا

تهكم شديد ؟ !

والحق سبحانه يبيِّن لهم أن الورد إنما جاء لترطيب الكبد ، لكن أكبادهم ستشتعل بما تشربونه من هذا الماء ، وكذلك الطعام الذي يأكله أهل النار .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ [الحاقة : 36] .

وهكذا تصير النكبة نكبتين .

وبعض الناس قد فهم قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] .

بمعنى أنهم جميعاً سوف يَرِدون جهنم .

ولكن الحق سبحانه يقول أيضاً :

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين هُمْ أولى بِهَا صِلِيّاً ﴾ [مريم : 70] .

إذن : فالحق سبحانه يعطي لكل الناس صورة للنار ، فإذا رأى المؤمنون النار وتسعُّرها ، ولم يدخلوها ، عرفوا كيف نجَّتهم كلمة الإيمان منها فيحمدون الله سبحانه وتعالى على النجاة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هذه لَعْنَةً وَيَوْمَ القيامة ﴾

أي : أن اللعنة قد بقيت لهم ، وما زلنا نحن المسلمين نلعنهم إلى الآن ، ثم يصيرون إلى اللعنة الكبرى ، وهي لعنة يوم القيامة : ﴿ بِئْسَ الرفد المرفود ﴾ [هود : 99] والرفد : هو الغطاء ، فهل تعد اللعنة في الآخرة عطاءً ؟

إن هذا تهكم منهم أيضاً ، مثلها مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَبِئْسَ الورد المورود ﴾ [هود : 98] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(41/385)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

(42/385)

قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) (هود : 96-97) ، وقال في سورة غافر : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) (غافر : 23-24) ، وقال في سورة الزخرف : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الزخرف : 46) ، وقد ذكر صاحب كتاب الدرة هذه الآيات الثلاث لستوائها في الافتتاح والمطالع وانفراد آيتي هود وغافر بزيادة قوله (وسلطان مبين) ، ولم يذكر ذلك في آية سورة الزخرف ، وقد ورد في مثل هذا أمثلة في العدد وإن خالفه في المطالع والافتتاح إلا أنها من ضربها وذلك قوله في سورة المؤمنون : (ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ) (المؤمنون : 45-47) ، وتقدم في سورة الاعراف : (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا) (الاعراف : 103) ، وفي سورة يونس : (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ) (يونس : 75) ، فورد في سورة هود وفي سورة المؤمنون وسورة غافر زيادة قوله : (وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ) ولم تزدد هذه الزياده في السور الثلاث الآخر ، وورد في سورة يونس وسورة المؤمنون ذكر تأييد موسي بأخيه هارون ، عليهما السلام ، ولم يرد ذلك في غيرهما ، وأنفردت سورة

المؤمنون بالجمع بين تأييده ، عليه السلام ، بأخيه وسلطان مبين ، فللسائل أن يسأل عن توجيه ذلك كله لاتحاد الاخبار ؟

والجواب عنه ، والله أعلم : أنه حيث يذكر سوء رد المرسل اليهم وقبح جوابهم يقابل ابدا تأيده بأخيه أو عضده بالآيات مما يقتضي القهر والإرغام وهو المعبر عنه بالسلطان المبين فيكون ذلك مقابلة لشنيع مجاوبتهم وسوء ردهم بالجملة ، فإنه إذا اجتمع افصاحهم بالتكذيب واستكبارهم جمع في التهديد المتقدم بين التأييد بهارون وسلطان مبين ، وحيث يصرح بالتكذيب أو ما يعطيه بيانا كقوله : (فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ) قدم ذلك التأييد بالسلطان (المبين) ، وحيث تذكر صفتان محوتان على تكذيب من غير إفصاح يقدم ذكر التأييد بهارون ، عليه السلام ، وما كان دون ما ذكر لم يذكر هارون ولا السلطان

المبين ، فمن ذلك قوله (فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ) فإنه اخر تعالى عنهم بأنهم لم تجد عليهم البراهين ولا الآيات ، إلا اتباع أمر فرعون ، وقوله تعالى مخبراً عنهم في سورة المؤمنون بقوله : (فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ) (المؤمنون : 46) ، إلا ما تبع ذلك محكيا من قبيح قولهم : (فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا) (المؤمنون : 47-48) وأخباره تعالى عنهم في سورة غافر في قوله : (سَاحِرٌ كَذَّابٌ) (غافر : 24) ، فهذه المواضع لما ذكر فيها شنيع مرتكبيهم في تلقي دعاء موسى ، عليه السلام ، إياهم قدم تواطئه لسوء مرتكبيهم تأييده ، عليه السلام ، السلطان المبين ليفيهم ذلك أخذهم وهلاكهم بسوء مرتكبهم ، وقدم في سورة يونس تواطئه لما ذكر فيها من استكبارهم واجترامهم تأييد موسي بأخيه هارون ، عليهما السلام ، وذلك من السلطان المبين ، ولما تضاعف المحكي من مرتكبيهم وقبيح مقالهم في سورة المؤمنون قدم في ذكر إرساله تأييده باخيه والسلطان المبين مقابلة للاخبار عنهم بقوله : (فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا) (المؤمنون : 46-48) ، فاخبر تعالى عنهم بالتكذيب والاستكبار والاجترام والعلو تامردا وعلوا وادعاء المماثلة لهم في البشرية الاختصار لإقدارهما العلية ، فقوبل هذا الاسهاب من مقالهم السيء بالإطالة في ذكر التأييد ليتناسب الطرفان . أما حيث لم يرد ذكر السلطان فنجد جوابهم في ذلك دون ما تقدم من التشديد كقولهم في سورة الاعراف : (فَظَلَمُوا بِهَا) (الاعراف : 103) ، وقوله

في سورة الزخرف : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ (الزخرف : 47) ، فليس موقع جوابهم في هاتين السورتين كموقع ما تقدم في الآيتين ، فنوسب بين طرفي الإدعاء والجواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 263 .264 ﴾

(45/385)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يقدم قومه يوم القيامة ﴾ يقول : أضلهم فأوردهم النار .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ يقدم قومه يوم القيامة ﴾ قال : فرعون يمضي بين يدي قومه حتى يهجم بهم على النار .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فأوردهم النار ﴾ قال ﴿ الورود ﴾ الدخول .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال ﴿ الورود ﴾ في القرآن أربعة . في هود ﴿ وبئس الورد المورود ﴾ ، وفي مريم ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ [مريم : 71] ، وفيها أيضاً ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾ [مريم : 86] ، وفي الأنبياء ﴿ حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ [الأنبياء : 98] قال : كل هذا الدخول .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ﴾ أردفوا وزيدوا بلعنة أخرى فتلك لعنتان ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ اللعنة في أثر اللعنة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ قال : لعنة الدنيا والآخرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في الآية قال : لم يبعث نبي بعد فرعون إلا لعن على لسانه ويوم القيامة ، يزيد لعنة أخرى في النار .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف والابتداء والطستي عن ابن عباس . أن نافع بن الأزرق قال له : اخبرني عن قوله عز وجل ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ قال : بئس اللعنة بعد اللعنة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت نابغة بني ذبيان وهو يقول :

لا تقدمن بركن لا كفاء له . . . وإنما تفك الأعداء بالرفد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ ﴾ : يجوز أن تكونَ هذه المسألةُ من باب الإِعمال ، وذلك أنَّ " يَقْدُمُ " يَصْلُح أن يتسلَّط على " النار " بحرف الجر ، أي : يَقْدم قومَه إلى النار ، وكذا " أَوْرَدَهم " يَصِحُّ تسلُّطه عليها أيضاً ، ويكون قد أعمل الثاني للحذف مِن الأول ، ولو أعمل الأولَ لتعدى ب إلى ، ولأضمر في الثاني ، ولا محلَّ ل " أَوْرَدَ " لاستئنافِه ، وهو ماضٍ لفظاً مستقبلٌ معنىً ؛ لأنه عَطَفَ على ما هو نصٌّ في الاستقبال . والهمزة في " أَوْرَدَ " للتعدية ، لأنه قبلها يتعدَّى لواحد . قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ وقيل : أوقع الماضي هنا لتحقُّقه . وقيل : بل هو ماضٍ على حقيقته ، وهذا قد وقع وانفصل وذلك أنه أوردهم في الدنيا النار . قال تعالى : ﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ [غافر : 46] . وقيل : أوردهم مُوْجِبَها وأسبابها ، وفيه بُعْدٌ لأجلِ العطف بالفاء .

(47/385)

والوِرْد : يكون مصدراً بمعنى الوُرود ، ويكون بمعنى الشيء المُوْرَد كالطِّحن والرِّعي .

ويُطلب أيضاً على الوارد ، وعلى هذا إنْ جَعَلْت الوِرْد مصدراً أو بمعنى الوارد فلا بدَّ مِنْ حذف مضاف تقديره : وبئس مكانُ الورد المورود ، وهو النار ، وإنما احتيج إلى هذا التقدير لأنَّ تَصادُقَ فاعلِ نِعْمَ وبِئْسَ ومخصوصِها شرطٌ ، لا يُقال : نِعْم الرجلُ الفرسَ .

وقيل : بل المورود صفةً للوِرْد ، والمخصوصُ بالذم محذوف تقديره : بئسَ الوِرْدُ المورود النارُ ، جوَّز من ذلك أبو البقاء وابن عطية ، وهو ظاهرُ كلامِ الزمخشري . وقيل : التقدير : بئسَ القومُ الموردُ بهم هم ، فعلى هذا " الورد " مرادٌ به الجمعُ الواردون ، والمَوْرود صفةٌ لهم ، والمخصوص بالذمِّ الضميرُ المحذوف وهو " هم " ، فيكون ذلك للواردين لا لموضع الوِرْد / كذا قاله الشيخ . وفيه نظر لا يَخْفى : كيف يُراد بالوِرْد الجمع الواردون ، ثم يقول والمورود صفةٌ لهم ؟ وفي وصف مخصوص نعم وبئس خلافٌ بين النحويين منعه ابن السراج وأبو علي .

﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (99) ﴾

و﴿ بِئْسَ الرفد المرفود ﴾ كالذي قبله . وقوله : " ويومَ القيامة " عطفٌ على موضع " في هذه " والمعنى : أنهم أُلحِقُوا لعنةً في الدنيا وفي الآخرة ، ويكون الوقف على هذا تاماً ، ويُبتدأ بقوله " بِئْس " .

وزعم جماعة أن التقسيم : هو أنَّ لهم في الدنيا لعنة ، ويومَ القيامة بِئْس ما يُرْفَدون به ، فهي

لعنة واحدة أولاً وقَبُح إرفاد آخِرا . وهذا لا يصحّ لأنه يؤدي إلى إعمال " بئس " فيما تقدَّم عليها وذلك لا يجوز لعدم تصرُّفها ، أمّا لو تأخّر لجاز كقوله :

2705 ولَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ أنت إذا . . . دُعِيَتْ نَزَالِ ولُجَّ في الذُّعْرِ

(48/385)

وأصل الرِّفْد كما قال الليث : العطاء والمعونة ، ومنه رِفادة قريش ، رَفَدْتُه أَرْفِدُه رِفْداً ورَفْداً بكسر الراء وفتحها : أعطيتَه وأَعَنْتَه . وقيل : بالفتح مصدر ، وبالكسر اسم ، كأنه نحو : الرِّعْي والذِّبح . ويقال : رَفَدْت الحائط ، أي : دَعَمْتُه ، وهو من معنى الإِعانة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 382 . 383 ﴾

(49/385)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِ ﴾ .

كرَّر قصة موسى عليه السلام تفخيماً لشأنه ، وتعظيماً لأمره ، وتنبيهاً على علوِّ قدره عند الله وعلى مكانة الآيات التي أرسله بها ، ومعجزاته الباهرة ، وبراهينه القاهرة .

ويقال أصعبُ عدوٍّ قهرَهُ أولا نَفْسُه ، وقد دله - سبحانه - على ذلك لمَّا قال : إلهي ! كيف أطلبك ؟

فقال : عند المنكسرة قلوبهُم من أجلي .

فَنَبَّهَه إلى استصغاره لنفسه ، وانكساره لله بقلبه ، فزادت صولتُه لما صار معصوماً عن شهود فضل لنفسه ؛ والسلطانُ الذي خصَّه به استولى على قلوب مَن رآه ، كما قال : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنّي ﴾ [طه : 39] فما رآه احدٌ إلا أحبَّه ، ثم إنه لم يأخذه في الله ضعفٌ ، مثلما لَطَمَ وجهَ فرعون - وهو رضيع - كما في القصة ، ولَطَمَ وجهَ مَلَكِ الموت لمّا طالبه بقبض روحه . . . . كما في الخبر ، " وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه لمّا رجع من سماع الخطاب عند المعاتبة ، وأقدم بالجسارة على سؤال الرؤية ، وقتل القبطيَّ لما استعان به مَنْ وافقه في العقيدة ، وقال الله ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ [الأعراف : 155] لمَّا أخبره الحق بما عمله قومه من عبادة العجل بحكم الضلالة . . . ففي جميع هذا تجَاوزَ اللّهُ عنه لمَا أعطاه من السلطان والقوة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ .

(50/385)

رضوا بمتابعة فرعون ، فاستحقوا ما استحقه . لم يشعروا بخطئهم ، وكانوا يحسبون أنهم يُحْسَنون صُنْعاً . وإذا ما أوردهم النارَ فهو إمامُهم ، وسيعلمون ما أصابهم من الخسران حين لا ينفع تضرعُهم وبكاؤُهم ولا ينقطع عذابُهم وعناؤهم ، وتغلب خسارتهم وشقاؤهم - وذلك جزاءُ مَنْ كَفَرَ بمعبوده ، وأسرف في مجاوزة حدوده .

﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (99) ﴾

بَعُدُوا في عاجلهم من الإيمان ، وفي آجلهم من الغفران والجنان والذي لهم في الحال من الفُرقة أعظمُ - في التحقيق - من الذي لهم في المآل من الحُرَقة ، وهذه صفة مَنْ امتحنه اللَّهُ باللعنة . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 155 . 156 ﴾

(51/385)

قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (100) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (104) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت هذه الأخبار على غاية منا التحذير ، لا يعرفه إلا بالغ في العلم ، كان من المعلوم قطعاً أنه -صلى الله عليه وسلم- لم يأت بها إلا من عند الله للعلم المشاهد بأنه لم يعان علماً ولا ألم بعالم يوماً ، هذا مع ما اشتملت عليه من أنواع البلاغة وتضمنته من أنحاء الفصاحة وأومأت إليه بحسن سياقاتها من صروف الحكم وإفادة تفصيلها من فنون المعارف ، فلذلك استحقت أن يشار إليها بأداة البعد إيماء إلى بعد المرتبة وعلو الأمر فقال تعالى :

﴿ ذلك ﴾ أي النبأ العظيم والخطب الجسيم ﴿ من أنباء القرى ﴾ وأكد هذا المعنى بلفظ النبأ لأنه الخبر فيه عظيم الشأن ، ومنه النبي ، وأشار بالتعبير بالمضارع في قوله : ﴿ نقصه عليك ﴾ إلى أنا كما قصصناها عليك في هذا الحال للمقصد المتقدم سنقصها عليك لغير ذلك من الأغراض في فنون البلاغة وتصاريف الحكم كما سترى عند قصه ؛ ثم أشار - بما

أخبر من حلها بقوله : ﴿ منها ﴾ أي القرى ﴿ قائم وحصيد ﴾ إلى أنك مثل ما سمعت ما قصصنا عليك من أمرها بأذنك ووعيته بقلبك تحسها بعينك بمشاهدة أبنيتها وآثارها قائمة ومستحصدة ، أي متهدمة لم يبق من بنيانها إلا بعض جدرانها .

(52/385)

ولما كان فيما تقدم في هذه السورة من القصص أشد تهديد وأعظم وعيد لمن له تبصرة ، صرح لغليظي الأكباد بأن الموجب للايقاع بهم إنما هو الظلم ، فقال تعالى عاطفاً على نحو أن يقال : فعلنا بهم وأنبأناك به : ﴿ وما ظلمناهم ﴾ في شي منه ﴿ ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ واعتمدوا على أندادهم معرضين عن جنابنا آمنين من عذابنا فأخذناهم ﴿ فما ﴾ أي فتسبب عن اعتمادهم على غيرنا أنه ما ﴿ أغنت عنهم ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ آلهتهم التي ﴾ وصور حالهم الماضية فقال : ﴿ يدعون ﴾ أي دعوها واستمروا على دعائهم لها إلى حين الأخذ ، وبين خسة رتبتها فقال : ﴿ من دون الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ؛ وذكر مفعول " اغنت " معرقاً في النفي فقال : ﴿ من شيء ﴾ أي وإن قل ﴿ لما جاء أمر ﴾ أي عذاب ﴿ ربك ﴾ أي المحسن إليك بتأخير العذاب المستأصل عن أمتك وجعلك نبي الرحمة ﴿ وما زادوهم ﴾ في أحوالهم التي كانت لهم قبل عبادتهم إياها

﴿ غير تتبيب ﴾ أي إهلاك وتخسير ، فإنهم كانوا في عداد من يرجى فلاحه ، فلما تورطوا في عبادتها ونشبوا في غوايتها وبعدوا عن الاستقامة بضلالتها خسروا أنفسهم التي هي رأس المال فكيف لهم بعد ذلك بالأرباح ؛ والقص : إتباع الأثر ، فهو هنا الإخبار بالأمور التي يتلو بعضها بعضاً ؛ والدعاء : طلب الطالب الفعل من غيره ، ونداء الشيء باسمه بحرف النداء ، وكلا الأمرين مرادان ؛ و ﴿ من دون الله ﴾ : من منزلة أدنى من منزلة عبادة الله لأنه من الأدون ، وهو الأقرب إلى جهة السفل ؛ والتب : الهلك والخسر .

(53/385)

ولما كان المقصود من ذلك رمي قلوب العرب بما فيه من سهام التهديد ليقلعوا عما تمكنوا فيه من عمى التقليد ، قال تعالى معلماً بأن الذي أوقع بأولئك لظلمهم وهو لكل ظالم بالمرصاد سواء ظلم نفسه أو غيره : ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ذلك الأخذ العظيم ﴿ أخذ ربك ﴾ ذكّره بوصف الإحسان ما له إليه من البر لئلا يخاف على قومه من مثل هذا الأخذ ﴿ إذا أخذ القرى ﴾ أي أهلها وإن كانوا غير من تقدم الإخبار عنهم وإن عظموا وكثروا ، ولكن الإخبار عنها أهول لأنه يفهم أنه ربما يعمها الهلاك لأجلهم بشدة الغضب من فعلهم كقرى قوم لوط عليه السلام ﴿ وهي ظالمة ﴾ روى البخاري في التفسير عن أبي موسى -رضى الله

عنهم ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته " ثم قرأ ﴿ وكذلك أخذ ربك ﴾ الآية .

ولما كان مثل هذا الآخذ لا يدانيه مخلوق ولا يقدر عليه ملك ، حسن كل الحسن إتباع ذلك قوله : ﴿ إن أخذه أليم ﴾ أي مؤلم قاطع للآمال مالىء البدن والروح والنفس بالنكال ﴿ شديد ﴾ أي صعب مفتت للقوى ، ولعله عبر هنا باسم الرب مضيفاً له إلى المنبأ بهذه الأنباء مكرراً لذلك في هذا المقام الذي ربما سبق فيه الوهم إلى أنه باسم الجبار والمنتقم مثلاً أليق ، إشارة إلى أنه سبحانه يربيك أحسن تربية في إظهارك على الدين كله وانقياد العظماء لأمرك وذل الأعزة لسطوتك وخفض الرؤوس لعلو شأنك ، فلا تتكلف أنت شيئاً من قصد إجابتهم إلى إنزال آية أو ترك ما يغيظ من إنذار ونحو ذلك – والله الموفق .

(54/385)

ولما كان مما جر هذه القصص وهذه المواعظ تكذيبهم لما يوعدون من العذاب الناشىء عن إنكار البعث المذكور في قوله تعالى : ﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ﴾ ، أشار تعالى إلى تحقق أمر الآخرة وأنه مما ينبغي الاهتمام به رداً للمقطع على المطلع ، وإعلاماً بأنه لا فرق بينه وبين ما تحقق إيقاعه من عذاب هذه الأمم في القدرة عليه بقوله مؤكداً لأجل

جحودهم أن يكون في شيء مما مضى دلالة عليه بوجه من الوجوه : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي النبأ العظيم والقصص والوعظ بما يذكر ﴿ لآية ﴾ أي لعلامة عظيمة ودلالة بتة ولما كان وجود الشيء عدماً بالنسبة إلى ما لا نفع له به ، قال : ﴿ لمن خاف عذاب ﴾ يوم الحياة ﴿ الآخرة ﴾ لأنه نفع خاص به ، وإنما كان آية له لأنه إذا نظر إلى إهلاكه للظالمين إهلاكاً عاماً بسبب ظلمهم وإنجائه للمؤمنين ، علم أنه قادر على ما يريد ، وأنه لا بد أن يجازي كلاًّ بما فعل ، فإذا رأى أن ظلمه كثيرين يموتون بغير انتقام ، علم أنه لا بد من يوم يجازيهم فيه ، وهو اليوم الذي أخبرت به عنه رسله ، وزاد في الإشارة إلى تهويله بإعادة اسم الإشارة في قوله : ﴿ ذلك ﴾ أي اليوم العظيم الذي يكون فيه عذاب الآخرة ﴿ يوم ﴾ وأشار - إلى يسر البعث وسهولته عليه وأنه أمر ثابت لا بد منه - باسم المفعول من قوله : ﴿ مجموع له ﴾ أي لإظهار العدل فيه والفضل ﴿ الناس ﴾ أي كل من فيه أهلية التحرك والاضطراب وما ثمّ يوم غيره يكون بهذه الصفة أصلاً .

ولما لم يسبقه يوم اجتمع فيه جميع الخلق من الجن والإنس والملائكة وجميع الحيوانات أحياء ، وكان ذلك مسوغاً لأن تعد شهادة غيره عدماً فقال تعالى : ﴿ وذلك ﴾ أي اليوم العظيم

﴿ يوم مشهود ﴾ أي هو نفسه لهم ولغيرهم من جميع الخلق ، فيكون تنوينه للتعظيم بدلالة المقام ، أو يكون المعنى أنه أهل لأن يشهد ، وتتوفر الدواعي على حضوره لما فيه من عجائب الأمور والأهوال العظام والمواقف الصعبة ، فلا يكون ثم شغل إلا نظر ما فيه والإحاطة بحوادثه خوف التلاف ورجاء الخلاص ؛ والآية : العلامة العظيمة لما فيها من البيان عن الأمر الكبير ؛ والخوف : انزعاج النفس بتوقع الشر ، وضده الأمن وهو سكون النفس بتوقع الخير ؛ والعذاب : استمرار الألم .

(56/385)

ولما تقدم قولهم ﴿ ما يحبسه ﴾ كان كأنه قيل في الرد عليهم : نحن قادرون على تعجيله ، وهو - كما أشرنا إليه في هذه الآية - عندنا متى شئنا في غاية السهولة : ﴿ وما نؤخره ﴾ أي اليوم أو الجزاء مع ما لنا من العظمة والقدرة التامة على إيجاده لشيء من الأشياء ﴿ إلا لأجل ﴾ أي لأجل انتهاء أجل ﴿ معدود ﴾ سبق في الأزل تقديره ممن لا يبدل القول لديه وكل شيء في حكمه ، فهو لا يخشى الفوت ؛ ومادة " أجل " بتراكيبها الأربعة : أجل وجال وجلأ ولجأ تدور على المدة المضروبة للشيء ، فالأجل - محركة : مدة الشيء وغاية الوقت في الموت وحلول الدين من تسمية الجزء باسم الكل ، والتأجيل : تحديد الأجل ،

ويلزمه التأخير ، ومنه أجل الشيء كفرح – إذا تأخر ، والآجلة : الآخرة ، وأجل الشيء – بالفتح : حبسه ومنعه ، لأن الأجل حابس ومانع للمؤجل ، ومنه أجلى كجمزى ، وهو مرعى لهم معروف كأنه لحسنه يحبس الراعي فيه ، وأجل الشر عليهم : حناه وأثاره وهيجه ، ولأهله : كسب وجمع واحتال ، لأن ذلك كله من لوازم ذي الأجل ، أو المعنى أنه أوجد أجل ذلك ، وكمقعد ومعظم : مستنفع الماء ، لأنه محيط به إحاطة الأجل بالمؤجل ، وأجله فيه تأجيلاً : جمعه فتأجل ، والمأجل : الحوض يحبس فيه الماء ، وأجلوا ما لهم : حبسوه في المرعى ، والاجل – بالكسر : قطيع من بقر الوحش ، تشبيهاً له في اجتماعه من حيث إنه أحصن له بالأجل لأنه – كما قيل – حصن حصين ، والاجل – بالكسر أيضاً : وجع في العنق ، لأنه من أسباب حلول الأجل ، وأجله : داواه منه ، وبالضم جمع أجيل للمتأخر وللمجتمع من الطين يجعل حول النخلة ، لإحاطته بها إحاطة الأجل وتحصينه لها ، وتأجل القوم : تجمعوا ، لأن التجمع أحصن لهم ، وأجل – بفتحتين ثم سكون : جواب كنعم وزناً ومعنى إلا أنه أحسن منه في التصديق ، ونعم منه في الاستفهام ، وحقيقة ذلك الإخبار بأن أجل – أي وقت – ذلك الفعل الموجب أو المستفهم عنه قد حضر ، وفعلت ذلك من أجلك – من غير

" من " – ومن أجلك ، ومن أجلاك ومن أجلالك ويكسر في الكل ، أي من جللك – قاله في القاموس ، وقال في فصل الجيم : وفعلته من جلك – بالضم – وجلالك وجللك – محركة – وتجلتك وإجلالك – بالكسر ، ومن أجل إجلالك ومن أجلك بمعنى – انتهى .

(58/385)

وحقيقته أن فعلي مبتدىء من أجلك – بالتحريك ، أو تكون " من " سببية ، اي أجلك سبب فيه ، ولولا وجودك ما فعلته فهو لتعظيمك ؛ والملجأ واللجأ – محركة : المعقل والملاذ ، كأنه شبه بالأجل ، ومنه لجأ إليه – كمنع وفرح : لاذ ، وألجأ أمره إلى الله : أسنده ، وألجأ فلاناً إلى كذا : اضطره ، والتلجئة : الإكراه ، واللجأ – محركاً : الضفدع ، لالتجائها إلى الماء ؛ ومن ذلك الجيأل – كصقيل ، وجيأل وجيألة ممنوعين ، وجيل بلا همز كله اسم الضبع لكثرة لجائها إلى وجارها ، ومنه جئل – كفرح – جألاناً : عرج ، كأنه تشبيه بمشيتها ، لأن من أسمائها العرجاء ، أو تشبيه بمشية الراقي في درج الملجأ ، أي الحصن ، وكذا الأجل – كقنب وقبر – وهو ذكر الأوعال ، لأن قرونه كالحصن له ، وجيألة الجرح : غثيثه ، وهو مرية ، لأنه من أسباب قرب الأجل ، وكذا الاجئلال – أي الفزع – ربما كان سبباً لذلك ، وربما

كان سبباً للمبادرة إلى الحصن ، وجأل – كمنع : ذهب وجاء ، والصوف : جمعه واجتمع – لازم متعد ، كله من لوازم الأجل بمعنى المدة ، وجلأ بالرجل – كمنع : صرعته ، وبثوبه : رماه ، كأنه جعله في قوة من حضر أجله ، وإن شئت قلت في ضبط ذلك : إن المادة – مع دورانها على المدة – تارة تنظر إلى نفس المدة ، وتارة إلى آخرها ، وتارة إلى امتدادها وتأخرها ، وتارة إلى ما يدني منه ، وتارة إلى منفعتها ، وتارة إلى ما يلزم فيها ، فمن النظر إلى نفس المدة : التأجيل بمعنى تحديد الأجل ، وهو مدة الشيء ، وفعلت هذا من أجلك ، أي لولا وجودك ما فعلته ، وأجل بمعنى نعم ، أي حضرت مدة الفعل ، ومن النظر إلى الآخر : دنا الأجل – في الموت والدّين ، ومن النظر إلى التأخر : أجل الشيء – إذا تأخر ، والآجلة : الآخرة ، ومن النظر إلى السبب المدني : الأجل – بالكسر – لوجع في العنق ، وجيألة الجرح – لغثيثه أي مريه ، وجلأ بالرجل : صرعه وبثوبه : رماه ، وأجل الشر عليهم : جناه ، أو أثاره وهيجه ،

والاجئلال : الفزع ، ومن النظر إلى المنفعة وهي أن التأجيل الذي هو تحديد الأجل للشيء مانع من أخذه دون ما ضرب له من المدة : الاجل – بالكسر – للقطيع من بقر الوحش ،

وأجل الشيء : حبسه ومنعه ، وأجلى كجمزي : مرعي لهم معروف ، وتأجل القوم : تجمعوا ، وجأل الصوف جمعه ، واللجأ والملجأ : المعقل والملاذ ، والضفدع للزومها ملجأها من الماء ، والجيأل للضبع للزومها وجارها ، ولذلك تسمى أم عامر ، وجئل - كفرح : عرج ، كأنه شبه بمشيتها لأنها تسمى العرجاء ، والأجل كقنب وقبر - لذكر الأوعال ، لتحصنه بقرونه ، والأجل - بالضم : المجتمع من الطين يجعل حول النخلة ، والمآجل : الحوض يحبس فيه الماء ، ومستنقع الماء مطلقاً ، وأجله تأجيلاً : جمعه ، ومن النظر إلى ما يلزم في المدة : أجل لأهله : كسب وجمع وجلب واحتال ، وجأل - كمنع : جاء وذهب ؛ فقد تبين أن المراد بالأجل هنا الحين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 574.579 ﴾

(60/385)

فصل

قال الفخر :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر قصص الأولين قال : ﴿ ذلك مِنْ أَنْبَاء القرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ والفائدة

في ذكرها أمور : أولها : أن الانتفاع بالدليل العقلي المحض إنما يحصل للإنسان الكامل ، وذلك إنما يكون في غاية الندرة .

فأما إذا ذكرت الدلائل ثم أكدت بأقاصيص الأولين صار ذكر هذه الأقاصيص كالموصل لتلك الدلائل العقلية إلى العقول .

الوجه الثاني : أنه تعالى خلط بهذه الأقاصيص أنواع الدلائل التي كان الأنبياء عليهم السلام يتمسكون بها ويذكر مدافعات الكفار لتلك الدلائل وشبهاتهم في دفعها ، ثم يذكر عقيبهما أجوبة الأنبياء عنها ثم يذكر عقيبها أنهم لما أصروا واستكبروا وقعوا في عذاب الدنيا وبقي عليهم اللعن والعقاب في الدنيا وفي الآخرة ، فكان ذكر هذه القصص سبباً لإيصال الدلائل والجوابات عن الشبهات إلى قلوب المنكرين ، وسبباً لإزالة القسوة والغلظة عن قلوبهم ، فثبت أن أحسن الطرق في الدعوة إلى الله تعالى ما ذكرناه .

الفائدة الثالثة : أنه عليه السلام كان يذكر هذه القصص من غير مطالعة كتب ، ولا تلمذ لأحد وذلك معجزة عظيمة تدل على النبوة كما قررناه .

الفائدة الرابعة : إن الذين يسمعون هذه القصص يتقرر عندهم أن عاقبة الصديق والزنديق والموافق والمنافق إلى ترك الدنيا والخروج عنها ، إلا أن المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل في الدنيا ، والثواب الجزيل في الآخرة ، والكافر يخرج من الدنيا مع اللعن في الدنيا والعقاب في الآخرة ، فإذا تكررت هذه الأقاصيص على السمع ، فلا بد وأن يلين القلب

وتخضع النفس وتزول العداوة ويحصل في القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال ، فهذا كلام جليل في فوائد ذكر هذه القصص .

أما قوله : ﴿ ذلك مِنْ أَنْبَاء القرى ﴾ ففيه أبحاث :

(61/385)

البحث الأول : أو قوله : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الغائب ، والمراد منه ههنا الإشارة إلى هذه القصص التي تقدمت ، وهي حاضرة ، إلا أن الجواب عنه ما تقدم في قوله : ﴿ ذلك الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة : 2] .

البحث الثاني : أن لفظ "ذلك" يشار به إلى الواحد والاثنين والجماعة لقوله تعالى : ﴿ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذلك ﴾ [البقرة : 68] وأيضاً يحتمل أن يكون المراد ذلك الذي ذكرناه هو كذا وكذا .

البحث الثالث : قال صاحب "الكشاف" : "ذلك" مبتدأ ﴿ مِنْ أَنْبَاء القرى ﴾ خبر ﴿ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ خبر بعد خبر أي ذلك المذكور بعض أنباء القرى مقصوص عليك .

ثم قال : ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ والضمير في قوله : ﴿ مِنْهَا ﴾ يعود إلى القرى شبه ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه وما عفا منها وبطر بالحصيد ،

والمعنى أن تلك القرى بعضها بقي منه شيء وبعضها هلك وما بقي منه أثر ألبتة.

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا ظلمناهم ولكن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ وفيه وجوه: الأول: وما ظلمناهم بالعذاب والإهلاك، ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية.

الثاني: أن الذي نزل بالقوم ليس بظلم من الله بل هو عدل وحكمة، لأجل أن القوم أولاً ظلموا أنفسهم بسبب إقدامهم على الكفر والمعاصي فاستوجبوا لأجل تلك الأعمال من الله ذلك العذاب.

الثالث: قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد وما نقصناهم من النعيم في الدنيا والرزق، ولكن نقصوا حظ أنفسهم حيث استخفوا بحقوق الله تعالى.

ثم قال: ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءالِهَتُهُمُ التى يَدْعُونَ مِن دُونِ الله مِن شَيْء ﴾ أي ما نفعتهم تلك الآلهة في شيء ألبتة.

ثم قال: ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: غير تخسير.

يقال: تب إذا خسر وتببه غيره إذا أوقعه في الخسران، والمعنى أن الكفار كانوا يعتقدون في الأصنام أنها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضار ثم إنه تعالى أخبر أنهم عند مساس

الحاجة إلى المعين ما وجدوا منها شيئاً لا جلب نفع ولا دفع ضر ، ثم كما لم يجدوا ذلك فقد وجدوا ضده ، وهو أن ذلك الاعتقاد زال عنهم به منافع الدنيا والآخرة وجلب إليهم مضار الدنيا والآخرة ، فكان ذلك من أعظم موجبات الخسران .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ عاصم والجحدري : ﴿ إِذْ أَخَذَ القرى ﴾ بألف واحدة ، وقرأ الباقون بألفين .

المسألة الثانية :

اعلم أنه تعالى لما أخبر الرسول – عليه السلام – في كتابه بما فعل بأمم من تقدم من الأنبياء لما خالفوا الرسل وردوا عليهم من عذاب الاستئصال ، وبين أنهم ظلموا أنفسهم فحل بهم العذاب في الدنيا قال بعده : ﴿ وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِىَ ظالمة ﴾ فبين أن عذابه ليس بمقتصر على من تقدم ، بل الحال في أخذ كل الظالمين يكون كذلك وقوله : ﴿ وَهِىَ ظالمة ﴾ الضمير فيه عائد إلى القرى وهو في الحقيقة عائد إلى أهلها ، ونظيره قوله : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظالمة ﴾ [الأنبياء : 11] وقوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص : 58] .

واعلم أنه تعالى لما بين كيفية أخذ الأمم المتقدمة ثم بين أنه إنما يأخذ جميع الظالمين على ذلك

الوجه أتبعه بما يزيده تأكيداً وتقوية فقال : ﴿ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ فوصف ذلك العذاب بالإيلام وبالشدة ، ولا منغصة في الدنيا إلا الألم ، ولا تشديد في الدنيا وفي الآخرة ، وفي الوهم والعقل إلا تشديد الألم .

(63/385)

واعلم أن هذه الآية تدل على أن من أقدم على ظلم فإنه يجب عليه أن يتدارك ذلك بالتوبة والإنابة لئلا يقع في الأخذ الذي وصفه الله تعالى بأنه أليم شديد ولا ينبغي أن يظن أن هذه الأحكام مختصة بأولئك المتقدمين ، لأنه تعالى لما حكى أحوال المتقدمين قال : ﴿ وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ القرى وَهِىَ ظالمة ﴾ فبين أن كل من شارك أولئك المتقدمين في فعل ما لا ينبغي ، فلا بد وأن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الأخرة ﴾ قال القفال : تقرير هذا الكلام أن يقال : إن هؤلاء إنما عذبوا في الدنيا لأجل تكذيبهم الأنبياء وإشراكهم بالله ، فإذا عذبوا في الدنيا على ذلك وهي دار العمل ، فلأن يعذبوا عليه في الآخرة التي هي دار الجزاء كان أولى .

(64/385)

واعلم أن كثيراً ممن تنبه لهذا البحث من المفسرين عولوا على هذا الوجه ، بل هو ضعيف ، وذلك لأنَّ على هذا الوجه الذي ذكره القفال يكون ظهور عذاب الاستئصال في الدنيا دليلاً على أن القول بالقيامة والبعث والنشر حق وصدق ، وظاهر الآية يقتضي أن العلم بأن القيامة حق كالشرط في حصول الاعتبار بظهور عذاب الاستئصال ، وهذا المعنى كالمضاد لما ذكره القفال ، لأن القفال يجعل العلم بعذاب الاستئصال أصلاً للعلم بأن القيامة حق ، فبطل ما ذكره القفال والأصوب عندي أن يقال : العلم بأن القيامة حق موقوف على العلم بأن المدبر لوجود هذه السموات والأرضين فاعل مختار لا موجب بالذات وما لم يعرف الإنسان أن إله العالم فاعل مختار وقادر على كل الممكنات وأن جميع الحوادث الواقعة في السموات والأرضين لا تحصل إلا بتكوينه وقضائه ، لا يمكنه أن يعتبر بعذاب الاستئصال ، وذلك لأن الذين يزعمون أن المؤثر في وجود هذا العالم موجب بالذات لا فاعل مختار ، يزعمون أن هذه الأحوال التي ظهرت في أيام الأنبياء مثل الغرق والحرق والخسف والمسخ والصيحة كلها إنما حدثت بسبب قرانات الكواكب واتصال بعضها ببعض ، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذ لا يكون حصولها دليلاً على صدق الأنبياء ، فأما الذي يؤمن بالقيامة ، فلا يتم ذلك الإيمان إلا إذا اعتقد أنه إله العالم فاعل مختار وأنه عالم بجميع الجزئيات ، وإذا كان الأمر كذلك لزم القطع بأن حدوث هذه الحوادث الهائلة والوقائع العظيمة إنما كان بسبب أن

إله العالم خلقها وأوجدها وأنها ليست بسبب طوالع الكواكب وقراناتها ، وحينئذ ينتفع بسماع هذه القصص ، ويستدل بها على صدق الأنبياء ، فثبت بهذا صحة قوله : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخرة ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس وذلك يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ .

(65/385)

واعلم أنه تعالى لما ذكر الآخرة وصف ذلك اليوم بوصفين : أحدهما : أنه يوم مجموع له الناس ، والمعنى أن خلق الأولين والآخرين كلهم يحشرون في ذلك اليوم ويجمعون .

والثاني : أنه يوم مشهود قال ابن عباس رضي الله عنهما يشهده البر والفاجر .

وقال آخرون يشهده أهل السماء وأهل الأرض ، والمراد من الشهود الحضور ، والمقصود من ذكره أنه ربما وقع في قلب إنسان أنهم لما جمعوا في ذلك الوقت لم يعرف كل أحد إلا واقعة نفسه ، فبين تعالى أن تلك الوقائع تصير معلومة للكل بسبب المحاسبة والمساءلة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ والمعنى أن تأخير الآخرة وإفناء الدنيا موقوف على أجل معدود وكل ماله عدد فهو متناه وكل ما كان متناهياً فإنه لا بد وأن يفنى ، فيلزم أن يقال إن تأخير الآخرة سينتهي إلى وقت لا بد وأن يقيم الله القيامة فيه ، وأن

تخرب الدنيا فيه ، وكل ما هو آت قريب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 48.45 ﴾

(66/385)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ذلك من أنباء القُرى نقصُّه عليك ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : نخبرك .

الثاني : نتبع بعضه بعضاً .

﴿ منها قائمٌ وحصيدٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن القائم : العامرة ، والحصيد : الخاوية قاله ابن عباس .

الثاني : أن القائم : الآثار ، والحصيد : الدارس ، قاله قتادة ، قال الشاعر :

والناس في قسم المنية بينهم . . . كالزرع منه قائم وحصيد

قوله عز وجل : ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن التتبيب الشر ، قاله ابن زيد .

الثاني : أنه الهلكة ، قاله قتادة . قال لبيد :

فلقد بَليتُ وكلُّ صاحب جِدّةٍ . . . لبِلىً يعودُ وذاكم التتبيب

ومنه قول جرير :

عرابة من بقية قوم لوطٍ . . . ألا تباً لما فعلوا تبابا

الثالث : التخسير ، وهو الخسران ، قاله مجاهد وتأول قوله تعالى ﴿ تبَّتْ يدا أبي لهب ﴾ [المسد : 1] أي خسرت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(67/385)

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ ذلك من أنباء الغيب ﴾ الآية

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم من ذكر العقوبات النازلة بالأمم المذكورة ، و" الأنباء " الأخبار . و﴿ القرى ﴾ يحتمل أن يراد بها القرى التي ذكرت في الآيات المتقدمة خاصة ، ويحتمل أن يريد القرى عامة ، أي هذه الأنباء المقصوصة عليك هو عوائد المدن إذا كفرت ، فيدخل - على هذا التأويل - فيها المدن المعاصرة ، ويجيء قوله : ﴿ منها قائم وحصيد ﴾ منها عامر ودائر ، وهذا قول ابن عباس : وعلى التأويل الأول - في أنها تلك

القرى المخصوصة – يكون قوله : ﴿ قائم وحصيد ﴾ بمعنى قائم الجدرات ومتهدم لا أثر له ، وهذا قول قتادة وابن جريج ، والآية بجملتها متضمنة التخويف وضرب المثل للحاضرين من أهل مكة وغيرهم .

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾

المعنى : وما وضعنا عندهم من التعذيب ما لا يستحقونه ، لكنهم ظلموا أنفسهم بوضعهم الكفر موضع الإيمان ، والعبادة في جنبة الأصنام ، فما نفعتهم تلك الأصنام ولا دفعت عنهم حين جاء عذاب الله .

وال ﴿ تتبيب ﴾ الخسران ، ومنه ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ [المسد : 1] ومنه قول جرير : [الوافر]

عرابية من بقية قوم لوط . . . ألا تبأ لما فعلوا تبابا

وصورة زيادة الأصنام التتبيب ، إنما يتصور : إما بأن تأهيلها والثقة بها والتعب في عبادتها شغلت نفوسهم وصرفتها عن النظر في الشرع وعاقتها ، فلحق عن ذلك عنت وخسران ، وإما بأن عذابهم على الكفر يزاد إليه عذاب على مجرد عبادة الأوثان .

وقوله ﴿ وكذلك ﴾ الإشارة إلى ما ذكر من الأحداث في الأمم ، وهذه آية وعيد تعم قرى المؤمنين ، فإن ﴿ ظالمة ﴾ أعم من كافرة ، وقد يمهل الله تعالى بعض الكفرة ، وأما الظلمة - في الغالب فمعاجلون أما أنه يملى لبعضهم ، وفي الحديث -من رواية أبي موسى - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته " ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ﴾ الآية .

وقرأ أبو رجاء العطاردي وعاصم الجحدري " ربُّك إذا أخذ القرى " وهي قراءة متمكنة المعنى ولكن قراءة الجماعة تعطي بقاء الوعيد واستمراره في الزمان ، وهو الباب في وضع المستقبل موضع الماضي .

وقوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ المعنى : أن في هذه القرى وما حل بها لعبرة وعلامة اهتداء لمن خاف أمر الآخرة وتوقع أن يناله عذابها فنظر وتأمل ، فإن نظره يؤديه إلى الإيمان بالله تعالى ، ثم عظم الله أمر يوم القيامة بوصفه بما تلبس بأجنبي منه للسبب المتصل بينهما ، ويعود الضمير عليه ، و ﴿ الناس ﴾ -على هذا - مفعول لم يسم فاعله ، ويصح أن يكون ﴿ الناس ﴾ رفعاً بالابتداء و ﴿ مجموع ﴾ خبر مقدم .

وهذه الآية خبر عن الحشر ، و ﴿ مشهود ﴾ عام على الإطلاق يشهده الأولون والآخرون من الإنس والملائكة والجن والحيوان ، في قول الجمهور ، وفيه - أعني الحيوان الصامت - اختلاف ، وقال ابن عباس : الشاهد : محمد عليه السلام ، و " المشهود " يوم القيامة .

وقوله : ﴿ وما نؤخره ﴾ الآية ، المعنى وما نؤخر يوم القيامة عجزاً عن ذلك ، لكن القضاء السابق قد نفذ فيه بأجل محدود لا يتقدم عنه ولا يتأخر .

وقرأ الجمهور "نؤخره" بالنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(69/385)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَآءِ القرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾

"ذَلِكَ" رفع على إضمار مبتدأ ، أي الأمر ذلك .

وإن شئت بالابتداء ؛ والمعنى : ذلك النبأ المتقدّم من أنباء القرى نقصه عليك .

﴿ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ قال قتادة : القائم ما كان خاوياً على عروشه ، والحصيد ما لا أثر له .

وقيل : القائم العامر ، والحصيد الخراب ؛ قاله ابن عباس : وقال مجاهد : قائم خاوية على عروشها ، وحصيد مستأصل ؛ يعني محصوداً كالزرع إذا حصد ؛ قال الشاعر :

والناس في قَسْم المنيّة بينهم . . .

كالزّرع منه قائِمٌ وحَصِيدُ

وقال آخر :

إنما نحن مثل خَامَةِ زرْعٍ . . .

فمتى يَأْنِ يَأْتِ مُحْتَصِدُهْ

قال الأخفش سعيد : حصيد أي محصود ، وجمعه حصدى وحِصاد مثل مرضى ومِراض ؛ قال : يكون فيمن يعقل حصدى ، مثل قِتيل وقتلى .

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أصل الظلم في اللغة وضع الشيء في غير موضعه ، وقد تقدّم في "البقرة" مستوفى .

﴿ ولكن ظلموا أَنفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصي .

وحكى سيبويه أنه يقال : ظلم إياه ﴿ فَمَا أَغْنَتْ ﴾ أي دفعت .

﴿ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ التي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ في الكلام حذف ، أي التي كانوا يعبدون ؛ أي يدعون .

﴿ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أي غير تخسير ؛ قاله مجاهد وقتادة .

وقال لبيد :

فلقد بَليتُ وكلُّ صاحب جدّةٍ . . .

لِبلًى يَعُودُ وذاكُمُ التَّتْبِيبُ

والتَّبَاتُ الهلاك والخسران ، وفيه إضمار ؛ أي ما زادتهم عبادة الأصنام ، فحذف

المضاف ؛ أي كانت عبادتهم إياهم قد خسّرتهم ثواب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك أَخْذُ ربِّكَ إذا أَخَذَ القرى ﴾ أي كما أخذ هذه القرى التي كانت لنوح وعاد وثمود يأخذ جميع القرى الظالمة .

(70/385)

وقرأ عاصم الجحدري وطلحة بن مصرف "وكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إذْ أَخَذَ الْقُرَى" وعن الجحدريّ أيضاً "وكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ" كالجماعة "إذْ أَخَذَ القُرَى" .

قال المهدويّ من قرأ : "وكذلك أخذ ربك إذْ أخذ" فهو إخبار عما جاءت به العادة في إهلاك من تقدّم من الأمم ؛ والمعنى : وكذلك أَخَذَ ربك من أخذه من الأمم المهلكة إذْ أخذهم .

وقراءة الجماعة على أنه مصدر ، والمعنى : كذلك أخذ ربك من أراد إهلاكه متى أخذه ؛ فإذْ لما مضى ؛ أي حين أخذ القرى ؛ وإذا للمستقبل ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ أي وأهلها ظالمون ؛ فحذف المضاف مثل ﴿ واسأل الْقَرْيَةَ ﴾ ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ أي عقوبته لأهل الشرك موجعة غليظة .

وفي صحيح مسلم والترمذيّ من حديث أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال : " إن الله تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلِتْهُ " ثم قرأ " وكذلك أخْذُ ربك إذا أخذ القرى " الآية .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً ﴾ أي لعبرة وموعظة .

﴿ لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخرة ﴾ .

﴿ ذلك يَوْمٌ ﴾ ، ابتداء وخبر .

﴿ مَّجْمُوعٌ ﴾ من نعته .

﴿ لَّهُ الناس ﴾ اسم ما لم يسم فاعله ؛ ولهذا لم يقل مجموعون ؛ فإن قدرت ارتفاع "الناس" بالابتداء ، والخبر "مَجْمُوعٌ لَهُ" فإنما لم يقل : مجموعون على هذا التقدير ؛ لأن "له" يقوم مقام الفاعل .

والجمع الحشر ، أي يحشرون لذلك اليوم .

﴿ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ أي يشهده البر والفاجر ، ويشهده أهل السماء .

وقد ذكرنا هذين الاسمين مع غيرهما من أسماء القيامة في كتاب "التذكرة" وبيناهما والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ ﴾ أي ما نؤخر ذلك اليوم .

﴿ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ أي لأجل سبق به قضاؤنا ، وهو معدود عندنا . انتهى ا . هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(71/385)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ذلك من أنباء القرى ﴾

يعني من أخبار أهل القرى وهم الأمم السالفة والقرون الماضية ﴿ نقصّه عليك ﴾ يعني نخبرك به يا محمد لتخبر قومك أخبارهم لعلهم يعتبرون بهم فيرجعوا عن كفرهم أو ينزل بهم مثل ما نزل بهم من العذاب ﴿ منها ﴾ يعني من القرى التي أهلكنا أهلها ﴿ قائم وحصيد ﴾ يعني منها عامر ومنها خراب وقيل منها قائم يعني الحيطان بغير سقوف ومنها ما قد محي أثره بالكلية شبهها الله تعالى بالزرع الذي بعضه قائم على سوقه وبعضهم قد حصد وذهب أثره والحصيد بمعنى المحصود ﴿ وما ظلمناهم ﴾ يعني بالعذاب والإهلاك ﴿ ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ يعني بالكفر والمعاصي ﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ﴾ يعني بعذابهم أي لم تنفعهم أصنامهم ولم تدفع عنهم العذاب ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ يعني غير تخسير وقيل غير تدمير .

﴿ وكذلك أخذ ربك ﴾ يعني وهكذا أخذ ربك ﴿ إذا أخذ القرى وهي ظالمة ﴾ الضمير في وهي عائد على القرى والمراد أهلها ﴿ إن أخذه أليم شديد ﴾

(ق) عن أبي موسى الأعشري قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ : وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد " فالآية الكريمة في الحديث دليل على أن من أقدم على ظلم فإنه يجب أن يتدارك ذلك بالتوبة والإنابة ورد الحقوق إلى أهلها إن كان الظلم للغير لئلا يقع في هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ولا يظن أن هذه الآية حكمها مختص بظالمي الأمم الماضية بل هو عام في كل ظالم ويعضده الحديث والله أعلم .

(72/385)

قوله : ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ يعني ما ذكر من عذاب الأمم الخالية وإهلاكهم لعبرة وموعظة ﴿ لمن خاف عذاب الآخرة ﴾ يعني أن إهلاك أولئك عبرة يعتبر بها وموعظة يتعظ بها من كان يخشى الله ويخاف عذابه في الآخرة لأنه إذا نظر ما أحل الله بأولئك الكفار في الدنيا من أليم عذابه وعظيم عقابه وهو كالنموذج مما أعد لهم في الآخرة اعتبر به فيكون زيادة في خوفه وخشيته من الله ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس ﴾ يعني يوم القيامة تجمع فيه الخلائق من

الأولين والآخرين للحساب والوقوف بين يدي رب العالمين ﴿ وذلك يوم مشهود ﴾ يعني يشهده أهل السماء وأهل الأرض ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾ يعني وما نؤخر ذلك اليوم وهو يوم القيامة إلا إلى وقت معلوم محدود وذلك الوقت لا يعلمه أحد إلا الله تعالى .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(73/385)

وقال أبو حيان :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾

التتبيب التخسير ، تب خسر ، وتبه خسره .

وقال لبيد :

ولقد بليت وكل صاحب جدة . . .

يبلى بعود وذاكم التتبيب

﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد .

وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب ﴾ : الإشارة بذلك إلى ما تقدم من ذكر

الأنبياء وقومهم ، وما حل بهم من العقوبات أي ذلك النبأ بعض أنباء القرى .

ويحتمل أن يعني بالقرى قرى أولئك المهلكين المتقدم ذكرهم ، وأن يعني القرى عموماً أي : هذا النبأ المقصوص عليك هو ديدن المدن إذ كفرت ، فدخل المدن المعاصرة .

والضمير في منها عائد على القرى .

قال ابن عباس : قائم وحصيد عامر كزغر وداثر ، وهذا على تأويل عموم القرى .

وقال قتادة وابن جريج : قائم الجدران ومنهدم ، وهذا على تأويل خصوص القرى ، وأنها قرى أولئك الأمم المهلكين ، وقال الزمخشري : بعضها باق وبعضها عافى الأثر كالزرع القائم على ساقه ، والذي حصد انتهى .

وهذا معنى قول قتادة ، قال قتادة : قائم الأثر ودارسه ، جعل حصد الزرع كناية عن الفناء

قال الشاعر :

والناس في قسم المنية بينهم . . .

كالزرع منه قائم وحصيد

وقال الضحاك : قائم لم يخسف ، وحصيد قد خسف .

وقال ابن إسحاق : قائم لم يهلك بعد ، وحصيد قد أهلك .

وقيل : قائم أي باق نسله ، وحصيد أي منقطع نسله .

وهذا يتمشى على أن يكون التقدير ذلك من أنباء أهل القرى .

وقد قيل : هو على حذف مضاف أي : من أنباء أهل القرى ، ويؤيده قوله : وما ظلمناهم ، فعاد الضمير على ذلك المحذوف .

وقال الأخفش : حصيد أي محصود ، وجمعه حصدى وحصاد ، مثل : مرضى ومراض ، وباب فعلى جمعاً لفعيل بمعن مفعول ، أن يكون فيمن يعقل نحو : قتيل وقتلى .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : ما محل هذه الجملة ؟ قلت : هي مستأنفة لا محل لها انتهى .

(74/385)

وقال أبو البقاء : منها قائم ابتداء ، وخبر في موضع الحال من الهاء في نقصه ، وحصيد مبتدأ خبره محذوف أي : ومنها حصيد انتهى .

وما ذكره تجوز أي : نقصه عليك وحال القرى ذلك ، والحال أبلغ في التخويف وضرب المثل للحاضرين أي : نقص عليك بعض أنباء القرى وهي على هذه الحال يشاهدون فعل الله بها .

وما ظلمناهم أي : بإهلاكنا إياهم ، بل وضعنا عليهم من العذاب ما يستحقونه ، ولكن ظلموا أنفسهم بوضع الكفر موضع الإيمان ، وارتكاب ما به أهلكوا .

والظاهر أنّ قوله : فما أغنت ، نفي أي ، لم ترد عنهم من بأس الله شيئاً ولا أجدت .

يدعون حكاية حال أي : التي كانوا يدعون ، أي يعبدون ، أو يدعونها اللات والعزى وهبل .

قال الزمخشري : ولما منصوب بما أغنت انتهى .

وهذا بناء على أنّ لما ظرف ، وهو خلاف مذهب سيبويه ، لأنّ مذهبه أنها حرف وجوب لوجوب .

وأمر ربك هو عذابه ونقمته .

وما زادوهم عومل معاملة العقلاء في الإسناد إلى واو الضمير الذي هو لمن يعقل ، لأنهم نزلوهم منزلة العقلاء في اعتقادهم أنها تنفع ، وعبادتهم إياهم .

والتتبيب التخسير .

قال ابن زيد : الشر ، وقال قتادة : الخسران والهلاك ، وقال مجاهد : التخسير ، وقيل : التدمير .

وهذه كلها أقوال متقاربة .

قال ابن عطية : وصورة زيادة الأصنام التتبيب ، إنما هو يتصور بأنّ تأميلها والثقة بها والتعب في عبادتها شغلت نفوسهم عن النظر في الشرع وعاقبته ، فلحق من ذلك عقاب وخسران .

وأما بأن عذابهم على الكفر يزاد به عذاب على مجرد عبادة الأوثان .

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾

الشقاء نكد العيش .

وسوؤه .

يقال منه : شقي يشقى شقاء وشقوة وشقاوة والسعادة ضده ، يقال منه : سعد يسعد ،

ويعديان بالهمزة فيقال : أشقاه الله ، وأسعده الله .

وقد قرئ شقوا وسعدوا بضم الشين والسين ، فدل على أنهما قد يتعدّيان .

ومنه قولهم مسعود ، وذكر أنّ الفراء حكى أن هذيلاً تقول : سعده الله بمعنى أسعده .

وقال الجوهري : سعد بالكسر فهو سعيد ، مثل سلم فهو سليم ، وسعد فهو مسعود .

وقال أبو نصر عبد الرحيم القشيري : ورد سعده الله فهو مسعود ، وأسعده الله فهو

مسعد .

﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد .

إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما

نؤخره إلا لأجل معدود .

يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد ﴾ : أي ومثل ذلك الأخذ أخذ الله الأمم السابقة أخذ ربك .

والقرى عام في القرى الظالمة ، والظلم يشمل ظلم الكفر وغيره .

وقد يمهل الله تعالى بعض الكفرة .

وأما الظلمة في الغالب فمعاجلون ، وفي الحديث : " إن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته " ثم قرأ : وكذلك أخذ ربك إذاً .

وقرأ أبو رجاء والجحدري : وكذلك أخذ ربك ، إذ أخذ على أنّ أخذ ربك فعل وفاعل ، وإذ ظرف لما مضى ، وهو إخبار عما جرب به عادة الله في إهلاك من تقدم من الأمم .

وقرأ طلحة بن مصرف : وكذلك أحذ ربك هذا أخذ .

قال ابن عطية : وهي قراءة متمكنة المعنى ، ولكن قراءة الجماعة تعطي الوعيد واستمراره في الزمان ، وهو الباب في وضع المستقبل موضع الماضي ، والقرى مفعول بأخذ على الإعمال إذ تنازعه المصدر وهو : أخذ ربك ، وأخذ ، فاعمل الثاني وهي ظالمة جملة حالية إن أخذه أليم موجع صعب على المأخوذ .

والأخذ هنا أخذ الإهلاك .

إنّ في ذلك أي : فيما قص الله من أخبار الأمم الماضية وإهلاكهم لآية لعلامة لمن خاف

عذاب الآخرة ، أي : إنهم إذا عذبوا في الدنيا لأجل تكذيبهم الأنبياء وإشراكهم بالله ، وهي دار العمل فلأن يعذبوا على ذلك في الآخرة التي هي دار الجزاء أولى ، وذلك أنّ الأنبياء أخبروا باستئصال من كذبهم ، وأشركوا بالله .

ووقع ما أخبروا به وفق إخبارهم ، فدل على أنّ ما أخبروا به من البعث والجزاء صدق لا شك فيه .

(76/385)

قال الزمخشري : لآية لمن خاف لعبرة له ، لأنه ينظر إلى ما أحل الله بالمجرمين في الدنيا ، وما هو إلا أنموذج مما أعد لهم في الآخرة ، فإذا رأى عظمته وشدته اعتبر به من عظيم العذاب الموعود فيكون له عظة وعبرة ولطفاً في زيادة التقوى والخشية من الله ونحوه :إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لّمَن يَخْشَى ذلك إشارة إلى يوم القيامة الدال عليه قوله عذاب الآخرة والناس مفعول لم يسم فاعله رافعه مموع وأجاز ابن عطية أن يكون الناس مبتدأ ومجموع خبر مقدم وهو بعيد لإفراد الضمير في مجموع وقياسه على إعرابه مجموعون ومجموع له الناس عبارة عن الحشر ومشهود عام يشهده الأولون والآخرون من الإنس والجن والملائكة والحيوان في قول الجمهور وقال الزمخشري (فإن قلت) أي فائدة في أن أوثر اسم المفعول على فعله (قلت) لما في اسم

المفعول من دلالته على ثبات معنى الجمع لليوم وأنه لا بد أن يكون ميعاداً مضروباً لجمع الناس له وأنه هو الموصوف بذلك صفة لازمة وهو أثبت أيضاً لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكون منه وفيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل ومعنى مشهود مشهود فيه فاتسع في الجار والمجرور ووصل الفعل إلى الضمير إجراء له مجرى المفعول به على السعة لقوله

ويوماً شهدناه سليماً وعامراً

والمعنى يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد ومنه قولهم لفلان مجلس مشهود وطعام محضور وإنما لم يجعل اليوم مشهوداً في نفسه كما قال فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ لأن الغرض وصف ذلك اليوم بالهول والعظم وغيره من بين الأيام وكونه مشهوداً في نفسه لا يميزه إذ هو موافق لسائر الأيام في كونها مشهودة وما نؤخره أي ذلك اليوم وقيل يعود على الجزاء قاله الحوفي إلا لأجل معدود أي لقضاء سابق قد نفذ فيه بأجل محدود لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه وقرأ الأعمش وما يؤخره بالياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما قُص من أنباء الأممِ وبعده باعتبار تقضّيه في الذكر والخطابُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبرُه ﴿ مِنْ أَنْبَاء القرى ﴾ المهلَكة بما جنتْه أيدي أهلِها ﴿ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ خبرٌ بعد خبرٍ أي ذلك النبأ بعضُ أنباءِ القرى مقصوصٌ عليك ﴿ مِنْهَا ﴾ أي من تلك القرى ﴿ قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ أي ومنها حصيد ، حُذف لدلالة الأولِ عليه ، شُبّه ما بقيَ منها بالزرع القائمِ على ساقه وما عفا وبطَل بالحصيد ، والجملةُ مستأنفةٌ لا محل لها من الإعراب .

﴿ وَمَا ظلمناهم ﴾

بأن أهلكناهم ﴿ ولكن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بأن جعلوها عُرضةً للهلاك باقتراف ما يوجبه ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ﴾ فما نفعتهم ولا دفعتْ بأسَ الله تعالى عنهم ﴿ التى يَدْعُونَ مِن ﴾ أي يعبدونها ﴿ دُونِ الله ﴾ أُوثر صيغةُ المضارعِ حكايةً للحال الماضيةِ أو دِلالةً على استمرار عبادتِهم لها ﴿ مِن شَىْء ﴾ في موضع المصدرِ أي شيئاً من الإغناء ﴿ لَّمَّا جَاء أَمْرُ رَبّكَ ﴾ أي حين مجيءِ عذابه وهو منصوبٌ بأغنت ، وقرىء آلهتُهم اللاتي ويُدْعَون على البناء للمجهول ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أي إهلاك وتخسير فإنهم إنما هلكوا وخسِروا بسبب عبادتِهم لها .

﴿ وكذلك ﴾ أي ومثلَ ذلك الأخذِ الذي مر بيانُه ، وهو رفعٌ على الابتداء وخبرُه قوله : ﴿ أَخْذُ رَبِّكَ ﴾ وقرىء أخذَ ربُّك فمحلُّ الكافِ النصبُ على أنه مصدرٌ مؤكد ﴿ إِذَا أَخَذَ القرى ﴾ أي أهلَها وإنما أُسند إليها للإشعار بَسَريانِ أثرِه إليها حسبما ذُكر ، وقرىء إذْ أخذ ﴿ وَهِىَ ظالمة ﴾ حالٌ من القرى وهي في الحقيقة لأهلها لكنها لما أُقيمت مُقامَهم في الأخذ أُجريت الحالُ عليها وفائدتُها الإشعارُ بأنهم إنما أُخذوا بظلمهم ليكون ذلك عبرةً لكل ظالم ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ وجيع صعب على المأخوذ لا يرجى منه الخلاص وفيه ما لا يخفى من التهديد والتحذير ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي في أخذه تعالى للأمم الغابرةِ أو في قصصهم ﴿ لآيَةً ﴾ لعبرةً ﴿ لّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخرة ﴾ فإنه المعتبرُ به حيث يُستدل بما حاق بهم من العذاب الشديد بسبب ما عملوا من السيئات على أحوال عذابِ الآخرة ، وأما من أنكر الآخرةَ وأحال فناءَ العالم وزعم أن ليس هو ولا شيءٌ من أحواله مستنداً إلى الفاعل المختارِ وأن ما يقع فيه من الحوادث فإنما يقع لأسباب تقتضيه من أوضاع فلكيةٍ تتفق في بعض الأوقاتِ لا لما ذُكر من المعاصي التي يقترفها الأممُ الهالكة فهو بمعزل من هذا الاعتبارِ ، تباً لهم ولما لهم من الأفكار ﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى يوم القيامةِ المدلول عليه بذكر الآخرة ﴿ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس ﴾ للمحاسبة والجزاءِ ، والتغييرُ للدلالة على ثبات معنى الجمعِ وتحقق وقوعِه لا محالة وعدم انفكاك الناس عنه فهو أبلغ من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ

يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجمع ﴾ ﴿ وَذَلِكَ ﴾ أي يومُ القيامة مع ملاحظة عنوانِ جمعِ الناس له ﴿ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ أي مشهود فيه حيث يشهد فيه أهلُ السموات والأرضين فاتُسع فيه بإجراء الظرفِ مُجرى المفعولِ به كما في قوله :

(79/385)

في محفل من نواصي الناس مشهود . . . أي كثيرٌ شاهدوه ولو جُعل نفسُ اليوم مشهوداً لفات ما هو الغرضُ من تعظيم اليومِ وتهويلِه وتمييزِه عن غيره فإن سائرَ الأيام أيضاً كذلك ﴿ وَمَا نُؤَخّرُهُ ﴾ أي ذلك اليومَ الملحوظَ بعُنوانَيْ الجمعِ والشهود ﴿ إِلاَّ لاِجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ إلا لانقضاء مدةٍ قليلةٍ مضروبةٍ حسبما تقتضيه الحكمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(80/385)

وقال الآلوسى :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ القرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما قص من أنباء الأمم وبعده باعتبار تقضيه أو باعتبار ما قيل في غير موضع ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره ﴿ مِنْ أَنبَاء القرى ﴾ المهلكة بما جنته أيدي أهلها فأل فيها للعهد السابق تقديراً بذكر أربابها ﴿ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ خبر بعد خبر أي ذلك النبأ بعض أنباء القرى مقصوص عليك ؛ وجوز أن يكون من ﴿ أَنبَاء ﴾ في موضع الحال وهذا هو الخبر ، وجوز أيضاً عكس ذلك ﴿ مِنْهَا ﴾ أي من تلك القرى ﴿ قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ أي ومنها حصيد ، فالعطف من عطف الجملة على الجملة وهو الذي يقتضيه المعنى كما لا يخفى ، وقد شبه ما بقي منها بالزرع القائم على ساقه.

وما عفا وبطل بالحصيد ، فالمعنى منها باق.

ومنها عاف ، وهو المروي عن قتادة ، ونحوه ما روى عن الضحاك ﴿ قَائِمٌ ﴾ لم يخسف ﴿ وَحَصِيدٌ ﴾ قد خسف ، قيل : ﴿ وَحَصِيدٌ ﴾ الزرع جاء في كلامهم بمعنى الفناء كما في قوله

: والناس في قسم المنية بينهم . . .

(كالزرع منه قائم وحصيد)

وصيغة فعيل بمعنى مفعول أي محصول كما قال الأخفش ، وجمعه حصدي ، وحصاد مثل مرضي ومراض ، وجملة ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ ﴾ الخ مستأنفة استئنافاً نحوياً للتحريض على النظر

في ذلك والاعتبار به ، أو بيانيا كأنه سئل لما ذكرت ما حالها ؟ فأجيب بذلك ، وقال أبو البقاء : هي في موضع الحال من الهاء في نقصه ، وجوز الطيبي كونها حالاً من القرى ، وادعى صاحب الكشف أن جعلها حالاً من ضمير نقصه فاسد لفظاً ومعنى ، ومن القرى كذلك ، وفي الحواشي الشهابية أراد بالفساد اللفظي في الأول خلو الجملة من الواو والضمير .

وفي الثاني مجيء الحال من المضاف إليه في غير الصور المعهودة ، وبالفساد المعنوي أنه يقتضي أنه ليس من المقصوص بل هو حال ارجة عنها وليس بمراد ، ولا يسوغ جعل ما بعده ابتداء المقصوص ، وفيه فساد لفظي أيضاً .

(81/385)

وزعم بعض أنه أراد بالفساد الأول في الأول ما ذكر .

وفي الثاني وقوع الجملة الاسمية حالاً بالضمير وحده وبالضمير تخصيص كونها مقصوصة بتلك الحالة فإن المقصوصية ثابتة لها وللنبأ وقت قيام بعضها أيضاً ، وقد أصاب بعضاً وأخطأ بعضاً ، ووجه الحلبي الخلو عن الواو والضمير بأن المقصود من الضمير الربط وهو حاصل لارتباط ذلك بمتعلق ذي الحال وهي القرى ، فالمعنى نقص عليك بعض أنباء القرى

وهي على هذه الحالة تشاهدون فعل الله تعالى بها ، وتعقب بأن الاكتفاء في الربط بما ذكر مع خفائه مذهب تفرد به الأخفش ولم يذكره في الحال وإنما ذكره في خبر المبتدأ ، وقول أبي حيان : إن الحال أبلغ في التخويف وضرب المثل للحاضرين مع ما سمعت نفعاً والحق أنه لا وجه لما ذكره أبو البقاء يعول عليه إلا الذهول .

﴿ وَمَا ظلمناهم ﴾ قيل : الضمير للقرى مراداً بها أهلها وقد أريد منها أولاً حقيقتها ، ففي الكلام استخدام ، وقيل : الضمير لأهل القرى لأن هناك مضافاً مقدراً أي ذلك من أنباء أهل القرى ؛ والضمائر منها ما يعود إلى المضاف .

ومنها ما يعود إلى المضاف إليه ، ومتى وضح الأمر جاز مثل ذلك .

وقيل : القرى على ظاهرها وإسناد الأنباء إليها مجاز ، وضمير ﴿ مِنْهَا ﴾ لها وضمير ﴿ ظلمناهم ﴾ للأهل المفهوم منها ، وقيل : ﴿ القرى ﴾ مجاز عن أهلها ، والضميران راجعان إليها بذلك الاعتبار ، أو يقدر المضاف .

والضميران له أيضاً ، وعلى هذا خرج ما حكى عن بعضهم من أن معنى ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ [هود : 100] منها باق نسله .

ومنها منقطع نسله ، وأياً ما كان ففي الكلام إيذان بإهلاك الأهل فيكون المعنى هنا وما ظلمناهم بإهلاكنا إياهم .

﴿ ولكن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ حيث اقترفوا بسوء استعدادهم ما يترتب عليه ذلك بمقتضى الحكمة ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ﴾ أي ما نفعتهم ولا دفعت بأس الله تعالى عنهم ﴿ التى يَدْعُونَ مِن ﴾ أي يعبدونها ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ أوثر صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية أو للدلالة على استمرار عبادتهم لها ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ أي شيئاً من الإغناء أو شيئاً من الأشياء فما نافية لا استفهامية وإن جوّزه السمين وتعلق عن بما عنده لما فيه من معنى الدفع ، و﴿ مِنْ ﴾ الأخيرة صلة ومجرورها مفعول مطلق .

أو مفعول به للدفع ، وقوله سبحانه : ﴿ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبّكَ ﴾ أي حين مجيء عذابه منصوب بأغنت وهذا على ما في البحر بناءاً على خلاف مذهب سيبويه لأن مذهبه أن ﴿ لَّمَّاً ﴾ حرف وجوب لوجوب .

وقرىء آلهتهم اللاتي و﴿ يَدَّعُونَ ﴾ بالبناء للمفعول وهو وصف للآلهة كالتي في المشهورة ، وفيه مطابقة للموصوف ليست في ﴿ التى ﴾ لكن قيل كما في "جمع الجوامع" للجلال السيوطي إن التي في جمع غير عالم أكثر من اللاتي ، نعم إن الآلهة قد عوملت في الآية معاملة العقلاء لأن عبدتها نزلوها منزلة العقلاء في اعتقادهم فيها أنها تنفع وتضر ، فقيل : ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ ومن هنا قيل : إن اللاتي في تلك القراءة واقع موقع الآلي أو الذين ، والتتبيب على ما في "البحر" التخسير ، يقال : تب خسر .

وتببه خسره .

وذكر الجوهري أن التب الخسران والهلاك .

والتتبيب الاهلاك ، وفي القاموس التب .

والتبب .

والتباب والتتبيب النقص والخسار .

وأخرج ابن جرير .

وابن المنذر عن ابن عمر .

ومجاهد تفسير ذلك بالتخسير ، وكذا أخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه

عنهما إلا أنه استشهد عليه بقول بشر بن أبي خازم

: هم جدعوا الأنوف فأذهبوها . . .

وهم تركوا بني سعد (تباباً)

(83/385)

وحينئذ فالمعنى فما زادوهم غير تخسير أو خسارة لنفوسهم حيث استحقوا العذاب

الأليم على عبادتهم لها نسأل الله تعالى العفو والعافية .

﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك الأخد والإهلاك الذي مر بيانه ، وهو على ما قال السمين : خبر مقدم ، وقوله سبحانه : ﴿ أَخْذُ رَبِّكَ ﴾ مبتدأ مؤخر ، وقيل : بالعكس ، والكاف يحتمل أن تكون اسمية وأن تكون حرفية وقد يجعل المشار إليه الأخذ المذكور بعد كما تحقق قبل ، وفي قراءة عبد الله كذلك بغير واو .

﴿ إِذَا أَخَذَ القرى ﴾ أي أهلها وإنما أسند إليها للإشعار بسريان أثره ، وقرأ الجحدري . وأبو رجاء ﴿ وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ ﴾ على أن ﴿ أَخْذُ رَبِّكَ ﴾ فعل وفاعل ، والظرف لما مضى ، وهو إخبار عما جرت به عادة الله تعالى في إهلاك من تقدم من الأمم وكذلك على هذا ساد مسد المصدر النوعي ولا مانع من تقدمه على الفعل والقرى متنازع للمصدر والفعل ، وقوله سبحانه : ﴿ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ﴾ في موضع الحال من ﴿ القرى ﴾ ولذا أنث الضمير و ﴿ ظالمة ﴾ إلا أن وصف القرى بالظلم مجاز وهو في الحقيقة صفة أهلها وجعله حالاً من المضاف المقدر أولاً وتأنيثه مكتسب من المضاف إليه تكلف ، وفائدة هذه الحال الأشعار بأن أخذهم بسبب ظلمهم ، وفي ذلك من إنذار الظالم ما لا يخفى ، والمراد بالظلم إما الكفر أو ما هو أعم ، وظاهر صنيع بعضهم أخذاً من إطلاقه أنه شامل لظلم المرء نفسه .

وغيره ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ ﴾ وجيع ﴿ شَدِيدٍ ﴾ لا يرجى منه الخلاص وهذا مبالغة في التهديد والتحذير ، أخرج الشيخان في صحيحيهما .

والترمذي .

والنسائي .

وابن ماجه .

وآخرون عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ ﴿ وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ " .

(84/385)

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي أخذه سبحانه للأمم المهلكة أو فيما قص من أخبارهم ﴿ لآيَةً ﴾ أي لعلامة ، وفسرها بعضهم بالعبرة لما أنها تلزمها وهو حسن ؛ والتنوين للتعظيم أي لعبرة عظيمة ﴿ لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخرة ﴾ فإنه إذا رأى ما وقع في الدنيا بالمجرمين من العذاب الأليم اعتبر به حال العذاب الموعود فإنه عصا من عصية وقليل من كثير ، وانزجر بذلك عن المعاصي التي يترتب عليها العذاب وأكب على التقوى والخشية من الله تعالى ، وقد أقيم ﴿ مَنْ خَافَ ﴾ الخ مقام من صدق بذلك لما بينهما من اللزوم ولأن الاعتبار إنما ينشأ من الخوف ، وذكر هذا القيد لأن من أنكر الآخرة وأحال فناء هذا العالم أسند الحوادث إلى

أسباب فلكية وأوضاع مخصوصة فلم يعتبر بذلك أصل ولم ينزجر عن الضلالة قطعاً ، وقال : إن ما وقع إنما وقع لها تيك الأسباب والأوضاع لا للمعاصي التي اقترفتها الأمم المهلكة. وقيل : المراد إن فيما ذكر دليلاً على عذاب المجرمين في الآخرة لأنهم إذا عذبوا في الدنيا لإجرامهم وهي دار العمل فلأن يعذبوا في الآخرة عليه وهي دار الجزاء أولى ، وقيل : المراد إن فيه دليلاً على البعث والجزاء ، وذلك أن الأنبياء عليهم السلام قد أخبروا باستئصال من كذبهم وأشرك بالله ووقع ما أخبروا به وفق إخبارهم ، وذلك أحد الشواهد على صدقهم فيكونون صادقين فيما يخبرون به من البعث والجزاء فلا بد أن يقع لا محالة ، والتقييد بما ذكر هنا كالتقييد في قوله سبحانه : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] وهو كما ترى ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة ﴿ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس ﴾ أي يجمع له الناس للمحاسبة والجزاء ، فالناس نائب فاعل مجموع.

(85/385)

وأجاز ابن عطية أن يكون مبتدأ و ﴿ مَّجْمُوعٌ ﴾ خبره ، وفيه بعد إذ الظاهر حينئذ أن يكون مجموعاً وعدل في الفعل وكان الظاهر ليدل الكلام على ثبوت معنى الجمع وتحقق وقوعه لا محالة وأن الناس لا ينفكون عنه فهو أبلغ من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجمع

﴾ [التغابن : 9] وإيضاحه أن في هذا دلالة على لزوم الوصف ولزوم الاسناد ، وفي ذلك على حدوث تعلق الجمع بالمخاطبين واختصاصه باليوم ولهذا استدركه بقوله : الجمع فأضاف اليوم إليه ليدل على لزومه له وإنما الحادث جمع الأولين والآخرين دفعة ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ أي يوم القيامة مع ملاحظة عنوان جمع الناس له ﴿ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ أي مشهود فيه فاتسع في الجار والمجرور ووصل الفعل إلى الضمير إجراءاً له مجرى المفعول به كما في قوله :

قليل سوى طعن الدراك نوافله . . .

أي يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد وإنما لم يجعل نفس اليوم مشهوداً بل جعل مشهوداً فيه ولم يذكر المشهود تهويلاً وتعظيماً أن يجرى على اللسان وذهاباً إلى أن لا مجال لالتفات الذهن إلى غيره ، وقد يقال : المشهود هو الذي كثر شاهدوه ، ومنه قولهم : لفلان مجلس مشهود .

وطعام محضور ، ولأم قيس الضبية :

ومشهد قد كفيت الناطقين به . . .

في محفل من نواصي الناس (مشهود)

واعتبروا كثرة شاهديه نظراً إلى أنه الذي يستحق أن يطلق اسم المشهود على الإطلاق عليه ، ولو جعل اليوم نفسه مشهوداً من غير هذا الاعتبار لم يحصل الغرض من تعظيم اليوم وتمييزه فإن سائر الأيام كذلك لكن جاء الامتياز من ذلك لما أضيف إليه من الكثرة المهولة

المميزة ، وبما ذكر يعلم سقوط ما قبل : الشهود الحضور .

واجتماع الناس حضورهم فمشهود بعد مجموع مكرر .

﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ ﴾ أي ذلك اليوم الملحوظ بعنوان الجمع والشهود ، ونقل الجو في رجوع الضمير للجزاء ، وقرأ الأعمش .

ويعقوب يؤخره بالياء .

(86/385)

﴿ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ أي لانتهاء مدة قليلة ، فالعد كناية عن القلة ، وقد يجعل كناية عن التناهي ، والأجل عبارة عن جميع المدة المعينة للشيء ، وقد يطلق على نهايتها ، ومنع إرادة ذلك هنا لأنه لا يوصف بالعد في كلامهم بوجه ، وجوزها بعضهم بناءاً على أن الكناية لا يشترط فيها إمكان المعنى الأصلي ، وتعقب بأنه عدول عن الظاهر ، وتقدير المضاف أسهل منه .

واللام للتوقيت ، وفي المجمع أنها تدل على الغرض وأن الحكمة اقتضت التأخير ولذا عدل عن إلى ﴿ إِلَيْهَا ﴾ وفي الآية رد على الدهرية .

والفلاسفة الزاعمين أنه لا انقضاء لمدة الدنيا ، وهو بحث مفروغ منه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(87/385)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾

أَيْ بِآيَاتِنَا التِّسْعِ الْمَعْدُودَةِ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمُفَصَّلَةِ فِي غَيْرِهَا (وَقَدْ سَبَقَ ذِكْرُهَا فِي قِصَّتِهِ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ) ، - وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ - أَيْ وَبُرْهَانٍ وَاضِحِ الْبَيَانِ ، وَهُوَ مَا آتَاهُ اللهُ مِنَ الْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ فِي مُحَاوَرَاتِهِ مَعَ فِرْعَوْنَ . وَقِيلَ : هِيَ الْعَصَا لِأَنَّهَا أَكْبَرُ آيَاتِهِ ، وَعَطَفَهَا عَلَى مَا قَبْلَهَا مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ، وَلَكِنَّ اللهَ قَالَ : وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا 43 : 48

- إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ - بَيَّنَّا مِرَارًا أَنَّ الْمَلَأَ أَشْرَافُ الْقَوْمِ وَزُعَمَاؤُهُمْ ، وَأَضَافَهُمْ إِلَى فِرْعَوْنَ وَخَصَّهُمْ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالِاسْتِشَارَةِ فِي دَوْلَتِهِ الَّذِينَ يَسْأَلُهُمْ رَأْيَهُمْ فِي مُوسَى وَغَيْرِهِ ، وَيَعْهَدُ إِلَيْهِمْ بِتَنْفِيذِ مَا يَتَقَرَّرُ مِنَ الْأُمُورِ

(88/385)

كَمَسْأَلَةِ السَّحَرَةِ ، وَإِنَّمَا يَذْكُرُ قَوْمَهُ فِي مَقَامِ الِاتِّبَاعِ لَهُ فِي الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَعَذَابِ الْآخِرَةِ دُونَ عَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ - فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ - فِي كُلِّ مَا قَرَّرَهُ مِنَ الْكُفْرِ بِمُوسَى ، وَجَمْعِ السَّحَرَةِ لِإِبْطَالِ مُعْجِزَتِهِ ، وَمِنْ قَتْلِ السَّحَرَةِ لِإِيمَانِهِمْ بِهِ ، وَمِنْ تَشْدِيدِ الظُّلْمِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِتَقْتِيلِ أَبْنَائِهِمْ وَاسْتِحْيَاءِ نِسَائِهِمْ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مُفَصَّلٌ فِي قِصَّتِهِ مِنَ السُّوَرِ الْأُخْرَى - وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ - أَيْ : مَا شَأْنُهُ وَتَصَرُّفُهُ بِذِي رُشْدٍ وَهَدْيٍ ، بَلْ هُوَ مَحْضُ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ ، وَالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ . فِي غُرُورِهِ بِنَفْسِهِ وَكُفْرِهِ بِرَبِّهِ وَطُغْيَانِهِ فِي حُكْمِهِ ، وَمَاذَا يَكُونُ جَزَاؤُهُ مَعَ قَوْمِهِ فِي الْآخِرَةِ ؟ الْجَوَابُ .

(89/385)

- يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أَيْ يَتَقَدَّمُهُمْ وَيَكُونُونَ تَبَعًا لَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كَمَا كَانُوا تَابِعِينَ لَهُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا - فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ - أَيْ : فَيُورِدُهُمْ نَارَ جَهَنَّمَ مَعَهُ ، أَيْ : يُدْخِلُهُمْ إِيَّاهَا ، فَالْإِيرَادُ هُنَا بِمَعْنَى الْإِدْخَالِ كَمَا اسْتُعْمِلَ الْوُرُودُ بِمَعْنَى الدُّخُولِ ، وَعَبَّرَ عَنْهُ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي لِتَحَقُّقِ وُقُوعِهِ ، وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ بِإِغْرَائِهِ إِيَّاهُمْ قَدْ جَعَلَهُمْ مُسْتَحِقِّينَ لَهَا ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ آلَهُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا مُنْذُ مَاتُوا صَبَاحًا وَمَسَاءً مِنْ كُلِّ يَوْمٍ وَهُوَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : -

وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ – 40 : 45 و46 .

– وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ – هِيَ لِأَنَّ وَارِدَ الْمَاءِ يَرِدُهُ لِتَبْرِيدِ كَبِدِهِ وَإِطْفَاءِ غَلَّتِهِ مِنْ حَرِّ الظَّمَأِ ، وَوَارِدُ النَّارِ يَحْتَرِقُ فِيهَا احْتِرَاقًا ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى الْخَيْبَةِ .

(90/385)

الْوُرُودُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ بُلُوغُ الْمَاءِ وَمُوَافَاتُهُ فِي مَوْرِدِهِ مِنْ نَهَرٍ وَغَيْرِهِ ، وَالْوِرْدُ بِالْكَسْرِ اسْمُ الْمَصْدَرِ ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْمَاءِ ، يُقَالُ : وَرَدَ الْبَعِيرُ أَوْ غَيْرُهُ الْمَاءَ يَرِدُهُ وِرْدًا فَهُوَ وَارِدٌ وَالْمَاءُ مَوْرُودٌ ، أَوْرَدَهُ إِيَّاهُ إِيرَادًا جَعَلَهُ يَرِدُهُ ، وَمِنْهُ وُرُودُ جَهَنَّمَ بِمَعْنَى دُخُولِهَا . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فِي الْآيَةِ : الْوُرُودُ الدُّخُولُ . وَقَالَ : الْوُرُودُ فِي الْقُرْآنِ أَرْبَعَةُ أَوْرَادٍ ، فِي هُودٍ قَوْلُهُ : – وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ – 98 وَفِي مَرْيَمَ : – وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا – 19 : 71 وَوَرَدَ فِي الْأَنْبِيَاءِ : – حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ – 21 : 98 وَوَرَدَ فِي مَرْيَمَ أَيْضًا : – وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا – 19 : 86 وَكَانَ يَقُولُ : وَاللَّهِ لَيَرِدَنَّ جَهَنَّمَ كُلُّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ – ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا – 19 : 72 .

(91/385)

- وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً - أَيْ : وَأُلْحِقَتْ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا لَعْنَةٌ أَتْبَعَهُمُ اللهُ إِيَّاهَا بِقَوْلِهِ : - وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ - 28 : 42 وَقَالَ هُنَا : - وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ - أَيْ وَأُتْبِعُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَعْنَةً أُخْرَى ، فَهُمْ يُلْعَنُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَقَدْ سَمَّى هَذِهِ رِفْدًا ; تَهَكُّمًا بِهِمْ فَقَالَ : - بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ - الرِّفْدُ (بِالْكَسْرِ) فِي أَصْلِ اللُّغَةِ الْعَطَاءُ وَالْعَوْنُ : يُقَالُ : رَفَدَهُ (مِنْ بَابِ ضَرَبَ) أَعَانَهُ وَأَعْطَاهُ ، وَأَرْفَدَهُ مِثْلُهُ ، أَوْ جَعَلَ لَهُ رِفْدًا يَتَنَاوَلُهُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، فَرَفَدَهُ وَأَرْفَدَهُ كَسَقَاهُ وَأَسْقَاهُ ، - وَبِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ - أَيِ الْعَطَاءُ الْمُعْطَى هَذِهِ اللَّعْنَةُ الَّتِي أُتْبِعُوهَا ، وَحَكَى الْمَاوَرْدِيُّ عَنِ الْأَصْمَعِيِّ أَنَّ الرَّفْدَ بِالْفَتْحِ ، الْقَدَحُ وَبِالْكَسْرِ مَا فِيهِ مِنَ الشَّرَابِ ، هُوَ تَفْسِيرٌ لِلْعَامِّ بِالْخَاصِّ مُنَاسِبٌ لِلْوِرْدِ الْمَوْرُودِ قَبْلَهُ . أَيْ بِئْسَ مَا يُسْقَوْنَهُ فِي النَّارِ عِنْدَمَا يَرِدُونَهَا ذَلِكَ الشَّرَابُ الَّذِي يُسْقَوْنَهُ فِيهَا ، وَهُوَ مَا وَصَفَهُ اللهُ - تَعَالَى - بِقَوْلِهِ : - وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ - 47 : 15 .

(92/385)

وَالْعِبْرَةُ فِي الْآيَاتِ : أَنَّهُ لَا يَزَالُ يُوجَدُ فِي الْبَشَرِ فَرَاعِنَةٌ يُغْوُونَ النَّاسَ وَيَسْتَخِفُّونَهُمْ وَيَسْتَعْبِدُونَهُمْ فَيُطِيعُونَهُمْ وَيَذِلُّونَ لَهُمْ ذُلَّ الْعَبْدِ لِسَيِّدِهِ ، وَالْحِمَارِ لِرَاكِبِهِ ، وَالْحَيَوَانِ لِمَالِكِهِ ، وَلَمْ يَسْتَفِيدُوا شَيْئًا مِنْ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ وَرُشْدِهِ ، وَتَجْهِيلِهِ لِقَوْمِ فِرْعَوْنَ فِي اتِّبَاعِ أَمْرِهِ ، مَعَ وَصْفِهِ بِقَوْلِهِ : - وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ - 97 وَبَيَانِ أَنَّهُ كَانَ سَبَبًا لِإِتْبَاعِهِمْ لَعْنَةً فِي الدُّنْيَا وَلَعْنَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَنَّهُ سَيَقُودُهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَى النَّارِ ، كَمَا قَادَهُمْ فِي الدُّنْيَا إِلَى الْغَيِّ وَالْفَسَادِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعُونَ الْإِسْلَامَ وَلَمْ يَفْقَهُوا قَوْلَ اللهِ - تَعَالَى - لِرَسُولِهِ فِي آيَةِ مُبَايَعَةِ النِّسَاءِ - وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ - 60 : 12 وَقَوْلَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " لَا طَاعَةَ لِأَحَدٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ " إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ) .

(الْعِبْرَةُ الْعَامَّةُ فِي إِهْلَاكِ الْأُمَمِ الظَّالِمَةِ) :

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ

الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ .

هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ فِي الْعِبْرَةِ الْعَامَّةِ بِمَا فِي إِهْلَاكِ الْأُمَمِ الظَّالِمَةِ فِي الدُّنْيَا مِنْ مَوْعِظَةٍ ، وَيَتْلُوهَا الْعِبْرَةُ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ . قَالَ - تَعَالَى - : - ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى - أَيْ ذَلِكَ الَّذِي قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ بَعْضُ أَنْبَاءِ الْأُمَمِ ، أَيْ أَهَمُّ أَخْبَارِهَا ، وَأَطْوَارُ اجْتِمَاعِهَا فِي الْقُرَى وَالْمَدَائِنِ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ وَمَنْ بَعْدَهُمْ - نَقُصُّهُ عَلَيْكَ - فِي هَذَا الْقُرْآنِ أَوْ هَذِهِ السُّورَةِ لِتَتْلُوَهُ عَلَى النَّاسِ ، وَيَتْلُوَهُ الْمُؤْمِنُونَ آنًا بَعْدَ آنٍ ، لِلْإِنْذَارِ بِهِ تَبْلِيغًا عَنَّا ، فَهُوَ مَقْصُوصٌ مِنْ لَدُنَّا بِكَلَامِنَا - مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ - أَيْ مِنْ تِلْكَ الْقُرَى مَا لَهُ بَقَايَا مَائِلَةٌ وَآثَارٌ بَاقِيَةٌ كَالزَّرْعِ الْقَائِمِ فِي الْأَرْضِ ، كَقُرَى قَوْمِ صَالِحٍ ، وَمِنْهَا مَا عَفَا وَدَرَسَتْ آثَارُهُ كَالزَّرْعِ الْمَحْصُودِ الَّذِي لَمْ يَبْقَ مِنْهُ بَقِيَّةٌ فِي الْأَرْضِ كَقُرَى قَوْمِ لُوطٍ .

(94/385)

- وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ - أَيْ : وَمَا كَانَ إِهْلَاكُهُمْ بِغَيْرِ جُرْمٍ اسْتَحَقُّوا بِهِ الْهَلَاكَ ، وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِشِرْكِهِمْ وَفَسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ ، وَإِصْرَارِهِمْ حَتَّى لَمْ يَعُدْ فِيهِمْ بَقِيَّةٌ مِنْ قَبُولِ الْحَقِّ وَإِيثَارِ الْخَيْرِ عَلَى الشَّرِّ ، بِحَيْثُ لَوْ بَقُوا زَمَنًا آخَرَ لَمَا ازْدَادُوا إِلَّا ظُلْمًا وَفُجُورًا وَفَسَادًا ، كَمَا قَالَ نُوحٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : - إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا - 71 : 27 وَقَدْ بَالَغَ رُسُلُهُمْ فِي وَعْظِهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ ، فَمَا زَادَهُمْ

نُصْحُهُمْ لَهُمْ إِلَّا عِنَادًا وَإِصْرَارًا ، وَأَنْذَرُوهُمُ الْعَذَابَ فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ اسْتِكْبَارًا ، وَاتَّكَلُوا عَلَى دَفْعِ آلِهَتِهِمُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ إِنْ هُوَ نَزَلَ بِهِمْ - فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ - أَيْ : فَمَا نَفَعَتْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي كَانُوا يَدْعُونَهَا ، وَيَطْلُبُونَ مِنْهَا أَنْ تَدْفَعَ عَنْهُمُ الضُّرَّ بِنَفْسِهَا أَوْ بِشَفَاعَتِهَا عِنْدَ اللهِ -

تَعَالَى - لَمَّا جَاءَ عَذَابُ رَبِّكَ تَصْدِيقًا لِنُذُرِ رُسُلِهِ - وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ - أَيْ : هَلَاكٍ وَتَخْسِيرٍ وَتَدْمِيرٍ ، وَهُوَ مِنَ التَّبَابِ أَيِ الْخُسْرَانِ وَالْهَلَاكِ : يُقَالُ : تَبَّبَهُ

(95/385)

تَتْبِيبًا ، أَيْ : أَهْلَكَهُ ، وَتَبَّ فُلَانٌ وَتَبَّتْ يَدُهُ ، أَيْ خَسِرَ أَوْ هَلَكَ " وَتَبًّا لَهُ " فِي الدُّعَاءِ بِالْهَلَاكِ ، وَمَعْنَى زِيَادَتِهِمْ إِيَّاهُمْ تَتْبِيبًا : أَنَّهُمْ بِاتِّكَالِهِمْ عَلَيْهِمُ ازْدَادُوا كُفْرًا وَإِصْرَارًا عَلَى ظُلْمِهِمْ وَفَسَادِهِمْ ظَنًّا أَنَّهُمْ يَنْتَقِمُونَ لَهُمْ مِنَ الرُّسُلِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ لِرَسُولِهِمْ : - إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ - 11 : 54 .

- وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ - أَيْ : وَمِثْلُ ذَلِكَ الْأَخْذِ بِالْعَذَابِ وَعَلَى نَحْوِ مِنْهُ أَخْذُ رَبِّكَ لِأَهْلِ الْقُرَى فِي حَالِ تَلَبُّسِهَا بِالظُّلْمِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَكُلِّ قَوْمٍ - إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ - أَيْ وَجِيعٌ قَاسٍ لَا هَوَادَةَ فِيهِ وَلَا مَفَرَّ مِنْهُ وَلَا مَنَاصَ ، فَالْجُمْلَةُ بَيَانٌ لِلتَّشْبِيهِ

فِيمَا قَبْلَهَا .

أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَرْفُوعًا : " إِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ ، ثُمَّ قَرَأَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هَذِهِ الْآيَةَ . وَهُوَ تَصْرِيحٌ بِعُمُومِهَا ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ قَلَّمَا يَعْتَبِرُونَ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانُوا مَعَ ظُلْمِهِمْ مَغْرُورِينَ بِدِينٍ يَتَحَلَّوْنَ بِلَقَبِهِ ، وَلَا يَحْسُبُونَ حِسَابًا لِإِمْلَاءِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَاسْتِدْرَاجِهِ .

(الْعِبْرَةُ الْعَامَّةُ فِي هَذِهِ الْقِصَصِ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ) :

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي

الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ

مَنْقُوص .

هَذِهِ الْبِضْعُ الْآيَاتِ فِي الْعِبْرَةِ بِجَزَاءِ الْآخِرَةِ لِلْأَشْقِيَاءِ وَالسُّعَدَاءِ .

(97/385)

- إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ - أَيْ : فِي ذَلِكَ الَّذِي قَصَّهُ اللهُ مِنْ إِهْلَاكِ أُولَئِكَ الْأَقْوَامِ ، وَمَا قَفَّى عَلَيْهِ مِنْ بَيَانِ سُنَّتِهِ فِي الظَّالِمِينَ ، لَحُجَّةً بَيِّنَةً وَعِبْرَةً ظَاهِرَةً ، عَلَى أَنَّ مَا يَجْرِي فِي خَلْقِهِ مِنْ نِظَامِ سُنَنِهِ هُوَ بِمَشِيئَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ آيَةٌ وَعِبْرَةٌ لِمَنْ يَخَافُ عَذَابَ الْآخِرَةِ ، يَعْتَبِرُ بِهَا فَيَتَّقِي الظُّلْمَ فِي الدُّنْيَا بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهِ ، لِإِيمَانِهِ بِأَنَّ مَنْ عَذَّبَ الْأُمَمَ الظَّالِمَةَ فِي الدُّنْيَا قَادِرٌ عَلَى تَعْذِيبِهِمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَلَا يَغْتَرُّ بِعَدَمِ وُقُوعِ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا كَأُولَئِكَ الْأَقْوَامِ كَمَا كَانُوا مَغْرُورِينَ ، فَإِنْ كَانَ الْعَذَابُ الْعَامُّ إِنَّمَا نَزَلَ بِمَنْ أَجْمَعَ مِنْهُمْ عَلَى الشِّرْكِ وَالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ . فَتِلْكَ سُنَّتُهُ - تَعَالَى - فِي الْأَقْوَامِ دُونَ الْأَفْرَادِ ، وَقَدْ عُلِمَ مِنْهَا أَنَّ اللهَ - تَعَالَى - لَا يُهْلِكُ الْأُمَّةَ فِي جُمْلَتِهَا مَا دَامَ فِيهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالتَّقْوَى ، إِذْ كَانَ يُخْرِجُ رُسُلَهُ وَأَتْبَاعَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ قَبْلَ هَلَاكِهِمْ ، وَأَمَّا الْأَفْرَادُ فَتَعْذِيبُهُمْ فِي الدُّنْيَا بِظُلْمِهِمْ كَثِيرٌ وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مُطَّرِدٍ ، وَقَدْ تَكُونُ نَجَاتُهُمْ فِيهَا بِصَلَاحِ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا كَمَا بَيَّنَّاهُ مِرَارًا ، وَلِذَلِكَ أَفْرَدَ الْخَائِفَ هُنَا .

(98/385)

قَالَ الْقَاضِي الْبَيْضَاوِيُّ فِي تَخْصِيصِ الْآيَةِ بِالْخَائِفِ: يَعْتَبِرُ بِهَا لِعِلْمِهِ أَنَّ مَا حَاقَ بِهِمْ أُنْمُوذَجٌ مِمَّا أَعَدَّ اللهُ لِلْمُجْرِمِينَ فِي الْآخِرَةِ - أَوْ يَنْزَجِرُ لَهُ عَنْ مُوجِبَاتِهِ لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُ مِنْ إِلَهٍ مُخْتَارٍ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ، فَإِنَّ مَنْ أَنْكَرَ الْآخِرَةَ وَأَحَالَ فَنَاءَ هَذَا الْعَالَمِ لَمْ يَقُلْ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ، وَجَعَلَ تِلْكَ الْوَقَائِعَ لِأَسْبَابٍ فَلَكِيَّةٍ اتَّفَقَتْ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ لَا لِذُنُوبِ الْمُهْلَكِينَ بِهَا. اهـ.

أَقُولُ: ذَكَرْتُ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْعِبْرَةِ بِهَلَاكِ قَوْمِ نُوحٍ بِالطُّوفَانِ، أَنَّ كُفَّارَ الْمَادِّيِّينَ وَمَلَاحِدَةَ الْمِلِّيِّينَ فِي هَذَا الزَّمَانِ يَقُولُونَ مِثْلَ هَذَا الَّذِي حَكَاهُ الْبَيْضَاوِيُّ

(99/385)

عَنْ مُنْكِرِي الْآخِرَةِ فِي عَصْرِهِ، يَقُولُونَ: إِنَّ الطُّوفَانَ حَدَثَ بِسَبَبٍ طَبِيعِيٍّ لَا بِإِرَادَةِ اللهِ وَاخْتِيَارِهِ لِتَرْبِيَةِ الْأُمَمِ، وَإِنَّهُمْ هَكَذَا يَقُولُونَ فِيمَنْ هَلَكُوا بِالرِّيحِ وَبِالصَّاعِقَةِ وَبِخَسْفِ الْأَرْضِ، وَقُلْتُ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ: إِنَّ حُدُوثَ الْمَصَائِبِ بِالْأَسْبَابِ الْمُوَافِقَةِ لِسُنَنِ اللهِ فِي

نِظَامِ الْعَالَمِ هُوَ الْمُرَادُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ فِي الْقُرْآنِ ، وَلَكِنَّ اللهَ - تَعَالَى - أَحْدَثَ الْأَسْبَابَ فِي تِلْكَ الْأَوْقَاتِ بِحِكْمَتِهِ لِأَجْلِ عِقَابِ تِلْكَ الْأُمَمِ بِهَا ، وَلَمْ تَكُنْ بِالْمُصَادَفَةِ وَالِاتِّفَاقِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ إِنْذَارُ الرُّسُلِ لِأَقْوَامِهِمْ إِيَّاهَا قَبْلَ وُقُوعِهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ مَوْعِدَهَا بِالتَّعْيِينِ وَالتَّحْدِيدِ ، وَهَكَذَا يَفْعَلُ اللهُ بِالظَّالِمِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ رُسُلٌ يُطْلِعُهُمْ عَلَى وَقْتِ وُقُوعِهِ لِيُنْذِرُوا النَّاسَ بِهِ اكْتِفَاءً بِإِنْذَارِ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ قَالَ فِيهِ : وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ 26 : 227 .

- ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ - أَيْ : ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ عَذَابُ الْآخِرَةِ - فَكَانَ ذِكْرُهُ دَلِيلًا عَلَيْهِ - يَوْمٌ يُجْمَعُ لَهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ ، أَيْ لِأَجْلِ مَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ الْحِسَابِ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ . وَفِي جَعْلِ جَمْعِ النَّاسِ لَهُ (بِصِيغَةِ اسْمِ الْمَفْعُولِ) صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ مُبَالَغَةٌ ، كَانَتْ

بِهَا الْجُمْلَةُ هُنَا أَبْلَغَ مِنْ جُمْلَةِ : - يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ - 64 : 9 فِي إِثْبَاتِ الْجَمْعِ ; لِأَنَّ تِلْكَ سِيقَتْ لِأَجْلِ إِثْبَاتِ مَا يَقَعُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ التَّغَابُنِ ، أَيْ غَبْنُ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِتَفَاوُتِ أَعْمَالِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَجَزَاؤُهُمْ عَلَيْهَا ، وَهَذِهِ لِأَجْلِ إِثْبَاتِ الْجَمْعِ لَهُ فِي ذَاتِهِ لِتَصْوِيرِ هَوْلِهِ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ : - وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ - يَشْهَدُهُ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ مِنَ الْإِنْسِ

وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَغَيْرِهَا ، وَقَدْ صَارَ هَذَا التَّعْبِيرُ الْوَجِيزُ الْبَلِيغُ مَثَلًا تُوصَفُ بِهِ الْمَجَامِعُ الْحَافِلَةُ بِكَثْرَةِ النَّاسِ ، أَوِ الْأَوْقَاتُ الَّتِي يَكْثُرُ مَنْ يَشْهَدُهَا مِنْهُمْ .

- وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ - أَيْ : وَمَا نُؤَخِّرُ ذَلِكَ الْيَوْمَ إِلَّا لِانْتِهَاءِ مُدَّةٍ مَعْدُودَةٍ فِي عِلْمِنَا لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ عَنْ تَقْدِيرِنَا لَهَا بِحِكْمَتِنَا ، وَهُوَ انْقِضَاءُ عُمْرِ هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَكُلُّ مَا هُوَ مَعْدُودٌ مَحْدُودُ النِّهَايَةِ فَهُوَ قَرِيبٌ ، وَقَدْ ثَبَتَ بِنُصُوصِ الْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - لَمْ يُطْلِعْ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ عَلَى وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 125. 130 ﴾

(101/385)

وقال ابن عاشور :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾

استئناف للتنويه بشأن الأنباء التي مرّ ذكرُها .

واسم الإشارة إلى المذكور كلّه من القصص من قصة نوح عليه السلام وما بعدها .

والأنباء : جمع نبأ ، وهو الخبر ، وتقدّم في سورة الأنعام (34) في قوله : ﴿ ولقد جاءك من نبأى المرسلين .

وجملة نقصّه عليك ﴾ حال من اسم الإشارة .

وعبّر بالمضارع مع أن القصص مضى لاستحضار حالة هذا القصص البليغ .

وجملة ﴿ منها قائم وحصيد ﴾ معترضة .

حال من ﴿ القرى ﴾ .

و﴿ قائم ﴾ صفة لموصوف محذوف دلّ عليه عطف ﴿ وحصيد ﴾ ، والمعنى : منها زَرع قائم وزرع حصيد ، وهذا تشبيه بليغ .

والقائم : الزرع المستقل على سُوقه .

والحصيد : الزرع المحصود ، فعيل بمعنى مفعول .

وكلاهما مشبّه به للباقي من القرى والعافي .

والمرادُ بالقائم ما كان من القرى التي قصّها الله في القرآن قُرى قائماً بعضها كآثار بلد فرعون كالأهرام وبلهوبة (وهو المعروف بأبي الهول) وهيكل الكرنك بمصر ، ومثل آثار نينوى بلد قوم يونس ، وأنطاكية قرية المرسلين الثلاثة ، وصنعاء بلد قوم تُبّع ، وقرى بائدة مثل ديار عاد ، وقرى قوم لوط ، وقرية مدين .

وليس المراد القرى المذكورة في هذه السورة خاصة .

والمقصود من هذه الجملة الأعتبار .

وضمير الغيبة في ﴿ ظلمناهم ﴾ عائد إلى ﴿ القرى ﴾ باعتبار أهلها لأنّهم المقصود .

وإنّما لم يظلمهم الله تعالى لأنّ ما أصابهم به من العذاب جزاء عن سوء أعمالهم فكانوا هم الظّالمين أنفسَهم إذ جرّوا لأنفسهم العذاب .

(102/385)

وفرع على ظلمهم أنفسَهم انتفاء إغناء آلهتهم عنهم شيئاً ، ووجه ذلك الترتب والتفريع أن ظلمهم أنفسهم مَظهره في عبادتهم الأصنام ، وهم لمّا عبدوها كانوا يعبدونها للخلاص من طوارق الحدثان ولتكون لهم شفعاء عند الله وكانوا في أمن من أن ينالهم بأس في الدنيا اعتماداً على دفع أصنامهم عنهم فلمّا جاء أمرهم بضد ذلك كان ذلك الضدّ مضاداً لتأميلهم وتقديرهم .

والغرض من هذا التفريع التعريض بتحذير المشركين من العرب من الاعتماد على نفع الأصنام ، فقد أيقن المشركون أن أولئك الأمم كانوا يعبدون الأصنام كيف وهؤلاء اقتبسوا عبادة الأصنام من الأمم السّابقين وأيقنوا أنهم قد حَلّ بهم من الاستئصال ما شاهدوا آثاره ، فذلك موعظة لهم لو كانوا مهتدين .

وجملة ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ عِلاوة وارتقاء على عدم نفعهم عند الحاجة بأنّهم لم يكن شأنهم عدم الإغناء عنهم فحسبُ ولكنهم زادتهم تتبيباً وخسراناً ، أي زادتهم

أسبابَ الخسران .

والتتبيب : مصدر تبّبه إذا أوقعه في التبَاب وهو الخسارة .

وظاهر هذا أن أصنامهم زادتهم تتبيباً لمّا جاء أمر الله ، لأنّه عطف على الفعل المقيّد بـ ﴿ لمّا ﴾ التوقيتية المفيدة أنّ ذلك كان في وقت مجيء أمر الله وهو حلول العذاب بهم .

ووجه زيادتهم إياهم تتبيباً حينئذٍ أنّ تصميمهم على الطمع في إنقاذهم إيّاهم من المصائب حالت دونهم ودون التوبة عند سماع الوعيد بالعذاب .

ويجوز أن يكون العطف لمجرّد المشاركة في الصفة دون قيدها ، أي زادوهم تتبيباً قبل مجيء أمر الله بأنْ زادهم اعتقادهم فيها انصرافاً عن النظر في آيات الرّسل وزادهم تأميلهم الأصنام ، وقد كانت خرافات الأصنام ومناقبها الباطلة مغرية لهم بارتكاب الفواحش والضلال وانحطاط الأخلاق وفساد التّفكير جرأة على رسل الله حتى حقّ عليهم غضب الله المستوجب حلول عذابه بهم .

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾

الإشارة إلى المذكور من استئصال تلك القرى .

وهو ما يدل عليه قوله : ﴿ أخذ ربك ﴾ .

والتقدير : وكذلك الأخذ الذي أخذنا به تلك القرى أخذ ربك إذا أخذ القرى .

والتشبيه في الكيفيّة والعاقبة .

والمقصود من هذا التّذييل تعريض بتهديد مشركي العرب من أهل مكّة وغيرها .

والظلم : الشرك .

وجملة ﴿ إنّ أخذه أليم شديد ﴾ في موضع البيان لمضمون ﴿ وكذلك أخذ ربّك ﴾ .

وفيه إشارة إلى وجه الشّبه .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾

بيان للتعريض وتصريح بعد تلويح .

والمعنى : وكذلك أخذ ربك فاحْذروه وحذروا ما هو أشدّ منه وهو عذاب الآخرة .

والإشارة إلى الأخذ المتقدّم .

وفي هذا تخلّص إلى موعظة المسلمين والتّعريض بمدحهم بأن مثلهم من ينتفع بالآيات ويعتبر بالعبر كقوله : ﴿ وما يعقلها إلاّ العالمون ﴾ [العنكبوت : 43] .

وجُعل عذاب الدنيا آية دالة على عذاب الآخرة لأنّ القرى الظالمة توعّدها الله بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة كما في قوله تعالى : ﴿ وإنّ للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ﴾ [الطور

: 47] فلمّا عاينوا عذاب الدّنيا كان تحققه أمارة على تحقق العذاب الآخر .

وجملة ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس ﴾ معترضة للتنويه بشأن هذا اليوم حتّى أنّ المتكلّم يبتدىء كلاماً لأجل وصفه .

والإشارة بـ ﴿ ذلك ﴾ إلى الآخرة لأنّ ماصدقها يومُ القيامة ، فتذكير اسم الإشارة مراعاة لمعنى الآخرة .

واللاّم في ﴿ مجموع له ﴾ لام العلّة ، أي مجموع الناس لأجله .

ومجيء الخبر جملة اسمية في الإخبار عن اليوم يدلّ على معنى الثّبات ، أي ثابت جمع الله الناس لأجل ذلك اليوم ، فيدلّ على تمكن تعلق الجمع بالنّاس وتمكّن كون ذلك الجمع لأجل اليوم حتّى لقّب ذلك اليوم يومَ الجمع في قوله تعالى : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ﴾ [التغابن : 9] .

وعطف جملة ﴿ وذلك يوم مشهود ﴾ على جملة ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس ﴾ لزيادة التّهويل لليوم بأنّه يُشهد .

وطُوي ذكر الفاعل إذ المراد يشهده الشّاهدون ، إذ ليس القصد إلى شاهِدين معيّنين .

والإخبار عنه بهذا يُؤذن بأنّهم يشهدونه شهوداً خاصاً وهو شهود الشيء المهول ، إذ من المعلوم أن لا يقصد الإخبار عنه بمجرّد كونه مرئياً لكن المراد كونه مرئياً رؤية خاصة .

ويجوز أن يكون المشهود بمعنى المحقّق أيّ مشهود بوقوعه ، كما يقال : حقّ مشهود ، أيْ عليه شهود لا يستطاع إنكاره ، واضح للعيان .

ويجوز أن يكون المشهود بمعنى كثير الشّاهدين إياه لشهرته ، كقولهم : لفلان مجلس مشهود ، كقول أم قيس الضّبّيّة :

ومشهد قد كفيتَ الناطقين به

في محفل من نواصي الخيل مَشهود . . .

فيكون من نحو قوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كلّ أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً يومئذٍ يوَدّ الذين كفروا ﴾ [النساء : 41 ، 42] الآية .

وجملة ﴿ وما نؤخّره إلاّ لأجل معدود ﴾ معترضة بين جملة ﴿ ذلك يوم مجموع له النّاس ﴾ وبين جملة ﴿ يوم يأتي لا تكلّم نفس ﴾ [هود : 105] الخ .

والمقصود الردّ على المنكرين للبعث مستدلّين بتأخير وقوعه في حين تكذيبهم به يحسبون أنّ تكذيبهم به يغيظ الله تعالى فيعجّله لهم جهلاً منهم بمقام الإلهيّة ، فبيّن الله لهم أن تأخيره إلى أجل حدّده الله له من يوم خلَقَ العالم كما حدّد آجال الأحياء ، فيكون هذا كقوله تعالى

: ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قُلْ لكم ميعاد يومٍ لا تستأخرون عنه ساعةً ولا تستقدمون ﴾ [سبأ : 29 ، 30] .

والأجل : أصله المدة المنظَر إليها في أمر ، ويطلق أيضاً على نهاية تلك المدّة ، وهو المراد هنا بقرينة اللاّم ، كما أريد في قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء أجلهم ﴾ [الأعراف : 34] .

والمعدود : أصله المحسوب ، وأطلق هنا كناية عن المعيّن المضبوط بحيث لا يتأخر ولا يتقدم لأنّ المعدود يلزمه التعيّن ، أو كناية عن القرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(105/385)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾

وقد أهلك الحق سبحانه تلك القرى بالعذاب ؛ لأنها كذَّبت أنبياءها . والخطاب موجَّه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لتثبيت فؤاده ، والحق سبحانه إنما يبيِّن له أن الكافرين لن يكونوا بمنجىً من العذاب ؛ كما أخذ الله سبحانه الأمم السابقة الكافرة بالعذاب .

وقول الحق سبحانه :

﴿ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ [هود : 100] .

يتطلب أن نفرِّق بين المعنى الشائع عن القصة ، والمعنى الحقيقي لها ، فبعض الناس يقول : إن القرآن فيه قصص ، والقصص عادة تمتلىء بالتوسع ، وتوضع فيها أحداث خيالية من أجل الحبكة .

ولهؤلاء نقول : أنتم لم تفهموا معنى كلمة " القصة " في اللغة العربية ، لأنها تعني في لغتنا الالتزام الحرفي بما كان فيها من أحداث ، فهي مأخوذة من كلمة : " قصّ الأثر " ، ومن يقص الأثر إنما يتتبع مواقع الأقدام إلى أن يصل إلى الشيء المراد .

إذن : فقصص القرآن يتقصى الحقائق ولا يقول غيرها ، أما ما اصطُلح عليه من عرف العامة أنه قصص ، بما في تلك القصص من خيالات وعناصر مشوقة ، فهذا ما يُسمَّى لغوياً بالروايات ، ولا يُعتبر قصصاً .

وقصص الإهلاك للأمم التي كفرت إنما هو عبرة لمن لا يعتبر ، والناس تعلم أن ما رواه القرآن من قصص هو واقع تدل عليه آثار الحضارات التي اندثرت ، وبقيت منها بقايا أحجار ونقوش على المقابر .

ونحن نجد في آثار الحضارات السابقة ما هو قائم من بقايا أعمدة ونقوش ، ومنها ما هو مُحطَّم .

ولذلك يقول الحق سبحانه في موضع آخر من القرآن :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : 137138]

.

أي : أنكم تشاهدون من الآثار ما هو قائم وما هو حطيم .

ويقول الحق سبحانه عن تلك القرى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن ظلموا أَنفُسَهُمْ ﴾

(106/385)

ويبيِّن الحق سبحانه هنا أنه حين أخذ تلك الأقوام بالعذاب لم يظلمهم ؛ لأن معنى الظلم أن يكون لإنسانٍ الحق ، فتسلبه هذا الحق .

وفي واقع الأمر أن تلك الأمم التي كفرت وأخذها الله بالعذاب ، هي التي ظلمت نفسها بالشرك ، وكذَّبت تلك الأقوام الرسل الذين جاءوا وفي يد كل منهم دليل الصدق وأمارات الرسالة .

وهكذا ظلم هؤلاء الكفار أنفسهم ؛ لذلك لا بد أن نعلم أن الحق سبحانه مُنزَّه عن أن يظلم أحداً .

وهم حين أشركوا بالله تعالى آلهة أخرى ، لماذا لم تتحرك تلك الآلهة المزعومة وتتدخل لتحمي مَنْ آمنوا بها ؟ !

ويخبرنا الحق سبحانه أن الحجارة التي عبدوها تلعنهم ، وهم في النار ، وهذه الأحجار تكون وقوداً للنار .

والحق سبحانه يقول عن النار :

﴿ فاتقوا النار التي وَقُودُهَا الناس والحجارة ﴾ [البقرة : 24] .

وهؤلاء الذين عبدوا واحداً من الناس أو بعضاً من الأصنام ، إنما تجنَّوا ، بالجهل على هذا الإنسان الذي عبدوه أو تلك الأحجار التي صلَّوا لها أو قدّسوها .

والشاعر المسلم تأمل غار حراء وغار ثور وكلاهما من الأحجار فوجد أن غار حراء قد شهد نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وغار ثور حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اختفى فيه ومعه الصديق أبو بكر في أثناء الهجرة من مكة إلى المدينة ، فتخيل الشاعر أن غار ثور قد حسد غار حراء وقال :

كَمْ حَسَدْنَا حِراءً حِينَ يَرى الرُّوحَ . . . أميناً يَغزُوكَ بالأَنْوَارِ

فَحِراءٌ وثَوْرٌ صَارَا سَواءً . . . بِهِما تَشفَعْ لأمَّةِ الأَحْجَارِ

فغار حراء شهد جبريل عليه السلام وهو يهبط بالنور على محمد صلى الله عليه وسلم ، لكن غار ثور نال أيضاً الشرف لحمايته الرسول في الهجرة .

ويقول الشاعر على لسان الأحجار :

عَبَدُونا ونَحْنُ أعْبَدُ للهِ . . . مِنَ القائمينَ بالأسْحَارِ

قَدْ تَجنَّوا جَهْلاً كما قَدْ تجَنَّوا . . . على ابنِ مَرْيَمَ والحوَارِي

(107/385)

لِلمُغَالِي جزَاؤُه والمُغَالَى فيهِ . . . تُنْجيهِ رَحْمَةُ الغفَّارِ

وهكذا لا تُغني عنهم آلهتهم المعبودة شيئاً سواء أكانت بشراً أم حجارة ، لم تُغنِ عنهم شيئاً ولم ترفع عنهم العذاب الذي تلقوه عقاباً في الدنيا وسعيراً في الآخرة ، وإذا كانوا قد دعوهم من دون الله في الدنيا ، فحين جاء العذاب لم تتقدم تلك الآلهة لتحميهم من العذاب .

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود : 101] .

أي : أن تخلِّي تلك الآلهة التي أشركوها مع الله تعالى أو عبدوها من دون الله . . هذا التخلي يزيدهم ألماً وإهلاكاً نفسياً وتخسيراً ، لأن التتبيب هو القطع والهلاك .

والحق سبحانه يقول :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد : 1] .

كذلك الأخذ الذي أخذ الله به القرى التي كذَّبت أنبياءها .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ ﴾

أي : أن الأخذ الذي أخذ به الله القرى الكافرة ، إنما هو مثل حي لكل من يكفر .

والحق سبحانه يقول :

﴿ والفجر * ولَيالٍ عَشْرٍ * والشفع والوتر * والليل إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ [الفجر : 1-5] .

أي : أن الحق سبحانه يقسم لعل كل صاحب عقلٍ يستوعب ضرورة الإيمان ، ويضرب الأمثلة بالقوم الذين جاءهم الأخذ بالعذاب ، فيقول سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد * وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد * الذين طَغَوْاْ فِي البلاد * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ [الفجر : 6-14] .

فهو سبحانه قد أخذ كل هؤلاء أخذ العزيز المقتدر .

وقوله سبحانه هنا :

﴿ وكذلك ﴾ [هود : 102] .

أي : مثل الأخذ الذي أخِذَتْ به القرى التي كذَّبت رسلها ، فظلمت نفسها .

والأخذ هنا عقاب على العمل ، بدليل أنه أنجى شعيباً عليه السلام وأخذ قومه بسبب ظلمهم ، فالذات الإنسانية بريئة ، ولكن الفعل هو الذي يستحق العقاب .

ومثال ذلك : نجده في قصة نوح عليه السلام حين قال له الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود : 46] .

فالذي وضع ابن نوح في هذا الموضع هو أن عمله غير صالح ؛ لذلك فلا يقولن نوح : إنه ابني . فليس الإهلاك بعلَّة الذات والدم والقرابة ، بل الإهلاك بعلة العمل ، فأنت لا تكره شخصاً يشرب الخمر لذاته ، وإنما تكرهه لعمله ، ونحن نعلم أن البنوة للأنبياء ليست بنوة الذوات ، وإنما بنوة الأعمال .

وكذلك نجد الحق سبحانه ينبه إبراهيم عليه السلام ألا يدعو لكل ذريته ، فحين كرَّم الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام وقال :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ [البقرة : 124] .

جاء الطلب والدعاء من إبراهيم عليه السلام لله تعالى :

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [البقرة : 124] .

لأن إبراهيم عليه السلام أراد أن تمتد الإمامة إلى ذريته أيضاً ، فجاء الرد من الله سبحانه :

﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ [البقرة : 124] .

وظلت هذه القضية في بؤرة شعور إبراهيم عليه السلام ، وعلم تماماً أن البنوّة للأنبياء ليست بنوة ذوات ، بل هي بنوة أعمال .

ولذلك نجد دعاء إبراهيم عليه السلام حين نزل بأهله في وادٍ غير ذي زرع ، وقال :

﴿ رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات ﴾ [البقرة : 126] .

وهنا انتبه إبراهيم عليه السلام وأضاف :

﴿ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ [البقرة : 126] .

فجاء الرد من الحق سبحانه موضحاً خطأ القياس ؛ لأن الرزق عطاء ربوبية يستوي فيه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ؛ فلا تخلط بين عطاء الربوبية وعطاء الألوهية ؛ لأن عطاء الألوهية تكليف ، وعطاء الربوبية رزق ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النار وَبِئْسَ المصير ﴾ [البقرة : 126] .

فأنت يا إبراهيم دعوتَ برزق الأهل بالثمرات لمن آمن ، لأن بؤرة شعورك تعي الدرس ، لكن

هناك فرقاً بين عطاء الألوهية في التكليف ، وعطاء الربوبية في الرزق ، فمن كفر سيرزقه ربه ، ويمتعه قليلاً ثم يكون له حساب آخر .

إذن : فأَخْذُ الحق سبحانه للظالمين بكفرهم هو عنف التناول لمخالفٍ ، وتختلف قوة الأخذ بقوة الأخذ ، فإذا كان الآخذ هو الله سبحانه ، فهو أَخْذ عزيز مقتدر .

وهو أخذ لمن ظلموا أنفسهم بقمة الظلم وهو الكفر ، وإن كان الظلم لحقوق الآخرين فهو فسق ، وأيضاً ظلم النفس فسق ؛ لأن الحق سبحانه حين يُحرِّم عليك أن تظلم غيرك فهو قد حرَّم عليك أيضاً ظلم نفسك .

ويصف الحق سبحانه أخذه للظالمين بقوله :

﴿ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : 102] .

أي : أن أخذه موجع على قدر طلاقة قدرته سبحانه .

وهَبْ أن إنساناً أساء إلى إنسان ، فالحق سبحانه أعطى هذا الإنسان أن يرد السيئة بسيئة ، حتى لا تتراكم الانفعالات وتزداد .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ [النحل : 126] .

حتى لا تبيت انفعالاتك عندك قهراً ، ولكن من كان لديه قوة ضبط النزوع فعليه أن ينظر في قول الحق سبحانه :

﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ [آل عمران : 134] .

إذن : فإما أن ترد السيئة بعقاب مماثل لها ، وإما أن تكظم غيظك ، أي : لا تُترجم غيظك إلى عمل نزوعي ، وإما أن ترتقي إلى الدرجة الأعلى وهي أن تعفو ؛ لأن الله تعالى يحب من يحسن بالعفو .

(110/385)

ولذلك حين سألوا الحسن البصري : كيف يُحسِن الإنسان إلى من أساء إليه ؟

أجاب : إذا أساء إليك عبد ، ألاَ يُغضب ذلك ربه منه ؟ قالوا : نعم . قال : وحين يغضب الله من الذي أساء إليك ؛ ألا يقف إلى جانبك ؛ أفلا تُحسِن إلى من جعل الله يقف إلى جانبك ؟

ولهذا السبب يُروى عن أحد الصالحين أنه سمع أن شخصاً اغتابه ؛ فأهدى إليه مع خادمه طبقاً من بواكير الرطب ، وتعجب الخادم متسائلاً : لماذا تهديه الرطب وقد اغتابك ؟

قال العارف بالله : بَلّغْهُ شكري وامتناني لأنه تصدّق عليّ بحسناته عندما اغتابني ، وحسناته بلا شك أنفَسُ من هذا الرطب .

ولذلك يقال : إن الذي يعفو أذكى فهماً ممن عاقب ، لأن الذي يعاقب إنما يعاقب بقوته ؛

والذي يعفو فهو الذي يترك العقاب لقوة الله تعالى ، وهي قوة لا متناهية .

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه :

﴿ وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخذَ القرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : 102] .

أي : أخذٌ موجعٌ على قدر قوة الله سبحانه ؛ وهو أخذ شديد ؛ لأن الشدة تعني : جمع الشيء إلى الشيء بحيث يصعب انفكاكه ؛ أو أن تجمع شيئين معاً وتقبضهما بحيث يصعب تحلل أي منهما عن الآخر .

وهذه أقوى غاية القوة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخرة ﴾ من يخاف عذاب الآخرة ، فإن هذه الآيات التي تخبر عن الذي حدث للأمم السابقة ، إنما تلفته إلى ضرورة الإيمان بأن الله سبحانه يحاسب كل إنسان على الإيمان وعلى العمل .

ومن يسمع لقصص الأقوام السابقة ؛ ويعتبر بما جاء فيها ؛ وينتفع بالخبرة التي جاءت منها ؛ فهو صاحب بصيرة نافذة ؛ فكل ما حدث للأقوام السابقة آيات ملفتة .

ولذلك يقال : " إن لكل آية من مواليد ؛ هي العبر بالآيات " ومن لا يؤمن فهو لن يعتبر ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105] .

إذن : فقد شاء الحق سبحانه أن يلفتنا بالآيات لنعتبر بها ونكون من أولي الألباب ؛ فلا ندخل في دائرة من لا يخافون العذاب ؛ أولئك الذي يتلقّون العذاب خزياً في الدنيا وجحيماً في الآخرة ؛ وعذاب الآخرة لا نهاية له ؛ والفضيحة فيه أمام كل الخلق .

لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود : 103] .

أي : أن الفضيحة في هذا اليوم تكون مشهودة من كل البشر ؛ من لدن آدم إلى آخر البشر ؛ لذلك تكون فضيحة مدوية أمام من يعرفهم الإنسان ؛ وأمام من لا يعرفهم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس ﴾ [هود : 103] .

وكلمة " مجموع " تقتضي وجود " جامع " ؛ و " المجموع " يتناسب مع قدرة " الجامع " ؛ فما بالنا والجامع هو الحق الخالق لكل الخلق سبحانه وتعالى .

ولا يجتمع الخلق يومها عن غفلة ؛ بل يجتمعون وكلهم انتباه ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ [إبراهيم : 42] .

ويقول الحق سبحانه أيضاً :

﴿ واقترب الوعد الحق فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الذين كَفَرُواْ ﴾ [الأنبياء : 97] .

وهنا يقول سبحانه :

﴿ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود : 103] .

أي : أن الخلق سيشهدون هذا الفضح المخزي لمن لم يعتبر بالآيات .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك في ميعاد هذا اليوم . ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾

وهكذا نعلم أن تأخر مجيء يوم القيامة ؛ لا يعني أنه لن يأتي ؛ بل سوف يأتي لا محالة ولكن لكل حدث ميعاد ميلاد ، ولكم في تتابع مواليد كم ما يجعلكم تثقون بأن مواليد الأحداث إنما يحددها الله .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ ﴾ [هود : 104] .

يتطلب أن نعرف أن كلمة " الأجل " تطلق مرة على مدة عمر الكائن من لحظة ميلاده إلى لحظة نهايته .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد : 38] .

وتطلق كلمة " الأجل " مرة أخرى على لحظة النهاية وحدها ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : 34] .

ولنعرف جميعاً أن كل أجل وإن طال فهو معدود ، وكل معدود قليل مهما بدا كثيراً ؛ لذلك فَلْنقُلْ أن كل معدود قليل . ما دُمْنَا قادرين على إحصائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(113/385)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (100) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ منها قائم ﴾ يعني بها قرى عامرة ﴿ وحصيد ﴾ يعني قرى خامدة .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ﴾ قال : قال الله ذلك لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قائماً ﴾ يرى مكانه ﴿ وحصيد ﴾ لا يرى له أثر ، وقال في آية أخرى ﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾ [مريم : 98] .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج ﴿ منها قائم ﴾ خاو على عروشه ﴿ وحصيد ﴾ ملصق بالأرض .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿ منها قائم وحصيد ﴾ قال : الحصيد الذي قد خرب ودمر .

أخرج أبو الشيخ عن الفضل بن مروان رضي الله عنه في قوله ﴿ وما ظلمناهم ﴾ قال : نحن أغنى من أن نظلم .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي عاصم رضي الله عنه ﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم ﴾ قال : ما نفعت .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ يعني غير تخسير .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ قال : تخسير .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾

أي هلكة.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد رضي الله عنه ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ قال: وما زادوهم إلا شراً، وقرأ ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ [المسد: 1] وقال: التب الخسران ﴿ والتتبيب ﴾ ما زادوهم غير خسران، وقرأ ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً ﴾ [فاطر: 39].

وأخرج الطستي عن ابن عباس. أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ قال: غير تخسير. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت بشر بن أبي حازم الشاعر وهو يقول:

هم جدعوا الأنوف فارعبوها . . . وهم تركوا بني سعد تبابا

(114/385)

أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله سبحانه ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه

أليم شديد ﴾ " .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي عمران الجوني رضي الله عنه قال : لا يغرنكم طول النسيئة ولا حسن الطلب ، فإن أخذه أليم شديد .

وأخرج ابن أبي داود عن سفيان رضي الله عنه قال : في قراءة عبد الله "كذلك أخذ ربك " بغير واو .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد أنه قرأها " وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى بظلم " .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه قال : إن الله تعالى حذر هذه الأمة سطوته بقوله ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

أخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله ﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ﴾ يقول : انا سوف نفي لهم بما وعدنا في الآخرة ، كما وفينا للأنبياء أنا ننصرهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ قال : يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد . مثله .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في الآية قال : ذاك يوم القيامة يجتمع فيه الخلق كلهم ، ويشهده أهل السماء وأهل الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَآءِ القرى نَقُصُّهُ ﴾

يجوز أن يكون " نقصُّه " خبراً ، و " مِنْ أبناء " حال ، ويجوز العكس ، قيل : وثَمَّ مضافٌ محذوف ، أي : من أبناء أهل القرى ولذلك أعاد الضمير عليها في قوله " وما ظلمْناهم " .

قوله : ﴿ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ : " حصيد " مبتدأ محذوفُ الخبر ، لدلالةِ خبر الأول عليه ، أي : ومنها حصيد وهذا لضرورةِ المعنى .

وهل لهذه الجملةِ محلٌّ من الإعراب ؟ فقال الزمخشري : " لا محلَّ لها لأنها مستأنفةٌ " . وقال أبو البقاء : " إنها في محلِّ نصبٍ على الحال من مفعول " نَقُصُّه " .

ويجوز في " ذلك " أوجه ، أحدها : أنه مبتدأ وقد تقدم . والثاني : أنه منصوبٌ بفعلٍ مقدر يفسِّره " نقصُّه " فهو من باب الاشتغال ، أي : نَقُصُّ ذلك في حال كونه من أنباء القرى ، وقد تقدَّم في قوله : ﴿ ذلك مِنْ أَنبَآءِ الغيب نُوحِيهِ إِلَيكَ ﴾ [آل عمران : 44] أوجه ، وهي عائدةٌ هنا .

و " الحَصِيد " بمعنى محصود ، وجمعه : حصدى وحِصاد مثل مريض ومرضى ومِراض ، وهذا قول الأخفش ، ولكن باب فعيل وفَعْلَى أن يكونَ في العقلاء نحو : قتيل وقَتْلَى .

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ ﴾ : قال الزمخشري: "لما" منصوب ب "أَغْنَتْ" . وهو بناءً منه على أنَّ "لَمَّا" ظرفية . والظاهر أنَّ "ما" نافية، أي: لم تُغْن . ويجوز أن تكونَ استفهاميةً، و "يَدْعون" حكاية حال، أي: التي كانوا يَدْعون، و "ما زادوهم" الضميرُ المرفوع للأصنام، والمنصوبُ لعَبَدَتِها ، وعبَّر عنهم بواوِ العقلاء لأنهم نَزَّلوهم منزلَتَهم .

(116/385)

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102) ﴾

قوله تعالى: ﴿ وكذلك ﴾ : خبرٌ مقدم، و "أَخْذُ" مبتدأ مؤخر، والتقدير: ومثْلُ ذلك الأَخْذِ اللَّهِ الأمم السالفة أَخْذُ ربك . و "إذا" ظرف مُتَمَحّض، ناصبُه المصدر قبله وهو قريبٌ مِنْ حكاية الحال، والمسألةُ من باب التنازع فإنَّ الأَخْذَ يَطْلب "القرى" ، و "أَخَذَ" الفعل أيضاً يطلبها ، وتكون المسألة من إعمال الثاني للحذف من الأول .

وقرأ أبو رجاء والجحدري: "أَخَذ ربك، إذ أَخَذَ" جَعَلَهما فعلين ماضيين، و "ربُّك" فاعل . وقرأ طلحة بن مصرف كذلك، إلا أنه ب "إذا" كالعامَّة قال ابن عطية: "وهي

قراءةٌ متمكنة المعنى ، ولكن قراءة الجماعة تُعْطي الوعيد واستمراره في الزمان ، وهو الباب في وَضْع المستقبل مَوْضِعَ الماضي " .

وقوله : ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ جملةٌ حالية .

والتَّتْبيب : التَّخْسيرُ يقال : تَبَّبَ غيرُه فتبَّ هو بنفسه ، فيُستعمل لازماً ومتعدياً ، ومنه ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد : 1] . وتبَّبْتُه تتبيباً ، أي : خَسَّرْته تخسيراً .

قال لبيد :

2706 - ولقد بَلِيْتُ وكلُّ صاحب جدَّةٍ . . . لِبلىً يعودُ وذاكمُ التَّتْبيبُ

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103) ﴾

(117/385)

قوله تعالى : ﴿ ذلك يَوْمٌ ﴾ : " ذلك " إشارةٌ إلى يوم القيامة ، المدلول عليه بالسياق من قوله : " عذابَ الآخرة " . و " مجموع " صفةٌ ل " اليوم " جرَتْ على غير مَنْ هي له فلذلك رَفَعَت الظاهرَ وهو " الناس ، وهذا هو الإِعراب نحو ، مررت برجلٍ مضروبٍ غلامُه " .

وأعرب ابن عطية " الناس " مبتدأً مؤخراً و " مجموع " خبره مقدماً عليه ، وفيه ضعف ؛

إذ لو كان كذلك لقيل : مجموعون ، كما يقال : الناس قائمون ومضروبون ، ولا يقال : قائم ومضروب إلا بضعف . وعلى إعرابه يحتاج إلى حذف عائد ، إذ الجملةُ صفة لليوم ، وهو الهاء في له ، أي : الناس مجموع له ، و " مشهود " متعيِّنٌ لأن يكونَ صفة فكذلك ما قبله .

وقوله : ﴿ مَّشْهُودٌ ﴾ من بابِ الاتساعِ في الظرف / بأنْ جَعَلَه مشهوداً ، وإنما هو مشهودٌ فيه ، وهو كقوله :

2707 ويومٍ شَهِدْناه سُلَيْماً وعامِراً . . . قليلٌ سوى الطعنِ النِّهالِ نوافلُهْ

والأصل : مشهود فيه ، وشَهِدْنا فيه ، فاتُّسِع فيه بأنْ وَصَلَ الفعلُ إلى ضميره من غير واسطة ، كما يصل إلى المفعول به . قال الزمخشري : " فإن قلت : أيُّ فائدة في أن أوثر اسمُ المفعول على فِعْله ؟ قلت : لِما في اسم المفعول من دلالته على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنَّه لا بد أن يكونَ ميعاداً مضروباً لجمع الناس له ، وأنه هو الموصوفُ بذلك صفةً لازمة " .

﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (104) ﴾

والضمير في " نُؤَخِّره " يعودُ على " يوم " . وقال الحوفي : " على الجزاء " . وقرأ الأعمش : " وما يُؤَخِّره " ، أي الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 384 387 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (100) ﴾

لمن يكن في جملة مَنْ قصَّ عليه مِنَ الأنبياء عليهم السلام مَنْ أكثر منه تبجيلا، ولا فيمن ذكره من الأمم أعظم من أمته تفضيلاً، فكما تقدَّم على الأنبياء عليهم السلام تقدَّمَتْ أمتُه على الأمم، قال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: 11].

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101) ﴾

لا يجوز الظلمُ في وصفه؛ فتصرُّفُه في مُلْكه بحقِّ إلهيته - مطلقٌ؛ يحكم بحسب إرادته ومشيئته، ولا يتوجه حقٌّ عليه، فكيف يجوز الظلمُ في وصفه؟

ويقال هذا الخطاب لو كان من مخلوقٍ مع مخلوق لأشبه العذر، ولكن في صفته لا يجوز العذر إذ الخلقُ خلقُه، والمُلْكُ مُلْكُه، والحُكْمُ حُكْمُه.

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102) ﴾

إنَّ الحقَّ - سبحانه - يمهل ولكن لا يهمل، ويحكم ولكن لا يعجّل، وهو لا يُسأل عمَّا يفعل.

وقيل إذا أخذ النفوسَ بالتوفيق فلا سبيل للخذلان إليها ، وإذا أخذ القلوبَ بالتحقيق فلا طريق للحرمان عليها . قال تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج : 12] .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103) ﴾

مشهودٌ يشهدِه مَنْ حُشِرَ من جميع الخلائق في ذلك اليوم .

(119/385)

ويقال الأيام ثلاثة : يومٌ مفقود وهو أمسِ ليس بيدك منه شيء ، ويومٌ مقصود وهو غدٌ لا تدري أتدركه أم لا ، ويومٌ مشهودٌ وهو اليوم الذي أنت فيه ؛ فالمفقودُ لا يرجع ، والمقصود ربما لا تبلغ ، والمشهود وقتك وهو مُعرَّضٌ للزوال . . . فاستغله فيما ينفع .

﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (104) ﴾

الأَجَلُ لا يَتَقَدَّمُ ولا يتأخر لكل (. . . . .) ، والآجالُ على ما عَلِمها الحقُّ - سبحانه - وأرادها جارية ؛ فلا طلبُ يُقَدِّمُ أو يؤخر وقتاً إذا جاء أجلُه ، وكذلك للوصول وقت ، فلا طلب مع رجاء الوصول ، ولا طلب مع خوف الزوال ، ولقد قيل :

عيبُ السلامةِ أنَّ صاحبَها . . . متوقِّعٌ لقواصم الظَّهرِ

وفضيلةُ البلوى ترقبُ أهلِها . . . عقِبَ البلاء – مَسَرَّةَ الدهر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 157.156 ﴾

(120/385)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102) ﴾

التفسير : نقص المكيال يشمل معنيين : بأن ينقص في الإيفاء من القدر الواجب ، ويزيد في الاستيفاء على القدر الواجب فيلزم في كلا الحالين نقصان حق الغير . ثم علل النهي بقوله : ﴿ إني أراكم بخير ﴾ أي بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف ، أو بنعمة من الله حقها أن تشكر لتزداد لا أن تكفر فتزال . ﴿ وإني أخاف عليكم ﴾ عن ابن عباس أنه فسر الخوف بالعلم . وقال آخرون : إنه الظن الغالب لأنه كان يجوز ازدجارهم وانتهاءهم .

والعذاب المحيط المهلك المستأصل كأنه أحاط بهم بحيث لا ينفلت منهم أحد . وزيادة اليوم لأجل المبالغة والإِسناد المجازي باعتبار ما هو واقع فيه واشتمل عليه ذلك اليوم . قيل : هو عذاب الاستئصال في الدنيا . وقيل : عذاب الآخرة والأظهر العموم . قوله : ﴿ أوفوا المكيال ﴾ إلى قوله ﴿ أشياءهم ﴾ قد مر تفسير مثله في الأعراف . وقوله : ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ مضى تفسيره في أوائل البقرة ، بقي في الآية سؤال وهو أنه سبحانه نهى أوّلاً عن النقص ثم أمر بالإيفاء فهل فيه فائدة سوى التأكيد والتقرير ؟ والجواب بعد تسليم أن النهي عن الشيء أمر بضده ، هو أن النهي عن النقص في المبايعة وإن كان يفيد تصريحة تعييرا وتوبيخاً لكنه يوهم النهي عن أصل المبايعة ، فلدفع هذا الخيال أمر بإيفاء الكيل ، ففيه إباحة أصل المبايعة ، مع التصريح بالنعت المستحسن في العقول لزيادة الترغيب .

وفي أيضاً فائدة أخرى من قبل تقييد الإيفاء بالقسط ليعلم أن ما جاوز العدل ليس بواجب بل هو فضل ومروءة لا تقف عند حد ، وإنما الواجب شيء من الإيفاء بقدر ما يخرج عن العهدة بيقين كما أن غسل الوجه لا يحصل باليقين إلا عند غسل شيء من الرأس ﴿ بقية

الله ﴾ قيل : ثواب الله . وقيل : طاعته ورضاه كقوله : ﴿ والباقيات الصالحات خير ﴾ [الكهف : 46] وقيل : أي ما يبقى لكم من الحلال بعد التنزه عما هو حرام عليكم ﴿ خير لكم ﴾ بشرط أن تؤمنوا لأن شيئاً من الأعمال لا ينفع مع الكفر إن كنتم مصدقين لي فيما أنصح لكم . ولا ريب أن الأمانة تجر الرزق لاعتماد الناس وإقبالهم عليه فينفتح له أبواب المكاسب ، والخيانة تجر الفقر لتنفر الناس عنه وعن معاملته وصحبته . قالت المعتزلة . في إضافة البقية إلى الله دليل على أن الحرام لا يسمى رزق الله . وقرىء ﴿ تقية الله ﴾ بالتاء الفوقانية أي اتقاؤه الصارف عن المعاصي والقبائح ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ أحفظ أعمالكم لأجازيكم إنما أنا مبلغ ناصح وقد أعذر من أنذر . قوله : ﴿ أصلاتك ﴾ قيل : أي دينك وإيمانك لأن الصلاة عماد الدين فعبر عن الشيء باسم معظم أركانه . وقيل : المراد الأتباع لأنه أصل الصلاة ومنه المصلي للذي يتلو السابق والمعنى دينك أي أتباعه يأمرك بذلك . والأظهر أن المراد به الأعمال المخصوصة يروى أن شعيباً عليه السلام كان كثير الصلاة فكان قومه إذا رأوه يصلي تغمزوا وتضاحكوا فقصدوا بقولهم : ﴿ أصلاتك تأمرك ﴾ السخرية والهزء فكأن الصلاة التي يداوم عليها ليلاً ونهاراً هي من باب الجنون والوساوس . ومعنى ﴿ تأمرك أن نترك ﴾ تأمرك بتكليف أن نترك على حذف المضاف لأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره . وقوله ﴿ أو أن نفعل ﴾ معطوف على ما في ما يعبد أي تأمرك صلاتك بترك ما عبد آباؤنا وبترك أن نفعل ﴿ في أموالنا ما نشاء ﴾

روي أنه كان ينهاهم عن قطع أطراف الدراهم كما كان يأمرهم بترك التطفيف والاقتناع بالحلال القليل من

الحرام الكثير. ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ قيل: إنه مجاز والمراد نسبته إلى غاية السفاهة والغواية فعكسوا تهكماً به. وقيل: حقيقة وإنه كان معروفاً فيما بينهم بالحلم والرشد فكأنهم قالوا له: إنك المعروف بهذه السيرة فكيف تنهانا عن دين ألفناه وسيرة تعودناها. ثم أشار عليه السلام إلى ما آتاه الله من العلم والهداية والنبوة والكرامة والرزق الحلال الحاصل من غير بخس ولا تطفيف، وجواب الشرط محذوف اكتفي عنه بما ذكر في قصتي نوح وصالح، والمعنى أرأيتم إن كنت على حجة واضحة ويقين من ربي وقد آتاني بعد هذه السعادات الروحانية السعادات الدنيوية من الخيرات والمنافع الجليلة هل يسعني مع هذه الإكرامات أن أخون في وحيه ولا آمركم بترك الشرك وبفعل الطاعة والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك؟ ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ يقال: خالفني فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مول عنه.

فالمعنى لا أجعل فعلي مخالفاً لقولي فلا أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها ﴿ إن أريد إلا الإصلاح ﴾ إلا أن أصلحكم بالموعظة. والنصحية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ﴿ ما استطعت ﴾ ما للمدة ظرفاً للإصلاح أي مدة استطاعتي لإصلاحكم، أو بدل من الإصلاح أي المقدار الذي استطعته منه، أو المضاف محذوف أي إلا الإصلاح إصلاح ما استطعت، أو مفعولاً للإصلاح فقد يعمل المصدر المعرف كقوله: ضعيف النكاية أعداءه. أي إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه من فاسدكم. ثم بين أن كل ما يأتي ويذر فوقوعه بتسهيل الله وتأيده فقال: ﴿ وما توفيقي إلا بالله ﴾ والتوفيق أن توافق إرادة العبد إرادة الله ﴿ عليه توكلت ﴾ أخصه بتفويض الأمور إليه لأنه مبدأ المبادىء ﴿ وإليه أنيب ﴾ لأنه المعاد الحقيقي وفي ضمنه تهديد وفي ضمنه تهديد للكفار وحسم لأطماعهم منه. ثم أوعدهم بقوله ﴿ لا يجرمنكم شقاقي ﴾ لا يكسبنكم خلافي ﴿ إن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ﴾ من الغرق ﴿ أو قوم هود ﴾ من الريح العقيم ﴿ أو قوم صالح ﴾ من الصيحة ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ لم يقل "بعيدة" حملاً على لفظ القوم لأنه مؤنث، ولا "بعيدين" حملاً على معناه ولكنه على تقدير مضاف أي وما إهلاكهم ببعيد لأنهم أهلكوا في عهد قريب من عهدهم. أو المراد وما هم بشيء بعيد أو بزمان أو مكان بعيد. وجوزوا أن يسوّى في بعيد وقريب وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث

لورودها على زنة المصادر التي هي الصهيل والنهيق ونحوهما . ﴿ إن ربي رحيم ودود ﴾ يجوز أن يكون بمعنى " فاعل " أو " مفعول " كقوله : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ [المائدة : 54] وهذا حث لهم على الاستغفار والتوبة ، وتنبيه على أن سبق الكفر والمعصية لا ينبغي أن يمنعهم عن الإيمان والطاعة . ولما بالغ خطيب الأنبياء في التقرير والبيان ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقهُ كثيراً مما تقول ﴾ إما لقلة الرغبة أو قالوا تهكماً واستهانة كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ

(124/385)

بحديثه : ما أدري ما تقول . كأنهم جعلوا كلامه تخليطاً وهذياناً لا ينفعهم كثير منه . وقيل : لأنه كان ألثغ ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ عن الحسن : مهيناً أي لا عزة لك فيما بيننا ولا قوة فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروهاً . وفسر بعضهم الضعيف بالأعمى لأن العمى سبب الضعف ، أو لأنه لغة حمير . وزيف هذا القول أما عند من جوز العمى على الأنبياء فلأن لفظة ﴿ فينا ﴾ يأباه لأن الأعمى فيهم وفي غيرهم ، وأما عند من لا يجوزه – كبعض المعتزلة – فلأن الأعمى لا يمكنه الاحتراز من النجاسات وأنه يخل بجواز كونه حاكماً وشاهداً ، فلأن يمنع من النبوة كان أولى .

ثم ذكروا أنهم إنما لم يريدوا به المكروه ولم يوقعوا به الشر لأجل رهطه - والرهط من الثلاثة إلى العشرة وقيل إلى السبعة - والرجم شر القتل وهو الرمي بالحجارة ، أو المراد الطرد والإبعاد ومنه الشيطان الرجيم . ثم أكدوا المذكور بقولهم ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ وإنما العزيز علينا رهطك لا خوفاً من شوكتهم ولكن لأنهم من أهل ديننا ، فالكلام واقع في فاعل العز لا في الفعل وهو العز ولذلك قال في جوابهم ﴿ أرهطي أعز عليكم من الله ﴾ ولو قيل وما عززت علينا لم يصح هذا الجواب ، وإنما لم يقل أعز عليكم مني إيذاناً بأن التهاون بنبي الله كالتهاون بالله كقوله : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [النساء : 80] ﴿ واتخذتموه ﴾ أي أمر الله أو ما جئت به ﴿ وراءكم ظهرياً ﴾ منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب أي جعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر غير ملتفت إليه . ثم وصف الله تعالى بما يتضمن الوعيد في حقهم قال : ﴿ إن ربي بما تعملون محيط ﴾ . ثم زاد في الوعيد والتهديد بقوله : ﴿ اعملوا على مكانتكم ﴾ وقد مر تفسير مثله في " الأنعام " قال في الكشاف : الاستئناف يعني في ﴿ سوف تعلمون ﴾ وصل خفي تقديري وإنه أقوى من الوصل بالفاء وهو باب في أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه . ثم بالغ في التهديد بقوله : ﴿

وارتقبوا ﴾ انتظروا عاقبة الشقاق ﴿ إني معكم رقيب ﴾ راقب كالضريب بمعنى الضارب ، أو مراقب كالعشير والنديم ، أو مرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع . وباقي القصة على قياس قصة صالح وأخذ الصيحة وأخذت الصحية كلتا العبارتين فصيحة لمكان الفاصل إلا أنه لما جاء في قصة شعيب مرة الرجفة ومرة الظلة ومرة الصيحة ازداد التأنيث حسناً بخلاف قصة صالح . وإنما دعاه عليه بقوله : ﴿ كما بعدت ثمود ﴾ لما روى الكلبي عن ابن عباس قال : لم يعذب الله أمتين بعذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح . فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم ، وأما قوم شعيب فأخذتهم من

فوقهم . قوله سبحانه ﴿ بآياتنا وسلطان مبين ﴾ قال في التفسير الكبير : الآيات اسم للقدر المشترك بين العلامات المفيدة للظن وبين الدلائل التي تفيد اليقين . والسلطان اسم لما يفيد القطع وإن لم يتأكد بالحس ، والسلطان المبين مخصوص بالدليل القاطع الذي يعضده الحس . وقال في الكشف : يجوز أن يراد أن الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوته ، وأن يراد بالسلطان المبين العصا لأنها أبهرها ، وقوله : ﴿ إلى فرعون ﴾ متعلق ب ﴿ أرسلنا ﴾ ﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾ أي شأنه وطريقه أو أمره إياهم بالكفر والجحود

وتكذيب موسى ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾ أي ليس في أمره رشد إنما فيه غي وضلال ، وفيه تعريض بأن الرشد والحق في أمر موسى .

ثم إن قومه عدلوا عن اتباعه الى اتباع من ليس في أمره رشد قط ، فلا جرم كما كان فرعون قدوة لهم في الضلال فكذلك يقدمهم أي تقدمهم يوم القيامة إلى النار وهم على أثره ، ويجوز أن يراد بالرشد الإِحماد وحسن العاقبة فيكون المعنى وما أمر فرعون بحميد العاقبة . ثم فسره بأنه ﴿ يقدم قومه ﴾ أي كيف يرشد أمر من هذه عاقبته . ويقال : قدمه وقدمه بالتخفيف والتشديد بمعنى تقدمه ومنه مقدمة الجيش ومثله أقدم ومنه مقدم العين . وإنما قال ﴿ فأوردهم ﴾ بلفظ الماضي تحقيقاً للوقوع . والورد المورود الذي وردوه ، شبّه فرعون بمن يتقدم الواردة إلى الماء ، وشبه أتباعه بالواردة . ثم نعى عليهم بقوله : ﴿ وبئس الورد ﴾ الذي يردونه النار لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد والنار ضده وتذكير ﴿ بئس ﴾ لتذكير الورد وإن كان هو عبارة عن النار كقولك : نعم المنزل دارك ولو قلت : نعمت جاز نظراً إلى الدار . وفي تشبيه النار بالماء نوع تهكم بهم ﴿ وأتبعوا في هذه ﴾ حذف صفته في هذه الآية اكتفاء بما مر في قصة عاد . و ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ أي

بئس العطاء المعطى ذلك . وقيل : الرفد العون والمرفود المعان وذلك أن اللعنة في الدنيا رفدت أي أعينت وأمدت باللعنة في الآخرة ، قال قتادة : ترادفت عليهم لعنتان لعنة من الله والملائكة واللاعنين في الدنيا ولعنة في الآخرة . ﴿ ذلك ﴾ الذي ذكرنا أو ذلك النبأ بعض ﴿ أنباء القرى ﴾ المهلكة ﴿ نقصه عليك ﴾ خبر بعد خبر ، ثم على ساقه وبعضها عافي الأثر كالزرع المحصود ﴿ وما ظلمناهم ﴾ بإهلاكنا إياهم ﴿ ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ بارتكاب ما به أهلكوا . عن ابن عباس : وما نقصناهم في الدنيا من النعيم والرزق ولكن نقصوا حظ أنفسهم حيث استخفوا بحقوق الله ﴿ فما أغنت ﴾ فما قدرت أن ترد ﴿ عنهم آلهتهم التي يدعون ﴾ يعبدون وهي حكاية حال ماضية بأس الله حين جاء ﴿ وما زادوهم ﴾ يعني آلهتهم ﴿ غير تتبيب ﴾ تخسير . تب خسر وتببه غيره أوقعه في

الخسران . كانوا يعتقدون في الأصنام أنها تعين في الدنيا على تحصيل المنافع ودفع المضار وستنفعهم عند الله في الآخرة فلم تنفعهم في الدنيا حين جاءهم عذاب الله وسيورثهم ذلك الاعتقاد عذاب النار في الآخرة فهم في خسران الدارين . ثم بيّن أن عذابه غير مقصور على أولئك الأقوام ولكنه يعم كل ظالم سيوجد فقال : ﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك الأخذ

﴿ أخذ ربك ﴾ فالأخذ مبتدأ وذلك خبره وقوله ﴿ وهي ظالمة ﴾ حال من القرى باعتبار أهلها ﴿ إن أخذه أليم شديد ﴾ وجيع صعب على المأخوذ وهو تحذير من وخامة عاقبة كل ظلم على الغير أو على النفس فعلى العاقل أن يبادر إلى التوبة ولا يغتر بالإمهال. انتهى انتهى. ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 44. 48 ﴾

(129/385)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ولا تنقصوا ﴾ مكيال المحبة وميزان الطلب ، فمكيال المحبة عداوة ما سوى الله ، وميزان الطلب السير على قدمي الشريعة والطريقة ﴿ إني أراكم بخير ﴾ هو حسن الاستعداد الفطري وإني أخاف عذاب فساد الاستعداد في طلب غير الحق ﴿ بالقسط ﴾ في تعظيم أمر الله والشفقة على خلق الله .

﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ حقوق النصيحة وحسن العشرة في الله ولله ﴿ ولا تعثوا ﴾ في أرض وجودكم ﴿ مفسدين ﴾ ﴿ بقية الله ﴾ بقاؤكم ببقائه ﴿ خير لكم ﴾ مما فاتكم بإيفاء المكيال والميزان. ﴿ رزقاً حسناً ﴾ نوراً تاماً أراني به إصلاح الأمور

والاستعدادات إن ساعدني التوفيق ﴿ وما ﴾ معاملة ﴿ قوم لوط ﴾ من معاملتكم ﴿ ببعيد ﴾ لأن الكفر كله ملة واحدة. ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾ لأن فرعون النفس أمارة بالسوء. ﴿ إذا أخذ القرى ﴾ قرى الأجساد ﴿ منها قائم ﴾ قابل لتدارك ما فات. ومنها ما هو محصود بفوات الاستعداد والله تعالى أعلم بالصواب. انتهى. اهـ

﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 48 ﴾

(130/385)

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (105) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (106) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (107) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108) فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (109) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان كأنه قيل : يا ليت شعري ماذا يكون حال الناس إذا أتى ذلك الأجل وفيها الجبابرة والرؤساء وذوو العظمة والكبراء ! أجيب بقوله : ﴿ يوم يأت ﴾ أي ذلك الأجل لا يقدرون على الامتناع بل ولا على مطلق الكلام ، وحذف ابن عامر وعاصم وحمزة الياء اجتزاء عنها بالكسرة كما هو فاشٍ في لغة هذيل ، وكان ذلك إشارة إلى أن شدة هوله تمنع أهل الموقف الكلام أصلاً في مقدار ثلثية ، ثم يؤذن لهم في الكلام في الثلث الآخر بدلالة المحذوف وقرينة الاستثناء ، فإن العادة أني يكون المستثنى أقل من المستثنى منه ﴿ لا تكلم ﴾ ولو أقل كلام بدلالة حذف التاء ﴿ نفس ﴾ من جميع الخلق في ذلك اليوم الذي هو يوم الآخرة ، وهو ظرف هذا الأجل وهو يوم طويل جداً ذو ألوان وفنون وأهوال وشؤون ، تارة يؤذن فيه في الكلام ، وتارة يكون على الأفواه الختام ، وتارة يسكتهم الخوف والحسرة والآلام ، وتارة ينطقهم الجدال والخصام ﴿ إلا بإذنه ﴾ أي بإذن ربك المكرر ذكره في هذه الآيات إشارة إلى حسن التربية وإحكام التدبير .

ولما علم من هذا أنه يوم عظمة وقهر ، سبب عن تلك العظمة تقسيم الحاضرين فقال : ﴿ فمنهم ﴾ أي الخلائق الحاضرين لأمره ﴿ شقي ﴾ ثبتت له الشقاوة فيسر في الدنيا لأعمالها ﴿ وسعيد ﴾ ثبتت له السعادة فمشى على منوالها ؛ والتأخير : الإذهاب عن جهة الشيء بالإبعاد منه ، وضده التقديم ؛ والأجل : الوقت المضروب لوقوع أمر من الأمور ؛ واللام تدل على العلة والغرض والحكمة بخلاف " إلى " ؛ والشقاء : قوة أسباب البلاء .

ولما كان أكثر الخلق هالكاً مع أن المقام مقام تهديد وتهويل ، بدأ تعالى بالأشقياء ترتيباً للنشر على ترتيب اللف فقال : ﴿ فأما الذين شقوا ﴾ أي أدركهم العسر والشدة ﴿ ففي النار ﴾ أي محكوم لهم بأنهم يدخلون النار التي هي النار لو علمتم ﴿ لهم فيها زفير ﴾ أي عظيم جداً ﴿ وشهيق ﴾ من زفر - إذا أخرج نفسه بعد مدّه إياه ، وشهيق - إذ تردد البكاء في صدره - قاله في القاموس ؛ وقال ابن كثير في تفسير سورة الأنبياء : الزفير خروج أنفاسهم ، والشهيق : ولوج أنفسهم ؛ وعن ابن عباس -رضى الله عنهما - : الزفير : الصوت الشديد ، والشهيق : الصوت الضعيف ، وعن الضحاك ومقاتل : الزفير أول نهيق الحمار ، والشهيق آخره حين يفرغ من صوته إذا رده في جوفه ، وسيأتي كلام الزماني في ذلك ﴿ خالدين فيها ﴾ أي بلا انقطاع ، وعبر عنه بقوله جرياً على أساليب العرب : ﴿ ما دامت السماوات والأرض ﴾ .

ولما كان له شيء لا يقبح منه شيء وهو قادر على كل شيء ، دل على ذلك بقوله : ﴿ إلا ما شاء ﴾ أي مدة شاءها فإنه لا يحكم لهم بذلك فيها فلا يدخلونها .

ولما كان الحال في هذه السورة مقتضياً - كما تقدم - لتسلية النبي صلى الله عليه وسلم عما أخبر به سبحانه في قوله ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ﴾ - الآية ، من ضيق صدره ، ولذلك أتى بهذه القصص كما مضى بيان ذلك ، عبر باسم الرب إشارة إلى أنه يحسن إليه بكل ما يسر قلبه ويشرح صدره فقال : ﴿ ربك ﴾ وقد جرى الناس في هذا الاستثناء على ظاهره ثم أطالوا الاختلاف في تعيين المدة المستثناة ، والذي ظهر لي - والله أعلم - أنه لما تكرر الجزم بالخلود في الدارين وأن الشرك لا يغفر والإيمان موجب للجنة فكان ربما ظن أنه لا يمكن غير ذلك كما ظنه المعتزلة لا سيما إذا تؤمل القطع في مثل قوله ﴿ أن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ مع تقييد غيره بالمشيئة في قوله ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ جاء هذا الاستثناء معلماً أن الأمر فيه إلى الله تعالى كغيره من الأمور ، له أن يفعل في كلها ما يشاء وإن جزم القول فيه ، لكنه لا يقع غير ما أخبر به ، وهذا كما تقول : اسكن هذه الدار عمرك إلاّ ما شاء زيد ، وقد لا يشاء زيد شيئاً ، فكما أن التعليق بدوام السماوات والأرض غير مراد الظاهر كذلك الاستثناء لا يشاء الله قطع الخلود لأحد من الفريقين ، وسوقه هكذا أدل على القدرة وأعظم في تقليد المنة ، ثم رأيت الإمام أباً أحمد البغوي قد ذكر معنى هذا آخر ما أورده في تفسيره من الأقوال في الآية وحكي نحوه عن الفراء ، ومثله

بأن تقول : والله لأضربنك إلاّ إن أرى ، وعزيمتك أن تضربه ، وعزاه الطحاوي في بيان المشكل إلى أهل اللغة منهم الفراء .

(133/385)

ولما كان تخليد الكفار من الحكم بالقسط بين الفريقين لأنه من أكبر تنعيم المؤمنين الذين عادوهم في الله كما تقدم التنبيه عليه أول سورة يونس عليه السلام عند قوله ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ كان ربما توهم أن الاستثناء لو أُخذ على ظاهره لم يكن إخراجهم من النار حيناً ، نفى هذا التوهم بقوله : ﴿ إن ربك ﴾ أي المحسن إليك ﴿ فعال لما يريد ﴾ أي لا يجوز عليه البدء بالرجوع عما أراد ولا المنع عن مراده ولا يتعذر عليه شيء منه مع كثرة المرادات فلا اعتراض عليه ولا يلزمه لأحد شيء ، بل له أن يخلد العاصين في الجنة ويخلد الطائعين في النار ، ولكنه كما ثبت ذلك ليعتقد لكونه من صفة الكمال ثبت أنه لا يفعل ذلك سبحانه ولا يبدل القول لديه لأن ذلك من صفات الكمال أيضاً مع أن في ختم الآية بذلك ترجية لأهل النار في إخراجهم منها زيادة في عذابهم .

(134/385)

ولما تم أمر الأشقياء ، عطف عليه قسيمهم فقال : ﴿ وأما الذين سعدوا ﴾ أي فازوا بمطالبهم وتيسر أمرهم ﴿ ففي الجنة ﴾ أي التي صارت معلومة من الدين بالضرورة ﴿ خالدين فيها ﴾ دائماً أبداً ﴿ ما دامت السماوات والأرض ﴾ على ما جرت به عادة العرب في إرادة التأبيد بلا آخر بمثل هذا ﴿ إلاّ ما شآء ربك ﴾ وأدل دليل على ما قلت في الاستثناء قوله : ﴿ عطاء ﴾ هو نصب على المصدر ﴿ غير مجذوذ ﴾ أي مقطوع ولا مكسور ولا مفصول - لعطاء من الأعطية ولا مفرق ولا مستهان به : لأنهم لو انفكوا من النعيم حقيقة أو معنى ولو لحظة لكان مقطوعاً أو منقوصاً ؛ وفي الختم بذلك من الجزم بالدوام طمأنينة لأهل الجنة زيادة في نعيمهم عكس ما كان لأهل النار ؛ قال أبو الحسن الرماني : والزفير : ترديد النفس مع الصوت حتى تنتفخ الضلوع ، وأصله الشدة من المزفور الخلق ، والزفر : الحمل على الظهر ، لشدته ، والزفر : السيد لأنه يطيق حمل الشدائد ، وزفرت النار - إذا سمعت لها صوتاً في شدة توقدها ، والشهيق : صوت فظيع يخرج من الجوف بمد النفس ، وأصله الطول المفرط من قولهم : جبل شاهق أي ممتنع طولاً ؛ والخالد : الكائن في الشيء أبداً ، والدائم : الباقي أبداً ، ولهذا يوصف الله تعالى بالدائم دون الخالد .

ولما أخبره تعالى بوقوع القضاء بتمييز الناس في اليوم المشهود إلى القسمين المذكورين على الحكم المشروح مرهباً ومرغباً ، كان ذلك كافياً في الثبات على أمر الله والمضيّ لإنفاذ جميع ما أرسل به وإن شق اعتماداً على النصرة في ذلك اليوم بحضرة تلك الجموع ، فكان ذلك سبباً للنهي عن القلق في شيء من الأشياء وإن جل وقعه وتعاظم خطبه ، فقال تعالى : ﴿ فلا ﴾ ولما كان ما تضمنه هذا التقسيم أمراً عظيماً وخطباً جسيماً ، اقتضى عظيم تشوف النفس وشديد شوقها لعلم ما سبب عنه ، فاقتضى ذلك حذف النون من "كان" إيجازاً في الكلام للإسراع بالإيقاف على المراد والإبلاغ في نفي الكون على أعلى الوجوه فقال : ﴿ تك ﴾ أي في حالة من الأحوال ﴿ في مرية ﴾ والمرية : الشك مع ظهور الدلالة للتهمة - قاله الرماني ﴿ مما يعبد هؤلآء ﴾ أي لا تفعل فعل من هو في مرية بأن تضطرب من أجل ما يعبدون مواظبين على عبادتهم مجددين ذلك في كل حي فتنجع نفسك في إرادة مبادرتهم إلى امتثال الأوامر في النزوع عن ذلك بالكف عن مكاشفتهم بغائظ الإنذار والطلب لإجابة مقترحاتهم رجاء الأزدجار كما مضى في قوله تعالى ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ﴾ - الآية ، وذلك أن مادة مرى - بأيّ ترتيب كان - تدور على الاضطراب ، وقد

يلزمه الطرح والفصل : رمى يرمي رمياً ، والمرماة : ظلف الشاة لأنه يطرح ، والرمي : قطع من السحاب رقاق ؛ والريم : البراح ، ما يريم يفعل كذا : ما يزال ، والريم : الدرج للاضطراب فيها ، والقبر لنبذه في جانب من الأرض وطرح الميت فيه ، وريم فلان بالمكان : أقام به مجاوزاً لغيره منفصلاً عنه كأنه رمى بنفسه فيه ، وريمت السحابة - إذا دامت فلم تقلع ، لأن من شأنها رمي القطر ، ومرى الضرع : مسحه للحلب ، والريح تمري السحاب ، والمري : المعدة لقذفها ما فيها ، والمرية : الشك ، أي تزلزل الاعتقاد ، والميرة : جلب الطعام ؛ ثم استأنف تعالى خبراً هو بمنزلة العلة لذلك فقال : ﴿ ما يعبدون ﴾ أي

يوقعون العبادة على وجه الاستمرار ﴿ إلاّ كما يعبد آباؤهم ﴾ ولما كانت عبادتهم في قليل من الزمن الماضي أدخل الجار فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي أنهم لم يفعلوا ذلك لشبهة إذا كشف عنها القناع رجعوا ، بل لمحض تقليد الآباء مع استحضارهم لتلبسهم بالعبادة كأنهم حاضرون لديهم يشاهدونهم مع العمى عن النظر في الدلائل والحجج كما كان من قصصنا عليك أخبارهم من الأمم في تقليد الآباء سواء بسواء مع عظيم شكيمتهم وشدة عصبتهم للأجانب فكيف بالأقارب فكيف بالآباء ! فأقم عليهم الحجة بإبلاغ جميع ما نأمرك به كما

فعل من قصصنا عليك أنباءهم من إخوانك من الرسل غير مخطر في البال شيئاً مما قد يترتب عليه إلى أن ينفذ ما نريد من أوامرنا كما سبق في العلم فلا تستعجل فإنا ندبر الأمر في سفول شأنهم وعلو شأنك كما نريد ﴿ وإنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ لموفوهم نصيبهم ﴾ من الخير والشر من الآجال وغيرها وما هو ثابت ثباتاً لا يفارق أصلاً ؛ ولما كانت التوفية قد تطلق على مجرد الإعطاء وقد يكون ذلك على التقريب ، نفى هذا الاحتمال بقوله :

﴿ غير منقوص ﴾ والنصيب : القسم المجعول لصاحبه كالحظ ؛ والمنقوص : المقدار المأخوذ جزء منه ؛ والنقص : أخذ جزء من المقدار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 579.582 ﴾

(137/385)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ وما يؤخره ﴾ بالياء : يعقوب والمفضل . الباقون بالنون ﴿ يوم يأتي ﴾ بإثبات الياء في الحالين : ابن كثير وسهل ويعقوب وافق أبو جعفر ونافع وأبو عمرو وعلي في الوصل . الآخرون بحذف الياء ﴿ لا تكلم ﴾ بتشديد التاء : البزي وابن فليح ﴾

سعدوا ﴾ بضم السين : حمزة وعلي وخلف وحفص . قيل إنه على حذف الهمزة من " أسعدوا " لأن ﴿ سعدوا ﴾ لازم ولكنه قد جاء المسعود ، الآخرون بفتحها ﴿ وإن كلاً ﴾ بالتخفيف : ابن كثير ونافع وأبو بكر وحماد . الباقون بالتشديد . ﴿ لما ﴾ مشدداً : ابن عامر وعاصم ويزيد وحمزة وكذلك في " الطارق " . الباقون بالتخفيف ﴿ وزلفاً ﴾ بضمتين : يزيد . الآخرون بفتح اللام ﴿ فؤادك ﴾ وبابه بغير همز : الأصبهاني عن ورش وحمزة في الوقف ﴿ يرجع ﴾ مجهولاً : نافع وحفص والمفضل ﴿ تعملون ﴾ خطاباً وكذلك في آخر " النمل " : أبو جعفر ونافع وابن عامر ويعقوب وحفص . الباقون على الغيبة .

الوقوف : ﴿ الآخرة ﴾ ط ﴿ مشهود ﴾ 5 ﴿ معدود ﴾ ط ﴿ بإذنه ﴾ ج لاختلاف الجملتين مع فاء التعقيب . ﴿ وسعيد ﴾ 5 ﴿ شهيق ﴾ 5 لا لأن ما يتلوه حال والعامل فيه ما في النار من معنى الفعل ﴿ شاء ربك ﴾ ط ﴿ يريد ﴾ 5 ﴿ شاء ربك ﴾ ط لأن التقدير يعطون عطاء ﴿ مجذوذ ﴾ 5 ﴿ هؤلاء ﴾ ط ﴿ من قبل ﴾ ط ﴿ منقوص ﴾ 5 ﴿ فاختلف فيه ﴾ ط ﴿ بينهم ﴾ ط ﴿ مريب ﴾ 5 ﴿

أعمالهم ﴾ ط ﴿ خبير ﴾ 5 ﴿ ولا تطغوا ﴾ ط ﴿ بصير ﴾ 5 ﴿ النار ﴾ لا لأن ما بعده من تمام جزاء ولا تركنوا ﴿ تنصرون ﴾ 5 ﴿ من الليل ﴾ ط ﴿ السيئات ﴾ ط ﴿ للذاكرين ﴾ 5 ﴿ المحسنين ﴾ 5 ﴿ منهم ﴾ ج لأن التقدير وقد اتبع ﴿ مجرمين ﴾ 5 ﴿ مصلحون ﴾ 5 ﴿ مختلفين ﴾ 5 لا ﴿ رحم ربك ﴾ ط ﴿ خلقهم ﴾ ط ﴿ أجميعن ﴾ 5 ﴿ فؤادك ﴾ ج إذ التقدير وقد جاءك ﴿ للمؤمنين ﴾ 5 ﴿ مكانكم ﴾ ط ﴿ عاملون ﴾ 5 لا للعطف ﴿ وانتظروا ﴾ ج أي فإنا ﴿ منتظرون ﴾ ط ﴿ وتوكل عليه ﴾ ط ﴿ تعملون ﴾ 5. انتهى انتهى. ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 49. 50 ﴾

(139/385)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ﴿ يَأْتِ ﴾ بحذف الياء والباقون بإثبات الياء .

قال صاحب "الكشاف" : وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل ، ونحوه قولهم لا أدر حكاه الخليل وسيبويه .

المسألة الثانية :

قال صاحب "الكشاف" : فاعل يأتي هو الله تعالى كقوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ ﴾ [البقرة : 210] وقوله : ﴿ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ [الأنعام : 158] ويعضده قراءة من قرأ ﴿ وَمَا يؤخره ﴾ بالياء أقول لا يعجبني هذا التأويل ، لأن قوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ ﴾ حكاه الله تعالى عن أقوام والظاهر أنهم هم اليهود ، وذلك ليس فيه حجة وكذا قوله : ﴿ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ أما ههنا فهو صريح كلام الله تعالى وإسناد فعل الإتيان إليه مشكل .

فإن قالوا : فما قولك في قوله تعالى : ﴿ وَجَاء رَبُّكَ ﴾ .

قلنا : هناك تأويلات ، وأيضاً فهو صريح ، فلا يمكن دفعه فوجب الامتناع منه بل الواجب أن يقال : المراد منه يوم يأتي الشيء المهيب الهائل المستعظم ، فحذف الله تعالى ذكره بتعيينه ليكون أقوى في التخويف .

المسألة الثالثة :

قال صاحب "الكشاف" : العامل في انتصاب الظرف هو قوله : ﴿ لاَ تَكَلَّمُ ﴾ أو إضمار

اذكر .

أما قوله : ﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ففيه حذف ، والتقدير : لا تكلم نفس فيه إلا بإذن الله تعالى .

فإن قيل : كيف الجمع بين هذه الآية وبين سائر الآيات التي توهم كونها مناقضة لهذه الآية منها قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تجادل عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل : 111] ومنها أنهم يكذبون ويحلفون بالله عليه وهو قولهم : ﴿ والله رَبّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] ومنها قوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مسؤلون ﴾ [الصافات : 24] ومنها قوله : ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ وَلاَ يؤذن لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 35] .

والجواب من وجهين : الأول : أنه حيث ورد المنع من الكلام فهو محمول على الجوابات الحقية الصحيحة .

الثاني : أن ذلك اليوم يوم طويل وله مواقف ، ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم ، وفي بعضها يكفون عن الكلام ، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون ، وفي بعضها يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم .

أما قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال صاحب "الكشاف" : الضمير في قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ لأهل الموقف ولم يذكر لأنه معلوم ولأن قوله : ﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ يدل عليه لأنه قد مر ذكر الناس في قوله : ﴿ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَاس ﴾ [هود : 103] .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ يدل ظاهره على أن أهل الموقف لا يخرجون عن هذين القسمين .

فإن قيل : أليس في الناس مجانين وأطفال وهم خارجون عن هذين القسمين ؟

قلنا : المراد من يحشر ممن أطلق للحساب وهم لا يخرجون عن هذين القسمين .

فإن قيل : قد احتج القاضي بهذه الآية على فساد ما يقال إن أهل الأعراف لا في الجنة ولا في النار فما قولكم فيه ؟

قلنا : لما سلم أن الأطفال والمجانين خارجون عن هذين القسمين لأنهم لا يحاسبون فلم لا يجوز أيضاً أن يقال : إن أصحاب الأعراف خارجون عنه لأنهم أيضاً لا يحاسبون ، لأن الله تعالى علم من حالهم أن ثوابهم يساوي عذابهم ، فلا فائدة في حسابهم .

فإن قيل : القاضي استدل بهذه الآية أيضاً على أن كل من حضر عرصة القيامة فإنه لا بد وأن يكون ثوابه زائداً أو يكون عقابه زائداً ، فأما من كان ثوابه مساوياً لعقابه فإنه وإن كان جائزاً في العقل ، إلا أن هذا النص دل على أنه غير موجود .

قلنا : الكلام فيه ما سبق من أن السعيد هو الذي يكون من أهل الثواب ، والشقي هو الذي يكون من أهل العقاب ، وتخصيص هذين القسمين بالذكر لا يدل على نفي القسم الثالث ، والدليل على ذلك : أن أكثر الآيات مشتملة على ذكر المؤمن والكافر فقط ، وليس فيه ذكر ثالث لا يكون لا مؤمناً ولا كافراً مع أن القاضي أثبته ، فإذا لم يلزم من عدم ذكر ذلك الثالث عدمه فكذلك لا يلزم من ذكر هذا الثالث عدمه .

المسألة الثالثة :

اعلم أنه تعالى حكم الآن على بعض أهل القيامة بأنه سعيدٌ ، وعلى بعضهم بأنه شقيٌ ، ومن حكم الله عليه بحكم وعلم منه ذلك الأمر امتنع كونه بخلافه ، وإلا لزم أن يصير خبر الله تعالى كذباً وعلمه جاهلاً وذلك محال فثبت أن السعيد لا ينقلب شقياً وأن الشقي لا ينقلب سعيداً ، وتقرير هذا الدليل مر في هذا الكتاب مراراً لا تحصى .

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : لما نزل قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ قلت يا رسول الله فعلى ماذا نعمل على شيء قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه ؟ فقال

: " على شيء قد فرغ منه يا عمر وجفت به الأقلام وجرت به الأقدار ، ولكن كل ميسر لما خلق له " وقالت المعتزلة : نقل عن الحسن أنه قال : فمنهم شقي بعمله وسعيد بعمله .

قلنا : الدليل القاطع لا يدفع بهذه الروايات وأيضاً فلا نزاع أنه إنما شقي بعمله وإنما سعد بعمله ولكن لما كان ذلك العمل حاصلاً بقضاء الله وقدره كان الدليل الذي ذكرناه باقياً .

واعلم أنه تعالى لما قسم أهل القيامة إلى هذين القسمين شرح حال كل واحد منهما فقال : ﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ فَفِى النار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ذكروا في الفرق بين الزفير والشهيق وجوهاً :

الوجه الأول : قال الليث : الزفير أن يملأ الرجل صدره حال كونه في الغم الشديد من النفس ولم يخرجه ، والشهيق أن يخرج ذلك النفس ، وقال الفراء : يقال للفرس إنه عظيم الزفرة أي عظيم البطن وأقول إن الإنسان إذا عظم غمه انحصر روح قلبه في داخل القلب فإذا انحصر الروح قويت الحرارة وعظمت وعند ذلك يحتاج الإنسان إلى النفس القوي لأجل أن يستدخل هواء كثيراً بارداً حتى يقوى على ترويح تلك الحرارة ، فلهذا السبب يعظم في

ذلك الوقت استدخال الهواء في داخل البدن وحينئذ يرتفع صدره وينتفخ جنباه ، ولما كانت الحرارة الغريزية والروح الحيواني محصوراً داخل القلب استولت البرودة على الأعضاء الخارجة فربما عجزت آلات النفس عن دفع ذلك الهواء الكثير المستنشق فيبقى ذلك الهواء الكثير منحصراً في الصدر ويقرب من أن يختنق الإنسان منه وحينئذ تجتهد الطبيعة في إخراج ذلك الهواء فعلى قياس قول الأطباء الزفير هو استدخال الهواء الكثير لترويح الحرارة الحاصلة في القلب بسبب انحصار الروح فيه ، والشهيق هو إخراج ذلك الهواء عند مجاهدة الطبيعة في إخراجه وكل واحدة من هاتين الحالتين تدل على كرب شديد وغم عظيم .

الوجه الثاني : في الفرق بين الزفير والشهيق .

قال بعضهم : الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار بالنهيق .

وأما الشهيق فهو بمنزلة آخر صوت الحمار .

الوجه الثالث : قال الحسن : قد ذكرنا أن الزفير عبارة عن الارتفاع .

فنقول : الزفير لهيب جهنم يرفعهم بقوته حتى إذا وصلوا إلى أعلى درجات جهنم وطمعوا في أن يخرجوا منها ضربتهم الملائكة بمقامع من حديد ويردونهم إلى الدرك الأسفل من جهنم ، وذلك قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ فارتفاعهم في النار هو الزفير وانحطاطهم مرة أخرى هو الشهيق .

الوجه الرابع : قال أبو مسلم : الزفير : ما يجتمع في الصدر من النفس عند البكاء الشديد فينقطع النفس ، والشهيق : هوا الذي يظهر عند اشتداد الكربة والحزن ، وربما تبعهما الغشية ، وربما حصل عقيبه الموت .

الوجه الخامس : قال أبو العالية : الزفير في الحلق والشهيق في الصدر .

الوجه السادس : قال قوم : الزفير الصوت الشديد ، والشهيق الصوت الضعيف .

الوجه السابع : قال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ يريد ندامة ونفساً عالية وبكاء لا ينقطع وحزناً لا يندفع .

الوجه الثامن : الزفير مشعر بالقوة ، والشهيق بالضعف على ما قررناه بحسب اللغة .

إذا عرفت هذا فنقول : لم يبعد أن يكون المراد من الزفير قوة ميلهم إلى عالم الدنيا وإلى اللذات الجسدانية ، والمراد من الشهيق ضعفهم عن الاستسعاد بعالم الروحانيات والاستكمال بالأنوار الإلهية والمعارج القدسية .

ثم قال تعالى : ﴿ خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض إلا ما شاء رَبّكَ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قال قوم إن عذاب الكفار منقطع ولها نهاية ، واحتجوا بالقرآن والمعقول .

أما القرآن فآيات منها هذه الآية والاستدلال بها من وجهين : الأول : أنه تعالى قال : ﴿ مَا دَامَتِ السموات والأرض ﴾ دل هذا النص على أن مدة عقابهم مساوية لمدة بقاء السموات والأرض ، ثم توافقنا على أن مدة بقاء السموات والأرض متناهية فلزم أن تكون مدة عقاب الكفار منقطعة .

الثاني : أن قوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ استثناء من مدة عقابهم وذلك يدل على زوال ذلك العذاب في وقت هذا الاستثناء ومما تمسكوا به أيضاً قوله تعالى في سورة عم يتساءلون :

﴿ لابثين فِيهَا أَحْقَاباً ﴾ [النبأ : 23] بين تعالى أن لبثهم في ذلك العذاب لا يكون إلا أحقاباً معدودة .

وأما العقل فوجهان : الأول : أن معصية الكافر متناهية ومقابلة الجرم المتناهي بعقاب لا نهاية له ظلم وأنه لا يجوز .

الثاني : أن ذلك العقاب ضرر خال عن النفع فيكون قبيحاً بيان خلوه عن النفع أن ذلك النفع لا يرجع إلى الله تعالى لكونه متعالياً عن النفع والضرر ولا إلى ذلك المعاقب لأنه في حقه ضرر محض ولا إلى غيره ، لأن أهل الجنة مشغولون بلذاتهم فلا فائدة لهم في الالتذاذ بالعذاب الدائم في حق غيرهم ، فثبت أن ذلك العذاب ضرر خال عن جميع جهات النفع فوجب أن لا يجوز ، وأما الجمهور الأعظم من الأمة ، فقد اتفقوا على أن عذاب الكافر دائم وعند هذا احتاجوا إلى الجواب عن التمسك بهذه الآية .

أما قوله : ﴿ خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض ﴾ فذكروا عنه جوابين : الأول : قالوا المراد سموات الآخرة وأرضها .

قالوا والدليل على أن في الآخرة سماء وأرضاً قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسموات ﴾ [إبراهيم : 48] وقوله : ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَاء ﴾ [الزمر : 74] وأيضاً لا بد لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم ، وذلك هو الأرض والسموات .

ولقائل أن يقول : التشبيه إنما يحسن ويجوز إذا كان حال المشبه به معلوماً مقرراً فيشبه به غيره تأكيداً لثبوت الحكم في المشبه ووجود السموات والأرض في الآخرة غير معلوم وبتقدير أن يكون وجوده معلوماً إلا أن بقاءها على وجه لا يفنى ألبتة غير معلوم ، فإذا كان أصل وجودهما مجهولاً لأكثر الخلق ودوامهما أيضاً مجهولاً للأكثر ، كان تشبيه عقاب الأشقياء به في الدوام كلاماً عديم الفائدة ، أقصى ما في الباب أن يقال : لما ثبت بالقرآن

وجود سموات وأرض في الآخرة وثبت دوامهما وجب الاعتراف به ، وحينئذ يحسن التشبيه ، إلا أنا نقول : لما كان الطريق في إثبات دوام سموات أهل الآخرة ودوام أرضهم هو السمع ، ثم السمع دل على دوام عقاب الكافر ، فحينئذ الدليل الذي دل على ثبوت الحكم في الأصل حاصل بعينه في الفرع ، وفي هذه الصورة أجمعوا على أن القياس ضائع والتشبيه باطل ، فكذا ههنا .

(145/385)

والوجه الثاني : في الجواب قالوا إن العرب يعبرون عن الدوام والأبد بقولهم ما دامت السموات والأرض ، ونظيره أيضاً قولهم ما اختلف الليل والنهار ، وما طما البحر ، وما أقام الجبل ، وأنه تعالى خاطب العرب على عرفهم في كلامهم فلما ذكروا هذه الأشياء بناء على اعتقادهم أنها باقية أبد الآباد ، علمنا أن هذه الألفاظ بحسب عرفهم تفيد الأبد والدوام الخالي عن الانقطاع.

ولقائل أن يقول : هل تسلمون أن قول القائل : خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ، يمنع من بقائها موجودة بعد فناء السموات ، أو تقولون إنه لا يدل على هذا المعنى ، فإن كان الأول ، فالإشكال لازم ، لأن النص لما دل على أنه يجب أن تكون مدة كونهم في النار مساوية

لمدة بقاء السموات ويمنع من حصول بقائهم في النار بعد فناء السموات ، ثم ثبت أنه لا بد من فناء السموات فعندها يلزمكم القول بانقطاع ذلك العقاب ، وأما إن قلتم هذا الكلام لا يمنع بقاء كونهم في النار بعد فناء السموات والأرض ، فلا حاجة بكم إلى هذا الجواب ألبتة ، فثبت أن هذا الجواب على كلا التقديرين ضائع .

واعلم أن الجواب الحق عندي في هذا الباب شيء آخر ، وهو أن المعهود من الآية أنه متى كانت السموات والأرض دائمتين ، كان كونهم في النار باقياً فهذا يقتضي أن كلما حصل الشرط حصل المشروط ولا يقتضي أنه إذا عدم الشرط يعدم المشروط : ألا ترى أنا نقول : إن كان هذا إنساناً فهو حيوان .

فإن قلنا : لكنه إنسان فإنه ينتج أنه حيوان ، أما إذا قلنا لكنه ليس بإنسان لم ينتج أنه ليس بحيوان ، لأنه ثبت في علم المنطق أن استثناء نقيض المقدم لا ينتج شيئاً ، فكذا ههنا إذا قلنا متى دامت السموات دام عقابهم ، فإذا قلنا لكن السموات دائمة لزم أن يكون عقابهم حاصلاً ، أما إذا قلنا لكنه ما بقيت السموات لم يلزم عدم دوام عقابهم .

فإن قالوا : فإذا كان العقاب حاصلاً سواء بقيت السموات أو لم تبق لم يبق لهذا التشبيه فائدة ؟

قلنا بل فيه أعظم الفوائد وهو أنه يدل على نفاذ ذلك العذاب دهراً دهراً ، وزماناً لا يحيط العقل بطوله وامتداده ، فأما أنه هل يحصل له آخر أم لا فذلك يستفاد من دلائل أخر ، وهذا الجواب الذي قررته جواب حق ولكنه إنما يفهمه إنسان ألف شيئاً من المعقولات .

وأما الشبهة الثانية : وهي التمسك بقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ فقد ذكروا فيه أنواعاً من الأجوبة .

الوجه الأول : في الجواب وهو الذي ذكره ابن قتيبة وابن الأنباري والفراء .

قالوا هذا استثناء استثناه الله تعالى ولا يفعله ألبتة ، كقولك : والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك مع أن عزيمتك تكون على ضربه ، فكذا ههنا وطولوا في تقرير هذا الجواب ، وفي ضرب الأمثلة فيه ، وحاصله ما ذكرناه .

ولقائل أن يقول : هذا ضعيف لأنه إذا قال : لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك ، معناه : لأضربنك إلا إذا رأيت أن الأولى ترك مضرب ، وهذا لا يدل ألبتة على أن هذه الرؤية قد حصلت أم لا بخلاف قوله : ﴿ خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ فإن معناه الحكم بخلودهم فيها إلا المدة التي شاء ربك ، فههنا اللفظ يدل على أن هذه المشيئة قد حصلت جزماً ، فكيف يحصل قياس هذا الكلام على ذلك الكلام .

الوجه الثاني : في الجواب أن يقال : إن كلمة ﴿ إِلا ﴾ ههنا وردت بمعنى : سوى .

والمعنى أنه تعالى لما قال : ﴿ خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض ﴾ فهم منه أنهم يكونون في النار في جميع مدة بقاء السموات والأرض في الدنيا ، ثم قال سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود الدائم فذكر أولاً في خلودهم ماليس عند العرب أطول منه ، ثم زاد عليه الدوام الذي لا آخر له بقوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ المعنى : إلا ما شاء ربك من الزيادة التي لا آخر لها .

(147/385)

الوجه الثالث : في الجواب وهو أن المراد من هذا الاستثناء زمان وقوفهم في الموقف فكأنه تعالى قال فأما الذين شقوا ففي النار إلا وقت وقوفهم للمحاسبة فإنهم في ذلك الوقت لا يكونون في النار ، وقال أبو بكر الأصم المراد إلا ما شاء ربك وهو حال كونهم في القبر ، أو المراد إلا ما شاء ربك حال عمرهم في الدنيا وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة ، والمعنى : خالدين فيها بمقدار مكثهم في الدنيا أو في البرزخ أو مقدار وقوفهم للحساب ثم يصيرون إلى النار .

الوجه الرابع : في الجواب قالوا : الاستثناء يرجع إلى قوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ [هود : 106] وتقريره أن نقول : قوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خالدين فِيهَا ﴾ يفيد

حصول الزفير والشهيق مع الخلود فإذا دخل الاستثناء عليه وجب أن يحصل وقت لا يحصل فيه هذا المجموع لكنه ثبت في المعقولات أنه كما ينتفي المجموع بانتفاء جميع أجزائه فكذلك ينتفي بانتفاء فرد واحد من أجزائه فإذا انتهوا آخر الأمر إلى أن يصيروا ساكنين هامدين خامدين فحينئذ لم يبق لهم زفير وشهيق فانتفى أحد أجزاء ذلك المجموع فحينئذ يصح ذلك الاستثناء من غير حاجة إلى الحكم بانقطاع كونهم في النار .

الوجه الخامس : في الجواب أن يحمل هذا الاستثناء على أن أهل العذاب لا يكونون أبداً في النار ، بل قد ينقلون إلى البرد والزمهرير وسائر أنواع العذاب وذلك يكفي في صحة هذا الاستثناء .

الوجه السادس : في الجواب قال قوم : هذا الاستثناء يفيد إخراج أهل التوحيد من النار ، لأن قوله : ﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ فَفِي النار ﴾ يفيد أن جملة الأشقياء محكوم عليهم بهذا الحكم ، ثم قوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ يوجب أن لا يبقى ذلك الحكم على ذلك المجموع .

(148/385)

ويكفي في زوال حكم الخلود عن المجموع زواله عن بعضهم ، فوجب أن لا يبقى حكم الخلود لبعض الأشقياء ، ولما ثبت أن الخلود واجب للكفار وجب أن يقال : الذين زال حكم

الخلود عنهم هم الفساق من أهل الصلاة ، وهذا كلام قوي في هذا الباب .

فإن قيل : فهذا الوجه إنما يتعين إذا فسدت سائر الوجوه التي ذكرتموها ، فما الدليل على فسادها ، وأيضاً فمثل هذا الاستثناء مذكور في جانب السعداء ، فإنه تعالى قال : ﴿ وَأَمَّا الذين سُعِدُواْ فَفِى الجنة خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض إلا مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ .

قلنا : إنا بهذا الوجه بينا أن هذه الآية لا تدل على انقطاع وعيد الكفار ، ثم إذا أردنا الاستدلال بهذه الآية على صحة قولنا في أنه تعالى يخرج الفساق من أهل الصلاة من النار .

قلنا : أما حمل كلمة "إلا" على سوى فهو عدول عن الظاهر ، وأما حمل الاستثناء على حال عمر الدنيا والبرزخ والموقف فبعيد أيضاً ، لأن الاستثناء وقع عن الخلود في النار ، ومن المعلوم أن الخلود في النار كيفية من كيفيات الحصول في النار ، فقبل الحصول في النار امتنع حصول الخلود في النار ، وإذا لم يحصل الخلود لم يحصل المستثنى منه وامتنع حصول الاستثناء .

وأما قوله الاستثناء عائد إلى الزفير والشهيق فهذا أيضاً ترك للظاهر ، فلم يبق للآية محمل صحيح إلا هذا الذي ذكرناه ، وأما قوله المراد من الاستثناء نقله من النار إلى الزمهرير .

فنقول : لو كان الأمر كذلك لوجب أن لا يحصل العذاب بالزمهرير إلا بعد انقضاء مدة السموات والأرض .

والأخبار الصحيحة دلت على أن النقل من النار إلى الزمهرير وبالعكس يحصل في كل يوم مراراً فبطل هذا الوجه، وأما قوله إن مثل هذا الاستثناء حاصل في جانب السعداء فنقول: أجمعت الأمة على أنه يمتنع أن يقال: إن أحداً يدخل الجنة ثم يخرج منها إلى النار، فلأجل هذا الإجماع افتقرنا فيه إلى حمل ذلك الاستثناء على أحد تلك التأويلات.

أما في هذه الآية لم يحصل هذا الإجماع، فوجب إجراؤها على ظاهرها فهذا تمام الكلام في هذه الآية.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا الاستثناء قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ وهذا يحسن انطباقه على هذه الآية إذا حملنا الاستثناء على إخراج الفساق من النار، كأنه تعالى يقول أظهرت القهر والقدرة ثم أظهرت المغفرة والرحمة لأني فعال لما أريد وليس لأحد عليَّ حكم ألبتة.

ثم قال: ﴿وَأَمَّا الذين سُعِدُواْ فَفِي الجنة خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى:

قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ سُعِدُواْ ﴾ بضم السين والباقون بفتحها وإنما جاز ضم السين لأنه على حذف الزيادة من أسعد ولأن سعد لا يتعدى وأسعد يتعدى وسعد وأسعد بمعنى ومنه المسعود من أسماء الرجال .

المسألة الثانية :

الاستثناء في باب السعداء يجب حمله على أحد الوجوه المذكورة فيما تقدم وههنا وجه آخر وهو أنه ربما اتفق لبعضهم أن يرفع من الجنة إلى العرش وإلى المنازل الرفيعة التي لا يعلمها إلا الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللهُ ٱلمؤمنين والمؤمنات جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلأنهار خالدين فِيهَا ومساكن طَيّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ورضوان مّنَ ٱللهِ أكبر ﴾ [التوبة : 72] وقوله : ﴿ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

جذه يجذه جذاً إذا قطعه وجذ الله دابرهم ، فقوله : ﴿ غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أي غير مقطوع ، ونظيره قوله تعالى في صفة نعيم الجنة ﴿ لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : 33] .

المسألة الثانية :

اعلم أنه تعالى لما صرح في هذه الآية أنه ليس المراد من هذا الاستثناء كون هذه الحالة منقطعة ، فلما خص هذا الموضع بهذا البيان ولم يذكر ذلك في جانب الأشقياء دل ذلك على أن المراد من ذلك الاستثناء هو الانقطاع ، فهذا تمام الكلام في هذه الآية .

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أقاصيص عبدة الأوثان ثم أتبعه بأحوال الأشقياء وأحوال السعداء شرح للرسول عليه الصلاة والسلام أحوال الكفار من قومه فقال : ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ ﴾ والمعنى : فلا تكن ، إلا أنه حذف النون لكثرة الاستعمال ، ولأن النون إذا وقع على طرف الكلام لم يبق عند التلفظ به إلا مجرد الغنة فلا جرم أسقطوه ، والمعنى : فلا تك في شك من حال ما يعبدون في أنها لا تضر ولا تنفع .

ثم قال تعالى : ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءابَاؤُهُم مّن قَبْلُ ﴾ والمراد أنهم أشبهوا آباءهم في لزوم الجهل والتقليد .

ثم قال : ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ فيحتمل أن يكون المراد إنا موفوهم نصيبهم أي ما يخصهم من العذاب .

ويحتمل أن يكون المراد أنهم وإن كفروا وأعرضوا عن الحق فإنا موفوهم نصيبهم من الرزق

والخيرات الدنيوية .

ويحتمل أيضاً أن يكون المراد إنا موفوهم نصيبهم من إزالة العذر وإزاحة العلل وإظهار الدلائل وإرسال الرسل وإنزال الكتب ، ويحتمل أيضاً أن يكون الكل مراداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 48.55 ﴾

(151/385)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾

فيه ثلاث تأويلات :

أحدها : لا تشفع إلا بإذنه .

الثاني : لا تكلم إلا بالمأذون فيه من حسن الكلام لأنهم ملجؤون إلى ترك القبيح .

الثالث : أن لهم في القيامة وقت يمنعون فيه من الكلام إلا بإذنه .

﴿ فمنهم شقيٌ وسعيد ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : محروم ومرزوق ، قاله ابن بحر .

الثاني : معذب ومكرم ، قال لبيد .

فمنهم سعيد آخذٌ بنصيبه . . . ومنهم شقي بالمعيشة قانعُ

ثم في الشقاء والسعادة قولان : أحدهما : أن الله تعالى جعل ذلك جزاء على عملهما فأسعد المطيع وأشقى العاصي ، قاله ابن بحر .

الثاني : أن الله ابتدأهما بالشقاوة والسعادة من غير جزاء . وروى عبد الله بن عمر عن أبيه أنه قال : لما نزلت ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ قلت : يا رسول الله فعلام نعمل ؟ أعلى شيء قد فرغ منه أم على ما لم يفرغ منه ؟ فقال : " بلى على شيء قد فرغ منه يا عمر ، وجرت به الأقلام ولكن كل شيء ميسور لما خلق له

" .

قوله عز وجل : ﴿ فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أن الزفير الصوت الشديد ، والشهيق الصوت الضعيف ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن الزفير في الحلق من شدة الحزن ، مأخوذ من الزفير ، والشهيق في الصدر ، قاله الربيع بن أنس .

الثالث : أن الزفير تردد النفس من شدة الحزن ، مأخوذ من الزفر وهو الحمل على الظهر الشدته ، والشهيق النفس الطويل الممتد ، مأخوذ من قولهم جبل شاهق أي طويل ، قاله ابن عيسى .

الرابع : أن الزفير أول نهيق الحمار ، والشهيق آخر نهيقه ، قال الشاعر :

حشرج في الجوف سحيلاً أو شهق . . . حتى يقال ناهق وما نهق

﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلى ما شاء ربك ﴾ فيه ثمانية تأويلات :

أحدها : خالدين فيها ما دامت سماء الدنيا وأرضها إلا ما شاء ربك من الزيادة عليها بعد فناء مدتها حكاه ابن عيسى .

الثاني : ما دامت سموات الآخرة وأرضها إلا ما شاء ربك من قدر وقوفهم في القيامة ، قاله بعض المتأخرين .

الثالث : ما دامت السموات والأرض ، أي مدة لبثهم في الدنيا ، قاله ابن قتيبة .

الرابع : خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من أهل التوحيد أن يخرجهم منها بعد إدخالهم إليها ، قاله قتادة ، فيكونون أشقياء في النار سعداء في الجنة ، حكاه الضحاك عن ابن عباس ، وروى يزيد بن أبي حبيب عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يدخل ناس جهنم حتى إذا صاروا كالحممة أخرجوا منها وأدخلوا الجنة فيقال هؤلاء الجهنميون

"الخامس : إلا ما شاء من أهل التوحيد أن لا يدخلهم إليها ، قاله أبو نضرة يرويه مأثوراً عن

النبي صلى الله عليه وسلم .

السادس : إلا ما شاء ربك من كل من دخل النار من موحد ومشرك أن يخرجه منها إذا شاء ، قاله ابن عباس .

السابع : أن الاستثناء راجع إلى قولهم ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب التي ليست بزفير ولا شهيق مما لم يسم ولم يوصف ومما قد سمّي ووصف ، ثم استأنف ﴿ ما دامت السموات والأرض ﴾ حكاه ابن الأنباري .

الثامن : أن الاستثناء واقع على معنى لو شاء ربك أن لا يخلدهم لفعل ولكن الذي يريده ويشاؤه ويحكم به تخليدُهم وفي تقدير خلودهم بمدة السموات والأرض وجهان :

أحدهما : أنها سموات الدنيا وأرضها ، ولئن كانت فانية فهي عند العرب كالباقية على الأبد فذكر ذلك على عادتهم وعرفهم كما قال زهير :

ألا لا أرى على الحوادث باقيا . . . ولا خالداً إلا الجبال الرواسيا

والوجه الثاني : أنها سموات الآخرة وأرضها لبقائها على الأبد .

قوله عز وجل : ﴿ وأمّا الذين سُعدُوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾

فيها خمسة تأويلات :

أحدها : دامت سموات الدنيا وأرضها إلا ما شاء ربك من الزيادة عليها في الخلود فيها :

الثاني : إلا ما شاء ربك من مدة يوم القيامة .

(153/385)

الثالث : إلا ما شاء ربك من مدة مكثهم في النار إلى أن يخرجوا منها ، قاله الضحاك .

الرابع : خالدين فيها يعني أهل التوحيد ، إلا ما شاء ربك يعني أهل الشرك ، وهو يشبه قول أبي نضرة .

الخامس : خالدين فيها إلا ما شاء ربك أي ما شاء من عطاء غير مجذوذ ، فتكون ﴿ إلا ﴾ هنا بمعنى الواو كقول الشاعر :

وكل أخٍ مفارقُهُ أخوه . . . لعمر أبيك إلا الفرقدان .

أي والفرقدان .

﴿ عطاءً غير مجذوذ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : غير مقطوع .

الثاني : غير ممنوع .

قوله عز وجل : ﴿ . . . وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : نصيبهم من الرزق ، قاله أبو العالية .

الثاني : نصيبهم من العذاب ، قاله ابن زيد .

الثالث : ما وعدوا به من خير أو شر ، قاله ابن عباس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(154/385)

وقال ابن عطية :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾

وقرأ الأعمش " يؤخره " بالياء ، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة " يوم يأت " بحذف الياء من ﴿ يأتي ﴾ في الوصل والوقف ، وقرأ ابن كثير بإثباتها في الوصل والوقف ، وقرأ نافع وأبو عمرو والكسائي بإثباتها في الوصل وحذفها في الوقف ، ورويت أيضاً كذلك عن ابن كثير ، والياء ثابتة في مصحف أبي بن كعب ، وسقطت في إمام عثمان ، وفي مصحف ابن مسعود "يوم يأتون" ، وقرأ بها الأعمش ، ووجه حذفها في الوقف التشبيه بالفواصل ، وإثباتها في الوجهين هو الأصل ، ووجه حذفها في الوصل التخفيف كما قالوا في لا أبال ولا أدر ،

وأنشد الطبري :

كفاك كف ما تليق درهماً . . . جوداً وأخرى تعط بالسيف الدما

وقوله : ﴿ لا تكلم نفس ﴾ يصح أن تكون جملة في موضع الحال من الضمير الذي في ﴿ يأتي ﴾ وهو العائد على قوله : ﴿ ذلك يوم ﴾ ، ولا يجوز أن يعود على قوله : ﴿ يوم يأتي ﴾ لأن اليوم المضاف إلى الفعل لا يكون فاعل ذلك الفعل ، إذ المضاف متعرف بالمضاف إليه ، والفعل متعرف بفاعله ، وليس في نفسه شيئاً مقصوداً مستقلاً دون الفاعل ، وقولهم : سيد قومه ومولى أخيه وواحد أمه - مفارق لما لا يستقل ، فلذلك جازت الإضافة فيها ، ويكون قوله - على هذا - ﴿ يوم يأتي ﴾ في موضع الرفع بالابتداء وخبره : ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ وفي الكلام - على هذا - عائد محذوف تقديره : لا تكلم نفس فيه إلا ، ويصح أن يكون قوله : ﴿ لا تكلم نفس ﴾ صفة لقوله : ﴿ يوم يأتي ﴾ ، والخبر قوله : ﴿ فمنهم ﴾ ، ويصح أن يكون قوله : ﴿ لا تكلم نفس ﴾ ، خبراً عن قوله : ﴿ يوم يأتي ﴾ . وقوله ﴿ ذلك يوم ﴾ يراد به اليوم الذي قبله ليلته ، وقوله ﴿ يوم يأتي ﴾ يراد به الحين والوقت لا النهار بعينه ، فهو كما قال عثمان : إني رأيت ألا أتزوج يومي هذا ، وكما قال الصديق رضي الله عنه : فإن الأمانة اليوم في الناس قليل .

ومعنى قوله : ﴿ لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ وصف المهابة يوم القيامة وذهول العقل وهول القيامة ، وما ورد في القرآن من ذكر كلام أهل الموقف في التلاوم والتساؤل والتجادل ، فإما أن يكون بإذن وإما أن تكون هذه هنا مختصة في تكلم شفاعة أو إقامة حجة ، وقوله ﴿ فمنهم ﴾ عائد على جميع الذي تضمنه قوله : ﴿ نفس ﴾ إذ هو اسم جنس يراد به الجمع .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾

قوله : ﴿ الذين شقوا ﴾ على بعض التأويلات في الاستثناء الذي في آخر الآية يراد به كل من يعذب من كافر وعاص - وعلى بعضها - كل من يخلد ، وذلك لا يكون إلا في الكفرة خاصة .

وال ﴿ زفير ﴾ : صوت شديد خاص بالمحزون أو الوجع أو المعذب ونحوه ، وال ﴿ شهيق ﴾ كذلك . كما يفعل الباكي الذي يصيح خلال بكائه ، وقال ابن عباس : " الزفير " : صوت حاد . و" الشهيق " صوت ثقيل ، وقال أبو العالية " الزفير " من الصدر و" الشهيق " من الحلق وقيل : بالعكس . وقال قتادة " الزفير " : أول صوت الحمار . و" الشهيق " : آخره . فصياح أهل النار كذلك . وقيل " الزفير " : مأخوذ من الزفر وهو الشدة ، و" الشهيق " : من قولهم : جبل شاهق أي عال . فهما - على هذا المعنى - واحد أو متقارب ، والظاهر ما قال أبو العالية : فإن الزفرة هي التي يعظم معها الصدر والجوف

والشهقة هي الوقعة الأخيرة من الصوت المندفع معها النفس أحياناً ، فقد يشهق المحتضر ويشهق المغشي عليه .

وأما قوله ﴿ ما دامت السماوات والأرض ﴾ فقيل معناه أن الله تعالى يبدل السماوات والأرض يوم القيامة ، ويجعل الأرض مكاناً لجهنم والسماء مكاناً للجنة ، ويتأبد ذلك ، فقرنت الآية خلود هؤلاء ببقاء هذه ؛ ويروى عن ابن عباس أنه قال : إن الله خلق السماوات والأرض من نور العرش ثم يردهما إلى هنالك في الآخرة ، فلهما ثم بقاء دائم ، وقيل معنى قوله ﴿ ما دامت السماوات والأرض ﴾ العبارة عن التأبيد بما تعهده العرب ، وذلك أن من فصيح كلامها إذا أرادت أن تخبر عن تأبيد شيء أن تقول : لا أفعل كذا وكذا مدى الدهر ، وما ناح الحمام و﴿ ما دامت السماوات والأرض ﴾ ، ونحو هذا مما يريدون به طولاً من غير نهاية ، فأفهمهم الله تعالى تخليد الكفرة بذلك وإن كان قد أخبر بزوال السماوات والأرض .

وأما قوله : ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ فقيل فيه : إن ذلك على طريق الاستثناء الذي ندب الشرع إلى استعماله في كل كلام ، فهو على نحو قوله : ﴿ لتدخلن المسجد الحرام - إن شاء

الله – آمنين ﴾ [الفتح : 27] استثناء في واجب ، وهذا الاستثناء في حكم الشرط كأنه قال : إن شاء الله ، فليس يحتاج إلى أن يوصف بمتصل ولا بمنقطع ، ويؤيد هذا قوله : ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ وقيل : هو استثناء من طول المدة ، وذلك على ما روي من أن جهنم تخرب ويعدم أهلها وتغلق أبوابها فهم – على هذا – يخلدون حتى يصير أمرهم إلى هذا .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول مختل ، والذي روي ونقل عن ابن مسعود وغيره إنما هو الدرك الأعلى المختص بعصاة المؤمنين ، وهو الذي يسمى جهنم ، وسمي الكل به تجوزاً .

(157/385)

وقيل : إنما استثنى ما يلطف الله تعالى به للعصاة من المؤمنين في إخراجهم بعد مدة من النار ، فيجيء قوله : ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ أي لقوم ما ، وهذا قول قتادة والضحاك وأبي سنان وغيرهم ، وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ فأما الذين شقوا ﴾ عاماً في الكفرة والعصاة – كما قدمنا – ويكون الاستثناء من ﴿ خالدين ﴾ ، وقيل : ﴿ إلا ﴾ بمعنى الواو ، فمعنى الآية : وما شاء الله زائداً على ذلك ، ونحو هذا قول الشاعر : [الوافر]

وكل أخ مفارقه أخوه . . . لعمر أبيك إلا الفرقدان

قال القاضي أبو محمد : وهذا البيت يصح الاستشهاد به على معتقدنا في فناء الفرقدين وغيرهما من العالم ، وأما إن كان قائله من دهرية العرب فلا حجة فيه ، إذ يرى ذلك مؤبداً فأجرى " إلا " على بابها .

وقيل ﴿ إلا ﴾ في هذه الآية بمعنى سوى ، والاستثناء منقطع ، كما تقول : لي عندك ألفا درهم إلا الألف التي كنت أسلفتك ، بمعنى سوى تلك ، فكأنه قال : ﴿ خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض ﴾ سوى ما شاء الله زائداً على ذلك ، ويؤيد هذا التأويل قوله بعد : ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ ، وهذا قول الفراء ، فإنه يقدر الاستثناء المنقطع ب " سوى " ؛ وسيبويه يقدره ب " لكن " ؛ وقيل سوى ما أعده لهم من أنواع العذاب مما لا يعرف كالزمهرير ونحوه ، وقيل استثناء من مدة السماوات : المدة التي فرطت لهم في الحياة الدنيا ؛ وقيل في البرزخ بين الدنيا والآخرة ؛ وقيل : في المسافات التي بينهم في دخول النار ، إذ دخولهم إنما هو زمراً بعد زمر ؛ وقيل : الاستثناء من قوله : ﴿ ففي النار ﴾ كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير عن ذلك ، وهذا قول رواه أبو نضرة عن جابر أو عن أبي سعيد الخدري .

ثم أخبر منبهاً على قدرة الله تعالى بقوله : ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم - في رواية أبي بكر - " سَعدوا " بفتح السين ، وهو فعل لا يتعدى ؛ وقرأ حمزة والكسائي وعاصم - في رواية حفص - " سُعدوا " بضم السين ، وهي شاذة ولا حجة في قولهم : مسعود ، لأنه مفعول من أسعد على حذف الزيادة كما يقال : محبوب ، من أحب ، ومجنون من أجنه الله ، وقد قيل في مسعود : إنما أصله الوصف للمكان ، يقال : مكان مسعود فيه ثم نقل إلى التسمية به ؛ وذكر أن الفراء حكى أن هذيلاً تقول : سعده الله بمعنى أسعده . وبضم السين قرأ ابن مسعود وطلحة بن مصرف وابن وثاب والأعمش .

والأقوال المترتبة في استثناء التي قبل هذه تترتب ها هنا إلا تأويل من قال : هو استثناء المدة التي تخرب فيها جهنم ، فإنه لا يترتب مثله في هذه الآية ، ويزيد هنا قول : أن يكون الاستثناء في المدة التي يقيمها العصاة في النار ؛ ولا يترتب أيضاً تأويل من قال في تلك : إن الاستثناء هو من قوله : ﴿ في النار ﴾ .

وقوله : ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ ، نصب على المصدر ، و" المجذوذ " : المقطوع . و" الجذ " : القطع وكذلك " الجد " وكذلك " الحز " .

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ﴾

لفظ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمعنى له ولأمته ، ولم يقع لأحد شك فيقع عنه

نهي ولكن من فصاحة القول في بيان ضلالة الكفرة إخراجه في هذه العبارة ، أي حالهم أوضح من أن يمترى فيها ، وال ﴿ مرية ﴾ : الشك ، و﴿ هؤلاء ﴾ إشارة إلى كفار العرب عبدة الأصنام ؛ ثم قال : ﴿ ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ﴾ . المعنى : أنهم مقلدون لا برهان عندهم ولا حجة ، وإنما عبادتهم تشبهاً منهم بآبائهم لا عن بصيرة ؛ وقوله : ﴿ وإنَّا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ وعيد ، ومعناه : العقوبة التي تقتضيها أعمالهم ، ويظهر من قوله : ﴿ غير منقوص ﴾ أن على الأولين كفلاً من كفر الآخرين .

(159/385)

وقرأ الجمهور " لموَفّوهم " بفتح الواو وشد الفاء ، وقرأ ابن محيصن " لموفوهم " بسكون الواو وتخفيف الفاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(160/385)

وقال القرطبى :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾

وقرئ "يَوْمَ يَأْتِ" لأن الياء تحذف إذا كان قبلها كسرة ؛ تقول : لا أدر ؛ ذكره القشيري .

قال النحاس : قرأه أهل المدينة وأبو عمرو والكسائي بإثبات الياء في الإدراج ، وحذفها في الوقف ؛ وروي أن أُبَيًّا وابن مسعود قرأا "يوم يأتِي" بالياء في الوقف والوصل .

وقرأ الأعمش وحمزة "يَوْمَ يَأْتِ" بغير ياء في الوقف والوصل ، قال أبو جعفر النحاس : الوجه في هذا ألاّ يوقف عليه ، وأن يوصل بالياء ، لأن جماعة من النحويين قالوا : لا تحذف الياء ، ولا يجزم الشيء بغير جازم ؛ فأما الوقف بغير ياء ففيه قول للكسائيّ ؛ قال : لأن الفعل السالم يوقف عليه كالمجزوم ، فحذف الياء ، كما تحذف الضمة .

وأما قراءة حمزة فقد احتج أبو عبيد لحذف الياء في الوصل والوقف بحجتين إحداهما : أنه زعم أنه رآه في الإمام الذي يقال له إنه مصحف عثمان رضي الله عنه بغير ياء .

والحجة الأخرى أنه حكى أنها لغة هُذَيل ؛ تقول : ما أدر ؛ قال النحاس : أما حجته بمصحف عثمان رضي الله عنه فشيء يردّه عليه أكثر العلماء ؛ قال مالك بن أنس رحمه الله : سألت عن مصحف عثمان رضي الله عنه فقيل لي ذَهَب ؛ وأما حجته بقولهم : "ما أدر" فلا حجة فيه ؛ لأن هذا الحذف قد حكاه النحويون القدماء ، وذكروا علته ، وأنه لا يقاس عليه .

وأنشد الفراء في حذف الياء :

كَفَّاكَ كَفٌّ ما تُلِيقُ درهما . . .

جوداً وأخرى تُعْطِ بالسيفِ الدّمَا

أي تعطي .

وقد حكى سيبويه والخليل أن العرب تقول : لا أدرِ ، فتحذف الياء وتجتزىء بالكسرة ، إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال .

قال الزجاج : والأجود في النحو إثبات الياء ؛ قال : والذي أراه اتباع المصحف وإجماع القراء ؛ لأن القراءة سنة ؛ وقد جاء مثله في كلام العرب .

﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ الأصل تتكلم ؛ حذفت إحدى التاءين تخفيفاً .

(161/385)

وفيه إضمار ؛ أي لا تتكلم فيه نفس إلا بالمأذون فيه من حسن الكلام ؛ لأنهم ملجئون إلى ترك القبيح .

وقيل : المعنى لا تكلم بحجة ولا شفاعة إلا بإذنه .

وقيل : إن لهم في الموقف وقتاً يمنعون فيه من الكلام إلا بإذنه .

وهذه الآية أكثر ما يسأل عنها أهل الإلحاد في الدِّين .

فيقول لِمَ قال : ﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ و ﴿ هذا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ

فَيَعْتَذِرُونَ ﴾

[المرسلات : 35 36] وقال في موضع من ذكر القيامة : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [الصافات : 27] .

وقال : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل : 11] .

وقال : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات : 24] .

وقال : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : 39] .

والجواب ما ذكرناه ، وأنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم ، ولوم بعضهم بعضاً ، وطرح بعضهم الذنوب على بعض ؛ فأما التكلم والنطق بحجة لهم فلا ؛ وهذا كما تقول للذي يخاطبك كثيراً ، وخطابه فارغ عن الحجة : ما تكلمت بشيء ، وما نطقت بشيء ، فسمّي من يتكلم بلا حجة فيه له غير متكلم .

وقال قوم : ذلك اليوم طويل ، وله مواطن ومواقف في بعضها يمنعون من الكلام ، وفي بعضها يطلق لهم الكلام ؛ فهذا يدلّ على أنه لا تتكلم نفس إلا بإذنه .

﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ أي من الأنفس ، أو من الناس ؛ وقد ذكرهم في قوله : ﴿ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس ﴾ .

والشقي الذي كتبت عليه الشّقاوة .

والسّعيد الذي كتبت عليه السّعادة ؛ قال لَبيد :

فمنهم سعيدٌ آخذ بنصِيبهِ . . .

ومنهم شَقيٌّ بالمعيشةِ قانع

(162/385)

وروى الترمذي " عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا نبي الله فعلامَ نعمل ؟ على شيء قد فُرِغ منه ، أو على شيء لم يُفرَغ منه ؟ فقال : "بل على شيء قد فُرِغ منه وجرت به الأقلامُ يا عُمر ولكن كل مُيسَّر لما خُلِق له " قال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عمر ؛ وقد تقدم في "الأعراف" .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الذين شَقُوا ﴾ ابتداء .

﴿ فَفِي النار ﴾ في موضع الخبر ، وكذا ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ قال أبو العالية : الزّفير من الصدر ، والشهيق من الحلق ؛ وعنه أيضاً ضد ذلك .

وقال الزجاج : الزّفير من شدة الأنين ، والشّهيق من الأنين المرتفع جداً ؛ قال : وزعم أهل اللغة من الكوفيين والبصريين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير في النّهيق ، والشّهيق بمنزلة (آخر) صوت الحمار في النّهيق .

وقال ابن عباس رضي الله عنه عكسه ؛ قال : الزفير الصوت الشديد ، والشّهيق الصوت الضعيف .

وقال الضحاك ومقاتل : الزفير مثل أول نهيق الحمار ، والشهيق مثل آخره حين فرغ من صوته ؛ قال الشاعر :

حَشْرَجَ في الجوفِ سَحِيلاً أو شَهَقْ . . .

حتى يُقالَ ناهقٌ وما نَهَقْ

وقيل : الزّفير إخراج النفَس ، وهو أن يمتلىء الجوف غمًّا فيخرج بالنفس ، والشَّهيق ردّ النفَس وقيل : الزفير ترديد النفَس من شدّة الحزن ؛ مأخوذ من الزَّفْر وهو الحَمْل على الظهر لشدّته ؛ والشهيق النفس الطويل الممتدّ ؛ مأخوذ من قولهم : جبل شاهق ؛ أي طويل .

والزفير والشهيق من أصوات المحزونين .

قوله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض ﴾ "مَا دَامَتِ" في موضع نصب على الظرف ؛ أي دوام السموات والأرض ، والتقدير : وقت ذلك .

واختلف في تأويل هذا ؛ فقالت طائفة منهم الضحاك : المعنى ما دامت سموات الجنة والنار وأرضهما والسماء كل ما علاك فأظلك ، والأرض ما استقر عليه قدمك ؛ وفي التنزيل : ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ [الزمر : 74] .

وقيل : أراد به السماء والأرض المعهودتين في الدنيا وأجرى ذلك على عادة العرب في الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده ؛ كقولهم : لا آتيك ما جَنّ ليلٌ ، أو سال سيلٌ ، وما اختلف الليل والنهار ، وما ناح الحمام ، وما دامت السموات والأرض ، ونحو هذا مما يريدون به طولاً من غير نهاية ؛ فأفهمهم الله تخليد الكفرة بذلك .

وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض .

وعن ابن عباس أن جميع الأشياء المخلوقة أصلها من نور العرش ، وأن السموات والأرض في الآخرة تردّان إلى النور الذي أخذتا منه ؛ فهما دائمتان أبداً في نور العرش .

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ في موضع نصب ؛ لأنه استثناء ليس من الأول ؛ وقد اختلف فيه على أقوال عشرة : الأولى : أنه استثناء من قوله : "فَفِي النَّارِ" كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك ؛ وهذا قول رواه أبو نَضْرة عن أبي سعيد الخُدْرِي وجابر رضي الله عنهما .

وإنما لم يقل من شاء ؛ لأن المراد العدد لا الأشخاص ؛ كقوله : ﴿ مَا طَابَ لَكُمْ ﴾ [النساء : 3] .

وعن أبي نَضْرَة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " إلا من شاء ألا يدخلهم وإن شقوا بالمعصية " الثاني : أن الاستثناء إنما هو للعصاة من المؤمنين في إخراجهم بعد مدّة من النار ؛ وعلى هذا يكون قوله : ﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ ﴾ عاماً في الكفرة والعصاة ، ويكون الاستثناء من "خَالِدِينَ" ؛ قاله قتادة والضّحاك وأبو سِنان وغيرهم .

(164/385)

وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يدخل ناس جهنم حتى إذا صاروا كالحُمَمَة أخرجوا منها ودخلوا الجنة فيقال هؤلاء الجهنميون " وقد تقدّم هذا المعنى في "النساء" وغيرها .

الثالث : أن الاستثناء من الزّفير والشّهيق ؛ أي لهم فيها زفير وشهيق إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب الذي لم يذكره ، وكذلك لأهل الجنة من النعيم ما ذكر ، وما لم يذكر .

حكاه ابن الأنباري .

الرابع : قال ابن مسعود : "خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمواتُ وَالأَرْضُ" لا يموتون فيها ، ولا يخرجون منها ﴿ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ وهو أن يأمر النار فتأكلهم وتفنيهم ، ثم يجدد خلقهم .

قلت : وهذا القول خاص بالكافر والاستثناء له في الأكل ، وتجديد الخلق .

الخامس : أن "إلا" بمعنى "سوى" كما تقول في الكلام : ما معي رجل إلاّ زيد ، ولي عليك ألفا درهم إلا الألف التي لي عليك .

قيل : فالمعنى ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء ربك من الخلود .

السادس : أنه استثناء من الإخراج ، وهو لا يريد أن يخرجهم منها .

كما تقول في الكلام : أردت أن أفعل ذلك إلا أن أشاء غيره ، وأنت مقيم على ذلك الفعل ؛ فالمعنى أنه لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم ، ولكنه قد أعلمهم أنهم خالدون فيها ، ذكر هذين القولين الزّجاج عن أهل اللغة ، قال : ولأهل المعاني قولان آخران ، فأحد القولين : "خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ" من مقدار موقفهم على رأس قبورهم ، وللمحاسبة ، وقدر مكثهم في الدنيا ، والبرزخ ، والوقوف للحساب .

والقول الآخر : وقوع الاستثناء في الزيادة على النعيم والعذاب ، وتقديره : "خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ" من زيادة النعيم لأهل النعيم ، وزيادة العذاب لأهل الجحيم .

قلت : فالاستثناء في الزيادة من الخلود على مدة كون السماء والأرض المعهودتين في الدنيا واختاره التّرمذي الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي ، أي خالدين فيها مقدار دوام السموات والأرض ، وذلك مدّة العالم ، وللسماء والأرض وقت يتغيران فيه ، وهو قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ ﴾ [إبراهيم : 48] فخلق الله سبحانه الآدميين وعاملهم ، واشترى منهم أنفسهم وأموالهم بالجنة ، وعلى ذلك بايعهم يوم الميثاق ، فمن وفّى بذلك العهد فله الجنة ، ومن ذهب برقبته يخلّد في النار بمقدار دوام السموات والأرض ؛ فإنما دامتا للمعاملة ؛ وكذلك أهل الجنة خلود في الجنة بمقدار ذلك ؛ فإذا تمت هذه المعاملة وقع الجميع في مشيئة الله ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاَّ بالحق ﴾ [الدخان : 38 39] فيخلّد أهل الدارين بمقدار دوامهما ، وهو حق الربوبية بذلك المقدار من العظمة ؛ ثم أوجب لهم الأبد في كلتا الدارين لحقّ الأحديّة ، فمن لقيه موحّداً لأحديته بقي في داره أبداً ، ومن لقيه مشركاً بأحديّته إلهاً بقي في السجن أبداً ؛ فأعلم الله العباد مقدار الخلود ، ثم قال : "إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ" من زيادة المدّة التي تعجز القلوب عن إدراكها لأنه لا غاية لها ؛ فبالاعتقاد دام خلودهم في الدارين أبداً .

وقد قيل : إن "إلا" بمعنى الواو ، قاله الفراء وبعض أهل النظر وهو الثامن والمعنى : وما شاء ربك من الزيادة في الخلود على مدّة دوام السموات والأرض في الدنيا .

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا الذين ظَلَمُوا ﴾ [البقرة: 150] أي ولا الذين ظلموا.

وقال الشاعر:

وكلّ أخٍ مفارقُه أخوه . . .

لعَمرُ أبيكَ إلا الفَرْقَدان

أي والفرقدان.

وقال أبو محمد مكيّ: وهذا قول بعيد عند البصريين أن تكون "إلا" بمعنى الواو، وقد مضى في "البقرة" بيانه.

(166/385)

وقيل: معناه كما شاء ربك؛ كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النساء إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء: 22] أي كما قد سلف، وهو التاسع، العاشر وهو أن قوله تعالى: "إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ" إنما ذلك على طريق الاستثناء الذي ندب الشرع إلى استعماله في كل كلام؛ فهو على حدّ قوله تعالى:

﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إِن شَاءَ الله آمِنِينَ ﴾ [الفتح: 27] فهو استثناء في واجب، وهذا الاستثناء في حكم الشرط كذلك؛ كأنه قال: إن شاء ربك، فليس يوصف بمتصل

ولا منقطع ؛ ويؤيده ويقويه قوله تعالى : "عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ" ونحوه عن أبي عُبيد قال : تقدّمت عزيمة المشيئة من الله تعالى في خلود الفريقين في الدارين ؛ فوقع لفظ الاستثناء ، والعزيمة قد تقدّمت في الخلود ، قال : وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ ﴾ [الفتح : 27] وقد علم أنهم يدخلونه حتماً ، فلم يوجب الاستثناء في الموضعين خياراً ؛ إذ المشيئة قد تقدّمت بالعزيمة في الخلود في الدارين والدخول في المسجد الحرام ؛ ونحوه عن الفراء .

وقول حادي عشر وهو أن الأشقياء هم السعداء ، والسعداء هم الأشقياء لا غيرهم ، والاستثناء في الموضعين راجع إليهم ؛ وبيانه أن "ما" بمعنى "من" استثنى الله عز وجل من الداخلين في النار المخلدين فيها الذين يخرجون منها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بما معهم من الإيمان ، واستثنى من الداخلين في الجنة المخلدين فيها الذين يدخلون النار بذنوبهم قبل دخول الجنة ثم يخرجون منها إلى الجنة .

(167/385)

وهم الذين وقع عليهم الاستثناء الثاني ؛ كأنه قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ فَفِي النار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ ألا يخلده

فيها ، وهم الخارجون منها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بإيمانهم وبشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فهم بدخولهم النار يسمون الأشقياء ، وبدخولهم الجنة يسمون السعداء ؛ كما روى الضّحّاك عن ابن عباس إذ قال : الذين سعِدوا شَقُوا بدخول النار ثم سعِدوا بالخروج منها ودخولهم الجنة .

وقرأ الأعمش وحفص وحمزة والكسائي "وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا" بضم السين .

وقال أبو عمرو : والدليل على أنه سَعِدوا أن الأول شَقُوا ولم يقل أشقوا .

قال النحاس : ورأيت عليّ بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائيّ "سُعِدوا" مع علمه بالعربية ! إذ كان هذا لحناً لا يجوز ؛ لأنه إنما يقال : سَعِد فلان وأسعده الله ، وأسعد مثل أُمرِض ؛ وإنما احتج الكسائي بقولهم : مسعود ولا حجة له فيه ؛ لأنه يقال : مكان مسعود فيه ، ثم يحذف فيه ويسمى به .

قال المهدوي : ومن ضمّ السين من "سعدوا" فهو محمول على قولهم : مسعود وهو شاذ قليل ؛ لأنه لا يقال : سعده الله ، إنما يقال : أسعده الله .

وقال الثعلبي : "سُعِدوا" بضم السين أي رزقوا السعادة ؛ يقال : سُعِد وأسعِد بمعنى واحد وقرأ الباقون "سَعدوا" بفتح السين قياساً على "شَقُوا" واختاره أبو عبيد وأبو حاتم .

وقال الجوهري : والسعادة خلاف الشّقاوة ؛ تقول : منه سَعِد الرجل بالكسر فهو سعيد ، مثل سَلِم فهو سليم ، وسُعِد فهو مسعود ؛ ولا يقال فيه : مُسْعَد ، كأنهم استغنوا عنه

بمسعود .

وقال القشيريّ أبو نصر عبد الرحيم : وقد ورد سَعَده الله فهو مسعود ، وأسعده الله فهو مسعَد ؛ فهذا يقوي قول الكوفيين .

وقال سيبويه : لا يقال سُعِد فلان كما لا يقال شُقي فلان ؛ لأنه مما لا يتعدى .

(168/385)

﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أي غير مقطوع ؛ من جذّه يجُذّه أي قطعه ؛ قال النابغة :

تَجُذُّ السَّلُوقِيَّ المضاعفَ نَسْجُهُ . . .

وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُبَاحِبِ

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَكُ ﴾ جزم بالنهي ؛ وحذفت النون لكثرة الاستعمال .

﴿ فِي مِرْيَةٍ ﴾ أي في شك .

﴿ مِّمَّا يَعْبُدُ هؤلاء ﴾ من الآلهة أنها باطل .

وأحسن من هذا : أي قل يا محمد لكل من شك "لاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاَءِ" أن الله عز وجل ما أمرهم به ، وإنما يعبدونها كما كان آباؤهم يفعلون تقليداً لهم .

﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها : نصيبهم من الرزق ؛

قاله أبو العالية .

الثاني : نصيبهم من العذاب ؛ قاله ابن زيد .

الثالث : ما وُعِدوا به من خير أو شر ؛ قاله ابن عباس رضي الله عنهما . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(169/385)

وقال الخازن :

﴿ يوم يأت ﴾

يعني ذلك اليوم ﴿ لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ قيل : إن جميع الخلائق يسكتون في ذلك اليوم فلا يتكلم أحد فيه إلا بإذن الله تعالى .

فإن قلت كيف وجه الجمع بين هذه الآية وبين قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ وقوله إخباراً عن محاجة الكفار ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ والأخبار أيضاً تدل على الكلام في ذلك اليوم .

قلت : يوم القيامة يوم طويل وله أحوال مختلفة وفيه أهوال عظيمة ففي بعض الأحوال لا يقدرون على الكلام لشدة الأهوال وفي بعض الأحوال يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون وفي

بعضها تخفف عنهم تلك الأهوال فيحاجون ويجادلون وينكرون ، وقيل : المراد من قوله لا تكلم نفس إلا بإذنه الشفاعة يعني لا تشفع نفس لنفس شيئاً إلا أن يأذن الله لها في الشفاعة ﴿ فمنهم ﴾ يعني فمن أهل الموقف ﴿ شقي وسعيد ﴾ الشقاوة خلاف السعادة والسعادة هي معاونة الأمور الإلهية للإنسان ومساعدته على فعل الخير والصلاح وتيسيره لها ثم السعادة على ضربين سعادة دنيوية وسعادة أخروية وهي السعادة القصوى لأن نهايتها الجنة وكذلك الشقاوة على ضربين أيضاً شقاوة دنيوية وشقاوة أخروية وهي الشقاوة القصوى لأن نهايتها النار فالشقي من سبق له الشقاوة في الأزل والسعيد من سبقت له السعادة في الأزل (ق) .

عن علي بن أبي طالب قال : "كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس وجعل ينكت بمخصرته ثم قال : ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا فقال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسيصير لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسيصير لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ " الآية .

بقيع الغرقد هو مقبرة أهل المدينة الشريفة ومدفنهم والمخصرة كالسوط والعصا ونحو ذلك مما يمسكه بيده الإنسان والنكت بالنون والتاء المثناة من فوق ضرب الشيء بتلك المخصرة أبو اليد ونحو ذلك حتى يؤثر فيه واستدل بعض العلماء بهذه الآية وهذا الحديث على أن أهل الموقف قسمان شقي وسعيد لا ثالث لهما وظاهر الآية والحديث يدل على ذلك لكن بقي قسم آخر مسكوت عنه وهو من استوت حسناته وسيئاته وهم أصحاب الأعراف في قول والأطفال والمجانين الذين لا حسنات لهم ولا سيئات فهؤلاء مسكوت عنهم فهم تحت مشيئة الله يوم القيامة يحكم فيهم بما يشاء وتخصيص هذين القسمين بالذكر لا يدل على نفي القسم الثالث ﴿ فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها ﴾ أي في النار من العذاب والهوان ﴿ زفير وشهيق ﴾ أصل الزفير ترديد النفس في الصدر حتى تنتفخ منه الضلوع والشهيق رد النفس إلى الصدر أو الزفير مده وإخراجه من الصدر وقال ابن عباس : الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف ، وقال الضحاك ومقاتل : الزفير أول صوت الحمار والشهيق آخره إذا رده إلى صدره وقال أبو العالية ، الزفير في الحلق والشهيق في الجوف .

﴿ خالدين فيها ﴾ يعني لابثين مقيمين في النار ﴿ ما دامت السموات والأرض ﴾ قال الضحاك : يعني ما دامت سموات الجنة والنار وأرضهما ولا بد لأهل الجنة وأهل النار من

سماء تظلهم وأرض تقلهم فكل ما علاك فأظلك فهو سماء وكل ما استقر عليه قدمك فهو أرض وقال أهل المعاني هذه عبارة عن التأبيد وذلك على عادة العرب فإنهم يقولون لا آتيك ما دامت السموات والأرض وما اختلف الليل والنهار يريدون بذلك التأبيد .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ اختلف العلماء في معنى هذين الإستثناءين فقال ابن عباس والضحاك : الإستثناء الأول المذكور في أهل الشقاء يرجع إلى قوم من المؤمنين يدخلهم الله النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها فيكون استثناء من غير الجنس لأن الذين أخرجوا من النار سعداء في الحقيقة استثناهم الله تعالى من الأشقياء ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن جابر قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن الله سبحانه وتعالى يخرج قوماً من النار بالشفاعة فيدخلهم الجنة " وفي رواية " إن الله يخرج ناساً من النار فيدخلهم الجنة " أخرجه البخاري ومسلم ، عن أنس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " يخرج من النار قوم بعد ما مسهم منها سفع فيدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميين " وفي رواية " ليصيبن أقواماً سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة لهم ثم يدخلهم الله الجنة بفضله ورحمته فيقال لهم الجهنميون " (خ) عن

عمران بن حصين أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " يخرج قوم من النار بشفاعة محمد فيدخلون الجنة يسمون الجهنميين " وأما الاستثناء الثاني المذكور في أهل السعادة فيرجع إلى مدة لبث هؤلاء في النار قبل دخولهم الجنة فعلى هذا القول يكون معنى الآية فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك أن يخرجهم منها فيدخلهم الجنة ﴿ إن ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ أن يدخله النار أولاً ثم يخرجه منها فيدخله الجنة فحاصل هذا القول إن الاستثناءين يرجع كل واحد منهما إلى قوم مخصوصين هم في الحقيقة سعداء أصابوا ذنوباً استوجبوا بها عقوبة يسيرة في النار ثم يخرجون منها فيدخلون الجنة لأن إجماع الأمة على أن من دخل الجنة لا يخرج منها أبداً وقيل إن الاستثناءين يرجعان إلى الفريقين السعداء والأشقياء

(172/385)

وهو مدة تعميرهم في الدنيا واحتباسهم في البرزخ وهو ما بين الموت إلى البعث ومدة وقوفهم للحساب ثم يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيكون المعنى خالدين في الجنة والنار إلا هذا المقدار ، وقيل : معنى إلا ما شاء ربك سوى ما شاء ربك فيكون الامعنى خالدين

فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من الزيادة على ذلك وهو كقولك لفلان علي ألف إلا ألفين أي سوى ألفين وقيل إلا بمعنى الواو بمعنى وقد شاء ربك خلود هؤلاء في النار وخلود هؤلاء في الجنة فهو كقوله تمجد و تعالى لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا فيها ، قال الفراء : هذا استثناء استثناه الله ولا يفعله كقوله والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك وعزمه أن يضربه فهذه الأقوال في معنى الاستثناء ترجع إلى الفريقين والصحيح هو القول الأول ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ يعني من إخراج من أراد من النار وإدخالهم الجنة فهذا على الإجمال في حال الفريقين فأما على التفصيل فقوله إلا ما شاء ربك في جانب الأشقياء يرجع إلى الزفير والشهيق وتقريره أن يفيد حصول الزفير والشهيق مع خلود لأنه إذا دخل الاستثناء عليه وجب أن يحصل فيه هذا المجموع والاستثناء في جانب السعداء يكون بمعنى الزيادة يعني إلا ما شاء ربك من الزيادة لهم من النعيم بعد الخلود ، وقيل : إن الاستثناء الأول في جانب الأشقياء معناه إلا ما شاء ربك من الزيادة لهم من النعيم بعد الخلود ، وقيل : إن الاستثناء الأول في جانب الأشقياء معناه إلا ما شاء ربك من أن يخرجهم من حرّ النار إلى البرد والزمهرير وفي جانب السعداء معناه إلا ما شاء ربك أن يرفع بعضهم إلى منازل أعلى منازل الجنان ودرجاتها والقول الأول هو المختار ويدل على خلود أهل الجنة في الجنة أن الأمة مجتمعة على من دخل الجنة لا يخرج منها بل هو خالد فيها .

وقوله سبحانه وتعالى في جانب السعداء ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ يعني غير مقطوع قال ابن زيد : أخبرنا الله سبحانه وتعالى بالذي يشاء لأهل الجنة فقال تعالى عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار وروي عن ابن مسعود أنه قال " ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً " وعن أبي هريرة نحوه ، وهذا إن صح عن ابن مسعود وأبي هريرة : فمحمول عند أهل السنة على إخلاء أماكن المؤمنين الذي استحقوا النار من النار بعد إخراجهم منها لأنه ثبت بالدليل الصحيح القاطع إخراج جميع الموحدين وخلود الكفار فيها أو يكون محمولاً على إخراج الكفار من حر النار إلى برد الزمهرير ليزدادوا عذاباً فوق عذابهم والله أعلم .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ﴾

يعني فلا تك في شك يا محمد في هذه الأصنام التي يعبدها هؤلاء الكفار فإنها لا تضر ولا تنفع ﴿ ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ﴾ يعني أنه ليس لهم في عبادة هذه الأصنام مستند إلا أنهم رأوا آباءهم يعبدونها فعبدوها مثلهم ﴿ وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ يعني وإنا مع عبادتهم هذه الأصنام نرزقهم الرزق الذي قدرناه لهم من غير نقص فيه

ويحتمل أن يكون المراد من توفية نصيبهم يعني من العذاب الذي قدر لهم في الآخرة كاملاً موفراً غير ناقص. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(174/385)

وقال أبو حيان:

﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾

وقرأ النحويان ونافع يأتي بإثبات الياء وصلاً وحذفها وقفاً وابن كثير بإثباتها وصلاً ووقفاً وهي ثابتة في مصحف أبيّ وقرأ باقي السبعة بحذفها وصلاً ووقفاً وسقطت في مصحف الإمام عثمان وقرأ الأعمش يأتون وكذا في مصحف عبد الله وإثباتها وصلاً ووقفاً هو الوجه ووجه حذفها في الوقف التشبيه بالفواصل وقفاً ووصلاً التخفيف كما قالوا لا أدرِ ولا أبالِ وذكر الزمخشري أنّ الاجتزاء بالكسرة عن الياء كثير في لغة هذيل وأنشد الطبري

كفاك كف ما يليق درهما

جود وأخرى تعط بالسيف الدما

والظاهر أنّ الفاعل بيأتي ضمير يعود على ما عاد عليه الضمير في نؤخره وهو قوله ذلك يوم والناصب له لا تكلم والمعنى لا تكلم نفس يوم يأتي ذلك اليوم إلا بإذن الله وذلك من عظم

المهابة والهول في ذلك اليوم وهو نظير لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ هو ناصب كقوله يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا والمراد بإتيان اليوم إتيان أهواله وشدائده إذ اليوم لا يكون وقتاً لإتيان اليوم

(175/385)

وأجاز الزمخشري أن يكون فاعل يأتي ضميراً عائداً على الله قال كقوله هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ وجاء ربك ويعضده قراءة وما يؤخره بالياء وقوله بِإِذْنِهِ وأجاز أيضاً أن ينتصب يوم يأتي باذكر أو بالانتهاء المحذوف في قوله إلا لأجل معدود أي ينتهي الأجل يوم يأتي وأجاز الحوفي أن يكون لا تكلم حالاً من ضمير اليوم المتقدم في مشهود أو نعتاً لأنه نكره والتقدير لا تكلم نفس فيه يوم يأتي إلا بإذنه وقال ابن عطية لا تكلم نفس يصح أن يكون جملة في موضع الحال من الضمير الذي في يأتي وهو العائد على قوله ذلك يوم ويكون على هذا عائد محذوف تقديره لا تكلم نفس فيه إلا بإذنه ويصح أن يكون قوله لا تكلم نفس صفة لقوله يوم يأتي أو يوم يأتي يراد به الحين والوقت لا النهار بعينه وما ورد في القرآن من ذكر كلام أهل الموقف في التلازم والتساؤل والتجادل فإما أن يكون بإذن الله وإما أن يكون هذه مختصة هنا في تكلم شفاعة أو إقامة حجة انتهى وكلامه في إعراب لا تكلم كأنه منقول من

كلام الحوفي وقيل يوم القيامة يوم طويل له مواقف ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم وفي بعضها يكفون عن الكلام فلا يؤذن لهم وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون وفي بعضها يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم والضمير في منهم عائد على الناس في قوله مجموع له الناس وقال الزمخشري الضمير لأهل الموقف ولم يذكروا إلا أن ذلك معلوم ولأنّ قوله لا تكلم نفس يدل عليه وقد مرّ ذكر الناس في قوله مجموع له الناس وقال ابن عطية فمنهم عائد على الجميع الذي تضمنه قوله نفس إذ هو اسم جنس يراد به الجميع انتهى قال ابن عباس الشقي من كتبت عليه الشقاوة والسعيد الذي كتبت له السعادة وقيل معذب ومنعم وقيل محروم ومرزوق وقيل الضمير في منهم عائد على أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

ذكره ابن الأنباري

(176/385)

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾

الزفير والشهيق : زعم أهل اللغة من الكوفيين والبصريين أنّ الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار ، والشهيق بمنزلة آخر نهيقه .

وقال رؤبة :

حشرج في الصدر صهيلاً وشهق . . .

حتى يقال ناهق وما نهق

وقال ابن فارس : الشهيق ضد الزفير ، لأن الشهيق رد النفس ، والزفير إخراج النفس من شدة الجري ، مأخوذ من الزفر وهو الحمل على الظهر لشدته .

وقال الشماخ :

بعيد مدى التطريب أول صوته . . .

زفير ويتلوه شهيق محشرج

والشهيق النفس الطويل الممتد ، مأخوذ من قولهم : جبل شاهق أي طويل .

وقال الليث : الزفير أن يملأ الرجل صدره حال كونه في الغم الشديد من النفس ويخرجه ، والشهيق أن يخرج ذلك النفس بشدّة يقال : إنه عظيم الزفرة .

الجذ القطع بالمعجمة والمهملة .

قال ابن قتيبة : جذذت وجددت ، وهو بالذال أكثر .

قال النابغة :

تجذ السلوقي المضاعف يسجه . . .

وتوقد بالصفاح نار الحباحب

﴿ فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات

والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾ قال الضحاك ومقاتل والفراء : الزفير أول نهيق الحمار ، والشهيق آخره ، وروي عن ابن عباس ، وقال أبو العالية والربيع بن أنس : الزفير في الحلق ، والشهيق في الصدر ، وروي عن ابن عباس أيضاً .

وقال ابن السائب : الزفير زفير الحمار ، والشهيق شهيق البغال .

وانتصاب خالدين على أنها حال مقدرة ، وما مصدرية ظرفية أي : مدة دوام السموات والأرض ، والمراد بهذا التوقيت التأبيد كقول العرب : ما أقام ثبير وما لاح كوكب ، وضعت العرب ذلك للتأبيد من غير نظر لفناء ثبير أو الكوكب ، أو عدم فنائهما .

وقيل : سموات الآخرة وأرضها وهي دائمة لا بد ، يدل على ذلك ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ وقوله : ﴿ وأورثنا الأرض نتبوّأ من الجنة حيث نشاء ﴾ ولأنه لا بد لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلمهم ، إما سماء يخلقها الله ، أو يظلهم العرش وكلما أظلك فهو سماء .

وعن ابن عباس : إن السموات والأرض في الآخرة يردان إلى النور الذي أخذتا منه ، فهما

دائمتان أبداً في نور العرش.

والظاهر أنّ قوله: إلا ما شاء ربك استثناء من الزمان الدال عليه قوله: خالدين فيهما ما دامت السموات والأرض.

والمعنى: إلا الزمان الذي شاءه الله تعالى، فلا يكون في النار، ولا في الجنة، ويمكن أن يكون هذا الزمان المستثنى هو الزمان الذي يفصل الله بين الخلق يوم القيامة، إذا كان الاستثناء من الكون في النار والجنة، لأنه زمان يخلو فيه الشقي والسعيد من دخول النار أو الجنة.

وأما إن كان الاستثناء من الخلود فيمكن ذلك بالنسبة إلى أهل النار، ويكون الزمان المستثنى، هو الزمان الذي فات أهل النار العصاة من المؤمنين الذين يخرجون من النار ويدخلون الجنة، فليسوا خالدين في النار إذ قد أخرجوا منها وصاروا في الجنة، وهذا روى معناه عن قتادة والضحاك وغيرهما، ويكون الذين شقوا شاملاً للكفار وعصاة المسلمين.

وأما بالنسبة إلى أهل الجنة فلا يتأتى منهم ما تأتى في أهل النار ، إذ ليس منهم من يدخل الجنة ثم لا يخلد فيها ، لكن يمكن ذلك باعتبار أن يكون أريد الزمان الذي فات أهل النار العصاة من المؤمنين ، أو الذي فات أصحاب الأعراف ، فإنهم بفوات تلك المدة التي دخل المؤمنون فيها الجنة وخلدوا فيها صدق على العصاة المؤمنين وأصحاب الأعراف أنهم ما خلدوا في الجنة تخليد من دخلها لأول وهلة ، ويجوز أن يكون استثناء من الضمير المستكن في الجار والمجرور ، أو في خالدين ، وتكون ما واقعة على نوع من يعقل ، كما وقعت في قوله : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ أو تكون واقعة على من يعقل على مذهب من يرى وقوعها على من يعقل مطلقاً ، ويكون المستثنى في قصة النار عصاة المؤمنين ، وفي قصة الجنة هم ، أو أصحاب الأعراف لأنهم لم يدخلوا الجنة لأول وهلة ، ولا خلدوا فيها خلود من دخلها أول وهلة .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : ما معنى الاستثناء في قوله : إلا ما شاء ربك ، وقد ثبت خلود أهل الجنة والنار في الآية من غير استثناء ؟ (قلت) : هو استثناء من الخلود في عذاب النار ، ومن الخلود في نعيم أهل الجنة ، وذلك أنّ أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده ، بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب يساوي عذاب النار ، وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم وخسؤه لهم وإهانته إياهم .

وهكذا أهل الجنة لهم مع تبوّء الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعاً منهم ، وهو رضوان الله

تعالى .

كما قال : ﴿ وعد الله ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ ولهم ما يتفضل به عليهم سوى ثواب الجنة ما لا يعرف كنهه إلا هو ، فهو المراد بالاستثناء ، والدليل عليه قوله : عطاء غير مجذوذ .

(179/385)

ومعنى قوله في مقابلته : إن ربك فعال لما يريد ، أنه يفعل بأهل النار ، ما يريد من العذاب ، كما يعطي أهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له ، فتأمله فإنّ القرآن يفسر بعضه بعضاً ولا يخدعنك عنه قول المجبرة : المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة ، فإن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ويسجل بافترائهم .

وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم لما روي لهم بعض الثوابت عن عبد الله بن عمرو بن العاص : ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد ، وذلك عندما يلبثون فيها أحقاباً .

وقد بلغني أن من الضلال من اعتبر هذا الحديث ، فاعتقد أنّ الكفار لا يخلدون في النار ، وهذا ونحوه والعياذ بالله من الخذلان المبين زادنا الله هداية إلى الحق ومعرفة بكتابه ،

وتنبيهاً عن أن نغفل عنه .

ولئن صح هذا عن أبي العاص فمعناه يخرجون من النار إلى برد الزمهرير ، فذلك خلو جهنم وصفق أبوابها انتهى .

وهو على طريق الاعتزال في تخليد أهل الكبائر غير التائبين من المؤمنين في النار ، وأما ما ذكره من الاستثناء في أهل النار من كونهم لا يخلدون في عذاب النار ، إذ ينتقلون إلى الزمهرير فلا يضيق عليهم أنهم خالدون في عذاب النار ، فقد يتمشى .

وأما ما ذكره من الاستثناء في أهل الجنة من قوله : خالدين ، فلا يتمشى لأنهم مع ما أعطاهم الله من رضوانه ، وما تفضل عليهم به من سوى ثواب الجنة ، لا يخرجهم ذلك عن كونهم خالدين في الجنة ، فلا يصح الاستثناء على هذا ، بخلاف أهل النار فإنه لخروجهم من عذابها إلى الزمهرير يصح الاستثناء .

وقال ابن عطية : وأما قوله إلا ما شاء ربك ، فقيل فيه : إن ذلك على طريق الاستثناء الذي ندب الشرع إلى استعماله في كل كلام ، فهو على نحو قوله : ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ﴾ استثناء في واجب ، وهذا الاستثناء هو في حكم الشرط كأنه قال : إن شاء الله ، فليس يحتاج أن يوصف بمتصل ولا منقطع .

وقيل : هو استثناء من طول المدة ، وذلك على ما روي أن جهنم تخرب ويعدم أهلها ، وتخفق أبوابها ، فهم على هذا يخدلون حتى يصير أمرهم إلى هذا ، وهذا قول محيل .

والذي روى ونقل عن ابن مسعود وغيره : أنها تخلو من النار إنما هو الدرك الأعلى المختص بعصاة المؤمنين ، وهو الذي يسمى جهنم ، وسمى الكل به تجوزاً .

وقيل : إلا بمعنى الواو ، فمعنى الآية : وما شاء الله زائداً على ذلك .

وقيل : في هذه الآية بمعنى سوى ، والاستثناء منقطع كما تقول : لي عندك ألفا درهم إلا الألف التي كنت أسلفتك ، بمعنى سوى تلك الألف .

فكأنه قال : خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ، سوى ما شاء الله زائداً على ذلك ، ويؤيد هذا التأويل قوله تعالى بعد هذا : عطاء غير مجذوذ ، وهذا قول الفرّاء .

وقيل : سوى ما أعد لهم من أنواع العذاب مما لا يعرف كالزمهرير .

وقيل : استثناء من مدة السموات والأرض التي فرطت لهم في الحياة الدنيا .

وقيل : في البرزخ بين الدنيا والآخرة .

وقيل : في المسافات التي بينهم في دخول النار إذ دخولهم إنما هو زمراً بعد زمر .

وقيل : الاستثناء من قوله ففي النار ، كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك ، وهذا قول رواه أبو نصرة عن جابر ، أو عن أبي سعيد الخدري ، ثم أخبر منبهاً على قدرة

الله تعالى فقال : إن ربك فعال لما يريد انتهى .

وقال أبو مجلز : إلا ما شاء ربك أن يتجاوز عنه بعذاب يكون جزاؤه الخلود في النار ، فلا يدخله النار .

وقيل : معنى إلا ما شاء ربك كما شاء ربك قيل : كقوله : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا من قد سلف ﴾ أي كما قد سلف .

وقرأ الحسن : شقوا بضم الشين ، والجمهور بفتحها .

وقرأ ابن مسعود ، وطلحة بن مصرّف ، وابن وثاب ، والأعمش ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص سعدوا بضم السين ، وباقي السبعة والجمهور بفتحها .

(181/385)

وكان علي بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائي سعدوا مع علمه بالعربية ، ولا يتعجب من ذلك إذ هي قراءة منقولة عن ابن مسعود ومن ذكرنا معه .

وقد احتج الكسائي بقولهم : مسعود ، قيل : ولا حجة فيه لأنه يقال : مكان مسعود فيه ، ثم حذف فيه وسمي به ، وقال المهدوي : من قرأ سعدوا فهو محمول على مسعود ، وهو شاذ قليل لأنه لا يقال سعده الله ، إنما يقال : أسعده الله .

وقال الثعلبي : سعد وأسعد بمعنى واحد ، وانتصب عطاء على المصدر أي : أعطوا عطاء بمعنى إعطاء كقوله : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نبتاً ﴾ أي إنباتاً .

ومعنى غير مجذوذ : غير مقطوع ، بل هو ممتد إلى غير نهاية .

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ﴾

لما ذكر تعالى قصص عبدة الأوثان من الأمم السالفة ، واتبع ذلك بذكر أحوال الأشقياء والسعداء ، شرح للرسول (صلى الله عليه وسلم) أحوال الكفار من قومه ، وإنهم متبعو آبائهم كحال من تقدم من الأمم في اتباع آبائهم في الضلال .

وهؤلاء إشارة إلى مشركي العرب باتفاق ، وأنَّ ديدنهم كديدن الأمم الماضية في التقليد والعمى عن النظر في الدلائل والحجج .

وهذه تسلية للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وعدة بالانتقام منهم ، إذ حالهم في ذلك حال الأمم السالفة ، والأمم السالفة قد قصصنا عليك ما جرى لهم من سوء العاقبة .

والتشبيه في قوله : كما يعبد ، معناه أنّ حالهم في الشرك مثل حال آبائهم من غير تفاوت ، وقد بلغك ما نزل بأسلافهم ، فسينزل بهم مثله .

وما يعبد استئناف جرى مجرى التعليل للنهي عن المرية ، وما في مما وفي كما يحتمل أن تكون مصدرية وبمعنى الذي .

وقرأ الجمهور : لموفوهم مشدداً من وفى ، وابن محيصن مخففاً من أوفى ، والنصيب هنا

قال ابن عباس : ما قدر لهم من خير ومن شر .

وقال أبو العالية : من الرزق .

(182/385)

وقال ابن زيد : من العذاب ، وكذا قال الزمخشري قال : كما وفينا آباءهم أنصباءهم ، وغير منقوص حال من نصيبهم ، وهو عندي حال مؤكدة ، لأنّ التوفية تقتضي التكميل .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : كيف نصب غير منقوص حالاً من النصيب الموفى ؟ (قلت) : يجوز أن يوفى وهو ناقص ، ويوفى وهو كامل .

ألا تراك تقول : وفيته شطر حقه ، وثلث حقه ، وحقه كاملاً وناقصاً ؟ انتهى وهذه مغلطة إذا قال : وفيته شطر حقه ، فالتوفية وقعت في الشطر ، وكذا ثلث حقه ، والمعنى أعطيته الشطر أو الثلث كاملاً لم أنقصه منه شيئاً .

وأما قوله : وحقه كاملاً وناقصاً ، أما كاملاً فصحيح ، وهي حال مؤكدة لأن التوفية تقتضي الإكمال ، وأما وناقصاً فلا يقال لمنافاته التوفية .

والخطاب في فلا تك متوجه إلى من داخله الشك ، لا إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، والمعنى : والله أعلم قل يا محمد لكل من شك لا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ، فإنّ الله لم

يأمرهم بذلك ، وإنما اتبعوا في ذلك آباءهم تقليداً لهم وإعراضاً عن حجج العقول . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(183/385)

وقال أبو السعود :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾

أي حين يأتي ذلك اليومُ المؤخَّرُ بانقضاء أجلِه كقوله تعالى : ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ الساعة ﴾ وقيل : يومَ يأتي الجزاءُ الواقعُ فيه ، وقيل : أي الله عز وجل فإن المقام مقامُ تفخيمِ شأنِ اليوم وقرىء بإثبات الياء على الأصل ﴿ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ ﴾ أي لا تتكلم بما ينفع وينجّي من جواب أو شفاعةٍ ، وهو العامل في الظرف أو الانتهاء المحذوفِ في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ أي ينتهي الأجل يوم يأتي أو المضمر المعهود أعني أذكر ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ عز سلطانه في التكلم كقوله تعالى : ﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ وهذا في موطن من مواطنِ ذلك اليومِ وقولُه عز وجل : ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ * وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ في موقف آخرَ من مواقفه كما أن قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تجادل عَن نَّفْسِهَا ﴾ في آخرَ منها أو المأذونُ فيه الجواباتُ الحقةُ والممنوعُ عنه الأعذار الباطلة ، نعم قد يُؤذن فيها أيضاً

لإظهار بطلانها كما في قول الكفرة : ﴿ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ونظائره ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ ﴾ وجبت له النار بموجب الوعيد ﴿ وَسَعِيدٌ ﴾ أي ومنهم سعيدٌ ، حُذف الخبرُ لِدلالة الأولِ عليه وهو من وجبت له الجنةُ بمقتضى الوعد ، والضميرُ لأهل الموقفِ المدلولِ عليهم بقوله : ﴿ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ ﴾ أو للناس ، وتقديمُ الشقيِّ على السعيد لأن المقامَ مقامُ التحذير والإنذار .

﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ ﴾ أي سبقَت لهم الشقاوةُ ﴿ فَفِى النار ﴾ أي مستقرّون فيها ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ الزفيرُ إخراجُ النفَسِ والشهيقُ ردُّه وجاء استعمالُهما في أول النهيق وآخرِه قال الشماخ يصف حمارَ الوحش :

بعيدُ مدى التطريب ، أولُ صوتِه . . . زفيرٌ ويتلوه شهيقٌ مُحشرَجُ

والمرادُ بهما وصفُ شدةِ كربِهم وتشبيهُ حالِهم بحال من استولت على قلبه الحرارةُ وانحصر فيه روحُه أو تشبيهُ صراخِهم بأصواتِ الحميرِ وقرىء شقوا بالضم والجملةُ مستأنفةٌ كأن سائلاً قال : ما شأنُهم فيها ؟ فقيل : لهم فيها كذا وكذا ، أو منصوبةُ المحلِّ على الحالية من النار أو من الضمير في الجار والمجرور كقوله عز اسمُه : ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ خلا

أنه إن أريد حدوثُ كونِهم في النار فالحالُ مقدرةٌ ﴿ مَا دَامَتِ السموات والأرض ﴾ أي مدةَ دوامِها وهذا التوقيتُ عبارةٌ عن التأبيد ونفيِ الانقطاع بناءً على منهاجِ قولِ العرب : ما دام تعار وما أقام ثَبيرٌ وما لاح كوكب وما اختلف الليلُ والنهار وما طما البحرُ وغيرُ ذلك من كلمات التأبيد لا تعليقِ قرارِهم فيها بدوام هذه السمواتِ والأرض فإن النصوصَ القاطعةَ دالةٌ على تأبيد قرارِهم فيها وانقطاعِ دوامِهما وإن أريد التعليقُ فالمراد سمواتُ الآخرة وأرضُها كما يدل على ذلك النصوصُ كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَاء ﴾ وجزمِ كلِّ أحدٍ بأن أهلَ الآخرةِ لا بد لهم من مِظلّة ومِقلّة دائمتين يكفي في تعليق دوامِ قرارِهم فيها بدوامهما ، ولا حاجة إلى الوقوف على تفاصيل أحوالِهما وكيفياتهما ﴿ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ استثناءٌ من الخلود على طريقة قوله تعالى :

(185/385)

﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الاولى ﴾ وقوله : ﴿ وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءابَاؤُكُمْ مّنَ النساء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ حتى يَلِجَ الجمل فِى سَمّ الخياط ﴾ غير أن استحالةَ الأمورِ المذكورةِ معلومةٌ بحكم العقلِ ، واستحالةَ تعلّق المشيئةِ بعدم الخلودِ معلومةٌ

بحكم النقل يعني أنهم مستقرّون في النار في جميع الأزمنةِ إلا في زمان مشيئةِ الله تعالى لعدم قرارِهم فيها وإذ لا إمكان لتلك المشيئةِ ولا لزمانها بحكم النصوصِ القاطعة الموجبةِ للخلود فلا إمكانَ لانتهاء مدةِ قرارِهم فيها ولدفع ما عسى يُتوّهم من كون استحالةِ تعلق مشيئةِ الله تعالى بعدم الخلود بطريق الوجوبِ على الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ يعني أنه في تخليد الأشقياءِ في النار بحيث يستحيل وقوعُ خلافةِ فعالٌ بموجب إرادته قاضٍ بمقتضى مشيئته الجارية على سنن حكمته الداعيةِ إلى ترتيب الأجزيةِ على أفعال العبادِ ، والعدولُ من الإضمار إلى الإظهار لتربية المهابةِ وزيادةِ التقريرِ ، وقيل : هو استثناءُ من الخلود في عذاب النار فإنهم لا يخلّدون فيه بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع أُخَرَ من العذاب وبما هو أغلظُ منها كلِّها وهو سَخَطُ الله تعالى عليهم وخَسْؤه لهم وإهانتُه إياهم ، وأنت تدري أنا وإن سلّمنا أن المرادَ بالنار ليس مطلقَ دارِ العذاب المشتملةِ على أنواعِ العذاب بل نفسَ النار فما خلا عذابَ الزمهريرِ من تلك الأنواعِ مقارنٌ لعذاب النار فلا مِصداقَ في ذلك للاستثناء ، ولك أن تقول إنهم ليسوا بمخلدين في العذاب الجُسماني الذي هو عذابُ النار بل لهم من أفانين العذاب ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وهي العقوباتُ والآلامُ الروحانية التي لا يقف عليها في هذه الحياة الدنيا المنغمِسون في أحكام الطبيعةِ المقصورُ إدراكُهم على ما أِلفوا من الأحوال الجُسمانية ، وليس لهم استعدادٌ لتلقّي ما وراء

ذلك من الأحوال الروحانيةِ إذا أُلقيَ إليهم ، ولذلك لم يتعرّض لبيانه واكتُفي بهذه المرتبةِ الإجماليةِ المنبئةِ عن التهويل ، وهذه العقوباتُ وإن كانت تعتريهم وهم في النار لكنهم ينسَوْن بها عذابَ النارِ ولا يُحِسّون به ، وهذه المرتبةُ كافيةٌ في تحقيق معنى الاستثناءِ هذا ، وقد قيل : إلا بمعنى سوى وهو أوفقُ بما ذكر وقيل : ما بمعنى مَنْ على إرادة معنى الوصفيةِ فالمعنى إن الذين شقُوا في النار مقدرين الخلود فيها إلا الذين شاء الله عدم خلودِهم فيها وهم عصاةُ المؤمنين .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾

الكلامُ فيه كالكلام فيما سبق خلا أنه لم يُذكر هاهنا أن لهم فيها بهجةً وسروراً كما ذكر في أهل النارِ من أنه لهم فيها زفيرٌ وشهيق لأن المقام مقامُ التحذيرِ والإنذار ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ إنْ حمل على طريقة التعليقِ بالمُحال فقوله سبحانه : ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ نُصب على المصدرية من معنى الجملة لأن قوله تعالى : ﴿ فَفِى الجنة خالدين فِيهَا ﴾ يقتضي إعطاءً وإنعاماً فكأنه قيل : يعطيهم عطاءً وهو إما اسمُ مصدرٍ هو الإعطاءُ أو مصدرٌ بحذف الزوائدِ كقوله تعالى : ﴿ أَنبَتَكُمْ مّنَ الأرض نَبَاتاً ﴾ وإن حُمل على ما أعد الله لعباده الصالحين من النعيم الروحاني الذي عبّر عنه بما لا عينٌ رأت ولا أذن سمِعت ولا خطَر على قلب بشر فهو نصبٌ على الحالية من المفعول المقدر للمشيئة ، أو تمييزٌ فإن نسبةَ

مشيئةِ الخروج إلى الله تعالى يحتمل أن تكون على جهة عطاءٍ مجذوذ وعلى جهة عطاءٍ غيرِ مجذوذ فهو رافعٌ للإبهام عن النسبة . قال ابن زيد : أخبرنا الله تعالى بالذي يشاء لأهل الجنةِ فقال : ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ ولم يُخبرنا بالذي يشاء لأهل النارِ ويجوز أن يتعلق بكلا النعيمين أو بالأول دفعاً لما يتوهم من ظاهر الاستثناءِ من انقطاعه .

(187/385)

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ ﴾

(188/385)

أي في شك ، والفاءُ لترتيب النهي على ما قُصّ من القصص وبُيّن في تضاعيفها من العواقب الدنيوية والأخروية ﴿ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ﴾ أي من جهة عبادةِ هؤلاء المشركين وسوءِ عاقبتها أو من حال ما يعبدونه من الأوثان في عدم نفعِه لهم . ولمّا كان مَساقُ النظمِ الكريم قبيل الشروعِ في القصص لبيان غايةِ سوءِ حال الكفرة وكمالِ حسنِ حال المؤمنين ، وقد ضُرب لهم مثل فقيل : ﴿ مَثَلُ الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هَلْ يَسْتَوِيَانِ

مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ وقد قصَّ عَقيبَ ذلك من أنباء الأممِ السالفة مع رسلهم المبعوثةِ إليهم ما يتذكر به المتذكِّرُ نُهي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن كونه في شك من مصير أمرِ هؤلاءِ المشركين في العاجل والآجلِ ثم علل ذلك بطريق الاستئناف فقيل : ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءابَاؤُهُم ﴾ الذين قُصّت عليك قصصُهم ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي هم وآباؤُهم سواءٌ في الشرك ، ما يعبدون عبادةً إلا كعبادتهم أو ما يعبدون شيئاً إلا مثلَ ما عبدوه من الأوثان ، والعدولُ إلى صيغة المضارعِ لحكاية الحالِ الماضيةِ لاستحضار صورتِها ، أو مثلَ ما كانوا يعبدونه فحُذف كانَ لدلالة قولِه : (من قبل) عليه ، ولقد بلغك ما لحق بآبائهم فسيلحقهم مثلُ ذلك فإن تماثلَ الأسبابِ يقتضي تماثل المسبَّبات ﴿ وِإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ ﴾ أي هؤلاء الكفرة ﴿ نَصِيبَهُمْ ﴾ أي حظَّهم المعيَّنَ لهم حسب جرائِمهم وجرائرِهم من العذاب عاجلاً وآجلاً كما وفّينا آباءَهم أنصباءَهم المقدّرة لهم ، أو من الرزق المقسومِ لهم فيكون بياناً لوجه تأخُّرِ العذاب عنهم مع تحقق ما يوجبه ﴿ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ حالٌ مؤكدة من النصيب كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ وفائدتُه دفعُ توهّم التجوّزِ وجعلُها مقيدةً له لدفع احتمالِ كونِه منقوصاً في حد نفسه مبنيٌّ على الذهول عن كون العاملِ هو التوفيةَ فتأمل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾

أي ذلك اليوم المؤخر بانقضاء أجله المضروب حسبما تقتضيه الحكمة وهو المروى عن ابن جريج ، وقبل : الضمير للجزاء أيضاً ، وقيل : لله تعالى ، وفيه من تفخيم شأن اليوم ما لا يخفى ، ويعضده قراءة وما يؤخرخ بالياء ، وتسبة الإتيان .

ونحوه إليه سبحانه أتت في غير ما آية ، واعترض الأول بأت التقدير عليه يوم إتيان ذلك اليوم ولا يصح لأن تعرف اليوم بالاتيان يأبى تعرف الإتيان به ، ولأن إتيان اليوم لا ينفك عن يوم الإتيان فيكفي الإسناد وتلغو الإضافة ، ونقل العلامة الطيبي نصاً على عدم جوازه كما لا تقول : جئتك يوم بشرك ، وأجيب أن كل زمان له شأن يعتبر تجدده كالعيد .

والنيروز .

والساعة مثلاً ، يجري مجرى الزماني وإن كان في نفسه زماناً فباعتبار تغاير الجهتين صحت الإضافة والإسناد كما يصح أن يقال : يوم تقوم الساعة .

ويوم يأتي العيد .

والعيد في يوم كذا ، فالأول زمان وضميره أعني فاعل الفعل زماني ، وإذاً حسن مثل قوله :

فسقى الغضى والساكنيه وإن هم . . .

شبوه بين جوانحي وضلوعي

فهذا أحسن ، وقرأ النحويان .

ونافع ﴿ يَأْتِ ﴾ بإثبات الياء وصلاً وحذفها وقفاً ، وابن كثير بإثباتها وصلاً ووقفاً وهي ثابتة في مصحف أبي ، وقرأ باقي السبعة بحذفها وصلاً ووقفاً ، وسقطت في مصحف عثمان رضي الله تعالى عنه ، وإثباتها وصلاً ووقفاً هو الوجه ، ووجه حذفها في الوقف التشبيه بالفواصل ، ووصلا ووقفا التخفيف كما قالوا : لا أدر ولا أبال ، وذكر الزمخشري أن الاجتزاء بالكسرة عن الياء كثير في لغة هذيل ، ومن ذلك قوله :

كفاك ما تليق درهما . . .

جوداً وأخرى تعط بالسف الدما

وقرأ الأعمش يوم يأتون بواو الجمع ، وكذا في مصحف عبد الله أي يوم يأتي الناس .

وأو أهل الموقف ﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ ﴾ أي لا تتكلم بما ينفع وينجي من جواب أو شفاعة ، وهذا الفعل على الأظهر هو الناصب للظرف السابق .

وجوز أن يكون منصوباً بالانتهاء المضاف إلى الأجل وأن يكون مفعولاً به لا ذكر محذوفاً ،

وهذه الجملة في موضع الحال من ضمير اليوم ، وأجاز الحوفي .

وابن عطية كونها نعتاً ليوم ، وتعقب بأنه يقتضي أن إضافته لا تفيده تعريفاً وهو ممنوع ولعل من يدعي ذلك يقول : إن الجمل بمنزلة النكرات حتى أطلقوا عليها ذلك فالاضافة إليها كالإضافة إليها ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ أي إلا باذن الله تعالى شأنه وعز سلطانه في التكلم كقوله سبحانه : ﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ [النبأ : 38] وهذا في موقف من مواقف ذلك اليوم ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 35 ، 36] في موقف آخر من مواقفه كما أن قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تجادل عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل : 111] في آخر منها ، وروي هذا عن الحسن .

(191/385)

وقد ذكر غير واحد أن المأذون فيه الأجوبة الحقة والممنوع منه الأعذار الباطلة ، نعم قد يؤذن فيها أيضاً لإظهار بطلانها كما في قول الكفرة : ﴿ والله رَبّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 32] ونظائره ، والقول بأن هذا ليس من قبيل الأعذار وإنما هو إسناد الذنب إلى كبرائهم وأنهم أضلوهم ليس بشيء كما لا يخفى ، وفي الدرر والغرر للسيد المرتضى أن بين

قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ هذا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 35 ، 36] وكذا قوله جل وعلا : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾ [الصافات : 27] اختلافاً بحسب الظاهر ، وأجاب قوم من المفسرين عن ذلك بأن يوم القيامة يوم طويل ممتد فيجوز أن يمنعوا النطق في بعضه ويؤذن لهم في بعض آخر منه ، ويضعف هذا الجواب أن الإشارة إلى يوم القيامة بطوله فكيف يجوز أن تكون الآيات فيه مختلفة ، وعلى ما ذكروه يكون معنى ﴿ هذا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ هذا يوم لا ينطقون في بعضه وهو خلاف الظاهر ، والجواب السديد عن ذلك أن يقال : إنما أريد نفي النطق المسموع المقبول الذي ينتفعون به ويكون لهم في مثله إقامة حجة وخلاص لا نفي النطق مطلقاً بحيث يعم ما ليس له هذه الحالة ، ويجري هذا المجرى قولهم : خرس فلان عن حجته .

وحضرنا فلاناً يناظر فلاناً فلم نره قال شيئاً وإن كان الذي وصف بالخرس والذي نفى عنه القول قد تكلم بكلام كثير إلا أنه من حيث لم يكن فيه حجة ولم يتضمن منفعة جاز إطلاق ما حكيناه عليه ، ومثله قول الشاعر :

أعمى إذا ما جارتي خرجت . . .

حتى يواري جارتي الخدر

ويصم عما كان بينهما . . .

سمعي وما بي غيره وقر

(192/385)

وعلى هذا فلا اختلاف لأن التساؤل والتلاؤم مثلا لا حجة فيه ، وأما قوله سبحانه : ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 36] فقد قيل فيه : إنهم غير مأمورين بالاعتذار فكيف يتعذرون ، ويحمل الإذن على الأمر وإنما لم يؤمروا به لأن تلك الحالة لا تكليف فيها والعبادة ملجأون عند مشاهدة الأهوال إلى الاعتراف والإقرار ، وأحسن من هذا أن يحمل ﴿ يُؤْذَنُ لَهُمْ ﴾ أنه لا يسمع لهم ولا يقبل عذرهم انتهى .

وأنت تعلم أن تضعيفه لما أجاب به القوم من امتداد يوم القيامة وجواز كون المنع من النطق في بعض منه والإذن في بعض آخر ليس بمرتضى عند ذي الفكر الرضى لظهور صحة وقوع الزمان الممتد ظرفاً للنقيضين فيما إذا لم يقتض كل منهما أو أحدهما جميع ذلك الزمان ، وقد شاع دفع التناقض بين الكلامين بمثل ما فعلوا ومرجعه إلى القول باختلاف الزمان كما أن مرجع ما روي عن الحسن إلى القول باختلا المكان ، واتحاد الزمان والمكان من شروط

تناقض القضيتين وليس هذا الذي فعلوه بأبعد مما فعله المرتضى على أن في كلامه بعد مّا لا يخفى .

(193/385)

وقال بعض الفضلاء : لا منافاة بين هذه الآية والآيات التي تدل على التكلم يوم القيامة لأن المراد من يوم يأتي حين يأتي ، والقضية المشتملة على ذلك وقتية حكم فيها بسلب المحمول عن جميع أفراد الموضوع في وقت معين وهذا لا ينافي ثبوت المحمول للموضوع في غير ذلك الوقت ، وقال ابن عطية : لا بد من أحد أمرين : إما أن يقال : إن ما جاء في الآيات من التلاؤم والتساؤل والتجادل ونحو ذلك مما هو صريح في التكلم كان عن إذن ، وإما أن يحمل التكلم هنا على تكلم شفاعة أو إقامة حجة وكلا القولين كما ترى ، والاستثناء قيل : من أعم الأسباب أي لا تكلف نفس بسبب من الأسباب إلا بسبب إذنه تعالى وه متصل ، وجوز أن يكون منقطعاً ويقدر ما لا يتناول المستثنى أي لا تكلم نفس باقتدار من عندها إلا باذنه تعالى ، ولا يخفى أن هذا استثناء مفرغ ، وقد طرق سمعك ما هو الأصح فيه ، وقرىء كما في المصاحف لابن الأنباري يوم يأتون لا تكلم دابة إلا باذنه ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أي أهل الموقف المدلول عليه بقوله سبحانه : ﴿ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ ﴾ أو الجميع الذي تضمنه ﴿ نَفْسٌ

﴾ إذ هو اسم جنس أريد به الجميع على ما نقله أبو حيان عن ابن عطية ، أو الناس المذكور في قوله سبحانه : ﴿ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس ﴾ [هود : 103] ونقل ابن الأنباري أن الضمير لأمة محمد صلى الله عليه وسلم وهو من الغرابة بمكان وكأنه قصد هذا القائل بذلك تمهيداً لتوجيه الاستثناء الآتي وهو ولله الحمد غني عن ذلك ، والظاهر أن ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض والجار والمجرور خبر مقدم ، وقوله سبحانه : ﴿ شَقِىٌّ ﴾ مبتدأ ، وقوله تعالى : ﴿ وَسَعِيدٌ ﴾ بتقدير ومنهم سعيد ، وحذف منهم لدلالة الأول عليه ، والسعادة على ما قال الراغب : معاونه الأمور الإلهية للإنسان على نيل الخير ويضادها الشقاوة ، وفسر في البحر الشقاوة بنكد العيش وسوئه ، ثم قال : والسعادة ضدها ، وفي القاموس ما يقرب من ذلك ، فالشقي .

(194/385)

والسعيد هما المتصفان بما ذكر ، وفسر غير واحد الأول بمن استحق النار بمقتضى الوعيد .

والثاني بمن استحق الجنة بموجب الوعد ، وهذا هو المتعارف بين الشرعيين ، وتقديم الشقى على السعيد لأن المقام مقام الانذار والتحذير .

﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ ﴾ أي سبقت لهم الشقاوة ﴿ فَفِى النار ﴾ أي مستقرون فيها ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ قال أهل اللغة من الكوفية.

والبصرية : الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار والشهيق بمنزلة آخر نهيقه ، قال رؤبة :

حشرج في الصدر صهيلا أو شهق . . .

حتى يقال ناهق وما نهق

وقال ابن فارس : الزفير إخراج النفس .

والشهيق رده ، قال الشماخ في حمار وحش :

بعيد مدى التطريب أول صوته . . .

زفير ويتلوه شهيق محشرج

وقال الراغب : الزفير ترديد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه من زفر فلان إذا حمل حملاً بمشقة فتردد فيه نفسه ، ومنه قيل : للإماء الحاملات الماء : زوافر .

والشهيق طول الزفير وهو رد النفس ، والزغير مده ، وأصله من جبل شاهق أي متناه في الطول .

وعن السائب أن الزفير للحمير .

والشهيق للبغال وهو غريب ، ويراد بهما الدلالة على كربهم وغمهم وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة وانحصر فيه روحه ، أو تشبيه أصواتهم بأصوات الحمير ففي

الكلام استعارة تمثيلية أو استعارة مصرحة ، والمأثور عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : يريد ندامة ونفساً عاليا وبكاءاً لا ينقطع ، وقرأ الحسن ﴿ شُقُواْ ﴾ بضم الشين فاستعمل متعدياً لأنه يقال شقاه الله تعالى كما يقال أشقاه ، وجملة ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ الخ مستأنفة كأن سائلا قال : ما شأنهم فيها ؟ فقيل لهم فيها كذا وكذا ، وجوّز أن تكون منصوبة المحل على الحالية من النار أو من الضمير في الجار والمجرور

كقوله عز وجل :

(195/385)

﴿ خالدين فِيهَا ﴾ خلا أنه إن أريد حدوث كونهم في النار فالحال مقدرة ﴿ مَا دَامَتِ السموات والأرض ﴾ أي مدة دوامهما ، وهذا عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع على منهاج قول العرب : لا أفعل كذا ما لاح كوكب .

وما أضاء الفجر .

وما اختلف الليل والنهار .

وما بل بحر صوفة .

وما تغنت حمامة إلى غير ذلك من كلمات التأبيد عندهم لا تعليق قرارهم فيها بدوام هذه

السموات والأرض ، فإن النصوص القاطعة دالة على تأبيد قرارهم فيها وانقطاع دوامهما ، وروي هذا عن ابن جرير ، وجوز أن يحمل ذلك على التعليق والمراد بالسموات والأرض سموات الآخرة وأرضها ، وهي دائمة للأبد ، قال الزمخشري : والدليل على أن لها سموات وأرضاً قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرض غَيْرَ الأَرض ﴾ [إبراهيم : 48] وقوله سبحانه : ﴿ وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَاء ﴾ [الزمر : 74] ولأنه لا بد لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم إما سماء يخلقها الله تعالى أو يظلهم العرش ، وكل ما أظلك فهو سماء انتهى .

(196/385)

قال القاضي : وفيه نظر لأنه تشبيه بما لا يعرف أكثر الخلق وجوده ودوامه ومن عرفه فإنما عرفه بما يدل على دوام الثواب والعقاب فلا يجدي له التشبيه ، وأجاب عنه صاحب الكشف بأنه إذا أريد ما يظلهم وما يقلهم فهو ظاهر السقوط لأن هذا القدر معلوم الوجود لكل عاقل واما الدوام فليس مستفاداً من دليل دوام الثواب والعقاب بل مما يدل على دوام الجنة والنار سواء عرف أنهما دار الثواب والعقاب وأن أهلهما السعداء والأشقياء من الناس أولاً على أنه ليس من تشبيه ما يعرف بما لا يعرف بل العكس انتهى ، وتعقبه الجلبي

بأن قوله : لكل عاقل غير صحيح فانه لا يعترف بذلك إلا المؤمنون بالآخرة ، وقوله الدوام مستفاد مما يدل على دوام الجنة والنار لا يدفع ما ذكره القاضي لأنه يريد أن المشبه به ليس أعرف من المشبه لا عند المتدين لأنه يعرف كليهما من قبل الأنبياء عليهما السلام وليس فيه ما يوجب أعرفية دوام سموات الآخرة وأرضها وليس مراده أن دوامهما مستفاد من خصوص الدليل الدال على الثواب والعقاب بعينه فإنه لا يهمه ليمنع ولا عند غير المتدين فانه لا يعترف به ولا بها ولا يعرفه ، وقوله : على أنه ليس من تشبيه الخ مبني على أنه تشبيه تلك الدار بهذه الذار وليس بذلك ، وإنما المراد التشبيه الضمني لدوامهم بدوامهما انتهى ، وفيه بحث .

والحق أن صحة إرادة ذلك مما لا ينبغي أن ينتطح فيه كبشان ، وفي الاختبار عن ابن عباس .

والحسن .

والسدى .

وغيرهم ما يقتضيه ، ومن تأمل منصفاً بعد تسليم أن هناك تشبيهاً يظهر له أن المشبه به أعرف من المشبه وأقرب إلى الذهن ، واتحاد طريق العلم بهما لا يضر في ذلك شيئاً بداهة أن ثبوت الحيز أعرف وأقرب إلى الذهن من ثبوت ما تحيز فيه وإن وردا من طرق السمع كما لا يخفى على أن اشتراط كون المشبه به أعرف في كل تشبيه غير مسلم عند الناظر في المعاني ، نعم المتبادر من السموات والأرض هذه الأجرام المعهودة عندنا ، فالأولى أن تبقى على ظاهرها ويجعل الكلام خارجاً مخرج ما اعتادته العرب في محاوراتهم عند إرادة التبعيد والتأبيد ، وهو أكثر من أن يحصى ، ولعل هذا أولى أيضاً مما في تفسير ابن كثير من حمل السموات والأرض على الجنس الشامل لما في الدنيا والآخرة أي المظل والمقل في كل دار ، وفي الدرر أنه يمكن أن يكون المراد أنهم خالدون بمقدار مدة بقاء السموات والأرض التي يعلم انقطاعها ثم يزيدهم سبحانه على ذلك ويخلدهم ويؤبد مقامهم ، ولعله أراد مدة بقائهما منذ خلقهما الله تعالى إلى أن يبدلهما لا مدة بقائهما بعد دخولهم النار يوم القيامة لأنهما يبدلان قبل دخولهم .

والآية على هذا من قبيل قوله سبحانه : ﴿ لابثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً ﴾ [النبأ : 23] ﴿ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ قيل : هو استثناء من الضمير المستكن في ﴿ خالدين ﴾ وتكون ﴿ مَا ﴾ واقعة على نوع من يعقل كما في قوله سبحانه : ﴿ فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مّنَ النساء ﴾ [النساء : 3] أو واقعة على من يعقل على مذهب من يرى وقوعها عليه مطلقاً .

والمراد بمن شاء فساق الموحدين فإنهم يخرجون منها كما نطقت به الأخبار ، وذلك كاف في صحة الاستثناء لأن زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض وهم المراد بالاستثناء الثاني فانهم مفارقون عن الجنة أيام عذابهم ، والتأبيد من مبدأ معين ينتقض باعتبار الابتداء كما ينتقض باعتبار الانتهاء ، ألا ترى أنك إذا قلت : مكثت يوم الخميس في البستان إلا ثلاث ساعات جاز أن يكون ذلك الزمان الواقع فيه عدم المكث من أوله ومن آخره ، وهؤلاء وإن شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بإيمانهم ، ولا يقال : فعلى هذا لا يكون قوله سبحانه : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : 105] تقسيماً صحيحاً لأن من شرطه أن تكون صفة كل قم منفية عن قسيمه لأن ذلك الشرط حيث الانفصال حقيقي أو مانع من الجمع ، وههنا المراد أن أهل الموقف لا يخرجون من القسمين وأن حالهم لا تخلو عن السعادة والشقاوة ، وذلك لا يمنع اجتماع الأمرين في شخص واحد باعتبارين انتهى ، وهو ما ذكره الإمام وآثره القاضي ، واعترض بأنه لا دلالة في اللفظ على المبدأ المعين ولو سلم فالاستثناء يقتضي إخراجاً عن حكم الخلود وهو لا محالة بعد الدخول ، فكيف ينتقض بما سبق عليه ؟ كيف وقد سبق قوله تعالى : ﴿ فِي الْجَنَّةِ ﴾ ؟ ثم قيل : فإن قلت : زمان

تفرقهم عن الموقف هو الابتداء وهو رخر يوم يأتي قلت : إن ادعى أن الابتداء من ابتداء ذلك الزمان جاز أن يسلم دلالة اللفظ عليه ولا ينفع لأن الكل في الدارين غير خالدين على هذا التقدير ، وأما جعل ابتداء المدة من انتهائه فلا ، وبأن تقابل الحكمين يدل على تقابل القسمين بمعنى منع الجمع مطلقاً ؛ وأجيب بعد غمض العين عما في ذلك من الخروج عن آداب المناظرة بأن مبدأ زمان خلود أهل الجنة من زمان دخول أهل النار في النار ، ويدل على ذلك اتحاد معيار الخلودين ، وهو ﴿ مَا دَامَتِ السموات والأرض ﴾ فإنه يدل على زمان خلودهما ولا اتحاد مع الاختلاف في المبدأ ، والاستثناء عن حكم

(199/385)

الخلود من مبدأ معين يكون بالإخراج عن حكم الدخول الذي يتضمنه الخلود فيها لا محالة .

وخلاصة المعنى على هذا أن الشعداء كلهم خالدون في الجنة من زمان دخول أهل النار في النار إلا العصاة منهم الذين أراد الله سبحانه دخولهم في النار مدة معينة علمها عنده جل وعلا ، وما ذكر من حديث تقابل الحكمين إن أريد تقابلهما بمعنى منع الجمع فلا تقابل فيهما بهذا المعنى لاجتماعهما في العصاة ، وإن أريد مطلقاً فلا دلالة على تقابل القسمين بذلك المعنى انتهى .

ولا يخفى على المنصف ما في ذلك القول من التكلف ومخالفة الظاهر والانتصار له بما ذكر لا يجديه نفعاً ، وقيل : هو استثناء من الضمير المتقدم إلا أن الحكم الخلود في عذاب النار ، وكذا يقال فيما بعد : إن الحكم فيه الخلود في نعيم الجنة وأهل النار ينقلون منها إلى الزمهرير وغيره من العذاب أحياناً وكذلك أهل الجنة ينعمون بما هو أعلى منها كالاتصال بجناب القدس والفوز برضوان الله تعالى الذي هو أكبر وما يتفضل به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو سبحانه وتعالى ، وإلى هذا ذهب الزمخشري سالاً سيف البغي والاعتزال ، وقد رده العلامة الطيبي وأطال الكلام في ذلك .

وقال "صاحب الكشف" : إن ذلك في أهل النار ظاهر لأنهم ينقلون من حر النار إلى برد الزمهرير ، والرد بأن النار عبارة عن دار العقاب غير وارد لأنا لا ننكر استعمال النار فيها تغليباً أما دعوى الغلبة حتى يهجر الأصل فكلا ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ نَاراً تلظى ﴾ [الليل : 14] ﴿ نَاراً وَقُودُهَا الناس والحجارة ﴾ [التحريم : 6] وكم .

(200/385)

وكم ، وأما رضوان الله تعالى عن أهل الجنة وهم فيها فيأبى الاستثناء كيف وقوله سبحانه : ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ لا يدل بظاهره على أنهم منعمون بها فضلاً عن انفرادها بتنعمهم إلا

أن يخصص بجنة الثواب لا محض التفضل ، وكفاه بطلاناً التخيص من غير دليل ، واعترض

بأن لك أن تقول : هجر الأصل في الآيتين اللتين ذكرتا علم من الوصف ، وفي هذه الآية ذكرها

في مقابلة الجنة يعضد أن المراد بها دار العقاب مطلقاً .

وقيل : إن الاستثناء مفرغ من أعم الأوقات و ﴿ مَا ﴾ على أصلها لما لا يعقل وهو الزمان

والحكم الكون في النار ، والمعنى أما الذين شقوا ففي النار في كل زمان بعد إتيان ذلك اليوم

إلا زماناً شاء الله تعالى فيه عدم كونهم فيها وهو زمان موقف الحساب ، واعترض بأن

عصاة المؤمنين الداخلين النار إما سعداء فيلزم أن يخلدوا في الجنة فيما سوى الزمان

المستثنى وليس كذلك .

(201/385)

أو أشقياء فيلزم أن يخلدوا في النار وهو خلاف مذهب أهل السنة ، وأيضاً تأخره عن

الحال ولا مدخل لها في الاستثناء لا يفصح ، والإبهام بقوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ

﴾ والتفخيم الذي يعطيه لا يبقى له رونق ، وأجيب بأنه قد يقال : إن القائل بذلك يخص

الأشقياء بالكفار والسعداء بالأتقياء ويكون العصاة مسكوتاً عنهم هنا فلا يرد عليه

شيء إن كان سنياً وإن كان معتزلياً فقد وافق سنن طبعه ، ويجاب عما بعد بالمنع ، وقيل

: أمر الاستثناء ما علمت إلا أن المستثنى مدة لبثهم في الدنيا أو البرزخ ويقطع النظر عن ﴿ يَوْمَ يَأْتِي ﴾ [هود : 105] والمعنى أنهم في النار جميع أزمان وجودهم إلا زماناً شاء الله تعالى لبثهم في الدنيا أو البرزخ ، والمراد مع زمان الموقف إذ ليسوا في زمانه أيضاً في النار إلا أن يراد بالنار العذاب فلا يحتاج للمعية لكن يرد أنهم معذبون في البرزخ أيضاً إلا أن يقال : لا يعتد بذلك لأنه عذاب غير تام لعدم تمام حياتهم فيه ، وأورد عليه ما أورد على ما قبله ، وأجيب بأنه إنما يرد لو كان المستثنى في الاستثناء الثاني هو ذلك الزمان المستثنى في الاستثناء الأول وهو غير مسلم فليكن المستثنى منه زمان لبثهم في النار مع ذلك الزمان المستثنى في الآية الأولى فإن المستثنى ليس فيه ما يدل على تعيين زمان حتى لا يمكن الزيادة عليه وهو كما ترى .

وقيل : هو استثناء من قوله سبحانه : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ [هود : 106] ورد بأن المقابل لا يجري فيه هذا ويبقى الاشكال ، وأجيب بأن المراد ذكر ما تحتمله الآية والإطراد ليس بلازم ، وتعقب بأنه ليس المراد إلا بيان ضعف هذا الوجه وكفى بعدم الإطراد ضعفاً ، وقيل : ﴿ إِلا ﴾ بمعنى سوى كقولك : لك عليّ ألفان إلا الألف التي كانت يعني سواها ، ونقل ذلك عن الزجاج .

والفراء .

والسجاوندي ، والمعنى سوى ما شاء ربك من الزيادة التي لا آخر لها على مدة بقاء السموات والأرض ، والاستثناء في ذلك منقطع ، ويحتمل أن يريدوا أن ﴿ إِلا ﴾ بمعنى غير صفة لما قبلها والمعنى يخلدون فيها مقدار مدة السموات والأرض سوى ما شاء الله تعالى مما لا يتناهى ، وضعف هذا القيل بأنه يلزم حمل السموات والأرض على هذين الجسمين المعروفين من غير نظر إلى معنى التأبيد وهو فاسد ، وقيل : ﴿ إِلا ﴾ بمعنى الواو أي وما شاء ربك زائداً على ذلك ، واستشهد على مجيئها بمعنى الواو بقوله

: وكل أخر مفارقه أخوه . . .

لعمر أبيك (إلا) الفرقدان

وفيه أن هذا قول مردود عند النحاة ، وقال العلامة الطيبي : الحق الذي لا محيد عنه أن يحمل ﴿ مَا ﴾ على من لإرادة الوصفية وهي المرحومية ، و﴿ خالدين ﴾ حال مقدرة من ضمير الاستقرار أن في النار ، والمعنى وأما الذين شقوا ففي النار مقدرين الخلود إلا المرحوم الذي شاء الله تعالى أن لا يستقر مخلداً فيفيد أن لا يستقر فيها مطلقاً أو يستقر غير

مخلد ، وأحوال العصاة على هذا النهج كما علم من النصوص ، وفي ذلك إيذان بأن إخراجهم بمحض رحمة الله تعالى فينطبق عليه قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ وتعقب بأنه لا يجري في المبال إلا بتأويل الإمام وقد مر ما فيه ، أو بجعله من أصل الحكم ويقتضي أن لا يدخلوا أصلاً ، وإذا أول بمقدرين فلو جعل استثناء من مقدرين لم يتجه ، ومن قوله تعالى : ﴿ فِى النار ﴾ فلا يكون لهم دخول أصلاً ، ودلالة ﴿ مَا ﴾ لإبامه إما على التفخيم أو التحقير ولا يطابق المقام ، وقيل : وقيل ، والأوجه أن يقال : إن الاستثناء في الموضعين مبني على الفرض والتقدير فمعنى إلا ما شاء إن شاء لو فرض أن الله تعالى شاء إخراجهم من النار أو الجنة في زمان لكان مستثنى من مدة خلودهم لكن ذلك لا يقع لدلالة القواطع على عدم وقوعه ، وهذا كما قال الطيبي من أسلوب ﴿ حتى يَلِجَ الجمل فِى سَمِّ الخياط ﴾ [الأعراف : 40] ﴿ وَلاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الاولى ﴾ [الدخان : 56] وذكر أنه وقف على نص من قبل الزجاج يوافق ذلك .

وفي المعالم عن الفراء أيضاً ما يوافقه حيث نقل عنه أنه قال : هذا استثناء استثناه سبحانه ولا يفعله كقولك : والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك وعزيمتك أن تضربه ، وحذو القذة بالقذة ما نقله قبل عن بعضهم أن المعنى لو شاء لأخرجهم لكنه لا يشاء لأنه سبحانه حكم لهم بالخلود .

وفي البحر عن ابن عطية نقلاً عن بعض ما هو بمعناه أيضاً حيث قال : وأما قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ فقيل فيه : إنه على طريق الاستثناء الذي ندب الشرع إلى استعماله في كل كلام فهو على نحو قوله جل وعلا : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إِن شَاءَ اللَّهُ ءامِنِينَ ﴾ [الفتح : 27] استثناء في واجب ، وهذا الاستثناء في حكم الشرط كأنه قيل : إن شاء ربك فليس يحتاج أن يوصف بمتصل ولا منقطع ، وممن ذهب إلى ذلك أيضاً الفاضل ميرزاجان الشيرازي في تعليقاته على تفسير القاضي ونص على أنه من قبيل التعليق بالمحال حتى يثبت محالية المعلق ويكون كدعوى الشيء مع بينة ، وهو أحد الأوجه التي ذكرها السيد المرتضى في درره ، وتفسير الاستثناء الأول بالشرط أخرجه ابن مردويه عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ذكر ذلك الجلال السيوطي في الدر المنثور ، ولعل النكتة في هذا الاستثناء على ما قيل : إرشاد العبد إلى تفويض الأمور إليه جل شأنه وإعلامهم بأنها منوطة بمشيئته جل وعلا يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لاحق لأحد عليه ولا يجب عليه شيء كما قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ .

وذكر بعض الأفاضل أن فائدته دفع توهم كون الخلود أمراً واجباً عليه تعالى لا يمكن له سبحانه نقضه كما ذهب إليه المعتزلة حيث أخبر به جل وعلا مؤكداً ، والمراد بالذين شقوا على هذا الوجه الكفار فقط فإنهم الأحقاء بهذا الاسم على الحقيقة وبالذين

سعدوا المؤمنون كافة مطيعهم وعاصيهم فيكون التقسيم في قوله سبحانه : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : 105] للانفصال الحقيقي ولا ينافيه قوله تعالى : ﴿ فَفِى الجنة ﴾ [هود : 108] لأنه يصدق بالدخول في الجملة .

(205/385)

وفي الكشف بعد نقل أن الاستثناء من باب ﴿ حتى يَلِجَ الجمل ﴾ [الأعراف : 40] فإن قلت : فقد حصل مغزي الزمخشري من خلود الفساق ، قلت : لا كذلك لأنهم داخلون في السعداء ، والآية تقتضي خلود السعيد وذلك بعد دخوله فيها لا محالة ، ولا تنفي كينونته في النار قبل دخوله في الجنة فإن اللفظ لا يقتضي أن يدخلوا أعني السعداء كلهم في الجنة معا كيف والقاطع يدل على دخولهم أولا فأولا عى حسب مراتبهم انتهى فتأمل ، فإن الآية من المعضلات .

وإنما لم يضمر في ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ الخ كما هو الظاهر لتربية المهابة وزيادة التقرير ، واللام في ﴿ لّمّاً ﴾ قيل : للتقوية أي فعال ما يريده سبحانه لا يتعاصى عليه شيء بوجه من الوجوه .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ

رَبُّكَ ﴾

الكلام فيه ما علمت خلا أنه لم يذكر ههنا أن لهم بهجة وسروراً كما ذكر في أهل النار ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ [هود : 106] لأن المقام مقام التحذير والإنذار ، و﴿ سُعِدُواْ ﴾ بالبناء للمفعول قراءة حمزة.

والكسائي.

وحفص ، ونسبت إلى ابن مسعود .

وطلحة بن مصرف.

وابن وثاب.

والأعمس ، وقرأ جمهور السبعة ﴿ سَعِدُواْ ﴾ بالبناء للفاعل ، واختار ذلك علي بن سليمان ، وكان يقول : عجباً من الكسائي كيف قرأ ﴿ سُعِدُواْ ﴾ مع علمه بالعربية ، وهذا عجيب منه فإنه ما قرأ إلا ما صح عنده ولم يقرأ بالرأي ولم يتفرد بذلك ، وروي عنه أنه احتج لذلك بقولهم : مسعود ، وتعقب بأنه لا حجة فيه لاحتمال أنه كان مسعود فيه ، وذكر أن الفراء حكى أن هذيلاً تقول : سعده الله تعالى بمعنى أسعده ، وقال الجوهري : سعد بالكسر فهو سعيد مثل قولهم : سلم فهو سليم ، وسعد فهو مسعود ، وقال أبو نصر عبد الرحيم القشيري : ورد سعده الله تعالى فهو مسعود ، .

وأسعده الله تعالى فهو مسعد ، وما ألطف الإشارة في شقوا .

وسعدوا على قراءة البناء للفاعل في الأول والبناء للمفعول في الثاني ، فمن وجد ذلك فليحمد الله تعالى .

ومن لم يجد فلا يلومنّ إلا نفسه ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أي غير مقطوع عنهم ولا مخترم ، ومصدره الجذ ، وقد جاء جذذت .

وجددت بالذال المعجمة والدال كما قال ابن قتيبة ، وبالمعجمة أكثر ، ونصب ﴿ عطاءً ﴾ على المصدرية من معنى الجملة لأن قوله سبحانه : ﴿ سُعِدُواْ فَفِى الجنة خالدين فِيهَا ﴾ يقتضي إعذاءً وإنعاماً فكأنهم قيل : يعطيهم إعطاءً وهو إما اسم مصدر هو الاعطاء .

أو مصدر بحذف الزوائد كقوله تعالى : ﴿ أَنبَتَكُمْ مّنَ الأرض نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] ، وقيل : هو نصب على الحالية من المفعول المقدر للمشيئة .

أو تمييز ، فإن نسبة مشيئة الخروج إلى الله تعالى تحتمل أن تكون على جهة عطاء مجذوذ ، وعلى جهة عطاء غير مجذوذ فهو رافع للإبهام عن النسبة ، ولعل النصب على المصدرية

أولى وكأنه جيء بذلك اعتناءاً ومبالغة في التأبيد ودفعاً لما يتوهم من ظاهر الاستثناء من الانقطاع ، وقيل : إن ذلك لبيان أن ثواب أهل الجنة وهو إما نفس الدخول .

(207/385)

أو ما هو كاللازم البين له لا ينقطع فيعلم منه أن الاستثناء ليس للدلالة على الانقطاع كما في العقاب بل للدلالة على ترادف نعم ورضوان من الله تعالى ؛ أو لبيان النقص من جانب المبدأ ولهذا فرق في النظم بين التأبيد من حيث تمم الأول بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود : 107] للدلالة على أنه ينعم بعض من يعذبه ويبقى غيره كما يشاء ويختار ؛ والثاني بقوله تعالى : ﴿ عطاءاً ﴾ الخ بياناً لأن إحسانه لا ينقطع ، ومن الناس من تمسك بصدر الآية أنه لا يبقى في النار أحد ولم يقل بذلك في الجنة ، وتقوى مطلبه ذاك بما أخرجه ابن المنذر عن الحسن قال : قال عمر : لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون فيه ، وبما أخرج إسحاق بن راهويه عن أبي هريرة قال : سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد ، وقرأ

﴿ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الذين شَقُواْ ﴾ [هود : 106] الآية ، وأخرج ابن المنذر ، وأبو الشيخ عن إبراهيم قال : ما في القرآن آية أرجى لأهل النار من هذه الآية ﴿ خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ

السموات والأرض إِلَّا مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ [هود : 801] قال : وقال ابن مسعود : ليأتين عليها زمان تصفق فيه أبوابها ، وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال : جهنم أسرع الدارين عمراناً وأسرعهما خراباً إلى غير ذلك من الآثار .

(208/385)

وقد نص ابن الجوزي على وضع بعضها كخبر عن عبد الله بن عمرو بن العاص بأتي على جهنم يوم ما فيها من ابن آدم أحد تصفق أبوابها كأنها أبواب الموحدين ، وأول البعض بعضها ؛ ومر شيى من الكلام في ذلك ، وأنت تعلم أن خلود الكفار مما أجمع عليه المسلمون ولا عبرة بالمخالف ، والقواطع أكثر من أتي تحصى ، ولا يقاوم واحداً منها كثير من هذه الأخبار ، ولا دليل في الآية على ما يقوله المخالف لما علمته من الوجوه فيها ولا حاجة إلى دعوى النسخ فيها كما روي عن السدى بل لا يكاد يصح القول بالنسخي مثل ذلك ، هذا وقد ذكر أن في الآية صيغة الجمع مع التفريق والتقسيم أما الجمع ففي قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [هود : 105] فإن النفس كما تقرر عامة لكونها نكرة في سياق النفي ، وأما التفريق ففي قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : 105] وأما التقسيم ففي قوله سبحانه : ﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ ﴾ [هود : 106] الخ ونظيرها

في ذلك قول الشريف القيرواني :

لمختلفي الحاجات جمع ببابه . . .

فهذا له فن وهذا له فن

فللخامل العليا وللمعدم الغني . . .

وللمذنب العتبي وللخائف الأمن

ومن هنا يعلم حال الفاءين فاء ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ وفاء ﴿ فَأَمَّا ﴾ الخ ، قيل : وفي العدول عن فأما الشقى ففي النار خالداً فيها الخ وأما السعيد أو المسعود ففي الجنة خالداً فيها الخ إلى ما في النظم الجليل إشارة إلى سبق هذه الشقاوة والسعادة وأن ذلك أمر قد فرغ منه كما يدل عليه ما أخرجه أحمد .

والترمذي .

والنسائي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان فقال : أتدرون ما هذان الكتابان ؟ قلنا : لا يا رسول الله أما تخبرنا ؟ فقال للذي في يده اليمنى : هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وآبائهم وقبائلهم

أجلهم على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً ، ثم قال للذي في شماله : هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وآبائهم وقبائلهم ثم أجملهم على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً ، فقال أصحابه : ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه ؟ فقال : سدّدوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل ، وأن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل ، ثم قال صلى الله عليه وسلم بيده فنبذهما وقال : فرغ ربكم من العباد فريق في الجنة وفريق في السعير" وجاء في حديث "الشقي من شقى في بطن أمه والسعيد من سعد في بطن أمه" وحمل ذلك بعضهم على ظهور الأمر للملك الموكل بالنطفة وإلا فالأمر قبل ذلك ، وبعضهم فسر الأمر بالثبوت العلمي الذي يظهر المعلوم منه إلى هذا الوجود الخارجي وهو ضرب من التأويل كما لا يخفى ، ولا يأبى هذه الإشارة عند التأمل ما أخرجه الترمذي وحسنة .

وأبو يعلى .

وابن مردويه .

وغيرهم عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال : "لما نزلت ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : 105] قلت : يا رسول الله فعلام نعمل على شيء قد فرغ منه ، أو على شيء لم يفرغ منه ؟ قال : بل على شيء قد فرغ وجرت به الأقلام يا عمر ولكن كل

ميسر لما خلق له" ، وقيل : كان الظاهر هنا التعبير بالمضارع إلا أنه عبر بالماضي إشارة إلى تحقق الوقوع وأتى بالموصول جمعاً إيذاناً بأن المراد بشقى وسعيد فريق شقي .

(210/385)

وفريق سعيد ، ولم يقل أشقياء وسعداء لأن الإفراد أوفق بما قبل ، وقيل : الإفراد أولا للاشارة إلى أن كل فريق من حيث اتصافه بالشقاوة أو السعادة كشيء واحد ، وجمع ثانياً لما أن دخول كل فريق في الجنة والنار ليس جملة واحدة بل جمعاً جمعاً وزمرة وله شواهد من الكتاب والسنة .

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ ﴾

أي في شك ، والفاء لترتيب النهي على ما قص من القصص وبين في تضاعيفها من العواقب الدنيوية والأخروية أي فلاتك في شك بعد أن بين لك ما بين ﴿ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاء ﴾ أي من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ضلال مؤد إلى مثل ما حل بمن قبلهم ممن قصصت عليك سوء عاقبة عبادتهم فمن ابتدائية ، وجوز أن تكون بمعنى في ، و ﴿ مَا ﴾ مصدرية ، وجوز أن تكون موصولة وفي الكلام مضاف محذوف أي من حال ما يعبدونه من أنه لا يضر ولا ينفع إذ لا معنى للمرية في أنفسهم ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءابَاؤهُم مّن قَبْلُ ﴾ استئناف في

بياني وقع تعليلاً في المعنى للنهي عن المرية ، والاستثناء إما من مصدر مقدر أو مفعول محذوف أي هم وآباؤهم سواء في الشرك ما يعبدون عبادة إلا كعبادة آبائهم .

أو ما يعبدون شيئاً إلا مثل الذي عبدون من الأوثان وقد بلغك ما لحق آباؤهم بسبب ذلك فيلحقهم مثله لأنه التماثل في الأسباب يقتضي التماثل في المسببات ، ومعنى ﴿ كَمَا يَعْبُدُ ﴾ كما كان عبد فحذف لدلالة ﴿ قَبْلُ ﴾ عليه ، وكأن اختيار هذا للإشارة إلى أن ذلك كان عادة مستمرة لهم ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ ﴾ يعني هؤلاء الكفرة ﴿ نَصِيبَهُمْ ﴾ حظهم من العذاب كما وفينا آباءهم حظوظهم .

(211/385)

أو من الرزق فيكون عذراً لتأخر العذاب عنهم مع قيام ما يوجبه ، وفي هذا من الإشارة إلى مزيد فضل الله تعالى وكرمه ما لا يخفى حيث لم يقطع رزقهم مع ما هم عليه من عبادة غيره ، وفي التعبير بالنصيب على الأول تهكم لأنه ما يطلب ويراد والعذاب بمعزل عن ذلك ، وتفسيره بما ذكر مروى عن ابن زيد ، وبالرزق عن أبي العالية ، وعن ابن عباس أن المراد به ما قدر من خير أو شر ، وقرأ ابن محيصن ﴿ لَمُوَفُوهُمْ ﴾ مخففاً من أوفى ﴿ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ حال مؤكدة من النصيب كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : 25] وفائدته

دفع توهم التجوز ، وإلى هذا ذهب العلامة الطيبي ، وقال : إنه الحق .

وفي الكشاف أنه جيء بهذه الحال عن النصيب الموفى لأنه يجوز أن يوفى وهو ناقص ويوفى وهو كامل ألا تراك تقول : وفيته شطر حقه .

وثلث حقه .

وحقه كاملا .

وناقصا انتهى ، وتعقبه أبو حيان بأن هذه مغلطة لأنه إذا قيل : وفيته شطر حقه فالتوفية إنما وقعت في الشطر وكذا ثلث حقه ، والمعنى أعطيته الشطر أو الثلث كاملاً لم أنقصهمنه شيئاً ، وأما قولك : وفيته حقه كاملاً فالحال فيه مؤكدة لأن التوفية تقتضي الإكمال ، وأما قولك : وفيته حقه ناقصاً فغير صحيح للمنافاة انتهى .

وقال ابن المنير : إنه وهم لأن التوفية تقتضي عدم نقصان الموفى كاملاً كان أو بعضاً فقولك : وفيته نصف حقه يستلزم عدم نقصان النصف الموفى ، فالسؤال عن وجه انتصاب هذه الحال قائم بعد ، والأوجه أن يقال : استعملت التوفية بمعنى الإعطاء كما استعمل الووفي بمعنى الأخذ ، ومن قال : أعطيت فلاناً حقه كان جديراً أن يؤكده بقوله : ﴿ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ انتهى ، وفي الكشف أقول في تعليق التوفية بالنصف مع أن الكل حقه ما يدل على مطلوبه إذ لا فرق بين قولك : نصف حقه وحقه منصفاً ، فجاز وفيته نصيبه منصفاً

ونصيبه ناقصاً ، ويحسن فائدة التأكيد ويظهر أن الواهم من هو فتأمل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(212/385)

وقال ابن عجيبة :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾

قلت : (يوم يأتي) : العامل في الظرف : « لا تكلم » ، أو : اذكر ، مضمر . والضمير في « يأتي » : يعود على اليوم . وقال الزمخشري : يعود على « الله » ؛ لعود الضمير عليه في قوله : (إلا بإذنه) ، وضمير « منهم » على أهل الموقف المفهوم من قوله : (لا تكلم نفس) .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ يوم يأتي ﴾ ذلك اليوم المشهود ، وهو : يوم الجزاء ﴿ لا تكلم ﴾ ؛ لا تتكلم ﴿ نفس ﴾ بما ينفع وينجي في جواب أو شفاعة ﴿ إلا بإذنه ﴾ تعالى ، وهذا كقوله : ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحما ﴾ [النبأ : 38] ، وهذا موقف ، وقوله ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 35 36] ، في موقف آخر . والمأذون فيه هي الجوابات الحقية ، أو الشفاعات المرضية ، والممنوع منه هي الأعذار الباطلة .

ثم قسّم أهل الموقف، فقال: ﴿ فمنهم شقي ﴾ وجبت له النار بمقتضى الوعيد؛ لكفره وعصيانه. ﴿ و ﴾ منهم ﴿ سعيد ﴾ وجبت له الجنة بمقتضى الوعد؛ لإيمانه وطاعته. ﴿ فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق ﴾، الزفير: إخراج النفس، والشهيق: رده. ويستعملان في أول النهيق وآخره. أو الزفير: صوت المحزون، والشهيق: صوت الباكي. أو الزفير من الحلق، والشهيق من الصدر. والمراد بهما: الدلالة على شدة الكرب والغم، وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه، وانحصرت فيه روحه، أو تشبيه حالهم بأصوات الحمير. قاله البيضاوي.

﴿ خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض ﴾ أي سماوات النار وأرضها. وهي دائمة أبداً، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات ﴾ [إبراهيم: 48]، أو يكون عبارة عن التأبيد: كقوله العرب: ما لاح كوكب وما ناح الحمام، وشبه ذلك بما يقصد به الدوام، وهذا أصح.

وقوله: ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾، للناس هنا كلام واختلاف. وأحسن ما قيل فيه؛ ما ذكره البقاعي، قال: والذي ظهر لي والله أعلم أنه لما تكرر الجزم بالخلود في الدارين، وأن

الشرك لا يغفر ، والإيمان موجب للجنة ، فكان ربما يُظن أنه لا يمكن غير ذلك ، كما ظنه المعتزلة ، لا سيما إذا تأمل القطع في مثل قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء : 48] ، مع تقييد غيره بالمشيئة في قوله : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ جاء هذا الاستثناء معلماً أن الأمر فيه إلى الله كغيره من الأمور ، له أن يفعل في كلها ما يشاء ، وإن جُزم القوم فيه ، لكنه لا يقع غير ما أخبره به ، وهذا كما تقول : اسكن هذه الدار عمرك ألا ما شاء زيد ، وقد لا يشاء زيد شيئاً . فكما أن التعليق بدوام السماوات والأرض غير مراد الظاهر ، كذلك الاستثناء فلا يشاء الله قطع الخلود لأحد من الفريقين ، وسوقه هكذا أدل على القدرة وأعظم في تقليد المنة .

(214/385)

وقال الجلال السيوطي ، في « البدور السافرة في أمور الآخرة » : اعلم أن للعلماء في هذا الاستثناء أقوالاً ، أشبهها بالصواب : أنه ليس باستثناء ، وإنما « إلا » . بمعنى « سوى » كما تقول : لي عليك ألف درهم إلا ألفان ، التي لي عليك ، أي : سوى الألفين ، والمعنى : خالدين فيها قدر مدة السماوات والأرض في الدنيا سوى ما شاء ربك من الزيادة عليها ، فلا منتهى له . وذلك عبارة عن الخلود . والنكتة في تقديم ذكر مدة السماوات والأرض :

التقريب إلى الأذهان بذكر المعهود أولاً . ثم أردفه بما لا إحاطة للدهر به ، والجري على عادة العرب في قولهم في الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده : لا آتيك ما دامت السماوات والأرض . انتهى انتهى . اهـ ومثله لابن عطية . قال : ويؤيده هذا التأويل قوله بعدُ : ﴿ عطاء غير مَجذُوذ ﴾ أي : غير مقطوع ، وهذا قول الفراء ، فإنه يقدر الاستثناء المنقطع بسوى ، وسيبويه بلكن . انتهى انتهى . اهـ وقال الورتجبي : قال ابن عطاء : ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ من الزوائد لأهل الجنة من الثواب . ومن الزوائد لأهل النار من العقاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ من غير حجر ولا اعتراض .

﴿ وأما الذين سُعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ كما تقدم . ﴿ عطاء غير مَجْذُوذٍ ﴾ : غير مقطوع ، وهو تصريح بأن الثواب غير مقطوع ، وتنبيه على أن المراد من الاستثناء تعليم الأدب فقط . والله تعالى أعلم .

الإشارة : السعادة على قسمين : سعادة الظاهر ، وسعادة الباطن . والشقاوة كذلك . أما سعادة الظاهر ففي الدنيا بالراحة من التعب ، وفي الآخرة بالنجاة من العذاب . وأما سعادة الباطن ففي الدنيا براحة القلب من كد الهموم والأحزان ، واليقين والاطمئنان ، في حضرة الشهود والعيان ، وفي الآخرة بدوام النظر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر . وشقاوة الظاهر باتصال الكد والتعب . وشقاوة الباطن بالبعد عن الله ، وافتراقه عن حضرة مولاه .

قال في نوادر الأصول : الشقاوة : فراق العبد من الله ، والسعادة اندساسه إليه . انتهى

انتهى . ا هـ وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه في حزبه الكبير : والسعيد من أغنيته عن السؤال منك ، والشقي حقاً من حرمته مع كثرة السؤال لك .

قال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي في حاشيته عليه : ومدار السعادة : الجمع على الله والغيبة عمن سواه ، فيفنى العبد عن وجوده ، ويبقى بربه ، فيشغله استغراقه في شهوده عن الشعور بغيريته ، وينمحي عنه أمل شيء يرجى ، أو خوف شيء يُتقى ، فليس له عن سوى الحق إخبار ، ولا مع غيره قرار . وعندما حل بهذه الحضرة ، وظفر بقُرة عينه ، وحياة روحه ، وسر حياته ، لا يتصور منه سُول ، ولا فوات مأمول ، « أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدته كانت الأكوان معك » ، « اشْتَاقَتْ الجَنَّةُ إِلى عَلِيٍّ وعَمَّارٍ وسَلمَانَ وصهيب وبلال » كما في الأثر .

نعم، إن رد إليه تصور منه الدعاء على وجه العبودية، وأداء الأمر وإظهار الفاقة، لا على وجه الاقتضاء والسببية. «جل حكم الأزل أن ينضاف إلى الأسباب والعلل».

ثم قال: وعلى ما تقرر في السعادة، فالشقاوة: احتجاب العبد بوجوده عن شهوده، فلا يَنفَكُّ عن أمل، ولا عن خوف عطب. فيستحثه الطبع للسؤال جلباً أو دفعاً. وهو في ذلك في شقاء، سواء أعطى أو منع؛ لفقده قرةَ عينه وراحة قلبه، لأَسْره في طبعه، ومكابدة أمره وهلعه. كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً إِلَّا المصلين ﴾ [المعارج: 19 22]، فلم يستثن من كد الطبع ومكابدته غير أهل الصلاة الدائمة، وهم أهل الوجهة لله، المواجَهين بعناية الله، المتحققين بذكر الله. وقد وَرَدَ: «هُمُ القَوْم لاَ يَشْقَى جَلِيسُهُم» فضلاً عنهم. وعلى الجملة: فالمراد بالسعادة والشقاوة في كلامه أي الشاذلي الباطنة لا الظاهرة، والقلبية لا القالبية. وإن كان قد تطلق على ذلك أيضاً، لكن لكل مقام مقال. وقد قال تعالى: ﴿ فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى ﴾ [طه: 123].

قال في نوادر الأصول: تَابعُ القرآن قد أجير من شقاء العيش في الدنيا؛ لراحة قلبه من غموم الدنيا وظلماتها، وسَيره في الأمور بقلبه في راحة؛ لأنه منشرحُ الصدر واسعه، وبدنه في راحة؛ لأنه ميسر عليه أمور الدنيا، تُهيأ له في يسر؛ لضمان الله، واكتنافه له. وكذا يجار

في الآخرة من شقاء العيش في سجون النيران . أعاذنا الله من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المديد حـ 3 صـ 558. 560 ﴾

(217/385)

وقال المظهرى :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾

أى الجزاء أو اليوم على أن اليوم بمعنى حين أو اللّه عز وجل كقوله تعالى هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ – وجاء ربّك قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة يأت بحذف الياء اجتزاء عنها بالكسرة ونافع وأبو عمرو والكسائي بالياء أصلا فقط وابن كثير فى الحالين – والظرف متعلق باذكر أو بانتهاء المحذوف أو بقوله لا تَكَلَّمُ بحذف احدى التاءين أى لا تتكلم نَفْسٌ ما ينفع وينجى من جواب أو شفاعة إِلَّا بِإِذْنِهِ أى الا اذن اللّه نظيره لا يتكلّمون الّا من اذن له الرّحمن فَمِنْهُمْ الضمير لاهل الموقف دل عليهم قوله لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ أو للناس فى قوله تعالى يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ . . . شَقِيٌّ كتب عليه الشقاوة وَسَعِيدٌ (105) كتب له السعادة عن على بن أبى طالب رضى اللّه عنه قال خرجنا على جنازة – فبينا نحن بالبقيع إذ خرج علينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وبيده مخصرة – فجاء ثم جلس فنكت بها الأرض

ساعة ثم قال ما من نفس منفوسة الا قد كتب مكانها من الجنة أو النار والا قد كتب شقى وسعيد - قال فقال رجل ألا نتكل على كتابنا يا رسول اللّه وندع العمل - قال لا ولكن اعملوا فكل ميسر فاما أهل الشقاء فيسروا لعمل أهل الشقاوة واما أهل السعادة فيسروا لعمل أهل السعادة قال ثم تلا فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى الآية رواه البغوي وفى الصحيحين نحوه -

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (106) قال ابن عباس الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف - وقال الضحاك ومقاتل الزفير

---

(1) والصحيح ان يعقوب مع الجمهور فى نون العظمة - أبو محمّد عفا اللّه عنه

(2) فى الأصل ان لا تعدد فيه -

(218/385)

أول نهيق الحمار والشهيق آخره إذا ردّده فى جوفه - وكذا فى القاموس - وقال أبو العالية الزفير فى الحلق والشهيق فى الصدر - وقال البيضاوي الزفير إخراج النفس والشهيق رده واستعمالهما فى أول النهيق وآخره - وفى القاموس أيضا زفر يزفر زفرا وزفيرا أخرج نفسه بعد مده إياه والجملة فى موضع الحال والعامل فيها الظرف المستقر

خالِدِينَ « 1 » فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ قال الضحاك أى ما دامت سموات الجنة والنار وارضهما - وكلما علاك سماء وكلما استقر عليه قدمك ارض - ولا شك ان اجتماع الناس المذكور فيما سبق يدل على ان لهم مظل ومقل - وقال أهل المعاني هذه عبارة عن التأبيد على عادة العرب يقولون لا يأتيك ما دامت السموات والأرض يعنون ابدا إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ ظاهر هذه الآية يقتضى انقطاع استقرارهم فى النار - ويؤيده ما روى عن ابن مسعود قال ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابا - وعن أبى هريرة مثله وبه قال من الصوفية الشيخ محى الدين « 2 » ابن العربي - لكن هذا القول مردود بالإجماع والنصوص قال اللّه تعالى فِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ - أخرج الطبراني وأبو نعيم وابن مردوية عن ابن مسعود قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لو قيل لأهل النار إنكم ماكثون عدد كل حصاة لفرحوا بها - ولو قيل لاهل الجنة انكم ماكثون عدد كل حصاة لحزنوا ولكن جعل لهم الابد - وأخرج الطبراني فى الكبير والحاكم وصححه عن معاذ ابن جبل ان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعثه إلى اليمن فلما قدم عليهم قال يا أيها الناس انى رسول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إليكم يخبركم ان المردّ إلى اللّه إلى جنة أو

نار خلود بلا موت واقامة بلا ظعن فى أجساد لا تموت - وأخرج الشيخان عن ابن عمر عن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم قال يدخل أهل الجنة الجنة واهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم يا أهل النار لا موت ويا أهل الجنة لا موت كل خالد فيما هو فيه - وأخرج البخاري عن أبى هريرة قال قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يقال يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت - وحديث ذبح الموت والنداء بقوله يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت - أخرجه الشيخان عن ابن عمرو وأبى سعيد والحاكم وصححه عن أبى هريرة - قال

البغوي معنى قول ابن مسعود وابى هريرة ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد عند أهل السنة ان ثبت ان لا يبقى فيها أحد من أهل الايمان - واما مواضع الكفار فممتلية

---

(1) ليس فى الأصل خالدين فيها -

(2) فى الأصل محى الدين العربي -

أبدا وقد ذكرت فى تفسير قوله تعالى لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً انها فى حق أهل الأهواء من أهل القبلة وعند اكثر المفسّرين المراد بالاحقاب احقاب « 1 » غير متناهية - ولما كان الإجماع على خلود الكفار فى النار اختلفوا فى تفسير هذه الآية وتأويل هذين الاستثنائين - والمختار عندى ان الاستثناء فى هذه الآية محمول على انهم يخرجون من الجحيم إلى الحميم فيُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ وهكذا ابدا - قال البغوي فى تفسير قوله تعالى يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ انهم يسعون بين الحميم وبين الجحيم - فإذا استغاثوا من النار جعل عذابهم الحميم الانى الّذي صار كالمهل قال اللّه تعالى وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ أو من النار إلى الزمهرير روى الشيخان عن أبى هريرة عن النبي صلى اللّه عليه وسلم انه قال اشتكت النار إلى ربها فقالت يا رب أكل بعضى بعضا فاذن لها بنفسين نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف - فاشد ما يجدون من الحر من حرها وأشد ما يجدون من الزمهرير من زمهريرها وكذا أخرج البزار عن أبى سعيد وأخرج أبو سعيد مثله من حديث انس - وقال بعض المحققين الاستثناء فى أهل الشقاء يرجع إلى قوم مؤمنين يدخلهم اللّه النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها - عن انس ان النبي صلى اللّه عليه وسلم قال ليصيبن أقواما سفع « 2 » من النار بذنوب أصابوها عقوبة - ثم يدخلهم اللّه الجنة بفضل رحمته فيقال لهم الجهنميون رواه البخاري - وعن عمران بن حصين عن النبي صلى اللّه عليه

وسلم قال يخرج قوم من النار بشفاعة محمّد صلى اللّه عليه وسلم فيدخلون الجنة ويسمون الجهنميون رواه البخاري ونحوه عن المغيرة بن شعبة عند الطبراني وزاد فيدعون اللّه ان يمحو عنهم الاسم فيمحو اللّه عنهم - وعن جابر بن عبد اللّه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ان ناسا من أمتي يعذبون بذنوبهم فيكونون فى النار ما شاء

اللّه ان يكونوا - ثم يعيرهم أهل الشرك ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعكم - فلا يبقى موحد الا أخرجه اللّه - ثم قرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ - وقد روى معناه فى حديث طويل عن أبى موسى الطبراني والبيهقي وابن أبى حاتم - وعن أبى سعيد الطبراني - وفى دخول المؤمنين المذنبين النار وخروجهم منها أحاديث بلغت حد التواتر - قال البيضاوي فساق المؤمنين يخرجون من النار وذلك كاف

---

(1) فى الأصل أحقابا -

(2) سفع من النار أى علامة تغير ألوانهم يعنى اثرا من النار 12 نهاية منه رح

فى صحة الاستثناء لان زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض وهم المراد بالاستثناء الثاني فانهم يفارقون عن الجنة ايام عذابهم فان التأبيد من مبدا معين ينتقض باعتبار الابتداء كما ينتقض باعتبار الانتهاء وهؤلاء وان شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بايمانهم – ولا يقال فعلى هذا لم يكن قوله تعالى فمنهم شقى وسعيد تقسيما صحيحا لان من شرطه ان يكون صفة كل قسم منتفية عن قسيمه – لان ذلك الشرط انما يكون فى الانفصال الحقيقي أو مانع الجمع والمراد هاهنا منع الخلوّ – والمعنى ان أهل الموقف لا يخرجون عن القسمين ولا يخرج حالهم عن الشقاوة والسعادة وذلك لا يمنع اجتماع الامرين فى شخص باعتبارين انتهى – وقيل ما شاء هاهنا بمعنى من شاء والمراد بهم أيضا عصاة المؤمنين فى الاستثنائين – ومرجع هذا القول إلى القول الثاني وقيل المستثنى فى الفريقين زمان توقفهم فى الموقف للحساب لان الظاهر يقتضى ان يكونوا فى النار أو فى الجنة حين يأتى اليوم – أو مدة لبثهم فى الدنيا والبرزخ ان كان الحكم مطلقا غير مقيد باليوم – وعلى هذا التأويل يحتمل ان يكون الاستثناء من الخلود على ما عرفت فى كلام البيضاوي المذكور سابقا – وقيل هو استثناء من قوله تعالى لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ – وقال السيوطي فى البدور السافرة أشبه الأقوال بالصواب انه ليس باستثناء وانما الا بمعنى سوى كما تقول لك علىّ الف درهم الا الألفان القديمان أى سوى الألفين – والمعنى خالدين فيها مدة دوام

السموات والأرض فى الدنيا سوى ما شاء ربك من الزيادة عليها مما لا منتهى له – وذلك عبارة عن الخلود – والنكتة فى تقديم ذكر مدة السموات والأرض التقريب إلى الأذهان بذكر المعهود اولا – ثم اردافه بما لا احاطة للذهن به – وقيل الا بمعنى الواو يعنى ما دامت السموات والأرض فى الدنيا وما شاء ربك من الخلود

(224/385)

كقوله تعالى ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾

يعنى ولا للذين ظلموا – وقال الفراء هذا استثناء استثناه ولا يفعله كقولك واللّه اضربنك الا ان ارى غير ذلك وعزيمتك ان تضربه – فالمعنى الا ما شاء ربك يعنى لو شاء ربك لاخرجهم منها ولكنه لم يشأ – وقال قتادة اللّه اعلم بثنياه إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (107) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا قرأ حفص وحمزة وخلف – أبو محمّد والكسائي بضم السين على البناء

(225/385)

للمفعول من سعد اللّه بمعنى أسعده – والباقون بالفتح على البناء للفاعل فهو لازم ومتعد

فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ قد ذكرت الأقوال

فى هذا الاستثناء فيما سبق – والمختار عندى ان أهل الجنة ينعمون فى بعض احيانهم

بما هو أعلى من الجنة – وذلك هو الاستغراق فى رؤية اللّه تعالى – وكمال الاتصال بجنابه

بلا كيف قال المفسرون فى تفسير قوله تعالى وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ ان تقديم

الجار والمجرور يقتضى الحصر ويفيد انهم إذا راوا ربهم يستغرقون فى رؤيته تعالى لا

ينظرون حينئذ إلى غيره – وعن جابر قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أهل الجنة

فى نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رؤسهم فإذا الرب تبارك وتعالى قد اشرف عليهم من

فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة – وذلك قوله تعالى سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ – قال

فينظر إليهم وينظرون إليه – فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتّى

يحجب عنهم ويبقى نوره وبركته فى ديارهم – رواه ابن ماجة وابن أبى الدنيا والدار قطنى

– وقال المجدد للالف الثاني رضى اللّه عنه فى المكتوب المائة من المجلد الثالث فى تحقيق

سر اشتغال قلب يعقوب بمحبة يوسف عليهما السلام ان جنة كل رجل عبارة عن ظهور

اسم من اسماء اللّه تعالى الّذي هو مبدا لتعيّن ذلك الرجل – وان ذلك الاسم يتجلى بصورة

الأشجار والأنهار والقصور والحور والغلمان – واستحكم هذا المكشوف بقوله صلى اللّه

عليه وسلم ان الجنة طيبة التربة عذبة الماء وانها قيعان وان غراسها هذه يعنى سبحان

اللّٰه والحمد لله ولا اله الا اللّٰه واللّٰه اكبر – ثم قال المجدد رضى اللّٰه عنه ان تلك الأشجار والأنهار قد تصير فى حين من الأحيان على هيئة الاجرام الزجاجية – فتصير وسيلة إلى رؤية اللّٰه سبحانه غير متكيفة ثم تعود إلى حالها الّذي كانت

عليه – فيشغل المؤمن بنفسها وهكذا إلى ابد الآبدين – وقد ذكرنا زيادة الكلام فى المقام فى تفسير سورة القيامة فى شرح اية الرؤية عَطاءً منصوب على انه مصدر مؤكّد يعنى اعطوا عطاء – أو على الحال من الجنة – قلت ويمكن ان يكون منصوبا على انه مفعول به لقوله تعالى إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ – يعنى هم فى الجنة الا وقت مشية ربك عطاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108) أى غير مقطوع يعنى الوصال والرؤية بلا حجاب – ووجه تعبير ذلك بعطاء غير مجذوذ مع ان كل نعيم فى الجنة عطاء غير مجذوذ – ان ذاته تعالى موجود متاصل بنفسه وغيره موجود بوجود ظل وجوده – فالموجود بنفسه هو اللّٰه وحده وكُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ – كالمستعير ثوب غيره عار بالنسبة إلى المالك – فعطاؤه تعالى اتصالا بذاته كانّه هو المتأصل الغير المنقطع وما عداه من النعيم مجذوذ وجوده فى نفسه بالنسبة إليه واللّٰه اعلم

- قال ابن زيد أخبرنا الله بالذي يشاء لاهل الجنة فقال عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ولم يخبرنا بالذي يشأ لاهل النار بل قال هناك إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ -

(227/385)

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ شك بعد ما أخبرناك من مال الناس مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ من عبادة هؤلاء المشركين فى انها ضلال مؤد إلى مثل ما حل بمن قبلهم ممن قصصته عليك سوء عبادتهم - أو من حال ما يعبدونه فى انه لا يضر ولا ينفع ما يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا كان يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ حذف كان لدلالة قبل عليه - والجملة مستأنفة معناه تعليل النهى عن المرية فى انهم واباؤهم سواء فى الشرك أى ما يعبدون عبادة الا كعبادة ابائهم - أو ما يعبدون شيئا الا مثل ما عبدوه من الأوثان - وقد بلغك ما لحق آباءهم فسيلحقهم مثله - لان التماثل فى الأسباب يقتضى التماثل فى المسببات

﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾

من العذاب كابائهم أو من الرزق فيكون عذر التأخير العذاب عنهم مع قيام موجبه

﴿ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (109) ﴾

من النصيب تأكيد للتوفية - فانك قد تقول وفيته حقه وتريد به وفاء بعضه ولو مجازا -

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ التورية فَاخْتُلِفَ فِيهِ فامن به قوم وكفر به قوم كما اختلف هؤلاء فى القرآن تسلية للنبى صلى اللّه عليه وسلم وَلَوْ لا كَلِمَةٌ الانظار إلى يوم القيامة سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ أى بين المحق والمبطل بانزال العذاب على المبطل ليميز به عن المحق وَإِنَّهُمْ يعنى كفار مكة لَفِي شَكٍّ مِنْهُ أى من القرآن أو من العذاب مُرِيبٍ (110) موقع فى الريب وَإِنَّ قرأ نافع وابن كثير وأبو بكر مخففة من الثقيلة عاملة اعتبارا للاصل والباقون مشددة كُلًّا التنوين بدل من المضاف إليه يعنى ان كل واحد من المختلفين المؤمنين منهم والكافرين لَمَّا قرأ عاصم وابن عامر وحمزة هاهنا وفى يس لَمّا جميع لّدينا - وفى الطارق لّمّا عليها حافظ بتشديد الميم - والباقون بتخفيفها - فمن قراها بالتخفيف فلام الاولى موطية للقسم والثانية للتأكيد أو بالعكس - وما مزيدة

(228/385)

بينهما للفصل - وقيل ما بمعنى من كما فى قوله تعالى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ أى من طاب لكم - والمعنى والله لَيُوَفِّيَنَّهُمْ أو واللّه لمن ليوفينهم رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ أى جزاء أعمالهم - ومن قراها بالتشديد فاصله لمن ما - فقلبت النون ميما للادغام فاجتمعت ثلاث ميمات فحذفت اولاهن - والمعنى لمن ليوفيهم وما مزيدة - وقيل انه من لممت لمّا أى جمعته - ثم

وقف على الالف عوض التنوين فصار لمّا - ثم اجرى الوصل مجرى الوقف - وجاز ان يكون مثل الدعوى والبشرى وغيرها من المصادر الّتي فيها الف التأنيث - وقرا الزهري وَإِنّ كُلًّا لَمًّا بالتنوين وهو يؤيد هذا القول - والمعنى وان كلا جميعا - وقال صاحب الإيجاز لما فيه معنى الظرف وفى الكلام اختصار تقديره وان كلا لما بعثوا ليوفينهم إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ من خير أو شر خَبِيرٌ (111) فلا يفوت منه شيء وإن خفى. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير المظهرى حـ 5 صـ 116. 122 ﴾

(229/385)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

« يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ »

أي يوم يأتى هذا اليوم ، ويعرض فيه الناس على ربّهم ، لا تملك نفس من أمرها شيئا ، فلا تنطق بكلمة حتى يؤذن لها من اللّه سبحانه . . وذلك لهول الموقف ، الذي تخمد فيه الأنفاس ، وتخرس الألسنة . . وهم بين شقىّ وسعيد . . شقى بما حمل على ظهره من أوزار ، وما قدم بين يديه من سيئات . . وسعيد بما جاء به إلى ربّه من عمل صالح يزكّيه إيمان باللّه ، وبهذا اليوم الذي هو فيه .

«فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ» .

. وتلك هى حال من أحوال الذين غلبت عليهم شقوتهم ، وأدانهم الدّيان فى هذا اليوم المشهود . . وذلك هو بعض ما يكون لهم فى هذا اليوم ، وما يشهده أهل الموقف منهم . .

«لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ» . .

وفى تقديم «الزفير» وهو دفع النفس إلى الخارج ، على «الشهيق» الذي هو أخذ النّفس إلى داخل الجوف . . وذلك على خلاف ما تتنفس الكائنات الحية ، حيث تأخذ الهواء شهيقا ، ثم تدفع به إلى الخارج زفيرا . . فى هذا ما يكشف عن تلك الحال السيئة التي يعانيها هؤلاء الذين شقوا . . إنهم لا يتنفّسون كما يتنفّس النّاس ، فيأخذون الهواء شهيقا ، ويتنفسون أنفاس الحياة منه ، ثم يلقونه زفيرا ، بعد أن يأخذ الجسم حاجته منه . . كلا ، وإنما همّهم كلّه هو أن يلقوا بهذا الهواء الذي تغلى به صدورهم ، فهم فى «زفير» متصل متقطع . . وأما الشهيق فهو نار تلظّى ، لا يكاد أحدهم يأخذ جرعة منه حتى يردّها زفيرا . . ثم يعيدها شهيقا . . وهكذا : يتنفّسون نارا ، من داخل صدورهم ، ومن خارجها على السواء . .

«خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ . . إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ»
أي أنهم يظلّون فى هذا العذاب أبدا ، لا يتحولون عنه ، «مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ» . . والسماوات باقية ، والأرض باقية . . فحياتهم فى النّار مرتبطة ببقاء السماوات والأرض . . فهل عندهم من حيلة ليبدّلوا هذا النظام القائم؟ فليحاولوا إذن . . ولينطحوا هذا الصخر . . إن كان فيهم بقية من قدرة على أن يحرّكوا رؤسهم! «إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ» لا يملك أحد معه شيئا ، ولا يستطيع أحد أن ينقض من حكمه شيئا . . !

«وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» . .

العطاء غير المجذوذ : أي غير الناقص . . أي عطاء كاملا ، ونعمة سابغة ، لا يدخل عليها ما يكدر صفوها ، أو يذهب بشىء من لذاذاتها التي وجدوها فى أنفسهم لها . .

وهنا سؤال . . وهو : ما ذا يراد بقوله تعالى : «إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ»؟ وهل هو استثناء داخل على تأبيد الخلود فى النار أو فى الجنة ، الذي يفهم من قوله تعالى :

«خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ»؟ وكيف والله سبحانه وتعالى يقول فى أصحاب الجنة : «يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» (22.21 : التوبة)؟ ويقول سبحانه فى أصحاب النار : «إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً»

(الأحزاب : 65.64) ؟

ما تأويل هذا ؟ وقد جاء الخلود مؤكدا بالتأبيد ، لأصحاب النار فى النار ، ولأصحاب الجنة فى الجنة ؟

والجواب. والله أعلم. أنه لما كان قوله تعالى : «خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ» يشعر بأن هذا الخلود ، هو خلود قائم على حال واحدة ، لا تتحول فيه بأهل الجنة أو النار الأحوال ، ولما كان مثل هذا الخلود المطّرد على وجه واحد ، هو شبيه بالعدم ، لا يجد فيه المنعّم طعم النعيم ، ولا يذوق منه المعذّب آلام العذاب ، بعد أن يدوم ويتّصل على هذه الصورة المطردة. لما كان ذلك مما يمكن أن يفهم من قوله تعالى : «خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ». فقد جاء قوله سبحانه : «إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ» استثناء من مفهوم الخلود المطّرد ، الذي يقع تحت مشيئة اللّه ، فتجرى عليه أحكام التبديل ، والتحويل ، الذي هو سنّة اللّه فى خلقه ، كما يقول الحقّ جل وعلا : «يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» (الرحمن : 29) .

وعلى هذا ، فإن خلود أهل الجنة فى الجنة ، وخلود أهل النار فى النّار ليس على صورة

واحدة ، لا تتغير أبدا ، ولا تنتهى أبدا . . إذ لو كان ذلك لكان معناه المشاركة للّه سبحانه فى دوامه الأبدى ، المنزّه عن التحول والتبدّل . .

ولكن خلود أهل الجنة وأهل النار ، إنما هو خلود يصحبه تنقّل من حال إلى حال ، على مدى الأزمان الطويلة ، فتلبس أهل الجنة أحوال وصور ، كما تلبس أهل النار أحوال وصور . . فى رحلة طويلة على سفينة الكون السابحة فى رحاب هذا الوجود . . . !

(232/385)

ومن يدرى . . فلعله يكون لأهل الجنة وأهل النار انتقال من دار إلى دار ، ومن عالم إلى عالم . . هكذا فى دورات وأطوار « مادامت السموات والأرض » أي مادام هذا النظام السماوي والأرضى قائما ، وهو نظام واقع تحت حكم التبدل والتحول ، كما يقول سبحانه « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ » (48 : إبراهيم) كما أنه واقع تحت حكم الزوال والفناء ، كما يقول جل شأنه : « كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » (88 : القصص) .

﴿ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ ما يَعْبُدُونَ إِلَّا كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (109) ﴾

التفسير :

بعد هذا العرض الذي حشرت فيه الآيات القرآنية الكريمة الناس إلى ربهم ، وساقتهم إلى موقف الحساب والجزاء بين يديه ، وسيق أهل النار إلى النار ، وعذابها وبلائها ، وزفّ أهل الجنة إلى الجنة ، وطيباتها ونعيمها . عادت الآيات لتلقى النبىّ الكريم ، بما وجد فى مشاعره من تلك المشاهد التي شهدها ليوم القيامة ، وهو أنّ للظالمين يوما عبوسا قمطريرا ، وأن العاقبة للمتقين . . فيقول له الحقّ تبارك وتعالى :

« فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ . . ما يَعْبُدُونَ إِلَّا كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ » . .

والمرية : الشكّ والارتياب . . وما بالنبيّ الكريم شكّ ولا ارتياب ، فى أنّ ما يعبده قومه هو الضلال المودي بأهله ، والمورد لهم موارد الهلاك والبلاء . .

ولكن هذا النهى ، هو تأكيد لما فى قلب النبىّ من إيمان بربّه ، وتثبيت له على الطريق الذي هو قائم عليه ، وإن لقى فيه مالقى من ضرّ وأذى ! وفى الإشارة إلى المشركين من قريش بقوله تعالى : « هؤلاء » دون ذكرهم ، هو تهوين لشأنهم ، واستخفاف بقدرهم ، إذ كانوا على هذا السخف والضلال ، وإذ كانوا بحيث يعطون مقودهم لأحجار ينحتونها بأيديهم ،

ثم يقيمونها آلهة وأربابا عليهم ! والآباء المذكورون فى قوله تعالى : « ما يَعْبُدُونَ إِلَّا كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ » . .

قد يراد بهم آباؤهم الأبعدون ، من قوم نوح ، وعاد وثمود ، وقوم إبراهيم وقوم لوط ، وأصحاب مدين. الذين تحدثت عنهم الآيات السابقة ، وكشفت عن كفرهم وضلالهم . .

وقد يراد بهم آباؤهم الأولون ، من قريش ! فالناس هم الناس ، والأجيال اللاحقة غرس الأجيال السابقة .

وعلى أىّ فالنّسب متصل إلى أن تضمه تلك الدائرة الكبرى التي تضم هؤلاء الآباء ، قريبهم ، وبعيدهم ، جميعا ، وتجمعهم على طريق واحد ، هو طريق الكفر والضلال .

(234/385)

وفى قوله تعالى : « وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ » تهديد ووعيد لهؤلاء المشركين ، وأنهم سيوفّون نصيبهم من العذاب ، كاملا لا ينقص منه شىء . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿

التفسير القرآنى للقرآن ـ 2 صـ 1200. 1205 ﴾

(235/385)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾

جملة ﴿ يوم يَأتي لا تكلّم نَفْسٌ ﴾ تفصيل لمدلول جملة ﴿ ذلك يوم مجموع له النّاس ﴾ [هود : 103] الآية ، وبينت عظمة ذلك اليوم في الشرّ والخير تبعاً لذلك التفصيل .

فالقصد الأوّل من هذه الجملة هو قوله : ﴿ فمنهم شقيّ وسعيد ﴾ وما بعده ، وأمّا ما قبله فتمهيد له أفصح عن عظمة ذلك اليوم .

وقد جاء نظم الكلام على تقديم وتأخير اقتضاه وضع الاستطراد بتعظيم هول اليوم في موضع الكلام المتّصل لأنّه أسعد بتناسب أغراض الكلام ، والظروف صالحة لاتّصال الكلام كصلاحيّة الحروف العاطفة وأدوات الشرط .

و﴿ يوم ﴾ من قوله : ﴿ يوم يأتي ﴾ مستعمل في معنى (حين) أو (ساعة) ، وهو استعمال شائع في الكلام العربيّ في لفظ (يوم) و (ليلة) توسّعاً بإطلاقهما على جزء من زمانهما إذ لا يخلو الزّمان من أن يقع في نهار أو في ليل فذلك يوم أو ليلة فإذا أطلقا هذا الإطلاق لم يستفد منهما إلاّ معنى (حين) دون تقدير بمدّة ولا بنهار وَلَا لَيْلٍ ، ألَا ترى قول النابغة :

تخيّرن من أنهار يوم حليمة

فأضاف (أنهار) جمع نهار إلى اليوم.

وروي: من أزمان يوم حليمة.

وقول توبة بن الحُميّر

كأن القلب ليلة قيل: يُغدَى...

بليلي الأخيلية أو يراح

أراد ساعة، قيل: يُغدى بليلى، ولذلك قال: يغدى أو يراح، فلم يراقب ما يناسب لفظ ليلة من الرّواح.

فقوله تعالى: ﴿ يوم يأتي ﴾ معناه حين يأتي.

وضمير (يأتي) عائد إلى ﴿ يوم مشهود ﴾ [هود: 103] وهو يوم القيامة.

والمراد بإتيانه وقوعه وحلوله كقوله: ﴿ هل ينظرون إلاّ الساعة أن تأتيهم ﴾ [الزخرف: 66].

فقوله: ﴿ يوم يأتي ﴾ ظرف مُتَعلّق بقوله: ﴿ لا تكلّم نفس إلاّ بإذنه ﴾.

وجملة ﴿ لا تكلم نفس ﴾ مستأنفة ابتدائية.

قدّم الظرف على فعلها للغرض المتقدم.

والتّقدير: لا تكلّم نفس حينَ يحلّ اليوم المشهود.

والضّمير في ﴿ بإذنه ﴾ عائد إلى الله تعالى المفهوم من المقام ومن ضمير ﴿ نؤخّره ﴾ [هود : 104] .

والمعنى أنّه لا يتكلّم أحد إلاّ بإذن من الله ، كقوله : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً لا يتكلّمون إلاّ من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ [النبأ : 38] .

والمقصود من هذا إبطال اعتقاد أهل الجاهلية أنّ الأصنام لها حقّ الشفاعة عند الله .

و ﴿ نفس ﴾ يَعمّ جميع النفوس لوقوعه في سياق النفي ، فشمل النفوس البرة والفاجرة ، وشمل كلام الشافع وكلام المجادل عن نفسه .

وفُصّل عموم النفوس باختلاف أحوالها .

وهذا التفصيل مفيد تفصيل الناس في قوله : ﴿ مجموع له النّاس ﴾ [هود : 103] ، ولكنّه جاء على هذا النسج لأجل ما تخلّل ذلك من شبه الاعتراض بقوله : ﴿ وما نؤخّره إلاّ لأجل معدود ﴾ [هود : 104] إلى قوله : ﴿ بإذنه ﴾ وذلك نسيج بديع .

والشقيّ : فعيل صفة مشبهة من شَقِيَ ، إذا تلبّس بالشّقاء والشقاوة ، أي سوء الحالة وشرّها وما ينافر طبع المتّصف بها .

والسّعيد : ضدّ الشقيّ ، وهو المتلبّس بالسّعادة التي هي الأحوال الحسنة الخيّرة الملائمة للمتّصف بها .

والمعنى : فمنهم يومئذٍ من هو في عذاب وشدّة ومنهم من هو في نعمة ورخاء .

والشّقاوة والسّعادة من المواهي المقولة بالتّشكيك فكلتاهما مراتب كثيرة متفاوتة في قوّة الوصف .

وهذا إجمال تفصيله ﴿ فأمّا الذين شقُوا ﴾ إلى آخره .

والزّفير : إخراج الأنفاس بدفع وشدّة بسبب ضغط التنفّس .

والشّهيق : عكسه وهو اجتلاب الهواء إلى الصّدر بشدّة لقوة الاحتياج إلى التنفس .

وخص بالذّكر من أحوالهم في جهنّم الزّفير والشّهيق تنفيراً من أسباب المصير إلى النّار لما في ذكر هاتين الحالتين من التّشويه بهم وذلك أخوف لهم من الألم .

(237/385)

ومعنى ﴿ ما دامت السّماوات والأرض ﴾ التّأبيد لأنّه جرى مجرى المثَل ، وإلاّ فإنّ السّماوات والأرض المعرُوفة تضمحلّ يومئذٍ ، قال تعالى : ﴿ يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ [إبراهيم : 48] أو يراد سماوات الآخرة وأرضها .

و﴿ إلاّ ما شاء ربك ﴾ استثناء من الأزمان التي عمّها الظرف في قوله : ﴿ ما دامت ﴾ أي إلاّ الأزمان التي شاء الله فيها عدم خلودهم ، ويستتبع ذلك استثناء بعض الخالدين تبعاً

للأزمان.

وهذا بناء على غالب إطلاق ﴿ ما ﴾ الموصولة أنّها لغير العاقل.

ويجوز أن يكون استثناء من ضمير ﴿ خالدين ﴾ لأنّ ﴿ ما ﴾ تطلق على العاقل كثيراً، كقوله: ﴿ ما طاب لكم من النّساء ﴾ [النساء: 3].

وقد تكرّر هذا الاستثناء في الآية مرّتين.

فأمّا الأوّل منهما فالمقصود أنّ أهل النّار مراتب في طول المدة فمنهم من يعذّب ثمّ يعفى عنه، مثل أهل المعاصي من الموحّدين، كما جاء في الحديث: أنّهم يقال لهم الجهنميون في الجنّة، ومنهم الخالدون وهم المشركون والكفّار.

وجملة ﴿ إنّ ربّك فعّال لما يريد ﴾ استئناف بيانيّ ناشىء عن الاستثناء، لأنّ إجمال المستثنى ينشىء سؤالاً في نفس السّامع أن يقول: ما هو تعيين المستثنى أو لماذا لم يكن الخلود عاماً.

وهذا مظهر من مظاهر التفويض إلى الله.

وأمّا الاستثناء الثاني الواقع في جانب ﴿ الذّين سعدوا ﴾ فيحتمل معنيين:

أحدهما أن يراد: إلاّ ما شاء ربك في أوّل أزمنة القيامة، وهي المدّة التي يدخل فيها عصاة المؤمنين غير التّائبين في العذاب إلى أن يعفو الله عنهم بفضله بدون شفاعة، أو بشفاعة كما في الصّحيح من حديث أنس: "يدخل ناسٌ جنّم حتى إذا صاروا كالحُمَمَة أخرجوا

وأدخلوا الجنّة فيقال : هؤلاء الجهنميون" .

ويحتمل أن يقصد منه التّحذير من توهّم استحقاق أحد ذلك النعيم حقاً على الله بل هو مظهر من مظاهر الفضل والرّحمة .

(238/385)

وليس يلزم من الاستثناء المُعلّق على المشيئة وقوع المشيئة بل إنّما يقتضي أنّها لو تعلّقت المشيئة لوقع المستثنى ، وقد دلّت الوعود الإلهية على أنّ الله لا يشاء إخراج أهل الجنة منها .

وأيّاً ما كان فهم إذا أدخلوا الجنّة كانوا خالدين فيها فلا ينقطع عنهم نعيمها .

وهو معنى قوله : ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ .

والمجذوذ : المقطوع.

وقرأ الجمهور ﴿ سَعِدوا ﴾ بفتح السّين ، وقرأه حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وخلف بضم السّين على أنّه مبني للنائب ، وإن كان أصل فعله قاصراً لا مفعول له ؛ لكنّه على معاملة القاصر معاملة المتعدّي في معنى فُعِل به ما صيّره صاحب ذلك الفعل ، كقولهم : جُنّ فلان ، إذا فُعل به ما صار به ذا جنون ، ف ﴿ سُعِدوا ﴾ بمعنى أسعدوا .

وقيل : سَعِد متعدّ في لغة هذيل وتميم ، يقولون : سَعِدَه اللّهُ بمعنى أسْعَدَهُ .

وخُرّج أيضاً على أن أصله أسعدوا ، فحُذف همز الزيادة كما قالوا مجنُوب (بموحدة في آخره) ، ومنه قولهم : رجل مَسعود .

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ﴾

تفريع على القصص الماضية فإنها تكسب سامعها يقيناً بباطل ما عليه عبدة الأصنام وبخيبة ما أملوه فيهم من الشّفاعة في الدنيا وإن سابق شقائهم في الدنيا بعذاب الاستئصال يُؤذن بسوء حالهم في الآخرة ، ففرع على ذلك نهي السامع أن يشك في سوء الشّرك وفساده .

والخطاب في نحو ﴿ فلا تك في مرية ﴾ يقصد به أيّ سامع لا سامعٌ معيّن سواء كان ممّن يظنّ به أن يشكّ في ذلك أم لا إذ ليس المقصود معيّناً .

e

ويجوز أن يكون الخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم ويكون ﴿ فلا تك ﴾ مقصوداً به مجرّد تحقيق الخبر فإنّه جرى مجرى المثل في ذلك في كلام العرب مثل كلمة : لا شكّ ، ولا محالة ، ولا أعرفنّك ، ونحوها .

ويجوز أن يكون تثبيتاً للنبيء صلى الله عليه وسلم على ما يلقاه من قومه من التصلّب في الشرك ، أي لا تكن شاكّاً في أنّك لقيت من قومك من التكذيب مثل ما لقيه الرّسل من أممهم فإنّ هؤلاء ما يعبدون إلاّ عبادة كما يعبد آباؤهم من قبل متوارثينها عن أسلافهم من الأمم البائدة .

و﴿ في ﴾ للظرفية المجازية .

والمرية بكسر الميم : الشكّ .

وقد جاء فعلها على وزن فَاعَل أو تَفَاعل وافتعل .

ولم يجىء على وزن مجرّد لأنّ أصل المراد المجادلة والمدافعة مستعاراً من مريْتُ الشاة إذا استخرجت لبنها .

ومنه قولهم : لا يجارى ولا يُمارى .

وفي القرآن ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ [النجم : 12] .

وقد تقدّم الامتراء عند قوله : ﴿ ثم أنتم تمترون ﴾ في أوّل [الأنعام : 2] .

و﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ ما يعبد ﴾ مصدريّة ، أي لا تك في شكّ من عبادة هؤلاء ، والإشارة بهؤلاء إلى مشركي قريش .

وقد تتبعتُ اصطلاح القرآن فوجدته عَنَاهُمْ باسم الإشارة هذا في نحو أحد عشر موضعاً وهو ممّا ألهمت إليه ونبّهتُ عليه عند قوله تعالى : ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ في

سورة [النساء : 41] .

ومعنى الشكّ في عبادتهم ليس إلاّ الشكّ في شأنها ، لأنّ عبادتهم معلومة للنبيء صلى الله عليه وسلم فلا وجه لنفي مريته فيها ، وإنّما المراد نفي الشك فيما قد يعتريه من الشكّ من أنهم هل يعذّبهم الله في الدنيا أو يتركهم إلى عقاب الآخرة .

وجملة ﴿ ما يعبدون إلاّ كما يعبد آباؤهم من قبل ﴾ مستأنفة ، تعليلاً لانتفاء الشكّ في عاقبة أمرهم في الدّنيا .

ووجه كونه علّة أنّه لمّا كان دينهم عين دين من كان قبلهم من آبائهم وقد بلغكم ما فعل الله بهم عقاباً على دينهم فأنتم توقنون بأنّ جزاءهم سيكون مماثلاً لجزاء أسلافهم ، لأنّ حكمة الله تقتضي المساواة في الجزاء على الأعمال المتماثلة .

والاستثناء بقوله : ﴿ إلاّ كما يعبد ﴾ استثناء من عموم المصادر .

وكاف التشبيه نائبة عن مصدر محذوف .

(240/385)

التّقدير : إلاّ عبادة كما يعبد آباؤهم .

والآباء : أطلق على الأسلاف ، وهم عاد وثمود .

وذلك أنّ العرب العدنانيين كانت أمّهم جرهمية ، وهي امرأة إسماعيل ، وجرهم من إخوة ثمود ، وثمود إخوة لعاد ، ولأنّ قريشاً كانت أمهم خزاعيّة وهي زوج قصيّ .

وعبادة الأصنام في العرب أتاهم بها عمرو بن يحيى ، وهو جدّ خزاعة .

وعبّر عن عبادة الآباء بالمضارع للدّلالة على استمرارهم على تلك العبادة ، أي إلاّ كما اعتاد آباؤُهم عبادتهم .

والقرينة على المضي قوله : ﴿ من قبلُ ﴾ ، فكأنّه قيل : إلاّ كما كان يعبد آباؤهم .

والمضاف إليه ﴿ قَبْلُ ﴾ محذوف تقديره : من قبلهم ، تنصيصاً على أنّهم سلفهم في هذا الضّلال وعلى أنّهم اقتدوا بهم .

وجملة ﴿ وإنّا لموفّوهم نَصيبَهُمْ ﴾ عطف على جملة التّعليل ، والمعطوف هو المعلول ، وقد تسلّط عليه معنى كاف التّشبيه لذلك .

فالمعنى : وإنّا لموفوهم نصيبَهم من العذاب كما وفّينا أسلافهم .

والتوفية : إكمال الشيء غير منقوص .

والنصيب : أصله الحظ .

وقد استعمل (موفوهم) و (نصيبَهم) هنا استعمالاً تهكّمياً كأنّ لهم عطاء يسألونه فوُفوه ، فوقع قوله ﴿ غيرَ منقوص ﴾ حالاً مؤكدة لتحقيق التّوفية زيادة في التهكم ، لأنّ من إكرام الموعود بالعطاء أن يؤكد له الوعد ، ويسمى ذلك بالبشارة .

والمراد نصيبهم من عذاب الآخرة ، فإنّ الله لم يستأصلهم كما استأصل الأمم السابقة ببركة النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال : " لعلّ الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده " . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير ـ 11 ص ﴾

(241/385)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾

وهنا جمع الحق سبحانه جماعة في حكم واحد ، فقوله تعالى :

﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ ﴾ [هود : 105] .

يعني : لا تتكلم أي نفس إلا بإذن الله ، وقد كانوا يتكلمون في الحياة الدنيا بطلاقة القدرة التي منحهم أياها الله سبحانه حين أخضع لهم جوارحهم .

وجعل الحق سبحانه الجوارح مؤتمرة بأمر الإنسان ؛ وشاء سبحانه أن يجعل بعضاً من خلقه نماذج لقدرته على سلب بعض تلك الجوارح ؛ فتجد الأخرس الذي لا يستطيع الكلام ؛ وتجد المشلول الذي لا يستطيع الحركة ؛ وتجد الأعمى الذي لا يبصر ، وغير ذلك . .

وبتلك النماذج يتعرف البشر على حقيقة واضحة هي أن ما يتمتعون به من سيطرة على

جوارحهم هو أمر موهوب لهم من الله تعالى ؛ وليست مسألة ذاتية فيهم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [هود : 105] .

يبيِّن لنا سبحانه حقيقة تسخير الجوارح لطاعتنا في الدنيا ، فهي ترضخ لإرادتنا ؛ لأنه سبحانه شاء أن يسخرها لأوامرنا ولانفعالاتنا ، ولا أحد فينا يتكلم إلا في إطار الإذن العام للإرادة أن تنفعل لها الجوارح .

وقد يسلب الله سبحانه هذا الإذن فلا تنفعل الجوارح للإرادة ، فتجد الحق سبحانه يقول في آية أخرى .

﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً ﴾ [النبأ : 38] .

ويقول الحق عز وجل في آية أخرى :

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [الصافات : 27] .

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ * وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 3536] .

ويقول الحق سبحانه أيضاً :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل : 111] .

وفي موضع آخر يقول سبحانه :

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات : 24] .

وهكذا قد يُخيَّل للبعض أن هناك آيات تناقض بعضها ؛ فهناك آيات تسمح بالكلام ، وهناك آيات تنفي القدرة على الكلام .

وأقول : يجب أن نفهم أن الكلام الذي سيعجز الأشقياء عن نطقه يوم القيامة هو الكلام المجدي النافع ، وسيتكلم البعض كلام السفسطة الذي لا يفيد ، مثل لومهم بعضهم البعض ؛ وذكره لنا القرآن في قوله سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ [فصلت : 29] .

وهذا كلام لا يشفع لصاحبه ولا يجدي .

إذن : فالممنوع هو الكلام المجدي المفيد ، أو أن مقامات القيامة متفاوتة ؛ فوقت يتكلمون فيه ؛ ووقت يؤخذون فيه ، فينبهرون ولا يتكلمون ، ويأمر الحق سبحانه الجوارح المنفعلة أن تتكلم وتشهد عليهم .

ويقسِّم الحق سبحانه أحوال الناس قسمين ، كما في قوله تعالى في آخر الآية :

﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : 105] .

وجاء بالاسم المحدد لكل من القسمين : " شقي " و " سعيد " ؛ لأن الاسم يدل على الثبوت ، فالشقاء ثابت لمن نُعت بالشقي ؛ والسعادة ثابتة لمن نُعت بالسعيد .

ثم يبيِّن لنا الحق سبحانه منازل مَنْ شَقُوا ، ومنازل مَنْ سُعِدوا ؛ ولذلك يعدل عن استخدام الاسم إلى استخدام الفعل ، فيقول سبحانه : ﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ فَفِي النار ﴾ والذين حكموا على أنفسهم بالشقاء لخروجهم عن منهج الله ؛ يجمعهم الشقاء ؛ لكنهم يدخلون النار أفراداً وزُمَراً .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَسِيقَ الذين كفروا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً ﴾ [الزمر : 71] .

وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : 38] .

وهكذا نفهم أن الكافرين في الوصف الثابت أشقياء ، لكنهم لحظة دخول النار إنما يدخلونها أفراداً ؛ بل ويدخل معهم بعض من المسلمين العصاة ، ويتلقى كل واحد منهم عقابه المناسب لما ارتكب من الذنوب والمعاصي ؛ ويعاني كل منهم من شقاء يتناسب مع آثامه ؛ وبذلك يجتمعون في الشقاء ويختلفون في نوع وكمية العذاب ؛ كلٌّ حسب ذنوبه ، ولا يظلم ربك أحداً .

وجاء الحق سبحانه هنا بالفعل " شقوا " ليبيِّن لنا أنهم هم الذين اختاروا الشقاء ؛ وأتوا به لأنفسهم ؛ لأن الحق سبحانه خلق عباده وترك لكل منهم حق الاختيار ؛ وأنزل لهم المنهج ؛ ليصونوا أنفسهم ؛ وأعان من اختار الإيمان على الطاعة .

ثم يذكر الحق سبحانه في نفس الآية موقف مَنْ أدخلوا على أنفسهم الشقاء ، فيقول عنهم :

﴿ فَفِي النار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ [هود : 106] .

ونحن نعلم أن الذي يتنفس في النار سيخرج الهواء من صدره ساخناً مثلما يأخذ الشهيق ساخناً .

ويواصل الحق سبحانه وتعالى وَصْفَ ما يتلقاه أهل الشقاء في النار ، فيقول سبحانه : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض ﴾

وكلمة " الخلود " تفيد المكث طويلاً ؛ مكوثاً له ابتداء ولا نهاية له ؛ وإذا أُبِّد فهو تأكيد للخلود .

والذين شقوا إنما يدخلون النار ؛ بدءاً من لحظة :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [هود : 105] .

وهو عذاب لا نهاية له بالنسبة للكافرين .

وأما عذاب المسلم العاصي على ما ارتكب من آثام ؛ فبدايته من لحظة انتهاء الحساب إلى أن تنتهي فترة عذابه المناسبة لمعاصيه ؛ ويدخل الجنة من بعد ذلك .

ولهذا قال الحق سبحانه :

﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ [هود : 107] .

وهكذا ينقص الحق سبحانه الخلود في النار بالنسبة لأنصاف المؤمنين ، فالحق سبحانه ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [هود : 107] ولا يحكمه أي شيء .

(244/385)

وإياكم أن تظنوا أن قدر الله يحكمه ؛ فالقدر فِعْلُه ، ولا أحد يسأل الله سبحانه عمَّا يفعل ؛ لأن ذات الله هي الفاعلة ؛ فإن شاء سبحانه أن ينقص خلود مسلم عاصٍ في النار ؛ فالنقص يكون في النهاية ؛ وبذلك يتحقق أيضاً نقص خلوده في الجنة ، لأنه لا يدخلها إلا بعد أن يستوفي عقابه .

وبهذا التصور ينتهي الإشكال الذي اختلف حوله مائة وخمسون عالماً ؛ فقد ظن بعضهم أن الحق سبحانه يغلق أبواب النار على من أدخلهم إياها ، ويستمر ذلك إلى ما لا نهاية ، وكذلك من دخل الجنة من البداية سيظل فيها أبداً ، ولن يُلحق الله أصحاب الكبائر بالجنة ، ومن قال بذلك الرأي إنما يُسوِّي بين من ارتكب الكبيرة وبين الكافر بالله ، وهذا أمر غير متصور ، وهو بعيد عن رحمة الله .

وإذا كان هذا البعض من العلماء قد استدل على رأيه بالآية الكريمة التي جاءت في سورة الجن ، والتي يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ إِلاَّ بَلاَغاً مِّنَ اللهِ وَرِسَالاَتِهِ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ [الجن : 23] .

فنحن نقول : إن الحق سبحانه يربّب لطفه للكافر حتى يؤمن ، وللعاصي حتى يتوب ، وهذا من رحمة الله سبحانه ، فتأبيد الخلود في العذاب لم يرد إلا في آيتين ، وهذا دليل على عظيم رحمة الله وسِعَة عفوه سبحانه .

ولذلك قيل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه رحمة الله للعالمين ؛ وكلمة " العالمين " جمع " عالَم " والعالَم هو ما سِوى الله تعالى .

ولذلك هناك رحمة للكافر ؛ هي عطاء الله له في الدنيا .

وهكذا نعلم أن الله سبحانه هو الذي يملك نواميس الكون ، ولم يتركها تفعل وحدها ، بل

يزاول سبحانه سلطانه عليها ، وما دام القدر هو فعله سبحانه ؛ فهو يغيِّر فيه كما يشاء .

فهو سبحانه رب الزمان والمكان والحركة ، وما دام هو رب كل شيء فإنه فعال لما يريد ، وهنا تخضع أبدية الزمان لمراده ومشيئته .

وقول الحق سبحانه :

(245/385)

﴿ مَا دَامَتِ السموات والأرض ﴾ [هود : 107] .

نفهم منه أن الجنة أو النار لا بد أن يوجد لهما ما يعلوهما ويظللهما ، ولا بد أن يوجدا فوق أرض ما .

وإذا قال قائل : إن الحق سبحانه قد ذكر في القرآن أن السماء سوف تمور وتنفطر .

نقول رداً عليه : لا تأخذ آية في القرآن إلا بضميمة مثيلاتها .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسموات ﴾ [إبراهيم : 48] .

والحق سبحانه يورث أرض الجنة لمن يشاء ؛ لأنه سبحانه هو القائل على لسان المؤمنين يوم القيامة :

﴿ وَأَوْرَثَنَا الأَرضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ [الزمر : 74] .

أو لأن الإنسان له أغيار ، وما حوله له أغيار .

ومن العجيب أن الإنسان المخدوم بالمادة الجامدة ؛ وبالنبات النامي ؛ وبالحيوان الذي يحس ويتحرك ؛ هذا الإنسان قد يكون أطول عمراً من بعض المخلوقات المسخَّرة لخدمته ؛ لكنه أقل عمراً من الشمس ومن القمر .

لكن الحق سبحانه هنا يصور عمر الإنسان في الآخرة ؛ فكأنه سبحانه يعطي الأمد على أطول ما عرفنا من الأعمار ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿ مَا دَامَتِ السموات والأرض ﴾ [هود : 107] .

وإذا علَّق الله سبحانه شيئاً على شيء ، فلا بد أن يوجد هذا التعليق .

والحق سبحانه يتكلم عن أهل النار من الكفار ، فيقول تعالى :

﴿ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجنة حتى يَلِجَ الجمل فِي سَمِّ الخياط ﴾ [الأعراف : 40] .

فهل سيلج الجمل في سَمِّ الخِياط؟ إن ذلك محال .

ولذلك أقول : فلنأخذ التعليقات في نطاق أنه سبحانه :

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود : 107] .

وقد جاء في الكتاب قول سيدنا عيسى عليه السلام :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ [المائدة : 118] .

فكان مقتضى السياق أن يقول سبحانه : وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم .

(246/385)

وهذه نظرة سطحية لمدلولات القرآن ، بعقول البشر ، أما ببلاغة الحق سبحانه فيكون الأمر مخالفاً ، فأمر التعذيب أو الغفران موكول لله سبحانه بيده وحده ، وليس لأحد أن يسأله لِمَ فعل هذا ؟ ولِمَ ترك هذا ؟

لذلك كان هذا هو معنى العزة ؛ ولذلك كان سبحانه عزيزاً ، وهو سبحانه أيضاً حكيم في أي أمر يحكم فيه سواء أكان بالتعذيب أو المغفرة .

لذلك جاء سبحانه بالخاتمة التي تثبت للحق سبحانه التعذيب أو المغفرة .

ففي تعذيب الكافرين قال سبحانه : ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود : 107] .

وفي الكلام عن الطائعين الذين أدخلوا الجنة قال سبحانه : ﴿ وَأَمَّا الذين سُعِدُواْ فَفِي الجنة ﴾

فالحق سبحانه يعطي المؤمنين ما شاء ، ويؤكد خلودهم في الجنة ، وعطاؤه لهم لا مقطوع ولا ممنوع .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هؤلاء ﴾

فهل كان الرسول صلى الله عليه وسلم في مرية ؟

هل كان الرسول صلى الله عليه وسلم في شك ؟

لا ، ولكنه قول الآمر الأعلى سبحانه للأدنى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في صدد هذا الأمر ؛ وبذلك ينصرف أمر الحق سبحانه إلى الدوام .

مثلما قال الحق سبحانه للنبي صلى الله عليه وسلم :

﴿ أَقِمِ الصلاة ﴾ [الإسراء : 78] .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقيم الصلاة قبلها ، ولكن قول الحق سبحانه هنا إنما يمثل بداية التشريع .

ومثل هذا أيضاً قول الحق سبحانه في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم :

﴿ يا أَيُّهَا النبي اتق الله وَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين ﴾ [الأحزاب : 1] .

فهل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتقي الله ؟

نقول : لا ، إنما هو لإدامة التقوى ، فإنه إذا أمر الأعلى الأدنى بأمر هو بصدد فعله ، انصرف هذا الأمر إلى الدوام ، واتباع أمته للتقوى والإعراض عن النفاق والكفر ، وهو خطاب للرسول وأمته ، فللرسول الدوام والترقي والحصانة ، ولأمته الاتباع لمنهج الله .

ومثل هذا قوله تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا الذين آمَنُواْ ﴾ [البقرة : 153] .

وهو سبحانه يناديهم بالإيمان ؛ لأنهم اعتقدوا اعتقاد الالوهية الواحدة ، ومن يسمع منهم هذا الخطاب عليه أن يداوم على الإيمان .

وما دام قد آمن بالإله الواحد قبل الخطاب ، فقد استحق أن ينال التكريم من الحق سبحانه بأن يخاطبه ويصفه بأنه من المؤمنين ، فإذا نُودِي عليهم بهذه الصفة فهي علامة السمو المقبول .

وإذا طُلبت الصفة ممن توجد الصفة فيه ، فاعلم أنه سبحانه يطلب دوام الصفة فيه واستمرارها ، وفي الاستمرارية ارتقاء .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ مِّمَّا يَعْبُدُ هؤلاء ﴾ [هود : 109] .

نجد أن التحقيق لا يثبت لهم عبادة ؛ لأن معنى العبادة ائتمار عابدٍ بأمر معبود . وهؤلاء إنما يعبدون الأصنام ، وليس للأصنام منهج يسير عليه من آمنوا بها .

ولكن الحق سبحانه أثبت لهم هنا أنهم عبدوا الأصنام ، وهم قد قالوا من قبل :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : 3] .

وهو إيمان فقد حجية التعقل الإيماني ، أي : أن تستقبل أنت بذاتك القضية الإيمانية وتناقشها لتدخل عليها باقتناع ذاتك .

وهم قد دخلوا إلى الإيمان بعبادة الأصنام باقتناع الغير ، وهم الآباء ، فإيمانهم إيمان تقليد ، وفي التقليد جفاف الفطرة السليمة وهو لا ينفع .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل النِّسَب في الكون إما ليثبت نسبة إيجابية ، أو نسبة سلبية .

﴿ مَا يَعْبُدُونَ ﴾ [هود : 109] .

أي : على ما قالوا إنه عبادة ، ولكنه ليس عبادة ، لأن العبادة تقتضي أمراً ونهياً ، وليس للأصنام أوامر أو نواهٍ ، وعبادتهم هي عبادة تقليدية للآباء ؛ ولذلك قالوا :

﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [البقرة : 170] .

ولذلك يقرر الحق سبحانه هنا جزاءهم ، فيقول تعالى :

﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ [هود : 109] .

أي : سنعطيهم جزاءهم كاملاً ؛ لأنهم يفسدون في الكون ، رغم أن الحق سبحانه قد جعل لكل منهم حق الاختيار في أن يفعل الشيء أو لا يفعله ، وإن لم تنضبط حركة الاختيار ، فالتوازن الاجتماعي يصير إلى اختلال .

وما دام للإنسان حق الاختيار ؛ فقد أنزل الحق سبحانه له المنهج الذي يضم التكاليف الإيمانية .

وهم حين قلدوا الآباء قد ساروا في طريق إفساد الكون ؛ لذلك يُوفِّيهم الحق سبحانه نصيبهم من العذاب .

والمفهوم من كلمة " النصيب " أنها للرزق ، ويذكرها الحق سبحانه هنا لتقرير نصيب من العذاب ، وفي هذا تهكم عليهم ، وسخرية منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (105) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن ابن جريج في قوله يوم يأت قال ذلك اليوم .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي رضي الله عنه قال : كلام الناس يوم القيامة السريانية .

وأخرج ابن الأنباري في المصاحف عن عمر بن ذر . أنه قرأ ﴿ يوم يأتون لا تكلم منهم دابة إلا بإذنه ﴾ .

وأخرج الترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : " لما نزلت ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ قلت : يا رسول الله فعلام نعمل على شيء قد فرغ منه ، أو على شيء لم يفرغ منه ؟ قال " بل على شيء قد فرغ منه وجرت به الأقلام يا عمر ، ولكن كل ميسر لما خلق له " " .

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : هاتان من المخبآت ، قول الله ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ و ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا ﴾ [المائدة : 109] أما قوله ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ فهم قوم من أهل الكبائر من أهل هذه القبلة ، يعذبهم الله بالنار ما شاء بذنوبهم ، ثم يأذن في الشفاعة لهم فيشفع لهم المؤمنون فيخرجهم من النار فيدخلهم الجنة فسماهم أشقياء حين عذبهم في النار ﴿ فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ حين أذن في الشفاعة لهم وأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة وهم هم ﴿ وأما الذين سعدوا ﴾ يعني بعد الشقاء الذي كانوا فيه ﴿

ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ يعني الذين كانوا في النار .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن قتادة . أنه تلا هذه الآية ﴿ فأما الذين شقوا ﴾ فقال : حدثنا أنس رضي الله عنه . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " يخرج قوم من النار ولا نقول كما قال أهل حروراء " .

وأخرج ابن مردويه عن جابر رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فأما الذين شقوا ﴾ إلى قوله ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن شاء الله أن يخرج أناساً من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن خالد بن معدان في قوله ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ قال : إنها في التوحيد من أهل القبلة .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ قال : إلا ما استثنى من أهل القبلة .

وأخرج عبد الرزاق وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر والطبراني والبيهقي في الأسماء

والصفات عن أبي نضرة عن جابر بن عبد الله الأنصاري أو عن أبي سعيد الخدري أو رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد ﴾ قال : هذه الآية قاضية على القرآن كله يقول : حيث كان في القرآن خالدين فيها تأتي عليه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي عن أبي نضرة قال : ينتهي القرآن كله إلى هذه لآية ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله ﴿ وأما الذين سعدوا ﴾ الآية . قال : هو في الذين يخرجون من النار فيدخلون الجنة ، يقول : خالدين في الجنة ﴿ ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ يقول : إلا ما مكثوا في النار حتى أدخلوا الجنة .

وأخرج أبو الشيخ عن سنان قال : استثنى في أهل التوحيد ، ثم قال ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ما دامت السماوات والأرض ﴾ قال : لكل جنة سماء وأرض .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ ما دامت السماوات والأرض ﴾ قال : سماء الجنة وأرضها .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ ما دامت

السماوات والأرض ﴾ قال : تبدل سماء غير هذه السماء وأرض غير هذه الأرض ، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض .

(251/385)

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : إذا كان يوم القيامة أخذ الله السموات السبع والأرضين فطهرهن من كل قذر ودنس ، وفصيرهن أرضاً بيضاء فضة نوراً يتلألأ ، فصيرهن أرضاً للجنة ، والسموات والأرض اليوم في الجنة كالجنة في الدنيا يصيرهن الله على عرض الجنة ويضع الجنة عليها ، وهي اليوم على أرض زعفرانية عن يمين العرش ، فأهل الشرك خالدين في جهنم ما دامت أرضاً للجنة .

وأخرج البيهقي في البعث والنشور عن ابن عباس في قوله ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ قال : فقد شاء ربك أن يخلد هؤلاء في النار وأن يخلد هؤلاء في الجنة .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ فأما الذين شقوا . . . ﴾ قال : فجاء بعد ذلك من مشيئة الله فنسخها ، فأنزل الله بالمدينة ﴿ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً ﴾ [النساء : 168] إلى آخر الآية . فذهب الرجاء لأهل النار أن يخرجوا منها وأوجب لهم خلود الأبد . وقوله ﴿ وأما الذين سعدوا

﴾ الآية . قال : فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها ، فأنزل بالمدينة ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات ﴾ [النساء : 122] إلى قوله ﴿ ظلاً ظليلاً ﴾ [النساء : 57] فأوجب لهم خلود الأبد .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ قال : استثنى الله أمر النار أن تأكلهم .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن عن عمر رضي الله عنه قال : لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم يوم على ذلك يخرجون فيه .

وأخرج إسحق بن راهويه عن أبي هريرة قال : سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد وقرأ ﴿ فأما الذين شقوا . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن إبراهيم قال : ما في القرآن آية أرجى لأهل النار من هذه الآية ﴿ خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ قال : وقال ابن مسعود ليأتين عليها زمان تخفق أبوابها .

وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال : جهنم أسرع الدارين عمراناً ، وأسرعهما خراباً .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ قال : الله أعلم بمشيئته على ما وقعت .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : قد أخبر الله بالذي شاء لأهل الجنة فقال ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار .

وأخرج ابن المنذر عن أبي وائل . أنه كان إذا سئل عن الشيء من القرآن ؟ قال : قد أصاب الله به الذي أراد .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ قال : الزفير الصوت الشديد في الحلق ، والشهيق الصوت الضعيف في الصدر . وفي قوله ﴿ غير مجذوذ ﴾ قال : غير مقطوع . وفي لفظ : غير منقطع .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف عن ابن عباس رضي الله عنهما . أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ ما الزفير ؟ قال : زفير كزفير الحمار . قال فيه أوس بن حجر :

ولا عذران لاقيت أسماء بعدها . . . فيغشى علينا إن فعلت وتعذر

فيخبرها أن رب يوم وقفته . . . على هضبات السفح تبكي وتزفر .

(253/385)

أخرج ابن مردويه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " سلوا الله العافية فإنه لم يعط أحد أفضل من معافاة بعد يقين ، وإياكم والريبة فإنه لم يؤت أحد أشر من ريبة بعد كفر " .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ قال : ما قدر لهم من خير وشر .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ وإنا لموفوهم نصيبهم ﴾ قال : موفوهم نصيبهم من العذاب .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي العالية رضي الله عنه ﴿ وإنا لموفوهم نصيبهم ﴾ قال : من الرزق .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله تبارك وتعالى يوفي كل عبد ما كتب له من الرزق فاجملوا في المطلب ، دعوا ما حرم وخذوا ما حل " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(254/385)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (105) ﴾

وقرأ أبو عمرو والكسائي ونافع " يأتي " بإثبات الياء وصلاً وحَذْفِها وقفاً . وقرأ ابن كثير بإثباتها وصلاً ووقفاً ، وباقي السبعة قرؤوا بحذفها وصلاً ووقفاً . وقد وَرَدَت المصاحف بإثباتها وحذفها : ففي مصحف أُبي إثباتُها ، وفي مصحف عثمان حَذْفُها ، وإثباتُها هو الوجه لأنها لام الكلمة وإنما حذفوها في القوافي والفواصل لأنها محلُّ وقوف وقالوا : لا أَدْرِ ، ولا أبالِ . وقال الزمخشري : " والاجتزاءُ بالكسرة عن الياءِ كثيرٌ في لغة هُذَيل " وأنشد ابن جرير في ذلك :

2708 كفَّاك كفٌّ ما تُليقُ دِرْهماً . . . جُوْداً وأخرى تُعْطِ بالسيف الدَّما

والناصبُ لهذا الظرف فيه أوجه ، أحدها : أنه " لا تَكَلَّمُ " والتقدير : لا تَكَلَّمُ نفسٌ يومَ يأتي ذلك اليوم . وهذا معنى جيد لا حاجةَ إلى غيره . والثاني : أن ينتصب ب " واذكر " مقدراً . والثالث : أن ينتصبَ بالانتهاءِ المحذوفِ في قوله : " إلا لأجل " ، أي : ينتهي الأجل يوم يأتي . والرابع : أنه منصوبٌ ب " لا تكلَّم " مقدَّرًا ، ولا حاجةَ إليه .

والجملةُ من قوله : " لا تَكَلَّمُ " في محلِّ نصبٍ على الحال من ضمير اليوم المتقدم في " مشهود "

، أو نعتاً له لأنه نكرة . والتقدير : لا تَكَلَّم نفسٌ فيه إلا بإذنه ، قاله الحوفي وقال ابن عطية : " لا تكلَّم نفسٌ " يَصِحُّ أن تكون جملةً في موضع الحال من الضمير الذي في " يأتي " وهو العائد على قوله : " ذلك يومٌ " ، ويكون على هذا عائدٌ محذوف تقديره : لا تَكَلَّم نفسٌ فيه ، ويصح أن يكون قوله : ﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ ﴾ صفةً لقوله : " يوم يأتي " .

(255/385)

وفاعلُ " يأتي " فيه وجهان ، أظهرهما : أنه ضميرُ " يوم " المتقدِّم . والثاني : أنه ضمير الله تعالى كقوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ ﴾ [البقرة : 210] وقوله : ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ والضميرُ في قوله : " فمنهم " الظاهر عَوْدُه على الناس في قوله : ﴿ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ ﴾ . وجعله الزمخشري عائداً على أهلِ الموقف وإن لم يُذْكَروا ، قال : " لأنَّ ذلك معلومٌ ؛ ولأن قوله : ﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ ﴾ يدلُّ عليه " ، وكذا قال ابنُ عطية .

قوله : ﴿ وَسَعِيدٌ ﴾ خبره محذوف : أي : ومنهم سعيدٌ ، كقوله : ﴿ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ [هود : 100] .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (106) ﴾

قوله تعالى : ﴿ شَقُوا ﴾ : الجمهورُ على فتح الشين لأنه مِنْ شَقِي فعلٌ قاصِر . وقرأ

الحسن بضمها فاستعمله متعدياً ، فيقال : شَقَاه اللَّه ، كما يقال أشقاه اللَّه .

وقرأ الأخوان وحفص "سُعِدُوا " بضم السين ، والباقونَ بفتحها ، الأُولى مِنْ قولهم "سَعَدَه اللَّه " ، أي : أسعده ، حكى الفراء عن هُذَيل أنها تقول : سَعَدَه اللَّه بمعنى أَسْعد . وقال الجوهري : "سَعِد فهو سعيد كسَلِمَ فهو سليم ، وسُعِد فهو مسعود " . وقال ابن القشيري : " ورَدَ سَعَدَه اللَّه فهو مَسْعود ، وأسعد فهو مُسْعَد " . وقيل : يُقال : سَعَدَه وأَسْعده فهو مَسْعود ، استَغْنوا باسم مفعول الثلاثي . وحُكي عن الكسائي أنه قال : " هما لغتان بمعنىً " ، يعني فَعَل وأَفْعل ، وقال أبو عمرو بن العلاء : "يُقال : سُعِد الرجل كما يُقال جُنَّ" .

وقيل : سَعِده لغة .

(256/385)

وقد ضَعَّفَ جماعةٌ قراءةَ الأخوين ، قال المهدوي : مَنْ قرأ "سُعِدوا " فهو محمولٌ على مَسْعود ، وهو شاذ قليل ، لأنه لا يُقال : سَعَده اللَّه ، إنما يقال : أسعده اللَّه . وقال بعضُهم : احتجَّ الكسائي بقولهم : "مسعود " . قيل : ولا حُجَّةَ فيه ، لأنه يُقال : مكان مسعود فيه ثم حُذِف "فيه" وسُمِّي به . وكان عليّ بن سليمان يتعجَّب مِنْ قراءة الكسائي : / " سُعِدوا " مع علمه بالعربية ، والعجبُ مِنْ تعجُّبه . وقال مكي : " قراءةُ حمزةَ والكسائي "

سُعِدوا " بضم السين حملاً على قولهم : " مسعود " وهي لغةٌ قليلة شاذة ، وقولهم : " مَسْعود " إنما جاء على حذف الزوائد كأنه مِنْ أسعده اللَّه ، ولا يُقال : سَعَدَه اللَّه ، وهو مثل قولهم : أجنَّه اللَّه فهو مجنون ، أتى على جَنَّه اللَّه ، وإنْ كان لا يُقال ذلك ، كما لا يقال : سَعَده اللَّه " .

وضَمُّ السين بعيدٌ عند أكثر النحويين إلا على حذف الزوائد . وقال أبو البقاء : " وهذا غيرُ معروفٍ في اللغة ولا هو مقيسٌ " .

وقوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ : هذه الجملةُ فيها احتمالان ، أحدهما : أنها مستأنفة ، كأن سائلاً سأل حين أَخْبَرَ أنهم في النار : ماذا يكون لهم ؟ فقيل : لهم كذا . الثاني : أنها منصوبةُ المحلِ ، وفي صاحبها وجهان ، أحدهما : أنه الضمير في الجارِّ والمجرور وهي " ففي النار " . والثاني : أنها حالٌ من " النار " .

والزَّفير : أولُ صوت الحمار ، والشَّهيق : آخره ، قال رؤبة :

2709 حَشْرَجَ في الصدر صَهِيْلاً وشَهَقْ . . . حتى يُقالَ ناهِقٌ وما نَهَقْ

وقال ابن فارس : " الشَّهيق ضد الزفير ؛ لأنَّ الشهيق ردُّ النفسَ ، والزَّفير : إخراج النفَس مِنْ شدة الحزن مأخوذ من الزِّفْرِ وهو الحِمْل على الظهر ، لشدته . وقال الزمخشري نحوه ، وأنشد للشماخ :

2710 بعيدٌ مدى التَّطْريبِ أولُ صوتِه . . . زفيرٌ ويَتْلوه شهيق مُحَشْرِجِ

وقيل: الشَّهيق: النَّفَس المتدُّ، مأخوذ مِنْ قولهم "جبل شاهق أي عالٍ. وقال الليث: "الزَّفير: أن يملأَ الرجل صدرَه حال كونه في الغمِّ الشديد من النفس ويُخْرِجُه، والشهيق أن يُخْرِجَ ذلك النفسَ، وهو قريبٌ مِنْ قولهم: "تنفَّس الصعداء". وقال أبو العالية والربيع بن أنس: "الزفير في الحَلْق والشَّهيقُ في الصدر". وقيل: الزفير للحمار والشهيق للبَغْل.

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (107) ﴾

وقوله تعالى: ﴿ خَالِدِينَ ﴾: منصوبٌ على الحال المقدرة. قلت: ولا حاجةَ إلى قولِهم مقدرة، وإنما احتاجوا إلى التقدير في مثل قوله ﴿ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾ [الزمر: 73]؛ لأنَّ الخلودَ بعد الدخول، بخلافِ هنا.

قوله: ﴿ مَا دَامَتِ ﴾ "ما" مصدرية وقتية، أي: مدة دوامهما. و"دام" هنا تامةٌ لأنها بمعنى بَقِيت.

قوله : ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ فيه أقوال كثيرة منتشرة لخّصتها في أربعةَ عشرَ وجهاً ،

أحدها : وهو الذي ذكره الزمخشريُّ فإنه قال : " فإنْ قلت : ما معنى الاستثناء في قوله : ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ وقد ثبَتَ خلودُ أهلِ الجنة والنار في الأبد مِنْ غير استثناء ؟ قلت : هو استثناء مِن الخلود في عذاب النار ، ومن الخلود في نعيم أهل الجنة ، وذلك أنَّ أهل النار لا يُخَلَّدون في عذابها وحدَه ، بل يُعَذَّبون بالزمهرير ، وبأنواعٍ أُخَرَ من العذاب ، وبما هو أشدُّ من ذلك وهو سُخْط الله عليهم ، وكذا أهل الجنة لهم مع نعيم الجنة ما هو أكبرُ منه كقوله : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة : 72] ، والدليل عليه قوله : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : 108] ، وفي مقابله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ ، أي : يَفْعل بهم ما يريد من العذاب ، كما يعطي أهل الجنة ما لا انقطاعَ له " . قال الشيخ : " ما ذكره في أهل النار قد يتمشى لأنهم يَخْرُجون من النار إلى الزمهرير فيصحُّ الاستثناء ، وأما أهل الجنة فلا يخرجون من الجنة فلا يصحُّ فيهم الاستثناء " . قلت : الظاهر أنه لا يصحُّ فيهما ؛ لأنَّ أهلَ النار مع كونهم يُعَذَّبون بالزمهرير هم في النار أيضاً .

الثاني : أنه استثناءٌ من الزمان الدالّ عليه قوله : " خالدين فيها ما دامَتِ السماواتُ والأرضُ " والمعنى : إلا الزمان الذي شاءه الله فلا يُخَلَّدون فيها .

الثالث : أنه مِنْ قوله : " ففي النار " و " ففي الجنة " ، أي : إلا الزمان الذي شاءَه اللَّهُ فلا يكون في النار ولا في الجنة ، ويمكن أن يكون هذا الزمانُ المستثنى هو الزمان الذي يَفْصِل اللَّهُ فيه بين الخلق يومَ القيامة إذا كان الاستثناءُ مِن الكون في النار أو في الجنة ، لأنه زمانٌ يخلو فيه الشقيُّ والسعيدُ مِنْ دخول النار والجنة ، وأمَّا إن كان الاستثناءُ مِنْ الخلود يمكن ذلك بالنسبة إلى أهل النار ، ويكون الزمانُ المستثنى هو الزمان الذي فات أهلَ النارِ العصاةَ من المؤمنين الذي يَخْرجون من النار ويَدْخلون الجنة فليسوا خالدين في النار ، إذ قد أخرجوا منها وصاروا إلى الجنة . وهذا المعنى مَرْوِيٌّ عن قتادة والضحاك وغيرهما ، والذين شَقُوا على هذا شامل للكفار والعصاة ، هذا في طرفِ الأشقياء العُصاة ممكنٌ ، وأمَّا حقُّ الطرف الآخر فلا يتأَّتى هذا التأويلُ فيه ؛ إذ ليس منهم مَنْ يدخلُ الجنةَ ثم لا يُخَلَّد فيها .

قال الشيخ : يمكن ذلك / باعتبار أن يكونَ أريد الزمان الذي فاتَ أهلَ النار العصاة من المؤمنين ، أو الذي فات أصحابَ الأعراف ، فإنه بفوات تلك المدة التي دخل المؤمنون فيها الجنة وخُلِّدوا فيها صَدَقَ على العصاة المؤمنين وأصحابِ الأعراف أنهم ما خُلِّدوا في الجنة تخليدَ مَنْ دخلها لأولِ وَهْلة " .

الرابع : أنه استثناءٌ من الضمير المستتر في الجار والمجرور وهو قوله : " ففي النار " و " ففي الجنة " ؛ لأنه لمَّا وقع خبراً تحمَّل ضميرَ المبتدأ .

الخامس : أنه استثناءٌ من الضمير المستتر في الحال وهو " خالدين " ، وعلى هذين القولين تكون " ما " واقعةً على مَنْ يعقل عند مَنْ يرى ذلك ، أو على أنواعٍ مَنْ يعقل كقوله : ﴿ مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء ﴾ [النساء : 3] والمراد ب " ما " حينئذٍ العصاةُ من المؤمنين في طرفِ أهل النار ، وأمّا في طرف أهل الجنة فيجوز أن يكونوا هم أو أصحابُ الأعراف ، لأنهم لم يدخلوا الجنة لأول وهلة ولا خُلّدوا فيها خلودَ مَنْ دَخَلها أولاً .

السادس : قال ابن عطية : " قيل : إنّ ذلك على طريقِ الاستثناء الذي ندَبَ الشارعُ إلى استعماله في كل كلامٍ فهو كقوله : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إِن شَآءَ الله آمِنِينَ ﴾ [الفتح : 27] ، استثناء في واجب ، وهذا الاستثناء هو في حكم الشرط ، كأنه قال : إنْ شاء اللَّه ، فليس يحتاج أن يُوصَفَ بمتصل ولا منقطع " .

السابع : هو استثناءٌ من طول المدة ، ويروى عن ابن مسعود وغيره ، أنّ جهنمَ تخلو مِن الناس وتَخْفِق أبوابُها فذلك قولُه : ﴿ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ . وهذا مردودٌ بظواهر الكتابِ والسنة ، وما ذكرته عن ابن مسعود فتأويله أنّ جهنم هي الدَّرَك الأَعْلى ، وهي تَخْلو من العُصاة المؤمنين ، هذا على تقديرِ صحةِ ما نُقِل عن ابن مسعود .

الثامن : أن " إلا " حرفُ عطفٍ بمعنى الواو ، فمعنى الآية : وما شاءَ ربُّك زائداً على ذلك .

التاسع : أن الاستثناءَ منقطعٌ ، فيقدَّر ب " لكن " أو ب " سوى " ، ونَظَّروه بقولك : " لي عليك ألفا درهم ، إلا الألفَ التي كنت أسلفتك " بمعنى سوى تلك ، فكأنه قيل : خالدين فيها ما دامت السماواتُ والأرضُ سوى ما شاء ربك زائداً على ذلك . وقيل : سوى ما أعدَّ لهم مِنْ عذابٍ غيرِ عذابِ النار كالزَّمْهرير ونحوِه .

العاشر : أنه استثناءٌ من مدة السماوات والأرض التي فَرَطَت لهم في الحياة الدنيا .

الحادي عشر : أنه استثناءٌ من التدرُّج الذي بين الدنيا والآخرة .

الثاني عشر : أنه استثناءٌ من المسافات التي بينهم في دخول النار ، إذ دخولُهم إنما هو زُمَراً بعد زُمَر .

الثالث عشر : أنه استثناءٌ من قوله : " ففي النار " كأنه قال : إلا ما شاء ربُّك مِنْ تأخُّر قوم عن ذلك ، وهذا القول مرويٌّ عن أبي سعيد الخدري وجابر .

الرابع عشر : أنَّ " إلا ما شاء " بمنزلة كما شاء ، قيل : كقوله : ﴿ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ

النساء إلاَّ ما قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء : 22] ، أي : كما قَدْ سَلَفَ .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108) ﴾

قوله تعالى : ﴿ عَطَآءً ﴾ نُصِبَ على المصدر المؤكد من معنى الجملةِ قبله ؛ لأن قوله : " ففي الجنة خالدين " يقتضي إعطاء وإنعاماً فكأنه قيل : يُعْطيهم عَطاءً ، وعطاء اسم مصدر ، والمصدر في الحقيقةِ الإعطاء على الإفعال ، أو يكونُ مصدراً على حذف الزوائد كقوله : ﴿ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] ، أو هو منصوب بمقدَّرٍ موافقٍ له ، أي : فَنَبَتُّم نباتاً ، وكذلك هنا يقال : عَطوْتُ بمعنى تناولْت .

و" غيرَ مَجْذوذ " نَعْتُه . والمجذوذ : المقطوع ، ويقال لِفُتَات الذهب والفضة والحجارة : " جُذاذ " من ذلك ، وهو قريب من الجَدِّ بالمهملة في المعنى ، إلا أن الراغب جعَل جَدَّ بالمهملة بمعنى قَطْع الأرضِ المستوية ، ومنه " جَدَّ في سيره يَجِدُّ جَدّاً " ، ثم قال : " وتُصُوِّر مِنْ جَدَدْتُ [الأرضَ] القَطْعُ المجردُ فقيل : جَدَدْتُ الثوب إذا قطعتَه على وجهِ الإصلاح ، وثوبٌ جديد أصله المقطوع ، ثم جُعل لكل ما أُحْدِث إنشاؤه " . والظاهرُ أن المادتين متقاربتان في المعنى ، وقد ذكرْتُ لهما نظائرَ نحو : عَتَا وعَثَا وكَثَب وكَتَب .

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾

قوله تعالى: ﴿ مِمَّا يَعْبُدُ ﴾ : "ما" /في "ممَّا يعبد" وفي "كما يَعْبُدُ" مصدريةٌ . ويجوز أن تكونَ الأولى اسميةً دونَ الثانية .

قوله: ﴿ لَمُوَفُّوهُمْ ﴾ قرأ العامة بالتشديد مِنْ وفَّاه مشدداً ، وقرأ ابن محيصن "لَمُوْفُوْهم" بالتخفيف مِنْ أَوْفَى ، كقوله: ﴿ وَأَوْفُوا بعهدي ﴾ [البقرة: 40] ، وقد تقدَّم في البقرة أنَّ فيه ثلاثَ لغات .

قوله: ﴿ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ حالٌ مِنْ "نصيبهم" ، وفي ذلك احتمالان ، أحدهما : أن تكونَ حالاً مؤكدة ، لأنَّ لفظ التوفية يُشْعر بعدم النقص ، فقد استفيد معناها مِنْ عاملها وهو شأنُ المؤكدة . والثاني : أن تكونَ حالاً مُبَيِّنة . قال الزمخشري : "فإن قلت : كيف نُصِبَ "غيرَ منقوص" حالاً عن النصيب المُوَفَّى ؟ قلت : يجوز أن يُوَفَّى وهو ناقصٌ ويوفَّى وهو كاملٌ ، ألا تَراك تقول : "وَفَّيْتُه شطرَ حَقِّه ، وثلثَ حقِّه ، وحقَّه كاملاً وناقصاً" ، فظاهر هذه العبارة أنها مبيِّنة ؛ إذ عاملُها محتملٌ لمعناها ولغيره . إلا أن الشيخ قال بعد كلامه هذا : "وهذه مَغْلَطَة ، إذا قال : "وفيته شطرَ حَقِّه" فالتوفيهُ وَقَعَتْ في الشطر ، وكذا في الثلث ، والمعنى : أعطيته الشطرَ والثلثَ كاملاً لم أنقصه شيئاً ، وأمَّا قوله : "وحقَّه كاملاً وناقصاً" أمَّا كاملاً فصحيح ، وهي حالٌ مؤكدة ؛ لأن التوفيةَ تقتضي الإِكمالَ ، وأمَّا "

وناقصاً " فلا يقال لمنافاته التوفيه " . وفي مَنْع الشيخ أَنْ يُقال : " وَفَّيْتُه حقَّه ناقصاً " نظر ، إذ هو شائعٌ في تركيبات الناس المعتبرِ قولهم ؛ لأن المرادَ بالتوفية مطلقُ التَّأْدية " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 387. 396﴾

(263/385)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (105) ﴾

الشقيُّ من قُسِم له الحرمانُ في حاله ، والسعيد مَنْ رُزِق الإيمان في مآله .

ويقال الشقاء على قسمين : قومٌ شقاؤهم غير مؤيد ، وقومٌ شقاؤهم على التأييد وكذلك القول في السعادة . الشقيُّ مَنْ هو في أَسْرِ التدبير ونسيان جريان التقدير ، واسعيد مَنْ رَجِعَ من ظلماتِ التدبير ، وحصل على وصف شهود التقدير .

ويقال الشقيُّ من كان في رق العبودية ظاناً أَنَّ منه طاعاته ، السعيد مَنْ تحرر عن رقِّ البشرية وعَلِمَ أن الحادثاتِ كلها لله سبحانه .

وأمّا الأشقياء – على التأبيد – فهم أهل الخلود في مقتضى الوعيد ، والسعداء – على

التأبيد – من قال الله تعالى في صفتهم : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : 35] .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ .

﴿ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ أن يزيد على مُدّةِ السموات والأرض .

﴿ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ أن ينقلهم إلى نوعٍ آخر من العذاب غير الزفير والشهيق .

﴿ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ ألا تلحقهم تلك العقوبة قبل أَنْ يُدْخِلَهم النار ؛ فلا استثناء لبعض أوقاتهم من العقوبة لا قَبْل إدخالهم فيها ولا بعده .

﴿ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ من إخراج أهل التوحيد من النار فيكون شقاؤهم غير مؤبّد .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ .

فيه إشارة إلى أن الذي يحصل بمشيئته لا باستحقاق عمل .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108) ﴾

لهم اليوم جناب القُربة ، ولهم غداً جناب المثوبة . والكفار اليوم في عقوبة الفرقة ، وغداً في عقوبة الحرقة .

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ فلا استثناء لبعض أوقات أهل الجنة من أول أمرهم قبل دخولهم الجنة أو بعده . أو يحتمل أنه يزيد على مدة السموات والأرض .

وفي قوله ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ – أي عطاءً غير مقطوع – دليلٌ على أن تلك النعم غير مقطوعة ولا ممنوعة .

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (109) ﴾

لا يريد أنَّه عليه السلام في شَكٍ ، ولكنه أراد به تحقيق كونهم مُضاهين لآبائهم ، كما تقول : لا شكَّ أنَّ هذا نهارٌ .

ويقال الخطابُ له والمرادُ به لأُمَّتِه .

﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ : تجازيهم على الخير بخير وعلى الشر بضُر . (1) انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 158 . 159 ﴾

---

(1) لم يقل القشيري : وعلى الشر بشر ، وإنما استعمل (الضر) تأدبا من ناحية ، ولأنه – حسب مذهبه الكلامى – لا ينسب (الشر) للّه ، من ناحية أخرى ، وكما سنرى بعد قليل فى تفسيره للحسنة وللسيئة

فصل

قال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾

المراد بالآيات : التوراة ، والسلطان المبين : المعجزات .

وقيل : المراد بالآيات : هي التسع المذكورة في غير هذا الموضع ، والسلطان المبين : العصا ، وهي وإن كانت من التسع لكنها لما كانت أبهرها أفردت بالذكر ؛ وقيل : المراد بالآيات : ما يفيد الظنّ ، والسلطان المبين ما يفيد القطع بما جاء به موسى ؛ وقيل : هما جميعاً عبارة عن شيء واحد : أي أرسلناه بما يجمع وصف كونه آية ، وكونه سلطاناً مبيناً ؛ وقيل إن السلطان المبين : ما أورده موسى على فرعون في المحاورة بينهما ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ أي : أرسلناه بذلك إلى هؤلاء .

وقد تقدّم أن الملأ أشراف القوم ، وإنما خصهم بالذكر دون سائر القوم ، لأنهم أتباع لهم في الإصدار والإيراد ، وخصّ هؤلاء الملأ دون فرعون بقوله : ﴿ فاتبعوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي : أمره لهم بالكفر ، لأن حال فرعون في الكفر أمر واضح ، إذ كفر قومه من الأشراف وغيرهم

إنما هو مستند إلى كفره ، ويجوز أن يراد بأمر فرعون شأنه وطريقته ، فيعمّ الكفر وغيره ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أي : ليس فيه رشد قط ، بل هو : غيّ وضلال ، والرشيد بمعنى المرشد ، والإسناد مجازي ، أو بمعنى ذي رشد ، وفيه تعريض بأن الرشد في أمر موسى ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامة ﴾ من قدمه بمعنى تقدّمه : أي يصير متقدّماً لهم يوم القيامة سابقاً لهم إلى عذاب النار ، كما كان يتقدّمهم في الدنيا ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النار ﴾ أي : إنه لا يزال متقدّماً لهم ، وهم يتبعونه حتى يوردهم النار ، وعبر بالماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه ، ثم ذمّ الورد الذي أوردهم إليه ، فقال : ﴿ وَبِئْسَ الورد المورود ﴾ لأن الوارد إلى الماء الذي يقول له الورد ، إنما يرده ليطفىء حرّ العطش ، ويذهب ظمأه ، والنار على ضدّ ذلك .

(266/385)

ثم ذمهم بعد ذمّ المكان الذي يردونه ، فقال : ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هذه لَعْنَةً ﴾ أي : أتبع قوم فرعون مطلقاً ، أو الملأ خاصة ، أو هم وفرعون في هذه الدنيا لعنة عظيمة : أي طرداً وإبعاداً ﴿ وَيَوْمَ القيامة ﴾ أي : وأتبعوا لعنة يوم القيامة ، يلعنهم أهل المحشر جميعاً ، ثم إنه جعل اللعنة رفداً لهم على طريقة التهكم ، فقال : ﴿ بِئْسَ الرفد المرفود ﴾ .

قال الكسائي وأبو عبيدة : رفدته أرفده رفداً : أمنته وأعطيته ، واسم العطية الرفد : أي بئس العطاء ، والإعانة ما أعطوهم إياه ، وأعانوهم به ، والمخصوص بالذمّ محذوف : أي رفدهم ، وهو : اللعنة التي أتبعوها في الدنيا والآخرة ، كأنها لعنة بعد لعنة تمدّ الأخرى الأولى وتؤبدها .

وذكر الماوردي حكاية عن الأصمعي أن الرفد بالفتح : القدح ، وبالكسر : ما فيه من الشراب فكأنه ذمّ ما يستقونه في النار ، وهذا أنسب بالمقام .

وقيل : إن الرفد : الزيادة : أي بئس ما يرفدون به بعد الغرق ، وهو الزيادة قاله الكلبي .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك مِنْ أَنْبَاء القرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ أي : ما قصه الله سبحانه في هذه السورة من أخبار الأمم السالفة ، وما فعلوه مع أنبيائهم ، أي هو مقصوص عليك خبر بعد خبر ، وقد تقدّم تحقيق معنى القصص ، والضمير في ﴿ منها ﴾ عائد إلى ﴿ القرى ﴾ : أي من القرى قائم ، ومنها حصيد ، والقائم : ما كان قائماً على عروشه ، والحصيد : ما لا أثر له .

وقيل القائم : العامر ، والحصيد : الخراب .

وقيل : القائم : القرى الخاوية على عروشها ، والحصيد : المستأصل بمعنى محصود ، شبه القرى بالزرع القائم على ساقه والمقطوع .

قال الشاعر :

والناس في قسم المنية بينهم . . . كالزرع منه قائم وحصيد

(267/385)

﴿ وَمَا ظلمناهم ﴾ بما فعلنا بهم من العذاب ﴿ ولكن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءالِهَتُهُمُ ﴾ أي : فما دفعت عنهم أصنامهم التي يعبدونها من دون الله شيئاً من العذاب ﴿ لَّمَّا جَاء أَمْرُ رَبّكَ ﴾ أي : لما جاء عذابه ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ : الهلاك والخسران : أي ما زادتهم الأصنام التي يعبدونها إلا هلاكاً وخسراناً ، وقد كانوا يعتقدون أنها تعينهم على تحصيل المنافع ﴿ وكذلك أَخْذُ رَبّكَ ﴾ قرأ الجحدري وطلحة بن مصرف "أخذ" على أنه فعل.

وقرأ غيرهما ﴿ أخذ ﴾ على المصدر ﴿ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِىَ ظالمة ﴾ أي : أهلها وهم ظالمون ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ ﴾ أي : عقوبته للكافرين ﴿ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ أي : موجع غليظ ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً ﴾ أي : في أخذ الله سبحانه لأهل القرى ، أو في القصص الذي قصه على رسوله لعبرة وموعظة ﴿ لّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخرة ﴾ لأنهم الذين يعتبرون بالعبر ، ويتعظون بالمواعظ ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس ﴾ إلى يوم القيامة

المدلول عليه بذكر الآخرة أن يجمع فيه الناس للمحاسبة والمجازاة ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ أي: يشهده أهل المحشر، أو مشهود فيه الخلائق، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ أي: وما نؤخر ذلك اليوم إلا لانتهاء أجل معدود معلوم بالعدد، قد عيّن الله سبحانه وقوع الجزاء بعده ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ قرأ أهل المدينة وأبو عمرو، والكسائي بإثبات الياء في الدرج، حذفها في الوقف.

وقرأ أبيّ، وابن مسعود بإثباتها وصلاً ووقفاً.

وقرأ الأعمش بحذفها فيهما، ووجه حذف الياء مع الوقف ما قاله الكسائي: أن الفعل السالم يوقف عليه كالمجزوم فحذفت الياء كما تحذف الضمة.

ووجه قراءة من قرأ بحذف الياء مع الوصل: أنهم رأوا رسم المصحف كذلك.

(268/385)

وحكى الخليل وسيبويه أن العرب تقول: لا أدر، فتحذف الياء وتجتزىء بالكسر، وأنشد الفراء في حذف الياء:

كفاك كف ما تليق درهما . . . جوداً وأخرى تعط بالسيف الدما

قال الزجاج: والأجود في النحو إثبات الياء، والمعنى: حين يأتي يوم القيامة ﴿ لَا تَكَلَّمُ

نَفْسٌ ﴾ أي : لا تتكلم حذفت إحدى التاءين تخفيفاً : أي لا تتكلم فيه نفس إلا بما أذن لها من الكلام .

وقيل : لا تكلم بحجة ولا شفاعة ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ سبحانه لها في التكلم بذلك ، وقد جمع بين هذا وبين قوله : ﴿ هذا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 35 ، 36] باختلاف أحوالهم باختلاف مواقف القيامة .

وقد تكرّر مثل هذا الجمع في مواضع ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ أي : من الأنفس شقيّ ، ومنهم سعيد .

فالشقيّ : من كتبت عليه الشقاوة ، والسعيد : من كتبت له السعادة ، وتقديم الشقيّ على السعيد لأن المقام مقام تحذير ﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ فَفِى النار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ أي : فأما الذين سبقت لهم الشقاوة ، فمستقرّون في النار لهم فيها زفير وشهيق .

قال الزجاج : الزفير من شدّة الأنين ، وهو المرتفع جداً .

قال : وزعم أهل اللغة من البصريين والكوفيين : أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير ، والشهيق : بمنزلة آخره .

وقيل الزفير : الصوت الشديد ، والشهيق : الصوت الضعيف .

وقيل الزفير : إخراج النفس ، والشهيق : ردّ النفس .

وقيل : الزفير من الصدر ، والشهيق : من الحلق .

وقيل الزفير : ترديد النفس من شدّة الخوف ، والشهيق : النفس الطويل الممتد ، والجملة إما مستأنفة كأنه قيل : ما حالهم فيها ؟ أو في محل نصب على الحال ﴿ خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض ﴾ أي : مدّة دوامهما .

(269/385)

وقد اختلف العلماء في بيان معنى هذا التوقيت ، لأنه قد علم بالأدلة القطعية تأبيد عذاب الكفار في النار ، وعدم انقطاعه عنهم ، وثبت أيضاً أن السموات والأرض تذهب عند انقضاء أيام الدنيا ، فقالت طائفة : إن هذا الإخبار جار على ما كانت العرب تعتاده إذا أرادوا المبالغة في دوام الشيء ، قالوا : هو دائم ما دامت السموات والأرض ، ومنه قولهم : لا آتيك ما جنّ ليل ، وما اختلف الليل والنهار ، وما ناح الحمام ونحو ذلك .

فيكون معنى الآية : أنهم خالدون فيها أبداً لا انقطاع لذلك ولا انتهاء له .

وقيل : إن المراد : سموات الآخرة وأرضها ، فقد ورد ما يدل على أن للآخرة سموات وأرضاً غير هذه الموجودة في الدنيا ، وهي دائمة بدوام دار الآخرة ، وأيضاً لا بدّ لهم من موضع يقلهم وآخر يظلهم ، وهما أرض وسماء .

قوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ قد اختلف أهل العلم في معنى هذا الاستثناء على أقوال :

الأوّل : أنه من قوله : ﴿ فَفِى النار ﴾ كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك .

روي هذا أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري .

الثاني : أن الاستثناء إنما هو للعصاة من الموحدين ، وأنهم يخرجون بعد مدّة من النار ،

وعلى هذا يكون قوله سبحانه : ﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ ﴾ عاماً في الكفرة والعصاة ، ويكون

الاستثناء من ﴿ خالدين ﴾ ، وتكون " ما " بمعنى من ، وبهذا قال قتادة ، والضحاك ،

وأبو سنان ، وغيرهم .

وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواتراً يفيد العلم الضروري بأنه يخرج من النار أهل التوحيد ،

فكان ذلك مخصصاً لكل عموم .

الثالث : أن الاستثناء من الزفير والشهيق : أي لهم فيها زفير وشهيق ﴿ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ

﴾ من أنواع العذاب غير الزفير والشهيق ، قاله ابن الأنباري .

الرابع أن معنى الاستثناء : أنهم خالدون فيها ما دامت السموات والأرض ، لا يموتون إلا ما

شاء ربك ، فإنه يأمر النار فتأكلهم حتى يفنوا ، ثم يجدّد الله خلقهم ، روي ذلك عن ابن

مسعود .

الخامس : أن ﴿ إلا ﴾ بمعنى سوى ، والمعنى : ما دامت السموات والأرض سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود ، كأنه ذكر في خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه ، ثم زاد عليه الدوام الذي لا آخر له حكاه الزجاج .

السادس : ما روي عن الفراء وابن الأنباري وابن قتيبة من أن هذا لا ينافي عدم المشيئة كقولك : والله لأضربنه إلا أن أرى غير ذلك ، ونوقش هذا بأن معنى الآية الحكم بخلودهم إلا المدة التي شاء الله ، فالمشيئة قد حصلت جزماً ؛ وقد حكي هذا القول الزجاج أيضاً .

السابع : أن المعنى : خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من مقدار موقفهم في قبوركم وللحساب ، حكاه الزجاج أيضاً .

الثامن : أن المعنى : خالدين فيها إلا ما شاء ربك من زيادة النعيم لأهل النعيم وزيادة العذاب لأهل الجحيم ؛ حكاه أيضاً الزجاج ، واختاره الحكيم الترمذي .

التاسع : أن ﴿ إلا ﴾ بمعنى الواو ، قاله الفراء ؛ والمعنى : وما شاء ربك من الزيادة ، قال مكي : وهذا القول بعيد عند البصريين أن تكون إلا بمعنى الواو .

العاشر : أن ﴿ إلا ﴾ بمعنى الكاف ، والتقدير : كما شاء ربك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء : 22] أي : كما قد سلف .

الحادي عشر : أن هذا الاستثناء إنما هو على سبيل الاستثناء الذي ندب إليه الشارع في

كل كلام ، فهو على حدّ قوله : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إِن شَاء الله ءامِنِينَ ﴾ [الفتح : 27] روى نحو هذا عن أبي عبيد ، وهذه الأقوال هي جملة ما وقفنا عليه من أقوال أهل العلم .

وقد نوقش بعضها بمناقشات ، ودفعت بدفوعات .

وقد أوضحت ذلك في رسالة مستقلة جمعتها في جواب سؤال ورد من بعض الأعلام .

(271/385)

﴿ وَأَمَّا الذين سُعِدُواْ فَفِى الجنة خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض ﴾ قرأ الأعمش ، وحفص ، وحمزة ، والكسائي ﴿ سعدوا ﴾ بضم السين ، وقرأ الباقون بفتح السين ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم .

قال سيبويه : لا يقال : سعد فلان ، كما لا يقال : شقي فلان ؛ لكونه مما لا يتعدى ، قال النحاس : ورأيت عليّ بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائي بضم السين مع علمه بالعربية ، وهذا لحن لا يجوز ، ومعنى الآية كما مرّ في قوله : ﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ ﴾ قوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ قد عرف من الأقوال المتقدّمة ما يصلح لحمل هذا الاستثناء عليه ﴿ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أي : يعطيهم الله عطاء غير مجذوذ ، والمجذوذ : المقطوع ، من جذه يجذه

إذا قطعه، والمعنى: أنه ممتدّ إلى غير نهاية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة ﴾ يقول: أضلهم فأوردهم النار.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن قتادة، في الآية قال: فرعون يمضي بين أيدي قومه حتى يهجم بهم على النار.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النار ﴾ قال: الورود: الدخول.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ بِئْسَ الرفد المرفود ﴾ قال: لعنة الدنيا والآخرة.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ يعني: قرى عامرة وقرى خامدة.

وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة: ﴿ منها قائم ﴾ يرى مكانه، و ﴿ حصيد ﴾ لا يرى له أثر.

وأخرج أبو الشيخ، عن ابن جريج: ﴿ منها قائم ﴾ خاو على عروشه، و ﴿ حصيد ﴾ ملصق بالأرض.

وأخرج أبو الشيخ، عن أبي عاصم ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ﴾ قال: ما نفعت.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عمر، في قوله: ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أي: هلكة.

وأخرج أبو الشيخ، عن ابن زيد قال: تخسير.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة معناه.

وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله سبحانه وتعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته"، ثم قرأ: ﴿ وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾.

وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد، في قوله: ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخرة ﴾ يقول: إنا سوف نفي لهم بما وعدناهم في الآخرة كما وفينا للأنبياء أنا ننصرهم.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو الشيخ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس وذلك يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ قال: يوم القيامة.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد، مثله.

وأخرج أبو الشيخ، عن ابن جريج، في قوله: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ قال: ذلك اليوم.

وأخرج الترمذي وحسنه ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن عمر بن الخطاب ، قال : لما نزلت ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ قلت : يا رسول الله ، فعلام نعمل ، على شيء قد فرغ منه ، أو على شيء لم يفرغ منه ؟ قال : " بل على شيء قد فرغ منه ، وجرت به الأقلام يا عمر ، ولكن كلّ ميسر لما خلق له "

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس قال : ها تان من المخبآت ، قول الله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ و

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا ﴾ [المائدة : 109] أما قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ فهم قوم من أهل الكتاب من أهل هذه القبلة يعذبهم الله بالنار ما شاء بذنوبهم ، ثم يأذن في الشفاعة لهم ، فيشفع لهم المؤمنون فيخرجهم من النار فيدخلهم الجنة ، فسماهم أشقياء حين عذبهم في النار ﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ فَفِى النار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ حين أذن في الشفاعة لهم ، وأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة وهم هم ﴿ وَأَمَّا الذين سُعِدُواْ ﴾ يعني بعد الشقاء الذي كانوا فيه ﴿ فَفِى الجنة خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات

والأرض إِلَّا مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ يعني : الذين كانوا في النار .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن قتادة أنه تلا هذه الآية : ﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ ﴾ فقال : حدّثنا أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يخرج قوم من النار ولا نقول كما قال أهل حروراء : إن من دخلها بقي فيها " وأخرج ابن مردويه ، عن جابر ، قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن شاء الله أن يخرج أناساً من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل " وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن خالد بن معدان في قوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ قال : إنها في التوحيد من أهل القبلة .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن الضريس ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن أبي نضرة ، عن جابر بن عبد الله ، أو عن أبي سعيد الخدري ، أو رجل من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، في قوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ قال : هذه الآية قاضية على القرآن كله ، يقول حيث كان في القرآن خالدين فيها تأتي عليه .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقي عن أبي نضرة ، قال : ينتهي

القرآن كله إلى هذه الآية : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ مَا دَامَتِ السموات والأرض ﴾ قال : لكل جنة سماء وأرض .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السديّ ، نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الحسن ، نحوه أيضاً .

وأخرج البيهقي في البعث والنشور ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ قال : فقد شاء ربك أن يخلد هؤلاء في النار ، وأن يخلد هؤلاء في الجنة .

وأخرج ابن جرير ، عنه ، في قوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ قال : استثنى الله من النار أن تأكلهم .

وأخرج أبو الشيخ ، عن السديّ ، في الآية قال : فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها ، فأنزل بالمدينة : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ الله لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً ﴾ [النساء : 168] إلى آخر الآية ، فذهب الرجاء لأهل النار أن يخرجوا منها ، وأوجب لهم خلود الأبد .

وقوله : ﴿ وَأَمَّا الذين سُعِدُواْ ﴾ الآية .

قال : فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها ، فأنزل بالمدينة : ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَنُدْخِلُهُمْ جنات ﴾ إلى قوله : ﴿ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ [النساء : 57] فأوجب

لهم خلود الأبد .

وأخرج ابن المنذر ، عن الحسن ، قال : قال عمر : لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج ، لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه .

وأخرج إسحاق بن راهويه عن أبي هريرة قال : سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد ، وقرأ ﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ ﴾ الآية .

وأخرج ابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن إبراهيم ، قال : ما في القرآن آية أرجى لأهل النار من هذه الآية ﴿ خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ قال : وقال ابن مسعود : ليأتينّ عليها زمان تخفق أبوابها .

وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال : جهنم أسرع الدارين عمراناً وأسرعهما خراباً .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ قال : الله أعلم بتثنيته على ما وقعت .

وقد روي عن جماعة من السلف مثل ما ذكره عمر ، وأبو هريرة ، وابن مسعود ، كابن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وجابر ، وأبي سعيد من الصحابة ، وعن أبي مجلز وعبد

الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهما من التابعين .

وورد في ذلك حديث في معجم الطبراني الكبير عن أبي أمامة صدي بن عجلان الباهلي ، وإسناده ضعيف .

ولقد تكلم صاحب الكشاف في هذا الموضع بما كان له في تركه سعة ، وفي السكوت عنه غنى ، فقال : ولا يخدعنك قول المجبرة إن المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار ، فإن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ويسجل بافترائهم ، وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روي لهم بعض الثوابت عن ابن عمرو : ليأتينّ على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد .

ثم قال : وأقول : ما كان لابن عمرو في سيفيه ومقاتلته بهما عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث .

انتهى .

وأقول : أما الطعن على من قال بخروج أهل الكبائر من النار ، فالقائل بذلك يا مسكين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما صح عنه في دواوين الإسلام التي هي دفاتر السنة

المطهرة ، وكما صحّ عنه في غيرها من طريق جماعة من الصحابة يبلغون عدد التواتر ؛ فمالك والطعن على قوم عرفوا ما جهلته ، وعملوا بما أنت عنه في مسافة بعيدة ، وأيّ مانع من حمل الاستثناء على هذا الذي جاءت به الأدلة الصحيحة الكثيرة ، كما ذهب إلى ذلك وقال به جمهور العلماء من السلف والخلف .

وأما ما ظننته من أن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ، ويسجل بافترائهم ، فلا منادة ولا مخالفة ، وأيّ : مانع من حمل الاستثناء في الموضعين على العصاة من هذه الأمة ، فالاستثناء الأوّل : يحمل على معنى ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ من خروج العصاة من هذه الأمة من النار ، والاستثناء الثاني : يحمل على معنى ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ من عدم خلودهم في الجنة كما يخلد غيرهم ، وذلك لتأخر خلودهم إليها مقدار المدّة التي لبثوا فيها في النار .

وقد قال بهذا من أهل العلم من قدّمنا ذكره ، وبه قال ابن عباس حبر الأمة .

وأما الطعن على صاحب رسول الله ، وحافظ سنته ، وعابد الصحابة ، عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، فإلى أين يا محمود ، أتدري ما صنعت ، وفي أيّ واد وقعت ، وعلى أي جنب سقطت ؟ ومن أنت حتى تصعد إلى هذا المكان ، وتتناول نجوم السماء بيديك القصيرة ، ورجلك العرجاء ، أما كان لك في مكسري طلبتك من أهل النحو واللغة ما يردك عن الدخول فيما لا تعرف ، والتكلم بما لا تدري ، فيالله العجب ما يفعل القصور في علم

الرواية ، والبعد عن معرفتها إلى أبعد مكان من الفضيحة لمن لم يعرف قدر نفسه ، ولا أوقفها حيث أوقفها الله سبحانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(277/385)

بحث لابن القيم في استيفاء شبه نفاة الحكمة وذكر الأجوبة المفصلة عنها

قال عليه الرحمة :

هو الغاية لخلقه وإنما تعذيبه لحكمة ورحمة والحكمة والرحمة تأبى أن يتصل عذابه سرمدا إلى غير نهاية أما الرحمة فظاهر وأما الحكمة فلأنه إنما عذب على أمر طرأ على الفطرة وغيرها ولم يخلق عليه من أصل الخلقة ولا خلق له فهو لم يخلق للإشراك ولا للعذاب وإنما خلق للعبادة والرحمة ولكن طرأ عليه موجب العذاب فاستحق عليه العذاب وذلك الموجب لا دوام له فإنه باطل بخلاف الحق الذي هو موجب الرحمة فإنه دائم بدوام الحق سبحانه وهو الغاية وليس موجب العذاب غاية كما أن العذاب ليس بغاية بخلاف الرحمة فإنها غاية وموجبها غاية فتأمله حق التأمل فإنه سر المسألة ، قالوا والرب تعالى تسمى بالغفور الرحيم ولم يتسمى بالمعذب ولا بالمعاقب بل جعل العذاب والعقاب في أفعاله كما قال تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ وقال

تعالى: ﴿ نَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وقال: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ وقال: ﴿ حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ وهذا كثير في القرآن فإنه سبحانه يتمدح بالعفو والمغفرة والرحمة والكرم والحلم ويتسمى ولم يتمدح بأنه المعاقب ولا الغضبان ولا المعذب ولا المسقم إلا في الحديث الذي فيه تعديد الأسماء الحسنى ولم يثبت وقد كتب على نفسه كتابا أن رحمته سبقت غضبه وكذلك هو في أهل النار فإن رحمته فيهم سبقت غضبه فإنه رحمهم أنواعا من الرحمة قبل أن

أغضبوه بشركهم ورحمهم في حال شركهم ورحمهم بإقامة الحجة عليهم ورحمهم بدعوتهم إليه بعد أن أغضبوه وآذوا رسله وكذبوهم وأمهلهم ولم يعاجلهم بل وسعتهم رحمته فرحمته غلبت غضبه ولولا ذلك لخرب العالم وسقطت السماوات على الأرض وخرت الجبال وإذا كانت الرحمة غالبة للغضب سابقة عليه امتنع أن يكون موجب الغضب دائما بدوامه غالبا لرحمته قالوا والتعذيب إما أن يكون عبثا أو لمصلحة وحكمة وكونه عبثا مما ينزه أحكم الحاكمين عنه ونسبته إليه نسبة لما هو من أعظم النقائص إليه وإن كان لمصلحة

فالمصلحة هي المنفعة ولوازمها وملزوماتها وهي إما أن تعود على الرب تعالى وهو يتعالى عن ذلك ويتقدس عنه وإما أن تعود إلى المخلوق إما نفس المعذب وإما غيره أو هما والأول ممتنع ولا مصلحة له في دوام العقوبة بلا نهاية وأما مصلحة غيره فإن كانت هي الاتعاظ والانزجار فقد حصلت وإن كانت تكميل لذته وبهجته وسروره بأن يرى عدوه في تلك الحال وهو في غاية النعيم فهذا لو كان أقسى الخلق لرق لعدوه من طول عذابه ودوام ما يقاسيه فلم يبق إلا كسر تلك النفوس الجبارة العتيدة ومداواتها كيما تصل إلى مادة أدوائها وأمراضها فتحسمها وتلك المادة شر طارئ على خير خلقت عليه في ابتداء فطرتها قالوا والأقسام الممكنة في الخلق خمسة لا مزيد عليها خير محض ومقابله وخير راجح ومقابله وخير وشر متساويان والحكمة تقتضي إيجاد قسمين منها وهما الخير الخالص والراجح وأما الشر الخالص أو الراجح فإن الحكمة لا تقتضي وجوده بل تأبى ذلك فإن كل ما خلقه الله سبحانه فإنما خلقه لحكمة وجودها أولى من عدمها وخلق الدواب الشريرة والأفعال التي هي شر لما يترتب على خلقها من الخير المحبوب فلم يخلق لمجرد الشر الذي لا يستلزم خيرا بوجه ما هذا غاية المحال فالخير هو المقصود بالذات بالقصد الأول والشر إنما قصد قصد الوسائل والمبادئ لا قصد الغايات والنهايات وحينئذ فإذا حصلت الغاية المقصودة بخلقه بطل وزال كما

تبطل الوسائل عند الانتهاء إلى غاياتها كما هو معلوم بالحس والعقل وعلى هذا فالعذاب

شر وله غاية تطلب به

وهو وسيلة إليها فإذا حصلت غايته كان بمنزلة الطريق الموصلة إلى القصد فإذا وصل بها السائر إلى مقصده لم يبق لسلوكها فائدة وسر المسألة أن الرحمة غاية الخلق والأمر لا العذاب فالعذاب من مخلوقاته وذلك مقتضى أنه خلقه لغاية محمودة ولا بد من ظهور أسمائه وأثر صفاته عموما وإطلاقا فإن هذا هو الكمال والرب جل جلاله موصوف بالكمال منزه عن النقص قالوا وقد قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ وقال: ﴿ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ قال أبو سعيد الخدري: "هذه تقضي على كل آية في القرآن" ذكره البيهقي وحرب وغيرهما وقال عبد الله بن مسعود: "ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابا" وعن عمر بن الخطاب وأبي هريرة مثله ذكره جماعة من المصنفين في السنة وهذا يقتضي أن الدار التي لا يبقى فيها أحد هي التي يلبث فيها أهلها أحقابا وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "أخبرنا الله بالذي يشاء لأهل الجنة فقال تعالى: ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار" قالوا ويكفينا ما في سورة الأنعام من قوله: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ

مِنَ الْأُنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ

رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ وهذا خطاب للكفار من الجن والإنس من وجوه، أحدها استكبارهم منهم أي من إغوائهم وإضلالهم وإنما استكبروا من الكفار، الثاني قوله: ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ ﴾ وأولياؤهم هم الكفار كما قال تعالى: ﴿ إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ فحزب الشيطان هم أولياؤه والثالث قوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ومع هذا فقال: ﴿ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ ثم ختم الآية بقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ فتعذيبهم متعلق بعلمه وحكمته وكذلك الاستثناء صادر عن علم وحكمة فهو عليم بما يفعل بهم حكيم في ذلك قالوا وقد ورد في القرآن أنه سبحانه إذا ذكر جزاء أهل رحمته وأهل غضبه معا أبد جزاء أهل الرحمة وأطلق جزاء أهل الغضب كقوله: ﴿ فَأَمَّا

الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

(281/385)

أَبَداً

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ وقوله: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وقد يقرن بينهما في الذكر ويقضي لهم بالخلود كقوله: ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ وقوله: ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ ولكن مجرد ذكر الخلود والتأبيد لا يقتضي عدم النهاية بل الخلود هو المكث الطويل كقولهم

قيد مخلد وتأبيد كل شيء بحسبه فقد يكون التأبيد لمدة الحياة وقد يكون لمدة الدنيا قال تعالى عن اليهود: ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ

أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ومعلوم أنهم يتمنونه في النار حيث يقولون يا مالك ليقض علينا ربك وإنما استفيد عدم انتهاء نعيم الجنة بقوله: ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ وقوله: ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ وقوله: ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي مقطوع ومن قال لا يمن به عليهم فقد أخطأ أقبح الخطأ ولم يجيء مثل ذلك في عذاب أهل النار وقوله عز وجل: ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ ﴿ مَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ وقوله: ﴿ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ في موضعين من القرآن وقوله: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا ﴾ غير مصروف عن ظاهره وحقيقته على الصحيح وقد زعمت طائفة أن إطلاق هذه الآيات مقيد بآيات التقييد بالاستثناء بالمشيئة فيكون من باب تخصيص العموم وهذا كأنه قول من قال من السلف في آية الاستثناء أنها تقضي على كل وعيد في القرآن والصحيح أن هذه الآيات على عمومها وإطلاقها ولكن ليس فيها ما يدل

على أن نفس النار دائمة بدوام الله لا انتهاء لها هذا ليس في القرآن ولا في السنة ما يدل عليه بوجه ما وفرق بين أن يكون عذاب أهلها دائما بدوامها وبين أن يكون هي أبدية لا انقطاع لها فلا تستحيل ولا تضمحل فهذا شيء وهذا شيء لا يقال فلا فرق على هذا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة إذ كان كل منهما يضمحل وينقطع قيل ما أظهر الفروق بينهما والأمر أبين من أن يحتاج إلى فرق وأيضا فعذاب الدنيا ينقطع بموت المعذب وإقلاع العذاب عنه وأما عذاب الآخرة فلا يموت من استحق الخلود فيه

ولا يقلع العذاب عنه ولا يدفعه عنه أحد كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ وهو لازم لا يفارق قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾ أي لازما ومنه سمي الغريم غريما لملازمة غريمه.

فصل: وأما الآثار في هذه المسألة فقال الطبراني حدثنا عبد الرحمن بن سلم حدثنا سهل بن عثمان حدثنا عبد الله بن مسعر بن كدام عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "ليأتين على جهنم يوم كأنها ورق هاج واحمر تخفق أبوابها"

وقال حرب في مسائله: "سألت إسحاق قلت قول الله عز وجل: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا

دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قال: أتت هذه الآية على كل وعيد في القرآن" حدثنا عبد الله بن معاذ حدثنا معتمر بن سليمان قال قال أبي حدثنا أبو نصرة عن جابر أو أبي سعيد أو بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: هذه الآية تأتي على القرآن كله إلا ما شاء ربك إنه فعال لما يريد قال المعتمر: "قال أي كل وعيد في القرآن" ثم تأول حرب ذلك فقال: "معناه عندي والله أعلم أنها تأتي على كل وعيد في القرآن لأهل التوحيد وكذلك قوله إلا ما شاء ربك استثنى من أهل القبلة الذين يخرجون من النار" وهذا التأويل لا يصح لأن الاستثناء إنما هو في وعيد الكفار فإنه سبحانه قال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ﴾ الآية ثم قال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ﴾ فأهل التوحيد من الذين سعدوا شقوا وآية الأنعام صريحة في حق الكفار كما تقدم بيانه قال حرب وحدثنا عبيد الله بن معاذ حدثنا أبي ثنا شعبة عن أبي حدثنا مليح سمع عمر بن ميمون يحدث عن عبد الله بن عمرو قال: "ليأتين على جهنم يوم تصطفق فيه أبوابها ليس فيها أحد وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابا" حدثنا عبيد الله ثنا

أبي ثنا شعبة عن يحيى بن أيوب عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال: "أما الذي أقول أنه سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد وقرأ فأما الذين شقوا ففي النار" الآية قال عبيد الله: "كان أصحابنا يقولون يعني بها

الموحدين" وقد تقدم أن هذا التأويل لا يصح وقال عبد بن حميد في تفسيره أخبرنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن قال قال عمر: "لو لبث أهل النار في النار بقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه" وقال أخبرنا حجاج بن منهال عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن أن عمر بن الخطاب قال: "لو لبث أهل النار في النار عدد رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون فيه" ورواة هذا الأثر أئمة ثقات كلهم والحسن سمعه من بعض التابعين ورواه غير منكر له فدل هذا الحديث أنه كان متداولا بين هؤلاء الأئمة لا ينكرونه وقد كانوا ينكرونه على من خرج عن السنة أدنى شيء ويروون الأحاديث المبطلة لفعله وكان الإمام أحمد يقول أحاديث حماد بن سلمة هي الشجا في حلوق المبدعة فلو كان هذا القول عندهم من البدع المخالفة للسنة والإجماع لسارعوا إلى رده وإنكاره وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ قال: "لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه ولا ينزلهم جنة ولا نارا" قال الطبري: "وروي عن ابن عباس أنه كان يتأول في هذا الاستثناء أن الله جعل أمر هؤلاء في مبلغ عذابه إياهم إلى مشيئته" وهذا التفسير من

ابن عباس يبطل قول من تأول الآية على أن معناها سوى ما شاء الله من أنواع العذاب أو قال المعنى إلا مدة مقامهم قبل الدخول من حين بعثوا إلى أن دخلوا أو أنها في أهل القبلة وما يعني من أو أنها يعني الواو

(285/385)

أي وما شاء الله وهذه كلها تأويلات باردة ركيكة لا تليق بالآية ومن تأملها جزم ببطلانها وقال السدي في قوله تعالى: ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً ﴾ قال سبعمائة حقب كل حقب سبعون سنة كل سنة ثلاثمائة وستون يوما كل يوم كألف سنة مما تعدون وتقييد لبثهم فيها بالأحقاب يدل على مدة مقدرة يحصرها العدد هذا قول الأكثرين ولهذا تأول الزجاج الآية على أن الأحقاب تقييد لقوله لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا وأما مدة مكثهم فيها فلا يتقدر بالأحقاب وهذا تأويل فاسد فإنه يقتضي أن يكونوا بعد الأحقاب ذائقين للبرد والشراب وقالت طائفة أخرى الآية منسوخة بقوله: ﴿ مَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ وقوله: ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وهذا فاسد أيضا إن أرادوا بالنسخ الرفع فإنه لا يدخل في الخبر إلا إذا كان بمعنى الطلب وإن أرادوا بالنسخ البيان فهو صحيح وهو إنما يدل على أن عذابهم دائم مستمر ما دامت باقية فهم فيها خالدون وما هم بمخرجين وهذا حق معلوم دلالة القرآن

والسنة عليه لكن الشأن في أمر آخر وهو أن النار أبدية دائمة بدوام الرب فأين الدليل على هذا من القرآن أو السنة بوجه من الوجوه وقالت طائفة هي في أهل التوحيد وهذا أقبح مما قبله وسياق الآيات يرده ردا صريحا ولما رأى غيرهم بطلان هذه التأويلات قال لا يدل ذكر الأحقاب على النهاية فإنها غير مقدرة بالعدد فإنه لم يقل عشرة ولا مائة ولو قدرت بالعدد لم يدل على النهاية إلا بالمفهوم فكيف إذا لم يقدر قالوا ومعنى الآية أنه كلما مضى حقب تبعه حقب لا إلى نهاية وهذا الذي قالوه لا تدل الآية عليه بوجه وقولهم أن الأحقاب فيها غير مقدرة فيقال لو أريد بالآية بيان عدم انتهاء مدة العذاب لم يقيد بالأحقاب فإن ما لا نهاية له لا يقال هو باق أحقابا ودهورا وأعصارا أو نحو ذلك ولهذا لا يقال ذلك في نعيم أهل الجنة ولا يقال للأبدي الذي لا يزول هو باق أحقابا أو آلافا من السنين فالصحابة أفهم الآية لمعاني القرآن

وقد فهم منها عمر بن الخطاب خلاف فهم هؤلاء كما فهم ابن عباس من آية الاستثناء خلاف فهم أولئك وفهم الصحابة في

القرآن هو الغاية التي عليها المعول وقد قال ابن مسعود: "ليأتين على جهنم زمان تخفق

أبوابها ليس فيها أحد وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابا" وقال ابن جرير حديث عن المسيب عمن ذكره عن ابن عباس خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك قال: "أمر الله النار أن تأكلهم" قال وقال ابن مسعود فذكره وقال حدثنا محمد بن حميد ثنا جرير عن بيان عن الشعبي قال: "جهنم أسرع الدارين عمرانا وأسرعهما خرابا" قلت لا يدل قوله أسرعهما خرابا على خراب الدار الأخرى كما في قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ وقوله: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وقوله في الحديث: "الله أعلا وأجل" وقوله: "أسرعهما عمرانا" يحتمل معنيين أحدهما مسارعة الناس إلى الأعمال التي يدخلون بها جهنم وإبطاؤهم عن أعمال الدار الأخرى والثاني أن أهلها يدخلونها قبل دخول أهل الجنة إليها فإن أهل الجنة إنما يدخلونها بعد عبورهم على الصراط وبعد حبسهم على القنطرة التي وراءه وأهل النار قد تبوءوا منازلهم منها فإنهم لا يجوزون على الصراط ولا يحبسون على تلك القنطرة وأيضا ففي الحديث الصحيح: "أنه لما ينادي المنادى لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فتتبع المشركون أوثانهم وآلهتهم فتتساقط بهم في النار وتبقى هذه الأمة في الموقف حتى يأتيها ربها عز وجل ويقول ألا تنطلقون حيث انطلق الناس" وقد ذكر الخطيب في تاريخه في ترجمة سهل بن عبيد الله بن داود ابن سليمان أبو نصر البخاري حدثنا محمد بن نوح الجند سابوري حدثنا جعفر بن محمد بن عيسى الناقد حدثنا سهل بن عثمان ثنا عبد الله بن

مسعر بن كدام عن جعفر بن الزبير عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يأتي على جهنم يوما ما فيها من بني آدم أحد تخفق أبوابها كأنها أبواب الموحدين" وليس العمدة على هذا وحده فإن إسناده ضعيف وقد روي من وجه آخر عن ابن مسعود وقد تقدم .

فصل: والذين قطعوا بأبدية النار وأنها لا تفنى لهم طرق ، أحدها الآيات والأحاديث الدالة على خلودهم فيها وأنهم لا يموتون وما هم منها بمخرجين وأن الموت يذبح بين الجنة والنار وأن الكفار لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وأمثال هذه النصوص وهذه الطريق لا تدل على ما ذكروه وإنما يدل على أنها ما دامت باقية فهم فيها فأين فيها ما يدل على عدم فنائها ، الطريق الثاني دعوى الإجماع على ذلك وقد ذكرنا من أقوال الصحابة والتابعين ما يدل على أن الأمر بخلاف ما قالوا حتى لقد ادعى إجماع الصحابة من هذا الجانب استنادا إلى تلك النقول التي لا يعلم عنهم خلافها ، الطريق الثالث أنه كالمعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن الجنة والنار لا تفنيان بل هما باقيتان ولهذا أنكر أهل السنة كلهم على أبي الهذيل وجهم وشيعتهما ممن قال بفنائها وعدوا أقوالهم من أقوال أهل البدع

المخالفة لما جاء به الرسول ولا ريب أن هذا من أقوال أهل البدع التي خرجوا بها عن السنة ولكن من أين تصح دعوى العلم النظري أن النار باقية ببقاء الله دائمة بدوامه فضلا عن العلم الضروري فأين في الأدلة الشرعية أو العقلية دليل واحد يقتضي ذلك، الطريق الرابع أن السنة المستفيضة أو المتواترة أخبرت بخروج أهل التوحيد من النار دون الكفار وهذا معلوم من السنة قطعا وهذا الذي قالوه حق لا ريب فيه ولكن أهل التوحيد خرجوا منها وهي باقية لم تفن ولم تعدم والكفار لا يحصل لهم ذلك بل هم باقون فيها ما بقيت، الطريق الخامس أن العقل يدل على

خلود الكفار فيها وعدم خروجهم منها فإن نفوسهم غير قابلة للخير فإنهم لو خرجوا منها لعادوا كفارا كما كانوا وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ وهذا يدل على غاية عتوهم وإصرارهم وعدم قبول الخير فيهم بوجه من الوجوه فلا تصلح نفوسهم الشريرة الخبيثة إلا للعذاب ولو صلحت لصلحت على طول العذاب فحيث لم يؤثر عذابهم تلك الأحقاب الطويلة في نفوسهم ولم يطيبها علم أنه لا قابلية فيهم للخير أصلا وأن أسباب العذاب لم يطف من نفوسهم فلا يطفى العذاب المترتب عليها وهذه الطريق وإن

أنكرت ببادئ الرأي فهي طريق قوية وهي ترجع إلى طريق الحكمة وأن الحكمة التي اقتضت دخولهم هي التي اقتضت خلودهم ولكن هذه الطريق محرم سلوكها على نفاة الحكمة وعلى مثبتيها من المعتزلة والقدرية أما النفاة فظاهر وأما المثبتة فالحكمة عندهم أن عذابهم لمصلحتهم وهذا إنما يصح إذا كان لهم حالتان حالة يعذبون فيها لأجل مصلحتهم وحالة يزول عنهم العذاب لتحصل لهم تلك المصلحة وإلا فكيف تكون مصلحتهم في عذاب لا انقطاع له أبدا وأما من يثبت حكمة راجعة إلى الرب تعالى فيمكنهم سلوك هذه الطريق لكن يقال الحكمة لا تقتضي دوام عذابهم بدوام بقائه سبحانه وهو لم يخبر أنه خلقهم لذلك وإنما يعذبون لغاية محمودة إذا حصلت حصل المقصود من عذابهم وهو سبحانه لا يعذب خلقه سدى وهو قادر على أن ينشئهم بعد العذاب الطويل نشأة أخرى مجردة عن تلك الشرور والخبائث التي كانت في نفوسهم وقد أزالها طول العذاب فإنهم خلقوا قابلين للخير على الفطرة وهذا القبول لازم لخلقتهم وبه أقروا بصانعهم وفاطرهم وإنما طرأ عليه ما أبطل مقتضاه فإذا زال ذلك الطارئ بالعذاب الطويل بقي أصل القبول بلا معارض وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ فهذا قبل مثا برتهم للعذاب قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا

يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فتلك الخبائث والشرور قائمة بنفوسهم لم تزلها النار فلو ردوا لعادوا لقيام المقتضى للعود ولكن أين أخبر سبحانه أنه لو ردهم بعد العذاب الطويل السرمدي لعادوا لما نهوا عنه وسر المسألة أن الفطرة الأصلية لا بد أن تعمل عملها كما عمل الطارئ عليها عمله وهذه الفطرة عامة لجميع بني آدم كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة" وفي لفظ "على هذه الملة" وفي صحيح مسلم من حديث عياض بن حماد المجاشعي عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه: "قال إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وأنهم أتتهم الشياطين فاحتالتهم عن دينهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا" فأخبر أن الأصل فيهم الحنيفية وأنهم خلقوا عليها وأن صدها عارض فيهم باقتطاع الشياطين لهم عنها فمن الممتنع أن يعمل أثر اقتطاع الشياطين ولا يعمل أثر خلق الرحمن جل جلاله عمله والكل خلقه سبحانه فلا خالق سواه ولكن ذاك خلق يحبه ويرضاه ويضاف أثره إليه وهذا خلق يبغضه ويسخطه ولا يضاف أثره إليه فإن الشر ليس إليه والخير كله في يديه فإن قيل فقد قال سبحانه: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ وهذا يقتضي أنه لا قابلية فيهم ولا خير عندهم البتة ولو كان عندهم لخرجوا به من النار مع الموحدين فإنه سبحانه يخرج

من النار من في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من خير فعلم أن هؤلاء ليس معهم هذا القدر اليسير من الخير قيل الخير في هذا الحديث هو الإيمان

(290/385)

بالله ورسله كما في اللفظ الآخر أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان وهو تصديق رسله والانقياد لهم بالقلب والجوارح وأما الخير في الآية فالمراد به القبول والزكاة ومعرفة قدر النعمة وشكر المنعم عليها فلو علم الله سبحانه ذلك فيهم لأسمعهم إسماعا ينتفعون به فإنهم قد سمعوا سماعا تقوم به عليهم الحجة فتلك القابلية ذهب أثرها وتعطلت بالكفر والجحود وعادت كالشيء المعدوم الذي لا ينتفع به وإنما ظهر أثرها في قيام الحجة عليهم ولم يظهر أثرها في انتفاعهم بما عملوه وتيقنوه فإن قيل فالغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا وقال نوح عن قومه ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي مرفوعا: "إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى فمنهم من يولد مؤمنا ويحيي مؤمنا ويموت مؤمنا ومنهم من يولد كافرا ويحي كافرا ويموت كافرا" الحديث قيل هذا لا يناقض كونه مولودا على الفطرة فإنه طبع وولد مقدرا كفره إذا عقل وإلا ففي حال ولادته لا يعرف كفرا ولا إيمانا فهي حال مقدرة لا مقارنة للعامل فهو مولود على الفطرة ومولود كافرا باعتبارين

صحيحين ثابتين له هذا بالقبول وإيثار الإسلام لو خلى وهذا بالفعل والإرادة إذا عقل فإذا جمعت بين الفطرة السابقة والرحمة السابقة العالية والحكمة البالغة والغنى التام وقرنت بين فطرته ورحمته وحكمته وغناه تبين لك الأمر ، الطريق السادس قياس دار العدل على دار الفضل وأن هذه كما أنها أبدية فالأخرى كذلك لأن هذه توجب عدله وعدله ورحمته من لوازم ذاته وهذه الطريق غير نافذة فإن العدل حقه سبحانه لا يجب عليه أن يستوفيه ولا يلحقه بتركه نقص ولا ذم بوجه من الوجوه والفضل وعده الذي وعد به عباده وأحقه على نفسه والفرق بين الدارين من وجوه عديدة شرعا وعقلا ، أحدها أن الله سبحانه أخبر بأن نعيم الجنة ماله من نفاد وأن عطاء أهلها غير مجذوذ وأنه غير ممنون ولم يجيء ذلك في عذاب أهل النار ، الثاني أنه

أخبر بما يدل على انتهاء عذاب أهل النار في عدة آيات كما تقدم ولم يخبر بما يدل على انتهاء نعيم أهل الجنة ولهذا احتاج القائلون بالتأبيد الذي لا انقطاع له إلى تأويل تلك الآيات ولم يجئ في نعيم أهل الجنة ما يحتاجونه إلى تخصيصه بالتأويل ، الثالث أن الأحاديث التي جاءت في انتهاء عذاب النار لم يجيء شيء منها في انتهاء نعيم الجنة ، الرابع أن الصحابة والتابعين إنما

ذكروا انقطاع العذاب ولم يذكر أحد منهم انقطاع النعيم ، الخامس أنه قد ثبت أن الله سبحانه يدخل الجنة بلا عمل أصلا بخلاف النار ، السادس أنه سبحانه ينشئ في الجنة خلقا ينعمهم فيها ولا ينشئ في النار خلقا يعذبهم بها ، السابع أن الجنة من مقتضى رحمته والنار من مقتضى غضبه وأن الذين يدخلون النار أضعاف أضعاف الذين يدخلون الجنة فلو دام عذاب هؤلاء كدوام نعيم هؤلاء لغلب غضبه رحمته فكان الغضب هو الغالب السابق وهذا ممتنع ، الثامن أن الجنة دار فضله والنار دار عدله وفضله يغلب عدله ، التاسع أن النار دار استيفاء حقه الذي له والجنة دار وفاء حقه الذي أحقه هو على نفسه وهو سبحانه يترك حقه ولا يترك الحق الذي أحقه على نفسه ، العاشر أن الجنة هي الغاية التي خلقوا لها في الآخرة وأعمالها هي الغاية التي خلقوا لها في الدنيا بخلاف النار فإنه سبحانه لم يخلق خلقه للكفر به والإشراك وإنما خلقهم لعبادته وليرحمهم ، الحادي عشر أن النعيم من موجب أسمائه وصفاته والعذاب إنما هو من أفعاله قال تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ وقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وقال: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وما كان من مقتضى أسمائه وصفاته فإنه يدوم بدوامه فإن قيل فإن العذاب صادر عن عزته وحكمته وعدله وهذه أسماء حسنى وصفات كمال فيدوم ما صدر عنها بدوامها قيل لعمر الله أن العذاب صدر عن عزة وحكمة وعدل وانتهاؤه عند حصول المقصود منه يصدر عن عزة وحكمة وعدل فلم يخرج العذاب ولا انقطاعه عن عزته وحكمته وعدله ولكن عند انتهائه يكون عزة مقرونة برحمة وحكمة مقرونة بجود وإحسان وعفو وصفح فالعزة والحكمة لم يزالا ولم ينقص بل صدر جميع ما خلقه ويخلقه وأمر به ويأمر به عن عزته وحكمته ، الثاني عشر أن العذاب مقصود لغيره لا لنفسه وأما الرحمة والإحسان والنعيم فمقصود لنفسه فالإحسان والنعيم غاية والعذاب والألم وسيلة فكيف يقاس أحدهما بالآخر ، الثالث عشر أنه سبحانه أخبر أن رحمته وسعت كل شيء وأن رحمته سبقت غضبه وأنه كتب على نفسه الرحمة فلا بد أن تسع رحمته هؤلاء المعذبين فلو بقوا في العذاب لا إلى غاية لم تسعهم رحمته وهذا ظاهر جدا فإن قيل فقد قال سبحانه عقيبها : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ إلى آخر الآية يخرج غيرهم منها لخروجهم من الوصف الذي يستحق به قيل الرحمة المكتوبة لهؤلاء هي غير الرحمة الواسعة لجميع الخلق بل هي رحمة خاصة خصهم بها دون غيرهم وكتبها لهم دون من سواهم وهم أهل الفلاح الذين لا يعذبون بل هم أهل الرحمة والفوز والنعيم وذكر الخاص بعد العام استطرادا وهو كثير في القرآن بل قد يستطرد من الخاص إلى العام كقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ

وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا

(293/385)

صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فهذا استطراد من ذكر الأبوين إلى ذكر الذرية ومن استطراد قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾ فالتي جعلت رجوما ليست هي التي زينت بها السماء ولكن استطرد من ذكر النوع إلى نوع آخر وأعاد ضمير الثاني على الأول لدخولهما تحت جنس واحد فهكذا قوله:

﴿رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فالمكتوب للذين يتقون نوع خاص من الرحمة الواسعة والمقصود أن الرحمة لا بد أن تسع أهل النار ولا بد أن تنتهي حيث ينتهي العلم كما قالت الملائكة ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ، الرابع عشر أنه قد صح عنه صلى الله عليه وسلم حديث الشفاعة "قول أولي العزم إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله" وهذا صريح في أن ذلك الغضب العظيم لا يدوم ومعلوم أن أهل النار إنما دخلوها بذلك الغضب فلو دام ذلك الغضب لدام عذابهم إذ هو موجب ذلك الغضب فإذا رضي الرب تبارك وتعالى وزال ذلك الغضب زال موجبه وهذا

كما أن عقوبات الدنيا العامة وبلاؤها آثار غضبه فإذا استمر غضبه استمر ذلك البلاء فإذا رضي وزال غضبه زال البلاء وخلفته الرحمة، الخامس عشر أن رضاه أحب إليه من غضبه وعفوه أحب إليه من عقوبته ورحمته أحب إليه من عذابه وعطاؤه أحب إليه من منعه وإنما يقع الغضب والعقوبة والمنع بأسباب تناقص موجب تلك الصفات والأسماء وهو سبحانه كما يحب أسماءه وصفاته ويحب آثارها وموجبها كما في الحديث: "أنه وتر يحب الوتر جميل يحب الجمال نظيف يحب النظافة عفو يحب العفو" وهو شكور يحب الشاكرين عليم يحب العالمين جواد يحب أهل الجود حي ستير يحب أهل الحياء والستر صبور يحب الصابرين رحيم يحب الرحماء فهو

يكره ما يضاد ذلك وكذلك كره الكفر والعصيان والفسوق والظلم والجهل لمضادة هذه الأوصاف لأوصاف كماله الموافقة لأسمائه وصفاته ولكن يريده سبحانه لاستلزامه ما يحبه ويرضاه فهو مراد له إرادة اللوازم المقصودة لغيرها إذ هي معصية إلى ما يحب فإذا حصل بها ما يحبه وأدت إلى الغاية المقصودة له سبحانه لم تبق مقصودة لا لنفسها ولا لغيرها فتزول ويخلفها أضدادها التي هي أحب إليه سبحانه منها وهي موجب أسمائه وصفاته

فإن فهمت سر هذا الوجه وإلا فجاوزه إلى ما قبله ولا تعجل بإنكاره هذا وسر المسألة أنه سبحانه حكيم رحيم إنما يخلق بحكمة ورحمة فإذا عذب من يعذب لحكمة كان هذا جاريا على مقتضاها كما يوجد في الدنيا من العقوبات الشرعية والقدرية من التهذيب والتأديب والزجر والرحمة واللطف ما يزكي النفوس ويطيبها ويمحصها ويخلصها من شرها وخبثها والنفوس الشريرة الظالمة التي لو ردت إلى الدنيا قبل العذاب لعادت لما نهت عنه لا يصلح أن تسكن دار السلام التي تنافي الكذب والشر والظلم فإذا عذبت هذه النفوس بالنار عذابا يخلصها من ذلك الشر ويخرج خبثها كان هذا معقولا في الحكمة كما يوجد في عذاب الدنيا وخلق من فيه شر يزول بالتعذيب من تمام الحكمة أما خلق نفوس شريرة لا يزول شرها البتة وإنما خلقت للشر المحض وللعذاب السرمد الدائم بدوام خالقها سبحانه فهذا لا يظهر موافقته للحكمة والرحمة وإن دخل تحت القدرة فدخوله تحت الحكمة والرحمة ليست بالبين فهذا ما وصل إليه النظر في هذه المسألة التي تكع فيها عقول العقلاء وكنت سألت عنها شيخ الإسلام قدس الله روحه فقال لي هذه المسألة عظيمة كبيرة ولم يجب فيها بشيء فمضى على ذلك زمن حتى رأيت في تفسير عبد بن حميد الكشي بعض تلك الآثار التي ذكرت فأرسلت إليه الكتاب وهو في مجلسه

الأخير وعلمت على ذلك الموضع وقلت للرسول قل له هذا الموضع يشكل عليه ولا يدري ما هو فكتب فيها مصنفه المشهور رحمة الله عليه فمن كان عنده فضل علم فليحدثه فإن فوق كل ذي علم عليم وأنا في هذه المسألة على قول أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه فإنه ذكر دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ووصف ذلك أحسن صفة ثم قال "ويفعل الله بعد ذلك في خلقه ما يشاء" وعلى مذهب عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حيث يقول: "لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه ولا ينزلهم جنة ولا نارا" وذكر ذلك في تفسير قوله: ﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ وعلى مذهب أبي سعيد الخدري حيث يقول: "انتهى القرآن كله إلى هذه الآية: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ " وعلى مذهب قتادة حيث يقول: "في قوله: ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ الله أعلم بتبينه على ما وقعت" وعلى مذهب ابن زيد حيث يقول: "أخبرنا الله بالذي يشاء لأهل الجنة" فقال عطاء: "غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار" والقول بأن النار وعذابها دائم بدوام الله خبر عن الله بما يفعله فإن لم يكن مطابقا لخبره عن نفسه بذلك وإلا كان قولا عليه بغير علم والنصوص لا تفهم ذلك والله أعلم.

فصل: وها هنا مذاهب أخرى باطله منها قول من قال أنهم يعذبون في النار مدة لبثهم في الدنيا وقول من قال تنقلب عليهم طبيعة نارية يلتذون بها كما يلتذ صاحب الجرب بالحك

وقول من يقول أنها تفنى هي والجنة جميعا ويعودان عدما وقول من يقول تفنى حركاتها وتبقى أهلها في سكون دائم ولم يوفق للصواب في هذا الباب غير الصحابة ومن سلك سبيلهم. وبالله التوفيق.

(296/385)

فصل: فإن قيل فما الحكمة في كون الكفار أكثر من المؤمنين وأهل النار أضعاف أضعاف أهل الجنة كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ وقال: ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ وقال: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وبعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون وواحد إلى الجنة وكيف نشأ هذا عن الرحمة الغالبة وعن الحكمة البالغة وهلا كان الأمر بالضد من ذلك، قيل هذا السؤال من أظهر الأدلة على قول الصحابة والتابعين في هذه المسألة وأن الأمر يعود إلى الرحمة التي وسعت كل شيء وسبقت الغضب وغلبته وعلى هذا فاندفع السؤال بالكلية ثم نقول المادة الأرضية اقتضت حصول التفاوت في النوع الإنساني كما في المسند والترمذي عنه صلى الله عليه وسلم: "إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فكان منهم الخبيث والطيب والسهل والحزن وغير ذلك"

فاقتضت مادة النوع الإنساني تفاوتهم في أخلاقهم وإراداتهم وأعمالهم ثم اقتضت حكمة العزيز الحكيم أن ابتلى المخلوق من هذه المادة بالشهوة والغضب والحب والبغض ولوازمها وابتلاه بعدوه الذي لا يألوه خبالا ولا يغفل عنه ثم ابتلاه مع ذلك بزينة الدنيا وبالهوى الذي أمر بمخالفته هذا على ضعفه وحاجته وزين له حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث وأمره بترك قضاء أوطاره وشهواته في هذه الدار الحاضرة العتيدة المشاهدة إلى دار أخرى غايته إنما تحصل فيها بعد طي الدنيا والذهاب بها وكان مقتضى الطبيعة الإنسانية أن لا يثبت على هذا الابتلاء أحد وأن

يذهب كلهم مع ميل الطبع ودواعي الغضب والشهوة فلم يحل بينهم وبين ذلك خالقهم وفاطرهم بل أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وبين لهم مواقع رضاه وغضبه ووعدهم على مخالفة هواهم وطبائعهم أكمل اللذات في دار النعيم فلم تقو عقول الأكثرين على إيثار الآجل المنتظر بعد زوال الدنيا على هذا العاجل الحاضر المشاهد وقالوا كيف يباع نقد حاضر وهو قبض باليد بنسيئة مؤخرة وعدنا بحصولها بعد طي الدنيا وخراب العالم

ولسان حال أكثرهم يقول "خذ ما تراه ودع شيئًا سمعت به" فساعد التوفيق الإلهي من علم أنه يصلح لمواقع فضله فأمده بقوة إيمان وبصيرة رأى في ضوءها حقيقة الآخرة ودوامها وما أعد الله فيها لأهل طاعته وأهل معصيته ورأى حقيقة الدنيا وسرعة انقضائها وقله وفائها وظلم شركائها وأنها كما وصفها الله سبحانه لعب ولهو وتفاخر بين أهلها وتكاثر في الأموال والأولاد وأنها كغيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما فنشأنا في هذه الدار ونحن منها وبنوها لا نألف غيرها وحكمت العادات وقهر السلطان الهوى وساعده داعي النفوس وتقاضاه موجب الطباع وغلب الحس على العقل وكانت الدولة له والناس على دين الملك ولا ريب أن الذي يخرق هذه الحجب ويقطع هذه العلائق ويخالف العوائد ولا يستجيب لدواعي الطبع ويعصي سلطان الهوى لا يكون إلا الأقل ولهذا كانت المادة النارية أقل اقتضاء لهذا الصنف من المادة الترابية لخفة النار وطيشها وكثرة تقلبها وسرعة حركتها وعدم ثباتها والماء المادة الملكية فتربه من ذلك فلذلك كان المخلوق خيرا كله فالعقلاء المخاطبون مخلوقون من هذه المواد الثلاث واقتضت الحكمة أن يكونوا على هذه الصفة والخلقة

ولو كانوا على غير ذلك لم يحصل مقصود الامتحان والابتلاء وتنوع العبودية وظهور آثار الأسماء والصفات فلو كان أهل الإيمان والخير هم الأكثرين الغالبين لفاتت مصلحة الجهاد وتوابعه التي هي من أجل أنواع العبودية وفات الكمال المترتب على ذلك فلا أحسن مما اقتضاه حكمة أحكم الحاكمين في المخلوق من هذه المواد ثم أنه سبحانه يخلص ما في المخلوق من تينك المادتين من الخبث والشر ويمحصه ويستخرج طيبه إلى دار الطيبين ويلقي خبثه حيث تلقى الخبائث والأوساخ وهذا غاية الحكمة كما هو الواقع في جواهر المعادن المنتفع بها من الذهب والفضة والحديد والصفر فخلاصة هذه المواد وطيبها أقل من وسخها وخبثها والناس زرع الأرض والخير الصافي من الزرع بعد زوانه وقصله وعصفه وتبنه أقل من بقية الأجزاء وتلك الأجزاء كالصور له والوقاية كالحطب والشوك للثمر والتراب والحجارة للمعادن النفيسة.

فصل: الوجه السابع والثلاثون قوله وأي حكمة في تسليط أعدائه على أوليائه يسومونهم سوء العذاب فكم لله في ذلك من حكم باهرة منها حصول محبوبة من عبودية الصبر والجهاد وتحمل الأذى فيه والرضى عنه في السراء والضراء والثبات على عبوديته وطاعته مع قوة المعارض وغلبته وشوكته وتمحيص أوليائه من أحكام البشرية ودواعي الطباع ببذل نفوسهم له وأذى أعدائه لهم وتميز الصادق من الكاذب ومن يريده ويعبده على جميع الحالات ممن يعبده على حرف وليحصل له مرتبة الشهادة التي هي من أعلى المراتب ولا

شيء أبر عند الحبيب من بذل محبة نفسه في مرضاته ومجاهدة عدوه فكم لله في هذا التسليط من نعمة ورحمة وحكمة وإذا شئت أن تعلم ذلك فتأمل الآيات من أواخر آل عمران من قوله: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ نَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ

أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ فكان هذا التمييز من بعض حكم ذلك التسليط ولولا ذلك التسليط لم تظهر فضيلة الصبر والعفو والحكم وكظم الغيظ ولا حلاوة النصر والظفر والقهر فإن الأشياء يظهر حسنها بأضدادها ولولا ذلك التسليط لم تستوجب الأعداء المحق والإهانة والكبت فاستخرج ذلك التسليط من القوة إلى الفعل ما عند أوليائه فاستحقوا كرامتهم عليه وما عند أعدائه فاستحقوا عقوبتهم عليه فكان هذا التسليط مما أظهر حكمته وعزته ورحمته ونعمته في الفريقين وهو العزيز الحكيم، الوجه الثامن والثلاثون قوله وأي حكمة في تكليف الثقلين وتعريضهم بذلك العقوبة وأنواع المشاق ، فاعلم أنه لولا التكليف لكان خلق الإنسان عبثا وسدى والله يتعالى عن ذلك وقد نزه نفسه عنه كما نزه نفسه عن العيوب والنقائص قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً

وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ وقال: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ قال الشافي لا يؤمر ولا ينهى ومعلوم أن ترك الإنسان كالبهائم مهملا معطلا مضاد للحكمة فإنه خلق لغاية كماله وكماله أن يكون عارفا بربه محبا له قائما بعبوديته قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ وقال: ﴿لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾ وقال: ﴿ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم﴾ فهذه المعرفة وهذه العبودية هما غاية الخلق والأمر وهما أعظم كمال الإنسان والله تعالى من عنايته به ورحمته له عرضه لهذا الكمال وهيأ له أسبابه الظاهرة والباطنة

ومكنه منها ومدار التكليف على الإسلام والإيمان والإحسان وهي ترجع إلى شكر المنعم كلها دقيقها وجليلها منه وتعظيمه وإجلاله ومعاملته بما يليق أن يعامل به فتذكر آلاؤه وتشكر فلا يكفر ويطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى هذا مع تضمن التكليف لإيصاف العبد بكل خلق جميل وإثباته بكل فعل جميل وقول سديد واجتنابه لكل خلق سيئ وترك كل فعل قبيح وقول زور فتكليفه متضمن لمكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال وصدق القول

والإحسان إلى الخليقة وتكميل نفسه بأنواع الكمالات وهجر أضداد ذلك والتنزه عنها مع تعريضه بذلك التكليف للثواب الجزيل الدائم ومجاورة ربه في دار البقاء فأي الأمرين أليق بالحكمة هذا أو إرساله هملا كالخيل والبغال والحمير يأكل ويشرب وينكح كالبهائم أيقتضي كماله المقدس ذلك فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم وكيف يليق بذلك الكمال طي بساط الأمر والنهي والثواب والعقاب وترك إرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع وتقرير الأحكام وهل عرف الله من جوز عليه خلاف ذلك وهل ذلك إلا من سوء الظن به قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فحسن التكليف في العقول كحسن الإحسان والإنعام والتفضل والطول بل هو من أبلغ أنواع الإحسان والإنعام ولهذا سمى سبحانه ذلك نعمة ومنة وفضلا ورحمة وأخبر أن الفرح به خير من الفرح بالنعم المشتركة بين الأبرار والفجار قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ فنعمة الله ها هنا نعمته بمحمد صلى الله عليه وسلم وما بعثه به من الهدى ودين الحق وقال: ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو

عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ وقال: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ وقال: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ وقال: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ ﴾ وقال: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ وقال لرسوله: ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ وهل النعمة والفضل في الحقيقة إلا ذلك وتوابعه وثمرته في القلوب والأبدان في الدنيا والآخرة وهل في العقول السليمة والفطرة المستقيمة أحسن من ذلك وأليق بكمال الرب وأسمائه وصفاته ، الوجه التاسع والثلاثون قوله في مناظرة الأشعري للجبائي في الإخوة الثلاثة

الذين مات أحدهم صغيرا وبلغ الآخر كافرا والثالث مسلما أنها مناظرة كافية في إبطال الحكمة والتعليل ورعاية الأصلح ، فلعمر الله أنها مبطلة لطريقة أهل البدع من المعتزلة والقدرية الذين يوجبون على ربهم مراعاة الأصلح لكل عبد وهو الأصلح عندهم فيشرعون له شريعة بعقولهم ويحجرون عليه ويحرمون عليه أن يخرج عنها ويوجبون عليه القيام بها وكذلك كانوا من أحمق الناس وأعظمهم تشبيها للخالق بالمخلوق في أفعاله وأعظمهم تعطيلا عن صفات كماله فنزهوه عن صفات الكمال وشبهوه بخلقه في الأفعال وأدخلوه تحت الشريعة الموضوعة

(303/385)

بآراء الرجال وسموا ذلك عدلا وتوحيدا بالزور والبهتان وتلك التسمية ما أنزل الله بها من سلطان فالعدل قيامه بالقسط في أفعاله والتوحيد وإثبات صفات كماله شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الإسلام فهذا العدل والتوحيد الذي جاء به المرسلون وذلك التوحيد والعدل الذي جاء به المعطلون ، والمقصود أن هذه المناظرة وإن أبطلت قول هؤلاء وزلزلت قواعدهم فإنها لا

تبطل حكمة الله التي اختص بها دون خلقه وطوى بساط الإحاطة بها عنهم ولم يطلعهم منها إلا على ما نسبته إلى ما خفي عنهم كقطرة من بحار الدنيا فكم لله سبحانه من حكمة في ذلك الذي أخرمه صغيرا وحكمة في الذي مد له في العمر حتى بلغ وأسلم وحكمة في الذي أبقاه حتى بلغ وكفر ولو كان كل من علم أنه إذا بلغ يكفر يخترمه صغيرا لتعطل الجهاد والعبودية التي يحبها الله ويرضاها ولم يكن هناك معارض وكان الناس أمة واحدة ولم تظهر آياته وعجائبه في الأمم ووقائعه وأيامه في أعدائه وإقامة الحجج وجدال أهل الباطل بما يدحض شبهتهم وينصر الحق ويظهره على الباطل إلى أضعاف أضعاف ذلك من الحكم التي لا يحصيها إلا الله والله سبحانه يحب ظهور أسمائه وصفاته في الخليقة فلو اخترم كل من علم أنه يكفر إذا بلغ لفات ذلك وفواته مناف لكمال تلك الأسماء والصفات واقتضائها لآثارها وقد تقدم بسط ذلك أتم من هذا ، الوجه الأربعون قوله أنه سبحانه رد الأمر إلى محض مشيئة بقوله: ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ وقوله: ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ وقوله: ﴿ فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ وقوله: ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ فهذا كله حق ولكن أين فيه إبطال حكمته وحمده والغايات المحمودة المطلوبة بفعله وأنه لا يفعل شيئا لشيء ولا يأمر بشيء لأجل شيء ولا سبب لفعله ولا غاية أفترى

أصحاب الحكمة والتعليل يقولون إنه لا يفعل بمشيئته أو أنه يسئل عما يفعل بل يقولون إنه يفعل بمشيئته مقارنا للحكمة والمصلحة ووضع الأشياء مواضعها وأنه يفعل ما يشاء بأسباب وحكم ولغايات مطلوبة وعواقب حميدة فهم مثبتون لملكه وحده وغيرهم يثبت ملكا بلا حمد أو نوعا من الحمد ومع هضم الملك إذ الرب تعالى له كمال وكمال الحمد فكونه يفعل ما يشاء يمنع من أن يشاء بأسباب وحكم وغايات وأنه لا يشاء إلا ذلك وأما قوله: ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ فهذا لكمال علمه وحكمته لا لعدم ذلك وأيضا فسياق الآية في معنى آخر وهو إبطال إلهية من سواه وإثبات الألوهية له وحده فإنه سبحانه قال: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ فأين في هذا ما يدل على إبطال التعليل بوجه من الوجوه ولكن أهل الباطل يتعلقون بألفاظ نزلوها على باطلهم لا تنزل عليه وبمعان متشابهة يشتبه فيها الحق بالباطل فعمدتهم المتشابه من الألفاظ والمعاني فإذا فصلت وبينت يتبين أنها لا دلالة فيها وأنها مع ذلك قد تدل على نقيض مطلوبهم وبالله التوفيق. انتهى انتهى. اهـ ﴿ شفاء العليل صـ 256. 268 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربيّة المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والثمانون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/386)

الجزء السادس والثمانون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 110 ﴾ من سورة هود عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 117 ﴾ من نفس السورة

(4/386)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (110) وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (111) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (113) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر في هذه الآية إعراضهم عن الإتباع مع ما أتى به من المعجزات وأنزل عليه من الكتاب ، سلاه بأخيه عليهما السلام لأن الحال إذا عم خف ، وابتدأ ذكره بحرف التوقع بما

دعا إلى توقعه من قرب ذكره مع فرعون مع ذكر كتابه أول السورة فقال تعالى : ﴿ ولقد آتينا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ موسى الكتاب ﴾ أي التوراة الجامعة للخير .

(5/386)

ولما كان الضار والمسلي نفس الاختلاف ، بني للمفعول قوله : ﴿ فاختلف فيه ﴾ فآمن به قوم وكفر به آخرون مع أنه إمام ورحمة وكتب سبحانه له فيه من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ، وكان معجباً لأهل ذلك الزمان كما اختلف في كتابك مع إعجابه لأهل هذا الزمان وبيانه للهدى أتم بيان ، إشارة إلى أن الخلق مهما جاءهم عن الله ، وهو لا يكون إلاّ مصحوباً بالأدلة القاطعة نأوا عنه واختلفوا فيه ، ومهما تلقفوه عن آبائهم تلقوه بالقبول وناضلوا عنه وسمحوا فيه بالمهج وإن كان منابذاً للعقول ، فكان قوم موسى باختلافهم في الكتاب كل قليل يأبى فريق منهم بعض أحكامه ويريدون نقض إبرامه كما سلف بيانه غير مرة عن نص التوراة وسفر يوشع إلى أن آل أمرهم الآن إلى أن صاروا ثلاث فرق : ربانيين ، وقرايين ، وسامرة ؛ يضلل بعضهم بعضاً ، ومع ذلك فلم يعاجلهم بالأخذ مع قدرته على ذلك كما فعل بمن قص أمره من الأمم لما سبق من حكمه بتأخيرهم إلى الأجل المعدود ، وفصل بين هذا وبين قصة موسى عليه السلام مع فرعون ليكون مع ما دعا إلى تقديم ما تقدم

من الآيات أوقع في التسلية وأبلغ في التعزية والتأسية كما هو شأن كل ما ألقي إلى المحتاج شيئاً فشيئاً ﴿ ولولا كلمة ﴾ أي عظيمة لا يمكن تغييرها لأنها من كلام الملك الأعظم ﴿ سبقت من ربك ﴾ أي المحسن إليك وإليهم بإرسالك رحمة للعالمين ﴿ لقُضي ﴾ أي لوقع القضاء ﴿ بينهم ﴾ أي بين من اختلف في كتاب موسى عاجلاً ، ولكن سبقت الكلمة أن القضاء الكامل إنما يكون يوم القيامة كما قال في سورة يونس ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾ -الآية .

(6/386)

ولما كان الاختلاف قد يكون بغير الكفر بين أنه به ، فقال مؤكداً لأن كل طائفة من اليهود تنكر شكها فيه وفعلها فعل الشاك : ﴿ وإنهم لفي شك ﴾ أي عظيم محيط بهم ﴿ منه ﴾ أي من القضاء أو الكتاب ﴿ مريب ﴾ أي موقع في الريب والتهمة والاضطراب مع ما رأوا من الآيات التي منها سماع كلام الله ورؤية ما كان يتجلى في جبل الطور من الجلال ويتبدى لهم في قبة الزمان من خارق الأحوال ﴿ وإن كلاًّ ﴾ من المختلفين في الحق من قوم موسى وغيرهم ممن هو على الحق وممن هو على الباطل ؛ و ﴿ إن ﴾ عند نافع وابن كثير وأبي بكر عن عاصم عاملة مع تخفيفها من الثقيلة في قراءة غيرهم اعتباراً بأصلها ﴿ لما ﴾ هي في

قراءة ابن عامر وحمزة وعاصم بالتشديد الجازمة حذف فعلها - قال ابن الحاجب : وهو شائع فصيح ، وفي قراءة غيرهم بالتخفيف مركبة من لام الابتداء و ﴿ ما ﴾ المؤكدة بنفي نقيض ما أثبته الكلام ليكون ثبوته مع نفي نقيضه على أبلغ وجه .

ولما كان الشرط في حذف الفعل بعد " لما " الجازمة أن يكون مما يتوقع بوقوع فعل قبلها يدل عليه ، كان التقدير : يقض بينهم ، وسيقضي وهو معنى ما قرن بعدها بلام القسم من قوله : ﴿ ليوفينهم ربك ﴾ أي المحسن إليك بإقامتك على المنهاج الأعدل والفضل من العباد ﴿ أعمالهم ﴾ لا يدع منها شيئاً لأنه لا يخفى عليه منها شيء ، والسياق يقتضي أن يكون ﴿ ما ﴾ في ﴿ لما ﴾ في قراءة التخفيف للتأكيد على النحو الذي مر غير مرة أن النافي إذا زيد في سياق الإثبات كان كأنه نفي النقيض تأكيداً لمثبت ﴿ إنه بما يعملون ﴾ قدم الظرف لتأكيد الخبر ﴿ خبير ﴾ فإذا علمت أن شأنك في أمتك شأن الرسل في أممهم وأنه لا بد من الاختلاف في شأن الرسول والكتاب كما جرت بذلك السنة الإلهية وأن الجزاء بالأعمال كلها لا بد منه ﴿ فاستقم ﴾ أي أوجد القوم بغاية جهدك بسبب أنك لا تكلف إلاّ نفسك وأن الذي أرسلك لا يغفل عن شيء ، ومن استقام استقيم له .

ولما كان من المقطوع به أن الآمر له ـ صلى الله عليه وسلم ـ مَن له الأمر كله ، بني للمفعول قوله : ﴿ كما أمرت ﴾ أي كما استقام إخوانك من الأنبياء في جميع الأصول والفروع سواء كان في نفسك أو في تبليغ غيرك معتدلاً بين الإفراط والتفريط ولا يضيق صدرك من استهزائهم وتعنتهم واقتراحهم للآيات وإرادتهم أن تترك بعض ما يوحى إليك من التشنيع عليهم والعيب لدينهم بل صارحهم بالأمر واتركهم وأهواءهم ، نحن ندبر الأمر كما نريد على حسب ما نعلم .

ولما كان الفاصل بين المعطوف والمعطوف عليه يقوم مقام تأكيد الضمير المستتر ، عطف عليه قوله : ﴿ ومن ﴾ أي وليستقم أيضاً من ﴿ تاب ﴾ عن الكفر مؤمناً ﴿ معك ﴾ على ما أمروا تاركين القلق من استبطائهم للنصرة كما روى البخاري وابو داود والنسائي عن خباب بن الأرت ـ رضى الله عنهم ـ قال : " شكونا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة فقلنا : ألا تدعو الله لنا ، فقعد وهو محمر وجهه فقال : كان الرجل فيمن كان قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع فوق رأسه فيشق باثنين ، وما يصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون " ؛ وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : ما نزلت على النبي ـ صلى الله عليه

وسلم.آية أشد ولا أشق من هذه الآية .

والاستقامة : الاستمرار في جهة واحدة .

(8/386)

ولما كانت وسطاً بين إفراط وتفريط وكان التفريط لا يكاد يسلم منه إلا الفرد النادر ، وهو في الأغلب يورث انكسار النفس واحتقارها والخوف من الله ، وكان الإفراط يورث إعجاباً ، وربما أفضى بالإنسان إلى ظن أنه شارع فينسلخ لذلك من الدين ، طوى التفريط ونهى عن الإفراط فقال : ﴿ ولا تطغوا ﴾ أي تتجاوزوا الحد فيما أمرتم به أو نهيتم عنه بالزيادة إفراطاً ، فإن الله تعالى إنما أمركم ونهاكم لتهذيب نفوسكم لا لحاجته إلى ذلك ولن تطيقوا أن تقدروا الله حق قدره ، والدين متين لن يشاده أحد إلا غلبه ، فقد رضي منكم سبحانه الاقتصاد في العمل مع حسن المقاصد ، ويجوز أن يكون المعنى : ولا تبطركم النعمة فتخرجكم عن طريق الاستقامة يمنة أو يسرة .

ولما نهي عن الإفراط وهو الزيادة تصريحاً ، فأفهم النهي عن التفريط ، وهو النقص عن المأمور تلويحاً من باب الأولى ، علل ذلك مؤكداً تنزيلاً لمن يفرط أو يفرط منزلة المنكر فقال : ﴿ إنه بما تعملون ﴾ قدم الظرف لما تقدم من تأكيد الإبصار ﴿ بصير ﴾ ومادة " طغى "

واوية ويائية بكل ترتيب تدور على مجاوزة الحد مع العلو ، فالغطاء : ما ستر به الشيء عالياً عليه ، ولا يكون ساتراً لجميعه إلا إذا فضل عنه فتجاوز حده ، وغطى الليل - إذا غشي ، وكل شي ارتفع فهو غاط .

وطغى السيل - إذا جاء بماء كثير ، والبحر : هاجت أمواجه ، والطغيان : مجاوزة الحد في العصيان ، والغائط والغيط : المطمئن من الأرض ، لأن ما كان كذلك وكانت أرضه طيبة كانت لا تزال ريّاً فيعلو ما نبت فيها ويخصب فيتجاوز الحد في ذلك ، ومنه الغوطة - لموضع بالشام كثير الماء والشجر .

(9/386)

ولما نهي عن الإفراط في الدين ، أتبعه النهي عن التفريط بالتقصير فيه بسفول الهمم على وجه عام ، وكان الحب في الله والبغض منه أوثق عرى الإيمان ، إشارة إلى ضده الذي هو أوثق عرى الشيطان فقال : ﴿ ولا تركنوا ﴾ أي شيئاً من ركون ، وقال : ﴿ إلى الذين ظلموا ﴾ أي وجد منهم الظلم ولم يقل الظالمين ، أي بالميل إليهم بأن تثاقل أنفسكم نحوهم للميل إلى أعمالهم ولو بالرضى به والتشبه بهم والتزّيي بزيهم ، وحاصل الآيتين : لا تظلموا بأنفسكم ولا تستحسنوا أفعال الظالمين ، وفسر الزمخشري الركون بالميل اليسير ، وهو

حسن من جهة المعنى لكني لن أره لغيره من أهل اللغة ، وقال الرماني – وهو أقرب : الركون : السكون إلى الشيء بالمحبة والانصباب إليه ، ونقيضه النفور عنه .

وهو على التفسير الثاني في ﴿ تطغوا ﴾ من عطف الخاص على العام ، والآية ملتفتة إلى قوله تعالى ﴿ فلعلك تارك بعض ما يُوحى إليك ﴾ ﴿ فتمسكم النار ﴾ أي فتسبب عن ركونكم إليهم مسُّها لكم فلا تقدروا على التخلص منها بنوع حيلة من أنفسكم ؛ ومن إجلال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إفراده بالخطاب في الأمر بأفعال الخير ، والإتيان بضمير الجمع في النهي عن أفعال الشر – نبه على ذلك الإمام أبو حيان .

ولما كان كل موجود سوى الله في قهره وتحت أمره ، قال تعالى : ﴿ وما لكم ﴾ ولما كان دون رتبته تعالى من الرتب والذوات ما لا يحصيه غيره سبحانه ، أدخل الجار تبعيضاً فقال : ﴿ من دون الله ﴾ أي الملك الأعظم ، وأعرق في النفي فقال : ﴿ من أولياء ﴾ أي يخلصونكم من عذابه لما تقرر أن ﴿ دون ﴾ من الأدون وهو الأقرب إلى جهة السفل ؛ والولي : المختص بأن من شأنه تولي المعونة عند الحاجة ، وأشار إلى أن نصر مَنْ لا ناصر له من الله محال بأداة البعد وبناء للمفعول فقال : ﴿ ثم لا تنصرون ﴾ أي ثم إذاً فإنكم هذا وذاك فما أبعدكم من النصرة ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 583 .

586 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى إصرار كفار مكة على إنكار التوحيد ، بين أيضاً إصرارهم على إنكار نبوته عليه السلام وتكذيبهم بكتابه ، وبين تعالى أن هؤلاء الكفار كانوا على هذه السيرة الفاسدة مع كل الأنبياء عليهم السلام وضرب لذلك مثلاً ؛ وهو أنه لما أنزل التوراة على موسى عليه السلام اختلفوا فيه فقبله بعضهم وأنكره آخرون ، وذلك يدل على أن عادة الخلق هكذا .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ وفيه وجوه : الأول : أن المراد : ولولا ما تقدم من حكم الله تعالى بتأخير عذاب هذه الأمة إلى يوم القيامة لكان الذي يستحقه هؤلاء الكفار عند عظيم كفرهم إنزال عذاب الاستئصال عليهم لكن المتقدم من قضائه أخر ذلك عنهم في دنياهم .

الثاني : لولا كلمة سبقت من ربك وهي أن الله تعالى إنما يحكم بين المختلفين يوم القيامة وإلا لكان من الواجب تمييز المحق عن المبطل في دار الدنيا .

الثالث : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ وهي أن رحمته سبقت غضبه وأن إحسانه

راجح على قهره وإلا لقضى بينهم ولما قرر تعالى هذا المعنى قال : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ يعني أن كفار قومك لفي شك من هذا القرآن مريب .

(11/386)

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

المعنى أن من عجلت عقوبته ومن أخرت ومن صدق الرسل ومن كذب فحالهم سواء في أنه تعالى يوفيهم جزاء أعمالهم في الآخرة ، فجمعت الآية الوعد والوعيد فإن توفية جزاء الطاعات وعد عظيم وتوفية جزاء المعاصي وعيد عظيم ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ توكيد الوعد والوعيد ، فإنه لما كان عالماً بجميع المعلومات كان عالماً بمقادير الطاعات والمعاصي فكان عالماً بالقدر اللائق بكل عمل من الجزاء ، فحينئذ لا يضيع شيء من الحقوق والأجزية وذلك نهاية البيان .

المسألة الثانية :

قرأ أبو عمرو والكسائي وإن مشددة النون ﴿ لَّمًّا ﴾ خفيفة قال أبو علي : اللام في ﴿ لَّمًّا ﴾ هي التي تقتضيه إن وذلك لأن حرف إن يقتضي أن يدخل على خبرها أو اسمها

لام كقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : 18] وقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً ﴾ [الحجر : 77] واللام الثانية هي التي تجيء بعد القسم كقولك والله لتفعلن ولما اجتمع لامان دخلت ما لتفصل بينهما فكلمة ما على هذا التقدير زائدة ، وقال الفراء : ما موصولة بمعنى من وبقية التقرير كما تقدم ومثله : ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ [النساء : 72] .

والقراءة الثانية : في هذه الآية قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر عن عاصم ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا ﴾ مخففتان والسبب فيه أنهم أعملوا إن مخففة كما تعمل مشددة لأن كلمة إن تشبه الفعل فكما يجوز أعمال الفعل تاماً ومحذوفاً في قولك لم يكن زيد قائماً ولم يك زيد قائماً فكذلك أن وإن .

والقراءة الثالثة : قرأ حمزة وابن عامر وحفص : ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا ﴾ [الفجر : 19] مشددتان ، قالوا : وأحسن ما قيل فيه إن أصل لما بالتنوين كقوله : ﴿ أَكْلاً لَّمّاً ﴾ والمعنى أن كلاً ملمومين أي مجموعين كأنه قيل : وإن كلاً جميعاً .

المسألة الثالثة :

سمعت بعض الأفاضل قال : إنه تعالى لما أخبر عن توفية الأجزية على المستحقين في هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التوكيدات : أولها : كلمة ﴿ إن ﴾ وهي للتأكيد .

وثانيها : كلمة "كل" وهي أيضاً للتأكيد .

وثالثها : اللام الداخلة على خبر ﴿ إن ﴾ وهي تفيد التأكيد أيضاً .

ورابعها : حرف ﴿ مَا ﴾ إذا جعلناه على قول الفراء موصولاً .

وخامسها : القسم المضمر ، فإن تقدير الكلام وإن جميعهم والله ليوفينهم .

وسادسها : اللام الثانية الداخلة على جواب القسم .

وسابعها : النون المؤكدة في قوله ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾ فجميع هذه الألفاظ السبعة الدالة على التوكيد في هذه الكلمة الواحدة تدل على أن أمر الربوبية والعبودية لا يتم إلا بالبعث والقيامة وأمر الحشر والنشر ثم أردفه بقوله : ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وهو من أعظم المؤكدات .

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما أطنب في شرح الوعد والوعيد قال لرسوله : ﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ وهذ الكلمة كلمة جامعة في كل ما يتعلق بالعقائد والأعمال ، سواء كان مختصاً به أو كان متعلقاً بتبليغ الوحي وبيان الشرائع ، ولا شك أن البقاء على الاستقامة الحقيقية مشكل

جداً وأنا أضرب لذلك مثالاً يقرب صعوبة هذا المعنى إلى العقل السليم ، وهو أن الخط المستقيم الذي يفصل بين الظل وبين الضوء جزء واحد لا يقبل القسمة في العرض ، إلا أن عين ذلك الخط مما لا يتميز في الحس عن طرفيه ، فإنه إذا قرب طرف الظل من طرف الضوء اشتبه البعض بالبعض في الحس ، فلم يقع الحس على إدراك ذلك الخط بعينه بحيث يتميز عن كل ما سواه .

(13/386)

إذا عرفت هذا في المثال فاعرف مثاله في جميع أبواب العبودية ، فأولها : معرفة الله تعالى وتحصيل هذه المعرفة على وجه يبقى العبد مصوناً في طرف الإثبات عن التشبيه ، وفي طرف النفي عن التعطيل في غاية الصعوبة ، واعتبر سائر مقامات المعرفة من نفسك ، وأيضاً فالقوة الغضبية والقوة الشهوانية حصل لكل واحدة منهما طرفا إفراط وتفريط وهما مذمومان ، والفاصل هو المتوسط بينهما بحيث لا يميل إلى أحد الجانبين ، والوقوف عليه صعب ثم العمل به أصعب ، فثبت أن معرفة الصراط المستقيم في غاية الصعوبة ، بتقدير معرفته فالبقاء عليه والعمل به أصعب ، ولما كان هذا المقام في غاية الصعوبة لا جرم قال ابن عباس : ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع القرآن آية أشد ولا أشق

عليه من هذه الآية ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : " شيبتني هود وأخواتها ، " وعن بعضهم قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت له : روي عنك أنك قلت شيبتني هود وأخواتها فقال : " نعم " فقلت : وبأي آية ؟ فقال بقوله : ﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ .

المسألة الثانية :

اعلم أن هذه الآية أصل عظيم في الشريعة وذلك لأن القرآن لما ورد بالأمر بأعمال الوضوء مرتبة في اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها لقوله : ﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ ولما ورد الأمر في الزكاة بأداء الإبل من الإبل والبقر من البقر وجب اعتبارها وكذا القول في كل ما ورد أمر الله تعالى به وعندي أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس ، لأنه لما دل عموم النص على حكم وجب الحكم بمقتضاه لقوله : ﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ والعمل بالقياس انحراف عنه ، ثم قال : ﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الواحدي : من في محل الرفع من وجوه : الأول : أن يكون عطفاً على الضمير المستتر في قوله : ﴿ فاستقم ﴾ وأغنى الوصل بالجار عن تأكيده بضمير المتصل في صحة العطف أي فاستقم أنت وهم .

والثاني : أن يكون عطفاً على الضمير فى أمرت .

والثالث : أن يكون ابتداء على تقدير ومن تاب معك فليستقم .

المسألة الثانية :

أن الكافر والفاسق يجب عليهما الرجوع عن الكفر والفسق ففي تلك الحالة لا يصح اشتغالهما بالاستقامة ، وأما التائب عن الكفر والفسق فإنه يصح منه الاشتغال بالاستقامة على مناهج دين الله تعالى والبقاء على طريق عبودية الله تعالى ، ثم قال : ﴿ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ ومعنى الطغيان أن يجاوز المقدار .

قال ابن عباس : يريد تواضعوا لله تعالى ولا تتكبروا على أحد وقيل ولا تطغوا في القرآن فتحلوا حرامه وتحرموا حلاله ، وقيل : لا تتجاوزوا ما أمرتم به وحد لكم ، وقيل : ولا تعدلوا عن طريق شكره والتواضع له عند عظم نعمه عليكم والأولى دخول الكل فيه ، ثم قال : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الذين ظَلَمُوا ﴾ والركون هو السكون إلى الشيء والميل إليه بالمحبة ونقيضه النفور عنه ، وقرأ العامة بفتح التاء والكاف والماضي من هذا ركن كعلم وفيه لغة أخرى ركن يركن قال الأزهري : وليست بفصيحة .

قال المحققون : الركون المنهي عنه هو الرضا بما عليه الظلمة من الظلم وتحسين تلك الطريقة وتزيينها عندهم وعند غيرهم ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب فأما مداخلتهم لدفع

ضرر أو اجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل في الركون ، ومعنى قوله : ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النار ﴾ أي أنكم إن ركنتم إليهم فهذه عاقبة الركون ، ثم قال : ﴿ ومالكم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ أي ليس لكم أولياء يخلصونكم من عذاب الله .

ثم قال : ﴿ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ والمراد : لا تجدون من ينصركم من تلك الواقعة .

واعلم أن الله تعالى حكم بأن من ركن إلى الظلمة لا بد وأن تمسه النار وإذا كان كذلك فكيف يكون حال الظالم في نفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 55. 58 ﴾

(15/386)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ ﴾

وَالرُّكُونُ إلَى الشَّيْءِ هُوَ السُّكُونُ إلَيْهِ بِالْأُنْسِ ، وَالْمَحَبَّةِ فَاقْتَضَى ذَلِكَ النَّهْيَ عَنْ مُجَالَسَةِ الظَّالِمِينَ وَمُؤَانَسَتِهِمْ ، وَالْإِنْصَاتِ إلَيْهِمْ ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(16/386)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : الرُّكُونُ فِيهِ اخْتِلَافٌ بَيْنَ النَّقَلَةِ لِلتَّفْسِيرِ ، وَحَقِيقَتُهُ الِاسْتِنَادُ وَالِاعْتِمَادُ عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قِيلَ فِي الظَّالِمِينَ إنَّهُمْ الْمُشْرِكُونَ .

وَقِيلَ : إنَّهُمْ الْمُؤْمِنُونَ ، وَأَنْكَرَهُ الْمُتَأَخِّرُونَ ، وَقَالُوا : أَمَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِذُنُوبِهِمْ ، لَا يَنْبَغِي أَنْ يُصَالَحَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ ، وَلَا يُرْكَنُ إلَيْهِ فِيهَا .

وَهَذَا صَحِيحٌ ؛ لِأَنَّ هَذَا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَصْحَبَ عَلَى الْكُفْرِ ، وَفِعْلُ ذَلِكَ كُفْرٌ ؛ وَلَا عَلَى الْمَعْصِيَةِ ، وَفِعْلُ ذَلِكَ مَعْصِيَةٌ قَالَ اللَّهُ فِي الْأَوَّلِ : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ ، وَسَيَأْتِي إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَالْآيَةُ إنْ كَانَتْ فِي الْكُفَّارِ فَهِيَ عَامَّةٌ فِيهِمْ وَفِي الْعُصَاةِ ، وَذَلِكَ عَلَى نَحْوٍ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا رَأَيْت الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ .

وَقَدْ قَالَ حَكِيمٌ : عَنْ الْمَرْءِ لَا تَسَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ مُقْتَدٍ وَالصُّحْبَةُ لَا

تَكُونُ إلَّا عَنْ مَوَدَّةٍ ، فَإِنْ كَانَتْ عَنْ ضَرُورَةٍ وَتَقِيَّةٍ فَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ عَلَى الْمَعْنَى ، وَصُحْبَةُ الظَّالِمِ عَلَى التَّقِيَّةِ مُسْتَثْنَاةٌ مِنْ النَّهْيِ لِحَالِ الِاضْطِرَارِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(17/386)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾

فيه أربعة تأويلات :

أحدها : لا تميلوا ، قاله ابن عباس .

الثاني : لا تدنوا ، قاله سفيان .

الثالث : لا ترضوا أعمالهم ، قاله أبو العالية .

الرابع : لا تدهنوا لهم في القول وهو أن يوافقهم في السر ولا ينكر عليهم في الجهر .

ومنه قوله تعالى ﴿ ودّوا لو تدهن فيدهنون ﴾ [القلم : 9] ، قاله عبد الرحمن بن زيد .

﴿ فتمسكم النار ﴾ يحتمل وجيهن :

أحدهما : فيمسكم عذاب النار لركونكم إليهم .

الثاني : فيتعدى إليكم ظلمهم كما تعدى النار إلى إحراق ما جاورها ، ويكون ذكر النار على هذا الوجه استعارة وتشبيهاً ، وعلى الوجه الأول خبراً ووعيداً . انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(18/386)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ الآية

تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم وذكر قصة موسى مثل له ، أي لا يعظم عليك أمر من كذبك ، فهذه هي سيرة الأمم ، فقد جاء موسى ، بكتاب فاختلف الناس عليه .

وقوله : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ إلى آخر الآية ، يحتمل أن يريد به أمة موسى ، ويحتمل أن يريد به معاصري محمد عليه السلام ؛ وأن يعمهم اللفظ أحسن –عندي– ويؤكد ذلك قوله : ﴿ وإن كلاً ﴾ و" الكلمة " ها هنا عبارة عن الحكم والقضاء والمعنى ﴿ لقضي بينهم ﴾ أي لفصل بين المؤمن والكافر ، بنعيم هذا وعذاب هذا . . . .

ووصف " الشك " بالمريب تقوية لمعنى الشك .

(19/386)

وقرأ الكسائي وأبو عمرو : " وإنّ كلاًّ لمَا " بتشديد النون وتخفيف الميم من ﴿ لما ﴾ وقرأ ابن كثير ونافع بتخفيفهما ، وقرأ حمزة بتشديدهما ، وكذلك حفص عن عاصم ؛ وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر - بتخفيف " إنْ " وتشديد الميم من " لمّا " وقرأ الزهري وسليمان بن أرقم : " وإن كلاًّ لمًّا " بتشديد الميم وتنوينها . وقرأ الحسن بخلاف : " وإنْ كلّ لما " بتخفيف " إن " ورفع " كلٌّ " وشد " لمّا " وكذلك قرأ أبان بن تغلب إلا أنه خفف " لما " ، وفي مصحف أبيّ وابن مسعود " وإن كل إلا ليوفينهم " وهي قراءة الأعمش ، قال أبو حاتم : الذي في مصحف أبيّ : " وإن من كل إلا ليوفينهم أعمالهم " . فأما الأول ف " إن " فيها على بابها ، و" كلاًّ " اسمها ، وعرفها أن تدخل على خبرها لام . وفي الكلام قسم تدخل لامه أيضاً على خبر " إن " فلما اجتمع لامان فصل بينهما ب " ما " - هذا قول أبي علي - والخبر في قوله ﴿ ليوفينهم ﴾ ، وقال بعض النحاة : يصح أن تكون " ما " خبر " إن " وهي لمن يعقل لأنه موضع جنس وصنف ، فهي بمنزلة من ، كأنه قال : وإن كلاًّ لخلق ليوفينهم ؛ ورجح الطبري هذا واختاره ، اما أنه يلزم القول أن تكون " ما " موصوفة إذ هي نكرة ، كما قالوا : مررت بما معجب لك ، وينفصل بأن قوله : ﴿ ليوفينهم ﴾ يقوم معناه مقام الصفة ، لأن المعنى : وإن كلاًّ لخلق موفى عمله ، وأما من خففها - وهي القراءة الثانية في ترتيبنا فحكم " إن " وهي مخففة حكمها مثقلة ، وتلك لغة فصيحة ، حكى سيبويه أن الثقة

أخبره : أنه سمع بعض العرب يقول : إن عمراً لمنطلق وهو نحو قول الشاعر :

ووجه مشرق النحر . . . كأن ثدييه حقان

رواه أبو زيد .

(20/386)

ويكون القول في فصل " ما " بين اللامين حسبما تقدم ، ويدخلها القول الآخر من أن تكون " ما " خبر " إن " وأما من شددهما أو خفف " إنْ " وشدد " الميم " ففي قراءتيهما إشكال ، وذلك أن بعض الناس قال : إن " لما " بمعنى إلا ، كما تقول : سألتك لما فعلت كذا وكذا بمعنى إلا فعلت قال أبو علي : وهذا ضعيف لأن " لما " هذه لا تفارق القسم ، وقال بعض الناس : المعنى لمن ما أبدلت النون ميماً ، وأدغمت في التي بعدها فبقي " لمما " فحذفت الأولى تخفيفاً لاجتماع الأمثلة ، كما قرأ بعض القراء ﴿ والبغي يعظكم ﴾ [النحل : 90] به بحذف الياء مع الياء وكما قال الشاعر :

وأشمت العداة بنا فأضحوا . . . لدى يتباشرون بما لقينا

قال أبو علي وهذا ضعيف ؛ وقد اجتمع في هذه السورة ميمات أكثر من هذه في قوله : ﴿ أمم ممن معك ﴾ [هود : 48] ولم يدغم هناك فأحرى أن لا يدغم هنا .

قال القاضي أبو محمد : وقال بعض الناس أصلها : لمن ما ، ف " من " خبر " إن " و " ما " زائدة وفي التأويل الذي قبله أصله : لمن ما ، ف " ما " هي الخبر دخلت عليها " من " على حد دخولها في قول الشاعر :

وإنا لمن ما نضرب الكبش ضربة . . . على رأسه تلقي اللسان من الفم

وقالت فرقة " لما " أصلها " لماً " منونة ، والمعنى : وإن كلاًّ عاماً حصراً شديداً ، فهو مصدر لم يلم ، كما قال : ﴿ وتأكلون التراث أكلاً لَّمّاً ﴾ [الفجر : 19] أي شديداً قالت : ولكنه ترك تنوينه وصرفه وبني منه فعلى كما فعل في تترى فقرىء : تترى .

(21/386)

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا نظر ، حكي عن الكسائي أنه قال : لا أعرف وجه التثقيل في " لما " ، قال أبو علي : وأما من قرأ " لَمّاً " بالتنوين وشد الميم فواضح الوجه كما بينا ، وأما من قرأ : " وإن كل لما " فهي المخففة من الثقيلة ، وحقها - في أكثر لسان العرب - أن يرتفع ما بعدها ، و" لما " هنا بمعنى إلا ، كما قرأ جمهور القراء : ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ [الطارق : 4] . ومن قرأ " إلا " مصرحة فمعنى قراءته واضح ، وهذه الآية وعيد .

وقرأ الجمهور : " يعملون " بياء على ذكر الغائب ، وقرأ الأعرج " تعملون " بتاء على مخاطبة الحاضر .

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ﴾

أمر النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستقامة وهو عليها إنما هو أمر بالدوام والثبوت ، وهذا كما تأمر إنساناً بالمشي والأكل ونحوه وهو ملتبس به . والخطاب بهذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين تابوا من الكفر ، ولسائر أمته بالمعنى ، وروي أن بعض العلماء رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال له : يا رسول الله بلغنا عنك أنك قلت : شيبتني هود وأخواتها فما الذي شيبك من هود ؟ قال له : قوله تعالى : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : والتأويل المشهور في قوله عليه السلام : شيبتني هود وأخواتها - أنها إشارة إلى ما فيها مما حل بالأمم السابقة ، فكان حذره على هذه الأمة مثل ذلك شيبه عليه السلام .

وقوله : ﴿ أمرت ﴾ مخاطبة تعظيم ، وقوله : ﴿ ومن ﴾ معطوف على الضمير في قوله : ﴿ فاستقم ﴾ ، وحسن ذلك دون أن يؤكد لطول الكلام بقوله : ﴿ كما أمرت ﴾ . و ﴿ لا تطغوا ﴾ معناه : ولا تتجاوزوا حدود الله تعالى ، و " الطغيان " : تجاوز الحد ومنه قوله

: ﴿ طغى الماء ﴾ [الحاقة : 11] وقوله في فرعون : ﴿ إنه طغى ﴾ [طه : 24-43 ، النازعات : 17] ، وقيل في هذه معناه : ولا تطغينكم النعم ، وهذا كالأول .

(22/386)

وقرأ الجمهور " تعملون " بتاء ، وقرأ الحسن والأعمش " يعملون " بياء من تحت – وقرأ الجمهور : " ولا تركَنوا " بفتح الكاف ، وقرأ طلحة بن مصرف وقتادة والأشهب العقيلي وأبو عمرو – فيما روى عنه هارون – بضمها ، وهو لغة ، يقال : ركن يركَن وركن يركُن ، ومعناه السكون ، إلى شيء والرضا به قال أبو العالية : " الركون " : الرضا . قال ابن زيد : " الركون " : الإدمان .

قال القاضي أبو محمد : فالركون يقع على قليل هذا المعنى وكثيره ، والنهي هنا يترتب من معنى الركون على الميل إليهم بالشرك معهم إلى أقل الرتب من ترك التغيير عليهم مع القدرة ، و﴿ الذين ظلموا ﴾ هنا هم الكفار ، وهو النص للمتأولين ، ويدخل بالمعنى أهل المعاصي .

وقرأ الجمهور " فتَمسكم " ، وقرأ يحيى وابن وثاب وعلقمه والأعمش وابن مصرف وحمزة – فيما روي عنه – " فِتمسكم " بكسر التاء وهي لغة في كسر العلامات الثلاث دون الياء

التي للغائب ، وقد جاء في الياء يِيجل ويِيبى ، وعللت هذه بأن الياء التي وليت الأولى ردتها إلى الكسر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(23/386)

وقال القرطبى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ الكلمة : أن الله عز وجل حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من الصلاح ؛ ولولا ذلك لقضى بينهم أجلهم بأن يثيب المؤمن ويعاقب الكافر .

قيل : المراد بين المختلفين في كتاب موسى ؛ فإنهم كانوا بين مصدّق (به) ومكذّب .

وقيل : بين هؤلاء المختلفين فيك يا محمد بتعجيل العقاب ، ولكن سبق الحكم بتأخير العقاب عن هذه الأمة إلى يوم القيامة .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ إن حملت على قوم موسى ؛ أي لفي شك من كتاب موسى فهم في شك من القرآن .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾

أي إن كلاًّ من الأمم التي عددناهم يرون جزاء أعمالهم ؛ فكذلك قومك يا محمد .

واختلف القراء في قراءة ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا ﴾ فقرأ أهل الحرمين نافع وابن كثير وأبو بكر معهم "وَإِنْ كُلاًّ لَمَا" بالتخفيف ، على أنها "إنْ" المخففة من الثقيلة معملة ؛ وقد ذكر هذا الخليل وسيبويه ، قال سيبويه : حدثنا من أثق به أنه سمع العرب تقول : إن زيداً لمنطلقٌ ؛ وأنشد قول الشاعر :

كأنْ ظِبْيَةً تَعْطُو إلى وَارِقِ السَّلَمْ . . .

أراد كأنها ظبية فخفّف ونصب ما بعدها ؛ والبصريون يجوزون تخفيف "إنّ" المشدّدة مع إعمالها ؛ وأنكر ذلك الكسائيّ وقال : ما أدري على أي شيء قرئ "وَإِنْ كُلاًّ" ! وزعم الفراء أنه نصب "كلاّ" في قراءة من خفف بقوله : "لَيُوفينهم" أي وإن ليوفينهم كلاّ ؛ وأنكر ذلك جميع النحويين ، وقالوا : هذا من كبير الغلط ؛ لا يجوز عند أحد زيداً لأضربنه .

وشدّد الباقون "إنّ" ونصبوا بها "كلاّ" على أصلها .

وقرأ عاصم وحمزة وابن عامر "لَمَّا" بالتشديد .

وخففها الباقون على معنى : وإن كلا ليوفينهم ، جعلوا "ما" صلة .

وقيل : دخلت لتفصل بين اللامين اللتين تتلقيان القسم ، وكلاهما مفتوح ففصل بينهما ب"ما" .

وقال الزجاج : لام "لمّا" لام "إنّ" و"ما" زائدة مؤكدة ؛ تقول : إن زيداً لمنطلق ؛ فإنّ تقتضي أن يدخل على خبرها أو اسمها لام كقولك : إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ، وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لذكرى ﴾ [الزمر : 21] .

واللام في "ليوفينهم" هي التي يُتَلقى بها القسم ، وتدخل على الفعل ويلزمها النون المشدّدة أو المخففة ؛ ولما اجتمعت اللامان فصل بينهما ب"ما" و"ما" زائدة مؤكدة ، وقال الفراء : "ما" بمعنى "من" كقوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ ﴾ [النساء : 72] أي وإنّ كلاًّ لمن ليوفِينهم ، واللام في "ليوفينهم" للقسم ؛ وهذا يرجع معناه إلى قول الزجاج ، غير أن "ما" عند الزجاج زائدة وعند الفراء اسم بمعنى "من" .

وقيل : ليست بزائدة ، بل هي اسم دخل عليها لام التأكيد ، وهي خبر "إن" و"ليوفينهم" جواب القسم ، التقدير : وإنّ كلاًّ خَلْق ليوفينهم ربك أعمالهم .

وقيل : "ما" بمعنى "من" كقوله : ﴿ فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء ﴾ [النساء : 3] أي مَنْ ؛ وهذا كله هو قول الفراء بعينه .

وأما من شدّد "لما" وقرأ "وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا" بالتشديد فيهما وهو حمزة ومن وافقه فقيل : إنه لحن

؛ حكي عن محمد بن يزيد أن هذا لا يجوز ؛ ولا يقال : إنّ زيداً إلاّ لأضربَنّه ، ولا لَمّا لضربته .

وقال الكسائي : الله أعلم بهذه القراءة ، وما أعرف لها وجهاً .

وقال هو وأبو علي الفارسي : التشديد فيهما مشكل .

قال النحاس وغيره : وللنحويين في ذلك أقوال : الأول : أن أصلها "لمن ما" فقلبت النون ميماً ، واجتمعت ثلاث ميمات فحذفت الوسطى فصارت "لما" و"ما" على هذا القول بمعنى "من" تقديره : وإن كلا لمن الذين ؛ كقولهم :

وإنِّي لَمَّا أُصْدِرُ الأمرَ وجهَهُ . . .

(25/386)

إذا هو أَعْيَا بالسَّبِيلِ مَصَادِرُه

وزيّف الزجاج هذا القول ، وقال : "من" اسم على حرفين فلا يجوز حذفه .

الثاني ؛ أن الأصل لِمن ما ، فحذفت الميم المكسورة لاجتماع الميمات ، والتقدير : وإنّ كُلاًّ لِمَنْ خَلْق ليوفينهم .

وقيل : "لمًّا" مصدر "لَمّ" وجاءت بغير تنوين حملاً للوصل على الوقف ؛ فهي على هذا

كقوله : ﴿ وَتَأْكُلُونَ التراثَ أَكْلاً لَمّاً ﴾ [الفجر : 19] أي جامعاً للمال المأكول ؛ فالتقدير على هذا : وإن كلاًّ ليوفينهم ربك أعمالهم توفية لَمًّا ؛ أي جامعة لأعمالهم جمعاً ، فهو كقولك : قياماً لأقومنّ .

وقد قرأ الزهري "لَمًّا" بالتشديد والتنوين على هذا المعنى .

الثالث : أن "لمّا" بمعنى "إلاّ" حكى أهل اللغة : سألتك بالله لمّا فعلت ؛ بمعنى إلاّ فعلت ؛ ومثله قوله تعالى : ﴿ إن كلُّ نفسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق : 4] أي إلا عليها ؛ فمعنى الآية : ما كل واحد منهم إلا ليوفينهم ؛ قال القُشيريّ : وزيّف الزجاج هذا القول بأنه لا نفي لقوله : ﴿ وَإِنّ كُلاًّ لَمَّا ﴾ حتى تقدر "إلا" ولا يقال : ذهب الناس لما زيد .

الرابع : قال أبو عثمان المازني : الأصل وإن كلاّ لَمَا بتخفيف "لَمّا" ثم ثقلت كقوله :

لقد خَشِيتُ أَنْ أرى جدَبّاً . . .

في عامِنَا ذا بعدَ ما أَخْصَبَّا

وقال أبو إسحاق الزجاج : هذا خطأ إنما يخفّف المثقل ، ولا يثقّل المخفف .

الخامس : قال أبو عبيد القاسم ابن سلاّم : يجوز أن يكون التشديد من قولهم : لَمَمْتُ الشيء أَلُمُّهُ لَمًّا إذا جمعته ، ثم بنى منه فَعْلَى ، كما قرىء ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى ﴾ [المؤمنون : 44] بغير تنوين وبتنوين .

فالألف على هذا للتأنيث ، وتمال على هذا القول لأصحاب الإمالة ؛ قال أبو إسحاق :

القول الذي لا يجوز غيره عندي أن تكون مخففة من الثقيلة ، وتكون بمعنى "ما" مثل : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق : 4] وكذا أيضاً تشدّد على أصلها ، وتكون بمعنى "ما" و"لما" بمعنى "إلا" حكى ذلك الخليل وسيبويه وجميع البصريين ؛ وأن "لما" يستعمل بمعنى "إلا" قلت : هذا القول (الذي) ارتضاه الزجاج حكاه عنه النحاس وغيره ؛ وقد تقدم مثله وتضعيف الزجاج له ، إلا أن ذلك القول صوابه "إنْ" فيه نافية ، وهنا مخففة من الثقيلة فافترقا وبقيت قراءتان ؛ قال أبو حاتم : وفي حرف أُبي : "وَإِنْ كُلٌّ إِلاَّ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ" وروي عن الأعمش "وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا" بتخفيف "إن" ورفع "كل" وبتشديد "لما" .

قال النحاس : وهذه القراءات المخالفة للسواد تكون فيها "إنْ" بمعنى "ما" لا غير ، وتكون على التفسير ؛ لأنه لا يجوز أن يقرأ بما خالف السواد إلا على هذه الجهة .

﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ تهديد ووعيد .

قوله تعالى : ﴿ فاستقم كَمَآ أُمِرْتَ ﴾

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولغيره .

وقيل : له والمراد أمته ؛ قاله السديّ .

وقيل : "استقم" اطلب الإقامة على الدّين من الله واسأله ذلك .

فتكون السين سين السؤال، كما تقول: أستغفر الله أطلب الغفران (منه) والاستقامة الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال؛ فاستقم على امتثال أمر الله.

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك! قال: "قل آمنت بالله ثم استقم".

وروى الدارميّ أبو محمد في مسنده عن عثمان بن حاضر الأزديّ قال: دخلت على ابن عباس فقلت أوصني! فقال: نعم! عليك بتقوى الله والاستقامة، اتبع ولا تبتدع.

(27/386)

﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ أي استقم أنت وهم؛ يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومَن بعده ممن اتبعه من أمته.

قال ابن عباس ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب! فقال: "شيبتني هود وأخواتها" وقد تقدّم في أول السورة.

وروي "عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيّ قال سمعت أبا علي السَّرِي يقول: رأيت النبي صلى

الله عليه وسلم في المنام فقلت : يا رسول اللها روي عنك أنك قلت : "شيبتني هود" .

فقال : "نعم" فقلت له : ما الذي شيّبك منها ؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم فقال : "لا ولكن قوله : فاستقم كما أمرت" ﴿ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ نهي عن الطغيان والطغيان مجاوزة الحد ؛ ومنه ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَآءُ ﴾ .

وقيل : أي لا تتجبروا على أحد .

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (113) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تركنوا ﴾ الركون حقيقة الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به ، قال قتادة : معناه لا تودّوهم ولا تطيعوهم .

ابن جريج : لا تميلوا إليهم .

أبو العالية : لا ترضوا أعمالهم ؛ وكله متقارب .

وقال ابن زيد : الركون هنا الإدْهَان وذلك ألا ينكر عليهم كفرهم .

الثانية : قرأ الجمهور : "تَرْكَنُوا" بفتح الكاف ؛ قال أبو عمرو : هي لغة أهل الحجاز .

وقرأ طلحة بن مُصرِّف وقتادة وغيرهما : "تركُنوا" بضم الكاف ؛ قال الفراء : وهي لغة تميم وقيس .

وجوز قوم ركَن يركَن مثل منع يَمنع .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ إِلَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ قيل : أهل الشرك .

وقيل : عامة فيهم وفي العصاة ، على نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيتَ الذين يَخُوضُونَ في آيَاتِنَا ﴾ [الأنعام : 68] الآية .

وقد تقدّم .

(28/386)

وهذا هو الصحيح في معنى الآية ؛ وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم ؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية ؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودّة ؛ وقد قال حكيم :

عن المرء لا تَسأَل وسَلْ عن قَرينه . . .

فكلُّ قرينٍ بالمُقَارن يَقْتَدِي

فإن كانت الصحبة عن ضرورة وتَقيّة فقد مضى القول فيها في "آل عمران" و"المائدة" .

وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهي بحال الاضطرار .

والله أعلم .

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النار ﴾ أي تحرقكم.

بمخالطتهم ومصاحبتهم ومما لأتهم على إعراضهم وموافقتهم في أمورهم. انتهى انتهى. اهـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(29/386)

وقال الخازن:

قوله: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾

يعني التوراة ﴿ فاختلف فيه ﴾ يعني في الكتاب فمنهم مصدق به ومكذب به كما فعل قومك يا محمد بالقرآن ففيه تسلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ يعني بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة لكان الذي يستحقونه من تعجيل العقوبة في الدنيا على كفرهم وتكذيبهم وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿ لقضي بينهم ﴾ يعني لعذبوا في الحال وفرغ من عذابهم وإهلاكهم ﴿ وإنهم لفي شك منه ﴾ يعني من القرآن ونزوله عليك يا محمد ﴿ مريب ﴾ يعني أنهم قد وقعوا في الريب والتهمة ﴿ وإن كلاًّ ﴾ يعني من الفريقين المختلفين المصدق والمكذب ﴿ لما ليوفينهم ربك أعمالهم ﴾ اللام لام القسم تقديره والله ليوفينهم جزاء أعمالهم في القيامة فيجازي المصدق على تصديقه الجنة ويجازي المكذب

على تكذيبه النار ﴿ إنه بما يعملون خبير ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده وإن دقت ففيه وعد للمحسنين المصدقين وفيه وعيد وتهديد للمكذبين الكافرين .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾

الخطاب فيه للنبي (صلى الله عليه وسلم) يعني فاستقم يا محمد على دين ربك والعمل به والدعاء إليه كما أمرك ربك والأمر في فاستقم للتأكيد لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان على الاستقامة لم يزل عيها كقولك للقائم قم حتى آتيك أي دُم على ما أنت عليه من القيام حتى آتيك ﴿ ومن تاب معك ﴾ يعني ومن آمن معك من أمتك فليستقيموا أيضاً على دين الله والعمل بطاعته قال عمر بن الخطاب : الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ منه روغان الثعلب (م) .

عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال " قل آمنت بالله ثم استقم " ﴿ ولا تطغوا ﴾ يعني ولا تجاوزوا أمري إلى غيره ولا تعصوني وقيل معناه ولا تغلوا في الدين فتجاوزوا ما أمرتكم به ونهيتكم عنه ﴿

إنه بما تعملون بصير ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بأعمالكم لا يخفى عليه شيء منها قال ابن عباس : ما نزلت آية على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هي أشد عليه من هذه الآية ولذلك قال شيبتني هود وأخواتها (خ) عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة " قوله : إن الدين يسر ، اليسر ضد العسر وأراد به التسهيل في الدين وترك التشدد فإن هذا الدين مع يسره وسهولته قوي فلن يغالب ولن يقاوى فسددوا أي اقصدوا السداد من الأمور وهو الصواب وقاربوا أي اطلبوا المقاربة وهي القصد الذي لا غلو فيه ولا تقصير والغدوة الرواح بكرة والرواح الرجوع عشياً والمراد منه اعملوا أطراف النهار وقتاً وقتاً والدلجة سير الليل والمراد مه اعملوا بالنهار واعملوا بالليل أيضاً وقوله شيء من الدلجة إشارة إلى تقليله .

(31/386)

وقوله تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ قال ابن عباس : ولا تميلوا والركون هو المحبة والميل بالقلب ، وقال أبو العالية : لا ترضوا بأعمالهم ، وقال السدي : لا تداهنوا الظلمة ، وعن عكرمة لا تطيعوهم ، وقيل : معناه ولا تسكنوا إلى الذين ظلموا ﴾

فتمسكم النار ﴾ يعني فتصيبكم النار بحرها ﴿ وما لكم من دون الله من أولياء ﴾ يعني أعواناً وأنصاراً يمنعونكم من عذابه ﴿ ثم لا تنصرون ﴾ يعني ثم لا تجدون لكم من ينصركم ويخلصكم من عقاب الله غداً في القيامة ففيه وعيد لمن ركن إلى الظلمة أو رضي بأعمالهم أو أحبهم فكيف حال الظلمة في أنفسهم نعوذ بالله من الظلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(32/386)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾

لما بين تعالى إصرار كفار مكة على إنكار التوحيد ونبوّة الرسول والقرآن الذي أتى به ، بيّن أنّ الكفار من الأمم السابقة كانوا على هذه السيرة الفاجرة مع أنبيائهم ، فليس ذلك ببدع مِن مَن عاصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وضرب لذلك مثلاً وهو : إنزال التوراة على موسى فاختلفوا فيها .

والكتاب هنا التوراة ، فقبله بعض ، وأنكره بعض ، كما اختلف هؤلاء في القرآن .

والظاهر عود الضمير فيه على الكتاب لقربه ، ويجوز أن يعود على موسى عليه السلام .

ويلزم من الاختلاف في أحدهما الاختلاف في الآخر .

وجوز أن تكون في بمعنى على ، أي : فاختلف عليه ، وكان بنو إسرائيل أشدّ تعنتاً على موسى وأكثر اختلافاً عليه .

وقد تقدم شرح : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ﴾ والظاهر عود الضمير في بينهم على قوم موسى عليه السلام ، إذ هم المختلفون فيه ، أو في الكتاب .

وقيل : يعود على المختلفين في الرسول من معاصريه .

قال ابن عطية : وأنْ يعمهم اللفظ أحسن عندي ، وهذه الجملة من جملة تسليته أيضاً .

﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (111) ﴾

الظاهر عموم كل وشموله للمؤمن والكافر .

وقال الزمخشري : التنوين عوض من المضاف إليه يعني : وإن كلهم ، وإن جميع المختلفين فيه .

وقال مقاتل : يعني به كفار هذه الأمة .

وقرأ الحرميان وأبو بكر : وإن كلا بتخفيف النون ساكنة .

وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة : لما بالتشديد هنا وفي (يس) و (الطارق) وأجمعت السبعة على نصب كلا ، فتصور في قراءتهم أربع قراآت : إحداها : تخفيف أن ولما ، وهي قراءة الحرميين .

والثانية : تشديدهما ، وهي قراءة ابن عامر وحمزة وحفص .

والثالثة : تخفيف إنْ وتشديد لما وهي قراءة أبي بكر .

والرابعة : تشديد أنْ وتخفيف لمّا ، وهي قراءة الكسائي وأبي عمرو .

(33/386)

وقرأ أبيّ والحسن بخلاف عنه ، وإبان بن ثعلب وإنْ بالتخفيف كل بالرفع لمّا مشدداً .

وقرأ الزهري وسليمان بن أرقم : وإن كلا لمّا بتشديد الميم وتنوينها ، ولم يتعرضوا لتخفيف إنْ ولا تشديدها .

وقال أبو حاتم : الذي في مصحف أبيّ وإن من كل إلا ليوفينهم .

وقرأ الأعمش : وإن كل إلا ، وهو حرف ابن مسعود ، فهذه أربعة وجوه في الشاذ .

فأما القراءة الأولى فأعمال أنْ مخففة كأعمالها مشددة ، وهذا المسألة فيها خلاف : ذهب الكوفيون إلى أنّ تخفيف إن يبطل عملها ، ولا يجوز أن تعمل .

وذهب البصريون إلى أنّ إعمالها جائز ، لكنه قليل إلا مع المضمر ، فلا يجوز إلا إن ورد في شعر ، وهذا هو الصحيح لثبوت ذلك في لسان العرب .

حكى سيبويه أن الثقة أخبره أنه سمع بعض العرب أنّ عمر المنطلق ، ولثبوت هذه القراءة

المتواترة وقد تأولها الكوفيون .

وأما لما فقال الفراء : فاللام فيها هي اللام الداخلة على خبر إنّ ، وما موصولة بمعنى الذي كما جاء : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ والجملة من القسم المحذوف وجوابه الذي هو ليوفينهم صلة ، لما نحو قوله تعالى : ﴿ وإن منكم لمن ليبطئن ﴾ وهذا وجه حسن ، ومن إيقاع ما على من يعقل قولهم : لا سيما زيد بالرفع ، أي لا سي الذي هو زيد . وقيل : ما نكرة موصوفة وهي لمن يعقل ، والجملة القسمية وجوابها قامت مقام الصفة ، لأن المعنى : وإنْ كلا لخلق موفى عمله ، ورجح الطبري هذا القول واختاره .

وقال أبو عليّ : العرف أن تدخل لام الابتداء على الخبر ، والخبر هنا هو القسم وفيه لام تدخل على جوابه ، فلما اجتمع اللامان والقسم محذوف ، واتفقا في اللفظ ، وفي تلقي القسم فصل بينهما بما كما فصلوا بين أن واللام انتهى .

ويظهر من كلامه أنّ اللام في لما هي اللام التي تدخل في الخبر ، ونص الحوفي على أنها لام إنْ ، إلا أنّ المنقول عن أبي علي أنّ الخبر هو ليوفينهم ، وتحريره ما ذكرنا وهو القسم وجوابه .

وقيل : اللام في لما موطئة للقسم ، وما مزيدة ، والخبر الجملة القسمية وجوابها ، وإلى هذا القول في التحقيق يؤول قول أبي علي .

وأما القراءة الثانية فتشديد إنّ وإعمالها في كل واضح .

وأما تشديد لمّا فقال المبرد : هذا لحن ، لا تقول العرب إنّ زيداً لما خارج ، وهذه جسارة من المبرد على عادته .

وكيف تكون قراءة متواترة لحناً وليس تركيب الآية كتركيب المثال الذي قال : وهو أنّ زيداً لما خارج هذا المثال لحن ، وأما في الآية فليس لحناً ، ولو سكت وقال كما قال الكسائي : ما أدري ما وجه هذه القراءة لكن قد وفق ، وأما غير هذين من النحويين فاختلفوا في تخريجها .

فقال أبو عبيد : أصله لما منونا وقد قرئ كذلك ، ثم بني منه فعلى ، فصار كتتري نون إذ جعلت ألفه للإلحاق كارطي ، ومنع الصرف إذ جعلت ألف تأنيث ، وهو مأخوذ من لممته أي جمعته ، والتقدير : وإنْ كلاًّ جميعاً ليوفينهم ، ويكون جميعاً فيه معنى التوكيد ككل ، ولا يقال لما هذه هي لما المنونة وقف عليها بالألف ، لأنها بدل من التنوين ، وأجرى الأصل مجرى الوقف ، لأنّ ذلك إنما يكون في الشعر .

وما قاله أبو عبيد بعيد ، إذ لا يعرف بناء فعلى من اللم ، ولما يلزم لمن أمال ، فعلى أن يميلها ولم يملها أحد بالإجماع ، ومن كتابتها بالياء ولم تكتب بها ، وقيل : لما المشدّدة هي لما

المخففة ، وشدّدها في الوقف كقولك : رأيت فرّحا يريد فرحاً ، وأجرى الوصل مجرى الوقف ، وهذا بعيد جداً ، وروي عن المازني .

وقال ابن جني وغيره : تقع إلا زائدة ، فلا يبعد أن تقع لما بمعناها زائدة انتهى .

وهذا وجه ضعيف مبني على وجه ضعيف في إلا .

وقال المازني : إنْ هي المخفف ثقلت ، وهي نافية بمعنى ما ، كما خففت إنْ ومعناها المثقلة ، ولما بمعنى إلا ، وهذا باطل لأنه لم يعهد تثقيل إن النافية ، ولنصب كل وإن النافية لا تنصب .

(35/386)

وقيل : لما بمعنى إلا كقولك : نشدتك بالله لما فعلت ، تريد إلا فعلت ، وقاله الحوفي ، وضعفه أبو علي قال : لأن لما هذه لا تفارق القسم انتهى .

وليس كما ذكر ، قد تفارق القسم .

وإنما يبطل هذا الوجه ، لأنه ليس موضع دخول إلا ، لو قلت : إنْ زيداً إلا ضربته لم يكن تركيباً عربياً .

وقيل : لما أصلها لمن ما ، ومن هي الموصولة ، وما بعدها زائدة ، واللام في لما هي داخلة في

خبر إن ، والصلة الجملة القسمية ، فلما أدغمت ميم من في ما الزائدة اجتمعت ثلاث ميمات ، فحذفت الوسطى منهن وهي المبدلة من النون ، فاجتمع المثلان ، فأدغمت ميم من في ميم ما ، فصار لمّا وقاله المهدوي .

وقال الفراء ، وتبعه جماعة منهم نصر الشيرازي : أصل لمّا لمن ما دخلت من الجارة على ما ، كما في قول الشاعر :

وإنا لمن ما يضرب الكبش ضربة . . .

على رأسه تلقى اللسان من الفم

فعمل بها ما عمل في الوجه الذي قبله .

وهذان الوجهان ضعيفان جداً لم يعهد حذف نون من ، ولا حذف نون من إلا في الشعر ، إذا لقيت لام التعريف أو شبهها غير المدغمة نحو قولهم : ملمال يريدون من المال .

وهذه كلها تخريجات ضعيفة جداً ينزه القرآن عنها .

وكنت قد ظهر لي فيها وجه جار على قواعد العربية ، وهو أنّ لما هذه هي لما الجارمة حذف فعلها المجزوم لدلالة المعنى عليه ، كما حذفوه في قولهم قاربت المدينة ، ولما يريدون ولما أدخلها .

وكذلك هنا التقدير وإن كلا لما ينقص من جزاء عمله ، ويدل عليه قوله تعالى : ليوفينهم ربك أعمالهم ، لما أخبر بانتفاء نقص جزاء أعمالهم أكده بالقسم فقال : ليوفينهم ربك أعمالهم ، وكنت اعتقدت أني سبقت إلى هذا التخريج السائغ العاري من التكلف وذكرت ذلك لبعض من يقرأ عليّ فقال : قد ذكر ذلك أبو عمرو وابن الحاجب ، ولتركي النظر في كلام هذا الرجل لم أقف عليه ، ثم رأيت في كتاب التحرير نقل هذا التخريج عن ابن الحاجب قال : لما هذه هي الجازمة حذف فعلها للدلالة عليه لما ثبت من جواز حذف فعلها في قولهم : خرجت ولما سافرت ، ولما ونحوه ، وهو سائغ فصيح ، فيكون التقدير : لما يتركوا ، لما تقدم من الدلالة عليه من تفصيل المجموعين في قوله : ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ ثم ذكر الأشقياء والسعداء ومجازاتهم ، ثم بين ذلك بقوله : ليوفينهم ربك أعمالهم ، قال : وما أعرف وجهاً أشبه من هذا ، وإن كان النفوس تستبعده من جهة أن مثله لم يقع في القرآن .

وأما القراءة الثالثة والرابعة فتخريجهما مفهوم من تخريج القراءتين قبلهما ، وأما قراءة أبي ومن ذكر معه فإنْ نافية ، ولمّا بمعنى إلا ، والتقدير : ما كل إلا والله ليوفينهم .

وكل مبتدأ الخبر الجملة القسمية وجوابها التي بعد لما كقراءة من قرأ ﴿ وإن كل لما جميع ﴾ ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ ولا التفات إلى قول أبي عبيد والفراء من إنكارهما أن لما تكون بمعنى إلا .

قال أبو عبيد : لم نجد هذا في كلام العرب ، ومن قال هذا لزمه أن يقول : رأيت القوم لما أخاك يريد إلا أخاك ، وهذا غيره موجود .

وقال الفراء : أما من جعل لما بمعنى إلا ، فإنه وجه لا نعرفه ، وقد قالت العرب مع اليمين بالله : لما قمت عنا ، وإلا قمت عنا ، فأما في الاستثناء فلم ننقله في شعر .

ألا ترى أنّ ذلك لو جاز لسمع في الكلام : ذهب الناس لما زيدا ؟ والقراءة المتواترة في قوله : وإنْ كل لما ، وإن كل نفس لما ، حجة عليهما .

(37/386)

وكون لما بمعنى إلا نقله الخليل وسيبويه والكسائي ، وكون العرب خصصت مجيئها ببعض التراكيب لا يقدح ولا يلزم اطرادها في باب الاستثناء ، فكم من شيء خص بتركيب دون ما أشبهه .

وأما قراءة الزهري ، وابن أرقم : لما بالتنوين والتشديد ، فلما مصدر من قولهم : لممت الشيء جمعته ، وخرج نصبه على وجهين : أحدهما : أن يكون صفة لكلا وصف بالمصدر وقدر كل مضافاً إلى نكرة حتى يصح الوصف بالنكرة ، كما وصف به في قوله : ﴿ أكلاً لما ﴾ وهذا تخريج أبي علي .

والوجه الثاني : أن يكون منصوباً بقوله : ليوفينهم ، على حد قولهم : قياماً لأقومن ، وقعوداً لا قعدن ، فالتقدير توفية جامعة لأعمالهم ليوفينهم .

وهذا تخريج ابن جني وخبر إنّ على هذين الوجهين هو جملة القسم وجوابه .

وأما ما في مصحف أبي فإنْ نافية ، ومن زائدة .

وأما قراءة الأعمش فواضحة ، والمعنى : جميع ما لهم .

قيل : وهذه الجملة تضمنت توكيدات بأن وبكل وباللام في الخبر وبالقسم ، وبما إذا كانت زائدة ، وبنون التوكيد وباللام قبلها وذلك مبالغة في وعد الطائع ووعيد العاصي ، وأردف ذلك بالجملة المؤكدة وهي : أنه بما يعملون خبير .

وهذا الوصف يقتضي علم ما خفي .

وقرأ ابن هرمز : بما تعملون على الخطاب .

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112) ﴾

قال ابن عيينة وجماعة : معناه استقم على القرآن ، وقال الضحاك : استقم بالجهاد ، وقال مقاتل : امض على التوحيد ، وقال جماعة : استقم على أمر ربك بالدعاء إليه ، وقال جعفر الصادق : استقم في الإخبار عن الله بصحة العزم ، وقال الزمخشري : فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها على جادة الحق غير عادل عنها .

وقال ابن عطية : أمر بالاستقامة وهو عليها ، وهو أمر بالدوام والثبوت .

والخطاب للرسول وأصحابه الذين تابوا من الكفر ولسائر الأمة ، فالمعنى : وأمرت مخاطبة تعظيم انتهى .

(38/386)

وقيل : استفعل هنا للطلب أي : اطلب الإقامة على الدين ، كما تقول : استغفر أي اطلب الغفران .

ومن تاب معطوف على الضمير المستكن في فاستقم ، وأغنى الفاصل عن التوكيد .

ولا تطغوا قال ابن عباس : في القرآن فتحلوا وتحرموا ما لم آمركم به .

وقال ابن زيد : لا تعصوا ربكم .

وقال مقاتل : لا تخلطوا التوحيد بالشك .

وقال الزمخشري : لا تخرجوا عن حدود الله .

وقرأ الحسن والأعمش : بما يعملون بالياء على الغيبة ، ورويت عن عيسى الثقفي بصير مطلع على أعمالهم يراها ويجازى عليها .

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (113) ﴾

قال ابن عباس : معنى الركون الميل .

وقال السدي ، وابن زيد : لا تداهنوا الظلمة .

وقال قتادة : لا تلحقوا بهم .

وقال سفيان : لا تدنوا إلى الذين ظلموا .

وقال أبو العالية : لا ترضوا أعمالهم ، وقيل : لا تجالسوهم ، وقال جعفر الصادق : إلى الذين ظلموا إلى أنفسكم فإنها ظالمة ، وهذا شبيه بتفسير الباطنية .

وقيل : لا تتشبهوا بهم .

وقرأ الجمهور : تركنوا بفتح الكاف ، والماضي ركن بكسرها ، وهي لغة قريش .

وقال الأزهري : هي اللغة الفصحى .

وعن أبي عمرو : بكسر التاء على لغة تميم في مضارع علم غير الياء .

وقرأ قتادة ، وطلحة ، والأشهب ، ورويت عن أبي عمر : وتركنوا بضم الكاف ماضي ركن بفتحها ، وهي لغة قيس وتميم ، وقال الكسائي : وأهل نجد .

وشذ يركن بفتح الكاف ، مضارع ركن بفتحها .

وقرأ ابن أبي عبلة : ولا تركنوا مبنياً للمفعول من أركنه إذا أماله ، والنهي متناول لانحطاط في هواهم ، والانقطاع إليهم ، ومصاحبتهم ، ومجالستهم ، وزيارتهم ، ومداهنتهم ، والرضا بأعمالهم ، والتشبه بهم ، والتزيي بزيهم ، ومد العين إلى زهرتهم ، وذكرهم بما فيه تعظيم

لهم .

وتأمّل قوله : ولا تركنوا ، فإن الركون هو الميل اليسير .

وقوله : إلى الذين ظلموا ، أي الذين وجد منهم الظلم ، ولم يقل الظالمين ، قاله : الزمخشري .

وقال ابن عطية : ومعناه السكون إلى الشيء والرضا به .

قال أبو العالية : الركون الرضا .

وقال ابن زيد : الركون الإدهان ، والركون يقع في قليل هذا وكثيره .

والنهي هنا يترتب من معنى الركون عن الميل إليهم بالشرك معهم إلى أقل الرتب ، من ترك التعبير عليهم مع القدرة ، والذين ظلموا هنا هم الكفرة ، وهو النص للمتأولين ، ويدخل بالمعنى أهل المعاصي انتهى .

وقال سفيان الثوري : في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزائرون الملوك .

وسئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية هل يسقى شربة ماء ؟ فقال : لا .

فقيل له : يموت ، فقال : دعه يموت .

وفي الحديث : " من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه " وكتب إلى

الزهري حين خالط السلاطين أخ له في الدين كتاباً طويلاً قرّعه فيه أشد التقريع ، يوقف عليه في تفسير الزمخشري .

وقرأ ابن وثاب ، وعلقمة ، والأعمش ، وابن مصرف ، وحمزة فيما روي عنه : فتمسكم بكسر التاء على لغة تميم ، والمس كناية عن الإصابة .

وانتصب الفعل في جواب النهي ، والجملة بعدها حال .

ومعنى من أولياء ، من أنصار يقدرون على منعكم من عذابه .

ثم لا تنصرون قال الزمخشري : ثم لا ينصركم هو لأنه وجب في حكمته تعذيبكم ، وترك الإبقاء عليكم .

(فإن قلت) : ما معنى ؟ ثم قلت : معناها الاستبعاد ، لأنّ النصرة من الله مستبعدة مع استيجابهم العذاب وقضاء حكمته له انتهى ، وهي ألفاظ المعتزلة .

وقرأ زيد بن علي : ثم لا تنصروا بحذف النون ، والفعل منصوب عطفاً على قوله : فتمسكم ، والجملة حال ، أو اعتراض بين المتعاطفين . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾

أي التوراةَ ﴿ فاختلف فِيهِ ﴾ أي في شأنه وكونِه من عند الله تعالى فآمن به قومٌ وكفر به آخرون فلا تبالِ باختلاف قومِك فيما آتيناك من القرآن وقولِهم : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ وزعمِهم أنك افتريتَه ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبّكَ ﴾ وهي كلمةُ القضاءِ بإنظارهم إلى يوم القيامةِ على حسب الحِكمةِ الداعيةِ إلى ذلك ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي لأُوقع القضاءَ بين المختلفين من قومك بإنزال العذابِ الذي يستحقه المبطِلون ليتميّزوا به عن المُحقّين ، وقيل : بين قوم موسى وليس بذاك ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أي وإن كفارَ قومِك أريد به بعضُ من رجع إليهم ضميرُ بينهم للأمن من الإلباس ﴿ لَفِى شَكّ ﴾ عظيم ﴿ مِنْهُ ﴾ أي من القرآن وإن لم يجْرِ له ذكر ، فإن ذكرَ إيتاءِ كتابِ موسى ووقوعِ الاختلافِ فيه لا سيما بصدد التسليةِ ينادي به نداءً غيرَ خفي ﴿ مُرِيبٍ ﴾ مُوقعٍ في الريبة .

﴿ وَإِنَّ كُلاًّ ﴾

التنوينُ عوضٌ عن المضاف إليه أي وإن كلَّ المختلفين فيه المؤمنين منهم والكافرين ، وقرأ ابنُ كثير ، ونافعٌ ، وأبو بكر ، بالتخفيف مع الإعمال اعتبارًا للأصل ﴿ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أجزيةَ أعمالِهم ، واللامُ الأولى موطئةٌ للقسم والثانيةُ جوابٌ للقسم المحذوف ، ولما مركبةٌ من مِنْ الجارة وما الموصولة أو الموصوفة وأصلها لِمن فقلبت النون ميمًا للإدغام فاجتمع ثلاث ميماتٍ فحُذفت أولاهن ، والمعنى لَمِن الذي أو لِمَنْ خلْقٍ أو لمن فريقٍ والله ليوفينهم ربك وقرئ لما بالتخفيف على أن ما مزيدةٌ للفصل بين اللامين والمعنى إن جميعَهم والله ليوفينهم الآية وقرئ لَمًّا بالتنوين أي جميعًا كقوله سبحانه : ﴿ أَكْلاً لَّمّاً ﴾ وقرأ أبي وإنْ كلٌّ لمّا ليوفينهم على أن نافية ولما بمعنى إلا وقد قرئ به ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أي بما يعمله كلُّ فردٍ من المختلفين من الخير والشر ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بحيث لا يخفى عليه شيءٌ من جلائله ودقائقه ، وهو تعليلٌ لما سبق من توفية أجزيةِ أعمالِهم فإن الإحاطةَ بتفاصيل أعمالِ الفريقين وما يستوجبه كلُّ عمل بمقتضى الحكمةِ من الجزاء المخصوصِ توجب توفيةَ كلِّ ذي حقٍ حقَّه إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًا فشر .

﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ لما بيّن في تضاعيف القصص المَحْكية عن الأمم الماضيةِ سوءُ عاقبة الكفرِ وعصيانِ الرسل وأُشير إلى أن حالَ هؤلاء الكفرة في الكفر والضلالِ واستحقاق العذابِ مثلُ أولئك المعذبين وأن نصيبَهم من العذاب واصلٌ إليهم من غير نقص وأن تكذيبَهم للقرآن مثلُ تكذيبِ قوم موسى عليه السلام للتوراة وأنه لو لم تسبقْ كلمةُ القضاءِ بتأخير عقوبتِهم العامةِ ومؤاخذتِهم التامّةِ إلى يوم القيامة لفُعل بهم ما فُعل بآبائهم من قبلُ وأنهم يُوفَّوْن نصيبَهم غيرَ منقوص وأن كل واحدٍ من المؤمنين والكافرين يوفى جزاءَ عملِه أُمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالاستقامة كما أمر به في العقائد والأعمالِ المشتركة بينه وبين سائرِ المؤمنين ولا سيما الأعمالُ الخاصةُ به عليه السلام من تبليغ الأحكامِ الشرعية والقيامِ بوظائف النبوةِ وتحمّل أعباءِ الرسالةِ بحيث يدخُل تحته ما أمر به فيما سبق من قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ الآية ، وبالجملة فهذا الأمرُ منتظمٌ لجميع محاسنِ الأحكامِ الأصليةِ والفرعية والكمالاتِ النظريةِ والعملية والخروجُ من عُهدته في غاية ما يكون من الصعوبة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " شيبتْني سورةُ هود " ﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ أي تاب من الشرك والكفرِ وشاركك في الإيمان وهو المعنيّ بالمعية وهو معطوفٌ على المستكنّ في قوله : فاستقم ، وحسُن من غير تأكيدٍ لمكان الفاصل القائمِ مَقامَه ، وفي الحقيقة هو من عطف الجملةِ على الجملة إذ المعنى وليستقم مَنْ تاب معك ، وقيل : هو منصوبٌ على أنه مفعولٌ

معه كما قاله أبو البقاء ، والمعنى استقم مصاحباً لمن تاب معك ﴿ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ ولا تنحرفوا عما حُدّ لكم بإفراط أو تفريط ، فإن كِلا طرفي قصدِ الأمور ذميمٌ ، وإنما سُمّي ذلك طغياناً وهو تجاوز الحدِ تغليظاً أو تغليباً لحال سائرِ

(43/386)

المؤمنين على حاله عليه السلام ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكم على ذلك وهو تعليلٌ للأمر والنهي ، وفي الآية دِلالةٌ على وجوب اتباعِ المنصوص عليه من غير انحرافٍ بمجرد الرأي فإنه طغيانٌ وضلال ، وأما العملُ بمقتضى الاجتهادِ التابعِ لعلل النصوصِ فذلك من باب الاستقامةِ كما أمر على موجب النصوصِ الآمرةِ بالاجتهاد .

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا ﴾

(44/386)

أي لا تميلوا أدنى ميلٍ ﴿ إِلَى الذين ظَلَمُوا ﴾ أي إلى الذين وُجد منهم الظلمُ في الجملة ، ومدارُ النهي هو الظلمُ ، والجمعُ باعتبار جمعيةِ المخاطَبين وما قيل من أن ذلك للمبالغة في

النهي من حيث إن كونهم جماعةً مظِنةُ الرخصةِ في مداهنتهم إنما يتم لو كان المرادُ النهيَ عن الركون إليهم من حيث أنهم جماعةٌ وليس كذلك ﴿ فَتَمَسَّكُمُ ﴾ بسبب ذلك ﴿ النار ﴾ وإذا كان حالُ الميل في الجملة إلى مَنْ وُجد منه ظلمٌ ما في الإفضاء إلى مِساس النارِ هكذا فما ظنُّك بميل من يميل إلى الراسخين في الظلم والعُدوان ميلاً عظيماً ، ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتِهم ويُلقي شراشِرَه على مؤانستهم ومعاشرتهم ، ويبتهج بالتزّيي بزِيّهم ويُمدّ عينيه إلى زهرتهم الفانية ويغبِطُهم بما أُوتوا من القطوف الدانية وهو في الحقيقة من الحبة طفيف ومن جناح البعوض خفيف بمعزل عن أن تميل إليه القلوب ضعُف الطالبُ والمطلوب ، والآيةُ أبلغُ ما يتصور في النهْي عن الظلم والتهديدِ عليه . وخطابُ الرسولِ صلى الله عليه وسلم ومَنْ معه من المؤمنين للتثبيت على الاستقامة التي هي العدلُ فإن الميلَ إلى أحد طرفي الإفراطِ والتفريطِ ظلمٌ على نفسه أو على غيره . وقرىء تركنوا على لغة تميم وتُركَنوا على صيغة البناء للمفعول من أركنه ﴿ وَمَا لَكُمْ مّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ أي من أنصار يُنقِذونكم من النار ، والجملةُ نصبٌ على الحاليه من قوله : فتمسكم النار ، ونفيُ الأولياءِ ليس بطريق نفي أن يكون لكل واحدٍ منهم أولياءُ حتى يصدُقَ أن يكون له وليٌّ بل لمكان (لكم) بطريق انقسامِ الآحادِ على الآحاد لكن لا على معنى نفي استقلالِ كلٍ منهم بنصير ، بل على معنى نفيِ أن يكون لواحد منهم نصيرٌ بقرينة المقام ﴿ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾

من جهة الله سبحانه إذ قد سبق في حكمه أن يعذبَكم بركونكم إليهم ولا يُبقي عليكم ، وثم لتراخي رتبةِ كونِهم غيرَ منصورين من جهة الله

(45/386)

بعدما أوعدهم بالعذاب وأوجبه عليهم ، ويجوز أن يكون منزلاً منزلة الفاءِ بمعنى الاستبعادِ فإنه لما بيّن أن الله تعالى معذبُهم وأن غيرَه لا ينقذهم أنتج أنهم لا يُنصرون أصلاً .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(46/386)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾

أي التوراة ﴿ فاختلف فِيهِ ﴾ أي في شأن الكتاب وكونه من عند الله تعالى فآمن به قوم وكفر به آخرون فلا تبال باختلاف قومك فيما آتيناك من القرآن ، وقولهم : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ [هود : 12] وعزم ﴿ إِنَّكَ افتريته ﴾ .

وجوز رجوع الضمير إلى موسى وهو خلاف الظاهر، وإن كان الاختلاف فيه عليه السلام هل هو نبي أم لا؟ مستلزماً للاختلاف في كتابه هل هو من الله تعالى أم لا، وقيل: إن في على هذا الاحتمال بمعنى على أي فاختلف قومه عليه وتعنتوا كما فعل قومك معك ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ وهي كلمة القضاء بتأخير العذاب إلى الأجل المعلوم على حسب الحكمة الداعية إلى ذلك ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي لأوقع القضاء بين المختلفين من قومك بانزال العذاب الذي يستحقه المبطلون ليتميزوا به عن المحقين، وفي البحر إن الظاهر عود الضمير على قوم موسى، قيل: وليس بذاك.

وقال ابن عطية: عوده على القومين أحسن عندي، وتعقب بأن قوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا ﴾ [هود: 111] الخ ظاهر في التعميم بعد التخصيص وفيه نظر، والأولى عندي الأول ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أي وإن كفار قومك أريد بالضمير بعض من رجع إليهم ضمير بينهم للأمن من الالباس ﴿ لَفِى شَكٍّ ﴾ عظيم ﴿ مِنْهُ ﴾ أي من القرآن وإن لم يجر له ذكر فان ذكر إيتاء كتاب موسى ووقوع الاختلاف فيه لا سيما بصدد التسلية يناديه نداءاً غير خفي.

وقيل: الضمير للوعيد المفهوم من الكلام ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أي موقع في الريبة، وجوز أن يكون من أراب إذا صار ذا ريبة.

﴿ وَإِنَّ كُلًّا ﴾ التنوين عوض عن المضاف إليه كما هو المعروف في تنوين كل عند قوم من

النحاة ، وقيل : إنه تنوين تمكين لكنه لا يمنع تقدير المضاف إليه أيضاً أي وإن كل المختلفين المؤمنين والكافرين .

وقال مقاتل : يعني به كفار هذه الأمة ﴿ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أعمالهم ﴾ أي أجزية أعمالهم ، ولام ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾ واقعة في جواب القسم أي والله ليوفينهم ، و ﴿ لَّمّاً ﴾ بالتشديد وهو مع تشديد أن قراءة ابن عامر .

وحمزة ، وحفص .

وأبي جعفر .

وتخريج الآية على هذه القراءة مشكل حتى قال المبرد : إنها لحن وهو من الجسارة بمكان لتواتر القراءة وليته قال كما أدري ما وجه هذه القراءة ، واختلفوا في تخريجها فقال أبو عبيدة : إن أصل ﴿ لَّمّاً ﴾ هذه لما منونا ، وقد قريء كذلك ثم بني على فعلى وهو مأخوذ من لمته إذا جمعته ، ولا يقال : إنها ﴿ لَّمّاً ﴾ المنونة وقف عليها بالألف ، وأجري الوصل مجرى الموقف لأن ذلك على ما قال أبو حيان : إنما يكون في الشعر واستبعد هذا التخريج بأنه لا يعرف بناء فعلى من لمّ ، وبأنه يلزم لمن أمال فعلى أن يميلها ولم يملها أحد بالإجماع وبأنه

كان القياس أن تكتب بالياء ولم تكتب بها ، وسيعلم إعراب الآية على هذا مما سيأتي إن شاى الله تعالى .

وقيل : ﴿ لَمّاً ﴾ المخففة وشددت في الوقف ثم أجرى الوصل مجرى الوقف وحينئذ فالاعراب م ستعرفه أيضاً إن شاء الله تعالى وهو بعيد جداً ، وقيل : إنها بمعنى إلا ، وإلا تقع زائدة كما في قوله

: حلفت يميناً غير ذي مثنوية . . .

يمين امرىء إلا بها غير آثم

فلا يبعد أن ﴿ لَمّاً ﴾ التي بمعناها زائدة وهو وجه ضعيف مبني على وجه ضعيف في إلا ، وعن المازني أن أن المشددة هن نافية ، و﴿ لَمّاً ﴾ بمعنى إلا غير زائدة وهو باطل لأنه لم يعهد تقثيل أنالنافية ، ولنصب كل والنافية لا تنصب ، وقال الحوفي : ﴿ إن ﴾ على ظاهرها .

(48/386)

و﴿ لَمّاً ﴾ بمعنى إلا كما في قولك : نشدتك بالله إلا فعلت ، وضعفه أبو علي بأن ﴿ لَمّاً ﴾ هذه لا تفارق القسم قبلها وليس كما ذكر فقد تفارق ؛ وإنما يضعف ذلك بل يبطله كما

قال أبو حيان : إن الموضع ليس موضع دخول إلا ألا ترى أنك لو قلت : إن زيداً إلا ضربت لم يكن تركيباً عربياً ؛ وقيل : إن ﴿ لَمَّاً ﴾ هذه أصلها لمن ما فهي مركبة من اللام ومن الموصولة أو الموصوفة وما الزائدة فقلبت النون ميماً للادغام فاجتمعت ثلاث ميمات فخذفت الوسطى منها ثم أدغم المثلان ، وإلى هذا ذهب المهدوي ، وقال الفراء .

وتبعه جماعة منهم نصر الشيرازي : إن أصلها لمن ما بمن الجارة وما الموصولة أو الموصوفة وهي على الاحتمالين واقعة على من يعقل فعمل بذلك نحو ما عمل على الوجه الذي قبله ، وقد جاء هذا الأصل في قوله

: وأنا لمن ما تضرب الكبش ضربة . . .

على رأسه تلقى اللسان من الفم

(49/386)

واللام على هذين الوجهين قيل : موطئة للقسم ، ونقل عن الفارسي وهو مخالف لما اشتهر عن النحاة من أن الموطئة هي الداخلة على شرط مقدم على جواب قسم تقدم لفظاً أو تقديراً لتؤذن بأن الجواب له نحو والله لئن أكرمتني لأكرمتك وليس ما دخلت عليه جواب القسم بل ما يأتي بعدها وكان مذهبه كمذهب الأخفش أنه لا يجب دخولها على الشرط

، وإنما هي ما دلت على أن ما بعدها صالح لأن يكون جواباً للقسم مطلقاً ، وقيل : إنها اللام الداخلة في خبر إن ، ومن موصولاً أو موصوفاً على الوجه الأول من الوجهين هو الخبر والقسم وجوابه صلة أو صفة ، والمعنى وإن كلا للذين أو الخلق والله ليوفينهم ربك ، ومن ومجرورها على الوجه الثاني في موضع الخبر لأن ، الجملة القسمية وجوابها صلة أو صفة أيضاً لكن لما ، والمعنى وإن كلا لمن الذين أو لمن خلق والله ليوفينهم ربك ، قال في البحر : وهذان الوجهان ضعيفان جداً ولم يعهد حذف نون من وكذا حذف نون من الجارة إلا في الشعر إذا لقيت لام التعريف أو شبهها غر المدغمة نحو قولهم : ملمال يريدون من المال ، وفي تفسير القاضي .

وغيره إن الأصل لمن ما بمن الجارة قلبت النون ميماً فاجتمعت ثلاث ميمات فحذفت أولاهن ، وفيه أيضاً ما فيه .

ففي المعنى إن حذف هذه الميم استقالا لم يثبت انتهى ، وقال الدماميني : كيف يستقيم تعليل الحدف بالاستقثال وقد اجتمعت في قوله تعالى : ﴿ على أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ [هود : 48] ثماني ميمات انتهى ، وأنشد الفراء على ما ذهب إليه قول الشاعر

: وإني لما أصدر الأمر وجهه . . .

إذا هو أعيا بالسبيل مصادره

وزعم بعضهم أن لما بمعنى حين وف الكلام حدف أي لما عملوا ما عملوا أو نحو ذلك

والحذف في الكلام كثير نحو قوله

: إذا قلت : سيروا إن ليلى لعلها . . .

جرى دون ليلى مائل القرن أعضب

(50/386)

أراد لعلها تلقاني أو تصلني أو نحو ذلك وو كما ترى ، وقال أبو حيان بعد أن ذكر أن هذه التخريجات مما تنزه ساحة التنزيل عن مثلها : كنت قد ظهر لي وجه جار على قواعد العربية عار من التكلف وهو أن ﴿ لَمَّاً ﴾ هذه هي الجازمة حذف فعلها المجزوم لدلالة المعنى عليه كما حذفوه في قولهم : قاربت المدينة ولما يريدون ولما أدخلها ، والتقدير هنا وإن كلا لما ينقص من جزاء عمله ويدل عليه ليوفينهم ربك أعمالهم ، وكنت أعتقد أني ما سبقت إلى ذلك حتى تحققت أن ابن الحاجب وفق لذلك فرأيت في كتاب التحرير نقلاً عنه أنه قال : ﴿ لَمَّاً ﴾ هذه هي الجازمة حدف فعلها للدلالة عليه ، وقد ثبت الحذف في قولهم : خرجت ولما .

وسافرت ولما ونحوه .

وهو سائغ فصيح فيكون التقدير ولما يتركوا أو لما يهملوا ويدل عليه تفصيل المجموعين

ونحازاتهم ، ثم قال : وما أعرف وجهاً أشبه من هذا وإن كانت النفوس تستبعده من جهة

ن مثله لم يقع في القرآن انتهى ، ولا يخفى عليك أن الأولى أن يقدر لما يوفوا أعمالهم أي إلى

الآن لم يوفوها وسيوفونها ، وإلى ذلك ذهب ابن هشام لما يلزم على التقديرات السابقة على

ما هو المشهور في معنى لما أنهم سينقصون من جزاء أعمالهم وأنهم سيتركون ويهملون ،

وذلك بمعنزل عن أن يراد وهو ظاهر ، وهذا وجه النظر عناه ابن هشام في قوله معترضاً

على ابن الحاجب : وفي هذا التقدير نظر .

قال الجلبي : وجهه أن الدال على المحذوف سابق عليه بكثير من أن ذلك المحذوف ليس من

لفظ هذا الذي قيل : إنه دال عليه وليس بذاك ، ثم المرجح عند كثير من المفسرين ما ذهب

إليه الفراء ، وقرأ نافع .

وابن كثير أن .

(51/386)

ولما بالتخفيف وخرجت هذه القراءة على أن أن عاملة وإن خففت اعتباراً للأصل في

لعمل وهو شبه الفعل ولا يضر زوال الشبه اللفظي ، وإلى ذلك ذهب البصريون ، وذكر أبو

حيان أن مذهبهم جواز أعمالها إذا خففت لكن على قلة إلا مع المضمر فلا يجوز إلا إن

ورد في شعر ، ونقل عن سيبويه منهم أنه قال : أخبرني الثقة أنه سمع بعض العرب يقول : إن عمراً لمنطلق .

وزعم بعض من النحويين أن المكسورة إذا خففت لا تعمل ، وتأول الآية بجعل ﴿ كَلًّا ﴾ منصوباً بفعل مقدر أي إن أرى كلا مثلا وليس بشيء ، وجعل هذا في البحر مذهب الكوفيين ، وفي الارتشاف إن الكوفيين لا يجوزون تخفيف المسكورة لا مهملة ولا معملة ، وذكر بعضهم مثله وأن ما يعدّها البصريون مخففة يعدها الكوفيون نافية ، واستثنى منهم الكسائي فإنه وافق البصريين ومذهبهم في ذلك هو الحق ، و﴿ كَلًّا ﴾ اسمها واللام هي الداخلة على خبر إن وما موصولة خبر إن ، والجملة القسمية وجوابها صلة ، وإلى هذا ذهب الفراء ، واختار الطبري في اللام مذهبه ، وفي ﴿ مَا ﴾ كونها نكرة موصوفة ، والجملة صفتها أي وإن كلا لخلق أو لفريق موفى عمله ، واختار أبو علي في اللام ما اختاراه ؛ وجعل الجملة القسمية خبراً وما مزيدة بين اللامين وقد عهدت زيادتها في غير ما موضع ، وقرأ أبوز بكر عن عاصم بتخفيف إن وتشديد لما ، وقرأ الكسائي .

وأبو عمرو بعكس ذلك وتخريج القراءتين لا يخفى على من أحاط خبراً بما ذكر في تخريج القراءتين قبل ، وقرأ أبى .

والحسن بخلاف عنه .

وأبان بن تغلب ، وأن بالتخفيف كل بالرفع لما بالتشديد ، وخرجت على أن ان نافية وكل مبتدأ والجملة القسمية وجوابها خبره ، و﴿ لَّمّاً ﴾ بمعنى إلا أي ما كل إلا أقسم والله ليوفينهم ، وأنكر أبو عبيدة مجيء ﴿ لَّمّاً ﴾ بمعنى إلا في كلام العرب ، وقل الفراء : إن جعلها هن بمعنى الأوجه لا نعرفه ، وقد قالت العرب مع اليمين بالله : لما قمت عنا وإلا قمت عنا ، وأما في غير ذلك فلم نسمع مجيئها بمعنى إلا لا في نثر ولا في شعر ؛ ويلزم القائل أن يجوز قام الناس لما زيداً على معنى إلا زيداً ولا التفات إلى إنكارهما ، والقراءة المتواترة في ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ [يس : 32] ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ [الطارق : 4] تثبت ما أنكراه.

وقد نص الخليل.

وسيبويه.

والكسائي على مجيء ذلك ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ ، وكون العرب خصصت مجيئها كذلك ببعض التراكيب لا يضر شيئاً فكم من شيء خص بتركيب دون ما أشبه.

وقرأ الزهري.

وسليمان بن أرقم ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمّاً ﴾ بتشديد الميم والتنوين ولم يتعرضوا في النقل عنهما لتشديد أن ولا لتخفيفها ، وهي في هذه القراءة مصدر من قولهم : لممت الشيء إذا جمعته

كما مر ونصبها على الحالية من ضمير المفعول في ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾ عند أبي البقاء وضعفه.

وقال أبو علي: إنها صفة لكل ويقدر مضافاً إلى نكرة ليصح وصفه بالنكرة، وكان المصدر حينئذ بمعنى اسم المفعول، وذكر الزمخشري في معنى الآية على هذه القراءة أنه وإن كلا ملمومين بمعنى مجموعين كأنه قيل: وآن كلا جميعاً كقوله تعالى: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر: 30] وجعل ذلك الطيبي منه ميلا إلى القول بالتأكيد.

(53/386)

وقال ابن جنى: إنها منصوبة بليوفينهم على حد قولهم: قياما فالا أقومن، والتقدير توفية جامعة لا عمالهم ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ وَخَيْرٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ جملة القيم وجوابه، وروي أبو حاتم أن في مصحف أبي وإن من كل إلا ليوفينهم وخرج على أن أن نافية ومن زائدة.

وقرأ الأعمس نحو ذلك إلا أنه أسقط من هو حرف ابن مسعود رضي الله تعالى عنه والوجه ظاهر، قيل: وقد تضمنت هذه الجملة عدة مؤكدات من أن واللام وما إذا كانت زائدة والقسم ونون التأكيد وذلك للمبالغة في وعد الطائعين ووعيد العاصين ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي أنه سبحانه بما يعمله كل فرد من المختلفين من الخير والشر عليم على أتم وجه بحيث لا يخفى عليه شيء من جلائله ودقائقه، والجملة قيل: توكيد للوعد

والوعيد فانه سبحانه لما كان عالماً بجميع المعلومات كان عالماً بمقادير الطاعات والمعاصي وما يقتضيه كل فرد منها من الجزاء بمقتضى الحكمة وحينئذ تتأتى توفية كل ذي حق حقه إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وقرأ ابن هرمز ﴿ وتعلمون ﴾ على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب .

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾

(54/386)

لما بين أمر المختلفين في التوحيد والنبوة ، وأطنب سبحانه في شرح الوعد والوعيد أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستقامة مثل الاستقامة التي أمر بها وهذا يقتضي أمره صلى الله عليه وسلم بوحي أخر ولو غير متلو كما قاله غير واحد ، والظاهر أن هذا أمر بالدوام على الاستقامة وهي لزوم المنهم المستقيم وهو المتوسط بين الافراط والتفريط وهي كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل وسائر الأخلاق فتشمل العقائد والأعمال المشتركة بينه صلى الله عليه وسلم وبين سائر المؤمنين والأمور الخاصة به عليه الصلاة والسلام من تبليغ الأحكام والقيام بوظائف النبوة وتحمل أعباء الرسالة وغير ذلك ، وقد قالوا : إن التوسط بين الافراط والتفريط بحيث لا يكون ميل إلى أحد الجانبين قيد عرض

شعرة مما لا يحصل إلا بالافتقار إلى الله تعالى ونفى الحول والقوة بالكلية ، ومثلوا الأمر المتوسط بين ذينك الطرفين بخط يكون بين الشمس والظل لس بشمس ولا ظل بل هو أمر فاصل بينهما ولعمري إن ذلك لدقيق ، ولهذا قالوا : لا يطيق الاستقامة إلا من أيد بالمشاهدات القوية والأنوار السنية ثم عصم بالتشبث بالحق ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ﴾ [الإسراء : 74] وجعل بعض العارفين الصراط الذي هو أدق من الشعرة وأحد م السيف إشارة إلى هذا المنهج المتوسط .

ومما يدل على شدة هذا الأمر ما أخرج ابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ عن الحسن أنه قال : لما نزلت هذه الآية صلى الله عليه وسلم : " شمروا شمروا " وما رؤى بعدها ضاحكاً .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية ؤشد من هذه الآية ولا أشق ، وأستدل بعض المفسرين على عسر الاستقامة بما شاع من قوله صلى الله عليه وسلم : " شيبتني هود " وأنت تعلم أن الأخبار متضافرة بضم سور أخرى إليها وإن اختلفت في تعيين المضموم كما مر أول السوءة ، وحينئذ لا يخفى ما في

الاستدلال من الخفاء ، ومن هنا قال صاحب الكشف : التخصيص بهود لهذه الآية غير لائح إذ ليس في الأخوات ذكر الاستقامة .

وذكر في قوت القلوب أنه لما كان القريب الحبيب صلى الله عليه وسلم شيبه ذكر البعد وأهله ثم قال : ولعل الأظهر أنه عليه الصلاة والسلام شيبه ذكر أهوال القيامة ، وكأنه بأبي هو وأمي شاهد منه يوماً يجعل الولدان شيباً انتهى .

وبعضهم استدل للتخصيص برؤيا أبي علي الشترى السابقة وفيه بعد تسليم صحة الرواية إن رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وإن كانت حقاً حيث أن الشيطان لا يتمثل به عليه الصلاة والسلام إلا أنه من أين يجزم بضبط الرائي وتحقيقه ما رأى على أن مما يوهن أمر هذه الرؤيا ويقوي ظن عدم ثبوتها ما أخرجه ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" شيبتني هود وأخواتها وما فعل بالأمم قبلي " وذكر الشهاب ما يقوي اعتراض صاحب الكشف من أنه ليس في الطرق المروية في هذا الباب الاقتصار على هود بل ذكر معها أخواتها وليس فيها الأمر المذكور مع أنه وقع في غيرها من آل حميم ، ثم ذكر أنه لاح له ما يدفع

الاشكال؛ وذلك أن مبنى هذه السورة الكريمة على إشارة تعالى شأنه نبيه صلى الله عليه وسلم إلى كيفية الدعوة من مفتتحها إلى مختتمها وإلى ما يعتري من تصدي لهذه المرتبة السنية من الشدائد واحتماله لما يترتب عليه من الفوائد لا على التسلية إذ لا يطابق المقام حسبما تقدم لك عن صاحب الكشف، ولما كانت هذه السورة جامعة لارشاده من أول أمره إلى آخره وهذه الآية فذلكة لها فحينما نزلت هذه السورة هاله ما فيها من الشدائد وخاف من عدم القيام بأعبائها حتى إذا لقى الله تعالى في يوم الجزاء ربما مسه نصب من السؤال عنها فذكر القيامة في تلك السور يخوفه هولها لاحتمال تفريطه فيما أرشده الله تعالى له في هذه، وهذا لا ينافي عصمته عليه الصلاة والسلام وقربه لكونه الأعلم بالله تعالى والأخوف منه، فالخوف منها يذكره بما تضمنته هذه السورة فكأنها هي المشيبة صلى الله عليه وسلم من بينها ولذا بدأ بها في جميع الروايات، ولما كانت تلك الآية فذلكة لها كانت هي المشيبة في الحقيقة فلا منافاة بين نسبة التشييب لتلك السور ولا لهذه السورة وحدها كما فعله من فعله ولا لتلك الآية كما وقع في تلك الرؤيا انتهى، وسيأتي إن شاء الله تعالى وجه آخر لنسبة التشييب لهذه السورة فليتأمل، وذهب بعض المحققين إلى كون الكاف في ﴿ كَمَا ﴾ بمعنى على كما في قولهم: كن كما أنت عليه أي على ما أنت عليه، ومن هنا قال ابن عطية.

وجماعة : المعنى استقم على القرآن ، وقال مقاتل : امض على التوحيد ، وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه : استقم على الأخبار عن الله تعالى بصحة العزم ، والأظهر إبقا ما على العموم أي استقم على جميع ما أمرتبه ، والكلام في حذف مثل هذا الضمير أمر ائع ، وقد مر التنبيه عليه ، ومال بعضهم إلى كون الكاف للتشبيه حسبما هو الظاهر منها إلا أنه قال : إنها في حكم مثل في قولهم : مثلك لا يبخل فكأنه قيل : استقم الاستقامة التي أمرت بها فراراً من تشبيه الشيء بنفسه ، ولا يخفى أنه ليس بلازم ، ومن الغريب ما نقل عن أبي حيان أنه قال في تذكرته : فإن قلت : كيف جاء هذا التشبيه للاستقامة بالأمر ؟ قلت : هو على حذف مضاف تقديره مثل مطلوب الأمر أي مدلوله ، فإن قلت : الاستقامة المأمور بها هي مطلوب الأمر فكيف يكون مثلا لها ؟ قلت ملوب الأمر كلى والمأمور جزئي فحصلت المغايرة وصح التشبيه كقولك : صل ركعتين كما أمرت ، وأبعد بعضهم فجعل الكاف بمعنى على واستفعل للطلب كاستغفر الله تعالى أي اطلب الغفران منه ، وقال : المعنى اطلب الإقامة على الدين .

﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ أي تاب من الشرك وآمن معك فالمعية باعتبار اللازم من غير نظر إلى ما تقدمه وغيره ، وقد يقال : يكفي الاشتراك في التوبة والمعية فيها مع قطع النظر عن المثوب

عنه ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يستغفر الله تعالى في اليوم أكثر من سبعين مرة ، واستظهر ذلك الجلبي ، و﴿ مِنْ ﴾ على ما اختاره أبو حيان .

(58/386)

وجماعة عطف على الضمير المستكن في ﴿ واستقم ﴾ وأغني الفصل بالجار والمجرور عن تأكيده بضمير منفصل لحصول الغرض به ، وفي الكلام تغليب لحكم الخطاب على الغيبة في لفظ الأمر ، واختار كثير أنه فاعل لفعل محذوف أي وليستقم من الخ لأن الأمر لا يرفع الظاهر ، وحينئذ فالجملة معطوفة على الجملة الأولى ، ومن ذهب إلى الأول رجحه بعدم احتياجه إلى التقدير ودفع المحذور بأنه يغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع .

وجوز أبو البقاء كونه منصوباً على أنه مفعول معه ، والمعنى استقم مصاحباً لمن تاب ، قيل : وهو في المعنى أتم وإن كان في اللفظ نوع نبوة عنه .

وقيل : إنه مبتدأ والخبر محذوف أي فليستقم ، وجوز كون الخبر ﴿ مَعَكَ ﴾ ﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ ﴾ أي ر تنحرفوا عما حدّ لكم بافراط أو تفريط فإن كلا طرفي قصد الأمور ذميم ، وسمي ذلك طغياناً وهو مجاوزة الحدّ تغليظاً أو تغليباً لحال سائر المؤمنين على حاله صلى الله عليه وسلم ، وعن ابن عباس أن المعنى لا تطغوا في القرآن فتحلوا وتحرموا ما لم تأمروا به .

وقال ابن زيد : لا تعصوا ربكم ، وقال مقاتل : لا تخلطوا التوحيد بالشرك ، ولعل الأول أولى .

﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكم على ذلك وهو تعليل للأمر والنهي السابقين كأنه قيل : استقيموا ولا تطغوا لأن الله تعالى ناظر لأعمالكم فيجازيكم عليها ، وقيل : إنه تتميم للأمر بالاستقامة ، والأول أحسن وأتم فائدة ، وقرأ الحسن .

(59/386)

والأعمس يعملون بياء الغيبة ، وروي ذلك عن عيسى الثقفي أيضاً ، وفي الآية على ما قال غير واحد دليل على وجوب اتباع المنصوص عليه من غير انحراف بمجرد التشهي وإعمال العقل الصرف فإن ذلك طغيان وضلال ، وأما العمل بمقتضى الاجتهاد التابع لعلل النصوص فذلك من باب الاستقامة كما أمر على موجب النصوص الآمرة بالاجتهاد ، وقل الإمام : وعند لا يجوز تخصيص النص بالقياس لأنه لما دل عموم النص على حكم وجب الحكم بمقتضاه لقوله تعالى : ﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ والعمل بالقياس انحراف عنه ، ولذا لما ورد القرآن بالامر بالوضوء وجيء بالاعضاء مرتبة في اللفظ وجب الترتيب فيها ، ولما ورد الأمر في الزكاة بأداء الإبل من الإبل .

والبقر من البقر وجب اعتبارها ، وكذا القول في كل ما ورد أمر الله تعالى به كل ذلك للأمر بالاستقامة كما أمر انتهى .

وأنت تعلم أن إيجاب الترتيب في الوضوء لذلك ليس بشيء ويلزمه أن يوجب الترتيب في الأوامر المتعاطفة بالواو مثل ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ [البقرة : 43] وكذا في نحو ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [البقرة : 45] بعين ما ذكر في الوضوء وهو كما ترى ، وكأنه عفا الله تعالى عنه يجزم بأن الحنفية الذين لا يوجبون الترتيب في أعمال الوضوء طاغون خارجون عما حد الله تعالى احتمال للقول بأنهم مستقيمون وهو من الظلم بمكان .

﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ أي لا تميلوا إليهم أدنى ميل ، والمراد بهم المشركون كما روي ذلك ابن جرير .

(60/386)

وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وفسر الميل بميل القلب إليهم بالمحبة ، وقد يفسر بما هو أعم من ذلك كما يفسر ﴿ الذين ظَلَمُواْ ﴾ بمن وجد منه ما يسمى ظلماً مطلقاً ، وقيل : ولإرادة ذلك لم يقل إلى الظالمين ؛ ويشمل النهي حينئذ مداهنتهم وترك التغيير عليهم مع القدرة والتزني بزيهم وتعظيم ذكرهم ومجالستهم من غير داع شرعي وكذا

القيام لهم ونحو ذلك ، ومدار النهي على الظلم والجمع باعتبار جمعية المخاطبين ، وقيل : إن ذلك للمبالغة في النهي من حيث أن كونهم جماعة مظنة الرخصة في مداهنتهم مثلاً ، وتعقب بأنه إنما يتم أن لو كان المراد النهي عن الركون إليهم من حيث أنهم جماعة وليس فليس ﴿ فَتَمَسَّكُمُ ﴾ أي فتصيبكم بسبب ذلك كما تؤذن به الفاء الواقعة في جواب النهي ﴿ النار ﴾ وهي نار جهنم ، وإلى التفسير الثاني وما أصعبه على الناس اليوم بل في غالب الأعاصير من تفسير ذهب أكثر المفسرين ، قالوا : وإذا كان حال الميل في الجملة إلى من وجد منه ظلم ما في الافضاء إلى مساس الناس النار فما ظنك بمن يميل إلى الراسخين في الظلم كل الميل ، ويتهالك على ما مصاحبتهم ومنادمتهم .

ويتعب قلبه وقالبه في إدخال السرور عليهم .

ويستنهض الرجل والخيل في جلب المنافع إليهم .

ويبتهج بالتزيي بزيهم والمشاركة لهم في غيهم .

ويمد عينية إلى ما متعوا به من زهرة الدنيا الفانية .

ويغبطهم بما أوتوا من القطوف الدانية غافلاً عن حقيقة ذلك ذاهلاً عن منتهى ما هنالك ؟!

وينبغي أن يعدّ مثل ذلك من الذين ظلموا لا من الراكنين إليهم بناءاً على ما روي أن رجلاً قال لسفيان : إني أخيط للظلمة فهل أعدّ من أعوانهم ، فقال له : لا أنت منهم والذي يبيعك الإبرة من أعوانهم ، وما أحسن ما كتبه بعض الناصحين للزهري حين خالط السلاطين ، وهو عافانا الله تعالى وإياك أبا بكر من الفتن فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله تعالى ويرحمك أصبحت شيخا كبيراً وقد أثقلتك نعم الله تعالى تعالى بما فهمك من كتابه وعلمك من سنة نبيك صلى الله عليه وسلم وليس كذلك أخذ الله تعالى الميثاق على العلماء ، قال سبحانه : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران : 187] وأخف ما احتملت إنك آنست وحشة الظالم وسهلت سبيل الغي بدنوك ممن لم يؤد حقا ولم يترك باطلا حين أدناك اتخذوك قطباً تدور عليك رحى باطلهم وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم وسلماً يصعدون فيك إلى ضلالهم يدخلون الشك بك على العلماء ويقتادون بك قلوب الجهلاء فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم :

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصلاة واتبعوا الشهوات فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ [مريم : 59] فإنك تعامل من لا يجهل ويحفظ عليك من لا يغفل فداو دينك فقد دخله شقم

وهيء زادك فقد حضر السفر البعيد ، ﴿ وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ [إبراهيم : 38] والسلام .

(62/386)

وعن الأوزاعي ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملاً ، وعن محمد بن سلمة : الذباب على العذرة أحسن من قارىء على باب هؤلاء ، وفي الخبر من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى في أرضه ، ولعمري إن الآية أبلغ شيء في التحذير عن الظلمة والظلم ، ولذا قال الحسن : جمع الدين في لاءين يعني ﴿ لا تظغوا ﴾ [هود : 112] ولا تركنوا ويحكى أن الموفق أبا أحمد طلحة العباب صلى خلف الإمام فقرأ هذه الآية فغشى عليه فلما أفاق قيل له ، فقال : هذا فيمن ركن إلى من ظلم فكيف الالم .

هذا وخطاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين بهذين النهيين بعد الأمر بالاستقامة للتثبيت عليها ، وقد تجعل تأكيداً لذلك إذا كان المراد به الدوام والثبات ، وعن أبي عمرو أنه قرأ ﴿ تِرْكَنُواْ ﴾ بكسر التاء على لغة تميم .

وقرأ قتادة .

وطلحة .

والأشهب، ورويت عن أبي عمرو ﴿ تَرْكُنُوا ﴾ بضم الكاف مضارع ركن بفتحها وهي على ما في البحر لغة قيس.

وتميم.

وقال الكسائي: إنها لغة أهل نجد وشد تركن بالفتح مضارع ركن كذلك، وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا ﴾ مبنياً للمفعول من أركنه إذا أماله، وقراءة الجمهور ﴿ تَرْكَنُوا ﴾ بفتح الكاف، والماضي ركن بكسرها وهي لغة قريش، وهي الفصحى على ما قال الأزهري وقرأ ابن وثاب.

وعلقمة.

والأعمش.

وابن مصرف.

وحمزة فيما يروى عنه ﴿ فَتَمَسَّكُمُ ﴾ بكسر التاء على لغة تميم أيضاً ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ من أنصار يمنعون العذاب عنكم، والمراد نفي أن يكون لكل نصير، والمقام قرينة على ذلك، والجملة في موضع احلال من ضمير ﴿ تمسكم ﴾ ﴿ أَوْلِيَاء ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ من جهته تعالى إذ قد سبق في حكم تعالى أن يعذبكم بركونكم إليهم ولا يبقى عليكم، و﴿ ثُمَّ ﴾ قيل: لاستبعاد نصره سبحانه إياهم وقد أوعدهم العذاب على ذلك.

وأوجبه لهم ، وتعقب بأن أثر الحرف إنما هو في مدخوله ومدخول ﴿ ثُمَّ ﴾ عدم النصرة وليس بمستبعد ، وإنما المستبعد نصر الله تعالى لهم ، فالظاهر أنها للتراخي في الرتبة لأن عدم نصر الله تعالى أشد وأفظع من عدم نصرة غيره ، وأجيب بما لا يخلو عن تكلف ، وأياً مّا كان فالمقام مقام الواو إلا أنه عدل عنها لما ذكر .

وجوز القاضي أن تكون منزلة منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد فإنه سبحانه لما بين أنه معذبهم وأن أحداً لا يقدر على نصرهم أنتج ذلك أنهم لا ينصرون أصلاً ، ووجه ذلك بأنه كان الظاهر أن يؤتي بالفاء التفريعية المقارنة للنتائج إذا المعنى أن الله تعالى أوجب عليكم عقابه ولا مانع لكم منه فاذن أنتم لا تنصرون فعدل عنه إلى العطف بثم الاستبعادية إلى الوجه الذي ذكره ، واستبعاد الوقوع يقتضي النفي ، والعدم الحاصل الآن فهو مناسب لمعنى تسبب النفي ، ودفع بذلك ما قيل عليه : إن الداخل على النتائج هي الفاء السببية لا الاستبعادية ولا يخفى قوة الاعتراض ، وفرق بين وجهي الاستبعاد السابق والتنزيل المذكور بأن المنفى على الأول نصرة الله تعالى لهم ، وعلى الثاني مطلق النصرة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(64/386)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾

أَيْ : فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَجِيءُ فِيهِ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْمُعَيَّنُ لَا تَتَكَلَّمُ نَفْسٌ مِنَ الْأَنْفُسِ النَّاطِقَةِ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ - تَعَالَى - ; لِأَنَّهُ يَوْمُهُ الْخَاصُّ الَّذِي لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ فِيهِ قَوْلًا وَلَا فِعْلًا إِلَّا بِإِذْنِهِ كَمَا قَالَ : - يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا - 78 : 38 وَقَالَ : - يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا - 20 : 108 و109 وَقَالَ فِي الْكُفَّارِ : - هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ - 77 : 35 36 وَقَالَ : - الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ - 36 : 65 إِلَخْ .

(65/386)

وَفُسِّرَتْ كَلِمَةُ (يَوْمَ) فِي الْآيَةِ بِالْوَقْتِ الْمُطْلَقِ ، أَيْ : غَيْرِ الْمَحْدُودِ ; لِأَنَّهُ ظَرْفٌ لِلْيَوْمِ الْمَحْدُودِ الْمَوْصُوفِ بِمَا ذُكِرَ الَّذِي هُوَ فَاعِلُ يَأْتِي . وَأَرَادَ بَعْضُهُمُ الْهَرَبَ مِنْ جَعْلِ يَوْمَ ظَرْفًا لِلْيَوْمِ ، فَقَالُوا : الْمَعْنَى يَوْمَ يَأْتِي جَزَاؤُهُ أَوْ هَوْلُهُ ، أَوِ اللَّهُ - تَعَالَى - ، وَاسْتَشْهَدُوا لِلْأَخِيرِ بِقَوْلِهِ : - هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ - 2 : 210 وَالشَّوَاهِدُ الَّتِي أَوْرَدْنَاهَا نَصٌّ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى غَيْرِ جَعْلِ يَوْمَ بِمَعْنَى وَقْتٍ أَوْ حِينٍ . وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَعَاصِمٌ وَحَمْزَةُ (يَأْتِ) بِحَذْفِ الْيَاءِ اجْتِزَاءً عَنْهَا بِالْكَسْرَةِ ، وَهَذَا هُوَ الْمُوَافِقُ لِرَسْمِ الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ وَهُوَ لُغَةُ هُذَيْلٍ ، تَقُولُ : مَا أَدْرِ مَا تَقُولُ . وَنَفْيُ الْكَلَامِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَّا بِإِذْنِهِ - تَعَالَى - يُفَسِّرُ لَنَا الْجَمْعَ بَيْنَ الْآيَاتِ النَّافِيَةِ لَهُ مُطْلَقًا وَالْمُثْبِتَةِ لَهُ مُطْلَقًا .

- فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ - أَيْ : فَمِنَ الْأَنْفُسِ الْمُكَلَّفَةِ الَّتِي تُجْمَعُ فِيهِ ، شَقِيٌّ مُسْتَحِقٌّ لِوَعِيدِ الْكَافِرِينَ بِالْعَذَابِ الدَّائِمِ ، وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ مُسْتَحِقٌّ لِمَا وُعِدَ بِهِ الْمُتَّقُونَ مِنَ الثَّوَابِ الدَّائِمِ ، وَلَا يَدْخُلُ فِي هَذَا التَّقْسِيمِ غَيْرُ الْمُكَلَّفِينَ كَالْأَطْفَالِ وَالْمَجَانِينِ ، وَأَمَّا مَنْ تَسْتَوِي حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ تَغْلِبُ سَيِّئَاتُهُمْ مِنْهُمْ وَيُعَاقَبُونَ عَلَيْهَا فِي النَّارِ عِقَابًا مَوْقُوتًا ثُمَّ

يَدْخُلونَ الْجَنَّةَ ، فَهُمْ مِنْ فَرِيقِ السُّعَدَاءِ بِاعْتِبَارِ الْخَاتِمَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَالسُّعَدَاءُ دَرَجَاتٌ ، وَالْأَشْقِيَاءُ دَرَكَاتٌ .

رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ أَبُو يَعْلَى وَأَشْهَرُ رُوَاةِ التَّفْسِيرِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ : - فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ - قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ فَعَلَامَ نَعْمَلُ ؟ عَلَى

(67/386)

شَيْءٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ أَوْ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يُفْرَغْ مِنْهُ ؟ قَالَ : "بَلْ عَلَى شَيْءٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ وَجَرَتْ بِهِ الْأَقْلَامُ يَا عُمَرُ ، وَلَكِنْ كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ" وَحَدِيثُ : "كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ" رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا ، وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ فِيمَ يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ ؟ قَالَ : "كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ" وَعَنْ عَلِيٍّ - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ كَانَ فِي جِنَازَةٍ فَأَخَذَ عُودًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ ، فَقَالَ : "مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ مِنَ النَّارِ" فَقَالُوا : أَلَا نَتَّكِلُ ؟ قَالَ : "اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ" وَقَرَأَ : - فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى - 92 : 5 إِلَخْ ، وَمَعْنَاهُ الَّذِي غَفَلَ عَنْهُ أَوْ جَهِلَهُ الْكَثِيرُونَ عَلَى ظُهُورِهِ : أَنَّ اللهَ - تَعَالَى - يَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَعِلْمُهُ بِأَنَّ زَيْدًا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَوِ النَّارَ لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنْ يَدْخُلَهَا بِغَيْرِ عَمَلٍ يَسْتَحِقُّهَا بِهِ

بِحَسَبِ وَعْدِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَلَا أَنَّهُ لَا فَرْقَ فِيمَا يَعْمَلُهُ فِي الْجَزَاءِ ، وَإِنَّمَا يَعْلَمُ اللهُ الْمُسْتَقْبَلَ كُلَّهُ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ وَأَطْرَافِهِ ، وَمِنْهُ عَمَلُ الْعَامِلِينَ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ مِنَ الْجَزَاءِ بِحَسَبِ وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ فِي كِتَابِهِ الْمُنَزَّلِ وَكِتَابَتِهِ لِلْمَقَادِيرِ ، وَلَا تَنَاقُضَ وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَهُمَا ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَلَكِنَّ

(68/386)

النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَّمَنَا مَا نَعْلَمُ بِهِ مَا سَيَكُونُ فِي الْجُمْلَةِ ، وَهُوَ أَنَّ الْجَزَاءَ بِالْعَمَلِ ، وَأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ مُيَسَّرٌ لَهُ وَمُسَهَّلٌ عَلَيْهِ مَا خَلَقَهُ اللهُ لِأَجْلِهِ مِنْ سَعَادَةِ الْجَنَّةِ وَشَقَاوَةِ النَّارِ ، وَأَنَّ مَا وَهَبَهُ لِلْإِنْسَانِ مِنَ الْعَزْمِ وَالْإِرَادَةِ يَكُونُ لَهُ مِنَ التَّأْثِيرِ فِي تَرْبِيَةِ النَّفْسِ مَا يُوَجِّهُهَا بِهِ إِلَى مَا يَعْتَقِدُ أَنَّ فِيهِ سَعَادَتَهُ ، ثُمَّ بَيَّنَ جَزَاءَ الْفَرِيقَيْنِ بِالتَّفْصِيلِ فَقَالَ :

- فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا - أَيِ الَّذِينَ شَقُوا فِي الدُّنْيَا بِالْفِعْلِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ أَعْمَالِ الْأَشْقِيَاءِ لِفَسَادِ عَقَائِدِهِمُ الْمَوْرُوثَةِ بِالتَّقْلِيدِ ، حَتَّى أَحَاطَتْ بِهِمْ خَطِيئَاتُهُمْ وَأَطْفَأَتْ نُورَ الْفِطْرَةِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَفِي النَّارِ مُسْتَقَرُّهُمْ وَمَثْوَاهُمْ ، - لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ - مِنْ ضِيقِ أَنْفَاسِهِمْ ، وَحَرَجِ صُدُورِهِمْ ، وَشِدَّةِ كُرُوبِهِمْ ، فَالزَّفِيرُ وَالشَّهِيقُ : صَوْتَانِ يَخْرُجَانِ مِنَ الصَّدْرِ عِنْدَ شِدَّةِ الْكَرْبِ وَالْحُزْنِ فِي بُكَاءٍ أَوْ غَيْرِهِ ، قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَّافِ : الزَّفِيرُ إِخْرَاجُ

النَّفَسِ وَالشَّهِيقُ رَدُّهُ . قَالَ الشَّمَّاخُ :

بَعِيدُ مَدَى التَّطْرِيبِ أَوَّلُ صَوْتِهِ . . . زَفِيرٌ وَيَتْلُوهُ شَهِيقٌ مُحَشْرِجُ

وَقَالَ الرَّاغِبُ فِي الْآيَةِ : فَالزَّفِيرُ تَرَدُّدُ النَّفَسِ حَتَّى تَنْتَفِخَ الضُّلُوعُ مِنْهُ ، ثُمَّ قَالَ :

الشَّهِيقُ طُولُ الزَّفِيرِ وَهُوَ رَدُّ النَّفْسِ ، وَالزَّفِيرُ مَدُّهُ . وَقَالَ فِي اللِّسَانِ : الشَّهِيقُ أَقْبَحُ الْأَصْوَاتِ ، شَهِقَ كَعَلِمَ وَضَرَبَ ، شَهِيقًا وَشُهَاقًا : رَدَّدَ الْبُكَاءَ فِي صَدْرِهِ اهـ .

وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ تَنَفُّسَ الصُّعَدَاءِ مِنَ الْهَمِّ وَالْكَرْبِ إِذَا امْتَدَّ وَاشْتَدَّ فَسُمِعَ صَوْتُهُ كَانَ زَفِيرًا ، وَأَنَّ النَّشِيجَ فِي الْبُكَاءِ إِذَا اشْتَدَّ تَرَدُّدُهُ فِي الصَّدْرِ وَارْتَفَعَ بِهِ الصَّوْتُ سُمِّيَ شَهِيقًا ، وَأَصْلُ اشْتِقَاقِهِ مِنَ الشُّهُوقِ ، وَقَوْلُهُمْ : جَبَلٌ شَاهِقٌ .

وَمَا أَبْلَغَ قَوْلَ شَيْخِنَا فِي مُقَدِّمَةِ الْعُرْوَةِ الْوُثْقَى يَصِفُ كَرْبَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شِدَّةِ اعْتِدَاءِ الْمُسْتَعْمِرِينَ الظَّالِمِينَ : وَسَرَى الْأَلَمُ فِي أَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ سَرَيَانَ الِاعْتِقَادِ فِي مَدَارِكِهِمْ ، وَهُمْ مِنْ تَذْكَارِ الْمَاضِي وَمُرَاقَبَةِ الْحَاضِرِ يَتَنَفَّسُونَ الصُّعَدَاءَ ، وَلَا نَأْمَنُ أَنْ يَصِيرَ التَّنَفُّسُ زَفِيرًا بَلْ نَفِيرًا عَامًّا ، بَلْ يَكُونُ صَاخَّةً تُمَزِّقُ مَنْ أَصَمَّهُ الطَّمَعُ .

- خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ - أَيْ مَاكِثِينَ فِيهَا مُكْثَ بَقَاءٍ وَخُلُودٍ ، لَا يَبْرَحُونَهَا مُدَّةَ دَوَامِ السَّمَوَاتِ الَّتِي تُظِلُّهُمْ وَالْأَرْضِ الَّتِي تُقِلُّهُمْ ، وَهَذَا بِمَعْنَى قَوْلِهِ فِي آيَاتٍ أُخْرَى : - خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا - فَإِنَّ الْعَرَبَ تَسْتَعْمِلُ هَذَا التَّعْبِيرَ بِمَعْنَى الدَّوَامِ ، وَغَلِطَ مَنْ قَالُوا : الْمُرَادُ مُدَّةُ دَوَامِهِمَا فِي الدُّنْيَا ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ تُبَدَّلُ وَتَزُولُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ ، وَسَمَاءُ كُلٍّ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَأَهْلِ الْجَنَّةِ مَا هُوَ فَوْقَهُمْ ، وَأَرْضُهُمْ مَا هُمْ مُسْتَقِرُّونَ عَلَيْهِ وَهُوَ تَحْتَهُمْ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لِكُلِّ جَنَّةٍ أَرْضٌ وَسَمَاءٌ . وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنِ السُّدِّيِّ وَالْحَسَنِ - إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ - أَيْ : أَنَّ هَذَا الْخُلُودَ الدَّائِمَ هُوَ الْمُعَدُّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، الْمُنَاسِبُ لِصِفَةِ أَنْفُسِهِمُ الْجَهُولِ الظَّالِمَةِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِهِمْ ظُلْمَةُ خَطِيئَاتِهَا وَفَسَادُ أَخْلَاقِهَا - كَمَا فَصَّلْنَاهُ مِرَارًا - إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ مِنْ تَغْيِيرٍ فِي هَذَا النِّظَامِ فِي طَوْرٍ آخَرَ ، فَهُوَ إِنَّمَا وُضِعَ بِمَشِيئَتِهِ ، وَسَيَبْقَى فِي قَبْضَةِ مَشِيئَتِهِ ، وَقَدْ عُهِدَ مِثْلُ هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ فِي سِيَاقِ الْأَحْكَامِ الْقَطْعِيَّةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَقْيِيدِ تَأْبِيدِهَا بِمَشِيئَتِهِ - تَعَالَى - فَقَطْ لَا لِإِفَادَةِ عَدَمِ عُمُومِهَا ، كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : - قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ - 7 : 188 أَيْ لَا أَمْلِكُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ بِقُدْرَتِي وَإِرَادَتِي إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُمَلِّكَنِيهِ

مِنْهُ بِتَسْخِيرِ أَسْبَابِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَمِثْلُهُ فِي (10 : 49) مَعَ تَقْدِيمِ الضَّرِّ . وَقَوْلُهُ : – سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى

إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ – 87 : 6 و7 عَلَى أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ ، أَيْ : إِنَّهُ – تَعَالَى – ضَمِنَ لِنَبِيِّهِ حِفْظَ الْقُرْآنِ الَّذِي يُقْرِئُهُ إِيَّاهُ بِقُدْرَتِهِ ، وَعَصَمَهُ أَلَّا يَنْسَى مِنْهُ شَيْئًا بِمُقْتَضَى الضَّعْفِ الْبَشَرِيِّ ، فَهُوَ لَا يَقَعُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ ، فَهُوَ وَحْدَهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَيْهِ – إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ – فَهُوَ إِنْ شَاءَ غَيْرَ ذَلِكَ فَعَلَهُ ، مَا شَاءَ كَانَ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَإِنَّمَا تَتَعَلَّقُ مَشِيئَتُهُ بِمَا سَبَقَ بِهِ عِلْمُهُ وَاقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ ، وَمَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ إِخْلَافًا لِشَيْءٍ مِنْ وَعْدِهِ وَلَا مِنْ وَعِيدِهِ كَخُلُودِ أَهْلِ النَّارِ فِيهَا ، فَإِنَّ هَذَا الْوَعِيدَ مُقَيَّدٌ بِمَشِيئَتِهِ ، وَهِيَ تَجْرِي بِمُقْتَضَى عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ فِي مِثْلِ هَذَا اسْتِثْنَاءً مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ : – قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ – 6 : 128

وَقَدْ فَصَّلْنَا فِي تَفْسِيرِ تِلْكَ الْآيَةِ مَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَغَيْرِهِمْ فِي الْخِلَافِ فِي أَبَدِيَّةِ النَّارِ وَعَذَابِهَا ، وَوَعَدْنَا بِالْعَوْدَةِ إِلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ وَسَنَجْعَلُهُ فِي الْخُلَاصَةِ الْإِجْمَالِيَّةِ لِلسُّورَةِ لِتَبْقَى سِلْسِلَةُ التَّفْسِيرِ هُنَا مُتَّصِلَةً .

- وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ - أَيْ دَائِمًا غَيْرَ مَقْطُوعٍ، مِنْ جَذَّهُ يَجُذُّهُ (مِنْ بَابِ نَصَرَ) إِذَا قَطَعَهُ أَوْ كَسَرَهُ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : - لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ - وَالْفَرْقُ بَيْنَ هَذَا التَّذْيِيلِ وَمَا قَبْلَهُ عَظِيمٌ، فَكُلٌّ مِنَ الْجَزَاءَيْنِ مِنْهُ - تَعَالَى - وَمُقَيَّدٌ دَوَامُهُ بِمَشِيئَتِهِ، وَلَكِنَّهُ ذَيَّلَ هَذَا بِأَنَّهُ هِبَةٌ مِنْهُ وَإِحْسَانٌ دَائِمٌ غَيْرُ مَقْطُوعٍ، وَلَوْ كَانَ الْأَوَّلُ مِثْلَهُ غَيْرَ مَقْطُوعٍ لَمَا كَانَ فَضْلًا وَإِحْسَانًا، وَقَدْ تَكَرَّرَ وَعْدُ اللهِ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُحْسِنِينَ بِأَنَّهُ يَجْزِيهِمْ بِالْحُسْنَى وَبِأَحْسَنَ مِمَّا عَمِلُوا، وَبِأَنَّهُ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَبِأَنَّهُ يُضَاعِفُ لَهُمُ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَبِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ. وَلَمْ يَعِدْ بِزِيَادَةِ جَزَاءِ الْكَافِرِينَ وَالْمُجْرِمِينَ عَلَى مَا يَسْتَحِقُّونَ، بَلْ كَرَّرَ الْوَعْدَ بِأَنَّهُ يَجْزِيهِمْ بِمَا عَمِلُوا، وَبِأَنَّ السَّيِّئَةَ بِمِثْلِهَا وَهُمْ

لَا يُظْلَمُونَ، وَبِأَنَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا، دَعْ مَا وَرَدَ مِنَ الْآيَاتِ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَفِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مِنْ سَبْقِهَا لِغَضَبِهِ. وَمَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ فِي حَلِّ هَذَا الْإِشْكَالِ غَيْرُ ظَاهِرٍ، خُلَاصَتُهُ: أَنَّ عَذَابَ النَّارِ الشَّدِيدَ الْأَبَدِيَّ الَّذِي لَا نِهَايَةَ لَهُ إِنَّمَا كَانَ جَزَاءً لِأَهْلِهَا بِمِثْلِ مَا

عَمِلُوا فِي سِنِينَ أَوْ أَشْهُرٍ مَعْدُودَةٍ ، بِاعْتِبَارِ أَنَّهُمْ كَانُوا عَازِمِينَ عَلَى الِاسْتِمْرَارِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَظُلْمِهِمْ وَفِسْقِهِمْ لَوْ كَانُوا خَالِدِينَ فِي الدُّنْيَا ، فَهُوَ إِذَنْ جَزَاءٌ لَهُمْ عَلَى نِيَّتِهِمْ وَعَزْمِهِمْ . انْتَهَى .

وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا الْجَوَابُ غَيْرَ ظَاهِرٍ ؛ لِأَنَّ الْجَاحِدِينَ عِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا مِنَ الرُّؤَسَاءِ وَالزُّعَمَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَصِحُّ فِيهِمُ الْعَزْمُ عَلَى الِاسْتِمْرَارِ وَهُمُ الْأَقَلُّونَ ، لِمَا عُلِمَ بِالِاخْتِبَارِ وَالْوَاقِعِ مِنْ إِيمَانِ أَهْلِ مَكَّةَ ثُمَّ أَكْثَرِ الْعَرَبِ لَمَّا زَالَتِ الْمَوَانِعُ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَظَهَرَ لَهُمْ مِنْهُ مَا كَانَ خَفِيًّا عَلَيْهِمْ ، عَلَى أَنَّ قَاعِدَةَ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ السَّمْحَةِ أَنَّ اللهَ لَا يُؤَاخِذُ مَنْ نَوَى أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً وَلَمْ يَعْمَلْهَا ، وَالْمَعْقُولُ فِي تَعْلِيلِ الْخُلُودِ فِي النَّارِ هُوَ مَا بَيَّنَّاهُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا مِنْ أَنَّ عَذَابَ النَّارِ الدَّائِمَ أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ لِتَدْسِيَةِ النَّفْسِ بِالْكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ . . . . . وَسَنَعُودُ إِلَيْهِ فِي الْخُلَاصَةِ الْإِجْمَالِيَّةِ لِلسُّورَةِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

(74/386)

- فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ - هَذِهِ فَذْلَكَةُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِرْشَادِ إِلَى الِاعْتِبَارِ بِمَا حَلَّ بِالْأُمَمِ الْمُهْلَكَةِ ، وَإِنْذَارُ أَعْدَاءِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِهِ ، يَقُولُ : إِذَا كَانَ أَمْرُ

الْأُمَمِ الْمُشْرِكَةِ الظَّالِمَةِ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ فِي الْآخِرَةِ كَمَا قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ، فَلَا تَكُنْ فِي أَدْنَى شَكٍّ

وَامْتِرَاءٍ مِمَّا يَعْبُدُ قَوْمُكَ هَؤُلَاءِ فِي عَاقِبَتِهِ بِمُقْتَضَى تِلْكَ السُّنَّةِ الَّتِي لَا تَبْدِيلَ لَهَا، فَالنَّهْيُ تَسْلِيَةٌ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَإِنْذَارٌ لِقَوْمِهِ، ثُمَّ بَيَّنَ حَالَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ وَجَزَاءَهُمْ بَيَانًا مُسْتَأْنَفًا فَقَالَ: - مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ - فَهُمْ مُقَلِّدُونَ لِآبَائِهِمْ كَمَا يَقُولُونَ، وَكَمَا قَالَ أَقْوَامُ أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِهِمْ: - وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ - أَيْ: وَإِنَّا لَمُعْطُوهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنْ جَزَاءِ أَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَافِيًا تَامًّا لَا يُنْقَصُ مِنْهُ شَيْءٌ، كَمَا وَفَّيْنَا آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ مِنْ قَبْلُ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ خَيْرٍ يَعْمَلُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ كَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَإِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِ وَعَمَلِ الْمَعْرُوفِ، إِلَّا وَيُوَفِّيهِمُ اللَّهُ - تَعَالَى - جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا بِسَعَةِ الرِّزْقِ وَكَشْفِ الضُّرِّ جَزَاءً تَامًّا وَافِيًا لَا يَنْقُصُهُ شَيْءٌ يُجْزَوْنَ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ، فَلَا يَغْتَرَّنَّ أَغْنِيَاؤُهُمْ وَكُبَرَاؤُهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ سَعَةٍ وَنِعْمَةٍ وَوَجَاهَةٍ فَهُوَ مَتَاعٌ

عَاجِلٌ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَنْقَضِيَ ، وَلَا يُحْتَجَّنَّ بِهِ عَلَى رِضَى اللهِ عَنْهُمْ وَإِعْطَائِهِمْ مِثْلَهُ فِي الْآخِرَةِ عَلَى فَرْضِ وُجُودِهَا كَمَا أَعْطَاهُمْ فِي الدُّنْيَا ، كَمَا حُكِيَ عَنْ قَائِلِهِمْ : - وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا - 18 : 36 وَعَنْ آخَرَ : - وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى - 41 : 50 فَإِنَّ الْحُسْنَى عِنْدَ الرَّبِّ - تَعَالَى - فِي الْآخِرَةِ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِاتِّبَاعِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَا بَلَّغَهُمْ عَنْهُ مِنْ مُوجِبَاتِ الرَّحْمَةِ عِنْدَهُ بِفَضْلِهِ .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

(77/386)

هَاتَانِ الْآيَتَانِ فِي بَقِيَّةِ الْعِبْرَةِ بِسُنَّةِ اللهِ - تَعَالَى - فِي الْأُمَمِ وَأَقْوَامِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - ذَكَّرَ اللهُ قَوْمَ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَأُمَّتَهُ أَوَّلًا بِأَقْوَامِ الَّذِينَ غَلَبَ عَلَيْهِمُ الْكُفْرُ وَالْجُحُودُ فَلَمْ يُؤْمِنْ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ، فَوَفَّاهُمُ اللهُ جَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَسَيُوَفِّيهِمْ إِيَّاهَا فِي الْآخِرَةِ ، فَإِنَّ سُنَّتَهُ فِي الدَّارَيْنِ وَاحِدَةٌ . وَذَكَّرَهُمْ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ بِقَوْمِ مُوسَى الَّذِينَ آتَاهُمُ الْكِتَابَ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ

، وَكَلِمَتُهُ فِي تَأْخِيرِ جَزَائِهِمْ إِلَى الْآخِرَةِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَحِقُّوا عَذَابَ الِاسْتِئْصَالِ فِي الدُّنْيَا ، وَأَنَّ مَثَلَ الَّذِينَ يَخْتَلِفُونَ مِنْ أُمَّتِهِ فِي الْكِتَابِ كَمَثَلِ هَؤُلَاءِ . قَالَ :

- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ - أَيْ : فَاخْتَلَفَ فِيهِ قَوْمُهُ مِنْ بَعْدِهِ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَتَنَازُعًا عَلَى الرِّيَاسَةِ ، فَكَانُوا شِيَعًا ، كُلُّ شِيعَةٍ تَنْتَحِلُ مَذْهَبًا وَتُعَادِي مَنْ يُخَالِفُهَا فِيهِ ، وَإِنَّمَا أُوتُوا الْكِتَابَ لِجَمْعِ الْكَلِمَةِ ، وَتَقَدَّمَ تَفْصِيلُ إِنْزَالِ اللهِ الْكُتُبَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ فِي الْآيَةِ (2 : 213) الْجَامِعَةِ - وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ - أَيْ : فِي الدُّنْيَا بِإِهْلَاكِ الْبُغَاةِ الْمُثِيرِينَ لِلِاخْتِلَافِ فِيهِ بِأَهْوَائِهِمْ ، وَإِبْقَاءِ الْمُعْتَصِمِينَ بِالْوَحْدَةِ وَالِاتِّفَاقِ عَلَى هِدَايَتِهِ ، كَمَا أَهْلَكَ

(78/386)

الَّذِينَ رَدُّوا دَعْوَةَ الرُّسُلِ جُحُودًا وَعِنَادًا ، وَالْمُرَادُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ إِنْظَارُهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَتَقَدَّمَ مِثْلُ هَذَا التَّعْلِيقِ بِالْكَلِمَةِ فِي جَمِيعِ الْمُخْتَلِفِينَ فِي (10 : 19) ثُمَّ فُسِّرَتْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقَوْلِهِ : - إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ - 10 : 93 وَمِثْلُهُ فِي (45 : 17) وَسَيَأْتِي تَحْقِيقُ الْقَوْلِ فِي الِاخْتِلَافِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ 118 هُنَا -

وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ - الظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا فِي قَوْمِ مُوسَى وَكِتَابِهِمُ التَّوْرَاةِ، أَيْ: إِنَّهُمْ لَمُرْتَكِسُونَ فِي شَكٍّ مِنْ أَمْرِ كِتَابِهِمْ مُوقِعٍ فِي الرَّيْبِ وَالِاضْطِرَابِ.

(79/386)

وَذَهَبَ بَعْضُ كِبَارِ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّهُ فِي مُشْرِكِي مَكَّةَ وَأَمْثَالِهِمُ الَّذِينَ شَكُّوا فِي الْقُرْآنِ، وَهُوَ خَطَأٌ ظَاهِرٌ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى وَالسِّيَاقِ، وَمَا فِي مَعْنَى الْآيَةِ مِنَ السُّوَرِ الْأُخْرَى، وَمِثْلُهَا فِي سُورَةِ حم السَّجْدَةِ - (فُصِّلَتْ) - بِنَصِّهَا، وَفِي مَعْنَاهَا مِنْ سُورَةِ الشُّورَى مَا يُفَسِّرُ الْإِجْمَالَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ وَيُفَصِّلُهُ، فَإِنَّهُ بَعْدَ ذِكْرِ بَعْثَةِ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْقُرْآنِ وَاخْتِلَافِ الْبَشَرِ فِيهِ وَحُكْمِهِ - تَعَالَى - هُوَ فِي الِاخْتِلَافِ قَالَ: - شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ - 42: 13 و14 فَهَذِهِ الْآيَةُ الْأَخِيرَةُ تَفْسِيرٌ لِآيَتَيْ هُودٍ وَحم السَّجْدَةِ (فُصِّلَتْ) فَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَنْ ذُكِرَ فِي الْآيَاتِ هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَ

أَنْبِيَائِهِمْ وَقَبْلَ بَعْثَةِ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَهَؤُلَاءِ قَدْ عَرَضَ لَهُمْ مِنَ الشَّكِّ وَالرَّيْبِ فِي كُتُبِهِمْ مَا لَمْ يَكُنْ فِي عَهْدِ سَلَفِهِمْ ، فَإِنَّ

(80/386)

التَّوْرَاةَ الَّتِي كَتَبَهَا مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَدْ فُقِدَتْ فِي إِحْرَاقِ الْبَابِلِيِّينَ لِهَيْكَلِ سُلَيْمَانَ كَمَا بَيَّنَّاهُ مُفَصَّلًا مِنْ قَبْلُ ، وَلِذَلِكَ قَالَ اللهُ - تَعَالَى - فِي عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : - وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ - 3 : 48 فَهُوَ لَمْ يَأْخُذِ التَّوْرَاةَ مِنْ أَيْدِي الْيَهُودِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ عَزْرَا كَتَبَهَا بَعْدَ الرُّجُوعِ مِنْ سَبْيِ بَابِلَ ، وَإِنْ كَانَ يُحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِمَا كَانُوا يُخَالِفُونَهُ مِمَّا حَفِظُوهُ مِنْهَا ، وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي كُتُبِهِمْ وَفِي شَرْعِهِمْ إِلَى مَذَاهِبَ ، وَأَمَّا النَّصَارَى فَكَانُوا أَشَدَّ اخْتِلَافًا فِي كُتُبِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ كَمَا فَصَّلْنَاهُ مِنْ قَبْلُ .

(81/386)

وَمِنَ الْغَفْلَةِ الشَّنِيعَةِ وَالتَّكَلُّفِ الْبَعِيدِ أَنْ يُفَسِّرُوا الْكِتَابَ فِي آيَةِ سُورَةِ الشُّورَى مَعَ هَذَا التَّفْصِيلِ فِيهَا بِالْقُرْآنِ الَّذِي وُصِفَ بِأَنَّهُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَيَصِفُوا الَّذِينَ أُورِثُوهُ بِأَنَّهُمْ فِي شَكٍّ مِنْهُ

مُرِيبٍ ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ فِيمَنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُورِثُوهُ ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِمُوسَى وَبِعِيسَى لَا يُقَالُ : إِنَّهُمْ أُورِثُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَإِنَّمَا يُقَالُ وَرِثَ الْكِتَابَ مَنْ آمَنَ بِهِ سَوَاءٌ مِنْهُمْ مَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلَ وَمَنْ أَسَاءَ ، كَمَا قَالَ - تَعَالَى - : - ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ - 35 : 32 وَلَكِنَّ الَّذِينَ أَخْطَئُوا فِي فَهْمِ الْآيَتَيْنِ الْمُجْمَلَتَيْنِ فِي السُّورَتَيْنِ حَمَلُوا عَلَيْهِمَا الْآيَةَ الْمُفَصَّلَةَ وَجَعَلُوا تَفْسِيرَهُنَّ وَاحِدًا .

- وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ - أَيْ : وَإِنَّ كُلَّ أُولَئِكَ الْمُخْتَلِفِينَ فِيهِ ، أَوْ كُلَّ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَاللَّهِ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ جَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ لَا يَظْلِمُ مِنْهُمْ أَحَدًا ، - إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ - لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ ، فَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ بَعْضُ التَّوْفِيَةِ دُونَ بَعْضٍ .

(82/386)

وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَنَافِعٌ وَأَبُو بَكْرٍ " وَإِنْ " بِتَخْفِيفِ النُّونِ مَعَ إِعْمَالِهَا عَمَلَ الثَّقِيلَةِ اعْتِبَارًا لِلْأَصْلِ ، وَ " لَمَا " بِالتَّخْفِيفِ عَلَى أَنَّ لَامَهَا مُوطِئَةٌ لِلْقَسَمِ أَوْ فَارِقَةٌ وَهِيَ فَاصِلَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّامِ الدَّاخِلَةِ عَلَى فِعْلِ الْقَسَمِ . وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ تَشْدِيدِ " لَمَّا " وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ عَامِرٍ وَعَاصِمٍ وَحَمْزَةَ فَهِيَ بِمَعْنَى إِلَّا ، وَإِنْ نَافِيَةٌ ، قَالَهُ الْجَلَالُ .

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ .

هَذَا السِّيَاقُ تَفْصِيلٌ لِلْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي الَّتِي هِيَ ثَمَرَةُ الِاعْتِبَارِ بِمَا كَانَ مِنْ سِيرَةِ الْأُمَمِ مَعَ الرُّسُلِ : مَنْ جَحَدُوا فَأُهْلِكُوا . وَمَنْ آمَنُوا ثُمَّ اخْتَلَفُوا وَتَفَرَّقُوا ، فَمَنْ جَمَعَ بَيْنَ هَذَا الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ كَمُلَ إِيمَانُهُ ، وَمَا بَعْدَهُمَا تَفْصِيلٌ لَهُمَا .

- فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ - أَيْ : كَانَ أَمْرُ أُولَئِكَ الْأُمَمِ كَمَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ ، فَاسْتَقِمْ مِثْلَ مَا أَمَرْنَاكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ ، أَيِ الْزَمِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ الَّذِي لَا عِوَجَ فِيهِ بِالثَّبَاتِ عَلَيْهِ وَاتِّقَاءِ الِاخْتِلَافِ فِيهِ ، - وَمَنْ تَابَ مَعَكَ - أَيْ : وَلْيَسْتَقِمْ مَعَكَ مَنْ تَابَ مِنَ الشِّرْكِ وَآمَنَ بِكَ وَاتَّبَعَكَ - وَلَا تَطْغَوْا - فِيهِ بِتَجَاوُزِ حُدُودِهِ غُلُوًّا فِي الدِّينِ ، فَإِنَّ الْإِفْرَاطَ فِيهِ كَالتَّفْرِيطِ ،

كُلٌّ مِنْهُمَا زَيْغٌ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ اتِّبَاعِ النُّصُوصِ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَهِيَ الْعَقَائِدُ وَالْعِبَادَاتُ ، وَعَلَى اجْتِنَابِ الرَّأْيِ وَبُطْلَانِ التَّقْلِيدِ فِيهَا - إِنَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ – أَيْ : إِنَّهُ – تَعَالَى – بَصِيرٌ بِعَمَلِكُمْ يُبْصِرُ بِهِ وَيَرَاهُ وَيُحِيطُ بِهِ عِلْمًا فَيَجْزِيكُمْ بِهِ . يُقَالُ : بَصُرَ بِالشَّيْءِ فِي اللُّغَةِ الْفُصْحَى وَمِنْهُ – فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ – 28 : 11 .

(84/386)

وَقَالَ – تَعَالَى – فِي مِثْلِ هَذَا السِّيَاقِ مِنْ سُورَةِ الشُّورَى بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ : – فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ – 42 : 15 أَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى الدِّينِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الرُّسُلُ فِي عُصُورِهِمْ ، قَبْلَ الِاخْتِلَافِ فِيهِ الَّذِي ابْتُدِعَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَأَنْ يَسْتَقِيمَ عَلَيْهِ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ ، وَأَنْ يُخَاطِبَ أَهْلَ الْكِتَابِ بِمَا يَتَبَرَّأُ بِهِ مِنَ الِاخْتِلَافِ ، وَمِنْ إِثَارَتِهِ بِحُجَجِ الْجِدَالِ ، وَاكْتَفَى فِي سُورَةِ هُودٍ بِالْأَمْرِ بِالِاسْتِقَامَةِ عَلَى الْجَادَّةِ وَالنَّهْيِ عَنِ الطُّغْيَانِ ، وَمِنْهُ الْبَغْيُ الَّذِي يُورِثُ الِاخْتِلَافَ ; لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ الْعِبْرَةِ الْعَامَّةِ بِقَصَصِ الرُّسُلِ كَافَّةً ، لَا بِحَالِ قَوْمِ مُوسَى وَمَنْ أُورِثُوا الْكِتَابَ خَاصَّةً ، فَهَذَا فَرْقُ مَا بَيْنَ الْمَقَامَيْنِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ .

(85/386)

وَقَدْ أَوْجزَ الْقَاضِي الْبَيْضَاوِيُّ فِي وَصْفِ هَذِهِ الِاسْتِقَامَةِ فَقَالَ : وَهِيَ شَامِلَةٌ لِلِاسْتِقَامَةِ فِي الْعَقَائِدِ كَالتَّوَسُّطِ بَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ ، بِحَيْثُ يَبْقَى الْعَقْلُ مَصُونًا مِنَ الطَّرَفَيْنِ – وَالْأَعْمَالِ مِنْ تَبْلِيغِ الْوَحْيِ وَبَيَانِ الشَّرَائِعِ كَمَا أُنْزِلَ ، وَالْقِيَامِ بِوَظَائِفِ الْعِبَادَاتِ مِنْ غَيْرِ تَفْرِيطٍ وَإِفْرَاطٍ مُفَوِّتٍ لِلْحُقُوقِ وَنَحْوِهَا ، وَهِيَ فِي غَايَةِ الْعُسْرِ ، (كذا قال) ثُمَّ قَالَ : " وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى وُجُوبِ اتِّبَاعِ النُّصُوصِ مِنْ غَيْرِ تَصَرُّفٍ وَانْحِرَافٍ بِنَحْوِ قِيَاسٍ أَوِ اسْتِحْسَانٍ " اهـ .

وَهَذَا أَحْسَنُ مِمَّا قَبْلَهُ وَهُوَ يَنْقُضُ بَعْضَهُ . فَأَحَقُّ النُّصُوصِ بِالِاتِّبَاعِ مِنْ غَيْرِ تَصَرُّفٍ نُصُوصُ الْعَقَائِدِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ – تَعَالَى – وَعَالَمِ الْغَيْبِ إِذْ لَا مَجَالَ لِلْعَقْلِ وَالرَّأْيِ فِيهَا ، وَقَدْ كَانَ تَحْكِيمُ النَّظَرِيَّاتِ الْعَقْلِيَّةِ فِيهَا مَثَارَ الِاخْتِلَافِ وَالشِّقَاقِ وَالِافْتِرَاقِ فِي الْأُمَّةِ ، الَّذِي نَعَاهُ الْقُرْآنُ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ وَحَذَّرَنَا مِنْهُ فِي هَذَا السِّيَاقِ ، وَفِيمَا هُوَ أَوْضَحُ مِنْهُ مِنْ سِيَاقِ سُورَةِ الشُّورَى ، وَمَا فِي مَعْنَاهُمَا مِنَ السُّوَرِ الْأُخْرَى ، وَقَدْ تَرَكَ الْبَيْضَاوِيُّ بَابَهُ مَفْتُوحًا بِزَعْمِهِ أَنَّ الِاسْتِقَامَةَ فِي الْعَقَائِدِ وَسَطٌ بَيْنَ التَّعْطِيلِ وَالتَّشْبِيهِ ، وَيَعْنِي بِهِ التَّأْوِيلَ الْكَلَامِيَّ لِأَنَّهُ مِنْ أَسَاطِينِ نُظَّارِهِ ، وَحُجَّتُهُ قَوْلُهُ : بِحَيْثُ يَبْقَى الْعَقْلُ مَصُونًا مِنَ الطَّرَفَيْنِ .

(86/386)

وَالصَّوَابُ أَنَّ تَحْكِيمَ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ فِي الْخَوْضِ فِي ذَاتِ اللهِ وَصِفَاتِهِ، وَفِيمَا دُوْنَ ذَلِكَ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ كَمَلَائِكَتِهِ وَعَرْشِهِ وَجَنَّتِهِ وَنَارِهِ، طُغْيَانٌ مِنَ الْعَقْلِ وَتَجَاوُزٌ لِحُدُودِهِ وَقَدْ نُهِيَ

(87/386)

عَنْهُ، لَا صِيَانَةً لَهُ، فَإِنَّ أَكْبَرَ نُظَّارِ الْبَشَرِ وَفَلَاسِفَتِهِمْ عُقُولًا قَدْ عَجَزُوا إِلَى الْيَوْمِ عَنْ مَعْرِفَةِ كُنْهِ أَنْفُسِهِمْ وَأَنْفُسِ مَا دُونَهُمْ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ حَتَّى الْحَشَرَاتِ كَالنَّحْلِ وَالنَّمْلِ، فَأَنَّى لَهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا كُنْهَ ذَاتِ اللهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ أَوْ مَلَائِكَتِهِ، وَلَمَّا خَرَجُوا عَنْ هَدْيِ سَلَفِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَحَمَلَةِ الْآثَارِ زَاغُوا فَكَانُوا - مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ - 30 : 32 سَقَطَ بَعْضُهُمْ فِي خَيَالِ التَّعْطِيلِ، وَبَعْضُهُمْ فِي خَيَالِ التَّشْبِيهِ، وَبَعْضُهُمْ فِي حَيْرَةِ النَّفْيِ الْمَحْضِ هَرَبًا مِنَ الْأَمْرَيْنِ، وَبَعْضُهُمْ فِي الذَّبْذَبَةِ بِتَأْوِيلِ بَعْضِ النُّصُوصِ دُونَ بَعْضٍ، وَهُوَ مَا سَمَّاهُ الْبَيْضَاوِيُّ وَسَطًا، فَهُمْ يَتَأَوَّلُونَ عُلُوَّ الرَّبِّ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَاسْتِوَاءَهُ عَلَى عَرْشِهِ، وَرَحْمَتَهُ بِعِبَادِهِ، وَحُبَّهُ لِلْمُحْسِنِينَ وَالْمُتَوَكِّلِينَ،

وَأَمْثَالَ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْمُرَغِّبَةِ فِي الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَالْمُنَفِّرَةِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ، يَتَأَوَّلُونَهَا هَرَبًا مِنَ التَّشْبِيهِ بِزَعْمِهِمْ؛ لِأَنَّهَا مُسْتَعْمَلَةٌ فِي صِفَاتِ الْبَشَرِ، وَمَا مِنْ تَأْوِيلٍ لَهَا إِلَّا وَهُوَ بِأَلْفَاظٍ بَشَرِيَّةٍ مِثْلِهَا تَحْتَاجُ إِلَى تَأْوِيلٍ، وَقُصَارَاهَا أَنَّهَا إِيثَارٌ لِمَا اخْتَارُوهُ فِي وَصْفِهِ - تَعَالَى - عَلَى مَا أَنْزَلَهُ فِي كِتَابِهِ وَرَضِيَهُ لِنَفْسِهِ.

(88/386)

ثُمَّ إِنَّهُمْ لَا يُؤَوِّلُونَ صِفَاتِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْمَشِيئَةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ، مَعَ الْقَطْعِ بِأَنَّ مَعَانِيَهَا اللُّغَوِيَّةَ الْمُسْتَعْمَلَةَ فِي الْبَشَرِ تَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ الَّذِي قَالُوهُ فِي الرَّحْمَةِ وَالْحُبِّ وَالرِّضَى وَالْغَضَبِ، فَإِنَّ عِلْمَهُ - تَعَالَى - لَيْسَ كَعِلْمِنَا فِي اسْتِعْدَادِهِ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ وَلَا فِي صُورَتِهَا فِي النَّفْسِ - فَكَيْفَ إِذَا قُلْنَا فِي الدِّمَاغِ - وَلَا فِي انْقِسَامِهِ إِلَى تَصَوُّرٍ وَتَصْدِيقٍ يَنْقَسِمَانِ إِلَى بَدِيهِيٍّ وَنَظَرِيٍّ، وَلَا قُدْرَتُهُ - تَعَالَى - وَمَشِيئَتُهُ فِي كُنْهِهِمَا وَتَعَلُّقِهِمَا بِالْأَشْيَاءِ كَقُدْرَتِنَا

(89/386)

ومَشِيئَتِنَا ، فَالْوَاجِبُ إِذًا أَنْ نُؤْمِنَ بِأَنَّ كُلَّ مَا وَصَفَ اللهُ - تَعَالَى - بِهِ نَفْسَهُ فَهُوَ حَقٌّ وَكَمَالٌ ، إِلَّا أَنَّهُ أَعْلَى وَأَكْمَلُ مِنْ صِفَاتِ خَلْقِهِ الَّتِي وُضِعَتْ لَهَا تِلْكَ الْأَسْمَاءُ ، وَكَذَلِكَ الْأَفْعَالُ وَقَدْ قَالُوا فِي رُؤْيَتِهِ - تَعَالَى - : إِنَّهَا حَقٌّ بِلَا كَيْفٍ . فَلِمَ لَا يَقُولُونَ مِثْلَ هَذَا فِي غَيْرِهَا ؟ ! .

وَإِنَّمَا نَقُولُ هُنَا : لَوْ أَنَّ التَّأْوِيلَ الْكَلَامِيَّ الَّذِي عَنَاهُ الْبَيْضَاوِيُّ هُنَا شَيْءٌ يَقْتَضِيهِ إِدْرَاكُ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ بِالْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ أَوِ النَّظَرِيِّ ، الَّذِي يَنْتَهِي إِلَى الضَّرُورَةِ بِإِجْمَاعِ الْعُقَلَاءِ ، لَمَا وَقَعَ فِيهِ مَا وَقَعَ مِنَ الِاخْتِلَافِ الْمَذْمُومِ شَرْعًا وَمَصْلَحَةً ، حَتَّى انْتَهَى بِبَعْضِ الْفِرَقِ إِلَى الْمُرُوقِ مِنَ الْمِلَّةِ بِتَأْوِيلِ أَرْكَانِ الدِّينِ حَتَّى الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي لَا مَسَاغَ فِيهَا لِلتَّأْوِيلِ ، وَلَمْ يَقَعْ مِثْلُ هَذَا الِاخْتِلَافِ فِي أُصُولِ الْعَقَائِدِ وَلَا أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الْعَمَلِيَّةِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ - رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ - وَهُمْ أَعْلَمُ بِالدِّينِ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ بِالْإِجْمَاعِ .

فَقَوْلُهُ - تَعَالَى - : - فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ يَقْتَضِي الْإِيمَانَ بِالْغَيْبِ كُلِّهِ كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ بِلَا تَعْطِيلٍ وَلَا تَمْثِيلٍ وَلَا تَأْوِيلٍ ، وَبِذَلِكَ دُونَ سِوَاهُ نَجْتَنِبُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ جَمِيعَ رُسُلِهِ وَأَتْبَاعَهُمْ مِنَ اجْتِنَابِ الِاخْتِلَافِ وَالتَّفَرُّقِ فِي الدِّينِ ، الَّذِي أَوْعَدَ اللهُ أَهْلَهُ بِالْعَذَابِ الْعَظِيمِ ، وَبَرَّأَ رَسُولَهُ مِنْ أَهْلِهِ الْمُفَرِّقِينَ وَالْمُتَفَرِّقِينَ .

وكَذَلِكَ يَقْتَضِي الْتِزَامَ كِتَابِ اللهِ وَمَا فَسَّرَتْهُ بِهِ سُنَّةُ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْعِبَادَاتِ الْعَمَلِيَّةِ ، بِدُونِ تَحَكُّمٍ بِالرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ كَمَا قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ وَغَيْرُهُ ، وَفِي مَعْنَاهَا وَحُكْمِهَا التَّحْرِيمُ الدِّينِيُّ ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا لَا يَثْبُتُ إِلَّا بِالنَّصِّ الْقَطْعِيِّ أَوْ بِالْإِجْمَاعِ ، وَأَمَّا الِاخْتِلَافُ فِيمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الْقَضَاءِ وَالسِّيَاسَةِ فَهُوَ طَبِيعِيٌّ لَا يُمْكِنُ الِاحْتِرَاسُ مِنْهُ وَلَا يُخِلُّ بِالدِّينِ ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُجْعَلَ سَبَبًا لِقَطْعِ أُخُوَّتِهِ ، وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ الْمَخْرَجَ مِنْهُ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ بِقَوْلِهِ : - يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ - 4 : 59 الْآيَةَ .

هَذَا ؛ وَإِنَّ مَقَامَ الِاسْتِقَامَةِ لَأَعْلَى الْمَقَامَاتِ ، يُرْتَقَى بِهِ لِأَعْلَى الدَّرَجَاتِ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ هَذَا الْأَمْرُ بِهِ لِلرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ، وَلِمُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ : - قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا - 10 : 89 وَقَوْلُهُ - تَعَالَى - : - إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا - 41 : 30 الْآيَاتِ . وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ سُفْيَانَ الثَّقَفِيِّ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ

عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ ، قَالَ : " قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ " فَالِاسْتِقَامَةُ عَيْنُ الْكَرَامَةِ كَمَا قَالُوا .

(92/386)

قَالَ السَّيِّدُ عَبْدُ الْفَتَّاحِ الزُّعْبِيُّ الْجِيلَانِيُّ لِعَمِّ وَالِدِي السَّيِّدِ أَحْمَدَ أَبِي الْكَمَالِ وَهُوَ زَوْجُ عَمَّتِهِ : يَا سَيِّدِي إِنَّكَ صَحِبْتَ الشَّيْخَ مَحْمُودًا الرَّافِعِيَّ ، وَإِنِّي أَرَى أَتْبَاعَهُ يَذْكُرُونَ لَهُ كَثِيرًا مِنَ الْكَرَامَاتِ فَأَرْجُو أَنْ تُخْبِرَنِي بِمَا رَأَيْتَ مِنْهُ ، قَالَ : رَأَيْتُ مِنْهُ كَرَامَةً وَاحِدَةً هِيَ الِاسْتِقَامَةُ . أَخْبَرَنِي الشَّيْخُ عَبْدُ الْفَتَّاحِ هَذَا الْخَبَرَ ، وَقَالَ : أَنَا لَمْ أَكُنْ أُصَدِّقُ مَا يَنْقُلُونَهُ مِنْ تِلْكَ الْكَرَامَاتِ ، فَسَأَلْتُهُ لِأَنَّنِي أَعْتَقِدُ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الصِّدِّيقِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ . وَكَانَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْفَتَّاحِ نَقَّادَةً وَسَيِّئَ الظَّنِّ بِمَا يَنْقُلُهُ أَهْلُ طَرَابُلُسَ عَنْ بَعْضِ شُيُوخِ الطَّرِيقِ الَّذِينَ اشْتَهَرُوا بِالصَّلَاحِ مِمَّنْ لَمْ يُدْرِكْهُمْ ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّ بَعْضَ مَا يَنْقُلُونَهُ عَنْهُمْ مِنَ الْكَرَامَاتِ كَذِبٌ كَمَا عَهِدَهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ مُعَاصِرِيهِ وَبَعْضَهُ أَوْهَامٌ ، وَاخْتَبَرَ الْتِزَامُ الشَّيْخِ أَحْمَدَ لِلصِّدْقِ بِطُولِ الْمُعَاشَرَةِ ، لِلْمَوَدَّةِ بَيْنَ الْأُسْرَتَيْنِ وَالْمُصَاهَرَةِ . وَقَدْ ذَكَرْتُ هَذِهِ الْحِكَايَةَ عَلَى صِغَرِ شَأْنِهَا لِأَنَّ أُولَى الصِّدْقِ وَالِاسْتِقَامَةِ فِي هَذِهِ الْبُيُوتَاتِ الْقَدِيمَةِ أَمْسَى قَلِيلًا فِي بَعْضِهَا وَخَلَا مِنْ بَعْضٍ ، وَإِذَا كَانَ الْبَيْضَاوِيُّ قَالَ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ وَغَيْرُهُ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ : إِنَّ الِاسْتِقَامَةَ فِي غَايَةِ

الْعُسْرِ ، فَمَا قَالَ ذَلِكَ إِلَّا لِقِلَّةِ مَنْ يَرْعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا بِالثَّبَاتِ عَلَيْهَا أَوْ بُلُوغِ الْكَمَالِ فِيهَا ، لَا لِعُسْرِهَا فِي

(93/386)

نَفْسِهَا ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يُكَلِّفْنَا مِنْ شَرْعِهِ عُسْرًا - يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ - 2 : 185 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 130.139 ﴾

(94/386)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾

اعتراض لتثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وتسليته بأنّ أهل الكتاب وهم أحسن حالاً من أهل الشّرك قد أوتوا الكتاب فاختلفوا فيه ، وهم أهل مِلّة واحدة فلا تأس من اختلاف قومك عليك ، فالجملة عطف على جملة ﴿ فلا تك في مرية ﴾ [هود : 109] .

ولأجل مَا فيها من معنى التّثبيت فُرع عليها قوله : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ [هود :

[112] .

وقوله : ﴿ فاختلف فيه ﴾ أي في الكتاب ، وهو التّوراة .

ومعنى الاختلاف فيه اختلاف أهل التّوراة في تقرير بعضها وإبطال بعض ، وفي إظهار بعضها وإخفاء بعض مثل حكم الرجم ، وفي تأويل البعض على هواهم ، وفي إلحاق أشياء بالكتاب على أنّها منه ، كما قال تعالى : ﴿ فويل للّذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثمّ يقولون هذا من عند الله ﴾ [البقرة : 79] .

فهذا من شأنه أن يقع من بعضهم لا من جميعهم فيقتضي الاختلاف بينهم بين مُثبت ونافٍ ، وهذا الاختلاف بأنواعه وأحواله يرجع إلى الاختلاف في شيء من الكتاب .

فجمعت هذه المعاني جمعاً بديعاً في تعدية الاختلاف بحرف (في) الدالة على الظرفيّة المجازيّة وهي كالملابسة ، أي فاختلف اختلافاً يلابسه ، أي يلابس الكتاب .

ولأنّ الغرض لم يكن متعلّقاً ببيان المختلفين ولا بذمّهم لأنّ منهم المذموم وهم الذين أقدموا على إدخال الاختلاف ، ومنهم المحمود وهم المُنكرون على المبدّلين كما قال تعالى : ﴿ منهم أمّةٌ مقتصدةٌ وكثيرٌ منهم ساء ما يعملون ﴾ [المائدة : 66] وسيجيء قوله : ﴿ وإن كُلاّ لَمَا ليوفينّهم ربك أعمالهم ﴾ [هود : 111] ، بل كان للتّحذير من الوقوع في مثله .

بُني فعل (اختلف) للمجهول إذ لا غرض إلاّ في ذكر الفعل لا في فاعله .

يجوز أن يكون عطفاً على جملة ﴿ وإنّا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ [هود : 109]

ويكون الاعتراض تمّ عند قوله : ﴿ فاختلف فيه ﴾ ، وعليه فضمير ﴿ بينهم ﴾ عائد إلى اسم الإشارة من قوله : ﴿ ممّا يعبد هؤلاء ﴾ [هود : 109] أي ولولا ما سبق من حكمة الله أن يؤخّر عنهم العذاب لقضي بينهم ، أي لقضى الله بينهم ، فأهلك المشركين والمخالفين ونصر المؤمنين .

فيكون ﴿ بينهم ﴾ هو نائب فاعل (قُضي) .

والتّقدير : لوقع العذاب بينهم ، أي فيهم .

ويجوز أن يكون عطفاً على جملة ﴿ فاختلف فيه ﴾ فيكون ضمير ﴿ بينهم ﴾ عائداً إلى ما يفهم من قوله : ﴿ فاختُلف فيه ﴾ لأنّه يقتضى جماعة مختلفين في أحكام الكتاب .

ويكون ﴿ بينهم ﴾ متعلّقاً بـ (قُضي) ، أي لحكم بينهم بإظهار المصيب من المخطىء في أحكام الكتاب فيكون تحذيراً من الاختلاف ، أي أنّه إن وقع أمهل الله المختلفين فتركهم في شكّ .

وليس من سنة الله أن يقضي بين المختلفين فيوقفهم على تمييز الحق من المبطل ، أي فعليكم

بالحذر من الاختلاف في كتابكم فإنّكم إن اختلفتم بقيتم في شك ولحقكم جزاء أعمالكم .

و﴿ الكلمة ﴾ هي إرادة الله الأزليّة وسننه في خلقه .

وهي أنّه وكل النّاس إلى إرشاد الرسل للدّعوة إلى الله ، وإلى النّظر في الآيات ، ثم إلى بذل الاجتهاد التّام في إصابة الحق ، والسعي إلى الاتفاق ونبذ الخلاف بصرف الأفهام السديدة إلى المعاني ، وبالمراجعة فيما بينهم ، والتبصّر في الحق ، والإنصاف في الجدل والاستدلال ، وأن يجعلوا الحق غايتهم والاجتهاد دأبهم وهجّيراهم .

وحكمة ذلك هي أنّ الفصل والاهتداء إلى الحقّ مصلحة للنّاس ومنفعة لهم لا لله .

وتمام المصلحة في ذلك يحْصل بأن يبذلوا اجتهادهم ويستعملوا أنظارهم لأنّ ذلك وسيلة إلى زيادة تعقلهم وتفكيرهم .

(96/386)

وقد تقدّم في قوله تعالى : ﴿ وتمّت كلمات ربك صدقاً وعدلاً ﴾ في سورة [الأنعام : 115] وقوله : ﴿ ويريد الله أن يحقّ الحق بكلماته ﴾ في سورة [الأنفال : 7] .

ووصفها بالسبق لأنّها أزلية ، باعتبار تعلق العلم بوقوعها ، وبأنّها ترجع إلى سنة كلية تقررت من قبل .

ومعنى لقضي بينهم ﴾ أنّه قضاء استئصال المبطل واستبقاء المحق، كما قضى الله بين الرسل والمكذبين، ولكن إرادة الله اقتضت خلاف ذلك بالنسبة إلى فهم الأمة كتابها .

وضمير ﴿ بينهم ﴾ يعود إلى المختلفين المفاد من قوله : ﴿ فاختلف فيه ﴾ والقرينة واضحة .

ومتعلق القضاء محذوف لظهوره، أي لقضي بينهم فيما اختلفوا فيه كما قال في الآية الأخرى ﴿ إنّ ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ [السجدة : 25] .

يجوز أن يكون عطفاً على جملة ﴿ وإنّا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ [هود : 109] فيكون ضمير ﴿ وإنّهم ﴾ عائداً إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ ما يعبدون ﴾ [هود : 109] الآية، أي أنّ المشركين لفي شك من توفية نصيبهم لأنّهم لا يؤمنون بالبعث .

ويلتئم مع قوله : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربّك لقضي بينهم ﴾ على أوّل الوجهين وأولاهما ، فضمير ﴿ منه ﴾ عائد إلى ﴿ يوم ﴾ من قوله : ﴿ يوم يأتتِ لا تكلم نفس ﴾ [هود : 105] إلخ .

ويجوز أن تكون عطفاً على جملة ﴿ فاختلف فيه ﴾ ، أي فاختلف فيه أهله ، أي أهل الكتاب فضمير ﴿ وإنّهم ﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ بينهم ﴾ على ثاني الوجهين ، أي اختلف أهل الكتاب في كتابهم وإنّهم لفي شكّ .

أمّا ضمير ﴿ منه ﴾ فيجوز أن يعود إلى الكتاب ، أي أقدموا على ما أقدموا عليه على

شكّ وتردّد في كتابهم، أي دون علم يوجب اليقين مثل استقراء علمائنا للأدلّة الشرعيّة، أو يوجب الظنّ القريب من اليقين، كظن المجتهد فيما بلغ إليه اجتهاده، لأن الاستدلال الصّحيح المستنبط من الكتاب لا يعدّ اختلافاً في الكتاب إذ الأصل متّفق عليه.

(97/386)

فمناط الذمّ هو الاختلاف في متن الكتاب لا في التّفريع من أدلّته.

ويجوز أن يكون ضمير ﴿ منه ﴾ عائداً إلى القرآن المفهوم من المقام ومن قوله: ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصّه عليك ﴾ [هود: 100].

والمريب: المُوقع في الشكّ، ووصف الشكّ بذلك تأكيد كقولهم: ليل أليل، وشعر شاعر.

﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾

تذييل للأخبار السابقة.

والواو اعتراضية.

و(إنْ) مخفّفة من ﴿ إنّ ﴾ الثّقيلة في قراءة نافع، وابن كثير، وأبي بكر عن عاص، وأعملت في اسمها فانتصب بعدها.

و(إنْ) المخففة إذا وقعت بعدها جملة اسمية يكثر إعمالها ويكثر إهمالها قاله الخليل

وسيبويه ونحاة البصرة وهو الحق .

وقرأ الباقون (إنّ) مشدّدة على الأصل .

وبتنوين ﴿ كُلاًّ ﴾ عوض عن المضاف إليه .

والتقدير : وإنّ كلّهم ، أي كلّ المذكورين آنفاً من أهل القرى ، ومن المشركين المعرّض بهم ،

ومن المختلفين في الكتاب من أتباع موسى عليه السّلام .

و(لَما) مخفّفة في قراءة نافع ، وابن كثير ، وأبي عمرو ، والكسائي ، فاللاّم الدّاخلة على (

مَا) لام الابتداء التي تدخل على خبر ﴿ إنّ ﴾ .

واللاّم الثّانية الدّاخلة على ﴿ ليوفينّهم ﴾ لام جواب القسم .

و(مَا) مزيدة للتّأكيد .

والفصل بين اللاّمين دفعاً لكراهة توالي مثلين .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وعاصم ، وأبو جعفر ، وخلَف بتشديد الميم من (لَمّا) .

(98/386)

فعند مَن قرأ (إنْ) مخفّفة وشدّد الميم وهو أبو بكر عن عاصم تكون (إن) مخفّفة من

الثقيلة ، وأمّا مَن شدّد النون (إنّ) وشدّد الميم من (لمّا) وهم ابن عامر ، وحمزة ،

وحفص عن عاصم ، وأبو جعفر ، وخلف فتوجيه قراءتهم وقراءة أبي بكر ما قاله الفراء : إنّها بمعنى (لَمِنْ مَا) فحذف إحدى الميمات الثلاث ، يريد أنّ (لَمّا) ليست كلمة واحدة وإن كانت في صُورتها كصورة حرف (لَمّا) في رسم المصحف (لأنّه اتّبع فيه صورة النطق بها) وإنّما هي مركّبة من لامَ الابتداء و (مِنْ) الجارة التي تستعمل في معنى كثرة تكرّر الفعل كالتي في قول أبي حَية النمري :

وإنّا لَمِمّا نَضرب الكبش ضربة

على رأسه تُلقِي اللسانَ من الفم . . .

أي نكثر ضرب الكبش ، أي أمير جيش العدوّ على رأسه .

وقول ابن عبّاس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلاقي من الوحي شدّة ، وكان ممّا يحرّك لسانه حين يُنزل عليه القرآن ، فقال الله تعالى : ﴿ لا تحرّك به لسانك لتعجل به ﴾ [القيامة : 16] الآية .

فأصل هذه الكلمات في الآية على هذه القراءات : وإنّ كُلا لَمِنْ مَا لَيُوفينهم ، فلمّا قلبت نون (من) ميماً لإدغامها في ميم (مَا) اجتمع ثلاث ميمات فحذفت الميم الأولى تخفيفاً وهي ميم (مِن) لوجود دليل عليها وهو الميم الثانية لأنّ أصل الميم الثّانية نون (مِن) فصار (لَمّا)

.

ولام ﴿ ليوفينّهم ﴾ لام قسم .

ومعنى الكثرة في هذه الآية الكناية عن عدم إفلات فريق من المختلفين في الكتاب من إلحاق الجزاء عن عمله به .

والمعنى : وإنّ جميعهم لَلاَقُون جزاء أعمالهم لا يفلت منهم أحد ، وإن توفية الله إياهم أعمالهم حقّقه الله ولم يسامح فيه .

فهذا التخريج هو أولى الوجوه التي خرجت عليها هذه القراءة وهو مروي عن الفراء وتبعه المهدوي ونصر الشيرازي النّحوي ومشى عليه البيضاوي .

وقد أنهاها أبو شامة في "شرح منظومَة الشّاطبي" إلى ستّة وجوه وأنهاها غيره إلى ثمانية وجوه .

(99/386)

وفي تفسير الفخر : سمعت بعض الأفاضل قال : إنّ الله تعالى لمّا أخبر عن توفية الأجزية على المستحقّين في هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التّوكيدات ، أوّلها : كلمة (إنْ) وهي للتّأكيد ، وثانيها (كلّ) وهي أيضاً للتّأكيد ، وثالثها اللاّم الدّاخلة على خبر (إنّ) ، ورابعها حرف (ما) إذا جعلناه موصولاً على قول الفراء ، وخامسها القسم المضمر ، وسادسها اللاّم الدّاخلة على جواب القسم ، وسابعها النون المؤكدة في قوله : ﴿ ليوفينهم

﴾ .

وتوفية أعمالهم بمعنى توفية جزاء الأعمال ، أي إعطاء الجزاء وافياً من الخير على عمل الخير ومن السوء على عمل السوء .

وجملة ﴿ إنّه بما يعملون خبير ﴾ استئناف وتعليل للتّوفية لأنّ إحاطة العلم بأعمالهم مع آرادة جزائهم توجب أن يكون الجزاء مطابقاً للعمل تمام المطابقة .

وذلك محقق التوفية .

﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ .

ترتب عن التسلية التي تضمّنها قوله : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ﴾ [هود : 110] وعن التثبيت المفاد بقوله : ﴿ فلا تك في مرية ممّا يَعبد هؤلاء ﴾ [هود : 109] الحضّ على الدّوام على التمسك بالإسلام على وجه قويم .

وعبّر عن ذلك بالاستقامة لإفادة الدّوام على العمل بتعاليم الإسلام ، دواماً جماعُهُ الاستقامة عليه والحذر من تغييره .

ولمّا كان الاختلاف في كتاب موسى عليه السّلام إنّما جاء من أهل الكتاب عطف على أمر النّبيء صلى الله عليه وسلم بالاستقامة على كتابه أمرُ المؤمنين بتلك الاستقامة أيضاً ، لأنّ الاعوجاج من دواعي الاختلاف في الكتاب بنهوض فرق من الأمة إلى تبديله لمجاراة أهوائهم

، ولأنّ مخالفة الأمّة عمداً إلى أحكام كتابها إن هو إلاّ ضرب من ضروب الاختلاف فيه ، لأنّه اختلافها على أحكامه .

(100/386)

وفي الحديث : " فإنّما أهلكَ الذين من قبلكم كثرةُ مسائلهم واختلافُهم على أنبيائهم " ، فلا جرم أن كانت الاستقامة حائلاً دون ذلك ، إذ الاستقامة هي العمل بكمال الشريعة بحيث لا ينحرف عنها قِيد شبر .

ومتعلقها العمل بالشريعة بعد الإيمان لأنّ الإيمان أصل فلا تتعلّق به الاستقامة .

وقد أشار إلى صحّة هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبِي عَمْرَةَ الثقفي لمّا قال له : "يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك .

قال : قل آمنت بالله ثم استَقِمْ" فجعل الاستقامة شيئاً بعد الإيمان .

ووُجّه الأمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم تنويهاً بشأنه ليبني عليه قوله : ﴿ كما أمرتَ ﴾ فيشير إلى أنّه المتلقّي للأوامر الشرعيّة ابتداء .

وهذا تنويه له بمقام رسالته ، ثم أُعلم بخطاب أمّته بذلك بقوله : ﴿ ومن تاب معك ﴾ .

وكاف التّشبيه في قوله : ﴿ كما أمرت ﴾ في موضع الحال من الاستقامة المأخوذة من (

استقم) .

ومعنى تشبيه الاستقامة المأمور بها بما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم لكون الاستقامة مماثلة لسائر ما أمر به ، وهو تشبيه المجمل بالمفصّل في تفصيله بأن يكون طبقه .

ويؤول هذا المعنى إلى أن تكون الكاف في معنى (على) كما يقال : كن كما أنت .

أي لا تغيّر ، ولتشبه أحوالك المستقبلة حالتك هذه .

﴿ ومن تاب ﴾ عطف على الضمير المتّصل في ﴿ أمرت ﴾ .

ومصحّح العطف موجود وهو الفصل بالجار والمجرور .

﴿ ومن تاب ﴾ هم المؤمنون ، لأنّ الإيمان توبة من الشّرك ، و ﴿ معك ﴾ حال من ﴿ تاب ﴾ وليس متعلّقاً بـ ﴿ تاب ﴾ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن من المشركين .

وقد جمع قوله : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ أصول الصّلاح الديني وفروعه لقوله : ﴿ كما أمرتَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هي أشدّ ولا أشق من هذه الآية عليه .

ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له : لقد أسرع إليك الشيب "شيبتني هود وأخواتها" .

وسئل عمّا في هود فقال: قوله ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ .

الخطاب في قوله : ﴿ ولا تطغوا ﴾ موجه إلى المؤمنين الذين صدق عليهم ﴿ ومن تاب معك ﴾ .

والطغيان أصله التّعاظم والجراءة وقلة الاكتراث ، وتقدّم في قوله تعالى : ﴿ ويمدُّهم في طغيانهم يعمهون ﴾ في سورة [البقرة : 15] .

والمراد هنا الجراءة على مخالفة ما أمروا به ، قال تعالى : ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحلّ عليكم غضبي ﴾ [طه : 81] .

فنهى الله المسلمين عن مخالفة أحكام كتابه كما نهى بني إسرائيل .

وقد شمل الطغيان أصول المفاسد ، فكانت الآية جامعة لإقامة المصالح ودَرْء المفاسد ، فكان النهي عنه جامعاً لأحوال مصادر الفساد من نفس المفسد وبقي ما يخشى عليه من عدوى فساد خليطه فهو المنهى عنه بقوله بعد هذا : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار ﴾ [هود : 113] .

وعن الحسن البصري : جعل الله الدّين بين لاءَيْن ﴿ ولا تطغوا ﴾ ﴿ ولا تركنوا ﴾ [هود : 113] .

وجملة ﴿ إنّه بما تعملون بصير ﴾ استئناف لتحذير من أخفى الطغيان بأن الله مطلع على

كل عمل يعمله المسلمون ، ولذلك اختير وصف ﴿ بصير ﴾ من بين بقية الأسماء الحسنى لدلالة مادته على العلم البين ودلالة صيغته على قوته .

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾

الرُّكُون : الميل والموافقة ، وفعله كعَلِم .

ولعلّه مشتق من الرُكْن بضم فسكون وهو الجنب ، لأنّ المائل يدني جنبه إلى الشيء الممال إليه .

وهو هنا مستعار للموافق ، فبعد أن نهاهم عن الطغيان نهاهم عن التقارب مِن المشركين لئلاّ يضلوهم ويزلوهم عن الإسلام .

و﴿ الذين ظلموا ﴾ هم المشركون .

وهذه الآية أصل في سدّ ذرائع الفساد المحقّقة أو المظنونة .

والمسّ : مستعمل في الإصابة كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ إنّ الذين اتّقوا إذا مسّهم طائفٌ من الشّيطان ﴾ في آخر الأعراف (201) ، والمراد : نار العذاب في جهنّم .

(102/386)

وجملة وما لكم من دون الله من أولياء ﴾ حال ، أي لا تجدون من يسعى لما ينفعكم .

و﴿ ثمّ ﴾ للتّراخي الرتبي ، أي ولا تجدون من ينصركم ، أي من يخفّف عنكم مسّ عذاب النّار أو يخرجكم منها .

و﴿ من دون الله ﴾ متعلّق بأولياء لتضمينه معنى الحُماة والحائلين .

وقد جمع قوله : ﴿ ولا تطغوا ﴾ [هود : 112] وقوله : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ أصلي الدّين ، وهما : الإيمان والعمل الصالح ، وتقدّم آنفاً قول الحسن : "جعل الله الدين بين لاَئين ﴿ ولا تطغوا ﴾ ، ولا تركنوا" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(103/386)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾

وسورة هود هي السورة الوحيدة في القرآن التي جاء فيها ذكر رسول واحد مرتين ، فقد ذكر الحق سبحانه أنه أمر موسى عليه السلام بأن يذهب إلى فرعون ، وأن يريه الآيات ، ولم يزد ، ثم انتقل من ذلك الإبلاغ فقال سبحانه :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة ﴾ [هود : 98] .

أي : أنه أعقب أولية البلاغ بالختام الذي انتهى إليه فرعون يوم القيامة ، فيُورِد قومه النار .

ثم يأتي الحق سبحانه هنا إلى موسى عليه السلام بعد ابتداء رسالته ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ [هود : 110] .

ونحن نعلم أن ذِكْر موسى عليه السلام في البداية كان بمناسبة ذِكْر ما له علاقة بشعيب عليه السلام حين ورد موسى ماء مدين ، ولكن العجيب أنه عند ذِكْر شعيب لم يذكر قصة موسى معه ، وإنما ذكر قصة موسى مع فرعون .

وقد علمنا أن موسى عليه السلام لم يكن آتياً إلى فرعون إلا لمهمة واحدة ، هي أن يرسل معه بني إسرائيل ولا يعذبهم .

وأما ما يتأتى بعد ذلك من الإيمان بالله فقد جاء كأمر تبعيٍّ ، لأن رسالة موسى عليه السلام لم تكن إلا لبني إسرائيل ؛ ولذلك جاء هنا بالكتاب ليبلغه إلى بني إسرائيل منهجاً ، أما في الموضع الأول فقد ذكر سبحانه الآيات التي أرسل بها موسى إلى فرعون .

ونحن نعلم أن سورة هود عرضت لمواكب الرسل : نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وإبراهيم عليهم جميعاً السلام وجاء الحديث فيها عن موسى عليه السلام مرتين : مرة في علاقته بفرعون ، ومرة في علاقته ببني إسرائيل .

وفي كل لقطة من اللقطات مهمة أساسية من مهمات المنهج الإلهي للناس عموماً ، من أول

آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة ؛ إلا أنه عند ذكر كل رسول يأتي باللقطة التي تعالج داءً موقوتاً عند القوم .

فالقَدْر المشترك في دعوات كل الرسل هو قوله سبحانه :

﴿ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : 59] .

ثم يختلف الأمر بعد ذلك من رسول لآخر ، فمنهم من يأمر قومه ألا يعبدوا الأصنام ؛ ومنهم من يأمر قومه ألا ينقصوا الكيل والميزان .

وهكذا نجد في كل لقطة مع كل رسول علاج داء من داءات تلك الأمة ، أما الإسلام فقد جاء ليعالج داءات البشرية كلها ؛ لذلك جمعت كل القيم الفاضلة في القرآن كمنهج للبشرية .

لذلك فالحق سبحانه لا يقص علينا القصص القرآني للتسلية ، أو لقتل الوقت ، أو لتعلم التاريخ ؛ ولكن لنلتقط العبرة من رسالة كل رسول إلى أمته التي بعث إليها ليعالج داءها .

وبما أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ستكون آخر عهدٍ لالتقاء البشر بالبشر ، وستكون فيها كل أجواء وداءات الدنيا ، لذلك فعليهم التقاط تلك العبر ؛ لأن رسالتهم تستوعب

الزمان كله ، والمكان كله .

والحق سبحانه هنا يقول :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى الكتاب فاختلف فِيهِ ﴾ [هود : 110] .

ونحن نعلم أنه إذا تقدم أمران على ضمير الغيبة ؛ فيصح أن يعود الضمير إلى كل أمر منهما .

وقوله سبحانه : ﴿ فاختلف فِيهِ ﴾ [هود : 110] .

يصح أن يكون الاختلاف في أمر موسى ، ويصح أن يكون الاختلاف في أمر الكتاب ، والخلاف في واحد منهما يؤدي إلى الخلاف في الآخر ؛ لأنه لا انفصال بين موسى عليه السلام ، والكتاب الذي أنزله الله عليه .

وهكذا فالأمران يلتقيان : أمر الرسالة في الكتاب ، وأمر الرسول في الاصطفاء ؛ ولذلك لم يجعلهما الحق سبحانه أمرين ، بل هما أمر واحد ؛ لأن الرسول لا ينفصل عن منهجه .

وقوله الحق : ﴿ آتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ [هود : 110] أمر يتعلق بفعل الحق سبحانه ، ولله ذات ، ولله صفات ، ولله أفعال .

وهو سبحانه مُنزَّه في ذاته عن أي تشبيه ، ولله صفات ، وهي ليست ككل الصفات ، فالحق سبحانه موجود ، وأنت موجود ، لكن وجوده قديم أزليٌّ لا ينعدم ، وأنت موجود طارىء ينعدم .

ونحن نأخذ كل ما يتعلق بالله سبحانه في إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] .

فإذا تكلم الحق سبحانه عن الفعل فخذ كل فعلٍ صدر عنه بقوته سبحانه غير النهائية .

وقوله سبحانه هنا :

﴿ آتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ [هود : 110] .

نفهم منه أن هذا الفعل قد استلزم صفات متكاملة ، علماً وحكماً ، وقدرةً ، وعفواً ، وجبروتاً ، وقهراً ، فهناك أشياء كثرة تتكاتف لتحقيق هذا الإتيان .

وقد يسأل سائل : وما دام موسى عليه السلام قد أوتي الكتاب ، واختُلف فيه ، فلماذا لم يأخذ الحق سبحانه قوم موسى كما أخذ قوم نوح ، أو قوم عاد ، أو قوم ثمود ، أو بقية الأقوام الذين أخذهم الله بالعذاب ؟

ونقول : ما نجوا من عذاب الله بقدرتهم ؛ بل لأن الحق سبحانه قد جعل عذابهم آجلاً ، وهو يوم الحساب .

ولذلك قال سبحانه في الآية نفسها :

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ [هود : 110] .

وبذلك حكم الحق حكماً فاصلاً ، كما حكم على الأمم السابقة التي كانت مهمة رسلهم هي البلاغ ، ولم تكن مهمة رسلهم أن يحاربوا من أجل إرساء دعوة أو تثبيت حق ؛ ولذلك كانت السماء هي التي تتدخل بالأمر النهائي .

لكن اختلف الأمر في رسالة موسى عليه السلام ، فقد سبق فيه قول الله تعالى بالتأجيل للحساب إلى يوم القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [هود : 110] .

كأنهم في شك من يوم القيامة ، وفي شك من الحساب ، مثل قوله سبحانه في أول الآية عن الاختلاف في الكتاب وموسى عليه السلام .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾

إذن : فالحق سبحانه قد أخذ قوم الرسل السابقين على موسى بالعذاب ، أما في بدء رسالة موسى عليه السلام فقد تم تأجيل العذاب ليوم القيامة .

ويبيّن الحق سبحانه : لا تعتقدوا أن تأجيل العذاب ليوم القيامة يعني الإفلات من العذاب ، بل كل واحد سيوفّى جزاء عمله ؛ بالثواب لمن أطاع ، وبالعقاب لمن عصا ، فأمر الله سبحانه آت لا محالة وتوفية الجزاء إنما تكون على قدر الأعمال ، كفراً أو إيماناً ، صلاحاً أو فساداً ، وميعاد ذلك هو يوم القيامة .

وهنا وقفة في أسلوب النص القرآني ، حتى يستوعب الذين لا يفهمون اللغة العربية كمَلَكة ، كما فهمها العرب الأقدمون .

ونحن نعلم أن العربي القديم لم يجلس إلى معلم ، لكنه فهم اللغة ونطق بها صحيحة ؛ لأنه من أمة مفطورة على الأداء البياني الدقيق ، الرقيق ، الرائع .

فاللغة كما نعلم ليست جنساً ، وليست دماً ، بل هي ظاهرة اجتماعية ، فالمجتمع الذي ينشأ فيه الطفل هو الذي يحدد لغته ، فالطفل الذي ينشأ في مجتمع يتحدث العربية ، سوف ينطق بالعربية ، والطفل الذي يوجد في مجتمع يتحدث اللغة الإنجليزية ، سينطق بالإنجليزية ؛ لأن اللغة هي ما ينطق به اللسان حسبما تسمع الأذن .

وكانت غالبية البيئة العربية في الزمن القديم بيئة منعزلة ، وكان من ينشأ فيها إنما يتكلم اللغة السليمة .

أما العربي الذي عاش في حاضرة مثل مكة ، ومكة بما لها من مكانة كانت تستقبل أغراباً كثيرين ؛ ولذلك كان أهل مكة يأخذون الوليد فيها لينقلوه إلى البادية ؛ حتى لا يسمع إلا

اللغة العربية الفصيحة ، وحتى لا يحتاج إلى من يضبط لسانه على لغة العرب الصافية .

ولنقرِّبْ هذا الأمر ، ولننظر إلى أن هناك في حياتنا الآن لغتين : لغة نتعلمها في المنازل والشوارع ونتخاطب بها ، وتسمى " اللغة العامية " ، ولغة أخرى نتعلمها في المدارس ، وهي اللغة المصقولة المميزة بالفصاحة والضبط .

وكان أهل مكة يرسلون أبناءهم إلى البادية لتلتقط الأذن الفصاحة ، وكانت اللغة الفصيحة هي " العامية " في البادية ، ولم يكن الطفل في البادية يحتاج إلى معلم ليتعلمها ؛ لأن أذنه لا تسمع إلا الفصاحة .

وكانت هذه هي اللغة التي يتفوق فيه إنسان ذلك الزمان كملكة ، وهي تختلف عن اللغة التي نكتسبها الآن ، ونصقلها في مدارسنا ، وهي لغة تكاد تكون مصنوعة ، فما بالنا بالذين لم يتعلموا العربية من قبل من المستشرقين ، ويتعلمون اللغة على كِبَر .

وهؤلاء لم يمتلكوا صفاء اللغة ، لذلك حاولوا أن يطعنوا في القرآن ، وادعى بعض أغبيائهم أن في القرآن لحناً ، قالوا ذلك وهم الذين تعلموا اللغة المصنوعة ، رغم أن من استقبلوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أهل الفصاحة ، لم يجدوا في القرآن لحناً ، ولو أنهم

أخذوا لحناً على القرآن في زمن نزوله ؛ لأعلنوا هذا اللحن ؛ لأن القرآن نزل باللغة الفصيحة على أمة فصيحة ، بليغة صناعتها الكلام .

ولأمر ما أبق الله سبحانه صناديد قريش وصناديد العرب على كفرهم لفترة ، ولو أن أحداً منهم اكتشف لحناً في القرآن لأعلنه .

وذلك حتى لا يقولن أحد أنهم قد آمنوا فستروا على القرآن عيوباً فيه . ولو كان عند أحدهم مَهْمَزٌ لما منعه كفره أن يبين ذلك ، فهل يمكن لهؤلاء المستشرقين الذين عاشوا في القرن العشرين أن يجدوا لحناً في القرآن ، وهم لم يمتلكوا ناصية اللغة ملكة ، بل تعلموها صناعة ، والصنعة عديمة الإحساس الذوقي .

ومثال ذلك : عدم فهم هؤلاء لأسرار اللغة في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [هود : 111] .

أي : أن كل واحد من الذين صدّقوا أو من الذين كذّبوا ، له توفية في الجزاء ، للطائع الثواب ؛ وللعاصي العقوبة .

وكلمة " إنَّ " كما نعلم هي في اللغة " حرف توكيد " في مقابلة مَنْ ينكر ما يجيء بعدها .

والإنكار كما نعلم مراحل ، فإذا أردت أن تخبر واحداً بخبر لا يعلمه ، فأنت تقول له مثلاً : " زارني فلان بالأمس " .

وهكذا يصادف الخبر ذهن المستمع الخالي ، فإن قال لك : " لكن فلاناً كان بالأمس في مكان آخر " ، فأنت تقول له : " إن فلاناً زارني بالأمس " .

وحين يرد عليك السامع : " لكنني قابلت فلاناً الذي تتحدث عنه أمس في المكان الفلاني " .

وهنا قد تؤكد قولك : " والله لقد زارني فلان بالأمس " .

إذن : فأنت تأتي بالتوكيد على حَسْب درجة الإنكار .

وحين يؤجل الحق سبحانه العذاب لبعض الناس في الدنيا ، قد يقول غافل : لعل الله لم يعد يعذِّب أحداً .

ولذلك بيَّن الحق سبحانه مؤكداً أن الحساب قادم ، لكل من الطائع والمصدِّق ، والعاصي المكذِّب ، فقال سبحانه :

﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [هود : 111] .

والذين لم تستقم لهم اللغة كملكة ، كالمستشرقين ، وأخذوها صناعة ، توقفوا عند هذه الآية وقالوا : لماذا جاء بالتنوين في كلمة "كلاًّ" ؟

وهم لم يعرفوا أن التنوين يغني عن جملة ، فساعة تسمع أو تقرأ التنوين ، فاعلم أنه عِوَضٌ عن جملة ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الحلقوم * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ [الواقعة : 8384] .

و " كلاًّ " في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها توجز أن كلاًّ من الطائع المؤمن ، والعاصي الكافر ، سوف يلقى جزاءه ثواباً أو عقاباً .

أما قوله سبحانه : ﴿ لَّمَّا ﴾ في نفس الآية ، فنحن نعلم أن " لما " تستعمل في اللغة بمعنى " الحين " و " الزمان " مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ موسى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف : 143] .

ومثل قوله سبحانه :

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ العير قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : 94] .

أي حين فصلت العير وخرجت من مصر قال أبوهم : ﴿ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : 94] .

و " لما " تأتي أيضاً للنفي مثل قوله سبحانه :

﴿ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : 14] .

أي : أن الإيمان لم يدخل قلوبهم بعد ، وتحمل كلمة " لما " الإذن بأن الإيمان سوف يدخل قلوبهم بعد ذلك .

وحين تستخدم كلمة " لما " في النفي تكون " حرفاً " مثلها مثل كلمة " لم " ، ولكنها تختلف عن " لم " لأن " لم " تجزم الفعل المضارع ، ولا يتصل نفيها بساعة الكلام ، بل بما مضى ، وقد يتغير الموقف . أما " لما " فيتصل نفيها إلى وقت الكلام ، وفيها إيذان بأن يحدث ما تنفيه .

وهكذا نفهم أن قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [هود : 111] .

أي : أن كلاً من الطائع والعاصي سيوفَّى حسابه وجزاؤه ثواباً أو عقاباً ، حين يأتي أجل التوفية ، وهو يوم القيامة .

وقد جاءت " لما " لتخدم فكرة العقوبة التي كانت تأتي في الدنيا ، وشاء الله سبحانه أن يؤجل العقوبة للكافرين إلى الآخرة ، وأنسب حرف للتعبير عن ذلك هو " لما " .

وحين تقرأ ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾ تجد اللام ، وهي لام القسم بأن الحق سبحانه سيوفيهم حسابهم إن ثواباً أو عقاباً .

والله سبحانه بما يفعل العباد خبير ، هو سبحانه يعلم أفعال العبد قبل أن تقع ، ولكنها حين

تقع لا يمكن أن تُنسَى أو تذهب أدراج الرياح ؛ لأن من يعلمها هو " الخبير " صاحب العلم الدقيق ، والخبير يختلف عن العالِم الذي قد يعلم الإجماليات ، لكن الخبير هو المدرَّب على التخصص .

ولذلك غالباً ما تأتي كلمتا " اللطيف والخبير " معاً ؛ لأن الخبير هو من يعلم مواقع الأشياء ، واللطيف هو من يعرف الوصول إلى مواقع تلك الأشياء .

(110/386)

ومثال هذا : أنك قد تعرف مكان اختباء رجل في جبل مثلاً ، هذه المعرفة وهذه الخبرة لا تكفيان للوصول والنفاذ إلى مكانه ، بل إن هذا يحتاج إلى ما هو أكثر ، وهو الدقة واللطف .

والحق سبحانه جاء بهذا الحديث عن موسى عليه السلام ليسلِّي رسوله صلى الله عليه وسلم ، لأن بعضاً من الكافرين برسالة محمد عليه الصلاة والسلام قالوا : ما دام الله يأتي بالعذاب ليبيد من يكفرون برسله ، فلماذا لا يأتي لنا العذاب ؟

ولهذا جاء ما يخبر هؤلاء بأن الحق سبحانه سيوقع العقوبة على الكافرين ، لا محالة ، فإياك أن يخادعوك يا رسول الله في شيء ، أو يساوموك على شيء ، مثلما قالوا : نعبد إلهك سنة

، وتعبد آلهتنا سنة .

وقد سبق أن قطع الحق سبحانه هذا الأمر بأن أنزل :

﴿ قُلْ يا أيُّها الكافرون * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ [الكافرون : 14] .

وهذا هو قطع العلاقات التام في تلك المسألة التي لا تقبل المساومة ، وهي العبادة .

ونحن نعلم أن العبادة أمر قلبي ، لا يمكن المساومة فيه ، وقطع العلاقات في مثل هذا الأمر أمر واجب ؛ لأنه لا يمكن التفاوض حوله ؛ فهي ليست علاقات ظرف سياسي ، ولكنه أمر ربّاني ، يحكمه الحق سبحانه وحده .

وقول الحق سبحانه :

﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ [الكافرون : 24] .

هذا القول الكريم يشعر من يسمعه ويقرؤه أنهم سيظلون على عبادة غير الله ، وأن محمداً سيظل على عبادة الله ، وأن كلمة " الله " ستعلو ؛ لأن الحق سبحانه يأتي بعد سورة " الكافرين " بقوله تعالى :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ الله والفتح * وَرَأَيْتَ الناس يَدْخُلُونَ فِي دِينِ الله أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ [النصر : 13] .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾

والاستقامة معناها : عدم الميل أو الانحراف ولو قيد شعرةٍ وهذا أمر يصعب تحقيقه ؛ لأن الفاصل بين الضدين ، أو بين المتقابلين هو أدق من الشعرة في بعض الأحيان .

ومثال ذلك : حين ترى الظل والضوء ، فأحياناً يصعد الظل على الضوء ، وأحياناً يصعد الضوء على الظل ، وسنجد صعوبة في تحديد الفاصل بين الظل والنور ، مهما دقت المقاييس .

وهكذا يصبح فصل الشيء عن نقيضه صعباً ، ولذلك فالاستقامة أمر شاق للغاية .

وساعة أن نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " شيبتني هود وأخواتها " .

ولولا أن قال الحق سبحانه في كتابه الكريم :

﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ [التغابن : 16] .

فلولا نزول هذه الآية لتعب المسلمون تماماً ، وقد أنزل الحق سبحانه هذا القول بعد أن قال :

﴿ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : 102] .

وعزَّ ذلك على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الحق سبحانه ما يخفف به عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأن قال سبحانه :

﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ [التغابن : 16] .

إذن : فالأمر بالاستقامة هو أمر بدقة الأداء المطلوب لله أمراً ونهياً ، بحيث لا نميل إلى جهة دون جهة .

وهكذا تطلب الاستقامة كامل اليقظة وعدم الغفلة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فاستقم كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ [هود : 112] .

وهذا إيذان بألاَّ ييأس رسول الله صلى الله عليه وسلم من وقوف صناديد قريش أمام دعوته صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم سيتساقطون يوماً بعد يوم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود : 112] .

يعني ألا تتجاوز الحد ، فالطغيان هو مجاوزة الحد .

وهكذا نعلم أن الإيمان قد جعل لكل شيء حدّاً ، إلا أن حدود الأوامر غير حدود النواهي ؛ فالحق سبحانه إن أمرك بشيء ، فهو يطلب منك أن تلتزمه ولا تتعده .

وقال الحق سبحانه :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة: 229] .

وهذا القول في الأوامر، أما في النواهي فقد قال سبحانه:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة: 187] .

أي: أن تبتعد عنها تماماً .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملكٍ حمى، ألا وإن حمى الله محارمه" .

وحين ينهانا الحق سبحانه عن الاقتراب من شيء فهذه هي استقامة الاحتياط، وهي قد تسمح لك بأن تدخل في التحريم ما ليس داخلاً فيه، فمثلاً عند تحريم الخمر، جاء الأمر باجتنابها أي: الابتعاد عن كل ما يتعلق بالخمر حتى لا يجتمع المسلم هو والخمر في مكان .

وجعل الحق سبحانه أيضاً الاستقامة في مسائل الطاعة، وهو سبحانه يقول:

﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا ﴾

[الأنعام: 141] .

والنهي عن الإسراف هنا؛ ليعصمنا الحق سبحانه من لحظة تتذكر فيها كثرة ما حصدنا ،

ولكننا لا نجد ما نقيم به الأود فقد يسرف الإنسان لحظة الحصاد لكثرة ما عنده ، ثم تأتي له ظروف صعبة فيقول : " يا ليتني لم أُعْطِ " . وهكذا يعصمنا الحق سبحانه من هذا الموقف .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سدِّدوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة ، وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قل " ؛ لأن الدين قوي متين ، و " لن يشاد الدين أحد إلا غلبه " .

وهكذا نجد الحق سبحانه ونجد رسوله صلى الله عليه وسلم أعلم بنا ، والله لا يريد منا عدم الطغيان من ناحية المحرمات فقط ، بل من ناحية الحِلّ أيضاً ، فيوصينا سبحانه بالرفق واللين والهوادة ، وأن يجعل الإنسان لنفسه مُكْنة الاختيار .

ومثال ذلك : أن يلزم الإنسان نفسه بعشرين ركعة كل ليلة ، وهو يلزم نفسه بذلك نذراً لله تعالى في ساعة صفاء ، لكنه حين يبدأ في مزوالة ذلك القدر يكتشف صعوبته ، فتكرهه نفسه .

ولذلك يأمرنا الحق سبحانه بالاستقامة وعدم الطغيان ؛ استقامة في تحديد المأمور به والمنهي عنه ؛ ولذلك كان الاحتياط في أمر العبادات أوسع لمن يطلب الاستقامة .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الحلال بيِّن ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه " .

ولذلك يطلب الشارع الحكيم سبحانه منا في الاحتياط أن نحتاط مرة بالزيادة ، وأن نحتاط بمرة بالنقص ، فحين تصلي خارج المسجد الحرام ، يكفيك أن تكون جهتك الكعبة ، أما حين تصلي في المسجد الحرام ، فأنت تعلم أن الكعبة قسمان : قسم بنايته عالية ، وقسم اسمه " الحطيم " وهو جزء من الكعبة ، لكن نفقتهم أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قصرت ؛ فلم يبنوه .

لذلك فأنت تتجه ببصرك إلى البناء العالي المقطوع بكعبيته ، وهذا هو الاحتياط بالنقص .

أما الاحتياط بالزيادة ، فمثال ذلك : هو الطواف ، وقد يزدحم البشر حول الكعبة ، ولا تسمح ظروفك إلا بالطواف حول المسجد .

وهكذا يطول عليك الطواف ، لكنه طواف بالزيادة فعند الصلاة يكون الاحتياط بالنقص ، أما عند الطواف فيكون الاحتياط بالزيادة .

وهكذا نجد الاحتياط هو الذي يحدد معنى الاستقامة .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود : 112] .

وفي الآية السابقة قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [هود : 111] .

وعلمنا معنى الخبير ، أما المقصود بالبصير هنا فهو أنه سبحانه يعلم حركة العبادة ؛ لأن حركة العبادة مرئية .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ﴾

والكافرون كما نعلم قد عرضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعبد آلهتهم سنة ، وأن يعبدوا هم الله سنة ، ولكن الحق سبحانه قطع وفصل في هذا الأمر .

ويأتي هنا توكيد هذا الأمر ؛ فيقول سبحانه :

(114/386)

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [هود : 113] .

والركون هو الميل والسكون والمودة والرحمة ، وأنت إذا ركنت للظالم ؛ أدخلت في نفسه أن لقوته شأناً في دعوتك .

والركون أيضاً يعني : المجاملة ، وإعانة هذا الظالم على ظلمه ، وأن تزيِّن للناس ما فعله هذا الظالم .

وآفة الدنيا هي الركون للظالمين ؛ لأن الركون إليهم إنما يشجعهم على التمادي في الظلم ، والاستشراء فيه . وأدنى مراتب الركون إلى الظالم ألا تمنعه من ظلم غيره ، وأعلى مراتب الركون إلى الظالم أن تزين له هذا الظلم ؛ وأن تزين للناس هذا الظلم .

وأنت إذا استقرأت وضع الظلم في العالم كله لوجدت آن آفات المجتمعات الإنسانية إنما تنشأ من الركون إلى الظالم ؛ لكنك حين تبتعد عن الظالم ، وتقاطعه أنت ومن معك ؛ فلسوف يظن أنك لم تُعرْض عنه إلا لأنك واثق بركن شديد آخر ؛ فيتزلزل في نفسه ؛ حاسباً حساب القوة التي تركن إليها ؛ وفي هذا إضعاف لنفوذه ؛ وفي هذا عزلة له وردع ؛ لعله يرتدع عن ظلمه .

والركون للظالم إنما يجعل الإنسان عرضة لأن تمسه النار بقدر آثار هذا الركون ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَلاَ تركنوا إِلَى الذين ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ [هود : 113] .

فأنتم حين تركنون إلى ظالم إنما تقعون في عداء مع منهج الله ؛ فيتخلى الله عنكم ولا ينصركم أحد ؛ لأنه لا وليّ ولا ناصر إلا الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(115/386)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فاستقم كما أمرت . . . ﴾ الآية . قال : أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستقيم على أمره ولا يطغى في نعمته .

وأخرج أبو الشيخ عن سفيان رضي الله عنه في قوله ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ قال : استقم على القرآن .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ﴾ قال : شمروا شمروا فما رؤي ضاحكاً .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ ومن تاب معك ﴾ قال : آمن .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن العلاء بن عبد الله بن بدر رضي الله عنه في قوله ﴿ ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ﴾ قال : لم يرد به أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، إنما على الذين يجيئون من بعدهم .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ ولا تطغوا ﴾ يقول : لا تظلموا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه قال : الطغيان خلاف أمره وركوب

معصيته .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ قال : يعني الركون إلى الشرك .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولا تركنوا ﴾ قال : لا تميلوا .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ ولا تركنوا ﴾ قال : لا تذهبوا .

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة في قوله ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾ أن تطيعوهم أو تودوهم أو تصطنعوهم .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي العالية في قوله ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ قال : لا ترضوا أعمالهم .

(116/386)

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : خصلتان إذا صلحتا للعبد صلح ما سواهم من أمره ، الطغيان في النعمة والركون إلى الظلم ، ثم تلا هذه الآية ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فاختلف فِيهِ ﴾: أي في الكتاب، و " في " على بابها من الظرفية، وهو هنا مجاز، أي: في شأنه. وقيل: هي سببية، أي: هو سببُ اختلافهم، كقوله تعالى: ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ [الشورى: 11]، أي: يُكَثِّركم بسببه. وقيل: هي بمعنى على، ويكون الضمير لموسى عليه السلام، أي: فاخْتُلِف عليه.

و " مُرِيْب " مِنْ أراب إذا حَصَلَ الرَّيْب لغيره، أو صار هو في نفسه ذا رَيْب، وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾: هذه الآيةُ الكريمة مما تَكَلَّم الناسُ فيها قديماً وحديثاً، وعَسُر على أكثرِهم تلخيصُها قراءةً وتخريجاً، وقد سَهَّل اللَّه تعالى، فذكرْتُ أقاويلهم وما هو الراجحُ منها.

فقرأ نافع وابن كثير وأبو بكر عن عاصم: " وإنْ " بالتخفيف، والباقون بالتشديد. وأمَّا " لَمَّا " فقرأها مشددةً هنا وفي يس، وفي سورة الزخرف، وفي سورة السمآء والطارق، ابنُ

عامر وعاصمٌ وحمزةُ، إلا أن عن ابن عامر في الزخرف خلافاً : فروى عنه هشامٌ وجهين، وروى عنه ابن ذكوان التخفيفَ فقط، والباقون قرؤوا جميع ذلك بالتخفيف . وتلخص من هذا : أنَّ نافعاً وابن كثير قرآ : "وإنْ" و "لَمَا" مخففتين، وأنَّ أبا بكر عن عاصم خَفَّفَ "إنَّ" وثَقَّل "لَمَّا"، وأن ابن عامر وحمزة وحفصاً عن عاصم شددوا "إنَّ" و "لَمَّا" معاً، وأن أبا عمرو والكسائي شدَّدا "إنَّ" وخَفَّفا "لَمَّا" . فهذه أربعُ مراتب للقراء في هذين الحرفين .

(118/386)

هذا في المتواتر، وأمَّا في الشاذ، فقد قرئ أربعُ قراءاتٍ أُخَر، إحداها : قراءةُ أُبَيّ والحسن وأبان بن تغلب "وإنْ كل" بتخفيفها، ورفع "كل"، "لَمَّا" بالتشديد، الثانية : قراءة اليزيدي وسليمان بن أرقم : "لَمَّاً" مشددة منونة، ولم يتعرَّضوا لتخفيف "إنَّ" ولا لتشديدها . الثالثة : قراءة الأعمش وهي في حرف ابن مسعود كذلك : "وإنْ كلٌّ إلا" : بتخفيفِ "إنْ" ورفع "كل" . الرابعة . قال أبو حاتم : "الذي في مُصْحف أبي ﴿ وإنْ مِنْ كلٍ إلا لَيُوَفّيَنَّهم ﴾ .

هذا ما يتعلَّق بها من جهة التلاوة، أمَّا ما يتعلق بها من حيث التخريجُ فقد اضطرب الناسُ

فيه اضطراباً كثيراً ، حتى قال أبو شامة : " وأمّا هذه الآيةُ فمعناها على القراءات من أشكلِ الآيات ، وتسهيلُ ذلك بعون اللَّهِ أنْ أذكرَ كلَّ قراءةٍ على حِدَتِها وما قيل فيها .

فأمّا / قراءةُ الحَرَمِيَّيْن ففيها إعمال إنْ المخففة ، وهي لغة ثانية عن العرب . قال سبويه : " حدَّثَنا مَنْ نثق به أنه سَمع مِن العرب مَنْ يقول : " إنْ عمراً لمنطلقٌ " كما قالوا :

2711 . . . . كأنْ ثَدْيَيْهِ حُقَّانِ

قال : " ووجهُه مِن القياس أنَّ " إنْ " مُشْبِهَةٌ في نصبها بالفعل ، والفعلُ يعمل محذوفاً كما يَعْمل غيرَ محذوف نحو : " لم يكُ زيد منطلقاً " ﴿ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ ﴾ [هود : 109] وكذلك لا أَدْرِ " . قلت : وهذا مذهبُ البصريين ، أعني أنَّ هذه الأحرفَ إذا خُفِّف بعضُها جاز أن تعملَ وأن تُهْمَلَ كـ " إنْ " ، والأكثر الإِهمالُ ، وقد أُجْمع عليه في قوله : ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا [مُحْضَرُونَ] ﴾ ، وبعضُها يجب إعمالُه كـ " أنْ " بالفتح و " كأنْ " ، ولكنهما لا يَعْملان في مُظْهَرٍ ولا ضميرٍ بارزٍ إلا ضرورةً ، وبعضُها يَجِبُ إهمالُه عند الجمهور كـ " لكنْ " .

(119/386)

وأمّا الكوفيون فيُوجبون الإهمالَ في "إنْ" المخففةِ، والسّماعُ حُجّةٌ عليهم، بدليل هذه القراءة المتواترة. وقد أنشدَ سيبويهِ على إعمالِ هذه الحروفِ مخففةً قولَه:

2712 .... كأنْ ظبيةٌ

تَعْطُو إلى وارقِ السَّلَمْ

قال الفراء: "لم نَسْمَعِ العربَ تُخَفِّفُ وتَعْمل إلا مع المكنى كقوله:

2713 - فلو أنْكِ في يومِ الرّخاء سَأَلْتِني ... طلاقَكِ لم أَبْخَلْ وأنتِ صديقُ

قال: "لأنَّ المكنى لا يَظْهر فيه إعرابٌ، وأمّا مع الظاهر فالرفع". قلت: وقد تقدَّم ما أنشده سيبويهِ وقولُ الآخر:

2714 .... كأنْ ثَدْيَيْه

حُقّانِ

و[قوله]:

2715 كأنْ وَرِيْدَيْه رِشاءُ خُلْبِ ... هذا ما يتعلق ب "إنْ". وأمّا "لَمَا" في هذه القراءة فاللامُ فيها هي لامُ "إنْ" الداخلةُ في الخبر. و"ما" يجوز أن تكونَ موصولةً بمعنى الذي واقعةً على مَنْ يَعْقل كقوله تعالى: ﴿ فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء ﴾ [النساء: 3] فأوقع "ما" على العاقل. واللام في "ليوفِّيَنَّهم" جوابُ قسمٍ مضمر، والجملةُ مِن القسم وجوابِه صلةٌ للموصول، والتقدير: وإنْ كلاًّ للذين واللهِ ليوفِّيَنّهم. ويجوز أن تكونَ

هنا نكرةً موصوفةً ، والجملةُ القسميةُ وجوابُها صفةٌ ل " ما " والتقدير : وإنْ كلاًّ لخَلْقٌ أو لفريقٌ واللَّهِ ليوفِيَنَّهم ، والموصول وصلتُه أو الموصوفُ وصفتُه خبرٌ ل " إنْ " .

(120/386)

وقال بعضُهم : اللامُ الأولى هي الموطِّئةُ للقسَم ، ولمَّا اجتمع اللامان ، واتفقا في اللفظ فُصِل بينهما ب " ما " كما فُصِل بالألف بين النونين في " يَضْرِبْنانِّ " ، وبين الهمزتين في نحو : أأنت . فظاهرُ هذه العبارة أنَّ " ما " هنا زائدةٌ جي بها للفصل إصلاحاً للَّفظ ، وعبارةُ الفارسي مُؤْذِنَةٌ بهذا ، إلا أنه جعَلَ اللامَ الأولى لامَ " إنْ " فقال : " العُرْفُ أن تَدْخِل لامَ الابتداء على الخبر ، والخبرُ هنا هو القَسَمُ وفيه لام تَدْخل على جوابه ، فلمَّا اجتمع اللامان والقسمُ محذوفٌ ، واتفقا في اللفظ وفي تلَقِّي القسم ، فَصَلوا بينهما كما فَصَلوا بين إنَّ واللام " .

وقد صرَّح الزمخشري بذلك فقال : " واللامُ في " لَمَا " موطِّئةٌ للقسم و " ما " مزيدةٌ " ونَصَّ الحوفيُّ على أنها لام " إنْ " . وقال أبو شامة : " واللامُ في " لَمَا " هي الفارقة بين المخففة من الثقيلة والنافية " وفي هذا نظرٌ ؛ لأنَّ الفارقةَ إنما يؤتى بها عند التباسِها بالنافية ، والالتباسُ إنما يجيء عند إهمالها نحو : " إنْ زيدٌ لقائم " وهي في الآية الكريمة مُعْمَلة فلا التباسَ بالنافية ، فلا يُقال إنها فارقة .

فتلخَّص في كلٍ من اللام و " ما " ثلاثة أوجه ، أحدها : في اللام : أنها للابتداء الداخلة على خبر " إنْ " . الثاني : لامٌ موطئة للقسم . الثالث : أنَّها جوابُ القسم كُرِّرَتْ تأكيداً .

وأحدها في " ما " : أنها موصولة . الثاني : أنها نكرة . الثالث : أنها مزيدة للفصل بين اللامين .

(121/386)

وأمَّا قراءةُ أبي بكر ففيها أوجه/ ، أحدها : ما ذهب إليه الفراء وجماعة من نحاة البصرة والكوفة ، وهو أن الأصل : لَمِنْ ما ، بكسر الميم على أنها مِنْ الجارة دخلت على " ما " الموصولة " أو الموصوفة كما تقرَّر ، أي : لَمِنَ الذين واللَّهِ ليوفِّيَنَّهم ، أو لَمِنْ خَلْقٍ واللَّهِ ليوفِّينَّهم ، فلمَّا اجتمعت النونُ ساكنةً قبل ميم " ما " وجب إدغامُها فيها فقُلِبَتْ ميماً ، وأُدْغمت فصار في اللفظ ثلاثة أمثال ، فخُفِّفَتْ الكلمةُ بحذف إحداها فصار اللفظ كما ترى " لمَّا " . قال نصر ابن علي الشيرازي : " وَصَلَ " مِنْ " الجارة ب " ما " فانقلبت النون أيضاً ميماً للإدغام ، فاجتمعت ثلاث ميمات فَحُذِفت إحداهن ، فبقي " لمَّا " بالتشديد " . قال : و " ما " هنا بمعنى " مَنْ " وهو اسم لجماعة الناس كما قال تعالى : ﴿ فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء ﴾ أي مَنْ طاب ، والمعنى : وإنْ كلاًّ مِن الذين ليوفِّينَّهم ربُّك أعمالهم

، أو جماعة ليوفِيَنّهم ربُّك أعمالَهم " .

وقد عَيّن المهدويُّ الميمَ المحذوفة فقال : " حُذِفت الميمُ المكسورة ، والتقدير ، لَمِنْ خلقٍ ليوفِيَنّهم " .

(122/386)

الثاني : ما ذهب إليه المهدويُّ ومكي وهو : أن يكونَ الأصل : لَمَنْ ما بفتح ميم " مَنْ " على أنها موصولة أو موصوفة ، و " ما " بعدها مزيدةٌ فقال : " فقلبت النونُ ميماً ، وأُدْغمت في الميم التي بعدها ، فاجتمع ثلاثُ ميمات ، فحُذِفَت الوُسْطى منهن ، وهي المبدلةُ من النون ، فقيل " لَمَّا " . قال مكي : " والتقدير : وإنْ كلاَّ لَخَلْقٌ لَيوفينَّهم ربك أعمالهم " ، فترجعُ إلى معنى القراءة الأولى بالتخفيف ، وهذا الذي حكاه الزجاج عن بعضهم فقال : " زَعَمَ بعضُ النحويين أن أصله لَمَنْ ما ، ثم قلبت النون ميماً ، فاجتمعت ثلاثُ ميمات ، فَحُذِفت الوسطى " قال : " وهذا القول ليس بشيءٍ ، لأنّ " مَنْ " لا يجوز حَذْفُ بعضها لأنها اسمٌ على حرفين " .

وقال النحاس : " قال أبو إسحاق : هذا خطأ ، لأنه تُحْذف النونُ مِنْ " مَنْ " فيبقى حرفٌ واحد " . وقد رَدّه الفارسيُّ أيضاً فقال : " إذ لم يَقْوَ الإِدغام على تحريك الساكن قبل

الحرف المدغم في نحو " قدم مالك " فأَنْ لا يجوزُ الحَذْفُ أَجْدَرُ " قال : " على أنَّ في هذه السورة ميمات اجتمعَتْ في الإدغام أكثرَ مِمَّا كانَتْ تجتمع في " لَمَنْ ما " ولم يُحذفْ منها شيءٌ ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ وعلى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ [هود : 48] ، فإذا لم يُحْذَفْ شيءٌ مِنْ هذا فأن لا يُحْذَفَ ثَمَّ أَجْدَرُ " . قلت : اجتمع في " أمم ممَّن مَعَك " ثمانيةُ ميماتٍ وذلك أن " أمماً " فيها ميمان وتنوين ، والتنوين يُقْلب ميماً لإدغامه في ميم " مِنْ " ومعنا نونان : نونُ مِنْ الجارة ونون مَنْ الموصولة فيقلبان أيضاً ميماً لإدغامهما في الميم بعدهما ، ومعنا ميم " معك " ، فحَصَّل معنا خمسُ ميماتٍ ملفوظٌ بها ، وثلاثٌ منقلبةٌ إحداها عن تنوين ، واثنتان نون .

واستدلَّ الفراء على أن أصل " لَمَّا " " لِمَنْ ما " بقول الشاعر :

(123/386)

2716 وإنَّا لِمَنْ ما نَضْرِبُ الكبشَ ضَرْبَةً . . . على رأسِه تُلْقي اللسانَ من الفم

وبقول الآخر :

2717 وإني لَمِنْ ما أُصْدِرُ الأمرَ وجهه . . . إذا هو أَعْيا بالسبيل مصادرُهُ

قلت : وقد تقدَّم في سورة آل عمران في قراءة مَنْ قرأ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النبيين لَمَآ

آتَيْتُكُم ﴾ [آل عمران: 81] بتشديد "لمَّا" أن الأصل: "لمن ما" فَفُعل فيه ما تقدَّم، وهذا أحد الأوجه المذكورة في تخريج هذا الحرف في سورته، وذكَرْتُ ما قاله الناسُ فيه، فعليك بالنظر فيه.

وقال أبو شامة: "وما قاله الفراء استنباطٌ حسنٌ وهو قريبٌ من قولهم: ﴿ لَّكِنَّ هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾ [الكهف: 38] إن أصله: لكن أنا، ثم حُذِفت الهمزة، وأُدْغِمَتِ النونُ في النون، وكذا قولهم: "أمَّا أنت منطلقاً انطلقت، قالوا: المعنى لِأَنْ كنتَ منطلقاً". قلت: وفيما قاله نظرٌ؛ لأنه ليس فيه حَذْفُ البتةَ، وإنما كان يَحْسُنُ التنظيرُ أن لو كان فيما جاء به إدغامٌ، ثم حُذف، وأمَّا مجرَّدُ التنظيرِ بالقلبِ والإِدغامِ فغيرُ طائلٍ.

ثم قال أبو شامة: "وما أحسنَ ما استخرج الشاهد من البيت" يعني الفراء، ثم الفراء أراد أن يجمع بين قراءَتَي/ التخفيف والتشديدِ مِنْ "لمَّا" في معنى واحد فقال: "ثُمَّ تُخَفَّفُ كما قرأ بعض القراء ﴿ والبغي يَعِظُكُمْ ﴾ [النحل: 90]. بحذف الياء عند الياء، أنشدني الكسائي:

2718 وأَشْمَتَّ العُداةَ بنا فأَضْحَوا ... لَدَيْ يَتَباشَرُون بما لَقِينا

فحذف ياءَه لاجتماع الياءات". قلت: الأَوْلى أن يُقال: حُذِفت ياءُ الإِضافةِ مِنْ "لديّ" فبقيت الياءُ الساكنةُ قبلَها المنقلبةُ من الألف في "لدى" وهو مِثْلُ قراءةِ مَنْ قرأ ﴿ يا بني ﴾

بالإِسكان على ما سَبَق، وأمّا الياء مِنْ "يتباشرون" فثابتةٌ لدلالتها على المضارعة.

ثم قال الفراء: "ومثلُه:

2719 كأنَّ مِنْ آخِرِها إلقادِمِ . . . يريد: إلى القادم، فحذف اللام عند اللام".

قلت: توجيهُ قولهم: "من آخرها إلقادم" أن ألف "إلى" حُذِفَتْ لالتقاء الساكنين، وذلك أن ألف "إلى" ساكنة ولام التعريف من "القادم" ساكنةٌ، وهمزةُ الوصل حُذِفت دَرْجاً، فلمَّا التقيا حُذِف أولهما فالتقى لامان: لامُ "إلى" ولامُ التعريف، فحُذِفت الثانية على رأيه، والأَوْلى حَذْفُ الأُولى؛ لأنَّ الثانيةَ دالة على التعريف لم يَبْقَ مِنْ حرف "إلى" غير الهمزة فاتصلت بلام "القادم" فبقيَتِ الهمزةُ على كسرها، فلهذا تَلَفَّظَ بهذه الكلمة مِنْ آخرها: "ءِ القادم" بهمزة مكسورةٍ ثابتة درجاً لأنها همزةُ القطع.

قال أبو شامة: "وهذا قريبٌ مِنْ قولهم "مِلْكذب" و "عَلْماءِ بنو فلان" و "بَلْعنبر" يريدون: من الكذب، وعلى الماء بنو فلان، وبنو العنبر". قلت: يريد قوله:

2720 أَبْلِغْ أبا دَخْتنوسَ مَأْلُكَةً . . . غيرُ الذي [قد] يُقال مِلْكذب

وقول الآخر:

2721 - فما سَبَقَ القَيْسِيَّ مِن سُوءِ فِعْلِهِ . . . ولكنْ طَفَتْ عَلْماءِ غُرْلَةُ خالدِ

وقد ردَّ بعضُهم قولَ الفراء بأنَّ نونَ " مِنْ " لا تُحْذف إلا في ضرورة وأنشد : مِلكذبِ .

الثالث : أنَّ أصلَها " لَما " بالتخفيف ثم شُدِّدت ، وإلى هذا ذهب أبو عثمان . قال الزجاج : " وهذا ليس بشيءٍ لأَنَّا لَسْنا نُثَقِّل ما كان على حرفين ، وأيضاً فلغةُ العرب على العكس من ذلك يُخَفِّفون ما كان مثقَّلاً نحو : " رُبَ " في " رُبَّ " . وقيل في توجيهه : إنما يكونُ في الحرف إذا كان آخراً ، والميم هنا حشوٌ لأن الألف بعدها ، إلا أن يقال : إنه أجرى الحرف المتوسط مُجرى المتأخر كقوله :

2722 . . . مثلَ الحريقِ وافَقَ القَصَبَّا

يريد : القصبَ ، فلمَّا أشبع الفتحة تولَّد منها ألف ، وضعَّف الحرف ، وكذلك قوله :

(125/386)

2723 ببازلٍ وَجْناءَ أو عَيْهَلِّي . . . شدَّد اللامَ مع كونِها حَشْواً بياء الإِطلاق . وقد يُفَرَّق بأن الألف والياء في هذين البيتين في حكم المطَّرح ، لأنهما نشآ من حركةٍ بخلافٍ ألف " لما " فإنها أصليةٌ ثابتة ، وبالجملة فهو وجهٌ ضعيفٌ جداً .

الرابع : أن أصلَها " لَمّاً " بالتنوين ثم بُني منه فَعْلى ، فإنْ جَعَلْتَ ألفَه للتأنيث لم تصرِفْه ، وإنْ

جَعَلْتَها للإِلحاق صَرَفْتَه ، وذلك كا قالوا في " تَتْرى " بالتنوين وعدمِه ، وهو مأخوذٌ مِنْ قولك لَمَمْتُه أي : جَمَعْتُه ، والتقدير : وإنْ كلاً جميعاً ليوفِّيَنَّهم ، ويكون " جميعاً " فيه معنى التوكيد ككل ، ولا شك أن " جميعاً " يفيد معنى زائداً على " كل " عند بعضهم . قال : " ويدل على ذلك قراءةُ مَنْ قرأ " لَمّاً " بالتنوين " .

الخامس : أن الأصل " لَمَّاً " بالتنوين أيضاً ، ثم أُبْدل التنوينَ ألفاً وقفاً ، ثم أَجْرى الوصل مُجْرى الوقف . وقد مَنَع من هذا الوجهِ أبو عبيد قال : " لأن ذلك إنما يجوز في الشعر " يعني إبدالَ التنوين ألفاً وصلاً إجراءً له مُجْرى الوقف ، وسيأتي توجيهُ قراءةِ " لَمَّاً " بالتنوين بعد ذلك .

وقال أبو عمرو ابن الحاجب : " استعمالُ " لَمَّا " في هذا المعنى بعيد ، وحَذْفُ التنوين مِنْ المنصرف في الوصل أبعدُ ، فإن قيل : لَمَّاً فَعْلى من اللَّمِّ ، ومُنِعَ الصرف لأجل ألف التأنيث ، والمعنى فيه مثل معنى " لَمّاً " المنصرف فهو أبعدُ ، إذ لا يُعرف " لَمّا " فعلى بهذا المعنى ولا بغيره ، ثم كان يلزَمُ هؤلاء أن يُميلوا كمَنْ أمال ، وهو خلافُ الإِجماع ، وأن يكتبوها بالياء ، وليس ذلك بمستقيم " .

السادس : أنَّ " لَمَّا " زائدة كما تزاد " إلا " قاله أبو الفتح وغيرُه ، وهذا وجهٌ لا اعتبارُ به فإنه مبنيٌّ على وجه ضعيف أيضاً ، وهو أنَّ " إلا " تأتي زائدةً .

السابع : أنَّ " إنْ " نافيةٌ بمنزلة " ما " ، و " لمَّا " بمعنى " إلا " فهي كقوله : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا ﴾ [الطارق : 4] أي : ما كلُّ نفسٍ إلا عليها ، ﴿ وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ ﴾ [الزخرف : 35] أي : ما كل ذلك إلا متاع/ . واعتُرِض على هذا الوجه بأنَّ " إنْ " النافية لا تَنْصِبُ الاسمَ بعدها ، وهذا اسمٌ منصوب بعدها . وأجاب بعضهم عن ذلك بأن " كلاًّ " منصوبٌ بإضمار فعلٍ ، فقدَّره قومٌ منهم أبو عمرو ابن الحاجب : وإنْ أرى كلاًّ ، وإن أعلمُ ، ونحوه ، قال : " ومِنْ ههنا كانت أقلَّ إشكالاً مِنْ قراءة ابن عامر لقبولها هذا الوجهَ الذي هو غيرُ مستبعَدٍ ذلك الاستبعاد ، وإن كان في نصب الاسم الواقع بعد حرف النفي استبعادٌ ، ولذلك اختُلِف في مثلِ قوله :

2724 ألا رجلاً جزاه اللَّه خيراً . . . يَدُلُّ على مُحَصِّلةٍ تَبيتُ

هل هو منصوب بفعلٍ مقدَّر أو نُوِّن ضرورةً ؟ فاختار الخليلُ إضمارَ الفعلِ ، واختار يونس التنوين للضرورة " ، وقدَّره بعضهم بعد " لمَّا " مِنْ لفظ " لَيُوَفِّيَنَّهم " والتقدير : وإن كلاًّ إلا ليوفِّيَنَّ ليوفِّيَنَّهم . وفي هذا التقدير بُعْدٌ كبيرٌ أو امتناع ؛ لأنَّ ما بعد " إلا " لا يعمل فيما قبلها . واستدلَّ أصحابُ هذا القول أعني مجيء " لَمَّا " بمعنى " إلا " بنص الخليل وسيبويه على ذلك ، ونصره الزجاج ، قال بعضهم : " وهي لغة هُذَيْل يقولون : سألتك باللَّه لمَّا فعلت أي : إلا فعلت " . وقد أنكر الفراء وأبو عبيد ورودَ " لمَّا " بمعنى إلا ، قال : أبو عبيد : " أمَّا مَنْ

شددّ " لمّا " بتأويل " إلا " فلم نجدْ هذا في كلامِ العرب ، ومَنْ قال هذا لزمه أن يقولَ : " قام القوم لمّا أخاك " يريد : إلا أخاك ، وهذا غيرُ موجودٍ " .

(127/386)

وقال الفراء : " وأمّا مَنْ جعَلَ " لَمَّا " بمنزلة " إلا " فهو وجهٌ لا نعرفه ، وقد قالت العربُ في اليمن : " باللَّه لمّا قمت عنا " ، و " إلا قمت عنا " ، فأمّا في الاستثناء فلم نَقُلْه في شعر ولا في غيره ، ألا ترى أن ذلك لو جاز لسمعْتَ في الكلام : ذهب الناس لمّا زيداً " .

(128/386)

فأبو عبيد أنكر مجيء " لمّا " بمعنى " إلا " مطلقاً ، والفراء جوَّز ذلك في القسم خاصةً ، وتبعه الفارسي في ذلك فإنه قال في تشديد " لمّا " في هذه الآية : " لا يصلح أن تكون بمعنى " إلا " ؛ لأن " لَمّا " هذه لا تفارق القسم " وردَّ الناس قوله بما حكاه الخليل وسيبويه ، وبأنها لغة هُذَيْل مطلقاً ، وفيه نظرٌ ، فإنهم لمّا حَكَوا اللغة الهذيلية حَكَوْها في القسم كما تقدم مِنْ نحو : " نَشَدْتُك باللَّه لمّا فعلت " و " أسألك باللَّه لمّا فعلت " . وقال أبو علي أيضاً

مستشكلاً لتشديد " لمَّا " في هذه السورة على تقدير أن " لمَّا " بمعنى " إلا " لا تختص بالقسم ما معناه : أن تشديد " لمَّا " ضعيف سواء شددت " إن " أم خَفَّفْت ، قال : " لأنه قد نُصِب بها " كلاًّ " ، وإذا نُصب بالمخففة كانت بمنزلة المثقلة ، وكما لا يَحْسُن : " إنَّ زيداً إلا منطلق " ، لأن الإِيجابَ بعد نفي ، ولم يتقدَّمْ هنا إلا إيجابٌ مؤكد ، فلذا لا يَحْسُن : إن زيداً لَمَّا مُنْطلق " لأنه بمعناه ، وإنما ساغ : " نَشَدْتُك اللَّهَ إلا فعلت ولمَّا فعلت " لأنَّ معناه الطلب ، فكأنه قال : ما أطلب منك إلا فِعْلَك ، فحرفُ النفي مرادٌ مثل : { تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ } [يوسف : 85] ، ومَثَّل ذلك أيضاً بقولهم : " شَرٌّ أهرَّ ذاناب " أي : ما أهرَّه إلا شرٌّ ، قال : " وليس في الآية معنى النفي ولا الطلب . وقال الكسائي : " لا أعرف وجه التثقيل في لمَّا " . قال الفارسي : " ولم يُبْعِدْ فيما قال " . ورُوي عن الكسائي أيضاً أنه قال : " اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ أعلمُ بهذه القراءة ، لا أعرف لها وجهاً " .

الثامن : قال الزجاج : " قال بعضهم قولاً ولا يجوز غيرُه : " إنَّ " لمَّا " في معنى إلا ، مثل { إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ } [الطارق : 4] ثم أَتْبَع ذلك بكلام طويل مشكل حاصِلُه يَرْجِع إلى أن معنى " إنْ زيدٌ لمنطلق " : ما زيد إلا منطلق ، فأَجْرَيْتَ المشددة كذلك في هذا

المعنى إذا كانت اللام في خبرها ، وعملها النصبَ في اسمها باقٍ بحاله مشددةً ومخففةً ، والمعنى نفيٌ ب " إنْ " وإثباتٌ باللام التي بمعنى إلا ، ولَمَّا بمعنى إلا " .

قلت : قد تقدَّم إنكارُ أبي علي على جوازِ " إلا " في مثلِ هذا التركيب فكيف يجوز " لمَّا " التي بمعناها ؟

وأمّا قراءةُ ابنِ عامر وحمزة وحفص ففيها وجوه ، أحدها : أنها " إنَّ " المشددةَ على حالها ، فلذلك نُصب ما بعدها على أنه اسمُها ، وأمّا " لمَّا " فالكلامُ فيها كما تقدم مِنْ أنَّ الأصلَ " لَمِنْ ما " بالكسر أو " لَمَنْ ما " بالفتح ، وجميعُ تلك الأوجهِ التي ذكرْتُها تعودُ ههنا . والقولُ بكونها بمعنى " إلا " مُشْكِلٌ كما تقدَّم تحريرُه عن أبي علي هنا .

الثاني : قال المازنيُّ : " إنَّ " هي المخففة ثُقِّلَتْ ، وهي نافيةٌ بمعنى " ما " كما خُفِّفَتْ " إنَّ " ومعناها المثقلة و " لَمَّا " بمعنى " إلا " . وهذا قولٌ ساقطٌ جداً لا اعتبارَ به ، لأنه لم يُعْهَدْ تثقيلُ " إنْ " النافية ، وأيضاً ف " كلاًّ " بعدها منصوبٌ ، والنافيةُ لا / تَنْصِبُ .

الوجه الثالث : أنَّ " لَمَّا " هنا هي الجازمة للمضارع حُذِف مجزومُها لفهم المعنى . قال الشيخ أبو عمرو ابن الحاجب في أماليه : " لمَّا " هذه هي الجازمة فحُذِف فِعْلُها للدلالةِ عليه

، لِما ثبت من جواز حَذْف فِعْلِها في قولهم : " خَرَجْتُ ولَمَّا " و " سافرتُ ولَمَّا " وهو شائعٌ فصيح ، ويكون المعنى : وإنّ كلاً لَمَّا يُهْمَلوا أو يُتْرَكوا لِما تقدَّم من الدلالةِ عليه مِنْ تفصيل المجموعين بقوله ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : 105] ، ثم فَصَّل الأشقياءَ والسعداء ، ومجازاتَهم ، ثم بيَّن ذلك بقوله ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ، قال : " وما أعرفُ وجهاً أَشبهَ مِنْ هذا ، وإن كانت النفوسُ تستبعده مِنْ جهةِ أن مثلَه لم يَرِدْ في القرآن " ، قال : " والتحقيقُ يأبى استعبادَه " . قلت : وقد نَصَّ النحويون على أن " لَمَّا " يُحذف مجزومُها باطِّراد ، قالوا : لأنها لنفيِ قد فَعَلَ ، وقد يُحذف بعدها الفعل كقوله :

2725 أَفِدَ الترحل غيرَ أن رِكابَنا . . . لَمَّا تَزُل برحالِنا وكأنْ قَدِ

أي : وكأن قد زالت ، فكذلك مَنْفِيُّه ، وممَّن نَصَّ عليه الزمخشري ، عَلى حَذْفِ مجزومها ، وأنشد يعقوب على ذلك في كتاب " معاني الشعر " له قولَ الشاعر :

2726 فجِئْتُ قبورَهُمْ بَدْءاً ولَمَّا . . . فنادَيْتُ القبورَ فلم يُجِبْنَهْ

قال : " قوله " بدءاً " ، أي : سيداً ، وبَدْءُ القوم سيِّدهم ، وبَدْءُ الجَزور خيرُ أَنْصِبائها ، قال : " وقوله " ولما " ، أي : ولما أكنْ سَيِّداً إلا حينَ ماتوا فإني سُدت بعدهم ، كقول الآخر :

2727 خَلَتِ الدِّيارُ فسُدْتُ غيرَ مُسَوَّدِ . . . ومن العَناءِ تَفَرُّدي السُّؤْدُدِ

قال : " ونظيرُ السكوتِ على " لَمَّا " دونَ فعلها السكوتُ على " قد " دونَ فعلِها في قول النابغة : أَفِدَ الترحُّل : البيت " .

قلت : وهذا الوجهُ لا خصوصيةً له بهذه القراءة ، بل يجيءُ في قراءة مَنْ شدَّد " لمَّا " سواءً شدَّد " إن " أو خففها .

وأمَّا قراءةُ أبي عمرو والكسائي فواضحةٌ جداً ، فإنها " إنَّ " المشددة عَمِلَتْ عملها ، واللام الأولى لام الابتداء الداخلة على خبر " إنَّ " ، والثانية جواب قسم محذوف ، أي : وإنّ كلاًّ للذين واللَّهِ ليوفّينّهم ، وقد تقدَّم وقوعُ " ما " على العقلاء مقرّرًا ، ونظيرُ هذه الآيةِ قولُه تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ [النساء : 72] غير أنَّ اللامَ في " لَمَنْ " داخلة على الاسم ، وفي " لمَّا " داخلة على الخبر . وقال بعضهم : " ما " هذه زائدة زِيْدت للفصل بين اللامَيْن : لامِ التوكيد ولامِ القسم . وقيل : اللام في " لَمَا " موطئةٌ للقسم مثل اللامِ في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] ، والمعنى : وإنَّ جميعهم واللَّه ليوفّينّهم ربُّك أعمالَهم مِنْ حُسْنٍ وقُبْحٍ وإيمانٍ وجُحود .

وقال الفراء عند ذكره هذه القراءة : " جعَلَ " ما " اسماً للناس كما جاز ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَآءِ ﴾ [النساء : 3] ، ثم جعَلَ اللامَ التي فيها جواباً لإِنَّ ، وجعل اللامَ التي في " ليوفّينَّهم " لاماً دَخَلَتْ على نيةِ يمينٍ فيما بين " ما " وصلتِها كما تقول : " هذا مَنْ

لَيَذْهَبَنَّ" ، و"عندي ما لَغَيْرُه خيرٌ منه" ومثْلُه : ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ [النساء : 72] . ثم قال بعد ذلك ما يدلُّ على أن اللامَ مكررةٌ فقال : " إذا عَجَّلَت العربُ باللام في غيرِ موضعِها أعادُوها إليه نحو : إنَّ زيداً لإِليك لمُحْسن ، ومثْله :

2728 - ولو أنَّ قومي لم يكونوا أعِزَّةً . . . لبَعْدُ لَقَد لاقيتُ لا بُدَّ مَصْرَعا

(132/386)

قال : "أَدْخَلها في "بَعْد " ، وليس بموضعِها ، وسمعت أبا الجراح يقول : "إني لبحمد اللَّه لصالِحٌ" .

وقال الفارسي في توجيهِ هذه القراءة : " وجهُها بيِّن وهو أنه نَصَب "كلاً" بإنَّ ، وأدخل لامَ الابتداء في الخبر ، وقد دَخَلَتْ في الخبر لامٌ أخرى ، وهي التي يُتَلَقَّى بها القسم ، وتختص بالدخول على الفعل ، فلمَّا اجتمعت اللامان فُصِل بينهما كما فُصِل بين "إنَّ" واللامَ ، فدخَلَتْها وإن كانَتْ زائدةً للفصل ، ومثْلُه في الكلام : "إن زيداً لَمَا لينطلقَنَّ" .

فهذا ما تلخَّص لي من توجيهاتِ هذه القراءات الأربع ، وقد طعن بعض الناس في بعضها بما لا تَحَقُّق له ، فلا ينبغي أن يُلْتفت إلى كلامِه ، قال المبرد : وهي جراءةٌ منه "هذا لحنٌ" يعني تشديدَ "لمَّا" قال : "لأن العرب لا تقول : "إن زيداً لمَّا خارج" .

وهذا مردودٌ عليه . قال الشيخ : " وليس تركيبُ الآية كتركيبِ المثال الذي قال وهو : " إنَّ زيداً لَمَّا خارج " ، هذا المثالُ لحنٌ " / .

قلت : إنْ عنى أنه ليس مثلَه في التركيب من كل وجه فمُسَلَّم ، ولكن ذلك لا يفيد فيما نحن بصددِه ، وإن عنى أنه ليس مثلَه في كونه دخلت " لَمَّا " المشددةُ على خبر إنَّ فليس كذلك بل هو مثلُه في ذلك ، فتسليمُه اللحنَ في المثال المذكور ليس بصوابٍ ، لأنه يَسْتلزم ما لا يجوز أن يقال .

(133/386)

وقال أبو جعفر : " القراءةُ بتشديدهما عند أكثر النحويين لحن ، حُكِيَ عن محمد بن يزيد أنه قال : " إنَّ هذا لا يجوز ، ولا يقال : " إنَّ زيداً إلا لأضربنَّه " ، ولا " لَمَّا لأضربنَّه " . قال : " وقال الكسائي : اللَّهُ عَزَّ وجلَّ أعلم ، لا أعرف لهذه القراءة وجهاً " وقد تقدَّم ذلك ، وتقدَّم أيضاً أن الفارسي قال : " كما لا يحسن : " إنَّ زيداً إلا لمنطلق " ؛ لأنَّ " إلا " إيجاب بعد نفي ، ولم يتقدم هنا إلا إيجابٌ مؤكَّد ، فكذا لا يحسن " إنَّ زيداً لما منطلق " ، لأنه بمعناه ، وإنما ساغ " نَشَدْتُك بالله لَمَّا فعلت " إلى آخر ما ذكرته عنه . وهذه كلُّها أقوالٌ مرغوبٌ عنها لأنها معارِضة للمتواترِ القطعي .

وأمّا القراءات الشاذة فأوّلُها قراءةُ أُبَيّ ومَنْ تبعه: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَمَّا ﴾ بتخفيف "إنْ" ورفع "كل" على أنها إنْ النافية و"كلٌّ" مبتدأ، و"لَمَّا" مشددة بمعنى إلاَّ، و"لَيُوَفِّيَنَّهم" جوابُ قسمٍ محذوفٍ، وذلك القسمُ وجوابُه خبرُ المبتدأ. وهي قراءةٌ جليّة واضحةٌ كما قرؤوا كلُّهم: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ ﴾ [يس: 32] ومثلُه: ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ ﴾ [الزخرف: 35]، ولا التفاتَ إلى قولِ مَنْ نفى أنَّ "لَمَّا" بمنزلةِ إلاَّ فقد تقدَّمَتْ أدلتُه.

وأمّا قراءةُ اليزيدي وابن أرقم "لَمَّاً" بالتشديد منونةً ف"لَمَّاً" فيها مصدرٌ مِنْ قولهم: "لَمَمْتُه أي جمعته لَمَّاً"، ومنه قولُه تعالى: ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً ﴾ [الفجر: 19] ثم في تخريجه وجهان، أحدُهما ما قاله أبو الفتح، وهو أن يكونَ منصوباً بقوله: "ليوفينّهم" على حَدّ قولِهم: "قياماً لأقومَنَّ، وقعوداً لأقعدَنَّ" والتقدير: توفيةً جامعةً لأعمالهم ليوفِّيَنَّهم، يعني أنه منصوبٌ على المصدر الملاقي لعاملِه في المعنى دون الاشتقاق.

(134/386)

والثاني: ما قاله أبو عليّ الفارسي وهو: أن يكونَ وصفاً ل"كل" وصفاً بالمصدر مبالغةً، وعلى هذا فيجب أن يقدَّرَ المضافُ إليه "كل" نكرةً ليصحَّ وَصْفُ "كل" بالنكرة، إذ لو قُدِّر المضافُ معرفةً لتعرَّفَتْ "كل"، ولو تَعَرَّفَتْ لامتنع وَصْفُها بالنكرة فلذلك قُدِّر

المضافُ إليه نكرةً ، ونظيرُ ذلك قولُه تعالى :

﴿ وَتَأْكُلُونَ التراث أَكْلاً لَّمّاً ﴾ [الفجر : 19] ، فوقع " لَمَّاً " نعتاً ل " أكلاً " وهو نكرة .

قال أبو عليّ : " ولا يجوزُ أن يكونَ حالاً لأنه لا شيءَ في الكلامِ عاملٌ في الحال " .

[وظاهر عبارة الزمخشري أنه تأكيدٌ تابعٌ ل " كلاً " كما يتبعها أجمعون ، أو أنه منصوبٌ على النعت ل " كلاً "] فإنه قال : ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾ كقوله " أكلاً لَّمّاً " ملمومين بمعنى مجموعين ، كأنه قيل : وإنْ كلاً جميعاً ، كقوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر : 30] انتهى . لا يريد بذلك أنه تأكيدٌ صناعيٌّ ، بل فَسَّر معنى ذلك ، وأراد أنه صفةٌ ل " كلاً " ، ولذلك قَدَّره بمجموعين . وقد تقدَّم لك في بعضِ توجيهات " لَمَّا " بالتشديد من غير تنوين أن المنون أصلُها ، وإنما أُجري الوصلُ مُجرى الوقف ، وقد عُرِف ما فيه . وخبرُ " إنْ " على هذه القراءة هي جملة القسم المقدَّر وجوابه سواءً في ذلك تخريجُ أبي الفتح وتخريجُ شيخه .

وأمَّا قراءةُ الأعمش فواضحةٌ جداً وهي مفسرةٌ لقراءة الحسنِ المقدمة ، لولا ما فيها مِنْ مخالفة سواد الخط .

وأمَّا قراءةُ ما في مصحفِ أُبَي كما نقلها أبو حاتم فإنْ فيها نافية ، و " مِنْ " زائدةٌ " في النفي ، و " كل " مبتدأ ، و " ليوفِيَنَّهم " مع قَسَمه المقدَّر خبرُها ، فتَؤُول إلى قراءة الأعمش التي قبلها ، إذ يصير التقديرُ بدون " مِنْ " : ﴿ وإنْ كلٌ إلا ليوفِيَنَّهم ﴾ .

والتنوين في "كلاًّ" عوضٌ من المضافِ إليه . قال الزمخشري : "يعني : وإنّ كلَّهم ، وإنّ جميعَ المختلفين فيه" . وقد تقدَّم أنه على قراءةِ "لَمَّاً" بالتنوين في تخريج أبي علي له لا يُقَدَّر المضافُ إليه "كل" إلا نكرةً لأجل نعتِها بالنكرة .

وانظر إلى ما تضمَّنَتْه هذه الآيةُ الكريمة من التأكيد ، فمنها : التوكيد ب "إنَّ" و ب "كل" وبلام الابتداء الداخلة على خبر "إنَّ" وزيادةِ "ما" على رأيٍ ، وبالقسمِ المقدر وباللامِ الواقعةِ جواباً له ، وبنون التوكيد ، وبكونها مشددةً ، وإردافِها بالجملة التي بعدها من قوله ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فإنه يتضمَّن وعيداً شديداً للعاصي ووعداً صالحاً للطائع .

وقرأ/ العامّةُ "يعملون" بياء الغيبة ، جرياً على ما تقدَّمِ من المختلفين . وقرأ ابن هرمز "بما تعملون" بالخطاب فيجوز أن يكونَ التفاتاً من غَيْبة إلى خطاب ، ويكون المخاطبون هم الغيب المتقدِّمون ، ويجوز أن يكونَ التفاتاً إلى خطاب غيرهم .

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112) ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ : الكافُ في محل النصب : إمَّا على النعتِ لمصدرٍ محذوفٍ ، كما هو المشهورُ عند المعربين . قال الزمخشري : "أي : استقمْ استقامةً مثلَ الاستقامة

التي أُمِرْتَ بها على جادَّةِ الحقِّ غيرَ عادلٍ عنها " ، وإمَّا على الحال من ضمير ذلك المصدر . واستَفْعَل هنا للطلب كأنه قيل : اطلبْ الإِقامةَ على الدين ، قال : "كما تقول : استغفر ، أي : اطلب الغفران " .

(136/386)

قوله : ﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ في " مَنْ " وجهان أحدهُما : أنَّه منصوبٌ على المفعول معه ، كذا ذكره أبو البقاء ، ويصير المعنى : استقم مصاحباً لَمَنْ تاب مصاحباً لك ، وفي هذا المعنى نُبُوٌّ عن ظاهرِ اللفظ . الثاني : أنه مرفوعٌ ، فإنه نسق على المستتر في " استقم " ، وأغنى الفصلُ بالجارِّ عن تأكيده بضميرٍ منفصل في صحةِ العطف ، وقد تقدَّم لك هذا البحثُ في قوله ﴿ اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ ﴾ [البقرة : 35] وأنَّ الصحيحَ أنه من عطفِ الجمل لا من عطف المفردات ، ولذلك قدَّره الزمخشري : " فاستقم أنت وليستقم مَنْ تاب " فقدَّر الرافعَ له فعلاً لائقاً برفعِه الظاهرَ .

وقرأ العامَّةُ ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ بالتاء جرياً على الخطاب المتقدم .

وقرأ الحسن والأعمش وعيسى الثقفي بالياء للغيبة ، وهو التفاتٌ من خطابٍ لغيبةٍ عكسَ ما تقدم في ﴿ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [هود : 111] .

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (113) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولا تركنوا ﴾ : قرأ العامَّةُ بفتح التاء والكاف ، والماضي من هذا رِكن بكسر العين كعَلِم ، وهذه هي الفصحى ، كذا قال الأزهري . قال غيره : " وهي لغة قريش " . وقرأ أبو عمرو في روايةٍ " تِرْكَنوا " ، وقد تقدَّم إتقانُ ذلك أول هذا الموضوع .

(137/386)

وقرأ قتادة وطلحة والأشهب بن رميلة ورُوِيَتْ عن أبي عمرو " تَرْكُنوا " بضم العين ، وهو مضارع رَكَن بفتحها كقَتَل يَقْتُل . وقال بعضهم : " هو من التداخل " يعني أنَّ مَنْ نطق ب " رَكِنَ " بكسر العين قال : " يَرْكُن " بضمها ، وكان مِنْ حقه أَنْ يفتح ، فلما ضمَّا عَلِمْنا أنه اسْتَغْنى بلغةِ غيره في المضارع عن لغتِه ، وأمّا في هذه القراءةِ فلا ضرورة بنا إلى ادّعاء التداخُل بل نَدَّعي أنَّ مَنْ فَتَحَ الكافَ أخذه مِنْ رَكِن بالكسر ، ومَنْ ضمَّها أَخَذَه مِنْ رَكَن بالفتح ، ولذلك قال الراغب : " والصحيحُ أَنْ يُقال رَكِن يَرْكَن ، ورَكَن يَرْكُن ، بالكسر في الماضي مع الفتح في المضارع ، وبالفتح في الماضي مع الضم في المضارع " . وشَذَّ أيضاً قولُهم رَكَن يَرْكَن بالفتح فيهما وهو من التداخُل ، فتحصَّل مِنْ هذا أن يُقال : رَكِن بكسر العين

وهي اللغةُ العاليةُ كما تقدَّم، وركَن بفتحها وهي لغةُ قيسٍ وتميم، زاد الكسائي "ونَجْد"، وفي المضارع ثلاثٌ: الفتحُ والكسرُ والضمُّ.

وقرأ ابنُ أبي عبلة "تُرْكَنوا" مبنياً للمفعول مِنْ أَرْكَنه إذا أماله، فهو من باب "لا أُرَيَنَّك ههنا" و ﴿ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف: 2] وقد تقدَّم.

والرُّكُون: المَيْل، ومنه الرُّكْنُ للاستناد إليه.

قوله: ﴿ فَتَمَسَّكُمُ ﴾ هو منصوبٌ بإضمار أَنْ في جوابِ النهي. وقرأ ابن وثاب وعلقمة والأعمش في آخرين "فِتَمَسَّكم" بكسرِ التاء وقد تقدَّم.

قوله: ﴿ وَمَا لَكُمْ ﴾ هذه الجملةُ يجوز أن تكونَ حاليةً، أي: تَمَسَّكم حالَ انتفاءِ ناصركم. ويجوز أن تكون مستأنفة. و "مِنْ أولياء": "مِنْ" فيه زائدةٌ: إمَّا في الفاعل، وإما في المبتدأ؛ لأن الجارَّ إذا اعتمد على أشياءَ أحدُها النفي رفع الفاعل.

قوله: ﴿ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ العامَّةُ على ثبوتِ نونِ الرفع لأنه فعلٌ مرفوع، إذ هو من بابِ عطفِ الجمل، عَطَفَ جملةً فعليةً على جملةٍ اسمية. وقرأ زيد بن علي رضي اللَّه عنهما بحذفِ نونِ الرفع، عطفه على "تمسّكم"، والجملةُ على ما تقدَّم من الحاليةِ أو الاستئناف

فتكون معترضةً . وأتى ب " ثمَّ " تنبيهاً على تباعد الرتبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 396. 419 ﴾

(139/386)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (110) ﴾

اختلفوا في الكتاب الذي أوتي ، وهو التوراة .

واختلفوا في كونه رسولاً ، فمِنْ مُصَدِّقٍ ومِنْ مُكَذِّب .

ثم أخبر أنه - سبحانه - حَكَمَ بتأخير العقوبة ، ولولا حكمته لعجَّل لهم العقوبة .

وفائدةُ الآية من هذا التعريفِ التخفيفِ على المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فيما كان يلقاه من قومه من التكذيب ، ففي سماع قصة الأشكال - وبعضُهم من بعض - سلوة ، ولقد قيل :

أجارَتنا إنَّا غريبان ها هنا . . . وكلُّ غريبٍ للغريب نسيب

﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (111) ﴾

أعاد ذكر الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب، وكرَّر ذلك في القرآن في كثير من المواضع إبلاغاً في التحذير، وتنبيهاً على طريق الاعتبار بحسن التفكير.

ثم إن الجزاءَ على الأعمال معجَّلٌ ومؤجَّل، وكلُّ مَنْ أعرض عن الغفلة وجنَحَ إلى وصف التيقظ وجَدَ في معاملاته - عاجلاً - الربحَ لا الخُسران، وآجلاً الزيادةَ لا النقصان، وما يجده المرءُ في نفسه أتمُّ مما يدركه بعلمه بشواهد برهانه.

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112) ﴾

يحتمل أن تكون السين في الاستقامة سين الطلب؛ أي سَلْ من الله الإقامةَ لكَ على الحقّ.

ويحتمل أن تكون الإقامة في الأمر بمعنى أقام عليه.

وحقيقة الاستقامة على الطاعة المداومة على القيام بحقِّها من غير إخلالٍ بها، فلا يكون في سلوك نهجِ الوفاقِ انحرافٌ عنه.

ويقال المستقيمُ مَنْ لا ينصرف عن طريقه، يواصل سيره بمسراه، وورعه بتقواه ويتابع في ترك هواه.

ويقال استقامة النفوس في نفي الزَّلَّة ، واستقامة القلوب في نفي الغفلة ، واستقامة الأرواح بنفي العلاقة ، واستقامة الأسرار بنفي الملاحظة .

استقامة العابدين ألا يدخروا نفوسَهم عن العبادة وألا يُخِلُّوا بأدائها ، ويقضون عسيرَها ويسيرَها . واستقامة الزاهدين ألا يرجوا من دنياهم قليلها ولا كثيرها . واستقامة التائبين ألا يُلِمُّوا بعقوة زلة فَيَدَعْونَ صغيرَها وكبيرَها . . . وعلى هذا النحو استقامة كلّ أحدٍ .

قوله ﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ : أي فَلْيَستَقِمْ أيضاً مَنْ معك .

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (113) ﴾

لا تعملوا أعمالَهم ، ولا ترضوا بأعمالِهم ، ولا تمدحوهم على أعمالهم ، ولا تتركوا الأمرَ بالمعروف لهم ، ولا تأخذوا شيئاً من حرام أموالهم ، ولا تساكنوهم بقلوبكم ، ولا تخالطوهم ، ولا تعاشروهم . . . كل هذا يحتمله الأمرُ ، ويدخل تحت الخطاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 159 . 161﴾

(141/386)

فصل فى منزلة الاستقامة

قال ابن القيم :

ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الاستقامة

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصعلت: 30] وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف: 1314] وقال لرسوله: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: 112] فبين أن الاستقامة ضد الطغيان وهو مجاوزة الحدود فى كل شىء وقال تعالى: قل: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه [فصعلت: 6] وقال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن: 16] سئل صديق الأمة وأعظمها استقامة أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن الاستقامة فقال: أن لا تشرك بالله شيئا يريد الاستقامة على محض التوحيد

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: استقاموا: أخلصوا العمل لله وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عباس رضي الله عنهما: استقاموا أدوا الفرائض وقال الحسن: استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته وقال مجاهد: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: استقاموا على محبته وعبوديته فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك قال: قل آمنت بالله ثم استقم وفيه عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن

والمطلوب من العبد الاستقامة وهي السداد فإن لم يقدر عليها فالمقاربة فإن نزل عنها: فالتفريط والإضاعة كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها فأمر بالاستقامة وهي السداد والإصابة في

النيات والأقوال والأعمال وأخبر في حديث ثوبان: أنهم لا يطيقونها فنقلهم إلى المقاربة وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم كالذي يرمي إلى الغرض فإن لم يصبه يقاربه ومع هذا فأخبرهم: أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة فلا يركن أحد إلى عمله ولا يعجب به ولا يرى أن نجاته به بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله

(143/386)

فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات فالاستقامة فيها: وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة وربك يطالبك بالاستقامة

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله تعالى روحه يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة

فصل قال صاحب المنازل قدس الله روحه في قوله: ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت: 6] إنه إشارة إلى عين التفريد يريد: أنه أرشدهم إلى شهود تفريده وهو أن لا يروا غير فردانيته

وتفريده نوعان: تفريد في العلم والمعرفة والشهود وتفريد في الطلب والإرادة وهما نوعا التوحيد وفي قوله: عين التفريد إشارة إلى حال الجمع وأحديته التي هي عنده فوق علمه ومعرفته لأن التفرقة قد تجامع علم الجمع وأما حاله: فلا تجامعه التفرقة والله سبحانه وتعالى أعلم

فصل: قال: الاستقامة: روح تحيا به الأحوال كما تربو للعامة عليها

الأعمال وهي برزخ بين وهاد التفرق وروابي الجمع شبه الاستقامة للحال بمنزلة الروح للبدن فكما أن البدن إذا خلا عن الروح فهو ميت فكذلك الحال إذا خلا عن الاستقامة فهو فاسد وكما أن حياة الأحوال بها فزيادة أعمال الزاهدين أيضا وربوها وزكاؤها بها فلا زكاء للعمل ولا صحة للحال بدونها

وأما كونها برزخا بين وهاد التفرق وروابي الجمع ف البرزخ هو الحاجز بين شيئين متغايرين و الوهاد الأمكنة المنخفضة من الأرض واستعارها للتفرق لأنها تحجب من يكون فيها عن مطالعة ما يراه من هو على الروابى كما أن صاحب التفرق محجوب عن مطالعة ما يراه صاحب الجمع ويشاهده وأيضا فإن حاله أنزل من حاله فهو كصاحب الوهاد وحال صاحب الجمع أعلى فهو كصاحب الروابي وشبه حال صاحب الجمع بحال من على الروابي

لعلوه ولأن الروابي تكشف لمن عليها القريب والبعيد وصاحب الجمع تكشف له الحقائق المحجوبة عن صاحب التفرقة

إذا عرف هذا فمعنى كونها برزخا أن السالك يكون في أول سلوكه في أودية التفرقة سائرا إلى روابي الجمع فيستقيم في طريق سيره غاية الاستقامة ليصل باستقامته إلى روابي الجمع فاستقامته برزخ بين تلك التفرقة التي كان فيها وبين الجمع الذي يؤمه ويقصده وهذا بمنزلة تفرقة المقيم في البلد في أنواع التصرفات فإذا عزم على السفر وخرج وفارق البلد واستمر على السير: كان طريق سفره برزخا بين البلد الذي كان فيه والبلد الذي يقصده ويؤمه

فصل قال: وهي على ثلاث درجات الدرجة

الأولى: الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد لا عاديا رسم العلم ولا متجاوزا حد الإخلاص ولا مخالفا نهج السنة هذه درجة تتضمن ستة أمور: عملا واجتهادا فيه وهو بذل المجهود واقتصادا وهو السلوك بين طرفي الإفراط وهو الجور على النفوس والتفريط بالإضاعة ووقوفا مع ما يرسمه العلم لا وقوفا مع داعي الحال وإفراد المعبود بالإرادة وهو الإخلاص ووقوع الأعمال على الأمر وهو متابعة السنة فبهذه الأمور الستة تتم لأهل هذه الدرجة استقامتهم وبالخروج عن واحد منها يخرجون عن الاستقامة: إما خروجا كليا وإما خروجا جزئيا والسلف يذكرون هذين الأصلين كثيرا وهما الاقتصاد في الأعمال

والاعتصام بالسنة فإن الشيطان يشم قلب العبد ويختبره فإن رأى فيه داعية للبدعة وإعراضا عن كمال الانقياد للسنة: أخرجه عن الاعتصام بها وإن رأى فيه حرصا على السنة وشدة طلب لها: لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها فأمره بالاجتهاد والجور على النفس ومجاوزة حد الاقتصاد فيها قائلا له: إن هذا

خير وطاعة والزيادة والاجتهاد فيها أكمل فلا تفتر مع أهل الفتور ولا تنم مع أهل النوم فلا يزال يحثه ويحرضه حتى يخرجه عن الاقتصاد فيها فيخرج عن حدها كما أن الأول خارج عن هذا الحد فكذا هذا الآخر خارج عن الحد الآخر وهذا حال الخوارج الذين يحقر أهل الاستقامة صلاتهم مع صلاتهم وصيامهم مع صيامهم وقراءتهم مع قراءتهم وكلا الأمرين خروج عن السنة إلى البدعة لكن هذا إلى بدعة التفريط والإضاعة والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف

وقال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان إما إلى تفريط وإما إلى مجاوزة وهي الإفراط ولا يبالي بأيهما ظفر: زيادة أو نقصان وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "يا عبد الله بن عمرو إن لكل عامل شرة

ولكل شرة فترة فمن كانت فترته إلى سنة أفلح ومن كانت فترته إلى بدعة خاب وخسر "

قال له ذلك حين أمره بالاقتصاد في العمل

فكل الخير في اجتهاد باقتصاد وإخلاص مقرون بالاتباع كما قال بعض الصحابة: اقتصاد في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة فاحرصوا أن تكون أعمالكم على منهاج الأنبياء عليهم السلام وسنتهم وكذلك الرياء في الأعمال يخرجه عن الاستقامة والفتور والتواني يخرجه عنها أيضا

فصل قال: الدرجة الثانية: استقامة الأحوال وهي شهود الحقيقة لا كسبا ورفض الدعوى لا علما والبقاء مع نور اليقظة لا تحفظا

يعني أن استقامة الحال بهذه الثلاثة

أما شهود الحقيقة فالحقيقة حقيقتان: حقيقة كونية وحقيقة دينية يجمعهما حقيقة ثالثة وهي مصدرهما ومنشؤهما وغايتهما وأكثر أرباب السلوك من المتأخرين: إنما يريدون بالحقيقة الحقيقة الكونية وشهودها هو شهود تفرد الرب بالفعل وأن ما سواه محل جريان أحكامه وأفعاله فهو كالحفير الذي هو محل لجريان الماء حسب

وعندهم أن شهود هذه الحقيقة والفناء: فيها غاية السالكين

ومنهم: من يشهد حقيقة الأزلية والدوام وفناء الحادثات وطيها في ضمن بساط الأزلية والأبدية وتلاشيها في ذلك فيشهدها معدومة ويشهد تفرد موجدها بالوجود الحق بالحق وأن وجود ما سواه رسوم وظلال

فالأول: شهد تفرده بالأفعال وهذا شهد تفرده بالوجود وصاحب الحقيقة الدينية في طور آخر فإنه في مشهد الأمر والنهي والثواب والعقاب والموالاة والمعاداة والفرق بين ما يحبه الله ويرضاه وبين ما يبغضه ويسخطه فهو في مقام الفرق الثاني الذي لا يحصل للعبد درجة الإسلام فضلا عن مقام الإحسان إلا به

فالمعرض عنه صفحا لا نصيب له في الإسلام ألبتة وهو كالذي كان الجنيد يوصى به أصحابه فيقول: عليكم بالفرق الثاني وإنما سمى ثانيا لأن الفرق الأول: فرق بالطبع والنفس وهذا فرق بالأمر والجمع أيضا جمعان: جمع في فرق وهو جمع أهل الاستقامة والتوحيد وجمع بلا فرق وهو جمع أهل الزندقة والإلحاد

فالناس ثلاثة: صاحب فرق بلا جمع فهو مذموم ناقص مخذول وصاحب جمع بلا فرق وهو جمع أهل الزندقة والإلحاد فصاحبه ملحد زنديق

وصاحب فرق وجمع يشهد الفرق في الجمع والكثرة في الوحدة فهو المستقيم الموحد الفارق

وهذا صاحب الحقيقة الثالثة الجامعة للحقيقتين الدينية والكونية فشهود هذه الحقيقة الجامعة: هو عين الاستقامة

وأما شهود الحقيقة الكونية أو الأزلية والفناء فيها : فأمر مشترك بين المؤمنين والكفار فإن الكافر مقر بقدر الله وقضائه وأزليته وأبديته فإذا استغرق في هذا الشهود وفني به عن سواه: فقد شهد الحقيقة وأما قوله لا كسبا أي يتحقق عند مشاهدة الحقيقة: أن شهودها لم يكن بالكسب لأن الكسب من أعمال النفس فالحقيقة لا تبدو مع بقاء النفس إذ الحقيقة فردانية أحدية نورانية فلابد من زوال ظلمة النفس ورؤية كسبها وإلا لم يشهد الحقيقة وأما رفض الدعوى لا علما فالدعوى نسبة الحال وغيره إلى نفسك وإنيتك فالاستقامة لا تصح إلا بتركها سواء كانت حقا أو باطلا فإن الدعوى الصادقة تطفىء نور المعرفة فكيف بالكاذبة

وأما قوله: لا علما أي لا يكون الحامل له على ترك الدعوى مجرد علمه بفساد الدعوى ومنافاتها للاستقامة فإذا تركها يكون تركها لكون العلم قد نهى عنها فيكون تاركا لها ظاهرا لا حقيقة أو تاركا لها لفظا قائما بها حالا لأنه يرى أنه قد قام بحق العلم في تركها

فيتركها تواضعا بل يتركها حالا وحقيقة كما يترك من أحب شيئا تضره محبته حبه حالا وحقيقة وإذا تحقق أنه ليس له من الأمر شيء كما قال الله عز وجل لخير خلقه على الاطلاق: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: 128] ترك الدعوى شهودا وحقيقة وحالا

وأما البقاء مع نور اليقظة فهو الدوام في اليقظة وأن لا يطفىء نورها بظلمة الغفلة بل يستديم يقظته ويرى أنه في ذلك كالمجذوب المأخوذ عن نفسه حفظا من الله له لا أن ذلك حصل بتحفظه واحترازه

فهذه ثلاثة أمور: يقظة واستدامة لها وشهود أن ذلك بالحق سبحانه لا بك فليس سبب بقائه في نور اليقظة بحفظه بل بحفظ الله له وكأن الشيخ يشير إلى أن الاستقامة في هذه الدرجة لا تحصل بكسب وإنما هو مجرد موهبة من الله فإنه قال في الأولى: الاستقامة على الاجتهاد وفي الثانية استقامة الأحوال لا كسبا ولا تحفظا

(148/386)

ومنازعته في ذلك متوجهة وأن ذلك مما يمكن تحصيله كسبا بتعاطي الأسباب التي تهجم بصاحبها على هذا المقام

نعم الذي ينفي في هذا المقام: شهود الكسب وأن هذا حصل له بكسبه فنفي الكسب شيء ونفي شهوده شيء آخر

ولعل أن نشبع الكلام في هذا فيما يأتي إن شاء الله تعالى

فصل قال: الدرجة الثالثة: استقامة بترك رؤية الاستقامة وبالغيبة عن تطلب الاستقامة بشهود إقامة وتقويمه الحق هذه الاستقامة معناها : الذهول بمشهوده عن شهوده فيغيب بالمشهود المقصود سبحانه عن رؤية استقامته في طلبه فإن رؤية الاستقامة تحجبه عن حقيقة الشهود

وأما الغيبة عن تطلب الاستقامة فهو غيبته عن طلبها بشهود إقامة الحق للعبد وتقويمه إياه فإنه إذا شهد أن الله هو المقيم له والمقوم وأن استقامته وقيامه بالله لا بنفسه ولا بطلبه: غاب بهذا الشهود عن استشعار طلبه لها

وهذا القدر من موجبات شهود معنى اسمه القيوم وهو الذي قام بنفسه فلم يحتج إلى أحد وقام كل شيء به فكل ما سواه محتاج إليه بالذات وليست حاجته إليه معللة بحدوث كما يقول المتكلمون ولا بإمكان كما يقول الفلاسفة المشاءون بل حاجته إليه ذاتية وما بالذات لا يعلل

نعم الحدوث والإمكان دليلان على الحاجة فالتعليل بهما من باب التعريف لا من باب العلل المؤثرة والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿المدارج حـ 2 صـ 103.112﴾

قوله تعالى ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (114) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (115) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان العلم حاصلاً بما سبق من الحكم من أن الآدمي محل العجز والتقصير، أتبع ذلك بأعلى مكفر لما يوجبه العجز ويقضي به الفتور والوهن من الصغائر وأعمه وأجلبه للاستقامة، وذلك يدل على أنها بعد الإيمان أفضل العبادات، فقال تعالى : ﴿ وأقم الصلاة ﴾ أي اعملها على استواء ﴿ طرفي النهار ﴾ بالصبح والعصر كما كان مفروضاً بمكة في أول الأمر قبل الإسراء، ويمكن أن يراد مع ذلك الظهر لأنها من الطرف الثاني ﴿ وزُلفاً ﴾ أي طوائف ودرجات وأوقات، جمع زلفة ﴿ من الّيل ﴾ يمكن أن يكون المراد به التهجد ، فقد كان مفروضاً في أول الإسلام، ويمكن أن يراد المغرب والعشاء مع الوتر أو التهجد ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إن الحسنات ﴾ أي الطاعات كلها الصلاة وغيرها المبنية على أساس الإيمان ﴿ يذهبن السيئات ﴾ أي الصغائر، وأما الكبائر التي يعبر عنها

بالفواحش ونحوه فقد تقدم في قصة شعيب عليه السلام عند قوله ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ أنه لا يكفرها إلا التوبة لما فيها من الإشعار بالتهاون بالدين ، واجتنابها لا يكفر إلا إذا كان عن نية صالحة كما أفهمه صيغة الافتعال من قوله

﴿ إن تجتنبوا ﴾ [النساء : 30] ؛ روى البخاري في التفسير عن ابن مسعود ـ رضى الله عنهم ـ " أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة ، فأتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكر له ذلك فأنزل الله عليه ﴿ أقم الصلاة طرفي النهار ﴾ – الآية ، قال الرجل : ألي هذه ؟ قال : لمن عمل بها من أمتي " وهذا الحديث يؤيد قول ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : إن هذه الآية من هذه السورة المكية المدنية .

(150/386)

ولما تم هذا على هذا الوجه الأعلى والترتيب الأولى ، قال تعالى مادحاً له ليعرف مقداره فيلزم : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العالي الرتبة الذي تقدم من الترغيب والترهيب والتسلية وتعليم الداء والدواء للخلاص من الشقاء ﴿ ذكرى ﴾ أي ذكر عظيم ﴿ للذاكرين ﴾ أي لمن فيه أهلية الذكر والانتباه به بحضور القلب وصفاء الفكر ونفوذ الفهم .

ولما كان الصبر لله على المكاره أعلى الطاعة ، أتبع ذلك قوله : ﴿ واصبر ﴾ أي ليكن

منك صبر على الطاعات وعن المعاصي ولا تترك إنذارهم بما أمرت به مهما كان ولا تخفهم ، فإن العاقبة لك إذا فعلت ؛ ولما كان المقام الصبر صعباً والاستقامة على المحمود منه خاصة خطراً ، وكانت النفس – لما لها من الجزع في كثير من الأحوال – كالمنكرة ، أكدَّ قوله : ﴿ فإن ﴾ الصبر هو الإحسان كل الإحسان وإن ﴿ الله ﴾ أي المحيط بصفات الكمال ﴿ لا يضيع ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ أجر المحسنين ﴾ أي العريقين في وصف الإحسان بحيث إنهم يعبدون الله كأنهم يرونه ، فلذلك يهون عليهم الصبر ، ولذلك لأن الطاعة كلفة فلا تكون إلا بالصبر ، وكل ما عداها فهو هوى النفس لا صبر فيه ، فالدين كله صبر " حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات " ولذا فضل ثواب الصابر ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ [الزمر : 10] والصبر المحمود : حبس النفس عن الخروج إلى ما لا يجوز من ترك الحق ، ونقيضه الجزع ، قال الشاعر :

إن تصبر فالصبر خير مغبةً . . .

وإن تجزعا فالأمر ما تريان

وهو من الصبر الذي هو المر المعروف لأنه تجرع مرارة الحق بحبس النفس عن الخروج إلى المشتهى مع الزاجر المعتبر من الشرع والعقل ، فهو أكره شيء إلى النفس ، والمعين عليه ما في استشعار لزوم الحق من العز والأجر بالطاعة والعلم بما يعقب من الخير في كل وجه وعادة

النفس له ، وقد غلب إطلاقه على الحق حتى لا يجوز إطلاقه إلا فيه – قاله الرماني . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 3 صـ 586 . 588﴾

(151/386)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما أمره بالاستقامة أردفه بالأمر بالصلاة وذلك يدل على أن أعظم العبادات

بعد الإيمان بالله هو الصلاة وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

رأيت في بعض "كتب القاضي أبي بكر الباقلاني" أن الخوارج تمسكوا بهذه الآية في إثبات أن

الواجب ليس إلا الفجر والعشاء من وجهين .

الوجه الأول : أنهما واقعان على طرفي النهار والله تعالى أوجب إقامة الصلاة طرفي النهار ،

فوجب أن يكون هذا القدر كافياً .

فإن قيل : قوله : ﴿ وَزُلَفاً مّنَ الليل ﴾ يوجب صلوات أخرى .

قلنا : لا نسلم فإن طرفي النهار موصوفان بكونهما زلفاً من الليل فإن ما لا يكون نهاراً يكون ليلاً غاية ما في الباب أن هذا يقتضي عطف الصفة على الموصوف إلا أن ذلك كثير في القرآن والشعر .

الوجه الثاني : أنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ وهذا يشعر بأن من صلى طرفي النهار كان إقامتهما كفارة لكل ذنب سواهما فبتقدير أن يقال إن سائر الصلوات واجبة إلا أن إقامتهما يجب أن تكون كفارة لترك سائر الصلوات .

واعلم أن هذا القول باطل بإجماع الأمة فلا يلتفت إليه .

المسألة الثانية :

كثرت المذاهب في تفسير طرفي النهار والأقرب أن الصلاة التي تقام في طرفي النهار وهي الفجر والعصر ، وذلك لأن أحد طرفي النهار طلوع الشمس والطرف الثاني منه غروب الشمس فالطرف الأول هو صلاة الفجر والطرف الثاني لا يجوز أن يكون صلاة المغرب لأنها داخلة تحت قوله : ﴿ وَزُلَفاً مِّنَ الليل ﴾ فوجب حمل الطرف الثاني على صلاة العصر .

إذا عرفت هذا كانت الآية دليلاً على قول أبي حنيفة رحمه الله في أن التنوير بالفجر أفضل ، وفي أن تأخير العصر أفضل وذلك لأن ظاهر هذه الآية يدل على وجوب إقامة الصلاة في طرفي النهار وبينا أن طرفي النهار هما الزمان الأول لطلوع الشمس ، والزمان الثاني لغروبها ، وأجمعت الأمة على أن إقامة الصلاة في ذلك الوقت من غير ضرورة غير مشروعة ، فقد تعذر العمل بظاهر هذه الآية ، فوجب حمله على المجاز ، وهو أن يكون المراد : أقم الصلاة في الوقت الذي يقرب من طرفي النهار ، لأن ما يقرب من الشيء يجوز أن يطلق عليه اسمه ، وإذا كان كذلك فكل وقت كان أقرب إلى طلوع الشمس وإلى غروبها كان أقرب إلى ظاهر اللفظ ، وإقامة صلاة الفجر عند التنوير أقرب إلى وقت الطلوع من إقامتها عند التغليس ، وكذلك إقامة صلاة العصر عندما يصير ظل كل شيء مثليه أقرب إلى وقت الغروب من إقامتها عندما يصير ظل كل شيء مثله ، والمجاز كلما كان أقرب إلى الحقيقة كان حمل اللفظ عليه أولى ، فثبت أن ظاهر هذه الآية يقوي قول أبي حنيفة في هاتين المسألتين .

وأما قوله : ﴿ وَزُلَفاً مِّنَ الليل ﴾ فهو يقتضي الأمر بإقامة الصلاة في ثلاث زلف من الليل ، لأن أقل الجمع ثلاثة وللمغرب والعشاء وقتان ، فيجب الحكم بوجوب الوتر حتى يحصل زلف ثلاثة يجب إيقاع الصلاة فيها ، وإذا ثبت وجوب الوتر في حق النبي صلى الله عليه وسلم وجب في حق غيره لقوله تعالى : ﴿ واتبعوه ﴾ [سبأ : 20] ونظير هذه الآية بعينها قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [

طه : 30] فالذي هو قبل طلوع الشمس هو صلاة الفجر ، والذي هو قبل غروبها هو صلاة العصر .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءانَاء الليل فَسَبّحْ ﴾ وهو نظير قوله : ﴿ وَزُلَفاً مّنَ الليل ﴾ .

المسألة الثالثة :

(153/386)

قال المفسرون : نزلت هذه الآية في رجل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما تقولون في رجل أصاب من امرأة محرمة كلما يصيبه الرجل من امرأته غير الجماع ، فقال عليه الصلاة والسلام : " ليتوضأ وضوءاً حسناً ثم ليقم وليصل " فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فقيل للنبي عليه الصلاة والسلام : هذا له خاصة ، فقال : " بل هو للناس عامة " وقوله : ﴿ وَزُلَفاً مّنَ الليل ﴾ قال الليث : زلفة من أول الليل طائفة ، والجمع الزلف .

قال الواحدي : وأصل الكلمة من الزلفى والزلفى هي القربى ، يقال : أزلفته فازدلف أي قربته فاقترب .

المسألة الرابعة :

قال صاحب "الكشاف" : قرىء ﴿ زلفاً ﴾ بضمتين و ﴿ زلفاً ﴾ بإسكان اللام وزلفى

بوزن قربى فالزلف جمع زلفة كظلم جمع ظلمة والزلف بالسكون نحو بسرة وبسر والزلف بضمتين نحو : يسر في يسر ، والزلفى بمعنى الزلفة كما أن القربى بمعنى القربة وهو ما يقرب من آخر النهار من نحو : يسر في يسر ، والزلفى بمعنى الزلفة كما أن القربى بمعنى القربة وهو ما يقرب من آخر النهار من الليل ، وقيل في تفسير قوله : ﴿ وَزُلَفاً مِّنَ الليل ﴾ وقرباً من الليل ، ثم قال : ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في تفسير الحسنات قولان : الأول : قال ابن عباس : المعنى أن الصلوات الخمس كفارات لسائر الذنوب بشرط الاجتناب عن الكبائر .

والثاني : روي عن مجاهد أن الحسنات هي قول العبد سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

المسألة الثانية :

احتج من قال إن المعصية لا تضر مع الإيمان بهذه الآية وذلك لأن الإيمان أشرف الحسنات وأجلها وأفضلها .

ودلت الآية على أن الحسنات يذهبن السيئات ، فالإيمان الذي هو أعلى الحسنات درجة يذهب الكفر الذي هو أعلى درجة في العصيان فلأن يقوى على المعصية التي هي أقل

السيئات درجة كان أولى ، فإن لم يفد إزالة العقاب بالكلية فلا أقل من أن يفيد إزالة العذاب الدائم المؤبد .

(154/386)

ثم قال تعالى : ﴿ ذلك ذكرى للذكرين ﴾ فقوله : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى قوله : ﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ إلى آخرها ﴿ ذكرى للذكرين ﴾ عظة للمتعظين وإرشاد للمسترشدين .

ثم قال : ﴿ واصبر فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ قيل على الصلاة وهو كقوله : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا ﴾ [طه : 132] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 58 ـ 60 ﴾

(155/386)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ إنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ .

فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ قَالَ : ﴿ جَاءَ رَجُلٌ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : إنِّي عَالَجْتُ امْرَأَةً فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ ، وَإِنِّي أَصَبْت مِنْهَا مَا دُونَ أَنْ أَمَسَّهَا ، وَهَا أَنَا فَاقْضِ فِي بِمَا قَضَيْت .

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : لَقَدْ سَتَرَك اللَّهُ لَوْ سَتَرْت عَلَى نَفْسِك .

فَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهِ شَيْئًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ فَأُنْزِلَتْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ ﴾ .

فَأَتْبَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا فَدَعَاهُ فَتَلَا عَلَيْهِ : ﴿ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ ﴾ .

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ : هَذَا لَهُ خَاصَّةً .

فَقَالَ : بَلْ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ عَامَّةً ﴾ .

وَهَذَا صَحِيحٌ رَوَاهُ الْأَئِمَّةُ كُلُّهُمْ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : وَأَقِمْ الصَّلَاةَ هَذِهِ الْآيَةُ تَضَمَّنَتْ ذِكْرَ الصَّلَاةِ وَهِيَ فِي كِتَابِ اللَّهِ سَبْعُ آيَاتٍ مُتَضَمِّنَةٍ ذِكْرَ الصَّلَاةِ هَذِهِ هِيَ الْآيَةُ الْأُولَى .

الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَقِمْ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ .

الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ إلَى : ﴿ تَرْضَى ﴾ .

الرَّابِعَةُ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك ﴾ إلَى : ﴿ السُّجُودِ ﴾ .

الْخَامِسَةُ: قَوْلُه تَعَالَى: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ إلَى: ﴿ تُظْهِرُونَ ﴾.

السَّادِسَةُ: قَوْلُه تَعَالَى: ﴿ وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّك بُكْرَةً وَأَصِيلًا وَمِنْ اللَّيْلِ ﴾.

وَقَدْ جَاءَ ذِكْرُ بَعْضِ الصَّلَاةِ فِيهَا، وَهَذِهِ الْآيَاتُ السِّتُّ هِيَ الْمُسْتَوْفِيَةُ لِجَمِيعِهَا، وَكُلُّ آيَةٍ مِنْهَا تَأْتِي مَشْرُوحَةً فِي مَكَانِهَا إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: اُخْتُلِفَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ: أَنَّهَا تَضَمَّنَتْ صَلَاةَ الْغَدَاةِ وَصَلَاةَ الْعَشِيِّ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ.

الثَّانِي: أَنَّهَا تَضَمَّنَتْ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ وَالْمَغْرِبَ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ وَابْنُ زَيْدٍ.

الثَّالِثُ: تَضَمَّنَتْ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ.

وَاخْتَلَفُوا فِي صَلَاةِ طَرَفَيْ النَّهَارِ وَصَلَاةِ اللَّيْلِ اخْتِلَافًا لَا يُؤَثِّرُ، فَتَرَكْنَا اسْتِيفَاءَهُ، وَالْإِشَارَةُ إلَيْهِ أَنَّ طَرَفَيْ النَّهَارِ الظُّهْرُ وَالْمَغْرِبُ.

الثَّانِي: أَنَّهُمَا الصُّبْحُ وَالْمَغْرِبُ.

الثَّالِثُ: أَنَّهَا الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ، وَكَذَلِكَ أَفْرَدُوا بِالِاخْتِلَافِ زُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ، فَمِنْ قَائِلٍ: إنَّهَا الْعَتَمَةُ، وَمِنْ قَائِلٍ: إنَّهَا الْمَغْرِبُ وَالْعَتَمَةُ وَالصُّبْحُ.

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : لَا خِلَافَ أَنَّهَا تَضَمَّنَتْ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ ، فَلَا يَضُرُّ الْخِلَافُ فِي تَفْصِيلِ تَأْوِيلِهَا بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ وَالزُّلَفِ ، فَإِذَا أَرَدْنَا سُلُوكَ سَبِيلِ التَّحْقِيقِ قُلْنَا : أَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّ طَرَفَيْ النَّهَارِ الصُّبْحُ وَالْمَغْرِبُ فَقَدْ أَخْرَجَ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ عَنْهَا .

(157/386)

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهَا الصُّبْحُ وَالظُّهْرُ فَقَدْ أَسْقَطَ الْعَصْرَ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ الْعَصْرُ وَالصُّبْحُ فَقَدْ أَسْقَطَ الظُّهْرَ .

وَالَّذِي نَخْتَارُهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي النَّهَارِ مِنْ الصَّلَوَاتِ إلَّا الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ ، وَبَاقِيهَا فِي اللَّيْلِ ، فَزُلَفُ اللَّيْلِ ثَلَاثٌ : فِي ابْتِدَائِهِ ، وَهِيَ الْمَغْرِبُ ، وَفِي اعْتِدَالِ فَحْمَتِهِ ، وَهِيَ الْعِشَاءُ ، وَعِنْدَ انْتِهَائِهِ وَهِيَ الصُّبْحُ .

وَأَمَّا طَرَفَا النَّهَارِ فَهُمَا الدُّلُوكُ وَالزَّوَالُ وَهُوَ طَرَفُهُ الْأَوَّلُ ، وَالدُّلُوكُ الْغُرُوبُ ، وَهُوَ طَرَفُهُ الثَّانِي .

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { مَنْ أَدْرَكَ رَكْعَةً مِنْ الْعَصْرِ قَبْلَ أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ فَقَدْ أَدْرَكَ الْعَصْرَ } .

وَالْعَجَبُ مِنْ الطَّبَرِيِّ الَّذِي يَقُولُ : إنَّ

طَرَفَيْ النَّهَارِ الصُّبْحُ وَالْمَغْرِبُ وَهُمَا طَرَفَا اللَّيْلِ ، فَقَلَبَ الْقَوْسَ رَكْوَةً ، وَحَادَ مِنْ الْبُرْجَاسِ غَلْوَةً .

قَالَ الطَّبَرِيُّ : وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ إجْمَاعُ الْجَمِيعِ عَلَى أَنَّ أَحَدَ الطَّرَفَيْنِ الصُّبْحُ ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الطَّرَفَ الْآخَرَ الْمَغْرِبُ ، وَلَمْ يُجْمِعْ مَعَهُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ ، وَإِنَّ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ : إنَّهَا الصُّبْحُ وَالْعَصْرُ أَنْجَبُ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ﴾ .

وَقَدْ قَرَنَهَا [بِهَا] فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ وَالرَّابِعَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَالَ شُيُوخُ الصُّوفِيَّةِ : إنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْآيَةِ اسْتِغْرَاقُ الْأَوْقَاتِ بِالْعِبَادَاتِ نَفْلًا وَفَرْضًا .

(158/386)

وَهَذَا ضَعِيفٌ ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَتَنَاوَلْ ذَلِكَ لَا وَاجِبًا فَإِنَّمَا خَمْسُ صَلَوَاتٍ ، وَلَا نَفْلًا فَإِنَّ الْأَوْرَادَ مَعْلُومَةٌ ، وَأَوْقَاتُ النَّوَافِلِ الْمُرَغَّبِ فِيهَا مَحْصُورَةٌ ، وَمَا سِوَاهَا مِنْ الْأَوْقَاتِ يَسْتَرْسِلُ عَلَيْهِ النَّدْبُ عَلَى الْبَدَلِ لَا عَلَى الْعُمُومِ ؛ فَلَيْسَ ذَلِكَ فِي قُوَّةِ بَشَرٍ .

وَقَدْ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهَا الصَّلَاةُ الْمَكْتُوبَةُ .

وَقَدْ رَوَى مَالِكٌ عَنْ هِشَامٍ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ أَنَّهُ جَلَسَ عَلَى

الْمَقَاعِدِ فَجَاءَ الْمُؤَذِّنُ ، فَأَذَّنَ بِصَلَاةِ الْعَصْرِ ، فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ ، ثُمَّ قَالَ : وَاَللَّهِ لَأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا لَوْلَا آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُكُمُوهُ ، ثُمَّ قَالَ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ ، ثُمَّ يُصَلِّي الصَّلَاةَ إلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّلَاةِ الْأُخْرَى حَتَّى يُصَلِّيَهَا ﴾ .

قَالَ عُرْوَةُ : أُرَاهُ يُرِيدُ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا ﴾ .

وَقَالَ مَالِكٌ : أُرَاهُ يُرِيدُ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ أَقِمْ الصَّلَاةَ ﴾ .

فَعَلَى قَوْلِ عُرْوَةَ يَعْنِي عُثْمَانَ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيَّ كِتْمَانَ الْعِلْمِ لَمَا ذَكَرْته .

وَعَلَى قَوْلِ مَالِكٍ [يَعْنِي عُثْمَانَ] : لَوْلَا أَنَّ مَعْنَى مَا أَذْكُرُهُ لَكُمْ مَذْكُورٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا ذَكَرْته لِئَلَّا تَتَّهِمُونِي .

(159/386)

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ إنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ قَالَ ابْنُ الْمُسَيِّبِ ، وَمُجَاهِدٌ ، وَعَطَاءٌ ، هِيَ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، وَاَللَّهُ أَكْبَرُ .

وَقَالَ جَمَاعَةٌ : هِيَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ ، وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ ، وَعَلَيْهِ يَدُلُّ أَوَّلُ الْآيَةِ فِي ذِكْرِ الصَّلَاةِ

، فَعَلَيْهِ يَرْجِعُ آخِرُهَا ، وَعَلَيْهِ يَدُلُّ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ : ﴿ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ ، وَالْجُمُعَةُ إلَى الْجُمُعَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اُجْتُنِبَتْ الْمَقْتَلَةُ ﴾ .

وَرُوِيَ : ﴿ مَا اُجْتُنِبَتْ الْكَبَائِرُ ﴾ .

وَكُلُّ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْرَضَ عَنْهُ وَأُقِيمَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ بِالْآيَةِ فَدَعَاهُ فَقَالَ لَهُ : أَشَهِدْتَ مَعَنَا الصَّلَاةَ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : اذْهَبْ فَإِنَّهَا كَفَّارَةٌ لِمَا فَعَلْت ﴾ وَرُوِيَ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ قَالَ لَهُ : قُمْ فَصَلِّ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ ﴾ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(160/386)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾

أما الطرف الأول فصلاة الصبح باتفاق وأما الطرف الثاني ففيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه عنى صلاة الظهر والعصر ، قاله مجاهد .

الثاني : صلاة العصر وحدها ، قاله الحسن .

الثالث : صلاة المغرب ، قاله ابن عباس .

﴿ وزلفاً من الليل ﴾ والزلف جمع زلفة ، والزلفة المنزلة ، فكأنه قال ومنازل من الليل ، أي ساعات من الليل ، وقيل إنما سميت مزدلفة من ذلك لأنها منزل بعد عرفة ، وقيل سميت بذلك لازدلاف آدم من عرفة إلى حواء وهي بها ، ومنه قول العجاج في صفة بعير :

ناجٍ طواه الأين مما وجفا . . . طيَّ الليالي زُلَفاً فزلفا

وفي معنى ﴿ زلفاً من الليل ﴾ قولان :

أحدهما : صلاة العشاء الآخرة ، قاله ابن عباس ومجاهد .

الثانية : صلاة المغرب والعشاء والآخرة ، قاله الضحاك ولحسن ورواه مرفوعاً .

﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ في هذا الحسنات أربعة أقاويل :

أحدها : الصلوات الخمس ، قاله ابن عباس والحسن وابن مسعود والضحاك .

الثاني : هي قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، قاله مجاهد قال عطاء : وهن الباقيات الصالحات .

الثالث : أن الحسنات المقبولة يذهبن السيئات المغفورة .

الرابع : أن الثواب الطاعات يذهبن عقاب المعاصي .

﴿ ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : توبة للتائبين ، قاله الكلبي .

الثاني : بيان للمتعظين ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " واتبع السيئة الحسنة تمحها

" وسبب نزول هذه الآية ما روى الأسود عن ابن مسعود قال : جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني عالجت امرأة في بعض أقطار المدينة فأصبت منها دون أن أمسّها وأنا هذا فاقض فيّ ما شئت . فقال له عمر : لقد سترك الله لو سترت على نفسك . ولم يردّ عليه النبي صلى الله عيله وسلم شيئاً . فنزلت هذه الآية : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذركى للذاكرين ﴾ فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها عليه فقال عمر : يا رسول الله أله خاصة أم للناس كافة ؟ فقال : " بل للناس كافة " قال أبو موسى طمحان : إن هذا الرجل أبو اليسر الأنصاري وقال ابن عابس هو عمرو بن غزية الأنصاري ، وقال مقاتل : هو عامر بن قيس الأنصاري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ الآية

لم يختلف أحد في أن ﴿ الصلاة ﴾ في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة ، واختلف في ﴿ طرفي النهار ﴾ وزلف الليل فقيل : الطرف الأول الصبح ، والثاني الظهر والعصر والزلف المغرب والعشاء ، قاله مجاهد ومحمد بن كعب القرظي وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في المغرب والعشاء :

" هما زلفتا الليل " وقيل : الطرف الأول : الصبح ، والثاني : العصر ، قاله الحسن وقتادة والضحاك ، والزلف : المغرب والعشاء ، وليست الظهر في هذه الآية على هذا القول - بل هي في غيرها ، وقيل الطرفان : الصبح والمغرب - قاله ابن عباس والحسن - أيضاً - والزلف : العشاء ، وليست في الآية الظهر والعصر . وقيل : الطرفان : الظهر والعصر ، والزلف : المغرب والعشاء والصبح .

قال القاضي أبو محمد : كأن هذا القائل راعى جهر القراءة ، والأول أحسن هذه الأقوال عندي ورجح الطبري أن الطرفين : الصبح والمغرب ، وأنه الظاهر ، إلا أن عموم الصلوات الخمس بالآية أولى .

وقرأ الجمهور " زلَفاً " بفتح اللام ، وقرأ طلحة بن مصرف وابن محيصن وعيسى وابن

إسحاق وأبو جعفر " زلُفاً " بضم اللام كأنه اسم مفرد . وقرأ " زلْفاً " بسكون اللام مجاهد ، وقرأ أيضاً : " زلفى " على وزن - فعلى - وهي قراءة ابن محيصن . والزلف : الساعات القريب بعضها من بعض . ومنه قول العجاج : [الرجز]

ناج طواه الأين مما وجفا . . . طي الليالي زلفاً فزلفا

سماوة الهلال حتى احقوقفا . . . وقوله ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ ، ذهب جمهور المتأولين من صحابة وتابعين إلى أن ﴿ الحسنات ﴾ يراد بها الصلوات الخمس - وإلى هذه الآية ذهب عثمان - رضي الله عنه - عند وضوئه على المقاعد وهو تأويل مالك ، وقال مجاهد : ﴿ الحسنات ﴾ : قول الرجل : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

(163/386)

قال القاضي أبو محمد : وهذا كله إنما هو على جهة المثال في الحسنات ، ومن أجل أن الصلوات الخمس هي أعظم الأعمال ، والذي يظهر أن لفظ الآية لفظ عام في الحسنات خاص في السيئات بقوله عليه السلام : " ما اجتنبت الكبائر " .

وروي أن هذه الآية نزلت في رجل من الأنصار ، قيل : هو أبو اليسر بن عمرو ، وقيل : اسمه

عباد ، خلا بامرأة فقبلها وتلذّذ بها فيما دون الجماع ، ثم جاء إلى عمر فشكا إليه ، فقال : قد ستر الله عليك فاستر على نفسك ، فقلق الرجل فجاء أبا بكر فشكا إليه ، فقال له مثل مقالة عمر ، فقلق الرجل فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصلى معه ، ثم أخبره وقال : اقض فيَّ ما شئت ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لعلها زوجة غاز في سبيل الله ، قال : نعم ، فوبخه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ما أدري ، فنزلت هذه الآية ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلاها عليه : فقال معاذ بن جبل : يا رسول الله خاصة ؟ قال : بل للناس عامة . وروي أن الآية كانت نزلت قبل ذلك واستعملها رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الرجل وروي أن عمر قال ما حكي عن معاذ .

قال القاضي أبو محمد : وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الجمعة إلى الجمعة ، والصلوات الخمس ، ورمضان إلى رمضان – كفارة لما بينها إن اجتنبت الكبائر " فاختلف أهل السنة في تأويل هذا الشرط في قوله : " إن اجتنبت الكبائر " ، فقال جمهورهم : هو شرط في معنى الوعد كله ، أي إن اجتنبت الكبائر كانت العبادات المذكورة كفارة للذنوب ، فإن لم تجتنب لم تكفر العبادات شيئاً من الصغائر . وقالت فرقة : معنى قوله إن اجتنبت : أي هي التي لا تحطها العبادات ، فإنما شرط ذلك ليصح بشرطه عموم قوله : ما بينهما ، وإن لم تحطها العبادات وحطت الصغائر .

قال القاضي أبو محمد : وبهذا أقول وهو الذي يقتضيه حديث خروج الخطايا مع قطر الماء وغيره ؛ وذلك كله بشرط التوبة من تلك الصغائر وعدم الإصرار عليها ، وهذا نص الحذاق الأصوليين . وعلى التأويل الأول تجيء هذه مخصوصة في مجتنبي الكبائر فقط .

وقوله ذلك إشارة إلى الصلوات ، ووصفها ب ﴿ ذكرى ﴾ ، أي هي سبب ذكر وموضع ذكرى ، ويحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى الإخبار ب ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ ، فتكون هذه الذكرى تحض على الحسنات ، ويحتمل أن تكن الإشارة إلى جميع ما تقدم من الأوامر والنواهي في هذه السورة ، وهو تفسير الطبري .

ثم أمره تعالى بالصبر ، وجاءت هذه الآيات في نمط واحد : أعلمه الله تعالى أنه يوفي جميع الخلائق أعمالهم المسيء والمحسن ، ثم أمره بالاستقامة والمؤمنين معه ، ثم أمره بإقامة الصلوات ووعد على ذلك ثم أمره بالصبر على التبليغ والمكاره في ذات الله تعالى ، ثم وعد بقوله : ﴿ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار ﴾ لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة ؛ وخصها بالذكر لأنها ثانية الإيمان ، وإليها يفزع في النوائب ؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَه أمر فزع إلى الصلاة .

وقال شيوخ الصوفية : إن المراد بهذه الآية استغراق الأوقات بالعبادة فرضاً ونفلاً ؛ قال ابن العربي : وهذا ضعيف ، فإن الأمر لم يتناول ذلك إلا واجباً لا نفلاً ، فإن الأوراد معلومة ، وأوقات النوافل المرغّب فيها محصورة ، وما سواها من الأوقات يسترسل عليها الندب على البدل لا على العموم ، وليس ذلك في قوة بشر .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ طَرَفَيِ النهار ﴾ قال مجاهد : الطرف الأول صلاة الصبح ، والطرف الثاني صلاة الظهر والعصر ؛ واختاره ابن عطية .

وقيل : الطرفان الصبح والمغرب ؛ قاله ابن عباس والحسن .

وعن الحسن أيضاً : الطرف الثاني العصر وحده ؛ وقاله قتادة والضحّاك .

وقيل : الطّرفان الظهر والعصر .

والزُّلَف المغرب والعشاء والصبح ؛ كأن هذا القائل راعى جهر القراءة .

وحكى الماورديّ أن الطرف الأوّل صلاة الصبح باتفاق .

قلت : وهذا الاتفاق ينقصه القول الذي قبله .

ورجح الطّبري أن الطرفين الصبح والمغرب ، وأنه ظاهر ؛ قال ابن عطية : ورد عليه بأن المغرب لا تدخل فيه لأنها من صلاة الليل .

قال ابن العربي : والعجب من الطبري الذي يرى أن طرفي النهار الصبح والمغرب وهما طرفا الليل ! فقلب القوس ركوة ، وحاد عن البرجاس غلوة ؛ قال الطبري : والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح ، فدلّ على أن الطرف الآخر المغرب ، ولم يجمع معه على ذلك أحد .

قلت : هذا تحامل من ابن العربي في الرد ، وأنه لم يجمع معه على ذلك أحد ؛ وقد ذكرنا عن مجاهد أن الطرف الأول صلاة الصبح ، وقد وقع الاتفاق إلا من شذّ بأن من أكل أو جامع بعد طلوع الفجر متعمداً أن يومه ذلك يوم فطر ، وعليه القضاء والكفارة ، وما ذلك إلا وما بعد طلوع الفجر من النهار ؛ فدلّ على صحة ما قاله الطّبري في الصبح ، وتبقى عليه المغرب والردّ عليه فيه ما تقدّم .

والله أعلم .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيل ﴾ أي في زُلَفٍ من الليل ، والزّلف الساعات القريبة بعضها من بعض ؛ ومنه سميت المزْدَلِفَة ؛ لأنها منزل بعد عَرَفَة بقرب مكة .

وقرأ ابن القَعْقاع وابن أبي إسحاق وغيرهما "وَزُلُفًا" بضم اللام جمع زَلِيف ؛ لأنه قد نطق بزليف ، ويجوز أن يكون واحده "زُلُفَة" لغة ؛ كبُسرة وبسُر ، في لغة من ضمّ السين .

وقرأ ابن محيصن "وَزُلْفًا" من الليل بإسكان اللام ؛ والواحدة زُلْفة تجمع جمع الأجناس التي هي أشخاص كدرّةٍ ودُرّ وبُرّة وبُرّ .

وقرأ مجاهد وابن محيصن أيضاً "زُلْفَى" مثل قُربى .

وقرأ الباقون "وَزُلَفًا" بفتح اللام كغُرْفة وغُرَف .

قال ابن الأعرابي : الزّلف الساعات ، واحدها زُلْفَة .

وقال قوم : الزّلفة أوّل ساعة من الليل بعد مغيب الشمس ؛ فعلى هذا يكون المراد بزلف الليل صلاة العَتَمَة ؛ قاله ابن عباس .

وقال الحسن : المغرب والعشاء .

وقيل : المغرب والعشاء والصبح ؛ وقد تقدّم .

وقال الأخفش : يعني صلاة الليل ولم يعين .

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ ذهب جمهور المتأولين من الصحابة والتابعين (رضي الله عنهم أجمعين) إلى أن الحسنات هاهنا هي الصلوات الخمس وقال مجاهد: الحسنات قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، قال ابن عطية: وهذا على جهة المثال في الحسنات، والذي يظهر أن اللفظ عام في الحسنات خاص في السيئات؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: "ما اجتنبت الكبائر"

قلت: سبب النزول يعضد قول الجمهور؛ نزلت في رجل من الأنصار، قيل: هو أبو اليَسَر بن عمرو.

وقيل: اسمه عَبّاد؛ خلا بامرأة فقبّلها وتلذذ بها فيما دون الفرج.

روى الترمذي عن عبد الله قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني عالجت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن أَمسّها وأنا هذا فاقض فيّ ما شئت.

فقال له عمر: لقد سترك الله! لو سترت على نفسك؛ فلم يردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فانطلق الرجل فأتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً فدعاه، فتلا عليه: ﴿ أَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار وَزُلَفاً مِّنَ الليل إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ذلك ذكرى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ إلى آخر الآية؛ فقال رجل من القوم: هذا له خاصة؟ قال: "(لا) بل

للناس كافة " قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وخرّج أيضاً عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة حرام فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن كفارتها فنزلت : ﴿ أَقِمِ الصلاة طَرَفَىِ النهار وَزُلَفاً مِّنَ اليل إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ فقال الرجل : أَلِي هذه يا رسول الله ؟ فقال : " لك ولمن عمل بها من أمتي " قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(168/386)

وروي " عن أبي اليَسَر قال : أتتني امرأة تبتاع تمراً فقلت : إن في البيت تمراً أطيب من هذا ، فدخلت معي في البيت فأهويت إليها فقبلتها ، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال : استر على نفسك وتب ولا تخبر أحداً فلم أصبر ، فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال : استر على نفسك وتُبْ ولا تخبر أحداً فلم أصبر ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال : أَخْلَفْتَ غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا " ؟ حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة ، حتى ظن أنه من أهل النار .

قال : وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أوحى الله إليه ﴿ أَقِمِ الصلاة طَرَفَىِ النهار وَزُلُفاً مِّنَ اليل إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ذلك ذكرى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ .

قال أبو اليَسَر : فأتيته فقرأها عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحابه : يا رسول الله أَلِهذا خاصة أم للناس عامة ؟ فقال : "بل للناس عامة "

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب ، وقيس بن الربيع ضعّفه وَكِيعٌ وغيره ؛ وقد روي " أن النبي صلى الله عليه وسلم أعرض عنه ، وأقيمت صلاة العصر فلما فرغ منها نزل جبريل عليه السلام عليه بالآية فدعاه فقال له : "أشهدت معنا الصلاة ؟ قال نعم ؛ قال : "اذهب فإنها كفارة لما فعلت " وروي " أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تلا عليه هذه الآية قال له : "قم فصل أربع ركعات " والله أعلم .

وخرّج الترمذي الحكيم في "نوادر الأصول" من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لم أر شيئاً أحسن طلباً ولا أسرع إدراكاً من حسنة حديثة لذنب قديم " ، ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ذلك ذكرى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ .

(169/386)

الخامسة : دلّت الآية مع هذه الأحاديث على أن القبلة الحرام واللّمس الحرام لا يجب فيهما الحدّ ، وقد يستدلّ به على أن لا حدّ ولا أدب على الرجل والمرأة وإن وُجدا في ثوب واحد ، وهو اختيار ابن المنذر ؛ لأنه لما ذكر اختلاف العلماء في هذه المسألة ذكر هذا الحديث

مشيراً إلى أنه لا يجب عليهما شيء ، وسيأتي ما للعلماء في هذا في "النور" إن شاء الله تعالى .

السادسة : ذكر الله سبحانه في كتابه الصلاة بركوعها وسجودها وقيامها وقراءتها وأسمائها فقال : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ الآية .

وقال : ﴿ أَقِمِ الصلاةِ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ [الإسراء : 78] الآية .

وقال : ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الحمد فِي السماوات والأرض وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم : 17 18] .

وقال : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه : 130] .

وقال : ﴿ اركعوا واسجدوا ﴾ [الحج : 77] .

وقال : ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة : 238] .

وقال : ﴿ وَإِذَا قُرِىءَ القرآن فاستمعوا لَهُ وَأَنْصِتُواْ ﴾ [الأعراف : 204] على ما تقدم .

وقال : ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ﴾ [الإسراء : 110] أي بقراءتك ؛ وهذا كله مجمل أجمله في كتابه ، وأحال على نبيه في بيانه ؛ فقال جل ذكره : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : 44] فبيّن صلى الله عليه وسلم مواقيت الصلاة ، وعدد الركعات والسَّجَدَات ، وصفة جميع الصلوات فرضها وسننها ، وما لا تصح (الصلاة) إلا به من الفرائض وما يستحب فيها من السنن والفضائل ؛ فقال في صحيح البخاري : " صلّوا كما رأيتموني أصلي " ونقل ذلك عنه الكافّة عن الكافة ، على ما هو معلوم ، ولم يمت النبي صلى الله عليه وسلم حتى بيّن جميع ما بالناس الحاجة إليه ؛ فكمل الدِّين ، وأوضح السبيل ؛ قال الله تعالى : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الأسلام دِيناً ﴾ [المائدة : 3] .

قوله تعالى : ﴿ ذلك ذكرى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ أي القرآن موعظة وتوبة لمن اتعظ وتذكر ؛ وخص الذاكرين بالذكر لأنهم المنتفعون بالذكرى .

والذكرى مصدر جاء بألف التأنيث .

قوله تعالى : ﴿ واصبر ﴾

أي على الصلاة ؛ كقوله : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا ﴾ [طه : 132] .

وقيل : المعنى واصبر يا محمد على ما تلقى من الأذى .

﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمحسنين ﴾ يعني المصلين. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9صـ ﴾

(171/386)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾

سبب نزول هذه الآية ما رواه الترمذي عن أبي اليسر قال " أتتني امرأة تبتاع تمراً فقلت إن في البيت تمراً هو أطيب منه فدخلت معي فأهويت إليها فقبلتها فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحداً فلم أصبر فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحداً فلم أصبر فأتيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فذكرت ذلك له فقال أخلفت غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة حتى ظن أنه من أهل النار قال وأطرق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) طويلاً حتى أوحى الله إليه وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إلى قوله ذلك ذكرى للذاكرين.

قال أبو اليسر : فأتيته فقرأها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال أصحابه يا رسول

الله ألهذا خاصة أم للناس عامة قال " بل للناس عامة " قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب وقيس بن الربيع ضعّفه وكيع وغيره وأبو اليسر هو كعب بن عمرو (ق) .

(172/386)

عن عبد الله بن مسعود " أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي (صلى الله عليه وسلم) فذكر ذلك له فنزلت ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ﴾ الآية فقال الرجل يا رسول الله ألي هذه الآية قال لمن عمل بها من أمتي وفي رواية فقال رجل من القوم يا نبي الله هذه له خاصة قال " بل للناس كافة " عن معاذ بن جبل قال " أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) رجل فقال يا رسول الله أرأيت رجلاً لقي امرأة وليس بينهما معرفة فليس يأتي الرجل إلى امرأته شيئاً إلا قد أتى هو إليها إلا أنه لم يجامعها قال فأنزل الله ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ فأمره النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يتوضأ ويصلي قال معاذ فقلت يا رسول الله أهي له خاصة أم للمؤمنين عامة ؟ فقال : " بل للمؤمنين عامة ؟ " أخرجه الترمذي وقال هذا الحديث ليس بمتصل لأن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يسمع من معاذ .

(173/386)

أما التفسير فقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ يعني صلاة الغداة والعشي وقال مجاهد : طرفي النهار يعني صلاة الصبح والظهر والعصر ﴿ وزلفاً من الليل ﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء ، وقال مقاتل : صلاة الصبح والظهر طرف وصلاة العصر والمغرب طرف وزلفاً من الليل يعني صلاة العشاء وقال الحسن طرفي النهار الصبح والعصر وزلفاً من الليل المغرب والعشاء وقال ابن عباس طرفي النهار الغداة والعشي يعني صلاة الصبح والمغرب قال الإمام فخر الدين الرازي : كثرت المذاهب في تفسير طرفي النهار والأشهر أن الصلاة التي في طرفي النهار هي الفجر والعصر وذلك لأن أحد طرفي النهار هو طلوع الشمس والثاني هو غروبها فالطرف الأول هو صلاة الفجر والطرف الثاني لا يجوز أن يكون صلاة المغرب لأنها داخلة تحت قوله تعالى ﴿ وزلفاً من الليل ﴾ فوجب حمل الطرف الثاني على صلاة العصر ﴿ وزلفاً من الليل ﴾ يعني وأقم الصلاة في زلف من الليل وهي ساعاته واحدتها زلفة وأصل الزلفة المنزلة والمراد بها صلاة المغرب والعشاء ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ يعني إن الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات ويكفرنها (م) عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال

" الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن زاد في رواية ما لم تغش الكبائر " وزاد في رواية أخرى " ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر " (ق) عن

أبي هريرة أنه سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء قالوا لا قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا " (خ) عن جابر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات " قال الحسن وما يبقى من الدرن.

قال العلماء: الصغائر من الذنوب تكفرها الأعمال الصالحات مثل الصلاة والصدقة والذكر والاستغفار ونحو ذلك من أعمال البر وأما الكبائر من الذنوب فلا يكفرها إلا التوبة النصوح ولها ثلاث شرائط: الشرط الأول: الإقلاع عن الذنب بالكلية.

الثاني: الندم على فعله.

الثالث: العزم التام أن لا يعود إليه في المستقبل، فإذا حصلت هذه الشرائط صحت التوبة وكانت مقبولة إن شاء الله تعالى، وقال مجاهد في تفسير الحسنات إنها قول سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر والقول الأول أصح أنها الصلوات الخمس وهو قول ابن مسعود وابن عباس وابن المسيب ومجاهد في إحدى الروايتين عنه والقرظي والضحاك

وجمهور المفسرين ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من الاستقامة والتوبة وقيل هو إشارة إلى القرآن ﴿ ذكرى للذاكرين ﴾ يعني عظة للمؤمنين المطيعين ﴿ واصبر ﴾ الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) يعني واصبر يا محمد على أذى قومك وما تلقاه منهم ، وقيل معناه واصبر على الصلاة ﴿ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ يعني أعمالهم ، قال ابن عباس : يعني المصلين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(175/386)

وقال أبو حيان :

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾

الزلفة قال الليث : طائفة من أول الليل ، والجمع الزلف ، وقال ثعلب : الزلف أول ساعات الليل ، واحدها زلفة .

وقال أبو عبيدة ، والأخفش ، وابن قتيبة ، الزلف ساعات الليل وآناؤه ، وكل ساعة زلفة .

وقال العجاج :

ناح طواه الأين مما وجفَا . . .

طيَّ الليالي زلفاً فزلفا

سماؤه الهلال حتى احقوقنا . . .

وأصل الكلمة من الزلفى وهي القربة ، ويقال : أزلفه فازدلف أي قربه فاقترب ، وأزلفني أدناني .

﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكر للذاكرين .

واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ : سبب نزولها ما في صحيح مسلم من حديث الرجل الذي عالج امرأة أجنبية منه ، فأصاب منها ما سوى إتيانها فنزلت .

وقيل : نزلت قبل ذلك ، واستعملها الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قصة هذا الرجل فقال رجل : أله خاصة ؟ قال : "لا ، بل للناس عامة" وانظر إلى الأمر والنهي في هذه الآيات ، حيث جاء الخطاب في الأمر ، ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ ، وأقم الصلاة ، موحداً في الظاهر ، وإن كان المأمور به من حيث المعنى عاماً ، وجاء الخطاب في النهي : ﴿ ولا تركنوا ﴾ موجهاً إلى غير الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، مخاطباً به أمته ، فحيث كان بأفعال الخير توجه الخطاب إليه ، وحيث كان النهي عن المحظورات عدل عن الخطاب عنه إلى غيره من أمته ، وهذا من جليل الفصاحة .

ولا خلاف أنّ المأمور بإقامتها هي الصلوات المكتوبة ، وإقامتها دوامها ، وقيل : أداؤها على تمامها ، وقيل : فعلها في أفضل أوقاتها ، وهي ثلاثة الأقوال التي في قوله تعالى : وأقيموا

الصلاة .

وانتصب طرفي النهار على الظرف .

(176/386)

وطرف الشيء يقتضي أن يكون من الشيء ، فالذي يظهر أنهما الصبح والعصر ، لأنهما طرفا النهار ، ولذلك وقع الإجماع ، إلا من شذ على أنّ من أكل أو جامع بعد طلوع الفجر متعمداً أنّ يومه يوم فطر وعليه القضاء والكفارة ، وما بعد طلوع الفجر من النهار .

وقد ادعى الطبري والماوردي : الإجماع على أنّ أحد الطرفين الصبح ، والخلاف في ذلك على ما نذكره .

وممن قال : هما الصبح والعصر الحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وقال : الزلف المغرب والعشاء ، وليست الظاهر في هذه الآية على هذا القول ، بل هي في غيرها .

وقال مجاهد ومحمد بن كعب : الطرف الأول الصبح ، والثاني الظهر والعصر ، والزلف المغرب والعشاء ، وليست الصبح في هذه الآية .

وقال ابن عباس والحسن أيضاً : هما الصبح والمغرب ، والزلف العشاء ، وليست الظهر والعصر في الآية .

وقيل : هما الظهر والعصر ، والزلف المغرب والعشاء والصبح ، وكان هذا القائل راعي الجهر بالقراءة والإخفاء .

واختار ابن عطية قول مجاهد ، وجعل الظهر من الطرف الثاني ليس بواضح ، إنما الظهر نصف النهار ، والنصف لا يسمى طرفاً إلا بمجاز بعيد ، ورجح الطبري قول ابن عباس : وهو أنّ الطرفين هما الصبح والمغرب ، ولا نجعل المغرب طرفاً للنهار إلا بمجاز ، إنما هو طرف الليل .

وقال الزمخشري : غدوة وعشية قال : وصلاة الغدوة الصبح ، وصلاة العشية الظهر والعصر ، لأنّ ما بعد الزوال عشي ، وصلاة الزلف المغرب والعشاء انتهى .

ولا يلزم من إطلاق العشي على ما بعد الزوال أن يكون الظهر طرفاً للنهار ، لأن الأمر إنما جاء بالإقامة للصلاة في طرفي النهار ، لا في الغداة والعشي .

وقرأ الجمهور : وزلفاً بفتح اللام ، وطلحة وعيسى البصرة وابن أبي إسحاق وأبو جعفر : بضمها كأنه اسم مفرد .

وقرأ ابن محيصن ومجاهد : بإسكانها وروي عنهما : وزلفى على وزن فعلى على صفة الواحد من المؤنث لما كانت بمعنى المنزلة .

وأما القراآت الأخر من الجموع فمنزلة بعد منزلة ، فزلف جمع كظلم ، وزلف كبسر في بسر ، وزلف كبسر في بسرة ، فهما اسما جنس ، وزلفى بمنزلة الزلفة .

والظاهر عطف وزلفاً من الليل على طرفي النهار ، عطف طرفاً على طرف .

وقال الزمخشري : وقد ذكر هذه القراآت وهو ما يقرب من آخر النهار من الليل .

وقيل : زلفاً من الليل ، وقرباً من الليل ، وحقها على هذا التفسير أن تعطف على الصلاة أي : أقم الصلاة في النهار ، وأقم زلفى من الليل على معنى صلوات يتقرب بها إلى الله عز وجل في بعض الليل .

والظاهر عموم الحسنات من الصلوات المفروضة ، وصيام رمضان ، وما أشبههما من فرائض الإسلام .

وخصوص السيئات وهي الصغائر ، ويدل عليه الحديث الصحيح : " ما اجتنبت الكبائر "

وذهب جمهور المتأولين من الصحابة والتابعين : إلى أنّ الحسنات يراد بها الصلوات الخمس ، وإليه ذهب عثمان عند وضوءه على المقاعد ، وهو تأويل مالك .

وقال مجاهد : الحسنات قول الرجل : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وينبغي أن يحمل هذا كله على جهة المثال في الحساب ، ومن أجل أنّ الصلوات الخمس هي

أعظم الأعمال .

والصغائر التي تذهب هي بشرط التوبة منها وعدم الإصرار عليها ، وهذا نص حذاق الأصوليين .

ومعنى إذهابها : تكفير الصغائر ، والصغائر قد وجدت وأذهبت الحسنات ما كان يترتب عليها ، لا أنها تذهب حقائقها ، إذ هي قد وجدت .

وقيل : المعنى إنّ فعل الحسنات يكون لطفاً في ترك السيئات ، لا أنها واقعة كقوله : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ والظاهر أنّ الإشارة قوله ذلك ، إلى أقرب مذكور وهو قوله : أقم الصلاة أي إقامتها في هذه الأوقات .

ذكرى أي : سبب عظة وتذكرة للذاكرين أي المتعظين .

وقيل : إشارة إلى الإخبار بأنّ الحسنات يذهبن السيئات ، فيكون في هذه الذكرى حضّاً على فعل الحسنات .

وقيل : إشارة إلى ما تقدم من الوصية بالاستقامة وإقامة الصلاة ، والنهي عن الطغيان ، والركون إلى الظالمين ، وهو قول الزمخشري .

وقال الطبري : إشارة إلى الأوامر والنواهي في هذه السورة ، وقيل : إشارة إلى القرآن ، وقيل : ذكرى معناها توبة ، ثم أمر تعالى بالصبر على التبليغ والمكاره في ذات الله بعدما تقدم من الأوامر والنواهي ، ومنبهاً على محل الصبر ، إذ لا يتم شيء مما وقع الأمر به والنهي عنه إلا به ، وأتى بعام وهو قوله : أجر المحسنين ، ليندرج فيه كل من أحسن بسائر خصال الإحسان مما يحتاج إلى الصبر فيه ، وما قد لا يحتاج كطبع من خلق كريماً ، فلا يتكلف الإحسان إذ هو مركوز في طبعه .

وقال ابن عباس : المحسنون هم المصلون ، كأنه نظر إلى سياق الكلام .

وقال مقاتل : هم المخلصون ، وقال أبو سليمان : المحسنون في أعمالهم . انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(179/386)

وقال أبو السعود :

﴿ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَىِ النهار ﴾

أي غدوةً وعشيةً ، وانتصابُه على الظرفيه لكونه مضافاً إلى الوقت ﴿ وَزُلَفاً مّنَ الليل ﴾ أي ساعاتٍ منه قريبةً من النهار ، فإنه مِنْ أزلفه إذا قرّبه جمع زُلفة ، عطفٌ على طرفي النهار

والمرادُ بصلاتهما صلاةُ الغداة والعصرِ ، وقيل : الظُهر موضعَ العصر لأن ما بعد الزوال عشيٌّ ، وبصلاة الزُلَف المغربُ والعشاء ، وقرىء زُلُفاً بضمتين وضمة وسكون كبُسْر وبُسُر وزُلْفى بمعنى زُلفة كقربى بمعنى قربة ﴿ إِنَّ الحسنات ﴾ التي من جملتها بل عُمدتُها ما أُمِرْت به من الصلوات ﴿ يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ التي قلما يخلو منها البشر ، أي يكفرنها وفي الحديث " إن الصلاة إلى الصلاة كفارةٌ لما بينهما ما اجتُنبت الكبائر " وقيل : نزلت في أبي اليَسَر الأنصاريِّ إذ قبّل امرأةً ثم ندِم فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما فعل فقال عليه الصلاة والسلام : "أنتظرُ أمرَ ربي" فلما صلى صلاةَ العصر نزلت قال عليه السلام : " نعم اذهب فإنها كفارةٌ لما عمِلْت " أو يمنعْن من اقترافها كقوله تعالى : ﴿ اتل مَا أُوْحِىَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب ﴾ ﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى قوله تعالى : ﴿ فاستقم ﴾ فما بعده وقيل : إلى القرآن ﴿ ذكرى لِلذكِرِينَ ﴾ أي عظةٌ للمتعظين .

﴿ واصبر ﴾

(180/386)

على مشاقّ ما أُمِرْت به في تضاعيف الأوامرِ السابقةِ وأما ما نُهيَ عنه من الطغيان والركون إلى الذين ظلموا فليس في الانتهاء عنه مشقةٌ فلا وجهَ لتعميم الصبرِ له ، اللهم إلا أن يُراد به

ما لا يمكن عادة خلوُّ البشرِ عنه من أدنى ميلٍ بحكم الطبيعةِ عن الاستقامة المأمورِ بها ، ومن يسير ميلٍ بحكم البشرية إلى من وُجد منه ظلمٌ ما فإن في الاحترازِ عن أمثاله من المشقة ما لا يخفى ﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ أي يوفيهم أجورَ أعمالهم من غير بخسٍ أصلاً ، وإنما عبّر عن ذلك بنفي الإضاعةِ مع أن عدمَ إعطاءِ الأجرِ ليس بإضاعةٍ حقيقةً ، كيف لا والأعمالُ غيرُ موجبةٍ للثواب حتى يلزَم من تخلفه عنها ضياعُها ، لبيان كمالِ نزاهتِه تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدورُه عنه سبحانه من القبائح وإبرازِ الإثابةِ في معرض الأمورِ الواجبة عليه ، وإنما عدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع إفادة فائدةٍ عامةٍ لكل من يتصف به ، وهو تعليلٌ للأمر بالصبر ، وفيه إيماءٌ إلى أن الصبرَ على ما ذكر من باب الإحسان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(181/386)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾

أي المكتوبة ، ومعنى إقامتها أداؤها على تمامها .

وقيل : المداومة عليها ، وقيل : فعلها في أول وقتها ﴿ طَرَفَىِ النهار ﴾ أي أوله وآخره

وانتصابخ على الظرفية لأنم ويضعف كونه ظرفاً للصلاة ووجه انتصابه على ذلك إضافته

إلى الظرف ﴿ وَزُلَفاً مِّنَ الليل ﴾ أي ساعات منه قريبة من النهار فإنه من أزلفه إذا قربه .

وقال الليث : هي طائفة من أول الليل ، وكذا قال ثعلب ، وقال أبو عبيدة .

والأخفش .

وابن قتيبة : هي مطلق ساعات واناؤه وكل ساعة زلفة ، وأنشدوا للعجاج

: ناج طواه الاين مما وجفا . . .

طي الليالي زلفا فزلفاسماوة الهلال حتى احقوقفا

وهو عطف على ﴿ طَرَفَىِ النهار ﴾ ، و ﴿ مِّنَ الليل ﴾ في موضع الصفة له ، والمراد

بصلاة الطرفين قيل : صلاة الصبح والعصر ، وروي ذلك عن الحسن .

وقتادة .

والضحاك ، واستظهر ذلك أبو حيان بناءاً على أن طرف الشيء يقتضي يكون من الشيء

، والتزم أن أول النهار من الفجر ، وقد يطلق طرف الشيء على الملاصق لأوله وآخره

مجازاً فيمكن اعتبار النهار من طلوع الشمس مع صحة ما ذكروه في صلاة الطرف الأول

بجعل التثنية هنا مثلها في قولهم : القلم أحد اللسانين إلا أنه قيل بشذوذ ذلك .

وروي عن ابن عباس واختاره الطبري أن المراذ صلاة الصبح والمغرب فإن كان النهار من

أول الفجر إلى غروب الشمس فالمغرب طرف مجازاً وهو حقيقة طرف الليل ، وإن كان من

طلوع الشمس إلى غروبها فالصبح كالمغرب طرف مجازي ، وقال مجاهد .

ومحمد بن كعب القرظي : الطرف الأول الصبح .

والثاني الظهر .

والعصر ، واختار ذلك ابن عطية ، وأنت تعلم أن في جعل الظهر من الطرف الثاني خفاء وإنما الظهر نصف النهار والنصف لا يسمى طرفاً إلى بمجاز بعيد ، والمراد بصلاة الزلف عند الأكثر صلاة المغرب والعشاء .

وروى الحسن في ذلك خبراً مرفوعاً ، وعن ابن عباس أنه فسر صلاة الزلف بصلاة العتمة وهي ثلث الليل الأول بعد غيبوبة الشفق وقد تطلق على وقت صلاة العشاء الآخرة ، وأغرب من قال : صلاة الطرفين صلاة الظهر والعصر ، وصلاة الزلف صلاة المغرب .

والعشاء .

والصبح ، وقيل : معنى ﴿ زلفا ﴾ قربا ، وحقه على هذا كما في الكشاف أن يعطف على الصلاة أي أقم الصلاة طرفي النهار وأقم زلفا من الليل أي صلوات تتقرب بها إلى الله عز وجل انتهى ، قيل : والمراد بها على هذا صلاة العشاء والتهجد وقد كان واجباً عليه عليه

الصلاة والسلام ، أو العشاء .

والوتر على ما ذهب إليه أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه ، أو المجموع كما يقتضيه ظاهر الجمع ، وقد تفسر بصلاة المغرب والعشاء واختاره البعض وقد جاء إطلاق الجمع على الاثنين فلا حاجة إلى التزام أن ذلك باعتبار أن كل ركعة قربة فتحقق قرب الثلاث فيما ذكر .

وقرأ طلحة .

وابن أبي اسحق .

وأبو جعفر ﴿ زلفا ﴾ بضم اللام إما على أنه جمع زلفة أيضاً ولكن ضمت عينه اتباعاً لفائه .

أو على أنه اسم مفرد كعنق .

أو جمع زليف بمعنى زلفة كرغيف ورغف ، وقرأ مجاهد .

وابن محيصن باسكان اللام كبسر بالضم والسكون في بسرة ، وهو على هذا على ما في البحر اسم جنس ، وفي رواية عنهما أنهما قرآ زلفى كحبلى وهو بمعنى زلفة فإن تاء التأنيث وألفه قد يتعاقبان نحو قربى وقربة ، وجوز أن تكون هذه الألف بدلاً من التنوين إجراءاً للوصل مجرى الوقف ﴿ إِنَّ الحسنات عَمِلُواْ السيئات ﴾ أي يكفرنها ويذهبن المؤاخذة عليها وإلا فنفس السيئات أعراض وجدت فانعدمت ، وقيل : يمحينها من

صحائف الأعمال ، ويشهد له بعض الآثار ، وقيل : يمنعن من اقترافها كقوله تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ [العنكبوت : 45] وهو مع بعده في نفسه مخالف للمأثور عن الصحابة .

والتابعين رضي الله تعالى عنهم فلا ينبغي أن يعول عليه .

(183/386)

والظاهر أن المراد من الحسنات ما يعم الصلوات المفروضة وغيرها من الطاعات المفروضة وغيرها ، وقيل : المراد الفرائض فقط لرواية " الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن " وفيه أنه قد صح من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " "إذا أمّن الإمام فأمّنوا فإن الملائكة تؤمّن فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه" وفي رواية تفرد بها يحيى بن نصر وهو من الثقات بزيادة "وما تأخر" وصح أن صيام يوم عرفة تكفر السنة الماضية والمستقبلة ، وأخرج أبو داود في السنن باسناد حسن عن سهل بنمعاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أكل طعاماً ثم قال الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن لبس

ثوباً وقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر" إلى غير ذلك من الاخبار الواردة في تكفير أفعال ليست بمفروضة ذنوباً كثيرة، وقيل: المراد بها الصلوات المفروضة لما في بعض طرق خبر سبب النزول من أن أبا اليسر من الأنصار قبل امرأة ثم ندم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما فعل فقال عليه الصلاة والسلام: "أنتظر أمر ربي فلما صلى صلاة قال: صلى الله عليه وسلم نعم اذهب بها فانها كفارة لما علمت"

وروي هذا القول عن ابن عباس.

وابن مسعود.

(184/386)

وابن المسيب، والظاهر أن ذلك منهم اقتصار على بعض مهم من أفراد ذلك العام، وسبب النزول لا يأبى العموم كما لا يخفى، وفي رواية عن مجاهد أنها قول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وفيه ما فيه، والمراد بالسيآت عند الأكثرين الصغائر لأن الكبائر لا يكفرها على ما قالوا: إلا التوبة، واستدلوا لذلك بما رواه مسلم من رواية العلاء "الصلوات الخمس كفارة لما بينها ما اجتنبت الكبائر"

واستشكل بأن الصغائر مكفرة باجتناب الكبائر بنص ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَائِرَ مَا تُنهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سيئاتكم ﴾ [النساء : 31] فما الذي تكفوه الصلوات الخمس ؟ وأجاب البلقيني بأن ذلك غير وارد لأن المراد بالآية أن تجتنبوا في جميع العمر ومعناه الموافاة على هذه الحالة من وقت الإيمان أو التكليف إلى الموت ، والذي في الحديث " إن الصلوات تكفر ما بينها " أي في يومها إذا اجتنبت الكبائر في ذلك اليوم فلا تعارض ، وتعقبه السمهودي بقوله : ولك أن تقول : لا يتحقق اجتناب الكبائر في جميع العمر إلا مع الإتيان بالصلوات الخمس فيه كل يوم فالتكفير حاصل بما تضمنه الحديث فما فائدة الاجتناب المذكور في الآية ثم قال : ولك أن تجيب بأن ذلك من باب فعل شيئين كل منهما مكفر ، وقد قال بعض العلماء : إنه إذا اجتمعت مكفرات فحكمها أنها إذا ترتبت فالمكفر السابق وإن وقعت معاً فالمكفر واحد منها يشاؤه الله تعالى ، وأما البقية فثوابها باق له وذلك الثواب على كل منها يكون بحيث يعدل تكفير الصغائر لو وجدت ، وكذا إذا فعل واحداً من الأمور المكفرة ولم يكن قد ارتكب ذنباً .

وفي شرح مسلم للنووي نحو ذلك غير أنه ذكر أنه لو صادف فعل المكفر كبيرة أو كبائر ولم يصادف صغيرة رجونا أن يخفف من الكبائر ، ويرد على قوله : إن المراد ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ ﴾ في جميع العمر منع ظاهر ، والظاهر أن المران من ذلك أن ثواب اجتناب الكبائر في كل وقت يكفر الصغائر الواقعة فيه ، وفي تفسير القاضي ما يؤيده ، وكذا ما ذكره الإمام حجة الإسلام في الكلام على التوبة من أن حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها وأن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله سبحانه : ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ ﴾ [النساء : 31] الخ ، ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقوع ويقتصر على النظر واللمس فإن مجاهدته نفسه في الكف عن الواقع أشد تأثيراً في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في اظلامه فهذا معنى تكفيره فإن كان عنينا ولم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز أو كان قادراً ولكن امتنع لخوف من آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلا فكل من لا يشتهي الخمر بطبعه ولو أبيح له ما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي من مقدماته كسماع الملاهي والأوتار وهذا ظاهر يدل عليه أن الحسنات يذهبن السيئات ، ولا شك أن اجتناب الكبائر إذا قارن القصد حسنة وإنما قيدنا بذلك وإن كان الخروج عن عهدة النهي لا يتوقف عليه لأنه لا يثاب على الاجتناب بدون ذلك ، فالأولى في الجواب عن الأشكال أن يقال : "ما اجتنبت الكبائر" في الخبر ليس قيداً لأصل التكفير بل لشمول التكفير سائر الذنوب التي بين الصلوات

الخمس فهو بمثابة استثناء الكبائر من الذنوب ، وكأنه قيل : الصلوات الخمس كفارة لجميع الذنوب التي بينها وتكفيرها للجميع في المدة التي اجتنبت فيها الكبائر أو مقيد باجتناب الكبائر وإلا فليست الصلوات كفارة لجميع الذنوب بل للصغائر فقط ، وهذا وإن كان خلاف الظاهر من عود القيد لأصل

(186/386)

التكفير لكن قرينة الآية دعت للعدول عنه إلى ذلك جمعاً بين الأدلة ، ولا بدّ في هذا من اعتبار ما قالوا في اجتماع الأمور المكفرة الصغائر ، وذكر الحافظ ابن حجر بعد نقله لكلام البلقيني ما لفظه : وعلى تقدير ورود السؤال فالتخلص عنه سهل وذلك لأنه لا يتم اجتناب الكبائر إلا بفعل الصلوات الخمس فمن لم يفعلها لم يعد مجتنباً للكبائر لأن تركها من الكبائر فيتوقف التكفير على فعلها انتهى ولا يخلو عن بحث ، وممن صرح بأن ما اجتنبت الخ بمعنى الاستثناء نقلاً عن بعضهم المحب الطبري ، فقد قال في أحكامه : اختلف العلماء في أمر تكفير الصغائر بالعبادات هل هو مشروط باجتناب الكبائر ؟ على قولين : أحدهما نعم وهو ظاهر قوله صلى الله عليه وسلم :

" ما اجتنبت الكبائر " فإن ظاهره الشرطية كما يقتضيه "إذا اجتنبت" الآتي في بعض

الروايات ، فإذا اجتنبت الكبائر كانت مكفرة لها وإلا فلا ، وإليه ذهب الجمهور على ما ذكره ابن عطية ، وقال بعضهم : لا يشترط ، والشرط في الحديث بمعنى الاستثناء والتقدير مكفرات لما بينها إلا الكبائر وهو الأظهر .

(187/386)

هذا وقد ذكر الزركشي أنهم اختلفوا في أن التفكير هل يشترط فيه التوبة أم لا ؟ فذهب إلى الاشتراط طائفة وإلى عدمه أخرى ، وفي البحر أن الاشتراط نص حذاق الأصوليين ، ولعل الخلاف مبني على الخلاف في اشتراط الاجتناب وعدمه فمن جعل اجتناب الكبائر شرطاً في تكفير الصغائر لم يشترط التوبة وجعل هذه خصوصية لمجتنب الكبائر ولم يشترطه إلا من اشترطها ، ويدل عليه خبر أبي اليسر فإن الروايات متضافرة على أنه جاء نادماً والندم توبة ، وإن إخباره صلى الله عليه وسلم له بأن صلاة العصر كفرت عنه ما فعله إنما وقع بعد ندمه لكن ظاهر إطلاق الحديث يقتضي أن التكفير كان بنفس الصلاة فإن التوبة بمجردها تجبّ ما قبلها فلو اشترطناها مع العبادات لم تكن العبادات مكفرة ، وقد ثبت أنها مكفرات فيسقط اعتبار التوبة معها انتهى ملخصاً مع زيادة ، ولا يخفى أن هذا يحتاج إلى التزام القول بأن ندم أبي اليسر لم يكن توبة صحيحة وإلا لكان التكفير به لأنه السابق ،

وبعض التزم القول بكونه توبة صحيحة إلا أنه توبة لم تقبل ولم تكفر الذنب ، وأنت تعلم أن في عدم تكفير التوبة الذنب مقالاً ، والمنقول عن السبكي أنه قال : إن قبول التوبة عن الكفر مقطوع به تفضلاً ، وفي القطع بقبول توبة العاصي قولان لأهل السنة ، والمختار عند إمام الحرمين أن تكفير التوبة للذنب مظنون ، وادعى النووي أنه الأصح ، وفي شرح البرهان : الصحيح عندنا القطع بالتكفير ، وقال الحليمي : لا يجب على الله تعالى قبول التوبة لكنه لما أخبر عن نفسه أنه يقبل التبوة عن عباده ولم يجز أن يخلف وعده علمنا أنه سبحانه وتعالى لا يرد التوبة الصحيحة فضلاً منه تعالى ، ومثل هذا الخلاف في التكفير باجتناب الكبائر ونحوه هل هو قطعى أو ظنى ، وفي كلام العلامة نجم الدين النسفي .

وصدر الشريعة .

وغيرهما أن العقاب على الصغائر جائز الوقوع سواء اجتنب مركتبها الكبائر أم لا لدخولها تحت قوله تعالى : ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء ﴾ [المائدة : 18] ولقوله تعالى : ﴿ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف : 49] والإحصاء إنما يكون للسؤال والمجازاة آلء غير ذلك من الآيات والأحاديث ، وخالفت المعتزلة في ذلك فلم يجيزوا

وقوع التعذيب إذا اجتنبت الكبائر واستدلوا بآية ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا ﴾ [النساء : 31] الخ ، ويجاب بأن المراد بالكبائر الكفر والجمع لتعدد أنواعه أو تعدد من اتصف به ، ومعنى الآية إن تجتنبوا الكفر نجعلكم صالحين لتفكير سياآتكم ، ولا يخفى ما في استدلالهم من الوهن ، وجوابهم عن استدلال المعتزلة لعمري أوهن منه .

وذهب صاحب الذخائر إلى أن من الحسنات ما يكفر الصغائر والكبائر إذ قد صح في عدة أخبار من فعل كذا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وفي بعضها خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، ومتى حملت الحسنات في الآية على الاستغراق فالمناسب حمل السيئات عليه أيضاً ، والتخصص خلاف الظاهر وفضل الله تعالى واسع ، وإلى هذا مال ابن املنذر ، وحكام ابن عبد البر عن بعض المعاصرين له وعني به فيما قيل : أبا محمد المحدث لكن ردّ عليه ، فقال بعضهم : يقول : إن الكبائر والصغائر تكفرها الطهارة والصلاة لظاهر الأحاديث وهو جهل بين وموافقة للمرجئة في قولهم ، ولو كان كما زعم لم يكن للأمر بالتوبة معنى ، وقد أجمع المسلمون على أنها فرض ، وقد صح أيضاً من حديث أبي هريرة ﴿ الصلوات كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر ﴾ انتهى .

وفيه أن دعوى أن ذلك جهل لا يخلو عن الافراط إذا الفرق بين القول بعموم التكفير ومذهب المرجئة والكبائر وهي من جملة أعمال العبد فكما جاز أن يجعل الله سبحانه هذا العمل سبباً لتكفير الجميع يجوز أن يجعل غيره من الأعمال كذلك ، وقوله : ولو كان كما زعم الخ مردود لأنه لا يلزم من تكفير الذنوب الحاصلة عدم الأمر بالتوبة وكونها فرضاً إذا تركها من الذنوب المتجددة التي لا يشملها التكفير السابق بفعل الوضوء مثلا ألا ترى أن التوبة من الصغائر واجبة على ما نقل عن الأشعري ، وحكى إمام الحرمين وتلميذه الأنصاري الإجماع عليه ومع ذلك فجميع الصغائر مكفرة بنص الشارع وإن لم يتب على ما سمعت من الخلاف ، وتحقيق ذلك أن التوبة واجبة في نفسها على الفور ومن أخرها تكرر عصيانه بتكرر الأزمنة كما صرح به الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، ولا يلزم من تكفير الله تعالى ذنوب عبده سقوط التكليف بالتوبة التي كلف بها تكليفاً مستمراً ، وقريب من هذا ارتفاع الاثم عن النائم إذا أخرج الصلاة عن وقتها مع الأمر بقضائها ، وما روي من حديث أبي هريرة إنما ورد في أمر خاص فلا يتعداه إذ الأصل بقاء ما عداه على عمومه وهذا مما لا مجال للقياس فيه حتى يخص بالقياس على ذلك فلا يليق نسبة ذلك القائل إلى الجهل ، والرجاء بالله تعالى شأنه قوي كذا قيل ، وفي المقام بعد أبحاث تركنا ذكرها خوف الاملال فإن أردتها فعليك بالنظر في الكتب المفصلة في علم الحديث .

﴿ ذلك ذكرى لِلذاكِرِينَ ﴾ أي عظمة للمتعظين ، وخصهم بالذكر لأنه المنتفعون بها ، والإشارة إلى ما تقدم من الوصية بالاستقامة والنهي عن الطغيان والركون إلى الذين ظلموا وإقامة الصلوات في تلك الأوقات بتأويل المذكور ، وإلى هذا ذهب الزمخشري ، واستظهر أبو حيان كون ذلك إشارة إلى إقامة الصلاة وأمر التذكير سهل ، وقيل : هي إشارة إلى الإخبار بأن الحسنات يذهبن السيآت ، وقال الطبري : إشارة إلى الأوامر والنواهي في هذه السورة ، وقيل : إلى القرآن ، وبعض من جعل الاشارة إلى الإقامة فسر الذكري بالتوبة .

﴿ وَاصْبِرْ ﴾

أي على مشاق امتثال ما كلفت به ، في الكشاف إن هذا كرور منه تعالى إلى التذكير بالصبر بعد ما جاء بما هو خاتمة للتذكير لفضل خصوصية ومزية وتنبيه على مكان الصبر ومحله كأنه قال : وعليك بما هو أهم مما ذكرت به وأحق بالتوصية وهو الصبر على امتثال ما أمرت به والانتهاء عما نهيت عنه فلا يتم شيء منه إلا به انتهى .

ووجه كونه كريراً إلى ما ذكر بأن الأمر بالاستقامة أمر بالثبات قولاً وفعلاً وعقداً وهو الصبر على طاعة الله تعالى ويتضمن الصبر عن معصيته ضرورة على أن ما ذكره سبحانه كله لا يتم إلا بالصبر ففي ضمن الأمر به أمر بالصبر، واعترض اعتبار الانتهاء عما نهى عنه من متعلقات الصبر إذ لا مشقة في ذلك، واعتذر عن ذلك بأنه يمكن أن يراد بما نهى عنه من الطغيان والركون ما لا يمكن عادة خلو البشر عنه من أدنى ميل بحكم الطبيعة من الاستقامة المأمور بها ومن يسير ميل بحكم البشرية إلى من وجد منه ظلم فإن في الاحتراز عن أمثاله من المشقة ما لا يخفى، وتعقب بأن ما هو من توابع الطبيعة لا يكون من متعلقات النهي، ولهذا ذكروا أن حب المسلم لولده الكافر مثلاً لا إثم فيه، فالأولى أن يقال: إن وجود المشقة في امتثال مجموع ما كلف به يكفي في الغرض، وقيل: المراد من الصبر المأمور به المداومة على الصلاة كأنه قيل: أقم الصلاة أي أدّها تامة ودوام عليها نظير قوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا ﴾ [طه: 132] ﴿ فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ أي يوفيهم ثواب أعمالهم من غير بخس أصلاً، وعبر ذلك بنفي الإضاعة بياناً لكمال نزاهته تعالى عن حرمانهم شيئاً من ثوابهم، وعدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع إفادة فائدة عامة لكل من يتصف بذلك وهو تعليل للأمر بالصبر، وفيه إيماء إلى أن الصبر على ما ذكر من باب الإحسان، وعن مقاتل أنه فسر الإحسان هنا بالإخلاص. وعن ابن عباس أنه قال: المحسنون المصلون وكأنه نظر إلى سياق الكلام، هذا ومن البلاغة

القرآنية أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبي صلى الله عليه وسلم وإن كانت عامة في المعنى ، والمناهي جمعت للأمة ، وما أعظم شأن الرسول عليه الصلاة والسلام عند ربه جل وعلا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(192/386)

وقال ابن عجيبة فى الآيات السابقة :

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112) ﴾

قلت : (ومن تاب) : عطف على فاعل (استقم) ؛ للفصل ، (فَتَمَسَّكُمُ) : جواب النهي . ويقال : ركن يركن : كعَلِم يعلم ، وركن يركن : كدخل يدخل ، و (ثم لا تنصرون) : مستأنف لا معطوف ، و (طرفي) : منصوب على الظرفية . و (زلفاً) ، كقربة ، أزلفه : قربة .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ فاستقمْ ﴾ يا محمد ﴿ كما أُمرت ﴾ ، ﴿ و ﴾ ليستقم ﴿ من تابَ معك ﴾ من الكفر وآمن بك . وهي شاملة للاستقامة في العقائد ، كالتوسط بين التشبيه والتعطيل ، بحيث يبقى العقل مصوناً من الطرفين ، وفي الأعمال ؛ من تبليغ الوحي ، وبيان الشرائع كما أنزل ، والقيام بوظائف العبادات من غير تفريط ولا إفراط . وهي في

غاية العسر . ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « شَيَّبَتْنِي هُود » قاله البيضاوي .

قال المحشي الفاسي : واللائق أن إشفاقه عليه الصلاة والسلام من أجل أمته لا من أجل نفسه ؛ لأجل نفسه ؛ لأجل عصمته ، وإنما أشفق عليهم لتوعد اللعن لهم بقوله : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم ﴾ [الأعراف : 16] . انتهى انتهى . ا هـ قلت : ولا يعبد أن يكون أشفق عليه الصلاة والسلام من صعوبة استقامته التي تليق به ، فبقدر ما يعلو المقام يطلب بزيادة الأدب ، وبقدر ما يشتد القرب يتوجه العتاب . ولذلك كان الحق تعالى يعاتبه على ما لا يعاتب عليه غيره . وقد قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين . وقد تقدم كلام الإحياء في قوله : ﴿ أَلَا بُعداً لِعَادٍ ﴾ [هود : 60] .

(193/386)

ثم قال تعالى : ﴿ ولا تَطْغَوا ﴾ ؛ ولا تخرجوا عما حد لكم ، ﴿ إنه بما تعملون بصير ﴾ ، فيجازيكم على النقير والقطمير ، وهو تهديد لمن لم يستقم ، وتعليل للأمر والنهي . ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ : لا تميلوا إليهم أدنى ميل ؛ فإن الركون : هو الميل اليسير ، كالتزيي بزيهم ، وتعظيم ذكرهم ، وصحبتهم من غير تذكيرهم ووعظهم . ﴿ فتمسّكم النارُ ﴾ ؛ لركونهم إليهم . قال الأوزاعي : ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من عَالِم يَزورُ

عَاملاً. انتهى انتهى. اهـ وقال سفيان: في جهنم وادٍ لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك. انتهى انتهى. اهـ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من دَعَا لِظَالِمٍ بالبَقَاءِ أي بأن قال: بارك الله في عمرك فقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصَى الله في أرضِهِ» وسئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية، هل يسقى شربة ماء؟ فقال: لا. فقيل له: يموت؟! فقال: دعه يموت. انتهى انتهى. اهـ وهذا إغراق ولعله في الكافر المحارب، والله أعلم.

قال البيضاوي: وإذا كان الركون إلى من وجد منه ما يسمى ظلماً موجباً للنار، فما ظنك بالركون إلى الظالمين الموسومين بالظلم، ثم الميل إليهم، ثم بالظلم نفسه، والانهماك فيه. ولعل الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه. وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين بها؛ للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل؛ فإن الزوال عنها بالميل إلى أحد طرفي إفراط أو تفريط، ظلم على نفسه أو غيره، بل ظلم في نفسه.

(194/386)

﴿ وما لكم من دون الله من أولياء ﴾: من أنصار يمنعون العذاب عنكم، ﴿ ثم لا تُنصرون ﴾: ثم لا ينصركم الله إن سبق في حكمه أنه يعذبكم.

ولمَّا كان الركون إلى الظلم، أو إلى من تلبس به فتنة، وهي تكفرها الصلاة، كما في الحديث

، أمر بها أثره ، فقال : ﴿ وأقم الصَّلاةَ طرفي النهار ﴾ غدوة وعشية ، ﴿ وزُلفاً من الليل ﴾ ؛ ساعات منه قريبة من النهار . والمراد بالصلاة المأمور بها : الصلوات الخمس .

فالطرف الأول : الصبح ، والطرف الثاني : الظهر والعصر ، والزلف من الليل : المغرب والعشاء ، ﴿ إن الحسنات يُذهبن السيئات ﴾ ؛ يكفر بها قال ابن عطية : لفظ الآية عام في الحسنات خاص في السيئات ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « ما اجتَنَبت الكَبَائِرُ » ثم قال : وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الجُمُعَةُ إلى الجمعَةِ كفَّارَةَ ، والصَّلوَاتُ الخَمسُ ، ورَمَضانُ إلى رَمَضانَ كفاره لِمَا بينَهُما ما اجتُنِبت الكبائر » انظر تمامه في الحاشية .

(195/386)

قال ابن جزي : رُوي أن رجلاً قَبّل امراة ، قلتُ : هو نبهان التمار ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم وصلَّى معه الصلاة ، فنزلت الآية ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أين السائل ؟ » فقال : ها أنا ذا ، فقال : « قد غَفَرَ اللَّهُ لَكَ بصلاتِكَ مَعَنَا » فقال الرجل : أَلِيَ خاصَّةً ، أو للمسلمين عامة ؟ فقال : « للمسلمين عَامَّةً » والآية على هذا مدنية . وقيل : إن الآية كانت قبل ذلك ، وذكرها النبي صلى الله عليه وسلم للرجل مستدلاً بها . والآية

على هذا مكية كسائر السورة ، وإنما تُذهب الحسناتُ عند الجمهور الصغائر إذا اجتنبت الكبائر . انتهى انتهى . اهـ قلت : وقيل : تكفر مطلقاً ؛ اجتُنِبَت الكبائر أم لا ، وهو الظاهر ، لأنه إذا حصل اجتناب الكبائر كفرت بلا سبب ؛ لقوله تعالى ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ . . . ﴾ [النساء : 31] الآية . وقوله عليه الصلاة والسلام : « ما اجتنبت الكبائر » معناه : أن الصلوات والجمعة مكفرة لما عدا الكبائر .

والحاصل : أن من اجتنب الكبائر كفرت عنه الصغائر بلا سبب ؛ لنص الآية . ومن ارتكب الكبائر والصغائر وصلى ، كفرت الصغائر دون الكبائر ، وبهذا تتفق الآية مع الحديث . والله تعالى أعلم .

قال ابن عطية في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اشترى . . . ﴾ [التوبة : 111] الآية : الشهادة ماحية لكل ذنب إلا لمظالم العباد . وقد روي : « أن الله يتحمل عن الشهيد مظالم العباد ، ويجازيهم عنه » . ختم الله لنا بالحسنى . انتهى .

﴿ ذلك ﴾ أي : ما تقدم من وعظ ووعد ووعيد ، وأمر الاستقامة ، أو القرآن كله ، ﴿ ذكرى للذاكرين ﴾ : عظة للمتقين . وخص الذاكرين ، لمزيد انتفاعهم بالوعظ ، لصقالة قلوبهم . وفي الخبر : « لكل شيء مصقلة ، ومصقلة القلوب ذكر الله » . ﴿ واصبرْ ﴾ على مشاق الاستقامة ، ودوامها ﴿ فإن الله لا يُضيع أجرَ المحسنين ﴾ وهم : أهل الاستقامة ظاهراً وباطناً .

الإشارة : الاستقامة على ثلاثة أقسام : استقامة الجوارح ، واستقامة القلوب ، واستقامة الأرواح والأسرار . أما استقامة الجوارح فتحصل بكمال التقوى ، وتحقيق المتابعة للسنة المحمدية . وأما استقامة القلوب فتحصل بتطهيرها من سائر العيوب ، كالكبر والعجب ، والرياء ، والسمعة ، والحقد والحسد ، وحب الجاه والمال ، وما يتفرع عن ذلك من العداوة والبغضاء ، وترك الثقة بمجيء الرزق ، وخوف سقوط المنزلة ، من قلوب الخلق ، والشح والبخل ، وطول الأمل ، والأشر والبطر ، والغل والمباهاة ، والتصنع والمداهنة ، والقسوة والفظاظة والغلظة ، والغفلة ، والجفاء ، والطيش ، والعجلة ، والحمية ، وضيق الصدر ، وقلة الرحمة . إلى غير ذلك من أنواع الرذائل .

فإذا تطهر القلب من هذه العيوب اتصف بأضدادها من الكمالات : كالتواضع لله ، والخشوع بين يديه ، والتعظيم لأمره ، والحفظ لحدوده ، والتذلل لربوبيته ، والإخلاص في عبوديته ، والرضى بقضائه ، ورؤية المنة له في منعه وعطائه . ويتصف فيما بين خلقه بالرأفة والرحمة ، واللين والرفق ، وسعة الصدر والحِلم ، والاحتمال والصيانة ، والنزاهة والأمانة ، والثقة والتأني ، والوقار ، والسخاء والجود ، والحياء ، والبشاشة والنصيحة .

إلى غير ذلك من الكمالات .

وأما استقامة الأرواح والأسرار ، فتحصل بعدم الوقوف مع شيء سوى الله تعالى ، وعدم الالتفات إلى غيره حالاً كان أو مقاماً أو كرامة ، أو غير ذلك : كما قال الششتري رضي الله عنه :

فلا تَلْتَفِت في السَّير غيراً ، وكلُّ ما . . . سوى الله غيرٌ ، فاتخذ ذِكرَه حِصنا

وكلُّ مقامٍ لا تُقمْ فيهِ إنّه . . . حجابٌ ، فجد السَّير واستَنجد العونا

ومهما ترى كلَّ المراتب تجْتَلِي . . . عليكَ فحلْ عنها ، فعَن مثلها حُلنا

وقُلْ : ليس لي في غَير ذاتِك مَطلبٌ . . . فلا صورةُ تُجلى ولا طُرفة تُجنا

(197/386)

وقوله تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ : هو نهي عن صحبة الغافلين والميل إليهم .

قال بعض الصوفية : قلب لبعض الأبدال : كيف الطريق إلى التحقيق ، والوصول إلى الحق ؟ قال : لا تنظر إلى الخلق ؛ فإن النظر إليهم ظلمة ، قلت : لا بد لي ، قال : لا تسمع كلامهم ؛ فإن كلامهم قسوة : قلت : لا بد لي ، قال : لا تعاملهم ؛ لأن معاملتهم خسران وحسرة ووحشة ، قلت : أنا بين أظهرهم لا بد لي من معاملتهم ؟ قال : لا تسكن إليهم ؛ فإن

السكون إليهم هلكة . قلت : هذا لعله يكون ؟ قال : يا هذا ، أتنظر إلى اللاعبين ، وتسمع كلام الجاهلين ، وتعامل البطالين ، وتسكن إلى الهلكى ، وتريد أن تجد حلاوة الطاعة ، وقلبك مع غير الله عز وجل ! ! هيهات ! هذا ما لا يكون أبداً . انتهى انتهى . ا هـ ونقل الورتجي عن جعفر الصادق : ولا تركنوا إلى نفوسكم فإنها ظلمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المديد حـ 3 صـ 562.565 ﴾

(198/386)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾

انتقل من خطاب المؤمنين إلى خطاب النّبيء صلى الله عليه وسلم وهذا الخطاب يتناول جميع الأمّة بقرينة أنّ المأمور به من الواجبات على جميع المسلمين ، لا سيما وقد ذكر معه ما يناسب الأوقات المعيّنة للصلوات الخمس ، وذلك ما اقتضاه حديث أبي اليُسْر الآتي .

وطرف الشيء : منتهاه من أوّله أو من آخره ، فالتثنية صريحة في أنّ المراد أوّل النّهار وآخره .

و﴿ النّهار ﴾ : ما بين الفجر إلى غروب الشمس ، سمي نهاراً لأنّ الضياء ينهر فيه ، أي

يبرز كما يبرز النهْر .

والأمر بالإقامة يؤذن بأنّه عمل واجب لأنّ الإقامة إيقاع العمل على ما يستحقه ، فتقتضي أنّ المراد بالصّلاة هنا الصلاة المفروضة ، فالطّرفان ظَرْفان لإقامة الصّلاة المفروضة ، فعلم أن المأمور إيقاع صلاة في أوّل النّهار وهي الصّبح وصلاة في آخره وهي العصر وقيل المغرب .

والزُلَف : جمع زلْفة مثل غُرْفة وغُرَف ، وهي السّاعة القريبة من أختها ، فعلم أن المأمور إيقاع الصلاة في زلف من اللّيل ، ولمّا لم تعيّن الصلوات المأمور بإقامتها في هذه المدّة من الزمان كان ذلك مجملاً فبينته السنةُ والعملُ المتواتر بخمس صلوات هي الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وكان ذلك بيَاناً لآيات كثيرة في القرآن كانت مجملة في تعيين أوقات الصلوات مثل قوله تعالى : ﴿ أقم الصّلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ [الإسراء : 78]

والمقصود أن تكون الصّلاة أول أعمال المُسلم إذا أصبح وهي صلاة الصبح وآخر أعماله إذا أمسى وهي صلاة العشاء لتكون السيّئات الحاصلة فيما بيْن ذلك ممحوة بالحسنات الحافّة بها .

وهذا مشير إلى حكمة كراهة الحديث بعد صلاة العشاء للحثّ على الصّلاة وخاصة ما كان منها في أوقات تعرض الغفلة عنها .

وقد ثبت وجوبهما بأدلّة أخر وليس في هذه الآية ما يقتضي حصر الوجوب في المذكور فيها .

وجملة ﴿ إنّ الحسنات يذهبن السّيّئات ﴾ مسوقة مساق التّعليل للأمر بإقامة الصّلوات ، وتأكيد الجملة بحرف ﴿ إنّ ﴾ للاهتمام وتحقيق الخبر .

و﴿ إنّ ﴾ فيه مفيدة معنى التّعليل والتفريع ، وهذا التعليل مؤذن بأنّ الله جعل الحسنات يذهبن السيّئات ، والتّعليل مشعر بعموم أصحاب الحسنات لأنّ الشأن أن تكون العلّة أعم من المعلول مع ما يقتضيه تعريف الجمع باللاّم من العموم .

وإذهاب السيّئات يشمل إذهاب وقوعها بأن يصير انسياق النّفس إلى ترك السيّئات سَهْلاً وهيّناً كقوله تعالى : ﴿ إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ [العنكبوت : 45] ويكون هذا من خصائص الحسنات كلّها .

ويشمل أيضاً محو إثمها إذا وقعت ، ويكون هذا من خصائص الحسنات كلّها فضلاً من الله على عباده الصالحين .

ومحمل السيّئات هنا على السيّئات الصغائر التي هي من اللّمم حملاً لمطلق هذه الآية على

مقيد آية ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلاّ اللّمَم ﴾ [النجم : 32] وقوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تُنْهَوْنَ عنه نكَفّر عنكم سيئاتكم ﴾ [النساء : 31] ، فيحصل من مجموع الآيات أنّ اجتناب الفواحش جعله الله سبباً لغفران الصغائر أوْ أنّ الإتيان بالحسنات يذهب أثر السيئات الصغائر ، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ إنْ تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيّئاتكم ﴾ في سورة [النّساء : 31] .

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أنّ رجلاً أصاب من امرأة قبلةَ حرام فأتى النبي فذكرت ذلك فأنزلت عليه وأقم الصّلاة طرفي النهار وزُلفاً من الليل ﴾ . فقال الرجل : أَلِي هذه؟ قال : لمن عمِل بها من أمّتي .

(200/386)

وروى الترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنّي عالجت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن أمسّها وها أنا ذا فَاقْض فيّ ما شئت ، فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فانطلق الرجل فأتبعه رجلاً فدعاه فتلا عليه ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ إلى آخر الآية ، فقال

رجل من القوم : هذا له خاصة ؟ قال : لا ، بل للنّاس كافة .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

وأخرج الترمذي حديثين آخرين : أحدهما عن معاذ بن جبل ، والآخر عن أبي اليَسر وهو صاحب القصة وضعّفهما .

والظاهر أن المرويّ في هذه الآية هو الذي حمل ابن عبّاس وقتادة على القول بأنّ هذه الآية مدنيّة دون بقية هذه السورة لأنه وقع عند البخاري والترمذي قوله : (فأنزلت عليه) فإن كان كذلك كما ذكره الرّاوي فهذه الآية ألحقت بهذه السورة في هذا المكان لمناسبة وقوع قوله : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ [هود : 112] قبلها وقوله : ﴿ واصبر فإنّ الله لا يضيعُ أجرَ المحسنين ﴾ [هود : 115] بعدَها .

وأمّا الذين رجّحوا أنّ السورة كلّها مكيّة فقالوا : إنّ الآية نزلت في الأمر بإقامة الصّلوات وإن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بها الذي سأله عن القبلة الحرام وقد جاء تائباً ليعلمه بقوله : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيّئات ﴾ ، فيؤوّل قولُ الراوي : فأنزلت عليه ، أنّه أنزل عليه شمول عموم الحسنات والسيئات لقضيّة السائل ولجميع ما يماثلها من إصابة الذنوب غير الفواحش .

ويؤيّد ذلك ما في رواية الترمذي عن علقمة والأسود عن ابن مسعود قوله : فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وأقم الصّلاة ﴾ ، ولم يقولا : فَأُنزل عليه .

وقوله : ﴿ ذلك ذكْرى للذاّكرين ﴾ أيْ تذكْرة للّذي شأنه أن يذكر ولم يكن شأنه الإعراض عن طلب الرشد والخير ، وهذا أفاد العموم نصّاً .

(201/386)

وقوله : ﴿ ذلك ﴾ الإشارة إلى المذكور قبله من قوله : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ [هود : 112].

﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (115) ﴾

عطف على جملة ﴿ فلا تك في مرية ممّا يعبد هؤلاء ﴾ [هود : 109] الآيات ، لأنّها سيقت مساق التّثبيت من جرّاء تأخير عقاب الذين كذبوا .

ومناسبة وقوع الأمر بالصّبر عقب الأمر بالاستقامة والنّهي عن الركون إلى الذين ظلموا ، أنّ المأمورات لا تخلو عن مشقة عظيمة ومخالفة لهوى كثير من النفوس ، فناسب أن يكون الأمر بالصبر بعد ذلك ليكون الصبر على الجميع كلّ بما يناسبه .

وتوجيه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم تنويه به .

والمقصود هو وأمته بقرينة التعليل بقوله : ﴿ فإنّ الله لا يُضيع أجر المحسنين ﴾ لما فيه من العموم والتفريع المقتضي جمعهما أنّ الصبر من حسنات المحسنين وإلا لَمَا كان للتفريع موقع .

وحرف التأكيد مجلوب للاهتمام بالخبر .

وسمّي الثواب أجراً لوقوعه جزاء على الأعمال وموعوداً به فأشبه الأجر . انتهى ا . هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(202/386)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾

وهذا أمر بالخير ؛ يوجهه الله سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم .

ونحن نلحظ في هذه الآيات من سورة هود أنها تحمل أوامر ونواهي ؛ الأوامر بالخير دائماً ؛ والنواهي عن الشر دائماً .

ونلحظ أن الحق سبحانه قال :

﴿ فاستقم كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ [هود : 112] .

ثم وَجَّه النهي للأمة كلها : ﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ ﴾ [هود : 112] ولم يقل : " فاستقم ولا تطغي " لأن الأمر بالخير يأتي للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته معه ؛ وفي النهي عن الشر يكون الخطاب موجهاً إلى الأمة ، وفي هذا تأكيد لرفعة مكانة النبي صلى الله عليه وسلم .

ونرى نفس الأمر حين يوجه الحق سبحانه الحديث إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَلاَ تركنوا إِلَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ [هود : 113] .

ولم يقل : " ولا تركن إلى الذين ظلموا " .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم ولأمته :

﴿ وَأَقِمِ الصلاة ﴾ [هود : 114] .

والإقامة تعني : أداء المطلوب على الوجه الأكمل ، مثل إقامة البنيان ؛ وأن تجعله مؤدياً للغرض المطلوب منه .

ويقال : " أقام الشيء " أي : جعله قائماً على الأمر الذي يؤدي به مهمته .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار ﴾ [هود : 114] .

أي : نهايته من ناحية ، ونهايته من الناحية الأخرى ؛ لان طرف الشيء هو نهايته .

وتتحدد نهاية الطرفين من منطقة وسط الشيء ، فالوسط هو الفاصل بين الطرفين ؛ فما على يمين الوسط يعد طرفاً ؛ وما على يسار الوسط يعد طرفاً آخر ؛ وكل جزء بعد الوسط طرف .

وعادةً ما بعد الوسط هو نقطة المنتصف تماماً ، وما على يمينها يقسم إلى عشرة أجزاء ، وما على يسارها يقسم إلى عشرة أجزاء أخرى ، وكل قسم بين تلك الأجزاء التي على اليمين و التي على اليسار يعد طرفاً .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار ﴾ [هود : 114] .

يقتضي أن تعرف أن النهار عندنا إنما نتعرف عليه من بواكير الفجر الصادق ، وهذا هو أول طرف نقيم فيه صلاة الفجر ، ثم يأتي الظهر ؛ فإن وقع الظهر قبل الزوال حسبناه من منطقة ما قبل الوسط ، وإن كان بعد الزوال حسبناه من منطقة ما بعد الوسط .

وبعد الظهر هناك العصر ، وهو طرف آخر .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَزُلَفاً مِّنَ الليل ﴾ [هود : 114] .

يقتضي منا أن نفهم أن كلمة ﴿ زُلَفاً ﴾ هي جمع ؛ زلفة ، وهي مأخوذة من : أزلفه ، إذا قرَّبه .

والجمع أقله ثلاثة ؛ ونحن نعلم أن لنا في الليل صلاة المغرب ، وصلاة العشاء ، ولذلك نجد الإمام أبا حنيفة يعتبر الوتر واجباً ، فقال : إن صلاة العشاء فرض ، وصلاة الوتر واجب ؛ وهناك فرق بين الفرض والواجب .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك مباشرة :

﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ [هود : 114] .

وهذا التعقيب يضع الصلاة في قمة الحسنات ، وقد أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا بأن قال : " الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر " .

واختلف العلماء في معنى السيئات والحسنات ، وقال بعضهم : الحسنة هي ما جعل الله سبحانه على عملها ثواباً ، والسيئة هي ما جعل الله على عملها عقاباً .

وأول الحسنات في الإيمان أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وهذه حسنة أذهبت الكفر ؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات .

ولذلك قال بعض العلماء : إن المسلم الذي ارتكب معصية أو كبيرة من الكبائر ، لا يخلد في النار ؛ لأنه إذا كانت حسنة الإيمان قد أذهبت سيئة الكفر ، أفلا تذهب ما دون الكفر ؟

.

وهكذا يخفّف العقاب على المسلم فينال عقابه من النار ، ولكنه لا يخلد فيها ؛ لأننا لا يمكن أن نساوي بين من آمن بالله ومن لم يؤمن بالله .

والإيمان بالله هو أكبر حسنة ، وهذه الحسنة تذهب الكفر ، ومن باب أولى أن تذهب ما دون الكفر .

وتساءل بعض العلماء : هل الفرائض هي الحسنات التي تذهب السيئات ؟

وأجاب بعضهم : هناك أحاديث صحيحة قد وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حسنات في غير الفرائض ، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن صوم يوم عرفة إلى صوم يوم عرفة يذهب السيئات " .

ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الإنسان الذي يستقبل نعمة الله بقوله : الحمد لله الذي رزقنيه من غير حولٍ مني ولا قوة ، والحمد لله الذي كساني من غير حولٍ مني ولا قوة " . وهذا القول يكفّر السيئات .

ألم يقل صلى الله عليه وسلم " إنك إذا قلت : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم " فهذا القول كفارة ؟

إذن : فالحسنات مطلقة سواء أكانت فرضاً أم غير فرضٍ ، وهي تذهب السيئات .

والسيئة هي عمل توعد الله سبحانه من يفعله بالعقوبة .

وتساءل أيضاً بعض العلماء : إن السيئة عمل ، والعمل إذا وقع يُرفع ويُسجَّل ، فكيف تُذهبها الحسنة ؟

وأجابوا : إن ذهاب السيئة يكون إما عن طريق مَنْ يحفظ العمل ، ويكتبه عليك ، فيمحوه الله من كتاب سيئاتك ، أو أن يعفو الله سبحانه وتعالى عنك ؛ فلا يعاقبك عليه ، أو يكون ذهاب العمل في ذاته فلا يتأتى ، وما وقع لا يرتفع ؛ أو يحفظها الله إن وقعت ؛ لأنه هو سبحانه القائل :

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 18] .

ويقول سبحانه :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ ﴾ [الانفطار : 1011] .

وهكذا يكون إذهاب السيئة ، إما محوها من الكتاب ، وإما أن تظل في الكتاب ، ويذهب الله سبحانه عقوبتها بالمغفرة .

(205/386)

والحق سبحانه يقول :

﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإثم والفواحش إِلاَّ اللمم إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المغفرة ﴾ [النجم : 32

] .

واجتناب الكبائر لا يمنع من وقوع الصغائر .

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر ﴾ [العنكبوت : 45] .

وحين ننظر إلى مواقيت الصلاة ، نجدها خمسة مواقيت ، فمن تعلَّق قلبه بالصلاة ، إنما ينشغل قلبه طوال وقت حركته بإقامة الصلاة ، ثم يأتي وقت الليل لينام ، وكل من يرتكب معصية سينشغل فكره بها لمدةٍ ، ولو لم يأت له وقت صلاة لأحسَّ بالضياع ، أما إذا ما جاء وقت الصلاة فقلبه يتجه لله سبحانه طالباً المغفرة .

وإن وقعت منه المعصية مرة ، فقد لا تقع مرة أخرى ، أو أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر في وقت الاستعداد لها ، فمن جلس لينمَّ على غيره ، أو يظلم الناس ، إذا ما سمع أذان الصلاة وقام وتوضأ ؛ فقد رحم الناس في وقت وضوئه ووقت صلاته ووقت ختمه للصلاة .

وهناك أعمال كثيرة من الفروض والحسنات وهي تمحو السيئات ، وعلى المسلم أن ينشغل بزيادة الحسنات ، وألا ينشغل بمحو السيئات ؛ لأن الحسنة الواحدة بشعرة أمثالها وقد يضاعفها الله سبحانه ، أما السيئة فإنما تكتب واحدة .

ويُنهي الحق سبحانه هذه الآية الكريمة بقوله :

﴿ ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ [هود : 114] .

أي : إن إقامة الصلاة طرفي النهار ، وزلفاً من الليل هي حسنات تذهب السيئات ؛ وفي ذلك ذكرى وتنبيه للنفس إلى شيء غُفِل عنه ، أي : أن هذا الشيء كان موجوداً من قبل ، ولكن جاءت الغفلة لتنسيه ، والإخبار الأول أزال الجهل بهذا الشيء ، والإخبار الثاني يذكِّرك بالحكم ؛ لأن آفة الإنسان أن الأمور التي تمر به من المرائي والمدركات ، تتوالى وتصير الأشياء التي في بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور ، فيغفل الإنسان عما صار في حاشية الشعور ، ولا بد من مجيء معنى جديد ليذكِّر بما غاب في حاشية الشعور .

(206/386)

ومثال ذلك : إنك إذا ألقيت حجراً في بحر ، فهذا الحجر يستقر في بؤرة تصنع حولها دوائر من المياه ، وتذهب هذه الدوائر إلى أن تختفي من رؤية الإنسان ، ودليل ذلك أنك قد تتذكر أحداثاً مرت عليك من عشرين عاماً أو أكثر ، هذه الأحداث كانت موجودة في حاشية الشعور ، ثم جاء لك ما ينبهك إليها .

والمخ كآلة التصوير الفوتوغرافية يلتقط أحياناً من مرة واحدة ، وأحياناً من مرتين ، أو أكثر ، والالتقاط من أول مرة إنما يتم لأن المخ في تلك اللحظة كان خالياً من الخواطر .

ونحن نجد أن من فقدوا أبصارهم إنما ينعم الله سبحانه عليهم بنعمة أخرى ، هي قدرتهم الكبيرة على حفظ العلم ؛ لأنه حين يسمع الكفيف العلم لا تشغله الخواطر المرئية التي تسرق انتباه بؤرة الشعور ، أما المبصر ، فقد تسرق بؤرة شعوره ما يمر أمامه ، فيسمع العلم لأكثر من مرة إلى أن يصادف العلم بؤرة الشعور خالية فيستقر فيها .

وهكذا تفعل الذكرى ؛ لأنها تستدعي ما في حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ، فإذا انشغلت عن طاعة وذهبت إلى معصية ، فالذكرى توضح لك آفاق المسئولية التي تتبع المعصية ، وهي العقاب .

ولذلك يقال : "لا خير في خيرٍ بعده النار ، ولا شر في شر بعده الجنة" .

والحق سبحانه يقول هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار وَزُلَفاً مِّنَ الليل ﴾ [هود : 114] .

وأنت حين تنظر إلى أركان الإسلام ، ستجد أنك تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله مرة واحدة في العمر ، والركن الثاني ، وهو الصلاة ، وهو ركن لا يسقط أبداً ، فهي كل يوم خمس مرات ، فيها تنطق بالشهادة ، وتزكِّي ببعض الوقت ليبارك لك الله سبحانه وتعالى فيما بقي لك من وقتٍ ، وفيها تصوم عن الطعام والشراب وكل ما يفسد الصيام ، وأنت تتجه لحظة قيام الصلاة إلى البيت الحرام .

ففي الصلاة تتضح العبادات الأخرى ، ففيها من أركان الإسلام الخمس .

ولذلك لا تسقط الصلاة أبداً ؛ لأنك إن لم تستطع الصلاة واقفاً ؛ فلَكَ أن تصلي قاعداً ، وإن لم تكن تستطيع الحركة فلَكَ أن تحرك رموش عينيك ، وأنت تصلي .

وهكذا تجد في الصلاة كل أركان الدين ، ولأهميتها نجد أنها تبقى مع الإنسان إلى آخر رمقٍ في حياته ، وهي قد أخذت أهميتها في التشريع على قدر أهميتها في التكليف ، وكل تكاليف الإسلام قد جاءت بواسطة الوحي إلا الصلاة ، فقد جاءت مباشرة من الله تعالى ، فقد استدعى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم إليه ليفرض عليه الصلاة وهي تحية لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ نظراً لأنها شرعت في قرب محمد صلى الله عليه وسلم من ربه سبحانه وتعالى .

لذلك جعل الحق سبحانه الصلاة المفروضة في القرب وسيلة لقرب أمة رسوله صلى الله عليه وسلم جميعاً ؛ ولذلك فهي الباقية .

ويُحكَى أن الإمام علياً كرم الله وجهه ورضي عنه أقبل على قوم وقال لهم : أي آيةٍ في كتاب الله أَرْجَى عندكم ؟

أي : ما هي الآية التي تعطي الرجاء والطمأنينة والبشرى بأن الحق سبحانه يقبلنا ويغفر لنا

ويرحمنا ، فقال بعضهم : هي قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : 116] .

فقال الإمام علي : حسنة ، وليست إياها ؟ أي : أنها آية تحقق ما طلبه ، لكنها ليست الآية التي يعنيها .

فقال بعض القوم إنها قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [النساء : 110] .

فكرر الإمام علي : حسنة ، وليست إياها .

فقال بعض القوم : هي قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾

[الزمر : 53] .

فقال الإمام علي : حسنة ، وليست إياها :

فقال بعضهم : هي قوله سبحانه :

﴿ والذين إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظلموا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ الله فاستغفروا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذنوب إِلاَّ الله ﴾ [آل عمران : 135] .

فقال الإمام علي : حسنة ، وليست إياها .

وصمت القوم وأحجموا ، فقال الإمام علي كرَّم الله وجهه : ما بالكم يا معشر المسلمين ؟ وكأنه يسألهم : لماذا سكتم ؟ . . فقالوا : لا شيء .

وهكذا جعل الإمام علي التشويق أساساً يبني عليه ما سوف يقول لهم : واشرأبت أعناقهم ، وأرهفوا السمع ، فقال لهم الإمام علي : سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أَرْجَى آية في كتاب الله هي قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار وَزُلَفاً مِّنَ اليل إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ذلك ذكرى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [هود : 114] .

يا علي إن أحدكم ليقوم من وضوئه فتتساقط عن جوارحه ذنوبه ، فإذا أقبل على الله بوجهه وقلبه لا ينفتل أي : لا يلتفت إلا وقد غفر الله له كل ذنوبه كيوم ولدته أمه ؛ فإذا أحدث شيئاً بين الصلاتين فله ذلك ، ثم عدَّ الصلوات الخمس واحدة واحدة ، فقال بين الصبح والظهر ، وبين الظهر والعصر ، وبين العصر والمغرب ، وبين المغرب والعشاء ، وبين العشاء والفجر ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : " يا علي إنما الصلوات الخمس لأمتي كنهر

جارٍ بباب أحدكم ، أو لو كان على جسد واحد منكم درن ثم اغتسل في البحر ، أيبقى على جسده شيء من الدرن ؟ قال : فذلكم والله الصلوات لأمتي " .

ولذلك لو نظرنا إلى الأعمال لوجدنا كل عمل له مجاله في عمره إلا مجال الصلاة ، فمجالها كل عمر الإنسان .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ واصبر فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾

وجاءت كلمة " اصبر " لتخدم كل عمليات الاستقامة .

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا ﴾ [طه : 132] .

(209/386)

والصبر نوعان : صبر " على " ، وصبر " عن " وفي الطاعات يكون الصبر على مشقة الطاعة ، مثل صبرك على أن تقوم من النوم لتصلي الفجر ، وفي اتقاء المعاصي يكون الصبر عن الشهوات .

وهكذا نعلم أن الصبر على إطلاقه مطلوب في الأمرين : في الإيجاب للطاعة ، وفي السلب عن المعصية .

ونحن نعلم أن الجنة حُفَّتْ بالمكاره ؛ فاصبر على المكاره ، وحُفَّتِ النار بالشهوات ؛ فاصبر عنها .

وافرض أن واحداً يرغب في أكل اللحم ، ولكنه لا يملك ثمنها ، فهو يصبر عنها ؛ ولا يستدين .

ولذلك يقول الزهاد : ليس هناك شيء اسمه غلاء ، ولكن هناك شيء اسمه رخص النفس .

ولذلك نجد من يقول : إذا غلا شيء عليّ تركته ، وسيكون أرخص ما يكون إذا غلا .

والحق سبحانه يقول :

﴿ واصبر على مَآ أَصَابَكَ ﴾ [لقمان : 17] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ واصبر فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ [هود : 115] .

وهم الذين أدخلوا أنفسهم في مقام الإحسان ، وهو أن يلزم الواحد منهم نفسه بجنس ما فرض الله فوق ما فرق الله ، من صلاة أو صيام ، أو زكاة ، أو حج لبيت الله ؛ لأن العبادة ليست اقتراحاً من عابدٍ لمعبود ، بل المعبود هو الذي يحدد ما يقربك إليه .

وحاول ألاّ تدخل في مقام الإحسان نَذْراً ؛ لأنه قد يشق عليك أن تقوم بما نذرته ، واجعل زمان الاختيار والتطوع في يدك ؛ حتى لا تدخل مع الله في ودٍّ إحساني ثم تفتر عنه ، وكأنك

والعياذ بالله قد جرَّبت مودة الله تعالى، فلم تجده أهلاً لها، وفي هذا طغيان منك.

وإذا رأيت إشراقات فيوضات على مَنْ دخل مقام الإحسان فلا تنكرها عليه، وإلا لسويت بين من وقف عند ما فُرِضَ عليه، وبين من تجاوز ما فُرِضَ عليه من جنس ما فَرَضَ الله.

(210/386)

وجرب ذلك في نفسك، والتزم أمر الله باحترام مواقيت الصلاة، وقم لتصلي الفجر في المسجد، ثم احرص على أن تتقن عملك، وحين يجيء الظهر قم إلى الصلاة في المسجد، وحاول أن تزيد من ركعات السنة، وستجد أن كثافة الظلمانية قد رَقَّتْ في أعماقك، وامتلأتَ بإشراقات نورانية تفوق إدراكات الحواس، ولذلك لا تستكثر على مَنْ يرتاض هذه الرياضة الروحية، حين تجد الحق سبحانه قد أنار بصيرته بتجليات من وسائل إدراك وشفافية.

ولذلك لا نجد واحداً من أهل النور والإشراق يدَّعي ما ليس له، والواحد منهم قد يعلم أشياء عن إنسان آخر غير ملتزم، ولا يعلنها له؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد خَصَّه بأشياء وصفات لا يجب أن يضعها موضع التباهي والمراءاة.

وحين عرض الحق سبحانه هذه القضية أراد أن يضع حدوداً للمرتاض ولغير المرتاض ، في قصة موسى عليه السلام حينما وجد موسى وفتاة عبداً صالحاً ، ووصف الحق سبحانه العبد الصالح بقوله تعالى :

﴿ عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ [الكهف : 65] .

وقال العبد الصالح لموسى عليه السلام :

﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ [الكهف : 67] .

وبيّن العبد الصالح لموسى بمنتهى الأدب عذره في عدم الصبر ، وقال له :

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ [الكهف : 68] .

وردّ موسى عليه السلام :

﴿ ستجدني إِن شَآءَ الله صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أمْراً ﴾ [الكهف : 69] .

فقال العبد الصالح :

﴿ فَإِنِ اتبعتني فَلاَ تَسْأَلْني عَن شَيءٍ حتى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ [الكهف : 70] .

ولكن الأحداث توالت ؛ فلم يصبر موسى ؛ فقال له العبد الصالح :

﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف : 78] .

وهذا حكم أزلي بأن المرتاض للرياضة الروحية ، ودخل مقام الإحسان لا يمكن أن يلتقي مع غير المرتاض على ذلك ، وليلزم غير المرتاض الأدب مثلما يلتزم المرتاض الأدب ، ويقدم العذر في أن ينكر عليه غير المرتاض معرفة ما لا يعرفه .

ولو أن المرتاض قد عذر غير المرتاض ، ولو أن غير المرتاض تأدب مع المرتاض لاستقرّ ميزان الكون .

والحق سبحانه يبيّن لنا مقام الإحسان وأجر المحسنين ، في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ [الذاريات : 1516] .

ويبيِّن الحق سبحانه لنا مدارج الإحسان ، وأنها من جنس ما فرض الله تعالى ، في قوله سبحانه :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّن اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات : 17] .

والحق سبحانه لم يكلف في الإسلام ألا يهجع المسلم إلا قليلاً من الليل ، وللمسلم أن يصلي العشاء ، وينام إلى الفجر .

وتستمر مدارج الإحسان ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : 18] .

والحق سبحانه لم يكلِّف المسلم بذلك ، ولكن الذي يرغب في الارتقاء إلى مقام الإحسان يفعل ذلك .

ويقول الحق سبحانه أيضاً :

﴿ وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ والمحروم ﴾ [الذاريات : 19] .

ولم يحدد الحق سبحانه هنا هذا الحق بأنه حق معلوم ، بل جعله حقاً غير معلوم أو محددٍ ، والله سبحانه لم يفرض على المسلم إلا الزكاة ، ولكن من يرغب في مقام الإحسان فهو يبذل من ماله للسائل والمحروم .

وهكذا يدخل المؤمن إلى مقام الإحسان ، ليودَّ الحق سبحانه .

ولله المثل الأعلى : نحن نجد الإنسان حين يوده غيره ؛ فهو يعطيه من خصوصياته ، ويفيض عليه من مواهبه الفائضة ، علماً ، أو مالاً ، فما بالنا بمن يدخل في ودٍّ مع الله سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(212/386)

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ : هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ جَمْعَ الْمُؤَنَّثِ السَّالِمِ لِلْقِلَّةِ مِنْ جِهَةِ الضَّمِيرِ فِي "يُذْهِبْنَ" وَلَوْ كَانَ لِلْكَثْرَةِ لَقَالَ يُذْهِبُنَّ لِأَنَّ فَعَلْنَ لِلْقِلَّةِ وَفَعَلَتْ لِلْكَثْرَةِ وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ مُعَرَّفًا أَوْ مُنَكَّرًا خِلَافًا لِمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ إذَا تَعَرَّفَ بِالْأَلِفِ وَاللَّامِ يَصِيرُ لِلْكَثْرَةِ نَعَمْ يَصِيرُ لِلْعُمُومِ .

وَفَرْقٌ بَيْنَ الْعُمُومِ وَالْكَثْرَةِ ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ لِلْكَثْرَةِ لَاخْتَصَّ بِهِ مَا زَادَ عَلَى الْعَشَرَةِ وَلَمْ يَدْخُلْ مَا دُونَهَا فِيهِ .

وَالْعُمُومُ يَقْتَضِي شُمُولَ كُلِّ رُتْبَةٍ مِنْ مَرَاتِبِ جَمْعِ الْقِلَّةِ فَيَحْصُلُ عُمُومُ جَمِيعِ الَّتِي فِي جَمْعِ الْكَثْرَةِ مِنْ ذَلِكَ ، فَمَتَى فَعَلَ حَسَنَاتٍ وَسَيِّئَاتٍ أَذْهَبَتْ الْحَسَنَاتُ السَّيِّئَاتِ قَلَّتْ أَوْ كَثُرَتْ مِنْ الْجَانِبَيْنِ أَمَّا عِنْدَ الْقِلَّةِ فِيهِمَا فَمَجْمُوعُ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ مَجْمُوعَ السَّيِّئَاتِ وَأَمَّا عِنْدَ الْكَثْرَةِ فِيهِمَا فَمَنْطُوقُ الْكَلَامِ يَقْتَضِي أَنَّ كُلَّ مَرْتَبَةٍ مِنْ مَرَاتِبِ جَمْعِ الْقِلَّةِ فِي الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ كُلَّ مَرْتَبَةٍ مِنْ مَرَاتِبِ جَمْعِ الْقِلَّةِ فِي السَّيِّئَاتِ .

وَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ إذْهَابُ مَجْمُوعِ الْمَرَاتِبِ الْبَالِغَةِ حَدَّ الْكَثْرَةِ مِنْ الْحَسَنَاتِ بِمَجْمُوعِ الْمَرَاتِبِ الْبَالِغَةِ حَدَّ الْكَثْرَةِ مِنْ السَّيِّئَاتِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 64 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (114) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ قال : صلاة المغرب والغداة ﴿ وزلفا من الليل ﴾ قال : صلاة العتمة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ قال : الفجر والعصر ﴿ وزلفاً من الليل ﴾ قال : هما زلفتان صلاة المغرب وصلاة العشاء . قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " هما زلفتا الليل " .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ قال : صلاة الفجر وصلاتي العشاء يعني الظهر والعصر ﴿ وزلفاً من الليل ﴾ قال : المغرب والعشاء .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ وزلفاً من الليل ﴾ قال : ساعة بعد ساعة ، يعني صلاة العشاء الآخرة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن

عباس. أنه كان يستحب تأخير العشاء، ويقرأ ﴿ وزلفاً من الليل ﴾ .

وأخرج ابن جرير ومحمد بن نصر وابن مردويه عن ابن مسعود في قوله ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ قال: الصلوات الخمس.

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة ومحمد بن نصر وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ قال: الصلوات الخمس ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ قال: الصلوات الخمس.

(214/386)

وأخرج ابن حبان عن ابن مسعود قال: " قال رجل: يا رسول الله إني لقيت امرأة في البستان فضممتها إلي وقبلتها وباشرتها وفعلت بها كل شيء إلا أني لم أجامعها؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها عليه، فقال عمر: يا رسول الله أله خاصة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل للناس كافة " .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر

وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن حبان عن ابن مسعود " أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له كأنه يسأل عن كفارتها ؟ فأنزلت عليه ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ فقال : يا رسول الله ألي هذه ؟ قال : هي لمن عمل بها من أمتي " .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان عن ابن مسعود قال

" جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني وجدت امرأة في البستان ففعلت بها كل شيء غير أني لم أجامعها قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك فافعل بي ما شئت فلم يقل له رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ، فذهب الرجل فقال عمر : لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه . فأتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بصره فقال ردوه عليه . فردوه فقرأ عليه ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار . . . ﴾ الآية . فقال معاذ بن جبل : يا رسول الله أله وحده أم للناس كافة ؟ فقال : بل للناس كافة " .

وأخرج الترمذي وحسنه والبزار وابن جرير وابن مردويه عن أبي اليسر قال " أتتني امرأة تبتاع تمراً فقلت : إن في البيت تمراً أطيب منه . فدخلت معي البيت فأهويت إليها فقبلتها ، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له قال : استر على نفسك وتب . فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال : استر على نفسك وتب ولا تخبر أحداً . فلم أصبر ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال : اخلفت غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا ؟ حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة حتى ظن أنه من أهل النار ، وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلاً حتى أوحى الله إليه ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ﴾ إلى قوله ﴿ للذاكرين ﴾ قال أبو اليسر : فأتيته فقرأها علي فقال أصحابه : يا رسول الله ألهذا خاصة ؟ قال : بل للناس كافة " .

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن خزيمة وابن جرير والطبراني وابن مردويه عن أبي أمامة رضي الله عنه . " أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أقم في حد الله مرة أو مرتين . فأعرض عنه ، ثم أقيمت الصلاة فلما فرغ قال " أين الرجل ؟ قال : أنا ذا . قال : أتممت الوضوء وصليت معنا آنفاً ؟ قال : نعم . قال : فإنك من خطيئتك كما ولدتك أمك فلا تعد ، وأنزل الله حينئذ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ الآية " " .

وأخرج أحمد والترمذي والنسائي وابن جرير وأبو الشيخ والدارقطني والحاكم وابن مردويه

عن معاذ بن جبل قام : " رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما ترى في رجل لقي امرأة لا يعرفها فليس يأتي الرجل من امرأته شيئاً إلا أتى فيها غير أنه لم يجامعها ، فأنزل الله ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار . . . ﴾ الآية . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " توضأ وضوءاً حسناً ، ثم قم فصل . قال معاذ : فقلت يا رسول الله : أله خاصة أم للمؤمنين عامة ؟ قال : للمؤمنين عامة " .

(216/386)

وأخرج أحمد وابن جرير والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال

" جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن امرأة جاءت تبايعني فأدخلتها فأصبت منها ما دون الجماع فقال : لعلها مغيبة في سبيل الله ؟ قال : أظن . قال : ادخل . فدخل فنزل القرآن ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل . . . ﴾ الآية . فقال الرجل : ألي خاصة أم للمؤمنين عامة ؟ فضرب عمر في صدره وقال : لا ، ولا نعمة عين ولكن للمؤمنين عامة . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : صدق عمر هي للمؤمنين عامة " .

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي صلى

الله عليه وسلم فقال : إني نلت من امرأة ما دون نفسها ، فأنزل الله ﴿ وأقم الصلاة ﴾ الآية .

وأخرج البزار وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس " أن رجلاً كان يحب امرأة ، فاستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في حاجة ، فأذن له فانطلق في يوم مطير ، فإذا هو بالمرأة على غدير ماء تغتسل ، فلما جلس منها مجلس الرجل من المرأة ذهب يحرك ذكره فإذا هو كأنه هدبة فندم ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " صل أربع ركعات " ، فأنزل الله ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ " .

(217/386)

وأخرج ابن مردويه عن بريدة قال " جاءت امرأة من الأنصار إلى رجل يبيع التمر بالمدينة وكانت امرأة حسناء جميلة ، فلما نظر إليها أعجبته وقال : ما أرى عندي ما أرضى لك ههنا ، ولكن في البيت حاجتك ، فانطلقت معه حتى إذا دخلت راودها على نفسها فأبت ، وجعلت تناشده فأصاب منها من غير أن يكون أفضى إليها ، فانطلق الرجل وندم على ما صنع حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره فقال : ما حملك على ذلك ؟ قال : الشيطان . فقال له : صل معنا ، ونزل ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ يقول : صلاة

الغداة والظهر والعصر ﴿ وزلفاً من الليل ﴾ المغرب والعشاء ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ فقال الناس : يا رسول الله لهذا خاصة أم للناس عامة ؟ قال : بل هي للناس عامة " .

وأخرج ابن جرير عن عطاء بن أبي رباح قال : أقبلت امرأة حتى جاءت إنساناً يبيع الدقيق لتبتاع منه ، فدخل بها البيت فلما خلا له قبلها فسقط في يده ، فانطلق إلى أبي بكر فذكر ذلك له فقال : انظر لا تكون امرأة رجل غاز . فبينما هم على ذلك نزل في ذلك ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ﴾ قيل لعطاء : المكتوبة هي ؟ قال : نعم .

وأخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعي قال " جاء فلان بن مقيب رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله دخلت على امرأة فنلت منها ما ينال الرجل من أهله إلا أني لم أواقعها ، فلم يدر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يجيبه حتى نزلت هذه الآية ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأها عليه " .

وأخرج ابن جرير عن سليمان التيمي قال : ضرب رجل على كفل امرأة ، ثم أتى إلى أبي بكر وعمر فسألهما عن كفارة ذلك فقال كل منهما : لا أدري ، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله ؟ فقال " لا أدري ، حتى أنزل الله ﴿ وأقم الصلاة ﴾ الآية " .

وأخرج ابن جرير عن يزيد بن رومان . أن رجلاً من بني تميم دخلت عليه امرأة فقبلها ووضع يده على دبرها ، فجاء إلى أبي بكر ، ثم إلى عمر ، ثم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية ﴿ وأقم الصلاة ﴾ إلى قوله ﴿ ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ فلم يزل الرجل الذي قبل المرأة يذكر ، فذلك قوله ﴿ ذكرى للذاكرين ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن يحيى بن جعدة . " أن رجلاً أقبل يريد أن يبشر النبي صلى الله عليه وسلم بالمطر ، فوجد امرأة جالسة على غدير فدفع صدرها وجلس بين رجليها ، فصار ذكره مثل الهدبة ، فقام ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بما صنع فقال له " استغفر ربك وصل أربع ركعات ، وتلا عليه ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار . . . ﴾ الآية " " .

وأخرج الطيالسي وأحمد والدارمي وابن جرير والطبراني والبغوي في معجمه وابن مردويه عن سلمان " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ غصناً يابساً من شجرة فهزه حتى تحات ورقه ثم قال : إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما يتحات هذا الورق ، ثم تلا هذه الآية ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار . . . ﴾ الآية . إلى قوله ﴿ للذاكرين ﴾ " .

وأخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم " جعلت الصلوات كفارات لما بينهن ، فأن الله تعالى قال ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ " .

وأخرج أحمد وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة " .

(219/386)

وأخرج أحمد والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند صحيح " عن عثمان قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ ، ثم قال " من توضأ وضوئي هذا ، ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما كان بينه وبين صلاة الصبح ، ثم صلى العصر غفر له ما كان بينه وبين صلاة الظهر ، ثم صلى المغرب غفر له ما كان بينه وبين صلاة العصر ، ثم صلى العشاء غفر له ما كان بينه وبين صلاة المغرب ، ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته ، ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء ، وهن الحسنات يذهبن السيئات قالوا : هذه الحسنات فما الباقيات يا عثمان ؟ قال : هي لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم " " .

وأخرج البخاري ومسلم وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى

الله عليه وسلم قال " أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيئاً ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا " .

وأخرج أحمد عن ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن السيء بالحسن " .

وأخرج الحكيم الترمذي والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : لم أر شيئاً أحسن طلباً ولا أحسن إدراكاً من حسنة حديثة لسيئة قديمة ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ " .

وأخرج أحمد عن معاذ " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : يا معاذ أتبع السيئة الحسنة تمحها " .

وأخرج أحمد وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات " عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله أوصني . قال : " اتق الله إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها . قال : قلت : يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال : هي أفضل الحسنات " " .

وأخرج أبو يعلى عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما قال عبد لا إله إلا الله في ساعة من ليل أو نهار إلا طلست ما في الصحيفة من السيئآت حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات " .

وأخرج البزار عن أنس رضي الله عنه " أن رجلاً قال يا رسول الله : ما تركت من حاجة ولا داجة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ قال : نعم . قال : فإن هذا يأتي على ذلك " .

وأخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " مثل الذي يعمل الحسنات على أثر السيئآت كمثل رجل عليه درع من حديد ضيقة تكاد تخنقه ، فكلما عمل حسنة فك حتى يحل عقده كلها " .

وأخرج الطبراني عن عبد الله بن مسعود قال : إن الصلاة من الحسنات وكفارة ما بين الأولى إلى العصر صلاة العصر ، وكفارة ما بين صلاة العصر إلى المغرب صلاة المغرب ، وكفارة ما بين المغرب إلى العتمة صلاة العتمة ، ثم يأوي المسلم إلى فراشه لا ذنب له ما اجتنبت الكبائر ، ثم قرأ ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ .

وأخرج الطبراني في الأوسط والصغير عن علي رضي الله عنه قال : "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قام الرجل فأعاد القول ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " أليس قد صليت معنا هذه الصلاة ، وأحسنت لها الطهور ؟ قال : بلى . قال : فإنها كفارة

ذلك " " .

وأخرج مالك وابن حبان عن عثمان بن عفان أنه قال : لأحدثنكم حديثاً لولا آية في كتاب الله ما حدثتكموه ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " ما من امرىء يتوضأ فيحسن الوضوء ثم يصلي الصلاة إلا غفر الله له ما بينه وبين الصلاة الأخرى حتى يصليها . قال مالك : أراه يريد هذه الآية ﴿ أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ " .

(221/386)

وأخرج ابن حبان عن واثلة بن الأسقع قال : " جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني أصبت حداً فأقمه علي . فأعرض عنه ، ثم أقيمت الصلاة ، فلما سلم قال : يا رسول الله إني أصبت حداً فأقمه علي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " هل توضأت ثم أقبلت ؟ قال : نعم . قال : وصليت معنا ؟ قال : نعم . قال : فاذهب فإن الله قد غفر لك " " .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال : "كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال : يا رسول الله إني أصبت حداً فأقمه علي . فلم يسأله عنه

، وحضرت الصلاة فصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما قضى الصلاة قام إليه رجل فقال : يا رسول الله إني أصبت حداً فأقم عليّ كتاب الله . قال " أليس قد صليت معنا ؟ قال : نعم . قال : فإن الله قد غفر لك ذنبك " " .

وأخرج البزار وأبو يعلى ومحمد بن نصر وابن مردويه عن أنس بن مالك " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار عذب غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات فماذا يبقين من درنه ؟ قال : ودرنه إثمه " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنما مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات فما يبقى من درنه " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبيد بن عمير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مثل الصلوات الخمس نهر جار على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم ، فماذا يبقين من الدرن " .

وأخرج أحمد وابن خزيمة ومحمد بن نصر والطبراني في الأوسط والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح عن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال : سمعت سعداً وناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون : "كان رجلان أخوان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أحدهما أفضل من الآخر ، فتوفي الذي هو أفضلهما وعمر الآخر بعده أربعين ليلة ، ثم توفي فذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فضل الأوّل على الآخر قال "ألم يكن يصلي ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يدريكم ما بلغت به صلاته ؟ ثم قال عند ذلك : إنما مثل الصلوات كمثل نهر جار بباب أحدكم غمر عذب يقتحم فيه كل يوم خمس مرات ، فماذا ترون يبقى من درنه ؟ " " .

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب يجري عند باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، فماذا يبقى عليه من الدرن ؟ " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي برزة " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما صليت صلاة إلا وأنا أرجو أن تكون كفارة لما أمامها " .

وأخرج أحمد والطبراني عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من امرىء مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيقوم فيتوضأ فيحسن الوضوء ، ويصلي فيحسن

الصلاة إلا غفر له ما بينها وبين الصلاة التي كانت قبلها من ذنوبه " .

وأخرج البزار والطبراني عن أبي سعيد الخدري " أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الصلوات الخمس كفارة ما بينها ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت لو أن رجلاً كان يعتمل وكان بين منزله ومعتمله خمسة أنهار ، فإذا أتى معتمله عمل فيه ما شاء الله فأصابه الوسخ أو العرق ، فكلما مر بهر اغتسل ما كان يبقى من درنه ؟ فكذلك الصلاة كلما عمل خطيئة صلى صلاة فدعا واستغفر الله غفر الله له ما كان قبلها " .

وأخرج البزار عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر " .

وأخرج الطبراني في الأوسط والصغير عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن لله تعالى ملكاً ينادي عند كل صلاة يا بني آدم قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها على أنفسكم فاطفئوها " .

وأخرج الطبراني في الكبير عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال

" يبعث مناد عند حضرة كل صلاة فيقول : يا بني آدم قوموا فاطفئوا عنكم ما أقدتم على أنفسكم ، فيقومون فيتطهرون ويصلون فيغفر لهم ما بينهما ، فإذا حضرت العصر فمثل ذلك ، فإذا حضرت المغرب فمثل ذلك ، فإذا حضرت العتمة فمثل ذلك ، فينامون فيغفر لهم ، فمدلج في خير ومدلج في شر " .

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة الباهلي " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الصلاة المكتوبة تكفر ما قبلها إلى الصلاة الأخرى ، والجمعة تكفر ما قبلها إلى الجمعة الأخرى ، وشهر رمضان يكفر ما قبله إلى شهر رمضان ، والحج يكفر ما قبله إلى الحج " .

وأخرج الطبراني عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر " .

وأخرج البزار والطبراني عن سلمان الفارسي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " المسلم يصلي وخطاياه مرفوعة على رأسه كلما سجد تحاتت عنه فيفرغ من صلاته وقد تحاتت عنه خطاياه " .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عمر " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن العبد إذا قام يصلي جمعت ذنوبه على رقبته ، فإذا ركع تفرقت " .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي الدرداء " سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ثم يصلي ركعتين أو أربعاً مفروضة أو غير مفروضة ، ثم يستغفر الله إلا غفر الله له " .

(224/386)

وأخرج ابن أبي شيبة عن سلمان قال : الصلوات الخمس كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود موقوفاً والبزار والطبراني عنه مرفوعاً قال " الصلوات الحقائق كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى قال : مثل الصلوات الخمس مثل نهر جار على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ، فماذا يبقين بعد عليه من درنه ؟ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي الدرداء . مثل الصلوات الخمس مثل رجل على بابه نهر يغتسل منه كل يوم خمس مرات ، فماذا يبقى ذلك من درنه ؟ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال : تكفير كل لحاء ركعتان .

وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني في الكبير عن ابن مسعود قال : يحترقون فإذا صلوا الظهر غسلت ، ثم يحترقون فإذا صلوا العصر غسلت ، ثم يحترقون فإذا صلوا المغرب غسلت ،

حتى ذكر الصلوات كلهن .

وأخرج الطبراني في الأوسط والصغير عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تحترقون ، فإذا صليتم الصبح غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم الظهر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العصر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العشاء غسلتها ، ثم تنامون فلا يكتب حتى تستيقظوا " .

وأخرج أحمد في الزهد عن أبي عبيدة بن الجراح . أنه قال : بادروا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات ، فلو أن أحدكم أخطأ ما بينه وبين السماء والأرض ثم عمل حسنة لعلت فوق سيئاته حتى تقهرهن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : استعينوا على السيئات القديمات بالحسنات الحديثات ، وإنكم لن تجدوا شيئاً اذهب لسيئة قديمة من حسنة حديثة ، وتصديق ذلك في كتب الله تعالى ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ قال : هم الذين يذكرون الله في السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، والعافية والبلاء .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : لما نزع الذي قبل المرأة تذكر ، فذلك قوله ﴿ ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(226/386)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ طَرَفَيِ النهار ﴾ : ظرفٌ ل " أَقِمْ " . ويضعف أن يكون ظرفاً للصلاة ، كأنه قيل : أي : أقم الصلاة الواقعة في هذين الوقتين ، والطَرَف وإن لم يكن ظرفاً ، ولكنه لمَّا أضيف إلى الظرف أُعْرب بإعرابه ، وهو كقولك : " أتيته/ أولَ النهار وآخرَه ونصفَ الليل " بنصب هذه كلّها على الظرفِ لَمَّا أضيفَتْ إليه ، وإن كانت ليسَتْ موضوعةً للظرفية . وقرأ العامَّة " زُلَفاً " بضم الزاي وفتح اللام ، وهي جمعُ " زُلْفة " بسكون اللام ، نحو : غُرَف في جمع غُرْفة ، وظُلَم في جمع ظُلْمة . وقرأ أبو جعفر وابن أبي إسحاق بضمها ، وفي هذه القراءةِ ثلاثة أُوجه ، أحدها : أنه جمع زُلْفة أيضاً ، والضمُّ للإِتباع ، كما قالوا بُسْرة وبُسُر

بضم السين إتباعاً لضمة الباء . والثاني : أنه اسمٌ مفرد على هذه الزِّنة كعُنُق ونحوه : الثالث : أنه جمع زِلَيف ، قال أبو البقاء : " وقد نُطِق به " ، يعني أنهم قالوا : زَلِيف ، وفَعيل يُجمع على فُعُل نحو : رَغِيف ورُغُف ، وقَضِيب وقُضُب .

وقرأ مجاهد وابن محيصن بإسكان اللام . وفيها وجهان ، أحدهما : أنه يُحتمل أَنْ تكونَ هذه القراءةُ مخففةً مِنْ ضم العين فيكون فيها ما تقدَّم . والثاني : أنه سكونُ أصلٍ من باب اسمِ الجنس نحو : بُسْرة وبُسْر مِنْ غير إتباع .

(227/386)

وقرأ مجاهد وابن محيصن أيضاً في روايةٍ " وزُلْفَى " بزنة " حُبْلَى " ، جَعَلُوها على صفةِ الواحدة المؤنثة اعتباراً بالمعنى ، لأنَّ المعنى على المنزلة الزلفى ، أو الساعة الزلفى ، أي : القريبة . وقد قيل : إنه يجوز أن يكونَ أَبدلا التنوينَ ألفاً ثم أَجْرَيَا الوصل مجرى الوقف ، فإنهما يقرآن بسكون اللام وهو محتَمَلٌ . وقال الزمخشري : " والزُّلْفى بمعنى الزُّلْفَة ، كما أن القُرْبى بمعنى القُرْبة " ، يعني أنه مما تَعَاقَبَ فيه تاءُ التأنيث وألفه .

وفي انتصاب " زُلَفاً " وجهان ، أظهرهما : أنه نسقٌ على " طرفي " فينتصب الظرف ، إذ المرادُ بها ساعات الليل القريبة . والثاني : أن ينتصبَ انتصابَ المفعول به نسقاً على

الصلاة . قال الزمخشري : بعد أن ذكر القراءاتِ المتقدمة " وهو ما يقرب مِنْ آخر النهار ومن الليل ، وقيل : زُلفاً من الليل وقُرْباً من الليل ، وحقُّها على هذا التفسير أن تعطف على الصلاة ، أي : أقم الصلاة طرفي النهار ، وأقم زُلفاً من الليل ، على معنى : صلوات تتقرَّب بها إلى اللَّه عز وجل في بعض الليل " .

والزُّلَفَةُ : أولُ ساعات الليل ، قاله ثعلب . وقال الأخفش وابن قتيبة : " الزُّلَف : ساعاتُ الليل وآناؤه ، وكل ساعةٍ منه زُلْفَة " فلم يُخَصِّصاه بأول الليل . وقال العجّاج :

2729 ناجٍ طواه الأَيْنُ مِمَّا وَجَفا . . . طَيَّ الليالي زُلفاً فزُلَفا

(228/386)

سَماوةَ الهلالِ حتى احْقَوْقَفا . . . وأصلُ الكلمة مِنْ " الزُّلْفى " وهو القُرْب ، يقال : أَزْلَفه فازْدَلَفَ ، أي : قَرَّبه فاقترب . قال تعالى : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخرين ﴾ [الشعراء : 64] وفي الحديث : " ازْدَلِفوا إلى الله بركعتين " وقال الراغب : " والزُّلْفَةُ : المَنْزِلَة والحُظْوَة ، وقد اسْتُعْمِلت الزُّلْفَة في معنى العذاب كاستعمال البشارة ونحوها ، والمزالِفُ ، المَراقي ، وسُمِّيَتْ ليلةَ المزدلفة لقُرْبهم مِنْ مِنى بعد الإِفاضة " .

وقوله: ﴿ مِّنَ اللَيل ﴾ صفةُ ل" زُلَفاً ". انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 422.419 ﴾

(229/386)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (114) ﴾

أي اسْتَغْرِقْ جميعَ الأوقاتِ بالعبادات، فإنَّ إخلالَكِ لحظةً من الزمان بِفَرَضٍ تؤديه، أو نَفْلٍ تأتيه حَسْرَةٌ عظيمةٌ وخُسرانٌ مبينٌ.

قوله ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ الحسنات ما يجود بها الحق، والسيئات ما يذنبها العبد، فإذا دخلت حسناته على قبائح العبد مَحَتْها وأَبْطَلَتْها.

ويقال حسناتُ القُربة تَذْهَبُ بسيئات الزَّلَة.

ويقال حسناتُ الندم تَذْهَبُ بسيئات الجُرْم.

ويقال (انسكاب) العَبْرَةَ تُذْهِبَ سيئاتِ العَثْرَة.

ويقال حسنات الاستغفار تُذْهِبُ سيئات العصيان .

ويقال حسنات الاستغفار تُذْهِبُ سيئات الإصرار .

ويقال حسناتُ العناية تذهب سيئات الجناية .

ويقال حسنات العفو عن الإخوان تذْهِبُ الحقدَ عليهم .

ويقال حسنات الكَرَمَ تُذْهِب سيئات الخَدَم .

ويقال حسنُ الظنّ يُذهَبُ سوأتهم بكم .

ويقال حسنات الفضل من الله تُذْهِبُ سيئاتِ حسبان الطاعة من أنفسكم .

ويقال حسناتُ الصدق تَذْهَبُ بسيئات الإعجاب .

ويقال حسناتُ الإخلاص تَذْهَبُ بسيئات الرياء .

﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (115) ﴾

الصبر تجرُّع كاساتِ التقدير من غر تعبيس .

ويقال الصبرُ حَسْنُ الإقبال على معانقة الأمر ومفارقة الزجر .

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ المحسنُ : العاملُ الذي يعلم أَنَّ الأجرَ على الصبر والطاعة بفضله – سبحانه – لا باستحقاق عملٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 162.161 ﴾

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾

لما فرغ الله سبحانه من أقاصيص الكفرة ، وبيان حال السعداء والأشقياء ، سلى رسوله صلى الله عليه وسلم بشرح أحوال الكفرة من قومه في ضمن النهي له عن الامتراء في أن ما يعبدونه غير نافع ولا ضار ، ولا تأثير له في شيء .

وحذف النون في "لا تك" لكثرة الاستعمال ، والمرية : الشك .

والإشارة بهؤلاء إلى كفار عصره صلى الله عليه وسلم .

وقيل : المعنى : لا تك في شك من بطلان ما يعبد هؤلاء .

وقيل : لا تك في شك من سوء عاقبتهم .

ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني ، وهذا النهي له صلى الله عليه وسلم هو تعريض لغيره ممن يداخله شيء من الشك .

فإنه صلى الله عليه وسلم لا يشك في ذلك أبداً .

ثم بيّن له سبحانه أن معبودات هؤلاء كمعبودات آبائهم ، أو أن عبادتهم كعبادة آبائهم من

قبل ، وفي هذا استثناء تعليل للنهي عن الشك .

والمعنى : أنهم سواء في الشرك بالله وعبادة غيره .

فلا يكن في صدرك حرج مما تراه من قومك ، فهم كمن قبلهم من طوائف الشرك ، وجاء بالمضارع في ﴿ كما يعبد آباؤهم ﴾ لاستحضار الصورة .

ثم بيّن له أنه مجازيهم بأعمالهم فقال : ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ من العذاب كما وفينا آباءهم ، لا ينقص من ذلك شيء ، وانتصاب غير الحال ، والتوفية لا تستلزم عدم النقص ، فقد يجوز أن يوفى وهو ناقص ، كما يجوز أن يوفى وهو كامل .

وقيل : المراد نصيبهم من الرزق ، وقيل : ما هو أعمّ من الخير والشرّ .

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ أي : التوراة ﴿ فاختلف فِيهِ ﴾ أي : في شأنه وتفاصيل أحكامه ، فآمن به قوم ، وكفر به آخرون ، وعمل بأحكامه قوم ، وترك العمل ببعضها آخرون ، فلا يضق صدرك يا محمد بما وقع من هؤلاء في القرآن ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : لولا أن الله سبحانه قد حكم بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من الصلاح لقضى بينهم : أي بين قومك ، أو بين قوم موسى فيما كانوا

فيه مختلفين ، فأثيب المحقّ وعذب المبطل ؛ أو الكلمة هي : أن رحمته سبحانه سبقت غضبه ، فأمهلهم ولم يعاجلهم لذلك .

وقيل : إن الكلمة هي أنهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال ، وهذا من جملة التسلية له صلى الله عليه وسلم ، ثم وصفهم بأنهم في شك من الكتاب فقال : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أي : من القرآن ، إن حمل على قوم محمد صلى الله عليه وسلم ، أو من التوراة ، إن حمل على قوم موسى عليه السلام ، والمريب : الموقع في الريبة .

ثم جمع الأوّلين والآخرين في حكم توفية العذاب لهم ، أو هو والثواب فقال : ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو بكر "وإن" بالتخفيف على أنها إن المخففة من الثقيلة وعملت في ﴿ كلا ﴾ النصب ، وقد جوّز عملها الخليل وسيبويه ، وقد جوّز البصريون تخفيف "إن" مع إعمالها ، وأنكر ذلك الكسائي وقال : ما أدري على أيّ شيء قرئ ﴿ وإن كلا ﴾ ؟ وزعم الفراء أن انتصاب ﴿ كلا ﴾ بقوله : ﴿ ليوفينهم ﴾ ، والتقدير : وإن ليوفينهم كلا ، وأنكر ذلك عليه جميع النحويين .

وقرأ الباقون بتشديد ﴿ إن ﴾ ونصبوا بها ﴿ كلا ﴾ .

وعلى كلا القراءتين فالتنوين في ﴿ كلا ﴾ عوض عن المضاف إليه : أي وإن كل المختلفين .

وقرأ عاصم وحمزة وابن عامر ﴿ لما ﴾ بالتشديد ، وخففها الباقون .

قال الزجاج: لام ﴿ لما ﴾ لام إن، و "ما" زائدة مؤكدة، وقال الفراء: "ما" بمعنى من كقوله: ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ [النساء: 72] أي: وإن كلاً لمن ليوفينهم! وقيل: ليست بزائدة بل هي اسم دخلت عليها لام التوكيد، والتقدير: وإن كلاً لمن خلق.

قيل: وهي مركبة، وأصلها لمن ما، فقلبت النون ميماً واجتمعت ثلاث ميمات، فحذفت الوسطى حكي ذلك النحاس عن النحويين.

وزيف الزجاج هذا وقال: "من" اسم على حرفين فلا يجوز حذف النون.

وذهب بعض النحويين إلى أن "لما" هذه بمعنى إلا، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق: 4] وقال المازني: الأصل لما المخففة ثم ثقلت.

قال الزجاج: وهذا خطأ، إنما يخفف المثقل ولا يثقل المخفف.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: يجوز أن يكون التشديد من قولهم: لممت الشيء ألمه: إذا جمعته، ثم بنى منه فعلى كما قرىء: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى ﴾ [المؤمنون: 44]

وأحسن هذه الأقوال أنها بمعنى إلا الاستثنائية.

وقد روي ذلك عن الخليل، وسيبويه، وجميع البصريين، ورجحه الزجاج ويؤيده أن في حرف أبيّ "وإن كلا إلا ليوفينهم" كما حكاه أبو حاتم عنه.

وقرىء بالتنوين: أي جميعاً.

وقرأ الأعمش "وإن كل لما" بتخفيف إن ورفع كل وتشديد لما ، وتكون إن على هذه القراءة نافية ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أيها المختلفون ﴿ خَبِيرٌ ﴾ لا يخفى عليه منه شيء ، والجملة تعليل لما قبلها .

(233/386)

ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بكلمة جامعة لأنواع الطاعة له سبحانه ، فقال : ﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ أي : كما أمرك الله ، فيدخل في ذلك جميع ما أمره به وجميع ما نهاه عنه ، لأنه قد أمره بتجنب ما نهاه عنه ، كما أمره بفعل ما تعبده بفعله ، وأمته أسوته في ذلك ، ولهذا قال : ﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ أي : رجع من الكفر إلى الإسلام ، وشاركك في الإيمان ، وهو معطوف على الضمير في ﴿ فاستقم ﴾ ؛ لأن الفصل بين المعطوف والضمير المرفوع المعطوف عليه يقوم مقام التأكيد : أي : وليستقم من تاب معك ، وما أعظم موقع هذه الآية وأشدّ أمرها ، فإن الاستقامة كما أمر الله لا تقوم بها إلا الأنفس المطهرة ، والذوات المقدسة ، ولهذا يقول المصطفى : "شيبتني هود" كما تقدّم ﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ ﴾ الطغيان : مجاوزة الحد ، لما أمر الله سبحانه بالاستقامة المذكورة بين أن الغلوّ في العبادة ، والإفراط في الطاعة على وجه تخرج به عن الحد الذي حدّه ، والمقدار الذي قدّره ممنوع

منه منهيّ عنه ، وذلك كمن يصوم ولا يفطر ، ويقوم الليل ولا ينام ، ويترك الحلال الذي أذن الله به ورغب فيه ، ولهذا يقول الصادق المصدوق فيما صح عنه :

" أما أنا فأصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأنكح النساء ؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني "

والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته تغليباً لحالهم على حاله ، أو النهي عن الطغيان خاص بالأمة ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يجازيكم على حسب ما تستحقون ، والجملة تعليل لما قبلها .

قوله : ﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ ، قرأ الجمهور بفتح الكاف ، وقرأ طلحة بن مصرّف ، وقتادة ، وغيرهما " تركنوا " بضم الكاف .

قال الفراء : وهي لغة تميم وقيس ، قال أبو عمرو : وقراءة الجمهور هي لغة أهل الحجاز ، قال : ولغة تميم بكسر التاء وفتح الكاف ، وهم يكسرون حرف المضارعة في كل ما كان من باب علم يعلم .

وقرأ ابن أبي عبلة بضم التاء وفتح الكاف على البناء للمفعول من أركنه .

قال في الصحاح : ركن إليه يركن بالضم .

وحكى أبو زيد : ركن إليه بالكسر ، يركن ركوناً فيهما : أي مال إليه وسكن قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ وأما ما حكى أبو زيد ركن يركن بالفتح فيهما فإنما هو على الجمع بين اللغتين .

انتهى .

وقال في شمس العلوم : الركون : السكون .

يقال : ركن إليه ركوناً ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ انتهى .

وقال في القاموس : ركن إليه ، كنصر وعلم ، ومنع ركوناً : مال وسكن ، انتهى .

فهؤلاء الأئمة من رواة اللغة فسروا الركون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد بما قيده به صاحب الكشاف حيث قال : فإن الركون هو الميل اليسير ، وهكذا فسره المفسرون ، بمطلق الميل والسكون من غير تقييد إلا من كان من المتقيدين بما ينقله صاحب الكشاف ؛ ومن المفسرين من ذكر في تفسير الركون قيوداً لم يذكرها أئمة اللغة .

قال القرطبي في تفسيره : الركون حقيقته الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به .

ومن أئمة التابعين من فسر الركون بما هو أخصّ من معناه اللغوي .

فروي عن قتادة ، وعكرمة في تفسير الآية أن معناها : لا تودوهم ولا تطيعوهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير الآية : الركون هنا : الإدهان ، وذلك أن لا ينكر

عليهم كفرهم .

وقال أبو العالية : معناه لا ترضوا أعمالهم .

وقد اختلف أيضاً الأئمة من المفسرين في هذه الآية هل هي خاصة بالمشركين أو عامة ؟

فقيل خاصة ، وإن معنى الآية النهي عن الركون إلى المشركين ، وأنهم المرادون بالذين ظلموا ، وقد روي ذلك عن ابن عباس .

وقيل : إنها عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم ، وهذا هو الظاهر من الآية ، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون ، لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

فإن قلت : وقد وردت الأدلة الصحيحة البالغة عدد التواتر الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبوتاً لا يخفى على من له أدنى تمسك بالسنة المطهرة ، بوجوب طاعة الأئمة والسلاطين والأمراء حتى ورد في بعض ألفاظ الصحيح : " أطيعوا السلطان وإن كان عبداً حبشياً رأسه كالزبيبة " وورد وجوب طاعتهم ما أقاموا الصلاة ، وما لم يظهر منهم الكفر البواح ، وما لم يأمروا بمعصية الله .

وظاهر ذلك أنهم وإن بلغوا في الظلم إلى أعلى مراتبه ، وفعلوا أعظم أنواعه مما لم يخرجوا به

إلى الكفر البواح ، فإن طاعتهم واجبة حيث لم يكن ما أمروا به من معصية الله ؛ ومن جملة ما يأمرون به تولي الأعمال لهم .

والدخول في المناصب الدينية التي ليس الدخول فيها من معصية الله ؛ ومن جملة ما يأمرون به : الجهاد ، وأخذ الحقوق الواجبة من الرعايا ، وإقامة الشريعة بين المتخاصمين منهم ، وإقامة الحدود على من وجبت عليه .

وبالجملة ، فطاعتهم واجبة على كل من صار تحت أمرهم ونهيهم في كل ما يأمرون به مما لم يكن من معصية الله ، ولا بدّ في مثل ذلك من المخالطة لهم والدخول عليهم ، ونحو ذلك مما لا بدّ منه ، ولا محيص عن هذا الذي ذكرناه من وجوب طاعتهم بالقيود المذكورة ، لتواتر الأدلة الواردة به ، بل قد ورد به الكتاب العزيز : ﴿ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول وَأُوْلِى الأمر مِنْكُمْ ﴾ [النساء : 59] بل ورد أنهم يعطون الذي لهم من الطاعة ، وإن منعوا ما هو عليهم للرعايا كما في بعض الأحاديث الصحيحة : " أعطوهم الذي لهم ، واسألوا الله الذي لكم " بل ورد الأمر بطاعة السلطان ، وبالغ في ذلك النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال : " وإن أخذ مالك وضرب ظهرك " فإن اعتبرنا مطلق الميل والسكون ، فمجرّد هذه

الطاعة المأمور بها مع ما تستلزمه من المخالطة هي ميل وسكون، وإن اعتبرنا الميل والسكون ظاهراً وباطناً فلا يتناول النهي في هذه الآية من مال إليهم في الظاهر، لأمر يقتضي ذلك شرعاً كالطاعة، أو للتقية ومخافة الضرر منهم، أو لجلب مصلحة عامة أو خاصة، أو دفع مفسدة عامة أو خاصة، إذا لم يكن له ميل إليهم في الباطن، ولا محبة، ولا رضا بأفعالهم.

قلت: أما الطاعة على عمومها بجميع أقسامها حيث لم تكن في معصية الله، فهي على فرض صدق مسمى الركون عليها، مخصصة لعموم النهي عنه بأدلتها التي قدّمنا الإشارة إليها، ولا شك في هذا ولا ريب، فكل من أمروه ابتداء أن يدخل في شيء من الأعمال التي أمرها إليهم مما لم يكن من معصية الله، كالمناصب الدينية، ونحوها إذا وثق من نفسه بالقيام بما وكل إليه، فذلك واجب عليه فضلاً عن أن يقال جائز له.

وأما ما ورد من النهي عن الدخول في الإمارة، فذلك مقيد بعدم وقوع الأمر ممن تجب طاعته من الأئمة والسلاطين، والأمراء جمعاً بين الأدلة، أو مع ضعف المأمور عن القيام بما أمر به، كما ورد تعليل النهي عن الدخول في الإمارة بذلك في بعض الأحاديث الصحيحة،

وأما مخالطتهم والدخول عليهم لجلب مصلحة عامة أو خاصة ، أو دفع مفسدة عامة أو خاصة ، مع كراهة ما هم عليه من الظلم ، وعدم ميل النفس إليهم ومحبتها لهم ، وكراهة المواصلة لهم لولا جلب تلك المصلحة أو دفع تلك المفسدة ، فعلى فرض صدق مسمى الركون على هذا ، فهو مخصص بالأدلة الدالة على مشروعية جلب المصالح ودفع المفاسد ، والأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، ولا تخفى على الله خافية ؛ وبالجملة فمن ابتلي بمخالطة من فيه ظلم ، فعليه أن يزن أقواله وأفعاله ، وما يأتي وما يذر بميزان الشرع ، فإن زاغ عن ذلك : "فعلى نفسها براقش تجني" ومن قدر على الفرار منهم قبل أن يؤمر من جهتهم بأمر يجب عليه طاعته ، فهو الأولى له ، والأليق به .

يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين ، اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم ، وقوّنا على ذلك ويسره لنا ، وأعنا عليه .

قال القرطبي في تفسيره : وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهي بحال الاضطرار . انتهى .

وقال النيسابوري في تفسيره : قال المحققون : الركون المنهي عنه هو الرضا بما عليه الظلمة . أو تحسين الطريقة وتزيينها عند غيرهم ، ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب ؛ فأما مداخلتهم لرفع ضرر واجتلاب منفعة عاجلة ، فغير داخلة في الركون .

قال : وأقول هذا من طريق المعاش والرخصة ، ومقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم بالكلية ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : 36] .

انتهى .

(238/386)

قوله : ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النار ﴾ بسبب الركون إليهم ، وفيه إشارة إلى أن الظلمة أهل النار ، أو كالنار ، ومصاحبة النار توجب لا محالة مسّ النار ، وجملة : ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ في محل نصب على الحال من قوله : فتمسكم النار .

والمعنى : أنها تمسكم النار حال عدم وجود من ينصركم ، وينقذكم منها ﴿ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ من جهة الله سبحانه ، إذ قد سبق في علمه أنه يعذبكم بسبب الركون الذي نهيتم عنه ، فلم تنتهوا عناداً وتمرّداً .

قوله : ﴿ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَىِ النهار ﴾ لما ذكر الله سبحانه الاستقامة خصّ من أنواعها إقامة الصلاة لكونها رأس الإيمان ، وانتصاب ﴿ طرفي النهار ﴾ على الظرفية ، والمراد : صلاة الغداة والعشيّ ، وهما : الفجر والعصر .

وقيل : الظهر موضع العصر ، وقيل : الطرفان الصبح والمغرب .

وقيل : هما الظهر والعصر .

ورجح ابن جرير أنهما الصبح والمغرب ، قال : والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح ، فدلّ على أن الطرف الآخر المغرب ﴿ وَزُلَفاً مِّنَ الليل ﴾ أي : في زلف من الليل ، والزلف : الساعات القريبة بعضها من بعض ، ومنه سميت المزدلفة لأنها منزل بعد عرفة بقرب مكة ، وقرأ ابن القعقاع وأبو إسحاق وغيرهما "زلفاً" بضم اللام جمع زليف ، ويجوز أن يكون واحده زلفة .

وقرأ ابن محيصن بإسكان اللام .

وقرأ مجاهد : "زلفى" مثل فعلى .

وقرأ الباقون : "زلفاً" بفتح اللام كغرفة وغرف .

قال ابن الأعرابي : الزلف الساعات واحدتها زلفة .

وقال قوم : الزلفة أوّل ساعة من الليل بعد مغيب الشمس .

قال الأخفش : معنى ﴿ زلفاً من الليل ﴾ : صلاة الليل ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ أي : إن الحسنات على العموم ، ومن جملتها بل عمادها الصلاة يذهبن السيئات على العموم .

وقيل : المراد بالسيئات : الصغائر ، ومعنى ﴿ يذهبن السيئات ﴾ : يكفرنها حتى كأنها لم تكن ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ إلى قوله : ﴿ فاستقم ﴾ وما بعده.

وقيل : إلى القرآن ذكرى للذاكرين أي : موعظة للمتعظين ﴿ واصبر ﴾ على ما أمرت به من الاستقامة ، وعدم الطغيان ، والركون إلى الذين ظلموا ! وقيل : إن المراد الصبر على ما أمر به دون ما نهى عنه ، لأنه لا مشقة في اجتنابه ، وفيه نظر ، فإن المشقة في اجتناب المنهيّ عنه كائنة ، وعلى فرض كونها دون مشقة امتثال الأمر ، فذلك لا يخرجها عن مطلق المشقة ﴿ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ أي : يوفيهم أجورهم ولا يضيع منها شيئاً فلا يهمله ولا يبخسه بنقص.

وقد أخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ قال : ما قدّر لهم من خير أو شرّ.

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن زيد ، في الآية قال : من العذاب.

وأخرجا عن أبي العالية.

قال من الرزق.

وأخرجا أيضاً عن قتادة في قوله : ﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ قال : أمر الله نبيه أن يستقيم

على أمره ، ولا يطغى في نعمته ، وأخرج أبو الشيخ ، عن سفيان ، في الآية قال : استقم على القرآن .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الحسن ، قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ قال : شمروا شمروا فما رؤي ضاحكاً .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج ﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ قال : آمن .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن العلاء بن عبد الله بن بدر ، في قوله : ﴿ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ قال : لم يرد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إنما عنى الذين يجيئون من بعدهم .

وأخرج أبو الشيخ ، عن ابن عباس ﴿ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ يقول : لا تظلموا .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد ، قال : الطغيان : خلاف أمره وارتكاب معصيته .

(240/386)

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الذين ظَلَمُوا ﴾ قال : يعني الركون إلى الشرك .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا ﴾ قال : لا تميلوا .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عنه ، أيضاً قال : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا ﴾ لا تدهنوا .

وأخرج أبو الشيخ، عن عكرمة، في الآية قال: أن تطيعوهم أو تودّوهم أو تصطنعوهم.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَىِ النهار ﴾ قال: صلاة المغرب والغداة ﴿ وَزُلَفاً مِّنَ اليل ﴾ قال: صلاة العتمة.

وأخرجا عن الحسن قال: الفجر والعصر ﴿ وَزُلَفاً مِّنَ اليل ﴾ قال: هما زلفتان: صلاة المغرب وصلاة العشاء.

قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هما زلفتا الليل".

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد في الطرفين قال: صلاة الفجر، وصلاتي العشيّ: يعني الظهر والعصر ﴿ وَزُلَفاً مِّنَ اليل ﴾ قال: المغرب والعشاء.

وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿ وَزُلَفاً مِّنَ اليل ﴾ قال: ساعة بعد ساعة، يعني صلاة العشاء الآخرة.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن ابن عباس أنه كان يستحبّ تأخير العشاء، ويقرأ ﴿ زلفاً من الليل ﴾.

وأخرج ابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن مردويه، عن ابن مسعود، في قوله: ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ قال: الصلوات الخمس.

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة، ومحمد بن نصر، وابن جرير، وابن

المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ قال : الصلوات الخمس ، والباقيات الصالحات : الصلوات الخمس .

(241/386)

وأخرج البخاري ومسلم ، وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود : أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكر ذلك له كأنه يسأل عن كفارتها ، فأنزلت عليه : ﴿ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار وَزُلَفاً مِّنَ اليل إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ فقال الرجل : يا رسول الله ألي هذه ؟ قال : " هي لمن عمل بها من أمتي " وأخرج أحمد ، ومسلم ، وأبو داود وغيرهم عن أبي أمامة : أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أقم فيّ حدّ الله مرّة أو مرّتين ، فأعرض عنه ، ثم أقيمت الصلاة ، فلما فرغ قال : " أين الرجل ؟ " قال : أنا ذا ، قال " أتممت الوضوء وصليت معنا آنفاً ؟ قال : نعم .

قال : فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد " ، وأنزل الله حينئذ على رسوله : ﴿ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار ﴾ .

وفي الباب أحاديث كثيرة بألفاظ مختلفة ، ووردت أحاديث أيضاً " أن الصلوات الخمس

كفارات لما بينهنّ " وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن ، في قوله : ﴿ ذلك ذكرى لِلذكِرينَ ﴾ قال : هم الذين يذكرون الله في السرّاء والضرّاء ، والشدّة والرخاء ، والعافية والبلاء .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج قال : لما نزع الذي قبل المرأة تذكر ، فذلك قوله : ﴿ ذكرى لِلذكِرينَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(242/386)

قوله تعالى ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (116) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ما تقدم كله مشيراً إلى استبعاد إيمان المعاندين بشيء من تدبير آدمي كما تكاد القصص تنطق به ، وكذا الإعلام بأن عبادتهم إنما هي للتقليد وباختلاف قوم موسى في كتابه الذي هو هدى ورحمة ، وكل ذلك فطماً عن طلب ما قد يهجس في الخاطر من تمني إجابتهم إلى ما يقترحون أو الكف عن بعض ما يغيظ من الإنذار ، وكان من طبع البشر

البعد عن الانتهاء عن الخواطر إلا بعد التجربة ، كان ذلك ربما أوجب أن يقال : لو أجيبوا إلى سؤالهم لربما رجعوا عن كثير مما هم فيه ، فدعاهم ذلك إلى الرشاد ، فتسبب عنه أن يقال دفعاً له : ﴿ فلولا كان ﴾ ويجوز أن يكون مناسبتها أنه لما ذكر إهلاك القرون الماضية والأمم السالفة بما مضى إلى أن ختم بالأمر بالصبر على الإحسان من الأمر بالمعروف والنهي عن النمكر ، كان من الجائز أن يقع في فكر الاعتراض بأن يقال : ما الموجب لذلك ؟ فبين أن سبب الهلاك الإعراض عن نهي منتهك الحرمات والمجترىء على هتك الأستار الجليلة والرتع في الحمى مع تمكنهم بما أودع فيهم سبحانه من القوى والقدرة على اختيار جانب الخير والإعراض عن جانب الشر فقال تعالى : ﴿ فلولا ﴾ بصيغة تحتمل التخصيص ، وفيها معنى التفجع والتأسف لاعتبار كل من كان على مثل حالهم ﴿ من القرون ﴾ أي المهلكين الأشداء الكائنين في زمان ما .

(243/386)

ولما كان المراد القرون التي تقدم ذكر إهلاكها ، وكانت أزمنتهم بعض الزمان الماضي ، أتى بالجار فقال : ﴿ من قبلكم أولوا ﴾ أي أصحاب ﴿ بقية ﴾ أي حفظ وخير ومراقبة لما يصلحهم ، لأن مادة " بقي " تدور على الجمع ، ويلزمه القوة والثبات والحفظ ، من قولهم :

ابقه بقوتك مالك – وزن ادعه – أي احفظه حفظك مالك ، ويلزمه النظر والمراقبة : بقيت الشيء – إذا نظرت إليه ورصدته ، ويلزمه الثبات : بقي بقاء – إذا دام ، والخير والجودة ؛ قال الزمخشري : لأن الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله ، ويقال : فلان من بقية قوم ، أي من خيارهم ، وسيأتي شرح ذلك مستوفى عند قوله تعالى ﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ إن شاء الله تعالى ﴿ ينهون ﴾ أي يجددون النهي في كل حين إشارة إلى كثرة المفسدين ﴿ عن الفساد ﴾ الكائن ﴿ في الأرض ﴾ و " لولا " هنا كالتي في يونس توبيخية أو استفامية كما جوزهما الرماني ، ويجوز أن تكون تخصيصية كما قال الزمخشري ، ويكون للسامع لا للمهلك ، لأن الآية لما تضمنت إهلاك المقر على الفساد كان في ذلك أقوى حث لغيرهم على الأمر والنهي وأوفى تهديد زاجر عن ارتكاب مثل حالهم الموقع في أضعاف نكالهم ، وفي تعقيب هذه الآية لآية الصبر إشارة إلى أن الصبر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الذروة العليا ، والآية ناظرة إلى قوله تعالى ﴿ إنما أنت نذير ﴾ .

ولما كانت المعاني الثلاثة متضمنة للنفي ، كان المعنى : لم يكن من يفعل ذلك ، فاتصل الاستثناء في قوله : ﴿ إلا قليلاً ﴾ أي صالحين ﴿ ممن أنجينا منهم ﴾ والظاهر أن " من "

بيانية ، أي هم الذين أنجينا فإنهم نهوا عن الفساد ، عبر بالإنجاء لأنه الدال على الخير الحامل للنهي عن الفساد دون التنجية الدالة على التدريج والإبلاغ في الإنجاء فلو عبر بها فسد المعنى ﴿ واتبع ﴾ الأكثر وهم ﴿ الذين ظلموا ﴾ أي أوقعوا الظلم بترك النهي عن الفساد ، وما أحسن إطلاقها عن التقييد ب ﴿ منهم ﴾ ﴿ ما ﴾ ولما كان المبطر لهم نفس الترف ، بني للمفعول قوله : ﴿ أُترفوا فيه ﴾ فأبطرتهم النعمة حتى طغوا وتجبروا ﴿ وكانوا مجرمين ﴾ أي متصفين على سبيل الرسوخ بالإجرام ، وهو قطع حبل الله على الدوام ، فأهلكهم ربك لإجرامهم ، ولولا ذلك لما فعل ، فإن إهلاكهم على تقدير الانفكاك عن الإجرام يكون ظلماً على ما يتعارفون .

ولما لاح بما مضى أن العبرة في الإهلاك والإنجاء للاكثر ، قرره وأكده وبينه بقوله : ﴿ وما كان ربك ﴾ ذكر سبحانه بالوصف المفهم للإحسان تثبيتاً له وتأميناً ﴿ ليهلك القرى ﴾ أي إهلاكاً عاماً ﴿ بظلم ﴾ أي أيّ ظلم كان ، صغير أو كبير ﴿ وأهلها مصلحون ﴾ أي في حال ظلم بأن يوقع إهلاكهم في حال إصلاحهم الذي هم عريقون فيه ، فيكون الإهلاك في غير موقعه على ما يتعارف العباد مع العلم بأن له أن يفعل ذلك في نفس الأمر لأنه لا يسأل عما يفعل ؛ والإهلاك : إيجاب ما يبطل الإحساس ، والهلاك : ضياع الشيء وهو حصوله بحيث لا يدري أين هو ؛ والإصلاح : إيجاب ما يستقيم به الأمر على ما يدعو إليه العقل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 588 . 589 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن الأمم المتقدمين حل بهم عذاب الاستئصال بين أن السبب فيه أمران :

السبب الأول : أنه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد في الأرض .

فقال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ القرون ﴾ والمعنى فهلا كان ، وحكي عن الخليل أنه قال كل ما كان في القرآن من كلمة لولا فمعناه هلا إلا التي في الصافات .

قال صاحب "الكشاف" : وما صحت هذه الرواية عنه بدليل قوله تعالى في غير الصافات ﴿ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بالعراء ﴾ [القلم : 49] ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ ﴾ [الفتح : 25] ﴿ وَلَوْلَا أَن ثبتناك لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 74] ، وقوله : ﴿ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ ﴾ فالمعنى أولو فضل وخير ، وسمي الفضل والجود بقية لأن الرجل

يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله ، فصار هذا اللفظ مثلاً في الجودة يقال فلان من بقية القوم أي من خيارهم ومنه قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا ، ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى أي فهلا كان منهم ذو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وقرىء ﴿ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ ﴾ بوزن لقية من بقاه يبقيه إذا راقبه وانتظره ، والبقية المرة من مصدره ، والمعنى فلولا كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام الله تعالى .

ثم قال : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ولا يمكن جعله استثناء متصلاً لأنه على هذا التقدير يكون ذلك ترغيباً لأولي البقية في النهي عن الفساد إلا القليل من الناجين منهم كما تقول هلا قرأ قومك القرآن إلا الصلحاء منهم تريد استثناء الصلحاء من المرغبين في قراءة القرآن .

وإذا ثبت هذا قلنا : إنه استثناء منقطع ، والتقدير : لكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهي .

والسبب الثاني : لنزول عذاب الاستئصال قوله : ﴿ واتبع الذين ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ والترفه النعمة وصبي مترف إذا كان منعم البدن ، والمترف الذي أبطرته النعمة وسعة المعيشة وأراد بالذين ظلموا تاركي النهي عن المنكرات أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من

أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واتبعوا طلب الشهوات واللذات واشتغلوا بتحصيل الرياسات وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي ﴿ واتبع الذين ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ ﴾ أي واتبعوا حراماً أترفوا فيه ، ثم قال : ﴿ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ ومعناه ظاهر .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾

اعلم أنه تعالى بين أنه ما أهلك أهل القرى إلا بظلم وفيه وجوه :

الوجه الأول : أن المراد من الظلم ههنا الشرك قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] والمعنى أنه تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر ، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أساؤا في المعاملات وسعوا في الإيذاء والظلم .

ولهذا قال الفقهاء إن حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة .

وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح .

ويقال في الأثر الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم ، فمعنى الآية : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ ﴾ أي لا يهلكهم بمجرد شركهم إذا كانوا مصلحين يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح والسداد .

وهذا تأويل أهل السنة لهذه الآية ، قالوا : والدليل عليه أن قوم نوح وهود وصالح ولوط

وشعيب إنما نزل عليهم عذاب الاستئصال لما حكى الله تعالى عنهم من إيذاء الناس وظلم الخلق .

(247/386)

والوجه الثاني : في التأويل وهو الذي تختاره المعتزلة هو أنه تعالى لو أهلكهم حال كونهم مصلحين لما كان متعالياً عن الظلم فلا جرم لا يفعل ذلك بل إنما يهلكهم لأجل سوء أفعالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 60.61 ﴾

(248/386)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّك لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾

قِيلَ فِيهِ : لَا يُهْلِكُهُمْ بِظُلْمٍ صَغِيرٍ يَكُونُ مِنْهُمْ .

وَقِيلَ : بِظُلْمٍ كَبِيرٍ يَكُونُ مِنْ قَلِيلٍ مِنْهُمْ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ لَا يُهْلِكُ الْعَامَّةَ بِذُنُوبِ الْخَاصَّةِ ﴾ وَقِيلَ : لَا يُهْلِكُهُمْ وَهُوَ ظَالِمٌ لَهُمْ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ إنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ

النَّاسَ شَيْئًا ﴾ فِيهِ إِخْبَارٌ بِأَنَّهُ لَا يُهْلِكُ الْقُرَى وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ وَقَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ إلَى غَايَةِ الْفَسَادِ عِنْدَ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَلِذَلِكَ يُهْلِكُهُمْ اللَّهُ، وَهُوَ مِصْدَاقُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ ﴾. انتهى انتهى. ا هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(249/386)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أولو طاعة

الثاني : أولو تمييز.

الثالث : أولو حذر من الله تعالى.

﴿ ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أُترفوا فيه وكان مجرمين ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : أنهم اتبعوا على ظلمهم ما أترفوا فيه من استدامة نعمهم استدراجاً لهم .

الثاني : أنهم أخذوا بظلمهم فيما أترفوا فيه من نعمهم . والمترف : المنعّم . وقال ابن عباس : أترفوا فيه : معناه انظروا فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(250/386)

وقال ابن عطية :

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾

﴿ لولا ﴾ هي التي للتحضيض - لكن يقترن بها هنا معنى التفجع والتأسف الذي ينبغي أن يقع من البشر على هذه الأمم التي لم تهتد ، وهذا نحو قوله : ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ [يس : 30] ، و﴿ القرون من قبلكم ﴾ هم قوم نوح وعاد وثمود ومن تقدم ذكره ، والقرن من الناس : المقترنون في زمان طويل أكثره - فيما حد الناس - مائة سنة ، وقيل ثمانون وقيل غير ذلك إلى ثلاثين سنة ؛ والأول أرجح لقول النبي صلى الله عليه وسلم : " أرأيتكم ليلتكم هذه فإن إلى رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد " قال ابن عمر :

يريد أنها تخرم ذلك القرن و﴿ بقية ﴾ هنا يراد بها النظر والعقل والحزم والثبوت في الدين ، وإنما قيل : ﴿ بقية ﴾ لأن الشرائع والدول ونحوها – قوتها في أولها ثم لا تزال تضعف فمن ثبت في وقت الضعف فهو بقية الصدر الأول .

وقرأت فرقة : " بقية " بتخفيف الياء وهو رد فعيلة إلى فعلة ، وقرأ أبو جعفر وشيبة "بُقْية " بضم الباء وسكون القاف على وزن فُعلة .

و﴿ الفساد في الأرض ﴾ هو الكفر وما اقترن به من المعاصي ، وهذه الآية فيها تنبيه لأمة محمد وحض على تغيير المنكر والنهي عن الفساد ثم استثنى الله تعالى القوم الذين نجاهم مع أنبيائهم وهم قليل بالإضافة إلى جماعاتهم . و﴿ قليلاً ﴾ نصب على الاستثناء وهو منقطع عند سيبويه ، والكلام عنده موجب ، وغيره يراه منفياً من حيث معناه أنه لم يكن فيهم أولو بقية .

وقرأ جمهور الناس " واتبعَ " على بناء الفعل للفاعل ، وقرأ حفص بن محمد : " واتبع " على بنائه للمفعول ، ورويت عن أبي عمرو .

و ﴿ ما أترفوا فيه ﴾ أي عاقبة ما نعموا به – على بناء الفعل للمفعول – والمترف : المنعم الذي شغلته ترفته عن الحق حتى هلك ومنه قول الشاعر :

تحيي رؤوس المترفين الصداد . . . إلى أمير المؤمنين الممتاد

يريد المسؤول ، يقال ماده ، إذا سأله . وقوله : ﴿ بظلم ﴾ ، يحتمل أن يريد بظلم منه لهم – تعالى عن ذلك – قال الطبري : ويحتمل أن يريد : بشرك منهم ، وهم مصلحون في أعمالهم وسيرهم ، وعدل بعضهم في بعض ، أي أنهم لا بد من معصية تقترن بكفرهم .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، وإنما ذهب قائله إلى نحو ما قيل إن الله تعالى يمهل الدول على الكفر ولا يمهلها على الظلم والجور ، ولو عكس لكان ذلك متجهاً ، أي ما كان الله ليعذب أمة بظلمهم في معاصيهم وهم مصلحون في الإيمان ، والاحتمال الأول في ترتيبنا أصح إن شاء الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(252/386)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَ ﴾ أي فهلاّ كان .

﴿ مِنَ القرون مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي من الأمم التي قبلكم .

﴿ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ ﴾ أي أصحاب طاعة ودين وعقل وبصر .

﴿ يَنْهَوْنَ ﴾ قومهم .

﴿ عَنِ الفساد فِي الأرض ﴾ لِما أعطاهم الله تعالى من العقول وأراهم من الآيات ؛ وهذا توبيخ للكفار .

وقيل : لولا هاهنا للنفي ؛ أي ما كان من قبلكم ؛ كقوله : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ﴾ [يونس : 98] أي ما كانت .

﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ استثناء منقطع ؛ أي لكن قليلاً .

﴿ مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ نهوا عن الفساد في الأرض .

قيل : هم قوم يونس ؛ لقوله : "إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ" .

وقيل : هم أتباع الأنبياء وأهل الحق .

﴿ واتبع الذين ظَلَمُواْ ﴾ أي أشركوا وعصوا .

﴿ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ أي من الاشتغال بالمال واللذات ، وإيثار ذلك على الآخرة .

﴿ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى ﴾

أي أهل القرى .

﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أي بشرك وكفر .

﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق ؛ أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد ، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان ، وقوم لوط باللواط ؛ ودلّ هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشِّرك ، وإن كان عذاب الشّرك في الآخرة أصعب .

وفي صحيح الترمذيّ من حديث أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده" .

وقد تقدّم .

وقيل : المعنى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مسلمون ، فإنه يكون ذلك ظلماً لهم ونقصاً من حقهم ، أي ما أهلك قوماً إلا بعد إعذار وإنذار .

وقال الزّجاج : يجوز أن يكون المعنى ما كان ربك ليهلك أحداً وهو يظلمه وإن كان على نهاية الصلاح ؛ لأنه تصرف في ملكه ؛ دليله قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئاً ﴾ [يونس : 44] .

وقيل : المعنى وما كان الله ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون ؛ أي مخلصون في الإيمان .

فالظلم المعاصي على هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(254/386)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فلولا كان من القرون ﴾

يعني فهلا كان من القرون التي أهلكناهم ﴿ من قبلكم ﴾ يعني يا أمة محمد ﴿ أولو بقية ﴾ يعني أولوا تمييز وطاعة وخير يقال فلان ذو بقية إذا كان فيه خير وقيل معناه أولوا بقية من خير يقال فلان على بقية من الخير إذا كان على خصلة محمودة ﴿ ينهون عن الفساد في الأرض ﴾ يعني يقومون بالنهي عن الفساد في الأرض والآية للتقريع والتوبيخ يعني لم يكن فيهم من فيه خير ينهى عن الفساد عن الأرض فلذلك أهلكناهم ﴿ إلا قليلاً ﴾ هذا استثناء منقطع معناه لكن قليلاً ﴿ ممن أنجينا منهم ﴾ يعني من آمن الأمم الماضية وهم أتباع الأنبياء كانوا ينهون عن الفساد في الأرض ﴿ واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ﴾ يعني واتبع الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي ما تنعموا فيه والترف التنعم والمعنى أنهم اتبعوا ما تعودوا به من النعم وإيثار اللذات على الآخرة ونعيمها ﴿ وكانوا مجرمين ﴾ يعني كافرين ﴿ وما

كان ربك ﴾ يعني وما كان ربك يا محمد ﴿ ليهلك القرى بظلم ﴾ يعني لا يهلكهم بظلم منه ﴿ وأهلها مصلحون ﴾ يعني : في أعمالهم ولكن يهلكهم بكفرهم وركوبهم السيئات ، وقيل : في معنى الآية وما كان ربك ليهلك القرى بمجرد شركهم إذا كانوا مصلحين يعني يعامل بعضهم بعضاً بالصلاح والسداد والمراد من الهلاك عذاب الاستئصال في الدنيا أما عذاب الآخرة فهو لازم لهم ولهذا قال بعض الفقهاء إن حقوق الله مبناها على المساحة والمساهلة وحقوق العباد مبناها على التضييق والتشديد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(255/386)

وقال أبو حيان :

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾

الترف : النعمة ، صبي مترف منعم البدن ، ومترف أبطرته النعمة وسعة العيش .

وقال الفراء : أترف عود الترفة وهي النعمة .

﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا

منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ﴾ : لولا هنا للتحضيض، صحبها معنى التفجع والتأسف الذي ينبغي أن يقع من البشر على هذه الأمم التي لم تهتد ، وهذا نحو قوله : ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ والقرون : قوم نوح، وعاد ، وثمود ، ومن تقدم ذكره.

والبقية هنا يراد بها الخير والنظر والجزم في الدين ، وسمي الفضل والجود بقية ، لأنّ الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله ، فصار مثلاً في الجودة والفضل .

ويقال فلان من بقية القوم أي من خيارهم ، وبه فسر بيت الحماسة : إن تذنبوا ثم يأتيني بقيتكم .

ومنه قولهم : في الزوايا خبايا ، وفي الرجال بقايا .

وإنما قيل : بقية لأنّ الشرائع والدول ونحوها قوتها في أولها ، ثم لا تزال تضعف ، فمن ثبت في وقت الضعف فهو بقية الصدر الأول .

وبقية فعيلة اسم فاعل للمبالغة .

وقال الزمخشري : ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوي ، كالتقية بمعنى التقوى أي : فلا كان منهم ذوو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه .

وقرأت فرقة : بقية بتخفيف الياء اسم فاعل من بقي ، نحو : شجيت فهي شجية .

وقرأ أبو جعفر ، وشيبة : بُقْيَة بضم الباء وسكون القاف ، وزن فعله .

وقرئ : بقية على وزن فعلة للمرة من بقاه يبقيه إذا رقبه وانتظره ، والمعنى : فلولا كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام الله ، كأنهم ينتظرون إيقاعه بهم لإشفاقهم .

والفساد هنا الكفر وما اقترن به من المعاصي ، وفي ذلك تنبيه لهذه الأمة وحض لها على تغيير المنكر .

(256/386)

إلا قليلاً استثناء منقطع أي : لكن قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد وهم قليل بالإضافة إلى جماعاتهم ، ولا يصح أن يكون استثناء متصلاً مع بقاء التحضيض على ظاهره لفساد المعنى ، وصيرورته إلى أنّ الناجين لم يحرضوا على النهي عن الفساد .

والكلام عند سيبويه بالتحضيض واجب ، وغيره يراه منفياً من حيث معناه : أنه لم يكن فيهم أولو بقية ، ولهذا قال الزمخشري بعد أن منع أن يكون متصلاً : (فإن قلت) : في تحضيضهم على النهي عن الفساد معنى نفيه عنهم ، فكأنه قيل : ما كان من القرون أولوا بقية إلا قليلاً ، كان استثناء متصلاً ، ومعنى صحيحاً ، وكان انتصابه على أصل الاستثناء وإن كان الأفصح أن يرجع على البدل انتهى .

وقرأ زيد بن علي : إلا قليل بالرفع ، لحظ أنّ التحضيض تضمن النفي ، فأبدل كما يبدل في

صريح النفي .

وقال الفراء : المعنى فلم يكن ، لأنّ في الاستفهام ضرباً من الجحد ، وأبي الأخفش كون الاستثناء منقطعاً ، والظاهر أنّ الذين ظلموا هم تاركو النهي عن الفساد .

وما أترفوا فيه أي : ما نعموا فيه من حب الرياسة والثروة وطلب أسباب العيش الهني ، ورفضوا ما فيه صلاح دينهم .

واتبع استئناف إخبار عن حال هؤلاء الذين ظلموا ، وأخبار عنهم أنهم مع كونهم تاركي النهي عن الفساد كانوا مجرمين أي : ذوي جرائم غير ذلك .

وقال الزمخشري : إن كان معناه واتبعوا الشهوات كان معطوفاً على مضمر ، لأنّ المعنى إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد في الأرض ، واتبع الذين ظلموا شهواتهم ، فهو عطف على نهوا ، وإن كان معناه : واتبعوا جزاء الإتراف .

فالواو للحال ، كأنه قيل : أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم .

وقال : وكانوا مجرمين ، عطف على أترفوا ، أي اتبعوا الإتراف وكونهم مجرمين ، لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام انتهى .

فجعل ما في قوله : ما أترفوا ، فيه مصدرية ، ولهذا قدره : اتبعوا الإتراف ، والظاهر أنها بمعنى الذي لعود الضمير في فيه عليها .

وأجاز أيضاً أنْ يكون معطوفاً على اتبعوا أي : اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك .

قال : ويجوز أن يكون اعتراضاً وحكماً عليهم بأنهم قوم مجرمون انتهى .

ولا يسمى هذا اعتراضاً في اصطلاح النحو ، لأنه آخر آية ، فليس بين شيئين يحتاج أحدهما إلى الآخر .

وقرأ جعفر بن محمد ، والعلاء بن سيابة كذا في كتاب اللوامح ، وأبو عمر في رواية الجعفي : واتبعوا ساكنة التاء مبنية للمفعول على حذف مضاف ، لأنه مما يتعدى إلى مفعولين ، أي جزاء ما أترفوا فيه .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون المعنى في القراءة المشهورة أنهم اتبعوا جزاء إترافهم ، وهذا معنى قوي لتقدم الإنجاء كأنه قيل : إلا قليلاً ممن أنجينا منهم وهلك السائر .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117) ﴾

تقدم تفسير شبيه هذه الآية في الأنعام ، إلا أن هنا ليهلك وهي آكد في النفي ، لأنه على مذهب الكوفيين زيدت اللام في خبر كان على سبيل التوكيد ، وعلى مذهب البصريين توجه النفي إلى الخبر المحذوف المتعلق به اللام ، وهنا وأهلها مصلحون .

قال الطبري : بشرك منهم وهم مصلحون أي : مصلحون في أعمالهم وسيرهم ، وعدل

بعضهم في بعض أي : أنه لا بد من معصية تقترن بكفرهم ، قاله الطبري ناقلاً .

قال ابن عطية : وهذا ضعيف ، وإنما ذهب قائله إلى نحو ما قال : إن الله يمهل الدول على الكفر ولا يمهلها على الظلم والجور ، ولو عكس لكان ذلك متجهاً أي : ما كان الله ليعذب أمة بظلمهم في معاصيهم وهم مصلحون في الإيمان .

والذي رجح ابن عطية أن يكون التأويل بظلم منه تعالى عن ذلك .

وقال الزمخشري : وأهلها مصلحون تنزيهاً لذاته عن الظلم ، وإيذاناً بأن إهلاك المصلحين من الظلم انتهى .

وهو مصادم للحديث : " أنهلك وفينا الصالحون قال : نعم ، إذا كثر الخبث " وللآية : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذي ظلموا منكم خاصة ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(258/386)

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَوْلاَ كَانَ ﴾

فهلا كان ﴿ مّنَ القرون ﴾ الكائنةِ ﴿ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ على رأي من جوّز حذفَ الموصولِ

مع بعض صلتِه أو كائنةً من قبلكم ﴿ أُوْلُو بَقِيَّةٍ ﴾ من الرأي والعقلِ أو أولو فضلٍ وخير ، وسُمّيا بها لأن الرجلَ إنما يستبقي مما يخرجه عادة أجودَه وأفضلَه ، فصار مثلاً في الجودة والفضلِ ويقال : فلان من بقيةِ القومِ أي من خيارهم ، ومنه ما قيل : "في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا" ، ويجوز أن تكون البقيةُ بمعنى البقوى كالتقية من التقوى ، أي فهلا كان منهم ذوو إبقاءٍ على أنفسهم وصيانةٍ لها من سخط الله تعالى وعقابه ، ويؤيده أنه قرىء أولو بقْيةٍ وهي المرّةُ من مصدر بقاه يَبقيه إذا راقبه وانتظره أي أولو مراقبةٍ وخشيةٍ من عذاب الله تعالى كأنهم ينتظرون نزولَه لإشفاقهم ﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ الفساد فِى الأرض ﴾ الواقعِ منهم حسبَ ما حُكي عنهم ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ استثناءٌ منقطعٌ أي لكن قليلاً منهم أنجيناهم لكونهم على تلك الصفةِ على أن مِنْ للبيان لا للتبعيض لأن جميعَ الناجين ناهون ، ولا صحة للاتصال على ظاهر الكلامِ لأنه يكون تحضيضاً لأولي البقية على النهي المذكورِ إلا للقليل من الناجين منهم كما إذا قلت هلاّ قرأ قومُك القرآن إلا الصلحاءَ منهم مريداً لاستثناء الصلحاءِ من المُحضَّضين على القراءة نعم يصح ذلك إن جعل استثناءً من النفي اللازمِ للتحضيض ، فكأنه قيل : ما كان من القرون أولو بقيةٍ إلا قليلاً منهم ، لكنَّ الرفعَ هو الأفصحُ حينئذ على البدلية ﴿ واتبع الذين ظَلَمُواْ ﴾ بمباشرة الفسادِ وتركِ النهي عنه ﴿ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ أي أُنعموا من الشهوات واهتموا بتحصيلها ، وأما المباشرون فظاهرٌ وأما المساهلون فلِما لهم في ذلك من نيل حظوظِهم الفاسدة .

وقيل : المرادُ بهم تاركو النهي ، وأنت خبيرٌ بأنه يلزم منه عدمُ دخولِ مباشري الفسادِ في الظلم والإجرام عبارةً ﴿ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ أي كافرين فهو بيانٌ لسبب استئصالِ الأمم المُهلَكة وهو فشوُّ الظلمِ واتباعُ الهوى فيهم وشيوعُ تركِ النهي عن المنكرات مع الكفر ، وقوله : واتّبع عطفٌ على مضمر دل عليه الكلامُ ، أي لم ينهَوا واتبع الخ فيكون العدولُ إلى المظهر لإدراج المباشرين معهم في الحكم والتسجيلِ عليهم بالظلم ، وللإشعار بعلية ذلك لما حاق بهم من العذاب ، أو على استئنافٍ يترتب على قوله : إلا قليلاً أي إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهَوا عن الفساد وتاركي النهي عنه ، فيكون الإظهارُ مقتضى الظاهِرِ ، وقوله : وكانوا مجرمين عطفٌ على أترفوا أي اتبعوا الإتراف ، وكونُهم مجرمين لأن تابعَ الشهواتِ مغمورٌ بالآثام ، أو أريد بالإجرام إغفالُهم للشكر ، أو على اتبع أي اتبعوا شهواتِهم وكانوا بذلك الاتباعِ مجرمين ، ويجوز أن يكون اعتراضاً وتسجيلاً عليهم بأنهم قومٌ مجرمون ، وقرىء وأُتبع أي أُتبعوا جزاءَ ما أُترفوا فتكون الواو للحال ويجوز أن يُفسَّر به المشهورةُ ، ويعضُده تقدم الإنجاء .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى ﴾

أي ما صح وما استقام بل استحال في الحكمةِ أن يُهلك القرى التي أهلكها حسب ما بلغك أنباؤها ويُعلم من ذلك حالُ باقيها من القرى الظالمةِ واللام لتأكيد النفي وقوله : ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أي ملتبساً به ، قيل : هو حالٌ من الفاعل أي ظالماً لها والتنكيرُ للتفخيم والإيذانِ بأن إهلاكَ المصلحين ظلمٌ عظيم والمرادُ تنزيهُ الله تعالى عن ذلك بالكلية بتصويره بصورة ما يستحيل صدورُه عنه تعالى وإلا فلا ظلمَ فيما فعله الله تعالى بعباده كائناً ما كانَ لما تقرّر من قاعدة أهلِ السنة وقد مر تفصيلُه في سورة آل عمرانَ عند قولِه تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ حالٌ من المفعول والعاملُ عامله ولكن لا باعتبار تقيّدِه بما وقع حالاً من فاعله أعني بظلم لدلالته على تقيد نفي الإهلاكِ ظلماً بحال كونِ أهلِها مصلحين ، ولا ريب في فساده بل مطلقاً عن ذلك ، وقيل : المرادُ بالظلم الشركُ والباء للسببية أي لا يُهلك القرى بسبب إشراك أهلِها وهم مُصلِحون يتعاطَوْن الحقَّ فيما بينهم ولا يضمُّون إلى شركهم فساداً آخرَ ، وذلك لفرط رحمتِه ومسامحتِه في حقوقه تعالى ، ومن ذلك قدّمَ الفقهاءُ عند تزاحم الحقوقِ حقوقَ العبادِ الفقراءِ على حقوق الله تعالى الغنيِّ الحميد ، وقيل : المُلكُ يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم ، وأنت تدري أن مقامَ النهي عن

المنكرات التي أقبحُها الإشراكُ بالله لا يلائمه ، فإن الشركَ داخلٌ في الفساد في الأرض دخولاً أولياً ، ولذلك كان ينهي كلٌّ من الرسل الذين قُصّت أنباؤهم أمتَه أولاً عن الإشراك ثم عن سائر المعاصي التي كانوا يتعاطَونها ، فالوجهُ حملُ الظلمِ على مطلق الفسادِ الشاملِ للشرك وغيرِه من أصناف المعاصي ، وحملُ الإصلاحِ على إصلاحه والإقلاعِ عنه بكون بعضهم متصدّين للنهي عنه وبعضِهم متوجّهين إلى الاتعاظ غيرَ مُصرِّين على ما هم عليه من الشرك وغيرِه من أنواع الفساد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(261/386)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَوْلاَ كَانَ ﴾

تحضيض فيه معنى التفجع مجازاً أي فهلا كان ﴿ مّنَ القرون ﴾ أي الأقوام المقترنة في زمان واحد ﴿ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ ﴾ أي ذوو خصلة باقية من الرأي والعقل .

أو ذوو فضل على أن يكون البقية اسماً للفضل والهاء للنقل ، وأطلق عليه ذلك على سبيل الاستعارة من البقية التي يصطفيها المرء لنفسه ويدخرها مما ينفعه ، ومن هنا يقال : فلان من بقية القوم أي من خيارهم ، وبذلك فسر بيت الحماسة :

إن تذنبوا ثم يأتيني (بقيتكم) . . .

فما علي بذنب عندكم فوت

ومنه قولهم : في الزوايا خبايا .

وفي الرجال بقايا ، وجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى أي فهلا كان منهم ذوو إبقاء لأنفسهم وصيانة لها عما يوجب سخط الله تعالى وعقابه ، والظاهر أنها على هذا مصدر ، وقيل : اسم مصدر ، ويؤيد المصدرية أنه قرىء ﴿ بِقِيَّتُ ﴾ بزنة المرة وهو مصدر بقاه يبقيه كرماه يرميه بمعنى انتظره وراقبه ، وفي الحديث عن معاذ بن جبل قال : "بقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تأخر صلاة العشاء حتى ظن الظان أنه ليس بخارج" الخبر أراد معاذ انتظرناه ، وأما الذي من البقاء ضد الفناء ففعله بقي يبقى كرضي يرضى ، والمعنى على هذه القراءة فهلا كان منهم ذوو مراقبة لخشية الله تعالى وانتقامه ، وقرىء ﴿ بِقِيَّتُ ﴾ بتخفيف الياء اسم فاعل من بقي نحو شجيت فهي شجية .

وقرأ أبو جعفر .

وشيبة ﴿ بَقِيَّتُ ﴾ بضم الباء وسكون القاف ﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ الفساد فِى الأرض ﴾ الواقع فيما بينهم حسبما ذكر في قصصهم ، وفسر الفساد في البحر بالكفر وما اقترن به من المعاصي ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ استثناء منقطع أي ولكن قليلاً منهم أنجيناهم لكونهم كانوا ينهون ، وقيل أي : ولكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نهو نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهي ، و ﴿ مِنْ ﴾ الأولى بيانية لا تبعيضية لأن النجاة إنما هي للناهين وحدهم بدليل قوله سبحانه : ﴿ أَنجَيْنَا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السوء وَأَخَذْنَا الذين ظَلَمُواْ ﴾ [الأعراف : 165] وإلى ذلك ذهب الزمخشري ، ومنع اتصال الاستثناء على ما عليه ظاهر الكلام لاستلزامه فساد المعنى لأنه يكون تحضيضاً لأولى البقية على النهي عن الفساد إلا للقليل من الناجين منهم ، ثم قال : وإن قلت : في تحضيضهم على النهي عن الفساد معنى نفيه عنهم فكأنه قيل : ما كان من القرون أولو بقية إلا قليلا كان استثناءاً متصلاً ومعنى صحيحاً وكان انتصابه على أصل الاستثناء وإن كان الأفصح أن يرفع على البدل ، والحاصل أن في الكلام اعتبارين : التحضيض .

والنفي ، فإن اعتبر التحضيض لا يكون الاستثناء متصلاًو ن المتصل يسلب ما للمستثنى منه عن المستثنى أو يثبت له ما ليس له ، والتحضيض معناه لم ما نهوا ، ولا يجوز أن يقال : إلا قليلا فانهم لا يقال لهم : لم ما نهوا لفساد المعنى لأن القليل ناهون وإن اعتبر النفي كان متصلا لأنه يفيد أن القليل الناجين ناهون ، وأورد على ذلك القطب أن صحة السلب .

أو الإثبات بحسب اللفظ لازم في الخبر وأما في الطلب فيكون بحسب المعنى فانك إذا قلت : اضرب القوم إلا زيداً فليس المعنى على أنه ليس أضرب بل على أن القوم مأمور بضربهم إلا زيداً فإنه غير مأمور به فكذا هنا يجوز أن يقال : ﴿ أُوْلُو بَقِيَّتُ ﴾ محضوضون على النهي ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ فانهم ليسوا محضوضين عليه لأنهم نهوا فالاستثناء متصل قطعاً كما ذهب إليه بعض السلف ، وقد يدفع ما أورده بأن مقتضى الاستثناء أنهم غير محضوضين ، وذلك إما لكونهم نهوا .

أو لكونهم لا يحضون عليه لعدم توقعه منهم ، فإما أن يكون قد جعل احتمال الفساد إفساداً أو ادّعى أنه هو المفهوم من السياق ، ثم إن المدقق صاحب الكشف قال : إن ظاهر تقرير كلام الزمخشري يشعر بأن ﴿ يَنْهَوْنَ ﴾ خبر ﴿ كَانَ ﴾ جعل ﴿ مِّنَ القرون ﴾ خبراً آخر أو حالاً قدمت لأن تحضيض أولي البقية على النهي على ذلك التقدير حتى لو جعل صفة ، و﴿ مِّنَ القرون ﴾ خبراً كان المعنى تنديم أهل القرون على أن لم يكن فهم أولو بقية ناهون وإذا جعل خبراً لا يكون معنى الاستثناء ما كان من القرون أولو بقية إلا قليلا بل كان ما كان منهم أولو بقية ناهين إلا قليلاً فانهم نهوا وهو فاسد ، والانقطاع على ما أثره

الزمخشري أيضاً يفسد لما يلزم منه أن يكون أولو بقية غير ناهين لأن في التحضيض والتنديم دلالة على نفيه عنهم ، فالوجه أن يوول بأن المقصد من ذكر الاسم الخبر وهو كالتمهيد له كونه قيل : فلولا كان من القرون من قبلكم ناهون إلا قليلاً ، وفي كلامه إشارة إلى أنه لا يختلف نفي الناهي ، وأولو البقية ، وإنما عدل إلى المنزل مبالغة لأن أصحاب فضلهم وبقاياهم إذا حضضوا على النهي وندموا على الترك فهم أولي بالتحضيض والتنديم ، وفيه مع ذلك الدلالة على خلوهم عن الاسم لخلوهم عن الخبر لأن ذا البقية لا يكون إلا ناهياً فإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم وهو من باب .

ولا ترى الضب بها ينجحر . . .

وقولك : ما كان شجعانهم يحمون عن الحقائق في معرض الذم تريد أن لا شجاع ولا حماية لكن بالغت في الذم حتى خيلت أنه لو كان لهم شجاع كان كالعدم فهذا هو الوجه الكريم والمطابق لبلاغة القرآن العظيم انتهى ، وهو تحقيق دقيق أنيق .

وادعى بعضهم أن الظاهر أن ﴿ كَانَ ﴾ تامة ، و﴿ أُوْلُو بَقِيَّتُ ﴾ فاعلها ، وجملة ﴿ يَنْهَوْنَ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ القرون ﴾ حال متقدمة عليه ، و﴿ مِنْ ﴾ تبعيضية ، و﴿ مِن

قَبْلِكُمْ ﴾ حال من ﴿ القرون ﴾ ، ويجوز أن يكون صفة لها أي الكائنة بناءاً على رأي من جوز حذف الموصول مع بعض صلته ، واعترض بأنه يلزم منه كون التحضيض على وجود أولئك فيهم وكذا يلزم كون المنفي ذلك وليس بذاك بل المدار على النهي تحضيضاً ونفياً ، والتزام توجه الأمرين إليه لكون الصفة قيداً في الكلام ؛ والاستعمال الشائع توجه نحو ما ذكر إلى القيد كما قيل زيادة نغمة في الطنبور من غير طرب ، ومثله بعد من النصب ﴿ واتبع الذين ظَلَمُواْ ﴾ وهم تاركو النهي عن الفساد .

﴿ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ ما انعموا فيه من الثروة والعيش الهنيء والشهوات الدنيوية ، وأصل الترف التوسع في النعمة .

وعن الفراء معنى أترف عود الترفة وهي النعمة ، وقيل : ﴿ أُتْرِفُواْ ﴾ أي طغوا من أترفته النعم إذا أطغته ففي إما سببية أو ظرفية مجازية ، وتعقب بأن هذا المعنى خلاف المشهور وإن صح هنا ؛ ومعنى اتباع ذلك الاهتمام به وترك غيره أي اهتموا بذلك ﴿ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ أي مرتكبي جرائم غير ذلك ، أو كافرين متصفين بما هو أعظم الاجرام ، ولكل من التفسيرين ذهب بعض ، وحمل بعضهم ﴿ الذين ظَلَمُواْ ﴾ على ما يعم تركي النهي عن

الفساد والمباشرين له ، ثم قال : وأنت خبير بأنه يلزم من التحضيض بالأولين عدم دخول مباشري الفساد في الظلم والأجرام عبارة ، ولعل الأمر في ذلك هين فلا تغفل ، والجملة عند أبي حيان مستأنفة لخبار عن حال هؤلاء ﴿ الذين ظَلَمُواْ ﴾ وبيان أنهم مع كونهم تاركي النهي عن الفساد كانوا ذوي جرائم غير ذلك .

وجوز بعض المحققين أن تكون عطفاً على مقدر دل عليه الكلام أي لم ينهوا ﴿ واتبع ﴾ الخ .

وقيل : التقدير إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد ﴿ واتبع الذين ﴾ الخ ، وأن تكون استئنافاً يترتب على قوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد ﴿ واتبع الذين ظَلَمُواْ ﴾ من مباشري الفساد وتاركي النهي عنه ، وجعل الاظهار على هذا مقتضى الظاهر ، وعلى الأول لادراج المباشرين مع التاركين في الحكم والتسجيل عليهم بالظلم وللاشعار بعلية ذلك لما حاق بهم من العذاب .

وفي الكشاف ما يقضي ظاهره بأن العطف على ﴿ نهو ﴾ الواقع خبر لكن فيلزم أن يكون المعطوف خبراً أيضاً مع خلوه عن الرابط ، وأجيب تارة بأنه في تأويل سائرهم أو مقابلوهم

وأخرى بأن دنهو ﴾ جملة مستأنفة استؤنفت بعد اعتبار الخبر فعطف عليها ، وفي ذلك ما فيه ، وقوله تعالى : ﴿ ﴾ جملة مستأنفة استؤنفت بعد اعتبار الخبر فعطف عليها ، وفي ذلك ما فيه ، وقوله تعالى : ﴿ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ عطف على ﴿ اتبع الذين ﴾ الخ مع المغايرة بينهما ، وجوز أن يكون العطف تفسيرياً على معنى ﴿ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ بذلك الاتباع ، وفيه بعد ، وأن يكون على ﴿ أُتْرِفُواْ ﴾ على معنى اتبعوا الاتراف وكونهم مجرمين لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام ، أو أريد بالإجرام إغفالهم للشكر ، وتعقبه صاحب التقريب بقوله : وفيه نظر لأن ما في ﴿ مَا أُتْرِفُواْ ﴾ موصولة لا مصدرية لعود الضمير من ﴿ فِيهِ ﴾ إليه ، فكيف يقدر ﴿ كَانُواْ ﴾ مصدراً إلا أن يقال : يرجع الضمير إلى الظلم بدلالة ﴿ ظَلَمُواْ ﴾ فتكون ﴿ مَا ﴾ مصدرية وأن تكون الجملة اعتراضاً بناءاً على أنه قد يكون في آخر الكلام عند أهل المعاني .

وقرأ أبو جعفر .

والعلاء بن سيابة .

وأبو عمرو ، وفي رواية الجعفي ﴿ واتبع ﴾ بضم الهمزة المقطوعة وسكون التاء وكسر الباء على البناء للمفعول من الاتباع ، قيل : ولا بد حينئذ من تقدير مضاف أي اتبعوا جزاء ما أترفوا و﴿ مَا ﴾ إما مصدرية أو موصولة والواو للحال ، وجعلها بعضهم للعطف على لم ينهوا المقدر ، والمعنى على الأوّل ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ نجيناهم وقد هلك سائرهم ، وأما قوله

سبحانه : ﴿ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ فقد قالوا : إنه لا يحسن جعله قيداً للانجاء إلا من حيث أنه يجري مجرى العلة لاهلاك السائر فيكون اعتراضاً .

(267/386)

أو حالاً من ﴿ الذين ظَلَمُوا ﴾ والحال الأول من مفعول ﴿ أَنجَيْنَا ﴾ المقدر ، وجوز أن يفسر بذلك القراءة المشهورة ، وتقدم الإنجاء للناهين يناسب أن يبين هلاك الذين لم ينهوا ، والواو للحال أيضاً في القول الشائع كأنه قيل : ﴿ أَنجَيْنَا ﴾ القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم فهلكوا ، وإذا فسرت المشهورة بذلك فقيل : فاعل اتبع ما اترفوا أو الكلام على القلب فتدبر .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى ﴾

أي ما صح وما استقام بل استحال في الحكمة أن يهلك القرى التي أهلكها وبلغتك أنباؤها أو ما يعمها وغيرها من القرى الظالم أهلها ، واللام في مثل ذلك زائدة لتأكيد النفي عند الكوفية ، وعند البصرية متعلقة بمحذوف توجه إليه النفي ، وقوله سبحانه : ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أي ملتبساً به قيل : هو حال من الفاعل أي ظالما لها والتنكير للتفخيم والإيذان بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم ، والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك على أبلغ وجه وإلا فلا ظلم منه

تعالى فيما يفعله بعباده كائناً ما كان لما علم من قاعدة أهل السنة ، وقوله جل وعلا : ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ حال من المفعول والعامل فيه عامله ، ولكن لا باعتبار تقييده بالحال السابقة لدلالته على تقييد نفي الاهلاك ظلماً بحال كون أهلها مصلحين ، وفيه من الفساد على ما قيل ما فيه بل مطلقاً عن ذلك ، وهذا ما اختاره ابن عطية ، ونقل الطبري أن المراد بالظلم الشرك والباء للسببية أي لا يهلك القرى بسبب إشراك أهلها وهم مصلحون في أعمالهم يتعاطون الحق فيما بينهم بل لا بد في إهلاكهم من أن يضموا إلى شركهم فساداً وتباغياً وذلك لفرط رحمته ومساحته في حقوقه سبحانه ، ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوق العباد في الجملة ما لم يمنع منه مانع .

قال ابن عطية : وهذا ضعيف ، وكأنه ذهب قائله إلى ما قيل : الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم والجور ، ولعل وجه ضعفه ما ذكره بعض المحققين من أن مقام النهي عن المنكرات التي أقبحها الإشراك بالله تعالى لا يلائمه فإن الشرك داخل في الفساد في الأرض دخولاً أولياً ولذلك كان ينهي كل من الرسل عليهم السلام أمته عنه ثم عن سائر المعاصي ، فالوجه كما قال : حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل لسائر القبائح والآثام وحمل

الإصلاح على إصلاحه والإقلاع عنه بكون البعض متصديا ًللنهي .

والبعض الآخر متوجها ًإلى الاتعاظ غير مصر على ما هو عليه من الشرك وغيره من أنواع الفساد انتهى ، لكن أخرج الطبراني .

وابن مردويه .

وأبو الشيخ والديلمي عن جرير قال : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسئل عن تفسير هذه الآية ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ فقال عليه الصلاة والسلام : وأهلها ينصف بعضهم بعضا ً" وأخرجه ابن أبي حاتم .

والخرائطي في مساوي الأخلاق عن جرير موقوفا ً ، وهو ظاهر في المعنى الذي نقله الطبري ، ولعله لم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلا فالأمر مشكل ، وجعل التصدي للنهي من بعض والاتعاظ من بعض آخر من إنصاف البعض كما ترى فافهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(269/386)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ

أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾

هذا قوي الاّتصال بقوله تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك ﴾ [هود : 102] فيجوز أن يكون تفريعاً عليه ويكون ما بينهما اعتراضاً دعا إليه الانتقال الاستطرادي في معان متماسكة .

والمعنى فهلاّ كان في تلك الأمم أصحاب بقية من خير فنهوا قومهم عن الفساد لما حلّ بهم ما حلّ .

وذلك إرشاد إلى وجوب النهي عن المنكر .

ويجوز أن يكون تفريعاً على قوله تعالى : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ [هود : 112] والآية تفريع على الأمر بالاستقامة والنهي عن الطغيان وعن الركون إلى الذين ظلموا ، إذ المعنى : ولا تكونوا كالأمم من قبلكم إذ عدموا من ينهاهم عن الفساد في الأرض وينهاهم عن تكذيب الرّسل فأسرفوا في غلوائهم حتى حلّ عليهم غضب الله إلاّ قليلاً منهم ، فإن تركتم ما أمرتم به كان حالكم كحالهم ، ولأجل هذا المعنى أتي بفاء التفريع لأنّه في موقع التفصيل والتعليل لجملة ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ [هود : 112] وما عطف عليها ؛ كأنّه قيل : وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم فَلَوْلاَ كان منهم بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلى آخره ، أي فاحذروا أن تكونوا كما كانوا فيصيبكم ما أصابهم ، وكونوا مستقيمين ولا تَطغوا ولا تركنوا إلى الظّالمين وأقيموا الصلاة ، فغُيِّرَ نظمُ الكلام إلى هذا الأسلوب الذي في الآية لتفنن

فوائده ودقائقه واستقلال أغراضه مع كونها آيلة إلى غرض يعمّمها .

وهذا من أبدع أساليب الإعجاز الذي هو كردّ العجز على الصدر من غير تكلّف ولا ظهور قصد .

ويقرب من هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم " ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ومَا أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم فإنّما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم "

و(لولا) حرف تحضيض بمعنى (هلاّ) .

وتحضيض الفائت لا يقصد منه إلاّ تحذير غيره من أن يقع فيما وقعوا فيه والعبرة بما أصابهم .

والقرون : الأمم .

وتَقَدّم في أوّل الأنعام .

والبقية : الفضل والخير .

وأطلق على الفضل البقية كناية غلبت فسارت مسرى الأمثال لأنّ شأن الشيء النفيس أنّ

صاحبه لا يفرط فيه.

وبقيّة الناس: سادتهم وأهل الفضل منهم، قال رويشد بن كثير الطائي:

إنْ تذنبوا ثم تأتيني بقيّتكم . . .

فَمَا عليّ بذنب منكم فوت

ومن أمثالهم "في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا".

فمن هنالك أطلقت على الفضل والخير في صفات الناس فيقال: في فلان بقية، والمعنى هنا: أولُو فضل ودين وعلم بالشريعة، فليس المراد الرّسل ولكن أريد أتباع الرسل وحملة الشرائع ينهون قومهم عن الفساد في الأرض.

والفساد: المعاصي واختلاف الأحوال، فنهيهم يردعهم عن الاستهتار في المعاصي فتصلح أحوالهم فلا يحق عليهم الوهن والانحلال كما حلّ ببني إسرائيل حين عدموا من ينهاهم.

وفي هذا تنويه بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فإنّهم أولُو بقيّة من قريش يدعونهم إلى الإيمان حتى آمن كلّهم، وأولُو بقية بين غيرهم من الأمم الذين اختلطوا بهم يدعونهم إلى الإيمان والاستقامة بعد الدخول فيه ويعلّمون الدين، كما قال تعالى فيهم:

﴿ كنتم خيرَ أمّةٍ أخرجت للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ [آل عمران: 110].

وفي قوله : ﴿ من القرون من قبلكم ﴾ إشارة إلى البشارة بأنّ المسلمين لا يكونون كذلك ممّا يومىء إليه قوله تعالى : ﴿ مِن قبلكم ﴾ .

وقرأ ابن جمّاز عن أبي جعفر "بِقْيَة" بكسر الباء الموحّدة وسكون القاف وتخفيف التّحتية فهي لغة ولم يذكرها أصحاب كتب اللغة ولعلّها أجريت مجرى الهيئة لما فيها من تخيّل السمت والوقار .

و ﴿ إلاّ قليلاً ﴾ استثناء منقطع من ﴿ أولُوا بقيّة ﴾ وهو يستتبع الاستثناء من القرون إذ القرون الذين فيهم ﴿ أولوا بقيّة ﴾ ليسوا داخلين في حكم القرون المذكورة من قبل ، وهو في معنى الاستدراك لأنّ معنى التحْضيض متوجّه إلى القرون الذين لم يكن فيهم أولو بقية فهم الذين يُنعى عليهم فقدان ذلك الصنف منهم .

وهؤلاء القرون ليس منهم من يستثنى إذ كلهم غير ناجين من عواقب الفساد ، ولكن لمّا كان معنى التحضيض قد يوهم أنّ جميع القرون التي كانت قبل المسلمين قد عدموا أولي بقية مع أن بعض القرون فيهم أولو بقيّة كان الموقع للاستدراك لرفع هذا الإيهام ، فصار المستثنى غيرَ داخل في المذكور من قبل ، فلذلك كان منقطعاً ، وعلامة انقطاعه انتصابه لأنّ نصب

المستثنى بعد النفي إذا كان المستثنى منه غير منصوب أمارة على اعتبار الانقطاع إذ هو الأفصح.

وهل يجيء أفصح كلام إلاّ على أفصح إعْراب، ولو كان معتبراً اتّصاله لجاء مرفوعاً على البدلية من المذكور قبله.

و(مِن) في قوله: ﴿ ممن أنجينا ﴾ بيانيّة، بيان للقليل لأنّ الذين أنجاهم الله من القرون هم القليل الذين ينهون عن الفساد، وهم أتباع الرسل.

وفي البيان إشارة إلى أنّ نهيهم عن الفساد هو سبب إنجاء تلك القرون لأنّ النهي سبب السبب إذ النهي يسبّب الإقلاع عن المعاصي الذي هو سبب النجاة.

ودلّ قوله: ﴿ ممّن أنجينا منهم ﴾ على أن في الكلام إيجاز حذفٍ تقديره: فكانوا يتوبون ويقلعون عن الفساد في الأرض فينجون من مسّ النار الذي لا دافع له عنهم.

وجملة ﴿ واتّبع الذين ظلموا ﴾ معطوفة على ما أفاده الاستثناء من وجود قليل ينهون عن الفساد، فهو تصريح بمفهوم الاستثناء وتبيين لإجماله.

والمعنى: وأكثرهم لم ينهوا عن الفساد ولم ينتهوا هم ولا قومهم واتّبعوا ما أترفوا فيه كقوله تعالى: ﴿ فسجدوا إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ [البقرة: 34] تفصيلاً لمفهوم الاستثناء.

وفي الآية عبرة وموعظة للعصاة من المسلمين لأنّهم لا يخلون من ظلم أنفسهم .

واتباعُ ما أترفوا فيه هو الانقطاع له والإقبال عليه إقبال المتّبِع على متبوعه .

وأترفوا : أعطوا التّرف ، وهو السعة والنعيم الذي سهّله الله لهم فالله هو الذي أترفهم فلم يشكروه .

و ﴿ كانوا مجرمين ﴾ أي في اتّباع الترف فلم يكونوا شاكرين ، وذلك يحقّق معنى الاتّباع لأنّ الأخذ بالترف مع الشكر لا يطلق عليه أنه اتّباع بل هو تمحّض وانقطاع دون شوبه بغيره .

وفي الكلام إيجاز حذف آخر ، والتقدير : فحقّ عليهم هلاك المجرمين ، وبذلك تهيّأ المقام لقوله بعده : ﴿ وما كان ربك ليهلك القُرى بظلم ﴾ [هود : 117] .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117) ﴾

عطف على جملة ﴿ واتّبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ﴾ [هود : 116] لما يؤذنه به مضمون الجملة المعطوف عليها من تعرّض المجرمين لحلول العقاب بهم بناء على وصفهم بالظلم والإجرام ، فعقب ذلك بأن نزول العذاب ممّن نزل به منهم لم يكن ظلماً من الله تعالى ولكنهم جرّوا لأنفسهم الهلاك بما أفسدوا في الأرض والله لا يحبّ الفساد .

وصيغة ﴿ وما كان ربك ليهلك ﴾ تدل على قوة انتفاء الفعل ، كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ما كان لبشرٍ أن يؤتيه الله الكتاب ﴾ الآية في [آل عمران : 79] ، وقوله : ﴿ قال

سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقّ ﴾ في آخر [العقود : 116] فارجع إلى ذينك الموضعين .

والمراد بالقرى ﴾ أهلها ، على طريقة المجاز المرسل كقوله : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] .

والباء في ﴿ بظلم ﴾ للملابسة ، وهي في محل الحال من ﴿ ربّك ﴾ أي لمّا يهلك النّاس إهلاكاً متلبساً بظلم .

وجملة ﴿ وأهلها مصلحون ﴾ حال من ﴿ القرى ﴾ أي لا يقع إهلاك الله ظالماً لقوم مصلحين .

(273/386)

والمصلحون مقابل المفسدين في قوله قبله : ﴿ ينهون عن الفساد في الأرض وقوله وكانوا مجرمين ﴾ [هود : 116] ، فالله تعالى لا يُهلك قوماً ظالماً لهم ولكن يُهلك قوماً ظَالمين أنفُسَهُمْ .

قال تعالى : ﴿ وما كنّا مُهلكي القرى إلاّ وأهلها ظالمون ﴾ [القصص : 59] .

والمراد : الإهلاك العاجل الحالّ بهم في غير وقت حلول أمثاله دون الإهلاك المكتوب على

جميع الأمم وهو فناء أمة وقيام أخرى في مدد معلومة حسب سنن معلومة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(274/386)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾

وكلمة " لولا " هنا تحضيضية ، والتحضيض إنما يكون حثاً لعفل لم يأت زمنه ، فإن كان الزمن قد انتهى ولا يمكن استدراك الفعل فيه ، تكون " لولا " للتحسر والتأسف .

وفي سورة يونس يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ [يونس : 98] .

وذكَّرهم بالآيات . ونحن قد علمنا أن " لولا " لها استعمالان في اللغة ، فهي إن دخلت على جملة اسمية ، فهي تدل على امتناع لوجود ، كقول إنسان لآخر : " لولا أن أباك فلاناً لضربتك على ما أذنبت " وتسمى " لولا " في هذه الحالة " حرف امتناع لوجود " .

وإذا دخلت " لولا " على جملة فعلية ، فهي أداة تحضيض ، وتحميس ، وحث المخاطب على أن يفعل شيئاً ، مثلما تشجِّع طالباً على المذاكرة ، فتقول له : " لولا ذاكرت بجد

واجتهاد في العام الماضي لما نجحت ووصلت إلى هذه السنة الدراسية " .

وفي هذا تحميس له على بذل مزيد من الجهد ، أما إذا قلت لراسب : " لولا ذاكرت لما رسبت " فهذا توبيخ وتأسيف له على ما فات ، وشحن طاقته لما هو آت ؛ لأن الزمن قد فات وانتهى وقت المذاكرة ؛ لذلك تكون " لولا " هنا للتقريع والتوبيخ .

والحق سبحانه وتعالى يرشدنا إلى أن بقية الأشياء هي التي ثبتت أمام أحداث الزمن ، فأحداث الزمن تأتي لتطوح بالشيء التافه أولاً ، ثم بما دونه ثم بما دونه ، ويبقى الشيء القوي ؛ لأنه ثابت على أحداث الزمن ؛ وبقية الأشياء دائماً خيرها .

والحق سبحانه قد بيَّن لنا أنه قد أهلك الأمم التي سبقت ؛ لأنه لم توجد فئة منهم تنهى عن الفساد في الأرض ، وجاء الإهلاك لامتناع من يقاوم الفساد بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وضرب الحق سبحانه لنا المثل بالبقية في كل شيء ، وأنها هي التي تبقى أمام الأحداث ، ففي قصة شعيب عليه السلام يقول الحق سبحانه :

﴿ يا قوم اعبدوا الله مَا لَكُم مِّنْ إله غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان إني أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وإني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * ويا قوم أَوْفُواْ المكيال والميزان بالقسط وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَآءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ * بَقِيَّةُ الله خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [هود : 8486] .

ومعنى ذلك أن نقص المكيال أو الميزان قد يزيد التاجر ما عنده ، ولكنه لا يلتفت إلى ما هو مدخور .

ولذلك قال شعيب عليه السلام :

﴿ ويا قوم أَوْفُواْ المكيال والميزان بالقسط وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَآءَهُمْ ﴾ [هود : 85] .

فأنت إن نظرت إلى شيء قد ذهب ، فامتلك القدرة على أن تحقق فيه بالفهم ، لتجده مدخراً لك باقياً .

ولنا المثل في موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حينما سألها عن شاة أُهديت له ، وكانت تعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب من الشاة كتفها ، فتصدقت بكل الشاة إلا جزءاً من كتفها ، فلمّا سألها : ما فعلت بالشاةّ قالت : ذهبت كلها إلا كتفها .

هكذا نظرت عائشة رضي الله عنها هذا المنظور الواقعي ؛ بأن الباقي من الشاة هو كتفها

فقط، وأنها تصدقت بباقي الشاة، ويلفتها رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتة إيمان ويقين، ويقول لها: " بقى كلها إلا كتفها " .

هكذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما بقي من الشاة من خير .

ويؤيد ذلك حديث قاله صلى الله عليه وسلم: " وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت " .

ويلفتنا القرآن الكريم إلى المنظور، وإلى المدخور، فيقول الحق سبحانه:

﴿ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً ﴾ [الكهف: 46] .

ويصف الحق سبحانه هذا المدخور بقوله:

﴿ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ [الكهف: 46] .

وفي آية أخرى يقول سبحانه:

﴿ والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً ﴾ [مريم: 76] .

إذن: لا بد أن تنظر إلى الباقيات في الأشياء؛ لأنها هي التي يُعوَّل عليها .

ويلفتنا الحق سبحانه إلى ذلك في أكثر من موضع من القرآن الكريم ، فيقول تعالى :

﴿ والآخرة خَيْرٌ وأبقى ﴾ [الأعلى : 17] .

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وأبقى ﴾ [القصص : 60] .

إذن : فإياك أن تنظر إلى الذاهب ، ولكن انظر إلى الباقي .

وإذا عضَّتِ الإنسان الأحداث في أي شيء ، نجد أن سطحي الإيمان يفزع مما ذهب ، ونجد راسخ الإيمان شاكراً لله تعالى على ما بقي .

وها هو ذا سيدنا عبد الله بن جعفر رضي الله عنه حينما جُرحت ساقه جرحاً شديداً ، وهو في الطريق إلى الشام ، ولحظة أن وصل إلى قصر الخلافة قال الأطباء : لا بد من التخدير لنقطع الساق المريضة ، فقال : والله ما أحب أن أغفل عن ربي طرفة عين .

وكان هذا القول يعني أن تجرى له جراحة بتر الساق دون مخدر ، فلمَّا قُطعت الساق ، وأرادوا أن يأخذوها ليدفنوها ؛ لتسبقه إلى الجنة إن شاء الله ؛ قال : ابعثوا بها ، فجاءوا بها إليه ، فأمسكها بيده وقال : اللهم إن كنت قد ابتليت في عضو ؛ فقد عافيت في أعضاء .

هكذا نظر المؤمن إلى ما بقي .

وحين يتكلم القرآن الكريم عن مراتب ومراقي الإيمان يقول مرة :

﴿ فأولئك يَدْخُلونَ الجنة ﴾ [غافر : 40] .

ويقول عن أناس آخرين :

﴿ أولئك عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة : 157] .

والجنة باقية بإبقاء الله لها ، ولكن رحمة الله باقية ببقاء الله ، وهكذا تكون درجة الرحمة أرقى من درجة الجنة .

وهكذا تجد في كل أمر ما يسمى بالباقيات .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ القرون مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفساد فِي الأرض إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ [هود : 116] .

(277/386)

أي : لولا أن كان في الناس بقية من الخير وبقية من الإيمان ، وبقية من اليقين ، وكانوا ينهون عن الفساد في الأرض ، لولا هم لخسف الله الأرض بمن عليها .

والبقايا في كل الأشياء هي نتيجة الاختيار ، والاختبار ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض ﴾ [الرعد : 17]

.

وفي العصر الحديث نقول : " البقاء للأصلح " .

إذن : فالحق سبحانه إنما يحفظ الحياة بهؤلاء الذين ينهون عن الفساد في الأرض ؛ لأنهم يعملون على ضوء منهج الله ، وهذا المنهج لا يزيد ملكاً لله ، ولا يزيد صفة من صفات الكمال لله ، لأنه سبحانه خلق الكون بكل صفات الكمال فيه ، ومنهجه سبحانه إنما يُصلح حركة الحياة ، وحركة الأحياء .

وهكذا يعود منهج السماء بالخير على مخلوقات الله ، لا على الله الذي كوّن الكون بكماله

.

واقرأ إن شئت قول الحق سبحانه :

﴿ والسمآء رَفَعَهَا ووَضَعَ الميزان * أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي الميزان ﴾ [الرحمن : 78] .

فكما رفع الحق سبحانه السماء بلا عمد ، وجعل الأمور مستقرة متوازنة ؛ فلكم أن تعدلوا في الكون في الأمور الاختيارية بميزان دقيق ؛ لأن اعوجاج الميزان إنما يفسد حركة الحياة .

ومن اعوجاج الميزان أن يأخذ العاطل خير الكادح ، ويرى الناس العاطل ، وهو يحيا في ترفٍ من سرقة خير الكادح ، فيفعلون مثله ، فيصير الأمر إلى انتشار الفساد .

وينزوي أصحاب المواهب ، فلا يعمل الواحد منهم أكثر من قدر حاجته ؛ لأن ثمرة عمله إن زادت فهي غير مصونة بالعدالة .

وهكذا تفسد حركة الحياة ، وتختل الموازين ، وتتخلف المجتمعات عن ركب الحياة .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ القرون مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفساد فِي الأرض ﴾ [هود : 116] .

وشاء الحق سبحانه أن يجعل أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير الأمم بشرط أن يأمورا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر .

قال الله تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ [آل عمران : 110] .

وجعلها الحق سبحانه الأمة الخاتمة ، لأنه لا رسالة بعد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كانت الرسالات قبلها تأتي بعد أن يتقلص الخير في المجتمعات ، وفي النفوس .

فقد وضع الحق سبحانه المنهج لأول الخلق في النفس الإنسانية ، وكانت المناعة ذاتية في الإنسان ، إن ارتكب ذنباً فهو يتوب ويرجع بعد أن يلوم نفسه ، ولكن قد يستقر أمره على

المعصية ، وتختفي منه " النفس اللوَّامة " ، ويستسلم للنفس الأمَّارة بالسوء ، فيجد من المجتمع من يقوّمه ، فإذا ما فسد المجتمع ، فالسماء تتدخل بإرسال الرسل ، إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد أمَّنها الحق سبحانه أنه سيظل فيها إلى أن تقوم الساعة من يدعو إلى الخير ، ومن يأمر بالمعروف ، ومن ينهى عن المنكر ؛ ولذلك لن يوجد أنبياء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم تأكيداً لهذا المعنى : " علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل " .

والعَالِم : هو كل من يعلم حكماً من أحكام الله سبحانه ، وعليه أن يبلغه إلى الناس .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " نضَّر الله وجه امرئٍ سمع مقالتي فوعاها ، وأدَّاها إلى من لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامع " .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفساد فِي الأرض إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ واتبع الذين ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود : 116] .

وقد أنجى الحق سبحانه بعضاً ممن نهوا عن الفساد في الأرض .

ونرى أمثلة على ذلك في القرية التي كانت حاضرة البحر ، وكانت تأتيهم حيتانهم شُرعاً يوم السبت الذي حرموا فيه الصيد على أنفسهم ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السوء وَأَخَذْنَا الذين ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف : 164165] .

هكذا أنجى الله سبحانه الذي نهوا عن السوء في تلك القرية ، وقد نرى في بعض المجتمعات عنصرين :

الأول : أنه لا يوجد طائفة تنهى عن الفساد .

والعنصر الثاني : أن ينفتح على المجتمع باب الترف على مصراعيه ، وفي انفتاح باب الترف على مصراعيه مذلّة للبشر ؛ لأنك قد تجد إنساناً لا تترفه إمكاناته ؛ فيزيد هذه الإمكانات بالرشوة والسرقة والغصب .

وكل ذلك إنما ينشأ لأن الإنسان يرى مترفين يتنعمون بنعيم لا تؤهله إمكاناته أن يتنعم به .

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن إهلاك مثل هذه المجتمعات :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ [الإسراء : 16] .

وبعض الناس يفهمون هذه الآية الكريمة على غير وجهها ؛ فهم يفهمون الفسق على أنه نتيجة لأمر من الله سبحانه وتعالى والحقيقة أنهم إنما قد خالفوا أمر الله ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [البينة : 5] .

أي : أن الحق سبحانه أمر المترفين أن يتبعوا منهج الله ، لكنهم خالفوا المنهج الإلهي مختارين ؛ ففسقوا عن أمر ربهم .

وفي الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ واتبع الذين ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ﴾ [هود : 116] .

وقوله سبحانه : (ظلموا) تبين أن مادة الترف التي عاشوا فيها جاءت من الظلم ، وأخذ حقوق الناس وامتصاص دماء الكادحين .

ومادة (ترف) تعني النعمة يتنعم بها الإنسان . ومنها : أَترف ، وأُترف ، وكلمة " أترف " أي : أطغته النعمة ، وأنسته المنعم سبحانه . وأترف ، أي : مد الله له في النعمة ليأخذه أخذ عزيز مقتدر .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ [الأنعام : 44] .

فمن يمسك عدوه ليرفعه ؛ فلا يظنن أنه يدلله ، ولكنه يرفعه ليلقيه من علٍ ، فيزداد ويعظم ألمه . وكان الله سبحانه قد أعطى أمثال هؤلاء نعمة ؛ ليطغوا .

ولنا أن ننتبه إلى كلمة " الفتح " التي تجعل النفس منشرحة ، وعلينا أن ننتبه إلى المتعلق بها ، أهو فتح عليك ، أم فتح لك ؟

إن فُتح عليك ؛ فافهم أن النعمة جاءت لتطغيك ، ولكن إن فُتح لك ، فهذا تيسير منه سبحانه ، فهو القائل :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ [الفتح : 1] .

وهؤلاء الذين يحدثنا الحق سبحانه عنهم في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ قد فتح الله سبحانه عليهم أبواب الضر ؛ لأنهم غفلوا عنه .

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود : 116] .

أي : كانوا يقطعون ما كان يجب أن يوصل ؛ وهو اتباع منهج السماء ؛ لأن كلمة (مجرمين) مأخوذة من مادة " جرم " وتعني : " قطع " ، وقطع اتباع منهج السماء ؛ والغفلة عن الإيمان بالخالق سبحانه ، والاستغراق في الترف الذي حققوه لأنفسهم بظلم الغير ، وأخذ نتيجة

عرق وجهد الغير .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى ﴾ .

وساعة تقرأ أو تسمع (ما كان) يتطرق إلى ذهنك : ما كان ينبغي .

(281/386)

ومثال ذلك : هو قولنا : " ما كان يصح لفلان أن يفعل كذا " . وقولنا هذا يعني أن فلاناً قد فعل أمراً لا ينبغي أن يصدر منه .

وهناك فرق بين نفي الوجود ؛ ونفي انبغاء الوجود .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ [يس : 69] .

وهذا لا يعني أن طبيعة الرسول صلى الله عليه وسلم جامدة ، ولا يستطيع معاذ الله أن يتذوق المعاني الجميلة ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم جُبل على الرحمة ؛ وقد قال فيه الحق سبحانه :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ الله لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القلب لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : 159] .

ولهذا نفهم قوله الحق :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا ينبَغِي لَهُ ﴾ [يس : 69] .

أي : أن الحق سبحانه لم يشأ له ان يكون شاعراً .

وهكذا نفهم أن هناك فرقاً بين " نفي الوجود " وبين " نفي انبغاء الوجود " .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ ﴾ [هود : 117] .

أي : لا يتأتى ، ويستحيل أن يهلك الله القرى بظلم ؛ لأن مراد الظالم أن يأخذ حق الغير لينتفع به ؛ ولا يوجد عند الناس ما يزيد الله شيئاً ؛ لأنه سبحانه واهب كل شيء ؛ لذلك فالظلم غير وارد على الإطلاق في العلاقة بين الخالق سبحانه وبين البشر .

وحين يورد الحق سبحانه كلمة " القرى " وهي أماكن السكن فلنعلم أن المراد هو " المكين " ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ القرية التي كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر ﴾ [الأعراف : 163] .

وقوله الحق أيضاً :

﴿ وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا ﴾ [يوسف : 82] .

والحق سبحانه في مثل هاتين الآيتين ؛ وكذلك الآية التي نتناولها الآن بهذه الخواطر إنما يسأل عن المكين .

والله سبحانه يقول هنا :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ ﴾ [هود : 117] .

(282/386)

أي : أنه مُنزَّه عن أن يهلكهم بمجاوزة حَدٍّ ، لكن له أن يهلكهم بعدل ؛ لأن العدل ميزان ، فإن كان الوزن ناقصاً كان الخسران ، ومن العدل العقاب ، وإن كان الوزن مستوفياً كان الثواب

.

وفي مجالنا البشرى ؛ لحظة أن نأخذ الظالم بالعقوبة ؛ فنحن نتبعه فعلاً ؛ لكننا نريح كل المظلومين ؛ وهذه هي العدالة فعلاً .

ومن خطأ التقنينات الوضعية البشرية هو ذلك التراخي في إنفاذ الحقوق في التقاضي ؛ فقد تحدث الجريمة اليوم ؛ ولا يصدر الحكم بعقاب المجرم إلا بعد عشر سنوات ، واتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع العقوبة ؛ إنما هو واحد من أخطاء التقنينات الوضعية ؛ ففي هذا تراخٍ في إنفاذ حقوق التقاضي ؛ لأن اتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع العقوبة ؛ إنما يضعف الإحساس ببشاعة الجريمة .

ولذلك حرص المشرع الإسلامي على ألا تطول المسافة الزمنية بين وقوع الجريمة وبين إنزال

العقوبة، فعقاب المجرم في حُمُوَّة وجود الأثر النفسي عند المجتمع؛ يجعل المجتمع راضياً بعقاب المجرم، ويذكِّر الجميع ببشاعة ما ارتكب؛ ويوازن بين الجريمة وبين عقوبتها .

ويقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود : 117] .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ [الأنعام : 131] .

إذن : لا بد من إزاحة الغفلة أولاً ، وقد أزاح الله سبحانه الغفلة عنا بإرسال الرسل وبالبيان وبالنذر ؛ حتى لا تكون هناك عقوبة إلا على جريمة سبق التشريع لها .

وهكذا أعطانا الله سبحانه وتعالى البيان اللازم لإدارة الحياة ، ثم جاء من بعد ذلك الأمر بضرورة الإصلاح :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود : 117] .

والإصلاح في الكون هو استقبال ما خلق الله سبحانه لنا في الكون من ضروريات لننتفع بها ، وقد كفانا الله ضروريات الحياة ؛ وأمرنا أن نأخذ بالأسباب لنطور بالابتكارات وسائل

الترف في الحياة .

وضروريات الحياة من طعام وماء وهواء موجودة في الكون ، والتزاوج متاح بوجود الذكر والأنثى في الكائنات المخلوقة ، أما ما نصنعه نحن من تجويد لأساليب الحياة ورفاهيتها فهذا هو الإصلاح المطلوب منا .

وسبق أن قلنا : إن المصلح هو الذي يترك الصالح على صلاحه ، أو يزيده صلاحاً يؤدي إلى ترفه وإلى راحته ، وإلى الوصول إلى الغاية بأقل مجهود في أقل وقت .

والقرى التي يصلح أهلها ؛ لا يهلكها الله ؛ لأن الإصلاح إما أن يكون قد جاء نتيجة اتباع منهج نزل من الله تعالى ؛ فتوازنت به حركة الإنسان مع حركة الكون ، ولم تتعاند الحركات ؛ بل تتساند وتتعاضد ، ويتواجد المجتمع المنشود .

وإما أن هؤلاء الناس لم يؤمنوا بمنهج سماوي ، ولكنهم اهتدوا إلى أسلوب عمل يريحهم ، مثل الأمم الملحدة التي اهتدت إلى شيء ينظم حياتهم ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يمنع العقل البشري أن يصل إلى وضع قانون يريح الناس .

لكن هذا العقل لا يصل إلى هذا القانون إلا بعد أن يرهق البشر من المتاعب والمصاعب ، أما المنهج السماوي فقد شاء به الله سبحانه أن يقي الناس أنفسهم من التعب ، فلا تعضهم الأحداث .

وهكذا نجد القوانين الوضعية وهي تعالج بعض الداءات التي يعاني منها البشر ، لا تعطي

عائد الكمال الاجتماعي ، أما قوانين السماء فهي تقي البشر من البداية فلا يقعون فيما يؤلمهم .

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود : 117] .

لأنهم إما أن يكونوا متبعين لمنهج سماوي ، وإما أن يكونوا غير متبعين لمنهج سماوي ، لكنهم يصلحون أنفسهم .

(284/386)

إذن : فالحق سبحانه وتعالى لا يهلك القرى لأنها كافرة ؛ بل يبقيها كافرة ما دامت تضع القوانين التي تنظم حقوق وواجبات أفرادها ؛ وإن دفعت ثمن ذلك من تعاسة وآلام .

ولكن على المؤمن أن يعلن لهم منهج الله ؛ فإن أقبلوا عليه ففي ذلك سعادتهم ، وإن لم يقبلوا ؛ فعلى المؤمنين أن يكتفوا من هؤلاء الكافرين بعدم معارضة المنهج الإيماني .

ولذلك نجد في البلاد التي فتحها الإسلام أناساً بَقَوْا على دينهم ؛ لأن الإسلام لم يدخل أي بلد لحمل الناس على أن يكونوا مسلمين ، بل جاء الإسلام بالدليل المقنع مع القوة التي تحمي حق الإنسان في اختيار عقيدته .

يقول الله جلَّ علاه :

﴿ لاَّ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلوكُمْ فِي الدين ولَمْ يُخرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وتقسطوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المقسطين ﴾ [الممتحنة : 8] .

فإذا كانت بعض المجتمعات غير مؤمنة بالله ، ومُصلِحة ؛ فالحق سبحانه لا يهلكها بل يعطيهم ما يستحقونه في الحياة الدنيا ؛ لأنه سبحانه القائل :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : 20] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(285/386)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) (هود : 117) ، وفي سورة القصص : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) (القصص : 59) ، للسائل أن يسأل عن (قوله

في) أولى الآيتين : (وما كان ربك) وفي الثانية (وما كنا) ، وعن قوله في الأولى : (ليهلك) بالفعل الداخلة عليه لام الجحود ، وفي الآخر : (مهلك) و (مهلكي) بسم الفاعل ، وعن قوله في الأولى : ((مصلحون)) وفي الثانية : ((حتى نبعث في أمها رسولا . .) الآية وفي الثالثة : ((إلا وأهلها ظالمون)) فتلك ثلاثة اسأله .

والجواب : أن آية هود تقدمها قوله تعالى (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ

(286/386)

يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ) (هود : 116) ، أي فهلا كان منهم خيار وينهون عن الفساد والظلم ، فلو كان منهم ذلك لما هلكوا : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) (هود : 117) ، أي ما كان ليفعل بهم وإن وقع منهم ظلم ذلك كان فيهم مغير للظلم وناه عن الفساد ولكنهم كانوا كما أخبر تعالى عن المعتدين من بني إسرائيل في قوله تعالى عنهم : (كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ) (المائدة : 79) ، وجيء بالفعل في قوله : (ليهلك) إشارة إلى التكرر بحسب ما يكون منهم ، فلو كان في كل أمة وقرن بعد قرن من ينهي عن الفساد والظلم لما أخذ بذوي الظلم منهم ولكان تعالى يدفع بعضهم عن بعض ، ولكن تكرر الفساد وعم كل قرن فتكرر عليهم الجزاء

والأخذ ، فأشار الفعل إلى التكرر ولم يكن الاسم ليعطي ذلك ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ ﴿ الملك : 19 ﴾ ولم يقل : وقابضات لما قصده من معنى التكرر ، وأما قوله في سورة القصص : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا . . . ﴾ ﴿ القصص : 59 ﴾ فإنه تقدم هذا في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ القصص : 51 ﴾ أي أتبعنا ووالينا التذكار ، ويشهد قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ ﴿ فاطر : 24 ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ ﴿ الإسراء : 15 ﴾ ، فلما أعلم سبحانه تتابع التذكار وتعاقب الإنظار قال : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا ﴾ ﴿ القصص : 59 ﴾ ، ونسب هذا ذكر اسم الفاعل لأنه قصد ذكر الاتصاف بهذا ولم يقصد التكرر ولم يكن

(287/386)

حاصله ، وقال هنا وفي آية هود : ﴿ وما كان ربك ﴾ بإضافة اسم الرب جل وتعالى إلى ضمير نبينا صلى الله عليه وسلم المخاطب بهذه ملاطفة لهذا النبي صلى الله عليه وسلم وتأنيساً له ولأمته وإشعارا بعظيم حظوته ومنزلته لديه سبحانه ، ثم اتبع تعالى هذا بقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ ﴿ القصص : 59 ﴾ ، فأخبر تعالى أنه ما

أهلكهم إلا بعد استحقاق جميعهم العذاب وتساويهم في الظلم وقيل في هذه الآية الأخيرة: (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى) لئلا يتكرر اللفظ بعينه مع الاتصال والقرب وليس من مواضعه، وقد حصل جواب الأسئلة الثلاثة وبيان خصوص كل آية منها بمواضعها، والله أعلم.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ملاك التأويل صـ 264. 265﴾

(288/386)

"فصل"

قال السيوطي:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾

أخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب قال أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض﴾.

وأخرج ابن أبي مالك في قوله ﴿فلولا﴾ قال: فهلا.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال: أي لم يكن من قبلكم من ينهى عن الفساد في الأرض إلا قليلاً.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج ﴿ إلا قليلاً ممن أنجينا منهم ﴾ يستقلهم الله من كل قوم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ﴾ قال : في ملكهم وَتَجَبُّرَهُمْ وتركهم الحق .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طريق ابن جريج قال : قال ابن عباس ﴿ أترفوا فيه ﴾ نظروا فيه .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ﴾ من دنياهم ، وأن هذه الدنيا قد تعقدت أكثر الناس ، وألهتهم عن آخرتهم .

أخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن جرير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن تفسيرها هذه الآية ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " وأهلها ينصف بعضهم بعضاً "

وأخرجه ابن أبي حاتم والخرائطي في مساوىء الأخلاق عن جرير موقوفاً . انتهى ا . هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ ﴾ : " لولا " تحضيضيةٌ دخلها معنى التفجُّع عليهم ، وهو قريبٌ مِنْ مجاز قوله تعالى : ﴿ ياحسرة عَلَى العباد ﴾ [يس : 30] . وما يروى عن الخليل أنه قال : " كلُّ " لولا " في القرآن فمعناها " هَلاَّ " إلا التي في الصافَّات : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ [كَانَ مِنَ المسبحين] ﴾ [الآية : 143] ، لا يصح عنه لورودها كذلك في غير الصافات : ﴿ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ ﴾ [القلم : 49] ﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ ﴾ [الفتح : 25] ، ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ ﴾ [الإسراء : 74] .

و " مِن القُرون " : يجوز أن يتعلق ب " كان " لأنها هنا تامة ، إذ المعنى : فهلاَّ وُجد من القرون ، أو حدَث ، ونحو ذلك ، ويجوز أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ من " أُولو بَقِيَّة " لأنه لو تأخَّر عنه لجاز أن يكون نعتاً له . و " مِنْ قبلكم " حال من " القرون " و " يَنْهَوْن " حالٌ من " أولو بقية " لتخصُّصه بالإِضافة ، ويجوز أن يكون نعتاً ل " أُولوا بقية " وهو أولى .

ويَضْعُفُ أن تكونَ " كان " هذه ناقصةً لبُعد المعنى مِنْ ذلك ، وعلى تقديرِه يتعيَّن تَعَلُّق " من

القرون " بالمحذوف على أنه حالٌ ، لأنَّ " كان " الناقصة لا تعمل عند جمهور النحاة ، ويكون "يَنْهَوْن " في محل نصب خبراً ل "كان " .

(290/386)

وقرأ العامَّة : "بَقِيَّة " بفتح الباء وتشديد الياء ، وفيها وجهان ، أحدهما : أنها صفةٌ على فَعيلة للمبالغة بمعنى فاعل ، ولذلك دخلت التاءُ فيها ، والمرادُ بها حينئذٍ جُنْدُ الشيء وخياره ، وإنما قيل لجنده وخياره " بقيّة " في قولهم : " فلان بقيةُ الناس ، وبقيةُ الكرام ، لأن الرجلَ يَسْتَبْقي مِمَّا يُخْرِجه أجودَه وأفضلَه ، وعليه حُمل بيت الحماسة :

2730 إنْ تُذْنِبُوا ثم تَأْتيني بقيَّتُكم . . . .

وفي المثل " في الزوايا خبايا ، وفي الرجال بقايا " .

والثاني : أنها مصدرٌ بمعنى البقوى . قال الزمخشري : " ويجوز أن تكونَ البقيَّة بمعنى البقوى ، كالتقيَّة بمعنى التقوى ، أي : فهلا كان منهم ذوو إبقاءٍ على أنفسهم وصيانةٍ لها من سخط اللَّه وعقابه " .

وقرأ فرقةٌ/ "بَقِيَة " بتخفيف الياء وهي اسمُ فاعلٍ مِنْ بقي كشَجِية مِنْ شَجِي ، والتقدير

: أولو طائفةٍ بَقِيةٍ أي : باقية . وقرأ أبو جعفر وشيبة "بُقْية" بضم الفاء وسكون العين .

وقُرِئ "بَقْيَة" على المَرَّة من المصدر . و "في الأرض" متعلقٌ بالفَساد ، والمصدرُ المقترن بأل يعمل في المفاعيل الصريحة فكيف في الظروف ؟ ويجوز أن يتعلَّق بمحذوفٍ على أنه حالٌ من "الفساد" .

قوله : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون استثناءً منقطعاً ، وذلك أن يُحمل التحضيضُ على حقيقته ، وإذا حُمل على حقيقته تعيَّن أن يكونَ الاستثناء منقطعاً لئلا يفسُدَ المعنى .

(291/386)

قال الزمشخري : "معناه : ولكن قليلاً مِمَّن أَنْجَيْنا مِن القرون نُهوا عن الفساد ، وسائرُهم تاركوا النهي" . ثم قال . "فإن قُلْتَ : هل لوقوع هذا الاستثناء متصلاً وجهٌ يُحْمَلُ عليه ؟ قلت : إن جَعَلْتَه متصلاً على ما عليه ظاهرُ الكلام كان المعنى فاسداً ؛ لأنه يكون تحضيضاً لأُولي البقية على النهي عن الفساد إلا للقليل من الناجين منهم ، كما تقول : هلا قرأ قومُك القرآنَ إلا الصلحاءَ منهم ، تريد استثناء الصلحاء من المُحَضَّضين على قراءة القرآن" . قلت : لأن الكلام يَؤُول إلى أنَّ الناجين لم يُحَضُّوا على النهي عن الفساد ، وهو

معنىً فاسدٌ .

والثاني : أن يكونَ متصلاً ، وذلك بأن يُؤَوَّلَ التحضيضُ بمعنى النفي فيصحَّ ذلك ، إلا أنه يؤدّي إلى النصب في غير الموجَب ، وإن كان غيرُ النصب أولى . قال الزمخشري : " فإن قلت : في تحضيضهم على النهي عن الفسادِ معنى نَفْيه عنهم فكأنه قيل : ما كان من القرونِ أولو بقيةٍ إلا قليلاً كان استثناءً متصلاً ومعنى صحيحاً ، وكان انتصابُه على أصلِ الاستثناء ، وإن كان الأفصحُ أن يُرْفَعَ على البدل " قلت : ويؤيد أن التحضيض هنا في معنى النفي قراءةُ زيد بن علي " إلا قليلٌ " بالرفع ، لاحظ معنى النفي فأبدل على الأفصح ، كقوله : { مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ } [النساء : 66] . وقال الفراء : " المعنى : فلم يكن ، لأن في الاستفهام ضرباً من الجَحْد " سَمَّى التحضيض استفهاماً . ونُقِل عن الأخفش أنه كان يرى تعيُّنَ اتصال هذا الاستثناء ، كأنه لَحَظَ النفيَ .

و " مِن " في " مِمَّنْ أَنْجَيْنا " للتبعيض . ومنع الزمخشري أن تكونَ للتبعيض ، بل للبيان فقال : " حقُّها أن تكون للبيان لا للتبعيض ؛ لأن النجاة إنما هي للناهين وحدهم ، بدليل قوله عز وجل : { أَنجَيْنَا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السوء وَأَخَذْنَا الذين ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ } [الأعراف

: 165] . قلت : فعلى الأول يتعلَّق بمحذوفٍ على أنها صفةٌ ل " قليلاً " ، وعلى الثاني : يتعلَّق بمحذوف على سبيل البيان ، أي : أعني .

قوله : ﴿ واتبع ﴾ العامَّةُ على " أَتَّبع " بهمزة وصل وتاءٍ مشددة ، وباء ، مفتوحتين ، فعلاً ماضياً مبنياً للفاعل ، وفيه وجهان ، أحدهما : أنه معطوفٌ على مضمر ، والثاني : أن الواوَ للحال لا للعطف ، ويتضح ذلك بقول الزمخشري : " فإن قلت : علامَ عَطَف قوله : ﴿ واتبع الذين ظَلَمُواْ ﴾ قلت : إنْ كان معناه : " واتَّبعوا الشهواتِ كان معطوفاً على مضمرٍ ؛ لأن المعنى : إلا قليلاً مِمَّن أنجينا منهم نُهُوا عن الفساد ، واتَّبع الذين ظلموا شَهواتِهم ، فهو عطفٌ على " نُهوا " وإن كان معناه : واتَّبعوا جزاء الإِتراف ، فالواو للحال ، كأنه قيل : أُنْجَيْنا القليل ، وقد اتَّبعَ الذين ظَلَموا جزاءهم " .

قلت : فجوَّزَ في قولِه : " ما أُتْرفوا " وجهين أحدُهما : أنه مفعولٌ مِنْ غيرِ حذفِ مضاف ، و " ما " واقعة على الشهوات وما بَطِروا بسببه من النِّعَم ، والثاني : أنه على حَذْفِ مضاف ، أي : جزاء ما أترفوا ، ورتَّب على هذين الوجهين القولَ في " واتَّبع " كما عرفت .

والإِتراف : إفعالٌ من التَّرف وهو النعمة يُقال : صبيٌّ مُتْرَفٌ ، أي : مُنْعَم البدن ، وأُتْرفوا : نَعِموا . وقيل : التُّرْفة : التوسُّع في النِّعْمة .

وقرأ أبو عمرو في روايةِ الجعفي وجعفر " وأُتبع " بضم همزة القطعِ وسكونِ التاء وكسر الباء مبنياً للمفعول ، ولا بد حينئذٍ مِنْ حَذْفِ مضاف ، أي : أُتبعوا جزاء ما أُتْرِفوا فيه . و " ما " يجوز أن تكونَ بمعنى الذي ، وهو الظاهرُ لعَوْد الضميرِ في " فيه " عليه ، ويجوز أن تكونَ مصدريةً ، أي : جزاءَ إترافهم .

قوله : ﴿ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ فيه ثلاثةُ أوجه ، أحدها : أن تكونَ عطفاً على " أُتْرِفُوا " إذا جعلنا " ما " مصدريةً ، أي : اتَّبَعوا إترافهم وكونَهم مجرمين . والثاني : أنه عطفٌ على " اتَّبع " ، أي : اتَّبعوا شهواتِهم وكانوا مجرمين بذلك ؛ لأنَّ تابع الشهوات مغمورٌ بالآثام .

الثالث : أن يكونَ اعتراضاً وحكماً عليهم بأنهم قومٌ مجرمون ، ذكر ذلك الزمخشريُّ . قال الشيخ : " ولا يُسَمَّى هذا اعتراضاً في اصطلاح النحو ؛ لأنه آخرُ آيةٍ فليس بين شيئين يحتاج أحدُهما إلى الآخرِ " .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيُهْلِكَ ﴾ : فيه الوجهان المشهوران ، وهما زيادةُ اللامِ في خبر كان دلالةً على التأكيد كما هو رأي الكوفيين أو كونُه متعلقةً بخبر كان المحذوف ، وهو مذهبُ البصريين . و " بظلمٍ " متعلق ب " يُهْلك " والباءُ سببيةٌ . وجوَّز الزمخشري أن تكونَ حالاً

من فاعل " ليُهْلِكَ " . وقوله : " وأهلُها مُصْلحون " جملة حالية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 422.426 ﴾

(294/386)

فصل فى منزلة الغربة

قال ابن القيم :

فصل قال شيخ الإسلام . باب الغربة

قال الله تعالى ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ استشهاده بهذه الآية في هذا الباب يدل على رسوخه في العلم والمعرفة وفهم القرآن فإن الغرباء في العالم هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية وهم الذين أشار إليهم النبي صلى اله عليه وسلم في قوله "بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء قيل ومن الغرباء يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الذي يصلحون إذا فسد الناس " وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن زهير عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن حنطب عن المطلب بن حنطب عن النبي صلى اله عليه وسلم قال"

طوبى للغرباء قالوا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الغرباء قال الذين يزيدون إذا نقص الناس " فإن كان هذا الحديث بهذا اللفظ محفوظا لم ينقلب على الراوي لفظه وهو.

الذين ينقصون إذا زاد الناس فمعناه الذين يزيدون خيرا وإيمانا وتقى إذا نقص الناس من ذلك والله اعلم وفي حديث الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء قيل ومن الغرباء يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال النزاع من القبائل" وفي حديث عبد الله بن عمرو قال" قال النبي صلى اله عليه وسلم ذات يوم ونحن عنده طوبى للغرباء قيل ومن الغرباء يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ناس صالحون قليل في ناس كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم" وقال أحمد حدثنا الهيثم بن جميل حدثنا محمد بن مسلم حدثنا عثمان بن عبد الله عن سليمان بن هرمز عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى اله عليه وسلم قال " إن أحب شيء إلى الله الغرباء قيل ومن الغرباء قال الفرارون بدينهم يجتمعون إلى عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة " وفي حديث آخر "بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى لغرباء قيل ومن الغرباء يا رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال الذي يحيون سنتي ويعلمونها الناس " وقال نافع عن مالك" دخل عمر بن الخطاب المسجد فوجد معاذ بن جبل جالسا إلى بيت النبي صلى اله عليه وسلم وهو يبكي فقال له عمر ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن هلك أخوك قال لا ولكن حديثا حد ثنيه حبيبي وأنا في هذا المسجد فقال ما هو قال إن الله يحب الأخفياء الأحفياء الأتقياء الأبرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة " فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون ولقلتهم في الناس جدا سموا غرباء فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات فأهل الإسلام في الناس .

(296/386)

غرباء والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء وأهل العلم في المؤمنين غرباء وأهل السنة الذين يميزونها من الأهواء والبدع فهم غرباء والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين هم أشد هؤلاء غربة ولكن هؤلاء هم أهل الله حقا فلا غربة عليهم وإنما غربتهم بين الأكثرين الذين قال الله عز وجل فيهم ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه وغربتهم هي الغربة الموحشة وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم كما قيل

فليس غريبا من تناءت دياره . . . ولكن من تنأين عنه غريب

ولما خرج موسى عليه السلام هاربا من قوم فرعون انتهى إلى مدين على الحال التي ذكر الله وهو وحيد غريب خائف جائع فقال يا رب وحيد مريض غريب فقيل له يا موسى الوحيد من ليس له مثلي أنيس والمريض من ليس له مثلي طبيب والغريب من ليس بيني وبينه معاملة فالغربة ثلاثة أنواع غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق وهي الغربة التي مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلها وأخبر عن الدين الذي جاء به أنه بدأ غريبا وأنه سيعود غريبا كما بدأ وأن أهله يصيرون غرباء وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان ووقت دون وقت وبين قوم دون قوم ولكن أهل هذه الغربة هم أهل الله حقا فإنهم لم يأووا إلى غير الله ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ولم يدعوا إلى غير ما جاء به وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم فيقال لهم ألا تنطلقون حيث انطلق الناس .

فيقولون فارقنا الناس ونحن أحوج إليهم منا اليوم وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده فهذه الغربة لا وحشة على صاحبها بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس وأشد ما تكون

وحشته إذا استأنسوا فوليه الله ورسوله والذين آمنوا وإن عاداه أكثر الناس وجفوه وفي حديث القاسم عن أبي أمامة عن النبي صلى اله عليه وسلم قال" عن الله تعالى إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاته أحسن عبادة ربه وكان رزقه كفافا وكان مع ذلك غامضا في الناس لا يشار إليه بالأصابع وصبر على ذلك حتى لقي الله ثم حلت منيته وقل تراثه وقلت بواكيه" ومن هؤلاء الغرباء من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي صلى اله عليه وسلم" رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره" وفي حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل عن النبي صلى اله عليه وسلم قال" ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة قالوا بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل ضعيف أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره" وقال الحسن المؤمن في الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها ولا ينافس في عزها للناس حال وله حال الناس منه في راحة وهو من نفسه في تعب ومن صفات هؤلاء الغرباء الذين غبطهم النبي صلى اله عليه وسلم التمسك بالسنة إذا رغب عنها الناس وترك ما أحدثوه وإن كان هو المعروف عندهم وتجريد التوحيد وإن أنكر ذلك أكثر الناس وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله لا شيخ ولا طريقة ولا مذهب ولا طائفة بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقا وأكثر الناس بل كلهم لائم لهم.

فلغربتهم بين هذا الخلق يعدونهم أهل شذوذ وبدعة ومفارقة للسواد الأعظم ومعنى قول النبي صلى اله عليه وسلم هم النزاع من القبائل أن الله سبحانه بعث رسوله وأهل الأرض على أديان مختلفة فهم بين عباد أوثان ونيران وعباد صور وصلبان ويهود وصابئة وفلاسفة وكان الإسلام في أول ظهوره غريبا وكان من أسلم منهم واستجاب لله ولرسوله غريبا في حيه وقبيلته وأهله وعشيرته فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نزاعا من القبائل بل آحادا منهم تغربوا عن قبائلهم وعشائرهم ودخلوا في الإسلام فكانوا هم الغرباء حقا حتى ظهر الإسلام وانتشرت دعوته ودخل الناس فيه أفواجا فزالت تلك الغربة عنهم ثم أخذ في الاغتراب والترحل حتى عاد غريبا كما بدأ بل الإسلام الحق الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه هو اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة فالإسلام الحقيقي غريب جدا وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جدا غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة ذات أتباع ورئاسات ومناصب وولايات ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول فإن نفس ما جاء به يضاد أهواءهم ولذاتهم وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهى فضيلتهم وعملهم والشهوات التي هي غايات مقاصدهم وإراداتهم فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريبا بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم وأطاعوا شحهم وأعجب

كل منهم برأيه كما قال النبي صلى اله عليه وسلم " مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحا .

(299/386)

مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه ورأيت أمرا لا يد لك به فعليك بخاصة نفسك وإياك وعوامهم فإن وراءكم أياما صبر الصابر فيهن كالقابض على الجمر" ولهذا جعل للمسلم الصادق في هذا الوقت إذا تمسك بدينه أجر خمسين من الصحابة ففي سنن أبي داود والترمذي من حديث أبي ثعلبة الخشني قال " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم فقال بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام فإن من وراءكم أيام الصبر الصبر فيهن مثل قبض على الجمر للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله قلت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أجر خمسين منهم قال أجر خمسين منكم " وهذا الأجر العظيم إنما هو لغربته بين الناس والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم فإذا أراد المؤمن الذي قد رزقه الله بصيرة في دينه وفقها في سنة رسوله وفهما في كتابه وأراه

ما الناس فيه من الأهواء والبدع والضلالات وتنكبهم عن الصراط المستقيم الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط فليوطن نفسه على قدح الجهال وأهل البدع فيه وطعنهم عليه وإزرائهم به وتنفير الناس عنه وتحذيرهم منه كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه فأما إن دعاهم إلى ذلك وقدح فيما هم عليه فهنالك تقوم قيامتهم ويبغون له الغوائل وينصبون له الحبائل ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورجله فهو غريب في دينه لفساد أديانهم غريب في تمسكه بالسنة لتمسكهم بالبدع غريب في اعتقاده لفساد عقائدهم غريب في صلاته لسوء صلاتهم .

غريب في طريقه لضلال وفساد طرقهم غريب في نسبته لمخالفة نسبهم غريب في معاشرته لهم لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم وبالجملة فهو غريب في أمور دنياه وآخرته لا يجد من العامة مساعدا ولا معينا فهو عالم بين جهال صاحب سنة بين أهل بدع داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء والبدع آمر بالمعروف ناه عن المنكر بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف .

فصل النوع الثاني من الغربة غربة مذمومة وهي غربة أهل الباطل .

وأهل الفجور بين أهل الحق فهي غربة بين حزب الله المفلحين وإن كثر أهلها فهم غرباء على كثرة أصحابهم وأشياعهم أهل وحشة على كثرة مؤنسهم يعرفون في أهل الأرض ويخفون على أهل السماء .

فصل النوع الثالث غربة مشتركة لا تحمد ولا تذم وهي الغربة عن .

الوطن فإن الناس كلهم في هذه الدار غرباء فإنها ليست لهم بدار مقام ولا هي الدار التي خلقوا لها وقد قال النبي صلى اله عليه وسلم لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل" وهكذا هو نفس الأمر لأنه أمر أن يطالع ذلك بقلبه ويعرفه حق المعرفة ولي من أبيات في هذا المعنى

وحي على جنات عدن فإنها . . . منازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو فهل ترى . . . نعود إلى أوطاننا ونسلم

وأي اغتراب فوق غربتنا التي . . . لها أضحت الأعداء فينا تحكم

وقد زعموا أن الغريب إذا نأى . . . وشطت به أوطانه ليس ينعم

فمن أجل ذا لا ينعم العبد ساعة . . . من العمر إلا بعد ما يتألم

وكيف لا يكون العبد في هذه الدار غريبا وهو على جناح سفر لا يحل عن راحلته إلا بين أهل القبور فهو مسافر في صورة قاعد وقد قيل

وما هذه الأيام إلا مراحل . . . يحث بها داع إلى الموت قاصد

وأعجب شيء لو تأملت أنها . . . منازل تطوى والمسافر قاعد

منزلة الاغتراب

فصل قال صاحب المنازل الاغتراب

أمر يشار به إلى الانفراد عن . الأكفاء يريد أن كل من انفرد بوصف شريف دون أبناء جنسه فإنه غريب بينهم لعدم مشاركه أو لقلته قال وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى الغربة عن الأوطان وهذا الغريب موته شهادة ويقاس له في قبره من مدفنه إلى وطنه ويجمع يوم القيامة إلى عيسى بن مريم عليه السلام لما كانت الغربة هي انفراد والانفراد إما بالجسم وإما بالقصد والحال وإما بهما كان الغريب غريب جسم أو غريب قلب وإرادة وحال أو غريبا بالاعتبارين قوله وهذا الغريب موته شهادة يشير به إلى الحديث الذي يروى عن هشام بن حسان عن ابن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى اله عليه وسلم قال " موت الغريب شهادة "ولكن هذا الحديث لا يثبت وقد روى من طرق لا يصح منها شيء قال الإمام أحمد هذا حديث منكر وأما قوله ويقاس له في قبره من مدفنه إلى وطنه فيشير به إلى ما رواه .

عبدالله بن وهب حدثني حيي بن عبدالله عن أبي عبدالرحمن البجلي عن عبدالله بن عمرو قال" توفي رجل بالمدينةممن ولد بالمدينة فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ليته مات في غير مولده فقال رجل ولم يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن الرجل إذا مات قيس له من مولده إلى منقطع أثره في الجنة" رواه ابن لهيعة عن حيى بهذا الإسناد وقال" وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبر رجل بالمدينة فقال ياله لو مات غريبا فقيل وما للغريب يموت بغير أرضه فقال ما من غريب يموت بغير أرضه إلا قيس له من تربته إلى مولده في الجنة" قوله ويجمع يوم القيامة إلى عيسى بن مريم يشير إلى الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا القاسم بن جميل حدثنا محمد بن مسلم حدثنا عثمان بن عبدالله بن إدريس عن سليمان بن هرمز عن عبدالله بن عمرو قال" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب شيء إلى الله الغرباء قيل وما الغرباء يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الفرارون بدينهم يجتمعون إلى عيسى بن مريم يوم القيامة" .

فصل قال الدرجة الثانية غربة الحال وهذا من الغرباء الذين طوبى لهم .

وهو رجل صالح في زمان فاسد وبين قوم فاسدين أو عالم بين قوم جاهلين أو صديق بين قوم

منافقين يريد بالحال ههنا الوصف الذي قام به من الدين والتمسك بالسنة ولا يريد به الحال الاصطلاحي عند القوم والمراد به العالم بالحق العامل به الداعي إليه وجعل الشيخ الغرباء في هذه الدرجة ثلاثة أنواع صاحب صلاح ودين بين قوم فاسدين وصاحب علم ومعرفة بين قوم جهال وصاحب صدق وإخلاص بين أهل كذب ونفاق فإن صفات هؤلاء وأحوالهم تنافي صفات من هم بين .

أظهرهم فمثل هؤلاء بين أولئك كمثل الطير الغريب بين الطيور والكلب الغريب بين الكلاب والصديق هو الذي صدق في قوله وفعله وصدق الحق بقوله وعمله فقد انجذبت قواه كلها للانقياد لله ولرسوله عكس المنافق الذي ظاهره خلاف باطنه وقوله خلاف عمله .

(303/386)

فصل قال الدرجة الثالثة غربة الهمة وهي غربة طلب الحق وهي غربة .

العارف لأن العارف في شاهده غريب ومصحوبه في شاهده غريب وموجوده لا يحمله علم أو يظهره وجد أو يقوم به رسم أو تطيقه إشارة أو يشمله اسم غريب فغربة العارف غربة الغربة لأنه غريب الدنيا والآخرة إنما كانت هذه الدرجة أعلى مما قبلها لأن الغربة الأولى غربة بالأبدان والثانية غربة بالأفعال والأحوال وهذه الثالثة غربة بالهمم فإن همة العارف

حائمة حول معروفه فهو غريب في أبناء الآخرة فضلا عن أبناء الدنيا كما أن طالب الآخرة غريب في أبناء الدنيا قوله لأن العارف في شاهده غريب شاهد العارف هو الذي يشهد عنده وله بصحة ما وجد وأنه كما وجد وبثبوت ما عرف وأنه كما عرف وهذا الشاهد أمر يجده من قلبه وهو قربه من الله وأنسه به وشدة شوقه إلى لقائه وفرحه به فهذا شاهده في سره وقلبه وله شاهد في حاله وعمله يصدق هذا الشاهد الذي في قلبه وله شاهد في قلوب الصادقين يصدق هذين الشاهدين فإن قلوب الصادقين لا تشهد بالزور البتة فإذا خفي عليك شأنك وحالك فاسأل عنك قلوب الصادقين فإنها تخبره عن حالك قوله ومصحوبه في شاهده غريب مصحوبه في شاهده هو الذي.

يصحبه فيه من العلم والعمل والحال وهو غريب بالنسبة إلى غيره ممن لم يذق طعم هذا الشأن بل هو في واد وأهله في واد وقوله وموجوده لا يحمله علم إلى آخره يريد بموجوده ما يجده في شهوده وجدانا ذاتيا حقيقيا في هذه المراتب المذكورة لأن الشهود يشملها كلها حالة المشاهدة فأما ما يحمله العلم فهو أحكام العلم التي متى انسلخ منها انسلخ من الإيمان وموجوده في هذه المشاهدة في هذا الحال هو إصابته وجه الصواب الذي أراده الله ورسوله

بشرعه وأمره وهذه الإصابة غريبة جدا عند أهل العلم بل هي متروكة عند كثير منهم فليس الحلال إلا ما أحله من قلدوه والحرام ما حرمه والدين ما أفتي به يقدم على النصوص وتترك له أقوال الرسول والصحابة وسائر أهل العلم قوله أو يظهره وجد الوجد يظهر أمورا ينكرها من لم يكن له ذلك الوجد ويعرفها من كان له وهذا الوجد إن شهد له العلم بالقبول وزكاه فهو وجد صحيح وإلا فهو وجد فاسد وفيه انحراف والمقصود أن ما يظهره وجد هذا العارف بالله وأسمائه وصفاته وأحكامه غريب على غيره بحسب همته ومعرفته وطلبه قوله أو يقوم به رسم الرسم هو الصورة الخلقية وصفاتها وأفعالها عندهم والذي يقوم به هذا الرسم هو الذي يقيمه من تعلق اسم القيوم به فإن القيوم هو القائم بنفسه الذي قيام كل شيء به أي هو المقيم لغيره فلا قيام لغيره بدون إقامته له وقيامه هو بنفسه لا بغيره ويحتمل أن يريد به معنى آخر وهو ما يقوى رسمه على القيام به فإن وراء ذلك ما لا يقوى رسم العبد على إظهاره ولا القيام به وهذا أظهر المعنيين.

من كلامه وسياقه إنما يدل عليه ولهذا قال بعد ذلك أو تطيقه إشارة أي لا تقدر على إفهامه وإظهاره إشارة فتنهض الإشارة بكشفه ثم قال أو يشمله رسم يعني أو تناله عبارة

فذكر الشيخ خمس مراتب الأولى مرتبة حمل العلم له الثانية مرتبة إظهار الوجد له الثالثة مرتبة قيام الرسم به الرابعة مرتبة إطاقة الإشارة له الخامسة مرتبة شمول العبارة له ومقصوده أن موجود العارف أخفى وأدق من موجود غيره فهو غريب بالنسبة إلى موجود سواه وأخبر أن موجوده في هذه المراتب غريب فكيف بموجوده الذي لا يحمله علم ولا يظهره وجد ولا يقوم به رسم ولا تطيقه إشارة ولا تشمله عبارة فهذا أشد غربة قوله فغربة العارف غربة الغربة والغربة أن يكون الإنسان بين أبناء جنسه غريبا مع أن له نسبا فيهم وأما غربة المعرفة فلا يبقى معها نسبة بينه وبين أبناء جنسه إلا بوجه بعيد لأنه في شأن والناس في شأن آخر فغربته غربة الغربة وأيضا فالصالحون غرباء في الناس والزاهدون غرباء في الصالحين والعارفون غرباء في الزاهدين قوله لأنه غريب الدنيا وغريب الآخرة يعني أن أبناء الدنيا لا يعرفونه لأنه ليس منهم وأهل الآخرة العباد الزهاد لا يعرفونه لأن شأنه وراء شأنهم همتهم متعلقة بالعبادة وهمته متعلقة بالمعبود مع قيامه بالعبادة فهو يرى الناس والناس لا يرونه كما

قيل تسترت من دهري بظل جناحه . . . فعيني ترى دهري وليس يراني

فلو تسأل الأيام ما اسمي لما درت . . . وأين مكاني ما عرفن مكاني . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مدارج السالكين جـ 3 صـ 194.205 ﴾

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾

معناه لم يكن فيكم مِنْ هؤلاء الذين كانوا ينهون عن القبائح إلا قليل .

وقيل معناه لم يكن فيمن قبلكم من الأمم مَنْ يَنْهى عن الفساد ، ويحفظ الدِّين ، ويطيعون أنبياءَهم - إلا قليل .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾

اي لم يُهلِكْ اللَّهُ أحداً مصلحاً وإنما هلك مَنْ كان ظالماً .

ويقال معناه : لو أهلك الله أهلَ القرى وهم مصلحون لم يكن ذلك ظلماً من الله ؛ لأن المُلكَ مُلكُه ، والخَلْقَ عبيدُه .

ويقال : " المصلح " من قام بحقِ ربِّه دون طلب حظِه .

ويقال : " المصلح " من آثر نجاته على هلاكه .

ويقال مصلحٌ تُصلِحُ نَفْسَه طاعتُه ، ومصلحٌ تصْلِحُ قلبَه معرفةُ سَيِّدِه . ومصلح تُصْلِحُ سِرَّه مشاهدةُ سيِّدِه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات جـ 2 صـ 162 . 163 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والثمانون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع والثمانون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 118 ﴾ من سورة هود عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 122 ﴾ من نفس السورة

(4/387)

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان مثل هذه الآيات ربما أوهم أن إيمان مثل هؤلاء مما لا يدخل تحت المشيئة ، نفى ذلك الوهم مبيناً انفكاك المشيئة عن الأمر بقوله : ﴿ ولو شاء ربك ﴾ أي المحسن إليك بكل إحسان يزيدك رفعة ﴿ لجعل الناس ﴾ أي كلهم ﴿ أمة واحدة ﴾ على الإصلاح ، فهو قادر على أن يجعلهم كلهم مصلحين متفقين على الإيمان فلا يهلكهم ، ولكنه لم يشأ ذلك ، بل شاء اختلافهم والأمر تابع لمشيئته فاختلفوا ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ أي ثابتاً اختلافهم

لكونهم على أديان شتى ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ أي المحسن إليك بالتأليف بينهم في جعلهم من أهل طاعتك فإنهم لا يختلفون في أصول الحق .

(5/387)

ولما كان ما تقدم ربما أوجب أن يقال : لِمَ لَمْ يُقبل بقلوبهم إلى الهدى ويصرفهم عن موجبات الردى إذا كان قادراً ؟ قال تعالى مجيباً عن ذلك : ﴿ ولذلك ﴾ أي الاختلاف ﴿ خلقهم ﴾ أي اخترعهم وأوجدهم من العدم وقدرهم ، وذلك أنه لما طبعهم سبحانه على خلائق من الخير والشر تقتضي الاختلاف لتفاوتهم فيها ، جعلوا كأنهم خُلقوا له فجروا مع القضاء والقدر ، ولم يمكنهم الجري على ما تدعو إليه العقول في أن الاتفاق رحمة والاختلاف نقمة ، فاستحق فريق منهم النار وفريق جنة ، وليس ذلك مخالفاً لقوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : 56] بل هو من شكله ، أي أنه تعالى لما ركبهم على العجز ومنحهم العقول مع نصب الأدلة ، كان ذلك مهيئاً للعبادة فكانوا كأنهم ما خلقوا إلا لها أي ما خلقتهم إلا ليعرفون بنفوذ أقضيتي وتصاريفي فيهم فيعبدون ، أي يخضعوا لي فمن كان منهم طائعاً فهو عابد حقيقة ، ومن كان عاصياً كان عابداً مجازاً ، أي خاضعاً للأمر لنفوذه فيه وعجزه عن الامتناع كما قال تعالى ﴿ ولله يسجد من في

السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ [الرعد : 15] ، فقد بان أن خلقهم للعبادة فقط ينافي خلقهم للاختلاف ، لأن جريهم في قضائه بالاختلاف عبادة وسجود لغة ، وذلك أن مادتي عبد وسجد تدوران على الخضوع والذل والانقياد ، وبذلك كان الكل عبيد الله ، أو الإشارة إلى مجمع الاتفاق والاختلاف ليظهر فضله على من ثبتهم ويظهر عدله فيمن خذلهم .

(6/387)

ولما كان هذا الاختلاف سبب الكفر الذي أرسل رسله بالقتال عليه ، كان ربما ظن أنه بغير مشيئته ، فبين أنه إنما هو بمراده ولا اعتراض عليه فقال : ﴿ وتمت ﴾ أي فبادروا إلى ما خلقهم لهم معرضين عن أوامره ولم تغن عنهم عقولهم ، وتمت حينئذ ﴿ كلمة ربك ﴾ أي المحسن إليك بقهر أعدائك التي سبقت في الأزل وهي وعزتي ﴿ لأملأن جهنم ﴾ أي التي تلقى المعذب فيها بالتجهم والعبوسة ﴿ من الجنة ﴾ أي قبيل الجن ، قدمهم لأنهم أصل في الشر ، ثم عم فقال : ﴿ والناس أجمعين ﴾ فمشوا على ما أراد ولم يمكنهم مع عقولهم الجيدة الاستعدد وقواهم الشداد غير إلقاء القياد ، فمن قال : إنه يخلق فعله أو له قدرة على شيء فليفعل غير ذلك بأن يخبر باتفاقهم ثم يفعله ليتم قوله .

وإلا فليعلم أنه مربوب مقهور فيسمع رسالات ربه إليه بقالبه وقلبه . انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 591.590 ﴾

(7/387)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

والمعتزلة يحملون هذه الآية على مشيئة الإلجاء والإجبار وقد سبق الكلام عليه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ والمراد افتراق الناس في الأديان والأخلاق والأفعال .

واعلم أنه لا سبيل إلى استقصاء مذاهب العالم في هذا الموضع ومن أراد ذلك فليطالع كتابنا الذي سميناه "بالرياض المونقة" إلا أنا نذكر ههنا تقسيماً جامعاً للمذاهب .

فنقول : الناس فريقان منهم من أقر بالعلوم الحسية كعلمنا بأن النار حارة والشمس مضيئة والعلوم البديهية كعلمنا بأن النفي والإثبات لا يجتمعان ، ومنهم من أنكرهما ، والمنكرون هم السفسطائية ، والمقرون هم الجمهور الأعظم من أهل العالم ، وهم فريقان : منهم من سلم أنه

يمكن تركيب تلك العلوم البديهية بحيث يستنتج منها نتائج علمية نظرية، ومنهم من أنكره، وهم الذين ينكرون أيضاً النظر إلى العلوم، وهم قليلون، والأولون هم الجمهور الأعظم من أهل العالم، وهم فريقان: منهم من لا يثبت لهذا العالم الجسماني مبدأ أصلاً وهم الأقلون، ومنهم من يثبت له مبدأ وهؤلاء فريقان: منهم من يقول: ذلك المبدأ موجب بالذات، وهم جمهور الفلاسفة في هذا الزمان، ومنهم من يقول: إنه فاعل مختار وهم أكثر أهل العالم، ثم هؤلاء فريقان: منهم من يقول: إنه ما أرسل رسولاً إلى العباد، ومنهم من يقول: إنه أرسل الرسول، فالأولون هم البراهمة.

(8/387)

والقسم الثاني أرباب الشرائع والأديان، وهم المسلمون والنصارى واليهود والمجوس، وفي كل واحد من هذه الطوائف اختلافات لا حدّ لها ولا حصر، والعقول مضطربة، والمطالب غامضة، ومنازعات الوهم والخيال غير منقطعة، ولما حسن من بقراط أن يقول في صناعة الطب العمر قصير، والصناعة طويلة، والقضاء عسر، والتجربة خطر، فلأن يحسن ذكره في هذه المطالب العالية والمباحث الغامضة، كان ذلك أولى.

فإن قيل: إنكم حملتم قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ على الاختلاف في الأديان،

فما الدليل عليه ، ولم لا يجوز أن يحمل على الاختلاف في الألوان والألسنة والأرزاق والأعمال .

قلنا : الدليل عليه أن ما قبل هذه الآية هو قوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ فيجب حمل هذا الاختلاف على ما يخرجهم من أن يكونوا أمة واحدة ، وما بعد هذه الآية هو قوله : ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ فيجب حمل هذا الاختلاف على معنى يصح أن يستثنى منه قوله : ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ وذلك ليس إلا ما قلنا .

ثم قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الهداية والإيمان لا تحصل إلا بتخليق الله تعالى ، وذلك لأن هذه الآية تدل على أن زوال الاختلاف في الدين لا يحصل إلا لمن خصه الله برحمته ، وتلك الرحمة ليست عبارة عن إعطاء القدرة والعقل ، وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وإزاحة العذر ، فإن كل ذلك حاصل في حق الكفار ، فلم يبق إلا أن يقال : تلك الرحمة هو أنه سبحانه خلق فيه تلك الهداية والمعرفة .

قال القاضي معناه : إلا من رحم ربك بأن يصير من أهل الجنة والثواب ، فيرحمه الله بالثواب ، ويحتمل إلا من رحمة الله بألطافه ، فصار مؤمناً بألطافه وتسهيله ، وهذان الجوابان في غاية الضعف .

أما الأول : فلأن قوله : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ يفيد أن ذلك الاختلاف إنما زال بسبب هذه الرحمة ، فوجب أن تكون هذه الرحمة جارية مجرى السبب المتقدم على زوال هذا الاختلاف ، والثواب شيء متأخر عن زوال هذا الاختلاف ، فالاختلاف جار مجرى المسبب له ، ومجرى المعلول ، فحمل هذه الرحمة على الثواب بعيد .

وأما الثاني : وهو حمل هذه الرحمة على الألطاف فنقول : جميع الألطاف التي فعلها في حق المؤمن فهي مفعولة أيضاً في حق الكافر ، وهذه الرحمة أمر مختص به المؤمن ، فوجب أن يكون شيئاً زائداً على تلك الألطاف ، وأيضاً فحصول تلك الألطاف هل يوجب رجحان وجود الإيمان على عدمه أو لا يوجبه ، فإن لم يوجبه كان وجود تلك الألطاف وعدمها بالنسبة إلى حصول هذا المقصود سيان ، فلم يك لطفاً فيه ، وإن أوجب الرجحان فقد بينا في "الكتب العقلية" أنه متى حصل الرجحان فقد وجب ، وحينئذ يكون حصول الإيمان من الله ، ومما يدل على أن حصول الإيمان لا يكون إلا بخلق الله ، أنه ما لم يتميز الإيمان عن الكفر ، والعلم عن الجهل ، امتنع القصد إلى تكوين الإيمان والعلم ، وإنما يحصل هذا الامتياز إذا علم كون أحد هذين الاعتقادين مطابقاً للمعتقد وكون الآخر ليس كذلك ، وإنما يصح حصول هذا العلم ، أن لو عرف أن ذلك المعتقد في نفسه كيف يكون ، وهذا يوجب أنه لا يصح من العبد القصد إلى تكوين العلم بالشيء إلا بعد أن كان عالماً ، وذلك

يقتضي تكوين الكائن وتحصيل الحاصل وهو محال فثبت أن زوال الاختلاف في الدين وحصول العلم والهداية لا يحصل إلا بخلق الله تعالى وهو المطلوب .

ثم قال تعالى : ﴿ ولذلك خَلَقَهُمْ ﴾ وفيه ثلاثة أقوال :

القول الأول : قال ابن عباس : وللرحمة خلقهم ، وهذا اختيار جمهور المعتزلة .

(10/387)

قالوا : ولا يجوز أن يقال : وللاختلاف خلقهم ، ويدل عليه وجوه : الأول : أن عود الضمير إلى أقرب المذكورين أولى من عوده إلى أبعدهما ، وأقرب المذكورين ههنا هو الرحمة ، والاختلاف أبعدهما .

والثاني : أنه تعالى لو خلقهم للاختلاف وأراد منهم ذلك الإيمان ، لكان لا يجوز أن يعذبهم عليه ، إذ كانوا مطيعين له بذلك الاختلاف .

الثالث : إذا فسرنا الآية بهذا المعنى ، كان مطابقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] .

فإن قيل : لو كان المراد وللرحمة خلقهم لقال : ولتلك خلقهم ولم يقل : ولذلك خلقهم .

قلنا : إن تأنيث الرحمة ليس تأنيثاً حقيقياً ، فكان محمولاً على الفضل والغفران كقوله :

﴿ هذا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ [الكهف : 98] وقوله : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ [الأعراف : 56] .

والقول الثاني : أن المراد وللاختلاف خلقهم .

والقول الثالث : وهو المختار أنه خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف .

روى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال : خلق الله أهل الرحمة لئلا يختلفوا ، وأهل العذاب لأن يختلفوا ، وخلق الجنة وخلق لها أهلاً ، وخلق النار وخلق لها أهلاً ، والذي يدل على صحة هذا التأويل وجوه : الأول : الدلائل القاطعة الدالة على أن العلم والجهل لا يمكن حصولهما في العبد إلا بتخليق الله تعالى .

الثاني : أن يقال : إنه تعالى لما حكم على البعض بكونهم مختلفين وعلى الآخرين بأنهم من أهل الرحمة وعلم ذلك امتنع انقلاب ذلك ، وإلا لزم انقلاب العلم جهلاً وهو محال .

الثالث : أنه تعالى قال بعده : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ وهذا تصريح بأنه تعالى خلق أقواماً للهداية والجنة ، وأقواماً آخرين للضلالة والنار ، وذلك يقوي هذا التأويل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 61.

63 ﴾

فائدة

قال محمد بن أبى بكر الرازى :

فإن قيل : قوله تعالى ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ إشارة إلى ماذا ؟

قلنا : هو إشارة إلى ما عليه الفريقان من حال الاختلاف والرحمة ، فمعناه أنه خلق أهل الاختلاف للاختلاف ، وأهل الرحمة للرحمة ، وقد فسره ابن عباس . رضى الله عنهما . فقال : خلقهم فريقين ، فريقا رحمهم فلم يختلفوا ، وفريقا لم يرحمهم فاختلفوا .

وقيل : هو إشارة إلى الاختلاف ، والضمير فى ﴿ خلقهم ﴾ للمختلفين ؛ واللام على الوجه الأول والثالث ، لام العاقبة والصيرورة لا لام كى ، وهى التى لام الغرض . والمقصود ؛ لأن الخلق للاختلاف فى الدين لا يليق بالحكمة .

ونظير هذه اللام قوله تعالى ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾

وقول الشاعر :

لدوا للموت وابنوا للخراب .

وقيل : إنها لام التمكين والإقدار كما فى قوله تعالى ﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾

والتمكين والإقدار حاصل وإن لم يكن بعض الناس فى الليل ، ولم يركب بعض هذه

الدواب .

ومعنى التمكين والإقدار هنا أنه سبحانه وتعالى أقدرهم على قبول حكم الاختلاف ، ومكنهم منه .

وقيل : اللام هنا بمعنى " على " كما فى قوله تعالى ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ وقوله تعالى ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الرازى صـ 219.218 ﴾

(12/387)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّك لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

قَالَ قَتَادَةُ : يَجْعَلُهُمْ مُسْلِمِينَ ، وَذَلِكَ بِالْإِلْجَاءِ إلَى الْإِيمَانِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْإِلْجَاءُ بِالْمَنْعِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ رَامُوا خِلَافَهُ مُنِعُوا مِنْهُ مَعَ الِاضْطِرَارِ إلَى حُسْنِهِ وَعِظَمِ الْمَنْفَعَةِ بِهِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَقَتَادَةُ ، وَالْأَعْمَشُ أَيْ مُخْتَلِفِينَ فِي الْأَدْيَانِ يَهُودِيٌّ وَنَصْرَانِيٌّ وَمَجُوسِيٌّ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ اخْتِلَافِ الْمَذَاهِبِ الْفَاسِدَةِ " .

وَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ : " فِي الْأَرْزَاقِ ، وَالْأَحْوَالِ مِنْ تَسْخِيرِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ " .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّك ﴾ إنَّمَا هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ الْمُخْتَلِفِينَ بِالْبَاطِلِ بِالْإِطْلَاقِ فِي

الْإِيمَانِ الْمُؤَدِّي إلَى الثَّوَابِ ، فَإِنَّهُ نَاجٍ مِنْ الِاخْتِلَافِ بِالْبَاطِلِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكِ : " خَلَقَهُمْ لِلرَّحْمَةِ " .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا ، وَالْحَسَنِ وَعَطَاءٍ : " خَلَقَهُمْ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِاخْتِلَافِهِمْ " وَهِيَ لَامُ الْعَاقِبَةِ ، قَالُوا : وَقَدْ تَكُونُ " اللَّامُ " بِمَعْنَى " عَلَى " كَقَوْلِك : أَكْرَمْتُك عَلَى بِرِّك وَلِبِرِّك بِي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(13/387)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّك لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّك وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّك لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ .

فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي مَعْنَى الْأُمَّةِ : وَقَدْ قَدَّمْنَا الْإِشَارَةَ إلَيْهَا ، وَجَمَعَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِيهَا نَيِّفًا وَثَلَاثِينَ مَعْنًى ، وَهِيَ هَاهُنَا بِمَعْنَى الْجَمَاعَةِ يَعْنِي جَمَاعَةً وَاحِدَةً عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ .

كَمَا يُقَالُ : كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً أَيْ : جَمَاعَةً عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: قَالَ قَتَادَةُ: مَعْنَاهُ لَوْ شَاءَ رَبُّك لَجَعَلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ مُسْلِمِينَ.

وَقِيلَ مَعْنَاهُ: لَجَعَلَهُمْ كُفَّارًا أَجْمَعِينَ.

وَهَذِهِ آيَةٌ لَا يُؤْمِنُ بِهَا إلَّا أَهْلُ السُّنَّةِ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ مَا قَامَ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ مِنْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، وَأَنَّ مَشِيئَتَهُ وَإِرَادَتَهُ تَتَعَلَّقُ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ.

وَالْأُولَى عِنْدِي أَنْ يَكُونَ الْمَعْنِيُّ هَاهُنَا بِالْآيَةِ الْمُسْلِمِينَ، تَقْدِيرُهَا: لَوْ شَاءَ رَبُّك لَجَعَلَ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ مُسْلِمِينَ، وَلَكِنَّهُ قَسَّمَهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ وَالْكُفْرِ بِحِكْمَتِهِ وَسَابِقِ عِلْمِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ قِيلَ: يَهُودِيٌّ وَنَصْرَانِيٌّ وَمَجُوسِيٌّ، وَهَذَا يَرْجِعُ إلَى الْأَدْيَانِ.

(14/387)

وَقَالَ الْحَسَنُ: يَعْنِي الِاخْتِلَافَ فِي الرِّزْقِ: غَنِيٌّ وَفَقِيرٌ.

وَهَذَا بَعِيدٌ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَإِنَّمَا جَاءَتْ الْآيَةُ لِبَيَانِ الْأَدْيَانِ وَالِاخْتِلَافِ فِيهَا، وَإِخْبَارِ اللَّهِ عَنْ حُكْمِهِ عَلَيْهَا، وَرَحْمَةِ مَنْ يَرْحَمُ مِنْهَا، فَرَجَعَ وَصْفُ الِاخْتِلَافِ فِي هَذَا التَّقْدِيرِ إلَى أَهْلِ الْبَاطِلِ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ، وَلَا إشْكَالَ فِي أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَدْخُلُ فِي هَذَا الْحُكْمِ؛ فَإِنَّ

النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ خَرِبٍ لَدَخَلْتُمُوهُ ﴾ .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ افْتَرَقَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ، إلَّا وَاحِدَةً.

قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ إلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّك ﴾ فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ: بِالْهِدَايَةِ إلَى الْحَنِيفِيَّةِ.

الثَّانِي: بِالْهِدَايَةِ إلَى الْحَقِّ.

الثَّالِثُ: بِالطَّاعَةِ.

الرَّابِعُ: إلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّك؛ فَإِنَّهُ لَا يَخْتَلِفُ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ.

وَكُلُّهَا اسْتِثْنَاءٌ مُتَّصِلٌ لَا انْقِطَاعَ فِيهِ لِانْتِظَامِ الْمَعْنَى مَعَهُ.

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ : فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: لِلِاخْتِلَافِ خَلَقَهُمْ.

الثَّانِي: لِلرَّحْمَةِ خَلَقَهُمْ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ خَلَقَهُمْ لِيَخْتَلِفُوا ، فَيَرْحَمُ مَنْ يَرْحَمُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يُعَذِّبُ ، كَمَا قَالَ : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ .

وَاعْجَبُوا مِمَّنْ يَسْمَعُ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ ، وَيَتَوَقَّفُ فِي مَعْرِفَةِ مَا يَكُونُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ لِلْفَسَادِ ، وَهَلْ يَكُونُ الْفَسَادُ وَسَفْكُ الدِّمَاءِ إِلَّا بِالِاخْتِلَافِ .

وَقَدْ قَالَ أَشْهَبُ : سَمِعْتُ مَالِكًا يَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ لِلِاخْتِلَافِ ، فَقَالَ لِي : لِيَكُونَ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ .

وَهَذَا قَوْلُ مَنْ فَهِمَ الْآيَةَ ، كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ حِينَ قَرَأَ : ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قَالَ : خَلَقَ أَهْلَ رَحْمَتِهِ ، لِئَلَّا يَخْتَلِفُوا .

وَنَحْوُهُ عَنْ طَاوُسٍ ، وَمَا اخْتَرْنَاهُ ، وَأَخْبَرْنَا بِهِ هُوَ الصَّحِيحُ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

أَلَا تَرَوْنَ إِلَى خَاتِمَةِ الْآيَةِ حِينَ قَالَ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ ، وَهِيَ : [الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ] .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ .

ثُمَّ أَخْبَرَ النَّبِيُّ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ أَكْثَرُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَقَالَ : ﴿ يَقُولُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِآدَمَ : ابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ .

(16/387)

قَالَ : وَمَا بَعْثُ النَّارِ ؟ قَالَ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ لِلنَّارِ وَوَاحِدٌ إلَى الْجَنَّةِ ﴾ ؛ فَلِهَذَا خَلَقَهُمْ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(17/387)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولو شاء ربُّك لجعل الناس أمّةً واحدةً ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : على ملة الإسلام وحدها ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : أهل دين واحد ، أهل ضلالة وأهل هدى ، قاله الضحاك .

﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رَحِمَ ربّك ﴾ فيه ستة أقاويل :

أحدها : مختلفين في الأديان إلا من رحم ربك من أهل الحق ، قاله مجاهد وعطاء .

الثاني : مختلفين في الحق والباطل إلا من رحم ربك من أهل الطاعة ، قاله ابن عباس .

الثالث : مختلفين في الرزق فهذا غني وهذا فقير إلا من رحم ربك من أهل القناعة . قاله الحسن .

الرابع : مختلفين بالشقاء والسعادة إلا من رحم ربك بالتوفيق .

الخامس : مختلفين في المغفرة والعذاب إلا من رحم ربك بالجنة .

السادس : أنه معنى مختلفين أي يخلف بعضهم بعضاً ، فيكون من يأتي خلفاً للماضي لأن سوءاً في كل منهم خلف بعضهم بعضاً ، فاقتتلوا ومنه قولهم : ما اختلف الجديدان ، أي جاء هذا بعد ذاك ، قاله ابن بحر .

﴿ ولذلك خلقهم ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : للاختلاف خلقهم ، قاله الحسن وعطاء .

الثاني : للرحمة خلقهم ، قاله مجاهد .

الثالث : للشقاء والسعادة خلقهم ، قاله ابن عباس .

الرابع : للجنة والنار خلقهم ، قاله منصور بن عبد الرحمن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

المعنى : لجعلهم أمة واحدة مؤمنة – قاله قتادة – حتى لا يقع منهم كفر ولا تنزل بهم مثلة ، ولكنه عز وجل لم يشأ ذلك ، فهم لا يزالون مختلفين في الأديان والآراء والملل – هذا تأويل الجمهور – قال الحسن وعطاء ومجاهد وغيرهم : المرحومون المستثنون هم المؤمنون ليس عندهم اختلاف . وقالت فرقة : ﴿ لا يزالون مختلفين ﴾ في السعادة والشقاوة ، وهذا قريب المعنى من الأول إذ هي ثمرة الأديان والاختلاف فيها ، ويكون الاختلاف – على هذا التأويل – يدخل فيه المؤمنون إذ هم مخالفون للكفرة ؛ وقال الحسن أيضاً : لا يزالون مختلفين في الغنى والفقر .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول بعيد معناه من معنى الآية ، ثم استثنى الله تعالى من الضمير في ﴿ يزالون ﴾ من رحمه من الناس بأن هداه إلى الإيمان ووفقه له .

وقوله : ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ اختلف فيه المتأولون ، فقالت فرقة : ولشهود اليوم المشهود – المتقدم ذكره – خلقهم ، وقالت فرقة : ذلك إشارة إلى قوله – قبل – ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ [هود : 105] أي لهذا خلقهم .

قال القاضي أبو محمد : وهذان المعنيان وإن صحا فهذا العود المتباعد ليس بجيد ؛ وروى

أشهب عن مالك أنه قال: ذلك إشارة إلى أن يكون فريق في الجنة وفريق في السعير.

قال القاضي أبو محمد: فجاءت الإشارة بذلك إلى الأمرين: الاختلاف والرحمة وقد قاله ابن عباس واختاره الطبري ويجيء - عليه - الضمير في ﴿ خلقهم ﴾ للصنفين وقال مجاهد وقتادة ذلك عائد على الرحمة التي تضمنها قوله: ﴿ إلا من رحم ﴾، أي وللرحمة خلق المرحومين، قال الحسن، وذلك إشارة إلى الاختلاف الذي في قوله: ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾.

(19/387)

قال القاضي أبو محمد: ويعترض هذا بأن يقال: كيف خلقهم للاختلاف؟ وهل معنى الاختلاف هو المقصود بخلقهم؟ فالوجه في الانفصال أن نقول: إن قاعدة الشرع أن الله عز وجل خلق خلقاً للسعادة وخلقاً للشقاوة، ثم يسر كلاًّ لما خلق له، وهذا نص في الحديث الصحيح وجعل بعد ذلك الاختلاف في الدين على الحق هو أمارة الشقاوة وبه علق العقاب، فيصح أن يحمل قوله هنا وللاختلاف خلقهم: أي لثمرة الاختلاف وما يكون عنه من الشقاوة. ويصح أن يجعل اللام في قوله: ﴿ ولذلك ﴾ لام الصيرورة أي وخلقهم ليصير أمرهم إلى ذلك، وإن لم يقصد بهم الاختلاف.

قال القاضي أبو محمد : ومعنى قوله ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : 56] أي لآمرهم بالعبادة ، وأوجبها عليهم ، فعبر عن ذلك بثمرة الأمر ومقتضاه .

وقوله ، ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ أي نفذ قضاؤه وحق أمره ، واللام في ﴿ لأملأن ﴾ لام قسم إذ " الكلمة " تتضمن القسم . و" الجن " جمع لا واحد له من لفظه وهو من أجن إذا ستر و" الهاء " في ﴿ بالجنة ﴾ للمبالغة . وإن كان الجن يقع على الواحد فالجنة جمعه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(20/387)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

قال سعيد بن جُبير : على ملّة الإسلام وحدها .

وقال الضّحاك : أهل دين واحد ، أهل ضلالة أو أهل هدى .

﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ أي على أديان شتى ؛ قاله مجاهد وقتادة .

﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ استثناء منقطع ؛ أي لكن من رحم ربك بالإيمان والهدى فإنه لم

يختلف .

وقيل : مختلفين في الرزق ، فهذا غنيّ وهذا فقير .

"إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ" بالقناعة ؛ قاله الحسن .

﴿ ولذلك خَلَقَهُمْ ﴾ قال الحسن ومقاتل وعطاء (ويمان) : الإشارة للاختلاف ؛ أي وللاختلاف خلقهم .

وقال ابن عباس ومجاهد وقَتَادة والضّحاك : ولرحمته خلقهم ؛ وإنما قال : "وَلِذَلِكَ" ولم يقل ولتلك ، والرحمة مؤنثة لأنه مصدر ؛ وأيضاً فإن تأنيث الرحمة غير حقيقي ، فحملت على معنى الفضل .

وقيل : الإشارة بذلك للاختلاف والرحمة ، وقد يشار ب "ذلك" إلى شيئين متضادين ؛ كقوله تعالى : ﴿ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذلك ﴾ [البقرة : 68] ولم يقل بين ذينك ولا تينك ، وقال : ﴿ والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [الفرقان : 67] وقال : ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وابتغ بَيْنَ ذلك سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 110] وكذلك قوله : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس : 58]

وهذا أحسن الأقوال إن شاء الله تعالى ؛ لأنه يعم ، أي ولما ذُكِر خَلَقهم ؛ وإلى هذا أشار مالك رحمه الله فيما روى عنه أشهب ؛ قال أشهب : سألت مالكاً عن هذه الآية قال : خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير ؛ أي خلَق أهل الاختلاف للاختلاف ، وأهل

الرحمة للرحمة.

وروي عن ابن عباس أيضاً قال: خَلَقهم فريقين، فريقاً يرحمه وفريقاً لا يرحمه.

(21/387)

قال المهدويّ: وفي الكلام على هذا التقدير تقديم وتأخير؛ المعنى: ولا يزالون مختلفين إلا من رحِم ربك، وتمت كلمة ربك لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين؛ ولذلك خلقهم.

وقيل: هو متعلق بقوله: ﴿ ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود: 103] والمعنى: ولشهود ذلك اليوم خلقهم.

وقيل: هو متعلق بقوله: "فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ" أي للسّعادة والشّقاوة خلقهم.

قوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ معنى "تمت" ثبت ذلك كما أخبر وقدّر في أزله؛ وتمام الكلمة امتناعها عن قبول التغيير والتبديل.

﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ "مِن" لبيان الجنس؛ أي من جنس الجِنة وجنس الناس.

"أجمعين" تأكيد؛ وكما أخبر أنه يملأ ناره كذلك أخبر على لسان نبيه (صلى الله عليه وسلم) أنه يملأ جنته بقوله: "ولكل واحدة منكما مِلؤها".

خرجه البخاريّ من حديث أبي هريرة وقد تقدّم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(22/387)

وقال الخازن:

قوله: ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾

يعني كلهم على دين واحد وشريعة واحدة ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ يعني على أديان شتى ما بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك ومسلم فكل أهل دين من هذه الأديان قد اختلفوا في دينهم أيضاً اختلافاً كثيراً لا ينضبط عن أبي هريرة: أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " تفرق اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين والنصارى مثل ذلك وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة " أخرجه أبو داود والترمذي بنحوه عن معاوية قال " قام فينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة " أخرجه أبو داود قال الخطابي: قوله (صلى الله عليه وسلم) " وستفترق أمتي " فيه دلالة على أن هذه الفرق غير خارجة من

الملة والدين إذ جعلهم من أمته وقال غيره المراد بهذه الفرق أهل البدع والأهواء الذين تفرقوا واختلفوا وظهروا بعده كالخوارج والقدرية والمعتزلة والرافضة وغيرهم من أهل البدع والأهواء والمراد بالواحدة هي فرقة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) في أقواله وأفعاله.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ يعني لكن من رحم ربك فمنّ عليه بالهداية والتوفيق إلى الحق، وهداه إلى الدين القويم والصراط المستقيم فهم لا يختلفون ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ قال الحسن وعطاء وللاختلاف خلقهم.

قال أشهب: سألت مالك بن أنس عن هذه الآية فقال خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: وللرحمة خلقهم يعني الذين يرحمهم.

(23/387)

وقال الفراء: خلق أهل الرحمة للرحمة وخلق أهل الاختلاف للاختلاف، وقيل: خلق الله أهل الرحمة للرحمة لئلا يختلفوا وخلق أهل العذاب لأن يختلفوا وخلق الجنة وخلق لها أهلاً وخلق النار وخلق لها أهلاً فحاصل الآية أن الله خلق أهل الباطل وجعلهم مختلفين، وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين فحكم على بعضهم بالاختلاف ومصيرهم إلى النار

وحكم على بعضهم بالرحمة وهم أهل الاتفاق ومصيرهم إلى الجنة ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله تبارك وتعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجميعن ﴾ وهذا صريح بأن الله سبحانه وتعالى خلق أقواماً للجنة وللرحمة فهداهم ووفقهم لأعمال أهل الجنة وخلق أقواماً للضلالة والنار فخذلهم ومنعهم من الهداية. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(24/387)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

قال الزمخشري : يعني لاضطرارهم إلى أن يكونوا أهل ملة واحدة وهي ملة الإسلام كقوله : ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ وهذا كلام يتضمن نفي الاضطرار ، وأنه لم يقهرهم على الاتفاق على دين الحق ، ولكنه مكنهم من الاختيار الذي هو أساس التكليف ، فاختار بعضهم الحق ، وبعضهم الباطل ، فاختلفوا ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك إلا ناساً هداهم الله ولطف بهم فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه انتهى.

وهو على طريقة الاعتزال.

وقال ابن عباس وقتادة : أمة واحدة مؤمنة حتى لا يقع منهم كفر ، لكنه تعالى لم يشأ ذلك .

وقال الضحاك : لو شاء لجعلهم على هدى أو ضلالة ، والظاهر أن قوله : ولا يزالون مختلفين ، هو من الاختلاف الذي هو ضد الاتفاق ، وأنّ المعنى في الحق والباطل قاله : ابن عباس ، وقال مجاهد : في الأديان ، وقال الحسن : في الأرزاق والأحوال من تسخير بعضهم لبعض ، وقال عكرمة : في الأهواء ، وقال ابن بحر : المراد أنْ بعضهم يخلف بعضاً ، فيكون الآتي خلفاً للماضي .

قال : ومنه قولهم : ما اختلف الجديدان ، أي خلف أحدهما صاحبه .

وإلاّ من رحم استثناء متصل من قوله : ولا يزالون مختلفين ، ولا ضرورة تدعو إلى أنه بمعنى لكن ، فيكون استثناء منقطعاً كما ذهب إليه الحوفي ، والإشارة بقوله : ولذلك خلقهم ، إلى المصدر المفهوم من قوله : مختلفين ، كما قال : إذا نهى السفيه جرى إليه .

فعاد الضمير إلى المصدر المفهوم من اسم الفاعل ، كأنه قيل : وللاختلاف خلقهم ، ويكون على حذف مضاف أي : لثمرة الاختلاف من الشقاوة والسعادة خلقهم .

ودل على هذا المحذوف أنه قد تقرر من قاعدة الشريعة أن الله تعالى خلق خلقاً للسعادة ، وخلقا للشقاوة ، ثم يسر كلا لما خلق له ، وهذا نص في الحديث الصحيح .

وهذه اللام في التحقيق هي لام الصيرورة في ذلك المحذوف ، أو تكون لام الصيرورة بغير ذلك المحذوف ، أي : خلقهم ليصير أمرهم إلى الاختلاف .

ولا يتعارض هذا مع قوله : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ لأنّ معنى هذا الأمر بالعبادة .

وقال مجاهد وقتادة : ذلك إشارة إلى الرحمة التي تضمنها قوله : إلا من رحم ربك ، والضمير في خلقهم عائد على المرحومين .

وقال ابن عباس ، واختاره الطبري : الإشارة بذلك إلى الاختلاف والرحمة معاً ، فيكون على هذا أشير بالمفرد إلى اثنين كقوله : ﴿ عوان بين ذلك ﴾ أي بين الفارض والبكر ، والضمير في خلقهم عائد على الصنفين : المستثني ، والمستثنى منه ، وليس في هذه الجملة ما يمكن أن يعود عليه الضمير إلا الاختلاف كما قال الحسن وعطاء ، أو الرحمة كما قال مجاهد ، وقتادة ، أو كلاهما كما قال ابن عباس .

وقد أبعد المتأولون في تقدير غير هذه الثلاث ، فروي أنه إشارة إلى ما بعده .

وفيه تقديم وتأخير أي : وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجِنة والناس أجمعين ، ولذلك خلقهم أي لملء جهنم منهم ، وهذا بعيد جداً من تراكيب كلام العرب .

وقيل : إشارة إلى شهود ذلك اليوم المشهود ، وقيل : إلى قوله : ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾

وقيل : إشارة إلى أن يكون فريق في الجنة وفريق في السعير ، وقيل : إشارة إلى قوله : ﴿ ينهون عن الفساد في الأرض ﴾ وقيل : إشارة إلى العبادة ، وقيل : إلى الجنة والنار ، وقيل : للسعادة والشقاوة .

وقال الزمخشري : ولذلك إشارة إلى ما دل عليه الكلام ، أولاً من التمكين والاختيار الذي عنه الاختلاف ، خلقهم ليثيب مختار الحق بحسن اختياره ، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره انتهى .

وهو على طريقة الاعتزال .

ولولا أن هذه الأقوال سطرت في كتب التفسير لضربت عن ذكرها صفحاً .

وتمت كلمة ربك أي : نفذ قضاؤه وحق أمره .

واللام في لأملأن ، هي التي يتلقى بها القسم ، أو الجملة قبلها ضمنت معنى القسم كقوله ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبين ﴾ ثم قال : ﴿ لتؤمنن به ﴾ والجنة والجن بمعنى واحد .

قال ابن عطية : والهاء فيه للمبالغة ، وإن كان الجن يقع على الواحد ، فالجنة جمعه انتهى .

فيكون مما يكون فيه الواحد بغير هاء ، وجمعه بالهاء لقول بعض العرب : كمء للواحد ،
وكمأة للجمع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(27/387)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

مجتمعةً على الحق ودين الإسلام بحيث لا يكاد يختلف فيه أحدٌ ولكن لم يشأ ذلك فلم
يكونوا متفقين على الحق ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ في الحق أي مخالفين له كقوله تعالى : ﴿
وَمَا اختلف فِيهِ إِلاَّ الذين أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ البينات بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ
رَبُّكَ ﴾ إلا قوماً قد هداهم الله تعالى بفضله إلى الحق فاتفقوا عليه ولم يختلفوا فيه أي لم
يخالفوه ، وحملُه على مطلق الاختلاف الشاملِ لما يصدر من المُحق والمُبطل يأباه الاستثناءُ
المذكور ﴿ ولذلك ﴾ أي ولما ذكر من الاختلاف ﴿ خَلَقَهُمْ ﴾ أي الذين بقُوا بعد الثنيا
وهو المختلِفون ، فاللامُ للعاقبة أو للترحم فالضميرُ لمن واللام في معناها أو لهما معاً فالضميرُ
للناس كافةً واللام بمعنى مجازيَ عامّ لكلا المعنيين ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبّكَ ﴾ أي وعيدُه أو

قوله للملائكة ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ أي من عُصاتهما أجمعين أو منهما أجمعين لا من أحدهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(28/387)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

مجتمعين على الدين الحق بحيث لا يقع من أحد منهم كفر لكنه لم يشأ سبحانه ذلك فلم يكونوا مجتمعين على الدين الحق ، ونظير ذلك قوله سبحانه : ﴿ ﴾ مجتمعين على الدين الحق بحيث لا يقع من أحد منهم كفر لكنه لم يشأ سبحانه ذلك فلم يكونوا مجتمعين على الدين الحق ، ونظير ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة : 13] وروي هذا عن ابن عباس .

وقتادة ، وروي عن الضحاك أن المراد لو شاء لجمعهم على هدى أو ضلالة ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل .

أخرج ذلك ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، ولعل المراد الاختلاف في الحق والباطل من العقائد التي هي أصول الدين بقرينة المقام ، وقيل : المراد ما يشمل الاختلاف في العقائد

والفروع وغيرهما من أمور الدين لعدم ما يدل على الخصوص في النظم فالاستثناء

في قوله سبحانه :

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ متصل على الأول وهو الذي اختاره أبو حيان .

وجماعة ، وعلى الثاني منقطع حيث لم يخرج من رحمه الله تعالى من المختلفين كأئمة أهل الحق فانهم أيضاً مختلفون فيما سوى أصول الدين من الفروع ، وإلى هذا ذهب الحوفي ومن تبعه .

﴿ ولذلك خَلَقَهُمْ ﴾ أي الناس ، والإشارة كما روي عن الحسن .

وعطاء إلى المصدر المفهوم من ﴿ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود : 118] ونظيره .

إذا نهى السفيه جري إليه . . .

(29/387)

كأنه قيل : ولاختلاف خلق الناس على معنى لثمرة الاختلاف من كون فَرِيقٌ فِى الجنة وَفَرِيقٌ فِى السعير خلقهم ، واللام لام العاقبة والصيرورة لأن حكمة خلقهم ليس هذا لقوله سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] ولأنه لو خلقهم له لم يعذبهم على ارتكاب الباطل كذا قال غير واحد ، وروي عن الإمام مالك ما يقتضيه ،

وعندي أنه لا ضير في الحمل على الظاهر ولا منافاة بين هذه الآية والآية التي ذكروها لما ستعلمه إن شاء الله تعالى من تفسيرها في الذاريات ، وما يروى فيها من الآثار وأن الخلق من توابع الإرادة التابعة للعلم التابع للمعلوم في نفسه والتعذيب أو الإثابة ليس إلا لأمر أفيض على المعذب والمثاب بحسب الاستعداد الأصلي ، وربما يرجع هذا بالآخرة إلى أن التعذيب والإثابة من توابع ذلك الاستعداد الذي عليه المعذب أو المثاب في نفسه ، ومن هنا قالوا : إن المعصية والطاعة أمارتان على الشقاوة والسعادة لا مقتضيتان لهما ، وبذلك يندفع قولهم : ولأنه لو خلقهم له لم يعذبهم ، ولما قررناه شواهد كثيرة من الكاتب والسنة تخفى على المستعدين لإدراك الحقائق ، وقيل : ضمير ﴿ خَلَقَهُمْ ﴾ لمن باعتبار معناه ، والإشارة للرحمة المفهومة من ﴿ رَّحِمَ ﴾ ، والتذكير لتأويلها بأن والفعل أو لكونها بمعنى الخير ، وروي ذلك عن مجاهد .

وقتادة ، وروي عن ابن عباس أن الضمير للناس والإشارة للرحمة والاختلاف أي لاختلاف الجميع ورحمة بعضهم ﴿ خَلَقَهُمْ ﴾ ، وجاءت الإشارة لاثنين كما في قوله تعالى : ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذلك ﴾ [البقرة : 68] واللام على هذا قيل : بمعنى مجازي عام للمعنى الظاهر

والصيرورة وعلى ما قبله على معناها ، وأظهر الأقوال في الإشارة والضمير ما قدمناه ، والقولان الآخران دونه ، وأما القول بأن الاشارة لما بعد ، وفي الكلام تقديم وتأخير أي وتمت كلمة ربك لأملان جهنم الخ ولذلك أي لملء جهنم خلقهم فبعيد جداً من تراكيب كلام العرب ومن هذا الطرز ما قيل : إن ذلك إشارة إلى شهود ذلك اليوم المشهود وكذا ما قيل : إنه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : 105] أو إلى الشقاوة والسعادة المفهومتين من ذلك .

أو إلى أن يكون فريق في الجنة وفريق في السعير .

أو إلى النهي المفهوم من قوله سبحانه :

﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ الفساد فِى الأرض ﴾ [هود : 116] .

أو إلى الجنة والنار .

أو إلى العبادة إلى غير ذلك من الأقوال التي يتعجب منها .

وذهب بعض المحققين في معنى الآية إلى أن المراد من الوحدة الوحدة في الدين الحق ، ومن الاختلاف الاختلاف فيه على معنى المخالفة له كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا اختلف فِيهِ إِلاَّ الذين أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ البينات بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ [البقرة : 213] والمراد بمن رحم الذين هداهم الله تعالى ولم يخالفوا الحق ، والاشارة للاختلاف بمعنى المخالفة ، وضمير ﴿ خَلْقَهُمْ ﴾ للذين بقوا بعد الثنيا وهم المختلفون المخالفون ، واللام للعاقبة كونه قيل : ولو

شاء ربك لجعل الناس على الحق ودين الإسلام لكنه لم يشأ فلم يجعل ، ولا يزالون مخالفين للحق إلا قوماً هداهم سبحانه بفضله فلم يخالفوا الحق ، ولما ذكر من الاختلاف خلق المختلفين املخالفين ولا يخفى ما فيه من ارتكاب خلاف الظاهر وان أخرج ابن جرير .

(31/387)

وأبو الشيخ عن مجاهد ما يقتصي بعضه .

ومن الغريب ما روي عن الحسن أن المراد من الاختلاف الاختلاف في الأرزاق والأحوال وتسخير بعضهم بعضاً ، وقال ابن بحر : المراد أن بعضهم يخلف بعضاً فيكون الآتي خلفاً للماضي ، ومنه ما اختلف الجديدان أي ما خلف أحدهما صاحبه ، وإلى هذا ذهب أبو مسلم إلا أنه قال : يخلف بعضهم بعضاً في الكفر تقليداً ، وفي ذلك ما فيه ، وأياً مّا كان فالظاهر من الناس العموم وليتأمل هذه الآية مع قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [يونس : 19] وليراجع تفسير ذلك .

وقال الفاضل الجلبي : ليس في هذه الآية ما يدل على عموم الناس حتى تخالف ﴿ وَمَا كَانَ النَّاس ﴾ الخ ، وفيه نظر ، والجار والمجرور أعني لذلك متعلق بخلق بعده ، والظاهر أن الحصر المستفاد من التقديم إذا قلنا : إن التقديم له إضافي والمضاف هو إليه مختلف حسب

اختلاف الأقوال في تعيين المشار إليه ، وهو على الأول الاتفاق .

وعلى ما عداه يظهر أيضاً بأدنى التفات ، هذا واستدل بالآية على أن الأمر غير الإرادة وأنه تعالى لم يرد الإيمان من كل وإن ما أراده سبحانه يجب وقوعه .

(32/387)

وذكر بعض العارفين أن منشأ تشييب سورة هود له صلى الله عليه وسلم اشتمالها على أمره عليه الصلاة والسلام بالاستقامة على الدعوة مع إخباره أنه سبحانه إنما خلق الناس للاختلاف وأنه لا يشاء اجتماعهم على الدين الحق وهو كما ترى ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ أي نفذ قضاؤه وحق أمره ، وقد تفسر الكلمة بالوعيد مجازاً وقد يراد منها الكلام الملقى على الملائكة عليهم السلام ؛ والأول أولى ، والجملة متضمنة معنى القسم ، ولذا جيء باللام في قوله سبحانه : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ والجنة والجن بمعنى واحد ؛ وفي تفسير ابن عطية أن الهاء في الجنة للمبالغة وإن كان الجن يقع على الواحد ، فالجنة جمعه انتهى ، فيكون من الجموع التي يفرق بينها بين مفردها بالهاء ككمء وكمأة على ما ذكرناه في تعليقاتنا على الألفية ، وفي الآية سؤال مشهور وهو أنها تقتي بظاهرها دخول جميع الفريقين في جهنم والمعلوم من الآيات والأخبار خلافه ، وأجاب عن ذلك القاضي بما

حاصله أن المراد بالجنة والناس إما عصاتهما على أن التعريف للعهد والقرينة عقلية لما علم من الشرع أن العذاب مخصوص بهم وأن الوعيد ليس إلا لهم، وفي معنى ذلك ما قيل: المراد بالجنة والناس أتباع إبليس لقوله سبحانه في الأعراف.

(33/387)

[ص: 58] ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فاللازم دخول جميع تابعيه في جهنم ولا محذور فيه، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، ولا حاجة إلى تقدير عصاة مضافاً إلى الفريقين كما قيل فأجمعين لاستغراق الأفراد المرادة حسبما علمت، وأما ما يتبادر منهما ويراد من التأكيد بيان أن ملء جهنم من الصنفين لا من أحدهما فقط وهذا لا يقتضي شمول أفراد كلا الفريقين ويكون الداخلوها منهما مسكوتاً عنه موكولاً إلى شيء آخر، واعترض الأخير بأنه مبني على وقوع ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ تأكيداً للمثنى وهو خلاف ما صرحوا به، وفيه أن ذلك إذا كان لمثنى حقيقي لا إذا كان كل فرد منه جمعاً فإنه حينئذ تأكيد للجمع في الحقيقة فلا ورود لما ذكر.

نعم يرد على الشق الأول أن التأكيد يقتضي دخول جميع العصاة في النار والمعلوم من النصوص خلافه اللهم إلا أن يقال: المراد العصاة الذين قدر الله تعالى أن يدخلوها، وأجاب

بعضهم بأن ذلك لا يقتضي دخول الكل بل قدر ما يملأ جهنم كما إذا قيل : ملأت الكيس من الدراهم ولا يقتضي دخول جميع الدراهم في الكيس ، ورده الجلال الدواني بأنه نظير أن يقال : ملأت الكيس من جميع الدراهم وهو بظاهره يقتضي دخول جميع الدراهم فيه ، والسؤال عليه كما في الآية باق بحاله ، ثم قال : والحق في الجواب أن يقال : المراد بلفظ ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ تعميم الأصناف ، وذلك لا يقتضي دخول جميع الأفراد كما إذا قلت : ملأت الجراب من جميع أصناف الطعام لا يقتضي ذلك إلا أن يكون فيه شيء من كل صنف من الأصناف لا أن يكون فيه جميع أفراد الطعام ، وكقولك : امتلأ المجلس من جميع أصناف الناس فإنه لا يقتضي أن يكون في المجلس جميع أفراد الناس بل أن يكون فيه من كل صنف فرد وهو ظاهر ، وعلى هذا يظهر فائدة لفظ ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ إذ فيه رد على اليهود .

(34/387)

وغيرهم ممن زعم أنهم لا يدخلون النار انتهى ، وتعقبه ابن الصدر بقوله : فيه بحث لأنهم صرحوا بأن فائدة التأكيد بكل .

وأجمعين دفع توهم عدم الشمول والإحاطة بجميع الافراد ، وما ذكره من المثالين فإنما نشأ شمول الأصناف فيه من إضافة لفظ الجميع إلى الأصناف كيف ولو قيل : ملأت الجراب من

جميع الطعام باسقاط لفظ الأصناف كان الكلام فه كالكلام فيما نحن فيه ، وأيضاً ما ذكره من أن في ذلك رداً على اليهود الخ غير صحيح لأن اليهود قالوا ﴿ لَن تَمَسَّنَا النار إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة : 80] فكيف يزعمون أنهم لا يدخلونها أصلاً فتدبر ذاك والله سبحانه يتولى هداك .

وأجاب بعضهم بمنزع صوفي وهو أن المراد من ﴿ الجنة والناس ﴾ الذين بقوا في مرتبة الجنية والانسية حيث انغمسوا في ظلمات الطبيعة وانتكبوا في مقر الإجرام العنصرية ولم يرفعوا إلى العالم الأعلى واطمأنوا بالحياة الدنيا ورضوا بها وانسلخوا عن عالم المجردات وهم المشركون الذين قيل في حقهم : ﴿ إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام ﴾ [التوبة : 28] الخ فانهم لا يستأهلون دار الله تعالى وقربه ، ثم قال : ولهذا ترى الله تعالى شأنه يذم الإنسان ويدعو عليه في غير ما موضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(35/387)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾

أَيْ : وَلَا تَسْتَنِدُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ قَوْمِكُمُ الْمُشْرِكِينَ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَتَجْعَلُوهُمْ رُكْنًا لَكُمْ تَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِمْ فَتُقِرُّونَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَتُوَالُونَهُمْ فِي سِيَاسَتِكُمُ الْحَرْبِيَّةِ أَوْ أَعْمَالِكُمُ الْمِلِّيَّةِ ، فَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، فَالرُّكُونُ مِنْ رُكْنِ الْبِنَاءِ وَهُوَ الْجَانِبُ الْقَوِيُّ مِنْهُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - حِكَايَةً عَنْ لُوطٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : - لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ - 11 : 80 وَالسَّنَدُ بِمَعْنَى الرُّكْنِ ، وَقَدِ اشْتُقَّ مِنْهُ : سَنَدَ إِلَى الشَّيْءِ (كَرَكَنَ إِلَيْهِ) وَاسْتَنَدَ إِلَيْهِ ، وَفَسَّرَهُ الْفَيْرُوزَابَادِيُّ فِي قَامُوسِهِ بِالتَّبَعِ لِلْجَوْهَرِيِّ بِالْمَيْلِ إِلَى الشَّيْءِ وَالسُّكُونِ لَهُ ، وَهُوَ تَفْسِيرٌ بِالْأَعَمِّ كَعَادَتِهِمْ ، وَفَسَّرَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ بِالْمَيْلِ الْيَسِيرِ ، وَتَبِعَهُ الْبَيْضَاوِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ الَّذِينَ يَعْتَدُّونَ عَلَيْهِ فِي تَحْرِيرِهِ لِلْمَعَانِي اللُّغَوِيَّةِ لِدِقَّةِ فَهْمِهِ وَذَوْقِهِ وَحُسْنِ تَعْبِيرِهِ ، وَإِنَّهُ لَكَذَلِكَ ، وَقَلَّمَا يُخْطِئُ فِي اللُّغَةِ إِلَّا مُتَحَرِّفًا إِلَى شُيُوخِ الْمَذْهَبِ (الْمُعْتَزِلَةِ) أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةِ رُوَاةِ الْمَأْثُورِ مِنَ

الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَوْ نَقَلَةِ اللُّغَةِ ، وَشُيُوخُ الْمَذْهَبِ يُخْطِئُونَ فِي الِاجْتِهَادِ ، وَفِئَةُ الرِّوَايَاتِ تُخْطِئُ فِي اعْتِمَادِ الْأَسَانِيدِ الضَّعِيفَةِ وَالْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، وَرُوَاةُ اللُّغَةِ يُفَسِّرُونَ اللَّفْظَ أَحْيَانًا بِمَا هُوَ أَعَمُّ مِنْهُ أَوْ بِلَازِمِهِ أَوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ قَرَائِنِ الْمَجَازِ فِي بَعْضِ كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَلَا يَعْنُونَ أَنَّ

ذَلِكَ هُوَ حَدُّ اللَّفْظِ الْمُعَرِّفِ بِحَقِيقَتِهِ ، وَقَدْ فَسَّرَ " الرُّكُونَ " بَعْضُهُمْ بِالْمَيْلِ وَالسُّكُونِ إِلَى الشَّيْءِ وَهُوَ مِنْ تَسَاهُلِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمْ قَدْ ذَكَرُوا فِي مَادَّتِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا التَّسَاهُلِ وَيُؤَيِّدُ مَا حَقَّقْنَاهُ . قَالَ فِي الْقَامُوسِ الْمُحِيطِ تَبَعًا لِلصِّحَاحِ : رَكَنَ إِلَيْهِ كَنَصَرَ رُكُونًا : مَالَ وَسَكَنَ ، وَالرُّكْنُ بِالضَّمِّ الْجَانِبُ الْأَقْوَى (زَادَ الْجَوْهَرِيُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) وَالْأَمْرُ الْعَظِيمُ وَالْعِزُّ وَالْمَنَعَةُ اهـ . وَمِثْلُهُ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَذَكَرَ الْآيَةَ ، وَأَنَّ الرُّكُونَ فِيهَا مِنْ مَالَ إِلَى الشَّيْءِ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ ، وَالِاطْمِئْنَانُ أَقْوَى مِنَ السُّكُونِ ، وَفَسَّرَهُ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ بِالِاعْتِمَادِ عَلَى الشَّيْءِ وَهُوَ أَقْوَى مِنَ الِاطْمِئْنَانِ ، وَالْمَعَانِي الْأَرْبَعَةُ : أَيِ الْمَيْلُ وَالسُّكُونُ وَالِاطْمِئْنَانُ وَالِاعْتِمَادُ مِنْ لَوَازِمِ مَعْنَى الرُّكُونِ وَلَا تُحِيطُ بِحَقِيقَتِهِ ، وَأَقْوَاهَا آخِرُهَا . قَالَ فِي اللِّسَانِ كَغَيْرِهِ : وَرُكْنُ الشَّيْءِ جَانِبُهُ الْأَقْوَى ، وَالرُّكْنُ النَّاحِيَةُ الْقَوِيَّةُ وَمَا تَقَوَّى بِهِ مِنْ مُلْكٍ وَجُنْدٍ وَغَيْرِهِ ، وَبِهِ فُسِّرَ قَوْلُهُ - تَعَالَى -

(37/387)

: - فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ - 51 : 39 وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ : تَعَالَى : - فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ - 28 : 40 أَيْ أَخَذْنَاهُ وَرُكْنَهُ الَّذِي تَوَلَّى بِهِ إِلَى آخِرِ مَا قَالَ ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى مَا حَقَّقْنَاهُ فِي مَعْنَى الرُّكُونِ الْحَقِيقِيِّ ، وَإِنَّمَا عَنِيتُ بِتَحْقِيقِهِ لِمَا جَاءُوا فِي تَفْسِيرِهِ وَتَفْسِيرِ الظُّلْمِ الْمُطْلَقِ

الْمُعَاقَبِ عَلَيْهِ مِنَ التَّشْدِيدِ الَّذِي لَا تَرْضَاهُ الْآيَةُ، كَمَا فَعَلُوا فِي تَفْسِيرِ الِاسْتِقَامَةِ إِذَا تَجَاوَزُوا بِهِمَا سَمَاحَةَ دِينِ الْفِطْرَةِ، وَيُسْرَ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - جَعَلَ دِينَهُ يُسْرًا لَا عُسْرَ فِيهِ، وَسَمْحًا لَا حَرَجَ عَلَى مُتَّبِعِيهِ.

فَسَّرَ الزَّمَخْشَرِيُّ " الَّذِينَ ظَلَمُوا " بِقَوْلِهِ: أَيْ: إِلَى الَّذِينَ وُجِدَ مِنْهُمُ الظُّلْمُ، وَلَمْ يَقُلْ إِلَى الظَّالِمِينَ، وَحَكَى أَنَّ الْمُوَفَّقَ صَلَّى خَلْفَ الْإِمَامِ فَقَرَأَ بِهَذِهِ الْآيَةِ فَغُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ قِيلَ لَهُ،

فَقَالَ: هَذَا فِيمَنْ رَكَنَ إِلَى ظُلْمٍ فَكَيْفَ بِالظَّالِمِ؟ اهـ.

وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْوَعِيدَ فِي الْآيَةِ يَشْمَلُ مَنْ مَالَ مَيْلًا يَسِيرًا إِلَى مَنْ وَقَعَ مِنْهُ ظُلْمٌ قَلِيلٌ أَيَّ ظُلْمٍ كَانَ، وَهَذَا غَلَطٌ أَيْضًا، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِالَّذِينَ ظَلَمُوا فِي الْآيَةِ فَرِيقُ الظَّالِمِينَ مِنْ أَعْدَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُؤْذُونَهُمْ وَيَفْتِنُونَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِيَرُدُّوهُمْ عَنْهُ، فَهُمْ "كَالَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْآيَاتِ"

الْكَثِيرَةِ الَّتِي يُرَادُ بِهَا فَرِيقُ الْكَافِرِينَ ، لَا كُلُّ فَرْدٍ مِنَ النَّاسِ وَقَعَ مِنْهُ كُفْرٌ فِي الْمَاضِي وَحَسْبُكَ مِنْهَا قَوْلُهُ - تَعَالَى - : - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ - 2 : 6 وَالْمُخَاطَبُونَ بِالنَّهْيِ هُمُ الْمُخَاطَبُونَ بِالْآيَةِ السَّابِقَةِ بِقَوْلِهِ : - فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ - وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِـ الَّذِينَ ظَلَمُوا كَمَا عَبَّرَ عَنْ أَقْوَامِ الرُّسُلِ الْأَوَّلِينَ فِي قَصَصِهِمْ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ فِي الْآيَاتِ (37 و 67 و 94) وَعَبَّرَ عَنْهُمْ فِيهَا بِـ الظَّالِمِينَ أَيْضًا كَقَوْلِهِ : - وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ - 44 فَلَا فَرْقَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بَيْنَ التَّعْبِيرِ بِالْوَصْفِ وَالتَّعْبِيرِ بِـ " الَّذِينَ " وَصِلَتِهِ ، فَإِنَّهُمَا فِي الْكَلَامِ عَنِ الْأَقْوَامِ بِمَعْنًى وَاحِدٍ .

(39/387)

فَقَوْلُهُ - تَعَالَى - : - فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ - مَعْنَاهُ : فَتُصِيبُكُمُ النَّارُ الَّتِي هِيَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ، بِسَبَبِ رُكُونِكُمْ إِلَيْهِمْ بِوِلَايَتِهِمْ وَالِاعْتِزَازِ بِهِمْ وَالِاعْتِمَادِ عَلَيْهِمْ فِي شُئُونِكُمُ الْمِلِّيَّةِ ، لِأَنَّ الرُّكُونَ إِلَى الظُّلْمِ وَأَهْلِهِ ظُلْمٌ ، - وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ - 5 : 51 رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ فَسَّرَ الظُّلْمَ هُنَا بِالشِّرْكِ ، وَالَّذِينَ ظَلَمُوا بِالْمُشْرِكِينَ ، إِذِ السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ ، وَلَمْ يَكُ فِي مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا غَيْرُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَظَلَمُوا الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَعْنَى الْآيَةِ عَامٌّ فِي مَوْضُوعِهَا ، فَوِلَايَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ كَوِلَايَةِ الْمُشْرِكِينَ لَا خِلَافَ فِي هَذَا وَهُوَ مَنْصُوصٌ، وَلَكِنْ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ، فَيَشْمَلُ ظُلْمَ الْمُسْلِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ فِي أَحْكَامِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، وَسَيَأْتِي بَيَانُهُ بَعْدَ تَمَامِ تَفْسِيرِهَا الَّذِي نَفْهَمُهُ مِنْ مَدْلُولِ أَلْفَاظِهَا وَسِيَاقِهَا وَحَالِ الْمُخَاطَبِينَ بِهَا مَعَ الظَّالِمِينَ لَهُمْ فِي عَصْرِهِمْ، وَيَدُلُّ عَلَى مَا حَقَّقْنَاهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى -:

- وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ - أَيْ: وَمَا لَكُمْ فِي هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي تَرْكَنُونَ إِلَيْهِمْ فِيهَا غَيْرُ اللهِ مِنْ أَنْصَارٍ يَتَوَلَّوْنَكُمْ: - ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ - بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ وَلَا بِنَصْرِ اللهِ - تَعَالَى - فَإِنَّ الَّذِينَ يَرْكَنُونَ إِلَى الظَّالِمِينَ يَكُونُونَ مِنْهُمْ، وَهُوَ لَا يَنْصُرُ الظَّالِمِينَ كَمَا قَالَ: - وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ - بَلْ تَكُونُ غَايَتُكُمُ الْحِرْمَانَ مِمَّا وَعَدَ اللهُ رُسُلَهُ وَمَنْ يَنْصُرُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَصْرِهِ الْخَاصِّ، فَالتَّعْبِيرُ بِـ ثُمَّ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْغَايَةِ وَالْعَاقِبَةِ الْمُقَدَّرَةِ لَهُمْ إِنْ رَكَنُوا إِلَى أَعْدَائِهِ

وَأَعْدَائِهِمُ الظَّالِمِينَ. وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ

وَمَنْ تَبِعَهُ: إِنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى اسْتِبْعَادِ نَصْرِهِمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ؛ لِأَنَّ حِكْمَةَ اللهِ اقْتَضَتْ عِقَابَهُمْ بِالنَّارِ، وَمَا قُلْتُهُ أَقْرَبُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَفِي مَعْنَى الْآيَةِ مَا وَرَدَ مِنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ فِي النَّهْيِ عَنْ وِلَايَةِ الْكُفَّارِ وَاتِّخَاذِ وَلِيجَةٍ مِنْ دُونِ اللهِ وَرَسُولِهِ مِنْهُمْ، وَعَنِ اتِّخَاذِ الْمُؤْمِنِينَ بِطَانَةً مِنْ دُونِهِمْ، وَقَدِ اتَّخَذَ الْمُشْرِكُونَ وَسَائِلَ كَثِيرَةً لِاسْتِمَالَةِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى الرُّكُونِ إِلَيْهِمْ، فَعَصَمَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ كَادَ يُرَجِّحُ لَهُ اجْتِهَادُهُ أَنَّ فِي بَعْضِ ذَلِكَ مَصْلَحَةً وَاسْتِمَالَةً لَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: - وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا - 17 : 74 و75 يَعْنِي لَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ بِالْعِصْمَةِ لَقَارَبْتَ أَنْ تَرْكَنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا مِنَ الرُّكُونِ، كَأَنْ تُصَدِّقَهُمْ أَنَّهُمْ أَهْلٌ لِأَنْ يُعْتَمَدَ عَلَيْهِمْ بَعْضَ الِاعْتِمَادِ، إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَيْهِمْ وَأَعْرَضْتَ عَنْ فُقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ لِاسْتِمَالَتِهِمْ، كَمَا فَعَلْتَ مَعَ الْأَعْمَى، وَلَكِنَّ تَثْبِيتَنَا إِيَّاكَ عَصَمَكَ مِنْ مُقَارَبَةِ أَقَلِّ الرُّكُونِ إِلَيْهِمْ، فَضْلًا عَنْ مُقَارَفَةِ هَذَا الْأَقَلِّ، فَالْآيَةُ الْأُولَى نَصٌّ فِي أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا رَكَنَ أَقَلَّ الرُّكُونِ وَلَا قَارَبَ أَنْ يَرْكَنَ، وَالْآيَةُ الثَّانِيَةُ نَصٌّ فِي أَنَّهُ لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ (فَرْضًا) لَعَاقَبَهُ اللهُ عِقَابًا فِي الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ مَعًا، وَهَذِهِ مُبَالَغَةٌ فِي الزَّجْرِ وَالْوَعِيدِ لِغَيْرِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى

الرُّكُونِ إِلَيْهِمْ لَا تَصِلُ بَلَاغَةُ الْكَلَامِ الْبَشَرِيِّ إِلَى مَبَادِئِهَا ، فَضْلًا عَنْ أَوْسَاطِهَا أَوْ غَايَاتِهَا .

وَلَوْ كَانَ مَعْنَى الرُّكُونِ فِي اللُّغَةِ الْمَيْلَ الْيَسِيرَ مَهْمَا يَكُنْ نَوْعُهُ كَمَا زَعَمَ الزَّمَخْشَرِيُّ وَمُقَلِّدُوهُ ، لَكَانَ هَذَا الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ عَلَى قَلِيلٍ مِنْهُ عَلَى قِلَّتِهِ فِي نَفْسِهِ مِمَّا لَا يُمْكِنُ أَنْ تُرَادَ بِهِ حَقِيقَتُهُ ; لِأَنَّهُ أَشَدُّ الْوَعِيدِ عَلَى مَا لَا يَسْتَطِيعُ بَشَرٌ اتِّقَاءَهُ إِلَّا بِعِصْمَةٍ خَاصَّةٍ مِنَ اللَّهِ - تَعَالَى - كَمَا سَتَرَى فِي تَفْسِيرِهِمْ لَهُ ، أَمَا وَالْحَقُّ مَا قُلْنَاهُ ، وَهُوَ أَنَّ الرُّكُونَ إِلَى الشَّخْصِ أَوِ الشَّيْءِ هُوَ الِاعْتِمَادُ عَلَيْهِ وَالِاسْتِنَادُ إِلَيْهِ وَجَعْلُهُ رُكْنًا شَدِيدًا لِلرَّاكِنِ ، فَأَجْدَرُ بِقَلِيلِهِ أَنْ يَتَعَذَّرَ اجْتِنَابُهُ عَلَى أَكْمَلِ الْبَشَرِ إِلَّا بِالْعِصْمَةِ وَالتَّثْبِيتِ الْخَاصِّ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَكَيْفَ يَنْهَى جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْمَيْلِ الْيَسِيرِ إِلَى مَنْ وَقَعَ مِنْهُ أَيُّ نَوْعٍ مِنَ الظُّلْمِ ؟

لَمْ يَكُنْ مَيْلُ النَّفْسِ الطَّبْعِيُّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَوْلَادِهِمْ وَأَرْحَامِهِمُ الْمُشْرِكِينَ الظَّالِمِينَ وَلَا الْبِرُّ بِهِمْ وَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ مَحْظُورًا عَلَيْهِمْ ; لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الرُّكُونِ إِلَيْهِمُ الْخَاصِّ بِالْوِلَايَةِ لَهُمْ وَالِاعْتِمَادِ عَلَيْهِمْ وَهُوَ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ ، وَلَا مِنَ الْمَيْلِ إِلَيْهِمْ لِأَجْلِ الظُّلْمِ . وَلَمَّا فَعَلَ

حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - فَعْلَتَهُ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَى الْوِلَايَةِ الْحَرْبِيَّةِ مِنْهَا إِلَى صِلَةِ الرَّحِمِ كَمَا تَأَوَّلَهَا ، أَنْزَلَ اللهُ - تَعَالَى - سُورَةَ الْمُمْتَحِنَةِ الَّتِي نَهَى فِيهَا عَنْ وِلَايَةِ الْمُشْرِكِينَ الظَّالِمِينَ الْمُقَاتِلِينَ فِي الدِّينِ وَالْمَوَدَّةِ فِيهَا وَقَالَ : - وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ - 60 : 9 وَأَذِنَ بِالْبِرِّ وَالْقِسْطِ لِغَيْرِهِمْ مِنْهُمْ ، وَلَا تَنْسَ

مَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ نُزُولِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : - إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ - 28 : 56 فِي حِرْصِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى إِسْلَامِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي كَفَلَهُ فِي صِغَرِهِ ، وَكَانَ يَحْمِيهِ وَيُنَاضِلُ عَنْهُ فِي نُبُوَّتِهِ ، وَاذْكُرْ قَوْلَ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - لَهُ فِي حَدِيثِ بَدْءِ الْوَحْيِ : "كَلَّا وَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ " إِلَخْ .

بَلْ لَمْ تَكُنِ الثِّقَةُ بِبَعْضِ الْمُشْرِكِينَ وَالِاعْتِمَادُ عَلَيْهِمْ فِي أَهَمِّ الْأَعْمَالِ مِنَ الرُّكُونِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ ، فَقَدْ وَثِقَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالصِّدِّيقُ الْأَكْبَرُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - بِمُشْرِكٍ مِنْ بَنِي الدِّيلِ وَائْتَمَنَاهُ عَلَى الرَّاحِلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ هَاجَرَا عَلَيْهِمَا لِيُوَافِيَهُمَا بِهِمَا فِي الْغَارِ بَعْدَ ثَلَاثٍ ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ الظَّالِمُونَ يَبْحَثُونَ عَنْهُمَا ، وَقَدْ جَعَلُوا لِمَنْ يَدُلُّهُمْ عَلَيْهِمَا قَدْرَ دِيَتِهِمَا .

وَاخْتَلَفَ أَئِمَّةُ الْعِلْمِ فِي اسْتِعَانَةِ الْمُسْلِمِينَ بِالْكَافِرِ فِي الْحَرْبِ لِتَعَارُضِ الْأَحَادِيثِ فِيهَا ، وَجَمَعَ الْحَافِظُ بَيْنَهَا فِي التَّلْخِيصِ بِقَوْلِهِ : إِنَّ الِاسْتِعَانَةَ كَانَتْ مَمْنُوعَةً ثُمَّ رُخِّصَ فِيهَا ، قَالَ الشَّوْكَانِيُّ : وَهَذَا أَقْرَبُهَا وَعَلَيْهِ نَصَّ الشَّافِعِيُّ . انْتَهَى . وَلَا شَكَّ أَنَّهُمْ لَمْ يَعُدُّوهَا مِنَ الرُّكُونِ إِلَيْهِمْ .

وَمِنْ مَبَاحِثِ الْقِرَاءَاتِ اللَّفْظِيَّةِ أَنَّ بَعْضَهُمْ قَرَأَ تَرْكُنُوا بِضَمِّ الْكَافِ ، وَهِيَ لُغَةُ قَيْسٍ وَتَمِيمٍ وَنَجْدٍ . وَبَعْضُهُمْ قَرَأَهَا وَقَرَأَ فَتَمَسَّكُمْ بِكَسْرِ تَائِهِمَا وَهِيَ لُغَةُ تَمِيمٍ .

(نَمُوذَجٌ مِنْ قُصُورِ أَقْوَالِ الْمُفَسِّرِينَ وَغَلَطِهِمْ وَتَقْلِيدِهِمْ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ) :

(1) الرِّوَايَاتُ الْمَأْثُورَةُ وَالْمُعْتَمِدُونَ عَلَيْهَا :

رَوَى الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 310 هـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّهُ فَسَّرَ الْآيَةَ بِالرُّكُونِ إِلَى الشِّرْكِ (وَهُوَ أَقْوَى مَا رُوِيَ فِيهَا) وَرُوِيَ عَنْهُ تَفْسِيرُهُ بِالْمَيْلِ وَأَنَّهُ قَالَ : لَا تَمِيلُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا . وَرَوَى عَنْهُ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ - وَلَا تَرْكَنُوا - لَا تَذْهَبُوا ، وَهُوَ لَيْسَ تَفْسِيرًا بِالْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ ، وَلَا يَظْهَرُ الْمُرَادُ الشَّرْعِيُّ مِنْهُ إِلَّا بِقَرِينَةِ مَا قَبْلَهُ إِنْ جُمِعَ بَيْنَهُمَا بِإِرَادَةِ الْمُشْرِكِينَ الظَّالِمِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَرُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ فَسَّرَ

(الرُّكُونَ " بِالطَّاعَةِ أَوِ الْمَوَدَّةِ أَوْ الِاصْطِنَاعِ ، وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ : لَا تَرْضَوْا أَعْمَالَهُمْ (وَهُوَ تَفْسِيرٌ بِأَحَدِ اللَّوَازِمِ الْبَعِيدَةِ) وَعَنِ الْحَسَنِ قَالَ : خَصْلَتَانِ إِذَا صَلَحَتَا لِلْعَبْدِ صَلَحَ مَا سِوَاهُمَا مِنْ أَمْرِهِ : الطُّغْيَانُ فِي النِّعْمَةِ ، وَالرُّكُونُ إِلَى الظُّلْمِ ، ثُمَّ تَلَا الْآيَةَ ، وَهَذَا مِنْ فِقْهِ الْآيَتَيْنِ لَا تَفْسِيرٌ لَهُمَا . وَعَنْ قَتَادَةَ قَالَ : يَعْنِي لَا تَلْحَقُوا بِالشِّرْكِ وَهُوَ الَّذِي خَرَجْتُمْ مِنْهُ . وَأَخَذَ ابْنُ جَرِيرٍ خُلَاصَةَ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ فَقَالَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : وَلَا تَمِيلُوا أَيُّهَا النَّاسُ إِلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ ، فَتَقْبَلُوا مِنْهُمْ وَتَرْضَوْا عَنْ أَعْمَالِهِمْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ بِفِعْلِكُمْ إِلَخْ . وَمَا قَالَهُ وَرَوَاهُ حَقٌّ فِي نَفْسِهِ وَلَكِنَّهُ لَا يُحِيطُ بِمَعْنَى الْآيَةِ ، وَمَا كَانَتْ تِلْكَ الرِّوَايَاتُ إِلَّا كَلِمَاتٌ مُجْمَلَةٌ وَجِيزَةٌ ذُكِرَتْ بِالْمُنَاسَبَةِ لَا يُقْصَدُ تَحْقِيقُ مَعْنَى الْآيَةِ فِي لُغَتِهَا وَأُسْلُوبِهَا وَمَوْقِعِهَا مِنَ الْعِبْرَةِ بِقَصَصِ الرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمُ الظَّالِمِينَ . وَقَالَ مِثْلَهُ كُلٌّ مِنَ الْبَغَوِيِّ وَابْنِ كَثِيرٍ فَإِنَّهُمَا يَعْتَمِدَانِ عَلَى الْمَأْثُورِ قَلَّ أَوْ كَثُرَ .

(46/387)

---

(2) قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْجَصَّاصُ الْحَنَفِيُّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 370 هـ فِي تَفْسِيرِهِ (أَحْكَامِ الْقُرْآنِ) : وَالرُّكُونُ إِلَى الشَّيْءِ : هُوَ السُّكُونُ إِلَيْهِ وَالْمَحَبَّةُ ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ النَّهْيَ عَنْ مُجَالَسَةِ الظَّالِمِينَ وَمُؤَانَسَتِهِمْ وَالْإِنْصَاتِ إِلَيْهِمْ ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : - فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى

مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ - 6 : 68 انْتَهَى . وَقَدْ أَبْعَدَ كُلَّ الْبُعْدِ ، وَإِنَّمَا هُوَ فَقِيهٌ لَا لُغَوِيٌّ وَلَا مُفَسِّرٌ عَامٌّ .

(3) قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ الْمُعْتَزِلِيُّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 528 هـ فِي كَشَّافِهِ بَعْدَ ذِكْرِ الْقِرَاءَاتِ فِي الْآيَةِ : وَالنَّهْيُ مُتَنَاوِلٌ لِلِانْحِطَاطِ فِي هَوَاهُمْ ، وَالِانْقِطَاعِ إِلَيْهِمْ ، وَمُصَاحَبَتِهِمْ وَمُجَالَسَتِهِمْ ، وَزِيَارَتِهِمْ وَمُدَاهَنَتِهِمْ وَالرِّضَا بِأَعْمَالِهِمْ ، وَالتَّشَبُّهِ بِهِمْ وَالتَّزَيِّي بِزِيِّهِمْ ، وَمَدِّ الْعَيْنِ إِلَى زَهْرَتِهِمْ ، وَذِكْرِهِمْ بِمَا فِيهِ تَعْظِيمٌ لَهُمْ ، وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ : - وَلَا تَرْكَنُوا - فَإِنَّ الرُّكُونَ هُوَ الْمَيْلُ الْيَسِيرُ ، وَقَوْلَهُ : - إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا - أَيْ إِلَى الَّذِينَ وُجِدَ مِنْهُمُ الظُّلْمُ ، وَلَمْ يَقُلْ : إِلَى الظَّالِمِينَ . انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْهُ . وَذَكَرَ بَعْدَهُ حِكَايَةَ صَلَاةِ الْمُوَفَّقِ خَلْفَ الْإِمَامِ الَّذِي قَرَأَ الْآيَةَ فَغُشِيَ عَلَيْهِ وَتَقَدَّمَتْ ، وَمَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَعَظَهَا لِلزُّهْرِيِّ أَحَدُ إِخْوَانِهِ مِنْ عُبَّادِ السَّلَفِ وَزُهَّادِهِمْ .

(47/387)

أَقُولُ : كُلُّ مَا أَدْغَمَهُ فِي النَّهْيِ عَنِ الرُّكُونِ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا قَبِيحٌ فِي نَفْسِهِ لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ اجْتِرَاحُهُ ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ لَوَازِمِ الرُّكُونِ الْحَقِيرَةِ ، وَلَكِنْ لَا يَصِحُّ أَنْ يُجْعَلَ شَيْءٌ مِنْهُ تَفْسِيرًا لِلْآيَةِ مُرَادًا مِنْهَا وَالْمُخَاطَبُ الْأَوَّلُ بِهَا رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ

إِلَى التَّوْبَةِ مِنَ الشِّرْكِ وَالْإِيمَانِ مَعَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَظَنَّةَ الِانْقِطَاعِ لِظُلْمَةِ الْمُشْرِكِينَ وَالِانْحِطَاطِ فِي هَوَاهُمْ وَالرِّضَا بِأَعْمَالِهِمْ ، وَأَمَّا زِيَارَتُهُمْ وَمُصَاحَبَتُهُمْ وَمُجَالَسَتُهُمْ وَالتَّزَيِّي بِزِيِّهِمْ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْعَادَاتِ فَلَمْ يَكُونُوا مَنْهِيِّينَ عَنْهُ ، بَلْ كَانَ زِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَزِيُّهُمْ وَاحِدًا وَعَادَاتُهُمُ الدُّنْيَوِيَّةُ وَاحِدَةً ، إِلَّا مَا كَانَ قَبِيحًا نَهَى عَنْهُ الْإِسْلَامُ ، وَكَانَتْ صِلَةُ الرَّحِمِ مَعَهُمْ مَشْرُوعَةً زَادَهَا الْإِسْلَامُ تَأْكِيدًا ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ فَضَائِلِ الْمُعَاشَرَةِ . وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ كَانَ الْمُسْلِمُونَ ضُعَفَاءَ فِي مَكَّةَ وَالْمُشْرِكُونَ أَقْوِيَاءَ فِيهَا ، وَلَمَّا نَزَلَتْ سُورَةُ الْمُمْتَحِنَةِ كَانَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ إِذْ كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَازِمًا عَلَى الزَّحْفِ بِالْمُؤْمِنِينَ لِفَتْحِ مَكَّةَ ، وَكَانَ الْفَصْلُ فِيهَا فِي مُعَامَلَتِهِمْ لِلْمُشْرِكِينَ أَنَّ اللهَ – تَعَالَى – لَا يَنْهَاهُمْ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوهُمْ فِي الدِّينِ أَنْ يَبَرُّوهُمْ وَيُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، وَإِنَّمَا يَنْهَاهُمْ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوهُمْ فِي الدِّينِ . . . . أَنْ يَتَوَلَّوْهُمْ وَيَنْصُرُوهُمْ .

(4) وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 543 هـ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ :

فِي الْآيَةِ مَسْأَلَتَانِ :

(الْأُولَى) الرُّكُونُ فِيهِ اخْتِلَافٌ بَيْنَ النَّقَلَةِ لِلتَّفْسِيرِ، وَحَقِيقَتُهُ الِاسْتِنَادُ وَالِاعْتِمَادُ عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا.

(49/387)

(الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ) قِيلَ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَقِيلَ: إِنَّهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَأَنْكَرَهُ الْمُتَأَخِّرُونَ، وَقَالُوا: أَمَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَاللهُ أَعْلَمُ بِذُنُوبِهِمْ، لَا يَنْبَغِي أَنْ يُصَالَحَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَعَاصِي اللهِ وَلَا يُرْكَنُ إِلَيْهِ فِيهَا، وَهَذَا صَحِيحٌ، لِأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُصْحَبَ عَلَى الْكُفْرِ، وَفِعْلُ ذَلِكَ كُفْرٌ، وَلَا عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَفِعْلُ الْمَعْصِيَةِ مَعْصِيَةٌ. قَالَ اللهُ فِي الْأَوَّلِ: - وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ - 68: 9 وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ، وَإِنْ كَانَتْ فِي الْكُفَّارِ فَهِيَ عَامَّةٌ فِيهِمْ فِي الْعُصَاةِ، وَذَلِكَ عَلَى نَحْوٍ مِنْ قَوْلِهِ: - وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا - 6: 68 الْآيَةَ. وَقَالَ حَكِيمٌ:

عَلَى الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ ... قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي

وَالصُّحْبَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا عَنْ مَوَدَّةٍ، فَإِنْ كَانَتْ عَنْ ضَرُورَةٍ وَتَقِيَّةٍ فَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا فِي آيَةِ آلِ عِمْرَانَ عَلَى الْمَعْنَى، وَصُحْبَةُ الظَّالِمِ عَلَى التَّقِيَّةِ مُسْتَثْنَاةٌ مِنَ النَّهْيِ بِحَالِ الِاضْطِرَارِ اهـ. وَقَدْ أَصَابَ الْمَعْنَى اللُّغَوِيَّ وَالْمَأْثُورَ دُونَ فِقْهِ الْآيَةِ.

وَتَبِعَهُ الْقُرْطُبِيُّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 671 هـ فِي تَفْسِيرِهِ جَامِعِ أَحْكَامِ الْقُرْآنِ فَنَقَلَ كَلَامَهُ بِدُونِ عَزْوٍ إِلَيْهِ وَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهِ .

(5) وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَضْلُ بْنُ الْحَسَنِ الطُّوسِيُّ الشِّيعِيُّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 561 هـ فِي تَفْسِيرِهِ مَجْمَعِ الْبَيَانِ :

(50/387)

(اللُّغَةُ) الرُّكُونُ إِلَى الشَّيْءِ هُوَ السُّكُونُ إِلَيْهِ بِالْمَحَبَّةِ لَهُ وَالْإِنْصَاتِ وَالِانْصِبَابِ إِلَيْهِ بِالْمَحَبَّةِ ، نَقِيضُهُ النُّفُورُ . (وَالْمَعْنَى) ثُمَّ نَهَى اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - عَنِ الْمُدَاهَنَةِ فِي الدِّينِ وَالْمَيْلِ إِلَى الظَّالِمِينَ فَقَالَ : - وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا - أَيْ وَلَا تَمِيلُوا إِلَى الْمُشْرِكِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَقِيلَ : لَا تُدَاهِنُوا عَنِ السُّدِّيِّ وَابْنِ زَيْدٍ ، وَقِيلَ : إِنَّ النَّهْيَ عَنِ الرُّكُونِ إِلَى الظَّالِمِينَ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ هُوَ الدُّخُولُ مَعَهُمْ فِي ظُلْمِهِمْ وَإِظْهَارُ الرِّضَاءِ بِفِعْلِهِمْ أَوْ إِظْهَارُ مُوَالَاتِهِمْ .

فَأَمَّا الدُّخُولُ عَلَيْهِمْ أَوْ مُخَالَطَتُهُمْ وَمُعَاشَرَتُهُمْ دَفْعًا لِشَرِّهِمْ فَجَائِزٌ عَنِ الْقَاضِي . وَقَرِيبٌ مِنْهُ مَا رُوِيَ عَنْهُمْ أَنَّ الرُّكُونَ : الْمَوَدَّةُ وَالنَّصِيحَةُ وَالطَّاعَةُ . انْتَهَى .

وَهُوَ لَمْ يَأْتِ مِنْ عِنْدِهِ بِشَيْءٍ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ بَعْضَ الرِّوَايَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَزَادَ عَلَيْهَا عِبَارَةً عَنْ

أُسْتَاذِهِمُ الْقَاضِي عَبْدِ الْجَبَّارِ الْمُعْتَزِلِيِّ وَرِوَايَةِ آلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

(6) وَقَالَ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ الشَّافِعِيُّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 606 هـ فِي تَفْسِيرِهِ الْكَبِيرِ مَفَاتِح الْغَيْب :

(51/387)

الرُّكُونُ هُوَ السُّكُونُ إِلَى الشَّيْءِ وَالْمَيْلُ إِلَيْهِ بِالْمَحَبَّةِ ، وَنَقِيضُهُ النُّفُورُ عَنْهُ . . . . قَالَ الْمُحَقِّقُونَ : الرُّكُونُ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ هُوَ الرِّضَا بِمَا عَلَيْهِ الظَّلَمَةُ مِنَ الظُّلْمِ ، وَتَحْسِينُ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ وَتَزْيِينُهَا عِنْدَهُمْ وَعِنْدَ غَيْرِهِمْ وَمُشَارَكَتُهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ ، فَأَمَّا مُدَاخَلَتُهُمْ لِدَفْعِ ضَرَرٍ أَوِ اجْتِلَابِ مَنْفَعَةٍ عَاجِلَةٍ فَغَيْرُ دَاخِلٍ فِي الرُّكُونِ ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ : - فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ - أَيْ إِنَّكُمْ إِنْ رَكَنْتُمْ إِلَيْهِمْ فَهَذِهِ عَاقِبَةُ الرُّكُونِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ حَكَمَ بِأَنَّ مَنْ رَكَنَ إِلَى الظَّلَمَةِ لَا بُدَّ وَأَنْ تَمَسَّهُ النَّارُ ، وَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ الظَّالِمِ فِي نَفْسِهِ " اهـ .

قَدْ تَبِعَ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ خَصْمَهُ الْمُعْتَزِلِيَّ (الزَّمَخْشَرِيَّ) فَأَسَاءَ التَّقْلِيدَ ، وَاخْتَصَرَ عَلَى خِلَافِ عَادَتِهِ وَمَا أَفَادَ ، بَلْ زَادَ عَلَيْهِ الِاعْتِذَارَ لِطُلَّابِ الْمَنَافِعِ وَدَرْءِ الْمَضَارِّ مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَخْرَجَ مُدَاخَلَتَهُمْ إِيَّاهُمْ مِنْ جَرِيمَةِ الرُّكُونِ إِلَيْهِمْ ، وَهَلْ يُدَاخِلُهُمْ أَحَدٌ إِلَّا لِهَذَا ؟

(7) وَقَالَ الْقَاضِي نَاصِرُ الدِّينِ عَبْدُ اللهِ عُمَرَ الْبَيْضَاوِيُّ الشَّافِعِيُّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 685 هـ

- وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا - فَلَا تَمِيلُوا إِلَيْهِمْ أَدْنَى مَيْلٍ ، فَإِنَّ الرُّكُونَ هُوَ الْمَيْلُ الْيَسِيرُ كَالتَّزَيِّي بِزِيِّهِمْ وَتَعْظِيمِ ذِكْرِهِمْ - فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ - بِرُكُونِكُمْ إِلَيْهِمْ ، وَإِذَا

(52/387)

كَانَ الرُّكُونُ إِلَى مَنْ وُجِدَ مِنْهُ مَا يُسَمَّى ظُلْمًا كَذَلِكَ ، فَمَا ظَنُّكَ بِالرُّكُونِ إِلَى الظَّالِمِينَ الْمَوْسُومِينَ بِالظُّلْمِ ، ثُمَّ بِالْمَيْلِ إِلَيْهِمْ كُلَّ الْمَيْلِ ، ثُمَّ بِالظُّلْمِ نَفْسِهِ وَالِانْهِمَاكِ فِيهِ ، وَلَعَلَّ الْآيَةَ أَبْلَغُ مَا يُتَصَوَّرُ فِي النَّهْيِ عَنِ الظُّلْمِ وَالتَّهْدِيدِ عَلَيْهِ ، وَخِطَابُ الرَّسُولِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا ، وَالتَّثْبِيتُ عَلَى الِاسْتِقَامَةِ الَّتِي هِيَ الْعَدْلُ ، فَإِنَّ الزَّوَالَ عَنْهَا بِالْمَيْلِ إِلَى أَحَدِ طَرَفَيْ إِفْرَاطٍ وَتَفْرِيطٍ فَهُوَ ظُلْمٌ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ غَيْرِهِ بَلْ ظُلْمٌ فِي نَفْسِهِ اهـ .

(53/387)

---

(8) قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ النَّسَفِيُّ الْحَنَفِيُّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 701 هـ فِي تَفْسِيرِهِ مَدَارِكِ التَّنْزِيلِ : - وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا - 11 : 113 وَلَا تَمِيلُوا ، قَالَ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللهُ - : هَذَا خِطَابٌ لِأَتْبَاعِ الْكَفَرَةِ ، أَيْ : لَا تَرْكَنُوا إِلَى الْقَادَةِ وَالْكُبَرَاءِ فِي ظُلْمِهِمْ وَفِيمَا

يَدْعُونَكُمْ إِلَيْهِ - فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ - وَقِيلَ: الرُّكُونُ إِلَيْهِمْ الرِّضَا بِكُفْرِهِمْ، وَقَالَ قَتَادَةُ: وَلَا تَلْحَقُوا بِالْمُشْرِكِينَ، وَعَنِ الْمُوَفَّقِ أَنَّهُ صَلَّى خَلْفَ الْإِمَامِ فَلَمَّا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ قِيلَ لَهُ. فَقَالَ: هَذَا فِيمَنْ رَكَنَ إِلَى مَنْ ظَلَمَ فَكَيْفَ بِالظَّالِمِ! ! وَعَنِ الْحَسَنِ: جَعَلَ اللهُ الدِّينَ بَيْنَ لَاءَيْنِ: - وَلَا تَطْغَوْا - وَلَا تَرْكَنُوا - . وَقَالَ سُفْيَانُ: فِي جَهَنَّمَ وَادٍ لَا يَسْكُنُهُ إِلَّا الْقُرَّاءُ الزَّائِرُونَ لِلْمُلُوكِ. وَعَنِ الْأَوْزَاعِيِّ: مَا مِنْ شَيْءٍ أَبْغَضُ إِلَى اللهِ مِنْ عَالِمٍ يَزُورُ عَامِلًا. وَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : "مَنْ دَعَا لِظَالِمٍ بِالْبَقَاءِ فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصَى اللهُ فِي أَرْضِهِ" وَلَقَدْ سُئِلَ سُفْيَانُ عَنْ ظَالِمٍ أَشْرَفَ عَلَى الْهَلَاكِ فِي بَرِّيَّةٍ: أَيُسْقَى شَرْبَةَ مَاءٍ؟ فَقَالَ: لَا. فَقِيلَ لَهُ: يَمُوتُ؟ قَالَ: دَعْهُ يَمُوتُ: - وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ - حَالٌ مِنْ قَوْلِهِ: - فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ -

أَيْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَأَنْتُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ.

(54/387)

وَمَعْنَاهُ: - وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ - يَقْدِرُونَ عَلَى مَنْعِكُمْ مِنْ عَذَابِهِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى مَنْعِكُمْ مِنْهُ غَيْرُهُ - ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ - ثُمَّ لَا يَنْصُرُكُمْ هُوَ; لِأَنَّهُ حَكَمَ بِتَعْذِيبِكُمْ، وَمَعْنَى " ثُمَّ " الِاسْتِبْعَادُ، أَيِ النُّصْرَةُ مِنَ اللهِ مُسْتَبْعَدَةٌ. انْتَهَى. وَفِيهِ خَطَأٌ غَيْرُ مَا قُلِّدَ بِهِ

الزَّمَخْشَرِيُّ .

(9) وقَالَ أَبو السعُودِ شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُفْتِي دَوْلَةِ الرُّومِ الْعُثْمَانِيَّةِ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 983 هـ ، فِي تَفْسِيرِهِ (إِرْشَادِ الْعَقْلِ السَّلِيمِ) : - وَلَا تَرْكَنُوا - أَيْ تَمِيلُوا أَدْنَى مَيْلٍ - إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا - أَيْ إِلَى الَّذِينَ وُجِدَ مِنْهُمْ ظُلْمٌ فِي الْجُمْلَةِ ، وَمَدَارُ النَّهْيِ هُوَ الظُّلْمُ ، وَالْجَمْعُ بِاعْتِبَارِ جَمْعِيَّةِ الْمُخَاطَبِينَ ، وَمَا قِيلَ مِنْ أَنَّ ذَلِكَ لِلْمُبَالَغَةِ فِي النَّهْيِ ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ كَوْنَهُمْ جَمَاعَةً مَظِنَّةُ الرُّخْصَةِ فِي مُدَاهَنَتِهِمْ ، إِنَّمَا يَتِمُّ أَنْ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ النَّهْيَ عَنِ الرُّكُونِ إِلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ

إِنَّهُمْ جَمَاعَةٌ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، فَتَمَسَّكُمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ النَّارُ ، وَإِذَا كَانَ حَالُ الْمَيْلِ فِي الْجُمْلَةِ إِلَى مَنْ وُجِدَ مِنْهُ ظُلْمٌ مَا فِي الْإِفْضَاءِ إِلَى مَسَاسِ النَّارِ هَكَذَا ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يَمِيلُ إِلَى الرَّاسِخِينَ فِي الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ مَيْلًا عَظِيمًا ، وَيَتَهَالَكُ عَلَى مُصَاحَبَتِهِمْ وَمُنَادَمَتِهِمْ ، وَيُلْقِي شَرَاشِرَهُ عَلَى مُؤَانَسَتِهِمْ وَمُعَاشَرَتِهِمْ ، وَيَبْتَهِجُ بِالتَّزَيِّي بِزِيِّهِمْ ، وَيَمُدُّ عَيْنَيْهِ إِلَى زَهْرَتِهِمُ الْفَانِيَةِ ، وَيَغْبِطُهُمْ بِمَا أُوتُوا مِنَ الْقُطُوفِ الدَّانِيَةِ ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنَ الْحَبَّةِ طَفِيفٌ ، وَمِنْ جَنَاحِ الْبَعُوضَةِ خَفِيفٌ ، بِمَعْزِلٍ عَنْ أَنْ تَمِيلَ إِلَيْهِ الْقُلُوبُ - ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ - 22 : 73 وَخِطَابُ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلتَّثْبِيتِ عَلَى

الِاسْتِقَامَةِ الَّتِي هِيَ الْعَدْلُ ، فَإِنَّ الْمَيْلَ إِلَى أَحَدِ طَرَفَيِ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ ظُلْمٌ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ عَلَى غَيْرِهِ . انْتَهَى . وَفِيهِ خَطَأٌ غَيْرَ مَا قَلَّدَ بِهِ الزَّمَخْشَرِيَّ وَتَكَلَّفَ .

(10) وَقَالَ السَّيِّدُ مَحْمُودٌ الْأُلُوسِيُّ مُفْتِي الْحَنَفِيَّةِ فِي بَغْدَادَ - بَعْدَ أَنْ كَانَ شَافِعِيًّا - فِي تَفْسِيرِهِ رُوحِ الْمَعَانِي :

(56/387)

- وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا - أَيْ لَا تَمِيلُوا إِلَيْهِمْ أَدْنَى مَيْلٍ ، وَالْمُرَادُ بِهِمُ الْمُشْرِكُونَ كَمَا رَوَى ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وَفَسَّرَ الْمَيْلَ بِمَيْلِ الْقَلْبِ إِلَيْهِمْ بِالْمَحَبَّةِ ، وَقَدْ يُفَسَّرُ بِمَا هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ ، كَمَا يُفَسَّرُ - الَّذِينَ ظَلَمُوا - بِمَنْ وُجِدَ مِنْهُ مَا يُسَمَّى ظُلْمًا مُطْلَقًا . قِيلَ : وَلِإِرَادَةِ ذَلِكَ لَمْ يَقُلْ : إِلَى الظَّالِمِينَ ، وَيَشْمَلُ النَّهْيُ حِينَئِذٍ مُدَاهَنَتَهُمْ ، وَتَرْكَ التَّغْيِيرِ عَلَيْهِمْ مَعَ الْقُدْرَةِ ، وَالتَّزَيِّي بِزِيِّهِمْ ، وَتَعْظِيمَ ذِكْرِهِمْ . وَمُجَالَسَتَهُمْ مِنْ غَيْرِ دَاعٍ شَرْعِيٍّ ، وَكَذَا الْقِيَامُ لَهُمْ وَنَحْوُ ذَلِكَ . وَمَدَارُ النَّهْيِ عَلَى الظُّلْمِ ، وَالْجَمْعُ بِاعْتِبَارِ جَمْعِيَّةِ الْمُخَاطَبِينَ ، وَقِيلَ : إِنَّ ذَلِكَ لِلْمُبَالَغَةِ فِي النَّهْيِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ كَوْنَهُمْ جَمَاعَةً مَظِنَّةُ الرُّخْصَةِ فِي مُدَاهَنَتِهِمْ مَثَلًا ، وَتُعُقِّبَ بِأَنَّهُ إِنَّمَا يَتِمُّ أَنْ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ النَّهْيَ عَنِ

الرُّكُونِ إِلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ جمَاعَةٌ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، - فَتَمَسَّكُمُ - أَيْ فَتُصِيبَكُمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ كَمَا تُؤْذِنُ بِهِ الْفَاءُ الْوَاقِعَةُ

(57/387)

فِي جوَابِ النَّهْيِ - النَّارُ - وَهِيَ نَارُ جهَنَّمَ ، وَإِلَى التَّفْسِيرِ الثَّانِي - وَمَا أَصْعَبَهُ عَلَى النَّاسِ الْيَوْمَ بَلْ فِي غَالِبِ الْأَعَاصِيرِ مِنْ تَفْسِيرٍ - ذَهَبَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ ، قَالُوا : وَإِذَا كَانَ حَالُ الْمَيْلِ فِي الْجُمْلَةِ إِلَى مَنْ وُجِدَ مِنْهُ ظُلْمٌ مَا فِي الْإِفْضَاءِ إِلَى مِسَاسِ النَّاسِ النَّارُ ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يَمِيلُ إِلَى الرَّاسِخِينَ فِي الظُّلْمِ كُلَّ الْمَيْلِ ، وَيَتَهَالَكُ عَلَى مُصَاحَبَتِهِمْ وَمُنَادَمَتِهِمْ ، وَيُتْعِبُ قَلْبَهُ وَقَالَبَهُ فِي إِدْخَالِ

السُّرُورِ عَلَيْهِمْ ، وَيَسْتَنْهِضُ الرَّجْلَ وَالْخَيْلَ فِي جلْبِ الْمَنَافِعِ إِلَيْهِمْ ، وَيَتَهَيَّجُ بِالتَّزَيِّي بِزِيِّهِمْ ، وَالْمُشَارَكَةِ لَهُمْ فِي غَيِّهِمْ ، وَيَمُدُّ عَيْنَيْهِ إِلَى مَا مُتِّعُوا بِهِ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ ، وَيَغْبِطُهُمْ بِمَا أُوتُوا مِنَ الْقُطُوفِ الدَّانِيَةِ ، غَافِلًا عَنْ حَقِيقَةِ ذَلِكَ ، ذَاهِلًا عَنْ مُنْتَهَى مَا هُنَالِكَ ، وَيَنْبَغِي أَنْ يُعَدَّ مِثْلُ ذَلِكَ مِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا لَا مِنَ الرَّاكِنِينَ إِلَيْهِمْ ، بِنَاءً عَلَى مَا رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِسُفْيَانَ : إِنِّي أَخِيطُ لِلظَّلَمَةِ فَهَلْ أُعَدُّ مِنْ أَعْوَانِهِمْ ؟ فَقَالَ لَهُ : لَا ، أَنْتَ مِنْهُمْ ، وَالَّذِي يَبِيعُكَ الْإِبْرَةَ مِنْ أَعْوَانِهِمْ اهـ .

مَنْ تَأَمَّلَ أَقْوَالَ مَنْ بَعْدَ الزَّمَخْشَرِيِّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ يَرَى أَنَّهُمْ كُلَّهُمْ قَلَّدُوهُ فِيمَا فَسَّرَ بِهِ الرُّكُونَ ، وَهُوَ غَلَطٌ مِنْهُ كَمَا حَقَّقْتُهُ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ الْآيَةِ ، وَأَنَّهُ هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الرُّكْنِ وَهُوَ الْجَانِبُ الْقَوِيُّ مِنَ الْبِنَاءِ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، فَمَعْنَى الرُّكُونِ إِلَيْهِمُ الِاسْتِنَادُ إِلَيْهِمْ وَالِاعْتِمَادُ عَلَى وِلَايَتِهِمْ وَنَصْرِهِمْ إِلَخْ . وَفِي تَفْسِيرِ – الَّذِينَ ظَلَمُوا – بِالَّذِينَ وَقَعَ مِنْهُمْ ظُلْمٌ مَا هُوَ غَلَطٌ أَيْضًا ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْأَقْوَامِ كَالْوَصْفِ بِاسْمِ الْفَاعِلِ ، فَقَوْلُهُ – تَعَالَى – : – إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ – 2 : 6 مَعْنَاهُ : جَمَاعَةُ الْكَافِرِينَ الرَّاسِخِينَ فِي الْكُفْرِ لَا مَنْ وَقَعَ مِنْهُمْ كُفْرٌ مَا إِلَى آخِرِ مَا تَقَدَّمَ .

(11) أَخْتِمُ هَذِهِ النُّقُولَ بِمَا أَوْرَدَهُ السَّيِّدُ مُحَمَّد صِدِّيق حَسَن خَان نَائِبُ مَلِكِ بَهُوبَال (الْهِنْدِ) الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 1307 هـ وَفِي تَفْسِيرِهِ (فَتْحِ الْبَيَانِ فِي مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ) الَّذِي أَوْدَعَهُ تَفْسِيرَ أُسْتَاذِهِ الْقَاضِي الشَّوْكَانِيِّ الْمُسَمَّى (بِفَتْحِ الْقَدِيرِ) وَزَادَ عَلَيْهِ ، فَكَانَ مَا أَوْرَدَهُ عَنْهُ مُغْنِيًا عَنْ أَصْلِهِ .

فَقَدِ اتَّفَقَ الْمُفَسِّرَانِ عَلَى تَخْطِئَةِ الزَّمَخْشَرِيِّ وَمَنْ تَبِعَهُ فِي تَفْسِيرِ الرُّكُونِ بِالْمَيْلِ الْيَسِيرِ، وَأَوْرَدَا بَعْضَ مَا قَالَهُ رُوَاةُ التَّفْسِيرِ وَاللُّغَةِ فِي مَعْنَاهُ مُخَالِفًا لَهُ، مِمَّا نَقَلْنَاهُ وَزِنَّا عَلَيْهِ، وَانْفَرَدْنَا بِتَحْقِيقِ مَعْنَاهُ دُونَهُمْ وَدُونَهُمَا، ثُمَّ انْفَرَدَا بِالْبَحْثِ الْآتِي بِنَصِّهِ قَالَ:

"وَقَدِ اخْتَلَفَ أَيْضًا الْأَئِمَّةُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، هَلْ خَاصَّةٌ بِالْمُشْرِكِينَ أَوْ عَامَّةٌ؟ فَقِيلَ: خَاصَّةٌ، وَأَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ النَّهْيُ عَنِ الرُّكُونِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَأَنَّهُمُ الْمُرَادُونَ بِـ - الَّذِينَ ظَلَمُوا - وَقَدْ رُوِيَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقِيلَ: إِنَّهَا عَامَّةٌ فِي الظَّلَمَةِ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ كَافِرٍ وَمُسْلِمٍ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ، وَلَوْ فَرَضْنَا أَنَّ سَبَبَ النُّزُولِ هُمُ الْمُشْرِكُونَ لَكَانَ الِاعْتِبَارُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ.

(فَإِنْ قُلْتَ): وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَدِلَّةُ الصَّحِيحَةُ الْبَالِغَةُ عَدَدَ التَّوَاتُرِ، الثَّابِتَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثُبُوتًا لَا يَخْفَى عَلَى مَنْ لَهُ أَدْنَى تَمَسُّكٍ بِالسُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ، بِوُجُوبِ طَاعَةِ الْأَئِمَّةِ وَالسَّلَاطِينِ وَالْأُمَرَاءِ، حَتَّى وَرَدَ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِ الصَّحِيحِ: "أَطِيعُوا السُّلْطَانَ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا رَأْسُهُ كَالزَّبِيبَةِ" وَوَرَدَ وُجُوبُ طَاعَتِهِمْ مَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَمَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمُ الْكُفْرُ الْبَوَاحُ، وَلَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَظَاهِرُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ وَإِنْ بَلَغُوا فِي

الظُّلْمِ إِلَى أَعْلَى مَرَاتِبِهِ ، وَفَعَلُوا أَعْظَمَ أَنْوَاعِهِ ، مِمَّا لَمْ يَخْرُجُوا بِهِ إِلَى الْكُفْرِ الْبَوَاحِ ، فَإِنَّ طَاعَتَهُمْ وَاجِبَةٌ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ مَا أَمَرُوا بِهِ مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ ، وَمِنْ جُمْلَةِ مَا يَأْمُرُونَ بِهِ تَوَلِّي الْأَعْمَالِ لَهُمْ ، وَالدُّخُولِ فِي الْمَنَاصِبِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي لَيْسَ الدُّخُولُ فِيهَا مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ ، وَمِنْ جُمْلَةِ مَا يَأْمُرُونَ بِهِ الْجِهَادُ ، وَأَخْذُ الْحُقُوقِ الْوَاجِبَةِ مِنَ الرَّعَايَا ، وَإِقَامَةُ الشَّرِيعَةِ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ مِنْهُمْ ، وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ عَلَى مَنْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ .

(61/387)

" وَبِالْجُمْلَةِ فَطَاعَتُهُمْ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مَنْ صَارَ تَحْتَ أَمْرِهِمْ وَنَهْيِهِمْ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُونَ بِهِ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ ، وَلَابُدَّ فِي مِثْلِ ذَلِكَ مِنَ الْمُخَالَطَةِ لَهُمْ وَالدُّخُولِ عَلَيْهِمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا لَابُدَّ مِنْهُ ، وَلَا مَحِيصَ عَنْ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ وُجُوبِ طَاعَتِهِمْ بِالْقُيُودِ الْمَذْكُورَةِ لِتَوَاتُرِ الْأَدِلَّةِ الْوَارِدَةِ بِهِ ، بَلْ قَدْ وَرَدَ بِهِ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ : - أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ - 4 : 59 بَلْ وَرَدَ أَنَّهُمْ يُعْطَوْنَ الَّذِي لَهُمْ مِنَ الطَّاعَةِ وَإِنْ مَنَعُوا مَا هُوَ عَلَيْهِمْ لِلرَّعَايَا ، كَمَا فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ " أَعْطُوهُمُ الَّذِي لَهُمْ وَاسْأَلُوا اللهَ الَّذِي لَكُمْ " وَرَدَ الْأَمْرُ بِطَاعَةِ السُّلْطَانِ وَبَالَغَ فِي ذَلِكَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَتَّى قَالَ : " وَإِنْ أَخَذَ مَالَكَ وَضَرَبَ ظَهْرَكَ " فَإِنِ اعْتَبَرْنَا مُطْلَقَ الْمَيْلِ وَالسُّكُونِ ، فَمُجَرَّدُ هَذِهِ الطَّاعَةِ الْمَأْمُورِ

بِهَا مَعَ مَا تَسْتَلْزِمُهُ مِنَ الْمُخَالَطَةِ هِيَ مَيْلٌ وَسُكُونٌ ، وَإِنِ اعْتَبَرْنَا الْمَيْلَ وَالسُّكُونَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا فَلَا يَتَنَاوَلُ النَّهْيُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَنْ مَالَ إِلَيْهِمْ فِي الظَّاهِرِ لِأَمْرٍ يَقْتَضِي ذَلِكَ شَرْعًا كَالطَّاعَةِ أَوِ التَّقِيَّةِ ، وَمَخَافَةِ الضَّرَرِ مِنْهُمْ أَوْ لِجَلْبِ مَصْلَحَةٍ عَامَّةٍ أَوْ خَاصَّةٍ ، أَوْ دَفْعِ مَفْسَدَةٍ عَامَّةٍ ، أَوْ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَيْلٌ إِلَيْهِمْ فِي الْبَاطِنِ وَلَا مَحَبَّةٌ وَلَا رِضًى بِأَفْعَالِهِمْ اهـ .

(62/387)

(قُلْتُ) : أَمَّا الطَّاعَةُ عَلَى عُمُومِهَا بِجَمِيعِ أَقْسَامِهَا ، حَيْثُ لَمْ تَكُنْ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ ، فَهِيَ عَلَى فَرْضِ صِدْقِ مُسَمَّى الرُّكُونِ عَلَيْهَا ، مُخَصِّصَةٌ لِعُمُومِ النَّهْيِ عَنْهُ بِأَدِلَّتِهَا الَّتِي قَدَّمْنَا الْإِشَارَةَ إِلَيْهَا ، وَلَا شَكَّ فِي هَذَا وَلَا رَيْبَ ، فَكُلُّ مَنْ أَمَرُوهُ ابْتِدَاءً أَنْ يَدْخُلَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي أَمْرُهَا إِلَيْهِمْ ، مِمَّا لَمْ يَكُنْ مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ كَالْمَنَاصِبِ الدِّينِيَّةِ وَنَحْوِهَا ، إِذَا وَثِقَ مِنْ نَفْسِهِ بِالْقِيَامِ بِمَا وُكِلَ إِلَيْهِ فَذَلِكَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُقَالَ جَائِزٌ لَهُ .

وَأَمَّا مَا وَرَدَ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِمَارَةِ ، فَذَلِكَ مُقَيَّدٌ بِعَدَمِ وُقُوعِ الْأَمْرِ مِمَّنْ تَجِبُ طَاعَتُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ وَالسَّلَاطِينِ وَالْأُمَرَاءِ جَمْعًا بَيْنَ الْأَدِلَّةِ ، أَوْ مَعَ ضَعْفِ الْمَأْمُورِ عَنِ الْقِيَامِ بِمَا أُمِرَ بِهِ كَمَا وَرَدَ تَعْلِيلُ النَّهْيِ عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِمَارَةِ بِذَلِكَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ ،

وأمّا مُخالطتهم والدُّخول عليهم لجلب مصلحةٍ عامّةٍ أو خاصّةٍ أو دفع مفسدةٍ عامّةٍ أو خاصّةٍ ، مع كراهةِ ما هم عليه من الظُّلم

وعدم ميل النّفس إليهم ومحبّتها لهم ، وكراهة المواصلة لهم لولا جلب تلك المصلحة أو دفع تلك المفسدة ، فعلى فرض صدق مسمّى الرّكون على هذا فهو مخصّصٌ بالأدلّة الدّالّة على مشروعيّة جلب المصالح ودفع المفاسد ، والأعمال بالنّيّات وإنّما لكلّ امرئٍ ما نوى ، ولا يخفى على الله خافيةٌ .

وبالجملة : فمن ابتلي بمخالطة من فيه ظلمٌ فعليه أن يزن أقواله وأفعاله وما يأتي وما يذر بميزان الشّرع ، فإن زاغ عن ذلك " فعلى نفسها براقش تجني " ، ومن قدر على الفرار منهم قبل أن يؤمر من جهتهم بأمرٍ يجب عليه طاعته فهو الأولى له والأليق به . يا مالك يوم الدّين ، إيّاك نعبد وإيّاك نستعين ، اجعلنا من عبادك الصّالحين ، الآمرين بالمعروف والنّاهين عن المنكر ، الّذين لا يخافون فيك لومة لائمٍ ، وقوّنا على ذلك ، ويسّره لنا ، وأعنّا عليه اهـ .

تَحْقِيقُ مَسْأَلَةِ طَاعَةِ الْأَئِمَّةِ وَالْأُمَرَاءِ : إِنَّ هَذَا الْبَحْثَ الَّذِي فَتَحَ بَابَهُ وَدَخَلَهُ هَذَانِ الْمُجَدِّدَانِ فِي تَفْسِيرَيْهِمَا (فَتْحِ الْقَدِيرِ ، وَفَتْحِ الْبَيَانِ) كَانَ اسْتِدْرَاكًا ضَرُورِيًّا لِمَا فَسَّرَ بِهِ الْآيَةَ جُمْهُورُ مَنْ قَبْلَهُمَا فَاقْتَصَرُوا وَقَصَّرُوا ، لَوْلَاهُ لَمَا كَانَ إِلَيْهِ حَاجَةٌ فِي فَهْمِ الْآيَةِ ، عَلَى أَنَّهُمَا عَلَى سَبْقِهِمَا لَمْ يَسْلَمَا مِنْ تَقْصِيرٍ ، وَلَمْ يَأْتِيَا بِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَحْثُ مِنْ تَحْرِيرٍ ، وَأَوْرَدَا الْأَحَادِيثَ بِالْمَعْنَى بِدُونِ تَخْرِيجٍ وَلَا تَدْقِيقٍ .

أَهَمُّ مَا فِي الْبَحْثِ مِنْ حَاجَةٍ إِلَى التَّحْرِيرِ ، مَسْأَلَةُ طَاعَةِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ وَالْأُمَرَاءِ الظَّالِمِينَ وَإِنْ تَفَاقَمَ ظُلْمُهُمْ فَسَلَبُوا الْأَمْوَالَ ، وَضَرَبُوا ظُهُورَ الرِّجَالِ ، مَا دَامُوا لَا يُظْهِرُونَ الْكُفْرَ الْبَوَاحَ (هُوَ بِالْفَتْحِ : الظَّاهِرُ الْمَكْشُوفُ) وَقَدِ اشْتُهِرَ أَنَّ هَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ ، وَأَنَّ وُجُوبَ الْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ مَذْهَبُ الزَّيْدِيَّةِ .

وَالصَّوَابُ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ فِيهَا نَظَرٌ ، فَإِطْلَاقُ الْقَوْلِ فِيهَا يَحْتَاجُ إِلَى تَقْيِيدٍ ، وَإِجْمَالُهُ لَا يَنْجَلِي إِلَّا بِبَيَانٍ وَتَفْصِيلٍ ، وَقَدْ سَبَقَ لَنَا تَحْرِيرُهُ فِي كِتَابِ (الْخِلَافَةِ 0 أَوِ الْإِمَامَةِ الْعُظْمَى) وَفِي هَذَا التَّفْسِيرِ .

وَخُلَاصَةُ الْقَوْلِ الْحَقِّ أَنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَ وُجُوبِ طَاعَةِ الْأَئِمَّةِ وَالْأُمَرَاءِ فِيمَا لَا مَعْصِيَةَ فِيهِ لِلَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَبَيْنَ النَّهْيِ عَنِ الرُّكُونِ إِلَى الظَّالِمِينَ، وَحَظْرِ مَا دُونَ الرُّكُونِ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَالَهُ الْمُفَسِّرُونَ وَغَيْرُهُمْ، وَمَا فِي مَعْنَى هَذَا النَّهْيِ مِنْ آيَاتِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ فِي تَقْبِيحِ الظُّلْمِ، وَبَيَانِ كَوْنِهِ سَبَبًا لِهَلَاكِ الْأُمَمِ فِي الدُّنْيَا وَعَذَابِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَكَذَا الْآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى سُلْطَةِ الْأُمَّةِ عَلَيْهِمْ.

وَمَا وَرَدَ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي طَاعَتِهِمْ يُقَابِلُهُ مَا وَرَدَ فِيهَا مِنْ وُجُوبِ الْأَخْذِ عَلَى أَيْدِي الظَّالِمِينَ عَامَّةً، وَعَلَى أَئِمَّةِ الْجَوْرِ وَالْأُمَرَاءِ خَاصَّةً، وَوُجُوبِ تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ بِالْيَدِ أَوَّلًا فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِاللِّسَانِ، وَكَوْنِ إِنْكَارِهِ بِالْقَلْبِ عِنْدَ عَدَمِ الِاسْتِطَاعَةِ لِمَا قَبْلَهُ أَضْعَفَ الْإِيمَانِ، وَمِنْهُ عَدَمُ الْمَيْلِ إِلَيْهِمْ وَلَوْ يَسِيرًا، وَهُوَ الَّذِي فَهِمَهُ مَنْ ذَكَرْنَا مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الرُّكُونِ، فَإِنْكَارُهُمْ لَهُ حَقٌّ فِي نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا أَخْطَأَ مَنْ أَخْطَأَ فِي تَفْسِيرِ الرُّكُونِ بِهِ.

(66/387)

وَحَسْبُنَا هُنَا مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ وَغَيْرُهُمْ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى -: - عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ - 5: 105 الْآيَةَ، فَفِي الْمُسْنَدِ مِنْ طَرِيقِ قَيْسٍ (أَبِي حَازِمٍ) قَالَ: قَامَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ

هَذِهِ الْآيَةَ : - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ - حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِ الْآيَةِ - أَلَا وَإِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ لَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ اللَّهُ أَنْ يَعُمَّهُمْ بِعِقَابِهِ ، أَلَا وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ : " إِنَّ النَّاسَ " . . . وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْهُ أَنَّهُ خَطَبَ فَقَالَ : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَا وَضَعَهَا اللَّهُ : - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ - سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ بَيْنَهُمْ فَلَمْ يُنْكِرُوهُ يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ " ، وَهَذَا الْحَدِيثُ رَوَاهُ

ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَالْحُمَيْدِيُّ فِي مَسَانِيدِهِمْ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرُهُمْ .

(67/387)

وَفِي مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا ، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ ، وَآكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ فَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ 5 : 78 قَالَ : فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَانَ مُتَّكِئًا

فَقَالَ : " لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطُرُوهُمْ أَطْرًا " وَفِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ قَالَ : قَالَ : " كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا ، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا ، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمُ اللَّهُ كَمَا لَعَنَهُمْ " اهـ .

أَطَرَهُ عَلَى الْحَقِّ وَغَيْرِهِ : عَطَفَهُ وَثَنَاهُ ، وَقَصَرَهُ عَلَيْهِ حَبَسَهُ وَأَمْسَكَهُ عَلَيْهِ حَتَّى لَا يَتَعَدَّاهُ (وَبَابُهُمَا ضَرَبَ) .

(68/387)

وَالْأَصْلُ الْمُجْمَعُ عَلَيْهِ أَنَّ الطَّاعَةَ الْوَاجِبَةَ فِي الشَّرْعِ هِيَ لِأُولِي الْأَمْرِ مِنَ الْأَئِمَّةِ (الْخُلَفَاءِ) وَنُوَّابِهِمْ مِنَ السَّلَاطِينِ وَأُمَرَاءِ الْجُيُوشِ وَالْوُلَاةِ ، وَكُلُّهَا مُقَيَّدَةٌ بِالْمَعْرُوفِ مِنَ الْوَاجِبِ وَالْمَنْدُوبِ وَالْمُبَاحِ ، دُونَ الْمَحْظُورِ . وَأَمَّا طَاعَةُ الْمُتَغَلِّبِينَ فَهِيَ لِلضَّرُورَةِ ، وَتُقَدَّرُ بِقَدْرِهَا بِحَسَبِ الْمَصْلَحَةِ ، وَيَجِبُ إِزَالَتُهَا عِنْدَ الْإِمْكَانِ مِنْ غَيْرِ فِتْنَةٍ تُرَجَّحُ مَفْسَدَتُهَا عَلَى الْمَصْلَحَةِ ، فَخُرُوجُ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ السِّبْطِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى يَزِيدَ الظَّالِمِ الْفَاسِقِ كَانَ حَقًّا مُوَافِقًا لِلشَّرْعِ ، وَلَكِنَّهُ مَا أَعَدَّ لَهُ عُدَّتَهُ الْكَافِيَةَ ، بَلْ خَذَلَهُ مَنْ عَاهَدُوهُ عَلَى نَصْرِهِ ، وَقَدِ امْتَنَعَ أَبُو حَنِيفَةَ

مِنَ الْإِجَابَةِ إِلَى وِلَايَةِ الْقَضَاءِ ، وَفَرَّ مِنْهَا الشَّافِعِيُّ ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِ مَالِكٍ مَا كَانَ حَتَّى رُوِيَ أَنَّهُ تَرَكَ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ مَعَ وُلَاتِهِمْ .

(69/387)

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ حَزْمٍ فِي كِتَابِهِ (مَرَاتِبُ الْإِجْمَاعِ) : وَاتَّفَقُوا أَنَّ الْإِمَامَ الْوَاجِبُ إِمَامَتُهُ ، فَإِنَّ طَاعَتَهُ فِي كُلِّ مَا أَمَرَ مَا لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً فَرْضٌ ، وَالْقِتَالُ دُونَهُ فَرْضٌ ، وَخِدْمَتُهُ فِيمَا أَمَرَ بِهِ وَاجِبَةٌ ، وَأَحْكَامُهُ وَأَحْكَامُ مَنْ وَلَّى نَافِذَةٌ ، وَاخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَ مُدُنِ الطَّرَفَيْنِ مِنْ إِمَامٍ قُرَشِيٍّ غَيْرِ عَدْلٍ أَوْ مُتَغَلِّبٍ مِنْ قُرَيْشٍ أَوْ مُبْتَدِعٍ إِلَخْ . وَأَوْرَدَ الشَّوْكَانِيُّ فِي الْبَابِ مِنْ " نَيْلِ الْأَوْطَارِ " حَدِيثَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ : " بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا ، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا

وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ اللهِ بُرْهَانٌ " ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . وَقَالَ الشَّوْكَانِيُّ فِي شَرْحِهِ مَا نَصُّهُ :

قَوْلُهُ : " عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ اللهِ بُرْهَانٌ " أَيْ : نَصُّ آيَةٍ ، أَوْ خَبَرٌ صَرِيحٌ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ .

وَمُقْتَضَاهُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْخُرُوجُ عَلَيْهِمْ مَا دَامَ فِعْلُهُمْ يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ ، قَالَ النَّوَوِيُّ : الْمُرَادُ بِالْكُفْرِ هُنَا الْمَعْصِيَةُ ، وَمَعْنَى الْحَدِيثِ : لَا تُنَازِعُوا وُلَاةَ الْأُمُورِ فِي وِلَايَتِهِمْ ، وَلَا تَعْتَرِضُوا عَلَيْهِمْ إِلَّا

أَنْ تَرَوْا مِنْهُمْ مُنْكَرًا مُحَقَّقًا تَعْلَمُونَهُ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَأَنْكِرُوا عَلَيْهِمْ وَقُولُوا بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ . انْتَهَى .

(70/387)

" قَالَ فِي الْفَتْحِ : وَقَالَ غَيْرُهُ : إِذَا كَانَتِ الْمُنَازَعَةُ فِي الْوِلَايَةِ ، فَلَا يُنَازِعُهُ بِمَا يَقْدَحُ فِي الْوِلَايَةِ إِلَّا إِذَا ارْتَكَبَ الْكُفْرَ ، وَحَمَلَ رِوَايَةَ الْمَعْصِيَةِ عَلَى مَا إِذَا كَانَتِ الْمُنَازَعَةُ فِيمَا عَدَا الْوِلَايَةِ ، فَإِذَا لَمْ يَقْدَحْ فِي الْوِلَايَةِ نَازَعَهُ فِي الْمَعْصِيَةِ بِأَنْ يُنْكِرَ عَلَيْهِ بِرِفْقٍ ، وَيَتَوَصَّلَ إِلَى تَثْبِيتِ الْحَقِّ لَهُ بِغَيْرِ عُنْفٍ ، وَمَحَلُّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ قَادِرًا ، وَنَقَلَ ابْنُ التِّينِ عَنِ الدَّاوُدِيِّ قَالَ : الَّذِي عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ فِي أُمَرَاءِ الْجَوْرِ أَنَّهُ إِنْ قَدَرَ عَلَى خَلْعِهِ بِغَيْرِ فِتْنَةٍ وَلَا ظُلْمٍ وَجَبَ ، وَإِلَّا فَالْوَاجِبُ الصَّبْرُ ، وَعَنْ بَعْضِهِمْ : لَا يَجُوزُ عَقْدُ الْوِلَايَةِ لِفَاسِقٍ ابْتِدَاءً ، فَإِنْ أَحْدَثَ جَوْرًا بَعْدَ أَنْ كَانَ عَدْلًا فَاخْتَلَفُوا فِي جَوَازِ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ ، وَالصَّحِيحُ الْمَنْعُ ، إِلَّا أَنْ يَكْفُرَ فَيَجِبُ الْخُرُوجُ عَلَيْهِ ، قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ : إِنَّ حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ الْمَذْكُورَ فِي أَوَّلِ الْبَابِ حُجَّةٌ فِي تَرْكِ الْخُرُوجِ عَلَى السُّلْطَانِ وَلَوْ جَارَ .

" قَالَ فِي الْفَتْحِ : وَقَدْ أَجْمَعَ الْفُقَهَاءُ عَلَى وُجُوبِ طَاعَةِ السُّلْطَانِ الْمُتَغَلِّبِ وَالْجِهَادِ مَعَهُ ، وَأَنَّ طَاعَتَهُ خَيْرٌ مِنَ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ حَقْنِ الدِّمَاءِ وَتَسْكِينِ الدَّهْمَاءِ ، وَلَمْ

يَسْتَثْنُوا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا وَقَعَ مِنَ السُّلْطَانِ الْكُفْرُ الصَّرِيحُ ، فَلَا يَجُوزُ طَاعَتُهُ فِي ذَلِكَ ، بَلْ تَجِبُ مُجَاهَدَتُهُ لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهَا كَمَا فِي الْحَدِيثِ . انْتَهَى . "

(71/387)

وَقَدِ اسْتَدَلَّ الْقَائِلُونَ بِوُجُوبِ الْخُرُوجِ عَلَى الظَّلَمَةِ وَمُنَابَذَتِهِمُ السَّيْفَ وَمُكَافَحَتِهِمْ بِالْقِتَالِ ، بِعُمُومَاتٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي وُجُوبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَا شَكَّ وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْأَحَادِيثَ الَّتِي ذَكَرَهَا الْمُصَنِّفُ فِي هَذَا الْبَابِ وَذَكَرْنَاهَا أَخَصُّ مِنْ تِلْكَ الْعُمُومَاتِ مُطْلَقًا ، وَهِيَ مُتَوَاتِرَةُ الْمَعْنَى كَمَا يَعْرِفُ ذَلِكَ مَنْ لَهُ أُنْسَةٌ بِعِلْمِ السُّنَّةِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يَحُطَّ عَلَى مَنْ خَرَجَ مِنَ السَّلَفِ
الصَّالِحِ مِنَ الْعِتْرَةِ وَغَيْرِهِمْ عَلَى أَئِمَّةِ الْجَوْرِ ، فَإِنَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ بِاجْتِهَادٍ مِنْهُمْ ، وَهُمْ أَتْقَى لِلَّهِ وَأَطْوَعُ لِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ مِنْ جَمَاعَةٍ مِمَّنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَلَقَدْ أَفْرَطَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ كَالْكَرَّامِيَّةِ ، وَمَنْ وَافَقَهُمْ فِي الْجُمُودِ عَلَى أَحَادِيثِ الْبَابِ ، حَتَّى حَكَمُوا بِأَنَّ الْحُسَيْنَ السِّبْطَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ – بَاغٍ عَلَى الْخِمِّيرِ السِّكِّيرِ الْهَاتِكِ لِحُرَمِ الشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ لَعَنَهُمُ اللهُ ، فَيَالَلَّهِ الْعَجَبُ مِنْ مَقَالَاتٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهَا الْجُلُودُ ، وَيَتَصَدَّعُ مِنْ سَمَاعِهَا كُلُّ جُلْمُودٍ . انْتَهَى مَا فِي نَيْلِ الْأَوْطَارِ .

هَذَا وَإِنَّ حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ الَّذِي عَزَاهُ إِلَى أَوَّلِ الْبَابِ هُوَ قَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ فَمِيتَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ " هُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . وَهَذَا وَمَا فِي مَعْنَاهُ مِنْ أَحَادِيثِ لُزُومِ الْجَمَاعَةِ وَإِمَامِهِمُ الَّذِي بَايَعُوهُ وَاجْتَمَعَتْ كَلِمَتُهُمْ عَلَيْهِ ، أَخَصُّ مِمَّا تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِيهِ عَنِ الْعُلَمَاءِ فِي أُمَرَاءِ الْجَوْرِ ، وَقَدْ قَالُوا فِي مَعْنَى مَوْتِهِ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً : إِنَّهُ يَمُوتُ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ لِإِمَامٍ يَلْتَزِمُهَا مَعَ جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ ، كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ ، فَيَكُونُ كَمَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْفَوْضَى لَا أَنَّهُ يَكُونُ كَافِرًا اهـ .

وَكُلُّ هَذَا فِي خُرُوجِ بَعْضِ الْأَفْرَادِ أَوِ الْفِئَاتِ عَلَى إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ وَجَمَاعَتِهِمْ بِشَقِّ عَصَا الطَّاعَةِ ، وَتَفْرِيقِ شَمْلِ الْجَمَاعَةِ ، وَهُوَ الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ ، وَإِنْ كَانَ الْإِمَامُ ظَالِمًا ، فَإِنْ كَفُّ الْإِمَامِ عَنِ الظُّلْمِ وَلَوْ بِالْعَزْلِ فَهُوَ حَقُّ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ الَّذِينَ هُمْ مَحَلُّ ثِقَةِ الْأُمَّةِ ، الَّذِينَ يُمَثِّلُونَ الرَّأْيَ الْعَامَّ فِيهَا ، الَّذِينَ عَنَاهُمْ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِقَوْلِهِ فِي خُطْبَتِهِ الْأُولَى عَقِبَ مُبَايَعَتِهِ : " فَإِذَا اسْتَقَمْتُ فَأَعِينُونِي ، وَإِذَا زُغْتُ فَقَوِّمُونِي " .

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ .

هَذَا أَمْرٌ بِأَعْظَمِ الْعِبَادَاتِ وَبِأَعْظَمِ الْأَخْلَاقِ ، اللَّذَيْنِ يُسْتَعَانُ بِهِمَا عَلَى مَا قَبْلَهُمَا مِنَ الْأَمْرِ بِالِاسْتِقَامَةِ وَالنَّهْيِ عَنِ الطُّغْيَانِ وَالرُّكُونِ إِلَى أُولِي الظُّلْمِ ، وَلِذَلِكَ عُطِفَا عَلَيْهِمَا .

(74/387)

- وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ - خَصَّ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ بِالذِّكْرِ فِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ الْعَامَّةِ الْمُجْمَلَةِ ، لِأَنَّهَا رَأْسُ الْعِبَادَاتِ الْمُغَذِّيَةِ لِلْإِيمَانِ وَالْمُعِينَةِ عَلَى سَائِرِ الْأَعْمَالِ ، أَيْ : أَدِّهَا عَلَى الْوَجْهِ الْقَوِيمِ وَأَدِمْهَا فِي طَرَفَيِ النَّهَارِ مِنْ كُلِّ يَوْمٍ ، طَرَفُ الشَّيْءِ وَالزَّمَنِ النَّاحِيَةُ وَالطَّائِفَةُ مِنْهُ وَنِهَايَتُهُ ، فَطَرَفَا النَّهَارِ هُنَا الْبُكْرَةُ وَالْأَصِيلُ أَوِ الْغُدُوُّ وَالْعَشِيُّ ، وَقَدْ أَمَرَنَا - تَعَالَى - فِي التَّنْزِيلِ بِالذِّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ فِيهِمَا : - وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ - أَيْ : وَفِي زُلَفٍ مِنَ اللَّيْلِ ، جَمْعُ زُلْفَةٍ ، وَهِيَ بِالضَّمِّ كَقُرَبٍ جَمْعُ قُرْبَةٍ لَفْظًا وَمَعْنًى ، وَتُطْلَقُ كَمَا فِي مَعَاجِمِ اللُّغَةِ عَلَى الطَّائِفَةِ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ لِقُرْبِهَا مِنَ النَّهَارِ ، وَقَالُوا : الزُّلَفُ سَاعَاتُ اللَّيْلِ الْآخِذَةُ مِنَ النَّهَارِ ، وَسَاعَاتُ النَّهَارِ الْآخِذَةُ مِنَ اللَّيْلِ ، رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ صَلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ الْمَغْرِبُ وَالْغَدَاةُ (أَيِ

الْفَجْرُ) وَزُلَفُ اللَّيْلِ الْعَتَمَةُ (أَيِ الْعِشَاءُ) ، وَعَنِ الْحَسَنِ أَنَّ صَلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ الْفَجْرُ وَالْعَصْرُ ، وَقَالَ فِي زُلَفِ اللَّيْلِ هُمَا زُلْفَتَانِ : صَلَاةُ الْمَغْرِبِ ، وَصَلَاةُ الْعِشَاءِ ، وَقَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " هُمَا زُلْفَتَا اللَّيْلِ " وَهَذَا أَقْرَبُ إِلَى اللُّغَةِ مِمَّا قَبْلَهُ ، فَإِنْ صَحَّ الْحَدِيثُ فَلَا مَعْدِلَ عَنْهُ ، وَلَكِنَّهُ مِنْ مَرَاسِيلِ الْحَسَنِ فَيُبْحَثُ عَمَّنْ رَفَعَهُ ، وَأَدْخَلَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ صَلَاةَ

(75/387)

الظُّهْرِ فِي طَرَفَيِ النَّهَارِ ; إِذْ يَصِحُّ أَنْ يُسَمَّى وَقْتُهَا طَرَفًا بِمَعْنَى أَنَّهُ طَائِفَةٌ وَنَاحِيَةٌ مِنَ النَّهَارِ يَفْصِلُهَا مِنْ غَيْرِهَا زَوَالُ الشَّمْسِ ، وَلَكِنَّهُ طَرَفٌ ثَالِثٌ ، وَاللَّفْظُ هُنَا مُثَنًّى ، وَفِي سُورَةِ طه : - وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى - 20 : 130 فَجَمَعَ الْأَطْرَافَ بَعْدَ ذِكْرِ الطَّرَفَيْنِ الْأَخِيرَيْنِ بِالْمَعْنَى ، وَهُمَا وَقْتَا صَلَاتَيِ الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ .

(76/387)

وَالْأَظْهَرُ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ - تَعَالَى - وَتَسْبِيحَهُ الْمُطْلَقَ فِيهَا عَامٌّ، فَيَدْخُلُ فِيهِ الصَّلَاةُ وَغَيْرُهَا، وَالْآيَةُ الصَّرِيحَةُ فِي أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: - فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ - 30: 17 و148 تُمْسُونَ تَدْخُلُونَ فِي الْمَسَاءِ وَهُوَ مَا بَيْنَ الظُّهْرِ إِلَى الْمَغْرِبِ، نَقَلَهُ فِي الْمِصْبَاحِ عَنِ ابْنِ الْقُوطِيَّةِ، ذَكَرَ هُوَ وَغَيْرُهُ مِثْلَ هَذَا فِي تَفْسِيرِ الْعَشِيِّ، وَهُوَ غَلَطٌ سَبَبُهُ اشْتِرَاكُ الْوَقْتَيْنِ بِاتِّصَالِ آخِرِ الْمَسَاءِ بِأَوَّلِ الْعَشِيِّ، وَهُوَ أَوَّلُ اللَّيْلِ حَيْثُ يَخْتَلِطُ النُّورُ بِالظَّلَامِ، فَصَلَاةُ الْمَغْرِبِ الْعِشَاءُ الْأُولَى، وَصَلَاةُ الْعَتَمَةِ الْعِشَاءُ الْآخِرَةُ الَّتِي يَزُولُ عِنْدَهَا الشَّفَقُ، وَهُوَ آخِرُ أَثَرٍ لِنُورِ النَّهَارِ، وَفِي مَعْنَى هَذَا قَوْلُهُ - تَعَالَى -: - أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ - 17: 78 الْآيَةَ، فَدُلُوكُ الشَّمْسِ زَوَالُهَا، أَيْ أَقِمْهَا لِأَوَّلِ وَقْتِهَا هَذَا وَفِيهِ صَلَاةُ الظُّهْرِ، مُنْتَهِيًا إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَهُوَ ابْتِدَاءُ ظُلْمَتِهِ وَيَدْخُلُ فِيهِ صَلَاةُ الْعَصْرِ وَالْعِشَائَيْنِ، وَأَقِمْ صَلَاةَ الْفَجْرِ .

-

إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ - الْجُمْلَةُ تَعْلِيلٌ لِلْأَمْرِ قَبْلَهَا مُبَيِّنٌ لِحِكْمَتِهِ وَفَائِدَتِهِ .

ومَعْنَاهَا : أَنَّ لِلْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ مِنْ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ وَإِصْلَاحِهَا ، مَا يَمْحُو مِنْهَا تَأْثِيرَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ وَإِفْسَادِهَا ، رُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ تَفْسِيرُ الْحَسَنَاتِ فِيهَا بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ ، زَادَ ابْنُ عَبَّاسٍ : - وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ - وَلَا غَرْوَ ، فَالصَّلَاةُ أَعْظَمُ الْحَسَنَاتِ ، وَأَكْبَرُ الْعِبَادَاتِ الْمُكَفِّرَةِ لِلسَّيِّئَاتِ ، وَلَكِنْ لَفْظُ الْحَسَنَاتِ عَامٌّ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ حَتَّى التُّرُوكِ فَإِنَّهَا عَمَلٌ نَفْسِيٌّ ، وَمِنْهُ : - إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا - 4 : 31 وَفِي الْحَدِيثِ : " وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا " - ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ - أَيْ : إِنَّ فِيمَا ذُكِرَ مِنَ الْوَصَايَا مِنَ الْأَمْرِ بِالِاسْتِقَامَةِ إِلَى هُنَا لَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّعِظِينَ الَّذِينَ يُرَاقِبُونَ اللهَ وَلَا يَنْسَوْنَهُ .

(78/387)

وَقَدْ فَسَّرُوا السَّيِّئَاتِ هُنَا بِالصَّغَائِرِ ، وَأَيَّدُوهُ بِمَا رُوِيَ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ : أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنِ امْرَأَةٍ قُبْلَةً فَأَتَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ كَأَنَّهُ يَسْأَلُهُ عَنْ كَفَّارَتِهَا فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ : - وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ - إِلَخْ . فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَلِي هَذِهِ ؟ قَالَ : " هِيَ لِمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ أُمَّتِي " رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ إِلَّا أَبَا دَاوُدَ ، وَأَشْهَرُ رُوَاةِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ ، وَفِي رِوَايَةٍ لِغَيْرِ الْبُخَارِيِّ ، وَأَبُو دَاوُدَ مِنْهُمْ - أَنَّ الرَّجُلَ قَالَ لِلنَّبِيِّ : إِنِّي

وجدت امرأة في البستان ففعلت بها كل شيء غير أني لم أجامعها ، قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك ، فافعل بي ما شئت ، فلم يقل له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيئا ، فذهب الرجل ، فقال عمر : لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه ، فأتبعه رسول الله بصره فقال : " ردوه علي " فردوه فقرأ عليه : - وأقم الصلاة طرفي النهار - الآية . فقال معاذ بن جبل : يا رسول الله أله وحده أم للناس كافة ؟ قال : " بل للناس كافة " وليس في هذه الرواية أن الآية نزلت في هذه النازلة ، وهنالك روايات أخرى عن معاذ بن جبل وابن عباس في معنى حديث ابن مسعود في الجملة أو

(79/387)

مغزاه ، وقد سمي الرجل في بعضها بأبي اليسر ، ومنها حديث أبي أمامة عند أحمد ومسلم وأبي داود وغيرهم : أن رجلا قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - : يا رسول الله أقم في حد الله - مرة أو مرتين - فأعرض عنه ، ثم أقيمت الصلاة ، فلما فرغ منها قال : " أين الرجل " ؟ قال : أنا ذا ، قال : " أتممت الوضوء وصليت معنا آنفا " ؟ قال : نعم ، قال : " فإنك خرجت من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد " والمراد : خرجت من خطيئتك التي طلبت تكفيرها بإقامة الحد وهي لا حد فيها ، وإنما يجب في تكفيرها

التَّوْبَةُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ الَّذِي يُزَكِّي النَّفْسَ ، وَمِنْ أَعْظَمِهَا الْوُضُوءُ التَّامُّ وَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ ، وَقَدْ تَابَ الرَّجُلُ تَوْبَةً نَصُوحًا ؛ بِدَلِيلِ طَلَبِهِ إِقَامَةَ الْحَدِّ عَلَيْهِ ، وَالتَّوْبَةُ مَعَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ تُكَفِّرُ الصَّغَائِرَ

وَالْكَبَائِرَ إِلَّا حُقُوقَ الْعِبَادِ ، فَإِنَّهُ يَجِبُ أَدَاؤُهَا أَوِ اسْتِحْلَالُ أَهْلِهَا مِنْهَا إِنْ أَمْكَنَ . وَذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ تَكْفِيرَ الْحَسَنَاتِ لِلصَّغَائِرِ لَا يُشْتَرَطُ فِيهِ التَّوْبَةُ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ ، وَيَقُولُ الْغَزَّالِيُّ : إِنَّ كُلَّ نَوْعٍ مِنَ الْحَسَنَاتِ يُكَفِّرُ مَا هُوَ ضِدُّهُ مِنَ السَّيِّئَاتِ ، كَتَكْفِيرِ الْبُخْلِ بِالْإِنْفَاقِ ، وَالْإِسَاءَةِ إِلَى النَّاسِ بِالْإِحْسَانِ إِلَخْ .

(80/387)

وَالْآيَاتُ فِي تَكْفِيرِ السُّوءِ وَالسَّيِّئَاتِ الْمُطْلَقَةِ وَالْمُعَيَّنَةِ كَثِيرَةٌ ، وَمِنَ الثَّانِي كَفَّارَاتُ الظِّهَارِ وَمُحَرَّمَاتُ الْإِحْرَامِ وَالْحِنْثُ بِالْأَيْمَانِ ، وَأَمْثَالُ هَذِهِ لَا يُشْتَرَطُ فِيهَا التَّوْبَةُ ، فَذُنُوبُهَا عَارِضَةٌ لَيْسَ مِنْ شَهَوَاتِ النَّفْسِ تَكْرَارُهَا كَالْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ الْمُدَنِّسَةِ لِلنَّفْسِ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى وَالشَّهَوَاتِ الْبَاعِثَةِ عَلَى الْإِصْرَارِ ، فَهَذِهِ لَا يُطَهِّرُهَا مِنْهَا وَيُزَكِّيهَا إِلَّا التَّوْبَةُ ، وَإِنَّمَا تَتَحَقَّقُ التَّوْبَةُ بِالنَّدَمِ عَلَى فِعْلِ الذَّنْبِ الْمُقْتَضِي لِتَرْكِهِ ، وَإِزَالَةِ أَثَرِهِ مِنَ النَّفْسِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، فَبِجُمْلَةِ هَذِهِ الْمَعَانِي الثَّلَاثَةِ يَحْصُلُ الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ بَعْدَ الْإِعْرَاضِ وَالْبُعْدِ عَنْهُ بِعِصْيَانِهِ ،

وَشَرَحَ الْغَزَّالِيُّ هَذَا الْمَعْنَى لِلتَّوْبَةِ بِقَوْلِهِ: إِنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ: عِلْمٍ، وَحَالٍ، وَعَمَلٍ، كُلٌّ مِنْهَا سَبَبٌ لِمَا بَعْدَهُ، فَالْعِلْمُ بِحُرْمَةِ الذَّنْبِ وَكَوْنِهِ سَبَبًا لِسُخْطِ اللهِ - تَعَالَى - وَعِقَابِهِ يُوجِبُ الْحَالَ، أَيْ يُحْدِثُهُ، وَهُوَ الْخَوْفُ وَأَلَمُ النَّفْسِ، وَهَذَا يُوجِبُ الْعَمَلَ وَهُوَ تَرْكُ الذَّنْبِ وَتَكْفِيرُهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ انْتَهَى بِالْمَعْنَى مُوجَزًا .

(81/387)

وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى التَّوْبَةِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ، مِنْهَا الْكَلَامُ عَلَى تَوْبَةِ آدَمَ فِي سُورَتَيِ الْبَقَرَةِ وَالْأَعْرَافِ، وَمِنْهَا سُورَةُ النِّسَاءِ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: - إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ - 4 : 17 إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ،

وَمِنْهَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: - وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ 6 : 54 وَسَيَأْتِي فِي مَعْنَاهُ مِنْ سُورَةِ النَّحْلِ: - ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ - 16 : 119

وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ طه: - وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى - 20 : 82

وَنَاهِيكَ بِمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَاخِرِ التَّوْبَةِ مِنْ آيَاتِ التَّوْبَةِ، وَلَا سِيَّمَا تَوْبَةُ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ غَزْوَةِ

تَبُوكَ فَفِيهَا أَكْبَرُ الْعِبَرِ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ .

- وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ - (3) أَيْ وَوَطِّنْ نَفْسَكَ عَلَى احْتِمَالِ الْمَشَقَّةِ فِي سَبِيلِ مَا أُمِرْتَ بِهِ وَمَا نُهِيتَ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْوَصَايَا حَتَّى الصَّلَاةِ ، كَمَا قَالَ : - وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا - 20 : 132 وَاسْتَعِنْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ عَلَى سَائِرِ أَعْبَاءِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ

(82/387)

وَالْإِصْلَاحِ ، وَانْتِظَارِ عَاقِبَتِهَا مِنَ النَّصْرِ وَالْفَلَاحِ ، فَإِنَّ هَذَا مِنَ الْإِحْسَانِ الَّذِي لَا جَزَاءَ لَهُ إِلَّا الْإِحْسَانُ ، - فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ - فِي أَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ، بَلْ يُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَكِنَّ لِلْجَزَاءِ فِي أُمُورِ الْأُمَمِ آجَالًا وَأَقْدَارًا يَجِبُ الصَّبْرُ فِي انْتِظَارِهَا ، وَعَدَمُ اسْتِعْجَالِهَا قَبْلَ أَوَانِهَا .

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

هَذِهِ الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ فِي بَيَانِ سُنَنِ اللهِ الْعَامَّةِ فِي إِهْلَاكِ أُولَئِكَ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ قَصَّ عَلَى رَسُولِهِ قِصَصَهُمْ وَأَمْثَالَهُمْ ، جَاءَتْ بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ بَيَانِ عَاقِبَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَإِنْذَارِ قَوْمِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِهِمْ ، مَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ آمَنَ وَتَابَ مَعَهُ مِنَ الِاسْتِقَامَةِ وَالصَّلَاحِ ، وَاجْتِنَابِ أَهْلِ الظُّلْمِ وَالْفَسَادِ ، قَالَ : - فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ - " لَوْلَا " تَحْضِيضِيَّةٌ بِمَعْنَى : هَلَّا ، وَالْقُرُونُ : الْأُمَمُ وَالْأَقْوَامُ ، وَالْقَرْنُ فِي اللُّغَةِ كَمَا فِي الْمِصْبَاحِ : " الْجِيلُ مِنَ النَّاسِ . قِيلَ : ثَمَانُونَ سَنَةً ، وَقِيلَ : سَبْعُونَ " أَقُولُ : ثُمَّ اشْتُهِرَ تَقْدِيرُهُ بِمِائَةِ سَنَةٍ . وَالْبَقِيَّةُ مِنَ الشَّيْءِ مَا يَبْقَى مِنْهُ بَعْدَ ذَهَابِ أَكْثَرِهِ ، وَمِنَ النَّاسِ كَذَلِكَ ، وَاسْتُعْمِلَ فِي الْخِيَارِ وَالْأَصْلَحِ وَالْأَنْفَعِ ، قِيلَ : لِأَنَّ النَّاسَ يُنْفِقُونَ فِي الْعَادَةِ أَرْدَأَ مَا عِنْدَهُمْ وَأَقْرَبَهُ إِلَى التَّلَفِ وَالْفَسَادِ أَوَّلًا وَيَسْتَبْقُونَ الْأَجْوَدَ فَالْأَجْوَدَ ، وَنَقُولُ : لِأَنَّ الْأَحْيَاءَ يَهْلِكُ مِنْهُمُ الْأَضْعَفُ فَالْأَضْعَفُ أَوَّلًا وَيَبْقَى الْأَقْوَى فَالْأَقْوَى ، وَمِنْ هَذَا مَا يُعْرَفُ فِي عِلْمِ الِاجْتِمَاعِ بِسُنَّةِ الِانْتِخَابِ الطَّبِيعِيِّ ، وَهُوَ إِفْضَاءُ تَنَازُعِ الْأَحْيَاءِ إِلَى بَقَاءِ الْأَمْثَلِ وَالْأَصْلَحِ ، كَمَا وَرَدَ فِي الْمَثَلِ الَّذِي ضَرَبَهُ اللهُ لِلْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : - فَأَمَّا الزَّبَدُ

(84/387)

فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ - 13 : 17 وَمِنْ ثَمَّ يُعَبِّرُونَ عَنِ الْخِيَارِ بِالْبَقِيَّةِ ، يَقُولُونَ : فِي الزَّوَايَا خَبَايَا ، وَفِي النَّاسِ بَقَايَا ، وَبِهَذَا فُسِّرَتِ الْآيَةُ .

وَالْمَعْنَى : فَهَلَّا كَانَ - أَيْ وُجِدَ - مِنْ أُولَئِكَ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ أَهْلَكْنَاهُمْ بِظُلْمِهِمْ وَفَسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ ، جَمَاعَةٌ أَصْحَابُ بَقِيَّةٍ مِنَ النُّهَى وَالرَّأْيِ وَالصَّلَاحِ يَنْهَوْنَهُمْ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ الظُّلْمُ وَاتِّبَاعُ الْهَوَى وَالشَّهَوَاتِ الَّتِي تُفْسِدُ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَمَصَالِحَهُمْ ، فَيَحُولُ نَهْيُهُمْ إِيَّاهُمْ دُونَ هَلَاكِهِمْ ، فَإِنَّ مِنْ سُنَّتِنَا أَلَّا نُهْلِكَ قَوْمًا إِلَّا إِذَا عَمَّ الْفَسَادُ وَالظُّلْمُ أَكْثَرَهُمْ ، كَمَا يَأْتِي فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ : - إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ - أَيْ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ بَقِيَّةٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْعُقَلَاءِ الْأَخْيَارِ ، النَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، الْآمِرِينَ

بِالْمَعْرُوفِ ، وَلَكِنْ كَانَ هُنَالِكَ قَلِيلٌ مِنَ الَّذِينَ أَنْجَيْنَاهُمْ ، أَوْ هُمُ الَّذِينَ أَنْجَيْنَاهُمْ مَعَ الرُّسُلِ مِنْهُمْ ، وَكَانُوا مَنْبُوذِينَ لَا يُقْبَلُ نَهْيُهُمْ وَأَمْرُهُمْ ، مُهَدَّدِينَ مَعَ رُسُلِهِمْ بِالطَّرْدِ وَالْإِبْعَادِ ، بَعْدَ الْأَذَى وَالِاضْطِهَادِ - وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا - وَهُمُ الْأَكْثَرُونَ مِنْهُمْ - مَا أُتْرِفُوا فِيهِ - أَيْ : مَا رَزَقْنَاهُمْ وَآتَيْنَاهُمْ مِنْ أَسْبَابِ التَّرَفِ وَالنَّعِيمِ فَبَطِرُوا .

(85/387)

يُقَالُ : أَتْرَفَتْهُ النِّعْمَةُ أَيْ أَبْطَرَتْهُ وَأَفْسَدَتْهُ ، وَالْبَطَرُ : الطُّغْيَانُ فِي الْمَرَحِ وَخِفَّةُ النَّشَاطِ وَالْفَرَحِ - وَكَانُوا مُجْرِمِينَ - أَيْ : مُتَلَبِّسِينَ بِالْإِجْرَامِ الَّذِي وَلَّدَهُ التَّرَفُ رَاسِخِينَ فِيهِ ، فَكَانَ هُوَ الْمُسَخِّرُ لِعُقُولِهِمْ فِي تَرْجِيحِ مَا أُعْطُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ .

رَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ : أَقْرَأَنِي رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " أُولُو بَقِيَّةٍ وَأَحْلَامٍ " وَالْأَشْبَهُ عِنْدِي أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذَكَرَ الْأَحْلَامَ تَفْسِيرًا لَا قُرْآنًا . وَالْمَعْنَى : أَنَّ الْعُقُولَ السَّلِيمَةَ الرَّشِيدَةَ كَافِيَةٌ لِفَهْمِ مَا فِي دَعْوَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنَ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ ، لَوْ لَمْ يَمْنَعْ مِنِ اسْتِعْمَالِ هِدَايَتِهَا الِافْتِتَانُ بِالتَّرَفِ ، وَالتَّفَنُّنُ فِي أَنْوَاعِهِ ، بَدَلًا مِنَ الْقَصْدِ وَالِاعْتِدَالِ فِيهِ وَشُكْرِ اللهِ الْمُنْعِمِ بِهِ عَلَيْهِ ، فَالْإِتْرَافُ هُوَ الْبَاعِثُ عَلَى الْإِسْرَافِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ ، وَالظُّلْمُ وَالْإِجْرَامُ يَظْهَرُ فِي الْكُبَرَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ ، وَيَسْرِي بِالتَّقْلِيدِ فِي الدَّهْمَاءِ ، فَيَكُونُ سَبَبَ الْهَلَاكِ بِاسْتِئْصَالٍ ، أَوْ فَقْدِ الِاسْتِقْلَالِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : - وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا - 17 :16 .

فَهذَا بيَانٌ لسُنَّتِه - تَعَالَى - فِي الْأُمَمِ قَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا ، وَلَا تُغْنِي عَنْ شُعُوبِ الْإِفْرِنْجِ مَعْرِفَتُهُمْ بِهَذِهِ السُّنَّةِ وَمُحَاوَلَةِ اتِّقَائِهَا لَهَا ، فَحُكَمَاؤُهُمْ وَهُمْ أُولُو الْبَقِيَّةِ وَالْأَحْلَامِ الَّذِينَ يَنْهَوْنَهُمْ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ، يُصَرِّحُونَ بِأَنَّهُمْ سَيَهْلِكُونَ كَمَا هَلَكَ مَنْ قَبْلَهُمْ ، وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ قُوَّتُهُمْ ، بَلْ تَكُونُ هِيَ الْمُهْلِكَةَ لَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ، كَمَا قَالَ - تَعَالَى - : - قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ - 6 : 65 فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهَا .

وَمِنْ عَجَائِبِ الْجَهْلِ وَالْغَيِّ ، أَنَّ مُتَّبِعِي الْإِتْرَافِ مِنْ شُعُوبِنَا يُقَلِّدُونَ الْإِفْرِنْجَ فِي الْإِسْرَافِ فِيهِ دُونَ مَا بِهِ يَرْجُو الْإِفْرِنْجُ اتِّقَاءَ الْهَلَاكِ مِنْ فَسَادِهِ ، وَهُوَ الْقُوَّةُ الْحَرْبِيَّةُ وَفُنُونُ الصِّنَاعَةِ ، فَإِذَا كَانَ فِسْقُ الْإِتْرَافِ يُهْلِكُ الْأُمَمَ الْقَوِيَّةَ ، فَكَيْفَ تَبْقَى مَعَ اتِّبَاعِهِ وَفَسَادِهِ الْأُمَمُ الضَّعِيفَةُ ؟ وَكَيْفَ يَزُولُ وَالْمُتَّبِعُونَ لَهُ هُمُ الْمُلُوكُ وَالْأُمَرَاءُ ، وَالزُّعَمَاءُ وَالْحُكَّامُ ، وَالْكُتَّابُ وَالْخُطَبَاءُ ، وَهُمُ الْأَكْثَرُونَ الظَّاهِرُونَ ، وَالنَّاهُونَ عَنْ فَسَادِهِمُ الْأَقَلُّونَ الْخَامِلُونَ ؟ ثُمَّ بَيَّنَ سُنَّتَهُ - تَعَالَى - فِي إِهْلَاكِ الْأُمَمِ وَمَا يَحُولُ دُونَهُ بِقَوْلِهِ :

- وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ - أَيْ وَمَا كَانَ مِنْ شَأْنِ رَبِّكَ وَسُنَّتِهِ فِي الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ أَنْ يُهْلِكَ الْأُمَمَ بِظُلْمٍ مِنْهُ لَهَا فِي حَالِ كَوْنِ أَهْلِهَا مُصْلِحِينَ فِي الْأَرْضِ . مُجْتَنِبِينَ لِلْفَسَادِ وَالظُّلْمِ ، وَإِنَّمَا أَهْلَكَهُمْ وَيُهْلِكُهُمْ بِظُلْمِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ فِيهَا ، كَمَا تَرَى فِي الْآيَاتِ الْعَدِيدَةِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا .

(88/387)

وَفِي الْآيَةِ وَجْهٌ آخَرُ ، وَهُوَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ سُنَّتِهِ - تَعَالَى - أَنْ - يُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ - يَقَعُ فِيهَا - مَعَ تَفْسِيرِ الظُّلْمِ وَالشِّرْكِ - وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ - فِي أَعْمَالِهِمُ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْعُمْرَانِيَّةِ ، وَأَحْكَامِهِمُ الْمَدَنِيَّةِ وَالتَّأْدِيبِيَّةِ ، فَلَا يَبْخَسُونَ الْحُقُوقَ كَقَوْمِ شُعَيْبٍ ، وَلَا يَرْتَكِبُونَ الْفَوَاحِشَ وَيَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَيَأْتُونَ فِي نَادِيهِمُ الْمُنْكَرَ كَقَوْمِ لُوطٍ ، وَلَا يَبْطِشُونَ بِالنَّاسِ بَطْشَ الْجَبَّارِينَ كَقَوْمِ هُودٍ ، وَلَا يُذِلُّونَ لِمُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ يَسْتَعْبِدُ الضُّعَفَاءَ ، كَقَوْمِ فِرْعَوْنَ - بَلْ لَابُدَّ أَنْ يَضُمُّوا إِلَى الشِّرْكِ الْإِفْسَادَ فِي الْأَعْمَالِ وَالْأَحْكَامِ ، وَهُوَ الظُّلْمُ الْمُدَمِّرُ لِلْعُمْرَانِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ أَنَّهُ لَا يُهْلِكُهَا بِظُلْمٍ قَلِيلٍ مِنْ أَهْلِهَا لِأَنْفُسِهِمْ ، إِذَا كَانَ الْجُمْهُورُ الْأَكْبَرُ مِنْهُمْ مُصْلِحِينَ فِي جُلِّ أَعْمَالِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ لِلنَّاسِ ، أَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ وَأَبُو الشَّيْخِ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَالدَّيْلَمِيُّ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَسْأَلُ عَنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ

فَقَالَ : " وَأَهْلُهَا يُنْصِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَرُوِيَ مَوْقُوفًا عَلَى جَرِيرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَتَنْكِيرُ الظُّلْمِ فِي هَذَا لِلتَّقْلِيلِ وَالتَّحْقِيرِ ، وَفِيمَا قَبْلَهُ لِلتَّعْظِيمِ ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : - إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ - 31 : 13 وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ إِهْلَاكَ الْمُصْلِحِينَ ظُلْمٌ فَلِذَلِكَ يَتَنَزَّهُ اللَّهُ عَنْهُ

(89/387)

.

وَذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْوَجْهِ الثَّانِي الْقَوْلَ الْمَشْهُورَ الْمُعَبِّرَ عَنْ تَجَارِبِ النَّاسِ ، وَهُوَ أَنَّ الْأُمَمَ تَبْقَى مَعَ الْكُفْرِ ، وَلَا تَبْقَى مَعَ الظُّلْمِ ، وَالْأَوْجُهُ الثَّلَاثَةُ فِي الْآيَةِ صَحِيحَةٌ ، وَيَجُوزُ إِرَادَتُهَا كُلُّهَا عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ جَمِيعَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ مِمَّا شَأْنُ صَاحِبِهِ أَنْ يَعْلَمَهُ وَلَا يَكُونُ مُتَعَارِضًا فِي نَفْسِهِ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا لَهُ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمُشْتَرَكِ أَوْ كَانَ بَعْضُهُ حَقِيقَةً وَبَعْضُهُ مَجَازًا ، وَمِنْ أَرْكَانِ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ جَمْعُ الْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ فِي اللَّفْظِ الْقَلِيلِ ، وَأَنْ يَكُونَ بَعْضُهَا وَاضِحًا فِي هَذِهِ الْمَعَانِي وَبَعْضُهَا خَفِيًّا يُرَادُ بِهِ أَنْ يَذْهَبَ الذِّهْنُ وَالْفِكْرُ فِيهِ كُلَّ مَذْهَبٍ ، وَهَذَا مِمَّا يَتَنَافَسُ فِيهِ الْبُلَغَاءُ .

(90/387)

- وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ - أَيُّهَا الرَّسُولُ الْحَرِيصُ عَلَى إِيمَانِ قَوْمِهِ، الْآسِفُ عَلَى إِعْرَاضِ أَكْثَرِهِمْ عَنْ إِجَابَةِ دَعْوَتِهِ، وَاتِّبَاعِ هِدَايَتِهِ - لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً - عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ بِمُقْتَضَى الْغَرِيزَةِ وَالْفِطْرَةِ لَا رَأْيَ لَهُمْ فِيهِ وَلَا اخْتِيَارَ، وَإِذْنْ لَمَا كَانُوا هُمْ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْخَلْقِ الْمُسَمَّى بِالْبَشَرِ وَبِنَوْعِ الْإِنْسَانِ، بَلْ لَكَانُوا فِي حَيَاتِهِمُ الِاجْتِمَاعِيَّةِ كَالنَّحْلِ أَوِ النَّمْلِ، وَفِي حَيَاتِهِمُ الرُّوحِيَّةِ كَالْمَلَائِكَةِ مَفْطُورِينَ عَلَى اعْتِقَادِ الْحَقِّ وَطَاعَةِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فَلَا يَقَعُ بَيْنَهُمُ اخْتِلَافٌ، وَلَكِنَّهُ خَلَقَهُمْ بِمُقْتَضَى حِكْمَتِهِ كَاسِبِينَ لِلْعِلْمِ لَا مُلْهَمِينَ، وَعَامِلِينَ بِالِاخْتِيَارِ وَتَرْجِيحِ بَعْضِ الْمُمْكِنَاتِ الْمُتَعَارِضَةِ عَلَى بَعْضٍ، لَا مَجْبُورِينَ وَلَا مُضْطَرِّينَ، وَجَعَلَهُمْ مُتَفَاوِتِينَ فِي الِاسْتِعْدَادِ وَكَسْبِ الْعِلْمِ وَاخْتِلَافِ الِاخْتِيَارِ، وَقَدْ كَانُوا فِي طَوْرِ الطُّفُولَةِ النَّوْعِيَّةِ فِي الْحَيَاةِ الْفَرْدِيَّةِ وَالزَّوْجِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِ الْبَدَوِيِّ السَّاذَجِ أُمَّةً وَاحِدَةً لَا مَثَارَ لِلِاخْتِلَافِ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ كَثُرُوا وَدَخَلُوا فِي طَوْرِ الْحَيَاةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ فَظَهَرَ اسْتِعْدَادُهُمْ لِلِاخْتِلَافِ وَالتَّنَازُعِ فَاخْتَلَفُوا، كَمَا قَالَ - تَعَالَى - : - وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا - 10 : 19 فِي كُلِّ شَيْءٍ بِالتَّبَعِ لِاخْتِلَافِ الِاسْتِعْدَادِ - وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ - فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى الدِّينِ الَّذِي شَرَعَهُ اللهُ لِتَكْمِيلِ فِطْرَتِهِمْ وَإِزَالَةِ

الِاخْتِلَافِ بَيْنَهُمْ - إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ - مِنْهُمْ فَاتَّفَقُوا عَلَى حُكْمِ كِتَابِ اللهِ فِيهِمْ ، وَهُوَ الْقَطْعِيُّ الدَّلَالَةِ مِنْهُ الَّذِي لَا مَجَالَ لِلِاخْتِلَافِ فِيهِ ، وَعَلَيْهِ مَدَارُ جَمْعِ الْكَلِمَةِ وَوَحْدَةِ الْأُمَّةِ ، إِذِ الظَّنِّيُّ لَا يُكَلَّفُونَ الِاتِّفَاقَ عَلَى مَعْنَاهُ ; لِأَنَّهُ مَوْكُولٌ إِلَى الِاجْتِهَادِ الَّذِي لَا يَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ إِلَّا عَلَى مَنْ ثَبَتَ عِنْدَهُ رُجْحَانُهُ ، وَتَقَدَّمَ تَفْصِيلُ وَحْدَةِ الْبَشَرِ فَاخْتِلَافِهِمْ فَبَعْثَةِ النَّبِيِّينَ وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ مَعَهُمْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ فِي

الْآيَةِ (2 : 213) وَتَفْسِيرِهَا فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ ، - وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ - أَيْ وَلِذَلِكَ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ مِنْ مَشِيئَتِهِ - تَعَالَى - فِيهِمْ ، خَلَقَهُمْ مُسْتَعِدِّينَ لِلِاخْتِلَافِ وَالتَّفَرُّقِ فِي عُلُومِهِمْ وَمَعَارِفِهِمْ وَآرَائِهِمْ وَشُعُورِهِمْ ، وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنْ إِرَادَتِهِمْ وَاخْتِيَارِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ ، وَمِنْ ذَلِكَ الدِّينُ وَالْإِيمَانُ وَالطَّاعَةُ وَالْعِصْيَانُ ، وَحِكْمَتُهُ أَنْ يَكُونُوا مَظْهَرًا لِأَسْرَارِ خَلْقِهِ الْمَادِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ فِي الْأَجْسَامِ وَالْأَرْوَاحِ وَسُنَنِهِ فِي الْأَحْيَاءِ ، وَتَعَلُّقِ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ بِخَلْقِ جَمِيعِ الْمُمْكِنَاتِ ، وَبِهَذَا كَانُوا خُلَفَاءَ الْأَرْضِ - وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا - 2 : 31 وَقَالَ الْحَسَنُ وَعَطَاءٌ : خَلَقَهُمْ لِلِاخْتِلَافِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ : خَلَقَهُمْ لِلرَّحْمَةِ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : خَلَقَهُمْ فَرِيقَيْنِ : فَرِيقًا يُرْحَمُ فَلَا يَخْتَلِفُ ، وَفَرِيقًا لَا يُرْحَمُ فَيَخْتَلِفُ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : - فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ - 105 وَهَذَا أَصَحُّ مِمَّا قَبْلَهُ لِأَنَّهُ جَامِعٌ لِلْقَوْلَيْنِ ، وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ وَقَدْ سَأَلَهُ أَشْهَبُ عَنِ الْآيَةِ فَقَالَ : خَلَقَهُمْ لِيَكُونَ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ . انْتَهَى . أَيْ كَانَ الِاخْتِلَافُ سَبَبَ دُخُولِ كُلٍّ مِنَ الدَّارَيْنِ ، وَفِي الرِّوَايَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ تَقْدِيمُ الْمَعْلُولِ عَلَى الْعِلَّةِ ، وَالْمَعْقُولُ الْمَشْرُوعُ عَكْسُهُ ، فَالتَّرْتِيبُ فِي الْجَزَاءِ أَنْ يُقَالَ : فَرِيقٌ اتَّفَقُوا فِي الدِّينِ فَجَعَلُوا كِتَابَ اللهِ حَكَمًا بَيْنَهُمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، فَاجْتَمَعَتْ كَلِمَتُهُمْ وَكَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً فَرَحِمَهُمُ اللهُ بِوِقَايَتِهِمْ مِنْ شَرِّ الِاخْتِلَافِ وَغَوَائِلِهِ فِي الدُّنْيَا وَمِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ ، وَفَرِيقٌ اخْتَلَفُوا فِيهِ كَمَا اخْتَلَفُوا فِي مَصَالِحِ الدُّنْيَا وَمَنَافِعِهَا وَسُلْطَانِهَا ، فَكَانَ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدًا ، فَذَاقُوا عِقَابَ الِاخْتِلَافِ وَالشِّقَاقِ فِي الدُّنْيَا ، وَأَعْقَبَهُمْ جَزَاءَهُ فِي الْآخِرَةِ فَكَانُوا مَحْرُومِينَ مِنْ رَحْمَتِهِ بِظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ لَا بِظُلْمٍ مِنْهُ لَهُمْ : - وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ - الَّتِي قَالَهَا فِي غَيْرِ الْمُهْتَدِينَ - لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ - أَيْ مِنْ عَالَمَيْ : الْإِنْسِ وَالْجِنِّ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ بِمَا أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ مَعَهُمْ كُتُبَهُ لِهِدَايَةِ الْمُكَلَّفِينَ وَالْحُكْمِ بَيْنَ

الْمُخْتَلِفِينَ ، فَفِي سُورَةِ الم السَّجْدَةِ : – وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ – 32 : 13 الْآيَةَ ، فَهَذَا فَرِيقُ السَّعِيرِ ، وَمِنْهُ يُعْلَمُ جَزَاءُ الْفَرِيقِ الْآخَرِ ، وَالْمَقَامُ يَقْتَضِي الْإِنْذَارَ .

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

هَذِهِ الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ خَاتِمَةُ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَهِيَ فِي بَيَانِ مَا أَفَادَتْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ أَنْبَاءِ أَشْهَرِ الرُّسُلِ الْأَوَّلِينَ مَعَ أَقْوَامِهِمْ فِي نَفْسِهِ ، وَمَا تُفِيدُهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا جَاءَ بِهِ ، وَمَا يَجِبُ أَنْ يُبَلِّغَهُ غَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ مِنَ الْإِنْذَارِ وَالتَّهْدِيدِ لَهُمْ ، وَالْإِشَارَةُ إِلَى مَا يَنْتَظِرُهُ كُلُّ فَرِيقٍ ، وَأَنَّ عَاقِبَتَهُ لَهُ لَا لَهُمْ . ثُمَّ أَمْرُهُ بِعِبَادَتِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، وَعَدَمِ الْمُبَالَاةِ بِمَا يَعْمَلُونَ مِنْ عَدَاوَتِهِ وَالْكَيْدِ لَهُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 162.140 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

لّما كان النعي على الأمم الذين لم يقع فيهم من ينهون عن الفساد فاتّبعوا الإجرام ، وكان الإخبار عن إهلاكهم بأنّه ليس ظلماً من الله وأنهم لو كانوا مصلحين لمَا أهلكوا ، لّما كان ذلك كله قد يثير توهّم أن تعاصي الأمم عمّا أراد الله منهم خروج عن قبضة القُدرة الإلهية أعقب ذلك بما يرفع هذا التوهّم بأنّ الله قادر أن يجعلهم أمّة واحدة متفقة على الحق مستمرّة عليه كما أمرهم أن يكونوا .

ولكن الحكمة التي أقيم عليها نظامُ هذا العالم اقتضت أن يكون نظام عقول البشر قابلاً للتطوّح بهم في مسلك الضّلالة أو في مسلك الهدى على مبلغ استقامة التفكير والنظر ، والسلامة من حجب الضلالة ، وأن الله تعالى لّما خلق العقول صالحة لذلك جعل منها قبول الحق بحسب الفطرة التي هي سلامة العقول من عوارض الجهالة والضلال وهي الفطرة الكاملة المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ كان الناس أمّةً واحدة ﴾ ، وتقدّم الكلام عليها في سورة [البقرة : 213] .

لم يدّخرهم إرشاداً أو نصحاً بواسطة الرُّسُل ودعاة الخير ومُلقّنيه من أتباع الرسل ، وهم أولو البقية الذين ينهون عن الفساد في الأرض ، فمن الناس مهتد وكثير منهم فَاسِقُونَ ولو شاء لَخلق العقولَ البشرية على إلهام متّحد لا تَعْدوه كما خلق إدراك الحيوانات العُجم على نظام لا تتخطّاه من أوّل النشأة إلى انقضاء العالم ، فنجد حال البعير والشّاة في زمن آدم عليه السّلام كحالهما في زماننا هذا ، وكذلك يكون إلى انقراض العالم ، فلا شكّ أن حكمة الله اقتضت هذا النظام في العقل الإنساني لأنّ ذلك أوفى بإقامة مراد الله تعالى من مساعي البشر في هذه الحياة الدنيا الزائلة المخلوطة ، لينتقلوا منها إلى عالم الحياة الأبديّة الخالصة إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فلو خلق الإنسان كذلك لما كان العمل الصالح مقتضياً ثواب النعيم ولا كان الفساد مقتضياً عقاب الجحيم ، فلا جرم أنّ الله خلق البشر على نظام من شأنه طريان الاختلاف بينهم في الأخور ، ومنها أمر الصلاح والفساد في الأرض وهو أهمّها وأعظمها ليتفاوت الناس في مدارج الارتقاء ويَسْموا إلى مراتب الزلفى فتتميز أفراد هذا النوع في كل أنحاء الحياة حتى يعد الواحد بألف ﴿ ليميز اللّهُ الخبيث من الطيب ﴾ [الأنفال : 37] .

وهذا وجه مناسبة عطف جملة ﴿ وتمّت كلمة ربك لأملأنّ جهنم من الجِنة والناس أجمعين ﴾ على جملتي ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ .

ومفعول فعل المشيئة محذوف لأنّ المراد منه ما يُساوي مضمون جواب الشرط فحُذف إيجازاً .

والتقدير : ولو شاء ربك أن يجعل الناس أمّة واحدة لجعلهم كذلك .

والأمّة : الطائفة من الناس الذين اتّحدوا في أمر من عظائم أمور الحياة كالموطن واللّغة والنّسب والدّين .

وقد تقدمت عند قوله تعالى : ﴿ كان الناس أمّةً واحدةً ﴾ في سورة [البقرة : 213] .

(96/387)

فتفسر الأمّة في كل مقام بما تدل عليه إضافتها إلى شيء من أسباب تكوينها كما يقال : الأمّة العربيّة والأمّة الإسلاميّة .

ومعنى كونها واحدة أن يكون البشر كلّهم متّفقين على اتّباع دين الحق كما يدل عليه السياق ، فآل المعنى إلى : لو شاء ربك لجعل الناس أهل ملّة واحدة فكانوا أمّة واحدة من حيث الدّين الخالص .

وفهم من شرط (لو) أنّ جعلهم أمّة واحدة في الدّين منتفية ، أي منتف دوامها على الوحدة في الدّين وإنْ كانوا قد وُجدوا في أوّل النشأة متّفقين فلم يلبثوا حتّى طرأ الاختلاف بينَ ابني

آدم عليه السّلام لقوله تعالى : ﴿ كان النّاس أمّة واحدة ﴾ [البقرة : 213] وقوله : ﴿ وما كان النّاس إلاّ أمّة واحدةً فاختلفوا ﴾ في سورة [يونس : 19] ؛ فعلم أنّ الناس قد اختلفوا فيما مضى فلم يكونوا أمّة واحدة ، ثم لا يدري هل يؤول أمرهم إلى الاتّفاق في الدّين فأعقب ذلك بأنّ الاختلاف دائم بينهم لأنّه من مقتضى ما جُبِلت عليه العقول .

ولمّا أشعر الاختلاف بأنه اختلاف في الدّين ، وأنّ معناه العدول عن الحق إلى الباطل ، لأنّ الحق لا يقبل التعدّد والاختلاف ، عُقّب عموم ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ باستثناء من ثبتوا على الدين الحق ولم يخالفوه بقوله : ﴿ إلاّ من رحم ربك ﴾ ، أي فعصمهم من الاختلاف .

وفهم من هذا أنّ الاختلاف المذموم المحذّر منه هو الاختلاف في أصول الدّين الذي يترتّب عليه اعتبار المخالف خارجاً عن الدين وإن كان يزعم أنه من مُتّبعيه ، فإذا طرأ هذا الاختلاف وجب على الأمّة قصمه وبذل الوسع في إزالته من بينهم بكلّ وسيلة من وسائل الحقّ والعدل بالإرشاد والمجادلة الحسنة والمناظرة ، فإنْ لم ينجع ذلك فبالقتال كما فعل أبو بكر في قتال العرب الذين جحدوا وجوب الزكاة ، وكما فعل عليّ كرّم الله وجهه في قتال الحروريّة الذين كفّروا المسلمين .

وهذه الآية تحذير شديد من ذلك الاختلاف .

وأما تعقيبه بقوله : ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ فهو تأكيد بمضمون ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ .

والإشارة إلى الاختلاف المأخوذ من قوله : ﴿ مختلفين ﴾ ، واللاّم للتعليل لأنّه لمّا خلقهم على جبلّة قاضية باختلاف الآراء والنزعات وكان مريداً لمقتضى تلك الجبلّة وعالماً به كما بيّناه آنفاً كان الاختلاف علّة غائية لخلقهم ، والعلّة الغائية لا يلزمها القصر عليها بل يكفي أنها غاية الفعل ، وقد تكون معها غايات كثيرة أخرى فلا ينافي ما هنا قولُه : ﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون ﴾ [الذاريات : 56] لأنّ القصر هنالك إضافيّ ، أي إلاّ بحالة أن يعبدوني لا يشركوا ، والقصر الإضافي لا ينافي وجود أحوال أخرى غير ما قُصدَ الردّ عليه بالقصر كما هو بيّن لمن مارس أساليب البلاغة العربية .

وتقديم المعمول على عامله في قوله : ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ ليس للقصر بل للاهتمام بهذه العلّة ، وبهذا يَندفع ما يوجب الحيرة في التفسير في الجمع بين الآيتين .

ثم أعقب ذلك بقوله : ﴿ وتمّت كلمة ربّك لأملأنّ جهنم من الجِنّة والنّاس أجمعين ﴾ لأنّ قوله : ﴿ إلاّ من رحم ربّك ﴾ يؤذن بأنّ المستثنى منه قوم مختلفون اختلافاً لا رحمة لهم فيه ، فهو اختلاف مضاد للرحمة ، وضدّ النعمة النقمة فهو اختلاف أوجب الانتقام .

وتمام كلمة الرب مجاز في الصّدق والتحقّق ، كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وتمّت كلمات ربّك صدقاً وعدلاً ﴾ في سورة [الأنعام : 115] ، فالمختلفون هم نصيب جهنم .

والكلمة هنا بمعنى الكلام .

فكلمة الله : تقديره وإرادته .

أطلق عليها كلمة ﴾ مجازاً لأنّها سبب في صدور كلمة (كن) وهي أمر التكوين .

وتقدّم تفصيله في قوله تعالى : ﴿ وتمّت كلمات ربّك صدقاً وعدلاً ﴾ في سورة [الأنعام : 115] .

وجملة ﴿ لأملأنّ جهنّم ﴾ تفسير للكلمة بمعنى الكلام .

وذلك تعبير عن الإرادة المعبّر عنها بالكلام النفسي .

(98/387)

ويجوز أن تكون الكلمة كلاماً خَاطَبَ به الملائكةَ قبل خلق الناس فيكون ﴿ لأَمْلأنّ جهنّم ﴾ تفسيراً ل ﴿ كلمة ﴾ .

و ﴿ من الجِنّة والنّاس ﴾ تبعيض ، أي لأَمْلأن جهنم من الفريقين .

و ﴿ أجمعين ﴾ تأكيد لشمول تثنية كِلا النوعين لاَ لِشُمُول جميع الأفراد لمنافاته لمعنى التبعيض الذي أفادته ﴿ من ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(99/387)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

ونحن نعلم أن الإنسان قد طرأ على هذا الكون بعد أن خلق الله سبحانه في هذا الكون كل مقومات الحياة ؛ المسخرة بأمر الله لهذا الإنسان ؛ ليمارس مهمة الخلافة في الأرض ؛ ولم تتأبَّ تلك الكائنات على خدمة الإنسان ، سواء أكان مؤمناً أم كافراً ؛ لأن الحق سبحانه هو الذي استدعى الإنسان إلى الوجود ، وما دام قد استدعاه ؛ فهو سبحانه لن يضن عليه بمقومات هذا الوجود ؛ من بقاء حياة ، وبقاء نوع .

وهذا هو عطاء الربوبية الذي كفله الله سبحانه لكل البشر : مؤمنهم وكافرهم ، وهو عطاء يختلف عن عطاء الألوهية المتمثل في المنهج الإيماني : " افعل " و " لا تفعل " .

ومن يأخذ عطاء الألوهية مع عطاء الربوبية فهو من سعداء الدنيا والآخرة .

إذن : فقدرة الله سبحانه قد أرغمت الكون دون الإنسان أن يؤدي مهمته ، وكان من الممكن أن يجعل البشر أمة واحدة مهتدية لا تخرج عن نظام أرادة الله سبحانه وتعالى كما لم تخرج الشمس أو القمر أو الهواء أو أي من الكائنات الأخرى المسخَّرة عن إرادته .

لأن الحق تبارك وتعالى أثبت لنفسه طلاقة القدرة في تسخير أجناس لمراده ؛ بحيث لا تخرج عنه ، وذلك يثبت لله سبحانه القدرة ولا يثبت له المحبوبية .

أما الذي يثبت له المحبوبية فهو أن يخلق خَلْقاً ؛ ويعطيهم في تكوينهم اختياراً .

ويجعل هذا الاختيار كلَّ واحدٍ فيهم صالحاً أن يطيع ، وصالحاً أن يعصي ، فلا يذهب إلى الإيمان والطاعة إلا لمحبوبية الله تعالى .

وهكذا نعلم أن الكون المسخَّر المقهور قد كشف لنا سَيَّال القدرة ، والجنس الذي وهبه الله الاختيار إن أطاع فهو يكشف لنا سيال المحبوبية .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] .

ولكن أيترك الإنسان حتى يأتي له الغرور في أنه يملك الاختيار دائماً ؟

(100/387)

لا . . فمع كونك مختاراً إياك أن تغتر بهذا الاختيار ؛ لأن في طيّك قهراً ، وما دام في طيك قهر فعليك أن تتأدب ؛ ولا تتوهَّم أنك مختار في أن تؤمن بالله أو لا تؤمن ؛ ولا تتوهم أنك مُنفلت من قبضة الله تعالى فهو يملك زمامك في القهريات التي تحفظ لك حياتك مثل : الحيوان والنبات والجماد ، ولكنه سبحانه ميَّزك بالعقل .

وخطأ الإنسان دائماً أنه قد يعطي الأسماء معاني ضد مسمياتها ، فكلمة " العقل "

مأخوذة من " عقل " وتعني : " ربط " ؛ فلا تجمح بعقلك في غير المطلوب منه ؛ لأن مهمة العقل أن يكبح جماحك . وتذكر دائماً : في قبضة من أنت ؛ وفي زمام من أنت ؛ وفي أي الأمور أنت مقهور ؟

وما دُمْتَ مقهوراً في أشياء فاختر أن تكون مقهوراً لمنهج الله سبحانه واحفظ أدبك مع الله ، واعلم أنه قد وهبك كل وجودك سواء ما أنت مختار فيه أو مقهور عليه .

وانظر إلى من سلبهم الحق سبحانه بعض ما كانوا يظنون أنها أمور ذاتية فيهم ، فتجد من كان يحرك قدمه غير قادر على تحريكها ، أو يحاول أن يرفع يده فلا يستطيع .

ولو كانت مثل هذه الأمور ذاتية في الإنسان لما عَصَتْه ، وهذا دليل على أنها أمور موهوبة من الله ، وإنْ شاء أخذها ، فهو سبحانه يأخذها ليؤدّب صاحبها .

وما دام الإنسان بهذا الشكل ، فليقُل لنفسه : إياك أن تَغترَّ بأن الله جعل فيك زاوية اختيار ، وتذكّر أنك على أساس من هذه الزاوية تتلقَّى التكليف من الله ب " افعل " ، و " لا تفعل " ؛ لأن معنى " افعل كذا " : أنك صالحٌ ألاّ تفعل ؛ ومعنى " لا تفعل كذا " : أنك صالحٌ أنْ تفعل ؛ لأن لديك منطقة اختيار ؛ ولكن لديك في زواياك الأخرى منطقة قَهْرٍ وتسخير ، فتأَدَّبْ في منطقة الاختيار ، كما تأدبت في منطقة الاضطرار والقهر .

وقد وصف الحق سبحانه الإنسان بأنه كنود ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ الإنسان لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات : 6] .

لإن الإنسان لا يتذكر أحياناً أن مهمة عقله الأولى هي أن يعقل حدوده ، وأن يقول لنفسه : ما دامت الحيوانية فيَّ مقهورة ، وما دامت الجمادية فيَّ مقهورة ؛ فَلأكُنْ مؤدباً مع ربي ، وأجعل منطقة الاختيار على مراد منهج الله .

وأنت إنْ أردتَ أن تضع إحصائية ل " افعل " ولا " تفعل " لوجدت ما لم يَرِدْ فيه تكليف ب " افعل " و " لا تفعل " لا يقل عن خمسة وتسعين في المائة من حركة الحياة ، وهو المباح .

وأنزل الله سبحانه التكليف لتنضبط به حركة حياتك كلها إنْ جعلت التكليف هو مرادك وهو لن يأخذ أكثر من خمسة في المائة من حركة الحياة ، ويعود خير ذلك عليك .

فساعة يقول لك التكليف : عليك أن تزكِّي عن مالك ، فلا بد لك من أن تقدِّر المقابل ، لأنك إن افتقرتَ واحتجْتَ ؛ سيأتيك من زكاة الآخرين ما يلبِّي احتياجاتك ، فمن " أفعل " التي تلتزم بها ويلتزم بها غيرك تأتي الثمرة التي تسدُّ عجز أي ضعف في المجتمع الإيماني بالتراحم المتبادل النابع عن اليقين بالمنهج .

وحين يقول لك التكليف : لا تعتدِ على حُرمات الغير ، فهو يقيِّد حريتك في ظاهر الأمر ، لكنه يحمي حُرماتك من أن يعتدي عليها الغير ، وحين تتعقل أوامر التكليف كلها

ستجدها لصالحك؛ سواء أكان الأمر ب " افعل " أو " لا تفعل " .

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [هود : 118]

.

و" لو " تفيد الامتناع . أي: أن الله تعالى لم يجعل الناس أمة واحدة، بل جعلهم مختلفين .

وقد حاول بعض من الذين يريدون أن يدخلوا على الإسلام بنقد ما ، فقالوا : ألاَ تتعارض هذه الآية مع قول الله : ﴿ كَانَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النبيين ﴾ [البقرة : 213]

.

وظن أصحاب هذا القول أن البشر لم يلتفتوا إلى خالقهم من البداية؛ ثم بعث الله الأنبياء ليلفتهم إلى المنهج .

(102/387)

ونقول لهؤلاء : لا ، فقد ضمن الحق سبحانه للناس قُوتَهم وقوام حياتهم ، وكذلك ضمن لهم المنهج الإيماني منذ أن أمر آدم وزوجه بالهبوط إلى الأرض لممارسة مهمة الخلافة فيها ، وقال الله سبحانه : ﴿ فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى ﴾ [طه : 123] .

ولو استقصى هؤلاء الآيات التي تعالج هذا الأمر ، وهي ثلاث آيات؛ فهنا يقول الحق

سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [هود : 118] .

وفي الآية التي ظنوا أنها تتعارض مع الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه :

﴿ كَانَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النبيين مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكتاب بالحق لِيَحْكُمَ بَيْنَ الناس فِيمَا اختلفوا فِيهِ وَمَا اختلف فِيهِ إِلاَّ الذين أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينات بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى الله الذين آمَنُواْ لِمَا اختلفوا فِيهِ مِنَ الحق بِإِذْنِهِ والله يَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة : 213] .

وهكذا نعرف أن الحق سبحانه وتعالى أنزل المنهج مع آدم عليه السلام ثم طرأتْ الغفلة ؛ فاختلف الناس ، فبعث الله الأنبياء ليحكموا فيما اختلف فيه الناس .

إذن : فقول الله تعالى :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [هود : 118] .

يعني أنه سبحانه لو شاء لجعل الناس كلهم على هداية ؛ لأنه بعد أن خلقهم ؛ وأنزلهم إلى الأرض ؛ وأنزل لهم المنهج ؛ كانوا على هداية ، ولكن بحكم خاصية الاختيار التي منحها الله لهم ، اختلفوا .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود : 118] .

أي : أنهم سيظلون على الخلاف .

ويأتي الحق سبحانه وتعالى في الآية التالية بالاستثناء فيقول : ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ولذلك خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ .

(103/387)

أي : أن الحق سبحانه قد خَلَقَ الخَلْق للرحمة والاختلاف .

وساعة نرى " اسم إشارة " أو " ضميراً " عائداً على كلام متقدِّم ، فنحن ننظر ماذا تقدم .

والمتقدم هنا : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود : 118119] .

والحق سبحانه وتعالى حين تكلم عن خلق الإنسان قال :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] .

ومعنى العبادة هو طاعة الله سبحانه في " افعل " و " لا تفعل " وهذا هو المراد الشرعي من العبادة ؛ ولكن المرادات الاجتماعية تحكَّمتْ فيها خاصية الاختيار ، فحدث الاختلاف ، ونشأ هذا الاختلاف عن تعدُّد الأهواء .

فلو أن هَوَانَا كان واحداً ؛ لما اختلفنا ، ولكنّا نختلف نتيجة لاختلاف الأهواء ، فهذا هواه يميني ؛ وذاك هواه يساري ؛ وثالث هواه شيوعيٌّ ؛ ورابع هواه رأسماليّ ؛ وخامس هواه وجوديّ ، وكل واحد لهم هوى .

ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض ﴾ [المؤمنون : 71] .

ولم يكن العالم ليستقيم ؛ لو اتبع الله سبحانه أهواء البشر المختلفة ، ولكن أحوال هذا العالم يمكن أن تستقيم ؛ إذا صدرتْ حركته الاختيارية عن هوًى واحد ؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم :

" لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به " .

وفي حياتنا اليومية نلاحظ أن الأعمال التي تسير بها حركة الحياة وبدون أن ينزل تكليف فيها ؛ نجد فيها اختلافاً لا محالة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لو شاء لخلقنا كلنا عباقرة في كل مناحي الحياة ؛ أو يخلقنا كلنا شعراء أو أطباء أو فلاسفة .

ولو شاء سبحانه ذلك فمن سيقوم بالأعمال الأخرى ؟ فلو أننا كنا كلنا أطباء فمن يقوم بأعمال الزراعة وغيرها ؟ ولو كنا جميعاً مهندسين ؛ فمن يقوم بأعمال التجارة وغيرها ؟

وقد شاء الحق سبحانه أن يجعل مواهبنا مختلفة ليرتبط العالم ببعضه ارتباط تكاملٍ وضرورة ؛ لا ارتباط تفضُّل .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ [الزخرف : 32] .

وهكذا نعرف أن رفع الدرجات لا يعني تلك النظرة الحمقاء الرعناء ، والتي تدعي أن في ذلك التقسيم رفعة للغنى وتقليلاً لشأن الفقير ؛ لأن الواقع يؤكد أن كل إنسان هو مرفوع في جهة بسبب ما يُحسنه فيها ؛ ومرفوع عليه في جهة أخرى بسبب ما لا يُحسنه ويُحسنه غيره ، وغيره مكمل له .

وهكذا يتبادل البشر ما يحققه اختلاف مواهبهم ، واختلاف المواهب هي مقومات التلاحم .

ولذلك قلنا : إن مجموع سمات ومواهب كل إنسان إنما يتساوى مع مجموع سمات ومواهب كل إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى ؛ وقيمة كل امرىء ما يُحسنه .

وقد ترى صاحب السيارة الفارهة وهو يرجو عامل إصلاح السيارات الذي يرتدي ملابس رثة ومتسخة ؛ ليصلح له سيارته ؛ فيقول له العامل : لا وقت عندي لإصلاح سيارتك ؛ فيلحّ صاحب السيارة الفارهة بالرجاء ؛ فيرضى العامل ويرق قلبه لحال هذا الرجل صاحب السيارة الفارهة ويذهب لإصلاحها .

لذلك أقول : إذا نظرتَ لمن هو دونك في أي مظهر من مظاهر الحياة ؛ فلا تغترَّ بما تفوقتَ

وتميزتَ به عليه ؛ ولكن قُلْ لنفسك : لا بد أن هذا الإنسان متفوق في مجال ما .

ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى ليس له أبناء ليميز واحداً بكامل المواهب ، ويترك آخر دون موهبة .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ولذلك خَلَقَهُمْ ﴾ [هود : 118119] .

وإن كان الاختلاف في المقدرات والمنهج ؛ فهذا ما يولِّد الكفر أو الإيمان ، ولنا أن نعرف أن الكفر له رسالة ؛ بل هو لازم ليستشعر المؤمن حلاوة الإيمان . ولو لم يكن للكفر وظيفة لما خلقه الله .

(105/387)

وقد قلت قديماً : إن الكفر يعاون الإيمان ؛ مثلما يعاون الألم العافية ، فلولا الألم لما جئنا بالطبيب ليشخِّص الداء ، ويصفَ الدواء الشافي بإذن الله .

ولذلك نقول : الألم رسول العافية .

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود : 118119] .

وأنت إن دقَّقت النظر في الاختلاف لوجدته عين الوفاق .

ومثال ذلك : اختلاف أبنائك فيما يحبونه من ألوان الطعام ، فتجد ابناً يفضّل صدر الدجاجة ، وآخر يفضل الجزء الأسفل منها " الورِك " ، وتضحك أنت لهذا الاختلاف ، لأنه اختلاف في ظاهر الأمر ، ولكن باطنه وِفَاق ، لو اتفقنا جميعاً في الأمزجة لوجدنا التعاند والتعارض ؛ وهذا ما ينتشر بين أبناء المهنة الواحدة .

ولمن يسأل : هل الخلق للاختلاف أم الخلق للرحمة ؟

نقول : إن الخلق للاختلاف والرحمة معاً ، لأن الجهة مُنفكَّة .

ثم يقول سبحانه في نفس الآية : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : 119] .

والحق سبحانه قد علم أزلاً بمن يختار الإيمان ومن يختار الكفر ، وهذا من صفات العلم الأزليّ لله سبحانه وتعالى ولذلك قال سبحانه : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ أي : علم سبحانه مَنْ مِنْ عباده سيختار أن يعمل في الدنيا عمل أهل النار ، ومن سيختار أن يعمل عمل أهل الجنة ؛ لسبْق علمه الأزليّ بمرادات عباده واختياراتهم .

وسبق أن ضربنا مثلاً ولله المثل الأعلى بعميد الكلية الذي يعلن للأساتذة ضرورة ترشيح المتفوقين في كل قسم ؛ لأن هناك جوائز في انتظارهم ، فيرشح كل أستاذ أسماء المتفوقين الذين لمسَ فيهم النبوغ والإخلاص للعلم ، ويطلب العميد من أساتذة من خارج جامعته أن يضعوا امتحانات مفاجئة لمجموع الطلاب ؛ ويُفاجأ العميد بتفوق الطلبة الذين لمس فيهم أساتذتهم النبوغ والإخلاص للعلم ، وهنا يتحقق العميد من صدق تنبؤ الأساتذة الذين يعملون تحت قيادته .

ولكن قد تحدث مفاجأة : أن يتخلف واحد من هؤلاء الطلبة لمرض أصابه أو طارىء يطرأ عليه من تعب أعصاب أو إرهاق أو غير ذلك ؛ وبهذا يختلّ تقدير أستاذه ؛ لكن تقدير الحق سبحانه مُنزَّه عن الخطأ ، وما عَلِمه أزلاً فهو مُحقَّق لا محالة ؛ لذلك بيَّن لنا أنه عِلْم أزليّ ، ويتحدى الكافر به أن يغيره .

وكلنا يعرف أن الحق سبحانه أنزل قوله الكريم :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد : 1] .

وسمعها أبو لهب ولم يتحدها بإعلان الإيمان ولو نفاقاً .

وقول الحق : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ تبيّن لنا أن الحق سبحانه إنْ قال شيئاً فهو قد تَمَّ بالفعل ؛ فلا رادّ لمشيئته ، أما نحن فعلينا أن نسبق كل وعد بعمل سنقوم به بقول : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ [الكهف : 24] .

لأن الحق يقول لنا : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف : 2324] .

وفي هذا احترامٌ لوضعنا البشري ، وإيمانٌ بغلبة القهر ، ومعرفة لحقيقة أننا من الأغيار ؛ لأن كل حدث من الأحداث يتطلب فاعلاً ؛ ومفعولاً يقع عليه الفعل ؛ ومكاناً ؛ وزماناً ؛ وسبباً ؛ ولا أحدَ مِنَّا يملك أيَّ واحد من تلك العناصر .

(107/387)

فإن قُلْتَ : ﴿ إِلَّا أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ تكون قد عصمتَ نفسك من أن تكون كاذباً ، أو أن تَعِدَ بما لا تستطيع ، لكن إذا كان مَنْ يقول هو مالك كل شيء ، ولا قوة تخرجه عَمَّا قال ، فهو وحده القادر على أن ينفِّذ ما يقول .

ولذلك قلنا : إن كل فعل يُنسب إلى الله تعالى يتجرد عن الزمن ؛ فلا نقول : " فعل ماضٍ " أو " فعل سيحدث في المستقبل " أو " فعل مضارع " ؛ لأن تلك الأمور إنما تُقاسُ بها أفعال البشر ، لكن أفعال الله سبحانه لا تقاس بنفس المقياس ، فسبحانه حين يقرر أمراً فنحن نأخذه على أساس أنه قد وقع بالفعل .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أتى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلوهُ ﴾ [النحل : 1] .

وقوله سبحانه : ﴿ أتى ﴾ بمعنى : تَقرَّر الأمر ولم يُنفَّذ بعد فلا تعجَّلوه ؛ وهذا هو تحدّي القيومية القاهرة ، ولا توجد قوة قادرة على أن تمنع وقوع أمر شاءه الله سبحانه وتعالى فهو يحكم فيما يملك ، ولا مُنَازِع له سبحانه .

وقوله الحق : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : 119] .

فسببه أن الإنس والجن هما الثقلان المكلَّفان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(108/387)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ .

اختلف العلماء في المشار إليه بقوله : " ذلك " ، فقيل : إلا من رحم ربك وللرحمة خلقهم .

والتحقيق : أن المشار إليه هو اختلافهم إلى سقيٍّ وسعيد ، المذكور في قوله : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ ولذلك الاختلاف خلقهم ، فخلق

فريقاً للجنة وفريقاً للسعير، كما نص عليه بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ.

.

﴾ الآية.

وأخرج الشيخان في صحيحهما، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: " ثم يبعث الله إليك الملك فيُؤمر بأربع كلمات: فيكتب رزقه، وأجله وعمله، وشقي أم سعيد ".

وروى مسلم من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ " يا عائشة، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم ".

وفي صحيح مسلم، من حديث عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء ".

وفي الصحيحين من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي – صلى الله عليه وسلم – : "كل ميسرٌ لما خلق له".

وإذا تقرَّر أن قوله تعالى ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ معناه: أنهم خلقهم لسعادة بعض وشقاوة بعض، كما قال: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا ﴾ الآية، وقال: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ (2) سورة التغابن ﴾ فلا يخفى ظهور التعارض بين هذه الآيات، مع قوله

تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (56) سورة الذاريات ﴾ .

والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه :

الأول ـ ونقله ابن جرير عن زيد بن أسلم وسفيان ـ : أن معنى الآية : ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ أي : يعبدني السعداء منهم ويعصيني الأشقياء .

فالحكمة المقصودة من إيجاد الخلق ـ التي هي عبادة الله ـ حاصلة بفعل السعداء منهم ، كما أشار له قوله تعالى : ﴿ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ .

وغاية ما يلزم على هذا القول ، أنه أطلق المجموع وأراد بعضهم ، وقد بيّنا أمثال ذلك من الآيات التي أطلق فيها المجموع مراداً بعضه ، في سورة الأنفال .

الوجه الثاني ـ هو ما رواه ابن جرير عن ابن عباس ، واختاره ابن جرير : أن معنى قوله : ﴿ إلا ليعبدون ﴾ أي : إلا ليقروا إليَّ بالعبودية طوعاً أو كرهاً ؛ لأن المؤمن يُطيع باختياره ، والكفار مذعن منقاد لقضاء ربه جبراً عليه .

الوجه الثالث ـ ويظهر لي أنه هو الحق ؛ لدلالة القرآن عليه ـ : أن الإرادة في قوله : ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ إرادة كونية قدرية ، والإدارية في قوله : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا

ليعبدون ﴾ إرادة شرعية دينية .

فبيّن في قوله : ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ وقوله : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ﴾ ؛ أنه أراد بإرادته الكونية القدرية صيرورة قوم إلى السعادة ، وآخرين إلى الشقاوة وبيّن بقوله : ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أنه يريد العبادة بإرادته الشرعية الدينية من الجن والإنس ، فيوفق من شاء بإرادته الكونية فيعبده ، ويخذل من شاء فيمتنع من العبادة .

ووجه دلالة القرآن على هذا : أنه تعالى بيّنه بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فعمّم الإرادة الشرعية بقوله : ﴿ إِلَّا لِيُطَاعَ ﴾ ، وبيّن التخصيص في الطاعة بالإرادة الكونية بقوله : ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فالدعوة عامة ، والتوفيق خاصٌ .

(110/387)

وتحقيق النسبة بين الإرادة الكونية القدرية والإرادة الشرعية الدينية ، أنه بالنسبة إلى وجود المراد وعدم وجوده ، فالإرادة الكونية أعمُّ مطلقاً ؛ لأن كل مراد شرعاً يتحقق وجوده في الخارج إذا أُريد كوناً وقدراً ، كإيمان أبي بكر .

وليس يوجد ما لم يرد كوناً وقدراً ولو أريد شرعاً ، كإيمان أبي لهب .

فكل مراد شرعي حصل فبالإرادة الكونية ، وليس كل مراد كوني حصل مراداً في الشرع .

وأما بالنسبة إلى تعلُّق الإرادتين بعبادة الإنس والجن لله تعالى ، فالإرادة الشرعية أعمُّ مطلقاً ، والإرادة الكونية أخصُّ مطلقاً ؛ لأن كل فرد من أفراد الجن والإنس أراد الله منه العبادة شرعاً لم يُردها من كلِّهم كوناً وقدراً فتعمُّ الإرادة الشريعة عبادة جميع الثقلَيْن ، وتختصُّ الإرادة الكونية بعبادة السعداء منهم ، كما قدَّمنا من أن الدعوة عامة ، والتوفيق خاص كما بينه تعالى بقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فصرَّح بأنه يدعو الكل ، ويهدي من شاء منهم .

وليست النسبة بين الإرادة الشرعية والقدرية العموم والخصوص من وجه ؛ بل هي العموم والخصوص المُطلق ، كما بينا ، إلا أن إحداهما أعمُّ مطلقاً من الأخرى باعتبار ، والثانية أعمُّ مطلقاً باعتبار آخر ، كما بينا والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 161.158 ﴾

(111/387)

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ قال : أهل دين واحد ، أهل ضلالة أو أهل هدى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ قال : أهل الحق وأهل الباطل ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ قال : أهل الحق ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ قال : للرحمة .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾ قال : إلا أهل رحمته فإنهم لا يختلفون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال ﴿ لا يزالون مختلفين ﴾ في الهوى .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عطاء بن أبي رباح ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ أي اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، والحنيفية ، وهم الذين رحم ربك الحنيفية .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في الآية قال : الناس مختلفون على أديان شتى إلا من رحم ربك غير مختلف ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ قال : للاختلاف .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ قال : أهل الباطل ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ قال : أهل الحق ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ قال : للرحمة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ قال : اختلاف الملل ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ قال : أهل القبلة ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ قال : للرحمة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال : أهل رحمة الله أهل الجماعة وإن

تفرقت ديارهم وأبدانهم ، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت أبدانهم ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ للرحمة والعبادة ولم يخلقهم للاختلاف .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ قال : خلقهم فريقين : فريقاً يرحم فلا يختلف ، وفريقاً لا يرحم يختلف . وكذلك قوله ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ [هود : 105] .

(112/387)

وأخرج ابن المنذر عن قريش قال : كنت عند عمرو بن عبيد ، فجاء رجلان فجلسا فقالا : يا أبا عثمان ما كان الحسن يقول في هذه الآية ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ ؟ قال : كان يقول ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ [الشورى : 7] .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ قال : خلق هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار ، وخلق هؤلاء لرحمته وهؤلاء لعذابه .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن أبي نجيح . أن رجلين تخاصما إلى طاوس فاختلفا عليه فقال : اختلفتما علي فقال أحدهما لذلك خلقنا . قال : كذبت . قال : أليس الله يقول ﴿ ولا

يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ ؟ قال : إنما خلقهم للرحمة والجماعة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(113/387)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ : ظاهرُه أنه متصل وهو استثناءٌ مِنْ فاعل "يَزالون" أو من الضمير في " مختلفين " . وجوَّز الحوفي أن يكون استثناءً منقطعاً ، أي : لكنْ مَنْ رَحِمَ لم يختلفوا ، ولا ضرورةَ تدعو إلى ذلك . و " لذلك " في المشار إليه أقوال كثيرة أظهرها : أنه الاختلافُ المدلولُ عليه بمختلفين كقوله :

2731 إذا نُهِي السَّفيهُ جرى إليه . . . وخالفَ ، والسَّفيهُ إلى خلافِ

رَجَعَ الضميرُ من " إليه " على السَّفَه المدلولِ عليه بلفظ " السَّفيه " ، ولا بدَّ مِنْ حذفِ مضافٍ على هذا ، أي : ولثمرة الاختلاف خَلَقهم . واللامُ في الحقيقة للصيرورة ، أي : خَلَقَهم ليصير أكثرهم إلى الاختلاف . وقيل : المراد به الرحمة المدلول عليها بقوله : " رحم

" وإنما ذُكِّر ذهاباً بها إلى الخير . وقيل : المرادُ به المجموعُ منهما ، وإليه نحا ابنُ عباس كقوله : ﴿ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة : 68] . وقيل : إشارةٌ إلى ما بعده من قوله : " وتَمَّت كلَّمة ربك ، ففي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ ، وهو قول مرجوح ؛ لأن الأصلَ عدمُ ذلك . وقوله : " أجمعين " تأكيد ، والأكثر أن تُسْبَقَ ب " كل " وقد جاء هنا دونَها .

والجِنَّةُ والجِنُّ : قيل : واحد ، والتاءُ فيه للمبالغة . وقيل : الجِنَّة جمع جِنّ ، وهو غريبٌ ، فيكون مثل كَمْء للجمع وكَمْأة للواحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 426 427. ﴾

(114/387)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ .

لو شاء لَجَعلهم أربابَ الوفاق ثم لا يوجبون لمُلْكِه زَيْنًا ، ولو شاء لجعلهم أرباب الخلافِ ثم لا يوجِبُون لمُلْكِه شَيْنا .

ثم قال : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ لأنه كذلك أراد بهم .

﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود : 119] في سباق حكمه فعصمهم عن الخلاف في حاصل أمورهم ، وأقامهم به ، ونصبهم له ، وأثبتهم في الوفاق والمحبة والتوحيد .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وتمت كملةُ ربك لأملأن جهنم من الجِنَّةِ والناسِ أجمعين ﴾ .

أي لا تبديل لقوله ، ولا تحويل لحُكْمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 163﴾

(115/387)

قوله تعالى ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (120) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (121) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (122) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر سبحانه بما فعل بالقرى الظالمة ، وحذر كل من فعل أفعالهم بسطواته في الدنيا والآخرة ، وأمر باتباع أمره والاعراض عن اختلافهم الذي حكم به وأراده ، عطف على قوله ﴿ نقصه عليك ﴾ قوله : ﴿ وكلاًّ نقص ﴾ أي ونقص ﴿ عليك ﴾ كل نبأ أي خبر

عظيم جداً ﴿ من أنباء الرسل ﴾ مع أممهم : صالحيهم وفاسديهم ، فعم تفخيماً للأمر ، ولما كان الذي جرّ هذه القصص ما مضى من قوله : ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك ﴾ ، وكان ساكن الصدر القلب ، وهو الفؤاد الذي به قوام الإنسان بل الحيوان ، وهو أحرّ ما فيه ، ولذا عبر عنه بما اشتق من الفأد وهو الحرف ، وكان من لازم الحرارة الاضطراب والتقلب الذي اشتق منه القلب فيضيق به الصدر ، أبدل من ﴿ كلاً ﴾ قوله : ﴿ ما نثبت ﴾ أي تثبيتاً عظيماً ﴿ به فؤادك ﴾ أي فيسكن في موضعه ويطمئن أو يزداد يقينه فلا يضيق الصدر من قولهم ﴿ لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ﴾ ونحوه ، وبهذا تبين أن المراد بذلك العام خاص لحصوله المقصود له ، وهو التسلية نظراً إلى قوله تعالى ﴿ وضائق به صدرك ﴾ لأن المشاركة في الأمور الصعبة تهون على الإنسان ما يلقى من الأذى ، والإعلام بعقوبات المكذبين فيها تأنيس للمكروب ؛ والتثبيت : تمكين إقامة الشيء ؛ والفؤاد : العضو الذي من شأنه أن يحمى بالغضب الحال فيه ، من المفتأد وهو المستوي .

ولما بين أن كل ما قص عليه من أخبارهم يستلزم هذا المقصود ، بين أنه ليس كما يعلل به غالباً من الأخبار الفارغة والأحاديث المزخرفة الباطلة ولا مما ينقله المؤرخون مشوباً بالتحريف فقال : ﴿ وجاءك في هذه ﴾ أي الأخبار ﴿ الحق ﴾ أي الكامل في الثبات الذي لا مرية فيه ، وفائدة الظرف التأكيد لعظم المقصود من آية ﴿ فلعلك ﴾ وصعوبته .

(116/387)

ولما كان الحق حقاً بالنسبة إلى كل أحد عرفه ونكر ما هو خاص بقوم دون قوم فقال :

﴿ وموعظة ﴾ أي مرقق للقلوب ﴿ وذكرى ﴾ أي تذكير عظيم جداً ﴿ للمؤمنين ﴾ أي الراسخين في الإيمان ، وقد تضمنت الآية الاعتبار من قصص الرسل بما فيها من حسن صبرهم على أممهم واجتهادهم على دعائهم إلى عبادة الله بالحق وتذكير الخير والشر وما يدعو إليه كل منهما من عاقبة النفع والضر للثبات على ذلك جميعه اقتداء بهم .

ولما ذكر نفع هذا الحق ، كان كأنه قيل : فعظهم بذلك وذكرهم به ، فعطف عليه قوله :

﴿ وقل ﴾ ويجوز أن يكون معطوفاً على قوله ﴿ واصبر ﴾ أي اصبر على ما أمرناك به من تبليغ وحينا وامتثاله ، وقل ﴿ للذين ﴾ أي لم تؤثر فيهم هذه الموعظة فهم ﴿ لا يؤمنون ﴾ أي لا يتجدد لهم إيمان منذراً لهم ﴿ اعملوا ﴾ متمكنين ﴿ على مكانتكم ﴾ أي طريقتكم التي تتمكنون من العمل عليها .

(117/387)

ولما كان العمل واجباً عليه. صلى الله عليه وسلم. وعلى كل من تبعه فهم عاملون لا محالة سواء عمل الكفار أو لا ، قال مؤكداً لأجل إنكار الكفار أن يدوموا على العمل المخالف لهم مع ما يصل إليهم لأجله من الضر ، معرياً له عن فاء السبب لذلك والاستئناف : ﴿ إنا ﴾ أي أنا ومن معي ﴿ عاملون ﴾ أي ثابت عملنا لا نحول عنه لأن ما كان لله فهو دائم بدوامه سبحانه ، وحذف النون الثانية اكتفاء بمطلق التأكيد لأنه كافٍ في الإعلام بالجزم في النية ، وفيه تأدب بالإشارة إلى أن المستقبل أمر لا اطلاع عليه لغير الله فينبغي أن لا يبلغ في التأكيد فيه غيره ، وهذا بخلاف ما في سورة فصلت مما هو جارٍ على ألسنة الكفرة ﴿ وانتظروا ﴾ أي ما أنتم منتظرون له من قهرنا ﴿ إنا منتظرون ﴾ أي ما وعدنا الله في أمركم ، فإن الله مهلككم ومنجيك لأنه عالم بغيب حالك وحالهم وقادر عليكم ؛ والانتظار : طلب الإدراك لما يأتي من الأمر الذي يقدر النظر إليه ؛ والتوقع : طلب ما يقدر أنه يقع ، وهما يكونان في الخير والشر ومع العلم والشك ، والترجي لا يكون إلا مع الخير والشك .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 591 . 592 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر القصص الكثيرة في هذه السورة ذكر في هذه الآية نوعين من الفائدة.

الفائدة الأولى : تثبيت الفؤاد على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى ، وذلك لأن الإنسان إذا ابتلى بمحنة وبلية فإذا رأى له فيه مشاركاً خف ذلك على قلبه ، كما يقال : المصيبة إذا عمت خفت ، فإذا سمع الرسول هذه القصص ، وعلم أن حال جميع الأنبياء صلوات الله عليهم مع أتباعهم هكذا ، سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه.

والفائدة الثانية : قوله : ﴿ وَجَاءَكَ فِي هذه الحق وَمَوْعِظَةٌ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وفي قوله : ﴿ فِي هذه ﴾ وجوه : أحدها : في هذه السورة.

وثانيها : في هذه الآية.

وثالثها : في هذه الدنيا ، وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع.

واعلم أنه لا يلزم من تخصيص هذ السورة بمجيء الحق فيها أن يكون حال سائر السور بخلاف ذلك ، لاحتمال أن يكون الحق المذكور في هذه السورة أكمل حالاً مما ذكر في سائر السور ، ولو لم يكن فيها إلا قوله : ﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود : 112] لكان الأمر كما

ذكرنا ، ثم إنه تعالى بين أنه جاء في هذه السورة أمور ثلاثة الحق والموعظة والذكرى .

أما الحق : فهو إشارة إلى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة .

وأما الذكرى : فهي إشارة إلى الإرشاد إلى الأعمال الباقية الصالحة .

وأما الموعظة : فهي إشارة إلى التنفير من الدنيا وتقبيح أحوالها في الدار الآخرة ، والمذكرة لما هنالك من السعادة والشقاوة ، وذلك لأن الروح إنما جاء من ذلك العالم إلا أنه لاستغراقه في محبة الجسد في هذا العالم نسي أحوال ذلك العالم فالكلام الإلهي يذكره أحوال ذلك العالم ، فلهذا السبب صح إطلاق لفظ الذكر عليه .

ثم ههنا دقيقة أخرى عجيبة : وهي أن المعارف الإلهية لا بد لها من قابل ومن موجب ، وقابلها هو القلب ، والقلب ما لم يكن كامل الاستعداد لقبول تلك المعارف الإلهية والتجليات القدسية ، لم يحصل الانتفاع بسماع الدلائل ، فلهذا السبب قدم الله تعالى ذكر إصلاح القلب ، وهو تثبيت الفؤاد ، ثم لما ذكر صلاح حال القابل ، أردفه بذكر الموجب ، وهو مجيء هذه السورة المشتملة على الحق والموعظة والذكرى ، وهذا الترتيب في غاية الشرف والجلالة .

﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بلغ الغاية في الأعذار والإنذار ، والترغيب والترهيب ، أتبع ذلك بأن قال للرسول : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ولم تؤثر فيهم هذه البيانات البالغة ﴿ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ وهذا عين ما حكاه الله تعالى عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه ، والمعنى : افعلوا كل ما تقدرون عليه في حقي من الشر ، فنحن أيضاً عاملون .

وقوله : ﴿ اعملوا ﴾ وإن كانت صيغته صيغة الأمر ، إلا أن المراد منها التهديد ، كقوله تعالى لإبليس : ﴿ واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء : 64] وكقوله : ﴿ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] وانتظروا ما يعدكم الشيطان من الخذلان فإنا منتظرون ما وعدنا الرحمن من أنواع الغفران والإحسان .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ وانتظروا ﴾ الهلاك فإنا منتظرون لكم العذاب .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 64.65 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبتُ به فؤادك ﴾

أي نقوّي به قلبك وتسكن إليه نفسك ، لأنهم بُلُوا فصبروا ، وجاهدوا فظفروا .

﴿ وجاءك في هذه الحقُّ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : في هذه السورة ، قاله ابن عباس وأبو موسى .

الثاني : في هذه الدنيا ، قاله الحسن وقتادة . الثالث : في هذه الأنباء ، حكاه ابن عيسى .

وفي هذا ﴿ الحق ﴾ وجهان :

أحدهما : صدق القصص وصحة الأنباء وهذا تأويل من جعل المراد السورة .

الثاني : النبوة ، وهذا تأويل من جعل المراد الدنيا .

﴿ وموعظةُ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : القرآن الذي هو وعظ الله تعالى لخلقه .

الثاني : الاعتبار بأنباء من سلف من الأنبياء ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم "

والسعيد من وعظ بغيره" . انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

قوله : ﴿ وكلاً ﴾ مفعول مقدم ب ﴿ نقص ﴾ وقيل : هو منصوب على الحال ، وقيل على المصدر .

قال القاضي أبو محمد : وهذان ضعيفان ، و﴿ ما ﴾ بدل من قوله : ﴿ كلاًّ ﴾ ، و﴿ نثبت به فؤادك ﴾ أي نؤنسك فيما تلقاه ، ونجعل لك الأسوة في مَنْ تقدمك مِن الأنبياء ، وقوله : ﴿ في هذه ﴾ قال الحسن : هي إشارة إلى دار الدنيا ، وقال ابن عباس : إلى السورة والآيات التي فيها ذكر قصص الأمم ، وهذا قول الجمهور .

قال القاضي أبو محمد : ووجه تخصيص هذه السورة بوصفها ب ﴿ الحق ﴾ - والقرآن كله حق - أن ذلك يتضمن معنى الوعيد للكفرة والتنبيه للناظر ، أي جاءك في هذه السورة الحق الذي أصاب الأمم الظالمة ، وهذا كما يقال عند الشدائد : جاء الحق وإن كان الحق يأتي في غير شديدة وغير ما وجه ، ولا يستعمل في ذلك : جاء الحق ، ثم وصف أيضاً أن ما تضمنته السورة هي ﴿ موعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ ؛ فهذا يؤيد أن لفظة ﴿ الحق ﴾ إنما تختص بما تضمنت من وعيد للكفرة .

وقوله تعالى : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون ﴾ الآية ، هذه آية وعيد ، أي ﴿ اعملوا ﴾ على حالاتكم التي أنتم عليها من كفركم .

وقرأ الجمهور هنا : ﴿ مكانتكم ﴾ واحدة دالة على جمع وألفاظ هذه الآية تصلح للموادعة ، وتصلح أن تقال على جهة الوعيد المحض والحرب قائمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(122/387)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾

"كُلاًّ" نصب ب "نقص" معناه وكلّ الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل نقصّ عليك .

وقال الأخفش : "كُلاًّ" حال مقدّمة ، كقولك : كُلاًّ ضربت القوم .

﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل ﴾ أي من أخبارهم وصبرهم على أذى قومهم .

﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أي على أداء الرسالة ، والصبر على ما ينالك فيها من الأذى .

وقيل : نزيدك به تثبيتاً ويقيناً .

وقال ابن عباس : ما نشدّ به قلبك .

وقال ابن جُريج : نُصبّر به قلبك حتى لا تجزع .

وقال أهل المعاني : نُطيّب ، والمعنى متقارب : و "ما" بدل من "كلاًّ" المعنى : نقص عليك

من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك .

﴿ وَجَآءَكَ فِي هذه الحق ﴾ أي في هذه السورة ؛ عن ابن عباس وأبي موسى وغيرهما ؛ وخصّ هذه السورة لأنّ فيها أخبار الأنبياء والجنة والنار .

وقيل : خصّها بالذّكر تأكيداً وإن كان الحقّ في كل القرآن .

وقال قَتَادة والحسن : المعنى في هذه الدنيا ، يريد النبوّة .

﴿ ومَوْعِظَةٌ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الموعظة ما يُتّعظ به من إهلاك الأمم الماضية ، والقرون الخالية المكذبة ؛ وهذا تشريف لهذه السّورة ؛ لأن غيرها من السّور قد جاء فيها الحقّ والموعظة والذّكرى ولم يقل فيها كما قال في هذه على التّخصيص .

"وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ" أي يتذكرون ما نزل بمن هلك فيتوبون ؛ وخصّ المؤمنين لأنهم المتّعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء .

قوله تعالى : ﴿ وَقُل لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾

تهديد ووعيد .

﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ ﴿ وانتظروا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ تهديد آخر ، وقد تقدّم معناه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾

لما ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة الكريمة قصص الأمم الماضية والقرون الخالة وما جرى لهم مع أنبيائهم خاطب نبيه (صلى الله عليه وسلم) بقوله وكلاً نقص عليك يا محمد من أنباء الرسل يعني من أخبار الرسل وما جرى لهم مع قومهم ما نثبت به فؤادك يعني ما نقوي به قلبك لتصبر على أذى قومك وتتأسى بالرسل الذين خلوا من قبلك وذلك لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) إذا سمع هذه القصص وعلم أن حال جميع الأنبياء مع أتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه ﴿ وجاءك ﴾ يا محمد ﴿ في هذه الحق ﴾ اختلفوا في هذا الضمير إلى ماذا يعود فقيل معناه وجاءك في هذه الدنيا الحق وفيه بعد لأنه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير إليها وقيل في هذه الآية وقيل في هذه السورة وهو الأقرب وهو قول الأكثرين فإن قلت جاءه الحق في سورة القرآن فلم خص هذه السورة بالذكر قلت لا يلزم من تخصيص هذه السورة بالذكر أن لا يكون قد جاءه الحق في غيرها من السور بل القرآن كله حق وصدق وإنما خصها بالذكر تشريفاً لها ﴿ وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ أي وهذه السورة موعظة يتعظ بها المؤمنون إذا تذكروا أحوال الأمم الماضية وما نزل بهم ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم ﴾ فيه وعيد وتهديد

يعني اعملوا ما أنتم عاملون فستعلمون عاقبة ذلك العمل فهو كقوله: إعملوا ما شئتم ﴿ إنا عاملون ﴾ يعني ما أمرنا به ربنا ﴿ وانتظروا ﴾ يعني ما يعدكم به الشيطان ﴿ إنا منتظرون ﴾ يعني ما يحل بكم من نقمة الله وعذابه إما في الدنيا وإما في الآخرة. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(124/387)

وقال أبو حيان:

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

الظاهر أن كلاًّ مفعول به، والعامل فيه نقص، والتنوين عوض من المحذوف، والتقدير: وكل نبأ نقص عليك.

ومن أنباء الرسل في موضع الصفة لقوله: وكلاًّ إذ هي مضافة في التقدير إلى نكرة، وما صلة كما هي في قوله: ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ قيل: أو بدل، أو خبر مبتدأ محذوف أي: هو ما نثبت، فتكون ما بمعنى الذي، أو مصدرية.

وأجازوا أن ينتصب كلاًّ على المصدر، وما نثبت مفعول به بقولك نقص، كأنه قيل: ونقص عليك الشيء الذي نثبت به فؤادك كل قص.

وأجازوا أن يكون كلاًّ نكرة بمعنى جميعاً ، وينتصب على الحال من المفعول الذي هو ما ، أو من المجرور الذي هو الضمير في به على مذهب من يجوز تقديم حال المجرور بالحرف عليه ، التقدير : ونقص عليك من أنباء الرسل الأشياء التي نثبت بها فؤادك جميعاً أي : المثبتة فؤادك جميعاً .

قال ابن عباس : نثبت نسكن ، وقال الضحاك : نشد ، وقال ابن جريج : نقوي .

وتثبيت الفؤاد هو بما جرى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولاتباعهم المؤمنين ، وما لقوا من مكذبيهم من الأذى ، ففي هذا كله أسوة بهم ، إذ المشاركة في الأمور الصعبة تهون ما يلقى الإنسان من الأذى ، ثم الإعلام بما جرى على مكذبيهم من العقوبات المستأصلة بأنواع من العذاب من غرق وريح ورجفة وخسف ، وغير ذلك فيه طمأنينة للنفس ، وتأنيس بأنْ يصب الله من كذب الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالعذاب ، كما جرى لمكذبي الرسل .

وإنباء له عليه الصلاة والسلام بحسن العاقبة له ولأتباعه ، كما اتفق للرسل وأتباعهم .

والإشارة بقوله : في هذه ، إلى أنباء الرسل التي قصها الله تعالى عليه ، أي النبأ الصدق الحق الذي هو مطابق بما جرى ليس فيه تغيير ولا تحريف ، كما ينقل شيئاً من ذلك المؤرخون .

وموعظة أي : اتعاظ وازدجار لسامعه ، وذكرى لمن آمن ، إذ الموعظة والذكرى لا ينتفع بها إلا المؤمن كقوله ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ وقوله : ﴿ سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى ﴾ وقال ابن عباس : الإشارة إلى السورة والآيات التي فيها تذكر قصص الأمم ، وهذا قول الجمهور .

ووجه تخصيص هذه السورة بوصفها بالحق ، والقرآن كله حق ، أنّ ذلك يتضمن معنى الوعيد للكفرة والتنبيه للناظر ، أي : جاءك في هذه السورة الحق الذي أصاب الأمم الظالمة .

وهذا كما يقال عند الشدائد : جاء الحق ، وإن كان الحق يأتي في غير شديدة وغير ما وجه ، ولا تستعمل في ذلك جاء الحق .

وقال الحسن وقتادة : الإشارة إلى دار الدنيا .

قال قتادة : والحق النبوة .

وقيل : إشارة إلى السورة مع نظائرها .

﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾

اعملوا صيغة أمر ومعناه : التهديد والوعيد ، والخطاب لأهل مكة وغيرها .

على مكانتكم أي : جهتكم وحالكم التي أنتم عليها .

وقيل : اعملوا في هلاكي على إمكانكم ، وانتظروا بناء الدوائر ، إنا منتظرون أن ينزل بكم نحو ما اقتصّ الله من النقم النازلة بأشباهكم .

ويشبه أن يكون إيتاء موادعة ، فلذلك قيل : إنهما منسوختان ، وقيل : محكمتان ، وهما للتهديد والوعيد والحرب قائمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(126/387)

وقال أبو السعود :

﴿ وَكُلاًّ ﴾

أي وكلَّ نبأ فالتنوينُ عوضٌ عن المضاف إليه ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ نخبرك به وقوله تعالى : ﴿ مِنْ أَنبَاء الرسل ﴾ بيانٌ لكلاًّ وقوله تعالى : ﴿ مَا نُثَبّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ بدلٌ منه والأظهر أن يكون المضافُ إليه المحذوفُ في كلاًّ المفعولَ المطلق لنقصُّ أي كلَّ أسلوب من أساليبه نقصُّ عليك من أنباء الرسل ، وقوله تعالى : ﴿ مَا نُثَبّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ مفعولُ نقصّ وفائدتُه التنبيهُ على أن المقصودَ بالاقتصاص زيادةُ يقينه عليه السلام وطُمأنينةُ قلبه وثباتُ نفسه على أداء الرسالة واحتمالِ أذية الكفارِ بالوقوف على تفاصيل أحوالِ الأممِ السالفة في تماديهم في الضلال وما لقيَ الرسلُ من جهتهم من مكابدة المشاقّ ﴿ وَجَاءكَ فِى هذه ﴾ السورة أو

الأنباءِ المقصوصة عليك ﴿ الحق ﴾ الذي لا محيد عنه ﴿ وَمَوْعِظَةٌ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي الجامعُ بين كونه حقاً في نفسه وكونِه موعظةً وذكرى للمؤمنين ولكون الوصفِ الأول حالاً له في نفسه حُلّي باللام دون ما هو وصفٌ له بالقياس إلى غيره ، وتقديمُ الظرفِ أعني (في هذه) على الفاعل لأن المقصودَ بيانُ منافعِ السورةِ أو الأنباءِ المقصوصةِ فيها واشتمالِها على ما ذكر من المنافع المفصلةِ لا بيانُ كونِ ذلك فيها لا في غيرها ولأن عند تأخيرِ ما حقُّه التقديمُ تبقى النفسُ مترقبةً إليه فيتمكن فيها عند الورودِ فضلَ تمكّنٍ ولأن في المؤخّرِ نوعَ طولٍ يُخِلُّ تقديمُه بتجاوب أطرافِ النظمِ الكريم .

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾

بهذا الحقّ ولا يتعظون به ولا يتذكرون ﴿ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ على حالكم وجهتِكم التي هي عدمُ الإيمان ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ على حالنا وهو الإيمانُ به والاتعاظُ والتذكرُ به ﴿ وانتظروا ﴾ بنا الدوائرَ ﴿ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ أن ينزل بكم نحوُ ما نزل بأمثالكم من الكفرة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

﴿ وَكُلاً ﴾ أي وكل نبأ فالتنوين للتعويض عن المضاف إليه المحذوف ، ونصب كل على أنه مفعول به لقوله سبحانه : ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ أي نخبرك به ، وقوله تعالى :

﴿ مِنْ أَنْبَاء الرسل ﴾ صفة لذلك المحذوف لا لكلا لأنها لا توصف في الفصيح كما في إيضاح المفصل ، و﴿ مِنْ ﴾ تبعيضية ، وقيل : بيانية ، وقوله عز وجل : ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ قيل : عطف بيان لكلا بناءاً على عدم اشتراط توافق البيان والمبين تعريفاً وتنكيراً ، والمعنى هو ما نثبت الخ .

وجوز إن يكون بدلاً منه بدل كل أو بعض ، وفائدة ذلك التنبيه على أن المقصود من الاقتصاص زيادة يقينه صلى الله عليه وسلم وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذى الكفار ، وجوز أيضاً أن يكون مفعول ﴿ نَقُصُّ ﴾ ﴿ وَكُلاً ﴾ حينئذ منصوب إما على المصدرية أي كل نوع من أنواع الاقتصاص ﴿ نَقُصُّ ﴾ ﴿ عَلَيْكَ ﴾ الذي دنثبت به فؤادك ﴾ من أنباء الرسل ، وإما على الحالية من ﴿ ﴾ من أنباء الرسل ، وإما على الحالية من ﴿ مَا ﴾ أو من الضمير الجرور في ﴿ بِهِ ﴾ على مذهب من يرى جواز تقديم حال المجرور بالحرف عليه ، وهو حينئذ نكرة بمعنى جميعاً أي نقص عليك من أنباء الرسل الأشياء التي نثبت بها فؤادك جميعاً .

واستظهر أبو حيان كون ﴿ كَلاّ ﴾ مفعولاً له لنقص ، و﴿ مِنْ أَنْبَاء ﴾ في موضع الصفة له وهو مضاف في التقدير إلى نكرة ، و﴿ مَا ﴾ صلة كما هي في قوله تعالى ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 3] ولا يخفى ما فيه .

﴿ وَجَاءكَ فِى هذه الحق ﴾ أي الأمر الثابت المطلق للواقع ، والإشارة بهذه إلى السورة كما جاء ذلك من عدة طرق عن ابن عباس .

وأبي موسى الأشعري .

وقتادة .

وابن جبير .

(128/387)

وقيل : الإشارة إليها مع نظائرها وليس بذاك ككونها إشارة إلى دار الدنيا ، وإن جاء في رواية عن الحسن ، وقيل : إلى الأنباء المقتصة ، وهو مما لا بأس به ﴿ وَمَوْعِظَةٌ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ عطف على ﴿ الحق ﴾ أي جاءك الجامع المتصف بكونه حقاً في نفسه وكونه موعظة وذكرى للمؤمنين ، ولعل تحلية الوصف الأول باللام دون الأخيرين لما قيل : من أن الأول حال للشيء في نفسه والأخيران وصفان له بالقياس إلى غيره .

وقال الشهاب : الظاهر أن يقال إنما عرف الأول لأن المراد منه ما يختص بالنبي صلى الله عليه وسلم من إرشاده إلى الدعوة وتسليته بما هو معروف معهود عنده ، وأما الموعظة والتذكير فأمر عام لم ينظر فيه لخصوصية ، ففرق بين الوصفين للفرق بين الموصوفين ، وفي التخصيص بهذه السورة ما يشهد له لأن مبناها على إرشاده صلى الله عليه وسلم على ما سمعت عن صاحب الكشف ، وتقديم الظرف على الفاعل ليتمكن المؤخر عنه وروده أفضل تمكن ولأن في المؤخر نوع طول يخل تقديمه بتجاوب النظم الكريم .

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي جهتكم وحالكم التي أنتم عليها ﴿ أَنَّا عاملون ﴾ على جهتنا وحالنا التي نحت عليها .

﴿ وانتظروا ﴾ بنا الدوائر ﴿ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ أي ينزل بكم نحو ما نزل بأمثالكم من الكفرة ، وصيغة الأمر في الموضعين للتهديد والوعيد ، والآيتان محكمتان .

وقيل : المراد الموادعة فهما منسوختان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(129/387)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

هذا تذييل وحوصلة لما تقدّم من أنباء القرى وأنباء الرسل . . .

فجملة ﴿ وكُلاّ نَقُصّ عليك من أنباء الرسل ﴾ إلى آخرها عطفُ الإخبار على الإخبار والقصة على القصة ، ولك أن تجعل الواو اعتراضيّة أو استئنافية .

وهذا تهيئة لاختتام السورة وفذلكة لما سيق فيها من القصص والمواعظ .

وانتصف ﴿ كُلاّ ﴾ على المفعولية لفعل ﴿ نقُصُّ ﴾ .

وتقديمه على فعله للاهتمام ولِمَا فيه من الإبهام ليأتي بيانه بعده فيكون أرسخ في ذهن السامع .

وتنوين ﴿ كُلاّ ﴾ تنوين عوض عن المضاف إليه المحذوف المبيّن بقوله : ﴿ من أنباء الرسل ﴾ .

فالتقدير : وكلّ نبأ عن الرسل نقصّه عليك ، فقوله : ﴿ من أنباء الرسل ﴾ بيان للتّنوين الذي لحق (كلاّ) .

و﴿ ما نثبّت به فؤادك ﴾ بدل من ﴿ كلاّ ﴾ .

والقصص يأتي عند قوله تعالى : ﴿ نحن نقصّ عليك أحسن القصص ﴾ في أوّل سورة [يوسف : 3] .

والتثبيت : حقيقته التسكين في المكان بحيث ينتفي الاضطراب والتزلزل .

وتقدّم في قوله تعالى : ﴿ لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً ﴾ في سورة [النساء : 66] ،

وقوله : ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ في سورة [الأنفال : 12] ، وهو هنا مستعار للتقرير كقوله : ﴿ ولكن ليطمئن قلبي ﴾ [البقرة : 260] .

والفؤاد : أطلق على الإدراك كما هو الشّائع في كلام العرب .

وتثبيت فؤاد الرّسول صلى الله عليه وسلم زيادة يقينه ومعلوماته بما وعده الله لأن كل ما يعاد ذكره من قصص الأنبياء وأحوال أممهم معهم يزيده تذكراً وعلماً بأنّ حاله جار على سنن الأنبياء وازداد تذكراً بأنّ عاقبته النصر على أعدائه ، وتجدّد تسلية على ما يلقاه من قومه من التكذيب وذلك يزيده صبراً .

والصبر : تثبيت الفؤاد .

وأنّ تماثل أحوال الأمم تلقاء دعوة أنبيائها مع اختلاف العصور يزيده علماً بأنّ مراتب العقول البشريّة متفاوتة ، وأن قبول الهدي هو منتهى ارتقاء العقل ، فيعلم أن الاختلاف شنشنة قديمة في البشر ، وأنّ المصارعة بين الحق والباطل شأن قديم ، وهي من النواميس التي جُبِلَ عليها النظام البشري ، فلا يُحْزنه مخالفة قومه عليه ، ويزيده علماً بسمُوّ أتباعه الذين قبلوا هداه ، واعتصموا من دينه بعراه ، فجاءه في مثل قصة موسى عليه السّلام واختلاف أهل

الكتاب فيه بيان الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين فلا يقعوا فيما وقع فيه أهل الكتاب .

والإشارة من قوله : ﴿ في هذه ﴾ قيل إلى السورة وروي عن ابن عبّاس ، فيقتضي أن هذه السورة كانت أوفى بأنباء الرسل من السور النازلة قبلها وبهذا يجري على قول من يقول : إنها نزلت قبل سورة يونس .

والأظهر أن تكون الإشارة إلى الآية التي قبلها وهي ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقيّة ينهون عن الفساد في الأرض إلى قوله من الجنة والنّاس أجمعين ﴾ [هود : 116 119] .

فتكون هذه الآيات الثلاث أول ما نزل في شأن النهي عن المنكر .

على أن قوله : ﴿ وجاءك في هذه الحق ﴾ ليس صريحاً في أنه لم يجىء مثله قبل هذه الآيات ، فتأمل .

ولعلّ المراد بـ ﴿ الحق ﴾ تأمين الرسول من اختلاف أمته في كتابه بإشارة قوله : ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقيّة ﴾ [هود : 116] المفهم أنّ المخاطبين ليسوا بتلك المثابة ، كما تقدّمت الإشارة إليه آنفاً .

وتعريفُه إشارة إلى حق معهود للنبيء ؛ إمّا بأن كان يتطلّبه ، أو يسأل ربه .

والموعظة : اسم مصدر الوعظ ، وهو التّذكير بما يَصُدّ المرء عن عمل مضرّ .

والذكرى : مجرد التّذكير بما ينفع .

فهذه موعظة للمسلمين ليحذروا ذلك وتذكيراً لهم بأحوال الأمم ليقيسوا عليها ويتبصّروا في أحوالها .

وتنكير ﴿ موعظة وذكرى ﴾ للتعظيم .

(131/387)

﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾

عطف على جملة ﴿ وجاءك في هذه الحق ﴾ [هود : 120] الآية ، لأنّها لما اشتملت على أنّ في هذه القصة ذكرى للمؤمنين أمر بأن يخاطب الذين لا يؤمنون بما فيها خطاب الآيِس من انتفاعهم بالذكرى الذي لا يعبأ بإعراضهم ولا يصدّه عن دعوته إلى الحقّ تألبهم على باطلهم ومقاومتهم الحق .

فلا جرم كان قوله : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون ﴾ عديلاً لقوله : ﴿ وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ [هود : 120] .

وهذا القول مأمور أن يقوله على لسانه ولسان المؤمنين .

وقوله : ﴿ اعملوا على مكانتكم إنّا عاملون ﴾ هو نظير ما حكي عن شعيب عليه السّلام في هذه السورة آنفاً .

وضمائر ﴿ إنّا عاملون ﴾ ﴿ وإنّا منتظرون ﴾ للنبيء والمؤمنين الذين معه .

وفي أمر الله رسوله بأن يقول ذلك على لسان المؤمنين شهادة من الله بصدق إيمانهم .

وفيه التفويض إلى رأس الأمّة بأن يقطع أمراً عن أمته ثقة بأنّهم لا يردّون فعله .

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لهوازن لما جاءوا تائبين وطالبين ردّ سباياهم وغنائمهم "اختاروا أحدَ الأمرين السبيَ أو الأموال" فلمّا اختاروا السبي رجع السبي إلى أهله ولم يسْتشر المسلمين ، ولكنّه جعل لمن يُطيب ذلك لهوازن أن يكون على حقه في أوّل ما يجيء من السبي ، فقال المؤمنون : طيّبنا ذلك .

وقوله : ﴿ وانتظروا إنّا منتظرون ﴾ تهديد ووعيد ، كما يقال في الوعيد : سوف ترى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(132/387)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

وساعة ترى التنوين في قوله الحق ﴿ وَكُلاًّ ﴾ فاعلمْ أن المقصود هو قصة كل رسول جاء بها الحق سبحانه في القرآن الكريم .

وحين يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن فعل قد أحدثه؛ فلنا أنْ ننظر: هل هذا الفعل مأخوذ من صفة له سبحانه أم مأخوذ من اسم موجود؟ فيحقّ لنا أن نأخذ الاسم ونأخذ الفعل مثل قوله تعالى: ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ [النحل: 70].

نعلم منه أنه سبحانه خالق، ولكن إنْ جاء فعل ليس له أصل في أسماء الله الحسنى، فإياك أنْ تشتقّ من الفعل اسماً لله.

ومثال ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَكُلاًّ نَقُصُّ ﴾ [هود: 120].

والذي يقصُّ هنا هو الله سبحانه لكن لا أحد في إمكانه أن يقول: إن الله قصّاص، مثلما لا يحق لأحد أن يقول: إن الله ماكر، رغم أن الله سبحانه قد قال: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكرين ﴾ [الأنفال: 30].

وكذلك لا يصح لأحد أن يقول: الله المخادع، رغم أن الحق سبحانه قد قال: ﴿ إِنَّ المنافقين يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء: 142].

وهكذا نتعلم أدب الحديث عن الله المتصف بكل صفات الكمال والجلال؛ وأن نكتفي بقول: إن مثل هذا الفعل جاء للمشاكلة ما دام ليس له وجود ضمن أسماء الله الحسنى.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل ﴾ [هود: 120].

و "أنباء" جمع "نبأ" ، وهو الخبر العظيم الذي له أهمية ، والذي يختلف به الحال عند العلم به ، وأخبار الرسل عليهم السلام تتناثر لقطاتٍ مختلفة عَبْرَ سور القرآن الكريم ، موضحة ما جاء به كل رسول معالجاً الداء الذي عانى منه قومه ، وكذلك ما عاناه كل رسول من عَنَت القوم المبعوث لهم ، وجاء ذكر تلك الأنباء في القرآن لتثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الرسول سيصادف في الدعوة المتاعب والصعاب .

وقد ذكر القرآن بعضاً من تلك المواقف ، يقول الحق سبحانه :

﴿ وَزُلْزِلُواْ حتى يَقُولَ الرسول والذين آمَنُواْ مَعَهُ متى نَصْرُ الله ﴾ [البقرة : 214] .

ويقول الحق سبحانه مصوّراً حال المؤمنين :

﴿ إِذْ جَآءُوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأبصار وَبَلَغَتِ القلوب الحناجر وَتَظُنُّونَ بالله الظنونا ﴾ [الأحزاب : 10] .

ومثل هذه المواقف تقتضي تثبيت الفؤاد ؛ بمعنى تسكينه على منطق اليقين الإيماني بربِّ أرسله رسولاً ليبلِّغ منهجاً ، وما كان الله سبحانه ليرسل رسولاً ليبلِّغ منهجاً ثم يُسلمه لأعدائه .

فإذا ما ذكر له أخبار الرسل والصعاب التي تعرضوا لها تهون عليه المصاعب التي يتعرض لها ، ويثبت فؤاده .

و" الفؤاد " هو ما نقول عنه : " القلب " ، وهو وعاء العقائد ، بمعنى أن المخ يستقبل من الحواس وسائل الإدراكات من عين ترى ، ومن أذن تسمع ، ومن أنف يشُم ، ومن فَمٍ يستطعم ، ومن كفٍّ تلمس فتتولد المعلومات التي يصنفها المخ ، ويرتبها كقضايا عقلية . ويناقش المخ تلك القضايا العقلية إلى أن تصح القضية العقلية صحة لا يأتي بعدها ما ينقضها ، فيسقطها المخ في الفؤاد لتصير عقيدة ؛ لا تطفو بعدها إلى العقل لتُناقش من جديد ؛ ولذلك يسمونها " عقيدة " من العقدة فلا تتذبذب بعد ذلك .

(134/387)

إذن : فالفؤاد هو الوعاء القابل للقضايا التي انتهى المخ من تمحيصها تمحيصاً وصل فيه إلى الحق ، وأسقطها على القلب ليدير حركة الحياة على مُقْتضاها .

وعلى سبيل المثال : نجد الشاب الذي يفكر في مستقبله ، فيدرس مزايا وعيوب المهن المختلفة ليختار منها التخصص الذي يتناسب مع مواهبه ؛ وأحلامه ، ثم يدرس المحسَّات التي استقبلها بحواسه ليُمحِّصها بعقله ؛ وما ينتهي إليه عقله يسقطه في قلبه ؛ ليصير عقيدة يدير بها حركة حياته .

مثال هذا : أنه قد استقر في وجدان الناس وعقولهم أن النار مُحْرقة ، ولكن من أين جاء

هذا اليقين في أن النار محرقة ؟ نقول : جاء من أمر حسي بأن شاهد الناس أن مَنْ مسَّته النار أحرقته .

لا بد إذن أن يكون القلب ثابتاً ؛ غير مذبذب .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : 120] .

لأن الفؤاد هو الوعاء الذي من مهمته أن يكون مستعداً لاستقبال كلمة الحق ؛ وليقبل تنبيه الذكرى ، وجلال الموعظة ، وكمال الوارد من الحق سبحانه وما يأتي من الحق سبحانه هو الحق أيضاً ، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يطرأ عليه تغيير .

وحق الحق ينبوع العقيدة الذي ستصدر عنه طاعة التكليف ، ولا بد أن يكون الإنسان على ثقة من حكمه المكلِّف قبل أن يُقبلَ على التكليف ؛ لذلك لزم أن يأتي الدليل على وجود الحق سبحانه وهو قمة الوجود الأعلى قبل أن تأتي الموعظة ، ويكون الإيمان بالوجود الأعلى الذي لا يتغير ولا تطرأ عليه الأغيار هو السابق لمجيء تلك الموعظة .

لأن الموعظة قد تتطلب من الإنسان شيئاً يكره أن يلتزم به ، وهي هنا صادرة من الحق سبحانه ، الذي خلق ، ولا يمكن أن يغش أو يخدع مخلوقاته ، ويحملها لك رسول منه سبحانه .

وقد تكره الموعظة إن صدرت عن إنسان مثلك ؛ لأنه لن يَعِظك إلا بكمال يتميز به ليعدد نقصاً فيك ، وإن لم يكن الواعظ يتمتع بالكمال الذي يعظ به ؛ بالموعوظ سيردُّ على الواعظ قائلاً : فَلْتعِظْ نفسك أولاً .

ولذلك نجد قول الحق سبحانه :

﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾

[الصف : 3] .

لأن الواعظ الذي يَعِظُ بما لا يطبقه على نفسه يعطي الحجة للموعوظ ليرفض الموعظة ؛ وليقول لنفسه : " لو كان في هذا الأمر خير لطبَّقه على نفسه " .

وهكذا بيَّنت الآية الكريمة موقف الرسول صلى الله عليه وسلم كمُثبِّتٍ ، وأيضاً موقف المؤمنين برسالته كمذكَّرين من الرسول بأنهم سيتعرضون للمتاعب ؛ متاعب مشقة التكليف التي سيعاني منها مَنْ لا يأخذ التكليف بعمق الفهم .

فقد يرى بعض المكلَّفين مثلاً أن الأمر بغضِّ الطَّرْف حرمانٌ من شهوة طارئة ولا يَسْبر غورَ الفهم بأن غَضَّ الطَّرْف أمراً لكافة المؤمنين أن يغضوا الطرف عن محارمه ، وقد يرى في الزكاة أنها أَخْذٌ من ماله ، ولا يَسْبر غور الفهم بأن في الزكاة تأميناً له إنْ مرَّت عليه الأغيار وصار فقيراً ؛ عندئذ سيقدم له المجتمع الإيماني التأمين الاجتماعي الذي يحميه وعياله من مَغبَّة

السؤال .

وعمق الفهم أمر مطلوب ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن ﴾ [النساء : 82] .

لأنك حين تتدبر المعاني ستعلم أن التكليف هو تشريف لك ؛ وستقول لنفسك : " ما كلفني الله إلا لخير نفسي ؛ وإن ظهر أنه لخير الناس " .

ومن المتاعب أيضاً ما يلقاه المؤمنون من عنت المستفيدين من الفساد ؛ هؤلاء الذين يعيشون على الانتفاع من المفاسد ، ويواجهون كل من يريد أن يقضي على الفساد ؛ لأن الفساد في الأرض لا يعيش إلا إذا وُجِد منتفعٌ بهذا الفساد ؛ والمنتفع بالفساد يكره ويعلن الخصومة لكلِّ مقاومٍ له .

(136/387)

إذن : فموقف خصوم النبي صلى الله عليه وسلم موقف طبيعي لصالحهم ، ولكنهم لحمقهم حددوا الصالح بمصالحهم الآنية في الحياة الدنيا ؛ ولم ينظروا إلى عاقبة ما يؤول إليه أمرهم في الآخرة نعيماً أو عذاباً .

ولو أنهم امتلكوا البصيرة ؛ لعرفوا أن من مصلحتهم أن يوجد مَنْ يُقوِّمهم حتى لا يقدموا

لأنفسهم شراً يوجد لهم في الآخرة .

ولو أنهم فَطِنوا ؛ لعلموا أن الرسول كما جاء لصلاح المستضعفين المستغلين بالفساد ؛ جاء أيضاً لصالحهم ، ولو أنهم كانوا على شيء من التعقل ؛ لكانوا من أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولكان من الواجب عليهم كلما حدثتهم أنفسهم بالسعي إلى الفساد ؛ وسمعوا من الرسول صلى الله عليه وسلم ما ينتظرهم نتيجة لهذا الفساد ؛ أن يتبعوه وأن يشكروه ؛ لأنه خلَّصهم من طاقة الشر الموجودة فيهم .

وهنا يوضح الحق سبحانه لرسوله : أنت لست بدعاً من الرسل ، وكل رسول تعرَّض للمتاعب مثلما تتعرض أنت لمثلها ، وأنت الرسول الخاتم ، ولأن الدين الذي جئتَ به لن يأتي بعده دين آخر ؛ لذلك لا بد أن تتركز المتاعب كلها معك ؛ فكُنْ على ثقة تماماً أنك مُصادِفٌ للمتاعب .

ولذلك نثبِّت فؤادك بما نقصُّه عليك من أنباء الرسل ؛ لأن هذا الفؤاد هو الذي سيستقبل الحقائق الإيمانية من قمة " لا إله إلا الله " إلى أن يكون ذكرى تذكِّرك والمؤمنين معك .

وهكذا بيَّنتْ الآية موقف الرسول صلى الله عليه وسلم كمثبَّت ؛ وموقف المؤمنين كمذكَّرين من الرسول ؛ لأنهم سيتعرضون للمتاعب أيضاً .

ونحن نعرف جميعاً ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار حين بايعوه في العقبة على نصرته ، وقالوا : إنْ نحن وفينا بما عاهدناك عليه ؛ فماذا يكون لنا ؟ ولم يَقُلْ لهم صلى

الله عليه وسلم : " ستملكون الدنيا ، وستصبحون سادة الفُرْس والروم " ، بل قال لهم : " لكم الجنة " .

(137/387)

لأنه صلى الله عليه وسلم يعلم أن منهم مَنْ سيموت قبل أن تتحقق تلك الانتصارات ؛ لذلك وعدهم بالقَدْر المشترك الذي يتساوى فيه مَنْ يموت بعد إعلانه للإيمان ، وبين مَنْ سيعيش ليشهد تلك الانتصارات .

وهكذا تبينا كيف تضمَّنت الآية الكريمة تثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وكيفية إعداد هذا الفؤاد لاستقبال الحق والموعظة وذكرى المؤمنين معه .

هذا هو الطرف الأول ، فماذا عن الطرف الثاني ؛ الطرف المكذِّب للرسول ؟

كان ولا بد أن يتكلم الحق سبحانه هنا عن المكذِّبين للرسول ؛ لأن استدعاء المعاني يجعل النفس قابلة للسماع عن الطرف الآخر .

وما دام الحق سبحانه قد تكلم عن تثبيت وعاء الاستقبال ، والموعظة ، وتذكير المؤمنين ؛ لحظة أن تخور منهم العزائم ، فلا بُدَّ إذن أن يتكلم سبحانه عن القسم الآخر ؛ وهو القسم المكذِّب ، فيوضح سبحانه لرسوله أن له أن يتحداهم ولا يتهيَّب .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعملوا ﴾ .

أي : اصنعوا ما شئتم ، ومعنى ذلك أنه صلى الله عليه وسلم مستندٌ إلى رصيد قويّ من الإيمان بإلهٍ لا يهوله أن يستعد له الخصم ؛ فهو صلى الله عليه وسلم والذين معه لا يواجهون الخصم بذواتهم ؛ ولا بعدَدهم وعُددهم ؛ وإنما يواجهونه بالركن الركين الذي يستندون إليه ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

ونحن نرى في حياتنا اليومية أن أي قائد في معركة إنما يشعر بالثقة حين يصل إلى علمه أن مدداً سوف يصله من الوطن الذي يحارب من أجله ؛ لأنه سيعزز من قوته ، فما بالنا بالمدد الذي يأتي ممن لا ينفد ما عنده ؛ وممن لا يُجير عليه أحدٌ ؛ فهو يُجير ولا يُجَار عليه .

ولذلك نلاحظ أن الأنبياء استظلوا بتلك المظلة ، فموسى عليه السلام حين كاد الفرعون أن يلحق به ؛ ورأى قومه أنْ لا نجاة لهم ؛ فالبحر أمامهم والعدو وراءهم ؛ صرخوا :

﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : 61] .

لكن موسى عليه السلام يطمئنهم :

﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62] .

فموسى عليه السلام يعلم أنه مُستند بقوة الله لا بقوة قومه ، وأمدَّه الله سبحانه بمعجزة جديدة :

﴿ اضرب بِّعَصَاكَ البحر ﴾ [الشعراء : 63] .

فينفلق البحر ؛ ليفسح بين مياهه طريقاً يابسة ؛ وسار موسى عليه السلام وقومه ، وفكر موسى في قطع السبيل على عدوه حتى لا يسير في نفس الطريق المشقوق بأمر الله عبر معجزة ضرب البحر بالعصا ، وأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر ضربة ثانية ليعود البحر إلى حالة السيولة مرة أخرى ، فيقول له الله سبحانه : ﴿ واترك البحر رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان : 24] .

أي : أتركه على ما هو عليه ؛ لينخدع فرعون ويسير في الطريق اليابسة ، ثم يعيد الحق سبحانه البحر كما كان ، وبذلك أُنجَى الحق سبحانه وأَهْلَكَ بالشيء الواحد ؛ وهذه لا يقدر عليها غير الله سبحانه وتعالى وحده .

وهكذا يَهَبُ الحق سبحانه المؤمنين به القدرة على تحدي الكافرين . والإيمان كله معركة من التحدي ؛ تحدٍّ في صدق الرسول كمبلِّغ عن الله ، ومعه معجزة تدل على رسالته ، وتحدٍّ في نصرة الرسول ومَنْ معه من قلة مؤمنة ؛ فيغلبون الكثرة الكافرة .

والحق سبحانه يقول : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله والله مَعَ الصابرين ﴾ [

البقرة : 249] .

وهكذا يشيع التحدي في معارك الإيمان .

وقد تميّز كل رسول بمعجزة يتحدى بها أولاً ؛ ثم ينتهي دورها ؛ لينزل له بعدها منهج من السماء ؛ ليبشّر به قومه ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم تميَّز بمعجزة لا تنتهي ، وهي عَيْنُ منهجه ؛ لأنه رسول إلى كل الأزمان وإلى كل الأمكنة ؛ فكان لا بد من معجزة تصاحب المنهج إلى يوم القيامة .

ولذلك نجد كل مؤمن بالرسالة المحمدية يقول : محمد رسول الله والقرآن معجزته إلى أن تقوم الساعة .

(139/387)

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ [هود : 121] .

ونحن نعلم أن كل كائن منّا له مكان ، أي : له حَيِّز وجرْم . ويقال : فلان له مكانة في القوم ، أي : له مركز مرموق ؛ إذا خلا منه لا يستطيع غيره أنْ يشغله ، وهو مكان يدلُّ على الشرف والعظمة والسيادة والوجاهة ونباهة الشأن .

فقول الحق : ﴿ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ [هود : 121] .

أي : اعلموا على قَدْر طاقتكم من عُدة ومن عَدد ، فإن لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم رباً سيهديه وينصره ، وفي هذا تهديد لهم ؛ وليس أمراً لهم ؛ لأنهم ككفار لن يمتثلوا لأمر مِنْ عَدوِّهم .

ولو أنهم امتثلوا لأمر محمد وربِّ محمد لَمَا كانوا كافرين ؛ بل لأصبحوا من الطائعين .

وحين يقول لهم سبحانه في آخر الآية :

﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ [هود : 121] .

فمعنى ذلك أن كل ما في قدراتكم هو محدود لأنكم من الأغيار الأحداث ؛ أما فعل الله تعالى فهو غير محدود ؛ لأنه سبحانه قديمٌ أزليٌّ لا تحده حدود ، ولن يناقض عمل المُحدَث الحادث عمل القديم الأزلي ، فقوة الحادث المُحدَث موهوبة له من غيره ، أما قوة الحق سبحانه فهي ذاتية فيه .

ونحن نعلم أن أيَّ عمل إنما يُقَاس بقوة فاعله ، وخطأ المستقبلين لمنهج الله أنهم إذا جاء عمل ؛ نَسَوا مَنِ الذي عَمِلَ العمل ، ولو كان العمل من فعل البشر لَحقَّ للإنسان أن يتكلم ، لكن إذا ما كان العمل من الله تعالى فليلزمِ الإنسان حدوده .

ومثال ذلك : هؤلاء الذين جادلوا في مسألة الإسراء التي قال فيها الحق تبارك وتعالى : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ

﴾ [الإسراء : 1] .

وقالوا : إننا نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، فكيف يقول إنه أتاها في ليلة ؟

(140/387)

وكان الرد عليهم : إن محمداً لم يَقُلْ إنه سَرَى من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى بقوته هو ، بل أُسْرِيَ به ، والذي عمل ذلك هو الله سبحانه وليس محمداً ، فقيسوا هذا العمل بقوة الله تعالى وليس بقوة محمد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ وانتظروا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ .

في هذه الآية نلمس الوعيد والتهديد ؛ فالكافرون ينتظرون وعد الشيطان لهم ، والمؤمنون ينتظرون وعد الرحمن لهم .

ولذلك سيقول المؤمنون للكافرين يوم القيامة : ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً ﴾ [الأعراف : 44] .

وفي انتظار الكفار تهديد لهم ، وفي انتظار المؤمنين تثبيت لقلوبهم ، ولو لم تَأْتِ الأحداث المستقبلة كما قالها القرآن لتشكك المؤمنون ، ولكن المؤمنين لم يتشككوا ، وهكذا نتأكد أن القول بالانتظار لم يكن ليصدر إلا مِنْ واثقٍ بأن ما في هذا القول سوف يتحقق .

وقد جاء الواقع بما يؤيد بعض الأحداث التي جاءت في القرآن .

ألم ينزل قول الحق سبحانه :

﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ويُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] .

وكان وقت نزول هذا القول الحكيم إبان ضعف البداية ، حتى قال عمر رضي الله عنه أيُّ جَمْعٍ يهزم ؟ لأن عمر حينئذ كان يلمس ضعف حال المؤمنين ، وعدم قدرة بعض المؤمنين على حماية نفسه ، ثم تأتي غزوة بدر ؛ ليرى المؤمنون صدق ما تنبأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن العجيب أنه صلى الله عليه وسلم خطط على الأرض مواقع مصرع بعض كبار الكافرين ، بل وأماكن إصاباتهم ، وجاء ذلك قرآناً يُتلى على مر العصور ، مثل قوله الحق :

﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم ﴾ [القلم : 16] .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يأتي الواقع بما يؤيد صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما شاء سبحانه أن يُنزل على الرسول لقطاتٍ من قصص الرسل الذين سبقوه لشد أَزْره ،

وليثبِّت فؤاده ، ويذكِّر المؤمنين فيزدادوا إيماناً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(142/387)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (120) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله ﴿ وكلاًّ نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ لتعلم يا محمد ما لقيت الرسل من قبلك من أممهم .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس ﴿ وجاءك في هذه الحق ﴾ قال : في هذه السورة .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري ﴿ وجاءك في هذه الحق ﴾ قال : في هذه السورة .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير . مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ وجاءك في هذه الحق ﴾ قال : في هذه الدنيا .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد قال : كان قتادة يقول في هذه السورة ، وقال الحسن : في الدنيا .

وأخرج أبو الشيخ من طريق أبي رجاء عن الحسن ﴿ وجاءك في هذه الحق ﴾ قال : في هذه السورة .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ اعملوا على مكانتكم ﴾ أي منازلكم .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله ﴿ وانتظروا إنا منتظرون ﴾ قال : يقول : انتظروا مواعيد الشيطان إياكم على ما يزين لكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ ﴾ : في نصبه أوجه ، أحدها : أنه مفعولٌ به والمضاف إليه محذوفٌ ، عُوِّض منه التنوين ، تقديره : وكل نبأ نَقُصُّ عليك . و " مِنْ أنباء " بيانٌ له أو صفة إذا قُدِّر المضاف إليه نكرة . وقوله : " ما نُثَبِّتُ " يجوز أن يكونَ بدلاً من " كلاً " ، وأن يكونَ خبرَ مبتدأ مضمر ، أي : هو ما نثبِّت ، أو منصوبٌ بإضمار أعني .

الثاني : أنه منصوبٌ على المصدرِ ، أي : كلَّ اقتصاصٍ نَقُصُّ ، و " مِنْ أنباء " صفةٌ أو بيان ، و " ما نُثَبِّت " هو مفعول " نَقُصُّ " .

الثالث : كما تقدَّم ، إلا أنه بجَعْل " ما " صلةً ، والتقدير : " وكلاً نَقُصُّ من أنباء الرسل نُثَبِّت به فؤادك ، كذا أعربه الشيخ وقال : كهي في قوله : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 3] .

الرابع : أن يكون " كلاً " نصباً على الحال من " ما نُثَبِّت " وهي في معنى جميعاً . وقيل : بل هي حال من الضمير في " به " . وقيل : بل هي حال من " أنباء " ، وهذان الوجهان إنما يجوزان عند الأخفش ، فإنه يُجيز تقديم حالِ المجرورِ بالحرف عليه ، كقوله تعالى : ﴿ والسماوات مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر : 67] في قراءةِ مَنْ نصب " مَطْويات " وقول

الآخر :

2732 رَهْطُ ابنِ كُوْزٍ مُحْقبي أَدْراعهم . . . فيهم ورَهْطُ ربيعةَ بنِ حُذار

وإعراب باقي السورة واضح ممَّا تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 427 ـ 428﴾.

(144/387)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ .

سكَّنَ قلبه بما قصَّ عليه من أنباء المرسلين ، وعرّفه أنه لم يُرقِّ أحداً إلى المحلِّ الذي رقّاه إليه ، ولم يُنْعِمْ على أحد بمثل ما أنعم عليه .

ويقال قَصَّ عليه قِصَصَ الجميع ، ولم يذكر قصتَه لأحد تعريفاً له وتخصيصاً . ويقال لم يكن ثباتُ قلبه بما قصَّ عليه ولكن لاستقلال قلبه بِمَنْ كان يقص عليه ، وفَرْقٌ بين من يقعل بما يسمع وبين مَنْ يَستقل بِمَنْ منه يسمع ، وأنشدوا :

وَحَدَّثتَني يا سَعْدُ عنها فَزِدْتَني . . . جَنوناً فَزِدْني مِنْ حديثِكَ يا سعدُ

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (121) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (122) ﴾

إن الذين يجحدون التوحيد ، ويؤثرون على الحقّ غيرَ الحق ، ولم يُصَدّقوا الوعيد ، يوشِكُ أَنْ يَنْصَبّ عليهم الانتقامُ فيغرقون في بحار العقوبة ، ويسقطون في وهاد الهوان ، فلا لويلهم انتهاءٌ ، ولا لِذلِّهم انقضاءٌ . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 163 . 164﴾

(145/387)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والثمانون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/388)

الجزء الثامن والثمانون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 123 ﴾ من سورة هود عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 123 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/388)

قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تضمن هذا التهديد العلم والقدرة ، قال عاطفاً على ما تقديره : فلله كل ما شوهد من أمرنا وأمركم وأمر عالم الغيب والشهادة كله ما كان من ابتداء أمورنا ﴿ ولله ﴾ أي المحيط وحده بكل شيء مع ذلك ﴿ غيب السماوات والأرض ﴾ أي جميع ما غاب علمه عن العباد فهو تام العلم ، ومنه ما ينهى عنه وإن ظن الجهلة أنه خارج عن قدرته لما أظهر من الزجر عنه ومن كراهيته .

ولما كان السياق هنا لأنه سبحانه خلق الخلق ذواتهم ومعانيهم للاختلاف ، وكان تهديدهم على المعاصي ربما أوهم أنه بغير إرادته ، فكان ربما قال جاهل : أنا بريء من المخالفين لأوليائه كثيراً جداً ، وعادة الخلق أن من خالفهم خارج عن أمرهم ، كان الجواب على تقدير التسليم لهذا الأمر الظاهر : فله كان الأمر كله ظاهراً وباطناً ﴿ وإليه ﴾ أي وحده ﴿ يرجع ﴾ بعد أن كان ظهر للجاهل أن خرج عنه ؛ والرجوع : ذهاب الشيء إلى حيث ابتدأ منه ﴿ الأمر كله ﴾ في الحال على لبس وخفاء ، وفي المال على ظهور واتضاح وجلاء ، فهو شامل القدرة كما هو شامل العلم ، فلا بد من أن يرجع إليه أمرك وأمر أعدائك ، أي يعمل فيه عمل من يرجع إليه الأمر فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، ولذلك سبب عن إسناد الأمور كلها إليه قوله : ﴿ فاعبده ﴾ أي وحده عبادة لا شوب فيها ﴿ وتوكل ﴾ معتمداً في أمورك كلها ﴿ عليه ﴾ فإنه القوي المتين ، وفي تقديم الأمر

بالعبادة على التوكل تنبيه على أنه إنما ينفع العابد .

ولما كانت العادة جارية بأن العالم قد يغفل ، نزه عن ذلك سبحانه نفسه فقال مرغباً مرهباً :

﴿ وما ربك ﴾ أي المحسن إليك بما يعمله بإحاطة عمله إحساناً ، وأغرق في النفي فقال :

﴿ بغافل عما تعملون ﴾ ولا تهديد أبلغ من العلم ، وهذا بعينه مضمون قوله تعالى ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير الا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير ﴾ [هود 1 - 2] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 592.593 ﴾

(5/388)

فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى ذكر خاتمة شريفة عالية جامعة لكل المطالب الشريفة المقدسة فقال : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السموات والأرض ﴾ .

واعلم أن مجموع ما يحتاج الإنسان إلى معرفته أمور ثلاثة .

وهي : الماضي والحاضر والمستقبل .

أما الماضي فهو أن يعرف الموجود الذي كان موجوداً قبله ، وذلك الموجود المتقدم عليه هو

الذي نقله من العدم إلى الوجود ، وذلك هو الإله تعالى وتقدس .

واعلم أن حقيقة ذات الإله وكنه هويته غير معلومة للبشر ألبتة ، وإنما المعلوم للبشر صفاته ، ثم إن صفاته قسمان : صفات الجلال ، وصفات الإكرام .

أما صفات الجلال ، فهي سلوب ، كقولنا : إنه ليس بجوهر ولا جسم ، ولا كذا ولا كذا .

وهذه السلوب في الحقيقة ليست صفات الكمال ، لأن السلوب عدم ، والعدم المحض والنفي الصرف ، لا كمال فيه ، فقولنا لا تأخذه سنة ولا نوم إنما أفاد الكلام لدلالته على العلم المحيط الدائم المبرأ عن التغير ولولا ذلك كان عدم النوم ليس يدل على كمال أصلاً ، ألا ترى أن الميت والجماد لا تأخذه سنة ولا نوم وقوله : ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام : 14] إنما أفاد ، الجلال والكمال والكبرياء ، لأن قوله : ﴿ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ يفيد كونه واجب الوجود لذاته غنياً عن الطعام والشراب بل عن كل ما سواه ، فثبت أن صفات الكمال والعز والعلو هي الصفات الثبوتية ، وأشرف الصفات الثبوتية الدالة على الكمال والجلال صفتان : العلم والقدرة ، فلهذا السبب وصف الله تعالى ذاته في هذه الآية بهما في معرض التعظيم والثناء والمدح.

أما صفة العلم فقوله : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السموات والأرض ﴾ والمراد أن علمه نافذ في جميع الكليات والجزئيات والمعدومات والموجودات والحاضرات والغائبات ، وتمام البيان

والشرح في دلالة هذا اللفظ على نهاية الكمال ما ذكرناه في تفسير قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾

(6/388)

[الأنعام : 59] وأما صفة القدرة ، فقوله : ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ ﴾ والمراد أن مرجع الكل إليه ، وإنما يكون كذلك لو كان مصدر الكل ومبدأ الكل هو هو والذي يكون مبدأ لجميع الممكنات وإليه يكون مرجع كل المحدثات والكائنات ، كان عظيم القدرة نافذ المشيئة قهاراً للعدم بالوجود والتحصيل جباراً له بالقوة والفعل والتكميل ، فهذان الوصفان هما المذكوران في شرح جلال المبدأ ونعت كبريائه .

والمرتبة الثانية : من المراتب التي يجب على الإنسان كونه عالماً بها أن يعرف ما هو مهم له في زمان حياته في الدنيا ، وما ذلك إلا تكميل النفس بالمعارف الروحانية والجلايا القدسية ، وهذه المرتبة لها بداية ونهاية .

أما بدايتها فالاشتغال بالعبادات الجسدانية والروحانية .

أما العبادات الجسدانية ، فأفضل الحركات الصلاة ، وأكمل السكنات الصيام ، وأنفع البر الصدقة .

وأما العبادة الروحانية فهي : الفكر ، والتأمل في عجائب صنع الله تعالى في ملكوت السموات والأرض ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السموات والأرض ﴾ [آل عمران : 191] وأما نهاية هذه المرتبة ، فالانتهاء من الأسباب إلى مسببها ، وقطع النظر عن كل الممكنات والمبدعات ، وتوجيه حدقة العقل إلى نور عالم الجلال ، واستغراق الروح في أضواء عالم الكبرياء ، ومن وصل إلى هذه الدرجة رأى كل ما سواه مهرولاً تائهاً في ساحة كبريائه هالكاً فانياً في فناء سناء أسمائه .

وحاصل الكلام : أن أول درجات السير إلى الله تعالى هو عبودية الله ، وآخرها التوكل على الله ، فلهذا السبب قال : ﴿ فاعبده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ .

(7/388)

والمرتبة الثالثة : من المراتب المهمة لكل عامل معرفة المستقبل وهو أنه يعرف كيف يصير حاله بعد انقضاء هذه الحياة الجسمانية ، وهل لأعماله أثر في السعادة والشقاوة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ والمقصود أنه لا يضيع طاعات المطيعين ولا يهمل أحوال المتمردين الجاحدين ، وذلك بأن يحضروا في موقف القيامة ويحاسبوا على النقير والقطمير ويعاتبوا في الصغير والكبير ، ثم يحصل عاقبة الأمر فريق في

الجنة وفريق في السعير ، فظهر أن هذه الآية وافية بالإشارة إلى جميع المطالب العلوية ، والمقاصد القدسية ، وأنه ليس وراءها للعقول مرتقى ولا للخواطر منتهى والله الهادي للصواب ، تمت السورة بحمد الله وعونه ، وقد وجد بخط المصنف رضي الله عنه في النسخة المنتقل منها تم تفسير هذه السورة قبل طلوع الصبح ليلة الاثنين من شهر رجب ختمه الله بالخير والبركة سنة إحدى وستمائة ، وقد كان لي ولد صالح حسن السيرة فتوفي في الغربة في عنفوان شبابه ، وكان قلبي كالمحترق لذلك السبب ، فأنا أنشد الله إخواني في الدين وشركائي في طلب اليقين وكل من نظر في هذا الكتاب وانتفع به أن يذكر ذلك الشاب بالرحمة والمغفرة ، وأن يذكر هذا المسكين بالدعاء وهو يقول : ﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الوهاب ﴾ [آل عمران : 8] وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 66.65 ﴾

(8/388)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ولله غيب السماوات والأرض ﴾ الآية

هذه آية تعظم وانفراد بما لا حظ لمخلوق فيه ، وهو علم الغيب ، وتبين أن الخير والشر ، وجليل الأشياء وحقيرها - مصروف إلى أحكام مالكه ، ثم أمر البشر بالعبادة والتوكل على الله تعالى ، وفيها زوال همه وصلاحه ووصوله إلى رضوان الله .

وقرأ السبعة - غير نافع - "يرجعُ الأمرُ" على بناء الفعل للفاعل ، وقرأ نافع وحفص عن عاصم : "يُرجع الأمرُ" على بنائه للمفعول ورواها ابن أبي الزناد عن أهل المدينة ، وقرأ " تعملون " بالتاء من فوق ، نافع وابن عامر وحفص عن عاصم ، وهي قراءة الأعرج والحسن وأبي جعفر وشيبة وعيسى بن عمرو وقتادة والجحدري ، واختلف عن الحسن وعيسى ، وقرأ الباقون "يعملون" بالياء على كناية الغائب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(9/388)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض ﴾

أي غيبهما وشهادتهما ؛ فحذف لدلالة المعنى .

وقال ابن عباس : خزائن السموات والأرض .

وقال الضّحاك : جميع ما غاب عن العباد فيهما .

وقال الباقون : غيب السموات والأرض نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض .

وقال أبو علي الفارسيّ : "وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ" أي عِلم ما غاب فيهما ؛ أضاف الغيب وهو مضاف إلى المفعول توسعاً ؛ لأنه حذف حرف الجر ؛ تقول : غبت في الأرض وغبت ببلد كذا .

﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ ﴾ أي يوم القيامة ؛ إذ ليس لمخلوق أمر إلا بإذنه .

وقرأ نافع وحفص "يُرْجَعُ" بضم الياء وبفتح الجيم ؛ أي يُرَد .

﴿ فاعبده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ أي الجأ إليه وثق به .

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي يجازي كلا بعمله .

وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالتاء على المخاطبة .

الباقون بياء على الخبر .

قال الأخفش سعيد : "يعملون" إذا لم يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم معهم ؛ قال : بعضهم وقال : "تعملون" بالتاء لأنه خاطب النبي صلى الله عليه وسلم وقال : قل لهم "وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(10/388)

وقال الخازن:

﴿ ولله غيب السموات والأرض ﴾

يعني يعلم ما غاب عن العباد فيهما يعني أن علمه سبحانه وتعالى نافذ في جميع الأشياء خفيها وجليها وحاضرها ومعدومها لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿ إليه يرجع الأمر كله ﴾ يعني إلى الله يرجع أمر الخلق كلهم في الدنيا والآخرة ﴿ فاعبده ﴾ يعني أن من كان كذلك كان مستحقاً للعبادة لا غيره فاعبده ولا تستغل بعبادة غيره ﴿ وتوكل عليه ﴾ يعني وثق به في جميع أمورك فإنه يكفيك ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ قال أهل التفسير هذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) ولجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم والمعنى أنه سبحانه وتعالى يحفظ على العباد أعمالهم لا يخفى عليه منها شيء فيجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(11/388)

وقال أبو حيان:

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، ولا حظ لمخلوق في علم الغيب .

وقرأ نافع وحفص : يرجع مبنياً للمفعول ، الأمر كله أمرهم وأمرك ، فينتقم لك منهم .

وقال أبو علي الفارسي : علم ما غاب في السموات والأرض ، أضاف الغيب إليهما توسعا انتهى .

والجملة الأولى دلت على أن علمه محيط بجميع الكائنات كليها وجزئيها حاضرها وغائبها ، لأنه إذا أحاط علمه بما غاب فهو بما حضر محيط ، إذ علمه تعالى لا يتفاوت .

والجملة الثانية دلت على القدرة النافذة والمشيئة .

والجملة الثالثة دلت على الأمر بإفراد من هذه صفاته بالعبادة الجسدية والقلبية ، والعبادة أولى الرتب التي يتحلى بها العبد .

والجملة الرابعة : دلت على الأمر بالتوكل ، وهي آخرة الرتب ، لأنه بنور العبادة أبصر أنّ جميع الكائنات معذوقة بالله تعالى ، وأنه هو المتصرف وحده في جميعها ، لا يشركه في شيء منها أحد من خلقه ، فوكل نفسه إليه تعالى ، ورفض سائر ما يتوهم أنه سبب في شيء منها .

والجملة الخامسة : تضمنت التنبيه على المجازاة ، فلا يضيع طاعة مطيع ولا يهمل حال متمرد .

وقرأ الصاحبان ، وحفص ، وقتادة ، والأعرج ، وشيبة ، وأبو جعفر ، والجحدري :

تعملون بتاء الخطاب ، لأنّ قبله اعملوا على مكانتكم .

وقرأ باقي السبعة : بالياء على الغيبة ، واختلف عن الحسن وعيسى بن عمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(12/388)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السموات والأرض وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ ﴾

فيرجع لا محالة أمرُك وأمرُهم إليه وقرىء على البناء للفاعلِ من رجع رجوعاً ﴿ فاعبده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ فإنه كافيك ، والفاءُ لترتيب الأمرِ بالعبادة والتوكلِ على كون مرجعِ الأمور كلِّها إلى الله تعالى ، وفي تأخير الأمرِ بالتوكل عن الأمر بالعبادة إشعارٌ بأنه لا ينفع دونها ﴿ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيهم بموجبه وقرىء تعملون على تغليب المخاطَب أي أنت وهم فيجازي كلاًّ منك ومنهم بموجب الاستحقاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(13/388)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

أي أنه سبحانه يعلم كل ما غاب في السموات والأرض ولا يعلم ذلك أحد سواه جل وعلا ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ لا إلى غيره عز شأنه ﴿ يُرْجَعُ الأمر ﴾ أي الشأن ﴿ كُلُّهُ ﴾ فيرجع لا محالة أمرك وأمرهم إليه ، وقرأ أكثر السبعة ﴿ يُرْجَعُ ﴾ بالبناء للفاعل من رجع رجوعاً ﴿ فاعبده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ فانه سبحانه كافيك ، والفاء لترتيب الأمر بالعبادة والتوكل على كون مرجع الأمور كلها إليه ، وقيل : على ذلك ، وكونه تعالى عالماً بكل غيب أيضاً ، وفي تأخير الأمر بالتوكل عن الأمر بالعبادة تنبيه على أن التوكل لا ينفع دونها وذلك لأن تقدمه في الذكر يشعر بتقدمه في الرتبة أو الوقوع .

وقيل : التقديم والتأخير لأن المراد من العبادة امتثال سائر الأوامر من الإرشاد والتبليغ وغير ذلك ؛ ومن التوكل التولك فيه كأنه قيل : امتثل ما أمرت به وداوم على الدعوة والتبليغ وتوكل عليه في ذلك ولا تبال بالذين لا يؤمنون ولا سضق صدرك منهم ﴿ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بتاء الخطاب على تغليب المخاطب ، وبذلك قرأ نافع .

وأبو عامر .

وحفص .

وقتادة والأعرج.

وشيبة.

وأبو جعفر.

والجحدري أي وما ربك بغافل عما تعمل أنت وما يعملون هم فيجازي كلا منك ومنهم بموجب الاستحقاق، وقرأ الباقون من السبعة بالياء على الغيبة وذلك ظاهر، هذا وفي زوائد الزهد لعبد الله بن أحمد بن حنبل.

وفضائل القرآن لابن الضريس عن كعب أن فاتحة التوراة فاتحة الأنعام وخاتمتها خاتمة هود ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السموات والأرض ﴾ إلى آخر السورة، والله تعالى أعلم. انتهى. اهـ

﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(14/388)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة:

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ ﴾

أَيْ: وَكُلَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ نَقُصُّ عَلَيْكَ وَنُحَدِّثُكَ بِهِ عَلَى وَجْهِهِ الَّذِي يُعْلَمُ مِنْ تَتَبُّعِهِ وَاسْتِقْصَائِهِ بِهِ، فَإِنَّ مَعْنَى الْقَصِّ فِي الْأَصْلِ تَتَبُّعُ أَثَرِ الشَّيْءِ لِلْإِحَاطَةِ بِهِ، وَمِنْهُ: - وَقَالَتْ

لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ - 28 : 11 ثُمَّ قِيلَ : قَصَّ خَبَرَهُ إِذَا حَدَّثَ بِهِ عَلَى وَجْهِهِ الَّذِي اسْتَقْصَاهُ ، وَالنَّبَأُ : الْخَبَرُ الْمُهِمُّ ، فَهَذِهِ الْكُلِّيَّةُ تَشْمَلُ أَنْوَاعَ الْأَنْبَاءِ الْمُفِيدَةِ مِنْ قَصَصِ الرُّسُلِ الصَّحِيحَةِ فِي صُوَرِهَا الْكَلَامِيَّةِ وَأَسَالِيبِهَا الْبَيَانِيَّةِ ، وَأَنْوَاعِ فَوَائِدِهَا الْعِلْمِيَّةِ ، وَعِبَرِهَا وَمَوَاعِظِهَا النَّفْسِيَّةِ ، دُونَ الْأُمُورِ الْعَادِيَّةِ الْمُسْتَغْنَى عَنْ ذِكْرِهَا ، كَالَّتِي تَرَاهَا فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ الَّذِي يَعُدُّونَهُ مِنَ التَّوْرَاةِ وَأَمْثَالِهِ - مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ - أَيْ : نَقُصُّ مِنْهَا عَلَيْكَ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، أَيْ نُقَوِّيهِ وَنَجْعَلُهُ رَاسِخًا فِي ثَبَاتِهِ كَالْجَبَلِ فِي الْقِيَامِ بِأَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ ،

(15/388)

وَنَشْرِ الدَّعْوَةِ بِمَا فِي هَذِهِ الْقَصَصِ مِنْ زِيَادَةِ الْعِلْمِ بِسُنَنِ اللهِ فِي الْأَقْوَامِ ، وَمَا قَاسَاهُ رُسُلُهُمْ مِنَ الْإِيذَاءِ فَصَبَرُوا صَبْرَ الْكِرَامِ - وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ - أَيْ : فِي هَذِهِ السُّورَةِ - وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ مِنَ الصَّحَابَةِ ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ مِنَ التَّابِعِينَ وَعَلَيْهِ الْجُمْهُورُ - وَقِيلَ : فِي هَذِهِ الْأَنْبَاءِ الْمُقْتَصَّةِ عَلَيْكَ ، بَيَانُ الْحَقِّ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ جَمِيعُ أُولَئِكَ الرُّسُلِ مِنْ أَصْلِ دِينِ اللهِ وَأَرْكَانِهِ ، وَهُوَ تَوْحِيدُهُ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ وَاتِّقَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ وَالتَّوْبَةِ إِلَيْهِ ، وَتَرْكِ مَا يُسْخِطُهُ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ وَالظُّلْمِ وَالْإِجْرَامِ ، الْإِيمَانُ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ - وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ - الَّذِينَ

يَتَّعِظُونَ بِمَا حَلَّ بِالْأُمَمِ مِنْ عِقَابِ اللهِ ، وَيَتَذَكَّرُونَ مَا فِيهَا مِنْ عَاقِبَةِ الظُّلْمِ وَالْفَسَادِ ، وَنَصْرُهُ - تَعَالَى - لِمَنْ نَصَرَهُ ، وَنَصْرِ رُسُلِهِ ، فَالْمُؤْمِنُونَ هُنَا يَشْمَلُ مَنْ كَانُوا آمَنُوا بِالْفِعْلِ ، وَالْمُسْتَعِدِّينَ لِلْإِيمَانِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهَذِهِ الْمَوْعِظَةِ وَالذِّكْرَى آمَنُوا بَعْدُ ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ إِعْجَازِ الْإِيجَازِ ، مَا يُنَاسِبُ إِعْجَازَ تِلْكَ الْقِصَصِ الَّتِي جُمِعَتْ فَوَائِدُهَا بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ .

(16/388)

- وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ - أَيْ فَبَشِّرْ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتَّعِظُونَ وَيَتَذَكَّرُونَ ، وَقُلْ لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فَلَا يَتَّعِظُونَ : اعْمَلُوا عَلَى مَا فِي مَكَانَتِكُمْ وَتَمَكُّنِكُمْ وَاسْتِطَاعَتِكُمْ مِنْ مُقَاوَمَةِ الدَّعْوَةِ وَإِيذَاءِ الدَّاعِي وَالْمُسْتَجِيبِينَ لَهُ ، وَهَذَا الْأَمْرُ لِلتَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ ، أَيْ : فَسَوْفَ تَلْقَوْنَ جَزَاءَ مَا تَعْمَلُونَ مِنَ الْعِقَابِ وَالْخِذْلَانِ - إِنَّا عَامِلُونَ - عَلَى مَكَانَتِنَا مِنَ الثَّبَاتِ

عَلَى الدَّعْوَةِ وَتَنْفِيذِ أَمْرِ اللهِ وَطَاعَتِهِ - وَانْتَظِرُوا - بِنَا مَا تَتَمَنَّوْنَ لَنَا مِنِ انْتِهَاءِ أَمْرِنَا بِالْمَوْتِ أَوْ غَيْرِهِ مِمَّا تَتَحَدَّثُونَ بِهِ ، وَمِنْهُ مَا حَكَاهُ - تَعَالَى - عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ : - أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ - 52 : 30 وَمَا فِي مَعْنَاهُ - إِنَّا مُنْتَظِرُونَ - مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا مِنَ النَّصْرِ وَظُهُورِ هَذَا الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ،

وإتمام نوره ولو كره المشركون، وعقاب المعاندين منهم في الدنيا بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين.

(17/388)

- ولله غيب السماوات والأرض - أي: وله وحده ما هو غائب عن علمك أيها الرسول وعن علمهم من فوقكم أو من تحت أرجلكم، مما تنتظر من وعد الله لك ووعيده لهم، ومما ينتظرون من أمانيهم وأوهامهم، فهو المالك له المتصرف فيه، العالم بما سيقع منه وبوقته الذي يقع فيه - وإليه يرجع الأمر كله - فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، قرأ الجمهور: (يرجع) بفتح الياء وكسر الجيم، ونافع وحفص بضم الأولى وفتح الثانية، والمعنى واحد - فاعبده وتوكل عليه - أي: وإذا كان له كل شيء، وإليه يرجع كل أمر، فاعبده كما أمرت بإخلاص الدين له وحده من عبادة شخصية قاصرة عليك، ومن عبادة متعدية النفع لغيرك، وهي الدعوة إلى ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وتوكل عليه ليتم لك وعليك ما وعدك بما لا تبلغه استطاعتك، فالتوكل لا يصح بغير العبادة والأخذ بالأسباب المستطاعة، وإنما يكون بدونهما من التمني الكاذب والآمال الخادعة، كما أن العبادة - وهي ما يراد به وجه الله من كل عمل - لا تكمل إلا

بِالتَّوَكُّلِ الَّذِي يَكْمُلُ بِهِ التَّوْحِيدُ ، قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا

(18/388)

بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِيَّ " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَالْحَاكِمُ عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ - وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ - جَمِيعًا ، مَا تَعْمَلُهُ أَنْتَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ عِبَادَتِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ ، وَتَوْطِينِ النَّفْسِ عَلَى مُصَابَرَتِهِمْ وَجِهَادِهِمْ ، فَهُوَ يُوَفِّيكُمْ جَزَاءَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَا يَعْمَلُهُ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْكَيْدِ لَكُمْ ، وَهَذِهِ قِرَاءَةُ نَافِعٍ وَحَفْصٍ ، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ : " يَعْمَلُونَ " بِالتَّحْتِيَّةِ ، وَهِيَ نَصٌّ فِي وَعِيدِ الْمُشْرِكِينَ وَحْدَهُمْ بِالْجَزَاءِ عَلَى جَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ ، وَقَدْ صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

(تَمَّ تَفْسِيرُ السُّورَةِ التَّفْصِيلِيُّ وَيَلِيهِ خُلَاصَتُهُ الْإِجْمَالِيَّةُ)

الْخُلَاصَةُ الْإِجْمَالِيَّةُ لِسُورَةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

(وَفِيهَا سِتَّةُ أَبْوَابٍ) :

هَذِهِ السُّورَةُ أَشْبَهُ بِسُورَةِ يُونُسَ الَّتِي قَبْلَهَا ، فِي أُسْلُوبِهَا وَمَا اشْتَمَلَتْ مِنْ أُصُولِ عَقَائِدِ الْإِسْلَامِ الَّتِي بَيَّنَّاهَا فِي خُلَاصَتِهَا مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَعَاقِبَةِ الظُّلْمِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ، وَحُجَجِ الْقُرْآنِ وَإِعْجَازِهِ وَالتَّحَدِّي بِهِ ، وَإِثْبَاتِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقِصَصِ الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَسُنَنِ اللهِ فِي الْأُمَمِ ، وَمُنَاسَبَةٌ لَهَا فِي بَرَاعَةِ الْمَطْلَعِ وَالْمَقْطَعِ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي فَاتِحَةِ هَذِهِ - وَلَكِنْ فِي تِلْكَ مِنَ التَّفْصِيلِ فِي مُحَاجَّةِ الْمُشْرِكِينَ فِي التَّوْحِيدِ وَالْقُرْآنِ وَالرِّسَالَةِ مَا أُجْمِلَ فِي هَذِهِ ، وَفِي هَذِهِ مِنَ التَّفْصِيلِ فِي قَصَصِ الرُّسُلِ مَا أُجْمِلَ فِي تِلْكَ ; لِهَذَا نَخْتَصِرُ فِي خُلَاصَتِهَا الْإِجْمَالِيَّةِ فِيمَا عَدَا قَصَصِ الرُّسُلِ وَالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَعَاقِبَةِ الْأَقْوَامِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَنَقُولُ :

(الْبَابُ الْأَوَّلُ) :

(فِي تَوْحِيدِ اللهِ - تَعَالَى - وَصِفَاتِهِ وَتَدْبِيرِهِ لِأُمُورِ عِبَادِهِ وَسُنَنِهِ فِي تَصَرُّفِهِ فِيهِمْ بِالرَّحْمَةِ وَالْفَضْلِ ، وَجَزَائِهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ بِالْعَدْلِ ، وَالتَّنَزُّهِ عَنِ الظُّلْمِ . وَفِيهِ ثَلَاثَةُ فُصُولٍ) :

(الْفَصْلُ الْأَوَّلُ : فِي تَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ)

(1) تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ :

(20/388)

هُوَ أَوَّلُ مَا دَعَا إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَوَّلُ مَا دَعَا إِلَيْهِ جَمِيعُ مَنْ قَبْلَهُ مِنْ رُسُلِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، أَعْنِي عِبَادَةَ اللهِ وَحْدَهُ ، وَعَدَمَ عِبَادَةِ شَيْءٍ غَيْرِهِ أَوْ مَعَهُ ، كَمَا تَرَاهُ بَعْدَ افْتِتَاحِ السُّورَةِ بِذِكْرِ الْقُرْآنِ مِنْ خِطَابِهِ - تَعَالَى - لِقَوْمِهِ وَأُمَّتِهِ بِقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ : - أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ - وَمِثْلُهُ أَوَّلُ مَا دَعَا إِلَيْهِ نُوحٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْآيَةِ (26) مِنْهَا ، وَفِي مَعْنَاهُ أَوَّلُ مَا دَعَا إِلَيْهِ هُودٌ فِي الْآيَةِ (50) وَصَالِحٌ فِي الْآيَةِ (61) وَشُعَيْبٌ فِي الْآيَةِ : - قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ - 84 .

وَأَنَّ أَكْثَرَ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ أَوْ يَسْمَعُونَهُ ، وَهُمْ يَأْخُذُونَ عَقَائِدَهُمُ الْمَشُوبَةَ بِالْوَثَنِيَّةِ مِنْ تَقَالِيدِ آبَائِهِمُ الْجَاهِلِينَ لَا مِنَ الْقُرْآنِ ، يَظُنُّونَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْعِبَادَةِ فِي هَذَا الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ عِبَادَةُ الْإِسْلَامِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَنَحْوِهِمَا مِمَّا جَاءَ بِهِ أُولَئِكَ الرُّسُلُ أَيْضًا ; لِأَنَّهُمْ يَجْهَلُونَ أَنَّ دَعْوَتَهُمْ هَذِهِ هِيَ أَوَّلُ مَا وَجَّهُوهُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ ، قَبْلَ فَرْضِيَّةِ الْعِبَادَاتِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَيْهِمْ ، نَهَوْهُمْ بِهَا عَنْ عِبَادَتِهِمُ الْوَثَنِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ وَهِيَ دُعَاءُ غَيْرِ اللهِ لِجَلْبِ النَّفْعِ وَكَشْفِ الضُّرِّ

(21/388)

وَالذَّبْحُ لِغَيْرِ اللهِ ، وَالنَّذْرُ لِغَيْرِ اللهِ ، وَشَدُّ الرِّحَالِ لِتَعْظِيمِ غَيْرِ اللهِ تَعْظِيمًا تَعَبُّدِيًّا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَى غَيْرِ اللهِ لِيُقَرِّبَهُمْ إِلَى اللهِ ، وَيَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَهُ ، وَيَظُنُّونَ أَنَّ الْمُرَادَ بِغَيْرِ اللهِ مِنْ هَذِهِ الْمَعْبُودَاتِ خَاصٌّ بِالْأَصْنَامِ كَمَا يَرَوْنَ تَفْسِيرَهَا فِي مِثْلِ الْجَلَالَيْنِ ، وَأَنَّ دُعَاءَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ لِدَفْعِ الضُّرِّ وَجَلْبِ النَّفْعِ وَالنُّذُورَ وَتَقْرِيبَ الْقَرَابِينِ لَهُمْ لَا يُنَافِي دِينَ اللهِ وَتَوْحِيدَهُ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ .

(22/388)

وَالصَّوَابُ الْمُجْمَعُ عَلَيْهِ ، وَالْمَعْلُومُ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالضَّرُورَةِ وَنُصُوصِ الْقُرْآنِ الْقَطْعِيَّةِ ، أَنَّهُ لَا فَرْقَ فِي عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ بِمِثْلِ مَا ذَكَرْنَا بَيْنَ الْأَصْنَامِ وَغَيْرِهَا مِنْ حَجَرٍ وَشَجَرٍ وَكَوْكَبٍ ، أَوْ بَشَرٍ : وَلِيٍّ أَوْ نَبِيٍّ ، أَوْ شَيْطَانٍ أَوْ مَلَكٍ ، إِذَا تَوَجَّهَ الْعَبْدُ إِلَيْهَا تَوَجُّهًا تَعَبُّدِيًّا ابْتِغَاءَ نَفْعٍ أَوْ كَشْفِ ضُرٍّ فِي غَيْرِ الْعَادَاتِ وَالْأَسْبَابِ الَّتِي سَخَّرَهَا اللهُ لِجَمِيعِ النَّاسِ ، فَعِبَادَةُ الْمَلَكِ أَوِ النَّبِيِّ أَوِ الْوَلِيِّ كُفْرٌ كَعِبَادَةِ الشَّيْطَانِ أَوِ الْوَثَنِ وَالصَّنَمِ بِغَيْرِ فَرْقٍ ; إِذْ كُلُّ مَا عَدَا اللهَ فَهُوَ عَبْدٌ وَمِلْكٌ لِلَّهِ ، لَا يُتَوَجَّهُ إِلَيْهِ مَعَ اللهِ وَلَا مِنْ دُونِ اللهِ ، وَلَا لِأَجْلِ التَّقْرِيبِ زُلْفَى إِلَى اللهِ ، بَلْ يَتَوَجَّهُ فِي كُلِّ مَا سِوَى الْعَادَاتِ الْعَامَّةِ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ كَمَا أَمَرَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي كِتَابِهِ ، وَلَا فَرْقَ فِي هَذَا التَّوَجُّهِ بَيْنَ تَسْمِيَتِهِ عِبَادَةً كَمَا كَانَتِ الْعَرَبُ تَقُولُ وَهِيَ أَعْلَمُ بِلُغَتِهَا ، وَبَيْنَ تَسْمِيَتِهِ تَوَسُّلًا أَوِ اسْتِشْفَاعًا كَمَا فَعَلَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ ، فَالْمَعْنَى وَاحِدٌ لَا يَخْتَلِفُ حُكْمُهُ بِاخْتِلَافِ أَسْمَائِهِ .

(2) تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ

(23/388)

: الْإِلَهُ : هُوَ الْمَعْبُودُ الَّذِي يُتَوَجَّهُ إِلَيْهِ بِالدُّعَاءِ وَالتَّأَلُّهِ وَالْخُشُوعِ الْخَاصِّ بِالْإِيمَانِ بِالسُّلْطَانِ الْغَيْبِيِّ ، وَالرَّبُّ : هُوَ الْخَالِقُ الْمُرَبِّي وَالْمُدَبِّرُ لِعِبَادِهِ وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِمْ بِذَاتِهِ ، وَمُقْتَضَى حِكْمَتِهِ وَنِظَامِ سُنَنِهِ ، وَتَسْخِيرِهِ الْأَسْبَابَ لِمَنْ شَاءَ بِمَا شَاءَ ، وَكَانَ أَكْثَرُ

مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ أَقْوَامِ الْأَنْبِيَاءِ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الرَّبَّ الْخَالِقَ الْمُدَبِّرَ وَاحِدٌ ، وَإِنَّمَا يَقُولُونَ بِتَعَدُّدِ الْآلِهَةِ الَّتِي يُتَقَرَّبُ إِلَيْهَا تَوَسُّلًا إِلَى اللهِ وَطَلَبًا لِلشَّفَاعَةِ عِنْدَهُ ، كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ تُقِيمُ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ يَقْتَضِي تَوْحِيدَ الْأُلُوهِيَّةِ ; إِذِ الْعِبَادَةُ لَا تَصِحُّ وَلَا تَنْبَغِي إِلَّا لِلرَّبِّ وَحْدَهُ ، وَآيَاتُ الْقُرْآنِ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا .

(24/388)

تَأَمَّلْ كَيْفَ خَاطَبَ اللهُ أُمَّةَ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ، وَفِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ عَقِبَهَا بِاسْتِغْفَارِ رَبِّهِمْ وَالتَّوْبَةِ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ لِيُمَتِّعَهُمْ مَتَاعًا حَسَنًا وَيُؤْتِيَ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ، وَتَجِدُ مِثْلَ هَذَا فِي قِصَّةِ هُودٍ (52) وَفِي قِصَّةِ شُعَيْبٍ (90) وَتَأَمَّلْ كَيْفَ بَيَّنَ لِنَبِيِّهِ فِي الْآيَتَيْنِ 6 و 7 أَنَّهُ - مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا -، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ إلخ. وَالْمُرَادُ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَصِحُّ وَلَا تَنْبَغِي إِلَّا لَهُ سُبْحَانَهُ.

ثُمَّ تَأَمَّلْ كَيْفَ أَخْبَرَ نُوحٌ وَهُوَ أَوَّلُ الرُّسُلِ قَوْمَهُ وَهُمْ أَوَّلُ مَنِ ابْتَدَعَ الشِّرْكَ بِالْغُلُوِّ فِي تَعْظِيمِ الصَّالِحِينَ فِي الْآيَةِ (31) بِأَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ خَزَائِنُ اللهِ فَيَقْدِرُ عَلَى رِزْقِهِمْ أَوْ نَفْعِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا يَقُولُ إِنَّهُ مَلَكٌ يَتَصَرَّفُ فِي تَدْبِيرِ الْعَالَمِ بِإِقْدَارِ اللهِ إِيَّاهُ عَلَى ذَلِكَ كَمَا فَعَلُوا، إِذْ صَارُوا يَدْعُونَ غَيْرَ اللهِ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدَهُ وَالْمُقَرِّبِينَ إِلَيْهِ بِزَعْمِهِمْ، وَتَقَدَّمَ مِثْلُهَا عَنْ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْآيَةِ (50) مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ، وَفِي مَعْنَاهُمَا مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (7 : 188) وَمِنْ سُورَةِ يُونُسَ (10 : 49).

(25/388)

ثُمَّ تَأَمَّلْ فِي قِصَّةِ هُودٍ آيَةَ : - إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ - 56 إِلَخْ ، وَفِي مَعْنَاهُ تَوَكُّلُ شُعَيْبٍ فِي الْآيَةِ (88) ثُمَّ خَتَمَ السُّورَةَ بِأَمْرِ نَبِيِّنَا - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ - عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : - وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ - 123 فَجَمَعَ بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَهِيَ أَعْلَى تَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ ، وَالتَّوَكُّلِ وَهُوَ أَعْلَى تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ ، وَنُعَزِّزُ هَذِهِ الشَّوَاهِدَ بِمَا يَأْتِي عَنِ الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - فِي الْبَابِ الثَّالِثِ وَلَا سِيَّمَا الْفَصْلُ الثَّالِثُ مِنْهُ .

(الْفَصْلُ الثَّانِي : فِي صِفَاتِهِ - تَعَالَى -) :

(26/388)

فِي السُّورَةِ مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ وَالْأَفْعَالِ : الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ الْوَكِيلُ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ الْحَفِيظُ الْقَرِيبُ الْمُجِيبُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ الرَّقِيبُ الْوَدُودُ الْبَصِيرُ ، فَمِنْهَا مَا وُصِفَ بِهِ - تَعَالَى - مُفْرَدًا ، وَمَا وُصِفَ بِهِ مُقْتَرِنًا بِغَيْرِهِ ، وَمَا اتَّصَلَ بِمُتَعَلِّقِهِ ، وَلِكُلٍّ مِنْهَا أَتَمُّ الْمُنَاسَبَةِ لِمَوْضُوعِهِ فِي مَوْضِعِهِ ، مِمَّا يُذَكِّرُ الْمُتَدَبِّرَ لَهُ بِتَدْبِيرِهِ - تَعَالَى - لِأُمُورِ عِبَادِهِ ، وَيَزِيدُهُ إِيمَانًا بِمَعْرِفَةِ جَلَالِهِ وَجَمَالِهِ ، وَكَمَالِهِ فِي صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَرَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ لِلْمُحْسِنِينَ ، وَتَرْبِيَتِهِ وَعِقَابِهِ لِلْمُجْرِمِينَ وَالظَّالِمِينَ ، وَحَسْبُكَ شَاهِدًا عَلَيْهِ فِي نَفْسِكَ تَدَبُّرُ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ

- تَعَالَى - بِمَا تُسِرُّ وَتُعْلِنُ فِي الْآيَةِ الْخَامِسَةِ : - أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ - فَلَا تَغْفُلَنَّ عَنْ هَذِهِ الْمَعَانِي أَيُّهَا التَّالِي لِلْقُرْآنِ أَوِ الْمُسْتَمِعُ لَهُ فَيَفُوتَكَ مِنَ الْعِرْفَانِ وَغِذَاءِ الْإِيمَانِ ، مَا أَنْتَ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ لِتَزْكِيَةِ نَفْسِكَ ، الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ الْوَسَائِلِ لِفَلَاحِكَ وَسَعَادَتِكَ ، فَإِنَّ تَأَمُّلَ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ فِي مَوَاضِعِهَا مِنْ بَيَانِ شُئُونِهِ - تَعَالَى - فِي الْعِبَادِ ، أَقْوَى تَفَقُّهًا فِي الدِّينِ وَتَكْمِيلًا لِلْعِرْفَانِ مِنْ تَكْرَارِ الِاسْمِ الْوَاحِدِ مِرَارًا كَثِيرَةً كَمَا يَفْعَلُ الْمُتَصَوِّفَةُ الْمُرْتَاضُونَ ، وَمُقَلِّدَتُهُمُ

(27/388)

الْمُرْتَزِقُونَ ، وَهُوَ غَيْرُ مَشْرُوعٍ خِلَافًا لِمَا زَعَمَهُ الْمُتَأَوِّلُونَ لِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : - قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ - 6 : 91 فَاسْمُ الْجَلَالَةِ هُنَا مُبْتَدَأٌ لِجُمْلَةٍ فِي جَوَابِ سُؤَالٍ حُذِفَ خَبَرُهُ لِدَلَالَةِ مَا قَبْلَهُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : - قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى 6 : 91 إِلَخْ . وَالْمَعْنَى : قُلِ اللهُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَهُ ، فَهُوَ لَيْسَ اسْمًا مُفْرَدًا يُكَرَّرُ تَعَبُّدًا .

وَمِثْلُهُ تَأَوُّلُهُمْ لِحَدِيثِ : " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ اللهُ اللهُ " رَوَاهُ أَحْمَدُ

وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَنَسٍ ، وَلَفْظُ الْجَلَالَةِ فِيهِ مَرْفُوعٌ عَلَى أَنَّهُ مُبْتَدَأٌ حُذِفَ خَبَرُهُ لِلْعِلْمِ بِهِ مِنَ الْقَرِينَةِ ، وَالْمَعْنَى - حَتَّى لَا يُقَالَ : اللهُ فَعَلَ كَذَا ، اللهُ أَمَاتَ وَأَحْيَا مَثَلًا ، لِذَهَابِ الْإِيمَانِ بِهِ - تَعَالَى - ، وَالِاسْمُ الْمُفْرَدُ فِي ذِكْرِهِمْ يُكَرِّرُونَهُ بِالسُّكُونِ لَا يُقْصَدُ بِهِ مَعْنَى جُمْلَةٍ ، وَإِنَّمَا يُقْصَدُ بِهِ حَصْرُ التَّوَجُّهِ وَجَمْعُ الْهِمَّةِ بِمَا جَرَّبَهُ الرِّيَاضِيُّونَ ، وَجَهِلَهُ الْمُقَلِّدُونَ .

(الْفَصْلُ الثَّالِثُ : آيَاتُهُ - تَعَالَى - فِي الْخَلْقِ وَالتَّقْدِيرِ ، وَالتَّصَرُّفِ وَالتَّدْبِيرِ) :

(وَفِيهِ أَرْبَعَةُ شَوَاهِدَ عَلَى مَا قَبْلَهُ) :

الشَّاهِدُ الْأَوَّلُ : قَوْلُهُ - تَعَالَى - بَعْدَ آيَةِ تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ لِلْإِلَهِ الْوَاحِدِ اسْتِدْلَالًا عَلَيْهِ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ : - وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا - 3 إِلَخْ . فَهُوَ صَرِيحٌ فِي أَنَّ رَبَّ النَّاسِ هُوَ الَّذِي يُعْطِيهِمْ مَا يَتَمَتَّعُونَ بِهِ مِنْ مَنَافِعِ الدُّنْيَا الْمَادِّيَّةِ الْجَسَدِيَّةِ ، وَمَا يُفَضِّلُ بِهِ بَعْضَهُمْ بَعْضًا مِنَ الْفَضَائِلِ النَّفْسِيَّةِ مِنْ عِلْمٍ وَأَدَبٍ وَخُلُقٍ ، وَأَنَّ الْوَسِيلَةَ لِهَذَا وَذَاكَ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَلِقَائِهِ فِي الْآخِرَةِ هِيَ اسْتِغْفَارُهُ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ ، وَالتَّوْبَةُ مِنْ كُلِّ تَقْصِيرٍ فِي طَاعَتِهِ ، وَالرُّجُوعُ إِلَيْهِ عَقِبَ كُلِّ إِعْرَاضٍ عَنْ آيَاتِ هِدَايَتِهِ ، لَيْسَ لِغَيْرِهِ تَأْثِيرٌ شَخْصِيٌّ فِي إِعْطَاءِ هَذَا وَلَا ذَاكَ بِتَصَرُّفِهِ بِنَفْسِهِ ، وَلَا بِشَفَاعَتِهِ عِنْدَهُ ، فَيُدْعَى مِنْ دُونِهِ أَوْ يُتَوَجَّهُ

إِلَيْهِ مَعَهُ فِي طَلَبِهِ، وَمَنْ رَاقَبَ نَفْسَهُ وَحَاسَبَهَا فِي هَذَا شَاهَدَ تَأْثِيرَهُ فِي نَفْسِهِ، فَازْدَادَ إِيمَانًا بِرَبِّهِ، وَشَاهَدَهُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ الْمُسْتَغْفِرِينَ التَّوَّابِينَ، وَضِدَّهُ فِي الْمُشْرِكِينَ وَالْمُصِرِّينَ عَلَى ذُنُوبِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ، فَإِنَّهُ يَرَى أَكْثَرَ هَؤُلَاءِ مَتَاعًا فِي هَمٍّ وَاصِبٍ، وَتَنْغِيصٍ دَائِبٍ; لِأَنَّ سَعَادَةَ الدُّنْيَا مِنْ صِفَاتِ النَّفْسِ، لَا مِنْ كَثْرَةِ الْأَعْرَاضِ فِي الْيَدِ .

(29/388)

وَلِهَذَا كَانَ رُسُلُ اللهِ الْأَوَّلُونَ يَأْمُرُونَ أَقْوَامَهُمْ بَعْدَ التَّوْحِيدِ بِالِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ أَيْضًا كَمَا تَرَى فِي الْآيَةِ (52) مِنْ قِصَّةِ هُودٍ، وَقَدْ جَعَلَ جَزَاءَهُ إِرْسَالَ الْمَطَرِ عَلَيْهِمْ وَهُوَ سَبَبُ سَعَةِ الرِّزْقِ، وَزِيَادَةِ الْقُوَّةِ الْبَدَنِيَّةِ لَهُمْ، إِذْ كَانَ هَذَانِ أَهَمَّ مَا يَطْلُبُهُ قَوْمُهُ مِنْ رَبِّهِمْ، وَيَتَوَسَّلُونَ إِلَى مَا يَعْجِزُونَ عَنْهُ مِنْهُ بِآلِهَتِهِمْ، وَفِي الْآيَةِ (61) مِنْ قِصَّةِ صَالِحٍ، وَقَدْ بُنِيَ الْأَمْرُ فِيهَا عَلَى مَا سَبَقَ مِنْ فَضْلِهِ – تَعَالَى – عَلَى قَوْمِهِ بِسَعَةِ الرِّزْقِ وَاسْتِعْمَارِهِمْ فِي الْأَرْضِ، وَفِي مَعْنَاهَا الْآيَةُ (90) مِنْ قِصَّةِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

الشَّاهِدُ الثَّانِي: قَوْلُهُ – تَعَالَى –: – وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا – 6 الْآيَةَ .

أَيْ: عَلَيْهِ وَحْدَهُ، فَإِنَّهُ لَمْ يُشَارِكْهُ فِي خَلْقِ رِزْقِ هَوَامِّهَا وَأَنْعَامِهَا وَطَيْرِهَا وَوَحْشِهَا وَإِنْسِهَا وَجِنِّهَا أَحَدٌ مِنَ الْأَنْدَادِ الَّذِينَ اتَّخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَلَا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي

تَسْخِيرِ هَذَا الرِّزْقِ لَهَا ، وَلَا فِي إِيصَالِهِ إِلَيْهَا بِشَفَاعَةٍ وَلَا وَسَاطَةٍ أُخْرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ، فَلِذَلِكَ لَمْ يُشْرِكْ بِهِ أَحَدٌ مِنْهَا وَلَا مِنْ غَيْرِهَا مِنْ خَلْقِهِ غَيْرُ بَعْضِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ الْمُكَلَّفِينَ .

(30/388)

الشَّاهِدُ الثَّالِثُ : قَوْلُهُ بَعْدَهَا وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى مَضْمُونِهَا : - خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ - 7 الْآيَةَ ، أَيْ : خَلَقَهُمَا وَمَا كَانَ يُوجَدُ مَعَهُ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الشُّفَعَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ الْمَزْعُومِينَ ، فَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهُمُ الْآنَ وَفِي كُلِّ آنٍ ، كَمَا كَانَ غَنِيًّا عَنْهُمْ عِنْدَ بَدْءِ التَّكْوِينِ ، وَرَاجِعْ مَا فَصَّلْنَاهُ فِي تَفْسِيرِهَا مِنْ خَلْقِ كُلِّ شَيْءٍ حَيٍّ مِنَ الْمَاءِ ، تَرَ فِيهِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ مَا يَرْبَأُ بِكُلِّ عَاقِلٍ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ وَسِيطًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ مِنْ هَذَا الْإِنْسَانِ الضَّعِيفِ كَمَا وَصَفَهُ خَالِقُهُ الْقَوِيُّ الْقَدِيرُ .

الشَّاهِدُ الرَّابِعُ : الْآيَاتُ (9 و10 و11) فِي بَيَانِ أَحْوَالِ النَّاسِ فِيمَا يُذِيقُهُمْ رَبُّهُمْ بِحِكْمَتِهِ مِنَ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ، فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا دَارِ الْبَلَاءِ ، وَأَصْنَافِهِمْ فِيهَا مِنْ يَائِسٍ كَفُورٍ ، وَفَرِحٍ فَخُورٍ ، وَصَبُورٍ شَكُورٍ ، فَبِهَذَا التَّقْسِيمِ الْمَشْهُودِ الْمَخْبُورِ ، تَعْرِفُ تَوْحِيدَ اللهِ - تَعَالَى - وَفَضْلَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الْمُوَحِّدِينَ ، وَجَدَارَتَهُمْ بِسَعَادَةِ الدَّارَيْنِ ، وَاسْتِحَالَةَ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ فِي فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ ، أَوْ وَسِيطٌ فِي نِعَمِهِ وَتَكْرِيمِهِ لَهُمْ .

(الْبَابُ الثَّانِي) :

(فِي الْوَحْيِ الْمُحَمَّدِيِّ " الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ " وَإِثْبَاتِ رِسَالَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِهِ ،

وَفِيهِ سَبْعُ مَسَائِل) :

(31/388)

(الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى) افْتَتَحَ هَذِهِ السُّورَةَ كَالَّتِي قَبْلَهَا بِذِكْرِ هَذَا الْكِتَابِ الْعَظِيمِ ، وَإِحْكَامِ آيَاتِهِ ثُمَّ تَفْصِيلِهَا مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ، إِعْلَامًا بِأَنَّ إِحْكَامَهَا مَبْنِيٌّ عَلَى أَسَاسِ الْحِكْمَةِ ، وَتَفْصِيلَهَا مَرْفُوعٌ عَلَى قَوَاعِدِ الْعِلْمِ وَدِقَّةِ الْخِبْرَةِ .

(الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ) قَوْلُهُ - تَعَالَى - : - فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ - 12 يَعْنِي : أَنَّ حَالَكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ مَعَ هَؤُلَاءِ الْمُنْكِرِينَ الْمُقْتَرِحِينَ عَلَيْكَ مَا لَيْسَ أَمْرُهُ إِلَيْكَ ، حَالُ مَنْ يُتَوَقَّعُ مِنْهُ تَرْكُ بَعْضِ مَا يَنْقُلُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْوَحْيِ ، وَضِيقِ صَدْرِهِ مِنْ ذَلِكَ الْقَوْلِ ، فَلَا تَتْرُكْ شَيْئًا مِمَّا يُوحَى إِلَيْكَ ، وَلَا يَضِيقُ بِهِ صَدْرُكَ ، إِنَّمَا أَنْتَ رَسُولٌ وَظِيفَتُكَ التَّبْلِيغُ وَالْإِنْذَارُ ، لَا الْإِتْيَانُ بِالْآيَاتِ ، وَلَا الْوَكَالَةُ عَلَيْهِمْ فَتُكْرِهُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ .

(32/388)

(الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ) الرَّدُّ فِي الْآيَةِ (13) عَلَى قَوْلِهِمْ: " افْتَرَاهُ " بِتَحَدِّيهِمْ بِالْإِتْيَانِ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ، وَدَعْوَةِ مَنِ اسْتَطَاعُوا مِنْ دُونِ اللهِ لِمُظَاهَرَتِهِمْ وَإِعَانَتِهِمْ عَلَى الْإِتْيَانِ بِهَا إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ. وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِهَا مَعْنَى هَذَا التَّحَدِّي بِالْعَشْرِ الْمُفْتَرَيَاتِ بَعْدَ مَا سَبَقَ فِي سُورَةِ يُونُسَ مِنَ التَّحَدِّي بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهُوَ مَا لَا تَجِدُ مِثْلَهُ فِي تَفَاسِيرِ الْأَوَّلِينَ وَلَا الْآخِرِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَفِيهِ إِثْبَاتُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ السُّوَرِ مَا اشْتَمَلَ عَلَى قِصَصِ الرُّسُلِ، وَأَنَّ فِي إِعْجَازِ هَذِهِ الْقِصَصِ بِالْبَلَاغَةِ وَالْأَسَالِيبِ وَالنَّظْمِ وَالْعِلْمِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهَا، وَحِكْمَةُ جَعْلِهَا عَشْرًا، وَمَا فِي الْعَشْرِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ وَمَا قَبْلَهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْعِلْمِ وَالْهُدَى وَالْإِصْلَاحِ، فَرَاجِعْهُ (فِي ص 27 - 39 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ).

(الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ) قَوْلُهُ: - فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ - 14 وَبَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِهِ مَعْنَى إِنْزَالِهِ بِعِلْمِ اللهِ وَكَوْنِهِ حُجَّةً عَلَى مَا فَسَّرْنَا الْإِعْجَازَ فِيهَا، وَقَدْ غَفَلَ عَنْهُ الْمُفَسِّرُونَ.

(الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ) قَوْلُهُ: - تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا - 49 وَهُوَ اسْتِدْلَالٌ بِقِصَّةِ نُوحٍ عَلَى رِسَالَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ أَنَّهُ مَا كَانَ يَعْلَمُهَا هُوَ وَلَا قَوْمُهُ مِنْ قَبْلِ إِنْزَالِهَا عَلَيْهِ فِي هَذَا الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ، وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ يَعْلَمُهَا قَبْلَ ذَلِكَ لَاحْتَجُّوا بِهِ عَلَيْهِ، وَإِذَنْ لَامْتَنَعَ إِيمَانُ مَنْ لَمْ يَكُنْ آمَنَ مِنْهُمْ، وَلَارْتَدَّ مَنْ كَانَ آمَنَ.

(الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ) قَوْلُهُ - تَعَالَى -: - ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ - 100 الْآيَةَ. وَفِيهِ الِاسْتِدْلَالُ بِجُمْلَةِ قِصَصِ السُّورَةِ عَلَى كَوْنِهَا وَحْيًا مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مَا فِي الْمَسْأَلَةِ الْخَامِسَةِ مِنْ كَوْنِهَا مِمَّا لَمْ يَكُنْ عِلْمُهُ مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَثَانِيهُمَا: مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ وَالِاجْتِمَاعِيِّ وَالتَّشْرِيعِيِّ الَّذِي فَصَّلْنَاهُ فِي بَيَانِ التَّحَدِّي بِالْعَشْرِ السُّوَرِ مِنْ عَشْرِ جِهَاتٍ.

(34/388)

(الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ) قَوْلُهُ - تَعَالَى -: - وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ - 120 الْآيَةَ. وَهِيَ فِي مَوْضُوعِ الَّتِي قَبْلَهَا مِنْ فَوَائِدِ قَصَصِ الرُّسُلِ، إِلَّا أَنَّ تِلْكَ فِي فَوَائِدِهَا الِاجْتِمَاعِيَّةِ فِي الْأُمَمِ وَإِهْلَاكِ الظَّالِمِينَ، وَإِنْجَاءِ الْمُتَّقِينَ، وَهَذِهِ فِي فَوَائِدِهَا

الْخَاصَّةِ بِالرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي نَفْسِهِ وَتَأْيِيدِ دَعْوَتِهِ ، وَفِي الْمُؤْمِنِينَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ .

فَهَذِهِ جُمْلَةُ مَا فِي السُّورَةِ خَاصًّا بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ مِنْ حَيْثُ كَوْنِهِ وَحْيًا مِنَ اللهِ - تَعَالَى - دَالًّا عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَرِسَالَتِهِ ، وَقَدْ فَصَّلْنَا مَعْنَى كُلٍّ مِنْهَا فِي مَوْضِعِهِ .

(الْبَابُ الثَّالِثُ) :

(فِي الرِّسَالَةِ الْعَامَّةِ وَقَصَصِ الرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ وَفِيهِ سِتَّةُ فُصُولٍ) :

(الْفَصْلُ الْأَوَّلُ فِي رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -) :

بُدِئَتِ السُّورَةُ بِدَعْوَةِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى الْآيَةِ (24) وَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لِأُصُولِ دِينِ اللهِ (الْإِسْلَامِ) عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِ الرُّسُلِ ، وَهِيَ : التَّوْحِيدُ وَالْبَعْثُ وَالْجَزَاءُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ ، الْمُبَيَّنَةُ فِي الْآيَةِ (2 : 62) وَسَأَذْكُرُهَا فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ التَّالِي لِهَذَا ، وَمُتَضَمِّنَةٌ لِإِعْجَازِ

الْقُرْآنِ بِقِسْمَيْهِ : اللُّغَوِيِّ وَالْعِلْمِيِّ ، وَقَدْ فَصَّلْنَاهُ بِفَضْلِ اللهِ وَإِلْهَامِهِ بِمَا لَا نَظِيرَ لَهُ فِي سَائِرِ التَّفَاسِيرِ ، ثُمَّ خُتِمَتْ بِمِثْلِ مَا تَضَمَّنَتْهُ أَوَائِلُهَا مِنَ الْآيَةِ (100 إِلَى 123) فَالْتَقَى قُطْرَاهَا

وَاحْتَبَكَ طَرَفَاهَا ، فَأَحَاطَا بِالْقِصَصِ الَّتِي بَيْنَهُمَا مُؤَيِّدَةً لَهُمَا ، وَذُكِرَ فِي أَثْنَائِهَا بُرْهَانٌ عَلَى رِسَالَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي آخِرِ قِصَّةِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ الْآيَةُ : - تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ - 49 إِلَخْ . وَلَعَلَّ حِكْمَةَ تَخْصِيصِ هَذَا بِالذِّكْرِ مَا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ زِيَادَةِ التَّفَضُّلِ وَالتَّأْثِيرِ بِبَلَاغَتِهِ الْمُمْتَازَةِ ، وَإِلَّا فَسَائِرُ هَذِهِ الْقِصَصِ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ وَدَلَائِلِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ ، كَمَا أُشِيرَ إِلَيْهِ فِي الْآيَةِ (100) وَهِيَ الْمَقْصُودَةُ بِالذَّاتِ ، فَيَسْهُلُ عَلَى الْمُتَفَقِّهِ فِي الْقُرْآنِ أَنْ يُرَاجِعَ تَفْسِيرَ هَذِهِ الْآيَةِ مَضْمُومَةً إِلَى كَلَامِنَا الْمُفَصَّلِ فِي إِعْجَازِهِ بِقِسْمَيْهِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ آنِفًا مِنْ (ص 27 - 40 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ) - وَأَنْ يَتَأَمَّلَ الْآيَاتِ الْأَرْبَعَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ ، وَالْآيَاتِ الْخَمْسَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ آخِرِهَا ، لِيُحِيطَ بِمَا فِي السُّورَةِ مِنْ عُلُومِ رِسَالَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ عِلْمًا إِجْمَالِيًّا .

(36/388)

وَأَمَّا بَيَانُ أَنْوَاعِهَا مُفَصَّلَةً فِي السُّورَةِ فَيَرَاهَا فِي الْفُصُولِ التَّالِيَةِ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَفِي الْأَبْوَابِ الَّتِي بَعْدَهَا وَيَفْقَهُ سِرَّ افْتِتَاحِهَا بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : - كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ - 11 : 1 وَجَعْلِهِ عُنْوَانًا لَهَا .

(الْفَصْلُ الثَّانِي) :

(فِي الْهِدَايَةِ الْإِجْمَالِيَّةِ فِي قَصَصِ السُّورَةِ وَأُصُولِ الدِّينِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا جَمِيعُ الرُّسُلِ)

:

قَدْ بَيَّنَّا فِي الْكَلَامِ عَلَى إِعْجَازِ الْقُرْآنِ الْعِلْمِيِّ الَّذِي فَصَّلَهُ فِي قَصَصِ الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَتَكْرَارِهَا أَنَّهَا مُشْتَمِلَةٌ فِيهِ عَلَى عَشَرَةِ أَنْوَاعٍ كُلِّيَّةٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالْهِدَايَةِ ، فَرَاجِعْهَا أَيُّهَا الْمُتَدَبِّرُ الْمُتَفَقِّهُ فِي الصَّفْحَةِ 34 - 37 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَتَأَمَّلْهَا إِجْمَالًا ، ثُمَّ تَأَمَّلْ مَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْهَا فِي الْفُصُولِ التَّالِيَةِ .

وَأَمَّا أُصُولُ الدِّينِ فَهِيَ الْمُجْمَلَةُ فِي قَوْلِ اللهِ - تَعَالَى - : - إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ - 2 : 62 . (الْأَصْلُ الْأَوَّلُ) الْإِيمَانُ بِاللهِ - تَعَالَى - ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ شَوَاهِدَهُ مِنْ قَصَصِ السُّورَةِ كُلِّهَا .

(الْأَصْلُ الثَّانِي) الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَهُوَ الْبَعْثُ وَالْجَزَاءُ وَسَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ فِي الْبَابِ الرَّابِعِ

.

(37/388)

(الْأَصْلُ الثَّالِثُ) الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَهُوَ قِسْمَانِ : مَا أَمَرَ اللَّهُ – تَعَالَى – بِهِ ، وَمَا نَهَى عَنْهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ – عَلَيْهِمُ السَّلَامُ – بَعْدَ الْأَمْرِ بِالتَّوْحِيدِ وَالنَّهْيِ عَنِ الشِّرْكِ . وَقَدْ ذُكِرَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ بِاللَّفْظِ الْمُجْمَلِ الدَّالِّ عَلَى كُلِّ مَا تَصْلُحُ بِهِ أَنْفُسُ الْبَشَرِ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ .

(الْأَوَّلِ) قَوْلُهُ بَعْدَ بَيَانِ قِسْمَيِ الْيَئُوسِ الْكَفُورِ ، وَالْفَرِحِ الْفَخُورِ مِنَ النَّاسِ : – إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ – الْآيَةَ .

(الثَّانِي) قَوْلُهُ بَعْدَ ذِكْرِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ : – إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ – 23 . وَفِي مَعْنَاهَا الْإِحْسَانُ فِي قَوْلِهِ : – لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا – 7 وَقَوْلُهُ : – إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ – 114 .

وَأَمَّا الْأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي الْمُفَصَّلَةُ فَهِيَ مِنْ خَصَائِصِ السُّورَةِ الْمَدَنِيَّةِ ، وَنَذْكُرُ مَا هُنَا مِنْ أُصُولِهَا فِي الْبَابِ الْخَامِسِ .

(الْفَصْلُ الثَّالِثُ) :

(فِي وَظِيفَةِ الرُّسُلِ الْأَسَاسِيَّةِ وَصِفَاتِهِمْ وَبَيِّنَاتِهِمْ وَفِيهِ إِحْدَى عَشْرَةَ عَقِيدَةً) :

(الْأُولَى : وَظِيفَةُ الرُّسُلِ الْأَسَاسِيَّةُ) هِيَ مَا بَعَثَهُمُ اللهُ لِأَجْلِهِ مِنْ تَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ بِإِنْذَارِ مَنْ تَوَلَّى عَنِ الْإِيمَانِ وَعَصَى ، وَتَبْشِيرِ مَنْ أَجَابَ الدَّعْوَةَ فَآمَنَ وَاهْتَدَى ، وَالشَّوَاهِدُ عَلَيْهَا مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ قَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي دَعْوَةِ رَسُولِهِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ : - إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ - 2 وَقَوْلُهُ لَهُ : - إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ - 12 وَمِثْلُ هَذَا الْحَصْرِ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ ، وَقَوْلُهُ حِكَايَةً عَنْ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ أَوَّلُ رُسُلِهِ إِلَى الْأَقْوَامِ الْمُشْرِكَةِ : - إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ - 25 وَقَوْلُهُ حِكَايَةً عَنْ رَسُولِهِ هُودٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : - فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ - 57 .

(39/388)

وَمَوْضُوعُ التَّبْلِيغِ هُوَ الدَّعْوَةُ إِلَى أَرْكَانِ الدِّينِ الثَّلَاثَةِ الْمُبَيَّنَةِ آنِفًا ، وَعَلَيْهَا مَدَارُ سَعَادَةِ الْمُكَلَّفِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَكُلُّهَا مُبْطِلَةٌ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَقْوَامُهُمُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَنَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ - تَعَالَى - وَسَائِطَ مِنْهُمْ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنْ خَلْقِهِ يُقَرِّبُونَهُمْ إِلَيْهِ بِجَاهِهِمْ ، وَيَقْضُونَ حَوَائِجَهُمْ مِنْ جَلْبِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضُرٍّ بِشَفَاعَتِهِمْ لَهُمْ عِنْدَهُ ، أَوْ بِتَصَرُّفِهِمْ فِي خَلْقِهِ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، إِلَّا مَا جَعَلَهُ مِنْ آيَاتِهِ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِهِمْ فِي دَعْوَى الرِّسَالَةِ ، كَإِبْرَاءِ

عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِلْأَكْمَهِ وَالْأَبْرَصِ وَإِحْيَائِهِ لِلْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ لَهُ، بِأَنْ دَعَاهُ فِي ذَلِكَ فَاسْتَجَابَ لَهُ وَسَيَأْتِي بَيَانُهُ.

(الثَّانِيَةُ: أَنَّهُمْ بَشَرٌ مُرْسَلُونَ)، أَيْ لَا يَمْلِكُونَ مِنْ أُمُورِ الْعَالَمِ شَيْئًا مِمَّا هُوَ فَوْقَ كَسْبِ الْبَشَرِ غَيْرَ مَا خَصَّهُمُ اللهُ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ، دُونَ شُئُونِ رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ مَا خَصَّ بِهِ مَلَائِكَتَهُ، حَتَّى إِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ هِدَايَةَ أَحَدٍ إِلَى الدِّينِ بِالْفِعْلِ؛ لِأَنَّ هِدَايَتَهُمْ خَاصَّةٌ بِالتَّبْلِيغِ وَالتَّعْلِيمِ كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا، وَحِكَايَةُ نُوحٍ مَعَ ابْنِهِ الْكَافِرِ حُجَّةٌ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ وَاضِحَةٌ، وَالشَّوَاهِدُ عَلَى هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ.

(40/388)

وَ(مِنْهَا) فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَا عَلِمْتَ مِنْ آيَاتِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالرَّدِّ عَلَى مُشْرِكِي مَكَّةَ فِي اقْتِرَاحِهِمْ مَجِيءَ الْمَلَكِ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى -: - فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا
أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ - 12 وَقَوْلِهِ حِكَايَةً عَنْ نُوحٍ: - وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ - 31 وَتَقَدَّمَ مَا فِي مَعْنَاهُ عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَرِيبًا، وَفِي مَعْنَاهُ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي السُّوَرِ الْأُخْرَى.

(وَمِنْهَا) فِي احْتِجَاجِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُسُلِهِمْ بِأَنَّهُمْ بَشَرٌ فِي قِصَّةِ نُوحٍ: - فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا - 27 وَقَدْ قَالَ مِثْلَ هَذَا سَائِرُ أَقْوَامِ الرُّسُلِ بَعْدَهُ إِلَى خَاتَمِهِمْ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

(41/388)

وَلَوْ كَانَ أُولَئِكَ الرُّسُلُ فِي عَصْرِهِمْ عَلَى غَيْرِ مَا يَعْهَدُ أَقْوَامُهُمْ مِنَ الْبَشَرِ، بِأَنْ يَكُونُوا يَتَصَرَّفُونَ فِي الْكَوْنِ بِالضُّرِّ وَالنَّفْعِ وَعِلْمِ الْغَيْبِ، لَمَا احْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ كَمَا يَدَّعِي الَّذِينَ ضَلُّوا مِنْ أَقْوَامِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ عَمَّا جَاءُوا بِهِ مَعَ دَعْوَى اتِّبَاعِهِمْ، فَزَعَمُوا أَنَّهُمْ هُمْ وَبَعْضُ مَنْ وُصِفُوا بِالصَّلَاحِ وَالْوِلَايَةِ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ يَضُرُّونَ وَيَنْفَعُونَ، وَيُشْقُونَ وَيُسْعِدُونَ، وَيُمِيتُونَ وَيُحْيُونَ: أَحْيَاؤُهُمْ وَأَمْوَاتُهُمْ فِي هَذَا سَوَاءٌ، بَلْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَحْيَاءٌ فِي قُبُورِهِمْ حَيَاةً مَادِّيَّةً بَدَنِيَّةً يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَيَسْمَعُونَ كَلَامَ مَنْ يَدْعُوهُمْ وَيَسْتَغِيثُ بِهِمْ، وَيَسْتَغِيثُونَ بِهِمْ، وَيَسْتَجِيبُونَ دُعَاءَهُمْ فِيهَا، وَقَدْ يَخْرُجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ فَيَقْضُونَ حَوَائِجَهُمْ فِي خَارِجِهَا، يُخَالِفُونَ بِهَذِهِ الدَّعَاوَى مِئَاتٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْمُحْكَمَاتِ فِي التَّوْحِيدِ وَصِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَفِي صِفَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَكَوْنِهِمْ بَشَرًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَأَنَّ النُّبُوَّةَ وَالرِّسَالَةَ وَآيَاتِهَا لَيْسَتْ مِنْ كَسْبِهِمْ، وَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ

الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ فِيمَا وَرَدَ فِيهِ مِنْ بَعْضِ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ فِي حَيَاةِ الشُّهَدَاءِ الْبَرْزَخِيَّةِ، فَيَقِيسُونَ عَلَيْهَا بِأَهْوَائِهِمْ حَيَاةَ أَوْلِيَائِهِمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَافْتِرَاءً عَلَى اللهِ، وَحَسْبُنَا هُنَا التَّذْكِيرُ بِمَا أَمَرَ اللهُ نَبِيَّنَا أَنْ

(42/388)

يَرُدَّ بِهِ عَلَى الَّذِينَ سَأَلُوهُ بَعْضَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ: - قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا - 17: 93؟

(الثَّالِثَةُ: بَيِّنَاتُهُمْ وَآيَاتُهُمْ) مَا مِنْ نَبِيٍّ دَعَا قَوْمَهُ إِلَى اللهِ إِلَّا وَجَاءَهُمْ بِبَيِّنَةٍ عَلَى صِدْقِهِ فِي دَعْوَاهُ مِنْ حُجَّةٍ عَقْلِيَّةٍ وَآيَةٍ كَوْنِيَّةٍ، وَكَانَتْ تَشْتَبِهُ عَلَى عَامَّتِهِمُ الْآيَاتُ الْكَوْنِيَّةُ بِالسِّحْرِ; لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا أَمْرٌ غَرِيبٌ لَا يَعْرِفُونَ سَبَبَهُ، وَيَرَوْنَهُ مِنَ الدَّجَّالِينَ وَالْمُرْتَزِقَةِ، وَكَانَ الْمُهْتَدُونَ هُمُ الَّذِينَ يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ بِالْبَيِّنَاتِ الْعَقْلِيَّةِ، وَالْهِدَايَةِ الْخُلُقِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ، وَكَذَلِكَ الْجَاحِدُونَ الْمُعَانِدُونَ مِنْهُمْ.

(43/388)

بَيَّنَتْ لَنَا هَذِهِ السُّورَةُ أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ كَانَ يَحْتَجُّ وَيَسْتَدِلُّ عَلَى قَوْمِهِ بِأَنَّهُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ، وَلَيْسَ فِيهَا وَلَا فِي غَيْرِهَا أَنَّ كُلًّا مِنْهُمْ تَحَدَّى قَوْمَهُ بِآيَةٍ كَوْنِيَّةٍ كَمَا تَحَدَّى مُوسَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ، وَكَمَا تَحَدَّى مُحَمَّدٌ قَوْمَهُ، وَالْإِنْسَ وَالْجِنَّ مَعَهُمْ، وَمَنِ اسْتَطَاعُوا لِيُظَاهِرُوهُمْ عَلَى مُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ بِمِثْلِهِ فِي مَزَايَا إِعْجَازِهِ الْعَامَّةِ الظَّاهِرَةِ فِي كُلِّ سُورَةٍ مِنْهُ، وَمَزَايَا إِعْجَازِهِ الْمُكَرَّرَةِ فِي عَشْرِ سُوَرٍ مِمَّا ادَّعَوُا افْتِرَاءَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَ التَّحَدِّي بِعَشْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ فِي الْآيَةِ (13) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ، وَبَعْدَ تَقْرِيرِ عَجْزِهِمْ عَنِ الْمُعَارَضَةِ فِي الْآيَةِ (14) قَالَ فِي تَقْرِيرِ الْحُجَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ: - أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً 17 .

ثُمَّ قَالَ فِي حُجَّةِ نُوحٍ: - قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ - 28 الْآيَةَ، وَحَكَى عَنْ قَوْمِ هُودٍ أَنَّهُمْ - قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ - 53 لَكِنَّهُ كَذَّبَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: - وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ - 59 الْآيَةَ .

ثمّ قال في قصّة صالح : - قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربّي وآتاني منه رحمة - 63 الآية ، وذكر بعدها آيته الكونيّة الّتي أنذرهم العذاب بها فقال : - ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية - 64 إلخ . ثمّ قال في قصّة شعيب : - قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربّي ورزقني منه رزقًا حسنًا - 88 الآية ، ثمّ قال : - ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه - 96 و97 الآية .

ومن المعلوم القطعيّ أنّ هذه الآيات وغيرها ليست من أعمال أولئك الرّسل وكسبهم ، ولا في حدود استطاعتهم ، فآية خاتمهم الكبرى - وهي كلام الله عزّ وجلّ - وكان - صلّى اللّه عليه وسلّم - عاجزًا عن الإتيان بسورة مثله بعد النّبوّة ، فعجزه قبلها أظهر ، وناقة صالح لم تكن من خلقه ولا كسبه ، ولمّا رأى موسى آيته الكبرى وهي العصا إذ ألقاها فإذا هي حيّة تسعى ، ولّى مدبرًا خائفًا منها ، كما ترى في سورتي النّمل والقصص .

وأمّا آيات عيسى الّتي أسند إليه فعلها فقد صرّح القرآن بأنّها كانت بإذن الله - تعالى - وإرادته ، وفي رسائل الأناجيل المتداولة أنّه كان يدعو الله - تعالى - ويتضرّع إليه بطلبها ليؤمنوا به ويعلموا أنّه يستجيب له ، وقد قال اليهود إنّها سحر مبين .

وأَهْلُ هَذَا الْعَصْرِ يُورِدُونَ عَلَيْهَا شُبُهَاتٍ مِنْ غَرَائِبِ صُوفِيَّةِ الْهُنُودِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الرُّوحَانِيِّينَ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ الْوَحْيِ

الْمُحَمَّدِيِّ ، وَبَيَّنَّا أَنَّ آيَاتِ مُوسَى كَانَتْ أَعْظَمَ مِنْهَا مَظْهَرًا ، وَأَدَلَّ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ - تَعَالَى - وَتَأْيِيدِهِ لَهُ ، لِإِيمَانِ أَعْلَمِ عُلَمَاءِ السِّحْرِ بِهَا ، وَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةً لِلنَّاسِ بِمُوسَى كَمَا كَانَتْ تِلْكَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ بِعِيسَى إِذِ اتَّخَذُوهُ بِهَا إِلَهًا ، فَالَّذِينَ فُتِنُوا وَضَلُّوا بِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ الصُّورِيَّةِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ ، أَضْعَافُ أَضْعَافِ الَّذِينَ اهْتَدَوْا بِالْحَقِيقِيِّ مِنْهَا ، فَإِنَّ الْمَلَايِينَ مِنْ مُدَّعِي اتِّبَاعِ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - يَتَّبِعُونَ الدَّجَّالِينَ الْمُدَّعِينَ لِلتَّصَرُّفِ فِي الْكَوْنِ بِأَنْفُسِهِمْ أَوْ بِاسْتِخْدَامِهِمْ لِلْجِنِّ ، وَسَدَنَةَ قُبُورِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْقِدِّيسِينَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ التَّصَرُّفَ لِمَنْ تُنْسَبُ إِلَيْهِمْ ، وَكُلُّ هَؤُلَاءِ يَجْهَلُونَ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ جَمِيعَ رُسُلِهِ وَوَظِيفَةَ رِسَالَاتِهِمْ .

(الْخَامِسَةُ : حُجَّةُ الرُّسُلِ عَلَى أَقْوَامِهِمْ بِإِخْلَاصِهِمْ لِلَّهِ وَعَدَمِ طَلَبِ أَجْرٍ عَلَى عَمَلِهِمْ) :

(46/388)

هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مُكَرَّرَةٌ فِي الْقُرْآنِ ، وَمِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَيْهَا هُنَا حِكَايَةٌ عَنْ نُوحٍ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : - وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ - 29 وَتَقَدَّمَ عَنْهُ مَعْنَاهُ فِي سُورَةِ

يُونسَ ، وَسَيَأْتِي مِثْلُهُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ بِلَفْظِ الْأَجْرِ (وَمِنْهَا) عَنْ هُودٍ : - يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ - 51 ، وَرَاجِعْ مِثْلَ هَذَا عَنِ الرُّسُلِ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ (26 : 109 و127 و145 و164 و180) .

(47/388)

وَقَدْ تَكَرَّرَ هَذَا عَنْ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي عِدَّةِ سُوَرٍ : الْأَنْعَامِ (6 : 90) وَيُوسُفَ (12 : 104) وَالشُّورَى (42 : 23) وَنَصُّ هَذِهِ الْأَخِيرَةِ بَعْدَ تَبْشِيرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِرَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ : - ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ - وَالِاسْتِثْنَاءُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُنْقَطِعٌ ، وَالْمَعْنَى : لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا الْبَتَّةَ ، سُنَّةَ اللهِ فِي النَّبِيِّينَ الْمُرْسَلِينَ ، وَلَكِنْ أَسْأَلُكُمُ الْمَوَدَّةَ فِي أُولِي الْقُرْبَى لَكُمْ وَصِلَةَ أَرْحَامِكُمْ ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْوَصِيَّةُ مِمَّا يَحْمَدُونَهُ مِنْ هَدْيِ الْإِسْلَامِ لِتَعَصُّبِهِمْ لِأَنْسَابِهِمْ ، وَيُفَسِّرُهَا قَوْلُهُ - تَعَالَى - : - قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ - 34 ، 74 .

وَلَكِنَّ الشِّيعَةَ جَعَلُوا الِاسْتِثْنَاءَ مُتَّصِلًا ، وَفَسَّرُوا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبِي بِمَوَدَّةِ قَرَابَتِهِ -

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَخَصُّوهَا بِابْنِ عَمِّهِ عَلِيٍّ وَذُرِّيَّتِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، دُونَ عَمِّهِ الْعَبَّاسِ وَذُرِّيَّتِهِ وَسَائِرِ ذُرِّيَّةِ أَعْمَامِهِ، وَاشْتُهِرَ هَذَا التَّأْوِيلُ الْبَاطِلُ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالْمَنَاقِبِ وَدَوَاوِينِ الشِّعْرِ، وَجَعَلُوهُ عَهْدًا مِنَ اللهِ عَاهَدَ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ شَاعِرُ الْعِرَاقِ فِي عَصْرِهِ عَبْدُ الْبَاقِي الْعُمْرِيُّ:

وَعَهْدُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ . . . لِمَنْ بِهِ الْوَلَا قَدْ وَجَبَا

وَهَذَا التَّأَمُّلُ تَحْرِيفٌ لِلْقُرْآنِ وَطَعْنٌ شَنِيعٌ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِإِخْرَاجِهِ مِنْ سُنَّةِ اللهِ - تَعَالَى - فِي جَمِيعِ رُسُلِهِ بِأَنَّهُمْ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِهِ لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ،

لَا يَسْأَلُونَ عَلَيْهِ أَجْرًا لِأَنْفُسِهِمْ وَلَا لِأُولِي قُرْبَاهُمْ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي انْفَرَدَ بِطَلَبِ الْأَجْرِ لِأُولِي قُرْبَاهُ، (وَحَاشَاهُ) وَهَلْ يَسْعَى جَمِيعُ طُلَّابِ الدُّنْيَا إِلَّا لِذُرِّيَّاتِهِمْ ؟ وَلِلتَّنَزُّهِ عَنْ هَذِهِ الشُّبْهَةِ حَرَّمَ اللهُ - تَعَالَى - الصَّدَقَةَ عَلَى آلِ رَسُولِهِ، وَهُمْ بَنُو هَاشِمٍ وَمَنْ كَانَ يُوَالِيهِمْ مِنْ بَنِي الْمُطَّلِبِ دُونَ إِخْوَتِهِمْ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي عَبْدِ شَمْسٍ الَّذِينَ كَانُوا يُعَادُونَهُمْ، وَمُوَالَاةُ عَلِيٍّ

وَآلِهِ وَاجِبَةٌ لَا خِلَافَ فِيهَا ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ عَلَيْهَا بِهَذَا التَّحْرِيفِ لِلْقُرْآنِ بِبَاطِلِ التَّأْوِيلِ لِلْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ اللَّاتِي هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ .

(49/388)

(السَّادِسَةُ : عِصْمَتُهُمْ صَلَوَاتُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ وَالْعَمَلِ بِهَا) :

مِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَيْهَا قَوْلُهُ – تَعَالَى – : – فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ – 12 الْآيَةَ .

الْمُرَادُ مِنْهَا أَنَّهُ لَا يَتْرُكُ مِمَّا أُوحِيَ إِلَيْهِ شَيْئًا لَا يُبَلِّغُهُ ، (وَمِنْهَا) قَوْلُهُ حِكَايَةً عَنْ نُوحٍ : – وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا – 29 الْآيَةَ ، وَالنَّفْيُ فِيهَا لِلشَّأْنِ ، أَيْ : مَا كَانَ طَرْدُهُمْ مِنْ شَأْنِي ، وَلَا مِمَّا يَقَعُ مِنْ نَبِيٍّ مِثْلِي ، فَأَنَا مَعْصُومٌ مِنْ إِجَابَتِكُمْ إِلَيْهِ فَلَا تَطْمَعُنَّ فِيهَا ، وَالْوَعِيدُ عَلَيْهِ فِي الْآيَةِ (30) الَّتِي بَعْدَهَا مَبْنِيٌّ عَلَى فَرْضِ وُقُوعِ الطَّرْدِ مِنْهُ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِأَدَاةِ الشَّرْطِ الَّتِي لَيْسَ مِنْ شَأْنِ فِعْلِهَا أَنْ يَقَعَ ، (وَمِنْهَا) قَوْلُ شُعَيْبٍ لِقَوْمِهِ : – وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ – 88 وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ لَا يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ لَا يَنْتَهِي هُوَ عَنْهُ ، فَهُوَ لَا يُخَالِفُ رِسَالَتَهُ فِي شَيْءٍ ، إِذْ لَوْ خَالَفَهَا لَدَحَضَ حُجَّتَهُ ، وَنَقَضَ دَعْوَتَهُ ، (وَمِنْهَا) قَوْلُهُ لَهُمْ : – وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ – 93 الْآيَةَ ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ أَمْرَ اللهِ – تَعَالَى – وَنَهْيَهُ لَهُمْ بِالتَّكَالِيفِ ، وَوَعِيدَهُ عَلَى الْمُخَالَفَةِ وَالْمَعْصِيَةِ

الشَّامِل لَهُمْ وَلِأَقْوَامِهِمْ وَالْخَاصّ بِهِمْ كَقَوْلِه - تَعَالَى - لِنُوحٍ - إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ - 46 وَاسْتِعَاذَةِ نُوحٍ بِهِ - تَعَالَى - مِنْ مُخَالَفَةِ الْمَوْعِظَةِ وَقَوْلِه : - وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ - 47 وَحِكَايَتُهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ مَا يَعْمَلُونَ وَمَا يَتْرُكُونَ - كُلُّ هَذَا وَأَمْثَالُهُ يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ وُقُوعِ الْمَعْصِيَةِ مِنْهُمْ لَا اسْتِحَالَتُهُ ، وَفِي بَعْضِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى وُقُوعِ الذَّنْبِ بِالْفِعْلِ ، وَمِنْهُ سُؤَالُ نُوحٍ رَبَّهُ نَجَاةَ وَلَدِهِ الْكَافِرِ ، وَكَوْنُهُ مِنْ سُؤَالِ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ ، وَهُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ .

" قُلْتُ " : إِنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ اسْتَدَلُّوا عَلَى مَا سَمَّوْهُ عِصْمَةَ الْأَنْبِيَاءِ بِالْعَقْلِ لَا بِالنَّقْلِ ، وَتَأَوَّلُوا الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ بِوُقُوعِ الذُّنُوبِ مِنْهُمْ بَلْهَ الدَّالَّةِ عَلَى إِمْكَانِهَا ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِدَلَالَةِ الْعَقْلِ عَلَى عِصْمَتِهِمْ أَنَّهَا كَعِصْمَةِ الْمَلَائِكَةِ مُنَافِيَةٌ لِطِبَاعِهِمْ ، فَإِنَّ مِمَّا فُضِّلُوا بِهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ بَشَرٌ كَسَائِرِ الْبَشَرِ جُبِلُوا عَلَى الشَّهَوَاتِ الْجَسَدِيَّةِ ، وَدَاعِيَةِ كُلٍّ مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَالطَّاعَةِ ، كَمَا عُلِمَ مِنْ قِصَّةِ أَبِيهِمْ آدَمَ ، وَلَكِنَّهُمْ بِقُوَّةِ الْإِيمَانِ وَمَعْرِفَةِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَالْخَوْفِ مِنْهُ وَالرَّجَاءِ فِيهِ وَالْحُبِّ لَهُ ، يُرَجِّحُونَ الطَّاعَةَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ بِمَلَكَةٍ رَاسِخَةٍ

فِيهِمْ، يَعْصِمُهُمُ اللَّهُ

-

(51/388)

تَعَالَى - بِهِمْ مِنَ الْخَطَأِ فِي التَّبْلِيغِ، وَمِنَ الْكِتْمَانِ لِشَيْءٍ مِمَّا أُمِرُوا بِهِ مِنْهُ، وَمِنْ مُخَالَفَتِهِ، وَمِنَ الرَّذَائِلِ وَالْمَعَاصِي الْمُنَافِيَةِ لِلرِّسَالَةِ، الْمُبْطِلَةِ لِلْحُجَّةِ، دُونَ الْخَطَأِ فِي الِاجْتِهَادِ وَالرَّأْيِ، الَّذِي لَا يُخَالِفُ نَصَّ الْوَحْيِ، فَإِذَا وَقَعَ مِنْهُمْ بِهَذَا الِاجْتِهَادِ مَا كَانَ الْخَيْرُ وَالْكَمَالُ لَهُمْ فِي عِلْمِ اللَّهِ خِلَافَهُ بَيَّنَهُ اللَّهُ لَهُمْ تَعْلِيمًا، وَعَلَّمَهُمْ مَا هُوَ الْأَلْيَقُ بِهِمْ تَرْبِيَةً وَتَكْمِيلًا، وَمِنْهُ اجْتِهَادُ نُوحٍ الَّذِي رَجَّحَ لَهُ بِالْحَنَانِ الْأَبَوِيِّ جَوَازَ دُخُولِ ابْنِهِ الْكَافِرِ فِيمَنْ وَعَدَهُ اللَّهُ بِنَجَاتِهِمْ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَوْضِعِهِ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ سُؤَالَهُ رَبَّهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ قَطْعِيٌّ مَمْنُوعٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ سَأَلَهُ نَجَاةَ وَلَدِهِ فَأَجَابَهُ بِهَذِهِ الْمَوْعِظَةِ، وَقَدْ فَصَّلْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي تَفْسِيرِ أَخْذِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْفِدَاءَ مِنْ أَسْرَى بَدْرٍ مِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ (8 : 67) وَتَفْسِيرِ عِتَابِهِ عَلَى الْإِذْنِ لِبَعْضِ الْمُنَافِقِينَ فِي التَّخَلُّفِ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ وَالْعَفْوِ عَنْهُ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ (9 : 43) .

(السَّابِعَةُ وَالثَّامِنَةُ وَالتَّاسِعَةُ) :

(كَمَالُ إِيمَانِهِمْ وَثِقَتُهُمْ بِاللَّهِ وَتَوَكُّلُهُمْ عَلَيْهِ وَشَجَاعَتُهُمْ وَيَقِينُهُمْ بِعَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ) :

هَذِهِ الْمَزَايَا الثَّلَاثُ ظَاهِرَةٌ أَوْضَحَ الظُّهُورِ فِي كُلِّ قِصَّةٍ مِنْ قَصَصِهِمْ، إِذْ هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ تَصَدِّي رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْ وَسَطِ قَوْمٍ لِتَجْهِيلِهِمْ فِي تَقَالِيدِهِمُ الدِّينِيَّةِ الْمَوْرُوثَةِ وَدَعْوَتِهِمْ لِتَرْكِهَا إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا فِي حَقِّيَّتِهِ وَكَمَالِهِ، وَحَالِهِ وَمَآلِهِ، وَتَوْبِيخِهِمْ عَلَى الْإِصْرَارِ عَلَيْهَا، وَإِنْذَارِهِمْ سُوءَ عَاقِبَتِهَا، وَعَدَمِ مُبَالَاتِهِ بِكُفْرِهِمْ بِهِ، وَسُخْرِيَتِهِمْ مِنْهُ وَتَهْدِيدِهِمْ لَهُ، وَمُقَابَلَتِهِ لِذَلِكَ بِمَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ، كَمَا تَرَى فِي الْآيَتَيْنِ (38 و39) مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ، وَمَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهَا فِي مَعْنَاهَا مِنْ سُورَةِ يُونُسَ (10 : 71) الَّتِي صَرَّحَ لَهُمْ فِيهَا بِاعْتِصَامِهِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ، وَأَمْرِهِمْ بِإِجْمَاعِ أَمْرِهِمْ وَشُرَكَائِهِمْ وَالتَّثْبِيتِ فِيهِ وَالْقَضَاءِ إِلَيْهِ مِمَّا يَجْمَعُونَ عَلَيْهِ مِنْ عِقَابِهِ بِدُونِ إِنْظَارٍ وَلَا إِمْهَالٍ، وَفِي مَعْنَاهُ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ الْآيَاتُ (54 - 57) .

(الْعَاشِرَةُ) : إِنْذَارُهُمُ الْأَخِيرُ لِأَقْوَامِهِمْ وُقُوعَ عَذَابٍ سَمَاوِيٍّ يُهْلِكُهُمْ، وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْمُعَانِدِينَ الْمُصِرِّينَ عَلَى جُحُودِهِمْ وَظُلْمِهِمْ، وَوَقَعَ ذَلِكَ كُلُّهُ كَمَا بَلَّغُوهُمْ عَنِ اللهِ - تَعَالَى - بِلَا تَأْخِيرٍ وَلَا تَقْدِيمٍ، وَهُوَ بُرْهَانٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ بِعِلْمِ اللهِ وَإِرَادَتِهِ لِعِقَابِهِمْ بِهِ .

(الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ) : احْتِجَاجُ الْمُتَأَخِّرِ مِنْ هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ عَلَى قَوْمِهِ بِمَا وَقَعَ لِمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمُ الْمَعْرُوفِينَ عِنْدَ قَوْمِهِ، كَمَا تَرَى فِي إِنْذَارِ شُعَيْبٍ قَوْمَهُ ذَلِكَ فِي الْآيَةِ (89) وَفِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ تَذْكِيرُ هُودٍ قَوْمَهُ بِقَوْمِ نُوحٍ قَبْلَهُمْ، ثُمَّ تَذْكِيرُ صَالِحٍ بِقَوْمِ هُودٍ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَقَدْ أَنْذَرَ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَوْمَهُ بِجَمِيعِ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ وَمَا حَلَّ بِهِمْ

.

فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ وَقَعَ بِأَمْرِهِ عِقَابًا لَهُمْ، وَإِنْ كَانَ مُوَافِقًا لِسُنَنِهِ - تَعَالَى - فِي الْأَسْبَابِ الْعَامَّةِ.

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي قِصَصِ الرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ وَمَا فِيهَا مِنْ أُصُولِ دِينِ اللهِ - تَعَالَى - " الْإِسْلَامُ

"

وَمِنْ سُنَّتِهِ - تَعَالَى - فِي تَبْلِيغِهِمْ لَهُ وَهِدَايَتِهِمْ وَفَضَائِلِهِمْ وَضَلَالِ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ وَظُلْمِهِمْ وَفَسَادِهِمْ - أَنَّهَا دَلَائِلُ وَاضِحَةٌ عَلَى رِسَالَةِ خَاتَمِهِمْ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَإِعْجَازِ كِتَابِهِ وَكَوْنِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ - تَعَالَى - أَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ، وَوُجُوهُ الدَّلَالَةِ فِيهَا كَثِيرَةٌ مِنْ عَقْلِيَّةٍ وَعِلْمِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ وَتَارِيخِيَّةٍ وَغَيْبِيَّةٍ، وَقَدْ فَصَّلْنَاهَا فِي "كِتَابِ الْوَحْيِ الْمُحَمَّدِيِّ " تَفْصِيلًا.

(الْبَابُ الرَّابِعُ فِي الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ) :

آيَاتُ الْبَعْثِ فِي الْقُرْآنِ نَوْعَانِ : الْأَوَّلُ لِدَعْوَةِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ - تَعَالَى - عَلَيْهِ ، وَإِزَالَةِ اسْتِبْعَادِهِمْ لَهُ وَتَقْرِيبِهِ إِلَى إِدْرَاكِهِمْ بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ لَهُ .

(55/388)

(وَالثَّانِي) لِتَذْكِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ لِلتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ وَالْمَوْعِظَةِ ، وَالْجَزَاءُ قِسْمَانِ أَيْضًا : جَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُتَّقِينَ الصَّالِحِينَ ، وَجَزَاءُ الْكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ الْمُجْرِمِينَ ، وَلِكُلٍّ مِنَ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ بِقِسْمَيْهِ أَلْوَانٌ مِنَ الْبَيَانِ الرَّائِعِ الْعَجِيبِ ، وَأَسَالِيبُ فِي التَّعْبِيرِ الْبَلِيغِ ، وَكُلٌّ مِنَ النَّوْعَيْنِ وَالْقِسْمَيْنِ يَجْتَمِعَانِ وَيَفْتَرِقَانِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْهُمَا وَالْخِطَابِ بِهِمَا بِتِلْكَ الْأَسَالِيبِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي الْآيَةِ وَالْآيَتَيْنِ وَالْآيَاتِ ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا تَأْثِيرُهُ فِي الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، يَجْعَلُ التَّكْرَارَ الضَّرُورِيَّ لِتَثْبِيتِ الْمَعَانِي فِي النَّفْسِ غَيْرَ مُمِلٍّ لِلسَّمْعِ ، وَلَا مُسْئِمٍ لِلطَّبْعِ ، وَهَذَا مِنْ أَبْدَعِ مَا يَمْتَازُ بِهِ كَلَامُ الرَّبِّ الْمُعْجِزُ عَلَى كَلَامِ خَلْقِهِ . فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ وَتَدَبَّرْهُ فِي قَوْلِهِ أَوَّلَ السُّورَةِ بَعْدَ ذِكْرِ الْإِنْذَارِ وَالتَّبْشِيرِ ، وَالتَّخْوِيفِ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ كَبِيرٍ : - إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ - 4 ثُمَّ تَأَمَّلْ قَوْلَهُ بَعْدَ ذِكْرِ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِذْ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَ الْعُقَلَاءَ الْمُخَاطَبِينَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا : - وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ

الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ - 7 فَالْآيَتَانِ مِنْ نَوْعِ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ مَعًا بِأَنَّ الْخَالِقَ الْقَدِيرَ ، ذَا الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ فِي التَّقْدِيرِ وَالتَّدْبِيرِ ، لَا تَظْهَرُ عَظَمَةُ قُدْرَتِهِ

(56/388)

، وَسِرُّ حِكْمَتِهِ فِي تَقْدِيرِهِ ، إِلَّا بِاخْتِبَارِ عِبَادِهِ الَّذِينَ وَهَبَهُمُ الْعَقْلَ وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ الْحَقِّ ، الَّذِي تَتَجَلَّى بِهِ الْحِكْمَةُ فِي الْخَلْقِ ، وَالْبَاطِلِ الْعَبَثُ بِخُلُوِّهَا مِنْهُ ، وَبِالْجَزَاءِ عَلَى مَا يَعْمَلُونَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَحَسَنٍ وَقَبِيحٍ ، وَهَذَا الْجَزَاءُ لَا يَكُونُ تَامًّا عَامًّا لِلْأَفْرَادِ فِي الدُّنْيَا لِقِصَرِ أَعْمَالِهِمْ فِيهَا ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْحِكْمَةَ الرَّبَّانِيَّةَ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ فِي حَيَاةٍ ثَانِيَةٍ بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَكُلُّ مَا يَدُلُّ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ - تَعَالَى - وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ يَدُلُّ عَلَى الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ لِأَنَّهُ مِنْ لَوَازِمِهَا .

وَإِنَّ مَا بَعْدَ هَذَا مِنَ الْآيَاتِ فِي رِسَالَةِ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَدْ تَكَرَّرَ فِيهِ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ ; لِأَنَّ مُشْرِكِي الْعَرَبِ كَانُوا أَكْثَرَ جِدَالًا مِنْ كُلِّ قَوْمٍ فِي الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، فَتَرَى بَعْدَهَا كُلَّ جِدَالِ نُوحٍ وَصَالِحٍ لِقَوْمِهِ فِي عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ دُونَ عَقِيدَةِ الْبَعْثِ ، وَزَادَ شُعَيْبٌ مَسْأَلَةَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ ، وَانْحَصَرَ

إِنْذَارُ لُوطٍ فِي النَّهْيِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، ثُمَّ خَتَمَ اللهُ الْعِبْرَةَ فِي هَذِهِ الْقِصَصِ بِهَلَاكِهِمْ فِي الدُّنْيَا

وَعَدَمِ إِغْنَاءِ آلِهَتِهِمْ عَنْهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، وَهُوَ دَلِيلُ التَّوْحِيدِ ، وَبِعَذَابِ الْآخِرَةِ إِذْ عَادَ الْكَلَامُ كَمَا بَدَأَ فِي إِنْذَارِ مُشْرِكِي أُمِّ الْقُرَى وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْعَرَبِ ، فَذَكَرَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَا فِيهِ مِنَ الْجَزَاءِ بِتِلْكَ الْآيَاتِ الْبَلِيغَةِ الْمُمْتَازَةِ : - إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ - 103 الْآيَاتِ - وَلَمَّا بَيَّنَ فِيهَا جَزَاءَ كُلٍّ مِنْ فَرِيقِ الْأَشْقِيَاءِ وَالسُّعَدَاءِ وَخُلُودَهُمْ فِي النَّارِ وَالْجَنَّةِ ، اسْتَثْنَى بَعْدَ كُلٍّ مِنْهُمَا اسْتِثْنَاءً لَمْ يَسْبِقْ لَهُ فِيمَا قَبْلَهُ وَلَا فِيمَا بَعْدَهُ مِنَ الْقُرْآنِ نَظِيرٌ فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي التَّفْرِقَةِ بَيْنَهُمَا ، وَهُوَ قَوْلُهُ فِي أَهْلِ النَّارِ : - خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ - 107 وَفِي أَهْلِ الْجَنَّةِ : - خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ - 108 .

حَارَ فِي هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ وَالتَّفْرِقَةِ فِيهِ بَيْنَ الدَّارَيْنِ الْمُفَسِّرُونَ مِنْ عُلَمَاءِ الْآثَارِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَالصُّوفِيَّةِ; لِتَعَارُضِهِ فِي الظَّاهِرِ مَعَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ فِي خُلُودِ الْفَرِيقَيْنِ، وَتَأْكِيدِ بَعْضِهَا بِكَلِمَةِ التَّأْبِيدِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُ فِي الْمُؤْمِنِينَ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ، حَتَّى فِي الْآيَاتِ الَّتِي فِيهَا الْمُقَابَلَةُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ كَمَا تَرَاهُ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ (4 : 56 مَعَ 57 و121 مَعَ 122) وَفِي سُورَةِ التَّغَابُنِ (64 : 9 مَعَ 10) وَفِي سُورَةِ الْبَيِّنَةِ (98 : 6 مَعَ 8) فَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ يُؤَكِّدُ خُلُودَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ بِالتَّأْبِيدِ دُونَ خُلُودِ الْكَافِرِينَ فِي النَّارِ، كَمَا يُؤَكِّدُهُ فِي آيَاتٍ أُخْرَى مِنْ سُوَرٍ: كَالنِّسَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالْمَائِدَةِ وَالطَّلَاقِ بِدُونِ مُقَابَلَةٍ.

وَمِثْلُ هَذِهِ الْفُرُوقِ لَا تَأْتِي فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ جُزَافًا أَوْ عَبَثًا أَوْ عَنْ غَفْلَةٍ كَكَلَامِ الْبَشَرِ، بَلْ يَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ لَهَا حِكْمَةٌ فِي التَّشْرِيعِ، وَنُكْتَةٌ فِي بَلَاغَةِ التَّعْبِيرِ، وَلَا يَقْدِرُ

(59/388)

عَلَى الْغَوْصِ فِي هَذَا الْبَحْرِ الْخِضَمِّ وَاسْتِخْرَاجِ أَمْثَالِ هَذِهِ الدُّرَرِ مِنْهُ إِلَّا الْجَامِعُ بَيْنَ أَسْرَارِ الْعِلْمَيْنِ - عِلْمِ حِكَمِ التَّشْرِيعِ وَعِلْمِ أَسْرَارِ الْبَلَاغَةِ - وَلَقَدْ كَانَ أَقْرَبُ مَا يُقَالُ فِي تِلْكَ الْآيَاتِ أَنَّهَا بِمَعْنَى الِاسْتِثْنَاءِ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْمُتَبَادِرِ مِنْهُمَا فِي ذَاتِهِمَا، وَهُوَ التَّفْرِقَةُ بَيْنَ الْجَزَاءِ

بِالْفَضْلِ فَوْقَ الْعَدْلِ الَّذِي يُضَاعَفُ مِنْ عَشَرَةِ أَضْعَافٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، وَالْجَزَاءِ بِالْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاةِ الَّذِي لَا يَظْلِمُ فِيهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَمَا فَوْقَهُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، وَلَكِنْ يَقِفُ فِي طَرِيقِ هَذَا الْفَهْمِ عَلَى وُضُوحِهِ أَنَّ التَّأْبِيدَ أُكِّدَ بِهِ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ (41 : 167 - 169) وَجَزَاءُ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ مِنْهُمْ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ 33 : 57 و64) وَجَزَاءُ الْعُصَاةِ فِي سُورَةِ الْجِنِّ : - وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا - 72 : 23 وَالْقَوَاعِدُ تَقْتَضِي جَعْلَ الْعِصْيَانِ هُنَا عَامًّا شَامِلًا لِتَرْكِ الْإِيمَانِ بِمَعْنَى الشِّرْكِ .

عَلَى أَنَّنَا بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَاتِ فِي الْخُلُودِ وَالتَّأْبِيدِ مَعْنَاهُمَا اللُّغَوِيَّ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْعَرَبِ لَفْظٌ مِنْهَا وَلَا مِنْ غَيْرِهَا يَدُلُّ عَلَى التَّأْبِيدِ فِي الِاصْطِلَاحِ الشَّرْعِيِّ ، وَهُوَ عَدَمُ النِّهَايَةِ فِي الْوُجُودِ وَإِنْ قُدِّرَتْ بِأُلُوفِ الْأُلُوفِ وَمَا لَا يُحْصَى مِنَ السِّنِينَ .

(60/388)

وَبَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ الِاسْتِثْنَاءِ هُنَا وَفِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ أَنَّ جُمْهُورَ الْمُفَسِّرِينَ تَأَوَّلُوهُ لِمُوَافَقَةِ الْمُقَرَّرِ فِي الْعَقَائِدِ مِنْ أَنَّ خُلُودَ أَهْلِ النَّارِ كَأَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَأَنَّ بَعْضَهُمْ جَعَلَهُ عَلَى ظَاهِرِهِ لِأَنَّهُ مُعَارِضٌ بِنُصُوصِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ الصَّرِيحَةِ فِي سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ وَعَدْلِهِ ، وَكَوْنِ الْعِقَابِ عِنْدَهُ عَلَى

قَدْرِ الذنب ; لِأَنَّ الزِّيَادَةَ ظُلْمٌ وَهُوَ مُحَالٌ عَلَى اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - عَقْلًا وَنَقْلًا ، وَكُنْتُ وَعَدْتُ بِأَنْ أَذْكُرَ هُنَا كُلَّ مَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ ، ثُمَّ رَأَيْتُ الْآنَ أَنْ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ وَجَّهْتُ تَفْسِيرَ الِاسْتِثْنَاءِ بِمَا يَجْمَعُ بَيْنَ النُّصُوصِ الْمُتَعَارِضَةِ الظَّاهِرِ وَمَا سَبَقَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْأَنْعَامِ (6 : 127 ص 54 - 86 ج 8 تَفْسِيرِ ط الْهَيْئَةِ) وَهُوَ مَا بَسَطَهُ الْمُحَقِّقُ ابْنُ الْقَيِّمِ مِنْ دَلَائِلِ الْفَرِيقَيْنِ ، وَخُلَاصَتُهُ : أَنَّ رَحْمَةَ اللهِ - تَعَالَى - أَوْسَعُ وَأَكْمَلُ ، وَإِرَادَتُهُ أَعَمُّ وَأَشْمَلُ ، فَلَا يُقَيِّدُهُمَا شَيْءٌ وَلَا يُحِيطُ بِهِمَا إِلَّا عِلْمُهُ . وَقَدْ تَعَرَّضَ لِهَذَا الْمَوْضُوعِ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ الْمُتَأَخِّرِينَ الْقَاضِي الشَّوْكَانِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (فَتْحِ الْقَدِيرِ) وَتَبِعَهُ السَّيِّدُ حَسَن صِدِّيق خَان فِي تَفْسِيرِهِ (فَتْحِ الْبَيَانِ) فَلْيُرَاجِعْهُمَا مَنْ شَاءَ .

الْبَابُ الْخَامِسُ :

(61/388)

(فِي صِفَاتِ النَّفْسِ وَأَخْلَاقِهَا مِنَ الْفَضَائِلِ وَالرَّذَائِلِ الَّتِي هِيَ مَصَادِرُ الْأَعْمَالِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ وَالصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ وَفِيهِ فَصْلَانِ) :

مُقَدِّمَةٌ فِي أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ الْمُعْجِزِ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْفَضَائِلِ وَالرَّذَائِلِ :

لِلْحُكَمَاءِ وَالصُّوفِيَّةِ وَالْأُدَبَاءِ وَالشُّعَرَاءِ مَنَاهِجُ وَأَسَالِيبُ مُخْتَلِفَةٌ فِي عِلْمِ الْأَخْلَاقِ وَمَا

يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ الْأَعْمَالِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، وَالْعَادَاتِ حُسْنِهَا وَقَبِيحِهَا ، كَمَا تَرَاهُ فِي كُتُبِ أَهْلِهَا مِنْ فَلْسَفَةٍ وَحِكَمٍ ، وَأَدَبٍ وَتَرْبِيَةٍ ، وَحِكَايَاتٍ تَمْثِيلِيَّةٍ لِوَقَائِعَ بَيْنَ الْحَاضِرِينَ أَوْ أَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ ، أَوْ عَلَى أَلْسِنَةِ الْحَيَوَانِ ، أَوْ خُرَافَاتِ الشَّيَاطِينِ وَالْجَانِّ ، تَبَارَى فِي تَصْنِيفِهَا عُلَمَاءُ الشُّعُوبِ فِي عَهْدِ حَضَارَةِ كُلٍّ مِنْهَا ، وَفِي كُلٍّ مِنْهَا فَوَائِدُ لِقُرَّائِهَا بِقَدْرِ اسْتِعْدَادِهِمْ ، وَأَخْطَاءٌ يُنْكِرُهَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَمْ تَهْتَدِ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ بِكِتَابٍ مِنْهَا كَمَا اهْتَدَى أَتْبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ فِي دِينِهِمْ .

(62/388)

وَعِنْدَ الْأُمَمِ الْمُتَدَيِّنَةِ كُتُبٌ مُقَدَّسَةٌ فِي أُصُولِ أَدْيَانِهَا وَآدَابِهَا يُعْزَى بَعْضُهَا إِلَى الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ وَبَعْضُهَا إِلَى مَوَاعِظِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مِنْ سَلَفِهَا ، وَأَعْلَاهَا الْأَحَادِيثُ الشَّرِيفَةُ الْمُسْنَدَةُ إِلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رُوِيَتْ مَنْثُورَةً مُتَفَرِّقَةً ، ثُمَّ جُمِعَتْ فِي دَوَاوِينَ مُرَتَّبَةٍ ، فَمَا تَجِدُ مِنْ خَيْرٍ وَفَضِيلَةٍ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ فَهُوَ مِنْ تَأْثِيرِ اتِّبَاعِ هَذِهِ الْكُتُبِ وَمَا حَفِظُوا وَفَقِهُوا مِنْهَا ، وَمَا تَجِدُ مِنْ شَرٍّ وَبَاطِلٍ فَهُوَ مِنْ فَلْسَفَةِ رُؤَسَاءِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَإِضْلَالِهِمْ إِيَّاهُمْ عَنْهَا ، أَوْ تَحْرِيفِهِمْ لَهَا .

وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَلَا يُشْبِهُ شَيْئًا وَلَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْكُتُبِ فِي أُسْلُوبِهِ ، وَلَا فِي مِنْهَاجِهِ

وَتَرْتِيبِهِ ، وَلَا فِي تَرْبِيَتِهِ وَتَأْدِيبِهِ ، وَلَا فِي تَأْثِيرِهِ فِيمَا يَحْمَدُهُ وَيُرَغِّبُ فِيهِ ، وَلَا فِيمَا يَذُمُّهُ وَيَزْجُرُ عَنْهُ ، فِيهِ كُلُّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُكَلَّفُونَ لِتَزْكِيَةِ أَنْفُسِهِمْ وَتَطْهِيرِهَا عَقْلًا وَنَفْسًا وَخُلُقًا ، وَكَأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْهَا تَصْنِيفًا وَوَصْفًا ، فَمَنْ تَلَاهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ، وَتَدَبَّرَهُ ، وَجَدَ كُلَّ عِلْمٍ وَحِكْمَةٍ ، وَخَيْرٍ وَفَضِيلَةٍ ، وَبِرٍّ وَمَكْرُمَةٍ ، حَاضِرًا فِي نَفْسِهِ ، وَكُلَّ جَهْلٍ وَشَرٍّ كَانَ مُلْتَاثًا بِهِ أَوْ عُرْضَةً لَهُ كَأَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حَاجِزًا كَثِيفًا ،

(63/388)

أَوْ أَمَدًا بَعِيدًا ، وَلَكِنَّهُ لَا يَجِدُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَلَا ذَاكَ فِي سُوَرِهِ مَدْلُولًا عَلَيْهِ بِعَنَاوِينِهِ كَمَا يَجِدُهُ فِي أَبْوَابِ الْكُتُبِ الَّتِي صَنَّفَهَا عُلَمَاءُ الْبَشَرِ وَفُصُولِهَا ، فَمَقَاصِدُهُ وَمَعَانِيهِ مَمْزُوجٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ فِي جَمِيعِ سُوَرِهِ ، طِوَالِهَا وَقِصَارِهَا ، بَلْ فِي جُمْلَةِ آيَاتِهِ مِنْهَا ، لِأَجْلِ أَنَّهُ يُرَتَّلُ بِنَغْمِهِ اللَّائِقِ بِهِ تَرْتِيلًا ، وَيُتَعَبَّدُ بِتَدَبُّرِ مَا فَصَّلَهُ مِنْ آيَاتِهِ تَفْصِيلًا ، فَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِيهِ أَنَّهُ هُوَ أَعْلَى مِنْ كُلِّ مَا عَهِدَهُ الْبَشَرُ وَعَرَفُوهُ صُورَةً وَمَعْنًى ، وَهِدَايَةً وَتَأْثِيرًا ، كَمَا فَصَّلْنَاهُ فِي كِتَابِ (الْوَحْيِ الْمُحَمَّدِيِّ) مُقْتَبَسًا مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ ، وَلَا سِيَّمَا إِجْمَالُ كُلِّ سُورَةٍ فُسِّرَتْ فِيهِ بَعْدَ تَفْصِيلٍ . وَتَأَمَّلْهُ فِي فَصْلَيْ هَذَا الْبَابِ ، وَمَا هُوَ بِبِدْعٍ مِنْ سَائِرِ الْأَبْوَابِ .

(64/388)

يَقْرَأُ كَثِيرٌ مِنَ النّاسِ هَذِهِ السُّورَةَ فَلا يَكادُونَ يَفْطِنُونَ لِمَا فِيهَا مِنْ بَيانِ فَضَائِلِ الرُّسُلِ وَالْمُؤْمِنِينَ الَّتِي يَجِبُ التَّأَسِّي بِهَا ، وَمَسَاوِئِ الْكُفّارِ الَّتِي يَجِبُ تَطْهِيرُ الْأَنْفُسِ مِنْهَا ، فَمَنْ قَرَأَ مِنْهُمْ تَفْسِيرَهَا فِي أَكْثَرِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ الْمُتَدَاوَلَةِ كَانَتْ أَشْغَلَ شَاغِلٍ لَهُ عَنْ ذَلِكَ بِمَبَاحِثِ الْفُنُونِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْمُجَادَلَاتِ الْكَلَامِيَّةِ ، وَالْأَسَاطِيرِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ . وَمَنْ يُهِمُّهُ الْعِلْمُ الَّذِي يُعِينُهُ عَلَى تَهْذِيبِ نَفْسِهِ صَارَ يَطْلُبُهُ مِنْ كُتُبِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَدَبِ وَالتَّصَوُّفِ دُونَ الْقُرْآنِ ، وَهُوَ هُوَ الَّذِي قَلَبَ طِبَاعَ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ كُلِّهَا وَزَكَّى أَنْفُسَهَا وَسَوَّدَهَا عَلَى بَدْوِ الْعَالَمِ وَحَضَرِهِ مُنْذُ الْجِيلِ الْأَوَّلِ مِنْ إِسْلَامِهَا ، إِلَى أَنْ أَعْرَضُوا عَنْ هِدَايَتِهِ وَأَدَبِهِ اشْتِغَالًا بِفَلْسَفَةِ الشُّعُوبِيَّةِ وَآدَابِهَا ، أَوْ تَنَازُعًا فِي زِينَةِ الدُّنْيَا وَسُلْطَانِهَا ، فَكَانُوا يَبْعُدُونَ عَنِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْفَضْلِ وَالسِّيَادَةِ وَالْمُلْكِ بِقَدْرِ مَا يَبْعُدُونَ عَنْ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ فِيهَا .

(65/388)

إِنَّنِي بَعْدَ أَنْ كَتَبْتُ تَفْسِيرَ السُّورَةِ وَنَشَرْتُهُ وَشَرَعْتُ فِي كِتَابَةِ هَذِهِ الْخُلَاصَةِ تَأَمَّلْتُ السُّورَةَ فِي الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ وَحْدَهُ ، فَوَقَفْتُ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْهَا أَطْوَلَ مِنْ وَقَفَاتِي فِيمَا سَبَقَهُ مِنَ الْأَبْوَابِ ، فَرَأَيْتُ فِي تَضَاعِيفِ الْآيَاتِ مِنْ دَعْوَةِ نَبِيِّنَا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي

فَاتِحَتِهَا وَخَاتِمَتِهَا ، وَمِنْ قِصَصِ الرُّسُلِ فِي وَسَطِهَا ، عِشْرِينَ مَسْأَلَةً أَوْ أَكْثَرَ فِي عَقَائِلِ الْفَضَائِلِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَأَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ ، وَمِثْلَهَا فِي فَسَادِ النَّفْسِ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى وَاجْتِنَابِ الْهُدَى ، بَعْضُهَا يَخُصُّ الْعَقْلَ وَالْفَهْمَ ، وَالْعِلْمَ وَالْجَهْلَ ، وَبَعْضُهَا يَخُصُّ الْخُلُقَ وَالْعَادَةَ وَالْأَعْمَالَ ; لِهَذَا جَعَلْتُ هَذَا الْبَابَ فِي فَصْلَيْنِ أَسْرُدُ فِيهِمَا مَا لَاحَ الْآنَ لِفَهْمِي مِنْهَا

.

(الْفَصْلُ الْأَوَّلُ) :

(فِي مَسَاوِئِ النَّفْسِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْخُلُقِيَّةِ وَسَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ وَالْعَادَاتِ وَفِيهِ إِحْدَى وَعِشْرُونَ مَسْأَلَةً) :

(الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : خَسَارَةُ النَّفْسِ) :

أَبَدًا بِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَإِنْ كَانَتْ نَتِيجَةً تَابِعَةً لِمَفَاسِدَ ذُكِرَتْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ قَبْلَهَا لِغَفْلَةِ أَكْثَرِ النَّاسِ فِي عَصْرِنَا عَنْهَا ، عَلَى تَكْرَارِ ذِكْرِهَا فِي الْقُرْآنِ ، وَانْفِرَادِهِ دُونَ جَمِيعِ كُتُبِ الْعِلْمِ الْبَشَرِيَّةِ وَالسَّمَاوِيَّةِ بِالتَّذْكِيرِ بِهَا ، فَقَالَ هُنَا فِي الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ بِالِافْتِرَاءِ عَلَى اللهِ الصَّادِّينَ عَنْ سَبِيلِهِ يَبْغُونَهَا عِوَجًا ، الَّذِينَ فَقَدُوا الِاسْتِعْدَادَ لِلِانْتِفَاعِ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ : - أُولَئِكَ

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ - 21 و22 ثُمَّ ذَكَرَ أَضْدَادَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ ، وَضَرَبَ لِلْفَرِيقَيْنِ مَثَلَ الْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، فَكَانَ هَذَا آخِرَ مَا افْتُتِحَتْ بِهِ السُّورَةُ مِنَ الْكَلَامِ فِي رِسَالَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعْنَى هَذِهِ الْخَسَارَةِ هُنَا يُفْهَمُ مِمَّا قَبْلَ الْآيَتَيْنِ وَمَا بَعْدَهُمَا ، وَخُلَاصَتُهُ : أَنَّ فِطْرَتَهُمُ الْإِنْسَانِيَّةَ فَسَدَتْ كُلُّهَا فَفَقَدَتِ اسْتِعْدَادَهَا الْخَاصَّ بِهَا إِلَخْ ، أَرَأَيْتَ مَنْ خَسِرَ نَفْسَهُ فَأَيُّ شَيْءٍ بَقِيَ لَهُ ؟ أَيُغْنِي عَنْهُ رِبْحُ تِجَارَتِهِ وَكَثْرَةُ مَالِهِ وَجَاهُهُ بِالْبَاطِلِ ؟ كَلَّا ، إِنَّكَ تَفْهَمُ مِنْ مَعْنَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْكَبِيرَةِ الْمُرْعِبَةِ بِاسْتِعْمَالِ عَوَامِّ الْمِصْرِيِّينَ لَهَا مَا لَا تَفْهَمُهُ مِنْ مِثْلِ تَفْسِيرِ الْجَلَالَيْنِ ، يَقُولُونَ فِيمَنْ فَسَدَ خُلُقُهُ وَضَاعَ شَرَفُهُ وَصَارَ مَهِينًا مُحْتَقَرًا : فُلَانٌ

خَسِرَ - أَيْ ذَهَبَتْ مَزَايَاهُ وَفَضَائِلُهُ حَتَّى لَمْ تَبْقَ لَهُ قِيمَةٌ فِي الْوُجُودِ .

(الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فَقْدُ هِدَايَةِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَهُمَا أَوَّلُ طُرُقِ الِاسْتِدْلَالِ) :

وَهَذَا مَعْنًى يَغْفُلُ عَنْهُ أَكْثَرُ النَّاسِ أَيْضًا ، وَلِذَلِكَ قَرَّرَهُ الْقُرْآنُ كَثِيرًا بِأَسَالِيبَ بَلِيغَةٍ ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ قَبْلَ مَسْأَلَةِ خُسْرَانِ النَّفْسِ فِي أَهْلِهَا : - مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ

- 20 ونُكْتَةُ اخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ فِيهِ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْمَعُ الْأَصْوَاتَ وَإِنْ لَمْ يَقْصِدْ سَمَاعَهَا وَلَمْ يَصْغُ لَهَا ، فَالْمُرَادُ هُنَا أَنَّهُمْ لِشِدَّةِ كَرَاهَتِهِمْ أَنْ يَسْمَعُوا آيَاتِ اللهِ وَحُجَجَهُ فِي كِتَابِهِ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ إِلْقَاءَ السَّمْعِ لَهُ إِذَا تُلِيَ ، لِئَلَّا يَسْمَعُوهُ فَيُحَوِّلَهُمْ عَمَّا كَانُوا فِيهِ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ : - إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا

عَلَيْهَا - 25 : 42 وَلَوْ أَلْقَوُا السَّمْعَ لَمَا سَمِعُوا سَمَاعَ فَهْمٍ وَتَأَمُّلٍ ، وَلَوْ سَمِعُوا لَمَا عَقَلُوا وَفَقِهُوا كَمَا وَصَفَهُمْ فِي الْأَنْفَالِ (8 : 21 - 33) وَقَالَ هُنَا حِكَايَةً عَنْ قَوْمِ مَدْيَنَ : - قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ - 91 وَكَذَلِكَ مَا كَانُوا يُبْصِرُونَ الْآيَاتِ الْمَرْئِيَّةَ إِذَا هُمْ نَظَرُوا دَلَائِلَهَا وَمِنْهَا رُؤْيَةُ الْمُصْطَفِي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلِذَلِكَ قَالَ فِيهِمْ : - وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ - 7 : 198 .

(68/388)

وَوَضَّحَ هَذَا بِضَرْبِهِ الْمَثَلَ لَهُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ فِيهِمَا : مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ .

(الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : الشَّكُّ وَالِارْتِيَابُ فِي دَعْوَةِ الرُّسُلِ) :

وَصَفَ الْقُرْآنُ الْكُفَّارَ بِهَذَا الْجَهْلِ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - حِكَايَةً عَنْ قَوْمِ صَالِحٍ : - أَتَنْهَانَا أَنْ

نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ - 62 وَمِثْلُهُ فِي قَوْمِ مُوسَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي كِتَابِهِ قَالَ: - وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ - 110 أَكَّدَ شَكَّ قَوْمِ مُوسَى فِي كِتَابِهِمْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، وَلَكِنَّهُ قَالَ فِي قَوْمِ مُحَمَّدٍ قَبْلَ إِيمَانِهِمْ - وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا - إِلَى قَوْلِهِ: - إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ - 2 : 23 إِنَّكُمْ فِي رَيْبٍ مِنْهُ، فَكَذَّبَهُمْ فِي دَعْوَى الرَّيْبِ. وَفِي سَائِرِ السُّوَرِ كَثِيرٌ مِنْ هَذَا فِي الْكُفَّارِ كَوَصْفِهِمْ بِاتِّبَاعِ الظَّنِّ وَبِالْخَرْصِ وَنَفْيِهِ الْعِلْمَ عَنْهُمْ، فَهَذِهِ شَوَاهِدُ فِي وَصْفِ حَالِهِمُ الْعَقْلِيَّةِ وَرَدَتْ فِي سِيَاقِ قَصَصِهِمْ دَالَّةً عَلَى مُطَالَبَةِ الْإِسْلَامِ النَّاسَ بِالْعِلْمِ وَفِقْهِ الشَّرَائِعِ وَبَرَاهِينِ الْعَقَائِدِ، وَأَنَّى لَهُمْ بِهِ وَالتَّقْلِيدُ يَصُدُّهُمْ عَنِ النَّظَرِ الْعَقْلِيِّ الْمُوَصِّلِ إِلَيْهِ ؟!

(الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: التَّقْلِيدُ):

الْمُرَادُ مِنْهُ اتِّبَاعُ بَعْضِ النَّاسِ لِمَنْ يُعَظِّمُهُ أَوْ يَثِقُ بِهِ أَوْ يُحْسِنُ بِهِ الظَّنَّ فِيمَا لَا يَعْرِفُ أَحَقٌّ هُوَ أَمْ بَاطِلٌ، وَخَيْرٌ هُوَ أَمْ شَرٌّ، وَمَصْلَحَةٌ أَمْ مَفْسَدَةٌ، وَأَصْلُ التَّقْلِيدِ فِي اللُّغَةِ تَحْلِيَةُ الْمَرْأَةِ بِالْقِلَادَةِ، أَوِ الرَّجُلِ بِالسَّيْفِ، أَوِ الْهَدْيِ بِمَا يُعْرَفُ بِهِ (وَهُوَ بِالْفَتْحِ مَا يَهْدِيهِ مُرِيدُ النُّسُكِ إِلَى الْحَرَمِ مِنَ الْأَنْعَامِ) وَتَقْلِيدُهُ: أَنْ يُعَلِّقَ عَلَيْهِ جِلْدَةً أَوْ غَيْرَهَا لِيُعْرَفَ أَنَّهُ هَدْيٌ فَلَا يُتَعَرَّضُ لَهُ،

وَمِنْهُ تَقْلِيدُ الْوِلَايَاتِ وَالْمَنَاصِبِ، يُقَالُ: قَلَّدَهُ السَّيْفَ أَوِ الْعَمَلَ فَتَقَلَّدَهُ، وَقَوْلُهُمْ: قَلَّدَ فُلَانٌ الْإِمَامَ الشَّافِعِيَّ مَثَلًا. مَعْنَاهُ: جَعَلَ رَأْيَهُ وَظَنَّهُ الِاجْتِهَادِيَّ فِي الدِّينِ قِلَادَةً لَهُ، وَالْأَصْلُ أَنْ يُقَالَ: تَقَلَّدَ مَذْهَبَ الشَّافِعِيِّ. وَعَرَّفَ

(70/388)

الْفُقَهَاءُ التَّقْلِيدَ بِأَنَّهُ الْعَمَلُ بِقَوْلِ مَنْ لَا يَعْرِفُ دَلِيلَهُ، وَقَدْ نَهَى الْأَئِمَّةُ الْمَعْرُوفُونَ النَّاسَ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ فِي دِينِهِمْ، وَقَالُوا: لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَّبِعَ أَحَدًا إِلَّا فِيمَا عَرَفَ دَلِيلَهُ وَظَهَرَ لَهُ أَنَّهُ حَقٌّ، فَالْعَالِمُ مُبَيِّنٌ لِلْحُكْمِ لَا شَارِعٌ لَهُ، وَالتَّقْلِيدُ بِهَذَا الْمَعْنَى شَأْنُ الطِّفْلِ مَعَ وَالِدَيْهِ وَالتِّلْمِيذِ مَعَ أُسْتَاذِهِ، وَهُوَ لَا يَلِيقُ بِالرَّاشِدِ الْمُسْتَقِلِّ، وَلَكِنَّ الْمَرْءُوسِينَ مَعَ الرُّؤَسَاءِ، وَالْعَامَّةَ مَعَ الزُّعَمَاءِ وَالْأُمَرَاءِ، كَالْأَطْفَالِ مَعَ الْأُمَرَاءِ الْمُسْتَبِدِّينَ، وَأَمَّا تَلَقِّي النُّصُوصِ الْقَطْعِيَّةِ وَالسُّنَنِ الْعَمَلِيَّةِ عَنْ نَاقِلِيهَا فَهُوَ لَيْسَ بِتَقْلِيدِهِمْ، وَكَذَا أَخْذُ الْفُنُونِ وَالصِّنَاعَاتِ عَنْ مُتْقِنِيهَا. وَأَمَّا تَشَبُّهُ الشَّرْقِيِّينَ بِالْإِفْرِنْجِ فِيمَا لَا بَاعِثَ عَلَيْهِ إِلَّا تَعْظِيمُهُمْ لِأَنَّهُمْ أَقْوَى مِنْهُمْ وَلَا سِيَّمَا أَزْيَاءُ النِّسَاءِ وَالْعَادَاتُ فَكُلُّهُ مِنَ التَّقْلِيدِ الضَّارِّ، الدَّالِّ عَلَى الصَّغَارِ.

وَلَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ دِينَ الرُّشْدِ وَالِاسْتِقْلَالِ، أَنْكَرَ عَلَى الْعُقَلَاءِ الْبَالِغِينَ الْمُكَلَّفِينَ جُمُودَ التَّقْلِيدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، لَا لِأَجْلِ أَنْ يُقَلِّدُوا آخَرِينَ مِنْ أَهْلِ

(71/388)

عَصْرِهِمْ وَيَسُنُّوا لِمَنْ بَعْدَهُمْ تَقْلِيدَهُمْ ، بَلْ لِيَكُونُوا مُسْتَقِلِّينَ فِي طَلَبِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَدِلَّتِهَا ، وَعَلَّلَهُ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : - أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ - 5 : 104 عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ مُتَفَرِّقَةٍ ، ثُمَّ فِي كِتَابِ (الْوَحْيِ الْمُحَمَّدِيِّ) مُجْتَمِعَةٍ . وَفِي قَصَصِ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ حِكَايَةِ هَذَا التَّقْلِيدِ عَنْ ثَمُودَ : - قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا - 62 وَعَنْ مَدْيَنَ : - قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ - 87 ؟ .

(72/388)

وَمِنْ عَجَائِبِ الْجَهْلِ بِالْقُرْآنِ أَنْ يَعُودَ الْخَلْقُ الْكَثِيرُ مِنْ مُدَّعِي اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ إِلَى التَّقْلِيدِ - لَا تَقْلِيدَ أَئِمَّةِ الْعِلْمِ الْمُتَقَدِّمِينَ الَّذِينَ نَهَوْهُمْ عَنِ التَّقْلِيدِ اتِّبَاعًا لِلْقُرْآنِ - بَلْ تَقْلِيدُ آبَائِهِمْ وَشُيُوخِهِمُ الْمُتَأَخِّرِينَ الْمُقَلِّدِينَ ، حَتَّى فِيمَا ابْتَدَعُوا أَوْ قَلَّدُوا أَهْلَ الْمِلَلِ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ بِدُعَاءِ غَيْرِ اللهِ وَالنَّذْرِ لِغَيْرِ اللهِ ، وَشَرْعِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ ، وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ لَيْسَ هَذَا

بِعِبَادَةٍ لِغَيْرِ اللهِ ، بَلْ تَوَسُّلٌ إِلَى اللهِ وَتَقَرُّبٌ إِلَيْهِ ؟ ! فَإِنْ قُلْتَ لَهُمْ : إِنَّ هَذَا مَا كَانَ يَقُولُهُ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ لِأَجْلِهِ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - آلَ أَمْرُهُمْ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ عَلَى الشَّيْءِ بِنَفْسِهِ وَهُوَ تَقْلِيدُهُمْ لِمَنْ يَفْعَلُ فِعْلَهُمْ أَوْ يُقِرُّهُ مِنْ مَشَايِخِ الْأَزْهَرِ وَمَشَايِخِ الطُّرُقِ ، فَإِنْ قُلْتَ لَهُمْ : إِنَّ هَؤُلَاءِ مُخَالِفُونَ لِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلِلْأَئِمَّةِ الَّذِينَ يَدَّعُونَ اتِّبَاعَهُمْ ؟ قَالُوا : إِنَّهُمْ أَعْلَمُ مِنَّا بِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَئِمَّةُ الْمُخْتَصُّونَ بِفَهْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . فَمَا أَضْيَعَ الْبُرْهَانَ عِنْدَ الْمُقَلِّدِ . وَلَوْ كَانَ التَّقْلِيدُ حُجَّةً مَقْبُولَةً عِنْدَ اللهِ لَقَبِلَهَا مِنْ مُقَلِّدِي جَمِيعِ الْأُمَمِ وَالْمِلَلِ فَإِنَّهُ هُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ ، لَا يَظْلِمُ وَلَا يُحَابِي بَعْضَ عِبَادِهِ عَلَى بَعْضٍ .

(الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ الِاخْتِلَافُ فِي الدِّينِ) :

الِاخْتِلَافُ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ ، وَفِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْمَنَافِعِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ مَا لَا تَظْهَرُ مَزَايَا نَوْعِهِمْ بِدُونِهِ ، وَفِيهِ غَوَائِلُ وَمَضَارُّ شَرُّهَا وَأَضَرُّهَا التَّفَرُّقُ وَالتَّعَادِي بِهِ ، وَقَدْ شَرَعَ اللهُ لَهُمُ الدِّينَ لِتَكْمِيلِ فِطْرَتِهِمْ ، وَالْحُكْمِ بَيْنَهُمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ بِكِتَابِ اللهِ الَّذِي لَا مَجَالَ فِيهِ لِلِاخْتِلَافِ ، وَلَكِنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ الْمُنْزَلِ لِلِاخْتِلَافِ أَيْضًا ، فَاسْتَحَقَّ الَّذِينَ يُحَكِّمُونَهُ

فِيمَا يَتَنَازَعُونَ فِيهِ رَحْمَةَ اللهِ وَثَوَابَهُ ، وَالَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ سُخْطَهُ - تَعَالَى - وَعِقَابَهُ ، وَذَلِكَ مَا بَيَّنَهُ فِي الْآيَةِ 119 فِي خَاتِمَةِ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَسَنُعِيدُ ذِكْرَهَا فِي سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ .

هَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالْفَهْمِ مِنْ هَذِهِ الرَّذَائِلِ ، وَهَاكَ الشَّوَاهِدُ الْخَاصَّةُ بِصِفَاتِ النَّفْسِ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْأَهْوَاءِ وَالْأَعْمَالِ ، تَابِعَةً لِمَا قَبْلَهَا فِي الْعَدَدِ .

(الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : اتِّبَاعُ الْإِتْرَافِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْفَسَادِ وَالْإِجْرَامِ) :

بَيَّنَ اللهُ لَنَا فِي خَوَاتِيمِ هَذِهِ السُّورَةِ الْأَسْبَابَ النَّفْسِيَّةَ لِهَلَاكِ الْأُمَمِ الَّذِينَ قَصَّ عَلَيْنَا أَنْبَاءَ

(74/388)

إِهْلَاكِهِمْ ، فَكَانَتِ الْآيَةُ (116) مِنْ أَجْمَعِهَا لِلْمَعَانِي ، وَالْمُرَادُ مِنْهَا هُنَا أَنَّ مَثَارَ الظُّلْمِ وَالْإِجْرَامِ الْمُوجِبِ لِهَلَاكِ أَهْلِهَا هُوَ اتِّبَاعُ أَكْثَرِهِمْ لِمَا أُتْرِفُوا فِيهِ مِنْ أَسْبَابِ النَّعِيمِ وَالشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ ، وَالْمُتْرَفُونَ هُمْ مُفْسِدُوا الْأُمَمِ وَمُهْلِكُوهَا . وَفِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ آيَاتٌ أُخْرَى فِي سُوَرِ الْإِسْرَاءِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَسَبَأٍ وَالزُّخْرُفِ وَالْوَاقِعَةِ ، وَيُؤَيِّدُ مَضْمُونَهَا عِلْمُ الِاجْتِمَاعِ الْحَدِيثِ وَوَقَائِعُ التَّارِيخِ ، وَإِنَّ كُلَّ مَا نُشَاهِدُهُ مِنَ الْفَسَادِ فِي عَصْرِنَا فَمَثَارُهُ الِافْتِتَانُ بِالتَّرَفِ وَاتِّبَاعُ مَا يَقْتَضِيهِ الْإِتْرَافُ ، مِنْ فُسُوقٍ وَطُغْيَانٍ وَإِفْرَاطٍ وَإِسْرَافٍ .

عِلمَ هذَا الْمُهْتَدُونَ الْأَوَّلُونَ بِالْقُرْآنِ مِنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، وَعُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ الصَّالِحِينَ ، فَكَانُوا مَثَلًا صَالِحًا فِي الِاعْتِدَالِ فِي الْمَعِيشَةِ ، أَوْ تَغْلِيبِ جَانِبِ الْخُشُونَةِ وَالْبَأْسِ وَالشِّدَّةِ ، عَلَى الْخُنُوثَةِ وَالْمُرُونَةِ وَالنِّعْمَةِ ، فَسَهُلَ لَهُمْ فَتْحُ الْأَمْصَارِ ، ثُمَّ أَضَاعَهَا مَنْ خَلَفَ بَعْدَهُمْ مِنْ مُتَّبِعِي الْإِتْرَافِ ، فَانْظُرْ كَيْفَ اهْتَدَى السَّلَفُ الصَّالِحُ بِالْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَبَيَانِ السُّنَّةِ لَهُ إِذْ خَرَجُوا بِهِ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ ، إِلَى نُورِ الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ وَالْحِكْمَةِ . ثُمَّ كَيْفَ ضَلَّ الْخَلَفُ الصَّالِحُ عَنْهُ بَعْدَ أَنِ اسْتَفَادُوا الْعُلُومَ وَالْفُنُونَ وَالْمُلْكَ وَالسُّلْطَانَ بِهِ ؟

(الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ وَالثَّامِنَةُ وَالتَّاسِعَةُ وَالْعَاشِرَةُ) :

(75/388)

(ضَعْفُ الْعَزِيمَةِ ، وَمَا يَلْزَمُهُ مِنَ الْيَأْسِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، أَوْ فَرَحُ الْبَطَرِ وَالْغُرُورِ ، وَمَا يَلْزَمُهُ مِنَ الْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللهِ) :

تَأَمَّلْ فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ النَّفْسِيَّةِ الْآيَاتِ الثَّامِنَةَ وَالتَّاسِعَةَ وَالْعَاشِرَةَ ، وَاقْرَأْ تَفْسِيرَهَا فَإِنَّهَا تُصَوِّرُهَا لَكَ مَاثِلَةً أَمَامَ عَيْنَيْكَ فِي الْحَالَتَيْنِ الْمُتَضَادَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَعْرِضَانِ لِلْمُتْرَفِ الْخَوَّارِ ، وَالْكَفُورِ الْخَتَّارِ ، إِذَا أَذَاقَهُ اللهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ، إِذْ يُنْسِيهِ فَرَحُ الْبَطَرِ الِاعْتِبَارَ

وَشُكْرَ الْمُنْعِمِ فَيَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ ، وَإِذَا نُزِعَتْ مِنْهُ بِذَنْبِهِ نِعْمَةٌ كَانَ ذَاقَهَا مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ ، إِذْ يَخُونُهُ الصَّبْرُ فَيَيْأَسُ مِنْ رَحْمَتِهِ ، ثُمَّ كَيْفَ اسْتَثْنَى الصَّابِرِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ، تَجِدُ فِي نَفْسِكَ مِنَ الْعِظَةِ وَالِاعْتِبَارِ ، مَا لَا تَجِدُهُ فِي قِرَاءَةِ الْمُطَوَّلَاتِ مِنْ تِلْكَ الْأَسْفَارِ .

(الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ : حَصْرُ الْإِرَادَةِ فِي شَهَوَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا دُونَ الْآخِرَةِ وَالِاسْتِعْدَادِ لَهَا) :

خَلَقَ اللهُ - تَعَالَى - هَذَا الْإِنْسَانَ مُسْتَعِدًّا لِعُلُومٍ وَمَعَارِفَ لَا حَدَّ لَهَا ، فَجَعَلَهُ خَلِيفَةً لَهُ فِي الْأَرْضِ - وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا - 2 : 31 وَلِذَلِكَ تَرَى النَّاسَ يَبْحَثُونَ عَنْ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ مِمَّا فِي الْأَرْضِ وَفِي السَّمَاوَاتِ ، مِنْ كَشْفٍ عَنْ قُطْبَيِ الْأَرْضِ وَشَنَاخِيبِ أَعْلَى الْجِبَالِ ،

وَغَوْصٍ فِي أَعْمَاقِ الْبِحَارِ ، وَتَحْلِيقٍ فِي أَقْصَى مُحِيطِ الْهَوَاءِ ، بَلْ تَجَاوَزُوا كُلَّ هَذَا إِلَى رُؤْيَةِ مَا فَوْقَهُ مِنْ شُمُوسٍ وَأَقْمَارٍ ، وَمَا تَتَأَلَّفُ مِنْهُ مِنْ ضِيَاءٍ وَأَنْوَارٍ ، وَمَا فِيهَا مِنْ عَجَائِبَ وَأَسْرَارٍ ، وَيَبْذُلُونَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ الْأَمْوَالَ وَالشَّهَوَاتِ وَالْحَيَاةَ

أَيضًا ، وهُمْ مُسْتَعِدُّونَ بِفِطْرَتِهِمُ الرُّوحِيَّةِ لِلْوُصُولِ إِلَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ ، وَالْوُصُولِ إِلَى الْعِلْمِ الْأَعْلَى بِاللهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، وَمَعْرِفَتِهِ مَعْرِفَةَ كَشْفٍ وَرُؤْيَةٍ بِالْبَصَائِرِ يُغْشِي نُورُهَا الْأَبْصَارَ ، بِالتَّجَلِّي الَّذِي تُرْفَعُ بِهِ أَكْثَرُ الْحُجُبِ وَالْأَسْتَارِ ، بِغَيْرِ كَيْفٍ وَلَا حَدٍّ وَلَا انْحِصَارٍ ، فِي حَيَاةٍ بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، الْمُقَيَّدَةِ فِيهَا أَرْوَاحُهُمْ بِهَذِهِ الْأَشْبَاحِ الْكَثِيفَةِ الْجَسَدِيَّةِ ، وَإِنَّ لَهُ - تَعَالَى - هُنَالِكَ لَتَجَلِّيَاتٍ لِعِبَادِهِ الْمُقَرَّبِينَ ، كَمَا تَجَلَّى كَلَامُهُ فِي الدُّنْيَا لِأَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَعُقُولِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ بِمَا يَعْلُو كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ . أَفَلَيْسَ مِنَ الْحَمَاقَةِ وَالْجِنَايَةِ عَلَى هَذَا الِاسْتِعْدَادِ الْعُلْوِيِّ الْعَظِيمِ ، أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْإِنْسَانُ إِرَادَتَهُ مَحْصُورَةً فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمَادِّيَّةِ ، وَزِينَتِهَا الْجَسَدِيَّةِ ، فَيَكُونُ مُنْكِرًا أَوْ كَالْمُنْكِرِ لِتِلْكَ الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ ؟ بَلَى وَذَلِكَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : - مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ - 11 : 15 و16 وَمَا فِي مَعْنَاهُمَا مِنَ الْآيَاتِ .

(فَإِنْ قِيلَ) : وَمَا تَفْعَلُ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : - قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ - 7 : 32 الْآيَةَ ؟

(قُلْتُ) : إِنَّمَا كَانَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا بِالِاسْتِحْقَاقِ ، وَإِنْ شَارَكَهُمْ غَيْرُهُمْ بِالْكَسْبِ وَسُنَنِ الْأَسْبَابِ ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَشْكُرُونَهَا لِلَّهِ وَلَا تَشْغَلُهُمْ عَنْهُ فَتَكُونُ إِرَادَتُهُمْ مَحْصُورَةً فِي التَّمَتُّعِ بِهَا ، كَيْفَ وَهُمُ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ : - وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ 6 : 52 ، - وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ - 18 : 28 فَالْمُؤْمِنُ الشَّاكِرُ الصَّابِرُ تَزِيدُهُ النِّعَمُ شَوْقًا إِلَى اللهِ وَحُبًّا ، وَالشَّدَائِدُ مَعْرِفَةً بِاللهِ وَقُرْبًا .

(الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ : ازْدِرَاءُ الْكُفَّارِ الْمُسْتَكْبِرِينَ ، لِلْفُقَرَاءِ وَالضُّعَفَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) :

كَانَ الْمَلَأُ الْمُسْتَكْبِرُونَ مِنَ الْأَقْوَامِ ، الْمَغْرُورُونَ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ ، هُمْ أَوَّلُ الَّذِينَ يَجْحَدُونَ آيَاتِ رَبِّهِمْ وَيُكَذِّبُونَ رُسُلَهُ ، لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ فِي اتِّبَاعِهِمْ لَهُمْ غَضًّا مِنْ عَظَمَتِهِمْ ، وَخَفْضًا مِنْ عُلُوِّ رِيَاسَتِهِمْ ، وَوُقُوفًا مَعَ الدَّهْمَاءِ ، حَتَّى الْفُقَرَاءِ وَالضُّعَفَاءِ ، فِي صَفٍّ

التَّابِعِينَ لأُولَئِكَ الأَنْبِيَاءِ ، وَجَعَلَهُمْ مِثْلَهُمْ مَرْءُوسِينَ لَهُمْ ، كَمَا حَكَاهُ التَّنْزِيلُ عَنْ جَوَابِ مَلأ فِرْعَوْنَ لِمُوسَى وَأَخِيهِ – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ – بِقَوْلِهِ : – قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ – 10 : 78 ؟

كَمَا كَانَ الَّذِينَ يَسْبِقُونَ إِلَى الإِيمَانِ بِهِمْ مِنْ هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءِ وَالْفُقَرَاءِ وَكَذَا الْوَسَطُ ، وَلِهَذَا كَانَ الْكُبَرَاءُ الْمُسْتَكْبِرُونَ يَزْدَادُونَ إِعْرَاضًا عَنِ الأَنْبِيَاءِ وَعَدَاوَةً لَهُمْ كَمَا بَيَّنَهُ التَّنْزِيلُ مِرَارًا وَتَكْرَارًا ، وَمِنْهُ قِصَّةُ نُوحٍ : – وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ – إِلَى قَوْلِهِ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – : – وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا – 27 – 31 وَمِنْهُ تَهْدِيدُ مَدْيَنَ لِرَسُولِهِمْ شُعَيْبٍ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – بِالرَّجْمِ هُنَا لَوْلَا رَهْطُهُ ، وَتَهْدِيدُهُ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ فِي سُورَةِ الأَعْرَافِ بِالنَّفْيِ وَالإِخْرَاجِ مِنْ أَرْضِهِمْ ، وَمِنْهُ تَهْدِيدُ فِرْعَوْنَ لِمُوسَى وَأَخِيهِ ، وَمَا فَعَلَهُ مُشْرِكُو مَكَّةَ بِرَسُولِ اللهِ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ مِنَ التَّهْدِيدِ بِالْقَتْلِ أَوِ الْحَبْسِ أَوِ الإِخْرَاجِ مِنْ وَطَنِهِ ، وَقَدْ فَعَلُوا مَا اسْتَطَاعُوا ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ بِدُعَاةِ الإِصْلَاحِ وَكُلِّ مَنْ يُرْشِدُ الشُّعُوبَ إِلَى مُقَاوَمَةِ الظُّلْمِ وَالِاسْتِبْدَادِ ، وَالرِّيَاسَةِ الطَّاغِيَةِ الْمُتَكَبِّرَةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ .

فَهَذَا الْإِرْشَادُ الرَّبَّانِيُّ فِي كِتَابِ اللهِ – تَعَالَى – عَامٌّ دَائِمٌ لَا نِهَايَةَ لَهُ ، وَلَا غِنَى عَنْهُ . وَقَدْ غَفَلَ أَهْلُ الْقُرْآنِ عَنْهُ .

(الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ : الصَّدُّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَبَغْيُهَا عِوَجًا) :

كَانَ الظَّالِمُونَ الْمُعَانِدُونَ لِلرُّسُلِ يَسْتَهْزِئُونَ بِدَعْوَتِهِمْ وَيَزْدَرُونَ أَتْبَاعَهُمْ مِنَ الضُّعَفَاءِ ، حَتَّى إِذَا مَا كَثُرُوا وَخَافُوا مِنْهُمْ قُوَّةَ الْكَثْرَةِ طَفِقُوا يَصُدُّونَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، أَيِ الطَّرِيقِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَى مَا يُحِبُّهُ لَهُمْ مِنَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالسَّعَادَةِ ، يَصُدُّونَهُمْ بِكُلِّ مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ أَسْبَابِ الصَّدِّ كَالْإِهَانَةِ وَالتَّخْوِيفِ وَالتَّعْذِيبِ لِلضُّعَفَاءِ ، وَتَزْيِينِ الْعَصَبِيَّةِ وَحُبِّ الرِّيَاسَةِ وَالْغِنَى لِلْأَقْوِيَاءِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أَيْ يَطْلُبُونَ جَعْلَهَا مُعْوَجَّةً بِذَمِّهَا وَادِّعَاءِ بُطْلَانِهَا وَضَرَرِهَا ، وَقَدْ وَرَدَ هَذَانِ الْوَصْفَانِ فِي الْآيَةِ 19 مِنْ سِيَاقِ رِسَالَةِ نَبِيِّنَا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هُنَا وَفِي سُورَتَيْ إِبْرَاهِيمَ وَالْأَعْرَافِ ، وَفِي قِصَّةِ شُعَيْبٍ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ أَيْضًا إِذْ كَانَ قَوْمُهُ يَقْعُدُونَ فِي كُلِّ طَرِيقٍ مِنْ طُرُقِهِمْ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنْ دَعْوَتِهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ، وَتَكَرَّرَ ذِكْرُ الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِدُونِ وَصْفِهَا بِالْعِوَجِ فِي سُوَرٍ أُخْرَى ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْمَلَاحِدَةِ وَدُعَاةِ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ حَتَّى هَذَا الزَّمَانِ .

(الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ : الْعَدَاوَةُ بِالْكَيْدِ وَالتَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ لِلرُّسُلِ) :

جاءَ فِي قِصَّةِ هُودٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَوْلُهُ : - فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ - 55 فَقَدْ كَانَ يَتَوَقَّعُ الْكَيْدَ مِنْهُمْ . وَهَلْ كَانَ وَقَعَ لَهُ فَقَاسَ الْمُسْتَقْبَلَ عَلَى الْمَاضِي أَمْ عَلِمَهُ مِنْ حَالِهِمْ ، أَمْ فَرَضَ وُقُوعَهُ فَرْضًا وَأَنْبَأَهُمْ بِعَدَمِ مُبَالَاتِهِ بِهِ ؟ كُلٌّ جَائِزٌ .

وَفِي قِصَّةِ شُعَيْبٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حِكَايَةً عَنْ قَوْمِهِ : - وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ - 91 وَفِيهَا مِنَ الْعِبْرَةِ أَنَّ هَذَا دَأْبُ الْمُفْسِدِينَ فِي عَدَاوَةِ الْمُصْلِحِينَ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَشَدُّهُمْ كَيْدًا لَهُمْ أَهْلُ الْحَسَدِ وَالْبِدَعِ مِنْ لَابِسِي لِبَاسِ الْعُلَمَاءِ ، وَأَعْوَانِ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ .

(الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ : افْتِرَاءُ الْكَذِبِ عَلَى اللهِ تَعَالَى) :

(82/388)

الدِّينُ فِي حَقِيقَتِهِ وَطَبِيعَتِهِ وَعُرْفِ جَمِيعِ الْمِلَلِ تَشْرِيعٌ إِلَهِيٌّ مَوْضُوعُهُ مَعْرِفَةُ اللهِ - تَعَالَى - وَعِبَادَتُهُ وَشُكْرُهُ ، وَتَزْكِيَةُ النَّفْسِ وَتَهْذِيبُهَا بِاجْتِنَابِ الشَّرِّ وَفِعْلِ الْخَيْرِ ، وَالتَّعَاوُنُ بَيْنَ النَّاسِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى إِلَخْ . وَمَصْدَرُهُ وَحْيُهُ - تَعَالَى - لِمَنِ اصْطَفَى مِنْ عِبَادِهِ لِرِسَالَتِهِ ، وَتَبْلِيغُهُمْ لِمَا ارْتَضَاهُ وَشَرَعَهُ لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ - تَعَالَى - أَنْ يُشَرِّعَ لَهُمْ

عِبادَةً وَلَا حُكْمًا دِينيًّا مِنْ حرَامٍ أَوْ حَلَالٍ ، وَمَنْ فَعلَ ذَلِكَ كَانَ مُفْتَرِيًا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ، سَوَاءٌ أَسْنَدَهُ إِلَيْهِ – تَعَالَى – بِالْقَوْلِ أَمْ لَا ، لِأَنَّ كُلَّ مَا يُتَّخَذُ دِينًا مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ فَهُوَ يَتَضَمَّنُ مَعْنَى نِسْبَتِهِ إِلَى اللهِ وَادِّعَاءِ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي شَرَعَهُ ، لِأَنَّ الدِّينَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْهُ وَلَهُ ، وَآيَاتُ الْقُرْآنِ صَرِيحَةٌ فِي هَذَا .

(83/388)

سَبَقَ بَعْضُهَا فِي السُّوَرِ الَّتِي فَسَّرْنَاهَا وَلَا سِيَّمَا الْأَنْعَامُ وَالْأَعْرَافُ وَالتَّوْبَةُ وَيُونُسُ ، وَمِنْهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ : – وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا – 18 الْآيَةَ ، أَيْ لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا مَا ، وَمِنْهُ الْقَوْلُ فِي الدِّينِ بِغَيْرِ عِلْمٍ مِنْ عَقِيدَةٍ وَعِبَادَةٍ وَتَحْلِيلٍ وَتَحْرِيمٍ ، وَهُوَ شِرْكٌ بِاللهِ يَتَعَدَّى ضَرَرُهُ إِلَى عِبَادِهِ ، وَبِهَذَا كَانَ أَشَدَّ جُرْمًا وَكُفْرًا مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَغَيْرِهَا كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي تَفْسِيرِ : – وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ – 7 : 33 وَمِنْ ثَمَّ كَانَ ابْتِدَاعُ الْعِبَادَاتِ وَالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ فِي الدِّينِ شِرْكًا وَكُفْرَانًا ، إِذِ الْجَاهِلُونَ يَعُدُّونَهَا عِبَادَةً يَرْجُونَ بِهَا ثَوَابًا ، وَيُسَمُّونَ مُبْتَدِعِيهَا أَوْلِيَاءَ اللهِ وَأَحْبَابًا ، وَيَجْهَلُونَ أَنَّهُمُ اتَّخَذُوهُمْ مِنْ دُونِهِ أَنْدَادًا وَأَرْبَابًا .

(الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: الِاسْتِهْزَاءُ بِالْأَنْبِيَاءِ وَمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْحَقِّ) :

(وَالسُّخْرِيَةُ مِنْهُمْ وَوَصْفُهُمْ بِالسِّحْرِ) :

(84/388)

اقْرَأْ فِي مَسْأَلَةِ السِّحْرِ الْآيَةَ السَّابِعَةَ، وَفِي مَسْأَلَةِ الِاسْتِهْزَاءِ بِالْحَقِّ وَمَا أُنْذِرُوا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ الْآيَةَ الثَّامِنَةَ وَكِلَاهُمَا فِي قَوْمِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَفِي السُّخْرِيَةِ الْآيَةَ (38) فِي قَوْمِ نُوحٍ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى آيَاتٌ فِي سُوَرٍ أُخْرَى، وَتَقَدَّمَتِ الشَّوَاهِدُ فِي صِفَةِ الْمُسْتَهْزِئِينَ الْمَغْرُورِينَ بِزَعَامَتِهِمْ وَثَرْوَتِهِمْ وَإِتْرَافِهِمْ، وَاحْتِقَارِهِمْ لِلضُّعَفَاءِ وَالْفُقَرَاءِ فِي الْمَسَائِلِ (11 - 14) وَهَذَا نَوْعٌ مِنْهُ فَلَا نُطِيلُ فِي الْعِبْرَةِ بِهِ وَبِأَهْلِهِ فِي عَصْرِنَا) .

(الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: اعْتِقَادُ بَعْضِهِمْ أَنَّ آلِهَتَهُمْ تَنْفَعُ وَتَضُرُّ بِنَفْسِهَا) :

بَيَّنَّا مِرَارًا أَنَّ غَرِيزَةَ الشُّعُورِ بِوُجُودِ إِلَهٍ لِلْخَلْقِ هُوَ مَصْدَرٌ غَيْبِيٌّ لِلنَّفْعِ وَالضَّرِّ بِذَاتِهِ هِيَ أَصْلُ الدِّينِ الْفِطْرِيِّ، وَأَنَّ الْعِبَادَةَ الْفِطْرِيَّةَ هِيَ التَّقَرُّبُ إِلَى الْمَعْبُودِ النَّافِعِ الضَّارِّ بِقُدْرَتِهِ الذَّاتِيَّةِ

(85/388)

غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِالْأَسْبَابِ الْكَسْبِيَّةِ ، وَأَنَّ سَبَبَ الشِّرْكِ تَوَهُّمُ أَنَّ بَعْضَ مَا فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ بِذَاتِهِ أَوْ بِوَسَاطَتِهِ عِنْدَ الرَّبِّ ذِي الْقُدْرَةِ الذَّاتِيَّةِ الْغَيْبِيَّةِ عَلَى ذَلِكَ . فَالشِّرْكُ دَرَكَتَانِ إِحْدَاهُمَا أَسْفَلُ مِنَ الْأُخْرَى ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ قَوْمَ هُودٍ كَانُوا فِي الدَّرَكَةِ السُّفْلَى إِذْ قَالُوا لَهُ : - إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ - 54 وَأَمَّا قَوْمُ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَدِ ارْتَقَوْا عَنْ هَذِهِ الْوَثَنِيَّةِ السُّفْلَى ، إِذْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمْ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَكِنَّهَا تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى يَقُولُونَ : - مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى - 39 : 3 وَتَجِدُ أَمْثَالًا لِلْفَرِيقَيْنِ فِي مُدَّعِي الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ تِلْكَ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا ، فَهُمْ يَقُولُونَ فِي كُلِّ مَنْ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ مِنَ الْمُنْكِرِينَ لِخُرَافَتِهِمْ وَتَصَرُّفِ أَوْلِيَائِهِمْ فِي الْعَالَمِ : إِنَّ الْوَلِيَّ تَصَرَّفَ فِيهِ أَوْ عَطَبَهُ ، (وَرَاجِعْ تَفْسِيرَ الْآيَةِ وَالْكَلَامَ فِي التَّوْحِيدِ وَوَظَائِفِ الرُّسُلِ مِنْ هَذِهِ الْخُلَاصَةِ) .

(86/388)

كُلُّ هَذِهِ الرَّذَائِلِ وَالْمَخَازِي الْمُبَيَّنَةِ فِي الْمَسَائِلِ السَّبْعَ عَشْرَةَ هِيَ مِنْ فَسَادِ الْعَقَائِدِ وَصِفَاتِ النَّفْسِ الْبَاطِنَةِ ، وَأَمَّا الرَّذَائِلُ الْعَمَلِيَّةُ الَّتِي اشْتَهَرَ بِهَا أُولَئِكَ الْأَقْوَامُ فَأَجْمَعُهَا لِلْفَسَادِ إِسْرَافُ بَعْضِهِمْ فِي الشَّهْوَةِ الْبَدَنِيَّةِ ، وَإِسْرَافُ آخَرِينَ فِي الطَّمَعِ الْمَالِيِّ ، وَتَجِدُ فِي قَصَصِ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْهَا الْمَسْأَلَتَيْنِ 18 و19 .

(الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ : اسْتِبَاحَةُ شَهْوَةِ اللِّوَاطِ وَإِعْلَانُ الْمُنْكَرَاتِ) :

وَهِيَ مَا حَكَاهُ اللهُ - تَعَالَى - عَنْ قَوْمِ لُوطٍ فِي عِدَّةِ سُوَرٍ ، وَمِنْهَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْآيَاتُ 77 وَمَا بَعْدَهَا ، وَقَدْ بَيَّنَّا مَخَازِيَهَا فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ .

(الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ : اسْتِبَاحَةُ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ) :

وَهُوَ مَا حَكَاهُ عَنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ مِنَ التَّطْفِيفِ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ ، وَبَخْسِ النَّاسِ أَشْيَاءَهُمْ ، وَالْعُثُوِّ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ ، وَاحْتِجَاجِهِمْ عَلَى ذَلِكَ بِحُرِّيَّةِ التَّصَرُّفِ فِي الْأَمْوَالِ ، وَهُوَ مَا حَكَاهُ - تَعَالَى - عَنْهُمْ فِي الْآيَاتِ 84 - 88 .

(الْمَسْأَلَةُ الْعِشْرُونَ : الطُّغْيَانُ وَالرُّكُونُ إِلَى الظَّالِمِينَ) :

(87/388)

الطُّغْيَانُ تَجَاوُزُ الْحَدِّ فِي الشَّرِّ ، وَالرُّكُونُ إِلَى الظَّالِمِينَ ظُلْمٌ ، وَهُمَا مِنْ أُمَّهَاتِ الرَّذَائِلِ ، فَاجْتِنَابُهُمَا مِنَ الْفَضَائِلِ السَّلْبِيَّةِ الَّتِي لَا تَتِمُّ الِاسْتِقَامَةُ بِدُونِهَا ، وَلِذَلِكَ عَطَفَ النَّهْيَ عَنْهُمَا عَلَى الْأَمْرِ بِهَا بِقَوْلِهِ : - وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ - 112 و113 إِلَخْ ، وَقَدْ أَطَلْنَا فِي الْكَلَامِ عَلَى الرُّكُونِ إِلَى الظَّالِمِينَ " وَأَوْرَدْنَا فِيهِ أَقْوَالَ أَشْهَرِ الْمُفَسِّرِينَ فَرَاجِعْهُ فِي (ص 140 - 153 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ .

(الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: الظُّلْمُ):

جَرِيمَةُ الظُّلْمِ أُمُّ الرَّذَائِلِ كُلِّهَا، لِأَنَّهَا تَشْمَلُ ظُلْمَ الْمَرْءِ لِنَفْسِهِ بَدَنًا وَعَقْلًا وَدِينًا وَدُنْيَا، وَظُلْمَهُ لِلنَّاسِ أَفْرَادًا وَجَمَاعَةً وَأُمَّةً، فَكُلُّ مَا سَبَقَ مِنَ الرَّذَائِلِ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي مَعْنَاهَا، وَلِذَلِكَ جَعَلَ إِهْلَاكَ أُولَئِكَ الْقُرُونِ عِقَابًا عَلَى الظُّلْمِ، وَتَرَى بَيَانَ هَذَا فِي آخِرِ الْبَابِ السَّادِسِ مِنْ هَذِهِ الْخُلَاصَةِ.

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي هَذَا الْفَصْلِ أَنَّ كُلَّ مَا فِيهِ مِنَ الرَّذَائِلِ يَدْخُلُ فِي بَابِ قِسْمِ الْمُحَرَّمَاتِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا مِنَ الرُّكْنِ الْعَمَلِيِّ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ، الَّذِي هُوَ عَمَلُ الصَّالِحَاتِ الْمُسْتَلْزِمُ لِتَرْكِ أَضْدَادِهَا، وَأَمَّا قِسْمُ الْمَأْمُورَاتِ فَهُوَ مَا نَرَاهُ فِي الْفَصْلِ الثَّانِي وَهُوَ:

(الْفَصْلُ الثَّانِي مِنَ الْبَابِ الْخَامِسِ):

(فِي الْأَخْلَاقِ وَالْفَضَائِلِ النَّفْسِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ الْبَدَنِيَّةِ):

قُلْنَا: إِنَّ هَذِهِ السُّورَةَ فِي دَعْوَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَوْمَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَالتَّثْبِيتِ عَلَيْهَا بِقَصَصِ أَشْهَرِ الرُّسُلِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَمَا جَاوَرَهَا مَعَ أَقْوَامِهِمْ، مِمَّا يَفْهَمُهُ مُشْرِكُو قَوْمِهِ وَتَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، فَلَيْسَ مَوْضُوعُهَا بَيَانَ تَفْصِيلِ

الْفَضَائِلِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تُوَجَّهُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَلَكِنْ مَا يَخُصُّهُمْ مِنْهَا - عَلَى قِلَّتِهِ - كَثِيرٌ فِي مَعْنَاهُ وَفَائِدَتِهِ، وَلَهُمْ مِنَ الذِّكْرَى وَمَا يَجِبُ التَّأَسِّي بِهِ مِنْ فَضَائِلِ الرُّسُلِ غَيْرَ مَا خَصَّهُمُ اللهُ مِنَ الْوَحْيِ وَالْعِصْمَةِ، مَا يَكْفِي الْمُتَدَبِّرِينَ لَهُ الْمُعْتَبِرِينَ بِهِ فِي تَزْكِيَةِ أَنْفُسِهِمْ، وَجَعْلِهِمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِمَعْرِفَةِ رَبِّهِمْ وَعِبَادَتِهِ وَإِرْشَادِهِ عِبَادَهُ، فَالْفَضَائِلُ فِيهَا قِسْمَانِ، نَسْرُدُ لِقَارِئِي هَذَا التَّفْسِيرِ مَا فَهِمْنَاهُ مِنْ مَسَائِلِهِمَا وَالشَّوَاهِدَ عَلَيْهَا جَمِيعًا وَهِيَ إِحْدَى وَعِشْرُونَ أَيْضًا .

(الْأُولَى وَالثَّانِيَةُ: اسْتِغْفَارُ الرَّبِّ، وَالتَّوْبَةُ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ) :

(89/388)

هَاتَانِ فَضِيلَتَانِ، فَرِيضَتَانِ، مُتَلَازِمَتَانِ فَكَأَنَّهُمَا وَاحِدَةٌ، جَاءَ الْأَمْرُ بِهِمَا فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ، عَقِبَ النَّهْيِ عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْ دَعْوَةِ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثُمَّ كُرِّرَ فِي دَعْوَةِ غَيْرِهِ فِي الْآيَاتِ (52 و61 و90) فَعُلِمَ أَنَّهُ كَانَ أَمْرًا عَامًّا عَلَى أَلْسِنَةِ سَائِرِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَسَنَذْكُرُ فَائِدَتَهُمَا الْعُمْرَانِيَّ فِي الْكَلَامِ عَلَى السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ مِنَ الْبَابِ السَّادِسِ مِنْ هَذِهِ الْخُلَاصَةِ .

(الثَّالِثَةُ: الصَّبْرُ) :

ذُكِرَ الصَّبْرُ فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآيَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْكَلَامِ فِي رِسَالَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثُمَّ أُعِيدَ ذِكْرُهُ فِي آيَةِ الِاحْتِجَاجِ عَلَى رِسَالَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَعْدَ قِصَّةِ نُوحٍ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - لَهُ: - فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ - 49 ثُمَّ فِي آخِرِ السُّورَةِ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى -: - وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ - 115 فَالصَّبْرُ هُوَ الْخُلُقُ الَّذِي يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَى جَمِيعِ أَعْمَالِ الْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ فِي الشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ .

(الرَّابِعَةُ: الْعَمَلُ الصَّالِحُ الْمُطْلَقُ):

ذُكِرَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ مَعَ الصَّبْرِ فِي آيَتِهِ الْأُولَى (11)، ثُمَّ ذُكِرَ فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآيَةِ (23) وَتَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي إِجْمَالِ الْبَابِ، وَفِي مَعْنَاهُ إِحْسَانُ الْعَمَلِ فِي الْآيَةِ السَّابِعَةِ وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي ابْتِلَاءِ الْبَشَرِ .

(90/388)

(الْخَامِسَةُ: الْإِخْبَاتُ إِلَى الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ):

ذُكِرَتْ هَذِهِ الْفَضِيلَةُ مَعْطُوفَةً عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي آيَتِهِ الثَّانِيَةِ (23) وَيَا لَهَا مِنْ فَضِيلَةٍ تَدُلُّ عَلَى كَمَالِ الْإِيمَانِ وَالْعِرْفَانِ وَالْفُرْقَانِ فَرَاجِعْ تَفْسِيرَ الْآيَةِ فِي (ص 49) .

(السَّادِسَةُ: الِاسْتِقَامَةُ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى):

أَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ فِي خَوَاتِيمِ هَذِهِ السُّورَةِ بِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ بِقَوْلِهِ : - فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ - 112 فَجَعَلَ هَذَا الْأَمْرَ بَعْدَ قَصَصِ الرُّسُلِ فَذْلَكَةً لِفَوَائِدِهَا ، وَأَشْرَكَ مَعَهُ فِيهَا الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَتْبَاعِهِ . فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهَا (فِي مَوْضِعِهِ بِهَذَا الْجُزْءِ) وَمَا فِيهِ مِنْ تَعْظِيمِ شَأْنِهَا .

(السَّابِعَةُ : إِقَامَةُ الصَّلَاةِ فِي أَوْقَاتِهَا مِنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ) :

جَاءَ الْأَمْرُ الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِهَذِهِ الْإِقَامَةِ لِلصَّلَاةِ مَعْطُوفًا عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الطُّغْيَانِ وَالرُّكُونِ إِلَى الظَّالِمِينَ وَالْأَمْرِ بِالِاسْتِقَامَةِ ، وَعَلَّلَهُ بِالْقَاعِدَةِ الْعَامَّةِ فِي تَكْفِيرِ الْحَسَنَاتِ لِلسَّيِّئَاتِ ، وَأَعْظَمُ الْحَسَنَاتِ الرُّوحِيَّةِ إِقَامَةُ الصَّلَوَاتِ ، إِرْشَادًا لِأُمَّتِهِ إِلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى تَطْهِيرِ أَنْفُسِهِمْ وَتَزْكِيَتِهَا ، فِي أَثَرِ كُلِّ مَا يَعْرِضُ لَهُمْ مِمَّا يُدَسِّيهَا وَيُدَنِّسُهَا . فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهَا وَتَحْقِيقَ مَعْنَى هَذَا التَّطْهِيرِ فِيهِ بِمَا يُرْشِدُ إِلَيْهِ عِلْمُ النَّفْسِ .

(91/388)

(الثَّامِنَةُ وَالتَّاسِعَةُ : النَّهْيُ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ، وَيَلْزَمُهُ الْأَمْرُ بِالصَّلَاحِ فِيهَا) :

(وَهُمَا الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ) :

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ اللهُ - تَعَالَى - لِعِبَادِهِ فِي آخِرِ كُتُبِهِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ مَا يُكَفِّرُ

سَيِّئَاتِهِمْ أَفْرَادًا ، وَهُوَ فِعْلُ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو أَثَرَهَا السَّيِّئَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، بَيَّنَ لَهُمْ مَا هُوَ مَنْجَاةٌ لِلْأُمَّةِ وَالشَّعْبِ مِنَ الْهَلَاكِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ، وَهُوَ وُجُودُ طَائِفَةٍ عَظِيمَةِ التَّأْثِيرِ فِيهَا تَنْهَاهَا عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ بِالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ وَالْفُسُوقِ بِارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : - فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ - 116 وَبَيَّنَ لَنَا عَقِبَ هَذَا فِي الْآيَةِ أَنَّ الْقُرُونَ الَّتِي أَهْلَكَهَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ أَنْجَاهُمْ

مَعَ رُسُلِهِمْ ، وَأَنَّ الْجُمْهُورَ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمْ كَانُوا مُتَّبِعِينَ لِلْإِتْرَافِ بِالْفُسُوقِ وَالْإِسْرَافِ ، وَهُوَ غَايَةُ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ ، فَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ سِيَاجُ الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ .

(92/388)

وَصَرَّحَ فِي الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا (117) بِأَنَّ سُنَّتَهُ فِي الْأُمَمِ أَنَّهُ لَا يُهْلِكُ الْقُرَى " بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ " فِي الْأَرْضِ ، وَعَبَّرَ عَنِ الْأُمَمِ بِالْقُرَى وَهِيَ عَوَاصِمُ مُلْكِهَا ; لِأَنَّهَا مَأْوَى الزُّعَمَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ الْحَاكِمِينَ الَّذِينَ تَفْسُدُ الْأُمَمُ بِفَسَادِهِمْ ، وَتَصْلُحُ بِصَلَاحِهِمْ ، وَهِيَ حَقَائِقُ فَسَّرَهَا عِلْمُ الِاجْتِمَاعِ الْحَدِيثِ ، وَإِنَّنَا لَنَرَى مِصْدَاقَهَا بِأَعْيُنِنَا . وَالَّذِينَ يَتَعَبَّدُونَ بِأَلْفَاظِ

الْقُرْآنِ دُونَ مَعَانِيهِ لَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا لِأَنَّهُمْ لَا يُفَقِّهُونَ مَا فِيهِ ، وَسَنَعُودُ إِلَى ذِكْرِهَا فِي بَيَانِ سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ مِنَ الْبَابِ السَّادِسِ ، وَلَابُدَّ مِنَ التَّكْرَارِ فِي هَذِهِ الْأَبْوَابِ .

فَهَذِهِ التِّسْعُ مِنْ أُمَّهَاتِ الْفَضَائِلِ تَكْفِي مَنْ تَدَبَّرَهَا عِلْمًا وَعِرْفَانًا ، وَهِدَايَةً وَإِرْشَادًا لِجَمِيعِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ الَّتِي هِيَ الرُّكْنُ الثَّالِثُ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ ، وَفِي السُّورَةِ مِنَ الْفَضَائِلِ الَّتِي تُسْتَمَدُّ فِيهَا مِنْ سِيرَةِ الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَيُقْتَدَى بِهِمْ فِيهَا ، وَجَمِيعُ الْمُكَلَّفِينَ مُطَالَبُونَ مَعَهُمْ بِهَا فَنُشِيرُ إِلَيْهَا تَتِمَّةً لِلْعَدَدِ .

(الْعَاشِرَةُ : الْبَيِّنَةُ مِنَ اللهِ - تَعَالَى - فِي الدِّينِ) :

(93/388)

إِنَّمَا تَقَدَّمَ فِي صِفَاتِ الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - مِنْ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنَ الْوَحْيِ وَالْآيَاتِ ، يُشَارِكُهُمْ فِيهَا الْمُؤْمِنُونَ بِهِمْ بِالِاتِّبَاعِ لَهُمْ فِيهَا كَمَا قَالَ اللهُ - تَعَالَى - لِنَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ خَاتَمُهُمْ : - قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي - 12 : 108 فَبَصِيرَتُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُقْتَبَسَةٌ مِنْ نُورِ الْقُرْآنِ ، تَلَقَّاهُ هُوَ مِنْ وَحْيِ اللهِ ، وَتَلَقَّيْنَاهُ نَحْنُ مِنْ تَبْلِيغِهِ عَنْ رَبِّهِ وَرَبِّنَا - عَزَّ وَجَلَّ - مُؤَيَّدًا

بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ ، وَإِنَّمَا الْمَحْرُومُ مِنْ نُورِهِ ، مَنْ يَتَلَقَّى عَقِيدَتَهُ وَعِبَادَتَهُ مِنْ غَيْرِهِ .

(الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ : الْحُرِّيَّةُ وَالِاسْتِقْلَالُ فِي هَذِهِ الْبَيِّنَةِ) :

قَالَ - تَعَالَى - حِكَايَةً عَنْ رَسُولِهِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : - قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ - 28 فَيُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي بَلَّغَهَا أَوَّلُ الْمُرْسَلِينَ لِقَوْمِهِ ، وَمِنْ قَوْلِهِ - تَعَالَى - لِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ الْمُرْسَلِينَ : - وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ - 10 : 99 وَمِنْ إِنْزَالِهِ عَلَيْهِ عِنْدَ إِمْكَانِ الْإِكْرَاهِ فِي عَهْدِ الْقُوَّةِ : - لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ - 2 : 256 أَنَّ دَعْوَةَ الدِّينِ وَالْهُدَى تَقُومُ بِالْبَيِّنَةِ وَالْحُجَّةِ ، لَا كَمَا فَعَلَ نَصَارَى الْإِفْرِنْجِ وَلَا تَزَالُ تَفْعَلُ بَعْضُ دُوَلِهِمْ مِنْ نَشْرِ النَّصْرَانِيَّةِ بِالْإِكْرَاهِ وَالْقُوَّةِ ، أَوْ بِالْخِدَاعِ وَالْحِيلَةِ ، فَعَلَى

كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَكُونَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَبَصِيرَةٍ فِي دِينِهِ ، وَقَدْ فَسَّرُوا الْبَصِيرَةَ بِالْحُجَّةِ ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِ اللهِ كَمَا أَمَرَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .

(الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ : الِاحْتِسَابُ وَالْإِخْلَاصُ لِلَّهِ فِي الدَّعْوَةِ دُونَ التِّجَارَةِ بِهَا) :

تَقَدَّمَ فِي صِفَاتِ الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - أَنَّ دَعْوَتَهُمْ وَهِدَايَتَهُمْ كَانَتْ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ - تَعَالَى - وَإِرَادَةِ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يُصَرِّحُونَ لِأَقْوَامِهِمْ بِأَنَّهُمْ لَا يَسْأَلُونَهُمْ عَلَيْهَا مَالًا وَلَا أَجْرًا ، كَمَا رَأَيْتَ فِي الْآيَتَيْنِ 29 و 51 مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ وَذَكَرْنَاكَ بِمِثْلِهِمَا فِي السُّوَرِ الْأُخْرَى ، فَعَلَى كُلِّ دَاعٍ إِلَى اللهِ - تَعَالَى - أَنْ يَكُونَ فِي دَعْوَتِهِ وَهِدَايَتِهِ مُخْلِصًا لِلَّهِ - تَعَالَى - لَا يَبْتَغِي بِهَا مَالًا وَلَا جَاهًا فِي الدُّنْيَا ، وَلَكِنَّ هَذَا لَا يَمْنَعُ وُجُوبَ بَذْلِ الْمُسْلِمِينَ الْمَالَ لِمُسَاعَدَةِ الدُّعَاةِ ; فَإِنَّهُ - تَعَالَى - قَالَ لَهُمْ : - وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى - 5 : 2 .

(الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ : وِلَايَةُ فُقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَضُعَفَائِهِمْ كَكُبَرَائِهِمْ) :

تَقَدَّمَ فِي صِفَاتِ الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - أَنَّ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ مِنْ أَخَصِّ فَضَائِلِهِمْ ، وَاسْتَشْهَدْنَا عَلَيْهَا بِمَا رَدَّ بِهِ نُوحٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى أَشْرَافِ قَوْمِهِ إِذْ طَعَنُوا عَلَى أَتْبَاعِهِ وَلَقَّبُوهُمْ بِأَرَاذِلِهِمْ فِي الْآيَاتِ (27 - 30) وَمَا فِي مَعْنَاهَا ، وَنَاهِيكَ فِي هَذَا الْبَابِ بِسُورَةِ الْأَعْمَى " عَبَسَ " فَفِيهَا الْعِبْرَةُ الْكُبْرَى لِكُلِّ ذِي بَصَرٍ وَبَصِيرَةٍ ، وَمِنْ خَصَائِصِ الْمُسْلِمِينَ الثَّابِتَةِ فِي الْكِتَابِ أَنَّ بَعْضَهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمِنْ صِفَاتِهِمْ فِي السُّنَّةِ : " الْمُسْلِمُونَ

ذِمَّتُهُمْ وَاحِدَةٌ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ ، وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ " إِلَخْ ، وَأَنَّهُمْ " كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ وَكَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا " وَبِهَذَا يَكُونُونَ الْآنَ كَمَا كَانَ سَلَفُهُمْ أُمَّةً قَوِيَّةً فِي قِتَالِهِمْ وَسِلْمِهِمْ ، فَهَلْ مُسْلِمُو عَصْرِنَا كَمَا وَصَفَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟

(الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ : النَّصِيحَةُ الْعَامَّةُ) :

كَانَ الْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - كُلُّهُمْ نَاصِحِينَ لِأَقْوَامِهِمْ فَيَجِبُ الِاقْتِدَاءُ بِهِمْ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْ شَوَاهِدِ النُّصْحِ فِي قِصَّةِ نُوحٍ قَوْلَهُ : - وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي - 34 الْآيَةَ ، وَفِيهَا مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ قَوْلُهُ لِقَوْمِهِ : - أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ - 7 : 62 وَفِي قِصَّةِ هُودٍ مِنْهَا - أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ - 7 : 68 وَفِي قِصَّةِ صَالِحٍ مِنْهَا : - فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ - 7 : 79 وَفِي قِصَّةِ شُعَيْبٍ مِنْهَا : - فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ - 7 : 93 وَقَالَ نَبِيُّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " الدِّينُ النَّصِيحَةُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ " رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

فَهَلْ مُسْلِمُو عَصْرِنَا عَلَى هَذَا الدِّينِ ، دِينِ جَمِيعِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ ؟ ! .

(الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ : مَحبَّةُ الْأَوْلَادِ وحُدُودُ السَّعْيِ لِخَيْرِهِمْ) :

مَحبَّةُ الْأَوْلَادِ فضِيلَةٌ مِنْ فضائِلِ الْفِطْرَةِ الْإِنْسانِيَّةِ ، بَلِ الْغرِيزَةِ الْحيَوانِيَّةِ ، وحُقُوقُهُمْ عَلَى الْوالِدَيْنِ مُقرَّرَةٌ فِي الشَّرْعِ بِما يُحدِّدُ دوَاعِي الْغَرِيزَةِ والطَّبْعِ ، ويَقِفُ بِها دُونَ الْغُلُوِّ الْمُفْضِي إِلَى عِصْيانِ اللهِ - تعَالَى - أَوْ هضْمِ حُقُوقِ عِبادِهِ ، وفِي قِصَّةِ نُوحٍ مَعَ ولَدِهِ الْكَافِرِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ما فِيهِ إِرْشَادٌ وهِدْيٌ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ ، فَهَلْ هُمْ مُتَّبِعُونَ ؟

(السَّادِسَةَ عَشْرَةَ : إِكْرَامُ الضَّيْفِ وحِفْظُ كرَامَتِهِ) :

فِي خَبَرِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ الْمُبَشِّرِينَ لَهُ بِإِسْحَاقَ وعِنَايَتِهِ بِضِيافَتِهِمْ ، ثُمَّ فِي قِصَّةِ لُوطٍ مَعَهُمْ وَشِدَّةِ عِنَايَتِهِ بِحِفْظِهِمْ مِنْ شَرِّ قَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ جَاءُوا لِتَعْذِيبِهِمْ - خَيْرُ أُسْوَةٍ فِي فَضِيلَةِ إِكْرَامِ الضَّيْفِ وتَكْرِيمِهِ ، وقَالَ نَبِيُّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ - : " مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ والْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ " وقَالَ : " مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ " مُتَّفَقٌ عَلَيْهِما .

(السَّابِعَةَ عَشْرَةَ : الْعَمَلُ والْعِلْمُ والِائْتِمَارُ والِانْتِهَاءُ عَلَى مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ ويَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ) :

(98/388)

هَذِهِ فَضِيلَةٌ هِيَ فَرِيضَةٌ ثَابِتَةٌ بِنُصُوصِ الْقُرْآنِ تُؤَيِّدُهَا بَدَاهَةُ الْعَقْلِ ، وَهِيَ شَرْطٌ طَبِيعِيٌّ لِقَبُولِ الْعِلْمِ وَالْإِرْشَادِ مِنَ الْقَائِمِينَ بِهِ ، وَرُسُلُ اللهِ - تَعَالَى - أَئِمَّةُ الْهُدَى فِيهَا ، وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْهَا قَوْلُ شُعَيْبٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِقَوْمِهِ : - وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ - 88 وَإِنَّهَا لَعِبَارَةٌ بَلِيغَةٌ فِي مَوْضُوعِهَا فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهَا ، وَمَا هُوَ أَهَمُّ مِنْهَا ، كَأَوَّلِ سُورَةِ الصَّفِّ ، وَآيَةِ : - أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ - 2 : 44 إِلَخْ . وَانْظُرْ أَيْنَ تَجِدُ عُلَمَاءَ عَصْرِنَا مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ ؟

(الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ : الْإِصْلَاحُ الْعَامُّ بِقَدْرِ الِاسْتِطَاعَةِ) :

مَا شَرَعَ اللهُ الدِّينَ لِلْبَشَرِ إِلَّا لِيَكُونُوا صَالِحِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ مُصْلِحِينَ فِي أَعْمَالِهِمْ ، وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ شُعَيْبٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِصِيغَةِ الْحَصْرِ فِي الْآيَةِ (88) وَهِيَ . - إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ - وَهُوَ أَبْلَغُ الْبَيَانِ وَأَعَمُّهُ وَأَتَمُّهُ ، وَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ .

(99/388)

(التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ وَالْعِشْرُونَ: الِاسْتِقَامَةُ وَالثَّبَاتُ عَلَى الْفَضَائِلِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ) قَالَ - تَعَالَى -: - فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ - 112 وَأَهَمُّهَا الْمُحَافَظَةُ عَلَى الصَّلَوَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا، وَمِنْ شَوَاهِدِهَا هُنَا: - وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ - 114 وَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ " مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

(الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ):

تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي بَحْثِ التَّوْحِيدِ فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ مِنَ الْبَابِ الْأَوَّلِ، وَفِي صِفَاتِ الرُّسُلِ مِنْ آخِرِ الْبَابِ الثَّالِثِ.

الْبَابُ السَّادِسُ:

(فِي سُنَنِ اللهِ - تَعَالَى - فِي التَّكْوِينِ وَالتَّقْدِيرِ وَالطَّبَائِعِ وَالْغَرَائِزِ وَالِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ وَفِيهِ ثَلَاثَةُ فُصُولٍ):

(الْفَصْلُ الْأَوَّلُ فِي سُنَنِ التَّكْوِينِ وَالتَّقْدِيرِ، أَيْ: نِظَامُ الْخَلْقِ، وَفِيهِ أَنْوَاعٌ):

(سُنَّتُهُ - تَعَالَى - فِي رِزْقِ الْأَحْيَاءِ):

(النَّوْعُ الْأَوَّلُ) قَوْلُهُ - تَعَالَى - : - وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا - 6 يُشِيرُ إِلَى سُنَنٍ كَثِيرَةٍ ، فَإِنَّ الرِّزْقَ الْمُضَافَ إِلَى ضَمِيرِ هَذِهِ الدَّوَابِّ الْكَثِيرَةِ عَامٌّ يَشْمَلُ أَنْوَاعًا كَثِيرَةً مِنْهَا ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ بِالْآيَاتِ الْمُنَزَّلَةِ وَالْآيَاتِ الْمُشَاهَدَةِ أَنَّ رِزْقَ اللَّهِ - تَعَالَى - لِجَمِيعِ الْأَحْيَاءِ هُوَ مَا خَلَقَهُ مِنَ الْأَقْوَاتِ لِكُلِّ جِنْسٍ وَنَوْعٍ مِنْهَا ، وَهَدَاهُ إِلَى التَّغَذِّي بِهِ لِحِفْظِ حَيَاتِهِ وَنَمَائِهِ وَبَقَائِهِ إِلَى الْأَجَلِ الْمُقَدَّرِ لَهُ ، وَيَجْرِي ذَلِكَ بِسُنَنٍ كَثِيرَةٍ وَضَعَ الْبَشَرُ لِتَفْصِيلِهَا عُلُومًا كَثِيرَةً فِي النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ وَوَظَائِفِ أَعْضَاءِ التَّغَذِّي وَالْهَضْمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

(سُنَنُهُ فِي مُسْتَقَرِّ الْأَحْيَاءِ وَمُسْتَوْدَعِهَا) :

(الثَّانِي) قَوْلُهُ : - وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا - 6 يَشْمَلُ سُنَنًا أُخْرَى كَثِيرَةً ، فَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ الْمُسْتَقَرِّ وَالْمُسْتَوْدَعِ أَنَّ فِيهِمَا أَقْوَالًا يَحْتَمِلُهَا اللَّفْظُ ، وَنَقُولُ عَلَى الْمَذْهَبِ الْمُخْتَارِ فِي جَوَازِ أَنْ يَكُونَ كُلُّ مَعْنًى يَحْتَمِلُهُ اللَّفْظُ مُرَادًا مِنْهُ : أَنَّ تَعَدُّدَ أَنْوَاعِ الِاسْتِقْرَارِ وَالِاسْتِيدَاعِ وَأَمَاكِنِهَا وَأَزْمَانِهَا لِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ الدَّوَابِّ فِي الْحَمْلِ بِهِ وَحَضَانَتِهِ وَوِلَادَتِهِ وَحَيَاتِهِ وَمَوْتِهِ وَوَطَنِهِ وَتَنَقُّلِهِ ، يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ لِكُلٍّ مِنْ ذَلِكَ سُنَنٌ فِي مُنْتَهَى الْحِكْمَةِ وَالنِّظَامِ ، وَلَكَ أَنْ تُجْمِلَهَا فِي نَوْعٍ وَاحِدٍ ، وَأَنْ تُفَصِّلَهَا فَتَجْعَلَهَا عِدَّةَ أَنْوَاعٍ .

(سُنَنُهُ فِي كِتَابَةِ نِظَامِ الْعَالَمِ وَمَقَادِيرِهِ) :

(الثَّالِثُ) قَوْلُهُ - تَعَالَى - : - كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ - 6 بَيَانٌ لِنَوْعٍ آخَرَ مِنَ النِّظَامِ ، وَهُوَ نَوْعُ الْكِتَابَةِ الشَّامِلِ لِمَا ذُكِرَ قَبْلَهُ مِنْ نَوْعِ تَعَلُّقِ الْعِلْمِ ، وَمَا قَبْلَهُ مِنْ نَوْعِ تَعَلُّقِ الْقُدْرَةِ بِمَا وُجِدَ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ بِالْفِعْلِ ، وَمِثَالُهُ الْمُقَرِّبُ لِتَصْوِيرِ حِكْمَتِهِ : تَدْوِينُ كِتَابِ دِيوَانِ الْحُكُومَةِ النِّظَامِيَّةِ لِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ أَعْيَانٍ وَأَمْوَالٍ وَأَعْمَالٍ وَمَقَادِيرَ وَتَدْبِيرٍ ، فَالْوَحْيُ يُعَلِّمُنَا أَنَّ الْكَوْنَ الْأَعْظَمَ قَائِمٌ بِنِظَامٍ أَحَاطَ بِهِ عِلْمُ اللهِ - تَعَالَى - وَأَنَّ مَقَادِيرَهُ الَّتِي نَفَذَتْ بِقُدْرَتِهِ - تَعَالَى - :

-

كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا - 17 : 58 فَهُوَ مَسْطُورٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ لَا نَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ وَلَا صِفَةَ كِتَابَتِهِ فِيهِ ، وَلَهُ - تَعَالَى - فِي كُلِّ نَوْعٍ وَفِي جُمْلَتِهِ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ سُنَنٌ حَكِيمَةٌ يَقُومُ بِهَا قُدْرَتُهُ وَإِرَادَتُهُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ 13 : 8 وَهُوَ النِّظَامُ . فَلَهُ - تَعَالَى - كِتَابَانِ ، فِي أَحَدِهِمَا نِظَامُ التَّكْوِينِ وَفِي الْآخَرِ بَيَانُ التَّكْلِيفِ ، فَكِتَابُ التَّكْلِيفِ بَيَّنَ لَنَا مَا نَحْنُ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِمَّا يَفْتَحُ لَنَا أَبْوَابَ الْعِلْمِ بِمَا فِي كِتَابِ التَّكْوِينِ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا كِتَابٌ مُبِينٌ ، وَقَدِ اشْتَبَهَ عَلَى بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ أَحَدُ الْكِتَابَيْنِ بِالْآخَرِ .

(سُنَنُهُ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) :

(الرَّابِعُ) قَوْلُهُ - تَعَالَى - : - اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ - 7 فِيهِ مِنْ بَيَانِ سُنَّتِهِ - تَعَالَى - فِي التَّكْوِينِ أَنَّهُ كَانَ أَطْوَارًا فِي أَزْمِنَةٍ مُقَدَّرَةٍ بِنِظَامٍ مُحْكَمٍ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْهُ أُنُفًا (بِضَمَّتَيْنِ) أَيْ فُجَائِيًّا بِغَيْرِ تَقْدِيرٍ وَلَا تَرْتِيبٍ ، فَإِنَّ كَلِمَةَ الْخَلْقِ مَعْنَاهَا التَّقْدِيرُ الْمُحْكَمُ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ الْأَشْيَاءُ عَلَى مَقَادِيرَ مُتَنَاسِبَةٍ ، ثُمَّ أُطْلِقَتْ بِمَعْنَى الْإِيجَادِ التَّقْدِيرِيِّ ، وَمِنْهُ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ الْمَرْئِيَّةَ لِلنَّاظِرِينَ ، وَكُلَّ جِرْمٍ مِنَ الْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ يُرَى فَوْقَ أَهْلِ الْأَرْضِ أَوْ أَرْضٍ مِنَ الْأَرَضِينَ ، فَكُلُّهَا قَائِمَةٌ بِسُنَنٍ دَقِيقَةِ النِّظَامِ ، وَأَنَّ كُلَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ مَا فِيهَا مِنَ الْبَسَائِطِ وَالْمُرَكَّبَاتِ الْغَازِيَّةِ وَالسَّائِلَةِ وَالْجَامِدَةِ قَائِمٌ بِسُنَنٍ أَيْضًا ، وَأَنَّ الْكَوْنَ فِي جُمْلَتِهِ قَائِمٌ بِسُنَّةٍ عَامَّةٍ فِي رَبْطِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ ، وَحِفْظِ نِظَامِهِ أَنْ يَبْغِيَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، كَالَّذِي يُسَمِّيهِ الْعُلَمَاءُ نِظَامَ الْجَاذِبِيَّةِ الْعَامَّةِ وَالْجَاذِبِيَّاتِ الْخَاصَّةِ .

(سُنَنُهُ فِي خَلْقِ الْأَحْيَاءِ مِنَ الْمَاءِ وَخَلْقِ الْمُرَكَّبَاتِ أَزْوَاجًا) :

(الْخَامِسُ) قَوْلُهُ - تَعَالَى - بَعْدَ ذِكْرِ هَذَا الْخَلْقِ : - وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ - 7 فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ التَّكْوِينِ الْأَوَّلِ ، وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْأَحْيَاءِ ، وَقَدْ

كَتَبْنَا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ فَصْلًا فِي هَذَا التَّكْوِينِ، ذَكَرْنَا مِنْ سُنَنِهِ سُنَّةَ الزَّوْجِيَّةِ فِي خَلْقِ جَمِيعِ الْمُرَكَّبَاتِ، فَقَدْ قَالَ: - وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ - 21 : 30 وَقَالَ: - وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ - 51 : 49 وَقَالَ: - سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ - 36 : 36 وَقَدْ وَصَلَ عِلْمُ الْبَشَرِ فِي عَصْرِنَا إِلَى كَثِيرٍ مِنْ هَذِهِ السُّنَنِ وَمَا قَامَتْ بِهِ، وَبِمَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ عُلَمَاءِ الْمَوَالِيدِ وَغَيْرِهَا، وَلَا يَزَالُونَ يَتَوَقَّعُونَ أَنْ يَظْهَرَ لَهُمْ غَيْرُهَا، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ لَا يُحِيطُ بِهَا إِلَّا عِلْمُ خَالِقِهَا - عَزَّ وَجَلَّ - كَمَا بَسَطْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ.

(الْفَصْلُ الثَّانِي فِي سُنَنِ الطَّبَائِعِ وَالْغَرَائِزِ الْبَشَرِيَّةِ):

(وَفِيهِ بِضْعَةُ شَوَاهِدَ):

(سُنَّتُهُ - تَعَالَى - فِي اخْتِبَارِ الْبَشَرِ لِأَجْلِ إِحْسَانِ كُلِّ عَمَلٍ):

(الشَّاهِدُ الْأَوَّلُ) بَيَّنَ اللَّهُ - تَعَالَى - لَنَا بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ آنِفًا مِنْ بَدْءِ الْخَلْقِ حِكْمَتَهُ الْعُظْمَى فِيهِ لِلْبَشَرِ بِقَوْلِهِ: - لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا - 7 فَإِنَّ إِحْسَانَهُمْ لِأَعْمَالِهِمُ الَّتِي أَعَدَّهُمْ لَهَا هِيَ

الَّتِي تُظْهِرُ مَا فِي هَذَا الْخَلْقِ عُلْوِيِّهِ وَسُفْلِيِّهِ مِنَ الْحِكَمِ وَالْأَسْرَارِ الَّتِي لَا حَدَّ لَهَا وَلَا نِهَايَةَ، بَيَّنَ هَذَا بِأُسْلُوبِ الِالْتِفَاتِ عَنِ الْخَبَرِ إِلَى الْخِطَابِ الْعَامِّ، وَيَا لَهُ مِنْ أُسْلُوبٍ لَا يُعْرَفُ لَهُ ضَرِيبٌ فِي كَلَامِ بُلَغَاءِ الْبَشَرِ، ثُمَّ الْتَفَتَ عَنْهُ إِلَى خِطَابِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِقَوْلِهِ: - وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ - 7 وَفِي هَذَا الْخَبَرِ الْمُؤَكَّدِ بِصِيغَةِ الْقَسَمِ بَيَانٌ لِسُنَّتَيْنِ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ - تَعَالَى - فِي الْبَشَرِ، إِحْدَاهَا فِي حَالَةٍ مِنْ أَحْوَالِ اجْتِمَاعِهِمْ، وَمَوْضِعُهَا الْفَصْلُ الثَّالِثُ، وَالْأُخْرَى فِي نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ غَرَائِزِهِمْ وَطِبَاعِهِمْ، وَهِيَ أَنَّهُمْ إِذَا أُخْبِرُوا بِشَيْءٍ لَمْ تَصِلْ إِلَى إِدْرَاكِهِ عُقُولُهُمْ أَنْكَرُوهُ، عَلَى أَنَّهُمْ مُسْتَعِدُّونَ بِالْفِطْرَةِ لِلْعِلْمِ بِكُلِّ شَيْءٍ كَمَا قَالَ - تَعَالَى -: - وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا - 2: 31 فَإِذَا قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ الْمُخْبِرُ إِنَّ هَذَا الْخَبَرَ عَنِ اللَّهِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَجَاءَهُمْ بِالْآيَةِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِ مِنْ عِلْمِيَّةٍ أَوْ عَقْلِيَّةٍ يَعْجِزُونَ عَنْ مِثْلِهَا قَالَ أَكْثَرُهُمْ: - إِنْ

هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ - أَيْ: بَيِّنٌ ظَاهِرٌ، يَعْنُونَ أَنَّهُمْ مَا عَجَزُوا عَنْ مِثْلِهَا إِلَّا لِأَنَّ لَهَا سَبَبًا خَفِيًّا عَلَيْهِمْ قَدْ يَعْرِفُهُ غَيْرُهُمْ وَقَدْ يَعْرِفُونَهُ بَعْدُ، فَهَذِهِ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِهِ - تَعَالَى - فِيهِمْ فِي حَالٍ مِنْ

أَحْوَالِهِمُ النَّاقِصَةِ الْمُتَعَارِضَةِ كَمَا بَيَّنْتُهُ فِي مَحَلِّهِ مِنْ قَبْلُ ، وَالْمُرَادُ هُنَا التَّذْكِيرُ لَا تَفْصِيلُهُ وَتَحْقِيقُهُ .

(غَرِيزَةُ النَّاسِ فِي الْعَجَلِ وَالِاسْتِعْجَالِ) :

الشَّاهِدُ الثَّانِي : قَوْلُهُ - تَعَالَى - عَقِبَ ذَلِكَ : - وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ - 8 الْآيَةَ ، يُرْشِدُنَا إِلَى سُنَّتَيْنِ مِنْ سُنَنِهِ - تَعَالَى - فِي غَرَائِزِ الْبَشَرِ وَفِي اجْتِمَاعِهِمْ كَاللَّتَيْنِ فِيمَا قَبْلَهُ ، نُرْجِئُ إِحْدَاهُمَا إِلَى الْفَصْلِ الثَّالِثِ ، وَنُبَيِّنُ الْأُولَى بِأَنَّ مِنْ طِبَاعِهِمُ الْعَجَلَةَ وَالِاسْتِعْجَالَ لِمَا يَطْلُبُونَ مِنْ خَيْرٍ لِلتَّمَتُّعِ بِهِ ، وَمَا يُنْذَرُونَ مِنْ شَرٍّ يُنْكِرُونَهُ لِلِاحْتِجَاجِ عَلَى بُطْلَانِهِ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ : - وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ - 10 : 11 فَرَاجِعْهُ فِي ص 254 وَمَا بَعْدَهَا ج 11 ط الْهَيْئَةِ .

(غَرِيزَةُ الْفَرَحِ بِالنِّعْمَةِ وَالْيَأْسِ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ) الشَّاهِدَانِ : الثَّالِثُ وَالرَّابِعُ فِي الْآيَتَيْنِ 9 و10 بَيَانٌ لِغَرِيزَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ مِنَ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ ، بَيَّنَّاهُمَا فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ مِنَ الْبَابِ الْخَامِسِ مِنَ الْوَجْهِ الْبَشَرِيِّ وَهُمَا : فَرَحُ الْبَطَرِ

بِالنِّعْمَةِ ، وَيَأْسُ الْكُفْرِ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ ، وَنُذَكِّرُ بِهِمَا هُنَا مِنْ وَجْهِ النِّظَامِ الْإِلَهِيِّ وَالسُّنَنِ الْعَامَّةِ .

وَمِنْ دَقَائِقِ التَّنَاسُبِ بَيْنَ الْآيِ وُرُودُ هَذِهِ السُّنَنِ مُتَعَاقِبَةً مُتَّصِلَةً .

(غَرِيزَةُ الْإِفْرَاطِ فِي تَوْجِيهِ الْقَوِيِّ إِلَى شَيْءٍ يَلْزَمُهُ ضَعْفُ ضِدِّهِ) :

الشَّاهِدُ الْخَامِسُ : قَوْلُهُ - تَعَالَى - : - مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا 15 الْآيَةَ . فِيهِ شَاهِدٌ عَلَى سُنَّةِ الْعَجَلِ فِي غَرَائِزِ الْبَشَرِ الْمُبَيَّنَةِ فِي الشَّاهِدِ الثَّانِي آنِفًا ، وَشَاهِدٌ عَلَى سُنَّةٍ أُخْرَى هِيَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا وَجَّهَ إِرَادَتَهُ بِكُلِّ قُوَّتِهَا إِلَى مَا فِيهِ مَتَاعٌ لَهُ مِنَ اللَّذَّةِ وَالْمَنْفَعَةِ الْعَاجِلَةِ .

عَسُرَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْقِلَ مَا يُنْذَرُ بِهِ مِنَ الضَّرَرِ الْآجِلِ الَّذِي يَعْقُبُهُ فِي الدُّنْيَا ، وَمَا يُنْذَرُ بِهِ مِمَّا لَا يُؤْمِنُ بِهِ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ يَكُونُ فِقْهُهُ لَهُ أَعْسَرُ ، وَاقْتِنَاعُهُ بِهِ أَبْعَدُ ، إِلَّا أَنْ يَهْدِيَهُ اللَّهُ لِلْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ ، إِيمَانًا يَشْتَرِكُ فِيهِ الْعَقْلُ وَالْوِجْدَانُ .

(فَقْدُ هِدَايَةِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ) :

الشَّاهِدُ السَّادِسُ: قَوْلُهُ - تَعَالَى - : - مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ - 20 فِي مَعْنَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ سُنَّتِهِ - تَعَالَى - فِي تَوْجِيهِ الْإِنْسَانِ كُلَّ إِرَادَتِهِ إِلَى شَيْءٍ يُضْعِفُ فِيهِ غَرِيزَةَ الْإِرَادَةِ لِمَا يُخَالِفُهُ، وَنَزِيدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ يُضْعِفُ هِدَايَةَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ حَتَّى يَفْقِدَ الْقُدْرَةَ عَلَى الِاهْتِدَاءِ بِهِمَا وَالِانْتِفَاعِ بِدَلَائِلِهِمَا، فَهِيَ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ سُنَّةٌ أُخْرَى.

(الْإِيمَانُ بِالْإِقْنَاعِ دُونَ الْإِكْرَاهِ وَاسْتِعْدَادُ الْبَشَرِ لِلْإِضْلَالِ):

الشَّاهِدُ السَّابِعُ: الْآيَةُ 28 حِكَايَةً عَنْ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي شَأْنِ مَا آتَاهُ اللهُ مِنَ الْبَيِّنَةِ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَتِهِ لَهُمْ إِذَا عُمِّيَتْ عَلَيْهِمْ، أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُلْزِمَهُمْ إِيَّاهَا وَهُمْ كَارِهُونَ لَهَا، تَدُلُّ عَلَى أَنَّ سُنَّتَهُ فِي الْبَشَرِ أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَكُونُ بِالْإِلْزَامِ، وَأَنَّ الْكَارِهَ لِلشَّيْءِ لَا تَتَوَجَّهُ إِرَادَتُهُ إِلَى طَلَبِهِ وَفَهْمِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ، وَأَنَّ دَعْوَةَ الرُّسُلِ تُوَجَّهُ إِلَى اسْتِعْمَالِ مَا أُعْطُوا مِنَ الِاسْتِعْدَادِ لِلنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - فِي غَرِيزَةِ الْإِنْسَانِ: - وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ - 90: 10 وَقَوْلِهِ فِي صِفَةِ نَفْسِهِ: - فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا - 91: 8.

(سُنَنُهُ فِي ضَلَالِ النَّاسِ وَغَوَايَتِهِمْ):

الشَّاهِدُ الثَّامِنُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي حِكَايَةٍ عَنْهُ فِي مُجَادَلَةِ قَوْمِهِ : - وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ - 34 وَفِيهِ بَيَانٌ لِسُنَّتِهِ - تَعَالَى - فِي غَوَايَةِ الْغَاوِينَ وَكُفْرِ الْكَافِرِينَ وَضَلَالِ الضَّالِّينَ إِلَخْ . وَقَدْ بَيَّنَّاهَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي أَسْنَدَ فِيهَا إِلَيْهِ - تَعَالَى - فِعْلَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، بِمَا خُلَاصَتُهُ أَنَّ الْإِغْوَاءَ وَالْإِضْلَالَ عِبَارَةٌ عَنْ وُقُوعِ الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالِ بِسُنَّةِ اللهِ فِي تَأْثِيرِ ارْتِكَابِ أَسْبَابِهِمَا مِنَ الْأَعْمَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ ، وَالْإِصْرَارِ عَلَيْهَا إِلَى أَنْ تَتَمَكَّنَ مِنْ صَاحِبِهَا وَتُحِيطَ بِهِ خَطِيئَتُهُ حَتَّى يَفْقِدَ الِاسْتِعْدَادَ لِلرَّشَادِ وَالْهُدَى ، وَقَدْ غَفَلَ عَنْ هَذِهِ

السُّنَنِ عُلَمَاءُ الْكَلَامِ ، فَطَفِقُوا يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ فِي خَلْقِ اللهِ الْكُفْرَ وَالضَّلَالَ لِلْإِنْسَانِ حَتَّى يَكُونَ عَاجِزًا عَنِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ : هَلْ هُوَ جَائِزٌ مِنَ الْخَالِقِ عَقْلًا وَشَرْعًا وَوَاقِعٌ فِعْلًا ، أَمْ هُوَ مُسْتَحِيلٌ عَلَيْهِ وَيُنَزَّهُ عَنْهُ لِأَنَّهُ ظُلْمٌ يُنَافِي الْعَدْلَ وَالْحِكْمَةَ ؟ وَأَيُّ الْآيَاتِ فِيهِ يَجِبُ تَأْوِيلُهَا ؟ وَالْحَقُّ إِنْ شَاءَ اللهُ مَا قُلْنَا فَلَا تَأْوِيلَ .

(109/388)

الشَّاهِدُ التَّاسِعُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : - وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً - 118 نَصٌّ فِي أَنَّ سُنَّتَهُ - تَعَالَى - فِي الْبَشَرِ أَنْ يَتَفَرَّقُوا بِمُقْتَضَى الْغَرِيزَةِ إِلَى شُعُوبٍ وَقَبَائِلَ ، وَيَكُونُوا

مُخْتَلِفِينَ فِي الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ وَالْمَنَازِعِ، وَفِي اللُّغَاتِ وَالْأَدْيَانِ وَالشَّرَائِعِ، وَمُتَنَازِعِينَ فِي الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ .

(الْفَصْلُ الثَّالِثُ فِي سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ وَالْعُمْرَانِ وَفِيهِ بِضْعَةَ عَشَرَ شَاهِدًا) :

(110/388)

(سُنَّةُ اللهِ فِي تَوْبَةِ الْأُمَمِ مِنَ الذُّنُوبِ كَالْأَفْرَادِ) (الشَّاهِدُ الْأَوَّلُ) أَمْرُ الْقُرْآنِ الْأُمَمَ كَالْأَفْرَادِ بِاسْتِغْفَارِ الرَّبِّ وَالتَّوْبَةِ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ فِي الْآيَاتِ 3 و52 و90 ، وَجَعْلُهُمَا سَبَبًا وَشَرْطًا لِمَا وَعَدَنَا بِهِ مِنَ التَّمْتِيعِ الْمَادِّيِّ وَالْفَضْلِ الْمَعْنَوِيِّ فِي الْأُولَى، وَمِنْ إِدْرَارِ الْغَيْثِ وَزِيَادَةِ الْقُوَّةِ فِي الثَّانِيَةِ بِصَرَاحَةِ الْمَنْطُوقِ، وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنْ حَفْظِ النِّعَمِ بِدَلَالَةِ الْمَفْهُومِ فِي الثَّالِثَةِ، فَالْآيَاتُ الثَّلَاثُ بَيَانٌ لِسُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ، وَهُوَ أَنَّ الصَّلَاحَ وَالْإِصْلَاحَ سَبَبٌ لِارْتِقَاءِ الْأَقْوَامِ وَالْأُمَمِ وَحِفْظِهَا ، كَمَا أَنَّهُ سَبَبٌ لِارْتِقَاءِ الْأَفْرَادِ، وَالْخِطَابُ هُنَا لِلْأَقْوَامِ لَا لِلْأَفْرَادِ، وَمَا كُلُّ فَرْدٍ يُعَاقَبُ عَلَى ذُنُوبِهِ فِي الدُّنْيَا، وَلَكِنْ كُلُّ أُمَّةٍ تُعَاقَبُ عَلَى ذَنْبِهَا فِي الدُّنْيَا ، وَعِقَابُهَا نَوْعَانِ فَصَّلْنَاهُمَا مِنْ قَبْلُ (أَحَدُهُمَا) دِينِيٌّ، وَهُوَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِهْلَاكِ أَقْوَامِ الرُّسُلِ بِتَكْذِيبِهِمْ لَهُمْ وَظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ حَسَبَ إِنْذَارِهِمْ، وَمِثَالُهُ عِقَابُ الْحُكَّامِ لِمُخَالِفِي شَرَائِعِهِمْ وَقَوَانِينِ حُكُومَتِهِمْ . (وَثَانِيهِمَا) أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ اجْتِمَاعِيٌّ لِذَنْبِهَا الَّذِي يَتَحَقَّقُ بِفُشُوِّهِ

فِيهَا ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا مُفَصَّلًا ، وَنَذْكُرُهُ فِي شَوَاهِدِ هَذَا الْفَصْلِ مُجْمَلًا ، وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ السُّنَّةُ مَعْرُوفَةً لِلْمُهْتَدِينَ بِالْقُرْآنِ مِنْ سَلَفِنَا الصَّالِحِ ، وَمِنَ الْآثَارِ الْمَرْوِيَّةِ عَنِ

الْعَبَّاسِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّهُ لَمَّا قَدَّمَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عَلَى نَفْسِهِ فِي صَلَاةِ الِاسْتِسْقَاءِ لِتَذْكِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِقُرْبِهِ وَشَبَهِهِ بِهِ فَتَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ ، كَانَ مِمَّا قَالَهُ الْعَبَّاسُ فِي دُعَائِهِ : اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ بَلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ وَلَمْ يُرْفَعْ إِلَّا بِتَوْبَةٍ . إِلَخْ .

أَمَّا كَوْنُ الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ سَبَبًا لِانْحِطَاطِ الْأُمَمِ وَضَعْفِهَا وَهَلَاكِهَا ، فَسَيَأْتِي فِي آخِرِ هَذَا الْفَصْلِ ، وَأَمَّا كَوْنُهُ سَبَبًا لِقِلَّةِ الْمَطَرِ وَالْقَحْطِ أَوِ الطُّوفَانِ وَالْجَوَائِحِ فَلَيْسَ مِمَّا ثَبَتَ فِي عِلْمِ الِاجْتِمَاعِ ; لِأَنَّ الِانْقِلَابَاتِ الْجَوِّيَّةَ لَا يَعْرِفُ لَهَا الْبَشَرُ اتِّصَالًا بِالذُّنُوبِ الشَّخْصِيَّةِ وَلَا الْقَوْمِيَّةِ الَّتِي تُوصَفُ بِالِاجْتِمَاعِيَّةِ . وَلَقَدْ شَرَحْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي الْعِلَاوَةِ الرَّابِعَةِ لِحَادِثَةِ الطُّوفَانِ .

(ارْتِقَاءُ الْأُمَمِ بِإِحْسَانِ الْأَعْمَالِ وَإِتْقَانِهَا) :

(الشَّاهِدُ الثَّانِي) قُلْنَا فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ الَّذِي قَبْلَ هَذَا : إِنَّ قَوْلَهُ - تَعَالَى - فِي الْآيَةِ السَّابِعَةِ : - لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا - فِيهِ إِرْشَادٌ إِلَى سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ . وَنَقُولُ هُنَا فِي بَيَانِهَا : إِنَّ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ هَذَا الْعِلْمِ أَنَّ ارْتِقَاءَ الشُّعُوبِ فِي مَصَالِحِهَا الْقَوْمِيَّةِ وَالْوَطَنِيَّةِ وَفِي عِزَّتِهَا الدَّوْلِيَّةِ ، هُوَ أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ لِإِحْسَانِ أَعْمَالِهَا فِي أَسْبَابِ الْمَعَاشِ وَالثَّرْوَةِ وَالْقُوَّةِ الْحَرْبِيَّةِ ، وَالتَّكَافُلِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْمَصَالِحِ وَالْمُقَوِّمَاتِ الْعَامَّةِ لَهَا ، وَلَا يَتِمُّ مَا ذُكِرَ إِلَّا بِالصِّدْقِ وَالْعَدْلِ وَالْأَمَانَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ ، وَلَا تَكْمُلُ هَذِهِ إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .

(عِقَابُ الْأُمَمِ لَهُ آجَالٌ طَبِيعِيَّةٌ) :

(الشَّاهِدُ الثَّالِثُ) قُلْنَا أَيْضًا : إِنَّ قَوْلَهُ - تَعَالَى - : - وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ - 8 سُنَّةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ ، وَنَقُولُ هُنَا فِي بَيَانِهَا : إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ السُّنَّةِ أَنَّ هَذَا الْعَذَابَ لَهُ أَجَلٌ عِنْدَ اللَّهِ مَعْلُومٌ ، وَزَمَنٌ فِي كِتَابِ نِظَامِ الْخَلْقِ مَعْدُودٌ ، وَهُوَ مَا يَبْلُغُ بِهِ ذَنْبُهَا حَدَّهُ فِي الْإِفْسَادِ . وَقَدْ عَلِمْتُ آنِفًا أَنَّهُ لَا يَقَعُ عِقَابٌ إِلَّا بِذَنْبٍ ، وَلَكِنَّ الْأُمَمَ الْجَاهِلَةَ لَا تَعْقِلُ هَذَا ، وَإِنَّمَا يَعْقِلُهُ بَعْضُ حُكَمَائِهَا ، وَقَدْ يُنْذِرُونَهَا وُقُوعَهُ فِي وَقْتِهِ فَلَا تُغْنِي عَنْهُمُ النُّذُرُ شَيْئًا ، كَمَا يُعْلَمُ مِنْ قَصَصِ الرُّسُلِ وَسَنَبْسُطُهُ قَرِيبًا .

(113/388)

(أَوَّلُ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ وَالْمُصْلِحِينَ: الْفُقَرَاءُ):

(الشَّاهِدُ الرَّابِعُ) قَوْلُهُ - تَعَالَى - حِكَايَةً عَنْ قَوْمِ نُوحٍ: - وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ - 27 الْآيَةَ. وَهُوَ نَصٌّ فِي سُنَّةِ اللهِ فِي السَّابِقِينَ إِلَى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ، وَكَذَا غَيْرُهُمْ مِنَ الْمُصْلِحِينَ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ فِي هَذِهِ الْخُلَاصَةِ، وَتَتِمَّتُهُ فِي الشَّاهِدِ التَّالِي وَهُوَ:

(فَلَاحُ الْجَمَاعَاتِ وَالْأُمَمِ بِتَكَافُلِ الْمُصْلِحِينَ فِيهَا):

(الشَّاهِدُ الْخَامِسُ) قَوْلُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي جَوَابِهِ لَهُمْ: - وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا - 29 الْآيَةَ، مَبْنِيٌّ عَلَى سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ فِي الزَّعَامَةِ وَالْعَصَبِيَّةِ، وَتَأْلِيفِ الْجَمَاعَاتِ الَّتِي تُحْدِثُ الِانْقِلَابَاتِ فِي الْأُمَمِ، وَكَوْنِ ثَبَاتِهَا وَظَفَرِهَا رَهْنًا بِإِيمَانِ الْجَمَاعَةِ الَّتِي تَأَلَّفَتْ لِأَجْلِهِ إِيمَانَ يَقِينٍ عَقْلِيٍّ، وَوِجْدَانِيٍّ قَلْبِيٍّ، وَتَكَافُلٍ عَمَلِيٍّ، وَمِنْهُ وِلَايَةُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ بِصِفَةٍ يَكُونُ فِيهَا الزَّعِيمُ خَيْرَ قُدْوَةٍ لِلْأَفْرَادِ، بِتَفْضِيلِهِ أَدْنَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ عَلَى أَعْظَمِ الْكُبَرَاءِ مِنْ خُصُومِهِمْ، فَأَمَّا الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَقَدْ هَدَاهُمُ الْوَحْيُ إِلَى هَذِهِ السُّنَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي

(114/388)

بَيَانِ سُنَّتِهِ - تَعَالَى - فِي عَدَاوَةِ كُبَرَاءِ الدُّنْيَا مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ لَهُمْ، وَأَمَّا زُعَمَاءُ الْأُمَمِ فِي الْقُرُونِ الْأَخِيرَةِ فَقَدْ هَدَتْهُمْ إِلَيْهَا عِبَرُ التَّارِيخِ وَالتَّجَارِبِ، إِلَى أَنْ دَوَّنَ عُلَمَاءُ فَلْسَفَةِ التَّارِيخِ عِلْمَ الِاجْتِمَاعِ وَفَصَّلُوا فِيهِ سُنَّتَهُ فَعَمِلُوا بِهِ، وَكَانَ إِمَامُهُمْ حَكِيمُنَا الْعَرَبِيُّ ابْنُ خَلْدُونَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(تَنَازُعُ رِجَالِ الْمَالِ وَدُعَاةِ الْإِصْلَاحِ):

(الشَّاهِدُ السَّادِسُ) فِي قِصَّةِ شُعَيْبٍ مَعَ قَوْمِهِ مَسْأَلَةٌ مِنْ أَهَمِّ مَسَائِلِ الِاجْتِمَاعِ فِي الْعَالَمِ الْمَدَنِيِّ، وَهِيَ التَّنَازُعُ بَيْنَ رِجَالِ الْمَالِ وَرِجَالِ الْإِصْلَاحِ فِي حُرِّيَّةِ الْكَسْبِ الْمُطْلَقَةِ، وَتَقْيِيدِ الْكَسْبِ بِالْحَلَالِ وَمُرَاعَاةِ الْفَضِيلَةِ فِيهِ، فَقَوْمُ شُعَيْبٍ كَانُوا يَسْتَبِيحُونَ تَنْمِيَةَ الثَّرْوَةِ بِجَمِيعِ الطُّرُقِ الْمُمْكِنَةِ حَتَّى التَّطْفِيفِ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ، فَإِذَا كَالُوا أَوْ وَزَنُوا لِلنَّاسِ نَقَصُوا وَأَخْسَرُوا، وَإِذَا اكْتَالُوا عَلَيْهِمْ لِأَنْفُسِهِمُ اسْتَوْفَوْا وَأَكْثَرُوا، وَكَانُوا يَبْخَسُونَ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ فِي كُلِّ أَنْوَاعِهَا، وَكَانَ شُعَيْبٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَنْهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيُوصِيهِمْ بِالْقِسْطِ فِيهِ، وَاجْتِنَابِ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَالْقَنَاعَةِ بِالْحَلَالِ، وَكَانَتْ حُجَّتُهُمْ حُرِّيَّةَ

الْكَسْبِ مَقْرُونَةً بِحُرِّيَّةِ الِاعْتِقَادِ ، كَمَا حَكَاهُ اللهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ : - قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ - 87 وَتَقَدَّمَ الِاسْتِشْهَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي الْكَلَامِ عَلَى رَذِيلَةِ التَّقْلِيدِ وَرَذِيلَةِ اسْتِحْلَالِ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَالْكَلَامِ عَلَى فَضِيلَةِ حُرِّيَّةِ الِاعْتِقَادِ وَمَنْعِ الْإِكْرَاهِ فِي الدِّينِ ، وَنَذْكُرُهُ شَاهِدًا عَلَى كَوْنِ هَذَا التَّنَازُعِ بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْفَضِيلَةِ ، وَبَيْنَ أَهْلِ الْبَاطِلِ وَالرَّذِيلَةِ ، مِنْ سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَالْأَنْبِيَاءُ يَنْصُرُونَ الْحَقَّ وَالْفَضِيلَةَ

(116/388)

بِالْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ الْمُؤَيَّدَيْنِ بِالْحُجَّةِ وَوَسَائِلِ الْإِقْنَاعِ ، لَا بِالْقُوَّةِ وَوَسَائِلِ الْإِكْرَاهِ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْهُمْ شَرِيعَةٌ مَدَنِيَّةٌ كَمُوسَى وَمُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَانَتْ جَامِعَةً لِلْوَازِعَيْنِ : وَازِعِ النَّفْسِ بِمُقْتَضَى الْإِيمَانِ ، وَوَازِعِ الشَّرْعِ يَمْنَعُ الِاعْتِدَاءَ عَلَى حُقُوقِ النَّاسِ ، وَمَا زَالَ التَّنَازُعُ الْمَالِيُّ أَعْقَدَ مَشَاكِلِ الِاجْتِمَاعِ ، وَزَعَمَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الِاقْتِصَادِ أَنَّ الْإِصْلَاحَ الْمَالِيَّ أَعْظَمُ أُسُسِ الْإِسْلَامِ ، وَلِأَجْلِهِ عَادَى كُبَرَاءُ قُرَيْشٍ بَعْثَةَ مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَتَقَدَّمَ تَفْصِيلُ هَذَا فِي خُلَاصَةِ سُورَةِ التَّوْبَةِ وَفِي كِتَابِ (الْوَحْيِ الْمُحَمَّدِيِّ) .

(سُنَّتُهُ - تَعَالَى - فِي جَعْلِ الْعَاقِبَةِ لِلْمُتَّقِينَ) :

(الشّاهِدُ السَّابعُ) قَوْلُهُ – تَعَالَى – : – إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ – 49 هُوَ الْأَسَاسُ الْأَعْظَمُ لِسُنَنِ الِاجْتِمَاعِ فِي فَوْزِ الْجَمَاعَاتِ الدِّينِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ فِي مَقَاصِدِهَا ، وَغَلَبِهَا عَلَى خُصُومِهَا وَمُنَاوِئِيهَا ، كَمَا أَنَّهُ هُوَ الْأَسَاسُ الرَّاسِخُ لِفَوْزِ الْأَفْرَادِ فِي أَعْمَالِهِمُ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ مِنْ مَالِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ ، فَهَذِهِ الْجُمْلَةُ الْبَلِيغَةُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ كِتَابِ اللهِ الْكُبْرَى فِي جَمْعِ الْحَقَائِقِ الْكَثِيرَةِ ، فِي الْمَقَاصِدِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي كَلِمَةٍ وَجِيزَةٍ ، وَلَئِنْ سَأَلْتَ أَكْثَرَ عُلَمَاءِ الدِّينِ فِي الْأَزْهَرِ وَأَمْثَالِهِ ، مِمَّنْ لَا بِضَاعَةَ لَهُمْ فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ إِلَّا مِثْلُ تَفْسِيرِ الْبَيْضَاوِيِّ وَمَا دُونَهُ كَالْجَلَالَيْنِ وَحَوَاشِيهِ وَكَذَا تَفْسِيرُ الْأُلُوسِيِّ الْجَامِعِ لِخُلَاصَةِ هَذِهِ التَّفَاسِيرِ ، فَقُلْتَ لَهُمْ : مَا مَعْنَى كَوْنِ " الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ " ؟ وَمَا التَّقْوَى الَّتِي جَعَلَهَا هَذَا النَّصُّ عِلَّةً لِكَوْنِ الْعَاقِبَةِ لَهُمْ عَلَى قَاعِدَتِكُمْ فِي تَعْلِيقِ الْحُكْمِ عَلَى الْمُشْتَقِّ ؟ لَيَقُولَنَّ أَوْسَعُهُمُ اطِّلَاعًا : إِنَّ التَّقْوَى فِعْلُ الطَّاعَاتِ وَتَرْكُ الْمَعَاصِي ، أَوِ امْتِثَالُ

الْأَوَامِرِ وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي ، وَأَنَّ اللَّهَ وَعَدَ هَؤُلَاءِ بِحُسْنِ الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَهَذَا تَفْسِيرٌ مُجْمَلٌ مُبْهَمٌ يُمْكِنُ اخْتِصَارُهُ بِأَنْ تَقُولَ : الْمُتَّقُونَ هُمُ الْمُسْلِمُونَ الصَّالِحُونَ ، وَمَاذَا عَسَى أَنْ يَقُولَ قَارِئُوا هَذِهِ التَّفَاسِيرِ عَلَى قِلَّتِهِمْ غَيْرَ هَذَا أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ ، وَقَدْ قَصَّرَ كُلُّ مُؤَلِّفِيهَا فِيمَا يَجِبُ مِنَ الْبَيَانِ التَّفْصِيلِيِّ لَهَا فِي تَقْوَى الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ وَتَقْوَى الْأُمَّةِ ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يُشِرْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى مَعْنَاهَا الْعَامِّ ، وَهُوَ اتِّقَاءُ كُلِّ مَا يُفْسِدُ الْعَقَائِدَ وَالْأَخْلَاقَ وَالرَّوَابِطَ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ ، وَتَحَرِّي مَا يُصْلِحُهَا بِهَدْيِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَمَا أَرْشَدَ إِلَيْهِ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ - تَعَالَى - فِي حَيَاةِ الْأُمَمِ وَمَوْتِهَا ، وَقُوَّتِهَا وَضَعْفِهَا ، وَبَقَاءِ دُوَلِهَا وَزَوَالِهَا ، وَكَوْنُ هَذِهِ السُّنَنِ مُطَّرِدَةً فِي جَمِيعِ الشُّئُونِ الْعَامَّةِ مِنْ مَنْزِلِيَّةٍ وَمَدَنِيَّةٍ وَمَالِيَّةٍ وَحَرْبِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ ، لَا تَبْدِيلَ لَهَا وَلَا تَحْوِيلَ ، وَلَا مُحَابَاةَ فِيهَا بَيْنَ أَهْلِ الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ ، وَبِهَذَا كُلِّهِ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ الْمَرْجُوَّةُ لَهُمْ فِي السِّيَادَةِ وَالسَّعَادَةِ . وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ لَعَلَّ أَجْمَعَهَا وَأَدَقَّهَا بِالْإِجْمَالِ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا 8 : 29 الْآيَةَ ، وَمِنَ التَّفْصِيلِ لَهُ مَا تَرْمِي فِي هَذِهِ الشَّوَاهِدِ .

(نَهْيُ أُولِي الْأَحْلَامِ عَنِ الْفَسَادِ يَحْفَظُ الْأُمَّةَ مِنَ الْهَلَاكِ) :

(الشَّاهِدُ الثَّامِنُ) قَوْلُهُ – تَعَالَى – : فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ 116 جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بَعْدَ بَيَانِ إِهْلَاكِ الْأُمَمِ بِظُلْمِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ ؛ لِلْإِعْلَامِ بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ فِيهِمْ جَمَاعَاتٌ وَأَحْزَابٌ أُولُوا بَقِيَّةٍ مِنَ الْأَحْلَامِ وَالْفَضَائِلِ وَالْقُوَّةِ فِي الْحَقِّ يَنْهَوْنَهُمْ عَنْ ذَلِكَ لَمَا فَشَا فِيهِمْ ، وَأَفْسَدَهُمْ وَإِذَنْ لَمَا هَلَكُوا ، فَإِنَّ الصَّالِحِينَ الْمُصْلِحِينَ فِي الْأَرْضِ هُمُ الَّذِينَ يَحْفَظُ اللهُ بِهِمُ الْأُمَمَ مِنَ الْهَلَاكِ مَا دَامُوا يُطَاعُونَ فِيهَا بِحَسَبِ سُنَّةِ اللهِ ، كَمَا أَنَّ الْأَطِبَّاءَ هُمُ الَّذِينَ يَحْفَظُ اللهُ بِهِمُ الْأُمَمَ مِنْ فُشُوِّ الْأَمْرَاضِ وَالْأَوْبِئَةِ فِيهَا ، مَا دَامَتِ الْجَمَاهِيرُ تُطِيعُهُمْ فِيمَا يَأْمُرُونَ بِهِ مِنْ أَسْبَابِ الْوِقَايَةِ قَبْلَ حُدُوثِ الْمَرَضِ ، وَمِنْ وَسَائِلِ الْعِلَاجِ وَالتَّدَاوِي بَعْدَهُ ، فَإِذَا لَمْ يَمْتَثِلِ الْجُمْهُورُ لِأَمْرِهِمْ وَنَهْيِهِمْ فَعَلَ الْفَسَادُ فِعْلَهُ فِيهِمْ ، وَقَدْ فَهِمَ الْوُعَّاظُ وَالْفُقَهَاءُ مِنْ خَلَفِنَا الْجَاهِلِ مَا كَانَ يَفْهَمُهُ السَّلَفُ الصَّالِحُ مِنْ بَرَكَةِ الصَّالِحِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَحِفْظِ اللهِ الْأُمَمَ بِهِمْ ، فَظَنُّوا أَنَّ الْمُرَادَ بِهِمُ الَّذِينَ يُكْثِرُونَ مِنَ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ وَقِرَاءَةِ الْأَوْرَادِ وَالْأَحْزَابِ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ ، وَضَرَبَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ بْنُ حَجَرٍ الْهَيْتَمِيُّ الْمَثَلَ بِقَوْلِهِ فِي الزَّوَاجِرِ :

لَوْلَا أُنَاسٌ لَهُمْ وِرْدٌ يَقُومُونَا . . . وَآخَرُونَ لَهُمْ سَرْدٌ يَصُومُونَا

لَدُكْدِكَتْ أَرْضُكُمْ مِنْ تَحْتِكُمْ سَحَرًا . . . فَإِنَّكُمْ قَوْمُ سَوْءٍ لَا تُطِيعُونَا

كَلَّا ، إِنَّ مِنْ أَصْحَابِ الْأَوْرَادِ مَنْ يَقُومُ لَيْلَهُ بِوِرْدٍ مِنْ تَشْرِيعِ مُبْتَدِعٍ هُوَ بِهِ عَاصٍ لِلَّهِ – تَعَالَى – لِعِبَادَتِهِ بِغَيْرِ مَا شَرَعَهُ ، فَكَانَ مِمَّنْ قَالَ فِيهِمْ : أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ 42 : 21 أَيْ بِهَلَاكِهِمْ . وَفِي الْحَدِيثِ : (رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ) كَمْ مِنْ مُصَلٍّ هُوَ مِصْدَاقٌ لِحَدِيثِ : (مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا) وَكَذَلِكَ كَانَ دَرَاوِيشُ مَهْدِيِّ السُّودَانِ ، وَأَمْثَالُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْجَاهِلِينَ لِهِدَايَةِ الْقُرْآنِ ، فَنَكَّلَ بِهِمُ الْإِفْرِنْجُ بِمُسَاعَدَةِ الْفَاسِقِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى بِلَادِهِمْ . وَقَدْ عَلِمْنَا مِنْ أَخْبَارِ هَذَا الْمَهْدِيِّ أَنَّهُ كَانَ عَلَى عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ

فِي صَلَاحِهِ ، وَلَكِنَّ قُوَّادَهُ لَمْ يَكُونُوا بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَصَلَاحُ دَرَاوِيشِهِ لَا بَصِيرَةَ فِيهِ وَلَا عِلْمَ .

كَلَّا إِنَّ الْمُرَادَ بِالصَّالِحِينَ الَّذِينَ يَحْفَظُ اللهُ بِهِمُ الْأُمَمَ هُمُ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ 21 : 105 وَهُمُ الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ

قَالَ فِيهِمْ : إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ 7 : 128 وَقَالَ : وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ 24 : 55 الْآيَةَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِيهِمْ قَرِيبًا ، وَإِنَّ اللهَ لَا يَحْفَظُ الْأُمَمَ بِذَوَاتِهِمْ وَبَرَكَةِ أَجْسَادِهِمْ ، وَلَا بِعِبَادَاتِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ الْقَاصِرِ نَفْعُهَا عَلَيْهِمْ ، بَلْ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَطَاعَةِ الْأُمَّةِ لَهُمْ .

نَعَمْ إِنَّ اللهَ لَا يُهْلِكُ الْأُمَّةَ كُلَّهَا بِعَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ مَا دَامَ فِيهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَلَكِنَّهُ يُعَذِّبُهَا بِذُنُوبِهَا فِيمَا عَدَا ذَلِكَ مِمَّا فَصَّلْنَاهُ فِي عِلَاوَةِ قِصَّةِ الطُّوفَانِ الرَّابِعَةِ .

(الطُّغْيَانُ وَالرُّكُونُ إِلَى الظَّالِمِينَ سَبَبُ الْحِرْمَانِ مِنَ النَّصْرِ) :

(122/388)

(الشَّاهِدُ التَّاسِعُ) قَوْلُهُ - تَعَالَى - : فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا 112 وَقَوْلُهُ بَعْدَهَا : وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ 113 فِيهِمَا مِنْ سُنَنِ اللهِ - تَعَالَى - فِي الِاجْتِمَاعِ أَنَّ الطُّغْيَانَ وَالرُّكُونَ إِلَى الظَّالِمِينَ مِنْ أَسْبَابِ هَلَاكِ الْأُمَمِ وَحِرْمَانِهِمْ مِنَ النَّصْرِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ، وَهَذَا يَشْتَرِكُ مَعَ الظُّلْمِ فِي شَوَاهِدِهِ الْآتِيَةِ :

(الشَّوَاهِدُ : الْعَاشِرُ - الْخَامِسَ عَشَرَ عَلَى إِهْلَاكِ الْأُمَمِ بِالظُّلْمِ) :

(فِي الْآيَاتِ 100 - 102 و112 و113 و116 و117) :

أَوَّلُهَا فِي هَذَا السِّيَاقِ قَوْلُهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لِرَسُولِهِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ : ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ 100 وَالثَّانِيَةُ : وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ 101 أَيْ بِإِهْلَاكِهِمْ ، بَلْ أَنْذَرْنَاهُمْ عَاقِبَةَ ظُلْمِهِمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا عَامًّا فَكَانَ هَلَاكُهُمْ عَامًّا ، وَكَانَ أَكْبَرَ ظُلْمِهِمُ الشِّرْكُ ، فَكَانُوا يَدْعُونَ آلِهَتَهُمْ أَنْ تَدْفَعَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ ، فَاتَّكَلُوا عَلَيْهَا فِي دَفْعِ مَا أَنْذَرَهُمُ الرُّسُلُ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ 101 الْآيَةَ .

(123/388)

هَذَا مَعْنًى لَا يُكَابِرُ فِيهِ أَحَدٌ يَدَّعِي التَّوْحِيدَ وَالْإِيمَانَ بِالْقُرْآنِ ، وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْجَاهِلِينَ بِعَقَائِدِ الْقُرْآنِ إِذَا بَيَّنْتَ لَهُمْ مَا يُخَالِفُ تَقَالِيدَهُمْ مِنْهَا أَنْكَرُوهُ ، وَأَوَّلُ مَا يُنْكِرُونَهُ أَسَاسُهَا الْأَعْظَمُ وَهُوَ تَوْحِيدُ اللهِ وَمَعْنَى الشِّرْكِ بِهِ مِنْهَا ، إِذْ هُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ شِرْكَ أُولَئِكَ الْأَقْوَامِ عِبَارَةٌ عَنْ عِبَادَةِ أَصْنَامٍ وَأَوْثَانٍ مِنَ الْجَمَادِ يَتَّكِلُونَ عَلَيْهَا لِذَاتِهَا . فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : إِنَّ أَصْلَهُ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ وَلَا سِيَّمَا الْمَيِّتِينَ مِنْهُمْ ، وَاعْتِقَادُ تَصَرُّفِهِمْ فِي الْكَوْنِ ، وَدُعَاؤُهُمْ فِي طَلَبِ النَّفْعِ وَدَفْعِ الضُّرِّ ، وَأَنَّ مِثْلَهُ أَوْ مِنْهُ مَا كَانَ يُحْكَى عَنْ مُسْلِمِي بُخَارَى أَنَّ شَاهْ نَقْشَبَنْدَ هُوَ الْحَامِي لَهَا ، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ الدَّوْلَةُ الرُّوسِيَّةُ الِاسْتِيلَاءَ عَلَيْهَا ، وَمَا كَانَ يُحْكَى عَنْ مُسْلِمِي

الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى مِنْ حِمَايَةِ مَوْلَايَ إِدْرِيسَ لِفَاسَ وَسَائِرِ الْمَغْرِبِ أَنْ تَسْتَوْلِيَ عَلَيْهَا فَرَنْسَةُ، أَنْكَرُوا عَلَى الْقَائِلِ: إِنَّ هَذَا كَذَاكَ، وَقَالُوا: إِنَّمَا هُوَ تَوَسُّلٌ بِجَاهِ الْأَوْلِيَاءِ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَيْسَ مِنَ الْمُنْكَرِ أَنْ يَدْفَعُوهَا بِكَرَامَتِهِمْ. فَكَرَامَةُ الْأَمْوَاتِ ثَابِتَةٌ كَالْأَحْيَاءِ، وَقَدْ بَيَّنَّا لَهُمْ جَهْلَهُمْ هَذَا بِتَبَدُّلِ الْأَسْمَاءِ، وَمُخَالَفَتِهِ لِكِتَابِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَسِيرَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنَ الْأُمَّةِ فِي فُتُوحَاتِهِمْ وَتَأْسِيسِ مُلْكِهِمْ وَحِفْظِهِ، وَخَصَّصْنَا إِخْوَانَنَا أَهْلَ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى بِالْإِنْذَارِ

(124/388)

مُنْذُ أُنْشِئَ الْمَنَارُ، وَأَرْشَدْنَاهُمْ إِلَى تَنْظِيمِ قُوَّاتِهِمُ الدِّفَاعِيَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَطَلَبِ الضُّبَّاطِ لَهُ مِنَ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَإِلَى الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ الْمُرْشِدَةِ إِلَى الْقُوَّةِ وَالثَّرْوَةِ وَالنِّظَامِ، وَإِلَّا ذَهَبَتْ بِلَادُهُمْ مِنْ أَيْدِيهِمْ قَطْعًا. فَقَالَ الْمَغْرُورُونَ لَهُمْ مِنْ أَهْلِ الطَّرَائِقِ الْقِدَدِ بِلِسَانِ حَالِهِمْ أَوْ مَقَالِهِمْ: إِنَّ صَاحِبَ الْمَنَارِ مُعْتَزِلِيٌّ مُنْكِرٌ لِكَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، وَمَا هُوَ بِمُعْتَزِلِيٍّ وَلَا أَشْعَرِيٍّ، بَلْ هُوَ قُرْآنِيٌّ سُنِّيٌّ، وَهَا هِيَ ذِي فَرَنْسَةُ اسْتَوْلَتْ عَلَى بِلَادِهِمْ كَمَا أَنْذَرَهُمْ، وَظَهَرَ أَنَّ أَكْبَرَ مَشَايِخِ الطَّرِيقِ نُفُوذًا وَدَعْوَى لِلْكَرَامَاتِ بِالْبَاطِلِ كَالتِّيجَانِيَّةِ، كَانُوا وَمَا زَالُوا مِنْ خَدَمَةِ فَرَنْسَةَ وَمُسَاعِدِيهَا عَلَى فَتْحِ الْبِلَادِ، وَاسْتِعْبَادِ أَهْلِهَا أَوْ إِخْرَاجِهِمْ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ إِلَى

الْإِلْحَادِ أَوِ النَّصْرَانِيَّةِ مِنْ حَيْثُ يَدْرُونَ أَوْ لَا يَدْرُونَ .

يَجْهَلُ أُمْثَالُ هَؤُلَاءِ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ الشِّرْكَ بِاللَّهِ - تَعَالَى - خَاصٌّ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ ، أَنَّ أَصْلَ هَذَا الشِّرْكِ هُوَ الْغُلُوُّ فِي تَعْظِيمِ الصَّالِحِينَ ، وَالتَّبَرُّكِ أَوِ التَّوَسُّلِ بِأَشْخَاصِهِمْ لِإِبْطَالِ سُنَنِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَأَوَّلُهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ، فَقَدْ كَانَتْ آلِهَتُهُمْ (وَدٌّ وَسُوَاعٌ وَيَغُوثُ وَيَعُوقُ وَنَسْرٌ) رِجَالًا صَالِحِينَ غَلَوْا فِي تَعْظِيمِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ ، وَوَضَعُوا لَهُمُ الصُّوَرَ وَالتَّمَاثِيلَ

(125/388)

لِلتَّذْكِيرِ بِهِمْ كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ تُرْجُمَانِ الْقُرْآنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَكَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أُولَئِكَ الصَّالِحِينَ هُمُ الَّذِينَ يَنْفَعُونَ وَيَضُرُّونَ ، وَيَدْفَعُونَ الْعَذَابَ بِكَرَامَاتِهِمْ أَوْ بِشَفَاعَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ لَا تَمَاثِيلُهُمْ .

بَلْ نَرَى هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالَهُمْ مِنَ الَّذِينَ يَلْجَئُونَ إِلَى قُبُورِهِمُ الصَّالِحِينَ ؛ لِدُعَائِهِمْ أَوْ مَا يُسَمُّونَهُ التَّوَسُّلَ بِهِمْ فِي مِثْلِ ذَلِكَ ، يَجْهَلُونَ جَمِيعَ عَقَائِدِ الْقُرْآنِ وَسُنَنِ اللَّهِ - تَعَالَى - فِيهِ الَّتِي أَجْمَلْنَاهَا فِي خُلَاصَةِ هَذِهِ السُّورَةِ ، مِنَ التَّوْحِيدِ وَوَظَائِفِ الرُّسُلِ ، إِلَى هَذِهِ السُّنَنِ فِي إِهْلَاكِ الظَّالِمِينَ ، وَأَمْثَالِهَا فِي غَيْرِ هَذِهِ السُّورَةِ .

وَأَكْبَرُ مَصَائِبِ الْإِسْلَامِ أَنَّ افْتِتَانَ الْمُسْلِمِينَ بِالصَّالِحِينَ الَّذِي اتَّبَعُوا فِيهِ سَنَنَ مَنْ قَبْلَهُمْ (شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ) كَمَا أَخْبَرَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَدْ كَانَ سَبَبًا لِإِلْحَادِ فَرِيقٍ كَبِيرٍ مِنَ الَّذِينَ يَتَعَلَّمُونَ عُلُومَ الْعَصْرِ وَمِنْهَا سُنَنُ الْخَلْقِ وَالِاجْتِمَاعِ، وَمُرُوقِهِمْ مِنَ الدِّينِ بِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ الْإِسْلَامَ دِينٌ خُرَافِيٌّ هُوَ الَّذِي أَضَاعَ مُلْكَ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى إِنَّ حُكُومَةَ التُّرْكِ الْحَاضِرَةَ تَرَكَتِ الْإِسْلَامَ الْحَقَّ الْمُنَزَّهَ عَنِ الْخُرَافَاتِ، وَعَادَى رَئِيسُهَا وَمُؤَسِّسُهَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ وَلُغَتَهُمَا وَحُرُوفَهُمَا بِمَا لَمْ يَسْبِقْ لَهُ نَظِيرٌ فِي عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالصَّلِيبِيِّينَ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ 26 : 4 .

وَخُلَاصَةُ مَعْنَى الْآيَةِ الثَّانِيَةِ (102) أَنَّ أَخْذَ اللهِ الْقُرَى الظَّالِمَةَ عِنْدَ اسْتِحْقَاقِهِمْ لَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ سَيَكُونُ عَلَى نَحْوِ أَخْذِهِ لَهَا فِي الْمَاضِي، أَلِيمًا شَدِيدًا لَا هَوَادَةَ وَلَا رَحْمَةَ وَلَا مُحَابَاةَ .

وَخُلَاصَةُ الثَّالِثَةِ وَالرَّابِعَةِ (112 و113) أَمْرُ اللهِ لِرَسُولِهِ بِالِاسْتِقَامَةِ هُوَ وَمَنْ تَابَ مَعَهُ كَمَا أُمِرَ، وَنَهْيُهُمْ عَنِ الطُّغْيَانِ وَالْإِفْرَاطِ فِيهِ، وَعَنِ الرُّكُونِ إِلَى الظَّالِمِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الْمُشَبَّهَةِ حَالُهُمْ فِي قَرْيَتِهِمْ (مَكَّةَ) لِحَالِ أُولَئِكَ الظَّالِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى الْمُهْلَكَةِ؛ لِأَجْلِ أَنْ يُنَجِّيَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ إِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمْ أَتْبَاعُ أُولَئِكَ الرُّسُلِ قُبَيْلَ إِهْلَاكِ قَوْمِهِمْ؛ لِأَنَّ سُنَّتَهُ - تَعَالَى - فِي عِبَادِهِ وَاحِدَةٌ.

وَخُلَاصَةُ الْخَامِسَةِ (166) أَنَّ الْوَسِيلَةَ لِمَنْعِ وُقُوعِ الْعَذَابِ بِالْأُمَمِ الظَّالِمَةِ، هُوَ وُجُودُ أُولِي بَقِيَّةٍ فِيهَا يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ فَيُطَاعُونَ، إِذْ بِفَقْدِهِمْ يَتَّبِعُ الظَّالِمُونَ مَا أُتْرِفُوا فِيهِ فَيَكُونُونَ مُجْرِمِينَ فَيَهْلِكُونَ، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِاسْتِئْصَالِهِمْ فَبِذَهَابِ اسْتِقْلَالِهِمْ.

وَخُلَاصَةُ السَّادِسَةِ (117) أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ شَأْنِ اللهِ - تَعَالَى - وَلَا مِنْ سُنَّتِهِ فِي عِبَادِهِ أَنْ يُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ مِنْهُ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ وَأَحْكَامِهِمْ، وَهَذَا هُوَ الْأَسَاسُ الْأَعْظَمُ لِعِلْمِ الِاجْتِمَاعِ فِي حَيَاةِ الْأُمَمِ وَمَوْتِهَا وَعِزَّتِهَا وَذُلِّهَا، فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهَا.

(128/388)

إِنَّ عُلَمَاءَ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - وَالتَّابِعِينَ وَأَئِمَّةَ الْأَمْصَارِ الَّذِينَ وَرِثُوا لُغَةَ الْقُرْآنِ بِالسَّلِيقَةِ وَسُنَّةَ النَّبِيِّ وَبَيَانَهُ لَهُ بِالِاتِّبَاعِ، كَانُوا يَفْهَمُونَ هَذِهِ السُّنَنَ الْإِلَهِيَّةَ فِي الْخَلْقِ وَيَهْتَدُونَ

بِهَا ، وَإِنْ لَمْ يَضَعُوا لَهَا قَوَاعِدَ عِلْمِيَّةً وَفَنِّيَّةً لِتَفَقِيهِ مَنْ بَعْدَهُمْ فِيهَا ، ثُمَّ زَالَتْ سَلِيقَةُ اللُّغَةِ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُوَلَّدِينَ ، فَصَارُوا يُفَسِّرُونَ الْقُرْآنَ بِقَوَاعِدِ الْفُنُونِ الَّتِي وَضَعُوهَا لِلُّغَةِ وَلِلدِّينِ بِقَدْرِ مَعَارِفِهِمُ الْمَمْزُوجَةِ بِمَا وَرِثُوا وَمَا كَسَبُوا مِنَ الشُّعُوبِ الَّتِي اهْتَدَتْ بِالْإِسْلَامِ ، وَلَمْ يَكُنْ عِلْمُ الِاجْتِمَاعِ مِمَّا دَوَّنَهُ أَحَدٌ ، فَلِهَذَا لَا نَرَى فِي تَفَاسِيرِهِمْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ السُّنَنِ الْخَاصَّةِ بِسِيَاسَةِ الْأُمَمِ ، بَلْ تَنَكَّبُوا هِدَايَةَ الْقُرْآنِ فِيهَا فَكَانَتْ عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ مَا نَشْكُو مِنْهُ وَنُحَاوِلُ تَلَافِيَهُ .

(الشَّاهِدُ السَّادِسَ عَشَرَ فِي الِاخْتِلَافِ فِي الدِّينِ) :

(129/388)

تَرَى فِي الْآيَتَيْنِ (118 و119) (1) بَيَانَ سُنَنِ اللهِ - تَعَالَى - فِي اخْتِلَافِ الْأُمَمِ فِي الدِّينِ كَاخْتِلَافِهِمْ فِي التَّكْوِينِ وَالْعُقُولِ وَالْفُهُومِ ، وَحِكْمَةَ جَعْلِهَا فِي خَاتِمَةِ السُّورَةِ : أَنَّهَا أَهَمُّ مَا فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْقُرْآنِ ، وَهُوَ أَكْمَلُ هِدَايَةٍ وَهَبَهَا اللهُ لِلْإِنْسَانِ ، لِتَكُونَ كَافِلَةً كَافِيَةً لَهُ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ ، ذَلِكَ بِأَنَّ مَا قَبْلَهَا كُلَّهُ مِنْ سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ الْمُبَيِّنَةِ لِأَسْبَابِ فَسَادِ الْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ وَقَدْ أَرْشَدَهُمُ الْقُرْآنُ لِاتِّقَائِهَا ، فَهُوَ جَامِعٌ لِوَصْفِ أَمْرَاضِ الْبَشَرِ كُلِّهَا وَلِوَصْفِ عِلَاجِهَا ، فَمَنْ آمَنَ بِهِ وَتَدَبَّرَهُ مِنَ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ الصُّغْرَى (الْبُيُوتِ وَالْفَصَائِلِ

وَالْعَشَائِرِ) وَالْكُبْرَى (الشُّعُوبِ وَالْقَبَائِلِ) عَمِلَ بِهِ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَلِمَ مِنَ الْفَسَادِ وَالْهَلَاكِ، وَالْهَلَاكُ حَتْمًا، وَإِنَّمَا يَنْحَصِرُ الْخَوْفُ عَلَيْهِمْ فِي تَرْكِ الْعَمَلِ بِهِ، وَهَذَا التَّرْكُ إِذَا كَانَ مِنْ بَعْضِ الْأَفْرَادِ فَخَطْبُهُ سَهْلٌ، لِأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ جَهْلِهِ بِالْحُكْمِ خَالَفَهُ وَدَوَاؤُهُ التَّعْلِيمُ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ فَسَادِ تَرْبِيَتِهِ وَدَوَاؤُهُ النَّصِيحَةُ وَالْإِرْشَادُ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا مَفْرُوضٌ عَلَى إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ لَمْ يَقْبَلِ النَّصِيحَةَ بِالْقَوْلِ فَعِلَاجُهُ مِنْ جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَمِنْ حُكُومَتِهِمْ مَعْرُوفٌ، وَكَذَا إِذَا كَانَ التَّرْكُ مِنَ الْجَمَاعَاتِ الْكَبِيرَةِ أَوِ الصَّغِيرَةِ لِلْجَهْلِ أَوْ لِأَسْبَابٍ مَالِيَّةٍ أَوْ عَدَاوَةٍ شَخْصِيَّةٍ، أَوْ عَصَبِيَّةٍ

(130/388)

دُنْيَوِيَّةٍ، عِلَاجُ كُلِّ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ ظَاهِرٌ .

وَإِنَّمَا الْبَلَاءُ الْأَكْبَرُ وَالْمَوْتُ الْأَحْمَرُ وَالْخَطَرُ الْأَسْوَدُ الْمُظْلِمُ فَهُوَ اخْتِلَافُ الشِّيَعِ وَالْأَحْزَابِ فِي الدِّينِ، وَالزَّيْغُ عَنِ الْقُرْآنِ بِاتِّبَاعِ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ

تَأْوِيلِهِ، فَهَذَا الَّذِي أُشِيرُ إِلَيْهِ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ بِحِرْمَانِ أَهْلِهِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ فِي قَوْلِهِ: وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ 118 و119 وَالْمُرَادُ بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ فِي الدُّنْيَا مَا وَعَدَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَاخْتَصَّهُمْ بِهِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا مَا هُوَ فِي رَحْمَتِهِ الْمُطْلَقَةِ كَقَوْلِهِ: إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ

رَحِيمٌ 9 : 117 ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا 33 : 43 وَمِنْهَا مَا هُوَ خَاصٌّ بِرَحْمَتِهِ بِكِتَابِهِ الْأَخِيرِ الَّذِي أَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ وَأَتَمَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَتَهُ ، كَقَوْلِهِ فِيهِ : وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ 10 : 57 وَمِنْهَا مَا هُوَ خَاصٌّ بِرَحْمَتِهِ بِرَسُولِهِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، وَهُوَ وَصْفُهُ - تَعَالَى - إِيَّاهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي قَوْلِهِ : بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ 9 : 128 فَهَذِهِ الرَّحْمَةُ الْخَاصَّةُ بِالْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ الْأَوَّلِ الْآخِرِ ، وَبِكِتَابِهِ الْأَخِيرِ وَبِنَبِيِّهِ الْخَاتَمِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا تَتِمُّ لِأَفْرَادِهِمْ إِلَّا بِتَمَامِ الِاهْتِدَاءِ وَالِاتِّبَاعِ لِمَا كُلِّفُوهُ

(131/388)

بِقَدْرِ الِاسْتِطَاعَةِ الشَّخْصِيَّةِ ، وَلَا تَكُونُ لِجَمَاعَتِهِمْ - وَهِيَ الْأُمَّةُ - إِلَّا بِاعْتِصَامِهَا بِحَبْلِ اللَّهِ وَعُرْوَةِ الْوَحْدَةِ الْوُثْقَى ، بِاجْتِنَابِ السَّوَادِ الْأَعْظَمِ مِنْهَا لِمَا نُهُوا عَنْهُ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالتَّنَازُعِ فِي الْأُصُولِ الْقَطْعِيَّةِ مِنَ النُّصُوصِ وَالسُّنَّةِ الْعَمَلِيَّةِ ، وَرَدِّ الِاخْتِلَافِ وَالتَّنَازُعِ فِي غَيْرِ الْقَطْعِيِّ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثُمَّ إِلَى تَرْجِيحِ أُولِي الْأَمْرِ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ مِنَ السِّيَاسَةِ وَالْقَضَاءِ ، وَتَرْجِيحِ الْأَفْرَادِ فِي الْمَسَائِلِ الِاجْتِهَادِيَّةِ الْخَاصَّةِ ، وَقَدْ فَصَّلْنَا هَذَا فِي مَوَاضِعِهِ ، فَالْحَقُّ فِيهِ ظَاهِرٌ ، وَلَكِنَّ تَنْفِيذَهُ يَتَوَقَّفُ عَلَى وُجُودِ الْجَمَاعَةِ الَّتِي أَمَرَنَا الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِاتِّبَاعِهَا وَعَدَمِ مُفَارَقَتِهَا قِيدَ شَعْرَةٍ

، وَهِيَ جَمَاعَةُ (أُولِي الْأَمْرِ) وَأَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، وَهُمُ الَّذِينَ يَثِقُ بِهِمُ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْأُمَّةِ ، وَيَنُوطُ بِهِمُ الشَّرْعُ نَصْبَ الْأَئِمَّةِ (الْخُلَفَاءِ) وَالسَّلَاطِينِ عَلَيْهَا وَعَزْلَهُمْ ، وَقَدْ فُقِدُوا مِنْ أُمَّتِنَا بِاسْتِبْدَادِ الظَّالِمِينَ مِنْ مُلُوكِ الْعَصَبِيَّاتِ الْمُخْتَلِفَةِ بَعْدَ أَنْ قَضَى عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ ، وَتَبَرَّأَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِمَّنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ وَمِمَّنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ .

فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُصْلِحِينَ وَضْعُ نِظَامٍ لِإِعَادَةِ حُكْمِ الْإِسْلَامِ وَقَدْ بَسَطْنَاهُ فِي كِتَابِ (الْخِلَافَةِ أَوِ الْإِمَامَةِ الْعُظْمَى) .

(132/388)

وَأَخْتِمُ هَذِهِ الْخُلَاصَةَ بِحَدِيثِ : (شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا) رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ وَأَبِي جُحَيْفَةَ مَرْفُوعًا وَأَشَارَ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ إِلَى صِحَّتِهِ . وَرُوِيَ عَنْ بِضْعَةِ نَفَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ بِزِيَادَةِ (قَبْلَ الْمَشِيبِ) وَبِزِيَادَةِ (وَأَخَوَاتُهَا) مِنَ الْمُفَصَّلِ فِي بَعْضِهَا ، وَبِتَسْمِيَةِ الْوَاقِعَةِ وَالْحَاقَّةِ وَالْمُرْسَلَاتِ وَالنَّبَأِ (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ) وَغَيْرِهَا مِنْ سُوَرِ قِيَامِ السَّاعَةِ فِي بَعْضٍ . وَأَسَانِيدُهَا حَسَنَةٌ فَلْيَتَدَبَّرْهَا الْمُؤْمِنُونَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 206.162 ﴾

(133/388)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

كلام جامع وهو تذييل للسورة مؤذن بختامها ، فهو من براعة المقطع .

والواو عاطفة كلاماً على كلام ، أوْ واو الاعتراض في آخر الكلام ومثله كثير .

واللاّم في ﴿ لله ﴾ للملك وهو ملك إحاطة العلم ، أي لله ما غاب عن علم الناس في السماوات والأرض .

وهذا كلام يجمع بشارة المؤمنين بما وُعدوا من النعيم المغيب عنهم ، ونذارة المشركين بما تُوعَدوا به من العذاب المغيب عنهم في الدنيا والآخرة .

وتقديم المجروريْن في ﴿ ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر ﴾ لإفادة الاختصاص ، أي الله لا غيره يملك غيب السماوات والأرض ، لأنّ ذلك ممّا لا يشاركه فيه أحد .

وإلى الله لا إلى غيره يرجع الأمر كله ، وهو تعريض بفساد آراء الذين عبدوا غيره ، لأنّ من لم يكن كذلك لا يستحق أن يعبد ، ومن كان كذلك كان حقيقاً بأن يفرد بالعبادة .

ومعنى إرجاع الأمر إليه : أنّ أمر التّدبير والنصر والخذلان وغير ذلك يرجع إلى الله ، أي إلى علمه وقدرته ، وإنْ حسَب الناس وهيّأوا فطالما كانت الأمور حاصلة على خلاف ما

استعد إليه المستعد ، وكثيراً ما اعتزّ العزيز بعزّته فلقي الخذلان من حيث لا يرتقب ، وربّما كان المستضعفون بمحل العزة والنصرة على أولي العزة والقوة .

والتعريف في ﴿ الأمر ﴾ تعريف الجنس فيعمّ الأمور ، وتأكيد الأمر بـ ﴿ كله ﴾ للتّنصيص على العموم .

وقرأ مَن عدا نافعاً ﴿ يرجع ﴾ ببناء الفعل بصيغة النائب ، أي يرجع كل ذي أمر أمره إلى الله .

وقرأه نافع بصيغة الفاعل على أن يكون (الأمر) هو فاعل الرجوع ، أي يرجع هو إلى الله .

وعلى كلتا القراءتين فالرجوع تمثيل لهيئة عجز الناس عن التصرف في الأمور حسب رغباتهم بهيئة متناول شيء للتصَرّف به ثم عدم استطاعته التصرف به فيرجعه إلى الحري بالتصرف به ، أو تمثيل لهيئة خضوع الأمور إلى تصرف الله دون تصرّف المحاولين التصرف فيها بهيئة المتجوّل الباحث عن مكان يستقرّ به ثم إيوائه إلى المقرّ اللائق به ورجوعه إليه ، فهي تمثيلية مكنية رُمز إليها بفعل ﴿ يرجع ﴾ وتعديته بـ ﴿ إليه ﴾ .

وتفريع أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعبادة الله والتوكّل عليه على رجوع الأمر كله إليه

ظاهر، لأنّ الله هو الحقيق بأن يعبد وأن يتوكّل عليه في كلّ مهم.

وهو تعريض بالتخطئة للذين عبدوا غيره وتوكلوا على شفاعة الآلهة ونفعها.

ويتضمّن أمر النبي عليه الصلاة والسّلام بالدّوام على العبادة والتوكّل.

والمراد أن يعبده دون غيره ويتوكّل عليه دون غيره بقرينة ﴿ وإليه يرجع الأمر كلّه ﴾، وبقرينة التفريع لأنّ الذي يرجع إليه كل أمر لا يعقل أن يصرف شيء من العبادة ولا من التوكّل إلى غيره، فلذلك لم يؤتَ بصيغة تدل على تخصيصه بالعبادة للاستغناء عن ذلك بوجوب سبب تخصيصه بهما.

وجملة ﴿ وما ربك بغافل عَمّا تعملون ﴾ فذلكة جامعة، فهو تذييل لما تقدّم.

والواو فيه كَالْوَاو في قوله: ﴿ ولله غيبُ السّماوات والأرض ﴾ فإنّ عدم غفلته عن أيّ عمل أنّه يعطي كل عامل جزاء عمله إنْ خيرا فخير وإنْ شراً فشرّ، ولذلك علّق وصف الغافل بالعمل ولم يعلّق بالذوات نحو: بغافل عنكم، إيماء إلى أنّ على العمل جزاء.

وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر، ويعقوب "عمّا تعملون" بتاء فوقية خطاباً للنبيء صلى الله عليه وسلم والناس معه في الخطاب.

وقرأ من عداهم بالمثّناة التحتيّة على أن يعود الضمير إلى الكفّار فهو تسلية للنبيء عليه الصلاة والسّلام وتهديد للمشركين. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

أي : أن ما جاء من ذكر حكيم هو أمر غائب عنكم ، يخبركم به الله سبحانه من خلال ما يُنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقد شاء الحق سبحانه أن يحفظ هذا الذِّكْر الحكيم ، ثقة منه سبحانه أنه إذا أخبرنا في القرآن بخبر لم يجيء أوانه ، فَلْنفهم أنه قد أخبر بما له من أزلية علم بالكون وما يجري فيه ، وبما له من قدرة مطلقة تتحكم فيما يؤول إليه أمر المُختار من الكائنات مؤمنهم وكافرهم فإذا حدثنا القرآن بشيء مما يغيب عن الإنسان ، فلنعلم أنه إخبار بصدق مطلق .

وهناك الكثير مما يغيب عن الإنسان ، وهناك حجاب بين وسائل إدراك الإنسان وبين بعض المُدْركات ، ومرة يكون الحجاب حجابَ زمنٍ ، فإذا أخبر الله تعالى عن أمر لم نشهده من قديم قد أَوْغَلَ في الزمن ، ولم يقرأه النبي صلى الله عليه وسلم في كتاب ولم يسمعه من معلِّم ؛ فهذا كَشْف لحجاب الماضي .

ولذلك فبعض سور القرآن الكريم يسميها العلماء " ماكُنات القرآن " مثل قوله الحق : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : 44] .

وغير ذلك من الآيات التي تبدأ بقوله الحق : ﴿ مَا كُنْتَ ﴾ .

وقد كان هناك أناس في ذلك الماضي يدركون ما صار غيباً عن الرسول ومَنْ معه ؛ لكن الحق سبحانه أظهر هذا الغيب للرسول الذي لم يجلس إلى مُعلِّم بشهادة أعدائه ، وكذلك كشف الحق سبحانه لرسوله حجاب الزمان وحجاب المكان .

ومَنْ ينكشف له حجاب الزمان وحجاب المكان ؛ إنما ينكشف له حجاب المستقبل أيضاً ، والذي كشف هذا هو الحق سبحانه الذي قدَّر مجيء هذا العالم ، وما سوف يحدث فيه إلى أن تقوم الساعة .

(136/388)

وقد طمر الحق سبحانه في القرآن أموراً لو كُشف عنها في زمن بَعْثة الرسول ؛ لكان الحديث عنها فوق مستوى العقول والإدراك ؛ وتحدث سبحانه عن وقائع مستقبلية بالنسبة للمعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لم يكن أحد يتوقعها .

وكانت هناك معركة بين أرقى حضارتين معاصرتين للإسلام ؛ حضارة فارس وحضارة الروم ، وكانت الحضارتان تتنازعان السيطرة وتوسيع مناطق النفوذ . وهَزَمَتْ فارس التي لا تؤمن بإله امبراطورية الروم التي تعتنق المسيحية ، ولا تؤمن برسالة محمد الخاتمة .

لذلك حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهزيمة الذين يؤمنون بإله في السماء ؛ فَيُسرِّي الله سبحانه الأمر على رسوله ، ويُنزِل الحق سبحانه قرآناً يُتلى على مَرِّ العصور وكل الأزمان ؛ يحمل نبوءة انتصار الروم بعد هزيمتهم من الفرس .

ويقول سبحانه : ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ [الروم : 15] .

هكذا تأتي النبوءة في القرآن تحمل التحديد لميعاد نصر الروم في بضع سنين ؛ و " البِضْع " يقصد به من ثلاث لتسع سنوات .

وإنْ قيل : تلك نبوءة محمد ، نقول : ما عِلْم محمد بأخبار المعسكرين ولا بأسرار السياسة الداخلية لهما ؟

وقد جاء نصر الروم كما حدد القرآن ، وكان هذا هَتْكاً للحجب ، حجاب الزمان ، وحجاب المكان ، وحجاب الناس ، وأوحى به الحق سبحانه عالم الغيب المطلق لرسوله صلى الله عليه وسلم .

والغيب المطلق هو الذي لا يعرفه إلا الحق تبارك وتعالى وليس له مقدمات ، ويكشفه الله لمن يرتضيه ، مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿ عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن : 2627] .

وهذا الغيب المطلق يختلف عن الغيب المقيّد الذي له مقدمات ؛ ما إن يأخذ بها الإنسان ويرتبها حتى يصل إلى اكتشاف سرٍ من أسرار الكون .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة : 255] .

وهكذا نعلم أن كل المكتشفات كانت موجودة في الكون ومطمورة فيه ؛ وجعل الله تعالى لكل مستور منها ميلاداً ، فالبخار واستخدامه في الحركات كان له ميلاد ؛ والكهرباء كان لها ميلاد ؛ واكتشاف الذرة كقوة ومصدر للطاقة كان له ميلاد ، وكل مُكْتَشف ومُخْتَرع له ميلاد ، وتتوالى مواليد الغيب مستقبلاً ، وفي ميلادها إيمان اليقين بمن أخفاه وأظهره ، وهو الله الحكيم .

وقد يأتي هذا الميلاد بكشف وبحث ؛ وقد يُظهره الله بدون بَحْث ؛ أو يُظهره صدفة ؛ مثلما أظهر قانون الطفو النابع من قاعدة " أرشميدس " ومثلما أظهر الحق سبحانه قانون الجاذبية صدفة ؛ أي : أنه سبب من الأسباب جعل عبداً من عباده يبحث في شيء ،

فيظهر له شيء لم يكن يبحث عنه ؛ ولذلك نسب الحق سبحانه الإحاطة له سبحانه .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ ﴾ [هود : 123] .

ولم يقل : " إليه يَرْجع الأمر كله " ، لأنه سبحانه ضبط كل مخلوق على قدر .

ولله المثل الأعلى : كما تضبط أنت المنبه على ميقات معين ، وكما يضبط المقاتل القنبلة لتنفجر في توقيت معين ، والكون كله مُرتَّب على هذا الترتيب .

والله سبحانه القائل :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] .

فكل شيء إما يرجع إلى الله في التوقيت الذي شاءه الله .

(138/388)

أو : أن الأمر هو كل ما يتعلق بكائن حي ؛ لأن الحق سبحانه قد خلق في الكون أشياء وترك ملكيتها له سبحانه والحق سبحانه لا ينتفع بها ، أما الإنسان فينتفع بها ، وإن كان لا يقربها ولا يملكها ، مثل : الشمس التي ترسل أشعتها ، ويستفيد الإنسان بضوئها وحرارتها ، وهي لا تدخل في ملكية الإنسان ؛ لأنها من أساسيات الحياة ؛ لذلك لم يجعل للإنسان الذي

خَصَّه الله بخاصية الاختيار حق ملكيتها أو الاقتراب منها ؛ حتى لا يعبث بها .

وكذلك كل أساسيات الحياة جعلها الحق سبحانه في سلطته وحده ، ولم يَأْمَنْ أحداً من خلقه عليها ، مثل الأرض بعناصرها ، وكذلك الماء والهواء حتى لا يعبث أحد بأنفاس الهواء لأحد آخر .

شاء الحق سبحانه أن يجعل الأساسيات في يده دون أن يُملِّكها لأحد ؛ رحمةً منه بنا ، ذلك أنه سبحانه عَلِمَ أن الإنسان بما تعتريه من أغيار قد يسيء استخدام تلك الأساسيات .

وسَخَّر الله هذه الأساسيات لخدمة كل المخلوقات ، وسخَّر بعض المخلوقات ليسُوسها الإنسان ، وبعض المخلوقات الآخر لم يستطع الإنسان تسخيره ، وحتى قوة الإنسان نفسه ؛ شاء الحق سبحانه أن يجعلها أغياراً ؛ فالقوي يسير إلى الضَّعْف ، والفقير قد يصبح غنياً .

وهكذا يَثْبت لنا أن كل ما نملك موهوب لنا من الله تعالى وليس هناك ما هو ذاتيٌّ فِينا ، وما نملكه اليوم لا يخرج عن الملكية الموقوتة ، فإذا جاء يوم القيامة ؛ رجع كل ما نملك لله سبحانه وتعالى .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] .

ولذلك أيضاً تشهد الجوارح على الإنسان ؛ لأنها تخرج عن التسخير الذي كانت عليه في الدنيا .

وإذا كان الحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض ﴾ [هود : 123] .

فهو سبحانه يقول في آية أخرى : ﴿ لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثرى ﴾ [طه : 6] .

(139/388)

وكأن الحق سبحانه ينبه البشر منذ نزول القرآن إلى أهمية ما تحت الثرى من كنوز يمتنُّ الله تعالى بها على عباده أنه يملكها .

ونحن نعيش الآن باستخراج المكنوز الذي تحت الثرى .

وحين يقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ ﴾ [هود : 123] .

ففي ذلك تنبيه لكل إنسان ، ليعمل مُسْتهدفاً النجاة حين لا يكون لنفسه على نفسه سبيل يوم القيامة .

وليعلم كل إنسان أن كل ما يستمتع به هو من فيوضات الحق الأعلى الذي أعطى الإنسان قدرة من باطن قوته سبحانه وأعطاه غِنًى من باطن غِنَاه سبحانه وأعطاه حكمة من باطن

حكمته سبحانه وأعطاه قبضاً وبسطاً من باطن قدرته سبحانه وكذلك أعطى لعبيده من كل صفة بعضاً من فَيْضها ، ثم تظل الفيوضات للحق سبحانه وتعالى .

وحين يشاء فهو يسلب كل الفيوضات ويعود الأمر إليه ، لأن الأمر كله له سبحانه .

فإنْ حُدِّثتَ في القرآن بأمر تغيب عنك مقدماتُه ، فاعلمْ أن الذي أنزل هذا الكتاب لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض .

ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم على ثقة أن الحق سبحانه حين أمره أن يتوعد أعداء الدين فهو يُطمئنه أن المرجع في كل الأمور إليه سبحانه .

واطمأن الرسول صلى الله عليه وسلم والذين معه أن أعداء الدين إنْ لم يُجازَوْا في الدنيا ، فغداً ترجع الأمور كلها إلى الله ، وإن كان الحق قد مَلَّكهم أشياء ؛ فسيسلُبهم هذه الملكية في الآخرة ، وإنْ كان قد أعطاهم الخِيَار في الدنيا ؛ خِيَار أنْ يؤمنوا ويطيعوا ، أو أنْ يكفروا ويعصوا ؛ فهذا الاختيار سيزول عنهم في الآخرة ، وكل مالك لمُلْك يصير مُلْكه بعده إلى الله .

وما دام الأمرُ كذلك فلنعبد الله وحده سبحانه لأنه صاحبُ الأمر فيما مضى ؛ وله الأمر الآن ؛ وله الأمر فيما يأتي .

وهو سبحانه الذي شاء ، فجعل للإنسان ثلاثة أزمان : زمان سَبَقَ وجود آدم ؛ وزمان من بعد آدم إلى وجود أيٍّ منا ؛ ثم زمان مستقبل إلى ما لا نهاية ؛ وبذلك يكون لكل منا زمان ماضٍ ؛ وزمان حاضر وزمان مستقبل ، وكل منا يدور في فلك الأحداث .

ومن المنطقي بعد أن تستمتع بوجودك في الحياة ؛ وتنضج عقلياً أن تتساءل عن ماضيك ، وتاريخ الجنس البشري .

وأنت في هذه الحالة تكون رَهْناً بثقة المحدِّث : هل يقول الصدق أم يقول الكذب ؟ خُصوصاً إذا كان الحديث عن تاريخ ما قبل آدم ، ولا بد أنْ تقول لنفسك : لا يمكن أن يُحدِّثني عن ذلك إلا مَنْ خلقني .

وساعة يُبلِّغُكَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بداية الخلق قائلاً : "كان الله ، ولم يكُنْ شيء غيره" .

ومعنى ذلك أن الصادق الوحيد الذي يمكن أن نقبل منه كلاماً عمَّا فاتَ قبل آدم هو الله سبحانه وتعالى .

وإنْ سألتَ : لماذا وُجِدتُ في زمني هذا ، ولم أوجد في زمن آخر ؟ هنا ستقول لنفسك إنْ كنت مؤمناً : "إن مشيئة وإرادة مَنْ أوجدني هي التي رجَّحتْ وجودي في هذا الزمن عن أي زمن آخر" .

ولا بد أن تسأل نفسك : وما المطلوب مني ؟

وستجد أن المطلوب منك هو حركة الحياة ؛ لأن تلك الحركة هي الفاصل بين الحياة والموت ، والحق يقول : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأرض واستعمركم فِيهَا ﴾ [هود : 61] .

فقد أعطاك الحق سبحانه العقل لتفكر ، وأعطاك الطاقة لتفعل ، وسخَّر لك الكون بالمطمور فيه من الرزق ؛ لتستخرجه وتتعيش منه .

وهكذا يتضح لك أن كل شيء يحتاج منك أن تتحرك ، وأنت في حركتك تحتاج لطاقة تأخذها من الأعلى منك وتعطي للأدنى منك ؛ لذلك أنت تأخذ طاقة من الأعلى منك ، وتُعطي للأدنى منك .

وأنت تعلم أن قمة المطلوب منك أن تُصلي بين يدي الله خمس مرات كل يوم ؛ لتشحن طاقتك وتخرج للحياة بعد أن تُجِدّد ولاءك لمن خلقك وخلق الأكوان كلها ، وإنْ أحسنتَ الوقوف بين يدي الله سيأتي مستقبلك مبنياً على هذا الإحسان .

(141/388)

والحق سبحانه يعطينا مثلاً لهاتين الحركتين ، فيقول :

﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع ﴾ [

الجمعة : 9] .

هذه حركة يأخذ فيها الإنسان طاقة من الأعلى ، فالسعي إلى ذكر الله وترك البيع من أجل ذلك يعطي الإنسان طاقة إيمانية ، يظهر أثرها في الحركة الثانية من حركات الإنسان .

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد هذا :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله واذكروا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة : 10] .

ولذلك يقول الحق سبحانه في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ فاعبده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : 123] .

أي : أطِع الله في أمره ؛ لأنه سبحانه الأعلى منك ، بأن تؤدي المطلوب العبادي من : صلاة ، وزكاة ، وصيام ، وحج إنِ استطعتَ لذلك سبيلاً ، لتأخذ من المدد الأعلى ما يعينك في حركتك الثانية التي تتحركها في الكون .

ومن العجيب أن حركتك في الكون الأدنى تُعينك على حركتك لاستمداد الطاقة من مُكوِّن الكون سبحانه .

فأنت حين تصلي تحتاج لِسَتْر عورتك بثوب ، وحتى تأتي بالثوب لا بد لك من أن تعتمد على حركة الفلاح في الزراعة ، وحركة العامل في النَسْج ، وحركة التاجر في البيع ، وحركتك في عملك الذي يتيح لك أجراً تشتري منه الثوب .

وبذلك تكون قد أخذتَ كل علوم الحياة ؛ لكي تذهب للصلاة لتأخذ المدد من المدد الأعلى .

وهكذا تجد أنك في حركة دائرة ؛ تأخذ المدد من الأعلى لتعطي الكون الأدنى ، وتأخذ من الأدنى ما يتيح لك الوقوف بين يدي صاحب المدد الأعلى .

(142/388)

وبهذا يثبت لك أن الحركة في الحياة الحاضرة لكل إنسان بالنسبة لعمره في الحياة ، هي استقبال من المدد الأعلى ، وانفعال مع المدد الأدنى ، وكل منهما يعين على الآخر ؛ لذلك فعليك أن تعبد الله بأن تنظِّم حركة حياتك على ضوء منهجه سبحانه .

واعلم أنه ستصادفك المصاعب فإن صادفتك فتوكل على الله ، وتلك فائدة من فوائد استمرار ولائك لله الذي تأخذ منه المدد .

ولذلك "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة" .

ومعنى "حزبة" أي خرج عن أسبابه ، لذلك فهو يذهب إلى المسبب الأعلى ، فإنْ عبدتَ الله وتوكلتَ عليه ؛ فهو يعينك ؛ لأنه سبحانه لا يغفل عما نعمل .

وهذه الآية تدلُّك على السعادة في الحاضر والمستقبل ؛ لأنك إن كنت ترعى الله فسبحانه

يكتب لك الحسنة بعشرة أمثالها ، وقد يضاعف عن ذلك ، وتُكتب السيئة بمثلها .

وبذلك تكون هذه الآية قد استوعبت وانتظمت حال الإنسان : قبل حياته ، وحاضر حياته ، ومستقبل حياته إلى أن تقوم الساعة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : 24]

.

فدعوة الله بالطاعة ، ودعوة الرسول بالسلوك السَّوِيّ يعطي للمؤمن حياة الحياة ، وهي حياة تعيش في معية الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(143/388)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123) ﴾

عمَّى عن قلوبهم العواقبَ ، وأخفى دونهم السوابق ، وألزمهم القيامَ بما كلَّفهم في الحال ،

فقال : ﴿ فَاعْبُدْهُ ﴾ فإنْ تقسَّمَ القلبُ وتَرَجَّمَ الظَنُّ وخيف سوءُ العاقبة . . فتوكَّلْ عليه أي اسْتَدْفِعْ البلاءَ عنك بِحُسْنِ الظَّنّ ، وجميل الأمل ، ودوام الرجاء .

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ : أحاط بكل شيءٍ عِلْماً ، وأمضى في كل أمرٍ حُكْماً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 164 ﴾

(144/388)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا ﴾ التسع ، ﴿ وسلطان مُّبِينٍ ﴾ يعني : حجة بينة ، ﴿ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ يعني : قومه ، ﴿ فاتبعوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ يعني : أطاعوا قول فرعون حين قال : ﴿ يا قوم لَكُمُ الملك اليوم ظاهرين فِى الأرض فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ الله إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أرى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ [غافر : 29] فأطاعوه في ذلك ، وحين قال لهم : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يا أيها الملأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مّنْ إله غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى ياهامان عَلَى الطين فاجعل لِّى صَرْحاً لعلى أَطَّلِعُ إلى إله موسى وَإِنّى لأَظُنُّهُ مِنَ الكاذبين ﴾ [القصص : 38] ، فأطاعوه وتركوا موسى .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ يقول : ما قول فرعون بصواب .

قوله تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة ﴾ يقول : يتقدم أمام قومه يوم القيامة ، وهم خلفه ، كما كانوا يتبعونه في الدنيا ، ويقودهم إلي النار ، ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النار ﴾ يقول : أدخلهم النار ، ﴿ وَبِئْسَ الورد المورود ﴾ يقول : بئس المدخل المدخول ، يعني : بئس المصير الذي صاروا إليه .

قوله تعالى : ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هذه لَعْنَةً ﴾ يعني : جعل عليهم اللعنة في الدنيا ، وهو الغرق ، ﴿ وَيَوْمَ القيامة ﴾ لعنة أخرى ، وهي النار ، ﴿ بِئْسَ الرفد المرفود ﴾ يعني : اللعنة على أثر اللعنة ، ومعناه : بئس الغرق وزفرة النار ، ترادفت عليهم اللعنتان ، لعنة الدنيا الغرق ، ولعنة الآخرة النار .

(145/388)

وقال القتبي : ﴿ بِئْسَ الرفد المرفود ﴾ يعني : بئس العطاء المعطى ، يقال : رفدته أي : أعطيته ، وقال الزجاج : كل شيء جعلته عوناً لشيء ، وأسندت به شيئاً فقد رفدته وقال قتادة : في قوله : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ ﴾ يعني يمضي بين أيديهم ، حتى يهجم بهم على النار .

وفي قوله : ﴿ بِئْسَ الرفد المرفود ﴾ قال : لعنة في الدنيا ، وزيدوا بها اللعنة في الآخرة .

قوله تعالى ﴿ ذلك مِنْ أَنبَاءِ القرى ﴾ يعني : هذا الذي وصفت لك وقصصت عليك من أخبار الأمم ، والقرون الماضية ، ﴿ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ يعني : ينزل جبريل ، ليقرأ عليك ليكون فيها دلالة نبوتك ، ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ يعني : من تلك القرى قائم ، ومنها ما هو حصيد والقائم ، يعني : الظاهر ينظر إليه الناظر ، والحصيد : الذي قد أبيد وحصد ، يعني : خرب وهلك أصحابه .

ويقال : القائم على بنيانه ، والحصيد ما خرب .

وقال قتادة : منها قائم ، يعني : خاوية على عروشها وحصيد ، يعني : مستأصلة .

وقال الضحاك : منها قائم ، يعني : مدينة عاد هلكوا ، وبقيت مساكنهم ، وحصيد ، يعني : مدائن قوم لوط ، حصدت أي قلعت من الأرض السفلى .

ثم قال تعالى ﴿ وَمَا ظلمناهم ﴾ يعني : لم نعذبهم بغير ذنب ، ﴿ ولكن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ يعني : أضروا بأنفسهم حيث أكلوا رزق الله ، وعبدوا غيره ، وكذبوا رسله ، ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءالِهَتُهُمُ ﴾ يعني : ما نفعتهم عبادة آلهتهم ، ﴿ التى يَدْعُونَ مِن دُونِ الله مِن شَىْء ﴾ إنما سماهم آلهة على وجه المجاز ، يعني : آلهتهم بزعمهم ، ولم يكونوا آلهة في الحقيقة .

ومعناه : لم تقدر أصنامهم أن تمنعهم من عذاب الله من شيء ، ﴿ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ يعني : حين جاء عذاب ربك ، وقال القتبي : إذا رأيت لِلَمَّا جواباً فهو بمعنى حين ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ فأغرقناهم أَجْمَعِينَ ﴾ [الزخرف : 55] يعني : حين أغضبونا ، وكقوله : ﴿ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ يعني : حين جاء أمر ربك ، يعني : عذاب ربك ، ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ يعني : غير تخسير ، كقوله : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد : 1] أي خسرت .

قوله تعالى ﴿ وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ ﴾ يعني : هكذا عقوبة ربك ، ﴿ إِذَآ أَخَذَ القرى ﴾ يعني : إذا عاقب القرى ، ﴿ وَهِىَ ظالمة ﴾ يعني : أهلها كفار ، جاحدون بوحدانية الله تعالى .

قرأ عاصم الجحدري : ﴿ إِذْ أَخَذَ ﴾ ، بألف واحدة ، لأن إذ تستعمل للماضي ، وإذا تستعمل للمستقبل ، وهذه حكاية من الماضي ، يعني : حين أخذ ربك القرى .

وهي قراءة شاذة ، وقراءة العامة : ﴿ إِذَآ أَخَذَ ﴾ بألفين ، ومعناه : أخذ ربك متى أخذ القرى .

ثم قال ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ يعني : عقوبته مؤلمة شديدة .

وروى أبو موسى الأشعري ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى

يُمْلِي للظَّالِمِ حَتَّى إذا أخذه لم يُفْلِتْه " .

ثم قرأ : ﴿ وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إذا أَخَذَ القرى وَهِيَ ظالمة ﴾ الآية .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً ﴾ يعني : في الذي أخبرتك عن الأمم الخالية لعبرة ، ﴿ لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخرة ﴾ ويقال : في عذابهم موعظة ، وعبرة بالغة لمن آمن بالله ، واليوم الآخر .

ويقال : فيه عبرة لمن أيقن بالنار ، وأقرّ بالبعث ﴿ ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس ﴾ يعني : مجموع فيه الأولون والآخرون ﴿ وذلك يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ يشهده أهل السموات ، وأهل الأرض .

(147/388)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ يعني : إلى حين معلوم .

ويقال : لانقضاء أيام الدنيا .

ومعناه : أنا قادر على إقامتها الآن ، ولكن أؤخرها إلى وقت معدود ، ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ يعني : إذا جاء يوم القيامة ، ويقال : يوم يأت ذلك اليوم ، ﴿ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ يعني : لا تكلم نفس بالشفاعة ، إلا بأمره ، ويقال : معناه : لا يجترىء أحد أن يتكلم من هيبته ،

وسلطانه بالاحتجاج، وإقامة العذر إلا بإذنه.

قرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ بغير ياء في الوصل والقطع، وقرأ الباقون : بالياء عند الوصل.

قال أبو عبيدة: القراءة عندنا على حذف الياء، في الوصل والوقف.

قال: ورأيت في مصحف الإمام عثمان: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ بغير ياء، وهي لغة هذيل.

قال: وروي عن عثمان، أنه عرض عليه المصحف، فوجد حروفاً من اللحن، فقال: لو كان الكاتب من ثقيف، والمملي من هذيل، لم توجد فيه هذه الحروف، فكانت قدم هذيلاً في الفصاحة.

ثم قال ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ يعني: يوم القيامة من الناس شَقِيٌّ معذب في النار، وسعيد، يعني: مكرم في الجنة.

قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا الذين شَقُوا ﴾ يعني: كتب عليهم الشقاوة، ﴿ فَفِى النار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ قال الربيع بن أنس الزَّفير في الحلق، والشهيق في الصدر، وروي عن ابن عباس ، أنه قال: زفير كزفير الحمار، وهو أول ما ينهق الحمار والشهيق، وهو أول ما يفرغ من نهيقه في آخره.

ويقال: زفير وشهيق، معناه: أنيناً وصراخاً، ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ يعني: مقيمين دائمين

في النار ﴿ مَا دَامَتِ السموات والأرض ﴾ يعني : سماء الجنة وأرضها : ﴿ إِلَّا مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ يعني : إلا من أخرجهم منها وهم الموحدون .

(148/388)

وقال الكلبي ، ومقاتل : ﴿ خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض ﴾ يعني : كما تدوم السموات والأرض ، لأهل الدنيا ، فكذلك يدوم الأشقياء في النار ﴿ إِلَّا مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ أي : الموحدون ، يخرجون من النار .

وقال الضحاك : يعني : سماء القيامة وأرضها ، وهما باقيتان .

ويقال : العرب كانت من عادتهم ، أنهم إذا ذكروا الأبد يقولون : ما دامت السموات والأرض ، فذكر على عادتهم ، ومعناه : إنهم خالدون فيها أبداً .

ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لّمَا يُرِيدُ ﴾ إن شاء أدخل النار خالداً ، وإن شاء أخرجه إن كان موحداً ، وأدخله الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الذين سُعِدُواْ ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ، في رواية حفص : ﴿ سُعِدُواْ ﴾ بضم السين .

وقرأ الباقون بنصب السين .

فمن قرأ بالنصب ، فمعناه : الذين استوجبوا السعادة في الجنة ، ومن قرأ بالضم ، فمعناه : وأما الذين سُعِدُوا ، أي قدر لهم السعادة ، وخلقوا للسعادة ﴿ فَفِى الجنة خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ أن يحبس في المحشر ، وعلى الصراط .

ويقال : الذين شقوا يعني : الكفار ، والذين سعدوا المؤمنين ، ومعناه : الكفار في النار إلا ما شاء الله أن يسلموا ، والمؤمنون في الجنة إلا ما شاء الله أن يرجعوا عن الإسلام .

ويقال : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ يعني : قد شاء ربك .

ثم قال : ﴿ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ يعني : رزقاً غير منقطع عنهم ، ولا ينقص من ثمارهم ، ولا من نعمتهم .

(149/388)

ثم قال تعالى : ﴿ فَلاَ تَكُ فِى مِرْيَةٍ ﴾ يعني : في شك ﴿ مّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاء ﴾ إن الله تعالى يعاقبهم بذلك ، ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ ءابَاؤُهُم مّن قَبْلُ ﴾ يعني : لا يرغبون في التوحيد ، كما لم يرغب آباؤهم من قبل ، الذين هلكوا ، ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ يعني : نوف لهم ولآبائهم حظهم ، من العذاب غير منقوص عنهم ، وهو قول مقاتل .

وقال سعيد بن جبير : نصيبهم من الكتاب ، الذي كتب في اللوح المحفوظ ، من السعادة والشقاوة .

وقال مجاهد : ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ يعني : ما قدر لهم من خير ، أو شر .

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ يعني : أعطينا موسى التوراة ﴿ فاختلف فِيهِ ﴾ يعني : آمن به بعضهم وكفر به بعضهم ، وهذا تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم ، حتى يصبر كما صبر موسى على تكذيبهم ، ثم قال : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبّكَ ﴾ يعني : وجب قول ربك بتأخير العذاب عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ يعني : لجاءهم العذاب ، ولفرغ من هلاكهم ، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكّ مّنْهُ ﴾ يعني : من القرآن ، ﴿ مُرِيبٍ ﴾ يعني : ظاهر الشك .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، في رواية أبي بكر : ﴿ وَإِن كُلٌّ ﴾ بجزم النون ، وقرأ الباقون بالنصب والتشديد .

فمن قرأ بالجزم ، معناه : وما كل إلا ليوفينهم ، كقوله : ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس : 32] يعني : ما كلٌّ .

ومن قرأ بالتشديد ، يكون إنّ لتأكيد الكلام .

وقرأ حمزة ، وابن عامر وعاصم ، في رواية حفص : ﴿ لَّمّاً ﴾ بتشديد الميم ، وقرأ الباقون

بالتخفيف، فمن قرأ بالتخفيف، يكون لصلة الكلام، ومعناه: وإنّ كلاًّ ليوفينهم، فتكون ما صلة كقولهم: عما قليل، يعني: عن قليل.

(150/388)

ومن قرأ بالتشديد: يكون بمعنى إلاَّ، يعني: وإنّ كُلاًّ إلا ليوفينهم، كقوله:

﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق: 4] فمن قرأ بالتشديد كتلك الآية، يكون معناه: إلا عليها حافظ.

ومعنى الآية: إن كلا الفريقين ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ ﴾ ثواب ﴿ أعمالهم ﴾ بالخير خيراً، وبالشر شراً.

﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ من الخير والشر.

قوله تعالى: ﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ يعني: استقم على التوحيد، والطاعة كما أمرت ﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ أيضاً يستقيموا على التوحيد ﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ ﴾ أي: لا تعصوا الله، في التوحيد وطاعته.

﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ قال: حدّثنا محمد بن الفضل، قال: حدّثنا محمد بن جعفر، قال: حدّثنا إبراهيم بن يوسف، قال: حدّثنا أبو حفص، عن سعيد، عن قتادة، في قوله

تعالى : ﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ قال : إن الله تعالى أمر بالاستقامة على التوحيد ، وأن لا يطغى في نعمته .

وقال القتبي : ﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ يعني : امضِ على ما أمرت به .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الذين ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النار ﴾ قال قتادة : ولا ترجعوا إلى الشرك ، فتمسكم النار ، يعني : تصيبكم النار ، وقال أبو العالية : ولا ترضوا بأعمال أهل البدع .

والركون : هو الرضا .

ويقال : ولا تميلوا إلى دين الذين كفروا .

ويقال : ولا ترضوا قول الذين ظلموا .

وروى أبو هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : " المَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ ، لِيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلِ " .

وعن عبد الله بن مسعود ، أنه قال : اعتبروا الناس بأخدانهم .

ثم قال ﴿ وَمَا لَكُمْ مّن دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ يعني : حين تمسكم النار ، لم يكن لكم من عذاب الله من أولياء يعني : من أقرباء ينفعنكم ، ﴿ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ يعني : لا تمنعون من العذاب .

قوله تعالى : ﴿ اتل مَا ﴾ يعني : واستقم كما أمرت ، وأقم الصلاة ، أي : أتممها ، ﴿ طَرَفَىِ النهار ﴾ صلاة الفجر ، والظهر ، والعصر ، ﴿ وَزُلَفاً مِّنَ الليل ﴾ يعني : دخولاً من الليل ، ساعة بعد ساعة ، واحدها زلفة ، وهي صلاة المغرب ، والعشاء ، ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ يعني : الصلوات الخمس ، يكفرن السيئات فيما دون الكبائر ، ﴿ ذلك ذكرى لِلذكِرِينَ ﴾ يعني : الصلوات الخمس توبة للتائبين .

قال الكلبي : نزلت الآية في عمرو بن غزية الأنصاري ، ويقال : نزلت في شأن أبي اليسر ، كان يبيع التمر ، فجاءته امرأة تشتري تمراً ، فأدخلها في الحانوت ، وفعل بها كل شيء إلا الجماع ، ثم ندم ، فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية .

ويقال : نزلت في شأن أبي مقبل التمار .

وروي عن إبراهيم النخعي ، عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود ، أنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : إني لقيت امرأة في البستان فضممتها إليَّ ، وقبلتها وفعلت بها كل شيء ، غير أني لم أجامعها ، فسكت عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل ، وقرأها عليه ، فقال عمر رضي الله عنه : أله خاصة أم للناس كافة ؟ قال : " بل للناس كافة " .

وروى حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن أبي عثمان ، قال : كنت مع سلمان ، فأخذ غصناً من شجرة يابسة ، فحته ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ثُمَّ صَلَّى تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتَّ هذا الوَرَقُ " ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار ﴾ إلى آخرها .

(152/388)

ثم قال تعالى : ﴿ واصبر ﴾ يا محمد ، على التوحيد ، ولا تركن إلى الظلمة ، واصبر على ما أصابك ويقال : واصبر ، أي أقم على هذه الصلوات الخمس ، حتى لا تترك منها شيئاً ، ﴿ فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ يعني : ثواب الموحّدين المخلصين .

ويقال المقيمين على الصّلوات .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَ ﴾ يعني : فهلا كان ﴿ مِنَ القرون مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّتُ ﴾ يعني : ذوو بقية من آمن وقال مقاتل : يعني : فلم يكن من القرون من قبلكم أولو بقية ، يعني : ذو بقية من دين ، ﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ الفساد فِى الأرض إِلاَّ قَلِيلاً مّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ وهم الذين ينهون عن الفساد في الأرض .

وقال القتبي : فهلا أولو بقية من دين ، يقال : قوم لهم بقية ، إذا كان فيهم خير .

قال القتبي : إذا رأيت "فلولا" بغير جواب ، يريد به هلا ، كقوله : ﴿ فلولا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ولكن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : 43] ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخزى فِى الحياة الدنيا وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ ﴾ [يونس : 98] وقال بعض المفسرين : جعل "لولا" هاهنا .

وفي سورة يونس ، بمعنى لم .

وقال الزجاج : معناه : أولو تمييز ، ويجوز أولو طاعة وفضل .

ومعنى بقية : إذا قلت في فلان بقية ، معناه : فيه فضل ، فيما يمدح به .

﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ استثناء منقطع ، والمعنى : لكن قليلاً ممن أنجينا ممن ينهي عن الفساد .

وروى سيف بن سليمان المكي ، بإسناده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِنَّ اللَّهَ لاَ يُعَذِّبُ العَامَّةَ بِعَمَلِ الخَاصَّةِ حَتَّى يَرَوُا المُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ ، فَلاَ يُنْكِرُونَهُ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذلك عَذَّبَ الخَاصَّةَ وَالعَامَّةَ " .

ثم قال: ﴿ واتبع الذين ظَلَمُواْ ﴾ يقول: اشتغل الذين كفروا ﴿ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ يعني: ما أنعموا وأعطوا من المال.

ويقال: ارتكبوا على ما خولوا في الدنيا، واشتغلوا عما سواها من أمر الآخرة ويقال: ﴿ واتبع الذين ظَلَمُواْ ﴾ يعني: السفلة، ما أترفوا، يعني: من أترفوا، وهم القادة والرؤساء.

وقال الفراء: اتبعوا في دنياهم، ما عودوا من النعيم، وإيثار الدنيا على الآخرة.

﴿ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ يعني: مشركين.

قوله: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ ﴾، يعني: لم يكن ربك يعذب أهل قرية، ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ بغير جرم، ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ يعني: موحّدين مطيعين.

وروي عن ابن عباس، أنه قال: ما أهلك الله قوماً إلا بعملهم، ولم يهلكهم بالشرك، يعني: لم يهلكهم بشركهم وهم مصلحون، لا يظلم بعضهم بعضاً، لأن مكافأة الشرك النار، لا دونها، وإنما أهلكهم الله بمعاصيهم، زيادة على شركهم، مثل قوم صالح بعقر الناقة، وقوم لوط بالأفعال الخبيثة، وقوم شعيب بنقصان الكيل والوزن، وقوم فرعون بإيذائهم موسى عليه السلام وبني إسرائيل.

ويقال: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ أي: فيهم من يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر.

وقال الفراء : لم يكن ليهلكهم ، وهم يتعاطون الحق فيما بينهم ، وإن كانوا مجرمين .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

(154/388)

يقول : لجمع الناس على أمة الإسلام ، وأكرمهم بدين الإسلام كلهم ، ولكن علم أنهم ليسوا بأهل لذلك ، ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ يعني : عصم ربك من الاختلاف .

وقال عطاء : ولا يزالون مختلفين ، يعني : اليهود والنصارى ، والمجوس ، إلا من رحم ربك الحنيفية ﴿ ولذلك خَلَقَهُمْ ﴾ يعني : الحنيفية خلقهم للرحمة .

وقال الحسن : لذلك خلقهم ، يقول : للاختلاف ، هؤلاء لجنته ، وهؤلاء لناره .

وقال ابن عباس : ولذلك خلقهم ، يعني : فريقين ، فريقاً يرحم ولا يختلف ، وفريقاً لا يرحم ويختلف .

ويقال : ولذلك خلقهم ، يعني : للأمر والنهي ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] يعني : للأمر والنهي ، وقال الضحاك : وللرحمة خلقهم .

وقال مقاتل : وللرحمة خلقهم ، وهو الإسلام .

وروى حماد بن سلمة ، عن الكلبي قال : خلقهم أهل الرحمة ، أن لا يختلفوا .

وقال قتادة : ولذلك خلقهم للرحمة ، والعبادة ، ولا يزالون مختلفين .

يقول : لا يزال أهل الأديان مختلفين في دين الإسلام .

ثم استثنى بعضاً .

وقال : ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ وهم المؤمنون أهل الحق ، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ يقول : سبق ووجب قول ربك للمختلفين ، ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ فهذا لام القسم فكأنه أقسم أن يملأ جهنم ، من كفار الجنة والناس أجمعين .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل ﴾ يعني : ننزل عليك من أخبار الرسل ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ يقول : ما نشدد به قلبك ، ونحفظه ، ونعلم أن الذي فعل بك ، قد فعل بالأنبياء قبلك ، ﴿ وَجَاءكَ فِى هذه الحق ﴾ قال قتادة : أي : في الدنيا .

وقال ابن عباس يعني : في هذه السورة .

(155/388)

وروى سعيد بن عامر ، عن عوف ، عن أبي رجاء ، قال : خطبنا ابن عباس على منبر البصرة ، فقرأ سورة هود وفسرها ، فلما أتى على هذه الآية : ﴿ وَجَاءكَ فِى هذه الحق

﴿ قال : في هذه السورة .

وقال سعيد بن جبير ، وأبو العالية ، ومجاهد مثله .

وهكذا قال مقاتل : عن الفراء .

ثم قال : ﴿ وَمَوْعِظَةٌ ﴾ يعني : تأدبة لهذه الأمة ، ﴿ وذكرى ﴾ يعني : عظة وعبرة ، ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني : المصدقين بتوحيد الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : لا يصدقون بتوحيد الله تعالى ، ﴿ واعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ يعني : في منازلكم على إهلاكي ، ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ في أمركم ، ﴿ وانتظروا ﴾ بهلاكي ، ﴿ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ بكم العذاب والهلاك ، فهذا تهديد لهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السموات والأرض ﴾ يعني : غيب نزول العذاب ، متى ينزل بكم ، ويقال : سر أهل السموات وسر أهل الأرض ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ ﴾ يعني عواقب الأمور كلها ترجع إليه يوم القيامة ﴿ فاعبده ﴾ يقول : أطعه واستقم على التوحيد ، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ يقول : فوض إليه جميع أمورك ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ يعني : الذي يفعل الكفار .

قرأ نافع ، وعاصم ، في رواية حفص : ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ ﴾ بضم الياء ونصب الجيم ، على معنى فعل ما لم يسم فاعله ، وقرأ الباقون بنصب الياء وكسر الجيم ، فيكون الفعل للأمر .

وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، في رواية حفص: ﴿ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بالتاء على وجه المخاطبة، وقرأ الباقون بالياء على وجه المغايبة، وروي عن كعب الأحبار، أنه قال: خاتمة التوراة هذه الآية ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السموات والأرض ﴾ إلى آخر السورة والله سبحانه أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿بحر العلوم حـ 2 صـ 169. 177﴾

(156/388)

وقال الثعلبى فى الآيات السابقة:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾

حجة بيّنة ﴿ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فاتبعوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ وخالفوا أمر موسى ﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ ﴾ أي يتقدمهم ويقودهم إلى النار يوم القيامة ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النار وَبِئْسَ الورد المورود ﴾ وبئس المدخل المدخول فيه.

﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هذه لَعْنَةً وَيَوْمَ القيامة بِئْسَ الرفد المرفود ﴾ العون المعان، وذلك أنه ترادفت عليهم اللعنات، لعنة في الدنيا، ولعنة في الآخرة.

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَآءِ القرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ خراب، ابن عباس: قائم ينظرون إليه، وحصيد قد خرب وهلك أهله، مقاتل: قائم يعني له أثر، وحصيد لا أثر له

، مجاهد : قائم : خاوية على عروشها وحصيد : مستأصل يعني محصوداً كالزرع إذا حصد ، قال قتادة : القائم منها لم يذهب أصلا ، ومنها حصيد قد ذهب أصلا ، القرضي : منها قائم بجدرانها وحيطانها ، وحصيد : ساقط ، محمد بن إسحاق : منها قائم يعني [

.

. . . .] وأمثالها من القرى التي لم تهلك ، وحصيد يعني التي قد أهلكت .

﴿ ومَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب والأهلاك ﴿ ولكن ظلموا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعصية يظلمون ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ التي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ ﴾ عذاب ﴿ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ غير تخسير .

﴿ وكذلك ﴾ وهكذا أخذ ربك ﴿ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ نظير قوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج : 12] .

﴿ إِنَّ فِي ذلك ﴾ لعبرة وعظة ﴿ لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخرة ذلك ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس ﴾ قال عبد الله بن مسعود لأصحابه : إنكم مجموعون يوم القيامة في صعيد واحد تسمعون الداعي [. . . . . .] ﴿ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ يشهده أهل

السماء وأهل الأرض .

﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ ﴾ يعني وما نؤخّر ذلك اليوم ولا نقيم عليكم القيامة ﴿ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ أي مؤقّت لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ وقرئ بإثبات الياء وحذفه ، وهما لغتان وحذف الياء له طريقان كالكسرة عن الياء والضمة من الواو ، كقول الشاعر :

كفاك كفّ ما تليق ودرهما . . . جوداً وأخرى تُعط بالسيف الدما

﴿ لَا تَكَلَّمُ ﴾ أي : لا تتكلم ﴿ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ نظير ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة ﴾ [القدر : 4] أي : تتنزل .

قال لبيد :

والعين ساكبة على أطلائها . . . عوذا تأجّل بالفضاء بهامها

(أي تتأجل) .

﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ قال ابن عباس : فمنهم شقي كتبت عليه السعادة ، وروى عبد الله ابن دينار عن ابن عمر " عن عمر ، قال : لمّا نزلت هذه الآية سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : يا نبي الله فعلى ما عملنا ، على شيء قد فرغ منه أو على شيء لم يفرغ منه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : على شيء قد فرغ منه يا عمر ، وجرت به الأقلام ولكن كلٌّ ميسّر لما خلق له " .

وروي عنه (عليه السلام) : " الشقي من شقي في بطن أُمّه ، والسعيد من سعد في بطن

أُمّه " .

﴿ فَأَمَّا الذين شَقُوا فَفِي النار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيق ﴾ قال ابن عباس : الزفير : الصوت الشديد ، والشهيق : الصوت الضعيف ، الضحّاك ومقاتل : الزفير : أول نهيق الحمار ، والشهيق آخره حين يفرغ من صوته إذا ردّده في الجوف . أبو العالية : الزفير في الحلق ، والشهيق في الصدر ﴿ خَالِدِينَ ﴾ لابثين ومقيمين ﴿ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض ﴾ يسمى هنا ﴿ مَا ﴾ الوقت .

(158/388)

قال ابن عباس : ما دامت السماوات والأرض من ابتدائها إلى وقت فنائها ، قال الضحّاك : ما دامت سماوات الجنة والنار وأرضهما ، وكل ما علاك فأظلّك فهو سماء ، وكل ما استقرت عليه قدمك فهو أرض .

قال الحسين : أراد ما دامت الآخرة كدوام السماء والأرض في الدنيا قدر مدة بقائها ، قال أهل المعاني : العرب [. . .] في معنى التأبيد والخلود ، يقولون : هو باق ما [. . .] وأطت الإبل ، وأينع الثمر ، وأورق الشجر ، ومجن الليل وسال سيل ، وطرق طارق ، وذرّ شارقن ونطق ناطق ، وما اختلف الليل والنهار ، وما اختلف الذرة والجمرة ، وما

دام عسيب ، وما لألأت العفراء ونابها ، وما دامت السماوات والأرض ، فخاطبهم الله تعالى بما تعارفوا بينهم .

ثم استثنى فقال : ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ اختلف العلماء في هذين الاستثناءين ، من أهل الشقاوة أو من أهل السعادة ، فقال بعضهم هو في أهل التوحيد الذين يخرجهم الله من النار .

قال ابن عباس : وما شاء ربك أن يخرج أهل التوحيد منها ، وقال في قوله في وصف السعداء : ألا ما شاء ربك أن يخلدهم في الجنة ، وقال قتادة : في هذه الآية الله أعلم بها ، وذكر لنا أن ما أقوله سيصيبهم سفع من النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم الله منها ، وعلى هذا القول يكون استثناء من غير جنسه لأن الأشقياء في الحقيقة هم الكافرون ، والسعداء في الحقيقة هم المؤمنون .

وقال أبو مجلز : هو جزاؤه إلّا أن يشاء ربك أن يتجاوز عنهم ، ولا يدخلهم النار ، وفي وصف السعداء إلّا ما شاء ربك بقاءهم في الجنة . قال ابن مسعود : خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض ، لا يموتون فيها ولا يخرجون منها إلّا ما شاء ربك . وهو أن يأمر النار أن تأكلهم وتفنيهم ثم يجدّد خلقهم .

قال : وليأتين على جهنم زمان تغلق أبوابها ليس فيها أحد وذلك بعدما يلبثون فيها أحقاباً ، وقال الشعبي : جهنم أسرع الدارين عمراً أسرعهما خراباً ، وقال ابن زيد : في هذه الآية أخبرنا بالذي أنشأ لأهل الجنة فقال : هذا غير مجذوذ ، ولم يخبرنا بالذي أنشأ لأهل النار ، وقال ابن كيسان : إلاّ ما شاء ربك من الفريقين من تعميرهم في الدنيا قبل مصيرهم إلى الجنة والنار ، وقيل : ما شاء ربك من احتباس الفريقين في البرزخ ما بين الموت والبعث .

الزجّاج : في هذه الآية أربعة أقوال : قولان منها لأهل اللغة ، وقولان لأهل المعاني ، فأمّا أحد قولي أهل اللغة فإنهم قالوا : ﴿ إلاَّ ﴾ ههنا بمعنى سوى كما يقال في الكلام : ما كان معنا رجل إلاّ زيد ، ولي عليك ألف درهم إلاّ الألفان التي لي عليك ، فالمعنى ما دامت السماوات والأرض سوى ما شاء ربك من الخلود ، والقول الثاني : إنّه استثنى من الاخراج وهو لا يريد أن يخرجهم منها ، كما يقول في الكلام : أردت أن أفعل كذا إلاّ أن أشاء غيره ، وأنت مقيم على ذلك الفعل ، والمعنى أنّه لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم ، ولكنّه أعلمهم أنهم خالدون فيها ، قال الزجّاج : هذان مذهبا أهل اللغة .

وأما قولا أهل المعاني ، فإنهم قالوا : خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلاّ ما شاء ربك من مقدار مواقفهم على رأس قبورهم للمحاسبة إلاّ ما شاء ربك من زيادة النعيم لأهل النعيم ، وزيادة العذاب لأهل الجحيم ، وقال الفراء : معناه : وقد شاء ربك خلود هؤلاء في النار وهؤلاء في الجنة ، و ﴿ إلا ﴾ بمعنى الواو سائغ جائز في اللغة ، قال الله تعالى

﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ [البقرة : 150] ومعناه ، ولا الذين ظلموا ، وأنشدني أبو ثروان :

من كان أشرك في تفرّق فالج . . . فلبونه جربت معاً وأغدت

إلاّ كناشرة الذي ضيعتم . . . كالغصن في غلوائه المتبت

(160/388)

معناه ، لكن هنا كناشرة ، وهي كاسم قبيلة ، وقال : معناه كما شاء ربك كقوله ﴿ وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النسآء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء : 22] معناه كما قد سلف .

﴿ أَمَّا الذين سُعِدُواْ ﴾ قرأ أهل الكوفة : (سُعدوا) بضم السين أي رُزقوا السعادة ، وسعد وأُسعد بمعنى واحد ، وقرأ الباقون بفتح السين قياساً على الذين شقوا ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ﴿ فَفِي الجنة خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ . الضحّاك : إلاّ ما مكثوا في النار حتى أُدخلوا الجنة ، أبو سنان : إلاّ ما شاء ربك من الزيادة على قدر مدة دوام السماء والأرض ، وذلك هو الخلود فيها ، قال الله ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ غير مقطوع .

وكيع بن الجراح: كفرت الجهمية بأربع آيات من كتاب الله، قال الله تعالى في وصف نعيم الجنة ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: 33] وقالت الجهمية: يقطع فيمنع عنهم، وقال الله ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا ﴾ [الرعد: 35] وقالوا: لا يدوم، وقال الله و ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: 96] وقالوا: لا يبقى، وقال الله ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ وقالوا: يُجذ ويُقطع.

﴿ فَلَا تَكُ ﴾ يا محمد ﴿ فِي مِرْيَةٍ ﴾ في شك ﴿ مِّمَّا يَعْبُدُ هؤلاء ﴾ فهم ضلّال.

﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ﴾ فيه إضمار أي: (كعبادة) ﴿ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ حظهم من الجزاء ﴿ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ .

(161/388)

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا ﴾ أعطينا ﴿ موسى الكتاب فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ ممّن صدف عنه وكذّب به، كما فعل قومك بالقرآن يُعزّي نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ في تأخير العذاب ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أُفرغ من عقابهم وإهلاكهم، يعني المختلفين المخالفين. ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ موقع في الريب والتهمة، يقال: أراب الرجل، أي جاء بريبة، وألام إذا أتى بما يُلام عليه، قال الشاعر:

تعد معاذراً لا عذر فيها . . . ومن يخذل أخاه فقد ألاما

﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا ﴾ اختلف فيه القُرّاء ، فقرأ ابن عامر وأبو جعفر وحمزة ﴿ وأَنَ ﴾ بتخفيف النون وَ ﴿ لَمَّا ﴾ بتشديد الميم على معنى فأنّ كلاً لمّا ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾ ، ولكن لما اجتمعت الميمات حذفت واحدة ، كقول الشاعر :

كان من أخرها لقادم . . . مخرم نجد فارع المحارم

أراد إلى القادم ، فحذف اللام عند اللام وتكون ﴿ مَآ ﴾ بمعنى من تقديره لمّن يوفينّهم ، كقول الشاعر :

وأنّي َلمّا أصدر الأمر وجهه . . . إذا هو أعيا بالسبيل مصادره

وقيل : أراد وأن كلا لمّاً بالتنوين والتشديد ، قرأها الزهري بالتنوين أي وإن كلاً شديداً وحقاً ليوفينّهم ﴿ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ من قوله تعالى : كلاّ لمّا ، أي شديدا فحذفوا التنوين وأخرجوه على هذا فعلى ، كما فعلوا في قوله : ثم أرسلنا رسلنا تترى ، وقرأ نافع وابن كثير بتخفيف النون والميم على معنى إن الثقيلة مخفّف ، وأنشد أبو زيد :

ووجه مشرق النحر كأنْ ثدييه حُقّان . . . أراد كان فخفّف ونصب به ، و ﴿ مَآ ﴾ صلة تقديره وإن كلا ليوفينّهم . وقرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب وحفص وأيوب وخلف بتشديد النون وتخفيف الميم على معنى وأن كلاًّ ليوفينّهم ، جعلوا ﴿ مَآ ﴾ صلة . وقيل : أرادوا وأن كلا لمّن كقوله ﴿ فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآءِ مثنى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ﴾ [النساء : 3] أي من . وقرأ أبو بكر بن عياش بتخفيف النون وتشديد الميم أراد أن الثقيلة فخفّفها .

وقيل : ﴿ إِنَّ ﴾ بمعنى ﴿ مَا ﴾ الجحد و ﴿ لَّمَّا ﴾ بمعنى ﴿ إلاَّ ﴾ تقديره وما كلاًّ إلاّ ليوفينّهم ، ولكنه نصب كلاًّ بإيقاع التوفية عليه أي ليوفينّ كلا وهو أبعد القراءات فيها من الصواب ، ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

﴿ فاستقم ﴾ يا محمد على أمر ربك والعمل به والدعاء إليه ﴿ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ أن لا تشرك بي شيئاً وتوكّل عليّ مما ينوبك ، قال السدّي : الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد أُمته .

﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ فليستقيموا ، يعني المؤمنين ﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ ﴾ ولا تجاوزوا أمري ، وقال ابن زيد : ولا تعصوا الله ولا تخالفوه ، وقيل : ولا تتخيّروا .

﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم شيء ، قال ابن عباس : ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع القرآن آية كانت أشد ولا أشقّ عليه من هذه

الآية ، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له : لقد أسرع إليك الشيب ، فقال : " شيبتني سورة هود وأخواتها " .

﴿ وَلاَ تركنوا إِلَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ قال ابن عباس : ولا تميلوا على غيّهم ولا تدهنوا لهم قال ، أبو العالية : لا ترضوا على أعمالهم . قتادة : لا تلحقوا بالمشركين . السدّي وابن زيد ، ولا تداهنوا الظلمة ، ابن كيسان : لا تسكنوا إلى الذين ظلموا .

(163/388)

﴿ فَتَمَسَّكُمُ ﴾ تصيبهم النار ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي أعوان يمنعون ﴿ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ * وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار ﴾ يعني الغداة والعشي ، قال ابن عباس : يعني صلاة العصر والمغرب . مجاهد : صلاة الفجر وصلاة العشاء ، القرظي : هي الفجر والظهر والعصر ، الضحاك : صلاة الفجر والعصر ، [وقيل : الطرفان] صلاة الفجر والظهر طرف وصلاة العصر والمغرب طرف .

﴿ وَزُلَفاً مِّنَ اليل ﴾ يعني صلاة العتمة ، وقال الحسن : هما المغرب والعشاء ، قال الأخفش : يعني ساعات الليالي واحدتها زلفة ، وأصل الزلفة المنزلة والقربة ، ومنه المزدلفة لأنها منزل بعد عرفة ، قال العجاج :

طيّ الليالي زلفاً فزلّفا . . . سماوة الهلال حتى أحقوقفا

وفيه أربع لغات زلُفاً : بفتح الفاء وضم اللام وهي قراءة العامة ، وقرأ أبو جعفر بضم الزاي واللام ، وقرأ ابن محيصن بضم الزاي وجزم اللام ، وقرأ مجاهد زلُفى ، مثل قُربى .

﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ يعني : إن الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات ، هذا قول أكثر المفسرين ، وقال مجاهد : هي قول العبد : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر .

(164/388)

نزلت هذه الآية في أبي اليسر عمرو بن غزية الأنصاري وكان يبيع التمر فأتته امرأة تبتاع تمراً فقال : إن هذا التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه ، فهل لك فيه ، فقالت : نعم ، فذهب بها إلى بيته فضمها إليه وقبّلها ، فقالت له : اتق الله فتركها وندم على ذلك ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله ، ما تقول في رجل راود امرأة عن نفسها ولم يبق شيئاً مما يفعل الرجال بالنساء إلاّ ركبه غير أنه لم يجامعها ، فقال عمر بن الخطاب : لقد ستر الله عليك لو سترت على نفسك ، فلم يردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ، وقال : أنظر فيه أمر ربي ، وحضرت صلاة العصر ، فصلّى النبي صلى الله عليه وسلم

العصر ، فلما فرغ أتاه جبريل بهذه الآية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " " أين أبو اليسر ؟ " فقال : ها أناذا يا رسول الله ، قال : " أشهدت معنا هذه الصلاة ؟ " قال : نعم ، قال : " اذهب فإنها كفارة لما عملت " فقال عمر : يا رسول الله أهذا له خاصّة أم لنا عامة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم " بل للناس عامة " " .

﴿ ذلك ﴾ الذي ذكرناه ، وقيل : هو إشارة إلى القرآن ﴿ ذكرى ﴾ عظة ﴿ لِلذَّاكِرِينَ

* واصبر ﴾ يا محمد على ما تلقى من الأذى ، وقيل : على الأذى ، وقيل : على الصلاة ، نظير قوله ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا ﴾ [طه : 132] ﴿ فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ من أعمالهم ، وقال فيه ابن عباس : يعني المصلّين .

﴿ فَلَوْلاَ كَانَ ﴾ فهلاّ كان ﴿ مِنَ القرون ﴾ التي أهلكناهم ﴿ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ ﴾ أصحاب دين وعقل ﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ الفساد فِي الأرض ﴾ ومعناه : فلم يكن ، لأن في الاستفهام ضرباً من الجحد ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ استثناء منقطع ﴿ مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ وهم أتباع الأنبياء وأهل الحق .

﴿ واتبع الذين ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ قال ابن عباس : ما أُنظروا فيه ، وروي عنه : أُبطروا . الضحّاك : اعتلّوا ، مقاتل بن سليمان : أُعطوا ، ابن حيان : خوّلوا ، مجاهد : تجبّروا في الملك وعتوا عن أمر الله ، الفرّاء : ما سوّدوا من النعيم واللذات وإيثار الدنيا على الآخرة ﴿ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ كافرين ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ ﴾ [بظلم منه لهم] ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ في أعمالهم غير مسيئين ، لكنه يهلكها بكفرهم وإتيانهم السيئات ، وقيل : معناه لم يكن ليهلكهم بشركهم وأهلها مصلحون فيما بينهم لا يتظالمون ، ويتعاطون الحق بينهم وإن كانوا مشركين ، وإنّما يهلكهم إذا ظلموا .

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ الناس ﴾ كلّهم ﴿ أُمَّةً ﴾ جماعة ﴿ وَاحِدَةً ﴾ على ملّة واحدة ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ على أديان شتى من يهودي ونصراني ومجوسي ونحو ذلك ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ ويعني بهم المؤمنون وأهل الحق .

﴿ ولذلك خَلَقَهُمْ ﴾ قال الحسن ومقاتل بن حيان ويمان وعطاء : وللاختلاف خلقهم ، قال الأشهب : سألت مالكاً عن هذه الآية فقال : لقهم ليكون فريق في الجنة ، وفريق في السعير ، وقيل : اللام بمعنى على ، أي وعلى ذلك خلقهم ، كقول الرجل للرجل : أكرمتك

على برّك بي ولبرّك بي ، ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة : وللرحمة خلقهم ولم يقل :

ولتلك ، والرحمة مؤنّثة لأنها مصدر وقد مضت هذه المسألة ، وهذا باب سائغ في اللغة [

وهو أن يُذكر] لفظان متضادان ثم يشار إليهما بلفظ التوحيد فمن ذلك قوله تعالى ﴿ لاَّ

فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ ﴾ [البقرة : 68] ثم قال : ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذلك ﴾ [البقرة : 68] ، وقوله

﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وابتغ بَيْنَ ذلك سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 110] وقوله

: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس : 58] فكذلك معنى الآية ،

ولذلك أي وللاختلاف والرحمة خلقهم أحسن خلق ، هؤلاء لجنّته ، وهؤلاء لناره .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ * وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ

الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ قال ابن عباس : نسدد ، الضحاك : نقوّي ، ابن جريج : نصبّر

حتى لا تجزع ، أهل المعاني : ما نثبّت به قلبك .

﴿ وَجَآءَكَ فِي هذه الحق ﴾ قال الحسن وقتادة : في هذه الدنيا ، وقال غيرهما : في هذه

السورة ، ﴿ وَمَوْعِظَةٌ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنَّا

عَامِلُونَ * وانتظروا ﴾ ما يحلّ بنا من رحمة الله ﴿ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ ما يحل بكم من

النقمة .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض ﴾ قال ابن عباس : خزائن الله ، الضحّاك : جميع ما غاب عن العباد ، وقال الباقون : غيب نزول العذاب من السماء ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ ﴾ في المعاد حتى لا يكون للخلق أمر ، وقرأ نافع وحفص بضم الياء أي يُرجع ﴿ فاعبده وحده ﴾ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ توثّق به ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ قال كعب : خاتمة التوراة خاتمة هود والله أعلم . يعملون قراءة العامة بالياء ، وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالتاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشف والبيان حـ 5 صـ 187.195 ﴾

(168/388)

وقال الزمخشري :

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾

بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ فيه وجهان : أن يراد أنّ هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوّته ، وأن يراد بالسلطان المبين : العصا ، لأنها أبهرها وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ تجهيل لمتبعيه حيث شايعوه على أمره ، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل ، وذلك أنه ادّعى الإلهية وهو بشر مثلهم ، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذي

لا يأتى إلا من شيطان مارد ، ومثله بمعزل من الإلهية ذاتاً وأفعالا ، فاتبعوه وسلموا له دعواه ، وتتابعوا على طاعته. والأمر الرشيد : الذي فيه رشد : أى : وما في أمره رشد إنما هو غىّ صريح وضلال ظاهر مكشوف ، وإنما يتبع العقلاء من يرشدهم ويهديهم ، لا من يضلهم ويغويهم . وفيه أنهم عاينوا الآيات والسلطان المبين في أمر موسى عليه السلام ، وعلموا أن معه الرشد والحق ، ثم عدلوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس في أمره رشد قط يَقْدُمُ قَوْمَهُ أى كما كان قدوة لهم في الضلال كذلك يتقدّمهم إلى النار وهم يتبعونه. ويجوز أن يريد بقوله : وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ وما أمره بصالح حميد العاقبة. ويكون قوله يَقْدُمُ قَوْمَهُ تفسيراً لذلك وإيضاحا . أى : كيف يرشد أمر من هذه عاقبته . والرشد مستعمل في كل ما يحمد ويرتضى ، كما استعمل الغىّ في كل ما يذم ويتسخط . ويقال : قدمه بمنى تقدّمه. ومنه : قادمة الرجل ، كما يقال : قدمه بمعنى تقدّمه . ومنه مقدّمة الجيش . وأقدم بمعنى تقدّم . ومنه مقدّم العين. فإن قلت : هلا قيل : يقدم قومه فيوردهم ؟

ولم جيء بلفظ الماضي ؟ قلت : لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به ، فكأنه قيل : يقدّمهم فيوردهم النار لا محالة. والْوِرْدُ المورود . والْمَوْرُودُ الذي وردوه. شبه بالفارط الذي يتقدّم الواردة إلى الماء . وشبه أتباعه بالواردة ، ثم قيل : بئس الورد الذي يردونه النار ، لأنّ الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد ، والنار ضدّه وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ في هذه الدنيا لَعْنَةً أى يلعنون في الدنيا ، ويلعنون في الآخرة بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ رفدهم . أى : بئس

العون المعان. وذلك أنّ اللعنة في الدنيا رفد للعذاب ومدد له، وقد رفدت باللعنة في الآخرة. وقيل: بئس العطاء المعطى.

[سورة هود (11) : الآيات 100 إلى 101]

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ (100) وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101)

ذلِكَ مبتدأ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ خبر بعد خبر، أى: ذلك النبأ بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك مِنْها الضمير للقرى، أى: بعضها باق وبعضها عافى الأثر،

(169/388)

كالزرع القائم على ساقه والذي حصد. فإن قلت: ما محل هذه الجملة؟ قلت: هي مستأنفة لا محل لها وَما ظَلَمْناهُمْ بإهلاكنا إياهم وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بارتكاب ما به أهلكوا فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ فما قدرت أن ترد عنهم بأس الله يَدْعُونَ يعبدون وهي حكاية حال ماضية. ولَمَّا منصوب بما أغنت أَمْرُ رَبِّكَ عذابه ونقمته تَتْبِيبٍ تخسير. يقال تبّ إذا خسر. وتببه غيره، إذا أوقعه في الخسران.

[سورة هود (11) : آية 102]

وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102)

محل الكاف الرفع، تقديره: ومثل ذلك الأخذ أَخْذُ رَبِّكَ والنصب فيمن قرأ: وكذلك أخذ ربك، بلفظ الفعل. وقرئ: إذ أخذ القرى وَهِيَ ظالِمَةٌ حال من القرى أَلِيمٌ شَدِيدٌ وجيع صعب على المأخوذ. وهذا تحذير من وخامة عاقبة الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها، بل لكل من ظلم غيره أو نفسه بذنب يقترفه. فعلى كل من أذنب أن يحذر أخذ ربه الأليم الشديد، فيبادر التوبة ولا يغتر بالإمهال.

[سورة هود (11) : آية 103]

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103)

ذلِكَ إشارة إلى ما قص الله من قصص الأمم الهالكة بذنوبهم لَآيَةً لِمَنْ خافَ لعبرة له، لأنه ينظر إلى ما أحل الله بالمجرمين في الدنيا، وما هو إلا أنموذج مما أعدّ لهم في الآخرة، فإذا رأى عظمه وشدّته اعتبر به عظم العذاب الموعود، فيكون له عبرة وعظة ولطفاً في زيادة التقوى والخشية من الله تعالى. ونحوه إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى. ذلِكَ إشارة إلى يوم القيامة، لأنّ عذاب الآخرة دل عليه. والنَّاسُ رفع باسم المفعول «1» الذي هو مجموع كما يرفع بفعله إذا قلت يجمع له الناس. فإن قلت: لأى فائدة أوثر اسم المفعول على فعله؟ «2»

قلت : لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم وأنه يوم لا بدّ من أن يكون ميعاداً

---

(1) . قال محمود : «إن قلت لم عدل عن الفعل إلى اسم المفعول . . . الخ» قال أحمد : ولهذا السر ورد قوله تعالى إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ ، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً فاستعمل الفعل حيث يليق به ، واسم المفعول حيث يحسن استعماله أيضا . . . الخ.

(2) . قوله «من دلالة» عبارة النسفي : دلالته . (ع) [. . . . .]

(170/388)

مضروباً لجمع الناس له ، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة ، وهو أثبت أيضاً لإسناد الجمع إلى الناس ، وأنهم لا ينفكون منه ، ونظيره قول المتهدد : إنك لمنهوب مالك محروب قومك ، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل ، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ تعثر على صحة ما قلت لك . ومعنى يجمعون له : يجمعون لما فيه من الحساب والثواب والعقاب يَوْمٌ مَشْهُودٌ مشهود فيه ، فاتسع في الظرف «1» بإجرائه مجرى المفعول به ، كقوله :

وَيَوْمٍ شَهِدْنَاهُ سُلَيْما وَعَامِراً «2»

أي يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد . والمراد بالمشهود : الذي كثر شاهدوه .

ومنه قولهم : لفلان مجلس مشهود ، وطعام محضور . قال :

فِى مَحْفِلٍ مِنْ نَوَاصِى النَّاسِ مَشْهُودِ «3»

فإن قلت : فما منعك أن تجعل اليوم مشهوداً في نفسه دون أن تجعله مشهوداً فيه ، كما قال اللّه تعالى فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ؟ قلت : الغرض وصف ذلك اليوم بالهول والعظم وتميزه من بين الأيام ، فإن جعلته مشهوداً في نفسه فسائر الأيام كذلك مشهودات كلها ، ولكن يجعل مشهوداً فيه حتى يحصل التميز كما تميز يوم الجمعة عن أيام الأسبوع بكونه مشهوداً فيه دونها ، ولم يجز أن يكون مشهوداً في نفسه ، لأنّ سائر أيام الأسبوع مثله يشهدها كل من يشهده ، وكذلك قوله :

فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ الشهر منتصب ظرفاً لا مفعولا به ، وكذلك الضمير في فَلْيَصُمْهُ والمعنى : فمن شهد منكم في الشهر فليصم فيه ، يعنى : فمن كان منكم مقيما حاضراً لوطنه في شهر رمضان

---

(1) . قال محمود : «المراد مشهود فيه فاتسع في الظرف . . . الخ» قال أحمد : يكون المشهود الذي هو المفعول به مسكونا عنه مبهما ، ومن الإبهام ما يكون تفخيما ، وهذا مكانه .

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة 408 فراجعه إن شئت اه مصححه.

(3) من الخصوم إذا حد الضجاج بهم بعد ابن سعد ومن الضمر القود

ومشهد قد كفيت الغائبين به في محفل من نواصي القوم مشهود

فرجته بلسان غير ملتبس عند الحفاظ وقلب غير مزؤد

لأم قيس الضبية. وضج ضجيجاً وضجاجا: صاح. وضج البعير من الحمل: تعب من ثقله، والضمر بالتشديد:

جمع ضامر. وفرس أقود: طويل العنق. ورجل أقود: يقبل بوجهه ولا ينثني. والقرد: جمعه. ومشهد:

عطف على الخصوم. ويجوز جره برب، أي مجلس كفيت فيه الغائبين عنه بالتكلم عنهم بين محفل من رؤساء الناس وأشرافهم، فالنواصى: استعارة لهم. وفرجته، ففككت كربته، وكشفت غمته بكلام واضح الدلالة صادر عن قلب مطمئن غير خائف عند الحفاظ، أى غيرة الخصوم ومحافظة كل منهم على رأيه أو المغاضبة. ويقال: أحفظه إحفاظاً إذا أغضبه.

فليصم فيه ، ولو نصبته مفعولا فالمسافر والمقيم كلاهما يشهدان الشهر ، لا يشهده المقيم ، ويغيب عنه المسافر :

[سورة هود (11) : آية 104]

وَما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (104)

الأجل : يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها ، فيقولون : انتهى الأجل ، وبلغ الأجل آخره ، ويقولون : حل الأجل فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ يراد آخر مدة التأجيل ، والعدّ إنما هو للمدّة لا لغايتها ومنتهاها ، فمعنى قوله وَما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ إلا لانتهاء مدة معدودة بحذف المضاف . وقرئ : وما يؤخره بالياء .

[سورة هود (11) : آية 105]

يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (105)

قرئ يَوْمَ يَأْتِ بغير ياء . ونحوه قولهم : لا أدر ، حكاه الخليل وسيبويه . وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل . فإن قلت : فاعل يأتى ما هو؟ قلت : اللّه عز وجل ، كقوله هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ ، أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ، وَجاءَ رَبُّكَ وتعضده قراءة : وما يؤخره ، بالياء . وقوله بِإِذْنِهِ ويجوز أن يكون الفاعل ضمير اليوم ، كقوله تعالى أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ . فإن قلت : بما انتصب الظرف؟ قلت : إمّا أن ينتصب بلا تكلم . وإمّا بإضمار «اذكر» وإمّا بالانتهاء المحذوف في قوله إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ أى ينتهى الأجل يوم يأتى ، فإن قلت

: فإذا جعلت الفاعل ضمير اليوم، فقد جعلت اليوم وقتاً لإتيان اليوم وحدّدت الشيء بنفسه قلت: المراد إتيان هوله وشدائده لا تَكَلَّمُ لا تتكلم، وهو نظير قوله لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ. فإن قلت: كيف يوفق بين هذا وبين قوله تعالى يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وقوله تعالى هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ، قلت: ذلك يوم طويل له مواقف ومواطن، ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم، وفي بعضها يكفون عن الكلام فلا يؤذن لهم، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها: يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم فَمِنْهُمْ الضمير لأهل الموقف ولم يذكروا، لأنّ ذلك معلوم، ولأنّ قوله لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ يدل عليه، وقد مرّ ذكر الناس في قوله مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ والشقي الذي وجبت له النار لإساءته، والسعيد الذي وجبت له الجنة لإحسانه.

[سورة هود (11): الآيات 106 إلى 107]

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (106) خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (107)

قراءة العامّة بفتح الشين. وعن الحسن شَقُوا بالضم، كما قرئ سُعِدُوا. والزفير: إخراج النفس. والشهيق: ردّه. قال الشماخ:

بَعِيدُ مَدَى التَّطْرِيبِ أَوَّلُ صَوْتِهِ زَفِيرٌ وَيَتْلُوهُ شَهِيقٌ مُحَشْرَجُ «1»

ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ فيه وجهان، أحدهما: أن تراد سموات الآخرة وأرضها وهي دائمة مخلوقة للأبد. والدليل على أن لها سموات وأرضاً قوله تعالى يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وقوله. وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ ولأنه لا بدّ لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم: إمّا سماء يخلقها اللّه، أو يظلهم العرش، وكل ما أظلك فهو سماء. والثاني أن يكون عبارة عن التأبيد ونفى الانقطاع، كقول العرب: ما دام تعار، وما أقام ثبير، وما لاح كوكب، وغير ذلك من كلمات التأبيد. فإن قلت: فما معنى الاستثناء؟ قلت: هو استثناء من الخلود في عذاب النار، ومن الخلود في نعيم الجنة: وذلك أن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده، بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار، وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط اللّه عليهم وخسؤه لهم وإهانته إياهم، وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعاً منهم، وهو رضوان اللّه، كما قال وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ولهم ما يتفضل اللّه به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو، فهو المراد بالاستثناء.

والدليل عليه قوله عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ومعنى قوله في مقابلته إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ أنه يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب، كما يعطى أهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له، فتأمّله فإنّ القرآن يفسر بعضه بعضا، ولا يخدعنك عنه قول المجبرة «2». إنّ المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة، فإنّ الاستثناء الثاني ينادى على تكذيبهم ويسجل بافترائهم. وما ظنك بقوم نبذوا كتاب اللّه لما روى لهم بعض النوابت «3»

---

(1). للشماخ يصف حمار وحشى. والمدى: المسافة والغاية. والتطريب: ترديد الصوت وترخيمه. والزفير: إخراج النفس بشدة. والمحشرج اسم مفعول: الصوت الذي يردده في حلقه وصدره.

(2). قوله «ولا يخدعنك عنه قول المجبرة» يريد أهل السنة. أما المعتزلة فيقولون: فاعل الكبيرة واسطة بين المؤمن والكافر وخلوده في النار أبدى، وتحقيق بطلانه في علم التوحيد. (ع)

(3). قوله «لما روى لهم بعض النوابت» في الصحاح: إن بنى فلان لنابتة شر. والنوابت من الأحداث الأعمار. (ع)

عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص : ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد «1» ، وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابا ، وقد بلغني أن من الضلال من اغترّ بهذا الحديث ، فاعتقد أن الكفار لا يخلدون في النار ، وهذا ونحوه والعياذ باللّه من الخذلان المبين ، زادنا اللّه هداية إلى الحق ومعرفة بكتابه ، وتنبيها على أن نعقل عنه ، ولئن صح هذا عن ابن العاص ، فمعناه أنهم يخرجون من حرّ النار إلى برد الزمهرير فذلك خلوّ جهنم وصفق أبوابها ، وأقول :

ما كان لابن عمرو في سيفيه ، ومقاتلته بهما على بن أبى طالب رضى اللّه عنه ، ما يشغله عن عن تسيير هذا الحديث .

[سورة هود (11) : الآيات 108 إلى 109]

وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108) فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ ما يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (109)

غَيْرَ مَجْذُوذٍ غير مقطوع ، ولكنه ممتدّ إلى غير نهاية ، كقوله لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ .

لما قصّ قصص عبدة الأوثان ، وذكر ما أحلّ بهم من نقمه ، وما أعدّ لهم من عذابه قال :

فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ أى : فلا تشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم وتعرّضهم بها لما أصاب أمثالهم قبلهم تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه

وسلم ، وعدة بالانتقام منهم ووعيداً لهم ثم قال ما يَعْبُدُونَ إِلَّا كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ يريد أن حالهم في الشرك مثل حال آبائهم من غير تفاوت بين الحالين ، وقد بلغك ما نزل بآبائهم فسينزلنّ بهم مثله ، وهو استئناف معناه تعليل النهى عن المرية . و«ما» في مما ، وكما : يجوز أن تكون مصدرية وموصولة ، أى : من عبادتهم ، وكعبادتهم . أو مما يعبدون من الأوثان ، ومثل ما يعبدون منها وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ أى حظهم من العذاب «2» كما وفينا آباءهم أنصباءهم . فإن قلت :

---

(1) . الحديث أخرجه البزار قال : حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو داود حدثنا شعبة عن أبى بلج عن عمرو بن ميمون عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضى اللّه عنهما قال «يأتى على النار زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد ، يعنى من الموحدين» كذا فيه ورجاله ثقات . والتفسير لا أدرى ممن هو ، وهو أولى من تفسير المصنف ، ويؤيده ما رواه ابن عدى عن أنس رضى اللّه عنه مرفوعا «ليأتين على جهنم يوم تصفق أبوابها ، ما فيها من أمة محمد أحد» وفي الباب عن أبى أمامة رفعه «يأتى على جهنم يوم ما فيها من بنى آدم أحد ، تخفق أبوابها ، يعنى من الموحدين» وأما الحديث الذي أخرجه الحارث بن أبى أمامة في مسنده من طريق الحسن عن عمرو رفعه «إن جهنم تخلو حتى ينبت فيها الجرجير ، فهو منقطع . ومراسيل الحسن عندهم واهية . لأنه كان يأخذ من كل أحد . فان كان محفوظا فعلى التأويل الأول ، واللّه أعلم .

(2) . قال محمود : «أى حظهم من العذاب ، وإنما نصب غير منقوص حالا من النصيب الموفى ، لأنه يجوز أن يوفى وهو ناقص ويوفى وهو كامل . ألا تراك تقول : وفيته شطر حقه وحقه كاملا» قال أحمد : وهم والله أعلم ، فان التوفية تستلزم عدم نقصان الموفى كاملا كان أو ناقصاً ، فقولك : وفيته نصف حقه يستلزم عدم نقصانه ، فما وجه انتصابه حالا عنه ؟ والأوجه أن يقال : استعملت التوفية بمعنى الإعطاء ، كما استعمل التوفي بمعنى الأخذ . ومن قال :

أعطيت فلانا حقه . كان جديراً أن يؤكده بقوله «غير منقوص» والله أعلم .

كيف نصب غَيْرَ مَنْقُوصٍ حالا عن النصيب الموفى ؟ قلت : يجوز أن يوفى وهو ناقص ، ويوفى وهو كامل . ألا تراك تقول . وفيته شطر حقه ، وثلث حقه ، وحقه كاملا وناقصا ،

[سورة هود (11) : آية 110]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (110)

فَاخْتُلِفَ فِيهِ آمن به قوم وكفر به قوم ، كما اختلف في القرآن وَلَوْلا كَلِمَةٌ يعنى كلمة الإنظار

إلى يوم القيامة لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بين قوم موسى أو قومك. وهذه من جملة التسلية أيضاً.

[سورة هود (11) : آية 111]

وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (111)

وَإِنَّ كُلًّا التنوين عوض من المضاف إليه، يعنى: وإنّ كلهم، وإنّ جميع المختلفين فيه لَيُوَفِّيَنَّهُمْ جواب قسم محذوف. واللام في لَمَّا موطئة للقسم، و«ما» مزيدة. والمعنى: وإن جميعهم والله ليوفينهم رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ من حسن وقبيح وإيمان وجحود. وقرئ: وإن كلا بالتخفيف على إعمال المخففة عمل الثقيلة، اعتبارا لأصلها الذي هو التثقيل. وقرأ أبىّ: وإن كل لما ليوفينهم، على أنّ إن نافية. ولما بمعنى إلا. وقراءة عبد الله مفسرة لها.

وإن كل إلا ليوفينهم، وقرأ الزهري وسليمان بن أرقم: وإن كلا لما ليوفينهم، بالتنوين، كقوله أَكْلًا لَمًّا والمعنى: وإن كلا ملمومين، بمعنى مجموعين، كأنه قيل: وإنّ كلا جميعاً، كقوله فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ.

[سورة هود (11) : آية 112]

فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112)

فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها على جادّة الحق، غير عادل عنها وَمَنْ تابَ مَعَكَ معطوف على المستتر في استقم. وإنما جاز العطف عليه ولم

يؤكد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه. والمعنى: فاستقم أنت وليستقم من تاب على الكفر وآمن معك وَلا تَطْغَوْا ولا تخرجوا عن حدود اللّه إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ عالم فهو مجازيكم به، فاتقوه. وعن ابن عباس: ما نزلت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في جميع القرآن آية كانت

(175/388)

أشدّ ولا أشقّ عليه من هذه الآية. ولهذا قال: شيبتني هود والواقعة وأخواتهما «1».

وروى أنّ أصحابه قالوا له: لقد أسرع فيك الشيب. فقال: شيبتني هود. وعن بعضهم: رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في النوم فقلت له: روى عنك أنك قلت: شيبتني هود. فقال: نعم. فقلت:

ما الذي شيبك منها؟ أقصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ قال: لا، ولكن قوله فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ.

وعن جعفر الصادق رضى اللّه عنه فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ قال: افتقر إلى اللّه بصحة العزم.

[سورة هود (11): آية 113]

وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ

قرئ : ولا تركنوا ، بفتح الكاف وضمها مع فتح التاء . وعن أبى عمرو : بكسر التاء وفتح الكاف ، على لغة تميم في كسرهم حروف المضارعة إلا الياء في كل ما كان من باب علم يعلم . ونحوه قراءة من قرأ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ بكسر التاء . وقرأ ابن أبى عبلة : ولا تركنوا ، على البناء للمفعول ، من أركنه إذا أماله ، والنهى متناول للانحطاط في هواهم ، والانقطاع إليهم ، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم ، والرضا بأعمالهم ، والتشبه بهم ، والتزيي بزيهم ، ومدّ العين إلى زهرتهم . وذكرهم بما فيه تعظيم لهم . وتأمّل قوله وَلا تَرْكَنُوا فإن الركون هو الميل اليسير .

وقوله إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أى إلى الذين وجد منهم الظلم ، ولم يقل إلى الظالمين . وحكى أنّ الموفق صلى خلف الإمام فقرأ بهذه الآية فغشى عليه ، فلما أفاق قيل له ، فقال : هذا فيمن ركن إلى من ظلم ، فكيف بالظالم . وعن الحسن رحمه اللّه : جعل اللّه الدين بين لاءين : وَلا تَطْغَوْا ، وَلا تَرْكَنُوا ولما خالط الزهري السلاطين كتب إليه أخ له في الدين : عافانا اللّه وإياك أبا بكر من الفتن ، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك اللّه ويرحمك : أصبحت شيخاً كبيراً وقد أثقلتك نعم اللّه بما فهمك اللّه من كتابه وعلمك من سنة نبيه ، وليس كذلك أخذ اللّه الميثاق على العلماء ، قال اللّه سبحانه لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ واعلم أنّ أيسر ما ارتكبت وأخفّ

(1) . وفي الترمذي من حديث شيبان عن أبى إسحاق عن عكرمه عن ابن عباس قال قال أبو بكر «يا رسول اللّه قد شبت ، قال : قد شيبتني هود والواقعة والمرسلات ، وعم يتساءلون . وإذا الشمس كورت» وقال حسن غريب .

وأخرجه البزار من هذا الوجه . وقال : اختلف فيه على أبى إسحاق ، فقال شيبان كذا . وقال على بن صالح : عن أبى إسحاق عن أبى حجية قال : وقال زكريا عن أبى إسحاق عن مسروق أن أبا بكر قال . وأطال الدارقطني في ذكر علله – واختلاف طرقه في أوائل كتاب العلل – ورواه البيهقي في الدلائل من رواية عطية بن سعيد قال قال عمر ابن الخطاب : يا رسول اللّه لقد أسرع إليك الشيب . فقال شيبتني هود وأخواتها : الواقعة ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت» وأخرجه ابن سعد وابن عدى من رواية يزيد الرقاشي عن أنس . وفيه «الواقعة والقارعة وسأل وإذا الشمس كورت» .

(176/388)

ما احتملت : أنك آنست وحشة الظالم ، وسهلت سبيل الغى بدنوك ممن لم يؤدّ حقاً ولم يترك باطلا ، حين أدناك اتخذوك قطباً تدور عليك رحى باطلهم ، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم وسلماً يصعدون فيك إلى ضلالهم ، يدخلون الشكّ بك على العلماء ، ويقتادون بك

قلو، الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خرّبوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك «1» من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال اللّه فيهم فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا فإنك تعامل من لا يجهل، ويحفظ عليك من لا يغفل، فداو دينك فقد دخله سقم، وهيئ زادك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على اللّه من شيء في الأرض ولا في السماء، والسلام. وقال سفيان: في جهنم واد لا يسكنه إلا القرّاء الزائرون للملوك. وعن الأوزاعى: ما من شيء أبغض إلى اللّه من عالم يزور عاملا. وعن محمد ابن مسلمة: الذباب على العذرة، أحسن من قارئ على باب هؤلاء. وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى اللّه في أرضه «2»» ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية، هل يسقى شربة ماء؟ فقال: لا، فقيل له: يموت؟ فقال: دعه يموت.

وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ حال من قوله فَتَمَسَّكُمُ أى: فتمسكم النار وأنتم على هذه الحال. ومعناه: وما لكم من دون اللّه من أنصار يقدرون على منعكم من عذابه، لا يقدر على منعكم منه غيره ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ ثم لا ينصركم هو، لأنه وجب في حكمته تعذيبكم وترك الإبقاء عليكم. فإن قلت: فما معنى ثم؟ قلت: معناها الاستبعاد، لأنّ النصرة من اللّه مستبعدة مع استيجابهم العذاب واقتضاء حكمته له.

[سورة هود (11): آية 114]

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (114)

طَرَفَيِ النَّهارِ غدوة وعشية وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ وساعات من الليل وهي ساعاته القريبة من آخر النهار، من أزلفه إذا قربه وازدلف إليه، وصلاة الغدوة: الفجر. وصلاة العشية: الظهر والعصر، لأنّ ما بعد الزوال عشىّ. وصلاة الزلف: المغرب والعشاء. وانتصاب طرفى النهار على الظرف، لأنهما مضافان إلى الوقت، كقولك: أقمت عنده جميع النهار، وأتيته نصف النهار

---

(1) . قوله «وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك» لعل هنا سقطاً تقديره: في جنب ما أعطوك، وما أقل ما أصلحوا لك في جنب ما أفسدوا . . . الخ. (ع)

(2) . قد رواه البيهقي في السادس والستين من الشعب من رواية يونس بن عبد عن الحسن من قوله. وذكره أبو نعيم في الحلية من قول سفيان الثوري.

وأوله وآخره، تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه. ونحوه وَأَطْرافَ النَّهارِ وقرئ: وزلفا، بضمتين. وزلفا، بسكون اللام. وزلفى: بوزن قربى. فالزلف:

جمع زلفة ، كظلم في ظلمة . والزلف بالسكون : نحو بسرة وبسر . والزلف بضمتين نحو بسر في بسر . والزلفى بمعنى الزلفة ، كما أن القربى بمعنى القربة : وهو ما يقرب من آخر النهار من الليل . وقيل : وزلفا من الليل : وقربا من الليل ، وحقها على هذا التفسير أن تعطف على الصلاة ، أى : أقم الصلاة طرفى النهار ، وأقم زلفا من الليل ، على معنى : وأقم صلاة تتقرّب بها إلى اللّه عز وجل في بعض الليل إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ فيه وجهان ، أحدهما : أن يراد تكفير الصغائر بالطاعات ، وفي الحديث : «إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر «1»» والثاني : إن الحسنات يذهبن السيئات ، بأن يكن لطفاً في تركها ، كقوله إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وقيل : نزلت في أبى اليسر عمرو بن غزية الأنصارى ، كان يبيع التمر فأتته امرأة فأعجبته ، فقال لها : إن في البيت أجود من هذا التمر ، فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها ، فقالت له :

اتق اللّه ، فتركها وندم ، فأتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأخبره بما فعل ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : أنتظر أمر ربى ، فلما صلى صلاة العصر نزلت ، فقال : نعم ، اذهب فإنها كفارة لما عملت : وروى أنه أتى أبا بكر فأخبره فقال : استر على نفسك وتب إلى اللّه ، فأتى عمر رضى اللّه عنه فقال له مثل ذلك ، ثم أتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فنزلت ، فقال عمر : أهذا له خاصة أم للناس عامة؟ فقال : بل للناس عامة . وروى أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال له :

توضأ وضوا آحسنا وصل ركعتين إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ «2» ذلِكَ إشارة إلى قوله فَاسْتَقِمْ فما بعده ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ عظة للمتعظين.

---

(1). أخرجه الحاكم من حديث أبى هريرة رفعه «الصلاة المكتوبة إلى الصلاة المكتوبة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر».

(2). كان في الأصل أبو اليسر عمرو بن غزية وهو غلط. وإنما هو أبو اليسر كعب بن عمرو. وكذا هو في كتب أسماء الصحابة. وإنما تبع المصنف الثعلبي فانه قال كذلك نزلت في عمرو بن غزية الأنصارى. والحديث عند الترمذي والنسائي والبزار والطبراني والطبري من رواية عثمان بن عبد اللّه بن موهب عن موسى بن طلحة بن أبى اليسر ابن عمرو قال: أتتنى امرأة تبتاع تمرا - فقلت لها: في البيت تمر أطيب من هذا فدخلت معى في البيت. فأهويت إليها فقبلتها. فقالت: اتق اللّه. فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له: فقال استر على نفسك وتب. فأتيت عمر فقال مثل ذلك. فأتيت النبي صلى اللّه عليه وسلم فذكرت ذلك له فأطرق طويلا حتى أوحى إليه أَقِمِ الصَّلاةَ... الآية قال ابن أبى اليسر: أتيته فقرأها على. فقال أصحابه: يا رسول اللّه، ألهذا خاصة أم للناس عامة؟ فقال: بل للناس عامة.

وفي رواية لأحمد فقال عمر بن الخطاب: يا رسول اللّه، أله وحده أم للناس كافة؟»

وللدارقطنى والحاكم والبيهقي من رواية عبد الرحمن بن أبى ليلى عن معاذ أنه كان قاعداً

عند النبي صلى اللّه عليه وسلم فجاءه رجل فقال : يا رسول اللّه ، ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له فلم يدع شيئا يأتيه الرجل من امرأته إلا أصاب منها غير أنه لم يجامعها . فقال له النبي صلى اللّه عليه وسلم توضأ وضوءاً حسنا ثم صل . فأنزل اللّه تعالى الآية . فقال معاذ : أهي له خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال : بل للمسلمين عامة . وأصل الحديث في الصحيحين عن ابن مسعود وجاء رجل إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : إني عالجت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها دون أن أمسها وأنا هذا فاقض فيّ ما شئت .

فقال له عمر : لقد سترك اللّه لو سترت على نفسك ولم يرد عليه النبي صلى اللّه عليه وسلم شيئا فانطلق الرجل فأتبعه النبي صلى اللّه عليه وسلم رجلا . فدعاه فتلا عليه أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ . . . الآية فقال رجل من القوم : يا رسول اللّه أله خاصة أم للناس ؟ فقال : بل للناس كافة» .

(178/388)

[سورة هود (11) : آية 115]

وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (115)

ثم كرّ إلى التذكير بالصبر بعد ما جاء بما هو خاتمة للتذكير ، وهذا الكرور لفضل خصوصية ومزية وتنبيه على مكان الصبر ومحله ، كأنه قال : وعليك بما هو أهمّ مما ذكرت به وأحق بالتوصية ، وهو الصبر على امتثال ما أمرت به والانتهاء عما نهيت عنه ، فلا يتم شيء منه إلا به فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ جاء بما هو مشتمل على الاستقامة وإقامة الصلوات والانتهاء عن الطغيان والركون إلى الظالمين والصبر وغير ذلك من الحسنات .

[سورة هود (11) : آية 116]

فَلَوْلا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَكانُوا مُجْرِمِينَ (116)

فَلَوْلا كانَ مِنَ الْقُرُونِ فهلا كان . وقد حكوا عن الخليل : كل «لولا» في القرآن فمعناها «هلا» إلا التي في الصافات ، وما صحت هذه الحكاية ففي غير الصافات لَوْلا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ ، وَلَوْلا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ ، وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ . أُولُوا بَقِيَّةٍ أولو فضل وخير . وسمى الفضل والجودة بقية لأنّ الرجل يستبقى مما يخرجه أجوده وأفضله ، فصار مثلا في الجودة والفضل . ويقال : فلان من بقية القوم ، أى من خيارهم .

وبه فسر بيت الحماسة :

إِنْ تُذْنِبُوا ثُمَّ يَأْتِينِى بَقِيَّتُكُمْ «1»

(1) يا أيها الراكب المزجى مطيته سائل بنى أسد ما هذه الصوت

وقل لهم بادروا بالعذر والتمسوا قولا يبرئكم إنى أنا الموت

إن تذنبوا ثم يأتينى بقيتكم فما علىّ بذنب عندكم فوت

لروشيد بن كثير الطائي. وزجاه - بالتخفيف والتشديد - وأزجاه: ساقه. وأراد بالصوت: الصيحة أو القصة التي بلغته عنه، وأخبر عن نفسه بالموت مبالغة. وبقية القوم: خيارهم، وتأتى مصدراً بمعنى البقوى، كالتقية بمعنى التقوى. والمعنى على الأول. إن تذنبوا ثم يأتينى أماثلكم يعتذرون عنكم فلا فوت، ولا بأس علىّ بسبب ذنب غيركم. وعلى الثاني: ثم يأتينى منكم ذو الإبقاء على أنفسهم، يقولون: لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، فكذلك.

ويجوز أن المعنى: إن تجتمعوا على للمحاربة أو للاعتذار، فلا تفوتني مؤاخذتكم بل لا بد منها. وإثبات الياء في «يأتينى» للإشباع، لكن الأخير غير مناسب لقوله «بادروا بالعذر». [.....]

ومنه قولهم : في الزوايا خبايا ، وفي الرجال بقايا . ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى ، كالتقية بمعنى التقوى ، أى : فهلا كان منهم ذو وبقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط اللّه وعقابه .

وقرئ : أولو بقية ، بوزن لقية ، من بقاه يبقيه إذا راقبه وانتظره ومنه : «بقينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «1»» والبقية المرّة من مصدره . والمعنى : فلو كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام اللّه ، كأنهم ينتظرون إيقاعه بهم لإشفاقهم إِلَّا قَلِيلًا استثناء منقطع ، معناه : ولكن قليلا ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد ، وسائرهم تاركون للنهى . ومِنَ في مِمَّنْ أَنْجَيْنا حقها أن تكون للبيان لا للتبعيض ، لأن النجاة إنما هي للناهين وحدهم ، بدليل قوله تعالى أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا . فإن قلت : هل لوقوع هذا الاستثناء متصلا وجه يحمل عليه ؟ قلت : إن جعلته متصلا على ما عليه ظاهر الكلام ، كان المعنى فاسداً ، لأنه يكون تحضيضاً لأولى البقية على النهى عن الفساد ، إلا للقليل من الناجين منهم كما تقول :

هلا قرأ قومك القرآن إلا الصلحاء منهم ، تريد استثناء الصلحاء من المحضضين على قراءة القرآن وإن قلت في تحضيضهم على النهى عن الفساد معنى نفيه عنهم ، فكأنه قيل : ما كان من القرون أولو بقية إلا قليلا ، كان استثناء متصلا ومعنى صحيحاً ، وكان انتصابه على أصل الاستثناء ، وإن كان الأفصح أن يرفع على البدل وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ أراد

بالذين ظلموا : تاركي النهى عن المنكرات ، أى : لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين ، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعقدوا هممهم بالشهوات ، واتبعوا ما عرفوا فيه التنعم والترف ، من حب الرياسة والثروة ، وطلب أسباب العيش الهنيء . ورفضوا ما وراء ذلك ونبذوه وراء ظهورهم . وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي ، واتبع الذين ظلموا ، يعنى : واتبعوا جزاء ما أتوفوا فيه . ويجوز أن يكون المعنى في القراءة المشهورة : أنهم اتبعوا جزاء إترافهم . وهذا معنى قوىّ لتقدم الإنجاء ، كأنه قيل : إلا قليلا ممن أنجينا منهم وهلك السائر . فإن قلت : علام عطف قوله وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ؟ قلت : إن كان معناه : واتبعوا الشهوات ، كان معطوفاً على مضمر ، لأنّ المعنى إلا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد ، واتبع الذين ظلموا شهواتهم ، فهو عطف على نهوا . وإن كان معناه واتبعوا جزاء الإتراف ، فالواو للحال ، كأنه قيل : أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم . فإن قلت : فقوله وَكانُوا مُجْرِمِينَ ؟ قلت : على أترفوا أى : اتبعوا الإتراف وكونهم مجرمين ، لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام . أو أريد بالإجرام

---

(1) . أخرجه أبو داود من حديث معاذ بن جبل قال «بقينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في صلاة العتمة ، فتأخر حتى ظن الظان أنه ليس بخارج . . . الحديث» .

إغفالهم للشكر. أو على اتبعوا، أى اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك. ويجوز أن يكون اعتراضاً وحكما عليهم بأنهم قوم مجرمون.

[سورة هود (11) : آية 117]

وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ (117)

كانَ بمعنى صح واستقام. واللام لتأكيد النفي. وبِظُلْمٍ حال من الفاعل. والمعنى: واستحال في الحكمة أن يهلك اللّه القرى ظالما لها وَأَهْلُها قوم مُصْلِحُونَ تنزيها لذاته عن الظلم، وإيذاناً بأن إهلاك المصلحين من الظلم. وقيل: الظلم الشرك، ومعناه أنه لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون إلى شركهم فساداً آخر.

[سورة هود (11) : الآيات 118 إلى 119]

وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119)

وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً يعنى لاضطرهم إلى أن يكونوا أهل أمّة واحدة أى ملة واحدة وهي ملة الإسلام، كقوله إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وهذا الكلام يتضمن نفى الاضطرار، وأنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق، ولكنه مكنهم من الاختيار الذي

هو أساس التكليف ، فاختار بعضهم الحق وبعضهم الباطل ، فاختلفوا ، فلذلك قال وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ إلا ناساً هداهم اللّه ولطف بهم ، فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ ذلك إشارة إلى ما دل عليه الكلام الأوّل وتضمنه ، يعنى : ولذلك من التمكين والاختيار الذي كان عنه الاختلاف خلقهم ، ليثيب مختار الحق بحسن اختياره ، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ وهي قوله للملائكة لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لعلمه بكثرة من يختار الباطل .

[سورة هود (11) : الآيات 120 إلى 122]

وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (120) وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ (121) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (122)

وَكُلًّا التنوين فيه عوض من المضاف إليه كأنه قيل . وكل نبأ نَقُصُّ عَلَيْكَ ومِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ بيان لكل . ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ بدل من كلا . ويجوز أن يكون المعنى : كل واقتصاص

نقصّ عليك ، على معنى : وكل نوع من أنواع الاقتصاص نقصّ عليك ، يعنى : على الأساليب المختلفة ، وما نُثَبِّتُ بِهِ مفعول نقصّ . ومعنى تثبيت فؤاده : زيادة يقينه وما فيه طمأنينة قلبه ، لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ للعلم وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ أى في هذه السورة .

أو في هذه الأنباء المقتصة فيها ما هو حق وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ . وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ من أهل مكة وغيرهم اعْمَلُوا على حالكم وجهتكم التي أنتم عليها إِنَّا عامِلُونَ وَانْتَظِرُوا بنا الدوائر إِنَّا مُنْتَظِرُونَ أن ينزل بكم نحو ما اقتص اللّه من النقم النازلة بأشباهكم .

[سورة هود (11) : آية 123]

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123)

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا تخفى عليه خافية مما يجرى فيهما ، فلا تخفى عليه أعمالكم وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فلا بدّ أن يرجع إليه أمرهم وأمرك ، فينتقم لك منهم فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فإنه كافيك وكافلك وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وقرئ : تعملون ، بالتاء : أى أنت وهم على تغليب المخاطب .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : من قرأ سورة هود أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بنوح ومن كذب به ، وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وكان

يوم القيامة من السعداء إن شاء اللّه تعالى ذلك «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ 426.439 ﴾

---

(1) . تقدم إسناده في آل عمران ويأتى في آخر الكتاب .

وقال ابن الجوزى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾

قال الزجاج : بعلاماتنا التي تدل على صحة نبوته .

﴿ وسلطان مبين ﴾ أي : حجة بيِّنة .

قوله تعالى : ﴿ فاتَّبَعوا أمر فرعون ﴾ وهو ما أمرهم به من عبادته واتخاذه إِلهاً .

﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾ أي : مرشد إِلى خير .

قوله تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قومَه يوم القيامة ﴾ قال الزجاج : يقال : قَدَمْتُ القومَ أقدُمهم ، قَدْماً وقُدوما : إِذا تقدمتهم ؛ والمعنى : يقدمهم إِلى النار ؛ ويدل عليه قوله : ﴿ فأوردهم النار ﴾ قال ابن عباس : أوردهم بمعنى أدخلهم .

وقال قتادة : يمضي بين أيديهم حتى يهجم بهم على النار .

قوله تعالى : ﴿ وبئس الورد المورود ﴾ قال المفسرون : الوِرد : الموضع الذي ترِده .

وقال ابن الأنباري : الوِرد : مصدر معناه : الورود ، تجعله العرب بمعنى الموضع المورود ؛ فتلخيص الحرف : وبئس المدخل المدخول النار .

قوله تعالى : ﴿ وأُتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة ﴾ .

في هذه اللعنة قولان :

أحدهما : أنها في الدنيا الغرق ، وفي الآخرة عذاب النار ، هذا قول الكلبي ، ومقاتل .

والثاني : أنها اللعنة في الدنيا من المؤمنين ، وفي الآخرة من الملائكة ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ قال ابن قتيبة : الرفد : العطية ؛ يقول : اللعنة بئس العطية ؛ يقال : رفَدته أرفِده : إذا أعطيته وأعنته .

والمرفود : المعطى .

قوله تعالى : ﴿ ذلك من أنباء القرى ﴾ يعني ما تقدم من الخبر عن القرى المهلَكة .

﴿ نقصُّه عليك ﴾ أي : نخبرك به .

﴿ منها قائم وحصيد ﴾ قال قتادة : القائم : ما يرى مكانه ، والحصيد : لا يرى أثره .

وقال ابن قتيبة : القائم : الظاهر العين ، والحصيد : الذي قد أبيد وحُصد .

وقال الزجاج : القائم : ما بقيت حيطانه ، والحصيد : الذي خُسِف به وما قد امَّحى أثره .

قوله تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ﴾ أي : بالعذاب والإِهلاك .

﴿ ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ بالكفر والمعاصي .

(183/388)

﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم ﴾ أي : فما نفعتهم ولا دفعت عنهم شيئاً ﴿ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ ربك ﴾ بالهلاك .

﴿ وما زادوهم ﴾ يعني الآلهة ﴿ غير تتبيب ﴾ وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه التخسير ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وقتادة ، واختاره ابن قتيبة ، والزجاج .

والثاني : أنه الشر ، قاله ابن زيد .

والثالث : التدمير والإِهلاك ، قاله أبو عبيدة .

فإن قيل : الآلهة جماد ، فكيف قال : "زادوهم" ؟ فعنهْ جوابان :

أحدهما : وما زادتهم عبادتها .

والثاني : أنها في القيامة تكون عوناً عليهم فتزيدهم شرّاً .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك أَخْذُ ربك ﴾ أي : وكما ذُكر من إِهلاك الأمم وأخذهم بالعذاب

أَخْذُ ربك .

﴿ إِذا أخذ القرى وهي ظالمة ﴾ وصف القرى بالظلم ، والمراد أهلها .

وقال ابن عباس : الظلم ها هنا : بمعنى الكفر .

قوله تعالى : ﴿ إِن في ذلك لآية ﴾ يعني : ما ذُكر من عذاب الأمم وأخْذِهم .

والآية : العبرة والعظة .

﴿ ذلك يوم مجموع له الناس ﴾ لأن الخلق يُحشرون فيه ، ويَشهده البَرُّ والفاجر ، وأهل السماء والأرض .

.

﴿ وما نؤخره ﴾ وروى زيد عن يعقوب ، وأبو زيد عن المفضل "وما يؤخره بالياء"

والمعنى : وما نؤخر ذلك اليوم إِلا لوقت معلوم لا يعلمه إِلا الله .

قوله تعالى : ﴿ يوم يأت ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي : "يوم يأتي" بياء في الوصل ، وحذفوها في الوقف ؛ غير أن ابن كثير كان يقف بالياء ، ويصل بالياء .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة بغير ياء في الوصل والوقف .

قال الزجاج : الذي يختاره النحويون "يوم يأتي" باثبات الياء ، والذي في المصحف وعليه أكثر القراءات بكسر التاء ، وهذيل تستعمل حذف هذه الياءات كثيراً .

وقد حكى الخليل، وسيبويه، أن العرب تقول: لا أدرِ، فتحذف الياء، وتجتزىء بالكسرة، ويزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال.

(184/388)

وقال الفراء: كل ياء ساكنة وما قبلها مكسور، أو واو ساكنة وما قبلها مضموم، فإن العرب تحذفها وتجتزىء بالكسرة من الياء، وبالضمة من الواو، وأنشدني بعضهم:

كفّاكَ كَفٌّ مَا تُلِيْقُ دِرْهَمَا . . .

جُوْدًا وأُخْرى تُعْطِ بالسَّيفِ الدّما

قال المفسرون: وقوله: ﴿ يوم يأتي ﴾ يعني: يأتي ذلك اليوم، لا تكلَّم نفس إلا بإذن الله، فكل الخلائق ساكتون، إلا من أذن الله له في الكلام.

وقيل: المراد بهذا الكلام الشفاعة.

قوله تعالى: ﴿ فمنهم شقي ﴾ قال ابن عباس: منهم من كُتبت عليه الشقاوة، ومنهم من كُتبت له السعادة.

قوله تعالى: ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الزفير كزفير الحمار في الصدر، وهو أول ما ينهق، والشهيق كشهيق الحمار في

الحلق ، وهو آخر ما يفرغ من نهيقه ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك ، ومقاتل ، والفراء .

وقال الزجاج : الزفير : شديد الأنين وقبيحه ، والشهيق : الأنين الشديد المرتفع جداً ، وهما من أصوات المكروبين .

وزعم أهل اللغة من الكوفيين والبصريين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار في النهيق ، والشهيق بمنزلة آخر صوته في النهيق .

والثاني : أن الزفير في الحلق ، والشهيق في الصدور ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال أبو العالية ، والربيع بن أنس .

وفي رواية أخرى عن ابن عباس : الزفير : الصوت الشديد ، والشهيق : الصوت الضعيف .

وقال ابن فارس : الشهيق ضد الزفير ، لأن الشهيق ردُّ النَّفَس ، والزفير إخراج النَّفَس .

وقال غيره : الزفير : الشديد ، مأخوذ من الزَّفْر ، وهو الحَمل على الظهر لشدته ؛ والشهيق : النَّفَس الطويل الممتد ، مأخوذ من قولهم : جبل شاهق ، أي : طويل .

والثالث : أن الزفير زفير الحمار ، والشهيق شهيق البغال ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ﴾ المعروف فيه قولان .

أحدهما : أنها السموات المعروفة عندنا ، والأرض المعروفة ؛ قال ابن قتيبة ، وابن الأنباري : للعرب في معنى الأبد الفاظ ؛ تقول : لا أفعل ذلك ما اختلف الليل والنهار ، وما دامت السموات والأرض ، وما اختلفت الجِرَّة والدِرَّة ، وما أطّت الإبل ، في أشباه لهذا كثيرة ، ظناً منهم أن هذه الأشياء لا تتغير ، فخاطبهم الله بما يستعملون في كلامهم .

والثاني : أنها سموات الجنة والنار وأرضهما .

قوله تعالى : ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ في الاستثناء المذكور في حق أهل النار سبعة أقوال .

أحدها : أن الاستثناء في حق الموحِّدين الذين يخرجون بالشفاعة ، قاله ابن عباس ، والضحاك .

والثاني : أنه استثناء لا يفعله ، تقول : والله لأضربنَّك إلا أن أرى غير ذلك ، وعزيمتك على ضربه ، ذكره الفراء ، وهو معنى قول أبي صالح عن ابن عباس : "إلا ما شاء ربك" قال : فقد شاء أن يخلَّدوا فيها .

قال الزجاج : وفائدة هذا ، أنه لو شاء أن يرحمهم لرحمهم ، ولكنه أعلمنا أنهم خالدون أبداً .

والثالث : أن المعنى : خالدين فيها أبداً ، غير أن الله تعالى يأمر النار فتأكلهم وتفنيهم ، ثم يجدد خلقهم ، فيرجع الاستثناء إلى تلك الحال ، قاله ابن مسعود .

والرابع : أن "إِلا" بمعنى "سوى" تقول : لو كان معنا رجل إِلا زيد ، أي : سوى زيد ؛ فالمعنى : خالدين فيها مقدار دوام السموات والأرض سوى ما شاء ربك من الخلود والزيادة ، وهذا اختيار الفراء .

قال ابن قتيبة : ومثله في الكلام أن تقول : لأُسْكنَنَّك في هذه الدار حولاً إِلا ما شئتَ ؛ تريد : سوى ما شئتَ أن أزيدك .

والخامس : أنهم إِذا حُشروا وبُعثوا ، فهم في شروط القيامة ؛ فالاستثناء واقع في الخلود بمقدار موقفهم في الحساب ، فالمعنى : خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إِلا مقدار موقفهم للمحاسبة ، ذكره الزجاج .

وقال ابن كيسان : الاستثناء يعود إِلى مكثهم في الدنيا والبرزخ والوقوف للحساب ؛ قال ابن قتيبة : فالمعنى : خالدين في النار وخالدين في الجنة دوام السماء والأرض إِلا ما شاء ربك من تعميرهم في الدنيا قبل ذلك ، فكأنه جعل دوام السماء والأرض بمعنى الأبد على ما كانت العرب تستعمل ، وإِن كانتا قد تتغيَّران .

واستثنى المشيئة من دوامهما ، لأن أهل الجنة والنار قد كانوا في وقت من أوقات دوام

السماء والأرض في الدنيا ، لا في الجنة ، ولا في النار .

والسادس : أن الاستثناء وقع على أن لهم فيها زفيراً وشهيقاً ، إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب التي لم تُذكر ؛ وكذلك لأهل الجنة نعيم مما ذُكر ، ولهم مما لم يُذكر ما شاء ربك ، ذكره الزجاج أيضاً .

والسابع : أن "إلا" بمعنى "كما" ومنه قوله : ﴿ ولا تَنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾ [النساء 22] ، ذكره الثعلبي .

فأما الاستثناء في حق أهل الجنة ، ففيه ستة أقوال :

أحدها : أنه استثناء لا يفعله .

والثاني : أن "إلا" بمعنى "سوى" .

والثالث : أنه يرجع إلى وقوفهم للحساب ولبثهم في القبور .

والرابع : أنه بمعنى : إلا ما شاء أن يزيدَهم من النعيم الذي لم يُذكر .

والخامس : أن "إلا" كـ "ما" ، وهذه الأقوال قد سبق شرحها .

والسادس : أن الاستثناء يرجع إلى لبث من لبث في النار من الموحِّدين ، ثم أُدخل الجنة ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، ومقاتل .

قال ابن قتيبة : فيكون الاستثناء من الخلود مُكث أهل الذنوب من المسلمين في النار ، فكأنه قال : إلا ما شاء ربك من إخراج المذنبين إلى الجنة ، وخالدين في الجنة إلا ما شاء ربك من

إِدخال المذنبين النارَ مدَّةً .

واختلف القراء في "سعِدوا" فقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : "سَعِدوا" بفتح السين .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : بضمها ، وهما لغتان .

(187/388)

قوله تعالى : ﴿ عطاءً غير مجذوذ ﴾ نُصب عطاء بما دل عليه الكلام ، كأنه قال : أعطاهم النعيم عطاءً .

والمجذوذ : المقطوع ؛ قال ابن قتيبة : يقال : جذذت ، وجددت ، وجذفت ، وجدفت : إِذا قطعت .

قوله تعالى : ﴿ فلا تك في مرية ﴾ أي : فلا تك يا محمد في شك ﴿ مما يعبد هؤلاء ﴾ المشركون من الأصنام ، أنه باطل وضلال ، إِنما يقلِّدون آباءهم ، ﴿ وإِنا لموفُّوهم نصيبهم ﴾ وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : ما قدِّر لهم من خير وشر ، قاله ابن عباس .

والثاني : نصيبهم من الرزق ، قاله أبو العالية .

والثالث : نصيبهم من العذاب ، قاله ابن زيد .

وقال بعضهم : لا ينقصهم من عذاب آبائهم .

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ يعني التوراة ﴿ فاختُلف فيه ﴾ فمن مصدِّق به ومكذِّب كما فعل قومك بالقرآن .

قال المفسرون : وهذه تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ قال ابن عباس : يريد : إني أخّرت أمتك إلى يوم القيامة ، ولولا ذلك لعجّلت عقاب من كذبك .

وقال ابن قتيبة : لولا نَظِرَةٌ لهم إلى يوم الدين لقُضي بينهم في الدنيا .

وقال ابن جرير : سبقت من ربك أنه لا يعجِّل على خلقه بالعذاب ، لقضي بين المصدِّق منهم والمكذِّب بإهلاك المكذب وإنجاء المصدق .

قوله تعالى : ﴿ وإنهم لفي شك منه ﴾ أي : من القرآن ﴿ مريب ﴾ أي : موقع للريب .

قوله تعالى : ﴿ وإن كُلاًّ ﴾ يشير إلى جميع من قصَّ قصته في هذه السورة .

وقال مقاتل : يعني به كفار هذه الأمة .

وقيل : المعنى : وإن كلاًّ لخلق أو بشر ﴿ ليوفينّهم ﴾ .

قرأ أبو عمرو ، والكسائي "وإنّ" مشددة النون ، "لما" خفيفة .

واللام في "لما" لام التوكيد ، دخلت على "ما" وهي خبر "إِنّ" واللام في "لَيوفينَّهم" اللام التي يُتلقَّى بها القَسم ، والتقدير : والله ليوفينَّهم ، ودخلت "ما" للفصل بين اللامين .

قال مكي بن أبي طالب : وقيل : إِن "ما" زائدة ، لكن دخلت لتفصل بين اللامين اللَّذَيْن يتلقَّيان القسم ، وكلاهما مفتوح ، ففُصل ب "ما" بينهما .

وقرأ ابن كثير "وإِنْ" بالتخفيف ، وكذلك "لما" قال سيبويه : حدثنا من نثق به أنه سمع من العرب من يقول : إِنْ عَمْراً لمنطلق ، فيخففون "إِنّ" ويُعملونها ، وأنشد :

وَوَجْهٍ حَسَنِ النَّحرِ . . .

كأَنْ ثَدْيَيْه حُقَّانِ

وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم : "وإِن" خفيفة ، "لَمَّا" مشددة ، والمعنى : وما كلاًّ إِلا ؛ وهذا كما تقول : سألتك لمَّا فعلت ، وإِلاَّ فعلت ، ومثله قوله : ﴿ إِن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ [الطارق 4] .

وقرأ حمزة ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : "وإِنّ" بالتشديد ، "لمّا" بالتشديد أيضاً .

قال أبو علي : هذه قراءة مشكلة ، لأنه كما لا يحسن : إِنّ زيداً إِلا منطلق ، كذلك لا يحسن

تثقيل "إِنَّ" وتثقيل "لمّا" .

وحكي عن الكسائي أنه قال : لا أعرف وجه التثقيل في "لمّا" ولم يُبعد فيما قال .

وقال مكي بن أبي طالب : الأصل فيها "لَمِن ما" ثم أدغمت النون في الميم ، فاجتمعت ثلاث ميمات في اللفظ ، فحذفت الميم المكسورة ؛ والتقدير : وإِنّ كلاًّ لِمن خلْقٍ ليوفينَّهم ، قال : وقيل : التقدير : "لَمَن ما" بفتح الميم في "مَن" فتكون "ما" زائدة ، وتحذف إِحدى الميمات لتكرير الميم في اللفظ ؛ والتقدير : لَخلقٌ ليوفينّهم ، ومعنى الكلام : ليوفينّهم جزاء أعمالهم .

قوله تعالى : ﴿ فاستقم كما أُمرت ﴾ قال ابن عيينة : استقم على القرآن .

وقال ابن قتيبة : امض على ما أمرت به .

قوله تعالى : ﴿ ومن تاب معك ﴾ قال ابن عباس : من تاب معك من الشرك .

قوله تعالى : ﴿ ولا تَطْغَوْا ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : لا تطغوا في القرآن ، فتُحلّوا وتحرِّموا ما لم آمركم به ، قاله ابن عباس .

والثاني : لا تعصوا ربكم ولا تخالفوه ، قاله ابن زيد .

والثالث : لا تخلطوا التوحيد بشك ، قاله مقاتل .

قوله تعالى: ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ روى عبد الوارث عن أبي عمرو: "تَركُنوا" بفتح التاء وضم الكاف، وهي قراءة قتادة.

وروى هارون عن أبي عمرو "تَركِنوا" بفتح التاء وكسر الكاف.

وروى محبوب عن أبي عمرو: "تِركَنوا" بكسر التاء وفتح الكاف.

وقرأ ابن أبي عبلة "تُركَنوا" بضم التاء وفتح الكاف على ما لم يُسم فاعله.

وفي المراد بهذا الركون أربعة أقوال:

أحدها: لا تميلوا إلى المشركين، قاله ابن عباس.

والثاني: لا تَرضوا أعمالهم، قاله أبو العالية.

والثالث: لا تلحقوا بالمشركين، قاله قتادة.

والرابع: لا تُداهنوا الظلمة، قاله السدي، وابن زيد.

وفي قوله: ﴿ فتمسكم النار ﴾ وجهان.

أحدهما: فتصيبكم النار، قاله ابن عباس.

والثاني: فيتعدّى إليكم ظلمهم كما تتعدّى النار إلى إحراق ما جاورها، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ وما لكم من دون الله من أولياء ﴾ أي: ليس لكم أعوان يمنعونكم من العذاب.

قوله تعالى : ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ أما سبب نزولها ، فروى علقمة والأسود عن ابن مسعود أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إني أخذت امرأة في البستان فقبَّلتها ، وضممتُها ، إليَّ وباشرتها ، وفعلتُ بها كل شيء ، غير أني لم أجامعها ، فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار . . .

﴾ الآية ، فدعا الرجل فقرأها عليه ، فقال عمر : أهي له خاصَّة ، أم للناس كافَّة ؟ قال : "لا ، بل للناس كافة" .

(190/388)

وفي رواية أخرى عن ابن مسعود : أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة ، فأتى رسول الله ، فذكر ذلك له ، فنزلت هذه الآية ، فقال الرجل : أليَ هذه الآية ؟ فقال : "لمن عمل بها من أمتي" وقال معاذ بن جبل : كنت قاعداً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء رجل ، فقال : يا رسول الله ، ما تقول في رجل أصاب من امرأة مالا يحل له ، فلم يدَع شيئاً يصيبه الرجل من امرأته إلا أصابه منها ، غير أنه لم يجامعها ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " توضأ وضوءاً حسناً ، ثم قم فصلِّ " .

فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فقال معاذ : أهي له خاصة ، أم للمسلمين عامة ؟ فقال : "بل

هي للمسلمين عامة" .

واختلفوا في اسم هذا الرجل ، فقال أبو صالح عن ابن عباس : هو عمرو بن غزيّة الأنصاري ، وفيه نزلت هذه الآية ، كان يبيع التمر ، فأتته امرأة تبتاع منه تمراً ، فأعجبته ، فقال : إن في البيت تمراً أجود من هذا ، فانطلقي معي حتى أعطيك منه ؛ فذكر نحو حديث معاذ وقال مقاتل : هو أبو مقبل عامر بن قيس الأنصاري .

وذكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب الحافظ أنه أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري .

وذُكر في الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم ، أله خاصة ؟ ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه أبو اليسر صاحب القصة .

والثاني : معاذ بن جبل .

والثالث : عمر بن الخطاب .

فأما التفسير ، فقوله : ﴿ وأقم الصلاة ﴾ أي : أتم ركوعها وسجودها .

فأما طرفا النهار ، ففي الطرف الأول قولان :

أحدهما : أنه صلاة الفجر ، قاله الجمهور .

والثاني : أنه الظهر ، حكاه ابن جرير .

وفي الطرف الثاني ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه صلاة المغرب ، قاله ابن عباس ، وابن زيد .

والثاني: العصر، قاله قتادة.

وعن الحسن كالقولين.

والثالث: الظهر، والعصر، قاله مجاهد، والقرظي.

وعن الضحاك كالأقوال الثلاثة.

قوله تعالى: ﴿ وزلفاً من الليل ﴾ وقرأ أبو جعفر، وشيبة "وزُلُفاً" بضم اللام.

(191/388)

قال أبو عبيدة: الزُّلَف: الساعات، واحدها: زُلْفَة، أي: ساعة ومنزلة وقربة، ومنه سميت المزدلفة، قال العجّاج:

ناجٍ طواه الأينُ مما أوجفا . . .

طَيَّ اللّيَالي زُلَفاً فزُلَفا

سَماوَةَ الهِلاَلِ حَتّى احْقَوْقَفَا . . .

قال ابن قتيبة: ومنه يقال: أزلفني كذا عندك، أي: أدناني؛ والمزالف: المنازل والدّرَج، وكذلك الزُّلَف.

وفيها للمفسرين قولان:

أحدهما : أنها صلاة العتمة ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وعوف عن الحسن ، وابن أبي نجيح عن مجاهد ، وبه قال ابن زيد .

والثاني : أنها صلاة المغرب والعشاء ، روي عن ابن عباس أيضاً ، ورواه يونس عن الحسن ، ومنصور عن مجاهد ، وبه قال قتادة ، ومقاتل ، والزجاج.

قوله تعالى : ﴿ إِن الحسنات يُذهبن السيئات ﴾ في المراد بالحسنات قولان :

أحدهما : أنها الصلوات الخمس ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، وابن المسيب ، ومسروق ، ومجاهد ، والقرظي ، والضحاك ، والمقاتلان : ابن سليمان ، وابن حيان .

والثاني : أنها سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إِله إِلا الله ، والله أكبر ، رواه منصور عن مجاهد .

والأول أصح ، لأن الجمهور عليه ، وفيه حديث مسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رواه عثمان بن عفان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه توضأ ، وقال : " من توضأ وضوئي هذا ، ثم صلى الظهر ، غُفر له ما كان بينها وبين صلاة الصبح ، ومن صلى العصر ، غفر له ما بينها وبين صلاة الظهر ، ومن صلى المغرب ، غفر له ما بينها وبين صلاة العصر ، ثم صلى العشاء ، غُفر له ما بينها وبين صلاة المغرب ، ثم لعله أن يبيت ليلته يتمرَّغ ، ثم إِن قام فتوضأ وصلى الصبح ، غُفر له ما بينه وبين صلاة العشاء ، وهن الحسنات يذهبن

السيئات " .

فأما السيئات المذكورة هاهنا ، فقال المفسرون : هي الصغائر من الذنوب .

(192/388)

وقد روى معاذ بن جبل ، قال : قلت : يا رسول الله ، أوصني ؛ قال : " اتق الله حيثما كنت" ، قال : قلت : زدني ؛ قال : "أتبع السيئة الحسنة تمحها" ، قلت : زدني ؛ قال : "خالِق الناس بخُلُق حسن " .

قوله تعالى : ﴿ ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ في المشار إِليه ب "ذلك" ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه القرآن .

والثاني : إِقام الصلاة .

والثالث : جميع ما تقدم من الوصية بالاستقامة ، والنهي عن الطغيان ، وترك الميل إِلى الظالمين ، والقيام بالصلاة .

وفي المراد بالذكرى قولان .

أحدهما : أنه بمعنى التوبة .

والثاني : بمعنى العِظة .

قوله تعالى : ﴿ واصبر ﴾ فيما أُمر بالصبر عليه قولان :

أحدهما : لما يلقاه من أذى قومه .

والثاني : الصلاة .

وفي المراد بالمحسنين ثلاثة أقوال :

أحدها : المصلُّون ، قاله ابن عباس .

والثاني : المخلصون ، قاله مقاتل .

والثالث : أنهم المحسنون في أعمالهم ، قاله أبو سليمان .

قوله تعالى : ﴿ فلولا كان من القرون ﴾ قال ابن عباس ، والفراء : المعنى : فلم يكن .

وقال ابن قتيبة : المعنى : فهلاّ كان من القرون من قبلكم أولو بقية .

وروى ابن جماز عن أبي جعفر "أولو بِقْيَةٍ" بكسر الباء وسكون القاف وتخفيف الياء .

وفي معنى "أولو بقيَّة" ثلاثة أقوال .

أحدها : أولو دين ، قاله ابن عباس .

قال ابن قتيبة : يقال : قوم لهم بقية ، وفيهم بقية : إِذا كانت بهم مُسكة وفيهم خير .

والثاني : أولو تمييز .

والثالث : أولو طاعة ، ذكرهما الزجاج ، وقال : إِذا قلت : فلان فيه بقية ، فمعناه : فيه فضل .

قوله تعالى : ﴿ إِلا قليلاً ﴾ استثناء منقطع ، أي : لكنّ قليلاً ممن أنجينا منهم ممن نهى عن الفساد .

قال مقاتل : لم يكن من القرون من ينهى عن المعاصي والشرك إِلا قليلاً ممن أنجينا من العذاب مع الرسل .

قوله تعالى : ﴿ واتَّبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ﴾ أي : اتبعوا مع ظلمهم ما أُترفوا فيه مع استدامة نعيمهم ، فلم يقبلوا ما ينقص من ترفهم .

قال الفراء : آثروا اللذات على أمر الآخرة .

قال : ويقال : اتبعوا ذنوبهم السيئة إِلى النار .

قوله تعالى : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم ﴾ فيه قولان :

أحدهما : بغير جرم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : بشرك ، ذكره ابن جرير ، وأبو سليمان .

وفي قوله : ﴿ وأهلها مصلحون ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : ينتصف بعضهم من بعض ، رواه قيس بن أبي حازم عن جرير .

قال أبو جعفر الطبري : فيكون المعنى : لا يهلكهم إِذا تناصفوا وإِن كانوا مشركين ، وإِنما يهلكهم إِذا تظالموا .

والثاني : مصلحون لأعمالهم ، متمسكون بالطاعة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : مؤمنون ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ ولو شاءَ ربُّكَ لجعلَ الناس أمةً واحدةً ﴾ قال ابن عباس : لو شاء أن يجعلهم كلَّهم مسلمين لفعل .

قوله تعالى : ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ في المشار إِليهم قولان :

أحدهما : أنهم أهل الحق وأهل الباطل ، رواه الضحاك عن ابن عباس ؛ فيكون المعنى : إِن هؤلاء يخالفون هؤلاء .

والثاني : أنهم أهل الأهواء لا يزالون مختلفين ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ إِلا من رحم ربك ﴾ قال ابن عباس : هم أهل الحق .

وقال الحسن : أهل رحمة الله لا يختلفون .

قولة تعالى : ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ في المشار إِليه بذلك أربعة أقوال :

أحدها : أنه يرجع إِلى ما هم عليه .

قال ابن عباس : خلقهم فريقين ، فريقاً يُرحم فلا يختلف ، وفريقاً لا يُرحم يختلف .

والثاني : أنه يرجع إِلى الشقاء والسعادة ، قاله ابن عباس أيضاً ، واختاره الزجاج ، قال :

لأن اختلافهم مؤدّيهم إلى سعادة وشقاوة.

قال ابن جرير: واللام في قوله: "ولذلك" بمعنى "على".

والثالث: أنه يرجع إلى الاختلاف، رواه مبارك عن الحسن.

والرابع: أنه يرجع إلى الرحمة، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة؛ فعلى هذا يكون المعنى: ولرحمته خلق الذين لا يختلفون في دينهم.

(194/388)

قوله تعالى: ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ قال ابن عباس: وجب قول ربك: ﴿ لأملأن جهنم ﴾ من كفار الجنَّة، وكفار الناس.

قوله تعالى: ﴿ وكلاًّ نقصُّ ﴾ قال الزجاج: "كلاًّ" منصوب ب "نقص"، المعنى: كل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل نقص عليك.

و"ما" منصوبة بدلاً من كل، المعنى: نقص عليك ما نثبّت به فؤادك؛ ومعنى تثبيت الفؤاد تسكين القلب هاهنا، ليس للشك، ولكن كلما كان البرهان والدلالة أكثر كان القلب أثبت.

قوله تعالى: ﴿ وجاءك في هذه الحق ﴾ في المشار إليه ب "هذه" أربعة أقوال:

أحدها : أنها السورة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير وأبو العالية ، ورواه شيبان عن قتادة .

والثاني : أنها الدنيا ، فالمعنى : وجاءك في هذه الدنيا ، رواه سعيد عن قتادة ؛ وعن الحسن كالقولين .

والثالث : أنها الأقاصيص المذكورة .

والرابع : أنها هذه الآية بعينها ، ذكر القولين ابن الأنباري .

وفي المراد بالحق هاهنا ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها البيان .

والثاني : صدق القصص والأنباء .

والثالث : النبوة .

فإن قيل : أليس قد جاءه الحق في كل القرآن ، فلم خص هذه السورة ؟

فالجواب أنا إن قلنا : إن الحق النبوة ، فالإشارة ب "هذه" إلى الدنيا ، فيكون المعنى : وجاءك في هذه الدنيا النبوة ، فيرتفع الإشكال .

وإن قلنا : إنها السورة ، فعنه أربعة أجوبة :

أحدها : أن المراد بالحق البيان ، وهذه السورة جمعت من تبيين إهلاك الأمم ، وشرح مآلهم ، ما لم يجمع غيرها ، فبان أثر التخصيص ، وهذا مذهب بعض المفسرين .

والثاني : أن بعض الحق أوكد من بعض في ظهوره عندنا وخفائه علينا ، ولهذا يقول الناس : فلان في الحق : إذا كان في الموت ، وإِن لم يكن قبله في باطل ، ولكن لتعظيم ما هو فيه ، فكأن الحق المبين في هذه السورة أجلى من غيره ، وهذا مذهب الزجاج .

(195/388)

والثالث : أنه خص هذه السورة بذلك لبيان فضلها ، وإِن كان في غيرها حق أيضاً ، فهو كقوله : ﴿ والصلاةِ الوسطى ﴾ [البقرة 238] ، وقوله : ﴿ وجبريل وميكال ﴾ [البقرة 98] ، وهذا مذهب ابن الأنباري .

والرابع : أن المعنى : وجاءك في هذه السورة الحق مع ما جاءك من سائر السور ، قاله ابن جرير الطبري .

قوله تعالى : ﴿ وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ أي : يتعظون إِذا سمعوا هذه السورة وما نزل بالأمم فتلين قلوبهم .

قوله تعالى : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم ﴾ هذا تهديد ووعيد ، والمعنى : اعملوا ما أنتم عاملون ، فستعلمون عاقبة أمركم ، ﴿ وانتظروا ﴾ ما يعِدكم الشيطان ﴿ إِنا منتظرون ﴾ ما يعِدنا ربنا .

فصل

قال المفسرون : وهذه الآية اقتضت تركهم على أعمالهم ، والاقتناع بإنذارهم ، وهي منسوخة بآية السيف .

واعلم أنه إِذا قلنا : إِن المراد بالآية التهديد ، لم يتوجه نسخ .

قوله تعالى : ﴿ ولله غيب السموات والأرض ﴾ أي : علم ما غاب عن العباد فيهما .

﴿ وإِليه يُرجَع الأمرُ كلُّه ﴾ قرأ نافع ، وحفص عن عاصم "يُرجع الأمر كله" بضم الياء .

وقرأ الباقون ، وأبو بكر عن عاصم "يَرجع" بفتح الياء ، والمعنى : إِن كل الأمور ترجع إِليه في المعاد .

﴿ فاعبده ﴾ أي : وحِّده .

﴿ وتوكَّلْ عليه ﴾ أي : ثِقْ به .

﴿ وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ قرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم "تعملون" بالتاء .

وقرأ الباقون بالياء .

قال أبو علي : فمن قرأ بالياء ، فالمعنى : قل لهم : وما ربك بغافل عما يعملون .

ومن قرأ بالتاء ، فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولجميع الخلق مؤمِنهم وكافِرهم ، فهو

أعم من الياء ، وهذا وعيد ، والمعنى : إِنه يجزي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

قال كعب : خاتمة التوراة خاتمة "هود" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(196/388)

وقال النسفى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا وسلطان مُّبِينٍ ﴾

المراد به العصا لأنها أبهرها ﴿ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِ فاتبعوا ﴾ أي الملأ ﴿ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ هو تجهيل لمتبعيه حيث تابعوه على أمره وهو ضلال مبين ، وذلك أنه ادعى الإلهية وهو بشر مثلهم ، وجاهر بالظلم والشر الذي لا يأتي إلا من شيطان ومثله بمعزل عن الألوهية .

وفيه أنهم عاينوا الآيات والسلطان المبين وعلموا أن مع موسى الرشد والحق ثم عدلوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس في أمره رشد قط ، أو المراد وما أمره بصالح حميد العاقبة ويكون قوله :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة ﴾ أي يتقدمهم وهم على عقبه تفسيراً له وإيضاحاً أي كيف

يرشد أمر من هذه عاقبته والرشد يستعمل في كل ما يحمد ويرتضى كما استعمل الغي في كل ما يذم ويقال قدمه بمعنى تقدمه ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النار ﴾ أدخلهم .

(197/388)

وجيء بلفظ الماضي لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به فكأنه قيل : يقدمهم فيوردهم النار لا محالة يعني كما كان قدوة لهم في الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه ﴿ وَبِئْسَ الورد ﴾ المورد و ﴿ المورود ﴾ الذي وردوه شبه بالفارط الذي يتقدم الواردة إلى الماء وشبه أتباعه بالواردة ثم قال : وبئس الورد المورود الذي يردونه النار لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش والنار ضده ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هذه ﴾ أي الدنيا ﴿ لَعْنَةً وَيَوْمَ القيامة ﴾ أي يلعنون في الدنيا ويلعنون في الآخرة ﴿ بِئْسَ الرفد المرفود ﴾ رفدهم أي بئس العون المعان أو بئس العطاء المعطى ﴿ ذلك ﴾ مبتدأ ﴿ مِنْ أَنْبَاء القرى ﴾ خبر ﴿ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ خبر بعد خبر أي ذلك النبأ بعض أبناء القرى المهلكة مقصوص عليك ﴿ مِنْهَا ﴾ من القرى ﴿ قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ أي بعضها باق وبعضها عافي الأثر كالزرع القائم على ساقه والذي حصد والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ﴿ وَمَا ظلمناهم ﴾ بإهلاكنا إياهم ﴿ ولكن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بارتكاب ما به أهلكوا ﴿ فَمَا أَغْنَتْ

عَنْهُمْ ءالِهَتُهُمُ ﴾ فما قدرت أن ترد عنهم بأس الله ﴿ التى يَدْعُونَ ﴾ يعبدون وهي حكاية حال ماضية ﴿ مِن دُونِ الله مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَاء أَمْرُ رَبّكَ ﴾ عذابه و ﴿ لما ﴾ منصوب ب ﴿ ما أغنت ﴾ ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ تخسير.

يقال : تب إذا خسر وتببه غيره أوقعه في الخسران يعني وما أفادتهم عبادة غير الله شيئاً بل أهلكتهم.

(198/388)

﴿ وكذلك ﴾ محل الكاف الرفع أي ومثل ذلك الأخذ ﴿ أَخْذُ رَبّكَ إِذَا أَخَذَ القرى ﴾ أي أهلها ﴿ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ﴾ حال من ﴿ القرى ﴾ ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ مؤلم شديد صعب على المأخوذ وهذا تحذير لكل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها فعلى كل ظالم أن يبادر التوبة ولا يغتر بالإمهال ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ فيما قص الله من قصص الأمم الهالكة ﴿ لآيَةً ﴾ لعبرة ﴿ لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخرة ﴾ أي اعتقد صحته ووجوده ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى يوم القيامة لأن عذاب الآخرة دل عليه ﴿ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس ﴾ وهو مرفوع بمجموع كما يرفع فعله إذا قلت يجمع له الناس.

وإنما آثر اسم المفعول على فعله لما في اسم المفعول من دلالته على ثبات معنى الجمع لليوم.

وإنه أثبت أيضاً لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكون منه يجمعون للحساب والثواب والعقاب ﴿ وذلك يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ أي مشهود فيه فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به أي يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد

﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ ﴾ أي اليوم المذكور .

(199/388)

الأجل يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها ، والعد إنما هو للمدة لا لغايتها ومنتهاها ، فمعنى قوله ﴿ وما نؤخره ﴾ ﴿ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ إلا لانتهاء مدة معدودة بحذف المضاف ، أو ما نؤخر هذا اليوم إلا لتنتهي المدة التي ضربناها لبقاء الدنيا ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ وبالياء مكي ، وافقه أبو عمرو ونافع وعلي في الوصل ، وإثبات الياء هو الأصل إذ لا علة توجب حذفها ، وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل ونظيره ﴿ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ [الكهف : 64] وفاعل ﴿ يأت ﴾ ضمير يرجع إلى قوله ﴿ يوم مجموع له الناس ﴾ لا اليوم المضاف إلى ﴿ يأت ﴾ و ﴿ يوم ﴾ منصوب باذكر أو بقوله ﴿ لَا تَكَلَّمُ ﴾ أي لا تتكلم ﴿ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ أي لا يشفع أحد إلا بإذن الله ، ﴿ مَن ذَا الذى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ الضمير لأهل الموقف لدلالة ﴿ لا تكلم

نفس ﴾ عليه وقد مر ذكر الناس في قوله ﴿ مجموع له الناس ﴾ ﴿ شَقِيٌّ ﴾ معذب ﴿ وَسَعِيدٌ ﴾ أي ومنهم سعيد أي منعم .

﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ فَفِى النار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ هو أول نهيق الحمار ﴿ وَشَهِيقٌ ﴾ هو آخره ، أو هما إخراج النفس ورده ، والجملة في موضع الحال والعامل فيها الاستقرار الذي في النار ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ حال مقدرة ﴿ مَا دَامَتِ السماوات والأرض ﴾ في موضع النصب أي مدة دوام السماوات والأرض ، والمراد سماوات الآخرة وأرضها وهي دائمة مخلوقة للأبد .

(200/388)

والدليل على أن لها سماوات وأرضاً قوله ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات ﴾ [إبراهيم : 48] وقيل : ما دام فوق وتحت ولأنه لا بد لأهله الآخرة مما يقلهم ويظلهم إما سماء أو عرش وكل ما أظلك فهو سماء ، أو هو عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع كقول العرب : ما لاح كوكب ، وغير ذلك من كلمات التأبيد ﴿ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ هو استثناء من الخلود في عذاب النار ، وذلك لأن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده بل يعذبون بالزمهرير وأنواع من العذاب سوى عذاب النار ، أو ب ﴿ ما شاء ﴾ بمعنى من شاء وهم

قوم يخرجون من النار ويدخلون الجنة فيقال لهم الجهنميون وهم المستثنون من أهل الجنة أيضاً لمفارقتهم إياها بكونهم في النار أياماً ، فهؤلاء لم يشقوا شقاوة من يدخل النار على التأبيد ، ولا سعدوا سعادة من لا تمسه النار ، وهو مروي عن ابن عباس والضحاك وقتادة رضي الله عنهم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ بالشقي والسعيد ﴿ وَأَمَّا الذين سُعِدُواْ ﴾ ﴿ سُعدوا ﴾ حمزة وعلي وحفص .

سَعد لازم وسعَده يسعَده متعد ﴿ فَفِى الجنة خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ هو استثناء من الخلود في نعيم الجنة وذلك أن لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وهو رؤية الله تعالى ورضوانه ، أو معناه إلا من شاء أن يعذبه بقدر ذنبه قبل أن يدخله الجنة .

(201/388)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الاستثناء في الآيتين لأهل الجنة " ومعناه ما ذكرنا أنه لا يكون للمسلم العاصي الذي دخل النار خلود في النار حيث يخرج منها ، ولا يكون له أيضاً خلود في الجنة لأنه لم يدخل الجنة ابتداء ، والمعتزلة لما لم يروا خروج العصاة من النار ردوا الأحاديث المروية في هذا الباب ﴿ وكفى

به إثماً مبيناً ﴾ [النساء : 50] ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ غير مقطوع ولكنه ممتد إلى غير نهاية كقوله : ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [الإنشقاق : 25] وهو نصب على المصدر أي أعطوا عطاء .

قيل : كفرت الجهمية بأربع آيات ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ .

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ [الرعد : 35] ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : 96] ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : 33] لما قص الله قصص عبدة الأوثان وذكر ما أحل بهم من نقمه وما أعد لهم من عذابه قال :

﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ﴾ أي فلا تشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم لما أصاب أمثالهم قبلهم تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعدة بالانتقام منهم ووعيداً .

لهم ثم قال : ﴿ ما يعبدون إلَّا كَما يَعبدُ ءَاباَؤهم من قَبلُ ﴾ يريد أن حالهم في الشرك مثل حال آبائهم ، وقد بلغك ما نزل بآبائهم فسينزلن بهم مثله ، وهو استئناف معناه تعليل النهي عن المرية و"ما" في ﴿ مما ﴾ و ﴿ كما ﴾ مصدرية أو موصولة أي من عبادتهم وكعبادتهم ، أو مما يعبدون من الأوثان ومثل ما يعبدون منها ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ حظهم من العذاب كما وفينا آباءهم أنصباءهم ﴿ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ حال من ﴿ نصيبهم

﴿ أي كاملاً

.

(202/388)

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ التوراة ﴿ فاختلف فِيهِ ﴾ آمن به قوم وكفر به قوم كما اختلف في القرآن وهو تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ إنه لا يعاجلهم بالعذاب ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ بين قوم موسى أو قومك بالعذاب المستأصل ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مّنْهُ ﴾ من القرآن أو من العذاب ﴿ مُرِيبٍ ﴾ من أراب الرجل إذا كان ذا ريبة على الإسناد المجازي ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ ﴾ التنوين عوض عن المضاف إليه يعني وإن كلهم أي وإن جميع المختلفين فيه "وإن" مشددة ﴿ لَّمَّا ﴾ مخفف : بصري وعلي ، "ما" مزيدة جيء بها ليفصل بها بين لام "إن" ولام ﴿ لَيُوَفّيَنَّهُمْ ﴾ وهو جواب قسم محذوف ، واللام في ﴿ لما ﴾ موطئة للقسم والمعنى وإن جميعهم والله ليوفينهم ﴿ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي جزاء أعمالهم من إيمان وجحود وحسن وقبيح .

بعكس الأولى : أبو بكر ، مخففان : مكي ونافع على إعمال المخففة عمل الثقيلة اعتباراً لأصلها الذي هو التثقيل ، ولأن "إن" تشبه الفعل والفعل يعمل قبل الحذف وبعده نحو "لم

يكن" "ولم يك" فكذا المشبه به مشددتان غيرهم وهو مشكل .

وأحسن ما قيل فيه أنه من لممت الشيء جمعته لمًّا ، ثم وقف فصار "لما" ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ، وجاز أن يكون مثل الدعوى والثروى وما نفيه ألف التأنيث من المصادر .

وقرأ الزهري ﴿ وإن كلا لما ﴾ بالتنوين كقوله : ﴿ أَكْلاً لَّمّاً ﴾ [الفجر : 19] وهو يؤيد ما ذكرنا والمعنى ، وإن كلاً ملمومين أي مجموعين كأنه قيل : وإن كلاً جميعاً كقوله ﴿ فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر : 30] وقال صاحب الإيجاز : "لما" فيه معنى الظرف وقد دخل في الكلام اختصار كأنه قيل : وإن كلاً لما بعثوا ليوفينهم ربك أعمالهم .

وقال الكسائي : ليس لي بتشديد "لما" علم .

﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

(203/388)

﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها غير عادل عنها ﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ معطوف على المستتر في ﴿ استقم ﴾ وجاز للفاصل يعني فاستقم أنت وليستقم من تاب عن الكفر ورجع إلى الله مخلصاً ﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ ﴾ ولا

تخرجوا عن حدود الله ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فهو مجازيكم فاتقوه .

قيل : ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية كانت أشق عليه من هذه الآية ولهذا قال : " شيبتني هود " ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الذين ظَلَمُوا ﴾ ولا تميلوا .

قال الشيخ رحمه الله : هذا خطاب لأتباع الكفرة أي لا تركنوا إلى القادة والكبراء في ظلمهم وفيما يدعونكم إليه ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النار ﴾ وقيل : الركون إليهم الرضا بكفرهم .

وقال قتادة : ولا تلحقوا بالمشركين .

وعن الموفق أنه صلى خلف الإمام فلما قرأ هذه الآية غشي عليه فلما أفاق قيل له فقال : هذا فيمن ركن إلى من ظلم فكيف بالظالم ! وعن الحسن جعل الله الدين بين لاءين ﴿ ولا تطغوا ﴾ ﴿ ولا تركنوا ﴾ وقال سفيان : في جهنم وادٍ لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك .

وعن الأوزاعي : ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه " ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في بريّة هل يسقى شربة ماء فقال : لا ، فقيل له : يموت قال : دعه يموت ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ حال من قوله ﴿ فتمسكم النار ﴾ أي فتمسكم النار وأنتم على هذه الحالة ، ومعناه وما لكم من دون الله من أولياء يقدرون على منعكم من عذابه ولا يقدر على منعكم منه غيره ﴿ ثم لا

تنصرون ﴾ ثم لا ينصركم هو لأنه حكم بتعذيبكم .

ومعنى "ثم" الاستبعاد أي النصرة من الله مستبعدة .

﴿ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار ﴾ غدوة وعشية ﴿ وَزُلَفاً مِّنَ الليل ﴾ وساعات من الليل جمع زلفة وهي ساعاته القريبة من آخر النهار من أزلفه إذا قربه .

وصلاة الغدوة الفجر ، وصلاة العشية الظهر والعصر لأن ما بعد الزوال عشي ، وصلاة الزلف المغرب والعشاء ، وانتصاب ﴿ طرفي النهار ﴾ على الظرف لأنهما مضافان إلى الوقت كقولك "أقمت عنده جميع النهار وأتيته نصف النهار وأوله وآخره" .

تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ إن الصلوات الخمس يذهبن الذنوب وفي الحديث " إن الصلوات الخمس تكفر ما بينها من الذنوب " أو الطاعات .

قال عليه السلام : " أتبع السيئة الحسنة تمحها " أو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ﴿ فاستقم ﴾ فما بعده أو القرآن ﴿ ذكرى لِلذكِرِينَ ﴾ عظة للمتعظين .

نزلت في عمرو بن غزية الأنصاري بائع التمر قال لامرأة : في البيت تمر أجود فدخلت فقبلها فندم فجاءه حاكياً باكياً فنزلت فقال عليه السلام : " هل شهدت معنا العصر " قال : نعم . قال : " هي كفارة لك " فقيل : أله خاصة ؟ قال : " بل للناس عامة " ﴿ واصبر ﴾ على امتثال ما أمرت به والانتهاء عما نهيت عنه فلا يتم شيء منه إلا به ﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ جاء بما هو مشتمل على جميع الأوامر والنواهي من قوله ﴿ فاستقم ﴾ إلى قوله ﴿ واصبر ﴾ وغير ذلك من الحسنات .

﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ القرون مِن قَبْلِكُمْ ﴾ فهلا كان وهو موضوع للتحضيض ومخصوص بالفعل ﴿ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ ﴾ أولوا فضل وخير ، وسمي الفضل والجود بقية لأن الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله فصار مثلاً في الجودة والفضل .

ويقال : فلان من بقية القوم أي من خيارهم ، ومنه قولهم : "في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا " ﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ الفساد فِى الأرض ﴾ عجب محمداً عليه السلام وأمته أن لم يكن في الأمم التي ذكر الله إهلاكهم في هذه السورة جماعة من أولِي العقل والدين ينهون غيرهم عن الكفر والمعاصي ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ استثناء منقطع أي ولكن قليلاً ممن أنجينا

من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهي .

و"من" في ﴿ ممن أنجينا ﴾ للبيان لا للتبعيض لأن النجاة للناهين وحدهم بدليل قوله : ﴿ أَنجَيْنَا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السوء وَأَخَذْنَا الذين ظَلَمُواْ ﴾ [الأعراف : 165] ﴿ واتبع الذين ظَلَمُواْ ﴾ أي التاركون للنهي عن المنكر ، وهو عطف على مضمر أي قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم فهو عطف على " نهوا " ﴿ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ أي أتبعوا ما عرفوا فيه التنعم والترفه من حب الرياسة والثروة وطلب أسباب العيش الهنيء ، ورفضوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونبذوه وراء ظهورهم ﴿ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ اعتراض وحكم عليهم بأنهم قوم مجرمون ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى ﴾ اللام لتأكيد النفي ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ حال من الفاعل أي لا يصح أن يهلك الله القرى ظالماً لها ﴿ وَأَهْلُهَا ﴾ قوم ﴿ مُصْلِحُونَ ﴾ تنزيهاً لذاته عن الظلم .

وقيل : الظلم الشرك أي لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون في المعاملات فيما بينهم لا يضمون إلى شركهم فساداً آخر ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي متفقين على الإيمان والطاعات عن اختيار ولكن لم يشأ ذلك .

وقالت المعتزلة : وهي مشيئة قسر ، وذلك رافع للابتداء فلا يجوز ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ في الكفر والإيمان أي ولكن شاء أن يكونوا مختلفين لما علم منهم اختيار ذلك .

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ إلا ناساً عصمهم الله عن الاختلاف فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه ﴿ ولذلك خَلَقَهُمْ ﴾ أي ولما هم عليه من الاختلاف فعندنا خلقهم للذي علم أنهم سيصيرون إليه من اختلاف أو اتفاق ولم يخلقهم لغير الذي علم أنهم سيصيرون إليه ، كذا في شرح التأويلات ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ وهي قوله للملائكة لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ لعلمه بكثرة من يختار الباطل .

﴿ وَكُلاًّ ﴾ التنوين فيه عوض من المضاف إليه كأنه قيل : وكل نبأ وهو منصوب بقوله ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ وقوله : ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل ﴾ بيان لكل وقوله : ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ بدل من ﴿ كلا ﴾ ﴿ وَجَاءَكَ فِى هذه الحق ﴾ أي في هذه السورة أو في هذه الأنباء المقتصة ما هو حق ﴿ وَمَوْعِظَةٌ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ومعنى تثبيت فؤاده زيادة يقينه لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ من أهل مكة وغيرهم ﴿ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ على حالكم وجهتكم التي أنتم عليها ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ على مكانتنا ﴿ وانتظروا ﴾ بنا الدوائر ﴿ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ أن ينزل بكم نحو ما اقتص الله تعالى من النقم النازلة بأشباهكم ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض ﴾ لا تخفى عليه خافية مما يجري فيهما فلا تخفى عليه أعمالكم ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ ﴾ فلا بد أن يرجع إليه أمرهم وأمرك فينتقم لك منهم .

﴿ يُرجع ﴾ نافع وحفص ﴿ فاعبده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ فإنه كافيك وكافلك ﴿ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وبالتاء : مدني وشامي وحفص ، أي أنت وهم على تغليب المخاطب .

قيل : خاتمة التوراة هذه الآية وفي الحديث " من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 203. 210 ﴾

(207/388)

وقال البيضاوى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا ﴾

بالتوراة أو المعجزات . ﴿ وسلطان مُّبِينٍ ﴾ وهو المعجزات القاهرة أو العصا ، وإفرادها بالذكر لأنها أبهرها ، ويجوز أن يراد بهما واحد أي : ولقد أرسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وسلطاناً له على نبوته واضحاً في نفسه أو موضحاً إياها ، فإن أبان جاء لازماً ومتعدياً ، والفرق بينهما أن الآية تعم الأمارة ، والدليل القاطع والسلطان يخص بالقاطع والمبين يخص بما فيه جلاء .

﴿ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِ فاتبعوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ فاتبعوا أمره بالكفر بموسى أو فما تبعوا موسى

الهادي إلى الحق المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة ، واتبعوا طريقة فرعون المنهمك في الضلال والطغيان الداعي إلى ما لا يخفى فساده على من له أدنى مسكة من العقل لفرط جهالتهم وعدم استبصارهم . ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ مرشد أو ذي رشد ، وإنما هو غي محض وضلال صريح .

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة ﴾ إلى النار كما كان يقدمهم في الدنيا إلى الضلال يقال قدم بمعنى تقدم . ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النار ﴾ ذكره بلفظ الماضي مبالغة في تحقيقه ونزل النار لهم منزلة الماء فسمى إتيانها موردا ثم قال : ﴿ وَبِئْسَ الورد المورود ﴾ أي بئس المورد الذي وردوه فإنه يراد لتبريد الأكباد وتسكين العطش والنار بالضد ، والآية كالدليل على قوله : ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ فإن من كان هذه عاقبته لم يكن في أمره رشد ، أو تفسير له على أن المراد بالرشيد ما يكون مأمون العاقبة حميدها .

﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هذه ﴾ الدنيا . ﴿ لَعْنَةً وَيَوْمَ القيامة ﴾ أي يلعنون في الدنيا والآخرة . ﴿ بِئْسَ الرفد المرفود ﴾ بئس العون المعان أو العطاء المعطى ، وأصل الرفد ما يضاف إلى غيره ليعمده ، والمخصوص بالذم محذوف أي رفدهم وهو اللعنة في الدارين .

﴿ ذلك ﴾ أي ذلك النبأ . ﴿ مِنْ أَنبَاء القرى ﴾ المهلكة . ﴿ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ مقصوص عليك . ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ ﴾ من تلك القرى باق كالزرع القائم . ﴿ وَحَصِيدٌ ﴾ ومنها عافي الأثر كالزرع المحصود ، والجملة مستأنفة وقيل حال من الهاء في نقصه وليس بصحيح إذ لا واو ولا ضمير.

﴿ وَمَا ظلمناهم ﴾ بإهلاكنا إياهم . ﴿ ولكن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بأن عرضوها له بارتكاب ما يوجبه . ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ﴾ فما نفعتهم ولا قدرت أن تدفع عنهم بل ضرتهم . ﴿ آلِهَتُهُمُ التى يَدْعُونَ مِن دُونِ الله مِن شَيْء لَّمَّا جَاء أَمْرُ رَبّكَ ﴾ حين جاءهم عذابه ونقمته . ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيب ﴾ هلاك أو تخسير.

﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك الأخذ . ﴿ أَخْذُ رَبّكَ ﴾ وقرىء ﴿ أَخْذُ رَبّكَ ﴾ بالفعل وعلى هذا يكون محل الكاف النصب على المصدر . ﴿ إِذَا أَخَذَ القرى ﴾ أي أهلها وقرىء "إِذ" لأن المعنى على المضي . ﴿ وَهِىَ ظَالِمَة ﴾ حال من ﴿ القرى ﴾ وهي في الحقيقة لأهلها لكنها لما أقيمت مقامه أجريت عليها ، وفائدتها الإشعار بأنهم أخذوا بظلمهم وإنذار كل ظالم ظلم نفسه ، أو غيره من وخامة العاقبة . ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ وجيع غير مرجو الخلاص منه ، وهو مبالغة في التهديد والتحذير.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي فيما نزل بالأمم الهالكة أو فيما قصه الله تعالى من قصصهم . ﴿ لَآيَةً ﴾ لعبرة . ﴿ لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخرة ﴾ يعتبر به عظمته لعلمه بأن ما حاق بهم أنموذج مما أعد الله للمجرمين في الآخرة ، أو ينزجر به عن موجباته لعلمه بأنها من إله مختار يعذب من يشاء ويرحم من يشاء . فإن من أنكر الآخرة وأحال فناء هذا العالم لم يقل بالفاعل المختار ، وجعل تلك الوقائع لأسباب فلكية اتفقت في تلك الأيام لا لذنوب المهلكين بها .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى يوم القيامة وعذاب الآخرة دل عليه . ﴿ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس ﴾ أي يجمع له الناس ، والتغيير للدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم وأنه من شأنه لا محالة وأن الناس لا ينفكون عنه فهو أبلغ من قوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجمع ﴾ ومعنى الجمع له الجمع لما فيه من المحاسبة والمجازاة . ﴿ وذلك يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ أي مشهود فيه أهل السموات والأرضين فاتسع فيه بإجراء الظرف مجرى المفعول به كقوله :

في مَحفَلٍ مِنْ نَوَاصِي النَّاس مَشْهُود . . . أي كثير شاهدوه ، ولو جعل اليوم مشهوداً في نفسه لبطل الغرض من تعظيم اليوم وتمييزه فإن سائر الأيام كذلك .

﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ ﴾ أي اليوم . ﴿ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ إلا لانتهاء مدة معدودة متناهية على حذف المضاف وإرادة مدة التأجيل كلها بالأجل لا منتهاها فإنه غير معدود .

﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ أي الجزاء أو اليوم كقوله : ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ الساعة ﴾ على أن ﴿ يَوْمٍ ﴾ بمعنى حين أو الله عز وجل كقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ ﴾ ونحوه . وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ﴿ يَأْتِ ﴾ بحذف الياء اجتزاء عنها بالكسر .

﴿ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ ﴾ لا تتكلم بما ينفع وينجي من جواب أو شفاعة ، وهو الناصب للظرف ويحتمل نصبه بإضمار اذكر أو بالانتهاء المحذوف . ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ إلا بإذن الله كقوله : ﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ وهذا في موقف وقوله : ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ في موقف آخر أو المأذون فيه هي الجوابات الحقة والممنوع عنه هي الأعذار الباطلة . ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ ﴾ وجبت له النار بمقتضى الوعيد . ﴿ وَسَعِيدٌ ﴾ وجبت له الجنة بموجب الوعد الضمير لأهل الموقف وإن لم يذكر لأنه معلوم مدلول عليه بقوله : ﴿ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ ﴾ أو للناس .

﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ فَفِى النار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ الزفير إخراج النفس والشهيق رده ، واستعمالها في أول النهيق وآخره والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم وتشبيه

حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحصر فيه روحه، أو تشبيه صراخهم بأصوات الحمير وقرئ ﴿ شُقُوا ﴾ بالضم.

﴿ خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض ﴾ ليس لارتباط دوامهم في النار بدوامهما فإن النصوص دالة على تأبيد دوامهم وانقطاع دوامهما. بل التعبير عن التأبيد والمبالغة بما كانت العرب يعبرون به عنه على سبيل التمثيل، ولو كان للارتباط لم يلزم أيضاً من زوال السموات والأرض زوال عذابهم ولا من دوامه دوامهما إلا من قبيل المفهوم، لأن دوامهما كالملزوم لدوامه، وقد عرفت أن المفهوم لا يقاوم المنطوق. وقيل المراد سموات الآخرة وأرضها ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض ﴾ وإن أهل الآخرة لا بد لهم من مظل ومقل، وفيه نظر لأنه تشبيه بما لا يعرف أكثر الخلق وجوده ودوامه، ومن عرفه فإنما يعرفه بما يدل على دوام الثواب والعقاب فلا يجدي له التشبيه. ﴿ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ استثناء من الخلود في النار لأن بعضهم وهم فساق الموحدين يخرجون منها، وذلك كاف في صحة الاستثناء لأن زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض، وهم المراد بالاستثناء الثاني فإنهم مفارقون عن الجنة أيام عذابهم، فإن التأبيد من مبدأ معين

ينتقض باعتبار الابتداء كما ينتقض باعتبار الانتهاء ، وهؤلاء وإن شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بإيمانهم ، ولا يقال فعلى هذا لم يكن قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ تقسيماً صحيحاً لأن من شرطه أن تكون صفة كل قسم منتفية عن قسيمه ، لأن ذلك الشرط حيث التقسيم لانفصال حقيقي أو مانع من الجمع وها هنا المراد أن أهل الموقف لا يخرجون عن القسمين ، وأن حالهم لا يخلو عن السعادة والشقاوة وذلك لا يمنع اجتماع الأمرين في شخص باعتبارين ، أو لأن أهل النار ينقلون منها إلى الزمهرير وغيره من العذاب أحياناً ، وكذلك أهل الجنة ينعمون بما هو أعلى من الجنة كالاتصال بجناب القدس والفوز برضوان الله ولقائه ، أو من أصل الحكم والمستثنى زمان توقفهم في الموقف للحساب لأن ظاهره يقتضي أن يكونوا في النار حين يأتي

اليوم ، أو مدة لبثهم في الدنيا والبرزخ إن كان الحكم مطلقاً غير مقيد باليوم ، وعلى هذا التأويل يحتمل أن يكون الاستثناء من الخلود على ما عرفت .

وقيل هو من قوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ وقيل إلا ها هنا بمعنى سوى كقولك على ألف إلا الألفان القديمان والمعنى سوى ما شاء ربك من الزيادة التي لا آخر لها على مدة بقاء

السموات والأرض . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ من غير اعتراض .

﴿ وَأَمَّا الذين سُعِدُواْ فَفِى الجنة خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ غير مقطوع ، وهو تصريح بأن الثواب لا ينقطع وتنبيه على أن المراد من الاستثناء في الثواب ليس الانقطاع ، ولأجله فرق بين الثواب والعقاب بالتأبيد .

وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ سُعِدُواْ ﴾ على البناء للمفعول من سعده الله بمعنى أسعده ، و﴿ عَطَاء ﴾ نصب على المصدر المؤكد أي أعطوا عطاء أو الحال من الجنة .

﴿ فَلاَ تَكُ فِى مِرْيَةٍ ﴾ شك بعد ما أنزل عليك من مآل أمر الناس . ﴿ مّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاء ﴾ من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ضلال مؤد إلى مثل ما حل بمن قبلهم ممن قصصت عليك سوء عاقبة عبادتهم ، أو من حال ما يعبدونه في أنه يضر ولا ينفع . ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ ءابَاؤُهُم مّن قَبْلُ ﴾ استئناف معناه تعليل النهي عن المرية أي هم وآباؤهم سواء في الشرك ، أي ما يعبدون عبادة إلا كعبادة آبائهم أو ما يعبدون شيئاً إلا مثل ما عبدوه من الأوثان ، وقد بلغك ما لحق آباءهم من ذلك فسيلحقهم مثله ، لأن التماثل في الأسباب يقتضي التماثل في المسببات ، ومعنى ﴿ كَمَا يَعْبُدُ ﴾ كما كان يعبد فحذف للدلالة من

قبل عليه. ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ حظهم من العذاب كآبائهم، أو من الرزق فيكون عذراً لتأخير العذاب عنهم مع قيام ما يوجبه. ﴿ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ حال من النصيب لتقييد التوفية فإنك تقول: وفيته حقه وتريد به وفاء بعضه ولو مجازاً.

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب فاختلف فِيهِ ﴾ فآمن به قوم وكفر به قوم كما اختلف هؤلاء في القرآن. ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبّكَ ﴾ يعني كلمة الإِنظار إلى يوم القيامة. ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ بإنزال ما يستحقه المبطل ليتميز به عن المحق.

﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ وإن كفار قومك. ﴿ لَفِى شَكّ مّنْهُ ﴾ من القرآن. ﴿ مُرِيبٍ ﴾ موقع في الريبة.

(214/388)

﴿ وَإِنَّ كُلاًّ ﴾ وإن كل المختلفين المؤمنين منهم والكافرين، والتنوين بدل من المضاف إليه. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف مع الإِعمال اعتباراً للأصل. ﴿ لَّمَّا لَيُوَفّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ اللام الأولى موطئة لقسم والثانية للتأكيد أو بالعكس وما مزيدة بينهما للفصل. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ﴿ لَّمّاً ﴾ بالتشديد على أن أصله لمن ما فقلبت النون ميماً للادغام، فاجتمعت ثلاث ميمات فحذفت أولاهن، والمعنى لمن الذين يوفينهم ربك جزاء

أعمالهم. وقرئ لما بالتنوين أي جميعاً كقوله: ﴿ أَكْلاً لَّمّاً ﴾ ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا ﴾ على إن ﴿ إن ﴾ نافية و﴿ لَّمّاً ﴾ بمعنى إلا وقد قرئ به. ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فلا يفوته شيء منه وإن خفي.

﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ لما بين أمر المختلفين في التوحيد والنبوة، وأطنب في شرح الوعد والوعيد أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستقامة مثل ما أمر بها وهي شاملة للاستقامة في العقائد كالتوسط بين التشبيه والتعطيل بحيث يبقى العقل مصوناً من الطرفين، والأعمال من تبليغ الوحي وبيان الشرائع كما أنزل، والقيام بوظائف العبادات من غير تفريط وإفراط مفوت للحقوق ونحوها وهي في غاية العسر ولذلك قال عليه الصلاة والسلام " شيبتني هود " ﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ أي تاب من الشرك والكفر وآمن معك، وهو عطف على المستكن في استقم وإن لم يؤكد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه. ﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ ﴾ ولا تخرجوا عما حد لكم. ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فهو مجازيكم عليه، وهو في معنى التعليل للأمر والنهي. وفي الآية دليل على وجوب اتباع النصوص من غير تصرف وانحراف بنحو قياس واستحسان.

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الذين ظَلَمُوا ﴾ ولا تميلوا إليهم أدنى ميل فإن الركون هو الميل اليسير كالتزيي بزيهم وتعظيم ذكرهم واستدامته . ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النار ﴾ بركونكم إليهم وإذا كان الركون إلى من وجد منه ما يسمى ظلماً كذلك فما ظنك بالركون إلى الظالمين أي الموسومين بالظلم ، ثم بالميل إليهم كل الميل ، ثم بالظلم نفسه والانهماك فيه ، ولعل الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه ، وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين بها للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل ، فإن الزوال عنها بالميل إلى أحد طرفي إفراط وتفريط فإنه ظلم على نفسه أو غيره بل ظلم في نفسه . وقرىء ﴿ تِرْكَنُوا ﴾ " فَتِمَسَّكُمُ" بكسر التاء على لغة تميم و﴿ تُرْكَنُوا ﴾ على البناء للمفعول من أركنه . ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَاء ﴾ من أنصار يمنعون العذاب عنكم والواو للحال . ﴿ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أي ثم لا ينصركم الله إذ سبق في حكمه أن يعذبكم ولا يبقي عليكم ، وثم لاستبعاد نصره إياهم وقد أوعدهم بالعذاب عليه وأوجبه لهم ، ويجوز أن يكون منزلاً منزلة الفاء لمعنى الاستبعاد ، فإنه لما بين أن الله معذبهم وأن غيره لا يقدر على نصرهم أنتج ذلك أنهم لا ينصرون أصلاً .

﴿ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار ﴾ غدوة وعشية وانتصابه على الظرف لأنه مضاف إليه .

﴿ وَزُلَفاً مِّنَ الليل ﴾ وساعات منه قريبة من النهار ، فإنه من أزلفه إذا قربه وهو جمع زلفة ، وصلاة الغداة صلاة الصبح لأنها أقرب الصلاة من أول النهار ، وصلاة العشية صلاة العصر ، وقيل الظهر والعصر لأن ما بعد الزوال عشي وصلاة الزلف المغرب والعشاء . وقرىء "زلُفا" بضمتين وضمة وسكون كبسر وبسر في بسرة و﴿ زلفى ﴾ بمعنى زلفة كقربى وقربة . ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ يكفرنها . وفي الحديث "إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر" وفي سبب النزول "أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إني قد أصبت من امرأة غير أني لم آتها فنزلت" . ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى قوله ﴿ فاستقم ﴾ وما بعده وقيل إلى القرآن . ﴿ ذكرى لِلذكِرِينَ ﴾ عظة للمتعظين .

﴿ واصبر ﴾ على الطاعات وعن المعاصي . ﴿ فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ عدول عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود ودليلاً على أن الصلاة والصبر إحسان وإيماء بأنه لا يعتد بهما دون الإخلاص .

﴿ فَلَوْلا كَانَ ﴾ فهلا كان. ﴿ مِنَ القرون مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ ﴾ من الرأي والعقل، أو أولو فضل وإنما سمي ﴿ بَقِيَّتُ ﴾ لأن الرجل يستبقي أفضل ما يخرجه، ومنه يقال فلان من بقية القوم أي من خيارهم، ويجوز أن يكون مصدراً كالتقية أي ذوو إبقاء على أنفسهم وصيانة لها من العذاب، ويؤيده أنه قرىء ﴿ بَقِيَّتُ ﴾ وهي المرة من مصدر بقاه يبقيه إذا راقبه. ﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ الفساد فِى الأرض إِلاَّ قَلِيلاً مّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ لكن قليلاً منهم أنجيناهم لأنهم كانوا كذلك، ولا يصح اتصاله إلا إذا جعل استثناء من النفي اللازم للتحضيض. ﴿ واتبع الذين ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ ما أنعموا فيه من الشهوات واهتموا بتحصيل أسبابها وأعرضوا عما وراء ذلك. ﴿ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ كافرين كأنه أراد أن يبين ما كان السبب لاستئصال الأمم السالفة، وهو فشو الظلم فيهم واتباعهم للهوى وترك النهي عن المنكرات مع الكفر، وقوله واتبع على معطوف مضمر دل عليه الكلام إذ المعنى: فلم ينهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا وكانوا مجرمين عطف على ﴿ أَتَّبِعُ ﴾ أو اعترض. وقرىء "واتبع" أي وأتبعوا جزاء ما أترفوا فتكون الواو للحال، ويجوز أن تفسر به المشهورة ويعضده تقدم الإنجاء.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ ﴾ بشرك. ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ فيما بينهم لا يضمون إلى شركهم فساداً وتباغياً، وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوق العباد.

وقيل الملك يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ مسلمين كلهم ، وهو دليل ظاهر على أن الأمر غير الإرادة وأنه تعالى لم يرد الإيمان من كل أحد وأن ما أراده يجب وقوعه . ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل لا تكاد تجد اثنين يتفقان مطلقاً .

(218/388)

﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ إلا ناساً هداهم الله من فضله فاتفقوا على ما هو أصول دين الحق والعمدة فيه . ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ إن كان الضمير ل ﴿ الناس ﴾ فالإشارة إلى الاختلاف ، واللام للعاقبة أو إليه وإلى الرحمة ، وإن كان لمن فإلى الرحمة . ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ وعيد أو قوله للملائكة . ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ أي من عصاتهما ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ أو منهما أجمعين لا من أحدهما .

﴿ وَكُلًّا ﴾ وكل نبأ . ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ ﴾ نخبرك به . ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ بيان لكلا أو بدل منه ، وفائدته التنبيه على المقصود من الاقتصاص وهو زيادة يقينه وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذى الكفار ، أو مفعول ﴿

وكُلاًّ ﴿ منصوب على المصدر بمعنى كل نوع من أنواع الاقتصاص نقص عليك ما نثبت به فؤادك من أنباء الرسل . ﴿ وَجَاءكَ فِي هذه ﴾ السورة أو الأنباء المقتصة عليك . ﴿ الحق ﴾ ما هو حق . ﴿ ومَوْعِظَةٌ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إشارة إلى سائر فوائده العامة .

﴿ وَقُل لّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ على حالكم . ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ على حالنا .

﴿ وانتظروا ﴾ بنا الدوائر . ﴿ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ أن ينزل بكم نحو ما نزل على أمثالكم .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السموات والأرض ﴾ خاصة لا يخفى عليه خافية مما فيهما . ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ ﴾ فيرجع لا محالة أمرهم وأمرك إليه . وقرأ نافع وحفص و"يُرْجَعُ" على البناء للمفعول . ﴿ فاعبده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ فإنه كافيك . وفي تقديم الأمر بالعبادة على التوكل تنبيه على أنه إنما ينفع العابد . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أنت وهم فيجازي كلاًّ ما يستحقه . وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالياء هنا وفي آخر "النمل" . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 258.270 ﴾

(219/388)

وقال الإمام نظام الدين النيسابوري فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123) ﴾

التفسير : ﴿ إن في ذلك ﴾ الذي قصصنا عليك من أحوال الأمم ﴿ لآية ﴾ لعبرة ﴿ لمن خاف ﴾ أي لمن هو أهل لأن يخاف ﴿ عذاب الآخرة ﴾ كقوله : ﴿ هدى للمتقين ﴾ [البقرة : 2] لأن انتفاعه يعود إليهم . قال القفال - في تقرير هذا الاعتبار : إنه إذا علم أن هؤلاء عذبوا على ذنوبهم في الدنيا وهي دار العمل فلأن يعذبوا عليها في الآخرة التي هي دار الجزاء أولى . واعترض عليه في التفسير الكبير بأن ظاهر الآية يقتضي أن العلم بأن القيامة حق كالشرط في حصول الاعتبار بظهور عذاب الاستئصال في الدنيا . والقفال جعل الأمر على العكس قال : والأصوب عندي أن هذا تعريض لمن زعم أن إله العالم موجب بالذات لا فاعل مختار ، وأن هذه الأحوال التي ظهرت في أيام الأنبياء عليهم السلام مثل الغرق والخسف والصيحة إنما حدثت بسبب قرانات الكواكب ، وإذا كان كذلك فلا يكون حصولها دليلاً على صدق الأنبياء عليهم السلام .

أما الذي يؤمن بالقيامة ويخاف عذابها فيقطع بأن هذه الوقائع ليست بسبب الكواكب واتصالاتها فيستفيد مزيد الخشية والاعتبار . أقول : وهذا نظر عميق والأظهر ما ذكرت أوّلاً ومثله في القرآن كثير . ﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ [النازعات : 26] ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ [النحل : 13] ثم لما كان لعذاب الآخرة دلالة على يوم القيامة أشار إليه بقوله : ﴿ ذلك يوم مجموع ﴾ أي يجمع لما فيه من الحساب والثواب والعقاب . ﴿ الناس ﴾ وأوثر اسم المفعول على فعله لأجل إفادة الثبات وأن حشر الأولين والآخرين فيه صفة له لازمة نظيره قول المتهدد : إنك لمنهوب مالك محروب قومك . فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل ﴿ وذلك يوم مشهود ﴾ أي مشهود فيه الخلائق فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به . والفرق بين هذا الوصف والوصف الأول أن هذا يدل على حضور الناس فيه مع اطلاع البعض منهم على أحوال الباقين من المحاسبة والمساءلة ليس بحيث لا يعرف كل واحد إلا واقعة نفسه . والجمع المطلق لا يفيد هذا المعنى وإنما فسرنا اليوم بأنه مشهود فيه لا أنه مشهود في نفسه لأن سائر الأيام تشركه في

كونها مشهودات . وإنما يحصل التمييز بأنه مشهود فيه دون غيره كما تميز يوم الجمعة عن أيام الأسبوع بكونه مشهوداً فيه دونها ﴿ وما نؤخره إلا ﴾ لانتهاء ﴿ لأجل معدود ﴾ أي انقضاء مدة معلومة عيّن الله وقوع الجزاء بعدها وفيه فائدتان : إحداهما أن وقت القيامة متعين لا يتقدم ولا يتأخر ، والثانية أن ذلك الأجل متناهٍ وكل متناهٍ فإنه يفنى لا محالة وكل آتٍ قريب . ثم ذكر بعض أهوال ذلك اليوم فقال : ﴿ يوم يأت ﴾ حذف الياء والاكتفاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل ، وفاعل ﴿ يأتي ﴾ قيل : الله كقوله : ﴿ أو يأتي ربك ﴾ [الأنعام : 158] أي أمره أو حكمه دليله قراءة من قرأ ﴿ وما يؤخره ﴾ بالياء وقوله : ﴿ بإذنه ﴾ . وقيل : المراد الشيء المهيب الهائل المستعظم فحذف ذكره بتعيينه ليكون

(221/388)

أقوى في التخويف . وقيل : فاعله ضمير اليوم والمراد إتيان هوله وشدائده كيلا يصير اليوم ظرفاً لإتيان اليوم . وانتصاب ﴿ يوم ﴾ ب ﴿ لا تكلم ﴾ أو باذكر مضمراً أو بالانتهاء المقدر أي ينتهي الأجل يوم يأتي وتاء التأنيث محذوفة من لا تكلم ، والآيات الدالة على التكلم في ذلك اليوم مع الآيات الدالة على نفي التكلم كقوله تعالى : ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ ﴿ النحل : 111] وكقوله : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ ﴾

المرسلات : 35] محمولة على اختلاف المواطن والأزمنة ، أو نفى العذر الصحيح المقبول وأثبت العذر الباطل الكاذب . ثم قسم أهل الموقف المجموعتين للحساب أو الأفراد العامة التي دلت عليها نفس فقال : ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ أي ومنه سعيد . ولا خلاف في أن الشقاء والسعادة مقترنان بالعمل الفاسد والعمل الصالح ويترتب عليهما الجنة والنار في الآخرة ، وإنما النزاع في أن العمل سبب للشقاء مثلاً كما هو مذهب المعتزلة ، أو الشقاء سبب العمل كما هو مذهب أهل السنة ، فيختلف تفسير الشقاء بحسب المذهبين فهو عند المعتزلة الحكم بوجوب النار له لإساءته ، وعند السني جريان القلم عليه في الأزل بأنه من أهل النار وأنه يعمل عمل أهل النار والتحقيق في المسألة قد مر مراراً .

(222/388)

قيل : قد بقي ههنا قسم آخر ليسوا من أهل النار ولا من أهل الجنة كالمجانين والأطفال فهم أصحاب الأعراف ، وتخصيص القسمين بالذكر لا يدل على نفي الثالث . أما قوله في صفة أهل النار ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ ففيه وجوه قال الليث وكثير من الأدباء : الزفير استدخال الهواء الكثير لترويح الحرارة الحاصلة في القلب بسبب انحصار الروح فيه وحينئذٍ يرتفع صدره وينتفخ جنباه ، والشهيق إخراج ذلك الهواء بجهد شديد من الطبيعة

، وكلتا الحالتين تدل على كرب شديد وغم عظيم . الحاصل أنهم جعلوا الزفير بمنزلة ابتداء نهيق الحمار ، والشهيق بمنزلة آخره . وقال الحسن : إن لهب جهنم يرفعهم بقوته حتى إذا وصلوا إلى أعلى دركات جهنم وطمعوا في أن يخرجوا منها ضربتهم الملائكة بمقامع من حديد ويردونهم إلى الدرك الأسفل من النار ، فارتفاعهم في النار هو الزفير ، وانحطاطهم مرة أخرى هو الشهيق . وقال أبو مسلم : الزفير ما يجتمع في الصدر من النفس عند البكاء الشديد فينقطع النفس ، والشهيق هو الصوت الذي يظهر عند اشتداد الكربة والحزن ، وربما يتبعها الغشية ، وربما يحصل عقيبه الموت . وقال أبو العالية : الزفير في الحلق ، والشهيق في الصدر . وقيل : الزفير الصوت الشديد ، والشهيق الصوت الضعيف . وعن ابن عباس : لهم فيها بكاء لا ينقطع وحزن لا يندفع . وقال أهل التحقيق : قوة ميلهم إلى الدنيا ولذاتها زفير ، وضعفهم عن الاستسعاد بكمالات الروحانيات شهيق . ثم إن قوماً ذهبوا إلى أن عذاب الكفار منقطع وله نهاية واستدلوا على ذلك بالقرآن والحديث والمعقول . أما القرآن فقوله سبحانه : ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ﴾ أي مدة بقائهما ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ وفي استدلالان : الأول أن مدة عقابهم مساوية لمدة بقاء السموات والأرض المتناهية بالاتفاق . الثاني استثناء المشيئة ويؤكد هذا النص قوله : ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ ﴿ النبأ : 23] وأما الحديث فما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص

" ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد " وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً .

وأما المعقول فهو أن العقاب ضرر خال عن النفع لا في حق الله تعالى ولا في حق المكلف فيكون قبيحاً . وأيضاً الكفر جرم متناه ومقابلة الجرم المتناهي بعقاب لا نهاية له ظلم .

والجمهور من الأمة على أن عذاب الكافر دائم . وأجابوا عن الآية بأن المراد سموات الآخرة وأرضها المشار إليهما بقوله : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾

[ابراهيم : 48] ولا بد لأهل الآخرة مما يظلهم ويقلهم فهما السماء والأرض ، وإذا علق حصول العذاب للكافر بوجودهما لزم الدوام . وأيضاً القرآن قد ورد على استعمالات العرب . وإنهم يعبرون عن الدوام والتأبيد بقولهم " ما دامت السموات والأرض " ونظيره قولهم : " ما اختلف الليل والنهار " . و " ما أقام ثبير وما لاح كوكب " . ويمكن أيضاً أن يقال : حاصل الآية يرجع إلى شرطية هي قولنا : إن دامت السموات والأرض دام عقابهم فإذا

قلنا لكن السموات والأرض دائمة لزم دوام عقابهم وهو المطلوب ، وإن قلنا لكنهما لم تدوما فإنه لا ينتج مطلوب الخصم لأن استثناء نقيض المقدم لا ينتج شيئاً . وبعبارة أخرى دلت الآية على أنه كلما وجدت السموات والأرض وجد عقابهم . فلو قلنا لكنهما لم يوجدا لم يلزم منه أن لا يوجد عقابهم ، أو يوجد فالآية لا تدل على حصول العقاب لهم دهراً طويلاً ومدة مديدة . وأما إنه هل يكون له آخر أم لا فذلك إنما يستفاد من دليل آخر كقوله : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : 48] وأما الاستدلال بالاستثناء فقد ذكر ابن قتيبة وابن الأنباري والفراء أن هذا الاستثناء لا ينافي عدم المشيئة كقولك و " الله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك " وقد يكون عزمك على ضربه ألبتة وتعلم أنك لا ترى غير ذلك . وردّ بالفرق ، فإن معنى الآية الحكم بخلودهم فيها إلا المدة التي شاء الله ، فالمشيئة قد حصلت جزماً . ولقائل أن يقول : المضاي ههنا في معنى الاستقبال مثل ﴿ ونادى أصحاب الأعراف ﴾ [النساء : 48] ﴿ وسيق الذين اتقوا ﴾ [الزمر : 73] فلم يبق فرق : وقيل : " إلا " بمعنى " سوى " أي سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود الدائم كأنه ذكر في خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه ، ثم زاد عليه الدوام الذي لا آخر له . وقال الأصم وغيره : المراد زمان مكثهم في الدنيا أو في البرزخ أو في الموقف . وقيل : الاستثناء يرجع إلى قوله : ﴿ لهم فيها زفير

وشهيق ﴾ كأنهم يصيرون آخر الأمر إلى الهمود والخمود . وقيل : فائدة الاستثناء أن يعلم إخراج أهل التوحيد من النار والمراد إلا من شاء ربك ، وهذا التأويل إنما يليق بقاعدة الأشاعرة وأكدوه بقوله : ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ فكأنه تعالى يقول : أظهرت القهر والقدرة ثم أظهرت المغفرة والرحمة لأني فعال لما أريد ، وليس لأحد عليّ حكم ألبتة . وأما المعتزلة فكأنهم لا يرضون بهذا ويقولون : إن الاستثناء الثاني لا يساعده لحصول الإجماع على أن أحداً من أهل الجنة لا يدخل النار . فالصواب أن يقال : إنه استثناء من الخلود في عذاب النار ومن الخلود في نعيم الجنة ، فإن أهل النار ينقلون إلى الزمهرير وإلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله ، وأهل الجنة ينقلون إلى العرش أو إلى ما هو أعلى حالاً من الجنة كقوله :

﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ [التوبة : 72] ثم قالا : إنه ختم آية الوعيد بقوله : ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ وآية الوعد بقوله : ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ رعاية للمطابقة كأنه قال : إنه يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب كما يعطي أهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له والجذ القطع . وأما الجواب عن الحديث فقد قال في الكشاف : إن صح فمعناه أنهم

يخرجون من حر النار إلى برد الزمهرير فذلك خلوّ جهنم وصفق أبوابها . وأقول : يحتمل أن يكون الألف سبب عدم الإحساس بالعذاب بل يكون سبب الالتذاذ بالمألوف فيكون خلوّ جهنم إشارة إلى هذا المعنى . وأما الجواب عن المعقول فهو أن السير في الله ومبدأه من عالم التكاليف لما كان غير متناهٍ فعذاب البعد عنه أيضاً يجب أن يكون غير متناهٍ : أو نقول : لا نهاية لنوره فلا غاية لظلمة الغافل عنه والمنكر له . أو نقول : أوضح الأشياء الوجود الواجب فإذا كان الشخص ذاهلاً عنه كان مسلوب الاستعداد بالكلية فلا يكون إنساناً في الحقيقة ، فلا يتصور له عروج من عالم الطبيعة ، والعبارات في هذا المقام كثيرة والمعنى واحد يدركه من وفق له وخلق لأجله . ولما فرغ من أقاصيص عبدة الأصنام وبيان أحوال الأشقياء والسعداء سلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرح أحوال الكفرة من قومه في ضمن نهي له عن الامتراء في سوء مغبتهم قائلاً ﴿ فلا تك ﴾ حذف النون لكثرة الاستعمال ﴿ في مرية ﴾ في شك ﴿ مما يعبد ﴾ "ما" مصدرية أو موصولة أي من عبادة ﴿ هؤلاء ﴾ أو من الذي يعبده هؤلاء المشركون والمراد النهي عن الشك في سوء عاقبة عبادتهم . ثم علل النهي مستأنفاً فقال : ﴿ ما يعبدون إلا كما يعبد ﴾ كالذي يعبده ﴿ آباؤهم ﴾ أو كعبادة آبائهم . والحاصل أنهم شبهوا بآبائهم في لزوم الجهل والتقليد . ﴿ وإنا لموفوهم نصيبهم ﴾ من الرزق والخيرات الدنيوية أو من إزالة العذر

وإزاحة العلة بإرسال الرسول وإنزال الكتاب ، أو نصيبهم من العذاب كما وفينا آباؤهم أنصباؤهم . وفي

(227/388)

الكشاف أن ﴿ غير منقوص ﴾ حال من النصيب ليعلم أنه تام كامل إذ يجوز أن يوفي بعض الشيء كقولك وفيته شطر حقه . قلت : هي مغالطة لأن قول القائل : " وفيته شطر حقه " التوفية تعود إلى الشطر . فلو قيل : غير منقوص كان كالمكرر . وعاد السؤال . فالصواب أن يقال : إنه حال مؤكدة أو صفة تقوم مقام المصدر أي توفية نحو ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ [البقرة : 60] أي إفساداً . ثم أورد نظيراً لإنكارهم نبوّة محمد صلى الله عليه السلام فقال : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ﴾ آمن به قوم وكفر به قوم آخرون كما اختلف في القرآن ، والغرض أن إنكار الحق عادة قديمة للخلق ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ هي أن رحمتي سبقت غضبي أو هي ان دار الجزاء الآخرة لا الدنيا أو هي أن هذه الأمة لا يعذبون بعذاب الاستئصال .

(228/388)

﴿ لقضي بينهم ﴾ بين قوم موسى أو بين قومك بتمييز المحق من المبطل بسبب الإنجاء والإهلاك وهذه من جملة التسلية أيضاً ﴿ وإنهم ﴾ يعني قوم موسى أو قومك ﴿ لفي شك منه ﴾ من كتابه أو من كتابك أو من أمر المعاد أو القضاء أو الجزاء . ثم جميع الأولين والآخرين في حكم توفية الجزاء ثواباً أ وعقاباً فقال : ﴿ وإن كلاً ﴾ التنوين فيه عوض عن المضاف إليه أي وإن كلهم يعني أن جميع المختلفين فيه . ومن قرأ بالتخفيف فعلى إعمال المخففة إذ لا يلزم من التخفيف إبطال العمل كما في " لم يكن " " ولم يك " . ومن قرأ " لما " مخففاً فاللام هي الداخلة في خبر " إن " و " ما " مزيدة للفصل بين لام " إن " وبين لام جواب القسم المقدر كما فصلوا بالألف بين النونات في قولهم " أضربنان " . ويمكن أن يكون " ما " نكرة أي لخلق أو جمع . والله ليوفينهم ربك أعمالهم من حسن وقبيح وإيمان وجحود . ومن قرأ " لما " مشدداً فأصله " لمن ما " قلبت النون ميماً فاجتمع ثلاث ميمات ، فحذفت الأولى تخفيفاً ، وجاز حذف الأولى وإبقاء الساكنة لاتصال اللام بها . ويجوز أن يكون أصله " لما " بالتنوين – كما في قراءتي الزهري وسليمن بن أرقم – فحذف فبقى " لما " ممدوداً ومعناه ملومين أي مجموعين . وقرأ أبيّ ﴿ وإن كل لما ليوفينهم ﴾ على أن " إن " نافية و " لما " بمعنى " إلا " كما في الطارق . ولا يخفى ما في الآية من مؤكدات توفية الجزاء وأن شيئاً من الحقوق لا يضيع عنده . منها لفظة " إن " ، ومنها لام خبر " إن " ، ومنها " كل " ،

ومنها " ما " المزيدة ، ومنها القسم ، ومنها لا القسم ، ومنها نون التأكيد ، ومنها لفظ التوفية ، ومنها ربك فإن من يربيك يقدر على توفية حقك ، ومنها الجميع المضاف ، ومنها ختم الآية بقوله : ﴿ إنه بما يعملون خبير ﴾ فإنه إذا كان عالماً بكل المعلومات قادراً على كل المقدورات كان عالماً بعمل كل احد وبمقدار جزاء عمله ، وقادراً على إيصال ذلك إليه ، ثم إن كلامه حق وصدق

وقد أخبر عن التوفية مع المؤكدات المذكورة فيقع وعده ووعيده لا محالة . ثم أمر نبيه لتقتدي به أمته بكلمة جامعة للعقائد والأعمال قائلاً ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ عن جعفر الصادق رضي الله عنه . معناه افتقر إلى الله بصحة العزم يعني الوثوق به والتوكل عليه ﴿ ومن تاب معك ﴾ عطف على الضمير في ﴿ فاستقم ﴾ وصح للفصل أو هو ابتداء أي ومن تاب معك فليستقم أو مفعول معه .

ثم كما أمر بالاستقامة على جادّة الحق نهى عن الانحراف عنها فقال ﴿ ولا تطغوا ﴾ والطغان مجاوزة الحد . وقال ابن عباس : يريد تواضعوا للحق ولا تتكبروا على الخلق . وخصص بعضهم الطغيان بالتجاوز عن حدود القرآن بتحليل حرامه وتحريم حلاله . وهذه الآية أصل عظيم في الشريعة فيكون الترتيب في الوضوء واجباً كما ورد في القرآن ، وكذلك القول في الحدود والكفارات ونصاب الزكاة وأعداد الركعات وغيرها من جميع المأمورات والمنهيات . ويجب الاحتياط في المسائل الاجتهادية وفي القياسات . وكذا في الأخلاق والملكات وفي كل ما له طرفا إفراط وتفريط فهما مذمومان . والمحمود هو الوسط وهو الصراط المستقيم المأمور بالاستقامة والثبات عليه . ولا ريب أن معرفته صعبة وبتقدير معرفته فالعمل به والبقاء عليه أصعب ولهذا قال ابن عباس : ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية في القرآن أشد ولا أشق من هذه حتى إن أصحابه قالوا له : لقد أسرع فيك الشيب فقال صلى الله عليه وسلم : " شيبتني هود " أعني هذه الآية منها . ثم لما كان لقرين السوء مدخل عظيم في تغيير العقائد وتبديل الأخلاق نهى عن مخالطة من يضع الشيء في غير موضعه فقال : ﴿ ولا تركنوا ﴾ أي لا تميلوا بالمحبة والهوى ﴿ إلى الذين ظلموا ﴾ فقال المحققون : الركون المنهي عنه هو الرضا بما عليه الظلمة وتحسين الطريقة وتزيينها عند غيرهم ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب ، فأما مداخلتهم لدفع ضرر واجتلاب منفعة عاجلة فغير داخلة في الركون . أقول : هذا من طريق المعاش

والرخصة ، ومقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم بالكلية ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ [الزمر : 36] وفي قوله : ﴿ فتمسكم النار ﴾ إشارة إلى أن الظلمة أهل النار بل هم في النار أو كالنار ﴿ أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ﴾ [البقرة : 174] ومصاحبة النار توجب لا محالة مس النار . وقوله : ﴿ وما لكم من دون الله ﴾ من تتمة الجزاء . وقال في الكشاف : الواو للحال ﴾

من أولياء ﴾ من أنصار أي لا يقدر على منعكم من عذاب الله إلا هو . ﴿ ثم لا تنصرون ﴾ ثم لا ينصركم هو أيضا . وفيه إقناط كلي . وفائدة " ثم " تبعيد النصرة من الظلم . قال أهل التحقيق : الركون الميل اليسير وقوله : ﴿ إلى الذين ظلموا ﴾ أي الذين حدث منهم الظلم . فلم يقل " ولا تميلوا إلى الظالمين " ليدل على أن قليلاً من الميل إلى من حدث منه شيء من الظلم يوجب هذا العقاب ، وإذا كان هذا حال من ركن إلى من ظلم فكيف يكون حال الظالم في نفسه ؟ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " من دعا الظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه "

وقال سفيان : في جهنم وادٍ لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك . وعن محمد بن مسلمة : الذباب على العذرة أحسن من قارئ على باب هؤلاء . ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية هي يسقى شربة ماء ؟ فقال : لا . فقيل له : يموت . فقال : دعه يموت . ثم خص من أنواع الاستقامة إقامة الصلاة تنبيهاً على شرفها فقال : ﴿ وأقم الصلاة ﴾ قيل : تمسك بعض الخوارج بهذه الآية على أن الواجب من الصلاة ليس إلا الفجر والعشاء لأنهما طرفا النهار وهما الموصوفان بكونهما زلفاً من الليل ، فإن ما لا يكون نهاراً يكون ليلاً . غاية ما في الباب أن هذا يقتضي عطف الصفة على الموصوف وهو كثير في كلامهم ، ولئن سلم وجوب صلاة أخرى إلا أن قوله : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ يشعر بأن إقامة الصلاة طرفي النهار كفارة لترك سائر الصلوات . وجمهور الأمة على بطلان هذا القول واستدلوا بالآية على وجوب الصلوات الخمس لأن طرفي النهار منصوب على الظرف لإضافتهما إلى الوقت فيكتسب المضاف حكم المضاف إليه كقولك " أتيته نصف النهار " والطرفان هما الغدوة وهي الفجر والعشية وفيها الظهر والعصر لأن ما بعد الزوال عشيّ ﴿ وزلفاً ﴾ جمع زلفة كظلم وظلمة أي ساعات ﴿ من الليل ﴾ قريبة من آخر النهار من أزلفه إذا قربه وازدلف إليه . وقرئ ﴿ زلفاً ﴾ بسكون اللام نحو " بسرة " و " بسر " . والزلف فيمن قرأ بضمتين نحو " بسر " و " يسر " .

وقيل : ﴿ زلفاً ﴾ أي قرباً فيكون معطوفاً على الصلاة أي أقم الصلاة وأقم زلفاً أي صلوات يتقرب بها إلى الله عز وجل في بعض الليل . وبالجملة فصلاة الزلف والمغرب والعشاء . وقيل : إن طرفي النهار لا يشمل إلا الفجر والعصر وبه استدل على مذهب أبي حنيفة أن التنوير بالفجر أفضل وتأخير العصر أفضل ، لأن الأمة أجمعت على أن نفس الطرفين – وهما وقت الطلوع والغروب – لا يصلح لإقامة الصلاة ، فكل وقت كان أقرب إلى الطرفين كان أولى بإقامة الصلاة فيه حملاً للمجاز على ما هو أقرب إلى الحقيقة ما أمكن . هذا ما ذكره فخر الدين الرازي في تفسيره . ولقائل أن يقول : هذا لا يتمشى في صلاة الفجر لأن الطرف الأول للنهار في الشرع هو طلوع الصبح الصادق ، والتنوير مبعد الصلاة منه لا مقرّب . ولا أدري كيف ذهب عليه هذا المعنى مع إفراط عصبيته للشافعي . واستدل أيضاً لأبي حنيفة على مذهبه في وجوب الوتر أن أقل الجمع ثلاثة فتجب إقامة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاث زلف من الليل أي ثلاث ساعات ذهب نها ساعتان للمغرب والعشاء فتعين أن تكون الساعة الثالثة للوتر ، وإذا وجب عليه وجب على أمته لقوله :

﴿ فاتبعوه ﴾ [الأنعام : 153] ولمانع أن يمنع أن أقل الجمع ثلاثة أشياء ، ثم إن كل ساعة لأجل صلاة ، ثم إن كل ما يجب على النبي صلى الله عليه وسلم يجب على الأمة لأن الاتباع هو الإتيان بمثل فعله أعم من أن يكون على تلك الجهة أم لا . ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ قال المفسرون : نزلت في أبي اليسر عمرو بن غزية الأنصاري ، كان يبيع التمر فأتته امرأة فأعجبته فقال لها : إن في البيت أجود من هذا . فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها وأصاب منها كل ما يصيب الرجل من زوجته سوى الجماع ، ثم ندم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما فعل فقال : أنتظر أمر ربي فلما صلى صلاة العصر نزلت فقال : نعم اذهب فإنها كفارة لما عملت . فقيل له : هذا له خاصة أم للناس عامة ؟ فقال : بل للناس عامة . وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال له : " توضأ وضوءاً حسناً وصل ركعتين " ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ قال ابن عباس : أي الصلوات الخمس كفارة لسائر الذنوب ما لم تكن كبيرة . وقيل : المراد إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . وعن مجاهد : الحسنات قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . وقد يحتج بالآية على أن المعصية لا تضرّ مع الإيمان الذي هو رأس الأعمال الحسنة .

﴿ ذلك ﴾ المذكور من قوله : ﴿ فاستقم ﴾ إلى ههنا ﴿ ذكرى للذاكرين ﴾ عظة للمتعظين وإرشاد للمسترشيدن . ثم أمر بالصبر على التكاليف المذكورة أمراً ونهياً ، ونص عن أن الإتيان بها إحسان وأن جزاءه سيحصل لا محالة فقال : ﴿ واصبر ﴾ الآية . ثم عاد على أحوال الأمم الخالية وبين أن السبب في حلول عذاب الاستئصال بهم أمران : الأول أنه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد وذلك قوله : ﴿ فلولا ﴾ أي فهلا ﴿ كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ﴾ ذوو خير ورشد وفضل ، وذلك أن الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله فصارت البقية مثلاً في الجودة . يقال : فلان من بقية القوم أي من خيارهم . ومن

(235/388)

أمثالهم " في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا " . وجوّز في الكشاف أن يكون من البقوى كالتقية في التقوى أي فهلا كان منهم ذوو إبقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه ﴿ إلا قليلاً ﴾ استثناء متصل لأن في تحضيضهم على النهي عن الفساد معنى نفيه عنهم فكأنه قيل : ما كان من القرون ناس ناهون إلا ناساً قليلاً . ومن في ﴿ ممن أنجيبنا ﴾ للبيان أي هم الذين أنجيناهم . قال في الكشاف : لأن النجاة إنما هي للناهين وحدهم .

ولقائل أن يقول : إذا كان النهي عن المنكر فرض كفاية لم يلزم أن تنحصر النجاة في الناهين ؟ فيحتمل أن تكون من للتبعيض ويجوز – على ما في الكشاف – أن يكون الاستثناء منقطعاً معناه ولكن قليلاً ممن أنجيناه من القرون نهوا عن الفساد .

(236/388)

قال : ولو جعلته متصلاً على ما عليه ظاهر الكلام كان المعنى فاسداً لأنه يكون تحضيضاً لأولي البقية على النهي عن الفساد إلا للقليل من الناجين منهم كما تقول : هلا قرأ قومك القرآن إلا الصلحاء منهم . تريد استثناء الصلحاء من المحضضين على قراءة القرآن : أقول : لم لا يجوز أن يكون المراد من استثناء الصلحاء منهم أنه لا حاجة لهم إلى التحضيض كأنك قلت : أحضض قومك على القراءة إلا الصلحاء فإنهم لا يحتاجون إلى ذلك لأنهم مواظبون عليها ، على أن في جعل الاستثناء منقطعاً شبه تناقض ، لأن أول الكلام يدل على أنه لم يكن فيهم ناهٍ وآخره يدل على أن القليل منهم قد نهوا فتأمل في هذا المقام فإنه من مزلة الأقدام . السبب الثاني . في نزول العذاب قوله : ﴿ واتبع الذين ظلموا ما أترفوا ﴾ ما غرقوا ﴿ فيه ﴾ من التنعيم والترف من حيث الرياسة والثروة وأسباب العيش الهنيّ ورفضوا ما وراء ذلك مما يتعلق بأمر الدين ، فهذه الجملة معطوفة على مدلول الجملة

التحضيضية أي ما كان من القرون ناس كذا واتبع الظالمون كذا . ويجوز أن يكون في الكلام إضمار والواو للحال كأنه قيل : أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاء إترافهم . والمترف الذي أبطرته النعمة ، وصبي مترف منعم البدن . وقوله : ﴿ وكانوا مجرمين ﴾ إما معترضة وإما معطوف على ﴿ اتبع ﴾ أي وكانوا مجرمين بذلك ، أو على ﴿ أترفوا ﴾ أي اتبعوا الإتراف . وكونهم مجرمين لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام ، أو أريد بالإجرام إغفالهم للشكر . ثم بين أنه ما ينبغي له سبحانه أن يهلك القرى بظلم . قال أهل السنة : أي بسبب مجرد الشرك والحال أنهم مصلحون في المعاملة والعشرة فيما بينهم ، وذلك أن حقوق الله تعالى مبنية على المساهلة بخلاف حقوق العباد ، وهذا كما قيل : الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم . ويؤكد هذا التفسير أن عذاب الاستئصال إنما نزل بقوم لوط وشعيب لما حكى الله عنهم من إيذاء الناس والإفساد في الأرض . وقالت

المعتزلة قوله : ﴿ بظلم ﴾ حال من الفاعل والمعنى استحال في الحكمة أن يهلك الله القرى ظالماً لها وأهلها قوم مصلحون في العمل تنزيهاً لذاته عن الظلم وإيذاناً بأن إهلاك المصلحين ظلم . ثم ذكر أن الكل بمشيئته وإرادته فقال : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة

﴿ مهدية . والمعتزلة يحملون هذه المشيئة على مشيئة الإلجاء والقسر وقد مر مراراً . ﴾ ولا يزالون مختلفين ﴿ في الأديان والأخلاق والأفعال ، فمنهم من أنكر العلوم كلها حتى الحسيات والضروريات وهم السوفسطائية ، ومنهم من سلم استنتاج العلوم كلها والمعارف ولم يثبت لهذا العالم الجسماني مبدأ أصلاً وهم الدهرية ، ومنهم من أثبت له مبدأ موجباً بالذات وهم الفلاسفة على ما أشتهر منهم ولهذا المقام تحقيق ليس ههنا موضع بيانه ، ومنهم من أنكر النبوات وهم البراهمة ، ومنهم من أثبتها وهم المسلمون والمجوس واليهود والنصارى .

وفي كل واحد من هذه الطوائف اختلافات لا تكاد تدخل تحت الحصر ، وإنما لا يحمل الاختلاف في الآية على الاختلاف في الألوان والألسنة والأرزاق والأعمار بل حملناه على الاختلاف في الأديان وما يتعلق بها لأنه ينبو عن ذلك ما قبل الكلام وهو قوله : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ وما بعده وهو قوله : ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ قالت المعتزلة : إلا ناساً هداهم الله ولطف بهم فاتفقوا على الدين الحق . وقال أهل السنة : جميع الألطاف التي فعلها في حق المؤمن فهي مفعولة أيضاً في حق الكافر وهذه الرحمة أمر مختص

بالمؤمن مرجح لجانب الإيمان وصدوره منه فإذن الإيمان بخلق الله وتكوينه وكذا ضده . ثم قال : ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ فاختلف العلماء في المشار إليه بذلك ، فالمعتزلة قالوا : ولذلك من التمكين والاختيار الذي كان منه الاختلاف خلقهم يثيب مختار الحق بحسن اختياره ، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره ، أو ولما ذكر من الرحمة خلقهم . والأشاعرة قالوا : ولأجل ما ذكر من الاختلاف خلقهم لما صح في الحديث أنه خلق الجنة وخلق لها أهلاً ، وخلق النار وخلق لها أهلاً . وللدلائل الدالة على أن الكل بإيجاده وتخليقه وأن خلاف معلومه محال وإلى هذا أشار بقوله : ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ أي علمه وإرادته أو قوله للملائكة ﴿ لأملأن جهنم ﴾ الآية . وفرق المعتزلة بين معلومه ومراده . ثم ذكر طرفاً من فوائد القصص المذكور في السورة فقال : ﴿ وكلاً ﴾ أي وكل نبأ ﴿ نقص عليك ﴾ وقوله : ﴿ من أنباء الرسل ﴾ بيان لكل و ﴿ ما نثبت ﴾ بدل من ﴿ كلاً ﴾ أو المراد وكل نوع من الاقتصاص على أنه مصدر أي على الأساليب المختلفة نقص ، و ﴿ ما نثبت ﴾ مفعول . ومعنى تثبيت فؤاده زيادة اليقين والطمأنينة لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ للعلم ، أو المعنى تثبيت قلبه على أداء الرسالة وتحمل الأذى من قومه أسوة بسائر الأنبياء .

﴿ وجاءك في هذه ﴾ السورة أو في هذه الأنباء ﴿ الحق ﴾ وهو البراهين القاطعة

الدالة على صحة المبدأ والوسط والمعاد ﴿ وموعظة ﴾ وهي الدلائل المقنعة الموقعة للتصديق بقدر الإمكان والأول للخواص أنفع والثاني للعوام أنجع . ﴿ وذكرى للمؤمنين ﴾ وهي الإرشاد إلى الأعمال الصالحة النافعة في الآخرة المحصلة لما هنالك من السعادة ، فإن حسن هذا الدين معلوم لمن رجعل إلى نفسه وعمل بمقتضى تذكره وفكره . واعلم أن المعارف الإلهية لا بد لها من قابل وفاعل ، وقابلها القلب وإنه ما لم يكن مستعداً لم يحصل له الانتفاع بسماع الدلائل وورودها عليه فلهذا السبب قدم ذكر إصلاح القلب وعلاجه وهو تثبيت الفؤاد ، ثم عقبه بذكر المؤثر الفاعل وهو مجيء هذه السورة بل آية منها وهي قوله : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ مشتملة على الحق والموعظة والذكرى ، وهذا ترتيب في غاية الحسن .

ثم أمر بالتهديد لمن لم يؤثر فيهم هذه البيانات من أهل مكة وغيرهم فقال : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا ﴾ وقد مر تفسير مثله في هذه السورة وفي " الأنعام " ﴿ وانتظروا ﴾ ما يعدكم الشيطان ﴿ إنا منتظرون ﴾ ما وعدنا الرحمن من الغفران والإحسان . وعن ابن عباس : انتظروا بنا الدوائر فإنا منتظرون بكم العذاب كما حل بنظرائكم . ثم ختم السورة بآية مشتملة على جميع المطالب من أمر المبدإ والوسط والمعاد وقد سبق تقريره في آخر "

البقرة " في تفسير آية ﴿ آمن الرسول ﴾ [البقرة : 285] فلا حاجة إلى الإعادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 50 . 60 ﴾

(240/388)

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

القصة السابعة : التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة وهي آخر قصصها قصة موسى عليه الصلاة والسلام المذكورة في قوله تعالى :

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾

أي : التوراة مع ما فيها من الشرائع والأحكام ﴿ وسلطان مبين ﴾ أي : برهان بيّن ظاهر على صدق نبوّته ورسالته وقيل : المراد بالآيات المعجزات وبالسلطان المبين العصا ؛ لأنها أظهر الآيات ، وذلك لأنّ الله تعالى أعطى موسى تسع آيات بينات وهي العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص من الثمرات والسنين ، ومنهم من أبدل نقص الثمرات والسنين بإظلال الجبل وفلق البحر . قال بعض المحققين : سميت الحجة سلطاناً لأنّ صاحب الحجة يقهر من لا حجة له ، كالسلطان يقهر غيره ، والعلماء سلاطين بسبب كمالهم في القوّة العلمية ، والملوك سلاطين بحسب ما معهم من القدرة والمكنة إلا ان

سلطنة العلماء أكمل وأقوى من سلطنة الملوك ؛ لأنّ سلطنة العلماء لا تقبل النسخ والعزل وسلطنة الملوك تقبلهما ولأنّ سلطنة الملوك تابعة لسلطنة ؛ العلماء لأنّ سلطنة العلماء من جنس سلطنة الأنبياء وسلطنة الملوك من جنس سلطنة الفراعنة .

(241/388)

﴿ إلى فرعون ﴾ طاغية القبط ﴿ وملئه ﴾ ، أي : أشراف قومه الذين تتبعهم الأذناب ؛ لأنّ القصد الأكبر رفع أيديهم عن بني إسرائيل ﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾ ، أي : اتبعوا طريقة فرعون المنهمك في الضلال والطغيان الداعي إلى ما لا يخفى فساده على من له أدنى مسكة من العقل ولم يتبعوا موسى الهادي إلى الحق المؤيد بالمعجزات الظاهرة الباهرة لفرط جهالتهم وعدم استبصارهم ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾ ، أي : بسديد ولا حميد العاقبة ولا يدعو إلى خير وقيل : رشيد ذو رشد ، وانسلاخ فرعون من الرشد كان ظاهراً ؛ لأنه كان دهرياً نافياً للصانع والمعاد وكان يقول : لا إله للعالم وإنما يجب على أهل كل بلد أن يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية لمصلحة العالم ، وكل الرشد في عبادة الله تعالى ومعرفته ، فلما كان هو نافياً لهذين الأمرين كان خالياً من الرشد بالكلية .

﴿ يقدم قومه يوم القيامة ﴾ إلى النار كما كان يقدمهم في الدنيا إلى الضلال أو كما تقدم قومه

في الدنيا فأدخلهم البحر وأغرقهم فكذا يتقدمهم في القيامة فيدخلهم النار كما قال تعالى : ﴿ فأوردهم النار ﴾ . فإن قيل : لم لم يقل يقدم قومه فيوردهم النار بل أتى بلفظ الماضي ؟ أجيب : بأنه إنما أتى بلفظ الماضي مبالغة في تحققه ، ونزل النار له منزلة الماء فسمّى إتيانها مورداً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وبئس الورد المورود ﴾ وردهم لأنّ الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد والنار ضدّه . فإن قيل : لفظ النار مؤنث فكان مقتضى ذلك أن يقال : وبئست الورد المورود ؟

أجيب : بأن لفظ الورد مذكر فكان التذكير والتأنيث جائزين كما تقول : نعم المنزل دارك ونعمت المنزل دارك ، فمن ذكر غلب المنزل ومن أنث بنى على تأنيث الدار .

(242/388)

﴿ وأتبعوا في هذه ﴾ ، أي : الدنيا ﴿ لعنة ﴾ ، أي : طرداً وبعداً عن الرحمة ﴿ ويوم القيامة ﴾ ، أي : وأتبعوا يوم القيامة لعنة أخرى فهم ملعونون في الدنيا والآخرة ، ونظيره قوله تعالى في سورة القصص : ﴿ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ (القصص ،) . ﴿ بئس الرفد ﴾ ، أي : العون ﴿ المرفود ﴾ رفدهم ، سأل رافع بن الأزرق ابن عباس عن ذلك فقال : هو اللعنة بعد اللعنة . وقال قتادة : ترادفت عليهم

لعنتان من الله تعالى لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة، وكل شيء جعلته عوناً لشيء فقد رفدته به، وسميت اللعنة عوناً؛ لأنها إذا أتبعتهم في الدنيا أبعدتهم عن الرحمة وأعانتهم على ما هم فيه من الضلال. وسميت رفداً أي عوناً لهذا المعنى على التهكم كقول القائل: تحية بينهم ضرب وجيع. وسميت معاناً لأنها أردفت في الآخرة بلغة أخرى ليكونا هاديتين إلى طريق الجحيم. ولما ذكر تعالى قصص الأوّلين قال تعالى: ﴿ذلك﴾، أي: المذكور وهو مبتدأ خبره ﴿من أنباء القرى﴾، أي: أخبار أهل القرى وهم الأمم السالفة في القرون الماضية، وقوله تعالى: ﴿نقصه عليك﴾، أي: نخبرك به يا محمد خبراً بعد خبر، وفائدة ذكر هذه القصص على النبيّ صلى الله عليه وسلم ليعلم السامع أنّ المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة، وأنّ الكافر يخرج مع اللعنة في الدنيا والعقاب في الآخرة، وإذا تكرّرت هذه الأقاصيص على السمع فلا بدّ وأن يلين القلب وتخضع النفس وتزول العداوة ويحصل في القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال. وفي أخباره صلى الله عليه وسلم بهذه القصص من غير مطالعة كتب ولا تملذ دلالة على نبوّته فإنّ ذلك لا يكون إلا بوحي من الله تعالى ﴿منها﴾، أي: القرى ﴿قائم﴾، أي: باقٍ كالزرع القائم هلك أهله دونه ﴿و﴾ منها ﴿حصيد﴾، أي: عافى الأثر كالزرع المحصود هلك مع أهله.

﴿ وما ظلمناهم ﴾ ، أي : بإهلاكهم بغير ذنب ﴿ ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ بالكفر والمعاصي . وقال ابن عباس : يريد وما نقصناهم في الدنيا من النعيم والرزق ولكن نقصوا حظ أنفسهم حيث استخفّوا بحقوق الله تعالى ﴿ فما أغنت ﴾ ، أي : دفعت ﴿ عنهم آلهتهم ﴾ ، أي : أصنامهم ﴿ التي يدعون ﴾ ، أي : يعبدون ﴿ من دون الله ﴾ ، أي : غيره ﴿ من شيء ﴾ أي شيئاً فمن مزيدة ﴿ لما جاء أمر ربك ﴾ ، أي : عقابه ﴿ وما زادوهم ﴾ بعبادتهم ﴿ غير تتبيب ﴾ ، أي : غير تخسير ، وقيل : تدمير ، ولما أخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في كتابه بما فعله بأمم من تقدّم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لما خالفوا الرسل وما ورد عليهم من عذاب الاستئصال وبين أنهم ظلموا أنفسهم فحل بهم العذاب في الدنيا .

قال تعالى بعده : ﴿ وكذلك ﴾ ، أي : ومثل ذلك الأخذ العظيم ﴿ أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ﴾ ، أي : القرى ﴿ ظالمة ﴾ والمراد أهلها ونظيره قوله تعالى : ﴿ وكما أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ﴾ (القصص ،) وقوله تعالى : ﴿ وكم قصمنا من قرية

كانت ظالمة ﴾ (الأنبياء ،) فبين تعالى أنّ عذابه ليس مقصوراً على من تقدّم ، بل الحال في أخذ كل الظالمين يكون كذلك . ولما بيّن تعالى كيفية أخذ الأمم المتقدّمة ، ثم بين تعالى أنه إنما يأخذ جميع الظالمين على ذلك الوجه أتبعه بما يزيده تأكيداً وتقوية بقوله تعالى : ﴿ إنّ أخذه أليم ﴾ ، أي : مؤلم ﴿ شديد ﴾ ، أي : صعب مفتت القوى . وعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته" . ثم قرأ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إنّ أخذه أليم شديد ﴾ " وفي هذه الآية الكريمة والحديث الشريف دلالة على أن من أقدم على ظلم فإنه يتداركه بالتوبة والإنابة وردّ الحقوق إلى أهلها ، إن كان الظلم للغير لئلا يقع في هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ، ولا يظنّ أنّ هذه الآية مختصة بظالمي الأمم الماضية بل هي عامّة في كل ظالم ويعضده الحديث .

﴿ إنّ في ذلك ﴾ ، أي : ما ذكر من عذاب الأمم الماضية وإهلاكهم ﴿ لآية ﴾ ، أي : لعبرة وموعظة ﴿ لمن خاف عذاب ﴾ يوم الحياة ﴿ الآخرة ﴾ لأنه ينظر ما أحلّ الله تعالى بالمجرمين في الدنيا وما هو إلا أنموذج لما أعد لهم في الآخرة ، فإذا رأى عظمه وشدّته اعتبر به عظم العذاب الموعود فيكون له عبرة وعظة ولطفاً في زيادة التقوى والخشية من الله تعالى ، وقوله : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى يوم القيامة ؛ لأنّ عذاب الآخرة دل عليه ﴿ يوم مجموع له ﴾ ، أي : فيه ﴿ الناس ﴾ ، أي : إنّ خلق الأوّلين والآخرين كلهم يحشرون في ذلك اليوم

ويجمعون، ثم وصفه تعالى بوصف آخر بقوله تعالى: ﴿ وذلك يوم مشهود ﴾ ، أي: يشهده أهل السموات وأهل الأرض.

(245/388)

﴿ وما نؤخره ﴾ ، أي: ذلك اليوم وهو يوم القيامة ﴿ إلا لأجل ﴾ ، أي: وقت ﴿ معدود ﴾ ، أي: معلوم محدود وذلك الوقت لا يعلمه إلا الله تعالى.

﴿ يوم يأت ﴾ ذلك اليوم ﴿ لا تكلم ﴾ فيه حذف إحدى التاءين، أي: لا تتكلم ﴿ نفس إلا بإذنه ﴾ تعالى. وقرأ نافع وأبو عمرو والكسائي بإثبات الياء بعد التاء من يأتي وصلاً ووقفاً وحذفها الباقون، وأمّا التاء من تكلم فشدّدها البزي في الوصل وخففها الباقون.

فإن قيل: كيف يوفق بين قوله تعالى: ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ (النحل،) وقوله تعالى: ﴿ هذا يوم ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ ؟

أجيب: بأنّ ذلك اليوم يوم طويل له مواقف ومواطن، ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم، وفي بعضها يكفون عن الكلام ولا يؤذن لهم، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم ﴿ فمنهم ﴾ ، أي: الناس ﴿ شقيّ و ﴾ منهم ﴿ سعيد ﴾ ، أي: فمنهم من سبقت له الشقاوة فوجبت له النار بمقتضى الوعيد،

ومنهم من سبقت له السعادة فوجبت له الجنة بموجب الوعد ، وعن عليَ رضي الله تعالى عنه قال : كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله وبيده مخصرة ثم نكت بها الأرض ساعة ، ثم قال : "ما من نفس منفوسة إلا قد كتب مكانها من الجنة أو النار فقالوا : يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا ؟ فقال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أمّا من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ ﴿ فأمّا من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ (الليل ، ،) الآية" . وبقيع الغرقد هو مقبرة أهل المدينة الشريفة ومدفنهم فيه ، والمخصرة كالسوط والعصا مما يمسكه الإنسان بيده ، والنكت بالنون والتاء المثناة من فوق ضرب الشيء بتلك المخصرة أو باليد أو نحو ذلك حتى يؤثر فيه .

﴿ فأمّا الذين شقوا ﴾ في علمه تعالى ﴿ ففي النار لهم فيها زفير ﴾ وهو صوت شديد ﴿ وشهيق ﴾ وهو صوت ضعيف . وقيل : الزفير إخراج النفس والشهيق ردّه . وقيل : الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير بالنهيق ، والشهيق بمنزلة آخر صوت الحمار إذا ردّده في

صدره. وقيل: الزفير في الحلق والشهيق في الصدر، وعلى كل المراد منهما الدلالة على شدّة كربهم وغمهم ﴿ خالدين فيها ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ما دامت السموات والأرض ﴾ فيه وجهان: أحدهما: سموات الآخرة وأرضها وهي مخلوقة دائمة للأبد والدليل على أن لها سموات وأرضاً قوله تعالى: ﴿ يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ (إبراهيم،) . وقوله تعالى: ﴿ وأورثنا الأرض نتبوّأ من الجنة حيث نشاء ﴾ (الزمر،) ، ولأنه لا بدّ لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم إمّا سماء يخلقها الله تعالى، أو يظلهم العرش وكل ما أظلك فهو سماء، وكل ما استقرّ قدمك عليه فهو أرض. والوجه الثاني: أنّ المراد مدّة دوامهما في الدنيا ﴿ إلاّ ﴾ ، أي: غير ﴿ ما شاء ربك ﴾ من الزيادة على مدّتهما مما لا منتهى له وذلك هو الخلود فيها أبداً ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ من غير اعتراض.

(247/388)

﴿ وأمّا الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ كما تقدّم، ودل عليه قوله تعالى: ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ ، أي: مقطوع، وقيل الاستثناء في أهل الشقاوة يرجع إلى قوم من الموحدين يدخلهم الله تعالى إلى النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها فيكون ذلك استثناء، وذلك كافٍ في صحة الاستثناء؛ لأنّ

زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض من غير الجنس لأنّ الذين أخرجوا من النار سعداء في الحقيقة استثناهم الله تعالى من الأشقياء . لما روي عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال : "يخرج قوم من النار بالشفاعة" ، وفي رواية : "أن الله تعالى يخرج ما شاء من النار فيدخلهم الجنة" . وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال : "ليصيبن قوماً سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة ثم يدخلهم الله بفضله ورحمته الجنة" وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال : "يخرج قوم من النار بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فيدخلون الجنة فيسمون الجهنميين" . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص : "ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد" ، أي : من أهل الكبائر من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم بأن تخلى طبقتهم التي كانوا فيها وإن نازع في ذلك الزمخشري على مذهبه الفاسد من أنّ أهل الكبائر يخلدون في النار ، وأمّا الاستثناء في أهل السعادة فيرجع إلى مدّة لبثهم في النار قبل دخولهم الجنة أو أنّ الاستثناء راجع إلى الفريقين فإنهم مفارقوا الجنة أيام عذابهم ، وأنّ التأبيد من مبدأ معين ينقص باعتبار الابتداء كما ينقص باعتبار الانتهاء ، وهؤلاء وإن شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بإيمانهم ، ولا يقال فعلى هذا لم يكن قوله تعالى : ﴿ فمنهم شقيّ وسعيد ﴾ تقسيماً صحيحاً ؛ لأنّ شرطه أن تكون صفة كل قسم منتفية عن قسيمه ؛ لأنّ ذلك الشرط حيث التقسيم لانفصال حقيقي ، أو مانع من الجميع من الجنة والنار ، مدّة تعميرهم في الدنيا واحتباسهم في البرزخ وهو ما بين الموت إلى البعث

ومدّة

وقوفهم للحساب ، ثم يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيكون المعنى خالدين في الجنة والنار إلا هذا المقدار . وقيل : معناه لو شاء ربك لأخرجهم منها ولكنه لا يشاء ؛ لأنه تعالى حكم بالخلود . وقال الفراء : هذا الاستثناء استثناه الله تعالى ولا يفعله ، كقولك : والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك وعزيمتك أن تضربه .

وقال أهل المعاني : هذه عبارة عن التأبيد على عادة العرب يقولون : لا آتيك ما دامت السموات والأرض ولا يكون كذا ما اختلف الليل والنهار يعنون أبداً . وقيل : إنّ أهل النار ينقلون منها إلى الزمهرير وغيره من العذاب أحياناً ، وكذلك أهل الجنة ينعمون بما هو أعلى من الجنة وهو الفوز برضوان الله تعالى ولقائه كما قال تعالى : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ﴾ (التوبة ،) . وقرأ حفص وحمزة والكسائي سعدوا بضم السين على البناء للمفعول من سعده الله بمعنى أسعده والباقون بفتحها ، وعطاء نصب على المصدر المؤكد ، أي : أعطوا عطاء ، أو الحال من الجنة ، ولما شرح الله تعالى أقاصيص

عبدة الأوثان ثم أتبعه بأحوال الأشقياء وأحوال السعداء شرح للرسول صلى الله عليه وسلم أحوال الكفار من قومه فقال:

﴿ فلا تك ﴾ يا محمد ﴿ في مرية ﴾ ، أي : شك ﴿ مما يعبد هؤلاء ﴾ المشركون من الأصنام أننا نعذبهم كما عذبنا من قبلهم ، وهذه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم ﴾ ، أي : كعبادتهم ﴿ من قبل ﴾ وقد عذبناهم ﴿ وإنا لموفوهم ﴾ مثلهم ﴿ نصيبهم ﴾ ، أي : حظهم من العذاب ﴿ غير منقوص ﴾ ، أي : كاملاً غير ناقص . ولما ذكر تعالى في هذه الآية إعراضهم عن الاتباع مع ما أتى به من المعجزات وأنزل عليه من الكتاب سلاه بأخيه موسى عليه السلام بقوله تعالى:

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ ، أي : التوراة الجامعة للخير ﴿ فاختلف فيه ﴾ ، أي : الكتاب ، فآمن به قوم وكفر به قوم ، كما اختلف هؤلاء في القرآن ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ بتأخير الحساب والجزاء للخلائق إلى يوم القيامة ﴿ لقضي ﴾ ، أي : لوقع القضاء ﴿ بينهم ﴾ ، أي : بين من اختلف في كتاب موسى في الدنيا فيما اختلفوا فيه بإنزال ما يستحقه المبطل ليتميز به المحق ، ولكن سبقت الكلمة أنّ القضاء الكامل إنما يكون يوم

القيامة كما قال تعالى في سورة يونس عليه السلام : ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾ (يونس ،) الآية ولما كان الاختلاف قد يكون بغير الكفر بين تعالى أنه به ؛ لأنّ كل طائفة من اليهود تنكر شكها فيه وفعلها فعل الشاك فقال تعالى مؤكداً : ﴿ وإنهم لفي شك ﴾ ، أي : عظيم محيط بهم ﴿ منه ﴾ ، أي : من الكتاب والقضاء ﴿ مريب ﴾ ، أي : موقع في الريب والتهمة والاضطراب مع ما رأوا من الآيات التي منها سماع كلام الله تعالى ورؤية ما كان يتجلى في جبل الطور من خوارق الأحوال . وقيل : الضمير في وإنهم راجع لكفار مكة وفي منه للقرآن ﴿ وإن كلا ﴾ ، أي : كل الخلائق ، وقوله تعالى ﴿ لما ﴾ ما زائدة واللام موطئة لقسم مقدّر تقديره والله ﴿ ليوفينهم ربك أعمالهم ﴾ فيجازي المصدّق على تصديقه الجنة ، ويجازى المكذب على تكذيبه النار . وقرأ نافع وابن كثير وشعبة بتخفيف وإن والباقون بالتشديد ، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد ميم لما والباقون بالتخفيف .

فائدة : قال بعض الفضلاء أنه تعالى لما أخبر عن توفية الأجزية على المستحقين في هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التأكيدات : أوّلها : كلمة إن وهي للتأكيد ، وثانيها : لفظة كل وهي أم الباب في التأكيد . وثالثها : اللام الداخلة على خبر إن تفيد التأكيد أيضاً . ورابعها :

حرف ما إذا جعلناه على قول الفراء موصولاً . وخامسها : المضمر . وسادسها : اللام الثانية الداخلة على جواب القسم . وسابعها : النون المذكورة في قوله تعالى ﴿ ليوّفينّهم ﴾ فجميع هذه الألفاظ السبعة الدالة على التوكيد في هذه الكلمة الواحدة تدل على أنّ أمر الربوبية والعبودية لا يتم إلا بالبعث والقيامة وأمر الحشر والنشر ، ثم أردفه بقوله تعالى : ﴿ إنه بما يعملون خبير ﴾ وهو من أعظم المؤكدات فإنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده ، ففيه وعد للمحسنين ووعيد للمكذبين الكافرين . ولما بين تعالى أمر الوعد والوعيد قال لنبيه صلى الله عليه وسلم

﴿ فاستقم ﴾ ، أي : على دين ربك والعمل والدعاء إليه ﴿ كما أمرت ﴾ والأمر في ذلك للتأكيد فإنّه صلى الله عليه وسلم كان على الاستقامة لم يزل عليها ، فهو كقولك للقائم : قم حتى آتيك ، أي : دم على ما أنت عليه من القيام حتى آتيك ، وتوطيئة لقوله تعالى : ﴿ ومن تاب معك ﴾ ، أي : وليستقم أيضاً على دين الله والعمل بطاعته من آمن معك . قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ عنه روغان الثعلب ، وأشار صلى الله عليه وسلم إلى شدّة الاستقامة بقوله:

"شيبتني هود وأخواتها" ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ما نزلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم آية أشدّ ولا أشق من هذه الآية ، وعن بعضهم : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت له : يروى عنك أنك قلت : "شيبتني هود" فقال : نعم . فقلت : بأيّ آية قال : "قوله تعالى ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ . وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت : يا رسول الله : قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحد غيرك ؟ قال : "قل آمنت بالله ورسوله ثم استقم" . قال الإمام الرازي : إن هذه الآية أصل عظيم في الشريعة ، وذلك لأنّ القرآن لما ورد بالأمر بأعمال الوضوء مرتبة في اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها لقوله تعالى : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ ولما ورد الأمر في الزكاة بأداء الإبل من الإبل والبقر من البقر وجب اعتبارها ، وكذا القول في كل ما ورد أمر الله تعالى به انتهى .

ولما كانت الاستقامة هي التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط نهى عن الإفراط بقوله تعالى : ﴿ ولا تطغوا ﴾ ، أي : لا تتجاوزوا الحد فيما أمرتم به أو نهيتم عنه بالزيادة إفراطاً ، فإن الله تعالى إنما أمركم ونهاكم لتهذيب أنفسكم لا لحاجته إلى ذلك ، ولن تطيقوا أن تقدروا الله حق قدره والدين متين لم يشادّه أحد إلا غلبه ، كما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة" ، فقوله صلى الله عليه وسلم : إنّ الدين يسر ضدّ العسر أراد به التسهيل في الدين وترك التشديد فإنّ هذا الدين

مع يسره وسهولته قوي فلن يغالب ولن يقاوى . وقوله وسدّدوا ، أي : اقصدوا السداد في الأمور وهو الصواب وقاربوا ، أي : اطلبوا المقاربة وهي القصد الذي لا غلوّ فيه ولا تقصير ، والغدوة الرواح بكرة ، والرواح الرجوع عشاء . والمراد منه : اعملوا بالنهار واعملوا بالليل أيضاً . وقوله : واستعينوا بشيء من الدلجة

إشارة إلى تقليله ،

ولما نهى تعالى عن الإفراط وهو الزيادة تصريحاً أفهم النهي عن التفريط وهو النقص عن المأمور تلويحاً من باب أولى ، ثم علل ذلك مؤكداً تنزيلاً لمن يفرط أو يفرّط منزلة المنكر فقال : ﴿ إنه بما تعملون بصير ﴾ ، أي : عالم بأعمالكم كلها لا يخفى عليه شيء منها فيجازيكم عليها .

﴿ ولا تركنوا ﴾ ، أي : تميلوا ﴿ إلى الذين ظلموا ﴾ أدنى ميل ﴿ فتمسكم النار ﴾ ، أي : تصيبكم بحرها والنهي متناول للانحطاط في هواهم والانقطاع إليهم ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومراقبتهم والرضا بأعمالهم والتشبيه بهم والتزيي بزيهم ومد العين إلى زهرتهم وذكرهم بما فيه تعظيم لهم ، وتأمل قوله تعالى: ﴿ ولا تركنوا ﴾ فإنّ الركون هو الميل اليسير. وحكي أنّ الموفق صلى خلف الإمام فقرأ بهذه الآية فغشي عليه فلما أفاق قيل له في ذلك فقال : هذا فيمن ركن إلى من ظلم فكيف بالظالم ولما خالط الزهري السلاطين كتب إليه أخ له في الدين : عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو الله لك ويرحمك ، أصبحت شيخاً كبيراً وقد أثقلتك نعم الله تعالى بما فهمك من كتابه وعلمك من سنة نبيه ، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ (آل عمران ،) واعلم أنّ أيسر ما ارتكبت وأخف ما احتملت أنك آنست وحشة الظالم وسهلت سبيل الغيّ بدونك ممن لم يؤد حقاً ولم يترك باطلاً ، حين أدناك اتخذوك قطباً تدور عليك رحى باطلهم وجسراً يعبرون عليك إلى ملاذهم وسلّماً يصعدون فيك إلى ضلالهم ، يدخلون بك الشك على العلماء ويقتادون بك قلوب الجهلاء ، فما أيسر ما أعمروا لك في جنب ما خربوا عليك ، وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك ، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله

تعالى فيهم : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً ﴾ (مريم ،) فإنك تعامل من لا يجهل ويحفظ عليك من لا يغفل ، فداوِ دينك فقد دخله

سقم ، وهيئ زادك فقد حضر السفر البعيد ، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء والسلام . وقال سفيان : في جهنم واد لا يسكنه إلا القرّاء الزائرون للملوك . وعن الأوزاعي ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملاً ، أي : من الظلمة . وعن محمد بن سلمة : الذباب على العذرة أحسن من قارئ على باب هؤلاء . قال صلى الله عليه وسلم : "من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصي الله في أرضه" . ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية هل يسقى شربة ماء فقال : لا فقيل له : يموت ، فقال : دعه يموت . وقوله تعالى : ﴿ وما لكم من دون الله من أولياء ﴾ ، أي : أعواناً وأنصاراً يمنعوكم من عذابه حال من قوله : ﴿ فتمسكم النار ﴾ ، أي : فتمسكم النار وأنتم على هذه الحالة ﴿ ثم لا تنصرون ﴾ ، أي : لا تجدون من ينصركم ويخلصكم من عذاب الله في القيامة . ففي هذه الآية وعيد لمن ركن إلى الظلمة بأن تمسه النار فكيف يكون حال الظالم في نفسه . ولما أمر تعالى بالاستقامة أردفه بالأمر بالصلاة بقوله تعالى:

﴿ وأقم الصلاة ﴾ وذلك يدلّ على أنّ أعظم العبادات بعد الإيمان بالله تعالى هو الصلاة وقوله تعالى : ﴿ طرفي النهار ﴾ الغداة والعشي ، أي : الصبح والظهر والعصر . وقوله تعالى : ﴿ وزلفاً ﴾ جمع زلفة ، أي : طائفة ﴿ من الليل ﴾ ، أي : المغرب والعشاء ﴿ إنّ الحسنات ﴾ كالصلوات الخمس ﴿ يذهبن ﴾ ، أي : يكفرن ﴿ السيئات ﴾ ، أي : الذنوب الصغائر ، لما رواه مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال : "الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهنّ ما اجتنبت الكبائر" ، وزاد في رواية أخرى : "ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهنّ إذا اجتنبت الكبائر" ، وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أرأيتم لو أنّ نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرّات ما تقولون هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، لا يبقى من درنه شيء . u

---

فقال : ذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا" . وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرّات" . وعن الحسن أنّ الحسنات قول العبد : سبحان والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . وسبب نزول هذه الآية ما رواه الترمذي عن أبي اليسر بن عمر

وقال : أتتني امرأة وزوجها بعثه النبيّ صلى الله عليه وسلم في بعث فقالت : بعني بدرهم تمراً . قال : فأعجبتني فقلت : إنّ في البيت تمراً هو أطيب من هذا فالحقيني ، فَدَخَلَتْ معي البيت فأهويت إليها فقبلتها ، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال : استر على نفسك وتب ولا تخبر أحداً ، فأتيت عمراً فذكرت له ذلك فقال : استر على نفسك وتب ولا تخبر أحداً ، فأتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال : "أخنت رجلاً غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا" حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة حتى ظنّ أنه من أهل النار وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلاً حتى أوحي إليه : ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ ، أي : عظة للمتقين . قال أبو اليسر : فأتيته فقرأها عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ألهذا خاصة أم للناس عامّة ؟ قال : "بل للناس عامّة" . قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب . وعن عبد الله بن مسعود أنّ رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فنزلت فقال رجل : يا رسول الله ، ألهذا خاصة ؟ فقال : "بل للناس كافة" . وعن معاذ بن جبل قال : أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم رجل فقال : يا رسول الله ، أرأيت رجلاً لقي امرأة ليس بينهما معرفة وليس يأتي الرجل إلى امرأة شيئاً إلا قد أتى هو إليها إلا أنه لم يجامعها ؟ قال : فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وأمره النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ ويصلي ، فقال

معاذ بن جبل فقلت : يا

رسول الله ، أهي له خاصة أم للمؤمنين عامّة ؟ قال : "بل للمؤمنين عامّة" . قال العلماء : الصغائر من الذنوب تكفرها الأعمال الصالحة مثل الصلاة والصدقة والذكر والاستغفار ونحو ذلك من أعمال البر ، وأمّا الكبائر من الذنوب فلا يكفرها إلا التوبة النصوح ولها ثلاث شرائط : الأوّل : الإقلاع عن الذنب بالكلية ، الثاني : الندم على فعله ، الثالث : العزم التّام على أن لا يعود إليه في المستقبل ، فإذا حصلت هذه الشرائط صحت التوبة وكانت مقبولة إن شاء الله تعالى والإشارة في قوله تعالى ﴿ ذلك ذكرى ﴾ إلى ما تقدّم ذكره من قوله تعالى : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ إلى ههنا . وقيل : هو إشارة إلى القرآن . وقوله تعالى:

﴿ واصبر ﴾ خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم أي : واصبر يا محمد على أذى قومك أو على الصلاة وهو قوله تعالى : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ ، أي : أجر أعمالهم . وعدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود ودليلاً على أنّ الصلاة و الصبر إحسان وإيماء بأنه لا يعتد بهما دون الإخلاص . ولما بيّن تعالى أنّ الأمم المتقدّمين حل بهم عذاب الاستئصال بين أنّ السبب فيه أمران ، السبب

الأوّل: أنه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد في الأرض فقال تعالى:

﴿ فلولا ﴾ ، أي: فهلا ﴿ كان من القرون ﴾ ، أي: من الأمم الماضية ﴿ من قبلكم أولو بقية ﴾ ، أي: أصحاب رأي وخير وفضل ﴿ ينهون عن الفساد في الأرض ﴾ وسمي الفضل والجود بقية؛ لأنّ الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله فصار مثلاً في الجودة والفضل، ويقال: فلان من بقية القوم، أي: من خيارهم وبه فسر بيت الحماسة:

*إن تذنبوا ثم يأتيني بقيتكم

ومنه قولهم: في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا. ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى، أي: فهلا كان منهم ذوو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وعقابه.

فائدة: حكي عن الخليل أنه قال: كل ما في القرآن من كلمة لولا فمعناه هلا إلا التي في الصافات. قال صاحب "الكشاف": وما صحت هذه الحكاية ففي غير الصافات ﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه ﴾ (القلم،) ، ﴿ ولولا رجال مؤمنون ﴾ (الفتح،) ، ﴿ ولولا أن ثبتناك ﴾ (الإسراء،) انتهى. وقوله تعالى: ﴿ إلا قليلاً ممن أنجينا منهم ﴾

استثناء منقطع، معناه: ولكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهي. السبب الثاني لنزول عذاب الاستئصال قوله تعالى: ﴿ واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ﴾، أي: ما نعموا فيه من الشهوات واهتموا بتحصيل أسبابها وأعرضوا عما وراء ذلك ﴿ وكانوا مجرمين ﴾، أي: كافرين.

تنبيه: قوله تعالى: (واتبع الذين ظلموا) إن كان معناه واتبعوا الشهوات كان معطوفاً على مضمر؛ لأنّ المعنى إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد، وأتبع الذين ظلموا شهواتهم فهو عطف على نهوا، وإن كان معناه واتبعوا جزاء الاتراف فالواو للحال فكأنه قيل: أنجينا القليل وقد أتبع الذين ظلموا جزاءهم. وقوله تعالى: ﴿ وكانوا مجرمين ﴾ عطف على أترفوا، أي: اتبعوا الاتراف، وكونهم مجرمين؛ لأنّ تابع الشهوات مغمور بالآثام أو على اتبعوا، أي: اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك. ثم بيّن تعالى أنه ما أهلك أهل القرى بظلم بقوله تعالى:

﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم ﴾، أي: بشرك ﴿ وأهلها مصلحون ﴾ فيما بينهم، والمعنى: أنه لا يهلك أهل القرى بمجرّد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما

بينهم ، والحال أنّ عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين الشرك بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أساؤوا في المعاملات وسعوا في الإيذاء والظلم ، ولهذا قيل : إنّ حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة ، وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح .

ويقال في الأثر : الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم ، وإنما نزل على قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عذاب الاستئصال لما حكى الله تعالى عنهم من إيذاء الناس وظلم الخلق ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمّة واحدة ﴾ ، أي : أهل ملة واحدة وهي الإسلام كقوله تعالى ﴿ إنّ هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ وفي هذه الآية دليل على أنّ الأمر غير الإرادة وأنه تعالى لم يرد الإيمان من كل أحد ، وأن ما أراده يجب وقوعه . والمعتزلة يحملون هذه الآية على مشيئة الإلجاء والإجبار ، ولهذا قال الزمخشري : يعني لاضطرهم إلى أن يكونوا أهل ملة واحدة ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ ، أي : على أديان شتى ما بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك ومسلم ، فكل أهل دين من هذه الأديان اختلفوا في دينهم أيضاً اختلافاً كثيراً لا ينضبط . عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "تفترق اليهود على إحدى وسبعين فرقة" وفي رواية "ألا إنّ من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وإنّ هذه الأمّة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة فثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة" . والمراد بهذه الفرق : أهل البدع والأهواء كالقدرية والمعتزلة والرافضة . والمراد بالواحدة : هي ملة السنة والجماعة الذين اتبعوا

الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله . فإن قيل : ما الدليل على أنّ الاختلاف في الأديان فلم لا يجوز أن يحمل على الاختلاف في الألوان والألسنة والأرزاق

والأعمال ؟

أجيب :

بأنّ الدليل عليه ما قبل هذه الآية وهو قوله تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمّة واحدة ﴾ (هود ،) فيجب حمل الاختلاف على ما يخرجهم من أن يكونوا أمّة واحدة وما بعد هذه الآية وهو قوله تعالى : ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ ، أي : أراد لهم الخير فلا يختلفون فيه ، فيجب حمل الاختلاف على معنى يصح أن يستثنى منه ذلك ، وفي هذه الآية دلالة على أنّ الهداية والإيمان لا تحصل إلا بتخليق الله تعالى ؛ لأنّ تلك الرحمة ليست عبارة عن إعطاء القدرة والعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة العذر ، فإنّ كل ذلك حاصل في حق الكفار فلم يبق إلا أن يقال : تلك الرحمة هو أنه سبحانه وتعالى خلق فيهم تلك الهداية والمعرفة ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ ، أي : خلق أهل الاختلاف للاختلاف ، وخلق أهل الرحمة للرحمة . روي عن ابن عباس أنه قال : خلق الله أهل الرحمة لئلا يختلفوا ، وخلق

أهل العذاب لأن يختلفوا ، وخلق الجنة وخلق لها أهلاً ، وخلق النار وخلق لها أهلاً ، والحاصل : أنّ الله تعالى خلق أهل الباطل وجعلهم مختلفين ، وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين ، فحكم على بعضهم بالاختلاف وهم أهل الباطل ومصيرهم إلى النار ، وحكم على بعضهم بالاتفاق وهم أهل الحق ومصيرهم إلى الجنة ، ويدل لذلك قوله تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ وهي ﴿ لأملأنّ جهنم من الجنة ﴾ ، أي : الجنّ ﴿ والناس أجمعين ﴾ وهذا صريح بأنّ الله تعالى خلق أقواماً للجنة والرحمة فهداهم ووفقهم لأعمال أهل الجنة ، وخلق أقواماً للضلالة والنار فخذلهم ومنعهم من الهداية ، ولما ذكر تعالى القصص الكثيرة في هذه السورة ذكر نوعين من الفائدة أوّلهما تثبيت الفؤاد بقوله تعالى: ﴿

(260/388)

وكلاً ﴾ ، أي : وكل نبأ ﴿ نقص عليك ﴾ وقوله تعالى : ﴿ من أنباء الرسل ﴾ ، أي : نخبرك به بيان لكل . وقوله تعالى : ﴿ ما نثبت به فؤادك ﴾ بدل من كلاً ، ومعنى تثبيت فؤاده : زيادة يقينه وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى ، وذلك لأنّ الإنسان إذا ابتلي بمحنة وبلية فإذا رأى له فيه مشاركاً خف ذلك على

قلبه كما يقال : المصيبة إذا عمت خفت ، وإذا سمع الرسول صلى الله عليه وسلم هذه القصص وعلم أنّ حال جميع الأنبياء مع أتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه . الفائدة الثانية : قوله تعالى : ﴿ وجاءك في هذه الحق ﴾ ، أي : في السورة وعليه الأكثر ، أو في هذه الأنباء المقتصة فيها . وقال الحسن : في هذه الدنيا . قال الرازي : وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع ؛ لأنه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير لها .

فإن قيل : قد جاءه الحق في غير هذه السورة بل القرآن كله حق وصدق ؟

أجيب : بأنه إنما خصها بالذكر تشريفاً لها ﴿ وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ وخصهم بالذكر لانتفاعهم بذلك بخلاف الكفار ، فذكر تعالى أموراً ثلاثة : الحق والموعظة والذكرى ، أمّا الحق فهو إشارة إلى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوّة والمعاد ، وأمّا الموعظة فهي إشارة إلى السفر عن الدنيا وتقبيح أحوالها ، وأمّا الذكرى فهي إشارة إلى الإرشاد إلى الأعمال النافذة الصالحة في الدار الآخرة ، ولما بلغ تعالى الغاية والإنذار والإعذار والترغيب والترهيب أتبع ذلك بأن قال لرسوله صلى الله عليه وسلم

﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم ﴾ ، أي : حالتكم ، وفيه وعيد وتهديد ، وإن كانت صيغته صيغة الأمر فهو كقوله تعالى لإبليس : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ (الإسراء ،) وقرأ شعبة بعد النون بألف على الجمع والباقون بغير ألف على الإفراد ﴿ إنا عاملون ﴾ ، أي : على حالتنا التي أمرنا بها ربنا ﴿ وانتظروا ﴾ ، أي : ما يعدكم الشيطان به من الخذلان ﴿ إنا منتظرون ﴾ ، أي : ما يحل بكم من نقم الله تعالى وعذابه نحو ما نزل على أمثالكم ، وقيل : إنا منتظرون ما وعدنا الرحمن من أنواع الغفران والإحسان ، ثم إنه تعالى ذكر خاتمة شريفة عالية جامعة لكل المطالب الشريفة المقدّسة فقال:

﴿ ولله غيب السموات والأرض ﴾ ، أي : علم ما غاب فيهما فعلمه سبحانه وتعالى نافذ في جميع مخلوقاته خفيها وجليها ﴿ وإليه ﴾ أي لا إلى غيره ﴿ يرجع الأمر كله ﴾ ، أي : إليه يرجع أمر الخلق كلهم في الدنيا والآخرة ، وقرأ نافع وحفص بضم الياء وفتح الجيم على البناء للمفعول ، والباقون بفتح الياء وكسر الجيم . ولما كان أوّل درجات السير إلى الله تعالى عبوديته وآخرها التوكل عليه قال تعالى : ﴿ فاعبده ﴾ ولا تشتغل بعبادة غيره ﴿ وتوكل عليه ﴾ ، أي : ثق به في جميع أمورك فإنه كافيك ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ فيحفظ على العباد أعمالهم لا يخفى عليه شيء منها فيجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب ، والباقون بالياء على الغيبة .

فائدة : قال كعب الأحبار خاتمة التوراة خاتمة سورة هود . وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ سورة هود أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بنوح ومن كذب به وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 127.112 ﴾

(262/388)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾

هذا عود إلى أحوال الأمم الخالية لبيان أن سبب حلول عذاب الاستئصال بهم أنه ما كان فيهم من ينهى عن الفساد ويأمر بالرشاد ، فقال : ﴿ فَلَوْلَا ﴾ أي : فهلا ﴿ كَانَ مِنَ القرون ﴾ الكائنة ﴿ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ ﴾ من الرأي والعقل والدين ﴿ يَنْهَوْنَ ﴾ قومهم ﴿ عَنِ الفساد فِى الأرض ﴾ ويمنعونهم من ذلك ، لكونهم ممن جمع الله له بين جودة العقل ، وقوّة الدين ، وفي هذا من التوبيخ للكفار ما لا يخفى .

والبقية في الأصل لما يستبقيه الرجل مما يخرجه ، وهو لا يستبقي إلا أجوده وأفضله ، فصار لفظ البقية مثلاً في الجودة ، والاستثناء في ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ منقطع : أي : لكن قليلاً ممن أنجينا منهم ينهون عن الفساد في الأرض .

وقيل : هو متصل لأن في حرف التحضيض معنى النفي ، فكأنه قال : ما كان في القرون أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم ، و " من " في ﴿ ممن أنجينا ﴾ بيانية ، لأنه لم ينج إلا الناهون .

قيل : هؤلاء القليل هم قوم يونس لقوله فيما مر : ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ ﴾ [يونس : 98] وقيل : هم أتباع الأنبياء وأهل الحق من الأمم على العموم ﴿ واتبع الذين ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ معطوف على مقدّر يقتضيه الكلام ، تقديره : إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد .

والمعنى : أنه اتبع الذين ظلموا بسبب مباشرتهم الفساد وتركهم للنهي عنه ما أترفوا فيه .

(263/388)

والمترف : الذي أبطرته النعمة ، يقال : صبيّ مترف : منعم البدن ، أي صاروا تابعين للنعم التي صاروا بها مترفين من خصب العيش ، ورفاهية الحال وسعة الرزق ، وآثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة واستغرقوا أعمارهم في الشهوات النفسانية ؛ وقيل المراد بالذين

ظلموا : تاركو النهي .

وردّ بأنه يستلزم خروج مباشري الفساد عن الذين ظلموا وهم أشدّ ظلماً ممن لم يباشر ، وكان ذنبه ترك النهي .

وقرأ أبو عمرو في رواية عنه : "وأتبع الذين ظلموا" على البناء للمفعول ، ومعناه : أتبعوا جزاء ما أترفوا فيه ، وجملة : ﴿ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ متضمنة لبيان سبب إهلاكهم ، وهي معطوفة على أترفوا : أي وكان هؤلاء الذين أتبعوا ما أترفوا فيه مجرمين ، والإجرام : الآثام .

والمعنى : أنهم أهل إجرام بسبب اتباعهم الشهوات ، واشتغالهم بها عن الأمور التي يحق الاشتغال بها ، ويجوز أن تكون جملة : ﴿ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ معطوفة على ﴿ واتبع الذين ظلموا ﴾ : أي اتبعوا شهواتهم ، وكانوا بذلك الاتباع مجرمين .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ أي : ما صحّ ولا استقام أن يهلك الله سبحانه أهل القرى بظلم يتلبسون به وهو الشرك ، والحال أن أهلها مصلحون فيما بينهم في تعاطي الحقوق لا يظلمون الناس شيئاً .

والمعنى : أنه لا يهلكهم بمجرد الشرك وحده حتى ينضمّ إليه الفساد في الأرض ، كما أهلك قوم شعيب بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم ، وأهلك قوم لوط بسبب ارتكابهم للفاحشة الشنعاء .

وقيل : إن قوله : ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ حال من الفاعل .

والمعنى : وما كان الله ليهلك القرى ظالماً هم حال كونهم مصلحين غير مفسدين في الأرض ، ويكون المراد بالآية تنزيهه سبحانه وتعالى عن صدور ذلك منه بلا سبب يوجبه ، على تصوير ذلك بصورة ما يستحيل منه ، وإلا فكل أفعاله كائنة ما كانت لا ظلم فيها ، فإنه سبحانه ليس بظلام للعبيد .

قال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى : وما كان ربك ليهلك أحداً وهو يظلمه ، وإن كان على نهاية الصلاح ، لأن تصرفه في ملكه ، دليله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئًا ﴾ [يونس : 44] وقيل : المعنى : وما كان ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون : أي مخلصون في الإيمان ، فالظلم المعاصي على هذا .

﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي : أهل دين واحد ، إما أهل ضلالة ، أو أهل هدى .

وقيل : معناه : جعلهم مجتمعين على الحق غير مختلفين فيه ، أو مجتمعين على دين الإسلام دون سائر الأديان ، ولكنه لم يشأ ذلك فلم يكن ، ولهذا قال : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ في ذات بينهم على أديان شتى ، أو لا يزالون مختلفين في الحق أو دين الإسلام .

وقيل: مختلفين في الرزق: فهذا غنيّ، وهذا فقير ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ بالهداية إلى الدين الحق، فإنهم لم يختلفوا، أو إلا من رحم ربك من المختلفين في الحق أو دين الإسلام، بهدايته إلى الصواب الذي هو حكم الله، وهو الحق الذي لا حق غيره، أو إلا من رحم ربك بالقناعة.

والأولى تفسير لجعل الناس أمة واحدة بالمجتمعة على الحق حتى يكون معنى الاستثناء في ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ واضحاً غير محتاج إلى تكلف ﴿ ولذلك ﴾ أي: لما ذكر من الاختلاف ﴿ خَلَقَهُمْ ﴾ أو ولرحمته خلقهم.

وصحّ تذكير الإشارة إلى الرحمة لكون تأنيثها غير حقيقي.

والضمير في خلقهم راجع إلى الناس، أو إلى ﴿ من ﴾ في ﴿ من رحم ربك ﴾؛ وقيل: الإشارة بذلك إلى مجموع الاختلاف والرحمة، ولا مانع من الإشارة بها إلى شيئين كما في قوله: ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذلك ﴾ [البقرة: 68]، ﴿ وابتغ بَيْنَ ذلك سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: 110] ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ [يونس: 58].

قوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ معنى تمت ثبتت ، كما قدّره في أزله ، وإذا تمت امتنعت من التغيير والتبديل ، وقيل : الكلمة هي قوله : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ أي : ممن يستحقها من الطائفتين ، والتنوين في ﴿ وَكُلًّا ﴾ للتعويض عن المضاف إليه ، وهو منصوب ب ﴿ نقص ﴾ ، والمعنى : وكل نبأ من أنباء الرسل مما يحتاج إليه نقصّ عليك : أي ، نخبرك به .

وقال الأخفش : ﴿ كَلَّا ﴾ حال مقدّمة كقولك : كلاًّ ضربت القوم ، والأنباء الأخبار ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أي : ما نجعل به فؤادك مثبتاً بزيادة يقينه بما قصصناه عليك ، ووفور طمأنينته ، لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ في النفس وأقوى للعلم ، وجملة : ﴿ مَا نُثَبِّتُ ﴾ بدل من أنباء الرسل ، وهو بيان لكلا ، ويجوز أن يكون ﴿ مَا نُثَبِّتُ ﴾ مفعولاً لنقصّ ، ويكون ﴿ كلاًّ ﴾ مفعولاً مطلقاً ، والتقدير : كل أسلوب من أساليب الاقتصاص نقصّ عليك ما نثبت به فؤادك ﴿ وَجَاءَكَ فِى هذه الحق ﴾ أي : جاك في هذه السورة ، أو في هذه الأنباء البراهين القاطعة الدالة على صحة المبدأ والمعاد ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ يتعظ بها الواقف عليها من المؤمنين ﴿ وذكرى ﴾ يتذكر بها من تفكر فيها منهم ، وخصّ المؤمنين لكونهم المتأهلين للاتعاظ والتذكر .

وقيل : المعنى : وجاءك في هذه الدنيا الحق ، وهو النبوّة ، وعلى التفسير الأوّل ، يكون

تخصص هذه السورة بمجيء الحق فيها مع كونه قد جاء في غيرها من السور، لقصد بيان اشتمالها على ذلك، لا بيان كونه موجوداً فيها دون غيرها.

(266/388)

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بهذا الحق، ولا يتعظون، ولا يتذكرون ﴿ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ على تمكنكم وحالكم وجهتكم، وقد تقدّم تحقيقه ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ على مكانتنا وحالنا وجهتنا من الإيمان بالحق، والاتعاظ، والتذكر، وفي هذا تشديد للوعيد والتهديد لهم، وكذلك قوله : ﴿ وانتظروا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ فيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى.

والمعنى : انتظروا عاقبة أمرنا فإنا منتظرون عاقبة أمركم وما يحلّ بكم من عذاب الله وعقوبته.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السموات والأرض ﴾ أي : علم جميع ما هو غائب عن العباد فيهما، وخصّ الغيب من كونه يعلم بما هو مشهود، كما يعلم بما هو مغيب، لكونه من العلم الذي لا يشاركه فيه غيره؛ وقيل : إن غيب السموات والأرض : نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض، والأوّل : أولى، وبه قال أبو عليّ الفارسي وغيره، وأضاف الغيب إلى المفعول

توسعاً ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ ﴾ أي : يوم القيامة فيجازى كلاً بعمله .

وقرأ نافع وحفص ﴿ يرجع ﴾ على البناء للمفعول .

وقرأ الباقون على البناء للفاعل ﴿ فاعبده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ فإنه كافيك كل ما تكره ، ومعطيك كل ما تحبّ ، والفاء لترتيب الأمر بالعبادة ، والتوكل على كون مرجع الأمور كلها إلى الله سبحانه ﴿ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بل عالم بجميع ذلك ، ومجاز عليه إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشر .

وقرأ أهل المدينة والشام وحفص ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾ بالفوقية على الخطاب .

وقرأ الباقون بالتحتية .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي مالك ، في قوله : ﴿ فَلَوْلَا ﴾ قال : فهلا .

وأخرج ابن مردويه ، عن أبيّ بن كعب ، قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ﴾ ، وأحلام ، ينهون عن الفساد في الأرض .

(267/388)

وأخرج أبو الشيخ ، عن ابن جريج ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ يستقلهم الله من كل قوم .

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد ﴿ واتبع الذين ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ قال: في ملكهم وتجبرهم، وتركهم الحق.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ من طريق ابن جريج، قال: قال ابن عباس: أترفوا فيه: أبطروا فيه.

وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والديلمي عن جرير، قال: "سمعت رسول الله يسئل عن تفسير هذه الآية ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وأهلها ينصف بعضهم بعضاً" وأخرجه ابن أبي حاتم، والخرائطي في مساوئ الأخلاق موقوفاً على جرير.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ قال: أهل دين واحد أهل ضلالة أو أهل هدى.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ قال: أهل الحق وأهل الباطل ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ قال: أهل الحق ﴿ ولذلك خَلَقَهُمْ ﴾ قال: للرحمة.

وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عنه ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ قال: إلا أهل رحمته فإنهم لا يختلفون.

وأخرج ابن أبي حاتم، عنه، قال: لا يزالون مختلفين في الأهواء.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عطاء بن أبي رباح ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ

مُخْتَلِفِينَ ﴾ أي : اليهود والنصارى والمجوس والحنيفية ، وهم الذين رحم ربك الحنيفية .

وأخرج هؤلاء عن الحسن في الآية قال : الناس مختلفون على أديان شتى إلا من رحم ربك ، فمن رحم ربك غير مختلف ﴿ ولذلك خَلَقَهُمْ ﴾ قال : للاختلاف .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ قال : أهل الباطل ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ قال : أهل الحق ﴿ ولذلك خَلَقَهُمْ ﴾ قال : للرحمة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن عكرمة نحوه .

وأخرجا عن الحسن قال : لا يزالون مختلفين في الرزق .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، ولذلك خلقهم قال : خلقهم فريقين : فريقاً يرحم فلا يختلف ، وفريقا لا يرحم يختلف ، فذلك قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن ابن جريج ، في قوله : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاء الرسل مَا نُثَبّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ لتعلم يا محمد ما لقيت الرسل قبلك من أممهم .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي

حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه من طرق، عن ابن عباس، قال: ﴿ وَجَاءَكَ فِى هَذِهِ الحق ﴾ قال: في هذه السورة.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي موسى الأشعري مثله.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير مثله أيضاً.

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن مثله.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة، قال: في هذه الدنيا.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة ﴿ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي: منازلكم.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج ﴿ وانتظروا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ قال: يقول انتظروا مواعيد الشيطان إياكم على ما يزين لكم، وفي قوله: ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ ﴾ قال: فيقضي بينهم بحكم العدل.

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند ، وابن الضريس في فضائل القرآن ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن كعب قال : فاتحة التوراة فاتحة الأنعام ، وخاتمة التوراة خاتمة هود ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السموات والأرض ﴾ إلى آخر الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(270/388)

وقال القاسمى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [96] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ أي : التسع : ﴿ وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ وهو العصا . وكانت أبهر معجزاته ، فلذا خصت ، أو هو الآيات ، والعطف للإشارة إلى الجمع بين كونها آيات وسلطاناً واضحاً على رسالته .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [97] .

﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي : بالكفر بموسى ، أو طريقة فرعون الجائرة .

قال الزمخشري : هذا تجهيل لمتبعيه ، حيث شايعوه على أمره ، وهو ضلال مبين لا يخفى

على من فيه أدنى مسكة من العقل . وذلك أنه ادعى الإلهية ، وهو بشر مثلهم ، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذي لا يأتي إلا من شيطان مارد ، فاتبعوه وسلموا له دعواه ، وتتابعوا على طاعته .

﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أي : بمرشد ، أو ذي رشد ، وإنما هو غي وضلال .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ [98] .

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي : يتقدمهم إلى النار ، كما كان يقدمهم في الدنيا إلى الضلال : ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ أي : يوردهم . وإيثار لفظ الماضي للدلالة على تحققه والقطع به . وشبه فرعون بالفارط الذي يتقدم الواردة إلى الماء ، وأتباعه بالواردة ، والنار بالماء الذي يردونه .

ثم قيل : ﴿ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ أي : بئس الذي يردونه النار ، لأن الورد – وهو النصيب من الماء – إنما يراد لتسكين الظمأ ، وتبريد الكبد ، والنار على الضد من ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ [99] .

﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ ﴾ أي : الدنيا : ﴿ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي : يلعنون في الدنيا والآخرة ، فهي تابعة لهم أين كانوا ، فـ : (يوم) معطوف على محل (في) هذه ؛ لابتداء كلام .

﴿ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُود ﴾ أي : بئس العطاء المعطى ، وهي اللعنة في الدارين .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ [100] .

﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما قص من أنباء الأمم : ﴿ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى ﴾ أي : المهلكة : ﴿ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ أي : بالوحي : ﴿ مِنْهَا قَآئِمٌ ﴾ أي : باق ينظر إليها ، قد باد أهلها : ﴿ وَحَصِيدٌ ﴾ أي : ومنها عافي الأثر كالزرع المحصود .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [101] .

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بإهلاكنا إياهم : ﴿ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي : بتعريضها لما أوجبه من الشرك وعبادة الأوثان والظلم : ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أي : إهلاك وتخسير .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [102] .

(272/388)

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ فيه إشعار بظلمهم وإعلام بسنته تعالى في أخذ الظالمين التي لا تتبدل ، وإنذار كل ظالم ظلم نفسه ، أي : غيره ، من سوء العاقبة .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ [103] .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي : فيما قص في هذه السورة ، أو في أخذ الظالمين : ﴿ لَآيَةً ﴾ أي : لعبرة : ﴿ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ﴾ فيعتبر بها عن موجباته : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ أي : يشهده الأولون والآخرون ، وأهل السماء والأرض .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴾ [104] .

﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ ﴾ أي : ذلك اليوم : ﴿ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ أي : لمدة محدودة .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [105] .

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ أي : بإذن الله تعالى ، كقوله تعالى : ﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ [النبأ : من الآية 38] ، ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾

.

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ [106] .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ الزفير : إخراج النفس مع صوت ممدود ، والشهيق : رده . كني بهما عن الغم والكرب ، لأنه يعلو معه النفس غالباً . أو شبه صراخهم بأصوات الحمير .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [107 - 108] .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أي : غير مقطوع ، ولكنه ممتد إلى غير نهاية .

وفي التوقيت بـ : (السماوات والأرض) وجهان :

أحدهما : أن يكون عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع ، كقول العرب : (ما أقام ثبير) ، و (ما لاح كوكب) و (ما طما البحر) ونحوها ، لا تعليق قرارهم في الدارين بدوام هذه السماوات والأرض ، فإن النصوص دالة على تأبيد قرارهم ، وانقطاع دوامهما .

وثانيهما : أن يراد سماوات الآخرة وأرضها ، إذ لا بد لأهلها من مظل ومقل ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ [إبراهيم : من الآية 48] ، وقوله : ﴿ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ [الزمر : من الآية 74] .

فإن قلت : ما معنى الاستثناء بالمشيئة ، وقد ثبت خلود أهل الدارين فيهما من غير استثناء ؟ .

فالجواب ما قدمناه في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ [

الأعراف : من الآية 188] ، يعني أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أسلوب القرآن ، للدلالة على الثبوت والاستمرار .

والنكتة في الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة إنما كانت كذلك بمشيئة الله تعالى بطبيعتها في نفسها ، ولو شاء تعالى أن يغيرها لفعل .

وقد أشار لهذا ابن كثير بقوله : يعني أن دوامهم ليس أمراً واجباً بذاته ، بل موكول إلى مشيئته تعالى .

وابن عطية بقوله : هذا على طريق الاستثناء الذي ندب الشارع إلى استعماله في كل كلام ، كقوله : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الفتح : من الآية 27] فليس يحتاج أن يوصف بمتصل ولا منقطع .

وللمفسرين هنا وجوه كثيرة ، وما ذكرناه أحقها وأبدعها .

ولما قص تعالى قصص عَبْدة الأوثان وذكر ما أحله بهم من نقمة ، وما أعد لهم من عذابه قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ [109]

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ﴾ أي : في شك من عبادتهم ، في أنها ضلال مؤد إلى مثل ما حل بمن قبلهم . وفيه تسلية له صلوات الله عليه ، وعدة بالانتقام ، ووعيد لهم ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ﴾ أي : فهم سواء في الإشراك ، وقد بلغك ما نزل بآبائهم ، فسيحل بهم مثله . وهو استئناف معلل للنهي عن المرية : ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ أي : من العذاب ، كما وفي لآبائهم : ﴿ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [110]

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ أي : التوراة : ﴿ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ أي : آمن به قوم ، وكفر به آخرون ، كما اختلف هؤلاء في القرآن : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ يعني ما أشير إليه في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : من الآية 33]

، ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : باستئصالهم : ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أي : هؤلاء ، وهم كفار مكة : ﴿ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ أي : القرآن : ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أي : موقع للناس في الريبة .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [111] .

﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي : فلا يخفى عليه شيء منه ، وسيجزيهم عليه . والتنوين في (كُلاًّ) عوض عن المضاف ، أي : وإن كل المختلفين فيه .

تنبيه :

في هذه الآية قراءات : قرئ (إنه) و (لما) مخففتين ومشددتين ، وبتخفيف (إن) وتشديد (لما) وبعكسها ، وهذه الأربع قراءات كلها متواترة .

فأما الأولى : ففيها إعمال (إن) المخففة ، وهي لغة ثابتة عن العرب ، واللام في (لما) لأمر الابتداء داخلة في خبر (إن) . و (ما) إما موصولة بمعنى (اللذين) واقعة على من يعقل ، واللام في (ليوفينهم) جواب قسم مضمر ، أي : وإن كلا الذين ، والله ليوفينهم . وإما نكرة موصوفة ، والجملة القسمية وجوابها صفة (ما) أي : وإن كلا لخلق ، أو لفريق ، والله ليوفينهم . وقيل : اللام الأولى موطئة للقسم ، ولما اجتمع اللامان واتفقا في اللفظ فصل

بينهما بـ (ما) فهي زائدة لإصلاح اللفظ . وقيل : اللام المذكورة هي الفارقة بين المخففة والنافية . وقيل : إنها جواب القسم كررت تأكيداً .

(276/388)

وأما الثانية : وهي تشديدهما ، فـ : (إن) على حالها وما بعدها منصوب على أنه اسمها ، و (لما) بمعنى (إلا) أو جازمة بمعنى (لم) ومجزومها محذوف ، أي : لما يهملوا ، أو لما يوفوا أعمالهم إلى الآن ، وسيوفونها .

وأما الثالثة : وهي تخفيف (إن) وتشديد (لم) فـ (إن) مخففة عاملة كما تقدم ، و (لما) بمعنى (إلا) أو جازمة أيضاً ، أو (إن) نافية بمنزلة (ما) و (ما) بمعنى (إلا) و (كلا) منصوب بمضمر ، أي : وما أرى كلا إلا .

وأما الرابعة : وهي تشديد (إن) وتخفيف (لما) فواضحة فـ (إن) هي المشددة عملت عملها .

والكلام في (اللام) و (ما) مثل ما تقدم أولاً من الوجوه الأربعة في (اللام) والثلاثة في (ما)

.

وثمة قراءات أخر فلتراجع في " السمين " وغيره .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [112] .

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ أي : في القرآن ، و (الكاف) للتشبيه ، أو بمعنى (على) : ﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ أي : من الشرك ، وهم المؤمنون ﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ ﴾ أي : تجاوزوا حدود الله : ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي : فيجازيكم به . قال ابن كثير : يأمر تعالى رسوله والمؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ، وذلك من أكبر العون على النصر ، وينهى عن الطغيان وهو البغي ، فإنه مصرعة ، ولو كان على مشرك .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ [113] .

﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أي : أنفسهم بالشرك والمعاصي ، أي : لا تسكنوا إليهم . ولا تطمئنوا إليهم ؛ لما يفضي الركون من الرضا بشركهم وتقويتهم ، وتوهين جانب الحق :

﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي : أنصار يمنعون عذابه عنكم بركونكم إليهم : ﴿ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أي : لا تمنعون مما يراد بكم . والقصد تبعيد المؤمنين عن موادة المشركين المحادّين لله ولرسوله ، والثقة بهم ، وهم أعظم عقبة في الصد عن سبيل الله ؛ لأن ذلك ينافي الإيمان .

قيل : الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم ، والتهديد عليه ، لأن هذا الوعيد الشديد إذا كان فيمن يركن إلى أهله ، فكيف بمن ينغمس في حمأته ؟ .

تنبيه :

قال بعض المفسرين اليمانيين : الآية صريحة بأن الركون إلى الظلمة محرم وكبيرة ، لأنه تعالى توعد بالنار . ولكن ما هو الركون الذي أراده تعالى ؟ قلنا : في ذلك وجوه ؟

فروي عن ابن عباس والأصم أن المعنى : لا تميلوا إلى الظلمة في شيء من دينكم .

وقيل : ترضوا بأعمالهم . عن أبي العالية .

وقيل : تلحقوا بالمشركين . – عن قتادة – .

وقيل : تداهنوا الظلمة . عن السدي وابن زيد .

وقيل : الدخول معهم في ظلمهم وإظهار الرضا بفعلهم ، وإظهار موالاتهم . فأما إذا دخل عليهم لدفع شرهم فيجوز, لأنه تعالى أمر بالرفق في مخالطة الكفار ، والظلمة أولى .

قال الزمخشري : النهي يتناول الانحطاط في هواهم ، والانقطاع إليهم ، ومصاحبتهم

ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم ، والرضا بأعمالهم ، والتشبه بهم ، والتزيي بزيهم ، ومد العين إلى زهرتهم وذكرهم بما فيه تعظيم لهم . وتأمل قوله : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ ﴾ فإن الركون هو الميل اليسير . وقوله : ﴿ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أي : إلى الذين وجد منهم الظلم ، ولم يقل : إلى الظالمين .

وحكي أن الموفق صلى خلف الإمام ، فقرأ بهذه الآية ، فغشي عليه ، فلما أفاق قيل له ، فقال : هذا فيمن ركن إلى من ظلم ، فكيف بالظالم ؟ انتهى .

قال اليماني : قد وسع العلماء في ذلك وشددوا ، والحالات تختلف ، والأعمال بالنيات ، والتفصيل أولى ، فإن كانت المخالطة لدفع منكر ، أو استعانة عليه ، أو رجاء تركهم الظلم ، أو استكفاء شرورهم فلا حرج في ذلك ، وربما وجب ، وإن كان لإيناسهم وإقرارهم فلا . انتهى .

وأقول : كل هذا مبني على عموم الآية ، وأما إن كانت في مشركي مكة اعتماداً على سباق الآية وسياقها ؛ فالمراد منها ما ذكرناه أولاً – والله أعلم – .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [114] .

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ أي : غدوة وعشية : ﴿ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ أي : وساعات منه ، وهي ساعاته القريبة من آخر النهار ، من (أزلفه) إذا قربه ، وازدلف إليه . وصلا الغدوة : الفجر ، وصلاة العشية : الظهر والعصر ، لأن ما بعد الزوال عشي ، وصلاة الزلف المغرب والعشاء - كذا في " الكشاف " - .

والآية كقوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ [الإسراء : من الآية 78] في جمعها للصلوات الخمس جمعاً بالغاً غاية اللطف في بلاغة الإيجاز ، وانتصاب (طرفي النهار) على الظرف لإضافته إليه . و (زلفاً) قرأها العامة بضم ففتح ، جمع زلفة ، كظلمة وظلم . وقرئ بضمها ، إما على أنه جمع زلفة أيضاً ، ولكن ضمت عينه إتباعاً لفائه ؛ أو على أنه اسم مفرد كعنق . أو جمع زليف بمعنى زلفة كرغيف ورغف .

وقرئ بإسكان اللام ، إما بالتخفيف ، فيكون فيها ما تقدم ، أو على أن السكون على أصله ، فهو كبسرة وبسر ، من غير إتباع .

وقرئ (زلفى) كحبلى ، بمعنى قريبة ، أو على إبدال الألف من التنوين ؛ إجراء للوصل مجرى الوقف . ونصبه إما على الظرفية بعطفه على (طرفي النهار) لأن المراد به الساعات ، أو على عطفه على (الصلاة) فهو مفعول به .

والزلفة عند ثعلب : أول ساعات الليل .

وقال الأخفش : مطلق ساعات الليل ، وأصل معناه القرب . يقال ازدلف أي : اقترب و (من الليل) صفة زلفاً - كذا في " العناية " - .

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ ﴾ أي : التي من جملتها ، بل عمدتها ، ما أمرت به من الصلوات : ﴿ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي : التي قلما يخلو منها البشر ، أي : يكفرنها ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : إقامة الصلوات في الأوقات المذكورة : ﴿ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ أي : ذكرى له تعالى ، وإحضار للقلب معه ، وتصفية من كدورات اللهو والنسيان لعظمته .

وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه ؛ أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إني عالجت امرأة في أقصى المدينة ، وإني أصبت منها ما دون أن أمسها ، وأنا هذا ، فاقض فيّ ما شئت ! فقال له عمر رضي الله عنه : لقد سترك الله تعالى لو سترت على نفسك . قال : فلم يرد النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً . فقام الرجل فانطلق ، فأتبعه النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً فدعاه ، وتلا عليه هذه الآية : ﴿ وَأَقِمِ

الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ الخ .

فقال رجل من القوم : يا رسول الله ، هذا له خاصة ؟ قال : < بل للناس كافة > .

أخرجه البخاري وغيره .

وفي رواية عن أبي أمامة قال له صلى الله عليه وسلم : < أتممت الوضوء وصليت معنا ؟ > قال : نعم ، قال : < فإنك من خطيئتك كما ولدتك أمك ، فلا تعد > . وقرأ الآية .

وفي رواية فنزلت الآية ، والمراد بالنزول شمولها ، بنزولها المتقدم ، لما وقع ، لأنها كانت سبباً في النزول – كما بيناه غير مرة – .

(280/388)

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : < أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس ، هل يبقى من درنه شيء ؟ > قالوا : لا . قال : < فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بها الخطايا > . ورواه البخاري أيضاً عن جابر ، ورُوي نحوه عن عثمان وسلمان .

وللإمام أحمد عن معاذ ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : < أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن > .

وله عن أبي ذر مرفوعاً : < إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها > قلت : يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال : < هي أفضل الحسنات > أي : فالحسنات مثل الصلاة والذكر والصدقة والاستغفار ، ونحو ذلك من أعمال البر .

لطيفة :

أشار القاشاني عليه الرحمة إلى سر الصلوات الخمس في أوقاتها بما يجدر الوقوف عليه ، فقال :

لما كانت الحواس الخمس شواغل تشغل القلب بما يرد عليه في الهيئات الجسمانية ، وتجذبه عن الحضرة الرحمانية ، وتحجبه عن النور والحضور ، بالإعراض عن جانب القدس ، والتوجه إلى معدن الرجس ، وتبدله الوحشة بالأنس ، والكدورة بالصفاء ؛ فرضت خمس صلوات ، يتفرغ فيها العبد للحضور ، ويسد أبواب الحواس ؛ لئلا يرد على القلب شاغل يشغله ، ويفتح باب القلب إلى الله تعالى بالتوجه والنية ؛ لوصول مدد النور ، ويجمع همه عن التفرق ، ويستأنس بربه عن التوحش ، مع اتحاد الوجهة ، وحصول الجمعية ، فتكون تلك الصلوات خمسة أبواب مفتوحة للقلب ، على جناب الرب ، يدخل عليه بها النور بإزاء تلك الخمسة المفتوحة إلى جانب الغرور ، ودارا للعين الغرور ، التي تدخل بها الظلمة لِيُذهب النور الوارد آثارَ ظلماتها ، ويكسح غبار كدوراتها . وهذا معنى قوله : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ .

وقد ورد في الحديث : < إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر > .

وأمر بإقامتها طرفي النهار ، لينسحب حكمها ببقاء الجمعية ، واستيلاء الهيئة النورية ، في أوله إلى سائر الأوقات ، فعسى أن يكون من الذين هم على صلاتهم دائمون ، لدوام ذلك الحضور وبقاء ذلك النور ، ويكسح ويزيل في آخره ما حصل في سائر الأوقات من التفرقة والكدورة . ولما كانت القوى الطبيعية المدبرة لأمر الغذاء سلطانها في الليل ، وهي تجذب النفس إلى تدبير البدن بالنوم عن عالمها الروحاني ، وتحجزها عن شأنها الخاص بها ، الذي هو مطالعة عالم القدس بشغلها باستعمال آلات الغذاء ، لعمارة الجسد ، فتسلبها اللطافة ، وتكدرها بالغشاوة ؛ احتيج إلى تلطيفها وتصفيتها باليقظة ، وتنويرها بالصلاة ، فقال :

﴿ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [115] .

﴿ وَاصْبِرْ ﴾ أي : على مشاق ما أمرت به من التبليغ ، أو على ما يقولون ، أو على الصلاة كقوله : ﴿ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه : من الآية 132] ، ولا مانع من شموله للكل .

﴿ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : في أعمالهم فيوفيهم أجورهم من غير بخس .

قال أبو السعود : وإنما عبر عن ذلك بنفي الإضاعة ، لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه ، وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة مع الإيماء إلى أن الصبر على ما ذكر من باب الإحسان . انتهى .

وأشار الشهاب في " العناية " هنا إلى لطيفة من البلاغة القرآنية ، وهو أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبي صلى الله عليه وسلم وإن كانت عامة في المعنى ، وفي المنهيات جمعت للأمة .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ [116]

﴿ فَلَوْلاَ كَانَ ﴾ أي : فهلا وجد : ﴿ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ ﴾ أي : بعمل الشرور والمنكرات ، فإنه لو كان منهم ناهون لم يؤخذ الباقون :

﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ استثناء منقطع . أي : لكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد ، وسائرهم تاركون للنهي .

لطيفة :

(البقية) إما بمعنى الباقية ، والتأنيث لمعنى الخصلة أو القطعة ، أو بقية من الرأي والعقل ، أو بمعنى الفضيلة ، والتاء للنقل إلى الاسمية كالذبيحة . وأطلق على الفضل (بقية) استعارة من البقية التي يصطفيها المرء لنفسه ، ويدخرها مما ينفقه ، فإنه يفعل ذلك بأنفسها . ولذا قيل : (في الزاويا خبايا ، وفي الرجال بقايا) و (فلان من بقية القوم) أي : من خيارهم ، وجوز كون (البقية) مصدراً بمعنى (البقوى) ، كالتقية بمعنى التقوى ، أي : فهلا كان منهم ذوو إبقاء على أنفسهم ، صيانة لها من سخطه تعالى وعقابه .

﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ أي : ما صاروا منعمين فيه من الشهوات ، حتى فجأهم العذاب ، وإتباعه كناية عن الاهتمام به وترك غيره ، كما هو دأب التابع للشيء .

و : ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أعم من المباشرين بأنفسهم للفساد ، ومن تاركي النهي عنه ، وقصره الزمخشري على الثاني ، لأنهم المقصود بالنعي قبله ، حيث قال : أراد بـ (الذين

ظلموا) تاركي النهي عن المنكرات ، أي : لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعقدوا هممهم بالشهوات ، واتبعوا ما عرفوا فيه التنعم والترف ، من حب الرئاسة والثروة ، وطلب أسباب العيش الهنيء ، ورفضوا ما وراء ذلك ، ونبذوه وراء ظهورهم .

﴿ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ أي : بإتباعهم المذكور ، أو كافرين . قال القاضي : كأنه أراد أن يبين ما كان السبب لاستئصال الأمم السالفة ، وهو فشو الظلم فيهم ، وإتباعهم للهوى ، وترك النهي عن المنكرات مع الكفر ، وقد أشير لذلك بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [117] .

(284/388)

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ أي : بأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر . و (بظلم) الباء فيه إما للملابسة ، وهو حال من الفاعل ، أي : استحال في الحكمة أن يهلك القرى ظالماً لها ، وتنكيره للتفخيم ، والإيذان بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم . أو للسببية . والظلم : الشرك ، أي : لا يهلك القرى بسبب إشراك أهلها وهم

مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ، ولا يضمون إلى شركهم فساداً آخر ، وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه تعالى . ولذا قيل : (يبقى الملك مع الشرك ، ولا يبقى مع الظلم) وهذا ، وإن كان صحيحاً ، إلا أن مقام دعوة الرسل إلى التوحيد ، ومحو الشرك أولاً ، ثم إلى الاستقامة في المعاملات ثانياً ؛ يقضي بحمل (الظلم) هنا على ما هو أعم من الشرك وأصناف المعاصي . وحمل الإصلاح على إصلاحه ، والإقلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهي عنه ، وبعضهم متجهين إلى الاتعاظ ، غير مصرين على ما هم عليه من الشرك ونحوه . كذا أشار له أبو السعود .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [118] .

﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي : مجتمعة على الحق والإيمان والصلاح ولكنه لم يشأ ذلك : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ أي : في الحق ، منهم المؤمن به ومنهم الكافر به .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [119] .

﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ أي : لكن ناساً رحمهم بهدايتهم إلى التوحيد ، وتوفيقهم للكمال ،

فاتفقوا في المذهب والمقصد ، ووافقوا في السيرة والطريقة ، قبلتهم الحق ، ودينهم التوحيد والمحبة .

(285/388)

وقوله تعالى : ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ في المشار إليه أقوال . أظهرها أنه للاختلاف الدال عليه (مختلفين) . فالضمير حينئذ للناس ، أي : لثمرة الاختلاف ، من كون فريق في الجنة ، وفريق في السعير ، خلقهم . واللام لام العاقبة والصيرورة ، لأن حكمة خلقهم ليس هذا ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] ، ولأنه لو خلقهم له لم يعذبهم عليه . أو الإشارة له وللرحمة المفهومة من (رحم) لتأويلها بـ (أن والفعل) أو كونها بمعنى الخير . وتكون الإشارة لاثنين ، كما في قوله : ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ [البقرة : من الآية 68] . والمراد لاختلاف الجميع ورحمة بعضهم خلقهم . وهذا معزو إلى ابن عباس رضي الله عنهما . وإن كان الضمير لـ (من) فالإشارة للرحمة بالتأويل السابق – كذا في " العناية " – .

وأشار القاشاني إلى بقاء اللام على معناها ، وهو التعليل بوجه آخر ، حيث قال :

وللاختلاف خلقهم ليستعد كل منهم لشأن وعمل ، ويختار بطبعه أمراً وصنعة ، ويستتب

بهم نظام العالم، ويستقيم أمر المعاش، فهم محامل لأمر الله، حمل عليهم حمول الأسباب والأرزاق وما يتعيش به الناس، ورتب بهم قوام الحياة الدنيا، كما أن الفئة المرحومة مظاهر لكماله، أظهر الله بهم صفاته وأفعاله، وجعلهم مستودع حكمه ومعارفه وأسراره.

وقوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ أي: أُحكمت وأبرمت وثبتت وهي هذه: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ والمراد من: ﴿ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ عصاتهما، والتعريف للعهد، والقرينة عقلية لما علم من الشرع أن العذاب مخصوص بهم، وأن الوعيد ليس إلا لهم، ولا حاجة إلى تقدير مضاف كما قيل. بـ: ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ حينئذ

(286/388)

ظاهر، وإن لم يحمل على العهد، وأبقي على إطلاقه، ففائدة التأكيد بيان أن ملء جهنم من الصنفين، لا من أحدهما فقط، ويكون الداخلوها منهما مسكوتاً عنه موكولاً إلى علمه تعالى، فاندفع ما أورد على ظاهرها من اقتضائه دخول جميع الفريقين جهنم، وبطلانه معلوم بالضرورة. أما على الأول فظاهر، وأما على الثاني فالمراد بلفظ (أجمعين) تعميم الأصناف، وذلك لا يقتضي دخول جميع الأفراد، كما إذا قلت: ملأت الجراب من جميع أصناف الطعام، فإنه لا يقتضي ذلك إلا أن يكون فيه شيء من كل صنف من الأصناف،

لا أن يكون فيه جميع أفراد الطعام ، كقولك : امتلأ المجلس من جميع أصناف الناس ، لا يقتضي أن يكون في المجلس جميع أفراد الناس ، بل يكون من كل فرد صنف ، وهو ظاهر . وعلى هذا تظهر فائدة لفظ (أجمعين) ؛ إذ فيه رد على اليهود وغيرهم ، ممن زعم أنه لا يدخل النار - كذا في " العناية " - .

ولما ذكر تعالى فيما تقدم من أنباء الأمم الماضية ، والقرون الخالية ، ما جرى لهم مع أنبيائهم ؛ أشار هنا إلى سر ذلك وحكمته ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [120] .

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أي : نقوي به قلبك لتصبر على أذى قومك ، وتتأسى بالرسل من قبلك ، وتعلم أن العاقبة لك كما كانت لهم . و (كلاًّ) مفعول (لنقصّ) و (من أنباء) بيان له . و (ما نثبت) بدل من (كلاًّ) أو خبر محذوف . ﴿ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ ﴾ أي : السورة ، أو الأنباء المقتصة : ﴿ الْحَقُّ ﴾ أي : القصص الحق الثابت : ﴿ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : عبرة لهم يحترزون بها عما أهلك الأمم ، وتذكير لما يجب أن يتدينوا به ، ويجعلوه طريقهم وسيرتهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ [121] .

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : بهذا الحق ، ولا يتعظون ولا يتذكرون : ﴿ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي : حالكم من إتباع الأهواء : ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ أي : على حالنا من إتباع ما جاءنا والاتعاظ والتذكر به .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [122] .

﴿ وَانتَظِرُوا ﴾ أي : العواقب : ﴿ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ أي : ما وعدنا به من الفتح ، وقد أنجز الله وعده . ونصر عبده ، فله الحمد وحده .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [123] .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : فلا تخفى عليه خافية مما يجري فيهما ، فلا تخفى عليه أعمالكم : ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ أي : أمر العباد في الآخرة ، فيجازيهم بأعمالهم . وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، وتهديد للكفار بالانتقام منهم : ﴿

فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ فإنه كافيك : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بالياء التحتية في قراء الجمهور ، مناسبة لقوله : ﴿ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ وفي قراءة بالتاء الفوقية على تغليب المخاطب ، أي : أنت وهم . أي : فيجازي كلاًّ بما يستحقه – والله أعلم – . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 132 . 148 ﴾

(288/388)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (96) ﴾

وخاتمة ذلك القصص هذه الإشارة إلى قصة موسى مع فرعون ، لتسجيل نهاية فرعون وملئه ، ونهاية قومه الذين ائتمروا بأمره . وتتضمن هذه الإشارة العابرة إيماءات كثيرة إلى وقائع القصة التي لم تذكر هنا ، كما تضم مشهداً من مشاهد القيامة الحية المتحركة . وهذا وذلك إلى تقرير مبدأ رئيسي من مبادئ الإسلام . مبدأ التبعة الفردية التي لا يسقطها اتباع الرؤساء والكبراء . .

ويبدأ المشهد المعروض هنا بإرسال موسى بالآيات مزوداً بقوة من الله وسلطان ، إلى فرعون ذي السلطان وكبراء قومه .

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه ﴾ . .

ويجمل السياق خطوات القصة كلها ليصل إلى نهايتها ، فإذا هم يتبعون أمر فرعون ، ويعصون أمر الله . على ما في أمر فرعون من حماقة وجهل وشطط :

﴿ فاتبعوا أمر فرعون . وما أمر فرعون برشيد ﴾ . . .

ولما كانوا تبعاً لفرعون في هذا الأمر ، يمشون خلفه ، ويتبعون خطواته الضالة بلا تدبر ولا تفكر ، ودون أن يكون لهم رأي ، مستهينين بأنفسهم ، متخلين عن تكريم الله لهم بالإرادة والعقل وحرية الاتجاه واختيار الطريق . . لما كانوا كذلك فإن السياق يقرر أن فرعون سيقدمهم يوم القيامة ويكونون له تبعاً :

﴿ يقدم قومه يوم القيامة ﴾ . .

وبينما نحن نسمع حكاية عن الماضي ووعداً عن المستقبل ، إذا المشهد ينقلب ، وإذا المستقبل ماض قد وقع ، وإذا فرعون قد قاد قومه إلى النار وانتهى :

﴿ فأوردهم النار ﴾ ! !

أوردهم كما يورد الراعي قطيع الغنم . ألم يكونوا قطيعاً يسير بدون تفكير ؟ ألم يتنازلوا عن أخص خصائص الآدمية وهي حرية الإرادة والاختيار ؟ فأوردهم النار . ويا بئساه من ورد لا يروي غلة ، ولا يشفي صدى ، إنما يشوي البطون والقلوب :

﴿ وبئس الورد المورود ! ﴾ .

وإذا ذلك كله . قيادة فرعون لهم ، وإيرادهم موردهم . . إذا ذلك كله حكاية تروى ،

ويُعلق عليها :

﴿ وأُتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة ﴾ . .

ويُسخر منها ويُتهكم عليها : ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ . .

فهذه النار هي الرفد والعطاء والمنة التي رفد بها فرعون قومه ! ! ! ألم يعد السحرة عطاء

جزيلاً ورفداً مرفوداً . . فها هو ذا رفده لمن اتبعه . . النار . . وبئس الورد المورود .

وبئس الرفد المرفود !

وذلك من بدائع التعبير والتصوير في هذا الكتاب العجيب . .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (100) ﴾

هذه خاتمة السورة .

تشتمل على تعليقات وتعقيبات متنوعة ، مبنية على ما سبق في سياق السورة . من

المقدمة ومن القصص . وهذه التعليقات والتعقيبات شديدة الاتصال بما سبق من سياق

السورة ، متكاملة معه في أداء أهدافها كذلك .

والتعقيب الأول في هذا الدرس تعقيب مباشر على القصص : ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك - وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إن أخذه أليم شديد ﴾ . .

والتعقيب الثاني يتخذ مما نزل بالقرى من عذاب موحياً بالخوف من عذاب الآخرة الذي يعرض في مشهد شاخص من مشاهد يوم القيامة : ﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة . ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد . فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك - إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض - إلا ما شاء ربك - عطاء غير مجذوذ ﴾ . .

يليه تعقيب آخر مستمد من عاقبة القرى ومن مشهد القيامة لتقرير أن المشركين الذين يواجههم محمد صلى الله عليه وسلم شأنهم شأن من قبلهم في الحالين . وإذا كان عذاب

الاستئصال لا يقع عليهم في الأرض ، فذلك لكلمة سبقت من ربك إلى أجل كما أجل العذاب لقوم موسى مع اختلافهم فيما جاءهم من كتاب . ولكن هؤلاء وهؤلاء سيوفون أعمالهم على وجه التأكيد . فاستقم أيها الرسول على طريقتك انت ومن تاب معك ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا وأشركوا ، وأقم الصلاة واصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين :

﴿ فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء . ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ، وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص . ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب وإن كلاًّ لما ليوفينهم ربك أعمالهم ، إنه بما يعملون خبير . فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ . .

ثم عودة إلى القرون الخالية التي لم يكن فيها إلا قليل من الذين ينهون عن الفساد في الأرض . أما الكثرة فكانت ماضية فيما هي فيه ، فاستحقت الهلاك . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون : ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض ! إلا قليلاً ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ . .

وكشف عن سنة الله في كون الناس مختلفين في مناهجهم واتجاهاتهم. ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة. ولكن إرادته اقتضت إعطاء البشر قدراً من الاختيار: ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك. ولذلك خلقهم، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾.

وفي النهاية يسجل السياق غرضاً من أغراض هذا القصص هو تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم، ويؤمر الرسول أن يلقي للمشركين كلمته الأخيرة، ويكلهم إلى ما ينتظرهم من غيب الله. وأن يعبد الله ويتوكل عليه، ويدع له أخذ الناس بما يعملون: ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك، وجاءك في هذه الحق، وموعظة وذكرى للمؤمنين. وقل للذين لا يؤمنون: اعملوا على مكانتكم إنا عاملون. وانتظروا إنا منتظرون. ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله، فاعبده وتوكل عليه، وما ربك بغافل عما تعملون ﴾..

﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك. منها قائم وحصيد. وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم؛ فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك، وما

زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ . .

ومصارع القوم معروضة ، ومشاهدهم تزحم النفس والخيال ؛ منهم الغارقون في لجة الطوفان الغامر ، ومنهم المأخوذون بالعاصفة المدمرة ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفت به وبداره الأرض ، ومنهم من يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار . وما حل بهم من قبل في الدنيا يخايل للأنظار . . في هذا الموضع وقد بلغ السياق من القلوب والمشاعر أعماقها بتلك المصارع والمشاهد . . هنا يأتي هذا التعقيب :

﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد ﴾ . .

﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ﴾ . . فما كان لك به من علم ، إنما هو الوحي ينبئك بهذا الغيب المطمور . وذلك بعض أغراض القصص في القرآن .

(292/388)

﴿ منها قائم ﴾ . . لا تزال آثاره تشهد بما بلغ أهله من القوة والعمران ، كبقايا عاد في الأحقاف وبقايا ثمود في الحجر . ومنها ﴿ حصيد ﴾ كالزرع المحصود . اجتث من فوق الأرض وتعرى وجهها منه ، كما حل بقوم نوح أو قوم لوط .

وما الأقوام؟ وما العمران؟ . . إن هي إلا حقول من الأناسي كحقول النبات . غرس منها يزكو وغرس منها خبيث! غرس منها ينمو وغرس منها يموت!

﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ .

.

فهم قد عطلوا مداركهم، وتولوا عن الهدى، وكذبوا بالآيات، واستهزأوا بالوعيد، فصاروا إلى ما صاروا إليه ظالمين لأنفسهم لا مظلومين.

﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك، وما زادوهم غير تتبيب ﴾ . .

وهذا غرض آخر من أغراض هذا القصص. فقد افتتحت السورة بإنذار الذين يدينون لغير الله سبحانه؛ وتكرر الإنذار مع كل رسول؛ وقيل لهم: إن هذه الأرباب المفتراة لا تعصم من الله . . فها هي ذي العاقبة تصدق النذر. فلا تغني عنهم آلهتهم شيئاً، ولا تدفع عنهم العذاب لما جاء أمر ربك، بل ما زادهم هؤلاء الآلهة إلا خسارة ودماراً. (ولفظ تتبيب أقوى ببنائه اللفظي وجرسه المشدد) ذلك أنهم اعتمدوا عليهم، فزادهم استهتاراً وتكذيباً . فزادهم الله نكالاً وتدميراً . فهذا معنى ﴿ ما زادوهم ﴾ فهم لا يملكون لهم ضراً كما أنهم لا يملكون لهم نفعاً . ولكن بسببهم كانت الخسارة المضاعفة والتدمير المضاعف والنكال الشديد . .

﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ﴾ . . .

كذلك الذي قصصناه عليك ، وبمثل هذا الدمار والنكال يأخذ ربك القرى حين يأخذها وهي ظالمة . . ظالمة : مشركة حين تدين لغير الله بالربوبية ، وظالمة لنفسها بالشرك والفساد في الأرض والإعراض عن دعوة التوحيد والصلاح . وقد ساد فيها الظلم وسيطر الظالمون .

﴿ إن أخذه أليم شديد ﴾ . .

(293/388)

بعد الإمهال والمتاع والابتلاء ، وبعد الإعذار بالرسل والبينات ، وبعد أن يسود الظلم في الأمة ويسيطر الظالمون . ويتبين أن دعاة المصلحين قلة منعزلة لا تأثير لها في حياة الجماعة الظالمة السادرة في الظلال . . ثم . . بعد أن تفاصل العصبة المؤمنة قومها السادرين في الظلال ؛ وتعتبر نفسها أمة وحدها لها دينها ولها ربها ولها قيادتها المؤمنة ولها ولاؤها الخاص فيما بينها . وتعلن الأمة المشركة من قومها بهذا كله ، وتدعها تلاقي مصيرها الذي يقدره الله لها . وفق سنته التي لا تتخلف على مدار الزمان .

ذلك الأخذ الأليم الشديد في الدنيا علامة على عذاب الآخرة ، يراها من يخافون عذاب

الآخرة ، أي الذين تفتحت بصائرهم ليدركوا أن الذي يأخذ القرى بظلمها في هذه الحياة سيأخذها بذنوبها في الآخرة ، فيخافوا هذا العذاب . . وهنا يعبر السياق بالقلب البشري من مشاهد الأرض إلى مشاهد القيامة على طريقة القرآن في وصل الرحلتين بلا فاصل في السياق :

﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة . ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقي وسعيد . فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾ .

.

﴿ أن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ﴾ . .

ففي ذلك الأخذ الأليم الشديد مشابه من عذاب الآخرة ، تذكر بهذا اليوم وتخيف . . وإن كان لا يراها إلا الذين يخافون الآخرة فتتفتح بصائرهم بهذه التقوى التي تجلو البصائر والقلوب . .

والذين لا يخافون الآخرة تظل قلوبهم صماء لا تتفتح للآيات ، ولا تحس بحكمة الخلق

والإعادة، ولا ترى إلا واقعها القريب في هذه الدنيا ، وحتى العبر التي تمر في هذه الحياة لا تثير فيها عظة ولا فهماً .

ثم يأخذ في وصف ذلك اليوم . .

﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ . .

وهنا يرتسم مشهد التجميع يشمل الخلق جميعاً ، على غير إرادة منهم ، إنما هو سوق الجميع سوقاً إلى ذلك المعرض المشهود ، والكل يحضر والكل ينتظر ما سوف يكون . .

﴿ يوم يأت لا تَكلم نفس إلا بإذنه ﴾ . .

فالصمت الهائل يغشى الجميع ، والرهبة الشاملة تخيم على المشهد ومن فيه . والكلام بإذن لا يجرؤ أحد على طلبه ، ولكن يؤذن لمن شاء الله فيخرج من صمته بإذنه . . ثم تبدأ عملية الفرز والتوزيع :

﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ . .

ومن خلال التعبير نشهد : ﴿ الذين شقوا ﴾ نشهدهم في النار مكروبي الأنفاس ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ من الحر والكتمة والضيق . ونشهد ﴿ الذين سعدوا ﴾ نشهدهم

في الجنة لهم فيها عطاء دائم غير مقطوع ولا ممنوع .

هؤلاء وأولئك خالدون حيث هم ﴿ ما دامت السماوات والأرض ﴾ . وهو تعبير يلقي في الذهن صفة الدوام والاستمرار . وللتعبيرات ظلال . وظل هذا التعبير هنا هو المقصود .

وقد علق السياق هذا الاستمرار بمشيئة الله في كلتا الحالتين . وكل قرار وكل سنة معلقة بمشيئة الله في النهاية . فمشيئة الله هي التي اقتضت السنة وليست مقيدة بها ولا محصورة فيها . إنما هي طليقة تبدل هذه السنة حين يشاء الله :

﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ . .

وزاد السياق في حالة الذين سعدوا ما يطمئنهم إلى أن مشيئة الله اقتضت أن يكون عطاؤه لهم غير مقطوع ، حتى على فرض تبديل إقامتهم في الجنة . وهو مطلق فرض يذكر لتقرير حرية المشيئة بعدما يوهم التقييد .

بعد هذا الاستطراد إلى المصير في الآخرة ، بمناسبة عرض مصائر الأقوام في الدنيا ، والمشابه بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وتصوير ما ينتظر المكذبين هنا أو هناك ، أو

هنا ثم هناك . . يعود السياق بما يستفاد من القصص ومن المشاهد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والقلة المؤمنة معه في مكة تسرية وتثبيتاً ؛ وإلى المكذبين من قومه بياناً وتحذيراً . فليس هناك شك في أن القوم يعبدون ما كان آباؤهم يعبدون - شأنهم شأن أصحاب ذلك القصص وأصحاب تلك المصائر ونصيبهم الذي يستحقونه سيوفونه . فإن كان قد أخر عنهم فقد أخر عذاب الاستئصال عن قوم موسى بعد اختلافهم في دينهم لأمر قد شاءه الله في إنظارهم .

ولكن قوم موسى وقوم محمد على السواء سيوفون ما يستحقون ، بعد الأجل ، وفي الموعد المحدود . ولم يؤخر عنهم العذاب لأنهم على الحق . فهم على الباطل الذي كان عليه آباؤهم بكل تأكيد :

﴿ فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء . ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل . وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص . ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم . وإنهم لفي شك منه مريب . وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم . . إنه بما يعملون خبير ﴾ . .

لا يتسرب إلى نفسك شك في فساد عبادة هؤلاء . والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والتحذير لقومه . وهذا الأسلوب أفعل في النفس أحياناً ، لأنه يوحي بأنها قضية موضوعية يبينها الله لرسوله ، وليست جدالاً مع أحد ، ولا خطاباً للمتلبسين بها ، إهمالاً لهم وقلة

انشغال بهم ! وعندئذٍ يكون لتلك الحقيقة الخالصة المجردة أثرها في اهتمامهم أكثر مما لو خوطبوا بها خطاباً مباشراً . .

﴿ فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء . ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ﴾ . .

ومصيرهم إذن كمصيرهم . . العذاب . . ولكنه يلفه كذلك في التعبير تمشياً مع الأسلوب :

﴿ وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ . .

(296/388)

ومعروف نصيبهم هذا من نصيب القوم قبلهم . وقد رأينا منه نماذج ومشاهد !

وقد لا يصيبهم عذاب الاستئصال في الدنيا كما لم يصب قوم موسى :

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ﴾ . .

وتفرقت كلمتهم واعتقاداتهم وعباداتهم ، ولكن كلمة سبقت من الله أن يكون حسابهم الكامل يوم القيامة :

﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم ﴾ . .

ولحكمة ما سبقت هذه الكلمة ، ولم يحل عذاب الاستئصال بهم ، لأن لهم كتاباً ، والذين لهم كتاب من اتباع الرسل كلهم مؤجلون إلى يوم القيامة ، لأن الكتاب دليل هداية باق ،

تستطيع الأجيال أن تتدبره كالجيل الذي أنزل فيه . والأمر ليس كذلك في الخوارق المادية التي لا يشهدها إلا جيل ، فإما أن يؤمن بها وإما أن لا يؤمن فيأخذه العذاب . . والتوراة والإنجيل كتابان متكاملان يظلان معروضين للأجيال حتى يجيء الكتاب الأخير ، مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل فيصبح هو الكتاب الأخير للناس جميعاً يدعى إليه الناس جميعاً ، ويحاسب على أساسه الناس جميعاً ، بما فيهم أهل التوراة وأهل الإنجيل . ﴿ وإنهم ﴾ . . أي قوم موسى . . ﴿ لفي شك منه مريب ﴾ . . من كتاب موسى ، لأنه لم يكتب إلا بعد أجيال ، وتفرقت فيه الروايات واضطربت ، فلا يقين فيه لمتبعيه .

وإذا كان العذاب قد أجل . . فإن الكل سيوفون أعمالهم خيرها وشرها . سيوفيهم بها العليم الخبير بها ولن تضيع :

﴿ وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم . إنه بما يعملون خبير ﴾ وفي التعبير توكيدات منوعة حتى لا يشك أحد في الجزاء والوفاء من جراء الإنظار والتأجيل .

وحتى لا يشك أحد في أن ما عليه القوم هو الباطل الذي لا شك في بطلانه ، وأنه الشرك الذي زاوله من قبل كل المشركين . .

ولقد كان لهذه التوكيدات ما يقتضيها من واقع الحركة في تلك الفترة . فقد وقف المشركون وقفتهم العنيدة منها ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم والقلة المؤمنة معه ، وتجمدت الدعوة على وجه التقريب . بينما عذاب الله الموعود مؤجل لم يقع بعد . والأذى ينزل بالعصبة المؤمنة ويمضي أعداؤها ناجين ! . . . إنها فترة تهتز فيها بعض القلوب . وحتى القلوب الثابتة تنالها الوحشة ، وتحتاج إلى مثل هذه التسرية وإلى مثل هذا التثبيت .

وتثبيت القلوب المؤمنة لا يكون بشيء كما يكون بتوكيد أن أعداءها هم أعداء الله ، وأنهم على الباطل الذي لا شك فيه ! كذلك لا يكون تثبيت القلوب المؤمنة بشيء كما يكون بجلاء حكمة الله في إمهال الظالمين ، وإرجاء الطغاة إلى يوم معلوم ، ينالون فيه جزاءهم ولا يفلتون !

وهكذا نلمح مقتضيات الحركة بهذه العقيدة في النصوص القرآنية ، ونرى كيف يخوض القرآن المعركة بالجماعة المسلمة ، وكيف يكشف لها معالم الطريق !

ذلك البيان مع هذا التوكيد يلقي في النفس أن سنة الله ماضية على استقامتها في خلقه وفي دينه وفي وعده وفي وعيده . وإذن فليستقم المؤمنون بدين الله والداعون له على طريقتهم كما أمروا لا يغلون في الدين ولا يزيدون فيه ، ولا يركنون إلى الظالمين مهما تكن قوتهم ، ولا يدينون لغير الله مهما طال عليهم الطريق . ثم يتزودون بزاد الطريق ، ويصبرون حتى تتحقق سنة الله عندما يريد .

﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا . إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين ، واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ . .

هذا الأمر للرسول صلى الله عليه و سلم ومن تاب معه :

(298/388)

﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ . . أحس عليه الصلاة والسلام برهبته وقوته حتى روي عنه أنه قال مشيراً إليه : " شيبتني هود . . . " فالاستقامة : الاعتدال والمضي على النهج دون انحراف . وهو في حاجة إلى اليقظة الدائمة ، والتدبر الدائم ، والتحري الدائم لحدود الطريق ، وضبط الطريق ، وضبط الانفعالات البشرية التي تميل الاتجاه قليلاً أو كثيراً . . ومن ثم فهي شغل دائم في كل حركة من حركات الحياة .

وإنه لمما يستحق الانتباه هنا أن النهي الذي أعقب الأمر بالاستقامة ، لم يكن نهياً عن القصور والتقصير ، إنما كان نهياً عن الطغيان والمجاوزة . . وذلك أن الأمر بالاستقامة وما يتبعه في الضمير من يقظة وتحرج قد ينتهي إلى الغلو والمبالغة التي تحول هذا الدين من يسر إلى

عسر .

والله يريد دينه كما أنزله ، ويريد الاستقامة على ما أمر دون إفراط ولا غلو ، فالإفراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته كالتفريط والتقصير . وهي التفاتة ذات قيمة كبيرة ، لإمساك النفوس على الصراط ، بلا انحراف إلى الغلو أو الإهمال على السواء . .

﴿ إنه بما تعملون بصير ﴾ . .

والبصر من البصيرة مناسب في هذا الموضع ، الذي تتحكم فيه البصيرة وحسن الإدراك والتقدير . .

فاستقم أيها الرسول كما أمرت . ومن تاب معك . . .

﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾

لا تستندوا ولا تطمئنوا إلى الذين ظلموا . إلى الجبارين الطغاة الظالمين ، أصحاب القوة في الأرض ، الذين يقهرون العباد بقوتهم ويعبّدونهم لغير الله من العبيد . . لا تركنوا إليهم فإن ركونكم إليهم يعني إقرارهم على هذا المنكر الأكبر الذي يزاولونه ، ومشاركتهم إثم ذلك المنكر الكبير .

﴿ فتمسكم النار ﴾ . .

جزاء هذا الانحراف .

﴿ وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾ . .

والاستقامة على الطريق في مثل هذه الفترة أمر شاق عسير يحتاج إلى زاد يعين . .

والله سبحانه يرشد رسوله صلى الله عليه وسلم ومن معه من القلة المؤمنة إلى زاد الطريق :

﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ﴾ . .

ولقد علم الله أن هذا هو الزاد الذي يبقى حين يفنى كل زاد ، والذي يقيم البنية الروحية ، ويمسك القلوب على الحق الشاق التكاليف . ذلك أنه يصل هذه القلوب بربها الرحيم الودود ، القريب المجيب ، وينسم عليها نسمة الأنس في وحشتها وعزلتها في تلك الجاهلية النكدة الكنود !

والآية هنا تذكر طرفي النهار وهما أوله وآخرة ، وزلفاً من الليل أي قريباً من الليل . وهذه تشمل أوقات الصلاة المفروضة دون تحديد عددها . والعدد محدد بالسنة ومواقيته كذلك .

والنص يعقب على الأمر بإقامة الصلاة أي أدائها كاملة مستوفاه بأن الحسنات يذهبن السيئات . وهو نص عام يشمل كل حسنة ، والصلاة من أعظم الحسنات ، فهي داخلة فيه

بالأولوية. لا أن الصلاة هي الحسنة التي تذهب السيئة بهذا التحديد كما ذهب بعض المفسرين

﴿ ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ . .

فالصلاة ذكر في أساسها ومن ثم ناسبها هذا التعقيب . .

والاستقامة في حاجة إلى الصبر. كما أن انتظار الأجل لتحقيق سنة الله في المكذبين يحتاج إلى الصبر . . ومن ثم كان التعقيب على الأمر بالاستقامة وعلى ما سبقه في السياق هو:

﴿ واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ . .

والاستقامة إحسان. وإقامة الصلاة في أوقاتها إحسان. والصبر على كيد التكذيب إحسان . . . والله لا يضيع أجر المحسنين . . .

ثم يعود السياق إلى تكملة التعليق والتعقيب على مصارع القرى والقرون. فيشير من طرف خفي إلى أنه لو كان في هذه القرون أولو بقية يستبقون لأنفسهم الخير عند الله ، فينهون عن الفساد في الأرض ، ويصدون الظالمين عن الظلم ، ما أخذ تلك القرى بعذاب الاستئصال الذي حل بهم ، فإن الله لا يأخذ القرى بالظلم إذا كان أهلها مصلحين ، أي إذا كان للمصلحين من أهلها قدرة يصدون بها الظلم والفساد ، إنما كان في هذه القرى قلة من المؤمنين لا نفوذ لهم ولا قوة ، فأنجاهم الله .

وكان فيها كثرة من المترفين وأتباعهم والخانعين لهم، فأهلك القرى بأهلها الظالمين:

﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض! إلا قليلاً ممن أنجينا منهم، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين. وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾..

وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم. فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله، في صورة من صوره، فيجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير. فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإن سنة الله تحق عليها، إما بهلاك الاستئصال. وإما بهلاك الانحلال.. والاختلال!

فأصحاب الدعوة إلى ربوبية الله وحده، وتطهير الأرض من الفساد الذي يصيبها بالدينونة لغيره، هم صمام الأمان للأمم والشعوب.. وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لإقرار ربوبية الله وحده، الواقفين للظلم والفساد بكل صوره.. إنهم لا يؤدون واجبهم لربهم ولدينهم فحسب، إنما هم يحولون بهذا دون أممهم وغضب الله، واستحقاق النكال والضياع..

والتعقيب الأخير عن اختلاف البشر إلى الهدى وإلى الضلال، وسنة الله المستقيمة في

اتجاهات خلقه إلى هذا أو ذاك :

﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم . وتمت كلمة ربك : لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ . .

لو شاء الله لخلق الناس كلهم على نسق واحد ، وباستعداد واحد . . نسخاً مكرورة لا تفاوت بينها ولا تنويع فيها . وهذه ليست طبيعة هذه الحياة المقدرة على هذه الأرض . وليست طبيعة هذا المخلوق البشري الذي استخلفه الله في الأرض .

(301/388)

ولقد شاء الله أن تتنوع استعدادات هذا المخلوق واتجاهاته . وأن يوهب القدرة على حرية الاتجاه . وأن يختار هو طريقه ، ويحمل تبعة الاختيار . ويجازى على اختياره للهدى أو للضلال . . هكذا اقتضت سنة الله وجرت مشيئته . فالذي يختار الهدى كالذي يختار الضلال سواء في أنه تصرف حسب سنة الله في خلقه ، ووفق مشيئته في أن يكون لهذا المخلوق أن يختار ، وأن يلقى جزاء منهجه الذي اختار .

شاء الله ألا يكون الناس أمة واحدة . فكان من مقتضى هذا أن يكونوا مختلفين . وأن يبلغ هذا الاختلاف أن يكون في أصول العقيدة إلا الذين أدركتهم رحمة الله الذين اهتدوا إلى

الحق والحق لا يتعدد فاتفقوا عليه .

وهذا لا ينفي أنهم مختلفون مع أهل الضلال .

ومن المقابل الذي ذكره النص :

﴿ وتمت كلمة ربك : لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ . .

يفهم أن الذين التقوا على الحق وأدركتهم رحمة الله لهم مصير آخر هو الجنة تمتلئ بهم كما تمتلئ جهنم بالضالين المختلفين مع أهل الحق ، والمختلفين فيما بينهم على صنوف الباطل ومناهجه الكثيرة !

والخاتمة الأخيرة . خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم عن حكمة سوق القصص إليه في خاصة نفسه للمؤمنين . فأما الذين لا يؤمنون فليلق إليهم كلمته الأخيرة ، وليفاصلهم مفاصلة حاسمة ، وليخل بينهم وبين ما ينتظرهم في غيب الله . ثم ليعبد الله ويتوكل عليه ، ويدع القوم لما يعملون . .

﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون : اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ، وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ . .

ويا لله للرسول صلى الله عليه وسلم لقد كان يجد من قومه ، ومن انحرافات النفوس ، ومن

أعباء الدعوة ، ما يحتاج معه إلى التسلية والتسرية والتثبيت من ربه وهو الصابر الثابت المطمئن إلى ربه :

(302/388)

﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ . .

﴿ وجاءك في هذه الحق ﴾ . .

أي في هذه السورة . . الحق من أمر الدعوة ، ومن قصص الرسل ، ومن سنن الله ، ومن تصديق البشرى والوعيد .

﴿ وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ . .

تعظهم بما سلف في القرون ، وتذكرهم بسنن الله وأوامره ونواهيه .

فأما الذين لا يؤمنون بعد ذلك فلا موعظة لهم ولا ذكرى . وإنما الكلمة الفاصلة ، والمفاصلة الحاسمة :

﴿ وقل للذين لا يؤمنون : اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون ﴾ . .

كما قال أخ لك ممن سبق قصصهم في هذه السورة لقومه ثم تركهم لمصيرهم يلاقونه . . وما ينتظرونه غيب من غيب الله :

﴿ ولله غيب السماوات والأرض ﴾ . .

والأمر إليه . أمرك وأمر المؤمنين ، وأمر الذين لا يؤمنون ، وأمر هذا الخلق كله ما كان في غيبه وما سيكون .

﴿ فاعبده ﴾ . .

فهو الجدير وحده بالعبادة والدينونة .

﴿ وتوكل عليه ﴾ . .

فهو الولي وحده والنصير . وهو العليم بما تعملون من خير وشر . ولن يضيع جزاء أحد :

﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ . .

وهكذا تختم السورة التي بدئت بالتوحيد في العبادة ، والتوبة والإنابة والرجعة إلى الله في النهاية . بمثل ما بدئت به من عبادة الله وحده والتوجه إليه وحده . والرجعة إليه في نهاية المطاف . وذلك بعد طول التطواف في آفاق الكون وأغوار النفس وأطوار القرون . .

وهكذا يلتقي جمال التنسيق الفني في البدء والختام ، والتناسق بين القصص والسياق ، بكمال النظرة والفكرة والاتجاه في هذا القرآن .

ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً . .

وبعد . فإن المتتبع لسياق هذه السورة كلها بل المتتبع للقرآن المكي كله يجد أن هناك خطاً أصيلاً ثابتاً عريضاً عميقاً ، هو الذي ترتكز عليه ؛ وهو المحور الذي تدور حوله ؛ وإليه ترجع سائر خطوطها ، وإليه تشد جيمع خيوطها كذلك . . إنه خط العقيدة الذي يرتكز إليه هذا الدين كله . . وإنه محور العقيدة الذي يدور عليه هذا المنهج الرباني لحياة البشرية جملة وتفصيلاً . .

وسنحتاج في التعقيب الإجمالي على هذه السورة أن نقف وقفات إجمالية كذلك على ذلك الخط وعلى هذا المحور كما يتجلى في سياق السورة وبعضها مما يكون قد سبق لنا الوقوف عنده شيئاً ما . ولكننا في هذا التعقيب الإجمالي سنحتاج إلى الإلمام به ، ربطاً لأجزاء هذا التعقيب الأخير :

إن الحقيقة الأولى البارزة في سياق السورة كله . . سواء في مقدمتها التي تعرض مضمون الكتاب الذي أرسل به محمد صلى الله عليه وسلم أو في القصص الذي يعرض خط الحركة بالعقيدة الإسلامية على مدى التاريخ البشري . أو في التعقيب الختامي الذي يوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مواجهة المشركين بالنتائج النهائية المستخلصة من هذا القصص ومن مضمون الكتاب الذي جاءهم به في النهاية . .

إن الحقيقة الأولى البارزة في سياق السورة كله . . هي التركيز على الأمر بعبادة الله وحده ،

والنهي عن عبادة غيره . . وتقرير أن هذا هو الدين كله . . وإقامة الوعد والوعيد ، والحساب والجزاء ، والثواب والعقاب ، على هذه القاعدة الواحدة الشاملة العريضة . . كما أسلفنا في تقديم السورة وفي مواضع متعددة من تفسيرها . .

فيبقى هنا أن نجلي أولاً طريقة المنهج القرآني في تقرير هذه الحقيقة ، وقيمة هذه الطريقة :

إن حقيقة توحيد العبادة لله ترد في صيغتين هكذا :

(304/388)

﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . . . ﴾ ﴿ ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير . . . ﴾ وواضح اختلاف الصيغتين بين الأمر والنهي . . فهل مدلولهما واحد ؟ .

إن مدلول الصيغة الأولى : الأمر بعبادة الله ، وتقرير أن ليس هناك إله يعبد سواه . . ومدلول الصيغة الثانية : النهي عن عبادة غير الله . .

والمدلول الثاني هو مقتضى المدلول الأول ومفهومه . . ولكن الأول " منطوق " والآخر " مفهوم " . . ولقد اقتضت حكمة الله في بيان هذه الحقيقة الكبيرة عدم الاكتفاء بالمفهوم ، في النهي عن عبادة غير الله . وتقرير هذا النهي عن طريق منطوق مستقل . وإن كان مفهوماً ومتضمناً في الأمر الأول !

إن هذا يعطينا إيحاء عميقاً بقيمة تلك الحقيقة الكبيرة ، ووزنها في ميزان الله سبحانه ، بحيث تستحق ألاّ توكل إلى المفهوم المتضمن في الأمر بعبادة الله وتقرير أن لا إله يعبد سواه ؛ وأن يرد النهي عن عبادة سواه في منطوق مستقل يتضمن النهي بالنص المباشر لا بالمفهوم المتضمن ! ولا بالمقتضى اللازم !

كذلك تعطينا طريقة المنهج القرآني في تقرير تلك الحقيقة بشطريها .

. عبادة الله . وعدم عبادة سواه . . أن النفس البشرية في حاجة إلى النص القاطع على شطري هذه الحقيقة سواء . وعدم الاكتفاء معها بالأمر بعبادة الله وتقرير أن لا إله يعبد سواه . وإضافة النهي الصريح عن عبادة سواه إلى المفهوم الضمني الذي يتضمنه الأمر بعبادته وحده . . ذلك أن الناس يجيء عليهم زمان لا يجحدون الله ، ولا يتركون عبادته ، ولكنهم مع هذا يعبدون معه غيره ؛ فيقعون في الشرك وهم يحسبون أنهم مسلمون !

ومن ثم جاء التعبير القرآني عن حقيقة التوحيد بالأمر وبالنهي معاً ؛ بحيث يؤكد أحدهما الآخر ، التوكيد الذي لا تبقى معه ثغرة ينفذ منها الشرك في صورة من صوره الكثيرة . .

وقد تكرر مثل هذا في التعبير في مواضع شتى ؛ هذه نماذج منها من هذه السورة ومن سواها :

﴿ ألر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير : ألا تعبدوا إلا الله ، إنني لكم منه نذير وبشير ﴾ [هود : 21]

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه : إني لكم نذير مبين : ألا تعبدوا إلا الله ، إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ [هود : 25 26]

﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترون ﴾ [هود : 50]

﴿ وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين . إنما هو إله واحد . فإياي فارهبون ﴾ [النحل : 51]

﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً . ولكن كان حنيفاً مسلماً . وما كان من المشركين ﴾ [آل عمران : 67]

﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً . وما أنا من المشركين ﴾ [الأنعام : 67]

وهو منهج مطرد في التعبير القرآني عن حقيقة التوحيد ، له دلالته من غير شك . سواء في تجلية قيمة هذه الحقيقة وضخامتها التي تستدعي ألا توكل في أي جانب من جوانبها إلى المفهومات الضمنية والمقتضيات اللازمة ، وإنما ينص نصاً منطوقاً على كل جانب فيها . أو

في دلالة هذه الطريقة على علم الله سبحانه بطبيعة الكائن الإنساني، وحاجته في تقرير هذه الحقيقة الكبيرة، وصيانتها في حسه وتصوره من أية شبهة أو غبش، إلى التعبير الدقيق عنها على ذلك النحو، الذي يتجلى فيه القصد والعمد.. ولله الحكمة البالغة.. وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير.

ثم نقف أمام مدلول مصطلح "العبادة" الوارد في السورة وفي القرآن كله لندرك ما وراء ذلك التركيز على الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة غيره. وما وراء هذه العناية في التعبير عن شطري هذه الحقيقة في نص منطوق، وعدم الاكتفاء بالدلالة الضمنية المفهومة.

لقد جلينا من قبل في أثناء التعقيب على قصة هود وقومه في هذه السورة ما هو مدلول مصطلح "العبادة" الذي استحق كل هذا التركيز وكل هذه العناية؛ كما استحق كل ذلك الجهد من رهط الرسول الكرام، وكل تلك العذابات والآلام التي عاناها الدعاة إلى عبادة الله وحده على ممر الأيام.. فالآن نضيف إلى ذلك التعقيب بعض اللمحات:

إن إطلاق مصطلح "العبادات" على الشعائر وعلى ما يكون بين العبد والرب من تعامل،

في مقابل إطلاق مصطلح : " المعاملات " على ما يكون بين الناس بعضهم وبعض من تعامل . . إن هذا جاء متأخراً عن عصر نزول القرآن الكريم ؛ ولم يكن هذا التقسيم معروفاً في العهد الأول .

ولقد كتبنا من قبل في كتاب " خصائص التصور الإسلامي ومقوماته " شيئاً عن تاريخ هذه المسألة نقتطف منه هذه الفقرات :

" إن تقسيم النشاط الإنساني إلى " عبادات " و " معاملات " مسألة جاءت متأخرة عن التأليف في مادة " الفقه " . ومع أنه كان المقصود به في أول الأمر مجرد التقسيم " الفني " الذي هو طابع التاليف العلمي ، إلا أنه مع الأسف أنشأ فيما بعد آثاراً سيئة في التصور ، تبعها بعد فترة آثار سيئة في الحياة الإسلامية كلها ؛ إذ جعل يترسب في تصورات الناس أن صفة " العبادة " إنما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط ، الذي يتناوله " فقه العبادات " . وهو انحراف بالتصور الإسلامي لا شك فيه . فلا جرم يتبعه انحراف في الحياة كلها في المجتمع الإسلامي .

" ليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى " العبادة " أو لا يطلب فيه تحقيق هذا الوصف . والمنهج الإسلامي كله غايته تحقيق معنى العبادة ، أولاً وأخيراً . "

" وليس هناك من هدف في المنهج الإسلامي لنظام الحكم ، ونظام الاقتصاد ، والتشريعات

الجنائية ، والتشريعات المدنية ، وتشريعات الأسرة . وسائر التشريعات التي يتضمنها هذا المنهج . .

" ليس هناك من هدف إلا تحقيق معنى " العبادة " في حياة الإنسان . . والنشاط الإنساني لا يكون متصفاً بهذا الوصف ، محققاً لهذه الغاية التي يحدد القرآن أنها هي غاية الوجود الإنساني إلا حين يتم هذا النشاط وفق المنهج الرباني ؛ فيتم بذلك إفراد الله سبحانه بالألوهية ؛ والاعتراف له وحده بالعبودية . . وإلا فهو خروج عن العبادة لأنه خروج عن العبودية . أي خروج عن غاية الوجود الإنساني كما أرادها الله . أي خروج عن دين الله ! "

" وأنواع النشاط التي أطلق عليها الفقهاء اسم " العبادات " وخصوها بهذه الصفة على غير مفهوم التصور الإسلامي حين تراجع في مواضعها في القرآن ، تتبين حقيقة بارزة لا يمكن إغفالها .

وهي انها لم تجئ مفردة ولا معزولة عن أنواع النشاط الأخرى التي أطلق عليها الفقهاء اسم " المعاملات " . . إنما جاءت هذه وتلك مرتبطة في السياق القرآني ، ومرتبطة في المنهج التوجيهي . باعتبار هذه كتلك شطراً من منهج " العبادة " التي هي غاية الوجود الإنساني ،

وتحقيقاً لمعنى العبودية، ومعنى إفراد الله سبحانه بالألوهية.

" إن ذلك التقسيم مع مرور الزمن جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا " مسلمين " إذا هم أدوا نشاط " العبادات " وفق أحكام الإسلام بينما يزاولون كل نشاط " المعاملات " وفق منهج آخر.. لا يتلقونه من الله ولكن من إله آخر.. ! هو الذي يشرع لهم في شؤون الحياة ما لم يأذن به الله! "

" وهذا وهم كبير. فالإسلام وحدة لا تنفصم. وكل من يفصمه إلى شطرين على هذا النحو فإنما يخرج من هذه الوحدة، أو بتعبير آخر: يخرج من هذا الدين.

" وهذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يلقي باله إليها كل مسلم يريد أن يحقق إسلامه؛ ويريد في الوقت ذاته أن يحقق غاية وجوده الإنساني ".

فالآن نضيف إلى هذه الفقرات ما قلناه من قبل هذا الجزء من أن العربي الذي خوطب بهذا القرآن أول مرة لم يكن يحصر مدلول هذا اللفظ وهو يؤمر به في مجرد أداء الشعائر التعبدية.. بل أنه يوم خوطب به أول مرة في مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية! إنما كان يفهم منه عندما يخاطب به أن المطلوب منه هو " الدينونة " لله وحده في أمره كله،

وخلع الدينونة لغير الله من عنقه في أمره كله . ولقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم " العبادة " نصاً بأنها " الاتباع " وليست هي الشعائر التعبدية ، وهو يقول لعدي ابن حاتم عن اليهود والنصارى ، واتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً : " بلى . إنهم أحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم " . إنما أطلقت لفظة " العبادة " على " الشعائر التعبدية " باعتبارها صورة من صور الدينونة لله في شأن من الشؤون . صورة لا تستغرق مدلول العبادة ، بل إنها تجيء بالتبعية لا بالإصالة ! . .

ولقد قلنا من قبل في هذا الجزء " إن الواقع أنه لو كانت حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات ؛ وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان ! إنما الذي استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد ، وردهم إلى الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن ، وفي منهج حياتهم كله للدنيا وللآخرة سواء .

"إن توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد القوامة، وتوحيد الحاكمية، وتوحيد مصدر الشريعة، وتوحيد منهج الحياة، وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة . . إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل، وأن تبذل في سبيله كل هذه الجهود، وأن تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار الزمان . . لا لأن الله سبحانه في حاجة إليه. فالله سبحانه غني عن العالمين. ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا ترتفع ولا تصبح لائقة بالإنسان، إلا بهذا التوحيد الذي لا حد لتأثيره في الحياة البشرية في كل جوانبها على السواء " . .

وقد وعدنا هناك أن نزيد هذا الأمر بياناً في هذا التعقيب الختامي الأخير.

فالآن نبين إجمالاً قيمة حقيقة التوحيد في الحياة البشرية في كل جوانبها على السواء:

* ننظر ابتداء إلى أثر حقيقة التوحيد على هذا النحو الشامل في كيان الكائن الإنساني نفسه من ناحية وجوده الذاتي، وحاجته الفطرية، وتركيبه الإنساني . . أثرها في تصوره . . وأثر هذا التصور في كيانه:

"إن هذا التصور إذ يتناول الأمور على هذا النحو الشامل بكل معاني الشمول يخاطب الكينونة البشرية بكل جوانبها، وبكل أشواقها، وبكل حاجاتها، وبكل اتجاهاتها، ويردها إلى جهة واحدة تتعامل معها، جهة تطلب عندها كل شيء، وتتوجه إليها بكل شيء، جهة واحدة ترجوها وتخشاها، وتتقي غضبها وتبتغي رضاها، جهة واحدة

تملك لها كل شيء ، لأنها خالقة كل شيء ، ومالكة كل شيء ، ومدبرة كل شيء .

"كذلك يرد الكينونة الإنسانية إلى مصدر واحد ، تتلقى منه تصوراتها ومفاهيمها ، وقيمها وموازينها ، وتجد عنده إجابة عن كل سؤال يجيش فيها وهي تواجه الكون والحياة والإنسان ، بكل ما يثيره كل منها من علامات الاستفهام .

(310/388)

"عندئذ تتجمع هذه الكينونة . . تتجمع شعوراً وسلوكاً ، وتصوراً واستجابة . في شأن العقيدة والمنهج . وشأن الاستمداد والتلقي . وشأن الحياة والموت . وشأن السعي والحركة . وشأن الصحة والرزق . وشأن الدنيا والآخرة . فلا تتفرق مزقاً ؛ ولا تتجه إلى شتى السبل والآفاق ؛ ولا تسلك شتى الطرق على غير اتفاق ! "

" والكينونة الإنسانية حين تتجمع على هذا النحو ، تصبح في خير حالاتها . لأنها تكون حينئذ في حالة " الوحدة " التي هي طابع الحقيقة في كل مجالاتها . . فالوحدة هي حقيقة الخالق سبحانه والوحدة هي حقيقة هذا الكون على تنوع المظاهر والأشكال والأحوال والوحدة هي حقيقة الحياة والأحياء على تنوع الأنواع والأجناس والوحدة هي حقيقة الإنسان على تنوع الأفراد والاستعدادات والوحدة هي غاية الوجود الإنساني وهي

العبادة على تنوع مجالات العبادة وهيئاتها وهكذا حيثما بحث الإنسان عن الحقيقة في هذا الوجود .

.

" وحين تكون الكينونة الإنسانية في الوضع الذي يطابق " الحقيقة " في كل مجالاتها ، تكون في أوج قوتها الذاتية ؛ وفي أوج تناسقها كذلك مع " حقيقة " هذا الكون الذي تعيش فيه ، وتتعامل معه ؛ ومع " حقيقة " كل شيء في هذا الوجود ، مما تتأثر به وتؤثر فيه . . وهذا التناسق هو الذي يتيح لها أن تنشئ أعظم الآثار ، وأن تؤدي أعظم الأدوار .

" وحينما بلغت هذه الحقيقة أوجها في المجموعة المختارة من المسلمين الأوائل ، صنع الله بها في الأرض أدواراً عميقة الآثار في كيان الوجود الإنساني ، وفي كيان التاريخ الإنساني . .

" وحين توجد هذه الحقيقة مرة أخرى وهي لا بد كائنة بإذن الله سيصنع الله بها الكثير ، مهما يكن في طريقها من العراقيل . ذلك أن وجود هذه الحقيقة في ذاته ينشئ قوة لا تقاوم ؛ لأنها من صميم قوة هذا الكون ؛ وفي اتجاه قوة المبدع لهذا الكون أيضاً .

" . . . إن هذه الحقيقة ليست أهميتها فقط في تصحيح التصور الإيماني . وإن كان هذا التصحيح في ذاته غاية ضخمة يقوم عليها بناء الحياة كله بل إن أهميتها كذلك في حسن تذوق الحياة ، وبلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق . فقيمة الحياة الإنسانية ذاتها ترتفع حين تصبح كلها عبادة لله ؛ وحين يصبح كل نشاط فيها صغر أم كبر جزءاً من هذه العبادة ؛ أو كل العبادة ، متى نظرنا إلى المعنى الكبير الكامن فيه . وهو إفراد الله سبحانه بالألوهية والإقرار له وحده بالعبودية . . هذا المقام الذي لا يرتفع الإنسان إلى ما هو أعلى منه ؛ ولا يبلغ كماله الإنساني إلا في تحقيقه . وهو المقام الذي بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى مقاماته التي ارتقى إليها . مقام تلقي الوحي من الله . ومقام الإسراء أيضاً :

﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ [الفرقان : 1] .

﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله . لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ [الإسراء : 1] .

* وننتقل إلى قيمة أخرى من قيم توحيد العبادة بمعنى الدينونة لله وحده وآثارها في الحياة الإنسانية :

إن الدينونة لله تحرر البشر من الدينونة لغيره ؛ وتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . وبذلك تحقق للإنسان كرامته وحريته الحقيقية ، هذه الحرية وتلك اللتان يستحيل

ضمانهما في ظل أي نظام آخر غير النظام الإسلامي يدين فيه الناس بعضهم لبعض بالعبودية ، في صورة من صورها الكثيرة .

. . سواء عبودية الاعتقاد ، أو عبودية الشعائر ، أو عبودية الشرائع . . فكلها عبودية ؛ وبعضها مثل بعض ؛ تخضع الرقاب لغير الله ؛ بإخضاعها للتلقي في أي شأن من شؤون الحياة لغير الله .

والناس لا يملكون أن يعيشوا غير مدينين ! لا بد للناس من دينونة . والذين لا يدينون لله وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير الله ؛ في كل جانب من جوانب الحياة !

(312/388)

إنهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حد ولا ضابط . ومن ثم يفقدون خاصتهم الآدمية ويندرجون في عالم البهيمة :

﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم ﴾ [محمد : 12] .

ولا يخسر الإنسان شيئاً كأن يخسر آدميته ، ويندرج في عالم البهيمة ، وهذا هو الذي يقع حتماً بمجرد التملص من الدينونة لله وحده ، والوقوع في الدينونة للهوى والشهوة .

ثم هم يقعون فرائس لألوان من العبودية للعبيد . . يقعون في شر ألوان العبودية للحكام

والرؤساء الذين يصرفونهم وفق شرائع من عند أنفسهم ، لا ضابط لها ولا هدف إلا حماية مصالح المشرعين أنفسهم سواء تمثل هؤلاء المشرعون في فرد حاكم ، أو في طبقة حاكمة ، أو في جنس حاكم فالنظرة على المستوى الإنساني الشامل تكشف عن هذه الظاهرة في كل حكم بشري لا يستمد من الله وحده ، ولا يتقيد بشريعة الله لا يتعداها . .

ولكن العبودية للعبيد لا تقف عند حدود العبودية للحكام والرؤساء والمشرعين . . فهذه هي الصورة الصارخة ، ولكنها ليست هي كل شيء ! . . إن العبودية للعباد تتمثل في صور أخرى خفية ؛ ولكنها قد تكون أقوى وأعمق وأقسى من هذه الصورة ! ونضرب مثالاً لهذا تلك العبودية لصانعي المودات والأزياء مثلاً ! أي سلطان لهؤلاء على قطيع كبير جداً من البشر ؟ . . كل الذين يسمونهم متحضرين . . ! إن الزي المفروض من آلهة الأزياء سواء في الملابس أو العربات أو المباني أو المناظر أو الحفلات . . الخ . . ليمثل عبودية صارمة لا سبيل لجاهلي ولا لجاهلية أن يفلت منها ؛ أو يفكر في الخروج عنها ! ولو دان الناس في هذه الجاهلية " الحضارية ! " لله بعض ما يدينون لصانعي الأزياء لكانوا عباداً متبتلين ! . . فماذا تكون العبودية إن لم تكن هي هذه؟ وماذا تكون الحاكمية والربوبية إن لم تكن هي حاكمية وربوبية صانعي الأزياء أيضاً ؟ !

وإن الإنسان ليبصر أحياناً بالمرأة المسكينة ، وهي تلبس ما يكشف عن سوآتها ، وهو في الوقت ذاته لا يناسب شكلها ولا تكوينها ، وتضع من الأصباغ ما يتركها شائهة أو مثاراً للسخرية ! ولكن الألوهية القاهرة لأرباب الأزياء والمودات تقهرها وتذلها لهذه المهانة التي لا تملك لها رداً ، ولا تقوى على رفض الدينونة لها ، لأن المجتمع كله من حولها يدين لها .

فكيف تكون الدينونة إن لم تكن هي هذه ؟ وكيف تكون الحاكمية والربوبية إن لم تكن هي تلك ؟ !

وليس هذا إلا مثلاً واحداً للعبودية المذلة حين لا يدين الناس لله وحده ؛ وحين يدينون لغيره من العبيد .

. وليست حاكمية الرؤساء والحكام وحدها هي الصورة الكريهة المذلة لحاكمية البشر للبشر ، ولعبودية البشر للبشر !

وهذا يقودنا إلى قيمة توحيد العبادة والدينونة في صيانة أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم ، التي تصبح كلها ولا عاصم لها عندما يدين العباد للعباد ، في صورة من صور الدينونة . .

سواء في صورة حاكمية التشريع ، أو في صورة حاكمية الأعراف والتقاليد ، أو في حاكمية الاعتقاد والتصور . .

إن الدينونة لغير الله في الاعتقاد والتصور معناها الوقوع في براثن الأوهام والأساطير

والخرافات التي لا تنتهي ؛ والتي تمثل الجاهليات الوثنية المختلفة صوراً منها ؛ وتمثل أوهام العوام المختلفة صوراً منها ؛ وتقدم فيها النذور والأضاحي من الأموال وأحيانا من الأولاد ! تحت وطأة العقيدة الفاسدة والتصور المنحرف ؛ ويعيش الناس معها في رعب من الأرباب الوهمية المختلفة ، ومن السدنة والكهنة المتصلين بهذه الأرباب ! ومن السحرة المتصلين بالجن والعفاريت ! ومن المشايخ والقديسين أصحاب الأسرار ! ومن . . ومن . . من الأوهام التي ما يزال الناس منها في رعب وفي خوف وفي تقرب وفي رجاء ، حتى تتقطع أعناقهم وتتوزع جهودهم ، وتتبدد طاقاتهم في مثل هذا الهراء !

(314/388)

وقد مثلنا لتكاليف الدينونة لغير الله في الأعراف والتقاليد بأرباب الأزياء والمودات ! فينبغي أن نعلم كم من الأموال والجهود تضيع إلى جانب الأعراض والأخلاق في سبيل هذه الأرباب !

إن البيت ذا الدخل المتوسط ينفق على الدهون والعطور والأصباغ ؛ وعلى تصفيف الشعر وكيه ؛ وعلى الأقمشة التي تصنع منها الأزياء المتقلبة عاماً بعد عام ، وما يتبعها من الأحذية المناسبة والحلي المتناسقة مع الزي والشعر والحذاء ! . . . إلى آخر ما تقضي به

تلك الأرباب النكدة . . إن البيت ذا الدخل المتوسط ينفق نصف دخله ونصف جهده لملاحقة أهواء تلك الأرباب المتقلبة التي لا تثبت على حال . ومن ورائها اليهود أصحاب رؤوس الأموال الموظفة في الصناعات الخاصة بدنيا تلك الأرباب ! ولا يملك الرجل ولا المرأة وهما في هذا الكد الناصب أن يتوقفا لحظة عن تلبية ما تقتضيه تلك الدينونة النكدة من تضحيات في الجهد والمال والعرض والخلق على السواء !

وأخيراً تجيء تكاليف العبودية لحاكمية التشريع البشرية . . وما من أضحية يقدمها عابد الله لله ، إلا ويقدم الذين يدينون لغير الله أضعافاً للأرباب الحاكمة ! من الأموال والأنفس والأعراض . .

وتقام أصنام من " الوطن " ومن " القوم " ومن " الجنس " ومن " الطبقة " ومن " الإنتاج " . . . ومن غيرها من شتى الأصنام والأرباب . .

وتدق عليها الطبول ؛ وتنصب لها الرايات ؛ ويدعى عباد الأصنام إلى بذل النفوس والأموال لها بغير تردد . . وإلا فالتردد هو الخيانة ، وهو العار . . وحتى حين يتعارض العِرض .

مع متطلبات هذه الأصنام ، فإن العرض هو الذي يضحى ؛ ويكون هذا هو الشرف الذي يراق على جوانبه الدم ! كما تقول الأبواق المنصوبة حول الأصنام ، ومن ورائها أولئك الأرباب من الحكام !

إن كل التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ؛ ليعبد الله وحده في الأرض ؛ وليتحرر البشر من عبادة الطواغيت والأصنام ، ولترتفع الحياة الإنسانية إلى الأفق الكريم الذي أراده الله للإنسان . . إن كل هذه التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ليبذل مثلها وأكثر من يدينون لغير الله ! والذين يخشون العذاب والألم والاستشهاد وخسارة الأنفس والأولاد والأموال إذا هم جاهدوا في سبيل الله ، عليهم أن يتأملوا ماذا تكلفهم الدينونة لغير الله في الأنفس والأموال والأولاد ، وفوقها الأخلاق والأعراض . . إن تكاليف الجهاد في سبيل الله في وجه طواغيت الأرض كلها لن تكلفهم ما تكلفهم الدينونة لغير الله ؛ وفوق ذلك كله الذل والدنس والعار !

وأخيراً فإن توحيد العبادة والدينونة لله وحده ، ورفض العبادة والدينونة لغيره من خلقه ؛ ذو قيمة كبيرة في صيانة الجهد البشري من أن ينفق في تأليه الأرباب الزائفة . كي يوجه بجملته إلى عمارة الأرض ، وترقيتها ، وترقية الحياة فيها .

وهناك ظاهرة واضحة متكررة أشرنا إليها فيما سبق في هذا الجزء . . وهي أنه كلما قام عبد من عبيد الله ، ليقيم من نفسه طاغوتاً يعبّد الناس لشخصه دون الله . . احتاج هذا

الطاغوت كي يعبد (أي يطاع ويتبع) إلى أن يسخر كل القوى والطاقات ؛ أولا : لحماية شخصه . وثانياً : لتأليه ذاته . واحتاج إلى حواشٍ وذيول وأجهزة وأبواق تسبح بحمده ، وترتل ذكره ، وتنفخ في صورته " العبدية " الهزيلة لتتضخم وتشغل مكان " الألوهية " العظيمة ! وألا تكف لحظة واحدة عن النفخ في تلك الصورة العبدية الهزيلة ! وإطلاق الترانيم والتراتيل حولها . وحشد الجموع بشتى الوسائل للتسبيح باسمها ، وإقامة طقوس العبادة لها . . . !

وهو جهد ناصب لا يفرغ أبداً . لأن الصورة العبدية الهزيلة ما تني تنكمش وتهزل وتتضاءل كلما سكن من حولها النفخ والطبل والزمر والبخور والتسابيح والتراتيل . وما تني تحتاج كرة أخرى إلى ذلك الجهد الناصب من جديد !

(316/388)

وفي هذا الجهد الناصب تصرف طاقات وأموال وأرواح أحياناً وأعراض ! لو أنفق بعضها في عمارة الأرض ، والإنتاج المثمر ، لترقية الحياة البشرية وإغنائها ، لعاد على البشرية بالخير الوفير . . ولكن هذه الطاقات والأموال والأرواح أحياناً والأعراض لا تنفق في هذا السبيل الخير المثمر ما دام الناس لا يدينون لله وحده ؛ وإنما يدينون للطواغيت من دونه .

ومن هذه اللحظة يتكشف مدى خسارة البشرية في الطاقات والأموال والعمارة والإنتاج من جراء تنكبها عن الدينونه لله وحده ؛ وعبادة غيره من دونه . . وذلك فوق خسارتها في الأرواح والأعراض ، والقيم والأخلاق . وفوق الذل القهر والدنس والعار !

وليس هذا في نظام أرضي دون نظام ، وإن اختلفت الأوضاع واختلفت ألوان التضحيات .

ولقد حدث أن الذين فسقوا عن الدينونة لله وحده ، فأتاحوا لنفر منهم أن يحكموهم بغير شريعته ، قد وقعوا في النهاية في شقوة العبودية لغيره . العبودية التي تأكل إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم ، مهما اختلفت أشكال الأنظمة التي تحكمهم ، والتي ظنوا في بعضها أنها تكفل لهم الإنسانية والحرية والكرامة .

لقد هربت أوربا من الله في أثناء هروبها من الكنيسة الطاغية الباغية باسم الدين الزائف وثارت على الله سبحانه في أثناء ثورتها على تلك الكنيسة التي أهدرت كل القيم الإنسانية في عنفوان سطوتها الغاشمة ! ثم ظن الناس أنهم يجدون إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم ومصالحهم كذلك في ظل الأنظمة الفردية (الديمقراطية) وعلقوا كل آمالهم على الحريات

والضمانات التي تكفلها لهم الدساتير الوضعية، والأوضاع النيابية البرلمانية، والحريات الصحفية، والضمانات القضائية والتشريعية، وحكم الأغلبية المنتجة. . . إلى آخر هذه الهالات التي أحيطت بها تلك الأنظمة. . ثم ماذا كانت العاقبة؟ كانت العاقبة هي طغيان "الرأسمالية" ذلك الطغيان الذي أحال كل تلك الضمانات، وكل تلك التشكيلات، إلى مجرد لافتات، أو إلى مجرد خيالات! ووقعت الأكثرية الساحقة في عبوديه ذليلة للأقلية الطاغية التي تملك رأس المال، فتملك معه الأغلبية البرلمانية! والدساتير الوضعية! والحريات الصحيفة! وسائر الضمانات التي ظنها الناس هناك كفيلة بضمان إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم، في معزل عن الله سبحانه!!!

ثم هرب فريق من الناس هناك من الأنظمة الفردية التي يطغى فيها "رأس المال" و "الطبقة" إلى الأنظمة الجماعية! فماذا فعلوا؟ لقد استبدلوا بالدينونة لطبقة "الرأسماليين" الدينونة لطبقة "الصعاليك"! أو استبدلوا بالدينونة لأصحاب رؤوس الأموال والشركات الدينونة للدولة التي تملك المال إلى جانب السلطان! فتصبح أخطر من طبقة الرأسماليين!

وفي كل حالة، وفي كل وضع، وفي كل نظام، دان البشر فيه للبشر، دفعوا من أموالهم ومن أرواحهم الضريبة الفادحة. دفعوها للأرباب المتنوعة في كل حال.

إنه لا بد من عبودية ! فإن لا تكن لله وحده تكن لغير الله . . والعبودية لله وحده تطلق الناس أحراراً كراماً شرفاء أعلياء . . والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم . ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية .

من أجل ذلك كله تنال قضية الألوهية والعبودية كل تلك العناية في رسالات الله سبحانه وفي كتبه . . وهذه السورة نموذج من تلك العناية . . فهي قضية لا تتعلق بعبدة الأصنام والأوثان في الجاهليات الساذجة البعيدة . ولكنها تتعلق بالإنسان كله ، في كل زمان وفي كل مكان ؛ وتتعلق بالجاهليات كلها . . جاهليات ما قبل التاريخ ، وجاهلية القرن العشرين . وكل جاهلية تقوم على أساس من عبادة العباد للعباد .

والخلاصة التي ينتهي إليها القول في هذه القضية : أنه يتجلى بوضوح من التقريرات القرآنية بجملتها وهذه السورة نموذج منها أن قضية الدينونة والاتباع والحاكمية التي يعبر عنها في هذه السورة بالعبادة هي قضية عقيدة وإيمان وإسلام ؛ وليست قضية فقه أو سياسة أو نظام ! إنها قضية عقيدة تقوم أو لا تقوم .

فالقضية إيمان يوجد أو لا يوجد . وقضية إسلام يتحقق أو لا يتحقق . . ثم هي بعد بعد ذلك لا قبله قضية منهج للحياة الواقعية يتمثل في شريعة ونظام وأحكام ؛ وفي أوضاع وتجمعات تتحقق فيها الشريعة والنظام . وتنفذ فيها الأحكام .

وكذلك فإن قضية " العبادة " ليست قضية شعائر ؛ وإنما هي قضية دينونة واتباع ونظام وشريعة وفقه وأحكام وأوضاع في واقع الحياة . . وأنها من أجل أنها كذلك استحقت كل هذه العناية في المنهج الرباني المتمثل في هذا الدين . . واستحقت كل هذه الرسل والرسالات . واستحقت كل هذه العذابات والآلام والتضحيات .

والآن نجيء إلى تتابع هذا القصص في السورة ؛ ودلالته على الخط الحركي للعقيدة الإسلامية في تاريخ البشرية :

(319/388)

لقد بينا من قبل في التعقيب على قصة نوح أن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية على يدي آدم عليه السلام أبي البشر الأول ، ثم على يدي نوح عليه السلام أبي البشر الثاني . . ثم بعد ذلك على يدي كل رسول . . وأن الإسلام يعني توحيد الألوهيه من ناحية الاعتقاد والتصور والتوجه بالعبادة والشعائر ، وتوحيد الربوبية من ناحية الدينونة والاتباع والطاعة والخضوع : أي توحيد القوامة والحاكمية والتوجيه والتشريع .

ثم بينا كذلك أن الجاهلية سواء كانت جاهلية الاعتقاد والتصور والعبادة والشعائر ! أو جاهلية الدينونة والاتباع والطاعة والخضوع أو هما معاً كانت تطرؤ على البشرية بعد

معرفة الإسلام على أيدي الرسل عليهم صلوات الله وسلامه وكانت تفسد عقائدهم وتصوراتهم، كما تفسد حياتهم وأوضاعهم؛ بالدينونة لغير الله سبحانه سواء كانت هذه الدينونة لطوطم أو حجر أو شجر أو نجم أو كوكب، أو روح أو أرواح شتى؛ أو كانت هذه الدينونة لبشر من البشر: كاهن أم ساحر أم حاكم.. فكلها سواء في دلالتها على الانحراف عن التوحيد إلى الشرك، والخروج من الإسلام إلى الجاهلية.

ومن هذا التتابع التاريخي الذي يقصه الله سبحانه في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يتبين خطأ المنهج الذي يتبعه علماء الدين المقارن؛ وخطأ النتائج التي يصلون إليها عن طريقه..

(320/388)

خطأ المنهج لأنه يتبع خط الجاهليات التي عرفتها البشرية، ويهمل خط التوحيد الذي جاء به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وهم حتى في تتبعهم لخط الجاهليات لا يرجعون إلا لما حفظته آثار العهود الجاهلية التي يحوم عليها التاريخ ذلك المولود الحدث الذي لا يعرف من تاريخ البشرية إلا القليل؛ ولا يعرف هذا القليل إلا عن سبيل الظن والترجيح! وحتى حين يصلون إلى أثر من آثار التوحيد الذي جاءت به الرسالات رأساً في إحدى الجاهليات

التاريخية في صورة توحيد مشوه كتوحيد أخناتون مثلاً في الديانة المصرية القديمة ؛ فإنهم يتعمدون إغفال أثر رسالة التوحيد ولو على سبيل الاحتمال وقد جاء أخناتون في مصر بعد عهد يوسف عليهم السلام وتبشيره بالتوحيد كما جاء في القرآن الكريم حكاية عن قوله لصاحبي السجن في سورة يوسف :

﴿ إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [يوسف : 37 40]

وهم إنما يفعلون ذلك ، لأن المنهج كله إنما قام ابتداء على أساس العداء والرفض للمنهج الديني ، بسبب ما ثار بين الكنيسة الأوربية والبحث العلمي في كل صوره في فترة من فترات التاريخ . فبدأ المنهج وفي عزم أصحابه أن يصلوا إلى ما يكذب مزاعم الكنيسة من أساسها ، للوصول إلى تحطيم الكنيسة ذاتها . ومن أجل هذا جاء منهجاً منحرفاً منذ البدء ، لأنه يتعمد الوصول سلفاً إلى نتائج معينة ، قبل البدء في البحث !

وحتى حين هدأت حدة العداء للكنيسة بعد تحطيم سيطرتها العلمية والسياسية والاقتصادية الغاشمة فإن المنهج استمر في طريقة . لأنه لم يستطيع أن يتخلص من أساسه الذي قام عليه ، والتقاليد التي تراكمت على هذا الاساس ، حتى صارت من أصول المنهج !

أما خطأ النتائج فهو ضرورة حتمية لخطأ المنهج من أساسه . هذا الخطأ الذي طبع نتائج المنهج كلها بهذا الطابع . .

على أنه أياً كان المنهج وأياَ كانت النتائج التي يصل إليها ؛ فإن تقريراته مخالفة أساسية للتقريرات الإلهية كما يعرضها القرآن الكريم . . وإذا جاز لغير مسلم أن يأخذ بنتائج تخالف مخالفة صريحة قول الله سبحانه في مسألة من المسائل ؛ فإنه لا يجوز لباحث يقدم بحثه للناس على أنه " مسلم " أن يأخذ بتلك النتائج . ذلك أن التقريرات القرآنية في مسألة الإسلام والجاهلية ، وسبق الإسلام للجاهلية في التاريخ البشري ، وسبق التوحيد للتعدد والتثنية . . قاطعة ، وغير قابلة للتأويل . فهي مما يقال عنه : إنه معلوم من الدين بالضرورة . وعلى من يأخذ بنتائج علم الأديان المقارنة في هذا الأمر ، أن يختار بين قول الله سبحانه وقول علماء الأديان .

أو بتعبير آخر : أن يختار بين الإسلام وغير الإسلام ! لأن قول الله في هذه القضية منطوق وصريح ، وليس ضمنياً ولا مفهوماً !

وعلى أية حال فإن هذا ليس موضوعنا الذي نستهدفه في هذا التعقيب الأخير . . إنما نستهدف هنا رؤية الخط الحركي للعقيدة الإسلامية في التاريخ البشري ؛ والإسلام والجاهلية يتعاوران البشرية ؛ والشيطان يستغل الضعف البشري وطبيعة التكوين لهذا المخلوق المزدوج الطبيعة والاتجاه ، ويحتال الناس عن الإسلام بعد أن يعرفوه ، إلى الجاهلية ؛ فإذا بلغت هذه الجاهلية مداها بعث الله للناس رسولاً يردهم إلى الإسلام . ويخرجهم من الجاهلية . وأول ما يخرجهم منه هو الدينونة لغير الله سبحانه من الأرباب المتفرقة . . وأول ما يردهم إليه هو الدينونة لله وحده في أمرهم كله ، لا في الشعائر التعبدية وحدها ، ولا في الاعتقاد القلبي وحده .

إن هذه الرؤية تفيدنا في تقدير موقف البشرية اليوم ، وفي تحديد طبيعة الدعوة الإسلامية كذلك . .

إن البشرية اليوم بجملتها تزاول رجعية شاملة إلى الجاهلية التي أخرجها منها آخر رسول

محمد صلى الله عليه وسلم وهي تتمثل في صور شتى :

بعضها يتمثل في إلحاد بالله سبحانه ، وإنكار لوجوده . . فهي جاهلية اعتقاد وتصور ، كجاهلية الشيوعيين .

وبعضها يتمثل في اعتراف مشوه بوجود الله سبحانه ، وانحراف في الشعائر التعبدية وفي الدينونة والاتباع والطاعة ، كجاهلية الوثنين من الهنود وغيرهم . . وكجاهلية اليهود والنصارى كذلك .

وبعضها يتمثل في اعتراف صحيح بوجود الله سبحانه ، وأداء للشعائر التعبدية . مع انحراف خطير في تصور دلالة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ومع شرك كامل في الدينونة والاتباع والطاعة . وذلك كجاهلية من يسمون أنفسهم " مسلمين " ويظنون أنهم أسلموا واكتسبوا صفة الإسلام وحقوقه بمجرد نطقهم بالشهادتين وأدائهم للشعائر التعبدية ؛ مع سوء فهمهم لمعنى الشهادتين ؛ ومع استسلامهم ودينونتهم لغير الله من العبيد !

وكلها جاهلية . وكلها كفر بالله كالأولين . أو شرك بالله كالآخرين . .

إن رؤية واقع البشرية على هذا النحو الواضح ؛ تؤكد لنا أن البشرية اليوم بجملتها قد ارتدت إلى جاهلية شاملة ، وأنها تعاني رجعية نكدة إلى الجاهلية التي أنقذها منها الإسلام مرات متعددة ، كان آخرها الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذا بدوره يحدد طبيعة الدور الأساسي لطلائع البعث الإسلامي ، والمهمة الأساسية التي عليها أن تقوم بها للبشرية ؛ ونقطة البدء الحاسمة في هذه المهمة .

إن على هذه الطلائع أن تبدأ في دعوة البشرية من جديد إلى الدخول في الإسلام كرة أخرة ، والخروج من هذه الجاهلية النكدة التي ارتدت إليها . على أن تحدد للبشرية مدلول الإسلام الأساسي : وهو الاعتقاد بألوهية الله وحده ، وتقديم الشعائر لله وحده والدينونة والاتباع والطاعة والخضوع في أمور الحياة كلها لله وحده . . وأنه بغير هذه المدلولات كلها لا يتم الدخول في الإسلام ؛ ولا تحتسب للناس صفة المسلمين ؛ ولا تكون لهم تلك الحقوق التي يرتبها الإسلام في أنفسهم وأموالهم كذلك .

وأن تخلف أحد هذه المدلولات كتخلفها جميعاً ، يخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية ، ويصمهم بالكفر أو بالشرك قطعاً . .

إنها دورة جديدة من دورات الجاهلية التي تعقب الإسلام . فيجب أن تواجهها دورة من دورات الإسلام الذي يواجه الجاهلية ، ليرد الناس إلى الله مرة أخرى ، ويخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . .

ولا بد أن يصل الأمر إلى ذلك المستوى من الحسم والوضوح في نفوس العصبة المسلمة التي تعاني مواجهة الجاهلية الشاملة في هذه الفترة النكدة من حياة البشرية . . فإنه بدون هذا الحسم وهذا الوضوح تعجز طلائع البعث الإسلامي عن أداء واجبها في هذه الفترة الحرجة من تاريخ البشرية ؛ وتتأرجح أمام المجتمع الجاهلي وهي تحسبه مجتمعاً مسلماً وتفقد تحديد أهدافها الحقيقية ، بفقدانها لتحديد نقطة البدء من حيث تقف البشرية فعلاً ، لا من حيث تزعم ! والمسافة بعيدة بين الزعم والواقع . . بعيدة جداً . .

ونقف الوقفة الأخيرة في هذا التعقيب الأخير أمام موقف الرسل الموحد من أقوامهم الذين أرسلوا إليهم . واختلاف هذا الموقف عند البدء وعند النهاية ؛ كما يعرضه قصص الرسل في هذه السورة :

لقد أرسل كل رسول إلى قومه . وعند بدء الدعوة كان الرسول واحداً من قومه هؤلاء . يدعوهم إلى الإسلام دعوة الأخ لإخوته ؛ ويريد لهم ما يريد الأخ لإخوته من الخير الذي هداه الله إليه ؛ والذي يجد في نفسه بينة من ربه عليه .

هذا كان موقف كل رسول من قومه عند نقطة البدء . . ولكن هذا لم يكن موقف أي

رسول عند نقطة الختام!

لقد استجابت للرسول طائفة من قومه فآمنوا بما أرسل به إليهم.. عبدوا الله وحده كما طلب إليهم، وخلعوا من أعناقهم ربقة الدينونة لأي من خلقه.. وبذلك صاروا مسلمين.. صاروا "أمة مسلمة".. ولم تستجب للرسول طائفة أخرى من قومه. كفروا بما جاءهم به؛ وظلوا في دينونتهم لغير الله من خلقه؛ وبقوا في جاهليتهم لم يخرجوا منها إلى الإسلام.. ولذلك صاروا "أمة مشركة"..

لقد انقسم القوم الواحد تجاه دعوة الرسول إلى أمتين اثنتين: أمة مسلمة وأخرى مشركة ولم يعد القوم الواحد أمة واحدة كما كانوا قبل الرسالة. مع أنهم قوم واحد من ناحية الجنس والأرومة. إلا أن آصرة الجنس والأرومة، وآصرة الأرض والمصالح المشتركة.. لم تعد هي التي تحكم العلاقات بينهم كما كانوا قبل الرسالة. لقد ظهرت مع الرسالة آصرة أخرى تجمع القوم الواحد أو تفرقه.. تلك هي آصرة العقيدة والمنهج والدينونه.. وقد فرقت هذه الآصرة بين القوم الواحد، فجعلته أمتين مختلفتين لا تلتقيان، ولا تتعايشان!

ذلك أنه بعد بروز هذه المفارقة بين عقيدة كل من الأمتين؛ فاصل الرسولُ والأمة المسلمة

التي معه قومهم على أساس العقيدة والمنهج والدينونة .

فاصلوا الأمة المشركة التي كانت قبل الرسالة هي قومهم وهي أمتهم وهي أصلهم . . لقد افترق المنهجان ، فاختلفت الجنسيتان . وأصبحت الأمتان الناشئتان من القوم الواحد لا تلتقيان ولا تتعايشان !

وعندما فاصل المسلمون قومهم على العقيدة والمنهج والدينونة فصل الله بينهما ؛ فأهلك الأمة المشركة ، ونجى الأمة المسلمة . . واطردت هذه القاعدة على مدار التاريخ كما رأينا في السورة . .

والأمر الذي ينبغي لطلائع البعث الإسلامي في كل مكان أن تكون على يقين منه : أن الله سبحانه لم يفصل بين المسلمين وأعدائهم من قومهم ، إلا بعد أن فاصل المسلمون أعداءهم ؛ وأعلنوا مفارقتهم لما هم عليه من الشرك ؛ وعالنوهم بأنهم يدينون لله وحده ، ولا يدينون لأربابهم الزائفة ؛ ولا يتبعون الطواغيت المتسلطة ؛ ولا يشاركون في الحياة ولا في المجتمع الذي تحكمه هذه الطواغيت بشرائع لم يأذن بها الله . سواء تعلقت بالاعتقاد ، أو بالشعائر ، أو بالشرائع .

إن يد الله سبحانه لم تتدخل لتدمر على الظالمين ، إلا بعد أن فاصلهم المسلمون . . وما دام المسلمون لم يفاصلوا قومهم ، ولم يتبرأوا منهم ، ولم يعالنوهم بافتراق دينهم عن دينهم ، ومنهجهم عن منهجهم ، وطريقهم عن طريقهم ، لم تتدخل يد الله سبحانه للفصل بينهم وبينهم ، ولتحقيق وعد الله بنصر المؤمنين والتدمير على الظالمين . .

وهذه القاعدة المطردة هي التي ينبغي لطلائع البعث الإسلامي أن تدركها ؛ وأن ترتب حركتها على أساسها :

إن الخطوة الأولى تبدأ دعوة للناس بالدخول في الإسلام ؛ والدينونة لله وحده بلا شريك ؛ ونبذ الدينونة لأحد من خلقه في صورة من صور الدينونة ثم ينقسم القوم الواحد قسمين ، ويقف المؤمنون الموحدون الذين يدينون لله وحده صفاً - أو أمة - ويقف المشركون الذين يدينون لأحد من خلق الله صفاً آخر . . ثم يفاصل المؤمنون المشركين . . ثم يحق وعد الله بنصر المؤمنين والتدمير على المشركين . . كما وقع باطراد على مدار التاريخ البشري .

ولقد تطول فترة الدعوة قبل المفاصلة العملية . ولكن المفاصلة العقيدية الشعورية يجب أن تتم منذ اللحظة الأولى .

ولقد يبطئ الفصل بين الأمتين الناشئتين من القوم الواحد ؛ وتكثر التضحيات والعذابات والآلام على جيل من أجيال الدعاة أو أكثر . . ولكن وعد الله بالفصل يجب أن يكون في قلوب العصبة المؤمنة أصدق من الواقع الظاهر في جيل أو أجيال . فهو لا شك آت . ولن

يخلف الله وعده الذي جرت به سنته على مدار التاريخ البشري .

ورؤية هذه السنة على هذا النحو من الحسم والوضوح ضرورية كذلك للحركة الإسلامية في مواجهة الجاهلية البشرية الشاملة . فهي سنة جارية غير مقيدة بزمان ولا مكان . . وما دامت طلائع البعث الإسلامي تواجه البشرية اليوم في طور من أطوار الجاهلية المتكررة ؛ وتواجهها بذات العقيدة التي كان الرسل عليهم صلوات الله وسلامه يواجهونها بها كلما ارتدت وانتكست إلى مثل هذه الجاهلية .

(327/388)

فإن للعصبة المسلمة أن تمضي في طريقها ، مستوضحة نقطة البدء ونقطة الختام ، وما بينهما من فترة الدعوة كذلك . مستيقنة أن سنة الله جارية مجراها ، وأن العاقبة للتقوى .

وأخيراً ، فإنه من خلال هذه الوقفات أمام القصص القرآني في هذه السورة تتبين لنا طبيعة منهج هذا الدين ، كما يتمثل في القرآن الكريم . . إنها طبيعة حركية تواجه الواقع البشري بهذا القرآن مواجهة واقعية عملية . .

لقد كان هذا القصص يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة . والقلة المؤمنة معه محصورة بين شعابها ، والدعوة الإسلامية مجمدة فيها ، والطريق شاق طويل لا يكاد

المسلمون يرون له نهاية! فكان هذا القصص يكشف لهم عن نهاية الطريق؛ ويريهم معالمه في مراحله جميعاً؛ ويأخذ بأيديهم وينقل خطاهم في هذا الطريق؛ وقد بات لاحباً موصولاً بموكب الدعوة الكريم على مدار التاريخ البشري؛ وبات بهذا الركب الكريم مأنوساً مألوفاً لا موحشاً ولا مخوفاً!.. إنهم زُمرة من موكب موصول في طريق معروف؛ وليسوا مجموعة شاردة في تيه مقطوع! وإنهم ليمضون من نقطة البدء إلى نقطة الختام وفق سنة جارية؛ ولا يمضون هكذا جزافاً يتبعون الصدفة العابرة!

هكذا كان القرآن يتحرك في الصف المسلم؛ ويحرك هذا الوصف حركة مرسومة مأمونة..

وهكذا يمكن اليوم وغداً أن يتحرك القرآن في طلائع البعث الإسلامي، ويحركها كذلك في طريق الدعوة المرسوم..

إن هذه الطلائع في حاجة إلى هذا القرآن تستلهمه وتستوحيه. تستلهمه في منهج الحركة وخطواتها ومراحلها؛ وتستوحيه في ما يصادف هذه الخطوات والمراحل من استجابات؛ وما ينتظرها من عاقبة في نهاية الطريق.

والقرآن بهذه الصورة لا يعود مجرد كلام يتلى للبركة. ولكنه ينتفض حياً يتنزل اللحظة على الجماعة المسلمة المتحركة، لتتحرك به، وتتابع توجيهاته، وتتوقع موعود الله فيه.

وهذا ما نعنيه بأن هذا القرآن لا يتفتح عن أسراره إلا للعصبة المسلمة التي تتحرك به، لتحقيق مدلوله في عالم الواقع. لا لمن يقرأونه لمجرد التبرك! ولا لمن يقرأونه لمجرد الدراسة الفنية أو العلمية، ولا لمن يدرسونه لمجرد تتبع الأداء البياني فيه!

إن هؤلاء جميعاً لن يدركوا من هذا القرآن شيئاً يذكر. فإن هذا القرآن لم يتنزل ليكون مادة دراسة على هذا النحو؛ إنما تنزل ليكون مادة حركة وتوجيه.

إن الذين يواجهون الطاغية بالإسلام الحنيف؛ والذين يجاهدون البشرية الضالة لردها إلى الإسلام من جديد؛ والذين يكافحون الطاغوت في الأرض ليخرجوا الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده..

إن هؤلاء وحدهم الذين يفقهون هذا القرآن؛ لأنهم يعيشون في مثل الجو الذي نزل فيه: ويحاولون المحاولة التي كان يحاولها من تنزل عليهم أول مرة؛ ويتذوقون في أثناء الحركة والجهاد ما تعنيه نصوصه لأنهم يجدون هذه المعاني ممثلة في أحداث ووقائع.. وهذا وحده جزاء على كل ما يصيبهم من عذابات وآلام. أأقول: جزاء؟! كلا. والله. إنه لفضل من الله كبير.. ﴿قل: بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ والحمد لله العظيم رب الفضل العظيم.. انتهى انتهى. اهـ ﴿الظلال حـ 4 صـ 1948.1924﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ما دامت السموات والأرض ﴾ أي ما دامت سموات الأرواح والقلوب وأرض النفوس البشرية ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ من الأشقياء ، وذلك أن أهل الشقاء ضربان : شقي وأشقى . فالشقي بالمعاصي سعيد بالتوحيد فيخلص من النار آخراً ، والأشقى وهو الكافر يبقى فيها مخلداً ، ومن أهل الجنة سعيد يبقى خالداً فيها ، وأسعد وهم الذين يترقون إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر . وهناك مقام الوحدة الذي لا انقطاع له كما قال : ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ ﴿ لموفوهم نصيبهم ﴾ الذي قدر لهم في الأزل من الشقاء . ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ باستكمال الشقاء لقضي بينهم بالهلاك عاجلاً ﴿ لفي شك منه ﴾ إشارة إلى الضلال . وقوله : ﴿ مريب ﴾ إشارة إلى الإضلال . ﴿ وإن كلاًّ ﴾ أي كل واحد من الضالين ومن المضلين ﴿ فاستقم ﴾ أمر التكوين ولذلك قال : ﴿ كما أمرت ﴾ أي في الأزل ، وفي قوله : ﴿ ومن تاب معك ﴾ إشارة إلى أن النفوس جبلت على الاعوجاج فيحتاج إلى الرجوع من الطريق المنحرف إلى الصراط المستقيم إلى من

اختص بالاستقامة بسبب أمر التكوين كالنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ يعني أن الأعمال الصالحة في الأوقات المعدودة تزيل ظلمات الأوقات المصروفة في قضاء الحوائج النفسانية الضرورية ، وذلك أن تعلق الروح النوري العلوي بالجسد الظلماني السفلي موجب لخسران الروح كقوله : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر ﴾ [العصر : 1] إلا أن يتداركه أنوار العمل الصالح فيرقيه من حضيض البشرية إلى ذروة الروحانية بل إلى الوحدة الربانية ، فتندفع عنه ظلمة الجسد السفلي مثاله : إلقاء الحبة في الأرض فإنه من خسران الحبة إلى أن يتداركه الماء وسائر الأسباب فيربيها إلى أن تصير الحبة الواحدة إلى سبعمائة . وما زاد ذلك الذي ذكرنا من التدارك عظة للذاكرين الذين يريدون أن يذكروا الله في جميع الأحوال فإنهم إذا حافظوا على هذه الأوقات فكأنهم حافظوا على جميعها لأن الإنسان خلق ضعيفاً ليس يقدر

على صرف جميع الأوقات في محض العبودية والعبادة . ﴿ فلولا كان من القرون ﴾ صورة التحضيض وحقيقته السؤال ليجاب بأنه لم يكن كذلك لأنك فاعل مختار ، فعال لما تريد ، خلقت خلقاً للإقرار وخلقت خلقاً للإنكار ولا اعتراض لأحد عليك يؤديه قوله : ﴿ ولو

شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ طالبة للحق متوجهة إليه ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ منهم من يطلب الدنيا ، ومنهم من يطلب العقبى ، ومنهم من يطلب المولى وهم المشار إليهم بقوله : ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ ﴿ ولذلك ﴾ أي لطلب الله ﴿ خلقهم ﴾ بحسن الاستعداد ولأن رحمته سبقت غضبه ، ولكن وقوع فريق في طريق القهر ضروري في الوجود وهو قوله : ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ جرى به القلم للضرورة وما نثبت به فؤادك التثبيت منه والتشكيك منه ، بيده مفاتيح أبواب اللطف والقهر ﴿ إنا عاملون ﴾ في طلب الحق من باب لطفه ﴿ وانتظروا ﴾ نتائج أعمالكم ﴿ إنا منتظرون ﴾ ثمرات أعمالنا ﴿ ولله غيب السموات والأرض ﴾ أي ما غاب عنكم مما أودع من لطفه في سموات القلوب ومن قهره في أرض النفوس ﴿ وإليه يرجع ﴾ أمر أهل السعادة والشقاء ومظاهر اللطف والقهر ﴿ فاعبده ﴾ أيها الطالب للحق فإنك مظهر اللطف ﴿ وتوكل عليه ﴾ في الطلب لا على طلبك فإنك إن طلبته بك لم تجده ﴿ وما ربك بغافل ﴾ في الأزل ﴿ عما تعملون ﴾ إلى الأبد والله حسبي . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 60 . 61﴾

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ ﴾ كامل الشقاوة ﴿ و ﴾ منهم ﴿ سعيد ﴾ [هود : 105] كامل السعادة ﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ فَفِى النار ﴾ [هود : 106] أي نار الحرمان عن المراد وآلام ما اكتسبوه من الآثام وهو عذاب النفس ﴿ خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض إِلاَّ مَا إِنَّ رَبَّكَ ﴾ فيخرجون من ذلك إلى ما هو أشد منه من نيران القلب وذلك بالسخط والاذلال ونيران الروح وذلك بالحجب واللعن والقهر ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود : 107] لا حجر عليه سبحانه ﴿ وَأَمَّا الذين سُعِدُواْ فَفِى الجنة ﴾ أي جنة حصول المرادات واللذات وهي جنة النفس ﴿ خالدين فِيهَا دَامَتِ السماوات والأرض إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ [هود : 108] فيخرجون من ذلك إلى ما هو أعلى وأعلى من جنات القلب في مقام تجليات الصفات وجنات الروح في مقام الشهود وهناك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وقد يحمل التنوين على النوعية ويؤول الاستثناء بخروج الشقي من النار بالترقي من مقامه إلى الجنة بزكاء نفسه عما حال بينه وبينها ﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ أي في القيام بحقوق الحق والخلق وذلك بالمحافظة على حقوقه تعالى والتعظيم لأمره والتسديد لخلقه مع شهود الكثرة في الوحدة والوحدة في الكثرة من غير إخلال ما بشرط من شرائط التعظيم ﴿ وَمَن تَابَ ﴾ عن انيته وذنب وجوده ﴿ معك ﴾ من المؤمنين الموحدين إلى

مقام البقاء بعد الفناء ، وقيل : إن الاستقامة المأمور بها صلى الله عليه وسلم فوق الاستقامة المأمور بها من معه عليه الصلاة والسلام والعطف لا يقتضي أكثر من المشاركة في مطلق الفعل كما يرشد إليه قوله تعالى مطلق الفعل كما يرشد إليه قوله تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم ﴾ [آل عمران : 18] على قول ، ومن هنا قال الجنيد قدس سره : الاستقامة مع الخوف والرجاء حال العابدين .

والاستقامة مع الهيبة والرجاء حال المقربين .

والاستقامة مع الغيبة عن رؤية الاستقامة حال العارفين ﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ ﴾ [هود : 112] ولا تخرجوا عما حدّ لكم من الشريعة فإن الخروج عنها زندقة ﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ ﴾ أي لا تميلوا أدنى ميل ﴿ إِلَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ وهي النفوس المظلمة المائلة إلى الشرور في أصل الخلقة كما قيل :

الظلم من شيم النفوس فان تجد . . .

ذا عفة فلعلة لم يظلم

وروي ذلك عن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر رضي الله تعالى عنهم ، وقيل :

المعنى لا تقتدوا بالمرائين والجاهلين وقرناء السوء ، وقيل : لا تصحبوا الأشرار ولا تجالسوا أهل البدع ﴿ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار وَزُلُفاً مِّنَ الليل ﴾ أمر بإقامة الصلاة المفروضة على ما علمت ، وقد ذكروا أن الصلاة معراج المؤمن ، وفي الأخبار ما يدل على علو شأنها والأمر غني عن البيان ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ [هود : 114] قال الواسطي : أنوار الطاعات تذهب بظلم المعاصي .

وقال يحيى بن معاذ : إن الله سبحانه لم يرض للمؤمن بالذنب حتى ستر ولم يرض بالستر حتى غفر ولم يرض بالغفران حتى بدل فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ ﴾ [هود : 411] وقال تعالى : ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدّلُ الله سَيّئَاتِهِمْ حسنات ﴾ [الفرقان : 70] ذلك الذي ذكر من إقامة الصلاة في الأوقات المشار إليها وإذهاب الحسنات السيآت ذكرى للذاكرين تذكير لمن يذكر حاله عند الحضور مع الله تعالى في الصفاء والجمعية والأنس والذوق ﴿ واصبر ﴾ بالله سبحانه في الاستقامة ومع الله تعالى بالحضور في الصلاة وعدم الركون إلى الغير ﴿ فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ [هود : 115] الذين يشاهدونه في حال القيام بالحقوق ﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ القرون مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفساد فِى

الأرض ﴾ [هود : 116] فيه حض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود : 117] قيل : القرى فيه إشارة إلى القلوب ﴿ وَأَهْلُهَا ﴾ إشارة إلى القوى ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ متساوية في الاستعداد متفقة على دين التوحيد

﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود : 118] في الوجهة والاستعداد ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ بهدايته إلى التوحيد وتوفيقه للكمال فانهم متفقون في المذهب والمقصد متوافقون في السيرة والطريقة قبلتهم الحق ودينهم التوحيد والمحبة وإن اختلفت عباراتهم كما قيل :

عباراتنا شتى وحسنك واحد . . .

وكل إلى ذاك الجمال يشير

(334/388)

﴿ ولذلك ﴾ الاختلاف ﴿ خَلَقَهُمْ ﴾ وذلك ليكونوا مظاهر جماله وجلاله ولطفه وقهره ، وقيل : ليتم نظام العالم ويحصل قوام الحياة الدنيا ﴿ لأملان جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ [هود : 119] لأن جهنم رتبة من مراتب الوجود لا يجوز في الحكمة تعطيلها وإبقاؤها في كتم العدم مع إمكانها ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ

﴾ لما اشتملت عليه من مقاساتهم الشدائد من أممهم مع ثباتهم وصبرهم وإهلاك أعدائهم ﴿ وَجَاءَكَ فِى هذه ﴾ السورة ﴿ الحق ﴾ الذي ينبغي المحيد عنه ﴿ وَمَوْعِظَةٌ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : 120] وتخصيص هذه السورة بالذكر لما أشرنا إليه، وقيل: للتشريف، وإلا فالقرآن كله كذلك، والكل يغرف من بحره على ما يوافق مشربه، ومن هنا قيل: العموم متعلقون بظاهره.

والخصوص هائمون بباطنه.

وخصوص الخصوص مستغرقون في تجلى الحق سبحانه فيه ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السموات ﴾ على اختلاف معانيها ﴿ والأرض ﴾ كذلك ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ ﴾ أي كل شأن من الشؤون فإن الكل منه ﴿ فاعبده ﴾ اسقط عنك خظوظ نفسك وقف مع الأمر بشرط الأدب ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ الا تعمتم بما قد كفيته واهتم بما ندبت إليه ﴿ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : 123] فيجازي كلا حسبما تقتضيه الحكمة والله تعالى ولي التوفيق وبيده أزمة التحقيق لا رب غيره ولا يرجى إلا خيره.

انتهى ما وفقنا له من تفسير هود بمنّ من بيده الكرم والجود، ونسأله سبحانه أن ييسر لنا إتمام ما قصدناه، ويوفقنا لفهم معاني كلامه على ما يحبه ويرضاه، والحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على من لا نبي من بعده، وعلى آله وصحبه وجنده وحزبه، ما غردت

الأقلام في رياض التحرير، ووردت الأفهام من حياض التفسير. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(335/388)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة هود (11) : آية 61]

وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (61)

الإعراب :

(وإلى ثمود.. إله غيره) مرّ إعراب نظيرها " 1 "، (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أنشأ) فعل ماض، والفاعل هو (كم) ضمير مفعول به (من الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنشأكم)، (الواو) عاطفة (استعمركم) مثل أنشأكم (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (استعمركم)، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (استغفروا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون.. والواو فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به (ثمّ) حرف عطف (توبوا) مثل استغفروا (إلى) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (توبوا)

، (إنّ ربّي قريب مجيب) مثل إنّ ربّي لغفور رحيم " 2 " .

جملة : " (أرسلنا) إلى ثمود . . . " معطوفة على جملة (أرسلنا) إلى عاد " 3 " .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة النداء : " يا قوم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اعبدوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " ما لكم من إله غيره " لا محلّ لها تعليليّة - أو استئناف بيانيّ .

---

(1) في الآية (50) من هذه السورة .

(2) في الآية (41) من هذه السورة .

(3) في الآية (50) من هذه السورة .

وجملة : " هو أنشأكم . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " أنشأكم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ هو .

وجملة : " استعمركم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أنشأكم .

وجملة : " استغفروه " جواب شرط مقدّر أي : إن أذنبتم فاستغفروه .

وجملة : " توبوا إليه " معطوفة على جملة استغفروه .

وجملة : " إنّ ربّي قريب " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(ثمود) ، اسم علم لأبي القبيلة ، سمّيت به لشهرته ، وهو ممنوع من الصرف للعلميّة والعجمة ، وقبيلة ثمود هي التي كانت تسكن الحجر وهو مكان بين الشام والمدينة .

(صالح) ، اسم علم ، وهو لفظ عربيّ لأنه على وزن فاعل ، وهذا الوزن أعلق بالأسماء منه بالأفعال ، ولذلك صرف .

(مجيب) ، اسم فاعل من أجاب الرباعيّ ، فهو على وزن مفعل بضمّ الميم وكسر العين ، وفيه إعلال بالتسكين وإعلال بالقلب . . سكّن حرف العلّة ونقلت حركته إلى الحرف الذي قبله وهو الجيم ، وأصل مجيب مجوب - بسكون الجيم وكسر الواو - لأن الواو تظهر في المصدر جواب ، فلمّا سكّنت وكسر ما قبلها قلبت ياء فهو مجيب .

[سورة هود (11) : آية 62]

قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (62)

الإعراب :

(قالوا) فعل ماض وفاعله (يا) أداة نداء (صالح) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ في محلّ

نصب (قد) حرف تحقيق (كنت) فعل ماض ناقص واسمه (في) حرف جرّ و (نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق

ب (مرجوا) وهو خبر الناقص منصوب (قبل) ظرف زمان منصوب متعلّق بالخبر و (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (الهمزة) للاستفهام التعجّبيّ (تنهى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف، والفاعل أنت و (نا) ضمير مفعول به (أن) حرف مصدريّ ونصب (نعبد) مضارع منصوب، والفاعل نحن (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يعبد) مثل نعبد (آباء) فاعل مرفوع و (نا) ضمير مضاف إليه.

(337/388)

والمصدر المؤوّل (أن نعبد ..) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف تقديره عن متعلّق بـ (تنهانا) (الواو) واو الحال (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و (نا) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) المزحلقة (في شك) جارّ ومجرور متعلّق بخبر إنّ (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بشكّ (تدعو) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الواو، والفاعل أنت، و (نا) ضمير مفعول به (مريب) نعت لشكّ مجرور مثله.

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء : " يا صالح . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قد كنت . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أ تنهانا . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " نعبد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " يعبد آباؤنا " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " إنّنا لفي شكّ . . " في محلّ نصب حال من المفعول في (تنهانا) .

وجملة : " تدعونا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

الصرف :

(مرجوّا) ، اسم مفعول من رجا يرجو وزنه مفعول ، وقد أدغمت واو مفعول مع لام الكلمة ، ومعناه أن نضع فيك رجاءنا أن تكون سيّدا لنا أو مستشارا في الأمور .

(تنهى) ، فيه إعلال بالقلب ، فأصل الألف ياء لأن المصدر نهي ، فلمّا جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا .

(مريب) ، اسم فاعل من أراب الرباعيّ أي أوقعه في الريب أو من أراب اللازم أي صار ذا ريب ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين ، وفيه إعلال بالتسكين ، أصله مريب بسكون الراء وكسر الياء ، استثقلت الكسرة على الياء فسكّنت ونقلت حركتها إلى الراء قبلها

فأصبح (مريب) .

[سورة هود (11) : الآيات 63 إلى 64]

(338/388)

قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (63) وَيا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ (64)

الإعراب :

(قال يا قوم . . . منه رحمة) مرّ إعرابها " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (من ينصرني . . إن عصيته) مرّ إعراب نظيرها " 2 " ، (الفاء) استئنافيّة (ما) نافية

(تزيدون) مضارع مرفوع والواو فاعل و (النون) الثانية للوقاية و (الياء) ضمير مفعول به أوّل

(غير) مفعول به ثان منصوب (تخسير) مضاف إليه مجرور .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) في الآية (28) من هذه السورة .

(2) في الآية (30) من هذه السورة .

وجملة : " النداء : يا قوم " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أرأيتم . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " إن كنت على بيّنة " لا محلّ لها اعتراضيّة وقعت بين الفعل ومفعوله . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

وجملة : " آتاني منه رحمة " لا محلّ لها معطوفة على الاعتراضيّة .

وجملة : " من ينصرني . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن عصيت اللّه فمن ينصرني منه ، وجملة الشرط المقدّرة وجوابها في محلّ جزم جواب الشرط إن كنت .

وجملة : " إن عصيته المذكورة " لا محلّ لها تفسيريّة للشرط المقدّر . . . والمفعول الثاني لفعل رأيتم محذوف يدل عليه قوله : من ينصرني من اللّه إن عصيته أي أأعصيه في ترك ما أنا عليه .

وجملة : " ينصرني . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " ما تزيدونني . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(340/388)

(الواو) عاطفة (يا قوم) مثل الأولى (ها) حرف تنبيه (ذه) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (ناقة) خبر مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (اللام) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلق بحال من آية - نعت تقدّم على المنعوت - (آية) حال من ناقة، عاملها الإشارة (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (ذروا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . .

والواو فاعل (تأكل) مضارع مجزوم جواب الطلب، والفاعل هي (في أرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تأكل)، (اللّه) لفظ الجلالة مثل الأول (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تمسّوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل و (ها) ضمير مفعول به (بسوء) جارّ ومجرور

متعلّق بـ (تمسّوا)، (الفاء) فاء السببيّة (يأخذ) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببيّة و (كم) ضمير مفعول به (عذاب) فاعل مرفوع (قريب) نعت لعذاب مرفوع .

والمصدر المؤوّل (أن يأخذكم . .) معطوف على مصدر متصيّد من الكلام المتقدّم أي : لا يكن منكم مسّ لها فأخذ لكم بعذاب .

وجملة : " يا قوم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يا قوم الأولى .

وجملة : " هذه ناقة اللّه . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " ذروها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مقدّرة مستأنفة أي : تنبّهوا فذروها .

وجملة : " تأكل . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي إن تتركوها تأكل .

وجملة : " لا تمسّوها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ذروها .

الصرف :

(تخسير) مصدر قياسي للرباعي خسّر ، وزنه تفعيل .

الفوائد

- ناقة صالح عليه الصلاة والسلام :

ذكر محمد بن إسحاق ، ووهب بن منبه ، وغيرهما من أصحاب السير والأخبار ، أنه لما ألح صالح – عليه الصلاة والسلام – على قومه بالدعاء والتذكير والتحذير ، سألوه أن يريهم آية تكون مصداقا على ما يقول ، قال صالح : أي آية تريدون . قالوا : تخرج معنا إلى عيدنا ، فتدعو إلهك ، وندعوا آلهتنا ، فإن استجيب لك اتبعناك ، وإن استجيب لنا اتبعتنا ، فدعوا أصنامهم ألا يجاب لصالح ، ثم سألوه أن يخرج لهم من الصخرة ناقة بأوصاف معينة حسنة حتى يؤمنوا به ، فأخذ منهم المواثيق على ذلك ، فرضوا ، فصلّى صالح ركعتين ودعا ربه ، فتمخضت الصخرة عن ناقة بالأوصاف التي طلبوها ، فآمن

به رئيس القوم (جندع بن عمرو) ورهط معه ، وامتنع الباقون لعنادهم وإصرارهم ، فقال لهم صالح : هذه الناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . فكانت تشرب يوما وتدع يوما ، وتسقيهم حليبا كثيرا عوضا عما شربت من الماء . لكن الأشرار منهم لم يرق لهم ذلك ، فائتمروا بينهم ، وكانوا تسعة رهط ، فانطلق (قدار) وصحبه ، فرصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء ، وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها ، وعند ما وصلت الناقة حثته فتاة جميلة على عقرها ، فشدّ على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها ، ورغت رغاة واحدة فتحدر سقيها من الجبل ، ثم طعن قدار في لبتها فنحرها ، فخرج أهل البلد فاقتسموا لحمها فلما علم صالح عليه الصلاة والسلام بالأمر قال لقومه : أدركوا فصيلها ، فإن أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب .

فخرجوا في طلبه ، فرأوه على الجبل ، وجاء صالح عليه الصلاة والسلام ، فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ، ثم رغا ثلاثا ، ثم انفجرت الصخرة فدخلها ، فقال صالح عليه الصلاة والسلام لقومه : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب .

[سورة هود (11) : الآيات 65 إلى 66]

فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (65) فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (عقروا) فعل ماض وفاعله و (ها) ضمير مفعول به (الفاء) مثل الأولى (قال) فعل ماض والفاعل هو (تمتّعوا) مثل ذروا " 1 " ، (في دار) جارّ ومجرور متعلّق ب (تمتّعوا) " 2 " ، و (كم) ضمير مضاف إليه (ثلاثة) مفعول فيه ظرف زمان منصوب - أضيف إلى ظرف - متعلّق ب (تمتّعوا) ، (أيّام) مضاف إليه مجرور (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في

---

(1) في الآية السابقة (64) .

(2) أو بمحذوف حال من فاعل تمتّعوا .

(343/388)

محلّ رفع مبتدأ (وعد) خبر مرفوع (غير) نعت لوعد مرفوع مثله (مكذوب) مضاف إليه مجرور .

جملة : " عقروها . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : فأبوا سماع كلامه فعقروها .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة عقروها .

وجملة : " تمتّعوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ذلك وعد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(الفاء) عاطفة (لمّا جاء . . . برحمة منّا) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (الواو) عاطفة (من خزي) جارّ ومجرور متعلّق بفعل محذوف تقديره نجّيناهم (يوم) مضاف إليه مجرور (إذ) اسم ظرفيّ مبنيّ على السكون في محلّ جرّ مضاف إليه ، والتنوين هو تنوين العوض من جملة محذوفة (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (ربّ) اسم إنّ منصوب و (الكاف) ضمير مضاف إليه

(هو) ضمير فصل للتوكيد " 2 " ، (القويّ) خبر إنّ مرفوع (العزيز) خبر ثان مرفوع.

وجملة: " جاء أمرنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: " نجّينا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " (نجّينا) المقدّرة " لا محلّ لها معطوفة على جملة نجّينا الأولى.

وجملة: " إنّ ربّك . . القويّ " لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) في الآية (58) من هذه السورة.

(2) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره القويّ، والجملة الاسميّة في محلّ رفع خبر إنّ.

الصرف:

(مكذوب) ، اسم مفعول من كذب الثلاثيّ، وزنه مفعول، وقيل هو مصدر على وزن مفعول مثل المعقول والمنضور . . . إلخ.

(القويّ) ، صفة مشبّهة من فعل قوي يقوى باب فرح، وزنه فعيل، أدغمت ياء فعيل مع لام الكلمة.

البلاغة

الاستعارة المكنية التخييلية: في قوله تعالى "وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ" على المجاز كأن الواعد قال له: أفي بك. فإن وفي به صدقه، وإلا كذبه. فهناك استعارة مكنية تخييلية، وقيل مجاز مرسل بجعل "مكذوب" بمعنى باطل ومتخلف. ولا يخفى ما في تسمية ذلك وعدا من المبالغة في التهكم.

[سورة هود (11) : الآيات 67 إلى 68]

وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (67) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ (68)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (أخذ) فعل ماض (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به مقدّم (ظلموا) فعل ماض وفاعله (الصيحة) فاعل أخذ مرفوع (الفاء) عاطفة (أصبحوا) فعل ماض ناقص - ناسخ - "1" والواو اسم أصبح (في ديار) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جاثمين) خبر أصبح "2"، و (هم) ضمير مضاف إليه (جاثمين) خبر أصبحوا منصوب وعلامة النصب الياء.

جملة: "أخذ.. الصيحة" لا محلّ لها استئنافيّة "3".

---

(1) أو فعل تام، والواو فاعل.. وجاثمين حال من الفاعل. [.....]

(2) أو متعلّق بالفعل التام أصبحوا .

(3) أو معطوفة على جملة جواب الشرط في الآية السابقة ، وما بين المعطوف والمعطوف عليه اعتراض .

(345/388)

وجملة : " ظلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أصبحوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

(كأن) مخفّفة من الثقيلة ، اسمها ضمير محذوف يعود إلى ثمود (لم) حرف نفي وجزم وقلب (يغنوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . و (الواو) فاعل (في) حرف جر و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلق بـ (يغنوا) ، (ألا إنّ ثمود . . . بعدا لثمود) مرّ إعراب نظيرها " 1 " .

وجملة : " كأن لم يغنوا . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في (أصبحوا) التام " 2 " .

وجملة : " لم يغنوا . . . " في محلّ رفع خبر كأن المخفّفة .

وجملة : " إنّ ثمود كفروا " لا محلّ لها استئنافيّة فيها معنى التعليل .

وجملة : " كفروا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة: " (ابعدوا) بعدا .. " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(الصيحة) ، مصدر مرّة من صاح يصيح الثلاثيّ، وزنه فعلة بفتح فسكون.

(يغنوا) ، فيه إعلال بالحذف، أصله يغناوا، فلما التقى ساكنان حذفت الألف وبقي ما

قبلها مفتوحا دلالة عليها، وزنه يفعوا.

[سورة هود (11) : الآيات 69 إلى 70]

وَلَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ

(69) فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا

إِلى قَوْمِ لُوطٍ (70)

---

(1) في الآية (60) من هذه السورة.

(2) يجوز أن يكون خبرا ثانيا للناقص أصبحوا.

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (جاءت) فعل ماض

. . و (التاء) للتأنيث (رسل) فاعل مرفوع و (نا) ضمير مضاف إليه (إبراهيم) مفعول به منصوب، ومنع من التنوين للعلميّة والعجمة (بالبشرى) جارّ ومجرور متعلّق بحال من رسل "1"، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة (قالوا) فعل ماض وفاعله (سلاما) مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره نسلّم (قال) فعل ماض، والفاعل هو أي إبراهيم (سلام) مبتدأ مرفوع "2"، خبره محذوف أي سلام عليكم (الفاء) عاطفة (ما) نافية "3"، (لبث) مثل قال (أن) حرف مصدريّ (جاء) مثل قال (بعجل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جاء)، (حنيذ) نعت لعجل مجرور.

والمصدر المؤوّل (أن جاء) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف تقديره بأن جاء -أو في أن جاء -أو عن أن جاء . . متعلّق بـ (لبث) "4" .

جملة: "جاءت رسلنا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . وجملة القسم لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " (نسلّم) سلاما " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "سلام (عليكم) " في محلّ نصب مقول القول.

---

(1) أو متعلّق بـ (جاءت) .

(2) الذي سوّغ الابتداء بالنكرة كونها تدلّ على عموم وهي للمدح، ويجوز أن يكون (سلام) خبرا لمبتدأ محذوف تقديره: قولي أو ردّي أو جوابي سلام.

(3) أو هي مصدريّة، والمصدر المؤوّل مبتدأ خبره المصدر المؤوّل (أن جاء) أي: لبثه مقدار مجيئه، وذلك على حذف مضاف وهو مقدار.

(4) يجوز أن يكون المصدر المؤوّل فاعل لفعل لبث إذا لم يكن الفاعل الضمير العائد على إبراهيم أي ما تأخّر مجيئه.

وجملة: "ما لبث..." لا محلّ لها معطوفة على جملة القسم المستأنفة.

وجملة: "جاء..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

(الفاء) عاطفة (لمّا رأى) مثل لمّا جاء "1"، والفاعل هو (أيدي) مفعول به منصوب و (هم) ضمير مضاف إليه (لا) نافية (تصل) مضارع مرفوع، والفاعل هو (إلى) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تصل)، (نكر) فعل ماض والفاعل هو و (هم) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (أوجس) مثل نكر (من) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أوجس)، (خيفة) مفعول به منصوب "2"، (قالوا) مثل الأولى (لا) ناهية

جازمة (تخف) مضارع مجزوم والفاعل أنت (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و (نا) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (أرسلنا) فعل ماض مبنيّ للمجهول و (نا) ضمير نائب الفاعل (إلى قوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أرسلنا)، (لوط) إليه مجرور.

وجملة: "رأى ..." في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "لا تصل ..." في محلّ نصب حال من الأيدي.

وجملة: "نكرهم" لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "أوجس ..." لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط.

وجملة: "قالوا ..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "لا تخف ..." في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "إنّا أرسلنا ..." لا محلّ لها تعليليّة.

---

(1) في الآية (66) من هذه السورة.

(2) أوجس بمعنى أضمر.. والإيجاس حديث النفس أو الدخول، ووجس خطر.

وجملة : " أرسلنا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (إنّ) .

الصرف :

(حنيذ) ، مبالغة اسم الفاعل من حنذ يحنذ اللحم باب ضرب أي شواه ، وزنه فعيل .

(تخف) ، فيه إعلال لمناسبة الجزم ، وأصله تخاف ، فلمّا جزم التقى ساكنان فحذفت الألف لالتقاء الساكنين ، وزنه تفل .

(لوط) ، اسم علم أعجمي صرف لأنه ثلاثيّ ساكن الوسط .

البلاغة

الكناية : في قوله تعالى " فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ . . . " كناية عن أنهم لا يمدون إليه أيديهم . ويلزمه أنهم لا يأكلون

الفوائد

- مسوغات الابتداء بالنكرة :

ورد في هذه الآية قوله تعالى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ وفي إعراب سلام وجهان : خبر لمبتدأ محذوف ، أي أمري سلام . أو مبتدأ والخبر تقديره سلام عليكم ، وبهذا يكون المبتدأ نكرة ، وأصل القاعدة أنه لا يجوز الابتداء بالنكرة ما لم تفد . وقد ذكر ابن هشام حالات يجوز فيها الابتداء بالنكرة وهي :

1 - أن تكون موصوفة : كقوله تعالى وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ 2 - أن تكون عاملة (هل مسافر أخوك) .

3 - العطف ، بشرط أن يكون المعطوف أو المعطوف عليه مما يسوغ الابتداء بالنكرة كقوله تعالى قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً .

4 - أن يكون الخبر ظرفا أو جارا ومجرورا كقوله تعالى وَلَدَيْنا مَزِيدٌ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ .

5 - أن تكون عامة ، إما بذاتها كأسماء الشرط وأسماء الاستفهام ، أو بغيرها نحو : (ما رجل في الدار) وقوله تعالى أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ .

6 - أن تكون مرادا بها صاحب الحقيقة من حيث هي : نحو مؤمن خير من كافر .

7 - أن تكون بمعنى الفعل كقوله تعالى وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ بها معنى الدعاء .

8 - أن يكون ثبوت ذلك الخبر للنكرة من خوارق العادة مثل : شجرة سجدت ، بقرة تكلمت . . .

9 - أن تقع بعد إذا الفجائية : خرجت فإذا أسد بالباب .

10 - أن تقع في أول جملة حالية كقول الشاعر :

سرينا ونجم قد أضاء فمذ بدا محيّاك أخفى ضوءه كلّ شارق

الشاهد : قوله ونجم قد أضاء ، فنجم مبتدأ نكرة في بداية جملة حالية .

11 - أن تكون النكرة للتفصيل كقول امرئ القيس

فأقبلت زحفا على الركبتين فثوب نسيت وثوب أجرّ

[سورة هود (11) : آية 71]

وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ (71)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة " 1 " ، (امرأة) مبتدأ مرفوع و (الهاء) ضمير مضاف إليه (قائمة) خبر مرفوع (الفاء) عاطفة (ضحكت) فعل ماض . .

و (التاء) للتأنيث ، والفاعل هي (الفاء) عاطفة (بشّرنا) فعل ماض وفاعله و (ها) ضمير مفعول به (بإسحاق) جارّ ومجرور متعلّق بـ (بشّرنا) على حذف مضاف أي بولادة إسحاق ، وعلامة الجرّ الفتحة للعلميّة والعجمة (الواو) عاطفة (من وراء) جارّ ومجرور متعلّق بفعل محذوف تقديره وهبنا (إسحاق) مضاف إليه مجرور ، (يعقوب) مفعول به للفعل المحذوف

---

(1) أو واو الحال ، والجملة بعدها حال من فاعل قالوا لا تخف في الآية السابقة .

منصوب " 1 " ، ومنع من التنوين للعلميّة والعجمة .

جملة : " امرأته قائمة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ضحكت . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " بشّرنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ضحكت .

وجملة : " (وهبنا) . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة بشرناها .

الصرف :

(إسحاق) ، اسم علم أعجميّ ممنوع من الصرف ، والألف فيه تحذف (إسحاق) أو تبقى (إسحاق) .

[سورة هود (11) : آية 72]

قالَتْ يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72)

الإعراب :

(قالت) مثل ضحكت " 2 " ، (يا) أداة نداء وتعجّب (ويلتا) منادى متعجّب به مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الألف المنقلبة عن ياء منع من

ظهورها اشتغال المحلّ بالحركة المناسبة، و (الألف) المنقلبة عن ياء في محلّ جرّ مضاف إليه (الهمزة) للاستفهام التعجّبيّ (ألد) مضارع مرفوع، والفاعل أنا (الواو) واو الحال (أنا) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (عجوز) خبر مرفوع (الواو) عاطفة (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (بعلي) خبر مرفوع، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء..

و (التاء) ضمير مضاف إليه (شيخا) حال من بعلي، والعامل ما في الإشارة من معنى الفعل (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (هذا) مثل الأول في محلّ

---

(1) بعضهم يعطف يقعوب على إسحاق المجرور، ولكن يفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بفاصل وهو بعيد.

(2) في الآية السابقة (71).

(351/388)

نصب اسم إنّ (اللام) المزحلقة (شيء) خبر إنّ مرفوع (عجيب) نعت لشيء مرفوع.

جملة: "قالت... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يا ويلتا... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " ألد . . . " لا محلّ لها جواب النداء والتعجّب.

وجملة: " أنا عجوز . . " في محلّ نصب حال من فاعل ألد.

وجملة: " هذا بعلي . . . " في محلّ نصب معطوفة على الجملة الحاليّة.

وجملة: " إنّ هذا لشيء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(ويلتا)، ويلة، والألف منقلبة عن ياء المتكلّم، كلمة تقال لدى أمر عظيم خيرا كان أم شرّا، والويل في الأصل مصدر لفعل لا وجود له في اللغة، شأنه في ذلك شأن (ويح، ويس، ويب)، وانقلاب الياء ألفا هو بسبب مدّ الصوت في التعجّب كالندبة.

(عجوز)، صفة مشبّهة من عجز يعجز باب نصر وباب كرم، وزنه فعول، وهذه الصفة يستوي فيها التذكير والتأنيث، جمعه عجز بضمّتين وعجائز.

(شيخا)، صفة مشبّهة من شاخ يشيخ باب ضرب، وزنه فعل بفتح فسكون.

(عجيب)، صفة مشبّهة من عجب يعجب باب فرح، وزنه فعيل.

[سورة هود (11): آية 73]

قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73)

الإعراب:

(قالوا) فعل ماض وفاعله (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ

(تعجبين) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . و (الياء) ضمير متّصل في محلّ رفع فاعل (من أمر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تعجبين) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه (رحمة) مبتدأ مرفوع (اللّه) مثل السابق (الواو) معطوف على رحمة (بركات) مرفوع و (الهاء) مضاف إليه (على) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر (أهل) منادى مضاف محذوف منه أداة النداء " 1 " ، منصوب (البيت) مضاف إليه مجرور (إنّه) حرف مشبّه بالفعل واسمه (حميد) خبر مرفوع (مجيد) خبر ثان مرفوع .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تعجبين . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " رحمة اللّه . . عليكم " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة " 2 " .

وجملة : " النداء . . . " لا محلّ لها استئناف في معرض الرحمة .

وجملة : " إنّه حميد . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ مبيّنة لحقيقة الاستفهام .

الصرف :

(مجيد) ، صفة مشبهة من فعل مجد يمجد باب كرم وزنه فعيل ، وقد يأتي من باب نصر ،

وأصل المجد في كلامهم السعة.

[سورة هود (11) : آية 74]

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَجاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74)

الإعراب:

(الفاء) استئنافيّة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى

---

(1) أو مفعول به لفعل محذوف للمدح أو التعظيم أي نمدح أهل البيت أو نعظّمهم..

وأجاز أبو حيّان نصبه على الاختصاص. [.....]

(2) أو هي استئنافيّة مجرّدة من الدعاء، لأن الدعاء- على رأي أبي حيّان- أمر يترجى ولم يحصل.

الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بمضمون الجواب (ذهب) فعل ماض (عن إبراهيم) جارّ ومجرور متعلّق ب (ذهب) ، وعلامة الجرّ الفتحة (الروع) فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (جاءت) مثل ذهب، و (التاء) للتأنيث و (الهاء) ضمير مفعول به (البشرى) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة (يجادل) مضارع مرفوع و (نا) ضمير مفعول به، والفاعل هو

(في قوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يجادلنا) على حذف مضاف أي في شأن قوم لوط (لوط) مضاف إليه مجرور.

جملة: "ذهب.. الروع..." في محلّ جرّ مضاف إليه.. وجواب الشرط محذوف تقديره اجترأ على خطابهم أو فطن إلى مجادلتهم، دلّ على ذلك الجملة المستأنفة يجادلنا "1".

وجملة: "جاءته البشرى..." في محلّ جرّ معطوفة على جملة ذهب "2".

وجملة: "يجادلنا..." لا محلّ لها استئنافيّة - تفسر جواب الشرط "3".

الصرف:

(الروع)، مصدر سماعيّ لفعل راع يروع باب نصر، وزنه فعل بفتح فسكون، وثمّة مصدر آخر هو روعا.

البلاغة

المجاز: في قوله تعالى "وَجاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ..." أي يجادل رسلنا

---

(1) هذا الإعراب اختيار الزمخشريّ، وقيل: الجواب جملة يجادلنا، وضع المضارع موضع الماضي، وهو اختيار أبي حيان.. وقيل: الجواب محذوف تقديره قلنا يا إبراهيم أعرض عن هذا، وهو اختيار أبو عليّ الفارسيّ.. وقيل: الجواب محذوف تقديره ظلّ أو أخذ يجادلنا لدلالة ظاهر الكلام عليه.

(2) يجعل بعضهم هذه الجملة جواب الشرط بزيادة الواو - كما في المغني - . . أو هي حال من إبراهيم بتقدير (قد) .

(3) هي خبر لجواب الشرط المحذوف ظلّ أو أخذ . . وهي حال إذا قدّر الجواب أقبل .

(354/388)

في حالهم وشأنهم ، ففيه مجاز في الاسناد .

[سورة هود (11) : آية 75]

إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75)

الإعراب :

(إنّ إبراهيم) حرف مشبّه بالفعل واسمه . . (اللام) المزحلقة (حليم) خبر مرفوع (أوّاه ، منيب) خبر إن .

" والجملة . . . " . لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

الصرف :

(منيب) ، اسم فاعل من أناب الرباعي ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين . . وفيه إعلال بالتسكين أصله منيب - بضمّ الميم وكسر الياء - استثقلت الكسرة على الياء فسكّنت

ونقلت حركتها إلى الساكن قبلها فأصبح (منيب) . . وفيه إعلال بالقلب أيضا لأن الياء أصلها واو فهو من ناب ينوب بمعنى رجع ، فلما تحرّكت الواو وانكسر ما قبلها قلبت ياء .

[سورة هود (11) : آية 76]

يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76)

الإعراب :

(يا إبراهيم) مثل يا صالح " 1 " ، (أعرض) فعل أمر ، والفاعل أنت (عن) حرف جرّ (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أعرض) ، (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و (الهاء) ضمير الشأن في محلّ نصب اسم إنّ (قد) حرف تحقيق (جاء) فعل ماض (أمر) فاعل مرفوع (ربّك) مضاف إليه مجرور . . و (الكاف) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (إنّهم) مثل إنه (آتي) خبر إنّ مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء و (هم) ضمير مضاف إليه (عذاب) فاعل اسم الفاعل مرفوع " 2 " ، (غير) نعت لعذاب مرفوع (مردود) مضاف إليه مجرور .

---

(1) في الآية (62) من هذه السورة .

(2) أو هو مبتدأ مؤخّر والخبر آتيهم ، وأضيف اسم الفاعل إلى مفعوله والجملة خبر إنهم .

جملة: " يا إبراهيم... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " أعرض عن هذا... " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: " إنّه قد جاء أمر... " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: " جاء أمر... " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: " إنّهم آتيهم... " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة.

الصرف:

(مردود)، اسم مفعول من ردّ الثلاثيّ، وزنه مفعول، فكّ الإدغام لتكون واو مفعول بين عين الكلمة ولامها.

[سورة هود (11): الآيات 77 إلى 78]

وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77) وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (لمّا جاءت) مثل لمّا ذهب " 1 "، (والتاء) للتأنيث (رسل) فاعل مرفوع و (نا) ضمير مضاف (لوطا) مفعول به منصوب (سيء) فعل ماض مبنيّ للمجهول، ونائب

الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الباء) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (سيء) ، (الواو) عاطفة (ضاق) فعل ماض ، والفاعل هو (بهم) مثل الأول متعلّق بـ (ضاق) ، (ذرعا) تمييز منصوب (الواو) عاطفة (قال) مثل ضاق (هذا) اسم إشارة مبتدأ (يوم) خبر مرفوع (عصيب) نعت ليوم مرفوع.

جملة: " جاءت رسلنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

---

(1) في الآية (74) من هذه السورة.

(356/388)

وجملة: " سيء بهم " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: " ضاق بهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط.

وجملة: " قال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط.

وجملة: " هذا يوم . . . " في محلّ نصب مقول القول.

(الواو) عاطفة (جاءه قومه) مثل جاءت رسلنا (يهرعون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل " 1 " ، (إلى) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يهرعون) ، (الواو) حالية (من) حرف جرّ (قبل) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يعملون) ، (كانوا) فعل

ماض ناقص . .

والواو اسم كان (يعملون) مثل يهرعون (السيّئات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (قال) فعل ماض ، والفاعل هو (يا) أداة نداء (قوم) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف ، و (الياء) المحذوفة مضاف إليه (ها) حرف تنبيه (أولاء) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (بناتي) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء " 2 " ، و (الياء) مضاف إليه (هنّ) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 3 " ، (أطهر) خبر مرفوع (اللام) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بأطهر (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اتّقوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (اللّه)

---

(1) هذا الفعل مع ماضيه – أهرع – يستعمل في الغالب بصيغة البناء للمجهول ومعناه معلوم أي يسرعون ولذا يحتاج إلى فاعل لا إلى نائب الفاعل ، ولكن بعض المعربين – وهم قلّة – يعربون الواو نائب الفاعل كما في حاشية الجمل .

(2) يجوز أن يكون (بنات) بدلا أو عطف بيان لاسم الإشارة ، والخبر أطهر ، وهنّ ضمير فصل .

(3) أو ضمير فصل .

لفظ الجلالة مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تخزوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل ، و (النون) للوقاية ، و (الياء) المحذوفة مفعول به (في ضيفي) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تخزوا) على حذف مضاف أي في شأن ضيفي . . و (الياء) مضاف إليه (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (ليس) فعل ماض ناقص جامد - ناسخ - (منكم) مثل لكم متعلّق بخبر مقدّم (رجل) اسم ليس مؤخّر مرفوع (رشيد) نعت لرجل مرفوع.

وجملة : " جاءه قومه . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف من الشرط وفعله وجوابه.

وجملة : " يهرعون إليه " في محلّ نصب حال من قوم.

وجملة : " كانوا يعملون . . . " في محلّ نصب حال من قوم " 1 " .

وجملة : " يعملون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا.

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة : " النداء وجوابها . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "هؤلاء بناتي" لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "هنّ أطهر... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ "2".

وجملة: "اتّقوا اللّه" في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كنتم راشدين فاتّقوا اللّه.

وجملة: "لا تخزون... " معطوفة على جملة اتّقوا اللّه.

---

(1) أو اعتراضيّة لا محلّ لها.

(2) يجوز أن تكون حالا من بناتي والعامل فيه معنى الإشارة.

(358/388)

وجملة: "أليس منكم رجل... " لا محلّ لها استئنافيّة مفسّرة لجملة الشرط المقدّر.

الصرف:

(ضاق)، فيه إعلال بالقلب، أصله ضيق - مضارعه يضيق - فلمّا تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا.

(ذرعا)، مصدر سماعيّ لفعل ذرع يذرع باب فتح بمعنى قاس بالذراع، قال الأزهريّ الذرع يوضع موضع الطاقة، والذرع كناية عن الوسع، وزنه فعل بفتح فسكون.

(عصيب)، صيغة مبالغة لاسم الفاعل من فعل عصب يعصب الشيء: ربطه باب

ضرب وهو متعدّ ، أو هو صفة مشبّهة من فعل عصب يعصب اللحم كثر عصبه من باب فرح ، والصفة منه تأتي على وزن فعل بفتح فكسر .

(ضيف) ، الضيف في الأصل مصدر ، ثمّ أطلق على الطارق ليلا فأصبح اسما جامدا ، ويطلق على مفرد وجمع وعلى مذكر ومؤنث ، وقد يثنى فيقال ضيفان ، ويجمع فيقال أضياف وضيوف وضيفان ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(رشيد) ، صفة مشبّهة من فعل رشد يرشد باب نصر وباب فرح وكلاهما لازم ، ويقال رشد أمره أي رشد فيه - بكسر الشين - أي استقام ، وزنه فعيل .

الفوائد

- تزويج المؤمنة للكافر هل يصح ؟

ورد في هذه الآية التباس مؤداه أن لوطا عليه الصلاة والسلام قال لقومه الكافرين ، عند ما دخلوا عليه ، وهموا بإيقاع الفاحشة في ضيوفه من الملائكة ، وهم جاهلون لحالهم ، قال لهم : هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ وقد كشف المفسرون

القناع حول الالتباس الوارد في الآية الكريمة وردوا على ذلك بعدة أقوال :

1 - قيل بأنه في ذلك الوقت كا ن يباح تزويج المسلمة بالكافر وقال الحسن بن المفضل : عرض بناته عليهم بشرط الإسلام 2 - وقال مجاهد وسعيد بن جبير أراد ببناته نساء قومه ، وأضافهنّ إلى نفسه لأن كل نبي أبو أمته ، وهو كالوالد لهم . وهذا القول هو الصحيح ، وأشبه بالصواب إن شاء اللّه تعالى . والدليل عليه أن بنات لوط كانتا اثنتين وليستا بكافيتين للجماعة ، وليس من المروءة أن يعرض الرجل بناته على أعدائه ليزوجهن إياهم ، فكيف يليق ذلك بمنصب الأنبياء أن يعرضوا بناتهم على الكفار .

3 - وقيل : إنما قال ذلك لوط على سبيل الدفع لقومه ، لا على سبيل التحقيق ، وإرشادا لهم إلى طريق الصواب والزواج المحلّل .

[سورة هود (11) : الآيات 79 إلى 80]

قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ (79) قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ (80)

الإعراب :

(قالوا) فعل ماض وفاعله (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (علمت) فعل ماض وفاعله (ما) حرف ناف (اللام) حرف جرّ و (نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (في بنات) جارّ ومجرور متعلّق بحال من حقّ و (الكاف) ضمير مضاف إليه (من) حرف

جرّ زائد (حقّ) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (الواو) عاطفة (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و (الكاف) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) المزحلقة (تعلم) مضارع مرفوع، والفاعل أنت (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به " 1 "، والعائد محذوف (نريد) مضارع مرفوع، والفاعل نحن.

---

(1) أجاز العكبريّ جعلها استفهاميّة في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة نريد، والجملة مفعول تعلم وقد علّق بالاستفهام وأجاز الجمل جعلها حرفا مصدريّا، والمصدر المؤوّل مفعول تعلم.

(360/388)

جملة: "قالوا... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "علمت... " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر، وجملة القسم المقدّرة في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "ما لنا... من حقّ" في محلّ نصب مفعول به لفعل العلم المعلّق بالنفي.

وجملة: "إنّك لتعلم... " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم.

وجملة: "تعلم... " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة : " نريد " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(قال) فعل ماض ، والفاعل هو (لو) حرف شرط غير جازم (أنّ) حرف مشبّه بالفعل (لي)

مثل لنا متعلّق بخبر مقدّم (الباء) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف حال

من قوّة " 1 " - نعت تقدّم على المنعوت - (قوّة) اسم أنّ منصوب .

والمصدر المؤوّل (أنّ لي بكم قوّة) في محلّ رفع فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت أي لو ثبت

وجود قوّة لي (أو) حرف عطف (آوي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على

الياء ، والفاعل أنا (إلى ركن) جارّ ومجرور متعلّق بـ (آوي) ، (شديد) نعت لركن مجرور .

جملة : " لو (ثبت) وجود قوّة . . . " في محلّ نصب مقول القول لفعل قال . . وجملة قال لا

محلّ لها استئناف بيانيّ . . وجواب (لو) محذوف تقديره لبطشت بكم .

(1) أي : قوة لصدّكم ، فالباء للتعليل ، وفيه حذف مضاف . [. . . . .]

وجملة : " آوي . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة (ثبت) المقدّرة " 1 " .

الصرف :

(ركن) ، اسم للناحية من جبل أو غيره ، وزنه فعل بضمّ فسكون ، جمعه أركان وأركن بفتح

فضمّ .

البلاغة

الاستعارة : في قوله تعالى " أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ " .

أي ألجأ إلى عشيرة قوية تمنعني منكم ، والركن حقيقة في أركان البناء التي يعتمد عليها البناء ، ثم يتجوز به عن العشيرة المعتمد عليها في النصرة والمؤازرة ، تشبيها للاعتماد عليها باعتماد البناء على الأركان .

(361/388)

استعارة الركن للمعين أبلغ ، لأن الركن مرئي وملموس في اعتماد البناء عليه بخلاف المعين فهو لا يحس من حيث هو معين ، فالاستعارة هنا أصلية .

الفوائد

- زيادة (من) :

ورد في هذه الآية (من) وهي حرف جر زائد في قوله تعالى ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ فمن حرف جر زائد ، وحق مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ والتقدير : مالنا حق في بناتك . وإكمالا للفائدة سنتكلم عن زيادة من :

1 - تأتي من الزائدة لتوكيد العموم مثل : (ما جاءني من أحد) وشرط زيادتها ثلاثة أمور .

آ - تقدم نفي أو نهي أو استفهام بهل : كقوله تعالى وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ ب - كون مجرورها نكرة ، كما مر

في الأمثلة.

---

(1) هذا رأي المبرّد على الرغم من مجيّ (آوي) مضارعا.. أو هي خبر لـ (أنّي) مقدّرة أي وأنّي آوي، والمصدر المؤوّل معطوف على المصدر المؤول فاعل ثبت.. هذا ويجوز على رأي أبي البقاء أن تكون الجملة مستأنفة أي بل اوي.

(362/388)

ج- كون مجرورها فاعلا، كما مر في قوله تعالى وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها أو مفعولا به كقوله تعالى فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ أو مبتدأ كما مر في الآية الكريمة التي نحن بصددها ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍ

[سورة هود (11) : الآيات 81 إلى 83]

قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81) فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83)

الإعراب:

(قالوا يا لوط) مثل قالوا يا صالح " 1 " ، (إنّا رسل) مثل إنّا . . " 2 " . . و (رسل) خبر أنّ مرفوع (ربّك) مضاف إليه مجرور . و (الكاف) ضمير مضاف إليه (لن) حرف نفي ونصب (يصلوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (إلى) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يصلوا) ، (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (أسر) فعل أمر مبنيّ على حذف حرف العلّة ، والفاعل أنت (بأهلك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أسر) . . و (الكاف) ضمير مضاف إليه (بقطع) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أسر) ، (من الليل) جارّ ومجرور نعت لقطع (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (يلتفت) مضارع مجزوم (من) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من (أحد) فاعل يلتفت مرفوع

---

(1) في الآية (62) من هذه السورة.

(2) في الآية (70) من هذه السورة.

(إلّا) حرف للاستثناء (امرأتك) مستثنى منصوب " 1 " . . و (الكاف) مضاف إليه (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و (الهاء) ضمير الشأن اسم إنّ (مصيب) خبر مقدّم و (ها)

ضمير مضاف إليه " 2 " ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (أصاب) فعل ماض و (هم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو وهو العائد (إنّ) مثل الأول (موعدهم) اسم إنّ منصوب . . و (هم) مضاف إليه (الصبح) خبر إنّ مرفوع (الهمزة) للاستفهام التقريريّ (ليس) فعل ماض ناقص (الصبح) اسم ليس مرفوع (الباء) حرف جرّ زائد (قريب) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ليس .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " النداء يا لوط . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : إنّا رسل . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " لن يصلوا إليك " لا محلّ لها تفسير لجواب النداء " 3 " .

وجملة : " أسر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مستأنفة مقدّرة أي : تنبّه فأسر . . .

وجملة : " لا يلتفت منكم أحد " لا محلّ لها معطوفة على جملة أسر . . .

---

(1) والاستثناء منقطع سواء أكان المستثنى منه (أهل) أو (أحد) . قال أبو حيّان في البحر : " . . . لم يقصد بالاستثناء إخراجها - أي امرأته - عن المأمور بالإسراء بهم ولا من المنهيّين عن الالتفات فكان يجب فيه إذ ذاك النصب قولا واحدا " أ ه أي إنّ الاستثناء هنا منقطع .

(2) أو هو مبتدأ والموصول بعده خبر .

(3) جملة جواب النداء أتت في المعنى تعليلا لجملة لن يصلوا إليك فهي كالتمهيد للبدل فجاز أن تكون الجملة بدلا من جواب النداء .

(364/388)

وجملة : " إنّه مصيبها ما . . . " لا محلّ لها تعليل للاستثناء .

وجملة : " مصيبها ما أصابهم " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " إنّ موعدهم الصبح " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أليس الصبح بقريب " لا محلّ لها استئنافيّة - أو اعتراضيّة - (فلمّا جاء أمرنا) مرّ إعرابها " 1 " ، (جعلنا) فعل ماض وفاعله (عالي) مفعول به منصوب و (ها) مضاف إليه (سافل) مفعول به ثان منصوب و (ها) مثل الأخير (الواو) عاطفة (أمطرنا) مثل جعلنا (على) حرف جرّ و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أمطر) بتضمينه معنى أنزلنا أو أسقطنا (حجارة) مفعول به منصوب (من سجّيل) جارّ ومجرور نعت لحجارة (منضود) نعت لسجّيل مجرور .

وجملة : " جاء أمرنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . والشرط وفعله وجوابه معطوف على جملة قالوا الاستئنافيّة .

وجملة: " جعلنا . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير الجازم.

وجملة: " أمطرنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط.

(مسوّمة) حال منصوبة من حجارة " 2 " ، (عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (مسوّمة) ، (ربّك) مضاف إليه مجرور و (الكاف) مضاف إليه (الواو) واو الحال (ما) نافية عاملة عمل ليس (هي) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع اسم ما ، (من الظالمين) جارّ ومجرور متعلّق ببعيد (الباء) حرف جرّ زائد (بعيد) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما .

---

(1) في الآية (66) من هذه السورة.

(2) صحّ مجيّ الحال من حجارة لأنها وصفت . . ويجوز أن تكون نعتا .

وجملة: " ما هي . . . " في محلّ نصب حال من حجارة " 1 " .

الصرف:

(أسر) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء ، مضارعه يسري ، وفيه عودة الهمزة المحذوفة في المضارع ، ماضيه أسرى . . وزنه أفع .

(قطع) ، اسم ومعناه نصف الليل لأن قطعة منه مساوية لباقيه . .

وانظر الآية (27) من سورة يونس .

(مصيب) ، اسم فاعل من أصاب الرباعيّ ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين . . وفي الكلمة إعلال بالتسكين وإعلال بالقلب . . أمّا التسكين ففي جعل حرف العلة ساكنا ونقل الحركة إلى الصاد قبله ، أصله مصيب - بكسر الياء - فأصبح مصيب - بكسر الصاد وسكون الياء .

والإعلال بالقلب هو قلب الواو - لأنه من الصواب - إلى ياء لسكونها وكسر ما قبلها ، والأصل مصوب نقل إلى مصيب .

(الصبح) ، اسم للوقت المحدد المعروف ويمتد إلى ما قبل طلوع الشمس .

(سافل) ، اسم فاعل من سفل يسفل باب نصر وباب فرح وباب كرم ، وزنه فاعل ، وهو الجزء المنخفض من البناء أو المدينة .

(سجّيل) ، اسم جامد ذات ، بمعنى الطين اليابس ، وزنه فعّيل بكسر الفاء والعين المشدّدة .

(منضود) ، اسم مفعول من نضد الثلاثيّ ، وزنه مفعول .

البلاغة

إرسال المثل أو التمثيل : في قوله تعالى "أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ" وهو فن يمكن تعريفه : أن يكون ما يخرجه المتكلم ساريا مسير الأفعال السائرة .

(1) يجوز قطع الجملة على الاستئناف، فلا محلّ لها.

[سورة هود (11) : الآيات 84 إلى 86]

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86)

الإعراب:

(وإلى مدين... إله غيره) مرّ إعراب نظيرها " 1 "، (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تنقصوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون.. والواو فاعل (المكيال) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (الميزان) معطوف على المكيال منصوب (إنّ) حرف مشبّه بالفعل

و (الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (أراكم) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف، والفاعل أنا . . و (كم) ضمير مفعول به (بخير) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف مفعول به ثان - أو حال - (الواو) عاطفة (إنّي أخاف) مثل إنّي أرى (على) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أخاف) ، (عذاب) مفعول به منصوب (يوم) مضاف إليه مجرور (محيط) نعت ليوم مجرور .

جملة : " (أرسلنا) إلى مدين . . . " معطوفة على جملة (أرسلنا) المذكورة في سياق قصص الأنبياء المتقدّم ذكرها " 2 " .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

---

(1) في الآية (50) من هذه السورة . . وانظر الآية (85) من سورة الأعراف .

(2) في الآية (50) من هذه السورة .

وجملة : " يا قوم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اعبدوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " ما لكم من إله . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة: "لا تنقصوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة اعبدوا .

وجملة: "إنّي أراكم . . . "لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "أراكم بخير . . . "في محلّ رفع خبر إنّ (الأول) .

وجملة: "إنّي أخاف . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّي أراكم.

وجملة: "أخاف عليكم . . . "في محلّ رفع خبر إنّ (الثاني) .

(369/388)

(الواو) عاطفة (يا قوم) مرّ إعرابها " 1 "، (أوفوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (المكيال) مفعول به منصوب (الميزان) معطوف على المكيال بالواو منصوب (بالقسط) جارّ ومجرور متعلّق بحال من فاعل أوفوا (الواو) عاطفة (لا تبخسوا الناس) مثل ولا تنقصوا المكيال (أشياءهم) مفعول به ثان منصوب . . و (هم) مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا تعثوا) مثل لا تنقصوا (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تعثوا)، (مفسدين) حال مؤكّدة لمضمون الجملة منصوبة وعلامة النصب الياء .

وجملة: "يا قوم . . . "في محلّ نصب معطوفة على جملة يا قوم السابقة.

وجملة: "أوفوا . . . "لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " لا تبخسوا الناس . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

---

(1) في الآية (50) من هذه السورة .

(370/388)

وجملة : " لا تعثوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

(بقيّة) مبتدأ مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (خير) خبر مرفوع (اللام) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخير (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . و (تم) ضمير اسم كان (مؤمنين) خبر كان منصوب وعلامة النصب الياء (الواو) عاطفة (ما أنا عليكم بحفيظ) مثل ما هي من الظالمين ببعيد " 1 " .

وجملة : " بقيّة اللّه خير " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " إن كنتم مؤمنين " لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي إن كنتم مؤمنين فإنّ بقيّة اللّه خير لكم ، فالخير مشروط بالإيمان .

وجملة : " ما أنا . . بحفيظ " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة إن كنتم مؤمنين .

الصرف :

(المكيال) ، اسم آلة من كال الثلاثيّ المتعدّي ، وزنه مفعال بكسر الميم .

(بقيّة) ، رسمت في المصحف بالتاء المفتوحة ، وليس في القرآن غيرها رسمت كذلك .

البلاغة

التكرار : في قوله تعالى " وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ " .

فقد وقع التكرار في هذه القصة من ثلاثة أوجه ، لأنه قال ولا تنقصوا

(1) في الآية (83) من هذه السورة .

المكيال والميزان ، وهذا عين الأول ، وليس فيه إلا التعبير بتبخسوا الناس أشياءهم .

والفائدة فيه ، أن القوم لما كانوا مصرين على ذلك العمل القبيح احتيج في المنع منه إلى المبالغة في التأكيد ، والتكرير يفيد شدة الاهتمام بالشيء وقد نهوا أولا عن القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ، ثم ورد الأمر بالإيفاء مصرحا بلفظه ، ليكون أهيج عليه وأدعى إلى الترغيب فيه .

[سورة هود (11) : آية 87]

قالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ

لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87)

الإعراب:

" قالوا يا شعيب " مثل قالوا يا صالح " 1 " ، (الهمزة) للاستفهام التهكّميّ (صلاتك) مبتدأ مرفوع.. و (الكاف) ضمير مضاف إليه (تأمرك) مضارع مرفوع.. و (الكاف) ضمير مفعول به والفاعل هي (أن) حرف مصدريّ ونصب (نترك) مضارع منصوب، والفاعل نحن (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يعبد) مثل تأمر (آباؤنا) فاعل مرفوع.. و (نا) ضمير مضاف إليه (أو) حرف عطف (أن نفعل) مثل أن نترك (في أموالنا) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نفعل).. و (نا) مثل الأخير (ما) مثل الأول (نشاء) مثل تأمر، والفاعل نحن.

والمصدر المؤوّل (أن نترك) في محلّ نصب مفعول به عامله تأمر " 2 ".

والمصدر المؤوّل (أن نفعل..) في محلّ نصب - أو جرّ - معطوف على المصدر المؤوّل الأول.

(إنّك) مثل إنّي " 3 " ، (اللام) المزحلقة (أنت) ضمير منفصل مبنيّ في

---

(1) في الآية (62) من هذه السورة. [.....]

(2) أو في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (تأمر) ، أي تأمرك بأن نترك.

(3) في الآية (84) من هذه السورة.

محلّ رفع مبتدأ (الحليم) خبر مرفوع (الرشيد) خبر ثان مرفوع.

جملة: "قالوا ... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يا شعيب ... "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "أصلاتك تأمرك ... "لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "تأمرك ... "في محلّ رفع خبر المبتدأ صلاتك.

وجملة: "نترك "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الأول.

وجملة: "يعبد آباؤنا "لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "نفعل ... "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) الثاني.

وجملة: "نشاء "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني.

وجملة: "إنك لأنت الحليم "لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

وجملة: "أنت الحليم "في محلّ رفع خبر (إنّك).

الصرف:

(شعيب) اسم علم، وزنه فعيل على وزن التصفير وهو من الأوزان الأعلق بالأسماء

ولذلك صرف.

الفوائد

- رأي سديد في إعراب (أن نفعل):

قال تعالى في هذه الآية أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا فإنه يتبادر إلى الذهن عطف (أَنْ نَفْعَلَ) على (أَنْ نَتْرُكَ) وذلك باطل لأنه لم يأمرهم أن يفعلوا في أموالهم ما يشاءون، وإنما هو عطف على ما، فهو معمول للترك، والمعنى أن نترك أن نفعل نعم من قرأ تفعل وتشاء بالتاء لا بالنون فالعطف على أن نترك، وموجب الوهم المذكور أن المعرب يرى أن والفعل مرتين، وبينهما حرف عطف.

وقد أكد أبو البقاء العكبري نفس هذا الإعراب فقال: (أَوْ أَنْ نَفْعَلَ) في موضع نصب عطفا على ما يعبد، والتقدير أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نترك أن نفعل، وليس بمعطوف على أن نترك إذ ليس بالمعنى أصلاتك تأمرك أن نفعل في أموالنا.

[سورة هود (11): الآيات 88 إلى 89]

قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ

إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَما تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88) وَيا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (89)

الإعراب:

(قال يا قوم... رزقا حسنا) مرّ إعراب نظيرها " 1 "، والمفعول الثاني محذوف تقديره هل أخالف أمره " 2 " (الواو) عاطفة (ما) حرف نفي (أريد) مضارع مرفوع، والفاعل أنا (أن أخالفكم) مثل أن نترك " 3 "، و (كم) مفعول به والمصدر المؤوّل (أن أخالفكم) في محلّ نصب مفعول به عامله أريد المنفي.

(إلى) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أخالف) " 4 "، (أنهاكم) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على

---

(1) في الآية (28) من هذه السورة.

(2) أو هل أخون وحيه.. أو أأتبع الضلال. أو هل أبخس الناس أشياءهم.. إلخ.

(3) في الآية (87) من هذه السورة.

(4) يجوز أن يكون (ما) نكرة موصوفة في محلّ جرّ.. والجملة بعدها نعت لها في محلّ جرّ.

الألف، والفاعل أنا . . و (كم) ضمير مفعول به (عن) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنهاكم) ، (إن) حرف نفي (أريد) مثل الأول (إلّا) أداة حصر (الإصلاح) مفعول به منصوب (ما) حرف مصدريّ ظرفيّ (استطعت) فعل ماض وفاعله.

والمصدر المؤوّل (ما استطعت . .) في محلّ نصب ظرف زمان متعلّق بـ (أريد) ، أي أريد الإصلاح مدة استطاعتي.

(الواو) عاطفة (ما) حرف نفي (توفيقي) مبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء، و (الياء) ضمير مضاف إليه (إلّا) مثل الأولى (باللّه) جارّ ومجرور خبر المبتدأ (عليه) مثل عنه متعلّق بـ (توكّلت) ويعرب مثل استطعت (الواو) عاطفة (إليه) مثل عنه متعلّق بـ (أنيب) ويعرب مثل أريد.

جملة: " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " النداء وجوابها . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " أرأيتم . . . " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: " إن كنت . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه

الكلام السابق .

وجملة : " رزقني . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاعتراضيّة .

وجملة : " ما أريد . . . " لا محل لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " أخالفكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " أنهاكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " إن أريد . . . " لا محل لها تعليليّة .

وجملة : " استطعت " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " ما توفيقي إلّا باللّه " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " عليه توكّلت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة في حيّز القول .

وجملة : " إليه أنيب " لا محل لها معطوفة على جملة توكّلت .

(375/388)

(الواو) عاطفة (يا قوم) مثل الأولى (لا) ناهية جازمة (يجرمنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ جزم . . و (النون) نون التوكيد و (كم) ضمير مفعول به أوّل (شقاقي) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء . . و (الياء) مضاف إليه " 1 " ، (أن

يصيبكم) مثل أن أخالفكم " 2 " ، (مثل) فاعل مرفوع " 3 " ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (أصاب) فعل ماض ، والفاعل هو وهو العائد (قوم) مفعول به منصوب (نوح) مضاف إليه مجرور (أو) حرف عطف في الموضعين (قوم هود - قوم صالح) مثّل قوم نوح معطوفان عليه (الواو) استئنافيّة (ما قوم لوط منكم ببعيد) مثل ما هي من الظالمين ببعيد " 4 " .

والمصدر المؤوّل (أن يصيبكم) في محلّ نصب مفعول به ثان عامله يجرمنّكم .

وجملة : " يا قوم " في محلّ نصب معطوفة على جملة يا قوم الأولى .

وجملة : " لا يجرمنكم شقاقي " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " يصيبكم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

---

(1) هذا الضمير في المعنى هو مفعول المصدر أي معاداتكم لي .

(2) في الآية (88) من هذه السورة .

(3) وهو في الأصل صفة لموصوف محذوف أي عذاب مثل ما أصاب . . .

(4) في الآية (83) من هذه السورة .

وجملة: "أصاب . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة: "ما قوم . . ببعيد "لا محلّ لها استئنافيّة أو اعتراضيّة.

الصرف:

(استطعت) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون، أصله استطاعت، فلمّا بني الفعل على السكون لاتّصاله بضمير الرفع حذف الألف لالتقاء الساكنين، وزنه استفلت.

[سورة هود (11) : آية 90]

وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (استغفروا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (ربّكم) مفعول به منصوب . . و (كم) ضمير مضاف إليه (ثمّ) حرف عطف (توبوا) مثل استغفروا (إلى) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق ب (توبوا) ، (أنّ) حرف مشبّه بالفعل (ربّي) اسم إنّ منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء . . و (الياء) مضاف إليه (رحيم) خبر إنّ مرفوع (ودود) خبر ثان مرفوع.

جملة: "استغفروا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء في السابقة.

وجملة: "توبوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة استغفروا.

وجملة: " إنّ ربّي رحيم " لا محلّ لها تعليليّة.

الصرف:

(ودود)، من صيغ المبالغة لفعل ودّ يودّ المتعدّي باب فتح، وزنه فعول.

[سورة هود (11) : آية 91]

قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ (91)

الإعراب:

(377/388)

(قالوا يا شعيب) مثل قالوا يا صالح " 1 "، (ما) نافية (نفقه) مضارع مرفوع، والفاعل نحن (كثيرا) مفعول به منصوب (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق بنعت لـ (كثيرا) " 2 "، (تقول) مثل نفقه والفاعل أنت (الواو) عاطفة (إنّا) مثل إنّي " 3 "، (اللام) المزحلقة تفيد التوكيد (نراك) مضارع مثل أراكم " 4 "، والفاعل نحن (في) حرف جرّ و (نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نراك)، (ضعيفا) حال منصوبة من ضمير الخطاب " 5 "، (الواو) عاطفة (لولا) حرف شرط غير جازم (رهطك) مبتدأ مرفوع.. و (الكاف)

مضاف إليه ، والخبر محذوف (اللام) واقعة في جواب لولا (رجمنا) فعل ماض وفاعله (الكاف) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (أنت) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع اسم ما (علينا) مثل فينا متعلّق بـ (عزيز) ، (الباء) حرف جرّ زائد (عزيز) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " النداء وجوابها " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ما نفقه . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " تقول . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الاسميّ أو الحرفيّ .

وجملة : " إنّا لنراك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " نراك . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

---

(1) في الآية (62) من هذه السورة .

(2) يجوز أن يكون حرفا مصدريّا ، والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ .

(3 ، 4) في الآية (84) من هذه السورة .

(5) أو مفعول به ثان لفعل الرؤية إذا كانت قلبيّة . [. . . . .]

وجملة: "لولا رهطك" لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء.

وجملة: "رجمناك" لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "ما أنت.. بعزيز" لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء "1".

الصرف:

(رهط)، اسم جمع.. قال الزمخشريّ من الثلاثة إلى العشرة، وقيل إلى التسعة، وزنه فعل بفتح فسكون، جمعه أرهط، وهذا يجمع على أراهط.

[سورة هود (11): آية 92]

قالَ يا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92)

الإعراب:

(قال يا قوم) مرّ إعرابها "2"، (الهمزة) للاستفهام (رهطي) مبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء.. و(الياء) مضاف إليه (أعزّ) خبر مرفوع (على) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بأعزّ (من الله) جارّ ومجرور متعلّق بأعزّ (الواو) واو الحال (اتّخذتم) فعل ماض وفاعله و(الواو) زائدة، إشباع حركة الميم (الهاء) ضمير مفعول به (وراءكم) ظرف منصوب متعلّق بـ (اتّخذتم) "3". و(كم) ضمير

مضاف إليه (ظهريّا) مفعول به ثان منصوب لفعل اتّخذتم " 4 " ، (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (ربّي) اسم إنّ منصوب وعلامة النصب الفتحة

---

(1) يجوز أن تكون حالا من ضمير الخطاب في (رجمناك) .

(2) في الآية (78) من هذه السورة .

(3) يجوز أن يكون متعلّقا بحال من (ظهريّا) ويجوز أن يكون المفعول الثاني لـ (اتّخذتم) ، وظهريّا حال .

(4) وهو حال من المفعول إذا كان الفعل متعدّيا لمفعول واحد .

المقدّرة . . و (الياء) مضاف إليه (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 1 " ، (تعملون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (محيط) خبر إنّ مرفوع.

والمصدر المؤوّل (ما تعملون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بمحيط .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يا قوم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أرهطي أعزّ . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة: "اتّخذتموه... " في محلّ نصب حال بتقدير (قد).

وجملة: "إنّ ربّي.. محيط " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

وجملة: "تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الحرفيّ أو الاسميّ.

الصرف:

(ظهريّا)، لفظ منسوب إلى الظهر، وزنه فعليّ بكسر الفاء، والكسر من تغييرات النسب، والفتح أقيس.

[سورة هود (11): آية 93]

وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (يا قوم) مرّ إعرابها " 2 "، (اعملوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون.. والواو فاعل (على مكانة) جارّ ومجرور متعلّق بحال من فاعل اعملوا أي حاصلين على مكانتكم.. و (كم) ضمير مضاف إليه (إنّي) حرف مشبّه بالفعل واسمه (عامل) خبر إنّ مرفوع (سوف) حرف استقبال (تعلمون) مثل تعملون " 3 "، (من) اسم موصول في

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ والعائد محذوف.

(2) في الآية (78) من هذه السورة.

(3) في الآية السابقة.

محلّ نصب مفعول به " 1 " ، (يأتي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء و (الهاء) ضمير مفعول به (عذاب) فاعل مرفوع (يخزيه) مثل يأتيه (الواو) عاطفة (من) مثل الأول ومعطوف عليه (هو) ضمير منفصل مبتدأ (كاذب) خبر مرفوع (الواو) عاطفة (ارتقبوا) مثل اعملوا (إنّي) حرف مشبّه بالفعل واسمه (معكم) ظرف منصوب متعلّق برقيب . .

و (كم) ضمير مضاف إليه (رقيب) خبر إنّ مرفوع.

جملة : " يا قوم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة النداء المتقدّمة " 2 " .

وجملة : " اعملوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " إنّي عامل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " سوف تعلمون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر .

وجملة : " يأتيه عذاب " لا محلّ لها صلة الموصول (من) " 3 " .

وجملة: "هو كاذب" لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني.

وجملة: "ارتقبوا... " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء.. وما بين المعطوف والمعطوف عليه نوع من الاعتراض.

وجملة: "إنّي معكم رقيب" لا محلّ لها تعليليّة.

البلاغة

1 - الاستئناف البياني: في قوله تعالى "وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ".

---

(1) أو اسم استفهام مبتدأ خبره جملة: يأتيه عذاب.

(2) في الآية السابقة (92).

(3) أو هي خبر للمبتدأ (من) الاستفهاميّة.

فإن قلت: أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها في "سَوْفَ تَعْلَمُونَ"؟

قلت: إدخال الفاء: وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزعها: وصل خفي تقديريّ بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدّر، كأنهم قالوا: فما ذا يكون إذا عملنا نحن على

مكانتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون، فوصل تارة بالفاء، وتارة بالاستئناف، للتفنن في البلاغة، كما هو عادة بلغاء العرب وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف، وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه.

2 - التعريض: في قوله تعالى "إِنِّي عامِلٌ" فقد ذكر لهم احدى العاقبتين، دون ذكر الثانية وهو تعريض أبلغ من التصريح. وقد تقدم نظير هذا في سورة الأنعام إذ قال "قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ" فذكر هناك إحدى العاقبتين لأن المراد بهذه العاقبة عاقبة الخير واستغنى عن ذكر مقابلتها.

[سورة هود (11): الآيات 94 إلى 95]

وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (94) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ (95)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (لّما جاء أمرنا . . . برحمة منّا) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (الواو) عاطفة (أخذت الذين . . . جاثمين) مرّ إعراب نظيرها " 2 " .

جملة : " جاء أمرنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " نجّينا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

---

(1) في الآية (66) من هذه السورة .

(2) في الآية (67) من هذه السورة .

وجملة : " أخذت . . . الصيحة " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " ظلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " أصبحوا . . . جاثمين " لا محلّ لها معطوفة على جملة أخذت . . .

(كأن لم يغنوا . . . بعدا لمدين) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (الكاف) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ (بعدت) فعل ماض . . و (التاء) للتأنيث (ثمود) فاعل مرفوع .

والمصدر المؤوّل (ما بعدت ثمود) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بـ (بعدا) .

وجملة: "كأن لم يغنوا... " في محلّ نصب خبر ثان للفعل الناقص أصبحوا " 2 " .

وجملة: " لم يغنوا فيها... " في محلّ رفع خبر كأن المخفّفة.

وجملة: (بعدت) بعدا... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " بعدت ثمود " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

[سورة هود (11) : الآيات 96 إلى 97]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (96) إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف

---

(1) في الآية (68) من هذه السورة.

(2) أو في محلّ نصب حال من الضمير الفاعل في (أصبحوا) التام.. ويجوز أن تكون في محلّ نصب حال من الضمير المستكن في (جاثمين) خبر الفعل الناقص أصبحوا..

[.....]

تحقيق (أرسلنا) فعل ماض وفاعله (موسى) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (بآيات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أرسلنا)، و (نا) ضمير مضاف إليه في محلّ جر (الواو) عاطفة (سلطان) معطوف على آيات مجرور (مبين) نعت لسلطان مجرور.

جملة: "القسم المقدّرة" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أرسلنا ..." لا محلّ لها جواب القسم.

(إلى فرعون) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أرسلنا)، وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من الصرف (الواو) عاطفة (ملئه) معطوف على فرعون مجرور.. و (الهاء) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (اتّبعوا) فعل ماض وفاعله (أمر) مفعول به منصوب (فرعون) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (الواو) حاليّة "1"، (ما) نافية عاملة عمل ليس (أمر) اسم ما مرفوع (فرعون) مثل الأخير (الباء) حرف جرّ زائد (رشيد) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما.

وجملة: "اتّبعوا ..." لا محلّ لها معطوفة على جملة مقدّرة مستأنفة "2".

وجملة: "ما أمر فرعون برشيد" في محلّ نصب حال "3".

[سورة هود (11): آية 98]

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98)

الإعراب:

(يقدم) مضارع مرفوع، والفاعل هو أي فرعون (قومه)

---

(1) أو استئنافيّة.

(2) أي: فكفر بها فرعون، وأمرهم فرعون بالكفر، فاتّبعوا أمر فرعون . . ويجوز أن تكون معطوفة على جملة أرسلنا.

(3) أو هي استئنافيّة لا محلّ لها.

مفعول به منصوب، و (الهاء) مضاف إليه (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يقدم)، (القيامة) مضاف إليه مجرور (الفاء) عاطفة (أورد) فعل ماض " 1 "، والفاعل هو و (هم) ضمير مفعول به أوّل (النار) مفعول به ثان منصوب (الواو) استئنافيّة (بئس) فعل ماض جامد لإنشاء الذم (الورد) فاعل بئس مرفوع، وفيه حذف مضاف أي مكان الورد " 2 "، (المورود) وهو المخصوص بالذم خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو " 3 ".

جملة: " يقدم قومه . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " أوردهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: " بئس الورد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 4 ".

الصرف :

(الورد) ، الاسم لفعل ورد يرد باب ضرب ، وزنه فعل بكسر فسكون ، وقد يأتي بمعنى الورود مصدرا .

(المورود) ، اسم مفعول من الثلاثي ورد وزنه مفعول .

الفوائد

- أفعال المدح والذم :

ورد في هذه الآية قوله تعالى فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ فالفعل

---

(1) قال أبو حيان في البحر : " عدل عن فيوردهم إلي فأوردهم لتحقّق وقوعه لا محالة فكأنه قد وقع ، ولما في ذلك من الإرهاب والتخويف . . أو هو ماض حقيقة أي فأوردهم في الدنيا النار أي موجبه وهو الكفر ، ويبعد هذا التأويل الفاء " أ ه .

(2) احتيج إلى تقدير المضاف ليطابق فاعل بئس المخصوص بالذم .

(3) أجاز ابن عطيّة أن يكون (المورود) نعتا للورد فاعل بئس ، والمخصوص بالذم محذوف تقديره النار ، وردّ ذلك ابن السّراج والفارسيّ وتبعهما أبو حيّان لأن فاعل أفعال المدح والذم لا يوصف على الصحيح .

(4) أو حاليّة .

بئس هو فعل جامد من أفعال الذم، وسنورد فيما يلي شيئًا عن أفعال المدح والذم.

1 – نعم وحبذا فعلان للمدح، بئس ولا حبذا فعلان للذم.

2 – يجب في فاعل نعم وبئس أن يكون مقترنا بـ ال: (نعم الخلق الصدق) (بئس الخلق الكذب)، أو مضافا لمقترن بها (نعم فعل الرجل الإحسان) (بئس فعل الرجل الإساءة) أو ضميرا مميزا بنكرة (نعم خلقا الكرم) (بئس خلقا البخل)، أو مميزا بكلمة (ما) (بئس ما صنعت الخديعة).

3 – يجوز تقديم المخصوص بالمدح أو الذم على فعله مثل: الصدق نعم الخلق، الكذب بئس الخلق.

4 – وتستعمل حبذا كنعم، ولا حبذا كبئس. مثل: حبذا الصدق. لا حبذا الكذب.

5 – نعرب نعم: فعل ماض لإنشاء المدح، وبئس فعل ماض لإنشاء الذم، ونعرب حبذا فعل ماض للمدح، وذا اسم إشارة في محل رفع فاعل. ونعرب لا حبذا: فعل ماض جامد دل تركيبه مع لا على إنشاء الذم، وذا اسم إشارة فاعل.

6 – المشهور في إعراب المخصوص بالمدح أو الذم أنه يعرب خبرا لمبتدأ محذوف.

ويجوز إعرابه مبتدأ والجملة قبله خبره.

أما إذا تقدم على الفعل فوجب إعرابه مبتدأ والجملة بعده خبره.

[سورة هود (11) : آية 99]

وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (99)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (أتبعوا في هذه... يوم القيامة) مرّ إعراب نظيرها " 1 "، (بئس الرفد المرفود) مثل بئس الورد المورود " 2 ".

جملة: "أتبعوا... " لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) في الآية (60) من هذه السورة.

(2) في الآية السابقة (98).. والمخصوص بالذم محذوف في رأي الزمخشريّ تقديره رفدهم بجعل المرفود نعتا للرفد وهذا ما ردّه ابن السرّاج وغيره، والظاهر أن المعنى في الآية بئس عاقبة الرفد العذاب المرفود بلعنة الآخرة.

وجملة: " بئس الرفد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(الرفد)، الاسم لفعل رفد يرفد باب ضرب وهو ما يستعان به من مال وغيره، وزنه فعل بكسر فسكون، أمّا المصدر فبفتح الفاء.

(المرفود)، مثل المورود، اسم مفعول من فعل رفد الثلاثيّ، وزنه مفعول.

[سورة هود (11) : الآيات 100 إلى 102]

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ (100) وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101) وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102)

الإعراب:

(ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ . . و (اللام) للبعد، و (الكاف) للخطاب والإشارة إلى المذكور من قصص الأنبياء (من أنباء) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر " 1 " (القرى) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (نقصّ) مضارع مرفوع، والفاعل نحن للتعظيم و (الهاء) ضمير مفعول به (على) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نقصّ)، (من) حرف جرّ و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق

بمحذوف خبر مقدّم (قائم) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الواو) عاطفة (حصيد) مبتدأ مرفوع خبره محذوف تقديره منها حصيد .

جملة : " ذلك من أنباء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نقّصه عليك . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (ذلك) .

---

(1) واختار أبو حيّان أن يكون الجارّ والمجرور حالا من الهاء في (نقّصه) .

(388/388)

وجملة : " منها قائم " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " (منها) حصيد " لا محلّ لها معطوفة على جملة منها قائم .

(الواو) عاطفة (ما) نافية (ظلمنا) فعل ماض وفاعله و (هم) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (لكن) حرف استدراك (ظلموا) فعل ماض وفاعله (أنفسهم) مفعول به منصوب . . و (هم) مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ما) مثل الأولى (أغنت) فعل ماض . . و (التاء) للتأنيث ، والفتح مقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين (عن) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أغنت) ، (آلهتهم) فاعل مرفوع و (هم) مضاف إليه (التي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع نعت لآلهة (يدعون) مضارع مرفوع . .

والواو فاعل (من دون) جارّ ومجرور حال من آلهة (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (من) حرف جرّ زائد (شيء) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي إغناء ما (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بمضمون الجواب (جاء) فعل ماض (أمر) فاعل مرفوع (ربّ) مضاف إليه مجرور . . و (الكاف) في محلّ جرّ مضاف إليه (الواو) عاطفة (ما) مثل الأولى (زادوا) مثل ظلموا . . (هم) ضمير مفعول به (غير) مفعول به ثان منصوب (تتبيب) مضاف إليه مجرور .

وجملة: " ما ظلمناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ذلك من أنباء .

وجملة: " ظلموا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما ظلمناهم .

وجملة: " ما أغنت . . آلهتهم " جواب شرط مقدّر أي لمّا جاء أمر اللّه

---

(1) هي عند العكبريّ حال من الضمير في (نقصّه) وجعل ذلك أبو حيّان من باب التجوّز .

(389/388)

فما أغنت " 1 " .

وجملة: " يدعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " لمّا جاء أمر . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : لمّا جاء أمر ربّك فما أغنت . . .

وجملة : " ما زادوهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما أغنت جواب الشرط .

(الواو) عاطفة (الكاف) حرف جرّ " 2 " ، (ذلك) إشارة في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم . . و (اللام) للبعد ، و (الكاف) للخطاب (أخذ) مبتدأ مؤخر مرفوع (ربّك) مضاف إليه مجرور . . و (الكاف) مضاف إليه (إذا) ظرف لما يستقبل من الزمان مجرّد من الشرط متعلّق بالمصدر أخذ " 3 " (أخذ) فعل ماض ، والفاعل هو (القرى) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف " 4 " ، (الواو) واو الحال (هي) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (ظالمة) خبر مرفوع (إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - (أخذه) اسم إنّ منصوب . . و (الهاء) مضاف إليه (أليم) خبر إنّ مرفوع (شديد) خبر ثان مرفوع .

وجملة : "كذلك أخذ ربّك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما ظلمناهم " 5 " .

---

(1) يجوز أن تكون الجملة مستأنفة .

(2) أو اسم بمعنى مثل في محلّ رفع خبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر أخذ .

(3) يجوز أن يكون الظرف شرطيّا والجواب محذوف أي إذا أخذ القرى كان أخذه كذلك . [. . . . .]

(4) في الكلام تنازع بين المصدر أخذ والفعل أخذ ، وقد أعمل الثاني وحذف الضمير من المصدر أي أخذ ربّك إياها .

(5) أو على جملة ذلك من أنباء . . .

(390/388)

وجملة : " أخذ القرى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " هي ظالمة . . " في محلّ نصب حال من القرى .

وجملة : " إنّ أخذه أليم " لا محلّ لها تعليليّة " 1 " .

الصرف :

(أغنت) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة التقاء الساكنين ، أصله أغنات ، جاءت الألف ساكنة مع تاء التأنيث فحذفت ، وزنه أفعت .

(تتبيب) ، مصدر قياسيّ لفعل تبّب الرباعيّ ، وزنه تفعيل .

(أخذ) ، مصدر سماعيّ لفعل أخذ الثلاثيّ ، وزنه فعل بفتح فسكون ، وثمّة مصدر سماعيّ آخر هو تأخاذ وزنه تفعال بفتح التاء .

[سورة هود (11) : الآيات 103 إلى 109]

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103) وَما نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (104) يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (105) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (106) خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (107)

وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108) فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ ما يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (109)

الإعراب:

(انّ) حرف توكيد (في) حرف جرّ (ذلك) إشارة في محلّ

(1) أو هي تفسير لجواب الشرط المقدّر إذا ضمّن الظرف معنى الشرط.

جرّ متعلّق بمحذوف خبر إنّ (اللام) لام التوكيد (آية) اسم إنّ مؤخّر منصوب (اللام) حرف جرّ (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بنعت لآية (خاف) فعل ماض، والفاعل هو وهو العائد (عذاب) مفعول به منصوب (الآخرة) مضاف إليه مجرور (ذلك) مرّ إعرابه " 1

" والإشارة إلى يوم القيامة (يوم) خبر مرفوع (مجموع) نعت ليوم مرفوع " 2 " ، (اللام) جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمجموع (الناس) نائب الفاعل لمجموع فهو اسم مفعول مرفوع (الواو) عاطفة (ذلك يوم مشهود) مثل ذلك يوم مجموع.

جملة: " إنّ في ذلك لآية . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " خاف . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة: " ذلك يوم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

(392/388)

وجملة: " ذلك يوم (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة الأخيرة.

(الواو) عاطفة (ما) نافية (نؤخّرة) مضارع مرفوع، و (الهاء) مفعول به، والفاعل نحن للتعظيم (إلّا) أداة حصر (لأجل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نؤخّره) ، (معدود) نعت لأجل مجرور مثله.

وجملة: " ما نؤخّره " لا محلّ لها معطوفة على جملة ذلك يوم مجموع . .

(يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تكلّم) ، (يأتي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء، والفاعل هو يعود على يوم في

---

(1) في الآية (100) من هذه السورة.

(2) أجاز ابن عطيّة أن يكون خبرا مقدّما للمبتدأ (الناس) ، وردّ ذلك أبو حيّان لأن ضمير مجموع هو مفرد وحقّه أن يكون جمعا أي مجموعون له الناس.

(393/388)

(يوم مجموع . .) " 1 " ، (لا) نافية (تكلّم) مضارع مرفوع حذف منه إحدى التاءين (نفس) فاعل مرفوع (إلّا) مثل الأولى (بإذنه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (لا تكلّم) " 2 " . . و (الهاء) مضاف إليه (الفاء) تعليليّة (منهم شقيّ وسعيد) مثل منها قائم وحصيد " 3 " .

وجملة : " يأتي . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة : " لا تكلم نفس " في محلّ نصب حال من فاعل يأتي ، والعائد في الجملة محذوف أي : لا تكلّم نفس فيه.

وجملة : " منهم شقيّ . . " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة : " (منهم) سعيد " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة.

(الفاء) عاطفة تفريعيّة (أمّا) حرف شرط وتفصيل (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (شقوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين بعد

الإعلال . . والواو فاعل (الفاء) رابطة لجواب أمّا (في النار) جارّ ومجرور متعلّق بخبر المبتدأ الذين (اللام) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (في) حرف جرّ و (ها) ضمير في محل جرّ متعلّق بالخبر المحذوف " 4 " ، (زفير) مبتدأ مؤخّر مرفوع (شهيق) معطوف على زفير بالواو مرفوع مثله .

وجملة : " الذين شقوا . . . " لا محلّ لها معطوفة التعليليّة .

وجملة : " شقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

---

(1) أو على لفظ الجلالة كقوله تعالى : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ . . ولكن الإعراب أعلاه أظهر .

(2) أو بمحذوف نعت لنفس أي : إلّا متحدّثة بإذنه .

(3) في الآية (100) من هذه السورة .

(4) أو بمحذوف حال من زفير – نعت تقدّم على المنعوت – .

وجملة : " لهم . . زفير " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

(خالدين) حال منصوبة من الضمير في (لهم) ، والعامل فيها ما عمل في الجارّ والمجرور

وعلامة النصب الياء (فيها) مثل الأول متعلّق بخالدين (ما) مصدريّة ظرفيّة (دامت) فعل ماض تام . . و (التاء) للتأنيث (السموات) فاعل مرفوع (الأرض) معطوف على السموات بالواو مرفوع مثله .

والمصدر المؤوّل (ما دامت . .) في محلّ نصب على الظرفيّة الزمانيّة متعلّق بخالدين أي مدّة بقائهما " 2 " (إلا) أداة استثناء (ما) اسم موصول مبني في محل نصب على الاستثناء المتصل أو المنقطع " 3 " (شاء) فعل ماض (ربّك) فاعل مرفوع . . و (الكاف) مضاف إليه ، ومفعول شاء محذوف أي إنقاذه من النار ، أو زيادة مدّتهما (إنّ ربّك فعّال) مثل إنّ أخذه أليم " 4 " ، (اللام) زائدة للتّقوية (ما) اسم موصول محلّه البعيد النصب على أنّه مفعول به للمبالغة فعّال (يريد) مضارع مرفوع ، والفاعل هو أي اللّه .

وجملة : " دامت السموات " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " شاء ربّك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول .

وجملة : " إنّ ربّك فعّال " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يريد " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من النار .

(2) المراد بهذا التوقيت التأبيد لقول العرب ما أقام ثبير ، وما لاح كوكب ، وضع العرب ذلك للتأبيد من غير نظر لفناء ثبير أو الكوكب أو لعدم فنائهما .

(3) من المحتمل أن يكون (ما) بمعنى (من) ويعني بذلك الكافرين الذين شقوا . .

ومن المحتمل أن يكون بمعنى المدّة أي مدّة بقاء السموات والأرض إلّا المدّة التي يريد اللّه زيادتها على ذلك.

(4) في الآية (102) من السورة.

(الواو) عاطفة (أمّا الذين . . شاء ربّك) مثل الأولى نظيرها و (سعدوا) ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على الضمّ . . والواو نائب الفاعل (عطاء) مفعول مطلق نائب عن المصدر لفعل محذوف مؤكّد لمضمون الجملة السابقة (غير) نعت لعطاء منصوب (مجذوذ) مضاف إليه مجرور.

وجملة: "الذين سعدوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الذين شقوا . .

وجملة: "دامت السموات . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة: "شاء ربّك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة (تك) مضارع ناقص مجزوم وعلامة الجزم السكون الظاهر على النون المحذوفة للتخفيف، واسمه ضمير مستتر تقديره أنت (في مرية) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبرتك (من) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 1 "، (يعبد) مضارع مرفوع (ها) حرف تنبيه (أولاء) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع فاعل (ما) نافية (يعبدون) مضارع مرفوع.. والواو فاعل (إلّا) أداة حصر (الكاف) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 2 " (يعبد) مثل الأول (آباؤهم) فاعل مرفوع.. و (هم) مضاف إليه (من) حرف جرّ (قبل) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يعبد).

والمصدر المؤوّل (ما يعبد..) الأول في محلّ جرّ بـ (من) متعلّق بمرية.

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ، والعائد محذوف، والجملة صلة.. ويجوز التعليق بنعت لمرية. [......]

(2) أو اسم موصول في محل جرّ، والعائد محذوف، والجملة صلة وتقدير المعنى. ما يعبدون إلّا أصناما كالتي يعبدها آباؤهم.

والمصدر المؤوّل (ما يعبد . .) الثاني في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق لفعل يعبدون أي : ما يعبدون إلّا عبادة كعبادة آبائهم .

(الواو) عاطفة (إنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (اللام) المزحلقة (موفّوهم) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو . . و (هم) ضمير مضاف إليه (نصيبهم) مفعول به لاسم الفاعل موفّوهم . . و (هم) مثل الأخير (غير) حال منصوبة من نصيب (منقوص) مضاف إليه مجرور .

وجملة : " لا تك في مرية . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن جاءك العلم بهذا فلا تك " 1 " .

وجملة : " يعبد هؤلاء " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " ما يعبدون إلّا . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يعبد آباؤهم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) الثاني .

وجملة : " إنّا لموفّوهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

الصرف :

(مجموع) ، اسم مفعول من جمع الثلاثيّ ، وزنه مفعول .

(مشهود) اسم مفعول من شهد الثلاثيّ ، وزنه مفعول .

(شقيّ) ، صفة مشبّهة من شقي يشقى باب فرح وزنه فعيل . . وفيه إعلال بالقلب ،

قلبت الواو إلى الياء لأن أصله شقيو، والمصدر الشقاوة والشقوة.. اجتمعت الياء والواو والأولى منهما ساكنة قلبت الواو إلى ياء وأدغمت مع الياء الأولى..

---

(1) يجوز قطعها على الاستئناف فلا محلّ لها.

(398/388)

(سعيد)، صفة مشبّهة من سعد يسعد باب فرح، وزنه فعيل.

(زفير)، مصدر زفر يزفر باب ضرب وزنه فعيل، وهذا الوزن هو ضابط مصدر الفعل الدالّ على صوت.. وثمّة مصدر آخر هو زفر بفتح فسكون.. والزفير إخراج النفس، وقد يكون مأخوذا من الزفر وهو الحمل على الظهر.

(شهيق)، مصدر شهق يشهق باب فرح وزنه فعيل، وهو ضدّ الزفير.

(شقوا)، فيه إعلال بالحذف أصله شقيوا، استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت حركتها إلى القاف قبلها بعد تسكينها، ولمّا اجتمع ساكنان حذفت الياء، وزنه فعوا بضمّ العين.

(فعّال) صيغة مبالغة اسم الفاعل، ووزنه هو لفظه.

(عطاء)، اسم مصدر من فعل أعطى الرباعيّ، مصدره القياسيّ إعطاء، والهمزة

الأخيرة منقلبة عن حرف العلة الياء لمجيئها متطرّفة بعد ألف زائدة.

(مجذوذ)، اسم مفعول من جذّ الثلاثيّ على وزن مفعول بفكّ إدغامه.

(مرية)، انظر الآية (17) من هذه السورة.

(موفّوهم)، اسم فاعل من وفّى الرباعيّ، وزنه مفعوّهم بضمّ الميم والعين.. في الكلمة إعلال بالحذف أصله موفّيوهم بضمّ الميم والياء وكسر الفاء، استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت حركتها إلى الفاء، ثمّ حذفت الياء لالتقاء الساكنين.

(منقوص)، اسم مفعول من نقص الثلاثيّ، وزنه مفعول.

(399/388)

البلاغة

1 - استعمال اسم المفعول مكان فعله: في قوله تعالى "ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ" والسر في ذلك هو لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه يوم لا بدّ من أن يكون ميعادا مضروبا لجمع الناس له، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة، وهو أثبت أيضا لإسناد الجمع إلى الناس، وأنهم لا ينفكون منه ونظيره قول المتهدد: إنك لمنهوب مالك عروب قومك، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل والاتساع في

الظرف .

2 - الكناية : في قوله تعالى " وَما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ " أي لانتهاء مدة قليلة ، فالعد كناية عن القلة ، وقد يجعل كناية عن التناهي .

3 - الجمع مع التفريق : فالجمع في قوله تعالى " لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ " والتفريق في قوله " فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ " .

4 - التقسيم : في قوله تعالى " فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا " إلى آخر الآية .

5 - الاستعارة : في قوله تعالى " لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ " . والمراد الدلالة على كربهم وغمهم ، وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة وانحصر فيه روحه ، أو تشبيه أصواتهم بأصوات الحمير . ففي الكلام استعارة تمثيلية أو استعارة مصرحة .

الفوائد

- الاستثناء الوارد في الآيتين : (107 - 108) ورد في ها تين الآيتين بيا ن خلود أهل النار في النار وأهل الجنة في الجنة ، بيد أنه ورد استثناء وهو قوله تعالى إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ .

وسنورد فيما يلي آراء العلماء في هذا الاستثناء : اختلف العلماء في الاستثناءين ، فقال ابن عباس والضحاك .

الاستثناء الأول ، المذكور في أهل الشقاء ، يرجع إلى قوم من المؤمنين يدخلهم اللّه النار

بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها ، ويدل على صحة هذا التأويل ما

روي عن جابر

قال : قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلم) إن اللّه سبحانه وتعالى يخرج قوما من النار بالشفاعة فيدخلهم الجنة ، وفي رواية أن اللّه يخرج ناسا من النار فيدخلهم الجنة . أخرجه البخاري ومسلم .

وأما الاستثناء الثاني المذكور في أهل السعادة ، فيرجع إلى مدة لبث هؤلاء في النار قبل دخولهم الجنة ، فعلى هذا القول يكون معنى الآية : فأما الذين شقوا ففي النار ، لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ، إلا ما شاء ربك أن يخرجهم منها فيدخلهم الجنة . وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ أن يدخلهم النار أولا ثم يخرجهم منها فيدخلهم الجنة ، فحاصل هذا القول أن الاستثناءين يرجع كل واحد منهما إلى قوم مخصوصين ، هم في الحقيقة سعداء ، أصابوا ذنوبا استوجبوا بها عقوبة يسيرة في النار ، ثم يخرجون منها فيدخلون الجنة ، لأن إجماع الأمة على أن من دخل الجنة لا يخرج منها أبدا . وقيل : إن الاستثناءين يرجعان إلى

الفريقين السعداء والأشقياء ، وهو مدة تعميرهم في الدنيا ، واحتباسهم في البرزخ ، وهو ما بين الموت إلى البعث ، ومدة وقوفهم للحساب . وقيل معنى إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ : سوى ما شاء ربك ، فيكون المعنى خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من الزيادة على ذلك . وهو كقولك لفلان عليّ ألف إلا ألفين ، أي سوى ألفين . وقيل : إلا بمعنى الواو ، يعني وقد شاء ربك خلود هؤلاء في النار وخلود هؤلاء في الجنة . وقيل : لو شاء ربك لأخرجهم منها ، ولكنه لم يشأ ، لأنه حكم لهم بالخلود فيها . قال الفراء : هذا استثناء استثناه اللّه ولا يفعله . والصحيح هو القول الأول عن ابن عباس . ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى " إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ " بإخراج من أراد من النار وإدخالهم الجنة .

واللّه أعلم .

[سورة هود (11) : آية 110]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (110)

الإعراب :

(ولقد آتينا موسى) الآية مرّ إعرابها " 1 " ، (الكتاب) مفعول به ثان منصوب (الفاء) عاطفة (اختلف) فعل ماض مبنيّ للمجهول (في) حرف جرّ و (الهاء) في محلّ جرّ ، والجارّ والمجرور نائب الفاعل في محلّ رفع (الواو) عاطفة (لولا) حرف شرط غير جازم (كلمة) مبتدأ مرفوع ، والخبر محذوف وجوبا (سبقت) فعل ماض . . و (التاء) للتأنيث (من ربّك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (سبقت) . . و (الكاف) ضمير مضاف إليه (اللام) رابطة لجواب لولا (قضي) فعل ماض مبني للمجهول ، ونائب الفاعل محذوف مفهوم من السياق تقديره العذاب (بين) ظرف منصوب متعلق بـ (قضي) و (هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (إنّهم) حرف مشبّه بالفعل واسمه (اللام) المزحلقة (في شك) جارّ ومجرور متعلّق بخبر إنّ (من) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بشك (مريب) نعت لشك مجرور .

جملة : " آتينا موسى . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . وجملة القسم لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اختلف فيه " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتينا .

وجملة : " لولا كلمة . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " سبقت . . . " في محلّ رفع نعت لكلمة .

وجملة : " قضي بينهم " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة: "إنّهم لفي شكّ.. " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

---

(1) في الآية (96) من هذه السورة.

(402/388)

[سورة هود (11) : آية 111]

وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (111)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (إنّ) حرف مشبه بالفعل - ناسخ - (كلّا) اسم إنّ منصوب (لمّا) حرف نفي وجزم وقلب حذف فعله المجزوم به، والتقدير لمّا يوفوا أعمالهم " 1 "، (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (يوفّينّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع و (النون) نون التوكيد و (هم) ضمير في محلّ نصب مفعول به (ربّك) فاعل مرفوع.. و (الكاف) مضاف إليه (أعمالهم) مفعول به ثان منصوب.. و (هم) مضاف إليه (إنّه) مثل الأول مع اسمه (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ (يعملون) مضارع مرفوع..

والواو فاعل (خبير) خبر إنّ مرفوع.

والمصدر المؤوّل (ما يعملون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (خبير).

جملة : " إنّ كلّا لمّا . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لمّا (يوفوا أعمالهم) " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يوفّينّهم ربّك . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . .

وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

---

(1) أي إنهم إلى الآن لم يوفّوها وسيوفّونها . . هذا رأي ابن هشام في المغني . .

وقدره ابن الحاجب : لمّا يهملوا ، أو لمّا يتركوا . . وقد ردّ ابن هشام هذا التقدير بقوله : " إنّ منفيّ (لمّا) متوقّع الثبوت ، والإهمال غير متوقّع الثبوت " . . أمّا أبو حيّان فقد قدّر الفعل بقوله : وإنّ كلّا لمّا ينقص من جزاء عمله ، لأن جواب القسم في قوله تعالى : ليوفّينهم ربّك أعمالهم يدل عليه . هذا وإنّ حذف منفيّ (لمّا) وارد في لسان العرب يقولون : قاربت المدينة ولمّا . . أي ولمّا أدخلها . وثمّة أقوال كثيرة في تأويل (لمّا) المشدّدة وكلّها ضعيفة .

(2) جملة القسم المقدّرة مع جوابها لا محلّ لها صلة الموصول أو نعت لـ (ما) . . عند من يجعل كلمة (لمّا) مركبة من ثلاث كلمات : اللام - وهي المزحلقة - ومن حرف الجرّ ، وما اسم موصول أو نكرة موصوفة .

وجملة: "إنّه... خبير" لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "يعملون" لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) "1".

الفوائد

- أسرار القرآن الكريم:

حار علماء النحو واللغة في إعراب قوله تعالى في هذه الآية وهو وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ولم يصلوا إلى رأي قاطع، وهذا وإن دلّ على شيء فإنما يدل على عظمة كلام اللّه عز وجل وأن عقول البشر مهما بلغت لا تستطيع أن تدرك أسراره ومعانيه إدراكا تاما، فكلام اللّه عز وجل فوق البشر وفوق عقولهم وتصوراتهم، ومن ناحية أخرى فكلام اللّه أكبر من أن تتسع له قواعد اللغة وعقول النحاة، فهو فيض عظيم لا يمكن أن ينحصر في قوالب النحاة، ويأتي على قياس القواعد، فهو الأصل، وهو النبع، وهو الفيض، وما سواه ضحل قاصر لا يبلغ قطرة من بحره، ولا زهرة من جنانه وقصارى القول: إنه كلام اللّه.

[سورة هود (11): الآيات 112 إلى 113]

فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112) وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (113)

الإعراب:

(الفاء) استئنافيّة (استقم) فعل أمر، والفاعل أنت (الكاف) حرف جر "2"، (ما)

اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق (أمرت) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على السكون . .

و(التاء) نائب الفاعل ، والعائد محذوف أي أمرتها (الواو) عاطفة (من) اسم

---

(1) يجوز أن تكون صلة لـ (ما) وهو اسم موصول ، والعائد محذوف أي بما يعملونه .

(2) أو اسم بمعنى مثل في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه صفته أي استقم استقامة مثل التي أمرت بها .

(404/388)

موصول مبنيّ في محلّ رفع معطوف على فاعل استقم " 1 " (تاب) فعل ماض ، والفاعل هو وهو العائد (معك) ظرف منصوب متعلق بـ (تاب) " 2 " و (الكاف) مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تطغوا) مضارع مجزوم ، وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل (إنّه بما تعملون بصير) مثل إنّه . . . خبير " 3 " .

جملة : " استقم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أمرت " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تاب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة: "لا تطغوا... "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "إنّه... بصير" لا محل لها تعليليّة.

وجملة: "تعملون" لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

(الواو) عاطفة (لا تركنوا) مثل لا تطغوا (إلى) حرف جرّ (الذين) موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (تركنوا)، (ظلموا) فعل ماض وفاعله (الفاء) فاء السببيّة (تمسّ) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء و (كم) ضمير مفعول به (النار) فاعل مرفوع.

والمصدر المؤوّل (أن تمسّكم..) في محلّ رفع معطوف على مصدر متصيّد من الكلام المتقدّم أي: لا يكن منكم ركون إلى الذين ظلموا فمسّ النار لكم.

---

(1) لم يؤكّد بالضمير المنفصل لوجود الفاصل.. ويجوز أن يكون الموصول مفعولا معه بعد واو المعيّة.

(2) أو بمحذوف حال من فاعل تاب.

(3) في الآية السابقة (111).

(الواو) واو الحال (ما) نافية (اللام) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلق بخبر مقدّم (من دون) جارّ ومجرور حال من أولياء (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (من) حرف جرّ زائد (أولياء) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (ثمّ) حرف عطف (لا) نافية (تنصرون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع.. والواو نائب الفاعل.

وجملة: «لا تركنوا...» لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تطغوا.

وجملة: «ظلموا...» لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: «تمسّكم النار» لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة: «ما لكم.. من أولياء» في محلّ نصب حال من ضمير الخطاب في (تمسّكم) «1».

وجملة: «لا تنصرون» في محلّ نصب معطوفة على جملة ما لكم.. من أولياء.

الصرف:

(استقم)، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون، أصله أستقيم، بسكون الياء والميم، حذفت الياء لالتقاء الساكنين، وزنه استفل.

(تطغوا)، فيه إعلال بالحذف، أصله تطغاوا، لمّا التقى ساكنان حذفت الألف وبقي ما قبلها مفتوحا دلالة عليها، وزنه تفعوا، بفتح العين.. والألف في الفعل منقلبة عن ياء لأن مصدره الطغيان.

البلاغة

1 - الإيجاز : في قوله تعالى " فَاسْتَقِمْ " ذلك لأن الاستقامة هي الاستمرار في

---

(1) أي تمسّكم في حال انتفاء الناصر لكم .

(406/388)

جهة واحدة وأن لا يعدل يمينا أو شمالا ، وبالجملة فهذا الأمر منتظم لجميع محاسن الأحكام الأصلية والفرعية والكمالات النظرية والعملية ، والخروج من عهدته في غاية ما يكون من الصعوبة ، ولذلك قال رسول اللّه (ص) : شيبتني سوره هود .

2 - ائتلاف اللفظ مع المعنى : في قوله تعالى " وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ " .

إذ لما كان الركون إلى الذين ظلموا دون فعل الظالمين ، وجب أن يكون العقاب عليه دون عقاب الظالمين ، ومسّ النار في الحقيقة دون الإحراق ، ولما كان الإحراق عقابا للظالم ، أوجب العدل أن يكون المسّ عقاب الراكن إلى الظالم .

ولم يقل الظالمين ، وعدل عن ذلك إلى قوله " الَّذِينَ ظَلَمُوا " ، لما يحتمل الأول من استمرار الظلم الذي لا يلائم المساس ، ولا تحصل به المبالغة التي تحصل من لفظ الثاني من وقوع الظلم

على سبيل الندور ليلائم المعنى.

[سورة هود (11) : الآيات 114 إلى 115]

وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ (114) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (115)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (أقم) فعل أمر، والفاعل أنت (الصلاة) مفعول به منصوب (طرفي) ظرف زمان منصوب متعلّق بأقم، وعلامة النصب الياء (الليل) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (زلفا) معطوف على طرفي منصوب (من الليل) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لـ (زلفا)، (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (الحسنات) اسم إنّ منصوب وعلامة النصب الكسرة (يذهبن) مضارع مبنيّ على السكون في محلّ رفع.. و (النون) ضمير في محلّ رفع فاعل (السيّئات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ، والإشارة إلى طلب

الاستقامة.. و (اللام) للبعد، (والكاف) للخطاب (ذكرى) خبر مرفوع وعلامة الرفع

الضمّة المقدّرة على الألف (للذاكرين) جارّ ومجرور متعلّق بذكرى " 1 " ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " أقم الصلاة " لا محلّ لها معطوفة على الجملة الطلبيّة في الآية السابقة " 2 " .

وجملة : " إنّ الحسنات يذهبن . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يذهبن . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " ذلك ذكرى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(الواو) عاطفة (اصبر) مثل أقم (الفاء) تعليليّة (إنّ الله لا يضيع) مثل إنّ الحسنات يذهبن و (لا) نافية (أجر) مفعول به منصوب (المحسنين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " اصبر " لا محلّ لها معطوفة على جملة أقم .

وجملة : " إنّ الله لا يضيع . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " لا يضيع . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(طرفي) ، اسم استعمل ظرفا لأنه أضيف إلى الظرف . .

وانظر الآية (127) من سورة آل عمران .

(زلفا) ، جمع زلفة ، وهي الطائفة من الليل ، وزنه فعلة بضمّ الفاء وسكون العين ، ووزن زلف فعل بضمّ ففتح ، وقد يجمع زلفة على زلفات بضمّتين .

(الذاكرين) ، جمع الذاكر ، اسم فاعل من ذكر الثلاثيّ وزنه فاعل .

---

(1) أو بنعت لذكرى .

(2) أو هي استئنافيّة بعد واو الاستئناف .

(408/388)

الفوائد

- شروط التوبة :

دلت هذه الآية الكريمة على التوبة ، وأن فعل الحسنات يكون سببا لانمحاق الذنوب والسيئات . و

ورد حديث صحيح عن النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلم بمعنى هذه الآية وهو : " و أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن "

لكن الأمر يحتاج إلى توبة نصوح ولها شروط :

1 - الإقلاع عن الذنب بالكلية 2 - الندم على فعله .

3 - العزم التام ألا يعود إليه في المستقبل . فإذا حصلت هذه الشرائط صحت التوبة ، وكانت مقبولة ، إن شاء اللّه تعالى . وأضاف العلماء أنه ينبغي للتائب أن يرد الحقوق إلى

أهلها ، وأن يقضي ما فاته من حقوق اللّه كصلاة وصيام ، فإن عاجلته المنية قبل أن يتمكن من الوفاء كلا أو بعضا ، فإن الله عز وجل يغفر له .

[سورة هود (11) : آية 116]

فَلَوْلا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَكانُوا مُجْرِمِينَ (116)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (لولا) حرف تحضيض فيه معنى النفي (كان) ماض تام (من القرون) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كان) " 1 " ، (من قبل) جار ومجرور متعلّق بنعت للقرون " 2 " ، و (كم) ضمير مضاف إليه (أولو) فاعل مرفوع لفعل كان ، وعلامة الرفع الواو فهو ملحق بجمع المذكّر (بقية) مضاف إليه مجرور (ينهون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (عن

---

(1) أو بمحذوف حال من (أولو بقيّة) . [. . . . . .]

(2) وذلك بكون (ال) جنسيّة لا تعرّف الداخلة عليه . . وإذا كانت عهديّة فالجار والمجرور حال من القرون .

(الفساد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ينهون)، (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بالفساد "1"، (إلّا) حرف للاستثناء (قليلا) مستثنى منصوب والاستثناء متّصل أو منقطع "2" (من) حرف جرّ (من) اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق بنعت لـ (قليلا)، (أنجينا) فعل ماض وفاعله (من) كالأول و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من المفعول المحذوف أي أنجيناه منهم (الواو) عاطفة (اتّبع) فعل ماض (الذين) اسم موصول في محلّ رفع فاعل (ظلموا) فعل ماض وفاعله (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (أترفوا) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على الضمّ.. والواو نائب الفاعل (فيه) مثل منهم متعلّق بـ (أترفوا)، (الواو) عاطفة (كانوا) فعل ماض ناقص - ناسخ - والواو اسم كان (مجرمين) خبر كان منصوب وعلامة النصب الياء.

جملة: "لولا كان من القرون..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ينهون..." في محلّ رفع نعت لـ (أولو) "3".

وجملة: "أنجينا..." لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "اتّبع الذين..." لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي فما نهوا عن الفساد واتّبع الذين...

وجملة: "ظلموا..." لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "أترفوا فيه" لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "كانوا مجرمين" لا محلّ لها معطوفة على جملة اتّبع

---

(1) أو بحال منه.

(2) إذا كان التحضيض على معناه فالاستثناء منقطع و (إلّا) بمعنى لكن.

(3) أو في محلّ نصب حال من (أولو) لأنه تخصّص بالإضافة.

(410/388)

الذين " 1 " .

الصرف:

(بقيّة)، فيها وجهان: صفة على فعيلة للمبالغة بمعنى فاعلة ولذلك دخلت عليها التاء، والمراد بها جيّد الشيء وخياره.. أو مصدر بمعنى البقوى كالتقيّة بمعنى التقوى أي ذوو بقاء.. وانظر الآية (86) من هذه السورة.

[سورة هود (11) : آية 117]

وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ (117)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (كان) ماض ناقص (ربّك) اسم كان مرفوع.. و (الكاف)

مضاف إليه (اللام) لام الجحود أو الإنكار (يهلك) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام، والفاعل هو (القرى) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (بظلم) جارّ ومجرور حال من فاعل يهلك. (الواو) واو الحال (أهلها) مبتدأ مرفوع.. و (ها) ضمير مضاف إليه (مصلحون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو.

والمصدر المؤوّل (أن يهلك) في محلّ جرّ باللام متعلّق بمحذوف خبر كان.

جملة: "ما كان ربّك..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يهلك..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة: "أهلها مصلحون" في محلّ نصب حال من القرى "2".

---

(1) يجوز أن تكون اعتراضا تذييليا.

(2) ولكن لا باعتبار تقييد الفعل بما وقع حالا من فاعله بل مطلقا عن ذلك.

(411/388)

[سورة هود (11): الآيات 118 إلى 120]

وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119) وَكُلاًّ

نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (120)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (لو) حرف شرط غير جازم (شاء) فعل ماض (ربّك) فاعل مرفوع.. و (الكاف) مضاف إليه (اللام) رابطة لجواب لو (جعل) مثل شاء، والفاعل هو (الناس) مفعول به منصوب (أمّة) مفعول به ثان منصوب (واحدة) نعت لأمة منصوب (الواو) عاطفة (لا يزالون) مضارع ناقص - ناسخ - مرفوع.. والواو اسم لا يزال (مختلفين) خبر لا يزالون منصوب وعلامة النصب الياء.

جملة: "شاء ربّك..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "جعل الناس..." لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "لا يزالون..." لا محلّ لها معطوفة على جملة استئنافيّة مقدّرة أي لكنه لم يشأ فاختلف الناس ولا يزالون مختلفين.

(إلّا) حرف استثناء (من) اسم موصول مبني في محلّ نصب على الاستثناء (رحم ربّك) مثل شاء ربّك (الواو) استئنافيّة (اللام) حرف جرّ "1"، (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (خلقهم) "2"..

---

(1) قال أبو حيّان: "هذه اللام في التحقيق هي لام الصيرورة.. أي خلقهم ليصير أمرهم

إلى الاختلاف، ولا يتعارض هذا مع قوله: وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون لأن معنى هذا الأمر بالعبادة.

(2) وقد اختلف المفسّرون في المشار إليه كثيرا والأظهر أنه يعود إلى الاختلاف وإلى الرحمة.

(412/388)

و(اللام) للبعد، و(الكاف) للخطاب (خلق) فعل ماض و(هم) ضمير مفعول به، والفاعل هو (الواو) عاطفة (تمّت) فعل ماض.. و(التاء) للتأنيث (كلمة) فاعل مرفوع (ربّك) مضاف إليه مجرور.. و(الكاف) مضاف إليه (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (أملأن) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع..

و(النون) نون التوكيد، والفاعل أنا (جهنّم) مفعول به منصوب (من الجنّة) جار ومجرور متعلّق بـ (أملأن)، (الناس) معطوف على الجنّة بالواو مجرور مثله (أجمعين) توكيد معنويّ للناس مجرور وعلامة الجرّ الياء.

(413/388)

وجملة: " رحم ربّك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة: " خلقهم " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " تمّت كلمة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلقهم.

وجملة: " أملأن . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . وجملة القسم المقدّرة وجوابها لا محلّ لها تفسيريّة.

(الواو) عاطفة (كلّا) مفعول به مقدّم عامله نقصّ " 1 " ، (نقص) مضارع مرفوع، والفاعل نحن للتعظيم (على) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نقصّ) ، (من أنباء) جار ومجرور متعلّق بنعت لـ (كلّا) " 2 " ، (الرسل) مضاف إليه مجرور (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب بدل من (كلّا) " 3 " ، (نثبّت) مضارع مرفوع، والفاعل نحن للتعظيم (فؤادك) مفعول به منصوب . . و (الكاف) مضاف إليه (الواو) واو الحال (جاءك) فعل ماض . . و (الكاف) مفعول به (في) حرف جرّ (ها)

---

(1) أو هو مفعول مطلق نائب عن المصدر أي كلّ قصص نقصّ، ومفعول نقصّ قوله: ما نثبّت . .

(2) أو متعلّق بـ (نقصّ) .

(3) أو نكرة موصوفة، أو مصدريّة.

أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو.

(414/388)

حرف تنبيه (ذه) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بحال من (الحقّ) " 1 " وهو فاعل جاء مرفوع (الواو) عاطفة في الموضعين (موعظة، ذكرى) اسمان معطوفان على الحقّ مرفوعان، وعلامة الرفع في ذكرى الضمّة المقدّرة على الألف (للمؤمنين) جارّ ومجرور متعلّق بذكرى وعلامة الجرّ الياء.

وجملة: " نقصّ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلقهم.

وجملة: " نثبّت... " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) " 2 ".

وجملة: " جاءك.. الحقّ " في محلّ نصب حال من الأنباء بتقدير قد.

الصرف:

(مختلفين)، جمع مختلف، اسم فاعل من اختلف الخماسيّ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وكسر العين.

[سورة هود (11): الآيات 121 إلى 122]

وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (121) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (122)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (قل) فعل أمر، والفاعل أنت (اللام) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (قل)، (لا) نافية (يؤمنون) مضارع مرفوع.. والواو فاعل (اعملوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون.. والواو فاعل (على مكانتكم إنّا عاملون) مرّ إعراب نظيرها "3"، وعلامة رفع الخبر الواو.

---

(1) أو متعلّق بـ (جاء).

(2) أو في محلّ نصب نعت للنكرة الموصوفة (ما).. أو هي صلة الموصول الحرفيّ (ما)، والمصدر المؤوّل في محلّ نصب.

(3) في الآية (93) من هذه السورة. [.....]

جملة: "قل..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لا يؤمنون" لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: " اعملوا . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " إنّا عاملون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ . . أو تعليليّة.

(الواو) عاطفة (انتظروا إنّا منتظرون) مثل اعملوا . . إنّا عاملون.

وجملة: " انتظروا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة اعملوا.

وجملة: " إنّا منتظرون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ . . أو تعليليّة.

[سورة هود (11) : آية 123]

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123)

الإعراب:

(416/388)

(الواو) استئنافيّة (للّه) جارّ ومجرور خبر مقدّم (غيب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (السموات) مضاف إليه مجرور (الأرض) معطوف على السموات بالواو مجرور (الواو) عاطفة (إلى) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بفعل (يرجع) وهو مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع (الأمر) نائب الفاعل مرفوع (كلّه) توكيد معنويّ للأمر مرفوع مثله . . و (الهاء)

مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اعبد) فعل أمر، والفاعل أنت و (الهاء) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (توكّل) مثل اعبد (عليه) مثل إليه متعلّق بـ (توكّل)، (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (ربّك) اسم ما مرفوع و (الكاف) مضاف إليه (الباء) حرف جرّ زائد (غافل) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما (عن) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ "1"

(1) أو اسم موصول، أو نكرة موصوفة، والعائد محذوف في الحالين أي تعملونه.

(417/388)

(تعملون) مثل يؤمنون "1".

والمصدر المؤوّل (ما تعملون) في محلّ جرّ بحرف الجرّ متعلّق بغافل.

جملة: "للّه غيب السموات ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يرجع الأمر ... " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافية.

وجملة: "اعبده .. " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كان الأمر كلّه للّه فاعبده.

وجملة: "توكّل ... " معطوفة على جملة اعبده.

وجملة: "ما ربّك بغافل ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة للّه غيب ...

وجملة : " تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 12 صـ 374.300 ﴾

---

(1) في الآية (121) من هذه السورة.

(418/388)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

[سورة هود (11) : الآيات 61 إلى 68]

وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (61) قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (62) قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (63) وَيا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ (64) فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (65)

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ

الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (67) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (68)

اللغة :

)

(419/388)

وَاسْتَعْمَرَكُمْ) عمركم وأسكنكم فالسين والتاء زائدتان ، أو صيركم عامرين لها فهما للصيرورة ولهذه المادة في اللغة شعاب واسعة نعرضهما فيما يلي : عمر يعمر من باب دخل عمرا المنزل بأهله كان مسكونا وعمر المنزل سكنه فهو معمور وعمر الدار بناها والاسم العمارة وعمر بالمكان أقام وعمره الله أبقاه ، وعمر يعمر من بابي دخل وضرب عمورا وعمارة وعمرانا الرجل بيته لزمه وعمرته كذا جعلته له طول عمره أو عمري واستعمره في المكان جعله يعمره واستعمر الله عباده في الأرض أي طلب منهم العمارة فيها ولكن الكلمة تحولت في العصر الحديث إلى معنى الاستعمار المشئوم الذي يسير في طريقه إلى الزوال ، والمستعمرات ما تمتلكه دولة من الدول في بلاد غير بلادها فهي مولدة ولكنها صارت من الكلمات الدراجة التي تعبر عن معنى شائع فلا بأس بإقرارها ، أما العمر بفتح العين فهو

الحياة والدين ، وفي القسم يقال : لعمري ولعمر اللّه وهو مبتدأ محذوف الخبر وجوبا تقديره قسمي واللام الداخلة عليه للابتداء لا للقسم لأنه لا يجوز دخول قسم على قسم وتقول عمر اللّه ما فعلت بالنصب على المصدرية وسيرد المزيد من هذه المادة والأعاريب المستعملة فيها ونعود إلى الآية التي نحن بصددها فنقول معنى واستعمركم فيها أي أمركم بالعمارة

وقد قسم الفقهاء العمارة إلى واجب وندب ومباح ومكروه والتفاصيل مذكورة في المطولات ، وعن معاوية بن أبي سفيان : انه أخذ في احياء الأرض في آخر أمره فقيل له ما حملك على ذلك ؟ فقال : ما حملني إلا قول القائل :

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ولا تكون له في الأرض آثار

وقيل المعنى استعمركم من العمر نحو استبقاكم من البقاء وقيل هو من العمري بمعنى أعمركم فيها دياركم ورثها منكم بعد انصرام أعماركم أو جعلكم معمرين دياركم تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها نغيركم .

)

فَعَقَرُوها) : ضربها قدار في رجليها فأوقعها فذبحوها واقتسموا لحمها وقدار هذا شقي معروف أشار إليه زهير بن أبي سلمى في معلقته عند ما وصف شؤم الحرب وما تولده من أضرار فقال :

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتتئم

أراد فتلد الحرب لكم أبناء من خلالها كل واحد منهم يضاهي في الشؤم أحمر عاد وهو عاقر الناقة واسمه قدار بن سالف وأراد أحمر ثمود ولكنه أطلق عليه الاسم الشائع على عاد الثانية وهم قوم ثمود فلا معنى لمن قال أن زهيرا غلط .

(جاثِمِينَ) : في المصباح جثم الطائر والأرنب يجثم من باب ضرب جثوما وهو كالبروك من البعير والفاعل جاثم وجثّام مبالغة .

(لَمْ يَغْنَوْا) : لم يقيموا وفي المختار وغني بالمكان أقام به .

الاعراب :

(وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ) ثم عطف سبحانه على ذلك قصة صالح وهي القصة الثالثة من من قصص السورة وقد تقدم اعراب هذه الكلمات بنصها في قصة هود .

(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها) هو مبتدأ وجملة أنشأكم خبر ومن الأرض جار ومجرور متعلقان بأنشأكم واستعمركم فيها عطف على أنشأكم . (فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ

إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) الفاء الفصيحة واستغفروه فعل أمر وفاعل ومفعول به ثم حرف عطف وتوبوا إليه عطف على استغفروه وان واسمها وخبراها .

)

(421/388)

قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا) قد حرف تحقيق وكان واسمها ومرجوا خبرها وفينا جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال وقبل ظرف متعلق بمرجوا وهذا مضاف إليه والمراد لقد خيبت رجاءنا فيك لما كنا نتوسمه من مخايل تنبىء بالرشد .

(أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا) الهمزة للاستفهام الانكاري بزعمهم وتنهانا فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وأن وما في حيزها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض وهما متعلقان بتنهانا وآباؤنا فاعل يعبد . (وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) الواو استئنافية وان واسمها واللام المزحلقة وفي شك خبر إننا ومما صفة لشك . وجملة تدعونا صلة ونا مفعول تدعو واليه متعلقان به ومريب صفة لشك . (قالَ : يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي) أرأيتم تقدم نظيره أكثر من مرة وهي هنا معلقة عن العمل لمجيء ما له صدر الكلام

بعدها وان شرطية وكنت فعل الشرط والتاء اسم كان وعلى بينة خبر كان ومن ربي صفة لبينة . (وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ) وآتاني عطف على كنت والياء

(422/388)

مفعول به أول ومنه حال ورحمة مفعول به ثان والفاء رابطة لجواب الشرط ومن اسم استفهام مبتدأ وينصرني فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به والجملة خبر وجملة فمن ينصرني جواب إن وإن الثانية شرطية وعصيته فعلها وجوابها محذوف دل عليه جواب الأولى أي فمن ينصرني والاستفهام هنا معناه النفي فكأنه قال فلا ناصر لي من اللّه إن عصيته وانما جاز الغاء رأيت هنا لأنها دخلت على جملة قائمة بنفسها من جهة أنها تفيد لو انفردت عن غيرها . (فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ) الفاء عاطفة وما نافية وتزيدونني فعل مضارع وفاعل ومفعول به وغير مفعول ثان لتزيدونني قال أبو البقاء : الأقوى هنا أن تكون صفة لمفعول محذوف أي شيئا غير تخسير . (وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً) الواو عاطفة وهذه مبتدأ وناقة اللّه خبر ولكم حال لأنه كان في الأصل صفة لآية وتقدمت ، وآية حال من ناقة اللّه والعامل فيها ما دل عليه اسم الاشارة من معنى الفعل . (فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ) فذروها الفاء عاطفة وذروها فعل أمر ومفعول به وتأكل جواب الطلب ولذلك

جزم وفي أرض الله متعلقان بتأكل. (وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ) ولا تمسوها عطف على ما تقدم ولا ناهية وتمسوها مجزوم بلا والواو فاعل والهاء مفعول به وبسوء متعلقان بتمسوها والفاء فاء السببية والكاف مفعول به وعذاب فاعل وقريب صفة. (فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ) فعقروها الفاء عاطفة وعقروها فعل ماض وفاعل ومفعول به، فقال عطف على عقروها وجملة تمتعوا من فعل الأمر والفاعل مقول القول وفي داركم حال وثلاثة أيام ظرف متعلق بتمتعوا. (

ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) اسم الاشارة مبتدأ ووعد خبر وغير مكذوب صفته ومكذوب يجوز أن يكون مصدرا على وزن مفعول نحو المجلود والمعقول والمنشور والمغبون ويجوز أن يكون اسم مفعول

(423/388)

على الأصل وفيه تأويلان أحدهما غير مكذوب فيه ثم حذف حرف الجر فاتصل الضمير مرفوعا مستترا في الصفة والثاني انه جعل هو نفسه غير مكذوب لأنه قد وفى به وإذا وفى به فقد صدق. (فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ) الفاء عاطفة ولما حينية أو رابطة وجاء أمرنا فعل وفاعل ونجينا صالحا فعل وفاعل ومفعول به والجملة لا محل لها

والذين عطف على صالحا وجملة آمنوا صلة ومعه ظرف مكان متعلق بآمنوا . (بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ) برحمة حال أي ملتبسين برحمة ومناصفة ومن خزي متعلقان بمحذوف دل عليه ما قبله أي ونجيناهم من خزي ويومئذ يوم مضاف إلى خزي ويوم مضاف والظرف وهو إذ مضاف اليه ولم يفتح اليوم لاضافته إلى المبني لأن المضاف منفصل من المضاف إليه ولا يلزمه الاضافة فلما لم يلزم الاضافة المضاف لم يلزم فيه البناء ويجوز فتح يوم بالبناء على الفتح لاضافة إلى المبني ومن ذلك قوله تعالى " انه

(424/388)

لحق مثل ما انكم تنطقون " فمثل في موضع رفع وقد جرى وصفا للنكرة إلا انه فتح للاضافة إلى ما وسيأتي مزيد من هذا البحث . (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) ان واسمها وهو ضمير فصل أو مبتدأ والقوي العزيز خبران لإن أو لهو والجملة خبر إن (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ) الواو عاطفة على المعنى وأخذ فعل ماض وحذفت منه تاء التأنيث إما لكون المؤنث وهو الصيحة مجازيا أو للفصل بالمفعول به والذين مفعول به وجملة ظلموا صلة والصيحة فاعل فأصبحوا عطف على أخذ والواو اسم أصبح وجاثمين خبرها وفي ديارهم جار ومجرور متعلقان بجاثمين . (كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها) كأن

مخففة من الثقيلة واسمها أي كأنهم ، وجملة لم يغنوا خبرها وفيها متعلقان بيغنوا . (أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ) تقدم إعراب نظيره بحروفه .

الفوائد :

للأفعال التي تنصب مفعولين ثلاثة أحكام (و هي أفعال القلوب) :

1- الإعمال : وهو الأصل فيها وهو نصب مفعولين .

2- الإلغاء : وهو إبطال العمل لفظا ومحلا لضعف العامل بتوسطه بين المبتدأ والخبر أو تأخره عنهما فلتوسط كزيد ظننت قائم والتأخر نحو زيد قائم ظننت .

قال منازل بن ربيعة المنقري :

أبالأراجيز يا ابن اللؤم توعدني وفي الأراجيز خلت اللؤم والخور

فوسط خلت بين المبتدأ المؤخر وهو اللؤم والخبر المقدم وهو في الأراجيز .

وقال أبو سيده الديري :

وإن لنا شيخين لا ينفعاننا غنيين لا يجري علينا غناهما

هما سيدانا يزعمان وإنما يسودانا إن أيسرت غنماهما

وإلغاء العامل المتأخر أقوى من إعماله والعامل المتوسط بالعكس فالإعمال فيه أقوى من إهماله .

3- التعليق : وهو ابطال العمل لفظا لا محلا لمجيء ما له صدر الكلام بعده وهو :

لام الابتداء نحو " لقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق " فمن مبتدأ وهو موصول اسمي وجملة اشتراه صلة من وعائدها فاعل اشتراه المستتر فيه وما نافية وله وفي الآخرة متعلقان بالاستقرار خبر خلاق ومن زائدة وجملة ما له في الآخرة من خلاق خبر من والرابط بينهما الضمير المجرور باللام وجملة من وخبره في محل نصب معلق عنها العامل بلام الابتداء لأن لها الصدر فلا يتخطاها عامل .

ولام القسم كقول لبيد :

ولقد علمت لتأتينّ منيتي إن المنايا لا تطيش سهامها

فاللام في لتأتين لام جواب القسم ، والقسم وجوابه في محل نصب معلق عنها العامل بلام القسم .

وما النافية نحو " لقد علمت ما هؤلاء ينطقون " فما نافية وهؤلاء مبتدأ وينطقون خبره والجملة الاسمية في موضع نصب بعلمت وهي معلق عنها العامل في اللفظ بما النافية .

ولا وإن النافيتان الواقعتان في جواب قسم ملفوظ به أو مقدر فالقسم الملفوظ نحو : علمت واللّه لا زيد في ولا عمرو وعلمت واللّه إن زيد قائم .

والاستفهام وله صورتان :

آ – أن يعترض حرف الاستفهام بين العامل والجملة بعده نحو " وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون " فقريب مبتدأ وأم بعيد معطوف عليه وما اسم موصول في محل رفع خبر المبتدأ وما عطف عليه وجملة توعدون صلة الموصول والعائد محذوف وجملة المبتدأ وخبره في موضع نصب بأدري المعلق بالهمزة .

(426/388)

ب – أن يكون في الجملة اسم استفهام عمدة كان نحو " لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا " فأي اسم استفهام مبتدأ وأحصى خبره وهو فعل ماض وقيل اسم تفضيل من الإحصاء بحذف الزوائد وجملة المبتدأ والخبر معلق عنها نعلم لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ولا فرق في العمدة بين المبتدأ كما مر والخبر نحو علمت متى السفر والمضاف إليه نحو علمت أبو من زيد أو الخبر نحو علمت صبيحة أي يوم سفرك أو فضلة نحو " سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون " فأي منقلب مفعول مطلق منصوب بينقلبون مقدم من تأخير والأصل ينقلبون أي انقلاب وليست أي مفعولا به ليعلم كما قد يتوهم لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله وجملة ينقلبون معلق عنها العامل فهي في محل نصب .

تنبيه هام :

إنما يعطف على محل الجملة المعلق عنها العامل مفرد فيه معنى الجملة فنقول علمت لزيد قائم وغير ذلك من أموره ولا تقول علمت لزيد قائم وعمرو لأن مطلوب هذه الأفعال إنما هو مضمون الجمل فإن كان في الكلام مفرد يؤدي معنى الجملة صح أن تتعلق به وإلا فلا .

قال كثير عزة :

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولت

فعطف موجعات بالنصب بالكسرة على محل ما البكا الذي علق عن العمل فيه قوله أدري وأبحاث الإلغاء والتعليق تضيق عن استيعابها هذه الفوائد فحسبنا ما ذكرناه ومن شاء المزيد فليرجع إلى المطولات .

[سورة هود (11) : الآيات 69 إلى 76]

(427/388)

وَلَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ (70) وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ

يَعْقُوبَ (71) قالَتْ يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73)

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَجاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76)

اللغة:

(العجل): ولد البقرة ويسمى الحسيل والخبش بلغة أهل السراة ويجمع على عجول وعجلة وعجال وعجاجيل قيل: سمي بذلك لتعجيل أمره بقرب ميلاده.

(حَنِيذٍ): المشوي على الحجارة المحماة في حفرة من الأرض وهو من فعل أهل البادية وكان سمينا يسيل منه الودك وكان عامة مال ابراهيم البقر وفي المختار حنذ الشاة شواها وجعل فوقها حجارة محماة لينضجها فهي حنيذ وبابه ضرب.

(نَكِرَهُمْ): في المختار: نكره بالكسر نكرا بضم النون وأنكره كله بمعنى، وعبارة الأساس: "أنكر الشيء ونكره واستنكره وقيل نكر أبلغ من أنكر وقيل: نكر بالقلب وأنكر بالعين.

قال الأعشى:

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

وفيهم العرف والنّكر ، والمعروف والمنكر ، وشتم فلان فما كان عنده نكير ، وهم يركبون المنكرات والمناكير ، وهو من مناكير قوم لوط " .

(أَوْجَسَ) : الإيجاس : الاحساس وحديث النفس وأصله من الدخول كأن الخوف داخله والوجيس ما يعتري النفس أوان الفزع ووجس في نفسه كذا أي : خطر بها يجس وجسا ووجوسا ووجيسا .

(بَعْلِي) : البعل هو المستعلي على غيره ولما كان زوج المرأة مستعليا عليها قائما بأمرها سمي بعلا ، ويقولون للنخل الذي يستغني بماء السماء عن سقي الأنهار والعيون بعل لأنه قائم بالأمر في استغنائه عن تكلف السقي له ويجمع البعل على بعول وبعال وبعولة والبعل الرب أيضا والسيد ، يقولون : من بعل هذه الناقة أي ربها وبهذا المعنى استعملها الكنعانيون وغيرهم من عبدة الأصنام للدلالة على أعظم آلهتهم .

(أَوَّاهٌ) : تقدمت معانيه في سورة التوبة .

الاعراب :

(وَلَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى) ثم شرع سبحانه في القصة الرابعة من قصص

السورة وهي قصة ابراهيم توطئة لقصة لوط لا استقلالا ولهذا خولف في أسلوب القصة عن سابقاتها فلم يقل وأرسلنا . واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وجاءت رسلنا فعل وفاعل وابراهيم مفعول به وبالبشرى متعلقان بجاءت .

(قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ) قالوا فعل وفاعل وسلاما مصدر معمول لفعل محذوف كما تقدم أي سلمنا سلاما وقال فعل ماض وسلام مبتدأ خبره محذوف أي عليكم وسوغ الابتداء به معنى الدعاء وهو أولى من جعله خبرا لمبتدأ محذوف أي قولي سلام وستأتي مسوغات الابتداء بالنكرة في باب الفوائد . (فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) الفاء عاطفة وما لبث يجوز في ما أن تكون نافية ولبث فعل ماض فاعله أن وما في حيزها أي مجيئه أو الفاعل مستتر تقديره إبراهيم وان

وما في حيزها خبره والتقدير فلبثه أو الذي لبثه قدر مجيئه .

(فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً) الفاء عاطفة على محذوف والتقدير فقربه إليهم فلم يمدوا أيديهم فقال ألا تأكلون فلما رأى أيديهم والرؤية هنا بصرية ، وأيديهم مفعول به وجملة لا تصل إليه حالية وجملة نكرهم لا محل لها لأنها جواب لمّا

وأوجس منهم عطف على نكرهم وخيفة مفعول به ومنهم حال لأنه كان صفة لخيفة .

(قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ) لا تخف لا ناهية وتخف مجزوم بها وان واسمها وجملة أرسلنا خبرها ونا نائب فاعل والى قوم لوط جار ومجرور متعلقان بأرسلنا .

(وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ) وامرأته الواو حالية أو استئنافية وامرأته مبتدأ وقائمة خبر ، فضحكت فعل ماض وفاعله هي فبشرناها عطف أيضا وهو فعل وفاعل ومفعول به وبإسحاق متعلقان ببشرناها ومن وراء اسحق خبر مقدم ويعقوب مبتدأ مؤخر . (قالَتْ : يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ) يا ويلتا كلمة تقال للتعجب من أمر عجيب خارق للعادة من خير أو شر وهو منادى مضاف إلى ياء المتكلم المنقلبة ألفا وكذلك في يا لهفا ويا عجبا وقيل هي ألف الندبة التي يوقف عليها بهاء السكت وسيأتي الكلام عنها في حينه ، أألد : الاستفهام مقصود به التعجب والواو حالية وأنا مبتدأ وعجوز خبر والجملة نصب على الحال من الضمير المستتر في أألد . (

وَهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) الواو حالية وهذا مبتدأ وبعلي خبر وشيخا حال والعامل فيه ما في اسم الاشارة من معنى الفعل ، قال الزجاج : الحال هاهنا نصبها من لطيف النحو وذلك انك إذا قلت هذا زيد قائما يصلي فإن كنت تقصد أن تخبر من لا يعرف زيدا انه زيد لم يجز أن تقول هذا زيد قائما لأنه يكون " زيدا " ما دام قائما فإذا زال عن القيام فليس بزيد

وانما تقول للذي يعرف زيدا : هذا زيد قائما فيعمل في الحال التنبيه والمعنى انتبه لزيد في حال قيامه أو أشير لك إلى زيد في حال قيامه .

وإن واسمها واللام المزحلقة وشيء خبرها وعجيب صفة . (قَالُوا : أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) الهمزة للاستفهام والمقصود به النهي أي لا تعجبي ولم ينكروا عليها لأن عجبها ليس إنكارا وانما هو دهشة بما هو خارق للعادة ، وتعجبين فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والياء فاعل ومن أمر اللّه جار ومجرور متعلقان بتعجبين . (رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) رحمة اللّه مبتدأ وبركاته عطف على رحمة وعليكم خبر رحمة وأهل البيت نصب على الاختصاص المراد به المدح ويجوز أن يكون منادى محذوفا منه حرف النداء أي يا أهل البيت وان واسمها وخبراها .

وبين النصب على المدح والنصب على الاختصاص فرق ولذلك جعلهما سيبوية في بابين وهو أن المنصوب على المدح لفظ يتضمن بوضعه المدح كما أن المنصوب على الذم يتضمن بوضعه الذم والمنصوب على الاختصاص لا يكون إلا لمدح أو ذم لكن لفظه لا يتضمن بوضعه المدح ولا الذم كقوله " بنا تميما يكشف الضباب " وقوله " ولا الحجاج عيني نبت

ماء " (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَجاءَتْهُ الْبُشْرى) الفاء عاطفة ولما حينية أو رابطة وذهب عن ابراهيم الروع فعل وفاعل وجاءته البشرى عطف على ذهب وجواب لما محذوف تقديره أقبل أو فطن لمجادلتهم.

(يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ) جملة يجادلنا حالية أو مستأنفة وفي قوم لوط متعلقان بيجادلنا (إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) ان واسمها واللام المزحلقة وحليم وأواه ومنيب أخبار ثلاثة.

(يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا)

(431/388)

الجملة مقول قول محذوف أي قالت الملائكة، وأعرض فعل أمر وعن هذا متعلقان به والاشارة إلى الجدال. (إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ) ان واسمها وجملة قد جاء أمر ربك خبر وانهم ان واسمها وآتيهم خبرها وعذاب فاعل آتيهم وغير صفة ومردود مضاف إليه.

البلاغة:

الاستعارة التمثيلية في قوله " فلما رأى أيديهم لا تصل إليه " جعل عدم الوصول استعارة لامتناعهم عن الأكل والمعنى لا يمدون أيديهم إلى أكله فهو لا يريد أن ينفي الوصول الناشئ

عن المدّ .

الفوائد :

مسوغات الابتداء بالنكرة :

الواجب في المبتدأ أن يكون معرفة ويسوغ الابتداء بالنكرة إذا أفادت وذلك في مواضع أهمها :

1- بالإضافة اللفظية نحو " خمس صلوات كتبهن الله " وقد تكون الاضافة بالمعنى نحو " قل كلّ يعمل على شاكلته " أي كل أحد .

2- بالوصف لفظا نحو " لعبد مؤمن خير من مشرك " أو تقديرا نحو : أمر أتى من ربك أي عظيم ، أو معنى بأن تكون النكرة مصغرة نحو : رجيل عندنا أي رجل حقير .

3- بأن يكون خبرها ظرفا أو جارا ومجرورا مقدما عليها نحو " وفوق كل ذي علم عليم " ولكل أجل كتاب " .

4- بأن تقع بعد نفي أو استفهام أو لولا أو إذا الفجائية نحو :

ما أحد عندنا ونحو " أ إله مع الله " وقول الشاعر :

لولا اصطبار الأودى كل ذي مقة لما استقلّت مطاياهنّ للظّعن

ونحو : خرجت فاذا أسد رابص .

5- بأن تكون عاملة نحو : إعطاء قرشا في سبيل العلم ينهض بالأمة .

6- بأن تكون مبهمة كأسماء الشرط والاستفهام وما التعجبية وكم الخبرية .

7- بأن تكون مفيدة للدعاء بخير أو شر فالأول نحو : "سلام عليكم" والثاني : "ويل للمطففين" .

8- بأن تكون خلفا عن موصوف نحو : عالم خير من جاهل .

9- بأن تقع صدر جملة حالية نحو :

سرينا ونجم قد أضاء فمذ بدا محياك أخفى ضوءه كلّ شارق

10- بأن يراد بها التنويع أي التفصيل والتقسيم كقول امرئ القيس :

فأقبلت زحفا على الركبتين فثوب نسيت وثوب أجر

11- بأن تعطف على معرفة أو يعطف عليها معرفة نحو : خالد ورجل يتعلمان النحو ، أو رجل وخالد يتعلمان النحو .

12- بأن تعطف على نكرة موصوفة نحو : "قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى" .

13- بأن يراد بها حقيقة الجنس لا فرد واحد منه نحو : تمرة خير من جرادة .

14- بأن تقع جوابا نحو : رجل ، في جواب من قال :

من عندك ؟

[سورة هود (11) : الآيات 77 إلى 83]

وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77) وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78) قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ (79) قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ (80) قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81)

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83)

اللغة :

(سِيءَ بِهِمْ) أصله سوىء بهم من السوء فأسكنت الواو وقلبت كسرتها إلى السين ويقال : سؤته فسيء كما يقال شغلته فشغل وسررته فسرّ .

(

ذَرْعاً) : من أقوالهم ضاق فلان ذرعا : والذرع يوضع موضع الطاقة والأصل فيه أن البعير يذرع بيديه في سيره ذرعا على قدر سعة خطوه فإذا حمل عليه أكثر من طوقه ضاق ذرعه عن ذلك وضعف ومدّ عنقه فجعل ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع والطاقة فمعنى قوله تعالى " وضاق بهم ذرعا " أي لم يجد من ذلك المكروه مخلصا ، وقال بعض علماء اللغة : معناه وضاق بهم قلبا وصدرا ولا يعرف أصله إلا أن يقال إن الذرع كناية عن الوسع ، والعرب تقول : ليس هذا في يدي ، يعنون ليس هذا في وسعي لأن الذراع من اليد ، وقال آخرون : ويقال ضاق فلان ذرعا بكذا إذا وقع في مكروه ولا يطيق الخروج منه .

وفي القاموس والتاج ما ملخصه : " الذّرع مصدر ، بسط اليد ، وضقت بالأمر ذرعا : أي لم أقدر عليه وهو واسع الذرع أي مقتدر وهو خالي الذرع أي قلبه خال من الهموم والغموم " .

(يُهْرَعُونَ) : أي يسوق بعضهم بعضا وفي المصباح هرع وأهرع بالبناء فيهما للمفعول إذا أعجل على الإسراع . وفي القاموس : والهرع محرك وكغراب والاهراع مشي في اضطراب وسرعة وأقبل يهرع بالضم واهرع بالبناء للمجهول فهو مهرع مرعد من غضب أو خوف

وقد هرع كفرح ورجل هرع سريع البكاء .

(عَصِيبٌ) : العصيب الشديد في الشر خاصة وأصله من الشد يقال عصبت الشيء شددته وعصبت فخذ الناقة لتدر وناقة عصوب ويوم عصيب وعصبصب كأنه التف على الناس بالشر أو يكون التف شره بعضه ببعض قال الشاعر :

فإنك إن لم ترض بكر بن وائل يكن لك يوم بالعراق عصيب

وقال الراجز :

يوم عصيب يعصب الأبطالا عصب القوي السلم الطوالا

(رُكْنٍ) الركن : معتمد البناء بعد الأساس وركنا الجبل جانباه قال الراجز :

يأوي إلى ركن من الأركان في عدد طلس ومجد بان

(فَأَسْرِ) : من أسرى بمعنى سرى أي سار ليلا قال النابغة :

أسرت عليه من الجوزاء سارية تزجي الشمال عليه جامد البرد

ويروى سرت ، وقال امرؤ القيس :

سريت بهم حتى تكل مطيهم وحتى الجياد ما يقدن بأرسان

(سِجّيلٍ) : قال الزمخشري : " قيل هي كلمة معربة من سنككل بدليل قوله حجارة من طين وقيل هي من أسجله إذا أرسله لأنها ترسل على الظالمين وقيل مما كتب اللّه أن يعذب به من السجل وسجل لفلان " وقال أبو عبيدة : " هو الحجارة الشديدة " وأنشد لابن مقبل :

ورجلة يضربون البيض ضاحية ضربا تواصى به الأبطال سجينا

وسجين وسجيل بمعنى واحد والعرب تعاقب بين النون واللام فقلبت النون ها هنا لاما "

واكتفى صاحب القاموس بقوله : " السجيل الطين اليابس " .

(مَنْضُودٍ) : متراكب والنضد جعل الشيء بعضه فوق بعض والمراد وصف الحجارة بالكثرة .

(مُسَوَّمَةً) : معلمة للعذاب ، والتسويم العلامة .

الاعراب :

(وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً) لما ظرفية حينية أو رابطة وجاءت رسلنا لوطا فعل وفاعل ومفعول به وجملة سيء بهم لا محل لها ونائب الفاعل يعود إلى لوط وبهم جار ومجرور متعلقان

به وذرعا تمييز محول عن الفاعل . (وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ) وقال عطف على ضاق وهذا مبتدأ ويوم خبر وعصيب صفة والجملة مقول القول . (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ) الواو عاطفة وجاءه قومه فعل ومفعول به وفاعل وجملة يهرعون في محل نصب على الحال واليه متعلقان بيهرعون . (وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) الواو حالية ومن قبل من حرف جر وقبل ظرف مبني على الضم لانقطاعه عن الاضافة لفظا لا معنى والجار والمجرور متعلقان بيعملون وكان واسمها وجملة يعملون السيئات خبر كانوا . (قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) هؤلاء مبتدأ وبناتي خبر وكذلك قوله هن أطهر لكم ، وجوزوا في بناتي أن يكون بدلا أو عطف بيان ، وهن ضمير فصل لا محل له وأطهر خبر هؤلاء ، ولكم متعلقان بأطهر لأنه اسم تفضيل ولا يرد اعتراض خلاصته ان اسم التفضيل يعني المشاركة ليصح التفضيل فيقتضي أن يكون الذي يطلبونه من الرجال طاهرا والجواب أن هذا جار مجرى :
أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ومعلوم أن شجرة الزقوم لا خير فيها على الإطلاق . (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي) الفاء الفصيحة واتقوا الله فعل أمر وفاعل ومفعول به ولا تخزوني عطف على اتقوا الله ولا ناهية وتخزوني مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون والنون للوقاية والواو فاعل والياء مفعول به وفي ضيفي جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، والضيف في الأصل مصدر ثم أطلق على الطارق ليلا إلى المضيف ولذلك يقع على المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع وقد يثنى فيقال ضيفان وقد يجمع فيقال أضياف

وضيوف وضيفان . (أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ) الاستفهام للانكار والتوبيخ وليس فعل ماض ناقص ومنكم خبر ليس للمقدم ورجل اسمها المؤخر ورشيد صفة . (قالُوا : لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ)

(436/388)

علمت معلقة عن العمل بما النافية ولنا خبر مقدم وفي بناتك حال لأنه كان في الأصل صفة لحق وتقدمت ومن حرف جر زائد وحق مبتدأ مؤخر محلا . (وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ) الواو عاطفة وان واسمها واللام المزحلقة وجملة تعلم خبرها ، وما :

يجوز أن تكون مصدرية وأن تكون موصولة أي تعرف الذي نريد أو تعلم إرادتنا (قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ) لو شرطية وأن وما في حيزها فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت واستقر وأما سيبويه فيرى انه مبتدأ لا خبر له وسيأتي تفصيل ذلك في باب الفوائد . وأن حرف مشبه بالفعل ولي خبرها المقدم وبكم حال من قوة إذ هو في الأصل صفة للنكرة وقوة اسم ان وجواب لو محذوف تقديره لفعلت بكم وصنعت وأو حرف عطف وآوي معطوف على المعنى وتقدير الكلام أو أني آوي ، ويجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة ثبت المحذوفة إذا أعربت أن وما في حيزها فاعلا لفعل محذوف ،

ويجوز أن تعطف على قوة لأنه منصوب في الأصل بتقدير " ان " فلما حذفت " أن " رفع الفعل كقوله تعالى " ومن آياته يريكم " واستضعف أبو البقاء هذا الوجه . والى ركن متعلق بآوي وشديد صفة .

(قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ) إن واسمها ورسل ربك خبرها ولن حرف نفي ونصب واستقبال ويصلوا مضارع منصوب بأن وإليك متعلقان بيصلوا (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ) الفاء عاطفة وبأهلك حال أي مصاحبا لهم وبقطع حال من أهلك أي مصاحبين لقطع ، ولك أن تجعل الباء للتعدية فتعلقها بأسر والقطع هنا نصف الليل لأنه قطعة منه مساوية لباقيه وقد تقدم الكلام على القطع في سورة يونس ، ومن الليل صفة لقطع . (وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ
إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ)

(437/388)

الواو حرف عطف ولا ناهية ويلتفت فعل مضارع مجزوم بلا ومنكم حال لأنه كان في الأصل صفة لأحد وأحد فاعل وإلا أداة استثناء وامرأتك مستثنى من قوله فأسر بأهلك وفي قراءة بالرفع بدل من أحد وسيأتي تفصيل مسهب لهذا الاستثناء والمعنى لا تسر بها

وخلّفها مع قومها وقيل هي مستثنى من أحد وان واسمها والهاء ضمير الشأن والحديث ومصيبها خبر مقدم وما اسم موصول مبتدأ مؤخر وجملة أصابهم صلة والجملة خبر ان لأن ضمير الشأن يفسر بجملة مصرح بجزأيها . (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) إن واسمها والصبح خبرها والهمزة للاستفهام التقريري وليس واسمها والباء حرف جر زائد وقريب مجرور لفظا خبر ليس محلا (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا) لما ظرفية حينية أو رابطة وجاء أمرنا فعل وفاعل وجملة جعلنا جواب لما ونا فاعل وعاليها مفعول جعل الاول وسافلها مفعول جعلنا الثاني . (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ) وأمطرنا عطف على جعلنا وعليها متعلقان بأمطرنا وحجارة مفعول به ومن سجيل صفة لحجارة ومنضود صفة لسجيل ومسومة صفة ثانية لحجارة وعند ربك الظرف متعلق بمسومة . (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) ما حجازية وهي اسمها واختلف في هذا الضمير فقيل يعود على العقوبة المفهومة السياق وقيل يعود على الحجارة وهي أقرب مذكور وقيل يعود على القرى المهلكة وكل ما ذكروه جائز وسائغ . ومن الظالمين متعلقان ببعيد والباء حرف جر زائد وبعيد مجرور لفظا خبر ما محلا ولم يؤنث بعيدا إما لأنه في الأصل نعت لمكان محذوف تقديره وما هي بمكان بعيد بل قريب وإما لأن العقوبة والعقاب شيء واحد وإما لتأويل الحجارة بعذاب .

الفوائد :

1- عود إلى " لو " :

(438/388)

تقدم بحث لو في البقرة وغيرها ونزيد هنا بحث الاسم الواقع بعد لو الشرطية والمعروف أنها تختص بالفعل شرطية كانت أم مصدرية ويجوز أن يليها الاسم فيعرب فاعلا لفعل محذوف يفسره ما بعده وعلى ذلك يتخرج قول عمر بن الخطاب لأبي عبيدة وقد كان في طريقة إلى الشام وبلغه في أثناء الطريق قبل الوصول إليها انه وقع بها وباء فاستشار في التوجه اليه أو الرجوع إلى المدينة فاختلفوا عليه ثم أجمع أمره على الرجوع بعد أن أشار به جماعة من الصحابة فقال له أبو عبيدة ابن الجراح أفرارا من قدر الله تعالى ؟ فقال له عمر بن الخطاب : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفرّ من قدر الله إلى قدره . فغيرك فاعل لفعل محذوف يفسره قالها والتقدير لو قالها غيرك وجواب لو محذوف أي لعذرناه .

وقال الغطمش الضبي :

أقول وقد فاضت لعيني عبرة أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

أخلاي لو غير الحمام أصابكم عتبت ولكن ما على الدهر معتب

فغير فاعل بفعل محذوف يفسره أصابكم والتقدير لو أصابكم غير الحمام – وهو بكسر الحاء الموت – عتبت ، ومن ملاحظات التبريزي على هذا البيت الثاني قوله : الناس ينشدون أخلاي بياء

مفتوحة وكأنهم حملوه على قصر المحدود وأجود من ذلك في حكم العربية أن ينشد أخلاء بهمزة مكسورة ويراد يا أخلائي فحذفت ياء الاضافة وتركت الهمزة كما تقول يا غلام ، ومن ذلك أيضا قولهم في المثل " لو ذات سوار لطمتني " أخذا من قول حاتم الطائي حين لطمته جارية وهو مأسور في بعض أحياء العرب فذات سوار فاعل بفعل محذوف على شريطة التفسير والتقدير لو لطمتني ذات سوار وذات السوار الحرة لأن الإماء عند العرب لا تلبس السوار وجواب لو محذوف والتقدير لهان الأمر علي ، أو يكون منصوبا بفعل محذوف أو خبرا لكان محذوفة فمثال الاول : لو زيدا رأيته أكرمته والثاني :

نحو التمس ولو خاتما من حديد وقد تقدم ذلك .

(439/388)

ويجوز أن يلي " لو " كثيرا أن المشددة وصلتها نحو " ولو أنهم صبروا " والآية التي نحن بصددها وهي " لو أن لي قوة " واختلف في اعراب أن وما في حيزها بعد أن اتفق الجميع

على أنه مرفوع الموضع فقال سيبويه وجمهور البصريين مبتدأ لا خبر له أو خبره محذوف والتقدير ولو صبرهم ثابت وذهب الكوفيون والزمخشري والمبرد والزجاج من البصريين إلى انه فاعل بثبت مقدرا كما تقدم أي ولو ثبت صبرهم وسيأتي المزيد من أحكام "لو" في مواضع أخرى من هذا الكتاب .

2- أقوال النحاة في "إلا امرأتك" :

والفائدة الثانية هي أقوال النحاة في استثناء امرأتك قالوا :

"ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك" بالرفع في قراءة أبي عمرو وابن كثير فامرأتك بدل من أحد بدل بعض من كل والنصب عربي جيد وقد

قرئ به في السبع لكنه خلاف المنتخب الراجح والذي قرئ به أكثر ومن هنا جعل الزمخشري النصب على الاستثناء من أهلك ليكون من تام موجب ، والرفع على البدلية من أحد ، واعترض بأنه يستلزم التناقض بين القراءتين فإن المرأة تكون مسريا بها على قراءة الرفع وغير مسري بها على قراءة النصب وأجاب أنصار الزمخشري بأن إخراجها من جملة النهي لا يدل على أنها مسري بها بل على أنها معهم وقد روي انها تبعتهم ، وقد فنّد ابن هشام اعراب الزمخشري وقال إنه خلاف الظاهر وأسهب في الحديث عن هذا الاستثناء في الجهة الثانية من الباب الخامس .

أقول : والأظهر من هذا كله أن الاستثناء من جملة الأمر أي فأسر بأهلك والاستثناء

منقطع على القراءتين ووجه الرفع انه على الابتداء وخبره الجملة بعده وعندئذ تكون قراءة النصب جيدة غير مرجوحة وتتفادى بذلك وقوع غير المرجوح في القرآن ، وقد تقدم في ابن نوح " انه ليس من أهلك " لأن المراد بالأهل المؤمنون وعلى هذا تكون امرأته من غير أهله .

البلاغة :

(440/388)

في قوله تعالى : " أليس الصبح بقريب " إرسال المثل أو التمثيل وهو فن يمكن تعريفه بأن يكون ما يخرجه المتكلم ساريا مسير الأمثال السائرة وقد تقدمت الاشارة إليه وسيرد المزيد منه وقد عني علماؤنا الأقدمون باستقصاء جميع أمثال الكتاب العزيز من السور على ترتيبها ، أما في الشعر العربي فقد أوردنا فيما تقدم أمثالا ضمنها شاعر الخلود أبو الطيب المتنبي أبياته فجاءت آية في الإبداع كما أوردنا قصيدة

لابن زيدون ، ويحكى انه كان بعض مشايخ الأنبار في زمن الرشيد يؤذن ويصلي في مسجد وكان إذا حضر أوان الورد دفع مفتاح المسجد إلى أهل المحلة ثم انغمس في لجة لهوه فلم يظهر وفي الدنيا وردة وكان إذا جلس إلى شرابه يغني بصوت عال ويقول :

يا صاحبي اسقياني من قهوة خندريس

خذا من الورد حظا بالقصف غير حبيس

على وجينات ورد يذهبن همّ النفوس

ما تنظران فهذا زمان حث الكؤوس

فبادروا قبل فوت "لا عطر بعد عروس"

[سورة هود (11) : الآيات 84 إلى 95]

(441/388)

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ

وَالْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) وَيا قَوْمِ أَوْفُوا

الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

(85) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86) قالُوا يا شُعَيْبُ

أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ

الرَّشِيدُ (87) قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَما

أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88)

وَيا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (89) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90) قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ (91) قالَ يا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92) وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93)

وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (94) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ (95)

اللغة:

(يَجْرِمَنَّكُمْ): مضارع جرم وبابه ضرب كما في المختار ويتعدى لواحد أو اثنين ومعناه يكسبنكم.

)

(رَهْطِي) : الرهط : جماعة الرجل وقيل الرهط والراهط لما دون العشرة من الرجال ولا يقع الرهط والعصبة والنفر إلا على الرجال وقال الزمخشري : من الثلاثة إلى العشرة وقيل إلى التسعة ويجمع على أرهط وأرهط على أراهط . وفي القاموس والتاج : الرّهط والرّهط : قوم الرجل وقبيلته ، وعدد يجمع من الثلاثة إلى العشرة وليس فيهم امرأة ولا واحد له من لفظه والجمع أرهط وأرهاط وجمع الجمع أراهط وأراهيط وإذا أضيف إلى الرهط عدد كان المراد به الشخص والنفس نحو : عشرون رهطا أي شخصا ويقال : ذوو رهط أي مجتمعون .

(443/388)

(ظِهْرِيًّا) : منبوذا خلف ظهوركم لا تراقبونه والظهري منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب والقياس فتح الظاء وقد قالوا في أمس إمسيّ بكسر الهمزة وفي الدهر دهري بضم الدال وسيأتي في باب الفوائد ما يطرأ على النسب من تغيير وللظهر في لغتنا تعابير نوردها ملخصة من معاجم اللغة : يقال ساروا في طريق الظهر أي طريق البر وقرأ الكتاب على ظهر قلبه أو على ظهر لسانه أي حفظا وأعطاه عن ظهر يد أي ابتداء بلا مكافأة وهو نازل بين ظهريهم وظهرانيهم وبين أظهرهم أي وسطهم وفي معظمهم

ورأيته بين ظهراني الليل أي بين العشاء والفجر وقلب له ظهر المجن أي تغير عليه وعاداه وقلب الأمر ظهرا لبطن أي أنعم تدبيره وقتله ظهرا أي غيلة وهو يأكل على ظهر يدي أي إنني أنفق عليه وهذا من غريب لغتنا ونادره وما أجمل قول عمر بن أبي ربيعة :

وضربنا الحديث ظهرا لبطن وأتينا من أمرنا ما اشتهينا

(مَكانَتِكُمْ) : المكانة إما بمعنى المكان يقال مكان ومكانة ومقام ومقامة وإما مصدر من مكن فهو مكين .

الاعراب :

(

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ) جرت العادة أن يستهل كل قصة من قصص هذه السورة بهذه الجملة وهذه هي القصة السادسة وقد تقدم اعراب هذه الجملة بلفظها .

(وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ) الواو عاطفة ولا ناهية وتنقصوا فعل مضارع مجزوم بلا والواو فاعل والمكيال مفعول به والميزان عطف على المكيال وان واسمها وجملة أراكم خبرها وجملة إني أراكم تعليلية للنهي . (وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ) الواو عاطفة وان واسمها وجملة أخاف عليكم خبرها وعذاب مفعول به ويوم مضاف إليه ومحيط صفة . (وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ)

أوفوا فعل أمر والواو فاعل والمكيال مفعول به والميزان عطف عليه وبالقسط حال أي عادلين. (وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) الواو عاطفة ولا ناهية وتبخسوا مضارع مجزوم بلا والواو فاعل والناس مفعول به وأشياءهم مفعول به ثان أي لا تنقصوهم أموالهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين عطف أيضا ومفسدين حال. (بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) بقية الله مبتدأ أي رزقه الباقي بعد إيفاء الكيل والوزن، وخير خبر ولكم متعلقان بخير وان شرطية وكنتم فعل الشرط ومؤمنين خبر كنتم والجواب محذوف أي فبقية الله خير، وما الواو عاطفة وما نافية حجازية وأنا اسمها وعليكم متعلقان بحفيظ والباء حرف جر زائد وحفيظ مجرور لفظا منصوب محلا. (قالُوا: يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا) الهمزة للاستفهام ومعناه الهزء والسخرية وصلاتك مبتدأ وجملة تأمرك خبر وأن وما في حيزها منصوب بنزع الخافض ومتعلقان بتأمرك أي تأمرك بترك، وما موصولية أو مصدرية وعلى كل حال هي مفعول الترك وجملة يعبد لا محل لها على الحالين وآباؤنا فاعل. (أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا) أو حرف عطف وأن نفعل مصدر مؤول معطوف على ما في حالتيها فالترك

مسلط عليه أي هل تأمرك بتكليف لنا ترك ما يعبد آباؤنا وترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء .

هذا وقد أورد ابن هشام في مغني اللبيب هذه الآية في الباب الخامس من الكتاب في الجهات التي يدخل الاعتراض على المعرب من جهتها قال " وبعض هذه الأمثلة وقع للمعربين فيه وهم بهذا السبب وسترى ذلك معينا فأحدها قوله تعالى : " أ صلاتك تأمرك أن نترك

ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ، فإنه يتبادر إلى الذهن عطف أن نفعل على أن نترك وذلك باطل لأنه لم يأمرهم أن يفعلوا في أموالهم ما يشاءون وانما هو معطوف على " ما " فهو معمول للترك ، والمعنى أن نترك ان نفعل " إلى أن يقول :

" وموجب هذا الوهم المذكور أن المعرب يرى أن والفعل مرتبين وبينهما حرف العطف "

واختلف في " أو " فقيل هي بمعنى الواو وقيل هي على بابها للتخيير بمنزلتها في قولك جالس الحسن أو ابن سيرين .

وما اسم موصول نفعل وجملة نشاء صلة .

(إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) إما أن يكونوا قد أرادوا الهزء به إلى أقصى درجة فعكسوا ليتهكموا وإما أن يكون على حقيقته وان ما يأمرهم به لا يتفق مع ما يتسم به وإن واسمها

واللام المزحلقة وأنت مبتدأ والحليم الرشيد خبراه والجملة خبر إنك . (قالَ : يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً) أرأيتم تقدم انها بمعنى أخبروني فينصب مفعولين وقد حذفا معا وتقدير الأول أخبروني فياء المتكلم هي المفعول الأول والثاني يقدر غالبا بجملة استفهامية أي أفأشوب رزقي بالحرام من البخس والتطفيف ، وإن شرطية وكنت كان واسمها وهي فعل الشرط وعلى بينة خبر كنت ومن ربي صفة لبينة وجواب الشرط محذوف يدل عليه المفعول الثاني المحذوف ورزقني فعل وفاعل مستتر ومفعول به ورزقا مفعول به أو مفعول مطلق وحسنا صفة . (وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ) ما نافية وأريد فعل مضارع وفاعله أنا وأن وما في حيزها مفعول أريد وإلى ما متعلقان بأخالفكم وجملة أنهاكم عنه صلة والمعنى ما أريد أن أسبقكم إلى أهوائكم التي نهيتكم عنها ، يقال خالفه إلى كذا إذا قصده وهو مول عنه . (إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ) ان نافية وأريد فعل

(446/388)

مضارع فاعله مستتر تقديره أنا وإلا أداة حصر والإصلاح مفعول به وما ظرفية زمانية متعلقة بأريد . (وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) ما نافية وتوفيقي مبتدأ وإلا

أداة حصر وبالله خبر وعليه متعلقان بتوكلت وإليه متعلقان بأنيب والجملتان حاليتان .

(وَيا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ) لا يجرمنكم لا ناهية ويجرمنكم فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وهو في موضع جزم بلا والكاف مفعوله الأول وشقاقي فاعل وأن وما في حيزها مفعول يجرمنكم الثاني والكاف مفعول يصيبكم ومثل فاعل يصيبكم وهو في الأصل صفة لفاعل محذوف أي عذاب مثل ، وما مضاف إليه أي مثل الذي وجملة أصاب صلة وقوم نوح مفعول به . (أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ) أو قوم هود عطف على قوم نوح وكذلك قوم صالح وما نافية حجازية وقوم اسمها ولوط مضاف إليه ومنكم جار ومجرور متعلقان ببعيد والباء حرف جر زائد وبعيد مجرور بالباء لفظا خبر ما محلا وأتى ببعيد مفردا وإن كان خبرا عن جمع لأحد أمور منها حذف مضاف تقديره وما إهلاك قوم لوط واما باعتبار زمان أي بزمان بعيد أو مكان أي بمكان بعيد أو لأن صيغة فعيل يستوي فيها المذكر والمؤنث مما سيرد معنا في تضاعيف هذا الكتاب الجامع . (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) واستغفروا ربكم فعل أمر وفاعل ومفعول به ثم توبوا إليه عطف على استغفروا وان واسمها وخبراها .

(

قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ) ما نافية ونفقه فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره

نحن وكثيرا مفعول به ومما صفة لكثيرا وجملة تقول صلة . (وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ

(447/388)

عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)

وانا ان واسمها واللام المزحلقة وجملة نراك خبر ان والكاف مفعول به وفينا حال وضعيفا مفعول به ثان لأن الرؤية علمية وان روي انه كان أعمى وألثغ لأنه لو قيل انا لنراك فينا أعمى لم يكن كلاما لأن الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم ، ولولا حرف امتناع لوجود ورهطك مبتدأ محذوف الخبر واللام رابطة لجواب لولا وجملة رجمناك لا محل لها وما نافية حجازية وأنت اسمها والباء زائدة وعزيز خبرها وقد تقدمت نظائره كثيرا . (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ) الهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي ورهطي مبتدأ وأعز خبر وعليكم ومن الله متعلقان بأعز . (وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا) الواو حاليا بتقدير قد أي والحال انكم اتخذتموه وراءكم واتخذ يجوز أن يتعدى لاثنين أولهما الهاء والثاني ظهريا ، ووراءكم متعلقان باتخذتموه أو حال من ظهريا ويجوز أن يتعدى لواحد فيكون الهاء مفعوله وظهريا حال والواو في اتخذتموه لاشباع ضمة الميم . (إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) ان واسمها وبما

متعلقان بمحيط وجملة تعملون صلة ومحيط خبر إن (وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ) اعملوا فعل أمر وفاعل وعلى مكانتكم حال أي حال كونكم موصوفين بالمكانة العالية والقدرة البعيدة وان واسمها وخبرها . (سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ) سوف حرف استقبال وتعلمون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والجملة استئناف بياني وسيأتي المزيد منه في باب البلاغة ومن اسم موصول مفعول به لتعلمون وهذا أرجح من جعلها استفهامية كما أعرابها بعضهم لتتساوق مع من الثانية وهي موصولة باتفاق وجملة يأتيه صلة والهاء مفعول يأتي وعذاب فاعل يأتي وجملة يخزيه صفة لعذاب .

(وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) ومن اسم موصول عطف

(448/388)

على من الأولى وهو مبتدأ وكاذب خبر والجملة صلة وارتقبوا عطف على المعنى وارتقبوا فعل أمر وفاعل وإن واسمها ومعكم ظرف متعلق برقيب ورقيب خبر ان . (وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا) تقدم إعراب نظيرها تماما . (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ) الذين مفعول مقدم لأخذت وجملة ظلموا صلة الموصول والصيحة فاعل أخذت . (فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ) أصبح واسمها وجاثمين خبرها وفي ديارهم

متعلقان بجاثمين . (كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ) كأن مخففة واسمها محذوف وجملة لم يغنوا خبرها وفيها متعلقان بيغنوا وألا أداة تنبيه وبعدا مفعول مطلق لفعل محذوف ولمدين جار ومجرور متعلقان بمحذوف وقد تقدم وكما نعت لبعد وما مصدرية أي كبعد ثمود .

البلاغة :

1- التكرار :

فقد وقع التكرار في هذه القصة من ثلاثة أوجه لأنه قال ولا تنقصوا المكيال والميزان وهذا عين الاول وليس فيه إلا التعبير تبخسوا الناس أشياءهم والفائدة فيه أن القول لما كانوا مصرين على ذلك العمل القبيح احتيج في المنع منه إلى المبالغة في التأكيد ، والتكرير يفيد شدة الاهتمام بالشيء وقد نهوا أولا عن القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ثم ورد الأمر بالإيفاء مصرحا بلفظه ليكون أهيج عليه وأدعى إلى الترغيب فيه .

2- الاستئناف البياني :

إذا كان الكلام المسوق أولى مما سبقه بالانتباه وأجدر بلفت الأسماع اليه قطع عما قبله بما يلفت النظر اليه وذلك في قوله تعالى :

"

و يا قوم اعلموا على مكانتكم اني عامل سوف تعلمون " فقد حذفت الفاء التي يتطلبها السياق لتلفت نظر السامع وانتباهه إلى أن ثمة سؤالا وهو فماذا يكون بعد ذلك وهو أبلغ في التهويل لأن قوله سوف تعلمون ينطوي على ما لا يدرك كنهه ولا يسبر غوره من أعمال الانتقام والتهديد .

قال الزمخشري في صدد هذا الحذف : " أي فرق بين إدخال الفاء وتركها في سوف ؟ "

وأجاب بقوله : " إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل وتركها وصل خفي تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر كأنهم قالوا : فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت على مكانتك فقيل سوف تعلمون وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف لأنه أكمل في باب الفصاحة والتهويل .

3- التعريض :

وفي قوله إني عامل تعريض وقد تقدمت الاشارة إلى هذا الفن فقد ذكر لهم احدى العاقبتين دون ذكر الثانية تعريض أبلغ من التصريح وقد تقدم نظير هذا في سورة الانعام إذ قال " قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار " فذكر هناك إحدى العاقبتين لأن المراد بهذه العاقبة عاقبة الخير واستغنى عن

ذكر مقابلتها ، أما في آية هود فقد ذكر عاقبتهم وهي " سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه

" واستغنى بها عن عاقبته وقد لا يذكر عاقبته فتنصرف إلى المخاطب كقولك لمن تهدده : ستعلم من يهان ومن يعاقب وانما تعني المخاطب في الكلامين .

الفوائد :

النسبة المعدولة عن القياس :

(450/388)

نسبت العرب إلى أشياء كثيرة فغيروا لفظ المنسوب اليه فاستعمل ذلك كما استعملته العرب ولا يقاس عليه غيره ، وقواعد النسبة معروفة في كتب النحو ، وإنما أتت هذه النسبة معدولة عن القياس فمن ذلك قولهم بدوي نسبة إلى البادية والقياس بادي أو بادوي وقالوا بصري بكسر الباء نسبة إلى البصرة والقياس فتحها وقالوا طائي والقياس طيئي وقالوا سهلي ودهري بضم السين والدال والقياس سهلي ودهري وقالوا بحراني في النسب إلى البحرين وصنعاني في النسب إلى صنعاء وقد قسموا ذلك إلى تسعة أقسام نوردها باختصار :

1- بالتحريف فقط كقولهم أموي بالفتح في الهمزة نسبة إلى أمية بضمها ودهري للشيخ الكبير .

2- بالزيادة كقولهم مروزي نسبة إلى مرو وفوقاني وتحتاني وربانى نسبة إلى فوق وتحت ورب.

3- بالنقص كقولهم بدوي بحذف الألف وجلولي نسبة إلى البادية وجلولاء.

4- بالحذف والتحريف كشتوي في شتاء.

5- بالزيادة والتحريف كأنافي في أنف.

6- بالزيادة والحذف نحو رازي نسبة إلى الري.

7- بالقلب نحو طائي وصنعاني وروحاني نسبة إلى طي وصنعاء وروحاء.

8- بالقلب والتحريف نحو ثوب حاري نسبة إلى الحيرة.

9- بتوقير ما يستحق التغيير نحو أميتي نسبة إلى أمية.

[سورة هود (11) : الآيات 96 إلى 108]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (96) إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98) وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (99) ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ (100)

وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
شَيْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101) وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ
الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ
ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103) وَما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (104)
يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (105)
فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (106) خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ
السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (107) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا
فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ
(108)

اللغة :

(يَقْدُمُ) : يقال قدمت القوم أقدمهم قدما إذا مشيت أمامهم واتبعوك قال الأزهري قدم يقدم وتقدم وقدم واقدم واستقدم بمعنى .

(الْوِرْدُ) ورود الماء الذي يورد والإبل الواردة والجمع أوراد ، والإيراد إيجاب الورود في الماء أو ما يقوم مقامه ، قال لبيد :

فوردنا قبل فراط القطا إن من وردي تغليس النهل

وأصل الورود الاشراف على الدخول وليس بالدخول قال زهير:

فلما وردن الماء زرقا جمامه وضعن عصي الحاضر المتوسم

)

(452/388)

الرِّفْدُ) : العون على الأمر يقال: رفده يرفده رفدا ورفدا بفتح الراء وكسرها ، قال الزجاج كل شيء جعلته عونا لشيء وأسندت به شيئا فقد رفدته به ، يقال عمدت إلى الحائط وأسندته وأرفدته ورفدته بمعنى واحد يقال رفده وأرفده إذا أعطاه والاسم الرفد لأن العطاء عون المعطي.

(الحصيد) : بمعنى المحصود والحصد قطع الزرع من الأصل وهذا زمن الحصاد بفتح الحاء وكسرها يقال حصدهم بالسيف إذا قتلهم.

(تَتْبِيبٍ) : من تبت يده أي خسرت وهلكت قال جرير:

عرابة من بقية قوم لوط ألا تبا لما فعلوه تبا

(الزفير والشهيق) : الزفير ترديد النفس حتى تنفتح منه الأضلاع والشهيق رد النفس إلى الصدر وقال ابن فارس: الزفير ضد الشهيق لأن الشهيق رد النفس والزفير إخراج النفس

من شدة الحزن مأخوذ من الزفر وهو الحمل على الظهر لشدته وقيل الشهيق النفس الممتد

مأخوذ من قولهم جبل شاهق أي عال وقال الليث : الزفير أن يملأ الرجل صدره حال كونه

في الغم الشديد من النفس ، والشهيق أن يخرج ذلك النفس . وهو قريب من قولهم : تنفس

الصعداء ، وقال أبو العالية والربيع بن أنس : الزفير في الحلق والشهيق في الصدر

وقيل الزفير للحمار والشهيق للبغل ، وقال الثعالبي في ترتيب الأصوات :

إذا أخرج المكروب أو المريض صوتا رقيقا فهو الرنين فإذا أخفاه فهو الهنين فإذا أظهره فخرج

خافيا فهو الخنين فإذا زفر به وقبح الأنين فهو الزفير فإذا مد النفس ثم رمى به فهو الشهيق

فإذا تردد نفسه في الصدر عند خروجه فهو الحشرجة .

(مَجْذُوذٍ) مقطوع والجذّ القطع يقال جذه يجذه وبابه رد كما في المختار وجذ اللّه دابرهم

قال النابغة :

تجذ السلوقي المضاعف نسجه وتوقد بالصّفّاح نار الحباحب

الاعراب :

)

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ) وهذه هي القصة السابعة والأخيرة في هذه السورة وقد تقدمها قصة نوح وهود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب على هذا الترتيب وهذه قصة موسى. وبآياتنا حال أي حال كونه ملتبسا بآياتنا التسع وقد تقدمت الاشارة إليها وسلطان عطف على آياتنا ومبين صفة. (إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) إلى فرعون جار ومجرور متعلقان بأرسلنا وملئه عطف على فرعون فاتبعوا عطف على أرسلنا والواو فاعل وأمر فرعون مفعول به والواو حالية وما نافية حجازية وأمر اسمها وبرشيد خبرها على زيادة الباء وقد تقدم نظيره. (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ) جملة يقدم قومه مستأنفة والفاء عاطفة وأوردهم النار فعل وفاعل مستتر والهاء مفعول به أول والنار مفعول به ثان وجاء بلفظ الماضي وسياق الكلام يقتضي أن

يكون مضارعا لإراءة الصورة كأنها أمر بت فيه وفرغ منه، وبئس فعل ماض جامد لإنشاء الذم والورد فاعل والمورود نعت والمخصوص بالذم محذوف أي وردهم. (وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ) اتبعوا فعل ماض بالبناء للمجهول والواو نائب فاعل

وفي هذه متعلقان باتبعوا والاشارة للحياة الدنيا ويوم القيامة عطف على موضع في هذه والمعنى انهم الحقوا لعنة في الدنيا وفي الآخرة ، وبئس الرفد المرفود تقدم إعرابها . (ذٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ) ذلك مبتدأ ومن أنباء القرى خبره الاول وجملة نقصه خبره الثاني وعليك متعلقان بنقصه ومنها خبر مقدم وقائم مبتدأ وحصيد عطف على قائم والجملة مستأنفة أي بعضها عفا أثره وامحى رسمه وبعضها باق ماثل للعيان والاستئناف بياني كأنه جواب لسؤال سائل عنها . وقال أبو البقاء : منها قائم ابتداء وخبر في موضع الحال من الهاء في نقصه وحصيد مبتدأ خبره محذوف أي ومنها حصيد ورجح أبو حيان أن تكون الجملة حالية قال " والحال أبلغ في التخويف وضرب المثل للحاضرين " .

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) الواو عاطفة وما نافية وظلمناهم فعل وفاعل ومفعول به ولكن مهملة للاستدراك وظلموا أنفسهم فعل وفاعل ومفعول به (فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) الفاء عاطفة وما نافية وأغنت فعل ماض وعنهم متعلقان بأغنت وآلهتهم فاعل والتي صفة وجملة يدعون صلة ومن دون الله حال ومن زائدة وشيء مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به . (

لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ) لما ظرفية حينية متعلقة بأغنت أو رابطة وجاء أمر ربك فعل وفاعل وما زادوهم عطف على ما أغنت وعبر بواو العقلاء عن الآلهة لأنهم نزلوها منزلتهم وزادوهم فعل وفاعل ومفعول به وغير تتبيت مفعول به ثان. (وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ)

محل الكاف الرفع على الابتداء وأخذ ربك خبر وإذا أخذ القرى إذا ظرف مستقبل وجملة أخذ القرى في محل جر باضافة الظرف إليها. والواو حالية وهي مبتدأ وظالمة خبر والجملة نصب على الحال وتجدر الاشارة إلى أن المسألة هنا من باب التنازع فقد تنازع المصدر وأخذ في القرى فأعمل الفعل وحذف الضمير من المصدر وجواب إذا الذي هو ناصبه محذوف والتقدير فلا يغني عنهم من أخذه شيء (إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) إن واسمها وخبراها.

(

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ) إن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبرها المقدم واللام المزحلقة وآية اسمها المؤخر ولمن صفة لآية وجملة خاف عذاب الآخرة صلة (ذلِكَ

يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ) ذلك مبتدأ ويوم خبر ومجموع صفة وله متعلقان

بمجموع والناس نائب فاعل وذلك يوم مشهود عطف على ما تقدم ولا بد من تقدير جار

ومجرور أي مشهود فيه وسيأتي في باب البلاغة السر في ذلك. (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ

مَعْدُودٍ) الواو استئنافية وما نافية ونؤخره فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وإلا أداة

حصر ولأجل متعلقان بنؤخره ومعدود صفة. (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ) اضطربت

أقوال المعربين في هذه الآية كثيرا وخبطوا في متاهات يضل معها رائد الحقيقة والسهولة غير

المتكلفة وسنختار الأجوبة التي لا معدى عن إيرادها ضاربين صفحا عن التطويل فنقول

الظرف متعلق بقوله لا تكلم أي لا تتكلم في نفس ذلك اليوم وجملة يأتي مضافة إلى الظرف

وفاعل يأتي ضمير يعود على ذلك اليوم المتقدم ذكره لا ضمير اليوم المضاف إلى يأتي واختار

الزمخشري أن يكون فاعل يأتي هو الله عز وجل لأن ضمير بإذنه يعود عليه وهو قول وجيه

ولكن الأول أقرب إلى سياق الكلام، ولا نافية وتكلم مضارع أصله تتكلم فحذفت إحدى

تاءيه ونفس فاعل تكلم وإلا أداة حصر وبإذنه حال. (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) الفاء للتفريع

ومنهم خبر مقدم وشقي مبتدأ مؤخر وسعيد مبتدأ خبره محذوف دل عليه ما قبله أي

ومنهم سعيد . (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ) الفاء للتفريع أيضا وأما حرف شرط وتفصيل والذين مبتدأ وجملة شقوا صلة والفاء رابطة وفي النار خبر الذين (لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) لهم خبر مقدم وفيها حال لأنه كان صفة لزفير وزفير مبتدأ مؤخر وشهيق مبتدأ حذف خبره أيضا . (خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ) خالدين حال من الذين شقوا وفيها متعلقان بخالدين وما دامت السموات ما مصدرية زمنية ودامت هنا تامة لأنها بمعنى بقيت والسموات فاعل دامت والأرض عطف . (إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ) إلا أداة استثناء وما مستثناة وسيأتي القول في هذا الاستثناء المشكل في باب الفوائد وجملة شاء ربك صلة . (إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ) ان واسمها وخبرها ولما متعلقان بفعال وجملة يريد صلة (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ) تقدم اعرابها آنفا .

قرأ ابن مسعود وطلحة بن مصرف وابن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي وحفص سعدوا بضم السين وباقي السبعة والجمهور بفتحها وكان علي بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائي سعدوا مع علمه بالعربية ولا يتعجب من ذلك إذ هي قراءة منقولة عن ابن مسعود ومن ذكرنا معه وقد احتج الكسائي بقولهم مسعود قيل ولا حجة فيه لأنه يقال مكان مسعود فيه ثم حذف فيه وسمي به وقال الثعلبي : "سعد وأسعد بمعنى واحد " وفي

الأساس : " وسعدت به وسعدت وهو سعيد ومسعود " وفي القاموس " وقد سعد كعلم وعني فهو سعيد ومسعود ولا يقال مسعد " وقال أبو عمرو بن العلاء : " يقال

سعد الرجل كما يقال حسن وقيل سعده لغة مهجورة وقد ضعف جماعة قراءة الأخوين " وهي قراءة حفص وفي المصباح : سعد فلان يسعد من باب تعب في دين أو دنيا سعدا وبالمصدر سمي والفاعل سعيد والجمع سعداء ويعدى بالحركة في لغة فيقال : سعده اللّه يسعده بفتحتين فهو مسعود وقرىء في السبعة بهذه اللغة في قوله : وأما الذين سعدوا بالبناء للمجهول والأكثر أن يتعدى بالهمزة فيقال أسعده اللّه وسعد بالضم خلاف شقي .

(عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) عطاء نصب على المصدر المؤكد من معنى الجملة قبله لأن قوله ففي الجنة خالدين فيها يقتضي إعطاء وإنعاما ، وغير مجذوذ صفة لعطاء .

البلاغة :

انطوت هذه الآيات على أفانين من البلاغة ، ومجموعة من الفوائد :

1 - فأولها استعمال اسم المفعول مكان فعله في قوله تعالى :

" ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود " والسر في إيثار المفعول هو وصف اليوم بمعنى

الجمع والثبات المستقر والديمومة لذلك الثبات فيه وانه يوم أعد ليكون ميعادا مضروبا لا محيد عنه ولا مساغ لتبديله لجميع الناس على السواء ولو انه عبر بالفعل لم يقع ذلك الموقع ولأشعر بالتجدد والتبدل ونظيره قول المتهدّد : انك لمنهوب مالك ، محروب قومك ، فيه من ثبات الوصف وديمومته ما ليس في الفعل والاتساع في الظرف .

2 - 3 وثانيها وثالثها الجمع مع التفريق فالجمع في قوله " لا تكلم نفس إلا بإذنه " والتفريق في قوله " فمنهم شقي وسعيد " .

4- التقسيم في قوله " فأما الذين شقوا " إلى آخر الآية . ومن أمثله الجمع مع التفريق في الشعر قول البحتري :

ولما التقينا والنقا موعد لنا تعجّب رائي الدّر منا ولاقطه

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

أما التقسيم فقد طفح به الشعر العربي فقال أبو نواس مقسما الزمن إلى يوم وأمس وغد :

أمر غد أنت منه في لبس وأمس قد فات فاله عن أمس

وانما الشأن شأن يومك ذا فباكر الشمس بابنة الشمس

وافتنوا فيه كثيرا فأطلقه أبو الطيب على أحوال الشيء المراد تقسيمه مضافا إلى كل من تلك الأحوال ما يليق به فقال :

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التثموا مرد

ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا كثير إذا شدّوا قليل إذا عدوا

وله أيضا :

الدهر معتذر والسيف منتظر وأرضهم لك مصطاف ومرتبع

للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

وله في الغزل :

وأغيد يهوى نفسه كلّ عاقل ظريف ويهوى جسمه كل فاسق

سهاد لأجفان وشمس لناظر وسقم لأبدان ومسك لناشق

وما أحلى قول عمر بن الفارض :

يقولون لي : صفها فأنت بوصفها خبير أجل عندي بأوصافها علم

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا ونور ولا نار وروح ولا جسم

الفوائد :

الاستثناء الموجود في قوله تعالى " إلا ما شاء ربك " تقدم بحثه في سورة الانعام فجدد به عهدا وقد رجحنا هناك ما ذهب اليه الزجاج ونضيف اليه هنا أن الفراء ذهب إلى ما

ذهب اليه الزجاج وقال كلاما لطيفا في صدده ننقله ليضاف إلى ما تقدم قال : " انه استثناء في الزيادة من العذاب لأهل النار والزيادة من النعيم لأهل الجنة والتقدير إلا ما شاء ربك من الزيادة على هذا المقدار كما يقول الرجل لغيره لي عليك ألف دينار إلا الألفين اللذين أقرضتكهما في وقت كذا فالألفان زيادة على الألف بغير شك لأن الكثير لا يستثنى من القليل ورأيت لعلي بن عيسى المعروف بالرماني كلاما بهذا المعنى وحاصل ما تقدم أن الا في

المعنى بمعنى حرف العطف والاستثناء منقطع فكأنه قيل خالدين فيها ما دامت السموات والأرض وزيادة على هذه المدة فكأن إلا بمعنى الواو وأنشد الفراء مستدلا على ذلك :

وأرى لها دارا بأغدر السيدان لم يدرس لها رسم

إلا رمادا هامدا رفعت عنه الرياح خوالد سحم

(460/388)

و هذا الوجه الذي وقع عليه اختيارنا وذهب اليه الزجاج والفراء هو الثالث عشر فهناك اثنا عشر مذهبا متفاوتة .

ويطول بنا القول إذا ما حاولنا نقل هذه الأوجه فليرجع إليها من شاء في التفاسير الكبرى

ليرى كيف تتفاوت الأفهام ويطيب لنا أن ننقل هنا رأيا يحتاج إلى التأويل وهو لفيلسوف الصوفية محيي الدين ابن عربي قال : انهم يعذبون فيها مدة ثم تنقلب عليهم وتبقى طبيعة نارية لهم يتلذذون بها لموافقتها لطبيعتهم فإن الثناء بصدق الوعد لا بصدق الوعيد . وقال في موضع آخر : إن أهل النار إذا دخلوها لا يزالون خائفين مترقبين أن يخرجوا منها فاذا أغلقت عليهم أبوابها اطمأنوا لأنها خلقت على وفق طباعهم .

ولبدوي الجبل في العصر الحديث قصيدة عصماء قال فيها يصف أهل النار :

لا يألمون ولا تشكو جسومهم من اللظى فهي نيران بنيران

وقد علق ابن القيم على هذا القول قائلا : وهذا في طرف والمعتزلة القائلون بأن اللّه يجب عليه تعذيب من توعده بالعذاب في طرف آخر

فأولئك عندهم لا ينجو من النار من دخلها أصلا وقد استرسل الزمخشري في التشنيع على أهل السنة في هذا الصدد مما يطول بحثه وانما نقلنا هذه اللمح للاطلاع .

[سورة هود (11) : الآيات 109 إلى 112]

فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ ما يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (109) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (110) وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (111) فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ

بَصِيرٌ(112)

اللغة:

(461/388)

مِرْيَةٍ) : المرية بكسر الميم وضمها الشك مع ظهور الدلائل للتهمة وهي مأخوذة من مرى ضرع الناقة ليدرّ بعد درورِه وامترى في الشيء شك واستمرى اللبن ونحوا استخرجه واستدره.

الاعراب:

(فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ) الفاء استئنافية والجملة مسوقة للدلالة على ما أحدثته القصص السالفة في نفسه صلى اللّه عليه وسلم من أثر وان عكوف كفار قريش على عبادة أصنامهم ليست من دواعي المثبطات لعزيمته. ولا ناهية وتك فعل مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه السكون المقدرة على النون المحذوفة للتخفيف وقد سبق ذكر خصائص كان، واسمها ضمير مستتر تقديره أنت وفي مرية خبرها ومما صفة وجملة يعبد صلة وهؤلاء فاعل ويجوز أن تكون ما مصدرية (ما يَعْبُدُونَ إِلَّا كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ) ما نافية ويعبدون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل وإلا أداة حصر والكاف نعت لمصدر

محذوف وما يجوز أن تكون موصولة أو مصدرية ومن قبل متعلقان بمحذوف حال . (وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ) الواو عاطفة وان واسمها واللام المزحلقة وموفوهم خبر ان والهاء مضاف اليه ونصيبهم مفعول به وغير منقوص حال مبينة للنصيب الموفى وقيل بل حال مؤكدة لأن التوفية تستلزم عدم نقصان الموفى كاملا كان أو ناقصا فقولك وفيته نصف حقه تستلزم عدم نقصان فما وجه انتصابه حالا عنه والأوجه أن يقال استعملت التوفية بمعنى الإعطاء ومن قال أعطيت فلانا حقه كان جديرا بأن يوكده بقوله غير منقوص .

)

(462/388)

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ) الواو استئنافية واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وآتينا موسى الكتاب : فعل وفاعل ومفعول به ، فاختلف : الفاء حرف عطف واختلف فعل ماض مبني للمجهول وفيه سد مسد نائب الفاعل ومعنى في الظرفية أي من شأنه وقيل هي سببية . (وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ) الواو عاطفة ولولا حرف امتناع لوجود وكلمة مبتدأ محذوف الخبر وجملة سبقت صفة ومن ربك جار ومجرور متعلقان بسبقت واللام جواب لو وقضي بينهم فعل ماض مبني للمجهول ونائب

الفاعل مستتر والظرف متعلق به أي وقضي الأمر بينهم . (وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ) الواو حالية وان واسمها وفي شك خبرها ومنه صفة لشك ومريب صفة ثانية .

)

وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ) هذه الآية مشكلة جدا ويزداد الاشكال في قراءتنا وهي تشديد إن وتثقيل لما وقد اعترف المعربون القدامى بعجزهم فقال السمين ما نصه : " هذه الآية الكريمة مما تكلم الناس فيها قديما وحديثا وعسر على أكثرهم تلخيصها قراءة وتخريجا وقد سهل اللّه تعالى ذلك فذكرت أقاويلهم وما هو الراجح منها " ثم هام في متاهات سحيقة يضيع الطالب فيها وسنتجاوز جريا على عادتنا تلك الاوجه المتشعبة والمسالك المتباينة ونكتفي بقراءتنا وهي قراءة حفص وأبي جعفر وابن عامر وحمزة فنقول : إن واسمها ولّما ذكروا فيها أوجها أربعة أسهلها وأبعدها عن التكلف ما اختاره الزجاج انها بمعنى إلا كقولهم سألتك لما فعلت بمعنى إلا وهو وجه سهل يزول به كل إشكال لولا أنه يتعارض مع ما قاله الفراء : هذا لا يجوز إلا في التمني كما قال الخليل أو بعد النفي كقوله تعالى "إن كل نفس لما عليها حافظ " ولكنه على ما فيه أسهل من الأوجه الثلاثة الباقية وهي أن تكون بمعنى لمن ما فحذفت الميمات الثلاث واختاره الفراء وأنشد :

وإني لما أصدر الأمر وجهه إذا هو أعيا بالسبيل مصادره

والثاني أن تكون مخففة وشددت للتأكيد واختياره المازني ولكن هذا مردود لانه إنما يجوز تخفيف المشددة عند الضرورة فأما تشديد المخففة فلا يجوز بحال ورابع الأوجه انها مصدر لم من لمت الشيء إذا جمعته

إلا أنها بنيت فلم تصرف فكأنه قال وإن كلا جميعا ليوفينهم وفي هذا ما فيه والله أعلم.

وليوفينهم اللام جواب للقسم المقدر ويوفينهم فعل مضارع مبني على الفتح والهاء مفعول وربك فاعل والجملة خبر ان وأعمالهم مفعول به ثان (إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) إن واسمها وبما يعملون متعلقان بخبير وخبير خبر ان (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ) الفاء الفصيحة واستقم فعل أمر وكما نعت لمصدر محذوف أي فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها على جادة الحق غير منحرف عنها ، ومن : الواو عاطفة ومن موصول معطوف على الضمير في استقم وانما جاز العطف عليه من غير تأكيد بالمنفصل لقيام الفاصل مقامه ومعك ظرف متعلق بمحذوف صلة للموصول ويجوز أن يكون مفعولا معه والواو للمعية.

(وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) لا ناهية وتطغوا مضارع مجزوم بلا والواو فاعل وان واسمها وبما تعملون خبرها وقد تقدم نظيره.

البلاغة :

الإيجاز في قوله تعالى " فاستقم " ذلك لأن الاستقامة هي الاستمرار في جهة واحدة وأن لا يعدل يمينا أو شمالا ومعروف أن الخط المستقيم هو أقصر بعد بين نقطتين فأقل انحراف يخرجه عن استقامته واذن فقد انتظم في كلمة الاستقامة جميع مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأحكام الأصلية والفرعية والكمالات التي ينشدها العارفون والمقربون ، والتحلل من ذلك خطير واجتناب التحلل عسير ولذلك قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم في حديث رواه ابن عباس عند ما قال له أصحابه : لقد أسرع فيك الشيب : " شيبتني هود والواقعة وأخواتهما " .

(464/388)

الفوائد :

ما يقوله أبو حيان :

وقال أبو حيان : " وأما القراءة الثانية فتشديد إن وإعمالها في كل واضح وأما تشديد لما فقال المبرد : هذا لحن لا تقول العرب إن زيدا لما خارج ، وهذه جسارة من المبرد على عادته وكيف تكون قراءة متواترة لحنا ، وليس تركيب الآية كتركيب المثال الذي قال وهو إن زيدا لما خارج ، هذا المثال لحن وأما في الآية فليس لحنا ولو سكت وقال كما قال

الكسائي : ما أدري ما وجه هذه القراءة لكان قد وفق وأما غير هذين من النحويين فاختلفوا في تخريجها " .

ثم أورد أبو حيان سيلا من التخريجات وشجبها كلها ومنها الوجه الذي اخترناه وقال أخيرا :

" وهذه كلها تخريجات ضعيفة جدا ينزه عنها القرآن وكنت قد ظهر لي فيها وجه جار على قواعد العربية وهو ان " لما " هذه هي لما الجازمة حذف فعلها المجزوم لدلالة المعنى عليه كما حذفوه في قولهم :

قاربت المدينة ولما يريدون ولما أدخلها وكذلك هنا التقدير : وإن كلا لما ينقص من جزاء عمله ، ويدل عليه قوله تعالى : ليوفينهم ربك أعمالهم لما أخبر بانتفاء نقص أجزاء أعمالهم أكده بالقسم فقال ليوفينهم ربك أعمالهم وكنت اعتقدت اني سبقت إلى هذا التخريج السائغ العاري من التكلف وذكرت ذلك لبعض من يقرأ علي فقال : قد ذكر ذلك أبو عمرو ابن الحاجب ولتركي النظر في كلام هذا الرجل لم أقف عليه ثم رأيت في كتاب التحرير نقل هذا التخريج عن ابن الحاجب قال : " لما " هذه

هي الجازمة حذف فعلها للدلالة عليه لما ثبت من جواز حذف فعلها في قولهم : خرجت ولما سافرت ولما ونحوه وهو سائغ فصيح فيكون التقدير لما يتركوا لما تقدم من الدلالة عليه من تفصيل المجموعين في قوله : فمنهم شقي وسعيد ثم ذكر الأشقياء والسعداء ومجازاتهم ثم بين ذلك بقوله : ليوفينهم ربك أعمالهم قال : ما أعرف وجها أشبه من هذا وان كانت النفوس تستبعده من جهة أن مثله لم يقع في القرآن " .

[سورة هود (11) : الآيات 113 إلى 117]

وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (113) وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ (114) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (115) فَلَوْلا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَكانُوا مُجْرِمِينَ (116) وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ (117)

اللغة :

(تَرْكَنُوا) : الركون إلى الشيء هو السكون إليه بالمحبة له والإنصات اليه وفي المصباح : " ركنت إلى زيد اعتمدت عليه وفيه لغات احداها من باب تعب وعليه قوله تعالى : " ولا تركنوا إلى الذين ظلموا " وركن ركونا من باب قعد قال

الأزهري وليست بالفصيحة ، والثالثة ركن يركن بفتحتين وليسب بالأصل بل من باب تداخل اللغتين لأن باب فعل يفعل يكون حلقي العين أو اللام " . وقال الراغب :

(466/388)

" والصحيح انه يقال ركن يركن بالفتح فيهما وركن يركن بالكسر في الماضي والفتح في المضارع وبالفتح في الماضي والضم في المضارع" ويؤخذ من القاموس وشرحه وغيره من معاجم اللغة انه من باب دخل ومن باب تعب أما اللازم منه فبابه ركن بضم الكاف أي كان رزينا وقورا .

(زلفاً) بضم الزاي وفتح اللام : جمع زلفة من الليل أي طائفة وفي القاموس : الزلفى الطائفة من الليل والجمع زلف وزلفات كغرف وغرفات ، قال العجاج :

تاج طواه الأين مما رجفا طيّ الليالي زلفا فزلفا

(أُتْرِفُوا) نعموا وترف كفرح تنعم وأترفته النعمة أبطرته وأطغته

الاعراب :

)

وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ) الواو استئنافية ولا ناهية وتركنوا فعل مضارع

مجزوم بلا والواو فاعل والى الذين جار ومجرور متعلقان بتركنوا وجملة ظلموا صلة ،

فتمسكم : الفاء السببية وتمسكم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء الواقعة

(467/388)

بعد النهي والكاف مفعول به والنار فاعل . (وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ) الواو حالية أو استئنافية أيضا والجملة حالية أي تمسكم النار حال انتفاء ناصركم أو مستأنفة وما نافية ولكم خبر مقدم ومن دون اللّه حال لأنه كان في الأصل صفة لأولياء ومن حرف جر زائد وأولياء مجرور لفظا بالفتحة مرفوع محلا لأنه مبتدأ مؤخر وثم حرف عطف ولا نافية وتنصرون فعل مضارع ولم ينصبه نسقا على تركنوا لأنه من عطف الجمل عطف جملة فعلية على جملة اسمية (وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ) الواو عاطفة وأقم فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت والصلاة مفعول به وطرفي النهار نصب على الظرفية بأقم والمراد بطرفي النهار الغداة والعشي وزلفا منصوب على الظرفية أيضا بأقم ومن الليل صفة . (إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ) إن واسمها وجملة يذهبن خبرها والنون فاعل يذهبن والسيئات مفعول به وذلك مبتدأ وذكرى خبر وللذاكرين جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لذكرى (وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) واصبر

عطف على أقم والفاء تعليلية وان واسمها وجملة لا يضيع خبرها وأجر المحسنين مفعول به . (

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ) الفاء استئنافية ولو لا تحضيضية ولعل اعراب كان تامة أولى إذا المعنى فهلا وجد أو حدث فيتعلق من القرون بها أو بمحذوف حال ومن قبلكم حال من القرون وأولو فاعلها وعلامة رفعه الواو لأنه ملحق بجمع المذكر السالم وبقية مضاف اليه وجملة ينهون عن الفساد صفة لأولو بقية وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بالفساد وإذا جعلنا كان ناقصة فيكون من القرون متعلقان بمحذوف حال وتكون جملة ينهون خبرها وأولو بقية اسمها والمصدر المقترن بأل يعمل في المفاعيل

(468/388)

الصريحة فيكون في المؤولة والظروف أولى ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من الفساد . (إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ) إلا أداة استثناء وقليلا مستثنى منقطع لئلا يفسد المعنى وننقل هنا عبارة الزمخشري وهي : " معناه ولكن قليلا ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تركوا النهي " ثم قال : " فإن قلت هل لوقوع هذا الاستثناء متصلا وجه

يحمل عليه؟ قلت: ان جعلته متصلا على ما هو عليه ظاهر الكلام كان المعنى فاسدا لأنه يكون تحضيضا لأولي البقية على النهي عن الفساد لا للقليل من الناجين منهم كما تقول: هلا قرأ قومك القرآن إلا الصلحاء منهم، يريد استثناء الصلحاء من المحضضين على قراءة القرآن وإن قلت في تحضيضهم على النهي عن الفساد معنى نفيه عنهم فكأنه قيل: ما كان من القرون أولو بقية إلا قليلا كان استثناء متصلا ومعنى صحيحا وكان انتصابه على أصل الاستثناء وإن كان الأفصح أن يرفع على البدل" وممن صفة لقليلا وجملة أنجينا صلة ومنهم حال. (وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) واتبع عطف على مضمر دل عليه الكلام تقديره فلم ينهوا عن الفساد واتبع، والذين فاعل وجملة ظلموا صلة وما مفعول به وجملة أترفوا صلة وفيه متعلقان بأترفوا وكانوا مجرمين كان واسمها وخبرها والجملة عطف على أترفوا. (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) الواو استئنافية وما نافية وكان فعل ماض ناقص وربك اسمها وليهلك اللام للجحود وهي المسبوقة بكون منفي ويهلك منصوب بأن مضمرة بعد اللام والجار والمجرور متعلقان بالخبر المحذوف أي مريدا ليهلك وقد سبق تقرير ذلك والقرى مفعول به وبظلم حال من الفاعل وأهلها الواو حالية وأهلها مبتدأ ومصلحون خبر والجملة حالية من المفعول به أي القرى.

البلاغة:

في قوله تعالى : " ولا تركنوا إلى الذين ظلموا " إلى آخر الآية فنون عديدة من البلاغة التي تتقطع دونها الأعناق وسنبسطها بما يلي :

1- ائتلاف اللفظ مع المعنى :

إذ لما كان الركون إلى الذين ظلموا دون فعل الظالمين وجب أن يكون العقاب عليه دون عقاب الظالمين ومسّ النار في الحقيقة دون الإحراق ولما كان الإحراق عقابا للظالم أوجب العدل أن يكون المسّ عقاب الراكن إلى الظالم فلهذا عدل عز وجل عن قوله مثلا . . . فتدخلوا النار ، لكون الدخول مظنة الإحراق وخصّ المسّ ليشير به إلى ما يقتضي الركون من العقاب ويميز بين ما يستحق الظالم وبين ما يستحق الراكن له من العقاب وإن كان مس النار قد يطلق ويراد به الإحراق لكن هذا الإطلاق مجاز والحقيقة ما ذكرناه لأن حقيقة المس أول ملاقاة الجسم حرارة النار وإذا احتمل اللفظ احتمالات صرف منها إلى ما تدل عليه القرائن والائتلاف في هذه الآية معنوي .

2- الادماج :

فقد أدمج الله سبحانه وصفه بالعدل فتعلق فن الفخر بفن الأدب إذ ظاهر الآية التأديب ومن أجله جاءت في هذا الباب الموعظة ووصف الحق عز وجل بالعدل .

3- البسط :

فلم يقل الظالمين وعدل عن ذلك إلى قوله " الذين ظلموا " لما يحتمل الاول من استمرار الظلم الذي لا يلائم المساس ولا تحصل به المبالغة التي تحصل من لفظ الثاني من وقوع الظلم على سبيل الندور ليلائم المعنى معنى الركون ومعنى المساس وتحصل المبالغة الحقة لأنه سبحانه إذا نهى عن الركون إلى من استمر منه الظلم بطريق أولى وإذا نهى عن الركون إلى الظالم كان النهي عن فعل الظلم أحرى.

(470/388)

ونثبت هنا بهذه المناسبة كتاب آية في البلاغة وهو يتناسب مع المقام : لما خالط الزهري السلاطين كتب اليه أخ في الدين : عافانا اللّه وإياك أبا بكر من الفتن فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك اللّه ويرحمك ، أصبحت شيخا كبيرا وقد أثقلتك نعم اللّه بما فهمك اللّه من كتابه وعلمك من سنة نبيه وليس كذلك أخذ اللّه الميثاق على العلماء ، قال سبحانه : " لتبيننه للناس ولا تكتمونه " واعلم أن أيسر ما ارتكبت وأخف ما احتملت انك آنست وحشة الظالم ، وسهلت سبيل الغي ، بدنوك ممن لم يؤد حقا ، ولم يترك باطلا حين أدناك ، اتخذوك قطبا تدور عليه رحى باطلهم ، وجسرا يعبرون عليك إلى بلائهم ، وسلما يصعدون فيك إلى ضلالهم ، يدخلون الشك بك على العلماء ، ويقتادون بك قلوب الجهلاء

، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خرّبوا عليك ، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك من دينك ، فما يؤمنك أن تكون ممن قال اللّه فيهم : " فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّا " فانك تعامل من لا يجهل ويحفظ عليك من لا يغفل ، فدا ودينك فقد دخله سقم ،

وهيء زادك فقد حضر السفر البعيد " وما يخفى على اللّه من شيء في الأرض ولا في السماء " والسلام .

[سورة هود (11) : الآيات 118 إلى 123]

(471/388)

وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119) وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (120) وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ (121) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (122)

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ

عَمَّا تَعْمَلُونَ (123)

الإعراب :

(وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً) الواو استئنافية ولو شرطية امتناعية وشاء ربك فعل وفاعل واللام واقعة في جواب لو وجعل الناس أمة جعل ومفعوليها وواحدة صفة .

(وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ)

(472/388)

الواو عاطفة ولا يزالون فعل مضارع ناقص والواو اسمها ومختلفين خبرها وإلا من رحم ربك قال الزجاج استثناء منقطع على معنى لكن وتقديره لكن من رحم ربك فإنه غير مختلف واكتفى أبو البقاء بقوله هو مستثنى من ضمير الفاعل في يزالون . (وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ) لذلك متعلق بخلقهم والاشارة إلى الاختلاف والرحمة وخلقهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به وتمت كلمة ربك فعل وفاعل والمراد بكلمته قضاؤه الأزلي وحكمه المبرم . (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) لأملأن جهنم جواب قسم مقدر تقديره يمينا لأملأن وأملأن فعل مضارع مبني على الفتح وجهنم مفعول به ومن الجنة جار ومجرور متعلقان بأملأن ، والجنة هي الجن والتاء للمبالغة وأجمعين تأكيد . (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ

أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ) يجوز أن تنصب كلا نصبا على المصدر وتقديره وكل القصص نقص عليك وجملة نقص عليك في موضع الصفة لقوله وكلا ، ويجوز أن ينصب على المفعولية والمضاف اليه محذوف عوض منه التنوين تقديره كل نبأ نقص عليك ومن أنباء صفة لكلا وما اسم موصول في محل نصب بدل من كلا وقيل زائدة ، وعلى الوجه الاول تعرب مفعولا وجملة نثبت به فؤادك صلة ومعنى تثبيت القلب زيادة يقينه وما فيه طمأنينة قلبه . (وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ) وجاءك فعل ومفعول به وفي هذه متعلقان بجاءك والاشارة إلى السورة أو الأنباء المقتصة فيها والحق فاعل جاءك وما بعده عطف عليه . (وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ) للذين جار ومجرور متعلقان بقل وجملة لا يؤمنون صلة واعملوا فعل أمر والواو فاعل والجملة مقول القول وعلى مكانتكم حال أي حال كونكم ثابتين على مكانتكم وقد سبق القول في المكانة . (
إِنَّا عامِلُونَ) ان واسمها

وخبرها . (وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ) انتظروا فعل أمر والواو فاعل وإنا منتظرون ان واسمها وخبرها والتهديد واضح . (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ) لله خبر

مقدم وغيب السموات مبتدأ مؤخر واليه متعلقان يرجع والأمر نائب فاعله وكله تأكيد .

(فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) الفاء الفصيحة واعبده فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به وتوكل عطف على اعبده وعليه متعلقان بتوكل وما حجازية وربك اسمها والباء حرف جر زائد وغافل مجرور لفظا منصوب محلا خبرها وعما متعلقان بغافل ويعملون صلة ما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 4 صـ 386 . 447﴾

(474/388)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى . رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَولَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَة

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء التاسع والثمانون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/389)

الجزء التاسع والثمانون بعد الثلاثمائة

(سورة يوسف عليه السلام)

(4/389)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة يوسف عليه السلام)

(5/389)

"فصل فى فضل السّورة"

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

لم يرد فيه سوى أَحاديث واهية .

منها حديث أُبىّ : علِّموا أَرقّاءكم سورة يوسف ؛ فإِنَّه أُيُّما مسلم تلاها وعلَّمها أَهلَه ، وما ملكت يمينه ، هوّن الله عليه سَكَرَات الموت ، وأَعطاه القوّة أَلاَّ يحسُد مسلماً ، وكان له بكلّ رقيق فى الدّنيا مائة أُلف أَلف حسنة ، ومثلها درجة ، ويكون فى جوار يوسف فى الجنَّة .

ثمّ قال : تعلَّموها وعلِّموها أَولادكم ؛ فإِنَّه مَنْ قرأَها كان له من الأَجر كأَجر مَن اجتنب الفواحش ، وأَجر من غضَّ بصره عن النظر إِلى الحرام .

وقال : يا علىّ مَنْ قرأَ سورة يوسف تَقَبّل الله حسناته ، واستجاب دعاءَه ، وقضى حوائجه وله بكلّ آية قرأَها ثواب الفقراءِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 261.260 ﴾

(6/389)

فصل في مقصود السورة الكريمة :

قال البقاعى :

مقصودها وصف الكتاب بالإبانة لكل ما يوجب الهدى لما ثبت فيما مضى ويأتي في هذه السورة من تمام علم منزله غيبا وشهادة وشمول قدرته قولا وفعلا ، وهذه القصة - كما ترى - أنسب الأشياء لهذا المقصود ، فلذلك سميت سورة يوسف - والله أعلم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 3﴾

(7/389)

فصل

قال القرطبى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يوسف

وهي مكية كلها . وقال ابن عباس وقتادة : إلا أربع آيات منها . وروي أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فنزلت السورة ؛ وسيأتي . وقال سعد بن أبي وقاص : أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه عليهم زمانا فقالوا :

لو قصصت علينا ؛ فنزل : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ [يوسف : 3] فتلاه عليهم زمانا فقالوا : لو حدثتنا ؛ فأنزل : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ [الزمر : 23] . قال العلماء : وذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة ، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة ، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر ، ولا على معارضة غير المتكرر ، والإعجاز لمن تأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9صـ 118 ﴾

(8/389)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة يوسف

مكية وآياتها إحدى عشرة ومائة

مقدمة سورة يوسف أخرج النحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت سورة يوسف بمكة

وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير رضي الله عنه قال : أنزلت سورة يوسف بمكة

وأخرج الحاكم وصححه عن رفاعة بن رافع الزرقي أنه خرج هو وابن خالته معاذ بن عفراء حتى قدما مكة وهذا قبل خروج الستة من الأنصار فأتيا النبي صلى الله عليه و سلم قال : فقلت أعرض علي فعرض عليه الإسلام وقال " من خلق السموات والأرض والجبال ؟ قلنا الله قال : فمن خلقكم ؟ قلنا الله قال : فمن عمل هذه الأصنام التي تعبدون ؟ قلنا نحن قال : فالخالق أحق بالعبادة أم المخلوق ؟ فأنتم أحق أن يعبدوكم ! وأنتم عملتموها والله أحق أن تعبدوه من شيء عملتموه وأنا أدعوكم إلى عبادة الله وإلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وصلة الرحم وترك العدوان وبغض الناس "

قلنا : لو كان الذي تدعونا إليه باطلا لكان من معالي الأمور ومحاسن الأخلاق

أمسك راحلتينا حتى نأتي البيت فجلس عنده معاذ بن عفراء قال : فطفت وأخرجت سبعة أقداح فجعلت له منها قدحا فاستقبلت البيت فضربت بها وقلت : اللهم إن كان ما يدعو إليه محمد حقا فأخرجه قدحه سبع مرات قال : فضربت فخرج سبع مرات

فصحت أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله فاجتمع الناس علي وقالوا : مجنون رجل صبأ

قلت : بل رجل مؤمن ثم جئت إلى أعلى مكة فلما رآني معاذ قال : لقد جاء رافع بوجه ما ذهب بمثله

فجئت وآمنت وعلمنا رسول الله صلى الله عليه و سلم سورة يوسف واقرأ باسم ربك

سورة العلق الآية 1 ثم رجعنا إلى المدينة

وأخرج ابن سعد عن عكرمة أن مصعب بن عمير لما قدم المدينة يعلم الناس القرآن بعث إليهم عمرو بن الجموح : ما هذا الذي جئتمونا به ؟ فقالوا : إن شئت جئناك فأسمعناك القرآن قال : نعم

(9/389)

فواعدهم يوما فجاء فقرأ عليه القرآن آلر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون

وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن حبرا من اليهود دخل على رسول الله صلى الله عليه و سلم فوافقه وهو يقرأ سورة يوسف فقال يا محمد من علمكها ؟ ! قال : " الله علمنيها " فعجب الحبر لما سمع منه فرجع إلى اليهود فقال لهم : والله إن محمدا ليقرأ القرآن كما أنزل في التوراة فانطلق بنفر منهم حتى دخلوا عليه

فعرفوه بالصفة ونظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه فجعلوا يستمعون إلى قراءته بسورة يوسف فتعجبوا منه وأسلموا عند ذلك

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : سمعت عمر رضي الله عنه يقرأ في الفجر بسورة يوسف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 4 صـ 494 . 495﴾

(10/389)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . الر تلك آيات الكتاب المبين)

هذه السّورة مكّيّة بالاتّفاق .

وعدد آياتها مائة وإِحدى عشرة ، بلا خلاف .

وكلماتها أَلف وسبعمائة وستّ وسبعون .

وحروفها سبعة آلاف ومائة وست وستُّون .

وما فيها آية مختلف فيها .

مجموع فواصل آياتها يجمعها قولك (لم نر) .

منها آية واحدة على اللاَّم : ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ .

وما لها اسم سوى سورة يوسف ؛ لاشتمالها على قصّته .

مقصود السّورة إجمالاً : عَرْض العجائب الَّتى تتضمّنها : من حديث يوسف ويعقوب ، والوقائع الَّتى فى هذه القصّة : من تعبير الرّؤْيا ، وحَسَد الإِخْوة ، وحِيلهم فى التفريق بينه وبين أَبيه ، وتفصيل الصّبر الجميل من جهة يعقوب ، وبشارة مالك بن دعر بوجْدان يوسف ، وبيْع الإِخوة أَخاهم بثمن بَخْس ، وعَرْضه على البيع والشراءِ ، بسُوق مصر ، ورغبة زَلِيخَا وعزيز مصر فى شراه ، ونظر زَلِيخا إِلى يوسف ، واحتراز يوسف منها ، وحديث رؤية البرهان ، وشهادة الشاهد ، وتعيير النسوة زَليخا ، وتحيّرهنّ فى حسن يوسف ، وجماله ، وحبسه فى السّجن ، ودخول السّاقى والطَّبّاخ إِليه ، وسؤالهما إِيّاه ، ودعوته إِيَّاه إِلى التَّوحيد ، ونجاة السّاقى ، وهلاك الطَّبّاخ ، ووصيّة يوسف للسّاقى بأَن يذكره عند ربّه ، وحديث رؤيا مالك بن الرّيان ، وعجز العابرين عن عبارته ، وتذكُّر السّاقى يوسف ، وتعبيره لرؤياه فى السّجن ، وطلب مالك يوسف ، وإِخراجه من السّجن ، وتسليم مقاليد الخزائن إِليه ، ومَقْدَم إِخوته لطلب المِيرة ، وعهد يعقوب مع أَولاده ، ووصيّتهم فى كيفيّة

الدّخول إِلى مصر ، وقاعدة تعريف يوسف نفسه لبنيامين ، وقضائه حاجة الإِخوة ، وتغييبه الصّاع فى أَحمالهم ، وتوقيف بنيامين بعلَّة السّرقة ، واستدعائهم منه توقيف غيره من الإِخوة مكانه ، وردّه الإِخوة إِلى أَبيهم ، وشكوى يعقوب من جَوْر الهجْران ، وأَلم الفراق ، وإِرسال يعقوب إِيّاهم فى طلب يوسف ، وأَخيه ، وتضرّع الإِخْوة بين يَدىْ يوسف ، وإِظهار يوسف لهم ما فعلوه معه من الإِساءَة وعفوه عنهم ، وإِرساله بقميصه صحبتهم إِلى يعقوب ، وتوجُّه يعقوب من كَنْعَان إِلى مصر ، وحوالة يوسف ذَنْب إِخوته على مكايد الشيطان ، وشكره لله تعالى على ما خوّله من المُلْك ، ودعائه وسؤاله حسن الخاتمة ، وجميل العاقبة ، وطلب السّعادة ، والشّهادة ، وتعيير الكفَّار على الإِعراض من الحجّة ، والإِشارة إِلى أَنّ قصة يوسف عِبْرة للعالمين فى قوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ إِلى آخر السّورة .

وهذه السّورة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 257.255 ﴾

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة يوسف عليه السلام

211 - مسألة :

قوله تعالى في يوسف عليه السلام : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) وفي القصص في موسى عليه السلام : (بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى) ؟ .

جوابه :

أن يوسف عليه السلام : نبه على ما يراد منه قبل بلوغ الأربعين برؤياه الكواكب والوحي حين ألقى في الجب ، وإلهامه علم التعبير ، وغير ذلك مما كان في زمان حداثته ، وهو تعريضه بما يراد منه .

وموسى عليه السلام : لم يعلم المراد منه ولا نبه عليه قبل بلوغ الأربعين وقبل مفارقة شعيب ، فناسب قوله فيه : (وَاسْتَوَى) لاسيما على قول الأكثر أن الاستواء : بلوغ الأربعين ، لأنها كمال العقل والنظر .

والخلاف في الأشد ، والاستواء مشهور ولم يقل أحد أنه دون البلوغ .

212 - مسألة :

قوله تعالى : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) هنا ، وفى الحج .

وفى مواضع أخر: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) بالواو.

جوابه:

أن كل موضع يكون ما قبله سببا لما بعده كان بالفاء للسببية، وإن لم يكن سببا لما بعده كان بالواو العاطفة،

لأنها تعطف جملة على جملة، بيان ذلك:

لما تقدم في يوسف عليه السلام: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) قال: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

فينظروا ويسمعوا أخبار الرسل وما جرى على من كذبهم.

ولذلك في الحج لما تقدم: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

قال: (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ) فيتدبروا أحوال الماضين منهم.

213 - مسألة:

قوله تعالى: (وَلَدَارُ الْآخِرَةِ).

وفى الأعراف: (وَالدَّارُ الْآخِرَةُ)؟.

جوابه:

أن هنا تقدم ذكر الساعة، فكأنه قال تعالى: ولدار الساعة الآخرة وفى الأعراف: تقدم قوله: (يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى) فناسب: (وَالدَّارُ الْآخِرَةُ). انتهى انتهى. اهـ

﴿كشف المعاني صـ 215.217﴾

(14/389)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى:

المتشابهات: قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

ليس فى القرآن غيره أى عليم: علَّمك تأويل الأحاديث، حكيم: اجتباك للرّسالة.

قوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فى موضعين، وليس بتكرار؛ لأنَّه ذكر الأوّل حين نُعِى إليه يوسف، والثّانى حين رُفِع إليه ما جرى على بنيامين.

قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ومثلها فى القصص.

وزاد فيها (واستوى)؛ لأَنَّ يوسف عليه السّلام أُوحى إِليه وهو فى البئر، وموسى عليه السّلام أُوحى إِليه بعد أَربعين سنة.

وقوله (واستوى) إِشارة إِلى تلك الزّيادة.

ومثله (وبلغ أَربعين سنة) بعد قوله : (حتى إِذا بلغ أَشُدَّهُ) .

قوله : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ هنا فى موضعين ، وليس بتكرار ؛ لأَنَّ الأَوّل ذكره حين دعته إِلى المواقعة ، والثانى حين دُعى إِلى تغيير حكم السّرقة .

قوله : ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ فى موضعين : أَحدهما فى حضرة يوسف ، حين نَفَين عنه البشرية بزعمهنّ ، والثانى بظهر الغَيب حين نَفَين عنه السّوءَ .

قوله : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (فى موضعين) ليس بتكرار ؛ لأَنَّ الأَوّل من كلام من صاحبى السّجن ليوسف ، والثانى من كلام إِخوته له .

قوله : ﴿ يا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ﴾ فى موضعين : الأَوّل ذَكَره يوسف حين عدل عن جوابهما إِلى دعائهما إِلى الإِيمان .

والثانى حين عاد إِلى تعبير (رؤياهما) ؛ تنبيهاً على أَنَّ الكلام الأَوّل قد تمّ .

قوله : ﴿ ﴾ كرّر (لعلِّى) مراعاةً لفواصل الآى .

ولو جاءَ على مقتضى الكلام لقال : لعلىّ أَرجع إِلى النّاس فيعلموا ، بحذف النون على الجواب .

ومثله فى هذه السّورة سواءً قوله : ﴿ ﴾ أَى لعلَّهم يعرفونها فيرجعوا .

قوله : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجِهَازِهِمْ ﴾ فى موضعين : الأَوّل حكاية عن تجهيزه إِيّاهم أَوّل ما دخلوا عليه .

والثانى حين أَرادوا الانصراف من عنده فى المرّة الثانية .

وذكَرَ الأَوّل بالواو ؛ لأَنَّه أَوّل قصَصهم معه ، والثَّانى بالفاءِ ، عطفاً على ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ ﴾ وتعقيباً له .

قوله : (تالله) فى ثلاثة مواضع : الأَوّل يمين منهم أَنهم ليسوا سارقين ، وأَنَّ أَهل مصر بذلك عالمون ، والثَّانى يمين منهم أَنَّك لو واظبت على هذا الحزن والجَزَع تصير حَرَضًا ، أَو تكونُ من الهالكين ، والثالث يمين منهم أَنَّ الله فضَّله عليهم ، وأَنَّهم كانوا خاطئين .

قوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾ وفى الأَنبياءِ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ ﴾ بغير (مِن) لأَن (قبل) اسم للزّمان السّابق على ما أُضيف إِليه ، و (مِن) يفيد استيعاب الطَّرفين ، وما فى هذه السّورة للاستيعاب .

وقد يقع (قبل) على بعض ما تقدم ؛ كما فى الأَنبياءِ ، وهو قوله : ﴿ مَآ آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْيَةٍ ﴾ ثم وقع عقِبه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ ﴾ فحذف (مِن) لأَنَّه هو بعينه .

قوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ ﴾ بالفاءِ .

وفى الروم والملائكة بالواو ؛ لأَنَّ الفاءَ يدلّ على الاتِّصال والعطف ، والواو يدلّ على

العطف المجرّد .

وفى هذه السّورة قد اتّصلت بالأَوّل ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ ﴾ حال مَن كذَّبهم وما نزل بهم ، وليس كذلك فى الرّوم والملائكة .

(16/389)

قوله : ﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ بالإِضافة ، وفى الأَعراف ﴿ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ ﴾ على الصّفة ؛ لأَنَّ هنا تقدّم ذكرُ السّاعة ، فصار التقدير : ولدار السّاعى الآخرة ، فحذف الموصوف ، وفى الأَعراف تقدّم قوله : ﴿ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى ﴾ أَى المنزل الأَدنى ، فجعله وصفاً للمنزل ، والدّار الدّنيا والدّار الآخرة بمعناه ، فأُجْرِى مُجْراه .

تأَمّل فى السّورة فإِنّ فيها برهان أَحسنِ القصص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 257 . 260 ﴾

(17/389)

وقال العلامة الكَرْماني رحمه الله :

سورة يوسف

221 - قوله تعالى إن ربك عليم حكيم 6 ليس في القرآن غيره

أي عليم علمك تأويل الأحاديث حكيم باجتنابك للرسالة

222 - قوله بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبرا جميل 18 83 في هذه السورة في موضعين ليس بتكرار لأنه ذكر الأول حين نعى إليه يوسف والثاني لما رفع إليه ما جرى على بنيامين

223 - قوله ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما 22 ومثلها في القصص في قصة موسى وزاد فيها واستوى 14 لأن يوسف عليه السلام أوحى إليه وهو في البئر وموسى عليه السلام أوحى إليه بعد أربعين سنة وقوله واستوى إشارة إلى تلك الزيادة ومثله وبلغ أربعين سنة بعد قوله حتى إذا زاد بلغ أشده 15 46 والخلاف في أشده قد ذكر في موضعه

224 - قوله معاذ الله 23 في هذه السورة في موضعين ليس بتكرار لأن الأول ذكر حين دعته إلى المواقعة والثاني حين دعى إلى تغيير حكم السرقة فليس بتكرار

225 - قوله قلن حاش لله 31 51 في الموضعين أحدهما في حضرة يوسف عليه السلام حين نفين عنه البشرية بزعمهن والثاني بظهر الغيب حين نفين عنه السوء فليس بتكرار

226 - قوله إنا نراك من المحسنين 36 78 في موضعين

ليس بتكرار لأن الأول من كلام صاحبي السجن ليوسف عليه السلام والثاني من كلام إخوة يوسف ليوسف

227 - قوله يا صاحبي السجن 39 41 في موضعين الأول منهما ذكره يوسف حين عدل عن جوابهما إلى دعائهما إلى الإيمان والثاني حين دعياه إلى تعبير الرؤيا لهما تنبيها على أن الكلام الأول قد تم

228 - قوله لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون 46 كرر لعل رعاية لفواصل الآي إذ لو جاء بمقتضى الكلام لقال لعلي أرجع فيعلموا بحذف النون على الجواب ومثله في هذه السورة سواء قوله لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون 62 فمقتضى الكلام لعلهم يعرفونها فيرجعوا

(18/389)

---

229 - قوله تالله 73 85 91 95 في أربعة مواضع الأول يمين منهم أنهم ليسوا سارقين وأن أهل مصر بذلك عالمون والثاني يمين منهم أنك لو واظبت على الحزن تصير حرضا أو تكون من الهالكين والثالث يمين منهم أن الله فضله عليهم وإنهم كانوا خاطئين والرابع ما ذكره وهو قوله قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم 95 وهو يمين من أولاده على أنه لم يزل على

محبة يوسف

230 - قوله وما أرسلنا من قبلك 109 وفي الأنبياء وما أرسلنا قبلك 7 بغير من لأن قبل اسم للزمان السابق على ما أضيف إليه و من تفيد استيعاب الطرفين وما في هذه السورة للاستيعاب وقد يقع قبل على بعض ما تقدم كما في الأنبياء في قوله ما آمنت قبلهم من قرية 6 ثم وقع عقيبها وما أرسلنا قبلك 7 بحذف من لأنه بعينه

231 - قوله أفلم يسيروا في الأرض 109 بالفاء وفي الروم 9 والملائكة 44 بالواو لأن الفاء تدل على الاتصال والعطف والواو تدل على العطف المجرد وفي السورة قد اتصلت بالأول لقوله وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا حال من كذبهم وما نزل بهم من العذاب وليس كذلك في الروم والملائكة

232 - قوله ولدار الآخرة خير 109 وفي الأعراف والدار الآخرة خير 169 على الصفة لأن في هذه السورة تقدم ذكر الساعة وصار التقدير ولدار الساعة الآخرة فحذف الموصوف وفي الأعراف تقدم قوله عرض هذا الأدنى 169 أي المنزل الأدنى فجعله وصفا للمنزل والدار الدنيا والدار الآخرة بمعناه فأجرى مجراه تأمل في هذه السورة فإن فيها برهانا لأحسن القصص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أسرار التكرار فى القرآن ص ﴾

(19/389)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال الشيخ محمد أبو زهرة :

سورة يوسف

سورة مكية ، وعدد آياتها إحدى عشرة ومائة ، وقالوا : إن أربع آيات هى الأولى والثانية والثالثة والسابعة مدنية ، ولا نرى فيها ما يدل معناها على أنها مدنية ، والله أعلم .

ولقد كفرت طائفة من الطوائف الخارجة عن الإسلام بإنكارها سورة يوسف ، وادعاء أنها ليست من القرآن ، وكأن القرآن يخضع بالزيادة والنقصان للأهواء المنحرفة ، وإن ادعت التمسك بالدين ، فهى تمرق منه مروق السهم من الرمية ، وأولئك هم أتباع عبد الكريم عجرو ، وإن القرآن كله غير منقوص ثبت بالتواتر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه تلقاه عن جبريل الرسول الأمين عن رب العالمين مرتلا متلوا ، كما قال تعالى : (. . . وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) .

وما كان لنا أن نعرف ما دفعهم إلى هذا الإنكار الذى كفروا بسببه ، ولكن نذكره لبيان أنه وهم كافرين لم يذوقوا القرآن ولم يعلموه ، قالوا إنها قصة غرام ، ونزلت دفعة واحدة ، والقرآن منزه عن ذكر الغرام والحب ، والقرآن نزل منجما ، ونقول فى الإجابة عن ذلك ، إنها قصة

المجتمع المصرى ، والأسرة الفرعونية التى طغت فى البلاد وأكثرت فيها الفساد ، وقال قائلهم : . . . أنا ربكم الأعلى ، وبيته على هذا النحو من الانحلال ، وهى بينت مغبة الغرام ، وكيف يوجد الانحلال ، والاستعصام بالفضيلة حيث تفور فورة الرذيلة ، ودعوة الوحدانية فى وسط الوثنية ، وتدبير الاقتصاد ، واستعانة الفراعنة بخبراء الاقتصاد حيثما كانوا ، وخضوعهم لآرائهم ، وتوسيد الأمر لهم ، ثم هى تبين مركز مصر الاقتصادى ، واستعانة من حولها بها ، ثم تثبت نفسية الآباء مع الأبناء ، والحسد بين الإخوة ، وما ينبغى عند تربية الأولاد .

(20/389)

وإن ما سموه الغرام المنحرف لم يكن إلا فى جزء صغير منها ، ولم يستغرقه ، بل ترددت عباراته ، وقد ابتدأته ب (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه . . . ، وانتهت بدخوله السجن ، وهى ثمانى آيات ، فيها الغرام من جانبها والاستعصام من جانبه ، وباقى السورة حكمة واقتصاد وتدبير ، وتعاون ، ومشقة وصبر ، ثم لقاء الأحباب على مائدة المودة والأخوة الودود .

فكيف تسمى سورة غرام إلا ممن انحرف عقله انحرافا منعه من استيعاب السورة .

وإن القرآن لم ينزل كله منجما ، فأول سورة التوبة نزل دفعة واحدة ، وأكثر سورة الأنعام نزل دفعة واحدة وسورة إبراهيم أكثرها نزل دفعة واحدة .

وإذا كان ممن تسموا باسم من الخوارج من قال هذا القول ، فقد كان منهم أيضا ، من أجاز نكاح البنات والأمهات والمجوس ، وهم - بلا شك - كافرون كإخوانهم .

ونقول : إن أكثرهم كان مؤمنا منحرف العقل ، ورضى الله عن على بن أبى طالب إذ قاتلهم ، وقتل منهم مقتلة كبيرة ، فقد قال بعد ذلك القتال : ألا تقاتلوهم بعدى ، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه) .

إن القصص الذى فى هود وغيرها ، كان فى الأرض العربية ، ولم يكن فيها من غير البلاد العربية ، إلا قصة موسى عليه السلام ، وقد ذكر فيها طغيان فرعون ، وخضوع أهل مصر له ، فى نفوسهم ، وأفكارهم ، وعقولهم حتى ساغ له أن يقول : (ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) أما قصة يوسف عليه السلام فإنها تناولت ناحية اجتماعية ، تعرضت للأسرة ، وما يجرى فى داخل القصور ، وتعرضت للمجتمع المصرى ، وانحراف نساء الطبقة التى

تسمى راقية ، ثم تعرضت للاقتصاد فى مصر ، وكيف كان يدبره إلى آخر ما جاء فى السورة الكريمة ، ثم صورت لقاء الأحبة بعد أن فرق الحسد فيما بينهم .

الحسد بين الإخوة فى سورة يوسف

إذا كان الحسد بين ابنى آدم قد حمل أحد الأخوين على أن تطوع له نفسه

(21/389)

قتل أخيه ، فقتله ، فالحسد بين يوسف وإخوته على أن يحاولوا أن يلقوه فى غيابة الجب .

رأى يوسف رؤيا صادقة ، وهو غلام ، قال يوسف لأبيه . . . يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين فهم يعقوب الأب الحبيب الذى يؤثر يوسف على إخوته باختصاص بمحبة أكثر لصغره ، ومنها أن ليوسف منزله عند الله فوق منزلة إخوته ، (لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (5) .

ولقد أخبره باصطفاء ربه له ، وتعليمه من تأويل الأحاديث ، ما قد يثير إخوته .

(لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ، أى دلائل تبين حكمة الله تعالى فى الخلق والتكوين ، وطبائع النفوس ، وطغيان الحسد على المحبة الأخوية والمودة الواصلة ، وإن تسعة أعشار الجرائم أو كلها سببها الحسد ، فإذا اقتلع من النفوس اقتلع أكثر الأخبات النفسية . و (للسائلين @ أى الباحثين الدارسين لطبائع النفوس .

ابتدأ التدبير السيئ بقولهم : (. . . لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (8) اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9) قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ . . . ، لم ينفذوا القتل ، أو لم يريدوه ، وذلك للمشورة ، فكان منهم

من لم يرد القتل المباشر ، بل أراد القتل البطيء ، أو الموت المحتمل وذلك حين تكون الحياة أقرب من الموت ، ولذا قال : (. . . يلتقطه بعض السيارة . . . .

التنفيذ

ذهبوا إلى أبيهم ، و (قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (12) .

(22/389)

عندئذ قال يعقوب ما يدل على توجسه خيفة على ولده الحبيب العزيز ، وفرطت من الرجل الطاهر نبي الله كلمة اتخذوها ذريعة لستر جريمتهم ، قال لهم : (. . . إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . لقد ذكر أنه يخاف أن يأكله الذئب ، فى غفلتهم ، فلقنهم ما يستر إجرامهم ، قالوا وقد وجدوا الحجة وأخفوها فى

أنفسهم ، (. . . لئن أكله الذئب ونحن غصبة إنا إذا لخاسرون وذهبوا به واجتمعوا أن يلقوه فى غيابة الجب (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (15) ،

وقد ألقى الله تعالى فى روع يوسف الغلام الحبيب أنه سيعلو عليهم ، وسينبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون .

بعد أن ألقوه فى الجب (وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (16) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (17) .

وهكذا ترى أن الأب الشفيق الكريم قال إنى أخاف أن يأكله الذئب ، فقالوا ساترين جريمتهم أكله الذئب ، ونبى الله تعالى لم يصدق أبناءه ، بل قال بعد أن جاءوا على قميصه بدم كذب : (. . . قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .

استراح إخوة يوسف ، أو توهموا أنهم استراحوا ، وعشى على قلوبهم الحسد البغيض فلم يدركوا ما صنعوا وبقيت لوعة الشيخ أبيهم تترقب ابنه ، ولم يذهب عنه الأمل فى لقائه ، ولم ييئس (. . . إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

ولننظر فى قصة القرآن عما جرى ليوسف ، وقد ألهمه الله تعالى الاطمئنان ،

جاءت قافلة تسير فأرسلوا واردهم يتعرف أماكن الماء ، فوجد الجب ، فألقى دلوه ، فلم يخرج الماء ، ولكن خرج ما هو أطهر فاستبشر ، و (. . . قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ،

ولأنها بضاعة جاءت من غير ثمن ، باعوه بثمن بخس دراهم معدودة ، ولم يكونوا راغبين فى اقتناء هذه البضاعة بل كانوا فيه من الزاهدين .

وإذا كان قد استقبل شقوة الحسد ، فقد استقبل بعد ذلك بالبشر والحبور ، (وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا . . . ،

وكذلك أشرق النور فى وسط الظلمة .

وبذلك مكن الله تعالى ليوسف ، وألهمه الله تعالى تأويل الأحاديث التى تتحدث بها النفس فى منامها ، (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين .

ولكن النفس الصبور يصقلها الله تعالى بالشدة ، وإذا كانت الشدة التى استقبلته أولا كانت تتعلق بحياته أو موته ، فالشدة الثانية أخطر على نفس الصديق

يوسف .

(وراودته التي هو في بيتها عن نفسه . . . ، أى أرادته لنفسها ، وحاولت أن تخرجه من نفسه الطاهرة الصافية ، (. . . وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا

يفلح الظالمون ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه . .

فى وقت هذه المحنة النفسية رأى نور الحق الذى يعصم نفسه ، فبقى

نقيا طاهرا ، وصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عباد الله الصالحين ، واستبقا بعد

ذلك إلى الباب هو يفر هاربا ، وهى تمنعه وتجذبه إليها ، وفى هذه المسابقة قدت قميصه

من ورائه ، لأنها تجرى وراءه لتشده إليها مانعة له من الخروج.

ولكنهما وجدا سيدها لدى الباب ، وببداهة المرأة التى تفجر ألقت التهمة

على يوسف ، و . . . قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم .

فبرأ يوسف نفسه عن التهمة ، وقال الصدق : (. . . هي راودتني عن نفسي . . . .

(24/389)

اتهمته كاذبة ، واتهمها صادقا ، فلم يندفع العزيز ، واحتكم ، فحكم حكم من أهلها :

(. . . إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ (26) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ

مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ (27)

فألفيا قميصه قد من دبر ، وبذلك تبين كذبها ، وصدقه .

اطمأن زوجها إلى براءة يوسف ، وقال : (. . . إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم

{يوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (29)} .

وإن أخبار القصور تشيع وتنتشر ، وقد كانت قصة المراودة بين زوج العزيز ، ويوسف ، وزوجها وبعض ذوى قرباها ، ولا ندرى كم كان عددهم ، والخبر إذا خرج عن اثنين شاع ، والناس دائما فى شوق إلى ما يجرى داخل القصور ، وينشر دائما ما فيه غرابة .

{وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (30) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (32)}

(25/389)

ومع تصميمها على المراودة ، كان تصميم يوسف على الطهر ، والدفع ، ورضى بالسجن عن هذه المعصية و {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (33) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34)} .

كان الخبر يشيع ، وقد رأى العزيز وملؤه الآيات الدالة على براءة يوسف ،

وأنه كان فريسة المراودة ولم يكن فاعلها . وقد رأوا حسما للشائعات حبسه (ثم بدا لهم

من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) أى حتى تمر مدة تهدأ فيها عواصف

الشائعات .

دخل السجن ، ومعه فتيان ، استأنسا به ، وفاضت نفوسهما إليه ، ورأى كل منهما رؤيا ،

فقال أحدهما يقص رؤياه : (. . . إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ

إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36)

أجابهما ، (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا

عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ

آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا

وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38)

(26/389)

ابتدأ بالدعوة إلى التوحيد ، وهو رسالة النبيين ، ومعه دليلها ، وهو تعليم الله تعالى له ، أنه

ينبئهم بما يأكلون ، كما علم عيسى من بعده ، ثم أول رؤياهما فقال : (يا صاحبي السجن أما

أحدكما فيسقي ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان .

ويظهر أنه اهمل أمره ، فأراد أن يذكر العزيز به : (وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين . رأى الملك رؤيا فتذكر الناسى ، (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (43) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ .

وهكذا شأن أتباع الملوك ، لا يتذكرون واجبا إلا لإرضاء صاحب السلطان

فادكر بعد فترة طويلة ساقى الخمر للملك (وقال الذي نجا منهما . . * وادكر بعد أمة (. . . أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ، ذهب إلى السجن وقابل السجين الطاهر المؤمن النبى ، فقال : (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46) .

قال الصديق الطاهر ، الذى علمه ربه : (. . . تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ

يَعْصِرُونَ (49)

أى يحلبون ، ويعصرون فالعصير من الثمار .

(27/389)

علم الملك الذى أولت له الرؤيا ، ولعله نسى المراودة وأمرها كشأن حكام مصر من الأزل ، ينسون من يحسن إليهم ولا يذكرونه ، وأى إحسان أعظم من أن يكرم شرفه وعرضه .

قال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى ، ولكن يوسف الصديق الطاهر لا يذهب إلا وقد ثبتت براءته ، فقال للرسول الذى أرسله الملك (. . . ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ، .

رجع الملك إلى الماضى ، وسأل امرأته التى فتنت بالصديق وأسند يوسف الكريم الأمر إلى النسوة ، ولم يسنده إلى امرأة الملك .

قال الملك : (. . . ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء . . .) .

عندئذ تقدمت امرأة العزيز تعترف بذنبها ، وتبرئ يوسف ، قالت امرأه العزيز : (. . . الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51)

ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52) وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (53) .

بعد هذه البراءة ، وقد تضمنت حياته فى السجن دلائل نبوية ، ودعوة إلى التوحيد إذ يقول : (. . . أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار

كانت حياة جديدة ، دعاه الملك واستخلصه لنفسه ، وقال : (. . . إنك اليوم لدينا مكين أمين

و ، تولى أمر المالية المصرية (قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم – وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون .

(28/389)

كانت مصر فى ذلك الإبان وما بعده مستراد الخير (1) ، وبتنظيم نبى الله يوسف ، وتمكينه من الملك صارت مقصد الشرق ، وجاء إخوة يوسف يمتارون ، فعرفهم إذ لم يكن التغيير فيهم كبير ، ولم يعرفوه إذ ألقوه فى الجب غلاما ، وقد صار رجلا مكتملا ، وقد جهزهم ، وأعطاهم ما طلبوا ، ولكن قال لهم :

(. . . ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (59) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ (60) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (61)

.

وإنه بهم لشفيق إذ قال لمن معه ، (000 اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون وذهبوا إلى أبيهم وقالوا : (. . . يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

فتحوا متاعهم فوجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، ففرحوا وقالوا ما نبغى شيئًا فوق ما سهله لنا . (. . . قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65) .

---

(1) 31 مكان ، والمعنى : مكان اسيراد الخير لما حباها الله بها من أنواع الخيرات ووفرتها فى أرضها الغنية .

ولكن الشيخ يعقوب حريص على ولده ، ويريد المواثيق عليه (قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (66) .

ولشفقته على أولاده وخوف العين قال : (. . . يا بني لا تدخفوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء . . . ، ولكنها الشفقة الأبوية دفعته لأن يتصون عليهم .

دخلوا على يوسف ، فآوى إليه أخاه ، وقال : (. . . إني أنا أخوك فلا تبتس بما كانوا يعملون ، ثم جهزهم بجهازهم ، وأودع السقاية فى رحل أخيه (. . . ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم : أى كفيل ، قالوا : (. . . ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين قالوا فما جزاوه إن كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه . . . ، أى يكون ملكا .

أخذوا يفحصون أوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثم استخرجوها من وعاء أخيه ، كذلك كان تدبير الله تعالى ليأخذ أخاه بعد طول افتراق .

ولقد كانت لفتة من عداوة أبناء العلات (1) التى تظهر فى القول لا تزال متمكنة فى قلوبهم (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر

مكانا والله أعلم بما تصفون قالوا يا أيها العزيز إن لة أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون .

ندموا وتذكروا موثق أبيهم ، وذكرهم به كبيرهم ، وقال : (. . . فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ارجعوا إلى أبيكم

---

(1) أبناء العلات : أبناء الضرائر ، أى أن الأناء يرجعون إلى أب واحد وهو إبراهيم عليه السلام أبى الاناء ، وإن اختلفت أمهاتهم .

(30/389)

فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون .

قالوا لأبيهم ذلك ، ولكنه أحس بأمر ، رشح له ما كان بالنسبة ليوسف من قبل ، فقال مثل مقالته الأولى : (. . . بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل . . .

وبإلهام النبوة توقع الخير فى وسط هذه الشدة ، وقال : (. . . عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم وتولى عنهم وقال يا أسفى علىء يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من ائهالكين قال

إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

ذهبوا إلى يوسف طالبين الميرة مرة أخرى ، و . . . قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88) .

اللقاء على المودة والعفو

أعلن يوسف الصديق نفسه لإخوته فقال لهم : (. . . هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (89) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91) ،

قال كلمة العفو الودود : . . . لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ،

ذهبوا إلى الشيخ الذى ابيضت عيناه من الحزن ، فأحس بريح يوسف ، وقالوا : إنه أحس من بعد ثمانين ميلا ، ولا غرابة فى ذلك فهو أبو الأنبياء ،

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98)

وبهذا تنتهى قصة يوسف الصديق الحبيب ؟ أخذ من بين أهله ، وألقى فى الجب ، وانتهى ملكا مصلحا ، ونبيا مبشرا ونذيرا ، وكان له أثر فى مصر ، ذكر بعده بقرون عندما بعث موسى ، فقد قال تعالى على لسان مؤمن آل فرعون : ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به . . . .

التقى الأحباب ﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا . . . ، أى خضعوا لحكمه كما تخضع الرعية لراعيها العادل ، لا أنهم سجدوا له كما كان يسجد للفراعنة ، فمعاذ الله أن يكون نبى الله يعقوب ساجدا لغير الله ، ومعاذ الله أن يقبل ذلك يوسف نبى الله من أبيه .

أخذ يذكر يوسف أباه برؤياه الأولى ، ويذكر له كيف أخرج من السجن بعد

أن نزغ الشيطان بينه وبين إخوته ولم يبق إلا أن يحمد الله على ما أوتى من نعمة ، ويقول : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101) .

العبرة

كانت القصة كلها من الأخبار الغيبية على العرب ، وقد كان فيها أخبار عن ناس لم يكن من شأنها أن تكون معلمة ، معلنة ، إذ هى أخبار أسرة ، (. . . وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون .

(32/389)

فتلك أخبار النفوس لا يعلمها إلا علام الغيوب ، وتلك معجزة الذى كفروا به .

وإن الكون كله آيات بينات دالة على منشئه الواحد الأحد الفرد الصمد ، وإذا كانوا يؤمنون بالله تعالى ، فهو إيمان بالقدرة ، ووحدانية الخالق المنعم ، ولكنهم يعبدون غيره ، وهذا قوله تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون .

وإنهم يرون آيات الله تعالى تنزل بالمشركين ، (أفامنوا أن تاتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون .

وإن الحق ما تدعو إليه ، (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين * .

ولقد بين سبحانه وتعالى أنه لبم يكن بدعا من الرسل ، وأن الرسل قبله كانوا مثله ، (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا توحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف

كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون .

ويبين للنبى (صلى الله عليه وسلم) أن الرسل كانوا يستيئسون ، وفى حالى يأسهم يجىء عذاب الله للمشركين (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴿ .

الرسل جميعا اعتراهم اليأس إلا محمدا . صلى الله عليه وسلم . ، وذلك فضله عليهم أجمعين ،

بل قال وهو فى أشد ما نزل به وقد فقد الناصر والمواسى : " إنى لأرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله " (1) ، ولقد ختم السورة بقوله تعالت كلماته : (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴿ . صدق الله العظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زهرة التفاسير صـ 3793.3781 ﴾

---

(1) انظر البخارى : بدء الخلق – ذكر الملائكة (2992) ، ومسلم : الجهاد والسير – ما لقى النبى (صلى الله عليه وسلم) (3352) .

(33/389)

وقال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة يوسف

الاسم الوحيد لهذه السورة اسم سورة يوسف ، فقد ذكر ابن حجر في كتاب " الإصابة " في ترجمة رافع بن مالك الزرقي عن ابن إسحاق أن أبا رافع بن مالك أول من قدم المدينة بسورة يوسف ، يعني بعد أن بايع النبي صلى الله عليه وسلم يوم العقبة .

ووجه تسميتها ظاهر لأنها قصت قصة يوسف – عليه السلام – كلها ، ولم تذكر قصته في غيرها .

ولم يذكر اسمه في غيرها إلا في سورة الأنعام وغافر .

وفي هذا الاسم تميز لها من بين السور المفتتحة بحروف ألر ، كما ذكرناه في سورة يونس .

وهي مكية على القول الذي لا ينبغي الالتفات إلى غيره .

وقد قيل : إن الآيات الثلاث من أولها مدنية .

قال في " الإتقان " : وهو واه لا يلتفت إليه .

نزلت بعد سورة هود ، وقبل سورة الحجر .

وهي السورة الثالثة والخمسون في ترتيب نزول السور على قول الجمهور .

ولم تذكر قصة نبي في القرآن بمثل ما ذكرت قصة يوسف – عليه السلام – هذه السورة من

الإطناب.

وعدد آيها مائة وإحدى عشرة آية باتفاق أصحاب العدد في الأمصار.

من مقاصد هذه السورة

روى الواحدي والطبري يزيد أحدهما على الآخر عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: أنزل القرآن فتلاه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على أصحابه زمانا، فقالوا "أي المسلمون بمكة":

يا رسول الله لو قصصت علينا، فأنزل الله ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة يوسف: 1,2] الآيات الثلاث.

فأهم أغراضها: بيان قصة يوسف -عليه السلام- مع إخوته، وما لقيه في حياته، وما في ذلك من العبر من نواح مختلفة.

وفيها إثبات أن بعض المرائي قد يكون إنباء بأمر مغيب، وذلك من أصول النبوءات وهو من أصول الحكمة المشرقية كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً﴾ [سورة يوسف: 4] الآيات.

وأن تعبير الرؤيا علم يهبه الله لمن يشاء من صالحي عباده .

وتحاسد القرابة بينهم .

ولطف الله بمن يصطفيه من عباده .

والعبرة بحسن العواقب ، والوفاء ، والأمانة ، والصدق ، والتوبة .

وسكنى إسرائيل وبنيه بأرض مصر .

وتسلية النبي صلى الله عليه وسلم بما لقيه يعقوب ويوسف عليهما السلام من آلهم من الأذى .

وقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم من آله أشد ما لقيه من بعداء كفار قومه ، مثل عمه أبي لهب ، والنضر بن الحارث ، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وإن كان هذا قد أسلم بعد وحسن إسلامه ، فإن وقع أذى الأقارب في النفوس أشد من وقع أذى البعداء ، كما قال طرفة :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة . . .

على المرء من وقع الحسام المهند

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ [سورة يوسف : 7] .

وفيها العبرة بصبر الأنبياء مثل يعقوب ويوسف عليهم السلام على البلوى .

وكيف تكون لهم العاقبة .

وفيها العبرة بهجرة قوم النبي صلى الله عليه وسلم إلى البلد الذي حل به كما فعل يعقوب - عليه السلام- وآله ، وذلك إيماء إلى أن قريشا ينتقلون إلى المدينة مهاجرين تبعا لهجرة النبي صلى الله عليه وسلم .

وفيها من عبر تاريخ الأمم والحضارة القديمة وقوانينها ونظام حكوماتها وعقوباتها وتجارتها .

واسترقاق الصبي اللقيط .

واسترقاق السارق ، وأحوال المساجين .

ومراقبة المكاييل .

(35/389)

وإن في هذه السورة أسلوبا خاصا من أساليب إعجاز القرآن وهو الإعجاز في أسلوب القصص الذي كان خاصة أهل مكة يعجبون مما يتلقونه منه من بين أقاصيص العجم والروم ، فقد كان النضر بن الحارث وغيره يفتنون قريشا بأن ما يقوله القرآن في شأن الأمم هو أساطير الأولين اكتتبها محمد صلى الله عليه وسلم .

وكان النضر يتردد على الحيرة فتعلم أحاديث " رستم " و " اسفنديار " من أبطال فارس ،

فكان يحدث قريشا بذلك ويقول لهم : أنا والله أحسن حديثا من محمد فهلم أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم بأخبار الفرس ، فكان ما بعضها من التطويل على عادة أهل الأخبار من الفرس يموه به عليهم بأنه أشبع للسامع ، فجاءت هذه السورة على أسلوب استيعاب القصة تحديا لهم بالمعارضة .

على أنها مع ذلك قد طوت كثيرا من القصة من كل ما ليس له كبير أثر في العبرة .

ولذلك ترى في خلال السورة ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [سورة يوسف : 56] مرتين ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ [سورة يوسف : 76] فتلك عبر من أجزاء القصة .

وما تخلل ذلك من الحكمة في أقوال الصالحين كقوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [سورة يوسف : 67] ، وقوله : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف : 90] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ 7.5 ﴾

وقال الشيخ سيد :

سورة يوسف

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3) ﴾

فهناك حبكة بين التقدمة للقصة والتعقيب عليها ؛ ظاهر منها نزول التقدمة مع القصة والتعقيب .

أما الآية السابعة فالسياق لا يستقيم بدونها أصلا ؛ ولا يتأتى أن تكون السورة قد نزلت في مكة وهي ليست من سياقها ثم أضيفت إليها في المدينة ! ذلك أن في الآية الثامنة ضميرا يعود على يوسف وإخوته في هذه الآية السابعة ، بحيث لا يستقيم نزول الآية الثامنة دون أن تكون معها الآية السابقة . وهذا نصها :

لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين . .

مما يقطع بأن الآيتين نزلتا معا ، في سياق السورة الموصول .

والسورة كلها لحمة واحدة عليها الطابع المكي واضحا في موضوعها وفي جوها وفي ظلالها وفي إيحاءاتها . بل إن عليها طابع هذه الفترة الحرجة الموحشة بصفة خاصة . . ففي الوقت الذي كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعاني من الوحشة والغربة والانقطاع في جاهلية قريش - منذ عام الحزن - وتعاني معه الجماعة المسلمة هذه الشدة , كان الله - سبحانه - يقص على نبيه الكريم قصة أخ له كريم - يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين - وهو يعاني صنوفا من المحن والابتلاءات:محنة كيد الإخوة . ومحنة الجب والخوف والترويع فيه . ومحنة الرق وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى يد على غير إرادة منه , ولا حماية ولا رعاية من أبويه ولا من أهله . ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة , وقبلها ابتلاء الإغراء والشهوة والفتنة ! ومحنة السجن بعد رغد العيش وطراوته في قصر العزيز . ثم محنة الرخاء والسلطان المطلق في يديه , وهو يتحكم في أقوات الناس وفي رقابهم , وفي يديه لقمة الخبز التي تقوتهم ! ومحنة المشاعر البشرية وهو يلقى بعد ذلك إخوته الذين ألقوه في الجب وكانوا السبب الظاهر لهذه المحن والابتلاءات كلها . . هذه المحن والابتلاءات التي صبر عليها يوسف - عليه السلام - وزاول دعوته إلى الإسلام من خلالها , وخرج منها كلها متجردا خالصا ; آخر توجهاته , وآخر اهتماماته , في لحظة الانتصار على المحن جميعا ; وفي لحظة لقاء أبويه ولم شمله ; وفي

لحظة تأويل رؤياه وتحققها كما رآها : (إذ قال يوسف لأبيه: يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر . رأيتهم لي ساجدين) . . آخر توجهاته وآخر اهتماماته في هذه اللحظة هي التوجه المخلص المتجرد المنيب إلى ربه, منخلعا من هذا كله بكليته كما يصوره القرآن الكريم:

(38/389)

فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه, وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش, وخروا له سجدا . وقال: يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا, وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن, وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي, إن ربي لطيف لما يشاء, إنه هو العليم الحكيم . . رب قد آتيتني من الملك, وعلمتني من تأويل الأحاديث, فاطر السماوات والأرض . أنت ولي في الدنيا والآخرة, توفني مسلما, وألحقني بالصالحين . .

وهكذا كانت طلبته الأخيرة . . بعد ذلك كله وهو في غمرة السلطان والرخاء ولمة الشمل . . أن يتوفاه ربه مسلما, وأن يلحقه بالصالحين . . وذلك بعد الابتلاء والمحنة, والصبر الطويل والانتصار الكبير . .

فلا عجب أن تكون هذه السورة . بما احتوته من قصة ذلك النبي الكريم , ومن التعقيبات عليها بعد ذلك , مما يتنزل على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والجماعة المسلمة معه في مكة , في هذه الفترة بالذات , تسلية وتسرية , وتطمينا كذلك وتثبيتا للمطاردين المغتربين المتوحشين !

لا بل أن الخاطر ليذهب بي اللحظة إلى الإحساس بالإيحاء البعيد بالإخراج من مكة إلى دار أخرى يكون فيها النصر والتمكين ; مهما بدا أن الخروج كان إكراها تحت التهديد ! كما أخرج يوسف من حضن أبيه , ليواجه هذه الابتلاءات كلها . ثم لينتهي بعد ذلك إلى النصر والتمكين:

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض , ولنعلمه من تأويل الأحاديث , والله غالب على أمره , ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . .

ولقد كان ذلك وهو يضع أقدامه في مصر في قصر العزيز . . حتى وهو ما يزال فتى يباع بين الرقيق . . !

وما يذهب بي الخاطر إليه اللحظة يجعلني أتذوق مذاقا خاصا - أشير إليه ولا أملك التعبير عنه ! - ذلك التعقيب الذي أعقب القصة:

(وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى , أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم , ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون ? حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء , ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين . لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب , ما كان حديثا يفترى , ولكن تصديق الذي بين يديه , وتفصيل كل شيء , وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) . . إنه الإيحاء بمجرى سنة الله عندما يستيئس الرسل - كما استيأس يوسف في محنته الطويلة - والتلميح بالمخرج المكروه الذي يليه الفرج المرغوب ! . . الإيحاء والتلميح اللذان تدركهما القلوب المؤمنة , وهي في مثل هذه الفترة تعيش , وفي جوها تتنفس , فتتذوق وتستشرف وتلمح الإيحاء والتلميح . من بعيد . .

والسورة ذات طابع منفرد في احتوائها على قصة يوسف كاملة . فالقصص القرآني - غير قصة يوسف - يرد حلقات , تناسب كل حلقة منها أو مجموعة حلقات موضوع السورة واتجاهها وجوها . وحتى القصص الذي ورد كاملا في سورة واحدة كقصص هود وصالح ولوط وشعيب ورد مختصرا مجملا . أما قصة يوسف فوردت بتمامها وبطولها في سورة واحدة . وهو طابع متفرد في السور القرآنية جميعا .

هذا الطابع الخاص يتناسب مع طبيعة القصة ; ويؤديها أداء كاملا . . ذلك أنها تبدأ برؤيا

يوسف , وتنتهي بتأويلها . بحيث لا يناسبها أن تكون حلقة منها أو جملة حلقات في سورة وتكون بقيتها في سورة أخرى .

وهذا الطابع كفل لها الأداء الكامل في جميع الوجوه ; فوق تحقيقه للهدف الأصيل الذي من أجله سيقت القصة , والتعقيبات التي تلتها .

وسنحتاج أن نقول كلمة مفصلة - بعض الشيء - عن هذا الأداء الكامل , تكشف عن ذلك المنهج القرآني الفريد .

. . وبالله التوفيق . . .

إن قصة يوسف - كما جاءت في هذه السورة - تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة , بقدر ما تمثل النموذج الكامل لهذا المنهج في الأداء النفسي والعقيدي والتربوي والحركي أيضا . . ومع أن المنهج القرآني واحد في موضوعه وفي أدائه , إلا أن قصة يوسف تبدو وكأنها المعرض المتخصص في عرض هذا المنهج من الناحية الفنية للأداء !

إن القصة تعرض شخصية يوسف - عليه السلام - وهي الشخصية الرئيسية في القصة -

عرضا كاملا فيكل مجالات حياتها , بكل جوانب هذه الحياة , وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب وفي تلك المجالات . وتعرض أنواع الابتلاءات التي تعرضت لها تلك الشخصية الرئيسية في القصة ; وهي ابتلاءات متنوعة في طبيعتها وفي اتجاهاتها . . ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء . وابتلاءات الفتنة بالشهوة , والفتنة بالسلطان . وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتى المواقف وشتى الشخصيات . . ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقيا خالصا متجردا في وقفته الأخيرة , متجها إلى ربه بذلك الدعاء المنيب الخاشع كما أسلفنا في نهاية الفقرة السابقة .

(41/389)

وإلى جانب عرض الشخصية الرئيسية في القصة تعرض الشخصيات المحيطة بدرجات متفاوتة من التركيز . وفي مساحات متناسبة من رقعة العرض , وعلى أبعاد متفاوتة من مركز الرؤية , وفي أوضاع خاصة من الأضواء والظلال . . وتتعامل القصة مع النفس البشرية في واقعيتها الكاملة . متمثلة في نماذج متنوعة:نموذج يعقوب الوالد المحب الملهوف والنبي المطمئن الموصول . . ونموذج إخوة يوسف وهواتف الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة والمناورة , ومواجهة آثار الجريمة , والضعف والحيرة أمام هذه المواجهة , متميزا

فيهم أحدهم بشخصية موحدة السمات في كل مراحل القصة ومواقفها . . ونموذج امرأة العزيز بكل غرائزها ورغائبها واندفاعاتها الأنثوية , كما تصنعها وتوجهها البيئة المصرية الجاهلية في بلاط الملوك , إلى جانب طابعها الشخصي الخاص الواضح في تصرفها وضوح انطباعات البيئة . . ونموذج النسوة من طبقة العلية في مصر الجاهلية ! والأضواء التي تلقيها على البيئة , ومنطقها كما يتجلى في كلام النسوة عن امرأة العزيز وفتاها , وفي إغرائهن كذلك ليوسف وتهديد امرأة العزيز له في مواجهتهن جميعا . وما وراء أستار القصور ودسائسها ومناوراتها , كما يتجلى في سجن يوسف بصفة خاصة . . ونموذج "العزيز" وعليه ظلال طبقته وبيئته في مواجهة جرائم الشرف من خلال مجتمعه ! . . ونموذج "الملك" في خطفة يتوارى بعدها كما توارى العزيز في منطقة الظلال بعيدا عن منطقة الأضواء في مجال العرض المتناسق . . وتبرز الملامح البشرية واضحة صادقة بواقعية كاملة في هذا الحشد من الشخصيات والبيئات , وهذا الحشد من المواقف والمشاهد , وهذا الحشد من الحركات والمشاعر . .

ومع استيفاء القصة لكل ملامح "الواقعية" السليمة المتكاملة وخصائصها في كل شخصية وفي كل موقف وفي كل خالجة . . فإنها تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة, ذلك الأداء الصادق, الرائع بصدقه العميق وواقعيته السليمة . . المنهج الذي لا يهمل خلجة بشرية واقعية واحدة, وفي الوقت ذاته لا ينشيء مستنقعا من الوحل يسميه "الواقعية" كالمستنقع الذي أنشأته "الواقعية" الغربية الجاهلية !

وقد ألمت القصة بألوان من الضعف البشري; بما فيها لحظة الضعف الجنسي, ودون أن تزور - أي تزوير - في تصوير النفس البشرية بواقعيتها الكاملة في هذه المواقف, ودون أن تغفل أية لمحة حقيقية من لمحات النفس أو الموقف, فإنها لم تسف قط لتنشيء ذلك المستنقع المقزز للفطرة السليمة, ذلك الذي يسمونه في جاهلية القرن العشرين "الواقعية" أو يسمونه أخيرا "الطبيعة !" .

وظلت القصة صورة نظيفة للأداء الواقعي الكامل مع تنوع الشخصيات وتنوع المواقف: إخوة يوسف . . والأحقاد الصغيرة في قلوبهم تكبر وتتضخم حتى تحجب عن ضمائرهم هول الجريمة وبشاعتها ونكارتها وضخامتها ! ثم تزين لهم "المحلل الشرعي !" الذي يخرجون به من تلك الجريمة . . ملاحظا في هذا واقعيتهم في بيئتهم الدينية - وهم أولاد نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم صلوات الله وسلامه - وانطباعات هذه البيئة في

تفكيرهم ومشاعرهم وتقاليدهم , وحاجتهم النفسية – من ثم – إلى مبرر للجريمة , وإلى طريقة للتحلل من نكارتها وبشاعتها :

(43/389)

لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا :ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا – ونحن عصبة – إن أبانا لفي ضلال مبين ! اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم , وتكونوا من بعده قوما صالحين ! قال قائل منهم:لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب , يلتقطه بعض السيارة – إن كنتم فاعلين ! – قالوا :يا أبانا , مالك لا تأمنا على يوسف , وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب , وإنا له لحافظون ! قال:إني ليحزنني أن تذهبوا به , وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا :لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون . فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب , وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا أباهم عشاء يبكون , قالوا :يا أبانا , إنا ذهبنا نستبق , وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب , وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب , قال:بل سولت لكم أنفسكم أمرا , فصبر جميل , والله المستعان على ما تصفون . .

ونحن نجدهم – هم هم – في كل مواقف القصة بعد ذلك – كما نجد موقف أحدهم الخاص من أول القصة إلى آخرها – فما إن يذهبوا بأخي يوسف بعدما طلبه منهم وهم لا يعرفونه يحسبون أنه عزيز مصر الذي قدموا من بلادهم – كنعان – ليشتروا منه القمح في سنوات الجدب العجاف, حيث يدبر الله ليوسف أن يأخذ أخاه منهم بحجة أنه وجد صواع الملك في رحله . . ما إن يروا هذا التدبير – وهم لا يعلمون ما وراءه – حتى ينفجر حقدهم القديم على يوسف:

(قالوا:إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ! فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم .

قال:أنتم شر مكانا , والله أعلم بما تصفون) . .

كذلك نجدهم – هم هم – بعد مواجهة أبيهم بالفجيعة الثانية في شيخوخته الحزينة, فما إن يروا تجدد حزنه على يوسف حتى ينفجر حقدهم القديم, دون مراعاة لشيخوخة أبيهم ونكبته الأليمة:

وتولى عنهم وقال:يا أسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا:تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ! . .

ومثلها عندما أرسل يوسف قميصه إلى أبيه في النهاية - بعدما كشف لهم عن شخصيته - فلما رأوا أباهم يستنشق عبير يوسف , غاظهم هذا الاتصال الباطني الدال على عمق ما بينه وبين يوسف , فلم يملكوا أنفسهم أن يبكتوه ويؤنبوه:

(ولما فصلت العير قال أبوهم:إني لأجد ريح يوسف , لولا أن تفندون ! قالوا : تالله إنك لفي ضلالك القديم !) . .

وامرأة العزيز . . في صرع الشهوة التي تعمي عن كل شيء في اندفاعها الهائج الكاسح , فلا تحفل حياء أنثويا ولا كبرياء ذاتيا , كما لا تحفل مركزا اجتماعيا ولا فضيحة عائلية . . والتي تستخدم - مع ذلك - كل مكر الأنثى وكيدها , سواء في تبرئة نفسها أو حماية من تهوى من جرائر التهمة التي ألصقتها به , وتحديد عقوبة لا تودي بحياته ! أو رد الكيد للنسوة من ثغرة الضعف الغريزي الشهوي الذي تعرفه فيهن من معرفتها لنفسها ! أو التبجح بشهوانيتها أمام انكشاف ضعف عزيمتها وكبريائها أمام من تهوى , ووقوف نسوتها معها على أرض واحدة , حيث تبدو فيها الأنثى متجردة من كل تجمل المرأة وحيائها , الأنثى التي لا تحس فيإرواء هواتفها الأنثوية أمرا يعاب أصلا ! ومع صدق التصوير والتعبير عن هذا النموذج البشري الخاص بكل واقعيته , وعن هذه اللحظة الخاصة بكل طبيعيتها , فإن الأداء القرآني - الذي ينبغي أن يكون هو النموذج الأعلى للأداء الفني الإسلامي - لم يتخل عن طابعه النظيف مرة واحدة - حتى وهو يصور لحظة التعري النفسي والجسدي

الكامل بكل اندفاعها وحيوانيتها - لينشيء ذلك المستنقع الكريه الذي يتمرغ في وحله كتاب "القصة الواقعية" وكتاب "القصة الطبيعية" في هذه الجاهلية النكدة بحجة الكمال الفني في الأداء !

(45/389)

وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته:أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا . وكذلك مكنا ليوسف في الأرض , ولنعلمه من تأويل الأحاديث , والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما , وكذلك نجزي المحسنين . وراودته التي هو في بيتها عن نفسه , وغلقت الأبواب وقالت:هيت لك ! قال:معاذ الله ! إنه ربي أحسن مثواي , إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها , لولا أن رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء , إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب , وقدت قميصه من دبر , وألفيا سيدها لدى الباب , قالت:ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ? ! قال:هي راودتني عن نفسي , وشهد شاهد من أهلها :إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال:إنه من كيدكن , إن كيدكن عظيم !

يوسف أعرض عن هذا , واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ! . . وقال نسوة في المدينة: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ! قد شغفها حبا ! إنا لنراها في ضلال مبين ! فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن , وأعتدت لهن متكأ , وآتت كل واحدة منهن سكينا , وقالت: اخرج عليهن ! فلما رأينه أكبرنه , وقطعن أيديهن , وقلن: حاش لله ! ما هذا بشرا , إن هذا إلا ملك كريم . قالت: فذلكن الذي لمتنني فيه ! ولقد راودته عن نفسه فاستعصم , ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين . قال: رب , السجن أحب إلى مما يدعونني إليه , وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن , إنه هو السميع العليم . .

(46/389)

"وكذلك حين نلتقي بها مرة أخرى بعدما دخل يوسف السجن بسبب كيدها وكيد النسوة ; وبقي هناك حتى رأى الملك رؤياه , وتذكر الفتى الذي كان سجينا معه أن يوسف هو وحده الذي يعرف تأويل الرؤيا , فطلب الملك أن يأتوه به , فأبى حتى يحقق قضيته , ويبرىء ساحته , فاستدعاها الملك مع النسوة . وإذا بها ما تزال المرأة المحبة , مع التغير الطبيعي الواقعي الذي يحدثه الزمن والعمر والأحداث والظروف ; ومع تسرب الإيمان

الذي تعرفه من يوسف من خلال تلك المشاعر والمؤثرات جميعا:

وقال الملك: ائتوني به . فلما جاءه الرسول قال: ارجع إلى ربك فاسأله: ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ? إن ربي بكيدهن عليم . قال: ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ? قلن: حاش لله ! ما علمنا عليه من سوء . قالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق, أنا راودته عن نفسه, وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب, وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبريء نفسي, إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي, إن ربي غفور رحيم . .

ويوسف . . العبد الصالح - الإنسان - لم يزور الأداء القرآني في شخصيته الإنسانية لمحة واحدة ; وهو يواجه الفتنة بكل بشريته - مع نشأته في بيت النبوة وتربيته ودينه - وبشريته مع نشأته وتربيته ودينه تمثل بمجموعها واقعيته بكل جوانبها . . لقد ضعف حين همت به حتى هم بها ; ولكن الخيط الآخر شده وأنقذه من السقوط فعلا . ولقد شعر بضعفه إزاء كيد النسوة . ومنطق البيئة, وجو القصور, ونسوة القصور أيضا ! ولكنه تمسك بالعروة الوثقى . . ليست هنالك لمحة واحدة مزورة في واقعية الشخصية وطبيعتها ; وليس هنالك رائحة من مستنقعات الجاهلية ووحلها الفني ! ذلك أن هذا هو الواقع السليم بكل جوانبه . .

والعزيز . . وشخصيته بطبيعتها الخاصة, وبطبيعة سمت الإمارة; ثم بضعف النخوة, وغلبة الرياء الاجتماعي وستر الظواهر وإنقاذها ! وفيه تتمثل كل خصائص بيئته:

(47/389)

(فلما رأى قميصه قد من دبر, قال:إنه من كيدكن, إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا, واستغفري لذنبك, إنك كنت من الخاطئين !) . .

والنسوة . . نسوة هذا المجتمع بكل ملامحه . . اللغط بسيرة امرأة العزيز وفتاها الذي راودته عن نفسه, بعدما شغفها حبا ! والاستنكار الذي تبدو فيه غيرة النسوة من امرأة العزيز أكثر مما يبدو فيه استنكار الفعلة ! ثم وهلتهن أمام طلعة يوسف . ثم إقرارهن الأنثوي العميق بموقف المرأة التي كن يلغطن بقصتها ويستنكرن موقفها; وإحساس هذه المرأة بهذا الإقرار الذي يشجعها على الاعتراف الكامل, وهي آمنة في ظل استسلامهن لأنوثتهن كما تصنعها بيئتهن الخاصة وتوجهها . ثم ميلهن كلهن على يوسف بالإغراء والإغواء, رغم ما أنطقتهن به الوهلة الأولى من نظافته وطهارته البادية من قولهن: (حاش لله ! ما هذا بشرا, إن هذا إلا ملك كريم) . . نأخذ ذلك من قولة يوسف عليه السلام:

(قال:رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه, وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن

من الجاهلين) . .

فلم تعد امرأة العزيز وحدها تراوده ; ولكن عادت نسوة تلك الطبقة بجملتها تطارده ! والبيئة . . التي تتجلى سماتها من خلال ذلك كله . ثم من خلال ذلك التصرف في أمر يوسف , على الرغم مما بدا من براءته . ذلك التصرف المقصود به مواراة الفضيحة ودفن معالمها ; ولا يهم أن يذهب بريء كيوسف ضحيتها :

(ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) . .

فإذا تابعنا شخصية يوسف - عليه السلام - فإننا لا نفتقد في موقف واحد من مواقف القصة ملامح هذه الشخصية , المنبثقة من مقوماتها الذاتية البيئية الواقعية , المتمثلة في كونه "العبد الصالح - الإنسان - بكل بشريته , مع نشأته في بيت النبوة وتربيته ودينه" . .

(48/389)

فهو في السجن وظلماته - مع الظلم وظلماته ! - لا يغفل عن الدعوة لدينه , في كياسة وتلطف - مع الحزم والفصل - وفي إدراك لطبيعة البيئة ومداخل النفوس فيها . . كما أنه لا يغفل عن حسن تمثيله بشخصه وأدبه وسلوكه لدينه هذا الذي يدعو إليه في سجنه:

(ودخل معه السجن فتيان . قال أحدهما :إني أراني أعصر خمرا , وقال الآخر:إني أراني

أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه . نبئنا بتأويله , إنا نراك من المحسنين . قال:لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما , ذلكما مما علمني ربي , إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب , ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء , ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس , ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن , أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ? ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان , إن الحكم إلا لله , أمر ألا تعبدوا إلا إياه , ذلك الدين القيم , ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يا صاحبي السجن , أما أحدكما فيسقي ربه خمرا , وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه , قضي الأمر الذي فيه تستفتيان) . .

وهو - مع هذا كله - بشر , فيه ضعف البشر . فهو يتطلب الخلاص من سجنه , بمحاولة إيصال خبره إلى الملك , لعله يكشف المؤامرة الظالمة التي جاءت به إلى السجن المظلم . وإن كان الله - سبحانه - شاء أن يعلمه أن يقطع الرجاء إلا منه وحده:

(وقال للذي ظن أنه ناج منهما :اذكرني عند ربك . فأنساه الشيطان ذكر ربه . فلبث في السجن بضع سنين . . .) .

ثم تطالعنا ملامح هذه الشخصية كذلك بعد بضع سنين, وقد رأى الملك رؤياه, فحار في تأويلها الكهنة والسدنة; حتى تذكر صاحب السجن يوسف - بعدما تمت التربية الربانية للعبد الصالح, فاطمأن إلى قدر الله به واطمأن إلى مصيره - حتى إذا ما طلب الملك - بعد تأويله لرؤياه - أن يأتوه به, أجاب في هدوء المطمئن الواثق; وتمنع عن مغادرة سجنه إلا بعد تحقيق تهمته وتبرئة سمعته:

وقال الملك:إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف, وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . يا أيها الملأ أفتوني في رؤيايي, إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا:أضغاث أحلام, وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة:أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق, أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات, لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال:تزرعون سبع سنين دأبا, فما حصدتم فذروه في سنبله, إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن . إلا قليلا مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون . . وقال الملك:ائتوني به . . فلما جاءه الرسول قال:ارجع إلى ربك فاسأله:ما بال النسوة اللآتي قطعن أيديهن ? إن ربي بكيدهن عليم . قال:ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ? قلن:حاش لله ! ما علمنا عليه من سوء . قالت امرأة

العزيز: الآن حصحص الحق, أنا راودته عن نفسه, وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب, وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبريء نفسي, إن النفس لأمارة بالسوء, إلا ما رحم ربي, إن ربي غفور رحيم . . وقال الملك: ائتوني به أستخلصه لنفسي, فلما كلمه قال: إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال: اجعلني على خزائن الأرض, إني حفيظ عليم . .

(50/389)

ومنذ هذه اللحظة التي تجلت فيها شخصية يوسف مكتملة ناضجة واعية, مطمئنة ساكنة واثقة, نجد هذه الشخصية تتفرد على مسرح الأحداث, وتتوارى تماما شخصيات الملك والعزيز والنسوة والبيئة . ويمهد السياق القرآني لهذا التحول في القصة وفي الواقع بقوله:

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء, نصيب برحمتنا من نشاء . ولا نضيع أجر المحسنين, ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) . .

ومنذ هذه اللحظة نجد هذه الشخصية تواجه ألوانا أخرى من الابتلاءات, تختلف في طبيعتها عن الألوان الأولى; وتواجهها بذلك الاكتمال الناضج الواعي, وبتلك الطمأنينة

الساكنة الواثقة .

نجد يوسف وهو يواجه - للمرة الأولى - إخوته بعدما فعلوا به تلك الفعلة القديمة ; وهو في الموقف الأعلى بالقياس إليهم والأقوى . . ولكننا نجد سمة الضبط واضحة في انفعالاته وتصرفاته:

(وجاء أخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال:ائتوني بأخ لكم من أبيكم , ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ? فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون . قالوا:سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون . وقال لفتيانه:اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون) . .

ونجده وهو يدبر - بتدبير الله له - كيف يأخذ أخاه . فنلمح الشخصية الناضجة الواعية الحكيمة المطمئنة , الضابطة الصابرة:

ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه:قال:إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ; ثم أذن مؤذن:أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا - وأقبلوا عليهم - ماذا تفقدون ? قالوا:نفقد صواع الملك , ولمن جاء به حمل بعير ,

وأنا به زعيم . قالوا: تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض, وما كنا سارقين .

قالوا: فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ? قالوا: جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه, كذلك نجزي الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه, ثم استخرجها من وعاء أخيه . . كذلك كدنا ليوسف, ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك, إلا أن يشاء الله, نرفع درجات من نشاء, وفوق كل ذي علم عليم . قالوا: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ! فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم, قال: أنتم شر مكانا, والله أعلم بما تصفون . قالوا: يا أيها العزيز, إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه, إنا نراك من المحسنين . قال: معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده, إنا إذا لظالمون . .

ثم نلتقي به وقد استوفت المحنة بيعقوب أجلها, وقدر الله أن تنقضي الابتلاءات التي نزلت به وببيته, وحن يوسف إلى أبويه وأهله, ورق لأخوته والضر باد بهم, فكشف لهم عن نفسه, في عتاب رقيق, وفي عفو كريم, يجيء في أوانه, وكل الملابسات توحي به, وتتوقعه من هذه الشخصية بسماتها تلك:

فلما دخلوا عليه قالوا: يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر, وجئنا ببضاعة مزجاة. فأوف لنا الكيل وتصدق علينا, إن الله يجزي المتصدقين. قال: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟ قالوا: أئنك لأنت يوسف؟ قال: أنا يوسف, وهذا أخي, قد من الله علينا, إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين. قالوا: تالله لقد آثرك الله علينا, وإن كنا لخاطئين. قال: لا تثريب عليكم اليوم, يغفر الله لكم, وهو أرحم الراحمين. اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا, وأتوني بأهلكم أجمعين..

وفي النهاية يجيء ذلك الموقف الجليل الرائع.. موقف اللقاء الجامع ويوسف في أوج سلطانه وأوج تأويل رؤياه وتحقق أحلامه.. وإذا به ينسلخ من هذا كله وينتحي جانبا ينفرد بربه, ويناجيه خالصا له, وذلك كله مطروح وراءه:

رب قد آتيتني من الملك, وعلمتني من تأويل الأحاديث. فاطر السماوات والأرض. أنت وليي في الدنيا والآخرة. توفني مسلما وألحقني بالصالحين..

إنها شخصية موحدة متكاملة, بكل واقعيتها الممثلة لمقوماتها الواقعية في نشأتها وبيئتها.

ويعقوب.. الوالد المحب الملهوف, والنبي المطمئن الموصول, وهو يواجه بالاستبشار والخوف معا تلك الرؤيا الواعدة التي رآها يوسف; وهو يرى فيها بشائر مستقبل مرموق, بينما هو يتوجس خيفة من الشيطان وفعله في نفوس بنيه. فتتجلى شخصيته بواقعيتها الكاملة في كل جوانبها:

{إذ قال يوسف لأبيه: يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين . قال: } {يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا . إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث , ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق , إن ربك عليم حكيم} .

ثم نجد هذه الشخصية كذلك بكل واقعيتها البشرية النبوية , وبنوه يراودونه عن يوسف ثم وهم يفاجئونه بالفجيعة:

(53/389)

قالوا: يا أبانا , مالك لا تأمنا على يوسف , وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب , وإنا له لحافظون . قال: إني ليحزنني أن تذهبوا به , وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا: لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون . فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب , وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا أباهم عشاء يبكون , قالوا: يا أبانا , إنا ذهبنا نستبق , وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب , وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب , قال: بل

سولت لكم أنفسكم أمرا ; فصبر جميل , والله المستعان على ما تصفون . .

ثم نلتقي بهذه الشخصية - بكل واقعيتها تلك - وبنوه يراودونه مرة أخرى على السلوة الباقية له . . أخي يوسف . . وقد طلبه منهم عزيز مصر - يوسف - الذي لا يعرفونه ! في مقابل أن يعطيهم كيلا يقتاتون به في السنوات العجاف !

فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا : يا أبانا منع منا الكيل , فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون : قال : هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ? فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين . ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم , قالوا : يا أبانا ما نبغي , هذه بضاعتنا ردت إلينا , ونمير أهلنا ونحفظ أخانا , ونزداد كيل بعير , ذلك كيل يسير . قال : لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله : لتأتنني به إلا أن يحاط بكم . فلما آتوه موثقهم قال : الله على ما نقول وكيل . . وقال : يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة , وما أغنى عنكم من الله من شيء , إن الحكم إلا لله , عليه توكلت , وعليه فليتوكل المتوكلون . ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء , إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها , وإنه لذو علم لما علمناه , ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

.

ثم نلتقي به في فجيعته الثانية . . والدا ملهوفا ونبيا موصولا . . ذلك بعد أن دبر الله ليوسف كيف يأخذ أخاه . فيتخلف أحد أبناء يعقوب - صاحب الشخصية الخاصة فيهم , متوافيا مع سماته التي صاحبت مواقفه كلها في القصة , مشفقا أن يقابل أباه بعد الموثق الذي آتاه إياه . إلا أن يأذن له أبوه أو يحكم له الله -:

فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا , قال كبيرهم:ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله , ومن قبل ما فرطتم في يوسف ? فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي , أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا:يا أبانا إن ابنك سرق ! وما شهدنا إلا بما علمنا , وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها , وإنا لصادقون . قال:بل سولت لكم أنفسكم أمرا , فصبر جميل , عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم . وتولى عنهم وقال:يا أسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا:تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ! قال:إنما أشكو بثي وحزني إلى الله , وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه , ولا تيأسوا من روح الله . إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

.

وفي آخر مواقف المحنة الطويلة للشيخ المبتلي نجد ذات الملامح وذات الواقعية . وهو يشم

ريح يوسف في قميصه , ويواجه غيظ بنيه وتبكيتهم فلا يشك في صدق ظنه بربه:

ولما فصلت العير قال أبوهم:إني لأجد ريح يوسف , لولا أن تفندون . قالوا : تالله إنك لفي ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا . قال:ألم أقل لكم:إني أعلم من الله ما لا تعلمون ? قالوا : يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال:سوف استغفر لكم ربي , إنه هو الغفور الرحيم

(55/389)

إنها الشخصية الموحدة الخصائص والملامح , الواقعية المشاعر والتصرفات , الممثلة لكل واقعية ذاتها وظروفها وبيئتها بلا تزوير ولا نقص ولا تحريف !

والواقعية الصادقة الأمنية النظيفة السليمة في الوقت نفسه , لا تقف عند واقعية الشخصيات الإنسانية التي تحفل بها القصة في هذا المجال الواسع , على هذا المستوى الرائع . ولكنها تتجلى كذلك في واقعية الأحداث والسرد والعرض وصدقها وطبيعيتها في مكانها وزمانها , وفي بيئتها وملابساتها . . فكل حركة وكل خالجة وكل كلمة تجيء في أوانها ; وتجيء في الصورة المتوقعة لها ; وتجيء في مكانها من مسرح العرض ; متراوحة بين منطقة الظل ومنطقة الضوء بحسب أهميتها ودورها وطبيعة جريان الحياة بها . . الأمر

الملحوظ في الشخصيات أيضا كما قررنا من قبل هذا . .

حتى لحظات الجنس في القصة ومواقفه أخذت مساحتها كاملة – في حدود المنهج النظيف اللائق "بالإنسان" في غير تزوير ولا نقص ولا تحريف للواقعية البشرية في شمولها وصدقها وتكاملها – ولكن استيفاء تلك اللحظات لمساحتها المتناسقة مع بقية الأحداث والمواقف لم يكن معناه الوقوف أمامها كما لو كانت هي كل واقعية الكائن البشري ; وكما لو كانت هي محور حياته كلها , وهي كل أهداف حياته التي تستغرقها ! كما تحاول الجاهلية أن تفهمنا أن هذا وحده هو الفن الصادق !

إن الجاهلية إنما تمسخ الكائن البشري باسم الصدق الفني ! وهي تقف أمام لحظة الجنس كما لو كانت هي كل وجهة الحياة البشرية بجملتها ; فتنشيء منها مستنقعا واسعا عميقا , مزينا في الوقت ذاته بالأزهار الشيطانية !

وهي لا تفعل هذا لأن هذا هو الواقع , ولا لأنها هي مخلصة في تصوير هذا الواقع ! إنما تفعله لأن "بروتوكولات صهيون" تريد هذا ! تريد تجريد "الإنسان" إلا من حيوانيته حتى لا يوصم اليهود وحدهم بأنهم هم الذين يتجردون من كل القيم غير المادية ! وتريد أن تغرق

البشرية كلها في وحل المستنقع كي تنحصر فيه كل اهتماماتها , وتستغرق فيه كل طاقاتها ; فهذه هي أضمن سبيل لتدمير البشرية حتى تجثو على ركبتيها خاضعة لملك صهيون المرتقب الملعون ! ثم تتخذ من الفن وسيلة إلى هذا الشر كله , إلى جانب ما تتخذه من نشر المذاهب "العلمية ! " المؤدية إلى ذات الهدف . تارة باسم "الداروينية" وتارة باسم "الفرويدية" وتارة باسم "الماركسية" أو "الاشتراكية العلمية" . . وكلها سواء في تحقيق المخططات الصهيونية الرهيبة !

والقصة بعد ذلك تتجاوز الشخصيات والأحداث لترسم ظلال الفترة التاريخية التي تجري فيها أحداث القصة , وتتحرك فيها شخصياتها الكثيرة , وتسجل سماتها العامة , فترسم مسرح الأحداث بأبعاده العالمية في تلك الفترة التاريخية . . ونكتفي ببعض اللمحات والسهام التي ترسم تلك الأبعاد :

إن مصر في هذه الفترة لم يكن يحكمها الفراعنة من الأسر المصرية ; إنما كان يحكمها "الرعاة " الذين عاش إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب قريبا منهم , فعرفوا شيئًا عن دين الله منهم . نأخذ هذا من ذكر القرآن للملك بلقب "الملك" في حين يسمى الملك الذي جاء على عهد موسى - عليه السلام - من بعد بلقبه المعروف . "فرعون" . . ومن هذا يتحدد زمن وجود يوسف - عليه السلام - في مصر . فهو كان ما بين عهد الأسرة الثالثة عشرة والأسرة السابعة عشرة ; وهي أسر "الرعاة" الذين سماهم المصريون "الهكسوس" !

كراهية لهم ; إذ يقال:إن معنى الكلمة في اللغة المصرية القديمة:"الخنازير" أو "رعاة الخنازير" ! وهي فترة تستغرق نحو قرن ونصف قرن .

(57/389)

إن رسالة يوسف عليه السلام كانت في هذه الفترة . وهو كان قد بدأ الدعوة إلى الإسلام . . ديانة التوحيد الخالص . . وهو في السجن ; وقرر أنها دين آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ; وقررها في صورة واضحة كاملة دقيقة شاملة , فيما حكاه القرآن الكريم من قوله:

(إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله , وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب , ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء , ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس , ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ? ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان , إن الحكم إلا لله , أمر ألا تعبدوا إلا إياه , ذلك الدين القيم , ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . .

وهي صورة للإسلام واضحة كاملة ودقيقة وشاملة - كما جاء به رسل الله جميعا - من

ناحية أصول العقيدة . تحتوي , الإيمان بالله , والإيمان بالآخرة , وتوحيد الله وعدم الشرك به أصلا , ومعرفة الله سبحانه بصفاته . . الواحد , القهار . . والحكم بعدم وجود حقيقة ولا سلطان لغيره أصلا ; ومن ثم نفى الأرباب التي تتحكم في رقاب العباد , وإعلان السلطان والحكم لله وحده , ما دام أن الله أمر ألا يعبد الناس غيره . ومزاولة السلطان والحكم والربوبية هي تعبيد للناس مخالف للأمر بعبادة الله وحده . وتحديد معنى "العبادة " بأنها الخضوع للسلطان والحكم والإذعان للربوبية , وتعريف الدين القيم بأنه إفراد الله سبحانه بالعبادة - أي إفراده بالحكم - فهما مترادفان أو متلازمان: (إن الحكم إلا لله , أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم) . . وهذه هي أوضح صورة للإسلام وأكملها وأدقها وأشملها . .

(58/389)

وواضح أن يوسف - عليه السلام - عندما سيطر على مقاليد الأمور في مصر , استمر في دعوته للإسلام على هذا النحو الواضح الكامل الدقيق الشامل . . ولا بد أن الإسلام انتشر في مصر على يديه - وهو يقبض على أقوات الناس وأزوادهم لا على مجرد مقاليد الحكم بينهم - وانتشر كذلك في البقاع المجاورة ممن كانت وفودها تجيء لتقتات مما تم

ادخاره بحكمته وتدبيره – وقد رأينا إخوة يوسف يجيئون من أرض كنعان المجاورة في الأردن ضمن غيرهم من القوافل ليمتاروا من مصر ويتزودوا , مما يصور حالة الجدب التي حلت بالمنطقة كلها في هذه الفترة .

والقصة تشير إلى آثار باهتة للعقيدة الإسلامية التي عرف الرعاة شيئا عنها في أول القصة , كما تشير إلى انتشار هذه العقيدة ووضوحها بعد دعوة يوسف بها .

والإشارة الأولى وردت في حكاية قول النسوة حين طلع عليهن يوسف:

(فلما رأينه أكبرنه , وقطعن أيديهن وقلن:حاش لله ! ما هذا بشرا . إن هذا إلا ملك كريم) . .

ووردت في قول العزيز لامرأته:

(يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك ; إنك كنت من الخاطئين) . .

أما الإشارة الثانية الواضحة فقد جاءت على لسان امرأة العزيز التي يتجلى أنها آمنت بعقيدة يوسف وأسلمت في النهاية , فيما حكاه عنها السياق القرآني:

قالت امرأة العزيز:الآن حصحص الحق , أنا راودته عن نفسه , وإنه لمن الصادقين , ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب , وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . وما ابريء نفسي . إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي , إن ربي غفور رحيم . .

وإذا اتضح أن ديانة التوحيد - على هذا المستوى - كانت قد عرفت قبل تولي يوسف مقاليد الحكم في مصر ; فلا بد أن تكون قد انتشرت بعد ذلك واستقرت على نطاق واسع في أثناء توليه الحكم , ثم من بعد ذلك في عهد أسر الرعاة . فلما استرد الفراعنة زمام الأمور في الأسرة الثامنة عشرة أخذوا يقاومون ديانة التوحيد ممثلة في ذرية يعقوب التي تكاثرت في مصر , لإعادة الوثنية التي تقوم عليها الفرعونية ! . . .

وهذا يكشف لنا سببا أصيلا من أسباب اضطهاد الفراعنة بعد ذلك لبني إسرائيل - أي يعقوب - إلى جانب السبب السياسي , وهو أنهم جاءوا واستوطنوا وحكموا واستقروا في عهد ملوك الرعاة الوافدين . فلما طرد المصريون ملوك الرعاة طاردوا حلفاءهم من بني إسرائيل أيضا . . وإن كان اختلاف العقيدتين ينبغي أن يكون هو التفسير الأقوى لذلك الاضطهاد الفظيع . ذلك أن انتشار عقيدة التوحيد الصحيحة يحطم القاعدة التي يقوم عليها ملك الفراعين ! فهي العدو الأصيل للطواغيت وحكم الطواغيت وربوبية الطواغيت !

ولقد وردت إشارة إلى هذا الذي نقرره في حكاية القرآن الكريم لقول مؤمن آل فرعون في سورة غافر ; في دفاعه الإسلامي المجيد عن موسى عليه السلام , في وجه فرعون وملئه

عندما هم فرعون بقتل موسى , ليقتل معه الخطر الذي يتهدد ملكه كله من عقيدة التوحيد التي جاء بها موسى:

(60/389)

وقال فرعون:ذروني أقتل موسى وليدع ربه , إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد . وقال موسى:إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب . وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه:أتقتلون رجلا أن يقول:ربي الله ? وقد جاءكم بالبينات من ربكم , وإن يك كاذبا فعليه كذبه , وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم , إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب . يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض . فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ? قال فرعون:ما أريكم إلا ما أرى . وما أهديكم إلا سبيل الرشاد . وقال الذي آمن:يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم , وما الله يريد ظلما للعباد , ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم , ومن يضلل الله فما له من هاد . . ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به , حتى إذا هلك قلتم:لن يبعث الله من بعده رسولا , كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون

في آيات الله بغير سلطان أتاهم . كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ! كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر . . الخ . .

فقد كان الصراع الحقيقي بين عقيدة التوحيد التي تفرد الله سبحانه بالربوبية , فتفرده بالعبادة - أي بالدينونة والخضوع والاتباع لحاكميته وحده - وبين الفرعونية التي تقوم على أساس العقيدة الوثنية , ولا تقوم إلا بها .

ولعل التوحيد الناقص المشوه الذي عرف به "أخناتون" لم يكن إلا أثرا من الآثار المضطربة التي بقيت من التوحيد الذي نشره يوسف عليه السلام في مصر كما أسلفنا ; وبخاصة إذا صح ما يقال في التاريخ من أن أم أخناتون كانت آسيوية ولم تكن فرعونية !

(61/389)

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى اللمحات الدالة على طبيعة الفترة التاريخية التي وقعت فيها أحداث القصة وتحركت فيها أشخاصها . فنجدها تتجاوز حدود الرقعة المصرية , وتسجل طابع العصر كله . فواضح تماما انطباع هذه الفترة الزمنية بالرؤى والتنبوءات التي لا تقتصر على أرض واحدة , ولا على قوم بأعيانهم . . ونحن نرى هذه الظاهرة واضحة في رؤيا يوسف وتعبيرها وتأويلها في النهاية . وفي رؤيا الفتيين صاحبي السجن . وفي رؤيا

الملك في النهاية . . وكلها تتلقى بالاهتمام سواء ممن يرونها أو ممن يسمعونها مما يشي بطابع العصر كله !

وعلى وجه الإجمال فإن القصة غنية بالعناصر الفنية . غنية كذلك بالعنصر الإنساني , حافلة بالانفعال والحركة . وطريقة الأداء تبرز هذه العناصر إبرازا قويا . فضلا على خصائص التعبير القرآنية الموحية المؤثرة , ذات الإيقاع الموسيقي المناسب لكل جو من الأجواء التي يصورها السياق .

في القصة يتجلى عنصر الحب الأبوي في صور ودرجات منوعة واضحة الخطوط والظلال : في حب يعقوب ليوسف وأخيه وحبه لبقية أبنائه . وفي استجاباته الشعورية للأحداث حول يوسف من أول القصة إلى آخرها .

وعنصر الغيرة والتحاسد بين الإخوة من أمهات مختلفات , بحسب ما يرون من تنوع صور الحب الأبوي . وعنصر التفاوت في الاستجابات المختلفة للغيرة والحسد في نفوس الإخوة ; فبعضهم يقودهم هذا الشعور إلى إضمار جريمة القتل , وبعضهم يشير فقط بطرح يوسف في الجب تلتقطه بعض السيارة نفورا من الجريمة . .

وعنصر المكر والخداع في صور شتى . من مكر إخوة يوسف به , إلى مكر امرأة العزيز بيوسف وبزوجها وبالنسوة .

وعنصر الشهوة ونزواتها والاستجابة لها بالاندفاع او بالإحجام . وبالإعجاب والتمني ,

والاعتصام والتأبي .

وعنصر الندم في بعض ألوانه , والعفو في أوانه . والفرح بتجمع المتفارقين . .

وذلك إلى بعض صور المجتمع الجاهلي في طبقة العلية من الملأ: في البيت والسجن والسوق والديوان – في مصر يومذاك . والمجتمع العبراني , وما يسود العصر من الرؤى والتنبؤات .

وتبدأ القصة بالرؤيا يقصها يوسف على أبيه , فينبئه أبوه بأن سيكون له شأن عظيم , وينصحه بألا يقصها على إخوته كي لا يثير حسدهم فيغريهم الشيطان به فيكيدون له . . ثم تسير القصة بعد ذلك , وكأنما هي تأويل للرؤيا ولما توقعه يعقوب من ورائها حتى إذا اكتمل تأويل الرؤيا في النهاية أنهى السياق القصة , ولم يسر فيها كما سار كتاب "العهد القديم" بعد هذا الختام الفني الدقيق , الوافي بالغرض الديني كل الوفاء .

وما يسمى بالعقدة الفنية في القصة واضح في قصة يوسف . فهي تبدأ بالرؤيا كما سبق , ويظل تأويلها مجهولا , يتكشف قليلا قليلا , حتى تجيء الخاتمة فتحل العقدة حلا طبيعيا لا تعمل فيه ولا اصطناع !

والقصة مقسمة إلى حلقات . كل حلقة تحتوي جملة مشاهد . والسياق يترك فجوات بين

المشهد والمشهد يملؤها تخيل القاريء وتصوره, ويكمل ما حذف من حركات وأقوال, مع ما في هذا من تشويق ومتاع . .

وحسبنا هذا القدر من التحليل الفني لقصة يوسف, وتمثيلها للمنهج القرآني الإسلامي في الأداء . وفي هذا القدر ما يكشف عن مدى الإمكانيات التي يعرضها هذا المنهج للمحاولات البشرية في الأدب الإسلامي ,لتمكينه من الأداء الفني الكامل والواقعية الصادقة السليمة, دون أن يسف أو يحتاج إلى التخلي عن النظافة اللائقة بفن يقدم ل "الإنسان" !

وتبقى وراء ذلك كله عبرة القصة وقيمتها في مجال الحركة الإسلامية; وإيحاءاتها المتوافية مع حاجات الحركة في بعض مراحلها . ومع حاجاتها الثابتة التي لا تتعلق بمرحلة خاصة منها . إلى جانب الحقائق الكبرى التي تتقرر من خلال سياق القصة, ثم من خلال سياق السورة كلها بعد ذلك . وبخاصة تلك التعقيبات الأخيرة في السورة . .

ونكتفي في هذا التقديم للسورة بلمحات سريعة من هذا كله:

لقد أشرنا في مطالع هذا التقديم إلى مناسبة قصة يوسف بجملتها للفترة الحرجة التي كانت

تمر بها الحركة الإسلامية في مكة عند نزول السورة , وللشدة التي كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والقلة المؤمنة معه يتعرضون لها . وذلك بما تحمل القصة من عرض لابتلاءات أخ كريم للنبي الكريم ; ثم بما تحمله بعد ذلك من استفزاز من الأرض ثم تمكين .

وهذا الذي سبق أن قررناه يصور لونا من إيحاءات القصة المتوافية مع حاجات الحركة الإسلامية في تلك الفترة ; ويقرب معنى "الطبيعة الحركية" لهذا القرآن وهو يزود الدعوة , ويدفع الحركة , ويوجه الجماعة المسلمة توجيها واقعيا إيجابيا محدد الهدف مرسوم الطريق .

كذلك أشرنا في ثنايا تحليل القصة إلى الصورة الواضحة الكاملة الدقيقة الشاملة للإسلام , كما عرضها يوسف عليه السلام . وهي صورة تستحق الوقوف أمامها طويلا . .

إنها تقرر ابتداء وحدة العقيدة الإسلامية التي جاء بها الرسل جميعا ; واستيفاء مقوماتها الأساسية في كل رسالة ; وقيامها على التوحيد الكامل لله سبحانه , وعلى تقرير ربوبيته للبشر وحده , ودينونة البشر له وحده . . كما تقرر تضمن تلك العقيدة الواحدة للإيمان بالدار الآخرة بصورة واضحة . وهذا التقرير يقطع الطريق على مزاعم ما يسمونه "علم الأديان المقارن" من أن البشرية لم تعرف التوحيد ولا الآخرة إلا أخيرا جدا , بعد أن اجتازت عقائد التعدد والتثنية بأشكالها وصورها المختلفة ; وأنها ترقت في معرفة

العقيدة كما ترقت في معرفة العلوم والصناعات . . هذه المزاعم التي تتجه إلى تقرير أن الأديان من صنع البشر شأنها شأن العلوم والصناعات .

(64/389)

كذلك هي تقرر طبيعة ديانة التوحيد التي جاء بها الرسل جميعا . . إنه ليس توحيد الألوهية فحسب . ولكنه كذلك توحيد الربوبية . . وتقرير أن الحكم لله وحده في أمر الناس كله ; وأن هذا التقرير ناشيء من أمر الله سبحانه بألا يعبد إلا إياه . والتعبير القرآني الدقيق في هذه القضية يحدد مدلول "العبادة" تحديدا دقيقا . فهي الحكم من جانب الله والدينونة من جانب البشر . . وهذا وحده هو "الدين القيم" فلا دين إذن لله ما لم تكن دينونة الناس لله وحده , وما لم يكن الحكم لله وحده . ولا عبادة لله إذن إذا دان الناس لغير الله فيشأن واحد من شؤون الحياة . فتوحيد الألوهية يقتضي توحيد الربوبية . والربوبية تتمثل في أن يكون الحكم لله . . أو أن تكون العبادة لله . . فهما مترادفان أو متلازمان . والعبادة التي يعتبر بها الناس مسلمين أو غير مسلمين هي الدينونة والخضوع والاتباع لحكم الله دون سواه . .

وهذا التقرير القرآني بصورته هذه الجازمة ينتهي كل جدل في اعتبار الناس في أي زمان وفي

أي مكان مسلمين أو غير مسلمين , في الدين القيم أم في غير هذا الدين . . فهذا الاعتبار يعد من المعلوم من الدين بالضرورة . . من دان لغير الله وحكم في أي أمر من أمور حياته غير الله , فليس من المسلمين وليس في هذا الدين . ومن أفرد الله سبحانه بالحاكمية ورفض الدينونة لغيره من خلائقه فهو من المسلمين وفي هذا الدين . . وكل ما وراء ذلك تمحل لا يحاوله إلا المهزومون أمام الواقع الثقيل في بيئة من البيئات وفي قرن من القرون ! ودين الله واصح . وهذا النص وحده كاف في جعل هذا الحكم من المعلوم من الدين بالضرورة . من جادل فيه فقد جادل في هذا الدين !

ومن الإيحاءات الواردة في ثنايا القصة صورة الإيمان المتجرد الخالص الموصول كما تتجلى في قلبي عبدين صالحين من عباد الله المختارين: يعقوب ويوسف:

(65/389)

فأما يوسف فقد أشرنا من قبل إلى موقفه الأخير متجردا من كل شيء , نافضا عنه كل شيء , متجها إلى ربه , مبتهلا إليه في انكسار وفي خشوع يناجيه:

رب قد آتيتني من الملك , وعلمتني من تأويل الأحاديث , فاطر السماوات والأرض , أنت ولي في الدنيا والآخرة , توفني مسلما وألحقني بالصالحين . .

ولكن هذا الموقف الأخير لم يكن هو كل شيء في هذا الجانب ; فهو على مدار القصة يقف هذا الموقف , موصولا بربه , يحسه - سبحانه - قريبا منه مستجيبا له:

في موقف الإغراء والفتنة والغواية يهتف:

(معاذ الله , إنه ربي أحسن مثواي . إنه لا يفلح الظالمون) . .

وفي الموقف الآخر وهو يخشى على نفسه الضعف والميل يهتف كذلك:

(رب , السجن أحب إلي مما يدعونني إليه , وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين) . .

وفي موقف تعريف نفسه لأخوته , يبين فضل الله عليه ويشكر نعمته ويذكرها :

(قالوا :أئنك لأنت يوسف ? قال:أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا , إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) . .

وكلها مواقف تحمل إيحاءات يتجاوز مداها حاجة الحركة الإسلامية في مكة , إلى حاجة الحركة الإسلامية في كل فترة .

وأما يعقوب ففي قلبه تتجلى حقيقة ربه باهرة عميقة لطيفة مأنوسة في كل موقف وفي كل مناسبة ; وكلما اشتد البلاء شفت تلك الحقيقة في قلبه ورفت بمقدار ما تعمقت وبرزت . .

فمنذ البدء ويوسف يقص عليه رؤياه يذكر ربه ويشكر نعمته:

(وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث , ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق , إن ربك عليم حكيم) . .

وفي مواجهة الصدمة الأولى في يوسف يتجه إلى ربه مستعينا به:

(قال:بل سولت لكم أنفسكم أمرا , فصبر جميل , والله المستعان على ما تصفون) . .

(66/389)

وفي مواجهته لعاطفته الأبوية الخائفة على أبنائه , وهو يوصيهم ألا يدخلوا من باب واحد وأن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة , لا ينسى أن هذا التدبير لا يغني عنهم من الله شيئًا , وأن الحكم النافذ هو حكم الله وحده ; وإنما هي حاجة في النفس لا تغني من الله وقدره:

وقال:يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة , وما أغني عنكم من الله من شيء , إن الحكم إلا لله , عليه توكلت , وعليه فليتوكل المتوكلون . .

وفي مواجهة الصدمة الثانية في كبرته وهرمه وضعفه وحزنه , لم يتسرب اليأس من رحمة ربه لحظة واحدة إلى قلبه:

(قال:بل سولت لكم أنفسكم أمرا , فصبر جميل , عسى الله أن يأتيني بهم جميعا ; إنه هو العليم الحكيم) .

ثم يبلغ تجلي الحقيقة في قلب يعقوب درجة البهاء والصفاء , وبنوه يؤنبونه على حزنه على يوسف وبكائه له حتى تبيض عيناه من الحزن ; فيواجههم بأنه يجد حقيقة ربه في قلبه كما لا يجدونها , ويعلم من شأن ربه ما لا يعلمون ; فمن هنا اتجاهه إليه وحده وشكواه له وبثه , ورجاؤه في رحمته وروحه:

وتولى عنهم وقال:يا أسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا

قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ! قال:إنما أشكو بثي وحزني إلى الله , وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه , ولا تيأسوا من روح الله . إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . .

ولقد ذكرهم بما يعلمه من شأن ربه وما يجده من حقيقته في قلبه , وهم يجادلونه في ريح يوسف , وقد صدق الله فيه ظنه:

(ولما فصلت العير قال أبوهم:إني لأجد ريح يوسف , لولا أن تفندون . قالوا : تالله إنك لفي ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا . قال:ألم أقل لكم:إني أعلم من الله ما لا تعلمون ?) .

إنها الصورة الباهرة لتجلي حقيقة الألوهية في قلب من قلوب الصفوة المختارة . وهي تحمل الإيحاء المناسب لفترة الشدة في حياة الجماعة المسلمة في مكة ; كما أنها تحمل الإيحاء الدائم بالحقيقة الإيمانية الكبيرة , لكل قلب يعمل في حقل الدعوة والحركة بالإسلام على مدار الزمان أيضا .

وأخيرا نجيء إلى التعقيبات المتنوعة التي جاءت بعد القصة الطويلة إلى نهاية السورة .

إن التعقيب الأول والمباشر يواجه تكذيب قريش بالوحي إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بتقرير مأخوذ من هذا القصص الذي لم يكن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حاضرا وقائعه:

ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك , وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون . .

وهذا التعقيب يترابط مع التقديم للقصة في الاتجاه ذاته:

(نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن , وإن كنت من قبله لمن الغافلين) . .

والتقديم والتعقيب على هذا النحو يؤلفان مؤثرا موحيا من المؤثرات الكثيرة في سياق السورة , لتقرير الحقيقة التي يعرضانها , وتوكيدها في مواجهة الاعتراض والتكذيب .

ومن ثم يعقب ذلك التسرية عن قلب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتهوين أمر المكذبين على نفسه . وبيان مدى عنادهم وإصرارهم وعماهم عن الآيات المبثوثة في

كتاب الكون , وهي حسب الفطرة السليمة في التنبه إلى دلائل الإيمان , والاستماع إلى الدعوة والبرهان . ثم تهديدهم بعذاب الله الذي قد يفاجئهم وهم غافلون:

وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين . وما تسألهم عليه من أجر , إن هو إلا ذكر للعالمين . وكأي من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون . أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ? . .

(68/389)

وهي إيقاعات مؤثرة بقدر ما تحمل من حقائق عميقة عن طبيعة الناس حين لا يدينون بدين الله الصحيح . وبخاصة في قوله تعالى: (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) . .

فهذا هو التصوير العميق لكثير من النفوس التي يختلط فيها الإيمان بالشرك , لأنها لم تحسم في قضية التوحيد .

وهنا يجيء الإيقاع الكبير العميق المؤثر الموحي , بتوجيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى تحديد طريقه وتميزها وإفرادها عن كل طريق , والمفاصلة على أساسها الواضح الفريد:

(قل:هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني , وسبحان الله , وما أنا من المشركين) . .

ثم تختم السورة بإيقاع آخر يحمل عبرة القصص القرآني كله , في هذه السورة وفي سواها . يحملها للنبي (صلى الله عليه وسلم) والقلة المؤمنة معه , ومعها التثبيت والتسرية والبشرى ; ويحملها للمشركين المعاندين , ومعها التذكير والعظة والنذير . كما أن فيها للجميع تقريرا لصدق الوحي وصدق الرسول ; وتقريرا لحقيقة الوحي وحقيقة الرسالة , مع تخليص هذه الحقيقة من الأوهام والأساطير:

(وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى . أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ? ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون ? حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا , فنجي من نشاء , ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين . لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب , ما كان حديثا يفترى , ولكن تصديق الذي بين يديه , وتفصيل كل شيء , وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) . .

إنه الإيقاع الأخير . والإيقاع الكبير . .

وبعد فلعل من المناسب في تقديم السورة التي حوت قصة يوسف , نموذجا كاملا للأداء الفني الصادق الجميل , أن نلم بشيء من لطائف التناسق في الأداء القرآني في السورة بكاملها وأن نقف عند نماذج من هذه اللطائف تمثل سائرها :

في هذه السورة - كما في السور القرآنية الأخرى - تتكرر تعبيرات معينة , تؤلف جزءا من جو السورة وشخصيتها الخاصة . وهنا يرد ذكر العلم كثيرا , وما يقابله من الجهل وقلة العلم في مواضع شتى:

(وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث , ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها) (على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق , إن ربك عليم حكيم) . .

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض , ولنعلمه من تأويل الأحاديث . والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . .

(ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما . وكذلك نجزي المحسنين) . .

(فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ; إنه هو السميع العليم) . .

(قال:لا يأتيكما طعام ترزقانه , إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما . ذلكما مما علمني ربي) . .

إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا أياه , ذلك الدين القيم , ولكن أكثر الناس لا يعلمون . .

(قالوا:أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) . .

(يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف , وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات , لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون) . .

(وقال الملك:ائتوني به , فلما جاءه الرسول قال:ارجع إلى ربك فاسأله:ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ? إن ربي بكيدهن عليم) . .

(ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) . .

(قال:اجعلني على خزائن الأرض ; إني حفيظ عليم) .

(. . . وإنه لذو علم لما علمناه , ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . .

(قالوا:تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين) . .

(قال:أنتم شر مكانا , والله أعلم بما تصفون) . .

(فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم:ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله . .) . .

(وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين) . .

(عسى الله أن يأتيني بهم جميعا , إنه هو العليم الحكيم) . .

قال:إنما أشكو بثي وحزني إلى الله , وأعلم من الله ما لا تعلمون . .

(قال:هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ?) . .

(قال:ألم أقل لكم:إني أعلم من الله ما لا تعلمون ?) . .

(رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث . . .) .

وهي ظاهرة بارزة تلفت النظر إلى بعض أسرار التناسق ولطائفة في هذا الكتاب الكريم .

وفي السورة تعريف بخصائص الألوهية , وفي مقدمتها "الحكم" وهو يرد مرة على لسان يوسف - عليه السلام - بمعنى الحاكمية في العباد من ناحية دينونتهم وطاعتهم الإرادية , ويأتي مرة على لسان يعقوب - عليه السلام - بمعنى الحاكمية في العباد من ناحية دينونتهم لله في صورتها القهرية القدرية , فيتكامل المعنيان في تقرير مدلول الحكم وحقيقة الألوهية على هذا النحو الذي لا يجيء عفوا ولا مصادفة أبدا:

يقول يوسف في معرض تفنيد ربوبية الحكام في مصر ومخالفتها لوحدانية الألوهية:

(يا صاحبي السجن , أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ? ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها) (أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله , أمر ألا تعبدوا إلا إياه , ذلك الدين القيم) . .

ويقول يعقوب في معرض تقرير أن قدر الله نافذ وأن قضاءه ماض:

(يا بني:لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة , وما أغني عنكم من الله من

شيء , إن الحكم إلا لله , عليه توكلت , وعليه فليتوكل المتوكلون) . .

وهذا التكامل في مدلول الحكم يشير إلى أن الدين لا يستقيم إلا أن تكون الدينونة الإرادية لله في الحكم , كالدينونة القهرية له سبحانه في القدر . فكلاهما من العقيدة ; وليست الدينونة في القدر القاهر وحدها هي الداخلة في نطاق الاعتقاد , بل الدينونة الإرادية في الشريعة هي كذلك في نطاق الاعتقاد .

ومن لطائف التناسق أن يذكر يوسف الحصيف الكيس اللطيف المدخل , صفة الله المناسبة . . (اللطيف) . في الموقف الذي يتجلى فيه لطف الله في التصريف:

(ورفع أبويه على العرش , وخروا له سجدا . وقال:يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا . وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن , وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي . . إن ربي لطيف لما يشاء . . إنه هو العليم الحكيم) . .

ومن لطائف التناسق ما سبق أن أشرنا إليه من التطابق في السورة بين تقديم القصص , والتعقيب المباشر عليه , والتعقيب الختامي الطويل . . وكل هذه التعقيبات تتجه إلى

تقرير قضايا واحدة , وتتلاقى عليها بين البدء والختام . .

وحسبنا في التعريف بالسورة هذه اللمسات حتى نلتقي بها في السياق . انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 4 صـ 1968.1949 ﴾

(72/389)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة يوسف

مكية وآياتها إحدى عشرة ومائة

بين يدي السورة

* سورة يوسف إحدى السور المكية التي تناولت قصص الأنبياء ، وقد أفردت الحديث عن قصة نبي الله (يوسف بن يعقوب) وما لاقاه عليه السلام من أنواع البلاء ، ومن ضروب المحن والشدائد ، من إخوته ومن الآخرين ، في بيت عزيز مصر ، وفي السجن ، وفي تآمر النسوة ، حتى نجَاه الله من ذلك الضيق ، والمقصودُ بها تسلية النبي ، بما مر عليه من الكرب والشدة ، وما لاقاه من أذى القريب والبعيد .

* والسورة الكريمة أسلوبَ فذ فريد ، في ألفاظها ، وتعبيرها ، وأدائها ، وفي قَصَصها

الممتع اللطيف ، تسري مع النفس سريان الدم في العروق ، وتجري – برقتها وسلاستها – في القلب جريان الروح في الجسد ، فهي وإن كانت من السور المكية ، التي تحمل – في الغالب – طابع الإنذار والتهديد ، إلا أنها اختلفت عنها في هذا الميدان ، فجاءت طرية نَدِية ، في أسلوب ممتع لطيف ، سَلِس رقيق ، يحمل جو الأنس والرحمة ، والرأفة والحنان ، ولهذا قال خالدُ بن مَعْدان : (سورة يوسف ومريم مما يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة) وقال عطاء : (لا يسمع سورة يوسف محزونٌ إلا استراح إليها) .

* نزلت السورة الكريمة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد سورة " هود " ، في تلك الفترة الحرجة العصيبة من حياة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) ، حيث توالت الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين ، وبالأخص بعد أن فقد عليه السلام نصيريه : زوجه الطاهر الحنون " خديجة " وعمه " أبا طالب " الذي كان له خير نصير ، وخير معين ، وبوفاتهما إشتد الأذى والبلاء على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى المؤمنين ، حتى عُرف ذلك العام ب (عام الحُزْن) .

* في تلك الفترة العصيبة من حياة الرسول الكريم ، وفي ذلك الوقت الذي كان يعاني فيه الرسول والمومنون ، الوحشة ، والغربة ، والانقطاع في جاهلية قريش ، كان الله سبحانه ينزل على نبيه الكريم هذه السورة تسلية له ، وتخفيفا لآلامه ، بذكر قصص المرسلين ، وكأن الله تعالى يقول لنبيه عليه السلام : لا تحزن يا محمد ولا تتفجع لتكذيب قومك ، وإيذائهم لك ، فإن بعد الشدة فَرَجاً ، وإن بعد الضيق مخرجا ، أنظر إلى أخيك (يوسف) وتمعن بما حدث له من صنوف البلايا والمِحَن ، وألوان الشدائد والنكبات ، وما ناله من ضروب المِحَن : محنة حَسد إخوته وكيدهم له ، ومحنة رميه في الجب ، ومحنة تعلق إمرأة العزيز به ، وعشقها له ، ثم مراودته عن نفسه ، بشتى طرق الفتنة والإغراء ، ثم محنة السجن ، بعد ذلك العز ورغد العيش ! ! أنظر إليه كيف أنه لما صبر على الأذى في سبيل العقيدة ، وصبر على الضر والبلاء ، نقله الله من السجن إلى القصر ، وجعله عزيزاً في أرض مصر ، وملكه الله خزائنها ، فكان السيد المطاع ، والعزيز المكرم . . وهكذا أفعل بأوليائي ، ومن صبر على بلائي ، فلابد أن توطد النفس على تحمل البلاء ، إقتداءً بمن سبقك من المرسلين [فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل] [واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون] .

* وهكذا جاءت قصة يوسف الصديق تسلية لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) عما يلقاه ، وجاءت تحمل البِشرَ والأنس ، والراحة ، والطمأنينة ، لمن سار على درب الأنبياء ،

فلا بد من الفرج بعد الضيق ، ومن اليسر بعد العُسر ، وفي السورة دروس وعبر ، وعظات بالغات ، حافلات بروائع الأخبار العجيبة ، والأنباء الغريبة [لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد] .

(74/389)

---

* هذا هو جو السورة ، وهذه إيحاءاتُها ورموزُها . . تُبشر بقرب النصر ، لمن تمسك بالصبر ، وسار على طريق الأنبياء والمرسلين ، والدعاة المخلصين ، فهي سلوى للقلب ، وبلسم للجروح ، وقد جرت عادة القرآن الكريم ، بتكرير القصة في مواطن عديدة ، بقصد (العظة والإعتبار) ولكن بإيجاز دون توسع ، لإستكمال جميع حلقات القصة ، وللتشويق إلى سماع الأخبار ، دون سآمة أو ملل ، وأما سورة يوسف فقد ذُكرت حلقاتها هنا متابعة بإسهاب وإطناب ، ولم تكرر في مكان اخر ، كسائر قصص الرسل ، لتشير إلى " إعجاز القرآن " في المجمل والمفصل ، وفي حالتى الإيجاز والإطناب ، فسبحان المَلِك العلي الوهاب .

* قال العلامة القرطبي : (ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن ، وكررها بمعنى واحد ، في وجوه مختلفة ، وبألفاظ متباينة ، على درجات البلاغة والبيان ، وذكر قصة يوسف عليه

السلام ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرَّر ، ولا على معارضة غير المكرر ، والإعجاز واضح لمن تأمل) . وصدق الله [لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب .] ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 2 صـ 39 . 40 ﴾

(75/389)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة يوسف

لأبيه : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ،

روى أحمد والبخاري أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : " الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحق بن إبراهيم " .

أحد عشر كوكبا : هم إخوته وكانوا أحد عشر نفرا ، والشمس والقمر : أبوه وأمه ، والسجود : من سجد البعير ، إذا خفض رأسه لراكبه حين ركوبه ، وكان من عادة الناس فى تحية التعظيم بفلسطين ومصر وغيرهما الانحناء مبالغة فى الخضوع والتعظيم ، وقد استعمله القرآن فى انقياد كل المخلوقات لإرادة اللّه وتسخيره ، ولا يكون

السجود عبادة إلا بالقصد والنية للتقرب إلى من يعتقد أن له عليه سلطانا غيبيا فوق سلطان الأسباب المعهودة ، وقص الرؤيا : الإخبار بها على وجه الدقة والإحاطة ، وكاد له إذا دبر الكيد لأجله لمضرّته أو لمنفعته كما قال "كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ" .

والاجتباء من جبيت الشيء : إذا حصّلته لنفسك والتأويل : الإخبار بما يئول إليه الشيء فى الوجود ، وسميت الرؤيا أحاديث باعتبار حكايتها والتحديث بها ، والآل أصلها أهل ، وهو خاص بمن لهم شرف وخطر فى الناس كآل النبي صلى اللّه عليه وسلم وآل الملك .

الناصح : المشفق المحب للخير ، والرّتع : الاتساع فى الملاذ ، والمراد باللعب لعب المسابقة والانتضال بالسهام ونحوهما مما يتدرّب به لمقاتلة الأعداء وتعليم فنون الحرب ، والحزن : ألم النفس من فقد محبوب أو وقوع مكروه ، والخوف : ألم النفس من توقع مكروه قبل وقوعه ، والعصبة : الجماعة التي تعصب بها الأمور ، وتكفى بآرائها الخطوب وخاسرون : ضعفاء عاجزون . أو هالكون لاغناء عندهم ولا نفع .

أجمعوا : أي عزموا عزما لا تردد فيه ، وأوحينا إليه : أي ألهمناه كما فى قوله :

" وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى " والعشاء : من الغروب إلى العتمة : أي حين يخالط سواد الليل بقية بياض النهار ، والاستباق : تكلف السبق فى العدو أو فى الرمي ، والمتاع : فضل الثياب وماعون الطعام والشراب ، ومؤمن : أي مصدق ، وسولت : زينت وسهّلت ، والصبر الجميل : ما لا شكوى فيه إلى الخلق ، على ما تصفون : أي من هذه المصيبة وعظيم الرزء .

السيارة : الرفقة تسير معا ، والوارد : الذي يرد الماء ليستقى للقوم ، وأسروه : أي أخفوه من الناس ، والبضاعة : القطعة من المال يفرز للاتجار به ، وشرى الشيء : باعه واشتراه : ابتاعه ، والبخس : الناقص والمعيب كما قال " وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ " والمراد هنا الحرام أو الظلم لأنه بيع حر .

المثوى : مكان الثواء والإقامة ، مكنا ليوسف : أي جعلنا له مكانة رفيعة فى أرض مصر ، من تأويل الأحاديث : أي بعض تعبير الرؤيا التي عمدتها رؤيا الملك وصاحبى السجن ، وغالب على أمره . أي لا يمنع عما يشاء ولا ينازع فيما يريد ، وأشده : هو رشده وكمال قوته باستكمال نموه الجسماني والعقلي حكما أي حكما صحيحا يزن به الأمور بميزان صادق ، وعلما بحقائق الأشياء .

راودته على الأمر مراودة : طلبت منه فعله مع المخادعة ، فالمراود يتلطف فى طلبه تلطف المخادع ويحرص عليه ، وقال الراغب : المراودة أن تنازع غيرك فى الإرادة فتريد منه غير ما يريد كما قال إخوة يوسف (سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ) أي نحتال عليه ونخدعه عن إرادته ليرسل بنيامين معنا ، وهيت لك بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وضمها أي أي هلم أقبل وبادر ، وقد روى أنها لغة عرب حوران ، واختيرت لأنها أخص ما يؤدى المراد مع النزاهة الكاملة ، ومعاذ اللّه : أي أعوذ وأتحصن باللّه من أن أكون من الجاهلين الفاسقين ، وهمت به : أي همت لتبطش به لعصيانه أمرها ، وهمّ بها ليقهرها فى الدفع عما أرادته ويرد عنفها بمثله ، وبرهان ربه : إما النبوة التي تلى الحكم والعلم اللذين آتاه اللّه إياهما بعد بلوغ الأشد ، وإما مراقبة اللّه تعالى ورؤية ربه متجليا له ناظرا إليه كما

جاء فى الحديث فى تفسير الإحسان " أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "

والمخلصون : هم الذين اجتباهم اللّه واختارهم لطاعته ، واستبقا الباب :

اى تسابقا إلى الباب وقصد كل منهما سبق الآخر إليه ، فهو ليخرج وهى لتمنعه من الخروج ، وقدّت قميصه من دبر : أي قطعته طولا من خلف ، وألفيا : أي وجدا .

فتاها : عبدها ورقيقها ، والشغاف : الغلاف المحيط بالقلب ويقال شغفت فلانا إذا أصبت شغاف قلبه ، كما يقال : كبدته إذا أصبت كبده ، والضلال : الحيدة عن طريق

الرشد وسنن العقل ، بمكرهن : أي بقولهن ، وسمى ذلك مكرا لأنهن كن يردن إغضابها كى تعرض عليهن يوسف لتبدى عذرها فيفزن بمشاهدته ، وأعتدت : أعدّت وهيأت ، والمتكأ : ما يجلس عليه من كراسى وأرائك ، وأكبرنه : أعظمنه ودهشن من جماله الرائع ، وقطّعن أيديهن : أي جرحنها ، حاش للّه أي تنزيها للّه أن يكون هذا المخلوق العجيب من جنس البشر ، واستعصم : استمسك بعروة عصمته التي ورثها عمن نشئوا عليها ، الصاغرين : أي الأذلة المقهورين ، وأصب إليهن : أمل إلى موافقتهن على أهوائهن ، والجاهلين : أي السفهاء الذين يرتكبون القبائح ، فاستجاب له : أي أجاب دعاءه ، وبدا : ظهر ، والآيات هى الشواهد الدالة على براءته عليه السلام ، والحين : وقت من الزمن غير محدود .

السمان : واحدها سمين وسمينة ، والعجاف : واحدها عجفاء أي هزيلة ضعيفة ، والسنابل : واحدها سنبلة وهى ما يكون فيها الحب ، واليابس من السنبل : ما آن حصاده ، وعبرت الرؤيا وعبّرتها (بالتخفيف والتشديد) فسرتها ببيان المعنى الحقيقي المراد من المعنى المثالي كمن يعبر النهر بالانتقال من ضفّة إلى أخرى ، والأضغاث : واحدها

ضغث وهو الحزمة من النبات ، والأحلام واحده حلم (بضمتين وبالتسكين للتخفيف) : ما يرى فى النوم ، وهو قد يكون واضح المعنى كالأفكار التي تكون فى اليقظة ، وقد يكون مهوّشا مضطربا فهو يشبّه بالتضاغيث كأنه مؤلف من حزم مختلفة من العيدان والحشائش التي لا تناسب بينها ، واذكر : تذكر (أصله اذتكر) ، والدأب : استمرار الشيء على حال واحدة يقولون هو دائب بفعل كذا إذا استمر فى فعله ، فذروه : أي اتركوه وادخروه . والشداد الصعاب التي تشتد على الناس . وتحصنون أي تحرزون وتدخرون للبذر ، وأغاثه : أعانه ونجاه ، وغوّث الرجل : قال : واغوثاه ، واستغاث ربه : استنصره وسأله الغوث ، ويعصرون : أي ما من شأنه أن يعصر كالزيت من الزيتون والشيرج من السمسم ، والأشربة من القصب والنخيل والعنب .

(79/389)

المعرفة والعرفان : معرفة الشيء بتفكر فى أثره ، وضده الإنكار ، وجهزهم : أي أوقر ركائبهم بما جاءوا لأجله ، وجهاز السفر : أهبته وما يحتاج إليه فى قطع المسافة ، ومثله جهاز الميت والعروس (بالكسر والفتح وبهما قرئ) أوفى الشيء : جعله وافيا تاما ، المنزلين : أي المضيفين للضيوف ، نراود : أي نخادع ونستميل برفق ، لفاعلون :

أي لقادرون على ذلك ، لفتيانه : أي غلمانه الكيالين ، بضاعتهم : أي التي اشتروا بها الطعام وكانت نعالا وأدما ، والبضاعة : المال الذي يستعمل للتجارة ، والرحال : واحدها رحل : وهو ما يوضع على ظهر الدابة وفوقه متاع الراكب وغيره ، وانقلبوا : أي رجعوا .

المتاع : ما ينتفع به والمراد هنا وعاء الطعام ، والبضاعة : ثمن ما كانوا أعطوه من الطعام ، ونمير أهلنا : أي نجلب لهم الميرة (بالكسر) وهى الطعام يجلبه الإنسان من بلد إلى بلد ، كيل بعير : أي حمل جمل ، فكيل بمعنى مكيل ، ويسير : أي قليل لا يكثر على سخائه كما جاء فى قوله : " وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً " أو سهل لا عسر فيه كما فى قوله : " وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً " والموثق : العهد الموثّق ، إلا أن يحاط بكم :

أي إلا أن تغلبوا على أمركم ، أو إلا أن تهلكوا ، فإن من يحيط به العدو يهلك غالبا ، وكيل : أي مطلع رقيب ، فإن الموكّل بالأمر يراقبه ويحفظه

آوى إليه : أي ضم إليه ، والابتئاس : اجتلاب البؤس والشقاء ، والسقاية (بالكسر) وعاء يسقى به ، وبه كان يكال للناس الطعام ويقدر بكيلة مصرية 1/ 1219

من الإردب المصري ، وهو الذي عبر عنه بصواع الملك ، وأذن مؤذن : أي نادى مناد ، من التأذين وهو تكرار الأذان والإعلام بالشيء الذي تدركه الأذن ، والعير : الإبل التي عليها الأحمال والمراد أصحابها ، زعيم : كفيل أجعله جزاء لمن يجيء به ، الكيد :

التدبير الذي يخفى ظاهره على المتعاملين به حتى يؤدى إلى باطنه المراد منه ، ودين الملك :

شرعه الذي يدين الله تعالى به

استيأسوا : أي يئسوا يأسا كاملا ، خلصوا : انفردوا عن الناس ، نجيا : أي متناجين

متشاورين فيما يقولون لأبيهم ، كبيرهم : أي فى الرأى والعقل وهو يهوذا ، وموثقا : أي عهدا

يوثق به وهو حلفكم بالله ، فرطتم : قصرتم فى شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه ، أبرح :

أفارق ، أمرا : أي كيدا آخر ، تولى : أعرض ، والأسف :

أشد الحزن والحسرة على ما فات ، كظيم : أي مملوء غيظا على أولاده ممسك له فى قلبه ،

القرية : اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس وللناس جميعا ، ويستعمل فى كل واحد منهما

قاله الراغب

تفتأ : أي لا تفتأ بمعنى لا تزال . والحرض : المرض المشفى على الهلاك ، من الهالكين : أي

الميتين ، البث فى الأصل : إثارة الشيء وتفريقه كبث الريح التراب ، ثم استعمل فى إظهار

ما انطوت عليه النفس من الغم أو السر ، وتحسسوا : أي تعرفوا أخبار يوسف بحواسكم

من سمع وبصر ، والرّوح : التنفس ، يقال أراح الإنسان إذا تنفس ، ثم استعمل للفرج

والتنفيس من الكرب

الضر : أي ضر المجاعة من الهزال والضعف ، والمزجاة : الرديئة التي يدفعها التجار من أزجى الشيء وزجاه : إذا دفعه برفق كما قال : " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً " وآثرك : أي اختارك وفضلك ، والخاطئ : هو الذي يأتى بالخطيئة عمدا ، والمخطئ : من إذا أراد الصواب صار إلى غيره ، والخطء : الذنب ، وخطّأته : قلت له أخطأت ، ولا تثريب : أي لا لوم ولا تأنيب وثرّب فلان على فلان إذا عدد عليه ذنوبه ، ويأت بصيرا أي يصر بصيرا فى الحال ، أو يأت إلىّ وهو بصير

يقال فصل عن البلد : إذ انفصل وجاوز حيطانه ، وتفندون : أي تنسبونى إلى الفند وهو فساد الرأى وضعف العقل والخرف من الكبر ، فى ضلالك : أي فى خطئك أو فى إفراطك فى حبه والإصرار على اللهج به ، وارتد : أي رجع

آوى إليه أبويه : أي ضمهما إليه واعتنقهما ، ورفع أبويه : أي أصعدهما ، والعرش :

كرسى تدبير الملك لا كل سرير يجلس عليه الملك ، وخروا له سجدا : أي أهوى أبواه وإخوته إلى الأرض وخروا له سجدا ، تأويل رؤياى : أي مآلها وعاقبتها ، وأصل النزغ : نخس الرائض الفرس بالمهماز لإزعاجه للجرى ، ثم قيل نزغه الشيطان كأنه نخسه ليحثّه

على المعاصي ، ونزغ بين الناس : أفسد بينهم بالحث على الشر .

وكأين : بمعنى كثير ، والآية هنا : الدليل الذي يرشد إلى وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته ، يمرون عليها : يشاهدونها ، معرضون : أي لا يعتبرون بها ، والغاشية : العقوبة تغشاهم وتعمّهم ، بغتة : فجأة .

الظن هنا : إما بمعنى اليقين وإما بمعنى الحسبان والتقدير ، والبأس : العقاب ، والألباب : العقول واحدها لب ، وسمى بذلك لكونه خالص ما فى الإنسان من قواه ، والعبرة : الحال التي يتوصل بها من قياس ما ليس بمشاهد بما هو بمشاهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 12 صـ 113 : حـ 13 صـ 55 ﴾ . باختصار .

(82/389)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة يوسف

وهي مكية 1 - من ذلك قوله جل جلاله وتقدست أسماؤه

الر (آية 1) قال سعيد بن جبير عن ابن عباس أنا الله أرى وقد تقدم شرح هذه الحروف 2

- وقوله جل وعز تلك آيات الكتاب المبين (آية 1) أي هذه تلك الآيات والتي كنتم توعدون بها في التوراة 3 - وقوله جل وعز إنا أنزلناه قرءانا عربيا (آية 2) يجوز أن يكون المعنى إنا أنزلنا القرآن عربيا

ويجوز أن يكون المعنى إنا أنزلنا خبر يوسف وهذا أشبه بالمعنى لأنه يروى أن اليهود قالوا سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وعن خبر يوسف فأنزل الله جل وعز هذا بمكة موافقا لما في التوراة وفيه زيادة ليست عندهم فكأن هذا النبي صلى الله عليه وسلم إذ اخبرهم ولم يقرأ كتابا قط ولا هو في موضع كتاب بمنزلة إحياء عيسى عليه السلام الميت 4 - وقوله جل وعز نحن نقص عليك أحسن القصص (آية 3) أي نبين لك والقاص الذي يأتي بالقصة على حقيقتها 5 - ثم قال جل وعز بما أوحينا إليك هذا القرآن (آية 3) أي بوحينا ثم قال وإن كنت من قبله لمن الغافلين

أي لمن الغافلين عن قصة يوسف لأنه لم يقرأ كتابا قبل

ذلك وإنما علمها بالوحي 6 - وقوله جل ذكره إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين (آية 4) قال قتادة والضحاك وهذا لفظ قتادة الأحد عشر كوكبا إخوته والشمس والقمر أبوه وأمه قال معمر وقال غير قتادة أبوه وخالته وقال غيره أول لأحد عشر كوكبا أحد عشر رجلا يستضاء بهم كما يستضاء

بالكواكب وأول القمر أباه وأول الشمس أمه أو خالته وقال عبد الله بن شداد بن الهاد كان تفسير رؤيا يوسف صلى الله عليه وسلم بعد اربعين سنة وذلك مستعمى لم الرؤيا

(83/389)

---

7 - وقوله جل وعز قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا (آية 5) أي فيحتالوا عليك 8 - وقوله جل وعز وكذلك يجتبيك ربك (آية 6) أي يختارك واصله من جبيت الشئ أي حصلته ومنه جبيت الماء في الحوض 9 - ثم قال جل وعز ويعلمك من تأويل الأحاديث (آية 6) قال مجاهد أي تأويل الرؤيا

وقال غيره أي أخبار الأمم 10 - ثم قال جل ذكره ويتم نعمته عليك (آية 6) فأخبره أنه يكون نبيا لأنه قال كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق

11 - وقوله جل وعز لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين (آية 7) قيل بصيرة وقيل أي عبرة وروي انها في بعض المصاحف عبرة للسائلين 12 - ثم قال جل وعز إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى ابينا منا ونحن عصبة (آية 8) أي جماعة وقال بعض أهل اللغة العصبة العشرة إلى الأربعين 13 - ثم قال جل وعز إن أبانا لفي ضلال مبين (آية 8) أي ضل في محبة يوسف لا في دينه 14 - وقوله جل وعز اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا (آية

9) فيه حذف والمعنى أو اطرحوه أرضا يبعد فيها عن أبيكم

ودل على هذا الحذف يخل لكم وجه أبيكم أي يفرغ لكم وتكونوا من بعده أي تكونوا من بعد إهلاكه قوما صالحين أي تائبين

15 - ثم قال جل وعز قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابة الجب (آية 10)

الغيابة عند أهل اللغة كل ما غيب عنك والجب البئر التي ليس بمطوية ويروى ان الجب ها هنا بئر بيت المقدس وهي من جبيت أي قطعت كأنها قطعت ولم يحدث فيها شئ بعد القطع قال الضحاك الذي قال لهم لا تقتلوا يوسف هو الذي قال فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبى وهو أكبرهم وقال غيره هو يهوذا وكان أشدهم

(84/389)

---

16 - وقوله جل وعز أرسله معنا غدا نرتع ونلعب (آية 12) روى حجاج عن ابن جريج عن مجاهد وورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال أي نتحافظ حدثنا ونتكالأ ابن وزاد ابن أبي نجيح في روايته ونتحارس قوله قال هارون سألت أبا عمرو بن العلاء رحمه الله كيف قالوا ونلعب وهم أنبياء فقال لم يكونوا يومئذ انبياء ومن قرأ يرتع ويلعب بالياء فمعناه عندي يرعى الإبل يقال رعى وارتعى له بمعنى واحد وهذه قراءة أهل المدينة وروي عن

مجاهد نرتع بالنون وكسر التاء يقال ذلك ارتع صاحبه وإبله فرتعت أي اقامت في المرتع والله

أعلم بما اراد وقرأ أهل الكوفة يرتع ويلعب بإسكان العين ومعناه يتسع في الخصب ويأكل

ويقال رتعت الإبل إذا رعت كيف

شاءت وكذا غيرها وأرعيتها محمد تركتها ترعى ويقال فلان راتع أي مخصب ومنه

ترتع ما غفلت حتى إذ ادكرت فإنما هي إقبال وإدبار وكذا معنى نرتع بفتح النون وإسكان

العين وهي قراءة أبى عمرو واهل مكة وروى سعيد عن قتادة قال نرتع ننشط ونلهو وهو

كمعنى الأول وأما حجة أبي عمرو أنهم لم يكونوا يومئذ أنبياء فلا يحتاج إلى ذلك لأنه ليس

باللعب الصاد عن ذكر الله جل وعز وقال النبي صلى الله عليه وسلم ألا بكرا تلاعبها

وتلاعبك 17 - وقوله جل وعز وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون (آية

15) يجوز أن يكون المعنى واوحينا إليه في الجب وهم لا يشعرون

بذلك الوحي هذا قول قتادة ويجوز ان يكون المعنى لتخبرنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون

18 - وقوله جل ذكره قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق (آية 17) أي ننتضل والمعنى نستبق في

الرمي

19 - وقوله جل وعز وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين (آية 17) اي قد اتهمتنا ووقع

بقلبك أنا لا نصدق فانت لا تصدقنا 20 - وقوله جل وعز وجاءوا على قميصه بدم

كذب (آية 18) روى إسرائيل عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال كان دم سخلة وروى سفيان عن سمأل إلى عن عكرمة عن ابن عباس قال

(85/389)

لما نظر إليه قال كذبتم لو أكله الذئب لخرق القميص وقال الحسن لما نظر إلى الدم ولم ير في القميص شقا ولا خرقا قال ما عهد بالذئب حليما والمعنى بدم ذي كذب أي مكذوب فيه 21 - ثم قال جل وعز بل سولت لكم أنفسكم أمرا (آية 18) أي زينت 22 - ثم قال جل وعز فصبر جميل (آية 18) 3 ويروى ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقال هو الذي لا شكوى معه والمعنى عند أهل النظر الذي لا شكوى معه بغير رضى بقضاء الله فإذا كانت الشكوى إلى الله جل وعز كما قال إني مسني الضر وإنما أشكو بثي وحزني إلى الله أو

كانت برضى فصاحبها صابر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في علته بل أنا وارأساه 23 - وقوله جل وعز وجاءت سيارة (آية 19) أي قوم يسيرون فأرسلوا واردهم وهو الذي يرد لاستقاء الماء فأدلى دلوه قال الأصمعي يقال أدليت الدلو إذا أرسلتها ودلوتها إذا استقيت 24 - وقوله جل وعز قال يا بشراي هذا غلام (آية 19) قال السدي والأعمش

كان اسمه بشرى وقال غيرهما المعنى يا ايتها البشرى قال أبو جعفر وهذا القول الصحيح

لأن أكثر القراء يقرأ يا بشراي هذا غلام

والمعنى في نداء البشرى التنبيه لمن حضر وهو أوكد من قولك تبشرت كما تقول يا عجباه

أي يا عجب هذا من أيامك أو من آياتك فاحضر وهذا مذهب سيبويه 25 - وقوله جل

وعز وأسروه بضاعة (آية 19) روى حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال أسروه المدلي

ومن معه من التجار الباقين لئلا يستشركوهم فيه إذا عرفوا ثمنه وقالوا إنما استبضعناه

وروى معمر عن قتادة قال أسروا بيعه والمعنى على هذا

للأخوة كما روي انه لما وجد أظهر إخوته أنه بضاعة لأصحاب الماء 26 - وقوله جل

ثناؤه وشروه بثمن بخس (آية 20) أي ذي بخس والبخس النقصان وقال الشعبي البخس

القليل والمعدودة عشرون

درهما وقال قتادة بخس أي ظلم وقال الضحاك بخس أي حرام وروي عن ابن عباس وابن

مسعود ونوف انهم قالوا اشتروه بعشرين درهما وقال مجاهد وشروه أي باعوه حين أخرجه

المدلي وكانوا باعوه باثنين وعشرين درهما وهم أحد عشر 27 - ثم قال جل وعز دراهم

معدودة (آية 20)

قال الفراء إنما قال معدودة ليدل على قلتها لأنهم كانوا لا يزنون إلا أوقية والأوقية اربعون درهما 28 - ثم قال جل وعز وكانوا فيه من الزاهدين (آية 20) قال أبو عبيدة قال بعض المفسرين إنما زهدوا فيه لقلة علمهم بمنزلته من الله جل وعز 29 - وقوله جل وعز وقال الذي اشترا من مصر لامراته أكرمي مثواه (آية 21)

أي مقامه والمعنى أكرميه وقت مثواه ومنه ثويت في المكان إذا اقمت فيه كما قال الشاعر رب ثاو يمل منه الثواء 30 - ثم قال جل وعز عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولدا (آية 21) أي نتبناه وروى سفيان عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال أفرس الناس ثلاثة العزيز حين قال لامراته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا وابنة شعيب حين قالت لأبيها إن خير من استأجرت القوي الأمين وأبو بكر حين ولى عمر 31 - وقوله جل وعز ولما بلغ أشده (آية 22) قيل الأشد ثلاث وثلاثون سنة وقيل ثلاثون

والأكثر انه من تسع عشرة سنة إلى اربعين وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك الأشد الحلم وسيبويه كان يذهب إلى أنه جمع شدة مثل نعمة وانعم 32 - ثم قال جل وعز آتيناه حكما وعلما (آية 22) والفرق بين الحكيم والعالم أن الحكيم هو الذي يعمل بعلمه ويمتنع من الأشياء القبيحة ومنه قيل حكمة الدابة 33 - وقوله جل وعز وراودته التي هو في بيتها

عن نفسه (آية 23) معنى راود فلان فلانة طالبها على الفاحشة وترك ذكر

الفاحشة لعلم السامع 34 - وقوله جل وعز وقالت هيت لك (آية 23)

(87/389)

قال سعيد بن جبير أي تعالة وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال لا تنطعوا في القرآن فإنما

هو مثل قول أحدكم هلم وتعال ثم قرأ عبد الله وقالت هيت لك بفتح الهاء والتاء وروي

عن مجاهد وعكرمة أنهما قرءا وقالت هئت لك بالهمز قال قتادة قرأ ابن عباس هئت لك

قال عكرمة أي تهيأت لك وأنكر الكسائي هذه القراءة وقال لا أعرف هئت لك بمعنى

تهيأت وهي عند البصريين جيدة لأنه يقال هاء الرجل يهاء ويهيئ هياة فهاء يهئ مثل جاء

يجئ وهئت مثل جئت 35 - ثم قال جل وعز معاذ الله إنه ربي (آية 23) يجوز أن يكون

المعنى إن الله ربي فلا أعصيه

ويجوز أن يكون المعنى إن الملك ربي أي مولاي 36 - وقوله جل وعز ولقد همت به وهم

بها لولا أن رأى برهان ربه (آية 24) قال أبو جعفر الذي عليه أهل الحديث والمتقدمون أنه

هم بها

حتى مثل له يعقوب صلى الله عليه وسلم حدثنا أحمد بن عبد الجبار قال نا داود بن عمرو

الضبي عن نافع وهو ابن عمر الجمحي عن ابن أبي مليكة قال سئل ابن عباس رحمه الله ما بلغ من هموم يوسف فقال جلس يحل هميانا له فنودي يا يوسف لا تك كالطائر يزني وعليه الريش

فيقعد بلا ريش فلم يتعظ على النداء فراى برهان ربه ففر وفرق وفي رواية ابن جريج عن ابن أبي مليكة قال سألت ابن عباس عما بلغ من منة هموم أبو يوسف فذكر نحوه إلا انه قال جلس بين رجليها ورأى يعقوب صلى الله عليه وسلم وروى الأعمش عن مجاهد قال حل سراويله فتمثل له يعقوب فقال له يا يوسف فولى هاربا وروى سفيان عن أبي حصين عن سعيد بن جبير قال مثل له يعقوب فضرب صدره فخرجت شهوته من أنامله وروى إسماعيل بن إبراهيم عن يونس عن الحسن قال رأى صورة يعقوب يقول له يوسف يوسف قال أبو صالح رأى صورة يعقوب في سقف البيت يقول يا

يوسف يا يوسف وقال الضحاك نحوا من هذا قال أبو عبيد القاسم بن سلام وقد زعم بعض من يتكلم في القرآن برايه أن يوسف صلى الله عليه وسلم لم يهم بها يذهب إلى أن الكلام انقطع عند قوله ولقد همت

به قال ثم استأنف فقال وهم بها لولا ان رأى برهان ربه بمعنى لولا ان رأى برهان ربه لهم بها

واحتج بقوله ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وبقوله واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر

وابن عباس ومن دونه لا يختلفون في أنه هم بها وهم أعلم بالله وبتأويل كتابه وأشد تعظيما

للأنبياء من أن يتكلموا فيهم بغير علم قال أبو جعفر وكلام أبى عبيد هذا كلام حسن بين لمن

لم يمل إلى الهوى والذي ذكر من احتجاجهم بقول ذلك ليعلم أني

لم أخنه بالغيب لا يلزم لأنه لم يواقع المعصية وأيضا فإنه قد صح في الحديث أن جبريل صلى

الله عليه وسلم قال له حين قال ذلك ليعلم أني لم اخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين

ولا حين هممت فقال وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء وكذلك احتجاجهم بقوله

واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر لا يلزم لأنه يجوز ان يكون هذا بعد الهموم وقال الحسن

إن الله جل وعز لم يذكر معاصي الأنبياء ليعيرهم بها ولكنه ذكرها لئلا تيأسوا من التوبة

وقيل معنى وهم أنه شئ يخطر على القلب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم من هم

بسيئة ثم لم يعملها لم تكتب عليه فهذا مما يخطر بالقلب ولو هم بها على أنه يواقعها لكان ذلك

عظيما وفي الحديث إني لأستغفر الله جل وعز في اليوم والليلة مائة

مرة قال أبو جعفر وقد بينا قول من يرجع إلى قوله من أهل الحديث والروايات وأهل اللغة المحققون على قولهم قال أبو إسحاق يبعد أن يقال ضربتك لولا زيد وهممت بك لولا زيد وإنما الكلام لولا زيد لهممت بك فلو كان ولقد همت به ولهم بها لولا أن رأى برهان ربه لجاز على بعد وإنما المعنى لولا أن رأى برهان ربه لأمضى ما هم به وقال بعض اهل اللغة المعنى وهم بدفعها 37 - وقوله جل جلاله كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء (آية 24) السوء خيانة صاحبه والفحشاء ركوب الفاحشة حدثنا احمد بن محمد الأزدي قال نا محمد بن إبراهيم بن جناد قال نا الحسن بن عبد العزيز الجروي قال حدثني أبو مروان واثنى عليه خيرا قال حدثني عبد الرحمن بن يزيد بن

جابر في قول الله جل وعز كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء قال السوء الثناء القبيح والفحشاء الزنا 38 - وقوله جل وعز واستبقا الباب (آية 25) قال قتادة يعني يوسف وامرأة العزيز 39 - وقوله جل وعز وألفيا سيدها لدى الباب (آية 25) أي صادفاه فحضرها عند ذلك كيد فقالت ما جزاء من

اراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم 40 - وقوله جل وعز وشهد شاهد من أهلها (آية 26) قال أبو هريرة تكلم ثلاثة في المهد صاحب يوسف وعيسى صلى الله عليه وسلم وصاحب جريج وروى شريك عن أبي حصين عن سعيد بن جبير قال كان صبيا في البيت أو قال في المهد شك شريك

وروى علي بن الحكم عن الضحاك قال هو صبي في البيت وقال هلال بن إساف تكلم ثلاثة في المهد أحدهم صاحب يوسف وروى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال كان رجلا ذا لحية وقال سفيان عن جابر عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه قال كان من خاصة الملك وقال عكرمة لم يكن بصبي ولكن كان رجلا حكيما وروى سفيان عن منصور عن مجاهد قال كان رجلا وروى أبو عاصم عن المثنى عن القاسم وشهد شاهد من أهلها قال قميصه وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله وشهد شاهد من أهلها قال قد القميص الشاهد

(90/389)

والقد في اللغة القطع 41 - وقوله جل وعز قال أنه من كيدكن (آية 28) المعنى إن قولك ما جزاء من أراد بأهلك سوءا من كيدكن ثم قال يوسف أعرض عن هذا أي لا تفشه 42 - ثم قال تعالى واستغفري لذنبك (آية 29) ويروى أنه كان قليل الغيرة 43 - وقوله جل وعز وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا (آية 30) وروى معاوية بن أبي صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال شغفها غلبها وروى عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال دخل تحت شغافها قال أبو جعفر والقولان يرجعان

إلى شئ واحد لأن الشغاف

حجاب القلب فالمعنى وصل حبه إلى شغفاها عبد فغلب على قلبها قال الشاعر وقد

حال هم دون ذلك داخل دخول الشغاف تبتغيه الأصابع وقد قيل إن الشغاف داء وأنشد

الأصمعي للراجز يتبعها وهي له شغاف وروي عن أبى رجاء وقتادة أنهما قرءا قد شعفها

حبا

بالعين غير معجمة وبفتحها قال أبو جعفر معناه عند أكثر أهل اللغة قد ذهب بها كل

مذهب لأن شعفات الجبال أعاليها وقد شعف بذلك شعفا

بإسكان العين أي أولع به إلا أن أبا عبيد أنشد بيت امرئ القيس أيقتلني وقد شعفت

فؤادها كما شعف المهنوءة عليه الرجل الطالي قال فشبهت لوعة الحب وجواه بذلك وروي

عن الشعبي انه قال الشغف حب والشعف جنون 44 - وقوله جل وعز فلما سمعت

بمكرهن ارسلت إليهن (آية 31) يقال كيف سمى هذا مكرا فالجواب فيه أنها أطلعتهن

واستكتمتهن فأفشين سرها فسمي ذلك مكرا 45 - وقوله جل وعز وأعتدت لهن متكأ

(آية 31) روى سفيان عن منصور عن مجاهد قال المتكأ مثقلا

الطعام والمتك مخففة الأترج وروى إسماعيل بن إبراهيم عن أبي رجاء عن الحسن قال

المتكأ الطعام وروى معمر عن قتادة قال المتكأ الطعام

وقيل المتكأ كل ما اتكئ عليه عند الطعام أو شراب أو حديث وهذا هو المعروف عند أهل اللغة إلا أن الروايات قد صحت بذلك وحكى القتبي أنه يقال اتكأنا عن فلان أي أكلنا وقد قيل إن المتك الزماورد وقيل يقال بتكه إذا قطعه وشقه فكأن الميم بدل من الباء كما يقال لازم ولا زب في نظائر له كثيرة 46 - وقوله جل وعز فلما رأينه أكبرنه (آية 32) روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال أعظمنه قال أبو جعفر وهذا هو الصحيح ومن قال حضن فقد جاء بما لا يعرف وحضن لا يتعدى والمعنى هالهن فأعظمنه 47 - ثم قال جل وعز وقطعن أيديهن (آية 31) روى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال حزا بالسكين يريد مجاهد أنه ليس قطعا تبين منه اليد إنما هو خدش وحز وذلك معروف أن يقال إذا خدش الانسان يد صاحبه قد قطع يده 48 - ثم قال جل وعز وقلن حاش الله (آية 31) قال مجاهد أي معاذ الله والذي قال حسن واصله من قولك فلان في حشا فلان أي في ناحيتا فإذا قلت حاشا لزيد فمعناه تنحية لزيد

وحاش لله أي نحى الله هذا من هذا 49 - ثم قال جل وعز ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم (آية 31) وقرئ ما هذا بشرى أي بمشترى والأول أشبه لأن بعده إن هذا إلا ملك كريم ولأن مثل بشرى يكتب في الصحف بالياء 50 - وقول جل وعز ولقد راودته عن نفسه فاستعصم (آية 32) معنى فاستعصم فامتنع وقوله جل وعز قال رب السجن أحب

إلي مما يدعونني إليه (آية 33) روي ان الزهري قرأ قال رب السجن أحب إلي

ومعناه أن أسجن أحب إلي ومن قرأ بالكسر السجن فمعناه عنده موضع السجن أحب إلي

مما يدعونني إليه 51 - ثم قال جل وعز وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من

الجاهلين (آية 33) يقال صبا إلى اللهو صبوا وروى الفراء صبا أصبأ إذا مال إليه ثم قال تعالى

فاستجاب له ربه (آية 34) فحمله على المعنى لأن في كلامه معنى الدعاء وإن لم يذكر

دعاء 52 - وقوله جل وعز ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات (آية 35)

(92/389)

قال مجاهد يعني قد القميص وقال قتادة يعني قد القميص وحز الأيدي ثم بين الذي بدا لهم

فقال جل وعز ليسجننه حتى حين 53 - وقوله جل وعز ودخل معه السجن فتيان (آية

36) يجوز أن يكونا شابين وأن يكونا شيخين والعرب تستعمل هذا 54 - ثم قال جل

ذكره قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا (آية 36) في هذا أقوال منها أن الخمر ها هنا

العنب ومنها أن المعنى عنب خمر ومنها أن يكون مثل قولك أن أعصر زيتا أي أعصر ما

يؤول أمره إلى الزيت كما قال

الحمد لله العلي المنان صار الثريد في رؤوس العيدان وإنما يعني السنبل فسماه ثريدا لأن

الثريد منه وهذا قول حسن

والأول أبينها وأهل التفسير علي حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرني أحمد بن سعيد قال وهب بن جرير عن أبيه عن علي بن الحكم عن الضحاك في وقوله إني أراني أعصر خمرا قال فالخمر العنب وإنما يسمي أهل عمان العنب الخمر 55 - ثم قال تبارك وتعالى وقال الآخر إني أحمل فوق راسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين (آية 36) في هذا قولان أحدهما إنا نراك تحسن تأويل الرؤيا والقول الآخر يروى عن الضحاك أنه كان يعين المظلوم ويعود المريض وينصر الضعيف ويوسع للرجال فحاد عن جوابهما إلى غير ما سألاه عنه فقال لا يأتيكما وفي هذا قولان

أحدهما أن ابن جريج قال لم يرد أن يعبر لهما الرؤيا فحاد عن مسلئتهما أبي فلم يتركاه حتى عبرها وقال غيره اراد ان يعلمهما انه نبي وأنه يعلمها بالغيب فقال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ويروى أن الملك كان إذا أراد قتل إنسان وجه إليه بطعام بعينه لا يتجاوزه 56 - ثم أعلمهما أن ذلك العلم من عند الله لا بكهانة ولا تنجيم

فقال ذلكما مما علمني ربي ثم أعلمهما أنه مؤمن فقال إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله (آية 37) ثم قال بعد ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ذلك من فضل الله علنا أن جعلنا أنبياء وعلى الناس أن بعثنا إليهم رسلا

57 - ثم دعاهما إلى الإسلام بعد فقال يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الل الواحد القهار (آية 39) 58 - وقوله جل وعز يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا (آية 41) أي يكون على شراب الملك قال عبد الله بن مسعود لما عبر لهما الرؤيا قالا ما رأينا شيئا فقال قضي الأمر الذي فيه تستفتيان وقال أبو مجلز كان أحدهما صادقا والآخر كاذبا فقال قضي الأمر الذي فيه تستفتيان أي وقع على ما قلت حقا كان أو باطلا

59 - وقوله جل وعز وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك (آية 42) قال مجاهد عند الملك وذلك معروف في اللغة أن يقال للسيد رب قال الأعشى ربي كريم لا يكدر نعمة

وإذا تنوشد بالمهارق أنشدا

60 - وقوله جل وعز فأنساه الشيطان ذكر ربه (آية 42) قال مجاهد فأنسى يوسف الشيطان ذكر ربه أن يساله ويتضرع إليه حتى قال لأحد الفتيين اذكرني عند ربك وروى إسماعيل بن إبراهيم عن يونس عن الحسن قال قال نبي الله صلى الله عليه وسلم لولا كلمة يوسف يعني قوله اذكرني عند ربك ما لبث في السجن ما لبث قال ثم يبكي الحسن ويقول

نحن ينزل بنا الأمر فنشكوا ما إلى الناس 61 - وقوله جل وعز فلبث في السجن بضع سنين

(آية 42) روى معمر عن قتادة قال يعني أنه لبث في السجن سبع سنين وقال وهب اقام

أيوب في البلاء سبع سنين وأقام يوسف في

السجن سبع سنين

قال الفراء ذكروا أنه لبث سبعا بعد خمس سنين بعد قوله اذكرني عند ربك قال والبضع ما

دون العشر قال الأخفش البضع من واحد إلى عشرة وقال قتادة البضع يكون بين الثلاث

والتسع والعشر وهو قول الأصمعي قال العتبي قال أبو عبيدة ليس البضع العقد ولا نصف

(94/389)

العقد نذهب إلى أنه من الواحد إلى الأربعة وقال قطرب البضع ما بن لثلاث إلى التسع قال أبو

جعفر قيل اصحهما قول الأصمعي لأن داود بن هند روى عن الشعبي ان النبي صلى الله

عليه وسلم قال لأبي بكر رحمه الله حين خاطر قريشا في غلبة الروم فارس فمضى ست

سنين وقال أبو

بكر سيغلبون في بضع سنين فقال النبي صلى الله عليه وسلم كم البضع فقال ما بين الثلاث

إلى التسع فخاطرهم أبو بكر وزاد فجاء الخبر بعد ذلك أن الروم قد غلبت فارس 62 -

وقوله جل وعز وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف (آية 43)

والعجاف التي قد بلغت النهاية في الهزال ومعنى عبرت الرؤيا أخرجتها من حال النوم إلى

حال اليقظة مأخوذ من العبر وهو الشاطئ 63 - وقوله جل وعز قالوا أضغاث أحلام وما

نحن بتأويل الأحلام بعالمين (آية 44) روى معمر عن قتادة أي أخلاط والضغث عند أهل

اللغة كذلك يقال لكل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما ضغث أي هذه الرؤيا مختلطة

ليست ببينة

64 - وقوله جل وعز وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمه

(آية 45) روى معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وسفيان عن عاصم

عن أبي رزين عن ابن عباس بعد أمة بعد حين روى عفان عن همام عن قتادة عن عكرمة

عن ابن عباس أنه قرأ وادكر بعد أمه والمعروف من قراءة ابن عباس وعكرمة وادكر بعد

أمة وفسراه بعد نسيان والمعنيان متقاربان لأنه ذكر بعد حين وبعد نسيان 65 - ثم قال

تعالى أنا أنبئكم بتأويله (آية 45) أي أنا أخبركم وقرأ الحسن آتيكم بتأويله وقال كيف ينبئهم

لا العلج

قال أبو جعفر ومعنى أنبئكم صحيح حسن أي أنا أخبركم إذا سألت 66 - ثم قال جل

وعز فأرسلون يوسف ايها الصديق (آية 46) وفي الكلام حذف والمعنى فذهب فقال يا

يوسف 67 - وقوله جل وعز لعلي ارجع إلى الناس لعلهم يعلمون (آيه 46) يجوز أن يكون المعنى لعلهم تأويل رؤيا الملك

(95/389)

ويجوز ان يكون لعلهم يعلمون بموضعك فتخرج من السجن 68 - قال تزرعون سبع سنين دأبا (آية 47) أي تباعا واعتيادا

قال أبو عبيدة معنى تحصنون تحرزون 69 - وقوله جل ذكر ثم ياتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون (آية 49) روى معاوية بن صالح عن علي بن أبى طلحة عن ابن عباس قال يعصرون العنب والزيت ويقرأ تعصرون ويعصرون ويعصرون وزعم أبو عبيدة أن معنى يعصرون ينجون من العصرة والعصر وهما المنجا وأنشد أحمد بن حعفر لأبي زبيد صاديا يستغيث غير مغاث ولقد كان عصره المنجود والمنجود الفزع قال أبو جعفر والأجود في هذا أن يكون المعنى فيه ما قال

ابن عباس وابن جريج في يعصرون وأما معنى تعصرون فمعناه تمطرون من قوله وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا وكذلك معنى تعصرون

70 - وقوله جل وعز وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك (آية

50) يروى ان النبي صلى الله عليه وسلم تعجب من صبره وقال لو كنت مكانه ثم جاء الرسول لبادرت ثم قال فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن (آية 50)

ولم يذكر امرأة العزيز فيهن حسن عشرة منه وأدبا 71 - وقول جل وعز قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه (آية 51) روى إسرائيل عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال جمع فرعون النسوة فقال لهن أنتن راودتن يوسف عن نفسه فقالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين فقال يوسف ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب إن الله لا يهدي كيد الخائنين فقال جبريل عليه السلام وغمزه ولا حين هممت فقال وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء

قال أبو جعفر وهذا كلام غامض عند أهل العربية لأن كلام يوسف مختلط بما قبله وغير منفصل منه ألا تراه خبر عن امرأة العزيز أنها قالت انا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ثم اتصل به قول يوسف ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب

ونظيره إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون قال أبو جعفر وفي الاية تأويل آخر روى حجاج ن ابن جريج قال قال يوسف ارجع إلى ربك فاسأله

ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وقال ابن جريج وهذا من تقديم القرآن وتأخيره قال أراد ان يبين عذره قبل ان يخرج من السجن فهذا على هذا التأويل قاله يوسف في السجن وعلى تأويل ابن عباس قاله يوسف بعد ما خرج من السجن حين جمعه الملك مع النسوة

قال أبو جعفر والتأويلان حسنان والله أعلم بحقيقة ذلك قال مجاهد وقتادة معنى حصحص الحق تبين قال أبو إسحاق هو مأخوذ من الحصة أي بانت حصة الحق من حصة الباطل 72 - وقوله جل وعز وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي (آية 54) أي أجعله خالصا لنفسي لا يشركني فيه غيره 73 - ثم قال جل ذكره فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين (آية 54) أي قد تبينا أمانتك وبراءتك مما قرفت به

قال اجعلني على خزائن الأرض (آية 55) أي على أموالها

إني حفيظ عليم أي حافظ للأموال وأعلم المواضع التي يجب أن أجعلها فيها 74 - وقوله جل وعز ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم (آية 59) قيل في الكلام حذف والمعنى سألهم عن أمورهم فلما خبروه وجرى الكلام إلى هذا قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني اوفى الكيل وأنا خير المنزلين قيل لأنه أحسن ضيافتهم 75 - وقوله جل وعز وقال لفتيته (آية 62) قيل يراد بالفتية والفتيان ها هنا المماليك ثم قال اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون (آية 62) قال أبو

جعفر في هذا قولان أحدهما ان المعنى إذا رأوا البضاعة في رحالهم وهي ثمن الطعام رجعوا لأنهم أنبياء لا يأخذون شيئا بغير ثمن

وقيل إذا رأوا البضاعة في الرحال علموا أن هذا لا يكون من أمر يوسف فرجعوا 76 - وقوله جل وعز قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه

(97/389)

من قبل (آية 64) لأنهم قالوا في أخيه ارسله معنا غدا نرتع ونلعب وإنا له لحافظون وقالوا في هذا فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون فضمنوا له حفظهما 77 - وقوله جل وعز قالوا يا أبانا نا نبغي (آية 65) يجوز ان يكون المعنى أي شئ نبغي وقد ردت إلينا بضاعتنا ويجوز أن يكون المعنى ما نبغي شيئا ويكون ما نافية ثم قال ونميز أهلنا ونحفظ أخانا (آية 65)

يقال مار أهله يميرهم ميرا وميرة إذا جاء بأقواتهم من بلد إلى بلد 78 - ثم قال جل وعز ونزداد كيل بعير (آية 65) قال ابن جريج لأنه كان يعطي كل رجل منهم كيل بعير قال مجاهد يعني وقر حمار وقال بعضهم يسمى الحمار بعيرا يعني أنها لغة فأما أهل اللغة فلا يعرفون انه يقال للحمار بعير والله أعلم بما أراد ثم قال ذلك كيل يسير (آية 65) أي سهل عليه

79 - وقوله جل وعز إلا أن يحاط بكم (آية 66) أي إلا أن تهلكوا وتغلبوا

80 - ثم قال جل وعز فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل (آية 66) أي كفيل 81

- قوله جل وعز وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة (آية 67)

قال الضحاك خاف عليهم العين وقال غيره العين حق لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان

يعوذ الحسن والحسين رضي الله عنهما فيقول أعيذكما بكلمات الله التامة من كل لامة وقيل

كره ان يلحقهم شئ فيتوهم أنه من العين فيؤثم في ذلك والدليل على صحة هذا القول

حديث النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تقدموا عليه

وجواب آخر أن يكون كره ان يدخلوا فيستراب على بهم والله عز وجل أعلم 82 - وقوله

جل وعز ولما دخلوا من حيث أمرهم ابوهم ما كان يغني عنهم من الله من شئ إلا حاجة

(آية 68) قيل المعنى أنه لو قضي عليهم شئ لأصابهم دخلوا

مجتمعين أو متفرقين وقيل المعنى لو قضي أن تصيبهم العين لأصابتهم متفرقين كما تصيبهم

مجتمعين 83 - ثم قال جل وعز إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها (آية 68) قال مجاهد

يعني خوفه عليهم العين 84 - وقوله جل وعز ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه (آية

69) يقال آويت فلانا بالمد إذا ضممته إليك وأويت إليه أي لجأت إليه

ومعنى فلا تبتئس فلا تحزن من البؤس 85 - وقوله جل وعز فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل اخيه (آية 70) قال قتادة هي مشربة الملك وقال الضحاك هو الإناء الذي يشرب فيه الملك وروى شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال صواع الملك شئ من فضة يشبه المكوك من ذهب وفضة مرصع بالجواهر يجعل على الرأس وكان للعباس واحد في الجاهلية 86 - وقوله جل وعز ثم أذن مؤذن ايتها العير إنكم لسارقون (آية 70)

أي أعلم ونادى يقال آذنت أي أعلمت وأذنت أي أعلمت مرة بعد مرة

والمعنى يا أصحاب العير وقال إنكم لسارقون ولم يسرقوا الصواع قيل لأنهم أخذوا يوسف فباعوه فاستجاز ان يقول لهم إنكم لسارقون وقيل يجوز ان يكون الصواع جعل في رحالهم ولم يعلم الذي ناداهم بذلك فيكون كاذبا وقال أحمد بن يحيى أي حالكم حال السراق وهكذا كلام العرب وكان المنادي حسب ان القوم سرقوه ولم يعلم بصنيع يوسف وقيل يجوز ان يكون اذان المؤذن عن امر يوسف واستجاز ذلك بهم أنهم قد كانوا سرقوا سرقة في بعض الأحوال يعني بذلك تلك السرقة لا سرقتهم الصواع

وقال بعض أهل التأويل كان ذلك خطأ من فعل يوسف فعاقبه الله عز وجل إذ قالوا له إن يسرق فقد سرق اخ له من قبل 87 - وقول جل وعز وأنا به زعيم (آية 72) قال الضحاك

أي كفيل وقال قتادة أي حميل

قال الفراء زعيم القوم رئيسهم ومتكلمهم قال أبو جعفر وهذا قريب من الأول لأن حميلهم هو رئيسهم

(99/389)

وروى أبو أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال والزعيم غارم مختصر يعني صلى الله عليه وسلم بالزعيم الضامن 88 - وقوله جل وعز قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض (آية 73) يروى انهم كانوا لا ينزلون على أحد ظلما ولا يرهبون زرع أحد وانهم جعلوا على أفواه إبلهم الأكمه لئلا تعيث في زروع الناس 89 - ثم قال جل وعز وما كنا سارقين (آية 73) يروى انهم ردوا البضاعة التي جعلت في رحالهم أي فمن رد ما وجده كيف يكون سارقا

90 - ثم قال تعالى قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين (آية 74) يقال إن هذه هي الحيلة التي ذكرها الله في قوله كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك (آية 76) قال الضحاك أي في سلطان الملك وذلك أنه كان حكم الملك إذا سرق إنسان شيئا غرم مثله وكان حكم يعقوب صلى الله عليه وسلم إذا سرق إنسان استعبد فرد الحكم إليهم لهذا

91 - ثم قال جل وعز ما كان ليأخذ اخاه في دين الملك إلا ان يشاء الله (آية 76) أي إلا بمشيئته تعالى 92 - ثم قال تعالى نرفع درجات من نشاء (آية 76) ويقرأ درجات من نشاء بمعنى من نشاء درجات 93 - ثم قال تعالى وفوق كل ذي علم عليم (آية 76) قيل حتى ينتهي العلم إلى الله جل جلاله

وروى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال يكون ذا أعلم من ذا والله فوق كل عالم وروى سفيان عن عبد الأعلى عن سعيد بن جبير قال كنا عند ابن عباس رحمه الله فتحدث بحديث فتعجب منه رجل فقال سبحان الله وفوق كل ذي علم عليم فقال ابن عباس بئس ما قلت الله العليم وهو فوق كل عالم 94 - وقوله جل وعز قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل (آية 77) قال مجاهد يعنون يوسف ويروى انه كان راى صورة تعبد فأخذها ورمى بها وإنما فعل ذلك إنكارا ان يعبد غير الله 95 - ثم قال جل وعز فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم (آية 77)

ثم بين الذي أسر بقوله قال أنتم شر مكانا أي أنتم سرقتم على الحقيقة إذ بعتم أخاكم 96 - ثم قال تعالى والله أعلم بما تصفون (آية 77) أي الله أعلم أسرق أخوه أم لا 97 - وقوله

جل وعز فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا (آية 80) أي يئسوا تركوا أخاهم وانفردوا

يتناجون كيف يرجعون إلى يعقوب وليس معهم أخوهم

98 - ثم قال تعالى قال كبيرهم ألم تعلموا ان أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله (آية 80)

قيل كبيرهم يهوذا قال مجاهد هو شمعون وليس بكبيرهم في السن لأن روبيل أكبر منه

يذهب مجاهد إلى أن المعنى قال كبيرهم في العقل ورئيسهم لا كبيرهم في السن وقال قتادة في

قوله تعالى قال كبيرهم هو روبيل ذهب إلى أنه كبيرهم في السن والله أعلم بحقيقة ذلك 99

- وقوله تعالى فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي (آية 80) يعني أرض مصر لأن كل أحد

على الأرض 100 - وقوله جل وعز ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا ابانا إن ابنك سرق (آية

81)

وحكي أنه قرئ سرق

حدثني محمد بن عمر قال حدثني أبو بكر أحمد بن محمد بن عثمان بن شبيب قال نا أبو

جعفر أحمد بن أبي سريج قالا نا علي بن عاصم عن داو وهود ابن أبى هند عن سعيد بن

جبير قال نا ابن عباس يقرؤها يا أبانا إن ابنك سرق وحدثني محمد بن أحمد بن عمر قال نا

ابن شاذان قال نا أحمد بن سريج البغدادي قال سمعت الكسائي يقرأ يا أبانا إن ابنك سرق

مرفوعة بالسين وسرق تحتمل معنيين أحدهما اتهم بالسرقة والآخر علم منه السرق ومعنى

بل سولت أي بل زينت 101 - وقوله جل وعز وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف (آية

84) قال ابن عباس أي يا حزنا وقال مجاهد أي يا جزعا

102 - ثم قال تعالى وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم (آية 84) قال قتادة أي لم يقل باسا وكذلك هو في اللغة يقال فلان كظيم وكاظم أي

(101/389)

حزين لا يشكو حزنه 103 - وقوله جل وعز قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف (آية 85) روى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس تفتأ أي لا تزال وقال مجاهد تفتؤ أي تفتر والأول المعروف عند أهل اللغة يقال ما فتئ وما فتأ أي ما زال

104 - ثم قال تعالى حتى تكون حرضا (آية 85) قال ابن جريج عن مجاهد أي دون الموت وقال الضحاك أي باليا مبرا والقولان متقاربان يقال أحرضه المرض فحرض ويحرض إذا دام سقمه وبلي

قال الفراء الحارض الفاسد الجسم والعقل وكذلك الحرض وقال أبو عبيدة الحرض الذي قد اذابه الحزن وقال غيره منه حرضت فلانا أي أفسدت قلبه 105 - ثم قال تعالى أو تكون من الهالكين (آية 85) وقال الضحاك أي من الميتين

106 - وقوله جل وعز قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله (آية 86)

والبث أشد من الحزن قال قتادة ولا تيأسوا من روح الله أي من رحمته 107 - وقوله جل وعز قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة (آية 88) وروى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال أي ورق رديئة لا تجوز إلا بوضيعة وقال مجاهد أي قليلة وقال قتادة أي يسيرة وقال عبد الله بن الحارث كان معهم متاع الأعراب من سمن وصوف وما أشبههما وهذه الأقوال متقاربة واصله من التزجية وهي الدفع والسوق يقال فلان يزجي العيس أي يدفع والمعنى أنها

بضاعة تدفع ولا يقبلها كل أحد واحتج مالك بقوله تعالى فأوف لنا الكيل في ان أجرة الكيال والوزان على البايع 108 - وقوله جل وعز قال لا تثرتب الله عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين (آية 92) التثريب التعيير واللوم وإفساد الأمر ومنه ثربت أمره أي أفسدته ومنه الحديث إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب أي ولا يعيرها بالزنا 109 - وقوله جل وعز ولما فصلت العير قال ابوهم إني لأجد ريح يوسف (آية 94) قال ابن عباس هاجت ريح فشم ريح القميص من مسيرة ثمانية أيام ثم قال لولا أن تفندون (آية 94)

قال ابن عباس تسفهون وقال عطاء والضحاك أي تكذبون والقول الأول هو المعروف يقال فنده تفنيدا إذا عجزه كما قال أهلكتني باللوم والتفنيد ويقال افند إذا تكلم بالخطأ والفند الخطأ من الكلام والرأي كما قال الشاعر إلا سليمان إذ قال المليك له قم في البرية فاحددها عن الفند 110 – وقوله جل وعز وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين (آية 99) قال ابن جريج أي سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله

قال وهذا من تقديم القرآن وتأخيره يذهب ابن جريج إلى أنهم قد دخلوا مصر فكيف يقول ادخلوا مصر إن شاء الله

111 – ثم قال تعالى ورفع ابويه على العرش (آية 100) قال قتادة أي على السرير ثم قال تعالى وخروا له سجدا (آية 100) وقال قتادة وكان هذا من تحيتهم قال ابن جريج كانوا يفعلون هذا كما تفعل فارس والمعنى وخروا لله سجدا والقول الأول أشبه وهو سجود على غير عبادة وإن كان قد نهي المسلمون عن هذا فإنه على ما روي أنها تحية كانت لهم قال الحسن كان بين مفارقة يوسف اباه إلى ان اجتمع معه

ثمانون سنة لا يهدأ يعقوب فيها ساعة عن البكاء وليس أحد في ذلك الوقت أكرم على الله من يعقوب صلى الله عليه وسلم والقي في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وعاش بعد لقائه يعقوب ثلاثا وعشرين سنة ومات وهو ابن عشرين ومائة 112 – وقوله جل وعز رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث (آية 101) ويجوز ان تكون من ها هنا

للتبعيض أي قد آتيتني بعض الملك وعلمتني بعض التأويل ويجوز ان تكون لبيان الجنس أي أتيتني الملك وعلمتني تأويل الأحاديث ويدل على هذا الجواب تؤتي الملك من تشاء 113 - وقوله جل وعز وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين

(آية 103)

(103/389)

أي لست تقدر على هداية من أردت 114 - وقوله جل وعز وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون (آية 105) أي فكم من آية في رفع السموات بغير عمد ومجاري الشمس والقمر والنجوم وفي الأرض من نخلها وزرعها أي يعلمونها 115 - ثم قال جل وعز وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون (آية 106) قال عكرمة هو قوله تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فإذا سئلوا عن صفته وصفوة بغيرها ونسبوه إلى أن له ولدا وقال أبو جعفر يذهب عكرمة إلى أن الإيمان ها هنا إقرارهم

116 - ثم قال تعالى أفأمنوا ان تأتيهم غاشية من عذاب الله (آية 107) قال مجاهد أي تغشاهم قال أبو جعفر ومعناه تجللهم عن ومنه هل أتاك حديث الغاشية 117 - ثم قال تعالى أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون

(آية 107) أي فجأة من حيث لا يقدروا 118 - وقوله جل وعز قل هذه سبيلي أدعوا

إلى الله على بصيرة (آية 108) أي على يقين ومنه فلان مستبصر بهذا 119 - وقوله جل

وعز حتى إذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا (آية 109) روى الزهري عن عروة

عن عائشة رضي الله عنها في قوله جل وعز حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا

قالت استياس من الرسل من إيمان من كذبهم من قومهم وظنوا أن من آمن

من قومهم قد كذبوهم لما لحقهم من البلاء والامتحان وروى ابن أبي مليكة عن عروة عن

عائشة قالت لحق المؤمنين البلاء والضرر حتى ظن الرسل انهم قد كذبوهم لما لحقهم وقال

قتادة حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وأيقنوا أن قومهم قد كذبوهم جاءهم نصرنا

يذهب قتادة إلى ان الظن ها هنا يقين وذلك معروف في اللغة والمعنى أن الرسل كانوا

يترجون أن يؤمن قومهم ثم استياسوا من ذلك فجاءهم النصر والقول الأول اشبه بالمعنى

وهو أعلى إسنادا والله أعلم

(104/389)

بما أراد وقرأ عبد الله بن مسعود وابن عباس وظنوا أنهم قد كذبوا بالتخفيف وضم

الكاف قال أبو جعفر في معناه عن ابن عباس روايتان (أ) روى ابن أبى مليكة عنه انهم

ضعفوا قال إنهم بشر (ب) والقول الثاني أنه روي عن سفيان عن عطاء عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظن قومهم قد كذبوا جاءهم نصرنا قال أبو جعفر الضمير في كذبوا يعود على القوم على هذا

وقرأ مجاهد وظنوا انهم قد كذبوا بالتخفيف وفتح الكاف وفسره وظن قومهم انهم قد كذبوا وهو كالذي قبله في المعنى وروي عنه في قوله تعالى حتى إذا استيأس الرسل قولان أحدهما حتى إذا استيأس الرسل أن يأتي قومهم العذاب والقول الثاني أحسن وهو حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم 120 - وقوله جل وعز لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب (آية 111) قال مجاهد يعني يوسف وإخوته 121 - ثم قال جل وعز ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه (آية 111) قال سفيان يعني التوراة والإنجيل والكتب وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 3 صـ 464.394 ﴾

(105/389)

وقال الفراء :

ومن سورة يوسف

قول اللّه عزّ وجلّ: بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ [3]

(هذَا الْقُرْآنَ) منصوب بوقوع الفعل عليه. كأنك قلت: بوحينا «1» إليك هذا القرآن.

ولو خفضت (هذا) و(القرآن) كان صوابا: تجعل (هذا) مكرورا «2» على (ما) تقول:

مررت بما عندك متاعك تجعل المتاع مردودا على (ما) ومثله فى النحل: (وَلا تَقُولُوا»

لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ) و(الكذب) على ذلك.

وقوله: يا أبت «4» لا تقف عليها بالهاء وأنت خافض لها فى الوصل لأن تلك الخفضة

تدلّ على الإضافة إلى المتكلّم. ولو قرأ قارئ (يا أبت) لجاز (وكان «5» الوقف على الهاء

جائزا.

ولم يقرأ به أحد نعلمه. ولو قيل: يا أبت لجاز) الوقوف عليها (بالهاء «6») من جهة، ولم

يجز من أخرى. فأمّا جواز الوقوف على الهاء فأن تجعل الفتحة فيها من النداء ولا تنوى أن

تصلها بألف الندبة فكأنه كقول الشاعر «7»:

كلينى لهمّ يا أميمة ناصب

وأمّا الوجه الذي لا يجوز الوقف على الهاء فأن تنوى: يا أبتاه ثم تحذف الهاء والألف لأنها

فى النّيّة متّصلة بالألف كاتّصالها فى الخفض بالياء من المتكلّم.

وأمّا قوله: (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً) [4] فإن العرب تجعل العدد ما بين أحد عشر

---

(1) لو أتى بمصدر (أَوْحَيْنا) لقال: «بإيحائنا» ولكنه أتى بمصدر الثلاثي إذ كان فى معنى

الإيحاء .

(2) يريد أن يكون بدلا .

(3) الآية 116 سورة النحل

(4) قرأ بالخفض ابن كثير ويعقوب وهما يقفان بالهاء ، كما فى الإتحاف .

(5) سقط ما بين القوسين فى ا .

(6) سقط ما بين القوسين فى ا ، ب .

(7) هو النابغة . وعجزه :

وليل أقاسيه بطيء الكواكب

وقد روى «أميمة» بالضم والفتح وهو يريد رواية الفتح وانظر مختار الشعر الجاهلى

153 . [. . . . .]

إلى تسعة عشر منصوبا فى خفضه ورفعه . وذلك أنهم جعلوا اسمين معروفين «1»

واحدا ، فلم يضيفوا الأوّل إلى الثاني فيخرج من معنى العدد . ولم يرفعوا آخره فيكون بمنزلة

بعلبكّ إذا رفعوا آخرها .

واستجازوا أن يضيفوا (بعل) إلى (بكّ) لأنّ هذا لا يعرف فيه الانفصال من ذا ، والخمسة تنفرد من العشرة والعشرة من الخمسة ، فجعلوهما بإعراب واحد لأن معناهما فى الأصل هذه عشرة وخمسة ، فلمّا عدلا عن جهتهما أعطيا إعرابا واحدا فى الصرف «2» كما كان إعرابهما واحدا قبل أن يصرفا .

فأمّا «3» نصب كوكب فإنه خرج مفسّرا للنوع من كل عدد ليعرف ما أخبرت عنه . وهو فى الكلام بمنزلة قولك : عندى كذا وكذا درهما . خرج الدرهم مفسرا لكذا وكذا لأنها واقعة على كلّ شىء . فإذا أدخلت فى أحد عشر الألف واللام أدخلتهما فى أوّلها فقلت : ما فعلت الخمسة عشر .

ويجوز ما فعلت الخمسة العشر ، فأدخلت عليهما الألف واللام مرّتين لتوهّمهم انفصال ذا من ذا فى حال . فإن قلت : الخمسة العشر لم يجز لأن الأوّل غير الثاني ألا ترى أن قولهم : ما فعلت الخمسة الأثواب لمن أجازه تجد الخمسة هى الأثواب ولا تجد العشر الخمسة .

فلذلك لم تصلح إضافته بألف ولام . وإن شئت أدخلت الألف واللام أيضا فى الدرهم الذي يخرج مفسرا فتقول : ما فعلت الخمسة العشر الدرهم «4» ؟ . وإذا أضفت الخمسة العشر «5» إلى نفسك رفعت الخمسة . فتقول : ما فعلت خمسة عشرى ؟ : ورأيت خمسة عشرى ، (ومررت بخمسة «6» عشرى) وإنما عرّبت الخمسة لإضافتك العشر ، فلمّا أضيف العشر إلى الياء منك لم يستقم للخمسة أن تضاف إليها وبينهما عشر

فأضيفت إلى عشر لتصير اسما ، كما صار ما بعدها بالإضافة اسما . سمعتها من أبى

فقعس الأسدى

---

(1) ش : «مرفوعين» .

(2) يريد صرفهما عن حالة الإفراد إلى التركيب .

(3) ا : «وأما» .

(4) ا : «الدراهم» .

(5) ش ، ب : «العشر الدرهم» .

(6) سقط ما بين القوسين فى ا ، ش .

(107/389)

وأبى الهيثم العقيلىّ : ما فعلت خمسة عشرك ؟ ولذلك لا يصلح للمفسر أن يصحبهما لأن

إعرابيهما قد اختلفا . ب : اختلف ، وإنما يخرج الدرهم والكوكب مفسرا لهما جميعا كما

يخرج الدرهم من عشرين مفسرا لكلّها . فإذا أضفت العشرين دخلت فى الأسماء وبطل

عنها التفسير . فخطأ أن تقول :

ما فعلت عشروك درهما ، أو خمسة عشرك درهما . ومثله أنك تقول : مررت بضارب

زيدا .

فإذا أضفت الضارب إلى غير زيد لم يصلح أن يقع على زيد أبدا .

ولو نويت بخمسة عشر أن تضيف الخمسة إلى عشر فى شعر لجاز ، فقلت : ما رأيت خمسة عشر قطّ «1» خيرا منها ، لأنك نويت الأسماء ولم تنو العدد . ولا يجوز للمفسّر أن يدخل هاهنا كما لم يجز فى الإضافة أنشدنى العكليّ أبو ثروان :

كلّف من عنائه وشقوته بنت ثمانى عشرة من حجّته «2»

ومن القرّاء «3» من يسكّن العين من عشر «4» فى هذا النوع كلّه «5» ، إلّا اثنا عشر . وذلك أنهم استثقلوا كثرة الحركات ، ووجدوا الألف فى (اثنا) والياء فى (اثنى) ساكنة فكرهوا تسكين العين وإلى جنبها ساكن (ولا يجوز «6» تسكين العين فى مؤنّث العدد لأن الشين من عشرة يسكن فلا يستقيم تسكين العين والشين معا) .

وأمّا قوله (رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ) فإن هذه النون والواو إنما تكونان «7» فى جمع ذكران الجنّ والإنس وما أشبههم . فيقال : الناس ساجدون ، والملائكة والجنّ ساجدون : فإذا عدوت هذا

---

(1) سقط فى ش وب .

(2) فى مختصر الشواهد للعينى فى باب العدد أنه رجز لم يدر راجزه . وقيل : قاله نفيع بن طارق .

(3) هو أبو جعفر كما فى الإتحاف.

(4) ش، ب: «عشرة».

(5) سقط فى ا.

(6) سقط ما بين القوسين فى ش.

(7) ا: «يكون».

(108/389)

صار المؤنّث والمذكّر إلى التأنيث. فيقال: الكباش قد ذبّحن وذبّحت ومذبّحات. ولا يجوز مذبّحون. وإنما جاز فى الشمس والقمر والكواكب بالنون والياء لأنهم وصفوا بأفاعيل الآدميين (ألا ترى «1» أن السجود والركوع لا يكون إلّا من الآدميين فأخرج فعلهم على فعال الآدميّين) ومثله (وَقالُوا «2» لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا) فكأنهم خاطبوا رجالا إذ كلّمتهم وكلّموها.

وكذلك (يا أَيُّهَا «3» النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ) فما أتاك مواقعا لفعل الآدميين من غيرهم أجريته على هذا.

[قوله] «4» (يا بُنَيَّ) و(يا بنىّ) «5» لغتان، كقولك: يا أبت ويا أبت لأن من نصب أراد

النّدبة : يا أبتاه فحذفها .

وإذا تركت الهمزة من (الرؤيا) قالوا : الرّؤيا طلبا «6» للهمزة . وإذا كان من شأنهم تحويل الهمزة : قالوا : لا تقصص ريّاك فى الكلام ، فأمّا فى القرآن فلا يجوز لمخالفة الكتاب .

أنشدنى أبو الجرّاح :

لعرض من الأعراض يمسى حمامه ويضحى على أفنانه الغين يهتف

أحبّ إلى قلبى من الديك ريّة وباب إذا ما مال للغلق يصرف «7»

أراد : رؤية ، فلمّا ترك الهمز وجاءت واو ساكنة بعدها ياء تحولتا ياء مشدّدة ، كما يقال : لويته ليّا وكويته كيّا والأصل كويا ولويا . وإن أشرت «8» إلى الضمّة قلت : ريّا فرفعت الراء فجائز .

---

(1) سقط ما بين القوسين فى ا [. . . . .]

(2) الآية 21 سورة فصلت .

(3) الآية 18 سورة النمل .

(4) الفتح لحفص والكسر للباقين .

(5) الفتح لحفص والكسر للباقين .

(6) أي مراعاة لها كأنها موجودة ، ومن ثم تجب القلب والإدغام .

(7) العرض : الوادي فيه شجر . والغين جمع الغيناء وهى الخضراء من الشجر وهو بدل

من (أفنانه) و(يصرف) :

يصوت. وقوله: (رية) فى اللسان (عرض) : «رنة» ولا شاهد فيه.

(8) هو ما يسمى فى كتب النحو بالإشمام وهو أن تأتى بحركة بين الضمة والكسرة.

(109/389)

وتكون هذه الضمّة مثل قوله (وَحِيلَ «1») (وَسِيقَ «2») وزعم الكسائىّ أنه سمع أعرابيّا يقول (إِنْ كُنْتُمْ «3» لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ) .

وقوله: (وكذلك يجتبيك ربّك) [6] جواب لقوله (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً) فقيل له: وهكذا يجتبيك ربّك. كذلك وهكذا سواء فى المعنى. ومثله فى الكلام أن يقول الرجل قد فعلت اليوم كذا وكذا من الخير فرأيت عاقبته محمودة، فيقول له القائل: هكذا السعادة، هكذا التوفيق و(كَذلِكَ) يصلح فيه. و(يَجْتَبِيكَ) يصطفيك.

قوله: (وَنَحْنُ عُصْبَةٌ) [8] والعصبة: عشرة فما زاد.

وقوله: (أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ) [9] جواب للأمر ولا يصلح الرفع فى (يخل) لأنه لا ضمير فيه. ولو قلت: أعرنى ثوبا ألبس لجاز الرفع والجزم لأنك تريد: ألبسه فتكون رفعا من صلة النكرة. والجزم على أن تجعله شرطا.

قوله : (وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ) [10] واحدة «4» . وقد قرأ أهل الحجاز (غيابات) على الجمع (يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ) قرأه العامّة بالياء لأن (بعض) ذكر وإن أضيف إلى تأنيث . وقد قرأ «5» الحسن - فيما ذكر «6» عنه - ب : ذكروا (تلتقطه) بالتاء وذلك أنه ذهب إلى السّيارة والعرب إذا أضافت المذكّر إلى المؤنّث وهو فعل له «7» أو هو بعض له قالوا فيه بالتأنيث والتذكير . وأنشدونا :

---

(1) فى الآية 54 سورة سبأ .

(2) فى الآيتين 71 ، 73 سورة الزمر .

(3) الآية 43 سورة يوسف . وقد ضبط «للريا» بكسر الراء وفقا لما ا . وفى اللسان (رأى) ضبط بضم الراء .

(4) يريد (غيابة) بالإفراد . وهو مقابل (غيابات) فى القراءة الأخرى . والإفراد قراءة غير نافع وأبى جعفر .

أما هما فقرآ (غيابات) كما فى الإتحاف . وقوله «أهل الحجاز» فالأولى . «أهل المدينة» .

(5) سقط فى ا

(6) ا : «ذكروا» .

(7) سقط فى ا . [.....]

على قبضة موجوءة ظهر كفّه فلا المرء مستحى ولا هو طاعم «1»

ذهب إلى الكفّ وألغى الظهر لأن الكف يجزىء من الظهر فكأنه قال : موجوءة كفّه

وأنشدنى العكلىّ أبو ثروان :

أرى مرّ السنين أخذن منى كما أخذ السّرار من الهلال

وقال ابن مقبل :

قد صرّح السير عن كتمان وابتذلت وقع المحاجن بالمهريّة الذقن «2»

أراد : وابتذلت المحاجن وألغى الوقع . وأنشدنى الكسائىّ :

إذا مات منهم سيّد قام سيّد فدانت له أهل القرى والكنائس

ومنه قول الأعشى :

وتشرق بالقول الذي قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدّم

وأنشدنى يونس البصرىّ :

لمّا أتى خبر الزبير تهدّمت سور المدينة والجبال الخشّع «3»

وإنما جاز هذا كلّه لأن الثاني يكفى من الأوّل ألا ترى أنه لو قال : تلتقطه السيّارة لجاز وكفى

من (بعض) ولا يجوز أن يقول: قد ضربتنى غلام جاريتك لأنك لو ألقيت الغلام لم تدلّ الجارية على معناه.

---

(1) سبق ص 32 فى 187 من الجزء الأول. وفيه: «مرجوة» فى مكان «موجوءة» ويبدو أن الصواب ما هنا.

(2) انظر ص 187 من الجزء الأول.

(3) هو لجرير من قصيدة يهجو فيها الفرزدق. وكان قاتل الزبير بن العوام غدر رجلا من رهط الفرزدق، فعيره جرير بهذا. وانظر الديوان 270.

(111/389)

وقوله: لا تَأْمَنَّا [11] تشير «1» إلى الرفعة، وإن تركت فصواب، كلّ قد قرئ به وقد قرأ يحيى بن وثّاب: (تيمنّا).

وقوله يرتع ويلعب [12] من سكّن العين أخذه من القيد والرّتعة «2» وهو يفعل حينئذ ومن قال (يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ) فهو يفتعل من رعيت، فأسقط الياء للجزم.

وقوله: وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ [18] معناه: مكذوب: والعرب تقول للكذب. مكذوب وللضعف «3»: مضعوف، وليس له عقد رأى ومعقود رأى فيجعلون المصدر

فى كثير من الكلام مفعولا . ويقولون : هذا أمر ليس له معنىّ يريدون معنى ، ويقولون للجلد : مجلود قال الشاعر :

إن أخا المجلود من صبرا «4» وقال الآخر «5» :

حتّى إذا لم يتركوا لعظامه لحما ولا لفؤاده معقولا

وقال أبو ثروان : إنّ بنى نمير ليس لحدّهم «6» مكذوبة ومعنى قوله (بِدَمٍ كَذِبٍ) أنهم قالوا ليعقوب : أكله الذئب . وقد غمسوا قميصه فى دم جدى . فقال : لقد كان هذا الذئب رفيقا بابني ، مزّق جلده ولم يمزق ثيابه . قال : وقالوا : اللصوص قتلوه ، قال : فلم تركوا قميصه ! وإنما يريدون الثياب . فلذلك قيل (بِدَمٍ كَذِبٍ) ويجوز فى العربيّة أن تقول : جاءوا على قميصه بدم كذبا كما تقول : جاءوا بأمر باطل وباطلا ، وحق وحقا .

---

(1) يريد الإشمام .

(2) هو الاتساع فى الخصب واللهو .

(3) فى الأصول : «للضعيف» وما أثبت عن اللسان فى حكاية كلام الفراء فى (كذب)

(4) الشطر فى اللسان (جلد) : واصبر فان أخا المجلود من صبرا .

(5) هو الراعي النميري .

(6) ب : «لجدهم» .

وقوله : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) مثل قوله : (فَصِيامُ «1» ثَلاثَةِ أَيَّامٍ) (فَإِمْساكٌ «2» بِمَعْرُوفٍ) ولو كان :

فصبرا جميلا يكون كالآمر لنفسه بالصبر لجاز . وهى فى قراءة أبىّ (فصبرا جميلا) كذلك على النصب بالألف .

وقوله : (يا بُشْرى «3» [19] هذا غُلامٌ) (ويا بشراى «4») بنصب الياء ، وهى لغة فى بعض قيس .

وهذيل : يا بشرىّ . كل ألف أضافها المتكلم إلى نفسه جعلتها ياء مشدّدة . أنشدنى القاسم بن معن :

تركوا هوىّ وأعنقوا لهواهم ففقدتهم ولكل جنب مصرع «5»

وقال لى بعض بنى سليم : آتيك بموليّ فإنه أروى منّى . قال :

أنشدنى المفضّل :

يطوّف بي عكبّ فى معدّ ويطعن بالصملّة فى قفيّا

فإن لم تثأروا لى من عكبّ فلا أرويتما أبدا صديّا «6»

ومن قرأ (يا بُشْرى) بالسكون فهو كقولك : يا بنى لا تفعل ، يكون مفردا فى معنى الإضافة .

والعرب تقول : يا نفس اصبري ويا نفس اصبري وهو يعنى نفسه فى الوجهين و(يا بشراى) فى موضع نصب . ومن قال : يا بشريّ فأضاف وغيّر الألف إلى الياء فإنه طلب «7» الكسرة التي تلزم ما قبل

---

(1) الآية 196 سورة البقرة ، والآية 89 سورة المائدة .

(2) الآية 29 ، سورة البقرة .

(3) القراءة الأولى لعاصم وحمزة والكسائي ، والأخرى للباقين .

(4) القراءة الأولى لعاصم وحمزة والكسائي ، والأخرى للباقين .

(5) هو من عينية أبى ذؤيب المشهورة . [. . . . .]

(6) الشعر للمنخل اليشكري . وعكب اللخمي صاحب سجن النعمان بن المنذر . والصملة : العصا . وقوله . «يثأروا» فى ش : «تثأروا» والرواية : «تثأرا» ليناسب قوله بعد : «فلا أرويتما» وفى الشعر :

ألا من مبلغ الحرين عنى مغلغلة وخص بها أبيا

والحران الحر وأخوه أبى وانظر اللسان (حرر) .

(7) يريد أنه مال إلى الكسرة فأتى بالياء التي هى مناسبة للكسرة .

الياء من المتكلّم فى كل حال ألا ترى أنك تقول : هذا غلامى فتحفض الميم فى كل جهات الإعراب فحطّوها إذا أضيفت إلى المتكلّم ولم يحطّوها عند غير الياء فى قولك : هذا غلامك وغلامه لأن (يا بشرى) من البشارة والإعراب يتبيّن عند كل مكنىّ إلّا عند الياء .

وقوله : (وَأَسَرُّوهُ بِضاعَةً) ذلك أن الساقي الذي التقطه قال للذين كانوا معه : إن سألكم أصحابكم عن هذا الغلام فقولوا : أبضعناه أهل الماء لنبيعه بمصر .

وقوله : (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ [20] قيل : عشرين . وإنما : قيل معدودة ليستدل به على القلّة لأنهم كانوا لا يزنون الدراهم حتى تبلغ أوقية ، والأوقية كانت وزن أربعين درهما .

وقوله : (وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) يقول : لم يعلموا منزلته من اللّه عزّ وجلّ .

وقوله : (وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ) [23] قرأها عبد اللّه بن مسعود وأصحابه حدثنا الفرّاء قال : حدثنى بن أبى يحيى عن أبي حبيب عن الشّعبىّ عن عبد اللّه ابن مسعود أنه قال : أقرأنى رسول اللّه صلّى عليه وسلم (هَيْتَ) ويقال : إنها لغة لأهل حوران سقطت إلى مكّة فتكلّموا بها . وأهل المدينة يقرءون هيت لك بكسر الهاء ولا يهمزون وذكر عن على بن

أبى طالب وابن عبّاس أنهما قرءا (هئت لك) يراد بها: تهيّأت لك وقد قال الشاعر:

أنّ العراق وأهله سلم عليك فهيت هيتا «1»

أي هلمّ.

وقوله: (إِنَّهُ رَبِّي) يعنى مولاه الذي اشتراه. يقول: قد أحسن إلىّ فلا أخونه.

وقوله: أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ [24] ذكروا أنه رأى صورة يعقوب عليه السلام.

---

(1) قبله.

أبلغ أمير المؤمنين أخا العراق إذا أتيتا وهو يريد عليا رضي اللّه عنه. ويروى «عنق» إليك أي ماثلون فى مكان (أسلم عليك) ويروى (إن العراق) بكسر النون. وانظر الخصائص 1/ 279.

(114/389)

وقوله: وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ [25] يعنى يوسف وامرأة العزيز وجدا العزيز وابن عم لامرأته على الباب، فقالت: (ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً) فقال: هى راودتنى عن «1» [نفسى فذكروا أن ابن عمّها قال: (إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ) فلمّا رأوا القميص

مقدودا من دبر قال ابن العمّ (إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) ثم إن ابن العمّ طلب إلى يوسف فقال : (أَعْرِضْ عَنْ هذا) أي اكتمه ، وقال للأخرى : (اسْتَغْفِرِي) زوجك (لِذَنْبِكِ) .

قوله : (وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها) [26] .

قال : حدّثنا الفرّاء قال : وحدّثنى قيس بن الربيع عن أبى حصين عن سعيد ابن جبير فى قوله :

(وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها) قال : صبىّ . قال : وحدّثنى قيس عن رجل عن مجاهد أنه رجل . قال :

وحدّثنى معلّي بن هلال عن أبى يحيى عن مجاهد فى قوله : (وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها) قال : حكم حاكم من أهلها .

ولو كان فى الكلام : (أن إن كان قميصه) لصلح لأن الشهادة تستقبل ب (أن) ولا يكتفى بالجزاء فإذا اكتفت فإنما ذهب بالشهادة إلى معنى القول كأنه قال : وقال قائل من أهلها ، كما قال : (يُوصِيكُمُ «2» اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ) فذهب بالوصية إلى القول ، وأنشدنى الكسائىّ :

وخبّرتما أن إنّما بين بيشة ونجران أحوى «3» والمحلّ قريب

---

(1) سقط ما بين القوسين فى ا

(2) الآية 11 سورة النساء .

(3) أحوى وصف من الحوة ، وهو سواد يضرب إلى الخضرة ويوصف به الشجر الأخضر والنبات الأخضر ، وكأنه يريد أن ما بين بيشة ونجران كثير الشجر والنبات .

(115/389)

(والجناب «1» خصيب) فأدخل (أن) على (إنما) وهى بمنزلتها قال : وسمعت الفرّاء قال : زعم القاسم بن معن أن بئشة وزئنة أرضان مهموزتان .

وقوله : قَدْ شَغَفَها حُبًّا [30] أي قد خرق شغاف «2» قلبها وتقرأ «3» (قد شعفها) بالعين وهو من قولك : شعف بها . كأنّه «4» ذهب بها كلّ مذهب . والشعف : رءوس الجبال .

وقوله : (وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً) يقال : اتخذت لهنّ مجلسا . ويقال : إنّ متكا غير مهموز ، فسمعت «5» أنه الأترجّ . وحدّثنى شيخ من ثقات أهل البصرة أنه قال : الزّماورد «6» .

وقوله : وقطّعن أيديهنّ يقول : وخدشنها ولم يبنّ أيديهن ، من إعظامه ، وذلك قوله : (حاشَ لِلَّهِ) أعظمته أن يكون بشرا ، وقلن : هذا ملك . وفى قراءة «7» عبد اللّه (حاشا

للّه) بالألف ، وهو فى معنى معاذ اللّه .

وقوله : (ما هذا بَشَراً) نصبت (بشَرا) لأن الباء قد استعملت فيه فلا يكاد أهل الحجاز ينطقون إلا بالباء ، فلمّا حذفوها أحبّوا أن يكون لها أثر فيما خرجت منه فنصبوا على ذلك ألا ترى أن كلّ ما فى القرآن أتى بالباء إلّا هذا ، وقوله : (ما هُنَّ «8» أُمَّهاتِهِمْ) وأما أهل نجد فيتكلّمون بالباء وغير الباء فإذا أسقطوها رفعوا . وهو أقوى الوجهين فى العربية . أنشدنى بعضهم :

لشتّان ما أنوى وينوى بنو أبى جميعا فما هذان مستويان

---

(1) هذه رواية أخرى فى تمام البيت فى مكان «والمحل قريب» .

(2) شغاف القلب غلافه .

(3) ش : «يقرأ» وهى قراءة الحسن وابن محيصن .

(4) هذا تفسير لقراءة العين فى الآية .

(5) ا : «وسمعت» .

(6) هو طعام يتخذ من البيض واللحم .

(7) قرأ أبو عمرو بالألف فى الوصل .

(8) الآية 2 سورة المجادلة . [. . . . .]

تمنّوا لى الموت الذي يشعب الفتى وكلّ فتى والموت يلتقيان «1»

وأنشدونى :

ركاب حسيل أشهر الصيف بدّن وناقة عمرو ما يحلّ لها رحل

ويزعم حسل أنه فرع قومه وما أنت فرع يا حسيل ولا أصل «2»

وقال الفرزدق :

أما نحن راءو دارها بعد هذه يد الدهر إلاأنّ يمرّ بها سفر «3»

وإذا قدّمت الفعل قبل الاسم رفعت الفعل واسمه فقلت : ما سامع هذا وما قائم أخوك .

وذلك أن الباء لم تستعمل هاهنا ولم تدخل ألا ترى أنه قبيح أن تقول : ما بقائم أخوك لأنها إنما تقع فى المنفىّ إذا سبق الاسم ، فلمّا لم يمكن فى (ما) ضمير الاسم قبح دخول الباء .

وحسن ذلك فى (ليس) :

أن تقول : ليس بقائم أخوك لأنّ (ليس) فعل يقبل المضمر ، كقولك : لست ولسنا ولم يمكن ذلك فى (ما) .

فإن قلت : فإنى أراه لا يمكن فى (لا) وقد أدخلت العرب الباء فى الفعل التي تليها «4»

فقالوا «5» :

لا بالحصور ولا فيها بسوّار

قلت : إن (لا) أشبه بليس من (ما) ألا ترى أنك تقول : عبد اللّه لا قائم ولا قاعد ، كما تقول :

عبد اللّه ليس قاعدا ولا قائما ، ولا يجوز عبد اللّه ما قائم ولا قاعد فافترقتا هاهنا .

---

(1) ورد هذا البيت الثاني فى شواهد النحو فى مبحث المبتدأ ، ونسبه العيني إلى الفرزدق . ويشعب : يفرق .

(2) فرع القوم : الشريف فيهم .

(3) من قصيدة له في مدح بنى ضبة . وانظر ديوانه 315 : وقوله : «بها» فى ا : «لها» والسفر : المسافرون ويد الدهر : طول الدهر .

(4) أراد بالفعل الكلمة فأنث اسم الموصول لها . وأراد بالفعل هنا الوصف وفى ب : «الفعل يليها»

(5) الشطر من بيت تقدم للأخطل . ونسبه إلى العرب لما سمعهم ينشدونه هكذا ويقرونه

ولو حملت الباء على (ما) إذا وليها الفعل تتوهّم فيها ما توهّمت فى (لا) لكان وجها ، أنشدتنى امرأة من غنىّ :

أما واللّه أن لو كنت حرّا وما بالحرّ أنت ولا العتيق «1»

فأدخلت الباء فيما يلى (ما) فإن ألقيتها رفعت ولم يقو النصب لقلّة هذا . قال : وحدّثنا الفرّاء قال : وحدّثنى دعامة بن رجاء التّيمىّ - وكان غرّا - عن أبى الحويرث الحنفىّ أنه قال : (ما هذا بشرى) أي ما هذا بمشترى .

وقوله : رَبِّ السِّجْنُ

[33] السّجن : المحبس . وهو كالفعل . وكل موضع مشتقّ من فعل فهو يقوم مقام الفعل كما قالت العرب : طلعت الشمس مطلعا وغربت الشمس مغربا ، فجعلوهما خلفا من المصدر وهما اسمان ، كذلك السّجن . ولو فتحت السين لكان مصدرا بينا . وقد قرىء : (ربّ السّجن) .

وقوله : فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ [34] ولم تكن منه مسألة إنما قال : (إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ) فجعله اللّه دعاء لأن فيه معنى الدعاء ، فلذلك قال : (فاستجاب له) ومثله فى الكلام أن تقول لعبدك : إلّا تطع تعاقب ، فيقول : إذا أطيعك كأنك قلت له : أطع فأجابك .

وقوله : ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ [35] آيات البراءة قدّ القميص من دبر (لَيَسْجُنُنَّهُ

حَتَّى حِينٍ) فهذه اللام فى اليمين وفى كل ما ضارع القول. وقد ذكرناه. ألا ترى قوله:
(وَظَنُّوا «2» ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ) (وَلَقَدْ «3» عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ) دخلت هذه اللام
و(ما) مع الظنّ (والعلم) لأنهما فى معنى القول واليمين.

---

(1) انظر الخزانة 2/ 133.

(2) الآية 48 سورة فصلت.

(3) الآية 102 سورة البقرة.

(118/389)

وقوله: إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [36] يقول: من العالمين قد أحسنت العلم. حدّثنا الفراء
قال:
حدّثنا ابن «1» الغسيل الأنصارىّ عن عكرمة قال: الحين حينان: حين لا يدرك وهو
قوله عزّ وجلّ:
(هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ) (قال «2» الفرّاء فهذا يقلّ ويكثّر) ليست له غاية.
قال عكرمة: وحين يدرك وهو قوله: (تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ) يعنى ستّة أشهر.
وقوله: (إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ) [37] يقول: بسببه وألوانه. وقوله: (وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ

كافِرُونَ) العرب لا تجمع اسمين قد كنى عنهما ليس بينهما شىء إلّا أن ينووا التكرير وإفهام المكلّم فإذا أرادوا ذلك قالوا : أنت أنت فعلت ، وهو هو أخذها . ولا يجوز أن نجعل الآخرة توكيدا للأولى ، لأن لفظهما واحد . ولكنهم إذا وصلوا الأوّل بناصب أو خافض أو رافع أدخلوا له اسمه فكان توكيدا . أمّا المنصوب فقولك : ضربتك أنت ، والمخفوض : مررت بك أنت ، والمرفوع :

قمت أنت . وإنما فعلوا ذلك لأن الأوّل قلّ واختلف لفظه ، فأدخلوا اسمه المبتدأ . فإذا قالوا : أنت فينا أنت راغب ففرقوا بينهما بصفة «3» قالوا ذلك ، وكأنه فى مذهبه بمنزلة قوله : (كُتِبَ «4» عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ) كأنّ الأوّل ملغى والاتّكاء والخبر عن الثاني . وكذلك قوله :

(أَيَعِدُكُمْ «5» أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ) ثم قال : (أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ) وهما جميعا فى معنى واحد ، إلا أن ذلك جاز حين فرق بينهما بإذا . ومثله : (وَهُمْ «6» بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) .

وقوله : (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي) [38] تهمز وتثبت فيها الياء . وأصحابنا يروون عن الأعمش

---

(1) فى الأصول : «العسيل» والظاهر ما أثبت . والغسيل حنظلة بن أبى عامر الأنصاري ، وأولاده ينسبون اليه .

وانظر التاج فى غسل .

(2) ما بين القوسين كتب فى ا بعد قوله . «ستة أشهر» .

(3) يريد الجار والمجرور : (فينا) .

(4) الآية 4 سورة الحج .

(5) الآية 35 سورة المؤمنين .

(6) الآية 4 سورة لقمان . [. . . . . .]

(119/389)

(ملّة آباي إبراهيم) و(دعاى «1» إلّا فرارا) بنصب الياء لأنه يترك الهمز ويقصر الممدود فيصير بمنزلة محياى وهداى .

وقوله : (قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ [41]) ذكروا أنه لمّا عبّر لهما الرؤيا فقال للآخر : تصلب رجعا عن الرؤيا ، فقالا : لم نر شيئا فقال يوسف : (قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ) .

وقوله : (فَأَنْساهُ [42] الشَّيْطانُ) .

يقول : أنسى الشيطان يوسف أن يجعل ذكره ومستغاثه إلى اللّه . ويقال : أنسى الشيطان الساقي أن يذكر أمر يوسف .

وقوله : (ذِكْرَ رَبِّهِ) يقول : ذكر يوسف لمولاه .

وقوله : (فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) ذكروا أنه لبث سبعا بعد خمس والبضع ما دون العشرة .

وقوله : (إِنِّي أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ) [43] هو من كلام العرب : أن يقول الرجل : إنى أخرج إلى مكّة وغير ذلك ، فعلم أنّه للنوم ولو أراد الخبر لقال : إنى أفعل إنى أقوم فيستدلّ على أنها رؤيا «2» لقوله : أرى ، وإن لم يذكر نوما . وقد بيّنها إبراهيم عليه السلام فقال : إنّى «3» أرى في المنام أنّى أذبحك) وقوله : أَضْغاثُ أَحْلامٍ [44] رفع ، لأنهم أرادوا : ليس هذه بشى إنما هى أضغاث أحلام «4» .

وهو كقوله : (ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ «5») كفروا فقالوا : لم ينزل شيئا ، إنما هى

---

(1) الآية 6 سورة نوح (1)

(2) كذا . والأولى : «بقوله» .

(3) الآية 102 سورة الصافات .

(4) سقط فى ا .

(5) الآية 24 سورة النحل .

أساطير الأولين. ولو كان (أضغاث أحلام) أي أنك «1» رأيت أضغاث أحلام كان صوابا.

وقوله: وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ [45] الأمة: الحين من الدهر. وقد ذكر عن بعضهم «2» (بعد أمه) وهو النسيان. يقال رجل مأموه كأنه الذي ليس معه عقله وقد أمه الرجل.

وقوله: وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ [46] لو كان الخضر منصوبة تجعل نعتا للسّبع حسن ذلك. وهى إذ خفضت نعت للسنبلات. وقال اللّه عزّ وجلّ: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ «3» خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً) ولو كانت (طباق) كان صوابا وقوله: دَأَباً [47] وقرأ بعض «4» قرّائنا (سبع سنين دأبا): فعلا. وكذلك كل حرف فتح أوّله وسكّن ثانيه فتثقيله جائز إذا كان ثانيه همزة أو عينا أو غينا أو حاء أو خاء أو هاء.

وقوله: يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ [48] يقول ما تقدّمتم فيه لهنّ من الزرع.

وقوله: ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ: [52] قال ذلك يوسف لما رجع إليه الساقي فأخبره «5» ببراءة النسوة إيّاه. فقال يوسف (ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) وهو متّصل بقول امرأته (الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذلِكَ) وربّما

وصل الكلام بالكلام ، حتى كأنه قول واحد وهو كلام اثنين ، فهذا من ذلك . وقوله (مِنْ أَرْضِكُمْ «6» بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ) اتّصل قول فرعون بقول الملأ : وكذلك قوله (إِنَّ «7» الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا

---

(1) ش : «كأتك» .

(2) هو الحسن كما فى الإتحاف .

(3) الآية 15 سورة نوح.

(4) هو حفص .

(5) كذا . والمناسب : «بتبرئة»

(6) الآية 35 سورة الشعراء . يريد الفراء ، أن قوله «يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره» من كلام فرعون ، وقوله : «فَما ذا تَأْمُرُونَ» من خطاب الملأ لفرعون . ويرى جمهور المفسرين أن الكل من كلام فرعون ، وأنه غشيه الدهش حتى استأمر رعيته ونسى مكانه فيما يزعم فى الألوهية .

(7) الآية 34 سورة النمل .

قَرْيَةً أَفْسَدُوها) إلى قوله (وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ) انقطع كلامها عند قوله (أَذِلَّةً) ثم قال عزّ وجلّ (وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ) ويقال : إنه من قول سليمان عليه السّلام .

وقوله : قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ [51] لمّا دعا النسوة فبرّأته قالت : لم يبق إلا أن يقبل علىّ بالتقرير فأقرّت ، فذلك قوله : (حَصْحَصَ الْحَقُّ) يقول : ضاق الكذب وتبيّن الحقّ .

وقوله : إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي [53] (ما) فى موضع نصب . وهو استثناء منقطع ممّا قبله : ومثله (إِلَّا حاجَةً «1» فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها) ومثله فى سورة يس (فَلا صَرِيخَ «2» لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا) إنما هو - والله أعلم - إلا أن يرحموا . و(أن) تضارع (ما) إذا كانتا فى معنى مصدر .

وقوله : وَلا تَقْرَبُونِ [60] فى موضع جزم ، والنون فى موضع نصب حذفت ياؤها . ولو جعلتها رفعا فنصبت النون كان صوابا على معنى قوله ولستم تقربون بعد هذه كقوله (فَبِمَ «3» تُبَشِّرُونَ) و(الَّذِينَ «4» كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ) .

وقوله : وَقالَ لِفِتْيانِهِ [62] و(لفتيته) قراءتان «5» مستفيضتان .

وقوله : (لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا) قيل فيها قولان : أحدهما أن يوسف خاف ألّا يكون عند أبيه دراهم ، فجعل البضاعة فى رحالهم ليرجعوا . وقيل إنهم إن عرفوا أنّها بضاعتهم وقد اكتالوا ردّوها على يوسف ولم يستحلّوا إمساكها .

---

(1) الآية 68 سورة يوسف.

(2) الآيتان 43، 44. [.....]

(3) الآية 54 سورة الحجر.

(4) الآية 27 سورة النحل.

(5) القراءة الأولى لحفص وحمزة والكسائي وخلف. والثانية لغيرهم، كما فى الاتحاف.

قوله: فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ [63] قرأ أصحاب «1» عبد اللّه (يكتل) وسائر الناس (نَكْتَلْ) كلاهما صواب من قال (نَكْتَلْ) جعله معهم فى الكيل. ومن قال (يكتل) يصيبه كيل لنفسه فجعل الفعل له خاصّة لأنهم يزادون به كيل بعير.

[قوله]: فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً «2» [64] و(حفظا «3» وهى فى قراءة عبد اللّه (واللّه خير الحافظين) وهذا شاهد للوجهين جميعا. وذلك أنك «4» إذا أضفت أفضل إلى شىء فهو بعضه، وحذف المخفوض يجوز وأنت تنويه. فإن شئت جعلته خيرهم حفظا فحذفت الهاء والميم وهى تنوى فى المعنى وإن شئت جعلت (حافِظاً) تفسيرا لأفضل. وهو كقولك: لك أفضلهم رجلا ثم تلغى الهاء والميم فتقول لك أفضل رجلا وخير رجلا.

والعرب : تقول لك أفضلها كبشا ، وإنما هو تفسير الأفضل .

حدّثنا الفراء قال حدّثنا أبو ليلى السجستانىّ عن أبى حريز «5» قاضى سجستان أن ابن مسعود قرأ (فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً «6» وقد أعلمتك أنها مكتوبة فى مصحف عبد اللّه (خير الحافظين) وكان هذا - يعنى أبا ليلى - معروفا بالخير . وحدّثنا بهذا الإسناد عن عبد اللّه أنه قرأ (فلا أقسم «7» بموقع النّجوم) (وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ) «8» يقولون : مؤدون فى السلاح آدى يؤدى .

وقوله : يا أَبانا ما نَبْغِي [65] كقولك فى الكلام ماذا تبغى ؟ ثم قال (هذِهِ بِضاعَتُنا) كأنهم طيّبوا بنفسه «9» . و(ما) استفهام فى موضع نصب . ويكون معناها جحدا كأنهم قالوا :

لسنا نريد منك دراهم . واللّه أعلم بصواب ذلك .

---

(1) وهى قراءة حمزة والكسائي وخلف .

(2) القراءة الأولى لحفص وحمزة والكسائي وخلف . والأخرى للباقين . لأ

(3) القراءة الأولى لحفص وحمزة والكسائي وخلف . والأخرى للباقين . لأ

(4) سقط فى ا .

(5) ش : «جرير» .

(6) ش : «حفظا» .

(7) الآية 75 سورة الواقعة. وهى قراءة حمزة والكسائي وخلف.

(8) الآية 56 سورة الشعراء. وهى قراءة عاصم وحمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان وهشام.

(9) كذا. وكأن الباء زائدة.

(123/389)

وقوله: إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ [66] يقول: إلّا أن يأتيكم من اللّه ما يعذركم.

وقوله: يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ [67] يقول: لا تدخلوا مصر من طريق واحد. كانوا صباحا تأخذهم العين.

[وقوله]: وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ [68] يقول: إنه لذو علم لتعليمنا إيّاه ويقال: إنه لذو حفظ «1» لما علمناه.

وقوله: فَلا تَبْتَئِسْ [69] معناه: لا تستكن من الحزن والبؤس. يقول: لا تحزن.

وقوله: فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ [70] «2» جواب وربّما أدخلت العرب فى مثلها الواو وهى جواب على «3» حالها كقوله فى أول السورة (فَلَمَّا «4» ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ) والمعنى - واللّه أعلم -: أوحينا

إليه. وهى فى قراءة عبد اللّه (فلمّا جهّزهم بجهازهم وجعل السّقاية) ومثله فى الكلام:

لّما أتانى وأثب عليه كأنه قال: وثبت عليه.

وربما أدخلت العرب فى جواب لما لكن. فيقول الرجل: لّما شتمنى لكن أثب عليه، فكأنه استأنف الكلام استئنافا، وتوهّم أنّ ما قبله فيه جوابه. وقد جاء (الشعر «5» فى كل ذلك) قال امرؤ القيس:

فلمّا أجزنا ساحة الحىّ وانتحى بنا بطن خبت ذى قفاف عقنقل «6»

---

(1) ا: «حظ».

(2) فى الأصول: «جوابا» ولا وجه للنصب. [.....]

(3) ش: «فى».

(4) الآية 10.

(5) كذا. والأنسب: «فى الشعر كل ذلك».

(6) البيت من معلقته. «انتحى»: اعترض. والخبت: المتسع من بطون الأرض. والقفاف جمع قف وهو ما ارتفع من الأرض. والعقنقل: المنعقد المتداخل.

وقال الآخر :

حتّي إذا قملت بطونكم ورأيتم أبناءكم شبّوا

وقلبتم ظهر المجنّ لنا إنّ اللئيم العاجز الخبّ «1»

قملت : سمنت وكبرت .

قوله : قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ [72] .

وقوله : الصّواع ذكر . وهو الإناء الذي كان الملك يشرب فيه . والصاع يؤنّث ويذكّر . فمن أنّثه قال : ثلاث أصوع مثل ثلاث أدؤر . ومن ذكّره قال : ثلاثة أصواع مثل أبواب . وقوله (وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) يقول : كفيل . وزعيم القوم سيّدهم .

وقوله : تَاللَّهِ [73] العرب لا تقول تالرحمن ولا يجعلون مكان الواو تاء إلّا فى اللّه عزّ وجلّ . وذلك أنها أكثر الأيمان مجرى فى الكلام فتوهّموا أنّ الواو منها لكثرتها فى الكلام ، وأبدلوها تاء كما قالوا : التّراث ، وهو من ورث ، وكما قال : (رُسُلَنا «2» تَتْرا) وهى من المواترة ، وكما قالوا :

التّخمة وهى من الوخامة ، والتّجاه وهى من واجهك . وقوله (لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ) يقول القائل : وكيف علموا أنهم لم يأتوا للفساد ولا للسرقة ؟ فذكر أنهم كانوا فى طريقهم لا ينزلون بأحد ظلما ، ولا ينزلون فى بساتين الناس فيفسدوها فذلك قوله (ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَما كُنَّا سارِقِينَ) يقول : لو كنّا سارقين ما رددنا عليكم البضاعة التي وجدناها

فى رحالنا .

وقوله : قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ [75] (من) فى معنى جزاء وموضعها رفع بالهاء التي عادت . وجواب الجزاء الفاء فى قوله : (فَهُوَ جَزاؤُهُ) ويكون قوله (جَزاؤُهُ) الثانية

---

(1) المجن : الترس ، ويقال : قلب له ظهر المجن إذا كان وودا له ثم تغير عن مودته . والخب : الخداع . وانظر الخزانة 4/ 414 .

(2) الآية 44 سورة المؤمنين .

(125/389)

مرتفعة بالمعنى المحمّل فى الجزاء وجوابه . ومثله فى الكلام أن تقول : ما ذا لى عندك ؟ فيقول : لك عندى إن بشّرتنى فلك ألف درهم ، كأنه قال : لك عندى هذا . وإن شئت جعلت (من) فى مذهب (الذي) وتدخل الفاء فى خبر (من) إذا كانت على معنى (الذي) كما تقول : الذي يقوم فإنّا نقوم معه . وإن شئت جعلت الجزاء مرفوعا بمن خاصّة وصلتها ، كأنك قلت : جزاؤه الموجود فى رحله . كأنك قلت : ثوابه أن يسترقّ ، ثم تستأنف أيضا فتقول : هو جزاؤه . وكانت سنّتهم أن يسترقّوا من سرق .

ثم قال: ثُمَّ اسْتَخْرَجَها [76] ذهب إلى تأنيث السّرقة. وإن يكن الصّواع فى معنى الصّاع فلعلّ هذا التّأنيث من ذلك. وإن شئت جعلته لتأنيث السّقاية.

وقوله (نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ) (من) فى موضع نصب، أي نرفع من نشاء درجات. يقول: نفضّل من نشاء بالدرجات. ومن «1» قال (نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ) فيكون (من) فى موضع خفض.

وقوله (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) يقول: ليس من عالم إلّا وفوقه أعلم منه.

وقوله: (فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ) [77] أسرّ الكلمة. ولو قال: (فأسرّه) ذهب إلى تذكير الكلام كان صوابا كقوله (تِلْكَ «2» مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ) و(ذلِكَ «3» مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ) (وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ): أضمرها فى نفسه ولم يظهرها.

وقوله: مَعاذَ اللَّهِ [79] نصب لأنه مصدر، وكل مصدر تكلّمت العرب فى معناه بفعل أو يفعل فالنصب فيه جائز. ومن ذلك الحمد لله لأنك قد تقول فى موضعه يحمد اللّه. وكذلك أعوذ باللّه تصلح فى معنى معاذ اللّه.

---

(1) هم غير عاصم وحمزة والكسائي وخلف.

(2) الآية 49 سورة هود.

(3) الآية 44 سورة آل عمران

وقوله : خَلَصُوا نَجِيًّا [80] و[نجوى] قال اللّه عزّ وجلّ (ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ) وقوله : (قالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ)

(ما) التي مع (فرّطتم) فى موضع رفع كأنه قال : ومن قبل هذا تفريطكم فى يوسف.

فإن «1» شئت جعلتها نصبا ، أي ألم تعلموا هذا وتعلموا من قبل تفريطكم فى يوسف.

وإن شئت جعلت (ما) صلة كأنه قال «2» : ومن قبل فرّطتم فى يوسف.

وقوله : إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ [81] ويقرأ (سرّق) ولا أشتهيها لأنها شاذّة. وكأنه ذهب إلى أنه لا يستحلّ أن يسرّق ولم يسرق : وذكر أن ميمون بن مهران لقى رجاء بن حيوة بمكّة ، وكان رجاء يقول : لا يصلح الكذب فى جد ولا هزل. وكان ميمون يقول : ربّ كذبة هى خير من صدق كثير. قال فقال ميمون لرجاء : من كان زميلك؟ قال : رجل من قيس. قال : فلو أنك إذ مررت بالبشر «3» قالت لك تغلب : أنت الغاية فى الصدق فمن زميلك هذا؟ فإن كان من قيس قتلناه ، فقد علمت ما قتلت قيس منّا ، أكنت تقول : من قيس أم من غير قيس؟ قال : بل من غير قيس. قال : فهى كانت أفضل أم الصدق؟ قال الفراء : قد جعل اللّه عزّ وجلّ للأنبياء من المكايد ما هو أكثر من هذا. واللّه أعلم بتأويل ذلك.

وقوله : وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ يقول : لم نكن نحفظ غيب ابنك ولا ندرى ما يصنع إذا غاب عنا . ويقال : لو علمنا أن هذا يكون لم نخرجه معنا .

وقوله : أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ [83] الصبر الجميل مرفوع لأنه عزّى نفسه وقال : ما هو إلا الصبر ، ولو أمرهم بالصبر لكان النصب أسهل ، كما قال الشاعر :

---

(1) كذا . والأولى : «وإن» .

(2) سقط فى ا .

(3) البشر : جبل من منازل تغلب . وبين تغلب وقيس حروب وغارات .

يشكو إلىّ جملى طول السّرى صبرا جميلا فكلانا مبتلى «1»

وقوله : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) يقول : لا شكوى فيه إلّا إلى اللّه جلّ وعزّ .

قالو : تَاللَّهِ تَفْتَؤُا : [85] معناه لا تزال تذكر يوسف و(لا) قد تضمر مع الأيمان لأنها إذا كانت خبرا لا يضمر فيها (لا) لم تكن إلا بلام ألا ترى أنك تقول : واللّه لآتينّك ، ولا يجوز أن تقول : واللّه آتيك إلّا أن تكون تريد (لا) فلمّا تبيّن موضعها وقد فارقت الخبر أضمرت ، قال امرؤ القيس :

فقلت يمين اللّه أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى «2»

وأنشدنى بعضهم :

فلا وأبى دهماء زالت عزيزة على قومها ما فتّل الزّند قادح

يريد : لا زالت. وقوله : (حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً)] يقال : رجل حرض وامرأة حرض وقوم حرض ، يكون موحّدا على كلّ حال : الذكر والأنثى ، والجميع فيه سواء ، ومن العرب من يقول للذكر : حارض ، وللأنثى حارضة ، فيثّنى هاهنا ويجمع لأنه قد خرج على صورة فاعل وفاعل «3» يجمع. والحارض : الفاسد فى جسمه أو عقله. ويقال للرجل : إنه لحارض أي أحمق.

والفاسد فى عقله أيضا. وأمّا حرض فترك جمعه لأنه مصدر بمنزلة دنف وضنى «4».

والعرب تقول :

قوم دنف ، وضنى وعدل ، ورضا ، وزور ، وعود ، وضيف. ولو ثنّى وجمع لكان صوابا كما قالوا : ضيف وأضياف. وقال عزّ وجلّ (أَنُؤْمِنُ «5» لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا) وقال فى موضع آخر :

(ما أَنْتُمْ «6» إِلَّا بَشَرٌ) والعرب إلى التثنية أسرع منهم إلى جمعه لأن الواحد قد يكون فى معنى

(1) ورد فى كتاب سيبويه 1/ 162.

(2) من قصيدة له فى الديوان 32 . [. . . . .]

(3) ا : «الفاعل» .

(4) الضنى فى الأصل المرض المخامر كلما ظن برؤه نكس .

(5) الآية 47 سورة المؤمنين .

(6) الآية 15 سورة يس .

(128/389)

الجمع ولا يكون فى معنى اثنين ألا ترى أنك تقول : كم عندك من درهم ومن دراهم ، ولا يجوز :

كم عندك من درهمين . فلذلك كثرت التثنية ولم يجمع .

وقوله : وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ [88] ذكروا أنهم قدموا مصر ببضاعة ، فباعوها بدراهم لا تنفق فى الطعام إلّا بغير سعر الجياد ، فسألوا يوسف أن يأخذها منهم ولا ينقصهم .

فذلك قوله :

(فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا) بفضل ما بين السّعرين .

وقوله : يَأْتِ بَصِيراً [93] أي يرجع بصيرا .

وقوله : لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ [94] يقول : تكذبون وتعجّزون وتضعفون .

وقوله : سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي [98] قال : حدّثنا الفراء «1» (عن) شريك عن السّدّىّ فى هذه الآية أخّرهم «2» إلى السّحر (قال أبو زكريا «3» وزادنا حبّان عن الكلبىّ عن أبى صالح عن ابن عبّاس قال : أخّرهم إلى السحر) ليلة الجمعة .

وقوله : وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ [105] فآيات السّموات الشمس والقمر والنجوم . وآيات الأرض الجبال والأنهار وأشباه ذلك .

وقوله : وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ [106] يقول : إذا سألتهم من خلقكم ؟ قالوا : اللّه ، أو من رزقكم ؟ قالوا : اللّه ، وهم يشركون به فيعبدون الأصنام . فذلك قوله : (وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) .

وقوله : أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي [108] يقول : أنا ومن اتبعنى ، فهو يدعو على بصيرة كما أدعو .

وقوله : وَلَدارُ الْآخِرَةِ [109] أضيفت الدار إلى الآخرة وهى الآخرة وقد تضيف العرب الشيء

---

(1) ا : «قال حدثنى» .

(2) أي أخر الاستغفار لهم .

(3) سقط ما بين القوسين فى ا .

إلى نفسه إذا اختلف لفظه كقوله (إِنَّ «1» هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ) والحقّ هو اليقين. ومثله أتيتك بارحة الأولى، وعام الأوّل وليلة الأولى ويوم الخميس. وجميع الأيام تضاف إلى أنفسها لاختلاف لفظها. وكذلك شهر ربيع. والعرب تقول فى كلامها - أنشدنى بعضهم :-

أتمدح فقعسا وتذمّ عبسا ألا للّه أمّك من هجين «2»

ولو أقوت «3» عليك ديار عبس عرفت الذلّ عرفان اليقين

وإنما معناه عرفانا ويقينا.

وقوله: حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا [110].

خفيف. وقرأها أهل المدينة بالتثقيل، وقرأها ابن عباس بالتخفيف، وفسّرها: حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يؤمنوا، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوا جاءهم نصرنا. وحكيت عن عبد اللّه (كذّبوا) مشدّدة وقوله: (فنجى من نشاء) القراءة بنونين «4» والكتاب أتى بنون واحدة. وقد قرأ عاصم (فنجّى من نشاء) فجعلها نونا، كأنه كره زيادة نون ف (من) حينئذ فى موضع رفع. وأما الذين قرءوا بنونين فإن النون الثانية، تخفى ولا

تخرج من موضع الأولى ، فلمّا خفيت حذفت ، ألا ترى أنك لا تقول فننجى بالبيا ن . فلمّا خفيت الثانية حذفت واكتفى بالنون الأولى منها ، كما يكتفى بالحرف من الحرفين فيدغم ويكون كتابهما واحدا .

وقوله : ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ تَصْدِيقَ [111] منصوب ، يراد به : ولكن كان تصديق ما بين يديه من الكتب : التوراة والإنجيل . ولو رفعت التصديق كان صوابا كما تقول : ما كان

---

(1) الآية 95 سورة الواقعة .

(2) الهجين : عربى ولد من أمة أو من أبوه خير من أمه .

(3) أقوت : أقفرت وخلت .

(4) قرأ «فتنجى» غير ابن عامر وعاصم ويعقوب . أما هؤلاء فقد قرءوا : «فنجى» على صيغة المبنى للمفعول من نجى .

هذا قائما ولكن قاعدا وقاعد . وكذلك قوله : (ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلكِنْ رَسُولَ اللَّهِ) و(رَسُولَ اللَّهِ) فمن رفع لم يضمر كان أراد : ولكن هو رسول اللّه . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 31 . 57﴾

(131/389)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة يوسف عليه السلام

(نحن نقص عليك أحسن القصص) [3] نبين لك أحسن البيان . (بما أوحينا) أي: بإيحائنا . (يا أبت) [4] أي: يا أبي ، فحذفت ياء الإضافة . وهذه التاء للمبالغة ، كالعلامة ، والنسابة . أو للتفخيم كيوم القيامة ، أو منقلبة عن الواو المحذوفة التي [هي] لام الفعل ، مثل "كلتا" فإن أصلها "كلوا" . وإنما أعاد (رأيتهم) لأنها رؤية سجودهم له ، والأولى رؤيته لهم .

والسجود : الخضوع ، كما مر في غير موضع ، ولما كان السجود من أفعال ذوي العقل ، جاء ساجدين فيمن لا يعقل اعتباراً لصنعة الفعل ، كقوله: (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) .

قال الجعدي: 554- [توردتها] والديك يدعو صباحه إذا ما [بنو] نعش دنو فتصوبوا .

(فلما ذهبوا به) [15] جوابه [محذوف]. (قال بل سولت لكم) [18] أي: زينت لكم.

وقيل: أمرت. (غيابت الجب) [15] أسفل البئر، حيث [يغيب] عن الأبصار. (فأدلى دلوه) [19] أرسلها ليملأها. ودلاها: أخرجها. قال ابن هرمة: 555- ولم تريني إلا أخاملك أدلي إليه دلوي فيملؤها

556- سهل المحيا تلفى مواعده مثل وحي السلام يقرؤها (يا بشراي) أضاف البشرى إلى نفسه كقوله: يا فرحتي، ويا دولتي. وموضع الألف فتح، لأن المنادى المضاف منصوب. (وأسروه بضعة) [19] أي: الواردون أولاً أخفوه بضاعة، لئلا يشاركهم فيه باقي الأصحاب. وروي أن إخوته جاؤوا إلى البئر، ليبحثوا عن حاله، فإذا هم به قد أخرجوه الواردون، فقالوا: إنه عبدنا وبضاعتنا.

ثم شروه منهم، أي: باعوه. قال [السنبسي]: 557- فإن [تبغضونا] بغضة في صدوركم فإنا جدعنا منكم وشرينا. أي: سبيناكم فبعناكم. (بثمن بخس) [20] ظلم، عن قتادة.

وقليل، عن مجاهد. (وكانوا فيه من الزاهدين) [لعلمهم] بظلمهم، وحرمة ما أخذوا عليهم. (وكذلك يجتبيك) [6] أي: هذه السبيل [التي] يصفها يجتبيك، ويعلمك التأويل، وهو عاقبة أمره، وما يصير إليه من العز بعد العبودة والوحدة.

وأول الأشد: أوان الحلم، وتمامه: أربعون سنة، وآخره: خمسون. كما قال سحيم الوائلي: 558- وماذا يدري الشعراء مني وقد جاوزت رأس الأربعين 559- أخو خمسين مجتمعاً أشدي ونجذني مداورة الشؤون

(وراودته) [23] طلبته بجد وميل، من الإرادة وإنما جاءت على المفاعلة، لأنها في موضع يكون من طماع صاحبه داعية إلى الإجابة. كما قال ابن أحمر: 560- إذا أنت راودت البخيل رددته إلى البخل واستمطرت غير مطير 561- متى تطلب المعروف في غير أهله تجد مطلب المعروف غير [يسير] وقال الهذلي: 562- أجارتنا هل ليل ذي البث راقد أم الليل مني مانع ما أراود. (هيت لك) [23]

هلم لك، أي: انزل إلى ما أريد. قال الشاعر: 563- أبلغ أمير المؤمنين أخا العراق إذا أتيتا 564- إن العراق وأهله عنق إليك فهيت هيتا. وهذه الكلمة وأمثالها نحو: هلا، وحوب، ودعدع، وإيه، وصه، ومه، كلها يجري مجرى الحروف والأصوات، لا يغير بتثنية وجمع، وأكثرها للزجر أو الحث، كما قال أبو دهبل الجمحي:

565- عجب ما عجب أعجبني من غلام حكمي أصلا 566- قلت: خبر عن الناس نزلوا حضناً أو غيره قال هلا 567- قلت: بين ما هلا؟ هل نزلوا قال حوباً ثم ولى عجلا.

(ولقد همت به) [24] تقديره: ولولا أن رأى برهان ربه هم بها، بدلالة إخبار الله بصرف

السوء والفحشاء عنه، وبدلالة أن قوله: (لولا أن رءا برهان ربه) شرط، فلا يجعل الكلام مطلقاً، والشرط حاصل، وكثيراً ما يتقدم الجواب على الشرط، كما قال الشاعر:

568- ولا [يدعني] قومي صريحاً لحرة لئن كنت مقتولاً ويسلم عامر. [وقال]: فلا [يدعني] قومي صريحاً لحرة لئن لم أعجل طعنة أو أعجل.

(133/389)

وقيل: همه بها من قبل الشهوة التي جبل الإنسان عليها إلا بعلة، ومقدار الثواب على قمعها، في وزن قوتها وغلبتها. ومثل هذا الهم لا يكون من المغرم والإثم في شيء. وهو كما حكي في أخبار الأوائل: أن بعض [أصحاب] الفراسة قال لبقراط الحكيم: أنا أتخيل فيك الزنا، فقال: صدقت مخيلتك، أنا أشتهيه، ولكني/لا أفعله.

وقيل لبعض الصوفية، في الصبي، فقال: ما على لص لم يسرق. وعن سليمان بن [يسار]، أن بعض نساء [ال]مدينة من صميم شرفها وحسنات دهرها علقت[ـه] لحسنه الباهر، ودخلت عليه من كل مدخل،

ففر من المدينة، ورأى يوسف في المنام، فقال له: أنت الذي هممت. فقال له يوسف: وأنت الذي لم تهم. فدل أن الهم كان من يوسف، ولكن على الوجه الذي ذكره.

(قد شغفها حباً) [30] بلغ حبه شغاف قلبها، كما يقال: رأسه ودمغه، والشغاف: غلاف القلب، جلدة بيضاء رقيقة تحتوي على القلب. وقال أبو عمرو الشيباني: الشغاف: داء تحت [الشراسيف]. أي: أصابها من حبه ما يصيب الشغاف. قال النابغة: 570- ولكن هماً دون ذلك والج مكان الشغاف تبتغيه الأصابع.

وقال امرؤ القيس وهو على لفظ الآية: 571- لتقتلني وقد شغفت فؤادها كما شغف المهنوءة [الرجل] الطالي. (وأعتدت) [31] من العتاد، كقوله: (وأعتدنا).

والمتكأ: المجلس، وقيل: الوسادة. وقيل: الطعام، إما حقيقةً أو استعارةً، لأن الضيف يكرم ويطعم على متكأ يطرح له. (فاستعصم) [32] امتنع طالباً العصمة. (السجن أحب) [33] أي: حبيب، [لا أن الحب جمعهما]، ثم السجن أحب من الفحشاء، كما قال حيان بن قرط [اليربوعي]:

572- خالي [أبو أنس] وخال سراتهم أوس فأيهما [أدق] [و] ألأم. (أصب إليهن) [33] أمل. قال الهذلي: 573- ديار التي قالت غداة لقيتها صبوت أبا ذئب وأنت كبير/ 574- تغيرت بعدي أو أصابك حادث من الدهر أو مرت [عليك] مرور.

(فأنساه الشيطان ذكر ربه) [42]

أي ذكره يوسف لملكه. وقيل: أنسى الشيطان يوسف أن يذكر الله، وسول له الاستعانة بغيره، وزين الأسباب التي ينسى معها. والبضع: ما دون العشر من ثلاث إلى عشر. (أضغاث أحلام) [44] أخلاطها، وألوانها. والضغث: ملء الكف من الحشيش الذي فيه كل نبت. (وادكر بعد أمة) [45] أي بعد انقضاء أمة من الناس. وذلك يكون بعد حين. (تزرعون [سبع سنين] دأباً) [47] نصب على المصدر، أي: تدأبون دأباً، لأن يزرعون يدل على يدأبون. وقيل: إنه في موضع الحال، أي: يزرعون دائبين، كقوله تعالى: (واترك البحر رهواً)

أي: راهياً. وقيل: إنه جمع دائب، مثل راكب وركب، وصاحب وصحب. (يأكلن) [48] يؤكل فيهن، على مجاز "ليل نائم"، و"نهار مبصر". (يغاث) [49] من الغيث، تقول العرب "غثنا ما شئنا". قال الهذلي: 575- فلما رآه قال لله من رأى من العصم شاةً مثل ذا بالعواقب

576- لو أن كريمي صيد هذا أعاشه إلى أن يغيث الناس بعض [الكواكب]. (يعصرون) [49] أي: العنب. وقيل: ينجون. والعصرة: النجاة من الجوع والعطش. أنشد الأصمعي: 577- عصرته نطفة تضمنها [لصب] تلقى مواقع السبل

578- أو وجبة من جناة أشكلة إن لم يرغها بالقوس لم تنل. (حاش لله) [51] معناه

الاستثناء . وقيل: التبرئة . وفسره مجاهد : بـ"معاذ الله" . / وقيل: إنه من قولهم: كنت [في] حشا فلان ، أي: [ناحيته] من كل سوء .

(حصحص الحق) [51] ظهر وتبين من جميع وجوهه . من حص رأسه: إذا صلع ، قال [أبو] قيس بن الأسلت: 579- قد حصت البيضة رأسي فما أطعم [نوماً] غير تهجاع 580- أسعى على جل بني مالك كل امرئ في شأنه ساع . (بضاعتهم) [62] وكانت ورقاً ، وإنما ردها إليهم ، ليتوسع بها أبوه وقومه ، وليظهر أنه خير المنزلين .

(نكتل) [63] وزنه نفتل ، محذوف العين . [سأل] المازني [عنه] [ابن السكيت] عند الواثق ، فقال: نفعل

قال: فماضيه إذن كتل . (فالله خير حافظاً) [64] نصبه على الحال ، أي: فالله خير الأرباب حافظاً . وقيل: إن حافظاً مصدر ، فهو كقراءة من قرأ (فالله خير حافظاً) ومثله: (أجيبوا داعي الله) أي: دعاء الله . (ما نبغي) [65] ما الذي نطلب بعد هذا الإحسان . ([و]نمير أهلنا) نحمل لهم الميرة ، وهي ما يقوت الإنسان . قال الشاعر:

581- لنا إبل ما تستفيق تميرنا لحمانها ولنا الوسل 582- ولكن قليل ما بقاء وطابنا

ولا سيما إن ساق أضيافنا المحل .

(ونزداد كيل بعير) [65] وكان يعطي كل واحد منهم حمل بعير . (ذلك كيل يسير) أي: مناله لا تعاسر علينا فيه . (إلا أن يحاط بكم) [66] إلا أن تهلكوا جميعاً ، كقوله: (وأحيط بثمره) . (إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها) [68] من أمره لهم بالدخول [من] أبواب لئلا يعتانوا . (وإنه لذو علم لما علمناه) [68] أي: ذو يقين .

وقيل: ذو عمل . (فلا تبتئس) [69] لا تبأس ، أي: لا يكن عليك بأس بعملهم . السقاية والصواع/: إناء يشرب به ، ويكال فيه أيضاً . و(العير) [70] الرفقة . قال: 583- فلما مضى [شهر و]عشر لعيرها وقالوا [تجيء] الآن قد حان حينها 584- أمرت من الكتان خيطاً وأرسلت جرياً إلى أخرى [قريباً] تعينها .

(إنكم لسارقون) [70] كان ذلك من قول [الكيال] ، وكان لم يعلم من جعل السقاية فيه .

ومن قال: إنه من قول يوسف فهو على أنهم [سرقوه] من أبيه . (من وجد في رحله فهو جزاؤه) [75] كان حكم السارق في دين بني إسرائيل أن يسترقه صاحب المال . (كذلك كدنا) [76] صنعنا ، عن ابن عباس .

ودبرنا ، عن القتبي . وأردنا ، عن ابن الأنباري . (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) [76] كان حكم [السارق الضرب والضمان في دين الملك] . (إلا أن يشاء الله) [76] أي:

استرقاق السارق على دين بني إسرائيل . وتسريق أخيه مع براءته لا يستقبح ، لأنه احتيال تضمن وجوهاً من الحكمة ، منها : أخذه عنهم على حكمهم .

(136/389)

ومنها : أن أخاه [كان] عالماً بالقصة فلم يكن بهتاناً . ومنها : أنه كالتلعب بهم [مع ما] جدوا في أمره من قصد الهلاك . ويكون ذلك من أبواب الملاينة والمقاربة . ومنها : أنه جعل لهم مخلصاً عنه –لو فطنوه– وهو أنه [جعل] بضاعتهم في رحالهم من قبل ، ولم يعلموا ، [فهلا] قالوا : إن الصواع جعلت في رحالنا بغير علمنا . (فقد سرق أخ [له] من قبل) [77] [قيل] : إن يوسف في صباه أخذ شيئاً من الدار [ودفعها] إلى سائل ، وكان سجيته الإيثار ، كما روي أنه كان يجوع في السنين وهو على خزائن الأرض ، وإذا قدم إليه طعام أطعمه . وقيل : إنه كان في أول الصبى /في حضانة عمته ، فلما أراد يعقوب أخذه منها على كراهتها جعلت مخنقة في قميصه من غير علمه ، وسرقته بها لتسترقه فتمسكه على دينهم . فهذا تأويل سرقته . وأما انكتام أمره على أبيه مع تانك الوجاهة والنباهة فيحتمل أن يوسف مأموراً بإخفاء أمره على أبيه . ويحتمل الصرفة الكلامية ، والصرفة مسئلة كثيرة النظائر ، مفتنة الشعب . وهي ها هنا : صرف الله قلوبهما عن طلب كل

واحد منهما موضع صاحبه. وبالجملة، لله تعالى في الأنبياء تدبير خفي خارج عن المعتاد. (فلما استيئسوا) [80]

يئسوا. قال عبدة بن طبيب: 585- تأرب من هند خيال مؤرق إذا استيأست من ذكر[ها] النفس تطرق. (نجياً) [80] جمع [مناج]، وفي غير هذا الموضع يصلح واحداً ومصدراً واسماً حتى يكسر على الأنجية. قال: 586- إني إذا ما القوم كانوا أنجية

587- واضطرب القوم اضطراب الأرشية

588- هناك أوصيني ولا توصي بيه. (ومن قبل ما فرطتم) موضع (ما) نصب بوقوع الفعل عليه، وهو [و]ما بعده بمنزلة المصدر، كأنه: ألم تعلموا ميثاق أبيكم وتفريطكم. ويجوز أن يكون التقدير: ومن قبل: تفريطكم، فتكون (من قبل) مبتدأ، و(ما فرطتم) خبره. والكظيم، الصابر على جزنه من كظم الغيظ.

وقيل: إنه الممتلئ حزناً كالسقاء المكظوم. ويجوز أنه الذي لا يتكلم من الغم، كأن فاه مسدود، أو هو أيضاً من كظم فم الإناء، وهو سده. قال: 589- وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني وأشمت بي من كان فيك يلوم/ [وقال]: 590- وأنت [التي] أغضبت قومي

فكلهم بعيد الرضى داني الصدود كظيم .

(تفتؤا) [85] تزال وتنفك . قال: 591- فما فتئت خيل تثوب وتدعي ويلحق منها أولون [وآخر] 592- لدن غدوة حتى أتى الليل وانجلت عماية يوم شره المتظاهر .

والمراد بقوله تفتؤ: لا تفتؤ ، أي: لا تنفك ، كما قال الهذلي: 593- بني عمنا في كل يوم كريهة ولو قرب الأنساب عمراً وكاهلاً

594- إذا [أقسموا] أقسمت [أنفك] منهم ولا منهما حتى تفك [السلاسلا] وقال آخر من هذيل ، وهو شائع في لغتهم: 595- تبين صلاة الحرب منا ومنكم إذا ما التقينا والمسالم بادن 596- فيبرح منا سلفع متلبب جرئ على الغراء والغزو مارن . (حرضاً) [85] مريضاً دنفاً .

وقيل: هو الذاهب العقل . قال العرجي: 597- إني امرؤلج بي حب وأحرضني حتى بليت وحتى [شفني] السقم . والبث: الحزن الذي لا يطيقه الإنسان ، أو يبثه . كما قال ذو الرمة: 598- وقفت على ربع لمية ناقتي فما زلت أبكي عنده وأخاطبه 599- وأسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمني أحجاره وملاعبه .

(فتحسسوا) [87] التحسس: طلب الشيء بالحس . قال الأشعب: 600- خليلي زورا علو ثم تحسسا ولا تعجلا أن تنظر هل لها عقل . أي: هل تعقل قتيلها وتديه .

(مزجاة) [88] يسيرة لا [يعتد] بها ، قال الراعي: 601- ومرسل ورسول غير متهم

وحاجة غير مزجاة من الحاج/

602- طاوعته بعدما طال النجي بها وظن أني عليه غير منعاج. (لا تثريب عليكم اليوم) [92] لا تعيير. ثرب: عدد ذنوبه. قال: 603- فعفوت عنهم عفو غير مثرب وتركتهم لعقاب يوم سرمد. وخص اليوم، والمراد به الزمان، والعالم الشامل. كما قال امرؤ القيس: 604- حلت لي الخمر وكنت امرءاً عن شربها في شغل شاغل

(138/389)

605- فاليوم فاشرب غير [مستحقب] إثماً من الله ولا واغل. (تفندون) [94] تعذلون. (ضلالك القديم) [95] محبتك. وقيل: عنائك. كما قال أوس:

606- إذا ناقة شدت برحل ونمرق إلى حكم [بعدي] فضل ضلالها 607- كأني حلوت الشعر يوم مدحته صفا صخرة صماء صلد بلالها. (خاطئين) [97] آثمين. قال ابن السكيت: خطئ خطأ [تعمد] الإثم، وأخطأ ثم لم يتعمد. قال: 608- قد علمت [جلادها] وخورها 609- إنك قد خطيت إذ تهورها.

(وجاء بكم من البدو) [100] وكانوا بادية أهل وبر ومواش. والبادية: القوم المجتمعون الظاهرون للأعين. ومن قال: إن البادية بلد الأعراب [فإنما غلطه] فيه عادة العامة

والسالكين طريق الحج ، ألا ترى أن تنكير البادية ، ولو كان بلداً معروفاً لكان معرفة أبداً

قال النابغة الجعدي: 610- وبادية سؤم الجراد وزعتها تكلفتها سيداً أزل مصدرا .

(نزغ الشيطان) [100] أفسد ما [بيني و]بينهم . (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم

مشركون) [106] هو إيمان المشركين بالله ، وأنه الخالق والرازق ، ثم يقولون إن الأصنام

شركاؤه أو شفعاؤنا إليه . وقيل: مثل قول الرجل لولا الله وفلان/لهلكت ، كما أنشد أبو تمام

في

الوحشيات: 611- وأفلتنا هجين بني قريظ يفدي المهر من حب الإياب 612- فلولا

الله والمهر المفدى [لأبت] وأنت [غربال] الإهاب . (ولدار الآخرة) [109] ولدار الحال

الآخرة ، كقوله: (وحب الحصيد) أي: الزرع الحصيد ، قال:

613- ولو [أقوت] عليك ديار عبس عرفت الذل عرفان اليقين أي: عرفان العلم اليقين .

(حتى إذا استيئس الرسل [وظنوا أنهم قد كذبوا) [110] بالتشديد الضمير للرسل ،

والظن بمعنى اليقين ، أي: لما استيأس الرسل] من إيمان قومهم أن يصدقوهم ، [وأيقنوا] أن

القوم كذبوهم (جاءهم نصرنا) . وبالتخفيف ، يكون الضمير للقوم ، أي: حسب القوم أن

الرسل كاذبون في وعد العذاب .

فهم على هذا [مكذبون ، لأن كل من كذبك فأنت مكذوبه ، كما في صفة الرسول عليه السلام: الصادق] [المصدوق ، أي: صدقه] جبريل . وسئل سعيد بن جبير عنها –في دعوة حضرها الضحاك مكرهاً– قال: نعم حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدقوهم ، وظن قومهم أن الرسل كذبوهم . فقال الضحاك: ما رأيت كاليوم ، رجل يدعى إلى علم [فيتلكأ] ، لو رحلت في هذا إلى اليمن لكان يسير[اً] .

[تمت سورة يوسف] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 738.691 ﴾

(140/389)

وقال الأخفش :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هذا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾

وقال ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يقول ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ بوحينا ﴿ إِلَيْكَ هذا الْقُرْآنَ ﴾ وجعل (ما) اسما للفعل وجعل (أَوْحَيْنا) صلة .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي

سَاجِدِينَ ﴾

وقال ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ فكرر الفعل وقد يستغني باحدهما . وهذا على لغة الذين قالوا "ضَرَبْتُ زَيْداً ضَرَبْتُهُ" وهو توكيد مثل ﴿ فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ وقال بعضهم (أَحَدَ عْشَرَ) واسكن العين وكذلك (تِسْعَةَ عْشَرَ) الى العشرين لما طال الاسم وكثرت متحركاته اسكنوا . ولم يسكنوا في قولهم "اثْنَيْ عَشَرَ" و"اثْنَتا عَشْرَةَ" للحرف الساكن الذي قبل العين وحركة العين في هذا كله هو الاصل.

وأَمَّا قوله ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ فانه لما جعلهم كمن يعقل في السجود والطواعية جعلهم كالانس في تذكيرهم اذا جمعهم كما قال ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ . وقال الشاعر: [من الخفيف وهوة الشاهد الثالث والثلاثون بعد المئتين]:

صَدَّهَا مَنْطِقُ الدَّجاجِ عَنِ القَصْدِ * وَضَرْبُ الناقُوسِ فَاجْتُنِبا

وقال ﴿ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُواْ مَسَاكِنَكُمْ ﴾ اذا تكلمت نملة فصارت كمن يعقل وقال ﴿ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ لما جعلهم يطيعون شبههم بالانس مثل ذلك ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ على

هذا القياس الا انه ذكر وليس مذكرا كما يذكر بعض المؤنث. وقال قوم: إنما قال ﴿ طائِعين ﴾ لانهما اثنا وما فيهما فتوهم بعضهم "مُذَكَّرا" أَو يكون كما قال ﴿ وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ وهو يريد أهلها. وكما تقول "صَلى المَسْجِدُ" وأنت تريد أَهْلَ المَسْجد إلاّ أَنَّكَ تحمل الفعل على الآخِر، كما قالوا: "اِجْتَمَعتْ أَهْلُ اليمامَةِ" وقال ﴿ وِمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ ولاَ لِلْقَمَرِ واسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ لأن الجماعة من غير الانس مؤنثة. وقال بعضهم "لِلَّذي خَلَقَ الآياتِ" ولا اراه قال ذلك الا لِجَهْلِهِ بالعربية. قال الشاعر: [من البسيط وهو الشاهد الرابع والثلاثون بعد المئتين]:

إِذْ أَشْرَفَ الديكُ يَدْعُوا بَعْضَ أُسْرَتِهِ * إِلى الصِياحِ وَهُمْ قُومٌ مُعَازِيلُ

فجعل "الدجاج" قوما في جواز اللغة. وقال الاخر وهو يغني الذيب: [من الطويل وهو الشاهد الثاني والثلاثون بعد المئتين]:

وأَنْتَ امْرُؤٌ تَعْدُو علَى كُلِّ غِرَّةٍ * فَتُخْطِىءُ فِيها مَرَّةً وتَصِيبُ

وقال الآخر: [من الرجز وهو الشاهد الخامس والثلاثون بعد المئتين]:

فَصَبَّحَتْ وَالطَّيْرُ لَمْ تَكَلَّمِ * جابِيَةً طُمَّتْ بِسَيْلٍ مُفعَمِ

﴿ قَالَ يابُنيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

وقال ﴿ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً ﴾ أي: فيتخذوا لك كيدا . وليست مثل ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ . أراد أن يوصل الفعل [138] اليها باللام كما يوصل بـ"الى" كما تقول: "قَدَّمْتُ لَهُ طَعاماً" تريد: "قَدَّمْتُ إِلَيْهِ" . وقال ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ ومثله ﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ وإِنْ شِئْتَ كان ﴿ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً ﴾ في معنى "فَيَكِيدوكَ" وتجعل اللام مثل ﴿ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ وقوله ﴿ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ إِنّما هو: "لِمكانِ رَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ" .

﴿ اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾

وقال ﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ ﴾ وليس الأَرْضُ ها هنا بظرف . ولكن حذف منها "في" ثم أَعمل فيها الفعل كما تقول "تَوَجَّهْتُ مَكَّةَ" .

﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴾

وقال ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ و"العُصْبَةُ" و"العِصابَةُ" جماعة ليس لها واحد كـ"القَوْم" و"الرَّهْط" .

﴿ وَجَآءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾

وقال ﴿ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ فجعل "الدَّمَ" "كَذِباً" لأنه كُذِبَ فيه كما تقول "اللَيلةُ الهِلالُ" فترفع

وكما قال ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ ﴾ .

﴿ وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ فأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يا بُشْرَى هذا غُلاَمٌ وأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً واللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

وقال ﴿ وجاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ ﴾ فذكّر بعدما أنّث لأنّ "السَيَّارة" في المعنى للرجال.

(143/389)

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

وقال ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي ﴾ أي: أَعُوذُ باللهِ معاذا . جعله بدلا من اللفظ بالفعل لانه مصدر وان كان غير مستعمل مثل "سُبْحانَ" وبعضهم يقول "مَعاذَةَ اللهِ" ويقول "ما أَحْسَنَ مَعْناةَ هَذا الكَلامِ" يريد المعنى.

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾

وقال ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ فلم يكن همّ بالفاحشة ولكن دون ذلك مما لا يقطع الولاية.

﴿ واسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وقال ﴿ إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يقول "إِلاَّ السِجْنُ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ" "لأن" "أنْ" الخفيفة وما عملت فيه اسم بمنزلة [138 ب] "السّجْن" .

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

وقال ﴿ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ فالوقف عليها (وَلِيَكُونا) لأن النون الخفيفة اذا انفتح ما قبلها فوقفت عليها جعلتها الفا ساكنة بمنزلة قولك "رأَيْتُ زيدا" ومثله ﴿ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ﴾ الوقف عليها "لَنَسْفَعا" .

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾

وقال ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ فادخل النون في هذا الموضع لأن هذا موضع تقع فيه "أي" فلما كان حرف الاستفهام يدخل فيه ، دخلته النون لأن النون تكون في الاستفهام تقول "بدا لَهُم أَيُّهم يأخذون" أي استبان لهم .

﴿ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ ﴾

وقال ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ ﴾ فاحدى الباءين أوصل بها الفعل الى الاسم والاخرى دخلت لـ"ما" وهي الاخرة.

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾

وقال ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ وانما هي "اِفْتَعَلَ" من "ذَكَرْتُ" فأصلها "اِذْتَكَرَ"، ولكن اجتمعا في كلمة واحدة ومخرجاهما متقاربان، وارادوا ان يدغموا والأول حرف مجهور وانما يدخل الأول في الاخر والاخر مهموس، فكرهوا ان يذهب منه الجهر فجعلوا في موضع التاء حرفا من موضعها مجهورا وهو الدال لأن الحرف الذي قبلها مجهور. ولم يجعلوا الطاء لأن الطاء مع الجهر مطبقة. وقد قال بعضهم (مُذَّكِر) فابدل التاء ذالا ثم ادخل الذال فيها. وقد قرئت هذه الآية ﴿ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً ﴾ وهي [139] "أَنْ يَفْتَعِلا" من "الصُلْح" فكانت التاء بعد الصاد فلم تدخل الصاد فيها للجهر والاطباق. فابدلوا التاء صادا وقال بعضهم (يَصْطَلِحا) وهي الجيدة. لما لَمْ يُقْدَرْ على ادغام الصاد في التاء حُوِّلَ في موضع التاء حرفٌ مطبق.

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدْتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

قال ﴿ إِذْ رَاوَدتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ وقال بعض اهل العِلم: "انهن راودنه لا امرأة الملك" وقد يجوز وان كانت واحدة ان تقول "راوَدْتُنَّ" كما [137] تقول (إِنَّ الناسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُم) وهذا ها هنا واحد يعنى بقوله لَكُمْ النبيَّ صلى الله عليه و (الناسَ) "أَبا سُفْيان" فيما ذكروا .

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

وقال ﴿ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ فانث وقال ﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ لأَنَّهُ عنى ثَمَّ "الصُّواع" و"الصُّواع" مذكّر، ومنهم من يؤنثّ "الصّواع" و"عنى" ها هنا "السِّقَايَةَ" وهي مؤنثة. وهما اسمان لواحد مثل "الثَّوْبُ" و"المِلْحَفَةُ" مذكّر ومؤنّث لشيء واحد .

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَّوْثِقاً مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾

وقال ﴿ خَلَصُواْ نَجِيّاً ﴾ فجعل "النَجِيَّ" للجماعة مثل قولك: "هُمْ لي صديق" .

وقال ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ فزعموا انه اكبرهم في العقل لا في السن .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

وإنما قال ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ لانه عنى الذي تخلف عنهم معهما وهو كبيرهم في العقل. [139 ب]

(146/389)

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

وقال ﴿ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾ فإذا سكت أُلحقت في آخره الهاء لانها مثل أَلف الندبة.

﴿ قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾

وقال ﴿ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ فزعموا أَنَّ (تَفْتَأُ) "تَزَالُ" فلذلك وقعت عليهِ اليمين كانهم قالوا: "وَاللهِ ما تزالُ تَذْكُرُ يُوسُفَ".

﴿ قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

وقال ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ (اليوم) وقفٌ ثم استأنف فقال ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ فدعا

لهم بالمغفرة مستأنفا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 1 صـ 393 . 400 ﴾

(147/389)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة يوسف

مكية كلها

5 - فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً أي يحتالوا لك ويغتالوك .

6 - وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ أي يختارك .

وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ أي من تفسير غامضها ، وتفسير الرؤيا .

7 - آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ أي مواعظ لمن سأل .

8 - وَنَحْنُ عُصْبَةٌ أي جماعة . يقال : العصبة من العشرة إلى الأربعين .

9 - يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ أي يفرغ لكم من الشغل بيوسف .

وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ أي من بعد إهلاكه قَوْماً صالِحِينَ أي تائبين .

12 - يَرْتَعْ بتسكين العين : يأكل . يقال : رتعت الإبل ، إذا رعت . وأرتعتها : إذا تركتها

ترعى «1» .

---

(1) رتعت الماشية : أكلت ما شاءت وبابه خضع أو يقال : خرجنا نلعب ونرتع أي ننعم ونلهو والموضع (مرتع) . (انظر مختار الصحاح ص 232) .

(148/389)

ومن قرأ : (نرتع) بكسر العين - أراد : نتحارس ويرعى بعضنا بعضا ، أي : يحفظ . ومنه يقال : رعاك اللّه ، أي حفظك .

15 - و(الجبّ) : الرّكيّة التي لم تطو بالحجارة . فإذا طويت : فليست بجبّ .

17 - إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ أي ننتضل ، يسابق بعضنا بعضا في الرمي . يقال : سابقته فسبقته سبقا . والخطر هو : السّبق بفتح الباء .

وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا أي بمصدّق لنا .

18 - وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ أي مكذوب به .

قالَ بَلْ سَوَّلَتْ أي زينت . وكذلك «سور لهم الشيطان أعمالهم» أي زيّنها .

19 - وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ : قوم يسيرون .

فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ أي وارد الماء ليستقي لهم .

فَأَدْلى دَلْوَهُ أي أرسلها . يقال : أدلى دلوه ، إذا أرسلها للاستقاء .

ودلى يدلو : إذا جذبها ليخرجها .

قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ وذلك : أن يوسف تعلّق بالحبل حين أدلاه ، أي أرسله .

(وأسرّوه) أي أسرّوا في أنفسهم أنه بضاعة وتجارة .

20 - وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ يكون : اشتروه ، يعني : السيارة .

ويكون : باعوه ، يعني : الإخوة . وهذا حرف من الأضداد . يقال شريت الشيء ، يعني : بعته واشتريته . وقد ذكرت هذا وما أشبهه في كتاب «تأويل المشكل» .

(149/389)

و(البخس) الخسيس الذي بخس به البائع «1» .

دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ : يسيرة سهل عددها لقلّتها ، ولو كانت كثيرة : لثقل عددها .

21 - أَكْرِمِي مَثْواهُ أي أكرمي منزله ومقامه عندك . من قولك : ثويت بالمكان ، إذا أقمت به .

أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً أي نتبنّاه .

22 - بَلَغَ أَشُدَّهُ : إذا انتهى منتهاه قبل أن يأخذ في النقصان . وهو جمع . يقال : لواحده أشدّ . ويقال : شدّ وأشدّ . مثل : قدّ وأقدّ . وهو الجلد . ولا واحد له .

وقد اختلف في وقت بلوغ الأشدّ ، فيقال : هو بلوغ ثلاثين سنة .

ويقال : بلوغ ثمان وثلاثين .

23 - وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ أي هلمّ لك . يقال : هيّت فلان لفلان ، إذا دعاه وصاح به . قال الشاعر :

قد رابني أنّ الكريّ أسكتا لو كان معنيا بها لهتّا

24 - لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ أي حجّته عليه .

25 - وَأَلْفَيا سَيِّدَها : وجداه لَدَى عند الْبابَ .

29 - إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ قال الأصمعي : يقال : خطئ الرجل يخطأ خطأ - : إذا تعمد الذنب . فهو خاطئ . والخطيئة [منه] وأخطأ يخطئ - : إذا غلط ولم يتعمّد . والاسم منه الخطأ .

---

(1) البخس : الناقص ، يقال : شراه بثمن بخس وقد بخسه حقه أي نقصه وبابه قطع ، ويقال للبيع إذا كان قصدا لا بخس فيه ولا شطط . (انظر مختار الصحاح ص 42) .

30 - قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا «1» أي بلغ حبّه شفافها. وهو غلاف القلب.

ولم يرد الغلاف إنما أراد القلب. يقال: قد شغفت فلانا إذا أصبت شفافه.

كما يقال: كبدته، إذا أصبت كبده. وبطنته: إذا أصبت بطنه.

ومن قرأ: «شعفها» - بالعين - «2» أراد فتنها. من قولك. فلان مشعوف بفلانة.

31 - فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أي بقولهن وغيبتهن.

وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ أعتدت من العتاد.

مُتَّكَأً أي طعاما. يقال: اتكأنا عند فلان: إذا طعمنا. وقد بينت أصل هذا في كتاب «المشكل».

ومن قرأ «متكا» فإنه يريد الأترج. ويقال: الزّماورد «3».

وأيا ما كان فإني لا أحسبه سمي متّكأ إلّا بالقطع، كأنه مأخوذ من البتك. وأبدلت الميم فيه من الباء. كما يقال: سمّد رأسه وسبّده. وشرّ لازم ولازب. والميم تبدل من الباء كثيرا لقرب مخرجهما. ومنه قيل للمرأة التي لم تخفض والتي لا تحبس بولها: متكاء - أي خرقاء - والأصل بتكاء.

ومما يدل على هذا قوله: وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً لأنه طعام

---

(1) الشغف بالفتح: غلاف القلب وهو جلدة دونه كالحجاب يقال: شغفه الحب أي بلغ شغافه وبابه باب شغف وقراء ابن عباس رضي اللّه عنهما: قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا وقال: دخل حبه تحت الشغاف.

(2) شعفه الحب يشعفه بفتح العين فيهما شعفا بفتحتين: أحرق قلبه وقيل أمرضه، وقراء الحسن: قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا قال: بطنها حبا وقد شعف بكذا على ما لم يسم فاعله فهو مشعوف. (انظر مختار الصحاح ص 340).

(3) أخرج الخاري عن فضيل عن حصين عن مجاهد: متكا: الأترج، قال فضيل: الأترج بالحبشية متكا، وقال ابن عيينة عن رجل عن مجاهد: متكا: كل شيء قطع بالسكين. وهناك أقوال أخرى غير ذلك أوردهما البخاري في صحيحه.

(151/389)

لا يؤكل حتى يقطع. وقال جويبر عن الضّحاك: [المتك] كلّ شيء يحزّ بالسكاكين.

أَكْبَرْنَهُ: هالهن فأعظمنه.

32 - فَاسْتَعْصَمَ أي امتنع.

36 - أَعْصِرُ خَمْرًا يقال لا ، عنبا . قال الأصمعي : أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابيا معه عنب ، فقال ما معك؟ فقال : خمر .

وتكون الخمر بعينها ، كما يقال : عصرت زيتا ، وإنما عصرت زيتونا .

42 - اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ أي عند سيدك . قال الأعشى يصف ملكا :

ربي كريم لا يكدر نعمة وإذا يناشد بالمهارق أنشدا

فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ يقال : ما بين الواحد إلى تسعة .

وقال أبو عبيدة : هو ما [لم] يبلغ العقد ولا نصفه . يريد : ما بين الواحد إلى الأربعة .

44 - قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ أي أخلاط أحلام . مث أضغاث النبات يجمعها الرجل فيكون ضروب مختلفة . والأحلام واحدها حلم .

45 - وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أي بعد حين . يقال : بعد سبع سنين . ومن قرأ (بعد أمه) أراد : بعد نيسان .

46 - الصِّدِّيقُ : الكثير الصدق . كما يقال : فسّيق وشرّيب وسكّير ، إذا كثر ذلك منه .

47 - تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً أي جدّا في الزراعة ومتابعة . وتقرأ (دأبا) : بفتح الهمزة . وهما واحد . يقال دأبت أدأب دأبا ودأبا .

48 - تُحْصِنُونَ أي تحرزون .

49 – يُغاثُ النّاسُ أي يمطرون. والغيث: المطر.

وَفِيهِ يَعْصِرُونَ يعني: الأعناب والزيت. وقال أبو عبيدة:

(يعصرون): ينجون والعصرة النّجاة. قال الشاعر:

ولقد كان عصرة المنجود أي غياثا ومنجاة للمكروب.

51 – ما خَطْبُكُنَّ ما أمركنّ، ما شأنكنّ؟

الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أي وضح وتبيّن.

59 – خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ أي خير المضيفين.

65 – وَنَمِيرُ أَهْلَنا من الميرة. يقال: مار أهله ويميرهم ميرا وهو مائر أهله، إذا حمل إليهم أقواتهم من غير بلدة.

وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ أي حمل بعير.

66 – إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ أي تشرفوا على الهلكة وتغلبوا.

اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ أي كفيل.

67 – وَقالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ، وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ، يريد: إذا دخلتم مصر، فادخلوا من أبواب متفرقة. يقال: خاف عليهم العين إذا دخلوا جملة.

69 – آوى إِلَيْهِ أَخاهُ أي ضمّه إليه. يقال: آويت فلانا إليّ بمد الألف –: إذا ضممته

إليك. وأويت إلى بني فلان – بقصر الألف – : إذا لجأت إليهم.

فَلا تَبْتَئِسْ من البؤس.

70 – (السّقاية) : المكيال. وقال قتادة: مشربة الملك.

ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أي قال قائل، أو نادى مناد.

(153/389)

أَيَّتُهَا الْعِيرُ: القوم على الإبل.

72 – (صواع الملك) وصاعه واحد.

وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ أي ضمين.

75 – قالوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ أي يستعبد بذلك. وكانت سنة آل

يعقوب في السارق.

76 – كِدْنا لِيُوسُفَ أي احتلنا له. ولكيد: الحيلة. ومنه قوله:

إن كيدهن عظيم.

فِي دِينِ الْمَلِكِ أي في سلطانه.

77 – قالُوا: إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ، يعنون يوسف وكان سرق صنما يعبد،

وألقاه .

80 - فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ أي يئسوا . خَلَصُوا نَجِيًّا أي اعتزلوا الناس ليس معهم غيرهم ، يتناجون ويتناظرون ويتسارّون . يقال : قوم نجيّ ، والجميع أنجية . قال الشاعر :

إنّي إذا ما القوم كانوا أنجيه واضطربت أعناقهم كالأرشية

قال كَبِيرُهُمْ أي أعقلهم . وهو : شمعون . وكأنه كان رئيسهم . وأما أكبرهم في السن : فروبيل . وهذا قول مجاهد . وفي رواية الكلبي : كبيرهم في العقل ، وهو : يهوذا .

81 - وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ يريدون : حين أعطيناك الموثق لنأتينّك [به] ، أي [لم] نعلم أنه يسرق ، فيؤخذ .

84 - وَقالَ يا أَسَفى الأسف : أشدّ الحسرة .

فَهُوَ كَظِيمٌ أي كاظم . كما تقول : قدير وقادر . والكاظم : الممسك على حزنه ، لا يظهره ، ولا يشكوه .

85 - تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ أي لا تزال تذكر يوسف .

قال أوس بن حجر :

فما فتئت خيل تثوب وتدّعي حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أي دنفا . يقال : أحرضه الحزن ، أي : أدنفه . ولا أحسبه قيل للرجل الساقط : حارض ، إلّا من هذا . كأنّه الذاهب الهالك .

أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ يعني : الموتى .

86 - و(البثّ) (أشد الحزن . سمي بذلك : لأن صاحبه لا يصبر عليه ، حتى يبثّه ، أي يشكوه .

88 - بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ أي قليلة ، ويقال : رديئة ، لا تنفق في الطعام ، وتنفق في غيره . لأن الطعام لا يؤخذ فيه إلّا الجيد .

وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا يعنون : [تفضل بما] بين البضاعة وبين ثمن الطعام .

92 - قالَ : لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ : لا تعيير عليكم بعد هذا اليوم بما صنعتم . وأصل التّثريب : الإفساد . يقال : ثرّب علينا ، إذا أفسد .

وفي الحديث : «إذا زنت أمة أحدكم : فليجلدها الحدّ ، ولا يثرّب» «1»

أي لا يعيّرها بالزنا .

94 - لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ أي تعجّزون . ويقال : لولا أن تجهّلون يقال : أفنده الهرم ، إذا خلّط في كلامه .

100 - وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ أي على السرير .

---

(1) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة بلفظ مقارب برقم 1440 .

105 - وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ أي كم من دليل وعلامة. فِي خلق السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها
وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ - 106 - وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ يريد: إذا سئلوا:
من خلقهم؟ قالوا: اللّه. ثم يشركون بعد ذلك. أي يجعلون للّه شركاء.

107 - غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ أي مجلّلة تغشاهم. ومنه قوله تعالى: هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ
الْغاشِيَةِ [سورة الغاشية آية: 1] أي خبرها.

108 - أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ

أي على يقين. ومنه يقال:

فلان مستبصر في كذا، أي مستيقن له.

110 - حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ مفسّر في كتاب «تأويل المشكل».

111 - ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى أي يختلق ويصنع. انتهى انتهى. اهـ ﴿تأويل مشكل القرآن
صـ 191.183﴾

وقال الغزنوى :

ومن سورة يوسف

3 نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ : نبين لك أحسن البيان .

4 يا أَبَتِ : يا أبي «1» ، و«التاء» للمبالغة ، ك «العلّامة» و«النسّابة» ، أو للتفخيم ، ك «يوم القيامة» [للقيام] «2» ، أو منقلبة عن الواو المحذوفة من لام الفعل مثل : «كلتا» فأصلها «كلوا» .

وأعاد رَأَيْتُهُمْ لأنّها رؤية سجودهم له ، والأولى رؤيته إياهم «3» .

والسجود : الخضوع «4» ، والسجود من أفعال ذوي العقل فجاء ساجِدِينَ فيمن «5» لا يعقل على صيغة العقل ، كقوله «6» : يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ .

5 يا بُنَيَّ : ثلاث ياءات : ياء التصغير ، والأصلية ، وياء الإضافة

---

(1) جاء بعده في كتاب وضح البرهان للمؤلف : 1/ 449 : «فحذفت ياء الإضافة ، وهذه التاء للمبالغة . . .» . [. . . . .]

(2) عن نسخة «ج» .

(3) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 2/ 245 ، وذكره - أيضا - الفخر الرازي في تفسيره :

18/ 89 وظاهر هذا القول أن الرؤية تكررت ، وسياق الآية لا يدل عليه ، وإنما إعادة

الفعل لتأكيد المعنى لأنه إخبار عن رؤية منامية فلئلا يتوهم الغلط والنسيان أكد الفعل ولم يعطف.

قال أبو حيان في البحر المحيط: 5/ 280: «والظاهر أن رَأَيْتُهُمْ كرر على سبيل التوكيد للطول بالمفاعيل...».

وينظر الدر المصون: (6/ 436، 437).

(4) عن تفسير الماوردي: 2/ 245، وينظر البحر المحيط: 5/ 280، والدر المصون:

6/ 437.

(5) في «ج»: فيما.

(6) سورة النمل: آية: 18.

حذفت اجتزاء بالكسرة.

8 أَبانا لَفِي ضَلالٍ: غلط في تدبير أمر الدّنيا «1» إذ نحن أنفع له منه.

15 فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ: محذوف الجواب «2»، والكوفيون يجعلون أَجْمَعُوا جوابا «3»،

والواو مقمحة «4» ، وإقحامها لم يثبت بحجة ولا له وجه في القياس .

غَيابَتِ الْجُبِّ : أسفله حيث يغيب عن الأبصار «5» .

17 نَسْتَبِقُ : ننتضل ، من السباق في الرّمي ، أو نستبق بالعدو . / أيّنا [46/ ب] أسرع .

19 يا بُشْرى : موضع الألف فتح ، منادى مضاف «6» .

وَأَسَرُّوهُ بِضاعَةً : المدلي ومن معه لئلا يسألوهم الشركة لرخص ثمنه «7» .

---

(1) قال القرطبي في تفسيره : 9/ 131 : «لم يريدوا ضلال الدين ، إذ لو أرادوا لكانوا كفارا ، بل أرادوا لفي ذهاب عن وجه التدبير ، في إيثار اثنين على عشرة مع استوائهم في الانتساب إليه .

(2) الكشاف : 2/ 306 ، والبيان لابن الأنباري : 2/ 35 ، والتبيان للعكبري : 2/ 725 ، والبحر المحيط : 5/ 287 ، والدر المصون : 6/ 453 .

(3) ذكره الطبري في تفسيره : 15/ 575 .

وينظر الإنصاف لابن الأنباري : 2/ 456 ، والبحر المحيط : 5/ 287 .

(4) في «ج» : وادعوا أن الواو مقحمة . .

(5) ينظر تفسير الطبري : 15/ 566 ، ومعاني القرآن للزجاج : 3/ 93 ، ومعاني النحاس :

3/ 400 ، والمفردات للراغب : 367 .

(6) هذا التوجيه على قراءة من أثبت الألف، وهذه القراءة لابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وابن عامر.

ينظر السبعة لابن مجاهد: 347، وحجة القراءات: 357، والكشف لمكي: 2/ 7، والبحر المحيط: 5/ 290، والدر المصون: 6/ 459.

(7) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: (16/ 4، 5) عن مجاهد.

ونقله النحاس في معاني القرآن: 3/ 406، والماوردي في تفسيره: 2/ 253 عن مجاهد أيضا.

(158/389)

---

20 وَشَرَوْهُ: باعوه «1»، بِثَمَنٍ بَخْسٍ: ظلم «2».

وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ: لعلمهم بظلمهم، وذلك أن إخوته جاءوا إلى البئر ليبحثوا عنه فإذا هم به في يد الواردين، فقالوا: عبدنا وبضاعتنا ثم باعوه منهم «3».

22 وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ: كمال القوة، من ثمانية عشر إلى ستين «4».

---

(1) وهو من الأضداد.

ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 304، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 214،

والأضداد لابن الأنباري : 72 .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 16/ 12 عن قتادة .

ونقله النحاس في معاني القرآن : 3/ 407 ، والماوردي في تفسيره : 2/ 254 ، وابن عطية في المحرر الوجيز : (7/ 465 ، 466) عن قتادة أيضا .

ورجح الزجاج في معاني القرآن : 3/ 98 هذا القول فقال : «لأن الإنسان الموجود (الحر) لا يحل بيعه» . [. . . . .]

(3) ورد هذا القول في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 16/ 8 عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق محمد بن سعد عن أبيه . . . » ، وهو إسناد مسلسل بالضعفاء تقدم بيان أحوالهم ص (135) .

وليس في سياق الآيات ما يدل على هذا المعنى ، بل العكس ، فقد كانوا يحاولون التخلص منه واتفقت كلمتهم على أن يلقوه في البئر بإدلائه في البئر ، ثم تركوه فكيف يرجعون للبحث عنه ؟ .

أما الذين باعوه فهم الذين أدلوا دلوهم في البئر ووجدوه واصطحبوه معهم وباعوه على الذي اشتراه من مصر ، وكانوا فيه من الزاهدين لظنهم أنه لا يرغب في شرائه أحد ، إما لصغره ، أو لضعفه بسبب ما لحقه من أذى إخوته .

(4) ذكره الطبري في تفسيره : 16/ 21 . وأورد أقوالا أخرى في ذلك ثم قال : «وأولى

الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن اللّه أخبر أنه آتى يوسف لما بلغ أشده حكما وعلما ، و«الأشد» هو انتهاء قوته وشبابه ، وجائز أن يكون آتاه ذلك وهو ابن ثماني عشرة سنة ، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن عشرين سنة ، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، ولا دلالة له في كتاب اللّه ، ولا أثر عن الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، ولا في إجماع الأمة ، على أيّ ذلك كان . وإذا لم يكن ذلك موجودا من الوجه الذي ذكرت ، فالصواب أن يقال فيه كما قال عز وجل ، حتى تثبت حجة بصحة ما قيل في ذلك من الوجه الذي يجب التسليم له ، فيسلم لها حينئذ» .

---

23 وَراوَدَتْهُ : طلبته بهوى وميل من الإرادة ، وجاءت على المفاعلة لأنها في موضع دواعي الطبعين .

هَيْتَ لَكَ : هلمّ إلى ما هو لك «1» .

إِنَّهُ رَبِّي : أي : العزيز «2» مالكي حكما ، بل اللّه ربي أحسن مثواي في طول مقامي .

24 وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ : تقديره : ولو لا أن رأى برهان ربّه همّ بها «3» ، بدليل صرف السوء والفحشاء عنه ولأن لَوْ لا أَنْ رَأى شرط فلا يجعل الكلام مطلقا .

وقيل : همّ بها من قبل الشهوة التي جبل الإنسان عليها لا بعلّة «4» ، والثواب على قمعها في [وقت] «5» غلبتها .

---

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 305 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 215 ، ومعاني الزجاج : 3/ 99 .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 16/ 31 عن مجاهد .

وذكره الزجاج في معانيه : 3/ 101 ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 258 عن مجاهد ، وابن إسحاق ، والسدي .

وقال البغوي في تفسيره : 2/ 418 : «وهذا قول أكثر المفسرين» .

(3) ذكره الزجاج في معاني القرآن : 3/ 101 .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 259 ، وابن الجوزي في زاد المسير : (4/ 205 ، 206) عن قطرب .

ويكون هذا المعنى على أن في الكلام تقديما وتأخيرا .

قال ابن الجوزي : «فلما رأى البرهان ، لم يقع منه الهم ، فقدّم جواب «لولا» عليها ، كما يقال : قد كنت من الهالكين ، لولا أن فلانا خلصك ، لكنت من الهالكين . . .» .

زاد المسير : 4/ 205 .

(4) يعني ليس بدافع نفسي فاسد من الميل إلى الوقوع في المحرم.

(5) في الأصل و«ج»: «وزن»، والمثبت في النص عن «ك».

(160/389)

ويحكى أن سليمان «1» بن يسار علقته بعض نساء المدينة من صميم شرفها وحسنات دهرها، ودخلت عليه من كل مدخل، ففر من المدينة فرأى يوسف في المنام فقال له: أنت الذي هممت فقال يوسف: وأنت الذي لم تهم «2».

30 قَدْ شَغَفَها حُبًّا: بلغ حبّه شغاف قلبها «3»، كما يقال: رأسه، ودمغه «4».

و«الشّغاف»: غلاف القلب جلدة بيضاء «5».

وقيل: الشّغاف: داء تحت الشّراسيف «6» أصابها من حبّه ما يصيب من الشغاف.

---

(1) هو سليمان بن يسار الهلالي، المدني، أحد الفقهاء السبعة.

قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: 255: «ثقة، فاضل، من كبار الثالثة، مات بعد المائة».

ترجمته في: طبقات ابن سعد: 5/ 174، وطبقات الفقهاء للشيرازي: 60، وتذكرة الحفاظ: 1/ 91، وسير أعلام النبلاء: 4/ 444.

(2) أخرج أبو نعيم نحو هذه الرواية في حلية الأولياء : (2/ 190 ، 191) عن مصعب بن عثمان .

وأوردها الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء : 4/ 446 ، وعقّب عليها بقوله : فإنّ هذا يقتضي أن تكون درجة الولاية أرفع من درجة النبوة وهو محال ولو قدّرنا يوسف غير نبي فدرجته الولاية ، فيكون محفوظا كهو ولو غلقت على سليمان الأبواب ، وروجع في المقال والخطاب ، والكلام والجواب مع طول الصحبة لخيف عليه الفتنة وعظيم المحنة ، واللّه أعلم .

(3) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 308 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 215 .

(4) قال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 215 : «يقال : قد شغفت فلانا ، إذا أصبت شغافه .

كما يقال : كبدته ، إذا أصبت كبده . وبطنته : إذا أصبت بطنه» .

وينظر تفسير الطبري : 16/ 63 ، والصحاح 4/ 1382 ، واللسان : 9/ 179 (شغف) .

(5) تهذيب اللّغة : 16/ 175 ، واللسان : 9/ 179 (شغف) .

(6) الشراسيف : جمع شرسوف بوزن عصفور ، وهو غضروف معلق بكل ضلع مثل غضروف الكتف .

اللسان: 9/ 175 (شرسف) .

وفي تهذيب اللّغة: 16/ 177 عن الأصمعي: «أن الشغاف داء في القلب، إذا اتصل بالطحال قتل صاحبه» .

وانظر معاني القرآن للزجاج: 3/ 105، والصحاح: 4/ 1382 (شغف) .

(161/389)

---

31 وَأَعْتَدَتْ: من «العتاد» «1» ، مُتَّكَأً: مجلسا «2» ، أو وسادة، أو طعاما «3» لأن الضيف يطعم ويكرم على متّكاء يطرح له، تقول العرب:

اتكأنا عند فلان، أي: طعمنا «4» .

أكبرن: أعظمن «5» ، وقيل «6» : حضن، وليست من كلام العرب، وعسى أن يكون من شدة ما أعظمنه حضن.

32 فَاسْتَعْصَمَ: امتنع طالبا للعصمة.

33 السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ: أي: حبيب «7» ، لا أن الحبّ جمعهما، ثم السجن أحب إليّ من الفحشاء «8» ./ [47/ أ] .

---

(1) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن: 1/ 308: «أفعلت من العتاد، ومعناه: أعدت له

متكئا» .

وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 216 ، وتفسير الطبري : 16/ 69 ، ومعاني

الزجاج :

3/105 . [. . . . .]

(2) ذكره الفراء في معاني القرآن : 2/ 42 ، والطبري في تفسيره : 16/ 70 .

(3) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 216 ، وأخرجه الطبري في تفسيره :

(16/ 72 - 74) عن مجاهد ، وقتادة ، وعكرمة ، وابن إسحاق ، وابن زيد .

(4) عن تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 216 .

(5) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن : 1/ 309 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن :

217 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : (16/ 75 ، 76) عن مجاهد ، وقتادة ،

والسدي ، وابن زيد .

ونقله النحاس في معاني القرآن : 3/ 422 عن مجاهد ، ثم قال : «وهذا هو الصحيح» .

(6) أورده أبو عبيدة في مجاز القرآن : 1/ 309 فقال : «ومن زعم أن أَكْبَرْنَهُ : حضن ،

فمن أين ؟ وإنما وقع عليه الفعل ذلك ، لو قال : أكبرن ، وليس في كلام العرب أكبرن : حضن

، ولكن عسى أن يكون من شدة ما أعظمنه حضن» .

وأورد هذا القول أيضا الطبري في تفسيره : 16/ 76 ، والزجاج في معاني القرآن :

3/ 106، والنحاس في معانيه: 3/ 422، وجميعهم ضعف هذا القول.

(7) العبارة في «ج»: أي: حبيب لأن «أفعل» يقتضي أن الحب جمعهما . . .

(8) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره: 16/ 88 عن السدي.

(162/389)

أَصْبُ: أمل «1».

36 مِنَ الْمُحْسِنِينَ: في عبارة الرؤيا «2»، وقيل «3»: كان يداوي مرضاهم، ويعزّي حزينهم، ويعين المظلوم، وينصر الضعيف، ويجتهد في عبادة ربه.

37 لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ: كان يخبر بما غاب مثل عيسى عليه السلام «4»، فقدم هذا على التعبير ليعلما ما خصّه الله به.

و«التأويل» الخبر عما حضر بما يؤول إليه فيما غاب.

42 فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ: أي: ذكر يوسف لملكه «5»، أو أنسى

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 311، وتفسير الطبري: 16/ 88، ومعاني النحاس:

3/ 424، وقال الزجاج في معانيه: 3/ 108: «يقال: صبا إلى اللّهو يصبو صبوا،

وصبيّا، وصبّا، إذا مال إليه».

(2) ذكره النحاس في معاني القرآن: 3/ 426.

ونقله الماوردي في تفسيره: 2/ 269، وابن الجوزي في زاد المسير: 4/ 223 عن ابن إسحاق.

(3) أخرجه الطبري في تفسيره: 16/ 98 عن الضحاك، وقتادة.

ونقله النحاس في معاني القرآن: 3/ 426، والماوردي في تفسيره: 2/ 268، والقرطبي في تفسيره: 9/ 190 عن الضحاك.

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير: 4/ 223، وقال: «رواه مجاهد عن ابن عباس».

(4) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره: 2/ 269 عن الحسن رحمه الله تعالى.

وكذا ابن الجوزي في زاد المسير: 4/ 224، والقرطبي في تفسيره: 9/ 191.

(5) فيكون الناسي على هذا القول صاحبه الذي كان معه في السجن.

وقد أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: (16/ 109، 110) عن ابن إسحاق، ومجاهد، وقتادة.

ونقله الماوردي في تفسيره: 2/ 271 عن ابن إسحاق.

قال النحاس في معانيه: 3/ 428: «وذلك معروف في اللغة أن يقال للسيد: رب...».

الشيطان أن يذكر اللّه «1» وسوّل له الاستعانة بغيره وزيّن الأسباب التي ينسى معها .

والبضع ما دون العشر ، من ثلاث إلى عشر «2» .

44 أَضْغاثُ أَحْلامٍ : أخلاطها وألوانها «3» ، و«الضّغث» : ملء الكف من الحشيش الذي فيه كل نبت «4» ، والضغث : ما اختلط من الأمر «5» .

وفي حديث عمر «6» - رضي اللّه عنه - : «اللّهم إن كتبت عليّ إثما أو ضغثا فامحه عنّي فإنك تمحو ما تشاء» .

45 وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ : بعد انقضاء أمّة من الناس «7» .

---

(1) يكون الناسي على هذا القول يوسف عليه السلام .

ذكره الطبري في تفسيره : 16/ 111 ، والزجاج في معانيه : 3/ 112 .

ونقله النحاس في معاني القرآن : 3/ 429 عن مجاهد .

وعزاه ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 227 إلى مجاهد ، ومقاتل ، والزجاج .

(2) ذكره الماوردي في تفسيره : 2/ 271 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وقال ابن عطية في المحرر الوجيز : 7/ 517 : «و البضع في كلام العرب اختلف فيه ،

فالأكثر على أنه من الثلاثة إلى العشرة، قاله ابن عباس، وعلى هذا هو فقه مالك رحمه الله في الدعاوى والأيمان».

وقال الطبري في تفسيره: 16/ 115: «والصواب في «البضع»، من الثلاث إلى التسع، إلى العشر، ولا يكون دون الثلاث. وكذلك ما زاد على العقد إلى المائة، وما زاد على المائة فلا يكون فيه بضع. [.....]

(3) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 217، وتفسير الطبري: 16/ 117، وتفسير الماوردي: 2/ 272.

(4) مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 312، وغريب القرآن لليزيدي: (183، 184)، وتفسير الطبري: 16/ 117، ومعاني القرآن للزجاج: 3/ 112، وتفسير الماوردي: 2/ 272، والمفردات للراغب: 297، واللسان: 2/ 164 (ضغث).

(5) اللسان: 2/ 163 (ضغث).

(6) الحديث في الفائق للزمخشري: 2/ 341، وغريب الحديث لابن الجوزي: 2/ 12، والنهاية: 3/ 90، وتهذيب اللغة للأزهري: 8/ 5.

قال ابن الأثير: «أراد عملا مختلطا غير خالص. من ضغث الحديث إذا خلطه، فهو فعل بمعنى مفعول. ومنه قيل للأحلام الملتبسة: أضغاث».

(7) نص هذا القول في تفسير الماوردي: 2/ 273 عن الحسن رحمه الله تعالى.

والقول المشهور في المراد ب «الأمّة» هنا هو الحين من الدهر ، وقد أخرجه الطبري في تفسيره : (16/ 120 ، 121) عن ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، والسدي ، وعكرمة .

وانظر معاني القرآن للزجاج : 3/ 113 ، ومعاني النحاس : 3/ 432 ، والمحرر الوجيز :

7/ 522 ، وتفسير القرطبي : 9/ 201 .

(164/389)

---

47 تَزْرَعُونَ . . . دَأَباً : نصب على المصدر «1» لأن تَزْرَعُونَ يدل على تدأبون ، أو هو حال «2» ، أي : تزرعون دائبين ، كقوله «3» : وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً ، أي : راهيا .

48 يَأْكُلْنَ : يؤكل فيهن ، على مجاز : ليل نائم «4» .

49 يُغاثُ : من الغيث «5» ، تقول العرب : «غثنا ما شئنا» «6» .

يَعْصِرُونَ : أي : العنب «7» ، أو ينجون «8» ، و«العصرة» النجاة من

---

(1) إعراب القرآن للنحاس : 2/ 332 ، والمحرر الوجيز : 7/ 526 ، والتبيان للعكبري :

2/ 734 ، وتفسير القرطبي : 9/ 203 .

(2) والوجه الذي ذكره المؤلف على تقدير حذف مضاف .

ينظر البحر المحيط : 5/ 315 ، والدر المصون : 6/ 510 ، وتفسير القرطبي : 9/ 203 .

(3) سورة الدخان : آية : 24 .

(4) أورده ابن عطية في المحرر الوجيز : 7/ 528 ، وقال : «وهذا كثير في كلام العرب» .

وانظر تفسير الطبري : 16/ 126 ، وتفسير الماوردي : 2/ 275 ، وزاد المسير : 4/ 233 .

(5) أي : المطر .

ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 218 ، وتفسير الطبري : 16/ 128 ، وزاد المسير :

4/ 234 ، والبحر المحيط : 5/ 315 ، وتفسير ابن كثير : 4/ 318 .

(6) أي : مطرنا ما أردنا .

اللسان : 2/ 175 (غيث) ، والدر المصون : 6/ 510 .

(7) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 218 .

وأخرج نحوه الطبري في تفسيره: (16/ 129، 130) عن ابن عباس، ومجاهد، والسدي، وقتادة.

ونقله الماوردي في تفسيره: 2/ 275 عن قتادة، ومجاهد.

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير: 4/ 234، وقال: «رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والجمهور».

(8) هذا قول أبي عبيدة في مجاز القرآن: 1/ 313، واليزيدي في غريب القرآن: 184 ورده الطبري في تفسيره: 16/ 131 بقوله: «وكان بعض من لا علم له بأقوال السلف من أهل التأويل، ممن يفسر القرآن برأيه على مذهب كلام العرب، يوجه معنى قوله: وَفِيهِ يَعْصِرُونَ إلى: وفيه ينجون من الجدب والقحط بالغيث، ويزعم أنه من «العصر» و«العصرة»، التي بمعنى المنجاة...».

(165/389)

الجوع والعطش، و«تعصرون» «1»: تمطرون من قوله «2»: وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ.

51 حاشَ لِلَّهِ: عياذا به وتنزيها من هذا الأمر «3».

تقول: كنت في حشا فلان: ناحيته، وتركته بحياش البلاد: بالبعد من أطرافها، وهو لا

ينحاش من شيء: لا يكترث «4».

حَصْحَصَ الْحَقُّ: ظهر وتبين «5» من جميع وجوهه. من حصّ رأسه: صلع «6»، أو من الحصّة، أي: بانت حصّة الحق من الباطل.

وقال الأزهريّ «7»: هو من حصحص البعير بثفناته «8» في الأرض إذا برك حتى يتبين آثارها فيه.

---

(1) بضم التاء على البناء للمفعول، قراءة عيسى البصري، وهي شاذة.

ينظر المحتسب: 1/ 345، والبحر المحيط: 5/ 316، والدر المصون: 6/ 511.

[.....]

(2) سورة النبأ: آية: 14.

(3) المفردات للراغب: 136، وتفسير البغوي: 2/ 430، وتفسير القرطبي: 9/ 207.

(4) ينظر ما سبق في تهذيب اللغة: 5/ 142، واللسان: (6/ 290، 291) (حوش).

(5) مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 314، وغريب القرآن لليزيدي: 184، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 218، ومعاني القرآن للنحاس: 3/ 438، والمفردات للراغب: 120.

(6) تفسير الطبري: 16/ 140، وتفسير الماوردي: 2/ 277، وتفسير القرطبي: 9/ 208.

وفي تهذيب اللغة: 3/ 401: «إذا ذهب الشعر كله قيل: رجل أحصّ وامرأة حصّاء».

وانظر اللسان: 7/ 13 (حوص)، والدر المصون: 6/ 513.

(7) لم أقف على قوله في مظانه في تهذيب اللغة، وهو في تفسير الفخر الرازي: 18/ 157، والدر المصون: 6/ 513 دون نسبة.

(8) الثفنات: جمع «ثفنة»، وهي ما يقع على الأرض من أعضائه إذا استناخ وغلظ، كالركبتين وغيرها.

الصحاح: 5/ 2088، واللسان: 13/ 78 (ثفن).

(166/389)

---

55 خَزائِنِ الْأَرْضِ: معنى اللام تعريف الإضافة لأنها بدل منها، أي: خزائن أرضك «1»، وسأل ذلك لصلاح العباد بحسن تدبيره لها.

[47/ ب] 62 بِضاعَتَهُمْ: وكانت/ ورقا «2»، وإنما ردها ليتوسع بها أبوه وقومه

«3» .

63 نَكْتَلْ : وزنه [نفتل] «4» محذوف العين، سأله المازنيّ «5» عن ابن السكّيت «6» عند الواثق «7» ، فقال : «نفعل» قال : فماضيه - إذا -

---

(1) تفسير الطبري : 16/ 148 ، وتفسير الماوردي : 2/ 280 ، والكشاف : 2/ 328 ، والبحر المحيط : 5/ 319 .

(2) تفسير الطبري : 16/ 157 ، وتفسير الماوردي : 2/ 285 .

والورق : الدرهم المضروبة وربما سميت الفضة ورقا .

ينظر الصحاح : 4/ 1564 ، واللسان : 10/ 375 (ورق) .

(3) ذكره الطبري في تفسيره : 16/ 157 .

(4) في الأصل : «نفتعل» ، والمثبت في النص عن «ج» .

(5) المازني : (- 249 ه) .

هو بكر بن محمد بن حبيب بن بقيّة المازني ، أبو عثمان .

الإمام النحويّ ، من أهل البصرة .

من مؤلفاته : ما تلحن فيه العامة ، وكتاب الألف واللّام والتصريف وعليه شرح ابن جني المسمّى «المنصف» .

أخباره في : طبقات النحويين للزّبيدي : 87 ، وتاريخ بغداد : 7/ 93 ، ومعجم الأدباء :

7/ 107 ، وسير أعلام النبلاء : 12/ 270 ، وبغية الوعاة : 1/ 463 .

(6) ابن السكّيت : (- 244 ه) .

هو يعقوب بن إسحاق بن السّكّيت البغدادي أبو يوسف .

صنّف إصلاح المنطق ، والقلب والإبدال وكتاب الألفاظ ، والأضداد . . . وغير ذلك .

أخباره في : طبقات النحويين للزبيدي : 202 ، ومعجم الأدباء : 20/ 50 ، ووفيات الأعيان :

6/ 395 ، وبغية الوعاة : 2/ 349 .

(7) يريد الواثق بالله الخليفة العباسي كما في معجم الأدباء لياقوت : 7/ 117 ، وأورد المناظرة التي جرت بينهما كاملة .

وفي طبقات النحويين للزبيدي : 203 ، ووفيات الأعيان : (6/ 397 ، 398) ، وسير أعلام النبلاء : 12/ 17 أن المناظرة كانت في مجلس محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم .

وذكر الذهبي في موضع آخر من سير أعلام النبلاء : (12/ 271 ، 272) أن المناظرة كانت في مجلس الخليفة المتوكل . وهو موافق لما ذكره القفطي في إنباه الرواة : 1/ 250 .

[. . . . . .]

«كتل» «1» .

64 فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً : مصدر ، كقراءة من قرأ : خير حفظا «2» ، كقوله «3» :

أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ أي : دعاء اللّه .

65 ما نَبْغِي : ما الذي نطلب بعد هذا «4» ؟ .

نَمِيرُ أَهْلَنا : نحمل لهم الميرة وهي ما يقوت الإنسان «5» .

وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ : كان يعطي كل واحد منهم حمل بعير .

ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ : نناله بيسر .

---

(1) أورد الزجاجي هذه المناظرة في مجالس العلماء : 230 مسندة إلى أبي عثمان المازني أنه قال : «جمعني وابن السكيت بعض المجالس ، فقال لي بعض من حضر : سله عن مسألة - وكان بيني وبين ابن السكيت ودّ ، فكرهت أن أتهجمه بالسؤال ، لعلمي بضعفه في النحو ، فلما ألح عليّ قلت له : ما تقول في قول اللّه جل وعزّ : فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ ما وزن «نكتل» من الفعل ولم جزمه ؟ فقال : وزنه «نفعل» وجزمه لأنه جواب الأمر . قلت له : فما ماضيه ؟ ففكر وتشوّر ، فاستحييت له ، فلما خرجنا قال لي : ويحك ما حفظت الود ، خجّلتني بين الجماعة .

فقلت : والله ما أعرف في القرآن أسهل منها » . قال : وزن نكتل نفتعل ، من اكتال يكتال ، وأصله نكتيل ، فقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ثم حذفت الألف لسكونها وسكون اللام فصار نكتل .

(2) بكسر الحاء من غير ألف .

وهي قراءة ابن كثير ، ونافع ، وأبي عمرو ، وابن عامر ، وعاصم في رواية أبي بكر .

السبعة لابن مجاهد : 350 ، والتبصرة لمكي : 229 .

(3) سورة الأحقاف : آية : 31 .

(4) تكون «ما» على هذا القول استفهامية .

قال الفخر الرازي في تفسيره : 18/ 174 : «والمعنى لما رأوا أنه رد إليهم بضاعتهم قالوا :

ما نبغي بعد هذا ، أي : أعطانا الطعام ، ثم رد علينا ثمن الطعام على أحسن الوجوه ، فأي شيء نبغي وراء ذلك ؟» .

وذكر الزمخشري هذا الوجه في الكشاف : 2/ 331 ، وابن عطية في المحرر الوجيز : 8/ 18 ، وأبو حيان في البحر : 5/ 323 ، ورجحه السّمين الحلبي في الدر المصون : 6/ 519 .

(5) مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 314، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 219، والمفردات للراغب: 478، واللسان: 5/ 188 (مير).

(168/389)

---

66 إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ: إلا أن تهلكوا جميعا «1».

67 لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ: خاف عليهم العين «2».

69 فَلا تَبْتَئِسْ: أي: لا تبأس، أي: لا يكن عليك بأس بعملهم، والسّقاية والصّواع والصّاع «3»: إناء يشرب فيه ويكال أيضا «4».

والعير: الرفقة «5».

70 إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ: كان ذلك من قول الخازن أو الكيّال، ولم يعلم من جعل السقاية فيه، ولو كان قول يوسف فعلى أنهم سرقوه من أبيه «6».

73 وَما كُنَّا سارِقِينَ: لأنهم ردوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم «7».

75 مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ: كان حكم السارق في دين بني

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 16/ 163 عن مجاهد.

ونقله الماوردي في تفسيره: 2/ 287، وابن الجوزي في زاد المسير: 4/ 253 عن

مجاهد أيضا .

(2) ذكره الفراء في معانيه : 2/ 50 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 219 .

وأخرجه الطبري في تفسيره : (16/ 165 ، 166) عن ابن عباس ، وقتادة ،

والضحاك ، ومحمد بن كعب ، والسدي .

(3) من قوله تعالى : فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا

الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ [آية : 70] ومن قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ

زَعِيمٌ [آية : 72] .

(4) عن تفسير الماوردي : 2/ 289 ، ونص كلامه : «والسقاية والصواع واحد قال ابن

عباس :

وكل شيء يشرب فيه فهو صواع» .

وانظر معاني القرآن للفراء : 2/ 51 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 315 ، وتفسير

البغوي : 2/ 439 ، وتفسير القرطبي : 9/ 229 .

(5) تفسير الماوردي : 2/ 289 ، وتفسير الفخر الرازي : 18/ 182 .

(6) ينظر القولان السابقان في تفسير الماوردي : 2/ 289 ، وتفسير البغوي : 2/ 439

، وزاد المسير : (4/ 257 ، 258) ، وتفسير الفخر الرازي : 18/ 183 ، وتفسير

القرطبي :

9/ 231.

(7) ذكره الطبري في تفسيره: (16/ 181، 182)، والزجاج في معانيه: 3/ 121.

وانظر تفسير الماوردي: 2/ 290، وتفسير الفخر الرازي: 18/ 184.

(169/389)

إسرائيل أن يسترقّه صاحب المال «1».

وتقدير الإعراب: جزاؤه استرقاق من وجد في رحله فهذا الجزاء جزاؤه، كما تقول: جزاء السارق القطع فهو جزاؤه لتقرير البيان «2».

76 كَذلِكَ كِدْنا: صنعنا»

ودّبرنا، أو أردنا «4»، أو كدنا إخوته له ووعظناهم بما دبّرنا في أمره.

ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ: كان حكم السارق الضرب والضمان في دين الملك «5».

---

(1) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 220، وتفسير الطبري: 16/ 182، وتفسير الماوردي:

2/ 291 ، وتفسير البغوي : 2/ 440 .

(2) وفي الآية ثلاثة وجوه أخرى .

ينظر معاني القرآن للزجاج : 3/ 121 ، وإعراب القرآن للنحاس : 2/ 338 ، والتبيان للعكبري : 2/ 739 ، والبحر المحيط : 5/ 331 ، والدر المصون : (6/ 529 - 532) . [. . . . .]

(3) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (16/ 186 - 188) عن مجاهد ، والضحاك ، والسدي .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 291 عن الضحاك ، وابن عطية في المحرر الوجيز : 8/ 32 عن الضحاك ، والسدي .

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 261 ، وقال : «قاله الضحاك عن ابن عباس» .

ونقل القرطبي هذا القول في تفسيره : 9/ 236 عن ابن عباس .

وأما قول المؤلف «و دبرنا» عطفا على «صنعنا» فهو قول آخر ذكره الماوردي في تفسيره : 2/ 291 عن ابن عيسى ، والقرطبي في تفسيره : 9/ 236 عن ابن قتيبة .

وذكره البغوي في تفسيره : 2/ 440 دون عزو .

(4) ذكره البغوي في تفسيره : 2/ 440 دون عزو .

ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 261 ، والقرطبي في تفسيره : 9/ 236 عن ابن

الأنباري.

(5) تفسير البغوي: 2/ 440، وزاد المسير: 2/ 261.

وقال الفخر الرازي في تفسيره: 18/ 186: «والمعنى: أنه كان حكم الملك في السارق أن يضرب ويغرم ضعفي ما سرق، فما كان يوسف قادرا على حبس أخيه عند نفسه بناء على دين الملك وحكمه، إلا أنه تعالى كاد له ما جرى على لسان إخوته أن جزاء السارق هو الاسترقاق».

(170/389)

إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ: من استرقاق السارق على دين بني إسرائيل «1».

وموضع أَنْ نصب لإمضاء الفعل إليها عند سقوط [الباء] «2»، أي: بمشيئة الله «3».

وتسريق أخيه مع براءته احتيال تضمّن وجوها من الحكمة: من أخذه [48/ أ] عنهم على حكمهم، وأن أخاه كان عالما بالقصة فلم يكن بهتانا وأن/ القصة كانت بغرض الظهور وأنه كالتلعب بهم مع ما جدّوا في إهلاكه، ويكون ذلك من الملاينة والمقاربة، وأنه جعل لهم مخلصا لو فطنوه، فإنه جعل بضاعتهم في رحالهم ولم يعلموا فهلّا قالوا: الصّواع جعلت في

رحالنا بغير علمنا «4» .

77 فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ : قيل : كان يوسف في صباه - أخذ شيئًا من الدار [و دفعه] «5» إلى سائل «6» .

وقيل : كان في حضانة عمته ، فلما أراد يعقوب أخذه منها على كراهتها جعلت مخنقة «7» في جيبه من غير علمه وسرّقته لتسترقه فتمسكه «8»

---

(1) عن تفسير الماوردي : 2/ 291 .

(2) في الأصل : «الهاء» ، والمثبت في النص عن «ك» .

(3) معاني القرآن للزجاج : 3/ 122 .

(4) تفسير الماوردي : 2/ 292 .

(5) في الأصل : ودفعها ، والمثبت في النص عن «ج» .

(6) ذكر البغوي هذا القول في تفسيره : 2/ 441 عن مجاهد .

(7) كذا في «ك» ، وكتاب وضح البرهان للمؤلف . وورد في المصادر التي ذكرت هذا الخبر :

«منطقة» .

قال ابن الأثير في النهاية : 5/ 75 : «والمنطق : النطاق ، وجمعه : مناطق ، وهو أن تلبس المرأة ثوبها ، ثم تشد وسطها بشيء وترفع وسط ثوبها ، وترسله على الأسفل عند معاناة

الأشغال، لئلا تعثر في ذيلها».

(8) أخرجه الطبري في تفسيره: 16/ 196 عن مجاهد وكذا ابن أبي حاتم في تفسيره: 273 (سورة يوسف). ونقله الماوردي في تفسيره: 2/ 293، وابن الجوزي في زاد المسير:

4/ 263، والقرطبي في تفسيره: 9/ 239 عن مجاهد أيضا. وأورده السيوطي في الدر المنثور: 4/ 563، وزاد نسبته إلى ابن إسحاق، عن مجاهد.

- وحكاه ابن عطية في المحرر الوجيز: 8/ 36 عن الجمهور.

(171/389)

---

80 فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا: يئسوا «1».

نَجِيًّا: جمع «ناج» «2».

وَمِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ: موضع ما نصب بوقوع الفعل عليه، وهو وما بعده بمنزلة المصدر «3» كأنه: ألم تعلموا ميثاق أبيكم وتفريطكم.

و «الكظيم» «4»: الصّابر على حزنه «5»، من «كظم الغيظ»، أو الممتلئ حزنا كالسقاء المكظوم «6».

85 تَفْتَؤُا: لا تفتؤا «7»، أي: لا تنفك.

---

(1) غريب القرآن لليزيدي: 186، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 220، وتفسير الطبري:

16/ 203، ومعاني القرآن للنحاس: 3/ 450.

(2) فيكون «ناج» على قول المؤلف من النجاة، وهو السالم من الهلاك وليس من النجوى، ولم أقف على قوله فيما رجعت إليه من المصادر.

والذي ورد في كتب المعاني والتفسير أن «نجيا» بمعنى النجوى وجمعه أنجية.

ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 315، وتفسير الطبري: 16/ 204، ومعاني الزجاج:

3/ 124، والبحر المحيط: 5/ 235، والدر المصون: 6/ 638، واللسان: 15/ 308 (نجا).

(3) ينظر إعراب القرآن للنحاس: 2/ 341، والمحرر الوجيز: 8/ 44، والكشاف: 2/ 337، والتبيان للعكبري: 2/ 742، وتفسير القرطبي: 9/ 242، والبحر المحيط: 5/ 336، والدر المصون: 6/ 539. [.....]

(4) من قوله تعالى: وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ [آية: 84].

(5) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 221، وقال: «أي» كاظم، كما تقول: قدير وقادر. والكاظم: الممسك على حزنه، لا يظهره، ولا يشكوه».

ورجح ابن عطية هذا الوجه في المحرر الوجيز: 8/ 51.

وانظر تفسير الماوردي: 2/ 297، وتفسير البغوي: 2/ 444، وزاد المسير: 4/ 271، وتفسير القرطبي: 9/ 249.

(6) ذكره الزمخشري في الكشاف: 2/ 339.

وانظر المحرر الوجيز: 8/ 51، وتفسير القرطبي: 9/ 249.

(7) قال الطبري في تفسيره: 16/ 221: «وحذفت «لا» من قوله: تَفْتَؤُا وهي مرادة في الكلام، لأن اليمين إذا كان ما بعدها خبرا لم يصحبها الجحد، ولم تسقط «اللام» التي يجاب بها الأيمان وذلك كقول القائل: «والله لآتينك» وإذا كان ما بعدها مجحودا تلقيت ب «ما» أو ب «لا»، فلما عرف موقعها حذفت من الكلام، لمعرفة السامع بمعنى الكلام».

حَرَضاً : مريضا مدنفا «1» ، أحرضه الهمّ : أبلاه ، وأحرض الرجل :

ولد له ولد سوء ، وهو حارضة قومه : فاسدهم «2» .

86ثّيِ

: هو تفريق الهمّ بإظهاره عن القلب .

و«التحسّس» «3» : طلب الشّيء بالحسّ .

88 مُزْجاةٍ : يسيره لا يعتدّ بها .

89 هَلْ عَلِمْتُمْ : معنى هَلْ ها هنا التذكير بحال يقتضي التوبيخ «4» ، والذي فعلوه بأخيه

هو إفراده عن أخيه لأبيه وأمه مع شدّة إذلالهم إياه .

إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ : أي : جهل الصبا فاقتضى أنهم الآن على خلافه ، ولو لا ذلك لقال : وأنتم

جاهلون ، وحين قال لهم هذا أدركته الرقّة فدمعت عينه «5» .

92 لا تَثْرِيبَ : لا تعيير «6» . ثرّب : عدّد ذنبه .

---

(1) معاني القرآن للفراء : 2/ 54 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 221 ، وتفسير

الطبري :

16/ 221 ، ومعاني القرآن للزجاج : 3/ 126 ، والمفردات للراغب : 113 .

(2) تهذيب اللغة : 4/ 205 ، واللسان : (7/ 134 - 136) (حرض) .

(3) من قوله تعالى : يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ . . . [آية : 87] .

(4) ينظر تفسير الفخر الرازي : 18/ 207 ، وتفسير القرطبي : 9/ 255 ، والدر المصون :

6/ 551 .

(5) أخرجه الطبري في تفسيره : 16/ 243 عن ابن إسحاق .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 301 ، والبغوي في تفسيره : 2/ 446 عن ابن إسحاق أيضا .

(6) قال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 222 : «لا تعيير عليكم بعد هذا اليوم بما صنعتم ، وأصل التثريب : الإفساد . يقال : ثرّب علينا : إذا أفسد » .

وانظر تفسير الطبري : 16/ 246 ، ومعاني القرآن للنحاس : 3/ 456 ، وتفسير الماوردي : 2/ 302 ، واللسان : 1/ 235 (ثرب) .

(173/389)

94

تُفَنِّدُونِ : تعذلون «1» .

95 ضَلالِكَ الْقَدِيمِ : محبتك «2» أو محنتك «3» .

100 وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ: وكانوا بادية، أهل وبر ومواش.

والبادية: القوم المجتمعون الظاهرون للأعين «4»، وعادة العامة أن البادية بلد الأعراب.

نَزَغَ الشَّيْطانُ: أفسد ما بينهم.

106 وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ: هو إيمان المشركين/ [48/ ب] بالله «5» وأنه الخالق الرازق ثم الأصنام شركاؤه وشفعاؤه.

وقيل «6»: إنه مثل قول الرجل: لولا الله وفلان لهلكت.

---

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 318، وتفسير الطبري: 16/ 252.

ونقل الماوردي هذا القول في تفسيره: 2/ 304 عن ابن بحر، وأنشد لجرير:

يا عاذليّ دعا الملامة واقصرا طال الهوى وأطلتما التفنيدا

وقيل في معنى تُفَنِّدُونِ تسفهون، وقيل: تكذبون، وقيل: تقبحون، وقيل: تضللون، وقيل: تهرّمون.

ذكر هذه الأقوال القرطبي في تفسيره: 9/ 260، ثم قال: «وكله متقارب المعنى، وهو راجع إلى التعجيز وتضعيف الرأي...».

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: (16/ 256، 257) عن قتادة، وسفيان الثوري، وابن جريج.

وانظر تفسير الماوردي: 2/ 305، وتفسير الفخر الرازي: 18/ 212.

(3) ذكر نحوه الماوردي في تفسيره: 2/ 305 عن مقاتل.

(4) اللسان: 14/ 67 (بدا). [.....]

(5) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره: (16/ 286- 288) عن ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة.

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير: 4/ 294، وقال: «رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعكرمة، والشعبي، وقتادة».

(6) نقله الماوردي في تفسيره: 2/ 312 عن أبي جعفر.

وقال الحسن «1»: هم أهل الكتاب معهم شرك وإيمان. وإنما كان اليهوديّ مشركا مع توحيده لأن عظم جرمه بجحده النّبوّة قد قام مقام الإشراك في العبادة. وجاز أن يجتمع كفر وإيمان ولا يجتمع صفة مؤمن وكافر لأن صفة مؤمن مطلقا صفة مدح ويتنافى استحقاق المدح والذم.

109 وَلَدارُ الْآخِرَةِ: دار الحالة الآخرة، كقوله «2»: وَحَبَّ الْحَصِيدِ: أي: وحبّ الزّرع الحصيد.

110 حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا : بالتشديد «3» الضمير للرسل .

والظن بمعنى اليقين ، أي : لما استيأس الرسل من إيمان قومهم وأنهم كذبوهم جاءهم نصرنا

، وبالتخفيف «4» الضمير للقوم ، أي : حسب القوم أن الرسل كاذبون فهم على هذا

مكذوبون لأن كل من كذبك فأنت مكذوبه ، كما في صفة الرسول - عليه السلام -

الصّادق المصدوق ، أي :

صدّقه جبريل عليه السلام .

وسئل سعيد بن جبير عنها - في دعوة حضرها الضحاك «5» مكرها -

---

(1) نص هذا القول عن الحسن - رحمه اللّه - في الكشاف للزمخشري : 2/ 346 .

وذكره القرطبي في تفسيره : 9/ 272 عن الحسن ، وقال : «حكاه ابن الأنباري» .

(2) سورة ق : آية : 9 .

(3) قراءة ابن كثير ، ونافع وأبي عمرو ، وابن عامر .

السبعة لابن مجاهد : 351 ، والتيسير للداني : 130 .

وانظر توجيه هذه القراءة في معاني القرآن للزجاج : 3/ 132 ، والكشف لمكي : 2/

15 ، والدر المصون : 6/ 565 .

(4) قراءة عاصم ، والكسائي ، وحمزة . كما في السبعة لابن مجاهد : 352 ، والتبصرة

لمكي :

.230

وانظر معاني القرآن للزجاج: 3/ 132، والكشف لمكي: (2/ 15، 16)، وتفسير القرطبي: (9/ 275، 276)، والبحر المحيط: 5/ 355.

(5) هو الضحاك بن مزاحم الهلاليّ، تابعي، حدّث عن ابن عباس، وابن عمر، وأنس بن مالك، وسعيد بن جبير . . . وغيرهم.

قال عنه الحافظ في التقريب: 280: «صدوق كثير الإرسال، من الخامسة».

ترجمته في سير أعلام النبلاء: (4/ 598 - 600)، وطبقات الداودي: 1/ 222.

(175/389)

فقال: نعم حتى إذا استيئس الرسل من قومهم أن يصدقوهم وظن قومهم أن الرسل كذبوهم. فقال الضحاك: ما رأيت كاليوم قط، رجل يدعى إلى علم فيتلكأ! ! لو رحلت في هذا إلى اليمن لكان يسيرا «1». انتهى انتهى. اهـ ﴿معانى القرآن/ للغزنوى حـ 1 صـ 430.449﴾

---

(1) أخرجه الطبري في تفسيره: 16/ 300.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 4/ 597، وزاد نسبته إلى ابن المنذر.

(176/389)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة يوسف

عدد 3 - 53 و12

نزلت بمكة بعد سورة هود عدا الآيات 2 و3 و7 فإنهن نزلن بالمدينة ، وهي مئة واحدي عشرة آية ، ومثلها في عدد الآي سورة الإسراء فقط ، وألف وستمئة كلمة ، وستة آلاف وستون حرفا ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "الر" تقدم ما فيه أول سورتي هود ويونس المارتين فراجعهما وما يرشدانك إليهما "تِلْكَ" الآيات المنزلة عليك يا سيد الرسل هي "آياتُ الْكِتابِ" الأزلي المدون في اللوح المحفوظ "الْمُبِينِ" 1 لكل شيء من علوم الدنيا والآخرة .

(177/389)

وها تان الآيتان المدنيتان من هذه السورة ، قال تعالى "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا" سمي بعض القرآن قرآنا لأنه اسم جنس يقع على القليل والكثير ، وكما يطلق على الكل يطلق على البعض ، ولا يرد ما قيل إن بعض كلماته أعجمية في الأصل على قوله عربيا كاليم والقسطاس وغيرهما ، لأنها عربية قبل نزول القرآن والعرب يتكلمون بها قديما بما يدل على أن الأصل استعمالها في اللغة العربية والأعاجم أخذوها منها كغيرها من الكلمات المستعملة عندهم ، راجع الآية 182 من الشعراء المارة في ج 1 تجد ما يتعلق في هذا البحث مستوفيا ، وقد يكون بعضها من باب توارد اللغات كما يكون في الشعر أحيانا من باب توارد الخاطر ، وسبب إنزاله باللغة العربية "لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" 2 معانيه وتتدبرونها فتعلمون المراد منها ، ولو أنزله بلغة أخرى لاحتججتم وتقدمتم بالأعذار من عدم فهمه وصعوبة تعلمه ، فيا أكمل الرسل إنا "نَحْنُ" إله السموات والأرض "نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ" في هذه السورة قصة واقعة قبل زمنك مدونة في الكتب القديمة ، ولكن كل ما نقصه في هذا القرآن أحسن مما قصصناه قبل وأوسع وأصح ، لأن الكتب الموجودة لعبت فيها أيدي غير طاهرة فبدلت وغيرت فيها لذلك لا يعتمد على ما جاء فيها إذا كان مخالفا لما في هذا القرآن ، وقد قصصناها عليك الآن كاملة لتقصها على قومك لما فيها من العبر والحكم ، والنكت ، والفوائد الدينية والدنيوية ، وسير الملوك ، والمماليك ، والعلماء ، ومكر النساء ، والصبر على الأعداء وحسن التجاوز عنهم بعد اللقاء ، والعفو عند

المقدرة ، ومكارم الأخلاق ، ومحاسن الآداب ، بصورة

مفصلة لم يعلمها غيرك ، كما سنقص عليك في غير هذه السورة قصصا أخرى غير ما تقدم

لتحيط علما بما كان وما سيكون من علمنا الأزلي .

قال خالد بن سعداه : يتفكه أهل الجنة بسورة يوسف وسورة مريم وسماعهما يريح كل

محزون .

والقصص بفتح القاف اتباع الخبر

بعضه بعضا ، وبالضم جمع قصة وهي الحكاية تذكر شيئًا فشيئًا ، أي إنا نبين لك يا أكرم

الرسل أخبار الأمم الماضية أحسن بيا ن ، ولذلك قال أحسن القصص وكل قصص القرآن

حسن ، وفيه ما هو أحسن ، قال سعد بن أبي وقاص : أنزل القرآن على رسول اللّه فتلاه

على أصحابه زمانا ، فقالوا يا رسول اللّه لو قصصت علينا ، فنزلت هذه السورة .

وقيل إن كفار مكة أمرتهم طائفة من اليهود أن يسألوا رسول اللّه عن السبب الذي أحل بني

إسرائيل في مصر ، فسألوه ، فنزلت .

وقيل قالت اليهود لمشركي مكة صلوا محمدا عن أمر يعقوب وقصة يوسف مع اخوته ،

وكانت عندهم بالعبرانية ، فأنزل اللّه هذه السورة ليفهمها للعرب .

وقدمنا في المقدمة أن القرآن منه ما نزل بسبب أو على سؤال أو حادثة ، ومنه ما نزل بغير ذلك ، فلا يشترط للنزول سبب ، بحيث لم ينزل بشيء من القرآن إلا بسبب ، تدبر "بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ" قبل نزوله وإيحائه إليك "لَمِنَ الْغافِلِينَ" 3 عنه يا محمد وعما فيه من أخبار الأمم الماضية ، وقصص الأنبياء ، وكيفية الخلق مما لم يخطر ببالك أننا ننزل عليك وحينا ولم تتصور إخبارنا لك عن عجائب أخبار الأولين .

وما في صدر الآية مصدرية ، وإن مخففة من الثقيلة ، واللام في لمن الفارقة بينها وبين ان النافية ، انتهت الآيتان المدنيتان الأوليان .

قال تعالى واذكر يا محمد لقومك "إِذْ قالَ يُوسُفُ" وهو الكريم بن الكريم بن الكريم "لِأَبِيهِ" يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليهم السلام المتصل نسب سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم إليه وهو :

نسب كان عليه من شمس الضحى نورا ومن ضوء الصباح عمود

"يا أَبَتِ" بتاء التأنيث المعوضة عن ياء الإضافة لتناسبها ، لأن كل واحدة منها زائدة في آخر الاسم ، ولهذا تقلب هاء بالوقف ، وجاز إلحاق تاء التأنيث بالمذكر كما في رجل ربعة ، وكسرت التاء لتدل على الياء المحذوفة ، ومن فتح التاء فقد حذف الألف في يا أبتاه ، واستبقى ما قبلها كما فعل في حذف الياء في غلام ، ومقول القول قوله "إِنِّي رَأَيْتُ" رؤيا منامية .

واعلم أيها القارئ أنا سنأتي على هذه القصة تدريجيا بحسب نزولها ليكون أوقع في النفس وأقرب للفهم ، وأخصر للفظ ، وحذرا من تكرارها ، فتدبرها تباعا من أولها في هذه الآية إلى آخر

الآية . . .

منها "أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ" 4" جمعها جمع من يعقل وقال رأيتهم ولم يقل رأيتها لأنه أخبر عنها بفعل العقلاء كقوله تعالى "يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ" الآية 18 من سورة النمل في ج 1 لتنزيلها منزلة العاقل ، ومثل هذا كثير في القرآن حتى في الأصنام لهذه العلّة "قالَ يا بُنَيَّ" صغره تعظيما له وشفقة عليه أو لعذوبة اللفظ

وقال له "لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ" هذه الآن "عَلَى إِخْوَتِكَ" فإن لها مغزى عظيما وأخاف إذا قصصتها عليهم أن يحسدوك عليها لما يتخيلون من معناها "فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا" عظيما يخشى عليك من عاقبته ، أمره عليه السلام بكتمان رؤياه ، لأنه عرف من معناها أن اللّٰه تعالى يصطفيه لنبوته وينعم عليه في الدارين ، وإن لها عاقبة حسنة ، فحذرا من أن يتفرس إخوته بتأويلها فيغاروا منه فيحتالوا عليه فيهلكوا ، لأنهم وإن كانوا عقلاء فلا يؤمن عليهم من اتباع وساوس الشيطان ، لذلك قال "إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ" أراد جنسه ليشمل كل أفراده الأنبياء ، فمن دونهم قبل نبوتهم ، لأنه بعدها لا تأثير له عليهم لعصمتهم من قبل اللّٰه "عَدُوٌّ مُبِينٌ" 5 عداوته لأنه لم يخفها منذ أظهرها لآدم عليه السلام ، وإنما قال يا بني بالتصغير حنانا عليه ورأفة به ، لأنه كان يحبه حبا مفرطا أوجب حسد إخوته له قبل الرؤيا ، فإذا سمعوا هذه الرؤيا يزداد حسدهم ويفتح لهم الشيطان باب التزيين لإهلاكه .

ولهذا خاف عليه من أن يبيّن لهم نتيجة محبة أبيه وما يؤول أمرهم منها ، ويحسن لهم التخلص منه ويبين لهم سبلها قبل أن يكبر فيعجزوا عنه ويسيطر عليهم .

مطلب في الرؤيا وماهيتها وما يفعل رائيها وفي الحواس العشرة :

روى البخاري ومسلم عن أبي قتادة قال كنت أرى الرؤيا تمرضني حتى سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول الرؤيا الصالحة من اللّه ، والرؤيا السوء من الشيطان ، فإذا رأى أحدكم ما يحبّ فلا يحدث بها إلا من يحب ، وإذا رأى أحدكم ما يكره فليتفل عن يساره ثلاثا .

ويتعوذ باللّه من الشيطان الرجيم وشرّها فإنها لا تضره .

وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبّها فإنها من اللّه فليحمد اللّه عليها وليحدث بها (أي من يحب حملا للمطلق على المقيد لأن الحديث الأول قيد التحدث بها لمن يحبه الرائي) وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنها من الشيطان فليستعذ باللّه من الشيطان ومن شرها ، أي ويفعل كما فعل بالحديث السابق ولا يذكرها فإنها لا تضره .

وروى مسلم عن جابر رضي اللّه عنه قال إن رسول صلى اللّه عليه وسلم قال إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا وليستعذ باللّه من الشيطان الرجيم ثلاثا وليتحول عن جنبه الذي كان عليه .

لم نعرف نحن مدخلية البصق على اليسار والتحول عن الجنب الذي كان عليه لكن القائل يعرفه حق المعرفة لأنه لا ينطق عن هوى ، فعلى العاقل أي يفعل ما أمره به نبيه وحبيبه صلى اللّه عليه وسلم ، فهو سبب السلامة من المكروه الذي يراه ، كما أن الصدقة سبب

للوقاية في المال والجسم ودفع البلاء وأخرج الترمذي وأبو داود عن أبي ذر العقيلي قال قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزءا من النبوة .

وفي رواية من ستة وأربعين وهي على رجل طائر ما لم تعبّر ، فإذا عبرت وقعت ولا نقصها إلا على وادّ وذي رأى .

وهذه الرؤيا التي تحتمل وجودها ، فإذا عبر بأحدها وقع واللّه أعلم .

(182/389)

وقدمنا أول الإسراء في ج 1 والآية 142 في الأعراف في ج 1 أيضا ، وفي الآية 94 من سورة يونس المارة ما يتعلق بهذا البحث فراجعه ترشد إلى المواقع المتعلقة في هذا البحث وفي رؤية اللّه عز وجل أيضا ونزيدك هنا إيضاحا ، فاعلم رعاك اللّه ان حقيقة الرؤيا خلق اللّه في قلب المؤمن النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان ، وجعلها علما على أمور أخرى يجعلها في ثاني الحال وهو يفعل ما يشاء لا يمنعه نوم ولا يقظة ، وماهيتها عبارة عن ارتسام صورة المرأى وانتقاشها في مرآة القلب في النوم ، فيحتفظ بها المؤمن بعد اليقظة ، راجع الآية 60 من سورة الإسراء في ج 1 .

واعلم ان الحواس ظاهرة وباطنة ، فالظاهرة خمس :

السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، والباطنة خمس أيضا : المفكرة والذاكرة والحافظة والمخيلة والواهمة والحس المشترك ، وتسمى هذه الحواس والحس المشترك المعدود في الباطنة قوى ، ويسميها المناطقة والمتكلمون العقول العشرة ، ولكل واحدة منها كوكب يضيء يدرك به معنى يناسبه سواء في اليقظة أو في النوم .

(183/389)

وقال علماء الصوفية الرؤيا من باب العلم ولكل علم معلوم ، ولكل معلوم حقيقة ، وتلك الحقيقة صورته ، والعلم عبارة عن وصول تلك الصورة إلى القلب وانطباعها فيه ، سواء كان في النوم أو في اليقظة ، فلا محل له غير القلب ، ولما كان عالم الأرواح متقدما في الوجود والمرتبة على عالم الأجسام ، وكان الإعداد الرباني الموصل إلى الأجسام موقوفا على توسط الأرواح بينها وبين الحق ، وتدبير الأجسام مفوض إلى الأرواح وتعذر الارتباط بين الأرواح والأجسام للمباينة الذاتية الثابتة بين المركب والبسيط ، فإن الأجسام كلها مركبة والأرواح كلها بسيطة ، فلا مناسبة ولا ارتباط بينهما ، وما لم يكن ارتباط لا يحصل تأثير ولا تأثر ، ولا إمداد ولا استمداد ، فلذلك خلق الله تعالى عالم المنازل برزخا جامعا بين عالم الأرواح وعالم الأجسام ليصبح ارتباط أحد العالمين بالآخر ، فيتأتى حصول التأثير

والتأثر ووصول الامداد والتدبير ، وهكذا شأن روح الإنسان مع جسمه الطبيعي العنصري الذي يدبره ويشتمل عليه علما وعملا .

ولما كانت المباينة ثابتة بين روح الإنسان وبدنه ، وتعذر الارتباط الذي يتوقف عليه التدبير ووصول المدد اليه خلق اللّه تعالى لنفسه الحيوانية برزخا بينهما أي بين البدن والروح المفارق ، فنفسه الحيوانية في ميزانها قوة معقولة ، فهي بسيطة تناسب الروح المفارق ، ومن حيث انها مشتملة بالذات على قوى مختلفة متكثرة منبئة في أقطار البدن متصرفة بتصرفات مختلفة ومحمولة أيضا في البخار الضبابي الذي هو في التجويف الأيسر من القلب الصنوبري يتناسب المزاج المركب من العناصر .

فحصل الارتباط والتأثير والتأثر وتأتى وصول المدد ، فإذا علمت ما وضحناه لك أعلاه فأعلم أن القوى الخيالية التي في نشأة الإنسان من كونه نسخة من العالم المثالي المطلق كالجزء بالنسبة إلى الكل وكالجدول بالنسبة إلى النهر الذي هو مشروعه ، وكما أن طرف الجدول الذي يلي النهر متصل به فكذلك عالم الخيال الإنساني من حيث طرفه الأعلى متصل بعالم المثال ، والمثال نوعان مطلق ومقيد ، فالمطلق ما حواه العرش المحيط من جميع

الآثار الدنيوية والأخروية ، والمقيد نوعان : نوع مقيد بالنوم ، ونوع غير مقيد به مشروط بحصول غيبة أو فتور عما في الحس ، هذا وأول ما يراه الأنبياء عليهم السلام الصور المثالية في النوم والخيال في اليقظة ، ثم يترقّبون إلى أن يروا الملك في المثال المطلق والمقيد يقظة مع فتور في الحس وكونهم مأخوذين عن الدنيا عند نزول الوحي ، إنما هو مع بقاء العقل والتمييز ليس إلا ، ولهذا لم ينقص وضوءهم لأنهم عليهم السلام تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم ، كما جاء عنه صلى اللّه عليه وسلم في الصحيح ، وهذه ميزة اختص بها اللّه أنبياءه دون سائر البشر ، كما خصهم بالرسالة والنبوة ، فلا مجال لقول بذلك والسؤال عن السبب فيه ، لأنه من أفعال اللّه تعالى وأن أفعاله لا تعلل ، وإنما لم تنم قلوبهم تبعا لأعينهم مثلنا لأن بواطنهم متحلية بصفات اللّه متخلقة بأخلاقه ، مطهرة من أوصاف البشرية من كل ما فيه نقص ظاهر بالإضافة إلى ذروة الكمال ، فضلا عن كل ما يذم لأنه عجز وضعف وآفة ، ولو حلّت الآفة قلب النّبي الذي هو عمود بدنه الشريف لجاز أن يحل فيه سائر الآفات الأخرى ، من توهم في الوحي والغفلة عنه والسّآمة منه وفزع يمنعه عن واجب عليه ، وحاشاهم من ذلك ، وقد ذكرنا قبلا في مطلع هذا البحث أن الرؤيا عبارة عن اعتقادات يخلقها اللّه

تعالى في قلب النائم ، وأن تلك الاعتقادات تكون علما على أمور أخر يخلقها اللّه في ثاني الحال أو حال اليقظة ، والحال الأول هو النوم وهذا قول الإمام محي الدين النووي رحمه اللّه نقلا عن المازني ، وتتمته فما يكون علما على ما يسر يخلقه اللّه تعالى بغير حضرة الشيطان ، وما كان علما على ما يضرّ يخلقه بحضرته أي عند الرائي فيسمى الأول رؤيا وتضاف اليه تعالى اضافة تشريف ، ويسمى الثاني حلما وتضاف إلى الشيطان كما هو الشائع من إضافة كل مكروه إليه ، وإن كان الكل من اللّه تعالى .

وهذا معنى ما جاء فى قوله صلى اللّه عليه وسلم الرؤيا من اللّه والحلم من الشيطان لأن الرؤيا اسم للمحبوب ، والحلم للمكروه ، ولهذا لا ينبغي أن يقول رأيت حلما بل رؤيا .

وقال المحدثون إذا كانت الرؤيا صادقة فهي أحاديث الملك الموكل به أي النائم ، وإن كانت كاذبة

فهي وساوس الشيطان والنفس ، وقد يجمع بين قول المحدثين وقول المازني الذي نقله النووي بأن القصد من أنها اعتقادات إلخ أي اعتقادات تخلق

بواسطة الملك أو وسوسة الشيطان مثلا ، وقد تكون الرؤيا مما يحوك في صدر الرائي قبل

النوم من أمور الدنيا والآخرة ، فتنطبع له بمثال خيالي في نومه .

واعلم أن المسببات في المشهور عن الأشاعرة مخلوقة له تعالى عند الأسباب لا بها ، تدبر .

وقال الفلسفيون الرؤيا انطباع الصور المنحدرة من أفق القوة المخيلة إلى الحس المشترك ، فالصادقة منها إنما تكون بالملكوت لما بينهما التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ فتتصور بما فيها مما يليق بها من المعاني الحاصلة هناك ، ثم إن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبها فترسلها إلى الحس المشترك فتصير مشاهدة ، ثم إن كانت المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكلية والجزئية استغنت عن التعبير وإلا احتاجت إليه .

(187/389)

واعلم أن الرؤيا كالرؤية من حيث الرسم ، والمعنى على القول الصحيح ، إلا أن منهم من خص الأولى بالنوم والثانية باليقظة وجعل الفرق بينها ، حرفي التأنيث كالقربى والقربة ، وذكرنا أول سورة الإسراء أن كلا منهما يطلق على الآخر فلا فرق بينهما ، وفيه تعليل نفيس فراجعه ، قال تعالى "وَكَذَلِكَ" أي مثل ما اصطفى اللّه غيرك من الأنبياء "يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ" في الدنيا لإرشاد عباده وفي الآخرة لقربه في نعيم الجنان مما رفع منزلتك في هذه الرؤيا ، واجتباء اللّه تعالى للعبد اصطفاؤه له وتخصيصه بفيض إلهي يحصل له منه أنواع المعجزات

أو الكرامات بلا سعي منه ، وهذا لا يكون إلا للأنبياء ومن يقاربهم من الصديقين العارفين "وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ" التي يرونها الناس في منامهم بحيث يلقى ما تؤول به في قلبك ، فكان عليه السلام أعلم الناس في تأويل الرؤيا وإنما خصه اللّه تعالى بهذه الزيادة على غيره ممن تقدمه من الأنبياء ، كما خصّ كثيرا من أنبيائه بخصائص متباينة ، فالتي خصّها بهذا لم يعطها لغيره راجع الآية 14 من سورة النمل في ج 1 لأن خلاصه من السجن مقدر على تعبيره رؤيا الملك الآتية كما هو مقدر في سابق علمه "وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ" الدنيوية التي نبشرك بها في الرؤيا "عَلَيْكَ" بنعمته الأخروية فيكمل لك نعمة النبوة ونعمة الملك في الدنيا ونعمة النعيم وتجلي المنعم في الآخرة "وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ" من أهله ونسله يتمها أيضا عليهم "كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ" يعقوب "إِبْراهِيمَ" حيث خلصه

من الإحراق وشرفه بالنبوة واتخذه خليلا وفدى ولده إسماعيل من الذبح "وَإِسْحاقَ" إذ أخرج من صلبه يعقوب ومن صلب يعقوب الأسباط الاثني عشر الذين أنت أحدهم وشرفهم بالنبوة ومنّ على أبيهم فجعله أبا الأنبياء كلهم من بعد نوح "إِنَّ رَبَّكَ" الذي رباك وحفظك مما قدره عليك "عَلِيمٌ" بمن يستحق الإعطاء والاصطفاء "حَكِيمٌ 6" يضع

الأشياء مواضعها ، ولا يفعل شيئًا إلا بحكمة وعن حكمة لحكمة وفي حكمة ، وقد حقق اللّه تعالى لسيدنا يوسف ذلك ، إذ تاب عليهم بعد فعلتهم به ، وحفظه منهم بعد أن هموا بقتله ، وردّه على أبيه بعد أن قارب قلبه اليأس منه وخلصهم جميعا من قشف البداوة وجعل فيهم الملك والنبوة ، وهذه الآية المدنية الثالثة من هذه السورة .

مطلب الآية المدنية ، وأسماء أخوة يوسف وأسماء الكواكب والكيد ليوسف منهم :

قال تعالى "لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ" أي في خبرهم وقصتهم معه وهم شمعون ولاوى ويهوذا وزلبون ويشجز من ليّا زوجته يعقوب الأولى بنت ليّان بنت خاله ودان وتفتوتا وجاد واستين من جاريته زلفه وبلهة ويوسف وبنيامين من راحيل أخت ليا .

وأسماء الكواكب التي رآها في منامه هي : 1 أجريان 2 - والطارق 3 - والدنيال 4 - وقابس 5 - وعمودان 6 - والفليق 7 والصبح 8 - والضروع 9 - والفرخ 10 - ووثاب 11 - وذو الكتفين .

وهم كناية عن أخوته الأحد عشر المار ذكرهم ، والشمس والقمر عن أمه وأبيه ، وكان بين مبدأ الرؤيا وتحقيقها أربعين سنة ، إذ كان عمره حين الرؤيا اثنتي عشرة سنة ، وحين الإلقاء

في البئر سبع عشرة سنة ، وحين الخروج ثماني عشرة سنة ، وحين الخروج من السجن أربعين سنة ، إذ أدخل فيه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ومكث في بيت العزيز خمس عشر سنة وحين السجود اثنتين وخمسين سنة ووقع خلال ذلك "آياتٌ" عظيمات وعبر وعظات "لِلسَّائِلِينَ 7" عنها أخيرا في المدينة المنورة وهم اليهود إذ وجدوها موافقة لما في كتبهم وأوضح وأنصح وأبلغ مما فيها ودلالة على نبوة محمد صلى اللّه عليه وسلم ، لأنهم سمعوها منه وهو أمي فكانت برهانا على أنها وحي من اللّه عز وجل بلا شك ولا شبهة وكون هذه الآية والآيتين قبلها 2/ 3 مدنيات مروي عن قتادة وابن عباس رضي اللّه عنهم ومثبت في الكتب التي ذكرناها بالمقدمة في بحث مأخذ هذا التفسير ، لذلك لا يلتفت إلى قول من قال أنهن مكيات والبينة تقام على الإثبات لا على النفي ، قال تعالى واذكر لقومك يا سيد الرسل تفاصيل هذه القصة التي كثر السؤال عنها "إِذْ قالُوا" أخوة يوسف إلى بعضهم واللّه "لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ" بنيامين "أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ" أقسموا قسمين على جهتين أصابوا في الأولى هذه وأخطأوا في الثانية ، وهي "إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ 8" ظاهر في عمله هذا .

والعصبة الجماعة جمع لا واحد له من لفظه كالرمط والنفر والفلك والنساء ، والواو للحال أي كيف يكون هذا وهما اثنان ونحن جماعة ويفضلهما علينا ويحبهما أكثر منا مع أنه لا

فائدة له منهما لصغرهما ، فكيف إذا كبرا ورأى منهما ما يرى منا الآن من المنافع والخدمة ونحن القائمون بمصالحه ، ونحن أحق بمودته منهما .

(190/389)

واعلم أن سبب هذه المودة والمحبة لهما لصغرهما ووفات أمهما أو لأمر تفرسه فيهما ، وهذا أقرب لأنه لو كان الحب بسبب الصغر لأحب بنيا مين أكثر من يوسف ، ولكنه عليه السلام رأى فيه من مخايل الخير ما لم يره فيهم ، وزاد ذلك ما فهم من مغزى الرؤيا وليس هو بالصغير ليقال لصغره ، والصغير محبوب عند كل أحد ، قيل لابنة الحسن أي بنيك أحب إليك ؟ قالت الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يحضر ، والمريض حتى يشفى .

وقيل في هذا المعنى :

إن البنان الخمس أكفاء معا والحلي دون جميعها للخنصر

وإذا الفتي فقد الشباب سماله حب البنين ولا كحب الأصغر

وهذان البيتا ن وقبلهما بيتا ن للوزير أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري .

هذا وأنه عليه السلام لم يفضله إلا بالمحبة القلبية ، وهي خارجة عن وسع البشر لأنها أمر باطني ، وليس في طوقه دفعها ، يؤيد هذا قوله صلى اللّه عليه وسلم اللهم هذا قسمي فيما

أملك ولا قدرة لي على ما لم أملك .

وذلك لأنه من مقتضيات حس الأرواح التي هي من أمر اللّه وقد وقع منهم هذا قبل النبوة على القول المعتمد فلا يعد حسدهم

هذا لأخويهما ورمي أباهما بالعقوق المستفاد من قولهم (لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) وإلقائهم أخاهم في البئر قادح في نبوتهم ، لأن العصمة بعد التشرف بالنبوة ، ويجوز قبلها أن يقع من النبي مثل ذلك ، وقدمنا ما يتعلق بعصمة الأنبياء في الآية 23 من سورة الأعراف والآية 2 من سورة طه في ج 1 وكذلك في الآية 15 من سورة القصص المارة فراجعها .

ثم بين تعالى ما قرّ عليه رأيهم من الكيد ليوسف بقوله "اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً" بعيدة بدلالة التنكير أي أن التخلص منه بأحد أمرين : إما بقتله أو تغريبه في مكان بعيد ، لأن التغريب يحصل به المقصود كالقتل وجرمه هين خفيف ، وقيل في هذا :

حسنوا القول وقالوا غربة إنما الغربة للأحرار ذبح

و قال بعضهم لبعض إذا فعلتم أحد هذين الأمرين بيوسف "يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ" من يوسف وأخيه ويقبل عليكم بكليته لا يلتفت إلى غيركم ، والمراد بالوجه الذات ، قال تعالى

(وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ) الآية 35 من سورة الرحمن في ج 3 ، ولفظ الوجه بهذا المعنى مكرر كثيرا في القرآن ، لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه فلذلك خص الوجه "وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ" أي تنفيذ الأمر الذي تجمعون عليه من أحد الأمرين "قَوْماً صالِحِينَ 9" بأن تتوبوا إلى ربكم من جرمكم فيعف عنكم "قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ" هو يهوذا على الأصح لأنه صاحب مشورتهم وأحسنهم رأيا ، يدل عليه لفظ قائل المنوّن وإلا لقال أحدهم أو أكبرهم "لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ" لأن القتل جريمة عظيمة أخاف أن لا تغفر لكم ، وإذا كنتم لا بد فاعلين يا اخوتي خذوه "وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ" قعره المظلم وأسفله العميق .

والغيابة كل موضع ستر شيئا وغيبه عن النظر .

والجب البئر الكبيرة غير المطوية ، فإذا طرحتموه فيها حصل المقصود من تغريبه ، إذ قد "يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ" الواردين على الجب فيأخذونه إلى بلادهم ، هذا رأي لكم "إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ 10" به ما ترومون افعلوا ما أشرت به عليكم ، وهذا الجب معروف عندهم لذكره بال التعريفية ، قيل هو بئر بيت المقدس ، وقيل في الأزرق ، والأحرى أن يكون البئر الموجود الآن قرب صفد في فلسطين

المسمى حتى الآن ببئر يوسف ، فاستصوبوا رأيه مع أن فيه إشارة إلى عدم الفعل بدليل قوله (إِنْ كُنْتُمْ) إلخ ، أي إذا كنتم مصرين على الإيقاع بيوسف فافعلوا فيه ما ذكرت لكم فهو أهون جرما عند اللّه ، وفيه أمل ، ثم ذهبوا إلى يوسف وصاروا يرغبونه بالذهاب معهم إلى البرية وحسنوا له النزهة في البادية ، وأروه من اللطف والعطف ما حدا به أن يكلفهم بأن يقولوا لأبيهم ليأذن له بالذهاب معهم إلى المرعى ، وأنه هو موافق ومحبذ ذلك ، ويمنعه أدبه أن يتقدم لك بهذا ، وكان ما كان وجاءوا إلى أبيهم

(193/389)

"قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ" أنطقهم اللّه تعالى بما يوقع الريبة في قلب أبيهم ، حتى إذا وقع منهم ما يلام عليه يلوم نفسه ، لأنهم لم يقولوا له مالك لا ترسل يوسف معنا ، بل قالوا مالك لا تأمنا عليه ليذهب إلى المرعى يتسلى بين أزهار الأرض ويستنشق ريحها العذب مع رغبته بذلك ، لأنه كلفنا أن نستأذنك بالسماح له "وَإِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ 11" فلا تخف عليه فإنا نشفق عليه ونريد له الخير ، ولا غرو إنه عليه السلام أحس منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه من إيماء هذه الآية ، ثم ألحّوا عليه بقبول رجائهم ، فقالوا "أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ" معنا في البرية الواسعة ليتمتع بنضارتها وبهجتها ، ومعنى الرتع الاتساع في

الملاذ وأصله أكل البهائم في الخصب من الربيع ، ثم أكدوا له رعايتهم إليه وعنايتهم به ومناظرتهم إليه بقولهم "وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ 12" له من كل مكروه ، وكيف لا تكون له كذلك وفيه رضاك ولم يزالوا به راجين ليأذن لهم بأخذه ليتسع صدره بالتفرج على الصيد والرمي والجري الذي يفعلونه بالبادية ، وبعد أن أكدوا له مقالتهم بأصناف التأكيد ، إذ أوردوا الجملة اسمية وحلوها بأن واللام وأسندوا حفظه إليهم جميعا "قَالَ" يعقوب عليه السلام "إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ" أي مجرد ذهابكم به يؤلمني لشدة مفارقته علي وقلة صبري عن رؤيته ، وقرىء ليحزني بالإدغام ثم قال وإنه ليريبني أن تهملوه وتتركوه وحده بانشغالكم عنه بالرعي والصيد "وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ" وقرىء بالياء كما قرىء يأكله بدون همز ، ولم يأت لفظ الذئب بغير هذه السورة ، قالوا إنما قال هذا لأنه رأى في منامه ذئبا شدّ عليه ولم يعلم أن قوله هذا الذي

أنطقه به اللّه فيه تعليم لمكيدتهم ، إذ لم يقع في نجواهم شيء من هذا ولم يخطر ببالهم أن الذئب يأكل البشر إذ ذاك ، قال الشاعر :

ومن سرّه أن لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئًا يخاف له فقدا

ثم ألهمه اللّه زيادة على ذلك بأن يبين لهم ما يعتذرون به فختم كلامه بقوله "وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ 13" لاهون بصيدكم ولعبكم ورميكم ، فقد لقنهم عليه السلام ما يحتجون به وما يعتذرون منه إليه وقد وقع هذا القول منه عليه السلام لأولاده لأن الأنبياء عليهم السلام لمناسبتهم التامة بعالم الملكوت تكون واقعاتهم واقعة ، ومن الأمثال : البلاء موكل بالمنطق . أخرج أبو الشيخ وغيره عن ابن عمر رضي اللّه عنهما قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لا تلقنوا الناس فيكذبوا فإن بني يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الناس ، فلما لقنهم أبوهم كذبوا ، فقالوا أكله الذئب .

والحزن ألم القلب لفقد محبوبه .

والخوف انزعاج النفس لنزول المكروه "قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ 14" عاجزون هالكون إذا لم نقدر على حفظه من الذئب بل من الأسد ، كيف وهو أعزّ شيء عندنا ، فلما رأى عزمهم على حفظه وحزمهم على محافظته بعد أن أقسموا إليه بإزالة ما خطر بباله واطمأنوا على سلامته ورأى رغبة يوسف بالذهاب معهم ، عهد إليهم بمراقبته ، وتعهدوا إليه بذلك كله ، أذن لهم به ، ففرح يوسف لموافقة أبيه ولم يصدقوا متى ينقضي الليل ، فلما أصبحوا أخذوه معهم "فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ" إلى البادية وبعدوا عن العمران وصرفوا النظر عن قتله اتباعا لقول يهوذا صاحب مشورتهم "وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي

غَيَابَتِ الْجُبِّ" المار ذكره فعمدوا إليه وقبضوه وطرحوه فيه .

هذا ما قصه اللّه علينا في كتابه .

(195/389)

أما الأخباريون فقالوا لما بعدوا به عن العمران أظهروا له الجفاء والعداوة مما هو كامن في صدورهم ، طفقوا يضربونه ، وصار كلما استغاث بواحد منهم ضربه ، فلما رأى عزمهم على قتله شرع يصيح يا أبتاه لو رأيت ما نزل بيوسف من اخوته لأحزنك وأبكاك ، يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك وضيعوا وصيتك ، فأخذه روبيل وضرب به الأرض وجثم على صدره ليقتله ، فاستغاث بيهوذا فأدركته رحمة الأخوة ورقّ له ، فقال يا اخوتي ما على هذا عاهدتموني فخلّصه من يده ، وقال ألقوه بالجب ، فإما أن يموت أو يلتقطه بعض السيّارة .

فذهبوا إلى بئر هناك ضيق الرأس واسع الأسفل فشدوه بحبل ودلوه فيه ، فتعلق بشفيرها وكانوا شلحوه قميصة ، فقال دعوه أستتربه ، فلم يفعلوا ، وقال لهم أتتركوني في هذه البرية وبهذا الجب فريدا وحيدا ؟ ! فقالوا له دع الشمس والقمر والكواكب يسترونك ويؤنسونك ، وأرسلوه في البئر وهو يستغيث بهم ولا مغيث ، ولما بلغ نصف البئر ألقوه إرادة

موته ، وكان في البئر ماء فسقط فيه ، وتركوه ورجعوا وقالوا إن ملكا أرسله اللّه إليه فحلّ وثاقه ، وأخرج له صخرة من البئر فأجلسه عليها ، وقالوا إن يعقوب لما بعثه مع إخوته أخرج له قميص إبراهيم الذي كساء اللّه إياه في النار حين ألقي فيها وهو من الجنة ، فجعله في قبعته وجعلها في عنقه ، فأخرجه الملك وألبسه إياه ، فأضاء له الجب من بريقه ، وعذب ماء الجب ، وصار له غذاء وشرابا ، ولما نهض الملك ليذهب وكان جبريل عليه السلام قال له يوسف إذا خرجت استوحشت ، فقال له إذا رهبت فقل : يا صريخ المستصرخين ، ويا غوث المستغيثين ، ويا مفرج كرب المكروبين ، قد ترى مكاني ، وتعلم حالي ، ولا يخفى عليك شيء من أمري ، فقالها فاستأنس وحفته الملائكة .

(196/389)

قال تعالى "وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ" في البئر حال صغره كما أوحينا إلى عيسى ويحيى من بعده في صغرهما ، وكان عمره سبعة عشرة سنة كما قدمناه في الآية 7 المارة "لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا" الذي فعلوه بك وأنت صاحب السلطة عليهم "وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ 15" أنك أنت يوسف كما أنهم لم يشعروا كيف آنسناك بالبئر وجعلنا ماءه لك طعاما وشرابا ، ولا يعلمون حينما يأتونك في مصر ليمتاروا لأهلهم وأنت عامل فيها ، ولا يعرفونك إذ يأتونها وأنت

ملكها لطول العهد وعدم تصور أذهانهم بما تصير إليه إذ ذاك من علو الشأن وعظمة السلطان ولا يدرون بأنا أعلمناك بأنك ستخبرهم بصنيعهم هذا معك ، وفائدة هذا الوحي تطبيب قلبه وإزالة الهم عنه وغم الوحشة تقوية لجنانه ، وهذا الوحي إما بواسطة الملك الذي كان معه في البئر أو بإلهام من اللّه ، والأول أولى لما مر .

قالوا ولما أتموا فعلتهم هذه لم يروا ما يعتذرون به إلا ما لقنهم أبوهم ، فعمدوا إلى

(197/389)

ذبح سخلة ولطخوا ثوبه بدمها ليعرضوه إلى أبيهم علامة على صدقهم المموّه قال تعالى "وَجاؤُ أَباهُمْ عِشاءً" تأخروا عن موعدهم كل يوم تبريرا لعذرهم وصاروا "يَبْكُونَ 16" بأعلى صوتهم عند ما دخلوا الدار ، فقال لهم يعقوب ما لكم هل أصاب أغنامكم شيء ؟ قالوا لا وإنما أصابنا ما هو أعظم ، فأحسّ هنالك وقال أين يوسف "قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ" في العدو والرمي في البادية "وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا" ثيابنا وزهابنا "فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ" حال غفلتنا عنه "وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا" ونعلم أنك لا تصدقنا بهذا "وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ 17" حقيقة فيما ذكرناه لك من واقع الحال لشدة محبتك له بل قد تتهمنا بالكذب ، وقد تقدموا له بعدم تصديقهم لأنهم كاذبون مختلقون ما قالوه ، وقالوا له إن الدليل على

صدقنا هو هذا المحكي عنهم بقوله تعالى "وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ" دم سخلة ، ومما يثبت كذبهم أن القميص غير ممزق ولا يعقل أن ذئبا يأكل إنسانا وهو لابس قميصه ولا يمزقه ، كما لا يعقل أنه نزع عنه القميص ثم أكله ، لذلك كذبهم "قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً" عظيما أو قعتموه بيوسف ، فاذكروا إلي ما هو حقا ، قالوا لا غير ذلك ، وأنكروا عليه أمره وأصروا على أقوالهم ، فأعرض عنهم وقال "فَصَبْرٌ جَمِيلٌ" لا شكوى فيه إلا إلى اللّه ، ولا جزع ولا تحدث بالمصاب لغيره ، ولا تزكية للنفس "وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ" به على ما أنا عليه لا أطلب العون من غيره "عَلى ما تَصِفُونَ 18" من الكذب في أمر يوسف ، قال هذا إظهارا للتجلد وعزما على الصبر ، وتفويضا لأمر اللّه ، قال ابن الفارض :

ويحسن إظهار التجلد للعدى ويقبح غير العجز عند الأحبة

أي لا يحسن إظهار التجلد والصبر على صدمات الدهر مطلقا ، بل يحسن للأعادي ، أما عند الأحبة فيحسن العجز ، لأن إظهار التجلد عندهم قبيح جدا ، قال سحنون يخاطب ربه :

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاختبرني

قالوا فابتلاه اللّه تعالى بحصر البول ، فاعترف بعجزه ، فصار يطوف بسكك بغداد ويقول للأولاد أدعوا لعمكم الكذاب يعني نفسه ، فعفا اللّه عنه .

(199/389)

وإنما كذبهم عليه السلام لأنهم احتجوا بما قاله لهم ، ولأنه وقع في خلده كذبهم ، ولأنه يعلم حنقهم عليه ، ولذلك فعلوا فعلتهم أول يوم ذهبوا به إذ لم يبق بوسعهم تصوّره ، عفا اللّه عنهم ، هلا صبروا عليه يوما أو أسبوعا ليرى صدقهم فيما تعهدوا به ، ثم يفعلوا فعلتهم هذه ، وإن مغزى قوله تعالى (أَنْ تَذْهَبُوا) وقوله (فذهبوا) ينمّ على ذهابهم به أي إهلاكهم إيّاه ، لو قدرهم اللّه عليه ، ولكن منعهم فألقوه في البئر وأوقع في قلوبهم أن هذا الإلقاء هلاك له ، وبعد أن رأوا من أبيهم ما رأوا برد صدرهم ، وقالوا قضي الأمر بهذه الكلمات وسيزول من صدره أولا بأول ، وقد تم ما أردناه وانصرفوا لعملهم ، قال تعالى "وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ" الذي يستسقي لهم الماء ، قالوا إنه مالك بن ذعر الخزامي من أهل مدين "فَأَدْلى دَلْوَهُ" في ذلك البئر لإخراج الماء لقومه ، فتعلق يوسف بالدّلو فلما خرج إلى فمه ورآه الوارد على أحسن صورة من الغلمان ، وقد جاء في الخبر أن النبي صلى اللّه عليه وسلم

قال أعطي يوسف شطر الحسن ، قالوا وكان إذا تبسم رأيت النور في ضواحكه ، وإذا تكلم رأيت شعاع النور في ثناياه ، فلم يتمالك نفسه من شدة الفرح ، إذ "قَالَ يا بُشْرَى" خاطب أصحابه بعد أن ذهب به إليهم وهم قريب منه بقوله "هذا غُلَامٌ" خرج مع الدلو فأمسكته وأتيت به إليكم ، أن ناسا خطفوه من أهله "وَأَسَرُّوهُ" خبأوه هنا وجعلوه "بِضَاعَةً" ليبيعوه كي لا يعلم به أحد "وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ 19" لا يخفى عليه شيء من أعمال خلقه ، فابتهج به كل السيارة وكل تمنى أن يكون له ، قالوا وكان أخوه يهوذا يتعهده الفينة بعد الفينة كلما يأتي قريبا من البئر لأجل المرعى وكان يأتيه بطعام خلسة عن أخوته فيطرحه في البئر ، ولم يعلم أنه ليس بحاجة إلى طعامهم ، إذ كفاه اللّه

(200/389)

بالماء ، وأنه جاء كعادته فنظر في البئر فلم يره ، وقد مضى على إلقائه ما يقارب السنة ، وإن إخوته الآخرين لم يعلموا بعمل يهوذا ولم يتعاهدوه وظنوا أنه قد هلك من وقته ، فلما لم يجده رجع وأخبر إخوته بالأمر ، فتحسس دمهم عليه وحدا بهم داعي حب الأخوة فندبهم إلى التحري عنه ، فأجابوه وأطاعوه وساروا في طلبه

يمينا وشمالا ، فوجدوه عند السيارة ، وتحدثوا بينهم عما يقولون ، فاتفقوا على أن قالوا

هذا عبدنا أبق ونظروا إليه وهددوه بالقتل إن هو كذبهم ، فاعترف لهم بذلك خوفا منهم لما ذاق من ضرهم ، لا سيما وقد أشار إليه يهوذا بذلك وهو أرقهم عليه وأرأفهم به ، إذ لم ير العطف إلا منه ، وهو الذي خلصه من الذبح من يد روبيل ، وإذ ظهر للسيارة أنه عبد لهم بسكوته على قول إخوته وسكوته قبلا على قول الذي أخرجه من البئر طلبوا بيعه منهم ، فاتفقوا على ذلك .

مطلب جرائم إخوة يوسف وفائدة العفو وصلاح الوالدين وعظيم فضل اللّه تعالى :

(201/389)

قال تعالى "وَشَرَوْهُ" منهم "بِثَمَنٍ بَخْسٍ" ناقص عن قيمة أمثاله فيما لو فرض أنه عبد أو مبخوس حرام ، لأنه حر لا يجوز بيعه "دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ" إشارة إلى قلتها ، قالوا هي ثلاثون درهما ، لأنهم كانوا يعدون ما دون الأربعين ، والأربعون أوقية فيزنونها وزنا ، وفي هذا المبلغ عينه دلّ يهوذا الأسخريوطي اليهود على عيسى ليغتالوه ، فألقى شبهه عليه ، رفداه اللّه به ، فقتل ورفع عيسى إلى السماء كما ستوضحه في الآية 58 من النساء في ج 3 ، "وَكانُوا فِيهِ" أي تساهل أخوة يوسف في أمره حتى جعلوه عبدا وباعوه بقيمة بخسة بما يدل على أنهم "مِنَ الزَّاهِدِينَ 20" فيه الراغبين عنه لبقاء حنقهم عليه ، قالوا وبعد أن قبضوا ثمنه من

السيارة قالوا لهم استوثقوا منه لئلا يهرب منكم كما أبق منا ، قالوا وسبب بيعه لهم لأنهم لم يقدروا على أخذه من السيارة لكثرتهم ، ولم يقدروا على قتله بعد أن صار بأيديهم ، وتأسوا بقولهم قد حصل ما كنا نريده من تغريبه والذين أخذوه من أهل مصر ، وهي بعيدة عنا فيكون فيها بحكم المعدوم لعدم إمكان وصول خبره إلى أبيه ، فتركوه وذهبوا ولما وصلوا إلى مصر باعوه إلى العزيز خازن ملكها الريان بن الوليد بن يزوان من العماليق بعشرين دينارا وزوج نعل وثوبين ، هذا ولم يوقع اللّه في قلوب أخوته أن بيعه للسيارة قد يفضي إلى مجيئه أو إعلام أبيه به ، ولم يوقع في قلوبهم أن ردوه إلى أبيهم واعتذروا له وأزاحوا عن قلبه الغم والهم الذي حل فيه من أجله

بل أوقع في قلوبهم أنه صار بحكم الميت وأن حجتهم التي احتجوا بها لأبيهم تمت لئلا يظهر كذبهم لأمر أراده اللّه ، ولا يكون إلا ما أراده ، وقد اشتمل عمل أولاد يعقوب بأخيهم على عدة جرائم : 1 - قطيعة الرحم 2 - وعقوق الوالد 3 - وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له 4 - والغدر بالأمانة 5 - وترك الوفاء بالعهد 6 - والكذب 7 - وبيع الحر 8 - والافتراء بأنه عبد أبق منهم 9 وقصد القتل دون جرم 10 - واجتماعهم على هذه

الخصال التي كل واحدة منها موجبة لغضب الله فضلا عن كذبهم على أبيهم فيما أخبروه به

، ومع هذا فإن الله واسع الرحمة عفا عنهم وشرفهم بالنبوة وبارك في ذريتهم وجعل فيها

الملك والنبوة ، وذلك لصلاح والدهم وعفوه عنهم واستغفاره لهم واستغفار أخيهم لهم

وعفوه عنهم حال القدرة ، فصلاح الوالدين نافع بالدنيا والآخرة

قال تعالى (أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) الآية 20 من الطور وبمعناها الآية من سورة المؤمن والآية

141 من سورة الكهف الآتيات ، ألا فلا يقنط أحد أو ييأس من رحمة الله ولو عمل ما

عمل إذا تاب وأصلح ورد المظالم لأهلها ، راجع ما قدمناه في الآية 70 من سورة الفرقان ج

1 وهذا من عظيم فضل الله الذي ألمعنا إليه في الآية 12 من سورة القصص وقرىء يا

بشراي أي على إضافة البشرى لنفسه ، أو على كونه اسم غلام عنده ، وبعضهم أعاد

ضمير (وَشَرَوْهُ) إلى مالك المذكور وبعض رفاقه من السيارة ، أي خبأوه وجعلوه بضاعة

ليبيعوه ويختصوا بثمنه دون بقية السيارة ، وبعضهم فسر (شَرَوْهُ) باعوه ، وما مشبنا عليه

أوفق لظاهر القرآن وأنسب للمعنى .

قال تعالى "وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ" بعد وصوله إليها واسمه قطفير ويلقب بالعزيز "لِامْرَأَتِهِ" زليخا بنت يمليخا وقيل راعيل بنت رعابيل ، ومقول القول "أَكْرِمِي مَثْوَاهُ" إقامته عندك وقدمي له أحسن الطعام والشراب واكسيه أفخر الحلل وا أمري له بألين الفراش لأن فراستي فيه عظيمة ونحن ليس لنا ولد "عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا" في مصالحنا أو نربح به إذا أردنا بيعه "أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا" إذا تبين لنا صلاحه ، وكان لا يولد لها وذلك لما رأى من سيماه وأخلاقه وما هو عليه من الحسن والأدب ، قال ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة العزيز في يوسف ، وابنة شعيب في موسى ،

وأبو بكر في عمر حين استخلفه على الأمة عند موته رضي اللّه عنه "وَكَذَلِكَ" مثل ما أنجينا يوسف من القتل وأخرجناه من البئر وعطفنا عليه قلب العزيز "مَكَّنَّا" جعلنا قرارا ومكانة ومقاما عظيما كريما "لِيُوسُفَ" الصديق الصابر "فِي الْأَرْضِ" من مصر تمكينا ثابتا ، وجعلنا له فيها منزلة راسخة عليه عند عزيزها حتى إنه أمر امرأته بإكرامه وعلمها بكرامته عليه دون سائر حاشيته وغرسنا حبه في قلبه وقلب زوجته حتى صار مقربا عندهما على غيره من الخدم وصارا ينظران إليه بصفة ولد "وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ"

بغير الرؤيا التي هي السبب في خلاصه ممّا سيبتلى به من السجن وبراءته مما يتهم به ، وبملكه على مصر ، إذ أن الملك سيفوضه بكل شيء ويقيمه مقامه كما سيأتي "وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ" الذي شاءه ليوسف عليه السلام ، وهو المتولي عليه لا يكله إلى غيره حتى يبلغ منتهاه من الدارين ، وهو الذي يفعل ما يشاء له ولغيره ، ويفعل ما يريد لا رافع لأمره ولا راد لقضاه ، ولا يغلبه غالب ، وهو الذي يبلغه ما قدره له في علمه ويخلصه مما يبتلى به ، وأعاد بعض المفسرين ضمير أمره إلى يوسف ، ولا مندوحة فيه ، لأنه غالب على أمر يوسف وغيره وكافة خلقه "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ 21" صنع اللّه في يوسف وما يراد منه أن يكون ، وعلم ذلك منوط به وحده ، "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ" تقدم معنى الأشد في الآية 212 من سورة القصص في ج 1 "آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً" يقضي به بين الناس بحسب شريعة آبائه لا بمقتضى ما يراه من ملكه لأن الأنبياء يلهمون خلقة من حين الولادة ، فضلا عن أنه عليه السلام نبىء بالبئر كما مر وهو في الثامنة عشرة من عمره ، وأدخل في السجن وهو ابن ثلاث وثلاثين ، كما نبىء عيسى بالمهد ويحيي في السابعة من عمره ، راجع الآيتين 41 من سورة مريم ، و 1 من سورة طه في ج 1 ، فالنبوة سابقة

لهذا ، وما قيل إنه حين ألقي بالجب كان عمره عشر سنين ضعيف إذ يكون بقاءه في الجب ثماني سنين ، ولم يقل به أحد ، وقيل إن المراد بالحكم هنا الحكمة ، وهي في لسان الشرع العلم النافع المؤيد بالعمل ، لان العلم بدون العمل لا يعتدّ به ، والعمل بخلاف العلم سفه ، والمراد بالعلم هنا تأويل الرؤيا ، والأولى أن يؤول الحكم

على ما جرينا عليه كما عليه أكثر المفسرين ، والمراد بالعلم الفقه بالدين لأنه عليه السلام كان يرجع إليه جل أهل مصر في أمورهم ، حتى إن العزيز صار يحيل من يأتي إليه ليتحاكم مع خصمه إلى يوسف لما رأى من حدة عقله وإصابة رأيه ، لهذا فإن ما قاله ابن عباس رضي اللّه عنهما إن المراد بالحكم هنا النبوة وبالعلم الشريعة وجيه أما القول برسالته فلا ، لأنه أرسل بالسجن ، وكذلك القول بأنه أعطي شريعة خاصة أو أنزل عليه كتاب ، وهذا يقال

إذا كان هناك نص صريح يستند إليه ، وليس فليس ، "وَكَذلِكَ" مثل هذا الجزاء الحسن "نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ 22" في هذه الدنيا الصابرين على النوائب أمثال يوسف عليه السلام ، وفي الآية إعلام بأنه كان محسنا في أعماله متقنا مسالك التقوى والورع في عنفوان شبابه ، ومن هنا قال الحسن من أحسن عبادة اللّه تعالى في شبيبته آتاه اللّه الحكمة في اكتهاله ، قال تعالى "وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها" خادعته ودعته لنفسها وطلبت منه أن يواقعها ، والمراودة مفاعلة من راد يرود ، إذا جاء وذهب "عَنْ نَفْسِهِ" الطاهرة الزكية وجيء بعن

بدل من دلالة على أن السيدة زليخا زوجة العزيز نازعته في ذلك لما هو عليه من حسن الأدب والصورة ، بأن صارت تطلب منه الفعل وهو يطلب الترك ، كما تقول جاذبته عن كذا ، لأن عن ، تدل على البعد ، فكأنها تجذبه لنفسها جذبا بالغا وهو يتباعد عنها تباعدا مقصودا .

(206/389)

وهذا إعلام بكمال نزاهته وإظهار عفته ، لأن عدم ميله إليها مع دوام مشاهدته لحسنها وقربه منها مثبت لذلك ، وأن استعصاءه عليها مع كونه تحت يدها يؤذن بأنه في أعلى معارج العفّة ويعلن أنه بأسنى درجات النزاهة ، كيف لا وقد شرفه اللّه بالنبوة وزاده عليها الحكم بين الناس وتعبير الرؤيا ؟ ولما رأت عدم رغبته بما طلبته ناشىء عن أمر قلبي كرهه في تنفيذ طلبها غضبت عليه ، وجرته لداخل الدار "وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ" عليه ، واعلم أن تضعيف الفعل يدل على التكثير ، أي أنه ليس بابا واحدا بل أبواب كثيرة ، قالوا إنها سبعة ، واحد داخل الآخر والتفتت إليه "وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ" تعالى أقبل إلي ، فقد هيئت لك ، وهي لغة حوارن إذ ذاك ، أي هلم أفعل ما آمرك به ، وفيها معنى الحث على الفعل ، وقيل إن هيت بالعبرانية .

بمعنى تعال فعرّبت

إلى هيت لك ، أو أنها في الأصل كلمة عربية وافقت العبرانية كما وافقت لغة العرب لغة الروم في القسطاس ، ولغة العرب لغة الفرس بالتنور ، ولغة العرب لغة الترك في الغسّاق ، ولغة العرب لعة الحبشة في ناشئة الليل من باب توارد اللغات ، وقد مر لك تحقيق هذا وغيره من الكلمات المقول فيها أنها أجنبية مفصلا في الآية 182 من سورة الشعراء في ج 1 ، وقرىء هيئت لك بالهمز ، أي تهيأت ، وهو اسم فعل مبني على الفتح كأين ، وما قيل إنها سريانية أو قبطية أقوال لا مستند لها إلا استعمالها ، وإن استعمالها في اللغات الأخرى لا يدل على أنها منها دلالة قطعية ، لأن اللغات متداخلة بعضها في بعض ، والأحسن أن يقال عربية استعملها الغير كما أوضحناه هناك .

(207/389)

ولما سمع عليه السلام منها ذلك ورأى عزمها عليه من حالها وتعليق الأبواب عليه ولا محل للهرب منها ، صدّ عنها وولاها ظهره وصارحها بقوله "قالَ مَعاذَ اللَّهِ" اعتصم به وألجأ إليه ممّا دعوتني إليه وتريدينه مني "إِنَّهُ" زوجك العزيز "رَبِّي" ربّاني تربية حسنة وأكرمني و"أَحْسَنَ مَثْوايَ" عنده وأمرك بإكرامي ، وقد عظمت منزلتي عنده وجلّ مقامي لديه

وفوضني القضاء بين الناس قصدا لعلو شأني عندهم ، وأنت زوجته ولك من الحق عليّ مثل ما له ، فإن خنته فيك فأنا ظالم من وجهين لإقدامي على ما هو محرم وخيانتي لمن له فضل علي لأني عشت بنعمته "إِنَّهُ" أستعيذ به وألجأ إليه هو اللّه ربي وربك ورب العالم أجمع "لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ 23" عنده ولا يفرزون بالنجاح لديه والزناة يؤوبون إليه بخسران سعادة الدنيا والآخرة .

وهذا منه عليه السلام اجتناب ما وراءه اجتناب وامتناع ما بعده امتناع ، لأنه قد علله من جهات أولا أنه منكر فاحش يجب أن يعاذ منه باللّه ويلجأ إليه بالخلاص من قربانه لما علم بتعليم اللّه إياه من قبحة وسوء عاقبته ، ثانيا أن زوجها سيده وقد أحسن إليه وأوصاها بإكرامه فكيف يمكن أن يسيء إليه بالخيانة ، وهو سبب ظاهري ذكره لها علّه أن يؤثر فيها وتتأثر منه فتردع وتزجر نفسها مما سولت لها به ، ثالثا أن من يفعل هذا الفعل الخبيث يكون ظالما محروم الظفر بالبغية الطيبة والسعادة ورفاه العيش في الدنيا والآخرة .

وأن إجابة طلبها في غاية الخسة ونهاية الرذالة تجاه من يتعاهده بالخير ويعطف عليه ، وكل هذا

لم يؤثر فيها لما داخل قلبها من حبه ، فأدركته وأقبلت عليه وحرّضته وحذّرته ، فلم يفعل وأكد لها

إعراضه ، ووعظها بما أوتيه من فصاحة في اللفظ وبلاغة في المعنى وشدة في الخطاب ، وهي عن ذلك بمعزل ، فرمت نفسها إليه وعكفت بكلها عليه وهذا مغزى قوله تعالى "وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ" عزمت عزما شديدا عليه إلّا أن يفعل وقربت نفسها منه ، وهو يدافعها ولم ينجع بها الوعظ ولا غيره ، إذ لم يبق عندها المزجر مسمع ولا للتحذير من سوء العاقبة مطمع ، وهنا يحسن الوقف ثم الابتداء بقوله تعالى "وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ" وهو النبوة الجليلة ، فلولاها ولو لا حصول العصمة بها شأن كل نبي لهمّ بها وقاربها ، مثل الهم والقربان اللّه الذي فعلتهما هي ، ولكن عهد إليه بالنبوة حال دون ذلك .

وقال السيد محمد رشيد رضا في تفسيره المنسوب إلى محمد عبده : أرادت قتله حين امتنع من إجابة طلبها وهو أراد قتلها ليتخلص مما دعته إليه ، ولكن القتل أمر عظيم حال دونه مقام النبوة التي تتباعد عن كل مخالفة لما نهى اللّه .

وهو رأي جيد إلا أنه لم يقل به أحد من المفسرين ، مع أن الهم قد يأتي بمعنى القتل .

مطلب خلاصة القول بالهم وبطلان أقوال من قال به والشهادات على براءة يوسف عليه السلام :

هذا وكان الهم منه هم الطباع مع الامتناع لا كهمها هي الذي هو هم السباع المقصود منه إجراء الفعل، ولو كان كذلك وحاشاه من ذلك لما مدحه اللّه عليه بآخر هذه الآية بقوله (إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ) وقيل إنه قصدها بخاطره قصدا غير مختار، وهو من دواعي القلب ولا صنع للعبد فيما يخطر في قلبه، ولا مؤاخذة عليه بل يثاب عليه ويكتب له به حسنات كثيرة، ومن سماء ذنبا فهو بالنسبة لمقامه لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، وإلا فالهم الحقيقي منتف في حقه عليه السلام بنص قوله تعالى (لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ) وفيه كفاية، ويفهم مما تقدم أن هم النفس لا يؤاخذ عليه البشر مطلقا كما بيناه في الآية 84 من القصص في ج 1، وله صلة في الآية 254 من البقرة في ج 3، وقال إذا وطنت النفس على الهم فهو سيئة وإلا فلا، والقول الحق إن مطلق الهم لم يقع منه، ولم يجل بخاطره، ولم تحدثه

به نفسه البتة، وحاشا أن تتوطن نفس السيد يوسف على مثل ذلك الهم، وأنى لها ذلك وهي مقدسة في جسد طاهر شريف عصمه اللّه تعالى من كل شائبة.

ومن هنا تعلم سخافة قول من قال إن الشيطان جرى بينهما حتى أخذ بجيده وجيدها وجمع بينهما ، وأنى للشيطان من مقاربة من تكفل اللّه بعصمته بقوله (إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ) الآية 43 من سورة الحجر الآتية ، وقال تعالى حكاية عن إبليس (إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) الآية 41 منها أيضا ، وشناعة قول القائل إنه عليه السلام وحاشاه جلس منها مجلس الخائن ، وقباحة قول الآخر بأنه حل سراويله وصار يعالج ثيابه ، كأن هذين الخبيثين كانا ثالثهما والشيطان حاضرين معهما ، قاتلهم اللّه ، وكذب من قال أن البرهان المذكور في الآية هو أنه لما أراد مقاربتها رأى كفا مكتوبا عليه (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ كِراماً كاتِبِينَ) الآية 10 فما بعدها من سورة الانفطار الآتية التي كانت في علم اللّه الأزلي الذي لم يطلع عليه أحد غيره ، ولم يعلم بها جبريل مع قربه من ربه ، لأنه لا يعلم ما في القرآن ، وحتى القرآن لا يعلم ما هو إلا بعد نزوله ووضعه في بيت العزة ، فمن أين يا ترى رأوا ذلك الكف فإن كان كما يقول فهو كاذب ، وإن كان غيره فلا صحة له.

قال فلما رأى ذلك ولى هاربا ثم عاد فرأى (وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلًا) الآية 32 من الإسراء المارة في ج 1 ، قال فلم ينجع به ، ثم رأى الآية 284 من سورة البقرة

في ج 3 وهي ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ على ذلك الكف أيضا ، ثم انفرج سقف البيت فرأى يعقوب عاضًا على إصبعه يقول له أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء ، وأن جبريل ضربه بصدر الذي فخرجت شهوته من أنامله ، وأقوال أخر يأبى القلم كتابتها ويندى الجبين من ذكرها ، ويستحي الجاهل من سماعها فضلا عن قبولها ، وباليته استشهد بشيء مما نزل على إبراهيم فمن قبله من الأنبياء ، لأن هذه الآيات بلفظها نزلت في القرآن العظيم بعد يوسف بقرون كثيرة ، واختلاق القائل أقاله الله من رحمته بأنه حل سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية وأنه سمع صوتا يقول إياك وإياها مرتين ، وصوتا ثالثا اعرض عنها ، فلم ينجع به ، فهذه كلها أقوال واهية باطلة منكرة لا نصيب لها من الصحة ،

(212/389)

و نسبة بعضها إلى ابن عباس وغيره من خيار الناس افتراء محض وافك خالص وبهت مختلق وكذب مدبر ، وحاشاهم من هذه التهم التي لا تقع من أدنى الناس ، وقد ألصقها بهم من لا خلاق له في الآخرة ، قصد توجيه أنظار الناس إليها للأخذ بها والتصدي لكرامة الأنبياء المعصومين من النقائص المادية والمعنوية ، قاتل الله الأفاكين المنافقين ، فانظر أيها

العاقل حماك الله أن هذه الآيات التي يزعمونها ظهرت إلى السيد يوسف عليه السلام ، ولم يرتدع بها لو وقعت لأكبر زنديق وأفسق فاسق وأشقى شقي وأفجر فاجر وأدنى دنيء وأعصى العصاة وأعتى العتاة وأبغى البغاة وأطغى الطغاة لا نكف عن ذلك الفعل ، فكيف يتصور أن يتصور رؤية ذلك كله من قبل السيد يوسف ولم يرتدع وهو نبي الله معصوم بعصمته محفوظ بوقايته ؟ ! واعلم أن مما يفند هذه الأقوال ويكذبها عدم إسنادها لنقل صحيح أو

نص صريح من آية أو حديث .

وهاك الشهادات الواقعة ببراءته عليه السلام من الآيات :

أولا شهادة المرأة نفسها كما حكى الله تعالى عنها بقوله (وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) وقوله تعالى (الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) أي في قوله بريء مما عزي إليه .

وثانيا شهادة زوجها فيما حكى الله عنه في قوله (إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا) الأمر لا تتكلم به ولا تحدث أحدا فيه ، فإني عالم ببراءتك .

ثم نظر إليها بغضب وقال (وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ) بادعائك على يوسف وإسنادك الفعل إليه .

ثالثا شهادة الولد كما حكى الله عنه بقوله (وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها) إلخ (إِنْ كانَ قَمِيصُهُ

قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ) .

(213/389)

رابعا شهادة يوسف عليه السلام بقوله كما ذكر اللّه عنه (هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي) وهو لا ينطق عن هوى لاعتصامه بالنبوة الكاملة المبرأة من كل عيب ، وقوله (رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) .

خامسا شهادة اللّه تعالى ذاته بقوله عز قوله (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) ومن أصدق من اللّه قيلا ، ومن أصدق من اللّه حديثا ، فتنبه رعاك اللّه ، أبعد هذه الشهادات القاطعة يجترىء أحد على مس كرامته عليه السلام ، إلا من أعمى اللّه بصره وأعمه بصيرته ، ومن ناصب العداء لأولياء اللّه ؟ هذا ، أما ما حكاه اللّه عنه في قوله (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي) أي ما أبرىء نفسي من مجرّد الهم النفسي ليس إلّا ، على أنه يحتمل أن لا يكون هم نفسي أصلا ، وإنما قال ما قال على طريق التواضع والاعتراف بمخالفة النفس لقولها .

أما عدم ضربها لدفعها عما همّت به كما يقول بعض المنهوكين فهو لحكمة أرادها اللّه ، ولأنه

أوّلا لا يجسر عليها لأنها سيدته بحسب الظاهر وهو تحت تربيتها ونعمتها وإسارتها أيضا ، لأن سيدها اشتراه كالعبد ، ثانيا لأنه لو ضربها لتسببت في قتله وادعت أنه ضربها لعدم انقيادها له ، ثالثا لو دافعها فعلا باليد لمزقت ثيابه من قدام فيكون دللا على اقدامه بخلاف تمزيق ثيابه من خلف لأنه دليل على هروبه وتوليه عنها وتعلقها به مع نفوره منها .

(214/389)

هذا ، ومن قال إن البرهان هو الآيات التي رآها ورؤيته إياه على الصورة المذكورة ، أو أنه صنمها الذي قامت إليه وسترته لئلا يطلع عليها وغير ذلك مما بمجّه القلب ، فقد مال عن الحق وتاه عن الرشد وضل الطريق القويم وعدل عن الصراط المستقيم وما البرهان إلا ما ذكرناه وهو مقام النبوة الشريفة التي هي حجة اللّه وبرهانه ، وآيته في تحريم الزنى ، والعلم بما يستحقه الزاني من العقاب الدنيوي والأخروي .

قالوا وحينما أدخلته الدار الداخلة ضمن دور سبعة وهو لا يعلم ماذا تريد به منه وإنما طاوعها على الدخول لأنه منقاد لأمرها كسائر الخدم ، إذ لا يستطيع أحد أن يخالف أمرها ، ولما رأى أنها غلّقت الأبواب أي ردتها دون ان تنفلها بالغال ليتم مراد اللّه بطهارة السيد يوسف ، وكلفته بالفعل ، امتنع ونفر إلى الباب الأول فنفذ منه ، فتبعته فهرب إلى الثاني ،

وهكذا هو يهرب وهي تتابعه وتجذبه لجانبها وهو يزداد نفورا ، حتى خرجا إلى صحن الدار ، وكان ما كان عند باب الدار كما سيأتي .

هذا وإن نفوس الأنبياء مطهرة من كل خلق ذميم وفعل رذيل وسوء أدب ، ومجبولة على الأخلاق الطاهرة والآداب السامية والأفعال المقدسة والأقوال العالية ، وبعض هذا يحجزهم عن فعل ما لا يليق ، بل عن قربانه ، فظهر من هذا ان كل ما نقل عن ابن عباس وعلي رضي اللّه عنهم أو عن غيرهما من أعلام الإسلام بهت صرف لا ظل له من الحقيقة ، وحاشاهم أن يقدموا على أقوال هكذا ، ولا سيما

بحق خلص عباد اللّه تعالى ، ولا قصد لهؤلاء اللاصقين هذه الأقوال بهم إلا تقوية حججهم ليأخذ الناس بها ، لأنها منسوبة إلى أولئك الأعلام ، فينقلونها للخاص والعام كي يصدقوها ، ولكن من عنده لمعة من عقل أو ذرة من دين يأنف سماعها فضلا عن نقلها ، والقول بها هذا .

واعلم أن الهم نوعان هم ثابت مع عزم وقصد وعقيدة ورضى مثل هم امرأة العزيز ، ومثل هم عمرو بن صابىء الرجمي في قوله :

هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله

فهذا النوع يؤاخذ به العبد ، ولهذا لمّا أقرّ قائل هذا البيت به أمام الحجاج قتله ، وقتله له افراط وتفريط كسائر أفعاله ، عليه ما يستحق من اللّه ، لأن مجرد قول هذا البيت لا يستوجب القتل بل التأديب ، وهمّ عارض وهو ما يخطر بالقلب أو تحدث به النفس من غير اختيار ولا عزم ولا نية ولا رضى ولا عقيدة كهمّ يوسف عليه السلام ، فالعبد ليس مؤاخذ به ما لم يتكلم أو يعمل ، يؤيد هذا ما روي عن أبي هريرة ان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : يقول اللّه تبارك وتعالى إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه ، فإن عملها فاكتبوها سيئة ، وإذا هم بحسنة ولم يعملها فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له عشرا .

هذا لفظ مسلم ، وللبخاري بمعناه ، على أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم البتّة كما مشينا عليه من تفسير الآية ، ولأن اللّه تعالى لم يحك عنه شيئا كما حكى عن آدم عليه السلام في قوله (رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا) الآية 23 من سورة البقرة ج 3 ، وعن داود عليه السلام في قوله (فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ) الآية 24 من سورة ص في ج 1 ، وعن موسى عليه السلام في قوله (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي) الآية 26 من القصص المارة في ج 1 ، وعن سليمان عليه السلام في قوله (رَبِّ اغْفِرْ لِي) الآية 26 من سورة ص أيضا ، إلى آخر ما جاء عنهم عليهم السلام كنوح وذي النون وغيرهم ، فيظهر من هذا أنه براء مما نسب إليه من الهم المطلق لأنه لو وقع منه لأتبعه بالتوبة والاستغفار كإخوانه الأنبياء عليهم السلام ، ومن هنا

يعلم عدم صدور شيء منه البتة ، وما قيل إن هذه الحادثة قبل نبوته مردود لما تقدم أن اللّه تبارك وتعالى نبأه في البئر ، وينافيه سياق الآية ، وسياق إتيانه النبوة على هذه الحادثة يرده أيضا ، وإن

ما جرينا عليه مأخوذ من أقوال السلف الصالح كجعفر الصادق وغيره من كبار المحققين ، والآية على حد قوله تعالى (إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها) الآية 10 من القصص المارة في ج 1 ، وعلى هذا يكون معنى الآية لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها واللام ليست بواجبة في جواب لولا إذا كانت بصيغة الماضي كما هنا ، فيأتي باللام وبدونها يقال لولا زيد لأكرمتك ، فحيث وجد البرهان انتفى الهم ، كما أن وجود زيد في المثالين ينفي الإكرام .

مطلب في لولا والسبب في نقل ما فيه وهم يوسف عليه السلام والأحاديث الموضوعة :

ولولا حرف امتناع لوجود ، تقول لولا علي لهلك عمر ، ولولا عصمة اللّه لقارفت الذنب ، أي امتنعت مقارفة الذنب لوجود العصمة .

وهنا امتنع الهم المزعوم لوجود البرهان ، قال السيد محمود الآلوسي رحمه اللّه في تفسيره

روح البيان بعد الأخذ والرد : نقول للجهلة الذين نسبوا تلك الفعلة الشنيعة إلى يوسف عليه السلام إن كانوا من اتباع الله فليقبلوا شهادته على طهارته – يريد بعض ما ذكرنا من الشهادات الخمس التي ذكرناها آنفا – وإن كانوا من اتباع إبليس فليقبلوا شهادته ، يريد ما ذكرناه أيضا ، وقوله (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) وإذا كان هؤلاء السفلة زادوا على إبليس كما قال الحريري :

وكنت امرأ من جند إبليس فانتهى بي الحال حتى صار إبليس من جندي

فلو مات قبلي كنت أحسن بعده طرائق فسق ليس يحسنها بعدي

(217/389)

فذاك أمر آخر ، فعلم مما مرّ أن ما نقله الواحدي واضرابه من هذه الشبهات الشائنة والشوائب السافلة مصدره القصص والحكايات وكتب أهل الكتاب المحرّفة ، أما الصحيح منها فمبرا من ذلك ، وقد تصلّف بعض القائلين لهذه الأقوال فقال إن ما ذكرناه نقلناه عن الذين أخذوا التأويل ممن شاهدوا التنزيل ، وهو لعمري غير صحيح ، وإنما هو من قال وقيل ، وان بعض المفسرين الذين اغتروا بما وجدوه من تلك الأقوال الواهية المدونة في كتب غير معتبرة ونقلوها كما وجدوها ، ولم ينظروا إلى الأقوال الواردة في تفنيدها ، ولم يلقوا لها بالا ،

كما وقع للإمام

السيوطي وبعض علماء الحديث إذ نقلوا أحاديث موضوعة لا أصل لها وأثبتوها في كتبهم بناء على سلامة طويتهم وظنهم أن أحدا لا يختار الكذب على حضرة الرسول كما ظن آدم عليه السلام أن أحدا لا يحلف بالّله كاذبا ، فصدق إبليس في قسمه كما حكى الّله عنه في قوله (إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ) الآية 21 من الأعراف المارة في ج 1 ، ومن هذا القبيل الإمام البيضاوي رحمه الّله مع جلالة قدره نقل مائة وأربعة عشر حديثا وأثبتها في أواخر سور القرآن من تفسيره ، مع أنها جلها موضوعة ، ولا يقال لمثله إنه جاهل بمعرفة الأحاديث ، ولكنه نقلها كما رآها عن حسن نية ، تجاوز الّله عنه وسامحه ، وهو نقلها تبعا للثعلبي ، وكذلك مفتي الثقلين أبو السعود وجار الّله الزمخشري ذكراها على ما هما عليه من العلم الواسع والفضل العميم ، وهي في الحقيقة من وضع بعض المتعبدين الجملة الذين يزعمون أن في ذلك قربة ، مع أنها فرية عظيمة جرت على ألسنة العوام وتداولوها بينهم حتى الآن ، ويسندونها بأقوالهم لحضرة الرسول وهو منها براء ، راجع بحث الحديث الموضوع في حاشية لقط الدرر على متن نخبة الفكر للإمام ابن حجر رحمه الّله تجد ملاك هذا البحث بما يقنعك أنها مكذوبة على حضرة الرسول ولا يجوز نقلها ، تدبر .

قال تعالى معلنا براءة يوسف عليه السلام والثناء عليه بموقفه الذي وقفه أمام سيد ته بقوله عز قوله "كَذلِكَ" مثل هذا التثبت ثبتناه حتى عن الهمّ بالسّوء "لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ" أي جنسه وحقيقته بما يشمل الخيانة وغيرها "وَالْفَحْشاءَ" اي الزنى القبيح نصرفه عنه أيضا "إِنَّهُ" السيد يوسف عبدنا ونبينا "مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ 24" الذين اخترناهم لعبادتنا وخلافتنا في أرضنا ، وفي هذه الجملة معنى التعليل أي صرفنا عنه ذلك لكونه من خلص عبادنا .

هذا على القراء بفتح اللام وعلى كسرها يكون معناه الذين أخلصوا لنا فأطاعونا كما أردنا فحفظناهم مما لا نريد وعصمناهم مما يشين ، وفي هذه الآية عند من له لب أو ألقى السمع للحق ما ينقطع معه عذر أولئك المتشبثين بأذيال هاتيك الأخبار التي ما أنزل بها من سلطان ، ولم يقل بها أحد من أهل الشان ، وأن ما زعموه من إلصاقها ببعض الرجال زور وخال عن البرهان ، وما لهم عليه من بيان ، اللهم إلا اتباع الظن وما تهوى الأنفس ، راجع الآية 22

من سورة والنجم في ج 1 ، ومما يؤذن في براءته قوله جل قوله "وَاسْتَبَقَا الْبابَ" هو هربا منها وخلاصا مما تريده ، وهي لحاقا به وطلبا له لئلا يفلت من يدها وتفلس مما أرادته عليه ، فأدركته فأمسكت قميصه من الخلف وجذبته بشدة لئلا يخرج من الباب وهو جبذ نفسه إلى الأمام ليخرج منه ، فلو كان هناك بعض الهم لما وقع منه هذا "وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ" بسبب تلك المجاذبة القوية لأن كلّا منهما بذل غاية قوته فيها ، فاجتماع القوتين سبب القدّ ، إذ لو تراخى أحدهما لما وقع ، وهناك في هذه الحالة صادقا "وَأَلْفَيا سَيِّدَها" أي زوجها لأن العادة في ذلك الزمن تدعو الزوجة زوجها بسيدها ، وأهل دمشق الأول كانوا كذلك ، وحتى الآن لهم بقية تسمي الزوج سيدا ، ولم يقل تعالى سيدهما لأن يوسف عليه السلام لم يكن مملوكا حقيقة للعزيز ، لأنه حرّ لا يملك فضلا عن أنه نبي كريم "لَدَى الْبابِ" رأياه مقبلا نحوه يباشر فتحه ليدخل ، وهذه صدفة لم تتوقعها زليخا وإنها كما غفلت عن تسكير الأبواب على يوسف بالغال غفلت عن إغلاق باب الدار ، فهابت زوجها وخافت التهمة ، واحتالت لتبرىء ساحتها عنده ، وسبقت يوسف بالكلام "قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً" تريد زنى ، ثم أنها لشدة حبها بيوسف خافت عليه أن يقتله زوجها لهذه

التهمة وتحرم مما هي طامعة فيه منه ومؤملة صدوره ولو بعد حين ، فبادرت زوجها قبل أن يتكلم وقالت ليس جزاؤه القتل إذ لم يقع منه فعل ولا جزاء له على المراودة "إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ 25" بأن يضرب ضربا مبرّحا ولم تذكر اسم يوسف بذلك ، بل قصدت العموم أي كل من أراد ذلك بأهلك حقه أن يفعل به هكذا ، لأنه أبلغ فيما قصدت من تخويفه طعما في أن يوافقها على ما تريده منه ولم تقدر أن تستخدم كلامها بأكثر من ذلك لحراجة الموقف ، وإلا فهي لا تريد أن تصم يوسف بشيء أصلا لأنها لم تقطع أملها منه "قال يوسف عليه السلام مدافعا عن نفسه لأنها وصمته أولا ، ولو سكتت لما كشف أمرها ، ولكنها لما قالت ما قالت ولطخت عرضه بمواجهة سيدها وهو بريء فاضطر إلى إزالة التهمة عنه ولم يثنه الخوف فخاطب سيدها بما ذكر اللّه عنه قال "هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي" وأنا لم أرد بها سوءا فالحت علي فأبيت وضايقتني بتغليق الأبواب ، فهربت فلحقتني واجتذبتني من الوراء وجذبت نفسي إلى الامام للتخلص منها فأخرج إلى الطريق فقدّ قميصي بسبب تجاذب القوتين كما ترى ، فأمعن نظره في كلامها فلم يعرف أيهما أصدق بسائق الميل إلى زوجته ، وهناك جاء ابن عم زوجته .

مطلب من تكلم في المهد وكيد النساء والحذر من مخالطتهن :

قالوا وكان رجلا حكيما وهو المعني بقوله تعالى "وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا" وقيل إنه ابن خالها أو أختها وعلى كل فالمراد به أنه رجل كبير ذو رأي سديد وهناك قول آخر مشى

عليه أكثر المفسرين بأنه طفل في المهد من أقاربها استدلالا بما روي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال تكلم في المهد أربعة وهم صغار ابن ماشطة ابنة فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم .

(221/389)

قال الطيبي وهذا الحديث ذكره البغوي بلا سند ، فلا يعتمد عليه ، ومما يؤيد عدم اعتماده دلالة الحصر في حديث الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة :

عيسى بن مريم وصاحب جريج وصبي كان يرضع من أمه فمر راكب حسن الهيئة فقالت أمه اللهم اجعل ابني مثل هذا ، فترك الصبي الثدي وقال اللهم لا تجعلني مثله ، وردّه الجلال السيوطي فقال هذا منه أي من الطيبي على جاري عادته من عدم الاطلاع على طرق الأحاديث ، والحديث المتقدم صحيح على شرط الشيخين ، أخرجه أحمد في مسنده ، وابن حيان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه ، وصححه من حديث بن عباس ، ورواه الحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح على شرط الشيخين ، وفي حديث الصحيحين المشار إليه آنفا زيادة على الأربعة وهي الصبي الذي يرضع من أمه المذكور فصاروا خمسة

، وهم أكثر من ذلك ، ففي صحيح مسلم رحمه اللّه تكلم الطفل في قصة أصحاب الأخدود كما تقدم في سورة البروج في ج 1 ، وفي الآية 13 فما بعدها من سورة ص في ج 1 أيضا ، وقد جمع الألوسي من تكلم في المهد فبلغوا أحد عشر صبيا وبينهم بقوله :

تكلم في المهد النبي محمد ويحيى وعيسى والخليل ومريم

ومبري جريج ثم شاهد يوسف وطفل لدى الأخدود يرويه مسلم

وطفل عليه مر بالأمة التي يقال لها تزني ولا تتكلم

وما شطة في عهد فرعون طفلها وفي زمن الهادي المبارك يختم

وقيل إن الطيبي لم يرد الطعن بالحديث المذكور وإنما أراد أن يبين الحديث الدال على الحصر وغيره تعارضا يحتاج إلى التوفيق واللّه أعلم .

وما قيل إن الشاهد هو القميص المقدود ليس بشيء كما لا يخفى ، وقد جعل اللّه تعالى الشاهد من أهلها على كلا القولين أي كبيرا كان أو صغيرا ليكون أدل على نزاهته عليه السلام وأنفى للتهمة وألزم لها ، فإذا كان كبيرا تكون شهادته بمثابة الحكم أي حكم حاكم من أهلها ، وإذا كان صغيرا وقد أنطقه اللّه الذي أنطق كل شيء فذكر كونه من أهلها لبيان

الواقع لأن شهادة الصبي حجة قاطعة لا فرق فيها بين أن يكون قريبا أو بعيدا ، وسمي شاهدا لأنه أدى كلامه جهرا لدى الطرفين تأدية الشاهد شهادته لدى الحاكم ، ولأنه دل على الشاهد الحسي وهو تمزيق القميص المذكور في قوله تعالى "إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ 26" فيما دافع به عن نفسه وهي صادقة بدعواها "وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ 27" في دفاعه وهي كاذبة في دعواها وظاهر الحال يؤيده إذ لا يعقل شق القميص من الوراء من قبل الطالب ، وهذه الآية تشير إلى أن الشاهد كان طفلا لأنه لو كان كبيرا وكان معهم على الباب فلا بدّ وأن يطلع على التّمزيق هل هو من أمام أو من خلف ، ولم يسأل عن شق القميص ، فلو قال القائل بهذا إنه جاء بعد العزيز وأن العزيز حكى له الحالة دون أن يطلع على القميص وأنه حكم بما حكم له بحالة لم يشاهد معها شيئا من ذلك ، لكان أقبل للأخذ به .

هذا وبعد أن سمع العزيز كلام الشاهد نظر زوجها إليه وعاينه قال تعالى "فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ" أيها الماكرات المحتالات "إِنَّ كَيْدَكُنَّ" أيتها النساء "عَظِيمٌ 28" جدا يعجز عنه الرجال جانحا بهذا إلى تصديق شهادة الشاهد المكذبة لادعاء زوجته والمحققة صدق دفاع يوسف ، وقد خاطبها بلفظ عام بمقابلة خطابها له به إذ قالت

(ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً) ، وتنبيها إلى أن الكيد خلق لهن عريق ، والمكر من شأنهن قديم ، والحيل من عاداتهن والخداع دأبهن ، والفتنة من ديدنهن ، قال أبو تمام :

ولا تحسبا هندا لها الغدر وحدها سجيّة نفس كل غانية هند

وإنما وصف اللّه كيدهن بالعظم أشدّ تأثيرا في النفس ولأنه منهن يورث العار بخلاف صدور لكونه من الرجال ، ولربات القصور منهن القدح المعلّى لأنهن أكثر تفرغا من غيرهنّ ، ولأن أحدا لا يجسر على فضيحتهن غالبا .

هذا ولعظم كيد النساء اتخذهن إبليس عليه اللعنة وسائل لإغواء من صعب عليه إغوائه ، ففي الخبر ما أيس الشيطان من أحد إلا أتاه من جهة النساء ، وفي خبر آخر : اتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن إبليس طلاع رصاد وما بشيء من فخوخه بأوثق لصيده في الأتقياء بالنساء ، قال بعض العلماء إن الشيطان يوسوس مسارقة وهن يواجهنن به .

وقال آخر أنا أخاف من النساء أكثر من الشيطان لقوله تعالى (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً) الآية 75 من سورة النساء في ج 3 .

وقال هنا (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) وجاء في الحديث : اطلعت إلى النار فوجدت أكثر أهلها النساء إلخ يكفرن العشير .

وجاء ، النساء حبائل الشيطان .

وقال عليه السلام : لا تطلعوا النساء على حال ، ولا تأمنوهن على مال ، ولا تذروهن إلا لتدبير العيال ، إن تركن وما يردن أوردن المهالك ، وأفسدن الممالك ، ينسين الخير ، ويحفظن الشر ، يتهافتن بالبهتان ، ويتمادين في الطغيان .

وقال سليمان عليه السلام امش وراء الأسد ولا تمش وراء المرأة .

وقال صلى اللّه عليه وسلم : إياكم ومحادثة المرأة فإنه لا يخلو رجل بامرأة ليس لها محرم إلا هم بها .

(224/389)

وقال علي كرم اللّه وجهه : إياك ومشاورة النساء فإن رأيهنّ إلى أفن (ضعف ونقص) وغرمهن إلى وهن (ضعف في الأمر والعمل والبدن) اكفف أبصارهن بالحجاب ، فإن شدة الحجاب خير لهن من الارتياب ، وليس خروجهن بأضرّ من دخول من لا يوثق به عليهن ، فإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل ، ويأتي الأفن بمعنى الأحمق ضعيف الرأي قليل التدبير ، والوهن الضعف والفتور .

وقال أبو بكر رضي اللّه عنه : ذل من أسند أمره إلى امرأة .

وقال عمر رضي

اللّه عنه : أكثروا لهن من قول لا ، فإن نعم تغريهن على المسألة وقال استعيذوا باللّه من شر النساء وكونوا من خيارهن على حذر .

وجاء في حكمة داود عليه السلام وجدت في الرجال واحدا بألف ولم أجد واحدة في جمع النساء .

وقال الحكماء لا تثق بامرأة ولا تغتر بمال وإن كثر .

وقال النخعي من اقتراب الساعة طاعة النساء ، ويقال من أطاع عرسه فقد أضاع نفسه ، وقال بعض الحكماء : إياك ومخالطة النساء فإن لحظات المرأة سهم ولفظها مهم .

وورد : ما اختلى رجل بامرأة إلا كان الشيطان رسولها إليه ورسوله إليها وللنساء حيل في إتمام مرادهن لا يقدر على بعضه عظام الرجال ، فالمرأة إذا أحبتك أكلتك ، وإذا أبغضتك أهلكتك ، وهي الشر كله فاتقها بكلك .

ثم التفت العزيز إلى يوسف وقال يا "يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا" الذي وقع لك مع سيّدتك لا تذكره واطو حديثه ، والتفت إليها وقال توبي "وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ" اقترفتيه مضاعفا بتهمتك غلامك من إرادة السوء الذي أنت مصدره ، واندمي على تعديك عليه بما رميته به "إِنَّكِ كُنْتِ" بعملك هذا "مِنَ الْخاطِئِينَ 29" لخيانتك زوجك والبهت على غلامك ، ولم يقل الخاطئات تغليبا للرجال على النساء .

واعلم أن الحكم الماهر بجملته تلك التي حكم بها قد عرف زوجها منها خيانتها من وجوه : لأن يوسف مملوك عندهم والمملوك لا يتجاسر على سيدته ، ولأنه شاهدهما هو هارب وهي طالبة والطالب لا يهرب ، ولأنه رآها مزينة بأكمل الزينة ويوسف بدرعه لا غير ، ولم ير عليه شيئًا من علائم الرغبة ، بل عليه علامة الرهبة منها والخوف من اللّه ، ولأنه خبره في هذه المدة الطويلة خمس عشرة سنة ووقف على حاله وكمال أدبه وأحاسن أخلاقه وحيائه وخجله وعدم اطلاعه على حالة تناسب إقدامه على مثل تلك الحالة ، وقد أيد عدم رغبته قد قميصه من دبر ، ولذلك ألصق التهمة فيها ، هو وابن عمه على القول بأنه هو الشاهد وبرأه مما عزي إليه ، وإذا كان الشاهد صغيرا وهو ما يركن إليه الضمير فإن براءته قطعية لا ظن فيها ، لأنها من اللّه معجزة له عليه السلام ، واللّه خير الشاهدين ، وبما أن اللّه تعالى لم يبين لنا هذا الشاهد فقد جمعنا بين أقوال المفسرين في هذا الشأن ووكلنا العلم إلى اللّه ، وإنما ملنا إلى القول الثاني لأن الشاهد الكبير ابن عم زوجها والصغير ابن خالها أو أختها ، واللّه تعالى يقول من أهلها ، تدبر .

مطلب أقسام الخطأ ومراتب الحب ومعنى الفتى والمتكأ والإكبار :

واعلم أن الخطأ ثلاثة أقسام : الأول أن يريد غير ما تحسن إرادته فيفعله وهذا الخطأ التام المأخوذ به ، والثاني أن يريد ما يحسن فعله ولكن يقع منه خلاف ما يريد وهذا أصاب في

الإرادة وأخطأ بالعمل ، وعليه قوله صلى اللّه عليه وسلم من اجتهد فأخطأ فله أجر ، والثالث أن يريد ما لا يحسن فعله ويتفق منه خلافه فهذا مخطئ بالإرادة مصيب بالفعل . وما نحن فيه راجع إلى الأول .

(226/389)

قالوا وكان العزيز مع حلمه قليل الغيرة فقد اقتصر على هذا القول وكان عليه بعد أن قنع بخطأ زوجته أن يفعل بها ما يفعل غيره بمثلها من أهل المروءة والشرف ، وقد جاء في البحر أن تربة إقليم العزيز أي في زمنه اقتضت ذلك ولكونه وثنيا لا يعبأ به ، وأين هذا مما جرى لبعض الملوك في المغرب ، وذلك أنه كان مع ندمائه المختصين به في مجلس أنس وجاريته تغنيهم من وراء ستار ، فاستعاد بعض خلصائه بيتين من الجارية كانت غنت بهما ، فما لبث أن جيء برأس الجارية مقطوعا في دست ، وقال له الملك استعد البيتين من هذا الرأس فأسقط في يده ومرض مدة حياته .

ولهذا فإن المصريين تركوا المدينة التي كان فيها العزيز وشيدوا غيرها وسكنوا فيها لما هم عليه من المروءة والشهامة والغيرة ، قالوا وشاع الكلام بين خدم القصر وانتقل لغيرهم كما قال الشاعر :

وكل سرّ جاوز الاثنين شاع .

قال تعالى "وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ" جماعة من النساء لما سمعن الخبر من امرأة الساقي والخباز وامرأة صاحب الدواب وصاحب السجن والحاجب وغيرهن من ملازمي القصر اللاتي أشعن الخبر للنساء اللاتي اتصلن بهن من أهل المدينة ، قيل هي الأقصر أو عين الشمس أو غيرهما في ذلك الزمن ، وسرى الخبر لأشراف النساء من صنف امرأة العزيز وصرن يتحدثن به بكون "امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا" علقها حبه والشغاف جارة معلقة بالقلب تسمى غلافه ولسانه ، يعني أن حبها دخل هذه الجلدة ووصل إلى القلب فأحاط به ، فصارت مغرمة به لا تعقل شيئًا سواه ، وقيل الشغاف سويداء القلب ، وقال الحسن باطنه ، وقرىء شعفها بالعين أي حرق فؤادها حبه وعليه قول الأعشى :

يعصي الوشاة وكان الحب آونة مما يزيّن للمشعوف ما صنعا

وقال بعضهم الشعف الجنون ويأتي الشعف بمعنى البغض وليس مرادا هنا ، وللحب مراتب أولها الهوى ثم العلاقة وهي الحب الملازم للقلب ، ثم الكلف وهو شدة الحب ، ثم

العشق وهو اسم لما فضل عن المقدار المسمى بالحب ، ثم الشغف وهو احتراق القلب مع لذة يجدها ، وكذلك اللوعة واللاعج ثم الشعف بالعين وهو كذلك أيضا ، وزيد فيه أن يبلغ الحب شفاف القلب فيخترقه إلى الفؤاد ، ثم الجوى وهو الهوى الباطن ، ثم اليتم وهو أن يستعبده الحب ، ثم التّبل وهو أن يسقمه الحب بأن ينال من قواه فيهلكها ، ثم التوله وهو ذهاب العقل من الحب ، ثم الهيوم وهو أن يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليه فلا يدري أين هو ، ولهذا قالوا الهائم لا يقصر الصلاة لأنه لا جهة له معينة ولا مدة معلومة ، قال ابن الفارض :

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل فما اختاره مضنى به وله عقل

الأبيات ، إلى أن قال : فأوله سقم وآخره قتل .

راجع هذه القصيدة ففيها ما تريده من معاني الحب وأنواعه ومباديه ونتائجه .

وجاء في الآية تراود بالمضارع مع أن المراودة انقطعت والمقام يناسبه الماضي دلالة على دوام المراودة كأنها بقيت مستمرة حتى صارت سجية لها ، وهو كذلك ، واللّه أعلم بما في القلوب .

والفتى الطري من الشباب والسخي والكريم ، ويطلق على المملوك والخادم ، وجاء في الحديث لا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي .

ويطلق على الشهم ذي المروءة ، وأطلق على يوسف لأنه جامع لهذه الصفات كلها ، وإنما عبروا عنه بلفظ فتى مبالغة باللوم عليها ، لأن التي لها زوج عظيم مثل زليخا لا يليق بها أن تراود غيره ممن هو دونه في زعمهنّ ، لأنه كان يخدمها وليس بينه وبينها كفاءة ، يرون أن جنوحها إلى عبدها في غاية الغي ونهاية الضلال ، لذلك قلن كما ذكر اللّه عز ذكره "إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ" 30 في إقدامها على ذلك وخيانتها لزوجها الرجل الجليل بمراودتها خادمها ، وذلك من الخسة بمكان ، قالوا هذا لأنهن لم يعلمن أنه أشرف من على وجه الأرض في زمنه .

قال تعالى "فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ" قولهن واغتيابهن لها وسمته مكرا لشبهه له في الإخفاء عنها ، لأنهن لم يصارحنها به

لما بلغهن عن يوسف وأردن بقولهنّ هذا اغضابها تعمدا كي تريهن يوسف لما بلغهن من جماله وكماله حيلة منهن لهذه الغاية ، ولذلك "أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ" كي تريهنّ إياه فتقطعن اللوم عنها ، وقد عرفت ذلك لأنها تعرف من أمرها ما تعرفه من أمر غيرها عند ما تراه

"وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً" أترجا هو نوع من البرتقال ، وما قيل إنه تفاح ينفيه قوله تعالى "وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً" لأن التفاح يغسل ويؤكل بقشره لما فيه من النفع الذي لا يوجد بلبّه ، والأترج لا يؤكل قشره لأنه مفصول عنه وليس من لونه وطعمه ، وهكذا جعل اللّه تعالى كل قشر لا يؤكل مع اللب مفصول عنه كالموز والرمان وأنواع البرتقال والجوز واللوز والفستق والبندق وأنواعه وما شابهه ، وإنما قلنا يغسل لأن القشر قد يحمل جراثيم كثيرة تعرضه الذرات الممتزجة بالهواء والسّم الذي فيه وهي لا تخلو من ضرر للوجود الذي أوجب اللّه تعالى عليه محافظته ، وقد جاء في الخبر : من أكل التراب فقد أعان على قتل نفسه ، وجاء في خبر آخر : اتقوا الغبار فإن فيه النسمة وهي ما يعبرون عنها ب (الميكروب) وبما أن قشور الفواكه لا يخلو من التراب وهو قد لا يخلو من النسم فقد اعتادوا تقشيرها زيادة في الترف ووقاية من الضرر ، وإذا كان قشر الفاكهة أو الخضرة المتصل بها مخالفا للبّها في اللون أو الطعم كالبطيخ الأخضر والخيار وما يشبههما فإن شاء قشره وإن شاء أكله بقشره لأنه غالبا لا يكون بينه وبين لبه مباينة في الطعم تمنع من الأكل كالباذنجان والقرع والقثاء والعجور وما ضاهى ذلك ، وإذا لم يكن عاسيا فطبخه وأكله مع لبه أحسن فائدة للوجود ، والبطيخ الأصفر يؤكل بقشره أيضا ويجوز بغيره للمترفين إذ يأكله خدمهم وأنعامهم ، روي أن الإمام أحمد بن حنبل رضي اللّه عنه لم يأكل البطيخ الأصفر إذ لم يبلغه أن حضرة الرسول أكله بقشره أو بغير قشره ، لأنه غالبا يكون

قشره من لونه وطعمه وليعلم أن تقشير التفاح والإجاص والخوخ والكمثرى والمشمش وما شاكلها يكون من البطر وازدراء النعمة وإظهار العظمة ، وقد يكون كسلا عن القيام بغسله غسلا جيدا .

هذا وإنما أتتهم بالسكاكين لأنهن مترفات لينات البنان لا يقدرن أن يزلن القشر بأيديهن ، وما قيل إن المتكأ هنا كناية عما يتكأ عليه من النمارق والوسائد

يرده الإتيان بالسكاكين لعدم الحاجة إليها فيه ، وقال بعضهم إنه نفس الأكل إذ يقال اتكأنا عند فلان ، أي أكلنا عنده ، وعليه قول جميل :

فظللنا بنعمة واتكأنا وشربنا الحلال من قلله

وعلى هذا فقد اختلف في نوعه هل كان لحما أو ورقا ملفوفا بجبين أو بلحم أو بلوز ، وشبهه من الحلويات التي تقص بالسكين وتؤكل بالشوكة ، ولكن الأول أولى وأليق بالمقام ، لأن ما يقدم للزائرين عادة فاكهة أو حلو مقطع ناسف لا طعام .

ثم تركنهن حتى باشرن بتقشيره وأشغلتهن به وكانت قد ألبست يوسف عليه السلام من الديباج الأبيض ، لأن الجميل أحسن ما يكون في البياض صيفا والسواد شتاء كما قيل :

إذا لبس البياض حسبت بدرا وإن ليس السواد سبى العبادا

والتفت إليه بما يتنبهن له "وَقَالَتِ اخْرُجْ" للسلام "عَلَيْهِنَّ" فخرج، فإذا هو كالبدر ليلة تمامه "فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ" أعظمته بأعينهن ودهشن لما هو عليه من الحسن والجمال المزينين بحلل الكمال، قالوا إنه كان يشبه آدم عليه السلام حين خلقه ربه قبل أكله من الشجرة وإهباطه للأرض، وجاء في الحديث إن اللّه خلق آدم على صورته، وفي رواية على صورة الرحمن وناهيك بذلك، وما قيل إن أكبرن بمعنى حضن بالاستناد لقول القائل:

يأتي النساء على أطهارهن ولا يأتي النساء إذا أكبرن إكبارا

أي حضن فقد أنكره أبو عبيده وقال لا نعرف ذلك في اللغة، والبيت مصنوع مختلق لا يعرفه العلماء بالشعر.

ونقل مثل هذا عن الطبري وابن عطية، وقد أخرج رواية أكبرن بمعنى حضن جرير وابن المنذر من طريق عبد الصمد عن ابن عباس، وهو أي عبد الصمد وإن كان روى ذلك عن أبيه علي عن أبيه ابن عباس، فلا يعول عليه لقولهم إنه عليه الرحمة ليس من رواة العلم.

وقال الكميت إن أكبرن بمعنى أمنين، ولعل الكلام فيه كالكلام في الذي قبله، نعم له أصل في

اللغة إذ قال المتنبي :

خف اللّه واستر ذا الجمال ببرقع إذا لحت حاضت في الخدور العواتق إلا أنه لا دليل على ذلك ، لأنه قال حاضت ولم يقل أكبرت أو أمنت ، ولا يبعد أن تحيض أو تمني المرأة إذا اشتد شبقها ، وكذلك الرجل قد يمني بمجرد النظر إلى المرأة ، ولكن ما في الآية لا يراد منه ذلك ، على أنه لو فرض مجيء أكبرن بمعنى حضن فهو لازم لا يتعدى إلى المفعول به لأنه من الطبائع والنعوت ، وكل ما كان كذلك فهو لازم ، وما في الآية متعد ، فيكون بمعنى أعظم المتعدى كما جرينا عليه ، واللّه أعلم .

(232/389)

"وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ" بدلا من الأترج لفرط دهشنهن بطلعته وخروج جوارحهن عن منهاج الاختيار ، حتى أنهن لم يحسسن بالألم لانشغالهن بالنظر إليه "وَقُلْنَ" بلسان واحد تعجبا من قدرة اللّه الكاملة على صنع ذلك القوام الرائع والحسن البديع "حاشَ لِلَّهِ" بالألف وإسقاطها وهو حرف وضع للاستثناء والتنزيه والتبعد معا ، ثم نقل وجعل اسما بمعنى التنزيه وتجرد عن معنى الاستثناء ، ولم ينون مراعاة لأصل المنقول عنه ، وكثيرا ما يراعون ذلك فيقولون جلست من على يمينه فيجعلون على اسما ولم يعربوه ، وكذلك عن في جلست

من عن يساره ومن في غدت من عليه ، ولم يثبتوا ألف على مع المضمر كما أثبتوا ألف فتى في فتاة ، كل ذلك مراعاة للأصل ، وقال ابن الحاجب إن (حاشَ لِلَّهِ) اسم فعل بمعنى برئ الله تعالى من السوء وليس بشيء ، لأن الحرف لا يكون اسما إلا إذا نقل وسمي به وجعل علما ، فحينئذ تجوز فيه الحكاية والإعراب وفيه أقوال كثيرة أعرضنا عنها خشية الإطالة والملالة ، ولا طائل تحتها ، على أن الذي يعلل الكلمات يرى الكل جائزا بحسب وسعته في اللغة ، كما ان الذي له وقوف على العربية لا يكاد يغلط أحدا ، إذ يرى لكل وجهة ، وغير خاف أن وجوه الإعراب كثيرة ولغات العرب فيها أكثر ، أي أن الذي ذكروه لنا بأنه عبد اغترت به زوجة العزيز ما هو عبد بل "ما هذا بَشَرًا" أيضا فضلا عن أنه ليس بعبد "إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ 31" نفين عنه صفة البشرية لما هالهن من جماله ، لأنهن لم يرين بشرا يشبهه بالحسن وقوام الجوارح ، وأثبتن له الملكية لما ركز في الطبائع أن لا شيء أحسن من الملك ولو لم يره أحد ، كما ركز في

الأذهان أن ليس بشيء أقبح من الشيطان ولم يره أحد أيضا ، أي بصورتهما الحقيقية وعليه قول بعض المحدثين :

ترك إذا قوبلوا كانوا ملائكة حسنا وإن قوتلوا كانوا شياطينا

ولا سيما وقد انضم لذلك الجمال الرائق نور النبوة وآثار خضوعها واخباتها لرافع السماء وباسط الأرض من الحالة التي أوقعته فيها مما زاده مهابة ووقارا ، فلا غرو أن يصيبهن الدهش والذهول فيصرعهن ويصرف نظرهن عما في أيديهن من الأترج إلى أيديهن ، فيغفلن عنه ويقطعن أيديهن بدله ، ولم يشعرن بما عملن لأن طلعته البهية ألهبت في قلوبهن ما يمنعهن من الإحساس بألم الموسى ، وانهماك انسان أعينهن في التطلع إليه حال دون رؤية الدماء التي سالت من أيديهن على ثيابهن ، فلما رأت زليخا ما صنعن بأنفسهن وعلمت أنهن قد أعذرنها بما فعلت ، ولو أنهن شاهدنه قبل مثلها واختلطن معه اختلاطها لما لمنها ، لأنهن رأينه لحظة فوقع منهن ما وقع ، فكيف وهي معه ليل نهار ، لهذا تسلطت عليهن و"قَالَتْ فَذِلِكُنَّ" العبد الذي تتقولن وتتفوهن فيه ، والفتى "الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ" ثم صرحت أمامهن بما وقع منها فقالت مقسمة "وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ" امتنع وأبى ، والاستعصام مبالغة في الامتناع والتحفظ الشديدين ، ثم أقسمت ثانيا فقالت "وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ" به من الوقاع واللّه واللّه واللّه "لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ 32" الأذلاء المهانين مع السراق والسفاك في السجن ، قالت ذلك لأنها علمت مما شاهدته من دهشتهنّ به انهن لا يلمنها بعد بل يعذرنها ، قالوا ثم قال النساء كلهن يا يوسف أطع مولاتك لئلا تسجن ، فلم يصغ لهن وانصرف عنهن قائلا "رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ" أضاف الضمير إليهن كلهن

مع أن مولاته وحدها تدعوه لأنهن أمرنه بامتثال أمرها بالفعل ، فناجى ربه عز وجل ملتجئا إليه وآثر السجن لأن مشقته نافذة طلبا إلى راحته الأبدية برضاء اللّه تعالى ، ومن هنا قالوا يختار أهون الشرين ، وقد جاء في الخبر أنه عليه السلام لما قال هذا أوحى اللّه إليه يا يوسف

أنت جنيت على نفسك ولو قلت العافية أحب إلي لعوفيت ، ولهذا قال محمد صلّى اللّه عليه وسلم لما سمع رجلا يقول اللهم إني أسألك

الصبر فقال سألت البلاء فاسأل اللّه العافية ، ثم التجأ إلى ربه فقال "وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ" ومكرهن واحتيالهن أخاف يا رب "أَصْبُ" أميل ميلا قلبيا لا اختيار لي فيه بحسب الطبيعة البشرية قد تحدّث النفس نفسيا ركوني "إِلَيْهِنَّ" ولو تخطرا بالقلب أو هاجا في النفس ، وأخاف يا مولاي ان يؤثر (ومعاذ اللّه يا مولاي) فيّ لأني بشر ، وحاشاك يا مولاي أن تريد ذلك مني أو تتغلب على نفسي بشيء من ذلك ، وهذا فزع منه عليه السلام إلى ألطاف ربه جريا على سنن الأنبياء وطرق العارفين الكاملين في قصر نيل الخيرات والنجاة من الشرور على جناب اللّه تعالى ، وسلب القوى والتصور عن أنفسهم مبالغة في استدعاء

عطفه تعالى عليه في صرف كيدهن عنه بإظهار عدم طاقته بالمدافعة إلا بحوله وقوته عز شأنه كقول المستغيث أدركني يا رب وإلا أهلك ، وقد لا يهلك ، لأنه عليه السلام يطلب الالتجاء إلى ربه ليعصم وفي نفسه داعية سوء إن لم يعصمه ، كلا وحاشاه من ذلك ، وفي هذه الآية جواب استدلال للأشاعرة بأن العبد لا ينصرف عن المعصية إلا إذا صرفه اللّه تعالى (وأصل إلا) أن الشرطية ولا النافية فأدغمت النون باللام (وأَصْبُ) مضارع صبا إذا مال ومنه ريح الصبا لأن النفوس تميل إليها لطيب نسيمها وروحها والصبابة إفراط الشوق ، وفي القاموس صبى بمعنى مال ، وصبى بمعنى حنّ ، والصبوة جهلة الفتوة ، ثم قال منددا من خوف ما سيكون من إحساسات قلبية خشية مغبته باثا سوء نتيجته إلى ربه "وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ 33" الذين لا يعلمون ما يعملون ، وفي هذه الجملة إشارة إلى أن من يرتكب الذنب فإنما يرتكبه عن جهالة وهو ليس من أهلها ، لذلك دعا ربه إنقاذه مما يراد فيه "فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ" كما هو

عادته جل جلاله في أنبيائه وأوليائه وأحبابه في إجابة أدعيتهم عند الضيق كما سيأتي في الآية 110 من هذه السورة "فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ" وثبته بعصمته وأبقاه على عفته وحال

بينه وبين المعصية ودواعيها "إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ" لدعاء عباده المتضرعين إليه "الْعَلِيمُ" بأحوال الداعي ونيته وما يصلح له.

وتدل هذه الآية على أن الإنسان لو أتى بكل مكر وحيلة لإزالة ما وقر في صدره من حب وعداوة لعجز، لأن حصولها ليس باختياره ولو كان لتمكن من

قلب الحب كرها والعداوة صداقة، وبالعكس، ولهذا لجأ يوسف عليه السلام إلى ربه ليصرف ما حاك في صدره الشريف، قال المتنبي:

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

ولهذا فإن العاشق كثيرا ما يريد إزالة العشق من قلبه ولكنه يعجز.

واعلم أن أكثر ما يوقع في المعصية الجهل والخطأ، ولا تقع إلا بتقدير اللّه تعالى وقضائه وهي للمغفرة أقرب، أما والعياذ باللّه من يوقعها عالما عامدا فقد تؤدي إلى كفره، لأن العلم والعمد دليلان على الاستحلال واستحلال ما حرم اللّه كفر، قال بعض النادمين على ما فعلوا:

وما كانت ذنوبي عن عناد ولكن بالشقا حكم القضاء

ومن كان كهذا فباب العفو يشمله، قال تعالى "ثُمَّ بَدا لَهُمْ" أي العزيز وأهله وأصحابه رأي آخر بعد ذلك الرأي، إذ أن زليخا قالت لزوجها إن هذا العبد قد فضحني، فإما أن تأذن لي بالخروج لأعتذر إلى الناس، وإما أن تحبسه ليقطع هذا الكلام ويقف عند حده، وذلك

بعد ما أيست منه و"مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآيَاتِ" الدالات على براءته وطهارته بما قص اللّه عنه .

(236/389)

قال عكرمة سألت ابن عباس عن هذه الآيات ، فقال ما سألني عنها أحد قبلك هي قدّ القميص وأثرها في جسده وشهادة الشاهد وأثر السكين في النساء ، وفي قوله من الآيات إيذان بأن هناك آيات أخر لم يذكرها ، كما أنه لم يذكر كثيرا من معجزات الأنبياء عليهم السلام ، وفاعل بدا ضمير يعود إلى البداء بمعنى الرأي كما ذكرنا وعليه قوله :

لعلك والموعود حق لقاؤه بدا لك في تلك القلوص بداء

مطلب اختيار السجن ليوسف والمتآمرين على اغتيال الملك وتأويل رؤيا السجينين :

واما السجن المفهوم من قوله تعالى "لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ 35" إلى أن ينسى الناس هذه الحادثة وينقطع ذكرها في المدينة ، وإنما اختار الحبس على خروج زوجته واعتذارها من الناس ، لأن الاعتذار لا يقطع الإشاعة عن زوجته بل يزيدها ، والحبس قد يقطع خبرها بطول الزمن المستفاد من قوله (حَتَّى حِينٍ) ،

(237/389)

والحين وقت من الزمن يقع على القليل والكثير ، قالوا مبدأه خمس وآخره أربعون سنة ، وسنأتي على بيانه مفصلا في تفسير سورة الإنسان في ج 3 ، وعلى كل في هذه المدة تذهب استفاضة تلك الواقعة ، قالوا فأمر به فحمل على حمار وسيق للسجن ، قالوا وكانت تتأمل أنه بعد أن يذلل في السجن تلين عريكته وتنقاد لها قرونته فتظفر بما أرادته منه بطوعه بعد أن تصرمت حبال رجائها منه بعرض جمالها بنفسها وبإغوائها وبمالها وبتأثيرها فلم يجد شيئا ، قال تعالى "وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ" قالوا إن أحدهما خباز الملك صاحب طعامه ، والثاني ساقيه وصاحب شرابه لأنهما أدينا بجرم الموافقة مع جماعة من أشراف مصر أعداء الملك لاغتياله لقاء جعل معلوم على أن يدسا السم في طعامه وشرابه ، وأن الخباز قبل الجعل المسمى له والساقي أبى ، وقد وصل إلى الملك بأن ما يوضع أمامه من الطعام والشراب مسموم ، وحذره من أخبره من تناول شيء منه ، وقيل إن الساقي أخبر الملك بأن الطعام الذي هيأه له الخباز مسموم ، وأن الخباز قال للملك إن الشراب الذي أحضره لك الساقي مسموم بمقابلة قول الساقي له إن الطعام مسموم ، فكلف الملك الساقي أن يشرب ذلك الشراب ففعل ولم يصبه شيء ، ثم كلف الخباز أن يأكل الطعام الذي أحضره له فأبى ، فأطعمه دابة فماتت لساعتها ، فظهرت خيانته فحبسهما معا على توهم أن الساقي تواطأ مع الخباز أي الطاهي قبلا ولم يخبره إلا عند الأكل حتى يظهر التحقيق براءته

، ولما كان هذه القصة عظيم من الأهمية فقد يظلم في بدايتها كثير من الناس ثم ينجو من قدر له النجاة .

(238/389)

قالوا ولما دخل يوسف السجن صار يعظ الناس وينصحهم ويحذرهم من الموبقات ، ويأمرهم بالمعروف ، ويحبّذ لهم عمله ، وأن يحسنوا لأنفسهم وغيرهم ويتباعدوا عن المنكرات لئلا يقعوا في سوء عواقبها ، ويقول لهم من رأى منكم رؤيا فليأت إليّ أعبرها له بما يلهمني اللّه تعالى مما يدل على خيرها وشرها ، فقال الفتيان لنجربنّه ونتراءى له رؤيا ، وكان عليه السلام يراهما مهمومين ، فقال لهما ما شأنكما ، فقصا عليه الأمر الذي حبسا من أجله وأتبعا حديثهما بما صوراه من الرؤيا "قَالَ أَحَدُهُمَا" صاحب الشراب "إِنِّي أَرَانِي" رأيت نفسي في المنام وعبّر في المضارع لاستحضار الصور الماضية في ذهنه

(239/389)

"أَعْصِرُ خَمْراً" عنبا سماه بما يؤول إليه ، لأن الخمر لا يعصر ، وإنما يعصر العنب ، والعصر إخراج المائع من الفواكه وغيرها ، قالوا وكان اسمه نيو فقال يا سيد إني رأيت في المنام حبلة من كرم حسنة لها ثلاثه أغصان فيها عناقيد عنب فكنت أعصرها وأسقي الملك "وَقَالَ الْآخَرُ" صاحب الطعام واسمه مجلّت "إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ" قالوا إنه قال أيها السيد إني رأيت في المنام كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز وأنواع الطعام وسباع الطير تنهش منها "نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ" أي تفسير ما رأيناه وما يؤول أمر رؤيانا ، وقد عرضنا عليك ذلك لحسن عقيدتنا بك "إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ 36" إلى الناس أجمع ، لأنك تعود المرضى في السجن وتأخذ من عناء المسجونين بما تسديه إليهم من النصح ، وتهديهم إليه من الرشد ، وتوسع على فقيرهم وتجمع للمحتاجين ما يسد عوزهم ممن عنده فضل بما ترغبهم به من الثواب ، وتجتهد في عبادة ربك ليل نهار ، وإنك صبيح يرجى منك الخير ويؤمل منك الفلاح ، ولذلك فإنا وكل أهل السجن يحبونك كأنهم يعلمون أن الرؤيا لا تقص إلا على من يحبه الرائي كما أخبر بذلك حضرة الرسول في أحاديث متعددة ، وذلك لأنهم مخالطون للملك وليسوا من السوقة ، فقال لا تحبوني فما جاءني البلاء إلا من المحبة ، فإن عمتي أحبتني وكنت عندها ، فطلبني والدي منها فلم تفعل ، فلما أصر عليها كان عندها منطقة اسحق عليه السلام ، لأنه أكبر من والدي يعقوب وثوب إبراهيم جدي الذي

جاء به إليه جبريل من الجنة ، فألبسه إياه حين ألقي في النار لأن اسحق ورثه من إبراهيم أبيه ، وهي ورثته منه ، وكان التوارث لمثل هذه

الآثار للأكبر ، فشدتها على بطني وأرسلتني إليه ، ثم ادعت فقد المنطقة ، وكان في شريعته أن السارق يؤخذ نفسه بما سرق ، فتحروا المنطقة فوجدوها عندي ، فأخذتني وبقيت عندها حتى ماتت ، فدخل علي من حبها بلاء ، وأحبني أبي فنشأ من حبه لي حسد اخوتي ، فألقوني في الجب ، وأحبتني امرأة العزيز فحبست بسبب محبتها ، ثم أعرض عنهما كراهية أن يعبرها لهما لما في تعبيرها على أحدهما من الشرّ وهو لا يحب أن يجابه به أحد إلا بالخير ، أخرج أبو حاتم عن قتادة قال : لما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه

قوما قد انقطع رجاؤهم واشتد بلاؤهم وطال حزنهم ، فجعل يقول أبشروا واصبروا تؤجروا إن لكم بهذا لأجرا ، فقالوا يا فتى بارك اللّه فيك ما أحسن وجهك وأحسن خلقك

وخلقك لقد بورك لنا في جوارك ما نحب ان كنا في غير هذا منذ جئتنا لما تخبرنا به من الأجر والكفارة والطهارة ، فمن أنت ؟ قال أنا يوسف ابن صفي اللّه يعقوب بن ذبيح اللّه اسحق بن خليل اللّه ابراهيم ، فقال له عامل السجن لو استطعت خليت سبيلك لما أنت عليه من اللطف وما لديك على الناس من العطف وكثرة البر والمجاملة ولكن سأحسن جوارك فكن في أي بيوت السجن شئت ومن هنا اعتيد تعيين وعاظ للسجون يخففون عن المظلومين بلاءهم ويحبذون للظالمين التوبة والرجوع إلى اللّه ورد المظالم ويمنونهم بعفو اللّه عنهم واطردت العادة حتى الآن ، ثم إن الفتيين ألحا على يوسف بتعبير رؤياهما فقال أولا لتثقا في قولي فإني أقول لكم "لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ" في حبسكما هذا أو من أهلكما "إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ" بأن أبين لكما ماهيته وكيفيته ومن أين أتاكما ولونه وطعمه ووقت أكله "قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما" وقبل أن تروه وهذا من معجزاته عليه السلام أظهرها إليهم ليركنوا إليه ويأخذوا بقوله أملا بهدايتهم ، ونظيرها معجزة سيدنا عيسى عليه السلام المبينة في قوله تعالى (وَأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) الآية 50 من آل عمران ج 3 ، فقالا له هذا من علم الكهنة فمن أين جاءك ، قال لست بكاهن وإنما "ذلِكُما" الذي ذكرته لكم "مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي" من جملة العلوم التي منّ بها علي وعلمنيها بوحيه المقدس يشير إلى أن ذلك معجزة له وأنها جزؤ يسير مما أفاضه اللّه عليه ، وكأنه قيل له أنى لك هذا ولما ذا علمك

ربك هذه العلوم واختصك بتعبير الرؤيا فقال "إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ" يريد العزيز وقومه إذ

أعرض عنهم وترك رأيهم وما يتعبدون به ويرجونه ولم يوافقهم على ما يريدون لأنهم عبدة أوثان "وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ 37" جاحدون البعث بعد الموت منكروا المعاد وأن الجملة الأولى كافية للإشعار بكفرهم وأتى بالثانية تأكيدا وكرر لفظ هم لهذه الغاية ، وليس المراد بالملة ملة آبائه كما قد يخطر بالبال السقيم باعتبار ما كانوا عليه قديما كما يقوله بعض الأغبياء لأن الأنبياء عليهم السلام من حين ولدوا وظهروا إلى الوجود هم على التوحيد الخالص "وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ" ذكرهم عليه السلام ليعلمهم أنه من بيت النبوة وأنه نبي لأن آبائه مشهورون في مصر وغيرها بأنهم أنبياء مرسلون من اللّه إلى البشر ولعلهم إذا عرفوا نبوته ونسبه يسمعون نصحه وإرشاده ولعلهم يدينون بدينه ويتركون ما هم عليه من عبادة الأوثان وقال هذا ليفهمهم أن ما فاز بما فاز به من النبوة إلا باقتفاء آثارهم وعدم اتباع ملة الكافرين بإنكار الحشر والنشر حينما جئت إلى مصر ، وقال إنا نحن قوم أبدا "ما كانَ لَنا" ما صح ولا استقام قط منذ القدم "أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ" أي

شيء كان بل نعبده وحده وقد عصمنا من عبادة غيره واختارنا لتحمل وحيه واصطفانا لتبليغ خلقه أوامره ونواهيه يسير بذلك عليه السلام أن ما أنتم عليه يا أهل مصر من الإشراك هو كفر محض وأن اللّه المنفرد بالألوهية لا يقبل ولا يرضى من المشرك عبادته "ذِلكَ" رفضنا عبادة الأوثان وعكوفنا على عبادة الرحمن والإخلاص إليه واختصاصنا بالنبوة كله "مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا" إذ علمنا ما لم نعلم وألهمنا طرق العدل ومسالك الصواب في كل ما يتعلق بنا وبالناس من أمور الدنيا والآخرة "وَ" فضله "عَلَى النَّاسِ" إذ بين لهم مناهج الهدى والرشد

(243/389)

وأرسل إليهم من خلص خلقه من يرشدهم ويهديهم "وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ 38" فضله ونعمه ويشركون بعبادته غيره مما لا يستحق العبادة فيخسرون الدنيا والآخرة ويندمون ولات حين مندم .

مطلب مبادئ رسالة يوسف عليه السلام وتعبير رؤيا السجينين ومشروعية الرجاء :

ثم شرع يدعوهم إلى الإيمان تأدية لأمانة ربه التي وكلها إليه ، فقال "يا صاحِبَيِ السِّجْنِ" يا ساكنيه جميعكم ، على قراءة الجمع ، اسمعوا ما أقول لكم وأطيعوني فيما آمركم به ،

وتأملوا فيه وتدبروا معناه ، وعلى قراءة التثنية ، يريد به رفيقيه الذي دخلا معه اللذين يطلبان تأويل رؤياهما ، وعلى كل قال لهم "أأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ" شتى ، من حفر وحديد وخشب ونحاس وفضة وذهب وحجارة وغيرها من صورة صغيرة

(244/389)

أو كبيرة وبين ذلك ، لا تضر ولا تنفع ، ولا عن نفسها شرا تدفع ، "خَيْرٌ" بأن تتخذوها ربا وتعبدوها "أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ 39" لكل شيء القادر على الإحياء والإماتة والإغناء والإفقار ، الذي قهر الجبابرة بالخذلان والموت الذي لا يشبهه شيء من خلقه ، والمنفرد بالإلهية ، المنقطع النظير ، والقوي الذي لا يغلبه غالب ولا يطلبه طالب ، لا زوجة له ولا ولد ، ولا معين ، ولا وزير ، وهذا الخطاب عام للمخاطبين ولمن هو على دينهما من أهل مصر ، وعلى هذا فتكون التثنية باعتبار أنهم جماعة من سلفهم جماعة على حد قوله تعالى (فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ) الآية 45 من سورة النمل في ج 1 ، ومن هنا تعلم أن هذا يشمل طالبي تعبير الرؤيا وغيرهما ، وهذا أحسن في التعبير وأنسب بالمقام راجع تفسير الآية المذكورة ، وعليه جاء قوله تعالى "ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ" أربابا وآلهة من الأوثان "إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ" بلفظ اجمع على المعنى الأخير ، وكذلك ما تدعون التقرب

إلى اللّه به من عبادة الكواكب والحيوانات والجمادات ، كلها إفك "ما أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ" يؤيد وجودها ولا برهان يثبت عبادتها ، ولا يوجد دليل على تسميتها آلهة لأنها ذليلة حقيرة يقدر على إهانتها كل أحد ، ويحطمها المرأة والولد ، ثم قال مظهرا لهم التأثر على عكوفهم على عبادة ما لا يصلح للعبادة والأسف على الركون إليها وهي لا شيء "إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ" أي ما الحكم في أمر العباد والعبادة إلا للإله المنفرد بالحكم الذاتي الذي "أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا" أيها الناس ملكا ولا بشرا ولا جنا ولا إنسا ولا جسما ولا شيئا "إِلَّا إِيَّاهُ" إذ لا معبود بحق غيره "ذَلِكَ" تخصيص الإله الواحد القهار بالعبادة والسيادة ونفيهما عن غيره هو "الدِّينُ الْقَيِّمُ" الثابت بالأدلة القطعية والبراهين

(245/389)

الساطعة "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ" 40 وهذا من مبادئ رسالته عليه الصلاة والسلام ، لأنه نبيء بالبئر وهو ابن ثماني عشرة سنة ، وأرسل وهو في السجن وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة على أصح الأقوال بدليل هذه الآية ، وقد وصف الأكثر بأنهم لا يعلمون دين اللّه وأوامره ونواهيه لجهلهم الحجج السماوية والأرضية الدالة على الألوهية وعدم استعمالهم ما منحهم اللّه به

من العقل ووقوفهم عند ما ألفوا عليه آباءهم وألفوه ،

ولما فرغ عليه السلام من دعوة الخلق إلى الحق حسبما أمره ربه رجع إلى تعبير رؤياهما فقال "يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما" الساقي فإنه يرجع إلى وظيفته "فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً" إذ تظهر براءته مما عزي إليه من العلم والاشتراك باغتيال الملك "وَأَمَّا الْآخَرُ" الطاهي فيثبت عليه الجرم المعزولة "فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ" لتسببه في اغتيال الملك ومباشرته لها فعلا لعدم امتثال أمر الملك بالأكل وبراءة الأول بالشرب ، وهما دليلان كافيان على براءة الأول وحكم الثاني ، وقال إن هذا سيكون بعد ثلاثة أيام ، وذلك لأن الأول قال ثلاث عناقيد عنب ، والآخر قال ثلاث سلال ، فقال له ما رأينا شيئا فقال لهما "قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ 41" ووجب حكم اللّه تعالى عليكما بما أخبرتكما ، رأيتما أو لم تريا ، وإنه آتيكم لا محالة بعد ثلاث ، ومن هنا قيل البلاء موكل بالمنطق "وَقالَ لِلَّذِي ظَنَّ" تيقن وتحقق "أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي" إذا خرجت من السجن "عِنْدَ رَبِّكَ" سيدك ومولاك لعله يتذكر مظلمتي فيخرجني من السجن ، قالوا وبعد ثلاثة أيام خرج الأول وصلب الثاني ، وهذا حكم عدل من ملك مصر في براءة الساقي ، لانه لم يقبل الجعل على المؤامرة في حق الملك ولم يباشر عملا .

أما قتل الطاهي ففيه ما فيه لأنه وإن كان أتم جميع الأسباب إلا أنه لم يقع الفعل كما علمت ، ولكن الملوك اعتادت قتل من يتآمر عليها وسنّت بذلك قوانين فهي تعمل بها حتى الآن ، قال تعالى "فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ" أي أنسى الشيطان الساقي أن يذكر الملك بيوسف .

مطلب في ضمير أنساه ورؤيا ملك مصر الأكبر وخروج يوسف من السجن :

وما قيل إن الضمير في أنساه يعود إلى يوسف غير وجيه ، لأن المعنى يصير حينئذ أن الشيطان أنسى يوسف ذكر اللّه بطلبه الفرج عنه من ملك مصر دونه ، وهو محال لما فيه من التعريض إلى الغفلة ، والأنبياء بعيدون عنها منزهون منها ، لذلك اخترنا ما عليه جل المفسرين من عود الضمير إلى الساقي لأنه أولى وأنسب بالمقام وأوفق للسياق واللّه أعلم "فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ 42" بسبب ذلك ، وعلى ما قالوا إنه أتم في في السجن سبع سنين ، والبضع ما بين الثلاثة والعشرة ، روي أن أنسا قال أوحى اللّه إلى يوسف من استنقذك من القتل حين همّ إخوتك أن يقتلوك ؟ قال أنت يا رب ، قال من استنقذك من الجب إذ ألقوك فيه ؟ قال أنت يا رب ، قال فمن استنقذك من المرأة إذ همت بك ؟ قال أنت يا رب ، قال فما بالك نسيتني وذكرت آدميا غيري ؟

قال يا رب كلمة تكلم بها لساني ، قال وعزتي وجلالي لأدخلنك في السجن بضع سنين .

وروي عن الحسن أنه قال : قال صلّى اللّه عليه وسلم رحم اللّه يوسف لولا كلمته التي قالها

أي (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) ولما لبث في السجن ما لبث .

ويستدل من قول يوسف عليه أن الاستعانة بالعباد لقضاء الحوائج جائزة لقوله تعالى (وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى) الآية 3 من سورة المائدة في ج 3 وقال صلّى اللّه عليه وسلم : اشفعوا تؤجروا ويقضي اللّه على لسان رسوله ما شاء .

(247/389)

وقال عليه الصلاة والسلام أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، فمن أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت اللّه قدميه على الصراط يوم القيامة .

وقال تعالى (مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها وَمَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها) الآية 85 من سورة النساء في ج 3 ، إلا أن هذا يختلف باختلاف الأشخاص ، والأليق بمقام الأنبياء تركه لأنفسهم والأخذ بالعزيمة ، وهكذا جرت عليه عادتهم ، قالوا إن جبريل عليه السلام دخل على يوسف في السجن وعاتبه على كلمته تلك .

وإن من يتمسك بهذه الأخبار استدل على عود الضمير من أنساه إلى يوسف لا إلى الساقي كما ذكرناه آنفا ، ووكلنا علمه إلى اللّه تبرئة لساحة الأنبياء عما لا ينبغي ، ولم نجزم به لأنا لسنا من أهل الترجيح .

هذا ولما أراد اللّه تعالى إخراج يوسف من السجن أرى ملك مصر الأكبر رؤيا عجيبة ، وهي ما قصها اللّه تعالى بقوله "وَقالَ الْمَلِكُ" الرّيان بن الوليد لمن عنده من السّحرة والكهنة والمنجمين والمعبّرين "إِنِّي أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ" هزال ضعاف من البقر "وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ" سبع أيضا "يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيايَ" هذه لأنها هالتني وإني لمتخوف منها "إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ 43" تفسرون سمي المفسر معبرا لأنه يعبر من أول الرؤيا إلى آخرها ليستخرج المعنى المراد منها ، والتعبير خاص في هذا ، أما التأويل فعام فيه وفي غيره .

راجع بحثه في المقدمة ج 1 "قالُوا" السحرة وأمثالهم أشراف

(248/389)

مملكته الذين قصها عليهم هذه "أَضْغاثُ أَحْلامٍ" أخلاطها وأباطيلها ، وأصل الضغث الحزمة من أنواع الحشيش والأحلام جمع حلم مما يرى في النوم من وسوسة الشيطان وحديث النفس الخبيثة كما بيناه في الآية 5 المارة "وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ 44" فقلق الملك وتشوش أكثر من ذي قبل لتوقف الناس عن معرفة تأويل رؤياه ، وصار يتعجب منها خاصة قضية تغلب ضعاف البقر على السمان على عكس العادة ، لأن القوي من كل

دائما يتغلب على الضعيف ، وصار يبحث عمن يعبرها له ، فتذكر الساقي إذ ذاك حذاقة يوسف في التعبير وشدة اختصاصه به ، قال تعالى "وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ" تذكر وتفطن "بَعْدَ أُمَّةٍ" مدة طويلة على تعبير رؤياه ورفيقه في السجن ووقوعها كما عبرها وصيّته له بأن يذكر سيده فيه "أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ" أيها الملك "فَأَرْسِلُونِ 45" لآتيكم بمن يعبرها ، ولذلك لم يقل أفتكم وذكر الضمير لعوده على الأمر الذي استصعبه الملك من الرؤيا ، قالوا قال هذا بعد أن تمثل أمام الملك بالاستئذان وجثى على ركبتيه احتراما على حسب عادتهم ، فأرسله الملك بعد أن فهم مما ذكر له من أحواله ومما قص عليه من أطواره ، وأنه من سلالة ابراهيم عليه السلام وانه يتمكن من تعبير رؤياه فذهب ودخل السجن وقال "يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ" سماه صديقا لصدقه في تعبير رؤياه وغيرها ، "أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ" الملك وأتباعه وأهل مملكته ، لأن هذه الرؤيا شاعت لدى العامة ولم يقدر أحد على تعبيرها وصارت شغلهم الشاغل ، فبينها لنا مما علمك ربك لنذكرها للملك وملائه "لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ 46" تأويلها ، ويظهر لهم فضلك فتخلص من محنتك هذه ، فسأله عن الرأي لأن له مدخلا في التعبير إذ المعبر

يعبر لكل بحسبه وما هو عليه، فقال له الملك الأكبر، "قالَ" قل للملك ومن أهمه شأن هذه الرؤيا هي رؤيا مشؤومة وعاقبتها وخيمة، ولكن إذا أردتم أن تتخلصوا من هولها وتكونوا في مأمن من مغبتها "تَزْرَعُونَ" خبر بمعنى الأمر لأنه فسر البقرات السمان والسنبلات الخضر بسبع سنين مخصبة، والبقرات العجاف

والسنبلات اليابسة بسبع سنين مجدبة، أي ازرعوا أيها الناس "سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً" بحسب عادتكم لأن الدأب العادة المتمادية، حتى إذا بلغ الزرع الحصاد "فَما حَصَدْتُمْ" منه كل سنة "فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ" لا تدوسوه ولا تذرّوه فإنه يسوس "إِلَّا قَلِيلًا" جدا بأن تدوسوا وتذروا منه بقدر "مِمَّا تَأْكُلُونَ 47" في كل سنة واحتفظوا بالباقي بسنبله واتركوه على حاله إلى السنين المجدبات المنوه بها في قوله "ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ" السبع المخصبات.

(250/389)

ولم يؤنث الضمير تفخيما لشأنهن "سَبْعٌ شِدادٌ" مرهقات للناس لأنهن ممحلات مجديات "يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ" أن يأكل الناس فيها ما ادخرتموه من السنين المخصبات ولم يتركوا منه "إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ 48" تخزونه للبذر فتبقونه في الحصن ليحفظ فلا يسقع ولا يطرأ

عليه ما يفسده ، والإحصان هو الاحراز بعينه ، كما أن البذر هو البزر "ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ" السبع المحلات "عامٌ" نون للتعظيم لما فيه من الخير الجسيم ، وهو كالسنة إلا أنه يستعمل فيما فيه الرخاء والخصب غالبا كما تستعمل السنة فيما فيه الشدة والجدب ، يدل عليه قوله تعالى "فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ" بأمطار كثيرة نافعة "وَفِيهِ يَعْصِرُونَ 49" الأعناب والزيتون والسمسم وكل ما من شأنه أن يعصر كالبرتقال والليمون والرّمان ، وهو كناية عن كثرة الخيرات فيها والبركات الأرضية والسماوية ، وقل لهم إذا فعلوا ذلك نجوا من سرها ، وإلا فالويل كل الويل لهم ، فرجع الساقي فرحا مسرورا وأتحف الملك بذلك ، فاستحسنه ورآه مصيبا واعتقد الحكمة

في المعبر لإرشاده لما يجب أن يعمل ويحتاط لذلك الأمر العصيب ، واشتاق لرؤيته لينعم عليه جزاء لتعبيره هذا ، وإراحة فكره من هول تلك الرؤيا ، ومن التدبير المستقبل لحفظ رعيته من الهلاك ، فالتفت لخدمه وذكر ما قص اللّه عنه بقوله عزّ قوله "وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ" من سجنه لأنظر اليه وأكافئه ، فذهب منهم الأول بدليل قوله "فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ" لأن أل هنا للعهد والمعهود وهو الأول الذي ذهب اليه إجابة لدعوته إذ اشتاق لرؤيته وأخبره بما قال الملك "قالَ" يوسف للرسول لا أذهب معك الآن

ولا أخرج من السجن بل "ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ" الذي فعلنه بي واحتلن به علي "عَلِيمٌ 50" لم يرد عليه السلام اخبار الملك بأمر النسوة معه ، وانما أراد أن يطلع هو والعزيز على حقيقة ذلك ، ولهذا اكتفى عليه السلام بذكر تقطيع الأيدي ورمز إلى المراودة التي كلفته بها امرأة العزيز بالكيد الذي وقع منها على طريق المجاملة ، واحتراز من سوء المقابلة ولعلهن يتكلمن إلى الملك بواقع الحال ، إذ لم يصمهنّ بشيء ظاهرا ، وكان ما ظنّ وكان تأنيه بالخروج من السجن إصابة لتظهر براءته عند الناس أجمع كما هو بريء عند الله ، وليعلموا أنه سجن ظلما ، ومن كرم أخلاقه عليه السلام لم يذكر اسم سيذته مع مع السبب في إحضار النسوة ، وقد أثنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم على فضله وحسن أناته بما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي وأخرجه الترمذي بزيادة ثم قرأ فلما جاءه الرسول إلخ ، وجاء في حديث آخر : لقد عجبت من يوسف وصبره واللّه يغفر له حين سئل عن البقرات السمان والعجاف ، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني ، ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال إرجع إلى ربك إلخ الآية ، ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لأسرعت الإجابة وبادرت الباب ولما ابتغيت العذر ، وانه لحليم ذو أناة وهذا من تواضعه صلّى اللّه عليه

وسلم ، وإلا فحلمه وأناته وتحمله واهتمامه بما يترتب عليه من قول الخلق وامر الحق لا يقاس بغيره ، فقد أعطى من كل شيء غايته ومنتهاه وعبر بحرا وقف الأنبياء بساحله الأدنى ، فرجع الرسول وأخبر الملك بقوله ، فأمر حالا بجمع النسوة واحضارهن

ثم خاطبهن بقوله "قالَ ما خَطْبُكُنَّ" ما شأنكن وأمركن "إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ" خاطبهن جميعا بهذا القول سترا لامرأة العزيز ، ولانهن أمرنه بمطاوعتها "قُلْنَ" للملك بلسان واحد "حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ" ذنب أو خيانة فى شيء ما وقد بالغن في نفي جنس السوء عنه بتكيد لفظ السوء ، وزيادة من ،

وابتداء جوابهن بكلمة التبرؤ والتعجب من زيادة عفته ، ثم "قالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ" بانفرادها للملك "الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ" ظهر ظهورا واضحا بينا "أَنَا" يا حضرة الملك "راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ 51" بقوله هي راودتني اعترفت هنا اعترافا صريحا علنا ، لأن اعترافها الأول في الآية 32 المارة كان بحضور النسوة فقط ، فلم يكن كافيا لبراءته عند زوجها والعامة قالوا ثم أمر الملك الرسول أن يخبر يوسف بذلك ، فذهب اليه وبشره بالاعتراف العلني العام ببراءته بحضور الملك مما عزى اليه قال يوسف عليه السلام "ذلِكَ"

عدم خروجي من السجن وامتناعي من اجابة الملك أولا وسبب تثبتي وأناتي هو لظهور براءتي عند العزيز الذي كان أحسن إلي وأكرمني مدة إقامتي عنده "لِيَعْلَمَ" علما حقيقيا "أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ" في زوجته كما لم أخنه في ماله وخدمته ولا بحضوره "وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ 52" ولا يسددها ولا يسهل مكرهم ولا يرشدهم لطريق الخلاص ، فلو كنت خائنا لما أنقذني من هذه الورطة ولم يوفقني للنجاة منها .

(253/389)

وهذه الآية بالنسبة لما قبلها على حد قوله تعالى (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ) من قول ملأ فرعون وقوله بعد (فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ) من قبل فرعون كما مر في الآية 110 من سورة الشعراء ، وما قيل ان (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ) من قول امرأة العزيز تبعا للآية قبلها فليس بشيء كما أن من قال إن الضمير في ليعلم للملك ، وفي لم أخنه له ليس بشيء أيضا ، وما جرينا عليه هو الأولى وعليه أكثر المحققين ، وكذلك قوله تعالى "وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي" هو من قول يوسف عليه السلام لا من قول المرأة كما قاله بعض المفسرين هذا ولما ذكر عليه السلام براءته مما عزي اليه قال على طريق هضم النفس والتواضع إلى ربه ولئلا يزكي نفسه على أتم وجه وليبين ما وفق اليه من الأمانة والعصمة التي منّ اللّه بها عليه قال (وَمَا أُبَرِّئُ) إلخ من الهم الذي أوطنها

عليه لأنه عبارة عن خطرات قلبية جارية عادة في طبيعة البشر مجردة عن القصد والعزم وكذلك لا أبرىء نفسي من الميل المجرد الذي هو من طبع النفس.

مطلب مراتب النفس ومواقف التهم وحكاية الزمخشري واجتماع يوسف بالملك بعد توليه الوزارة:

(254/389)

"إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ" أي جنس النفس طبعها الأمر بالسوء لما فيها من القوى الشهوانية، والسوء لفظ جامع لكل ما يتهم به الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية، أما السيئة فهي الفعلة القبيحة، والنفس من حيث هي واحدة لها صفات منها هذه، ومنها اللوامة ومنها المطمئنة، فإذا دعيت النفس إلى شهواتها ومالت إليها فهي الأمارة بالسوء، فإذا منعتها النفس اللوامة على ما نوته من القبح يحصل لها الندامة فيكون من صفاتها المطمئنة أي أن النفس على الإطلاق تأمر صاحبها بعمل السوء، لأن الإنسان إذا ترك وشأنه كان شريرا بالطبع "إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي" إلا النفس التي رحمها اللّه وعصمها كنفوس الأنبياء أمثال يوسف عليه السلام، ولم يخص نفسه تواضعا وهضما لنفسه، وقد تأتي ما بمعنى من كما هنا وكما في قوله تعالى (فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ) الآية 3 من سورة النساء في ج 3،

راجع الآية 16 من سورة الفرقان في ج 1 وجعل الاستثناء هنا متصلا أولى من جعله منفصلا كما لا يخفى "إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ" لما يعتري النفوس بمقتضى طباعها لأن منه ما لا يكون في طوق البشر دفعه كالهم والميل المجردين عن القصد والنية وهو "رَحِيمٌ 53" بعصمة تلك النفوس من الجري على موجب ذلك لخروجه عن الوسع وإنما تورع عليه السلام بالقول ليتوصل إلى ما يحمل الملك على الهداية والإيمان بالله تعالى كما توصل إلى إيقاع الحق لصاحبه بالسجن لهذه الغاية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف مواقفها، قال عليه الصلاة والسلام: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقف مواقف التهم.

وأخرج مسلم من رواية أنس أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم كان مع إحدى نسائه فمرّ به رجل فدعاه وقال هذه زوجتي، فقال يا رسول الله من كنت أظن به فلم أكن أظن بك، فقال صلّى الله عليه وسلم إن الشيطان يجري من ابن آدم مجري الدم، أي يأخذه لطرق الشرّ من حيث لا يحس ويأتيه من كل جوانبه من كل مسلك كما أن الدم يجري في جميع عروق ابن آدم وهو لا يحس به فهو من قبيل المعلوم غير المحسوس مثل

حركة الظل وفلكة المهواية والرحى وسريان النار في الفحم والزيت في الزيتون والسمسم وما أشبه ذلك ، راجع الآية 112 من سورة هود المارة ، وروى الترمذي والنسائي عن أبي محمد الحسن بن علي سبط رسول اللّه وريحانته رضي اللّه عنهم قال حفظت من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم دع ما يريبك إلى ما لا يريبك .

أي ما تشك وتشتبه به إلى ما لا تشك ولا تشتبه فيه .

وجاء في خبر آخر رحم اللّه امرأ جبّ المغيبة عن نفسه .

أي قطعها بعدم وقوفه ومروره في مواقف التهم وعدم مشيه مع المشبوهين باقتراف المعاصي ومجالستهم ومكاتبتهم فيجب على الإنسان أن يحفظ نفسه وسمعته من كل ذلك .

كان جار اللّه محمود الزمخشري مقطوع الرجل وقد أخذ حكما من قاضي زمانه بأنها قطعت بعاهة لئلا يظن أنها قطعت بسرقة أو فساد في الأرض ، وكلما دخل بلدة اظهر لأهلها حكم القاضي بأنها قطعت بعاهة خوفا من تهمة السوء ، قيل إنه ذات يوم أمسك عصفورا فكسر رجله فقالت له أمه كسر اللّه رجلك كما كسرت رجله ، وكان ذهب إلى بخارى لطلب العلم وكسرت رجله بسبب وقوعه عن الحمار ، فقال هذه دعوة أمي إلا أن الإثبات الذي لديه يدل على أنها تعطلت بالثلج .

هذا ولا يبعد أن السيد يوسف عليه السلام خشي أن يخرج ساكتا من السجن عن أمره الذي سجن من أجله وشاع خبره لدى العامة ولم تتضح براءته منه بصورة جلية ليطلع عليها الخاص والعام ، وقرف به من أن يتسلق به الحاسد إلى تقبيح أمره ذلك ، فيكون سلّما إلى الحط من قدره ونظر الناس إليه بعين الاحتقار ، فلا يعلق كلامه في قلوبهم وهو بحاجة إلى ذلك لتمهيد دعوته إلى ربه ، وقد لا يترتب على دعوته قبولهم فيما لو بقي ساكتا عن إظهار واقعته ، لذلك فإنه وضحها للناس على الصورة المذكورة أعلاه ، هذا ولما ثبت لدى الملك براءته ورأى علمه وفضله ودرايته وثناء العامة عليه أحبّ أن يصطفيه لنفسه ، لأن الصابر العفيف الحسن الكتوم أهل لأن يكون من خواص الملك ، وكان عليه السلام العفيف الحسن الكتوم أهل لأن يكون من خواص الملك

، وكان عليه السلام متحليا بكل وصف حميد ، فأراد أن يوليه أمر ملكه وتدبير رعيته المنبئ عنه قوله تعالى "وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي" فذهب الرسول الأول حالا فرحا مسرورا ودخل السجن وبلغه أمر الملك على رؤوس الأشهاد ،

وقال إن الملك أمر بإخراجك من السجن بلا عودة ، وطلب مقابلتك ليوليك أمره ، فودع أهل السجن ودعا لهم بخير ، ولما خرج أسفوا كلهم على فراقه وفرحوا بخروجه ، قالوا ولما خرج كتب على باب السجن هذا بيت البلاء ، وقبر الأحياء ، وشماتة الأعداء ، وتجربة

الأصدقاء .

ثم اغتسل خارجه ولبس ثيابه وتوجه نحو الملك ، فلما قرب منه قال حسبي ربّي من دنياي ، حسبي ربي من خلقه ، عز جارك يا اللّه وجلّ ثناؤك ولا إله غيرك .

ولما وقف بين يديه وأبصره قال اللهم إني أسألك بخيرك من خيره ، وأعوذ بك من شره وشر غيره .

وسلم عليه بالعربية ، فقال له ما هذا اللسان ؟ قال لسان عمي إسماعيل ، ثم دعا له بالعبرانية ، فقال له ما هذا اللسان ؟ قال هذا لسان آبائي ، قالوا وكان الملك يحسن سبعين لغة ، فكلمه بها كلها ، فأجابه بما يكلمه ، وزاد عليه بالعبرية والعربية ، فأعجب به غاية الإعجاب وقربه وأجلسه بجانبه ، قالوا وكان خروجه من السجن بعد بلوغه الأربعين سنة من عمره ، لأنه أدخل فيه بعد كمال الثالثة والثلاثين وبقي فيه سبع سنين على أصح الأقوال ، وما قيل إنه لبث في السجن خمس سنين قبل أن أوصى ساقي الملك ليعرض أمره على ربه فليس بشيء ، لأنه دخل معه وخرج بعد تعبير الرؤيا بثلاثة أيام ، ولأنه حين خرج كان عمره أربعين سنة وإذا مشينا على هذا القيل يكون عمره إذ ذاك خمسا وأربعين سنة ، ولم يقل به

أحد .

قال تعالى "فَلَمَّا كَلَّمَهُ" وشاهد منه ما لم يكن بالحسبان وما وقع منه حين مواجهة الملك من الاحترام اللائق به مما أعجب الملك ودهش منه كان بتعليم اللّه تعالى ، لأن الملوك لا يبدأون بالكلام بل بالتحية والدعاء فقط ، ثم يسكت أمامهم حتى يكون الملك البادئ ثم يجاب على قدر السؤال ، فلما رآه الملك واقفا على هذه الأصول وزيادة لم يرها من غيره أقبل عليه وخاطبه بقوله كما حكى اللّه عنه "قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ" ذو مكانة عالية ومنزلة سامية "أَمِينٌ 54" ذو مقام مؤتمن على أسرارنا وعلى خزائننا ، قالوا وقال الملك يا يوسف أحب أن أسمع منك تأويل الرؤيا فقصّها كما رآها ثم قص له تأويلها كما ذكره أولا ، فقال واللّه ما أخطأت منها شيئا ، وإنها كانت عجبا وما سمعته منك أعجب ، لأنك أخبرتني عن شيء رأيته أنا وأوّلته

أنت بشيء لم يخطر على بالي ، ثم قال له ماذا ترى نعمل ؟ فأشار عليه بما تقدم مع تفصيل وتوضيح ، وقال إذا فعلت هذا تؤمن قوت قومك وتأتيك الناس طلبا للميرة من كل مكان ، فتبيعهم الفضل فيجتمع عندك خزائن الأرض ، وتستعبد الناس بما تضع لهم من معروف

بصيانة حياتهم من الموت جوعا وما ، تبيعه لهم منة يعدونه صدقة منك لشدة الحاجة إليه ، فقال ومن لي بمن يقوم بهذا العمل العظيم الذي فصلته لي لأنه يحتاج إلى جماعة مدرّبين محنكين يعون ما يعملون ويعلمون عاقبة ما يفعلون فيأمنون مما يعتذر منه "قالَ" يوسف عليه السلام أنا أكفيك ذلك كلّه أيها الملك "اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ" التي يشملها ملكك وخولني ما فيها من أموال وطعام وأنعام وغيرها من جميع أنواع الخراج الذي قننته عليهم لأقوم لك بذلك كما ينبغي إن شاء اللّه "إِنِّي حَفِيظٌ" لها أمين عليها "عَلِيمٌ 55" بطرق جبايتها وجمعها وحفظها خبير بوجوه تفريقها وتعيين مواردها وتبين مصالحها وكيفية صرفها ، فقال له الملك نعم إني لا أرى أليق منك ولا أحق بذلك ، قالوا فولاه واردات دولته ونفقاتها (وزارة المالية) ولا محل للقول هنا بأنه لا يجوز طلب الإمارة فكيف ساغ للسيد يوسف طلبها مع ما هو عليه من النبوة لما جاء في الصحيحين عن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أوتيتها عن غير مسألة أعنت عليها .

لأن هذا إذا لم يتعيّن عليه طلبها ، فإذا تعين وجب عليه طلبها ، وإيضاحا لذلك نضرب مثلا : لو كلف رجل بمنصب القضاء و

عرف أنه إذا لم يقبله يعين له من ليس من أهله ، وجب عليه قبوله إياه ، بل يجب عليه طلبه لما في ذلك من الخطر على مصالح المسلمين وغيرهم وضياع حقوقهم ، ولما كان السيد يوسف عليه السلام مرسلا لمصالح الخلق ومكلفا برعاية حقوقهم ومحافظة أمورهم ، وقد علم بإعلام اللّه إياه أن غيره لا يتمكن من ذلك كما يجب ، لاسيما في هذه القضية ، وأن الناس سيترامون بأموالهم وأنفسهم على مصر للميرة منها ، وأنه لا بد لهذه الوظيفة من أمين صادق رؤوف على العباد يقوم بها ، وجب عليه طلبها لأنه إذا لم يقبلها لا يستطيع أحد القيام بها كما ينبغي ويحافظ على حقوق الأمة ويصونها

من الهلاك بصورة عادلة لا تفضيل فيها للخطير على الحقير ، ولا الغني على الفقير ، لذلك طلبها وزكى نفسه أمام الملك بما تقدم لتطمئن نفسه ويستريح ضميره ، إذ شغل باله بمن يوليه عنه هذه المهمة ويكفيه مؤنتها ويريحه من هذا الأمر الذي ذكره له على ما هو عليه من الخطورة ، ولا يقال أيضا كيف زكى نفسه واللّه تعالى يقول (فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ) ؟ الآية 30 من سورة والنجم المارة في ج 1 لأن تزكية النفس إذا قصد بها إيصال الخير والنفع إلى الغير

مطلوبة ومحمودة ، وانما تكره لا تحرم التزكية للنفس إذا قصد بها التطاول على الناس والتفاخر بما عنده عليهم والتوصل إلى ما لا يحل ، وهذه كلها بعيدة عن ساحته عليه السلام وغاية تصديه لذلك إنما هي إعلام الملك بما تقدم وايقافه على أنه ليس مختصا بأمور الدين فقط كما ظن الملك به اولا من تعبير الرؤيا والنصح لأهل السجن ، وان من كان هذا شأنه بعيدا عن أمور الدنيا لا يعرف ما يلزم لها أو يتعلق بها ، بل له علم كامل بها وما يتفرع عنها أيضا ، ومن هنا قال أهل هذا العصر بفصل الدين عن السياسة ولم يعلموا أن الواقف على أصول الدين أعلم بالسياسة من غيره ، وهذه المصلحة من أمور الدنيا بحسب الظاهر بقطع النظر عما يلزم لها من العدل وما فيها من الثواب العظيم عند اللّه ، فإنه قد علم بتعليم اللّه تعالى إياه لو تولاها غيره لجار وارتشى وفضل أناسا على آخرين ، فأدى إلى هلاك الأمة أو أكثرها فاجابه لذلك ، وإنما لم يذكر اللّه تعالى اجابة الملك إلى توليه يوسف إيذانا بأن ذلك أمر لا غنى له عنه ، لأنه لم يقل له يوسف ما قال إلا حينما رآه متحيرا بمن يوليه ذلك الأمر الخطير ، قالوا وكان بين طلب توليه وإسنادها اليه سنة واحدة ، روى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس قال قال رسول صلّى اللّه عليه وسلم يرحم اللّه أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ، ولكنه أخّر ذلك

سنة وسبب هذا التأخير أن الملك لا يولي أحدا قبل أن يختبره بما يوليه عليه وان السنة كافية للتحقيق عن حال الموظف خارجا وداخلا .

مطلب تمرين الموظف وزواج يوسف بزليخا ودخول السنين الجدبة واجتماع يوسف بإخوته :

ومن هنا اتخذت الملوك قاعدة التمرين لمدة سنة على الأقل لمن يريدون توليته حتى إذا ظهر لهم خلالها كفاءته عينوه وإلا صرفوه ألم تر أن حضرة الرسول قال سودوا قبل أن تسودوا أي صيروا أهلا للسيادة قبل أن تقلّدوها .

قالوا ولما انقضت السنة وظهر للملك من اختباره أحوال يوسف من جميع نواحيها أنه ذلك الرجل الذي هو أهل لأن يعتمد عليه في هذه المهمة واطمأن من لباقته ولياقته ووثق من اقتداره وكان العزيز شاخ وهرم فعزله عن العمل وأحاله إلى المعاش ثم أحضر يوسف عليه السلام إلى مجلسه بحضور ملائه وقلده الوزارة وبلغه أمر تعيينه ووشحه بسيف مرصّع وحلاه بخاتمه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالورد والياقوت وأجلسه عليه وتوجه بتاج

الملك ، وسلمه خزائنه وفوض اليه أمر الملك كله بصورة فوق العادة الجارية لمن سلف من وزرائه ، وتخلى له عن كل شيء وأبلغ ذلك إلى عماله في جميع أقطار مملكته ، فدانت له الملوك وأذعنت اليه الأمم وانقادت له أعيان المملكة وشيوخها ، وتولى الأمر والنهي بنفسه ، وكان عمره إذ ذاك واحدا وأربعين سنة ، قالوا وتوفي العزيز في هذه السنة ، فزوجه الملك امرأته زليخا ، فلما دخل عليها قال أليس هذا أحسن مما كنت تريدينه ؟ قالت لا تلمني أيها الصديق فقد كنت غضة طربة ناعمة ، في ملك ودنيا كما رأيت ، وكان صاحبي شيخا لا يأتي النساء وأنت على ما جعلك اللّه عليه من الجمال والأخلاق والهيبة والوقار فغلبتني نفسي وعصمك اللّه ، قال ووجدها عذراء وولدت له افرائيم وميشا ، قالوا ولما بدأت السنون الخصبة أقام السيد يوسف العدل بين أهالي مصر وغيرهم وأحبه الخاص والعام وهيء محالا لخزن الحبوب ، واستحضر ما يؤمن لأهالي مملكته وغيرهم طيلة السنين المجدبة قالوا ولما دخلت السنون المجدبة فأول من أحسّ بالجوع الملك ، فأرسل إلى يوسف يقول له الطعام الطعام ، نخصص له وحاشيته وله نفسه كل يوم أكلة واحدة وسط النهار ، ومن ثم صار غداء الملوك نصف النهار ، وحتى الآن وهم سائرون على هذه العادة ، وكان عليه السلام نبه جميع الأهالي إلى أن يدخروا طعام سبع سنين كما فعل

هو ، إذ ادخر لأهل مملكته ما يكفيهم تلك المدة ، وقد فعلوا ولكنهم استهلكوه بسنة واحدة لعدم انتظامهم في الأكل وعدم اقتصادهم على أكلة واحدة كما فعل هو والملك ، ولأن العادة في الغلاء (أعاذنا اللّه منه) تتغير إذ ان الإنسان يأكل فيه اكثر من زمن الخصب والرخص والرخاء ، ولفراغ العين تقل البركة فطلبوا الابتياع منه ، فباعهم بالسنة الأولى والثانية من السنين المجدبة بالنقود ، والثالثة بالحلي والجواهر ، والرابعة بالدواب والأنعام ، والخامسة بالعبيد والجواري ، والسادسة بالضياع والعقارات ، والسابعة بأنفسهم وأولادهم ، حتى صار جميع ما في مملكته ملكا له ، واسترق أهلها فصاروا عبيدا له من جملة حاشيته ، ثم ذهب فقابل الملك وقال له كيف رأيت صنع اللّه فيما خولتني فيه بحسن نيتك وعقيدتك في ؟ فقال الملك نعم ما فعلت وحسن ما صنعت ، أنا لك تبع والرأي لك فيهم وفي غيرهم ،
فقال الملك نعم ما فعلت وحسن ما صنعت ، أنا لك تبع والرأي لك فيهم وفي غيرهم ،
فقال إذا ، إني أشهدك وأشهد اللّه على أني أعتقتهم كلهم ، ورددت لهم أموالهم وضياعهم ، ثم ظهر عليهم وأبلغهم ذلك ، فقالوا ما رأينا كاليوم ملكا أجل ولا أعظم ولا أرأف من يوسف ، بل ولا سمعنا من آبائنا ملكا تحلّى بصفاته وحبه لرعيته ، وكان عليه السلام لا يشبع طيلة السنين المجدبة ، فقيل له في ذلك ، فقال أخاف ان أنا شبعت أن أنسى الجائع ، ولهذا فقد آمن به الملك وجميع الناس الذين وقفوا على أخلاقه هذه ، وكان لا يبيع أكثر من حمل بعير

للواحد لئلا يضيق الطعام على الباقين وكان يلقاهم بوجه طلق ويحسن إليهم ويوفي لهم الكيل ولا يميز بين أحد ويعدهم بأن يبيعهم مرة أخرى كلما نفذ ما عندهم ويقول إن الحبوب كثيرة فلا تخشوا نفادها ، وان في الخزائن ما يكفيكم إلى وقت الخصب والحصاد ، لذلك لا ترى أحدا إلّا ويدعو له بالخير .

(264/389)

قال تعالى (وَكَذلِكَ) كما أنعمنا على يوسف بما تقدم ذكره من

تخليصه من إخوته ومن البئر ومن امرأة العزيز ومن السجن "مَكَّنّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ" أقدرناه على أهلها وثبتنا قدمه وجعلناها راسخة في أرض مصر "يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ" لا ينازعه فيها منازع ، ولا يعارضه فيها معارض ، له الأمر والنهي فيها من بعد اللّه تعالى وقد أكرمناه بذلك إكراما من لدنّا وقرىء نشاء بالنون لمجانسته قوله تعالى "نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا" عطائنا الواسع في الدنيا من الغنى والملك والنبوة "مَنْ نَشاءُ" من عبادنا المخلصين لنا النّافعين لعبادنا "وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" 56 منهم فيها لأن الإضاعة تكون للعجز أو الجهل أو البخل ، والكل محال عليه تعالى ، فامتنعت الإضاعة وحل الإحسان ، وهو يعم أمورا كثيرة وحقيقة الشاهد والعيان ، قال صلّى اللّه عليه وسلم في حديث جبريل الذي

رواه مسلم عن عمر رضي اللّه عنه ، قال أخبرني عن الإحسان ، قال أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وهذه الرؤية ليست برؤية عيانية بل حالة تحصل عند الرسوخ في كمال الإعراض عما سوى الله ، وتمام توجهه إلى حضرته المقدسة بحيث لا يكون لسانه وقلبه وهمه غير اللّه تعالى ، وسميت هذه الحالة مشاهدة لمشاهدة البصيرة إياه تعالى كما أشار إليها بعض العارفين بقوله :

خيالك في عيني وذكرك في فمي وحبك في قلبي فإين تغيب

وقال الكندي :

وفي أربع مني حلت منك أربع فما أنا أدري أيها هاج لي كربي

خيالك في عيني أم الذكر في فمي أم النطق في سمعي أم الحب في قلبي

قال تعالى : "وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ" من أجر الدنيا مهما كان عظيما وهو مهيء "لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ 57" اللّه تعالى فيأتمرون بأمره وينتهون بنهيه وفيه إشارة إلى أنه كان من المتقين زمن الهم والميل ، واعلام بأن اللّه تعالى أعد ليوسف عليه السلام في الآخرة أعظم مما أتاه في الدنيا قالوا ولما اشتد القحط وعم البلاء احتاج أهل البادية إلى الميرة من الحاضرة فأتوا

مصر ومن جملتهم أهله حيث كانوا نازلين بالعربات من أرض فلسطين عند ثغور الشام فقال السيد يعقوب عليه السلام لأولاده بلغني أن بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فاقصدوه ثم جهزهم وأرسلهم وذلك قوله تعالى "وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ 58" جاهلون كونه هو إذ لم يعرفوه البتة ، وذلك لأنهم جاءوا عليه على حالتهم البدوية التي تركهم عليها ، فعرفهم هو لذلك وهم رأوا ملكا متوجا بتاج الملك بزي ملوك مصر فمن أين يعرفونه ، على أن العرفان يخلقه اللّه تعالى في القلب ولم يخلقه فيهم إذ ذاك ليحقق اللّه ليوسف عليه السلام ما وعده به في قوله (لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) الآية 15 المارة .

مطلب أول من سن التحقيق عن الهوية ومعنى الأخوه وفضلها ومحاسن الأخلاق :

قالوا ولما دخلوا عليه حيوه بالعربية فرد عليهم بها ، وكلمهم وسألهم ، فأخبروه بهويتهم وحالهم ومحلهم والسبب الذي جاء بهم إليه ، فقال لهم عليكم جئتم تنظرون عورة بلادي ؟ فقالوا ما نحن بجواسيس وإنما نحن أخوة أولاد أب واحد ، وكنا اثنى عشر وها نحن عشرة ولنا أخ آخر لأب تركناه عند والدنا حيث كان له أخ أحبنا إلى أبينا وقد هلك بالبرية ، فأمسك أخاه يتسلى به ، وان مجيئنا للميرة ليس إلا كما ذكرنا .

قالوا وبعد إكرامهم أراهم من لين الجانب ما قرت أعينهم به ، قال ومن يعرفكم ويعلمنا صدق قولكم ؟ قالوا لا أحد لأنا غرباء ، قال ائتوني إذا بأخيكم لأبيكم الذي هلك أخوه كما زعمتم ليظهر لي حقيقة قولكم ، قالوا ان أباه يحزن لفراقه ، قال اتركوا أحدكم عندي رهينة حتى إذا تبين أنكم جواسيس أجريت معه ما يستحقه الجاسوس من الجزاء ، لأن هيئتكم تدل على أنكم عيون لا ممتارون كما تزعمون ، وإنما قال لهم ذلك مع علمه بخلافه توطئة وتقدمة لأن يستنزلهم لجلب أخيه وإلا فبعيد عليه عليه السلام أن يتهمهم بذلك لأن هذا إذا كان على حقيقة يكون من البهت والبهت لا يليق صدوره منه ويصرف هذا عن معناه الحقيقي زيادة إكرامهم وحسن مكالمتهم وايفاؤه الكيل لهم وتزويدهم لما يحتاجون من الطعام في سفرهم وقوله لهم بعد هذا "وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ

59" فوافقوه على ما قال وافترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون ، وكان أحسنهم رأيا بعد يهوذا ، فسلموه إليه قال تعالى "وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ" بفتح الجيم ، وكسرها لغة رديئة ، إذ حمل لكل منهم بعيرا وبالغ بملاطفتهم وإكرام وفادتهم واحسان ضيافتهم ، فلما غادروه "قالَ" لهم "ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ" يطلق على الأخوة لأب بنو الأعيان والإخوة لأم بنو العلّات ويقال للأخوة من أم واحدة وآباء متفرقين بنو الأخياف وللأخوة من أب وأم أشقاء وقد نكر الأخ مبالغة في عدم معرفته لئلا يتهموه بمعرفتهم أو ينتبهوا لها ، والأخ قد يكون أكثر

شفقة من الابن وقد أثنى اللّه على الأخوة بقوله جل قوله (فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً) الآية 110 من آل

(267/389)

عمران في ج 3 ، وقال "إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ" الآية 48 من سورة الحجر الآتية وقال صلّى اللّه عليه وسلم الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها أتلف وما تناكر منها اختلف وقال صلّى اللّه عليه وسلم ان روحي المؤمنين يلتقيان في مسيرة يوم ، وما رأى أحدهما صاحبه ، وقد سنّ الإخاء وندب إليه وآخى بين أصحابه ، وجاء في الخبر عنه صلّى اللّه عليه وسلم كم أخ لك لم تلده أمك ، وقال عليه الصلاة والسلام الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين .

وقال جعفر الصادق عليكم بالإخوان فأنهم عدة الدنيا وعدة الآخرة .

وقال الشاعر :

أخاك أخاك إن من لا أخا له كساع إلى الهيجا بغير سلاح

وقال زياد خير ما اكتسب المرء الإخوان ، فإنهم معونة على حوادث الزمان ، ونوائب الحدثان ، وعون في السراء والضراء .

قال ابن السماك أحق الإخوان ببقاء المودة الوافر دينه ، الوافي عقله ، الذي لا يملّك على القرب ولا ينساك على البعد ان دنوت منه داناك ، وان بعدت عنه راعاك ، وان استعنت به عضدك ، وان احتجت إليه رفدك ، وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله ، فهو الذي يواسيك في الشدة أكثر من الرخاء ، ويغار عليك كما يغار على نفسه ويساوي حاجتك بحاجته بل تقتضى مروءته تقديمها على حاجته ولو أضرّت به .

وفي هذا قيل :

دعوى الإخاء على الرخاء كثيرة ولدي الشدائد تعرف الإخوان

وقال الآخر :

إن أخاك الحق من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك شتّت فيك شمله ليجمعك

وقيل لخالد بن صفوان أي اخوانك أحب إليك ؟ قال الذي يسد قلّتي ، ويغفر زلّتي ، ويقبل عثرتي وقيل من لم يوأخ إلا من لا عيب فيه قلّ صديقه ، ومن لم يرض من صديقه إلا بايثاره على نفسه دام سخطه ، ومن عاتب على كل ذنب ضاع عتبه وكثر تعبه .

وقيل في ذلك :

إذا كنت في كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

وإن أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وقالوا إذا رأيت من أخيك أمرا تكرهه ، أو خلة لا تحبها فانصحه وانهه واضرب له الأمثال على قبح عاقبتها ، ولا تهجره رأسا ، ولا تقطع صلته ولا تصرم ودّه ، ولكن داو كلمته ، واستر عورته ، وابقه وابرأ من عمله قال تعالى (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) الآية 267 من سورة الشعراء في ج 1 ، فإن اللّه لم يأمره بقطعهم بل بالبراءة من سيء عملهم ،

وقيل :

أخاك الذي إن تدعه لملمة يجبك كما تبغي ويكفيك من يبغي

وان تجفه يوما فليس مكافئا فيطمع ذو التزوير والوشي ان يبغي

وقالوا ليس سرورا يعدل لقاء الاخوان ولا غم يعدل فراقهم ، ولكن من هؤلاء الإخوان فإن اخوان أهل هذا الزمن خوّان ، ان أبديت لهم شيئا أحبوك وان منعتهم رفدك بغضوك ، وهم كما قالوا شر الإخوان الواصل في الرخاء الخاذل في الشدة ، وهذا الصنف منهم كثير ، وفيهم يقول القائل :

بمن يثق الإنسان فيما ينوبه ومن أين للحر الكريم صحاب

وقد صار هذا الناس إلا أقلهم ذئابا على أجسادهن ثياب

وأتى هؤلاء ممن نوه بهم حضرة الرسول بقوله ما تحابّ اثنان في اللّه الا كان أفضلهما عند اللّه أشد هما حبا لصاحبه، وما زار أخ أخا في اللّه شوقا إليه ورغبة في لقائه إلا نادته الملائكة من ورائه طبت وطابت لك الجنة.

وما أحسن ما قيل:

وزهدني في الناس معرفتي بهم وطول اختباري صاحبا بعد صاحب

فلم ترني الأيام خلاً تسرني مباديه إلا ساءني في العواقب

راجع الآية 29 من سورة الفرقان في ج 1 تجد ما يتعلق بهذا البحث، وله صلة في الآية 67 من سورة الزخرف الآتية فراجعها، قال تعالى "أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ" لكم ولغيركم إيفاء مستمرا بدلالة استقبال الفعل لأن هذا الكلام وقع بعد أن كال لهم "وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ 59" المقرين للضيف سابقا ولا حقا بدلالة الجملة الاسمية ولم يقل هذا بطريق الامتنان بل قاله حتما لهم على تحقيق ما أمرهم به يدل عليه قوله "فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي" مرة أخرى ففيه إيعاد لهم على عدم الإتيان بأخيهم المتضمن مخالفة أمره وزاد في الوعيد بقوله "وَلا تَقْرَبُونِ 60" البتة إذ يظهر له عدم صحة قولكم هذا على قراءة الكسر، وعلى

قراءة الفتح يكون المعنى لا تدخلوا بلادي لأني سأعاملكم معاملة العيون .

وتأتوني تقرأ بالهمز وبدونه مثل يأكل ويأكل ، أي أنه يعاملهم معاملة الجواسيس فضلا عن عدم الإيفاء بالكيل والإحسان في الضيافة أي لا أمدكم ولا أدخلكم بلادي وسأردكم خائبين وذلك عبارة عن ترهيب وتضييق ووسيلة لاهتمامهم بجلب أخيه

(270/389)

"قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ" فنحتال عليه حتى ننتزعه منه ونحضره لك وأكدوا له تنفيذ ما أمرهم به بقولهم "وَإِنَّا لَفاعِلُونَ 61" ما أمرتنا به إذ لا غنى لنا عن العودة لحاجتنا إلى الميرة لأنا آل بيت معروف تطرقه الضيفان من كل مكان وما تصدقت به علينا لا يكفينا ، وأذن لهم بالانصراف "وَقالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ" من طعامهم الذي ابتاعوه منه "فِي رِحالِهِمْ" أوعيتهم التي يحملون فيها أشياءهم "لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ 62" إلينا ، لأن ديانتهم وأمانتهم تحملهم على ردها فيحصل المطلوب من قصد حضورهم بأخيهم ، وهذا التفسير أولى بالمقام وبسياق الكلام من أن يراد بالبضاعة معرفة كرمه وسخائه لأنهم قد علموا ذلك مما تقدم ، أوانه رأى أخذ الثمن من أهله لؤما مع أنه ليس بشيء عنده ، وقد صمم على بيعهم إليه أو أنه أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم به

عيب فرده إليهم ، فهذه الأوجه كلها وان كان يحتملها التفسير إلا أنها بعيدة عن المرمى نائية عن المغزى ، والله أعلم .

قال تعالى "فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ" قال لهم ولم ذلك قالوا إن ملك مصر أحسن وفادتنا وأكرمنا إكراما لو كان من ولد يعقوب ما فعل بنا مثله ، إلا أنه ظن أننا جواسيس وعيونا على مملكته لأنا من قطر غير قطره ، طلب أولا منا من يعرّفنا بعد أن عرفناه بحالنا ونسبنا فقلنا له إنا غرباء لا يعرفنا أحد ، فازداد تنكّره منا وأخذ أخانا شمعون رهنا على أن نحضر له أخانا بنيامين دلالة على صدقنا إذ ذكرنا له قصتنا وفقد أخينا الذي هو أحبنا لأبينا ، وإننا لم نأت به لأن أبانا أبقاه يتسلى به ، وقال لنا إن لم تأتوا به فلا أميركم بعد أبدا "فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ"

ثانيا لأن الزمن زمن قحط وإنا بحاجة للطعام كما تعلم ، ولا تخف عليه فاتركه يذهب معنا "وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ 63" لا نفرط به البتة ، فلم يجب طلبهم ، لأنه لما أجاب طلبهم بيوسف فعلوا ما فعلوا به ، ولهذا "قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ" أي كيف آمنكم عليه وقد فعلتم في أخيه ما فعلتم وقد قلتم مثل هذا القول المؤكد بأصناف التوكيد

وأكثر ثم فرطتم به لا أسلمه لكم ولا آمنكم عليه "فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً" منكم ومني ومن الخلق أجمع "وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ 44" بي وبه وبكم وبسائر مخلوقاته ولكن اذهبوا إليه وقولوا له إن أبانا يصلي عليك أي يدعو لك على ما أوليتنا من معروف وهو يجيب طلبكم إن شاء اللّه ، ولما رأوا جزم أبيهم على عدم إرساله سكنوا "وَلَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ" إذ رأوها مدسوسة بين أمتعتهم فدهشوا وعادوا إلى أبيهم "قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي" أيّ شيء نعمل وراء ما فعل بنا من الإحسان ملك مصر وأوفى لنا الكيل وأكبر وفادتنا فما نطلب منه بعد ذلك كله و"هذِهِ بِضاعَتُنا" التي أعطيناها له من ثمن القمح الذي باعه لنا "رُدَّتْ إِلَيْنا" أيضا فلا نحتاج إلى ثمن آخر ، فهيء لنا أخانا لنذهب به إليه ثانيا "وَنَمِيرُ" نحمل الطعام ونجلبه من بلد آخر من مار يمير والمصدر الميرة ، أي نمير "أَهْلَنا" به "وَنَحْفَظُ أَخانا" من كل ما نخاف عليه مما خطر ببالك ومما لم يخطر حتى نرده إليك سالما "وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ" على السفرة الأولى ، لأن الملك لا يعطي الرجل الواحد أكثر من حمل واحد "ذلِكَ" القمح الذي جلبناه في المرة الأولى "كَيْلٌ يَسِيرٌ 65" قليل لا يكفينا وأهلنا فضلا عن الضيفان ، وأن الملك يسهل عليه ما يعطينا ولا يتعاظمه علينا لما شاهدنا منه من العطف واللطف "قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ

مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ" بالتاء والياء "مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ" عهدا موكدا باليمين "لَتَأْتُنَّنِي بِهِ" سالما كما أخذتموه وتحسنوا رفقته ، وهذا اليمين لا أقبله منكم على الانفراد بل من جميعكم ، على أن لا تتركوه "إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ" من قبل الأعداء فتغلبوا جميعكم عليه ، بحيث لا تقدرون على خلاصه والرجوع به إليّ ، بأن تقاربوا الهلاك ، في ذلك تقول العرب أحيط بفلان إذا هلك أو قارب الهلاك .

مطلب تعهد أولاد يعقوب بأخيهم الثاني والإصابة بالعين وسببها وما ينفعها :

(273/389)

فقبلوا ما اشترطه عليهم لأنهم رأوا أنفسهم مضطرين لأخذه لما ذكر ولإيفاء وعدهم للملك ولخلاص أخيهم الذي تركوه رهينة عنده ، "فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ" على الصورة التي أرادها "قالَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ 66" في هذا العهد وأذن لهم به وفوض أمره إلى اللّه وأرسله معهم ، ولما خرج يودّعهم ويدعوا لهم ويوصيهم بعضهم ببعض ورأى هيئتهم وكثرتهم خاف عليهم من العين "قالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ" فتتطرق إليكم أعين أهل مصر ولكن تفرقوا "وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ" أي كل ثلاثة أو أربعة من باب ، وذلك حرصا عليهم من أعين

أهل مصر لما هم عليه من الحسن وعظم القامة ، وخوفا من الحسد أيضا لما في هاتين الخصلتين من تشعث القلوب من أنهما يؤثران بالإنسان من ذوي النفوس الخبيثة ، ومذهب أهل السنة والجماعة أن العين إنما تفسد أو تهلك عند نظر العاين بفعل اللّه تعالى ، وإذا أخبر الشرع بوقوع شيء وجب اعتقاده ، ولا يجوز تكذيبه وإنكاره لأنه من مجوزات العقل ، فلا يعتد بقول جساحده ، روى أبو داود عن عائشة قالت : يؤمر العاين فيتوضا ثم يغتسل منه المعين وقد ورد بالوضوء لهذا الأمر في حديث سهل بن حنيفة لما أصيب بالعين عند اغتسالة رواه مالك في الموطإ ، وقدمنا في الآية 52 من سورة القلمج 1 ما يتعلق بهذا البحث مفصلا وموثقا بالأدلة فراجعه ، وكان صلّى اللّه عليه وسلم يعوذ بالحسن والحسين ، فيقول أعيذكما بكلمات اللّه التامة من كل هامة ، ومن كل عين لامة .

(274/389)

وزعم الطبيعيون أن العاين تنبعث من عينيه قوة سمّيّة تتصل بالمعان فيفسد أو يهلك كانبعاث قوة سمية من الأفاعي والعقارب فتصل بالملدوغ فيهلك ، وإن كان غير محسوس لنا ، فهكذا المعان تتصل به من عين العاين قوّة سمية غير مدركة فتصعقه أو تهلكه ، إلا أن انبعاث السم من الأفاعي والعقارب يكون بالاتصال وهناك لا اتصال ، فلا يحسن التمثيل ،

إذ لا يقره العقل الذي جعلوه مصدرا للقبول والعدم ، ولذلك قال المازني هذا غير مسلم لأنا

بينا في كتب الكلام أن لا فاعل إلا اللّه ، وبينا فساد

القول بالطبائع ، وبينا أن المحدث لا يفعل شيئًا فيبطل ما قالوه ، على أن هذا المنبعث من

العين ، إما جوهر أو عرض ، فباطل أن يكون عرضا ، لأنه لا يقبل الانتقال ، وباطل أن يكون

جوهرا لأن الجواهر متجانسة ، فليس لبعضها بأن يكون مفسدا لبعض بأولى من عكسه ،

فبطل ما قالوه ، لكن من تخيل الإسلام منهم قال لا يبعد أن تنبعث جواهر لطيفة غير مرئية

من عين العاين فتتصل بالمعين فتتخلل مسام جسمه فيخلق اللّه تعالى الهلاك عندها كما

يخلق الهلاك عند شرب السموم ، عادة أجراها اللّه تعالى ، وليست ضرورية ، ولا طبيعية

الجاء الفعل إليها ، ولكون العين حقا شرعت الرّقيا من أجلها ، لأنها من جملة الأسباب

الدافعة لها ، فينبغي لمن عرف نفسه أنه ذو عين أن لا ينظر إلى الأشياء نظر إعجاب ، وأن

يذكر اللّه تعالى عند رؤية ما يستحسنه ، وعلى السلطان أن يمنع من عرف ذلك منه منى

مخالطة الناس ، وقالت المالكية : لا فرق بين العاين والساحر ، أي أنهما يقتلان إذا قتلا ،

ويحبسان إذا خيف وقوع ضرر منهما .

هذا وينبغي لكل أحد أن يقول كل يوم ما شاء اللّه لا قوة إلا باللّه ، حصّنت نفسي بالحي

القيوم الذي لا يموت ، ودفعت عنها السوء بألف لا حول ولا قوة إلا باللّه .

وما قيل إن من له نفس شريفة لا تؤثر عينه مدفوع بما رواه القاضي أن نبيّا استكثر قومه فمات منهم في ليلة واحدة مائة ألف ، فشكا ذلك إلى اللّه فقال له سبحانه أنت استكثرتهم فعنتهم ، هلا حصّنتهم إذا استكثرتهم ، فقال يا رب كيف احصّنهم ؟

قال تقول حصنتكم بالحي القيوم إلخ .

ومن قال إن يعقوب عليه السلام خاف عليهم الاغتيال أو لئلا يفطن عليهم أعداؤهم فيهلكونهم أو يصل بنيامين قبلهم فيتصل بأخيه ينفيه قوله تعالى "وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ" لأن القدر كائن لا محالة لا قدرة لي على دفعه عنكم "إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ" وحده ، إذ هو تفويض منه عليه السلام في أموره كلها إلى ربه عز وجل دون سواه ، ومن جملتها ما خاف عليهم من العين ، ولم يخطر بباله اتصال بنيامين بأخيه لأنه لو علم ذلك لما امتنع أولا من إرسال بنيامين معهم ، ولما أخفى على أولاده كونه يوسف فيما بالغوا بإكرامه لهم ، ولما وقع منهم هذا التفويض الذي ينم عن الأسف

والحزن على يوسف الدال عليه قوله "عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ 67" وفيه إرشاد لأولاده وغيرهم بالتوكل على اللّه في كل الأمور .

قال تعالى "وَلَمَّا دَخَلُوا" أبواب المدينة الأربعة "مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ" أي دخلوا متفرقين في أبواب المدينة تنفيذا لأمر أبيهم، وإلا في الحقيقة التي هي في علم الله "ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ" ذلك التفرق في الدخول "مِنَ اللَّهِ" إذا كان قدر عليهم شيئًا من أقداره الأزلية أن يرد عنهم "مِنْ شَيْءٍ" قط كما ذكرنا وفيها إيذان بتصديق قول يعقوب عليه السلام وما أغنى إلخ، لأنه بعد أن أمرهم بالدخول من الأبواب خوفا عليهم من العين والحسد رجع ففوض أمره إلى ربه، وما كان ذلك منه يقينا "إِلَّا حاجَةً" هي شفقة الآباء على الأبناء، وقد كانت "فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ" أن يقولها في وصيته لهم، فلما ذكرها لهم وذكرهم فيها "قَضاها" فلم يبق في نفسه ما يوصيهم به، والاستثناء منقطع، وإلا فيه بمعنى لكن "وَإِنَّهُ" يعقوب عليه السلام "لَذُو عِلْمٍ" غزير وفهم كثير بأن الحذر لا يغني عن القدر، وأن لا دافع لما أراده الله، ولا مانع "لِما عَلَّمْناهُ" بالوحي الذي أنزلناه عليه عند تشريفه بالنبوة.

ويشعر تأكيد الجملة بأن واللام والتنكير وتعليلها بالتعليم المسند إلى ضمير العظمة.

إلى جلالة قدر يعقوب عليه السلام وعلو شأنه وواسع علمه وعظيم تبجيله "وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ 68" ما يعلمه يعقوب لأنه على نور من ربه وعلم جليل علمه إياه، وأن جميع ما في الكون علويه وسفليه لا يعلمون شيئًا مما يعلمه الله إلا بتعليمه إياهم.

(277/389)

قال تعالى "وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ" قالوا له أيها الملك هذا أخونا الذي ذكرنا لك عنه وأمرتنا بإحضاره فشاهده وعرفه ، ولكن لئلا يحسو بما أراده ودبره سأله عما قالوه لهم بشأنه وشأن أخيه ، فذكر له ما ذكره له اخوته حرفيا فقال لقد تبين لي الآن صدقكم وقد أحسنتم بأن أزلتم الشبهة عن أنفسكم وعن ما كنت أتصوره فيكم ، قالوا فزاد في إكرامهم وقراهم وأجلس كل اثنين على مائدة فجلسوا وبقي بنيامين وحده ، فتنهّد وقال في نفسه لو كان أخي حيا لجلس معي ، فأحسّ يوسف بما جال في خاطره وصار يتفقدهم ويبش في وجوههم ويجلب لهم الأكل والشراب

(278/389)

الذي أحضره لهم ، ومر في بنيامين فقال له أنت وحدك على مائدة وإخوتك كل اثنين ، وجلس معه وصار يأكل ، ولما جن الليل هيأ لكل اثنين غرفة وأمرهم أن يناموا فيها ، فناموا كذلك وبقي بنيامين وحده في غرفة فيها سريران ، فدخل عليه بعد أن تفقدهم أيضا ونام

معه في غرفة واحدة ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى "آوى إِلَيْهِ أَخَاهُ" قالوا فلما خلا به ، قال له ما معنى بنيامين بالعربية لأنها كلمة عبرانية ؟ فقال معناها المتوكل ، فقال تعرف أخاك الذي قيل إنه هلك بالبرية ؟ قال نعم ولكن لا يشبه أحدا من إخوتي ولا من غيرهم ، قال تحب أن أكون أنا بدله ؟ قال ومن يجد أخا مثل الملك وأنت الذي لا نظير لك في محاسن الأخلاق ومكارم الآداب والبهجة والجمال والكمال ، إلا أنه لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف عليه السلام وضمه إليه و"قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ" يوسف ابن يعقوب وراحيل "فَلا تَبْتَئِسْ" لا تحزن ولا تأسف "بِما كانُوا يَعْمَلُونَ 69" بي وبك فيما مضى ، والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس ، وقالوا قال له لا تخبر إخوتك بهذا واذهب معهم ، قال لا أفارقك أبدا ، قال افعل ما آمرك وسترى كيف آخذك منهم ، قال نعم الأمر إليك قال تعالى "فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ" تقدم مثله ، وذلك بأن كال لهم وزودهم ووفى لهم بأحسن مما مر ثم انهم أخبروه ببضاعتهم ، الأولى بأنهم وجدوها بين أمتعتهم وأتوا بها إليه قالوا إنا لا نستحل كتمها لأنا أخذنا قمحا بدلها ويحرم علينا في ديننا ذلك وقالوا إن أبانا يدعو لك ويحبك ويصلي عليك ، لأنا ذكرنا له حسن وفادتك لنا وإكرامك إيانا ، فلمّا سمع منهم ذلك لم يسئلهم كيف وصلت إليهم لأنه عالم بها فقال إذ كان ذلك منكم ، وقد توسمت فيكم الخير ، فإني أسمع لكم بها لقاء صدقكم وأمانتكم وإتيانكم بأخيكم ، وهو قد سمع لهم بها حين وضعها بأمتعتهم ، ولكن لقصد وقد حصل ، ثم تفكر كيف يتمكن من إبقاء أخيه عنده

فتخيل في نفسه أن لا يكون ذلك إلا بتدبير فيه تهمة لذلك "جَعَلَ السِّقَايَةَ" علبة الكيل و أصلها مشربة الملك التي كان يشرب فيها وكانت من ذهب وبسبب الغلاء الشديد ، وعزة الطعام جعلها صاعا للكيل ووضعها بيده نفسه "فِي رَحْلِ أَخِيهِ" لئلا يحس أحد فيما دبره لأخذ أخيه ، وقيل أنه أمر الكيالين أو أحدهم بوضعها في حمل أخيه ، لأن الملك عادة لا يباشر ذلك بنفسه كما يفهم من قوله وجهزهم ، لأن المجهز فتيانه لا هو والله أعلم أي أنه دسه فيه من حيث لا يعلم هو أيضا ، ثم أمرهم بنقل متاعهم وودعهم وتركهم يتحادثون في حسن صنيعه لهم دون سائر الممتارين ، حتى إذا علم أنهم تجاوزوا عمران المدينة أرسل إليهم فتيانه وأخبرهم بفقد السقاية وأنهم آخر من خرج من حمل الكيل وأمرهم أن يسرعوا ليلحقوهم ويسألوهم عنها ، فتبادروا يهرولون حتى قربوا منهم ولذلك عبر بأداة التراخي قال "ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ" نادى مناد منهم عليهم قائلا "أَيَّتُهَا الْعِيرُ" يا أهلها والعير الإبل المحملة "إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ 70" وقصد بمناداتهم بلفظ السرقة سرقتهم إيّاه من أبيه ، لأنهم لما احتالوا عليه بأخذه للنزهة وكان قصدهم قتله فكأنهم سرقوه ، وهذا من المعاريض وفيها مندوحة عن الكذب ، وهذا على القول بأن القائل هو يوسف عليه السلام ، وعليه فلم يبق

مجال لقول من قال إنه لا يليق به وهو نبي أن يتهمهم بشيء ، يعلم أنهم براء منه وعلى القول بأنه أخبر فتيانه الموكلين بالكيل بفقد الصاع وأمرهم أن يتبعوهم لأنهم هم الذين أخذوه ليلحقوهم ويستردوه منهم ، ولم يأمرهم بالمناداة عليهم بلفظ السرقة فليس في الأمر شيء من ذلك ، والقضية لا تخلو ولكنها للمصلحة ، تدبر

(280/389)

"قالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ" ووقفوا مكانهم حتى وصلوا إليهم وقالوا أيها الفتيان "ما ذا تَفْقِدُونَ 71" قالوا لهم ألم يكرمكم الملك ويأمر بحسن قراكم وبيتكم عنده ووفى لكم الكيل ورد عليكم بضاعتكم قالوا بلى وله الشكر وحسن الثناء منا ما حيينا "قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ" فقدناه بعد ذهابكم ولم نكل لغيركم به فردوه إلينا واللّه يجزيكم خيرا ، واعلموا أن الملك تفضل وقال "وَلِمَنْ جاءَ بِهِ" بأن رده من تلقاء نفسه حلوانا من عنده حلالا "حِمْلُ بَعِيرٍ" من الطعام ثم قال المنادي "وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ 72" كفيل بإعطائه لمن يعطينا إياه ويكفينا مؤنة التحري عليه ، والزعيم الكفيل بلغة اليمن ، ويأتي الحميل بمعنى الكفيل أيضا ، قال صلّى اللّه عليه وسلم الحميل غارم فلما سمعوا بهتوا وردوا عليهم بلسان واحد "قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ" ديانتنا وأمانتنا ، وذلك أنهم حينما قربوا من المدينة شدوا أفواه

رحالهم لئلا تأكل من الزروع والطعام العائد لأهل القرى ، ولم يزالوا كذلك حتى دخلوا المدينة ، وأنهم ردوا البضاعة حين اطلعوا عليها دون طلب أو سؤال ، ثم قالوا "ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ" وذلك لأنه حين قال لهم الملك إنكم جواسيس وأثبتوا له خلافه وأحضروا له أخاهم وشهد له بما ذكروه وتركوا له أخاهم شمعون رهينة حتى ظهر له صدق قولهم ، ثم قالوا له "وَما كُنَّا سارِقِينَ 73" السقاية ولا غيرها من قبل حيث لم يصدر هكذا أفعال سيئه منا وهذه الجملة نفي لقولهم أنكم لسارقون ثم قالوا لهم بعد أن أقسموا على تلك الأمور الثلاثة إنا آل يعقوب لا نقدم على شيء مما ذكرتم ، وفي الآية قسمان ، لأن العرب تجري العلم مجرى القسم ، كما أن الشرع أجرى لفظ الشهادة مجرى اليمين ، قال قائلهم

ولقد علمت لتأتين منيّتي ان المنايا لا تطيش سهامها

(281/389)

فأجابهم للفتيان عن تقديم السرقة "قالُوا فَما جَزاؤُهُ" أي السارق عندكم بينوه لنا "إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ 74" بحلفكم هذا حتى تجرى عليه ذلك "قالُوا جَزاؤُهُ" عندنا آل يعقوب "مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ" أي الذي يوجد الصاع في حمله "فَهُوَ جَزاؤُهُ" بأن يسلم نفسه لصاحب السرقة

ليسترقه سنة كاملة ، وهذه سنتنا في كل سارق إنما قال جزاؤه ولم يقل هو ، لأن الأنسب الإضمار في مثله ، قالوا بل الإظهار أحسن هنا لإزالة اللبس ، وعليه قوله :

لا أرى الموت يسبق الموت بشيء نغص الموت ذا الغني والفقيرا

"كَذلِكَ" مثل هذا الشرع الذي ذكرناه لكم أيها الفتيان شرع آل يعقوب ومثل هذا الجزاء "نَجْزِي الظَّالِمِينَ 75" السراق وهذه من جملة كلام أولاد يعقوب عليه السلام لا من كلام الفتيان كما قاله بعض المفسرين ، لأن الفتيان ليس لهم من الأمر شيء حتى يقولوا نجزي ، فقال أصحاب يوسف لا بد لنا حينئذ من تحري أوعيتكم ورحالكم حتى يتقن ، قالوا لا بأس دونكم ، قالوا ورجعوهم إلى المدينة ليتحروهم أمام الملك ، لأنهم لم يجسروا على تحريهم استبدادا من أنفسهم لما رأوا ما لهم من الاحترام عنده دون سائر الناس ، وذلك بعد أن ذكروا له ما دار بينهم من الكلام وما اتفقوا عليه من جزاء السارق وأنهم وافقوا على التحري

براءة لساحتهم ، فأمر يوسف كبير أعوانه بذلك "فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ" أي فتش أولا أوعية أخوته لأبيه "قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ" الشقيق بأن أخره بعدهم .

مطلب اتهام بنيامين بالسرقة وما وقع لأخوته مع ملك مصر من جراء ذلك :

قالوا فلم يروا شيئًا ، وكانوا كلما فتحوا متاعا أو وعاء لا ينظر إليه يوسف ويستغفر اللّه ربه تأثرا مما رماهم به حتى لم يبق إلا رحل بنيامين ، فأراد الأعراض عنه فقال اخوته لا واللّه لا نتركك حتى تتحراه أيضا ، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا فأمر بفتحه إجابة لطلبهم ، ثم تحروه فوجدوه فيه ، وذلك قوله تعالى "ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ" أنت الضمير هنا وذكره آنفا لأن الصواع يذكر ويؤنث أو أنه عند التأنيث يعود للسقاية ، وفي التذكير يعود للصواع ، قالوا لما رأوه الأخوة بهتوا ونكسوا رءوسهم وأقبلوا على بنيامين يلومونه .

ويقولون له يا ابن راحيل فضحتنا وسوّدت وجوهنا ، فقال واللّه ما وضعته ولا سرقته ، فقالوا يا ابن راحيل ما زال يأتينا منكم بلاء ، فقال لهم بعد أن شددوا عليه بالتأنيب إن ابن راحيل ما زال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية ، وأقبلتم تؤنبوني على ما لم أعلم ، ان الذي وضع الصاع في رحلى هو الذي وضع البضاعة في رحالكم في المرة الأولى ، وقصد بهذا يوسف عليه السلام لأنه في الحقيقة هو الذي فعل الأمرين بنفسه أو بأمره ولكنه عرض بهم ليفهمهم انكم أنتم جئتم أولا بالبضاعة والآن بالسقاية ، فتذكروا إن كنتم تعلمون بمن وضع البضاعة في رحلكم ، فأنا أعلم الذي وضع السقاية في رحلي ، وإذا كنتم لا تعلمون فأنا أيضا لا أعلم .

ولما سمعوا منه هذا القول سكتوا وظنوا أن ما قاله هو الواقع ، قالوا فأخذ يوسف بنيامين بمقتضى شرع أبيه الذي ذكره إخوته وأمرهم بالانصراف ، قال تعالى "كَذَلِكَ" مثل الكيد العظيم "كِدْنَا لِيُوسُفَ" وعلمناه إياه والكيد من الناس حيلة ومكر ومن الله تعالى تدبير بالحق ، ولولا هذا التعليم والتدبير السديدين "مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ" لأن شريعة ملك مصر أن يغرم السارق مثل ما أخذ ويضرب فقط ، لا أن يؤخذ ويسترق "إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ" ذلك ، لأن هذا كله إنما وقع من يوسف بإلهام من اللّه تعالى ومشيئته ، ولولا ذلك لما جرى الأمر على ما أراد قال في درر المرتضى إن كدنا تأتي بمعنى أردنا ، وعليه أنشد :

كادت وكدت وتلك خير إرادة لو عاد من لهو الصبابة ما مضى

هذا وانا نحن إله السموات والأرض الخافض الرافع "نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ" بالعلم والعمل كما رفعنا رتبة يوسف على إخوانه باقتضاء حكمتنا وما تستدعيه المصلحة "وَفَوْقَ كُلِّ

ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ 76" من البشر إلى أن ينتهي إلى ربه تعالى مما لا يناله البشر ، راجع الآية 43 من النجم المارة في ج 1 ، ولما رأى الإخوة أن سقط في أيديهم وقد احتفظ الملك بأخيهم وأمرهم بالانصراف أقبلوا عليه كلهم و"قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ" وعرضوا بكلامهم هذا بأن أمهم ليست بامه ، قيل إن السرقة التي عزوها ليوسف وعيروا بها أخاه هي ما ذكرناه قبل في قصة المنطقة عند قوله تعالى ، (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) الآية 34 المارة ، وما قيل إنه عليه السلام كان سرق بيضة أو صنما أو انه كان يسرق الطعام ويعطيه للفقراء أقوال أضعف من القول الذي أخذنا به ، لأن هذا وأمثاله مما لم ينبه عليه اللّه تعالى ولم يوقف على حقيقته أحدا ، وإن علمه عند اللّه وحده ، وما ذكر كله على علاته لا يسمى سرقة على فرض صحتها ، وإنما سميت سرقة لشبهها بها ، وبما أنهم لم يجدوا ما يعدوه عليه عيبا من شيء ظاهر معقول ولا ما يمس بكرامته غير ذلك ، عدوه عيبا عليه ، من حيث لا يعد إلا على حد قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فأول من قراع الكتائب

قال تعالى "فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ" عليه السلام أخفى تلك المقالة التي وصموه بها بالسرقة حيث جعلها مكتومة في سره "وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ" لا قولا ولا فعلا بل صفح عنها حلما وعفوا أو كتم ما أراد ان يجابههم به من القول جوابا على مقالتهم تلك ، وهي المعني بها بقوله تعالى "قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا" منزلة ممن رميتموه بالسرقة ، أي ذكر هذه الجملة في نفسه عليه السلام لما حصل في قلبه من الحزازة الحاصلة من قولهم ذلك ، والحزازة وجع القلب من غيظ ونحوه ، وقيل أنه عليه السلام أراد بقوله لاخوته (أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا) لما أقدموا عليه من

أخذهم له بطريق الاحتيال وظلمهم بضربه في الأرض والقائه في الجب ، وكذبهم على أبيهم بأن الذئب أكله ، وبيعهم له بثمن بخس ، وبعد هذا كله ومرور الزمن الطويل ترى بقاء الحقد عليه بقلوبهم حتى رموه الآن بالسرقة ، وهذا وجيه كله لولا كلمة الحقد لأنه بعد أن شرفهم اللّه بالنبوة لم يبق في قلوبهم حقد ولا حسد ، ولكنها كلمة سبق بها اللسان في مثل هذا الحال ، واختطفها القلم فأثبتها "وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ 77" به يوسف وأخاه ثم تذكروا موثقهم الذي أعطوه لأبيهم بأن لا يفرطوا به حتى يغلبوا جميعهم كما مر في الآية 66 وعزموا على إيفاء عهدهم لأبيهم وهم أحق ممن يفي بعهده ، فالتفتوا إلى يوسف وخاطبوه بما ذكر اللّه

عنهم عزّ ذكره "قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً" في السن والقدر والجاه ، وأن من كان كذلك فان ابنه يستوجب العفو والصفح احتراما له فضلا عن أنه لا يصبر على فراقه مدة استرقاقه ، إذ أقعدته الكآبة على أخيه الأول وصار يتعزى عنه بهذا ، فنرجو منك أيها الملك الصفوح الحليم أن تعفو عنه وإلا "فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ 78" للناس عامة ولنا خاصة ، وعددوا فضائله التي أجراها لهم "قالَ" يوسف أنا لا أمنّ بإحساني إليكم "ولكن مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ" لم يقل من سرقه تورعا ، ولذلك سنّ للشاهد أن يقول أخذ لا سرق درأ له في الحد "إِنَّا إِذاً" إذا أخذنا بدله وتركناه "لَظالِمُونَ 79" مبالغون في الظلم بأخذنا البريء وتركنا المدان بإجابة طلبكم ونحن ما أخذناه إلا على قولكم وفتواكم حسب شريعتكم ، ولو تركتمونا وشأننا لعاملناه معاملة رعيتنا بمقتضى شرع البلاد بأن نأخذ منه مثل ما سرق ونضربه ثم نتركه ، أما الآن وقد تم ما توافقنا عليه فلا مجال لتركه إذ لا يجوز للملك أن يرجع عن أمر أنفذه إلا بعفو ،

والسارق ليس بأهل له "فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ" وعرفوا يقينا أنه لا يرده إليهم ولا يقبل فداءه بأحدهم "خَلَصُوا نَجِيًّا" انفردوا عن الناس بأنفسهم يتناجون بينهم ويتشاورون ماذا

يفعلون "قَالَ كَبِيرُهُمْ" وصاحب مشورتهم يهوذا المنوه به في الآية 10 المارة "أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ"

بزده إليه إلا أن يحاط بكم فتغلبوا جميعكم عليه ولا يمكنكم تخليصه بصورة من الصور "وَمِنْ قَبْلُ" بنيامين هذا "ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ" قصرتم في شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه والقول بكون ما هنا مصدرية أحسن من كونها زائدة، إذ لا زائد في كتاب اللّه ومن القول بأنها موصولة لأنه يؤدي لجعل كلمة قبل تكرار، إذ يكون المعنى من قبل الذي فرطتم، وعلى الأول من قبل تفريطكم وهو أحسن، قالوا قال لهم يهوذا انكم حين أخذتم يوسف قلتم لأبيكم إنا له لناصحون، إنا له لحافظون، وإنا إذا لخاسرون، راجع الآيات 10 فما بعدها ولم تراعوا محافظة أقوالكم هذه ولم تفوا بوعدكم وعهدكم لما كنتم عليه قبل تشريفكم بالنبوة، أما الآن وقد أكدتم إيمانكم ومواثيقكم أيضا وجزمتم بأنكم لا تتركونه إلا أن تغلبوا أو تقهروا "فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ" هذه ولا أغادرها معكم أبدا "حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي" بمبارحتها فيقبل عذري بعدم التمكن من استخلاص بنيامين لأنه صار بيد الملك، وقدرته محيطة بنا، إذ لا يمكن أن يباري الملك أو يجارى أو يقابل أو يشادد، لأن قدرته محيطة بنا قالوا إن الكبير الذي قال هذا القول هو روبيل وهو الذي تخلف في مصر وقد مر أنه شمعون راجع الآية 62 المارة، والصحيح أن كبيرهم في السن روبيل، وفي الرياسة شمعون، وفي العقل

والمشورة يهوذا ، والله أعلم وقال أرى أن نخبر أبانا بهذا ونعلمه بأنا قد أقمنا بما يجب علينا إزاء موثقه الذي أخذه علينا ، فيعذرنا أو يأمرنا بما يراه "أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي" برد أخي لأبيه ، ولو بقيت ما بقيت أو أخرج قسرا من مصر أو أقاتل الملك ، فإما أقتل فأعذر أو أستخلص أخي فأكون بارا بوعد أبي ، وهذا الذي أبتغيه من الله "وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ 80" فلما سمع روبيل قول أخيه يهوذا غضب ، وكان إذا غضب لم يقم لغضبه شيء ولم يقاومه أحد ، وكان إذا صاح ألقت الحوامل حملهن ، ولكن إذا مسه أحد من ولد يعقوب سكن ما فيه ، فقال يا إخوتي كم عدد أبواب مصر قالوا عشرة ، قال لهم اكفوني الأسواق ، وأنا أكفيكم الملك ، ثم تقدم إلى الملك فقال أيها الملك لتردنّ أخانا أو لأصيحنّ صيحة لا تبقى بمصر امرأة حاملا إلا وضعت ، فنظر إليه وإذا كل شعرة منه قائمة ورأى شعر صدره خارجا من ثيابه ، فأشار يوسف لابنه الصغير أن يلمسه فذهب إليه وصار الملك يكلمه حتى مسه فسكن غضبه ، ونظر إلى اخوته وقال لهم أيكم مسّني قالوا لا أحد ، فقال في نفسه ان هذا بذر من بذور يعقوب يريد ابن يوسف لظنه أنه مسه ، ثم غضب ثانيا وتطاول على الملك بصوته وكلامه .

ولما لم ير يوسف بدا من التخلص منه إلا بمسه تقدم إليه ووكزه برجله فرماه على الأرض وقال له أنتم أيها العبرانيون تزعمون أن لا أحدا أسد منكم قوة ، وانما فعل هذا بنفسه

ليسكن غضبه بمجرد مسّه ، وعرف أنه لو سلط عليه جميع فتيانه لعجزوا عنه ولبطش بهم ، فظن اخوته انما سكن غضب أخيهم من شدة وكزة الملك ، ووقع على الأرض من قوة تلك الرفسة ، فقال بعضهم لبعض لا قدرة لنا على مقابلته ، وابتعدوا عنه وقال بعضهم لبعض

(289/389)

"ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ" صواع الملك وان الملك ذو بطش وقوة لا طاقة لنا به ، وقصّوا له ما حدث بينه وبين كبيرهم روبيل ، وتحقق العجز عن تخليصه بمشاهدتنا كلنا "وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا" من ثبوت السرقة بوجود الصاع في رحله فقط ، إذ لا شاهد على الفعل ، وبما أن وجوده في رحله يحتمل أن دسه فيه وقع ممن لا يعرف طلبنا منه العفو عنه وأن يسدينا معروفا فوق أفضاله السابقة علينا فلم يفعل ، لأن السارق لا يعفى عنه بشريعته هذا "وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ 81" ولو لم تعلم ما قدر عليه من غيب اللّه ما أعطيناك ذلك الموثق الذي أخذته علينا ، بل لما أخذنا معنا ، فاذا صدقكم فيها والا قولوا له "وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا" أي أهل مصر "وَالْعِيرَ" واسأل أهل العير "الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا" إذ كلوا من كنعان جيران ليعقوب عليه السلام ، وأصل العير قافلة الحمير ثم توسع بها لكل قافلة ، لذلك قلنا آنفا في الآية 70 المارة إنها قافلة الإبل وأكدوا قولكم بما

شئتم ، فقولوا له "وَإِنَّا لَصادِقُونَ 82" فيما ذكرناه لك ، وإنما تآمروا على هذا القول الفصل مبالغة في إزالة التهمة عنهم بسبب واقعة يوسف ، قالوا فذهبوا وتركوا كبيرهم في السن في مصر ليديم المراجعة بشأن أخيهم ويتعاهده برا بعهدهم

يحفظه ، ولما وصلوا قصّوا له القصة وما تفرع عنها من المناجاة ومكالمة الملك لأخيهم ، فقال لهم ومن أعلم الملك بأن السارق عندنا يؤخذ بسرقته لولا أنكم أخبرتموه ؟

قالوا إنما أخبرناه حينما سألنا عن جزاء السارق بعد إنكارنا لسرقة الصواع لعلمنا أننا براء من سرقته ، فذكرنا له ذلك لئلا يؤثر علينا كذبا ، هذا ولا يقال كيف يجوز ليعقوب عليه السلام وهو نبي أن يقول هذا القول لما فيه من إخفاء الحكم الشرعي ، لأن هذا مشروط فيما إذا كان المسروق منه مؤمنا تابعا لشريعته ومن يعامل معاملة المؤمنين بالمثل ، لا إذا كان كافرا ، وكان عليه السلام يظن أن حكومة مصر كافرة إذ ذاك ، قالوا فلم يقبل عذرهم ، لذلك "قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً" أردتموه في بنيامين فزينت لكم أنفسكم إيقاع السوء به كما زينته لكم قبلا في يوسف "فَصَبْرٌ جَمِيلٌ" على فعلكم هذا معى بأخويكم ، اذهبوا عني "عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً" يوسف وبنيامين وروبيل .

قال هذا من قبيل الإلهام الإلهي وحسن الظن بالله ، إذ كان حزينا على يوسف فاشتد حزنه على بنيامين وروبيل أيضا وما بعد الشدة إلا الفرج ، وأنه عليه السلام لم يصدق أولاده بهلاك يوسف وقد وقر في صدره أنه سيرده الله عليه ويرى تأويل رؤيته وهو يترقب ذلك كله ، ولذلك قال عسى إلخ "إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ" بحالي ووجدي عليهم "الْحَكِيمُ 83" فيما يدبره ويقضيه من إتيانهم إلي "وَتَوَلَّى عَنْهُمْ" ولاهم ظهره وأعرض عنهم لأنه لما سمع كلامهم ضاق صدره ولم يبق بوسعه مكالمتهم ولم يقدروا أن يعيدوا عليه الكلام لما رأوا من شدة حزنه فانكفوا عنه ثم طلبهم ليوقفهم على حاله "وَقالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ" الأسف أشد الحزن لأن الحزن إذا تقادم وأتاه حزن آخر جدد الأول فكان أوجع للقلب ، وأعظم لهيجان الحزن الأول الماكث فيه ، قال متمّم ابن نويرة لما رأى قبرا جديدا جدد حزنه على أخيه مالك وصار يبكي ويقول :

يقول أتبكي كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى فدعني فهذا كله قبر مالك

يعني أن الحزن يجدد الحزن ، وانما تأسف على يوسف مع أن الحادث مصيبة أخيه ، لأن رزءه كان قاعدة الارزاء عنده ، وقد أخذ بمجامع قلبه فصار لا يزول عن فكره ولا ينساه ، وقيل في هذا :

ولم تنسني أوفى المصيبات بعده ولكن نكاء القرح بالقرح أوجع

مطلب جواز البكاء والحزن والأسف بما دون الضجر وتحريم شق الجيب وتحجيم الوجه واللطم وقص الشعر :

ولا يقال إن هذه شكاية منه عليه السلام ولا يليق بمنصب النبوة صدورها ، لأنه عليه السلام إنما شكا أمره إلى اللّه لا إلى غيره ، ولم يشتك من اللّه لأحد لأن باء النداء مختصة بالأسماء ، فكأنه قال يا رب ارحم أسفي على يوسف ، فكان غير ملوم ، وشكواه إليه تعالى ، ولا مأثم إذا لم ينطق اللسان بكلام مؤثم "وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ" على أولاده للثلاثة "فَهُوَ كَظِيمٌ 84" الحزن ممتلىء القلب به لأنه لا يبثّه إلى أحد إلا إلى ربه ، وقد غشى عينيه بياض من كثرة الدمع لا أنه عمي وفقد النظر فيها ، لذلك فلا صحة لقول من قال إنه عمي ، لأن العمى عيب والأنبياء مبرأون من جميع العيوب الحسية والمعنوية ، وتؤذن هذه الآية بجواز التأسف والبكاء عند المصيبة ، لأن الكف عن أمثال ذلك عند حدوث النوائب لا يدخل تحت التكليف ، ويخرج عن الوسع والطاقة ، فقد قل من يملك نفسه عند الشدائد ، روى الشيخاني في حديث أنس رضي اللّه عنه أنه صلّى اللّه عليه وسلم بكى

على ولده إبراهيم وقال إن العين تدمع والقلب يخشع ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون .

(292/389)

وهذا فإن البكاء والحزن والتأسف بما دون الضجر غير منهي عنه شرعا ، وإنما المنهي عنه ما يفعله بعض الجهلة من النياحة ، ولطم الخدود ، وضرب الصدور ، وشق الجيوب ، والتحمم ، وتمزيق الثياب ، وقص الشعر ، ونثر التراب ، وتخميش الوجه ، وروينا أيضا من حديث أسامة أنه صلّى اللّه عليه وسلم رفع إليه صبيّ لبعض بناته يجرد بنفسه ، فأقعده في حجره ونفسه تتقعقع كأنها في شنّ ، ففاضت عيناه عليه الصلاة والسلام ، فقال سعد يا رسول اللّه ما هذا ؟ فقال هذه رحمة جعلها اللّه تعالى فيمن شاء من عباده ، وانما يرحم اللّه من عباده الرحماء .

وفي الكشاف : قال يا رسول اللّه تبكي وقد

نهيتنا عن البكاء ؟ قال ما نهيتكم عن البكاء وانما نهيتكم عن صوتين أحمقين : صوت عند الفرح وصوت عند الترح .

(293/389)

وعن الحسن أنه بكى على ولد له أو لغيره فقيل له في ذلك فقال ما رأيت اللّه تعالى جعل الحزن عارا على يعقوب عليه السلام وقد ينشأ ذلك عن المحبة الشديدة التي تزيل من القلب الخواطر ويكون صاحبها كثير الرجوع إلى اللّه تعالى كثير الدعاء والتضرع له وقد يوصل ذلك إلى الكمال ويعد سببا للاستغراق في اللّه تعالى ، قال تعالى "قَالُوا" أولاد يعقوب الموجودون عنده لما رأوا شدة تأثره "تَاللَّهِ تَفْتَؤُا" لا تزال "تَذْكُرُ يُوسُفَ" ولا تعتر عن ذكره "حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً" دنفا مشرفا على الموت ذائبا من الهم مضمحلا من الأسى "أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ 85" الميتين بسببه ، وهذا من قبيل بناء الأمر على غالب الظن لما رأوا من حاله وكظمه غيظه ، لأن تردد الحزن في الجوف مما يودي إلى الهلاك غالبا ، فلا يقال كيف حلفوا على ما لم يعلموه ، وإنما وقع من يعقوب عليه السلام هذا لأنه لم يقطع بوفاة يوسف كما ذكرنا آنفا ، ولم يصدقهم بوقوع السرقة من بنيامين ، وان زيادة صبره على يوسف وطول فراقه قد حزّ قلبه ، وزاد في جزعه ما وصم به بنيامين فلا لوم عليه .

هذا ، وحذف حرف النفي من تفتأ في جواب القسم تخفيفا لمعلوميته موضعها لأن تفتأ تدل على النفي المحض ، فإذا دخلت عليها لا النافية صارت متمحضة للإثبات ولذلك قالوا إن نفي النفي إثبات ، قال امرؤ القيس :

فقلت يمين اللّه أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

لأن برح وفتيء ودام أخوات متمحضات للنفي ، فإذا ادخل عليها حرف النفي تمحضت للإثبات ، والحرض معناه في الأصل فساد الجسم والعقل من الحزن والهم حتى يكون مهزولا نحيفا ، وهو مصدر حرض بكسر الراء ، وجاء أحرض أيضا كما في قوله :

اني امرؤلّج بي حب فأحرضني حتى بليت وحتى شقني السقم

ولكونه كذلك لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع ، لأن المصدر يطلق على القليل والكثير والمؤنث والمذكر .

(294/389)

مطلب الصبر الجميل وشبهه وكتاب يعقوب لملك مصر :

واعلم ان الصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه والهجر الجميل الذي لا حسد فيه ، والقول الجميل الذي لا فظاظة فيه والنظر الجميل الذي لا إصابة فيه ، والمدح الجميل الذي لا حسد فيه ، والشكر الجميل الذي لا شكوى فيه ال"

يعقوب عليه السلام ردا لما وصفوه به من عدم التحمل لمقدورات اللّه ولما ذكروا مما يؤول اليه حاله إذا بقي كذلكِ نما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ"

لا لكم ولا لغيركم والبث الغمّ الذي لا يطيق صاحبه الصبر عليه ولم يبق في وسعه حمله

فيفرقه على من يعنيه مأخوذ من إثارة الشيء وتفريقه تقول بث الريح التراب َأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

(295/389)

86" من عظيم لطفه وكثير رحمته وجليل عطفه ، وإني لارجوه ان يرعاني ولا يخيب رجائي ، وان يأتيني بالفرح المزيل لما انا فيه من حيث لا أحتسب ، وفي هذه الجملة إشارة إلى أنه عليه السلام يعلم حياة يوسف ويتوقع رجوعه ، ولهذا قال "يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ" اطلبوا خبرهما بحواسكم ومثله تجسسوا بالجيم ، إلا أنه في طلب الشرّ قال تعالى ولا تجسسوا الآية 13 من سورة الحجرات ج 3 ، وإنما نهى اللّه عنه لانه من أقبح الخصال ، لا سيما إذا كان في عورات المسلمين وبلادهم وإخبار العدو بمواقعهم وعددهم ، فهو أعظم من القتل ، أي تحروا يوسف الذي قلتم إنه هلك ، وأخاه الذي قلتم أنه سرق ، ولم يذكر روبيل لانه بقي باختياره في مصر انتظارا لما يفعل بقضية أخيه "وَلا تَيْأَسُوا" تقنطوا فنقطعوا أملكم ورجائكم "مِنْ رَوْحِ اللَّهِ" فرجه ورحمته وفضله وتنفيسه ، وهو بالفتح يقال أراح الإنسان إذا تنفس ، ثم استعير للفرج وقرىء بالضم اشتقاقا من الرحمة لانها سبب الحياة كالروح وأضيفت اليه تعالى لانها منه أي لا تقطعوا أملكم من حي معه روح اللّه فان

من بقيت روحه في جسده يرجى لقياه فالتمسوه وعليه قول عبيد الأبرص .

وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

وقوله وفي غير من وارث الأرض فاطمع ، ثم حذرهم ترك العمل بما أمرهم فقال "إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ 87" لعدم

علمهم باللّه وصفاته أما المؤمن العارف فلا يقنط بحال من الأحوال لشدة وثوقه باللّه قالوا ثم كتب كتابا إلى ملك مصر وعبارته (من يعقوب إسرائيل اللّه بن إسحاق ذبيح اللّه بن ابراهيم خليل اللّه إلى ملك مصر ، أما بعد فإنا أهل بيت وكل بنا البلاء ، أما جدي ابراهيم فشدت يداه ورجلاه والقي في النار فجعلها اللّه بردا وسلاما وأما أبي إسحاق فشدت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ففداه اللّه ، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب اولادي الي فذهب به اخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخا بالدم وقالوا قد أكله الذئب فصبرت وتوكلت ، ثم كان لي ابن آخر وكان أخاه من أمه ، فكنت أتسلى به وإنك حبسته وزعمت أنه سرق ، وانا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فإن رددته إلي وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك) ثم أعطاهم إياه وأمرهم بالرجوع إلى مصر ، فأخذوه وذهبوا

وعند ما وصلوا إلى مصر واتصلوا بأخيهم روبيل واطلعوه على الكتاب فوقع في قلوبهم قبول الملك لما فيه من الترغيب والترهيب فحملوه جميعا ، وتوجهوا نحو الملك ، قال تعالى "فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا" لا بدّ وان يكون القائل واحدا ، وبما أنهم كلهم دخلوا عليه فكانوا بمثابة الجمع ، لان ما يقوله أحدهم يقول به كلهم ، لذلك جاء الضمير بلفظ الجمع ، والا لا يعقل انهم كلهم قالوا ذلك بلسان واحد لما فيه من عدم مراعاة الأدب "يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ" الملك المنيع الغالب ، قالوا وكان ملوك مصر يلقبون بالعزيز قديما قبل لقب فرعون ، وبما أن يوسف كان قائما مقام الملك ومفوضا من قبله بكل أمور الدولة لقبوه بلقب الملك ، وفي الحقيقة هو بمثابة وزير مالية مفوض ورئيس وزراء برتبة سلفه ، وزاد عليه بلقب مفوض عن الملك بالأمور كلها "مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ" الشدّة والفاقة "وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ" رديئة كاسدة لا تنفق إلا بتجوز من البائع وأصل الإزجاء الدفع قليلا

(297/389)

قليلا كتزجية الريح اللينة السحاب الكثيف ، وقللوا بضاعتهم وصغروها أمام الملك ليستميلوه ويستعطفوه ، "فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا" بردّ أخينا ، لأن رده إلينا صدقة

كما أن توفيتك الكيل لنا صدقة ، وليس معناه تصدق علينا بالطعام أو أعطنا مالا كما قاله بعض المفسرين ،

لأن الأنبياء ، لا تحل لهم الصدقة ، فكيف يليق بهم طلبها ؟ وما قيل إن الأنبياء قبل محمد تحل لهم الصدقة لا صحة له فهو قول مجرّد عن الدليل لأن حضرة الرسول محمد صلّى اللّه عليه وسلم قال (نحن معاشر الأنبياء" ولم يخص نفسه بذلك ، والأنبياء كلهم على طريقة واحدة ، وكل منهم يقول لقومه (لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً) فإذا كان لا يطلب على تعليمهم الطريق الموصل إلى اللّه ونجاتهم من عذابه أجرا ، فكيف يطلب الصدقة عفوا ؟ وكذلك القول بأن اجعل مسامحتك بأخذ الرديء من الثمن وإعطاء الجيد من الطعام صدقة لا وجه له ، لأن الثمن الذي جاءوا به كان متداولا في ذلك الزمن فضلا عن أنهم يأخذون الجيد من الثمن طمعا بابتياعهم الطعام للمحتاجين إليه ، لأن الزمن زمن غلاء وقحط ، وانما حقروه بالنسبة لمقام الملك ، لأن كل كثير عنده حقير "إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ 88" بثوابه الجزيل على العمل القليل ولم يقولوا يجزيك لأنهم لم يعلموا إيمانه قالوا ثم أعطوه الكتاب وانتظروا بماذا يجيبهم فلما قرأه اغرورقت عيناه ولم يتمالك نفسه أن "قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما

فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ 89" في سن الطيش صغار لا تعقلون عواقب الأمر ولا يخفى أن فعلهم بيوسف ظاهر معلوم أما فعلهم بأخيه فهو كناية عما لحقه من الغم على فراق أخيه والهم على افرادهم له عنه واذلاله لديهم حتى صار لا يستطيع أن يكلمهم ومنه ما خاطبوه به عند وجود الصاع في رحله ومن كماله عليه السلام تقدم لأخوته بالمعذرة على فعلهم به حيث نسبهم إلى الجهل لأن له حالات تتقدم بالعذر عن فاعلها فهو كالتلقين لهم كي يعتذروا به على حد قوله تعالى ما غرك بربك الكريم الآية 7 من سورة الانفطار الآتية.

مطلب تعريف يوسف نفسه لاخوته وكرم أخلاقه معهم وتبشير يعقوب به :

(299/389)

فلما سمعوا ذلك انتبهوا وأقبلوا إليه وتقربوا منه "قالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ" على طريق الاستفهام التقريري، ولذلك أكد باللام وأن، لأن التأكيد يقتضي التحقيق الذاتي للاستفهام الحقيقي، وذلك لأنهم لم يعرفوه، لأنه كان في ابّهة الملك وعظمته، إلا أن لهم علامة فيه وهي زائدة كالشامة في فرقه، وهي موجودة في إسحاق ويعقوب وسارة أيضا ، وكانت مغطاة بالتاج، فلما خاطبهم

بذلك القول رفع التاج عن رأسه فظهرت لهم تلك العلامة ، وهذا أيضا قوله تعالى (لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) الآية 15 المارة ، وقيل أنّهم قالوا أولا على سبيل الشك والوهم لتشبيههم ثناياه بثنايا يوسف لشدة بياضها ، فلما رفع التاج عن راسه عرفوه يقينا فصرخ و"قالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي" ذكر أخاه مع أنه معلوم لأن البحث كان دائرا حوله ، وصرح باسمه هو تعظيما لما نزل منهم به ، ولما عوضه اللّه تعالى من الظفر والملك ، ثم أكد لهم تعريفه بقوله "قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا" بالألفة بعد الفرقة ، والمحبة بعد العداوة ، وجمعنا وخلصنا مما وقع بنا ، وفضلنا بالدين والدنيا والآخرة "إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ" اللّه في جميع أموره ويأتمر بأمره وينتهي بنهيه "وَيَصْبِرْ" على ما يصيبه وعلى ما حرمه اللّه وعلى مشاقّ الطاعة وشهوة المعصية ، فإن اللّه تعالى يعده محسنا ويجزيه الجزاء الأوفى .

وذكر الصبر بعد التقوى من ذكر الخاص بعد العام ، لأنه مندرج في معناها "فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ 90" في هذه الدنيا ، وهذا من كماله أيضا عليه السلام ، إذ بدأهم بتذكير نعم اللّه عليه بالسلامة والكرامة ولم يفاجئهم بالتعنيف والملامة ،

"قالُوا" كلهم بلسان واحد "تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا" اختارك وفضلك بالعلم والحلم والصبر والتقوى والحسن والعقل والملك والرسالة ، ومن قال بالنبوة فقد أخطأ المرمى ، لأنهم كلهم أنبياء إذ ذاك ، والنبوة من حيث هي متساوية بخلاف الرسالة ، لأن منهم من هو من أولي العزم ، وتفضيل الأنبياء الوارد في قوله تعالى ، ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض الآية 55 من الإسراء المارة في ج 1 ، إنما ذلك بكثرة الاتباع وما خص به بعضهم من النعم والمعجزات ، وما نزل عليهم من الصحف ، ثم بادروا بالاعتراف بخطئهم دون تقدم عذر ما بقولهم "وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ 91" فيما صنعناه بك عمدا لأن فعل خطأ بمعنى تعمد بخلاف مخطئين فإنه من أخطأ إذا نسى وسها ، أي لا جرم أننا لم نتّق اللّه والإثم فيك ، ولم نصبر على ما رأيناه من اصطفاء أبينا لك دوننا حال صغرنا ولهذا فإن اللّه تعالى أعزك وأجلّك ، وسلطك علينا ، وأن اللّه تعالى قدّر سلطانك هذا على فعلنا فيك.

وفي اعترافهم بالخطأ استنزال لإحسانه عليهم واستعطاف لعفوه عنهم ، فجاوبهم بما يثلج الصدر ويقرّ الأعين إذ "قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ" ، وأصل الكلمة الثرب وهو الشحم الرقيق على الكرش ، وفي الجوف ، وصيغة التفعيل للسلب أي إزالة الثرب كالتجليد والتقريع بمعنى إزالة الجلد والقرع ، واستعير للّوم الذي يخرق الاعراض ويذهب بهاء الوجه ، لأنه بإزالة الشحم يبدو الهزال وما لا يرضى ، كما أنه باللوم تظهر العيوب ، لذلك شبه به ، والجامع بينهما طروء النقص بعد الكمال وإزالة ما به الكمال والجمال بكل ، وهي اسم لا

وخبرها مقدر تقديره كائن متعلق عليكم ، واليوم ظرف متعلق بذلك الخبر المقدر أيضا ، ولفظ اليوم هنا ليس لا قيد لأنه إذا لم يلمهم أول لقائه واشتعال ناره ، فلأن لا يلومهم ولن يعاقبهم بعده بطريق الأولى .

(301/389)

وقال المرتضى إن اليوم موضوع للزمان كله ، مستدلا بقوله :

اليوم يرحمنا من كان يغبطنا واليوم نتبع من كانوا لنا تبعا

كأنه أريد بعد اليوم ، قال هذا عليه السلام تطييبا لخاطرهم ، وسدا عن بحث ما سلف منهم ، وعلى هذا ينبعي أن يوقف على كلمة اليوم ، لأنه راجع للتثريب ومتعلق بما تعلق به خبر لا كما ذكرنا ، ويبتدأ بقوله عز قوله "يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ" وهذه جملة دعائية لهم بالمغفرة من اللّه ، لأن فعل الدعاء لا ينصب ما قبله غالبا ، وإذا رجعناه لما بعده وعلقناه بقوله تعالى يغفر فينبغي أن يوقف على كلمة عليكم ويبتدأ بكلمة اليوم ويوصلها بما بعدها ، وعلى هذا يكون المعنى مبادرته لهم بالبشارة بمغفرة ربهم عما سبق منهم بحقه وحق أخيه ، وذلك لما لحقهم من الخجل والحياء ، إذ لم يبق لهم بد من اعترافهم بالخطأ وندمهم على فعلهم ، ويكون ذلك من قبيل الإخبار بالغيب ، وعلى هذا قول صلّى اللّه عليه وسلم لقريش عند فتح

مكة ما تروني فاعلا بكم ؟

قالوا نظن خيرا أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت ، فقال أقول كما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم ، وقولهم هذا فضلا عن اعترافهم بالذنب فإنه توبة أيضا ، ولا شك أن الذنب مرض وشفاؤه التوبة ، ولهذا قال لهم ما قال ، وهو مصدر العفو ، ولما جاء أبو سفيان ليسلم قال له العباس اتل على رسول اللّه لا تثريب عليكم اليوم ، ففعل ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم يغفر اللّه لك ولمن علمك .

وهذا قد يصح لأن السورة

(302/389)

مكية ، وأن سنة الفتح وإن كانت في السنة الثامنة وكان حضرة الرسول بالمدينة ولم يأت أبو سفيان إلى المدينة ويسلم ، إلا أنه يجوز أنه تعلمها حين نزولها في مكة كالعباس لأنه آخر من هاجر ولم يتعلمها إلا في مكة ، هذا والوقف على كلمة اليوم أولى وأحسن وأليق ، وان أكثر القراء عليه ، وجملة يغفر دعائية إذ يبعد على السيد يوسف أن يقولها بقصد الإخبار بالمغفرة من اللّه ، ولو لم تكن الجملة بقصد الدعاء لقطعوا بالمغفرة لهم بمجرد سماعها من أخيهم الصديق ، ولم يقولوا لأبيهم استغفر لنا كما سيأتي ، ثم بشرهم بقبول عذرهم وأن اللّه

تعالى سيغفر لهم برحمته بقوله "وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ 92" بي وبكم وبالخلق أجمع لأني إذا رحمتكم وأنا الفقير القتور ، فبالأحرى أن يرحمكم ربي وهو الغني الغفور المتفضل على التائب بالعفو الشامل والرحمة الواسعة ، ومن كرم يوسف عليه السلام أنه قدم لهم الطعام وجلس يؤاكلهم فقالوا له إنا نستحي أن نأكل معك بما فرطنا فيك ، فقال لا يا إخوتي لأن أهل مصر وإن كنت ملكهم ، فإنهم ينظرون إلي بالعين الأولى ، لأنهم يعرفونني عبدا للعزيز وخادما له ، ولقد شرفت بكم الآن وعظمت في أعينهم ، إذ علموا حقيقة ما ذكرته لهم قبلا بأني ابن يعقوب من صلب إبراهيم عليه السلام .

وجاء عن ابن عباس أن الملك قال يوما ليوسف عليه السلام : أحب أن تخالطني في كل شيء إلا في أهلي ، وأنا آنف أن تأكل معي ، أي لأنه غلام العزيز وزيره السابق ، فغضب يوسف عليه السلام وقال : أحق أن آنف أنا ابن إبراهيم خليل اللّه .

(303/389)

وفي التوراة التي في أيدي اليهود اليوم أنه عليه السلام لما رأى من إخوته مزيد الخجل أدناهم إليه وقال لا يشق عليكم إذ بعتموني ، وإلى هذا المكان أوصلتموني ، فإن اللّه تعالى قد علم ما يقع من القحط والجدب وما ينزل بكم من ذلك ففعل ما أوصلني به إلى هذا المكان

والمتكانة ليزيل عنكم بي ما ينزل بكم ، ويكون ذلك سببا لبقائكم في الأرض وانتشار ذراريكم فيها .

(هذا وقد مضت سنتان من سني الجدب وبقي خمس سنين ، إذ ابتدأت الجدبات بعد خروجه من السجن بثلاث سنين وبعد رؤيا الملك بستة وبعد تولية يوسف بسنتين) وقد صيرني اللّه تعالى مرجعا للعزيز وسيدا لأهله وسلطانا على جميع أهل مصر ، فلا يضيق عليكم أمركم ثم سألهم عن حال أبيه فذكروا له شأنه كما هو عليه ، ففال لهم "اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً" وهذا بوحي من اللّه عز وجل ، وهذا القميص قميص إبراهيم عليه السلام الذي ألبسه اللّه إياه حين ألقي بالنار بواسطة جبريل عليه السلام ، إذ ألقي فيها عريانا كما ألمعنا إليه في الآية 31/ 15 المارتين ، لأن فيه ريحه وريح الجنة ، وهذا أمر معلوم عقلا ، فضلا عما فيه من الكرامة ، لأن الحبيب إذا رأى ثوب حبيبه أو شيئا مما يلازمه ينشرح صدره وتزول كآبته ، وقيل في هذا المعنى :

وإني لأستشفي بكل غمامة يهب بها من نحو أرضك ريح

حتى إن الرجل وهو في سكرات الموت إذا كان له غائب عزيز وقيل له ها هو جاء يفتح عينيه وتبدو عليه ملامح السرور ، حتى إنه إذا جيء له بشيء من ملابسه يضمه ويشمه وقال لإخوته أيضا "وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ 93" لينعموا بآثار ملكي كما اغتموا بأخبار هلكي ، فأخذوه فرحين مسرورين قاصدين تبشير أبيهم به كما كدروه قبلا بفقده تكفيرا لما وقع منهم عنده ، قال تعالى "وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ" عن أرض مصر وتوجهت لأرض كنعان "قَالَ أَبُوهُمْ" لأحفاده ومن عنده من أهله "إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ 94" تنسبوني إلى الخرف والهرم وقلة العقل والجهل ، وأصل التفنيد ضعف الرأي فقال أفند الرجل إذا خرف وفند إذا جهل ، قال الأصمعي : إذا كثر كلام الرجل من خرف فهو التفنيد ، أي لو لا تنسبوني لذلك لصدقتموني ، قالوا إن الريح استأذنت ربها بإيصاله ريح يوسف إلى يعقوب على مدة ثمانين فرسخا ولا يبعد على اللّه تعالى إيجاد ريح القميص بحاسة يعقوب عليه السلام ، أو أنه أمر ريح الصبا بنقل ريحه إليه حين أعطاه يوسف لإخوته ، وما ذلك على اللّه بعزيز ، قال أهل المعاني إن اللّه تعالى أوصل ريح يوسف عند انقضاء المحنة وحلول وقت السرور من محله إليه بلحظة واحدة ومنع دخول هذا إليه مدة أربعين سنة من نفس المحل ، ليعلم خلقه أن كل سهل زمن الإدبار صعب ، وكل صعب زمن الإقبال سهل ثم انهم لم يلقوا بالا لكلامه وأكدوا له ما ظنه فيهم إذ "قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ 95" الذي كنت عليه ولا تزال تلهج به من ذكر يوسف ،

ولما سمع ما أجابوه به سكت واستحضر للبشارة مما ذكره ، والضلال الذهاب عن طريق الصواب .

قال تعالى "فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ" وهو يهوذا المار ذكره ، لأنه هو الذي فاجأه بأن يوسف أكله الذئب وأعطاه ثوبه الملطخ بالدم المزيف ، فأحب أن يقابل هذه البشارة بتلك الإساءة ، قالوا وكان تقدم إخوته لهذه الغاية وأخذ معه سبعة أرغفة زادا ، فوصل قبل أن يستوفي أكلها حلال ثمانين فرسخا ، لشدة عدوه بالطريق بسائق فرحه وسروره ، فبادر والده بالتحية والبشارة بحياة يوسف ، وقال له هذا قميصه علامة على صحة قولي ، ثم "أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً" بأن عادت له قوة النظر كما كانت ، وانقلب ضعفه قوة ووهنه فطنة ، وهذا من باب خرق العادة ، وليس بدعا في هذا المقام ، وقيل إنه انتعش فقري قلبه وازدادت حرارته الغريزية ، فأوصل نوره إلى الدماغ وأداه إلى البصر ، ومن هذا الباب استشفاء العشاق بما يهبب عليهم من جهة أرض المعشوق ، قال :

ألا يا نسيم الصبح مالك كلما تقربت منا فاح نشرك طيبا

كأن سليمى نبئت بسقامنا فأعطتك رياها فجئت طبيبا

وأن هنا ليست بزائدة لأن الزائد عبث ولا عبث في القرآن لأنها أفادت تحسين اللفظ والتأكيد واستقامة وزن الكلام "قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ 96" أنتم ولا غيركم ثم قال لهم كيف تركتم يوسف قالوا هو ملك مصر قال ما أصنع الملك على أي دين هو يعامل الناس هناك قالوا على الإسلام قال الآن تمت النعمة فانبسط وظهر على وجهه السرور "قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا" التي واوقعناها معك ومع أخينا يوسف وأخيه ولا تؤنبنا على ما مضى "إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ 97" معكم ومع الله "قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ 98" لعباده التائبين أمثالكم وهو كثير المغفرة لعباده أجمع، واسع الرحمة، جدير بأن يعفو عنكم ولا يعاقبكم عما وقع منكم.

(306/389)

قالوا إنه عليه السلام أخر طلب المغفرة لوقت السحر في ليلة الجمعة، لأنه أدعى للإجابة، وذكروا أنه قال اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه، واغفر لي ولأولادي مما أتوا إلى أخيهم وما أوقعوه فيه.

فأوحى اللّه إليه أني قد غفرت لك ولهم أجمعين، أما ما قاله عطاء الخراساني من أن طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها إلى الشيوخ مستدلا بقول يوسف (لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ) إلخ،

وقول يعقوب (سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ) فهو غير مطّرد ، على أن يوسف نفى عنهم اللوم فقط ، ووكل أمر المغفرة إلى اللّه ، ويعقوب وعدهم بالاستغفار ، لأنه من خصائص اللّه ، وهذا من أدب الرسل ، وأن يوسف طلب المغفرة لهم من اللّه فقط ، لأن الوقف في الآية على كلمة اليوم كما نوهنا به آنفا في الآية 92 المارة ، ولا عبرة بقول من قال إن الوقف على كلمة عليكم لأن الابتداء بكلمة اليوم يشمّ منه رائحة التحتم على اللّه بالمغفرة ، ولا يتصور صدوره من مثل السيد يوسف واللّه تعالى لا يفرض عليه شيء بل هو الذي يفرض على خلقه إرادته الأنبياء فمن دونهم ، قالوا ثم إن يوسف عليه السلام أرسل إلى أبيه مائتي راحلة وجهازا كثيرا مما يكفيه وأهله ، وصار يترقب حضورهم ، ثم ان أهل مصر صاروا ينظرون إليه بغير النظر الأول بعد أن تبين لهم أنه من آل إبراهيم حقيقة ، وعظم بأعينهم ، ووقر وقارا عظيما .

بعد أن كان ينظر إليه بأنه عبد قيمته ثلاثون درهما ، وقد اشتراه العزيز بمايتي درهم أي بعشرين دينارا وكانوا يحترمونه لعلمه وأدبه ومروءته وأخلاقه وكثرة عطفه على الفقراء ولطفه بالعامة وإكرامه الخاصّة بما هم أهله ، لذلك تشرب حبه في قلوبهم لتلك المحاسن العالية والمكارم السامية .

أما وقد علموا الآن أنه من بيت إبراهيم عليه السلام الذائع الصيت الذي يحبه أهل السماء والأرض بصورة لم يبق معها شك أو شبهة ، وقد شاع هذا لدى أعاليهم وأدانيهم ، فقد ازداد وقاره وتبجيله وتعظيمه وهيبته بأعينهم وقلوبهم ، لأن الحاكم إذا كان عريقا في الحكم يعظّم في ثلاث جهات لأصالته ولتوليته ولعدله ، وهناك خصلة رابعة هي كمال أخلاقه وعفته .

قالوا ثم رحل السيد يعقوب وآله إلى مصر وهم كالجيش العظيم وتهيأ يوسف لاستقبالهم لما علم بخروجهم فخرج هو وفتيانه ووجهاء مصر وقادتها إلى فناء المدينة لملاقاتهم ، وأخرج أهله وأولاده ، وكان عدد المستقبلين أربعة آلاف نسمة عدا أعوام أهل المدينة وسوقتهم ، وكان يوسف عليه السلام إذ ذاك رئيس الوزراء لأنه بعد أن ولاه الملك وزارة المالية ودخلت أعوام الغلاء

ورأى تدبيره وعلو شأنه فوضه بإدارة الملك كله وجعله نائبا عنه .

قال تعالى "فَلَمَّا دَخَلُوا" فناء المدينة "عَلَى يُوسُفَ" وحاشية المستقبلين ، وكان آل يعقوب ثلاثا وسبعين نسمة ، عدا الخدم والرعاة والرحالة والمرضعات ، وكان يعقوب أمامهم وعند ما أشرف عليهم ترجل ، وأقام يهوذا عن يمينه ، وروبيل عن يساره يتوكا عليهم ، وشمعون وبقية أولاده وأحفاده وراءه صفوفا ، فتقدم إليه يوسف ، وهذا المراد بقوله تعالى

"آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ" فضمهما لنفسه وعانقهما وصافح الباقين ، وبعد أن صافحهم الوزراء والأمراء والوجهاء والقادة "قالَ" عليه السلام لأهله "ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ 99" على أنفسكم وأموالكم وأنعامكم دون جواز لأن الكنعانين كانوا لا يدخلون مصر إلا بجواز من ملوكها ، لأنها حكومة على حدة ، وآمنين أيضا من

مخاوف القحط وهذا الاستثناء في أثناء الكلام كالتسمية في الشروع فيه للتيمن والتبرك ، وهو داخل في الأمن لا في الدخول الثاني إلى المدينة والأول لفنائها ، والثالث لقصر الملك ، قالوا ثم تقدم آل يعقوب بموكب عظيم وسار وراءهم موكب الملك والناس وراءهما حتى دخلوا القصر ، وهو معنى قوله تعالى "وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ" السرير الخاص بالملك "وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً" أبواه وأخواته والناس وراءهما ، وهذه تحيتهم إذ ذاك وهو خضوع لحد الركوع كما هي تحية الأعاجم الآن ، وليس المراد من السجود هنا وضع الجبهة على الأرض ، واللّه أعلم ، لأنه تحية العباد لرب العباد خاصة ، فلم يكن لأحد قبل ، ولا يكون لأحد بعد ، وهذا وان كان زعم البعض غير جائز لأن اخوته الأنبياء مثله وأكبر منه سنا وفضلا عن أبويه ، إلا أنه يتصور ذلك الزعم إذا كان أمرهم بذلك ، أما وانه لم يأمرهم فقد انقضى

ذلك الزعم ، وقد وقع منهم ذلك بتقدير اللّه تعالى تحقيقا لرؤياه ، فلا يقال كيف أجازه وقبله وكيف أقره ورضي به ؟ مما يدل على هذا قوله عز قوله حكاية عنه "وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ" سجودكم هذا والحوادث التي تلتها "قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا" في اليقظة قالوا وكان بين الرؤيا وتصديقها أربعون سنة كما مر في الآيتين 53/ 7 ، لأن الرؤيا فى الثانية

عشرة والسجود في الاثنين والخمسين ، وقيل أكثر حتى أوصلها بعضهم إلى ثمانين سنة ، راجع الآية 93 في تفسير الإمام الرازي وكلها أقوال ، إذ لم يذكر اللّه ولا رسوله شيئا عن ذلك "وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ" ولم يقل من البئر مع أنه أصعب وأشد من السجن لئلا يخجل أخوته لكريم خلقه وعظيم أدبه معهم ، وجليل احترامه لهم ، وكثير لطفه بهم ، وزيادة عطفه عليهم ، ولأن خروجه من الجب أعقبه العبودية وخروجه من السجن أورثه الملوكية "وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ" سمي سكان البادية بدوا كما سمي سكان الحاضرة أي المدن حضرا "مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي"

مطلب نسبة النزغ إلى الشيطان مجاز وسبب بلاء يعقوب وإتيان الفرج وحسن الموت :

أضاف عليه السلام الإحسان إلى اللّه تعالى والنزغ إلى الشيطان على طريق المجاز وكمال الأدب مع اللّه تعالى ، وإلا في الحقيقة الكل من اللّه القائل (قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) الآية 78 من سورة النساء ج 3 ، لأنه جل شأنه هو الفاعل المطلق المختار فلا يقع في الكون شيء ولا يرفع منه شيء إلا بعلمه وقضائه وقدره وإرادته ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وعليه فلا وجه لاستدلال المبتدعة في هذه الآية من بطلان الجبر ، لأنهم يقولون لو لا أن يوسف يعلم أن النزغ من فعل اللّه لما أضافه إلى الشيطان ، بل لأضافه لله ، كما أضاف الإحسان إليه ، وهذا باطل ، لأنه يكون حينئذ في الكون فاعلان ، ولا فاعل في الحقيقة إلا اللّه وحده قال تعالى (لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا) راجع الآية 22 من سورة الأنبياء الآتية ، ولهذا وبخ اللّه تعالى الناسبين لغيره بقوله بعد تلك الآية (فَمالِ هؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً) فقد نبههم جلت عظمته بأن ليس للشيطان مدخل فيه إلا إلقاء الوسوسة والتحريش لإفساد ذات البين ، وهذا أيضا باقداره تعالى إياه وتسليطه على بعض خلقه ، فظهر أن الكل من عند اللّه ، راجع الآية 12 من سورة يونس المارة تجد هذا البحث ، وله صلة في الآية 35 من سورة

فصلت الآتية فراجعه "إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ" من التدبير وحسن الاستخراج وتسهيل الأمور "إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ" بمصالح عباده يجريها حسب إرادته "الْحَكِيمُ 100" في جميع أفعاله

، فهو الذي يهيء الأسباب ويؤخر الآمال إلى الآجال كما في هذه القضية ، فإن أولها كان همّا وغما وحزنا وآخرها غدا فرجا وسرورا وانشراحا حتى بلغت أعلى مراتب الدنيا والدين ،

(311/389)

و لما تم ليوسف الأمر على ما أراده له اللّه ، تحدث بنعمة ربه فقال "رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ" من هنا تبعيضيّة لأنه لم يؤت إلا بعض ملك الدنيا وبعض علم التعبير ، وكثير من أحاديث اللّه لا يعلمها هو ولا غيره ، قال هذا عليه السلام على طريق إظهار الشكر لربه لذلك طفق يعددها على نفسه ، وهذا قبل وفاته بأسبوع كما قيل ، إذ انتهت القصة بختام الآية المارة عد 100 ، يا "فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ 101" من آبائي قالوا وأقام يعقوب وآله بعد التلاقي في مصر أربعا وعشرين سنة في أهنأ عيش وأرغد بال وأحسن حال ، وقد حضرت يعقوب الوفاة فأوصى ابنه يوسف أن يحمل جسده إلى الأرض المقدسة ويدفنه مع إسحاق وإبراهيم ، فلما توفي وضعه في تابوت من ساج وحمله إلى الشام ، فوافق موت أخيه العاص توءمه الذي خرج قبله ، وتلاه هو ، أي أن يعقوب خرج عقبه ولذلك سميا بهذين

الاسمين فأخذه معه ودفنهما في قبر واحد ، وكان عمرهما مائة وسبعا وأربعين سنة ، وعمر يوسف بعدهما ثلاثا وعشرين سنة ، ورجع إلى مصر وسأل اللّه حسن الخاتمة وقيل عاش عليه السلام بعد أبيه وعمه ستين سنة أو أكثر على ما قيل ، وهما ابن مائة واثنين وأربعين سنة ، ووضع في صندوق من رخام ، ودفن في نيل مصر ، لأن أهله والمصريين تشاحوا في جسمه المبارك كل يريد دفنه في جبانته طلبا لبركته ، ثم اتفقوا على دفنه في وسط النيل كي ينال بركته كل من شرب منه من الإنسان والحيوان والنبات والأرض بسبب جريانه على تابوته ، فلا يختص به واحد دون آخر ، وبقي تابوت يوسف بالنيل وعمت بركته فيه ، ولم يسمى المبارك إلا بعد وضع تابوته فيه كما سيأتي بيانه ،

(312/389)

وكيفية العثور عليه في الآية 50 من سورة البقرة ج 3 ، أي زمن موسى عليه السلام إذ أخرجه من النيل عند خروج بني إسرائيل ودفنه مع آبائه في الأرض المقدسة .

قالوا وانما ابتلى اللّه يعقوب بهذا البلاء ، لأنه ذبح شاة فقام على بابه مسكين صائم فلم يطعمه منها ، أو انه شوى عناقا وأكله ولم يطعم جاره منه بعد أن شم ريح قترها ، أو أنه ذبح عجلا بين يدي أمه وهي تخور عليه فلم يرحمها .

وهذه روايات لو فرض صحتها فلا تقدح بعصمة الأنبياء لانها ليست بسيئات ، إلا أنهم عدوها سيئات إذ يطلب من الأنبياء أعمالا بحسب علو تاجهم وشريف مراتبهم ، وكل منهم امتحن وصبر وفوض أمره إلى الله ، قالوا والسبب في إتيان الفرج هو أن يعقوب عليه السلام كان له أخ في الله فقال له ما الذي أذهب نور بصرك وقوس ظهرك ولم تبلغ في السن ما بلغه أبواك ؟ قال البكاء على يوسف والحزن على بنيامين ، فأتاه جبريل فقال له إن الله يقرؤك السلام ويقول لك أما تستحي أن تشكوني إلى غيري فقال إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله ، وانما رجل سألني فأجبته لا على طريق الشكوى ، فقال جبريل الله أعلم بما تشكو . فقال يعقوب يا رب تلك خطيئة أخطأتها فاغفرها لي ، فقال غفرتها لك ، قال يا رب أردد علي ريحانتي ثم اصنع بي ما شئت ، فقال جبريل ان الله يقرئك السلام ويقول أبشر فو عزّتي وجلالي لو كانا ميتين لنشرتهما لك أتدري لم وحدت عليك ؟

قال لا ، قال لأنكم ذبحتم شاة فقام على بابكم فلان المسكين وهو صائم فلم تطعموه منها شيئا ، وأن أحب عبادي إلي الأنبياء ثم المساكين ، اصنع طعاما وادع إليه المساكين ، فصنع طعاما ثم نادى من كان جائعا فليفطر عند آل يعقوب ،

مطلب أول من سن النداء إلى الطعام وملاذ الدنيا وتمني الموت وقبح الانتحار :

وصار بعد ذلك إذا تغدى أو تعشى نادى مناديه من أراد أن يتغدى أو يتعشى فليأت آل يعقوب فهو أول من سن النداء للطعام وجدد هذه السنة السيد هاشم جدّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، ولم يشاركه في هذه الخصلة أحد من العرب ، وفي عصرنا هذا أحياها الشيخ جدعان بن مهيد من عشائر عنزة ، أما الكرم المطلق فيكثر في العرب وغيرهم ممن خالطهم ، بارك اللّه فيهم ، وأدام الكرام وأسبل عليهم ستره ونشر عليهم خيره ، ودرّ عليهم من بركاته ووفقهم لما يحبه ويرضاه .

وهنا بحث آخر وهو أنه عليه السلام طلب الوفاة قال قتادة لم يسأل نبي من الأنبياء الوفاة غير يوسف عليه السلام ، وأنه توفى بعد هذا التمني بسبعة أيام ، وذلك لأنه بعد أن تم له ملك مصر وحواليها وبلغ كل ما تمناه البشر الكامل لا سيما بعد جمع شمله مع أبيه وأهله ، وهو يعلم أن مصير الدنيا بما فيها إلى الفناء لا محالة ، ولو عمر ما عمر تاقت نفسه الطاهرة إلى الملك الدائم بجوار ربه الكريم ، ولا يبعد بالرجل الكامل أن يتمنى ذلك رغبة بالنعيم الذي لا يزول ، ولا يمنع من هذا قوله صلّى اللّه عليه وسلم لا يتمنى أحدكم الموت لأمر نزل به ، وفي رواية لا تمنوا الموت فإن هول المطلع عظيم وان من سعادة المرء أن يطول عمره ويحسن عمله ، وعليه فإن الموت عند وجود الضرر ونزول البلاء مكروه ، والصبر عليه أولى ، لأنه عليه السلام لم يتمنّه إبان شدته عند ما كان في الجبّ أو السجن ، بل تمنّاه بعد ما تم له كل شيء

تتوق النفس إليه ، وفيه معنى آخر وهو محبة لقاء اللّه تعالى ، فقد روى الشيخان عن عائشة رضي اللّه عنها وعن أبيها أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : من أحب لقاء اللّه أحب اللّه لقاءه .

(314/389)

وقد تمناه إلياس عليه السلام كما سيأتي في قصته في الآية 123 من الصافات الآتية ، وروى البخاري في صحيحه حديث عدم تمني الموت ، وهو تمناه رضي اللّه عنه ، وذلك أن أهل بلدته اختلفوا فيما بينهم حينما رجع إلى بلده بعد غيابه عنها بسبب طلب العلم ، فكان منهم من يريد دخوله ، ومنهم من لا يريده ، ولما رأى خلافهم يؤدي إلى المقاتلة فيما بينهم ، وبسبب موت بعضهم ، تمنى الموت ، فتوفاه اللّه حالا خشية حصول الفتنة ، والإفساد بين أهل بلدته ، وهذا لا بأس به أيضا ، لهذه الغاية ، أما تمنيه للفاقة والفقر وما ضاهاها من البلاء فلا يجوز ، إذ عليه أن يلجأ إلى اللّه ويتقي محارمه ونواهيه ، ويسأله الفرج ، قال تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً) ولو تأمل هذه الآية 4 من سورة الطلاق الذين ينتحرون والعياذ باللّه لضيق ذات يدهم أو لأمر آخر داهمهم أو لمرض مزمن ألم بهم لما انتحروا وعجلوا بأنفسهم إلى النار ،

فعلى الرجل الذي يمتحن بمثل ذلك أن يطلب من الله تعالى العافية فهو أحسن وأجدر بالعاقل ، ويعلم أن الله قادر على معافاته مما هو فيه فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، وهو الذي يكشف السوء عن عباده ، وما قيل انه عليه السلام كيف يتمنى اللحاق بالصالحين والصلاح أول درجات المؤمنين ، وهو من الأنبياء مردود ، لأن القصد بالصالحين آباؤه عليهم السلام ، وكلهم أنبياء لا مطلق الصالحين كما جرى عليه بعض المفسرين الذي فتح طريقا لمثل هؤلاء المعترضين ، على أنه قد يكون لهضم النفس على طريق استغفار الأنبياء من بعض ما يقع منهم بالنسبة لدرجتهم .

واعلم رعاك الله أن الملاذ الدنيوية كلها خسيسة وأهمها الأكل والجماع والرياسة ، فلذة الأكل عبارة عن دفع ألم الجوع وهو ترطب الطعام بالبزاق الذي هر مستقذر في نفسه ، وأنه عند ما يصل إلى المعدة يتعفن ، وقد يشاركه في لذته الحيوان ، وأن يتلذذ بالروث تلذذ الإنسان بأكل الفستق مع الحلوى ، وقال العقلاء من كان همه ما يدخل في بطنه فقيمته ما يخرج منها ، ولذة الجماع عبارة عن دفع الألم الحاصل من الدغدغة المتولدة من حصول المني في أوعيته ، فهو إخراج تلك الفضلات المتولدة في الطعام بمعونة جلدة وأعصاب مدبوغة

بالبول ودم الحيض والنفاس ، مع حركات لو رأيتها من غيرك لأضحكتك ولعبته بها ، ولهذا قال الشافعي رحمه اللّه الجماع عبارة عن ساعة جنون ، ويكفي الرجل أن يجنّ في السنة مرة

واحدة ، ويشاركه فيها الحيوان أيضا .

ولذة الرياسة عبارة عن دفع ألم الذل وطلب السمعة والشهرة وحب الانتقام ، وهذه إذا لم يكن فيها سوى أنها على شرف الزوال في كل آن لكثرة من ينازعه فيها ويحسده عليها لكفى بها هما وغما ، لأن صاحبها لا يزال خائفا وجلا مترقبا الحوادث بسببها .

فإذا كل ما في الدنيا خسيس ، وفي الموت التخلص من الخسيس والرجوع إلى الحسن النفيس ، فعلى العاقل أن يعمل صالحا في دنياه لتصلح له عقباه ، ويحب لقاء اللّه ، وللّه در المعرّي حيث يقول :

ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد

تعب كلها الحياة فما أعجب الا من راغب في ازدياد

إن حزنا في ساعة الموت أضعا ف سرور في ساعة الميلاد

فاتق اللّه أيها الإنسان وارض بما قسم اللّه لك ، واحسن يحسن اللّه إليك .

قال تعالى "ذَٰلِكَ" الذي ذكرناه لك يا أكرم الرسل من هذه القصة البديعة "مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ" الذي "نُوحِيهِ إِلَيْكَ" كأمثاله من الأخبار والقصص الأخرى الماضية والآتية ، "ما كُنتَ لَدَيْهِمْ" أي أولاد يعقوب عليهم السلام فيما فعلوا أخيهم ما فعلوا "إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ" على إلقائه في الجبّ بعد إرادة قتله "وَهُمْ يَمْكُرُونَ 102" به إذ احتالوا عليه وعلى أبيهم لأخذه معهم إلى المرعى كي يمكروا به كما صوروه بينهم ، وإنما أخبرناك بتفصيل هذه الحادثة لتخبر بها قومك والسائلين عنها فيتحققوا أنها بإخبار الله تعالى إياك ، لا كما يزعمون أنك تلقيتها من الغير سماعا أو تعليما ، لأنك أمي وبينك وبينها قرون كثيرة ، فلم يكن في زمنك من حضرها ، وهذا آخر ما قصّ الله على نبيه من قصة يوسف ووفاته ، وليعلم أنه لا يجوز أن يقال ما تقوله العامة (وليد ضاع ووجده أهله) لما فيه من التصغير بحق هذه القصة وعدم المبالاة بشأنها ، مع لزوم تعظيمها وإجلالها ، لأن الله تعالى سماها أحسن القصص ، كما لا يجوز أن يقال أنت أو هذه أقصر من سورة الكوثر ، أو هذا ما عنده شيء كالسماء والطارق ، أو هذا فارغ كفؤاد أم موسى ، إلى غير ذلك لما علمت من وجوب الأدب والاحترام لكلام الله ، وإن أقصر آية منه لها معان عظيمة يكل أكبر عالم عن الإحاطة بها "وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ" وبالغت في الجهد على أن يؤمنوا بك فما هم "بِمُؤْمِنِينَ 103" بك أنك مرسل من لدنا لأنهم مصرون على الكفر والعناد مهما بالغت بالحرص

على إيمانهم ، "وَمَا تَسْأَلُهُمْ" أي كفرة قومك "عَلَيْهِ" على تعليم هذا القرآن أو قبول ما فيه أو الإصغاء لأخباره وأحكامه "مِنْ أَجْرٍ" يثقلهم إعطاؤه ليتهموك بأنك إنما تتلو عليهم لطمع نفسي ماديّ مما يكن في صدورهم الخبيثة "إِنْ هُوَ" ما هذا

القرآن "إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ 104" تذكرهم به مجانا ، وتنصحهم وتعظهم لعلهم يرجعون عن عنادهم ، فيتذكرون ما ينفعهم ويضرهم ، وهذا تسلية لحضرة الرسول صلى اللّه عليه وسلم إذ أنه بعد أن أخبرهم بهذه القصة التي وعدوه أنهم يؤمنوا به إذا هو أخبرهم بها كما هي عند أهل الكتاب الذين سألوهم عنها وقد قصها بأوضح من ذلك ، فلم تزدهم إلا عتوا ونفورا ، قال تعالى "وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ" بينة وعبرة ظاهرة دالة على الإله الواحد وصفاته مما هو موجود "فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" لا يتفكر بها هؤلاء الكفرة ولا يعتبرون بمبدعها "يَمُرُّونَ عَلَيْها" بأسفارهم ، لأن آثار الأمم الماضية وأطلالهم فيها أي الأرض ظاهرة للعيان مشاهدة ، وقد بلغهم بالتناقل عن كيفية إهلاك أهلها وهم لا يتعظون بها ، أما آيات السماء فهي ملازمة لهم يشاهدونها أيضا كل ليلة ويرون اختلاف الليل والنهار ، وسير الكواكب فيها ، والانتظام العظيم الذي أبدعه الخالق الذي لا ينخرم قيد شعرة على ممر العصور

وكرّها ، ومع ذلك فلا يتفكرون فيها ولا يستدلون بها على صانعها ، لأن اللّه تعالى طمس على قلوبهم لما فيها من الخبث وأعمى أبصارهم تبعا لبصائرهم ، لذلك يقول تعالى قوله "وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ 105" عن ذلك كله وإعراضهم هذا ليس بأعجب من إعراضهم عنك يا حبيبي ، فاصبر عليهم ، ولا تجزع من أفعالهم "وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ" بأنه هو الذي خلق هذين الفلكين العظمين وما فيها من أنس وجن ووحش وحوت وطير وديدان ، وألهم كلا ما ينفعه ويضره ، وقدر أرزاقهم لكل بما يناسبه بحكمة عظيمة ، ومع هذا فإن كل من كلف بالإيمان به منهم لا يؤمنون "إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ 106" به غيره من الأوثان ، لأنهم يعلمون أن اللّه تعالى الخالق الرازق ويستغيثون به إذا دهمهم أمر ، ومع ذلك يعبدون غيره .

(318/389)

قال ابن عباس وغيره إن أهل مكة يقولون في تلبيتهم : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك ، إلا شريكا وهو لك ، تملكه وما ملك ! فنزلت هذه الآية ، ومن هنا كان صلّى اللّه عليه وسلم إذا سمع أحدهم يقول لبيك لا شريك لك يقول له قط قط يكفيك ذلك ولا تزد إلا شريكا هو لك إلخ ، قيل إن كفار العرب مطلقا ، وقيل هم الذين قالوا إن الملائكة بنات اللّه ، والكل

جائز ، فكما يجوز نزول آية لأسباب كثيرة يجوز أيضا انطباق أسباب كثيرة على سبب نزول واحد .

قال تعالى مهددا لهم "أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ" عقوبة عظيمة مسجّاة محلّلة لا يعلمون ما فيها تشملهم وتغشاهم داهية "مِنْ عَذابِ اللَّهِ"

(319/389)

فتهلكهم جميعا "أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً" على حين غرة وغفلة تفاجئهم من غير سبق علامة أو أمارة فتأخذهم "وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ 107" بها فيموتون على كفرهم موتة رجل واحد ، القائم قائما والقاعد قاعدا ، وهكذا بحيث لا يستطيع أحد أن يتغير عن حالته التي هو عليها عند نزول العذاب "قُلْ" يا أكرم الرسل "هذِهِ" الحالة التي أنا عليها من الإيمان باللّه وحده والتصديق بما جاء من عند اللّه والإيمان بالبعث بعد الموت "سَبِيلِي" طريقي ومنهجي "أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ" عباده إليها "عَلى بَصِيرَةٍ" معرفة واضحة تميز الحق عن الباطل أسير عليها "أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي" وصدق بما جئت به من عند ربي ، قال ابن مسعود رضي اللّه عنه من كان مستنّا فليستنّ بأصحاب محمد صلّى اللّه عليه وسلم كانوا خير هذه الأمة وأبرّها قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا ، اختارهم اللّه لصحبة نبيه ونقل دينه ، فتشبهوا

بأخلاقهم واسلكوا طريقهم فهو الطريق القويم والسبيل المستقيم ، كيف وهم معدن العلم وكنز الإيمان وجند الرحمن ، أفضل الناس هداية وأحسنهم طريقة ، وقل "وَسُبْحانَ اللَّهِ" أنزهه وأبرئه عن الإشراك "وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ 108" البتة وهذا لما سبق في الدعوة إلى التوحيد واتباع الطريق التي هو عليها وأصحابه ونفي الإشراك ، قال تعالى "وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى" مثلك بالنسبة لأهل مكة ومن حولها .

(320/389)

وفي هذه الآية ردّ لقول من قال (لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً) الآية 23 من سورة المؤمنين الآتية ، وإنما خص أهل القرى في هذه النعمة العظمى لأنهم أكمل عقلا وأفضل علما من أهل البوادي ، لأنهم أهل جفاء وقسوة ، وأهل المدن أهل لين وعطف غالبا ، ولهذا قالوا إن التبدّي مكروه إلا في الفتن ، وجاء في الحديث من بدا فقد جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، قال قتادة ما نعلم أن اللّه تعالى أرسل رسولا قط إلا من أهل القرى ، أي المدن والأمصار .

ونقل عن الحسن أنه قال : لم يبعث رسول من أهل البادية ولا من النساء ولا من الجن .

وجاء في الخبر من يرد اللّه به خيرا ينقله من البادية إلى الحاضرة .

هذا وإن يعقوب عليه السلام تنبأ قبل

أن ينقل إلى البادية .

قال ابن عباس كان يعقوب تحول إلى بدا وسكنها ، ومنها قدم يوسف وله بها مسجد تحت جبلها ، قال جميل وقيل كثير :

وأنت التي حبّبت شعبا إلى بدا إليّ وأوطاني بلاد سواهما

قال ابن الأنباري : بدا اسم موضع معروف ، يقال هو بين شعب وبدا وهما موضعان كما ذكر في البيت ، وإنما سميت البادية بادية لأن ما فيها يبدو للناظر لعدم وجود ما يواريه ، وهي عبارة عن بسيط من الأرض ، وما قيل إن هذه الآية أي قوله تعالى (إِلَّا رِجالًا) إلخ ، نزلت في سجاع تميمة بنت المنذر التي يقول فيها الشاعر :

أمست نبيّتنا أنثى نطوف بها ولم تزل أنبياء اللّه ذكرانا

فلعنة اللّه والأقوام كلهم على سجاح ومن بالإفك أغرانا

أعني مسيلمة الكذاب لا سقيت أصداؤه ماء مزن أينما كانا

قول لا صحة له ، لأن ادعاءها النبوة كان بعد وفاة النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، ولا قرينة تدل على أن هذا من الإخبار بالغيب ، وقد أسلمت أخيرا وحسن إسلامها وقصتها مشهورة بالسير والتواريخ ، قال في بدء الأمالي :

وما كانت نبيا قط أنثى ولا عبد وشخص ذو افتعال

قال تعالى "أَفَلَمْ يَسِيرُوا" هؤلاء الكفرة "فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ" الذين كذبوا رسلهم كيف أهلكناهم فيعتبرون بهم فيؤمنون بالله ويتركون هذه الدار الفانية وما فيها لمن اغتر بها من الكفرة المصرين "وَلَدَارُ الْآخِرَةِ" الباقية الحسنة "خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا" الشرك والمعاصي وعملوا الخير ووحّدوا ربهم "أَفَلَا تَعْقِلُونَ 109" ذلك يا أهل مكة فتتركون ما أنتم عليه وتتبعون ما يأمركم به نبيكم لتفلحوا وتفوزوا .

مطلب في قوله تعالى حتى إذا استيأس الرسل وأنه يجوز عليهم ما يجوز على غيرهم من البشر :

قال تعالى "حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ" وقطعوا أملهم من إيمان قومهم والنصرة عليهم في الدنيا لتماديهم في الكفر مع توالي نعم الله عليهم "وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا"

قرأ أهل الكوفة وعاصم وحمزة والكسائي بالتخفيف ، أي ظنت أممهم كذبهم فيما أخبروهم به من نصر الله إياهم عليهم وإهلاكهم .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالتشديد ، أي أن الرسل أيسوا من إيمانهم وأيقنوا أن أممهم كذبوهم تكذيبا لا يرجى بعده إيمانهم واستبطئوا النصر عليهم .

والقراءتان على البناء للمفعول تدبر هذا ، واعلم أن من رجع الظن إلى الأنبياء وأراد به ترجيح أحد الجانبين لا ما يخطر بالبال ويهمس بالقلب في شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه الطبيعة البشرية ، فقد أخطأ ، لأنه لا يجوز على أحد من المسلمين ، فكيف يجوز على أعرف الناس بالله وأنه متعال عن خلف الميعاد ؟ ويبطل هذا الزعم ما رواه البخاري عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن هذه الآية ، قالت بل كذبهم قومهم ، فقلت واللّه لقد استيقنوا بذلك ، فقلت لعلهما قد كذبوا أي بالتخفيف ، فقالت معاذ اللّه لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ، قلت فما هذه الآية ؟ قالت هم اتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوا فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر ، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنوا أن اتباعهم كذبوهم ، جاءهم نصر اللّه عند ذلك .

وقيل أن هذا تكذيب لم يحصل من أتباعهم المؤمنين لأنه لو حصل لكان نوع كفر ولكن الرسل ظنت بهم ذلك لبطء النصر .

وفي رواية عبد اللّه بن عبد اللّه بن أبي مليكة قال قال ابن عباس رضي اللّه عنهما ذهب لها هنالك وتلا (وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) الآية 214 من سورة البقرة في ج 3 ، قال تلقيت عروة ابن الزبير وذكرت له ذلك ، فقال قالت عائشة معاذ اللّه واللّه ما وعد اللّه رسوله في شيء قط إلا علم أنه كائن قبل أن

يموت ، ولكن لم يزل البلاء بالرسل حتى خافوا أن يكون معهم من قومهم من يكذبوهم ، فكانت تقرأها ، وظنوا أنهم قد كذبوا ، بالتشديد مثقلة ، أما ما نقله البعض عن ابن عباس من أنه قال وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم اللّه به من النصر ، قال وكانوا بشرا وتلا قوله تعالى (وَزُلْزِلُوا) الآية المارة من البقرة ، لا يصح إلا إذا أراد بالظن ما يخطر بالبال وكما ذكرنا آنفا ، لأن الأنبياء منزهون عن الظن بربهم

بخلف الوعد والوعيد ، ويجب علينا تطهيرهم وبراءتهم من مثله تنبه ، ولا يخفى أن الظن في القرآن بمعنى اليقين كثير ، كقوله تعالى (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ) إلى يتقون الآية 47 من البقرة في ج 3 ، هذا .

واعلم ، أن الخبر في استيئاس الرسل مطلق إذ ليس في الآية ما يدل على تقييده بما وعدوا به وأخبروا بكونه ، وإذا كان كذلك فمن المعلوم أن اللّه تعالى إذا وعد رسله بنصر مطلق كما هو الغالب في أخباره لم يعين زمانه ولا مكانه ولا صفته ، فكثيرا ما يعتقد الناس في الموعود به صفات أخرى لم يدل عليها خطاب الحق جل وعلا ، بل اعتقدوها بأسباب أخرى كما أعتقد طائفة من الصحابة رضوان اللّه عليهم أخبار النبي صلّى اللّه عليه وسلم

لهم أنهم سيدخلون المسجد الحرام ويطوفون فيه ، أن ذلك يكون عام الحديبية ، لأن النبي صلّى اللّه عليه وسلم خرج معتمرا ورجا أن يدخل مكة ذلك العام ويطوف ويسعى ، فما استيأسوا من ذلك العام إذ صدّهم المشركون ، ثم عقد الصلح المشهور بقي في قلب بعضهم شيء حتى قال عمر رضي اللّه عنه ألم تخبرنا يا رسول اللّه أن ندخل البيت ونطوف به ؟ قال بلى أنا خبرتك أنك تدخله هذا العام ؟ قال لا ، قال انك داخله ومطوف به ، وكذلك قال له أبو بكر رضي اللّه عنه فبين له أن الوعد منه عليه كان مطلقا غير مقيد بوقت ، وكونه صلّى اللّه عليه وسلم سعى في ذلك العام وقصد مكة لا يوجب تخصيصا بوعد اللّه بالدخول في تلك السنة ، ولعله إنما سعى بناء على الظن أن يكون الأمر كذلك فلم يكن ، ولا محذور في ذلك وليس في شرط النبي أن يكون كل ما قصده واقعا بل من تمام نعمة اللّه عليه أن يأخذ به عما يقصده إلى

(324/389)

أمر آخر هو أنفع مما قصده إن كان كما كان في عام الحديبية ، ولا يضر أيضا خروج الأمر على خلاف ما يظنه عليه السلام فقد روى مسلم في صحيحه أنه عليه الصلاة والسلام قال في تأبير النخل أي تلقيحه حيث نهاهم عنه أولا ، ولمّا لم يأت بالثمر المطلوب سألهم فقالوا لأنا

لم نلقحه أي اتّباعا لأمرك فقال إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذون بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن اللّه شيئًا فخذوا به ، فإني لن أكذب على اللّه تعالى ، ومن ذلك قوله صلّى اللّه عليه وسلم في حديث ذي اليدين حينما سلم على رأس الركعتين في صلاة رباعية حيث قال له أقصرت

الصلاة يا رسول اللّه ؟ فقال ما قصرت الصلاة ولا نسيت ثم تبين النسيان ، ومنه أيضا في قصة الوليد بن عقبة النازل فيها (إِنْ جاءكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا) الآية 6 من سورة الحجرات في ج 3 كما سنبينها في محلها وقصة ابن البيرق النازل فيها (إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً) الآية 115 من سورة النساء في ج 3 أيضا كما سنبيّنها في محلها إن شاء اللّه ، وفي هذا كفاية في العلم بأنه صلّى اللّه عليه وسلم قد يظن الشيء فيبينه اللّه تعالى على وجه آخر ، لأنه بشر ويجوز عليه ما يجوز على البشر ، فإذا كان خاتم الرسل وأفضلهم هكذا فما ظنك بغيره من الرسل الكرام ؟ ومما يزيد هذا قوة أن جمهور المحدثين والفقهاء أجمعوا على أنه يجوز للأنبياء عليهم السلام الاجتهاد في الأحكام الشرعية ويجوز عليهم الخطأ في ذلك ، لكن لا يقرون عليه ، فإنه لا شك أن هذا

دون الخطأ في ظن ما ليس في الأحكام الشرعية من شيء ، وإذا تحقق ذلك فلا يبعد أن يقال أن أولئك الرسل عليهم السلام أخبروا بعذاب قومهم ولم يعين لهم وقت له ، فاجتهدوا وعينوا لذلك وقتا حسبما ظهر لهم كما عين أصحاب محمد صلّى اللّه عليه وسلم عام الحديبية لدخول مكة ، فلما طالت المدة استيأسوا وظنوا كذب أنفسهم وغلط اجتهادهم ، وليس في ذلك ظن بكذب وعده تعالى ولا مستلزما له أصلا ، فلا محذور ، وأنت عليم أن الأوفق بتعظيم الرسل عليهم السلام والأبعد عن الحوم حول ما يليق بهم القول بنسبة الظن إلى غيرهم كما جاء في حديث عائشة المتقدم وشرحه لابن الزبير ، لأن ما جاء به في الردّ والتأويل في غاية الحسن منها رضي اللّه عنها وعن أبيها واللّه أعلم .

(326/389)

قال تعالى "جاءَهُمْ نَصْرُنا" الذي وعدناهم به فجأة من غير احتساب ولا ترقب "فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ" من العذاب الواقع أي نجّى النبيّ ومن آمن معه ومن شملته إرادة اللّه وقرأ بعضهم فنجّي بالتشديد ونون العظمة بالباء على الفاعل وقرىء بتشديد الجيم وسكون الياء ، وهي خطأ إذ لا يجوز إدغام النون بالجيم ، والقراءة الصحيحة هي ما عليه المصاحف بالبناء للمفعول "وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا" عذابنا بالإهلاك "عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ 110" إذا نزل بهم

البتة وفي هذه الآية وعيد وتهديد لمعاصري حضرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم بأنهم إذا لم يرجعوا عن كفرهم ينزل بهم عذابه ، وإذا نزل فلا يرده رادّ .

(327/389)

قال تعالى "لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ" أي الأنبياء السابقين وأممهم الماضية الطائعة والعاصية الناجية والهالكة "عِبْرَةٌ" عظيمة وعظة خطيرة "لِأُولِي الْأَلْبابِ" العقول الصحيحة السليمة ، أما غيرهم الذين لم ينتفعوا بهذه العبر فلا تكون عظة لهم لعدم سلامة قلوبهم من الرين والصدأ المتكاثف عليها ولذلك لم يعتبروا والعبرة الحالة التي يتوصل بها الإنسان من معرفة المشاهد إلى غيره فيقيس بينهما ويتأمل ويتفكر ، فيأخذ ما هو الأحوط والأصوب بالأمر الواقع ويترك الخطأ ، وقد بدأ اللّه تعالى هذه السورة بقوله أحسن القصص وختمها بقوله (فِي قَصَصِهِمْ) مما يدل على أن في هذه السورة الكريمة عبرا كثيرة لمن يعتبر فيها من الأخبار بالغيب والوقائع ما لم يكن بغيرها فضلا عن أنها معجزة عظيمة لسيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم قال تعالى "ما كانَ" هذا القرآن الذي لقبناه بأحسن القصص يا أيها الناس "حَدِيثاً يُفْتَرى" يختلق من قبل البشر ، وإنما هو من عند إله البشر ونزل على خيرهم "وَلكِنْ" كان في الأزل ويكون في الحاضر والمستقبل "تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ" من التوراة

والإنجيل وغيرهما مما أنزل اللّه تعالى من كتب وصحف "وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ" تحتاجه يا سيد الرسل أنت وأمتك الموجودون والآتون إلى يوم القيامة من بيان الحلال والحرام والحدود والأحكام والقصص والأخبار والمواعظ والأمثال في كل ما يتعلق في أمور الدنيا والآخرة وما فيهما فمن عرفه حق معرفته لا يحتاج إلى غيره "وَهُدًى" للناس من الضلال والتيه والزيغ أيضا "وَرَحْمَةً" لهم من العذاب وخيرا ينالون به نعم الدارين "لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ 111" به ويعتقدون أنّ ما فيه حق لأنهم هم المنتفعون به لا غير، ولا يوجد في القرآن سورة مختومة بهذا الفعل إلا سورة المرسلات فقط هذا، واستغفر اللّه، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم، و

صلى اللّه وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. انتهى انتهى. ا هـ ﴿بيان المعاني حـ 3 صـ 170. 271﴾

(328/389)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وِيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التسعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التسعون بعد الثلاثمائة

فصل فى الوقف والابتداء

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة يوسف عليه السلام

مكية

الر تقدم الكلام عليه في سورة البقرة المبين حسن وقال أبو عمرو تام تعقلون تام الغافلين حسن وقال أبو عمرو تام ساجدين حسن لك كيدا كاف عدو مبين وإبراهيم واسحق حكيم تام للسائلين كاف ولا يوقف على قوله ضلال مبين لبشاعة الابتداء بما بعدهما قوما صالحين تام وكذا غافلين لناصحون حسن نرتع وتلعب مفهوم لحافظون كاف وكذا غافلون لخاسرون حين وكذا إلا يشعرون وقال أبو عمرو في الثاني تام يبكون صالح وكذا فأكله الذئب صادقين حسن بدم كذب صالح بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا حسن فصبر جميل تام أي فصبر جميل أولى أو فصبري صبر جميل على ما تصفون حسن وقال أبو عمرو تام فأدلى دلوه مفهوم هذا غلام حسن وقال أبو عمرو كاف بضاعة كاف بما يعملون حسن معدودة مفهوم من الزاهدين حسن وقال أبو عمرو تام أو نتخذه ولدا كاف من تأويل الأحاديث حسن وكذا لا يعلمون وقال أبو عمرو في الأول كاف وعلما صالح المحسنين كاف وكذا هيت لك مثواي جائز الظالمون حسن ولقد همت به كاف وكذا برهان ربه ولنصرف عنه السوء والفحشاء وهو أكفى منهما المخلصين حسن لدى الباب كاف أليم حسن وكذا عن

نفسي من الكاذبين صالح فكذبت جائز من الصادقين كاف من كيد كن جائز عظيم تام

وكذا أعرض عن هذا ومن الخاطئين ضلال مبين حسن عليهن كاف عند بعضهم كريم

حسن لمتننى فيه فأستعصم حسن وقال أبو عمرو كاف وقيل تام من الصاغرين تام مما

يدعونني إليه صالح من الجاهلين كاف وكذا كيدهن العليم حسن حتى حين تام فتيان صالح

الطير منه كاف من المحسنين حسن قبل أن يأتيكما أحسن وقال أبو عمرو كاف مما علمني

ربي حسن وقال أبو عمرو كاف كافرون صالح وإسحاق ويعقوب حسن وكذا من شيء

وعلى الناس وقال أبو عمرو فيهما كاف لا يشكرون تام النهار حسن من سلطان تام إلا اياه

حسن لا يعلمون تام فيسقي ربه خمرا صالح من رأسه حسن تستفتيان تام عند ربك صالح

بضع سنين تام وأخر يابسات في الموضعين كاف بعالمين حسن فأرسلون تام يعلمون كاف

دأبا صالح وكذا

(5/390)

مما تأكلون ومما تحصنون يغاث الناس صالح لمن قرأ وفيه تعصرون بالتاء لرجوعه من الغيبة

إلى الخطاب وليس بوقف لمن قرأه بالياء وفيه يعصرون حسن وقال أبو عمرو تام أئتوني به

صالح أيديهن جائز عليم تام عن نفسه صالح وكذا لمن الصادقين كيدا الخائبين تام رحم ربي

كاف رحيم تام أستخلصه لنفسي صالح أمين حسن وكذا عليم وحيث يشاء وقال أبو عمرو في الأخير كاف لمن قرأه بالياء وصالح لمن قرأه بالنون من نشاء صالح المحسنين حسن يتقون تام منكرون حسن خير المنزلين صالح ولا تقربون كاف وكذا لفاعلون ويرجعون لحافظون حسن من قبل صالح الراحمين حسن وكذا ما نبغي وقال أبو عمرو فيه كاف ردت إلينا مفهوم كيل يسير حسن وكذا إلا يحاط بكم ووكيل وقال أبو عمرو في أن يحاط بكم كاف من أبواب متفرقة كاف وكذا من شيء إلا الله جائز المتوكلون حسن وقال أبو عمرو تام قضاها كاف لا يعلمون حسن وقال أبو عمرو فيهما كاف رحل أخيه مفهوم عند بعضهم وليس بجيد لسارقون حسن وقال أبو عمرو تام ماذا تفتقدون كاف صواع الملك صالح به زعيم كاف وكذا سارقين وكاذبين وجزاؤه الظالمين ووعاء أخيه كدنا ليوسف حسن وقال أبو عمرو كاف يشاء الله لمن قرأ نرفع بالنون وكذا بالياء لكن الأول أكفى لأن من قرأ بالنون انتقل من الغيبة إلى التكلم ومن قرأ بالياء جعله كلاما واحدا من نشاء كاف عليم حسن وقال أبو عمرو تام من قبل صالح ولم يبدها لهم مفهوم شر مكانا صالح وقال أبو عمرو كاف بما تصفون حسن وكذا من المحسنين ولظالمون وقال أبو عمرو فيهما تام نجيا صالح موثقا من الله صالح وقال أبو عمرو كاف هذا إن جعلت ما فيما بعده صلة أو مصدرية على إن محلها نصب بتعلموا بتقدير ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله وأنتم تعلمون تفريطكم فلا وقف على ذلك في يوسف حسن وقال أبو عمرو كاف خير الحاكمين تام إن ابنك سرق

صالح حافظين كاف وأنا لصادقون أكفى منه أنفسكم أمرا حسن وكذا فصبر جميل وقال أبو عمرو فيه

(6/390)

كاف بهم جميعا صالح الكافرون وكاف وكذا تصدق علينا المتصدقين حسن وقال أبو عمرو كاف جاهلون كاف لأنت يوسف صالح وهذا أخي أصلح منه منّ الله علينا كاف المحسنين حسن وكذا الخاطئين لا تثريب عليكم اليوم وقف بيان وقال أبو عمرو كاف يغفر الله لكم وقف بيان أيضا الراحمين تام أجمعين حسن إن تفندون كاف القديم حسنسن وكذا مالا تعلمون خاطئين أستغفر لكم ربي صالح الرحيم حسن آمنين كاف ربي حقا حسن وكذا اخوتي لما يشاء كاف الحكيم تام وكذا تأويل الأحاديث بالصالحين حسن وكذا نوحيه إليك يمكرون تام بمؤمنين كاف للعالمين تام والأرض كاف معرضون تام وكذا مشركون ولا يشعرون إلى الله حسن إن جعل أنا مبتدأ وعلى بصيرة خبره وليس بوقف إن جعل ذلك متعلقا بأدعو ومن اتبعني حسن من المشركين تام وكذا من أهل القرى ومن قبلهم وقال أبو عمرو فيهما كاف اتقوا صالح أفلا تعقلون كاف من نشاء حسن المجرمين تام لأولي الألباب حسن آخر السورة تام. وكذا مالا تعلمون خاطئين أستغفر لكم ربي صالح الرحيم

حسن آمنين كاف ربي حقا حسن وكذا اخوتي لما يشاء كاف الحكيم تام وكذا تأويل الأحاديث بالصالحين حسن وكذا نوحيه إليك يمكرون تام بمؤمنين كاف للعالمين تام والأرض كاف معرضون تام وكذا مشركون ولا يشعرون إلى الله حسن إن جعل أنا مبتدأ وغلى بصيرة خبره وليس بوقف إن جعل ذلك متعلقا بأدعو ومن اتبعني حسن من المشركين تام وكذا من أهل القرى ومن قبلهم وقال أبو عمرو فيهما كاف اتقوا صالح أفلا تعقلون كاف من نشاء حسن المجرمين تام لأولي الألباب حسن آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴾

المقصد صـ 388.401 ﴾

(7/390)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة يوسف عليه السلام

مكية إلاَّ أربع آيات من أولها ثلاث آيات والرابعة قوله لقد كان في يوسف الآية وهي مائة وإحدى عشرة آية إجماعاً وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا ً بإجماع أربعة مواضع منهن سكيناً معه السجن فتيان يأت بصيرا ً لأولي الألباب وكلمها ألف وسبعمائة وستة وسبعون كلمة وحروفها سبعة آلاف ومائة وستة وستون حرفاً 0

الر تقدم هل هي مبنية كأسماء الأعداد أو معربة ولها محل من الإعراب تقدم ما يغني عن إعادته 0

المبين (تام) ومثله تعقلون

هذا القرآن (حسن)

الغافلين (تام) إن قدرت اذكر إذ قال يوسف فإن جعلت إذ داخلة في الصلة أي لمن الغافلين ذلك الوقت فلا يتم الكلام على الموصول دون الصلة والمعتمد أنّ العامل في إذ قال يا بني إذ تبقى على وضعها الأصلي من كونها ظرفاً لما مضى وحينئذ فلا يوقف على ساجدين أي قال يعقوب يا بني وقت قول يوسف له كيت وكيت وهذا أسهل الوجوه إذ فيه إبقاء إذ على كونها ظرفاً ماضياً والوقف على ساجدين ومبين واسحق وقوف كافية 0

حكيم (تام)

للسائلين (كاف) إن علق إذ باذكر مقدراً وليس بوقف إن علق إذ بما قبلها 0

ونحن عصبة (كاف) ومثله مبين ولا يكره الابتداء بما بعدها إذ القاريء ليس معتقداً معناه وإنّما هو حكاية قول قائل حكاه الله عنه

وجه أبيكم ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله 0

صالحين (كاف)

لا تقتلوا يوسف (جائز)

في غيابة الجب ليس بوقف لأنَّ يلتقطه جواب الأمر وقرأ نافع غيابات الجب في الموضعين

والباقون بالأفراد

فاعلين (كاف) ومثله لناصحون

ونلعب (حسن)

لحافظون (كاف) ومثله غافلون ولخاسرون

(8/390)

في غيابة الجب يبني الوقف على الجب على اختلاف التقادير فإن جعل جواب لما محذوفاً تقديره فعلوا به ما أجمعوا عليه من الأذى أو سروا بذهابهم به وإجماعهم على ما يريدون والواو في وأوحينا عاطفة على ذلك المقدر ولم يجعل وأوحينا جواب لما لعدم صحته وذلك أنَّ الإيحاء كان بعد إلقائه في الجبّ فليس مرتباً على عزمهم على ما يريدون وإنَّما يترتب الجواب المقدر وبهذا يحسن الوقف على الجب ويحسن أيضاً على استئناف وأوحينا ولم يجعل داخلاً تحت جواب لما وليس بوقف إن جعل جواب لما قالوا يا أبانا إنَّا ذهبنا أو جعل جواب لما قوله وأوحينا على مذهب الكوفيين أنَّ الواو زائدة أي فلما ذهبوا به أوحينا وعلى هذين التقديرين لا يوقف على الجب

وهم لا يشعرون (كاف)

يبكون (جائز) ومثله فأكله الذئب للابتداء بالنفي

صادقين (كاف)

بدم كذب (جائز)

أمراً (حسن)

فصبر جميل (تام) أي فصبري صبر جميل فصبري مبتدأ وصبر خبره وجميل صفة حذف

المبتدأ وجوباً لنيابة المصدر مناب الفعل إذ جيء به بدلاً من اللفظ بفعله

على ما تصفون (كاف)

دلوه (حسن)

هذا غلام (أحسن مما قبله)

بضاعة (كاف)

بما يعملون (تام)

معدودة (حسن) والواو بعده تصلح للعطف وللحال أي وقد كانوا فيه من الزاهدين وهو تام

عند أبي عمرو 0

ولداً (كاف)

من تأويل الأحاديث (حسن)

غالب على أمره ليس بوقف لحرف الاستدراك بعده 0

لا يعلمون (حسن)

وعلماً (جائز)

المحسنين (كاف)

هيت لك (حسن) ومثله معاذ الله و مثواي

الظالمون (كاف) ومثله وهمت به وبهذا الوقف يتخلص القاريء من شيء لا يليق بنبيّ معصوم أن يهم با مرأة وينفصل من حكم القسم قبله في قوله ولقد همت ويصير وهمّ بها مستأنفاً إذ الهمّ من السيد يوسف منفيّ لوجود البرهان والوقف على برهان ربه ويبتديء كذلك أي عصمته كذلك فالهم الثاني غير الأول وقيل الوقف على وهمّ بها وإن الهمّ الثاني كالأول أي ولقد همت به وهمّ بها كذلك وعلى هذا لولا أن رأى برهان ربه متصل بقوله لنصرف عنه أي أريناه البرهان لنصرف عنه ما همَّ به وحينئذ الوقف على الفحشاء قيل قعد منها مقعد الرجل من المرأة فتمثل له يعقوب عليه السلام عاضاً إصبعه يقول يوسف يوسف وفي الإتقان لولا أن رأى برهان ربه اخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله لولا أن

رأى برهان ربه قال رأى آية من كتاب الله نهته مثلت له في جدار الحائط وتقدير الكلام لولا أن رأى برهان ربه لواقعها ولا يرد على هذا وما أبريء نفسي لأنه لم يدّع براءة نفسه من كل عيب وإن بريء من هذا العيب أو قاله في ذلك هضماً لنفسه والوقف على هذا على الفحشاء لاتصال الكلام بعضه ببعض فلا يقطع وقد ذكروا في معنى البرهان وهمّ يوسف بها أشياء لا يحسن إسنادها ولا إسناد مثلها إلى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين والكلام على ذلك يستدعي طولاً أضربنا عنه تخفيفاً وفيما ذكر غاية ولله الحمد 0

المخلصين (كاف)

لدى الباب (حسن)

أليم (كاف)

عن نفسي (حسن)

من أهلها ليس بوقف لتعلق التفصيل الذي بعده بما قبله

من الكاذبين (جائز) ومثله من الصادقين وفي الحديث عن ابن عباس أنه تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة ابنة فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم 0

من كيدكن (جائز)

عظيم (تام)

عن هذا (حسن) ومثله لذنبك 0

الخاطئين (كاف)

عن نفسه (جائز)

حباً (حسن)

مبين (كاف)

عليهن (حسن)

حاش لله (حسن) وقرأ أبو عمرو حاشا بالألف وصلاً وغيره بغيرها 0

ما هذا بشراً (جائز)

(10/390)

كريم (كاف) وقال يحيى بن نصير النحوي تام 0

لمتنني فيه (كاف) ومثله فاستعصم وقيل تام 0

من الصاغرين (كاف)

مما يدعونني إليه (حسن)

من الجاهلين (كاف)

فاستجاب له ربه (جائز) عند نافع لأنّ الماضي بعده بمعنى الأمر فكأنَّه قال رب اصرف

عني كيدهن 0

وكيدهن (كاف) وكذا العليم

حتى حين (تام)

فتيان (حسن) ومثله خمراً فصلا بين القصتين مع اتفاق الجملتين 0

الطير منه (حسن) ومثله بتأويله

المحسنين (كاف) وكذا من قبل أن يأتيكم وكذا علمني ربي وقال الأخفش تام 0

كافرون (كاف)

ويعقوب (حسن) وقيل كاف للابتداء بالنفي بعده 0

من شيء (كاف)

وعلى الناس ليس بوقف لتعلق ما بعده استدراكاً وعطفاً 0

لا يشكرون (تام)

القهار (كاف)

من سلطان (تام)

إلاَّ الله (حسن) ومثله إلاَّ إياه 0

ذلك الدين القيم وصله أولى 0

لا يعلمون (تام)

فيسقي ربه خمرا (حسن) للفصل بين الجوابين مع اتفاق الجملتين ومثله من رأسه لأنَّ قوله قضي الأمر جواب قولهما ما رأينا وذلك أنهما رجعا عن الرؤيا لما فسرها السيد يوسف عليه الصلاة والسلام قالا كذبنا وما رأينا شيأً فقال لهما قضي الأمر الذي فيه تستفتيان 0

تستفتيان (تام) وأفرد الأمر وإن كان أمر هذا غير أمر هذا التخصيص أحدهما بالخطاب بعد الفراغ منهما بالجواب 0

عند ربك (جائز) ومثله ذكر ربه 0

بضع سنين (تام)

وأخر يابسات (كاف) ومثله تعبرون و أضغاث أحلام و بعالمين

فأرسلون (تام) باتفاق

وآخر يابسات الثاني ليس بوقف لحرف الترجي وهو في التعلق كلام كي 0

يعلمون (كاف)

دأباً (جائز) وكذا تأكلون و تحصنون و يغاث الناس لمن قرأ وفيه تعصرون بالتاء الفوقية لرجوعه من الغيبية إلى الخطاب وليس بوقف لمن قرأه بالتحتية 0

وفيه يعصرون (كاف)

ائتوني به (حسن) ومثله أيديهن

عليم (تام)

عن نفسه (حسن) ومثله من سوء وكذا عن نفسه

(11/390)

لمن الصادقين (تام) عند من جعل قوله ليعلم أني لم أخنه بالغيب من كلام يوسف وإنما أراد ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب وقد كان مجاهد يقول ذلك ليعلم الله أني لم أخنه بالغيب وليس بوقف لمن جعل ذلك من كلام العزيز وتجاوزه أحسن ومن حيث كونه رأس آية يجوز وأما من جعله من كلامها فالوقف على الصادقين حسن وقال ابن جريج إنَّ في الكلام تقديماً وتأخيراً أي إنَّ ربي بكيدهن عليم ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وعلى هذا فلا يوقف على الصادقين وجعل الوقف على قوله بالغيب كافياً وقال إنَّ يوسف تكلم بهذا الكلام قبل خروجه من السجن وخولف في هذا قالوا لأنه لو كان كافياً لكسرت أن قلت وهذا لا يلزمه لأنه ابتدأ وأن الله أي بتقدير اعلموا أنَّ الله 0

الخائنين (كاف) وقيل تام

وما أبريء نفسي (حسن) فيه حذف أي وما أبريء نفسي عن السوء 0

لأمارة بالسوء (أحسن) على أنَّ الاستثناء منقطع أي ولكن رحمة ربي هي التي تصرف

الإساءة وليس بوقف إن جعل متصلاً مستثنى من الضمير المستكن في أمارة بالسوء أي إلاَّ نفساً رحمها ربي فيكون أراد بالنفس الجنس وفيه إيقاع ما على من يعقل والمشهور خلافه

رحيم (تام)

أستخلصه لنفسي (حسن) ومثله أمين

خزائن الأرض (جائز)

عليم (كاف)

ليوسف في الأرض (جائز) لأنَّ قوله يتبوأ يصلح مستأنفاً وحالاً أي مكنا له متبوأً منزلاً 0

حيث يشاء (كاف) لمن قرأه بالتحتية وجائز لمن قرأه بالنون 0

من نشاء (جائز)

المحسنين (كاف) ومثله يتقون وكذا منكرون و من أبيكم للابتداء بالاستفهام 0

أوفي الكيل (جائز)

المنزلين (كاف) للابتداء بالشرط ومثله ولا تقربون و لفاعلون ويرجعون

منا الكيل (جائز) ومثله نكتل

لحافظون (كاف)

من قبل (حسن) لانتهاء الاستفهام إلى الإخبار وكذا حفظاً

الراحمين (كاف) ومثله ردت إليهم لانتهاء جواب لما 0

نبغي (كاف) وأثبت القراء الياء في نبغي وصلاً ووقفاً وفي ما وجهان يجوز أن تكون نافية والتقدير يا أبانا ما نبغي منك شيأ وعليها يكون الوقف كافياً ويجوز أن تكون استفهامية مفعولاً مقدماً واجب التقديم لأنَّ له صدر الكلام فكأنهم قالوا أي شيء نبغي ونطلب وقال بعضهم إن مع نبغي فاء محذوفة فيصون التقدير ما نبغي فهذه بضاعتنا ردت إلينا فلا يحسن الوقف على نبغي لأنَّ قوله ردت إلينا توضيح لقولهم ما نبغي فلا يقطع منه وفي هذا غاية في بيان هذا الوقف ولله الحمد 0

كيل بعير (جائز)

كيل يسير (كاف)

موثقاً من الله ليس بوقف لأنَّ جواب الحلف لم يأت لأنَّ يعقوب لما كان غير مختار لإرسال ابنه علق إرساله بأخذ الموثق عليهم وهو الحلف بالله إذ به تؤكد العهود وتشدد ولتأتنني جواب الحلف قال السجاوندي وقف بعضهم بين قال وبين الله في قوله قال الله وقفة لطيفة لأنَّ المعنى قال يعقوب الله على ما نقول وكيل غير أن السكتة تفصل بين القول والمقول فالأحسن أن يفرق بينهما بقوة الصوت إشارة إلى أنَّ الله مبتدأ بعد القول وليس فاعلاً بقال كما تقدم في

الأنعام في قال النار إذ الوقف لا يكون إلاَّ لمعنى مقصود وإلاَّ كان لا معنى له لشدة التعلق وكان النص عليه مع ذلك كالعدم وكان الأولى وصله ويمكن أن يقال أن له معنى وهو كون الجملة بعد قال ليست من مقول الله وليس لفظ الجلالة فاعلاً به بل الفاعل ضمير يعقوب والله مبتدأ ووكيل الخبر والجملة في محل نصب مقول قول يعقوب

إلاَّ أن يحاط بكم (حسن) ومثله وكيل ومتفرقة و من شيء و إلاَّ الله و عليه توكلت كلها حسان 0

المتوكلون (كاف) وقال أبو عمرو تام

أبوهم (جائز) لأنَّ جواب لما محذوف تقديره سلموا بإذن الله 0

قضاها (حسن)

لما علمناه ليس بوقف لتعلق ما بعده به استدراكاً وعطفاً 0

لا يعلمون (كاف)

أخاه (جائز)

يعلمون (كاف)

في رحل أخيه (جائز) عند نافع 0

لسارقون (كاف) وقال أبو عمرو تام0

تفقدون (كاف)

صواع الملك (جائز)

به زعيم (كاف) ومثله سارقين وكذا كاذبين

جزاؤه الثاني (حسن) والكاف في محل نصب نعت مصدر محذوف أي مثل ذلك الجزاء وهو الاسترقاق 0

نجزي الظالمين (كاف)

أخيه الثاني (حسن)

كدنا ليوسف (كاف) للابتداء بالنفي وكذا إلاَّ أن يشاء الله لمن قرأ نرفع بالنون أو بالياء لكن الأول أكفى لأنَّ من قرأ بالنون انتقل من الغيبية إلى التكلم واستئناف أخبار ومن قرأ بالياء جعله كلاماً واحداً فلا يقطع بعضه من بعض 0

من نشاء (كاف) على القراءتين 0

عليم (تام) أي وفوق جميع العلماء عليم لأنَّه من العام الذي يخصصه الدليل ولا يدخل الباري في عمومه 0

من قبل (كاف) ومثله ولم يبدها لهم وقيل لا يجوز لأنَّ ما بعده يفسر الضمير في أسرها فهذا

بمنزلة الإضمار في أن 0

أنتم شر مكانا (كاف) قال قتادة هي الكلمة التي أسرها يوسف في نفسه أي أنتم شر مكاناً

في السرقة لأنكم سرقتم أخاكم وبعتموه 0

بما تصفون (كاف)

فخذ أحدنا مكانه (حسن) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده داخلاً

في القول 0

متاعنا عنده ليس بوقف لتعلق إذ بما قبلها 0

لظالمون (تام)

نجياً (حسن) يبني الوقف على موثقاً من الله والوصل على اختلاف المعربين في ما وخبرها

من قوله ما فرطتم وفيها خمسة أوجه :

(14/390)

وهي كونها مصدرية مبتدأ والخبر من قبل ، أو مصدرية أيضاً مبتدأ والخبر في يوسف ، أو

زائدة مؤكدة ، أو مصدرية في محل نصب ، أو مصدرية في محل نصب أيضاً فإن جعلت

مصدرية في محل رفع مبتدأ والخبر من قبل أي وقع من قبل تفريطكم في يوسف كان كافياً

وكذا إن جعلت مصدرية في محل رفع مبتدأ أو الخبر قوله في يوسف أي وتفريطكم كائن أو مستقر في يوسف فيتعلق الظرفان وهما من قبل وفي يوسف بالفعل الذي هو فرطتم أو جعلت زائدة للتوكيد فيتعلق الظرف بالفعل بعدها أي ومن قبل فرطتم في يوسف وليس بوقف إن جعلت ما مصدرية محلها نصب معطوفة على أنّ أباكم قد أخذ أي ألم تعلموا أخذ أبيكم الميثاق وتفريطكم في يوسف وليس بوقف أيضاً إن جعلت مصدرية محلها نصب عطفاً على اسم أن أي ألم تعلموا أن أباكم وأن تفريطكم من قبل في يوسف وحينئذ يكون في خبر أن هذه المقدرة وجهان أحدهما هو من قبل والثاني هو في يوسف وليس بوقف أيضاً إن جعلت مصدرية على أن محلها نصب بتعلموا بتقدير ألم تعلموا أنَّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله وأنتم تعلمون تفريطكم في يوسف 0

في يوسف (كاف) للابتداء بالنفي مع الفاء 0

أو يحكم الله لي (جائز) لأنَّ الواو تصلح للحال والاستئناف 0

الحاكمين (تام)

إنَّ ابنك سرق (حسن)

ومثله بما علمنا

حافظين (كاف)

أقبلنا فيها (حسن) على استئناف ما بعده 0

لصادقون (كاف)

أمراً (حسن)

فصبر جميل (أحسن مما قبله)

جميعاً (حسن)

الحكيم (كاف)

على يوسف (جائز) على انقطاع ما بعده

كظيم (كاف) والوقف على الهالكين وإلى الله (كافيان)

ما لا تعلمون (أكفى منهما)

من روح الله (حسن)

الكافرون (تام)

مزجاة ليس بوقف للعطف بالفاء ومعنى مزجاة مدفوعة يدفعها عنه كل أحد وألفها منقلبة

عن واو 0

علينا (كاف) ومثله المتصدقين وجاهلون

لأنت يوسف (حسن)

قال أنا يوسف وهذا أخي (أحسن مما قبله)

قد من الله علينا (كاف)

المحسنين (أكفى منه)

لخاطئين (كاف)

(15/390)

لا تثريب عليكم (بيان) بين به أن قوله اليوم ليس ظرفاً لقوله لا تثريب وإنَّما هو متعلق بمحذوف أي ادعوا ثم استأنف اليوم يغفر الله لكم بشرهم بالمغفرة لما اعترفوا بذنبهم وتابوا فتيب عليهم وقيل متعلق بقوله لا تثريب والوقف على اليوم قاله نافع ويعقوب ثم ابتدأ يوسف فقال يغفر الله لكم فدعا لهم بالمغفرة لما فرط منهم قال أبو حيان رداً على الزمخشري قوله إن اليوم متعلق بقوله لا تثريب عليكم أما كون اليوم متعلقاً بتثريب فهذا لا يجوز لأنَّ التثريب مصدر وقد فصل بينه وبين معمول بقوله عليكم وعليكم إما أن يكون خبراً أو صفة لتثريب ولا يجوز الفصل بينهما لأنَّ معمول المصدر من تمامه وأيضاً لو كان اليوم متعلقاً بتثريب لم يجز بناؤه وكان يكون من قبيل الشبيه بالمضاف معرباً منوناً وبناؤه هنا على قلة انظر المعنى ومعنى لا تثريب لا تعيير ولا بأس ولا لوم ولأذكركم ذنبكم بعد اليوم وأصل التثريب الفساد وهي لغة أهل الحجاز ومنه قوله صلى الله عليه وسلم إذا زنت امرأة أحدكم فليحدها الحد ولا يثربها أي لا يعيرها بالزنا ثم دعا لهم يوسف بالمغفرة وجعلهم في

حل فقال يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين وقد قال صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ماذا تظنون قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت فكن خير آخذ فقال وأنا أقول كما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم 0

الراحمين (كاف) وقيل تام 0

يأت بصيرا (حسن)

أجمعين (تام)

تفندون (كاف) ومثله القديم قيل أرادوا بذلك حبه ليوسف 0

فارتد بصيرا (حسن) والبشير هو أخوه يهوذا وهو الذي جاء بقميص الدم وأعطاه يعقوب في نظير البشارة كلمات كان يريها عن أبيه عن جده وهنّ يا لطيفاً فوق كل لطيف ألطف بي في أموري كلها كما أحب ورضني في دنياي وآخرتي 0

ما لا تعلمون (كاف)

ذنوبنا (حسن)

خاطئين (كاف) وكذا استغفر لكم ربي

الرحيم (تام)

آوى إليه أبويه (جائز) لانتهاء جواب لما 0

آمنين (حسن)

سجداً (جائز) ومثله من قبل و حقاً و من السجن على استئناف ما بعده ولم يقل من الجب

استعمالاً للكرم لئلاّ يذكر أخوته صنيعهم 0

بيني وبين إخوتي (كاف) للابتداء بإن ومثله لما يشاء 0

الحكيم (تام)

من تأويل الأحاديث (كاف) إن نصب فاطراً بنداء ثان أو نصب بأعني مقدراً وليس بوقف

إن جعل نعتاً لما قبله أو بدلاً منه 0

والأرض (جائز) ومثله والآخرة

مسلماً ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله 0

بالصالحين (تام)

نوحيه إليك (حسن) للابتداء بالنفي 0

وهم يمكرون (كاف) وقيل تام 0

بمؤمنين (كاف)

من أجر (حسن)

للعالمين (كاف)

في السموات (جائز) على قراءة عكرمة والأرض بالرفع مبتدأ والخبر جملة يمرون عليها وكذا من قرأ بالنصب على الاشتغال أي يطؤن الأرض ويروى عن ابن جريج أنه كان ينصب الأرض بفعل مقدر أي يجوزون الأرض وهذه القراءة ضعيفة في المعنى لأنَّ الآيات في السموات وفي الأرض والضمير في عليها للآية فتكون يمرون حالاً منها وقال أبو البقاء حالاً منها ومن السموات فيكون الحال من شيئين وهذا لا يجوز لأنهم لا يمرون في السموات إلاَّ أن يراد يمرون على آياتها فعلى هذه القراءة الوقف على السموات أيضاً وكذا من نصبها بيمرون وليس بوقف لمن جرها عطفاً على ما قبلها 0

يمرون عليها (حسن) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده جملة في موضع الحال 0

معرضون (كاف) وقيل تام وكذا مشركون ولا يشعرون

(17/390)

أدعو إلى الله (حسن) تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعمد الوقف على ذلك ثم يبتدىء على بصيرة أنا ومن اتبعني إن اجعل أنا مبتدأ وعلى بصيرة خبراً وليس بوقف إن

جعل على بصيرة متعلقاً بأدعوا وأنا توكيداً للضمير المستكن في أدعو ومن اتبعني معطوف على ذلك الضمير والمعنى أدعو أنا إليها ويدعوا إليها من اتبعني على بصيرة قال ابن مسعود من كان مستناً فليستن بأصحاب نبيه الذين اختارهم الله لصحبته ويتمسك بأخلاقهم وليس بوقف أيضاً إن جعل على بصيرة حالاً من ضمير أدعو وأنا فاعلاً بالجار والمجرور النائب عن ذلك المحذوف 0

أنا ومن اتبعني (حسن) اتفق علماء الرسم على إثبات الياء في اتبعني هنا خاصة كما هو كذلك في جميع المصاحف العثمانية 0

أما أنا من المشركين (تام)

من أهل القرى (كاف) ومثله من قبلهم للابتداء بلام الابتداء وكذا وتقوا لمن قرأ تعقلون بالتاء الفوقية 0

تعقلون (تام)

نصرنا (حسن) لمن قرأ فننجي مخففاً ولا يوقف على نشاء وليس بوقف لمن قرأ فنجي مشدداً ويوقف على نشاء 0

وهو (كاف) الضمائر الثلاثة في وظنوا أنهم قد كذبوا للرسل ومعنى التشديد في كذبوا إن الرسل تيقنوا أن قومهم قد كذبوهم والتخفيف أن الرسل توهموا أن نفوسهم قد كذبوهم فيما أخبروهم به من النصر أو العقاب وأنكرت عائشة رضي الله عنها قراءة التخفيف

بهذا التأويل فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يوعد بشيء أخلف فيه وعائشة قالت معاذ الله لم تكن الرسل لتظن أن لا نصر لهم في الدنيا ومعاذ الله أن تنسب إلى شيء من ذلك لتواتر هذا القراءة وأحسن ما وجهت به هذه القراءة أن الضمير في وظنوا عائد إلى المرسل إليهم لتقدمهم وأن الضمير في إنهم وكذبوا عائد على الرسل أي وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا أي كذبهم من أرسوا إليهم بالوحي وبنصرهم عليهم 0

المجرمين (كاف) وقيل تام 0

لأولي الألباب (حسن)

(18/390)

كل شيء ليس بوقف لأن ما بعده منصوب بالعطف على ما قبله وقرأ حمران بن أعين وعيسى الكوفي تصديق وتفصيل وهدى ورحمة برفع الأربعة أي ولكن هو تصديق والجمهور بنصب الأربعة 0

آخر السورة (تام) قال ابن عطاء لا يسمع سورة يوسف محزون إلاَّ استروح0 انتهى ا. هـ ﴿ منار الهدى في بيان الوقف والابتدا صـ 388. 401 ﴾

(19/390)

"فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة"

قال العلامة ابن جنى :

سورة يوسف :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قراءة الناس : ﴿ أَحَدَ عَشَرَ ﴾ 1 بفتح العين ، وأسكنها أبو جعفر ونافع2 بخلاف وطلحة3 بن سليمان .

قال أبو الفتح : سبب ذلك عندي أن الاسمين لما جُعلا كالاسم الواحد ، وبُني الأول منهما لأنه كصدر الاسم ، والثاني منهما لتضمنه معنى حرف العطف ؛ لم يجز الوقف على الأول لأنه كصدر الاسم من عجزه ، فجُعل تسكين أول الثاني دليلًا على أنهما قد صارا كالاسم الواحد ، وكذلك بقية العدد إلى تسعة عشر ، إلا اثنا عشر واثني عشر ، فإنه لا يسكن العين لسكون الألف والياء قبلهما .

ومما يدلك على أن الاسمين إذا جريا مجرى الاسم الواحد بالتركيب عوملا في مواضع معاملته ، ما حكاه أبو عمر الشيباني من قولهم في حضرموت : حَضْرَمُوت بضم الميم ؛ ليكون كحَذْرفُوت4 وتَرْنَمُوت5 وعنكبوت ، وهذا واضح .

---

1 سورة يوسف : 4 .

2 هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم أبو رويم ، ويقال : أبو نعيم ، الليثي مولاهم ، أحد القراء السبعة الأعلام . ثقة صالح ، أصله من أصبهان ، أخذ القراءة عرضاً عن جماعة من تابعي أهل المدينة : عبد الرحمن بن هرمز الأعرج وأبي جعفر القارئ وشيبة بن نصاح وغيرهم . وروى القراء عنه عرضاً وسماعًا إسماعيل بن جعفر وعيسى بن وردان وسليمان بن مسلم بن جماز ومالك بن أنس وغيرهم . توفي سنة 169 ، وقيل غير ذلك . طبقات القراء لابن الجزري : 2/ 330 .

3 هو طلحة بن سليمان السمان مقرئ ، أخذ القراءة عرضاً عن فياض بن غزوان عن طلحة بن مصرف . وله شواذ تُروى عنه . روى عنه القراءة إسحاق بن سليمان أخوه وعبد الصمد بن عبد العزيز الرازي . طبقات ابن الجزري : 1/ 341 .

4 الحذرفوت : قلامة الظفر .

5 يقال : قوس ترنموت : لها حنين عند الرمي .

ومن ذلك قراءة الأعرج: "فِي غَيَّابَاتِ الْجُبِّ"1 مشددة. وقرأ الحسن: "في غَيْبَة الجب".

قال أبو الفتح: "أما "غيَّابة" فإنه اسم جاء على فَعَّالة، وكان أبو علي يضيف إلى ما حكاه سيبويه من الأسماء التي جاءت على فَعَّال؛ وهو الجبَّار والكلَّاء، الفيَّاد2 لذكر البوم.

ووجدت أنا غير ذلك، وهو التيَّار للموج، والفخَّار للخزف، والحمَّام، والجيار: السعال، والكرَّار: كبش الراعي.

وأما "غَيْبَة الجب" فيجوز أن يكون حدثا فَعْلَة من غِبْت، فيكون كقولنا: في ظُلمة الجب، ويجوز أن يكون موضعًا على فَعْلَة كالقَرْمَة3 والْجَرْفَة4.

ومن ذلك قراءة العلاء بن سيابة: "يَرْتَعِ"5 بالياء وكسر العين، و"يَلْعَبُ" رفعًا، وقرأ: "يُرْتِعْ ويَلْعَبْ" أبو رجاء.

قال أبو الفتح: أما "يَرْتَعِ" فجزم؛ لأنه جواب "أرسله"، و"يلعب" مرفوع لأنه جعله استئنافًا؛ أي: هو ممن يعلب، كقولك: زرني أُحسنُ إليك؛ أي: أنا ممن يحسن إليك، إلا "80و" أن الرفع في "أُحسن" هنا يُضعف الضمان، ألا ترى أن معناه: أنا كذلك، وليس فيه قوة معنى الإحسان إليه مع الجزم؟

وأما "يُرْتِعْ ويَلْعَبْ" فمجزومان لأنهما جوابان؛ أحدهما: معطوف على صاحبه، وهو على حذف المفعول؛ أي: يُرْتِعْ مطيته، فحذف المفعول.

وعلى ذكر حذف المفعول فما أعرَبه وأعذَبه في الكلام ! ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ 6 أي : تذودان إبلهما ، ولو نطق بالمفعول لما كان في عذوبة حذفه ولا في علوه. وأنشدنا أبو علي للحطيئة :

منعّمةٌ تصون إليك منها كَصَونِك من رداءٍ شَرْعَبيّ 7

---

1 سورة يوسف : 10 .

2 في ك : الفباد بالباء ، تحريف .

3 القرمة بفتح القاف وكسرها : من سمات الإبل ، تكون فوق الأنف .

4 في الأصل "الجرمة" ، وفي ك : الجزمة ، وقد تكون الجرفة بفتح الجيم وكسرها ؛ من سمات الإبل أيضًا ، تكون دون الأنف .

5 سورة يوسف : 12 .

6سورة القصص : 23 .

7 تصون إليك : أي عندك ، والشرعبي : ضرب من البرود . يريد : أنها تحفظ عندك سرها ولا تبوح بحديثها . الخصائص : 2/ 372 ، والديوان : 35 .

أي : تصون الحديث وتَخزُنه ، فهو كقول الشَّنْفَرَى :

كأن لها في الأرض نِسيًا تَقُصُّهُ على أمها وإن تخاطبك تَبْلتِ1

أي : تقطع حديثها حياء وخفرًا . واعتدل في هذا الموضع ذو الرمة ، قال :

لها بشَرَ مثل الحرير ومنطق رخيم الحواشي لا هُرَاء ولا نَزْرُ2

وما أظرف قوله : رخيم الحواشي ؛ أي : لا تنتشر حواشيه فتهرأ فيه3 ، ولا يضيق عما يُحتاج من مثلها إليه للسماع والفكاهة ؛ لكنه على اعتدال ، وكما يُستحسن ويستعذب من الثِّقال4 ، ألا ترى إلى قول الآخر :

ولما قضينا من مِنى كل حاجة ومَسَّحَ بالأركان مَن هو ماسحُ

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح5

ومنه :

وحديث ألَذُّه هومما تشتهيه النفوس يُوزَن وزْنا

مَنطِقٌ صائب وتلحَن أحيا نا وخير الحديث ما كان لَحْنَا6

أي : تارة تورد القول صائبًا مسددًا ، وأخرى تُحرف فيه وتلحن ؛ أي : تعدل عن الجهة الواضحة معتمدة لذلك تلعُّبا بالقول ، وهو من قوله عليه السلام : "فلعل أحدكم يكون ألحن

---

1 يروى : "تحدثك" مكان "تخاطبك" . والنسي : الشيء المنسي الذي لا يذكر ، وتقصه : تتبعه ، وعلى أمها : عل سمتها وجهة قصدها ، وتبلت بكسر اللام : تقطع الكلام من

الحياء ، وروي بفتحها : أي تنقطع وتسكت . يريد : أنها شديدة الاستحياء ، فهي لا ترفع رأسها ، كأنما تطلب في الأرض شيئًا يسيرًا . المفضليات : 109 ، والخصائص : 1/ 28.

2 رخيم الحواشي : لين نواحي الكلام . الديوان : 212 ، والخصائص : 1/ 29 ، والأساس : هرأ .

3 هرأ في منطقة كمنع : أكثر الخطأ فيه .

4 كذا في نسختي الأصل ، ولا معنى لها . والظاهر أنها تحريف "الثقال" كسحاب ؛ وهي المرأة الرزان .

5 ينسب البيتان إلى كثير عزة ، وإلى المضرب بن كعب ، ويُروى بينهما :

وشدت على دهم المهارى رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

والمهارى : جمع المهرية ، والإبل المهرية تنسب إلى مهرة بن حيدان ، حي من العرب . انظر : الخصائص : 1/ 28 ، وأسرار البلاغة : 15 ، واللسان "طرف" .

6 لمالك بن أسماء بن خارجة . البيان والتبيين : 1/ 147 ، وأمالي المرتضى : 1/ 11 .

بجحته"1 ؛ أي : أنهض بها وأحسن تصرفًا فيها . وليس من اللحن الذي هو إفساد الإعراب ، ذلك حديث غير هذا ، وقد تقصيت هذا المذهب في الخصائص ، فليُطلب هناك2 .

ومن ذلك ما رواه عيسى بن ميمون عن الحسن أنه قرأ : "وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عُشًا يَبْكُونَ"3 ، قال : عُشْوًا من البكاء .

قال أبو الفتح : طريق ذلك أنه أراد جمع عَاشٍ ، وكان قياسه عُشاةً كماشٍ ومُشاة ، إلا أنه حذف الهاء تخفيفًا وهو يريدها ، كقوله :

أبلغ النعمان عني مأْلُكًا أنه قد طال حبسي وانْتِظَارْ4

أراد : مأْلُكَة ، فحذف الهاء . وقد تقصينا ذلك في أماكن من كتبنا ، وفيه بعد هذا ضعف ؛ لأن قَدْرَ ما بَكَوْا في ذلك اليوم لا يعشو منه الإنسان .

ويجوز أن يكون جمع عِشْوة : أي ظلامًا ، وجمَعه لتفرِّق أجزائه كقولهم : مُغَيْربانَات5 وأُصَيْلَال6 ، ونحو ذلك .

ومن ذلك قراءة الحسن أيضًا : " "بِدَمٍ كَدِبٍ"7 بالدال .

قال أبو الفتح : أصل هذا من الكَدَب ؛ وهو الفُوفُ ؛ يعني : البياض الذي يخرج على أظفار الأحداث "80ظ" فكأنه دم قد أثَّر في قميصه فلحقته أعراض كالنقش عليه . وأخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن بهذه القراءة أيضًا .

---

1 جزء من الحديث . وروايته في النهاية 4/ 56 : وعسى أن يكون بعضكم .

2 أورد في الخصائص 1/ 5 - 33 ضروبًا من وصف الكلام بأوصافه المستحبة .

3 سورة يوسف : 16 .

4 لعدي بن زيد . وانظر : المنصف : 2/ 104 .

5 مغربان الشمس : حيث تغرب ، ولقيته مغيربانها ومغيرباناتها : عند غروبها .

6 أصيلان : مصغر أصلان كرغفان ، وأصلان : جمع أصيل ، ويصغر أيضًا على أصيلال بالنون .

7 سورة يوسف : 18 .

(23/390)

ومن ذلك قراءة أبي الطفيل 1 والجحدري وابن أبي إسحاق ورُويت عن الحسن : "يَا بُشْرَيَّ" 2 .

قال أبو الفتح : هذه لغة فاشية فيهم ، ما 3 رويناه عن قطرب من قول الشاعر :

يُطَوِّفُ بي عِكَبٌّ في مَعَدٍّ ويَطْعَنُ بالصُّمُلَّةِ في قَفَيَّا

فإن لم تَثْأَرَا لي من عِكَبٍّ فلا أَرْوَيْتُمَا أبدا صَدَيَّا 4

ونظائره كثيرة جدًّا .

وقال لي علي : إن قلب هذه الألف لوقوع الياء بعدها ياء ؛ كأنه عوض مما كان يجب فيها من كسرها لياء الإضافة بعدها ؛ ككسرة ميم غُلَامِي وياء صاحبي ونحو ذلك ، ومَن قلب هذه الألف لوقوع هذه الياء بعدها ياء لم يفعل ذلك في ألف التثنية ، نحو : غلاماي وصاحباي ؛ كراهة التباس5 المرفوع بالمنصوب والمجرور .

فإن قيل بعد : وهلا قلبوها وإن صار لفظ ما هي فيه إلى لفظ المجرور كما صار لفظ المرفوع والمنصوب جميعًا إلى لفظ المجرور في نحو : هذا غلامي ؛ ورأيت غلامي ، قيل : قَلْبُ الألف لوقوع الياء بعدها ياء أغلظ من قلب الضمة والفتحة حيث ذكَرْت كسرة ؛ وذلك أن الجناية على الحرف أغلظ من الجناية على الحركة ، فاحتُمل ذلك في : هذا غلامي ورأيت غلامي ، ولم يُحتمل نحو : هذان غلامَيّ وما جرى مجراه .

فإن قيل : فالذي قال : "يا بُشْرَيَّ" قد جنى على الألف بقلبها ياء ، قيل : هذه الألف يمكن أن تقدَّر الكسرة فيها ، وحرف التثنية لا تقدير حركة فيه أصلًا عندنا ، فجائز أن تقول : "بُشْرَيَّ" ، ولم يُقَل : قام غلامَيّ . فأما الحركة في ياء ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ 6 فلالتقاء الساكنين ، وهي غير

---

1 هو عامر بن وائلة بن عمرو أبو الطفيل الليثي . روى عن النبي – صلى الله عليه وسلم – وعن أبي بكر وعمر وغيرهم ، وروى عنه جماعة منهم الزهري وقتادة . مات سنة 100

، وقيل: بعدها، وهو آخر مَن مات من الصحابة. تهذيب التهذيب 5/ 82.

2 سورة يوسف: 19.

3 كأنه يريد: ما رويناه عن قطرب... إلخ، بعض هذه اللغة.

4 للمنخل اليشكري. وعكب: صاحب سجن النعمان بن المنذر، الصملة: العصا كما في التاج "صمل". وكان المنخل متهمًا بالمتجردة امرأة النعمان، وعرف النعمان ذلك فدفعه إلى عكب، فقيده عكب وعذَّبه. الخصائص: 177، وشرح الحماسة للتبريزي: 2/ 48، واللسان "عكب".

5 في ك: لالتباس.

6 سورة يوسف: 39.

محفول بها، والحركة قبل الياء من "صَاحِبَي" ونحوه أقوى من حركة التقاء الساكنين، والكلام هنا يطول، لكن هذا مُتَوَجِّهُهُ.

ومن ذلك: "هِئْتُ لك"1 بالهمز وضم التاء، قرأ بها علي -عليه السلام- وأبو وائل وأبو رجاء ويحيى، واختُلف عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وطلحة بن مُصَرِّف وأبي

عبد الرحمن . وقرأ : "هَيْتِ لَكَ" بفتح الهاء وكسر التاء ابن عباس بخلاف وابن محيصن وابن أبي إسحاق وأبو الأسود وعيسى الثقفي . وقرأ : "هُيِّئْتُ لَكَ" ابن عباس .

قال أبو الفتح : فيها لغات : هَيْتَ لك ، وهِيتَ لك ، وهَيْتُ لك ، وهَيْتِ لك . وكلها أسماء سمي بها الفعل بمنزلة صَه ومَه وإيه في ذلك .

ومعنى "هَيْتَ" وبقية أخواتها : أَسْرِعْ وبادرْ ، وقال :

أبلغ أمير المؤمنين أخا العراق إذا أتيتا

إن العراق وأهله عُنُق إليك فهَيْتَ هَيْتَا[2]

وقال طرفة[3] :

ليس قومي بالأَبعدين إذا ما قال داع من العشيرة : هَيْتُ

هم يجيبون : وا هَلُمَّ سراعا كالأَبابيل لا يُغَادَرُ بيْتُ

والحركات في أواخرها لالتقاء الساكنين .

وأما "هِئْتُ" بالهمز وضم التاء فَفِعْل ، يقال فيه : هِئْتُ[4] أَهِيءُ "[81]و" هيئة كجئت أجيء جيئة ؛ أي : تهيأت . وقالوا أيضًا : هِئْتُ أَهَاءُ كخفت أخاف ، هذا بمعنى خذ . قال :

أفاطم هائي السيف غير مُذَمَّمِ

---

1 سورة يوسف : 23 .

2 لشاعر يقولهما في علي – رضي الله عنه – وكسر همزة "إن" إما على قطع الكلام عما قبله، وإما على أن أبلغ بمعنى قل. وعنق إليك: مائلون إليك ومنتظروك. ويروى: "سلم" مكن "عنق". الخصائص: 1/ 276، واللسان "هيت".

3 ليس في ديوانه.

4 هاء: صار حسن الهيئة.

(25/390)

أي: خذي السيف.

فأما قول الله تعالى: ﴿ هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ ﴾ 1، فحديث غير هذا وتصريف سواه، وفيه طول. وقد ذكرناه في كتاب الخصائص2.

وأما "هُيِّئْتُ لك" ففعل صريح كهِئْتُ لك، كقولك: أُصْلِحْتُ لك؛ أي: فدونك، وما انتظارك؟ واللام متعلقة بنفس هَيْتَ وهَيْتِ وهِيتَ وهَيْتُ كتعلقها بنفس هلم من قولهم: هَلُمَّ لك، وإن شئت كانت خبر مبتدأ محذوف؛ أي: إرادتي لذلك.

فأما "هِئْتُ لك" و"هِيِّئْتُ" فاللام فيه متعلقة بالفعل نفسه، كقولك: أُصْلِحْتُ لكذا وصَلَحْتُ لكذا.

ومن ذلك قراءة ابن يعمر والجارود بن أبي سبرة بخلاف وابن أبي إسحاق ونوح[3] القارئ

ورُويت عن أبي رجاء : "من قُبُلُ"[4] ، و"من دُبُرُ"[5] بثلاث ضمات من غير تنوين .

قال أبو الفتح : ينبغي أن يكونا غايتين ؛ كقول الله سبحانه : ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾[6] كأنه يريد : وقدَّت قميصه من دُبُره ، وإن كان قميصه قُدَّ من قُبُله ، فلما حذف المضاف إليه – أعني : الهاء ، وهي مرادة – صار المضاف غاية نفسه بعدما كان المضاف إليه غاية له . وهذا حديث مفهوم في قول الله سبحانه : ﴿مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ ، فبنَى هنا كما بُني هناك على الضم ، ووكَّد البناء أن قُبُل ودُبُر يكونان طرفين ، ألا ترى إلى قول الفرزدق :

يُطَاعِن قُبْلَ الخيل وهو أمامَها ويطعنُ عن أدبارها إن تولَّتِ[7]

وقال الله سبحانه : "وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ النُّجُومِ"[8] فنصبه على الظرف ، وهو جمع دُبُر .

---

1 سورة الحاقة : 19 .

2 في الخصائص : 3/ 34 – 51 بحث عنوانه : "باب في تسمية الفعل" .

3 من رواة الحروف المتصدرين بعد أبي عمرو بن العلاء .

4 سورة يوسف : 26 .

5 السورة السابقة : 27 .

6 سورة الروم : 4 .

7 ليس في ديوان الفرزدق .

8 سورة الطور : 49 ، وفتح الهمزة مروي عن المطوعي ، وقراءة الجمهور بكسرها .

الإتحاف : 248 .

(26/390)

ومن ذلك قراءة علي – عليه السلام – والحسن بخلاف وأبي رجاء ويحيى بن يعمر وقتادة بخلاف وثابت البناني 1 وعوف الأعرابي وابن أبي مريم2 والأعرج بخلاف ومجاهد بخلاف وحميد بخلاف والزهري بخلاف وابن محيصن ومحمد بن السميفع وعلي بن حسين بن علي وجعفر بن محمد : "قد شعَفها"3 بالعين .

قال أبو الفتح : معناه : وصل حبه إلى قلبها ، فكاد يحرقه لحدته ، وأصله من البعير يُهْنَأ بالقطران فيصل حرارة ذلك إلى قبله . قال الشاعر :

أيقتلني وقد شعَفْتُ فؤادها كما شعَفَ الْمَهْنُوءَةَ الرجلُ الطَّالِي ؟4

وأما قراءة الجماعة : ﴿ شَغَفَهَا ﴾ بالغين معجمة ، فتأويله أنه خرَّق شَغاف قلبها ؛ وهو غلافه ، فوصل إلى قلبها .

ومن ذلك قراءة الزهري وأبي جعفر وشيبة "مُتَّكًا"5 ، مشدد من غير همز ، وقرأ : "مُتْكًا" ساكنة التاء غير مهموز ابن عباس وابن عمر والجحدري وقتادة والضحاك والكلبي6 وأبان بن تغلب ، ورُويت عن الأعمش . وقرأ : "مُتَّكَاءً" بزيادة ألف الحسن . وقراءة الناس : ﴿مُتَّكَأً﴾ في وزن مُفْتَعَل .

قال أبو الفتح : أما "مُتَّكًا" غير مهموز فمبدل من مُتَّكَأً ، وهو مفتَعَل من تَوَكَّأْتُ ، كمُتَّجَهٍ من تَوَجَّهْتُ ، ومُتَّعَد من وعدت . وهذا الإبدال عندنا لا يجوز في "81ظ" السعة ؛ وإنما هو في

---

1 هو ثابت بن أسلم أبو محمد البناني المصري . وردت عنه الرواية في حروف القرآن العظيم . توفي سنة 127 . طبقات بن الجزري : 1/ 188 .

2 هو أبو عبد الله سعيد بن الحكم بن أبي مريم ، نسابة أخباري . الفهرست : 139 .

3 سورة يوسف : 30 .

4 لامرئ القيس . ويروى : "ليقتلني" مكان "أيقتلني" . والمهنوءة : من هنأت الناقة : إذا طليتها بالقطران ، وهي تستلذه حتى تكاد يغشى عليها . ويريد : قد بلغت منها هذا المبلغ ، فكيف يقتلني ، وهو لو فعل لكان ذلك سبب القطيعة بينها وبينه لفرط حبها إياي . الديوان : 233 ، والأساس "هنأ" .

5 سورة يوسف : 31 .

6 هو أبو النضير محمد بن السائب، أو محمد بن المالك بن السائب، من علماء الكوفة بالتفسير والأخبار وأيام الناس. مُقدَّم في علم الأنساب. توفي سنة 146، وله من الكتب كتاب تقسيم القرآن. الفهرست: 139.

(27/390)

ضرورة الشعر؛ فلذلك كانت القراءة به ضعيفة. وعلى أن له وجهًا آخر؛ وهو أن يكون مفتعَلًا من قوله:

إذا شرب الْمُرِضَّة قال أَوْكِي على ما في سقائك قد رَوِينا 1

يقال: أَوْكَيْتُ السقاء: إذا شددته، فيكون راجعًا إلى معنى مُتَّكَأً المهموز؛ وذلك أن الشيء إذا شُد اعتمد على ما شده كما يعتمد المتكئ على المتكَأ عليه. فإن سلكت هذه الطريق لم يكن فيه بدل ولا ضعف، فيكون مُتَّكًا على هذا كمُتَّقًى من وقيت، ومُتَّلًى من وَلِيتُ.

وأما "مُتْكًا" ساكنة التاء فقالوا: هو الأُتْرُجّ 2، ويقال أيضًا: هو الزُّمَاوَرْدُ 3.

وأما "مُتَّكَاءً" فعلى إشباع فتحة الكاف من "متَّكأ"، وقد جاء نحو هذا، أنشدناه أبو علي لابن هَرْمة يرثي ابنه:

فأنتَ من الغَوَائِلِ حين تُرْمى ومن ذمِّ الرجال بِمُنْتَزَاحِ[4]

يريد : بِمُنْتَزَح ، وعليه قول عنترة ، وأنشدناه أيضًا سنة إحدى وأربعين بالموصل :

يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جسْرةٍ[5]

وقال : أراد يَنْبَع ، فأشبع الفتحة ، فأنشأ عليه ألفًا . ولعمري إن هذا مما تختص به ضرورة الشعر وقلما يجيء في النثر ، فوزن "مُتَّكَاء" على هذا مفتعال ، كما أن وزن "يَنْبَاعُ" على هذا يَفْعَال ، ولو سميت به رجلًا لصرفته في المعرفة ؛ لأنه قد فارق شبه الفعل وَزنًا ، ولو سميته بينبع لم تصرفه ، كما أنك لو سميته بينظر لم تصرفه ، فإن سميته بأَنظور ، تريد : فأنظر ؛ لصرفته معرفة لزوال مثال الفعل . وقد ذكرنا ذلك في كتابنا الموسوم بسر الصناعة .

---

1 يذم رجلًا ويصفه بالبخل ، وقال ابن بري يخاطب امرأته ، وقبله :

ولا تصلي بمطروق إذا ما سرى في القوم أصبح مستَكينا

يلوم ولا يلام ولا يبالي أغثًّا كان لحمك أم سمينا ؟

والمرضة : اللبن الحليب الذي يحلب على الحامض . اللسان "رضض" .

2 الأترج وهو أيضًا الترنج : ثمر شجر من جنس الليمون .

3 الزماورد : طعام من اللحم والبيض .

4 يروى : "تنمى" مكان "ترمى" ، وإنه في مدح بعض القرشيين ، وكان قاضيًا لجعفر بن سليمان بن علي . وقوله بمنتزاح : من النزح ؛ وهو البعد . وانظر : الخصائص : 2/ 316

، 3/ 121 ، وشواهد الشافية : 25 .

5 انظر الصفحة 166 من هذا الجزء .

(28/390)

ومن ذلك : "حاشَا اللهِ" 1 ابن مسعود وأبي بن كعب . وقرأ : "حاش الإلَهِ" الحسن . وقرأ : "حَاشْ للهِ" جَزْم الحسن بخلاف .

قال أبو الفتح : أما "حاشا الله " فعلى أصل اللفظة ، وهي حرف جر ، قال :

حاشا أبي ثوبان إنَّ به ضِنًّا على الْمَلْحَاةِ والشَّتْمِ 2

وأما "حاش الإله" فمحذوف من حاشا تخفيفًا 3 ، وهو كقولك : حاشا الرب وحاشا المعبود ، وليس "الإله" هكذا بالهمز هو الاسم العلم ؛ إنما ذلك الله -كما ترى- المحذوف الهمزة ، على هذا استعملوه علَمًا وإن كان لعمري أصله الإله مكان الله ، فإنه كاستعمالهم في مكانه المعبود والرب .

ومنه قوله :

لعنَ الإلهُ وزوجَها معها هند الهنود طويلة الفَعل 4

وأما "حاشْ لله" بسكون الشين ، فضعيف من موضعين :

أحدهما : التقاء الساكنين : الألف ، والشين ، وليست الشين مدغمة .

والآخر : إسكان الشين بعد حذف الألف ، ولا موجب لذلك ؛ وطريقه في الحذف أنه لما حذف الألف تخفيفاً أتبع ذلك حذف الفتحة إذ كانت كالعَرَض اللاحق مع الألف ؛ فصارت كالتكرير في الراء ، والتفشي في الشين ، والصفير في الصاد والسين والزاي ، والإطباق في الصاد والضاد والطاء والظاء ، ونحو ذلك . فمتى حَذفت حرفاً من هذه الحروف ذهب معه

---

1 سورة يوسف : 51 ، وفي تفسير البحر 5/ 303 : "حاشا الله بالإضافة" .

2 للجميع . ويروي : "أبا" مكان "أبي" ، والبيت من بيتين صدر أحدهما إلى عجز الآخر ، وهما :

حاشا أبي ثوبان إن أبا ثوبان ليس ببُكمة فَدْمِ

عمرو بن عبد الله إن به ضنا عن الملحاة والشتم

وأراد بالبكمة : الأبكم ، والفدم : العيي عن الكلام في ثقل وقلة فَهْم ، والضن بالكسر : مصدر ضن . المفضليات : 367 ، والأصمعيات : 254 ، والخزانة : 2/ 150 .

3 في تفسير البحر 5/ 303 : وهذا الذي قاله ابن عطية وصاحب اللوامح من أن الألف في "حاشا" في قراءة الحسن محذوفة لا تتعين إلا أن نقل عنه أنه يقف في هذه القراءة بسكون

الشين، فإن لم ينقل عنه في ذلك شيء فاحتمل أن تكون الألف حذفت لالتقاء الساكنين.

4 الفعل: كناية عن حياء الأنثى. انظر: الجمهرة: 3/ 127.

(29/390)

ما يصحبه من التكرير في الراء، والصفير في حروفه، والإطباق في حروفه. وعليه قوله:

رهطُ مَرْجُومٍ ورهط ابن الْمُعَلْ 1 "82و"

يريد: الْمُعَلَّى، فلما حذف الألف حذف معها فتحتها، فبقي المعلّ، فلما وقف في القافية المقيدة على الحرف المشدد خففه على العبرة في مثله، كما خففه في نحو قول طرفة:

ففداءٌ لبني قيس على ما أصاب الناس من سُرٍّ وضُرْ

ما أَقَلَّتْ قَدَمِي إنهم نَعِمَ الساعون في الأمر الْمُبِرْ 2

فخفف ضُرْ ومُبِرْ، فكذلك خفف "المعَلَّ" فصار الْمُعَلْ. فهذا حديث حذف الفتحة من "حاشْ".

وأما التقاء الساكنين فعلى قراءة نافع "مَحْيَايْ"3، وعلى ما حُكي عنهم من قولهم: التقت حَلْقَتَا البطَان4، بإثبات ألف "حلْقَتَا" مع سكون لام البطان؛ لكن السؤال من هذا عن إدغام لام الجر على "لله" وقبلها "حاشْ" و"حاشا"5 وهو حرف جر، وكيف جاز التقاء

حرفي جر ؟

فالقول أن "حاشْ" و"حاشا" هنا فعلان ، فلذلك وقع حرف الجر بعدهما .

حكى أبو عثمان المازني عن أبي زيد قال : سمعت أعرابيًّا يقول : اللهم اغفر لي ولمن سمع حاشا الشيطان وأبا الأصبغ ، فنصب بحاشا . وهذا دليل الفعلية ، فعليه وقعت بعده لام الجر .

ومن ذلك قراءة الحسن وأبي الحويرث الحنفي : "ما هذا بِشِرًى"6 بكسر الباء والشين .

قال أبو الفتح : تحتمل هذه القراءة وجهين :

أحدهما : أن يكون أراد : ما هذا بِمَشْرِيٍّ ، من قوله تعالى : ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ 7 أي :

---

1 للبيد ، وصدره :

وقبيل من لُكَيز شاهد

ويروى : "حاضر" مكان "شاهد" . ولكيز بضم اللام وفتح الكاف : هو ابن أفصى بن عبد القيس ، ومرجوم من أشرافهم ، واسمه شهاب بن عبد القيس ، وسمى مرجومًا لأنه نافر رجلًا إلى النعمان ، فقال له النعمان : قد رجمتك بالشرف . وابن المعل ، أراد به : ابن المعلَّى ، وهو جد الجارود بن بشير بن عمرو بن المعلى . الديوان : 199 ، والبيان والتبيين : 1/ 296 ، والخصائص : 2/ 293 ، والجمهرة : 2/ 85 ، والاشتقاق : 333 .

2 لم أجد البيت الثاني في ديوانه . ويروى : "سوء" مكان "سر" ، والأمر المبر : الذي يعجر الناس . الديوان : 85 ، والخصائص : 2/ 228 ، والخزانة : 4/ 101 .

3 سورة الأنعام : 162 .

4 البطان : حزام القتب .

5 لم يذكر "حاشا لله" فيما ذكر من قراءات الآية .

6 سورة يوسف : 31 ، والشري : يقصر ويمد .

7 السورة السابقة : 20 .

باعوه ؛ أي : ما ينبغي لمثل هذا أن يباع ، فوُضع المصدر موضع اسم المفعول ، كقول الله سبحانه : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ 1 أي : مصيده ، وكقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ 2 أي : المخلوق ، وكقول النبي صلى الله عليه وسلم : "الراجع في هبته . . ." أي : في موهوبه ، وهذا الثوب نسْج اليمن ، أي : منسوجه ؛ وذلك أن الأفعال لا يمكننا إعادتها . ومنه قولهم : غفر الله لك عِلْمَه فيك ؛ أي : معلومه . ومنه قولهم : هذا الدرهم ضَرْب الأمير ؛ أي : مضروبه .

والآخر : أن تكون الباء غير زائدة للتوكيد كالوجه الأول ؛ لكنها كالتي في قولك : هذا الثوب بمائة درهم ، وهذا العبد بألف درهم ؛ أي : هذا بهذا ، فيكون معناه : ما هذا بثمن ؛ أي : مثله لا يُقَوَّم ولا يُثَمَّنُ ، فيكون "الشِّري" هنا يراد به المفعول به ؛ أي : الثمن المشترَى به ، كقولك : ما هذا بألف ، وهو نفي قولك : هذا بألف ، فالباء إذن متعلقة بمحذوف هو الخبر ، مثلها كقولك : كُرٌّ[3] البر بستين ، ومنوا[4] السمن بدرهم .

ومن ذلك ما رُوي عن عمر أنه سمع رجلًا يقرأ : "عَتَّى حِينٍ"[5] ، فقال : مَن أقرأك ؟ قال : ابن مسعود ، فكتب إليه : إن الله عز وجل أنزل هذا القرآن فجلعه عربيًّا ، وأنزله بلغة قريش ، فأقرئ الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل ، والسلام .

قال أبو الفتح : العرب تُبْدل أحد هذين الحرفين من صاحبه لتقاربهما في المخرج ، كقولهم : بُحْثِر ما في القبور ؛ أي : بعثر ، وضبعت الخيل ؛ أي : ضبحت[6] ، وهو يُحنْظِي ويُعَنْظِي : إذا جاء بالكلام الفاحش ، فعلى هذا يكون عتَّى وحتَّى ؛ لكن الأخذ بالأكثر استعمالًا ، وهذا الآخر جائز وغير خطأ "82ظ" .

ومن ذلك قراءة ابن مسعود : "إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ عِنَبًا"[7] .

قال أبو الفتح : هذه القراءة هي مراد قراءة الجماعة : ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ ؛ وذلك أن

---

1 سورة المائدة : 96 .

2 سورة الروم : 27 .

3 الكر : ستة أوقار حمار ، أو هو ستون قفيزًا ، أو أربعون أردبًّا .

4 المنون : مثنى المنا ؛ وهو كيل أو ميزان .

5 سورة يوسف : 35 .

6 ضبحت الخيل كمنع : أسمعت من أفواهها صوتًا ليس بصهيل ولا حمحمة ، أو عدت

دون القريب .

7 سورة يوسف : 36 .

المعصور حينئذ هو العنب ، فسماه خمرًا لما يصير إليه من بعدُ حكايةً لحاله المستأنفة ،

كقول الآخر :

إذا ما مات مَيْتٌ من تميم فسرَّك أن يعيش فجيء بزاد 1

أراد : إذا مات حيٌّ فصار ميْتًا كان كذا ، أو فليكن كذا . وعليه قول الفرزدق :

قتلت قتيلًا لم يَرَ الناسُ مثله أُقَلِّبُهُ ذا تُومتين مُسَوَّرًا 2

وقد مضى هذا قبل .

ومن ذلك قراءة عكرمة والجحدري : "فَيُسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا"3 .

قال أبو الفتح : هذا في الخير يضاهي في الشر قوله : "فَيُصْلَبُ"4 ؛ لأن تلك نعمة ، وهي نَقِمة5 .

ومن ذلك قراءة ابن عباس وابن عمر بخلاف وعكرمة ومجاهد بخلاف عنهما والضحاك وأبي رجاء وقتادة وشُبيل بن عَزْرَةَ الضُّبَعِي6 وربيعة بن عمرو وزيد بن علي : "وادَّكَرَ بَعْدَ أَمَهٍ"7 ، وقرأ : "بعْدَ إِمَّةٍ" الأشهب العقيلي .

قال أبو الفتح : "الأَمَهُ" : النسيان ، أَمِهَ الرجل يَأْمَهُ أَمَهًا : أي نسي . "والإِمَّةُ" : النعمة ؛ أي : بعد أن أنعم عليه بالنجاة .

ومن ذلك قراءة عيسى والأعرج وجعفر بن محمد : "وفيه يُعْصَرُونَ"8 بياء مضمومة وصاد مفتوحة .

---

1 لأبي المهوش الأسدي ، وينسب أيضًا إلى يزيد بن عمرو بن الصعق . انظر : سمط اللآلي : 863 ، والخزانة : 3/ 142 .

2 التومة : اللؤلؤة ، والمسور : لابس السوار . ويروى : "أقبله" مكان "أقلبه" . انظر : الخصائص : 3/ 177 ، ولم أجده في الديوان .

3 سورة يوسف : 41 .

4 من الآية السابقة .

5 هذا أحد أوجه ثلاثة جائزة في ضبطها ، والآخران : سكون القاف مع فتح النون وكسرها .

6 كذا في الأصل ، والتاج ، والاشتقاق : 19 ، 318 ، وفي القاموس : عروة ، وفي الفهرست 68 : عرعرة ، كان رافضًا ثم انتقل إلى الشراة ، ويعد من خطبائهم وعلمائهم . يروي عن أنس بن مالك ، وروى عنه شعبة ، وسمع منه سعيد بن عامر . مات بالبصرة وأدرك دولة بني العباس .

7 سورة يوسف : 45 .

8 سورة يوسف : 49 .

قال أبو الفتح : روينا عن قطرب أن معنى "يُعْصَرُون" : أي يُمْطَرُون ، فإن شئت أخذته من العُصْرَة والعَصَر للمَنْجَاةِ ، وإن شئت أخذته من عَصَرَت السحاب ماءها عليهم .

وعليه قراءة الجماعة : ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ ، فهذا من النجاة . وروينا عن ابن عباس : أي يَعْصِرون من الكرم والأدهان 1 ، فهذا تفسير النجاة : كيف تقع بهم وإليهم ؟ قال أبو زبيد :

صاديا يستغيث غير مُغَاث ولقد كان عُصْرة المَنْجُود 2

أي : نجاة المكروب .

ومن ذلك قراءة علقمة ويحيى : "رِدَّتْ إلينا 3" بكسر الراء .

قال أبو الفتح : فُعِل من ذوات الثلاثة إذا كان مضعفًا أو معتلًا عينه يجيء عنهم على ثلاثة أضرب : لغة فاشية ، والأخرى تليها ، والثالثة قليلة ، إلا أن المضعَّف مخالف للمعتل العين فيما أذكره .

أما المضعف ، فأكثره عنهم ضم أوله كشُدَّ ورُدَّ ، ثم يليه الإشمام ، وهو شُِدّ ورُِدّ بين ضم الأول وكسره ، إلا أن الكسرة هنا داخلة على الضمة ؛ لأن الأفشى في اللغة الضم .

والثالث – وهو أقلها – شِدّ ورِدّ وحِلّ وبِلّ ، بإخلاص الكسرة ، فهذا المضعف .

وأما المعتل العين ، فأقوى اللغات فيه كسر أوله ، نحو : قِيل وبِيعَ وسِيرَ به ، ثم يليه الإشمام ؛ وهو أن تُدخل الضمة على الكسرة ؛ لأن الكسر هنا هو الأفشى ، فتقول : قُِيلَ وبُِيعَ وعُِيصَ 4 ، والثالث – وهو أقلها – أن تُخلص الضمة في الأول كما أخلصتَ الكسرة فيه مع التضعيف ، نحو : رِدّ وحِلّ ، فتصح الواو من بعدها ؛ فتقول "83و" : قُولَ وبُوعَ ،

وروينا عن محمد بن الحسن ، أظنه عن أحمد بن يحيى :

وابْتُذِلَتْ غَضْبَي وأُمُّ الرِّحالْ وقُولَ لا أهلَ له ولا مالْ 5

وقال ذو الرمة :

دنا البيْنُ من ميٍّ فَرِدَّتْ جِمَالُها وهاجَ الهوى تَقْوِيضُها واحتمالُها 6

---

1 جمع دهن، مما يعصرون من الزيتون والسمسم.

2 يقوله في رثاء بن أخته، وكان مات عطشان في طريق مكة، وقيل: بل في عثمان رضي الله عنه. والمنجود: المكروب. انظر: اللسان "نجد وعصر"، وتفسير البحر: 5/ 315.

3 سورة يوسف: 65.

4 كذا في الأصل بالعين والصاد، والمعروف أن عوض لازم، فلعلها غيض.

5 المنصف: 1/ 250، واللسان "قول".

6 يُروى: "فجاج" مكان "وهاج". وانظر: الديوان: 522.

(33/390)

وهذه لغة لبني ضبة، وبعضهم يقول في الصحيح بكسر أوله: قد ضِرْب زيد، وِقْتل عمرو، وينقل 1 كسرة العين على الفاء.

وحُكي عنهم فيما رويناه عن قطرب: بُوعَ متاعُه، وخُورَ له، واخْتُور عليه: أي اخْتِيرَ، وهو الأجود. ومَن أشمَّ فقال: قِيل قال: اختير عليه، ومَن قال: شُد قال: اشْتُدَّ عليه، ومن قال: شِد فأشم أشم أيضًا فقال: اشتُد عليه، ومَن قال: شِدّ قال: اشْتِدَّ عليه.

وحكى الفراء أن بعضهم قرأ : "كشجرةٍ خَبِيثَةٌ اجْتُثَّتْ"2 بضم تنوين "خبيثة" وكسر تاء "اجتثت" . ومن أبيات الكتاب قول الفرزدق :

وما حِل من جهل حُبَا حلمائنا ولا قائلُ المعروف فينا يُعَنِّفُ3

بإشمام ضمة الحاء كسرًا كما ترى .

ومن ذلك قراءة أبي رجاء بخلاف : "صَوْعَ الْمَلِكِ"4 بفتح الصاد . وقرأ : "صُوعَ" بضم الصاد بغير ألف عبد الله بن عون بن أبي أَرْطَبَان . وقرأ : "صَوْغَ المَلِكِ" بفتح الصاد وبالغين معجمة يحيى بن يعمر . وقرأ : "صاعَ المَلِكِ" أبو هريرة5 ومجاهد بخلاف ، وقراءة الناس : ﴿صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ .

قال أبو الفتح : الصَّاعُ والصُّواعُ والصَّوْعُ والصُّوعُ واحد ، وكلها مكيال . وقيل : الصُّوَاعُ : إناء للمِلك يشرب فيه . وأما الصَّوْغُ فمصدر وُضع موضع اسم المفعول ؛ يراد به الْمَصُوغُ ، كالخلق في معنى المخلوق ، والصيد في معنى الْمَصِيدِ ، وقد تقدم ذكره .

ومن ذلك قراءة ابن مسعود : "وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عَالِمٍ عَلِيمٌ"6 .

---

1 في ك : وتنقل .

2 سورة إبراهيم : 26 .

3 يريد : أن حلماءنا وقر في مجالسهم لا يحلون حباهم خفة وجهلًا على من جهل عليهم ، ومن أمر بالمعروف في حمالة أو صلح لم يعنف على ما حكم به وضمنه عن قومه . الكتاب :

2/ 260 ، والديوان : 561 .

4 سورة يوسف : 72 .

5 هو عبد الرحمن بن صخر أبو هريرة الدوسي الصحابي الكبير – رضي الله عنه – أسلم هو وأمه سنة سبع ، وأخذ القرآن عرضاً عن أبي بن كعب ، وعرض عليه عبد الرحمن بن هرمز الأعرج. ومناقبه وفضائله وتواضعه وعلمه أكثر من أن تحصر . توفي سنة سبع ، وقيل : سنة ثمان وخمسين . طبقات ابن الجزري : 1/ 370 .

6 سورة يوسف : 76 .

قال أبو الفتح : تحتمل هذه القراءة ثلاثة أوجه :

أحدها : أن تكون من باب إضافة المسمى إلى الاسم ؛ أي : وفوق كل شخص يسمى عالمًا عليم . وقد كثر عنهم إضافة المسمى إلى اسمه ، منه قول الكميت :

إِلَيكُم ذَوِي آلِ النَّبِيِّ تَطَلَّعَتْ نَوَازِعُ مِن نَفْسِي ظِمَاءٌ وأَلْبُبُ 1

أي : إليكم يا آل النبي ؛ أي : يا أصحاب هذا الاسم الذي هو آل النبي ، وعليه قول الأعشى

:

فَكَذَّبُوهَا بما قالت فصبَّحهم ذُو آلِ حَسَّانَ يُزْجِي الموتَ والشِّرعَا 2

أي : صبحهم الجيش الذي يقال له : آل حسان . ومنه قول الآخر :

وحيّ بَكْرٍ طعنَّا طعنة بَجرَا 3

أي : الإنسان الحي – الذي يسمى بقولهم : بكرٌ – طعنَّا . وقال الآخر :

أَلَا قَبَحَ الإلهُ بني زياد وحيّ أبيهم قَبْحَ الحِمَار 4

أي : وقبح أباهم الحيَّ الذي يقال له : أبوهم ، وليس الحي هنا كقولنا : حيّ مُضَر ونحوه .

وهو باب من العربية واسع قد تقصيناه في كتاب الخصائص 5 .

والوجه الثاني : أن يكون "عالم" مصدرًا كالفالج والباطل "83ظ" فكأنه قال : وفوق كل ذي علم عليم .

والوجه الثالث : أن يكون على مذهب مَن يعتقد زيادة "ذي" ؛ فكأنه قال : وفوق كل عالم عليم .

وقراءة الجماعة : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قراءة حسنة محتاط فيها ؛ وذلك أنه إذا قال القائل : وفوق كل ذي عالم عليم ، كان لفظه لفظ العموم ومعناه الخصوص ؛ وذلك لأن الله عز وجل عالم ولا عالم فوقه ، وإذا قال : وفوق كل ذي علم عليم ، فذلك مستقيم وسليم ؛ لأن القديم تعالى خارج

---

1 نوازع : من النزاع إلى الشيء ؛ وهو الحنين والميل إليه ، وألبب : جمع لب ؛ وهو العقل .

ورُوي: "قلبي" مكان "نفسي". الخصائص: 3/ 27، والخزانة: 2/ 250.

2 صبحهم: دهمهم في الصباح، والشرع: جمع شِرْعة -بكسر فسكون- وهي الوتر الرقيق، والحبالة التي يصيد بها الصائد. يتحدث عن زرقاء اليمامة؛ إذ أبصرت من مسيرة ثلاثة أيام جيش حسان بن تبع ملك اليمن زاحفًا على اليمامة؛ فأنذرت قومها فلم يصدقوها؛ فصبحهم الجيش واستباحهم. الديوان: 103، والخصائص: 3/ 27.

3 يروى: "فجرى" مكان "بجرا". الخصائص: 3/ 27، والخزانة: 1/ 210، واللسان "حيا".

4 ليزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري. وزياد هو ابن سمية. الخصائص: 3/ 28، والخزانة: 2/ 210، واللسان "حيا".

5 الخصائص: 3/ 24.

منه، ألا تراه -عز وعلا- عالمًا لنفسه بلا علم، والكلام ملاقٍ ظاهره لباطنه، وليس لفظه على شيء ومعناه على غيره.

ومن ذلك قراءة الحسن: "ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وُعَاءِ أَخِيهِ"1 بضم الواو.

قال أبو الفتح : وقرأ سعيد بن جبير : "إِعاءِ أخيه" بهمزة ، وأصله : وِعاء ، فأبدلت الواو وإن كانت مكسورة همزة ، كما قالوا في وِسَادة : إِسَادة ، وفي وِجَاح ، إِجَاح ؛ وهو السِّتر . وهمز وُعاء بالضم أقيس من همز المكسور الواو ؛ فعليه يحسن بل يقول أُعاء أخيه . ومثله : ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ 2 ، وقالوا في وجوه : أُجُوه ، وفي وُعِد : أُعِد ، وقالوا : أُجْنَة 3 ، قال أبو حاتم : ولم يقولوا : وُجْنَة ؛ بل ألزموها الهمز ، وقد هُمزت الواو المفتوحة ، قالوا : أَحَد ، وأصله : وَحَد ؛ أعني : أحد عشر ونحوها : من أحد وعشرين إلى فوق .

وأما قولهم : ما بالدار أحد ، فقال شيخنا أبو علي : إن الهمزة فيه أصلية ؛ لأنه للعموم لا للأفراد . وقالوا في وَنَاة : أَنَاة ، وفي وَجم : أَجم ، وفي وَجٍّ للطائف 4 : أَجٌّ ، وقال أبو عبيدة : قالوا في وَبَلة 5 الطعام : أَبَلة . وقال أبو بكر في أسماء اسم امرأة : أصلها وَسْمَاء ، فَعْلَاءُ من الوَسامَة ، كما قيل لها : حسناء .

ومن ذلك قراءة الحسن وقتادة وعمر بن عبد العزيز 6 : "مِنْ رُوحِ اللَّهِ" 7 .

قال أبو الفتح : ينبغي أن يكون – والله أعلم – من الرُّوح الذي من الله ، ويعني به رُوح ابن آدم ، وقد أضيف نحو ذلك إلى الله تعالى . قال لنا أبو علي في قولهم :

إذا رَضِيتْ عليَّ بنو قُشَيْر لعمر الله أعجبني رضاها 8

---

1 سورة يوسف : 76 .

2 سورة المرسلات : 10 ، والهمز قراءة الجماعة : و"وُقتت" بضم الواو وتشديد القاف

قراءة أبي عمرو ووافقه اليزيدي. الإتحاف: 265 .

3 الأجنة: ما ارتفع من الخدين، وفي القاموس: "الوجنة مثلثة، وككلمة، ومحركة، والأجنة مثلثة: ما ارتفع من الخدين" .

4 في القاموس: ووج: اسام وادٍ بالطائف .

5 وبلة الطعام: تختمه .

6 هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم أبو حفص الأموي، أمير المؤمنين. وردت الرواية عنه في حروف القرآن، ومناقبه كثيرة، توفي في رجب سنة 101، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر. طبقات ابن الجزري: 1/ 593 .

7 سورة يوسف: 87 .

8 للقحيف العقيلي يمدح حكيم بن المسيب القرشي. انظر: النوادر: 176، والخصائص: 2/ 311، 389، والخزانة: 4/ 247 .

أي: وحق العمر الذي وهبه الله لي. وكذلك من رُوح الله: أي من الروح الذي هو من عند الله وبِلُطفه ونعمته .

ومن ذلك قراءة أُبي : "أَئِنَّكَ أَوْ أَنْتَ يُوسُفُ"1 .

قال أبو الفتح : ينبغي أن يكون هذا على حذف خبر إن ، حتى كأنه قال : أئنك لغير يوسف ، أو أنت يوسف ؟ فكأنه قال : بل أنت يوسف ، فلما خرج مخرج التوقف قال : أنا يوسف ، وقد جاء عنهم حذف خبر إن ، قال الأعشى :

إنَّ مَحَلًّا وإِنَّ مُرْتَحَلَا وإنَّ في السَّفْرِ إذ مضى مَهَلَا2

أراد : إن لنا محلًّا ، وإن لنا مرتحلًا ، فحذف الخبر . والكوفيون لا يجيزون حذف خبر إن إلا إذا كان اسمها نكرة ؛ ولهذا وجه حسن عندنا وإن كان أصحابنا يجيزونه مع المعرفة .

ومن ذلك قراءة عمر بن ذر ، وكان يقرأ قراءة ابن مسعود : "قَدْ أَتَيْتَنِ مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِ"3 .

قال أبو الفتح : أراد الياء فيهما جميعًا ، فحذفها تخفيفًا ولطول الاسم ، كقول الأعشى :

"84و"

فهل يَمعنِّي ارتياد البلادِ من حذر الموت أن يَأْتِينْ4

وهو كثير ، وقد مضى مثله .

ومن ذلك قراءة عكرمة وعمرو بن فائد : "والأرضُ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا"5 بالرفع ، وقرأ : "الأرضَ" نصبًا السدي ، قراءة الناس : ﴿ والْأَرْضِ ﴾ .

قال أبو الفتح : الوقف فيمن رفع أو نصب على السماوات ، ثم تبتدئ فتقول : "والأرضُ ،

والأرضَ" ؛ فأما الرفع الابتداء ، والجملة بعدها خبر عنها ، والعائد منها على الأرض "ها" من عليها ، و"ها" من عنها عائدة على الآية . وأما من نصب فقال : "والأرضَ يمرون عليها" فبفعل مضمر ؛ أي : يطئون الأرض ، أو يدوسون الأرض ، ونحو ذلك .

---

1 سورة يوسف : 90 .

2 يروى : "مضوا" مكان "مضى" من قصيدة في مدح سلامة ذي فائش . الديوان : 233 ، والكتاب : 1/ 284 ، والخصائص : 2/ 373 ، والخزانة : 4/ 381 .

3 سورة يوسف : 101 .

4 يروى : "ارتيادي" مكان "ارتياد" . الديوان : 15 ، والكتاب : 2/ 151 ، 290 .

5 سورة يوسف : 105 .

وعليه قراءة ابن مسعود : "يَمْشُون عليها" ، فلما أُضمر الفعل الناصب فسره بقوله : "يمرون عليها" . والنصب هنا دليل جواز قولنا : زيد عندك وعمرًا مررت به ، فهو كقولك : زيدًا مررت به في الابتداء . ومَن جر "الأرض" على قراءة الجماعة ، فإن شاء وقف على "الأرض" ، وإن شاء على قوله : "معرضون" .

ومن ذلك قراءة ابن عباس ومجاهد والضحاك، بخلاف عنهم: "وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا"1 بفتح الكاف والذال خفيفة.

قال أبو الفتح: تقديره: حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كَذَبوا فيما أَتَوا به من الوحي إليهم جاءهم نصرنا.

ومن ذلك قراءة عيسى الثقفي: "وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ"2 برفع الثلاثة الأحرف.

قال أبو الفتح: أي ولكن هو تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة، فحُذف المبتدأ وبقي الخبر. ويجوز على هذا الرفع في قوله تعالى: "مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ"3 أي: ولكن هو رسول الله. انتهى ا. هـ ﴿المحتسب حـ 1 صـ 331. 349﴾

---

1 سورة يوسف: 110.

2 سورة يوسف: 111.

3 سورة الأحزاب: 40، والواقع هنا قراءة زيد بن علي وابن أبي عبلة، كما في تفسير البحر 7/ 236.

وقال العلامة الدمياطى :

سورة يوسف عليه السلام

مكية وآيها مائة وأحد عشر وفيها مشبه الفاصلة اثنا عشر الر سكينا السجن فتيان يا بسات معا حمل بعير كيل بعير فصبر جميل ما يأت بصيرا لأولى الألباب وعكسه عشاء يبكون بضع سنين القرآت سبق سكت أبي جعفر على حروف الر كإمالة الر) لأبي عمرو وابن عامر وابي بكر حمزة والكسائي وخلف وتقليلها للأزرق ونقل قرانا و القران لابن كثير واختلف في (يا أبت) الآية 4 هنا ومريم الآية 42 43 44 45 والقصص الآية 26 والصافات الآية 102 فابن عامر وأبو جعفر بفتح التاء في السور الأربعة والباقون بالكسر فيهن وأصله يا أبي فعوض عن الياء تاء التأنيث فالكسر ليدل على الياء والفتح لأنها حركة أصلها ووقف بالهاء ابن كثير وابن عامر وابو جعفر ويعقوب وسهل همز رأيت و رأيتهم الأصبهاني

وقرأ (أحد عشر) الآية 4 بسكون العين أبو جعفر كأنه نبه بذلك على أن الاسمين جعلا اسما واحدا ومر بالتوبة وسبق فتح يا بني لحفص والكسر للباقين بهود وأبدل همز رؤياك الأصبهاني وأبو عمرو بخلفه وكذا أبو جعفر لكنه إذا أبدل قلب الواو المبدلة ياء وأدغمها في الياء بعدها وأمالها الدوري عن الكسائي وإدريس من طريق الشطي عن خلف قال في

الطيبة

(وخلف إدريس برؤيا لا بأل

(

وبالفتح الصغرى أبو عمرو والأزرق ويوقف عليه لحمزة بإبدال الهمزة واوا على القياسي

وعلى الرسمي بياء مشددة كأبي جعفر ونقل في النشر جوازه عن الهذلي وغيره ثم ذكر أن

الإظهار أولى وأقيس وعليه أكثر أهل الأداء

واختلف في (آيات للسائلين) الآية 6 فابن كثير بالإفراد على إرادة الجنس وافقه ابن

محيصن والباقون بالجمع تصريحا بالمراد وكسر التنوين من مبين اقتلوا

وصلا أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب وقنبل من طريق ابن شنبوذ وابن ذكوان من طريق

الأخفش

واختلف فيغيابة) الآية 10 15 معا فنافع وأبو جعفر بالجمع في الحرفين كأنه كان لتلك

الجب غيابات وهي أي الغيابة قعره أو حفرة في جانبه والباقون بالإفراد لأنه لم يلق إلا في

واحدة والجب البئر التي لم تطو وعن الحسن وكسر الغين وسكون الياء بلا ألف فيهما و

تلتقطه بالتاء من فوق لإضافته لمؤنث يقال قطعت بعض أصابعه

واختلف في (لا تأمنا) الآية 11 فأبو جعفر بالإدغام المحض بلا إشمام ولا روم فينطق بنون مفتوحة مشددة وتقدم أنه يبدل الهمزة الساكنة قولا واحدا والباقون الإدغام مع الإشارة واختلفوا فيها فبعضهم يجعلها روما فيكون حينئذ إخفاء فيمتنع معه بالإدغام الصحيح لأن الحركة لا تسكن رأسا وإنما يضعف صوت الحركة وبعضهم يجعلها إشماما فيشير بضم شفتيه إلى ضم النون بعد الإدغام فيصح معه حينئذ كمال الإدغام وبالأول قطع الشاطبي واختاره الداني وبالثاني قطع سائر الأئمة واختاره صاحب النشر قال لأني لم أجد نصا يقتضي خلافه ولأنه أقرب إلى حقيقة الإدغام وأصرح في اتباع الرسم وبه ورد نص الأصبهاني وانفرد ابن مهران عن قالون بالإدغام المحض كأبي جعفر والجمهور على خلافه ولم يعول عليه في الطيبة على عادته

(40/390)

واختلف في ﴿ (نرتع ونلعب ﴾ الآية 12 فنافع وأبو جعفر بالياء من تحت فيهما إسنادا إلى يوسف عليه السلام وكسر عين يرتع من غير ياء جزم بحذف حرف العلة من ارتعى افتعل من الرباعي والفعلان مجزومان على جواب الشرط المقدر وقرأ عاصم وحمزة

والكسائي ويعقوب وخلف بالياء كذلك فيهما لكن مع سكون العين وافقهم الحسن

والأعمش وقرأ أبو عمرو وابن عامر بالنون فيهما وسكون العين مضارع رتع انبسط في

الخصب فيكون صحيح الآخر جزمه بالسكون وافقهما اليزيدي وقرأ البزي بالنون فيهما

وكسر العين من غير ياء وقرأ قنبل كذلك إلا أنه أثبت الياء من طريق ابن شنبوذ وصلا

ووقفا على لغة من يثبت حرف العلة في الجزم ويقدر حذف الحركة المقدرة على حرف

العلة واصلة من رعي فوزنه يفتعل وحذفها من طريق ابن مجاهد والوجهان في الشاطبية

كأصلها لكن الإثبات ليس من طريقهما كما نبه عليه في النشر لأن طريقهما عن قنبل إنما هو

طريق ابن مجاهد وعن ابن محيصن يرتع بضم الياء وكسر التاء وسكون العين

وقرأ (ليحزنني) الآية 13 بضم الياء وكسر الزاي نافع وفتح ياء الإضافة منها نافع وابن

كثير وأبو جعفر وأبدل همز الذئب ورش من طريقيه وأبو عمرو بخلفه

والكسائي وخلف عن نفسه وكذا وقف حمزة وعن الحسن والمطوعي عشاء بضم العين

من العشوة بالضم والكسر وهي الظلام وعن الحسن كدب بالدال المهملة قيل هو الدم

الكدر وأدغم لام بل سولت خلف وهشام على ما صوبه في النشر وأدغم تاء وجاءت

سيارة أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وهشام بخلفه

وأما لفأدلى دلوه) الآية 19 حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

واختلف في ﴿ يا بشري ﴾ الآية 19 فعاصم وحمزة والكسائي وخلف ﴿ يا بشرا)

﴾ بغير ياء إضافة نداء للبشري أي أقبلي وافقهم الأعمش وهم بالإمالة المحضة على أصلهم ما عدا عاصما ففتحها عنه حفص وأبو بكر من أكثر طرق يحيى بن آدم وأمالها من أكثر طرق العليمي والباقون بياء مفتوحة بعد الألف إضافة إلى نفسه وفتحت الياء على القياس

وأمال الراء ابن ذكوان من طريق الصوري وقللها الأزرق وعن أبي عمرو ثلاثة أوجه الفتح وعليه عامة أهل الأداء والإمالة المحضة رواها جماعة منهم الهذلي وابن مهران والصغرى كما نص عليها ابن جبير والثلاثة في الشاطبية كالطيبة وفي النشر الفتح أصح رواية والإمالة أقيس وافقه اليزيدي

وأمال مثواه حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

(42/390)

واختلف في (هيت) الآية 23 فنافع وابن ذكوان وأبو جعفر بكسر الهاء وياء ساكنة وتاء مفتوحة ففتح الهاء وكسرها لغتان ومن فتح التاء بناها عليه نحو كيف وأين ولهشام فيها

خلف فالحلواني من جميع طرقه عنه بكسر الهاء وفتح التاء كنافع إلا أنه همز وهي قراءة صحيحة كما في النشر وغيره خلافا لمن وهم الحلواني ومعناها تهيأت لي أمرك وأحسنت هيئتك ولك متعلق بمحذوف على سبيل البدل كأنها قالت القول لك وروى الداجوني كسر الهاء مع الهمز وضم التاء قال الداني وهذا هو الصواب وجمع الشاطبي بين الوجهين ليجري على الصواب وإن خرج بذلك عن طرقه وقرأ ابن كثير بفتح الهاء وياء ساكنة وضم التاء تشبيها بحيث وعن ابن محيصن كنافع وعنه فتح الهاء وسكون الياء وكسر التاء على أصل التقاء الساكنين والباقون بفتح الهاء وسكون التاء وفتح التاء والجمهور على أنها عربية اسم فعل كلمة حث وإقبال بمعنى هلم وفيها لغات فتح الهاء بالياء مع تثليث حركة التاء كحيث وكسر الهاء وفتح التاء مع الياء والهمز والكسر والضم معه وعليها جاءت القراآت الأربع ولام لك متعلق بمقدر أي أقول أو الخطاب لك قال في النشر وليست فعلا ولا التاء فيها ضمير متكلم ولا مخاطب وفتح ياء الإضافة من ربي أحسن نافع وابن كثير وابو عمرو وابو جعفر

وأمال (مثواي) الآية 23 الدوري عن الكسائي وقلله الأزرق بخلفه على قاعدته كما صوبه في النشر خلافا لمن تعلق بظاهر عبارة التيسير فقطع له بالفتح فقط والباقون بالفتح وخرج حمزة ومن معه عن أصلهم للتنبيه على رسمها بالألف

وأمال حرفي رأي في الموضعين ابن ذكوان وحمزة والكسائي وخلف والأكثرون عن الداجوني عن هشام وأبو بكر في رواية الجمهور عن يحيى وقللهما الأزرق مع تثليث الهمزة وأمال الهمزة وفتح الراء أبو عمرو والخلاف عن السوسي في الراء ليس من طرق الكتاب كما مر والباقون بفتحهما وبه قرأ الجمهور عن الحلواني عن هشام وكذا العليمي عن أبي بكر وأما فتح الراء عنه مع إمالة الهمزة فانفرادة كما مر وسهل الثانية كالياء من الفحشاء إنه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابو جعفر ورويس

واختلف في (المخلصين) الآية 24 حيث جاء بأل وفي (مخلصا) بمريم الآية 51 فعاصم وحمزة والكسائي وخلف بفتح اللام منهما اسم مفعول وافقهم الأعمش وقرأ نافع وابو جعفر بفتح لام المخلصين خاصة والباقون بالكسر فيهما اسم فاعل وعن الحسن دبر الثلاث و قبل بسكون الباء وهي لغة الحجاز وأسد وعنه را قميصه بألف من غير همز في هذه الكلمة للاتباع ووقف على امرأت معا بالهاء ابن كثير وابو عمرو والكسائي ويعقوب وأمال فتاها هنا ولفتاه معا بالكهف حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق وأدغم دال قد شغفها أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وعن الحسن وابن محيصن شعفها بالعين المهملة قيل الشعف الجنون وقيل من شعف البعير إذا حناه بالقطران فأحرقه والجمهور بالغين المعجمة أي حرق شغاف قلبها وأمال لنراها أبو عمرو وابن ذكوان

بخلفه وحمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق وقرأ أبو جعفر متكا بتنوين الكاف وحذف الهمزة بوزن متقي خفف بترك الهمزة كقولهم توضيت في توضأت وعن المطوعي متكاً بسكون التاء وبالهمز وعن الحسن بالتشديد والمد قبل الهمز أشبع الفتحة فتولد منها ألف والباقون بتشديد التاء والهمز مع القصر وكسر التاء من وقالت أخرج أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب وضم الهاء من عليهن يعقوب وعنه خلف في الوقف عليها وكذا لهن وأيديهن وكيدهن بهاء السكت

(44/390)

واختلف في (حاش لله) الآية 31 51 معا فأبو عمرو بألف بعد الشين وصلا فقط على أصل الكلمة وافقه اليزيدي وابن محيصن والمطوعي وعن الحسن حاش الإله فيهما والباقون بالحذف واتفقوا على الحذف وقفا اتباعا للرسم إلا ما رواه الجعبري عن الأعمش من إثباتها في الحالين وهو خلاف ما في المصطلح وتقدم ضم هاء إليهن ليعقوب مع خلفه في الوقف عليها بهاء السكت واختلف في قال رب السجن فيعقوب بفتح السين هنا خاصة على أنه مصدر أي الحبس وإلى متعلق بأحب وليس أفعل هنا على بابه لأنه لم يحب مايدعونه إليه قط والباقون بالكسر واتفقوا على كسر السين في ودخل معه السجن ويا

صاحبي السجن معا و لبث في السجن لأن المراد بها المكان ولا يصح أن يراد بها المصدر بخلاف الأول وعن الحسن لتسجننه بالخطاب وفتح باء

الإضافة من إني معا السابقين لأراني نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ومن أراني أعصر وأرني أحمل نافع وابن كثير وابو عمرو وابو جعفر

وأمال أراني و نريك أبو عمرو وابن ذكوان بخلفه وحمزة والكسائي وخلف وبالصغرى الأزرق وأبدل همز نبئنا أبو جعفر بخلف عنه وأطلق ابن مهران الخلاف عنه من روايتيه

(45/390)

وقرأ ترزقانه) الآية 37 باختلاس كسرة الهاء قالون من طريقيه وابن وردان بخلف عنهما والباقون بالإشباع وفتح ياء الإضافة من ربي إنه نافع وأبو عمرو وأبو جعفر و من أبائي إبراهيم نافع وابن كثير وابو عمرو وابن عامر وأبو جعفر وعن المطوعي آبائي بتسهيل الهمزة الثانية وسهل الثانية مع إدخال ألف من أأرباب قالون وأبو عمرو وابو جعفر وهشام في أحد أوجه وقرأ ورش ابن كثيرون ورويس كذلك لكن بلا إدخال وللأزرق أيضا إبدالها ألفا مع المد للساكنين والثاني لهشام التحقيق مع الإدخال والثالث التحقيق بلا إدخال وبه قرأ الباقون ومر تفصيل الطرق غير مرة وفتح ياء الإضافة من إني أرى نافع وابن كثير وأبو عمرو

وأبو جعفر وأبدل الثانية واوا مفتوحة من الملأ أفتوني نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس

وأمال رؤياي الآية 43 الكسائي والشطي عن إدريس عن خلف وخلف إدريس برؤياي لا بأل وأمال للرؤيا الكسائي فقط وقللهما الأزرق وابو عمرو بخلفهما وتقدم لأبي جعفر قلب الواو ياء وإدغامها في الياء

واتفقوا على عدم إمالة نجا لأنه واوي ثلاثي مرسوم بالألف وعن الحسن واذكر بذال معجمة وعنه أيضا بعد أمة بفتح الهمزة وتخفيف الميم وبهاء منونة من الأمة وهو النسيان وعنه أيضا أنبئكم آتيكم بهمزة مفتوحة ممدودة بعدها تاء مكسورة وياء ساكنة مضارع آتي ومد أنا أنبئكم وصلا نافع وابو جعفر وأثبت يعقوب الياء في فأرسلون في الحالين ويوقف لحمزة على يوسف أيها ونحوه مثل الصديق أفتنا بالتحقيق وبإبدال الهمزة واوا مفتوحة لأنه متوسط بغير المنفصل وفتح ياء الإضافة من لعلي أرجع نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر

واختلف في (دأبا) فحفص بفتح الهمزة والباقون بسكونها وهما لغتان في مصدر دأب يدأب داوم ولازم

واختلف في (يعصرون) الآية 49 فحمزة والكسائي وخلف بالخطاب وافقهم الأعمش والباقون بالغيب وهما واضحتان وأبدل همزة الملك إيتوني وقال إيتوني من جنس ما قبلها أبو عمرو بخلفه وورش وأبو جعفر وصلا فإن ابتدىء بإيتوني فالكل على إبدالها ياء من جنس حركة همزة الوصل ونقل همزة فسله للسين ابن كثير والكسائي وخلف عن نفسه ووقف يعقوب بهاء السكت بخلفه على أيديهن و بكيدهن وقرأ

الآن بالنقل ورش على أصله وابن وردان من طريق النهرواني وابن هارون من طريق هبة الله وعن الحسن حصحص بضم الحاء الأولى وكسر الثانية مبنيا للمفعول وفتح ياء الإضافة من نفسي أن نافع وأبو عمرو وأبو جعفر وقرأ بالسوء إلا بتسهيل الأولى كالياء قالون والبزي مع المد والقصر والذي عليه الجمهور عنهما إبدالها واوا مكسورة وإدغام التي قبلها فيها قال في النشر وهذا هو المختار رواية مع صحته في القياس وقرأ ورش وأبو جعفر وقنبل ورويس بتسهيل الثانية بين بين وللأزرق وقنبل إبدالها حرف مد مع إشباع المد ولقنبل وجه ثالث وهو إسقاط الأولى مع المد والقصر وبه قرأ أبو عمرو ورويس في وجهه الثاني والباقون بتحقيقهما وفتح ياء الإضافة من ربي إن نافع وأبو عمرو وأبو جعفر

واختلف في (حيث نشاء) الآية 56 فابن كثير بالنون على أنها نون العظمة لله تعالى وافقه الحسن والشنبوذي والباقون بالياء والضمير ليوسف وخرج بحيث نصيب برحمتنا من

نشاء المتفق عليه بالنون وسهل الثانية من جاء إخوة كالياء نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس وفتح ياء الإضافة من أني أوف نافع وابو جعفر بخلفه وأثبت يعقوب ياء تقربون في الحالين

واختلف في ﴿ لفتيته) ﴾ الآية 61 فحفص وحمزة والكسائي وخلف بألف بعد الياء ونون مكسورة بعدها جمع كثرة لفتى وافقهم الحسن والأعمش والباقون بغير ألف وبتاء مثناة بدل النون جمع قلة له فالتكثير بالنسبة للمأمورين والقلة بالنسبة للمتناولين

(47/390)

واختلف في (نكتل) الآية 63 فحمزة والكسائي وخلف بالياء من تحت والباقون بالنون

واختلف في ﴿ خير حفظا) ﴾ الآية 64 فقرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف (حافظا) بفتح الحاء وألف بعدها وكسر الفاء تمييزا وحال وافقهم ابن محيصن بخلفه والشنبوذي والباقون ﴿ حفظا ﴾ بكسر الحاء وسكون الفاء والنصب على التمييز فقط وعن المطوعي خير حافظ بلا تنوين على الإضافة وبالألف مع الخفض وعن الحسن كسر راء ردت وهي لغة وأثبت ياء تؤتون وصلا أبو عمرو وابو جعفر وفي الحالين ابن كثير ويعقوب

واتفقوا على إثبات (ما نبغي) الآية 65 وأمال قضاها و أوى حمزة والكسائي وخلف

وقللهما الأزرق بخلفه وفتح ياء الإضافة من إني أنا نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر

ومد الألف بعد النون وصلا من أنا أخوك نافع وابو جعفر وأبدل الأزرق وابو جعفر همز

مؤذن واوا وبه وقف حمزة وعن ابن محيصن تالله

بالله بالباء الموحدة وكذا كل قسم بالتاء وعن الحسن وعاء حيث جاء بضم الواو لغة فيه

وأبدل الثانية من وعاء أخيه ياء مفتوحة نافع وابن كثير وابو عمرو وابو جعفر ورويس

واختلف في (نرفع درجات من نشاء) الآية 76 فيعقوب بالياء فيهما والفاعل الله والباقون

بالنون وقرأ درجات بالتنوين عاصم وحمزة والكسائي وخلف ومر بالأنعام وأدغم ذال فقد

سرق أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف

وقرأ (استيأسوا) من الآية 87 و (لا ييأس) الآية 87 (إذا استيأس) الآية 110 وفي

الرعد الآية 31 (أفلم ييأس) البزي من عامة طرق أبي ربيعة بتقديم الهمزة إلى موضع الياء

وتأخير الياء إلى موضع الهمزة ثم يبدل الهمزة ألفا وروى الآخرون عن أبي ربيعة وابن

الحباب عنه بالهمز بعد الياء بلا تأخير كالجماعة وموافقة ابن وردان من طريق هبة الله

للبزي في الإبدال التي ذكرها في الأصل انفرادة للحنبلي لا يقرأ بها ولذا أسقطها في الطيبة ويوقف لحمزة على يياس وبابه بالنقل وبالإدغام على إجراء الياء الأصلية مجرى الزائدة وحكي وجه آخر وهو القلب مع الإبدال كالبزي نقله في النشر عن الهذلي وسكت عليه وأما بين بين فضعيف

واتفقوا على رفع ( ) ومن قبل ما فرطتم ( ) الآية 80 على نية معنى المضاف إليه أي من قبل هذا وما مزيدة وفتح ياء الإضافة من يأذن لي أبي نافع وابو عمرو وأبو جعفر ومن أبي أو يحكم الله نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ونقل همزة وسل إلى السين ابن كثير والكسائي وخلف عن نفسه وأدغم لام بل سولت حمزة والكسائي وهشام على ما صوبه في النشر وعن الحسن يا أسفي بكسر الفاء وياء ساكنة والجمهور بفتح الفاء وألف بعدها وهي عن ياء المتكلم ووقف عليها رويس بخلفه بهاء السكت

(49/390)

وأمال حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق والدوري عن أبي عمرو بخلفها وكذا حكم تولى غير أن الدوري يفتحه فقط على قاعدته ويوقف لحمزة وهشام بخلفه على تفتؤ المرسوم بالواو بإبدال الهمزة ألفا لانفتاح ما قبلها على القياسي وبتخفيفها بحركة نفسها

فتبدل واوا مضمومة ثم تسكن ويتحد معه وجه اتباع الرسم ويجوز الروم والإشمام فهذه أربعة والخامس تسهيلها كالواو مع الروم وعن الحسن حتى يكون بالغيب حرصا بضم الحاء والراء لغة والجمهور بفتحهما وهو الإشفاء على الموت وعنه وحزني بفتحتين وفتح ياء الإضافة منها نافع وأبو عمرو وابو جعفر وابن عامر وعن الحسن من روح الله معا بضم الراء والجمهور على الفتح وهو رحمته وتنفسه لغتان وقيل معنى الأول من حيي معه روح الله فإنه يرجى

وأمال (مزجاة) الآية 88 حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

وقرأ ( ) أئنك لأنت يوسف (الآية 105 بهمزة واحدة ابن كثير وأبو جعفر والباقون بهمزتين على الاستفهام التقريري وهم على أصولهم فقالون وأبو عمرو بتسهيل الثانية مع الفصل بالألف وورش ورويس كذلك لكن بلا فصل وقرأ الحلواني من مشهور طرقه عن هشام وكذا الشذائي عن الداجوني بالتحقيق مع الفصل وقرأ الداجوني غير الشذائي عنه بالتحقيق بلا فصل وبه قرأ الباقون

وقرأ ﴿ يتقي ﴾ الآية 43 بإثبات الياء وصلا ووقفا قنبل من طريق ابن مجاهد من جميع طرقه ولم يذكر في الشاطبية غيره ووجه بأنه على لغة إثبات حرف العلة مع الجازم كقوله (ألم يأتيك والأنباء تنمي

)

ومذهب سيبويه أن الجزم بحذف الحركة المقدرة وحذف حرف العلة للتفرقة بين المرفوع والمجزوم وقيل هو مرفوع ومن موصولة وجزم يصير المعطوف عليه للتخفيف كينصركم في قراءة أبي عمرو أو للوقف ثم أجرى الوصل مجراه وروى ابن شنبوذ حذفها في الحالين والوجهان صحيحان عنه وافقه فيهما ابن محيصن وحذف همز خاطين و الخاطين أبو جعفر ووقف به حمزة واختاره الآحدون باتباع الرسم وبالتسهيل بين بين وحكى إبدالها ياء وضعف ومد لا النافية للجنس في لا تثريب وسطا حمزة بخلفه وأثبت الياء في تفندون في الحالين يعقوب وفتح ياء الإضافة من إني أعلم نافع وابن كثير وابو عمرو وابو جعفر وأدغم راء استغفر لنا أبو عمرو وبخلف عن الدوري وفتح ياء الإضافة من ربي إنه نافع وأبو عمرو وابو جعفر

وقرأ ابن عامر وأبو جعفر (يا أبت) الآية 100 بفتح التاء والباقون بالكسر ووقف عليها بالهاء ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب كما مر أول سورة البقرة وأبدل همز رؤياي الأصبهاني وابو عمرو بخلفه وأبو جعفر لكن مع إدغام الواو بعد قلبها ياء في الياء ويوقف عليه لحمزة بإبدال الهمز واوا على القياسي وعلى الرسمي بياء مشددة كأبي جعفر فيقول

رياي ونقل في النشر جوازه عن الهذلي وغيره ثم رجح الإظهار وأما الحذف فضعيف

وأمالها الكسائي والشطي عن إدريس وبالفتح والصغرى أبو عمرو والأزرق وأدغم دال

قد جعلها أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف واتفقوا على تفخيم راء مصر وصلا

واختلفوا فيه وقفا كالوقف على عين القطر فأخذ بالتفخيم فيهما جماعة كابن شريح نظرا

لحرف الاستعلاء وأخذ بالترقيق آخرون منهم الداني واختار في النشر التفخيم في مصر

والترقيق في القطر قال نظرا للوصل وعملا بالأصل أي وهو

الوصل وفتح ياء الإضافة من بي إذ نافع وابو عمرو وأبو جعفر ومن إخوتي أن الأزرق وأبو

جعفر وسهل الثانية كالياء من يشاء إنه نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس ولهم

إبدالها واوا مكسورة وتقدم رد تسهيلها كالواو

وأمال الدنيا حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق وأبو عمر وللدوري عنه

تمحيضها من طريق ابن فرح قال في النشر وهو صحيح وضم هاء لديهم حمزة ويعقوب

وقرأ (وكأين) الآية 105 بألف ممدودة بعد الكاف بعدها همزة مكسورة ابن كثير وكذا

أبو جعفر لكنه سهل الهمزة مع المد والقصر ووقف على الياء أبو عمرو ويعقوب والباقون

بالنون وفتح ياء الإضافة من سبيلي أدعوا نافع وأبو جعفر واتفقوا على إثبات الياء في ومن اتبعني

واختلف في ﴿ يوحي إليهم ﴾ الآية 109 هنا وفي النحل الآية 43 وأول الأنبياء الآية 7 و ﴿ يوحي إليه ﴾ ثاني الأنبياء الآية 25 فحفص وحده بنون العظمة وكسر الحاء في الأربعة مبنيا للفاعل وقرأ حمزة والكسائي وخلف كذلك في ثاني الأنبياء والباقون بضم الياء من تحت وفتح الحاء مبنيا للمفعول وخرج بقيد إليهم وإليه نحو يوحي إليك

وقرأ ﴿ يعقلون ﴾ الآية 109 بالخطاب نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب وسبق بالأنعام وتقدم استيأس وبابه للبزي ووقف حمزة عليه

واختلف في (كذبوا) الآية 110 فعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بالتخفيف وافقهم الأعمش ورويت عن عائشة رضي الله عنها وروي عنها إنكارها وقد وجهت بوجوه فها وهو المشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أن الضمائر كلها ترجع إلى المرسل إليهم أي وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما ادعوا من النبوة وفيما يوعدون به من لم يؤمن من العقاب ويحكى أن سعيد بن جبير لما أجاب بذلك فقال الضحاك وكان حاضرا لو رحلت في هذه المسألة إلى اليمن كان قليلا والباقون بالتشديد على عود الضمائر كلها على الرسل أي وظن الرسل أنهم قد كذبهم أممهم فيما جاؤا به لطول البلاء عليهم

واختلف في (فنجي من نشاء) فابن عامر وعاصم ويعقوب بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء على أنه فعل ماض مبني للمفعول ومن نائب فاعل وعن ابن محيصن نجا بفتح النون والجيم الخفيفة فعلا ماضيا والباقون بنونين مضمومة فساكنة فجيم مكسورة مخففة فياء ساكنة مضارع أنجى ومن مفعوله وأبدل همز باسنا والباس

والباساء أبو عمرو بخلفه وأبو جعفر كوقف حمزة وحققه الباقون ومنهم ورش من طريقيه وقرأ تصديق بإشمام الصاد زايا حمزة والكسائي ورويس بخلفه وخلف

المرسوم كتب (قرانا) بحذف الألف كالزخرف وفي المقنع بسنده إلى نافع (آيت للسائلين غيبت الجب) بحذف الألفين أي ألفي الجمع والألف بعد الياء محذوفة أيضا لا تأمنا بنون واحدة واتفق على حذف الواو التي هي صورة الهمز في باب الربا مطلقا لدا الباب بألف بعد الدال واختلف في لدى الحناجر بغافر والأكثر على الياء فيها تنبيها على أن مآلها للياء

نحو لدينا وأبو عبيد حاش لله بلا ألف ما نبغي ومن اتبعني بالياء فيهما تنبيها فنجي بنون واحدة في الكل وكذا ننجي المؤمنين بالأنبياء فوجه الحذف على قراءة النونين التخفيف الهاء امرأت العزيز معا بالتاء آيت بالتاء كموضع العنكبوت غيبت معا بالتاء وكذا يأبت حيث وقع ياآت الإضافة اثنان وعشرون (ليحزنني أن) الآية 13 (ربي أحسن) الآية 23 (إني أراني) الآية 36 معا (أراني) الآية 36 معا (إني أنا) الآية 69 (أبي أو) الآية 80 (لعلي أرجع) الآية 46 (إني أعلم) الآية 96 (أبي) الآية 80 (أني أوف) الآية 59 (حزني إلى) الآية 86 (إخوتي أن) الآية 100 (سبيلي أدعو) الآية 108 (ربي إني) الآية 37 (نفسي إن) الآية 53 (رحم ربي) الآية 53 (إن ربي) الآية 53 (ربي إنه) الآية 98 (بي إذ) الآية 100 (آبائي إبراهيم) الآية 38 الزوائد ست (فأرسلون) الآية 45 (ولا تقربون) الآية 60 (تفندون) الآية 94 (تؤتون) الآية 66 ﴿ نرتع ﴾ الآية 12 (من يتق) الآية 90 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر ص 340.328 ﴾

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة يوسف "

" الر " سكت أبو جعفر على حروف الهجاء الثلاثة .

" أنزلناه ، قرآنا ، القرآن ، لأبيه " كله جلي .

" يا أبت " قرأ ابن عامر وأبو جعفر بفتح التاء والباقون بكسرها ؛ ووقف عليه الهاء المكي والشامي وأبو جعفر ويعقوب ، ولحمزة عند الوقف على يا أبت تحقيق الهمزة مع المد والتسهيل مع المد والقصر وهكذا جميع ألفاظ يا أبت الواقعة في القرآن الكريم .

" أحد عشر " قرأ أبو جعفر بإسكان العين وغيره بفتحها .

" يا بني " قرأ حفص بكسر الياء والباقون بفتحها .

" رؤياك " قرأ السوسي بإبدال الهمزة واوا ساكنة ، وقرأ أبو جعفر بإبدال الهمزة واوا مع قلبها ياءا وإدغامها في الياء بعدها فيصير النطق بياء واحدة مفتوحة مشددة . ولحمزة في الوقف عليه وجهان: أحدهما كالسوسي ، والآخر كأبي جعفر .

" حكيم " آخر الربع .

الممال

شاء معا وجاء لابن ذكوان وخلف وحمزة ، موسى الكتاب لدى الوقف على موسى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . ذكرى معا والقرى بالإمالة

للأصحاب والبصري والتقليل لورش ، النهار بالإمالة للبصري والدوري ، والتقليل لورش

رؤياك بالإمالة لدوري الكسائي وبالتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، والناس بالإمالة

لدوري البصري .

" الر " بالإمالة للبصري والشامي وشعبة والأخوين وخلف وبالتقليل لورش .

المدغم

" الكبير " فاختلف فيه ، الصلاة طرفي ، السيئات ذلك ، جهنم من ، تعقلون ، نحن نقص ،

والقمر رأيتهم ، لك كيدا ، ولا إدغام في إن الشيطان للإنسان ، لأن ما قبل النون ساكن .

" آيات للسائلين " قرأ المكي بحذف الألف بعد الياء على الإفراد ووقف عليها بالهاء على

أصل مذهبه . والباقون بإثبات الألف على الجمع ووقفوا بالتاء .

" وأخوه " اطرحوه ، وألقوه يلتقطه ، أرسله ، أن يجعلوه ، إليه ، وأسروه ، وشروه فيه ،

اشتراه ، مثواه آتيناه وصل المكي هاء الضمير فيه جميعه .

" مبين اقتلوا " كسر التنوين وصلا البصريان وعاصم وحمزة وابن ذكوان وضمه الباقون وفي

حالة الابتداء باقتلوا لابد من ضم الهمزة للجميع .

" غيابت الجب معا " قرأ المدنيان بألف بعد الباء الموحدة على الجمع ووقفا بالتاء ، والباقون بحذفها على الإفراد ووقف بالهاء المكي والبصريان والكسائي ، والباقون بالتاء .

" تأمنا " أصله بنونين مظهرتين : الأولى مرفوعة ، والثانية مفتوحة ، وقد أجمع العشرة على عدم جواز الإظهار في الأولى . واختلفوا بعد ذلك في كيفية القراءة فقرأ أبو جعفر بإدغامها في الثانية إدغاما محضا من غير روم ولا إشمام ، وقرأ كل من الباقين بوجهين : الأول : إدغامها في الثانية مع الإشمام ، والثاني : اختلاس ضمتها وحينئذ لا يكون فيها إدغام مطلقا لأن الإدغام لا يتأتى إلا بتسكين الحرف المدغم والنون هنا متحركة وإن كانت حركتها غير كاملة فلا تكون مدغمة . والوجهان صحيحان مقروء بهما لجميع القراء إلا أبا جعفر فليس له إلا الإدغام المحض كما سبق .

" يرتع ويلعب " قرأ المدنيان بالياء في الفعلين وكسر العين في يرتع من غير ياء . وقرأ ابن كثير بالنون فيهما مع كسر العين من غير ياء . وما ذكره الشاطبي من إثبات الياء لقنبل بخلف عنه خروج عن طريقه وطريق أصله . وطريقه حذف الياء في الحالين لقنبل ، وقرأ أبو عمرو وابن عامر بالنون فيهما مع سكون العين ، وقرأ الكوفيون ويعقوب بالياء فيهما مع سكون العين .

" ليحزنني " قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي ، وغيره بفتح الياء وضم الزاي وفتح الياء

الأخيرة المدنيان والمكي وأسكنها غيرهم .

" الذئب " جميعه أبدل همزه ياء في الحالين ورش والسوسي وأبو جعفر والكسائي وخلف في اختياره . وأبدله في الوقف حمزة .

" لخاسرون " رقق الراء ورش .

" وجاءوا أباهم " هو مد منفصل لجميع القراء يستوي في ذلك ورش وغيره عملا بأقوى السببين كما سبق مثله ، وهذا عند الوصل ، أما عند الوقف على وجاءوا فيكون مد بدل فورش فيه على أصله .

(56/390)

" يا بشرى " قرأ الكوفيون بغير ياء بعد الألف الأخيرة ، والباقون بياء مفتوحة بعدها وصلا ، وساكنة وقفا .

" هيت لك " قرأ المدنيان وابن ذكوان بكسر الهاء وياء ساكنة مدية بعدها وفتح التاء ، وقرأ هشام بكسر الهاء وهمزة ساكنة بعدها مع فتح التاء . وذكر الشاطبي الخلاف له في ضم التاء خروج عن طرقه فلا يقرأ له من طرق الحرز والتيسير إلا بفتح التاء ، وقرأ ابن كثير بفتح الهاء وياء ساكنة لينة بعدها مع ضم التاء ، وقرأ الباقون مثله إلا أنهم يفتحون التاء .

" ربي أحسن " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري ، وأسكنها غيرهم .

" رآى " فيه ثلاثة البدل لورش .

" السوء " فيه لحمزة وهشام وقفا وجهان فقط : النقل والإدغام ، لأن الواو أصلية ولا روم فيه ولا إشمام لفتح الهمزة .

" والفحشاء إنه " سهل الهمزة الثانية بين بين المدنيان والمكي والبصري ورويس ، وحققها الباقون ، ولا خلاف بينهم في تحقيق الأولى .

" المخلصين " قرأ المكي والبصريان والشامي بكسر اللام ، والباقون بفتحها .

" وهو " كله لا يخفى .

" كيدكن " إذا وقف عليه يعقوب فلا يلحق به هاء السكت . قال صاحب النشر وقد أطلقه بعضهم ، وأحسب أن الصواب تقييده بما كان بعد هاء كما مثلوا به .

ولم أجد أحدا مثل بغير ذلك فإن نص على غيره أحد يوثق به رجعنا إليه وإلا فالأمر كما ظهر لنا ، انتهى .

" الخاطئين " قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وصلا ووقفا ، وكذلك قرأ حمزة عند الوقف وله وجه ثان وهو تسهيلها بين بين ، ولا يخفى ما فيه من البدل لورش وهو آخر الربع .

الممال

وجاءوا معا ، وجاءت لابن ذكوان وحمزة وخلف ، فأدلى ومثواه وعسى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلفه ، يا بشرى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش . وورد عن البصري ثلاثة أوجه: الفتح وهو أقواها ويليه الإمالة ويليها التقليل وهو أضعفها اشتراه بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش . الناس لدوري البصري . مثواي بالإمالة لدوري الكسائي ، وبالتقليل لورش بخلف عنه . رآى معا . بإمالة الراء والهمزة لابن ذكوان وشعبة والأخوين وخلف وبتقليلهما لورش وبإمالة الهمزة وحدها لأبي عمرو . وسبق أن قلنا إن إمالة السوسي الراء ليست من طريق الحرز فلا يقرأ له بها ، ولا إمالة في لدا الباب عند الوقف على لدا .

المدغم

" الصغير " بل سولت لهشام والأخوين . وجاءت سيارة للبصري والأخوين وخلف .

" الكبير " دراهم معدودة ، ليوسف في الأرض ، لك قال ، ، وشهد شاهد ، إنك كنت وله في يخل لكم وجهان الإظهار والإدغام .

" امرأت العزيز " رسم بالتاء ووقف عليه بالهاء المكي والبصريان والكسائي والباقون بالتاء

" يمكرهن " إليهن ، لهن ، عليهن ، أيديهن . منهن ، كيدهن ، لا يخفى ما فيه ليعقوب .

" متكأ " قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة فيصير النطق بكاف منصوبة منونة بعد التاء .

ومعلوم إنه إذا وقف ببدل التنوين ألفا ، ووقف حمزة عليه بالتسهيل فقط .

" وقالت اخرج " قرأ البصريان وعاصم وحمزة بكسر التاء وصلا ، والباقون بضمها كذلك

" حاش لله " قرأ البصري بألف بعد الشين وصلا ، والباقون بالحذف ، ولا خلاف بين العشرة في حذف الألف وقفا اتباعا لرسم المصحف .

" قال رب السجن " قرأ يعقوب بفتح السين والباقون بكسرها .

" يدعونني إليه " اتفقوا على إسكان الياء في الحالين .

" إني أراني معا " فتح الياء المدنيان والبصري وأسكنها غيرهم .

" أراني أعصر وأراني أحمل " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم .

" رأس ورأسه " إبداله للسوسي وأبي جعفر مطلقا ولحمزة وقفا لا يخفى .

" تأكل الطير ، منه ، بتأويله ، يأتيكما ، كافرون ، خير ، فيصلب ، فتأكل ، فيه ، ذكر ، لا يخفى ما فيه .

" نبئنا " أبدل حمزة وصلا ووقفا أبو جعفر وحده وفي الوقف حمزة .

" ترزقانه " قرأ ابن وردان بكسر الهاء من غير صلة والباقون بالكسر مع الصلة .

" نبأتكما " أبدل همزه مطلقا السوسي وأبو جعفر وفي الوقف حمزة .

" ربي إني " فتح الياء المدنيان والبصري وأسكنها غيرهم .

" آبائي إبراهيم " قرأ الكوفيون ويعقوب بإسكان الياء وصلا والباقون بفتحها كذلك ولا خلاف بينهم في الإسكان وقفا وحينئذ يكون المد من قبيل البدل فيجري ورش على أصله من الأوجه الثلاثة فيكون له في الكلمة بدلان .

" ءأرباب " مثل ءأنذرتهم لجيع القراء .

" إني أرى " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها سواهم .

" سنبلات خضر معا " أخفى التنوين في الخاء مع الغنة أبو جعفر وأظهره غيره .

" الملأأفتوني " قرأ المدنيان والمكي والبصري ورويس بإبدال الثانية واوا خالصة والباقون بتحقيقها وحقق الجميع الأولى .

" رؤياي ، للرؤيا " أبدل الهمزة فيهما وصلا ووقفا السوسي وأما أبو جعفر فقرأ بالإبدال مع قلب الواو المبدلة من الهمزة ياء وإدغامها في الياء بعدها ، ولحمزة عند الوقف وجهان: أحدهما كالسوسي والآخر كأبي جعفر .

" أنا أنبئكم " قرأ المدنيان بإثبات ألف أنا وصلا ويترتب على هذا أن يكون المد منفصلا فكل فيه على أصله والباقون بحذفها وصلا . واتفقوا على إثباتها وقفا ولحمزة في الوقف

على أنبئكم التسهيل والإبدال ياء خالصة .

" فأرسلون " أثبت يعقوب الياء في الحالين وحذفها الباقون كذلك .

" لعلي أرجع " أسكن الياء الكوفيون ويعقوب وفتحها الباقون .

" دأبا " قرأ حفص بفتح الهمزة والباقون بإسكانها ، وأبدل الهمز السوسي وأبو جعفر مطلقا ، وكذلك حمزة وقفا .

" يعصرون " قرأ الأخوان وخلف بتاء الخطاب والباقون بياء الغيبة ورقق ورش الراء ،

" وقال الملك ائتوني به " تقدم مثله .

" فسأله " قرأ المكي والكسائي وخلف في اختياره بنقل حركة الهمزة إلى السين مع حذف الهمزة والباقون بإسكان السين وهمزة مفتوحة بعدها .

" حاش لله " تقدم آنفا .

" من سوء " فيه لحمزة وهشام النقل والإدغام وعلى كل السكون والروم فتصير الأوجه أربعة .

" الآن " نقل ورش وابن وردان حركة الهمزة إلى اللام مع حذف الهمزة .

" الخائنين " فيه لحمزة وقفا تسهيل الهمز مع المد والقصر ، وهو آخر الربع .

الممال

" فتاها " فأنساه بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلفه . لنراها وأراني معا ونراك ونرى وأرى بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش . الناس كله لدوري البصري . رؤياي بالإمالة للكسائي والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . للرؤيا بالإمالة للكسائي وخلف في اختياره وبالتقليل للبصري وورش بخلف عنه . جاءه لابن ذكوان وخلف وحمزة .

واعلم أنه لا إمالة في بدا ونجا لكونهما واويين .

المدغم

" الصغير " قد شغفها للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " قال رب . . إنه هو . قال لا يأتيكما . وقال للذي . ذكر ربه . من بعد ذلك معا ولا إدغام في الأحلام بعالمين لسكون ما قبل الميم .

" أبرئ " الوقف عليها لهشام وحمزة كالوقف عل يستهزئ .

" نفسي إن " فتح الياء المدنيان والبصري وأسكنها غيرهم .

" بالسوء إلا " قرأ قالون والبزي بإبدال الهمزة الأولى واوا مع إدغام الواو التي قبلها فيها فيصير النطق بواو واحدة مكسورة مشددة وبعدها همزة محققة . ولهما وجه آخر وهو تسهيل الأولى مع المد والقصر . وقرأ ورش قنبل وأبو جعفر ورويس بتسهيل الثانية بين بين

وعن ورش وقنبل إبدالها حرف مد مع المد المشبع للساكنين . وقرأ البصري بإسقاط الأولى مع القصر والمد والباقون بتحقيقها .

" ربي إن " حكمها حكم : نفسي إن .

" الملك ائتوني " . أستخلصه . خير . عليه . منكر قال ائتوني . أبيهم . وهو إليهم . ونمير . العير . عليهم . فهو . كله واضح . يتبوأ . وقف حمزة وهشام بإبدال الهمزة ألفا وبتسهيلها بين بين مع الروم .

(60/390)

" حيث يشاء " . قرأ المكي بالنون والباقون بالياء التحتية ولا خلاف بينهم في قراءة من نشاء بالنون .

" وجاء إخوة " سهل الثانية كالياء المدنيان والمكي والبصري ورويس وحققها الباقون ولا خلاف في تحقيق الأولى .

" أني أوف " فتح الياء المدنيان وأسكنها غيرهما لا يخفى ما لورش من ثلاثة البدل .

" تقربون " أثبت يعقوب الياء في الحالين وحذفها غيره كذلك .

" لفتيانه " قرأ حفص والأخوان وخلف بألف بعد الياء ونون مكسورة بعد الألف والباقون

بحذف الألف بعد الياء وبتاء مسكورة بعد الياء .

" نكتل " قرأ الأخوان وخلف بالياء التحتية والباقون بالنون .

" حافظا " قرأ حفص والأخوان وخلف بفتح الحاء وألف بعد الحاء وكسر الفاء والباقون بكسر الحاء وإسكان الفاء .

" ما نبغي " ياؤه ثابتة للجميع وصلا ووقفا .

. حتى تؤتون . أثبت أبو عمرو وأبو جعفر الياء وصلا وحذفاها وقفا وأثبتها المكي ويعقوب في الحالين وحذفها الباقون مطلقا .

" يا بني " وقف عليه يعقوب بهاء السكت .

إني أنا " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها الباقون .

" أنا أخوك " أثبت ألف أنا وصلا المدنيان وحذفها غيرهما وصلا واتفقوا على الإثبات وقفا .

" تبتئس " وقف عليه حمزة بالتسهيل فقط .

" مؤذن " أبدل الهمزة واوا خالصة مطلقا ورش وأبو جعفر وفي الوقف حمزة .

" وعاء أخيه " معا أبدل الهمزة الثانية ياء خالصة مفتوحة المدنيان والمكي والبصري ورويس وحققها الباقون ، وحقق الجميع الأولى .

" نرفع درجات من نشاء " قرأ يعقوب بالياء التحتية في نرفع ونشاء والباقون بالنون فيهما

وقرأ الكوفيون بتنوين درجات والباقون بحذف التنوين .

" عليم " آخر الربع .

المال

وجاء لابن ذكوان وخلف وحمزة . قضاها وآوى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . الناس لدوري البصري .

المدغم

(61/390)

" الكبير " ليوسف في الأرض " نصيب برحمتنا " يوسف فدخلوا ، كيل لكم وقال لفتيته ، ذلك كيل ، قال لن " نفقد صواع " كذلك كدنا ، ولا إدغام في وفوق كل لأن ما قبل القاف ساكن .

" استيأسوا " قرأ البزي بخلف عنه بتقديم الهمزة وجعلها في موضع الياء مع إبدالها ألفا . وتأخير الياء وجعلها في موضع الهمزة فيصير النطق بألف بعد التاء المفتوحة وبعدها ياء مفتوحة وقرأ الباقون بياء ساكنة بعد التاء وبعد الياء الساكنة همزة مفتوحة وهو الوجه الثاني للبزي .

ولورش فيه التوسط والطول كهيئة ، ولحمزة فيه وقفا وجهان: الأول النقل وهو نقل حركة الهمزة إلى الياء مع حذف الهمزة فينطق بياء مفتوحة بعد التاء وبعد الياء المفتوحة السين المضمومة . الثاني الإدغام أعني إبدال الهمزة ياء مع إدغام الياء التي قبلها فيها فيصير النطق بياء واحدة مفتوحة مشددة بعد التاء وبعد الياء المذكورة سين مضمومة .

" منه "كبيرهم " يأذن " وهو ، خير ، واسأل ، والعير ، الخاسرون ، وأخيه لخاطئين . يغفر ، وهو البشير . أستغفر . رؤياي ، بصيرا . فصلت العير . جلي .

" لي أبي " فتح الياء المدنيان والبصري وأسكنها غيرهم .

" أبي أو " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم .

" يا أسفى " وقف عليه رويس بهاء السكت مع المد المشبع .

" تفتؤا " رسمت الهمزة فيه على واو ، ولهشام وحمزة فيه وفي أمثاله وقفا خمسة أوجه: إبدالها ألفا على القياس . وإبدالها واوا ساكنة مع السكون المحض والإشمام والروم على الرسم وتسهيلها بالروم .

" وحزني إلى الله " فتح الياء المدنيان والبصري والشامي وأسكنها سواهم .

" ولا تيأسوا ، لا ييأس " فيهما من القراءات ما في استيأسوا .

" أئنك " قرأ المكي وأبو جعفر بهمزة واحدة مكسورة على الإخبار والباقون بهمزتين: الأولى مفتوحة والثانية مكسورة على الاستفهام وسهل الهمزة الثانية مع إدخال ألف الفصل قالون والبصري ، وسهلها من غير إدخال ورش ورويس ولهشام وجهان التحقيق مع الإدخال وتركه وللباقين التحقيق بلا إدخال .

" يتقي " قرأ قنبل بإثبات ياء بعد القاف وصلا ووقفا ، والباقون بحذفها كذلك .

" تفندون " أثبت يعقوب الياء وصلا ووقفا وحذفها الباقون كذلك .

" إني أعلم " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم .

" ربي إنه " فتح الياء المدنيان والبصري وأسكنها سواهم .

" مصر " لا خلاف في تفخيم الراء وصلا ، وأما في الوقف ففيه التفخيم والترقيق والأول أقوى .

" يا أبت " تقدم أول السورة .

" بي إذ " فتح الياء المدنيان والبصري وسكنها غيرهم .

" إخوتي " فتح الياء ورش وأبو جعفر وسكنها غيرهما .

" يشاء إنه " سبق مرارا .

" الحكيم " آخر الربع .

الممال

نراك بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش . عسى الله عند الوقف وتولى ومزجاة وألقاه وآوى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . يا أسفى بالإمالة للأصحاب وبالتقليل لدوري البصري وورش بخلف عنه ، وقد ذكر صاحب غيث النفع أن للدوري عن البصري الفتح أيضا قال وكلاهما ثابت صحيح إلا أن الفتح أصح لأنه مذهب الجمهور وبه قرأ الداني على أبي الحسن وهو المأخوذ به من التيسير لأنه لم يذكره في الألفاظ المقللة للدوري فيؤخذ منه أنه بالفتح وكان حق الشاطبي أن يذكره لأنه التزم نظم التيسير ويكون التقليل الذي ذكره من الزيادات . انتهى مع تصرف واختصار .

جاء معا وشاء لابن ذكوان وخلف وحمزة . رؤياي بالإمالة للكسائي وبالتقليل للبصري وورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " فقد سرق للبصري وهشام والأخوين وخلف . بل سولت لهشام والأخوين .

استغفر لنا ، للبصري بخلف عن الدوري . قد جعلها للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " يوسف في نفسه ، أعلم بما ، يوسف فلن ، يأذن لي ، إنه هو الثلاثة ، وأعلم من الله ، قال لا تثريب . أعلم من الله ، أستغفر لكم ، تأويل رؤياي .

" فاطر لديهم " ذكر يسيروا . خير ، بأسنا ، لا يخفى .

" وكأين " سبق مثله في آل عمران .

" سبيلي أدعو " فتح الياء المدنيان وأسكنها غيرهما .

" ومن اتبعني " اتفقوا على إثبات يائه في الحالين .

" نوحي إليهم " قرأ حفص بالنون وكسر الحاء والباقون بالياء التحتية وفتح الحاء وضم هاء إليهم يعقوب وحمزة .

" تعقلون " قرأ المدنيان والشامي وعاصم ويعقوب بتاء الخطاب والباقون بياء الغيبة .

" استيأس " تقدم حكمه قريبا .

"كذبوا " خفف الذال الكوفيون وأبو جعفر وشددها الباقون .

" فنجي " قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بنون واحدة مضمومة وبعدها جيم مشددة وبعد الجيم ياء مفتوحة . والباقون بنونين: الأولى مضمومة والثانية ساكنة وبعد الثانية جيم مخففة ، وبعد الجيم ياء ساكنة مدية .

" تصديق " قرأ الأخوان ورويس وخلف بإشمام الصاد الزاي والباقون بالصاد الخالصة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 162 . 171 ﴾

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

ومن سورة يوسف

قال ابن خالويه :

قوله تعالى يا أبت يقرأ بفتح التاء وكسرها فالحجة لن فتح أنه أراد يا أبة بالهاء ثم رخم الهاء فبقي يا أب ثم أعاد إلى الاسم هاء السكت وأدرج فبقيت

سورة يوسف الهاء على فتحها كقولك يا طلح في الترخيم ثم تأتي بالهاء فتقول يا طلحة أقبل قال النابغة كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب فهذه الهاء ليست التي كانت في الاسم ولكنها المردودة بعد الحذف والدليل على ذلك فتحها والحجة لمن كسرها أنه أراد الإضافة إلى النفس فاجتزأ بالكسرة من الياء لكثرة الحذف في النداء فأما الوقف على يا ابت فبالهاء والتاء والحجة لمن وقف بالهاء أنه شبهها بالهاء التي في عمة وخالة فإذا وقف على هذه أخلص لفظها هاء وإنما الهاء ها هنا عوض عن ياء الإضافة لأنهم كانوا يحذفونها كما يحذفون التنوين فجاءوا بهذه الهاء في الأم توكيدا للتأنيث وفي الأب إذ لم يكن له تأنيث من لفظه لأنك تقول أبوان لأم وأب ولا تقول لهما أمان فصار أب وأبه

اسمين للأب معا ولا يقع هذا في غير النداء والحجة لمن وقف عليها بالتاء أن أصل كل هاء وقعت للتأنيث فرقا أن ترد إلى التاء في الوقف والدرج لأن التاء الأصل والدليل على ذلك قولك قامت جاريتك فالتاء الأصل لأنه قد تدخل الهاء في أسماء المذكر وصفاته فلذلك ردت الهاء إلى التاء قوله تعالى آيات للسائلين يقرأ بالتوحيد والجمع فالحجة لمن وحد أنه جعل أمر يوسف عليه السلام كله عبرة وآية ودليله قوله لقد كان في قصصهم عبرة

يقل عبرا ويكون قد ناب بالواحد عن الجميع كقوله أو الطفل والحجة لمن جمع أنه جعل كل فعل من أفعاله آية فجمع لذلك وسهله عليه كتبها في السواد بالتاء ووزن آية عند الفراء فعلة أية وعند الكسائي فاعلة آيية وعند سيبويه فعلة أيية قوله تعالى مبين اقتلوا يقرا بضم التنوين وكسره وقد ذكرت علته في النساء قوله تعالى إن كنتم للرؤيا تعبرون يقرا بالتفخيم والإمالة فالحجة لمن فخم أنه أتى به على الأصل والحجة لمن أمال أنه دل بالإمالة على أن ألفها ألف تأنيث لأنها راجعة إلى التاء لفظا وروي عن الكسائي أنه أمال هذه وفتح قوله لا تقصص رؤياك فإن كان فعل ذلك ليفرق بين النصب والخفض فقد وهم وإن كان أراد الدلالة على جواز اللغتين فقد أصاب لأن اللفظ بهما للقصر الذي فيهما واحد في جميع وجوه الإعراب

قوله تعالى في غيابة الجب يقرا بالتوحيد والجمع فالحجة لمن وحد أنه أراد موضع وقوعه فيه وما غيبه منه لأنه جسم واحد شغل مكانا واحدا والحجة لمن جمع أنه أراد ظلم البئر ونواحيه فجعل كل مكان في غيابة قوله تعالى نرتع ونلعب يقرآن بالنون والياء وبكسر العين وإسكانها فالحجة لمن قرأهما بالنون أنه أخبر بذلك عن جماعتهم والحجة لمن قرأه بالياء أنه أخبر بذلك عن يوسف دون إخوته والحجة لمن أسكن العين أنه أخذه من رتع يرتع

(66/390)

إذا اتسع في الأرض مرحا ولهوا ونلعب نلهو ونسر والحجة لمن كسرها أنه أخذه من الرعى واصله إثبات الياء فيه فحذفها دلالة على الجزم لأنه جواب للطلب في قولهم أرسله معنا فبقيت العين على الكسر الذي كانت عليه فإن قيل كيف يلعبون وهم أنبياء فقل لم يكونوا إذ ذاك أنبياء قوله تعالى لئن أكله الذئب يقرأ الذئب بإثبات الهمزة وتركها فالحجة لمن همز أنه اتى به على أصله لأنه مأخوذ من تذؤب الريح وهو هبوبها من كل وجه فشبه بذلك لأنه إذا حذر من وجه أتى من آخر والحجة لمن ترك الهمزة أنها ساكنة فأراد بذلك التخفيف قوله تعالى يا بشراي يقرأ بإثبات الألف وفتح الياء وبطرحها وإسكان الياء فالحجة لمن أثبتها أنه أراد الإضافة إلى نفسه كقوله يا حسرتي ويا ويلتي والحجة لمن طرح أنه جعله اسم غلام

مأخوذ من البشارة مبني على وزن فعلى فأما الإمالة فيه فلمكان الراء وحقيقتها على الياء فأشار بالكسر إلى الراء ليقرب من لفظ الياء قوله تعالى هيت لك يقرأ بفتح الهاء وكسرها وبضم التاء وفتحها فالحجة لمن فتح الهاء وضم التاء أنه شبهه ب حيث ومن كسر الهاء وفتح التاء فإنما كسرها لمكان الياء والحجة لمن فتح الهاء والتاء أنه جعله مثل الهاء في هلم وفتح التاء لأنها جاءت بعد الياء الساكنة كما قالوا أين وليت وكيف قوله تعالى إنه من عبادنا المخلصين يقرأ بفتح اللام وكسرها فالحجة لمن فتح أنه أراد أسم المفعول به من قولك أخلصهم الله فهم مخلصون والحجة لمن كسر أنه أراد اسم الفاعل من أخلص فهو مخلص ومنه قوله تعالى في سورة مريم إنه كان مخلصا

قوله تعالى حاشى لله يقرأ بإثبات الألف في آخره وصلا ووقفا وبحذفها في الوجهين معا فالحجة لمن أثبتها أنه اخذه من قولك حاشى يحاشي والحجة لمن حذف أنه اكتفى بالفتحة من الألف فحذفها واتبع فيها خط السواد ومعناها ها هنا معاذ الله وهي عند النحويين بمعنى أستثني واستشهدوا بقول النابغة وما أحاشي من الأقوام من أحد قوله تعالى دأبا يقرأ بإسكان الهمزة وفتحها فالحجة لمن أسكن أنه أراد المصدر والحجة لمن فتح أنه أراد الاسم

ويجوز أن يكون أصله الفتح فأسكن تخفيفا والعرب تستعمل ذلك فيما كان ثانيه حرفا من حروف الحلق مثل النهر والمعز والدأب معناه المداومة على الشيء وملازمته والعادة قال الكميت هل تبلغنيكم المذكرة ال وجناء والسير مني الدأب

(68/390)

والاختيار السكون لإجماعها عليه في قوله كدأب آل فرعون قوله تعالى وفيه يعصرون يقرأ بالياء والتاء فالحجة لمن قرأ بالياء أنه رده على قوله فيه يغاث الناس ومن قرأه بالتاء فحجته أنه خصهم بذلك دون الناس قوله تعالى حيث يشاء يقرأ بالياء والنون فالحجة لمن قرأه بالياء أنه جعل الفعل ليوسف والحجة لمن قرأه بالنون أنه جعل الإخبار بالفعل لله تعالى لأن المشيئة له لا ليوسف إلا بعد مشيئته عز وجل قوله تعالى وقال لفتيته يقرأ بالياء والتاء وبالألف والنون فالحجة لمن قرأه بالياء أنه أراد الجمع القليل مثل غلمة وصبية والحجة لمن قرأه بالألف والنون أنه أراد الجمع الكثير مثل غلمان وصبيان فإن قيل وزن فتى فعل وفعل لا يجمع على فعلة فقل لما وافق غلمانا في الجمع الكثير جمعوا بينهما في القليل ليوافقوا بينهما قوله تعالى نكتل يقرأ بالنون والياء فالحجة لمن قرأه بالياء أنه أراد انفراد كل واحد منهم بكيله والحجة لمن قرأه بالنون أنه أخبر بذلك عن جماعتهم وأدخل أخاهم في الكيل معهم وأصله نفتعل

فاستثقلوا الكسرة على الياء فحذفت فانقلبت الياء ألفا لانفتاح ما قبلها فالتقى ساكنان فحذفت لالتقاء الساكنين

(69/390)

قوله تعالى فلما استيأسوا منه يقرأ بتقديم الياء قبل الهمزة فيكون الياء فاء الفعل وبتقديم الهمزة قبل الياء فيكون الياء عين الفعل ومثله حتى إذا استيأس الرسل فالحجة لمن جعل الياء فاء الفعل أنه أخذه من قولهم يئس ييأس يأسا والحجة لمن جعل الهمزة فاء الفعل أنه أخذه من قولهم أيس يأيس إياسا وقد قرئ بتخفيف الهمزة فالحجة لمن خففها وجعل الياء فاء الفعل أنه يجعلها ياء مشددة لأنه أدغم فاء الفعل لسكونها في العين وحركها بحركتها والحجة لمن خففها والهمزة فاء الفعل أنه يجعلها ألفا خفيفة للفتحة قبلها قوله تعالى خير حافظا يقرأ بإثبات الألف بعد الحاء وبحذفها والأصل فيهما والله خيركم حفظا وحافظا فنصب قوله حفظا على التمييز ونصب قوله حافظا على الحال ويحتمل التمييز وإنما كان أصله الإضافة فلما حذفها خلفها بالتنوين فإن قيل فما الفرق بين قولهم زيد أفره عبد بالخفض وزيد أفره عبدا بالنصب فقل إذا خفضوا فالفاره هو العبد وإنما مدحته في ذاته وإذا نصبوا فالعبد غير زيد ومعناه زيد أفرهكم عبدا أو أفره عبدا من غيره فهذا فرقان بين

(70/390)

قوله تعالى إلا رجالا يوحى إليهم يقرا بالياء والنون وفتح الحاء مع الياء وكسرها مع النون فالحجة لمن قرأه بالياء أنه جعله فعل ما لم يسم فاعله والحجة لمن قرأه بالنون أنه جعله من إخبار الله تعالى عن نفسه بالنون قوله تعالى أئنك يقرأ بهمزتين محققتين وبهمزة ومدة وياء بعدها وبالإخبار من غير استفهام فالحجة لمحقق أن الأولى للاستفهام والثانية همزة إن فأتى بهما على أصلهما والحجة لمن همزه ومد وأتى بالياء أنه فرق بين الهمزتين بمدة ثم لين الثانية فصارت ياء لانكسارها والحجة لمن أخبر ولم يستفهم أجابته لهم بقوله أنا يوسف ولو كانوا مستفهمين لأجابهم بنعم أولا ولكنهم أنكروه فأجابهم محققا قوله تعالى إنه من يتق ويصبر القراءة بكسر القاف وحذف الياء علامة للجزم بالشرط إلا ما رواه قنبل عن ابن كثير بإثبات الياء وله في إثباتها وجهان أحدهما أن من العرب من يجرى الفعل المعتل مجرى الصحيح فيقول لم ياتي زيد وأنشد ألم يأتيك والأنباء تنمى بما لاقت لبون بني زياد والاختيار في مثل هذا حذف الياء للجازم لأن دخول الجازم على الأفعال يحذف الحركات الدالة على الرفع إذا وجدها فإن عدمها لعلة حذفت الحروف التي تولدت منها

(71/390)

الحركات لأنها قامت مقامها ودلت على ما كانت الحركات تدل عليه وإنما يجوز إثباتها مع الجازم في ضرورة الشاعر والوجه الثاني أنه أسقط الياء لدخول الجازم ثم بقى القاف على كسرتها وأشبعها لفظا فحدثت الياء للإشباع كما قال الشاعر أقول إذ خرت على الكلكال يا ناقتي ما جلت من مجال قوله تعالى أنهم قد كذبوا يقرأ بتشديد الذال وتخفيفها فالحجة لمن شدد أنه جعل الظن للأنبياء بمعنى العلم يريد ولما علموا أن قومهم قد كذبوهم جاء الرسل نصرنا والحجة لمن خفف أنه جعل الظن للكفرة بمعنى الشك وتقديره وظن الكفرة أن الرسل قد كذبوا فيما وعدوا به من النصر قوله تعالى فننجي يقرأ بجيم مشددة وفتح الياء وبنونين وسكون الياء فالحجة لمن قرأه بنون واحدة أنه جعله فعلا ماضيا بني لما لم يسم فاعله وسهل ذلك عليه كتابته في السواد بنون واحدة لأنها خفيت للغنة لفظا فحذفت خطا والحجة لمن قرأه بنونين أنه دل بالأولى على الاستقبال وبالثانية على الأصل وأسكن الياء علما للرفع. انتهى انتهى. اهـ ﴿الحجة فى القراءات السبعة صـ 191.

199﴾

وقال ابن زنجلة :

12 - سورة يوسف عليه السلام

إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت 4

قرأ ابن عامر يا أبت بفتح التاء في جميع القرآن

وقرأ الباقون بكسر التاء على الإضافة إلى نفسه الأصل يا أبي فحذفت الياء لأن ياء الإضافة تحذف في النداء كما يحذف التنوين

وتبقى الكسرة تدل على الياء كما تقول رب اغفر لي وفي التنزيل رب قد آتيتني من الملك و يا قوم والأصل يا قومي فحذفت الياء وإنما تحذف في النداء لأن باب النداء باب التغيير والحذف وأما إدخال تاء التأنيث في الأب فقال قوم إنما دخلت للمبالغة كما تقول علامة ونسابة فاجتمع ياء المتكلم والتاء التي للمبالغة فحذفوا الياء لأن الكسرة تدل عليها

وقال الزجاج إن التاء كثرت ولزمت في الأب عوضا عن ياء الإضافة فلهذا كسرت التاء لأن الكسرة أخت الياء ومن فتح فله وجهان أحدهما أن يكون أراد يا أبتا فأبدل من ياء الإضافة ألفا ثم حذف الألف كما تحذف الياء وتبقى الفتحة دالة على الألف كما أن الكسرة تدل على الياء والوجه الآخر أنه إنما فتح التاء لأن هذه التاء بدل من ياء المتكلم واصل ياء المتكلم الفتح فتقول يا غلامي وإنما قلنا ذلك لأن الياء هو اسم والاسم إذا كان على حرف واحد فأصله الحركة فتكون الحركة تقوية للاسم فلما كان أصل هذه الياء

الفتحة كان الواجب أن تفتح لأنها بدل من الحرف الذي هو أصله ليدل على المبدل

وقف ابن كثير وابن عامر يا أبه على الهاء وحجتهما أن التغييرات تكون في حال الوقف

دون الإدراج فتقول رايت زيدا فتقف عليه بالألف ووقف الباقون بالتاء وحجتهم أن هذه

التاء بدل من الياء فكما أن الياء على صورة واحدة في الوصل والوقف فكذلك البدل

يجب أن يكون مثل المبدل منه على صورة واحدة

لقد كان في يوسف وإخوته ءايت للسائلين 7

قرأ ابن كثير آية للسائلين أي عبرة وحجته قوله لقد كان في قصصهم عبرة ولم يقل عبر كأنه جل

شأنه كله آية كما قال جل وعز وجعلنا ابن مريم وأمه آية فأفرد كل واحد منهما آية

وقرأ الباقون آيات للسائلين على الجمع أي عبر جعلوا كل حال من أحوال يوسف آية وعبرة

وحجتهم في ذلك أنها كتبت في المصحف بالتاء

وألقوه في غيابة الجب 10

قرأ نافع في غيابات الجب بالألف أراد ظلم البئر ونواحيها لأن البئر لها غيابات فجعل كل

جزء منها غيابة فجمع على ذلك

وقرأ الباقون غيابة وحجتهم أنهم ألقوه في بئر واحدة في مكان واحد لا في أمكنة

أرسله معنا غدا يرتع ويلعب 12

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر نرتع ونلعب بالنون أخبر الإخوة عن أنفسهم وحجتهم ذكرها الزيدي قال وتصديقها قوله بعدها إنا ذهبنا نستبق فكأن اليزيدي ذهب إلى أنهم أسندوا جميع ذلك إلى جماعتهم إذ أسندوا الاستباق قيل لأبي عمرو

فكيف يلعبون وهم أنبياء الله فقال إذ ذاك لم يكونوا أنبياء الله

وقرأ أهل المدينة والكوفة يرتع ويلعب بالياء إخبارا عن يوسف وبذلك جاء تأويل أهل التأويل في ذلك قال ابن عباس يرتع ويلعب أي يلهو وينشط ويسعى وحجتهم في ذلك أن القوم إنما كان قولهم ذلك ليعقوب اختداعا منهم إياه عن يوسف إذ سألوه أن يرسله معهم لينشط يوسف لخروجه إلى الصحراء ويلعب هناك لا أنهم أرادوا إعلامه بما لهم من الرفق والفائدة لخروجه

قرأ نافع وابن كثير نرتع بكسر العين أي يرعى ماشيته ويرعى المال كما يرعاه الراعي وهو يفتعل من الرعاية تقول ارتعى القوم إذا تحارسوا ورعى بعضهم بعضا وحفظ بعضهم بعضا ويقال رعاك الله أي حفظك والأصل نرتعي فسقطت الياء للجزم لأنه جواب الأمر

وقرأ الباقون يرتع بجزم العين أي يأكل يقال رتعت الإبل وأنا أرتعتها إذا تركتها ترعى كيف شاءت قال الشاعر . . . ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت . . . فإنما هي إقبال وإدبار

...

وكذلك الإنسان يقال رتع يرتع رتعا فهو راتع

(74/390)

وعلامة الجزم سكون العين في هذه القراءة وإنما انجزم لأنه جواب الأمر المعنى أرسله إن ترسله يرتع ويلعب

وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون 13

قرأ أبو عمرو والكسائي وورش عن نافع الذيب بغير همز وقرأ الباقون بالهمز وهو الأصل لأنه مأخوذ من تذاء بت الريح إذا أتت من كل ناحية فكأنه شبه من خفته وسرعة حركته بالريح

قال يا بشرى هذا غلام 19

قرأ عاصم وحمزة والكسائي يا بشرى بترك الإضافة فيها وجهان أحدهما أنهم جعلوه اسم رجل فيكون دعا إنسانا اسمه بشرى وحجتهم ما قد روي عن جماعة من المفسرين أنهم قالوا كان اسمه بشرى فدعاه المستقي باسمه كما يقال يا زيد فيكون بشرى في موضع رفع بالنداء والوجه الآخر أن يكون أضاف البشرى إلى نفسه ثم حذف الياء وهو يريدها كما

تقول يا غلام لا تفعل يكون مفردا بمعنى الإضافة

وقرأ الباقون يا بشراي بإثبات ياء الإضافة وفتحها أضاف البشرى إلى نفسه وإنما فتحوا الياء على اصلها لئلا يلتقي ساكنان فجرت مجرى عصاي و بشراي في موضع نصب كما تقول يا غلام زيد

وقالت هيت لك 23

قرأ أهل العراق هيت لك بفتح الهاء والتاء أي هلم وتعال وأقبل إلى ما أدعوك إليه وحجتهم قول الشاعر . . . ابلغ أمير المؤمنين . . . أخا العراق إذا أتيتا . . . أن العراق وأهله . . . عنق إليك فهيت هيتا

قال الزجاج أما فتح التاء في هيت فلأنها بمنزلة أصوات ليس منها فعل يتصرف ففتحت التاء لسكونها وسكون الياء واختير الفتح لأن قبل التاء ياء كما قالوا كيف وأين

وقرأ أهل المدينة والشام هيت وهي لغة وقرأ ابن كثير هيت بفتح الهاء وضم التاء وحجته قول الشاعر . . . ليس قومي بالأبعدين إذا ما . . . قال داع من العشيرة هيت . . . هم يجيبون ذا هلم سراعا . . . كالأبابيل لا يغادر بيت . . .

فأما الضم من هيت فلأنها بمعنى الغايات كأنها قالت دعائي لك فلما حذفت الإضافة وتضمنت هيت معناها بنيت على الضم كما بنيت حيث

وقرأ هشام هئت بالهمز من الهيئة كأنها قالت تهيأت لك

إنه من عبادنا المخلصين 24

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر المخلصين بكسر اللام في جميع القرآن أي أخلصوا دينهم

وأعمالهم من الرياء وحجتهم قوله وأخلصوا دينهم وقوله مخلصا له ديني فإذا

أخلصوا فهم مخلصون تقول رجل مخلص مؤمن فترى الفعل في اللفظ له

وقرأ أهل المدينة والكوفة المخلصين بفتح اللام أي الله أخلصهم من الأسواء والفواحش

فصاروا مخلصين وحجتهم قوله تعالى إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار فصاروا مخلصين

بإخلاص الله إياهم

وقلن حاش لله 31

قرأ أبو عمرو وقلن حاشا لله بالألف وحجته ذكرها اليزيدي فقال يقال حاشاك

وحاشا لك وليس أحد من العرب يقول حاشك ولا حاش لك

وقرأ الباقون حاش لله وحجتهم أنها مكتوبة في المصاحف بغير ألف حكى أبو عبيد عن

الكسائي أنها في مصحف عبد الله كذلك وأصل الكلمة التبرئة والاستثناء واختلف

النحويون في حاشا منهم من قال إنه فعل ومنهم من قال إنه حرف

قال تزرعون سبع سنين دأبا وفيه يعصرون 47 و49

قرأ حفص سبع سنين دأبا بفتح الهمزة و قرأ الباقون ساكنة الهمزة وهما لغتان مثل النهر والنهر والظعن والظعن وكل اسم كان ثانيه حرفا من حروف الحلق جاز حركته وإسكانه

قرأ حمزة والكسائي وفيه تعصرون بالتاء أي تنجون من

البلاء وتعتصمون بالخصب قال عدي بن زيد . . . لو بغير الماء حلقي شرق . . . كنت كالغصان بالماء اعتصاري . . .

وقال مؤرج العصر الملجأ فعنى تعصرون أي تلجؤون إلى العصر وحجتهما قوله تزرعون سبع سنين و تأكلون ومما تحصنون 48 كأنما وجه الخطاب إلى المستفتين الذين قالوا أفتنا في كذا

وقرأ الباقون يعصرون بالياء أي يعصرون الزيت والعنب وحجتهم ذكرها اليزيدي فقال يعني الناس ذهب اليزيدي إلى أنه لما قرب الفعل من الناس جعله لهم

يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين 56

قرأ ابن كثير حيث نشاء بالنون الله أخبر عن نفسه وحجته ما بعده وهو نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع

وقرأ الباقون حيث يشاء أي يوسف كأنه قال يتبوأ يوسف

وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم 62

وقرأ حمزة والكسائي وحفص وقال لفتيانه بالألف مثل جار وجيران وتاج وتيجان والفتيان للكثير من العدد وحجتهم قوله اجعلوا بضاعتهم في رحالهم فكما أن الرحال للعدد الكثير فكذلك المتولون ذلك لأن الجمع القليل أرحل ويقوي هذه قول النبي صلى الله عليه وقد مر بقوم يربعون حجرا فقال

فتيان الله أشد من هؤلاء

وقرأ الباقون لفتيته جمع فتى في العدد القليل مثل أخ وإخوة وقاع وقيعة وحجتهم قوله جل وعز إذ أوى الفتية إلى الكهف وقوله إنهم فتية آمنوا بربهم فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه قال الكسائي هما لغتان مثل إخوان وإخوة وصبيان وصبية وغلمان وغلمة منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحفظون 63

قرأ حمزة والكسائي أخانا يكتل بالياء أي أخونا يكتال قال الفراء من قال يكتل بالياء قال يصيبه كيل لنفسه فجعل الفعل له خاصة لأنهم يزدادون بحضوره كيل بعير وحجتهما أنه قرب من الفعل فأسند إليه

وقرأ الباقون نكتل بالنون وحجتهم قوله منع منا الكيل أي لغيبة أخينا فأرسله معنا نكتل ما

منعنا لغيبته فإذا كان معنا اكتلنا

نحن وهو والنون أولى وذلك أنا إذا قرأنا نكتل بالنون جاز أن يكون أخوهم داخلا معهم وإذا

كان يكتل بالياء لم يدخلهم في هذه الجملة

فالله خير حفظا وهو أرحم الراحمين ونحفظ أخانا 64 و65

قرأ حمزة والكسائي وحفص فالله خير حافظا بالألف وحجتهم قوله جل وعز حكاية عن

إخوة يوسف وإنا له لحافظون 12 فقال يعقوب حين قالوا وإنا له لحافظون فالله خير حافظا

وأخرى وهي أن في حرف عبد الله بن مسعود فالله خير الحافظين جمع حافظ

وقرأ الباقون فالله خير حفظا وحجتهم قوله ونحفظ أخانا فلما أضافوا إلى أنفسهم قال

يعقوب فالله خير حفظا من حفظكم الذي نسبتموه إلى أنفسكم قال الفراء حفظا تجعل ما

بعد خير مصدرا وتنصب على التفسير وتضمر بعد خير اسم المخاطبين فكأن تقديره

فالله خيركم حفظا ويجرى مجرى قولك فلان أحسن وجها تريد أحسن الناس وجها ثم

تحذف القوم فكذلك خيركم حفظا ثم تحذف الكاف والميم

قال الزجاج حفظا منصوب على التمييز وحافظا منصوب

على الحال ويجوز أن يكون حافظا على التمييز أيضا

نرفع درجات من نشاء 76

قرأ أهل الكوفة نرفع درجات من نشاء بالتنوين المعنى نرفع من نشاء درجات

وقرأ الباقون درجات بغير تنوين وقد بينت الحجة في سورة الأنعام

قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف و هذا أخي إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر

المحسنين 90

قرأ ابن كثير وورش قالوا إنك لأنت يوسف بكسر الألف على الخبر كا تقول إنك في الدار

وقرأ نافع وأبو عمرو قالوا آنك بالاستفهام بهمزة مطولة وحجتهم قوله أنا يوسف فإنما

أجابهم عما استفهموا عنه الأصل أإنك بهمزتين ثم أدخلوا بينهما ألفا ليبعد المثل عن المثل

ثم لينوا الثانية فصارت آنك بهمزة واحدة مطولة

وقرأ القاضي عن قالون أنك بهمزة واحدة من غير مد وإنما لين الثانية ولم يدخل بينهما ألفا

كما فعل من تقدم ذكره

وقرأ أهل الشام والكوفة أءنك بهمزتين على الأصل وقد

ذكرت الحجة في سورة البقرة

قرأ ابن كثير إنه من يتقى ويصبر بإثبات الياء وحجته أن من العرب من يجري المعتل مجرى

الصحيح فيقول زيد لم يقضي ويقدر في الياء الحركة فيحذفها منها فتبقى الياء ساكنة للجزم

قال الشاعر . . . ألم يأتك والأنباء تنمي . . . بما لاقت لبون بني زياد . . .

ولم يقل ألم يأتك وقال آخر . . . هزي إليكم الجذع يجنيك الجنى . . .

وكان ينبغي أن يقول يجنك الجنى لأنه جواب الجزاء ويقوي هذا قراءة حمزة في قوله فلا تخف دركا ولا تخشى ولم يقل تخش قال الفراء تخشى في موضع جزم لأن من العرب من يفعل ذلك قال وإن شئت استأنفت ولا تخشى وقال

وقال نحويو البصرة يجوز أن يجعل من يتقي بمنزلة الذي

يتقي كما تقول الذي يأتيني وتحمل المعطوف على المعنى لأن من إذا كانت بمنزلة الذي فكأنما هو بمنزلة الجزاء الجازم بدلالة أن كل واحد يصلح دخول الفاء في جوابه فتقول الذي يأتيني فله درهم كما تقول من يأتني فله درهم

وقرأ الباقون إنه من يتق بغير ياء مجزوما بالشرط

وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا أفلا تعقلون 109

قرأ حفص عن عاصم نوحي إليهم بالنون وكسر الحاء الله يخبر عن نفسه لأنه قال وما أرسلنا من قبلك فكذلك نوحي وحجته قوله إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح

وقرأ الباقون يوحى بالياء وفتح الحاء على ما لم يسم فاعله وحجتهم قوله وأوحي إلى نوح

وقوله قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن

قرأ نافع وابن عامر وعاصم أفلا تعقلون بالتاء على الخطاب وقرأ الباقون بالياء وحجتهم

قوله أفلم يسيروا في الأرض

حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد

بأسنا عن القوم المجرمين 110

قرأ ابن كثير في رواية البزي فلما استايسوا منه حتى إذا استايس بغير همز وتقديم الألف

والأصل الهمز لأنه من اليأس والعرب تقول يئست وأيست لغتان فمن قال استايس بغير همز

فهي على لغة من يقول أيست نقل العين إلى موضع الفاء فصار استعفل استأيس ثم خففت

الهمزة فصارت ألفا لسكونها وانفتاح ما قبلها فصارت استايس وهو من الأياس

وقرأ الباقون حتى إذا استيأس بالهمز من اليأس على لغة من يقول يئست فالياء فاء الفعل

والهمز عينه والعرب تقول يئس واستيأس وعجب واستعجب وسخر واستسخر وفي

التنزيل وإذا رأوا آية يستسخرون

قرأ أهل الكوفة وظنوا أنهم قد كذبوا بالتخفيف من قولك كذبتك الحديث أي لم أصدقك

وفي التنزيل وقعد الذين كذبوا الله ورسوله وفيها وجهان من التفسير أحدهما حتى إذا

استيأس الرسل من إيمان قومهم وظن قومهم أن الرسل قد كذبوا بمعنى أخلفوا ما وعدوه ن

النصر جاء الرسل نصرنا فجعل الضمير في قوله ظنوا للقوم وجعل الظن موافقا لفظه معناه

فإن قيل كيف يجوز أن يحمل الضمير في ظنوا على القوم والذي تقدم ذكره الرسل قيل إن

ذلك لا يمتنع لأن ذكر الرسل يدل على المرسل إليهم فلهذا جاز أن يحمل الضمير على المرسل

إليهم والوجه الآخر حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظن

قومهم أن الرسل قد كذبتهم فيما أخبروهم به من أنهم إن لم يؤمنوا بهم نزل بهم العذاب ثم رد

إلى ما لم يسم فاعله فقيل إنهم كناية عن القوم

قرأ أهل الحجاز والبصرة والشام كذبوا بالتشديد وفي التنزيل ولقد كذبت رسل وقوله

فكذبوا رسلي وجعلوا الضمير في ظنوا للرسل والظن بمعنى اليقين وحجتهم في ذلك أن ذكر

الرسل قد تقدم ولم يتقدم ذكر المرسل إليهم فيجعل الضمير لهم وإذا كان ذلك كذلك فالأولى

أن يجعل الضمير للرسل فيكون الفعلان للرسل ويصير كلاما واحدا ومعنى الآية حتى إذا

استيأس الرسل من إيمان قومهم وظنوا أي أيقنوا أن قومهم قد كذبوهم جاءهم نصرنا أي

جاء الرسل نصرنا وقال قوم ليس الظن بمعنى اليقين بل لفظه معناه قالوا ومعنى الآية حتى

إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم أن يصدقوهم وظنت الرسل بأن من قد آمن بهم

من قومهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك قالت عائشة رضي الله عنها لم يزل البلاء بالرسل حتى خافوا أن يكون من معهم من المؤمنين قد كذبوهم

قرأ عاصم وابن عامر فنجي من نشاء بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء على ما لم يسم فاعله وحجتهما أن القصة ماضية فأتيا ب نجي على لفظ الماضي ويقوي هذا أنه قد عطف عليه فعل لم يسم فاعله وهو قوله ولا يرد بأسنا ولو كان ننجي مسندا إلى الفاعل كقول من خالفه لكان لا نرد ليكون مثل المعطوف عليه

وقرأ الباقون فننجي من نشاء بنونين وحجتهم قوله إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا وقوله فننجي من نشاء حكاية حال الأمر من القصة فيما مضى كما أن قوله هذا من شيعته وهذا من عدوه إشارة إلى الحاضر والقصة ماضية لأنه حكى الحال . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 368.353﴾

أسئلة وأجوبة فى السورة الكريمة

قال الخطيب الإسكافى :

سورة يوسف عليه السلام

الآية الأولى منها

قوله تعالى : (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) يوسف : 22 .

وقال في سورة القصص 14 في ذكر موسى عليه السلام : (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) .

للسائل أن يسأل عن الفائدة في تخصيصي موسى عليه السلام بذكر الاستواء ، واخلاء يوسف عليه السلام من ذلك ، وهل كان يصلح أحدهما مكان الآخر ، أم قصد الحكمة يمنع منه ؟

والجواب أن يقال : إن بلوغ الأشد مختلف فيه : قيل : هو أن يبلغ ثلاثا وثلاثين سنة ، وقيل : خمسا وعشرين سنة ، وقيل : عشرين سنة وإحدى عشرين ، لأنه يقال : إن الصبي يثغر لسبع سنين ، ويبلغ لسبع بعدها ، ويتناهى طوله لسبع بعدها ، وحجه من قال ذلك : أنه قال : (آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) فإيتاء الحكم والعلم مجازاة على إحسان كان منه ، وذلك بعد بلوغ ، وقيل : إن بلوغ الأشد هو أن يحتلم والأشد جمع شد ، وهو قوى من العقل ، تحتمل التكليف ، ويجوز أن يكون البلوغ سمي الأشد ، لأن الغلام إ\ا

بلغ شدت أعماله وكتبت حسناته وسيآته بعد أن كانت محلولة عنه غير مشدودة عليه وقد يأتي قبل البلوغ بحسنات يجازيه الله تعالى عليها .

وقيل في قوله : 5بلغ أشده واستوى أي أدرك واستوت لحيته . وقيل : الاستواء أن يبلغ أربعين سنة ، وهو معنى بين في الآية الأخرى : (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة) الأحقاف : 15 .

(82/390)

وال\ي يفرق بين المكانين حتى لم ينتظر بيوسف عليه السلام الاستواء بعد بلوغ الأشد هو أن يوسف عليه السلام أخبر الله تعالى أنه أوحى إليه لما طرحه إخوته في الجب حيث قال : (وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) يوسف : 15 وأراه عز وجل الرؤيا التي قصها على أبيه ، موسى عليه السلام لم يفعل به شيء من ذلك إلى أن بلغ الأشد واستوى ، لأنه لم يعلم ما أريد به إلا بعد أن استأجره شعيب عليه السلام ، ومضت سنو 'إجازته وسار بأهله ، فهناك آتاه ما آتاه من كرامة الله تعالى وقيل : إنه بعد الأربعين ، فلم ينتظر بيوسف في إيتاء الحكم والعلم والتشريف بالوحي ما انتظر به موسى ، والحكم هو الفصل بين المتحاكمين المبنى على العلم ، لأنه يكون بحسب ما يدعو إليه وقيل : معنى

استوى : كمل جسمه وتم طوله وعرضه وخرج عن جملة الأحداث .

117 الآية الثانية

قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى) يوسف : 109 .

وقال في سورة النحل 43 : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) .

وقال في سورة الأنبياء 7-8 : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون*وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام) .

للسائل أن يسأل فيقول : هل بين قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك : 5وما أرسلنا قبلك - فرق ؟ ولأي معنى خص موضع ب من وموضع بحذفها .

والجواب أن يقال : إن من لابتداء الغاية ، وقبل اسم للزمان الذي تقدم زمانك ، فإذا قال : (وما أرسلناك من قبلك) فكأنه قال : وما أرسلنا من ابتداء .

الزمان الذي تقدم زمانك ، فيخص الزمان الذي يقع عليه قبل حدوثه ، ويستوعب بذكر طرفيه ابتدائه وانتهائه .

وإذا قال : (وما أرسلنا قبلك) فمعناه : ما فعلنا في الزمان ال\ي تقدم زمانك ، فهو في الاستيعاب كالأول إلا أن الأول أوكد للحصر بين الحدين ، وضبطه بذكر الطرفين ، والزمان قد يقع على بعض ما تقدم فيستعمل فيه اتساعا .

فأكثر ما في القرآن : (وما أرسلنا من قبلك) ولم يجيء بحذف من إلا في موضعين : أحدهما : هذا ، والآخر : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام) الفرقان : 20 .

فأمل الأول فغنه حذفت منه من بناء على الآية المتقدمة وهي : (ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون) الأنبياء : 6 فلما كان الزمان الذي تقدمهم هو الزمان الذي تقدم النبي المذكور في قوله : (وما أرسلنا قبلك) وكانت قبل إذا عريت من من موضوعة للزمان المتقدم كله ، صار بناءه على ما قبل مذكورا كالتوكيد الواقع ب من في سائر المواضع .

فأما قوله تعالى : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين) فإنما لم يؤكد ب من ، لان المعتمد بالخبر إنما هو الحال التي للمرسلين ، وهي أنهم يأكلون الطعام وليسوا من الملائكة الذين طلب الكفار أن يبعثوا إليهم ، وأخبر الله تعالى به عنهم في قوله : (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة) الفرقان : 21

فإن قال : فقد جيء ب من في قوله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) الحج : 52 فالقصد ذكر حال الرسول والنبي ، وهو المعتمد بالخبر ، فأكد مع

ذلك ب من .

قلت : القصد ب من في هذا الموضع توكيد ذكر الرسول وذكر حاله . ألا تراه قال : (من رسولي ولا نبي) فجمعهما في نفي ما نفى عنهما إلا ما أثبته لهما بعد قوله : (إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) فلما كان المكانان معتمدين بالخبر صح التوكيد وكان المقصود والله أعلم .

118 الآية الثالثة منها

قوله عز وجل : (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من فبقلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) يوسف : 109

(84/390)

وقال في سورة الروم 9 : (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة ال\ين من قبلهم كانوا أشد كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض)

للسائل أن يسأل عما جاء من هذا في القرآن بالفاء ، وما جاء منه بالواو ، والمعنى المقتضى لكل واحد من الحرفيين ؟

والجواب أن يقال : كل موضع تقدم قوله تعالى : (أفلم يسيروا في الأرض) فإنه في موضع

يقتضي الأول وقوع ما بعد الفاء .

وكل موضع تقدم : أولم يسيروا في الأرض فإنه في المواضع التي لا تقتضي الدعاء إلى السير والبعث على الاعتبار ، فيكون ذلك مؤديا إليه ، وإنما يكون بالواو عطف جملة على جملة ، وإن كانت الثانية أجنبية من الأولى .

فقوله في سورة يوسف : (أفلم يسيروا في الأرض) قبله : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى) معناه : كان الرسل من القرى التي بعثوا إليها ، فلما طغوا نزل بهم العذاب ما بقي أثره في ديارهم من الخسف والانقلاب ، فصار معنى قوله : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى) أي لم يكونوا إلا رجالا أرسلوا إليهم فخالفوهم ، فاعتبروا أنت بآثارهم ومشاهدة ديارهم لتجنبوا ما يجلب عليكم مثل حالهم .

وكذلك قوله تعالى في سورة الحج 46 : (أفلم يسيروا في أرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها) هو بعد قوله : (فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد) الحج : 45 فكأنه قال : إذا كان كذا فسيروا في الأرض واعتبروا .

وأما قوله في سورة الروم 9 : (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا اشد منهم قوة وأثاروا الأرض) فإنه لم يتقدمه ما يصير هذا كالجواب عنه ، إذ لم يجر ذكر

حال أمة من الأمم خالفت نبيها فعوقبت على فعلها ، بل الآية التي قبلها قوله : (أولم يتفكروا في

(85/390)

أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون) الروم : 8 فكان الموضع موضع الواو ، وهذا مع أنه معطوف على قوله : (أولم يتفكروا) وهو بالواو ، فكان حملة على ذلك مع اقتضاء المعنى للواو ، وهو الواجب .

وقوله في سورة الملائكة 44 : (اولم يسيرو في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء) .

لم يتقدمه الذين من قبلهم ما يكون هذا كالجواب عنه فلم يحسن إلا الواو ، لأن الآية التي قبله ليست في وصف قوم عوقبوا على مخالفة نبيهم ، وبقيت آثار بهم من العذاب في منازلهم وديارهم .

وكذا قوله في سورة المؤمن 20-21 : (والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقتضون بشيء إن الله هو السميع البصير * اولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان

عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض) فالآيات التي تقدمت هذه الآية ليس ما يقتضي أن يكون هذا كالجواب له، فلذلك جاء بالواو.

فأما الآية التي في آخر هذه السورة وهي: (أفلم يسيروا في الأرض) المؤمن: 82 فإن ما قبلها يقتضي الفاء، ألا ترى قوله: (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون) المؤمن: 78

فإنه في وصف من بعث من الأنبياء ومجيء أمر الله فيمن فالفهم وكيف خسر مبطلهم.

فإن قال قائل: فقوله في سورة محمد 10: (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم الكافرين أمثالها) لم خ يتقدمه ما يقتضي الفاء

قلت: قوله (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم والذين كفروا لهم وأضل أعمالهم* ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم) سورة محمد: 7-9

معناه: أن أولياء الله منصورون، وأن الكفار مخذولون فليعتبروا بمن تقدمهم في الكفر ليعلموا أنهم صائرون إلى مثل حالهم.

119 الآية الرابعة منها

قوله تعالى : (ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون) يوسف : 109 .

وقال تعالى في سورة الأعراف 169 : (والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) وكان حق

هذه الآية أن تذكر هناك ، إلا أنا ذكرناها لما انتهينا إلى هذا المكان ، وقد تقدمت نظيرتها ،

وهي قوله تعالى : (وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) الأنعام : 32 .

للسائل أن يسأل في الآيتين عن موضعين :

أحدهما : قوله تعالى في سورة الأعراف : (والدار الآخرة) فوصف الدار بالآخرة ، وفي الآية التي في سورة يوسف أضاف الدار إلى الآخرة ؟

والثاني : قوله : (خير للذين يتقون) هناك ، وفي هذا المكان : (خير للذين اتقوا) .

والجواب عن الأول أن قبله : (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى) الاعراف : 169 ، فقوله : (هذه الأدنى) إنما يعني هذا المنزل الأدنى وهو والدار الدنيا بمعنى واحد فلما جعل الأدنى وصفا للمنزل ذكر الدار الآخرة بعده فجعل الدار موصوفة والآخرة صفة لها ، وكل يؤدي معنى واحد ، إلا أنه يختص ببعض اللفظ دون بعض لمشاكلة ما قبله وموافقته له .

وأما قوله : (ولدار الآخرة) في يوسف فإن قبله : (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله

أو تأتيهم الساعة بغتة) يوسف : 107 والساعة هي الساعة الآخرة ، وهي القيامة ، فلما ذكرت الدار أضيفت إليها ، فكأنه قال : ولدار الساعة الآخرة خير فتقدم كل آية ما كان المذكور بعده أليق به .

(87/390)

والجواب عن المسألة الثانية وهي قوله تعالى (للذين يتقون) في سورة الأعراف ، وقوله : (للذين اتقوا) في سورة يوسف هو أن القوم دعوا إلى الاعتبار بأحوال الأمم الذين أهلكوا في أزمنة أنبيائهم بالنظر إلى منازلهم ، وهي خاوية على عروشها ليعلموا أن الدار الآخرة خير لمن اتقى منهم .

وقوله في سورة الأعراف ترهيب لليهود الذين في عصر النبي ، وارتشائهم على كتمان أمر النبي د ، وترغيب لهم فيها عند الله عز وجل إذا صدقوا ما في كتاب الله عز وجل ، والترغيب والترهيب لا يتعلقان إلا بالآنف المستقبل ، فلذلك قال : ط (للذين يتقون أفلا تعقلون) .

وفي هاتين الآيتين مسألة ثالثة ، وهي إدخال اللام على دار الآخرة في سورة يوسف ، وإخلاؤها منها في سورة الأعراف في قوله : (والدار الآخرة

والجواب عن ذلك : أن قوله : (ولدار الآخرة) جاء بعد قوله : (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) يوسف : : 109 ، ومعناه : فيعلموا كيف كان حال من قبلهم ، وأن الدار الآخرة خير لهم ، فالام هي التي تدخل على المبتدأ فتعلق الفعل ، والفعل هو فيعلموا الدار خير ، كما تقول : علمت

لزيد أفضل من عمرو .

وأما قوله : (الدار الآخرة) في سورة الأعراف فلم يتقدمه اللام ، بل قوله : (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير) الأعراف : 169 من غير أن يتقدمه ما يجري مجرى التوكيد والقسم الذي يتلقى باللام .

انقضت سورة يوسف عن أربع آيات وخمس مسائل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ درة التنزيل ص 176.171 ﴾

(88/390)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة يوسف عليه السلام

مكية ونظيرتها في المدنيين والمكي والشامي الأنبياء وفي الكوفي سبحان وفي البصري الكهف والأنبياء

وكلمها ألف وست وسبعون كلمة

وحروفها سبعة آلاف وثلاثة وأربعون

وهي مئة وإحدى عشرة آية ليس فيها اختلاف

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدود بإجماع أربعة مواضع (﴿ منهن سكينا ﴾ معه السجن فتيان) (﴿ يأت بصيرا ﴾ عبرة لأولي الألباب)

ورؤوس الآي

المبين

1 تعقلون

2 الغافلين

3 ساجدين

4 مبين

5 حكيم

6 السائلين

7 مبين

8 صالحين

9 فاعلين

10 لناصحون

11 لحافظون

12 غافلون

13 لخاسرون

14 لا يشعرون

15 يبكون

16 صادقين

17 تصفون

18 يعملون

19 الزاهدين

20 لا يعلمون

21 المحسنين

22 الظالمون

23 المخلصين

24 أليم

25 الكاذبين

26 الصادقين

27 عظيم

28 الخاطئين

29 مبين

30 كريم

31 الصاغرين

32 الجاهلين

33 العليم

34 حين

35 المحسنين

36 كافرون

37 يشكرون

38 القهار

39 لا يعلمون

40 تستفتيان

41 سنين

42 تعبرون

43 بعالمين

44 فأرسلون

45 يعلمون

46 تأكلون

47 تحصنون

48 يعصرون

49 عليم

50 الصادقين

51 الخائنين

52 رحيم

53 أمين

54 عليم

55 المحسنين

56 يتقون

57 منكرون

58 المنزلين

59 ولا تقربون

60 لفاعلون

61 يرجعون

62 لحافظون

63 الراحمين

64 يسير

65 وكيل

66 المتوكلون

67 لا يعلمون

68 يعمل ون

69 لسارقون

70 تفقدون

71 زعيم

72 سارقين

73 كاذبين

74 الظالمين

75 عليم

76 تصفون

77 المحسنين

78 لظالمون

79 الحاكمين

80 حافظين

81 لصادقون

82 الحكيم

83 كظيم

84 الهالكين

85 لا تعلمون

86 الكافرون

87 المتصدقين

88 جاهلون

89 المحسنين

90 لخاطئين

91 الراحمين

92 أجمعين

93 تفندون

94 القديم

95 لا تعلمون

96 خاطئين

97 الرحيم

98 آمنين

99 الحكيم

100 بالصالحين

101 يمكرون

102 بمؤمنين

103 للعالمين

104 معرضون

105 مشركون

106 لا يشعرون

107 المشركين

108 تعقلون

109 المجرمين

110 يؤمنون. انتهى انتهى. ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 167. 168﴾

(89/390)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى:

سورة يوسف عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى تلك آيات الكتاب قد ذكر في أول يونس

قوله تعالى قرآنا فيه وجهان أحدهما أنه توطئة للحال التي هي عربيا والثاني أنه حال وهو

مصدر في موضع المفعول أي مجموعا أو مجتمعا وعربي صفة له على رأي من يصف الصفة أو حال من الضمير الذي في المصدر على رأي من قال يحتمل الضمير إذا وقع موقع ما يحتمل الضمير

قوله تعالى أحسن ينتصب انتصاب المصدر بما أوحينا ما مصدرية وهذا مفعول أوحينا القرآن نعت له أو بيان ويجوز في العربية جره على البدل من ما ورفعه على إضمار هو والباء متعلقة بنقص ويجوز أن يكون حالا من أحسن والهاء في قبله ترجع على القرآن أو على هذا أو على الايحاء

قوله تعالى إذ قال أي إذكر إذ وفي يوسف ست لغات ضم السين وفتحها وكسرها بغير همز فيهن وبالهمز فيهن ومثله يونس يا أبت يقرأ بكسر التاء والتاء فيه زائدة عوضا من ياء المتكلم وهذا في النداء خاصة وكسرت التاء لتدل على الياء المحذوفة ولا يجمع بينهما لئلا يجمع بين العوض والمعوض ويقرأ بفتحها وفيه ثلاثة أوجه أحدها أنه حذف التاء التي هي عوض من الياء كما تحذف تاء طلحة في الترخيم وزيدت بدلها تاء أخرى وحركت بحركة ما قبلها كما قالوا يا طلحة أقبل بالفتح والثاني أنه أبدل من الكسرة فتحة كما يبدل من الياء ألف والثالث أنه أراد يا ابتا كما جاء في الشعر

يا ابتا علك أو عساك . . . فحذفت اللف تخفيفا وقد أجاز بعضهم ضم التاء لشبهها بتاء التأنيث فأما الوقف على هذا الاسم فبالتاء عند قوم لأنها ليست للتأنيث فيبقى لفظها دليلا على المحذوف وبالهاء عند آخرين شبهوها بهاء التأنيث وقيل الهال بدل من الألف المبدلة من الياء وقيل هي زائدة لبيان الحركة و أحد عشر بفتح العين على الأصل وبإسكانها على التخفيف فرارا من توالي الحركات وايذانا بشدة الامتزاج وكرر رأيت تفخيما لطول الكلام وجعل الضمير على لفظ المذكر لأنه وصفه بصفات من يعقل من السباحة والسجود ولذلك جمع الصفة جمع السلامة و ساجدين حال لأن الرؤية من رؤية العين

قوله تعالى رؤياك الأصل الهمز وعليه الجمهور وقرىء بوأو مكان الهمز لانضمام ما قبلها ومن العرب من يدغم فيقول رياك فأجري المخففة مجرى الأصلية ومنهم من يكسر الراء لتناسب الياء فيكيدوا جواب النهي كيدا فيه وجهان أحدهما هو مفعول به والمعنى فيضعون لك أمرا يكيدك وهو مصدر في موضع الاسم ومنه قوله تعالى فأجمعوا كيدكم أي ما تكيدون به فعلى هذا يكون في اللام وجهان أحدهما هي بمعنى من أجلك والثاني هي صفة قدمت فصارت حالا والوجه الاخر أن يكون مصدرا مؤكدا وعلى هذا في اللام ثلاثة أوجه منها الاثنان الماضيان والثالث أن تكون زائدة لأن هذا الفعل يتعدى بنفسه ومنه فان

كان لكم كيد فكيدون ونظير زيادتها هنا ردف لكم

قوله تعالى وكذلك الكاف في موضع نصب نعتا لمصدر محذوف أي اجتباء مثل ذلك

ابراهيم واسحاق بدلان من أبويك

قوله تعالى آيات يقرأ على الجمع لأن كل خصلة مما جرى آية ويقرأ على الافراد لأن جميعها

يجري مجرى الشيء الواحد وقيل وضع الواحد موضع الجمع وقد ذكرنا اصل الاية في البقرة

قوله تعالى أرضا ظرف لاطرحوه وليس بمفعول به لأن طرح لا يتعدى إلى اثنين وقيل هو

مفعول ثان لأن اطرحوه بمعنى أنزلوه وأنت تقول أنزلت زيدا الدار

قوله تعالى غيابة الجب يقرأ بألف بعد الياء وتخفيف الباء وهو الموضع الذي يخفى من فيه

ويقرأ على الجمع اما أن يكون جمعها بما حولها كما قال الشاعر

يزل الغلام الخف عن صهواته . . .

أو أن يكون في الجب مواضع على ذلك وفيه قراءات أخر ظاهرة لم نطل بذكرها يلتقطه

الجمهور على الياء حملا على لفظ بعض ويقرأ بالتاء حملا على المعنى إذ بعض السيارة

سيارة ومنه قولهم ذهبت بعض أصابعه

قوله تعالى لا تأمنا في موضع الحال والجمهور على الاشارة إلى ضمة النون الأولى فمنهم من يختلس الضمة بحيث يدركها السمع ومنهم من يدل عليها بضم الشفة فلا يدركها السمع ومنهم من يدغمها من غير اشمام وفي الشاذ من يظهر النون وهو القياس

قوله تعالى نرتع الجمهور على أن العين آخر الفعل وماضيه رتع فمنهم من يسكنها على الجواب ومنهم من يضمها على أن تكون حالا مقدرة ومنهم من يقرؤها بالنون ومنهم من يقرؤها بالياء ويقرأ نرتع بكسر العين وهو يفتعل من رعى أي ترعى ما شيتنا أو نأكل نحن

قوله تعالى يأكله الذئب الأصل في الذئب الهمز وهو من قولهم تذأبت الريح أسذا جاءت من كل وجه كما أن الذئب كذلك ويقرأ بالياء على التخفيف

قوله تعالى ونحن عصبة الجملة حال وقرىء في الشاذ عصبة بالنصب وهو بعيد ووجهه أن يكون حذف الخبر ونصب هذا على الحال أي ونحن نتعصب أو نجتمع عصبة

قوله تعالى فلما ذهبوا جواب لما محذوف تقديره عرفناه أو نحو ذلك وعلى قول الكوفيين الجواب أوحينا والواو زائدة وأجمعوا يجوز أن يكون حالا معه قد مرادة وأن يكون معطوفا

قوله تعالى عشاء فيه وجهان أحدهما هو ظرف أي وقت العشاء و يبكون حال والثاني أن يكون جمع عاش كقائم وقيام ويقرأ بضم العين والأصل عشاة مثل غاز وغزاة فحذفت الهاء وزيدت الألف عوضا منها ثم قلبت الألف همزة وفيه كلام قد ذكرناه في آل عمران عند قوله سبحانه أو كانوا غزا ويجوز أن يكون جمع فاعل على فعال كما جمع فعيل على فعال لقرب ما بين الكسر والضم ويجوز أن يكون كنؤام ورباب وهو شاذ

قوله تعالى على قميصه في موضع نصب حالا من الدم لأن التقدير جاءوا بدم كذب على قميصه وكذب بمعنى ذي كذب ويقرأ في الشاذ بالدال والكذب النقط الخارجة على أطراف الاحداث فشبه الدم اللاصق على القميص بها وقيل الكذب الطري فصبر جميل أي فشأني فحذف المبتدأ وان شئت كان المحذوف الخبر أي فلى أو عندي

قوله تعالى بشراي يقرأ بياء مفتوحة بعد اللف مثل عصاي وإنما فتحت الياء من أجل اللف ويقرأ بغير ياء وعلى الألف ضمة مقدرة لأنه منادى مقصور ويجوز أن يكون منصوبا مثل قوله يا حسرة على العباد ويقرأ بشرى بياء مشددة من غير ألف وقد ذكر في قوله تعالى هدى البقرة والمعنى

يا بشارة احضري فهذا أوانك أسروه الفاعل ضمير الاخوة وقيل السيارة و بضاعة حال

قوله تعالى بخس مصدر في موضع المفعول أي مبخوس أو ذي بخس و دراهم بدل من ثمن وكانوا فيه من الزاهدين قد ذكر مثله في قوله وانه في الاخرة لمن الصالحين في البقرة ونكون

عليها من الشاهدين في المائدة

قوله تعالى من مصر يجوز أن يكون متعلقا بالفعل كقولك اشتريت من بغداد أي فيها أو بها ويجوز أن يكون حالا من الذي أو من الضمير في اشترى فيتعلق بمحذوف ولنعلمه اللام متعلقة بمحذوف أي ولنعلمه مكناه وقد ذكر مثله في قوله تعالى وغيره والهاء في أمره يجوز أن تعود على الله عز وجل وأن تعود على يوسف

قوله تعالى هيت لك فيه قراءات إحداها فتح الهاء والتاء وياء بينهما والثانية كذلك الا أنه بكسر التاء والثالثة كذلك الا أنه بضمها وهي لغات فيها والكلمة اسم للفعل فمنهم من يقول هو خبر معناه تهيأت وبنى كما بنى شتان ومنهم من يقول هو اسم للأمر أي أقبل وهلم فمن فتح طلب الخفة ومن كسر فعلى التقاء الساكنين مثل جير ومنهم من ضم شبهه بحيث واللام على هذا للتبيين مثل التي في قولهم سقيا لك والقراءة الرابعة بكسر الهاء وهمزة ساكنة وضم التاء وهو على هذا فعل من هاء يهاء مثل شاء يشاء ويهيء مثل فاء يفيء والمعنى تهيأت لك أو خلقت ذا هيئة لك واللام متعلقة بالفعل والقراءة الخامسة هيئت لك وهي غريبة والسادسة بكسر الهاء وسكون الهمزة وفتح التاء والاشبه أن تكون الهمزة

بدلا من الياء أو تكون لغة في الكلمة التي هي اسم للفعل وليست فعلا لأن ذلك يوجب أن يكون الخطاب ليوسف عليه السلام وهو فاسد لوجهين أحدهما أنه لم يتهيأ لها وإنما هي تهيأت له والثاني أنه قال لك ولو أراد الخطاب لكان هئت لي قال معاذ الله هو منصوب على المصدر يقال عذت به عوذا وعياذا وعياذة وعوذة ومعاذا انه الهاء ضمير الشأن والجملة بعده الخبر

قوله تعالى لولا أن رأى جواب لولا محذوف تقديره لهم بها والوقف على هذا ولقد همت به والمعنى أنه لم يهم بها وقيل التقدير لولا أن رأى البرهان لواقع المعصية كذلك في موضع رفع اي الامر كذلك وقيل في موضع نصب

أي نراعيه كذلك واللام في لنصرف متعلقة بالمحذوف و المخلصين بكسر اللام أي المخلصين أعمالهم وبفتحها أي أخلصهم الله لطاعته

قوله تعالى من دبر الجمهور على الجر والتنوين وقرىء في الشواذ بثلاث ضمات من غير تنوين وهو مبني على الضم لأنه قطع عن الاضافة والأصل من دبره وقبله ثم فعل فيه ما فعل في قبل وبعد وهو ضعيف لأن الاضافة لا تلزمه كما تلزم الظروف المبنية لقطعها عن الاضافة

قوله تعالى يوسف أعرض الجمهور على ضم الفاء والتقدير يا يوسف وقرأ الاعمش بالفتح والاشبه أن أخرجه على أصل المنادى كما جاء في الشعر يا عديا لقد وقتك الاواقي . . . وقيل لم تضبط هذه القراءة عن الاعمش والاشبه أن يكون وقف على الكلمة ثم وصل وأجرى الوصل مجرى الوقف فألقى حركة الهمزة على الفاء وحذفها فصار اللفظ بها يوسف أعرض وهذا كما حكى الله أكبر أشهد بالوصل والفتح وقرىء في الشاذ أيضا بضم الفاء وأعرض على لفظ الماضي وفيه ضعف لقوله واستغفري وكان الاشبه أن يكون بالفاء فاستغفري

قوله تعالى نسوة يقرأ بكسر النون وضمها وهما لغتان وألف ألفتى منقلبة عن ياء لقولهم فتيان والفتوة شاذ قد شغفها يقرأ بالغين وهو من شغاف القلب وهو غلافه والمعنى أنه أصاب شغاف قلبها وأن حبه صار محتويا على قلبها كاحتواء الشغاف عليه ويقرأ بالعين وهو من قولك فلان مشغوف بكذا أي مغرم به ومولع وحبا تمييز والأصل قد شغفها حبه والجملة مستأنفة ويجوز أن يكون حالا من الضمير في تراود أو من ألفتى

قوله تعالى وأعتدت هو من العتاد وهو الشيء المهيأ للأمر متكأ الجمهور على تشديد التاء والهمز من غير مد وأصل الكلمة موتكأ لأنه من توكأت ويراد به المجلس الذي يتكأ فيه فأبدلت الواو تاء وأدغمت وقرىء شاذا بالمد والهمز والألف فيه ناشئة عن إشباع الفتحة ويقرأ بالتنوين من غير همز والوجه فيه أنه أبدل الهمزة ألفا ثم حذفها للتنوين وقال ابن جني

يجوز أن يكون من أوكيت السقاء فتكون اللف بدلا من الياء ووزنه مفتعل من ذلك ويقرأ بتخفيف التاء من غير همز ويقال المتك الاترج حاشى لله يقرأ بألفين وهو الأصل والجمهور على أنه هنا فعل وقد صرف منه أحاشي وايد ذلك دخول اللام على اسم الله تعالى ولو كان حرف جر لما دخل على حرف جر وفاعله مضمر تقديره حاشى يوسف

أي بعد من المعصية بخوف الله وأصل الكلمة من حاشيت الشيء فحاشا صار في حاشية أي ناحية ويقرأ بغير ألف بعد الشين حذفت تخفيفا واتبع في ذلك المصحف وحسن ذلك كثرة استعمالها وقرىء شإذا حشا لله بغير ألف بعد الحاء وهو مخفف منه وقال بعضهم هي حرف جر واللام زائدة وهو ضعيف لأن موضع مثل هذا ضرورة الشعر ما هذا بشرا يقرأ بفتح الباء أي انسانا بل هو ملك ويقرأ بكسر الباء من الشراء أي لم يحصل هذا بثمن ويجوز أن يكون مصدرا في موضع المفعول أي بمشترى وعلى هذا قرىء بكسر اللام في ملك قوله تعالى رب السجن يقرأ بكسر السين وضم النون وهو مبتدأ و أحب خبره والمراد المحبس والتقدير سكنى السجن ويقرأ بفتح السين على أنه مصدر ويقرأ رب بضم الباء من غير ياء والسجن بكسر السين والجر على الاضافة أي صاحب السجن والتقدير لقاؤه أو

مقاساته

قوله تعالى بدا لهم في فاعل بدا ثلاثة أوجه أحدها هو محذوف و ليسجننه قام مقامه أي بدا لهم السجن فحذف وأقيمت الجملة مقامه وليست الجملة فاعلا لأن الجمل لا تكون كذلك والثاني أن الفاعل مضمر وهو مصدر بدا أي بدا لهم بداء فأضمر والثالث أن الفاعل ما دل عليه الكلام أي بدا لهم رأى أي فأضمر أيضا و حتى متعلقة بيسجننه والله أعلم

قوله تعالى ودخل معه السجن الجمهور على كسر السين وقرىء بفتحها والتقدير موضع السجن أو في السجن و قال مستأنف لأنه لم يقل ذلك المنام حال دخوله ولا هو حال مقدرة لأن الدخول لا يؤدي إلى المنام فوق رأسي ظرف لأحمل ويجوز أن يكون حالا من الخبز و تأكل صفة له

قوله تعالى أم الله الواحد أم هنا متصلة سميتموها يتعدى إلى مفعولين وقد حذف الثاني أي سميتموها آلهة وأسماء هنا بمعنى مسميات أو ذوي أسماء لأن الاسم لا يعبد أمر الا يجوز أن يكون مستأنفا وأن يكون حالا وقد معه مرادة وهو ضعيف لضعف العامل فيه

قوله تعالى منهما يجوز أن يكون صفة لناج وأن يكون حالا من الذي ولا يكون متعلقا بناج لأنه ليس المعنى عليه

قوله تعالى سمان صفة لبقرات ويجوز في الكلام نصبه نعتا لسبع و يأكلهن في موضع جر أو نصب على ما ذكرنا ومثله خضر

للرؤيا اللام فيه زائدة تقوية للفعل لما تقدم مفعوله عليه ويجوز حذفها في غير القرآن لأنه يقال عبرت الرؤيا

قوله تعالى أضغاث أحلام أي هذه بتأويل الاحلام أي بتأويل أضغاث الاحلام لا بد من ذلك لأنهم لم يدعوا الجهل بتعبير الرؤيا

قوله تعالى نجا منهما في موضع الحال من ضمير الفاعل وليس بمفعول به ويجوز أن يكون حالا من الذي وادكر أصله إذتكر فأبدلت الذال دالا والتاء دالا وأدغمت الأولى في الثانية ليتقارب الحرفان ويقرأ شاذا بذال معجمة مشددة ووجهها أنه قلب التاء ذالا وأدغم

قوله تعالى بعد أمة يقرأ بضم الهمزة وبكسرها أي نعمة وهي خلاصة من السجن ويجوز أن تكون بمعنى حين ويقرأ بفتح الهمزة والميم وهاء منونة وهو النسيان يقال أمه يأمه أمها

قوله تعالى دأبا منصوب على المصدر أي ت ابون ودل الكلام عليه ويقرأ بإسكان الهمزة وفتحها والفعل منه دأب دأبا ودئب دأبا ويقرأ بألف من غير همز على التخفيف

قوله تعالى يعصرون يقرأ بالياء والتاء والفتح والمفعول محذوف أي يعصرون العنب لكثرة الخصب ويقرأ بضم التاء وفتح الصاد أي تمطرون وهو من قوله من المعصرات

قوله تعالى إذ رأودتن العامل في الظرف خطبكن وهو مصدر سمي به الامر العظيم ويعمل بالمعنى لأن معناه ما أردتن أو ما فعلتن

قوله تعالى ذلك ليعلم أي الامر ذلك واللام متعلقة بمحذوف تقديره أظهر الله ذلك ليعلم

قوله تعالى الا ما رحم ربي في ما وجهان أحدهما هي مصدرية وموضعها نصب والتقدير ان النفس لأمارة بالسور الا وقت رحمة ربي ونظيره فدية مسلمة إلى أهله الا أن يصدقوا وقد ذكروا انتصابه على الظرف وهو كقولك ما قمت الا يوم الجمعة والوجه الاخر أن تكون ما بمعنى من والتقدير ان النفس لتأمر بالسوء الا لمن رحم ربي أو الا نفسا رحمها ربي فانها لا تامر بالسوء

(97/390)

قوله تعالى يتبوأ منها حيث يشاء حيث ظرف ليتبوأ ويجوز أن يكون مفعولا به ومنها يتعلق بيتبوأ ولا يجوز أن يكون حالا من حيث لأن حيث لاتتم الا بالمضاف إليه وتقديم الحال على المضاف إليه لا يجوز ويشاء بالياء وفاعله ضمير يوسف وبالنون ضمير اسم الله على التعظيم ويجوز أن يكون فاعله ضمير يوسف لأن مشيئته من مشيئة الله واللام في ليوسف زائدة أي مكنا يوسف ويجوز أن لا تكون زائدة ويكون المفعول

محذوفا أي مكنا ليوسف الامور ويتبوأ حال من يوسف

قوله تعالى لتفيته يقرأ بالتاء على فعلة وهو جمع قلة مثل صبية وبالنون مثل غلمان وهو من جموع الكثرة وعلى هذا يكون واقعا موقع جمع القلة إذا اقلبوا العامل في إذا يعرفونها

قوله تعالى نكتل يقرأ بالنون لأن ارساله سبب في الكيل للجماعة وبالياء على أن الفاعل هو الاخ ولما كان هو السبب نسب الفعل إليه فكأنه هو الذي يكيل للجماعة

قوله تعالى الا كما أمنتكم في موضع نصب على المصدر أي أمنا كأمني اياكم على أخيه خير حافظا يقرأ بالألف وهو تمييز ومثل هذا يجوز اضافته وقيل هو حال ويقرأ حفظا وهو تمييز لا غير

قوله تعالى ردت الجمهور على ضم الراء وهو الأصل ويقرأ بكسرها ووجهه أنه نقل كسرة العين إلى الفاء كما فعل في قيل وبيع والمضاعف يشبه المعتل ما نبغي ما استفهام في موضع نصب بنبغي ويجوز أن تكون نافية ويكون في نبغي وجهان أحدهما بمعنى نطلب فيكون المفعول محذوفا أي ما نطلب الظلم والثاني أن يكون لازما بمعنى ما يتعدى

قوله تعالى لتأتنني به هو جواب قسم على المعنى لأن الميثاق بمعنى اليمين الا أن يحاط هو استثناء من غير الجنس ويجوز أن يكون من الجنس ويكون التقدير لتأتنني به على كل حال الا في حال الاحاطة بكم

قوله تعالى ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم في جواب لما وجهان أحدهما هو أوى وهو جواب لما الأولى والثانية كقولك لما جئتك ولما كلمتك أجبتني وحسن ذلك أن دخولهم على يوسف يعقب دخولهم من الابواب والثاني هو محذوف تقديره امتثلوا أو قضوا حاجة أبيهم ونحوه ويجوز أن يكون

الجواب معنى ما كان يغني عنهم و وحاجة مفعول من أجله وفاعل يغني التفرق

قوله تعالى قال اني أنا هو مستأنف وهكذا كل ما اقتضى جوابا وذكر جوابه ثم جاءت بعده قال فهي مستأنفة

قوله تعالى صواع الملك الجمهور على ضم الصاد وألف بعد الوأو ويقرأ بغير ألف فمنهم من يضم الصاد ومنهم من يفتحها ويقرأ صاع الملك وكل ذلك لغات فيه وهو الاناء الذي يشرب به ويقرأ صوغ الملك بغين معجمة أي مصوغه قالوا جزاؤه فيه ثلاثة أوجه أحدها أنه مبتدأ والخبر محذوف تقديره جزاؤه عندنا كجزائه عندكم والهاء تعود على السارق أو على السرق وفي الكلام المتقدم دليل عليهما فعلى هذا يكون قوله من وجد مبتدأ و وفهو مبتدأ ثان و جزاؤه خبر المبتدأ الثاني والمبتدأ الثاني وخبره خبر الأولى ومن شرطية والفاء جوابها ويجوز أن تكون بمعنى الذي ودخلت الفاء في خبرها لما فيها من الايهام والتقدير استعباد من وجد في رحله فهو أي الاسعباد جزء السارق ويجوز أن تكون الهاء في جزائه

للسرق والوجه الثاني أن يكون جزاؤه مبتدأ ومن وجد خبره والتقدير استعباد من وجد في رحله وفهو جزاؤه مبتدأ وخبر مؤكد لمعنى الاول والوجه الثالث أن يكون جزاؤه مبتدأ ومن وجد مبتدأ ثان وفهو مبتدأ ثالث وجزاؤه خبر الثالث والعائد على المبتدأ الاول الهاء الاخيره وعلى الثاني هو كذلك نجزي الكاف في موضع نصب أي جزاء مثل ذلك

قوله تعالى وعاء أخيه الجمهور على كسر الواو وهو الأصل لأنه من وعي يعي ويقرأ بالهمزة وهي بدل من الواو وهما لغتان يقال وعاء واعاء ووشاح واشاح ووسادة واسادة وإنما فروا إلى الهمز لثقل الكسرة على الواو ويقرأ بضمها وهي لغة

فان قيل لم لم يقل فاستخرجها منه لتقدم ذكره قيل لم يصرح بتفتيش وعاء أخيه حتى يعيد ذكره مضمرا فأظهره ليكون ذلك تنبيها على المحذوف فتقديره ثم فتش وعاء أخيه فاستخرجها منه

قوله تعالى كذلك كدنا و الا أن يشاء و درجات من نشاء كل ذلك قد ذكر وفوق كل ذي علم عليم يقرأ شاذا ذي عالم وفيه

ثلاثة أوجه أحدها هو مصدر كالباطل والثاني ذي زائدة وقد جاء مثل ذلك في الشعر

كقول الكميت

إليكم ذوي آل النبي . . . والثالث أنه أضاف الاسم إلى المسمى وهو محذوف تقديره ذي

مسمى عالم كقول الشاعر

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما . . . أي مسمى السلام

قوله تعالى فأسرها الضمير يعود إلى نسبتهم إياه إلى السرق وقد دل عليه الكلام وقيل في الكلام تقديم وتأخير تقديره قال في نفسه أنتم شر مكانا وأسرها أي هذه الكلمة و مكانا تمييز أي شر منه أو منهما

قوله تعالى فخذ أحدنا مكانه هو منصوب على الظرف والعامل فيه خذ ويجوز أن يكون محمولا على المعنى أي اجعل أحدنا مكانه

قوله تعالى معاذ الله هو مصدر والتقدير من أن نأخذ

قوله تعالى استيأسوا يقرأ بياء بعدها همزة وهو من يئس ويقرأ استايسوا بألف بعد التاء وقبل الياء وهو مقلوب يقال يئس وأيس والأصل تقديم الياء وعليه تصرف الكلمة فأما اياس اسم رجل فليس مصدر هذا الفعل بل مصدر آسيته أي أعطيته الا أن الهمزة في الاية

قلبت ألفا تخفيفا نجيا حال من ضمير الفاعل في خلصوا وهو واحد في موضع الجمع أي أنجيه كما قال تعالى ثم نخرجكم طفلا ومن قبل أي ومن قبل ذلك ما فرطتم في ما وجهان أحدهما هي زائدة ومن متعلقة بالفعل أي وفرطتم من قبل والثاني هي مصدرية زفي موضعها ثلاثة أوجه أحدها رفع بالابتداء ومن قبل خبره أي وتفريطكم في يوسف من قبل وهذا ضعيف لأن قبل إذا وقعت خبرا أو صلة لا تقطع عن الاضافة لئلا تبقى ناقصة والثاني موضعها نصب عطفا على معملو تعلموا تقديره ألم تعرفوا أبيكم عليكم الميثاق وتفريطك في يوسف والثالث هو معطوف على اسم ان تقديره وان تفريطكم من قبل في يوسف وقيل هو ضعيف على هذيه الوجهين لأن فيهما فصلا سبين حرف العطف والمعطوف وقد بينا في سورة النساء أن هذا ليس بشيء فأما خبر ان على الوجه الاخير فيجوز أن يكون في يوسف وهو الأولى لئلا يجعل من قبل خبرا فلن أبرح الارض هو مفعول أبرح أي لن أفارق ويجوز أن يكون ظرفا

قوله تعالى سرق يقرأ بالفتح والتخفيف أي فيما ظهر لنا ويقرأ بضم السين وتشديد الراء وكسرها أي نسب إلى السرق

قوله تعالى واسئل القرية أي أهل القرية وجاز حذف المضاف لأن المعنى لا يلتبس فأما قوله تعالى والعير التي فيراد بها الابل فعلى هذا يكون المضاف محذوفا أيضا أي أصحاب العير وقيل العير القافلة وهم الناس الراجعون من السفر فعلى هذا ليس في حذف

قوله تعالى يا اسفي الألف مبدلة من ياء المتكلم والأصل أسفي ففتحت الفاء وصيرت الياء ألف ليكون الصوت بها أتم و على متعلقة بأسفي

قوله تعالى تفتؤ أي لا تفتؤ فحذفت لا للعلم بها و تذكر في موضع نصب خبر تفتؤ

(101/390)

قوله تعالى من روح الله الجمهور على فتح الراء وهو مصدر بمعنى الرحمة الا أن استعما الأفعل منه قليل وإنما يستعمل بالزيادة مثل أراح وروح ويقرأ بضم الراء وهي لغة فيه وقيل هو اسم للمصدر مثل الشرب والشرب

قوله تعالى مزجاة ألفها منقلبة عن ياء أو عن واو لقولهم زجا الامر يزجو فأوف لنا الكيل أي المكيل

قوله تعالى قد من الله علينا جملة مستأنفة وقيل هي حال من يوسف وأخي وفيه بعد لعدم العامل في الحال وأنا لا يعمل في الحال ولا يصح أن يعمل فيه هذا لأنه اشارة إلى واحد وعلينا راجع إليهما جميعا من يتق الجمهور على حذف الياء و من شرط والفاء جوابه ويقرأ بالياء وفيه ثلاثة أوجه أحدها أنه أشبع كسرة القاف فنشأت الياء والثاني أنه قدر الحركة على الياء وحذفها بالجزم وجعل حرف العلة كالصحيح في ذلك والثالث أنه جعل من بمعنى

الذي فالفعل على هذا مرفوع ويصبر بالسكون فيه وجهان أحدهما أنه حذف الضمة لئلا تتوالى الحركات أو نوى الوقف عليه وأجرى الوصل مجرى الوقف والثاني هو مجزوم على المعنى لأن من هنا وان كانت بمعنى الذي ولكنها بمعنى الشرط لما فيها من العموم والابهام ومن هنا دخلت الفاء في خبرها ونظيره فأصدق وأكن في قراءة من جزم والعائد من الخبر محذوف تقديره المحسنين منهم ويجوز أن يكون وضع الظاهر موضع المضمر أي لا نضيع أجرهم

قوله تعالى لا تثريب في خبر لا وجهان أحدهما قوله عليكم فعلى هذا ينتصب اليوم بالخبر وقيل ينتصب اليوم ب يغفر والثاني الخبر اليوم وعليكم يتعلق بالظرف أو بالعامل في الظرف وهو الاستقرار وقيل هي للتبيين

كالكلام في قولهم سقيا لك ولا يجوز أن تتعلق على بتثريب ولا نصب اليوم به لأن اسم لا إذا عمل ينون

قوله تعالى بقميصي يجوز أن يكون مفعولا به أي احملوا قميصي ويجوز أن يكون حالا أي إذهبوا وقميصي معكم و بصيرا حال في الموضعين

قوله تعالى سجدا حال مقدرة لأن السجود يكون بعد الخرور رؤياي من قبل الظرف حال

من رؤياي لأن المعنى رؤياي التي كانت من قبل والعامل فيها هذا ويجوز أن يكون ظرفا

للرؤيا أي تأويل رؤياي في ذلك الوقت ويجوز أن يكون العامل فيها تأويل لأن التأويل كان من

حين وقوعها هكذا والان ظهر له و قد جعلها حال مقدرة ويجوز أن تكون مقارنة و حقا

صفة مصدر أي جعلا حقا ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا وجعل بمعنى صير ويجوز أن يكون

حالا أي وضعها صحيحة ويجوز أن يكون حقا مصدرا منغير لفظ الفعل بل من معناه لأن

جعلها في معنى حققها وحقا في معنى تحقيق وقد أحسن بي قيل الباء بمعنى إلى وقيل هي

على بابها والمفعول محذوف تقديره وقد أحسن صنعه بي و إذ ظرف لأحسن أو لصنعه

قوله تعالى من الملك و من تأويل الاحاديث قيل المفعول محذوف أيعظيما من الملك وحظا

من التأويل وقيل هي زائدة وقيل من لبيان الجنس

قوله تعالى والارض يمرون الجمهور على الجر عطفا على السموات والضمير في عليها للآية

وقيل للأرض فيكون يمرون حالا منها وقيل منها ومن السموات ومعنى يمرون يشاهدون أو

يعلمون ويقرأ والارض بالنصب أي ويسلكون الارض وفسره يمرون ويقرأ بالرفع على

الابتداء و بغتة مصدر في موضع الحال و أدعو إلى الله مستأنف وقيل حال من الياء على

بصيرة حال أي مستيقنا ومن اتبعني معطوف على ضمير الفاعل في أدعوا ويجوز أن يكون

مبتدأ أي ومن اتبعني كذلك و من أهل القرى صفة لرجال أو حال من المجرور

قوله تعالى قد كذبوا يقرأ بضم الكاف وتشديد الذال وكسرها أي علموا أنهم نسبوا إلى التكذيب وقيل الضمير يرجع إلى المرسل إليهم أي علم الامم أن الرسل كذبوهم ويقرأ بتخفيف الذال والمراد على هذا الامم لا غير ويقرأ بالفتح والتشديد أي وظن الرسل أن الامم كذبوهم ويقرأ بالتخفيف أي علم الرسل أن الامم كذبوا فيما ادعوا فننجي يقرأ بنونين وتخفيف الجيم ويقرأ بنون واحدة وتشديد الجيم على

أنه ماض لم يسم فاعله ويقرأ كذلك الا أنه بسكون الياء وفيه وجهان أحدهما أن يكون أبدل النون الثانية جيما وأدغمها وهو مستقبل على هذا والثاني أن يكون ماضيا وسكن الياء لثقلها بحركتها وانكسار ما قبلها

قوله تعالى ما كان حديثا أي ما كان حديث يوسف أو ما كان المتلو عليهم ولكن تصديق قد ذكر في يونس وهدى ورحمة معطوفان عليه والله أعلم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 48. 60 ﴾

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة يوسف

[سورة يوسف (12) : الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (1) إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ (3) إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ (4)

(105/390)

"الر" فواتح السور حروف لا إعراب لها "تِلْكَ" اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "آياتُ" خبر والجملة مستأنفة "الْكِتابِ" مضاف إليه "الْمُبِينِ" صفة "إِنَّا" إن واسمها "أَنْزَلْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله الأول "قُرْآناً" مفعول به ثان أو حال "عَرَبِيًّا" صفة والجملة استئنافية "لَعَلَّكُمْ" لعل واسمها والجملة تعليل لا محل لها "تَعْقِلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر "نَحْنُ" مبتدأ وجملته مستأنفة "نَقُصُّ" مضارع فاعله

مستتر والجملة خبر "عَلَيْكَ" متعلقان بنقص "أَحْسَنَ" مفعول به "الْقَصَصِ" مضاف إليه "بِما" ما مصدرية وهي وما بعدها في محل جر ومتعلقان بنقص "أَوْحَيْنا" ماض وفاعله والجملة صلة "إِلَيْكَ" متعلقان بأوحينا "هذَا" ذا اسم إشارة مفعول به والها للتنبيه "الْقُرْآنَ" بدل من اسم الإشارة "وَإِنْ" الواو حالية وإن مخففة من إن الثقيلة واسمها ضمير الشأن والجملة حالية "كُنْتَ" كان واسمها والجملة خبر إن "مِنْ قَبْلِهِ" متعلقان بمحذوف حال والهاء مضاف إليه "لَمِنَ الْغافِلِينَ" اللام الفارقة ومتعلقان بالخبر المحذوف لكان "إِذْ" ظرف زمان يتضمن معنى الشرط متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر "قالَ يُوسُفُ" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "لِأَبِيهِ" اللام حرف جر وأبيه اسم مجرور بالياء لأنه من الأسماء الخمسة متعلق بقال "يا" أداة نداء "أَبَتِ" منادى منصوب لأنه مضاف لياء المتكلم المحذوفة وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها مناسبة الحرف المحذوف وقد عوض عن الياء المحذوفة بالتاء والجملة مقول القول "إِنِّي" إن واسمها والجملة مقول القول "رَأَيْتُ" ماض وفاعله والجملة خبر "أَحَدَ عَشَرَ" كلمتان مبنيتان على فتح الجزأين في محل نصب مفعول به "كَوْكَباً" تمييز "وَالشَّمْسَ" معطوف على أحد عشر "وَالْقَمَرَ" معطوف على ما

قبله "رَأَيْتُهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة "لِي" متعلقان بساجدين "ساجِدِينَ" مفعول به ثان لرأيتهم.

[سورة يوسف (12) : الآيات 5 الى 6]

قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5) وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)

"قالَ" ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "يا" أداة نداء "بُنَيَّ" منادى مضاف منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء مضاف إليه والجملة مقول القول "لا تَقْصُصْ" لا ناهية ومضارع مجزوم

و فاعله مستتر والجملة مقول القول "رُؤْياكَ" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر والكاف مضاف إليه "عَلى إِخْوَتِكَ" متعلقان بتقصص والكاف مضاف إليه "فَيَكِيدُوا" الفاء فاء السببية ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية والواو فاعل

"لَكَ" متعلقان بيكيدوا "كَيْداً" مفعول مطلق "إِنَّ الشَّيْطانَ" إن واسمها والجملة تعليل لا محل لها "لِلْإِنْسانِ" متعلقان بعدو "عَدُوٌّ" خبر "مُبِينٌ" صفة "وَكَذلِكَ" الواو عاطفة والكاف حرف جر وذا اسم إشارة مجرور بالكاف واللام للبعد والكاف للخطاب وهما متعلقان بصفة لمفعول مطلق محذوف "يَجْتَبِيكَ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والكاف مفعول به "رَبُّكَ" فاعل والكاف مضاف إليه والجملة معطوفة "وَيُعَلِّمُكَ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة معطوفة "مِنْ تَأْوِيلِ" متعلقان بيعلمك "الْأَحادِيثِ" مضاف إليه "وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ" مضارع مرفوع ومفعوله والهاء مضاف إليه وفاعله مستتر والجملة معطوفة "عَلَيْكَ" متعلقان بيتم "وَعَلى آلِ" معطوف على ما قبله "يَعْقُوبَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "كَما" الكاف حرف جر وما مصدرية "أَتَمَّها" ماض ومفعوله وفاعله مستتر وما بعدها في تأويل المصدر في محل جر بالكاف ومتعلقان بصفة لمفعول مطلق محذوف "عَلى أَبَوَيْكَ" متعلقان بأتمها والكاف مضاف إليه "مِنْ قَبْلُ" قبل مجرور بمن وهو مبني على الضم لأنه منقطع عن الإضافة ومتعلقان بحال محذوفة "إِبْراهِيمَ" بدل من أبويك "وَإِسْحاقَ" معطوف على إبراهيم "إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" إن واسمها وخبراها .

[سورة يوسف (12) : الآيات 7 الى 10]

لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ (7) إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (8) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ (9) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (10)

"لَقَدْ" اللام لام القسم وقد حرف تحقيق "كانَ فِي يُوسُفَ" كان والجار والمجرور متعلقان بالخبر المحذوف ويوسف مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "وَإِخْوَتِهِ" معطوف على يوسف والهاء مضاف إليه "آياتٌ" اسم كان والجملة ابتدائية لا محل لها "لِلسَّائِلِينَ" متعلقان بمحذوف صفة لآيات "إِذْ" ظرف زمان متعلق بفعل اذكر المحذوف "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "لَيُوسُفُ" اللام لام الابتداء ويوسف مبتدأ "وَإِخْوَتِهِ" معطوف على يوسف والهاء مضاف إليه "أَحَبُّ" خبر والجملة مقول القول "إِلى" حرف جر "أَبِينا" مجرور بإلى وعلامة جره الياء لأنه من الأسماء الخمسة ونا مضاف إليه "مِنَّا" متعلقان بأحب "وَنَحْنُ عُصْبَةٌ" الواو حالية ومبتدأ وخبر والجملة حالية "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "أَبانا" اسم إن منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة ونا مضاف إليه "لَفِي ضَلالٍ" اللام المزحلقة ومتعلقان بالخبر المحذوف "مُبِينٍ" صفة لضلال والجملة في محل نصب مقول القول "اقْتُلُوا" أمر وفاعله "يُوسُفَ"

مفعول به منصوب والجملة مقول القول لفعل محذوف تقديره قال قائل منهم اقتلوا "أَوِ" عاطفة "اطْرَحُوهُ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "أَرْضاً" ظرف مكان أو مفعول به ثان "يَخْلُ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وعلامة جزمه حذف حرف العلة "لَكُمْ" متعلقان بيخل "وَجْهُ" فاعل "أَبِيكُمْ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه من الأسماء الخمسة والكاف مضاف إليه "وَتَكُونُوا" الواو عاطفة ومضارع ناقص معطوف على يخل مجزوم مثله بحذف النون والواو اسمها "مِنْ بَعْدِهِ" متعلقان بصالحين والهاء مضاف إليه "قَوْماً" خبر "صالِحِينَ" صفة منصوبة بالياء لأنه جمع مذكر سالم "قالَ قائِلٌ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "مِنْهُمْ" متعلقان بقائل "لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ" لا ناهية ومضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل ويوسف مفعوله والجملة مقول القول "وَأَلْقُوهُ" الواو عاطفة وأمر وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "فِي غَيابَتِ" متعلقان بألقوه "الْجُبِّ" مضاف إليه "يَلْتَقِطْهُ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب والهاء مفعوله "بَعْضُ" فاعل "السَّيَّارَةِ" مضاف إليه "إِنْ" شرطية "كُنْتُمْ فاعِلِينَ" كان واسمها وخبرها والجملة ابتدائية لأنها فعل الشرط وجوابه محذوف دل عليه ما قبله.

[سورة يوسف (12) : الآيات 11 الى 14]

قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ (11) أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (12) قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ (13) قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ (14)

(110/390)

"قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "يا" أداة نداء "أَبانا" منادى منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة ونا مضاف إليه والجملة مقول القول "ما لَكَ" ما اسم استفهام مبتدأ "لَكَ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة مقول القول "لا تَأْمَنَّا" لا نافية ومضارع مرفوع بالضمة المقدرة على النون المدغمة بنا ونا مفعول به والجملة حالية "عَلى يُوسُفَ" متعلقان بتأمنا "وَإِنَّا" الواو حالية وإن واسمها "لَهُ" متعلقان بناصحون "لَناصِحُونَ" اللام المزحلقة وخبر إن مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة حالية "أَرْسِلْهُ" أمر ومفعوله وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "مَعَنا" ظرف مكان متعلق بأرسله ونا مضاف إليه "يَرْتَعْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وفاعله مستتر "وَيَلْعَبْ" مضارع معطوف على يرتع وإعرابه مثله "وَإِنَّا" الواو حالية وإن واسمها "لَهُ" متعلقان بحافظون "لَحافِظُونَ" اللام المزحلقة وخبر إن مرفوع

بالواو لأنه جمع مذكر سالم "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنِّي" إن واسمها والجملة مقول القول "لَيَحْزُنُنِي" اللام المزحلقة ومضارع والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة خبر "أَنْ" ناصبة "تَذْهَبُوا" مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل وأن وما بعدها في تأويل المصدر في محل رفع فاعل يحزنني "بِهِ" متعلقان بتذهبوا "وَأَخافُ" الواو عاطفة ومضارع مرفوع وفاعله مستتر والجملة معطوفة "أَنْ" حرف ناصب "يَأْكُلَهُ" مضارع منصوب بأن والهاء مفعوله "الذِّئْبُ" فاعل "وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ"

مبتدأ وخبر والجملة حالية وعنه متعلقان بغافلون "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "لَئِنْ" اللام موطئة للقسم وإن شرطية "أَكَلَهُ الذِّئْبُ" ماض وفاعله المؤخر ومفعوله المقدم والجملة ابتدائية "وَنَحْنُ عُصْبَةٌ" الواو حالية ومبتدأ وخبر والجملة حالية "إِنَّا" إن واسمها "إِذاً" حرف جواب "لَخاسِرُونَ" اللام المزحلقة وخاسرون خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة جواب القسم لا محل لها وجواب الشرط محذوف.

[سورة يوسف (12) : الآيات 15 الى 17]

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا

وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (15) وَجاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ (16) قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ (17)

(112/390)

"فَلَمَّا" الفاء استئنافية ولما الحينية شرطية ظرف زمان "ذَهَبُوا" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "بِهِ" متعلقان بذهبوا "وَأَجْمَعُوا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "أَنْ" ناصبة "يَجْعَلُوهُ" مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعله والهاء مفعوله والجملة في محل نصب مفعول به "فِي غَيابَتِ" متعلقان بيجعلوا "الْجُبِّ" مضاف إليه "وَأَوْحَيْنا" الواو زائدة وماض ونا فاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "إِلَيْهِ" متعلقان بأوحينا "لَتُنَبِّئَنَّهُمْ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والهاء مفعول به "بِأَمْرِهِمْ" متعلقان بتنبئنهم والهاء مضاف إليه "هذا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة في محل جر صفة لأمرهم "وَهُمْ" الواو حالية وهم مبتدأ والجملة في محل نصب على الحال "لا" نافية "يَشْعُرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر "وَجاؤُ" الواو استئنافية وماض وفاعله "أَباهُمْ" مفعول به منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة والهاء مضاف إليه "عِشاءً" ظرف زمان متعلق

بجاءوا "يَبْكُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة حالية "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "يا" أداة نداء "أَبانا" منادى منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة ونا مضاف إليه "إِنَّا" إن ونا اسمها والجملة وسابقتها مقول القول "ذَهَبْنا" ماض وفاعله والجملة خبر إنا "نَسْتَبِقُ" مضارع مرفوع والجملة حالية "وَتَرَكْنا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "يُوسُفَ" مفعول به منصوب "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بتركنا "مَتاعِنا" مضاف إليه ونا مضاف إليه "فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ" الفاء عاطفة وماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر "وَما" الواو حالية وما نافية تعمل عمل ليس "أَنْتَ" اسم ما "بِمُؤْمِنٍ" الباء زائدة و

مؤمن خبر مجرور لفظا منصوب محلا "لَنا" متعلقان بمؤمن والجملة حالية "وَلَوْ" الواو حالية ولو زائدة "كُنَّا" كان واسمها "صادِقِينَ" خبر منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة حالية.

[سورة يوسف (12) : الآيات 18 الى 20]

وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ

عَلَى مَا تَصِفُونَ (18) وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20)

(114/390)

"وَجَاؤُ" الواو استئنافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "عَلَى قَمِيصِهِ" متعلقان بحال محذوفة والتقدير وجاؤوا بدم كذب ملقى على قميصه والهاء مضاف إليه "بِدَمٍ" متعلقان بجاءوا "كَذِبٍ" صفة دم "قَالَ" ماض وفاعله مستتر "بَلْ" حرف إضراب "سَوَّلَتْ" ماض والتاء للتأنيث "لَكُمْ" متعلقان بسولت "أَنْفُسُكُمْ" فاعل والكاف مضاف إليه والجملة مقول القول "أَمْرًا" مفعول به "فَصَبْرٌ جَمِيلٌ" الفاء استئنافية وصبر خبر لمبتدأ محذوف تقديره شأني صبر جميل صفة والجملة مستأنفة "وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ" الواو استئنافية ومبتدأ وخبر والجملة مستأنفة "عَلَى ما" ما موصولية ومتعلقان بمستعان "تَصِفُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ" الواو استئنافية وماض وفاعله والتاء للتأنيث والجملة مستأنفة "فَأَرْسَلُوا" الفاء عاطفة وماض وفاعله "وارِدَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "فَأَدْلَى " الفاء عاطفة وماض مبني على الفتح المقدر

على الألف للتعذر والفاعل مستتر "دَلْوَهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه "قالَ" ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "يا" أداة نداء "بُشْرى" منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر "هذا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة مبتدأ "غُلامٌ" خبر والجملة وما قبلها مقول القول "وَأَسَرُّوهُ بِضاعَةً" الواو عاطفة وماض وفاعله ومفعولاه والجملة معطوفة "وَاللَّهُ عَلِيمٌ" لفظ الجلالة مبتدأ وعليم خبر والجملة مستأنفة "بِما" ما موصولية ومتعلقان بعليم "يَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "وَشَرَوْهُ" الواو استئنافية وماض وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة "بِثَمَنٍ" متعلقان بشروه "بَخْسٍ" مضاف إليه "دَراهِمَ" بدل من ثمن مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "مَعْدُودَةٍ"

(115/390)

صفة لدراهم مجرورة مثله "وَكانُوا" الواو عاطفة وكان واسمها والجملة معطوفة "فِيهِ" متعلقان بالزاهدين "مِنَ الزَّاهِدِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف.

[سورة يوسف (12) : الآيات 21 الى 22]

وَقالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذلِكَ

مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22)

"وَقَالَ الَّذِي" الواو استئنافية وماض واسم الموصول فاعله والجملة مستأنفة "اشْتَرَاهُ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة صلة "مِنْ مِصْرَ" متعلقان بمحذوف حال ومصر مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "لِامْرَأَتِهِ" متعلقان بقال والهاء مضاف إليه "أَكْرِمِي" أمر مبني على حذف النون والياء فاعل "مَثْوَاهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه والجملة مقول القول "عَسَى" فعل ماض من أفعال الرجاء واسمه

(116/390)

محذوف "أَنْ" ناصبة "يَنْفَعَنَا" مضارع منصوب ونا مفعول به وفاعله مستتر وأن وما بعدها في محل نصب خبر عسى "أَوْ نَتَّخِذَهُ" معطوف على ينفعنا وإعرابه مثله "وَلَدًا" مفعول به ثان "وَكَذَلِكَ" الكاف حرف جر وذا اسم إشارة وهما متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف واللام للبعد والكاف حرف جر وذا اسم إشارة وهما متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف واللام للبعد والكاف للخطاب "مَكَّنَّا" فعل ماض وفاعله

"لِيُوسُفَ" يوسف ممنوع من الصرف مجرور بالفتحة ومتعلقان بمكنا "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمكنا والجملة مستأنفة "وَلِنُعَلِّمَهُ" الواو زائدة واللام لام التعليل والهاء مفعول به وفاعله مستتر واللام وما بعدها في تأويل المصدر متعلقان بمكنا "مِنْ تَأْوِيلِ" متعلقان بنعلمه "الْأَحَادِيثِ" مضاف إليه "وَاللَّهُ غَالِبٌ" الواو استئنافية ولفظ الجلالة مبتدأ وغالب خبره والجملة مستأنفة "عَلَى أَمْرِهِ" متعلقان بغالب والهاء مضاف إليه "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ" الواو عاطفة ولكن واسمها والجملة معطوفة على ما سبق "النَّاسِ" مضاف إليه "لا يَعْلَمُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر "وَلَمَّا" الواو استئنافية ولما الحينية ظرف زمان يتضمن معنى الشرط "بَلَغَ" ماض فاعله مستتر "أَشُدَّهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه والجملة في محل جر مضاف إليه "آتَيْنَاهُ" ماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم "حُكْماً" مفعول به ثان "وَعِلْماً" معطوف على حكما "وَكَذَلِكَ" الواو استئنافية والكاف حرف جر واسم الإشارة في محل جر ومتعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف "نَجْزِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر "الْمُحْسِنِينَ" مفعول به منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم.

[سورة يوسف (12) : الآيات 23 الى 24]

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24)

"وَرَاوَدَتْهُ" الواو استئنافية وماض ومفعوله والتاء للتأنيث والجملة مستأنفة "الَّتِي" اسم موصول فاعل "هُوَ" مبتدأ "فِي بَيْتِهَا" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة صلة لا محل لها "وَغَلَّقَتِ" الواو عاطفة وماض فاعله مستتر والتاء للتأنيث "الْأَبْوَابَ" مفعول به والجملة معطوفة "هَيْتَ" اسم فعل أمر وفاعله مستتر "لَكَ" متعلقان بهيت والجملة مقول القول "قَالَ" ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "مَعَاذَ" مفعول مطلق لفعل محذوف "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "إِنَّهُ رَبِّي" إن واسمها وخبرها والياء مضاف إليه والجملة وما قبلها مقول القول "أَحْسَنَ مَثْوَايَ" ماض وفاعله مستتر ومثواي مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء مضاف إليه والجملة في محل رفع خبر ثان لإن "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة مستأنفة "لا" نافية "يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ" مضارع وفاعله المرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة خبر إنه "وَلَقَدْ" الواو حرف جر وقسم واللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "هَمَّتْ" ماض والتاء للتأنيث وفاعله مستتر وجملة القسم لا محل لها من الإعراب "بِهِ" متعلقان بهمت

"وَهَمَّ بِها" معطوف على همت به "لَوْلا" حرف شرط غير جازم "أَنْ" حرف ناصب "رَأى" ماض وفاعله مستتر "بُرْهانَ" مفعول به "رَبِّهِ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه والجملة من أن والفعل في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ تقديره رؤية وخبره محذوف "كَذلِكَ" متعلقان بمحذوف صفة مفعول مطلق محذوف واللام للبعد والكاف للخطاب "لِنَصْرِفَ" اللام للتعليل ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل واللام وما بعدها في تأويل المصدر متعلقان بما تعلقت به كذلك "عَنْهُ" متعلقان بنصرف "السُّوءَ" مفعول به "وَالْفَحْشاءَ" معطوف على السوء "إِنَّهُ" إن واسمها "مِنْ عِبادِنَا" متعلقان بالخبر المحذوف "الْمُخْلَصِينَ" صفة لعبادنا .

[سورة يوسف (12) : الآيات 25 الى 26]

وَاسْتَبَقَا الْبابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ (25) قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ (26)

"وَاسْتَبَقَا الْبَابَ" الواو عاطفة وماض والألف فاعله والباب مفعوله والجملة معطوفة "وَقَدَّتْ" ماض وفاعله مستتر والجملة معطوفة "قَمِيصَهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه "مِنْ دُبُرٍ" متعلقان بقدت "وَأَلْفَيَا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "سَيِّدَهَا" مفعول به والهاء مضاف إليه "لَدَى" ظرف مكان متعلقان بألفيا "الْبَابَ" مضاف إليه "قَالَتْ" ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "ما" نافية "جَزَاءُ" مبتدأ "مَنْ" اسم موصول مضاف إليه "أَرَادَ" ماض وفاعله مستتر والجملة صلة "بِأَهْلِكَ" متعلقان بأراد "سُوءاً" مفعول به "إِلَّا" أداة حصر "أَنْ" ناصبة "يُسْجَنَ" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر وأن وما بعدها في تأويل المصدر في محل رفع خبر جزاء "أَوْ" عاطفة "عَذَابٌ" معطوف على الخبر "أَلِيمٌ" صفة "قَالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "هِيَ" مبتدأ وجملته مقول القول "رَاوَدَتْنِي" ماض والتاء للتأنيث والنون للوقاية والياء مفعول به وفاعله مستتر والجملة خبر "عَنْ نَفْسِي" متعلقان براودتني "وَشَهِدَ شَاهِدٌ" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "مِنْ أَهْلِهَا" متعلقان بصفة لشاهد والهاء مضاف إليه "إِنْ" شرطية "كَانَ قَمِيصُهُ" كان واسمها والجملة ابتدائية لا محل لها "قُدَّ" ماض مبني للمجهول والفاعل مستتر والجملة خبر كان "مِنْ قُبُلٍ" متعلقان بقد "فَصَدَقَتْ" الفاء رابطة للجواب وماض والتاء للتأنيث والفاعل مستتر والجملة في محل جزم جواب الشرط "وَهُوَ" الواو

حالية "هُوَ" مبتدأ "مِنَ الْكاذِبِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة حالية.

[سورة يوسف (12) : الآيات 27 الى 30]

(120/390)

وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27) فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ (29) وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (30)

(121/390)

"وَإِنْ" الواو عاطفة وإن شرطية وجملتها معطوفة "كانَ قَمِيصُهُ" كان واسمها والهاء مضاف إليه والجملة ابتدائية "قُدَّ" ماض مبني للمجهول والجملة خبر "مِنْ دُبُرٍ" متعلقان بقد "فَكَذَبَتْ" الفاء رابطة للجواب وماض والتاء للتأنيث وفاعله مستتر والجملة في محل جزم جواب الشرط "وَهُوَ" الواو حالية وهو مبتدأ "مِنَ الصَّادِقِينَ" متعلقان بالخبر والجملة حالية

"فَلَمَّا" الفاء استئنافية ولما الحينية ظرف زمان متعلقان بقال "رَأى" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر والفاعل مستتر والجملة مضاف إليه "قَمِيصَهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه "قُدَّ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعله مستتر "مِنْ دُبُرٍ" متعلقان بقد "قالَ" ماض وفاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة مقول القول "مِنْ كَيْدِكُنَّ" متعلقان بالخبر المحذوف والكاف مضاف إليه والنون علامة جمع الإناث "إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ" إن واسمها وخبرها والكاف والنون سبق إعرابها والجملة مقول القول "يُوسُفُ" منادى بأداة نداء محذوفة وهو مبني على الضم في محل نصب على النداء "أَعْرِضْ" أمر فاعله مستتر "عَنْ هذا" ذا اسم إشارة في محل جر ومتعلقان بأعرض والجملة وما قبلها مقول القول لفعل محذوف تقديره قال يوسف إلخ "وَاسْتَغْفِرِي" الواو عاطفة وأمر والياء فاعل والجملة معطوفة "لِذَنْبِكِ" متعلقان باستغفري "إِنَّكِ" إن واسمها والجملة تعليل لا محل لها "كُنْتِ" كان واسمها "مِنَ الْخاطِئِينَ" متعلقان بالخبر والجملة خبر إنك "وَقالَ نِسْوَةٌ" الواو استئنافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "فِي الْمَدِينَةِ" متعلقان بقال "امْرَأَتُ" مبتدأ "الْعَزِيزِ" مضاف إليه والجملة مقول القول "تُراوِدُ" مضارع مرفوع وفاعله مستتر "فَتاها" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على الألف والهاء مضاف

إليه والجملة خبر "عَنْ نَفْسِهِ" متعلقان بتراود "قَدْ" حرف تحقيق "شَغَفَها" ماض ومفعوله والفاعل مستتر "حُبًّا" تمييز والجملة حالية "إِنَّا" إن واسمها والجملة مقول القول "لَنَراها" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر "فِي ضَلالٍ" متعلقان بنراها "مُبِينٍ" صفة.

[سورة يوسف (12) : الآيات 31 الى 32]

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ (32)

"فَلَمَّا" الفاء استئنافية ولما حينية ظرف زمان "سَمِعَتْ" ماض والتاء للتأنيث والفاعل مستتر والجملة مضاف إليه "بِمَكْرِهِنَّ" متعلقان بسمعت والهاء مضاف إليه "أَرْسَلَتْ" ماض فاعله مستتر والتاء للتأنيث "إِلَيْهِنَّ" متعلقان بأرسلت "وَأَعْتَدَتْ" معطوف على أرسلت "لَهُنَّ" متعلقان بأعتدت "مُتَّكَأً" مفعول به

"وَآتَتْ" الواو عاطفة وماض والتاء للتأنيث والفاعل مستتر والجملة معطوفة "كُلَّ" مفعول به أول "واحِدَةٍ" مضاف إليه "مِنْهُنَّ" متعلقان بمحذوف صفة "سِكِّيناً" مفعول به ثان "وَقالَتِ" معطوف على آتت "اخْرُجْ" أمر فاعله مستتر "عَلَيْهِنَّ" متعلقان باخرج "فَلَمَّا" الفاء عاطفة ولما الحينية "رَأَيْنَهُ" ماض مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة والنون فاعل والهاء مفعول به والجملة مضاف إليه "أَكْبَرْنَهُ" إعرابه مثل رأينه ماض والنون فاعله والهاء مفعوله "وَقَطَّعْنَ" الواو عاطفة وماض ونون النسوة فاعل "أَيْدِيَهُنَّ" مفعول به والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "وَقُلْنَ" ماض والنون فاعله والجملة معطوفة "حاشَ" ماض فاعله مستتر "لِلَّهِ" متعلقان بحاش "ما هذا" ما نافية تعمل عمل ليس واسم الإشارة اسمها "بَشَراً" خبرها والجملة وما قبلها مقول القول "إِنْ" حرف فاعله مستتر والجملة معطوفة "وَلَئِنْ" الواو استئنافية واللام واقعة في جواب قسم وإن شرطية "لَمْ" جازمة "يَفْعَلْ" مضارع مجزوم وفاعله مستتر والجملة ابتدائية لا محل لها "ما" موصولية مفعول به "آمُرُهُ" مضارع وفاعله مستتر والهاء مفعوله والجملة صلة "به" متعلقان بآمره "لَيُسْجَنَنَّ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني للمجهول مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم وجواب الشرط محذوف "وَلَيَكُوناً" الواو عاطفة واللام واقعة في جواب القسم ومضارع ناقص مبني على الفتحة لاتصاله بنون التوكيد

الخفيفة واسمه محذوف "مِنَ الصَّاغِرِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة معطوفة.

[سورة يوسف (12) : الآيات 33 الى 35]

(124/390)

قال رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ (33) فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34) ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35)

"قالَ" ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "رَبِّ" منادى بأداة نداء محذوفة منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة والجملة مقول القول "السِّجْنُ" مبتدأ "أَحَبُّ" خبر "إِلَيَّ" متعلقان بأحب "مِمَّا" من حرف جر وما موصولية متعلقان بأحب "يَدْعُونَنِي" مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة ونون النسوة فاعل والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة صلة "إِلَيْهِ" متعلقان بيدعونني "وَإِلَّا"

(125/390)

الواو مستأنفة وإن شرطية ولا نافية "تَصْرِفْ" مضارع مجزوم وفاعله مستتر "عَنِّي" متعلقان بتصرف "كَيْدَهُنَّ" مفعوله به والهاء مضاف إليه والنون علامة جمع الإناث والجملة ابتدائية لا محل لها "أَصْبُ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط وفاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط لم يقترن بالفاء "إِلَيْهِنَّ" متعلقان بأصب "وَأَكُنْ" مضارع ناقص معطوف على ما قبله ومجزوم مثله واسمه محذوف "مِنَ الْجاهِلِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف "فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ" الفاء استئنافية وماض وفاعله والهاء مضاف إليه والجار والمجرور متعلقان باستجاب والجملة استئنافية "فَصَرَفَ" الفاء عاطفة وماض وفاعله مستتر والجملة معطوفة "عَنْهُ" متعلقان بصرف "كَيْدَهُنَّ" مفعول به والهاء مضاف إليه والنون علامة جمع الإناث والجملة معطوفة "إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" إن والهاء اسمها وهو ضمير فصل والسميع العليم خبراها "ثُمَّ" عاطفة "بَدا" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر "لَهُمْ" متعلقان ببدا "مِنْ بَعْدِ" متعلقان ببدا "ما" مصدرية "رَأَوُا" ماض والواو فاعله وما بعدها في تأويل المصدر في محل جر مضاف إليه "الْآياتِ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "لَيَسْجُنُنَّهُ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف ويسجننه مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والهاء مفعوله وواو الجماعة المحذوفة فاعله والجملة فاعل بدا "حَتَّى" حرف غاية وجر "حِينٍ" مجرور بحتى ومتعلقان بيسجننه.

[سورة يوسف (12) : الآيات 36 الى 37]

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36) قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (37)

"وَدَخَلَ" الواو عاطفة وماض "مَعَهُ" ظرف مكان متعلق بدخل والهاء مضاف إليه "السِّجْنَ" مفعول به مقدم "فَتَيانِ" فاعل مرفوع بالألف لأنه مثنى والجملة معطوفة "قالَ أَحَدُهُما" ماض وفاعله والجملة معطوفة والهاء مضاف إليه والجملة مستأنفة "إِنِّي" إن واسمها "أَرانِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والنون للوقاية والياء مفعول به أول "أَعْصِرُ خَمْراً" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة مفعول به ثان لأراني "وَقالَ الْآخَرُ" ماض وفاعله والجملة معطوفة "إِنِّي أَرانِي" إن واسمها وجملة أراني التي سبق إعرابها خبر والجملة مقول القول "أَحْمِلُ" مضارع فاعله مستتر "فَوْقَ" ظرف مكان متعلق بأحمل "رَأْسِي" مضاف إليه والياء مضاف إليه "خُبْزاً" مفعول به "تَأْكُلُ الطَّيْرُ" مضارع وفاعله والجملة صفة لخبز. "مِنْهُ" متعلقان بتأكل أو بحال محذوفة. "نَبِّئْنا" أمر ومفعوله

وفاعله مستتر والجملة مقول القول "بِتَأْوِيلِهِ" متعلقان بنبئنا "إِنَّا" إن واسمها "نَرَاكَ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والكاف مفعوله وفاعله مستتر والجملة خبر إن والجملة الاسمية تعليل لا محل لها

(127/390)

"مِنَ الْمُحْسِنِينَ" متعلقان بنراك "قَالَ" ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ" لا نافية يأتيكما مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والكاف مفعوله المقدم "طَعَامٌ" فاعل مؤخر والجملة مقول القول "تُرْزَقَانِهِ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والألف نائب فاعل والهاء مفعوله والجملة صفة لطعام "إِلَّا" أداة حصر "نَبَّأْتُكُمَا" فعل ماض والتاء فاعله والكاف مفعوله والميم والألف للتثنية والجملة حالية "بِتَأْوِيلِهِ" متعلقان بنبأتكما "قَبْلَ" ظرف زمان متعلق بنبأتكما "أَنْ" ناصبة "يَأْتِيكُمَا" مضارع منصوب بأن والكاف مفعوله وفاعله مستتر وأن وما بعدها في تأويل المصدر في محل جر بالإضافة "ذَلِكُمَا" ذا اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب والميم والألف للتثنية "مِمَّا" من حرف جر وما موصولية متعلقان بالخبر المحذوف والجملة مستأنفة "عَلَّمَنِي رَبِّي" ماض والنون للوقاية والياء مفعوله المقدم وربي فاعل والياء مضاف

إليه والجملة صلة "إِنِّي" إن واسمها والجملة مستأنفة "تَرَكْتُ" ماض وفاعله والجملة خبر "مِلَّةَ" مفعول به "قَوْمٍ" مضاف إليه "لا يُؤْمِنُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صفة لقوم "بِاللَّهِ" متعلقان بيؤمنون "وَهُمْ" الواو عاطفة وهم مبتدأ "بِالْآخِرَةِ" متعلقان بكافرون "هُمْ" ضمير فصل "كافِرُونَ" خبر والجملة معطوفة.

[سورة يوسف (12) : الآيات 38 الى 39]

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (38) يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (39)

"وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ" الواو عاطفة وماض وفاعله ومفعوله "آبائِي" مضاف إليه والياء مضاف إليه والجملة معطوفة "إِبْراهِيمَ" بدل من آبائي "وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ" معطوف على إبراهيم "ما" نافية "كانَ" ماض ناقص "لَنا" متعلقان بالخبر المحذوف "أَنْ" ناصبة "نُشْرِكَ" مضارع منصوب والفاعل مستتر وأن وما بعدها في تأويل المصدر في محل رفع اسم كان "بِاللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بالباء متعلقان بنشرك "مِنْ" حرف جر زائد "شَيْءٍ" مفعول به مجرور لفظا

منصوب محلا "ذلِكَ" اسم الإشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "مِنْ فَضْلِ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة مستأنفة "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "عَلَيْنا" متعلقان بفضل "وَعَلَى النَّاسِ" معطوف على علينا "وَلكِنَّ أَكْثَرَ" الواو عاطفة ولكن واسمها "النَّاسِ" مضاف إليه والجملة معطوفة "لا" نافية "يَشْكُرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر لكن "يا" أداة نداء "صاحِبَيِ" منادى مضاف منصوب بالياء لأنه مثنى وحذفت النون للإضافة والجملة لا محل لها "السِّجْنِ" مضاف إليه "أَأَرْبابٌ" الهمزة للاستفهام ومبتدأ "مُتَفَرِّقُونَ" صفة مرفوعة بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة مستأنفة "خَيْرٌ" خبر "أَمِ" عاطفة "اللَّهُ" لفظ الجلالة معطوف على أرباب "الْواحِدُ الْقَهَّارُ" صفتان للّه.

[سورة يوسف (12) : الآيات 40 الى 41]

ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (40) يا صاحِبَيِ

السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ (41)

(130/390)

"ما" نافية "تَعْبُدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بمحذوف حال والجملة مستأنفة "إِلَّا" أداة حصر "أَسْماءً" مفعول به "سَمَّيْتُمُوها" ماض والتاء فاعله والواو للإشباع والهاء مفعوله والجملة صفة لأسماء "أَنْتُمْ" توكيد لفاعل سميتموها في محل رفع مثله "وَآباؤُكُمْ" معطوف على التاء والكاف مضاف إليه "ما" نافية "أَنْزَلَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله "بها" متعلقان بأنزل والجملة صفة ثانية لأسماء "مِنْ" حرف جر زائد "سُلْطانٍ" مفعول به مجرور لفظا منصوب محلا "إِنِ" حرف نفي "الْحُكْمُ" مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام ومتعلقان بالخبر المحذوف والجملة مستأنفة "أَمَرَ" ماض وفاعله مستتر "إن" ناصبة "لا" نافية "تَعْبُدُوا" مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون والواو وفاعل "إِلَّا إِيَّاهُ" وإلا أداة حصر وإياه ضمير منفصل في محل نصب مفعول به والجملة مستأنفة وأن وما بعدها في محل جر بالباء المحذوفة ومتعلقان بأمر "ذلِكَ" اسم الإشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "الدِّينُ" خبر "الْقَيِّمُ" صفة "وَلكِنَّ أَكْثَرَ"

الواو عاطفة ولكن واسمها "النَّاسِ" مضاف إليه والجملة معطوفة "لا" نافية "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر "يا" أداة نداء "صاحِبَيِ" منادى مضاف منصوب بالياء لأنه مثنى وحذفت النون للإضافة والجملة لا محل لها "السِّجْنِ" مضاف إليه "أَمَّا" أداة شرط وتفصيل "أَحَدُكُما" مبتدأ والكاف مضاف إليه "فَيَسْقِي" الفاء واقعة في جواب أما ومضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر "رَبَّهُ" مفعول به أول والهاء مضاف إليه والجملة خبر المبتدأ "خَمْراً" مفعول به ثان "وَأَمَّا" حرف تفصيل وشرط "الْآخَرُ" مبتدأ "فَيُصْلَبُ" الفاء واقعة في جواب أما ومضارع مبني للمجهول ونائب

(131/390)

الفاعل محذوف والجملة خبر "فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ" مضارع وفاعله والجملة معطوفة "مِنْ رَأْسِهِ" متعلقان بمحذوف حال والهاء مضاف إليه "قُضِيَ الْأَمْرُ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعله والجملة مستأنفة "الَّذِي" اسم موصول صفة للأمر "فِيهِ" متعلقان بتستفتيان "تَسْتَفْتِيانِ" مضارع مرفوع بثبوت النون والألف فاعل والجملة صلة.

[سورة يوسف (12) : الآيات 42 الى 43]

وَقالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42) وَقالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ (43)

"وَقالَ" الواو استئنافية وماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "لِلَّذِي" اسم موصول ومتعلقان بقال "ظَنَّ" ماض وفاعله مستتر والجملة صلة "أَنَّهُ" أن وما بعدها سدت مسد مفعولي ظن "ناجٍ" خبر أن مرفوع بالضمة

(132/390)

المقدرة على الياء المحذوفة لأنه اسم منقوص "مِنْهُمَا" متعلقان بناج "اذْكُرْنِي" أمر والنون للوقاية والياء مفعوله والفاعل مستتر والجملة مقول القول "عِنْدَ" ظرف مكان متعلقان باذكرني "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "فَأَنْساهُ" الفاء عاطفة وماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر والهاء مفعوله الأول المقدم "الشَّيْطانُ" فاعل مؤخر "ذِكْرَ" مفعول به ثان "رَبِّهِ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "فَلَبِثَ" الفاء عاطفة وماض فاعله مستتر "فِي السِّجْنِ" متعلقان بلبث "بِضْعَ" ظرف زمان متعلق بلبث "سِنِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم والجملة معطوفة "وَقالَ الْمَلِكُ" الواو

استئنافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "إِنّي" إن واسمها والجملة مقول القول "أَرى" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر وفاعله مستتر "سَبْعَ" مفعول به "بَقَراتٍ" مضاف إليه والجملة خبر إني "سِمانٍ" صفة "يَأْكُلُهُنَّ" مضارع ومفعوله المقدم "سَبْعَ" فاعل مؤخر "عِجافٌ" صفة والجملة مفعول به ثان لأرى "وَسَبْعَ" معطوف على سبع المتقدمة "سُنْبُلاتٍ" مضاف إليه "خُضْرٍ" صفة لسنبلات "وَأُخَرَ" معطوف على سبع وهو مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف "يابِساتٍ" صفة لأخر "يا" أداة نداء "أَيُّهَا" أي منادى نكرة مقصودة في محل نصب على النداء والها للتنبيه "الْمَلَأُ" بدل من أي أو عطف بيان "أَفْتُونِي" أمر وفاعله والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة وما قبلها مقول القول "فِي رُءْيايَ" متعلقان بأفتوني والياء مضاف إليه "إِنْ" شرطية "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة ابتدائية "لِلرُّءْيا" اللام حرف جر والرؤيا اسم مجرور وعلامة جره الكسرة المقدرة على الألف للتعذر متعلقان بتعبرون "تَعْبُرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر كنتم

وجواب الشرط محذوف.

[سورة يوسف (12) : الآيات 44 الى 46]

قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ (44) وَقالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46)

"قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "أَضْغاثُ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي أضغاث والجملة مقول القول "أَحْلامٍ" مضاف إليه "وَما" الواو عاطفة وما نافية تعمل عمل ليس "نَحْنُ" اسم ما "بِتَأْوِيلِ" متعلقان بعالمين "الْأَحْلامِ" مضاف إليه "بِعالِمِينَ" الباء حرف جر زائد وعالمين خبرها مجرور لفظا مرفوع محلا والجملة معطوفة "وَقالَ الَّذِي" الواو استئنافية وماض واسم الموصول فاعله والجملة استئنافية "نَجا" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر وفاعله مستتر والجملة صلة لا محل لها "مِنْهُما" متعلقان بنجا "وَادَّكَرَ" ماض فاعله مستتر ومعطوف على نجا "بَعْدَ" ظرف زمان متعلق بادكر "أُمَّةٍ" مضاف إليه "أَنَا" مبتدأ والجملة مقول القول "أُنَبِّئُكُمْ" مضارع والكاف مفعوله وفاعله مستتر والجملة خبر "بِتَأْوِيلِهِ" متعلقان بأنبئكم والهاء مضاف إليه "فَأَرْسِلُونِ" الفاء عاطفة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعل والنون للوقاية وياء المتكلم المحذوفة مفعوله والجملة معطوفة "يُوسُفُ" منادى

(134/390)

مفرد علم بأداة نداء محذوفة وهو مبني على الضم في محل نصب وجملته لا محل لها "أَيُّهَا" أي

منادى بأداة نداء محذوفة وهو مبني على الضم لأنه نكرة مقصودة في محل نصب والها للتنبيه

"الصِّدِّيقُ" بدل أو عطف بيان وجملته لا محل لها "أَفْتِنا" أمر ومفعوله وفاعله مستتر "فِي

سَبْعِ" متعلقان بأفتنا "بَقَراتٍ" مضاف إليه "سِمانٍ" صفة لبقرات "يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ

وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ" سبق إعرابها قريبا "لَعَلِّي" لعل واسمها والجملة تعليل

لا محل لها "أَرْجِعُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر "إِلَى النَّاسِ" متعلقان بأرجع "لَعَلَّهُمْ"

لعل واسمها والميم لجمع الذكور والجملة تعليل لا محل لها "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت

النون والواو فاعل والجملة خبر لعلهم.

[سورة يوسف (12) : الآيات 47 الى 49]

قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ

يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ

بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49)

(135/390)

"قالَ" ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "تَزْرَعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والجملة مقول القول "سَبْعَ" ظرف زمان متعلق بتزرعون "سِنِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "دَأَباً" حال "فَما" الفاء استئنافية وما اسم شرط جازم في محل نصب مفعول به مقدم "حَصَدْتُمْ" ماض وفاعله والميم علامة جمع الذكور وهو في محل جزم فعل الشرط والجملة ابتدائية لا محل لها "فَذَرُوهُ" الفاء رابطة للجواب وأمر مبني على حذف النون والواو فاعل والهاء مفعوله والجملة في محل جزم جواب الشرط "فِي سُنْبُلِهِ" متعلقان فذروه والهاء مضاف إليه "إِلَّا" أداة استثناء "قَلِيلًا" مستثنى بإلا منصوب "مِمَّا" من حرف جر وما موصولية في محل جر ومتعلقان بمحذوف صفة لقليلا "تَأْكُلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "ثُمَّ" عاطفة "يَأْتِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بيأتي "ذلِكَ" اسم إشارة في محل جر بالإضافة واللام للبعد والكاف للخطاب "سَبْعٌ" فاعل "شِدادٌ" صفة "يَأْكُلْنَ" مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة والنون فاعل والجملة صفة ثانية لسبع "ما" موصولية مفعول به "قَدَّمْتُمْ" فعل ماض وفاعله والجملة صلة لا محل لها "لَهُنَّ" متعلقان بقدمتم "إِلَّا" أداة استثناء "قَلِيلًا" مستثنى بإلا منصوب "مِمَّا" من حرف جر وما موصولية متعلقان بمحذوف صفة لقليلا "تُحْصِنُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة

"ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ" سبق إعرابها قريبا "عامٌ" فاعل يأتي "فِيهِ" متعلقان بيغاث "يُغاثُ النَّاسُ" مضارع مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة صفة لعام "وَفِيهِ يَعْصِرُونَ" الواو عاطفة والجار والمجرور متعلقان بيعصرون "يَعْصِرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة يوسف (12) : الآيات 50 الى 51]

وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51)

"وَقالَ الْمَلِكُ" الجملة معطوفة على ما سبق "ائْتُونِي" أمر مبني على حذف النون والنون للوقاية والواو فاعل والياء مفعول به والجملة في محل نصب مقول القول "بِهِ" متعلقان بالفعل "فَلَمَّا" الفاء حرف عطف ولما الحينية متعلقة بجاءه "جاءَهُ الرَّسُولُ" ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر والجملة مضاف إليه "قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ" جملة ارجع من فعل الأمر وفاعله المضمر مقول القول "إِلى رَبِّكَ" متعلقان بالفعل ارجع "فَسْئَلْهُ" الفاء عاطفة وأمر وفاعله المضمر والجملة معطوفة على جملة ارجع "ما بالُ" ما اسم استفهام مبتدأ وبال خبره "النِّسْوَةِ" مضاف إليه "اللَّاتِي" اسم موصول في محل جر صفة والجملة مقول القول "قَطَّعْنَ" ماض مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة والنون فاعل "أَيْدِيَهُنَّ" مفعول به والهاء مضاف إليه والجملة لا محل لها لأنها صلة "إِنَّ رَبِّي" إن حرف مشبه بالفعل وربي اسمها والياء مضاف إليه "بِكَيْدِهِنَّ" متعلقان بالخبر "عَلِيمٌ" خبر "قالَ ما خَطْبُكُنَّ" ما استفهامية في محل رفع مبتدأ وخطبكن خبر "إِذْ" ظرف زمان متعلق بخطبكن "راوَدْتُنَّ" ماض مبني على السكون وفاعله "يُوسُفَ" مفعول به والجملة مضاف إليه "عَنْ نَفْسِهِ" متعلقان براودتن "قُلْنَ" ماض ونون النسوة فاعل "حاشَ" ماض وفاعله مستتر "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بحاشا "ما عَلِمْنا" ما نافية وعلمنا ماض وفاعل "عَلَيْهِ" متعلقان بعلمنا "مِنْ سُوءٍ" من حرف جر زائد وسوء مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به لعلمنا "قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ" فعل ماض وفاعل ومضاف إليه والجملة مستأنفة "الْآنَ" ظرف زمان

متعلق بحصحص "حَصْحَصَ الْحَقُّ" ماض وفاعله والجملة مقول القول "أَنَا" مبتدأ "رَاوَدْتُهُ" فعل ماض وفاعل ومفعول به والجملة خبر "عَنْ نَفْسِهِ" متعلقان براودته "وَإِنَّهُ" الواو عاطفة وإن اسمها "لَمِنَ" اللام المزحلقة وحرف جر

"الصَّادِقِينَ" اسم مجرور ومتعلقان بالخبر.

[سورة يوسف (12) : آية 52]

ذِلكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ (52)

"ذِلكَ" اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "لِيَعْلَمَ" اللام للتعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والجملة خبر، "أَنِّي" أن واسمها سدت مسد مفعولي يعلم "لَمْ أَخُنْهُ" الجملة خبر "بِالْغَيْبِ" متعلقان بحال من الفاعل "وَأَنَّ اللَّهَ" الواو عاطفة وأن ولفظ الجلالة اسمها والجملة معطوفة "لا يَهْدِي" الجملة خبر "كَيْدَ" مفعول به "الْخائِنِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء.

[سورة يوسف (12) : آية 53]

وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)

"وَمَا" الواو حالية وما نافية "أُبَرِّئُ" مضارع مرفوع وفاعله مستتر "نَفْسِي" مفعول به والياء مضاف إليه والجملة حالية "إِنَّ النَّفْسَ" إن واسمها "لَأَمَّارَةٌ" اللام المزحلقة وأمارة خبر "بِالسُّوءِ" متعلقان بأمارة "إِلَّا" أداة استثناء "ما" موصولية في محل نصب على الاستثناء "رَحِمَ رَبِّي" ماض وفاعله والياء مضاف إليه والجملة لا محل لها لأنها صلة "إِنَّ رَبِّي" إن واسمها "غَفُورٌ رَحِيمٌ" خبران لإن، والجملة مستأنفة.

[سورة يوسف (12) : الآيات 54 الى 57]

وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55) وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (57)

"

وَقَالَ الْمَلِكُ" الواو عاطفة وفعل ماض وفاعل والجملة معطوفة "ائْتُونِي" أمر والواو فاعله والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة مقول القول "بِهِ" متعلقان بما قبله "أَسْتَخْلِصْهُ" مضارع مجزوم بجواب الطلب وفاعله مستتر والهاء مفعول به والجملة مقول القول "لِنَفْسِي" متعلقان بأستخلصه "فَلَمَّا" الفاء استئنافية ولما الحينية" وفاعله مستتر والهاء مفعوله والجملة مضاف إليه "قَالَ إِنَّكَ" إن واسمها "لَدَيْنَا" لدي ظرف مكان ونا مضاف إليه متعلق بمكين "مَكِينٌ أَمِينٌ" خبران لإن وجملة إنك إلخ في محل نصب مقول القول "قَالَ اجْعَلْنِي" اجعلني أمر وفاعله مستتر والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة في محل نصب مقول القول "عَلَى خَزَائِنِ" متعلقان بما قبلها "الْأَرْضِ" مضاف إليه "إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ" إن والياء اسمها وحفيظ عليم خبران لها والجملة مستأنفة لا محل لها "وَكَذَلِكَ" استئنافية كذلك الكاف حرف جر وذا اسم إشارة في محل جر بالكاف واللام للبعد والكاف للخطاب متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق تقديره ذلك التمكين مكنا ليوسف "مَكَّنَّا" ماض مبني على السكون ونا فاعله "لِيُوسُفَ" اللام حرف جر يوسف مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف متعلقان بمكنا "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمكنا "يَتَبَوَّأُ" مضارع وفاعله مستتر "مِنْهَا" متعلقان بالفعل والجملة حالية بعد المعرفة "حَيْثُ" ظرف مكان متعلق بيتبوأ "يَشَاءُ" مضارع وفاعله محذوف والجملة مضاف إليه "نُصِيبُ" مضارع وفاعله مستتر "وَلَا نُضِيعُ" الواو

عاطفة ولا نافية والفعل المضارع فاعله مستتر "أَجْرَ" مفعول به "الْمُحْسِنِينَ" مضاف إليه والجملة معطوفة بالواو "وَلَأَجْرُ" الواو حالية ولام الابتداء وأجر مبتدأ "الْآخِرَةِ" مضاف إليه "خَيْرٌ" خبر والجملة حالية "لِلَّذِينَ" اللام حرف جر واسم موصول مجرور ومتعلقان بخير "آمَنُوا" ماض

(141/390)

و فاعله والجملة صلة لا محل لها "وَ" عاطفة "كانُوا" كان واسمها والجملة معطوفة "يَتَّقُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر كانوا .

[سورة يوسف (12) : الآيات 58 الى 60]

وَجاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ (60)

(142/390)

"وَجاءَ إِخْوَةُ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة لا محل لها "يُوسُفَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "فَدَخَلُوا" مضارع وفاعله والجملة معطوفة "عَلَيْهِ" متعلقان بدخلوا "فَعَرَفَهُمْ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة معطوفة "وَهُمْ" الواو حالية وهم ضمير منفصل مبتدأ "لَهُ" متعلقان بمنكرون "مُنْكِرُونَ" خبر والجملة حالية "وَلَمَّا" عاطفة وظرف زمان بمعنى حين "جَهَّزَهُمْ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة مضاف إليه "بِجَهازِهِمْ" متعلقان بجهزهم "قالَ" ماض وفاعله مستتر "ائْتُونِي" أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والياء مفعول به والجملة مقول القول "بِأَخٍ" متعلقان بائتوني "لَكُمْ" متعلقان بمحذوف صفة لأخ "مِنْ أَبِيكُمْ" متعلقان بمحذوف صفة ثانية "أَلا" حرف تنبيه "تَرَوْنَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله "أَنِّي" أن واسمها "أُوفِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر "الْكَيْلَ" مفعول به والجملة خبر إن وجملة إن سدت مسد مفعولي ترون "وَأَنَا" الواو حالية ومبتدأ "خَيْرُ" خبر والجملة في محل نصب على الحال "الْمُنْزِلِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء "فَإِنْ" الفاء استئنافية وإن شرطية "لَمْ" حرف نفي وجزم وقلب "تَأْتُونِي" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة لا محل لها لأنها ابتدائية "بِهِ" متعلقان بتأتوني "فَلا" الفاء رابطة للجواب ولا نافية للجنس "كَيْلَ" اسمها "لَكُمْ" متعلقان بخبر لا "عِنْدِي" ظرف مكان متعلق بمحذوف حال والياء مضاف إليه والجملة في محل جزم جواب الشرط "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية

"تَقْرَبُونِ" مضارع وفاعله والياء المحذوفة مفعوله والجملة معطوفة.

[سورة يوسف (12) : الآيات 61 الى 62]

قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَإِنَّا لَفاعِلُونَ (61) وَقالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62)

"قالُوا" ماض وفاعله والجملة استئنافية "سَنُراوِدُ" السين للاستقبال ومضارع فاعله مستتر "عَنْهُ" متعلقان بالفعل "أَباهُ" مفعول به منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة والهاء مضاف إليه والجملة مقول القول "وَإِنَّا" الواو حالية وإن واسمها "لَفاعِلُونَ" اللام المزحلقة وخبر إن والجملة حالية "وَقالَ" الواو عاطفة وماض فاعله مستتر "لِفِتْيانِهِ" متعلقان بقال والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ" أمر وفاعله ومفعوله الأول والجملة مقول القول "فِي رِحالِهِمْ" في موضع مفعوله الثاني "لَعَلَّهُمْ" لعل واسمها "يَعْرِفُونَها" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة خبر لعل "إِذَا" ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه "انْقَلَبُوا" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "إِلى أَهْلِهِمْ" متعلقان بانقلبوا "لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" لعل واسمها والجملة خبر.

[سورة يوسف (12) : الآيات 63 الى 65]

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (63) قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا وَنَمِيرُ أَهْلَنا وَنَحْفَظُ أَخانا وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65)

(144/390)

"فَلَمَّا" الفاء عاطفة ولما الحينية "رَجَعُوا" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "إِلى أَبِيهِمْ" إلى حرف جر أبي اسم مجرور بالياء لأنه من الأسماء الخمسة والهاء مضاف إليه متعلقان برجعوا والجملة معطوفة على ما سبق "قالُوا" ماض وفاعله والجملة لا محل لها من الإعراب "يا" نداء "أَبانا" منادى منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة ونا مضاف إليه والجملة مقول القول "مُنِعَ" ماض مبني للمجهول "مِنَّا" متعلقان بالفعل "الْكَيْلُ" نائب فاعل والجملة كسابقتها "فَأَرْسِلْ" الفاء الفصيحة والجملة لا محل لها لأنها وقعت جواب شرط غير جازم "مَعَنا" ظرف مكان متعلق بالفعل ونا مضاف إليه "أَخانا" مفعول به منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة ونا مضاف إليه "نَكْتَلْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وفاعله

مستتر "وَإِنَّا" الواو حالية وإن واسمها "لَهُ" متعلقان بالخبر "لَحافِظُونَ" اللام المزحلقة وحافظون خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة في محل نصب على الحال "قالَ هَلْ آمَنُكُمْ" هل حرف استفهام وآمنكم مضارع فاعله مستتر والكاف مفعوله والجملة مقول القول "عَلَيْهِ" متعلقان بآمنكم "إِلَّا" أداة حصر "كَما" الكاف حرف تشبيه وما مصدرية "أَمِنْتُكُمْ" ماض وفاعله والكاف مفعوله "عَلى أَخِيهِ" على حرف جر وأخيه مجرور بالياء لأنه من الأسماء الخمسة والهاء مضاف إليه متعلقان بأمنتكم "مِنْ قَبْلُ" قبل ظرف زمان مبني على الضم في محل جر وبني على الضم لقطعه عن الإضافة لفظا لا معنى متعلقان بأمنتكم والمصدر المؤول في محل جر "فَاللَّهُ خَيْرٌ" لفظ الجلالة مبتدأ وخير خبر والفاء الفصيحة "حافِظاً" تمييز والجملة من المبتدأ والخبر لا محل لها لأنها وقعت في جواب شرط غير جازم والتقدير فإذا كان لا بد من إرساله فالله خير حافظا وقرىء خير حفظا وخير حافظ "وَهُوَ أَرْحَمُ" مبتدأ وخبر والجملة معطوفة "الرَّاحِمِينَ" مضاف إليه بالياء "وَلَمَّا"

الواو استئنافية ولما حينية "فَتَحُوا مَتاعَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مضاف إليه محلها الجر "وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة لا محل لها لأنها جواب

لما غير الجازمة "رُدَّتْ" ماض مبني للمجهول والتاء للتأنيث ونائب الفاعل ضمير مستتر

والجملة في محل نصب مفعول وجدوا الثاني. "إِلَيْهِمْ" متعلقان بردت "قالُوا" الجملة مستأنفة

"يا" للنداء "أَبانا" منادى مضاف منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة ونا مضاف إليه

والجملة مقول القول "ما" نافية "نَبْغِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل

والفاعل مستتر تقديره نحن "هذِهِ" الها للتنبيه وذه اسم إشارة في محل رفع مبتدأ "بِضاعَتُنا"

خبر ونا مضاف إليه والجملة مقول القول أو مستأنفة "رُدَّتْ" ماض مبني للمجهول ونائب

الفاعل مستتر والتاء للتأنيث "إِلَيْنا" متعلقان بردت والجملة حالية أو مستأنفة "وَنَمِيرُ

أَهْلَنا" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة معطوفة على جملة محذوفة أي لنستعين بها

ونمير "وَنَحْفَظُ أَخانا" الجملة معطوفة وإعرابها كسابقتها "وَنَزْدادُ كَيْلَ" إعرابها كسابقتها

"بَعِيرٍ" مضاف إليه "ذلِكَ" اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "كَيْلَ" خبره

"يَسِيرٌ" صفة كيل والجملة مستأنفة.

[سورة يوسف (12) : الآيات 66 الى 67]

قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ

قالَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (66) وَقالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ

مُتَفَرِّقَةٍ وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

الْمُتَوَكِّلُونَ (67)

"قالَ لَنْ" لن حرف ناصب "أُرْسِلَهُ" مضارع منصوب ومفعوله وفاعله مستتر والجملة مقول القول "مَعَكُمْ" ظرف مكان متعلق بالفعل "حَتَّى" حرف غاية وجر "تُؤْتُونِ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى بحذف النون والواو فاعل والنون للوقاية والياء مفعول به أول "مَوْثِقاً" مفعول به ثان "مِنَ اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بمن ومتعلقان بموثقا أو بمحذوف صفة من موثقا وأن وما بعدها في تأويل المصدر في محل جر بحتى "لَتَأْتُنَّنِي" اللام واقعة في جواب قسم محذوف ومضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لكراهة توالي الأمثال وواو الجماعة المحذوفة فاعل وحذفت لالتقاء الساكنين والنون للتوكيد والنون الأخيرة للوقاية والياء مفعول به والجملة واقعة في جواب قسم محذوف "إِلَّا" أداة حصر "أَنْ" ناصبة "يُحاطَ" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "بِكُمْ" متعلقان بيحاط "فَلَمَّا" الفاء عاطفة ولما الحينية ظرف زمان "آتَوْهُ" ماض وفاعله ومفعوله الأول "مَوْثِقَهُمْ" مفعول به ثان والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "قالَ" الجملة لا محل لها لأنها جواب لما "اللَّهِ" لفظ الجلالة مبتدأ "عَلَى" حرف جر "ما" موصولية في محل جر بعلى متعلقان بوكيل "نَقُولُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة الفعلية صلة "وَكِيلٌ" خبر والجملة مقول القول "وَقالَ" الجملة

معطوفة أو مستأنفة "يا" أداة نداء "بِنِيَّ" منادى مضاف منصوب بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "لا" ناهية "تَدْخُلُوا" مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون والجملة مقول القول "مِنْ بابٍ" متعلقان بتدخلوا "واحِدٍ" صفة لباب "وَادْخُلُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة معطوفة "مِنْ أَبْوابٍ" متعلقان بادخلوا "مُتَفَرِّقَةٍ" صفة لأبواب "وَما" الواو حالية وما نافية "أُغْنِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر "عَنْكُمْ" متعلقان بأغنى "مِنَ اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور

(147/390)

بمن متعلقان بحال من شيء "مِنْ" حرف جر زائد "شَيْءٍ" اسم مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول به لفعل أغنى والجملة في محل نصب على الحال "إِنِ" نافية "الْحُكْمُ" مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بالخبر "عَلَيْهِ" متعلقان بتوكلت "تَوَكَّلْتُ" ماض

وفاعله والجملة مقول القول "وَعَلَيْهِ" عطف على الجملة السابقة "فَلْيَتَوَكَّلِ" الفاء زائدة واللام لام الأمر ويتوكل مضارع مجزوم "الْمُتَوَكِّلُونَ" فاعل مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة مقول القول.

[سورة يوسف (12) : الآيات 68 الى 69]

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (68) وَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (69)

(148/390)

"وَلَمَّا" الواو عاطفة ولما الحينية "دَخَلُوا" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه وجملة لما معطوفة على ما سبق "مِنْ حَيْثُ" من حرف جر وحيث ظرف مبني على الضم في محل جر وهما متعلقان بدخلوا "أَمَرَهُمْ" ماض ومفعوله "أَبُوهُمْ" فاعل مرفوع بالواو لأنه من الأسماء الخمسة وهم مضاف إليه والجملة مضاف إليه "ما" نافية "كانَ" ناقصة واسمها محذوف تقديره هو أي الدخول "يُغْنِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله محذوف تقديره هو أي الدخول والجملة خبر كان "عَنْهُمْ" متعلقان بيغني "مِنَ اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بمن متعلقان بحال "مِنْ" حرف جر زائد "شَيْءٍ" مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به "إِلَّا" أداة استثناء منقطع بمعنى لكن "حاجَةً" مستثنى بإلا أو مفعول لأجله "فِي نَفْسِ" متعلقان بمحذوف صفة لحاجة "يَعْقُوبَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة نيابة عن

الكسرة لأنه ممنوع من الصرف "قَضاها" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر وفاعله مستتر وها مفعول به والجملة حالية "وَإِنَّهُ" الواو حالية وإن واسمها "لَذُو" اللام المزحلقة وذو خبر مرفوع بالواو لأنه من الأسماء الخمسة "عِلْمٍ" مضاف إليه والجملة حالية "لِمَا" اللام جارة وما مصدرية "عَلَّمْناهُ" ماض وفاعل ومفعوله الأول والمفعول الثاني محذوف تقديره إياه والجملة المؤولة بالمصدر مجرورة باللام ومتعلقان بعلم "وَلكِنَّ أَكْثَرَ" الواو حالية ولكن واسمها والجملة حالية "النَّاسِ" مضاف إليه "لا يَعْلَمُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبر لكن "وَلَمَّا" الواو عاطفة ولما ظرف زمان "دَخَلُوا" ماض وفاعله وجملة دخلوا في محل جر مضاف إليه "عَلى يُوسُفَ" متعلقان بدخلوا "آوى" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر والفاعل مستتر والجملة لا محل لها "إِلَيْهِ" متعلقان بآوى "أَخاهُ" مفعول به

منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة والهاء مضاف إليه "قالَ" الجملة استئنافية "إِنِّي" إن واسمها "أَنَا" مبتدأ "أَخُوكَ" خبر مرفوع بالواو لأنه من الأسماء الخمسة والكاف مضاف إليه والجملة خبر إن وجملة إن واسمها وخبرها مفعول به لقال "فَلا" الفاء الفصيحة "لا"

ناهية "تَبْتَئِسْ" مضارع مجزوم بلا والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "بِما" الباء جارة وما موصولية وهما متعلقان بتبتئس "كانُوا" كان واسمها والجملة صلة لا محل لها "يَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والجملة خبر كان.

[سورة يوسف (12) : الآيات 70 الى 72]

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ (70) قالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ (71) قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72)

"فَلَمَّا" الفاء استئنافية ولما الحينية "جَهَّزَهُمْ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة صلة لا محل لها "بِجَهازِهِمْ" متعلقان بجهزهم "جَعَلَ السِّقايَةَ" ماض ومفعوله الأول وفاعله مستتر والسقاية إناء يكال فيه الطعام وهو الصواع أيضا "فِي رَحْلِ" متعلقان بجعل وهما بمقام المفعول الثاني "أَخِيهِ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه من الأسماء الخمسة والهاء مضاف إليه وجملة جعل لا محل لها من الإعراب جواب شرط غير جازم. "ثُمَّ" عاطفة "أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ" ماض وفاعله والجملة معطوفة "أَيَّتُهَا" منادى بأداة محذوفة وهو نكرة مقصودة مبنية على

الضم في محل نصب والها للتنبيه "الْعِيرُ" بدل مرفوع أو عطف بيان والجملة مفعول به لأذن بمعنى نادى "إِنَّكُمْ" إن واسمها "لَسارِقُونَ" اللام المزحلقة وسارقون خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة مفعول به لأذن "قالُوا" الجملة مستأنفة "وَأَقْبَلُوا" الواو حالية وماض وفاعله والجملة حالية "عَلَيْهِمْ" متعلقان بأقبلوا "ما ذا" اسم استفهام مبتدأ وذا موصولية خبر "تَفْقِدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "نَفْقِدُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر "صُواعَ" مفعول به "الْمَلِكِ" مضاف إليه والجملة مقول القول "وَلِمَنْ" الواو عاطفة واللام جارة ومن موصولية متعلقان بمحذوف خبر مقدم "جاءَ" الجملة صلة لا محل لها "بِهِ" متعلقان بجاء "حِمْلُ" مبتدأ مؤخر وجملة لمن إلخ معطوفة. "بَعِيرٍ" مضاف إليه "وَأَنَا" الواو عاطفة وأنا مبتدأ "بِهِ" متعلقان بزعيم "زَعِيمٌ" خبر والجملة معطوفة.

[سورة يوسف (12) : الآيات 73 الى 75]

قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَما كُنَّا سارِقِينَ (73) قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ (74) قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ

"قالُوا" الجملة مستأنفة "تَاللَّهِ" التاء للقسم ومتعلقان بفعل القسم المحذوف والجملة مقول القول "لَقَدْ" اللام واقعة بجواب القسم وحرف تحقيق "عَلِمْتُمْ" ماض وفاعله والجملة جواب قسم لا محل لها "ما" نافية "جِئْنا" ماض وفاعله والجملة سدت مسد مفعولي علمتم "لِنُفْسِدَ" اللام للتعليل والمضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بنفسد والمصدر المؤول في محل جر بحرف الجر متعلقان بجئنا "وَما" ما نافية "كُنَّا" كان واسمها "سارِقِينَ" خبر منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة معطوفة على ما سبق "قالُوا" الجملة مستأنفة "فَما" الفاء الفصيحة أفصحت عن شرط مقدر دل عليه ما بعده، وما اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ "جَزاؤُهُ" خبر والهاء في محل جر مضاف إليه والجملة مقول القول "إِنْ" جازمة تجزم فعلين "كُنْتُمْ" كان واسمها والميم للجمع

(152/390)

وهو فعل الشرط "كاذِبِينَ" خبر كان المنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة ابتدائية لا محل لها وجواب الشرط محذوف تقديره إن كنتم كاذبين فما جزاؤه؟ "قالُوا" الجملة ابتدائية "جَزاؤُهُ" مبتدأ والهاء مضاف إليه "مَنْ" موصولية أو شرطية في محل رفع خبر والجملة

مقول القول "وُجِدَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل محذوف "فِي رَحْلِهِ" متعلقان بوجد والجملة لا محل لها لأنها صلة "فَهُوَ" الفاء رابطة إذا اعتبرنا من اسم شرط جازم وهو مبتدأ "جَزاؤُهُ" خبره والجملة في محل جزم جواب الشرط إذا اعتبرنا من شرطية "كَذلِكَ" الكاف حرف جر وذا اسم إشارة في محل جر بالكاف واللام للبعد والكاف للخطاب متعلقان بمحذوف مفعول مطلق تقديره جزاء كذلك "نَجْزِي" مضارع مرفوع وفاعله مستتر "الظَّالِمِينَ" مفعول به.

[سورة يوسف (12) : آية 76]

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76)

"فَبَدَأَ" الفاء استئنافية وبدأ ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "بِأَوْعِيَتِهِمْ" متعلقان ببدأ والهاء مضاف إليه "قَبْلَ" ظرف زمان متعلق بمحذوف حال أو بالفعل قبله "وِعاءِ" مضاف إليه "أَخِيهِ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه من الأسماء الخمسة والهاء مضاف إليه

"ثُمَّ" عاطفة "اسْتَخْرَجَها" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة معطوفة على ما سبق "مِنْ وِعاءِ" متعلقان باستخرجها ، "أَخِيهِ" مضاف إليه مجرور بالباء لأنه من الأسماء الخمسة "كَذلِكَ" الكاف للتشبيه والجر وذا اسم إشارة في محل جر بالكاف متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق "كِدْنا" ماض تام وفاعله "لِيُوسُفَ" اللام جارة ويوسف مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف متعلقان بكدنا "ما" نافية "كانَ" ماض ناقص اسمها محذوف تقديره هو "لِيَأْخُذَ" اللام لام الجحود والمضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود وجوبا والفاعل مستتر والجملة في تأويل المصدر مع اللام متعلقان بمحذوف خبر كان "أَخاهُ" مفعول به منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة والهاء مضاف إليه "فِي دِينِ" متعلقان بيأخذ "الْمَلِكِ" مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "أَنْ" ناصبة "يَشاءَ اللَّهُ" مضارع منصوب ولفظ الجلالة فاعل وأن ما بعدها في تأويل المصدر مجرورة بحرف جر محذوف وهما متعلقان بمحذوف حال "نَرْفَعُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر "دَرَجاتٍ" ظرف منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم "مَنْ" موصولية في محل نصب مفعول به والجملة مستأنفة "نَشاءُ" مضارع مرفوع والفاعل مستتر والجملة صلة "وَفَوْقَ" الواو عاطفة وفوق ظرف مكان متعلق بالخبر المقدم "كُلِّ" مضاف إليه "ذِي" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه من الأسماء الخمسة "عِلْمٍ" مضاف إليه "عَلِيمٌ" مبتدأ مؤخر

والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة يوسف (12) : الآيات 77 الى 78]

(154/390)

قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ (77) قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78)

"قالُوا" الجملة مستأنفة "إِنْ"

(155/390)

حرف شرط جازم "يَسْرِقْ" مضارع فاعله مستتر والجملة ابتدائية لا محل لها لأنها جملة شرط غير ظرفي "فَقَدْ" الفاء رابطة للجواب وقد حرف تحقيق "سَرَقَ أَخٌ" ماض وفاعله والجملة في محل جزم جواب الشرط "لَهُ" متعلقان بمحذوف صفة لأخ "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بسرق "فَأَسَرَّها" الفاء عاطفة وماض ومفعوله "يُوسُفُ" فاعل مؤخر والجملة معطوفة

"وَلَمْ" الواو عاطفة ولم حرف جزم ونفي وقلب "يُبْدِها" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة والها مفعول به والفاعل محذوف "لَهُمْ" متعلقان بيبدها والجملة معطوفة "قالَ" الجملة مستأنفة "أَنْتُمْ شَرٌّ" مبتدأ وخبر والجملة مقول القول "مَكاناً" تمييز "وَاللَّهُ أَعْلَمُ" الواو حالية ولفظ الجلالة مبتدأ وأعلم خبر والجملة في محل نصب على الحال "بِما" ما موصولية متعلقان بأعلم "تَصِفُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة لا محل لها من الإعراب "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "يا" للنداء "أَيُّهَا" منادى نكرة مقصودة مبني على الضم والجملة في محل نصب مفعول به لأدعو المقدرة والها للتنبيه "الْعَزِيزُ" بدل أو عطف بيان والجملة مقول القول "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "لَهُ" متعلقان بالخبر "أَباً" اسم إن المنصوب بالفتحة الظاهرة "شَيْخاً" صفة "كَبِيراً" صفة ثانية "فَخُذْ" الفاء الفصيحة وفعل أمر وفاعل مستتر "أَحَدَنا" مفعول به ونا مضاف إليه والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "مَكانَهُ" ظرف متعلق بخذ والهاء مضاف إليه "إِنَّا" إن واسمها "نَراكَ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة والفاعل مستتر والكاف مفعول به والجملة خبر إن "مِنَ الْمُحْسِنِينَ" متعلقان بنراك.

[سورة يوسف (12) : الآيات 79 الى 80]

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (79) فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (80)

"قالَ" الجملة مستأنفة "مَعاذَ" مفعول مطلق لفعل محذوف "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة مقول القول "أَنْ" ناصبة "نَأْخُذَ" مضارع منصوب بأن وفاعله مستتر والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل نصب بنزع الخافض متعلقان بمعاذ "إِلَّا" أداة حصر "مَنْ" موصولية في محل نصب مفعول به "وَجَدْنا" ماض وفاعله والجملة صلة "مَتاعَنا" مفعول به ونا مضاف إليه "عِنْدَهُ" ظرف مكان متعلق بوجدنا والهاء مضاف إليه "إِنَّا" إن واسمها "إِذاً" حرف جواب وجزاء "لَظالِمُونَ" اللام المزحلقة وظالمون خبر والجملة مقول القول "فَلَمَّا" الفاء استئنافية ولما الحينية "اسْتَيْأَسُوا" ماض وفاعله والجملة

مضاف إليه "مِنْهُ" متعلقان بالفعل "خَلَصُوا" ماض وفاعله والجملة جواب لما لا محل لها "نَجِيًّا" حال من الواو من خلصوا "قالَ كَبِيرُهُمْ" ماض وفاعله والهاء مضاف إليه "أَلَمْ" الهمزة للاستفهام ولم جازمة "تَعْلَمُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل والجملة مقول القول "أَنَّ أَباكُمْ" أن واسمها المنصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة والكاف مضاف إليه والمصدر المؤول سد مسد مفعولي تعلموا "قَدْ" حرف تحقيق "أَخَذَ" ماض "عَلَيْكُمْ" متعلقان بأخذ "مَوْثِقاً" مفعول به "مِنَ اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بمن متعلقان بموثقا "وَمِنْ قَبْلُ" الواو حالية قبل ظرف زمان مبني على الضم لأنه مقطوع عن الإضافة لفظا لا معنى وهما متعلقان بفرطتم "ما" زائدة "فَرَّطْتُمْ" ماض وفاعله "فِي يُوسُفَ" متعلقان بفرطتم والجملة حالية "فَلَنْ" الفاء استئنافية لن "أَبْرَحَ" المضارع منصوب بلن بالفتحة وفاعله مستتر "الْأَرْضَ" مفعول به "حَتَّى" حرف غاية وجر "يَأْذَنَ" مضارع منصوب "لِي" متعلقان بيأذن "أَبِي" فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء مضاف إليه "أَوْ" حرف عطف "يَحْكُمَ اللَّهُ" مضارع ولفظ الجلالة فاعله والجملة معطوفة على يأذن "وَهُوَ" الواو حالية وهو مبتدأ "خَيْرُ" خبر والجملة حالية "الْحاكِمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم.

[سورة يوسف (12) : الآيات 81 الى 82]

ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (81) وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (82)

(158/390)

"ارْجِعُوا" أمر وفاعله "إِلَى أَبِيكُمْ" متعلقان بارجعوا والجملة مستأنفة "فَقُولُوا" الفاء عاطفة وقولوا أمر وفاعله والجملة معطوفة "يا" نداء "أَبانا" منادى منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة ونا مضاف إليه والجملة مقول القول "إِنَّ ابْنَكَ" إن واسمها والكاف مضاف إليه "سَرَقَ" ماض وفاعله مستتر والجملة خبر إن "وَما" الواو عاطفة وما نافية "شَهِدْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "إِلَّا" أداة حصر "بما" ما موصولية ومتعلقان بشهدنا "عَلِمْنا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَما" الواو عاطفة وما نافية "كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ" كان واسمها وخبرها المنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم وللغيب متعلقان بالخبر والجملة معطوفة "وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ" الواو عاطفة وأمر فاعله مستتر والقرية مفعوله "الَّتِي" اسم موصول صفة القرية والجملة معطوفة "كُنَّا" كان واسمها "فِيها" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة صلة لا محل لها "وَالْعِيرَ" عطف على القرية "الَّتِي" اسم موصول صفة للعير "أَقْبَلْنا" ماض وفاعله والجملة صلة لا محل لها "فِيها" متعلقان بأقبلنا "وَإِنَّا" الواو حالية وإن واسمها "لَصادِقُونَ"

اللام المزحلقة وخبر إن مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة حالية وسؤال القرية أي سكانها وسؤال العير الإبل أي رجال القافلة وفي الكلام مجاز مرسل.

[سورة يوسف (12) : الآيات 83 الى 85]

قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84) قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ (85)

"قالَ" جملة مستأنفة "بَلْ" حرف إضراب "سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ" ماض وفاعله ولكم متعلقان بسولت والكاف مضاف إليه "أَمْراً" مفعول به والجملة مقول القول "فَصَبْرٌ جَمِيلٌ" الفاء عاطفة وصبر خبر لمبتدأ محذوف تقديره صبري وجميل صفة لصبر والجملة معطوفة "عَسَى" ماض ناقص من أفعال الرجاء "اللَّهُ" لفظ الجلالة اسمها "أَنْ" ناصبة "يَأْتِيَنِي" مضارع منصوب والنون للوقاية والياء مفعول به "بِهِمْ" متعلقان بيأتيني والجملة خبر عسى "جَمِيعاً" حال منصوبة "إِنَّهُ" إن واسمها "هُوَ" ضمير الفصل "الْعَلِيمُ" خبر إن "الْحَكِيمُ" خبر ثان والجملة مستأنفة "وَتَوَلَّى" الواو عاطفة وتولى مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على

الألف للتعذر وفاعله مستتر "عَنْهُمْ" متعلقان بتولي "وَقالَ" الجملة مستأنفة "يا" أداة نداء "أَسَفى" منادى مضاف لياء المتكلم وقد قلبت ألفا وفتح ما قبلها والتقدير يا أسفي والجملة مقول القول "عَلى يُوسُفَ" متعلقان بأسفا "وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ" ماض وفاعله المرفوع بالألف لأنه مثنى والهاء مضاف إليه "مِنَ الْحُزْنِ" متعلقان بابيضت والجملة معطوفة بالواو "فَهُوَ كَظِيمٌ" مبتدأ وخبر والجملة معطوفة بالفاء "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "تَاللَّهِ" التاء للقسم والجر متعلقان بفعل أقسم والجملة مقول القول "تَفْتَؤُا" مضارع ناقص واسمه محذوف تقديره أنت "تَذْكُرُ" مضارع وفاعله مستتر والجملة خبر تفتأ "يُوسُفَ" مفعول به "حَتَّى" حرف غاية وجر "تَكُونَ" مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد حتى واسمها محذوف تقديره أنت "حَرَضاً" خبر تكون والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر بحتى ومتعلقان بالفعل قبلهما "أَوْ" عاطفة "تَكُونَ" مضارع ناقص واسمها مستتر "مِنَ الْهالِكِينَ" متعلقان بالخبر والجملة معطوفة بأو.

[سورة يوسف (12) : الآيات 86 الى 87]

قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (86) يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ (87)

الَ"

ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفةِنَّما"

كافة ومكفوفةَشْكُوا"

مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل والفاعل مستتر تقديره أناَثِّي"

مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة والياء مضاف إليه والجملة في محل نصب مفعول به لقالَ حُزْنِي"

معطوف على بثي وإعرابه مثلهِلَى اللَّهِ"

لفظ الجلالة مجرور بإلى متعلقان بفعل أشكوَأَعْلَمُ"

مضارع مرفوع والجملة معطوفةِنَ اللَّهِ"

لفظ الجلالة مجرور بمن متعلقان بأعلما"

موصولية مفعول به تَعْلَمُونَ"

لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة لا محل لها "يا" أداة نداء

"بَنِيَّ" منادى مضاف منصوب بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم وحذفت النون للإضافة والجملة مقول القول "اذْهَبُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله

(161/390)

والجملة مقول القول "فَتَحَسَّسُوا" الفاء عاطفة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة معطوفة "مِنْ يُوسُفَ" يوسف مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف متعلقان بتحسسوا "وَأَخِيهِ" معطوفة على يوسف مجرور مثله وعلامة جره الياء لأنه من الأسماء الخمسة والهاء مضاف إليه "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَيْأَسُوا" مضارع مجزوم بلا الناهية بحذف النون والواو فاعل والجملة معطوفة "مِنْ رَوْحِ" متعلقان بتيأسوا والرّوح هو الفرج "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "إِنَّهُ" إن واسمها "لا يَيْأَسُ" لا نافية ومضارع مرفوع بالضمة الظاهرة "مِنْ رَوْحِ" متعلقان بييئس "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "الْقَوْمُ" فاعل مؤخر "الْكافِرُونَ" صفة القوم مرفوع مثلها بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة خبر إنه وجملة إن إلخ تعليلية لا محل لها من الإعراب.

[سورة يوسف (12) : الآيات 88 الى 89]

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا

الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88) قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ (89)

(162/390)

"فَلَمَّا" الفاء استئنافية ولما شرطية غير جازمة "دَخَلُوا" ماض وفاعله "عَلَيْهِ" متعلقان بدخلوا والجملة في محل جر بالإضافة. "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "يا" نداء "أَيُّهَا" منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب مفعول به لأدعو المقدرة والها للتنبيه والجملة مقول القول "الْعَزِيزُ" بدل أو عطف بيان "مَسَّنا" ماض ومفعوله "وَأَهْلَنا" معطوف على مفعول مس وهو منصوب مثله ونا مضاف إليه "الضُّرُّ" فاعل مس والجملة مقول القول "وَجِئْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما سبق "بِبِضاعَةٍ" متعلقان بجئنا "مُزْجاةٍ" صفة لبضاعة "فَأَوْفِ" الفاء عاطفة وأمر مبني على حذف حرف العلة وفاعله مستتر "لَنَا" متعلقان بأوف والجملة معطوفة بالفاء "الْكَيْلَ" مفعول به "وَتَصَدَّقْ" مضارع معطوف على أوف مجزوم مثله وفاعله مستتر "عَلَيْنا" متعلقان بتصدق "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها "يَجْزِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر "الْمُتَصَدِّقِينَ" مفعول به منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم

وجملة يجزي خبر إن في محل رفع "قالَ" الجملة مستأنفة "هَلْ" حرف استفهام "عَلِمْتُمْ" ماض وفاعله والجملة مقول القول "ما" موصولية في محل نصب مفعول به "فَعَلْتُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة لا محل لها "بِيُوسُفَ" متعلقان بفعلتم ويوسف ممنوع من الصرف منصوب لفظا مجرور محلا "وَأَخِيهِ" معطوف على يوسف مجرور مثله بالياء لأنه من الأسماء الخمسة والهاء مضاف إليه "إِذْ" ظرف زمان متعلق بفعلتم "أَنْتُمْ جاهِلُونَ" مبتدأ وخبر والجملة في محل جر مضاف إليه.

[سورة يوسف (12) : الآيات 90 الى 92]

(163/390)

قالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ (91) قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92)

(164/390)

"قالُوا" الجملة مستأنفة "أَإِنَّكَ" الهمزة للاستفهام وإن واسمها وجملتها مقول القول "لَأَنْتَ يُوسُفُ" اللام المزحلقة ومبتدأ وخبر والجملة خبر إن "قالَ" الجملة مستأنفة "أَنَا يُوسُفُ" مبتدأ وخبر والجملة مقول القول "وَهذا" الها للتنبيه ذا مبتدأ "أَخِي" خبر مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء مضاف إليه والجملة معطوفة على ما سبق "قَدْ" حرف تحقيق "مَنَّ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة مستأنفة "عَلَيْنا" متعلقان بمن "إِنَّهُ" إن واسمها "مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "يَتَّقِ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط بحذف حرف العلة والفاعل مستتر "وَيَصْبِرْ" مضارع مجزوم والفاعل مستتر تقديره هو والجملة معطوفة "فَإِنَّ اللَّهَ" الفاء رابطة للجواب وإن ولفظ الجلالة اسمها والجملة في محل جزم لأنها جواب الشرط وجملة فعل الشرط وجوابه خبر من "لا يُضِيعُ" لا نافية يضيع مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره هو "أَجْرَ" مفعول به "الْمُحْسِنِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة خبر إنه "قالُوا" الجملة مستأنفة "تَاللَّهِ" التاء حرف جر وقسم وجملة القسم مقول القول "لَقَدْ" اللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "آثَرَكَ اللَّهُ" ماض والكاف مفعوله المقدم ولفظ الجلالة فاعله المؤخر "عَلَيْنا" متعلقان بآثرك والجملة واقعة جواب القسم لا محل لها من الإعراب "وَإِنْ" الواو عاطفة وإن مخففة من إن واسمها ضمير الشأن "كُنَّا" كان واسمها والجملة خبر إن "لَخاطِئِينَ" اللام المزحلقة وخاطئين خبر كان المنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم "قالَ" الجملة مستأنفة "لا تَثْرِيبَ" لا نافية للجنس

وتثريب اسمها والجملة مقول القول "عَلَيْكُمُ" متعلقان بالخبر المحذوف "الْيَوْمَ" ظرف زمان "يَغْفِرُ اللَّهُ" مضارع ولفظ الجلالة فاعله والجملة مضاف إليه "لَكُمْ" متعلقان بيغفر "وَهُوَ" الواو حالية هو مبتدأ "أَرْحَمُ"

(165/390)

خبر "الرَّاحِمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء والجملة في محل نصب على الحال.

[سورة يوسف (12) : الآيات 93 الى 95]

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94) قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (95)

"اذْهَبُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة مستأنفة "بِقَمِيصِي" متعلقان باذهبوا "هذا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة في محل جر بدل أو صفة أو عطف بيان "فَأَلْقُوهُ" الفاء للعطف وأمر مبني على حذف النون والواو فاعل والهاء مفعول به والجملة معطوفة "عَلى وَجْهِ" متعلقان بألقوه "أَبِي" مضاف إليه مجرور بالكسرة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء مضاف إليه "يَأْتِ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وعلامة جزمه حذف

حرف العلة وفاعله مستتر والجملة جواب شرط مقدر "بَصِيرًا" حال منصوبة "وَأْتُونِي" أمر

(166/390)

مبني على حذف النون والواو فاعل والياء مفعول به والجملة معطوفة "بِأَهْلِكُمْ" متعلقان بأتوني والكاف في محل جر بالإضافة "أَجْمَعِينَ" توكيد مجرور بالياء "وَلَمَّا" الواو استئنافية ولما الحينية ظرف زمان "فَصَلَتِ الْعِيرُ" ماض وفاعله والتاء للتأنيث والجملة مستأنفة "قَالَ أَبُوهُمْ" ماض وفاعله المرفوع بالواو لأنه من الأسماء الخمسة والهاء مضاف إليه والجملة لا محل لها لأنها واقعة جواب شرط غير جازم "إِنِّي" إن واسمها والجملة مقول القول "لَأَجِدُ" اللام المزحلقة ومضارع مرفوع والجملة خبر إن وفاعله مستتر "رِيحَ" مفعول به "يُوسُفَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف "لَوْلا" حرف شرط غير جازم "أَنْ" ناصبة "تُفَنِّدُونِ" مضارع منصوب وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل والياء المحذوفة مفعول به والجملة بعد لولا في تأويل المصدر في محل رفع مبتدأ والخبر محذوف تقديره لولا تفنيدكم موجود لصدقتموني "قَالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "تَاللَّهِ" التاء حرف جر وقسم ومتعلقان بفعل القسم المحذوف وجملته مقول القول "إِنَّكَ" إن

واسمها والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم "لَفِي ضَلالِكَ" اللام المزحلقة ومتعلقان بالخبر المحذوف والكاف مضاف إليه "الْقَدِيمِ" صفة مجرورة.

[سورة يوسف (12) : الآيات 96 الى 97]

فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (96) قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ (97)

"فَلَمَّا" الفاء استئنافية ولما الحينية ظرف زمان "أَنْ" زائدة "جاءَ الْبَشِيرُ" ماض وفاعله والجملة في محل جر مضاف إليه "أَلْقاهُ" ماض والهاء مفعول به وفاعله مستتر والجملة جواب لما لا محل لها من الإعراب "عَلى وَجْهِهِ" متعلقان بألقاه والهاء مضاف إليه "فَارْتَدَّ" الفاء عاطفة وماض فاعله مستتر "بَصِيراً" حال منصوبة والجملة معطوفة لا محل لها "قالَ" الجملة مستأنفة "أَلَمْ" الهمزة للاستفهام التوبيخي ولم جازمة "أَقُلْ" مضارع فاعله مستتر والجملة مقول القول "لَكُمْ" متعلقان بأقل "إِنِّي" إن واسمها "أَعْلَمُ" مضارع وفاعله مستتر والجملة خبر "مِنَ اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بمن متعلقان بأعلم "ما" موصولية في محل نصب مفعول به "لا" نافية "تَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة لا محل

لها "قالُوا" الجملة مستأنفة "يا" نداء "أَبانَا" منادى مضاف منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة ونا مضاف إليه والجملة مقول القول "اسْتَغْفِرْ" أمر مجزوم وفاعله مستتر "لَنا" متعلقان باستغفر "ذُنُوبَنا" مفعول به ونا مضاف إليه والجملة مقول القول "إِنَّا" إن واسمها والجملة لا محل لها تعليلية "كُنَّا" كان واسمها والجملة خبر إن "خاطِئِينَ" خبر كنا منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم.

[سورة يوسف (12) : الآيات 98 الى 99]

قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (99)

"قالَ" الجملة مستأنفة "سَوْفَ" حرف تسويف "أَسْتَغْفِرُ" مضارع فاعله مستتر والجملة مقول القول "لَكُمْ" متعلقان بأستغفر "رَبِّي" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء مضاف

إليه "إِنَّهُ" إن واسمها وجملتها مقول القول "هُوَ" مبتدأ أو ضمير فصل لا محل له "الْغَفُورُ" خبر هو والجملة خبر إن "الرَّحِيمُ" خبر ثان مرفوع "فَلَمَّا" الفاء استئنافية "لما" الحينية ظرف

زمان "دَخَلُوا" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "عَلى يُوسُفَ" على حرف جر ويوسف مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف ومتعلقان بدخلوا "آوى" ماض فاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب لما الحينية "إِلَيْهِ" جار ومجرور متعلقان بآوى "أَبَوَيْهِ" مفعول به منصوب بالياء لأنه مثنى والهاء مضاف إليه "وَقالَ" الجملة معطوفة "ادْخُلُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة مقول القول "مِصْرَ" مفعول به منصوب "إِنْ" حرف شرط جازم "شاءَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله وهو فعل الشرط وجوابه محذوف والجملة اعتراضية لا محل لها "آمِنِينَ" حال منصوبة بالياء لأنه جمع مذكر سالم.

[سورة يوسف (12) : آية 100]

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100)

"وَرَفَعَ" الواو عاطفة ورفع ماض فاعله مستتر "أَبَوَيْهِ" مفعول به منصوب بالياء لأنه مثنى والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة على ما سبق "عَلَى الْعَرْشِ" متعلقان برفع "وَخَرُّوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "لَهُ" متعلقان بخروا "سُجَّداً" حال "قَالَ" الجملة مستأنفة "يا" للنداء "أَبَتِ" منادى منصوب لأنه مضاف لياء المتكلم المحذوفة "هذا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة في محل رفع مبتدأ "تَأْوِيلُ" خبر والجملة مقول القول كجملة النداء "رُءْيايَ" مضاف إليه مجرور بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر والياء مضاف إليه "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بحال محذوفة "قَدْ" حرف تحقيق "جَعَلَها رَبِّي" ماض ومفعوله وفاعله المؤخر المرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء مضاف إليه "حَقًّا" صفة لمفعول مطلق محذوف أو حال والجملة حال من رؤياي "وَقَدْ" الواو حالية وقد حرف تحقيق "أَحْسَنَ" ماض فاعله مستتر يعود إلى ربي والجملة في محل نصب على الحال "بِي" متعلقان بأحسن "إِذْ" ظرف زمان متعلق بما قبله "أَخْرَجَنِي" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة مضاف إليه لإذ "مِنَ السِّجْنِ" متعلقان بأخرجني "وَجاءَ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "بِكُمْ" متعلقان بجاء "مِنَ الْبَدْوِ" متعلقان بجاء "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بحال محذوفة "أَنْ" حرف مصدري "نَزَغَ الشَّيْطانُ" ماض وفاعله والجملة مضافة لبعد "بَيْنِي" ظرف مكان والياء مضاف إليه "وَبَيْنَ" معطوفة على بيني "إِخْوَتِي" مضاف إليه والياء مضاف إليه "إِنَّ رَبِّي" إن واسمها والياء مضاف إليه "لَطِيفٌ" خبر والجملة مقول القول "لِما" ما

موصولية متعلقان بلطيف "يَشاءُ" الجملة صلة "إِنَّهُ" إن واسمها "هُوَ" ضمير فصل أو مبتدأ "الْعَلِيمُ" خبر المبتدأ والجملة خبر إن "الْحَكِيمُ" خبر ثان أو هما خبران لإن إذا كان الضمير هو ضمير فصل.

(170/390)

[سورة يوسف (12) : آية 101]

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101)

"رَبِّ" منادى بأداة نداء محذوفة منصوب لأنه مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة والياء المحذوفة مضاف إليه وجملة النداء ابتدائية "قَدْ" حرف تحقيق "آتَيْتَنِي" ماض وفاعله ومفعوله والنون للوقاية "مِنَ الْمُلْكِ" متعلقان بآتيتني "وَعَلَّمْتَنِي" ماض وفاعله ومفعوله والنون للوقاية والجملة معطوفة "مِنْ تَأْوِيلِ" متعلقان بعلمتني "الْأَحادِيثِ" مضاف إليه "فاطِرَ" منادى بأداة نداء محذوفة منصوب "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوفة على السموات "أَنْتَ" ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ "وَلِيِّي" خبر مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة "فِي الدُّنْيا" متعلقان

بوليي أو بحال محذوفة "وَالْآخِرَةِ" معطوف على الدنيا "تَوَفَّنِي" فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة والنون للوقاية والياء في محل نصب مفعول به "مُسْلِماً" حال منصوبة "وَأَلْحِقْنِي" فعل دعاء وفاعله مستتر تقديره أنت والنون للوقاية والياء في محل نصب مفعول به والجملة معطوفة "بِالصَّالِحِينَ" الصالحين مجرورة بالياء لأنها جمع مذكر سالم ومتعلقان بألحقني.

[سورة يوسف (12) : الآيات 102 الى 105]

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102)
وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (103) وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ
لِلْعالَمِينَ (104) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ
(105)

"ذِلكَ" اسم إشارة في محل رفع مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "مِنْ أَنْباءِ" متعلقان بالخبر "الْغَيْبِ" مضاف إليه والجملة ابتدائية "نُوحِيهِ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة حالية "إِلَيْكَ" متعلقان بنوحيه "وَما" الواو عاطفة وما نافية "كُنْتَ" كان واسمها "لَدَيْهِمْ" لدى ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر كان والهاء مضاف إليه والميم للجمع

والجملة معطوفة على ما سبق "إِذْ" ظرف زمان متعلق بالخبر المحذوف "أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر مضاف إليه "وَهُمْ" الواو حالية وهم مبتدأ "يَمْكُرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر وجملة المبتدأ والخبر في محل نصب على الحال "وَما" الواو استئنافية وما تعمل عمل ليس "أَكْثَرُ" اسم ليس "النَّاسِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة "وَلَوْ" الواو اعتراضية ولو حرف شرط غير جازم "حَرَصْتَ" ماض وفاعله والجملة اعتراضية بين اسم ما الحجازية وخبرها "بِمُؤْمِنِينَ" الباء زائدة مؤمنين خبر مجرور لفظا منصوب محلا وجواب لو محذوف تقديره لم يؤمنوا "وَما" الواو عاطفة وما نافية "تَسْئَلُهُمْ" مضارع ومفعوله الأول وفاعله مستتر "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "مِنْ" حرف جر زائد "أَجْرٍ" مفعول به ثان مجرور لفظا منصوب محلا والجملة معطوفة "إِنْ" نافية "هُوَ" مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "ذِكْرٌ" خبر "لِلْعالَمِينَ" متعلقان بصفة لذكر "وَكَأَيِّنْ" مبتدأ والجملة استئنافية "مِنْ آيَةٍ" من حرف جر وآية تمييز مجرور "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صفة لآية "وَالْأَرْضِ" معطوف على

السموات "يَمُرُّونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر "عَلَيْها" متعلقان بيمرون "وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ" الواو حالية ومبتدأ وخبر والجار والمجرور متعلقان بالخبر والجملة حالية.

[سورة يوسف (12) : الآيات 106 الى 108]

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (107) قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108)

(173/390)

"وَمَا" الواو عاطفة وما نافية "يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ" مضارع وفاعله والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة على ما سبق "بِاللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بالباء متعلقان بيؤمن "إِلَّا" أداة حصر "وَهُمْ" الواو حالية ومبتدأ "مُشْرِكُونَ" خبر مرفوع بالواو والجملة حالية "أَفَأَمِنُوا" الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء استئنافية وماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة والواو فاعل والجملة مستأنفة "أَنْ" ناصبة "تَأْتِيَهُمْ" مضارع منصوب والهاء مفعول به والميم للجمع "غَاشِيَةٌ" فاعل "مِنْ عَذَابِ" متعلقان بصفة لغاشية والمصدر المؤول في محل نصب مفعول به لأمنوا "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "أَوْ" عاطفة "تَأْتِيَهُمْ" مضارع منصوب لأنه معطوف على منصوب والهاء مفعول به "السَّاعَةُ" فاعل "بَغْتَةً" حال "وَهُمْ" الواو حالية وهم مبتدأ "لَا" نافية "يَشْعُرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة الاسمية في محل نصب

على الحال والجملة الفعلية خبر "قُلْ" أمر وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "هذِهِ" الها للتنبيه وذه اسم إشارة مبتدأ "سَبِيلِي" خبر مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة والجملة مقول القول "أَدْعُوا" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل وفاعله مستتر "إِلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بإلى متعلقان بأدعو والجملة حالية "عَلى بَصِيرَةٍ" متعلقان بأدعو "أَنَا" توكيد من فاعل أدعو المستتر "وَمَنِ" الواو عاطفة ومن موصولية معطوفة على فاعل أدعو "اتَّبَعَنِي" ماض والنون للوقاية والياء مفعول به والفاعل محذوف والجملة صلة "وَسُبْحانَ" مفعول مطلق لفعل محذوف "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة معطوفة "وَما" الواو حالية وما تعمل عمل ليس "أَنَا" في محل رفع اسم ما "مِنَ الْمُشْرِكِينَ" متعلق بمحذوف خبر ما والجملة في محل نصب على الحال.

(174/390)

[سورة يوسف (12) : آية 109]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (109)

"وَما" الواو استئنافية وما نافية "أَرْسَلْنا" ماض وفاعله "مِنْ قَبْلِكَ" متعلقان بأرسلنا والكاف مضاف إليه والجملة استئنافية "إِلَّا" أداة حصر "رِجالًا" مفعول به "نُوحِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء وفاعله مستتر والجملة صفة رجالا "إِلَيْهِمْ" متعلقان بنوحي "مِنْ أَهْلِ" متعلقان بصفة ثانية لرجالا. "الْقُرى" مضاف إليه "أَفَلَمْ" الهمزة للاستفهام ولم حرف نفي وجزم وقلب "يَسِيرُوا" مضارع مجزوم والواو فاعل والجملة استئنافية "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بيسيروا "فَيَنْظُرُوا" الفاء عاطفة وينظروا معطوفة على يسيروا مجزوم بحذف النون والجملة معطوفة والواو فاعل "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب خبر مقدم لكان "كانَ عاقِبَةُ" كان واسمها والجملة في محل نصب مفعول به لينظروا "الَّذِينَ" موصول في محل جر بالإضافة. "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بصلة محذوفة والهاء مضاف إليه "وَلَدارُ" الواو استئنافية واللام لام الابتداء ودار مبتدأ "الْآخِرَةِ" مضاف إليه "خَيْرٌ" خبر والجملة مستأنفة "لِلَّذِينَ" اسم الموصول مجرور ومتعلقان بخير "اتَّقَوْا" ماض والواو فاعله والجملة صلة "أَفَلا" الهمزة للاستفهام ولا نافية "تَعْقِلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة استئنافية لا محل لها.

[سورة يوسف (12) : الآيات 110 الى 111]

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)

(176/390)

"حَتَّى" حرف غاية "إِذَا" ظرف يتضمن معنى الشرط "اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "وَظَنُّوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "أَنَّهُمْ" أن واسمها والمصدر المؤول سد مسد مفعولي ظن "قَدْ" حرف تحقيق كذبوا ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر أنهم "جَاءَهُمْ نَصْرُنَا" ماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر ونا مضاف إليه والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "فَنُجِّيَ" الفاء عاطفة ونجي ماض مبني للمجهول "مَنْ" موصول نائب فاعل "نَشَاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَلَا" الواو عاطفة ولا نافية "يُرَدُّ بَأْسُنَا" مضارع مبني للمجهول ونائب فاعله ونا مضاف إليه والجملة معطوفة "عَنِ الْقَوْمِ" متعلقان بيرد "الْمُجْرِمِينَ" صفة مجرورة بالياء

"لَقَدْ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "كانَ" ماض "فِي قَصَصِهِمْ" متعلقان بخبر مقدم والهاء مضاف إليه "عِبْرَةٌ" مبتدأ مؤخر "لِأُولِي" أولي مجرورة بالياء لأنها ملحق بجمع المذكر السالم ومتعلقان بمحذوف صفة لعبرة "الْأَلْبابِ" مضاف إليه والجملة لا محل لها من الإعراب "ما" نافية "كانَ حَدِيثاً" كان وخبرها واسمها محذوف تقديره هو أي القرآن الكريم والجملة مستأنفة "يُفْتَرى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل محذوف والجملة صفة لحديثا "وَلكِنْ" الواو عاطفة ولكن حرف استدراك "تَصْدِيقَ" خبر لكان المحذوفة مع اسمها "الَّذِي" موصول مضاف إليه "بَيْنَ" ظرف زمان "يَدَيْهِ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه مثنى والهاء مضاف إليه "وَتَفْصِيلَ" معطوف على تصديق "كُلِّ" مضاف إليه "شَيْءٍ" مضاف إليه "وَهُدىً" معطوف على تصديق منصوب مثله "وَرَحْمَةً" معطوف على ما قبله "لِقَوْمٍ" متعلقان برحمة "يُؤْمِنُونَ" مضارع والواو فاعل والجملة صفة لقوم. انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 2 صـ 78. 109﴾

(177/390)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَام

ذكر فِيهَا وَاحِدًا وَعشْرين حَدِيثا

623 - الحَدِيث الأول

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (إِذا قيل من الْكَرِيم فَقولُوا الْكَرِيم ابْن الْكَرِيم بن الْكَرِيم بن الْكَرِيم يُوسُف بن يَعْقُوب بن إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام)

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي بَدْء الْخلق فِي بَاب قَوْله تَعَالَى أم كُنْتُم شُهَدَاء إِذْ حضر يَعْقُوب الْمَوْت وَفِي بَاب قَوْله تَعَالَى لقد كَانَ فِي يُوسُف وَإِخْوَته آيَات وَفِي التَّفْسِير أَيْضا من حَدِيث عبد الرَّحْمَن بن عبد الله ابْن دِينَار عَن أَبِيه عَن ابْن عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (الْكَرِيم بن الْكَرِيم) إِلَى آخِره سَوَاء

وَغلط الطَّيِّبِيّ فَقَالَ رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسلم عَن أبي هُرَيْرَة وَالَّذِي رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسلم عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ سُئِلَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَي النَّاس أكْرم قَالَ (أكْرمهم عِنْد الله أَتْقَاهُم) قَالُوا لَيْسَ عَن هَذَا نَسْأَلك قَالَ (فَأكْرم النَّاس يُوسُف نَبِي الله بن نَبِي الله بن نَبِي الله بن خَلِيل الله) ذكره البُخَارِيّ فِي بَدْء الْخلق وَمُسلم فِي الْفَضَائِل وَلَيْسَ هَذَا حَدِيث الْكتاب وَلَا قَرِيبا مِنْهُ وَلَكِن رَوَاهُ من حَدِيث أبي هُرَيْرَة بِلَفْظ الْكتاب التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِن الْكَرِيم ابْن الْكَرِيم بن الْكَرِيم بن الْكَرِيم يُوسُف بن يَعْقُوب بن إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيم)

انْتَهى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم

الحَدِيث الثَّانِي

(178/390)

رَوَى جَابر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن يَهُودِيّا جَاءَ إِلَيْهِ فَقَالَ أَخْبرنِي عَن النُّجُوم الَّتِي رآهن يُوسُف فَسكت عَلَيْهِ السَّلَام حَتَّى نزل جِبْرِيل فَأخْبرهُ فَقَالَ (إِن أَخْبَرتك هَل تسلم)

قَالَ نعم

قَالَ (خرثان والطارق وَالذَّيَّال وَقَابس وَعَمُودَان وَالْفَيْلَق وَالْمصْبح وَالضَّرُوح وَالْفَرغ وَوَثَّاب وَذُو الْكَتِفَيْنِ وَالشَّمْس وَالْقَمَر نزلن من السَّمَاء فسجدن لَهُ) فَقَالَ الْيَهُودِيّ إِي وَالله وَالله إِنَّهَا لَأَسْمَاؤُهَا

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الرُّؤْيَا من حَدِيث عَمْرو بن حَمَّاد عَن طَلْحَة حَدثنَا أَسْبَاط بن نصر عَن السّديّ عَن عبد الرَّحْمَن بن سابط عَن جَابر بن عبد الله قَالَ جَاءَ بُسْتَان الْيَهُودِيّ إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا مُحَمَّد هَل تعرف النُّجُوم الَّتِي رَآهَا يُوسُف يَسْجُدْنَ لَهُ فَسكت عَلَيْهِ السَّلَام حَتَّى جَاءَهُ جِبْرِيل فَأخْبرهُ فَقَالَ (يَا يَهُودِيّ

لله عَلَيْك إِن أَخْبَرتك أَن تسلم قَالَ نعم)

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (هِيَ خربان والطارق وَالذَّيَّال وقابس وَالْعَمُودَانِ وَالْفَيْلَق وَالْمصْبح وَالضَّرُوح وَذُو الكتفات ووثاب رَآهَا يُوسُف مُحِيطَة بأكْنافِ السَّمَاء سَاجِدَة فقصَّهَا على أَبِيه فَقَالَ لَهُ أَبوهُ إِن هَذَا أَمر قد تشتت وسيجمعه الله بعد)

انْتَهَى

وَقَالَ حَدِيث صَحِيح على شَرط مُسلم وَلم يخرجَاهُ وَأقرهُ الذَّهَبِيّ عَلَيْهِ

(179/390)

طَرِيق آخر لَهُ رَوَاهُ الْبَزَّار وَأَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مسنديهما وَالْبَيْهَقِيّ وَأَبُو نعيم فِي دَلَائِل النُّبُوَّة لَهما والطبري وَابْن أبي حَاتِم فِي تفسيريهما كلهم عَن الحكم بن ظهير الْفَزارِيّ عَن السّديّ عَن عبد الرَّحْمَن بن سابط عَن جَابر قَالَ جَاءَ يَهُودِيّ إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره قَالَ الْبَزَّار لَا نعلم يرويهِ إِلَّا جَابر وَلَا طَرِيقا عَنهُ إِلَّا هَذَا الطَّرِيق وَالْحكم بن ظهير لَيْسَ بِالْقَوِيّ وَقد روى عَنهُ جمَاعَة من أهل الْعلم

انْتَهَى

وَقَالَ الْبَيْهَقِيّ تفرد بِهِ الحكم بن ظهير

وَقَالَ النَّسَائِيّ فِي كتاب الكنى الحكم بن ظهير أَبُو مُحَمَّد كُوفِي لَيْسَ بِثِقَة

انْتَهى

وَرَوَى التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه للْحكم بن ظهير حَدِيثا فِي الدَّعْوَات وَسكت عَنهُ وَقَالَ وَالْحكم بن ظهير ترك حَدِيثه بعض أهل الحَدِيث انْتَهى

وَقَالَ ابْن حبَان فِي كتاب الضُّعَفَاء الحكم بن ظهير كَانَ يشْتم الصَّحَابَة ويروي عَن الثِّقَات الْأَشْيَاء الموضوعات قَالَ ابْن معِين فِيهِ لَيْسَ بِشَيْء

انْتَهى

وَرَوَاهُ الْعقيلِيّ فِي ضعفاه وَأعله بالحكم وَقَالَ إِنَّه حَدِيث لَا يَصح وَلَيْسَ لَهُ وَجه يثبت

انْتَهى

وَذكره ابْن الْجَوْزِيّ فِي الموضوعات فَقَالَ هَذَا حَدِيث مَوْضُوع عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَكَانَ وَاضعه قصد شين الْإِسْلَام بِمثل هَذَا قَالَ وَالْحكم بن ظهير قَالَ ابْن حبَان كَانَ يروي عَن الثِّقَات الموضوعات وَالسُّدي قَالَ ابْن نمير كَذَّاب وَقَالَ وَقَالَ البُخَارِيّ لَا يكْتب حَدِيثه وَقَالَ صَالح بن مُحَمَّد كَانَ يضع الحَدِيث

انْتَهى

وَذكره ابْن أبي حَاتِم فِي علله بِهَذَا الْإِسْنَاد وَقَالَ إِن أَبَا زرْعَة سُئِلَ عَنهُ فَقَالَ إِنَّه حَدِيث مُنكر لَيْسَ بِشَيْء

وَسَنَد الْحَاكِم وَارِد عَلَى الْبَزَّار فِي قَوْله لَا نعلم لَهُ طَرِيقا غَيره وَعَلَى الْبَيْهَقِيّ أَيْضا فِي قَوْله تفرد بِهِ الحكم بن ظهير ولَهُمَا عُذْرهمَا

625 - الحَدِيث الثَّالِث

جَاءَ فِي الحَدِيث الْمَرْفُوع إِن الصَّبْر الْجَمِيل الَّذِي لَا شكوى فِيهِ

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ حَدثنَا عَمْرو بن عون أَنا هشيم عَن عبد الرَّحْمَن بن يَحْيَى عَن حبَان بن أبي جبلة قَالَ سُئِلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن قَوْله تَعَالَى فَصَبر جميل فَقَالَ (صَبر لَا شكوى فِيهِ من بَث لم يصبر)

انْتَهَى

626 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (تكلم أَرْبَعَة فِي المهد وهم صغَار ابْن ماشطة بنت فِرْعَوْن وَشَاهد يُوسُف وَصَاحب جريج وَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام)

قلت اسْتشْهد لَهُ الطَّيِّبِيّ بِحَدِيث الصَّحِيحَيْنِ عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا لم يتَكَلَّم فِي المهد إِلَّا ثَلَاثَة عِيسَى بن مَرْيَم وَصَاحب جريج وَصبي كَانَ يرضع أمه فَمر رجل رَاكب دَابَّة حسن

الْهَيْئَة فَقَالَت أمه اللَّهُمَّ اجْعَل ابْني مثل هَذَا فَالْتَفت الصَّبِي وَقَالَ اللَّهُمَّ لَا تجعلني مثله . . . إِلَى آخِره ذكره البُخَارِيّ فِي بَدْء الْخلق فِي قَوْله تَعَالَى وَاذْكُر فِي الْكتاب مَرْيَم وَمُسلم فِي كتاب الْبر والصلة وَهَذَا خطأ مِنْهُ لِأَنَّهُ لَيْسَ حَدِيث الْكتاب

وَحَدِيث الْكتاب رُوِيَ من حَدِيث ابْن عَبَّاس وَمن حَدِيث أبي هُرَيْرَة

(181/390)

فَحَدِيث ابْن عَبَّاس رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَأحمد وَابْن أبي شيبَة وَالْبَزَّار وَأَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مسانيدهم والطبري فِي تَفْسِيره وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب السَّادِس عشر كلهم عَن حَمَّاد بن سَلمَة عَن عَطاء بن السَّائِب عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لما أسري بِي مرت بِي رَائِحَة طيبَة فَقلت مَا هَذِه الرَّائِحَة قَالُوا هَذِه رَائِحَة ماشطة ابْنة فِرْعَوْن وَأَوْلَادهَا كَانَت يَوْمًا تمشطها فَوَقع الْمشْط من يَدهَا فَقَالَت بِسم الله قَالَت ابْنة فِرْعَوْن باسم أبي فَقَالَت لَا بل باسم الله رَبِّي وَرَبك وَرب أَبِيك فَقَالَت أخبر بذلك أبي قَالَت نعم

فَأَخْبَرته فَدَعَا بهَا وبولدها فَقَالَت لَهُ لي إِلَيْك حَاجَة قَالَ مَا هِيَ قَالَت تجمع عِظَامِي

وَعِظَام أَوْلَادِي فتدفنا جَمِيعًا قَالَ ذَلِك لَك فَأتي بِأَوْلَادِهَا فَجعل يُلقيهمْ وَاحِدًا بعد وَاحِد حَتَّى إِذا كَانَ آخر وَلَدهَا وَكَانَ مُرْضعًا قَالَ لَهَا يَا أُمَّاهُ اصْبِرِي فَإنَّك عَلَى الْحق ثمَّ أَلقيت مَعَ وَلَدهَا قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (تكلم أَرْبَعَة وهم صغَار هَذَا وَشَاهد يُوسُف وَصَاحب جريج وَعِيسَى

ابْن مَرْيَم)

انْتَهَى قَالَ الْحَاكِم صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

(182/390)

وَحَدِيث أبي هُرَيْرَة رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي فَضَائِل عِيسَى من حَدِيث مُسلم بن إِبْرَاهِيم حَدثنَا جرير بن حَازِم حَدثنَا مُحَمَّد بن سِيرِين عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لم يَتَكَلَّم فِي المهد إِلَّا أَرْبَعَة عِيسَى بن مَرْيَم وَشَاهد يُوسُف وَصَاحب جريج وَابْن ماشطة فِرْعَوْن)

انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ

وَقَالَ الثَّعْلَبِيّ فِي سُورَة مَرْيَم وَيروَى عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (تكلم فِي المهد خَمْسَة) فَذكر الْأَرْبَعَة وَزَاد (ولد الْمَرْأَة الَّتِي أحرقت بالْأُخْدُود) وَهُوَ فِي مُسلم وَقَالَ فِي

سُورَة البروج قَالَ الضَّحَّاك الَّذين تكلمُوا فِي الْمهد سِتَّة فَذكر هَؤُلَاءِ الْخَمْسَة وَزَاد يحيى بن زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَام

627 - الحَدِيث الْخَامِس

فِي الحَدِيث نهى أَن يَأْكُل الرجل مُتكئا

قلت رُوِيَ من حَدِيث جَابر وَابْن مَسْعُود وَأبي الدَّرْدَاء

فَحَدِيث جَابر رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي كتاب الْأَطْعِمَة حَدثنَا ابْن نمير عَن عبد الْملك بن أبي سُلَيْمَان عَن أبي الزبير عَن جَابر قَالَ نهى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن يَأْكُل أَحَدنَا بِشمَالِهِ وَأَن يَأْكُل مُتكئا

انْتَهَى

وَحَدِيث ابْن مَسْعُود رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْكَبِير حَدثنَا الْحُسَيْن بن إِسْحَاق التسترِي حَدثنَا أَبُو الْمعَافى الْحَرَّانِي حَدثنَا مُحَمَّد بن سَلمَة عَن أبي عبد الرَّحِيم عَن زيد بن أبي أنبسة عَن أبي إِسْحَاق عَن الْأَحْوَص عَن عبد الله قَالَ نهى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن صومين وَعَن صَلَاتَيْنِ وَعَن لباسين وَعَن مطعمين وَعَن نكاحين وَعَن

بيعتَيْنِ فَأما الصومان فيوم الْفطر وَيَوْم الْأَضْحَى وَأما الصَّلَاتَانِ فصَلَاة بعد الْغَدَاة حَتَّى تطلع الشَّمْس وَصَلَاة بعد الْعَصْر حَتَّى تغرب الشَّمْس . . . إِلَى أَن

قَالَ وَأما الْمُطْعِمَانِ فَأن يَأْكُل الرجل بشِمَالِهِ وَيَمِينه صَحِيحه وَأَن يَأْكُل الرجل مُتكئا

مُخْتَصر

وَحَدِيث أبي الدَّرْدَاء رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط حَدثنَا أَحْمد بن عبد الْوَهَّاب ابْن نجدة حَدثنَا أَبُو الْيَمَان الحكم بن نَافِع حَدثنَا أَرْطَاة بن الْمُنْذر عَن عبد الله بن رُزَيْق عَن عَمْرو بن الْأسود عَن أبي الدَّرْدَاء قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَا تَأْكُل مُتكئا وَلَا تَتَخَطَّى رِقَاب النَّاس يَوْم الْجُمُعَة) قَالَ لم يرو عَن أبي الدَّرْدَاء إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَاد تفرد بِهِ أَرْطَاة بن الْمُنْذر

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي كتاب الضُّعَفَاء عَن رُزَيْق أبي عبد الله الْأَلْهَانِي عَن عَمْرو بن الْأسود بِهِ وَزَاد فيجعلك الله جِسْرًا لَهُم وَلَا تتخذن من الْمَسْجِد مُصَلًّى لَا تصلي إِلَّا فِيهِ

انْتَهَى

وَقَالَ فِي رُزَيْق ينْفَرد بأَشْيَاء لَا تشبه حَدِيث الْأَثْبَات لَا يحْتَج بِهِ إِلَّا عِنْد الْوِفَاق

حَدِيث آخر رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده حَدثنَا عَمْرو بن سعيد الْقرشِي حَدثنَا أَبُو قُتَيْبَة حَدثنَا مُحَمَّد بن عبيد الله عَن ابْن أبي مليكَة عَن ابْن أبي إهَاب قَالَ نهى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن نَأْكُل متكئين

انْتَهَى

وروى الْجَمَاعَة إِلَّا مُسلما عَن أبي جُحَيْفَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (لَا آكل مُتكئا) وَفِي لفظ (وَأَنا مُتكئ)

انْتَهَى

628 - الحَدِيث السَّادِس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (مَرَرْت بِيُوسُف فِي اللَّيْلَة الَّتِي عرج بِي إِلَى السَّمَاء فَقلت لجبريل من هَذَا فَقَالَ يُوسُف قَالُوا يَا رَسُول الله كَيفَ رَأَيْته قَالَ كَالْقَمَرِ لَيْلَة الْبَدْر)

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه من طَرِيق مُحَمَّد بن إِسْحَاق عَن روح بن الْقَاسِم حَدثنِي عمَارَة بن جُوَيْبِر أَبُو هَارُون الْعَبْدي عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصف يُوسُف حِين رَآهُ فِي السَّمَاء الثَّالِثَة قَالَ (رَأَيْت رجلا صورته كَالْقَمَرِ لَيْلَة الْبَدْر فَقلت يَا جِبْرِيل من هَذَا قَالَ هَذَا أَخُوك يُوسُف) قَالَ ابْن إِسْحَاق وَكَانَ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَام قد أعطَاهُ الله من الْحسن مَا لم يُعْط أحدا من النَّاس قبله وَلَا بعده حَتَّى كَانَ يُقَال

وَالله أعلم بِهِ أعطي نصف الْحسن وَقسم النّصْف الآخر بَين النَّاس

انْتَهى

وَسكت عَنهُ

وَبِهَذَا الْإِسْنَاد رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ بِلَفْظ الْمُصَنّف سَوَاء

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من طرق كلهَا دَائِرَة عَلَى أبي هَارُون الْعَبْدي بِهِ وَرَوَاهُ أَيْضا بِسَنَد الْحَاكِم وَمَتنه

وَرَوَى الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة حَدِيث الْإِسْرَاء من رِوَايَة أبي سعيد الْخُدْرِيّ وَفِيه (ثمَّ صعدت إِلَى السَّمَاء الثَّانِيَة فَإِذا أَنا بِرَجُل أحسن مَا خلق الله تَعَالَى قد فضل عَلَى النَّاس بالْحسنِ كَالْقَمَرِ لَيْلَة الْبَدْر عَلَى سَائِر الْكَوَاكِب فَقلت يَا جِبْرِيل من هَذَا قَالَ هَذَا أَخُوك يُوسُف) الحَدِيث بِطُولِهِ وَينْظر

629 - الحَدِيث السَّابِع

فِي الحَدِيث (الله فِي عون العَبْد مَا دَامَ العَبْد فِي عون أَخِيه الْمُسلم وَمن فرج عَن مُؤمن كربَة من كرب الدُّنْيَا فرج الله عَنهُ كربَة من كرب الْآخِرَة)

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم فِي كتاب الذّكر وَالدُّعَاء من حَدِيث الْأَعْمَش عَن أبي صَالح عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من نفس عَن مُؤمن كربَة من كرب الدُّنْيَا نفس الله عَنهُ كربَة من كرب يَوْم الْقِيَامَة وَمن يسر عَلَى مُعسر يسر الله عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة وَمن ستر مُسلما ستره الله فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة وَالله فِي عون العَبْد مَا كَانَ العَبْد فِي عون أَخِيه وَمن سلك طَرِيقا يلْتَمس فِيهِ علما سهل الله لَهُ بِهِ طَرِيقا إِلَى الْجنَّة وَمَا اجْتمع قوم فِي بَيت من بيُوت الله يَتلون كتاب الله وَيَتَدَارَسُونَهُ بَينهم إِلَّا نزلت عَلَيْهِم السكينَة وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَة وحفتْهُمْ الْمَلَائِكَة وَذكرهمْ الله فِيمَن عِنْده وَمن بطأ بِهِ عمله لم يسْرع بِهِ نسبه)

انْتَهَى

630 - الحَدِيث الثَّامِن

عَن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَأْخُذهُ النّوم لَيْلَة من اللَّيَالِي وَكَانَ يطْلب من يَحْرُسهُ حَتَّى جَاءَ سعد فَسمع غَطِيطه

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم فِي الْفَضَائِل عَن عبد الله بن عَامر بن ربيعَة عَن عَائِشَة قَالَت أرق رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَات لَيْلَة فَقَالَ (لَيْت رجلا صَالحا من أَصْحَابِي يَحْرُسنِي اللَّيْلَة) قَالَت وَسَمعنَا صَوت السِّلَاح فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من هَذَا) فَقَالَ سعد بن أبي وَقاص يَا رَسُول الله جِئْت أَحْرُسك قَالَت عَائِشَة فَنَامَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى سَمِعت غَطِيطه

انْتَهَى

وَوهم الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فَرَوَاهُ فِي كتاب الْفَضَائِل بالسند والمتن وَقَالَ حَدِيث صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

631 - الحَدِيث التَّاسِع قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من كَانَ يُؤمن بِاللَّه وَالْيَوْم الآخر فَلَا يقفن موَاقِف التهم)

قلت وَأَعَادَهُ فِي الْأَحْزَاب

632 - الحَدِيث الْعَاشِر

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْمَارِّينَ بِهِ فِي مُعْتَكفه وَعِنْده بعض نِسَائِهِ (هِيَ فُلَانَة)

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي بَدْء الْخلق وَمُسلم فِي . . . من حَدِيث عَلّي بن حُسَيْن عَن صَفِيَّة بنت حيي قَالَت كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعْتَكف فَأَتَيْته

أَزوره لَيْلًا فحدثته ثمَّ قُمْت فانقلبت فَقَامَ معي ليقلبني وَكَانَ مَسْكَنهَا فِي دَار أُسَامَة بن زيد فَمر رجلَانِ من الْأَنْصَار فلمَّا رَأيا النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَسْرعَا فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (عَلَى رِسْلكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّة بنت حيي) فَقَالَا سُبْحَانَ الله يَا رَسُول الله قَالَ (إِن الشَّيْطَان يجْرِي من ابْن آدم مجْرى الدَّم إِنِّي خشيت أَن يقذف فِي قُلُوبكُمَا سوءا)

(187/390)

انْتَهَى

633 - الحَدِيث الْحَادِي عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (لقد عجبت من يُوسُف وَكَرمه وَصَبره وَالله يغْفر لَهُ حِين سُئِلَ عَن الْبَقَرَات الْعِجَاف والسمان وَلَو كنت مَكَانَهُ مَا أَجَبْتهم حَتَّى اشْترط أَن يُخْرجُونِي وَلَقَد عجبت مِنْهُ حِين أَتَاهُ الرَّسُول قَالَ ارْجع إِلَى رَبك

وَلَو كنت مَكَانَهُ وَلَبِثت فِي السجْن مَا لبث لَأَسْرَعت الْإِجَابَة وبادرتهم الْبَاب وَلما ابْتَغَيْت الْعذر إِن كَانَ لَحَلِيمًا ذَا أَنَاة

قلت رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده أخبرنَا عَمْرو بن مُحَمَّد الْعَنْقَزِي حَدثنَا إِبْرَاهِيم بن يزِيد الْحَوْزِي عَن عَمْرو بن دِينَار عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (عجبت لصبر أخي يُوسُف وكَرمه وَالله يغْفر لَهُ حَيْثُ أرسل إِلَيْهِ لِيَسْتَفْتِي فِي الرُّؤْيَا وَلَو كنت لم أفعل حَتَّى أخرج وَعَجبت لِصَبْرِهِ وكَرمه وَالله يغْفر لَهُ حَيْثُ أُتِي ليخرج فَلم يخرج حَتَّى أخْبرهُم بعُذْرِهِ وَلَو كنت أَنا لبادرت الْبَاب وَلَوْلَا الْكَلِمَة الَّتِي قَالَهَا لما لبث فِي السجْن طول مَا لبث حَتَّى

يَبْتَغِي الْفرج من عِنْد غير الله) يَعْنِي قَوْله اذْكُرْنِي عِنْد رَبك

انْتَهَى

وَمن طَرِيق ابْن رَاهَوَيْه رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه بِسَنَدِهِ وَمَتنه وَبِالسَّنَدِ الْمَذْكُور رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره أَعنِي من طَرِيق ابْن رَاهَوَيْه بِهِ

قَالَ وَرَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره مُرْسلا فَقَالَ أخبرنَا ابْن عُيَيْنَة عَن عَمْرو بن دِينَار عَن عِكْرِمَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره بِلَفْظ الْمُصَنّف وَلم يقل فِيهِ إِن كَانَ حَلِيمًا ذَا أَنَاة

(188/390)

وَمن طَرِيق عبد الرَّزَّاق رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ وَمَتنه

ثمَّ أخرج الطَّبَرِيّ عَن ابْن إِسْحَاق عَن رجل لم يسمه عَن أبي الزِّنَاد عَن الْأَعْرَج عَن أبي

هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (يرحم الله يُوسُف لَو كنت أَنا الْمَحْبُوس ثمَّ أرسل إِلَيّ لخرجت سَرِيعا إِن كَانَ حَلِيمًا ذَا أَنَاة)

انْتَهى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه من طَرِيق ابْن إِسْحَاق عَن عبد الله بن أبي بكر عَن الزُّهْرِيّ

وَحَدِيث أَيْضا عَن عبد الرَّحْمَن الْأَعْرَج عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

634 - الحَدِيث الثَّانِي عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (أَنا سيد ولد آدم وَلَا فَخر)

قلت وَأَعَادَهُ فِي الشُّعَرَاء

رُوِيَ من حَدِيث الْخُدْرِيّ وَمن حَدِيث عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاصِ وَمن حَدِيث وَاثِلَة بن الْأَسْقَع وَمن حَدِيث أبي بكر الصّديق وَمن حَدِيث جَابر بن عبد الله وَمن حَدِيث أنس بن مَالك وَمن حَدِيث عبد الله بن سَلام وَمن حَدِيث عبَادَة بن الصَّامِت وَمن حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث ابْن عَبَّاس

أما حَدِيث أبي سعيد فَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه فِي تَفْسِيره سُورَة بني إِسْرَائِيل وَابْن ماجة فِي الزّهْد من حَدِيث عَلّي بن زيد بن جدعَان عَن أبي نَضرة عَن

أبي سعيد الْخُدْرِيّ قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَنا سيد ولد آدم يَوْم الْقِيَامَة وَلَا فَخر وَبِيَدِي لِوَاء الْحَمد وَلَا فَخر وَمَا من نَبِي يَوْمئِذٍ آدم فَمن سواهُ إِلَّا تَحت لِوَائِي وَأَنا

أول من تَنْشق عَنهُ الأَرْض وَلَا فَخر) ثمَّ ذكر حَدِيث الشَّفَاعَة قَالَ التِّرْمِذِيّ هَذَا حَدِيث حسن وَقد رَوَاهُ بَعضهم عَن أبي نَضرة عَن ابْن عَبَّاس

انْتَهَى

(189/390)

هَذَا الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ سيَأْتِي وَعلي بن زيد قَالَ فِيهِ ابْن حبَان كَانَ كثير الْوَهم فَاسْتحقَّ التّرْك إِلَّا أَنه كَانَ شَيخا جَلِيلًا وَأسْندَ عَن ابْن معِين أَنه قَالَ لَيْسَ بِشَيْء

وَأما حَدِيث عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاصِ فَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع السَّابِع وَالسبْعين من الْقسم الثَّالِث من حَدِيث بشر بن شغاف عَن عبد الله بن عَمْرو قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَنا سيد ولد آدم يَوْم الْقِيَامَة وَلَا فَخر وَأول من تَنْشَق عَنهُ الأَرْض وَأول شَافِع وَمُشَفَّع بيدي لِوَاء الْحَمد تَحْتَهُ آدم فَمن دونه)

انْتَهَى

وَأما حَدِيث وَاثِلَة فَرَوَاهُ ابْن حبَان أَيْضا فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الرَّابِع وَالْعِشْرين من الْقسم الثَّانِي مِنْهُ من حَدِيث الْأَوْزَاعِيّ حَدثنِي شَدَّاد أَبُو عمار عَن وَاثِلَة بن الْأَسْقَع قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِن الله اصْطفى من ولد إِسْمَاعِيل كنَانَة وَاصْطفى من

كنَانَة قُرَيْشًا وَاصْطَفَى من قُرَيْش بني هَاشم وَاصْطَفَانِي من بني هَاشم فَأَنا سيد ولد آدم يَوْم الْقِيَامَة وَلَا فَخر وَأول من تَنْشَق عَنهُ الأَرْض وَأول شَافِع وَأول مُشَفع)

انْتَهَى

وَأما حَدِيث أبي بكر الصّديق فَرَوَاهُ ابْن حبَان أَيْضا فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّانِي من الْقسم الثَّالِث من حَدِيث . . . عَن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه قَالَ أصبح رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَات يَوْم فصلى الْغَدَاة . . . فَذكر حَدِيث الشَّفَاعَة وَفِيه فَإِذا نظر إِلَى ربه خر سَاجِدا قدر جُمُعَة وَيفتح الله عَلَيْهِ من الدُّعَاء شَيْئا لم يَفْتَحهُ على بشر

(190/390)

قطّ فَيَقُول (أَي رَبِّي جعلتني سيد ولد آدم وَلَا فَخر وَأول من تَنْشَق عَنهُ الأَرْض يَوْم الْقِيَامَة وَلَا فَخر) الحَدِيث بِطُولِهِ

وَأما حَدِيث جَابر بن عبد الله فَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي الْفَضَائِل من حَدِيث عبيد الله بن إِسْحَاق الْعَطَّار حَدثنَا الْقَاسِم بن مُحَمَّد بن عبد الله بن مُحَمَّد ابْن عقيل حَدثنِي أبي عَن أَبِيه عَن جَابر بن عبد الله قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَنا سيد ولد آدم وَلَا فَخر) وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ وتعقبه الذَّهَبِيّ بِأَن عبيد الله ضعفه غير

وَاحِد وَالقَاسِم مَتْرُوك تَالف

انْتَهى

وَأما حَدِيث أنس فَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده حَدثنَا مُحَمَّد بن حيدران حَدثنَا مبارك مولَى عبد الْعَزِيز بن صُهَيْب حَدثنَا عبد الْعَزِيز بن صُهَيْب عَن أنس بن مَالك أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (أَنا سيد ولد آدم يَوْم الْقِيَامَة وَلَا فَخر وَأَنا أول من يدْخل الْجنَّة وَلَا فَخر وَأَنا أول شَافِع وَأول مُشفع بيَدي لِوَاء الْحَمد يَوْم الْقِيَامَة آدم فَمن دونه تَحت لِوَائِي فآتي رَبِّي تبَارك وَتَعَالَى فَيُقَال لي من فَأَقُول أَحْمد فيفتح فَإِذا رَأَيْت رَبِّي خَرَرْت لَهُ سَاجِدا فأَحْمَد بِمَحَامِد لَا يحمد بهَا أحد قبلي وَلَا بعدِي يلهمنيها الله تَعَالَى)

انْتَهى

وَقَالَ لَا نعلم رَوَاهُ عَن عبد الْعَزِيز إِلَّا مبارك وَقد حدث عَنهُ بمناكير وَلَا نعلم رَوَى مبارك عَن غير عبد الْعَزِيز

انْتَهى

وَله طَرِيق آخر عِنْد أبي يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده وَأبي نعيم فِي دَلَائِل النُّبُوَّة عَن مَنْصُور بن مُزَاحم حَدثنَا أَبُو سعيد الْمُؤَدب عَن زِيَاد بن مَيْمُون عَن أنس بن مَالك مَرْفُوعا نَحوه . . . إِلَى قَول (لِوَاء الْحَمد بيَدي وَلَا فَخر)

وَأما حَدِيث عبد الله بن سَلام فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَأَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده من حَدِيث مُوسَى بن أعين عَن معمر بن رَاشد عَن مُحَمَّد بن عبد الله ابْن أبي يَعْقُوب عَن بشر بن شغَاف عَن عبد الله بن سَلام قَالَ قَالَ رَسُول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (أَنا سيد ولد آدم يَوْم الْقِيَامَة وَلَا فخر وَأول من تَنْشَق عَنهُ الأَرْض وَلَا فَخر وَأول شَافِع وَأول مُشَفع لِوَاء الْحَمد بيَدي يَوْم الْقِيَامَة آدم فَمن دونه)

انْتَهَى

وَأما حَدِيث عبَادَة بن الصَّامِت فَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الْإِيمَان من حَدِيث إِسْحَاق بن يَحْيَى عَن عبَادَة بن الصَّامِت قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (أَنا سيد النَّاس يَوْم الْقِيَامَة وَلَا فَخر مَا من أحد إِلَّا وَهُوَ تَحت لِوَائِي يَوْم الْقِيَامَة) وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ وتعقبه الذَّهَبِيّ فِي مُخْتَصره وَقَالَ إِنَّه مُنْقَطع فَإِن إِسْحَاق لم يدْرك عبَادَة قَالَ غير وَاحِد من الْحفاظ

انْتَهَى

وَأما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ أَبُو نعيم فِي أول كِتَابه دَلَائِل النُّبُوَّة حَدثنَا عَلّي ابْن مُحَمَّد بن نضر الْوراق حَدثنَا أَحْمد بن زَنْجوَيْه حَدثنَا أَبُو معمر إِسْمَاعِيل بن إِبْرَاهِيم الْقطيعِي حَدثنَا عبد الله بن جَعْفَر عَن سُهَيْل بن أبي صَالح عَن أَبِيه عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (أَنا سيد ولد آدم يَوْم الْقِيَامَة وَأَنا أول من تَنْشَق عَنهُ الأَرْض وَلَا فَخر وَأَنا صَاحب لِوَاء الْحَمد بيَدي وَلَا فَخر وَأَنا أول من يدْخل الْجنَّة وَلَا فَخر آخذ بِحَلقَة بَاب الْجنَّة فَيُؤذن لي فيستقبلني الْجَبَّار تَعَالَى فَأخر لَهُ سَاجِدا فَيَقُول يَا مُحَمَّد ارْفَعْ رَأسك وَاشْفَعْ تشفع وسل تعط فَأَقُول رب أمتِي أمتِي)

انْتهى

وَأما حَدِيث ابْن عَبَّاس فَرَوَاهُ أَحْمد وَأَبُو يعلى الْموصِلِي فِي مسنديهما وَالْبَيْهَقِيّ وَأَبُو نعيم فِي دَلَائِل النُّبُوَّة لَهما عَن حَمَّاد بن زيد عَن عَلّي بن زيد بن جدعَان عَن أبي نَضرة قَالَ خَطَبنَا ابْن عَبَّاس على مِنْبَر الْبَصْرَة فَقَالَ قَالَ رَسُول الله) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِنَّه لم يكن نَبِي إِلَّا لَهُ دَعْوَة قد تنجزها فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي قد اخْتَبَأْت دَعْوَتِي شَفَاعَة لأمتي يَوْم الْقِيَامَة وَأَنا سيد ولد آدم يَوْم الْقِيَامَة وَلَا فَخر وَأول من تَنْشَق عَنهُ الأَرْض وَلَا فَخر وبيدي لِوَاء الْحَمد وَلَا فَخر آدم فَمن دونه تَحت لِوَائِي وَلَا فَخر) الحَدِيث بِطُولِهِ

وَرَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الْعِلَل المتناهية من طَرِيق الدَّارَقُطْنِيّ بسَنَدِهِ إِلَى خَارِجَة ابْن مُصعب عَن ابْن جريج عَن عَطاء عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَنا سيد ولد آدم وَلَا فَخر) مُخْتَصر قَالَ ثمَّ قَالَ ابْن حبَان خَارِجَة ابْن مُصعب لَا يحل الِاحْتِجَاج بِهِ وَقَالَ ابْن معِين لَيْسَ بِثِقَة

انْتَهَى كَلَامه

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره فِي سُورَة الْإِسْرَاء فَقَالَ حَدثنَا سُلَيْمَان بن أَحْمد هُوَ الطَّبَرَانِيّ حَدثنَا عبد الله بن أَحْمد بن أسيد الْأَصْبَهَانِيّ حَدثنَا مُحَمَّد بن عِيسَى بن يزِيد السَّعْدِيّ ثَنَا سُلَيْمَان بن عَمْرو بن سيار التَّمِيمِي حَدثنَا أبي حَدثنَا سعيد بن رزين حَدثنَا عمر بن سُلَيْمَان عَن الضَّحَّاك بن مُزَاحم وَعِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (لما أسرِي بِي إِلَى السَّمَوَات) فَذكر حَدِيث الْإِسْرَاء بِطُولِهِ وَقَالَ فِي آخِره (فَأَنا بِنِعْمَة الله سيد ولد آدم وَلَا فَخر وَأَنا عبد مَقْبُوض وَمَا عِنْد الله خير وَأبقى) مُخْتَصر

وَأعلم أَن الحَدِيث رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي الْفَضَائِل من حَدِيث أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَأما حَدِيث عَائِشَة فَرَوَاهُ الإِمَام أَبُو بكر بن عَاصِم فِي كتاب الْآدَاب وَهُوَ ثَلَاثَة أَجزَاء حَدِيثِيَّةٌ حَدثنَا أَبُو بكر بن أبي شيبَة حَدثنَا خلف بن خَليفَة عَن إِسْمَاعِيل بن أبي خَالِد

عَن عَائِشَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (أَنا سيد ولد آدم وَلَا فَخر)

635 - الحَدِيث الثَّالِث عشر

(194/390)

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (رحم الله أخي يُوسُف لَو لم يقل اجْعَلنِي عَلَى خَزَائِن الأَرْض لَاسْتَعْمَلَهُ من سَاعَته وَلكنه أخر ذَلِك سنة)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أخبرنَا الْحُسَيْن بن مُحَمَّد بن فَنْجَوَيْه حَدثنَا مخلد بن جَعْفَر الباقرجي حَدثنَا الْحسن بن علوِيَة حَدثنَا إِسْمَاعِيل بن عِيسَى حَدثنَا إِسْحَاق بن بشر عَن جُوَيْبِر عَن الضَّحَّاك عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره سَوَاء

وَعَن الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ وَمَتنه

636 - الحَدِيث الرَّابِع عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه كَانَ يعوذ الْحسن وَالْحُسَيْن فَيَقُول (أُعِيذكُمَا بِكَلِمَات الله التَّامَّة من كل هَامة وَمن كل عين لَامة)

قلت رَوَاهُ الْجَمَاعَة إِلَّا مُسلما فَرَوَاهُ البُخَارِيّ فِي بَدْء الْخلق وَأَبُو دَاوُد فِي السّنة وَالتِّرْمِذِيّ وَابْن ماجة فِي الطِّبّ وَالنَّسَائِيّ فِي الْبعُوث من حَدِيث الْمنْهَال عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن

عبّاس قَالَ كَانَ النّبي صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يعوذ الْحسن وَالْحُسَيْن وَيَقُول (إِن أَبَاكُمَا كَانَ يعوذ بهَا إِسْمَاعِيل وَإِسْحَاق أعوذ بِكَلِمَات الله التَّامَّة من كل شَيْطَان وَهَامة وَمن كل عين لَامة)

انْتَهَى

637 - الحَدِيث الْخَامِس عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (لم تعط أمة من الْأُمَم إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون عِنْد الْمُصِيبَة إِلَّا أمة مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَلا ترى إِلَى يَعْقُوب حِين أَصَابَهُ مَا أَصَابَهُ لم يسترجع وَإِنَّمَا قَالَ يَا أسفا)

(195/390)

قلت روى عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره أخبرنَا سُفْيَان الثَّوْريّ عَن سُفْيَان بن زِيَاد الْعُصْفُرِي عَن سعيد بن جُبَير قَالَ لم تعط أمة من الْأُمَم إِنَّا لله . . . إِلَى آخِره

وَمن طَرِيق عبد الرَّزَّاق رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ وَمَتنه

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب السّبْعين عَن الْحَاكِم بِسَنَدِهِ إِلَى إِبْرَاهِيم بن مَرْزُوق أَنا أَبُو عَامر عَن سُفْيَان الثَّوْريّ بِهِ سَوَاء ثمَّ قَالَ الْبَيْهَقِيّ وَقد رفع

بعض الضِّعَاف هَذَا الحَدِيث إِلَى ابْن عَبَّاس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَلَيْسَ بِشَيْء

انْتَهَى

وَهَذَا الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من طَرِيق ابْن وهب حَدثنِي مُحَمَّد بن سعيد الْهَبَّارِي حَدثنَا إِسْحَاق بن الرّبيع حَدثنَا سُفْيَان بن زِيَاد الْعُصْفُرِي عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لم تعط أمة من الْأُمَم إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون عِنْد الْمُصِيبَة إِلَّا أمة مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَلا ترى إِلَى يَعْقُوب حِين أَصَابَهُ مَا أَصَابَهُ لم يسترجع إِنَّمَا قَالَ يَا أسفا عَلَى يُوسُف)

انْتَهَى

وَرَوَى الطَّبَرَانِيّ فِي كتاب الدُّعَاء حَدثنَا عبد الله بن أَحْمد بن حَنْبَل حَدثنِي مُحَمَّد بن خَالِد بن عبد الله الوَاسِطِيّ حَدثنَا أبي حَدثنَا عمر بن الْخطاب رجل من أهل الْكُوفَة عَن سُفْيَان بن زِيَاد الْعُصْفُرِي عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (أُعْطيت أمتِي شَيْئا لم يُعْطه أحد من الْأُمَم عِنْد الْمُصِيبَة إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون عِنْد الْمُصِيبَة)

انْتَهَى

وَبِهَذَا السَّنَد والمتن رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط من حَدِيث إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيم حَدثنَا مُحَمَّد بن عبيد عَن سُفْيَان بن زِيَاد الْعُصْفُرِي بِهِ

638 - الحَدِيث السَّادِس عشر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه سَأَلَ جِبْرِيل مَا بلغ من وجد يَعْقُوب عَلَى يُوسُف قَالَ (وجد سبعين ثَكْلَى قَالَ فَمَا كَانَ لَهُ من الْأجر قَالَ أجر مائَة شَهِيد وَمَا سَاءَ ظَنّه بِاللَّه قطّ)

قلت لم يروه الطَّبَرِيّ إِلَّا من قَول الْحسن فَقَالَ حَدثنَا ابْن حميد حَدثنَا حكام عَن عِيسَى بن يزِيد عَن الْحسن أَنه قيل لَهُ مَا بلغ وجد يُوسُف فَقَالَ وجد سبعين ثَكْلَى قَالَ فَمَا كَانَ لَهُ من الْأجر قَالَ أجر مائَة شَهِيد وَمَا سَاءَ ظَنّه بِاللَّه قطّ

انْتَهَى

وَرَوَى الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط من حَدِيث جرير عَن لَيْث عَن ثَابت الْبنانِيّ قَالَ دخل جِبْرِيل عَلَى يُوسُف فَسَأَلَهُ هَل لَهُ علم بيعْقُوب قَالَ نعم قَالَ مَا فعل قَالَ ابْيَضَّتْ عَيناهُ قَالَ مَا بلغ حزنه قَالَ حزن سبعين ثَكْلَى . . . إِلَى آخِره

639 - الحَدِيث السَّابِع عشر

عَن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه بَكَى عَلَى وَلَده إِبْرَاهِيم وَقَال (الْقلب يجزع وَالْعين تَدْمَع وَلَا نقُول مَا يسْخط الرب وَإِنَّا عَلَيْك يَا إِبْرَاهِيم لَمَحْزُونُونَ)

(197/390)

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي الْجَنَائِز وَمُسلم فِي الْفَضَائِل وَاللَّفْظ للْبُخَارِيّ عَن أنس بن مَالك قَالَ دَخَلنَا مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَلَى أبي سيف الْقَيْن وَكَانَ ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيم فَأخذ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فقبله وشمه ثمَّ دخل عَلَيْهِ بعد ذَلِك وَإِبْرَاهِيم يجود بِنَفسِهِ فَجعلت عينا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تَذْرِفَانِ فَقَالَ لَهُ عبد الرَّحْمَن وَأَنت يَا رَسُول الله فَقَالَ (يَا ابْن عَوْف إِنَّهَا رَحْمَة) ثمَّ أتبعهَا بِأُخْرَى فَقَالَ (إِن الْعين تَدْمَع وَالْقلب يحزن وَلَا نقُول إِلَّا مَا يُرْضِي رَبنَا عز وَجل وَإِنَّا بفراقك يَا إِبْرَاهِيم لَمَحْزُونُونَ) انْتَهَى

640 - الحَدِيث الثَّامِن عشر

عَن النَّبِي أَنه بَكَى عَلَى ولد بعض بَنَاته وَهُوَ يجود بِنَفسِهِ فَقيل يَا رَسُول الله تبْكي وَقد نَهَيْتنَا عَن الْبكاء فَقَالَ (مَا نَهَيْتُكُمْ عَن الْبكاء وَإِنَّمَا نَهَيْتُكُمْ عَن صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ صَوت عِنْد الْفَرح وَصَوت عِنْد التَّرَح)

قلت لم يرد هَذَا فِي ولد بَنَاته عَلَيْهِ السَّلَام وَإِنَّمَا ورد فِي إِبْرَاهِيم وَلَده رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي الْجَنَائِز من حَدِيث ابْن أبي لَيْلَى عَن عَطاء عَن جَابر بن عبد الله قَالَ أَخذ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بيد عبد الرَّحْمَن بن عَوْف فَانْطَلق بِهِ إِلَى ابْنه إِبْرَاهِيم فَوَجَدَهُ يجود بِنَفسِهِ فَأَخذه النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَوَضعه فِي حجره فَبكى فَقَالَ لَهُ عبد الرَّحْمَن أَو تبْكي أَو لم تكن نهيت عَن الْبكاء قَالَ (لَا وَلَكِن نهيت عَن صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ صَوت عِنْد مُصِيبَة خَمش وُجُوه وشق جُيُوب ورنة شَيْطَان وَصَوت عِنْد نَغمَة لعب وَلَهو وَمَزَامِير شَيْطَان)

انْتَهَى

وَقَالَ حَدِيث حسن

انْتَهَى

وَرَوَاهُ كَذَلِك ابْن أبي شيبَة وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَأَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ وَعبد بن حميد وَقد جَاءَ مُصَرحًا بِهِ عبد الرَّحْمَن بن عَوْف عِنْد الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان

وَله طَرِيق آخر عِنْد الْحَاكِم فِي كِتَابه الْمُسْتَدْرك رَوَاهُ فِي فَضَائِل مَارِيَة الْقبْطِيَّة عَن

إِسْمَاعِيل بن مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن عَوْف عَن أَبِيه عَن جده قَالَ أَخذ النَّبِي بيَدي فَانْطَلَقت مَعَه . . . إِلَى آخِره وَسكت عَنهُ

(199/390)

وَالَّذِي قَالَ ورد فِي ولد بَنَاته فَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ من حَدِيث أُسَامَة بن زيد كُنَّا عِنْد النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأرْسلت إِلَيْهِ إِحْدَى بَنَاته تدعوهُ وتُخْبرهُ أَن صَبيا أَو ابْنا لَهَا فِي الْمَوْت فَقَالَ للرسول (ارْجع إِلَيْهَا فَأَخْبرهَا أَن لله مَا أَخذ وَله مَا أعْطى فَمُرْهَا فلْتَصْبِر وَتَحْتَسِب) فَعَاد الرَّسُول فَقَالَ إِنَّهَا قد أَقْسَمت لتأْتِيَنَّهَا فَقَامَ عَلَيْهِ السَّلَام وَمَعَهُ سعد بن عبَادَة ومعاذ بن جبل وَانْطَلَقت مَعَهم فَرفع إِلَيْهِ الصَّبِي وَنَفسه تقَعْقع بهَا كَأَنَّهَا فِي شن فَفَاضَتْ عَيناهُ فَقَالَ لَهُ سعد مَا هَذَا يَا رَسُول الله قَالَ (هَذِه رَحْمَة جعلهَا الله فِي قُلُوب عباده وَإِنَّمَا يرحم الله من عباده الرُّحَمَاء)

انْتهى

وَكَأن الْمُصَنّف خلط حَدِيث بِحَدِيث وَلم يحسن الطَّيِّبِيّ إِذْ عزا حَدِيث الْكتاب للصَّحِيحَيْنِ ظنا مِنْهُ أَنه هُوَ هَذَا الحَدِيث

(200/390)

641 - قَوْله وَقيل أَدّوا إِلَيْهِ كتاب يَعْقُوب من يَعْقُوب إِسْرَائِيل الله بن إِسْحَاق ذبيح الله بن إِبْرَاهِيم خَلِيل الله إِلَى عَزِيز مصر أما بعد فَإنَّا أهل بَيت مُوكل بنَا الْبلَاء أما جدي فسرت يَدَاهُ وَرجلَاهُ وَرمي بِهِ فِي النَّار فنجّاهُ الله مِنْهَا وَجعلت عَلَيْهِ بردا وَسلَامًا وَأما أبي فَوضعت السكين عل قفاهُ ففداهُ الله وَأما أَنا فَكَانَ لي ابْن وَهُوَ أحب أَوْلَادِي إِلَيّ فَذهب بِهِ إِلَى الْبَريَّة ثمَّ أَتَوْنِي بقميصه ملطخا بِالدَّمِ وَقَالُوا قد أكله الذِّئْب فَذَهَبت عَيْنَايَ من بُكَائِي عَلَيْهِ ثمَّ كَانَ لي ابْن وَكَانَ أَخَاهُ من أمه وَكنت أَتَسَلَّى بِهِ فذهبوا بِهِ ثمَّ رجعُوا وَقَالُوا إِنَّه سرق وَإنَّك حَبسته لذَلِك وَإنَّا أهل بَيت لَا نَسْرِق وَلَا نَلد سَارِقا فَإِن رَددته عَليّ وَإِلَّا دَعَوْت عَلَيْك دَعْوَة تدْرك السَّابِع من ولدك وَالسَّلَام

(201/390)

قلت سَيَأْتِي ذكر هَذَا الْكتاب من رِوَايَة الدَّارَقُطْنِيّ وَالتِّرْمِذِيّ الْحَكِيم فِي الصافات وَلَيْسَ فِيهِ هَذَا اللَّفْظ وَلَكِن رَوَاهُ بِهَذَا اللَّفْظ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط أخبرنَا أَبُو حَامِد بن أبي حَامِد الْعدْل حَدثنَا مُحَمَّد بن عبد الله الضَّبِّيّ حَدثنَا أَبُو بكر ابْن أبي نصر الدَّرَاوَرْدِي حَدثنَا مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم بن سعيد حَدثنَا سُلَيْمَان بن مَنْصُور ابْن عمار

حَدثنِي أبي ثنَا يُوسُف بن الصَّباح الْفَزارِيّ عَن عبد الله بن يُونُس عَن أبي فَرْوَة قَالَ لما كَانَ من أَمر الْإِخْوَة مَا كَانَ كتب يَعْقُوب إِلَى يُوسُف وَهُوَ لَا يعلم أَنه يُوسُف بن يَعْقُوب إِسْرَائِيل الله بن إِسْحَاق ذبيح الله بن إِبْرَاهِيم خَلِيل الله أما بعد فَإنَّا أهل بَيت . . . إِلَى آخِره سَوَاء وَزَاد قَالَ فَلَمَّا قَرَأَ يُوسُف الْكتاب لم يَتَمَالَك الْبكاء وعيل صَبره

انْتَهَى

642 - الحَدِيث التَّاسِع عشر

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخذ بعضادتي بَاب الْكَعْبَة يَوْم الْفَتْح فَقَالَ لقريش (مَا تروني فَاعِلا بكم) قَالُوا نظن خيرا أَخ كريم وَابْن أَخ كريم وَقد قدرت فَقَالَ (أَقُول مَا قَالَ أخي يُوسُف لَا تَثْرِيب عَلَيْكُم الْيَوْم)

الْآيَة

(202/390)

قلت رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي سنَنه الْكُبْرَى فِي تَفْسِيره سُورَة الْإِسْرَاء من حَدِيث سَلام بن مِسْكين عَن ثَابت الْبنانِيّ عَن عبد الله بن أبي رَبَاح عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ لما فتح رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّة . . . إِلَى أَن قَالَ فجاء رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى

طَاف بِالْبَيْتِ فَجعل يمر بِتِلْكَ الْأَصْنَام فيطْعنُهَا بسِيَةِ الْقوس وَيَقُول جَاءَ الْحق وزهق الْبَاطِل إِن الْبَاطِل كَانَ زهوقا حَتَّى إِذا فرغ وَصلى جَاءَ فَأخذ بعضادَتَيْ الْبَاب ثمَّ قَالَ (يَا معشر قُرَيْش مَا تَقولُونَ) قَالُوا نقُول ابْن أَخ وَابْن عَم رَحِيم كريم ثمَّ أعَاد عَلَيْهِم القَوْل فَقَالُوا مثل ذَلِك فَقَالَ (أَقُول كَمَا قَالَ أخي يُوسُف لَا تَثْرِيب عَلَيْكُم الْيَوْم يغْفر الله لكم وَهُوَ أرْحم الرَّاحِمِينَ)

مُخْتَصر

وَرَوَاهُ كَذَلِك الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة فِي فتح مَكَّة

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ بِلَفْظ الْمُصَنّف حَدثنِي الْحُسَيْن بن مُحَمَّد بن فَنْجَوَيْهِ حَدثنِي مخلد بن الْحسن بن علويَّة حَدثنَا إِسْمَاعِيل بن عِيسَى حَدثنَا إِسْحَاق بن بشر عَن ابْن سمْعَان عَن عَطاء عَن ابْن عَبَّاس قَالَ أَخذ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بعضادة الْبَاب يَوْم فتح مَكَّة وَقد لَاذَ النَّاس بِالْبَيْتِ فَقَالَ (الْحَمد لله الَّذِي صدق وعده وَنصر عَبده وَهزمَ الْأَحْزَاب وَحده) ثمَّ قَالَ (مَا تظنون بِي) قَالُوا نظن خيرا . . . إِلَى آخِره

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن هِشَام فِي السِّيرَة فِي فتح مَكَّة عَن ابْن إِسْحَاق قَالَ حَدثنِي بعض أهل الْعلم أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَامَ عَلَى بَاب الْكَعْبَة فَقَالَ (لَا إِلَه إِلَّا الله وَحده) إِلَى آخر لفظ الثَّعْلَبِيّ

وروَاهُ الْأَزْرَقِيّ فِي تَارِيخ مَكَّة عَن طَاوس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَخذ بعضَادَتَيْ بَاب الْكَعْبَة . . . إِلَى آخِره وَقَالَ فِيهِ وَقد قدرت فَأَسْجِحْ

وَرَوَاهُ أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام فِي كتاب الْأَمْوَال حَدثنَا إِسْمَاعِيل بن عَيَّاش عَن عبد الله بن عبد الرَّحْمَن بن أبي حُسَيْن قَالَ لما فتح رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَكَّة . . . إِلَى آخر لفظ الثَّعْلَبِيّ

وَعَن أبي عبيد رَوَاهُ ابْن فَنْجَوَيْهِ فِي كتاب الْأَمْوَال بِسَنَدِهِ وَمَتنه

وَرَوَاهُ الْوَاقِدِيّ فِي كتاب الْمَغَازِي حَدثنِي عَلّي بن مُحَمَّد بن عبيد الله عَن مَنْصُور الحَجبي عَن أمة صَفِيَّة بنت شيبَة عَن برة بنت أبي تجراة قَالَت أَنا أنظر إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حِين خرج من الْبَيْت فَوقف عَلَى الْبَاب وَأخذ بعضَادَتَيْ الْبَاب ثمَّ أشرف عَلَى النَّاس وهم جُلُوس حول الْكَعْبَة فَقَالَ (الْحَمد لله الَّذِي صدق وعده) إِلَى آخر لفظ الثَّعْلَبِيّ

643 - الحَدِيث الْعشْرُونَ

رُوِيَ أَن أَبَا سُفْيَان لما جَاءَ ليسلم قَالَ لَهُ الْعَبَّاس إِذا أتيت الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاتْلُ عَلَيْهِ لَا تَثْرِيب عَلَيْكُم فَفعل فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (غفر الله لَك وَلمن علمك)

قلت غَرِيب جدا

644 - الحَدِيث الْحَادِي وَالْعشْرُونَ

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه قَالَ (علموا أرقاءكم سُورَة يُوسُف فَإِنَّهُ أَيّمَا مُسلم تَلَاهَا وَعلمهَا أَهله وَمَا ملكت يَمِينه هون الله عَلَيْهِ سكرات الْمَوْت وَأَعْطَاهُ الْقُوَّة أَلا يحْسد مُسلما)

(204/390)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث سَلام بن سليم الْمَدَائِنِي حَدثنَا هَارُون ابْن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره سَوَاء وَهُوَ حَدِيث ضَعِيف فَإِن سَلام بن سليم وَيُقَال سلم مَتْرُوك وَهَارُون بن كثير قَالَ أَبُو حَاتِم مَجْهُول

قَالَ ابْن كثير فِي تَفْسِيره وَقد سَاق لَهُ الْحَافِظ ابْن عَسَاكِر مُتَابعًا من طَرِيق الْقَاسِم بن الحكم عَن هَارُون بن كثير بِهِ

وَمن طَرِيق شَبابَة عَن مخلد بن عبد الْوَاحِد الْبَصْرِيّ عَن عَلّي بن زيد بن جدعَان وَعَن عَطاء بن أبي مَيْمُونَة عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكر نَحوه قَالَ وَهُوَ مُنكر من سَائِر طرقه

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه الْمَذْكُورين فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمَذْكُور فِي سُورَة يُونُس. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 2 صـ 159. 180 ﴾

(205/390)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي:

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة يوسف

قوله تعالى: (لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ)، الآية/ 5.

وذلك يدل على جواز ترك إظهار النعمة، عند من يخشى غائلته حسدا وكيدا.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: استعينوا على حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود «1».

قوله تعالى: (بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) الآية/ 18.

يدل صدر الآية :

على جواز الحكم بالعلامة ، فإنه لما رأى القميص صحيحا قال : يا بني ، ما عهدت واللّه الذئب حليما .

وقوله : فصبر جميل ، يدل على أن من أدب الدين حسن الصبر والعزاء ، وترك الشكوى ، وهو مثل قوله تعالى :

---

(1) أخرجه الطبراني وذكره ابن الجوزي في الموضوعات .

(الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ)

«1» .

قوله تعالى : (وَأَسَرُّوهُ «2» بِضاعَةً) ، الآية/ 19 .

قال ابن عباس : أسرّه إخوته وكتموا أنه أخوهم ، وبايعهم يوسف على ذلك الكتمان لئلا يقتلوه .

وعن الحسن بن علي رضي اللّه عنهما ، أنه قضى في اللقيط أنه حر ،

وقرأ :

(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) ، الآية/ 20 .

وروى الزهري عن سفيان بن أبي جميل قال : وجدت منبوذا على عهد عمر ، فقال رحمه الله : عسى الغوير أبؤسا ، فقيل إنه لا يتهم ، فقال : هو ذاك ولاه أبي ولايته إذ هو حر الأصل في الظاهر .

ومعنى قوله لعل الغوير أبؤسا : الغوير تصغير غار ، وهو مثل : – معناه : عسى أن يكون البائس جاء من قبل الغار ، فإنهم غمزوا الرجل .

وقال : عسى أن يكون الأمر جاء من قبلك في هذا الصبي اللقيط ، وأن يكون من مغالك ، فلما شهد وآله بالستر ، أمره بإمساكه ، وقال ولاؤه لك ، أي إمساكه والولاية عليه .

قوله تعالى : (وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) ، الآية/ 20 :

قيل إن إخوته كانوا في الثمن من الزاهدين ، فإن ما كان من أبيهم ألا يغيبوه عن وجه أبيه .

---

(1) سورة البقرة آية 156

(2) أسروه : أخفوه . [. . . . .]

وقوله تعالى: (وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها)، الآية/ 21.

روى ابن عباس أنه صبي في المهد.

وروى أيضا أنه رجل، ومن الناس من يحتج بذلك في الحكم بالعلامة في اللقطة وكثير من المواضع، حتى قال مالك في اللصوص:

إذا وجدت معهم أمتعة فجاء قوم فادعوها وليست لهم بينة، أن السلطان يتلوم في ذلك، فإن جاء غيرهم يطلبها، وإلا دفعها إليهم.

وقال أبو حنيفة ومحمد في متاع البيت: إذا اختلف فيه الرجل والمرأة فهو للرجل.

ولا يحكم في كثير من المواضع بمثله، فإنه لو تنازع عطار وسقاء قربة وهما متعلقان بها، فهي بينهما، ولأن الأشبه في حديث يوسف، والعلامة أن ذلك كان آية من جهة اللّه تعالى، وإلا فما يدريهم أن امرأة ورجلا إذا تداعيا أمرا بينهما، فيكون قد قدّ قميص أحدهما أو قميصها، أو من الممكن أن يقال إن الرجل هم بها فطلبته ممتعضة وقدت قميصه من دبر، وليس في ذلك دلالة إلا من جهة خرق اللّه عز وجل العادة، بانطلاق الصبي في المهد.

وكان شريح وإياس بن معاوية يعملان على العلامات في حكومات، وأصل ذلك على هذه الآية، ولعل ذلك فيما طريقه التهمة، لا على سبيل بت الحكم، وقد يستحي الإنسان إذا ظهر مثل هذا منه للإقامة على الدعوى فيقر، فيحكم عليه بالإقرار.

قوله تعالى: (أَضْغاثُ أَحْلامٍ)، الآية/ 44.

وقد كانت الرؤيا صحيحة، ولم تكن أضغاث أحلام، فإن يوسف عليه السلام عبرها على سني الخصب والجدب.

(208/390)

وهذا يبطل قول من يقول: إن الرؤيا على أول ما تعبر، فإن الأقوام قالوا أضغاث أحلام، ولم تقع كذلك.

ويدل على فساد الرواية: أن الرؤيا على رجل طائر، فإذا عبرت وقعت.

قوله تعالى: (فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ)، الآية/ 50.

يدل على ثبات النفس والصبر، وطلب براءة الساحة، ليكون أجل في صدره عند حضوره، وأقرب إلى أن يقبل منه ما دعاه إليه من التوحيد.

الأمّارة: الكثيرة الأمر بالشيء، والنفس بهذه الصفة، لكثرة ما يشتبه، وتنازع إليه مما يقع الفعل من أجله.

قوله تعالى: (اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)، الآية/ 55:

وصف نفسه بالعلم والحفظ، فدل ذلك أنه جائز أن يصف الإنسان نفسه بالفضل عند من لا يعرفه، وأنه ليس من المحظور تزكية النفس لقوله: (فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ) «1».

قوله تعالى : ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ ، الآية/ 67 :

ذهب به إلى حرف العين «2» .

قوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ ، الآية/ 72 :

أصل في الجعالة ، مثل أن يقول : من ردّ إليّ عبدي الآبق فله كذا .

---

(1) سورة النجم آية 32 .

(2) أنظر تفسير القاسمي .

فقوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ ، ظن ظانون أن ذلك كفالة ، وليس بكفالة إنسان عن إنسان ، وإنما كفل بذلك عن نفسه ، وضمنه نعم هو جعاله .

قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ ، الآية/ 76 .

دليل على جواز الحيلة في التوصل إلى المباح ، وما فيه من العظة والصلاح ، واستخراج الحقوق ، ومثله قوله تعالى :

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ «1» .

وحديث أبي سعيد الخدري في عامل خيبر والذي أهداه من التمر إلى رسول اللّه صلّى اللّه

عليه وسلم وما قاله في ذلك .

وقال عليه الصلاة والسلام لهند : «خذي من مال أبي سفيان ما يكفيك وولدك بالمعروف» «2» .

وكان إذا أراد سفرا ورّى بغيره .

وأرسلت بنو قريظة إلى أبي سفيان ، أن ائتونا فإنا نستعين على بيضة المسلمين من ورائهم ، فسمع ذلك نعيم بن مسعود ، وكان موادعا للنبي عليه الصلاة والسلام ، وكان عند عيينه حين أرسلت بذلك بنو قريظة إلى الأحزاب ، أبي سفيان بن حرب وأصحابه ، فأقبل نعيم إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فأخبره خبرها وما أرسلت به بنو قريظة إلى الأحزاب ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لعلنا أمرناهم بذلك ، فقام نعيم بكلمة رسول اللّه من عند رسول اللّه ، وكان نعيم رجلا لا يكتم الحديث ، قال : فلما ولى من عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ذاهبا إلى غطفان ، فقال عمر : يا رسول اللّه ، ما هذا الذي

---

(1) سورة ص آية 44 .

(2) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، والطبراني في المعجم الكبير ، والبيهقي في الشعب .

قلت ؟ إن كان أمر من اللّه تعالى فامضه ، وإن كان هذا رأيا رأيته من قبل نفسك ، فإن شأن بني قريظة أهون من أن تقول شيء يؤثر عنك ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : إن هذا رأي ، إن الحرب خدعة .

وعن عمر أنه قال : إن لفي معاريض الكلام لمندوحة عن الكذب .

وقال ابن عباس : ما سرني بمعاريض الكلام حمر النعم .

وقال إبراهيم حين سئل عن سارة من هي ؟ فقال هي أختي ، لئلا يأخذوها ، وإنما أراد به أختي في الدين «1» .

وقال إبراهيم حين تخلف ليكسر آلهتهم : إني سقيم ، معناه إني سأسقم يعني أموت ، كما قال تعالى إنك ميت ، فعارض عن كلام مبهم سألوه عنه إلى غيره على وجه لا يلحقه في ذلك كذب «2» .

قوله تعالى : (فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ) ، الآية/ 88 .

وقال : ألا ترون أني أوف الكيل .

هذا مما يحتج به في أجرة الكيال والوزن أنها على البائع ، فإنه إذا كان عليه أن يوف الكيل فيتعين عليه أن يقوم بمؤونة ما يجب عليه «3» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي جـ 4 صـ 229 . 234﴾

(1) انظر قصص الأنبياء لابن كثير، ودلائل النبوة للبيهقي .

(2) انظر محاسن التأويل في توضيح ذلك .

(3) انظر أيضا محاسن التأويل للقاسمي .

بحث بعنوان : مائة فائدة من سورة يوسف عليه السلام

لفضيلة الشيخ محمد صالح المنجد

جمعه وخرَّجَ أحاديثه وآياته

أبو يوسف / هاني فاروق

مقدمة المحقق

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران:102]

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا

رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً) (النساء: 1) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً) (الأحزاب:70-71)

أما بعد :

إن سورة يوسف فيها من الآيات ما لا يُعد ولا يُحصى ، وإنَّ العلماء قد تناولوها في خطبهم ودروسهم بكل شكل من الأشكال ، إلا أننا وجدنا شيخنا الموفَّق فضيلةَ الشيخ محمد صالح المنجد – الذي طالما تربينا علي دروسه ومواعظه المليئة بالتربية الصادقة لشباب هذه الصحوة – قد وفقه الله لسرد ما بهذه السورة من فوائد وعبر ما بين فوائد تربوية وأخري تتعلق بالأحكام وقد عدها مائة فائدة .

فقلتُ أُجمع هذه الفوائد المائة من شريطه في محاولة لعلها تفيد شباب الصحوة وغيرهم في الوقوف علي هذه الفوائد مكتوبة ومحصورة بين أيديهم يسهل الرجوع إليها في أي وقت .

(212/390)

وقمت بتخريج ما ورد من الأحاديث والآيات وبعض الآثار ووضعت بعض التعليقات التي رأيتها مناسبة في مكانها .

اسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يجعل هذا العمل لوجهه خالصا وأن ينفعني به وإيا كم في الدنيا والآخرة .

100 فائدة من سورة يوسف

الحمد لله رب العالمين وصلى اللهم على نبينا محمد وعلى أله وصحبه أجمعين وبعد

هناك عدة أسئلة عن أمور تتعلق بسورة يوسف ، وسنتحدث إن شاء الله في هذا الدرس عن بعض الفوائد المأخوذة من هذه السورة والقصة العظيمة و هذه السورة تحكى قصة نبي كريم من أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام .

وفي هذه السورة عبر كثيرة وفوائد ودروس للمؤمنين ، وفيها كذلك أحكام استنبطها العلماء من هذه القصة التى أوحاها الله سبحانه وتعالى إلى نبيه – صلي الله عليه وسلم – وتمتاز هذه القصة بجمال الأسلوب إذ ليس عند النصارى ولا عند اليهود (1) في سوره يوسف مثل هذه التفاصيل أبداً ، وهذه القصة يذكر الله –سبحانه و تعالى – فيها ما حصل لنبيه يوسف عليه السلام . فلنأخذ بعض هذه الفوائد من هذه السورة . .

)

(1) ليس عند النصارى ولا اليهود في كتبهم سوره تسمى سوره يوسف و لكن يقصد الشيخ ما في كتبهم من ذكر هذه القصة .

من الله وذلك لأن يوسف رأى رؤيا حق و أمره أبوه ألا يقص الرؤيا على اخوته .

3- أن كتم التحدث بالنعمة للمصلحه جائز (1) و لذلك قال (لا تقصص رؤياك على اخوتك) مع إن الرؤيا نعمة هنا (فيكيدوا لك كيدا) إذاً لو كتم إنسان نعمة الله عليه و لم يفشها لئلا يتضرر من الحسد فهذا لا بأس به ، وأما التحدث بالنعمة فيكون عند أمْن الحسد (2) فيذكر الإنسان نعمة ربه عليه

4- أن الشيطان يدخل بين الإخوة ، فيوغر صدور بعضهم على بعض مع كونهم أشقاء فيصيرهم أعداء .

5- أن على الأب أن يعدل (3) بين أولاده ما أمكن وانه لو كان أحد الأولاد يستحق مزيد عناية فإن على الأب ألا يظهر ذلك قدر الإمكان حتى لا يوغر صدور الاخرين .

---

(1) ودل على ذلك من السنة [استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود] . (السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني/ج3 / ص 436 /ح1453) .

(2) وليكن ذلك بحيث لا تصل إلى درجة الوسوسة و الجبن الشديد من الحسد و من اقل شئ يتحدث به لأي أحد ، فهناك من تصل درجة الخوف عنده مبلغاً شديداً فيكتم النعم ،

بل ربما يتظاهر بالفاقة و بالضرر حتى لا يُحسد و هذا خطأ . (انظر الفائدة رقم 57 من كلام الشيخ)

(3) عن حصين عن عامر قال] سمعت النعمان بن بشير رضي الله عنهما وهو على المنبر يقول ثم أعطاني أبي عطية فقالت عمرة بنت رواحة لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله قال أعطيت سائر ولدك مثل هذا قال لا قال فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم قال فرجع فرد عطيته [(رواه البخاري / باب الإشهاد في الهبة / ح 2447)

وفيه فقه المرأة المسلمة إذ لم ترضي الظلم من زوجها حتي يقسم بالعدل بين ابنها وأبنائه من غيرها من الله وذلك لأن يوسف رأى رؤيا حق و أمره أبوه ألا يقص الرؤيا على اخوته .

3- أن كتم التحدث بالنعمة للمصلحه جائز (1) و لذلك قال (لا تقصص رؤياك على اخوتك) مع إن الرؤيا نعمة هنا (فيكيدوا لك كيدا) إذاً لو كتم إنسان نعمة الله عليه و لم يفشها لئلا يتضرر من الحسد فهذا لا بأس به ، وأما التحدث بالنعمة فيكون عند أمْن الحسد (2) فيذكر الإنسان نعمة ربه عليه

4- أن الشيطان يدخل بين الإخوة ، فيوغر صدور بعضهم على بعض مع كونهم أشقاء فيصيرهم أعداء .

5- أن على الأب أن يعدل (3) بين أولاده ما أمكن وانه لو كان أحد الأولاد يستحق مزيد عناية فإن على الأب ألا يظهر ذلك قدر الإمكان حتى لا يوغر صدور الاخرين .

---

(1) ودل على ذلك من السنة [استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود] . (السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني /ج 3 /ص 436 /ح 1453) .

(2) وليكن ذلك بحيث لا تصل إلى درجة الوسوسة و الجبن الشديد من الحسد و من اقل شئ يتحدث به لأي أحد ، فهناك من تصل درجة الخوف عنده مبلغاً شديداً فيكتم النعم ، بل ربما يتظاهر بالفاقة و بالضرر حتى لا يُحسد و هذا خطأ . (انظر الفائدة رقم 57 من كلام الشيخ)

(3) عن حصين عن عامر قال] سمعت النعمان بن بشير رضي الله عنهما وهو على المنبر يقول ثم أعطاني أبي عطية فقالت عمرة بنت رواحة لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله قال أعطيت سائر ولدك مثل هذا قال لا قال فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم قال فرجع فرد عطيته [(رواه البخاري / باب الإشهاد في الهبة /ح 2447)

وفيه فقه المرأة المسلمة إذ لم ترضي الظلم من زوجها حتي يقسم بالعدل بين ابنها وأبنائه من غيرها

6- أن الله سبحانه و تعالى يجتبى من يشاء من عباده و يصطفى (1) و هذا الاصطفاء من الله عز و جل نعمه ، فأنت مثلاً تأمَّل كيف أن الله سبحانه وتعالى اصطفاك فلم يجعلك جماداً بل جعلك إنساناً ، تأمل كيف اصطفاك الله فلم يجعلك كافراً بل جعلك مسلماً ، تأمل أن الله عز وجل لم يجعلك من أهل الكبائر الفسقه المجرمين من أهل البدعة بل جعلك من أهل السنة ، وإذا لم تكن من أهل الكبائر فتأمل اصطفاء الله ولم يجعلك من أهل الكبائر وجعلك من أهل الاستقامة والطاعة والدين ، وإذا كنت طالب علم فان الله اصطفاك اصطفاء أخر بأن جعلك صاحب علم ، وإذا كنت داعيه فهذا اصطفاء أخر من الله بأن جعلك ليس فقط من أصحاب العلم بل جعلك تدعو إلى هذا العلم ، وهكذا ، فإذا هي اصطفاءات من الله سبحانه و تعالى للعباد .

7- أن البيت الطيب يخرج منه الابن الطيب انظر إلي قوله تعالى (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

(1) قال تعالي (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة) (القصص 68) وقال تعالي

(إن الله اصطفى أدم و نوحا و أل إبراهيم وآل عمران علي العالمين) (أل عمران 33)

فنتعلم من ذلك أن مرد الإصطفاء والتميز من فضل الله – سبحانه وتعالي – يؤتيه من يشاء من عباده فلا يقع العبد بعد ذلك في حسد علي من أنعم الله عليه .

(215/390)

لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (7) إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ (8) اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ (9) قَالَ قَائِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (10)

8- أن الغيرة تدفع أصحابها للضرر والإيذاء فإنه لما غاروا من أخيهم سعوا في إيذاءه .

9- أن هذه الغيرة يمكن أن تؤدى إلي الكيد والقتل (1) و ليس مجرد الإيذاء فان هذه القضية قد أوصلتهم إلى أن يسعوا إلى قتل أخيهم (اقتلوا يوسف)

10- تبييت التوبة قبل الذنب توبة فاسدة ؛ يعنى إذا قال أحد نذنب ثم نتوب فهو مجرد ذنب ثم نستقيم . . . . . . فلنذنب ، هذه توبة فاسدة ، لماذا ؟ قال تعالى (اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ) إذا هم قالوا نذنب

ثم تتوب ، هذه توبة فاسدة . وما أدراهم أنهم سيستقيمون على الدين و الصلاح ، فبعض الناس يقول له الشيطان أنت الآن أذنِب ثم تتوب ، فينتكس هذا المسكين و يذهب على وجهه في المعاصي .

)

---

(1) قال تعالي (واتل عليهم نبأ ابنى أدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الأخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين) المائدة 27

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (12) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (13) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (14) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (15)

11- أن الإنسان إذا ظن سوء بإنسان فلا يصلح أن يلقنه حجة لأنه يستخدمها عليه ولذلك يعقوب لما قال (وأخاف أن يأكله الذئب) هو لقنهم حجه استعملوها بعد ذلك قالوا

حصل ما تكره وتركنا يوسف عند متاعنا وأكله الذئب ، لذا لا ينبغي لإنسان إن شك في شخص أن يلقنه حجة يمكن أن يستخدمها بعد ذلك .

12- أن الله عز وجل ثبّت يوسف من بدء أمره فإنه لما كان في البئر ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ ولكن ومتى تحدث هذه التنبئة ؟ بعد حين .

﴿وجاءوا أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ (16) قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (17) وجاءوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18) ﴾ .

13- أن المتظاهر بالأمر ينكشف أمره لأهل البصيرة ولو استخدم التمثيل فإنهم جاءوا أباهم عشاء يبكون فهذا تمثيل ﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ .

(217/390)

14- العمل بالقرائن ومشروعية العمل بالقرائن فإن يعقوب رأى قميصاً لم تعمل فيه أنياب الذئاب قميص سليم مغموس بدم فكيف أكله الذئب- ما هذا الذئب الذي له ذوق يأتي

للولد ويخلع قميصه ثم يأكله-كيف يأكله الذئب والقميص سليم ما به تمزيق .

15- جواز المسابقة ومشروعيتها ، فالمسابقة تكون على الخيل و السهام . . . . . لا تبقى إلا في نصل أو خف أو حافر أي على الإبل و الخيل و السهام . (1)

هذه الأمور التي تعين على الجهاد تجوز المسابقة فيه بجعل أي مقابل أما إذا كان ليس من الأمور المعينة على الجهاد ونشر الدين فلا يجوز السبق به بجائزة فصار عندنا المسابقات على ثلاث أنواع :

أ-جائز بعوض . ب-جائز بغير عوض . ج-محرم .

أ-جائز بعوض : مثل مسابقه سهام الرمي بالبندقية على الخيل ، مسابقه الرمي بالطائرات ، بالدبابات ، بأي وسيله بالرمي لأنه معين على الجهاد يجوز أن يجعل فيه جوائز ، فابن تيميه رحمه الله أدخل فيها المسابقات المعينة على نشر الدين . فلو عملنا مسابقه في حفظ القرءان وحفظ السنة وحفظ العلم يجوز أن تكون بجُعل أي بمقابل بجائزة .

---

(1) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا سبق إلا في نصل أو خف أو حافر . (سنن الترمذي باب ما جاء في الرهان والسبق)

قال في المغني (جزء 9 صفحه 368) : كتاب السبق والرامي (المسابقة جائزة بالسنة والإجماع وأما السنة فروى ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم سابق بين الخيل المضمرة من الحفياء إلى ثنية الوداع وبين التي لم تضمر من ثنية الوداع إلى مسجد بني زريق (متفق

عليه) . . . . . . وأما المسابقة بعوض فلا تجوز إلا بين الخيل والإبل والرمي لما سنذكره إن شاء الله تعالى واختصت هذه الثلاثة بتجويز العوض فيها لأنها من آلات الحرب المأمور بتعلمها وإحكامها والتفوق فيها) .اهـ

(218/390)

19–أن الشراء يطلق على البيع و الشراء (1) قال (وشروه بثمن بخس) يعنى باعوه بثمن بخس ، وكلمة شراء في اللغة تطلق على البيع أيضا (2)

20–أن بيع الحر و أكل ثمنه من الكبائر العظيمة (3) و هكذا فعل هؤلاء باعوا حراً وأكلوا ثمنه .

21–مِنَّة الله على يوسف أن جعله يتربى في بيت عز (4) و ليس أن يكون ذليلا مهاناً ، لذا قال عزيز مصر لامرأته (أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا . . . . .) .

---

(1) و شَرَاهُ و اشْتَرَاهُ: باعَه قال الله تعالى: (ومن الناس من يَشْرِي نفسه ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ) (البقرة : 207) ، وقال تعالى: (وشَرَوْهُ بثَمَنٍ بَخْسٍ دراهِم مَعْدُودَةٍ) (يوسف : 20) أي باعوه ، وقوله عز وجل: (أُولَئِكَ الذين اشْتَرُوا الضلالة بالهُدى) . والعرب تقول لكل من تَرك شيئاً وتمسَّكَ بغيره قد اشْتَراهُ .اهـ (لسان العرب 427/14) .

قلت : ومن البلاغة في هذه السورة ذكر البيع بلفظ (وشروه) والشراء بلفظ (وقال الذي اشتراه) فميز بين المعنيين باختلاف مبنى اللفظين .

(2) و هذا في اللغة يسمى (الأضداد) مثل (قرء يطلق على الحيض و على الطهر) (يطيقونه أي يطيقونه ولا يطيقونه) أي إن الكلمة تأتي بمعني ويمكن أن تأتي بضده في موضع أخر .

(3) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال الله (ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حراً فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعط أجره) (رواه البخاري / البيوع / باب إثم من باع حرا /ح 2114) .

(4) و الحكمة في ذلك : أنه على الرغم من تربيته في بيت عز إلا أنه لم يفتن بذلك لا قبل سجنه ولا بعد خروجه منه و تمكنه من خزائن مصر ، و فيه أيضاً أنه لا حجه لمن قال أن التدين يكون للفقراء فحسب دون الأغنياء . 19-أن الشراء يطلق على البيع و الشراء (1) قال (وشروه بثمن بخس) يعنى باعوه بثمن بخس ، و كلمة شراء في اللغة تطلق على البيع أيضا (2)

20-أن بيع الحر و أكل ثمنه من الكبائر العظيمة (3) و هكذا فعل هؤلاء باعوا حراً و أكلوا ثمنه .

21- مِنَّة الله على يوسف أن جعله يتربى في بيت عز (4) و ليس أن يكون ذليلا مهاناً ، لذا قال عزيز مصر لامرأته (أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا . . . . .) .

---

(1) و شَرَاهُ و اشْتَرَاهُ: باعَه قال الله تعالى: (ومن الناس من يَشْرِي نفسَه ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ) (البقرة : 207) ، وقال تعالى: (وشَرَوْهُ بثَمَنٍ بَخْسٍ دراهِم مَعْدُودَةٍ) (يوسف : 20) أَي باعوه ، وقوله عز وجل: (أُولَئِكَ الذين اشْتَرُوا الضلالة بالهُدى) . والعرب تقول لكل من تَرَك شيئاً وتمسَّكَ بغيره قد اشْتَراهُ .اهـ (لسان العرب 427/14) .

قلت : ومن البلاغة في هذه السورة ذكر البيع بلفظ (وشروه) والشراء بلفظ (وقال الذي اشتراه) فميز بين المعنيين باختلاف مبنى اللفظين .

(2) و هذا في اللغة يسمى (الأضداد) مثل (قرء يطلق على الحيض و على الطهر) (يطيقونه أي يطيقونه ولا يطيقونه) أي إن الكلمة تأتي بمعني ويمكن أن تأتي بضده في موضع أخر .

(3) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال الله (ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حراً فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعط أجره) (رواه البخاري / البيوع / باب إثم من باع حرا /ح 2114) .

(4) و الحكمة في ذلك : أنه على الرغم من تربيته في بيت عز إلا أنه لم يفتن بذلك لا قبل

سجنه ولا بعد خروجه منه وتمكنه من خزائن مصر ، وفيه أيضاً أنه لا حجه لمن قال أن التدين يكون للفقراء فحسب دون الأغنياء .

(219/390)

22- أن الشاب إذا نشأ في طاعة الله فان الله يؤتيه علماً وحكمةً . (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24)

23- خطورة الخلوة بالمرأة (1) في البيت (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ) فهذه الخلوة المحرمة تؤدى إلى المصائب العظيمة .

24- كيد المرأة بيوسف فإنها استعانت عليه لإيقاعه في الحرام بأمور كثيرة :-

---

(1) عن عقبة بن عامر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إياكم والدخول على النساء . فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله ، أفرأيت الحمو ؟ قال الحمو الموت) (رواه البخاري /ح4934) ، (ومسلم / 5638) ، والترمذي (1171)

أولاً: راودته هي ، فلم يبدأ الشر منه ولكن بدأ منها ، والمرأة إذا دعت الرجل إلى الحرام غير إذا دعى الرجل المرأة للحرام ، لأنها إذا دعت الرجل إلى الحرام أزالت الحواجز النفسية فالرجل يخشى إذا دعا المرأة إلى الحرام أن ترفض أو تستنجد بأهلها لكن إذا المرأة دعته للحرام . . . ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في السبعة الذين يظلهم الله في ظله (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال) (1) . لماذا ؟ لأن الحرام صار سهل لأنها هي التي دعته .

ما هي وسائل الجذب ؟

أولا : راودته .

ثانيا : هو في بيتها أي ليس غريباً ، يُشك فيه إذا دخل البيت . (2)

ثالثا : أنها غلقت الأبواب وغاب الرقيب وهذا أدعى للوقوع في الحرام .

رابعا : أنها شجعته على ذلك و قالت هيت لك . تعالى . . . . هيا .

خامسا : أنه كان شاباً ، ودواعي الزنا عند الشباب أكبر .

سادسا : أنها كانت سيدته لها عليه الأمر و النهى و الطاعة .

سابعا : كان عبداً و داعي الزنا عند العبد أكبر من الحر لأن الحر يخشى الفضيحة أما العبد فينظر إليه من مستوى أدنى .

ثامنا : أن الرجل كان غريباً عن البلد ، والغريب لا يخشى الفضيحة مثل بن البلد ويوسف كان غريباً .

تاسعا : أن المرأة كانت جميلة وداعي الزنا بالجميلة أكبر .

---

(1) والحديث بتمامه (سبعة يظلهم الله في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق ، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ، ففاضت عيناه) (رواه البخاري/ح629) ، ومسلم/ح2377) .

(2) ومما عمَّت به البلوى في زماننا أن اكثر حوادث الزنا تكون بين الأقرباء لسهولة دخول بعضهم على بعض ، كابن العم وابن الخال والأخ يدخل بيت أخيه ، بل وربما الصديق أيضا .

في الشاهد هذا والراجح أنه رجل كبير ذو لحيه و فيه العمل بالقرائن كما تقدم . يعنى إذا كان قميصه ممزق من الخلف معناه هي التي تطارده وهو يهرب . لو كان قميصه ممزق من الأمام هو يهجم عليها و هي تدافع عن نفسها .

28- عظم كيد المرأة (1) قال تعالى (إن كيدكن عظيم) والذي يتأمل كيف حاكت هذه المرأة المؤامرة و غلقت الأبواب و قالت هيت لك واستعانت بالنسوة . يعنى أن المرأة إذا أرادت أن تكيد كادت ، وهذا شئ خلقه الله واستعظمه .

29- عظم جمال يوسف عليه السلام الذي أخذ بالألباب وقال عليه الصلاة والسلام (إن يوسف أوتى شطر الحسن) (2) نصف جمال العالم في يوسف عليه السلام .

)

---

(1) عن أسامة بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ) .البخاري (5096)

(2) جزء من حديث الإسراء قال صلي الله علية وسلم (ثم عرج بي إلى السماء الثالثة . فاستفتح جبريل . فقيل: من أنت ؟ قال جبريل . قيل: ومن معك ؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم . قيل: وقد بعث إليه ؟ قال: قد بعث إليه: ففتح لنا . فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم . إذا هو قد أعطي شطر الحسن . قال: فرحب ودعا لي بخير. (مسلم/ 162) .في الشاهد هذا والراجح أنه رجل كبير ذو لحيه و فيه العمل بالقرائن كما تقدم .

يعنى إذا كان قميصه ممزق من الخلف معناه هي التي تطارده وهو يهرب . لو كان قميصه ممزق من الأمام هو يهجم عليها و هي تدافع عن نفسها .

28- عظم كيد المرأة (1) قال تعالى (إن كيد كن عظيم) والذي يتأمل كيف حاكت هذه المرأة المؤامرة و غلقت الأبواب و قالت هيت لك واستعانت بالنسوة . يعنى أن المرأة إذا أرادت أن تكيد كادت ، وهذا شئ خلقه الله واستعظمه .

29- عظم جمال يوسف عليه السلام الذي أخذ بالألباب وقال عليه الصلاة والسلام (إن يوسف أوتى شطر الحسن) (2) نصف جمال العالم في يوسف عليه السلام .

)

---

(1) عن أسامة بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ) . البخاري (5096)

(2) جزء من حديث الإسراء قال صلي الله علية وسلم (ثم عرج بي إلى السماء الثالثة . فاستفتح جبريل . فقيل: من أنت ؟ قال جبريل . قيل: ومن معك ؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم . قيل: وقد بعث إليه ؟ قال: قد بعث إليه: ففتح لنا . فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم . إذا هو قد أعطي شطر الحسن . قال: فرحب ودعا لي بخير . (مسلم/ 162) .

في الشاهد هذا والراجح أنه رجل كبير ذو لحيه و فيه العمل بالقرائن كما تقدم . يعنى إذا كان قميصه ممزق من الخلف معناه هي التي تطارده وهو يهرب . لو كان قميصه ممزق من الأمام هو يهجم عليها و هي تدافع عن نفسها .

28- عظم كيد المرأة (1) قال تعالى (إن كيدكن عظيم) والذي يتأمل كيف حاكت هذه المرأة المؤامرة و غلقت الأبواب و قالت هيت لك واستعانت بالنسوة . يعنى أن المرأة إذا أرادت أن تكيد كادت ، وهذا شئ خلقه الله واستعظمه .

29- عظم جمال يوسف عليه السلام الذي أخذ بالألباب وقال عليه الصلاة والسلام (إن يوسف أوتى شطر الحسن) (2) نصف جمال العالم في يوسف عليه السلام .

)

(1) عن أسامة بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ) .البخاري (5096)

(2) جزء من حديث الإسراء قال صلي الله علية وسلم (ثم عرج بي إلى السماء الثالثة . فاستفتح جبريل . فقيل: من أنت؟ قال جبريل . قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله

عليه وسلم . قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه: ففتح لنا . فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم . إذا هو قد أعطي شطر الحسن . قال: فرحب ودعا لي بخير . (مسلم/ 162) .

(223/390)

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (30) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (32)

30- سرعة سريان الشائعات بين النساء (وقال نسوة . . . . .) وكالة الأنباء مجرد ما تتلقى خبر بالذات مثل هذا إلا و هو في البلد منتشر ، دارت الأخبار بسرعة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه . (فلما سمعت بمكرهن) و هذا كيد النساء تريد أن ترد الآن فجمعتهن وأعددت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن ، هو خادم في البيت يطيع رغماً عنه اخرج عليهن ، خرج عليهن فلما رأينه انشغلن بجماله عن

السكاكين التي تعمل في الأيدي ، و قطعن أيدهن وسالت الدماء بدون إحساس وهذا يدل على شده جمال يوسف عليه السلام لدرجه أن ألم تقطيع الأيدي ما عاد يشعرن به أمام رؤية يوسف عليه السلام .

31- أن الملائكة يمتازون بجمال الخلقة و إن هذا استقر عند الناس لذلك النسوة هؤلاء لما راءوا جمال يوسف (قالوا ما هذا بشر إن هذا إلا ملك كريم) فعند الناس مستقر أن الملك جميل الخلقة و الشيطان قبيح جدا .

قيل أن الجاحظ (1) كان جالساً فجاءت امرأة مع صائغ و قالت مثل هذا و أشارت إلي الجاحظ ثم انصرفت ، فالجاحظ استغرب فذهب وتبعه حتى وصل إلي المحل قال ما هذا ؟ قال هذه امرأة جاءتني فقالت اعمل لي حلياً عليه صورة الشيطان فقلتُ لها و ما أدراني ما صورة الشيطان حتى اعملها لك ؟ قالت : ورائي فقادتني إليكَ فقالت مثل هذا .

فاستقر في أذهان الناس إن الشيطان شكله قبيح وان المَلَك شكله جميل ، والله عز و جل قال عن جبريل (ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى) (النجم:6) أي جمال (2) وقال عن شجره الزقوم (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ) (الصافات:65) في القبح .

{قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (33) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35)

---

(1) وهو من المعتزلة مُبتَدِع وإن كان ألفَّ كتباً و هو أديب بارع لكنه في العقيدة منحرف .

(2) يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم أنه علمه الذي جاء به إلى الناس "شديد القوى" وهو جبريل عليه الصلاة والسلام, كما قال تعالى: "إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين" وقال هاهنا "ذو مرة" أي ذو قوة ، وقال ابن عباس: ذو منظر حسن, وقال قتادة: ذو خلق طويل حسن . ولا منافاة بين القولين فإنه عليه السلام ذو منظر حسن وقوة شديدة . وقد ورد في الحديث الصحيح من رواية ابن عمر وأبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي" تفسير بن كثير (316/4)

32- أن المسلم إذا خُيّر بين المعصية و بين الصبر على الشدة . يصبر على الشدة و يُؤثر أن يطيع الله ولو رَمَوه بسوء {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ}

واستعانة يوسف بالله (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ) يعنى الإنسان ضعيف و يوسف يقول هذا أن الإنسان بدون توفيق من الله ضعيف والمقاومة تنهار فأي واحدٍ يتعرَض لحرام فالمفروض أن يلجأ إلى الله بالدعاء أن يُخَلِصَه من هذا وإنه يصرف عنه الشرَّ و الفحشاء .

33- استجابةُ الله لأوليائه والدعاة المخلصين (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ) يسمع دعاء عبده (الْعَلِيمُ) بحال هذا العبد الذي يدعوه .

(وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36)

34- أن سيما الصالحين تُعرَف في وجوههم ، يعنى الآن اثنان في السجن ومعهم يوسف فلماذا لجأ إليه ؟ هل هما يعرفان يوسف من قبل أنه صاحب علم ؟ أو أنه يعبر الأحلام ؟ لا .

فلماذا لجأ إليه (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) يعنى عليك سيما الصلاح وعلامات الصالحين

(1) - إذاً أهل الصلاح يظهر عليهم و الناس يحبونهم و ينجذبون إليهم - رغم أن أهل البلد

من الكفار فساقِ الملك وخبّاز الملك و الملك كافر و البلدة كافرة و يوسف هو الموحد الوحيد لجأ إليه (إنا نراك من المحسنين) حالتك وسيرتك وهيئتك و أفعالك ، أنت شخص من المحسنين . كما يقول العامة (من أهل الله) .

)

---

(1) وليس معني ذلك أنك إذا سُئلتَ لأن فيك علاماتِ الصلاح أن تفتي بغير علم ويعظم عليك أن تقولَ لا أدري ، فإنه مما عمت به البلوى كثرة فتاوى الناس في الدين بغير علم (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (الأعراف:33)

(227/390)

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا

مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (40) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (41) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42)) .

(228/390)

35- أن الداعية إذا أراد أن يُلَقِن أناساً الحق فإنه يجعلهم يثقون به و يطمئنهم بأنهم قد وقعوا على خبير ، قال (لا يأتيكما طعام . .) قبل الجواب لكسب الثقة ، فالداعي يحتاج أولاً إلى كسب ثقة المدعو و هي قضيه مهمة ، فبعض المدعوين قد يلجأ إلى داعية فلابد أن يكون الداعية خبير وعنده ما يعطيه و يثق فيه (قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي) وبدأ قضية الدعوة للتوحيد وهي الفائدة التالية .

36- أن الداعي أول ما يبدأ به التوحيد ، فلقد أرسل الرسول – صلي الله عليه وسلم – معاذاً إلى اليمن وقال : (إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ فَإِذَا

فَعلُوا فَأَخْبرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ) (1) قال (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ) و قال قبلها (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

---

(1) البخاري (1458) .

(229/390)

قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (44) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49))

39- أن الرؤيا الصحيحة الحق ممكن يراها الكافر لكن نادرا لأن الملك هذا الذي رأى سبع بقرات سمان وسبع سنبلات هذه رؤيا حق تعبيرها فعلاً حصل ودلت على أن هناك

سبع سنوات خصب ثم سبع سنوات عجاف وبعد سنه يأتي فيها الفرج فممكن الشخص الكافر يرى رؤيا صحيحه لكن نادراً . إنما أكثر ما يرى الرؤيا الحق الصحيحة المؤمنون .

40- أن الشخص الذي ذهب ليوسف علّمه يوسف من غير مقابل . . . . يعني يوسف ما قال أولا أخرجوني وبعدين أخبركم ما هو تأويل الرؤيا .

كان ممكن يقول طلعوني من السجن أتكلم . خلوني في السجن ما أعطيكم . . . . فبذل يوسف العلم بلا مقابل . لما قال (يوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ) مباشرةً .

41- أن في هذه الآية من أصول الاقتصاد وحفظ المال ما فيها . لماذا ؟قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ (44) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49))

39- أن الرؤيا الصحيحة الحق ممكن يراها الكافر لكن نادرا لأن الملك هذا الذي رأى

سبع بقرات سمان وسبع سنبلات هذه رؤيا حق تعبيرها فعلاً حصل ودلت على أن هناك سبع سنوات خصب ثم سبع سنوات عجاف وبعد سنه يأتي فيها الفرج فممكن الشخص الكافر يرى رؤيا صحيحه لكن نادراً . إنما أكثر ما يرى الرؤيا الحق الصحيحة المؤمنون .

40- أن الشخص الذي ذهب ليوسف علّمه يوسف من غير مقابل . . . . يعني يوسف ما قال أولا أخرجوني وبعدين أخبركم ما هو تأويل الرؤيا .

كان ممكن يقول طلعوني من السجن أتكلم . خلوني في السجن ما أعطيكم . . . . فبذل يوسف العلم بلا مقابل . لما قال (يوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ) مباشرةً .

41- أن في هذه الآية من أصول الاقتصاد وحفظ المال ما فيها . لماذا ؟

قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (44) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ

يَعْلَمُونَ (46) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49))

39- أن الرؤيا الصحيحة الحق ممكن يراها الكافر لكن نادرا لأن الملك هذا الذي رأى سبع بقرات سمان وسبع سنبلات هذه رؤيا حق تعبيرها فعلاً حصل ودلت على أن هناك سبع سنوات خصب ثم سبع سنوات عجاف وبعد سنه يأتي فيها الفرج فممكن الشخص الكافر يرى رؤيا صحيحه لكن نادراً . إنما أكثر ما يرى الرؤيا الحق الصحيحة المؤمنون .

40- أن الشخص الذي ذهب ليوسف علَّمه يوسف من غير مقابل . . . . يعني يوسف ما قال أولا أخرجوني وبعدين أخبركم ما هو تأويل الرؤيا .

كان ممكن يقول طلعوني من السجن أتكلم . خلوني في السجن ما أعطيكم . . . . فبذل يوسف العلم بلا مقابل . لما قال (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ) مباشرةً .

41- أن في هذه الآية من أصول الاقتصاد وحفظ المال ما فيها . لماذا ؟

لأنه قال ذروه في سنبله وإذا فرط الحب معرض للتلف أكثر مما إذا بقي في السنبل لذلك قال (فذروه في سنبله) لأنه أحفظ 0000

(إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ) إذاً لابد من الاحتياط والأخذ من أيام الرخاء لأيام الشدة فالآن تأكلون قليلاً منه والباقي يُخزَّن (ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ) هذه أصول الاقتصاد ، انظر كيف أن النبوة فيها تخطيط للمستقبل ومواجهة الحالات الطارئة فيها السبع سنوات العجاف تأخذ مثلاً من السبع السنوات التي قبلها كيف قضية التخزين و كيف قضية تقسيم الأشياء علي كل سنة . فكل سنة لها نصيب بحيث أن ترحيل الأشياء من سنة إلي سنة لكي يحصل سد الحاجة .

42- كيف عرف يوسف أنه سيأتي عام رقم خمسة عشر رخاء يعني قال (سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ)

فسرها يوسف سبع سنوات رخاء ثم سبع سنوات شدة ، من أين أتى يوسف بأنه سيأتي بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون يعني عام خمسة عشر هذا رخاء فيه مطر

والناس يعصرون الزيتون ويستخرجون الزيت والسمسم إلي أخره . . . . يعصرون . . .
. . يعني من الرخاء ويغاث الناس بالمطر ؟

قيل إن هذا مما فهمه الله ليوسف وعلّمه إياه لأنه لو كان عام رقم خمسة عشر عام جدب وقحط ما صارت سبع بقرات هزيله وسبع سنبلات يا بسات كانت صارت ثمان سنبلات وثمان بقرات هزيله فلما رأى سبعه ثم سبعه معناه أن الذي بعدها ليس جدب وإلا صارت ثمانية فهذا من دقائق الفهم علي أية حال ومما علمه الله ليوسف .

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (53) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ (54)

فيوسف عليه السلام عنده نظرة بعيدة ما مهم الآن أن يخرج من السجن فقط ؟ المهم إصلاح الأخطاء الماضية إصلاح المفترى عليه . لا بد أن تعاد الأمور إلي نصابها ويصحح الخطأ ويثبت أنه بريء أمام الناس وأنه مظلوم كل هذه السنوات في السجن مظلوم (قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) هذه العلاقة المشهورة للقصة أن النساء قطعن أيديهن في مجلس . . . .اشتهرت

(قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ) واعترفت امرأة العزيز وبالتالي ثبتت براءة يوسف أمام كل الناس ولذلك لما جاء الطلب مرة ثانية زاد منزلة عند الملك ففي المرة الأولي (قال أتوني به) وفي الثانية (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي) شوف الفائدة لو خرج أول مرة خلاص خذ مائة ألف ومع السلامة لكن لا ؟ الآن أستخلصه لنفسي . . . الآن هذا يعني سيكون مقربا عنده حظيا ملبي طلباته من المقربين (فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ) .

(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي

الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56)

وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (57)

44- جواز طلب المنصب (1)

---

(1) والمسألة فيها تقييد كما جاء في باب ما يكره من الحرص على الإمارة

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامةً يوم القيامة فنعم المرضعة وبئست الفاطمة

قوله: (فنعم المرضعة وبئست الفاطمة) قال الداودي: نعم المرضعة أي في الدنيا ، وبئست الفاطمة أي بعد الموت ، لأنه يصير إلى المحاسبة على ذلك ، فهو كالذي يفطم قبل أن يستغني فيكون في ذلك هلاكه . وقال غيره: نعم المرضعة لما فيها من حصول الجاه والمال ونفاذ الكلمة وتحصيل اللذات الحسية والوهمية حال حصولها ، وبئست الفاطمة عند الانفصال عنها بموت أو غيره وما يترتب عليها من التبعات في الآخرة .

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم أنا ورجلان من قومي فقال: أحد الرجلين أمرنا يا رسول الله وقال الآخر: مثله ، فقال: إنا لا نولي هذا من سأله ولا من حرص عليه"

وعند الطبراني من حديث زيد بن ثابت رفعه ((نعم الشيء الإمارة لمن أخذها بحقها وحلها ، وبئس الشيء الإمارة لمن أخذها بغير حقها تكون عليه حسرة يوم القيامة) وهذا

يقيد ما أطلق في الذي قبله ، ويقيده أيضاً ما أخرج مسلم عن أبي ذر قال ((قلت يا رسول الله ألا تستعملني ؟ قال: إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها) قال النووي: هذا أصل عظيم في اجتناب الولاية ولا سيما لمن كان فيه ضعف . وهو في حق من دخل فيها بغير أهليه ولم يعدل فإنه يندم على ما فرط منه إذا جوزي بالخزي يوم القيامة ، وأما من كان أهلاً وعدل فيها فأجره عظيم كما تظاهرت به الأخبار ، ولكن في الدخول فيها خطر عظيم ، ولذلك امتنع الأكابر منها والله أعلم .

قال المهلب: الحرص على الولاية هو السبب في اقتتال الناس عليها حتى سفكت الدماء واستبيحت الأموال والفروج وعظم الفساد في الأرض بذلك ووجه الندم أنه قد يقتل أو يعزل أو يموت فيندم على الدخول فيها لأنه يطالب بالتبعات التي ارتكبها وقد فاته ما حرص عليه بمفارقته ، قال: ويستثنى من ذلك من تعين عليه كأن يموت الوالي ولا يوجد بعده من يقوم بالأمر غيره ، إذا لم يدخل في ذلك يحصل الفساد بضياع الأحوال . قلت: وهذا لا يخالف ما فرض في الحديث الذي قبله من الحصول بالطلب أو بغير طلب أو في التعبير بالحرص إشارة إلى أن من قام بالأمر عند خشية الضياع يكون كمن أعطي بغير سؤال لفقد الحرص غالباً عمن هذا شأنه ، وقد يغتفر الحرص في حق من تعين عليه لكونه يصير واجباً عليه . (فتح الباري 13/156-158) بتصرففيوسف عليه السلام عنده نظرة بعيدة ما مهم الآن

أن يخرج من السجن فقط ؟ المهم إصلاح الأخطاء الماضية إصلاح المفترى عليه . لا بد أن تعاد الأمور إلي نصابها ويصحح الخطأ ويثبت أنه بريء أمام الناس وأنه مظلوم كل هذه السنوات في السجن مظلوم (قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) هذه العلاقة المشهورة للقصة أن النساء قطعن أيديهن في مجلس . . . . اشتهرت

(قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ) واعترفت امرأة العزيز وبالتالي ثبتت براءة يوسف أمام كل الناس ولذلك لما جاء الطلب مرة ثانية زاد منزلة عند الملك ففي المرة الأولي (قال أتوني به) وفي الثانية (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي) شوف الفائدة لو خرج أول مرة خلاص خذ مائة ألف ومع السلامة لكن لا ؟ الآن أستخلصه لنفسي . . . الآن هذا يعني سيكون مقربا عنده حظيا ملبي طلباته من المقربين

(فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ) .

(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (57)

44- جواز طلب المنصب (1)

---

(1) والمسألة فيها تقييد كما جاء في باب ما يكره من الحرص على الإمارة

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامةً يوم القيامة فنعم المرضعة وبئست الفاطمة

قوله: (فنعم المرضعة وبئست الفاطمة) قال الداودي: نعم المرضعة أي في الدنيا ، وبئست الفاطمة أي بعد الموت ، لأنه يصير إلى المحاسبة على ذلك ، فهو كالذي يفطم قبل أن يستغني فيكون في ذلك هلاكه . وقال غيره: نعم المرضعة لما فيها من حصول الجاه والمال ونفاذ الكلمة وتحصيل اللذات الحسية والوهمية حال حصولها ، وبئست الفاطمة عند الانفصال عنها بموت أو غيره وما يترتب عليها من التبعات في الآخرة .

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم أنا ورجلان من قومي فقال: أحد الرجلين أمرنا يا رسول الله وقال الآخر: مثله ، فقال: إنا لا نولي هذا من سأله ولا من حرص عليه"

وعند الطبراني من حديث زيد بن ثابت رفعه ((نعم الشيء الإمارة لمن أخذها بحقها وحلها ، وبئس الشيء الإمارة لمن أخذها بغير حقها تكون عليه حسرة يوم القيامة) وهذا يقيد ما أطلق في الذي قبله ، ويقيده أيضاً ما أخرج مسلم عن أبي ذر قال ((قلت يا رسول الله ألا تستعملني ؟ قال: إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها) قال النووي: هذا أصل عظيم في اجتناب الولاية ولا سيما لمن كان فيه ضعف . وهو في حق من دخل فيها بغير أهليه ولم يعدل فإنه يندم على ما

فرط منه إذا جوزي بالخزي يوم القيامة ، وأما من كان أهلاً وعدل فيها فأجره عظيم كما تظاهرت به الأخبار ، ولكن في الدخول فيها خطر عظيم ، ولذلك امتنع الأكابر منها والله أعلم .

قال المهلب: الحرص على الولاية هو السبب في اقتتال الناس عليها حتى سفكت الدماء واستبيحت الأموال والفروج وعظم الفساد في الأرض بذلك ووجه الندم أنه قد يقتل أو يعزل أو يموت فيندم على الدخول فيها لأنه يطالب بالتبعات التي ارتكبها وقد فاته ما حرص عليه بمفارقته ، قال: ويستثنى من ذلك من تعين عليه كأن يموت الوالي ولا يوجد بعده من يقوم بالأمر غيره ، إذا لم يدخل في ذلك يحصل الفساد بضياع الأحوال . قلت: وهذا لا يخالف ما فرض في الحديث الذي قبله من الحصول بالطلب أو بغير طلب أو في التعبير بالحرص إشارة إلى أن من قام بالأمر عند خشية الضياع يكون كمن أعطي بغير سؤال لفقد الحرص غالباً عمن هذا شأنه ، وقد يغتفر الحرص في حق من تعين عليه لكونه يصير واجباً عليه . (فتح الباري 13/156-158) بتصرف

ابتلاءات كثيرة (قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) (الأعراف: 129) كلها ابتلاءات وهذا ما حصل بعد ذلك

(وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ) (الأعراف: 137) لكن بعد الابتلاء

والنبي صلي الله عليه وسلم كم أوذي بالحصار والجوع والتعذيب وقتل أصحابه وكان يُضرب الصحابي حتى لا يستطيع أن يستوي قاعدا من الضرب ويُقال له هذا الجُعل إلهك فيقول نعم من التعذيب وهكذا حتى أن الله مكنهم .

46- اجتمع ليوسف الثلاث أنواع من الصبر . هم :

الصبر على طاعة الله .

والصبر عن معصية الله .

والصبر على أقدار الله المؤلمة .

وهذا الصبر درجات فالصبر على طاعة الله وعن معصية الله أعلى درجه من الصبر على أقدار الله المؤلمة لماذا ؟

لأن الصبر على أقدار الله المؤلمة مالك فيه حيله إلا الصبر . ماذا تفعل إلا الصبر ؟ لا يمكن

.ابتلاءات كثيرة ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: 129) كلها ابتلاءات

وهذا ما حصل بعد ذلك

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف: 137) لكن بعد الابتلاء

والنبي صلي الله عليه وسلم كم أوذي بالحصار والجوع والتعذيب وقتل أصحابه وكان يُضرب الصحابي حتى لا يستطيع أن يستوي قاعدا من الضرب ويُقال له هذا الجُعل إلهك فيقول نعم من التعذيب وهكذا حتى أن الله مكنهم .

46- اجتمع ليوسف الثلاث أنواع من الصبر . هم :

الصبر على طاعة الله .

والصبر عن معصية الله .

والصبر على أقدار الله المؤلمة .

وهذا الصبر درجات فالصبر على طاعة الله وعن معصية الله أعلى درجه من الصبر على أقدار الله المؤلمة لماذا ؟

لأن الصبر على أقدار الله المؤلمة مالك فيه حيله إلا الصبر . ماذا تفعل إلا الصبر ؟ لا يمكن

.

(235/390)

شيء مقدور وقع وانتهى مالك الآن فيه إلا الصبر . أما الواجب والمحرم فعندك خيار في فعل الواجب أو عدم فعل الواجب . . . . . . في ارتكاب المحرم أو عدم ارتكاب المحرم

. . . . فتكون مجاهدة النفس فيه أقوى أما المقدور مالك فيه إلا حبس النفس عن التشكي والصخب والنياحه ونحو ذلك . لكن فعل الواجب وترك المحرم والصبر على فعل الواجب مثل الصبر على صلاه الفجر وهذا مثلا واجب كما الصبر عن الزنا وهو محرم أكمل أجراً ومنزله عن الصبر على أقدار الله المؤلمة . . . . ولو سألنا سؤالا فقلنا أيهما أكمل . . . . صبر يوسف على السجن و إلقاء اخوته له في الجب اكمل أم صبره عن الزنا بامرأة العزيز أكمل ؟ بناء على ما تقدم يكون الصبر عن الزنا أكمل وافضل أجرا

فاجتمع ليوسف عليه السلام الثلاث أنواع كلها فإنه صبر على طاعة الله ولا زال على صله بربه وحتى لما تسلم المنصب صبر على طاعة الله ولم يُطغه منصبه فهو يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم تولى فعدل وحكم فكان من المقسطين .

ما هو الفرق بين القاسط والمقسط ؟ القاسط هو الظالم قال تعالى (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً) (الجن:15)

أما المقسط قال تعالي (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (المائدة:42) (إن المقسطين على منابر من نور وما ولوا) (1) فإذا تولوا ولاية عدلوا فيها وبين أولادهم وزوجاتهم يعدلون .

---

(1) فِي حَدِيثِ زُهَيْرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا] مسلم (1827) .

(236/390)

فيوسف تولى الولاية وصبر وأمره الله بما أمره به وصبر وحصلت له فرصه للوقوع في المحرمات فصبر ولم يقع فيها وتعرض للإيذاء والاضطهاد والأشياء المؤلمة فصبر فكان يوسف عليه السلام قد اكتمل له الصبر من جميع الجهات .

(وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ (60) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (61)

وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62)

47- لو قال قائل كيف عرفهم وهم لم يعرفوه ؟ فالجواب أنه فارقهم وهو صغير وهم كبار فالصغير يتغير عليك إذا رأيته بعد عشر سنوات لكن أنت لا تتغير كثيرا إذا كنت كبيرا فلو مثلا واحد عمره ثلاثين ثم رأيته عمره أربعين ما يتغير عليك كثيرا لكن إذا رأيته عمره عشره وبعد ذلك رأيته عمره عشرين تغير عليك كثيرا مع إن العشر سنوات هي هي . إذاً هو عرفهم وهم لم يعرفوه لأنه فارقهم وهو صغير وهم كبار فلما رآهم بعد هذه المدة عرفهم يعني عد كم جلس في قصر العزيز وكم جلس في السجن وكم جلس وزيرا حتى جاءوا إليه بعد سبع سنوات سمان لما بدأت العجاف جاءوا يطلبون المدد إذاً أقل شيء عندك واحد وعشرون سنه تقريباً . . . . لبث في السجن بضع سنين وهذه سبع سنوات سمان غير المدة التي قضاها بعد الجب وشروه بثمن بخس وفى قصر العزيز مده فهي قرابة واحد وعشرين سنه تغير يوسف عليهم كثيراً .

إذا الإحسان يستميل قلوب الناس ولذلك قالوا (قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ) هذا الرجل أكرمنا جدا أكرمنا لما قدمنا عليه وهذه بضاعتنا ردت إلينا فأرسل معنا أخانا .

54- أن الإنسان إذا رأى أنه محتاج لفعل أمر لكن فيه نسبه مخاطره مع شخص أخر لأن فيه شئ من عدم الثقة . فإن أخذ الموثق من الله . . . وأن يقول له عاهدني بالله العظيم أن تفعل كذا ولا تفعل كذا . . . . . . أن ذلك مما يقلل نسبه المخاطرة لذلك يعقوب قال (لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ اللّهِ) الموثق الميثاق مثل أن يحلفوا له بالله العظيم أنهم يردون أخاهم ويرجعونه (لَتَأْتُنَّنِي بِهِ)

55-أن الإنسان إذا غُلِبَ على أمره فهو معذور وهذا من فقه يعقوب حينما قال إلا أن يُحَاط بكم . فهو صح أن يطلب منهم أن يردوا أخاهم لكن فيما يقدرون عليه لكن إذا غُلبوا ولم يستطيعوا أبداً فهم معذورون (لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا) (البقرة:286) إذا الإحسان يستميل قلوب الناس ولذلك قالوا (قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ) هذا الرجل أكرمنا جدا أكرمنا لما قدمنا عليه وهذه بضاعتنا ردت إلينا فأرسل معنا أخانا .

54- أن الإنسان إذا رأى أنه محتاج لفعل أمر لكن فيه نسبه مخاطره مع شخص أخر لأن فيه شئ من عدم الثقة . فإن أخذ الموثق من الله . . . وأن يقول له عاهدني بالله العظيم أن

تفعل كذا ولا تفعل كذا . . . . . . أن ذلك مما يقلل نسبه المخاطرة لذلك يعقوب قال (لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ اللّهِ) الموثق الميثاق مثل أن يحلفوا له بالله العظيم أنهم يردون أخاهم ويرجعونه (لَتَأْتُنَّنِي بِهِ)

55-أن الإنسان إذا غُلِبَ على أمره فهو معذور وهذا من فقه يعقوب حينما قال إلا أن يُحَاطَ بكم . فهو صح أن يطلب منهم أن يردوا أخاهم لكن فيما يقدرون عليه لكن إذا غُلِبوا ولم يستطيعوا أبداً فهم معذورون (لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا) (البقرة:286)

(238/390)

56- أن إعلان التوكل على الله بعد إبرام العقود مما يُزيدها بركه وخيرا وتذكيرا للطرفين بما تعاقدا عليه فماذا قال يعقوب (قال الله على ما نقول وكيل) توكلنا على الله وماذا قال موسى للرجل الصالح حينما قال لموسى (قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) (القصص:27) قال موسى (قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) (القصص:28) فهاتان كلمتان من نبيين بعد إبرام العقود . . . . إذاً الإنسان إذا أراد إن يُبرم عقداً مهما في

العقود فإنه يبين التوكل على الله ليكون هذا واضح بين الطرفين وهذه عبارة أنبياء ينبغي أن يُقتضي بهم فيها إذا أبرمت عقدا أو اتفاق فقل والله على ما نقول وكيل . فكل منهم يعظ نفسه بالله إن الله رقيب مطلع يشاهد ويشهد على هذا العقد وعلى الاتفاق وعلي هذا الميثاق .

(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67) وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (68)

ما هي النسبة الأكبر ؟ أن يقع بك المكروه إذا اتخذت الأسباب لمنعه ؟ أم إذا ما اتخذت الأسباب لمنعه أي النسبتين أكبر ؟ إذا ما اتخذت الأسباب لأن المكروه سيقع بك بنسبه أكبر . . . ولذلك فإن الأخذ بالأسباب لا ينافى التوكل على الله لكن السبب لا يمنع بالضرورة قدر الله إذا كان الله عز وجل قد قضاه . قيل لابن عباس لما تكلم مره في القضاء والقدر قيل له: هذا الهدهد يري مكان المياه في باطن الأرض فما بال الطفل يصيده ؟ –

أي له قدره غريبة علي معرفة مكان الماء وقيل أن سليمان كان يستعين به في الأسفار من أجل معرفة مكان الماء – قال بن عباس: لا يُغنى حذر من قدر (1) . . . . .إذاً اتخاذ الأسباب الشرعية مطلوب لكن لابد أن تعتقد أن السبب لا يمنع القضاء إذا أراد الله أن يُنزلَه .

(وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (69) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (70) قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (71) قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ (72) قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73) قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (74) قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75)) .

---

(1) عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ، وما لم ينزل ، وإن الدعاء ليلقى البلاء ، فيعتلجان إلى يوم القيامة . (الطبراني الأوسط 3/128/ح2519) . قال الألباني (حسن) انظر حديث رقم :7739 في صحيح الجامع .ما هي النسبة الأكبر ؟ أن يقع بك المكروه إذا اتخذت الأسباب لمنعه ؟ أم إذا ما اتخذت الأسباب لمنعه أي النسبتين أكبر ؟ إذا ما اتخذت الأسباب لأن المكروه سيقع بك بنسبه أكبر . . . ولذلك فإن الأخذ بالأسباب لا ينافى

التوكل على الله لكن السبب لا يمنع بالضرورة قدر الله إذا كان الله عز وجل قد قضاه . قيل لابن عباس لما تكلم مره في القضاء والقدر قيل له: هذا الهدهد يري مكان المياه في باطن الأرض فما بال الطفل يصيده ؟ – أي له قدره غريبة علي معرفة مكان الماء وقيل أن سليمان كان يستعين به في الأسفار من أجل معرفة مكان الماء – قال بن عباس: لا يُغنى حذر من قدر (1) . . . . .إذاً اتخاذ الأسباب الشرعية مطلوب لكن لابد أن تعتقد أن السبب لا يمنع القضاء إذا أراد الله أن يُنزله .

(وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (69) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (70) قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (71) قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ (72) قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73) قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (74) قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75)) .

---

(1) عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ، وما لم ينزل ، وإن الدعاء ليلقى البلاء ، فيعتلجان إلى يوم القيامة . (الطبراني الأوسط 3/128/ح2519) . قال الألباني (حسن) انظر حديث رقم :7739 في صحيح الجامع .

60- إكرام الأخ أخاه . قيل نزل كل اثنين في غرفه فتبقى واحد وهو أخوهم الصغير لأن عددهم فردى (إحدى عشر) وقال (قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ) تأكيد . . فعرفه بنفسه . . . . وأكيد أن هذا الصغير يعرف أن له أخ أسمه يوسف ربما كان يعرف أيضا القصة (إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) فلعله طلب منه أن يُخفى أمره . الشاهد أنه أواه إليه وأكرمه وكيف لا يكون الإكرام وقد فرقت السنون بينهم في هذه المدة الطويلة .

61- أن يوسف عليه السلام أراد أن يأخذ أخاه بالحيلة الشرعية ولا يريد أن يأخذ أخاه على حسب دين الملك الجاهلي وإنما على حسب شريعة يعقوب 00 في شريعة يعقوب كان السارق يؤخذ عبداً عند المسروق منه 00 فأراد ذلك بحيله فماذا فعل ؟ لما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه – (بعض المغفلين قرأ جعل السقاية في رجل أخيه) – ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون فاقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟ قالوا نفقد صواع الملك .

62- أن الجعاله مشروعه وهى أن تقول من وجد ضالتي فله ألف ريال مثلا هذا جُعل تجعل مبلغ مقطوع لمن فعل لك شيء معين . . . . هذه غير الاجاره فالاجاره العمل فيها

معلوم والجعاله العمل فيها غير معلوم . ففي الاجاره لا تقول من وجد بعيري . . لأن وجدان البعير ممكن يأخذ ساعة ممكن يأخذ سنه وأنت تبحث عن بعير الرجل . لكن لا يجوز أن يكون الجعل مجهولا (من وجد محفظتي فله ما فيها) يمكن يطلع فيها ريال ويمكن يكون فيها ألف

إذاً لابد من عقد الجعاله أن يكون الجعل معلوم ولو كان العمل مجهول (1) . قالوا (وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ) وحمل البعير معلوم أنه يحمل خمسين كيلو مثلاً من الطعام أو القمح .

---

(1) أي مدة العمل مجهوله .

63- (وأنا به زعيم) جواز عقد الكفالة . يعنى كفيل بحِمْل البعير فهذان عقدان بكلمتين من القرآن فهذا من بلاغه القرآن في كلمات بسيطة جدا مشروعيه عقد الجعاله والكفالة ثم بعد ذلك استدرجهم يوسف عليه السلام (فَمَا جَزَآؤُهُ) أنتم احكموا (قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ) الذي يوجد في رحله هو نفسه جزاؤه أي يُؤخذ عندنا عبداً .

(فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

(76) قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (77)

64- أن الإنسان إذا أراد أمرا فعليه أن يهيئ له الأسباب لئلا ينكشف فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه لأنه لو بدأ بوعاء أخيه ووجده صارت مكشوفة لكنه بدأ بأوعيتهم ثم استخرجها من وعاء أخيه وهذا يدل على إحكام الخطة فان الله تعالى لما أراد أن يأخذ أخاه عنده هيئ الله له كل هذا وجعل الأمر يسير حتى يخرج أخوه يوسف وهم لا يشكون في الأمر وأن أخاهم سارق وأخذ أخاهم بشريعة يعقوب ولم يؤخذ بدين الملك .

(242/390)

65- وجوب التحاكم إلي شريعة الله وعدم جواز التحاكم إلي القوانين الجاهلية والأنظمة الخبيثة وإنما إلي شرع الله عز وجل وكتابه وسنه رسوله صلي الله عليه وسلم (مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ) ولكن بشرع الله (1) .

(قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78)

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (79)

66- أن كتاب الله يجب أن يؤخذ ويُعمل به بما أراده عز وجل والمقصود من الآية يُعمل به

---

(1) ما من مفسدة علي وجه الأرض استفحلت الآن إلا بسبب غياب التحاكم لشرع الله عز وجل . وشريعة الله المُغَيَّبة منذ سقوط الخلافة الإسلامية باغتيال السلطان عبد الحميد رحمه الله نسيها المسلمون بل وصلوا لمرحلة الاشمئزاز من قطع يد السارق ورجم الزناه وغير ذلك من احكام الشريعة ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أما ما ليس مقصودا منها فلا يُعمل به وهذا مبنى على قصه في هذه الآية (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا) حصُلت لأبى على بن عقيل وهو واحد من أهل العلم الكبار الذين لهم منزله كبيره بين الناس حصل أن له ولد يهيئه ويعلمه ويحبه جدا والناس يحبون الشيخ ويعرفون منزله ولده . . . . فمات الولد . . . . فالناس اكتئبوا وأصابهم الهم والغم والحزن بموت هذا الغلام لأنهم يحبون أباه ويعلمون كيف يحب هذا الأب أبنه فجاءوا إليه يعزونه وجاءوا إليه عند المقبرة ولما أنزلت الجنازة في القبر قام واحد من العامة فصرخ وقال (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ) يعني بالعزيز الله عز وجل لأن العزيز اسم من أسمائه . . . إن له شيخا كبيراً يعني هذا الولد له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه . . . . . فضج الناس لذلك كثيرا انفعلوا وصرخوا وبكوا بكاء شديداً

فنها هم الشيخ وقال : يا أيها الناس إن القرآن لم ينزل ليثير الحزن لكن نزل ليعالج الحزن

أي القرآن نزل للحزين يسليه . . . مكروب القرآن يفك كربه .

إذاً بعض الناس يستعملون الآيات في غير ما أنزلت من أجله فالفائدة هنا أن الآيات ينبغي أن

تستعمل فيما أنزلت من أجله وليس فيما لم تنزل لأجله .

(244/390)

67- بدعه ما يفعله بعض الناس من استعمال الآيات في غير مواضعها إذا رأى موسى

جاء قال (جئت على قدر يا موسى) وإذا أكل قال (آتنا غدائنا) حتى في تقدير الأفعال

(غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ) (الروم2-3) (1) . . .

. . . الكفار كانوا يستبعدونه كانوا يستبعدون فوز الروم وأنها ستغلب وكانوا يقولون

الفرس أقوي وفعلوا وفعلوا واحتلوا نصف مملكة الروم . . . . .والله أوحي لنبيه أن الروم

سيغلبون وفي بضع سنين وقريش لا يمكن أن تستوعب هذا وقالوا أبداً لا يمكن وراهنوا

(2) الصديق علي ابل انه لا يمكن أن الروم ستغلب فراهنهم لكن أبا بكر لم يعطهم كل المدة

يعني المعروف أن البضع من ثلاث إلي تسع فأعطاهم مثلا سبع فجاءوا بعد المدة فلم تنتهي

البضع إلا وغلبت الروم بقدر الله . . . . .الشاهد من الكلام أن بعض الناس

يستعملون القرآن في غير ما أنزل من أجله . . . .

---

(1) أي الاستدلال بالآية علي أمر مستبعد في حين أن الله أخبر بوقوع ذلك

(2) في قول الله تعالى : " الم " " غلبت الروم " " في أدنى الأرض " قال : غلبت وغلبت ، كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب ، فذكروه لأبي بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أما إنهم سيغلبون ، فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً ، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا ، فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ألا جعلته إلى دون قال : أراه العشر ، قال أبو سعيد : والبضع ما دون العشر ، قال : ثم ظهرت الروم بعد (الترمذي 5/320/ح3193)

وهناك فرق بين الاقتباس الصحيح وبين ما سبق فمثلا يقول البعض كثرت الفتن وصار الناس في أمر مريج واختلطت عليهم الأمور فهذا اقتباس وهو صحيح . . . وهذا غير العبث بالآيات كما قال محمد عبده زميل جمال الدين الأفغاني وعنده انحرافات كثيرة

وجمال الدين كان أسوء منه بكثير وهذا محمد عبده كان يتناقش مع واحد نصراني وكان يقول النصراني كيف تقولون أن القرآن فيه كل شئ فقال محمد عبده نعم فقال النصراني أين شراب الكوكا في القران فقال (وتركوك قائما) فهذا عبث . هذه أصلا معروفه فعل وفاعل ومفعول به .

(فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (80) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (81)

68- استعظام شأن العهد واستشعار المسؤلية والعمل لتحقيق ما أخذ على الإنسان من الموثق الغليظ .

فإن هؤلاء لما استيئسوا منه خلصوا نجيا - وبعض الناس فهموا فهما خطأ وقالوا هربوا وهذا خطأ - إنما يعنى المساره فيما بينهم والتشاور بكلام خاص بينهم ماذا نفعل ؟

وأشار بن الجوزى بعدما بين خلصوا نجيا قال فيمن فهموا فهما خطأ للآيات (ريح فيها صر

) قالوا فيها صراصير الليل وهذا خطأ شديد) وليس هذا هو المقصود ولكن البرد الشديد . . . . (قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقاً مِّنَ اللّهِ)

وقال لا ابرح الأرض حتى يأذن لي أبى أو يحكم الله لي بأن أخذ أخي أو تنتهي هذه المشكلة وفعلا وقف أخوه يوسف هذا الموقف الشديد في هذه الكربة . وهذا يختلف تماما عن حالهم لما تحايلوا وأخذوه وألقوه في غيابات الجب . فتغير حال أخوة يوسف وتابوا إلي الله بعد ذلك ويعنى في الحقيقة هم بدؤوا القصة مجرمين أخذوا أخاهم ووضعوه بالبئر لكن بعد ذلك تابوا إلي الله ولعلهم حصل لهم تغير على مراحل هذه كانت مرحله من المراحل .

(وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (82) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84))

69- أن الإنسان يؤيد كلامه بالشواهد إذا احتمل التكذيب أي إذا كان كلامك محتمل أن يكذبه الشخص الأخر برهن له بالشواهد فقالوا اسأل القرية التي كنا فيها وإنا لصادقون . لأنه مادام الشك في كلامهم فليؤخذ الخبر من مصادر أخرى خذ من مصادر أخرى لكي تتأكد من كلامنا .

70- أن الصبر الجميل عاقبته حميدة والفرق بينه وبين الصبر العادي . الصبر الجميل الذي لا يبوح فيه صاحبه بالشكوى بل يفوض أمره لله .

71- حسن الظن بالله عز وجل (1) وهذا من مقتضيات التوحيد وعكسه من قادح التوحيد

يعقوب كم سنه الآن بعيد عن ولده اكثر من عشرين سنه تقريبا ومع ذلك قال عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ما قال عسى أن يأتينى بالولد هذا الصغير الآن هو يعرف أنه حي لكن أسير في مصر عند الملك . . . . . . لكن هو يقول على هذا وعلى الأول وما عنده يقين أن يوسف مات إلى الآن وما يدرى أين يوسف لكن لازال ظنه بالله قويا (عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً)

72- أن البكاء لا ينافى الصبر (وَقَالَ يَا أَسَفَي عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ) فمن البكاء والدمع انقلب سواد عينيه بياضا من كثره البكاء . ما هو الفرق بين البكاء والنياحه ؟ وهل يجوز لمن مات له ميت أن يبكى عليه ؟

---

(1) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي

فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً] . البخاري (7405) .

(248/390)

نعم يجوز والدمعه التي نزلت من النبي صلي الله عليه وسلم كانت رحمه وشفقة (1) على الولد التي تفيض روحه في حجر النبي (ص) . والنياحه ليست بكاء إنما هي صراخ، زعيق ، اعتراض على القضاء والقدر .

---

(1) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ غُلَامٌ فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ثُمَّ دَفَعَهُ إِلَى أُمِّ سَيْفٍ امْرَأَةِ قَيْنٍ يُقَالُ لَهُ أَبُو سَيْفٍ فَانْطَلَقَ يَأْتِيهِ وَاتَّبَعْتُهُ فَانْتَهَيْنَا إِلَى أَبِي سَيْفٍ وَهُوَ يَنْفُخُ بِكِيرِهِ قَدْ امْتَلَأَ الْبَيْتُ دُخَانًا فَأَسْرَعْتُ الْمَشْيَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ يَا أَبَا سَيْفٍ أَمْسِكْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمْسَكَ فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالصَّبِيِّ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ وَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ فَقَالَ أَنَسٌ لَقَدْ رَأَيْتُهُ وَهُوَ يَكِيدُ بِنَفْسِهِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَمَعَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَاللَّهِ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ . مسلم (2315) .

البكاء ممكن يكون رحمه شفقة ، وغلبة نفس ، أما النياحه تسخط على القضاء والقدر وفيها شق الجيوب يمكن أن تشق الفستان أو الجيوب ممكن تحلق شعرها ممكن تلطم خديها أو يلطم وجهه هذه نياحه (ليس منا من شق الجيوب ولطم الخدود) (1) والنائحة عقوبتها شديدة يوم القيامة لها سربال من قطران ودرع من جرب (2) أي ثوب من نحاس مذاب ودرع من جرب . .إلا أن تتوب إلي الله لأن النياحه من الكبائر .

{قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (86) يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (87)

73- أن الإنسان المسلم يشكو إلي الله ولا يشكو أمره إلي الناس والشكوى للمخلوق هي شكوى الرحيم إلي الذي لا يرحم .

---

(1) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ] . البخاري (1294) .

(2) ثبت عن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قَالَ [أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا

يَتْرُكُونَهُنَّ الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ وَالْاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةُ وَقَالَ النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ]

مسلم (934)

(250/390)

76- أن الله عز وجل يؤيد المظلوم ولو بعد حين ويجعله في منزله عالية إذا صبر وأتقى فكان أخوه يوسف الذين كادوا له جاءوا إليه اليوم متسولين شحاذين يقولون مسنا وأهلنا الضر تصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين . أذلهم الله له هؤلاء الذين ظلموه أتي بهم الله أذلاء صاغرين يقولون تصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين .

77- أن الإنسان إذا رأى قريبه في ذل فإنه لا يزيد همه وذله بل يرق لحاله ويوقف المأساة ، فيوسف ما كان يريد أن يتشفى ، لو كان يريد أن يتشفى كان تركهم يسألون زيادة ويتذللون ويردهم مره ثانيه وثالثه ويعذبهم ، لكن لما رأى الحال وصل بهم إلي هذا رق بهم وأوقف الأمر وكشف الحقيقة (قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ) كشف الموضوع فالإنسان لا يتمتع بمآسي الآخرين ، فإن بعض الناس عندهم هذا الأمر . . . يمعن ويتمتع بالمآسي ويوسف عليه السلام لا يمكن أن يفعل ذلك .

78- أن الإنسان لا يقول هذا المنصب بذكائي وصلت إليه وهذه المكانة بقدراتي الجبارة .

أنظر يوسف قال (قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا) اعتراف لله بالمنة . . فالإنسان مهما وصل لا يغتر بما وصل إليه من مرتبه أو مرحلة ويردها إلي الله (قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا) اعتراف لله بالمنة .

79- الجمع بين التقوى والصبر وأن الله يعقب العواقب الحميدة لمن يتقى ويصبر . 76- أن الله عز وجل يؤيد المظلوم ولو بعد حين ويجعله في منزله عالية إذا صبر وأتقى فكان أخوه يوسف الذين كادوا له جاءوا إليه اليوم متسولين شحاذين يقولون مسنا وأهلنا الضر تصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين . أذلهم الله له هؤلاء الذين ظلموه أتي بهم الله أذلاء صاغرين يقولون تصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين .

77- أن الإنسان إذا رأى قريبه في ذل فإنه لا يزيد همه وذله بل يرق لحاله ويوقف المأساة ، فيوسف ما كان يريد أن يتشفى ، لو كان يريد أن يتشفى كان تركهم يسألون زيادة ويتذللون ويردهم مره ثانيه وثالثه ويعذبهم ، لكن لما رأى الحال وصل بهم إلي هذا رق بهم وأوقف الأمر وكشف الحقيقة (قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ) كشف الموضوع فالإنسان لا يتمتع بمآسي الآخرين ، فإن بعض الناس عندهم هذا الأمر . . . يمعن ويتمتع بالمآسي ويوسف عليه السلام لا يمكن أن يفعل ذلك .

78- أن الإنسان لا يقول هذا المنصب بذكائي وصلت إليه وهذه المكانة بقدراتي الجبارة .

أنظر يوسف قال (قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا) اعتراف لله بالمنة

. . فالإنسان مهما وصل لا يغتر بما وصل إليه من مرتبه أو مرحلة ويردها إلي الله (قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا) اعتراف لله بالمنة .

79- الجمع بين التقوى والصبر وأن الله يعقب العواقب الحميدة لمن يتقى ويصبر .

80- أن المسلم يراعى مشاعر إخوانه فيوسف قال (لا تثريب عليكم اليوم) (1) .

81- العفو عند المقدرة (2) .

82- الدعاء لمن أخطأ عليك بالمغفرة (يغفر الله لكم) فإذا واحد ظلمك قلت يغفر الله لك . . . . نعم فلك أجر عظيم .

)

---

(1) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه و سلم لما دخل مكة سرح الزبير بن العوام و أبا عبيدة بن الجراح و خالد بن الوليد على الخيل ، و قال : (يا أبا هريرة اهتف بالأنصار ، قال

: اسلكوا هذا الطريق فلا يشرفن لكم أحد إلا أمنتموه ، فنادى منادي : لا قريش بعد اليوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من دخل دارا فهو آمن ، و من ألقى السلاح فهو آمن و عمد صناديد قريش فدخلوا الكعبة ، فغص بهم ، و طاف النبي صلى الله عليه و سلم و صلى خلف المقام ، ثم أخذ بجنبتي الباب ، فخرجوا فبايعوا النبي صلى الله عليه و سلم على الإسلام) .

زاد فيه القاسم بن سلام بن مسكين عن أبيه بهذا الإسناد قال : (ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال : ما تقولون و ما تظنون ، قالوا : نقول : ابن أخ و ابن عم حليم رحيم ، قال : وقالوا ذلك ثلاثا ، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أقول كما قال يوسف " لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم و هو أرحم الراحمين " قال : فخرجوا كأنما نشروا من القبور ، فدخلوا في الإسلام .) سنن البيهقي (440/13) سنن النسائي الكبرى (382/6)

(2) عفا : في أسماء الله تعالى: العفو ، وهو فعول من العفو ، وهو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه ، وأصله المحو والطمس ، وهو من أبنية المبالغة . يقال: عفا يعفو عفواً ، فهو عاف وعفو ، قال الليث: العفو عفو الله ، عز وجل ، عن خلقه ، والله تعالى العفو الغفور . وكل من استحق عقوبةً فتركتها فقد عفوت عنه . قال ابن الأنباري في قوله تعالى: عفا الله عنك لم أذنت لهم ؛ محا الله عنك (لسان العرب)

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98) .

83- معجزات الأنبياء .

فإن القميص لما ألقى على وجه يعقوب رجع بصيرا مع أن لو أب أعمى أتيت له بقميص ولده لا يحدث هذا فالله عز وجل يخرق العادة بمعجزات الأنبياء كما حصل في هذه المعجزة المشتركة ليوسف ويعقوب عليهما السلام بإلقاء القميص على وجه يعقوب فيرتد بصيرا (1) .

---

(1) كيف علم يوسف أن أباه أصيب بالعمي ؟

قال العلماء أن الغيب نوعان غيب زمان وغيب مكان ، وإخبار يوسف بعمي والده في حينه ذلك من إخبار الله له بغيبيات المكان ، وهو ما يسمي غيب الحاضر لأنه يخبر بحدث

حدث في نفس اللحظة ولكن في مكان أخر .

وعند القرطبي (وأخبره جبريل بأن أرسل قميصك فإن فيه ريح الجنة وإن ريح الجنة لا يقع على سقيم ولا مبتلى إلا عوفي وقال الحسن لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه بصره وكان الذي حمل قميصه يهوذا قال ليوسف أنا الذي حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته وأنا الذي أحمله الآن لأسره وليعود إليه بصره فحمله حكاه السدي) تفسير القرطبي (259/9)

(253/390)

84- أن الأشياء المعنوية (1) يحس بها الإنسان يعنى عندما يقول (إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ) هل يوسف ريحه يوجد في مصر إلى فلسطين ؟ لكن هناك قوه خفيه الله أودعها في نفوس الناس يمكن أن تكون معجزه ليعقوب عليه السلام أن شم رائحة ولده عبر هذه المسافة الطويلة جدا .

85- استحباب البشارة وأن البشير يسبق الناس الى المُبَشر (فلما أن جاء البشير) هذا أول واحد السابق الذي يسبق بالخبر السار يسمى بشير ، واستحباب البشارة واستحباب المكافأة على البشارة كما ورد في السنة (2) .

86- طلب الاستغفار من الأب عند عقوقه، فإنهم عقوا أباهم فما هى الكفارة إذا واحد عق أباه أو أمه ؟ . أن يقول يا أبى استغفر لى هذا من كفارات العقوق لأن هؤلاء قالوا (يا أبانا استغفر لنا)

---

(1) يمكن القول بأنها مادية وليست معنوية لأن هذه المرة كان معهم شيء مادي وهو القميص ذلك بخلاف كل مره ذهبوا ورجعوا لم يكن معهم شيء من مقتنيات يوسف فهم بمجرد أن فصلوا أي خرجوا من مصر وجد ريح يوسف، انظر في تفسير القرطبي (قوله تعالى ولما فصلت العير أي خرجت منطلقة من مصر إلى الشام يقال فصل فصولا وفصلته فصلا . . . قال أبوهم أي قال لمن حضر من قرابته ممن لم يخرج إلى مصر وهم ولد ولده إني لأجد ريح يوسف وقد يحتمل أن يكون خرج بعض بنيه فقال لمن بقي إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون قال ابن عباس هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف إليه وبينهما مسيرة ثمان ليال وقال الحسن مسيرة عشر ليال) تفسير القرطبي (259/9)

وأثر بن عباس عزاه بن كثير في تفسيره لعبد الرزاق قال أنبأنا اسرائيل عن أبي سنان عن عبد الله بن أبي الهذيل قال سمعت بن عباس يقول وذكر نحو المتقدم . . . والأثر صحيح الإسناد فاسرائيل وأبي سنان وبن أبي الهذيل ثقات روى لهم الشيخان .

(2) انظر الفائدة رقم 18

87- اعترافهم بالخطأ (1) بقولهم ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ .

88- التماس أوقات الإجابة في الدعاء لأن يعقوب ما دعا مباشرة بل أخره . . . . قال بعض المفسرين أخر الدعاء إلى السحر (2) ، يعني سوف استغفر ، ولم يُعجل بالدعاء لعظيم جريمتهم وأراد أن يخلص لله الدعاء ويتحرى ساعة الإجابة شفقة على أولاده لعل الله أن يتجاوز عنهم .

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ (99) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100)﴾

89- إكرام الأبوين وبرهما .

لأنه أوى إليه أبويه وضمهما إلي مسكنه الخاص والباقي أنزلهم في غرف الضيوف . مثل أن يكون لك غرفة خاصة مهيئة مزينه فإذا جاء والدك أو والدتك تؤويهم في نفس المكان الذي أنت فيه ؟ أم في غرفة الضيف ؟

(1) الاعتراف بالخطأ من شيم العقلاء الغير متكبرين . فالمتكبر هو الذي لا يعترف بالخطأ مما يجر صاحبه إلي استحلال المحرمات حتي يسوغ لنفسه فعلها .

(2) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ [يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ] . البخاري (1145) مسلم (758)

غرفة الضيف يمكن أن تكون لأي أحد لكن إذا أنزلتهم في مكانك الخاص فهذا زيادة إكرام وهذا ما يليق بالوالدين . . . . . والبر بهما .

90- طمأنة الخائف (ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ) آمنين لا خوف عليكم .

مثل ما قال الرجل الصالح في قصة موسى (قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (القصص:25) لأن هذا ما يحتاج إليه الشخص الخائف .

91- (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ) فيها مزيد إكرام كما تقدم .

92- (وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً) (1) كان هذا جائز في شريعتهم ولا يجوز في شرعنا لحديث

أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لَا يَصْلُحُ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ وَلَوْ صَلَحَ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ مِنْ قَدَمِهِ إِلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ قُرْحَةً تَنْبَجِسُ بِالْقَيْحِ وَالصَّدِيدِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْهُ فَلَحَسَتْهُ مَا أَدَّتْ حَقَّهُ) (2)

فإن شرع من كان قبلنا شرع لنا ما لم ينسخ أو ينهي عنه .

---

(1) هذه الفائدة وضعتها علي نفس منهاج الشيخ في وضع الفوائد بعد وجود خلل في عد الفوائد من قِبَل الشيخ حفظه الله .

(2) أحمد (ح12203) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه

قال الألباني (صحيح) انظر حديث رقم: 7725 في صحيح الجامع .

ذكر بن كثير (644/2) في تفسير هذه الآية "وخروا له سجداً" ﴿ أي سجد له أبواه وإخوته الباقون . وكانوا أحد عشر رجلاً وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام, فحرم هذا في هذه الملة وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى هذا مضمون قول

قتادة وغيره . وفي الحديث أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم فلما رجع سجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال "ما هذا يا معاذ ؟" فقال إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله فقال: "لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها" . وفي حديث آخر: أن سلمان لقي النبي صلى الله عليه وسلم في بعض طرق المدينة وكان سلمان حديث عهد بالإسلام فسجد للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: "لا تسجد لي يا سلمان واسجد للحي الذي لا يموت" والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم ولهذا خروا له سجداً .

93- أن تأويل الرؤيا ممكن أن يقع بعد سنين طويلة . أي أن الإنسان يرى رؤيا اليوم يتحقق تأويلها بعد عشرين سنه . . . ثلاثين سنه وأنه لا يشترط أن يرى الواحد الرؤيا اليوم . . . . غدا يقع تأويلها ؟ لا .

يمكن أن يكون هناك فارق كبير بين وقوع الرؤيا حقيقة وانطباق الرؤيا علي الواقع وبين الرؤيا نفسها .

94- الحفاظ على مشاعر الآخرين وعدم جرحها وإيذاءها فإن يوسف قال (وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي) ما قال بعد ما ظلمني أخوتي ما قال بعد ما القوني في الجب . . . . يعنى وضع اللوم على الشيطان بدلا من أن يضعه على أخوته وهذا من مكارم الأخلاق ومما يليق بالأنبياء . . . . هذه أخلاق الأنبياء .

95- الاعتراف لله بالنعم في جميع الأحوال التي يتقلب فيها الإنسان .

)

أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ) (وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ) أي منه من الله على أن جمع شمل العائلة مره أخرى وإخراجي من الجب نعمه . . . . وإخراجي من السجن نعمه . . . ولم شمل العائلة نعمه .

96- قال يوسف : (أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ) ولم يقل الجب فلماذا ؟ (1)

طبعا يلاحظ أن يوسف هنا قال (أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ) ولم يقل الجب مراعاة لإخوانه لأنهم هم الذين القوه في الجب فأعرض عن ذكره بالمرة . . . . فأنت إذا ظلمك أحد أقربائك مثلا فلا تقل الحمد لله انتهينا من المشاكل التي عملها فلان بل اعرض عن هذا واضرب عنه صفحا ولا تذكره وهذا من مكارم الأخلاق . وهذا خلق الأنبياء (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) (الأنعام:90)

97- أن الله لطيف (2) وأنه يلطف بعباده وكم لطف بيوسف فلم يجعله يموت في الجب

ولا يجعله يبقى في السجن ولم يبقى فقيرا ولم يبقى مظلوما و إنما لطف به وجمعه بأهله بعد سنين

98- قد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا . . . فسبحان من جمع هذه الأسرة بعد هذه الفترة الطويلة .

)

---

(1) لم يعدها الشيخ كعدد من الفوائد وجعلتها فائدة مستقلة لاختلافها عن سابقتها ولخلل العد في الفوائد من قِبَل الشيخ حفظه الله .

(2) لطف: اللطيف: صفة من صفات الله واسم من أسمائه ، وفي التنزيل العزيز: الله لطيف بعباده ، وفيه: وهو اللطيف الخبير ؛ ومعناه ، والله أعلم ، الرفيق بعباده . قال أبو عمرو: اللطيف الذي يوصل إليك أربك في رفق ، واللطف من الله تعالى: التوفيق والعصمة ، وقال ابن الأثير في تفسيره: اللطيف هو الذي اجتمع له الرفق في الفعل والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدرها له من خلقه . يقال: لطف به وله ، بالفتح ، يلطف لطفاً إذا رفق به .

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101) ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102) .

99- أن الإنسان المسلم إذا اكتملت له نعم الله فإنه يسأل الله الوفاة على الإسلام وبقى أن يهتم جدا بالخاتمة وهى الوفاة على الإسلام . لذلك لما رأى يوسف كل ما يريد يتحقق . . . العزة في الدنيا تحققت والملك صار إليه والمكانة والغنى واجتماع الأهل ومجيء الأبوين . . . . تحقق كل ما يريد ماذا قال ؟ (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ) هذه منه (وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ) وحصل كل ما يريد أيش الدعاء ؟

(تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) فإذا نلت كل ما تتمنى في الدنيا بقى شيء مهم وهى أن تخرج منها على ما يرضى الله (تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) الصالحين فيهم الأنبياء الذين مضوا قبله فهم الرفيق الأعلى (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً)

(النساء: 69) ولذلك النبي صلي الله عليه وسلم لما نزل به الموت خير . . . . يبقى في الدنيا أو يلتحق بالرفيق الأعلى قال بل الرفيق الأعلى ورحل . من هم الرفيق الأعلى ؟ هؤلاء النبيون والصديقون والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . وهو الأعلى لأنه عند الله (وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) (الحديد: 19) .

100- (1) (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111) هذه الآية وكل من الآيتين (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3) (لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (7)

دلت بمجموعها علي أن المراد من القصة هو الوقوف علي العبر والعظات التي فيها وأنها ما كانت قصة مفتراه ولكنها تصديق لما جاء من قبل لأهل الكتاب وتفصيل للشرائع وهداية للخلق من الغواية والضلال ورحمة للمؤمنين . . . . وعلية فلن ينتفع بهذه الآيات إلا أولوا الألباب أي أصحاب العقول الزكيه الطاهرة وهكذا سائر القصص في القرآن .

مستجدات

الصبر الغريب من يوسف عليه السلام عن استدعاء أبيه وإخوانه بمجرد توليه المنصب ومع ذلك لم يستدعيه ولم يذهب إليه فهذا من الصبر والهدوء وبعد النظر والتخطيط الطويل المدى لهدف بعيد وعدم تغليب العاطفة (2) فالعاطفة مهمة والعقل أهم ، والعقل قوي والشرع أقوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحث بعنوان : مائة فائدة من سورة يوسف عليه

السلام / لفضيلة الشيخ . محمد صالح المنجد ﷾

---

(1) وضعت هذه الفائدة علي منهاج الشيخ في وضع الفوائد نظراً لوجود خلل في عد الفوائد من قِبَل الشيخ حفظه الله .

(2) د / ناصر العمر من محاضرة الله أكبر غلبت الروم

(260/390)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

«سورة يوسف» (12)

«وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ» (6) أي يختارك .

«وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ» (6) أي على أهل يعقوب ، والدليل على ذلك إنك إذا صغّرت «آل» قلت «أهيل» ، وعلى أهل ملته أيضا .

«فِي غَيابَتِ الْجُبِّ» (10) مجازها : أن كل شىء «غيّب عنك شيئًا» فهو غيابة «1» ، [قال المنخّل بن سبيع العنبرىّ :

فإن أنا يوما غيّبتنى غيابتى فسيروا مسيرى فى العشيرة والأهل] «2»

والجب : الركيّة التي لم تطو ، «3» قال الأعشى :

لئن كنت فى جبّ ثمانين قامة ورقّيت أسباب السماء بسلّم

«4»

---

(1) «كل . . . غيابة» : هذا الكلام فى القرطبي 9/ 132 ، وورد قوله «الجب الركية التي لم تطو» فى البخاري . قال ابن حجر (8/ 272) : كذا وقع لأبى ذر فأوهم أنه من كلام ابن عباس لعطفه عليه وليس كذلك وإنما هو كلام أبى عبيدة سأذكره .

(2) : «المنخل» : هو المنخل بن سبيع بن زيد بن معاوية بن العنبر ، له ترجمة فى المؤتلف 178 ومعجم المرزباني 388 . - والبيت فى معجم المرزباني 388 والقرطبي 9/ 132 ، وصدره فى التاج (غيب) .

(3) «و الجب . . . تطو» : هذا الكلام فى القرطبي 9/ 139 .

(4) : ديوانه 94 والكتاب 1/ 197 والشنتمرى 1/ 231 والقرطبي 9/ 132 وشواهد الكشاف 279 . [. . . . .]

«نرتع [و نلعب]» (15) «1» أي ننعم ونلهو وقال «2» فى المثل : «القيد والرّتعة» وقرأها قوم «يرتع» أي إبلنا ، ونرتع نحن إبلنا .

«وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا» (17) أي بمصدق ولا مقرّ لنا أنه صدق .

«سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ» (18) أي زينت وحسنت ، «3» وتابعتكم على ذلك .

«فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» (18) مرفوعان لأن «جميل» صفة للصبر ولو كان الصبر وحده لنصبوه كقولك : صبرا ، لأنه فى موضع : اصبر ، وإذا وصفوه رفعوه واستغنوا عن موضع : اصبر ، قال [الراجز] :

يشكو إلىّ جملى طول السّرى صبر جميل فكلانا مبتلى «4»

---

(1) «نرتع ونلعب» : قرأ الكوفيون ونافع بالياء فيهما والباقون بالنون» وكسر الحرميان العين من «يرتع» وجزمها الباقون (الداني 128) .

(2) «و قال» : القائل هو عمرو بن الصعق بن خويلد بن نفيل بن عمرو ابن كلاب قاله حينما رجع من الإسارة . والمثل فى كتاب الفاخر للمفضل 170 والميداني 2/ 31 والفرائد 2/ 80 .

(3) «سولت . . . وحسنت» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 274 .

(4) : فى القرطبي 9/ 153 واللسان والتاج (شكا) .

قال أبو الحسن الأثرم : سمعت من ينشد :

صبرا جميل أراد نداء يا جميل

«وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ» (20) أي باعوه ، فإذا بعته أنت قلت : اشتريته ، قال ابن مفرّغ :

وشريت بردا ليتنى من بعد برد كنت هامه (57)

أي بعته بخس : أي نقصان ناقص ، منقوص ، يقال : بخسني حقى ، أي نقصنى وهو مصدر بخست فوصفوا به وقد تفعل العرب ذلك .

«بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ» (20) جررته على التكرير والبدل .

«أَكْرِمِي مَثْواهُ» (21) أي مقامه الذي ثواه ، ومنه قولهم : هى أمّ مثوى وهو أبو مثوى ، «1» إذا كنت ضيفا عليهم .

(1) «أكرمى . . . ابو مثوى» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 275 .

«[وَلَمَّا] بَلَغَ أَشُدَّهُ» (22) مجازه: إذا بلغ منتهى شبابه وحدّه وقوّته من قبل أن يأخذ فى النقصان وليس له واحد من لفظه. «1»

«وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ» (23) أي هلمّ لك، أنشدنى أبو عمرو بن العلاء: «2» أبلغ أمير المؤمنين أخا العراق إذا أتينا «3»

أنّ العراق وأهله عنق إليك فهيت هيتا

يريد علىّ بن أبى طالب رحمه اللّه، أي تعال وتقرّب وادنه، وكذلك لفظ «هيت» للاثنين والجميع من الذكر والأنثى سواء إلّا أن العدد فيما بعدها تقول:

هيت لكما وهيت لكن، وشهدت أبا عمرو وسأله أبو أحمد أو أحمد وكان عالما بالقرآن وكان لألأ «4» ثم كبر فقعد فى بيته فكان يؤخذ عنه القرآن ويكون مع

---

(1) «وليس... لفظه»: قال القرطبي (9/ 162): وزعم أبو عبيد (لعله أبو عبيدة) أنه لا واحد له من لفظه. وهذا الكلام فى البخاري بمعناه وأشار إليه ابن حجر فى فتح الباري 8/ 27.

(2) «هبت... العلاء» روى ابن حجر هذا الكلام عن أبى عبيدة فقال:

وقالت هيت... ابن العلاء: أن العراق البيت. قال: قال ولفظ هيت... سواء

وسأله رجل عمن قرأ هئت لك أي بكسر الهاء وضم المثناة مهموزا فقال باطل لا يعرف هذا أحد من العرب انتهى (فتح الباري 8/ 274) .

(3) : فى الطبري 12/ 99 والقرطبي 9/ 164 والصحاح واللسان والتاج (هيت) والثاني منهما فى الخصائص 297 والجمهرة 2/ 32 .

(4) «لألأ» : بائع اللؤلؤ .

القضاة، فسأله عن قول من قال: هئت فكسر الهاء وهمز الياء، فقال أبو عمرو: نبسى [أي باطل] جعلها قلت من تهيأت فهذا الخندق، واستعرض العرب حتى تنتهى إلى اليمن هل يعرف أحد هئت [لك] «1» كان خندق كسرى إلى هيت «2» حين بلغه أن النبي صلى الله عليه يخرج وخاف العرب فوضع عليه المراصد وصوامع وحرسا ودون ذلك مناظر ثم لمّا كانت فتنة ابن الأشعث «3» حفره

---

(1) «فسأله . . . هيت لك» : قال القرطبي (9/ 164) : قال أبو عبيدة معمر بن المثنى سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء وضم التاء مهموزا فتمال أبو عمر: باطل، جعلها من تهيئت اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهى إلى اليمن هل تعرف أحدا

يقول هذا ؟ و«الخندق» : هو خندق سابور فى برية الكوفة حفره سابور بينه وبين العرب خوفا من شرهم ، قالوا كانت هيت وعانات مضافة إلى طسوج الأنبار فلما ملك أنو شروان بلغه أن طوائف من الأعراب يغيرون على ما قرب من السواد إلى البادية فأمر بتحديد سور مدينة تعرف بالنسر كان سابور ذو الأكتاف بناها وجعلها مسلحة تحفظ ما قرب من البادية وأمر بحفر خندق من هيت يشق طف البادية إلى الكاظمة مما يلى البصرة وينفذ إلى البحر وبنى عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمسالح ليكون ذلك مانعا لأهل البادية من السواد .

(معجم البلدان 2/ 476) .

(2) «هيت» : هى بلدة على الفرات من نواحى بغداد فوق الأنبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة وهى مجاورة للبرية (معجم البلدان 4/ 997) .

(3) «ابن الأشعث» : هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الذي خرج على الحجاج بن يوسف أنظر أخباره فى مروج الذهب 5/ 302 والكامل لابن الأثير 4/ 399 والنجوم الزهرة 1/ 202 .

عبيد اللّه بن عبد الرحمن بن سمرة ، «1» وكان أعور ، فقال له حميد الأرقط :

يا أعور العين فديت العورا لا تحسبنّ الخندق المحفورا «2»

يردّ عنك القدر المقدورا

وذلك أنه لمّا انهزم ابن الأشعث من الزاوية «3» قام هو بأمر أهل البصرة فناصب الحجاج ، ثم لما هرب يزيد بن المهلّب «4» من سجن عمر بن عبد العزيز حفره عديّ بن أرطاة «5» عامل البصرة ، لئلا يدخل يزيد البصرة ثم حفره المنصور وجعل عليه حائطا مما يلى الباب فحصنه أشدّ من تحصين الأولين للحائط ولم يكن له حائط قبل ذلك .

«وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ» (25) أي وجدا ، «6» قال :

فألفيته غير مستعتب ولا ذاكر اللّه إلّا قليلا «7»

أي وجدته .

---

(1) «عبيد اللّه . . . سمرة» أنظر أخباره فى تاريخ الطبري 2/ 1098 - 1099

(2) الشطر الثاني والثالث فى اللسان والتاج (خندق) . [. . . . .]

(3) «الزاوية» : موضع قرب البصرة كانت به الوقعة المشهورة بين الحجاج وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قتل فيها خلق كثير من الفريقين ، وذلك فى سنة 83 من الهجرة (معجم البلدان 2/ 911) .

(4) «يزيد بن المهلب» : أنظر أخباره فى مروج الذهب 5/ 353 ، والكامل لابن الأثير

5/ 95.

(5) «عدى بن أرطأة» : الفزاري : كان عامل البصرة ، غلب عليها يزيد بن المهلب فحبسه فى سنة 101 ، راجع النجوم الزاهرة 1/ 246 .

(6) «ألفيا . . . وجدا» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 275 .

(7) : لأبى الأسود الدؤلي فى الكتاب 1/ 72 والشنتمرى 1/ 58 ، وابن يعيش 1/ 168 ، وشواهد المغني 316 ، والخزانة 4/ 554 .

«قَدْ شَغَفَها حُبًّا» (30) أي قد وصل الحب إلى شغف قلبها وهو غلافه ، «1» قال [النّابغة الذّبيانىّ] :

ولكن همّا دون ذلك والج مكان الشّغاف تبتغيه الأصابع «2»

ويقرؤه قوم «قد شعفها» : وهو من المشعوف .

«وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً» (31) : أفعلت من العتاد ، ومعناه : أعدّت .

---

(1) «قد شعفها . . . غلافه» : روى ابن حجر هذا الكلام عن أبى عبيدة فى فتح الباري ، وقال : قال : ويقرؤه قوم «شعفها» أي بالعين المهملة ، وهو من المشعوف ، انتهى .

والذي قرأها بالمهملة: أبو رجاء، والأعرج، وعوف. رواه الطبري (12/ 110- 111)، ورويت عن علي والجمهور بالمعجمة (فتح الباري 8/ 272).

(2) : ديوانه رقم 19 من الستة 19. - والطبري 12/ 110، والأمالى للقالى 1/ 205، والسمط 489، والصحاح واللسان والتاج (شغف)، والقرطبي 9/ 176، والخزانة 1/ 429.

(267/390)

له متكئا، أي نمرقا تتكئ عليه، وزعم قوم أنه الأترج، وهذا أبطل باطل فى الأرض ولكن عسى أن يكون مع المتكاء أترج يأكلونه، «1» ويقال:

ألق له متكئا.

«أَكْبَرْنَهُ» (31) أجللنه وأعظمنه، ومن زعم أن أكبرنه «حضن» «2» فمن أين، وإنما وقع عليه الفعل ذلك، لو قال: أكبرن، وليس فى كلام العرب أكبرن حضن، ولكن عسى أن يكون من شدة ما اعظمنه حضن.

---

(1) «متكأ . . . يأكلونه»: روى الطبري (12/ 112) قول أبى عبيدة هذا قائلا:

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: المتكأ هو النمرق يتكأ عليه وقال:

زعم قوم أنه الأترج قال وهذا أبطل باطل فى الأرض ، ولكن عسى أن يكون .

مع المتكأ أترج يأكلونه ، وحكى أبو عبيد القاسم بن سلام قول أبى عبيدة ثم قال : والفقهاء أعلم بالتأويل منه ، ثم قال : ولعله بعض ما ذهب من كلام العرب فان الكسائي كان يقول قد ذهب من كلام العرب شىء كثير ، انقرض اهله ، والقول فى أن الفقهاء أعلم بالتأويل من أبى عبيدة كما قال أبو عبيد لا شك فيه ، غير أن أبا عبيدة لم يبعد من الصواب فى هذا القول بل القول كما قال من أن من قال المتكأ هو الأترج إنما يبين المعد فى المجلس الذي فيه المتكأ والذي من أجله أعطين السكاكين لأن السكاكين معلوم أنها لا تعد للمتكأ إلا لتخريقه ، ولم يعطين السكاكين لذلك ومما يبين صحة ذلك ، القول الذي ذكرناه عن ابن عباس : من أن المتكأ هو المجلس .

واخذه البخاري 5/ 215 وعزاه ابن حجر إلى أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 270 .

(2) «أجللته . . . حضن» : انظر هذا الكلام فى الطبري 12/ 113 114 ، وقال القرطبي (9/ 180) : وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره . وقال البخاري .

ليس فى كلام العرب الأترج . . . إلخ . قال ابن حجر : قوله : ليس فى كلام العرب الأترج ، يريد أنه ليس فى كلام العرب تفسير المتكأ بالأترج ، قال صاحب المطالع :

(يعنى با بن قرقول) وفى الأترج ثلاث لغات ، ثانيها بالنون وثالثها مثلها بحذف الهمزة ، وفى المفرد كذلك ، وعند بعض المفسرين : أعتدت لهن البطيخ والموز ، وقيل : كان مع الأترج

عسل، وقيل: كان للطعام المذكور بزما ورد، ولكن ما نفاه المؤلف رحمه الله تبعا لأبى عبيدة قد أثبته غيره (فتح الباري 8/ 271).

(268/390)

«وَقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ» (31) الشين مفتوحة ولا ياء فيه وبعضهم يدخل الياء فى آخره، كقوله:

حاشى أبى ثوبان إنّ به ضنّا عن الملحاة والشّتم «1»

ومعناه معنى التنزيه والاستثناء من الشرّ، ويقال: حاشيته أي استثنيته.

---

(1): هذا البيت منسوب إلى سبرة بن عمرو الأسدى فى نسخة وغير معز وفى النسختين الأخريين وهو فى قصيدة ميمية فى المفضليات رقم 109 والأصمعيات 80 للجميع واسمه منقذ بن الطماح الأسدى وركب أبو عبيدة صدر بيت على عجز بيت بعده، فأنشد هكذا، وتبعه كثير من المفسرين كالطبرى 12/ 115 والزمخشري فى الكشاف 1/ 491، والقرطبي 9/ 181، وأصحاب المعاجم. وتمثل البغدادي (فى الخزانة 2/ 160) بهذا البيت فى أثناء كلاما على بيت آخر فعل به ما فعل بهذا وقال: فأخذ منهما مصر أعين ولم يتنه لهذا أحد من شراح المغني، وكذلك فعل الزمخشري فى

المفضل (1/ 511) وغيره كابن هشام. والبيت أيضا فى اللسان والتاج (حشى) والعيني 3/ 129 وشواهد المغني 127 وشواهد الكشاف 131 وشرح المفصل لابن يعيش 1/ 269، والمصراع الأول فى فتح الباري 8/ 276. - «أبى ثوبان» رواه المفضل الضبي أبا ثوبان بالنصب على أن حاشا فعل.

(269/390)

«أَصْبُ إِلَيْهِنَّ» (33) أي أهواهنّ وأميل إليهن، قال [يزيد بن ضبّة]

إلى هند صبا قلبى وهند مثلها تصبى «1» «2»

وقال:

صبا صبوة بل لجّ وهو لجوج وزالت له بالأنعمين حدوج «3»

«اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» (32) أي عند سيدك من بنى آدم ومولاك وقال:

فإن يك ربّ أذواد بجسمى أصابوا من لقائك ما أصابوا «4»

---

(1) «صبّ... تصبى»: هذا الكلام فى فتح الباري 8/ 276 عن أبى عبيدة.

(2): فى الطبري 12/ 117 والقرطبي 9/ 185 واللسان (صبا) وفتح الباري 8/ 272.

(3) : البيت لأبى ذؤيب فى ديوان الهذليين 1/ 50 ، وشواهد المغني 109 ، والخزانة 1/ 194 . الأنعمان : واديان . أنظر معجم البلدان 4/ 796 .

(4) : لم أجده فيما رجعت إليه . - «حسمى» : بالكسر ثم بالسكون مقصور أرض ببادية الشام انظر معجم البلدان 2/ 367 ومعجم ما استعجم للبكرى 2/ 446 .

[. . . . . .]

(270/390)

[قال الأعشى :

ربّى كريم لا يكدّر نعمة وإذا تنوشد فى المهارق أنشدا «1»

يعنى النّعمان إذا سئل بالمهارق الكتب ، أنشدا : أعطى كقولك : إذا سئل أعطى .]

«أَضْغاثُ أَحْلامٍ» (44) واحدها ضغث مكسور وهى ما لا تأويل لها من الرؤيا ، أراه جماعات تجمع من الرؤيا كما يجمع الحشيش ، فيقال ضغث ، أي ملء كفّ منه ، قال

[عوف

وأسفل منى

اضرب به» : هذا القول بمعناه دون البيت المستشهد به فى البخاري وأشار إليه ابن حجر

ورواه بلفظه في فتح الباري 8/ 272.

(3) : عوف، هو عوف بن عطية بن عمر بن الحرث بن تيم. والخزع لقب جده عمرو. هو من فرسان العرب. جاهلي شاعر مفلق حسب قول المرزباني في معجم الشعراء 277 وقال البكري في السمط 377، 723 : أنه جاهلي إسلامي وراجع تمام نسبه في شرح المفضليات 637، والخزانة 3/ 82، - والبيت عجزه فقط في الجمهرة 2/ 43.

(271/390)

«وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ» (45) أي افتعل من ذكرت فأدغم التاء في الذال فحوّلوها دالا ثقيلة «بعد أمّة» أي بعد حين، وبعضهم يقرؤها بعد أمه، أي بعد نسيان، ويقال: أمهت تأمه أمّها، ساكن، أي نسيت.

«إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ» (29) أي مما تحرزون.

«وَفِيهِ يَعْصِرُونَ» (49) أي به ينجون «1» وهو من العصر وهي العصرة أيضا وهي المنجاة، قال:

ولقد كان عصرة المنجود «2»

---

(1) «ينجون إلخ» : قال الطبري: (12/ 129) وكان بعض من لا علم له بأقوال السلف

من أهل التأويل ممن يفسر القرآن برأيه على مذهب كلام العرب (يعنى أبا عبيدة) يوجه معنى قوله: «و فيه يعصرون» إلى «و فيه ينجون» عن الجدب والقحط بالغيث ويزعم أنه من العصر والعصرة التي بمعنى المنجاة . . . وذلك تأويل يكفى من الشهادة على خطئه خلافه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين إلخ.

(2) : عجز بيت صدره:

صاديا يستغيث غير مغاث

لأبى زيد فى قصيدة يرثى بها اللجاج ابن أخته وكان من أحب الناس إليه وهى من الجمهرات 138 والبيت فى الطبري 12/ 129، والفرطين 1/ 226، والاقتضاب 390 والقرطبي 9/ 205 واللسان (عصر).

(272/390)

أي المقهور المغلوب، وقال لبيد:

فبات وأسرى القوم آخر ليلهم وما كان وقّافا بغير معصّر (335)

«الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ» (51) أي الساعة وضح الحقّ وتبيّن.

«وَنَمِيرُ أَهْلَنا» (65) من مرت تمير ميرا وهى الميرة، أي نأتيهم ونشترى لهم طعومهم، قال

أبو ذؤيب :

أتى قرية كانت كثيرا طعامها كرفع التراب كلّ شىء يميرها «1»

«كَيْلَ بَعِيرٍ» (65) أي حمل بعير يكال له ما حمل بعير.

«آوى إِلَيْهِ أَخاهُ» (69) وهو يؤوى إليه إيواء ، أي ضمّه إليه. «2»

«السِّقايَةَ» (70) مكيال يكال به ويشرب فيه.

---

(1) : ديوان الهذليين 1/ 54.

(2) «ونمير . . . ضمه إليه» : هذا الكلام دون البيت فى فتح الباري (8/ 272)

عن أبى عبيدة.

«صُواعَ الْمَلِكِ» (72) والجميع صيعان خرج مخرج الغراب والجمع غربان ، وبعضهم يقول

: «1» هى «صاع الملك» والجميع أصواع خرج مخرج باب و[الجميع] أبواب.

«وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ» (72) أي كفيل وقبيل ، قال الموسى الأزدىّ :

فلست بآمر فيها بسلم ولكنّى على نفسى زعيم «2»

بغزو مثل ولغ الذئب حتى ينوء بصاحبى ثأر منيم

«تَاللَّهِ» (73) التاء بمنزلة واو القسم لأن الواو تحوّل تاء ، قالوا : تراث وإنما هى من ورثت ، وقالوا : تقوى ، وأصلها وقوى لأنها من وقيت .

«اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ» (80) استفعلوا من يئست .

«خَلَصُوا نَجِيًّا » (80) أي اعتزلوا نجيّا يتناجون ، والنجى يقع لفظه على الواحد والجميع أيضا وقد يجمع ، فيقال : نجي وأنجية ، وقال لبيد :

وشهدت أنجية الأفاقة عاليا كعبى وأرداف الملوك شهود «3»

---

(1) «و بعضهم يقول» : انظر اختلافهم فى قراءة الآية فى الطبري 13/ 12 .

(2) : «الموسى الأزدى» : لم أقف على ترجمته . - والبيت الأول فقط فى الطبري 13/ 13 .

(3) : ديوانه 1/ 26 - والطبري 13/ 20 .

«يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ» (84) خرج مخرج النّدبة ، وإذا وقفت عندها قلت : يا أسفاه ، فإذا اتصلت ذهبت الياء كما قالوا :

يا راكبا إمّا عرضت فبلّغن «1»

والأسف أشدّ الحزن والتندم، ويقال: يوسف مضموم فى مكانين، ويوسف تضمّ أوله وتكسر السين بغير همز، ومنهم من يهمزه يجعله يفعل من آسفته.

«تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ» (85) أي لا تزال تذكره، قال أوس بن حجر:

فما فتئت خيل تثوب وتدّعى ويلحق منها لاحق وتقطّع «2»

أي فما زالت، [قال خداش بن زهير:

وأبرح ما أدام اللّه قومى بحمد اللّه منتطقا مجيدا «3»

معنى هذا: لا أبرح لا أزال.]

«حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً» (85) والحرض الذي أذابه الحزن أو العشق وهو فى موضع محرض، «4» قال:

كأنك صمّ بالأطبّاء محرض «5»

---

(1): لم أجده فيما رجعت إليه.

(2): ديوانه رقم 17 - والطبري 13/ 25 وشواهد الكشاف 168.

(3) فى العيني 2/ 64.

(4) «والحرض... محرض» كذا فى اللسان (حرض) ورواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 9/ 273. [.....]

(5) : صدر البيت فى اللسان (حرض) :

أمن ذكرى سلمى غربة إن نأت بها

(275/390)

وقال [العرجىّ] :

إلىّ امرؤلج بي حبّ فأحرضنى حتى بكيت وحتى شفّنى السّقم «1»

أي أذابنى . فتبقى محرضا .

«أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ» (85) أي من الميّتين .

نَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ»

(86) البثّ أشد الحزن ، ويقال :

حزن ، متحرك الحروف بالفتحة أي فى اكتئاب ، والحزن أشدّ الهمّ .

«اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا» (87) أي تخبّروا والتمسوا فى المظان .

«مُزْجاةٍ» (88) يسيرة قليلة ، «2» قال :

وحاجة غير مزجاة من الحاج «3»

---

(1) : العرجى : هو عبد اللّه بن عمر بن عبد اللّه بن عمرو بن عثمان سمى بالعرجي لأنه

ولد بالعرج من مكة. أخباره فى الأغانى (طبع الدار) 1/ 383 وانظر الاشتقاق 48 والسمط 422 والبيت فى الطبري 13/ 25 والقرطبي 9/ 250 والصحاح واللسان والتاج (حرض) وصدره فى فتح الباري 8/ 273.

(2) «ذهبوا . . . قليلة» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 273.

(3) : فى اللسان (زجى).

«وَإِنْ كُنّا لَخاطِئِينَ» (91) مجازه: وإن كنا خاطئين، [و تزاد] اللام المفتوحة للتوكيد والتثبيت، وخطئت وأخطئت واحد، قال [امرؤ القيس] :

يا لهف هند إذ خطئن كاهلا. «1»

أي أخطأن، وقال: أميّة بن الأسكر:

وإنّ مهاجرين تكنّفاه غداة إذ لقد خطئا وحابا (133)

«لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» (92) أي لا تخليط ولا شغب ولا إفساد ولا معاقبة.

«يَأْتِ بَصِيراً» (93) أي يعد بصيرا أي يعد مبصرا.

«لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ» (94) أي تسفهونى «2» وتعجّزونى وتلومونى، قال [هانىء بن

شكيم العدويّ] :

يا صاحبيّ دعا لومي وتفنيدي فليس ما فات من أمر بمردود «3»

---

(1) ديوانه من الستة 143 .

(2) «تفندون . . . تسفهوني» : رواه ابن حجر عن أبي عبيدة في فتح الباري 8/ 271 .

(3) «هاني . . . العدوي» : لم أقف على ترجمته - والبيت في الطبري 14/ 34 والقرطبي 9/ 260 .

(277/390)

«عَلَى الْعَرْشِ» (100) أي السرير .

«مِنَ الْبَدْوِ» (100) وهو مصدر بدوت في البادية .

«مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ» (100) أي أفسد وحمل بعضنا على بعض .

«غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ» (107) : مجلّلة . «1»

«أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً» (107) أي فجأة ، قال ابن ضبّة «2» وهو يزيد ابن مقسم الثّقفي ، وأمه ضبة التي قامت عنه أي ولدته :

ولكنّهم بانوا ولم أدر بغتة وأفظع شىء حين يفجأك البغت (219)

«قُلْ هذِهِ سَبِيلِي» (108) قال أبو عمرو : تذكر وتؤنّث ، وأنشدنا :

فلا تبعد فكل فتى أناس سيصبح سالكا تلك السبيلا «3»

«عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا» (108) يعنى على يقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مجاز القرآن حـ 1 صـ 319.302﴾

---

(1) «مجللة» : كذا فى البخاري ورواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 278 ، وهو فى القطبي 9/ 273 أيضا .

(2) «ابن ضبة» : ومضت ترجمته فى رقم 214 .

(3) : لم أجده فيما رجعت إليه .

(278/390)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «يوسف عليه السلام»

[سورة يوسف (12) : آية 4]

إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ (4)

قوله : يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ [4] .

وهذه استعارة ، لأن الكواكب والشمس والقمر مما لا يعقل ، فكان الوجه أن يقال . ساجدة . ولكنها لما أطلق عليها فعل من يعقل ، جاز أن توصف «1» بصفة من يعقل ، لأن السجود من فعل العقلاء . وهذا كقوله سبحانه :

يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ ، لا يَحْطِمَنَّكُمْ «2» فلما كانت النمل فى هذا القول مأمورة أمر من يعقل جرى الخطاب عليها جريه على من يعقل . مثل ذلك قوله تعالى : وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا «3» لأنها لما شهدت عليهم شهادة العقلاء المخاطبين أجروا - كما فى هذا الخطاب - مجرى العقلاء المخاطبين . ومن الشاهد على ذلك قول عبدة بن الطبيب .

إذ أشرف الدّيك يدعو بعض أسرته لدى الصّباح وهم قوم معازيل «4»

---

(1) فى الأصل «يوصف» وهو تحريف من الناسخ .

(2) سورة النمل الآية رقم 18 وتكلمة الآية لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ .

(3) سورة فصلت . الآية رقم 21 .

(4) هذا البيت من قصائد «المفضليات» للضبى والقصيدة كلها كاملة فى ديوان المفضليات بتحقيق الأستاذين أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون- ص 133- 143 ج 1 . وترجمة عبدة بن الطبيب فى اللآلى ، والأغانى ، والإصابة ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، وهو صاحب البيت المشهور فى الرثاء :

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

(279/390)

فلما جعله بمنزلة الداعي جعل الديكة بمنزلة القوم المدعوّين ، وجعلهم أسرة له ، وأسرة الرجل قومه ورهطه . والمعازيل الذين لا سلاح معهم . فكأنه جعله مستنصرا من لا نصرة له ولا غناء عنده . وقريب من ذلك قوله تعالى : فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ «1» على أحد القولين . فكأنه سبحانه ردّ خاضعين إلى أصحاب الأعناق لا إلى الأعناق ، لأن الخضوع منهم يكون على الحقيقة .

وقد يجوز أيضا أن يكون قوله فى ذكر الكواكب والشمس والقمر : رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ إنما حسن على تأويل تلك الرؤيا . وتأويلها يتناول من يعقل من إخوة يوسف وأبويه . فجرى الوصف على تأويل الرؤيا ، ومصير العقبى . وهذا موضع حسن ، ولم يمض لى كمن «2»

تقدم.

[سورة يوسف (12) : آية 18]

وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (18)

وقوله سبحانه: وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ [18] وهذه استعارة. لأن الدم لا يوصف بالكذب على الحقيقة. والمراد بذلك- والله أعلم- بدم مكذوب فيه، والتقدير بدم ذى كذب. وإنما يوصف الدم بالمصدر الذي هو (كذب) على طريق المبالغة.

لأن الدعوى التي «3» علقت بذلك الدم كانت غاية فى الكذب.

وقال بعضهم: قد يجوز أيضا أن يكون «كذب» هاهنا صفة لقول محذوف يدل عليه الحال. فكأنّ التقدير: وجاءوا على قميصه بدم، وجاءوا بقول كذب، إذ كانت إشارتهم إلى آثار الدم فى القميص قد صحبها قول منهم يؤكد تلك الحال، وهو قولهم:

إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ [17]. والقول الأول

---

(1) سورة الشعراء. الآية رقم 4.

(2) هكذا بالأصل. وصوابه كما تقدم.

(3) فى الأصل «الذي» وهو خطأ، فالدعوى مؤنثة لا مذكرة. وهو تحريف من الناسخ.

[.....]

أصوب. ومن غرائب التفسير ما روى عن أبى عمرو بن «1» العلاء أنه قال: سمعت بعض الرواة يقول: بدم كدب بالإضافة من الدال «2». وقال: هو الجدى فى كلام الكنعانيين، وأنشد لبعضهم:

ظلّت دماء بنى عوف كأنهم عند الهياج رعاة بين أكداب

وقيل: إنهم لطخوا قميص يوسف عليه السلام بدم ظبى ذبحوه.

وقوله سبحانه: قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ [18] وهذه استعارة. وحقيقة التسويل تزيين الإنسان لغيره أمرا غير جميل. جعل سبحانه أنفسهم لمّا قوى فيها الإقدام على ذلك الأمر المذموم بمنزلة الغير الذي يحسّن لهم فعل القبيح، ويحملهم على ركوب العظيم.

[سورة يوسف (12) : آية 30]

وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (30)

وقوله سبحانه: قَدْ شَغَفَها حُبًّا [30] وهذه استعارة. والمراد بها أن حبه تغلغل إليها،

حتى أصاب شغافها ، وهو غشاء قلبها . كما تقول : بطنت الرّجل . إذا أصبت بطنه .

ويقال : معنى شغفها أي سلب شغاف قلبها ، على طريق المبالغة فى وصف حبها له ، كما تقول : سلبت الرّجل إذا أخذت سلبه .

[سورة يوسف (12) : آية 44]

قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ (44)

وقوله سبحانه : قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ ، وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ [44] وهذه أبلغ استعارة وأحسن عبارة لأن أحد الأضغاث : ضغث . وهو الخليط من الحشيش المضموم بعضه إلى بعض ، كالحزمة وما يجرى مجراها ، فشبه سبحانه اختلاط الأحلام ، وما مر به الإنسان من المحبوب والمكروه ، والمساءة والسرور باختلاط الحشيش المجموع من أخياف «3» عدة ، وأصناف كثيرة .

---

(1) أبو عمرو بن العلاء . واسمه زبان بن عمار كان إماما فى اللغة والأدب وكان أعلم الناس بالأدب والقرآن والشعر وأعراب الجاهلية . توفى سنة 154 بالكوفة . وله ترجمة موجزة فى «المزهر» للسيوطى . وانظر «الأعلام» للزركلى .

(2) وقرأ الحسن وعائشة «بدم كدب» بالوصف لا بالإضافة ، وبالدال المهملة أي بدم طرى .

يقال للدم الطري : الكدب .

(3) الأخياف: جمع خيف وهو كل هبوط وارتقاء فى سفح الجبل، أو ما ارتفع عن مسيل الماء.

(281/390)

[سورة يوسف (12) : آية 48]

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ (48)

وقوله سبحانه: ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ [48]. وهذه استعارة. والمراد بالسّبع الشداد: السّنون المجدبة.

ومعنى يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ، أي ينفد فيهن ما ادخرتموه لهن من السنين المخصبة.

وجرى على ذلك عادة العرب فى قولهم: أكلت آل فلان السّنة. يريدون مسّهم الضر فى عام الجدب، وزمان الأزل «1». حتى كأنهم ليسمون السنة المجدبة: الضّبع.

فيقولون: أكلتهم الضّبع. أي نهكتهم سنة الجدب.

وقال بعضهم: إنما نسب تعالى الأكل إليهن لأن الناس يأكلون فيهن ما ادخروه، ويستنفدون ما أعدوه. كما يقال: يوم آمن. وليل خائف. أي يأمن الناس فى هذا، ويخافون فى هذا.

[سورة يوسف (12) : الآيات 52 الى 53]

ذِلكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ (52) وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)

وقوله سبحانه : لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ «2» [52] . [و هذه استعارة . لأنه تعالى أقام كيد الخائنين] «3» مقام الخابط فى طريق ، ليصل إلى مضرة المكيدة وهو غافل عنه . فأعلمنا سبحانه أنه لا يهديه ، بمعنى لا يوفقه لإصابة الغرض ، ولا يسدده لبلوغ المقصد ، بل يدعه يخبط فى ضلاله ، ويتسكع فى متاهه ، لأنه كالسّارى فى غير طاعة اللّه ، فلا يستحق أن يهدى لرشد ، ولا يتسدد لقصد .

وقوله سبحانه : وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ، إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي [53] . وهذه استعارة . لأن النفس لا يصحّ أن تأمر على الحقيقة .

---

(1) الأزل : الضيق والشدة والداهية .

(2) أصل الآية كاملة : ذِلكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ .

(3) كرر الناسخ هذه العبارة المحصورة بين حاصرتين مرة أخرى فى أثناء النسخ .

ولكن الإنسان لما كان يتبع دواعيها إلى الشهوات ، وينقاد بأزمتها إلى المقبّحات ، كانت بمنزلة الآمر المطاع ، وكان الإنسان بمنزلة السامع المطيع . وإنما قال سبحانه : لَأَمّارَةٌ . ولم يقل لآمرة ، مبالغة فى صفتها بكثرة الدفع فى المهاوى ، والقود إلى المغاوى . لأن «فعّالا» «1» من أمثلة الكثير ، كما أن «فاعلا» من أمثلة القليل .

[سورة يوسف (12) : آية 76]

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76)

وقوله سبحانه : نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ [76] . وهذه استعارة . لأنه ليس هناك على الحقيقة بناء يوطد ، ولا درجات تشيد . وإنما المراد به تعلية «2» معالم الذكر فى الدنيا ، ورفع منازل الثواب فى الآخرة .

[سورة يوسف (12) : آية 82]

وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَإِنَّا لَصادِقُونَ (82)

وقوله سبحانه : وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها ، وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها [82] .

وهذه استعارة من مشاهير الاستعارات . والمراد : واسأل أهل القرية التي كنا فيها ، وأصحاب العير التي أقبلنا فيها . ومما يكشف عن ذلك قوله تعالى فى السورة التي يذكر فيها

الأنبياء عليهم السلام : وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ ، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ «3» . والقرية هى الأبنية المفروشة ، والخطط المسكونة لا يصح منها عمل الخبائث ، فعلم أن المراد بذلك أهلها . ومن الشاهد على ذلك أيضا .

قوله سبحانه : إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ «4» . وقال بعضهم : إن القرية هى الجماعة المجتمعة ، لا الأبنية المشيدة . وذلك مأخوذ من قولهم : قرى الماء فى الحوض . إذا جمعه . والعير : هى الإبل وفيها أصحابها . وإنما أنث سبحانه ضمير القرية

---

(1) فعال : أي الصيغة التي على وزن فعال . وهذه تدل على الكثرة والمبالغة فالرجل القتال هو الكثير القتل .

(2) فى الأصل (لعلبه) بدون إعجام الحروف .

(3) سورة الأنبياء . الآية رقم 74 .

(4) سورة الأنبياء . الآية رقم 77 .

بقوله : الَّتِي كُنَّا فِيها على اللفظ كما يقول القائل : قامت تلك الطائفة ، وتفرقت تلك الجماعة ، على اللفظ . ويحسن منه أن يقول عقيب هذا الكلام : وأكلوا ، وشربوا ، وركبوا

، وذهبوا ، حملا على المعنى دون اللفظ . كما قال تعالى : مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ . ثم قال سبحانه : إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ على المعنى .

وكذلك القول فى العير ، فإنما أنّث ضميرها على اللفظ ، لأن العير مؤنثة .

قال تعالى فى هذه السورة : وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ [94] .

[سورة يوسف (12) : آية 87]

يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ (87)

وقوله سبحانه : وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ [87] وهذه استعارة . والمراد ولا تيئسوا من فرج اللّه . والرّوح هو تنسيم الريح ، التي يلذ شميمها ، ويطيب نسيمها . فشبه تعالى الفرج الذي يأتى بعد الكربة ، ويطرق بعد اللزبة «1» بنسيم الريح الذي ترتاح القلوب له ، وتثلج الصدور به . ومثل ذلك ما جاء فى الخبر : (الريح من نفس اللّه) «2» أي من تنفيسه عن خلقه . يريد سبحانه أن القلوب تستروح إليها ، كما يستروح المكروب إلى نفسه ، وذو الخناق إلى تنفسه .

[سورة يوسف (12) : آية 107]

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (107)

وقوله سبحانه : أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ [107] . وهذه استعارة .

والمراد بذلك المبالغة فى صفة العذاب بالعموم لهم ، والإطباق عليهم ، كالغاشية التي تشتمل على الشيء ، فتجلله من جميع جنباته ، وتستره عن العيون من كل جهاته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تلخيص البيان صـ 174.169 ﴾

---

(1) اللزبة : الشدة والقحط . يقال سنة لزبة أي شديدة .

(2) وفى «نهاية الأرب» ج 1 ص 95 روى عن رسول اللّه أنه قال (الريح من روح اللّه تعالى تأتى بالرحمة وتأتى بالعذاب ، فلا تسبوها ، واسألوا اللّه خيرها ، واستعيذوا باللّه من شرها) أخرجه البيهقي فى سننه .

بحث بعنوان :

بعض جوانب الإعجاز العلمي في سورة يوسف

أ . د / صلاح أحمد حسن

أستاذ العيون بكلية الطب جامعة أسيوط

ملاحظات عامة حول سورة يوسف عليه السلام

1/ السورة ذكرت في كتاب الله كاملة بنفس اسم بطل أحداثها – يوسف عليه السلام –

لأن :

1- خط القصة الدرامي الأساسي متصل . . .

2- القصة مكتملة البناء الدرامي ، من حيث التمهيد ، ثم الثروة ، ثم الانفراج . . .

3- وقائع القصة وأماكن حدوثها محددة . . .

4- أحداثها لا تمثل صراعاً عقائدياً (مثل فرعون / موسى) , ولكن صراعاً سلوكياً داخل أفراد الأسرة الواحدة . .

5- ولأن شخصيتها المحورية والثانوية معدودة (يعقوب / يوسف / الإخوة / عزيز مصر وامرأته ، صاحبا السجن / الملك) .

/2/ الإشارة القرآنية المعجزة إلى ذكر القصة في كتاب الله بالعربية (لكون أبطالها لا يتكلمون العربية) ، لتكون وقائعها ، والعبر المستخلصة منها ، في غاية الوضوح: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : 2] .

/3/ ولأن الهدف الأساسي من سورة يوسف هو العظة والعبرة ، فقد حوت العديد من قواعد العلوم : طب ، علم نفس ، زراعة ، إدارة ، اجتماع ، قانون ، تشريع ، عقيدة ، وغيرها . .

/4/ السورة بلغت الإعجاز في النهاية الدرامية : فبعض الشخصيات ذكرت في نهاية مطافها (كيعقوب وإخوة يوسف) ، وبعض النهايات تركت مفتوحة (كيوسف وامرأة

العزيز) .

/5/ يجب ملاحظة أن إخوة يوسف - برغم كل ما ارتكبوه من جرائم - كانوا مسلمين ،

لقوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : 133] .

o لماذا هو أحسن القصص ؟

(285/390)

يقول الله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ . . . ﴾ [يوسف : 3] ، فلماذا هو أحسن القصص ؟

/1/ - لأنه من عند الله تعالى رب العالمين : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ .

/2/ - ولأنه عبرة لأصحاب العقول : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي ﴾ [يوسف : 111]

/3/ - ولأن فيه صدق الحديث ، والحدث ، والأحداث : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً . . . ﴾ [يوسف : 111] .

/4/ – ولأن فيه التفصيل والإحاطة بجوانب كثيرة (اجتماع – علم نفس – طب – قانون – اقتصاد – سياسة – غدارة – دين – أخلاق) : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ [يوسف : 111] .

/5/ – ثم الهدى والرحمة للمؤمنين : ﴿ . . . وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : 111] .

أولاً : يعقوب عليه السلام :

* تحذير يوسف عليه السلام من قصّ رؤياه على إخوته : ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يوسف : 5] ، لأسباب عديدة :

أ – لأن الإخوة ليسوا أشقاء : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ .

ب – لتدلل يوسف على أبيه الشيخ الكبير (عمر يوسف كان وقتها ما بين : 8-10 سنوات) : ﴿ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾ [يوسف : 8] .

ج – لتواجد يوسف الدائم مع أبيه وعدم قيامه بالرعي مع إخوته : ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ [يوسف : 13] .

* الأدب النبوي في رد المكائد إلى الشيطان : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يوسف : 5] .

* النبوءة :

أ- ببشارة النبوة : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ [يوسف : 6] .

ب- وكذا علم تفسير الأحلام : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف : 6] .

ج- وإتمام نعمة النبوة على آل يعقوب وختماً بيوسف : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [يوسف : 6] .

* الإيحاء لأبنائه بالذئب : ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ [يوسف : 13] .

* موقف يعقوب من محنة يوسف عليهما السلام :

أ- فراسة المؤمن : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ .

ب- الاسترجاع والتسليم بقضاء الله والاستعانة بالله عند الابتلاء : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ﴾ [يوسف : 18]

ج- تم تفويض الأمر لله : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : 64] ، أي فالله خير حافظاً ليوسف من كل مكروه .

* محنة المجاعة :

أ- تقرير حقيقة الحسد وأخذ الحيطة للوقاية منه : ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف : 67] .

ب- ثم ترك النتائج لله : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [يوسف : 67]

ج- إحاطة يعقوب عليه السلام مسبقاً بالأحداث : ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ [يوسف : 68] .

د- صدق إحساس يعقوب بعودة يوسف وأخيه : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ﴾ [يوسف : 83] .

* محنة العمى : ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 84] .

ملاحظات :

/1/ - العلاقة بين الانفعالات النفسية والأمراض العضوية (كالمياه البيضاء والمياه الزرقاء) : ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾ ، وكظم غيظ شديد ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 84] .

/2/ - الركون إلى حصن الله المتين عند الشدائد : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : 86] .

/3/ - سلوكيات الكفيف :

1 . الاعتماد على حاسة اللمس : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ .

2 . الظلام الحسي (العمى) والظلام المعنوي (عدم معرفة أي شيء عن يوسف) .

3 . تأهيل الكفيف .

4 . اقتران الإحباط واليأس بالكفر : ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف : 87] .

5 . رهافة حواس أخرى عند الكفيف ، كاللمس والشم : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : 94] .

* معجزة استرجاع الإبصار : ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ [يوسف : 96] .

* تأكيد يعقوب عليه السلام على سبق علمه بالأحداث : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ

مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : 96] .

* نقاء وسماحة النبوة في كل الأحوال : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ [يوسف : 98] .

ثانياً : يوسف عليه السلام :

تفرد الرؤيا عند الطفل يوسف عليه السلام : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : 4] .

1- عدم تناسب الرؤيا من المرحلة السنية للطفل .

2- جدية تلقي الرؤيا من الأب .

المحنة الأولى :

(288/390)

الجب : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ . . ﴾ [يوسف : 15] .

المحنة الثانية :

الاسترقاق : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ [يوسف : 19] ، ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ [يوسف : 20] . على اعتقاد أنه عبد آبق أو لخوفهم

من سماسرة العزيز .

ملاحظات :

1- كيف وصل يوسف إلى عزيز مصر ؟ هل عن طريق البصاصين أم سماسرة تجار الرقيق الذين أحاطهم بطلبه ؟

2- فراسة عزيز (وزير) مصر في يوسف : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ .

3- الإشارة ضمناً إلى قضية الإنجاب : ﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ . نفس قول امرأة فرعون في موسى : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ [القصص : 9] .

4- التمكين ليوسف في الأرض : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [يوسف : 21] .

5- تعليم تفسير الأحلام ، إما وحياً وإما عن طريق معلمين في القصر : ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف : 21] .

6- هبة الحكم والعلم : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : 22] .

7- قانون رد الإحسان بالإحسان : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : 22] .

المحنة الثالثة :

الغواية : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف : 23] .

ملاحظات :

(289/390)

1- هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ (الأصل الطيب : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ [يوسف : 23] .

2- دلالة ثانية للطب الشرعي في التاريخ : فحص ملابس المجني عليه : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ [يوسف : 25] .

المحنة الرابعة :

التحرش الجنسي الجماعي : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : 33] .

المحنة الخامسة :

السجن ظلماً (الاحتياطي) : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ

﴾ [يوسف: 35].

ملاحظات:

1) واجب الدعوة إلى الله حتى في السجن: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: 39].

2) إذاً فاسأل الله: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف: 42].

3) علاقة الشيطان بالنسيان عند الإنسان:

أ- ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: 68].

ب- ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف: 42].

ج- ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ... ﴾ [الكهف: 63].

د- ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ [المجادلة: 19].

4) الإشارة إلى عدم أحقية العالِم (بكسر اللام الثانية) في حجب العلم أو الامتناع عن الفتوى لمن يطلبها.

5) اللين والأدب والحياء في التظلم إلى ولي الأمر : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف : 50] .

6) واجب استجلاء الأمور من ولي الأمر : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ .

7) إعلان براءة يوسف : ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ .

8) اعتراف امرأة العزيز : ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف : 51] .

9) تقريب الملك ليوسف : ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف : 54] .

10) مؤهلات تولي الإمارة : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 55] .

نعم الله على يوسف عليه السلام :

1) الخروج من السجن: ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ . . . ﴾ [يوسف : 100] .

2) التمكين في الأرض: ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف : 54] .

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 55] .

3) لقاء الأشتات:

وقد يجمع الله شتيتين بعدما يظنان كل الظن أنهما لا يتلاقيا :

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ [يوسف : 58] .

4) الترغيب والترهيب لإخوانه :

أ– الترغيب : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ [يوسف : 59] .

ب–الترهيب : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ [يوسف : 60] .

---

5) اعتراف إخوته ضمناً بنفس أسلوبهم الإجرامي الذي اتبعوه مع يوسف : ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ [يوسف : 61] .

6) الجزاء من جنس العمل : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ [يوسف : 70] .

أ- العقاب النفسي جزاء جرائمهم السابقة .

ب- لتطبيق قوانين مصر على أخيه (الاسترقاق) .

ج- المكر الخير : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال : 30] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : 54] .

7) انتقال أبويه وإخوته من البدو إلى الحضر : ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ .

8) الصلح مع إخوته : ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ [يوسف : 100] .

9) الشكر له على النعم :

أ- الملك : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ .

ب- علم تفسير الأحلام : ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ .

ج- نعمة الموت على الإسلام : ﴿ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف : 101] .

ثالثاً : إخوة يوسف عليه السلام :

/1/ الجريمة الأولى في حق يوسف عليه السلام :

الشروع في قتل يوسف : وهي جريمة مكتملة الأركان ، من حيث سبق الإصرار والترصد ، قام فيها الجناة (إخوة يوسف) بعقد النية والاتفاق الجنائي بينهم ، ورسم الجريمة

وتنفيذها في أخيهم يوسف (عليه السلام) .

أولاً : الدافع للجريمة : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ [يوسف : 8] . لما ظنوه من قرب أبيهم من يوسف ، وتدليله ، وعدم جعله يشاركهم الرعي .

ثانياً : ارتباط السلوك الإجرامي بسوء الخلق : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [يوسف : 8] .

ثالثاً : الاتفاق الجنائي واستعراض الخيارات : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً ﴾ [يوسف : 9] .

رابعاً : نية التوبة بعد الجريمة : ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ [يوسف : 9] ، ويزوغ القاعدة الفقهية : (الإصلاح بعد جريمة) ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [النساء : 17] .

خامساً : اختلاف درجات الإجرام والمسؤولية الجنائية بين المجرمين في الجريمة الواحدة :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [يوسف : 10] .

سادساً : خطوات تنفيذ الجريمة :

1) التمسكن للأب وإظهار الحب ليوسف : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ [يوسف : 11] .

2) الإغراء بالأكل واللعب (احتياجات الطفل الأساسية) : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ [يوسف : 12] .

3) والتعهد بالمحافظة عليه : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [يوسف : 12] .

ملاحظات :

توصل إخوة يوسف بالغريزة إلى أحداث أبحاث التربية في تربية الطفل وهي :

1) أمانة المعلم على الطفل .

2) الرفق بالطفل عند النصح له .

3) توفير المأكل والملعب أهم من تلقي العلم في هذه السن الصغيرة (ارجع إلى حديث الرسول : (لاعبوهم على سبع ، واضربهم على سبع ، وصاحبهم على سبع) ، والمثل الشعبي : (اديه رحه وما تدهش قمحة !) .

4) توفير السلام والحماية للطفل .

ملاحظات :

إخلال إخوة يوسف عليه السلام بجميع شروط العقد :

(293/390)

أ- تعهدوا بسلامة يوسف عليه السلام ، وهم به متربصون .

ب- تعهدوا بالنصح له ، وهم له كارهون .

ج- تعهدوا بالمحافظة عليه ، وهم له مضيعون .

د- أخلوا بعهدهم في جعله يأكل ويلعب .

أكاذيب إخوة يوسف بعد الجريمة (الحبكة الدرامية) :

1) الحضور عند العشاء يبكون (الرعاة لا يتأخرون - عادة - بعد المغرب إلا لأمر جلل) : ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ [يوسف : 16] .

2) اختلاف الرواية : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ [يوسف : 17] .

3) شكهم في أقوالهم : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف : 17] .

4) أول دلالة للطب الشرعي في التاريخ : الدم الكذب : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ

كَذِبٍ ﴾ [يوسف : 18] .

/2/ الجريمة الثانية في حق يوسف عليه السلام :

1- القذف : ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ [يوسف : 77] .

2- معرفة يوسف بسلوك إخوته : ﴿ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ [يوسف : 77] .

3- اعتراف إخوة يوسف بفضله عليهم وسوء فعلهم : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف : 91] .

4- توبة إخوة يوسف واللجوء إلى أبيهم ليستغفر لهم : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ [يوسف : 97] .

رابعاً : بعض المظاهر السلوكية والاجتماعية للطبقة الراقية في سورة يوسف عليه السلام :

/1/ امرأة عزيز مصر (أسوأ النساء حظاً في التاريخ) :

أ- صاحبة أول جريمة اغتصاب فاشلة تقوم بها امرأة لرجل في التاريخ .

ب- لم ترزق الذرية ، وأوقعها حظها العاثر في غواية نبي معصوم .

ج- وصاحبة أخلد فضيحة ، إذ صارت قرآناً يتلى حتى يوم الدين .

/2/ إن المرأة تأخذ المبادأة: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [يوسف: 23] .

/3/ وإنها قد تكون الطرف الموجب: ﴿ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف: 23] .

/4/ وقد تكون مغتصبة: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف: 24] . لكل فعل إنساني ثلاث مراحل: إدراك ووجدان ونزوع، ولقد أتمت امرأة العزيز الفعل بأكمله، ولكن الفعل وقف عند يوسف عند مرحلتي الإدراك والوجدان (مراحل نفسية داخلية)، وتوقف عند النزوع (حيث لا حساب)، لأمر أظهره له الله تعالى: ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: 24] .

/5/ وقد تلجأ إلى المطاردة: ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ [يوسف: 25] .

/6/ وقد تلجأ إلى العنف لتحقيق مرادها: ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ [يوسف: 25] .

/7/ وقد تستخدم الكذب وقول الزور عند افتضاح أمرها: ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف: 25] .

/8/ ولها من النفوذ ما يجعلها تقترح العقوبة : ﴿ إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 25] .

/9/ ضعف شخصية الزوج : (إما لضعف شخصيته أو لعجزه الجنسي أو الخوف من تأثير الفضيحة على مستقبله السياسي) وعدم المقدرة على توجيه الاتهام مباشرة إلى زوجته فعد تكشف إدانتها واللجوء إلى تعميم الاتهام إلى عموم جنس المرأة : ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 28] .

/10/ المساواة بين الجاني والمجني عليه ، والهزل في توقيع العقاب : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ﴾ [يوسف : 29] .

/11/ الفراغ وشيوع النميمة بين نساء هذه الطبقة وكثرة القيل والقال : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [يوسف : 30] .

/12/ نقل الوشايات : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ .

/13/ البذخ والتعود على إقامة الحفلات واتباع أصول الإتيكيت ، من إرسال للدعوات وإعداد تدابير الحفل : ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ .

/14/ تقدم فن الإتيكيت، وتقديم السرفيس لكل فرد في الأكل: ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً ﴾.

/15/ الجبروت في التعامل مع الرفيق والخدم: ﴿ وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾.

/16/ الدراية بالرجال وشدة الانبهار بهم والتمييز بين كريم المحتد وغيره: ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: 31].

/17/ المكاشفة بالفحش وعدم الخجل منه، ولكن داخل نفس الطبقة: ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف: 32].

/19/ الإصرار على ممارسة الفاحشة والتهديد باستخدام النفوذ لتحقيقها: ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [يوسف: 32].

/20/ تلفيق التهم لأبرياء، حتى وإن ثبتت براءتهم: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ [يوسف: 35].

/21/ الفساد السياسي (التعتيم على الجرائم وعدم رفعها إلى الملك): ﴿ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف: 50]. ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾.

/22/ الاعتراف بالحق حينما تتأزم الأمور : ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف : 51] .

/23/ الاعتراف فيه راحة لجميع الأطراف : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ [يوسف : 52] . فإن كان القول لامرأة العزيز ، ففي ذلك راحة لزوجها من شك الخيانة ورفع لرأسه أمام الملأ ، وإن كان القول ليوسف عليه السلام ، ففه رد لجميل عزيز مصر الذي آواه وأكرم مثواه .

/24/ أغفل القرآن الكريم حكم الملك في هذه القضية : لأسباب لا يعلمها إلا الله ، وتجاوزه إلى أمره ليوسف أن يكون من أفراد الحكم ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ [يوسف : 54] .

خامساً : العلاج الواقي من الوقوع في الفواحش داخل البيوت من خلال سورة يوسف عليه السلام :

/1/ - الحذر من الإقامة الدائمة للخدم داخل البيوت ، حتى ولو كانوا قد تربوا فيها صغاراً .

/2/ - عدم مشروعية التبني .

/3/ - عدم مشروعية الخلوة بالخدم .

/4/ – الحذر من الفراغ والنميمة وكثرة القيل والقال .

/5/ – غض البصر للرجل والمرأة ، على حد سواء .

/6/ – الحذر من المجالس السيئة .

سادساً : القوانين الإلهية الأزلية في سورة يوسف :

/1/ – ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يوسف : 5] .

/2/ – ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : 21] .

/3/ – ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : 22] .

/4/ – ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف : 23] .

/5/ – ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : 24] .

/6/ – ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ [يوسف : 52] .

/7/ – ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [يوسف : 53] .

/8/ - ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : 56] .

/9/ - ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف : 57] .

/10/ - ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : 64] .

/11/ - ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ . . . ﴾ [يوسف : 67] .

/12/ - ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 76] .

/13/ - ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف : 87] .

/14/ - ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : 90] .

/15/ - ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف : 110] .

أ . د / صلاح أحمد حسن

أستاذ العيون بكلية الطب جامعة أسيوط

٥ ملاحظات عامة حول سورة يوسف عليه السلام :

/1/ السورة ذكرت في كتاب الله كاملة بنفس اسم بطل أحداثها – يوسف عليه السلام – لأن :

1- خط القصة الدرامي الأساسي متصل . . .

2- القصة مكتملة البناء الدرامي ، من حيث التمهيد ، ثم الثروة ، ثم الانفراج . . .

3- وقائع القصة وأماكن حدوثها محددة . . .

4- أحداثها لا تمثل صراعاً عقائدياً (مثل فرعون / موسى) , ولكن صراعاً سلوكياً داخل أفراد الأسرة الواحدة . .

5- ولأن شخصيتها المحورية والثانوية معدودة (يعقوب / يوسف / الإخوة / عزيز مصر وامرأته ، صاحبا السجن / الملك) .

/2/ الإشارة القرآنية المعجزة إلى ذكر القصة في كتاب الله بالعربية (لكون أبطالها لا يتكلمون العربية) ، لتكون وقائعها ، والعبر المستخلصة منها ، في غاية الوضوح: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: 2] .

(298/390)

/3/ ولأن الهدف الأساسي من سورة يوسف هو العظة والعبرة ، فقد حوت العديد من قواعد العلوم : طب ، علم نفس ، زراعة ، إدارة ، اجتماع ، قانون ، تشريع ، عقيدة ، وغيرها . .

/4/ السورة بلغت الإعجاز في النهاية الدرامية : فبعض الشخصيات ذكرت في نهاية مطافها (كيعقوب وإخوة يوسف) ، وبعض النهايات تركت مفتوحة (كيوسف وامرأة العزيز) .

/5/ يجب ملاحظة أن إخوة يوسف – برغم كل ما ارتكبوه من جرائم – كانوا مسلمين، لقوله تعالى: ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: 133].

o لماذا هو أحسن القصص؟

يقول الله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ... ﴾ [يوسف: 3]، فلماذا هو أحسن القصص؟

/1/ – لأنه من عند الله تعالى رب العالمين: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾.

/2/ – ولأنه عبرة لأصحاب العقول: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي ﴾ [يوسف: 111].

/3/ – ولأن فيه صدق الحديث، والحدث، والأحداث: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا ... ﴾ [يوسف: 111].

/4/ – ولأن فيه التفصيل والإحاطة بجوانب كثيرة (اجتماع – علم نفس – طب – قانون – اقتصاد – سياسة – غدارة – دين – أخلاق): ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ [يوسف: 111].

/5/ – ثم الهدى والرحمة للمؤمنين: ﴿ ... وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: 111] .

أولاً: يعقوب عليه السلام:

* تحذير يوسف عليه السلام من قصّ رؤياه على إخوته: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يوسف: 5]، لأسباب عديدة:

أ- لأن الإخوة ليسوا أشقاء: ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ .

ب- لتدلل يوسف على أبيه الشيخ الكبير (عمر يوسف كان وقتها ما بين: 8-10 سنوات): ﴿ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾ [يوسف: 8] .

ج- لتواجد يوسف الدائم مع أبيه وعدم قيامه بالرعي مع إخوته: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ [يوسف: 13] .

* الأدب النبوي في رد المكائد إلى الشيطان: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يوسف: 5] .

* النبوءة:

أ- ببشارة النبوة : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ [يوسف : 6] .

ب- وكذا علم تفسير الأحلام : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف : 6] .

ج- وإتمام نعمة النبوة على آل يعقوب وختماً بيوسف : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [يوسف : 6] .

* الإيحاء لأبنائه بالذئب : ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ [يوسف : 13] .

* موقف يعقوب من محنة يوسف عليهما السلام :

أ- فراسة المؤمن : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ .

ب- الاسترجاع والتسليم بقضاء الله والاستعانة بالله عند الابتلاء : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ﴾ [يوسف : 18]

ج- ثم تفويض الأمر لله : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : 64] ، أي فالله خير حافظاً ليوسف من كل مكروه .

* محنة المجاعة :

أ- تقرير حقيقة الحسد وأخذ الحيطة للوقاية منه : ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف : 67] .

ب- ثم ترك النتائج لله : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [يوسف : 67] .

ج- إحاطة يعقوب عليه السلام مسبقاً بالأحداث : ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ [يوسف : 68] .

د- صدق إحساس يعقوب بعودة يوسف وأخيه : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ﴾ [يوسف : 83] .

* محنة العمى : ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 84] .

ملاحظات :

/1/ - العلاقة بين الانفعالات النفسية والأمراض العضوية (كالمياه البيضاء والمياه الزرقاء) : ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾ ، وكظم غيظ شديد ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 84] .

/2/ - الركون إلى حصن الله المتين عند الشدائد : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ

وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : 86] .

/3/ - سلوكيات الكفيف :

1 . الاعتماد على حاسة اللمس : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ .

2 . الظلام الحسي (العمى) والظلام المعنوي (عدم معرفة أي شيء عن يوسف) .

3 . تأهيل الكفيف .

4 . اقتران الإحباط واليأس بالكفر : ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف : 87] .

(301/390)

---

5 . رهافة حواس أخرى عند الكفيف ، كاللمس والشم : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : 94] .

* معجزة استرجاع الإبصار : ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ [يوسف : 96] .

* تأكيد يعقوب عليه السلام على سبق علمه بالأحداث : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : 96] .

* نقاء وسماحة النبوة في كل الأحوال : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ [يوسف : 98] .

ثانياً : يوسف عليه السلام :

تفرد الرؤيا عند الطفل يوسف عليه السلام : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : 4] .

1- عدم تناسب الرؤيا من المرحلة السنية للطفل .

2- جدية تلقي الرؤيا من الأب .

المحنة الأولى :

الجب : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ . . ﴾ [يوسف : 15] .

المحنة الثانية :

الاسترقاق : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ [يوسف : 19] ، ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ [يوسف : 20] . على اعتقاد أنه عبد آبق أو لخوفهم من سماسرة العزيز .

ملاحظات :

1- كيف وصل يوسف إلى عزيز مصر ؟ هل عن طريق البصاصين أم سماسرة تجار الرقيق الذين أحاطهم بطلبه ؟

2- فراسة عزيز (وزير) مصر في يوسف: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾.

(302/390)

3- الإشارة ضمناً إلى قضية الإنجاب: ﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾. نفس قول امرأة فرعون في موسى: ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ [القصص: 9].

4- التمكين ليوسف في الأرض: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [يوسف: 21].

5- تعليم تفسير الأحلام، إما وحياً وإما عن طريق معلمين في القصر: ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: 21].

6- هبة الحكم والعلم: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: 22].

7- قانون رد الإحسان بالإحسان: ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: 22].

المحنة الثالثة:

الغواية : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف : 23] .

ملاحظات :

1- هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ (الأصل الطيب : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ [يوسف : 23] .

2- دلالة ثانية للطب الشرعي في التاريخ : فحص ملابس المجني عليه : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ [يوسف : 25] .

المحنة الرابعة :

التحرش الجنسي الجماعي : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : 33] .

المحنة الخامسة :

السجن ظلماً (الاحتياطي) : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ [يوسف : 35] .

ملاحظات :

1) واجب الدعوة إلى الله حتى في السجن : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف : 39] .

2) إذاً فاسأل الله : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف : 42] .

3) علاقة الشيطان بالنسيان عند الإنسان :

أ- ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام : 68].

ب- ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف : 42] .

ج- ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ . . . ﴾ [الكهف : 63] .

د- ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ [المجادلة : 19] .

4) الإشارة إلى عدم أحقية العالِم (بكسر اللام الثانية) في حجب العلم أو الامتناع عن الفتوى لمن يطلبها .

5) اللين والأدب والحياء في التظلم إلى ولي الأمر : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى

رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف : 50] .

6) واجب استجلاء الأمور من ولي الأمر : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ .

7) إعلان براءة يوسف : ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ .

8) اعتراف امرأة العزيز : ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف : 51] .

(304/390)

---

9) تقريب الملك ليوسف : ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف : 54] .

10) مؤهلات تولي الإمارة : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 55] .

نعم الله على يوسف عليه السلام :

1) الخروج من السجن: ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ . . . ﴾ [يوسف : 100] .

2) التمكين في الأرض: ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف : 54] .

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 55] .

3) لقاء الأشتات:

وقد يجمع الله شتيتين بعدما يظنان كل الظن أنهما لا يتلاقيا :

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ [يوسف : 58] .

4) الترغيب والترهيب لإخوانه :

أ- الترغيب : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ [يوسف : 59] .

ب- الترهيب : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ [يوسف : 60] .

5) اعتراف إخوته ضمناً بنفس أسلوبهم الإجرامي الذي اتبعوه مع يوسف : ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ [يوسف : 61] .

6) الجزاء من جنس العمل : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ [يوسف : 70] .

أ- العقاب النفسي جزاء جرائمهم السابقة .

ب- لتطبيق قوانين مصر على أخيه (الاسترقاق) .

ج- المكر الخير : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال : 30] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : 54] .

7) انتقال أبويه وإخوته من البدو إلى الحضر : ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ .

8) الصلح مع إخوته : ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ [يوسف : 100] .

9) الشكر له على النعم :

أ- الملك : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ .

ب- علم تفسير الأحلام : ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ .

ج- نعمة الموت على الإسلام : ﴿ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف : 101] .

ثالثاً : إخوة يوسف عليه السلام :

/1/ الجريمة الأولى في حق يوسف عليه السلام :

الشروع في قتل يوسف : وهي جريمة مكتملة الأركان ، من حيث سبق الإصرار والترصد ، قام فيها الجناة (إخوة يوسف) بعقد النية والاتفاق الجنائي بينهم ، ورسم الجريمة وتنفيذها في أخيهم يوسف (عليه السلام) .

أولاً : الدافع للجريمة : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ [يوسف : 8] . لما ظنوه من قرب أبيهم من يوسف ، وتدليله ، وعدم جعله يشاركهم الرعي .

ثانياً : ارتباط السلوك الإجرامي بسوء الخلق : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [يوسف : 8] .

ثالثاً : الاتفاق الجنائي واستعراض الخيارات : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً ﴾ [يوسف : 9] .

رابعاً : نية التوبة بعد الجريمة : ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ [يوسف : 9] ، وبزوغ القاعدة الفقهية : (الإصلاح بعد جريمة) ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [النساء : 17] .

خامساً : اختلاف درجات الإجرام والمسؤولية الجنائية بين المجرمين في الجريمة الواحدة :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ

فَاعِلِينَ ﴾ [يوسف : 10] .

سادساً : خطوات تنفيذ الجريمة :

1) التمسكن للأب وإظهار الحب ليوسف : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ [يوسف : 11] .

2) الإغراء بالأكل واللعب (احتياجات الطفل الأساسية) : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ [يوسف : 12] .

3) والتعهد بالمحافظة عليه : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [يوسف : 12] .

ملاحظات :

توصل إخوة يوسف بالغريزة إلى أحداث أبحاث التربية في تربية الطفل وهي :

1) أمانة المعلم على الطفل .

2) الرفق بالطفل عند النصح له .

3) توفير المأكل والملعب أهم من تلقي العلم في هذه السن الصغيرة (ارجع إلى حديث الرسول : (لاعبوهم على سبع ، واضربهم على سبع ، وصاحبهم على سبع) ، والمثل الشعبي : (اديه رمحه وما تدهش قمحة !) .

4) توفير السلام والحماية للطفل .

ملاحظات :

إخلال إخوة يوسف عليه السلام بجميع شروط العقد :

أ- تعهدوا بسلامة يوسف عليه السلام ، وهم به متربصون .

ب- تعهدوا بالنصح له ، وهم له كارهون .

ج- تعهدوا بالمحافظة عليه ، وهم له مضيعون .

د- أخلوا بعهدهم في جعله يأكل ويلعب .

أكاذيب إخوة يوسف بعد الجريمة (الحبكة الدرامية) :

1) الحضور عند العشاء يبكون (الرعاة لا يتأخرون - عادة - بعد المغرب إلا لأمر جلل) : ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ [يوسف : 16] .

2) اختلاف الرواية : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ [يوسف : 17] .

3) شكهم في أقوالهم : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف : 17] .

4) أول دلالة للطب الشرعي في التاريخ : الدم الكذب : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف : 18] .

2/ الجريمة الثانية في حق يوسف عليه السلام :

1- القذف : ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ [يوسف : 77] .

2- معرفة يوسف بسلوك إخوته : ﴿ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً ﴾ [يوسف : 77] .

3- اعتراف إخوة يوسف بفضله عليهم وسوء فعلهم : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف : 91] .

4- توبة إخوة يوسف واللجوء إلى أبيهم ليستغفر لهم : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ [يوسف : 97] .

رابعاً : بعض المظاهر السلوكية والاجتماعية للطبقة الراقية في سورة يوسف عليه السلام :

1/ امرأة عزيز مصر (أسوأ النساء حظاً في التاريخ) :

أ- صاحبة أول جريمة اغتصاب فاشلة تقوم بها امرأة لرجل في التاريخ .

ب- لم ترزق الذرية ، وأوقعها حظها العاثر في غواية نبي معصوم .

ج- وصاحبة أخلد فضيحة ، إذ صارت قرآناً يتلى حتى يوم الدين .

2/ إن المرأة تأخذ المبادأة : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [يوسف : 23] .

/3/ وإنها قد تكون الطرف الموجب : ﴿ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف : 23].

(308/390)

/4/ وقد تكون مغتصبة : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف : 24] . لكل فعل إنساني ثلاث مراحل : إدراك ووجدان ونزوع ، ولقد أتمت امرأة العزيز الفعل بأكمله ، ولكن الفعل وقف عند يوسف عند مرحلتي الإدراك والوجدان (مراحل نفسية داخلية) ، وتوقف عند النزوع (حيث لا حساب) ، لأمر أظهره له الله تعالى : ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : 24] .

/5/ وقد تلجأ إلى المطاردة : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ [يوسف : 25] .

/6/ وقد تلجأ إلى العنف لتحقيق مرادها : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ [يوسف : 25] .

/7/ وقد تستخدم الكذب وقول الزور عند افتضاح أمرها : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 25] .

/8/ ولها من النفوذ ما يجعلها تقترح العقوبة: ﴿ إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف: 25].

/9/ ضعف شخصية الزوج: (إما لضعف شخصيته أو لعجزه الجنسي أو الخوف من تأثير الفضيحة على مستقبله السياسي) وعدم المقدرة على توجيه الاتهام مباشرة إلى زوجته فعد تكشف إدانتها واللجوء إلى تعميم الاتهام إلى عموم جنس المرأة: ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: 28].

/10/ المساواة بين الجاني والمجني عليه، والهزل في توقيع العقاب: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ﴾ [يوسف: 29].

/11/ الفراغ وشيوع النميمة بين نساء هذه الطبقة وكثرة القيل والقال: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [يوسف: 30].

(309/390)

/12/ نقل الوشايات: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾.

/13/ البذخ والتعود على إقامة الحفلات واتباع أصول الإتيكيت، من إرسال للدعوات وإعداد تدابير الحفل: ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾.

/14/ تقدم فن الإتيكيت ، وتقديم السرفيس لكل فرد في الأكل : ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً ﴾ .

/15/ الجبروت في التعامل مع الرفيق والخدم : ﴿ وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ .

/16/ الدراية بالرجال وشدة الانبهار بهم والتمييز بين كريم المحتد وغيره : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : 31] .

/17/ المكاشفة بالفحش وعدم الخجل منه ، ولكن داخل نفس الطبقة : ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف : 32] .

/19/ الإصرار على ممارسة الفاحشة والتهديد باستخدام النفوذ لتحقيقها : ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [يوسف : 32] .

/20/ تلفيق التهم لأبرياء ، حتى وإن ثبتت براءتهم : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ [يوسف : 35] .

/21/ الفساد السياسي (التعتيم على الجرائم وعدم رفعها إلى الملك) : ﴿ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف : 50] . ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ .

/22/ الاعتراف بالحق حينما تتأزم الأمور : ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف : 51] .

(310/390)

/23/ الاعتراف فيه راحة لجميع الأطراف : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ [يوسف : 52] . فإن كان القول لامرأة العزيز ، ففي ذلك راحة لزوجها من شك الخيانة ورفع لرأسه أمام الملأ ، وإن كان القول ليوسف عليه السلام ، ففه رد لجميل عزيز مصر الذي آواه وأكرم مثواه .

/24/ أغفل القرآن الكريم حكم الملك في هذه القضية : لأسباب لا يعلمها إلا الله ، وتجاوزه إلى أمره ليوسف أن يكون من أفراد الحكم ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ [يوسف : 54]

خامساً : العلاج الواقي من الوقوع في الفواحش داخل البيوت من خلال سورة يوسف عليه السلام :

/1/ - الحذر من الإقامة الدائمة للخدم داخل البيوت ، حتى ولو كانوا قد تربوا فيها صغاراً .

/2/ - عدم مشروعية التبني .

/3/ - عدم مشروعية الخلوة بالخدم .

/4/ - الحذر من الفراغ والنميمة وكثرة القيل والقال .

/5/ - غض البصر للرجل والمرأة ، على حد سواء .

/6/ - الحذر من المجالس السيئة .

سادساً : القوانين الإلهية الأزلية في سورة يوسف :

/1/ - ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يوسف : 5] .

/2/ - ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : 21] .

/3/ - ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : 22] .

/4/ - ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف : 23] .

/5/ - ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : 24] .

/6/ - ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ [يوسف : 52] .

/7/ - ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [يوسف : 53] .

/8/ - ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : 56] .

/9/ - ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف : 57] .

/10/ - ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : 64] .

/11/ - ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ . . . ﴾ [يوسف : 67] .

/12/ - ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 76] .

/13/ - ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف : 87] .

/14/ - ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : 90] .

/15/ - ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف : 110] .

أ . د / صلاح أحمد حسن

أستاذ العيون بكلية الطب جامعة أسيوط

o ملاحظات عامة حول سورة يوسف عليه السلام :

/1/ السورة ذكرت في كتاب الله كاملة بنفس اسم بطل أحداثها - يوسف عليه السلام -

لأن :

1- خط القصة الدرامي الأساسي متصل . . .

2- القصة مكتملة البناء الدرامي ، من حيث التمهيد ، ثم الثروة ، ثم الانفراج . . .

3- وقائع القصة وأماكن حدوثها محددة . . .

4- أحداثها لا تمثل صراعاً عقائدياً (مثل فرعون / موسى) , ولكن صراعاً سلوكياً داخل أفراد الأسرة الواحدة . .

5- ولأن شخصيتها المحورية والثانوية معدودة (يعقوب / يوسف / الإخوة / عزيز مصر وامرأته ، صاحبا السجن / الملك) .

/2/ الإشارة القرآنية المعجزة إلى ذكر القصة في كتاب الله بالعربية (لكون أبطالها لا يتكلمون العربية) ، لتكون وقائعها ، والعبر المستخلصة منها ، في غاية الوضوح : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : 2] .

/3/ ولأن الهدف الأساسي من سورة يوسف هو العظة والعبرة ، فقد حوت العديد من قواعد العلوم : طب ، علم نفس ، زراعة ، إدارة ، اجتماع ، قانون ، تشريع ، عقيدة ، وغيرها . .

/4/ السورة بلغت الإعجاز في النهاية الدرامية: فبعض الشخصيات ذكرت في نهاية مطافها (كيعقوب وإخوة يوسف)، وبعض النهايات تركت مفتوحة (كيوسف وامرأة العزيز).

/5/ يجب ملاحظة أن إخوة يوسف - برغم كل ما ارتكبوه من جرائم - كانوا مسلمين، لقوله تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: 133].

○ لماذا هو أحسن القصص؟

يقول الله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ . . . ﴾ [يوسف: 3]، فلماذا هو أحسن القصص؟

/1/ - لأنه من عند الله تعالى رب العالمين: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾.

/2/ - ولأنه عبرة لأصحاب العقول: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ﴾ [يوسف: 111]

/3/ - ولأن فيه صدق الحديث، والحدث، والأحداث: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا . . . ﴾ [يوسف: 111].

/4/ - ولأن فيه التفصيل والإحاطة بجوانب كثيرة (اجتماع - علم نفس - طب - قانون

-اقتصاد - سياسة - غدارة - دين - أخلاق) : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ [يوسف : 111] .

/5/ - ثم الهدى والرحمة للمؤمنين : ﴿ . . . وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : 111] .

أولاً : يعقوب عليه السلام :

* تحذير يوسف عليه السلام من قصّ رؤياه على إخوته : ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يوسف : 5] ، لأسباب عديدة :

أ- لأن الإخوة ليسوا أشقاء : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ .

ب- لتدلل يوسف على أبيه الشيخ الكبير (عمر يوسف كان وقتها ما بين : 8-10 سنوات) : ﴿ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾ [يوسف : 8] .

ج- لتواجد يوسف الدائم مع أبيه وعدم قيامه بالرعي مع إخوته : ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ [يوسف : 13] .

* الأدب النبوي في رد المكائد إلى الشيطان : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف : 5] .

* النبوءة :

أ- ببشارة النبوة : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ [يوسف : 6] .

ب- وكذا علم تفسير الأحلام : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف : 6] .

ج- وإتمام نعمة النبوة على آل يعقوب وختماً بيوسف : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [يوسف : 6] .

* الإيحاء لأبنائه بالذئب : ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ [يوسف : 13] .

* موقف يعقوب من محنة يوسف عليهما السلام :

أ- فراسة المؤمن : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ .

ب- الاسترجاع والتسليم بقضاء الله والاستعانة بالله عند الابتلاء : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ﴾ [يوسف : 18]

ج- ثم تفويض الأمر لله : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : 64] ، أي فالله خير حافظاً ليوسف من كل مكروه .

* محنة المجاعة :

أ- تقرير حقيقة الحسد وأخذ الحيطة للوقاية منه : ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف : 67] .

ب- ثم ترك النتائج لله : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [يوسف : 67]

ج- إحاطة يعقوب عليه السلام مسبقاً بالأحداث : ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ [يوسف : 68] .

د- صدق إحساس يعقوب بعودة يوسف وأخيه : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ﴾ [يوسف : 83] .

* محنة العمى : ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 84] .

ملاحظات :

/1/ - العلاقة بين الانفعالات النفسية والأمراض العضوية (كالمياه البيضاء والمياه الزرقاء)

: ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾ ، وكظم غيظ شديد ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 84] .

/2/ - الركون إلى حصن الله المتين عند الشدائد : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : 86] .

/3/ - سلوكيات الكفيف :

1 . الاعتماد على حاسة اللمس : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ .

2 . الظلام الحسي (العمى) والظلام المعنوي (عدم معرفة أي شيء عن يوسف) .

3 . تأهيل الكفيف .

4 . اقتران الإحباط واليأس بالكفر : ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف : 87] .

5 . رهافة حواس أخرى عند الكفيف ، كاللمس والشم : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : 94] .

* معجزة استرجاع الإبصار : ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ [يوسف : 96] .

* تأكيد يعقوب عليه السلام على سبق علمه بالأحداث : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : 96] .

* نقاء وسماحة النبوة في كل الأحوال : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ [يوسف : 98] .

ثانياً : يوسف عليه السلام :

تفرد الرؤيا عند الطفل يوسف عليه السلام : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : 4] .

1- عدم تناسب الرؤيا من المرحلة السنية للطفل .

2- جدية تلقي الرؤيا من الأب .

المحنة الأولى :

الجب : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ . . ﴾ [يوسف : 15] .

المحنة الثانية :

الاسترقاق : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ [يوسف : 19] ، ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ [يوسف : 20] . على اعتقاد أنه عبد آبق أو لخوفهم من سماسرة العزيز .

ملاحظات :

1- كيف وصل يوسف إلى عزيز مصر ؟ هل عن طريق البصاصين أم سماسرة تجار الرقيق الذين أحاطهم بطلبه ؟

2- فراسة عزيز (وزير) مصر في يوسف : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾

3- الإشارة ضمناً إلى قضية الإنجاب : ﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ . نفس قول امرأة فرعون في موسى : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [القصص : 9] .

4- التمكين ليوسف في الأرض : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [يوسف : 21] .

5- تعليم تفسير الأحلام ، إما وحياً وإما عن طريق معلمين في القصر : ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف : 21] .

(316/390)

6- هبة الحكم والعلم : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : 22] .

7- قانون رد الإحسان بالإحسان : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : 22] .

المحنة الثالثة :

الغواية : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف : 23] .

ملاحظات :

1- هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ (الأصل الطيب : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ [يوسف : 23] .

2- دلالة ثانية للطب الشرعي في التاريخ : فحص ملابس المجني عليه : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ [يوسف : 25] .

المحنة الرابعة :

التحرش الجنسي الجماعي : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : 33]

المحنة الخامسة :

السجن ظلماً (الاحتياطي) : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ

﴾ [يوسف: 35] .

ملاحظات:

1) واجب الدعوة إلى الله حتى في السجن: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: 39] .

2) إذاً فاسأل الله: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف: 42] .

3) علاقة الشيطان بالنسيان عند الإنسان:

أ- ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: 68] .

(317/390)

ب- ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف: 42] .

ج- ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ . . . ﴾ [الكهف: 63] .

د- ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ [المجادلة : 19] .

4) الإشارة إلى عدم أحقية العالِم (بكسر اللام الثانية) في حجب العلم أو الامتناع عن الفتوى لمن يطلبها .

5) اللين والأدب والحياء في التظلم إلى ولي الأمر : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف : 50] .

6) واجب استجلاء الأمور من ولي الأمر : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ .

7) إعلان براءة يوسف : ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ .

8) اعتراف امرأة العزيز : ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف : 51] .

9) تقريب الملك ليوسف : ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف : 54] .

10) مؤهلات تولي الإمارة : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 55] .

نعم الله على يوسف عليه السلام :

1) الخروج من السجن: ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ . . . ﴾ [يوسف : 100] .

2) التمكين في الأرض: ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف : 54] .

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 55] .

3) لقاء الأشتات:

(318/390)

وقد يجمع الله شتيتين بعدما يظنان كل الظن أنهما لا يتلاقيا :

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ [يوسف : 58] .

4) الترغيب والترهيب لإخوانه :

أ – الترغيب : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ [يوسف : 59] .

ب – الترهيب : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ [يوسف : 60] .

5) اعتراف إخوته ضمناً بنفس أسلوبهم الإجرامي الذي اتبعوه مع يوسف : ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ [يوسف : 61] .

6) الجزاء من جنس العمل : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ [يوسف : 70] .

أ- العقاب النفسي جزاء جرائمهم السابقة .

ب- لتطبيق قوانين مصر على أخيه (الاسترقاق) .

ج- المكر الخير : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال : 30] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : 54] .

7) انتقال أبويه وإخوته من البدو إلى الحضر : ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ .

8) الصلح مع إخوته : ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ [يوسف : 100] .

9) الشكر له على النعم :

أ- الملك : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ .

ب- علم تفسير الأحلام : ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ .

ج- نعمة الموت على الإسلام : ﴿ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف : 101] .

ثالثًا : إخوة يوسف عليه السلام :

/1/ الجريمة الأولى في حق يوسف عليه السلام :

الشروع في قتل يوسف : وهي جريمة مكتملة الأركان ، من حيث سبق الإصرار والترصد ، قام فيها الجناة (إخوة يوسف) بعقد النية والاتفاق الجنائي بينهم ، ورسم الجريمة وتنفيذها في أخيهم يوسف (عليه السلام) .

أولاً : الدافع للجريمة : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ [يوسف : 8] . لما ظنوه من قرب أبيهم من يوسف ، وتدليله ، وعدم جعله يشاركهم الرعي .

ثانياً : ارتباط السلوك الإجرامي بسوء الخلق : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [يوسف : 8] .

ثالثاً : الاتفاق الجنائي واستعراض الخيارات : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً ﴾ [يوسف : 9] .

رابعاً : نية التوبة بعد الجريمة : ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ [يوسف : 9] ، وبزوغ القاعدة الفقهية : (الإصلاح بعد جريمة) ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [النساء : 17] .

خامساً : اختلاف درجات الإجرام والمسؤولية الجنائية بين المجرمين في الجريمة الواحدة :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [يوسف : 10] .

سادساً : خطوات تنفيذ الجريمة :

1) التمسكن للأب وإظهار الحب ليوسف : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ [يوسف : 11] .

2) الإغراء بالأكل واللعب (احتياجات الطفل الأساسية) : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ [يوسف : 12] .

3) والتعهد بالمحافظة عليه : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [يوسف : 12] .

ملاحظات :

(320/390)

توصل إخوة يوسف بالغريزة إلى أحداث أبحاث التربية في تربية الطفل وهي :

1) أمانة المعلم على الطفل .

2) الرفق بالطفل عند النصح له .

3) توفير المأكل والملعب أهم من تلقي العلم في هذه السن الصغيرة (ارجع إلى حديث

الرسول : (لاعبوهم على سبع ، واضربهم على سبع ، وصاحبهم على سبع) ، والمثل الشعبي : (اديه رمحه وما تدهش قمحة !) .

4) توفير السلام والحماية للطفل .

ملاحظات :

إخلال إخوة يوسف عليه السلام بجميع شروط العقد :

أ- تعهدوا بسلامة يوسف عليه السلام ، وهم به متربصون .

ب- تعهدوا بالنصح له ، وهم له كارهون .

ج- تعهدوا بالمحافظة عليه ، وهم له مضيعون .

د- أخلوا بعهدهم في جعله يأكل ويلعب .

أكاذيب إخوة يوسف بعد الجريمة (الحبكة الدرامية) :

1) الحضور عند العشاء يبكون (الرعاة لا يتأخرون - عادة - بعد المغرب إلا لأمر جلل) : ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ [يوسف : 16] .

2) اختلاف الرواية : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ [يوسف : 17] .

3) شكهم في أقوالهم : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف : 17] .

4) أول دلالة للطب الشرعي في التاريخ : الدم الكذب : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ

كَذِبٍ ﴾ [يوسف : 18] .

/2/ الجريمة الثانية في حق يوسف عليه السلام :

1- القذف : ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ [يوسف : 77] .

2- معرفة يوسف بسلوك إخوته : ﴿ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ [يوسف : 77] .

3- اعتراف إخوة يوسف بفضله عليهم وسوء فعلهم : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف : 91] .

4- توبة إخوة يوسف واللجوء إلى أبيهم ليستغفر لهم : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ [يوسف : 97] .

رابعاً : بعض المظاهر السلوكية والاجتماعية للطبقة الراقية في سورة يوسف عليه السلام :

/1/ امرأة عزيز مصر (أسوأ النساء حظاً في التاريخ) :

أ- صاحبة أول جريمة اغتصاب فاشلة تقوم بها امرأة لرجل في التاريخ .

ب- لم ترزق الذرية ، وأوقعها حظها العاثر في غواية نبي معصوم .

ج- وصاحبة أخلد فضيحة، إذ صارت قرآناً يتلى حتى يوم الدين .

/2/ إن المرأة تأخذ المبادأة : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ [يوسف : 23] .

/3/ وإنها قد تكون الطرف الموجب : ﴿ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف : 23]

/4/ وقد تكون مغتصبة : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف : 24] . لكل فعل إنساني ثلاث مراحل : إدراك ووجدان ونزوع ، ولقد أتمت امرأة العزيز الفعل بأكمله ، ولكن الفعل وقف عند يوسف عند مرحلتي الإدراك والوجدان (مراحل نفسية داخلية) ، وتوقف عند النزوع (حيث لا حساب) ، لأمر أظهره له الله تعالى : ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : 24] .

/5/ وقد تلجأ إلى المطاردة : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ [يوسف : 25] .

/6/ وقد تلجأ إلى العنف لتحقيق مرادها : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ [يوسف : 25] .

/7/ وقد تستخدم الكذب وقول الزور عند افتضاح أمرها : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 25] .

/8/ ولها من النفوذ ما يجعلها تقترح العقوبة : ﴿ إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 25]

/9/ ضعف شخصية الزوج : (إما لضعف شخصيته أو لعجزه الجنسي أو الخوف من تأثير الفضيحة على مستقبله السياسي) وعدم المقدرة على توجيه الاتهام مباشرة إلى زوجته فعد تكشف إدانتها واللجوء إلى تعميم الاتهام إلى عموم جنس المرأة : ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 28] .

/10/ المساواة بين الجاني والمجني عليه ، والهزل في توقيع العقاب : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ﴾ [يوسف : 29] .

/11/ الفراغ وشيوع النميمة بين نساء هذه الطبقة وكثرة القيل والقال : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [يوسف : 30] .

/12/ نقل الوشايات : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ .

/13/ البذخ والتعود على إقامة الحفلات واتباع أصول الإتيكيت ، من إرسال للدعوات وإعداد تدابير الحفل : ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ .

14/ تقدم فن الإتيكيت، وتقديم السرفيس لكل فرد في الأكل: ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً ﴾ .

15/ الجبروت في التعامل مع الرفيق والخدم: ﴿ وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ .

16/ الدراية بالرجال وشدة الانبهار بهم والتمييز بين كريم المحتد وغيره: ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: 31] .

17/ المكاشفة بالفحش وعدم الخجل منه، ولكن داخل نفس الطبقة: ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف: 32] .

(323/390)

19/ الإصرار على ممارسة الفاحشة والتهديد باستخدام النفوذ لتحقيقها: ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [يوسف: 32] .

20/ تلفيق التهم لأبرياء، حتى وإن ثبتت براءتهم: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ [يوسف: 35] .

21/ الفساد السياسي (التعتيم على الجرائم وعدم رفعها إلى الملك): ﴿ قَالَ ارْجِعْ

إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف : 50] . ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ .

/22/ الاعتراف بالحق حينما تتأزم الأمور : ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف : 51] .

/23/ الاعتراف فيه راحة لجميع الأطراف : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ [يوسف : 52] . فإن كان القول لامرأة العزيز ، ففي ذلك راحة لزوجها من شك الخيانة ورفع لرأسه أمام الملأ ، وإن كان القول ليوسف عليه السلام ، ففه رد لجميل عزيز مصر الذي آواه وأكرم مثواه .

/24/ أغفل القرآن الكريم حكم الملك في هذه القضية : لأسباب لا يعلمها إلا الله ، وتجاوزه إلى أمره ليوسف أن يكون من أفراد الحكم ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ [يوسف : 54]

خامساً : العلاج الواقي من الوقوع في الفواحش داخل البيوت من خلال سورة يوسف عليه السلام :

/1/ - الحذر من الإقامة الدائمة للخدم داخل البيوت ، حتى ولو كانوا قد تربوا فيها صغاراً .

/2/ - عدم مشروعية التبني .

/3/ – عدم مشروعية الخلوة بالخدم .

/4/ – الحذر من الفراغ والنميمة وكثرة القيل والقال .

/5/ – غض البصر للرجل والمرأة ، على حد سواء .

/6/ – الحذر من المجالس السيئة .

(324/390)

سادساً : القوانين الإلهية الأزلية في سورة يوسف :

/1/ – ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يوسف : 5] .

/2/ – ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : 21] .

/3/ – ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : 22] .

/4/ – ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف : 23] .

/5/ – ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : 24] .

/6/ – ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ [يوسف : 52] .

/7/ – ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [يوسف :

[53].

/8/ - ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: 56].

/9/ - ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف: 57].

/10/ - ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: 64].

/11/ - ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ . . . ﴾ [يوسف: 67].

/12/ - ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: 76].

/13/ - ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: 87].

/14/ - ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: 90].

/15/ - ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: 110]. انتهى. اهـ

﴿ بحث بعنوان: بعض جوانب الإعجاز العلمي في سورة يوسف

أ. د/ صلاح أحمد حسن ﴾

(325/390)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى:

سورة يوسف

ربما أحس يوسف الصديق وهو صبى أن له شأنا عند الله ! من يدرى ؟ قد يكون من المصطفين الأخيار الذين يقودون الناس فى ميدان الشرف والحق ! إنه أصغر إخوته ، ولكن سيرة إخوته الكبار لا تومئ إلى فضل ولا تنضح بخير . . . وهو أقرب إلى أبيه منهم وأحب ! . من يدرى ؟ لعل ميراث النبوة يكون من نصيبه ؟ إن يعقوب أباه ورث إسحاق ، وإسحاق ورث إبراهيم ، فهل يكون حلقة فى هذه السلسلة ؟ وشاء الله أن يسوق إليه البشرى فى رؤيا صالحة " إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين . . . " . وشام يعقوب من الرؤيا مستقبل ابنه الصغير ، وخشى عليه من إخوته ! "قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين * وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب . . . " . لكن أحقاد الإخوة الكبار لاحقت الشاب المختار ، فإذا هو مطارد مقبوض عليه مرمى فى قعر بئر بين الهلاك والنجاة . . . ويشاء الله أن يقذف فى روعه بالأمل العريض ، إن هؤلاء الإخوة الأقوياء المتآمرين عليه سوف يقفون بين يديه يوما ليوبخهم على ما صنعوا ! إنه الآن صغير مغلوب على أمره أمامهم ، وغدا سوف يسائلهم على ما يفعلون ! . لقد تركوه وحده ظانين أنهم انتهوا منه ، وهيهات ! ! فالله غالب على أمره " فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا

وهم لا يشعرون " إن يوسف ـ وهم يولون ـ رمقهم كما يرمق القاضى المتهمين ! وانفسح أمامه المستقبل ، فأدرك أنه الرابح وهم الخاسرون . . ويشاء الله ـ بعد عشرات السنين ـ أن تتحقق هذه النبوءة ، وأن يجئ أولئك الإخوة إلى يوسف أذلة يطلبون الصدقة بعد أن صار عزيز مصر ، وهم لا يعلمون: " فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق

علينا إن الله يجزي المتصدقين *

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ" ؟ إن ساعة العسرة فى قعر الجب كانت الطريق إلى القمة فى هذه الدنيا ، فما أعجب أقدار الله ! ! والواقع أن اليقين المتألق بالرجاء فى طلب يوسف ، انحدر إليه من يقين أبيه فى الله ، فعندما رجع الإخوة الكبار بعد تنفيذ مؤامرتهم يقولون لأبيهم " . . إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين " ، قال: " بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون " إن الصبر الجميل أعقب الخير الجزيل ، وحقق ليوسف وأبيه ما كانا يؤملان . . . وقصة يوسف قطعة من تاريخ الأحياء ، وليست رواية

من وضع بشر . وأدب القصة شائع فى عصرنا شيوعا واسعا ، وهو ـ على اختلاف مادته ـ خيال مفتعل ، ينفخ فيه المؤلف الروح ، فإذا أبطال الرواية يتحركون نحو ما رسم المؤلف لهم من وجهة ، وبما يجرى على ألسنتهم من حوار ، والمسئولية بدءا ونهاية على الكاتب الذى يملى أفكاره ، ويخدم مبادئه وأغراضه . وقديما اختار مؤلف "كليلة ودمنة" أشخاصه من الحيوانات ، فأنطقها بما شاء من جد وهزل . . أما التاريخ المسطور فهو نسق آخر تظهر فيه سنن الله فى الناس ، وتملى الحقائق نفسها على من يحسن الإفادة والاعتبار ، ولذلك يقول الله لنبيه: "نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين" وليس لمحمد دخل فيما أوحى الله إليه ، إنه يتلقى ما يجيئه وحسب ! ! "ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون" . وقد ختمت السورة بآية يصح أن يوصف بها كل ما ساق الإسلام من قصص "لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون" . وقصة يوسف فى الدعوة إلى الله والدأب على البلاغ ـ مهما كثرت العوائق ـ مثل يحتذى ،

ويظهر

أن نبوته بدأت مع بلوغه الرشد ، قال تعالى: " ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين " . والحكمة والمعرفة أولى هدايا الله لأنبيائه ، وقد قال الله فى لوط-عليه السلام-: " ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث . . " وقال فى موسى : " ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين" . وقد بيع يوسف سليل الأنبياء عبدا رقيقا ! وكان الذين باعوه زاهدين فى استبقائه كأنه حمل ثقيل ! . ما أعجب تصاريف الليالى ! ملك كريم يباع على أنه سلعة كريهة ! ! " وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا . . . " وانتقل ابن الأنبياء إلى قصر الملك ليعمل فيه ، وليواجه نوعا آخر من الابتلاء لم يخطر له ببال ! . لقد كان فى هذه الفترة الباكرة من شبابه حسن المعرفة لربه ، صاحب تقوى يتفرد بها ، وشق لنفسه طريقه الخاص " وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون" . كان يوسف يقدر البيت الذى آواه ، ويصون محارمه ، وكانت لرب البيت مكانة خاصة عنده ، فهو لم يكن فرعونا من الفراعنة المستعلين فى الأرض ، بل كان رجلا دمث الأخلاق ، ظاهر الشرف . وقد أحبه يوسف وعرف له حقوقه . ثم إن الأيام لم تنس يوسف أصله العريق ودينه الموروث ، لقد كان آباؤه دعاة إلى الله ، فليبق على نهجهم فى عبادة الله الواحد ، وفعل الخير ، وترك الآثام . إن هذا

البيت تبناه ، لكن التبنى لا ينشئ علاقة طبيعية ، وإذا كان عزيز مصر قد أحب يوسف لشمائله النبيلة ، فإن امرأة العزيز أكنت نحوه عاطفة أخرى ! ! . كان يوسف رجلا رائع الجمال ، أوتى نصف الحسن الموجود فى العالم كله . ونظرت الأم المزعومة إلى رجل قريب منها يعيش فى كنفها وسلطانها فطمعت فيه ، ويوسف

فوق هذه المنزلة الموهومة ، فقد صقل الإيمان طبعه ، وزكى نفسه ، وقوى بالله صلته ، فلم يخطر بباله أن يلم بدنية ! ! . فلما تعرضت له المرأة ثار يقينه فى أعصابه ، وذكر مواثيق الشرف التى ورثها عن آبائه ، وذكر معها حرمة رب البيت الذى آواه وكرمه ، كيف يطعنه فى عرضه ؟ "وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون" . ومفروض فى الإيمان العادى أن ينجح فى هذه التجربة ، فقد جاء فى السنة أنه بين السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله: "رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال: إنى أخاف الله . . . " ! ! ويوسف فى هذا الموطن الخطير أحق من يخاف الله ! . وقد رفض المعصية يقينا ، صرحت بذلك امرأة العزيز وهى تقول : " . . . ولقد راودته عن نفسه فاستعصم" . وقد كان يوسف

شابا مكتمل الرجولة، ناضج الغريزة، وكانت نفسه تهوى، ولكن دون ذلك الموت، فما يمكن أن يتدلى إلى هذا الدرك، كانت نوازع الشرف والدين والتقوى تكبت كل نداء. ولو كان شابا بارد الطبع لا شهوة له فمن أين يكون له فضل؟ "ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين"!!. لقد انتصرت المقاومة المؤمنة على المراودة الخاطئة، وبقى يوسف ذاكرا لربه وقافا عند حدوده..!! وأقبل العزيز، وامرأته تشد قميص يوسف، وهو يفر منها! كانت المعركة قد بلغت نهايتها، وعندما شعرت الزوجة السفيهة بحرج موقفها اتجهت على عجل تقول له: "ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم"!! وصاح يوسف. والشواهد على صدقه متكاثرة. "قال هي راودتني عن نفسي..." . اللهجة العفيفة، والجبين المتألق بالشرف! يشهدان له، ولم يكن هناك تسجيل للصوت أو للصورة يحكم فى القضية، فبقيت القرائن العقلية.

المرأة الوهى شدت الشاب الفارّ من خلفه فمزقت ثوبه، وإلا فالشاب هو المتهم، هكذا يقول القضاء: "... وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من

الكاذبين * وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين * فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم" . والحكم بالقرائن من أدلة الشريعة ، ويمكن اعتباره فى البصمات وتحاليل الدم وما أشبه ذلك مما جد فى هذا العصر . . . بيد أن امرأة العزيز قاومت القرائن التى توفرت ضدها ، بل جمحت بها مشاعرها السائبة جماحا بعيدا ، فلما تناثرت الشائعات حولها تركت الإنكار وعالنت بعاطفتها وعذرها معا . وكأنها تقول لمن يتحدث عنها : لو كنت مكانى لسلكت مسلكى ! ! من الذى لا يعشق البدر ؟ ! "وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين" ! . وجمعت المرأة النسوة اللائمات وأمرت يوسف أن يخرج عليهن فى حفل أعدته يأكلن فيه الفواكه ، وغيرها ، فلما طلع عليهن يوسف شدهن ، وحارت الألباب ، وجرحن أيديهن بما فيها من سكاكين . . وقلن: "ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم" . وهنا كانت العاطفة المشبوبة قد بلغت ذروتها بامرأة العزيز ، فجن جنونها وقالت: "ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين" . إن هذا تصريح خرج فى غيبة العقل ، كانت المرأة فيه مغلوبة على أمرها حتما ، ولكن الدنس هو الدنس ، ولو دافع عنه "فرويد" وأساغته حضارة الغرب ، وساقت حوله المعاذير . . وكان يوسف يجسد الشرف والرجولة ، وأدب النفس ، وإرضاء الله عندما قال: "رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن

أصب إليهن وأكن من الجاهلين * فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم" . كيف نجا من هذا الكيد ؟ ترك القصر لصاحبته ، فأخرج منه وهو الأمين عليه ، الحافظ لحقه ، وأودع السجن حتى تختفى القصة كلها وراء أسواره " ثم بدا لهم من بعد ما رأوا

الآيات ليسجننه حتى حين " .

فى سورة يوسف ثلاث رؤى جاءت كوضح النهار . أولاها : ما قصه على أبيه أول السورة من سجود الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا ، وسنعرف ـ بعدُ ـ تأويل هذه الرؤيا . أما الثانية فقد وقعت مع مبادئ عهده بالسجن : " ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين" ! والرؤى ضرب من الغيوب يتصل بالجانب الروحى من الإنسان ، وهى ـ مع صدقها ـ ليست دلالة خير ولا شر ، إنها دلالة قوة خارقة فى الكيان البشرى يستشرف بها على ما يعجز غيره من الناس ! . وأعرف رجلا كان فى القاهرة ، وأراد السفر إلى الريف رأى فى منامه جنازة قريب له ، والمشيعون حولها ، وهى تخرج من دارهم

متجهة إلى المقابر فى موكب معين ! . فلما سافر إلى القرية شاهد الموكب نفسه على النحو الذى رآه لم يختلف منه شيء . . . كانت الرؤيا حقا . . وأعرف من انكشفت لهم غيوب على هذا النحو دون سبب ظاهر ، ومن ذلك الرؤية عن بعد فقد حكوا عن الفيلسوف الألمانى "كانت" أنه رأى حريقا على بعد أكثر من مائة ميل ، وروينا نحن قصة عمر بن الخطاب الذى كان يخطب فى المدينة ، فسمع يقول: يا سارية الجبل ! ! وكان "سارية" أحد قواده ، وقد رأى عمر العدو وتخلل المسلمين من ناحية الجبل ، فصاح صيحته ! ! . قالوا: وقد سمعها القائد وهو فى الجبهة ، ونجا بجيشه ! ! . وليست لهذه الأحداث قاعدة مقررة ، وإنما ذكرناها لتلقى ضوءا على ما وقع ليوسف ، لقد سمع رؤى صاحبيه ثم تحدث عن نفسه: " قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون * واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء . . . " . إن يوسف معتز بعقيدة التوحيد التى ورثها عن آبائه ، والتى صاحبته وهو يعبر مؤامرات القصور المترفة ، والتى تصحبه

الآن وهو داخل السجن ! . وقد أبى إلا أن يتحدث عنها فى سجنه داعيا رفاقه إلى الإيمان: "يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ " إن ما عدا الله وهم لا حقيقة له ، واسم لا مسمى له ، فكيف نتعلق بالأوهام؟ ونظن الأصفار شيئًا ؟ .

والغريب أن الحضارة الحديثة كشفت الكثير من عجائب الكون ، وعاينت من آثار العظمة العليا ما يدفع إلى الله دفعا . ! ومع ذلك فهى واهية الصلة بالله ، لا تفكر فى لقائه ، ولا تنتفع بوحيه ، ولا تكترث إلا بضروراتها المادية . وما يرفه معيشتها على ظهر الأرض . . .

وفسر يوسف الرؤيا الثانية: "يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه . . " مصيران متناقضان ، هذا ما دلت عليه الرؤيا ! ! "

وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين" . إن ساقى الملك غمرته أضواء القصر فنسى السجن وأيامه ورفاقه ، ونسى الرجل المحسن البرىء المحبوس ظلما ! . ولكن جد ما ذكر بيوسف بعد عهد طويل ، فقد رأى الملك فى منامه ما أفزعه ، وعجز من حوله عن تعبير رؤياه ، فقال الساقى: أرسلونى إلى السجن آتكم بالخبر اليقين "يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون" . وفسر يوسف الرؤيا ، وأخبر الملك بالتفسير المهم وهذه هى الرؤيا الثالثة ، فقال: إيتونى بيوسف ! ! وأبى يوسف المجىء حتى تتحقق براءته وتمحى تهمته . ودبت الحياة فى

القضية الهامدة ، وأحضرت النسوة العارفات بما حدث " قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين" . وقال يوسف ـ بعد هذا الاعتراف ـ قاصدا إفهام الملك ما كان: " ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين" ! ! .

وشعر الملك أن يوسف أحق الناس بولاية الأمر

فى أثناء السنوات التى تتحقق فيها الرؤيا ، إنه مستقبل شعب كبير ، وأحق الناس برعايته من تنبأ به " وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين" ! ! واختار يوسف لنفسه أن يكون وزيرا للمال مسئولا عن تموين الناس:

قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم * وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين" . ونلحظ أن يوسف عرض الخصائص النفسية والعلمية التى ترشحه للمنصب ، فهو ليس عابدا عفيفا فقط ، بل صاحب خبرة فى شئون المال ، يعرف كيف يحصله وكيف يوزعه . وقد أباح لنفسه طلب المنصب لأنه ليس هناك من هو أحق به منه ، ومن المصلحة العامة أن توضع الأمور

فى يد القوى الأمين بدل أن توضع فى يد عاجز قليل الخبرة . . ! وقد طلب خالد بن الوليد أن يقود المسلمين فى معركة اليرموك ، لأن غيره من القادة أعجز من أن يواجه فنون الروم العسكرية ، والتجارب هنا فادحة الخطأ . لذلك طلب أن يمنح القيادة أول يوم ، فأعاد تعبئة الجيش ، ووضع خطة ذكية لمواجهة العدو ، وكان النصر ! ! . إن طلب الإمارة خطيئة كبيرة يوم تكون استجابة لجنون العظمة ، ورغبة فى الوجاهة والاستعلاء . . وأغلب مصاب الأمم من أولئك المتطلعين المرضى . قدمت السنوات العجاف حسب رؤيا الملك وتفسير يوسف ، ويظهر أن جدبها تجاوز وادى النيل إلى بادية الشام ، فهرع أهلها يطلبون القوت من مصر التى استعدت لاستقبال الكارثة . وكان إخوة يوسف بين أولئك القادمين ! " وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون" . فأحسن وفادتهم ، وتعزف على أحوالهم ، وبعد تلطف مقصود طلب منهم أن يأتوا معهم بأخيه الشقيق فى المرة التالية "قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون " وفزع الأب لهذا الطلب وقال لبنيه: " هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين" . ولكن إلحاح الحاجة مع إلحاح الإخوة جعله يستجيب ، ولما أرسله

معهم. وهم ذاهبون للمرة الثانية. " وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون" . ويظهر أن يعقوب خاف عليهم أن يتهموا بأنهم جواسيس دولة أجنبية ، لأن منظرهم. وكانوا فوق العشرة. وامتداد قاماتهم ، وفراهة هيئتهم ، يجعلهم نهب الظنون ! ! . والتقى الكل عند يوسف الذى استقبل أخاه الشقيق استقبالا خاصا "ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون" ! ! ولابد أن يوسف علم من أحوال أخيه ما جعله بهذه الكلمة يواسيه ! . ثم مكر يوسف مكرا حسنا بإخوته ، واستطاع بالحيلة أن يحجز أخاه ، وأن يفرض عليهم العودة إلى أبيهم بدونه ، لقد خبأ المكيال فى متاع أخيه ، فلما عثرت الشرطة عليه آخذتهم بالجريمة وطردتهم . . وعلم يعقوب بأن شقيق يوسف قد فقد هو الآخر فصاح: " عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم" ! ! . والحق أن مصاب يعقوب جلل ، فقد كان يحس فى أعماق قلبه أن يوسف حى ، وأنه عائد إليه حتما ، فإذا هو يفقد ابنه الآخر ، وتتضاعف عليه الآلام ، فهو لا يرى هذا ولا ذاك . . . "وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم " . وفى ضراعة أخيرة ورجاء باقٍ فى الله قال : "يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون" . وخرج إخوة يوسف للمرة الثالثة إلى مصر ، كانت قلوبهم

منكسرة ، وأحوالهم كئيبة ، وذلتهم بادية " فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين" وأماط يوسف اللثام عن شخصيته بعدما لمس من إخوته هذا الهوان ، وقال لهم فى نبرة هزت قلوبهم ، وأحيت الخامد من مشاعرهم : "هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون" ؟ " قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا

يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين" .
ذكر يوسف سنة اجتماعية تشبه سنن الله الكونية ! التقوى والصبر ينتجان النجاح ، كما تقول: أوكسجين وإيدروجين ينتجان الماء ، أو تقول: زوايا المثلث تساوى قائمتين . إنه بعد عشرات السنين من بدء الرواية أحس الجميع أن قوانين الله حق "ومن أصدق من الله قيلا" ؟ . "قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين * قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين" إن الكبير لا يحقد ، وهو بعد انتصاره يزداد سماحة وتواضعا لله ، ثم قال يوسف لأخوته: "اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين" .

وتحرك الركب من مصر إلى الشام ، وفجأة سمع الذين حول يعقوب صيحة استبشار منه لا يعرفون ما أتاها ! ! سمعوه يقول: " إني لأجد ريح يوسف " لولا أن تنسبونى إلى الحمق ! . إن عالم الروح عجيب ! كيف سرت البشرى إلى فؤاد يعقوب ؟ كيف أحس بما وقع ؟ " فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون" وبعد أيام قلائل كان تأويل الرؤيا الأولى يتم كما تم تأويل الثانية والثالثة ! ! " فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين * ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم" . بعد أن تمت القصة التى سرد القرآن أحداثها قال الله لنبيه محمد : " ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون" . نعم إنه ما كان لديهم فيرى ، وما كان قارئا حتى يطالع أخبارها ، إنه الوحى الأعلى قص عليه ما كان دون تزيد ولا تحريف ، ومع ذلك فكثير من الناس مكذب بنبوة محمد . وفى عصرنا هذا طاعنون من الوثنيين والكتابيين لا حصر لهم ، ولا

ينقطع لهم لغو ، ليكن " ! ! فلن يوقفوا سير الرسالة الخاتمة " قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين " . إنهم مغلقون لا تقع عيونهم من الكون على ما يعرفهم بالله ، أو يقودهم إلى وحيه " وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون " . انتهى انتهى . اهـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 177 186.﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والتسعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/391)

الجزء الحادى والتسعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة يوسف عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 10 ﴾ من نفس السورة

(4/391)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/391)

فصل

قال السيوطى :

سورة يوسف

أقول : وجه وضعها بعد سورة هود زيادة على الأوجه الستة السابقة: أن قوله في مطلعها : (نحن نقص عليك أحسن القصص) مناسبة لقوله في مقطع تلك: (وكلا نقص عليك من أنباء ما نثبت به فؤادك) وأيضاً فلما وقع في سورة هود (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) وقوله: (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) ذكر هنا حال يعقوب مع أولاده ، وحال ولده الذي هو من أهل البيت مع إخوته ، فكان كالشرح لإجمال ذلك وكذلك قال هنا : (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق) فكان ذلك كالمقترن بقوله في هود : (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) وقد روينا عن ابن عباس وجابر بن زيد في ترتيب النزول: أن يونس نزلت ، ثم هود ، ثم يوسف وهذا وجه آخر من وجوه المناسبة في ترتيب هذه السور الثلاث ، لترتيبها في النزول هكذا . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 109﴾

قوله تعالى ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

﴿ بسم الله ﴾ الذي وسع كل شيء قدرة وعلماً ﴿ الرحمن ﴾ الذي لم يدع لبساً لعموم رحمته في طريق الهدى ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص حزبه بالإبعاد عن موطىء الردى.

لما خلل سبحانه تلك مما خللها به من القصص والآيات القاطعة بأن القرآن من عنده وبإذنه نزل، وأنه لا يؤمن إلاّ من شاء إيمانه، وأنه مهما شاءه كان، وبيّن عظيم قدرته على مثل ما عذب به الأمم وعلى التأليف بين من أراد وإيقاع الخلاف بين من شاء، وأشار إلى أنه حكم بالنصرة لعابديه فلا بد أن يكون ما أراد لأنه إليه يرجع الأمر كله، تلاها بهذه السورة لبيان هذه الأغراض بهذه القصة العظيمة الطويلة التي لقي فيها يوسف علية الصلاة والسلام ما لقي من أقرب الناس إليه ومن غيرهم ومن الغربة وشتات الشمل، ثم كانت له العاقبة فيه على أتم الوجوه لما تدرع به من الصبر على شديد البلاء والتفويض لأمر الله جلّ وعلا تسلية لهذا النبي الأمين وتأسية بمن مضى من إخوانه المرسلين فيما يلقى في حياته من أقاربه الكافرين وبعد وفاته ممن دخل منهم في الدين في آل بيته كما وقع ليوسف عليه السلام من

تعذيب عقبه وعقب إخوته ممن بالغ في الإحسان إليهم ، وقد وقع ليوسف عليه السلام بالفعل ما همّ الكفار من أقارب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بفعله به كما حكاه سبحانه في قوله ﴿ ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾ [الأنفال : 30] فنجا منهم أن يكون شيء منه بأيديهم إلاّ ما كان من الحصر في شعب أبي طالب ومن الهجرة بأمر الحكيم العليم ، ثم نصر الله يوسف عليه السلام على إخوته الذين فعلوا به ذلك وملكه قيادهم ، فكان في سوق قصته عقب الإخبار بأن المراد بهذه القصص تثبيته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتسلية فؤاده إشارة إلى البشارة بما وقع له ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم الفتح من ملك قيادهم ورد عنادهم ومنّه عليهم وإحسانه إليهم ، وفي إشارتها بشارة بأن المحسود يعان ويعلى إن عمل ما هو الأحرى به والأولى ، ومن فوائد ذكرها التنبيه على أن الحسد داء عظيم شديد التمكن في النفوس حتى أنه بعزم تمكنه وكثرة مكانه وتعدد كائنه ربما غلب أهل الصلاح ألاّ من بادر منهم بالتوبة داعي الفلاح

(7/391)

، وتركت إعادتها دون غيرها من القصص صوناً للأكابر عن ذكر ما ربما أوجب اعتقاد نقص ، أو توجيه طعن أو غمص ، أو هون داء الحسد ، عند ذي تهور ولدد ، وخللها

سبحانه ببليغ الحكم وختمها بما أنتجت من ثبوت أمر القرآن ونفي التهمة عن هذا النبي العظيم.

هذا مناسبة ما بين السورتين، وأما مناسبة الأول للآخر فإنه تعالى لما أخبر في آخر تلك بتمام علمه وشمول قدرته، دل على ذلك أهل السبق من الفصاحة والفوت في البلاغة في أول هذه بما فعل في كلامه من أنه تعالى يقدر على أن يأتي بما تذهب الأفهام والعقول - على كرِّ الأزمان وتعاقب الدهور وتوالي الأيام وتمادي الليالي - في معناه كل مذهب وتطير كل مطار مع توفر الدواعي واستجماع القوى، ولا تقف من ذلك على أمر محقق ولا مراد معلوم وعلى أن يأتي بما يفهم بأوائل النظر أدنى معناه فهما يوثق بأنه مراد، ثم لا يزال يبرز منه من دقائق المعاني كلما كرر التأمل وتغلغل الفهم إلى حد يعلم أنه معجوز عن كل ما فيه من جليل معانيه ولطيف مبانيه فقال تعالى: ﴿الر﴾ قال الروماني: لم تعد الفواصل لأنها لا تشاكل رؤوس الآيات لأنها على حرفين، فأجريت مجرى الأسماء الناقصة، وإنما يؤم بالفواصل التمام، وأما "طه" فيعد لأنه يشبه رؤوس آيها - انتهى.

وهذا قول من ذهب سهواً إلى أن السجع مقصود في القرآن، وهو قول مردود غير معتد به كما مضى القول فيه في آخر سورة براءة، فإنه لا فرق بين نسبته إلى أنه شعر وبين نسبته إلى أنه سجع، لأن السجع صنع الكهان فيؤدي ذلك إلى ادعاء أنه كهانة وذلك كفر لا شك فيه

، وقد أطنبت فيه في كتابي مصاعد النظر ، وبينت مذاهب العادين للآيات وأن مرجعها التوقيف مثل نقل القراءات سواء - والله الهادي .

(8/391)

ولما ابتدئت السورة الماضية بأن هذا الكتاب محكم ، وختمت بالحكمة المقصودة من قص أنباء الرسل ، وكان السياق للرد عليهم في تكذيبهم به في قوله ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ [سجدة : 3] ودل على أنه أنزل بعلمه ، ابتدئت هذه لإتمام تلك الدالة بالإشارة إلى ما له من علو المحل وبعد الرتبة ، فعقب سبحانه هذه المشكلة التي ألقاها بالأحرف المقطعة وبان أنها مع إشكالها عند التأمل واضحة بقوله مشيراً إلى ما تقدم من القرآن وإلى هذه السورة : ﴿ تلك ﴾ أي الآيات العظيمة العالية ﴿ آيات الكتاب ﴾ أي الجامع لجميع المرادات .

ولما تقدم أول سورتي يونس وهود وصفة بالحكمة والإحكام والتفصيل ، وصف هنا بأخص من ذلك فقال تعالى : ﴿ المبين ﴾ أي البين في نفسه أنه جامع معجز لا يشتبه على العرب بوجه ، والموضح لجميع ما حوى ، وهو جميع المرادات لمن أمعن التدبر وأنعم التفكير ، ولأنه من عند الله ﴿ ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ [يوسف : 111] و ﴿ موعظه وذكرى للمؤمنين ﴾ [هود : 120] ؛ والبيان : إظهار المعنى

للنفس بما يفصله عن غيره وهو غرض كل حكيم في كلامه ، ويزيد عليه البرهان بأنه إظهار صحة المعنى بما يشهد به ، وأبان - لازم متعد ؛ ثم علل المبين بقوله معبراً بالإنزال لأنه في سياق تكذيبهم به بخلاف ما عبر فيه بالجعل كما يأتي في الزخرف : ﴿ إنا أنزلناه ﴾ بنون العظمة أي الكتاب المفسر بهذه السورة أو بالقرآن كله ﴿ قرآنا ﴾ سمي بعضه بذلك لأن القرآن اسم جنس يقع على الكل والبعض ﴿ عربياً ﴾ وعلل إنزاله كذلك بقوله : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي لتكونوا على رجاء من أن تكونوا من ذوي العقل أو من أن تعقلوا ما يراد منكم ؛ قال : أبو حيان و " لعل " ترجّ فيه معنى التعليل .

وهذه الآية تدل على أن اللسان العربي أفصح الألسنة وأوسعها وأقوامها وأعدلها ، لأن من المقرر أن القول - وإن خص بخطابه قوم - يكون عاماً لمن سواهم .

(9/391)

ولما بين أنه يقص عليه من أنباء الرسل ما يثبت به فؤاده ، قال مثبتاً ومعللاً بأنه الكتاب بعلة أخرى مشاهدة هي أخص من الأول : ﴿ نحن نقص عليك ﴾ وعظم هذه القصة بمظهر العظمة وأكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ أحسن القصص ﴾ أي الاقتصاص أو المقصوص بأن نتبع بعض الحديث كما نعلمه بعضاً فنبينه أحسن البيان - لأنه من قص الأثر - تثبيتاً لفؤادك

وتصديقاً لنبوتك وتأيداً على أحسن ترتيب وأحكم نظام وأكمل أسلوب وأوفى تحرير وأبدع طريقة مع ما نفصلها به من جواهر الحكم وبدائع المعاني من الأصول والفروع ، وهي قصة يوسف عليه السلام قصة طويلة هي في التوراة في نيف وعشرين ورقة لا يضبطها إلاّ حذاق أحبارهم ، من تأمل اقتصاصها فيها أو في غيرها من تواريخهم ذاق معنى قوله تعالى ﴿ أحسن القصص ﴾ [يونس : 3] حتى لقد أسلم قوم من اليهود لما رأوا من حسن اقتصاصها ، روى البيهقي في أواخر الدلائل بسنده عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما " أن حبراً من اليهود دخل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم وكان قارئاً للتوراة فوافقه وهو يقرأ سورة يوسف عليه السلام كما أنزلت على موسى عليه السلام في التوراة فقال له الحبر : يا محمد ! من علمكها ؟ قال : الله علمنيها ، فرجع إلى اليهود فقال لهم : أتعلمون والله أن محمداً ليقرأ القرآن كما أنزل في التوراة ! فانطلق بنفر منهم حتى دخلوا عليه فعرفوه بالصفة ونظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه ، فجعلوا يستمعون إلى قراءته لسورة يوسف ، فتعجبوا منه وقالوا : يا محمد ! من علمكها ؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : علمنيها الله ، فأسلم القوم عند ذلك " .

وقد ضمنها سبحانه من النكت والعبر والحكم أمراً عظيماً ، وذكر فيها حسن مجاورة يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته وصبره على أذاهم وحلمه عنهم وإغضاءه عند لقائهم عن تبكيتهم وكرمه في العفو ، والأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والإنس والجن والأنعام والطير وسير الملوك والمماليك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء ومكرهن والتوحيد والنبوة والإعجاز والتعبير والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش وجميع الفوائد التي تصلح للدين والدنيا ، وذكر الحبيب والمحبوب ، ولم يدخل فيها شيئاً من غيرها دون سائر القصص ، وكان عقابها إلى خير وسلامة واجتماع شمل وعفو من الله وتجاوز عن الكل ﴿ بما أوحينا ﴾ أي بسبب إيحائنا ﴿ إليك ﴾ .

ولما كان إنزال القرآن مجمع الخيرات ، عين المراد بالإشارة واسم العلم فقال : ﴿ هذا القرآن ﴾ الذي قالوا فيه : إنه مفترى ، فنحن نتابع فيه القصص بعد قصة بعد قصة والحكم حكمة في أثر حكمة حتى لا يشك شاك ولا يمتري ممتر في أنه من عندنا وبإذننا ويكون أمره في البعد من اللبس أظهر من الشمس .

ولما كانوا مع معرفتهم به ـ صلى الله عليه وسلم ـ عارفين بأنه كان مباعداً للعلم والعلماء ، وكان فعلهم في التكذيب فعل من ينكر ذلك ، قال : ﴿ وإن ﴾ أي وإن الشأن والحديث ﴿ كنت ﴾ ولما كان كونه لم يستغرق الزمان الماضي ، أثبت الجار فقال : ﴿ من قبله ﴾ أي هذا الكتاب أو إيحائنا إليك به ﴿ لمن الغافلين ﴾ أي عن هذه القصة وغيرها ، مؤكداً له بأنواع التأكيد ، وهو ناظر إلى قوله آخرها ﴿ وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ بعد التفاته عن كثب إلى آخر التي قبلها ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ والحسن : معنى يتقبله العقل ويطرق إلى طلب المتصف به أنواع الحيل ، ومادة ، غفل ، بكل ترتيب تدور على الستر والحجب ، من الغلاف الذي يوضع فيه الشيء فلا ينظر منه شيئاً ولا ينظره شيء ما دام فيه ، ومنه الغفلة – للجلدة التي على الكمرة ، والغفل – بالضم : ما لا علاقة له من الأرض ، ودابة غفل ، لا سمة لها ، لأن عدم العلامة مؤدٍ إلى الجهل بها فكأنها في غلاف لا ينظر منه ، ومنه رجل غفل : لا حسب عنده ، لأن ذلك أقرب إلى جهله ، والتغفل : الختل ، أي أخذ الشيء من غير أن يشعر ، فقد ظهر أن مقصود السورة وصف الكتاب بعد الحكمة والتفصيل بالإبانة عن جميع المقاصد المنزل لها ؛ وقال الإمام ابو جعفر بن الزبير : هذه السورة من جملة ما قص عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أنباء الرسل وأخبار من تقدمه مما فيه التثبيت الممنوح في قوله سبحانه وتعالى ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ [هود : 120] ومما وقعت الإحالة عليه في

سورة الأنعام - كما تقدم - وإنما أفردت على حدتها ولم تنسق على قصص الرسل مع أنهم في سورة واحدة لمفارقة مضمونها تلك القصص ، ألا ترى أن تلك قصص إرسال من تقدم ذكرهم عليهم الصلاة والسلام وكيفية تلقي قومهم لهم وإهلاك مكذبيهم ، أما هذه القصة فحاصلها فرج بعد شدة وتعريف بحسن عاقبة الصبر ، فإنه تعالى امتحن يعقوب عليه الصلاة والسلام

(12/391)

بفقد ابنيه وبصره وشتات بنيه ، وامتحن يوسف عليه الصلاة والسلام بالجب والبيع وامرأة العزيز وفقد الأب والإخوة والسجن ، ثم امتحن جميعهم بشمول الضر وقلة ذات اليد

(13/391)

﴿ مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ﴾ [يوسف : 88] ثم تداركهم الله بالفهم وجمع شملهم ورد بصر أبيهم وائتلاف قلوبهم ورفع ما نزع به الشيطان وخلاص يوسف عليه الصلاة والسلام من كيد كاده واكتنافه بالعصمة وبراءته

عند الملك والنسوه ، وكل ذلك مما أعقبه جميل صبره وجلالة اليقين في حسن تلقي الأقدار بالتفويض والتسليم على توالي الامتحان وطول المدة ، ثم انجرّ في أثناء هذه القصة الجليلة إنابة امرأة العزيز ورجوعها إلى الحق وشهادتها ليوسف عليه الصلاة والسلام بما منحه الله من النزاهة عن كل ما يشين ، ثم استخلاص العزيز إياه - إلى ما انجرّ في هذه القصة الجليلة من العجائب والعبر ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ [يوسف : 111] فقد انفردت هذه القصة بنفسها ولم تناسب ما ذكر من قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم الصلاة والسلام وما جرى في أممهم ، فلهذا فصلت عنهم ، وقد أشار في سورة برأسها إلى عاقبة من صبر ورضى وسلم ليتنبه المؤمنون على ما في طيّ ذلك ، وقد صرح لهم مما أجملته هذه السورة من الإشارة في قوله تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض ﴾ [النور : 55] - إلى قوله ﴿ آمنا ﴾ [النور : 55] وكانت قصة يوسف عليه الصلاة والسلام بجملتها أشبه شيء بحال المؤمنين في مكابدتهم في أول الأمر وهجرتهم وتشققهم مع قومهم وقلة ذات أيديهم إلى أن جمع الله شملهم ﴿ اذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ [آل عمران : 103] وأورثهم الله الأرض وأيدهم ونصرهم ، ذلك بجليل إيمانهم وعظيم صبرهم ، فهذا ما أوجب تجرد هذه القصة عن تلك القصص - والله أعلم ، وأما تأخر ذكرها عنها فمناسب لحالها ولأنها إخبار بعاقبة من آمن واتعظ ووقف عند

ما حد له ، فلم يضره ما كان ، ولم تذكر إثر قصص الأعراف لما بقي من استيفاء تلك القصص الحاصل ذلك في سورة

(14/391)

هود ؛ ثم إن ذكر أحوال المؤمنين مع من كان معهم من المنافقين وصبرهم عليهم مما يجب أن يتقدم ويعقب بهذه القصة من حيث عاقبة الصبر والحض عليه – كما مر ، فأخرت إلى عقب سورة هود عليه الصلاة والسلام لمجموع هذا – والله تعالى أعلم ؛ ثم ناسبت سورة يوسف عليه الصلاة والسلام أيضاً أن تذكر إثر قوله تعالى ﴿ إنّ الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ [هود : 114] ، وقوله ﴿ واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ [هود : 115] وقول ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ – [هود : 118] الآية ، وقوله ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون ﴾ [هود : 121] فتدبر ذلك ، إما نسبتها للأولى فإن ندم إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام واعترافهم بخطاء فعلهم وفضل يوسف عليه الصلاة والسلام عليهم ﴿ لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ [يوسف : 91] وعفوه عنهم ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ﴾ [يوسف : 92] وندم امرأة العزيز وقولها ﴿ الآن حصحص

الحق ﴾ [يوسف : 51] - الآية ، كل هذا من باب إذهاب الحسنة السيئة ، وكأن ذلك مثال لما عرف المؤمنون من إذهاب الحسنة السيئة ؛ وأما نسبة السورة لقوله تعالى ﴿ واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ فإن هذا أمر منه سبحانه لنبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر على قومه ، فأتبع بحال يعقوب ويوسف عليهما الصلاة والسلام وما كان من أمرهما وصبرهما مع طول المدة وتوالى امتحان يوسف عليه الصلاة والسلام بالجب ومفارقة الأب والسجن حتى خلصه الله أجمل خلاص بعد طول تلك المشقات ، ألا ترى قول نبينا وقد ذكر يوسف عليه الصلاة والسلام فشهد له بجلالة الحال وعظيم الصبر فقال " ولو لبثتُ في السجن ما لبث اخي يوسف لأجبت الداعي " فتأمل عذره له عليهما الصلاة والسلام وشهادته بعظيم قدر يوسف عليهما الصلاة والسلام ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ [هود : 120] .

(15/391)

لما قيل له ﴿ واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ [هود : 115] أتبع بحال يعقوب ويوسف عليهما الصلاة والسلام من المحسنين ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ [الأنعام : 84] - إلى قوله ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ [الأنعام : 84] وقد شملت الآية ذكر

يعقوب ويوسف عليهما الصلاة والسلام ، ونبينا عليه أفضل الصلاة والسلام قد أمر بالاقتداء في الصبر بهم ، وقيل له ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ [الأحقاف : 35] ويوسف عليه الصلاة والسلام من أولي العزم ؛ ثم إن حال يعقوب ويوسف عليهما الصلاة والسلام - في صبرهما ورؤية حسن عاقبة الصبر في الدنيا مع ما أعد الله لهما من عظيم الثواب - أنسب شيء لحال نبينا عليه الصلاة والسلام في مكابدة قريش ومفارقة وطنه ، ثم تعقب ذلك بظفره بعدوه وإعزاز دينه وإظهار كلمته ورجوعه إلى بلده على حالة قرت بها عيون المؤمنين وما فتح الله عليه وعلى أصحابه - فتأمل ذلك ، ويوضح ما ذكرنا ختم السورة بقوله تعالى ﴿ حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاء نصرنا ﴾ [يوسف : 110] الآيه فحاصل هذا كله الأمر بالصبر وحسن عواقب أولياء الله فيه ؛ وأما النسبة لقوله ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ﴾ [هود : 118] فلا أنسب لهذا ولا أعجب من حال إخوة فضلاء لأب واحد من أنبياء الله تعالى وصالحي عباده جرى بينهم من التشتت ما جعله الله عبرة لأولي الألباب ؛ وأما النسبة لآية التهديد فبينة ، وكأن الكلام في قوة ﴿ اعملوا على مكانتكم - وانتظروا ﴾ [هود : 121] فلن نصبر عليكم مدة صبر يعقوب ويوسف عليهما الصلاة والسلام ، فقد وضح بفضل الله وجهُ ورود هذه السورة عقب سورة هود - والله أعلم . انتهى . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 10.3 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ يا أبت ﴾ بفتح التاء والوقف بالهاء : يزيد وابن عامر . وقرأ ابن كثير ويعقوب بكسر التاء والوقف بالهاء . الباقون بالكسر في الحالين ﴿ أحد عشر ﴾ بسكون العين : يزيد وابن عباس والخزاز ﴿ لي ساجدين ﴾ بفتح الياء : الأعشى والبرجمي ﴿ يا بني ﴾ بفتح الياء أياً كان : حفص والمفضل . الباقون بكسرها ﴿ رؤياك ﴾ بالإمالة : عليّ غير قتيبة وليث . وقرأ أبو عمرو بالإمالة اللطيفة ، وقرأ يزيد وأبو عمر غير شجاع ، وورش من طريق الأصبهاني والأعشى وحمزة في الوقف بغير همزة ﴿ آية للسائلين ﴾ على التوحيد : ابن كثير : الآخرون ﴿ آيات ﴾ على الجمع . ﴿ يخل لكم ﴾ بالإدغام : شجاع من طريق أبي غالب وأبو شعيب ﴿ غيابات ﴾ وما بعده على الجمع : أبو جعفر ونافع . الباقون ﴿ غيابة ﴾ على التوحيد ﴿ لا تأمنا ﴾ بغير إشمام ضمة النون : يزيد والحلواني عن قالون . الآخرون بإشمام ﴿ الذئب ﴾ وما بعده بغير همزة : أبو عمرو غير شجاع وأوقية ويزيد والأعشى وورش وخلف وعلي وحمزة في الوقف ﴿ يرتع ويلعب ﴾

بالياء فيهما وبالجزم: عاصم وحمزة وعليّ وخلف. بكسر العين في الأول: أبو جعفر ونافع. بالنون فيهما بالجزم: ابن عامر وأبو عمرو. وبكسر العين: ابن كثير سوى الهاشمي وأبي ربيعة عن قنبل فإنهما ﴿ نرتعي ﴾ بالكسر مع الياء بعده ﴿ نرتع ويلعب ﴾ بالجزم فيهما مع النون في الأول والياء في الثاني: يعقوب عن رويس ﴿ ليحزنني أن ﴾ بفتح الياء أبو جعفر ونافع وابن كثير. وقرأ نافع ﴿ ليحزنني أن ﴾ بفتح الياء أيضاً ولكن من باب الأفعال ﴿ بل سولت ﴾ وبابه مدغماً: حمزة وعلي وهشام. ﴿ يا بشرى ﴾ بالإمالة غير مضافة: حمزة وعليّ وخلف وحماد والخزاز عن هبيرة. ﴿ يا بشرى ﴾ بغير إمالة وإضافة: عاصم غير حماد والخزاز. الباقون ﴿ يا بشراي ﴾ بالإضافة إلى ياء المتكلم.

(17/391)

الوقوف: ﴿ الر ﴾ قف كوفي ﴿ المبين ﴾ 5 ط كوفي أيضاً وغيرهم لا يقفون عليها لأنهم يجعلون إنا جواب معنى القسم في ﴿ آلر ﴾ ﴿ القرآن ﴾ ق والوصل أصح لأن الواو للحال ﴿ الغافلين ﴾ 5 ﴿ ساجدين ﴾ 5 ﴿ كيداً ﴾ ط ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ وإسحق ﴾ ط ﴿ حكيم ﴾ 5 ﴿ للسائلين ﴾ 5 ﴿ عصبة ﴾ ط ﴿ مبين ﴾ 5 ج والعربية توجب الوقف وإن قيل إن الابتداء به لا يحسن ﴿ صالحين ﴾ 5 ﴿ فاعلين ﴾

5 ﴿ لناصحون ﴾ 5 ﴿ لحافظون ﴾ 5 ﴿ غافلون ﴾ 5 ﴿ لخاسرون ﴾ 5 ﴿ في غيابة الجب ﴾ ج لاحتمال أن يكون جواب " لما " محذوفاً والواو في ﴿ وأوحينا ﴾ للاستئناف تقديره فعلوا وأمضوا عليه ، وأن تكون الواو مقحمة والجواب ﴿ أوحينا ﴾ ﴿ لا يشعرون ﴾ 5 ﴿ يبكون ﴾ 5 ط ﴿ فأكله الذئب ﴾ ج لابتداء النفي مع واو العطف ﴿ صادقين ﴾ 5 ﴿ كذب ﴾ ط ﴿ أمراً ﴾ ط ﴿ جميل ﴾ ط ﴿ تصفون ﴾ 5 ﴿ دلوه ﴾ ط ﴿ غلام ﴾ ط ﴿ بضاعة ﴾ ط ﴿ يعملون ﴾ 5 ﴿ معدودة ﴾ ج لاحتمال الواو والحال ﴿ الزاهدين ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 63 ﴾

(18/391)

فصل

قال الفخر :

﴿ الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) ﴾

وقد ذكرنا في أول سورة يونس تفسير : ﴿ الر تِلْكَ ءايات الكتاب الحكيم ﴾ [يونس : 1]

فقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى آيات هذه السورة أي تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه

السورة المسماة ﴿ الر ﴾ هي ﴿ الكتاب المبين إنَّا ﴾ وهو القرآن ، وإنما وصف القرآن بكونه مبيناً لوجوه : الأول : أن القرآن معجزة قاهرة وآية بينة لمحمد صلى الله عليه وسلم .

والثاني : أنه بين فيه الهدى والرشد ، والحلال والحرام ، ولما بينت هذه الأشياء فيه كان الكتاب مبيناً لهذه الأشياء .

الثالث : أنه بينت فيه قصص الأولين وشرحت فيه أحوال المتقدمين .

ثم قال : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

روي أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين ، سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ، وعن كيفية قصة يوسف ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وذكر فيها أنه تعالى عبر عن هذه القصة بألفاظ عربية ، ليتمكنوا من فهمها ويقدروا على تحصيل المعرفة بها .

والتقدير : إنا أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه قرآناً عربياً ، وسمى بعض القرآن قرآناً ، لأن القرآن اسم جنس يقع على الكل والبعض .

المسألة الثانية :

احتج الجبائي بهذه الآية على كون القرآن مخلوقاً من ثلاثة أوجه : الأول : أن قوله : ﴿ إنا أنزلناه ﴾ يدل عليه ، فإن القديم لا يجوز تنزيله وإنزاله وتحويله من حال إلى حال ، الثاني : أنه تعالى وصفه بكونه عربياً والقديم لا يكون عربياً ولا فارسياً .

الثالث : أنه لما قال : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ دل على أنه تعالى كان قادراً على أن ينزله لا عربياً ، وذلك يدل على حدوثه .

(19/391)

الرابع : أن قوله : ﴿تِلْكَ ءايات الكتاب﴾ يدل على أنه مركب من الآيات والكلمات ، وكل ما كان مركباً كان محدثاً .

والجواب عن هذه الوجوه بأسرها أن نقول : إنها تدل على أن المركب من الحروف والكلمات والألفاظ والعبارات محدث وذلك لا نزاع فيه ، إنما الذي ندعي قدمه شيء آخر فسقط هذا الاستدلال .

المسألة الثالثة :

احتج الجبائي بقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فقال : كلمة "لعل" يجب حملها على الجزم والتقدير : إنا أنزلناه قرآناً عربياً لتعقلوا معانيه في أمر الدين ، إذ لا يجوز أن يراد بلعلكم تعقلون ؟ الشك لأنه على الله محال ، فثبت أن المراد أنه أنزله لإرادة أن يعرفوا دلائله ، وذلك يدل على أنه تعالى أراد من كل العباد أن يعقلوا توحيده وأمر دينه ، من عرف منهم ، ومن لم يعرف ، بخلاف قول المجبرة .

والجواب : هب أن الأمر ما ذكرتم إلا أنه يدل على أنه تعالى أنزل هذه السورة ، وأراد منهم معرفة كيفية هذه القصة ولكن لم قلتم إنها تدل على أنه تعالى أراد من الكل الإيمان والعمل الصالح .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

روى سعيد بن جبير أنه تعالى لما أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يتلوه على قومه ، فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه السورة فتلاها عليهم فقالوا لو حدثتنا فنزل : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا ﴾ [الزمر : 23] فقالوا لو ذكرتنا فنزل : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الحديد : 16] .

المسألة الثانية :

القصص اتباع الخبر بعضه بعضاً وأصله في اللغة المتابعة قال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ [القصص: 11] أي اتبعي أثره وقال تعالى: ﴿ فارتدا على ءاثارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف: 64] أي اتباعاً وإنما سميت الحكاية قصصاً لأن الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً كما يقال تلا القرآن إذا قرأه لأنه يتلو أي يتبع ما حفظ منه آية بعد آية والقصص في هذه الآية يحتمل أن يكون مصدراً بمعنى الاقتصاص يقال قص الحديث يقصه قصاً وقصصاً إذا طرده وساقه كما يقال أرسله يرسله إرسالاً ويجوز أن يكون من باب تسمية المفعول بالمصدر كقولك هذا قدرة الله تعالى أي مقدوره وهذا الكتاب علم فلان أي معلومه وهذا رجاؤنا أي مرجونا فإن حملناه على المصدر كان المعنى نقص عليك أحسن الاقتصاص، وعلى هذا التقدير فالحسن يعود إلى حسن البيان لا إلى القصة والمراد من هذا الحسن كون هذه الألفاظ فصيحة بالغة في الفصاحة إلى حد الإعجاز ألا ترى أن هذه القصة مذكورة في كتب التواريخ مع أن شيئاً منها لا يشابه هذه السورة في الفصاحة والبلاغة وإن حملناه على المفعول كان معنى كونه أحسن القصص لما فيه من العبر والنكت والحكم والعجائب التي ليست في غيرها فإن إحدى الفوائد التي في هذه القصة أنه لا دافع لقضاء الله تعالى ولا مانع من قدر الله تعالى وأنه تعالى إذا قضى للإنسان بخير ومكرمة فلو أن أهل العالم اجتمعوا عليه لم يقدروا على دفعه.

والفائدة الثانية: دلالتها على أن الحسد سبب للخذلان والنقصان.

والفائدة الثالثة : أن الصبر مفتاح الفرج كما في حق يعقوب عليه السلام فإنه لما صبر فاز بمقصوده ، وكذلك في حق يوسف عليه السلام .

فأما قوله : ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هذا القرءان ﴾ فالمعنى بوحينا إليك هذا القرآن ، وهذا التقدير إن جعلنا "ما" مع الفعل بمنزلة المصدر .

(21/391)

ثم قال : ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ ﴾ يريد من قبل أن نوحي إليك ﴿ لَمِنَ الغافلين ﴾ عن قصة يوسف وإخوته ، لأنه عليه السلام إنما علم ذلك بالوحي ، ومنهم من قال : المراد أنه كان من الغافلين عن الدين والشريعة قبل ذلك كما قال تعالى : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ﴾ [الشورى : 52] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 67 . 69 ﴾

(22/391)

وقال الماوردى :

قوله عزوجل : ﴿ الر تلك آيات الكتاب المبين ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدهما : أنها الآيات المتقدم ذكرها في السورة التي قبلها .

الثاني : الآيات التي في هذه السورة ، ويكون معنى قوله تعالى ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أي هذه آيات الكتاب المبين .

الثالث : أن تلك الآيات إشارة إلى ما افتتحت به السورة من الحروف وأنها علامات الكتاب العربي ، قاله ابن بحر .

وفي قوله تعالى : ﴿ الكتاب المبين ﴾ ثلاثة تأويلات : أحدها : المبين حلاله وحرامه ، قاله مجاهد .

الثاني : المبين هداه ورشده ، قاله قتادة .

الثالث : المبين للحروف التي سقطت من ألسن الأعاجم وهي ستة أحرف ، قاله معاذ .

قوله عز وجل : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إنا أنزلنا الكتاب قرآناً عربياً بلسان العرب ، وهو قول الجمهور . الثاني : إنا أنزلنا خبر يوسف قرآناً ، أي مجموعاً عربياً أي يعرب عن المعاني بفصيح من القصص وهو شاذ .

﴿ لعلكم تعقلون ﴾ .

﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ أي نبين لك أحسن البيان ، والقاصّ الذي يأتي بالقصة على حقيقتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(23/391)

وقال ابن عطية :

﴿ الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1) ﴾

تقدم القول في فواتح السور ، و ﴿ الكتاب ﴾ القرآن ، ووصفه ب ﴿ المبين ﴾ قيل : من جهة أحكامه وحلاله وحرامه ، وقيل : من جهة مواعظه وهداه ونوره ، وقيل : من جهة بيان اللسان العربي وجودته إذ فيه ستة أحرف لم تجتمع في لسان – روي هذا القول عن معاذ بن جبل – ويحتمل أن يكون مبيناً لنبوة محمد بإعجازه .

والصواب أنه " مبين " بجميع هذه الوجوه . والضمير في قوله : ﴿ أنزلناه ﴾ ل ﴿ الكتاب ﴾ ، والإنزال : إما بمعنى الإثبات ، وإما أن تتصف به التلاوة والعبارة ؛ وقال الزجاج : الضمير في ﴿ أنزلناه ﴾ يراد به خبر يوسف .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، وقوله : ﴿ لعلكم ﴾ يحتمل أن تتعلق ب ﴿ أنزلناه ﴾ أي أنزلناه لعلكم ، ويحتمل أن تتعلق بقوله : ﴿ عربياً ﴾ أي جعلناه ﴿ عربياً ﴾

لعلكم تعقلون ﴾ ، إذ هو لسانكم . و﴿ قرآناً ﴾ حال ، و﴿ عربياً ﴾ صفة له ، وقيل : إن ﴿ قرآناً ﴾ بدل من الضمير – وهذا فيه نظر – وقيل : ﴿ قرآناً ﴾ توطئة للحال و ﴿ عربياً ﴾ حال ، وهذا كما تقول : مررت بزيد رجلاً صالحاً ، وقوله : ﴿ نحن نقص عليك ﴾ الآية ، روى ابن مسعود أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملوا ملة فقالوا : لو قصصت علينا يا رسول الله ، فنزلت هذه الآية ، ثم ملوا ملة أخرى فقالوا : لو حدثتنا يا رسول الله ، فنزلت ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً ﴾ [الزمر : 23] .

(24/391)

و ﴿ القصص ﴾ : الإخبار بما جرى من الأمور ، كأن الأنباء تتبع بالقول ، وتقتص بالأخبار كما يقتص الآخر ، وقوله : ﴿ بما أوحينا إليك ﴾ أي بوحينا . و﴿ القرآن ﴾ نعت ل ﴿ هذا ﴾ ، ويجوز فيه البدل ، وعطف البيان فيه ضعيف . و﴿ إن ﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام في خبرها لام التأكيد – هذا مذهب البصريين – ومذهب أهل الكوفة أن ﴿ إن ﴾ بمعنى ما ، واللام بمعنى إلا . والضمير في ﴿ قبله ﴾ للقصص العام لما في جميع القرآن منه . و﴿ من الغافلين ﴾ ، أي عن معرفة هذا القصص . ومن قال : إن الضمير في ﴿ قبل ﴾ عائد على ﴿ القرآن ﴾ ، جعل ﴿ من الغافلين ﴾ في معنى قوله

تعالى : ﴿ ووجدك ضالاًّ فهدى ﴾ [الضحى : 7] أي على طريق غير هذا الدين الذي بعثت به ، ولم يكن عليه السلام في ضلال الكفار ولا في غفلتهم لأنه لم يشرك قط ، وإنما كان مستهدياً ربه عز وجل موحداً ، والسائل عن الطريق المتخير يقع عليه في اللغة اسم ضال .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(25/391)

وقال القرطبى :

الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1)

قوله تعالى : ﴿ الر ﴾ تقدّم القول فيه ؛ والتقدير هنا : تلك آيات الكتاب ، على الابتداء والخبر .

وقيل : "الار" اسم السورة ؛ أي هذه السورة المسماة "الر" ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكتاب المبين ﴾ يعني (بالكتاب المبين) القرآن المبين ؛ أي المبين حلاله وحرامه ، وحدوده وأحكامه وهُداه وبركته .

وقيل : أي هذه تلك الآيات التي كنتم توعدون بها في التّوراة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ يجوز أن يكون المعنى : إنا أنزلنا القرآن عربياً ؛

نصب "قرآنا" على الحال ؛ أي مجموعاً .

و"عربيّاً" نعت لقوله "قرآناً" .

ويجوز أن يكون توطئة للحال ، كما تقول : مررت بزيد رجلاً صالحاً ، و "عربيّاً" على الحال ، أي يُقرأ بلغتكم يا معشر العرب .

أَعْرَبَ بَيَّنَ ، ومنه : " الثَّيِّبُ تُعرِب عن نفسها " ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي لكي تعلموا معانيه ، وتفهموا ما فيه .

وبعض العرب يأتي بأن مع "لعل" تشبيهاً بعسى .

واللام في "لعل" زائدة للتوكيد ؛ كما قال الشاعر :

يا أَبَتَا عَلَّكَ أَوْ عَسَاكا . . .

وقيل : "لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" أي لتكونوا على رجاء من تدّبره ؛ فيعود معنى الشّك إليهم لا إلى الكتاب ، ولا إلى الله عز وجل .

وقيل : معنى "أَنْزَلْنَاهُ" أي أنزلنا خبر يوسف ؛ قال النحاس : وهذا أشبه بالمعنى ؛ لأنه يروى أن اليهود قالوا : سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ وعن خبر يوسف ؛ فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقاً لما في التوراة ، وفيه زيادة ليست عندهم .

فكان هذا للنبي صلى الله عليه وسلم إذ أخبرهم ولم يكن يقرأ كتاباً (قط) ولا هو في موضع كتاب بمنزلة إحياء عيسى عليه السلام الميت على ما يأتي فيه .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ ابتداء وخبر .

(26/391)

﴿ أَحْسَنَ القصص ﴾ بمعنى المصدر ، والتقدير : قصصنا أحسن القَصَص .

وأصل القَصَص تتبع الشيء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أي تتبعي أثره

؛ فالقاصّ يتبع الآثار فيخبر بها .

والحسن يعود إلى القَصَص لا إلى القصّة .

يقال : فلان حسن الاقتصاص للحديث أي جيّد السّياقة له .

وقيل : القَصَص ليس مصدراً ، بل هو في معنى الاسم ، كما يقال : الله رجاؤنا ، أي مرجوّنا

فالمعنى على هذا : نحن نخبرك بأحسن الأخبار .

﴿ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أي بوحينا ف"ما" مع الفعل بمنزلة المصدر .

﴿ هذا القرآن ﴾ نصب القرآن على أنه نعت لهذا ، أو بدل منه ، أو عطف بيان .

وأجاز الفراء الخفض ؛ قال : على التكرير ؛ وهو عند البصريين على البدل من "ما" .

وأجاز أبو إسحاق الرفع على إضمار مبتدأ ؛ كأن سائلاً سأله عن الوحي فقيل له : هو (

هذا) القرآن .

﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ﴾ أي من الغافلين عما عرّفناكه .

مسألة : واختلف العلماء لِمَ سُمِيت هذه السورة أحسن القَصَص من بين سائر الأقاصيص ؟ فقيل : لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العِبر والحِكم ما تتضمن هذه القصّة ؛ وبيانه قوله في آخرها : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الألباب ﴾ [يوسف : 111] .

وقيل : سماها أحسن القَصص لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته ، وصبره على أذاهم ، وعفوه عنهم بعد الالتقاء بهم عن ذكر ما تعاطوه ، وكرمه في العفو عنهم ، حتى قال : ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليوم ﴾ [يوسف : 92] .

وقيل : لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين ، والجنّ والإنس والأنعام والطّير ، وسير الملوك والممالك ، والتّجار والعلماء والجهّال ، والرجال والنّساء وحِيلهنّ ومكرهنّ ، وفيها ذكر التّوحيد والفقه والسِّيَر وتعبير الرؤيا ، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش ، وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا .

وقيل : لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما .

وقيل : "أَحْسَنَ" هنا بمعنى أعجب .

وقال بعض أهل المعاني : إنما كانت أحسن القَصَص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة ؛ انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته ، وامرأة العزيز ؛ قيل : والملك أيضاً أسلم بيوسف وحسن إسلامه ، ومستعبر الرؤيا الساقي ، والشاهد فيما يقال ؛ فما كان أمر الجميع إلا إلى خير .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(28/391)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ الر ﴾ تقدم تفسيره في أول سورة يونس ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى آيات هذه السورة أي تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة المسماة بالر هذه ﴿ آيات الكتاب المبين ﴾ وهو القرآن أي البين حلاله وحرامه وحدوده وأحكامه وقال قتادة : مبين بينه الله ببركته وهداه ورشده فهذا من بان أي ظهر ، وقال الزجاج : مبين الحق من الباطل والحلال من الحرام فهذا من أبان بمعنى أظهر وقيل إنه يبين فيه قصص الأولين وشرح أحوال المتقدمين ﴿ إنا أنزلناه ﴾ يعني هذا الكتاب ﴿ قرآناً عربياً ﴾ أي أنزلناه بلغتكم لكي تعلموا معانيه

وتفهموا ما فيه وقيل لما قالت اليهود لمشركي مكة سلوا محمداً (صلى الله عليه وسلم) عن أمر يعقوب وقصة يوسف وكانت عند اليهود بالعبرانية فأنزل الله هذه السورة وذكر فيها قصة يوسف بالعربية لتفهمها العرب ويعرفوا معانيها والتقدير إنا أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه عربياً فعلى هذا القول يجوز إطلاق اسم القرآن على بعضه لأنه اسم جنس يقع على الكل والبعض واختلف العلماء هل يمكن أن يقال في القرآن شيء بغير العربية ، فقال أبو عبيدة : من زعم أن في القرآن لساناً غير العربية فقد قال بغير الحق وأعظم على الله القول واحتج بهذه الآية إنا أنزلناه قرآناً عربياً .

(29/391)

وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة : أن فيه من غير لسان العربية مثل سجيل والمشكاة واليم واستبرق ونحو ذلك وهذا هو الصحيح المختار لأن هؤلاء أعلم من أبي عبيده بلسان العرب وكلا القولين صواب إن شاء الله تعالى ووجه الجمع بينهما أن هذه الألفاظ لما تكلمت بها العرب ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة وإن كانت غير عربية في الأصل لكنهم لما تكلموا بها نسبت إليهم وصارت لهم لغة ، فظهر بهذا البيان صحة القولين وأمكن الجمع بينهما ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ يعني تفهمون أيها العرب لأنه نازل

بلغتكم قوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ الأصل في معنى القصص اتباع الخبر بعضه بعضاً والقاص هو الذي يأتي بالخبر على وجهه وأصله في اللغة من قص الأثر إذا تتبعه وإنما سميت الحكاية قصة لأن الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً والمعنى نحن نبين لك يا محمد أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان وقيل المراد منه قصة يوسف خاصة وإنام سماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التي تصلح للدين والدنيا وما فيها من سير الملوك والمماليك والعلماء ومكر النساء والصبر على أذى الأعداء وحسن التجاوز عنهم بعد اللقاء وغير ذلك من الفوائد المذكورة في هذه السورة الشريفة .

قال خالد بن معدان : سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة .

قال عطاء : لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها .

(30/391)

وقوله تعالى : ﴿ بما أوحينا إليك ﴾ يعني بإيحائنا إليك يا محمد ﴿ هذا القرآن وإن كنت ﴾ أي وقد كنت ﴿ من قبله ﴾ يعني من قبل وحينا إليك ﴿ لمن الغافلين ﴾ يعني عن هذه القصة وما فيها من العجائب قال سعد بن أبي وقاص : أنزل القرآن على رسول الله (

صلى الله عليه وسلم) فتلاه عليهم زماناً فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فأنزل الله : ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ فقالوا يا رسول الله لو ذكرتنا فأنزل الله : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(31/391)

وقال أبو السعود :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) ﴾

(سورة يوسف عليه السلام مكية إلا الآيات 1 و 2 و 3 و 7 فمدنية وآياتها 111)

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم ﴾

(32/391)

﴿ الر ﴾ الكلامُ فيه وفي محله وفيما أريد بالإشارة والآياتِ والكتابِ في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ءايات الكتاب ﴾ عيْنُ ما سلف في مطلع سورةِ يونسَ ﴿ المبين ﴾ من أبان بمعنى بان

أي الظاهرِ أمرُه في كونه من عند الله تعالى وفي إعجازه بنوعيه لا سيما الإخبارُ عن الغيب ، أو الواضحِ معانيه للعرب بحيث لا يشتبه عليهم حقائقُه ولا يلتبس لديهم دقائقُه لنزوله على لغتهم أو بمعنى بيّن أي المبينِ لما فيه من الأحكام والشرائعِ وخفايا المُلكِ والملكوتِ وأسرارِ النشأتين في الدارين وغيرِ ذلك من الحِكَم والمعارف والقصص ، وعلى تقدير كونِ الكتاب عبارةً عن السورة فإبانتُه إنباؤُه عن قصة يوسفَ عليه السلام ، فإنه قد رُوي أن أحبارَ اليهودِ قالوا لرؤساء المشركين : سلوا محمداً صلى الله عليه وسلم لماذا انتقل آلُ يعقوبَ من الشام إلى مصر ، وعن قصة يوسفَ عليه السلام ففعلوا ذلك . فيكون وصفُ الكتابِ بالإبانة من قبيل براعةِ الاستهلالِ لما سيأتي ولمّا وُصف الكتابُ بما يدل على الشرف الذاتي عُقّب ذلك بما يدل على الشرف الإضافي فقيل : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ ﴾ أي الكتابَ المنعوتَ بما ذكر من النعوت الجليلةِ ، فإن كان عبارةً عن الكل وهو الأظهرُ الأنسبُ بقوله تعالى : ﴿ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ إذ هو المشهورُ بهذا الاسم المعروفِ بهذا النعت المتسارعِ إلى الفهم عند إطلاقِهما فالأمرُ ظاهرٌ ، وإنْ جُعل عبارةً عن السورة فتسميتُها قرآناً لما عرفته فيما سلف ، والسرُّ في ذلك أنه اسمُ جنسٍ في الأصل يقع على الكل والبعضِ كالكتاب ، أو لأنه مصدرٌ بمعنى المفعول أي أنزلناه حالَ كونِه مقروءاً بلغتكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي لكي تفهموا معانيَه طراً وتحيطوا بما فيه من البدائع خُبْراً وتطّلعوا على أنه خارجٌ عن طوق البشر

منزّلٌ من عند خلاق القُوى والقدر . ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ أي نخبرك ونحدّثك ، واشتقاقُه من قصّ أثرَه إذا اتّبعه لأن مَنْ

(33/391)

يقُصّ الحديثَ يتْبع ما حفظ منه شيئًا فشيئًا كما يقال : تلا القرآن لأنه يتْبع ما حفِظ منه آيةً بعد آية ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ أي أحسن الاقتصاص فنصبُه على المصدريه وفيه مع بيان الواقعِ إيهامٌ لما في اقتصاص أهلِ الكتاب من القُبح والخلل ، وتركُ المفعول إما للاعتماد على انفهامه من قوله عز وجل : ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا ﴾ أي بإيحائنا ﴿ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ أي هذه السورةَ فإن كونَها مُوحاةً منبىءٌ عن كون ما في ضمنها مقصوصاً ، والتعرضُ لعنوان قرآنيتِها لتحقيق أن الاقتصاصَ ليس بطريق الإلهامِ أو الوحي غيرَ المتلوّ وإما لظهوره من سؤال المشركين بتلقين علماءِ اليهودِ ، وأحسنيّتُه لأنه قد اقتُصّ على أبدع الطرائق الرائعةِ الرائقةِ وأعجبِ الأساليب الفائقةِ اللائقةِ كما لا يكاد يخفى على من طالع القصةَ من كتب الأولين والآخرين وإن كان لا يميز الغثّ من السمين ، ولا يفرّق بين الشمال واليمين ، وفي كلمة هذا إيماءٌ إلى مغايرة هذا القرآنِ لما في قوله تعالى : ﴿ قُرْءانًا عَرَبِيًّا ﴾ بأن يكون المرادُ بذلك المجموعَ فتأمل .

أو نقص عليك أحسنَ ما نقص من الأنباء وهو قصة آلِ يعقوبَ عليه السلام على أن القَصصَ فَعَلٌ بمعنى المفعول كالنبأ والخبر ، أو مصدرٌ سُمّي به المفعول كالخَلْق والصيد ، ونصبُ أحسنَ على المفعولية وأحسنيتُها لتضمنها من الحِكم والعِبر ما لا يخفى كمالُ حسنه ﴿ وَإِن كُنتُ ﴾ إن مخففةٌ من الثقيلة ، وضميرُ الشأنِ الواقعُ اسماً لها محذوفٌ واللامُ فارقةٌ والجملة خبرُ والمعنى وإنّ الشأن ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ من قبل إيحائنا إليك هذه السورةَ ﴿ لَمِنَ الغافلين ﴾ عن هذه القصة لم تخطُر ببالك ولم تقرَعْ سمعَك قطُّ ، وهو تعليلٌ لكونه مُوحى ، والتعبيرُ عن عدم العلم بالغفلة لإجلال شأنِ النبيّ عليه السلام وإن غفَل عنه بعضُ الغافلين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(34/391)

وقال الآلوسى :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم الر ﴾

الكلام فيه وفي نظائره شهير وقد تقدم لك منه ما فيه إقناع ، والإشارة في قوله سبحانه : ﴿ تِلْكَ ءايات الكتاب ﴾ إليه في قول ، وإلى ﴿ ءايات ﴾ هذه السورة في آخر ، وأشير إليها مع أنها لم تذكر بعد لتنزيلها لكونها مترقبة منزلة المتقدم أو لجعل حضورها في الذهن بمنزلة

الوجود الخارجي والإشارة بما يشار به للبعيد .

أما على الثاني فلأن ما أشير إليه لما لم يكن محسوساً نزل منزلة البعيد لبعده عن حيز الإشارة أو العظمة وبعد مرتبته وعلى غيره لذلك ، أو لأنه لما وصل من المرسل إلى المرسل إليه صار كالمتباعد .

وزعم بعضهم أن الإشارة إلى ما في اللوح وهو بعيد ، وأبعد من ذلك كون الإشارة إلى التوراة والإنجيل أو الآيات التي ذكرت في سورة هود ؛ والمراد بالكتاب إما هذه السورة أو القرآن ، وقد تقدم لك في يونس ما يؤنسك تذكره هنا فتذكر ﴿ المبين ﴾ من أبان بمعنى بأن أي ظهر فهو لازم أي الظاهر أمره في كونه من عند الله تعالى وفي إعجازه أو الواضح معانيه للعرب بحيث لا تشتبه عليهم حقائقه ولا تلتبس عليهم دقائقه وكأنه على المعنيين حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فارتفع واستتر ولا يعد هذا من حذف الفاعل المحظور فلا حاجة إلى القول بأن الإسناد مجازي فراراً منه .

أو بمعنى بين بمعنى أظهر فهو متعد والمفعول مقدر أي المظهر ما فيه هدى ورشد .

أو ما سألت عنه اليهود أو ما أمرت أن تسئل عنه من السبب الذي أحل بني إسرائيل بمصر .

أو الأحكام والشرائع وخفايا الملك والملكوت وأسرار النشأتين وغير ذلك من الحكم والمعارف والقصص .

وعن ابن عباس.

ومجاهد الاقتصار على الحلال والحرام وام يحتاج إليه في أمر الدنيا ، وأخرج ابن جرير عن خالد بن معاذ عن معاذ رضي الله تعالى عنه أنه قال في ذلك : يين الله تعالى فيه الحروف التي سقطت عن ألسن الأعاجم ، وهي ستة أحرف : الطاء .

والظاء .

والصاد .

والضاد .

والعين .

(35/391)

والحاء المهملتان ، والمذكور في الفرهنك .

وغيره من الكتب المؤلفة في اللغة الفارسية أن الأحرف الساقطة ثمانة ، ونظم ذلك بعضهم فقال :

هشت حرفست أنكه أندر فارسي . . .

نايد هميتا ينا موزى بناشى أندرين

معنى معا فبشنوا كنون تا كدام . . .

أست أن حروف ويا دكيرثا

.

وحا .

وصاد .

ضاد .

وطا . . . .

وظا .

وعين .

وقاف

ومع هذا فالأمر مبني على الشائع الغالب وإلا فبعض هذه الأحرف موجود في بعض كلماتهم كما لا يخفى على المتتبع ، ولعل الوصف على الأقوال الأول أمدح منه على القول الأخير ، والظاهر أن ذلك وصف له باعتبار الشرف الذاتي

بم وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّا أنزلناه قُرْءانًا عَرَبِيًّا ﴾ وصف له باعتبار الشرف الإضافي وضمير الغائب للكتاب السابق ذكره فإن كان المراد به القرآن كله كما هو الظاهر المناسب للحال فذاك وإن كان

المراد به هذه السورة فتسميته قرآناً لأنه اسم جنس يقع على الكثير والقليل فكما يطلق على الكل يطلق على البعض، نعم إنه غلب على الكل عند الاطلاق معرفاً لتبادره، وهل وصل بالغلبة إلى حد العلمية أولا؟ فيه خلاف، وإلى الأول ذهب البيضاوي قدس سره فتلزمه الألف واللام ومع ذلك لم يهجر المعنى الأول، ووقع في كتب الأصول أنه وضع تارة للكل خاصة.

وأخرى لما يعمه، والبعض أعني الكلام المنقول في المصحف تواتراً، ونظر فيه بأن الغلبة ليس لها وضع ثان وإنما هي تخصيص لبعض أفراد الموضوع له، ولذا لزمن العلم بها اللام أو الإضافة إلا أن يدعى أن فيها وضعاً تقديرياً كذا قيل؛ وممن صرح بأن التعيين بالغلبة قسيم للتعيين بالوضع العلامة الزرقاني.

وغيره لكن تعقبه الحمصي فقال: إن دلالة الاعلام بالغلبة على تعيين مسماها بالوضع وإن كان غير الوضع الأول فليتأمل.

وعن الزجاج.

وابن الأنباري أن الضمير لنبأ يوسف وإن لم يذكر في النظم الكريم ، وقيل : هو للإنزال المفهوم من الفعل ، ونصبه على أنه مفعول مطلق ، و ﴿ قُرْءانًا ﴾ هو المفعول به ، والقولان ضعيفان كما لا يخفى ، ونصب ﴿ قُرْءانًا ﴾ على أنه حال وهو بقطع النظر عما بعده وعن تأويله بالمستق حال موطئة للحال التي هي ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ وإن أول بالمشتق أي مقروءًا فحال فير موطئة ؛ و ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ إما صفته على رأي من يجوز وصف الصفة ، وإما حال من الضمير المستتر فيه على رأي من يقول بتحمل المصدر الضمير إذا كان مؤولا باسم المفعول مثلاً ، وقيل : ﴿ قُرْءانًا ﴾ بدل من الضمير ، و ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ صفته ، وظاهر صنيع أبي حيان يقتضي اختياره ، ومعنى كونه ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ أنه منسوب إلى العرب باعتبار أنه نزل بلغتهم وهي لغة قديمة .

أخرج ابن عساكر في التاريخ عن ابن عباس أن آدم عليه السلام كان لغته في الجنة العربية فلما أكل من الشجرة سلبها فتكلم بالسريانية فلما تاب ردّها الله تعالى عليه ، وقال عبد الملك بن حبيبن : كان اللسان الأول الذي هبط به آدم عليه السلام من الجنة عربياً إلى أن بعد وطال العهد حرف وصار سريانياً وهو منسوب إلى أرض سورية وهي أرض الجزيرة .

وبها كان نوح عليه السلام وقومه قبل الغرق ، وكان يشاكل اللسان العربي إلا أنه محرف وكان أيضاً لسان جميع من في السفينة إلا رجلاً واحداً يقال له : جرهم فإنه كان لسانه العربي الأول فلما خرجوا من السفينة تزوج إرم بن سام بعض بناته وصار اللسان العربي في ولده

عوص أبي عاد .

وعبيل .

وجاثر أبي ثمود .

(37/391)

وجديس ، وسميت عاد باسم جرهم لأنه كان جدّهم من الأم وبقي اللسان السرياني في ولد أرفخشد بن سام إلى أن وصل إلى قحطان من ذريته وكان باليمن فنزل هناك بنوا إسماعيل عليه السلام فتعلم منهم بنو قحطان اللسان العربي ، وقال ابن دحية : العرب أقسام : الأول عاربة وعرباء وهم الخلص وهم تسع قبائل من ولد إرم بن سام بن نوح ، وهي عاد ، وثمود .

وأميم .

وعبيل .

وطسم .

وجديس .

وعمليق .

وجرهم .

ووبار ، ومنهم تعلم عليه السلام العربية ، والثاني المتعربة قال في الصحاح : وهم الذين ليسوا بخلص وهم بنو قحطان ، والثالث المستعربة وهم الذين ليسوا بخلص أيضاً وهم بنو إسماعيل وهم ولد معد بن عدنان بن أدد اه .

وقال ابن دريد في الجمهرة العرب العاربة سبع قبائا : عاد .

وثمود ، وعمليق .

وطسم .

وجديس .

وأميم .

وجاسم ، وقد انقرض أكثرهم إلا بقايا متفرقين في القبائل ، وأول من انعدل لسانه عن السريانية إلى العربية يعرب بت قحطان وهو مراد الجوهري بقوله : إنه أول من تكلم بالعربية ، واستدل بعضهم على أنه أول من تكلم بها بما أخرجه ابن عساكر في التاريخ بسند رواه عن أنس بن مالك موقوفاً ولا أراه يصح ذكر فيه تبلبل الألسنة ببابل وأنه أول من تكلم بالعربية .

وأخرج الحاكم في المستدرك وصححه .

والبيهقي في شعب الإيمان من طريق سفيان الثوري عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر رضي الله تعالى عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ الخ ثم قال : " ألهم إسماعيل عليه السلام هذا اللسان العربي إلهاماً " وقال الشيرازي في كتاب الألقاب : أخبرنا أحمد بن إسماعيل المداني أخبرنا محمد بن أحمد بن إسحاق الماشي حدثنا محمد بن جابر حدثنا أبو يوسف بن السكيت قال : حدثني الأثرم عن أبي عبيدة حدثنا مسمع بن عبد الملك عن محمد بن علي بن الحسين عن آبائه رضي الله تعالى عنهم أجمعين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل عليه السلام وهو ابن أربع عشرة سنة" وروي أيضاً عن ابن عباس أن إسماعيل عليه السلام أول من تكلم بالعربية المحضة ، وأريد بذلك على ما قاله بعض الحفاظ عربية قريش التي نزل بها القرآن وإلا فاللغة العربية مطلقاً كانت قبل إسماعيل عليه السلام وكانت لغة حمير .

وقحطان ، وقال محمد بن سلام : أخبرني يونس عن أبي عمرو بن العلاء قال : العرب كلها ولد إسماعيل إلا حميراً وبقايا جرهم وقد جاورهم وأصهر إليهم ، وذكر ابن كثير أن من العرب من ليس من ذريته كعاد .

وثمود .

وطسم .

وجديس .

وأميم .

وجرهم .

والعماليق .

وأمم غيرهم لا يعلمهم إلا الله سبحانه كانوا قبل الخليل عليه السلام وفي زمانه وكان عرب الحجاز من ذريته وأما عرب اليمن وهم حمير فالمشهور كما قال ابن ماكولا : إنهم من قحطان واسمه مهزم وهو ابن هود ، وقيل : أخوه ، وقيل : من ذريته ، وقيل : قحطان هو هود ، وحكى ابن إسحق .

(39/391)

وغيره أنه من ذرية إسماعيل ، والجمهور على أن العرب الحطانية من عرب اليمن وغيرهم ليسوا من ذريته عليه السلام وأن اللغة العربية مطلقاً كانت قبله وهى إحدى اللغات التي علمها آدم عليه السلام وكان يتكلم بها وبغيرها أيضاً وكثر تكلمه فيما قيل : بالسريانية ، وادعى بعضهم أنها أول اللغات وأن كل لغة سواها حدثت بعدها إما توقيفاً أو اسطلاحاً

، واستدلوا على أسبقيتها وجوداً بأن القرآن كلام الله تعالى وهو عربي وفيه ما فيه ، وهي أفضل اللغات حتى حكى سيخ الإسلام ابن تيمية عن الإمام أبي يوسف عليه الرحمة كراهة التكلم بغيرها لمن يحسنها من غير حاجة ، وبعدها في الفضل على ما قيل : الفارسية الدرية حتى روي عن الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه جواز قراءة القرآن بها سواء في ذلك ما كان ثناءاً كالإخلاص وغيره .

وسواء كانت عن عجز عن العربية أم لا ، وروي عن صاحبيه جواز القراءة في الصلاة بغير العربية لمن لا يحسنها ، وفي النهاية .

والدارية أن أهل فارس كتبوا إلى سلمان الفارسي أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية فكتب فكانوا يقرأون ما كتب في الصلاة حتى لانت ألسنتهم .

وقد عرض ذلك على النبي عليه الصلاة والسلام ولم ينكر عليه ، نعم الصحيح أن الإمام رجع عن ذلك ، وفي النفحة القدسية في أحكام قراءة القرآن وكتابته بالفارسية للشرنبلالي ما ملخصه : حرمة كتابة القرآن بالفارسية إلا أن يكتبه بالعربية ويكتب تفسير كل حرف وترجمته وحرمة مسه لغير الطاهر اتفاقاً كقراءته وعدم صحة الصلاة بافتتاحها بالفارسية وعدم صحتها بالقراءة بها إذا كانت ثناءاً واقتصاره عليها مع القدرة على العربية وعدم الفساد بما هو ذكر وفسادها بما ليس ذكراً بمجرد قراءته ولا يخرج عن كونه أمياً وهو يعلم الفارسية فقط وتصح الصلاة بدون قراءة للعجز عن العربية على الصحيح عند الإمام .

وصاحبيه ، وأطال الكلام في ذلك ، وفي معراج الدراية من تعمد قراءة القرآن أو كتابته بالفارسية فهو مجنون أو زنديق والمجنون يداوى والزنديق يقتل ، وروي ذلك عن أبي بكر محمد بن الفضل البخاري ومع هذا لا ينكر فضل الفارسية ، ففي الحديث " نسان أهل الجنة العربي .

والفارسي الدري " وقد اشتهر ذلك لكن ذكر الذهبي في تاريخه عن سفيان أنه قال : بلغنا أن الناس يتكلمون يوم القيامة بالسريانية فإذا دخلوا الجنة تكلموا بالعربية .

وأخرج الطبراني .

والحاكم .

والبيهقي .

وآخرون عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أحبوا العرب لثلاث لأني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي " .

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه عن أبي هريرة ما يعضده ، ولا يخفى على الخبير بمزايا الكلام أن في الكلام العربي من لطائف المعاني ودقائق الأسرار ما لا يستقل بأدائه لسان

ويليه في ذلك الكلام الفارسي فإن كان هذا مدار الفضل فلا ينبغي أن يتنازع اثنان في أفضلية العربي ثم الفارسي مما وصل إلينا من اللغات وإن كان شيئاً آخر فالظاهر وجوده في العربي الذي اختار سبحانه إنزال القرآن به لا غير، وقد قسم لنبينا صلى الله عليه وسلم من هذا اللسان ما لم يقسم لأحد من فصحاء العرب، فقد أخرج ابن عساكر في تاريخه عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال: "يا رسول الله مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا؟ قال: كانت لغة إسماعيل قد درست فجاء بها جبريل عليه السلام فحفظنيها فحفظتها".

وأخرج البيهقي من طريق يونس عن محمد بن أبراهيم بن الحرث التيمي عن أبيه من حديث فيه طول قال رجل: يا رسول الله ما أفصحك ما رأينا الذي هو أعرب منك؟ قال: حق لي فانما أنزل القرآن علي بلسان عربي مبين"، هذا وجوز أن يكون العربي منسوباً إلى عربة وهي ناحية دار إسماعيل عليه السلام قال الشاعر:

(وعربة) أرض ما يحل حرامها . . .

من الناس إلا اللوذعي الحلاحل

والمراد لغة أهل هذه الناحية ، واستدل جماعة منهم الشافعي رضي الله تعالى عنه .

وابن جرير .

وأبو عبيدة .

والقاضي أبو بكر بوصف القرآن بكونه عربياً على أنه لا معرب فيه ، وشدد الشافعي النكير على من زعم وقوع ذلك فيه ، وكذا أبو عبيدة فانه قال : من زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول .

ووجه ابن جرير ما ورد عن ابن عباس : وغيره في تفسير ألفاظ منه أنها بالفارسية .

أو الحبشية .

أو النبطية كذا بأن ذلك مما اتفق فيه توارد اللغات ، وقال غيره : بل كان للعرب التي نزل القرآن بلغتهم بعض مخالطة لأهل سائر الألسنة في أسفار لهم فعلقت من لغاتهم ألفاظ غيرت بعضها بالنقص من حروفها واستعملتها في أشعارها ومحاورتها حتى جرت مجرى العربي الفصيح ووقع بها البيان ، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن .

وقال آخرون : كل تلك الألفاظ عربية صرفة ولكن لغة العرب متسعة جداً ولا يبعد أن تخفى على الأكابر الأجلة ، وقد خفي على ابن عباس معنى فاطر .

وفاتح ، ومن هنا قال الشافعي في الرسالة : لا يحيط باللغة إلا نبي .

وذهب جمع إلى وقوع غير العربي فيه ، وأجابوا عن الآية بأن الكلمات اليسيرة بغير العربية لا

تخرجه عن العربية، فالقصيدة الفارسية لا تخرج عن كونها فارسية بلفظة عربية.

وقال غير واحد: المراد أنه عربي الأسلوب، واستدلوا باتفاق النحاة على أن منع صرف نحو إبراهيم للعلمية والعجمة، ورد بأن الأعلام ليست محل خلاف وإنما الخلاف في غيرها، وأجيب بأنه إذا اتفق على وقوع الأعلام فلا مانع من وقوع الأجناس ونظر فيه، واختار الجلال السيوطي القول بالوقوع، واستدل عليه بما صح عن أبي ميسرة التابعي الجليل أنه قال: في القرآن من كل لسان، وروي مثله عن سعيد بن جبير.

ووهب بن منبه.

(42/391)

وذكر أن حكمة وقوع تلك الألفاظ فيه أنه حوى علوم الأولين والآخرين ونبأ كل شيء فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات لتتم إحاطته بكل شيء فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالاً للعرب وأيضاً لما كان النبي صلى الله عليه وسلم ملاسلاً إلى كل أمة ناسب أن يكون في كتابه المبعوث به من لسان كل قوم شيء، وقد أشار إلى الوجه الأول ابن النقيب.

وقال أبو عبد الله القاسم بن سلام بعد أن حكى القول بالوقوع عن الفقهاء: والمنع عن أهل

العربية الصواب تصديق القولين جميعاً وذلك أن هذه الأحرف أصولها عجمية كما قال الفقهاء لكنها وقعت للعرب فعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية ثم نزل القرآن ، وقد اختلطت هذه الأحرف بكلام العرب فمن قال : إنها عربية فهو صادق ، ومن قال : إنها غجمية فهو صادق ، ومال إلى هذا القول الجواليقي .

وابن الجزري .

وآخرون ، وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة إبراهيم عليه السلام ما يتعلق بهذا المبحث أيضاً فليتفطن وليتأمّل .

واحتج الجبائي بالآية على كون القرآن مخلوقاً من أربعة أوجه : الأول وصفه بالإنزال ، والقديم لا يجوز عليه ذلك ، الثاني وصفه بكونه عربياً ، والقديم لا يكون عربياً ولا فارسياً ، الثالث أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ يدل على أنه سبحانه قادر على أنزاله غير عربي وهو ظاهر الدلالة على حدوثه .

الرابع أن قوله عز سأنه : ﴿ تِلْكَ ءايات الكتاب ﴾ [يوسف : 1] يدل على تركبه من الآيات والكلمات وكل ما كان مركبا كان محدثاً ضرورة أن الجزء الثاني غير موجود حال وجود الجزء الأول .

وأجاب الأشاعرة عن ذلك كله بأن قصارى ما يلزم منه أن المركب من الحروف والكلمات محدث وذلك مما لا نزاع لنا فيه ، والذي ندعي قدمه شيء آخر نسميه الكلام النفسي وهو مما لا يتصف بالإنزال ولا بكونه عربياً ولا غيره ولا بكونه مركباً من الحروف ولا غيرها ، وقد تقدم لك في المقدمات ما ينفعك هنا فلا تغفل .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي لكي تفهموا معانيه وتحيطوا بما فيه من البدائع أو تستعملوا فيه عقولكم فتعلموا أنه خارج عن طوق البشر مشتمل على ما يشهد له أنه منزل من عند خلاق القوى والقدر ، وهذا بيان لحكمة إنزاله بتلك الصفة ، وصرح غير واحد أن لعل مستعملة بمعنى لام التعليل على طريق الاستعارة التبعية ، ومرادة من ذلك ظاهر ، وجعلها للرجاء من جانب المخاطبين وإن كان جائزاً لا يناسب المقام .

وزعم الجبائي أن المعنى أنزله لتعقلوا معانيه في أمر الدين فتعرفوا الأدلة الدالة على توحيده وما كلفكم به ، وفيه دليل على أنه تعالى أراد من الكل الإيمان والعمل الصالح من حصل منه ذلك ومن لم يحصل ، وفيه أنه بمعزل عن الاستدلال به على ما ذكر كما لا يخفى .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾

أي نخبرك ونحدثك من قص أثره إذا اتبعه كأن المحدث يتبع ما حدث به وذكره شيئاً فشيئاً ومثل ذلك تلى ﴿ أَحْسَنَ القصص ﴾ أي أحسن الاقتصاص فنصبه على المصدرية إما

لاضافته إلى المصدر .

أو لكونه في الأصل صفة مصدر أي قصصا أحسن القصص ، وفيه مع بيان الواقع إيهام لما في اقتصاص أهل الكتاب من القبح والخلل ، والمفعول به محذوف أي مضمون هذا القرآن ، والمراد به هذه السورة ، وكذا في قوله عز وجل : ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا ﴾ أي بسبب إيحائنا . ﴿ إِلَيْكَ هـذا القرءان ﴾ والتعرض لعنوان قرآنيتها لتحقيق أن الاقتصاص ليس بطريق الإلهام أو الوحي غير المتلو ، ولعل كلمة ﴿ هذا ﴾ للإيماء إلى تعظيم المشار إليه .

(44/391)

وقيل : فيها إيماء إلى مغايرة هذا القرآن لما في قوله تعالى : ﴿ قُرْءانًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف : 2] بأن يكون المراد بذلك المجموع وفيه تأمل ، وأحسنيته لأنه قد قص على أبدع الطرائق الرائعة الرائقة ، وأعجب الأساليب الفائقة اللائقة كما لا يكاد يخفى على من طالع القصة من كتب الأولين وإن كان لا يميز الغث من السمين ولا يفرق بين الشمال واليمين ، وجوز أن يكون هذا المذكور مفعول ﴿ نَقُصُّ ﴾ .

وصرح غير واحد أن الآية من باب تنازع الفعلين ، والمذهب البصري أولى هنا أما لفظاً فظاهر وأما معنى فلأن القرآن كما سمعت السورة وإيقاع الإيحاء عليها أظهر من أيقاع ﴿

نَقُصُّ ﴾ باعتبار اشتمالها على القصة وما هو أظهر أولى بإعمال صريح الفعل فيه ، وفيه من تفخيم القرآن وإحضار ما فيه من الإعجاز وحسن البيان ما ليس في إعمال ﴿ نقصد صريحاً ، وجوز تنزيل أحد الفعلين منزلة اللازم ، ويجوز أن يكون دأحسنذ مفعولاً به لنقص ، والقصص : إما فعل بمعنى مفعول كالنبأ والخبر أو مصدر سمي به المفعول كالخلق والصيد أي نقص عليك أحسن ما يقص من الأنباء وهو قصة آل يعقوب عليه السلام ، ووجه أحسنيتها اشتمالها على حاسد ومحسود .

ومالك ومملوك .

وشاهد ومشهود ، وعاشق ومعشوق .

وحبس وإطلاق .

وخصب وجدب .

وذنب وعفو .

وفراق ووصال .

وسقم وصحة .

وحل وارتحال .

وذل وعز ، وقد أفادت أنه لا دافع لقضاء الله تعالى ولا مانع من قدره وأنه سبحانه إذا قضى لإنسان بخير ومكرمة فلو أن أهل العالم اجتمعوا على دفع ذلك لم يقدروا وأن الحسد سبب

الخذلان والنقصان .

وأن الصبر مفتاح الفرج.

وأن التدبير من العقل وبه يصلح أمر المعاض إلى غير ذلك مما يعجز عن بيانه بنان التحرير .

(45/391)

وقيل : إنما كانت ﴿ أحسن ﴾ لأن غالب من ذكر فيها كان مآله إلى السعادة ، وقيل : المقصوص أخبار الإمام السالفة والقرون الماضية لا قصة آل يعقوب فقط ، والمراد بهذا القرآن ما اشتمل على ذلك ، و ﴿ أَحْسَنُ ﴾ ليس أفعل تفضيل بل هو بمعنى حسن كأنه قيل : حسن القصص من باب إضافة الصفة إلى الموصوف أي القصص الحسن ، والقول عليه عند الجمهور ما ذكرنا ، قيل : ولكونها بتلك المثابة من الحسن تتوفر الدواعي إلى نقلها ولذا لم تتكرر كغيرها من القصص ، وقيل : سبب ذلك من افتتان امرأة ونسوة بأبدع الناس جمالاً ، ويناسب ذلك عدم التكرار لما فيه من الأغضاء والستر ، وقد صحح الحاكم في مستدركه حديث النهي عن تعليم النساء سورة يوسف ، وقال الإستاذ أبو إسحاق : إنما كرر الله تعالى قصص الأنبياء وساق هذه القصة مساقاً واحداً إشارة إلى عجز العرب كأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : إن كان من تلقاء نفسي فافعلوا في قصة يوسف ما

فعلت في سائر القصص وهو وجه حسن إلا أنه يبقى عليه أن تخصيص سورة يوسف لذلك يحتاج إلى بيان فإن سوق قصة آدم عليه السلام مثلاً مساقاً واحداً يتضمن الإشارة إلى ذلك أيضاً بعين ما ذكر، وقال الجلال السيوطي: ظهر لي وجه في سوقها كذلك وهو أنها نزلت بسبب طلب الصحابة أن يقص عليهم فنزلت مبسوطة تامة ليحصل لهم مقصود القصص من الاستيعاب وترويح النفس بالإحاطة ولا يخفى ما فيه، وكأنه لذلك قال: وأقوى ما يجاب به أن قصص الأنبياء إنما كررت لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم والحاجة داعية إلى ذلك كتكرير تكذيب الكفار للرسول الله صلى الله عليه وسلم فكلما كذبوا أنزلت قصة منذرية بحلول العذاب كما حل بالمكذبين، ولهذا قال سبحانه في آيات:

(46/391)

﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الاولين ﴾ [الأنفال: 38] ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مّن قَرْنٍ ﴾ [الأنعام: 6] وقصة يوسف لم يقصد منها ذلك، وبهذا أيضاً يحصل الجواب عن عدم تكرير قصة أصحاب الكهف.

وقصة ذي القرنين.

وقصة موسى مع الخضر.

وقصة الذبيح ، ثم قال : فإن قلت : قد تكررت قصة ولادة يحيى وولادة عيسى عليهما السلام مرتين وليست من قبيل ما ذكرت ﴿ قُلْتَ ﴾ الأولى في سورة ﴿ كهيعص ﴾ [مريم : 1] وهي مكية أنزلت خطاباً لأهل مكة ، والثانية في سورة آل عمران وهي مدنية أنزلت خطاباً لليهود ولنصارى نجران حين قدموا ولهذا اتصل بهذا ذكر المحاجة والمباهلة اه .

واعترض بأن قصة آدم عليه السلام كررت مع أنه ليس المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم ، وأجيب بأنها وإن لم يكن المقصود بها إفادة ما ذكر إلا أن فيها من الزجر عن المعصية ما فيها فهي أشبه قصة بتلك القصص التي كررت لذلك فافهم ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ ﴾ أي قبل إيحائنا إليك ذلك ﴿ لَمِنَ الغافلين ﴾ عنه لم يخطر ببالك ولم يقرع سمعك ، وهذا تعليل لكونه موحى كما ذكره بعض المحققين والأكثر في مثله ترك الواو ، والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لاجلال شأن النبي صلى الله عليه وسلم وكذا العدول عن لغافلا إلى ما في النظم الجليل عند بعض ، ويمكن أن يقال : إن الشيء إذا كان بديعاً وفيه نوع غرابة إذا وقف عليه قيل للمخاطب : كنت عن هذا غافلاً فيجوز أن يقصد الإشارة إلى غرابة تلك القصة فيكون كالتأكيد لما تقدم إلا أن فيه ما لا يخفى وأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن واللام فارقة ، وجملة ﴿ كُنتُ ﴾ الخ خبر إن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

وقال القاسمي :

سورة يوسف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [1] .

﴿ الر ﴾ تقدم الكلام على مثله ، وأنها إما حروف مسرودة على نمط التعديد ، والإشارة في قوله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ إلى آيات السورة ، نزّل ما بعده لكونه مترقباً منزلة المتقدم . والإشارة بالبعيد لعظمته ، وبعد مرتبته ، وإما اسم للسورة ، والإشارة في (تلك) إليها . والمراد بـ (الكتاب) السورة ؛ لأنه بمعنى المكتوب ، فيطلق عليها . أو القرآن ، لأنه كما يطلق على كله ، يطلق على بعضه . و (المبين) بمعنى الظاهر أمرها وإعجازها ، إن أخذ من (بان) لازماً بمعنى ظهر ، وإن أخذ من المتعدي فالمفعول مقدر ، أي : أنها من عند الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [2] .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ ﴾ أي: الكتاب المنعوت بما ذكر: ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُون ﴾ أي: لكي تفهموه، وتحيطوا بمعانيه، ولا يلتبس عليكم. كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ [فصلت: من الآية 44]، أو لتستعملوا فيه عقولكم، فتعلموا أن اقتصاصه كذلك، ممن لم يتعلم القصص معجز، لا يمكن إلا بالإيحاء.

أو: ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ بإنزاله عربياً، ما تضمن من المعاني والأسرار، التي لا يتضمنها ولا يحتملها غيرها من اللغات، وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس. قال بعضهم: نزل أشرف الكتب، بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وفي أشرف شهور السنة، وهو رمضان، فكمل له الشرف من كل الوجوه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [3] .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ أي : أبدعه طريقة ، وأعجبه أسلوباً ، وأصدقه أخباراً ، وأجمعه حكماً وعبراً : ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي : بإيحائنا إليك : ﴿ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أي : عنه ، لم يخطر ببالك . والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لإجلال شأن النبي صلى الله عليه وسلم . وقد جوز في هذا أن يكون مفعول نقص على أن (أحسن) نصب على المصدر ، وأن يكون مفعول (أوحينا) على أن مفعول نقص (أحسن) أو محذوف . وأن يكون بدلاً من (ما) على أنها موصولة أو خبر محذوف كذلك . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 150.151 ﴾

(49/391)

وقال ابن عاشور :

﴿ الر ﴾ .

تقدم الكلام على نظاير ﴿ الر ﴾ ونحوها في أوّل سورة البقرة .

الكلام على ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ مضى في سورة يونس .

ووُصف الكتاب هنا بـ ﴿ المبين ﴾ ووصف به في طالعة سورة يونس بـ ﴿ الحكيم ﴾ لأنّ ذكر وصف إبانته هنا أنسب ، إذ كانت القصّة التي تضمّنتها هذه السّورة مفصّلة مبيّنة

لأهمّ مَا جرى في مدة يوسف عليه السّلام بمصر .

فقصّة يوسف عليه السّلام لم تكن معروفة للعرب قبل نزول القرآن إجمالاً ولا تفصيلاً ، بخلاف قصص الأنبياء : هود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب عليهم السّلام أجمعين ، إذ كانت معروفة لديهم إجمالاً ، فلذلك كان القرآن مبيّناً إيّاها ومفصّلاً .

ونزولها قبل اختلاط النبي صلى الله عليه وسلم باليهود في المدينة معجزة عظيمة من إعلام الله تعالى إيّاه بعلوم الأوّلين ، وبذلك ساوى الصحابةُ علماءَ بني إسرائيل في علم تاريخ الأديان والأنبياء وذلك من أهم ما يعلمه المشرعون .

فالمبين : اسم فاعل من أبان المتعدي .

والمراد : الإبانة التامّة باللفظ والمعنى .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) ﴾

استئناف يفيد تعليل الإبانة من جهتي لفظه ومعناه ، فإنّ كونه قرآناً يدل على إبانة المعاني ، لأنّه ما جعل مقروءاً إلاّ لما في تراكيبه من المعاني المفيدة للقارئ .

وكونه عربياً يفيد إبانة ألفاظه المعانيَ المقصودةَ للّذين خوطبوا به ابتداء ، وهم العرب ، إذ لم يكونوا يتبيّنون شيئاً من الأمم التي حولهم لأنّ كتبهم كانت باللغات غير العربية .

والتّأكيد بـ (إنّ) متوجّه إلى خبرها وهو فعل ﴿ أنزلناه ﴾ ردّاً على الذين أنكروا أن يكون منزلاً من عند الله .

وضمير ﴿ أنزلناه ﴾ عائد إلى ﴿ الكتاب ﴾ في قوله : ﴿ الكتاب المبين [سورة يوسف : 1] .

(50/391)

وقرآناً ﴾ حال من الهاء في ﴿ أنزلناه ﴾ ، أي كتاباً يقرأ ، أي منظماً على أسلوب معدّ لأنْ يقْرأ لا كأسلوب الرسائل والخطب أو الأشعار ، بل هو أسلوب كتاب نافع نفعاً مستمراً يقرأه الناس .

و﴿ عربيّاً ﴾ صفة ل ﴿ قرآناً ﴾ .

فهو كتاب بالعربيّة ليس كالكتب السّالفة فإنّه لم يسبقه كتاب بلغة العرب .

وقد أفصح عن التعليل المقصود جملة ﴿ لعلّكم تعقلون ﴾ ، أي رجاء حصول العلم لكم من لفظه ومعناه ، لأنّكم عرب فنزوله بلغتكم مشتملاً على ما فيه نفعكم هو سبب لعقلكم ما يحتوي عليه ، وعُبّرَ عن العلم بالعقل للإشارة إلى أنّ دلالة القرآن على هذا العلم قد بلغت في الوضوح حدّ أن ينزّل من لم يَحصل له العلم منها منزلة من لا عقل له ، وأنّهم ما داموا معرضين عنه فهم في عداد غير العقلاء .

وحذف مفعول ﴿ تعقلون ﴾ للإشارة إلى أنّ إنزاله كذلك هو سبب لحصول تعقل لأشياء

كثيرة من العلوم من إعجاز وغيره.

وتقدّم وَجه وقوع (لعلّ) في كلام الله تعالى، ومحمل الرجاء المفاد بها على ما يؤول إلى التعليل عند قوله تعالى: ﴿ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلّكم تشكرون ﴾ في سورة البقرة (52)، وفي آيات كثيرة بعدها بما لا التباس بعده.

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾

هذه الجملة تتنزل من جملة ﴿ إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً ﴾ [سورة يوسف: 2] منزلة بدل الاشتمال لأنّ أحسن القصص ممّا يشتمل عليه إنزال القرآن.

وكون القصص من عند الله يتنزّل منزلة الاشتمال من جملة تأكيد إنزاله من عند الله.

وقوله: بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ يتضمّن رابطاً بين جملة البدل والجملة المبدل منها.

وافتتاح الجملة بضمير العظمة للتّنويه بالخبر، كما يقول كتّاب "الديوان": أمير المؤمنين يأمر بكذا.

وتقديم الضمير على الخبر الفعليّ يفيد الاختصاص، أي نحن نقصّ لا غيرُنا، ردّاً على من يطعن من المشركين في القرآن بقولهم: ﴿ إنّما يعلمه بشرٌ ﴾ [سورة النحل: 103]

وقولهم : ﴿ أساطير الأولين اكتتبها ﴾ [سورة الفرقان : 5] وقولهم : يُعلمه رجل من أهل اليمامة اسمه الرّحمان .

وقول النضر بن الحارث المتقدّم ديباجة تفسير هذه السورة .

وفي هذا الاختصاص توافُق بين جملة البدل والجملة المبدل منها في تأكيد كون القرآن من عند الله المفاد بقوله : ﴿ إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً ﴾ [سورة يوسف : 2] .

ومعنى ﴿ نَقُصُّ ﴾ نخبر الأخبار السّالفة .

وهو منقول من قَصّ الأثر إذا تتبّع مواقع الأقدام ليتعرّف منتهى سير صاحبها .

ومصدره : القصّ بالإدغام ، والقصص بالفكّ .

قال تعالى : ﴿ فارتدّا على آثارهما قصصاً ﴾ [سورة الكهف : 64] .

وذلك أنّ حكاية أخبار الماضين تشبه اتّبَاعَ خطاهم ، ألاَ ترى أنّهم سمّوا الأعمال سِيرة وهي في الأصل هيئة السّير ، وقالوا : سار فلان سِيرة فلان ، أي فعل مثل فعله ، وقد فرّقوا بين هذا الإطلاق المجازي وبين قصّ الأثر فخصّوا المجازي بالصّدر المفكّك وغلبوا المصدر المدغم على المعنى الحقيقيّ مع بقاء المصدر المفكك أيضاً كما في قوله : فارتدّا على آثارهما قَصصاً ﴾ .

ف ﴿ أحسن القصص ﴾ هنا إمّا مفعول مطلق مبيّن لنوع فعله ، وإمّا أن يكون القصص بمعنى المفعول من إطلاق المصدر وإرادة المفعول ، كالخلق بمعنى المخلوق ، وهو إطلاق

للقصص شائع أيضاً .

قال تعالى : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب ﴾ [سورة يوسف : 111] .

وقد يكون وزن فَعْل بمعنى المفعول كالنّبأ والخبر بمعنى المنبّأ به والمخبّر به ، ومثله الحَسب والنقَض .

وجعل هذا القَصص أحسن القصص لأنّ بعض القصص لا يخلو عن حسن ترتاح له النفوس .

(52/391)

وقصص القرآن أحسن من قصص غيره من جهة حسن نظمه وإعجاز أسلوبه وبما يتضمّنه من العبر والحكم ، فكلّ قصص في القرآن هو أحسن القصص في بابه ، وكلّ قصة في القرآن هي أحسن من كلّ ما يقصّه القاصّ في غير القرآن .

وليس المراد أحسن قصص القرآن حتى تكون قصّة يوسف عليه السّلام أحسن من بقيّة قصص القرآن كما دلّ عليه قوله : بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ .

والباء في ﴿ بما أوحينا إليك ﴾ للسببيّة متعلّقة بـ ﴿ نقُصُّ ﴾ ، فإنّ القصص الوارد في القرآن كان أحسن لأنّه وارد من العليم الحكيم ، فهو يوحي ما يعلم أنّه أحسن نفعاً للسّامعين

في أبدع الألفاظ والتراكيب ، فيحصل منه غذاء العقل والروح وابتهاج النفس والذّوق ممّا لا تأتي بمثله عقول البشر .

واسم الإشارة لزيادة التمييز ، فقد تكرّر ذكر القرآن بالتّصريح والإضمار واسم الإشارة ستّ مرّات ، وجمع له طرق التعريف كلّها وهي اللاّم والإضمار والعلمية والإشارة والإضافة .

وجملة ﴿ وإن كنتَ من قبله لمن الغافلين ﴾ في موضع الحال من كاف الخطاب .

وحرف ﴿ إنْ ﴾ مخفّف من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف .

وجملة ﴿ كنتَ من قبله لمن الغافلين ﴾ خبر عن ضمير الشأن المحذوف واللاّم الدّاخلة على خبر ﴿ كنتَ ﴾ لام الفرق بين ﴿ إنْ ﴾ المخففة و (إنْ) النافية .

وأدخلت اللاّم في خبر كان لأنه جزء من الجملة الواقعة خبراً عن (إن) .

والضمير في ﴿ قبله ﴾ عائد إلى القرآن .

والمراد من قبل نزوله بقرينة السياق .

والغفلة : انتفاء العلم لعدم توجّه الذهن إلى المعلوم ، والمعنى المقصود من الغفلة ظاهر .

ونكتة جعله من الغافلين دون أن يوصف وحده بالغفلة للإشارة إلى تفضيله بالقرآن على كل من لم ينتفع بالقرآن فدخل في هذا الفضل أصحابه والمسلمون على تفاوت مراتبهم في العلم .

ومفهوم ﴿ من قبله ﴾ مقصود منه التعريض بالمشركين المُعْرضين عن هدي القرآن .

(53/391)

قال النبي صلى الله عليه وسلم " مَثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نَقية قبِلت الماء فأنبتت الكلأ والعُشُب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسَكَتْ الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسَقَوا وزَرَعوا ، وأصاب منها طائفةً أخرى إنّما هي قيعان لا تُمسك ماء ولا تُنبت كلأ .

فذلك مَثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِم وعلّم .

ومثَل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هُدى الله الذي أرسلتُ به " أي المشركين الذين مَثَلُهم كمثل من لا يرفع رأسه لينظر . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(54/391)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1) ﴾

لقد تعرضنا من قبل لفواتح السور ؛ من أول سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وقلنا : إن

فواتح بعض من سور القرآن تبدأ بحروف مُقطَّعة ؛ ننطقها ونحن نقرؤها بأسماء الحروف ، لا بمسميات الحروف .

فإن لكل حرف اسماً ومُسمَّى ، واسم الحرف يعرفه الخاصة الذين يعرفون القراءة والكتابة ، أما العامة الذين لا يعرفون القراءة أو الكتابة ؛ فهم يتكلمون بمسميات الحروف ، ولا يعرفون أسماءها .

فإن الأمي إذا سُئل أن يتهجى أيّ كلمة ينطقها ، وأن يفصل حروفها نطقاً ؛ لما عرف ، وسبب ذلك أنه لم يتعلم القراءة والكتابة ، أما المتعلم فهو يعرف أسماء الحروف ومُسمَّياتها .

ونحن نعلم أن القرآن قد نزل مسموعاً ، ولذلك أقول : إياك أن تقرأ كتاب الله إلا أن تكون قد سمعته أولاً ؛ فإنك إذا قرأته قبل أن تسمعه فسيستوي عندك حين تقرأ في أول سورة البقرة : ﴿ الم ﴾ [البقرة : 1] .

مثلما تقول في أول سورة الشرح : ﴿ أَلَمْ ﴾ [الشرح : 1] .

أما حين تسمع القرآن فأنت تقرأ أول سورة البقرة كما سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبريل عليه السلام " ألف لام ميم " ، وتقرأ أول سورة الشرح " ألم " .

وأقول ذلك لأن القرآن كما نعلم ليس كأي كتاب تُقبِل عليه لتقرأه من غير سماع ، لا . بل هو كتاب تقرؤه بعد أن تسمعه وتصحح قراءتك على قارئ ؛ لتعرف كيف تنطق كل قَوْل كريم

، ثم من بعد ذلك لك أن تقرأ بعد أن تعرفتَ على كيفية القراءة ؛ لأن كل حرف في الكتاب الكريم موضوع بميزان وبقدر .

ونحن نعلم أيضا أن آيات القرآن منها آياتٌ مُحْكمات وأُخَر مُتَشابهات . والآيات المُحْكمات تضم الأحكام التي عليك أن تفعلها لِتُثاب عليها ، وإنْ لم تفعلها تُعاقب ، وكل ما في الآيات المُحْكمات وَاضح .

(55/391)

أما الآيات المُتَشابهات إنما جاءت متشابهة لاختلاف الإدراك من إنسان لآخر ، ومن مرحلة عُمرية لأخرى ، ومن مجتمع لآخر ، والإدراكات لها وسائل يتشابه فيها الناس ، مثل : العين ، والأذن ، والأنف ، واللسان ، واليد .

ووسائل الإدراك هذه ؛ لها قوانين تحكمها :

فعيْنك يحكمها قانون إبصارك ، الذي يمتد إلى أن تلتقي خطوط الأشعة عند بؤرة تمتنع رؤيتُك عندها ؛ ولذلك تصغُر الأشياء تدريجيا كلما ابتعدت عنها إلى أن تتلاشى من حدود رؤيتك .

وصوتُك له قانون ؛ تحكمه ذبذبات الهواء التي تصل إلى أدوات السمع داخل أذنك .

وكذلك الشَّمُّ له حدود ؛ لأنك لا تستطيع شَمَّ وردة موجودة في بلد بعيدة .

وكذلك العقل البشري له حدود يُدرك بها ، وقد علم الله كيف يدرك الإنسان الأمور ، فلم يمنع تأمل وردة جميلة ، لكنه أمر بغضِّ البصر عند رؤية أي امرأة .

وهكذا يُحدِّد لكَ الحق الحلال الذي تراه ، ويُحدِّد لك الحرام الذي يجب أن تمتنع عن رؤيته .

وكذلك في العقل ؛ قد يفهم أمراً وقد لا يفهم أمراً آخر ، وعدم فَهْمك لذلك الأمر هو لَوْن من الفهم أيضاً ، وإنْ تساءلتَ كيف ؟

انظر إلى موقف تلميذ في الإعدادية ؛ وجاء له أستاذه بتمرين هندسي مما يدرسه طلبة الجامعة ؛ هنا سيقول التلميذ الذكي لأستاذه : نحن لم نأخذ الأسس اللازمة لحلِّ مثل هذا التمرين الهندسي ، هذا القول يعني أن التلميذ قد فهم حدوده .

وهكذا يعلمنا الله الأدب في استخدام وسائل الإدراك ؛ فهناك أمر لك أن تفهمه ؛ وهناك أمر تسمعه من ربك وتطيعه ، وليس لك أن تفهمه قبل تنفيذه ؛ لأنه فوق مستوى إدراكك .

ودائما أقول هذا المثل ولله المثل الأعلى إنك حين تنزل في فندق كبير ، تجد أن لكل غرفة مفتاحاً خاصاً بها ، لا يفتح أي غرفة أخرى ، وفي كل دَوْر من أدوار الفندق يوجد مفتاح يصلح لفتْح كل الأدوار ، ولا يفهم هذا الأمر إلا المتخصص في تصميم مثل تلك المفاتيح .

فما بالنا بكتاب الله تعالى ، وهو الكتاب الجامع في تصميم مثل تلك المفاتيح .

فما بالنا بكتاب الله تعالى وهو الكتاب الجامع الذي يقول فيه الحق تبارك وتعالى : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابتغاء الفتنة وابتغاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله والراسخون فِي العلم يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألباب ﴾ [آل عمران : 7] .

إذن : فهذا المتشابه يعتبره أهل الزيغ فرصة لتحقيق مآربهم ، وهو إبطال الدين بأيّ وسيلة وبأي طريقة ، ويحاولون ممارسة التكبر على كتاب الله .

ولهؤلاء نقول : لقد أراد الله أن يكون بعضٌ من سور الكتاب الكريم مُبْتدئةً بحروف تنطق بأسمائها لا بمُسمَّياتها .

وقد أرادها الحق سبحانه كذلك ليختبر العقول ؛ فكما أطلق سبحانه للعقل البشري التفكير في أمور كثيرة ؛ فهناك بعض من الأمور يخيب فيها التفكير ، فلا يستطيع العقل إدراك الأشياء التي تفوق حدود عقله .

والحق سبحانه وتعالى يصنع للإنسان ابتلاءات في وسائل إدراكه ؛ وجعل لكل وسيلة إدراك حدوداً ، وشاء أن يأتي بالمتشابه ليختبر الإنسان ، ويرى : ماذا يفعل المؤمن ؟

وقوله الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله والراسخون فِي العلم . . ﴾ [آل عمران

: 7] .

قد يُفْهم منه أنه عطف ؛ بمعنى أن الراسخين في العلم يعلمون تأويله ؛ وبالتالي سيُعلّمون الناس ما ينتهون إليه من علم بالتأويل . ولكن تأويل الراسخين في العلم هو قولهم : ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا . . . ﴾ [آل عمران : 7] .

إذن : فنهاية تأويلهم : هو من عند ربنا ، وقد آمنا به .

وجاء لنا قوله صلى الله عليه وسلم لِيَحُل لنا إشكال المُتَشابَه :

" ما تشابه منه فآمنوا به " .

(57/391)

لأن المتشابه من ابتلاءات الإيمان .

والمثل الذي أضربه هنا هو أمره صلى الله عليه وسلم لنا أن نستلم الحجر الأسود وأن نُقبّله ، وأن نَرْجُم الحجر الذي يمثل إبليس ، وكلاهما حجر ، لكننا نمتثل بالإيمان لما أمرنا به صلى الله عليه وسلم .

وأنت لو أقبلتَ على كل أمر بحُكْم عقلك ، وأردتَ أن تعرف الحكمة وراء كل أمر ، لَعبدْتَ عقلك ، والحق سبحانه يريد أن تقْبل على الأمور بِحُكْمِه هو سبحانه .

وأنت إن قلتَ لواحد : إن الخمر تهري الكبد . ووضعت على كبده جهاز الموجات فوق الصوتية الذي يكشف صورة الكبد ، ثم ناولتَ الرجل كأس خمر ؛ فرأى ما يفعله كأس الخمر في الكبد ، وراَعَه ذلك ؛ فقال : والله لن أشربها أبداً .

هل هو يفعل ذلك لأنه مؤمن ؟ أم أنه ربط سلوكه بالتجربة ؟

لقد ربط سلوكه بالتجربة ، وهو يختلف عن المؤمن الذي نفَّذ تعاليم السماء فامتنع عن الخمر لأن الله أمر بذلك ، فلا يمكن أن نؤجل تعاليم السماء إلى أن تظهر لنا الحكمة منها .

إذن : فعِلَّة المُتَشابه ؛ الإيمان به . وقد يكون للمُتَشابه حكمة ؛ لكِنَّا لن نُؤجِّل الإيمان حتى نعرف الحكمة .

وأقول دائماً : يجب أن يعامل الإنسانُ إيمانَه بربه معاملته لطبيبه ، فالمريض يذهب إلى طبيبه ليعرض عليه شكواه من مرض يؤلمه ؛ ليصفَ الطبيب له الدواء ، كذلك عمل عقلك ؛ عليه أن ينتهي عند عتبة إيمانك بالله .

ونجد من أقوال أهل المعرفة بالله مَنْ يقول : إن العقل كالمطيَّة ، يُوصِّلك إلى باب السلطان ، لكنه لا يدخل معك .

إذن : فالذي يناقش في عِلَل الأشياء هو مَنْ يرغب في الحديث مع مُسَاوٍ له في الحكمة ، وهل يوجد مُسَاوٍ لله ؟

طبعا لا ، لذلك خُذْ افتتاحيات السور التي جاءت بالحروف المقطعة كما جاءت ،

واختلافنا على معانيها يؤكد على أنها كَنْز لا ينفذ من العطاء إلى أن تُحل إنْ شاء الله من الله .

(58/391)

ومن العجيب أن آيات القرآن كلها مبنيةٌ على الوَصْل ، ففي آخر سورة هود نجد قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : 123] .

وكان من المفترض أن نقف عليها فننطق كلمة " تعملون " ساكنة النون ، لكنها موصولة ب " بسم الله الرحمن الرحيم " ؛ لذلك جاءت النون مفتوحة .

وأيضاً ما دامت الآيات مبنية على الوصل ، كان من المفروض أن ننطق بدء سورة يوسف " ألفُ لامٌ رَاءُ " لكن الرسول صلى الله عليه وسلم علّمنَا أن نقرأها " ألفْ لامْ راءْ " وننطقها ساكنة .

وهذا دليل على أنها كلمة مبنية على الوقف ، ودليل على أن لله سبحانه حكمة في هذا وفي ذاك .

ونحن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يراجع القرآن مرة كل رمضان مع جبريل عليه السلام وراجعه مرتين في رمضان الذي سبق وفاته صلى الله عليه وسلم .

وهكذا وصلنا القرآن كما أنزله الحق سبحانه على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .

وهنا يقول الحق : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب المبين ﴾ [يوسف : 1] .

و" تلك " إشارة لما بَعْدَ (الر) ، وهي آيات الكتاب .

أي : خذوا منها أن آيات القرآن مُكوَّنة من مثل هذه الحروف ، وهذا فَهْم البعض لمعنى :

﴿ الر . . . ﴾ [يوسف : 1] لكنه ليس كل الفهم .

مثل : صانع الثياب الذي يضع في واجهة المحل بعضاً من الخيوط التي تم نَسْج القماش منها ؛ ليدلنا على دِقَّة الصنعة .

فكأنَّ الله سبحانه يُبيِّن لنا أن ﴿ الر . . . ﴾ [يوسف : 1] أسماء لحروف هي من أسماء الحروف التي نتكلم بها ، والقرآن تكوَّنت ألفاظه من مثل تلك الحروف ، ولكن آيات القرآن معجزة ، لا يستطيع البشر ولو عاونهم الجن أن يأتوا بمثله .

إذن : فالسُّمو ليس من ناحية الخامة التي تُكوِّن الكلام ، ولكن المعجزة أن المتكلم هو الحق سبحانه فلا بد أن يكون كلامه مُعجزاً ؛ وإن كان مُكوَّناً من نفس الحروف التي نستخدمها نحن البشر .

وهناك معنى آخر : فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ينطق أسماء الحروف " أَلِفْ لام رَاء " ، وهو صلى الله عليه وسلم الأمي بشهادة المعاصرين له بما فيهم خصومه ، رغم أن القادر على نُطْق أسماء الحروف لا بُدَّ أن يكون مُتعلّماً ، ذلك أن الأمي ينطق مُسمَّيات الحروف ولا يعرف أسماءها ، وفي هذا النطق شهادة بأن مَنْ علَّمه ذلك هو ربه الأعلى .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب المبين ﴾ [يوسف : 1] .

كلمة " الكتاب " عندما تُطلق فمعناها ينصرف إلى القرآن الكريم .

ونجد كلمة " المبين " ، أي : الذي يُبيِّن كل شيء تحتاجه حركة الإنسانِ الخليفةِ في الأرض ، فإن بانَ لك شيء وظننتَ أن القرآن لم يتعرَّض له ، فلا بد أن تبحث عن مادة أو آية تلفتك إلى ما يبين لك ما غابَ عنك .

ويُروى عن الإمام محمد عبده أنه قابل أحد المستشرقين في باريس ؛ ووجَّه المستشرق سؤالاً إلى الإمام فقال :

مادامتْ هناك آية في القرآن تقول : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ . . . ﴾ [الأنعام : 38] فَدعْنِي أسألك : كم رغيفاً ينتجه أردبُّ القمح ؟

فقال الإمام للمستشرق : انتظر . واستدعى الإمام خبازاً ، وسأله : كم رغيفاً يمكن أن نصنعه من أردب القمح ؟ فأجاب الخباز على السؤال .

هنا قال المستشرق : لقد طلبتُ منك إجابة من القرآن ، لا من الخباز . فردَّ الإمامُ : إذا

كان القرآن قد قال : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ . . . ﴾ [الأنعام : 38]

فالقرآن قال أيضاً : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 43] .

لقد فَطِن الإمام محمد عبده إلى أن العقل البشري أضيق من أن يسع كل المعلومات التي تتطلبها الحياة ؛ لذلك شاء الحق سبحانه أن يوزِّع المواهب بين البشر ؛ ليصبح كل متفوق في مجال ما ، هو من أهل الذكر في مجاله .

(60/391)

ونحن على سبيل المثال عندما نتعرض لمسألة ميراث ؛ فنحن نلجأ إلى مَنْ تخصص في المواريث ، ليدلنا على دقة توزيع أنصبة هذا الميراث .

وحين يؤدي المسلم من العامة فريضة الحج ، فيكفيه أن يعلم أن الحج فريضة ؛ ويبحث عند بَدْء الحج عمَّنْ يُعلِّمه خُطوات الحج كما أدَّاها صلى الله عليه وسلم .

وهذا سؤال لأهل الذكر ، مثلما نستدعي مهندساً ليصمم لنا بيتاً حين نشرع في بناء بيت ، بعد أن نمتلك الإمكانات اللازمة لذلك .

وهكذا نرى أن علوم الحياة وحركتها أوسع من أن يتسع لها رأس ؛ ولذلك وزَّع الله أسباب فضله على عباده ، ليتكاملوا تكاملَ الاحتياج ، لا تكامل التفضُّل ، ويصير كل منهم مُلْتحماً

بالآخرين غَضبْاً عنه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّآ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً . . . . ﴾ .

وبالنسبة للقرآن نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 193]

.

فنسب النزول مرة لجبريل كحامل للقرآن ليبلغ به رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومرة يقول : ﴿ نُزِّلَ . . . ﴾ [محمد : 2] ، والنزول في هذه الحالة منسوب لله وجبريل والملائكة .

أما قول الحق سبحانه : ﴿ أُنْزِلَ . . . ﴾ [البقرة : 91] ، فهو القول الذي يعني أن القرآن قد تعدى كونه مَكْنوناً في اللوح المحفوظ ليباشر مهمته في الوجود ببعث رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم .

هذا هو معنى الإنزال للقرآن جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم نزل من بعد ذلك نجوماً متفرقة ؛ ليعالج كل المسائل التي تعرَّض لها المسلمون .

وهكذا يؤول الأمر إلى أن القرآن نزل أو نزل به الروح الأمين .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وبالحق أَنْزَلْنَاهُ وبالحق نَزَلَ . . ﴾ [الإسراء : 105] أي : أن الحق سبحانه أنزله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم أنزله مفرقاً ليعالج الأحداث

ويباشر مهمته في الوجود الواقعي .

وفي هذه الآية يقول سبحانه :

(61/391)

﴿ إِنَّآ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً . . . ﴾ [يوسف : 2] .

وفي الآية السابقة قال : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكتاب . . . ﴾ [يوسف : 1] .

فمرَّة يَصِفه بأنه قرآن بمعنى المقروء ، ومرّة يَصِفه بأنه كتاب ؛ لأنه مسطور ، وهذه من معجزات التسمية .

ونحن نعلم أن القرآن حين جُمِع ليكتب ؛ كان كاتب القرآن لا يكتب إلا ما يجده مكتوباً ، ويشهد عليه اثنان من الحافظين .

ونحن نعلم أن الصدور قد تختلف بالأهواء ، أما السطور فمُثْبتة لا لَبْس فيها .

وهو قرآن عربي ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم سيجاهر بالدعوة في أمة عربية ، وكان لابد من وجود معجزة تدل على صدق بلاغه عن الله ، وأن تكون مِمَّا نبغ فيه العرب ؛ لأن المعجزة مشروطة بالتحدي ، ولا يمكن أن يتحداهم في أمر لا ريادة لهم فيه ولا لهم به صلة ؛ حتى لا يقولن أحد : نحن لم نتعلم هذا ؛ ولو تعلمناه لجئنا بأفضل منه .

وكان العرب أهل بيان وأدب ونبوغ في الفصاحة والشعر ، وكانوا يجتمعون في الأسواق ، وتتفاخر كل قبيلة بشعرائها وخطبائها المُفوَّهين ، وكانت المباريات الآدائية تُقَام ، وكانت التحديات تجرى في هذا المجال ، ويُنصَب لها الحكام .

أي : أن الدُّرْبَة على اللغة كانت صناعة متواترة ومتواردة ، محكوم عليها من الناس في الأسواق ، فهم أمة بيان وبلاغة وفصاحة .

لذلك شاء الحق سبحانه أن يكون القرآن معجزة من جنس ما نبغ فيه العرب ، وهم أول قوم نزل فيهم القرآن ، وحين يؤمن هؤلاء لن يكون التحدي بفصاحة الألفاظ ونسق الكلام ، بل بالمبادىء التي تطغى على مبادىء الفرس والروم .

وهي مبادىء قد نزلت في أمة مبتدّية ليس لها قانون يجمعها ، ولا وطن يضمهم يكون الولاء له ، بل كل قبيلة لها قانون ، وكلهم بَدْو يرحلون من مكان إلى مكان .

(62/391)

وحين نزل فيهم القرآن عَلِم أهل فارس والروم أن تلك الأمة المُبتدِّية قد امتلكتْ ما يبني حضَارة ليس لها مثل من قَبْل ، رغم أن النبي أُمِيٌّ وأن الأمة التي نزل فيها القرآن كانت أمية .

وفارس والروم يعلمون أن الرسول الذي نزل في تلك الأمة تحدَّاهم بما نبغُوا فيه ، وما استطاع

واحد منهم أن يقوم أمام التحدي ، ومن هنا شعروا أنهم أمام تحد حضاري من نوع آخر لم يعرفوه .

ويشاء الحق سبحانه أن ينزل القرآن عربياً ؛ لأن الحق لم يكن ليرسل رسولاً إلا بلسان قومه ، فهو القائل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ . . . ﴾ [إبراهيم : 4] .

وأُرسِلَ محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن ، الذي تميَّز عن سائر كتب الرسل الذين سبقوه ؛ بأنه كتاب ومعجزة في آن واحد ، بينما كانت معجزات الرسل السابقين عليه صلى الله عليه وسلم مُنْفصلةً عن كُتُبِ الأحكام التي أُنزِلَتْ إليهم .

ويظلُّ القرآن معجزة تحمل منهجاً إلى أنْ تقومَ الساعة ، وما دام قد آمنَ به الأوائل وانساحوا في العالم ، فتحقق بذلك ما وعد به الله أن يكون هذا الكتابُ شاملاً ، يجذب كل مَنْ لم يؤمن به إلى الانبهار بما فيه من أحكام .

ولذلك حين يبحثون عن أسباب انتشار الإسلام في تلك المدة الوجيزة ، يجدون أن الإسلام قد انتشر لا بقوة مَنْ آمنوا به ؛ بل بقوة مَنْ انجذبوا إليه مَشْدُوهِين بما فيه من نُظُمٍ تُخلِّصهم من متاعبهم .

ففي القرآن قوانين تُسعِد الإنسانَ حقاً ، وفيه من الاستنباءات بما سوف يحدث في الكون ؛ ما يجعل المؤمنين به يذكرون بالخشوع أن الكتاب الذي أنزله الله على رسولهم لم يفرط في

شيء .

وإذا قال قائل من المستشرقين : كيف تقولون : إن القرآن قد نزل بلسان عربي مبين ؛ رغم وجود ألفاظ أجنبية مثل كلمة " آمين " التي تُؤمِّنون بها على دعاء الإمام ؛ كما توجد ألفاظ رومية ، وأخرى فارسية ؟

وهؤلاء المستشرقون لم يلتفتوا إلى أن العربي استقبل ألفاظاً مختلفة من أمم متعددة نتيجة اختلاطه بتلك الأمم ، ثم دارتْ هذه الألفاظ على لسانه ، وصارت تلك الألفاظ عربية ، ونحن في عصورنا الحديثة نقوم بتعريب الألفاظ ، وندخل في لغتنا أيّ لفظ نستعمله ويدور على ألسنتنا ، ما دُمْنا نفهم المقصود به .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : 2] .

ليستنهض همة العقل ، ليفكر في الأمر ، والمُنْصف بالحق يُهِمه أن يستقبل الناس ما يعرضه عليهم بالعقل ، عكس المدلس الذي يهمه أن يستر العقل جانباً ؛ لينفُذَ من وراء العقل .

وفي حياتنا اليومية حين ينبهك التاجر لسلعة ما ، ويستعرض معك مَتَانتها ومحاسنها ؛ فهو

يفعل ذلك كدليل على أنه واثق من جودة بضاعته .

أما لو كانت الصَّنْعة غير جيدة ، فهو لن يدعوك للتفكير بعقلك ؛ لأنك حين تتدبر بعقلكَ الأمر تكتشف المُدلس وغير المُدلس ؛ لذلك فهو يدلس عليك ، ويُعمِّي عليك ، ولا يدع لك فرصة للتفكير .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ . . . ﴾ .

حين يتحدث الحق سبحانه عن فعل من أفعاله ؛ ويأتي بضمير الجمع ؛ فسبب ذلك أن كل فعل من أفعاله يتطلب وجودَ صفات متعددة ؛ يتطلب : علماً ؛ حكمة ؛ قدرة ؛ إمكانات .

ومَنْ غيره سبحانه له كل الصفات التي تفعل ما تشاء وقْتَ أن تشاء ؟

لا أحد سواه قادر على ذلك ؛ لأنه سبحانه وحده صاحب الصفات التي تقوم بكل مطلوب في الحياة ومُقدَّر .

لكن حين يتكلم سبحانه عن الذات ؛ فهو يؤكد التوحيد فلا تأتي بصيغة الجمع ، يقول تعالى : ﴿ إنني أَنَا اللهُ لا إله إلا أَنَاْ فاعبدني وَأَقِمِ الصلاة لذكري ﴾ [طه : 14] .

وهنا يتكلم سبحانه بأسلوب يعبر عن أفعال لا يَقْدر عليها غيره ؛ بالدقة التي شاءها هو سبحانه فيقول :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص . . . ﴾ [يوسف : 3] .

وحدد سبحانه أنه هو الذي يقصُّ، وإذا وُجِد فعل لله؛ فنحن نأخذ الفعل بذاته خصوصه؛ ولا نحاول أن نشتق منه اسماً نطلقه على الله؛ إلا إذا كان الفعل له صفة من صفاته التي عَلِمْناها في أسمائه الحسنى؛ لأنه الذات الأقدس .

وفي كل ما يتعلق به ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً إنما نلتزم الأدب؛ لأننا لا نعرف شيئًا عن ذات الله إلا ما أخبرنا الله عن نفسه، لذلك لا يصح أن نقول عن الله أنه قصّاص، بل نأخذ الفعل كما أخبرنا به، ولا نشتق منه اسماً لله؛ لأنه لم يصف نفسه في أسمائه الحسنى بذلك .

والواجب أن ما أطلقه سبحانه اسماً نأخذه اسماً، وما أطلقه فعلاً نأخذه فعلاً .

وهنا يقول سبحانه :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص . . . . ﴾ [يوسف: 3] .

ونعلم أن كلمة "قص" تعني الإتباع، وقال بعض العلماء: إن القصة تُسمَّى كذلك لأن كل كلمة تتبع كلمة، ومأخوذة من قَصِّ الأثر، وهو تتبع أثر السائر على الأرض، حتى يعرف الإنسان مصير مَنْ يتتبعه ولا ينحرف بعيداً عن الاتجاه الذي سار فيه مَنْ يبحث عنه .

واقرأ قول الحق سبحانه: ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ

﴾ [القصص : 11] .

و﴿ قُصِّيهِ . . . ﴾ [القصص : 11] أي : تتبعي أثره .

إذن : فالقَصُّ ليس هو الكلمة التي تتبع كلمة ، إنما القَصُّ هو تتبُّع ما حدث بالفعل .

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً من قصة موسى عليه السلام مع فتاه : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصخرة فَإِنِّي نَسِيتُ الحوت وَمَآ أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ واتخذ سَبِيلَهُ فِي البحر عَجَباً * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فارتدا على آثَارِهِمَا قَصَصاً ﴾ [الكهف : 6364] ، أي : تَابَعا الخطوات .

(65/391)

وهكذا نعلم أن القص هو تتبُّع ما حدث بالفعل ، فتكون كل كلمة مُصوِّرة لواقع ، لا لَبْسَ فيه أو خيال ؛ ولا تزيُّد ، وليس كما يحدث في القصص الفنيِّ الحديث ؛ حيث يضيف القصَّاص لقطاتٍ خيالية من أجل الحَبْكة الفنية والإثارة وجَذْب الانتباه .

أما قصص القرآن فوضْعُه مختلف تماماً ، فكُلُّ قَصص القرآن إنما يتتبع ما حدث فعلاً ؛ لنأخذ منها العبرة ؛ لأن القصة نوع من التاريخ .

والقصة في القرآن مرةً تكون للحدث ، ومرّة تكون لتثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه

وسلم ، فلم تَأْتِ قصة رسول في القرآن كاملة ، إلا قصة يوسف عليه السلام .

أما بقية الرسل فقَصَصهم جاءت لقطات في مناسبات لتثبيت فؤاد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، فتأتي لقطة من حياة رسول ، ولقطة من حياة رسول آخر ، وهكذا .

ولا يقولن أحد : إن القرآن لم يستطع أن يأتي بقصة كاملة مستوفية ؛ فقد شاء الحق سبحانه أن يأتي بقصة يوسف من أولها إلى آخرها ، مُسْتوفية ، ففيها الحدث الذي دارتْ حوله أشخاصٌ ، وفيها شخصٌ دارتْ حوله الأحداث .

فقصة يوسف عليه السلام في القرآن لا تتميز بالحَبْكة فقط ؛ بل جمعتْ نوعَيْ القصة ، بالحدث الذي تدور حوله الشخصيات ، وبالشخص الذي تدور حوله الأحداث .

جاءتْ قصة يوسف بيوسف ، وما مَرَّ عليه من أحداث ؛ بَدْءً من الرُّؤيا ، ومروراً بحقد الأخوة وكيدهم ، ثم محاولة الغواية له من امرأة العزيز ، ثم السجن ، ثم القدرة على تأويل الأحلام ، ثم تولِّي السلطة ، ولقاء الأخوة والإحسان إليهم ، وأخيراً لقاء الأب من جديد .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص . . . ﴾ [يوسف : 3] .

يبيّن لنا أن الحُسْن أتى لها من أن الكتب السابقة تحدثت عن قصة يوسف ، لكن أحبار اليهود حين قرأوا القصة كما جاءتْ بالقرآن ترك بعضهم كتابه ، واعتمد على القرآن في روايتها ، فالقصة أحداثها واحدة ، إلا صياغة الأداء ؛ وتلمُّسات المواجيد النفسية ؛ وإبراز المواقف المطْويَّة في النفس البشرية ؛ وتحقيق الرُّؤى الغيبية كُلُّ ذلك جاء في حَبْكة ذات أداء بياني مُعْجز جعلها أحسنَ القَصَص .

أو : هي أحسن القصص بما اشتملتْ عليه من عِبَر متعددة ، عِبَر في الطفولة في مواجهة الشيخوخة ، والحقد الحاسد بين الأخوة ، والتمرد ، وإلقائه في الجبّ والكيد له ، ووضعه سجيناً بظلم ، وموقف يوسف عليه السلام من الافتراء الكاذب ، والاعتزاز بالحق حتى تمَّ له النصر والتمكين .

وكيف ألقى الله على يوسف عليه السلام محبَّة منه ؛ ليجعل كل مَنْ يلتقي به يحب خدمته .

وكيف صانَ يوسف إرثَ النبوة ، بما فيها من سماحة وقدرة على العفو عند المقدرة ؛ فعفَا عن إخوته بما روتْه السورة : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليوم يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ [يوسف : 92] .

وقالها سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم لأهله يوم فتح مكة : " اذهبوا فأنتم الطلقاء " .

وهكذا تمتلئ سورة يوسف بِعِبَر متناهية ، يتجلَّى بعضٌ منها في قضية دخوله السجنَ مظلوماً ، ثم يأتيه العفو والحكم ؛ لذلك فهي أحسنُ القَصص ؛ إما لأنها جمعتْ حادثة ومَنْ دار حولها من أشخاص ، أو جاء بالشخص وما دار حوله من أحداث .

أو : أنها أحسنُ القصص في أنها أدّتْ المُتَّحد والمتفق عليه في كل الكتب السابقة ، وجاء على لسان محمد الأمي ، الذي لا خبرة له بتلك الكتب ؛ لكن جاء عَرْضُ الموضوع بأسلوب جذَّاب مُسْتَمِيل مُقْنع مُمْتع .

(67/391)

أو : أنها أحسن القصص ؛ لأن سورة يوسف هي السورة التي شملت لقطاتٍ متعددةٍ تساير : العمر الزمني ؛ والعمر العقلي ؛ والعمر العاطفي للإنسان في كل أطواره ؛ ضعيفاً ؛ مغلوباً على أمره ؛ وقوياً مسيطراً ، مُمكَّناً من كل شيء .

بينما نجد أنباء الرسل السابقين جاءت كلقطات مُوزَّعة كآيات ضمن سُور أخرى ؛ وكل آية جاءت في موقعها المناسب لها .

إذن : فالحُسْن البالغ قد جاء من أسلوب القرآن المعجز الذي لا يستطيع واحد من البشر أن يأتي بمثله .

يقول الحق سبحانه : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هذا القرآن وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ﴾ [يوسف : 3] .

والمقصود بالغفلة هنا أنه صلى الله عليه وسلم كان أُمِّياً ، ولم يعرف عنه أحدٌ قبل نزول القرآن أنه خطيب أو شاعر ، وكل ما عُرِف عنه فقط هو الصفات الخُلقية العالية من صدق وأمانة؛ وهي صفات مطلوبة في المُبلِّغ عن الله؛ فما دام لم يكذب من قبل على بشر فكيف يكذب وهو يُبلِّغ عن السماء رسالتها لأهل الأرض؟

إن الكذب أمر مُسْتبعد تماماً في رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وبعدها .

والمثال على تصديق الغير لرسول الله هو تصديق أبي بكر رضي الله عنه له حين أبلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الوحي قد نزل عليه ، لم يَقُلْ له أكثر من أنه رسول من عند الله ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : صدقْتَ .

وحين حدثتْ رحلة الإسراء؛ وكذَّبها البعض متسائلين : كيف نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ويقول محمد إنه قطعها في ليلة؟ فسألهم أبو بكر : أقال ذلك؟ قالوا : نعم . فقال أبو بكر : ما دام قد قال فقد صدق .

وهكذا نجد أن حيثية الصِّدْق قبل الرسالة هي التي دلَّتْ على صدقه حين أبلغ بما نزل عليه من وحي .

مثال ذلك : تصديق خديجة رضي الله عنها وأرضاها له ؛ حين أبلغها بنزول الوحي ، فقالت له : " والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتَصِلُ الرَّحِم ، وتحمل الكَلَّ ، وتُكسِب المَعْدُوم ، وتَقْري الضَّيف ، وتعين على نوائب الحق " .

وكان في صدق بصيرتها ، وعميق حساسية فطرتها أسبابٌ تؤيد تصديقها له صلى الله عليه وسلم في نبوته .

وحين وقعت بعض الأمور التي لا تتفق مع منطق المقدمات والنتائج ، والأسباب والمسببات ؛ كانت بعض العقول المعاصرة لرسول الله تقف متسائلة : كيف ؟ فيوضح لهم أبو بكر : " انتبهوا إنه رسول الله " .

مثال هذا : ما حدث في صلح الحديبية ، حين يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه متسائلاً ويكاد أن يكون رافضاً لشروط هذا الصلح : ألسْنا على الحق ؟ عَلام نعطي الدَّنية في ديننا ؟

ويرد عليه أبو بكر رضي الله عنه : استمسك بغَرْزِه يا عمر ، إنه رسول الله .

أي : انتبه واعلم أنك تتكلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس في ذلك انصياعٌ أعمى ؛ بل هي طاعة عن بصيرة مؤمنة .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ﴾ [يوسف : 3] .

والغافل : هو الذي لا يعلم لا عن جهل ، أو قصور عقل ولكن لأن ما غفل عنه هو أمر لا يشغل باله .

أو : أن يكون المقصود بقوله :

﴿ لَمِنَ الغافلين ﴾ [يوسف : 3] .

أي : أنك يا محمد لم تكن مِمَّنْ يعرفون قصة يوسف ؛ لأنك لم تتعلم القراءة فتقرأها من كتاب ، ولم تجلس إلى مُعلِّم يروي لك تلك القصة ، ولم تجمع بعضاً من أطراف القصة من هنا أو هناك .

بل أنت لم تَتَلَقَّ الوحي بها إلا بعد أن قال بعض من أهل الكتاب لبعض من أهل مكة : اسألوه عن أبناء يعقوب وأخوة يوسف ؛ لماذا خرجوا من الشام وذهبوا إلى مصر ؟

(69/391)

وكان ضَرْباً من الإعجاز أن ينزل إليك يا رسول الله هذا البيان العالي بكل تفاصيل القصة ، كدليل عمليٍّ على أن مُعلِّم محمدٍ صلى الله عليه وسلم هو الله ، وأنه سبحانه هو مَنْ أَوحى بها إليه .

والوَحْي كما نعلم هو الإعلام بخفاء ، وسبحانه يوحي للملائكة فيقول : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الذين آمَنُواْ . . . ﴾ [الأنفال : 12] .

وسبحانه يوحي إلى مَنْ يصطفي من البشر إلى صفوتهم ؛ مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قالوا آمَنَّا واشهد بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة : 111] .

ويقذف الحق سبحانه بالإلهام وحياً لا يستطيع الإنسان دَفْعاً له ، مثل الوحي لأم موسى بأن تلقي طفلها الرضيع موسى في اليَمِّ : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إلى أُمِّكَ مَا يوحى * أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ على عيني ﴾ [طه : 38-39] .

ويوحي سبحانه إلى الأرض وهي الجماد ، مثل قوله الحق : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة : 5] .

وأوحى سبحانه إلى النحل ، فقال الحق : ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل أَنِ اتخذي مِنَ الجبال بُيُوتاً وَمِنَ الشجر وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثمرات فاسلكي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ﴾ [النحل : 68-69] .

والحق سبحانه يوحي لمن شاء بما شاء ، فالكل ؛ جماد ونبات وحيوان وإنسان ؛ من خَلْقه

، وهو سبحانه يخاطبهم بِسِرّ خلقه لهم ، واختلاف وسائل استيعابهم لذلك . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(70/391)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (يوسف : 2) ، وفي سورة الزخرف : (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الزخرف : 3) ، فورد (هنا) ((جعلناه)) موضع ((أنزلناه)) في الآية الأولى : فلسائل أن يسأل عن موجب هذا التخصيص لاتفاق الوارد في الآيتين لفظاً ومعنى في غير ما ذكر ؟

والجواب عنه ، والله أعلم : أن آية (سورة) يوسف لما كانت توطئة لذكر قصصه ، عليه السلام ، ولم تتضمن السورة غير ذلك إلا ما أعقب به في آخرها مما يعرف بعجيب ما تضمنته ما كان غيباً عند قريش والعرب ، مستوفياً ما كان أهل الكتاب يظنون أنهم انفردوا بعلمه ، فأنزل الله هذه السورة موفية من ذلك أتمة ، ومعرفة من قصصه العجيب ، ومؤدية أكمله وأعمه ، ولا أنسب عبارة هنا من قوله تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) ليعلم العرب

والجميع أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم لم يتلق ذلك القصص من أحد من العرب ، إذ لم يكن عندهم منه نبأ ، ولا رحل في تعرفه إلى أحد ، فكام قصصاً وآية معلماً بصحة رسالته عليه السلام ، وعظيم تلك العناية ، فالتعبير بالإنزال هنا (بين) .

وأما آية الزخرف فلم تبن على أخبار بل أعقبت بآي الاعتبار والتلطف في التنبيه والتذكار قال تعالى : (أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ) (الزخرف : 5) ، وهذا أعظم التلطف ، وقال تعالى بعد : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) (الزخرف : 9) ، ثم مضت أكثر آي هذه السورة على نحو خذا الاعتبار وما يناسبه .

(71/391)

وقد ذكر سيبويه ، رحمه الله ، في أقسام جعل كونها بمعنى صير ملحقاً لها بظننت وأخواتها ومنه وقلهم : جعل الطين خزفاً ، وذلك انتقال وتصيير فالمراد بالآية جعل الكتاب معتبراً هدى ونوراً والمنبهون به والمعتبرون بآياته المخاطبون به مخلوقون تقدمهم العدم ، وإنما صح خطابهم به مشاهدة بعد وجودهم ، فصح بانتقال حالهم التصيير ، وجل عن التغيير والحدوث كلام الحكيم الخبير ، فكرمه سبحانه قديم ليس بمخلوق فيبيد ولا صفة

لمخلوق فينفد ، فقد وضح معنى الجعل هنا ومسوغه ، وأنه لا يناسب هنا غير ذلك ، ولا يناسب الآية الأخرى غير (أنزل) ، فجاء كل على ما يجب والله أعلم . انتهى . ا هـ

﴿ ملاك التأويل صـ 266 . 267 ﴾

(72/391)

" فصل "

قال السيوطى :

الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1)

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ قال : أي والله يبين بركته وهداه ورشده . وفي لفظ ، يبين الله رشده وهداه .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ قال : يبين حلاله وحرامه .

وأخرج ابن جرير عن خالد بن معدان عن معاذ رضي الله عنه أنه قال في قول الله ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ قال : يبين الله الحروف التي سقطت عن ألسن الأعاجم ، وهي ستة

أحرف .

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2)

أخرج الطبراني وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أحب العرب لثلاث : لأني عربي ، والقرآن عربي ، وكلام أهل الجنة عربي " .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنا عربي ، والقرآن عربي ، وكلام أهل الجنة عربي " .

وأخرج الحاكم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلا ﴿ قرآناً عربياً ﴾ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه قال : نزل القرآن بلسان قريش ، وهو كلامهم .

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3)

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالوا يا رسول الله ، لو قصصت علينا ، فنزلت ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ .

وأخرج إسحق بن راهويه والبزار وأبو يعلى وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم القرآن ، فتلا عليهم زماناً فقالوا : يا رسول الله ، لو قصصت علينا ، فأنزل الله ﴿ الر تلك آيات الكتاب المبين ﴾ هذه السورة ، ثم تلا عليهم زماناً ، فأنزل الله ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ [الحديد : 16] .

وأخرج ابن مردويه من طريق عون بن عبد الله ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قالوا يا رسول الله ، لو قصصت علينا ، فنزلت ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، عن عون بن عبد الله رضي الله عنه قال : مل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملة ، فقالوا : يا رسول الله ، حدثنا ، فأنزل الله تعالى ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ [الزمر : 23] ثم ملوا ملة أخرى فقالوا : يا رسول الله ، حدثنا فوق الحديث ودون القرآن - يعنون القصص - فأنزل الله ﴿ الر تلك آيات الكتاب المبين ﴾ هذه السورة ، فأرادوا الحديث ، فدلهم على أحسن الحديث . وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص .

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم ونصر المقدسي في الحجة والضياء في المختارة ، عن خالد بن عرفطة قال : كنت جالساً عند عمر إذ أتاه رجل من عبد القيس فقال له عمر : أنت فلان العبدي ؟ قال نعم . فضربه بقناة معه ، فقال الرجل : ما لي يا أمير المؤمنين ؟ ! قال اجلس ، فجلس ؛ فقرأ عليه بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ الر تلك آيات الكتاب المبين ﴾ إلى قوله ﴿ لمن الغافلين ﴾ فقرأها عليه ثلاثاً وضربه ثلاثاً ، فقال له الرجل : ما لي يا أمير المؤمنين ؟ ! فقال : أنت الذي نسخت كتاب دانيال . قال : مرني بأمرك أتبعه ، قال : انطلق فامحه بالحميم والصوف ، ثم لا تقرأه ولا تقرئه أحداً من الناس ، فلئن بلغني عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأنهكنك عقوبة ، ثم قال : اجلس . فجلس بين يديه . فقال : انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب ، ثم جئت به في أديم ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " ما هذا في يدك يا عمر ؟ " فقلت يا رسول الله ، كتاب نسخته لنزداد به علماً إلى علمنا ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى احمرت وجنتاه ، ثم نودي بالصلاة جامعة . فقالت الأنصار : أغضب نبيكم السلاح . فجاؤوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " يا أيها الناس ، إني قد أوتيت جوامع الكلم

وخواتيمه ، واختصر لي اختصاراً ، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية ، فلا تهوّكوا ولا يغرنكم المتهوّكون " "

قال عمر رضي الله عنه : فقمت فقلت : رضيت بالله ربًّا ، وبالإِسلام ديناً ، وبك رسولاً ، ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(75/391)

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن الضريس عن إبراهيم النخعي رضي الله عنه قال : كان بالكوفة رجل يطلب كتب دانيال وذلك الضرب ، فجاء فيه كتاب من عمر بن الخطاب أن يدفع إليه ، فلما قدم على عمر رضي الله عنه علاه بالدرة ، ثم جعل يقرأ عليه ﴿ الر تلك آيات الكتاب المبين ﴾ حتى بلغ ﴿ الغافلين ﴾ قال : فعرفت ما يريد ، فقلت يا أمير المؤمنين ، دعني . فوالله لا أدع عندي شيئاً من تلك الكتب إلا حرقته . قال فتركه .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ ل : من الكتب الماضية وأمور الله السالفة في الأمم ﴿ وإن كنت من قبله ﴾ أي من قبل هذا القرآن ﴿ لمن الغافلين ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ قال القرآن. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(76/391)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُرْآناً ﴾ : يجوز فيه ثلاثةُ أوجهٍ، أحدُها : أن يكونَ بدلاً من ضمير " أَنْزَلْناه " ، أو حالاً مُوَطِّئةً منه، والضميرُ في " أَنْزَلْناه " على هذين القولين يعودُ على " الكتاب " . وقيل : " قُرْآناً " مفعولاً به والضميرُ في " أَنْزلناه " ضميرُ المصدر .

و " عربيّاً " نعتٌ للقرآن . وجوَّز أبو البقاء أن يكونَ حالاً مِنَ الضمير في " قُرْآناً " إذا تحمَّل ضميرا، يعني إذا جَعَلْناه حالاً مُؤَوَّلاً بمشتق، أي : أَنْزَلْناه مُجْتَمِعاً في حال كونِ عربيّاً .

والعربيُّ منسوب للعرب لأنه نزل بلغتهم . وواحدُ العَرَب عربيٌ، كما أن واحدَ الرومِ روميٌّ . وعَرَبةُ بفتح الراء ناحيةُ دارِ إسماعيلَ النبيِّ عليه السلام . قال الشاعر :

2377 وعَرْبةُ أرضٌ ما يُحِلُّ حرامَها . . . مِنَ الناسِ إلا اللَّوْذَعِيُّ الحُلاحِلُ

سكَّن راءَها ضرورةً، فيجوز أن يكونَ العربيُّ منسوباً إلى هذه البقعة .

قوله تعالى : ﴿ أَحْسَنَ القصص ﴾ : في انتصاب "أحسنَ" وجهان ، [أحدهما] : أن يكونَ/ منصوباً على المفعول به ، ولكنْ إذا جَعَلْتَ القصصَ مصدراً واقعاً موقعَ المفعولِ كالخَلْق بمعنى المَخْلوق ، أو جعلْتَه فَعَلاً بمعنى مفعول كالقَبَضِ والنَّقَص بمعنى المَنْقُوص والمقبوض ، أي : نَقُصُّ عليك أَحْسَنَ الأشياءِ المقتصَّة . والثاني : أن يكونَ منصوباً على المصدرِ المُبَيِّن ، إذا جَعَلْتَ القصصَ مصدراً غيرَ مرادٍ به المفعولُ ، ويكون المقصوصُ على هذا محذوفاً ، أي : نَقُصُّ عليك أحسنَ الاقتصاص . و "أَحْسَنَ" يجوز أن تكونَ أَفْعَل تفضيلٍ على بابها ، وأن تكونَ لمجرَّدِ الوصفِ بالحُسْن ، وتكون من بابِ إضافةِ الصفةِ لموصوفِها ، أي : القصص الحسن .

(77/391)

قوله : ﴿ بِمَآ أَوْحَيْنَآ ﴾ الباءُ سببيةٌ ، وهي متعلقةٌ ب "نَقُصُّ" و "ما" مصدريةٌ ، أي : بسبب إيحائنا .

قوله : ﴿ هذا القرآن ﴾ يجوز فيه وجهان ، أحدهما : وهو الظاهرُ أن ينتصبَ على المفعولِ به ب "أَوْحَيْنا" . والثاني : أن تكون المسألةُ من بابِ التنازع ، أعني بين "نَقُصُّ"

وبين " أَوْحَيْنا " فإنّ كلاًّ منهما يطلبُ " هذا القرآن " ، وتكونُ المسألةُ من إعمال الثاني ، وهذا إنما يتأتى على جَعْلِنا " أَحْسَنَ " منصوباً على المصدرِ ، ولم نُقَدِّرْ ل " نَقُصُّ " مفعولاً محذوفاً .

قوله : " وَإِن كُنتَ " إلى آخره تقدَّمه نظيرُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 431.429﴾

(78/391)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى عرب)

العَرَب – بالتَّحْرِيك – والعُرْب – بالضمّ – : جِيل من النّاس .

والنِّسْبة عَرَبىّ بيّن العُرُبة ، وهم أَهل الأَمصار .

والعرب اسم جنس .

والعرب العاربة : هم الخُلَّص منهم .

وأَخذت من لفظها فأَكدّت بها كليل لائل .

وربّما قالوا : العرب العَرْباءُ .

والعربيّة هى هذه اللُّغة .

وتصغير العَرب عُرَيب بلا هاء .

قال عبد المؤمن بن عبد القدّوس :

*ومَكْن الضَّبَاب طعام العُرَيب * ولا تشتهيه نفوس العَجَمْ*

وإنما صغَّرهم تعظيما لهم كقول الحُبَاب : أنَا جُذَيلها المحكَّك .

وقيل : سمّيت العرب بها لأنَّه نَشأَ أَولاد إسماعيل – صلوات الله عليه – بَعَربة وهى من تِهامة ، فنُسبوا إلى بلدهم .

ورُوى أنَّ خمسة من الأنبياءِ –صلوا الله عليهم– من العرب ، وهم : إسماعيل ، ومحمّد ، وشعيب ، وصالح ، وهود .

وهذا يدلُّ على أنَّ لسان العرب قديم .

وأَن هؤلاءِ الأنبياءَ –صلوات الله عليهم– كلّهم كانوا يسكنون بلاد العَرَب .

وكان شُعيب وقومه بأَرض مَدْين ، وكان صالح وقومه ثمود بناحية الحِجْر ، وكان هود وقومه ينزلون الأَحقاف من رمال اليمن ، وكانوا أَهل عَمَد ، وكان إسماعيل / ومحمّد المصطفى صلى الله عليه وسلَّم من سكَّان الحرم .

وكل مَن سكن بلاد العرب وجزيرتها ونطق بلسان أَهلها فهم عرَب .

وقال الأَزهريّ : الأقرب عندي أَنهم يسمَّون عرباً باسم بلدهم العَرَباتِ .

وقال إِسحاق بن الفرج : عَرَبَةُ باحة العرب .

وباحة دار أَبي الفصاحة إِسماعيل بن إِبراهيم صلوات الله عليهما .

قال : وفيها يقول قائلهم :

*وَعرْبةُ أَرضٌ ما يُحِلّ حرامَها * من الناس إِلاَّ اللوذعي الحُلاَحلُ*

يعني النبيّ صلىَّ الله عليه وسلَّم "أُحِلَّت لنا مكَّة ساعة من نهار ثم هي حرام إِلى يوم القيامة" .

قال : واضطُرّ الشَّاعر إِلى تسكين الراءِ من عَرَبة فسكَّنها .

وأَنشد قول الشاعر :

(79/391)

---

*ورُجّت باحةُ العربات رَجًّا * ترقرقُ في مناكبها الدّماءُ*

قال : وأَقامت قريش بعَرَبة فتَنَخَتْ بها .

وانتشر

سائر العرب في جزيرتها فنُسبوا كلّهم إِلى عَربة ؛ لأَن أَباهم إِسماعيل –صلوات الله

وسلامه عليه- بها نشأ ، وربَل أَولاده فيها فكثروا ، فلمّا لم تحملهم البلاد انتشروا ،

وأَقامت قريش بها .

وقال ابن عبّاس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ : هو العِرابَة فى كلام العرب .

والعِرَابة كأَنَّها اسم من التعريب وهو ما قَبُح من الكلام .

وفى حديث عطاء : لا تحلّ العِرَابة للمحرم ، ويروى أَنَّه كره الإِعراب للمحرم ، وهو بمعنى العِرابة .

والأعراب : سكَّان البادية خاصّة ، ويجمع على الأعاريب .

ولا واحد للأعراب ؛ ولهذا نسب إِليها ينسب للجمع .

وليست الأعراب جمعاً للعرب كما أَن الأَنباط .

جمع للنّبَط ، وإِنما العرب اسم جنس .

وأَعرب بحُجَّته : أَفصح بها ولم يَتَّق أَحدا ، والرّجلُ : وُلد له وَلَدٌ عربىٌّ ، والثور البقرةَ شهَّاها ، وفلان : تكلَّم بالفُحْشِ .

وإِنما سمّى الإِعراب إِعراباً لتبيينه وإِيضاحه .

وأَعرب الحروف وعرّبها بمعنى .

الفرّاءُ : عّرب أَجود من أَعرب ، وقيل : هما سواءُ .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذلك أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً ﴾ ، قيل أى مفصحاً ، نحو ﴿ لِيُحِقّ الْحَقّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ﴾ ، وقيل : أى شريفاً كريماً ، وقيل : ناسخاً لما قبله من الأَحكام ، وقيل : منسوباً إِلى النبىّ صلىَّ الله عليه وسلم .

والعربىّ إِذا نُسِبَ إِليه قيل : عربىٌّ فيكون لفظه كلفظ المنسوب إِليه .

وخير النساء اللَّعُوب العَرُوب .

وقد تعرّبت لزوجها : تغزلَّت له وتحبَّبت إِليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 38 ـ 40 ﴾

(80/391)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

" بسم الله الرحمن الرحيم "

الاسم من وسم ، فمن وسم ظاهره بالعبودية ، وسرائره بمشاهدة الربوبية فقد سمت همته إلى المراتب العلية ، وأزلفت رتبته من المنازل السنية .

أو أن الاسم مشتق من السمة أو السمو .

وقد الله سبحانه اسم الله في هذا المحل على اسميه الرحمن والرحيم على وجه البيان والحكم ، فبرحمته الدنيوية وصل العبد إلى معرفته الإلهية .

والإشارة من الباء التي هس حرف التضمين والإلصاق إلى أن به عرف من عرف وبه وقف من وقف فالواصل إليه محمول بإحسانه ن والواقف دونه مربوط بخذلانه .

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1) ﴾

التخاطُب بالحروف المتفرقة غير المنظومة سُنَّةُ الأحباب في سَتْرِ المحابّ ؛ فالقرآنُ – وإنْ كان المقصودُ منه الإيضاحَ والبيانَ – ففيه تلويح وتصريح ، ومُفَصَّلٌ ومُجْمَلٌ ، قال قائلهم :

أبكي إلى الشرق إنْ كانت منازلُكم . . . مما يلي الغربَ خوفَ القيلِ والقالِ

ويقال وقفت فهُومُ الخَلْق عن الوقوف على أسراره فيما خاطب به حبيبه – صلى الله عليه وسلم – ، فهم تعبدوا به وآمنوا به على الجملة أفرد الحبيبَ بفهمه ، فهو سِرُّ الحبيب عليه السلام بحيث لا يطلع عليه الرقيب ، يقول قائلهم :

بين المحبين سِرٌّ ليس يُفْشيه . . . قولٌ ، ولا قلم للخَلْق يحكيه

وفي إنزال هذه الحروف المقطعة إشارة : وهي أنَّ منْ كان بالعقل والصحو استنبط من اللفظ اليسير كثيراً من المعاني ، ومن كان بالغيبة والمحو يسمع الكثير فلا يفهم منه اليسير ؛ ذاك لكمال عقله وهذا لتمام وَصْلِه ؛ فأنزل اللَّهُ هذه الحروف التي لا سبيلَ إلى الوقوف على معانيها ، ليكون للأحباب فُرْجَةٌ حينما لا يقفون على معانيها بِعَدَمِ السبيل إليها فلا تتوجه

عليهم مُطَالَبةٌ بالفهم ، وكان ذلك لائقاً بأحوالهم إذا كانوا مستغرِقين في عين الجَمْع ، ولذا قيل : استراح من العقل له .

وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى أن هذا خَبَرُ الوعد الذي وعدناك .

وقيل هذا تعريفنا : إليك بالتخصيص ، وأفرادُنا لك بالتقريب – قد حقَّقْناه لكَ ؛ فهذه الحروف بيانٌ للإنجاز ولتحقيق الموعود .

(81/391)

والإشارة من ﴿ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ ها هنا إلى حُكْمِه السابق له بأَنْ يُرَقّيَه إلى الرتبة التي لا يبلغها غيره ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ [القصص : 46]

أي حين كلَّمنا موسى عليه السلام ، وأخبرناه بعلوّ قَدْرِك ، ولم تكن حاضراً ، وأخبرناه بأننا نُبَلّغُك هذا المقامَ الذي أنت فيه الآن . وكذلك كلُّ مَنْ أوحينا إليه ذَكَرْنا له قِصتَكَ ، وشَرَحْنا له خِلقتَك ، فالآنَ وقتُ تحقيق ما أخبرنا به ، وفي معناه أنشدوا :

سُقْياً لمعهدِكَ الذي لو لم يكن . . . ما كان قلبي للصبابة معهدا

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ [الأنبياء : 105] يعني بعد التوراة ﴿ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ ﴾ يعني أمة محمد .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) ﴾

في إنزال الكتاب عليه، وإرسالِ الرسول إليه - تحقيقٌ لأحكام المحبة، وتأكيدٌ لأسباب الوصلة؛ فإنّ مَنْ عَدِمَ حقيقة الوصول استأنس بالرسول، ومَنْ بَقِيَ عن شهود الأحباب تَسَلّى بوجود الكتاب، قال قائلهم:

وكُتْبكَ حَوْلِي لا تُفارقُ مضجعي . . . ففيها شفاءٌ للذي أنا كاتِمُ

قوله جلّ ذكره: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ .

﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ : لخلوِّه عن الأمر والنهي الذي سماعه يوجب اشتغال القلب بما هو يعرِض لوقوع التقصير.

﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ : ففيه ذكر الأحباب.

﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ : لأن فيه عفوَ يوسف عن جناياتِ إخوته.

﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ : لما فيه من ذِكْرِ تَرْكِ يوسف لامرأة العزيز وإعراضه عنها عندما راودته عن نفسه.

﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ : بالإضافة إلى ما سألوه أن يقص عليهم من أحوال الناس.

﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ : لأنه غير مخلوق.

ويقال لمَّا أخبره الله - سبحانه - أن هذه القصةَ أحسنُ القصص وجد رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - لنفسه مزايا وزوائد لتخصيصه؛ فَعَلِمَ أن الله تعالى لم يُرَقِّ أحداً إلى مثل ما رقاه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾.

أي الذاهبين عن فهم هذه القصة. أي ما كنتَ إلا من جملة الغافلين عنها قبل أن أوحينا إليك بها، إي إنك لم تَصِلْ إلى معرفتها بكدِّك وجهدك، ولا بطلبك وجدّك.. بل هذه مواهبُ لا مكاسب؛ فبعطائِنا وَجَدْتَها لا بعنائك، وبِتَفَضُّلِنَا لا بتعلُّمِكَ، وبتَلَطُّفِنا لا بتكلُّفِك، وبنا لا بك. انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 164. 167﴾

(83/391)

قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ

نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تم ما أراد تعالى من تعليل الوصف بالمبين أبدل من قوله " أحسن القصص " قوله :

﴿ إذ ﴾ أي نقص عليك خبر إذ ، أي خبر يوسف إذ ﴿ قال يوسف ﴾ أي ابن يعقوب إسرائيل الله عليهما الصلاة والسلام ﴿ لأبيه ﴾ وبين أدبه بقوله - مشيراً بأداة البعد إلى أن أباه عالي المنزلة جداً ، وإلى أن الكلام الآتي مما له وقع عظيم ، فينبغي أن يهتم بسماعه والجواب عليه ، وغير ذلك من أمره : ﴿ يأبت ﴾ تاءه للتأنيث لأنه يوقف عليها عند بعض القراء بالهاء ، وكسرتها عند من كسر دالة على ياء الإضافة التي عوض عنها تاء التأنيث ، واجتماع الكسرة معها كاجتماعها مع الياء ، وفتحها عند من فتح عوض عن الألف القائمة مقام ياء الإضافة .

ولما كان صغيراً ، وكان المنام عظيماً خطيراً ، اقتضى المقام التأكيد فقال : ﴿ إني رأيت ﴾ أي في منامي ، فهو من الرؤيا التي هي رؤية في المنام ، فرق بين حال النوم واليقظة في ذلك بألف التأنيث ﴿ أحد عشر كوكباً ﴾ أي نجماً كبيراً ظاهراً جداً مضيئاً براقاً ، وفي عدم تكرار هذه القصة في القرآن رد على من قال : كررت قصص الأنبياء عليهم الصلاة

والسلام تمكيناً لفصاحتها بترادف السياق ، وفي تكرير قصصهم رد على من قال : إن هذه لم تكرر لئلا تفتر فصاحتها ، فكأن عدم تكريرها لأن مقاصد السور لم تقتض ذلك - والله أعلم .

(84/391)

ولما كان للنيرين اسمان يخصانهما هما في غاية الشهرة ، قال معظماً لهما : ﴿ والشمس والقمر ﴾ ولما تشوفت النفس إلى الحال التي رآهم عليها ، فكان كأنه قيل : على أيّ حال ؟ وكانت الرؤيا باطن البصر الذي هو باطن النظر ، فكان التعبير بها للإشارة إلى غرابة هذا الأمر ، زاد في الإشارة إلى ذلك بإعادة الفعل ، وألحقه ضمير العقلاء لتكون دلالته على كل من عجيب أمر الرؤيا ومن فعل المرتى الذي لا يعقل فعل العقلاء من وجهين فقيل : ﴿ رأيتهم لي ﴾ أي خاصة ﴿ ساجدين ﴾ أجراهم مجرى العقلاء لفعل العقلاء .

فكأنه قيل : ماذا قال له أبوه ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ عالماً بأن إخوته سيحسدونه على ما تدل عليه هذه الرؤيا إن سمعوها ﴿ يا بني ﴾ فبين شفقته عليه ، وأكد النهي بإظهار الإدغام فقال : ﴿ لا تقصص رؤياك ﴾ أي هذه ﴿ على إخوتك ﴾ ثم سبب عن النهي قوله : ﴿ فيكيدوا ﴾ أي فيوقعوا ﴿ لك كيداً ﴾ أي يخصك ، فاللام للاختصاص .

وفي الآية دليل على أنه لا نهي عن الغيبة للنصيحة ، بل هي مما يندب إليه ؛ قال الرماني : والرؤيا : تصور المعنى في المنام على توهم الإبصار ، وذلك أن العقل مغمور بالنوم ، فإذا تصور الإنسان المعنى توهم أنه يراه ؛ وقال الإمام الرازي في اللوامع : هي ركود الحواس الظاهرة عن الإدراك والإحساس ، وحركة المشاعر الباطنة إلى المدارك ، فإن للنفس الإنسانية حواسّ ظاهرة ومشاعر باطنة ، فإذا سكنت الحواس الظاهرة استعملت الحواس الباطنة في إدراك الأمور الغائبة ، فربما تدركها على الصورة التي هي عليها ، فلا يحتاج إلى تعبير ، وربما تراها في صورة محاكية مناسبة لها فيحتاج إلى التعبير ، مثال الأول رؤيا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه دخل المسجد الحرام ، والثاني كرؤيا يوسف عليه الصلاة والسلام هذه .

وقال الرماني : والرؤيا الصادقة لها تأويل ، والرؤيا الكاذبة لا تأويل لها – انتهى .

وهذا لمن ينام قلبه وهم من عدا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

(85/391)

ولما كانت العادة جارية بأن شفقة الإخوة تمنع من مثل ذلك ، علله تقريباً له بقوله : ﴿ إن الشيطان ﴾ أي المحترق المبعد ﴿ للإنسان ﴾ أي عامة ولا سيما الأكابر منهم ﴿ عدو

مبين ﴾ أي واضح العداوة وموضحها لكل واع فيوقع العداوة بما يخيله من فوت الحظوظ بتركها ، وفي الآية دليل على أن أمر الرؤيا مشكل ، فلا ينبغي أن تقص إلا على شفيق ناصح .

ولما علم يعقوب عليه الصلاة والسلام من هذه الرؤيا ما سيصير إليه ولده من النبوة والملك قال : ﴿ وكذلك ﴾ أي قد اجتباك ربك للإطلاع على هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز ، ومثل ما اجتباك لها ﴿ يجتبيك ﴾ أي يختارك ويجمع لك معالي الأمور ﴿ ربك ﴾ المربي لك بالإحسان للملك والنبوة ﴿ ويعلمك من ﴾ أي بعض ﴿ تأويل الاحاديث ﴾ من الرؤيا وغيرها من كتب الله وسنن الأنبياء وغوامض ما تدل عليه المخلوقات الروحانية والجسمانية ، لأن الملك والنبوة لا يقومان إلا بالعلم والتأويل المنتهي الذي يصير إليه المعنى ، وذلك فقه الحديث الذي هو حكمة لأنه إظهار ما يؤول إليه أمره مما عليه معتمد فائدته ، وأكثر استعماله في الرؤيا ﴿ ويتم نعمته ﴾ بالنبوة ﴿ عليك ﴾ بالعدل ولزوم المنهج السوي ﴿ وعلى آل يعقوب ﴾ أي جميع إخوتك ومن أراد الله من ذريتهم ، فيجعل نعمتهم في الدنيا موصولة بنعمة الآخرة ، لأنه عبر عنهم في هذه الرؤيا بالنجوم المهتدي بها ، ولا يستعمل الآل إلا فيمن له خطر وشرف ، وإضافته مقصورة على إعلام الناطقين ، قال الراغب : وأما آل الصليب إن صح نقله فشاذ ، ويستعمل فيمن لا خطر له الأهل ﴿ كما أتمها على أبويك ﴾ .

ولما كان وجودهما لم يستغرق الماضي ، أدخل الجار فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل هذا الزمان ؛ ثم بين الأبوين بجده وجد أبيه فقال : ﴿ إبراهيم ﴾ أي بالخلة وغيرها من الكرامة ﴿ و ﴾ ولده ﴿ إسحاق ﴾ بالنبوة وجعل الأنبياء والملوك من ولده ، وإتمام النعمة : الحكم بدوامها على خلوصها من شائب فيها بنقصها .

ولما كان ذلك لا يقدر عليه إلا بالعلم المحيط بجميع الأسباب ليقام منها ما يصلح ، والحكمة التي بها يحكم ذلك السبب عن أن يقاومه سبب غيره ، وكان السياق بالعلم أولى لما ذكر من علم التأويل مع ما تقدم من قوله آخر تلك ﴿ ولله غيب السماوات والأرض ﴾ [هود : 123] الآية وما شاكل ذلك أول هذه ، قال : ﴿ إن ربك عليم ﴾ أي بليغ العلم ﴿ حكيم ﴾ أي بليغ الحكمة ، وهي وضع الأشياء في أتقن مواضعها . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 12.10 ﴾

(86/391)

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

الإسرائيليات في قصة يوسف عليه السلام :

وقد وردت في قصة يوسف عليه السلام إسرائيليات ومرويات مختلفة مكذوبة ، فمن ذلك ، ما أخرجه ابن جرير في تفسيره والسيوطي في : "الدر المنثور" وغيرهما في قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ "يوسف : الآية 4" .

قال السيوطي : وأخرج سعيد بن منصور ، والبزار ، وأبو يعلي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والعقيلي في الضعفاء ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه 1 ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي معا في الدلائل عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال :

"جاء بستاني اليهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام ساجدة له ، ما أسماؤها ؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فلم يجبه بشيء . فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البستاني اليهودي فقال : "هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها" قال : نعم : قال : "حرثان ، والطارق والذيال وذو الكفتان ، وقابس ، ودنان ، وهودان ، والفيلق ، والمصبح ، والضروح ، والفريخ ، والضياء ، والنور 2 ، رآها في آفق السماء ساجدة له فلما قص يوسف على يعقوب قال : هذا أمر مشتت يجمعه الله من بعد" فقال اليهودي : إي والله إنها لأسماؤها 3 .

والذي يظهر لي أنه من الإسرائيليات وألصقت بالنبي زورًا ، ثم إن سيدنا يوسف رأي

كواكب بصورها لا بأسمائها ، ثم ما دخل الاسم فيما ترمز إليه الرؤيا ؟ ! !

ومدار هذه الرواية على الحكم بن ظهير ، وقد ضعفه الأئمة ، وتركه الأكثرون ،

---

1 تصحيح الحاكم غير معتدٍّ به إلا إذا وافقه غيره .

2 في تفسير ابن جرير : جربان بدل جرثان ، ووثاب بدل دنان ، وعمودان بدل هودان ، والفليق بدل الفيلق ، وذو الفرغ بدل الفريخ ، وأيضا فعدتها ثلاثة عشر لا أحد عشر .

3 تفسير ابن جرير : ج12 ص90 ، 91 ، الدر المنثور : ج4 ص4 .

(87/391)

وقال الجوزجاني : ساقط ، وهو صاحب حديث حسن يوسف1" .

وقال الإمام الذهبي في "ميزان الاعتدال2" : قال ابن معين : ليس بثقة ، وقال مرة : ليس بشيء ، وقال البخاري : منكر الحديث وقال مرة : تركوه ، وهو راوي حديث : "إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه" ! ! فهل مثل هذا تعتبر روايته في مثل هذا ، وبحسبه سقوطا مقالة البخاري فيه : "منكر الحديث" و : "تركوه" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات صـ 220.219 ﴾

---

1 تفسير ابن كثير والبغوي : ج4 ص 414 ، 415 .

2 ميزان الاعتدال ج ص 268 ط السعادة .

(88/391)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

تقدير الآية : اذكر ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ قال صاحب "الكشاف" : الصحيح أنه اسم عبراني ، لأنه لو كان عربياً لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف ، وقرأ بعضهم ﴿يُوسِفَ﴾ بكسر السين ﴿وَيُوسُفَ﴾ بفتحها .

وأيضاً روى في يونس هذه اللغات الثلاث ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إذا قيل من الكريم فقولوا الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم

عليهم السلام "

المسألة الثانية :

قرأ ابن عامر ﴿ يا أبت ﴾ بفتح التاء في جميع القرآن ، والباقون بكسر التاء .

أما الفتح فوجهه أنه كان في الأصل يا أبتاه على سبيل الندبة ، فحذفت الألف والهاء .

وأما الكسر فأصله يا أبي ، فحذفت الياء واكتفى بالكسرة عنها ثم أدخل هاء الوقف فقال : ﴿ يا أبت ﴾ ثم كثر استعماله حتى صار كأنه من نفس الكلمة فأدخلوا عليه الإضافة ، وهذا قول ثعلب وابن الأنباري .

واعلم أن النحويين طولوا في هذه المسألة ، ومن أراد كلامهم فليطالع "كتبهم" .

المسألة الثالثة :

أن يوسف عليه السلام رأى في المنام أن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر سجدت له ، وكان له أحد عشر نفراً من الأخوة ، ففسر الكواكب بالأخوة ، والشمس والقمر بالأب والأم ، والسجود بتواضعهم له ودخولهم تحت أمره ، وإنما حملنا قوله : ﴿ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ على الرؤيا لوجهين :

الأول : أن الكواكب لا تسجد في الحقيقة ، فوجب حمل هذا الكلام على الرؤيا .

والثاني : قول يعقوب عليه السلام : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ﴾ [يوسف : 5]

وفي الآية سؤالات :

السؤال الأول : قوله : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴾ فقوله : ﴿ ساجدين ﴾ لا يليق إلا بالعقلاء ، والكواكب جمادات ، فكيف جازت اللفظة المخصوصة بالعقلاء في حق الجمادات .

قلنا : إن جماعة من الفلاسفة الذين يزعمون أن الكواكب أحياء ناطقة احتجوا بهذه الآية ، وكذلك احتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : 33] والجمع بالواو والنون مختص بالعقلاء .

وقال الواحدي : إنه تعالى لما وصفها بالسجود صارت كأنها تعقل ، فأخبر عنها كما يخبر عمن يعقل كما قال في صفة الأصنام ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : 198] وكما في قوله : ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ [النمل : 18] .

السؤال الثاني : قال : ﴿ إِنّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا والشمس والقمر ﴾ ثم أعاد لفظ الرؤيا مرة ثانية ، وقال : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴾ فما الفائدة في هذا التكرير ؟

الجواب : قال القفال رحمه الله : ذكر الرؤية الأولى لتدل على أنه شاهد الكواكب والشمس والقمر ، والثانية لتدل على مشاهدة كونها ساجدة له ، وقال بعضهم : إنه لما قال : ﴿ إِنّى

رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا والشمس والقمر ﴾ فكأنه قيل له : كيف رأيت ؟ فقال : رأيتهم لي ساجدين ، وقال آخرون : يجوز أن يكون أحدهما من الرؤية والآخر من الرؤية ، وهذا القائل لم يبين أن أيهما يحمل على الرؤيا وأيهما الرؤيا فذكر قولاً مجملاً غير مبين .

السؤال الثالث : لم أخر الشمس والقمر ؟

قلنا : أخرهما لفضلهما على الكواكب ، لأن التخصيص بالذكر يدل على مزيد الشرف كما في قوله : ﴿ وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وميكال ﴾ [البقرة : 98] .

السؤال الرابع : المراد بالسجود نفس السجود أو التواضع كما في قوله :

ترى الأكم فيه سجداً للحوافر . . قلنا : كلاهما محتمل ، والأصل في الكلام حمله على حقيقته ولا مانع أن يرى في المنام أن الشمس والقمر والكواكب سجدت له .

(90/391)

السؤال الخامس : متى رأى يوسف عليه السلام هذه الرؤيا ؟

قلنا : لا شك أنه رآها حال الصغر ، فأما ذلك الزمان بعينه فلا يعلم إلا بالأخبار .

قال وهب : رأى يوسف عليه السلام وهو ابن سبع سنين أن إحدى عشرة عصاً طوالاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة وإذا عصا صغيرة وثبت عليها حتى ابتلعتها فذكر

ذلك لأبيه فقال إياك أن تذكر هذا لأخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال لا تذكرها لهم فيكيدوا لك كيداً .

وقيل : كان بين رؤيا يوسف ومصير أخوته إليه أربعون سنة وقيل : ثمانون سنة .

واعلم أن الحكماء يقولون إن الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب ، والرؤيا الجيدة إنما يظهر تعبيرها بعد حين .

قالوا : والسبب في ذلك أن رحمة الله تقتضي أن لا يحصل الإعلام بوصول الشر إلا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل ، وأما الإعلام بالخير فإنه يحصل متقدماً على ظهوره بزمان طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حصول ذلك الخير أكثر وأتم .

السؤال السادس : قال بعضهم : المراد من الشمس والقمر أبوه وخالته فما السبب فيه ؟

قلنا : إنما قالوا ذلك من حيث ورد في الخبر أن والدته توفيت وما دخلت عليه حال ما كان بمصر قالوا : ولو كان المراد من الشمس والقمر أباه وأمه لما ماتت لأن رؤيا الأنبياء عليهم السلام لا بد وأن تكون وحياً وهذه الحجة غير قوية لأن يوسف عليه السلام ما كان في ذلك الوقت من الأنبياء .

السؤال السابع : وما تلك الكواكب ؟

قلنا : روى صاحب "الكشاف" أن يهودياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد أخبرني عن النجوم التي رآهن يوسف فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل عليه السلام وأخبره بذلك فقال عليه الصلاة والسلام لليهودي : " إن أخبرتك هل تسلم " قال نعم قال : " جربان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلت من السماء وسجدت له " فقال اليهودي : أي والله إنها لأسماؤها .

واعلم أن كثيراً من هذه الأسماء غير مذكور في الكتب المصنفة في صورة الكواكب والله أعلم بحقيقة الحال .

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ حفص ﴿ أَوْبَنِى ﴾ بفتح الياء والباقون بالكسر .

المسألة الثانية :

أن يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف وأخيه فحسده إخوته لهذا السبب وظهر ذلك المعنى ليعقوب عليه السلام بالأمارات الكثيرة فلما ذكر يوسف عليه السلام

هذه الرؤيا وكان تأويلها أن إخوته وأبويه يخضعون له فقال لا تخبرهم برؤياك فإنهم يعرفون تأويلها فيكيدوا لك كيداً .

المسألة الثالثة :

قال الواحدي : الرؤيا مصدر كالبشرى والسقيا والشورى إلا أنه لما صار اسماً لهذا المتخيل في المنام جرى مجرى الأسماء .

قال صاحب "الكشاف" : الرؤيا بمعنى الرؤية إلا أنها مختصة بما كان منها في المنام دون اليقظة فلا جرم فرق بينهما بحرفي التأنيث ، كما قيل : القربة والقربى وقرىء روياك بقلب الهمزة واواً وسمع الكسائي يقرأ رياك ورياك بالإدغام وضم الراء وكسرها وهي ضعيفة .

ثم قال تعالى : ﴿ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾ وهو منصوب بإضمار أن والمعنى إن قصصتها عليهم كادوك .

فإن قيل : فلم لم يقل فيكيدوك كما قال : ﴿ فَكِيدُونِى ﴾ [هود : 55] .

(92/391)

قلنا : هذه اللام تأكيد للصلة كقوله ﴿ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ ، وكقولك نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك ، وقيل هي من صلة الكيد على معنى فيكيدوا كيداً لك .

قال أهل التحقيق : وهذا يدل على أنه قد كان لهم علم بتعبير الرؤيا وإلا لم يعلموا من هذه الرؤيا ما يوجب حقداً وغضباً .

ثم قال : ﴿ إِنَّ الشيطان للإنسان عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ والسبب في هذا الكلام أنهم لو أقدموا على الكيد لكان ذلك مضافاً إلى الشيطان ونظيره قول موسى عليه السلام هذا من عمل الشيطان ، ثم إن يعقوب عليه السلام قصد بهذه النصيحة تعبير تلك الرؤيا وذكروا أموراً :

أولها : قوله : ﴿ وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ يعني وكما اجتباك بمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبر شأن كذلك يجتبيك لأمور عظام .

قال الزجاج : الاجتباء مشتق من جبيت الشيء إذا خلصته لنفسك ومنه جبيت الماء في الحوض ، واختلفوا في المراد بهذا الاجتباء ، فقال الحسن : يجتبيك ربك بالنبوة ، وقال آخرون : المراد منه إعلاء الدرجة وتعظيم المرتبة فأما تعيين النبوة فلا دلالة في اللفظ عليه .

وثانيها : قوله : ﴿ وَيُعَلّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ وفيه وجوه : الأول : المراد منه تعبير الرؤيا سماه تأويلاً لأنه يؤل أمره إلى ما رآه في المنام يعني تأويل أحاديث الناس فيما يرونه في منامهم .

قالوا : إنه عليه السلام كان في علم التعبير غاية ، والثاني : تأويل الأحاديث في كتب الله تعالى والأخبار المروية عن الأنبياء المتقدمين ، كما أن الواحد من علماء زماننا يشتغل بتفسير القرآن وتأويله ، وتأويل الأحاديث المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، والثالث : الأحاديث جمع حديث ، والحديث هو الحادث ، وتأويلها مآلها ، ومآل الحوادث إلى قدرة الله تعالى وتكوينه وحكمته ، والمراد من تأويل الأحاديث كيفية الاستدلال بأصناف المخلوقات الروحانية والجسمانية على قدرة الله تعالى وحكمته وجلالته ، وثالثها : قوله : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ .

واعلم أن من فسر الاجتباء بالنبوة لا يمكنه أن يفسر إتمام النعمة ههنا بالنبوة أيضاً وإلا لزم التكرار ، بل يفسر إتمام النعمة ههنا بسعادات الدنيا وسعادات الآخرة .

أما سعادات الدنيا فالإكثار من الأولاد والخدم والأتباع والتوسع في المال والجاه والحشم وإجلاله في قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد .

وأما سعادات الآخرة : فالعلوم الكثيرة والأخلاق الفاضلة والاستغراق في معرفة الله تعالى .

وأما من فسر الاجتباء بنيل الدرجات العالية ، فههنا يفسر إتمام النعمة بالنبوة ويتأكد هذا بأمور : الأول : أن إتمام النعمة عبارة عما به تصير النعمة تامة كاملة خالية عن جهات النقصان .

وما ذاك في حق البشر إلا بالنبوة ، فإن جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة ناقص بالنسبة إلى كمال النبوة ، فالكمال المطلق والتمام المطلق في حق البشر ليس إلا النبوة ، والثاني : قوله : ﴿كَمَا أَتَمَّهَا على أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إبراهيم وإسحاق﴾ ومعلوم أن النعمة التامة التي بها حصل امتياز إبراهيم وإسحق عن سائر البشر ليس إلا النبوة ، فوجب أن يكون المراد بإتمام النعمة هو النبوة .

(94/391)

واعلم أنا لما فسرنا هذه الآية بالنبوة لزم الحكم بأن أولاد يعقوب كلهم كانوا أنبياء ، وذلك لأنه قال : ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وعلى ءالِ يَعْقُوبَ﴾ وهذا يقتضي حصول تمام النعمة لآل يعقوب ، فلما كان المراد من إتمام النعمة هو النبوة لزم حصولها لآل يعقوب ترك العمل به في حق من عدا أبناءه فوجب أن لا يبقى معمولاً به في حق أولاده .

وأيضاً أن يوسف عليه السلام قال : ﴿إِنّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ وكان تأويله أحد عشر نفساً لهم فضل وكمال ويستضيء بعلمهم ودينهم أهل الأرض ، لأنه لا شيء أضوأ من الكواكب وبها يهتدى وذلك يقتضي أن يكون جملة أولاد يعقوب أنبياء ورسلاً .

فإن قيل : كيف يجوز أن يكونوا أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه في حق يوسف عليه

السلام ؟

قلنا : ذاك وقع قبل النبوة ، وعندنا العصمة إنما تعتبر في وقت النبوة لا قبلها .

القول الثاني : أن المراد من قوله : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ خلاصه من المحن ، ويكون وجه التشبيه في ذلك بإبراهيم وإسحق عليهما السلام هو إنعام الله تعالى على إبراهيم بإنجائه من النار وعلى ابنه إسحق بتخليصه من الذبح .

والقول الثالث : أن إتمام النعمة هو وصل نعمة الله عليه في الدنيا بنعم الآخرة بأن جعلهم في الدنيا أنبياء وملوكاً ونقلهم عنها إلى الدرجات العلى في الجنة .

واعلم أن القول الصحيح هو الأول ، لأن النعمة التامة في حق البشر ليست إلا النبوة ، وكل ما سواها فهي ناقصة بالنسبة إليها ، ثم إنه عليه السلام لما وعده بهذه الدرجات الثلاثة ختم الكلام بقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فقوله : ﴿ عَلِيمٌ ﴾ إشارة إلى قوله : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : 124] وقوله : ﴿ حَكِيمٌ ﴾ إشارة إلى أن الله تعالى مقدس عن السفه والعبث ، لا يضع النبوة إلا في نفس قدسية وجوهرة مشرقة علوية .

(95/391)

فإن قيل : هذه البشارات التي ذكرها يعقوب عليه السلام هل كان قاطعاً بصحتها أم لا ؟ فإن كان قاطعاً بصحتها ، فكيف حزن على يوسف عليه السلام ، وكيف جاز أن يشتبه عليه أن الذئب أكله ، وكيف خاف عليه من إخوته أن يهلكوه ، وكيف قال لإخوته وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ، مع علمه بأن الله سبحانه سيجتبيه ويجعله رسولاً ، فأما إذا قلنا إنه عليه السلام ما كان عالماً بصحة هذه الأحوال ، فكيف قطع بها ؟ وكيف حكم بوقوعها حكماً جازماً من غير تردد ؟ .

قلنا : لا يبعد أن يكون قوله : ﴿ وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ مشروطاً بأن لا يكيدوه ، لأن ذكر ذلك قد تقدم ، وأيضاً فبتقدير أن يقال : إنه عليه السلام كان قاطعاً بأن يوسف عليه السلام سيصل إلى هذه المناصب إلا أنه لا يمتنع أن يقع في المضايق الشديدة ثم يتخلص منها ويصل إلى تلك المناصب فكان خوفه لهذا السبب ويكون معنى قوله : ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذئب ﴾ [يوسف : 13] الزجر عن التهاون في حفظه وإن كان يعلم أن الذئب لا يصل إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 69. 73 ﴾

(96/391)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحَدَ عشر كوكباً والشمس والقمر ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أنه رأى إخوته وأبويه ساجدين له فثنى ذكرهم ، وعنى بأحد عشر كوكباً إخوته وبالشمس أباه يعقوب ، وبالقمر أمه راحيل رآهم له ساجدين ، فعبر عنه بما ذكره ، قاله ابن عباس وقتادة .

الثاني : أنه رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له فتأول الكواكب إخوته ، والشمس أباه ، والقمر أمه ، وهو قول الأكثرين . وقال ابن جريج : الشمس أمه والقمر أبوه ، لتأنيث الشمس وتذكير القمر .

وروى السدي عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلٌ من اليهود يقال له بستانة فقال : يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له ما أسماؤها ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجب بشيء ، فنزل عليه جبريل بأسمائها قال فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه وقال " أنت تؤمن إن أخبرتك بأسمائها " فقال نعم ، فقال : " جريان ، والطارق والذيال وذو الكتفين وقابس والوثّاب والعمودان والفليق والمصبح والضروح وذو الفرع والضياء والنور " فقال اليهودي :

بلى والله إنها لأسماؤها .

وفي إعادة قوله ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ وجهان :

أحدهما : تأكيداً للأول لبعد ما بينهما قاله الزجاج.

الثاني : أن الأول رؤيته لهم والثاني رؤيته لسجودهم .

وفي قوله ﴿ ساجدين ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه السجود المعهود في الصلاة إعظاماً لا عبادة .

الثاني : أنه رآهم خاضعين فجعل خضوعهم سجوداً ، كقول الشاعر :

. . . . ترى الأكم فيه سُجّداً للحوافر

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5) ﴾

(97/391)

وقيل إنه كان له عند هذه الرؤيا سبع عشرة سنة ، قال ابن عباس : رأى هذه الرؤيا ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر ، فلما قصها على يعقوب أشفق عليه من حسد إخوته فقال : يا بني هذه رؤيا الليل فلا يعول عليها ، فلما خلا به ﴿ ق يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك

فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين ﴾ .

وفي تسميته بيوسف قولان :

أحدهما : أنه اسم أعجمي .

الثاني : أنه عربي مشتق من الأسف ، والأسف في اللغة الحزن .

قوله عز وجل : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : بحسن الخَلق والخُلق .

الثاني : بترك الإنتقام .

الثالث : بالنبوة ، قاله الحسن . ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : عبارة الرؤيا ، قاله مجاهد .

الثاني : العلم والحكمة ، قاله ابن زيد .

الثالث : عواقب الأمور ، ومنه قول الشاعر :

وللأحبة أيام تذكّرُها . . . وللنوى قبل يوم البيْن تأويل

﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : باختيارك للنبوة .

الثاني : بإعلاء كلمتك وتحقيق رؤياك ، قال مقاتل .

وفيه وجه ثالث : أن أخرج إخوته إليه حتى أنعم عليهم بعد إساءتهم إليه .

﴿ وعلى آل يعقوب ﴾ بأن جعل فيهم النبوة .

﴿ كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم وإسحاق ﴾ قال عكرمة : فنعمته على إبراهيم أن أنجاه من النار ، وعلى إسحاق أن أنجاه من الذبح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(98/391)

وقال الجصاص :

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْت أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتهمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾

فِيهِ بَيَانُ صِحَّةِ الرُّؤْيَا مِنْ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ ؛ لِأَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بَلْ كَانَ صَغِيرًا ، وَكَانَ تَأْوِيلُ الْكَوَاكِبِ إخْوَتَهُ ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ أَبَوَيْهِ ، وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ الْحَسَنِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاك عَلَى إخْوَتِك فَيَكِيدُوا لَك كَيْدًا ﴾ عَلِمَ أَنَّهُ إنْ قَصَّهَا عَلَيْهِمْ حَسَدُوهُ وَطَلَبُوا كَيْدَهُ .

وَهُوَ أَصْلٌ فِي جَوَازِ تَرْكِ إظْهَارِ النِّعْمَةِ وَكِتْمَانِهِ عِنْدَ مَنْ يُخْشَى حَسَدُهُ وَكَيْدُهُ ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ قَدْ أَمَرَ بِإِظْهَارِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّك فَحَدِّثْ ﴾ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَيُعَلِّمُك مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ ، فَإِنَّ التَّأْوِيلَ مَا يُؤَوَّلُ إلَيْهِ الْمَعْنَى وَيَرْجِعُ إلَيْه ، وَتَأْوِيلُ الشَّيْءِ هُوَ مَرْجِعُهُ وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ عِبَارَةُ الرُّؤْيَا " .

وَقِيلَ تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَدَلَائِلِهِ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ دِينِهِ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(99/391)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاك عَلَى إخْوَتِك فَيَكِيدُوا لَك كَيْدًا إنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي حَقِيقَةِ الرُّؤْيَا : وَهِيَ حَالَةٌ شَرِيفَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ لِلْخَلْقِ بُشْرَى كَمَا تَقَدَّمَ .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَمْ يَبْقَ بَعْدِي مِنْ الْمُبَشِّرَاتِ إلَّا الرُّؤْيَا ﴾ ، وَحَكَمَ بِأَنَّهَا جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ النُّبُوَّةِ .

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهَا ؛ فَأَنْكَرَتْهَا الْمُعْتَزِلَةُ ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ الشَّرِيعَةِ فِي شَيْءٍ .

وَقَدْ اتَّفَقَتْ الْأُمَمُ عَلَيْهَا مَعَ اخْتِلَافِهِمْ فِي الْآرَاءِ وَالنِّحَلِ .

وَاخْتَلَفَ عُلَمَاؤُنَا فِي حَقِيقَتِهَا ؛ فَقَالَ الْقَاضِي ، وَالْأُسْتَاذُ أَبُو بَكْرٍ : إنَّهَا أَوْهَامٌ وَخَوَاطِرُ وَاعْتِقَادَاتٌ .

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاقَ : هِيَ إدْرَاكٌ حَقِيقَةً ، وَحَمَلَ الْقَاضِي وَالْأُسْتَاذُ ذَلِكَ عَلَى رُؤْيَةِ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ يَطِيرُ وَهُوَ قَائِمٌ ، وَفِي الْمَشْرِقِ وَهُوَ فِي الْمَغْرِبِ ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إدْرَاكًا حَقِيقَةً .

وَعَوَّلَ الْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاقَ عَلَى أَنَّ الرُّؤْيَا إدْرَاكٌ فِي أَجْزَاءٍ لَمْ تَحِلَّهَا الْآفَةُ ، وَمَنْ بَعُدَ عَهْدُهُ بِالنَّوْمِ اسْتَغْرَقَتْ الْآفَةُ أَجْزَاءَهُ ، وَتَقِلُّ الْآفَةُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ .

(100/391)

وَقَالَ : إنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَخْلُقُ لَهُ عِلْمًا نَاشِئًا ، وَيَخْلُقُ لَهُ الَّذِي يَرَاهُ لِيَصِحَّ الْإِدْرَاكُ ، فَإِذَا رَأَى شَخْصًا وَهُوَ فِي طَرَفِ الْعَالَمِ فَالْمَوْجُودُ كَأَنَّهُ عِنْدَهُ ، وَلَا يَرَى فِي الْمَنَامِ إلَّا مَا يَصِحُّ إدْرَاكُهُ فِي الْيَقَظَةِ ، وَلِذَلِكَ لَا نَرَى شَخْصًا قَائِمًا قَاعِدًا فِي الْمَنَامِ بِحَالٍ ، وَإِنَّمَا يَرَى الْجَائِزَاتِ

الْخَارِقَةِ لِلْعَادَاتِ، أَوْ الْأَشْيَاءَ الْمُعْتَادَاتِ، وَإِذَا رَأَى نَفْسَهُ يَطِيرُ أَوْ يَقْطَعُ يَدَهُ أَوْ رَأْسَهُ فَإِنَّمَا رَأَى غَيْرَهُ عَلَى مِثَالِهِ، وَظَنَّهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَهَذَا مَعْنَى

(101/391)

قَوْلِ الْقَاضِي الْأُسْتَاذِ أَبِي بَكْرٍ: إِنَّهَا أَوْهَامٌ، وَيَتَّفِقُونَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى وَقَعَ الْبَيَانُ بِقَوْلِهِ [عَلَيْهِ السَّلَامُ]: ﴿ مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي ﴾؛ فَإِنَّ الْمَرْءَ يَعْلَمُ قَطْعًا أَنَّهُ لَمْ يَرَ الذَّاتَ النَّبَوِيَّةَ وَلَا الْعَيْنَ الْمُرْسَلَةَ إِلَى الْخَلْقِ، وَإِنَّمَا رَأَى مِثَالًا صَادِقًا فِي التَّعْبِيرِ عَنْهُ، وَالْخَبَرِ بِهِ؛ إِذْ قَدْ يَرَاهُ شَيْخًا أَشْمَطَ، وَيَرَاهُ شَابًّا أَمْرَدَ، وَبَيَّنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْمَعْنَى بَيَانًا زَائِدًا، فَقَالَ: ﴿ مَنْ رَآنِي فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ ﴾ أَيْ لَمْ يَكُنْ تَخْيِيلًا وَلَا تَلْبِيسًا وَلَا شَيْطَانًا؛ وَلَكِنَّ الْمَلَكَ يَضْرِبُ الْأَمْثِلَةَ عَلَى أَنْوَاعٍ، بِحَسَبِ مَا يَرَى مِنْ التَّشْبِيهِ بَيْنَ الْمِثَالِ وَالْمُمَثَّلِ بِهِ؛ إِذْ لَا يَتَكَلَّمُ مَعَ النَّائِمِ إِلَّا بِالرَّمْزِ وَالْإِيمَاءِ فِي الْغَالِبِ، وَرُبَّمَا خَاطَبَهُ بِالصَّرِيحِ الْبَيِّنِ، وَذَلِكَ نَادِرٌ.

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ رَأَيْت سَوْدَاءَ ثَائِرَةَ الرَّأْسِ تَخْرُجُ مِنْ الْمَدِينَةِ إِلَى مَهْيَعَةَ، فَأَوَّلْتُهَا الْحُمَّى، وَرَأَيْت سَيْفِي قَدْ انْقَطَعَ صَدْرُهُ وَبَقَرًا تُنْحَرُ، فَأَوَّلْتُهَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي يُقْتَلُ، وَالْبَقَرُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِي يُقْتَلُونَ وَرَأَيْت أَنِّي أَدْخَلْت يَدِي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ فَأَوَّلْتُهَا الْمَدِينَةَ

، ورَأَيت فِي يَدي سِوارَيْنِ فَأَوَّلْتُهما كذَّابَيْنِ يَخْرُجان بَعْدِي ﴾ ، إِلَى غَيْر ذَلك مِمَّا ضُرِبَتْ لَهُ بِهِ الأَمْثَالُ .

(102/391)

ومِنْهَا مَا يَظْهَرُ مَعْنَاهُ أَوَّلًا ، ومِنْهَا مَا لَا يَظْهَرُ [مَعْنَاهُ] إِلَّا بَعْدَ الْفِكْرِ .

وَقَدْ رَأَى النَّائِمُ فِي زَمَانِ يُوسُفَ بَقَرًا فَأَوَّلَهَا يُوسُفُ السِّنِينَ ، ورَأَى أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ فَأَوَّلَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ أَبَوَيْهِ ، وَأَوَّلَ الْكَوَاكِبَ الْأَحَدَ عَشَرَ إِخْوَتَهُ الْأَحَدَ عَشَرَ ، وَفَهِمَ يَعْقُوبُ مَزِيَّةَ حَالِهِ ، وَظُهُورَ خِلَالِهِ

؛ فَخَافَ عَلَيْهِ حَسَدَ الْإِخْوَةِ الَّذِي ابْتَدَأَهُ ابْنَا آدَمَ ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالْكِتْمَانِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ كَانَ يُوسُفُ فِي وَقْتِ رُؤْيَاهُ صَغِيرًا ، وَالصَّغِيرُ لَا حُكْمَ لِفِعْلِهِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ لِرُؤْيَاهُ حُكْمٌ ؟ فَالْجَوَابُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ .

الْأَوَّلُ : أَنَّ الصَّغِيرَ يَكُونُ الْفِعْلُ مِنْهُ بِالْقَصْدِ ، فَيُنْسَبُ إِلَى التَّقْصِيرِ ، الرُّؤْيَا لَا قَصْدَ فِيهَا ، فَلَا يُنْسَبُ تَقْصِيرٌ إِلَيْهَا .

الثَّانِي : أَنَّ الرُّؤْيَا إِدْرَاكٌ حَقِيقَةً كَمَا بَيَّنَّاهُ ، فَيَكُونُ مِنْ الصَّغِيرِ كَمَا يَكُونُ مِنْهُ الْإِدْرَاكُ الْحَقِيقِيُّ فِي الْيَقَظَةِ ، وَإِذَا أَخْبَرَ عَمَّا رَأَى صُدِّقَ ، فَكَذَلِكَ إِذَا أَخْبَرَ عَمَّا رَأَى فِي الْمَنَامِ

تَأَوَّلَ.

الثَّالِثُ: أَنَّ خَبَرَهُ يُقْبَلُ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْأَحْكَامِ، مِنْهَا الِاسْتِئْذَانُ فَكَذَلِكَ فِي الرُّؤْيَا.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاك عَلَى إخْوَتِك فَيَكِيدُوا لَك كَيْدًا ﴾ حُكْمٌ بِالْعَادَةِ مِنْ الْحَسَادَةِ بَيْنَ الْإِخْوَةِ وَالْقَرَابَةِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ، وَالْحُكْمُ بِالْعَادَةِ أَصْلٌ يَأْتِي بَيَانُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ بَعْدُ.

وَقِيلَ: إنَّ يَعْقُوبَ قَدْ كَانَ فَهِمَ مِنْ إخْوَةِ يُوسُفَ حَسَدًا لَهُ بِمَا رَأَوْا مِنْ شَغَفِ أَبِيهِ بِهِ؛ فَلِذَلِكَ حَذَّرَهُ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: قَالَ عُلَمَاؤُنَا: هَذَا يَدُلُّ عَلَى مَعْرِفَةِ يَعْقُوبَ بِتَأْوِيلِ الرُّؤْيَا؟ ؛ لِأَنَّ نَهْيَهُ لِابْنِهِ عَنْ ذِكْرِهَا، وَخَوْفَهُ عَلَى إخْوَتِهِ مِنْ الْكَيْدِ لَهُ مِنْ أَجْلِهَا عِلْمٌ بِأَنَّهَا تَقْتَضِي ظُهُورَهُ عَلَيْهِمْ وَتَقَدُّمَهُ فِيهِمْ، وَلَمْ يُبَالِ بِذَلِكَ يَعْقُوبُ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ يَوَدُّ أَنْ يَكُونَ وَلَدُهُ خَيْرًا مِنْهُ، وَالْأَخُ لَا يَوَدُّ ذَلِكَ لِأَخِيهِ. انتهى انتهى. اهـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾

العامل في ﴿ إذ ﴾ فعل مضمر تقديره : اذكر ﴿ إذ ﴾ ويصح أن يعمل فيه ﴿ نقص ﴾ [يوسف : 3] كأن المعنى : نقص عليك الحال ﴿ إذ ﴾ وحكى مكي أن العامل فيه ﴿ لمن الغافلين ﴾ [يوسف : 3] ، وهذا ضعيف .

وقرأ طلحة بن مصرف " يؤسَف " بالهمز وفتح السين – وفيه ست لغات : "يُوسُف" بضم الياء وسكون الواو وبفتح السين وبضمها وبكسرها وكذلك بالهمز . وقرأ الجمهور " يا أبتِ " بكسر التاء حذفت الياء من أبي وجعلت التاء بدلاً منها ، قاله سيبويه ، وقرأ ابن عامر وحده وأبو جعفر والأعرج : " يا أبتَ " بفتحها ، وكان ابن كثير وابن عامر يقفان بالهاء ؛ فأما قراءة ابن عامر بفتح التاء فلها وجهان : إما أن يكون : " يا أبتا " ، ثم حذفت الألف تخفيفاً وبقيت الفتحة دالة على الألف ، وإما أن يكون جارياً مجرى قولهم : يا طلحة أقبل ، رخموه ثم ردوا العلامة ولم يعتد بها بعد الترخيم ، وهذا كقولهم : اجتمعت اليمامة ثم قالوا : اجتمعت أهل اليمامة ، فردوا لفظة الأهل ولم يعتدوا بها ، وقرأ أبو جعفر والحسن وطلحة بن سليمان : " أحد عْشر كوكباً " بسكون العين لتوالي الحركات ، ويظهر أن الاسمين قد جعلا واحداً .

وقيل : إنه قد رأى كواكب حقيقة والشمس والقمر فتأولها يعقوب إخوته وأبويه ، وهذا قول الجمهور ، وقيل : الإخوة والأب والخالة لأن أمه كانت ميتة ، وقيل إنما كان رأى إخوته وأبويه فعبر عنهم بالكواكب والشمس والقمر ، وهذا ضعيف ترجم به الطبري ، ثم أدخل عن قتادة والضحاك وغيرهما كلاماً محتملاً أن يكون كما ترجم وأن يكون مثل قول الناس ، وقال المفسرون : ﴿ القمر ﴾ تأويله : الأب ، و﴿ الشمس ﴾ تأويلها : الأم ، فانتزع بعض الناس من تقديمها وجوب بر الأم وزيادته على بر الأب ، وحكى الطبري عن جابر بن عبد الله أن يهودياً يسمى بستانة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أخبرني عن أسماء الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام ، فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهودي ، فقال : " هل أنت مؤمن إن أخبرتك بذلك ؟ قال : نعم ، قال : حربان ، والطارق ، والذيال ، وذا الكنفان ، وقابس ، ووثاب ، وعمودان والفيلق ، والمصبح ، والضروح ، وذو الفرغ ، والضياء ، والنور " فقال اليهودي : أي والله إنها لأسماؤها .

وتكرر ﴿ رأيتهم ﴾ لطول الكلام وجرى ضمائر هذه الكواكب في هذه الآية مجرى ضمائر

من يعقل إنما كان لما وصفت بأفعال هي خاصة بمن يعقل .

وروي أن رؤيا يوسف كانت ليلة القدر ليلة جمعة ، وأنها خرجت بعد أربعين سنة ، وقيل : بعد ثمانين سنة .

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾

(106/391)

تقتضي هذه الآية أن يعقوب عليه السلام كان يحس من بنيه حسد يوسف وبغضته ، فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن يشعل بذلك غل صدورهم ، فيعملوا الحيلة على هلاكه ، ومن هنا ومن فعلهم بيوسف – الذي يأتي ذكره – يظهر أنهم لم يكونوا أنبياء في ذلك الوقت . ووقع في كتاب الطبري لابن زيد : أنهم كانوا أنبياء ؛ وهذا يرده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنياوي وعن عقوق الآباء وتعريض مؤمن للهلاك والتوافر في قتله .

ثم أعلمه : ﴿ إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ أي هو يريد خلهم في ذلك ويحضهم عليه .

وأمال الكسائي ﴿ رؤياك ﴾ ، والرؤيا حيث وقعت وروي عنه : أنه لم يمل : ﴿ رؤياك ﴾ في هذه السورة وأمال الرؤيا حيث وقعت ، وقرأ " روياك " بغير همز – وهي لغة أهل الحجاز – ولم يملها الباقون حيث وقعت .

و" الرؤيا " مصدر كثر وقوعه على هذا المتخيل في النوم حتى جرى مجرى الأسماء كما فعلوا في الدر في قولهم : لله درك فخرجا من حكم عمل المصادر وكسروها رؤى بمنزلة ظلم ، والمصادر في أكثر الأمر لا تكسر .

(107/391)

وقوله : ﴿ وكذلك يجتبيك ﴾ الآية ، ف ﴿ يجتبيك ﴾ معناه : يختارك ويصطفيك ، ومنه : جبيت الماء في الحوض ، ومنه : جباية المال ، وقوله : ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ قال مجاهد والسدي : هي عبارة الرؤيا . وقال الحسن : هي عواقب الأمور . وقيل : هي عامة لذلك وغيره من المغيبات . وقوله : ﴿ ويتم نعمته ﴾ يريد النبوءة وما انضاف إليها من سائر النعم . وقوله : ﴿ آل يعقوب ﴾ يريد في هذا الموضع الأولاد والقرابة التي هي من نسله ، أي يجعل فيهم النبوءة ، ويروى أن ذلك إنما علمه يعقوب من دعوة إسحاق له حين تشبه له بعيصو - والقصة كاملة في كتاب النقاش لكني اختصرتها لأنه لم ينبل ألفاظها وما أظنه انتزعها إلا من كتب بني إسرائيل ، فإنها قصة مشهورة عندهم ، وباقي هذه الآية بيّن . و" النعمة " على يوسف كانت تخليصه من السجن وعصمته والملك الذي نال ؛ وعلى ﴿ إبراهيم ﴾ هي اتخاذه خليلاً ؛ وعلى ﴿ إسحاق ﴾ فديته

بالذبح العظيم ، مضافاً ذلك كله إلى النبوءة . و ﴿ عليم حكيم ﴾ مناسبتان لهذا الوعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(108/391)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾

"إذْ" في موضع نصب على الظرف ؛ أي اذكر لهم حين قال يوسف .

وقراءة العامة بضم السين .

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف "يُؤْسِف" بالهمز وكسر السين .

وحكى أبو زيد "يؤسَف" بالهمز وفتح السين .

ولم ينصرف لأنه أعجميّ ؛ وقيل : هو عربيّ .

وسئل أبو الحسن الأقطع وكان حكيماً عن "يوسف" فقال : الأسف في اللغة الحزن والأسِيف العبد ، وقد اجتمعا في يوسف ؛ فلذلك سمي يوسف .

﴿ لأَبِيهِ يا أبت ﴾ بكسر التاء قراءة أبي عمرو وعاصم ونافع وحمزة والكسائي ، وهي عند البصريين علامة التأنيث أدخلت على الأب في النداء خاصة بدلاً من ياء الإضافة ،

وقد تدخل علامة التأنيث على المذكر فيقال : رجل نُكَحَة وهُزأة ؛ قال النحاس : إذا قلت "يَا أَبَتِ" بكسر التاء فالتاء عند سيبويه بدل من ياء الإضافة ؛ ولا يجوز على قوله الوقف إلا بالهاء ، وله على قوله دلائل : منها أن قولك : "يا أبه" يؤدّي عن معنى "يا أبي" ؛ وأنه لا يقال : "يا أبت" إلا في المعرفة ؛ ولا يقال : جاءني أبت ، ولا تستعمل العرب هذا إلا في النداء خاصة ، ولا يقال : "يا أبتي" لأن التاء بدل من الياء فلا يُجمع بينهما .

وزعم الفراء أنه إذا قال : "يَا أَبتِ" فكسر دلّ على الياء لا غير ؛ لأن الياء في النية .

وزعم أبو إسحاق أن هذا خطأ ، والحق ما قال ؛ كيف تكون الياء في النية وليس يقال : "يا أبتي" ؟! وقرأ أبو جعفر والأعرج وعبد الله بن عامر "يا أَبَت" بفتح التاء ؛ قال البصريون : أرادوا "يا أبتي" بالياء ، ثم أبدلت الياء ألفاً فصارت "يا أبتا" فحذفت الألف وبقيت الفتحة على التاء .

وقيل : الأصل الكسر ، ثم أبدل من الكسرة فتحة ، كما يبدل من الياء ألف فيقال : يا غلاماً أقبل .

وأجاز الفراء "يا أبتُ" بضم التاء .

﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ ليس بين النحويين اختلاف أنه يقال : جاءني أحدَ عشرَ ، ورأيت ومررت بأحدَ عشر ، وكذلك ثلاثةَ عشرَ وتسعةَ عشرَ وما بينهما ؛ جعلوا الاسمين اسما واحداً وأعربوهما بأخف الحركات .

قال السّهيليّ : أسماء هذه الكواكب جاء ذكرها مسنداً ؛ رواه الحرث بن أبي أسامة قال : جاء بستانة وهو رجل من أهل الكتاب فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الأحد عشر كوكباً الذي رأى يوسف فقال : "الحرثان والطارق والذيال وقابس والمصبح والضروح وذو الكنفات وذو القرع والفَلِيق ووَثّاب والعَمُودَان ؛ رآها يوسف عليه السلام تسجد له" .

قال ابن عباس وقَتَادة : الكواكب إخوته ، والشمس أمه ، والقمر أبوه .

وقال قَتَادة أيضاً : الشمس خالته ، لأن أمه كانت قد ماتت ، وكانت خالته تحت أبيه .

﴿ رَأَيْتُهُمْ ﴾ توكيد .

وقال : "رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ" فجاء مذكراً ؛ فالقول عند الخليل وسيبويه أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسّجود وهما من أفعال من يعقل أخبر عنها كما يخبر عمن يعقل .

وقد تقدم هذا المعنى في قوله : ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : 198] والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته ، وإن كان خارجاً عن الأصل .

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ أي يحتالوا في هلاكك ؛ لأن تأويلها ظاهر ؛ فربما يحملهم الشيطان على قصدك بسوء حينئذ .

واللام في "لك" تأكيد ، كقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف : 42] .

(110/391)

الثانية : الرؤيا حالة شريفة ، ومنزلة رفيعة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " لم يبق بعدي من المبشِّرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصالح أو تُرى له " وقال : " أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً " وحكم صلى الله عليه وسلم بأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة ، وروي " من سبعين جزءاً من النبوّة " وروي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما " جزءاً من أربعين جزءاً من النبوّة " ومن حديث ابن عمرو " جزء من تسعة وأربعين جزءاً " ومن حديث العباس " جزء من خمسين جزءاً من النبوّة " ومن حديث أنس " من ستة وعشرين " وعن عُبادة بن الصّامت : " من أربعة وأربعين من النبوّة " والصحيح منها حديث الستة والأربعين ، ويتلوه في الصحة حديث السبعين ؛ ولم يخرّج مسلم في صحيحه غير هذين الحديثين ، أما سائرها فمن أحاديث الشيوخ ؛ قاله ابن بَطّال .

(111/391)

قال أبو عبد الله المازَريّ : والأكثر والأصح عند أهل الحديث " من ستة وأربعين " قال الطّبريّ : والصواب أن يقال إن عامة هذه الأحاديث أو أكثرها صحاح ، ولكل حديث منها مخرج معقول ؛ فأما قوله : "إنها جزء من سبعين جزءاً من النبوّة" فإن ذلك قول عام في كل رؤيا صالحة صادقة ، ولكل مسلم رآها في منامه على أي أحواله كان ؛ وأما قوله : "إنها من أربعين أو ستة وأربعين" فإنه يريد بذلك من كان صاحبها بالحال التي ذكرت عن الصدّيق رضي الله عنه أنه كان بها ؛ فمن كان من أهل إسباغ الوضوء في السَّبَرات ، والصبر في الله على المكروهات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فرؤياه الصالحة إن شاء الله جزء من أربعين جزءاً من النبوّة ، ومن كانت حاله في ذاته بين ذلك فرؤياه الصادقة بين جزءين ؛ ما بين الأربعين إلى الستين ، لا تنقص عن سبعين ، وتزيد على الأربعين ؛ وإلى هذا المعنى أشار أبو عمر بن عبد البر فقال : اختلاف الآثار في هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندي اختلاف متضاد متدافع والله أعلم لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على حسب ما يكون من صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والدِّين المتين ، وحسن اليقين ؛ فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد ؛ فمن خلصت نيته في عبادة ربه ويقينه وصدق حديثه ، كانت رؤياه أصدق ، وإلى

النبوّة أقرب : كما أن الأنبياء يتفاضلون ؛ قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النبيين على بَعْضٍ ﴾ [الإسراء : 55]

(112/391)

قلت : فهذا التأويل يجمع شتات الأحاديث ، وهو أولى من تفسير بعضها دون بعض وطرحه ؛ ذكره أبو سعيد الأَسْفاقُسِي عن بعض أهل العلم قال : معنى قوله : "جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة" فإن الله تعالى أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم في النبوّة ثلاثة وعشرين عاماً فيما رواه عكرمة وعمرو بن دينار عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فإذا نسبنا ستة أشهر من ثلاثة وعشرين عاماً وجدنا ذلك جزءاً من ستة وأربعين جزءاً ؛ وإلى هذا القول أشار المازَريّ في كتابه "المعلم" واختاره الغزنويّ في تفسيره من سورة "يونس" عند قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا ﴾ [يونس : 64] .

وهو فاسد من وجهين : أحدهما ما رواه أبو سَلَمة عن ابن عباس وعائشة بأن مدّة الوحي كانت عشرين سنة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث على رأس أربعين ، فأقام بمكة عشر سنين ؛ وهو قول عروة والشعبيّ وابن شهاب والحسن وعطاء الخراساني وسعيد بن المسيّب على اختلاف عنه ، وهي رواية ربيعة وأبي غالب عن أنس ، وإذا ثبت هذا

الحديث بطل ذلك التأويل الثاني : أن سائر الأحاديث في الأجزاء المختلفة تبقى بغير معنى .

الثالثة : إنما كانت الرؤيا جزءاً من النبوّة ؛ لأن فيها ما يعجز ويمتنع كالطيران ، وقلب الأعيان ، والاطلاع على شيء من علم الغيب ؛ كما قال عليه السلام : " إنه لم يبق من مبشِّرات النبوّة إلا الرؤيا الصادقة في النوم " الحديث .

وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقة من الله ، وأنها من النبوّة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " الرؤيا من الله والحُلُم من الشيطان " وأن التصديق بها حقّ ، ولها التأويل الحسن ، وربما أغنى بعضها عن التأويل ، وفيها من بديع الله ولطفه ما يزيد المؤمن في إيمانه ؛ ولا خلاف في هذا بين أهل الدين والحق من أهل الرأي والأثر ، ولا ينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد وشِرذمة من المعتزلة .

(113/391)

الرابعة : إن قيل : إذا كانت الرؤيا الصادقة جزءاً من النبوّة فكيف يكون الكافر والكاذب والمخلِّط أهلاً لها ؟ وقد وقعت من بعض الكفار وغيرهم ممن لا يرضى دينه منامات صحيحة صادقة ؛ كمنام رؤيا المِلك الذي رأى سبع بقرات ، ومنام الفتيين في السجن ،

ورؤيا بُخْتُنَصَّر ، التي فسّرها دانيال في ذهاب ملكه ، ورؤيا كسرى في ظهور النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنام عاتكة ، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمره وهي كافرة ، وقد ترجم البخاري "باب رؤيا أهل السجن" فالجواب أن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم في بعض الأوقات لا تكون من الوحي ولا من النبوّة ؛ إذ ليس كل من صدق في حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوّة ؛ وقد تقدّم في "الأنعام" أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق ، لكن ذلك على الندور والقلة ، فكذلك رؤيا هؤلاء ؛ قال المهلَّب : إنما ترجم البخاري بهذا لجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة ، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة ، إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوّة إضافة رؤيا المؤمن إليها ، إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءاً من النبوّة .

الخامسة : الرؤيا المضافة إلى الله تعالى هي التي خلصت من الأضغاث والأوهام ، وكان تأويلها موافقاً لما في اللوح المحفوظ ، والتي هي من خبر الأضغاث هي الحُلْم ، وهي المضافة إلى الشيطان ، وإنما سميت ضِغثاً ؛ لأن فيها أشياء متضادة ؛ قال معناه المهلَّب .

وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا أقساماً تغني عن قول كل قائل ؛ روى عوف ابن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الرؤيا ثلاثة منها أهاويل الشيطان ليُحزِن ابن آدم ومنها ما يهتم به في يقظته فيراه في منامه ومنها جزء من ستة وأربعين

جزءاً من النبوّة " قال قلت : سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(114/391)

السادسة : قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا بنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ على إِخْوَتِكَ ﴾ الآية .

الرؤيا مصدر رأى في المنام ، رؤيا على وزن فُعلى كالسُّقْيا والبُشْرى ؛ وألفه للتأنيث ولذلك لم ينصرف .

وقد اختلف العلماء في حقيقة الرؤيا ؛ فقيل : هي إدراك في أجزاء لم تحلّها آفة ، كالنوم المستغرق وغيره ؛ ولهذا أكثر ما تكون الرؤيا في آخر الليل لقلة غلبة النوم ؛ فيخلق الله تعالى للرائي علماً ناشِئاً ، ويخلق له الذي يراه على ما يراه ليصح الإدراك ، قال ابن العربيّ : ولا يرى في المنام إلا ما يصح إدراكه في اليقظة ، ولذلك لا يرى في المنام شخصاً قائماً قاعداً بحال ، وإنما يرى الجائزات المعتادات .

وقيل : إن لله ملَكاً يعرض المرئيات على المحل المدرِك من النائم ، فيمثّل له صوراً محسوسة ؛ فتارة تكون تلك الصور أمثلة موافقة لما يقع في الوُجُود ، وتارة تكون لمعاني معقولة غير محسوسة ، وفي الحالتين تكون مُبشّرةً أو مُنذرة ؛ قال صلى الله عليه وسلم في صحيح

مسلم وغيره : " رأيتُ امرأة سوداء ثائرةَ الرأسِ تَخرج من المدينة إلى مَهْيَعة فأوّلتها الحُمَّى " و " رأيت سيفي قد انقطع صدرُه وبَقَراً تُنْحَر فأولتُهما رجلٌ من أهل بيتي يُقتل والبقر نفر من أصحابي يُقتلون " و " رأيت أني أدخلت يدي في دِرعٍ حصِينة فأولتها المدينة ورأيت في يديّ سُوَارين فأولتُهما كذابيْن يَخرجان بعدي " إلى غير ذلك مما ضربتْ له الأمثال ؛ ومنها ما يظهر معناه أوّلاً (فأولا) ، ومنها ما لا يظهر إلا بعد التفكر ؛ وقد رأى النائم في زمن يوسف عليه السلام بقراً فأولها يوسف السنين ، ورأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر فأولها بإخوته وأبويه .

(115/391)

السابعة : إن قيل : إن يوسف عليه السلام كان صغيراً وقت رؤياه ، والصغير لا حكم لفعله ، فكيف تكون له رؤيا لها حكم حتى يقول له أبوه : "لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ" ؟ فالجواب أن الرؤيا إدراك حقيقةٍ على ما قدّمناه ، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيقي في اليقظة ، وإذا أخبر عما رأى صدق ، فكذلك إذا أخبر عما يرى في المنام ؛ وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه وأنها وُجدت كما رأى فلا اعتراض ؛ روي أن يوسف عليه السلام كان ابن اثنتي عشرة سنة .

الثامنة : هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح ، ولا على من لا يحسن التأويل فيها .

"روى أبو رزين العُقَيليّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " الرؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوّة " و " الرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدّث بها صاحبها فإذا حدّث بها وقعت فلا تحدّثوا بها إلا عاقلاً أو مُحِباً أو ناصحاً " أخرجه الترمذيّ وقال فيه : حديث حسن صحيح ؛ وأبو رزين اسمه لَقِيط بن عامر .

وقيل لمالك : أيعبر الرؤيا كلّ أحد ؟ فقال : أَبالنبوّة يُلعب ؟ وقال مالك : لا يعبّر الرؤيا إلا من يحسنها ، فإن رأى خيراً أخبر به ، وإن رأى مكروهاً فليقل خيراً أو ليصمت ؛ قيل : فهل يعبّرها على الخير وهي عنده على المكروه لقول من قال إنها على ما تأوّلت عليه ؟ فقال : لا ثم قال : الرؤيا جزء من النبوّة فلا يتلاعب بالنبوّة .

(116/391)

التاسعة : وفي هذه الآية دليل على أن مباحاً أن يحذّر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه ، ولا يكون داخلاً في معنى الغِيبة ؛ لأن يعقوب عليه السلام قد حذّر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيداً ، وفيها أيضاً ما يدلّ على جواز ترك إظهار النعمة عند من

تخشى غائلته حسداً وكيداً ؛ وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " استعينوا على (إنجاح) حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود " وفيها أيضاً دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا ؛ فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم ، ولم يبال بذلك من نفسه ؛ فإن الرجل يودّ أن يكون ولده خيراً منه ، والأخ لا يود ذلك لأخيه .

ويدلّ أيضاً على أن يعقوب عليه السلام كان أحسّ من بنيه حسد يوسف وبغضه ؛ فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن تَغِلّ بذلك صدورهم ، فيعملوا الحيلة في هلاكه ؛ ومن هذا ومن فعلهم بيوسف يدلّ على أنهم كانوا غير أنبياء في ذلك الوقت ، ووقع في كتاب الطبريّ لابن زيد أنهم كانوا أنبياء ، وهذا يرده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيويّ ، وعن عقوق الآباء ، وتعريض مؤمن للهلاك ، والتآمر في قتله ، ولا التفات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء ، ولا يستحيل في العقل زلّة نبيّ ، إلا أن هذه الزلّة قد جمعت أنواعاً من الكبائر ، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها ، وإنما اختلفوا في الصغائر على ما تقدّم ويأتي .

العاشرة : روى البخاريّ عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لم يبق من النبوّة إلا المبشّرات قالوا : وما المبشِّرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة " وهذا الحديث بظاهره يدلّ على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك ؛ فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قِبل الله تعالى لا تسر رائيها ، وإنما يريها الله تعالى المؤمن رفقاً به ورحمة ،

ليستعد لنزول البلاء قبل وقوعه ؛ فإن أدرك تأوّلها بنفسه ، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك .

(117/391)

وقد رأى الشافعي رضي الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حَنْبل تدلّ على محنته فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك ، وقد تقدّم في "يونس" في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا ﴾ [يونس : 64] أنها الرؤيا الصالحة .

وهذا وحديث البخاريّ مخرجه على الأغلب ، والله أعلم .

الحادية عشرة : روى البخاريّ عن أبي سَلَمة قال : لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت أبا قَتَادة يقول : وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الرؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدّث به إلا من يحب وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها وليتفل ثلاث مرات ولا يحدّث بها أحداً فإنها لن تضره " قال علماؤنا : فجعل الله الاستعاذة منها مما يرفع أذاها ؛ ألا ترى قول أبي قَتَادة : إني كنت لأرى الرؤيا هي أثقل عليّ من الجبل ، فلما سمعت بهذا الحديث كنت لا أعدها شيئًا .

وزاد مسلم من رواية جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثاً وليتعوّذ بالله من الشيطان ثلاثاً وليتحوّل عن جنبه الذي كان عليه " وفي حديث أبي هُريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل " قال علماؤنا : وهذا كله ليس بمتعارض ، وإنما هذا الأمر بالتحوّل ، والصلاة زيادة ، فعلى الرائي أن يفعل الجميع ، والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع ؛ لأنه إذا صلى تضمن فعله للصلاة جميع تلك الأمور ؛ لأنه إذا قام إلى الصلاة تحوّل عن جنبه ، وإذا تمضمض تفَل وبَصق ، وإذا قام إلى الصلاة تعوّذ ودعا وتضرع لله تعالى في أن يكفيه شرها في حال هي أقرب الأحوال إلى الإجابة ، وذلك السَحَر من الليل .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾

(118/391)

الكاف في موضع نصب ؛ لأنها نعت لمصدر محذوف ، وكذلك الكاف في قوله : ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَآ عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ و "ما" كافّة .

وقيل : "وَكَذَلِكَ" أي كما أكرمك بالرؤيا فكذلك يجتبيك ، ويحسن إليك بتحقيق الرؤيا .

قال مقاتل : بالسجود لك .

الحسن : بالنبوّة .

والاجتباء اختيار معالي الأمور للمجْتَبَى ، وأصله من جَبَيْتُ الشيء أي حصّلته ، ومنه جبيت الماء في الحوض ؛ قاله النحاس .

وهذا ثناءٌ من الله تعالى على يوسف عليه السلام ، وتعديد فيما عدده عليه من النعم التي أتاه الله تعالى ؛ من التمكين في الأرض ، وتعليم تأويل الأحاديث ؛ وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا .

قال عبد الله بن شدّاد بن الهاد : كان تفسير رؤيا يوسف صلى الله عليه وسلم بعد أربعين سنة ؛ وذلك منتهى الرؤيا .

وعَنَى بالأحاديث ما يراه الناس في المنام ، وهي معجزةٌ له ؛ فإنه لم يلحقه فيها خطأ .

وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها ، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم نحو ذلك ، وكان الصدّيق رضي الله عنه من أعبر الناس لها ، وحَصَل لابن سيرين فيها التقدُّم العظيم ، والطبع والإحسان ، ونحوه أو قريب منه كان سعيد بن المسيّب فيما ذكروا .

وقد قيل في تأويل قوله : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ أي أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد ، فهو إشارة إلى النبوّة ، وهو المقصود بقوله : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أي بالنبوّة .

وقيل : بإخراج إخوتك إليك ؛ وقيل : بإنجائك من كل مكروه .

﴿ كَمَا أَتَمَّهَا على أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ بالخلة، وإنجائه من النار.

﴿ وَإِسْحَاقَ ﴾ بالنبوّة.

وقيل: من الذبح؛ قاله عِكرمة.

وأعلمه الله تعالى بقوله: ﴿ وعلى آلِ يَعْقُوبَ ﴾ أنه سيعطي بني يعقوب كلهم النبوّة؛ قاله جماعة من المفسرين.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ بما يعطيك.

﴿ حَكِيمٌ ﴾ في فعله بك. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(119/391)

وقال الخازن:

﴿ إذ قال يوسف لأبيه ﴾

أي اذكر يا محمد لقومك قول يوسف لأبيه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم صلى الله عليه وعليهم أجمعين (خ) عن ابن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم " ويوسف اسم عبري ولذلك لا يجري فيه الصرف وقيل هو عربي سئل أبو الحسن الأقطع عن يوسف

فقال الأسف أشد الحزن والأسيف العبد واجتمعا في يوسف فسمي به ﴿ يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ معناه قال أهل التفسير : رأى يوسف في منامه كأن أحد عشر كوكباً نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر فسجدوا له وكانت هذه الرؤيا ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر وكان النجوم في التأويل إخوته وكانوا أحد عشر رجلاً يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم والشمس أبوه والقمر أمه في قول قتادة ، وقال السدي : القمر خالته لأن أمه راحيل كانت قد ماتت .

وقال قتادة وابن جريج : القمر أبوه والشمس أمه لأن الشمس مؤنثة والقمر مذكر وكان يوسف عليه السلام ابن اثنتي عشرة سنة ، وقيل : سبع عشرة سنة وقيل سبع سنين وأراد بالسجود تواضعهم له ودخولهم تحت أمره وقيل أراد به حقيقة السجود لأنه كان في ذلك الزمان التحية فيما بينهم السجود .

فإن قلت : إن الكواكب جماد لا تعقل فكيف عبر عنها بكناية من يعقل في قوله رأيتهم ولم يقل رأيتها وقوله : ساجدين ولم يقل ساجدات .

قلت : لما أخبرنا عنها بفعل من يعقل وهو السجود كنى عنها بكناية من يعقل فهو كقوله ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ وقيل إن الفلاسفة والمنجمين يزعمون أن الكواكب أحياء نواطق حساسة فيجوز أن يعبر عنها بكناية من يعقل وهذا القول ليس بشيء والأول

أصح فإن قلت قد قال ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ﴾ ثم أعاد لفظ الرؤيا ثانياً فقال ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ فما فائدة هذا التكرار .

(120/391)

قلت : معنى الرؤيا الأولى أنه رأى أجرام الكواكب والشمس والقمر ومعنى الرؤيا الثانية أنه أخبر بسجودها له وقال بعضهم .

معناه أنه لمَّا قال : ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ﴾ فكأنه قيل له : وكيف رأيت ؟ قال : ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ وإنما أفرد الشمس والقمر بالذكر وإن كانا من جملة الكواكب للدلالة على فضلهما وشرفهما على سائر الكواكب قال أهل التفسير : إن يعقوب كان شديد الحب ليوسف فحسده إخوته لهذا السبب وظهر ذلك ليعقوب ، فلما رأى يوسف هذه الرؤيا وكان تأويلها أن إخوته وأبويه يخضعون له فلهذا ﴿ قال ﴾ يعقوب ﴿ يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك ﴾ يعني لا تخبرهم برؤياك فإنهم يعرفون تأويلها ﴿ فيكيدوا لك كيداً ﴾ أي : فيحتالوا في إهلاكك فأمره بكتمان رؤياه عن إخوته لأن رؤيا الأنبياء وحي وحق واللام في فيكيدوا لك كيداً تأكيداً للصلة كقولك : نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك ﴿ إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ يعني أنه بيّن

العداوة ، لأن عداوته قديمة فهم إن أقدموا على الكيد كان ذلك مضافاً إلى تزيين الشيطان ووسوسته (ق) عن أبي قتادة قال : كنت أرى الرؤيا تمرضني حتى سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقوله

" الرؤيا الصالحة من الله والرؤيا السوء من الشيطان فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث بها إلا من يحب وإذا رأى أحدكم ما يكره فليتفل عن يساره ثلاثاً وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرها فإنها لن تضره" (خ) .

(121/391)

عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه : إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : "إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنها من الله فليحمد الله عليها وليحدِّث بها وإذا رأى غير ذلك مما يكره ، فإنما هي من الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان ومن شرِّها ولا يذكرها لأحد فإنها لن تضره" (م) عن جابر أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال "إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثاً وليتحول عن جنبه الذي كان عليه" عن أبي رزين العقيلي قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " رؤيا المؤمن جزء من أربعين وفي رواية جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة

وهي على رجل طائر ما لم يحدث بها فإذا حدث بها سقطت قال وأحسبه قال ولا يحدث بها إلا لبيباً أو حبيباً " أخرجه الترمذي ، ولأبي داود نحوه قال الشيخ محيي الدين النووي قال المازري مذهب أهل السنة في حقيقة الرؤيا أن الله تعالى يخلق في قلب النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء لا يمنعه نوم ولا يقظة فإذا خلق هذه الاعتقادات فكأنه جعلها علماً على أمور أخر يجعلها في ثاني الحال والجميع خلق الله تعالى ولكن يخلق الرؤيا والاعتقادات التي يجعلها علماً على ما سر بغير حضرة الشيطان فإذا خلق ما هو علم على ما يضر يكون بحضرة الشيطان فينسب إلى الشيطان مجازاً وإن كان لا فعل له في الحقيقة فهذا معنى قول النبي (صلى الله عليه وسلم) " الرؤيا من الله والحلم من الشيطان " لا على أن الشيطان يفعل شيئاً والرؤيا اسم للمحبوب والحلم اسم للمكروه ، وقال غيره : إضافة الرؤيا المحبوبة إلى الله تعالى إضافة تشريف بخلاف الرؤيا المكروهة وإن كانتا جميعاً من خلق الله وتدبيره وإرادته ولا فعل للشيطان فيها ولكنه يحضر المكروهة ويرتضيها فيستحب إذا رأى الرجل في منامه ما يحب أن يحدث به من يحب وإذا رأى ما يكره فلا يحدث به

وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ومن شرها وليتفل ثلاثاً وليتحول إلى جنبه الآخر فإنها لا تضره فإن الله تعالى جعل هذه الأسباب سبباً لسلامته من المكروه كما جعل الصدقة سبباً لوقاية المال وغيره من البلاء والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ﴾

يعني يقول يعقوب ليوسف أي وكما رفع منزلتك بهذه الرؤيا الشريفة العظيمة كذلك يجتبيك ربك يعني يصطفيك ربك واجتباء الله تعالى العبد تخصيصه إياه بفيض إلهي تحصل له منه أنواع الكرامات بلا سعي من العبد وذلك مختص بالأنبياء أو ببعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ يعني به تعبير الرؤيا سمي تأويلاً لأنه يؤول أمره إلى ما رأى في منامه، يعني يعلمك تأويل أحاديث الناس فيما يرونه في منامهم وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتعبير الرؤيا.

وقال الزجاج: تأويل أحاديث الأنبياء والأمم السالفة والكتب المنزلة.

وقال ابن زيد: يعلمك العلم والحكمة ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ يعني بالنبوة، قاله ابن عباس لأن منصب النبوة أعلى من جميع المناصب وكل الخلق دون درجة الأنبياء فهذا من إتمام

النعمة عليهم، لأن جميع الخلق دونهم في الرتب والمناصب ﴿ وعلى آل يعقوب ﴾ المراد بآل يعقوب أولاده فإنهم كانوا أنبياء وهو المراد من إتمام النعمة عليهم ﴿ كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ﴾ بأن جعلهما نبيين وهو المراد من إتمام النعمة عليهما وقيل : المراد من إتمام النعمة على إبراهيم (صلى الله عليه وسلم) بأن خلصه الله من النار واتخذه خليلاً والمراد من إتمام النعمة على الأصح بأن إتمام النعمة عليهما بالنبوة لأنه لا أعظم من منصب النبوة فهو من أعظم النعم على العبد ﴿ إن ربك عليم ﴾ يعني بمصالح خلقه ﴿ حكيم ﴾ يعني أنه تعالى لا يفعل شيئاً إلا بحكمة، وقيل : إنه تعالى حكم بوضع النبوة في بيت إبراهيم (صلى الله عليه وسلم) قال ابن عباس كان بين رؤيا يوسف هذه وبين تحقيقها بمصر واجتماعه بأبواه وإخوته أربعون سنة وهذا قول أكثر المفسرين، وقال الحسن البصري : كان بينهما ثمانون سنة فلما بلغت هذه الرؤيا إخوة يوسف حسدوه وقالوا ما رضي أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) ﴾

هذه السورة مكية كلها .

وقال ابن عباس وقتادة : إلا ثلاث آيات من أولها .

وسبب نزولها أن كفار مكة أمرتهم اليهود أن يسألوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن السبب الذي أحل بني إسرائيل بمصر فنزلت .

وقيل : سببه تسلية الرسول (صلى الله عليه وسلم) عما كان يفعل به قومه بما فعل إخوة يوسف به .

وقيل : سألت اليهود رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يحد ثهم أمر يعقوب وولده ، وشأن يوسف .

وقال سعد بن أبي وقاص : أنزل القرآن فتلاه عليهم زماناً فقالوا : يا رسول الله لو قصصت علينا ، فنزلت .

ووجه مناسبتها لما قبلها وارتباطها أن في آخر السورة التي قبلها : ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ وكان في تلك الأنباء المقصوصة فيها ما لاقى الأنبياء من قومهم ، فاتبع ذلك بقصة يوسف ، وما لاقاه من أخوته ، وما آلت إليه حاله من حسن العاقبة ، ليحصل للرسول (صلى الله عليه وسلم) التسلية الجامعة لما يلاقيه من أذى

البعيد والقريب .

وجاءت هذه القصة مطولة مستوفاة ، فلذلك لم يتكرر في القرآن إلا ما أخبر به مؤمن آل فرعون في سورة غافر .

والإشارة بتلك آيات إلى الروسائر حروف المعجم التي تركبت منها آيات القرآن ، أو إلى التوراة والإنجيل ، أو الآيات التي ذكرت في سورة هود ، أو إلى آيات السورة .

والكتاب المبين السورة أي : تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة أقوال .

والظاهر أنّ المراد بالكتاب القرآن .

والمبين إما البين في نفسه الظاهر أمره في إعجاز العرب وتبكيتهم ، وإما المبين الحلال والحرام والحدود والأحكام وما يحتاج إليه من أمر الدين ، قاله : ابن عباس ومجاهد ، أو المبين الهدى والرشد والبركة قاله قتادة ، أو المبين ما سألت عنه اليهود ، أو ما أمرت أن يسأل من حال انتقال يعقوب من الشام إلى مصر وعن قصة يوسف ، أو المبين من جهة بيان اللسان العربي وجودته ، إذ فيه ستة أحرف لم تجمع في لسان ، روي هذا عن معاذ بن جبل .

قال المفسرون : وهي الطاء ، والظاء ، والضاد ، والصاد ، والعين ، والخاء انتهى .

والضمير في إنا أنزلناه ، عائد على الكتاب الذي فيه قصة يوسف ، وقيل : على القرآن ، وقيل : على نبأ يوسف ، قاله الزجاج وابن الأنباري .

وقيل : هو ضمير الإنزال .

وقرآناً هو المطعوف به ، وهذان ضعيفان .

وانتصب قرآناً ، قيل : على البدل من الضمير ، وقيل على الحال الموطئة .

وسمي القرآن قرآناً لأنه اسم جنس يقع على القليل والكثير ، وعربياً منسوب إلى العرب .

والعرب جمع عربي ، كروم ورومي ، وعربة ناحية دار إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام .

قال الشاعر :

وعربة أرض ما يحل حرامها . . .

من الناس إلا اللوذعي الحلاحل

ويعني النبي (صلى الله عليه وسلم) أحلت له مكة .

وسكن راء عربة الشاعر ضرورة .

قيل : وإن شئت نسبت القرآن إليها ابتداء أي : على لغة أهل هذه الناحية .

لعلكم تعقلون ما تضمن من المعاني ، واحتوى عليه من البلاغة والإعجاز فتؤمنون ، إذ لو كان بغير العربية لقيل : ﴿ لولا فصلت آياته ﴾

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾

القصص : مصدر قص ، واسم مفعول إما لتسميته بالمصدر ، وأما لكون الفعل يكون للمفعول ، كالقبض والنقص .

والقصص هنا يحتمل الأوجه الثلاثة .

فإن كان المصدر فالمراد بكونه أحسن أنه اقتص على أبدع طريقة ، وأحسن أسلوب .

(126/391)

ألا ترى أنّ هذا الحديث مقتص في كتب الأولين ، وفي كتب التواريخ ، ولا ترى اقتصاصه في كتاب منها مقارباً لاقتصاصه في القرآن ، وإن كان المفعول فكان أحسنه لما يتضمن من العبر والحكم والنكت والعجائب التي ليس في غيره .

والظاهر أنه أحسن ما يقص في بابه كما يقال للرجل : هو أعلم الناس وأفضلهم ، يراد في فنه .

وقيل : كانت هذه السورة أحسن القصص لانفرادها عن سائرها بما فيها من ذكر الأنبياء ، والصالحين ، والملائكة ، والشياطين ، والجن ، والإنس ، والأنعام ، والطير ، وسير الملوك ، والممالك ، والتجار ، والعلماء ، والرجال ، والنساء وكيدهن ومكرهن ، مع ما فيها من

ذكر التوحيد ، والفقه ، والسير ، والسياسة ، وحسن الملكة ، والعفو عند المقدرة ، وحسن المعاشرة ، والحيل ، وتدبير المعاش ، والمعاد ، وحسن العاقبة ، في العفة ، والجهاد ، والخلاص من المرهوب إلى المرغوب ، وذكر الحبيب والمحبوب ، ومرأى السنين وتعبير الرؤيا ، والعجائب التي تصلح للدين والدنيا .

وقيل : كانت أحسن القصص لأنّ كل من ذكر فيها كان مآله إلى السعادة .

انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته وامرأة العزيز والملك أسلم بيوسف وحسن إسلامه .

ومعبر الرؤيا الساقي ، والشاهد فيما يقال .

وقيل : أحسن هنا ليست أفعل التفضيل ، بل هي بمعنى حسن ، كأنه قيل : حسن القصص ، من باب إضافة الصفة إلى الموصوف أي : القصص الحسن .

وما في بما أوحينا مصدرية أي : بإيحائنا .

وإذا كان القصص مصدراً فمفعول نقص من حيث المعنى هو هذا القرآن ، إلا أنه من باب الإعمال ، إذ تنازعه نقص .

وأوحينا فاعمل الثاني على الأكثر ، والضمير في من قبله يعود على الإيحاء .

وتقدمت مذاهب النحاة في أن المخففة ومجيء اللام في ثاني الجزءين .

ومعنى من الغافلين : لم يكن لك شعور بهذه القصة ، ولا سبق لك علم فيها ، ولا طرق

سمعك طرف منها .

والعامل في إذ قال الزمخشري وابن عطية : اذكر .

(127/391)

وأجاز الزمخشري أن تكون بدلاً من أحسن القصص قال : وهو بدل اشتمال ، لأن الوقت يشتمل على القصص وهو المقصوص ، فإذا قص وقته فقد قص .

وقال ابن عطية : ويجوز أن يعمل فيه نقص كان المعنى : نقص عليك الحال ، إذ وهذه التقديرات لا تتجه حتى تخلع إذ من دلالتها على الوقت الماضي ، وتجرد للوقت المطلق الصالح للأزمان كلها على جهة البدلية .

وحكى مكي أنّ العامل في إذ الغافلين ، والذي يظهر أن العامل فيه قال : يا بني ، كما تقول : إذ قام زيد قام عمر ، وتبقى إذ على وضعها الأصلي من كونها ظرفاً لما مضى .

ويوسف اسم عبراني ، وتقدمت ست لغات فيه .

ومنعه الصرف دليل على بطلان قول من ذهب إلى أنه عربي مشتق من الأسف ، وإن كان في بعض لغاته يكون فيه الوزن الغالب ، لامتناع أن يكون أعجمياً غير أعجمي .

وقرأ طلحة بن مصرف بالهمز وفتح السين .

وقرأ ابن عامر ، وأبو جعفر ، والأعرج : يا أبت بفتح التاء ، وباقي السبعة والجمهور بكسرها ، ووقف الابنان عليها بالهاء ، وهذه التاء عوض من ياء الإضافة فلا يجتمعان ، وتجامع الألف التي هي بدل من التاء قال : يا أبتا علك أو عساكا .

ووجه الاقتصار على التاء مفتوحة أنه اجتزأ بالفتحة عن الألف ، أو رخم بحذف التاء ، ثم أقحمت قاله أبو علي .

أو الألف في أبتا للندبة ، فحذفها قاله : الفراء ، وأبو عبيد ، وأبو حاتم ، وقطرب .

ورد بأنه ليس موضع ندبة أو الأصل يا أبة بالتنوين ، فحذف والنداء ناد حذف قاله قطرب ، ورد بأنّ التنوين لا يحذف من المنادي المنصوب نحو : يا ضارباً رجلاً ، وفتح أبو جعفر ياء إني .

وقرأ الحسن ، وأبو جعفر ، وطلحة بن سليمان : أحد عشر بسكون العين لتوالي الحركات ، وليظهر جعل الاسمين اسماً واحداً .

ورأيت هي حلمية لدلالة متعلقها على أنه منام ، والظاهر أنه رأى في منامه كواكب الشمس والقمر .

وقيل : رأى إخوته وأبويه ، فعبر عنهم بذلك ، وعبر عن الشمس عن أمه .

وقيل : عن خالته راحيل ، لأنّ أمه كانت ماتت .

ومن حديث جابر بن عبد الله : أن يهودياً جاء إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : يا محمد أخبرني عن أسماء الكواكب التي رآها يوسف ، فسكت عنه ، ونزل جبريل فأخبره بأسمائها ، فدعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اليهودي فقال : هل أنت مؤمن إن أخبرتك بذلك ؟ فقال : نعم .

قال : جريان ، والطارق ، والذيال ، وذو الكتفين ، وقابس ، ووثاب ، وعمودان ، والفليق ، والمصبح ، والضروح ، والفرغ ، والضياء ، والنور .

فقال اليهودي : إي والله إنها لأسماؤها .

وذكر السهيلي مسنداً إلى الحرث بن أبي أسامة فذكر الحديث ، وفيه بعض اختلاف ، وذكر النطح عوضاً عن المصبح .

وعن وهب أن يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أن إحدى عشرة عصاً طوالاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدارة ، وإذا عصا صغيرة تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها ، فوصف ذلك لأبيه فقال : إياك أن تذكر هذا لإخوتك ، ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب سجوداً له فقصها على أبيه فقال له : لا تقصها عليهم فيبغوا لك الغوائل ، وكان بين رؤيا يوسف ومسير إخوته إليه أربعون سنة ، وقيل : ثمانون .

وروي أن رؤيا يوسف كانت ليلة القدر ليلة جمعة .

والظاهر أنّ الشمس والقمر ليسا مندرجين في الأحد عشر كوكباً ، ولذلك حين عدهما الرسول لليهودي ذكر أحد عشر كوكباً غير الشمس والقمر ، ويظهر من كلام الزمخشري أنهما مندرجان في الأحد عشر .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : لمَ أخر الشمس والقمر ؟ (قلت) : أخرهما ليعطفهما على الكواكب على طريق الاختصاص إثباتاً لفضلهما ، واستبدادهما بالمزية على غيرهما من الطوالع ، كما أخر جبريل وميكائيل عن الملائكة ثم عطفهما عليهما .

لذلك ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع ، أي : رأيت الكواكب مع الشمس والقمر انتهى .

والذي يظهر أن التأخير إنما هو من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى ، ولم يقع الترقي في الشمس والقمر جرياً على ما استقر في القرآن من أنه إذا اجتمعا قدمت عليه .

(129/391)

قال تعالى : ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ وقال : وجمع الشمس والقمر ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ﴾ وقدمت عليه لسطوع نورها وكبر جرمها وغرابة سيرها ، واستمداده منها ، وعلو مكانها .

والظاهر أنّ رأيتهم كرر على سبيل التوكيد للطول بالمفاعيل ، كما كرر إنكم في قوله ﴿ إنكم

مخرجون ﴾ لطول الفصل بالظرف وما تعلق به .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : ما معنى تكرار رأيتهم ؟ (قلت) : ليس بتكرار ، إنما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جواباً له ، كان يعقوب عليه السلام قال له عند قوله : إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ، كيف رأيتها سائلاً عن حال رؤيتها ؟ فقال : رأيتهم لي ساجدين انتهى .

وجمعهم جمع من يعقل ، لصدور السجود له ، وهو صفة من يعقل ، وهذا سائغ في كلام العرب ، وهو أنْ يعطى الشيء حكم الشيء للاشتراك في وصف ما ، وإن كان ذلك الوصف أصله أن يخص أحدهما .

والسجود : سجود كرامة ، كما سجدت الملائكة لآدم .

وقيل : كان في ذلك الوقت السجود تحية بعضهم لبعض .

ولما خاطب يوسف أباه بقوله : يا أبت ، وفيه إظهار الطواعية والبر والتنبيه على محل الشفقة بطبع الأبوة خاطبه أبوه بقوله : يا بني ، تصغير التحبيب والتقريب والشفقة .

وقرأ حفص هنا وفي لقمان ، والصافات : يا بنيَ بفتح الياء .

وابن كثير في لقمان ﴿ يا بني لا تشرك ﴾ وقنبل يا بنيْ أقمْ بإسكانها ، وباقي السبعة بالكسر .

وقرأ زيد بن علي : لا تقص مدغماً ، وهي لغة تميم ، والجمهور بالفك وهي لغة الحجاز .

والرؤيا مصدر كالبقيا .

وقال الزمخشري : الرؤيا بمعنى الرؤية ، إلا أنها مختصة بما كان في النوم دون اليقظة ، فرق بينهما بحر في التأنيث كما قيل : القربة والقربى انتهى .

وقرأ الجمهور : رؤياك والرؤيا حيث وقعت بالهمز من غير إمالة .

وقرأ الكسائي : بالإمالة وبغير الهمز ، وهي لغة أهل الحجاز .

وإخوة يوسف : هم كاذ ، وبنيامين ، ويهوذا ، ونفتالي ، وزبولون ، وشمعون ، وروبين ، ويقال باللام كجبريل ، وجبرين ، ويساخا ، ولاوي ، وذان ، وياشير ، فيكيدوا لك : منصوب بإضمار أنْ على جواب النهي ، وعدي فيكيدوا باللام ، وفي ﴿ فكيدوني ﴾ بنفسه ، فاحتمل أن يكون من باب شكرت زيداً وشكرت لزيد ، واحتمل أن يكون من باب التضمين ، ضمّن فيكيدوا معنى ما يتعدى باللام ، فكأنه قال : فيحتالوا لك بالكيد ، والتضمين أبلغ لدلالته على معنى الفعلين ، وللمبالغة أكد بالمصدر .

ونبه يعقوب على سبب الكيد وهو : ما يزينه الشيطان للإنسان ويسوله له ، وذلك للعداوة التي بينهما ، فهو يجتهد دائماً أنْ يوقعه في المعاصي ويدخله فيها ويحضه عليها ، وكان

يعقوب دلته رؤيا يوسف عليهما السلام على أنّ الله تعالى يبلغه مبلغاً من الحكمة ، ويصطفه للنبوة ، وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه ، فخاف عليه من حسد إخوته ، فنهاه من أن يقص رؤياه لهم .

وفي خطاب يعقوب ليوسف تنهيه عن أن يقص على إخوته مخافة كيدهم ، دلالة على تحذير المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه ، والتنبيه على بعض ما لا يليق ، ولا يكون ذلك داخلاً في باب الغيبة .

وكذلك يجتبيك ربك أي : مثل ذلك الاجتباء ، وهو ما أراه من تلك الرؤيا التي دلت على جليل قدره ، وشريف منصبه ، ومآله إلى النبوة والرسالة والملك .

ويجتبيك : يختارك ربك للنبوة والملك .

قال الحسن : للنبوة ، وقال مقاتل : للسجود لك ، وقال الزمخشري : لأمور عظام .

ويعلمك من تأويل الأحاديث كلام مستأنف ليس داخلاً في التشبيه ، كأنه قال : وهو يعلمك .

قال مجاهد والسدي : تأويل الأحاديث عبارة الرؤيا .

وقال الحسن : عواقب الأمور ، وقيل : عامة لذلك ولغيره من المغيبات ، وقال مقاتل : غرائب الرؤيا ، وقال ابن زيد : العلم والحكمة .

وقال الزمخشري : الأحاديث الرؤى ، لأن الرؤى إما حديث نفس أو ملك أو شيطان ، وتأويلها عبارتها وتفسيرها ، فكان يوسف عليه السلام أعبر الناس للرؤيا وأصحهم عبارة .

ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث معاني كتب الله وسير الأنبياء ، وما غمض واشتبه على الناس في أغراضها ومقاصدها ، يفسرها لهم ويشرحها ، ويدلهم على مودعات حكمها .

وسميت أحاديث لأنها تحدث بها عن الله ورسله فيقال : قال الله : وقال الرسول : كذا وكذا .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ كتاباً وهي اسم جمع للحديث ، وليس بجمع أحدوثة انتهى .

وليس باسم جمع كما ذكر ، بل هو جمع تكسير لحديث على غير قياس ، كما قالوا : أباطل وأباطيل ، ولم يأت اسم جمع على هذا الوزن .

وإذا كانوا يقولون في عباديد وبناذير أنهما جمعا تكسير ولم يلفظ لهما بمفرد ، فكيف لا يكون أحاديث وأباطيل جمعي تكسير ؟ .

ويتم نعمته عليك ، وإتمامها بأنه تعالى وصل لهم نعمة الدنيا بأن جعلهم أنبياء وملوكاً ، بنعمة الآخرة بأن نقلهم إلى أعلى الدرجات في الجنة .

وقال مقاتل : بإعلاء كلمتك وتحقيق رؤياك ، وقال الحسن : هذا شيء أعلمه الله يعقوب من أنه سيعطي يوسف النبوّة .

وقيل : بأن يحوج إخوتك إليك ، فتقابل الذنب بالغفران ، والإساءة بالإحسان .

وقيل : بإنجائك من كل مكروه .

وآل يعقوب الظاهر أنه أولاده ونسلهم أي : نجعل النبوة فيهم .

وقال الزمخشري : هم نسلهم وغيرهم .

وقيل أهل دينه وأتباعهم ، كما جاء في الحديث : من آلك ؟ فقال : "كل تقي" وقيل : امرأته وأولاده الأحد عشر .

وقيل : المراد يعقوب نفسه خاصة .

وإتمام النعمة على إبراهيم بالخلة ، والإنجاء من النار ، وإهلاك عدوه نمروذ .

وعلى إسحاق بإخراج يعقوب والأسباط من صلبه .

وسمي الجد وأبا الجد أبوين ، لأنهما في عمود النسب كما قال : ﴿ وإله آبائك ﴾ ولهذا يقولون : ابن فلان ، وإن كان بينهما عدة في عمود النسب .

إن ربك عليم بمن يستحق الاجتباء ، حكيم يضع الأشياء مواضعها .

وهذان الوصفان مناسبان لهذا الوعد الذي وعده يعقوب ويوسف عليهما الصلاة والسلام في قوله : وكذلك يجتبيك ربك قيل : وعلم يعقوب عليه السلام ذلك من دعوة إسحاق عليه السلام حين تشبه له بعيصو . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(133/391)

وقال أبو السعود :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾

نُصب بإضمار اذكرْ وشروعٌ في القصة إنجازاً للوعد بأحسنِ الاقتصاص ، أو بدلٌ من أحسنَ القصصِ على تقدير كونِه مفعولاً بدلَ اشتمالٍ فإن اقتصاصَ الوقتِ المشتملِ على المقصوص من حيث اشتمالُه عليه اقتصاصٌ للمقصوص ، ويوسُفُ اسمٌ عبريٌّ لا عربيٌّ لخلوّه عن سبب آخرَ غيرِ التعريف ، وفتح السين وكسرها على بعض القراءات بناءً على التلعّب به لا على أنه مضارعٌ بُني للمفعول أو الفاعلِ من آسَف لشهادة المشهورة بعجمته ﴿ لأَبِيهِ ﴾ يعقوبَ بنِ إسحاق بن إبراهيمَ عليهم الصلاة والسلام ، وقد روي عنه عليه السلام : " إن الكريمَ بنَ الكريمِ بنِ الكريمِ بن الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ " ﴾

يا أبت ﴾ أصله يا أبي فعوِّض عن الياء تاءُ التأنيثِ لتناسُبهما في الزيادة فلذلك قُلبت هاءً في الوقف على قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو ، ويعقوبَ ، وكسرتُها لأنها عوضٌ عن حرف يناسبها وفتحها ابنُ عامر في كل القرآن لأنها حركة أُصلها ، أو لأن الأصلَ يا أبتا فحُذف الألفُ وبقيت الفتحة ، وإنما لم يُجز يا أبتي لأنه جمعٌ بين العِوض والمعوَّض ، وقرىء بالضم إجراءً لها مُجرى الألفاظِ المؤنثة بالتاء من غير اعتبار التعويضِ وعدم تسكينها كأصلها لأنها حرفٌ صحيحٌ منزلٌ منزلةَ الاسمِ فيجب تحريكها ككاف الخطاب .

(134/391)

﴿ إِنِّى رَأَيْتُ ﴾ من الرؤيا لا من الرؤية لقوله : ﴿ لاَ تَقْصُصْ رُءيَاكَ ﴾ ﴿ هذا تَأْوِيلُ رؤياى ﴾ ولأن الظاهرَ أن وقوعَ مثلِ هذه الأمور البديعةِ في عالم الشهادةِ لا يختص برؤية راءٍ دون راءٍ فيكون طامّةً كبرى لا يخفى على أحد من الناس ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا والشمس والقمر ﴾ روي عن جابر رضي الله عنه : (أن يهودياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهن يوسُف عليه السلام ، فسكت النبيُّ عليه السلام فنزل جبريلُ عليه السلام فأخبره بذلك فقال عليه السلام : " إذا أخبرتك بذاك هل تسلم ؟ " فقال : نعم ، قال عليه السلام : " جريانُ والطارقُ والذيال وقابسُ وعمودان

والفليقُ والمصبحُ والضّروحُ والفرعُ ووثّابُ وذو الكتفين ، رآها يوسف عليه السلام والشمس والقمر ونزلن من السماء وسجَدْن له " فقال اليهوديّ : إي والله إنها لأسماؤها)

وقيل : الشمس والقمرُ أبواه ، وقيل : أبواه ، وقيل : أبوه وخالتُه والكواكبُ إخوتُه ، وإنما أُخِّر الشمسُ والقمر عن الكواكب لإظهار مزيتهما وشرفهما على سائر الطوالع بعطفهما عليهما كما في عطف جبريلَ وميكائيلَ على الملائكة عليهم السلام وقد جُوِّز أن تكون الواو بمعنى مع أي رأيت الكواكبَ مع الشمس والقمر ، ولا يبعُد أن يكون ذلك إشارةً إلى تأخر ملاقاتِه عليه السلام لهما عن ملاقاته لإخوته . وعن وهب أن يوسفَ عليه السلام رأى وهو ابنُ سبعِ سنين أن إحدى عشرةَ عصاً طِوالاً كانت مركوزةً في الأرض كهيئة الداوة وإذا عصاً صغيرةٌ تثب عليها حتى اقتلعتْها وغلبتْها فوصف ذلك لأبيه فقال : إياك أن تذكرَ هذا لإخوتك ، ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرةَ سنةً الشمسَ والقمرَ والكواكبَ تسجُد له فقصّها على أبيه ، فقال : لا تقصَّها عليهم فيبغوا لك الغوائل ، وقيل : كان بين رؤيا يوسفَ ومصير إخوتِه إليه أربعون سنةً ، وقيل : ثمانون ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴾ استئنافٌ

ببيان حالِهم التي رآهم عليها كأن سائلاً سأل فقال: كيف رأيتهم؟ فأجاب بذلك، وإنما أُجريت مُجرى العقلاءِ في الضمير لوصفها بوصف العقلاءِ السجود، وتقديمُ الجار والمجرور لإظهار العنايةِ والاهتمام بما هو الأهمُّ مع ما في ضمنه من رعاية الفاصلة.

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ ﴾ صغّره للشفقه، أو لها ولصِغر السن وهو أيضاً استئنافٌ مبنيٌ على سؤال من قال: فماذا قال يعقوبُ بعد سماعِ هذه الرؤيا العجيبةِ؟ ولمّا عرَف يعقوبُ عليه السلام من هذه الرؤيا أن يوسفَ يبلّغه الله تعالى مبلغاً جليلاً من الحكمة ويصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه الكرامِ خاف عليه حسَدَ الإخوة وبغيَهم فقال صيانةً لهم من ذلك وله من معاناة المشاقِّ ومقاساةِ الأحزان، وإن كان واثقاً بأن الله تعالى سيحقق ذلك لا محالة وطمعاً في حصوله بلا مشقة: ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءيَاكَ ﴾ هي ما في المنام كما أن الرؤيةَ ما في اليقظة، فُرّق بينهما بحرفي التأنيث كما في القربى والقربة، وحقيقتُها ارتسامُ الصورةِ المنحدرة من أفق المُتخيّلة إلى الحس المشترك، والصادقةُ منها إنما تكون باتصالِ النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغِها من تدبير البدنِ أدنى فراغٍ فتتصور بما فيها مما يليق من المعاني الحاصلةِ هناك ثم إن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه

فترسلها إلى الحس المشترَكِ فتصير مشاهِدةً ثم إذا كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوتُ إلا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير وإلا احتاجت إليه ﴿ على إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ ﴾ نصب بإضمار أن أي فيفعلوا ﴿ لَكَ ﴾ أي لأجلك ولإهلاكك ﴿ كَيْداً ﴾ متيناً راسخاً لا تقدر على التفصّي عنه، أو خفياً عن فهمك لا تتصدى لمدافعته وهذا أوفقُ بمقام التحذير وإن كان يعقوبُ عليه السلام يعلم أنهم ليسوا بقادرين على تحويل ما دلت الرؤيا على وقوعه، وهذا الأسلوبُ آكدُ من أن يقال: فيكيدوك كيداً، إذ ليس فيه دِلالةٌ على كون نفس الفعلِ مقصودَ الإيقاع، وقد قيل: إنما جيء باللام لتضمينه معنى الاحتيالِ المتعدّي باللام ليفيد معنى المضمَّنِ والمضمّن فيه للتأكيد أي فيحتالوا لك ولإهلاكك حيلةً وكيداً، والمرادُ بإخوته هاهنا الذين يَخشى

غوائلَهم ومكايدَهم بنو عَلاّته الأحدَ عشرَ، وهم يهوذا وروبيل وشُمعونُ ولاوي وربالون ويشجُرُ ودينة بنو يعقوب من ليا بنت خالته ودان ونفتالي وجاد وآشر بنوه من سرّيّتين زلفة وبلهة وهؤلاء هم المشارُ إليهم بالكواكب الأحدَ عشر وأما بنيامين الذي هو شقيقُ يوسفَ عليه السلام وأمُّهما راحيل التي تزوجها يعقوبُ عليه السلام بعد وفاة أختها ليّا أو في حياتها

إذ لم يكن جمعُ الأختين إذ ذاك محرماً فليس بداخل تحت هذا النهي إذ لا يتوهم مضرّتُه ولا يُخشى معرّتُه ولم يكن معدوداً معهم في الرؤيا إذ لم يكن معهم في السجود ليوسف والمرادُ نهيُه عن اقتصاص الرؤيا عليهم كلاً أو بعضاً .

﴿ إِنَّ الشيطان للإنسان عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهرُ العداوة فلا يألو جهداً في إغواء إخوتك وإضلالِهم وحملهم على ما لا خير فيه ، وهو استئنافٌ كأن يوسف عليه السلام قال : كيف يصدر ذلك عن إخوتي الناشئين في بيت النبوة ؟ فقيل : إن الشيطان يحمِلهم على ذلك ، ولما نبهه عليهما السلام على أن لرؤياه شأناً عظيماً يستتبع منافعَ وحذّره إشاعتَها المؤديةَ إلى أن يحول إخوتُه بينها وبين ظهورِ آثارِها وحصولِها أو يُوعروا سبيلَ وصولِها شرع في تعبيرها وتأويلها على وجه إجمالي فقال :

﴿ وكذلك ﴾

أي ومثلَ ذلك الاجتباءِ البديعِ الذي شاهدتَ آثارَه في عالم المثالِ من سجود تلك الأجرامِ العلويةِ النيّرةِ لك ، وبحسَبه وعلى وَفْقه ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ يختارك لجناب كبريائه ويستنبئك افتعال من جباه إذا جمعه ، ويصطفيك على أشراف الخلائقِ وسَراةِ الناس

قاطبةً ويُبرز مصداق تلك الرؤيا في عالم الشهادة حسب ما عاينته من غير قصور ، والمرادُ بالتشبيه بيانُ المضاهاةِ المتحققةِ بين الصور المرئيةِ في عالم المثالِ وبين ما وقعت هي صوراً وأشباحاً له من الكائنات الظاهرةِ بحسبها في عالم الشهادة أي كما سُخّرت لك تلك الأجرامُ العظامُ يسخِّرُ لك وجوهَ الناس ونواصيَهم مذعنين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة ، ومرادُه بيانُ إطاعةِ أبويه وإخوتِه له لكنه إنما لم يصرّح به حذراً من إذاعته ﴿ وَيُعَلِّمُكَ ﴾ كلامٌ مبتدأٌ غيرُ داخل تحت التشبيه أراد به عليه السلام تأكيدَ مقالته وتحقيقَها وتوطينَ نفسِ يوسفَ عليه السلام بما أخبر به على طريقة التعبيرِ والتأويل ، كأنه قال وهو يعلمك ﴿ مِن تَأْوِيلِ الاحاديث ﴾ أي ذلك الجنسِ من العلوم أو طرفاً صالحاً منه فتطّلع على حقيّة ما أقول ، ولا يخفى ما فيه من تأكيد ما سبق والبعثِ على تلقي ما سيأتي بالقبول ، والمرادُ بتأويل الأحاديث تعبيرُ الرؤيا إذ هي أحاديثُ الملَكِ إن كانت صادقةً أو أحاديثُ النفس أو الشيطان إن لم تكن كذلك ، والأحاديثُ اسم جمعٍ للحديث كالأباطيل اسم جمع للباطل لا جمع أُحدوثة ، وقيل : كأنهم جمعوا حديثاً على أحْدِثة ثم جمعوا الجمعَ على أحاديث كقطيع وأقطِعة وأقاطيع ، وقيل : هو تأويلُ غوامضِ كتب الله تعالى وسنن الأنبياء عليهم السلام ، والأول هو الأظهرُ ، وتسميةُ التعبير تأويلاً لأنه جُعل المرئيُّ آيلاً إلى ما يذكره المعبِّرُ بصدد التعبير ورجْعِه إليه فكأنه عليه الصلاة والسلام أشار بذلك إلى ما سيقع من يوسف عليه السلام من تعبيره لرؤيا صاحبَيْ السجنِ ورؤيا

المِلك وكون ذلك ذريعةً إلى ما يبلّغه الله تعالى إليه من الرياسة العظمى التي عبر عنها بإتمام النعمة ، وإنما عرَف يعقوبُ عليه السلام ذلك منه من جهة الوحي ، أو أراد كونَ هذه الخَصلةِ سبباً لظهور أمرِه عليه السلام على الإطلاق فيجوز حينئذ أن تكون معرفتُه عليه السلام لذلك بطريق الفِراسةِ والاستدلال من الشواهد والدلائل والأَمارات والمخايل بأن مَن وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا لا بد من توفيقه لتعبيرها وتأويل أمثالِها وتمييز ما هو آفاقيٌّ منها مما هو أنفُسيٌّ . كيف لا وهي تدل على كمال تمكّن نفسِه عليه السلام في عالم المثال وقوةِ تصرفاتِها فيه فيكون أقبلَ لفيضان المعارفِ المتعلّقة بذلك العالم وبما يحاكيه من الأمور الواقعةِ بحسبها في عالم الشهادةِ وأقوى وقوفاً على النِّسب الواقعة بين الصور المعاينةِ في أحد ذينك العالمين وبين الكائنات الظاهرةِ على وفقها في العالم الآخر ، وأن هذا الشأنَ البديلَ لا بد أن يكون أنموذجاً لظهور أمرِ من اتصف به ومداراً لجريان أحكامِه فإن لكل نبيَ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معجزةً بها تظهر آثارُه وتجري أحكامُه ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ بأن يضم إلى النبوة المستفادةِ من الاجتباء المُلكَ ويجعله تتمة لها ، وتوسيطُ ذكر التعليم المذكور بينهما لكونه من لوازم النبوةِ والاجتباءِ ولرعاية ترتيبِ الوجود الخارجي

ولِما أشرنا إليه من كون أثرِه وسيلةً إلى تمام النعمةِ ويجوز أن يعدّ نفسُ الرؤيا من نعم الله تعالى عليه فيكون جميعُ النعم الواصلة إليه من كون أثرِه وسيلةً إلى تمام النعمةِ ، ويجوز أن يُعدَّ نفس الرؤيا من نعم الله تعالى عليه فيكون جميع النعم الواصلة إليه بحسبها مصداقاً لها تماماً لتلك النعمة .

(140/391)

﴿ وعلى ءالِ يَعْقُوب ﴾ وهم أهلُه من بنيه وغيرهم فإن رؤية يوسفَ عليه السلام إخوتَه كواكبَ يهتدى بأنوارها من نعم الله تعالى عليهم لدِلالتها على مصير أمرِهم إلى النبوة فيقع كلُّ ما يخرج من القوة إلى الفعل من كمالاتهم بحسب ذلك تماماً لتلك النعمةِ لا محالة ، وأما إذا أريد بتمام تلك النعمةِ المُلكُ فكونه كذلك بالنسبة إليهم باعتبار أنهم يغتنمون آثارَه من العزِ والجاهِ والمال ، ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا على أَبَوَيْكَ ﴾ نصبٌ على المصدرية أي ويتم نعمتَه عليك إتماماً كائناً كإتمام نعمتِه على أبويك وهي نعمةُ الرسالةِ والنبوةِ وإتمامُها على إبراهيمَ عليه السلام باتخاذه خليلاً وإنجائه من النار ومن ذبح الولدِ ، وعلى إسحاقَ بإنجائه من الذبح وفدائِه بذِبْحٍ عظيم وبإخراج يعقوبَ والأسباطِ من صُلبه وكلُّ ذلك نعمٌ جليلة وقعت تتمةً لنعمة النبوة . ولا يجب في تحقيق التشبيهِ كونُ ذلك في جانب المشبّه به مثلَ ما وقع في جانب

المشبه من كل وجه ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل هذا الوقت أو من قبلك ﴿ إِبْرَاهِيمَ *
وإسحاق ﴾ عطفُ بيانٍ لأبويك ، والتعبيرُ عنهما بالأب من كونهما أبا جدّه وأبا أبيه
للإشعار بكمال ارتباطِه بالأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام وتذكيرِ معنى : الولدُ سرُّ
أبيه ليطمئن قلبُه بما أخبر به في ضمن التعبيرِ الإجمالي لرؤياه ، والاقتصارُ في المشبه به على
ذكر إتمام النعمةِ من غير تعرض للاجتباء من باب الاكتفاء فإن إتمامَ النعمةِ يقتضي سابقةَ
النعمة المستدعيةِ للاجتباء لا محالة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ استئنافٌ لتحقيق مضمونِ الجُمل
المذكورةِ أي يفعل ما ذكر لأنه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بكل شيءٍ فيعلم من يستحق الاجتباءَ وما يتفرّع
عليه من التعليم المذكورِ وإتمامِ النعمةِ العامة على الوجه المذكور ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فاعلٌ لكل
شيءٍ حسبما تقتضيه الحكمةُ والمصلحة فيفعل ما يفعل كما يفعل جرياً على سنن علمِه
وحكمتِه ، والتعرضُ لعنوان

الربوبيةِ في الموضعين لتربية تحققِ وقوعِ ما ذكر من الأفاعيل . هذا وقد قيل في تفسير الآية
الكريمةِ : أي وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا الدالةِ على شرف وعزَ وكمالِ نفس يجتبيك
ربُّك للنبوة والمُلك أو لأمور عِظامٍ ويُتمّ نعمتَه عليك بالنبوة أو بأن يصل نعمةَ الدنيا بنعمة

الآخرة حيث جعلهم في الدنيا أنبياءَ وملوكاً ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا في الجنة كما أتمها على أبويك بالرسالة فتأمل والله الهادي. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(142/391)

وقال الآلوسى :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾

نصب باضمار اذكر بناءاً على تصرفها ، وذكر الوقت كناية عن ذكر ما حدث فيه والكلام شروع في إنجاز ما وعد سبحانه ، وحكى مكى أن العامل في ﴿ إِذْ ﴾ ﴿ الغافلين ﴾ [يوسف : 3]

وقال ابن عطية : يجوز أن يكون العامل فيها ﴿ نَقُصُّ ﴾ [يوسف : 3] ، وروي ذلك عن الزجاج على معنى نقص عليك الحال ﴿ إِذْ ﴾ الخ.

وهي للوقت المطلق المجرد عن اعتبار المضي ، وفي كلا الوجهين ما فيه.

واستظهر أبو حيان بقاءها على معناها الأصلي وأن العامل فيها ﴿ قَالَ يَا ءادَمُ بَنِى ﴾ [يوسف : 5] كما تقول : إذ قام زيد قام عمرو ، ولا يخلو عن بعد ، وجوز الزمخشري كونها

بدلاً من ﴿ حُسْنُ القصص ﴾ [يوسف : 3] على تقدير جعله مفعولاً به وهو بدل اشتمال ، وأورد أنه إذا كان بدلاً من المفعول يكون الوقت مقصوصاً ولا معنى له ، وأجيب بأن المراد لازمة وهو اقتصاص قول يوسف عليه السلام فإن اقتصاص وقت القول ملزوم لاقتصاص القول .

واعترض بأنه يكون بدل بعض أو كل لا اشتمال ، وأجيب بأنه إنما يلزم ما ذكر لو كان الوقت بمعنى القول وهو إما عين المقصوص أو بعضه ، أما لو بقي على معناه وجعل مقصوصاً باعتبار ما فيه فلا يرد الاعتراض .

هذا ولم يجوزوا البدلية على تقدير نصب ﴿ أَحْسَنَ القصص ﴾ على المصدرية ، وعللك ذلك بعدم صحة المعنى حينئذ وبقيام المانع عربية ، أما الأول فلأن المقصوص في ذلك الوقت لا الاقتصاص .

وأما الثاني فلأن أحسن الاقتصاص مصدر فلو كان الظرف بدلاً وهو المقصود بالنسبة لكان مصدراً أيضاً وهو غير جائز لعدم صحة تأويله بالفعل ، وأورد على هذا أن المصدر كما يكون ظرفاً نحو أتيتك طلوع الشمس يكون الظرف أيضاً مصدراً ومفعولاً مطلقاً لسدّه مسدّ المصدر كما فيقوله :

لم تغتمض عيناك ليلة أرمد . . .

فانهم صرحوا كما في التسهيل وشروحه أن ليلة مفعول مطلق أي اغتماض ليلة ، وما ذكر من حديث التأويل بالفعل فهو من الأوهام الفارغة ، نعم إذا ناب عن المصدر ففي كونه بد اشتمال شبهة وهو شيء آخر غير ما ذكر ، وعلى الأول أنه وإن لم يشتمل الوقت على الاقتصاص فهو مشتمل على المقصوص فلم لم يتجز البدلية بهذه الملابسة ؟ ورد بأن مثل هذه الملابسة لا تصحح البدلية ، ونقل عن الرضى أن الاشتمال ليس كاشتمال الظرف على المظروف بل كونه دالاً عليه إجمالاً ومتقاضياً له بوجه مّا بحيث تبقى النفس عند ذكر الأول متشوقة إلى الثاني منتظرة له فيجيء الثاني مبيناً لما أجمل فيه فإن لم يكن كذلك يكن بدل غلط وعلى هذا يقال في عدم صحة البدلية : إن النفس إنما تتشوق لذكر وقت الشيء لا لذكر وقت لازمه ووقت القول ليس وقتاً للاقتصاص ، و ﴿ يُوسُفَ ﴾ علم أعجمي لا عربي مشتق من الأسف وسمي به لأسف أبيه عليه ، أو أسفه على أبيه .

أو أسف من يراه على مفارقته لمزيد حسنه كما قيل ، وإلا لا نصرف لأنه ليس فيه غير العلمية ولا يتوهمن أن فيه وزن الفعل أيضاً إذ ليس لنا فعل مضارع مضموم الأول .

والثالث ، وكذا يقال في يونس ، وقرىء بفتح السين وكسرها على ما هو الشائع في الأسماء الأعجمية من التغيير لا على أنه مضارع بني للمفعول أو للفاعل من آسف لأن القراءة المشهورة شهدت بعجميته ولا يجوز أن يكون أعجمياً وغير أعجمي قاله غير واحد لكن

في الصحاح أن يعفر ولد الأسود الشاعر إذا قلته بفتح الياء لم تصرفه لأنه مثل يقتل.

وقال يونس: سمعت رؤبة يقول: أسود بن يعفر بضم الياء وهذا ينصرف لأنه قد زال عنه شبه الفعل اه.

(144/391)

وصرحوا بأن هذا مذهب سيبويه، وأن الأخفش خالفه فمنه صرفه لعروض الضم للاتباع، وعلى هذا يحتمل أن يقال: إنه عربي ومنع من الصرف على قراءة الفتح والكسر للعلمية ووزن الفعل، وكذا على قراءة الضم بناءً على ما يقوله الأخفش ويلتزم كون ضم ثالثه اتباعاً لضم أوله، وأجيب بأنه لو كان عربياً لوقع فيه الخلاف كما وقع في يعفر، والظاهر أن أعجميته متحققة عندهم ولذا التزموا منعه من الصرف لها وللعلمية ولا التفات لذلك الاحتمال.

وقرأ طلحة بن مصرف يؤسف بالهمز وفتح السين، وقد جاء فيه الضم والكسر مع الهمز أيضاً فيكون فيه ست لغات ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وفي الصحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ".

نسب كأن عليه من شمس الضحى . . .

نوراً ومن ضوء الصباح عموداً

﴿ يا أبت ﴾ أصلح يا أبي فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما في كون كل منهما من حروف الزيادة ويضم إلى الإسم في آخره ولهذا قلبها هاءاً في الوقف ابن كثير.

وابن عامر ، وخالف الباقون فأبقوها تاءاً في الوقف وكسرت لأنها عوض عن الياء التي هي أخت الكسرة فحركت بحركة تناسب أصلها لا لتدل على الياء ليكون ذلك كالجمع بين عوضين أو بين العوض والمعوض ، وجعل الزمخشري هذه الكسرة كسرة الياء زحلقت إلى التاء لما فتح ما قبلها للروم فتح ما قبل تاء التأنيث ، وقرأ ابن عامر.

وأبو جعفر.

والاعرج بفتحها لأن أصلها وهو الياء إذا حرك حرك بالفتح ، وقيل : لأن أصل ﴿ يا أبت ﴾ يا أبتا بأن قلبت الياء ألفاً ثم حذفت وأبقيت فتحتها دليلاً عليها ، وتعقب بأن يا أبتا ضعيف كيا أبتي حتى قيل : إنه يختص بالضرورة كقوله :

يا أبتا علك أو عساكا . . .

وقال الفراء.

وأبو عبيدة : وأبو حاتم : إن الألف المحذوفة من يا أبتا للندبة ، ورد بأن الموضع ليس موض ندبة ، وعن قطرب أن الأصل يا أبة بالتنوين فحذف والنداء باب حذف ، ورد بأن التنوين لا يحذف من المنادي المنصوب نحو يا ضاربا رجلاً ، وقرئ بضم التاء إجراءاً لها مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء من غير اعتبار التعويض ، وأنت تعلم أن ضم المنادي المضاف شاذ وإنما لم تسكن مع الباء التي وقعت هي عوضاً عنها تسكن لأنها حرف صحيح منزل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب .

وزعم بعضهم أن الياء أبدلت تاءاً لأنها تدل على المبالغة والتعظيم في نحو علامة .

ونسابة ، والأب .

والأم مظنة التعظيم فعلى هذا لا حذف ولا تعويض ، والتاء حينئذ اسم ، فقد صرحوا أن الاسم إذا كان على حرف واحد وأبدل لا يخرج عن الاسمية ، وقال الكوفيون : إن التاء لمجرد التأنيث وياء الإضافة مقدرة ، ويأباه عدم سماع يا بتي في السعة ، وكذا سماع فتحها على ما قيل ، وتعقب بأن تاء لات للتأنيث عند الجمهور وكذا تاء ربت .

وثمت وهي مفتوحة ﴿ لِأَبِيهِ يا أَبتِ إِنِّى رَأَيْتُ ﴾ أي في المنام كما يقتضيه كلام ابن عباس .

وغيره ، وكذا قوله سبحانه : ﴿ اَ تَقْصُصْ رُءيَاكَ ﴾ [يوسف : 5] و﴿ هذا ﴾ [

يوسف : 100] تأويل رؤياي ، فإن مصدر رأى الحلمية الرؤيا ومصدر البصرية الرؤية في المشهور ، ولذا خطىء المتنبي في قوله

: ورؤياك أحلى في العيون من الغمض . . .

وذهب السهيلي .

وبعض اللغويين إلى أن الرؤيا سمعت من العرب بمعنى الرؤيا ليلاً ومطلقاً ، واستدل بعضهم لكون رأى حلمية بأن ذلك لو وقع يقظة وهو أمر خارق للعادة لشاع وعد مجعزة ليعقوب عليه السلام أو إرهاصاً ليوسف عليه السلام ، وأجيب بأنه يجوز أن يكون في زمان يسير من الليل والناس غافلون ، والحق أنها حلمية ، ومثل هذا الاحتمال مما لا يلتفت إليه .

وقرأ أبو جعفر ﴿ إِنِّي ﴾ بفتح الياء ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ وهي جربان .

والطارق .

والذيال .

وقابس .

وعمودان .

والفيلق .

والمصبح .

والفزع .

ووثاب .

وذو الكتفين .

والضروج ، فقد روي عن جابر أن سناناً اليهودي جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهن يوسف فسكت فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك فقال عليه الصلاة والسلام : هل أنت مؤمن إن أخبرتك ؟ قال : نعم فعد صلى الله عليه وسلم ما ذكر فقال اليهودي : أي والله إنها لأسماؤها .

وأخرج السهيلي عن الحرث بن أبي أسامة نحو ذلك إلا أنه ذكر النطح بدل المصبح ، وأخرج الخبر الأول جماعة من المفسرين .

وأهل الأخبار وصححه الحاكم ، وقال : إنه على شرط مسلم ، وقال أبو زرعة .

وابن الجوزي : إنه منكر موضوع .

وقرأ الحسن .

وطلحة بن سليمان .

وغيرهما ﴿ أَحَدَ عَشَرَ ﴾ بسكون العين لتاولي الحركات وليظهر جعل الاسمين إسماً واحداً ﴿ والشمس والقمر ﴾ عطف على ما قبل .

وزعم بعضهم أن الواو للمعية وليس بذاك وتخصيصهما بالذكر وعدم الاندراج في عموم الكواكب لاختصاصهما بالشرف وتأخيرهما لأن سجودهما أبلغ وأعلى كعباً فهو من باب لا يعرفه فلان ولا أهل بلده ، وتقديم الشمس على القمر لما جرت عليه عادة القرآن إذا جمع الشمس والقمر ، وكان ذلك إما لكونها أعظم جرماً وأسطع نوراً وأكثر نفعاً من القمر وإما لكونها أعلى مكاناً منه وكون فلكها أبسط من فلكه على ما زعمه أهل الهيئة وكثير من غيرهم ، وإما لأنها مفيضة النور عليه كما ادعاه غير واحد ، واستأنس له بقوله سبحانه : ﴿ هُوَالذى جعَلَ الشمس ضِيَاء والقمر نُوراً ﴾ [يونس : 5] وإنما أورد الكلام على هذا الأسلوب ولم يطو ذكر العدد لأن المقصود الأصلي أن يتطابق المنام ومن هو في شأنهم وبترك العدد يفوت ذلك ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِى ساجدين ﴾ استظهر في البحر أن ﴿ رَأَيْتُهُمْ ﴾ تأكيد لما تقدم تطرية للعهد كما في قوله تعالى : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وعظاما أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ ﴾ [المؤمنون : 35] واختار الزمخشري التأسيس وأن الكلام جواب

سؤال مقدر كأن يعقوب عليه السلام قال له عند قوله : ﴿ رَأَيتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوكَبًا والشمس والقمر ﴾ كيف رأيتها ؟ سائلاً عن حال رؤيتها فقال : ﴿ رَأَيتُهُم لِي سَاجِدِينَ ﴾ وكأنه لا يرى أن رأى الحلمية مما تتعدى إلى مفعولين كالعلمية ليلتزم كون المفعول الثاني للفعل الأول محذوفاً ، ويرى أنه تتعدى لواحد كالبصرية فلا حذف ، و﴿ ساجدين ﴾ حال عنده كما يشير إليه كلامه ، والمشهور عند الجمهور أنه تتعدى إلى مفعولين ولا يحذف ثانيهما اقتصاراً .

وجوز أن يكون مذهبه القول بالتعدي إلى ما ذكر إلا أنه يقول بجواز ما منعوه من الحذف ، وأنت تعلم أن استظهره في البحر سالم عن المخالفة والنظرية أمر معهود في الكتاب الجليل وإنما أجريت هذه المتعاطفات مجرى العقلاء في الضمير جمع الصفة لوصفها بصفة العقلاء أعني السجود سواء كان المراد منه التواضع أو السجود الحقيقي وءعطاء الشيء الملابس لآخر من بعض الوجوه حكماً من أحكامه إظهاراً لأثر الملابسة والمقاربة شائع في الكلام القديم والحديث ، وفي الكلام على ما قيل : استعارة مكنية بتشبيه المذكورات بقوم عقلاء ساجدين والضمير والسجود قرينة أو أحدهما قرينة تخييلية والآخر ترشيح .

وذهب جماعة من الفرسفة إلى أن الكواكب أحياء ناطقة ، واستدل لهم بهذه الآية ونظائرها وكثير من ظواهر الكتاب والسنة يشهد لهم ، وليس في القول بذلك إنكار ما هو من ضروريات الدين ، وتقديم الجار والمجرور لإظهار العناية والاهتمام مع ما في ضمنه على ما قيل : من رعاية الفواصل ، وكانت هذه الرؤية فيما قيل : ليلة الجمعة ، وأخرج أبو الشيخ عن ابن منبه أنها كانت ليلة القدر ، ولعله لا منافاة لظهور إمكان كون ليلة واحدة ليلة القدر وليلة الجمعة ، واستشكل كونها في ليلة القدر بأنها من خواص هذه الأمة ، وأجيب بأن ما هو من الخواص تضعيف ثواب العمل فيها إلى ما قص الله سبحانه وكان عمره عليه السلام حين رأى ذلك اثنتي عشرة سنة فيما يروى عن وهب .

(149/391)

وقيل : سبع عشرة سنة ، وكان قد رأى قبل وهو ابن سبع سنين أن إحدى عشرة عصا طوالاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة وإذا عصا صغيرة تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها فوصف ذلك لأبيع فقال : إياك أن تذكر هذا لاخوتك ، وتعبير هذه العصى لاحدى عشرة هو بعينه تعبيرا لاحد عشر كوكباً فإن كلا منهما إشارة إلى إخوته ، وليس في الرؤيا الأولى ما يشير إليه الشمس والقمر في الرؤية الثانية ، ولا ضرورة إلى التزام القول

باتحاد المنامين بأن يقال : إنه عليه السلام رأى في كل أحد عشر شيئاً إلا أن ذلك في الأول عصى وفي الثاني كواكب ، ويكون عطف الشمس والقمر على ما قبله من قبيل عطف ميكائيل وجبريل عليهما السلام على الملائكة كما يوهمه كلام بعضهم ، وعبرت الشمس بأبيه .

والقمر بأمه اعتباءاً للمكان والمكانة .

وروي ذلك عن قتادة .

وعن السدى أن القمر خالته لأن أمه راحيل قد ماتت ، والقول : بأن الله تعالى أحياها بعد لتصديق رؤياه لا يخفى حاله ، وعن ابن جريج أن الشمس أمّه .

والقمر أبوه وهو اعتبار للتأنيث والتذكير ، وقد تعبر الشمس بالملك .

وبالذهب .

وبالزوجة الجميلة ، والقمر بالأمير ، والكواكب بالرؤساء وكذا بالعلماء أيضاً .

وعن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه أن رؤية القمر تؤوّل على أحد سبعة عشر وجهاً ، ملك .

أو وزير أو نديم الملك .

أو رئيس .

أو شريف .

أو جارية.

أو غلام.

أو أمر باطل.

أو وال.

أو عالم مفسد .

أو رجل معظم.

أو والد .

أو والدة.

أو زوجة.

أو بعل لها .

أو ولد .

أو عظمة ، ولعل ذلك مبني على اختلاف الرائي وكيفية الرؤية ، وزعم بعضهم أنه عليه السلام لم يكن رأى الكواكب ولا الشمس والقمر وإنما رأى إخوته وأبويه إلا أنه عبر عنهم بذلك على طريقة الاستعارة التصريحة وهو خلاف الظاهر جداً وكياد يعدّ من كلام النائم ، ويؤيد ظاهر ما نقله كثير من المفسرين أنه عليه السلام رأى الكواكب والشمس والقمر قد نزلت فسجدت له فقص ذلك على أبيه .

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ ﴾

صغره للشفقة ويسمى النحاة مثل هذا تصغير التحبيب ، وما ألطف قول بعض المتأخرين :

قد صغر الجوهر في ثغره . . .

لكنه تصغير تحبيب

ويحتمل أن يكون لذلك ولصغر السن ، وفتح الياء قراءة حفص ، وقرأ الباقون بكسرها ،

والجملة استئناف مبني على سؤال كأنه قيل : فماذا قال الأب بعد سماع هذه الرأية العجيبة

من ابنه ؟ فقيل : قال : ﴿ أَوْ بَنِى ﴾ ﴿ لاَ تَقْصُصْ رُءيَاكَ على إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً

﴾ أي فيحتالوا لإهلاكك حيلة عظيمة لا تقدر على التفصي عنها أو خفية لا تتصدى

لمدافعتها ، وإنما قال له ذلك لما أنه عليه السلام عرف من رؤياه أن سيبلغه الله تعالى مبلغاً

جليلاً من الحكمة ويصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين فخاف عليه حسد الاخوة

وبغيهم فقال له ذلك صيانة لهم من الوقوع فيما لا ينبغي في حقه وله من معاناة المشاق

ومقاساة الأحزان وإن كان واثقاً بأنهم لا يقدرون على تحويل ما دلت عليه الرؤيا وأنه

سبحانه سيحقق ذلك لا محالة وطمعاً في حصوله بلا مشقة وليس ذلك من الغيبة المحظورة

في شيء ، والرؤيا مصدر رأى الحلمية الدالة على ما يقع في النوم سواء كان مرئياً أم لا على ما هو المشهور ، والرؤية مصدر رأى البصرية الدالة على إدراك مخصوص ، وفرق بين مصدر المعنيين بالتأنيثين ، ونظير ذلك القربة للتقرب المعنوي بعبادة ونحوها ، والقربى للتقرب النسبي وحقيقتها عند أهل السنة كما قال محيى الدين النووي نقلاً عن المازني : أن الله سبحانه يخلق في قلب النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان وهو سبحانه يخلق ما يشاء لا يمنعه نوم ولا يقظة ، وقد جعل سبحانه تلك الاعتقادات علماً على أمور أخر يخلقها في ثاني الحال ، ثم إن ما يكون علماً ما يسر يخلقه بغير حضرة الشيطان .

وما يكون علماً على ما يضر يخلقه بحضرته .

ويسمى الأول رؤيا وتضاف إليه تعالى إضافة تشريف ، والثاني حلماً وتضاف إلى الشيطان كما هو الشائع من إضافة الشيء المكروه إليه ، وإن كان الكل منه تعالى ، وعلى ذلك جاء قوله صلى الله عليه وسلم : " الرؤيا من الله تعالى والحلم من الشيطان " وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنها من الله تعالى فليحمد الله تعالى وليحدث بها وإذا رأى غير ذلك

مما يكره فإنما هي من الشيطان فليستعذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم ومن شرها ولا يذكرها لأحد فانها لن تضره"

وصح عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

"إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فيبصق عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم وليتحول عن جنبه الذي كان عليه" ولا يبعد جعل الله تعالى ما ذكر سبباً للسلامة عن المكروه كما جعل الله الصدقة سبباً لدفع البلاء وإن لم نعرف وجه مدخلية البصق عن اليسار والتحول عن الجنب الذي كان عليه مثلاً في السببية ، وقيل : هي أحاديث الملك الموكل بالأرواح إن كانت صادقة .

ووسوسة الشيطان والنفس إن كانت كاذبة ، ونسب هذا إلى المحدثين ، وقد يجمع بين القولين بأن مقصود القائل بأنها اعتقادات يخلقها الله تعالى في قلب الخ أنها اعتقادات تخلق كذلك بواسطة حديث الملك .

أو بواسطة وسوسة الشيطان مثلاً ، والمسببات في المشهور عن الاشاعرة مخلوقة له تعالى عنه الأسباب لا بها فتدبر .

وقال غير واحد من المتفلسفة هي انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك ، والصادقة منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ فتتصور بما فيها مما يليق بها من المعاني الحاصلة هناك ، ثم إن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبها فترسلها إلى الحس المشترك فتصير مشاهدة ، ثم إن كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكلية والجزئية استغنت عن التعبير وإلا احتاجت إليه .

وذكر بعض أكابر الصوفية ما يقرب من هذا ، وهو : أن الرؤيا من أحكام حضرة المثال المقيد المسمى بالخيال وهو قد يتأثر من العقول السماوية والنفوس الناطقة المدركة للمعاني الكلية والجزئية فيظهر فيه صور مناسبة لتلك المعاني وقد يتأثر من القوى الوهمية المدركة للمعاني الجزئية فقط فيظهر فيه صورة تناسبها ، وهذا قد يكون بسبب سوء مزاج الدماغ وقد يكون بسبب توجه النفس بالقوة الوهمية إلى إيجاد صورة من الصور كمن يتخيل صورة محبوبة الغائب عنه تخيلاً قوياً فتظهر صورته في خياله فيشاهده ، وهي أول مبادي الوحي الالهي في أهل العناية لأن الوحي لا يكون إلا بنزول الملك وأول نزوله في الحضرة الخيالية ثم الحسية ، وقد صح عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : "أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رأيا إلا جاءت مثل فلق الصبح" والمرئي على ما قال بعضهم : سواء كان على صورته الأصلية أو لا يكون بإرادة

المرئى .

وقد يكون بارادة الرائي ، وقد يكون باردتهما معاً .

(153/391)

وقد يكون لا بارادة من شيء منهما ، فالأول كظهور الملك على نبي من الأنبياء عليهم السلام في صورة من الصور وظهور الكمل من الأناسي على بعض الصالحين في صورة غير صورهم ، والثاني كظهور روح من الأرواح الملكية أو الإنسانية باستنزال الكامل إياه إلى عالمه ليكشف معنى ما مختصاً علمه به ، والثالث كظهور جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم باستزاله إياه وبعص الحق سبحنه إياه إليه صلى الله عليه وسلم ، والرابع كرؤية زيد مثلا صورة عمرو في النوم من غير قصد وإرادة منهما ، وكانت رؤيا عليه السلام من هذا القسم لظهور أنها لو كانت بأرادة الاخوة لعلموا فلم يكن للنهي عن الاقتصاص معنى ، ويشير إلى أنها لم تكن بقصده قوله بعد :

﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ [يوسف : 100]

هذا والمنقول عن المتكلمين أنها خيالات باطلة وهو من الغرابة بمكان بعد شهادة الكتاب والسنة بصحتها ، ووجه ذلك بعض المحققين بأن مرادهم أن كون ما يختيله النائم إدراكاً

بالبصر رؤية ، وكون ما يتخيله إدراكاً بالسمع باطلاً فلا ينافي حقيقة ذلك بمعنى كونه أمارة لبعض الأشاء كذلك الشيء نفسه أو ما يضاحيه ويحاكيه ، وقد مر الكلام في ذلك فتيقظ .

والمشهور الذي تعاضدت فيه الروايات أن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، ووجه ذلك عند جمع أنه صلى الله عليه وسلم بقي حسبما أشارت عائشة رضي الله تعالى عنها ستة أشهر يرى الوحي مناماً ثم جاءه الملك يقظة وستة أشهر بالنسبة إلى ثلاث وعشرين سنة جزء من ست وأربعين جزءاً .

وذكر الحليمي أن الوحي كان يأتيه عليه الصلاة والسلام على ستة وأربعين نوعاً : مثل النفث في الروع .

وتمثل الملك له بصورة دحية رضي الله تعالى عنه مثلاً .

وسماعه مثل صلصلة الجرس إلى غير ذلك ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم ما قال ، وذكر الحافظ العسقلاني أن كون الرؤيا الصادقة جزء من كذا من النبوة إنما هو باعتبار صدقها لا غير وإلا لساغ لصاحبها أن يسمى نبياً وليس كذلك ، وقد تقدم لك أن في بعض الروايات ما

فيه مخالفة لما في هذه الروايات من عدة الأجزاء ، ولعل المقصود من كل ذلك على ما قيل : مدح الرؤيا الصادقة والتنويه برفعة شأنها لا خصوصية العدد ولا حقيقة الجزئية .

وقال ابن الأثير في جامع الأصول : روى قليل أنها جزء من خمسة وأربعين جزءاً وله وجه مناسبة بأن عمره صلى الله عليه وسلم لم يستكمل ثلاثاً وستين بأن يكون توفي عليه الصلاة والسلام بأثناء السنة الثالثة والستين ورواية أنها جزء من أربعين جزءاً تكون محمولة على كون عمره عليه الصلاة والسلام ستين وهو رواية لبعضهم ، وروي أنها جزء من سبعين جزءاً ولا أعلم لذلك وجهاً اه .

وأنت تعلم أن سبعين كثيراً ما يستعمل في التكثير فلعله هو الوجه ، والغرض الإشارة إلى كثرة أجزاء النبوة فتدبر ، والمراد بإخوته ههنا على ما قيل : الاخوة الذين يخشى غوائلهم ومكايدهم من بني علاته الأحد عشر ، وهم يهوذا ، وروبيل .

وشمعون .

ولاوي .

وريالون .

ويشجر .

ودينه بنو يعقوب من ليا بنت ليان بن ناهر وهي بنت خالته ، ودان .

ويقتالي .

وجاد .

وآشر بنوه عليه السلام من سريتين له زلفة .

وبلهة وهم المشار إليهم بالكواكب ، وأما بنيامين الذي هو شقيق يوسف عليه السلام وأمهما راحيل التي تزوجها يعقوب عليه السلام بعد وفات أختها لي أو في حياتها إذ لم يكن جمع الأختين إذ ذاك محرماً فليس بداخل تحت هذا النهي إذ لا تتوهم مضرته ولا تخضى معرته ولم يكن معهم في الرؤيا إذ لم يكن معهم في السجود .

(155/391)

وتعقب بأن المشهور أن بني علاته عليه السلام عشرة وليس فيهم من اسمه دينه ، ومن الناس من ذكر ذلك في عداد أولاد يعقوب إلا أنه قال : هي أخت يوسف ، وبناء الكلام عليه ظاهر الفساد بل لا تكاد تدخل في الاخوة إلا باعتبار التغليب لأنه جمع أخ فهو مخصوص بالذكور ، فلعل المختار أن المراد من الاخوة ما يشمل الأعيان والعلات ، ويعد بنيامين بدل دينه إتماماً لاحد عشر عدة الكواكب المرئية ، والنهي عن الاقتصاص عليه وإن لم يكن ممن تخشى غوائله من باب الاحتياط وسد باب الاحتمال ، ومما ذاع كل سر جواز الاثنين شاع ، ويلتزم القول بوقوع السجود منه كسائر أهله وإسناد الكيد إلى الأخوة باعتبار الغالب فلا

إشكال كذا قيل ، وهو على علاته أولى مما قيل : إن المراد بإخوته ما لا يدخل تحته بنيامين . ودينه لأنهما لا تخشى معرتهما ولا يتوهم مضرتهما فهم حينئذ تسعة وتكمل العدة بأبيه وأمه أو خالته ويكون عطف الشمس والقمر من قبيل عطف جبريل وميكائيل على الملائكة ، وفيه من تعظيم أمرهما ما فيه لما أن في ذلك ما فيه ، ونصب ﴿ يكيدوا ﴾ بأن مضمرة في جواب النهي وعدى باللام مع أنه مما يتعدى بنفسه كما في قوله تعالى : ﴿ فَكِيدُونِى ﴾ [هود : 55] لتضمينه ما يتعدى بها وهو الاحتيال كما أشرنا إليه ، وذلك لتأكيد المعنى بإفادة معنى الفعلين المتضمن والمضمن جميعاً ولكون القصد إلى التأكيد والمقام مقامه أكد الفعل بالمصدر وقرر بالتعليل بعد ، وجعل اللام زائدة كجعله مما يتعدى بنفسه وبالحرف خلاف الظاهر ، وقيل : إن الجار والمجرور من متعلقات التأكيد على معنى فيكيدوا كيداً لك وليس بشيء ؛ وجعل بعضهم اللام للتعليل على معنى فيفعلوا لأجلك وإهلاكك كيداً راسخاً أو خفياً ؛ وزعم أن هذا الأسلوب آكد من أن يقال : فيكيدوك كيداً إذ ليس فيه دلالة على كونه نفس الفعل مقصود الإيقاع وفيه نوع مخالفة للظاهر أيضاً فافهم .

وقرأ الجمهور ﴿ رُءيَاكَ ﴾ بالهمز من غير إمالة ، والكسائي ﴿ رُءيَاكَ ﴾ بالامالة وبغير همز وهي لغة أهل الحجا " ﴿ إِنَّ الشيطان للإنسان ﴾ إي لهذا النوع ﴿ عَدّوٌ مبينٌ ﴾ ظاهر العداوة فلا يألو جهداً في تسويل إخوتك وإثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على ما لا خير فيه وإن كانوا ناشئين في بيت النبوة ، والظاهر أن القوم كانوا بحيث يمكن أن يكون للشيطان عليهم سبيل ، ويؤيد هذا أنهم لم يكونوا أنبياء ، والمسألة خلافية فالذي عليه الأكثرون سلفاً وخلفاً أنهم لم يكونوا أنبياء أصلاً ، أما السلف فلم ينقل عن الصحابة منهم أنه قال بنبوتهم ولا يحفظ عن أحد من التابعين أيضاً ، وأما أتباع التابعين فنقل عن ابن زيد أنه قال بنبوتهم وتابعه شرذمة قليلة ، وأما الخلف فالمفسرون فرق : فمنهم من قال بقول ابن زيد كالبغوي ، ومنهم من بالغ في رده كالقرطبي .

وابن كثير ، ومنهم من حكى القولين بلا ترجيح كابن الجوزي ، ومنهم من لم يتعرض للمسألة لكن ذكر ما يشعر بعدم كونهم أنبياء كتفسيره الأسباط بمن نبىء من بني إسرائيل والمنزل إليهم بالمنزل إلى أنبيائهم كأبي الليث السمرقندي .

والواحدي ، ومنهم من لم يذكر شيئاً من ذلك ولكن فسر الأسباط بأولاد يعقوب فحسبه ناس قولاً بنبوتهم وليس نصاً فيه لاحتمال أن يريد بالأولاد ذريته لا بنيه لصلبه ، وذكر الشيخ ابن تيمية في مؤلف له خاص في هذه المسألة ما ملخصه : الذي يدل عليه القرآن واللغة والاعتبار أن إخوة يوسف عليه السلام ليسوا بأنبياء وليس في القرآن ولا عن النبي

صلى الله عليه وسلم بل ولا عن أحد من أصحابه رضي الله تعالى عنهم خبر بأن الله تعالى نبأهم وإنما احتج من قال : بأنهم نبئوا بقوله تعالى في آيتي البقرة .

(157/391)

والنساء : ﴿ والاسباط ﴾ وفسر ذلك بأولاد يعقوب والصواب أنه ليس المراد بهم أولاده لصلبه بل ذريته كما يقال لهم : بنو إسرائيل ، وكما يقال لسائر الناس : بنو آدم ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف : 159] ﴿ وقطعناهم اثنتى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ [الأعراف : 160] صريح في أن الأسباط هم الأمم من بني إسرائيل وكل سبط أمة ، وقد صرحوا بأن الأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل ، وأصل السبط كما قال أبو سعيد الضرير : شجرة واحدة ملتفة كثيرة الأغصان فلا معنى لتسمية الأبناء الاثني عشر أسباطاً قبل أن ينتشر عنهم الأولاد ، فتخصيص الأسباط في الآية ببنيه عليه السلام لصلبه غلط لا يدل عليه اللفظ ولا المعنى ومن ادعاه فقد أخطأ خطأ بيناً والصواب أيضاً أنهم إنما سموا أسباطاً من عهد موسى عليه السلام ، ومن حينئذ كانت فيهم النبوة فانه لم يعرف فيهم نبي قبله إلا يوسف ، ومما يؤيد ذلك أنه سبحانه لما ذكر الأنبياء من ذرية إبراهيم قال : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودُ وسليمان ﴾ [الأنعام

: 84] الآيات فذكر يوسف ومن معه ولم يذكر الاسباط ولو كان إخوة يوسف قد نبئوا كما نبيء لذكروا كما ذكر ، وأيضاً إن الله تعالى ذكر للأنبياء عليهم السلام من المحامد والثناء ما يناسب النبوة وإن كان قبلها ؛ وجاء في الحديث "أكرم الناس يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم نبي ابن نبي" فلو كانت إخوته أنبياء كانوا قد شاركوه في هذا الكرم ، وهو سبحانه لما قص قصتهم وما فعلوا بأخيهم ذكر اعترافهم بالخطيئة وطلبهم الاستغفار من أبيهم ولم يذكر من فضلهم ما يناسب النبوة وإن كان قبلها ، بل ولا ذكر عنهم توبة باهرة كما ذكر عمن ذنبه دون ذنبهم ، ولم يذكر سبحانه عن أحد من الأنبياء قبل النبوة ولا بعدها أنه فعل مثل هذه الأمور العظيمة من عقوق الوالد .

وقطيعة الرحم .

(158/391)

وإرقاق المسلم وبيعه إلى بلاد الكفر .

والكذب البين إلى غير ذلك مما حكاه عنهم ، بل لو لم يكن دليل على عدم نبوتهم سوى صدور هذه العظائم منهم لكفى لأن الأنبياء معصومون عن صدور مثل ذلك قبل النبوة وبعدها عند الأكثرين ، وهي أيضاً أمور لا يطيقها من هو دون البلوغ فلا يصح الاعتذار

بأنها صدرت منهم قلبه وهو لا يمنع الاستنباء بعد ، وأيضاً ذكر أهل السير أن إخوة يوسف كلهم ماتوا بمصر وهو أيضاً مات بها لكن أوصى بنقله إلى الشام فنقله موسى عليه السلام ولم يذكر في القرآن أن أهل مصر قد جاءهم نبي قبل موسى غير يوسف ولو كان منهم نبي لذكر ، وهذا دون ما قبله في الدلالة كما لا يخفى .

والحاصل أن الغلط في دعوى نبوتهم إنما جاء من ظن أنهم هم الأسباط وليس كذلك إنما الاسباط أمة عظيمة ، ولو كان المراد بالأسباط أبناء يعقوب لقال سبحلنه ويعقوب وبنيه فانه أبين وأوجز لكنه عبر سبحانه بذلك إشارة إلى أن النبوة حصلت فيهم من حين تقطيعهم أسباطاً من عهد موسى عليه السلام فليحفظ .

هذا ولما نبهه عليه السلام على أن لرؤياه شأناً عظيماً وحذره مما حذره شرع في تعبيرها وتأويلها على وجه إجمالي فقال :

﴿ وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾

أي يصطفيك ويختارك للنبوة كما روي عن الحسن ، أو للسجود لك كما روي عن مقاتل ، أو لأمور عظام كما قال الزمخشري ، فيشمل ما تقدم وكذا يشمل إغناء أهله ودفع القحط عنهم ببركته وغير ذلك ، ولعل خير الأقوال وسطها ؛ وأصل الاجتباء من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك وفسره بالاختيار لأنه إنما يجتبى ما يختار .

وذكر بعضهم أن اجتباء الله تعالى العبد تخصيصه أياه بفيض الهاي يتحصل منه أنواع من المكرمات بلا سعي من العبد وذلك مختص بالأنبياء عليهم السلام ، ومن يقاربها من الصديقين والشهداء والصالحين ، والمشار إليه بذلك إما الاجتباء لمثل تلك الرأيا فالمشبه به متغايران ، وإما لمصدر الفعل المذكور وهو المشبه والمشبه به ، ﴿ وكذلك ﴾ في محل نصب صفة لمصدر مقدر وقدم تحقيق ذلك ، وقيل هنا : إن الحار والمجرور خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كذلك وليس الأمر كذلك ، ولا يخفى ما في ذكر الرب مضافاً إلى ضمير المخاطب من اللطف ، وإنما لم يصرح عليه السلام بتفاصيل ما تدل عليه الرؤيا حذراً من إذاعته على ما قيل : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ ﴾ ذهب جمع إلى أنه كلام مبتدأ غير داخل تحت التشبيه أراد به عليه السلام تأكيد مقالته وتحقيقها وتوطين نفس يوسف عليه السلام بما أخبر به على طريق التعبير والتأويل أي وهو ﴿ يعلمك ﴾ ﴿ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الاحاديث ﴾ أي ذلك الجنس من العلوم ، أو طرفاً صالحاً منه فتطلع على حقيقة ما أقول ولا يخفى ما فيه من تأكيد ما سبق والبعث على تلقي ما سيأتي بالقبول ، وعلل عدم دخوله تحت التشبيه بأن الظاهر أن يشبه الاجتباء بالاجتباء والتعليم غير الاجتباء فلا يشبه به ، ونظر فيه بأن التعليم نوع من الاجتباء والنوع يشبه بالنوع ، وقيل : العلة في ذلك أنه

يصير المعنى ويعلمك تعليماً مثل الاجتباء بمثل هذه الرؤيا ولا يخفى سماجته فان الاجتباء وجه الشبه بين المشبه والمشبه به ولم يلاحظ في التعليم ذلك .

وقال بعض المحققين : لا مانع من جعله داخلاً تحت التشبيه على أن المعنى بذلك الإكرام بتلك الرؤيا أي كما أكرمك بهذه المبشرات يكرمك بالاجتباء والتعليم ولا يحتاج في ذلك إلى جعله تسبيهين وتقدير كذلك ، وأنت تعلم أن المنساق إلى الفهم هو العطف ولا بأس فيما قرره هذا المحقق لتوجيهه ، نعم للاستئناف وجه وجيه وإن لم يكن المنساق إلى الفهم ؛

والظاهر أن المراد من تأويل الأحاديث تعبير الرأيا إذ هي إخبارات غيبية يخلق الله تعالى بواسطتها اعتقادات في قلب النائم حسبما يشاؤه ولا حجر عليه تعالى .

أو أحاديث الملك إن كانت صادقة .

أو النفس أو الشيطان إن لم تكن كذلك ، وذكر الراغب أن التأويل من الأول وهو الرجوع ، وذلك رد الشيء إلى الغاية المرادة منه علماً كان أو فعلا ، فالأول كقوله سبحانه :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ﴾ [آل عمران : 7] والثاني كقوله :

وللنوي قبل يوم البين تأويل . . .

وجاء الأول بمعنى السياسة التي يراعى مآلها يقال : ألنا وايل علينا اه .

وشاع التأويل في إخراج الشيء عن ظاهر ، و﴿ الاحاديث ﴾ جمع تكسير لحديث على غير قياس كما قالوا : باطل وأباطيل ، وليس باسم جمع له لأن النحاة قد شرطوا في اسم الجمع أن لا يكون على وزن يختص بالجمع كمفاعيل ، وممن صرح بانه جمع الزمخشري في المفصل ، وهو مراده من اسم الجمع في الكشاف فانه كغيره كثيراً ما يطلق اسم الجمع على الجمع المخالف للقياس فلا مخالفة بين كلاميه ، وقيل : هو جمع أحدوثة ، وردّ بأن الأحدوثة الحديث المضحك كالخرافة فلا يناسب هنا ، ولا في أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام أن يكون جمع أحدوثة ، وقال ابن هشام : الأحدوثة من الحديث ما يتحدث به ولا تسعمل إلا في الشر ، ولعل الأمر ليس كما ذكروا ، وقد نص المبرد على أنها ترد في الخير ، وأنشد قول جميل وهو مما سار وغار :

وكنت إذا ما جئت سعدى أزورها . . .

أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها

من الخفرات البيض ود جليسها . . .

إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

وقيل : إنهم جمعوا حديثاً على أحدوثة ثم جمعوا الجمع على أحاديث كقطيع أو أقطعة وأقاطيع ، وكون المراد من تأويل الأحاديث تعبير الرؤيا هو المروى عن مجاهد .

والسدى ، وعن الحسن أن المراد عواقب الأمور ، وعن الزجاج أن المراد بيان معاني أحاديث الأنبياء والأمم السالفة والكتب المنزلة .

وقيل : المراد بالأحاديث الأمور المحدثة من الروحانيات والجسمانيات ، وبتأويلها كيفية الاستدلال بها على قدرة الله تعالى وحكمته وجلالته والكل خلاف الظاهر فيما أرى ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ بأن يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة ، أو بأن يضم إلى النبوة المستفاد من الاجتباء الملك ويجعله تتمة لها ، أو بأن يضم إلى التعليم الخلاص من المحن والشدائد وتوسيط ذكر التعليم لكونه من لوازم النبوة والاجتباء ولرعاية ترتيب الوجود الخارجي ولأن التعليم وسيلة إلى إتمام النعمة فإن تعبيره لرؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك صار ذريعة إلى الخلاص من السجن والاتصال بالرياسة العظمى .

وفسر بعضهم الاجتباء باعطاء الدرجات العالية كالملك والجلالة في قلوب الخلق .

وإتمام النعمة بالنبوة ، وأيد بأن إتمام النعمة عبارة عما تصير به النعمة تامة كاملة خالية عن

جهات النقصان وما ذاك في حق البشر إلا النبوة فإن جميع مناصب الخلق ناقصة بالنسبة إليها .

(162/391)

وجوز أن تعد نفس الرؤيا من نعم الله تعالى عليه فيكون جميع النعم الواصلة إليه بحسبها مصداقاً لها تماماً لتلك النعمة ولا يخلو عن بعد ، وقيل : المراد من الاجتباء إفاضة ما يستعد به لكل خير ومكرمة ، ومن تعليم تأويل الأحاديث تعليم تعبير الرؤيا ، ومن إتمام النعمة عليه تخليصه من المحن على أتم وجه بحيث يكون مع خلاصه منها ممن يخضع له ، ويكون في تعليم التأويل إشارة إلى استنبائه لأن ذلك لا يكون إلا بالوحي وفيه أن تفسير الاجتباء بما ذكر غير ظاهر ، وكون التعليم فيه إشارة إلى الاستنباء في حيز المنع وما ذكر من الدليل لا يثبته ، فإن الظاهر أن إخوته كانوا يعلمون التأويل وإلا لم ينهه أبوه عليه السلام عن اقتصاص رؤياه عليهم خوف الكيد ، وكونهم أنبياء إذ ذاك مما لم يذهب إليه ذاهب ولا يكاد يذهب إليه أصلاً ، نعم ذكروا أنه لا يعرف التعبير كما ينبغي إلا من عرف المناسبات التي بين الصور ومعانيها وعرف مراتب النفوس التي تظهر في حضرة خيالاتهم بحسبها فإن أحكام الصورة الواحدة تختلف بالنسبة إلى الأشخاص المختلفة المراتب وهذا عزيز

الوجود ، وقد تثبت الخطأ في التعبير من علماء أكابر ، فقد روي أبو هريرة أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

"إني رأيت ظلة ينطف منها السمن والعسل وأرى الناس يتكففون في أيديهم فالمستكثر والمستقل وأرى سبباً واصلاً من السماء إلى الأرض فأراك يا رسول الله أخذت به فعلوت ثم أخذ به رجل آخر فعلا ثم أخذ به رجل آخر فعلا ثم أخذ به رجل آخر فانقطع به ثم وصل له فعلاً فقال أبو بكر رضي الله تعالى : أي رسول الله لتدعني فلأعبرها فقال عليه الصلاة والسلام : عبرها ، فقال : أما الظلة فظلة الإسلام .

وأما ما ينطف من السمن والعسل فهو القرآن لينه وحلاوته .

وأما المستكثر والمستقل فالمستكثر من القرآن والمستقل منه .

وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فهو الحق الذي أنت عليه تأخذ به فيعليك الله تعالى ثم يأخذ به رجل بعدك فيعلو به ثم آخر بعده فيعلو به ثم آخر بعده فيعلو به ثم آخر فينقطع به ثم يوصل له فيعلو به أي رسول الله لتحدثني أصبت أم أخطأت ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً ، فقال : أقسمت بأبي أنت وأمي

لتحدثني يا رسول الله ما الذي أخطأت ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : لا تقسم " ا ه اللهم إلا أن يدعي أن المراد التعليم على الوجه الأكمل بحيث لا يخطىء من يخطىء به ، وهو يستدعي كون الرجل بحيث يعرف المناسبات ومراتب النفوس ويلتزم القول بأن ذلك لا يكون إلا نبياً ، واختير أن المراد بالاجتباء الاصطفاء للنبوة .

وبتعليم التأويل ما هو الظاهر .

وباتمام النعمة تخليصه من المكاره ، ويكون قوله عليه السلام : ﴿ يا بنى لاَ تَقْصُصْ رُءيَاكَ على إِخْوَتِكَ ﴾ [يوسف : 5] إجمالية منه إلى تعبير الرؤيا كما لا يخفى على من له ذوق وهو أيضاً متضمن للبشارة ، وهذا أرداف لها بما هو أجل في نظر يوسف عليه السلام ووجه توسيط التعليم عليه لا يخفى .

وحاصل المعنى كما أكرمك بهذه المبشرة الدالة على سجود إخوتك لك ورفعة شأنك عليهم يكرمك بالنبوة والعلم الذي تعرف به تأويل أمثال ما رأيت وإتمام نعمته عليك ﴿ وعلى ءالِ يَعْقُوبَ ﴾ بالخلاص من المكاره وهي في حق يوسف عليه السلام مما لا يخفى وفي حق آل يعقوب ، والمراد بهم أهله من بنيه وغيرهم وأصله أهل ، وقيل : أول ، وقد حققناه في غير ما كتاب ؛ ولا يستعمل إلا فيمن له خطر مطلقاً ولا يضاف لما لا يعقل ولو كان ذا خطر بخلاف أهل فلا يقال : آل الحجام .

ولا آل الحرم ، ولكن أهل الحجام .

وأهل الحرم ، نعم قد يضاف لما نزل منزلة العاقل كما في قول عبد المطلب .

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك . . . .

(164/391)

وفيه رد على أبي جعفر الزبيدي حيث زعم عدم جواز إضافته إلى الضمير لعدم سماعه مضافاً إليه ، ويعقوب كابنه اسم أعجمي لا اشتقاق له فما قيل : من أنه إنما سمي بذلك لأنه خرج من بطن أمه عقب أخيه العيص غير مرضى عند الجلة الفاقة والقحط وتفرق الشمل ، وغير ذلك ما يعم .

أو يخص ، ومنهم من فسر الآل بالبتين وإتمام النعمة بالاستنباء ، وجعل حاصل المعنى يمنّ عليك وعلى سائر أبناء يعقوب بالنبوة ، واستدل بذلك على أنهم صاروا بعد أنبياء .

وفي إرشاد العقل السليم أن رؤية يوسف عليه السلام إخوته كواكب يهتدي بأنوارها من نعم الله تعالى عليهم لدلالتها على مصير أمرهم إلى النبوة فيقع كل ما يخرج من القوة إلى الفعل من كما لاتهم بحسب ذلك تماماً لتلك النعمة لا محالة ، وأنت تعلم أن ما ذكر لا يصلح دليلاً على أنهم صاروا أنبياء لما علمت من الاحتمالات ، والدليل إذا طرقه الاحتمال بطل به الاستدلال ورؤيتهم كواكب يهتدي بأنوارها بمعزل عن أن تكون دليلاً على أن مصيرهم إلى

النبوة ، وإنما تكون دليلاً على أن مصيرهم إلى كونهم هادين للناس وهو مما لا يلزمه النبوة فقد قال صلى الله عليه وسلم : " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " ونحن لا ننكر أن القوم صاروا هادين بعد أن منّ الله تعالى عليهم بالتوبة بل هم لعمري حينئذ من أجلة أصحاب نبيهم ، وقد يقال أيضاً : إنه لو دل يؤيتهم كواكب على أن مصبرهم إلى النبوة لكانت رؤية أمه قمراً أدل على ذلك ولا قائل به .

وقال بعضهم : لا مانع من أن يراد بآل يعقوب سائر بنيه ، وباتمام النعمة إتمامها بالنبوة لكن لا يثبت بذلك نبوتهم بعد لجواز أن يراد ﴿ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ بالنبوة ﴿ وعلى ءالِ يَعْقُوبَ ﴾ بشيء آخر كالخلاص من المكروه مثلاً ، وهذا كقولك : أنعمت على زيد . وعلى عمرو وهو لا يقتضي أن يكون الأنعام عليهما من نوع واحد لصدق الكلام بأن يكون قد أنعمت على زيد بمنصب .

وعلى عمرو باعطائه ألف دينار ، أو بتخليصه من ظالم مثلا وهو ظاهر .

ورجح بعضهم حمل الآل على ما يعم الأبناء بأنه لو كان المراد الأبناء لكان الأظهر الأخصر وعلى إخوتك بدل ما في النظم الجليل ، وقيل : إنما اختار ذلك عليه لأنه يتبادر من الإخوة

الإخوة الذي نهى عن الاقتصاص عليهم فلا يدخل بنيامين ، والمراد إدخاله ، وقيل : المراد بآل يعقوب أتباعه الذين على دينه .

وقيل : يعقوب خاصة على أن الآل بمعنى الشخص ولا يخفى ما في القولين من البعد ، وأبعد هما الأخير ومن جعل إتمام النعمة إشارة إلى الملك جعل العطف باعتبار أنهم يغتنمون آثاره من العز والجاه والمال هذا .

﴿ كَمَا أَتَمَّهَا على أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إبراهيم وإسحاق ﴾ أي إتماماً كائناً كاتمام نعمته على أبويك من قبل هذا الوقت أو من قبلك ، والإسمان الكريمان عطف بيان لأبويك والتعبير عنهما بالأب مع كونهما أبا جده وأبا أبيه للاشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء عليهم اللام وتذكير معنى الولد سر أبيه ليطمئن قلبه بما أخبر به ، وإتمام النعمة على إبراهيم إما بالنبوة .

وإما باتخاذه خليلاً .

وإما بانجائه من نار عدوه .

وإما من ذبح ولده .

وإما بأكثر من واحد من هذه ، وعلى إسحاق إما بالنبوة .

أو باخراج يعقوب من صلبه .

أو بانجائه من الذبح وفدائه بذبح عظيم على رواية أنه الذبيح ، وذهب إليه غير واحد ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيقه ، وأمر التشبيه على سائر الاحتمالات سهل إذ لا يجب

أن يكون من كل وجه والاقتصار في المشبه به على ذكر إتمام النعمة من غير تعرض للاجتباء من باب الاكتفاء كما قيل فإن إتمام النعمة يقتضي سابقة النعمة المستدعية للاجتباء لا محالة ومعرفته عليه السلام لما أخبر به مما لم تدل عليه الرؤيا إما بفراسة ، وكثيراً ما تصدق فراسة الوالد بولده كيفما كان الوالد ، فما ظنك بفراسته إذا كان نبياً .

(166/391)

أو بوحي ؟ وقد يدعى أنه استدل بالرؤيا على كل ذلك ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ بكل شيء فيعلم من يستحق المذكورات ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فاعل لكل شيء حسبما تقتضيه الحكمة فيفعل ما يفعل جرياً على سنن علمه وحكمته ، والجملة استئناف لتحقيق الجمل المذكورة . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(167/391)

وقال القاسمى :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي

سَاجِدِينَ ﴾ [4] .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ ﴾ يعني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام . والظرف بدل من المفعول قبله بدل اشتمال ، أو مفعول لمحذوف ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ إنما ناجى يوسف أباه بهذه الرؤيا ، لاعتقاده كمال علمه ، وشفقته عليه ، بحيث لو كانت رؤياه تسوءه لأمكنه صرفها عنه .

قال القاشاني : هذه من المنامات التي تحتاج إلى تعبير ، لانتقال المتخيلة من النفوس الشريفة التي عرض على النفس من الغيب سجودها له ، إلى الكواكب والشمس والقمر ، وما كانت في نفس الأمر إلا أبويه وإخوته . (يا أبت) أصله يا أبي ، فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة ، وكسرها لأنه عوض عن حرف يناسبها . وقرئ بفتحها لأنها حركة أصلها ، أو لأنه كان (يا أبتا) فحذف الألف ، وبقي الفتحة . وقرئ بالضم إجراء لها مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء ، من غير اعتبار التعويض .

وقوله : (رأيتهم) استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها ، فلا تكرير ، أو تأكيد للأولى تطرية لطول العهد ، كما في قوله : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴾ [المؤمنون : 35] ، وإنما أجريت مجرى العقلاء في ضميرهم وجمع صفتهم جمعاً سالماً ؛ لوصفها بوصفهم ، وهو السجود .

قال المهايمي : ولو صح كونها ناطقة فلا إشكال . قال : ولم أر من تعرض لهيئة السجود ،

ولعله تحريك جانبها الأعلى إلى الأسفل ، مستديرة ظهرت أو مستطيلة .

القول في تأويل قوله تعالى :

(168/391)

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [5] .

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ ﴾ صغره لصغر سنه ، وللشفقة عليه ، ولعذوبة المصغر ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ أي : فيفعلوا لأجلك أو لإهلاكك تحيلاً عظيماً متلفاً لك ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ أي : ظاهر العداوة ، فلا يألو جهداً في إغواء إخوتك وحملهم على ما لا خير فيه .

قال القاشاني : هذا النهي من الإلهامات المجملة ، فإنه قد يلوح صورة الغيب من المجردات الروحانية في الروح ، ويصل أثره إلى القلب ، ولا يتشخص في النفس مفصلاً ، حتى يقع العلم به كما هو ، فيقع في النفس منه خوف واحتراز إن كان مكروهاً ، وفرح وسرور إن كان مرغوباً . ويسمى هذا النوع من الإلهام : إنذارات وبشارات ، فخاف عليه السلام ، من وقوع ما وقع قبل وقوعه ، فنهاه عن إخبارهم برؤياه احترازاً . ويجوز أن يكون احترازه كان

من جهة دلالة الرؤيا على شرفه وكرامته ، وزيادة قدره على إخوته ، فخاف من حسدهم عليه عند شعورهم بذلك . انتهى .

تنبيه :

قال السيوطي في " الإكليل " : قال الكيا : هذا يدل على جواز ترك إظهار النعمة لمن يخشى منه حسد ومكروه .

وقال ابن العربي : فيه حكم بالعادة أن الإخوة والقرابة يحسدون . قال : وفيه أن يعقوب عرف تأويل الرؤيا ولم يبال بذلك ، فإن الرجل يود أن يكون ولده خيراً منه ، والأخ لا يود ذلك لأخيه .

وقال بعض المفسرين اليمانيين : قال الحاكم : هذا يدل على أنه يجب في بعض الأوقات إخفاء فضيلة ، تحرزاً من الحسود . وهذا داخل في قولنا : إن الحسن إذا كان سبباً للقبيح قبح . ومنه آية الأنعام : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : من الآية 108] .

وفي هذا ما ذكر عن زين العابدين :

~إني لأكتم من علمي جواهره كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتننا

الأبيات المعروفة ، ذكرها عن زين العابدين ، والغزالي في " منهاج العابدين " والديلمي في كتاب " التصفية " وهذا يعقوب صلوات الله عليه أمر يوسف أن لا يقص رؤياه على إخوته ، والمعنى واحد ، فلا معنى لإنكار من ينكر ويزعم أن العلم لا يحل كتمه . انتهى .

ومقصوده : أن خوف الأشرار من الصوراف عن الصدع بالحق .

قال السيد ابن المرتضى اليماني في " إيثار الحق " : مما زاد الحق غموضاً وخفاء خوف العارفين ، مع قلتهم ، من علماء السوء ، وسلاطين الجور ، وشياطين الخلق ، مع جواز التقية عند ذلك ، بنص القرآن ، وإجماع أهل الإسلام . وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق ، وما برح المحق عدواً لأكثر الخلق .

وذكر رحمه الله قبل في الاستدلال على التقية ؛ أنه تعالى أثنى على مؤمن آل فرعون ، مع كتم إيمانه ، وسميت به سورة (المؤمن) . وصح أمر عمار به ، وتقريره عليه ، ونزلت فيه : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ [النحل : من الآية 106] ، وقد صح عن أبي هريرة أنه قال في ذلك العصر الأول : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين ، أما أحدهما فبثثته لكم ، وأما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم . قال الغزالي في خطبة " المقصد الأسنى " : من خالط الخلق جدير بأنه يتحامى . لكن من أبصر الحق عسير عليه

أن يتعامى . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [6] .

(170/391)

﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أي : مثل ذلك الاصطفاء ، بإراءة هذه الرؤيا العظيمة الشأن ، يصطفيك للنبوة والسيادة : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ أي : تعبير المنامات ، وإنما سمي التعبير تأويلاً ؛ لأنه جعل المرئي آيلاً إلى ما يذكره المعبر بصدد التعبير وراجعاً إليه . والأحاديث اسم جمع للحديث ، سميت به الرؤيا ؛ لأنها إما حديث ملك أو نفس أو شيطان ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أي : بما سيؤول إليه أمرك : ﴿ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ﴾ وهم أهله من بنيه ، وحاشيتهم ، أي : يسبغ نعمته عليهم بك : ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ بمن هو مستحق للاجتباء : ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في صنعه .

تنبيهات :

(171/391)

الأول : قال أبو السعود : كأن يعقوب عليه السلام أشار بقوله : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ إلى ما سيقع من يوسف عليه السلام ، من تعبيره لرؤيا صاحبي السجن ، ورؤيا الملك ، وكون ذلك ذريعة إلى ما يبلغه الله إليه من الرياسة العظمى التي عبر عنها بإتمام النعمة . وإنما عرف يعقوب عليه السلام ذلك منه من جهة الوحي . أو أراد كون هذه الخصلة سبباً لظهور أمره عليه السلام على الإطلاق ، فيجوز حينئذ أن تكون معرفته بطريق الفراسة ، والاستدلال من الشواهد والدلائل والأمارات والمخايل ، بأن من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا ، لا بد من توفيقه لتعبيرها ، وتأويل أمثالها ، وتمييز ما هو آفاقي منها ، مما هو أنفسي ، كيف لا وهي تدل على كمال تمكن نفسه عليه السلام في عالم المثال ، وقوة تصرفاتها فيه ، فيكون أقبل لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم ، وبما يحاكيه من الأمور الواقعة بحسبها في عالم الشهادة ، وأقوى وقوفاً على النسب الواقعة بين الصور المعاينة في أحد ذينك العالمين ، وبين الكائنات الظاهرة على وفقها في العالم الآخر . وإن هذا الشأن البديع ، لا بد أن يكون أنموذجاً لظهور أمر من اتصف به ، ومداراً لجريان أحكامه ، فإن لكل نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معجزة ، بها تظهر آثاره ، وتجري أحكامه .

الثاني : استدل بالآية على أن (الجد) يطلق عليه اسم (الأب) ، فيدل أن من نسب رجلاً إلى جده وقال : (يا ابن فلان) أنه لا يكون قذفاً .

الثالث : قال المهايمي : من فوائد هذا المقام استحباب كتمان السر ، وجواز التحذير عن شخص بعينه ، ومدح الشخص في وجهه إذا لم يضره ، واعتبار السبب وإن لم يؤثر ، وأن لكل حادث تأويلاً عند الأولياء ، وأنه تعبر الرؤيا من الصغار ، وإن كان من عالم الخيال ؛ إذ تصور المخيلة معاني معقولة بصور محسوسة ، فترسلها إلى الحس المشترك فيشاهدها .

والصادقة منها ما تكون باتصال النفس عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ ، فيتصور بما فيها مما يناسب المعاني ، فإن كانت شديدة المناسبة استغنت عن التعبير ، وإلا احتاجت إليه . فالأخبار عن هذه الرؤيا آية ، وعما ترتب عليها آيات .

بحث في الرؤيا :

قال الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه " الذريعة " في بحث " الفراسة " ما مثاله :

ومن الفراسة علم الرؤيا . وقد عظم الله تعالى أمرها في جميع الكتب المنزلة ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ [الإسراء : من الآية 60] ، وقال : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ ﴾ [الأنفال : من الآية 43] الآية ، وقال في قصة إبراهيم : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات : من الآية

102] ، وقوله : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ﴾ [يوسف : من الآية 4] .

والرؤيا هي فعل النفس الناطقة ، ولو لم يكن لها حقيقة لم يكن لإيجاد هذه القوة في الإنسان فائدة . والله تعالى يتعالى عن الباطل . وهي ضربان : ضرب وهو الأكثر أضغاث أحلام وأحاديث النفس بالخواطر الردية ، لكن النفس في تلك الحال كالماء المتموج ، لا يقبل صورة

.

وضرب وهو الأقل صحيح ، وذلك قسمان : قسم لا يحتاج إلى تأويل ، ولذلك يحتاج المعبر إلى مهارة يفرق بين الأضغاث وبين غيرها ، وليميز بين الكلمات الروحانية والجسمانية ، ويفرق بين طبقات الناس ؛ إذ كان فيهم من لا تصح له رؤيا ، وفيهم من تصح رؤياه . ثم من صح له ذلك ؛ منهم من يرشح أن تلقى إليه في المنام الأشياء العظيمة الخطيرة ، ومنهم من لا يرشح له ذلك . ولهذا قال اليونانيون : يجب أن يشتغل المعبر بعبارة رؤيا الحكماء والملوك دون الطغام ، وذلك لأن له حظاً من النبوة . وقد قال عليه الصلاة والسلام : < الرؤيا الصادقة جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة > وهذا العلم يحتاج إلى مناسبة بين متحريه

ومبينه ، فرب حكيم لا يرزق حذقاً فيه ، ورب نزر الحظ من الحكمة وسائر العلوم توجد له فيه قوة عجيبة . انتهى .

وقال الأستاذ ابن خلدون : حقيقة الرؤيا مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحة من صور الواقعات . فإنها عندما تكون روحانية تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل ، كما هو شأن الذوات الروحانية كلها ، وتصير روحانية بأن تتجرد عن المواد الجسمانية ، والمدارك البدنية . وقد يقع لها ذلك لمحة بسبب النوم ، كما نذكر ، فتقتبس بها علم ما تتشوف إليه من الأمور المستقبلة ، وتعود به إلى مداركها . فإن كان ذلك الاقتباس ضعيفاً ، وغير جلي بالمحاكاة والمثال في الخيال لتخلطه ؛ فيحتاج من أجل هذه المحاكاة إلى التعبير ، وقد يكون الاقتباس قوياً يستغنى فيه عن المحاكاة ، فلا يحتاج إلى تعبير لخلوصه من المثال والخيال ، والسبب في وقوع هذه اللمحة للنفس ؛ أنها ذات روحانية بالقوة ، مستكملة بالبدن ومداركه ، حتى تصير ذاتها تعقلاً محضاً ويكمل وجودها بالفعل ، فتكون حينئذ ذاتاً روحانية مدركة بغير شيء من الآلات البدنية ، إلا أن نوعها من الروحانيات دون نوع الملائكة أهل الأفق الأعلى ، على الذين لم يستكملوا ذواتهم بشيء من مدارك البدن ولا

غيره ، فهذا الاستعداد حاصل لها ما دامت في البدن . ومنه خاص كالذي للأولياء .

ومنه عام للبشر على العموم ، وهو أمر الرؤيا . وأما الذي للأنبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية إلى الملكية المحضة التي هي أعلى الروحانيات . ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكرراً في حالات الوحي ، وهي عندما يعرج على المدارك البدنية ، ويقع فيها ما يقع من الإدراك ، شبيهاً بحال النوم شبهاً بيناً ، وإن كان حال النوم أدون منه بكثير ، فلأجل هذا الشبه عبر الشارع عن الرؤيا بأنها < جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة > وفي رواية < ثلاثة وأربعين > ، وفي رواية < سبعين > وليس العدد في جميعها مقصوداً بالذات ، وإنما المراد الكثرة في تفاوت هذه المراتب ، بدليل ذكر السبعين في بعض طرقه ، وهو للتكثير عند العرب ، وما ذهب إليه بعضهم

في رواية < ستة وأربعين > من أن الوحي كان في مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر ، وهي نصف سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدنية ثلاث وعشرون سنة ، فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين ؛ فكلام بعيد من التحقيق ؛ لأنه إنما وقع ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء ؟ مع أن ذلك إنما يعطي نسبة زمن الرؤيا

من زمن النبوة ، ولا يعطي نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة . وإذا تبين لك هذا مما ذكرناه أولاً ، علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر ، إلى الاستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء الفطري لهم ، صلوات الله عليهم ؛ إذ هو الاستعداد البعيد ، وإن كان عاماً في البشر ، ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل . ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ، ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم ، الذي هو جبلي لهم ، فتتعرض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تتشوف إليه في عالم الحق ، فتدرك بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب . ولذلك جعلها الشارع من المبشرات ، فقال : < لم يبق من النبوة إلا المبشرات > قالوا : وما المبشرات يا رسول الله ، قال : < الرؤيا الصالحة ، يراها الرجل الصالح ، أو ترى له > .

(176/391)

وأما السبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم ، فعلى ما أصفها لك : وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيواني الجسماني ، وهو بخار لطيف ، مركزه بالتجويف الأيسر من القلب – على ما في كتب التشريح لجالينوس وغيره – وينبعث مع الدم في الشريانات والعروق فيعطي الحس والحركة ، وسائر الأفعال البدنية ، ويرتفع لطيفه إلى

الدماغ ، فيعدل من برده ، وتتم أفعال القوى التي في بطونه . فالنفس الناطقة إنما تدرك وتعقل بهذا الروح البخاري ، وهي متعلقة به ، لما اقتضته حكمة التكوين في أن اللطيف لا يؤثر في الكثيف . ولما لطف هذا الروح الحيواني من بين المواد البدنية ، صار محلاً لآثار الذات المباينة له في جسمانيته ، وهي النفس الناطقة ، وصارت آثارها حاصلة في البدن بواسطته .

(177/391)

وقد كنا قدمنا أن إدراكها على نوعين : إدراك بالظاهر وهو بالحواس الخمس ، وإدراك بالباطن وهو بالقوى الدماغية . وأن هذا الإدراك كله صرف لها عن إدراكها ما فوقها من ذواتها الروحانية ، التي هي مستعدة له بالفطرة . ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية ، كانت معرضة للوسن والفشل ، بما يدركها من التعب والكلال ، وتغشى الروح بكثرة التصرف ، فخلق الله لها طلب الاستجمام ، لتجرد الإدراك على الصورة الكاملة . وإنما يكون ذلك بانخناس الروح الحيواني من الحواس الظاهرة كلها ، ورجوعه إلى الحس الباطن . ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل ، فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن ، وتذهب من ظاهره إلى باطنه ، فتكون مشيعة مركبها ، وهو الروح الحيواني إلى الباطن .

ولذلك كان النوم للبشر في الغالب إنما هو بالليل ، فإذا انخنس الروح عن الحواس الظاهرة ، ورجع إلى القوى الباطنة ، وخفت عن النفس شواغل الحس وموانعه ، ورجعت إلى الصورة التي في الحافظة ؛ تمثل منها بالتركيب والتحليل صورة خيالية ، وأكثر ما تكون معتادة ، لأنها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريباً . ثم ينزلها الحسن المشترك ، الذي هو جامع الحواس الظاهرة ، فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة .

وربما التفتت النفس لفتة إلى ذاتها الروحانية ، مع منازعتها القوى الباطنية ، فتدرك بإدراكها الروحاني ؛ لأنها مفطورة عليه ، وتقتبس من صور الأشياء التي صارت متعلقة في ذاتها حينئذ ، ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة ، فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المعهودة . والمحاكاة من هذه هي المحتاجة للتعبير ، وتصرفها بالتركيب والتحليل في صور الحافظة ، قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هي أضغاث أحلام .

وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : < الرؤيا ثلاث : رؤيا من الله ، ورؤيا من الملك ، ورؤيا من الشيطان > وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه ، فالجلي من الله ، والمحاكاة الداعية إلى التعبير من الملك ، وأضغاث الأحلام من الشيطان ؛ لأنها كلها باطل ،

والشيطان ينبوع الباطل .

هذه حقيقة الرؤيا ، وما يسببها ويشيعها من النوم ، وهي خواص للنفس الإنسانية ، موجودة في البشر على العموم ، لا يخلو عنها أحد منهم ، بل كل واحد من الإنسان رأى في نومه ما صدر له في يقظته مراراً غير واحدة ، وحصل له القطع أنى النفس مدركة للغيب في النوم ، ولا بد . وإذا جاز ذلك في عالم النوم ، فلا يمتنع في غيره من الأحوال ؛ لأن الذات المدركة واحدة ، وخواصها عامة في كل حال . انتهى .

وذكر رحمه الله عند بحث " علم تعبير الرؤيا " أن التعبير لها كان موجوداً في السلف ، كما هو في الخلف ، وأن يوسف الصديق ، صلوات الله عليه ، كان يعبر الرؤيا ، كما وقع في القرآن ، وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن أبي بكر رضي الله عنه ، والرؤيا مدرك من مدارك الغيب كما تقدم . وأما معنى التعبير فاعلم أن الروح العقلي ، إذا أدرك مدركه ، وألقاه إلى الخيال فصوره ، فإنما يصوره في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء . ومن المرئي ما يكون صريحاً لا يفتقر إلى تعبير لجلائها ووضوحها ، أو لقرب الشبه فيها بين المدرك وشبهه . وللبحث تتمة سابغة ، انظرها ثمة . انتهى ا . هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 151 . 159 ﴾

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

12 - سُورَةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

هِيَ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا مِائَةٌ وَإِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً فَقَطْ ، وَمَا قِيلَ مِنْ أَنَّ الثَّلَاثَ مِنْهَا مَدَنِيَّاتٌ فَلَا تَصِحُّ رِوَايَتُهُ وَلَا يَظْهَرُ لَهُ وَجْهٌ ، وَهُوَ يُخِلُّ بِنَظْمِ الْكَلَامِ ، وَقَدْ رَاجَعْتُ الْإِتْقَانَ فَإِذَا هُوَ يَنْقُلُهُ وَيَقُولُ : وَهُوَ وَاهٍ جِدًّا فَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ ، وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ يُذْكَرَ هَذَا اسْتِثْنَاءً فِي الْمُصْحَفِ الْمِصْرِيِّ وَيُزَادَ عَلَيْهِ الْآيَةُ السَّابِعَةُ .

وَالْمُنَاسَبَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ سُورَةِ هُودٍ أَنَّهَا مُتَمِّمَةٌ لِمَا فِيهَا مِنْ قَصَصِ الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَالِاسْتِدْلَالِ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا عَلَى كَوْنِهَا وَحْيًا مِنَ اللهِ - تَعَالَى - دَالًّا عَلَى رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِآيَتَيْنِ مُتَشَابِهَتَيْنِ ، فَفِي آخِرِ قِصَّةِ نُوحٍ مِنَ الْأُولَى : تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا 11 : 49 وَفِي آخِرِ الثَّانِيَةِ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ 12 : 102 وَإِشَارَةُ التَّأْنِيثِ فِي الْأُولَى لِلْقِصَّةِ الْمُنَزَّلَةِ بِهَذَا التَّفْصِيلِ وَالْبَلَاغَةِ الْعَجِيبَةِ ، وَقِيلَ : لِلسُّورَةِ ، وَإِشَارَةُ التَّذْكِيرِ فِي الثَّانِيَةِ لِقَوْلِهِ - تَعَالَى - فِي أَوَّلِ السُّورَةِ : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ 12 : 3 .

وَالْفَرْقُ بَيْنَ قِصَّتِهَا وَقِصَصِ الرُّسُلِ فِي الَّتِي قَبْلَهَا وَفِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَغَيْرِهَا ، أَنَّ تِلْكَ قِصَصٌ لِلرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ فِي تَبْلِيغِ دَعْوَةِ الرِّسَالَةِ وَالْمُحَاجَّةِ فِيهَا ، وَعَاقِبَةِ مَنْ آمَنَ بِهِمْ وَمَنْ كَذَّبَهُمْ ؛ لِإِنْذَارِ مُشْرِكِي مَكَّةَ وَمُتَّبِعِيهِمْ مِنَ الْعَرَبِ ، وَقَدْ كُرِّرَتْ بِالْأَسَالِيبِ وَالنُّظُمِ الْمُخْتَلِفَةِ لِمَا فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ التَّأْثِيرِ وَوُجُوهِ الْإِعْجَازِ الَّتِي تَقَدَّمَ بَيَانُهَا فِي مَبَاحِثِ الْوَحْيِ الْمُحَمَّدِيِّ ، ثُمَّ فِي بَحْثِ التَّحَدِّي بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ .

وَأَمَّا سُورَةُ يُوسُفَ فَهِيَ قِصَّةُ نَبِيٍّ وَاحِدٍ وُجِدَ فِي غَيْرِ قَوْمِهِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ صَغِيرَ السِّنِّ ، وَبَلَغَ أَشُدَّهُ وَاكْتَهَلَ فَنُبِّئَ وَأُرْسِلَ وَدَعَا إِلَى دِينِهِ ، وَكَانَ مَمْلُوكًا ثُمَّ تَوَلَّى إِدَارَةَ الْمُلْكِ لِقُطْرٍ عَظِيمٍ ، فَأَحْسَنَ الْإِدَارَةَ وَالتَّنْظِيمَ ، وَكَانَ خَيْرَ قُدْوَةٍ لِلنَّاسِ فِي رِسَالَتِهِ وَجَمِيعِ مَا دَخَلَ فِيهِ مِنْ أَطْوَارِ الْحَيَاةِ وَطَوَارِئِهَا وَطَوَارِقِهَا ، وَأَعْظَمُهَا شَأْنُهُ مَعَ أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ آلِ بَيْتِ النُّبُوَّةِ ، فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ تُجْمَعَ قِصَّتُهُ فِي سُورَةٍ وَاحِدَةٍ كَمَا نَجْعَلُهُ فِي أَوَّلِهَا وَنُفَصِّلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي

خَاتِمَتِهَا . وَهِيَ أَطْوَلُ قِصَّةٍ فِي الْقُرْآنِ افْتُتِحَتْ بِثَلَاثِ آيَاتٍ تَمْهِيدِيَّةٍ فِي ذِكْرِ الْقُرْآنِ وَحُسْنِ قَصَصِهِ ، ثُمَّ كَانَتْ إِلَى تَمَامِ الْمِائَةِ فِي تَارِيخِ يُوسُفَ ، وَخُتِمَتْ بِإِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً فِي الِاسْتِدْلَالِ بِهَا عَلَى مَا أَنْزَلَهَا اللهُ لِأَجْلِهِ مِنْ إِثْبَاتِ رِسَالَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، وَإِعْجَازِ كِتَابِهِ ، وَالْعِبْرَةِ الْعَامَّةِ بِقَصَصِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ .

فَاتِحَةُ هَذِهِ السُّورَةِ هِيَ فَاتِحَةُ سُورَةِ يُونُسَ إِلَّا وَصْفَ الْقُرْآنِ بِ (الْمُبِينِ) هُنَا وَبِـ (الْحَكِيمِ) هُنَالِكَ ، وَهُمَا فِي أَعْلَى ذُرْوَةٍ مِنَ الْبَيَانِ ، وَأَقْصَى مَدًى مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْإِحْكَامِ ، اخْتِيرَ فِي كُلٍّ مِنَ الصُّورَتَيْنِ مَا يُنَاسِبُهَا ، فَسُورَةُ يُونُسَ مَوْضُوعُهَا أَصْلُ الدِّينِ ، وَهُوَ تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ ، وَإِثْبَاتُ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ بِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ وَالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَهِيَ مِنَ الْحِكْمَةِ . وَهَذِهِ مَوْضُوعُهَا قِصَّةُ نَبِيٍّ كَرِيمٍ تَقَلَّبَ فِي أَطْوَارٍ كَثِيرَةٍ كَانَ قُدْوَةَ خَيْرٍ وَأُسْوَةً حَسَنَةً فِيهَا كُلِّهَا ، فَالْبَيَانُ بِهَا أَخَصُّ .

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ أَيْ آيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ هِيَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْبَيِّنِ الظَّاهِرِ بِنَفْسِهِ فِي حَقِيقَتِهِ وَإِعْجَازِهِ ، وَكَوْنِهِ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ ، وَالْمُظْهِرُ لِمَا شَاءَ اللهُ مِنْ حَقَائِقِ الدِّينِ وَمَصَالِحِ الدُّنْيَا ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : بَيَّنَ اللهُ حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ : مُبِينٌ لِلْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ وَالْحَلَالِ مِنَ الْحَرَامِ . تَقُولُ الْعَرَبُ : أَبَانَ الشَّيْءُ فِعْلًا لَازِمًا بِمَعْنَى ظَهَرَ وَاتَّضَحَ . وَتَقُولُ : أَبَانَ الرَّجُلُ كَذَا إِذَا أَظْهَرَهُ وَفَصَلَهُ مِنْ غَيْرِهِ مِمَّا شَأْنُهُ أَنْ يَشْتَبِهَ بِهِ ، وَيَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا هُنَا كَمَا قُلْنَا آنِفًا .

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ) أَيِ الْكِتَابَ عَلَى رَسُولِنَا النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ حَالَ كَوْنِهِ قُرْآنًا عَرَبِيًّا أَيْ بَيِّنَ لَكُمْ بِلُغَتِكُمُ الْعَرَبِيَّةِ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ مِنَ الدِّينِ وَأَنْبَاءِ الرُّسُلِ وَالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَالْأَدَبِ وَالسِّيَاسَةِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ مَعَانِيَهُ أَيُّهَا الْعَرَبُ ، وَمَا تُرْشِدُ إِلَيْهِ مِنْ مَطَالِبِ الرُّوحِ

وَمَدَارِكِ الْعَقْلِ ، وَتَزْكِيَةِ النَّفْسِ ، وَتَثْقِيفِ مَدَارِكِ الْوِجْدَانِ وَالْحِسِّ ، وَإِصْلَاحِ الِاجْتِمَاعِ الْعَامِّ ، الْمُرَادُ بِهَا صَلَاحُ الْحَالِ ، وَسَعَادَةُ الْمَآلِ ، وَالْقُرْآنُ اسْمُ جِنْسٍ يُطْلَقُ عَلَى بَعْضِهِ كَالسُّورَةِ الْوَاحِدَةِ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ الْمُرَادُ هُنَا ، وَعَلَى جُمْلَتِهِ كُلِّهَا .

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ الْمُصْطَفَى أَحْسَنَ الْقَصَصِ أَيْ نُحَدِّثُكَ أَحْسَنَ الِاقْتِصَاصِ وَالتَّحْدِيثِ بَيَانًا وَأُسْلُوبًا وَإِحَاطَةً، أَوْ أَحْسَنَ مَا يُقَصُّ وَيُتَحَدَّثُ عَنْهُ مَوْضُوعًا وَفَائِدَةً، وَيَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَعْنَيَيْنِ، فَالْقَصَصُ مَصْدَرٌ أَوِ اسْمٌ مِنْ قَصَّ الْخَبَرَ إِذَا حَدَّثَ بِهِ عَلَى أَصَحِّ الْوُجُوهِ وَأَصْدَقِهَا، لِأَنَّهُ مِنْ قَصِّ الْأَثَرِ وَاقْتِصَاصِهِ إِذَا تَتَبَّعَهُ وَأَحَاطَ بِهِ خَبَرًا، كَأَنَّهُ قَالَ نَقُصُّهُ عَنِ اقْتِصَاصٍ وَإِحَاطَةٍ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى اسْمِ الْمَفْعُولِ، فَيَكُونُ الْقَصَصُ بِمَعْنَى الْمَقْصُوصِ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْأَحَادِيثِ: (بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ) أَيْ بِإِيحَائِنَا إِلَيْكَ هَذِهِ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، إِذْ هُوَ الْغَايَةُ الْعُلْيَا فِي حُسْنِ فَصَاحَتِهِ وَبَلَاغَتِهِ وَتَأْثِيرِهِ وَحُسْنِ مَوْضُوعِهِ، (وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ) أَيْ وَإِنَّ الشَّأْنَ وَحَقِيقَةَ مَا يُتَحَدَّثُ عَنْهُ مِنْ قِصَّتِكَ أَنْتَ، أَنَّكَ كُنْتَ مِنْ قَبْلِ إِيحَائِنَا مِنْ جَمَاعَةِ الْغَافِلِينَ عَنْهُ مِنْ قَوْمِكَ الْأُمِّيِّينَ، الَّذِينَ لَا يَخْطُرُ فِي بَالِهِمُ التَّحْدِيثُ بِأَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَقْوَامِهِمْ، وَبَيَانُ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ دِينٍ وَتَشْرِيعٍ كَيَعْقُوبَ وَأَوْلَادِهِ فِي بَدَاوَتِهِمْ، وَلَا مَا كَانَتِ الْأُمَمُ فِيهِ مِنْ تَرَفٍ وَحَضَارَةٍ كَالْمِصْرِيِّينَ الَّذِينَ وَقَعَ يُوسُفُ بَيْنَهُمْ، وَحَدَثَ لَهُمْ مَا حَدَثَ فِي بَعْضِ بُيُوتَاتِهِمُ الْعُلْيَا، ثُمَّ فِي بَيْتِ الْمَلِكِ وَإِدَارَةِ نِظَامِ الدَّوْلَةِ.

{إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

(186/391)

هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ فِي بَيَانِ مَا وَقَعَ بَيْنَ يُوسُفَ فِي طُفُولَتِهِ ، وَأَبِيهِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَاسْتَدَلَّ أَبُوهُ بِرُؤْيَاهُ ، عَلَى أَنَّهُ سَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ النَّاسِ ، فَتَعَلَّقَ بِهِ أَمَلُهُ ، وَشَغَفَ بِهِ قَلْبُهُ ، فَكَانَ مَبْدَأً لِكُلِّ مَا حَدَثَ لَهُ مِنَ الْوَقَائِعِ الْمُحْرِقَةِ ، وَمِنَ الْعَاقِبَةِ الْمُشْرِقَةِ ، فَهَذِهِ الرُّؤْيَا لَا يَظْهَرُ تَأْوِيلُهَا إِلَّا فِي آخِرِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ ، وَأَصْحَابُ الْقَصَصِ الْمُنْتَحَلَةِ فِي عَصْرِنَا يَحْتَذُونَ أُسْلُوبَ قِصَّةِ يُوسُفَ فِي سُورَتِهِ هَذِهِ بِوَضْعِ خَبَرٍ مُشْكِلٍ خَفِيٍّ يَشْغَلُ فِكْرَ الْقَارِئِ فِي أَوَّلِهَا ، وَيَظَلُّ يَنْتَظِرُ وُقُوعَ مَا يَحِلُّ إِشْكَالَهُ ، وَيُفَسِّرُ مَآلَهُ ، فَلَا يُصِيبُهُ إِلَّا فِي آخِرِ الْقِصَّةِ ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (إِنَّ

الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُمَا ، وَفِي رِوَايَةٍ (الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ) إِلَخْ .

(187/391)

(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ) هَذَا شُرُوعٌ فِي بَيَانِ أَحْسَنِ الْقَصَصِ فَهُوَ بَدَلٌ مِنْهُ يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ . وَالْأَكْثَرُونَ يَعُدُّونَهُ بَدْءَ كَلَامٍ جَدِيدٍ يُقَدِّرُونَ لَهُ مُتَعَلَّقًا : اذْكُرْ أَيُّهَا الرَّسُولُ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِلَخْ . وَالتَّاءُ هُنَا بَدَلٌ مِنْ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ وَهُوَ مَسْمُوعٌ مِنَ الْعَرَبِ فِي نِدَاءِ الْأَبِ وَالْأُمِّ ، وَالْفَصِيحُ كَسْرُهَا وَسُمِعَ فَتْحُهَا وَضَمُّهَا أَيْضًا : (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) فِي الْمَنَامِ بِدَلِيلِ مَا يَأْتِي بَعْدُ ، ثُمَّ بَيَّنَ الصِّفَةَ الَّتِي رَأَى عَلَيْهَا هَذِهِ الْجَمَاعَةَ السَّمَاوِيَّةَ بِقَوْلِهِ : (رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) وَالسُّجُودُ : التَّطَامُنُ وَالِانْحِنَاءُ الَّذِي سَبَبُهُ الِانْقِيَادُ وَالْخُضُوعُ أَوِ الْمُبَالَغَةُ فِي التَّعْظِيمِ ، وَأَصْلُهُ قَوْلُهُمْ : سَجَدَ الْبَعِيرُ ؛ إِذَا خَفَضَ رَأْسَهُ لِرَاكِبِهِ عِنْدَ رُكُوبِهِ ، وَكَانَ مِنْ عَادَاتِ النَّاسِ فِي تَحِيَّةِ التَّعْظِيمِ فِي بِلَادِ فِلَسْطِينَ وَمِصْرَ وَغَيْرِهِمَا وَاسْتُعْمِلَ فِي الْقُرْآنِ بِمَعْنَى انْقِيَادِ تَعَالَى - وَتَسْخِيرِهِ وَهَذَا سُجُودٌ طَبِيعِيٌّ غَيْرُ إِرَادِيٍّ ، وَلَا يَكُونُ السُّجُودُ عِبَادَةً إِلَّا بِالْقَصْدِ وَالنِّيَّةِ مِنَ السَّاجِدِ لِلتَّقْرِيبِ إِلَى مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ لَهُ عَلَيْهِ سُلْطَانًا ذَاتِيًّا غَيْبِيًّا فَوْقَ سُلْطَانِ الْأَسْبَابِ الْمَعْهُودَةِ . وَكَانَ الْأَصْلُ فِي التَّعْبِيرِ

عَنْ سُجُودِ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا إِرَادَةٌ أَنْ يَقُولَ: رَأَيْتُ كَذَا وَكَذَا سَاجِدَةً لِي، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُخْبِرَ وَالِدَهُ أَنَّهُ رَآهَا سَاجِدَةً سُجُودًا، كَأَنَّهُ عَنْ إِرَادَةٍ وَاخْتِيَارٍ كَسُجُودِ الْعُقَلَاءِ الْمُكَلَّفِينَ، فَأَعَادَ فِعْلَ (رَأَيْتُ) وَجَعَلَ مَفْعُولَهُ ضَمِيرَ الْعُقَلَاءِ وَجَمَعَ صِفَةَ هَذَا السُّجُودِ جَمْعَ الْمُذَكَّرِ السَّالِمِ، فَعَلِمَ أَبُوهُ أَنَّ هَذِهِ رُؤْيَا إِلْهَامٍ، لَا يُمْكِنُ أَنْ تُعَدَّ مِنْ أَضْغَاثِ الْأَحْلَامِ، الَّتِي تُثِيرُهَا فِي النَّوْمِ الْخَوَاطِرُ وَالْأَفْكَارُ، وَلَا سِيَّمَا خَوَاطِرُ غُلَامٍ صَغِيرٍ كَيُوسُفَ يَخَافُ أَبُوهُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ، وَفِي سِفْرِ التَّكْوِينِ أَنَّهُ كَانَ قَدْ بَلَغَ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ، وَهُوَ بَعِيدٌ.

قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ يَا بُنَيَّ: تَصْغِيرٌ لِكَلِمَةِ (ابْنٍ) فِي نِدَاءِ الْعَطْفِ وَالتَّحَبُّبِ، وَقَصَّ الرُّؤْيَا عَلَى فُلَانٍ كَقَصِّ الْقِصَّةِ مَعْنَاهُ أَخْبَرَهُ بِهَا عَلَى وَجْهِ الدِّقَّةِ وَالْإِحَاطَةِ كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا، وَقَدْ يَفْهَمُ مِنْهُ الْمُعَبِّرُ الْبَصِيرُ الْمَعْنَى الْمُنَاسِبَ لِلرَّائِي الْقَاصِّ، أَوِ الْمَعْنَى

الَّذِي تُؤَوَّلُ إِلَيْهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، إِذَا كَانَتْ رُؤْيَا حَقٍّ كَمَا يَقَعُ لِلْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - قَبْلَ وَحْيِ التَّكْلِيمِ وَمُقَدِّمَاتِهِ ، وَقَدْ فَهِمَ هَذَا يَعْقُوبُ وَاعْتَقَدَ أَنَّ يُوسُفَ سَيَكُونُ نَبِيًّا عَظِيمًا ذَا ظُهُورٍ وَسُلْطَانٍ يَسُودُ بِهِ أَهْلَهُ حَتَّى أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَإِخْوَتَهُ ، وَخَافَ أَنْ يَسْمَعَ إِخْوَتُهُ مَا سَمِعَهُ وَيَفْهَمُوا مَا فَهِمَهُ فَيَحْسُدُوهُ وَيَكِيدُوا لِإِهْلَاكِهِ ، فَنَهَاهُ أَنْ يَقُصَّ رُؤْيَاهُ عَلَيْهِمْ ، وَعَلَّلَهُ بِقَوْلِهِ : فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا أَيْ : إِنْ تَقْصُصْهَا عَلَيْهِمْ يَحْسُدُوكَ فَيُدَبِّرُوا وَيَحْتَالُوا لِلْإِيقَاعِ بِكَ تَدْبِيرًا شَيْطَانِيًّا يُحْكِمُونَهُ بِالتَّفْكِيرِ وَالرَّوِيَّةِ ، كَمَا يَفْعَلُ الْأَعْدَاءُ فِي الْمَكَايِدِ الْحَرْبِيَّةِ ، يُقَالُ : كَادَهُ إِذَا وَجَّهَ إِلَيْهِ الْكَيْدَ مُبَاشَرَةً ، وَكَادَ لَهُ إِذَا دَبَّرَ الْكَيْدَ لِأَجْلِهِ سَوَاءٌ كَانَ لِمَضَرَّتِهِ وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا ، أَوْ لِمَنْفَعَتِهِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي تَدْبِيرِ يُوسُفَ لِإِبْقَاءِ أَخِيهِ بَعْدَهُ : كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ 76 وَسَيَأْتِي بَيَانُ هَذِهِ الْمُقَابَلَةِ (إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ) ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ

بَيِّنُهَا ، لَا تَفُوتُهُ فُرْصَةٌ لَهَا فَيُضَيِّعُهَا . هَذَا بَيَانٌ مُسْتَأْنَفٌ لِلسَّبَبِ النَّفْسِيِّ لِهَذَا الْكَيْدِ ، وَهُوَ أَنَّهُ مِنْ وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ فِي النَّزْغِ بَيْنَ النَّاسِ عِنْدَمَا تَعَرَّضَ لَهُ دَاعِيَةٌ مِنْ هَوَى النَّفْسِ ، وَشَرُّهَا الْحَسَدُ الْغَرِيزِيُّ فِي الْإِنْسَانِ ، كَمَا عَبَّرَ عَنْهُ يُوسُفُ بَعْدَ وُقُوعِهِ وَسُوءِ تَأْثِيرِهِ وَحُسْنِ عَاقِبَتِهِ بِقَوْلِهِ : (مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي) 100 وَفِي قِصَّتِهِ مِنْ

سِفْرِ التَّكْوِينِ

أَنَّ يُوسُفَ قَصَّ رُؤْيَاهُ عَلَى أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ جَمِيعًا مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ . وَمَا قَصَّهُ اللهُ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي رُوِيَ بِالتَّوَاتُرِ الْقَطْعِيِّ ،

وَسِفْرُ التَّكْوِينِ غَيْرُ مَرْوِيٍّ بِالْأَسَانِيدِ الْمُتَّصِلَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ ، وَلَا دَلِيلَ عَلَى أَنَّ أَصْلَهُ وَحْيٌ مِنَ اللهِ - تَعَالَى - ، وَلَكِنَّهُ كِتَابٌ قَدِيمُ التَّارِيخِ لَهُ قِيمَةٌ لَا تَعْصِمُهُ مِنَ الْخَطَأِ .

(191/391)

(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ) أَيْ وَمِثْلُ ذَلِكَ الشَّأْنِ الرَّفِيعِ وَالْمَجْدِ الْبَدِيعِ الَّذِي تَمَثَّلَ لَكَ فِي رُؤْيَاكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ) لِنَفْسِهِ وَيَصْطَفِيكَ عَلَى آلِكَ وَغَيْرِهِمْ فَتَكُونُ مِنْ عِبَادِهِ الْمُخْلَصِينَ (بِفَتْحِ اللَّامِ كَمَا وَصَفَهُ اللهُ فِيمَا يَأْتِي قَرِيبًا) فَالِاجْتِبَاءُ افْتِعَالٌ مِنْ جَبَيْتَ الشَّيْءَ إِذَا خَلَّصْتَهُ لِنَفْسِكَ ، وَالْجِبَايَةُ جَمْعُ الشَّيْءِ النَّافِعِ كَالْمَاءِ فِي الْحَوْضِ وَالْمَالِ لِلسُّلْطَانِ وَلِيِّ الْأَمْرِ (وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ أَيْ يُعَلِّمُكَ مِنْ عِلْمِهِ اللَّدُنِّيِّ تَأْوِيلَ الرُّؤَى وَتَعْبِيرَهَا ، أَيْ تَفْسِيرَهَا بِالْعِبَارَةِ وَالْإِخْبَارِ بِمَا تَئُولُ إِلَيْهِ فِي الْوُجُودِ ، وَهُوَ تَأْوِيلُهَا كَمَا سَيَأْتِي حِكَايَةً لِقَوْلِ يُوسُفَ لِأَبِيهِ : (هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا) 12 : 100 أَوْ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي الْكَلَامِ ، وَسُمِّيَتِ الرُّؤَى أَحَادِيثَ بِاعْتِبَارِ حِكَايَتِهَا وَالتَّحْدِيثِ بِهَا ،

وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ وَتَبِعَهُ غَيْرُهُ: إِنَّ الرُّؤْيَا حَدِيثُ الْمَلَكِ إِنْ كَانَتْ صَادِقَةً، وَحَدِيثُ الشَّيْطَانِ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً، وَهَذَا الْقَوْلُ يُخَالِفُ الْوَاقِعَ فَإِنَّ رُؤْيَا يُوسُفَ لَيْسَ فِيهَا حَدِيثٌ، وَكَذَا رُؤْيَا صَاحِبَيْهِ فِي السِّجْنِ وَرُؤْيَا مَلِكِ مِصْرَ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ رُؤْيَا لِأَنَّهَا عِبَارَةٌ عَمَّا يُرَى فِي النَّوْمِ، كَمَا أَنَّ الرُّؤْيَةَ اسْمٌ لِمَا يُرَى فِي الْيَقَظَةِ، فَهُمَا كَالْقُرْبَةِ وَالْقُرْبَى وَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا لِلتَّمْيِيزِ، وَقَدْ يَسْمَعُ رَائِيهَا أَحَادِيثَ رَجُلٍ يُحَدِّثُهُ،

وَلَكِنَّ تَأْوِيلَ رُؤْيَاهُ يَكُونُ لِجُمْلَةِ مَا رَآهُ وَسَمِعَهُ لَا لِمَا سَمِعَهُ فِيهَا فَحَسْبُ، كَمَا يَقُصُّهُ بِحَدِيثِهِ عَلَى مَنْ يَعْبُرُهُ لَهُ، أَيْ يُعَبِّرُ بِهِ مِنْ مَدْلُولِ حَدِيثِهِ اللَّفْظِيِّ إِلَى مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ، وَقَدْ يَكُونُ قَرِيبًا كَرُؤْيَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ وَرُؤْيَا الْمَلِكِ، وَقَدْ يَكُونُ بَعِيدًا كَتَأْوِيلِ رُؤْيَا يُوسُفَ نَفْسِهِ، وَلَفْظُ الْأَحَادِيثِ اسْمُ جَمْعٍ سَمَاعِيٍّ كَالْأَبَاطِيلِ. وَالرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ ضَرْبٌ مِنْ إِدْرَاكِ نَفْسِ الْإِنْسَانِ أَحْيَانًا لِبَعْضِ الْأَشْيَاءِ قَبْلَ وُقُوعِهَا بِاسْتِعْدَادِهَا الْفِطْرِيِّ، إِمَّا بِعَيْنِهَا وَهُوَ قَلِيلٌ، وَإِمَّا بِمِثَالٍ عَلَيْهَا وَهُوَ الْمُحْتَاجُ إِلَى التَّأْوِيلِ، وَسَنُبَيِّنُ الْفَرْقَ بَيْنَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةِ وَبَيْنَ أَضْغَاثِ الْأَحْلَامِ، وَرَأْيِ عُلَمَاءِ الْإِفْرِنْجِ وَمُقَلِّدِيهِمْ فِيهَا فِي خُلَاصَةِ السُّورَةِ الْإِجْمَالِيَّةِ إِنْ شَاءَ اللهُ - تَعَالَى - وَتَعْلِيمُ اللهِ التَّأْوِيلَ لِيُوسُفَ إِيتَاؤُهُ إِلْهَامًا وَكَشْفًا لِلْمُرَادِ مِنْهَا أَوْ فِرَاسَةً خَاصَّةً فِيهَا، أَوْ عِلْمًا

أَعَمَّ مِنْهَا ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ الْآتِي لِصَاحِبَيِ السِّجْنِ : (لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي) 37 رُوِيَ عَنِ ابْنِ زَيْدٍ أَنَّهُ قَالَ فِي تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ : تَأْوِيلُ الْعِلْمِ وَالْحُلْمِ وَكَانَ يُوسُفُ مِنْ أَعْبَرِ النَّاسِ ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ ، تَأْوِيلُ أَحَادِيثِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَالْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ .

(193/391)

زَعَمَ الزَّمَخْشَرِيُّ وَتَبِعَهُ مُقَلِّدُوهُ أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ كَلَامٌ مُبْتَدَأٌ غَيْرُ دَاخِلٍ فِي حُكْمِ التَّشْبِيهِ ، كَأَنَّهُ قِيلَ : وَهُوَ يُعَلِّمُكَ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ، وَبَنَى هَذَا عَلَى مَا فَهِمَهُ مِنْ دَلَالَةِ الرُّؤْيَا عَلَى الِاجْتِبَاءِ فَقَطْ ، وَمَا هَذَا الْفَهْمُ إِلَّا مِنْ تَأْثِيرِ قَوَاعِدِ النَّحْوِ ، وَالَّذِي نَجْزِمُ بِهِ أَنَّ يَعْقُوبَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَهِمَ مِنْ هَذِهِ الرُّؤْيَا فَهْمًا مُجْمَلًا كُلَّ مَا بُشِّرَ بِهِ ابْنُهُ رَائِيهَا ، وَأَمَّا كَيْدُ إِخْوَتِهِ لَهُ إِذَا قَصَّهَا عَلَيْهِمْ فَقَدِ اسْتَنْبَطَهُ اسْتِنْبَاطًا مِنْ طَبْعِ الْإِنْسَانِ ، وَعَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ . فَلَمَّا حَذَّرَهُ مِنَ الِاسْتِهْدَافِ لِذَلِكَ بِإِثَارَةِ حَسَدِهِمْ ، قَفَّى عَلَيْهِ بِبِشَارَتِهِ بِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الرُّؤْيَا مِنَ اجْتِبَاءِ رَبِّهِ الْخَاصِّ بِهِ ، وَمِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، وَهُوَ الَّذِي سَيَكُونُ وَسِيلَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ إِلَى رَفْعِهِ قَدْرَهُ وَعُلُوِّ مَقَامِهِ ، فَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى الِاجْتِبَاءِ مَعَهُ فِي الْبِشَارَةِ .

(194/391)

ثُمَّ عطف عَلَيْهِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ بِالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ وَالْمُلْكِ وَالرِّيَاسَةِ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ وَهُمْ أَبوَاهُ وَإِخْوَتُهُ وَذُرِّيَّتُهُمْ (وَأَصْلُ الْآلِ أَهْلٌ بِدَلِيلِ تَصْغِيرِهِ عَلَى أُهَيْل ، وَهُوَ خَاصٌّ فِي الِاسْتِعْمَالِ بِمَنْ لَهُمْ شَرَفٌ وَخَطَرٌ فِي النَّاسِ كَآلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَآلِ الْمَلِكِ ، وَيُقَالُ لِغَيْرِهِمْ : أَهْلٌ) بِإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الْبَدْوِ ، وَتَبَوُّئِهِمُ الْمَقَامَ الْكَرِيمَ بِمِصْرَ ، ثُمَّ بِتَسَلْسُلِ النُّبُوَّةِ فِي أَسْبَاطِهِمْ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ (كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ) أَيْ مِنْ قَبْلِ هَذَا الْعَهْدِ أَوْ مِنْ قَبْلِكَ (إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ) هَذَا بَيَانٌ لِكَلِمَةِ (أَبَوَيْكَ) وَهُمَا جَدُّهُ وَجَدُّ أَبِيهِ ، وَقَدَّمَ الْأَشْرَفَ مِنْهُمَا ، وَهَذَا الِاسْتِعْمَالُ مَأْلُوفٌ عِنْدَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ ، وَكَانُوا يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : يَا بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، بَلْ قَالَهَا هُوَ أَيْضًا . وَهَذَا التَّشْبِيهُ مَبْنِيٌّ عَلَى مَا كَانَ يَعْلَمُهُ يَعْقُوبُ مِنْ وَعْدِ اللهِ لِإِبْرَاهِيمَ بِاصْطِفَاءِ آلِهِ ، وَجَعْلِ النُّبُوَّةِ وَالْكِتَابِ فِي ذُرِّيَّتِهِ ، وَإِنَّمَا عَلِمَ مِنْ رُؤْيَا يُوسُفَ أَنَّهُ

هُوَ حَلْقَةُ السِّلْسِلَةِ النَّبَوِيَّةِ الِاصْطِفَائِيَّةِ بَعْدَهُ مِنْ أَبْنَائِهِ ، فَلِهَذَا عَلَّلَ الْبِشَارَةَ بِقَوْلِهِ : (إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) أَيْ عَلِيمٌ بِمَنْ يَصْطَفِيهِ حَكِيمٌ بِاصْطِفَائِهِ ، وَبِإِعْدَادِ الْأَسْبَابِ وَتَسْخِيرِهَا لَهُ

، وكَانَ هذَا الْعِلْمُ مِنْ يَعْقُوبَ بِمَا بَشَّرَ اللهُ بِهِ أَبَوَيْهِ لَهُمَا وَلِذُرِّيَّتِهِمَا ، وَبِدَلَالَةِ رُؤْيَا يُوسُفَ عَلَى أَنَّهُ هُوَ حَلْقَةُ السِّلْسِلَةِ الذَّهَبِيَّةِ لَهُمْ ، هُوَ السَّبَبُ كَمَا قُلْنَا لِزِيَادَةِ حُبِّهِ لَهُ وَعَطْفِهِ وَحِرْصِهِ عَلَيْهِ ، الَّذِي هَاجَ مَا كَانَ يَحْذَرُهُ إِخْوَتُهُ وَكَيْدُهُمْ لَهُ ، وَلِكَوْنِهِ لَمْ يُصَدِّقْ مَا زَعَمُوهُ مِنْ أَكْلِ الذِّئْبِ لَهُ ، وَلَمْ يَنْقَطِعْ أَمَلُهُ مِنْهُ ، بَلْ لَمْ يَنْقُصْ إِيمَانُهُ بِمَا أَعَدَّهُ اللهُ لَهُ وَلَهُمْ بِهِ ، وَلَكِنَّ عِلْمَهُ بِذَلِكَ كَانَ إِجْمَالِيًّا لَا تَفْصِيلِيًّا ، وَقَدْ جَاءَتْ قِصَّتُهُ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا مُفَصِّلَةً لِهَذَا الْإِجْمَالِ ، تَفْصِيلًا هُوَ مِنْ أَبْدَعِ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ ، وَزَادَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فِي التَّشْبِيهِ إِنْجَاءُ إِبْرَاهِيمَ مِنَ النَّارِ وَإِنْجَاءُ إِسْحَاقَ مِنَ الذَّبْحِ ، وَلَكِنَّ التَّحْقِيقَ أَنَّ الذَّبِيحَ إِسْمَاعِيلُ لَا إِسْحَاقُ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ – تَعَالَى – بَعْدَ قِصَّتِهِ مِنْ سُورَةِ الصَّافَّاتِ : (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ) 37 : 112 وَكَوْنُ الْقِصَّةِ كَانَتْ فِي الْحِجَازِ وَهِيَ الْأَصْلُ فِي أَضَاحِي مِنًى هُنَاكَ ، وَإِنَّمَا الَّذِي نَشَأَ فِي الْحِجَازِ إِسْمَاعِيلُ لَا إِسْحَاقُ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ بِالتَّوَاتُرِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 206.212 ﴾

(196/391)

وقال ابن عاشور :

﴿ إذ قال ﴾ بدل اشتمال أو بعض من ﴿ أحْسَن القصص ﴾ [سورة يوسف : 3]

على أن يكون أحسن القصص بمعنى المفعول ، فإنّ أحسن القصص يشتمل على قصَص كثير ، منه قَصص زمان قول يوسفَ عليه السّلام لأبيه إني رأيت أحَدَ عَشَرَ كوكباً ﴿ وما عقب قوله ذلك من الحوادث .

فإذا حمل ﴿ أحسن القصص ﴾ [سورة يوسف : 3] على المصدر فالأحسن أن يكون إذْ ﴾ منصوباً بفعل محذوف يدلّ عليه المقام ، والتّقدير : اذكر .

ويُوسف اسم عبراني تقدم ذكر اسمه عند قوله تعالى : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ الخ في سورة الأنعام (83) .

وهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق من زوجه (راحِيل) .

وهو أحد الأسباط الذين تقدم ذكرهم في سورة البقرة .

وكان يوسف أحب أبناء يعقوب عليهما السّلام إليه وكان فَرْط محبة أبيه إياه سَببَ غيرة إخوته منه فكادُوا له مكيدة فسألوا أباهم أن يتركه يخرج معهم .

فأخرجوه معهم بعلّة اللعب والتفسح ، وألقَوْهُ في جبّ ، وأخبروا أباهم أنّهم فقدوه ، وأنهم وجدوا قميصه ملوّثاً بالدّم ، وأروه قميصه بعد أن لطّخوه بدم ، والتقطه من البئر سيارة من العرب الإسماعيليين كانوا سائرين في طريقهم إلى مصر ، وباعوه كرقيق في سوق عاصمة مصر السفلى التي كانت يومئذٍ في حكم أمّة من الكنعانيين يعرفون بالعمالقة أو (الهكْصوص) .

وذلك في زمن الملك (أبو فيس) أو (ابيبي) .

ويقرب أن يكون ذلك في حدود سنة تسع وعشرين وسبعمائة وألف قبل المسيح عليه السّلام ، فاشتراه (فوطيفار) رئيس شرطة فرعون الملقّبُ في القرآن بالعزيز ، أي رئيس المدينة .

وحدثت مكيدة له من زوج سيّده ألقي بسببها في السجن .

وبسبب رؤيا رآها المِلكُ وعَبّرها يوسف عليه السّلام وهو في السِجن ، قَرّبه الملك إليه زُلفى ، وأولاه على جميع أرض مصر ، وهو لقب العزيز وسَمّاه (صفنات فعنيج) ، وزوّجه (أسنات) بنت أحد الكهنة وعمره يومئذٍ ثلاثون سنة .

(197/391)

وفي مدة حكمه جَلَب أباه وأقاربه من البرّية إلى أرض مصر ، فذلك سبب استيطان بني إسرائيل أرض مصر .

وتوفي بمصر في حدود سنة خمس وثلاثين وستمائة وألف قبل ميلاد عيسى عليه السّلام .

وحنّط على الطريقة المصرية .

ووُضع في تابوت ، وأوصى قبل موته قومه بأنهم إذا خرجوا من مصر يرفعون جسده معهم .

ولمّا خرج بنو إسرائيل من مصر رفعوا تابوت يوسف عليه السّلام معهم وانتقلوه معهم في رحلتهم إلى أن دفنوه في (شكِيم) في مدة يوشع بن نون .

والتاء في (أَبت) تاء خاصّة بكلمة الأب وكلمة الأم في النداء خاصة على نية الإضافة إلى المتكلم ، فمفادها مفاد : يا أبي ، ولا يكاد العرب يقولون : يا أبي .

وورد في سَلام ابن عمر على النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه حين وقف على قبورهم المنوّرة .

وقد تحيّر أئمّة اللغة في تعليل وصلها بآخر الكلمة في النداء واختاروا أن أصلها تاء تأنيث بقرينة أنهم قد يجعلونها هاء في الوقف ، وأنها جعلت عوضاً عن ياء المتكلم لعلة غير وجيهة .

والذي يظهر لي أنّ أصلها هاء السكت جلبوها للوقف على آخر الأب لأنّه نقص من لام الكلمة ، ثم لما شابهت هاء التأنيث بكثرة الاستعمال عوملت معاملة آخر الكلمة إذا أضافوا المنادى فقالوا : يا أبتي ، ثم استغنوا عن ياء الإضافة بالكسرة لكثرة الاستعمال .

ويدل لذلك بقاء الياء في بعض الكلام كقول الشاعر الذي لا نعرفه :

أيا أبتي لا زلتَ فينا فإنّما

لنا أملٌ في العيْش ما دمت عائشاً . . .

ويجوز كسر هذه التّاء وفتحها ، وبالكسر قرأها الجمهور ، وبفتح التّاء قرأ ابن عامر وأبو

جعفر .

والنداء في الآية مع كون المنادى حاضراً مقصود به الاهتمام بالخبر الذي سيلقى إلى المخاطب فينزل المخاطب منزلة الغائب المطلوب حضوره ، وهو كناية عن الاهتمام أو استعارة له .

والكوكب : النجم ، تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ فلمّا جن عليه الليل رأى كوكباً ﴾ في سورة الأنعام (76) .

(198/391)

وجملة ﴿ رأيتهم ﴾ مؤكدة لجملة ﴿ رأيتُ أحدَ عَشَرَ كوكباً ﴾ ، جيء بها على الاستعمال في حكاية المرائي الحلمية أن يعاد فعل الرؤية تأكيداً لفظياً أو استئنافاً بيانياً ، كأن سامع الرؤيا يستزيد الرائي أخباراً عمّا رأى .

ومثال ذلك ما وقع في "الموطّأ" أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أراني الليلة عند الكعبة فرأيت رجلاً آدم " الحديث .

وفي البخاري أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : " رأيت في المنام أني أهاجر من مكّة إلى أرض بها نخل ، ورأيت فيها بقرا تذبح ، ورأيت .

.

واللّهُ خير " .

وقد يكون لفظ آخر في الرؤيا غير فعلها كما في الحديث الطّويل " إنّه أتاني الليلة آتيان ، وإنهما ابتعثاني ، وإنّهما قالا لي : انطلق ، وإنّي انطلقت معهما ، وإنّا أتينا على رجل مضطجع " الحديث بتكرار كلمة (إنّ) وكلمة (إنّا) مراراً في هذا الحديث .

وقرأ الجمهور ﴿ أَحَدَ عَشَرَ ﴾ بفتح العين من ﴿ عَشَرَ ﴾ .

وقرأه أبو جعفر بسكون العين .

واستعمل ضمير جمع المذكر للكواكب والشمس والقمر في قوله : ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ ، لأن كون ذلك للعقلاء غالب لا مطرد ، كما قال تعالى في الأصنام ﴿ وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ [سورة الأعراف : 198] ، وقال : ﴿ يا أيها النمل ادخلوا ﴾ [سورة النمل : 18] .

وقال جماعة من المفسّرين : إنه لمّا كانت الحالة المرئية من الكواكب والشمس والقمر حالة العقلاء ، وهي حالة السجود نزّلها منزلة العقلاء ، فأطلق عليها ضمير (هم) وصيغة جمعهم .

وتقديم المجرور على عامله في قوله : لي ساجدين ﴾ للاهتمام ، عبّر به عن معنى تضمّنه

كلام يوسف عليه السّلام بلغته يدل على حالة في الكواكب من التعظيم له تقتضي الاهتمام بذكره فأفاده تقديم المجرور في اللغة العربيّة .

وابتداء قصة يوسف عليه السّلام بذكر رؤياه إشارة إلى أنّ الله هيّأ نفسه للنبوءة فابتدأه بالرؤيا الصّادقة كما جاء في حديث عائشة " أنّ أوَّل ما ابتدىء رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فَلَق الصبح " .

وفي ذلك تمهيد للمقصود من القصة وهو تقرير فضل يوسف عليه السّلام من طهارة وزكاء نفس وصبر .

فذكر هذه الرؤيا في صدر القصّة كالمقدّمة والتّمهيد للقصّة المقصودة .

وجعل الله تلك الرؤيا تنبيهاً ليوسف عليه السّلام بعلو شأنه ليتذكرها كلما حلت به ضائقة فتطمئن بها نفسه أن عاقبتهُ طيبة .

وإنما أخبر يوسف عليه السّلام أباه بها ته الرؤيا لأنّه علم بإلهام أو بتعليم سابق من أبيه أن للرؤيا تعبيراً ، وعلم أنّ الكواكب والشّمس والقمر كناية عن موجودات شريفة ، وأنّ سجود المخلوقات الشّريفة له كناية عن عظمة شأنه .

ولعلّهُ علم أنّ الكواكب كناية عن موجودات متماثلة ، وأنّ الشمس والقمر كناية عن أصلين لتلك الموجودات فاستشعر على الإجمال دلالة رؤياه على رفعة شأنه فأخبر بها أباه .

وكانوا يعدّون الرؤيا من طرق الإنباء بالغيب ، إذا سلمت من الاختلاط وكان مزاج الرائي غير منحرف ولا مضطرب ، وكان الرائي قد اعتاد وقوع تأويل رؤياه ، وهو شيء ورثوه من صفاء نفوس أسلافهم إبراهيم وإسحاق عليهم السّلام .

فقد كانوا آل بيت نبوءة وصفاء سريرة .

ولمّا كانت رؤيا الأنبياء وَحْياً ، وقد رأى إبراهيم عليه السّلام في المنام أنّه يذبح وَلَد فلمّا أخبره ﴿ قال يا أبت افْعل ما تؤمَر ﴾ [سورة الصافات : 102] .

وإلَى ذلك يشير قول أبي يوسف عليه السّلام : ﴿ ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ﴾ [سورة يوسف : 6] .

فلا جرم أن تكون مرائي أبنائهم مكاشفة وحديثاً ملكياً .

وفي الحديث : " لم يَبق من المبشرات إلاّ الرؤيا الصّالحة يراها المسلم أو ترى له " والاعتداد بالرؤيا من قديم أمور النبوءة .

وقد جاء في التّوراة أن الله خاطب إبراهيم عليه السّلام في رؤيا رآها وهو في طريقه ببلاد شاليم بلد ملْكي صَادق وبشّره بأنه يهبه نسلاً كثيراً ، ويعطيه الأرض التي هو سائر فيها (في الإصحاح 15 من سفر التكوين) .

أما العرب فإنهم وإن لم يرد في كلامهم شيء يفيد اعتدادهم بالأحلام ، ولعل قول كعب بن زهير :

إن الأماني والأحلام تضليل

يفيد عدم اعتدادهم بالأحلام ، فإن الأحلام في البيت هي مرائي النوم .

ولكن ذكر ابن إسحاق رؤيا عبد المطلب وهو قائم في الحِجْر أنه أتاه آت فأمره بحفر بئر زمزم فوصَف له مكانها ، وكانت جرهم سَدَموها عند خروجهم من مكة .

وذكر ابن إسحاق رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب أن : راكباً أقبل على بعير فوقف بالأبطح ثم صرخ : يا آل غُدَرَ أُخرُجوا إلى مصارعكم في ثلاث فكانت وقعة بدر عقبها بثلاث ليال .

وقد عدت المرائي النوميّة في أصول الحكمة الإشراقية وهي من تراثها عن حكمة الأديان السّالفة مثل الحنيفية .

وبالغ في تقريبها بالأصول النفسية شهاب الدّين الحكيم السهروردي في هياكل النور وحكمة الإشراق ، وأبو علي بن سينا في الإشارات بما حاصله : وأصله : أنّ النفس الناطقة (وهي المعبّر عنها بالروح) هي من الجواهر المجرّدة التي مَقرها العالم العلوي ، فهي قابلة لاكتشاف الكائنات على تفاوت في هذا القبول ، وأنّها تودع في جسم الجنين عند اكتمال طور المضغة ، وأنّ للنفس الناطقة آثاراً من الانكشافات إذا ظهرت فقد ينتقش بعضها بمدارك صاحب النفس في لوح حسّه المشترك ، وقد يصرفه عن الانتقاش شاغلان : أحدهما ❁ حِسّيّ خارجيّ ، والآخر باطنيّ عقليّ أو وهميّ ، وقوَى النفس متجاذبة متنازعة فإذا اشتدّ بعضُها ضعف البعضُ الآخر كما إذا هاج الغضب ضعفت الشهوة ، فكذلك إنْ تَجَرّدَ الحس الباطن للعمل شغل عن الحسّ الظاهر ، والنوم شاغل للحسّ ، فإذا قلّت شواغل الحواس الظاهرة فقد تتخلّص النفس عن شغل مخيلاتها ، فتطّلع على أمور مغيبة ، فتكونُ المنامات الصادقة .

والرؤيا الصادقةُ حالةٌ يكرم الله بها بعض أصْفيائه الذين زكت نفوسهم فتتّصل نفوسهم بتعلّقات من علم الله وتعلّقات من إرادته وقدرته وأمره التكوينيّ فتنكشف بها الأشياء المغيبة بالزّمان قبل وقوعها ، أو المغيبة بالمكان قبل اطلاع الناس عليها اطلاعاً عاديّاً ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم "الرؤيا الصالحة من الرّجل الصالح جزء من ستّة

وأربعين جزءاً من النبوءة" .

وقد بُيّن تحديد هذه النسبة الواقعة في الحديث في شروح الحديث .

وقال : "لم يبق من النبوءة إلاّ المبشّرات وهي الرؤيا الصّالحة للرجل الصالح يراها أو ترى له" .

(202/391)

وإنّما شرطت المرائي الصادقة بالنّاس الصّالحين لأنّ الارتياض على الأعمال الصّالحة شاغل للنفس عن السيّئات ، ولأنّ الأعمال الصّالحات ارتقاءات وكمالات فهي معينة لجوهر النفس على الاتّصال بعالَمها الذي خلقت فيه وأنزلت منه ، وبعكس ذلك الأعمال السيّئة تبعدها عن مألوفاتها وتبلدها وتذبذبها .

والرؤيا مراتب:

منها أن : ترى صور أفعال تتحقّق أمثالها في الوجود مثل رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم أنه يهاجر من مكّة إلى أرض ذات نخل ، وظنّه أنّ تلك الأرض اليمامة فظهر أنّها المدينة ، ولا شك أنّه لمّا رأى المدينة وجدَها مطابقة للصّورة التي رآها ، ومثل رؤياه امرأة في سَرَقَة من حرير فقيل له اكشِفْها فهي زوجك فكشف فإذا هي عائشة ، فعلم أن سيتزوجها .

وهذا النوع نادر وحالة الكشف فيه قوية .

ومنها أن ترى صُورٌ تكون رموزاً للحقائق التي ستحصل أو التي حصلت في الواقع ، وتلك من قبيل مكاشفة النفس للمعاني والمواهي وتشكيل المخيّلة تلك الحقائق في أشكال محسوسة هي من مظاهر تلك المعاني ، وهو ضرب من ضروب التشبيه والتمثيل الذي تخترعه ألباب الخطباء والشعراء ، إلاّ أنّ هذا تخترعه الألباب في حالة هدوّ الدمَاغ من الشواغل الشاغلة ، فيكون أتقن وأصدق .

وهذا أكثر أنواع المرائي .

ومنه رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم أنّه يشرب من قدح لَبن حتى رأى الريّ في أظفاره ثم أعطَى فضلَه عمرَ بن الخطّاب رضي الله عنه .

وتعبيره ذلك بأنّه العلم .

وكذلك رؤياه امرأة سوداء ناشرة شعَرَهَا خارجة من المدينة إلى الجحفة ، فعبّرها بالحمى تنتقل من المدينة إلى الجحفة ، ورئيَ عبد الله بن سلام أنه في روضة ، وأنّ فيها عموداً ، وأنّ فيه عروة ، وأنّه أخذ بتلك العروة فارتقى إلى أعلى العمود ، فعبّره النبي صلى الله عليه وسلم بأنّه لا يزال آخذاً بالإيمان الذي هو العروة الوثقى ، وأنّ الروضة هي الجنّة ، فقد

تَطابَق التمثيل النوميّ مع التمثيل المتعارف في قوله تعالى : ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ [سورة البقرة : 256] ، وفي قول النبي : " ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة " وسيأتي تأويل هذه الرؤيا عند قوله تعالى : ﴿ وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾ [سورة يوسف : 100] .

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾

جاءت الجملة مفصولة عن التي قبلها على طريقة المحاورات .

وقد تقدّمت عند قوله تعالى : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ في سورة البقرة (30) .

والنّداء مع حضور المخاطب مستعمل في طلب إحضار الذهن اهتماماً بالغرض المخاطب فيه .

و﴿ بُنَيّ ﴾ بكسر الياء المشدّدة تصغير ابن مع إضافته إلى ياء المتكلم وأصله بُنَيْوي أو بُنَيْيي على الخلاف في أنّ لام ابن الملتزمَ عدمُ ظهورها هي واو أم ياء .

وعلى كلا التقديرين فإنّها أدغمت فيها ياء التصغير بعد قلب الواو ياء لتقارب الياء والواو ، أو لتماثلهما فصار (بنَيّي) .

وقد اجتمع ثلاث ياءات فلزم حذف واحدة منها فحذفت ياء المتكلم لزوماً وألقيت الكسرة التي اجتلبت لأجلها على ياء التصغير دلالة على الياء المحذوفة .

وحذف ُياء المتكلم من المنادى المضاف شائع ، وبخاصة إذا كان في إبقائها ثقل كما هنا ، لأنّ التقاء ياءات ثلاث فيه ثقل .

وهذا التّصغير كناية عن تحبيب وشفقة .

نزل الكبير منزلة الصغير لأنّ شأن الصغير أن يحب ويشفق عليه .

(204/391)

وفي ذلك كناية عن إمحاض النصح له .

والقصّ : حكاية الرؤيا .

يقال : قص الرؤيا إذا حكاها وأخبربها .

وهو جاءٍ من القصص كما علمت آنفاً .

والرؤيا بألف التأنيث هي : رؤية الصور في النوم ، فرّقوا بينها وبين رؤية اليقظة باختلاف علامتي التأنيث ، وهي بوزن البشرى والبقيَا .

وقد علم يعقوب عليه السّلام أن إخوة يوسف عليه السّلام العشرة كانوا يغارون منه لفرط فضله عليهم خَلقا وخلقا ، وعلم أنّهم يعبرون الرؤيا إجمالاً وتفصيلاً ، وعلم أن تلك الرؤيا تؤذن برفعة ينالها يوسف عليه السّلام على إخوته الذين هم أحدَ عَشَرَ فخشي إن قصّها

يوسف عليه السلام عليهم أن تشتد بهم الغيرة إلى حدّ الحسد ، وأن يعبّروها على وجهها فينشأ فيهم شرّ الحاسد إذا حسد ، فيكيدوا له كيداً ليسلموا من تفوّقه عليهم وفضله فيهم .

والكيد : إخفاء عمل يضرّ المكيد .

وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وأُمْلِي لهم إن كيدي متين ﴾ في سورة الأعراف (183) .

واللاّم في ﴿ لك ﴾ لتأكيد صلة الفعل بمفعوله كقوله : شكرت لك النعمى .

وتنوين ﴿ كيداً ﴾ للتعظيم والتهويل زيادة في تحذيره من قص الرؤيا عليهم .

وقصد يعقوب عليه السّلام من ذلك نجاة ابنه من أضرار تلحقه ، وليس قصده إبطال ما دلّت عليه الرؤيا فإنّه يقع بعد أضرار ومشاق .

وكان يعلم أن بنيه لم يبلغوا في العلم مبلغ غوص النظر المفضي إلى أن الرّؤيا إن كانت دالة على خير عظيم يناله فهي خبر إلهي ، وهو لا يجوز عليه عدم المطابقة للواقع في المستقبل ، بل لعلّهم يحسبونها من الإنذار بالأسباب الطبيعية التي يزول تسببها بتعطيل بعضها .

وقول يعقوب عليه السّلام هذا لابنه تحذير له مع ثقته بأنّ التحذير لا يثير في نفسه كراهة لإخوته لأنّه وثق منه بكمال العقل ، وصفاء السريرة ، ومكارم الخلق .

ومن كان حاله هكذا كان سمحاً ، عاذراً ، معرضاً عن الزلّات ، عالماً بأثر الصبر في رفعة الشأن ، ولذلك قال لإخوته ﴿ إنّه من يتّق ويصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ [سورة يوسف : 90] وقال : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ [سورة يوسف : 92] .

وقد قال أحد ابني آدم عليه السّلام لأخيه الذي قال له لأقتلنّك حسداً ﴿ لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إنّي أخاف الله رب العالمين ﴾ [سورة المائدة : 28] .

فلا يشكل كيف حذّر يعقوبُ يوسفَ عليهما السّلام من كيد إخوته ، ولذلك عقب كلامه بقوله : إن الشيطان للإنسان عدوّ مبين ﴾ ليعلم أنه ما حذّره إلاّ من نزغ الشيطان في نفوس إخوته .

وهذا كاعتذار النبي صلى الله عليه وسلم للرّجلين من الأنصار اللذين لقياه ليلاً وهو يشيّع زوجه أمّ المؤمنين إلى بيتها فلمّا رأياه ولّيَا ، فقال : " على رسلكما إنها صفية ، فقالا : سبْحان الله يا رسول الله وأكبرا ذلك ، فقال لهما : إنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في نفوسكما " .

فهذه آيةُ عبرة بتوسّم يعقوب عليه السّلام أحوال أبنائه وارتيائه أن يكفّ كيدَ بعضهم

لبعض .

فجملة ﴿ إن الشيطان للإنسان ﴾ الخ واقعة موقع التعليل للنهي عن قصّ الرؤيا على إخوته .

وعداوة الشيطان لجنس الإنسان تحمله على أن يدفعهم إلى إضرار بعضهم ببعض .

وظاهر الآية أن يوسف عليه السّلام لم يقص رؤياه على إخوته وهو المناسب لكماله الذي يبعثه على طاعة أمْر أبيه .

ووقع في الإسرائيليات أنه قصّها عليهم فحسدوه .

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾

(206/391)

عطف هذا الكلام على تحذيره من قصّ الرؤيا على إخوته إعلاماً له بعلوّ قدره ومستقبل كماله ، كي يزيد تملياً من سموّ الأخلاق فيتسع صدره لاحتمال أذى إخوته ، وصفحاً عن غيرتهم منه وحسدهم إيّاه ليتمحّض تحذيره للصلاح ، وتنتفي عنه مفسدة إثارة البغضاء ونحوها ، حكمة نبويّة عظيمة وطبّاً روحانيّاً ناجعاً .

والإشارة في قوله : ﴿ وكذلك ﴾ إلى ما دلّت عليه الرؤيا من العِناية الربّانيّة به ، أي ومثل

ذلك الاجتباء يجتبيك ربّك في المستقبل ، والتّشبيه هنا تشبيه تعليل لأنّه تشبيه أحد المعلولين بالآخر لاتّحاد العلّة .

وموقع الجار والمجرور موقع المفعول المطلق ل ﴿ يجتبيك ﴾ المبيّن لنوع الاجتباء ووجهه .

والاجتباء : الاختيار والاصطفاء .

وتقدّم في قوله تعالى : ﴿ واجتبيناهم ﴾ في سورة الأنعام (87) ، أي اختياره من بين إخوته ، أو من بين كثير من خلقه .

وقد علم يعقوب عليه السّلام ذلك بتعبير الرؤيا ودلالتها على رفعة شأنه في المستقبل فتلك إذا ضُمّت إلى ما هو عليه من الفضائل آلت إلى اجتباء الله إياه ، وذلك يؤذن بنبوءته .

وإنّما علم يعقوب عليه السّلام أنّ رفعة يوسف عليه السّلام في مستقبله رفعة إلهية لأنّه عَلِمَ أن نعم الله تعالى متناسبة فلمّا كان ما ابتدأه به من النعم اجتباءً وكمالاً نفسيّاً تعيّن أن يكون ما يلحق بها ، من نوعها .

ثم إنّ ذلك الارتقاء النفساني الذي هو من الواردات الإلهية غايته أن يبلغ بصاحبه إلى النبوءة أو الحكمة فلذلك علم يعقوب عليه السّلام أنّ الله سيعلّم يوسف عليه السّلام من تأويل الأحاديث ، لأنّ مسبّبَ الشيء مسبّب عن سَبَب ذلك الشيء ، فتعليم التّأويل ناشئ عن التشبيه الذي تضمنه قوله : ﴿ وكذلك ﴾ ، ولأنّ اهتمام يوسف عليه السّلام

برؤياه وعرضها على أبيه دلّ أباه على أنّ الله أودع في نفس يوسف عليه السّلام الاعتناء بتأويل الرؤيا وتعبيرها .

(207/391)

وهذه آية عبرة بحال يعقوب عليه السّلام مع ابنه إذ أشعره بما توسّمه من عناية الله به ليزداد إقبالاً على الكمال بقوله : ﴿ ويتمّ نعمته عليك ﴾ .

والتّأويل : إرجاع الشيء إلى حقيقته ودليله .

وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلاّ الله ﴾ [سورة آل عمران : 7] .

والأحاديث ﴾ : يصحّ أن يكون جمع حديث بمعنى الشيء الحادث ، فتأويل الأحاديث : إرجاع الحوادث إلى عللها وأسبابها بإدراك حقائقها على التمام .

وهو المعنى بالحكمة ، وذلك بالاستدلال بأصناف الموجودات على قدرة الله وحكمته ، ويصحّ أن يكون الأحاديث جمع حديث بمعنى الخبر المتحدّث به ، فالتأويل : تعبير الرؤيا . سمّيت أحاديث لأنّ المرائي يَتحدثُ بها الراؤون وعلى هذا المعنى حملها بعضُ المفسرين . واستدلوا بقوله في آخر القصة ﴿ وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾ [سورة يوسف : 100] .

ولعلّ كِلاَ المعنيين مراد بناء على صحة استعمال المشترك في معنييه وهو الأصح ، أو يكون اختيار هذا اللفظ إيجازاً معجزاً ، إذ يكون قد حكِي به كلام طويل صَدَر من يعقوب عليه السّلام بلغته يعبّر عن تأويل الأشياء بجميع تلك المعاني .

وإتمام النعمة عليه هو إعطاؤه أفضل النعم وهي نعمة النبوءة ، أو هو ضميمة الملك إلى النبوءة والرسالة ، فيكون المراد إتمام نعمة الاجتباء الأخروي بنعمة المجد الدنيوي .

وعلم يعقوب عليه السّلام ذلك من دلالة الرؤيا على سجود الكواكب والنيرْين له ، وقد علم يعقوب عليه السّلام تأويل تلك بإخوته وأبويه أو زوج أبيه وهي خالة يوسف عليه السّلام ، وعلم من تمثيلهم في الرؤيا أنّهم حين يسجدون له يَكون أخوته قد نالوا النبوءة ، وبذلك علم أيضاً أنّ الله يتمّ نعمته على إخوته وعلى زوج يعقوب عليه السّلام بالصديقية إذا كانت زوجة نبيء .

(208/391)

فالمراد من آل يعقوب خاصتهم وهم أبناؤه وزوجه ، وإن كان المراد بإتمام النعمة ليوسف عليه السّلام إعطاءُ الملك فإتمامها على آل يعقوب هو أن زادهم على ما أعطاهم من الفضل نعمة قرابة المَلِك ، فيصح حينئذٍ أنْ يكون المراد من آله جميع قرابته .

والتّشبيه في قوله : كما أتمها على أبويك من قبل ﴾ تذكير له بنعم سابقة ، وليس ممّا دلت عليه الرؤيا .

ثم إن كان المراد من إتمام النعمة النبوءة فالتّشبيه تام ، وإن كان المراد من إتمام النعمة الملك فالتشبيه في إتمام النعمة على الإطلاق .

وجعل إبراهيم وإسحاق عليهما السّلام أبوين له لأنّ لهما ولادة عليه ، فهما أبواه الأعليان بقرينة المقام كقول النبي صلى الله عليه وسلم " أنا ابنُ عبد المطّلب " .

وجملة ﴿ إنّ ربّك عليم حكيم ﴾ تذييل بتمجيد هذه النعم ، وأنها كائنة على وفق علمه وحكمته ، فعلمه هو علمه بالنفوس الصالحة لهذه الفضائل ، لأنّه خلقها لقبول ذلك فعلمه بها سابق ، وحكمته وضع النعم في مواضعها المناسبة .

وتصدير الجملة بـ ﴿ إنّ ﴾ للاهتمام لا للتّأكيد إذْ لا يَشك يوسف عليه السّلام في علم الله وحكمته .

والاهتمام ذريعة إلى إفادة التعليل .

والتفريع في ذلك تعريض بالثناء على يوسف عليه السّلام وتأهّله لمثل تلك الفضائل . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ .

بين الله جل وعلا أنه علم نبيه يوسف من تأويل الأحاديث ، وصرح بذلك ايضاً في قوله :

﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ [يوسف : 21] .

وقوله : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الملك وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ [يوسف : 101] .

واختلف العلماء في المراد بتأويل الأحاديث .

فذهب جماعة من أهل العلم إلى أن المراد بذلك : تعبير الرؤيا ، فالأحاديث على هذا القول هي الرؤيا ، قالوا : إنها إما حديث نفس أو ملك أو شيطان .

وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا . ويدل لهذا الوجه الآيات الدالة على خبرته بتأويل الرؤيا ، كقوله : ﴿ ياصاحبي السجن أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخر فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطير مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأمر الذي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف : 41] وقوله : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعُ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ [يوسف : 47] إلى قوله ﴿ يَعْصِرُونَ ﴾ [يوسف : 49] .

وقال بعض العلماء : المراد بتأويل الأحاديث معرفة معاني كتب الله وسنن الأنبياء ، وما

غمض وما اشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها ، يفسرها لهم ويشرحها ، ويدلهم على مودعات حكمها .

وسميت أحاديث ، لأنها يحدث بها عن الله ورسله ، فيقال : قال الله كذا ، وقال رسوله كذا ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 185] .

وقوله : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ [الزمر : 23] الآية .

ويدل لهذا الوجه قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ﴾ [يوسف : 22]

وقوله : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذلكما مِمَّا عَلَّمَنِي ربي ﴾ [يوسف : 37] الآية .

قال مقيدة عفا الله عنه :

الظاهر أن الآيات المذكورة تشمل ذلك كله من تأويل الرؤيا ، وعلوم كتب الله وسنن الأنبياء - والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾

وهكذا تبدأ قصة يوسف ، حين يقول لأبيه يعقوب عليهما السلام " يا أبت " ، وأصل الكلمة " يا أبي " ، ونجد في اللغة العربية كلمات " أبي " و " أبتِ " و " أبتَاهُ " و " أَبَة " وكلها تؤدي معنى الأبوة ، وإن كان لكل منها مَلْحظ لغوي .

ويستمر يوسف في قوله :

﴿ يا أبت إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : 4] .

وكلنا رأينا الشمس والقمر ؛ كُلٌّ في وقت ظهوره ؛ لكن حلُم يوسف يُبيِّن أنه رآهما معاً ، وكلنا رأينا الكواكب متناثرة في السماء آلافاً لا حَصْرَ لها ، فكيف يرى يوسف أحد عشر كوكباً فقط ؟

لا بُدَّ أنهم اتصفوا بصفات خاصة ميَّزتهم عن غيرهم من الكواكب الأخرى ؛ وأنه قام بعدِّهِم .

ورؤيا يوسف عليه السلام تبيِّن أنه رآهم شمساً وقمراً وأحد عشر كوكباً ؛ ثم رآهم بعد ذلك ساجدين .

وهذا يعني أنه رآهم أولاً بصفاتهم التي نرى بها الشمس والقمر والنجوم بدون سجود ؛ ثم رآهم وهم ساجدون له ؛ بملامح الخضوع لأمر من الله ، ولذلك تكررت كلمة " رأيت " وهو ليس تكراراً ، بل لإيضاح الأمر .

ونجد أن كلمة : ﴿ سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : 4] وهي جمع مذكر سالم ؛ ولا يُجمع جَمْع المذكر السالم إلا إذا كان المفرد عاقلاً ، والعقل يتميز بقدرة الاختيار بين البدائل ؛ والعاقل المؤمن هو مَنْ يجعل اختياراته في الدنيا في إطار منهج الدين ، وأسْمَى ما في الخضوع للدين هو السجود لله .

ومَنْ سجدوا ليوسف إنما سجدوا بأمر من الله ، فَهُم إذن يعقلون أمر الحق سبحانه وتعالى .

مثلهم في ذلك مَثَلُ ما جاء في قول الحق سبحانه : ﴿ إِذَا السماء انشقت * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق : 1-2] هذه السماء تعقل أمر ربها الذي بناها .

(212/391)

وقال عنها أنها بلا فُرُوجٍ : ﴿ أَفَلَمْ ينظروا إِلَى السمآء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق : 6] وهي أيضاً تسمع أمر ربها ، مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿ وَأَذِنَتْ

لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق : 2] .

أي : أنها امتلكت حاسة السمع ؛ لأن " أذنت " من الأذن ؛ وكأنها بمجرد سماعها لأمر الله ؛ تنفعل وتنشق .

وهكذا نجد أن كل عَالَم من عوالم الكون أُمَم مثل أمة البشر ، ويتفاهم الإنسان مع غيره من البشر ممَّن يشتركون معه في اللغة ، وقد يتفاهم مع البشر أمثاله ممن لا يعرف لغتهم بالإشارة ، أو من خلال مُترجم ، أو من خلال تعلُّم اللغة نفسها .

ولكن الإنسان لا يفهم لغة الجماد ، أو لغة النبات ، أو لغة الحيوان ؛ إلا إذا أنعم الله على عبد بأن يفهم عن الجماد ، أو أن يفهم الجماد عنه .

والمثل : هو تسبيح الجبال مع داود ، ويُشكِّل تسبيحه مع تسبيحها " جُوقة " من الانسجام مُكوَّن من إنسان مُسبِّح ؛ هو أعلى الكائنات ، والمُردِّد للتسبيح هي الجبال ، وهي من الجماد أدنى الكائنات .

ونحن نعلم أن كل الكائنات تُسبِّح ، لكننا لا نفقه تسبيحها ، ولكن الحق سبحانه يختار من عباده مَنْ يُعلِّمه مَنْطِق الكائنات الأخرى ، مثلما قال سبحانه عن سليمان : ﴿ وَوَرِثَ

سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ . . ﴾ [النمل : 16] وهكذا عَلِمْنا أن للطير منطقاً . وعلَّم الحقُّ سبحانه سليمان لغة النمل ؛ لأننا نقرأ قول الحق : ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل : 18-19] .

إذن : فلكلِ أُمَّة من الكائنات لغة ، وهي تفهم عن خالقها ، أو مَنْ أراد له الله سبحانه وتعالى أن يفهم عنها ، وبهذا نعلم أن الشمس والقمر والنجوم حين سجدتْ بأمر ربها ليوسف في رؤياه ؛ إنما فهمتْ عن أمر ربها .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ . . . ﴾ .

وحين يُورِد القرآن خطاب أب لابن لا نجد قوله ﴿ يا بني ﴾ وهو خطابُ تحنينٍ ، ويدل على القرب من القلب ، و " بُني " تصغير " ابن " .

أما حين يأتي القرآن بحديث أب عن ابنه فهو يقول " ابني " مثل قول الحق سبحانه عن نوح يتحدث عن ابنه الذي اختار الكفر على الإيمان : ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي . . . ﴾ [هود : 45] .

وكلمة " يا بني " بما فيها من حنان وعطف ؛ ستفيدنا كثيراً فيما سوف يأتي من مواقف يوسف ؛ ومواقف أبيه منه .

(214/391)

وقول يعقوب ليوسف " يا بني "يُفْهم منه أن يوسف عليه السلام ما زال صغيراً ، فيعقوب هو الأصل ، ويوسف هو الفرع ، والأصل دائماً يمتلئ بالحنان على الفرع ، وفي نفس الوقت نجد أيَّ أب يقول : مَنْ يأكل لقمتي عليه أن يسمع كلمتي .

وقول الأب : يا بني ، يفهم منه أن الابن ما زال صغيراً ، ليست له ذاتية منفصلة عن الأب ليقرر بها ما هو المناسب ، وما هو غير المناسب .

وحين يفزع يوسف مما يُزعِجه أو يُسيء إليه ؛ أو أي أمر مُعْضَل ؛ فهو يلجأ إلى مَنْ يحبه ؛ وهو الأب ؛ لأن الأب هو الأقدر في نظر الابن – على مواجهة الأمور الصعبة .

وحين روى يوسف عليه السلام الرؤيا لأبيه ؛ قال يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا بنِي لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ على إِخْوَتِكَ ﴾ [يوسف : 5] .

ونفهم من كلمة " رؤيا " أنها رؤيا منامية ؛ لأن الشمس والقمر والنجوم لا يسجدون لأحد ، وهذا ما يوضح لنا دقة اللغة العربية ، فكلمة واحدة هي " رأى " قد يختلف المعنى لها

باختلاف ما رُؤِيَ ؛ فرؤيتك وأنت يقظان يُقال عنها " رؤية " ؛ ورؤيتك وأنت نائم يُقال عنها " رؤيا " .

والرؤية مصدر مُتفق عليه من الجميع : فأنت ترى ما يراه غيرك ؛ وأما " الرؤيا " فهي تأتي للنائم .

وهكذا نجد الالتقاء في " رأى " والاختلاف في الحالة ؛ هل هي حالة النوم أو حالة اليقظة .

وفي الإعراب كلاهما مؤنث ؛ لأن علامة التأنيث إما : " تاء " ، أو " ألف ممدودة " ، أو " ألف مقصورة " .

وأخذت الرؤية الحقيقية التي تحدث في اليقظة " التاء " وهي عمدة التأنيث ؛ أما الرؤيا المنامية فقد أخذت ألف التأنيث .

ولا يقدح في كلمة " رؤيا " أنها منامية إلا آية واحدة في القرآن حيث تحدث الحق سبحانه عن لحظة أن عُرِجَ به صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء : 60] .

ولكن من يقولون : " إنها رؤيا منامية " لم يفقهوا المعنى وراء هذا القول ؛ فالمعنى هو : إن ما حدث شيء عجيب لا يحدث إلا في الأحلام ، ولكنه حدث في الواقع ؛ بدليل أنه قال عنها : أنها " فتنة للناس " .

فالرسول صلى الله عليه وسلم لو كان قد قال إنها رؤيا منامية لما كذَّبه أحد فيما قال : لكنه أعلن أنها رؤيا حقيقية ؛ لذلك عَبّر عنها القرآن بأنها فتنة للناس .

وهنا يقول يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا بنيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ على إِخْوَتِكَ . . ﴾ [يوسف : 5] .

لأن يعقوب عليه السلام كأب مأمونٌ على ابنه يوسف ؛ أما إخوة يوسف فهم غير مأمونين عليه ، وحين يقصّ يوسف رؤياه على أبيه ، فهو سينظر إلى الصالح ليوسف ويدلُّه عليه .

أما إن قصّ الرؤيا على إخوته ؛ فقد تجعلهم الأغيار البشرية يحسدون أخاهم ، وقد كان .

وإن تساءل أحد : ولماذا يحسدونه على رؤيا منامية ، رأى فيها الشمس والقمر وأحدَ عشرَ كوكباً يسجدون له ؟

نقول : لا بُدَّ أن يعقوب عليه السلام قد عَلِم تأويل الرُّؤيا : وأنها نبوءة لأحداث سوف تقع ؛ ولا بُدَّ أن يعقوب عليه السلام قد علم أيضاً قدرة إخوة يوسف على تأويل تلك الرؤيا ، ولو قالها يوسف لهم لَفهموا المقصود منها ، ولا بُدَّ حينئذ أن يكيدوا له كيداً يُصيبه بمكروه .

فهم قد أصابهم الضيق من يوسف وهو ما زال طفلاً ، فما باله بضيقهم إنْ عَلِموا مثل هذه

الرؤيا التي سيجد له فيها الأب والأم مع الإخوة .

ولا يعني ذلك أن نعتبر إخوة يوسف من الأشرار ؛ فهم الأسباط ؛ وما يصيبهم من ضيق بسبب عُلو عاطفة الأب تجاه يوسف هو من الأغيار التي تصيب البشر ، فهم ليسوا أشراراً بالسَّليقة ؛ لأن الشرير بالسَّليقة تتصاعد لديه حوادثُ السوء ، أما الخيِّر فتتنزَّل عنده حوادث السوء .

والمثال على ذلك : أنك قد تجد الشرير يرغب في أن يصفع إنساناً آخر صفعة على الخَدِّ ؛ ولكنه بعد قليل يفكر في تصعيد العدوان على ذلك الإنسان ، فيفكر أن يصفعه صفعتين بدلاً من صفعة واحدة ؛ ثم يرى أن الصفعتين لا تكفيان ؛ فيرغب أن يُزيد العدوان بأن يصوِّب عليه مسدساً ؛ وهكذا يُصعِّد الشرير تفكيره الإجرامي .

أما الخَيِّر فهو قد يفكر في ضرب إنسان أساء إليه " علقة " ؛ ولكنه يُقلِّل من التفكير في رَدِّ الاعتداء بأن يكتفي بالتفكير في ضربة صفعتين بدلاً من " العلقة " ، ثم يهدأ قليلاً ويعفو عَمَّنْ أساء إليه .

وإخوة يوسف وهم الأسباط بدءوا في التفكير بانتقام كبير من يوسف ، فقالوا لبعضهم :

﴿ اقتلوا يُوسُفَ . . . ﴾ [يوسف : 9] .

ثم هبطوا عن هذه الدرجة المُؤْلمة من تعبيرهم عن الغيرة من زيادةِ محبة أبيهم ليوسف ، فقالوا : ﴿ أَوِ اطرحوه أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ [يوسف : 9] .

وحينما أرادوا أن يطرحوه أرضاً ترددوا ؛ واستبدلوا ذلك بإلقائه في الجُبِّ لعل أن يلتقطه بعض السيَّارة . فقالوا : ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غيابت الجب يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة . . . ﴾ [يوسف : 10] .

وهذا يدل على أنهم تنزّلوا عن الانتقام الشديد بسبب الغيرة ؛ بل إنهم فكروا في نجاته .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ على إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً . . . ﴾ [يوسف : 5] .

والكيد : احتيال مستور لِمَنْ لا تقوى على مُجَابهته ، ولا يكيد إلا الضعيف ؛ لأن القوي يقدر على المواجهة .

ولذلك يُقَال : إن كيد النساء عظيم ؛ لأن ضعفهن أعظم .

ويُذيِل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ الشيطان لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف : 5] .

وهذه العداوة معروفة لنا تماماً ؛ لأنه خرج من الجنة ملعوناً مطروداً ؛ عكس آدم الذي قَبِل الله توبته ؛ وقد أقسم الشيطان بعزة الله لَيُغْوِينَّ الكُلَّ ، واستثنى عبادَ الله المخلصين .

ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : " لقد أعانني الله على شيطاني فأسلم " .

ويصف الحق سبحانه عداوة الشيطان للإنسان أنها عداوةٌ مُبينة . أي : محيطة . وحين نقرأ القرآن نجد إحاطة الشيطان للإنسان فيها يقظة : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ . . . ﴾ [الأعراف : 17] ولم يأت ذِكْر للمجيء من الفوقية أو من التحتية ؛ لأن مَنْ يحيا في عبودية تَحتية ؛ وعبادية فوقية ؛ لا يأتيه الشيطان أبداً .

ونلحظ أن الحق سبحانه جاء بقول يعقوب عليه السلام مخاطباً يوسف عليه السلام في هذه الآية :

﴿ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً ﴾ [يوسف : 5] ، ولم يقل : فيكيدوك ، وهذا من نَضْح نبوة يعقوب عليه السلام على لسانه ؛ لأن هناك فارقاً بين العبارتين ، فقول : " يكيدوك " يعني أن الشرَّ المستور الذي يدبرونه ضدك سوف يصيبك بأذى . أما ﴿ فَيَكِيدُواْ لَكَ . . . ﴾ [يوسف : 5] فتعني أن كيدهم الذي أرادوا به إلحاق الشر بك سيكون لحسابك ، ويأتي بالخير لك .

ولذلك نجد قوله الحق في موقع آخر بنفس السورة : ﴿ كذلك كِدْنَا لِيُوسُفَ . . . ﴾ [يوسف : 76] أي : كدنا لصالحه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ . . . ﴾ .

أي : كما آنسَكَ الله بهذه الرؤيا المُفْرِحة المُنْبِئة بأنه سيكون لك شأن كبير بالنسبة لإخوتك وبالنسبة لأبيك ، فلسوف يجتبيك ربك ؛ لا بأن يحفظك فقط ؛ ولكن بأن يجعل كيدهم سبباً لصالحك ، ويُعلِّمك من تأويل الأحاديث ما يجعل أصحابَ الجاهِ والنفوذ يلتفتون إليك .

(218/391)

ومعنى تأويل الشيء أي معرفة ما يؤول إليه الشيء ، ونعلم أن الرُّؤى تأتي كطلاسم ، ولها شَفرة رمزية لا يقوم بحِلّها إلا مَنْ وهبه الله قدرة على ذلك ؛ فهي ليست عِلْماً له قواعد وأصول ؛ لأنها إلهامات من الله سبحانه وتعالى .

وبعد ذلك تصير يا يوسف على خزائن الأرض ؛ حين يُوجد الجَدْبُ ، ويعُمُّ المنطقة كلها ، وتصبح عزيز مصر .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ . . . ﴾ [يوسف : 6] .

فكل ما تَمَتَّع به يوسف هو من نعم الدنيا ، وتاج نعمة الدنيا أن الله اجتباه رسولاً .

أو أن : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ . . . ﴾ [يوسف : 6] .

بمعنى إلا تسلب منك النعمة أبداً ؛ ففي حياة يوسف منصبٌ مهم ، هو منصب عزيز مصر ، والمناصب من الأغيار التي يمكن أن تنزع .

أو أن : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ . . . ﴾ [يوسف : 6] .

بأن يصل نعيم دنياك بنعيم أُخْراك .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وعلى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا على أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف : 6] .

يُذكِّر الحق سبحانه يوسف عليه السلام بأن كيد إخوته له لا يجب أن يُحوّله إلى عداوة ؛ لأن النِّعم ستتم أيضاً على هؤلاء فهم آلُ يعقوب ؛ هم وأبناؤهم حَفَدة يعقوب ، وسينالهم بعضٌ من عِزِّ يوسف وجاهه وماله ، كما أتمَّها من قبل على إبراهيم الجد الأول ليوسف باتخاذه خليلا لله ، وأتمَّ سبحانه نعمته على إسحق بالنبوة .

وهو سبحانه أعلم بمَنْ يستحق حمْل الرسالة ، وهو الحكيم الذي لا يترك شيئاً للعبث ؛ فهو

المُقدِّر لكل أمر بحيث يكون مُوافِقاً للصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(219/391)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4) ﴾

أخرج أحمد والبخاري عن ابن عمر رضي الله عنه ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وابن مردوية عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكباً ﴾ قال رؤيا الأنبياء وحي .

وأخرج سعيد بن منصور والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والعقيلي وابن حبان في الضعفاء ، وأبو الشيخ والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي

معاً في دلائل النبوة ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : جاء بستاني يهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "يا محمد ، أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام ساجدة له ، ما أسماؤها ؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فلم يجبه بشيء . فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البستاني اليهودي فقال : هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها ؟ قال نعم . قال : حرثان والطارق والذيال وذو الكفتان وقابس ودثان وهودان والفيلق والمصبح والضروح والفريخ والضياء والنور ، رآها في أفق السماء ساجدة له ، فلما قص يوسف على يعقوب قال : هذا أمر مشتت يجمعه الله من بعد ، فقال اليهودي : أي والله ، أنها لأسماؤها .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ أحد عشر كوكباً ﴾ قال : إخوته . والشمس قال امه ، والقمر : قال أبوه ، ولأمه راحيل ثلث الحسن .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ﴾ قال : الكواكب إخوته ، والشمس والقمر أبواه .

وأخرج ابن جرير عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكباً ﴾ الآية . قال : رأى أباه وإخوته سجوداً له .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه في الآية قال : قال إخوته – وكانوا أنبياء – ما رضي أن يسجد له إخوته حتى سجد له أبواه حين بلغهم .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن منبه عن أبيه قال : كانت رؤيا يوسف عليه السلام ليلة القدر .

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ﴾ قال يصطفيك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ قال : عبارة الرؤيا .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ قال : تأويل العلم والحلم . قال : وكان يومئذ أعبر الناس .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه في قوله : ﴿ كما أتمها على أبويك من قبل

إبراهيم وإسحق ﴾ قال: فنعمته على إبراهيم نجاه من النار، وعلى إسحق أن نجاه من الذبح. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(221/391)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال السمين:

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4) ﴾

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ﴾: في العاملِ فيه أوجهُ، أظهرها: أنه منصوبٌ ب ﴿ قَالَ يا بني ﴾ [يوسف: 5]، أي: قال يعقوب: يا بُنَيِّ، وقتَ قولِ يوسفَ له كيت وكيت، وهذا أسهلُ الوجوهِ، إذ فيه إبقاءُ "إذ" على كونِه ظرفاً ماضياً. وقيل: الناصبُ له "الغافلين" قاله مكي. وقيل: هو منصوبٌ ب "نَقُصُّ"، أي: نَقُصُّ عليك وقتَ قولِه كيت وكيت، وهذا فيه إخراجُ "إذ" عن المضيِّ وعن الظرفية، وإن قَدَّرْتَ المفعولَ محذوفاً، أي: نَقُصُّ عليك الحالَ وقتَ قولِه، لزم إخراجها عن المُضِيِّ. وقيل: هو منصوبٌ بمضمر، أي: اذكر. وقيل: هو منصوب على أنه بدلٌ مِنْ "أَحْسَنَ القصص" بدلُ اشتمال. قال الزمخشري:

"لأنَّ الوقتَ يَشْمل على القصص وهو المقصوص" .

قوله : ﴿ يا أبت ﴾ قرأ ابن عامر بفتح التاء ، والباقون بكسرِها . وهذه التاءُ عوضٌ من ياء المتكلم ، ولذلك لا يجوز الجمعُ بينهما إلا ضرورةً ، وهذا يختصُّ بلفظتين . يا أبت ، ويا أَمتِ ولا يجوز في غيرهما من الأسماء لو قلت : "يا صاحِبَتِ" لم يَجُز البتة ، كما اختصَّتْ لفظةُ الأمِ والعمِّ بحكمٍ في نحو "يا بن أُمَّ" . ويجوز الجمعُ بين هذه التاءِ وبين كلٍ مِنَ الياءِ والألفِ ضرورةً كقوله :

2734 يا أَبَتا عَلَّكَ أو عَساكا . . . وقول الآخر :

2735 أيا أَبَتا لا تَزَلْ عندنَا . . . فإنَّا نخافُ بأنْ نُخْتَرَمْ

وقول الآخر :

2736 أيا أبتي لا زِلْتَ فينا فإنَّما . . . لنا أَمَلٌ في العيشِ ما دُمْتَ عائِشا

(222/391)

وكلام الزمخشري يُؤْذِنُ بأنَّ الجمعَ بين التاءِ والألفِ ليس ضرورةً فإنه قال : " فإن قلت : فما هذه الكسرةُ؟ قلت : هي الكسرةُ التي كانت قبل الياءِ في قولِك "يا أبي" فَزُحْلِقَتْ إلى التاء لاقتضاءِ تاءِ التأنيثِ أن يكونَ ما قبلها مفتوحاً . فإن قُلْتَ : فما بالُ الكسرةِ لم تَسْقُطْ

بالفتحة التي اقْتَضَتْها التاءُ ، وتبقى التاءُ ساكنة؟ قلت : امتنع ذلك فيها لأنها اسمٌ ، والأسماءُ حقُّها التحريكُ لأصالتِها في الإعراب ، وإنما جاز تسكينُ الياء وأصلُها أن تُحرَّكَ تخفيفاً لأنها حرف لين ، وأمَّا التاءُ فحرفٌ صحيحٌ نحو كاف الضمير ، فلزم تحريكُها . فإنْ قلت : يُشْبه الجمعُ بين هذه التاءِ وبين هذه الكسرةِ الجمعَ بين العِوَضِ والمُعَوَّضِ منه ؛ لأنها في حكم الياءِ إذا قلتَ : يا غلامِ ، فكما لا يجوزُ " يا أبتي " لا يجوز " يا أبتِ " . قلت : الياء والكسرةُ قبلها شيئان ، والتاءُ عوضٌ من أحد الشيئين وهو الياءُ ، والكسرةُ غيرُ مُتَعَرَّضٍ لها ، فلا يُجْمَعُ بين العِوَض والمُعَوَّض منه ، إلا إذا جُمِعَ بين التاءِ والياءِ لا غير . ألا ترى إلى قولهم : " يا أبتا " مع كونِ الألفِ فيه بدلاً من الياء كيف جاز الجمعُ بينها وبين التاء ، ولم يُعَدَّ ذلك جمعاً بين العوض والمعوض منه ؟ فالكسرة أبعدُ من ذلك .

فإن قلتَ : قد دَلَّتِ الكسرةُ في " يا غلامِ " على الإِضافة لأنها قرينةُ الياءِ ولصيقتُها ، فإن دَلَّت على مِثْلِ ذلك في " يا أبت " فالتاء المعوَّضَةُ لَغْوٌ ، وجودُها كعَدَمِها . قلت : بل حالُها مع التاءِ كحالِها مع الياءِ إذا قلت : يا أبي " .

وكذا عبارة الشيخ فإنه قال : " وهذه التاءُ عوضٌ من ياء الإِضافة فلا تجتمعان ، وتجامعُ الألفَ التي هي بدلٌ من الياء قال :

2737 يا أَبَتا عَلَّكَ أو عَسَاكا . . . / وفيه نظرٌ من حيث إنَّ الألفَ كالياءِ لكونها بدلاً منها ، فينبغي أن لا يُجْمَعَ بينهما .

وهذ التاءُ أصلُها للتأنيث قال الزمخشري : " فإن قلت : ما هذه التاءُ ؟ قلت : تاءُ تأنيثٍ وقعت عوضاً من ياء الإضافة ، والدليلُ على أنَّها تاءُ تأنيثٍ قَلْبُها هاءً في الوقف " . قلت : وما ذَكَرَه مِنْ كونها تُقْلَبُ هاءً في الوقف قرأ به ابنُ كثير وابنُ عامر ، والباقون وقفوا عليها بالتاء ، كأنهم أَجْرَوْها مُجْرى تاء الإِلحاق في بنت وأخت ، ومِمَّنْ نَصَّ على كونِها للتأنيث سيبويه فإنه قال : " سألتُ الخليل عن التاء في " يا أبت " فقال : " هي بمنزلة التاء في تاء خالة وعمَّة " يعني أنها للتأنيث ، ويدلُّ على كونِها للتأنيث أيضاً كَتْبُهم إياها هاءً ، وقياس مَنْ وَقَفَ بالتاءِ أن يكتَبها تاءً كبنت وأخت .

ثم قال الزمخشري : " فإن قلت : كيف جاز إلحاق تاء التأنيث بالمذكر ؟ قلت : كما جاز نحو قولك : حمامة ذَكَر وشاةٌ ذكر ورجل رَبْعَة وغلام يَفَعَة " . قلت : يعني أنها جِيْءَ بها لمجردِ تأنيث اللفظ كما في الألفاظِ المستشهد بها . ثم قال الزمخشري : " فإن قلتَ : فلِمَ ساغ تعويضُ تاءِ التأنيث من ياءِ الإِضافة ؟ قلت : لأنَّ التأنيثَ والإِضافةَ يتناسبان في أنَّ كلِّ واحدٍ منهما زيادةٌ مضمومةٌ إلى الاسم في آخره " . قلت : وهذا قياسٌ بعيدٌ لا يُعمل به عند الحُذَّاق ، فإنه يُسَمَّى الشَّبَه الطردي ، يني أنه شَبَهٌ في الصورة .

وقال الزمخشري : "إنه قُرِئ "يا أَبَت" بالحركات الثلاث" . فأمَّا الفتحُ والكسر فقد عَرَّفْتُهما لقارئهما ، وأمَّا الضمُّ فغريبٌ جداً ، وهو يُشْبِهُ مَنْ يَبْني المنادى المضافَ لياء المتكلم على الضم كقراءةِ مَنْ قرأ وستأتي إن شاء اللَّه ﴿ قَالَ رَبُّ احكم ﴾ [الأنبياء : 112] بضم الباء ، ويأتي توجيهها هناك ، ولِمَ قُلْنا إنه مضافٌ للياء ولم نجعلْه مفرداً من غير إضافة؟ .

(224/391)

وقد تقدَّم توجيهُ كَسْرِ هذه التاء بما ذكره الزمخشري من كونِها هي الكسرةَ التي قبل الياء زُحْلِقَتْ إلى التاء . وهذا أحد المَذْهَبَيْن ، والمذهب الآخر : أنها كسرةٌ أجنبية جيء بها لتدلَّ على الياء المعوَّض منها ، وليس بخلافٍ طائل .

وأمَّا الفتحُ ففيه أربعةُ أوجه ، ذكر الفارسي منها وجهين ، أحدهما : أنه اجْتَزَأَ بالفتحة عن الألف ، يعني عن الألف المنقلبة عن الياء ، كما اجتزأ عنها الآخر بقوله :

2738 ولَسْتُ براجعٍ ما فاتَ مِنّي ... بلَهْفَ ولا بلَيْتَ ولا لَوَنِّي

وكما اجتُرِئ بها عنها في يا بن أمَّ ، ويا بن عمّ كما تقدم . والثاني : أنَّه رُخِّم بحذف التاء ، ثم أقحمت التاء مفتوحة ، وهذا كما قال النابغة :

2739 كِلِيْني لِهَمٍّ يا أُمَيمَةَ ناصِبِ . . . وليلٍ أقاسِيه بطيءِ الكواكبِ

بفتح تاء "أُمَيْمة" على ما ذَكَرْتُ لك .

الثالث : ما ذكره الفراء وأبو عبيد وأبو حاتم وقطرب في أحد قوليه وهو أنَّ الألفَ في " يا أبتا " للندبة ، ثم حَذَفها مُجْتَزِئاً عنها بالفتحة . وهذا قد يَنْفَعُ في الجواب عن الجمع بين العِوَض والمُعَوَّض منه . وقد ردَّ بعضُهم هذا المذهبَ بأنَّ الموضع ليس موضعَ ندبة .

الرابع : أنَّ الأصلَ : يا أبةً بالتنوين ، فحذف التنوين لأنَّ النداءَ بابُ حَذْفٍ ، وإلى هذا ذهب قطرب في القول الثاني . وقد رُدَّ هذا عليه بأن التنوينَ لا يُحْذَفُ من المنادى المنصوب نحو : "يا ضارباً رجلاً" .

وقرأ أبو جعفر "يا أبي" بالياء ، ولم يُعَوِّض منها التاء .

وقرأ الحسن وطلحة بن سليمان : "أحدَ عْشر" بسكون العين ، كأنهم قصدوا التنبيه بهذا التخفيفِ على أنَّ الاسمين جُعِلا اسماً واحداً .

(225/391)

وقوله : ﴿ والشمس والقمر ﴾ يجوز فيه وجهان ، أحدهما : أن تكونَ الواوُ عاطفةً ، وحينئذ يحتمل أن يكون ذلك من باب ذِكْر الخاص بعد العام تفصيلاً ؛ لأن الشمسُ والقمر

دخلا في قوله ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ﴾ فهو كقوله : ﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ [البقرة : 98] بعد قوله : " وملائكتِه " ، ويُحْتمل أن لا يكون كذلك ، وتكون الواوُ لعطفِ المُغَايِر ، فيكون قد رأى الشمس والقمر زيادةً على الأحدَ عشرَ بخلاف الأول ، فإنه يكون رأى الأحدَ عشرَ ، ومِنْ جملتها الشمس والقمر ، والاحتمالان منقولان عن أهل التفسير ، وممَّنْ نَقَلَهما الزمخشري .

والوجه الثاني : أن تكونَ الواوُ بمعنى مع ، إلا أنه مرجوحٌ ، لأنه متى أمكن العطفُ من غير ضعفٍ ولا إخلالِ معنىً رَجَح على المعيَّة ، وعلى هذا فيكون كالوجه الذي قبله بمعنى أنه رأى الشمسَ والقمرَ زيادةً على الأحد عشر كوكباً .

وقوله : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ يحتمل وجهين ، أحدهما : أنها جملةٌ كُرِّرَتْ للتوكيد لَمَّا طال الفصلُ بالمفاعيل كُرِّرَتْ كما كررت " أنكم " في قوله : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ / إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ ﴾ [المؤمنون : 35] كذا قاله الشيخ ، وسيأتي تحقيق هذا إن شاء اللَّه تعالى . والثاني : أنه ليس بتأكيدٍ ، وإليه نحا الزمخشري : فإنه قال : " فإن قُلْتَ : ما معنى تكرارِ " رأيتُهم " ؟ قلت : ليس بتكرارٍ ، إنما هو كلامٌ مستأنفٌ على تقديرِ سؤالٍ وقع جواباً له ، كأنَّ يعقوبَ عليه السلام قال له عند قوله : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ كيف رأيتها ؟ سائلاً عن حال رؤيتها ، فقال : رأيتهم لي ساجدين " .

قلت : وهذا أظهرُ لأنه متى دار الكلامُ بين الحَمْل على التأكيد أو التأسيس فَحَمْلُه على الثاني أولى .

(226/391)

و " ساجدين " صفةٌ جُمِع جَمْعَ العقلاء . فقيل : لأنه لمَّا عامَلَهم معاملةَ العقلاء في إسنادِ فِعْلهم إليهم جَمَعَهم جَمْعَهم ، والشيءُ قد يُعامَلُ معاملةَ شيءٍ آخرَ إذا شاركه في صفةٍ ما . والرؤيةُ هنا مناميَّةٌ ، وقد تقدَّم أنها تنصب مفعولين كالعِلْمية ، وعلى هذا يكون قد حَذَفَ المفعولَ الثاني من قوله ﴿ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ﴾ ولكنَّ حَذْفَه اقتصاراً ممتنعٌ ، فلم يَبْقَ إلا اختصاراً ، وهو قليل أو ممتنع عند بعضهم .

قوله تعالى : ﴿ لاَ تَقْصُصْ ﴾ : قرأ العامَّة بفكِّ الصادَّيْن وهي لغةُ الحجاز . وقرأ زيد بن علي بصادٍ واحدة مشدَّدة ، والإِدغامُ لغةُ تميم . وقد تقدَّم تحقيقُ هذا في المائدة عند قوله ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ ﴾ [المائدة : 54] .

والرؤيا مصدرٌ كالبُقْيا . وقال الزمخشري : " الرؤيا بمعنى الرؤية ، إلا أنها مختصةٌ بما كان في النوم دون اليقظة ، فرَّق بينهما بحَرْفي التأنيث كما قيل القُرْبَةُ والقربى " .

وقرأ العامَّة " الرُّؤْيا " بهمزٍ مِنْ غير إمالة ، وقرأها الكسائي في رواية الدُّوري عنه بالإِمالة .

وأمّا الرؤيا ورؤياي الاثنتان في هذه السورة فأما لهما الكسائي من غير خلافٍ في المشهور ، وأبو عمرو يُبْدِلُ هذه الهمزةَ واواً في طريق السوسي . وقال الزمخشري : " وسمع الكسائي " رُيَّاك " و " رِيَّاك " بالإِدغام وضم الراء وكسرها ، وهي ضعيفةٌ لأنَّ الواو في تقدير الهمزة فلم يَقْوَ إدغامها كما لم يَقْوَ إدغام " اتَّزر " من الإِزار واتَّجَرَ من الأَجْر " يعني أنَّ العارض لا يُعْتَدُّ به ، وهذا هو الغالب . وقد اعتدَّ القُرَّاءُ بالعارض في مواضع ستقف بها على أشياءَ إن شاء اللَّهُ نحو " رِيّا " في قوله ﴿ أَثَاثاً ورِءْياً ﴾ [مريم : 74] عند حمزة ، و ﴿ عَاداً الأولى ﴾ [النجم : 50] .

(227/391)

وأمّا كسرُ " رِيَّاك " فلئلاَّ يؤدِّي إلى ياء ساكنة بعد ضمة ، وأمَّا الضمُّ فهو الأصل ، والياءُ صد اسْتُهْلِكَتْ بالإِدغام .

قوله : ﴿ فَيَكِيدُواْ ﴾ منصوبٌ في جواب النهي وهو في تقدير شرط وجزاء ، ولذلك قدَّره الزمخشري بقوله : " إنْ قصصتها عليهم كادوك " . و " كَيْداً " فيه وجهان ، أحدهما : وهو الظاهر أنه مصدرٌ مؤكدٌ ، وعلى هذا ففي اللام في قوله " لك " خمسةُ أوجهٍ ، أحدُها : أن يكون " يكيد " ضُمِّن " معنى ما يتعدّى باللام ؛ لأنه في الأصل متعدٍّ بنفسه قال

تعالى : ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ﴾ [هود : 55] والتقدير : فيحتالوا لك بالكيد . قال الزمخشري مقرراً لهذا الوجه : " فإنْ قلتَ : هلاّ قيل : فيكيدوك كما قيل فكيدوني . قلت : ضُمِّن معنى فعلٍ يتعدى باللام ليفيدَ معنى فعلِ الكيد مع إفادة معنى الفعل المضمَّن فيكون آكدَ وأَبْلَغَ في التخويف وذلك نحو : فيحتالوا لك ، ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر " .

الوجه الثاني من أوجهِ اللام : أن تكونَ مُعَدِّيةً ، ويكون هذا الفعلُ ممَّا يتعدى بحرفِ الجر تارةً ، وبنفسِهِ أخرى كنصح وشكر ، كذا قاله الشيخ وفيه نظرٌ ، لأنَّ ذاك بابٌ لا يَنْقاس إنما يُقْتصر فيه على ما ذكره النحاةُ ولم يَذْكروا منه "كاد " .

الثالث : أن اللامَ زائدةٌ في المفعول به كزيادتها في قوله ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ قاله أبو البقاء وهو ضعيف ؛ لأنَّ اللامَ لا تُزاد إلا بأحد شرطين : تقديم المعمولِ أو كونِ العاملِ فرعاً .

الرابع : أن تكونَ اللامُ للعلة ، أي : فيكيدوا من أجلك ، وعلى هذا فالمفعول محذوفٌ اقتصاراً أو اختصاراً . /

الخامس : أن تتعلَّق بمحذوفٍ ، لأنها حالٌ مِنْ : "كَيْداً " إذ هي في الأصلِ يجوزُ أن تكونَ صفةً لو تأخَّرَتْ " .

الوجه الثاني مِنْ وَجْهَيْ "كَيْداً" أن يكونَ مفعولاً به، أي: فيصنعوا لك كيداً، أي: أمراً يكيدونَك به، وهو مصدرٌ في موضع الاسمِ ومنه ﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ﴾ [طه: 64]، أي: ما تكيدون به، ذكره أبو البقاء وليس بالبيِّن، وعلى هذا ففي اللامِ في "لك" وجهان فقط: كونُها صفةً في الأصل ثم صارَتْ حالاً، أو هي للعلة، وأمَّا الثلاثةُ الباقيةُ فلا تتأتى وامتناعُها واضح.

قوله تعالى: ﴿ وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّك ﴾ الكاف في موضع نصبٍ أو رفعٍ، فالنصبُ: إمَّا على الحال من ضمير المصدر المقدَّر، وقد تقدم أنه رأيُ سيبويه، وإمَّا على النعتِ لمصدرٍ محذوف والمعنى: مثلَ ذلك الاجتباء العظيم يَجْتبيك. والرفعُ على خبر ابتداء مضمر أي: الأمرُ كذلك. وقد تقدَّم له نظائر.

قوله: ﴿ وَيُعَلِّمُكَ ﴾ مستأنفٌ ليس داخلاً في حَيِّز التشبيه، والتقدير: وهو يُعَلِّمك.

والأحاديث: جمع تكسير، فقيل: لواحدٍ ملفوظٍ به وهو "حديث" ولكنه شَذَّ جمعُه على أحاديث، وله أخواتٌ في الشذوذ كأباطيل وأقاطيع وأعاريض في باطل وقطيع وعَرُوض. وزعم أبو زيد أن لها واحداً مقدراً وهو أُحْدُوثة ونحوه، وليس باسم جمعٍ؛ لأنَّ هذه الصيغةَ مختصة بالتكسير، وإذا كانوا قد التزموا ذلك فيما لم يُصَرَّح له بمفردٍ مِنْ لفظه نحو: عباديد وشماطيط وأبابيل ففي "أحاديث" أَوْلى، ولهذا رُدَّ على الزمخشري قولُه: "وهي اسم جمعٍ للحديث وليس بجمعِ أُحْدوثة" بما ذكرته، ولكنَّ قولَه "ليس بجمعِ

أُحْدوثة " صحيحٌ ؛ لأن مذهبَ الجمهور خلافُه ، على أنّ كلامَه قد يريد به غيرَ ظاهرِه مِنْ قوله اسم جمع .

وقوله : ﴿ عَلَيْكَ ﴾ يجوز أَنْ يتعلَّق ب "يُتمَّ" ، وأن يتعلَّقَ ب "نعمته" . وكرَّر "على" في قوله : "وعلى آل" ليمكنَ العطفُ على الضمير المجرور . هذا مذهبُ البصريين ، وتقدَّم بيانه . وقوله : "مِنْ قبلُ" أي مِنْ قبلك .

(229/391)

قوله : ﴿ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ يجوز أن يكونَ بدلاً من "أبويك" أو عطف بيان ، أو على إضمارِ أَعْني . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 431 . 441 ﴾

(230/391)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي

سَاجِدِينَ (4) ﴾

لما ذكر يوسف – عليه السلام – رؤياه لأبيه عَلِمَ يعقوبُ – عليه السلام – صِدْقَ تعبيرها ، ولذلك كان دائم التذكُّر ليوسف مدةَ غيبته ، وحين تطاولتْ كان يَذْكُرُه حتى قالوا : ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : 85] فقال : ﴿ إِنِى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : 96] فهو كان على ثقةٍ من صِدْقِ رؤياه .

فإنْ قيل : فإذا كان الصبيّ لا حُكْمَ لفعله فكيف يكون حكم لرؤياه ؟ وما الفرق ؟ فيقال : إن الفعل بتَعَمُّدٍ يحصل فيكون مُعْرَّضاً لتقصير فاعله ، أمَّا الرؤيا فلا تكون بتعمد منه فتنسب إلى نقصان .

ويقال إنَّ حقَّ السِّرِّ ولو كان على مَنْ هو قريب منك ؛ فإن يوسف لما أظهر سِرَّ رؤياه على أبيه اتصل به البلاءُ .

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5) ﴾

إذا جاء القضاءُ لا ينفع الوعظ والحذر ؛ فإن النصيحة والحذر لا يزيدان على ما نصح يعقوب ليوسف عليهما السلام ، ولكن لمَّا سبق التقديرُ في أمر يوسف – عليه السلام – حصل ما حصل .

ويقال إن يوسف خَالَفَ وصية أبيه في إظهارِ رؤياه إذ لو لم يُظْهِرْها لما كادوا له ، فلا جرَم

بسبب مخالفته لأبيه – وإن كان صبياً صغيراً – لم يَعْرَ مِنَ البلايا .

ويقال لما رأى يوسف في منامه ما كان تأويلُه سجودَ الأخوة له رأى ما تعبيره : وسجود أبيه وخالته حيث قال تعالى : ﴿ وَالْشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴾ ؛ فدخل الإخوة الحَسَدَ أما الأب فلم يدخله إلا بنفسه لِفَرْطِ شفقة الأبوة .

(231/391)

ويقال صَدَقَ تعبيره في الإخوة فسجدوا له حيث قال : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدَاً ﴾ [يوسف : 100] ولم يسجد الأبُ ولا خالته حيث قال : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [يوسف : 100] فإن يوسفَ صانَهما عن ذلك مراعاةً لحشمة الأبوة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ .

أي كما أمرك بهذه الرؤيا التي أَرَاكَها يجتبيك ويُحْسِنُ إليك بتحقيق هذه الرؤيا ، وكما أكرمك بوعد النعمة أكرمك بتحقيقها .

ويقال الاجتباء ما ليس للمخلوق فيه أثر ، فما يحصل للعبد من الخيرات – لا بتكلفه ولا بتعمده – فهو قضية الاجتباء .

ويقال من الاجتباء المذكور أَنْ عَصَمَه عن ارتكاب ما راودته امرأة العزيز عن نفسه .

ويقال من قضية الاجتباء إسباله الستر على فعل إخوته حيث قال : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ ﴾ [يوسف : 100] ، ولم يذكر خلاصه من البئر ومن قضية الاجتباء توفيقه لسرعة العفو عن إخوته حيث قال : ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ [يوسف : 92] .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ .

أي لتعرف قَدْرَ كل احد ، وتقفَ على مقدار كلِّ قائلٍ بما تسمع من حديثه . . لا مِنْ قوله بل لِحدّة كياستك وفرْطِ فراستك .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

مِنْ إتمام النعمة توفيقُ الشكر على النعمة ، ومن إتمام النعمة صَوْنُها عن السَّلب والتغيير ، ومن إتمام النعمة التَّحرز منها حتى تَسْهُل عليكَ السماحةُ بها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 167. 169 ﴾

فصل

قال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1) ﴾

قوله : ﴿ الر ﴾ : قد تقدّم الكلام فيه في فاتحة سورة يونس ، والإشارة بقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ إلى آيات السورة ، و ﴿ الكتاب المبين ﴾ : السورة ، أي : تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهم .

والمبين من أبان ، بمعنى بان ، أي : الظاهر أمره في كونه من عند الله وفي إعجازه ، أو المبين بمعنى : الواضح المعنى بحيث لا يلتبس على قارئه وسامعه ، أو المبين لما فيه من الأحكام .

﴿ إِنَّا أنزلناه ﴾ : أي الكتاب المبين حال كونه ﴿ قُرْءانًا عَرَبِيًّا ﴾ ، فعلى تقدير أن الكتاب : السورة تكون تسميتها قرآناً باعتبار أن القرآن اسم جنس يقع على الكل ، وعلى البعض ، وعلى تقدير أن المراد بالكتاب كل القرآن ، فتكون تسميته قرآناً واضحة ، و ﴿ عربياً ﴾ صفة ل ﴿ قرآناً ﴾ ، أي : على لغة العرب ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي : لكي تعلموا معانيه ، وتفهموا ما فيه .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ القصص : تتبع الشيء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ [القصص : 11] ، أي : تتبعي أثره وهو مصدر ، والتقدير : نحن نقصّ عليك قصصاً أحسن القصص ، فيكون بمعنى الاقتصاص ، أو بمعنى المفعول ، أي : المقصوص ، ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي : بإيحائنا إليك ﴿ هذا القرءان ﴾ وانتصاب القرآن على أنه صفة لاسم الإشارة ، أو بدل منه ، أو عطف بيان ، وأجاز الزجاج الرفع على تقدير مبتدأ ، وأجاز الفراء الجرّ ، ولعل وجهه أن يقدّر حرف الجرّ في ﴿ بما أوحينا ﴾ داخلاً على اسم الإشارة ، فيكون المعنى : نحن نقص عليك أحسن القصص بهذا القرآن ، ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ﴾ " إن " هي المخففة من الثقيلة بدليل اللام الفارقة بينها وبين النافية ، والضمير في ﴿ من قبله ﴾ عائد على الإيحاء المفهوم من أوحينا ، والمعنى : أنك قبل إيحائنا إليك من الغافلين عن هذه القصة .

واختلف في وجه كون ما في هذه السورة هو أحسن القصص ، فقيل : لأن ما في هذه السورة من القصص يتضمن من العبر والمواعظ والحكم ما لم يكن في غيرها .

وقيل : لما فيها من حسن المحاورة ، وما كان من يوسف عليه السلام من الصبر على أذاهم وعفوه عنهم ، وقيل : لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجنّ والإنس والأنعام والطير وسير الملوك والمماليك ، والتجار ، والعلماء والجهال ، والرجال والنساء وحيلهنّ ومكرهنّ .

وقيل : لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب ، وما دار بينهما .

وقيل : إن ﴿ أحسن ﴾ هنا بمعنى : أعجب .

وقيل : إن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة .

قوله : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ ﴾ "إذ" منصوب على الظرفية بفعل مقدّر ، أي : اذكر وقت قال يوسف .

قرأ الجمهور : ﴿ يوسف ﴾ بضم السين ، وقرأ طلحة بن مصرف بكسرها مع الهمز مكان الواو ، وحكى ابن زيد الهمز وفتح السين ، وهو غير منصرف للعجمة والعلمية .

وقيل : هو عربي ، والأول أولى بدليل عدم صرفه ، ﴿ لأَبِيهِ ﴾ أي : يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﴿ يا أبت ﴾ بكسر التاء في قراءة أبي عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ونافع وابن كثير ، وهي عند البصريين علامة التأنيث ولحقت في لفظ أب في النداء خاصة بدلاً من الياء وأصله : يا أبي ، وكسرها للدلالة على أنها عوض عن حرف يناسب الكسر ، وقرأ ابن عامر بفتحها ؛ لأن الأصل عنده يا أبتا ، ولا يجمع بين العوض والمعوّض ، فيقال : يا أبتى ، وأجاز الفراء (يا أبت) بضم التاء ، ﴿ إِنِّى رَأَيْتُ ﴾ من الرؤيا النومية لا من الرؤية

البصرية كما يدل عليه ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ﴾ .

قوله : ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ قرئ بسكون العين تخفيفاً لتوالي الحركات ، وقرأ بفتحها على الأصل ﴿ والشمس والقمر ﴾ إنما أخرهما عن الكواكب لإظهار مزيتهما وشرفهما ، كما في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة .

وقيل : إن الواو بمعنى : " مع " ، وجملة : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ مستأنفة لبيان الحالة التي رآهم عليها .

وأجريت مجرى العقلاء في الضمير المختص بهم لوصفها بوصف العقلاء ، وهو كونها ساجدة ، كذا قال الخليل وسيبويه ، والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل ، إذا أنزلوه منزلته .

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ﴾ الرؤيا مصدر رأى في المنام ، رؤيا على وزن فعلى ، كالسقيا والبشرى وألفه للتأنيث ولذلك لم يصرف .

نهى يعقوب عليه السلام ابنه يوسف عن أن يقصّ رؤياه على إخوته ؛ لأنه قد علم تأويلها وخاف أن يقصها على إخوته فيفهمون تأويلها ويحصل منهم الحسد له ، ولهذا قال : ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ وهذا جواب النهي وهو منصوب بإضمار أن ، أي : فيفعلوا لك ، أي : لأجلك كيداً مثبتاً راسخاً لا تقدر على الخلوص منه ، أو كيداً خفياً عن فهمك .

وهذا المعنى الحاصل بزيادة اللام آكد من أن يقال : فيكيدوا كيداً .

وقيل : إنما جيء باللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدى باللام ، فيفيد هذا التضمين معنى الفعلين جميعاً ، الكيد والاحتيال ، كما هو القاعدة في التضمين أن يقدر أحدهما أصلاً والآخر حالاً ، وجملة : ﴿ إِنَّ الشيطان للإنسان عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ مستأنفة ، كأن يوسف عليه السلام قال : كيف يقع منهم ؟ فنبهه بأن الشيطان يحملهم على ذلك ؛ لأنه عدو للإنسان مظهر للعدواة ، مجاهر بها .

قوله : ﴿ وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أي مثل ذلك الاجتباء البديع الذي رأيته في النوم من سجود الكواكب والشمس والقمر يجتبيك ربك ، ويحقق فيك تأويل تلك الرؤيا ، فيجعلك نبياً ، ويصطفيك على سائر العباد ، ويسخرهم لك كما تسخرت لك تلك الأجرام التي رأيتها في منامك فصارت ساجدة لك .

قال النحاس : والاجتباء : أصله من جبيت الشيء حصلته ، ومنه جبيت الماء في الحوض جمعته ، ومعنى الاجتباء : الاصطفاء ، وهذا يتضمن الثناء على يوسف ، وتعديد نعم الله عليه ، ومنها : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ أي : تأويل الرؤيا .

قال القرطبي : وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا ، وقد كان يوسف عليه السلام أعلم الناس

بتأويلها .

وقيل المراد : ويعلمك من تأويل أحاديث الأمم والكتب .

وقيل المراد به : إحواج إخوته إليه .

وقيل : إنجاؤه من كل مكروه ، وقيل : إنجاؤه من القتل خاصة .

(236/391)

﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ فيجمع لك بين النبوة والملك ، كما تدل عليه هذه الرؤيا التي أراك الله ، أو يجمع لك بين خيري الدنيا والآخرة ﴿ وعلى ءالِ يَعْقُوبَ ﴾ وهم قرابته من إخوته وأولاده ومن بعدهم ، وذلك أن الله سبحانه أعطاهم النبوة كما قاله جماعة من المفسرين ، ولا يبعد أن يكون إشارة إلى ما حصل لهم بعد دخولهم مصر ، من النعم التي من جملتها كون الملك فيهم ، مع كونهم أنبياء ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا على أَبَوَيْكَ ﴾ أي : إتماماً مثل إتمامها على أبويك : وهي نعمة النبوّة عليهما ، مع كون إبراهيم اتخذه الله خليلاً ، ومع كون إسحاق نجاه الله سبحانه من الذبح وصار لهما الذرية الطيبة وهم : يعقوب ، ويوسف ، وسائر الأسباط . ومعنى ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل هذا الوقت الذي أنت فيه ، أو من قبلك ، وإبراهيم وإسحق عطف بيان لأبويك ، وعبر عنهما بالأبوين مع كون أحدهما جداً وهو إبراهيم ؛

لأن الجدّ أب ، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ بكل شيء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في كل أفعاله .

والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها تعليلاً له ، أي فعل ذلك لأنه عليم حكيم ، وكان هذا كلام من يعقوب مع ولده يوسف تعبيراً لرؤياه على طريق الإجمال ، أو علم ذلك من طريق الوحي ، أو عرفه بطريق الفراسة وما تقتضيه المخايل اليوسفية .

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله : ﴿ تِلْكَ ءايَاتُ الكتاب المبين ﴾ قال : بين الله حلاله وحرامه ، وأخرج ابن جرير عن معاذ قال : بين الله الحروف التي سقطت عن ألسن الأعاجم ، وهي ستة أحرف ، وأخرج الحاكم عن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا ﴿ قرآناً عربياً ﴾ ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً " وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : نزل القرآن بلسان قريش ، وهو كلامهم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قالوا يا رسول الله ، لو قصصت علينا ، فنزلت : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مثله .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص ﴾ قال : من الكتب الماضية ، وأمور الله السالفة في الأمم ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ ﴾ أي : من قبل هذا القرآن ﴿ لَمِنَ الغافلين ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص ﴾ قال : القرآن .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنّى رَأَيتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ قال : رؤيا الأنبياء وحي .

وأخرج سعيد بن منصور ، والبزار ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والعقيلي ، وابن حبان في الضعفاء ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال : "جاء بستاني اليهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف ساجدة له ما أسماؤها ؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فلم يجبه بشيء ، فنزل عليه جبريل فأخبره بأسمائها ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليهودي فقال : " هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها ؟ ، قال : نعم ، قال : خرثان ، والطارق ، والذيال ، وذو الكنفات ، وقابس ، ووثاب ، وعمودان ، والفيلق ، والمصبح ، والضروح ، وذو الفرغ ، والضياء ، والنور : رآها في أفق السماء ساجدة له ، فلما قص يوسف على يعقوب قال : هذا أمر مشتت يجمعه الله من بعد " ، فقال اليهودي : إي والله إنها لأسماؤها .

هكذا ساقه السيوطي في الدر المنثور .

وأما ابن كثير فجعل قوله : "فلما قص .

. .

" إلخ رواية منفردة ؛ وقال : تفرد بها الحكم بن ظهيرة الفزاري ، وقد ضعفوه وتركه الأكثرون .

وقال الجوزجاني : ساقط .

وقال ابن الجوزي : هو موضوع .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ قال : إخوته ﴿ والشمس ﴾ قال : أمه ، ﴿ والقمر ﴾ قال : أبوه .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير عن السديّ نحوه أيضاً .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد نحوه أيضاً .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ قال : يصطفيك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة مثله.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ قال: عبارة الرؤيا.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ قال: تأويل العلم والحلم، وكان يوسف من أعبر الناس.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا على أَبَوَيْكَ ﴾ قال: فنعمته على إبراهيم: أن نجاه من النار، وعلى إسحاق: أن نجاه من الذبح. انتهى انتهى. اهـ ﴿فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

فصل

قال صاحب الميزان فى الآيات السابقة:

(سورة يوسف

مكية وهى مائة واحدى عشرة آية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تلك آيات الكتاب المبين – 1 .

انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون – 2 .

نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين – 3 .

(بيان) غرض السورة بيان ولاية الله لعبده الذى اخلص ايمانه له تعالى اخلاصا وامتلا بمحبته تعالى لا يبتغى له بدلا ولم يلوالى غيره تعالى من شئ ، وان الله تعالى يتولى هو امره فيربيه احسن تربية فيورده مورد القرب ويسقيه فيرويه من مشرعة الزلفى فيخلصه لنفسه ويحييه حياة الهية وان كانت الأسباب الظاهرة اجمعت على هلاكه ، ويرفعه وان توفرت الحوادث على ضعته ، ويعزه وان دعت النوائب ورزايا الدهر إلى ذلته وحط قدره .

وقد بين تعالى ذلك بسرد قصة يوسف الصديق (عليه السلام) .

ولم يرد في سور القرآن الكريم تفصيل قصة من القصص باستقصائها من اولها إلى آخرها غير قصته (عليه السلام) ، وقد خصت السورة بها من غير شركة ما من غيرها .

فقد كان ع عبدا مخلصا في عبوديته فاخلصه الله لنفسه واعزه بعزته وقد تجمعت الأسباب على اذلاله وضعته فكلما القته في احد المهالك احياه الله تعالى من نفس السبيل التى كانت تسوقه إلى الهلاكة : حسده اخوته فألقوه في غيابة الجب ثم شروه بثمن بخس دراهم معدودة فذهب به ذلك إلى مصر وادخله في بيت الملك والعزة ، راودته التى هو في بيتها

عن نفسه واتهمته عند العزيز ولم تلبث دون ان اعترفت عند النسوة ببراءته ثم اتهمته وادخلته السجن فكان ذلك سبب قربه عند الملك ، وكان قميصه الملطخ بالدم الذى جاؤا به إلى ابيه يعقوب اول يوم هو السبب الوحيد في ذهاب بصره

فصار قميصه بعينه وقد ارسله بيد اخوته من مصر إلى ابيه آخر يوم هو السبب في عود بصره إليه ، وعلى هذا القياس .

وبالجملة كلما نازعه شئ من الأسباب المخالفة أو اعترضه في طريق كماله جعل الله تعالى ذلك هو السبب في رشد امره ونجاح طلبته ، ولم يزل سبحانه يحوله من حال إلى حال حتى آتاه الحكم والملك واجتباه وعلمه من تأويل الاحاديث وأتم نعمته عليه كما وعده ابوه .

وقد بدء الله سبحانه قصته بذكر رؤيا رآها في بادئ الأمر وهو صبى في حجر ابيه والرؤيا من المبشرات ثم حقق بشارته واتم كلمته فيه بما خصه به من التربية الإلهية ، وهذا هو شأنه تعالى في اوليائه كما قال تعالى : " إلا أن اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الاخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم " يونس : 64 .

وفى قوله تعالى بعد ذكر رؤيا يوسف وتعبير ابيه ع لها : " لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين " اشعار بأنه كان هناك قوم سألوا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عما يرجع إلى هذه القصة ، وهو يؤيد ما ورد إن قوما من اليهود بعثوا مشركي مكة ان يسألوا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن سبب انتقال بنى إسرائيل إلى مصر وقد كان يعقوب (عليه السلام) ساكنا في ارض الشام فنزلت السورة .

وعلى هذا فالغرض بيان قصته (عليه السلام) وقصة آل يعقوب ، وقد استخرج تعالى ببيانه ما هو الغرض العالي منها وهو طور ولاية الله لعباده المخلصين كما هو اللائح من مفتتح السورة ومختتمها ، والسورة مكية على ما يدل عليه سياق آياتها ، وما ورد في بعض الروايات عن ابن عباس إن اربعا من آياتها مدنية ، وهى الآيات الثلاث التى في اولها ، وقوله " لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين " مدفوع بما تشتمل عليه من السياق الواحد .

قوله تعالى : " الر تلك آيات الكتاب المبين " الإشارة بلفظ البعيد للتعظيم والتفخيم ، والظاهر ان يكون المراد بالكتاب المبين هذا القرآن المتلو وهو مبين واضح في نفسه ومبين موضح لغيره ما ضمنه الله تعالى من المعارف الإلهية وحقائق المبدء والمعاد .

وقد وصف الكتاب في الآية بالمبين لا كما في قوله في اول سورة يونس : " تلك آيات الكتاب الحكيم " لكون هذه السورة نازلة في شأن قصة آل يعقوب وبيانها ، ومن المحتمل أن يكون المراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : " إنا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون " الضمير للكتاب بما انه مشتمل على الآيات الإلهية والمعارف الحقيقية ، وانزاله قرآنا عربيا هو الباسه في مرحلة الإنزال لباس القراءة والعربية ، وجعله لفظا متلوا مطابقا لما يتداوله العرب من اللغة كما قال تعالى في موضع آخر : " انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ، وانه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم " الزخرف : 4 .

وقوله : " لعلكم تعقلون " من قبيل توسعة الخطاب وتعميمه فان السورة مفتتحة بخطاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : " تلك آيات الكتاب " ، وعلى ذلك يجرى بعد كما في قوله : " نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك " الخ .

فمعنى الآية - والله اعلم - انا جعلنا هذا الكتاب المشتمل على الآيات في مرحلة النزول ملبسا بلباس اللفظ العربي محلى بحليته ليقع في معرض التعقل منك ومن قومك أو امتك ، ولو لم يقلب في وحيه في قالب اللفظ المقرو أو لم يجعل عربيا مبينا لم يعقل قومك ما فيه من اسرار الآيات بل اختص فهمه بك لاختصاصك بوحيه وتعليمه .

وفي ذلك دلالة ما على ان لالفاظ الكتاب العزيز من جهة تعينها بالاستناد إلى الوحى وكونها عربية دخلا في ضبط اسرار الآيات وحقائق المعارف ، ولو انه اوحى إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بمعناه وكان اللفظ الحاكى له لفظه (صلى الله عليه وآله وسلم) كما في الاحاديث القدسية مثلا أو ترجم إلى لغة أخرى خفى بعض اسرار آياته البينات عن عقول الناس ولم تنله ايدى تعقلهم وفهمهم .

وعنايته تعالى فيما اوحى من كتابه باللفظ مما لا يرتاب فيه المتدبر في كلامه كيف ؟ وقد قسمه إلى المحكمات والمتشابهات وجعل المحكمات ام الكتاب ترجع إليها المتشابهات قال تعالى : " هو الذى انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب وأخر متشابهات " آل عمران : 7 وقال تعالى أيضا : " ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين " النحل : 103 .

قوله تعالى : " نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين " قال الراغب في المفردات : القص تتبع الاثر يقال : قصصت اثره ، والقصص الاثر قال : فارتدا على آثارهما قصصا ، وقالت لاخته قصيه .

قال :

والقصص الاخبار المتتبعة قال تعالى : لهو القصص الحق في قصصهم عبرة وقص عليه

القصص نقص عليك احسن القصص .

انتهى فالقصص هو القصة واحسن القصص احسن القصة والحديث ، وربما قيل : انه مصدر بمعنى الاقتصاص .

فان كان اسم مصدر فقصة يوسف (عليه السلام) احسن قصة لانها تصف اخلاص التوحيد في العبودية ، وتمثل ولاية الله سبحانه لعبده وانه يربيه بسلوكه في صراط الحب ورفعه من حضيض الذلة إلى اوج العزة ، واخذه من غيابة جب الاسارة ومربط الرقية وسجن النكال والنقمة إلى عرش العزة وسرير الملك .

وان كان مصدرا فالاقتصاص عن قصته بالطريق الذى اقتص سبحانه به احسن الاقتصاص لأنه اقتصاص لقصة الحب والغرام بأعف ما يكون واستر ما يمكن .

(243/391)

والمعنى - والله اعلم - نحن نقص عليك احسن القصص بسبب وحينا هذا القرآن اليك وانك كنت قبل اقتصاصنا عليك هذه القصة من الغافلين عنها .

* * إذ قال يوسف لأبيه يا ابت انى رايت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين - 4 .

قال يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للإنسان عدو مبين - 5 .

وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما اتمها على ابويك من قبل إبراهيم واسحق ان ربك عليم حكيم - 6 .

(بيان) تذكر الآيات رؤيا رآها يوسف وقصها على ابيه يعقوب (عليه السلام) فعبرها ابوه له ونهاه ان يقصها على اخوته ، وهذه الرؤيا بشرى بشر الله سبحانه يوسف بها ليكون مادة روحية لتربيته تعالى عبده في صراط الولاية والقرب من ربه ، وهى بمنزلة المدخل في قصته (عليه السلام) .

قوله تعالى : " إذ قال يوسف لأبيه يا أبت انى رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رايتهم لى ساجدين " لم يذكر يعقوب (عليه السلام) باسمه بل كنى عنه بالاب للدلالة على ما بينهما من صفة الرحمة والرأفة والشفقة كما يدل عليه ما في الآية التالية : " قال يا بنى لا تقصص " الخ .

وقوله : " رأيت " و " رأيتهم " من الرؤيا وهى ما يشاهده النائم في نومته أو الذى خمدت حواسه الظاهرة باغماء أو ما يشابهه ، ويشهد به قوله في الآية التالية : " لا تقصص رؤياك على اخوتك " وقوله في آخر القصة : " يا ابت هذا تأويل رؤياي " .

وتكرار ذكر الرؤية لطول الفصل بين قوله " رأيت " وقوله " لى ساجدين " ومن فائد التكرير

الدلالة على انه انما رآهم مجتمعين على السجود جميعا لا فرادى .

على أن ما حصل له من المشاهدة نوعان مختلفان فمشاهدة اشخاص الكواكب والشمس والقمر مشاهدة أمر صوري ومشاهدة سجدتهم وخضوعهم وتعظيمهم له مشاهدة أمر معنوى .

(244/391)

وقد عبر عن الكواكب والنيرين في قوله : " رأيتهم لى ساجدين " بما يختص باولى العقل - ضمير الجمع المذكر وجمع المذكر السالم - للدلالة على ان سجدتهم كانت عن علم وارادة كما يسجد واحد من العقلاء لآخر .

وقد افتتح سبحانه قصته (عليه السلام) بذكر هذه الرؤيا التى اراها له وهى بشرى له تمثل له ما سيناله من الولاية الإلهية ويخص به من اجتباء الله اياه وتعليمه تأويل الاحاديث واتمام نعمته عليه ، ومن هناك تبتدئ التربية الإلهية له لأن الذى بشر به في رؤياه لا يزال نصب عينيه في الحياة لا يتحول من حال إلى حال ، ولا ينتقل من شأن إلى شأن ، ولا يواجه نائبة ، ولا يلقى مصيبة ، الا وهو ذاكر لها مستظهر بعناية الله سبحانه عليها موطن نفسه على الصبر عليها .

وهذه هي الحكمة في ان الله سبحانه يخص اولياءه بالبشرى بجمل ما سيكرمهم به من مقام القرب ومنزلة الزلفى كما في قوله : "إلا أن اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون - إلى ان قال - لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الاخرة" يونس : 64 .

قوله تعالى قال : "يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للإنسان عدو مبين" ذكر في المفردات : ان الكيد ضرب من الاحتيال ، وقد يكون مذموما وممدوحا وان كان يستعمل في المذموم اكثر وكذلك الاستدراج والمكر .

انتهى وقد ذكروا ان الكيد يتعدى بنفسه وباللام .

(245/391)

والآية تدل على ان يعقوب لما سمع ما قصه عليه يوسف من الرؤيا ايقن بما يدل عليه ان يوسف (عليه السلام) سيتولى الله امره ويرفع قدره ، يسنده على اريكة الملك وعرش العزة ، ويخصه من بين آل يعقوب بمزيد الكرامة فاشفق على يوسف (عليه السلام) وخاف من اخوته عليه وهم عصبة اقوياء ان لو سمعوا الرؤيا - وهى ظاهرة الانطباق على يعقوب (عليه السلام) وزوجه واحد عشر من ولده غير يوسف ، وظاهره الدلالة على انهم جميعا سيخضعون ويسجدون ليوسف - حملهم الكبر والانفة ان يحسدوه فيكيدوا له

كيدا ليحولوا بينه و بين ما تبشره به رؤياه .

ولذلك خاطب يوسف (عليه السلام) خطاب الاشفاق كما يدل عليه قوله : " يا بنى بلفظ التصغير ، ونهاه عن اقتصاص رؤياه على اخوته قبل ان يعبرها له وينبئه بما تدل عليه رؤياه من الكرامة الإلهية المقضية في حقه ، ولم يقدم النهى على البشارة الالفرط حبه له وشدة اهتمامه به واعتنائه بشأنه ، وما كان يتفرس من اخوته انهم يحسدونه وانهم امتلئوا منه بغضا وحنقا .

والدليل على بلوغ حسدهم وظهور حنقهم وبغضهم قوله : " لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا " فلم يقل انى اخاف ان يكيدوا ، أو لا آمنهم عليك بتفريع الخوف من كيدهم أو عدم الأمن من جهتهم بل فرع على اقتصاص الرؤيا نفس كيدهم واكد تحقق الكيد منهم بالمصدر - المفعول المطلق - إذ قال : " فيكيدوا لك كيدا

[79]

ثم اكد ذلك بقوله ثانيا في مقام التعليل : " ان الشيطان للإنسان عدو مبين " أي ان لكيدهم سببا آخر منفصلا يؤيد ما عندهم من السبب الذى هو الحسد ويثيره ويهيجه ليؤثر اثره السئ وهو الشيطان الذى هو عدو للإنسان مبين لا خلة بينه وبينه ابدا يحمل الإنسان بوسوسته وتسويله على ان يخرج من صراط الاستقامة والسعادة إلى سبيل عوج فيه شقاء

دنياه وآخرته فيفسد ما بين الوالد وولده وينزع بين الشقيق وشقيقه ويفرق بين الصديق وصديقه ليضلهم عن الصراط .

فكأن المعنى : قال يعقوب ليوسف (عليه السلام) : يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فانهم يحسدونك ويغتاظون من امرك فيكيدونك عندئذ بنزغ واغراء من الشيطان وقد تمكن من قلوبهم ولا يدعهم يعرضوا عن كيدك فان الشيطان للإنسان عدو مبين .

قوله تعالى : " وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب " إلى آخر الآية الاجتباء من الجباية وهى الجمع يقال : جبيت الماء في الحوض إذا جمعته فيه ومنه جبايه الخراج أي جمعه قال تعالى : " يجبي إليه ثمرات كل شئ " القصص : 57 ففى معنى الاجتباء جمع اجزاء الشئ وحفظها من التفرق والتشتت ، وفيه سلوك وحركة من الجابى نحو المجبى فاجتباه الله سبحانه عبدا من عباده هو ان يقصده برحمته ويخصه بمزيد كرامته فيجمع شمله ويحفظه من التفرق في السبل المتفرقة الشيطانية المفرقة للإنسان ويركبه صراطه المستقيم وهو ان يتولى امره ويخصه بنفسه فلا يكون لغيره فيه نصيب كما اخبر تعالى بذلك في يوسف (عليه السلام) إذ قال : " انه من عبادنا المخلصين

" الآية 24 من السورة .

وقوله : " ويعلمك من تأويل الاحاديث التأويل " هو ما ينتهى إليه الرؤيا من الأمر الذى تتعقبه ، وهو الحقيقة التى تتمثل لصاحب الرؤيا في رؤياه بصورة من الصور المناسبة لمداركه ومشاعره كما تمثل سجدة ابوي يوسف واخوته الاحد عشر في صورة احد عشر كوكبا والشمس والقمر وخرورها امامه ساجدة له ، وقد تقدم استيفاء البحث عن معنى التأويل في تفسير قوله تعالى : " فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله " الآية آل عمران : 7 في الجزء الثالث من الكتاب .

والاحاديث جمع الحديث وربما اريد به الرؤي لانها من حديث النفس فان نفس الانسان تصور له الأمور في المنام كما يصور المحدث لسماعه الأمور في اليقظة فالرؤيا حديث مثله ومنه يظهر ما في قول بعضهم ان الرؤي سميت احاديث باعتبار حكايتها والتحديث بها وهو كما ترى .

وكذا ما قيل : انها سميت احاديث لانها من حديث الملك ان كانت صادقة ومن حديث الشيطان ان كانت كاذبة .

انتهى وفيه انها ربما لم تستند إلى ملك ولا إلى شيطان كالرؤيا المستندة إلى حالة مزاجية عارضة لنائم تأخذه حمى أو سخونة اتفاقية فتحكيها نفسه في صورة حمام يستحم فيه أو حر قيظ ونحوهما أو يتسلط عليه برد فتحكيه نفسه بتصوير الشتاء ونزول الثلج ونحوهما .

ورده بعضهم بأنه يخالف الواقع فان رؤيا يوسف ليس فيها حديث وكذا رؤيا صاحبيه في السجن ورؤيا ملك مصر انتهى وقد اشتبه عليه معنى الحديث وظن ان المراد بقولهم : ان الرؤيا من حديث الملك أو الشيطان الحديث على نحو التكليم باللفظ وليس كذلك بل المراد ان المنام يصور له القصة أو حادثا من الحوادث بصورة مناسبة كما ان تصوره المتكلم اللافظ يصور ذلك بصورة لفظية يستدل بها السامع على الأصل المراد وهذا كما يقال لمن يقصد امرا ويعزم على فعل أو ترك انه حدثه نفسه ان يفعل كذا أو يترك كذا أي انه يصوره فاراد فعله أو تركه كأن نفسه حدثته بانه يجب عليك كذا أو لا يجوز لك كذا وبالجملة معنى كون الرؤيا من الاحاديث انها من قبيل تصور الأمور للنائم كما يتصور الانباء والقصص بالتحديث اللفظى فهى حديث اما ملكى أو شيطاني أو نفسي كما تقدم لكن الحق انها من احاديث النفس بالمباشرة وسيجئ استيفاء البحث في ذلك ان شاء الله تعالى هذا .

لكن الظاهر المتحصل من قصته (عليه السلام) المسرودة في هذه السورة ان الاحاديث التى علمه الله تعالى تأويلها اعم من احاديث الرؤيا وانما هي الاحاديث اعني الحوادث والوقائع التى تتصور للإنسان اعم من ان تتصور له في يقظة أو منام فان بين الحوادث

والاصول التى تنشأ هي منها والغايات التى تنتهى إليها اتصالا لا يسع انكاره وبذلك يرتبط بعضها ببعض فمن الممكن ان يهتدى عبد باذن الله تعالى إلى هذه الروابط فينكشف له تأويل الاحاديث والحقائق التى تنتهى هي إليها .

ويؤيده فيما يرجع إلى المنام ما حكاه الله تعالى من بيان يعقوب تأويل رؤيا يوسف (عليه السلام) وتأويل يوسف لرؤيا نفسه ورؤيا صاحبيه في السجن ورؤيا عزيز مصر وفيما يرجع إلى اليقظة ما حكاه عن يوسف في السجن بقوله : " قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل ان يأتيكما ذلكما مما علمني ربى " الآية 37 من السورة وكذا قوله : " فلما ذهبوا به واجمعوا ان يجعلوه في غيابت الجب واوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون " الآية 15 من السورة وسيوافيك توضيحه ان شاء الله تعالى .

وقوله : " ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب " قال الراغب في المفردات : النعمة (بالكسر فالسكون) الحالة الحسنة وبناء النعمة بناء الحالة التى يكون عليها الإنسان كالجلسة والركبة والنعمة (بالفتح فالسكون) التنعم وبناؤها بناء المرة من الفعل كالضربة والشتمة والنعمة للجنس تقال للقليل والكثير .

قال : والأنعام ايصال الاحسان إلى الغير ولا يقال الا إذا كان الموصل إليه من جنس الناطقين فانه لا يقال : انعم فلان على فرسه قال تعالى : " انعمت عليهم " " واذ تقول للذى انعم الله عليه وانعمت عليه " والنعماء بازاء الضراء .

قال : والنعيم النعمة الكثيرة قال تعالى : " في جنات النعيم " وقال تعالى : " جنات النعيم " وتنعم تناول ما فيه النعمة وطيب العيش يقال : نعمه تنعيما فتنعم أي لين عيش وخصب قال تعالى : " فأكرمه ونعمه " وطعام ناعم وجارية ناعمة انتهى .

ففى الكلمة - كما ترى - شئ من معنى اللين والطيب والملائمة فكأنها مأخوذة من النعومة وهى الأصل في معناها وقد اختص استعمالها بالانسان لأن له عقلا يدرك به النافع من الضار فيستطيب النافع ويستلئمه ويتنعم به بخلاف غيره الذى لا يميز ما ينفعه مما يضره كما ان المال والاولاد وغيرهما مما يعد نعمة يكون نعمة لواحد ونقمة لاخر ونعمة للإنسان في حال ونقمة في أخرى .

ولذا كان القرآن الكريم لا يعد هذه العطايا الإلهية كالمال والجاه والازواج والاولاد وغير ذلك نعمة بالنسبة إلى الإنسان الا إذا وقعت في طريق السعادة ومنصبغة بصبغة الولاية

الإلهية تقرب الإنسان إلى الله زلفى واما إذا وقعت في طريق الشقاء وتحت ولاية الشيطان فانما هي نقمة وليست بنعمة والآيات في ذلك كثيرة .

نعم إذا نسبت إلى الله سبحانه فهى نعمة منه وفضل ورحمة لأنه خير يفيض الخير ولا يريد في موهبته شرا ولا سوء وهو رؤف رحيم غفور ودود قال تعالى : " وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها " إبراهيم : 34 والخطاب في الآية لعامة الناس وقال تعالى : " وذرنى والمكذبين اولى النعمة ومهلهم قليلا " المزمل : 11 وقال تعالى : " ثم إذا خولناه نعمة منا قال انما اوتيته على علم " الزمر : 49 فهذه وامثالها نعمة إذا نسبت إليه تعالى لكنها نقمة إذا نسبت إلى الكافر بها قال تعالى : " لئن شكرتم لا زيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد " إبراهيم : 7 .

وبالجملة إذا كان الإنسان في ولاية الله كان جميع الأسباب التى يتسبب بها في استبقاء الحياة والتوصل إلى السعادة نعما الهية بالنسبة إليه وان كان في ولاية الشيطان تبدلت الجميع نقما وهى جميعا من الله سبحانه نعم وان كانت مكفورا بها .

ثم ان وسائل الحياة ان كانت ناقصة لا تفى بجميع جهات السعادة في الحياة كانت نعمة كمن اوتى مالا وسلب الأمن والسلام فلا يتمكن من ان يتمتع به كما يريده ومتى واينما يريده وإذا كان له من ذلك ما يمكنه التوصل به إلى سعادة الحياة من غير نقص فيه فذلك تمام النعمة .

فقوله : " ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب " يريد أن الله أنعم عليكم بما تسعدون به في

حيا تكم لكنه يتم ذلك في حقك وفى حق آل يعقوب وهم يعقوب وزوجه وسائر بنيه كما كان رآه في رؤياه .

وقد جعل يوسف (عليه السلام) اصلا وآل يعقوب معطوفا عليه إذ قال : " عليك وعلى آل يعقوب "كما يدل عليه الرؤيا إذ رأى يوسف نفسه مسجودا له ورأى آل يعقوب في هيئة الشمس معها القمر وأحد عشر كوكبا سجدا له .

وقد ذكر الله تعالى مما أتم به النعمة على يوسف (عليه السلام) انه آتاه الحكم والنبوة والملك والعزة في مصر مضافا إلى ان جعله من المخلصين وعلمه من تأويل الاحاديث ومما أتم به النعمة على آل يعقوب انه أقر عين يعقوب با بنه يوسف (عليه السلام) وجاء به وبأهله جميعا من البدو ورزقهم الحضارة بنزول مصر .

وقوله : "كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم واسحاق " أي نظير ما أتم النعمة من قبل على إبراهيم واسحاق وهما أبواك فأنه آتاهما خير الدنيا والآخرة فقوله : " من قبل " متعلق بقوله : " اتمها " وربما احتمل كونه ظرفا مستقرا وصفا لقوله " ابويك " والتقدير كما اتمها على أبويك الكائنين من قبل .

و" إبراهيم واسحاق " بدل أو عطف بيان لقوله " ابويك " وفائدة هذا السياق الاشعار بكون النعمة مستمرة موروثة في بيت إبراهيم من طريق اسحاق حيث اتمها الله على إبراهيم واسحاق ويعقوب ويوسف (عليه السلام) وسائر آل يعقوب .

ومعنى الآية : وكما رأيت في رؤياك يخلصك ربك لنفسه بانقائك من الشرك فلا يكون فيك نصيب لغيره ، ويعلمك من تأويل الاحاديث وهو ما يؤل إليه الحوادث المصورة في نوم أو يقظة ويتم نعمته هذه وهي الولاية الإلهية بالنزول في مصر واجتماع الاهل والملك والعزة عليك وعلى ابويك واخوتك وانما يفعل ربك بك ذلك لأنه عليم بعباده خبير بحالهم حكيم يجرى عليهم ما يستحقونه فهو عليم بحالك وما يستحقونه من غضبه .

والتدبر في الآية الكريمة يعطى : اولا : ان يعقوب أيضا كان من المخلصين وقد علمه الله من تأويل الاحاديث فأنه (عليه السلام) اخبر كما في هذه الآية بتأويل رؤيا يوسف وما كان ليخبر عن خرص وتخمين دون ان يعلمه الله ذلك .

على ان الله بعد ما حكى عنه لبنيه " يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة " الخ قال في حقه : " وانه لذو علم لما علمناه ولكن اكثر الناس لا يعلمون " .

على انه بعد ما حكى عن يوسف في السجن فيما يحاور صاحبيه انه قال : " لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل ان يأتيكما ذلكما مما علمني ربى " فأخبر انه من تأويل الحديث وقد علمه ذلك ربه ثم علل التعليم بقوله : " انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وبالاخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائى إبراهيم واسحاق ويعقوب ما كان لنا ان نشرك بالله من شئ " الخ فأخبر انه مخلص - بفتح اللام - لله كآبائه إبراهيم واسحاق ويعقوب نقى الوجود سليم القلب من الشرك مطلقا ولذلك علمه ربه فيما علمه تأويل الاحاديث والاشتراك في العلة كما ترى يعطى ان آباءه الكرام إبراهيم واسحاق ويعقوب كهو مخلصون لله معلمون من تأويل الاحاديث .

ويؤيده قوله تعالى في موضع آخر : " واذكر عبادنا إبراهيم واسحاق ويعقوب اولى الايدى والابصار انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار " ص : 46 ويعطى ان العلم بتأويل الاحاديث من فروع الاخلاص لله سبحانه .

وثانيا : ان جميع ما اخبر به يعقوب (عليه السلام) منطبق على متن ما رآه يوسف ع من الرؤيا وهو سجدة الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا له وذلك ان سجدتهم له وفيهم يعقوب الذى هو من المخلصين ولا يسجد الا لله وحده تكشف عن انهم انما سجدوا امام يوسف لله ولم يأخذوا يوسف الا قبلة كالكعبة التى يسجد إليها ولا يقصد بذلك الا الله سبحانه فلم يكن عند يوسف ولا له الا الله تعالى وهذا هو كون العبد مخلصا بفتح اللام لربه

مخصوصا به لا يشاركه تعالى فيه شئ كما يؤمى إليه يوسف بقوله : " ما كان لنا ان نشرك بالله من شى " ء وقد تقدم آنفا ان العلم بتأويل الاحاديث متفرع على الاخلاص .

(252/391)

ومن هنا قال يعقوب في تعبير رؤياه : " وكذلك أي كما رايت نفسك مسجودا لها يجتبيك ربك أي يخلصك لنفسه ويعلمك من تأويل الاحاديث " .

وكذلك رؤية آل يعقوب في صورة الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا وهى اجرام سماوية رفيعة المكان ساطعة الانوار واسعة المدارات تدل على انهم سترتفع مكانتهم ويعلوا كعبهم في حياتهم الإنسانية السعيدة وهى الحياة الدينية العامرة للدنيا والاخرة ويمتازون في ذلك من غيرهم .

ومن هنا مضى يعقوب في حديثه وقال : " ويتم نعمته عليك أي وحدك متميزا من غيرك كما رأيت نفسك كذلك وعلى آل يعقوب أي علي وعلى زوجي وولدى جميعا كما رأيتنا مجتمعين متقاربي الصور كما اتمها على ابويك من قبل إبراهيم واسحاق ان ربك عليم حكيم " .

وثالثا : ان المراد باتمام النعمة تعقيب الولاية برفع سائر نواقص الحياة السعيدة وضم الدنيا

إلى الاخرة ولا تنافى بين نسبة اتمام النعمة إلى الجميع وبين اختصاص الاجتباء وتعليم تأويل الاحاديث بيعقوب ويوسف (عليه السلام) من بينهم لأن النعمة وهى الولاية مختلفة الدرجات متفاوتة المراتب وحيث نسبت إلى الجميع ياخذ كل منهم نصيبه منها .

على ان من الجائز ان ينسب أمر إلى المجموع باعتبار اشتماله على اجزاء بعضها قائم بمعنى ذلك الأمر كما في قوله : " ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات " الجاثية : 16 وايتاء الكتاب والحكم والنبوة مختص ببعضهم دون جميعهم بخلاف الرزق من الطيبات .

ورابعا : ان يوسف كان هو الوسيلة في اتمام الله سبحانه نعمته على آل يعقوب ولذلك جعله يعقوب اصلا في الحديث وعطف عليه غيره حتى ميزه من بين آله وأفرده بالذكر حيث قال : " ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب " .

(253/391)

ولذلك أيضا نسب هذه العناية والرحمة إلى ربه حيث قال مرة بعد مرة " ربك " ولم يقل : " يجتبيك الله " ولا " ان الله عليم حكيم " فهذا كله يشهد بأنه هو الأصل في اتمام النعمة على آل يعقوب واما ابواه إبراهيم واسحاق فان التعبير بما يشعر بالتنظير " كما اتمها على ابويك

من قبل إبراهيم واسحاق " يخرجهما من تحت اصالة يوسف فافهم ذلك . انتهى ا .

هـ ﴿ الميزان حـ 11 صـ 85.73 ﴾

(254/391)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى كيد)

الكَيْد : المكر ، تقول : كاد يكيد كَيْدا ومَكِيدة .

وقوله تعالى : ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ أَى فيحتالوا احتيالا .

وقوله تعالى : ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ أَى حيلته .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ أَى علَّمناه المكيدة على إخوته .

والكَيْد أَيضاً : الحرب لاحتيال الناس فيها

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ فخص الخائنين تنبيها على أَنه قد يهدى كيد من لم يقصد بكيده خيانة ؛ ككيد يوسف بإخوته .

وقوله : ﴿ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ أَى لأُريدنّ بهم سوءًا .

وكلّ شىء تعالجه فأَنت تكيده ، يقال : هو يكيد ، بنفسه أَى يجود بها .

وكاد وضعت لمقاربة الشىء فُعِل أَو لم يُفعل ؛ فمجرَّدةً تنبئ عن نفى الفعل ، ومقرونة بالجحد تنبئ عن وقوع الفعل .

وفى الحديث "كاد الفقر أَن يكون كفرا" ، "وكاد الحسد يغلب القدر" .

وقال بعضهم فى قوله تعالى : ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أَى أُريد أخفيها .

قال وكما جاز أَن يوضع أُريد موضع كاد فى قوله تعالى : ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ فكذلك أَكاد .

وأَنشد :

*كادت وكِدْتُ وتلك خير إِرادة * لو عاد من لَهْو الصبابة ما مضَى*

وكلمة "كاد" يكون صلة للكلام ، أَجاز ذلك الأَخفش وقُطْرُب وأَبو حاتم .

واحتجَّ قطرب بقول زيد الخيل الطائىّ رضى الله عنه :

*سريع إِلى الهيجاءِ شاكٍ سلاحهُ * فما إِن يكاد قِرْنُه يتنفَّس*

وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه :

*وتكاد تكسل أَن تجئ فراشها * فى لين خرعبة وحسن قوام*

معناه : وتكسل .

وقوله الله تعالى : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ معناه : لم يرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 399 . 400 ﴾

(255/391)

قوله تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (7) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ذلك ، توقع السامع له ما يكون بينه وبين إخوته هل يكتمهم الرؤيا أو يعلمهم بها ؟ وعلى كلا التقديرين ما يكون ؟ فقال جواباً لمن كأنه قال : ما كان من أمرهم ؟ - مفتتحاً له بحرف التوقع والتحقيق بعد لام القسم تأكيداً للأمر وإعلاماً بأنه على أتقن وجه - : ﴿ لقد كان ﴾ أي كوناً هو في أحكم مواضعه ﴿ في يوسف وإخوته ﴾ أي بسبب هذه الرؤيا وما كان من تأويلها وأسباب ذلك ﴿ آيات ﴾ أي علامات عظيمة دالات على وحدانية الله تعالى ونبوة محمد . صلى الله عليه وسلم . وغير ذلك مما تضمنته القصة ﴿ للسائلين ﴾ أي الذين يسألون عنها من قريش واليهود وغيرهم ، وآيات عظمة الله وقدرته في تصديق رؤيا

يوسف عليه الصلاة والسلام ونجاته ممن كاده وعصمته وإعلاء أمره ، والمراد بإخوته هنا العشرة الذين هم من أبيه وهم : روبيل وشمعان - بمعجمة أوله ، ولاوي ، ويهوذا ، وزبلون - بزاي وموحدة ، وإيساخار ، بهمزة مكسورة وتحتانية وسين مهملة وخاء معجمة ، ودان - بمهملة ، وجاد بجيم .

بينها وبين الكاف ، وآشير - بهمزة ممدودة وشين معجمة ثم تحتانية ومهملة .

ونفتالي - بنون مفتوحة وفاء ساكنة ومثناة فوقانية ولام بعدها ياء .

وشقيقه بنيامين - بضم الموحدة ، هكذا ذكرهم في التوراة ، وحررت التلفظ بهم من العلماء بها ، وقد تقدم ذلك في البقرة بزيادة .

والآية : الدلالة على ما كان من الأمور العظيمة ، ومثلها العلامة والعبرة ، والحجة أخص منها ، لأنها معتمد البينة التي توجب الثقة بصحة المعنى الذي فيه أعجوبة .

ولما تقرر ذلك ، ابتدأ بذكر الآيات الواقعة في ظرف هذا الكون فقال : ﴿ إذ قالوا ﴾ أي كان ذلك حين قال الإخوة بعد أن قص الرؤيا عليهم وسوّل لهم الشيطان - كما ظن يعقوب عليه الصلاة والسلام - مقسمين دلالة على غاية الاهتمام بهذا الكلام ، وأنه مما حركهم غاية التحريك ، أو هي لام الابتداء المؤكدة المحققة لمضمون الجملة ﴿ ليوسف وأخوه ﴾ أي شقيقه بنيامين ﴿ أحب ﴾ وحددا لأن أفعل ما يستوي فيه الواحد وما فوقه مذكراً كان أو مؤنثاً إذا لم يعرف أو يضف ﴿ إلى أبينا منا ﴾ أي يحبهما أكثر مما يحبنا ؛ والحب : ميل يدعو إلى إرادة الخير والنفع للمحبوب بخلاف الشهوة ، فإنها ميل النفس ومنازعتها إلى ما فيه لذتها ﴿ و ﴾ الحال أنا ﴿ نحن عصبة ﴾ أي أشداء في أنفسنا ويشد بعضنا بعضاً ، وأما هما فصغيران لا كفاية عندهما ؛ والعصبة من العشرة إلى الأربعين ، فكأنه قيل : فكان ماذا ؟ - على تقدير أن يكونا أحب إليه ، فقالوا مؤكدين لأن حال أبيهما في الاستقامة والهداية داع إلى تكذيبهم : ﴿ إن أبانا لفي ضلال ﴾ أي ذهاب عن طريق الصواب في ذلك ﴿ مبين ﴾ حيث فضلهما علينا ، والقرب المقتضي للحب في كلنا واحد ، لأنا في البنوة سواء ، ولنا مزية تقتضي تفضيلنا ، وهي أنا عصبة ، لنا من النفع له والذب عنه والكفاية ما ليس لهما ؛ قال الإمام أبو حيان : وأحب أفعل التفضيل ، وهو مبني من المفعول شذوذاً ، ولذلك عدي ب " إلى " لأنه إذا كان ما تعلق به فاعلاً من حيث المعنى عدي إليه ب " إلى " وإذا كان مفعولاً عدي إلية ب " في " ، تقول زيد أحب إلى عمرو من خالد ، فالضمير في "

أحب " مفعول من حيث المعنى ، وعمرو هو المحب ، وإذا قلت : زيد أحب في عمرو من خالد ، كان الضمير فاعلاً وعمرو هو المحبوب ، ومن خالد – في المثال الأول محبوب ، وفي المثال الثاني فاعل ، قال : والضلال هنا هو الهدى – قاله ابن عباس – رضى الله عنهما – انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 12.13﴾

(258/391)

فصل

قال الفخر :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آَيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾

في هذه الآية مسائل :

المسألة الأولى :

ذكر صاحب "الكشاف" أسماء إخوة يوسف : يهودا ، روبيل ، شمعون لاوي ، ربالون ، يشجر ، دينة ، دان ، نفتالي ، جاد ، آشر .

ثم قال : السبعة الأولون من ليا بنت خالة يعقوب والأربعة الآخرون من سريتين زلفة وبلهة ، فلما توفيت ليا تزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ لِّلسَّائِلِينَ إِذْ ﴾ قرأ ابن كثير آية بغير ألف حمله على شأن يوسف والباقون ﴿ ءايات ﴾ على الجمع لأن أمور يوسف كانت كثيرة وكل واحد منها آية بنفسه .

المسألة الثالثة :

ذكروا في تفسير قوله تعالى : ﴿ لِّلسَّائِلِينَ إِذْ ﴾ وجوهاً : الأول : قال ابن عباس دخل حبر من اليهود على النبي صلى الله عليه وسلم فسمع منه قراءة يوسف فعاد إلى اليهود فأعلمهم أنه سمعها منه كما هي في التوراة ، فانطلق نفر منهم فسمعوا كما سمع ، فقالوا له من علمك هذه القصة ؟ فقال : الله علمني ، فنزل : ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءايات لِّلسَّائِلِينَ ﴾ وهذا الوجه عندي بعيد ، لأن المفهوم من الآية أن في واقعة يوسف آيات للسائلين وعلى هذا الوجه الذي نقلناه ما كانت الآيات في قصة يوسف ، بل كانت الآيات في أخبار محمد صلى الله عليه وسلم عنها من غير سبق تعلم ولا مطالعة وبين الكلامين فرق ظاهر .

والثاني : أن أهل مكة أكثرهم كانوا أقارب الرسول عليه الصلاة والسلام وكانوا ينكرون نبوته ويظهرون العداوة الشديدة معه بسبب الحسد فذكر الله تعالى هذه القصة وبين أن إخوة يوسف بالغوا في إيذائه لأجل الحسد وبالآخرة فإن الله تعالى نصره وقواه وجعلهم تحت يده ورايته ، ومثل هذه الواقعة إذا سمعها العاقل كانت زجراً له عن الإقدام على الحسد

والثالث : أن يعقوب لما عبر رؤيا يوسف وقع ذلك التعبير ودخل في الوجود بعد ثمانين سنة فكذلك أن الله تعالى لما وعد محمداً عليه الصلاة والسلام بالنصر والظفر على الأعداء ، فإذا تأخر ذلك الموعود مدة من الزمان لم يدل ذلك على كون محمد عليه الصلاة والسلام كاذباً فيه فذكر هذه القصة نافع من هذا الوجه .

الرابع : أن إخوة يوسف بالغوا في إبطال أمره ، ولكن الله تعالى لما وعده بالنصر والظفر كان الأمر كما قدره الله تعالى لا كما سعى فيه الأعداء ، فكذلك واقعة محمد صلى الله عليه وسلم فإن الله لما ضمن له إعلاء الدرجة لم يضره سعي الكفار في إبطال أمره .

وأما قوله : ﴿ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ فاعلم أن هذه القصة فيها آيات كثيرة لمن سأل عنها ، وهو كقوله تعالى : ﴿ فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت : 10] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿لِيُوسُفَ﴾ اللام لام الابتداء ، وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة .

أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر لا شبهة فيه وأخوه هو بنيامين ، وإنما قالوا أخوه ، وهم جميعاً إخوة لأن أمهما كانت واحدة والعصبة والعصابة العشرة فصاعداً ، وقيل إلى الأربعين سموا بذلك لأنهم جماعة تعصب بهم الأمور ، ونقل عن علي عليه السلام أنه قرأ ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ بالنصب قيل : معناه ونحن نجتمع عصبة .

المسألة الثانية :

المراد منه بيان السبب الذي لأجله قصدوا إيذاء يوسف ، وذلك أن يعقوب كان يفضل يوسف وأخاه على سائر الأولاد في الحب وأنهم تأذوا منه لوجوه : الأول : أنهم كانوا أكبر سناً منهما .

وثانيها : أنهم كانوا أكثر قوة وأكثر قياماً بمصالح الأب منهما .

وثالثها : أنهم قالوا إنا نحن القائمون بدفع المفاسد والآفات ، والمشتغلون بتحصيل المنافع والخيرات .

إذا ثبت ما ذكرناه من كونهم متقدمين على يوسف وأخيه في هذه الفضائل ، ثم إنه عليه

السلام كان يفضل يوسف وأخاه عليهم لا جرم قالوا : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ يعني هذا حيف ظاهر وضلال بين .

وههنا سؤالات :

السؤال الأول : إن من الأمور المعلومة أن تفضيل بعض الأولاد على بعض يورث الحقد والحسد ، ويورث الآفات ، فلما كان يعقوب عليه السلام عالماً بذلك فلم أقدم على هذا التفضيل وأيضاً الأسن والأعلم والأنفع أفضل ، فلم قلب هذه القضية ؟

والجواب : أنه عليه السلام ما فضلهما على سائر الأولاد إلا في المحبة ، والمحبة ليست في وسع البشر فكان معذوراً فيه ولا يلحقه بسبب ذلك لوم .

السؤال الثاني : أن أولاد يعقوب عليه السلام إن كانوا قد آمنوا بكونه رسولاً حقاً من عند الله تعالى فكيف اعترضوا عليه ، وكيف زيفوا طريقته وطعنوا في فعله ، وإن كانوا مكذبين لنبوته فهذا يوجب كفرهم .

والجواب : أنهم كانوا مؤمنين بنبوة أبيهم مقرين بكونه رسولاً حقاً من عند الله تعالى ، إلا أنهم لعلهم جوزوا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يفعلوا أفعالاً مخصوصة بمجرد الاجتهاد ، ثم إن اجتهادهم أدى إلى تخطئة أبيهم في ذلك الاجتهاد ، وذلك لأنهم كانوا يقولون هما صبيان ما بلغا العقل الكامل ونحن متقدمون عليهما في السن والعقل والكفاية والمنفعة وكثرة الخدمة والقيام بالمهمات وإصراره على تقديم يوسف علينا يخالف هذا الدليل .

وأما يعقوب عليه السلام فلعله كان يقول : زيادة المحبة ليست في الوسع والطاقة ، فليس لله علي فيه تكليف .

وأما تخصيصهما بمزيد البر فيحتمل أنه كان لوجوه : أحدها : أن أمهما ماتت وهما صغار . وثانيها : لأنه كان يرى فيه من آثار الرشد والنجابة ما لم يجد في سائر الأولاد ، وثالثها : لعله عليه السلام وإن كان صغيراً إلا أنه كان يخدم أباه بأنواع من الخدم أشرف وأعلى بما كان يصدر عن سائر الأولاد ، والحاصل أن هذه المسألة كانت اجتهادية ، وكانت مخلوطة بميل النفس وموجبات الفطرة ، فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين في دين الآخر أو في عرضه .

السؤال الثالث : أنهم نسبوا أباهم إلى الضلال المبين ، وذلك مبالغة في الذم والطعن ، ومن بالغ في الطعن في الرسول كفر ، لا سيما إذا كان الطاعن ولداً فإن حق الأبوة يوجب مزيد التعظيم .

والجواب : المراد منه الضلال عن رعاية المصالح في الدنيا لا البعد عن طريق الرشد والصواب .

السؤال الرابع : أن قولهم : ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾ محض الحسد ، والحسد من أمهات الكبائر ، لا سيما وقد أقدموا على الكذب بسبب ذلك الحسد ، وعلى تضييع ذلك الأخ الصالح وإلقائه في ذل العبودية وتبعيده عن الأب المشفق ، وألقوا أباهم في الحزن الدائم والأسف العظيم ، وأقدموا على الكذب فما بقيت خصلة مذمومة ولا طريقة في الشر والفساد إلا وقد أتوا بها ، وكل ذلك يقدح في العصمة والنبوة .

والجواب : الأمر كما ذكرتم ، إلا أن المعتبر عندنا عصمة الأنبياء عليهم السلام في وقت حصول النبوة .

وأما قبلها فذلك غير واجب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 75.74 ﴾

(262/391)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسائلين ﴾

في هذه الآيات وجهان :

أحدهما : أنها عِبَرٌ للمعتبرين .

الثاني : زواجر للمتقين .

وفيها من يوسف وإخوته أربعة أقاويل :

أحدها : ما أظهره الله تعالى فيه من عواقب البغي عليه .

الثاني : صدق رؤياه وصحة تأويله .

الثالث : ضبط نفسه وقهر شهوته حتى سلم من المعصية وقام بحق الأمانة .

الرابع : الفرج بعد شدة الإياس . قال ابن عطاء : ما سمع سورة يوسف محزون إلا استروح إليها .

قوله عز وجل : ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا مِنّا ﴾ وأخوه بنيامين وهما أخوان لأب وأم ، وكان يعقوب قد كلف بهما لموت أمهما وزاد في المراعاة لهما ، فذلك سبب حسدهم لهما ، وكان شديد الحب ليوسف ، فكان الحسد له أكثر ، ثم رأى الرؤيا فصار الحسد له أشد .

﴿ ونحن عصبة ﴾ وفي العصبة أربعة أقاويل :

أحدها : أنها ستة أو سبعة ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : أنها من عشرة إلى خمسة عشر ، قاله مجاهد .

الثالث : من عشرة إلى أربعين ، قاله قتادة

الرابع : الجماعة ، قاله عبد الرحمن بن زيد .

﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لفي خطأ من رأيه ، قال ابن زيد .

الثاني : لفي جور من فعله ، قال ابن كامل .

الثالث : لفي محبة ظاهرة ، حكاه ابن جرير .

وإنما جعلوه في ضلال مبين لثلاثة أوجه :

أحدها : لأنه فضّل الصغير على الكبير .

الثاني : القليل على الكثير .

الثالث : من لا يراعي ما له على من يراعيه .

واختلف فيهم هل كانوا حينئذ بالغين ؟ فذهب قوم إلى أنهم كانوا بالغين مؤمنين ولم يكونوا أنبياء بعد لأنهم قالوا ﴿ يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ﴾ وهذه حالة لا تكون إلا من بالغ ، وقال آخرون : بل كانوا غير بالغين لأنهم قالوا ﴿ أرسله معنا غداً نرتع ونلعب ﴾ وإنما استغفروه بعد البلوغ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(263/391)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾ الْآيَةَ .

تَفَاوَضُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَأَظْهَرُوا الْحَسَدَ الَّذِي كَانُوا يُضْمِرُونَهُ لِقُرْبِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ أَبِيهِمْ دُونَهُمْ ، وَقَالُوا : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ يَعْنُونَ عَنْ صَوَابِ الرَّأْيِ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَصْغَرَ مِنْهُمْ ، وَكَانَ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْأَكْبَرَ ، أَوْلَى بِتَقْدِيمِ الْمَنْزِلَةِ مِنْ الْأَصْغَرِ وَمَعَ ذَلِكَ ، فَإِنَّ الْجَمَاعَةَ مِنْ الْبَنِينَ ، أَوْلَى بِالْمَحَبَّةِ مِنْ الْوَاحِدِ ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ ، وَمَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَنْفَعَ لَهُ فِي تَدْبِيرِ أَمْرِ الدُّنْيَا ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُومُونَ بِأَمْوَالِهِ وَمَوَاشِيهِ ، فَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ اصْطِفَاءَهُ إِيَّاهُ بِالْمَحَبَّةِ دُونَهُمْ وَتَقْدِيمَهُ عَلَيْهِمْ ذَهَابٌ عَنْ طَرِيقِ الصَّوَابِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(264/391)

وقال ابن عطية :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾

قرأ الجمهور " آيات " بالجمع ، وقرأ ابن كثير – وحده – " آية " بالإفراد ، وهي قراءة مجاهد وشبل وأهل مكة ؛ فالأولى : على معنى أن كل حال من أحواله آية فجمعها . والثانية :

على أنه بجملته آية، وإن تفصل بالمعنى، ووزن "آية" فعلة أو فعلة أو فاعلة على الخلاف فيه، وذكر الزجّاج: أن في غير مصحف عثمان: "عبرة للسائلين"؛ قال أبو حاتم: هو في مصحف أبيّ بن كعب.

وقوله: ﴿ للسائلين ﴾ يقتضي حضاً ما على تعلم هذه الأنباء، لأنه إنما المراد آية للناس، فوصفهم بالسؤال إذ كل واحد ينبغي أن يسأل عن مثل هذه القصص، إذ هي مقر العبر والاتعاظ. ويصح أيضاً أن يصف الناس بالسؤال من حيث كان سبب نزول السورة سؤال سائل كما روي. وقوله: ﴿ وأخوة ﴾ يريدون به: يامين - وهو أصغر من يوسف - ويقال له: بنيامين، وقيل: كان شقيق يوسف وكانت أمهما ماتت، ويدل على أنهما شقيقان تخصيص الأخوة لهما ب ﴿ أخوة ﴾ وهي دلالة غير قاطعة وكان حب يعقوب ليوسف عليه السلام ويامين لصغرهما وموت أمهما، وهذا من حب الصغير هي فطرة البشر؛ وقد قيل لابنة الحسن: أي بنيك أحب إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر والغائب حتى يقدم، والمريض حتى يفيق.

وقولهم: ﴿ ونحن عصبة ﴾ أي نحن جماعة تضر وتنفع، وتحمي وتخذل، أي لنا كانت تنبغي المحبة والمراعاة. و"العصبة" في اللغة: الجماعة، قيل: من عشرة إلى خمسة عشر، وقيل: من عشرة إلى أربعين، وقال الزجاج: العشرة ونحوهم، وفي الزهراوي: الثلاثة: نفر - فإذا زادوا فهم: رهط إلى التسعة، فإذا زادوا فهم: عصبة، ولا يقال لأقل من عشرة:

عصبة. وقولهم: ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ أي لفي اختلاف وخطأ في محبة يوسف وأخيه، وهذا هو معنى الضلال، وإنما يصغر قدره أو يعظم بحسب الشيء الذي فيه يقع الائتلاف. و﴿ مبين ﴾ معناه: يظهر للمتأمل.

(265/391)

وقرأ أبو عمرو وعاصم وابن عامر وحمزة "مبين اقتلوا" بكسر التنوين في الوصل لالتقاء ساكن التنوين والقاف، وقرأ نافع وابن كثير والكسائي "مبين اقتلوا" بكسر النون وضم إتباعاً لضمة التاء ومراعاة لها. انتهى انتهى. اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(266/391)

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾

يعني من سأل عن حديثهم.

وقرأ أهل مكة "آيةٌ" على التوحيد؛ واختار أبو عبيد "آيَاتٌ" على الجمع؛ قال: لأنها خير

كثير .

قال النحاس : و "آية" هنا قراءة حسنة ، أي لقد كان للذين سألوا عن خبر يوسف آية فيما خبّروا به ، لأنهم سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فقالوا : أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أُخرج ابنه إلى مصر ، فبكى عليه حتى عمي ؟ ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ، ولا من يعرف خبر الأنبياء ؛ وإنما وجّهَ اليهودُ (إليهم) من المدينة يسألونه عن هذا فأنزل الله عز وجل سورة "يوسف" جملة واحدة ؛ فيها كل ما في التوراة من خبر وزيادة ؛ فكان ذلك آية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، بمنزلة إحياء عيسى ابن مريم عليه السلام الميت .

"آيَاتٌ" موعظة ؛ وقيل : عبرة .

وروي أنها في بعض المصاحف "عبرة" .

وقيل : بصيرة .

وقيل : عجب ؛ تقول فلان آية في العلم والحسن أي عجب .

قال الثعلبيّ في تفسيره : لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه ؛ وقال ابن زيد : كانوا أنبياء ، وقالوا : ما يرضى أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه ! فبغوه بالعداوة ، وقد تقدّم ردّ هذا القول .

قال الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ﴾ وأسماؤهم : روبيل وهو أكبرهم ،

وشمعون ولاوي ويهوذا وزيالون ويشجر ، وأمهم ليا بنت ليان ، وهي بنت خال يعقوب ، وولد له من سريتين أربعة نفر ؛ دان ونفتالي وجاد وآشر ، ثم توفيت ليا فتزوّج يعقوب أختها راحيل ، فولدت له يوسف وبنيامين ، فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلاً .

قال السّهيلي : وأمّ يعقوب اسمها رفقا ، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين ، وليان بن ناهر بن آزر هو خال يعقوب .

(267/391)

وقيل : في اسم الأَمَتين ليا وتلتا ، كانت إحداهما لراحيل ، والأخرى لأختها ليا ، وكانتا قد وهبتاهما ليعقوب ، وكان يعقوب قد جمع بينهما ، ولم يحلّ لأحد بعده ؛ لقول الله تعالى : ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الاختين إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء : 23] وقد تقدّم الردّ على ما قاله ابن زيد ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ ﴾ "يوسف" رفع بالابتداء ؛ واللام للتأكيد ، وهي التي يتلقى بها القسم ؛ أي والله ليوسف .

﴿ وَأَخُوهُ ﴾ عطف عليه .

﴿ أَحَبُّ إلى أَبِينَا مِنَّا ﴾ خبره ، ولا يثنى ولا يجمع لأنه بمعنى الفعل ؛ وإنما قالوا هذا لأن

خبر المنام بلغهم فتآمروا في كيده .

﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي جماعة ، وكانوا عشرة .

والعصبة ما بين الواحد إلى العشرة ، وقيل : إلى الخمسة عشر .

وقيل : ما بين الأربعين إلى العشرة ؛ ولا واحد لها من لفظها كالنفر والرهط .

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ لم يريدوا ضلال الدين ، إذ لو أرادوه لكانوا كفاراً ؛ بل أرادوا لفي ذهاب عن وجه التدبير ، في إيثار اثنين على عشرة مع استوائهم في الانتساب إليه .

وقيل : لفي خطأ بيّن بإيثاره يوسف وأخاه علينا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(268/391)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته ﴾

يعني في خبره وخبر إخوته وأسماؤهم روبيل وهو أكبرهم وشمعون ولاوى ويهوذا وزبولول ويشجر وأمهم ليا بنت ليان وهي ابنة خال يعقوب وولد يعقوب من سريتين إسم إحداهما زلفة والأخرى بلهة أربعة أولاد وأسماؤهم دان ونفتالي وجاد وآشر ، ثم توفيت ليا فتزوج

يعقوب أختها راحيل ، فولدت له يوسف وبنيامين فهؤلاء بنو ليعقوب وهم الأسباط ، وعددهم اثنا عشر نفراً ﴿ آيات للسائلين ﴾ وذلك أن اليهود لما سألوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن قصة يوسف وقيل سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من أرض كنعان إلى أرض مصر ذكر قصة يوسف وإخواته فوجدها موافقة لما في التوراة فعجبوا منه فعلى هذا تكون هذه القصة دالة على نبوة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأنه لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يجالس العلماء والأحبار ، ولم يأخذ عن أحد منهم شيئاً فدل ذلك على أن ما أتي به وحي سماوي وعلم قدسي أوحاه الله إليه وشرفه به ، ومعنى آيات للسائلين أي عبرة للمعتبرين فإن هذه القصة تشتمل على أنواع من العبر والمواعظ والحكم ومنها رؤيا يوسف وما حقق الله فيها ومنها حسد إخوته له وما آل إليه أمرهم من الحسد ومنها صبر يوسف على إخوته وبلواه مثل إلقائه في الجب وبيعه عبداً وسجنه بعد ذلك وما آل إليه أمره من الملك ومنها ما تشتمل عليه من حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل إليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات التي إذا فكر فيها الإنسان اعتبر واتعظ .

﴿ إذ قالوا ﴾ يعني إخوة يوسف ﴿ ليوسف ﴾ اللام فيه لام القسم تقديره والله ليوسف ﴿ وأخوه ﴾ يعني بنيامين وهما من أم واحدة ﴿ أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ﴾ إنما قالوا هذه المقالة حسداً منهم ليوسف وأخيه لما رأوا من ميل يعقوب إليه وكثرة شفقته عليه والعصبة الجماعة وكانوا عشرة ، قال الفراء : العصبة هي العشرة فما زاد وقيل هي ما بين الواحد إلى العشرة وقيل ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وقال مجاهد : هي ما بين العشرة إلى خمسة عشر وقيل إلى الأربعين وقيل الأصل فيه أن كل جماعة يتعصب بعضهم ببعض يسمون عصبة والعصبة لا واحد لها من لفظها كالرهط والنفر ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ يعني لفي خطأ بين في إيثاره حب يوسف علينا مع صغره لا نفع فيه ونحن عصبة ننفعه ونقوم بمصالحه من أمر دنياه وإصلاح أمر مواشيه وليس المراد من ذكر هذا الضلال الضلال عن الدين إذ لو أرادوا ذلك لكفروا به ولكن أرادوا به الخطأ في أمر الدنيا وما يصلحها يقول نحن أنفع له من يوسف فهو مخطئ في صرف محبته إليه لأنا أكبر منه سناً وأشد قوة وأكثر منفعة وغاب عنهم المقصود الأعظم وهو أن يعقوب ما فضل يوسف وأخاه على سائر الإخوة إلا في المحبة المحضة ومحبة القلب ليس في وسع البشر دفعها ويحتمل أن يعقوب إنما خص يوسف بمزيد المحبة والشفقة لأن أمه ماتت وهو صغير ولأنه رأى فيه من آيات الرشد والنجابة ما لم يره في سائر إخوته فإن قلت الذي فعله إخوة يوسف بيوسف هو محض

الحسد والحسد من أمهات الكبائر وكذلك نسبة أبيهم إلى الضلالة هو محض العقوق وهو من الكبائر أيضاً وكل ذلك قادح في عصمة الأنبياء فما الجواب عنه .

(270/391)

قلت : هذه الأفعال إنما صدرت من إخوة يوسف قبل ثبوت النبوة لهم والمعتبر في عصمة الأنبياء هو وقت حصول النبوة لا قبلها ، وقيل : كانوا وقت هذه الأفعال مراهقين غير بالغين ولا تكليف عليهم قبل البلوغ فعلى هذا لم تكن هذه الأفعال قادحة في عصمة الأنبياء .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(271/391)

وقال أبو السعود :

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ﴾

أي في قصتهم والمرادُ بهم هاهنا إما جميعُهم فإن لبنيامينَ أيضاً حصةً من القصة أو بنو عَلاّته المعدودون فيما سلف إذ عليهم يدور رحاها ﴿ ءايات ﴾ علاماتٌ عظيمةُ الشأنِ دالةٌ

على قدرة الله تعالى القاهرة ﴿ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ لكل من سأل عن قصتهم وعرفها أو الطالبين للآيات المعتبرين بها فإنهم الواقفون عليها والمنتفعون بها دون مَنْ عداهم ممن اندرج تحت قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى السموات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ فالمرادُ بالقصة نفسُ المقصوص أو على نبوته عليه السلام لمن سأله من المشركين أو اليهود عن قصتهم فأخبرهم بذلك على ما هي عليه من غير سماعٍ من أحد ولا ممارسةِ شيء من الكتب فالمرادُ بها اقتصاصُها، وجمعُ الآيات حينئذ للإشعار بأن اقتصاصَ كلِّ طائفةٍ من القصة آيةٌ بينةٌ كافيةٌ في الدلالة على نبوته عليه السلام على نحو ما ذكر في قوله تعالى: ﴿ مَّقَامِ إبراهيم ﴾ على تقدير كونه عطفَ بيان لقوله تعالى: ﴿ آيات بَيّنَات ﴾ لا لما قيل من أنه لتعدد جهةِ الإعجاز لفظاً ومعنى، وقرأ ابن كثير آيةٌ وفي بعض المصاحف عبرةٌ وقيل: إنما قص الله تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم خبرَ يوسفَ وبغْيَ إخوتِه عليه لما رأى من بغْي قومه عليه ليتأسّى به ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ أي شقيقُه بنيامينُ وإنما لم يذكَرْ باسمه تلويحاً بأن مدار المحبةِ أُخوّتُه ليوسف من الطرفين، ألا يُرى إلى أنهم كيف اكتفَوا بإخراج يوسفَ من البين من غير تعرُّضٍ له حيث قالوا: اقتلوا يوسف ﴿ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾ وحّد الخبر مع تعدد المبتدأ لأن أفعل من كذا لا يفرّق فيه بين الواحدِ وما فوقه، ولا بين المذكر والمؤنث، نعم إذا عُرِّف وجب الفرقُ وإذا أُضيف جاز الأمران، وفائدةُ لام

الابتداءِ في يوسف تحقيقُ مضمونِ الجملة وتأكيدُه ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي والحال أنا جماعةٌ قادرون

على الحل والعقد أحقاءُ بالمحبة ، والعُصبة والعِصابة العشَرةُ من الرجال فصاعداً سُمّوا بذلك لأن الأمورَ تُعصَب بهم ﴿ إِنَّ أَبَانَا ﴾ في ترجيحهما علينا في المحبة مع فضلنا عليهما وكونهما بمعزل من كفاية الأمور بالصِّغر والقلة ﴿ لَفِى ضلال ﴾ أي ذهب عن طريق التعديلِ اللائقِ وتنزيلِ كلٍ منا منزلَته ﴿ مُّبِينٍ ﴾ ظاهرِ الحال . روي أنه كان أحبَّ إليه لما يرى فيه من مخايل الخيرِ وكان إخوتُه يحسُدونه فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبِر عنه فتضاعف حسدُهم حتى حملهم على مباشرة ما قُص عنهم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ﴾

أي في قصصهم ، والظاهر أن المراد بالإخوة هنا ما أريد بالإخوة فيما مر ، وذهب جمع إلى أنهم هناك بنو علاته ، وجوز أن يراد بهم ههنا ما يشمل من كان من الأعيان لأن لبنيامين أيضاً حصة من القصة ، ويبعده على ما قيل : ﴿ قَالُواْ ﴾ [يوسف : 8] الآتي ﴿ ءايات ﴾ علامات عظيمة الشأن دالة على عظيم قدرة الله تعالى القاهرة وحكمته الباهرة ﴿ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ لكل من سأل عن قصتهم وعرفها .

أو للطالبين للآيات المعتبرين بها فانهم الواقفون عليها المنتفعون بها دون من عداهم ممن اندرج تحت قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِن ءايَةٍ فِى السموات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105] فالمراد بالقصة نفس المقصوص .

أو على نبوته عليه الصلاة والسلام الذين سألوه عن قصتهم حسبما علمت في بيان سبب النزول فأخبرهم صلى الله عليه وسلم بذلك على ما هو عليه من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب ، فالمراد بالقصة اقتصاصها ، وجمع الآيات حينئذ قيل : للاشعار بأن اقتصاص كل طائفة من القصة آية بينة كافية في الدلالة على نبوته صلى الله عليه وسلم ، وقيل : لتعدد جهة الاعجاز لفظاً ومعنى ، وزعم بعض الجلة أن الآية من باب الاكتفاء ، والمراد ﴿ ءايات ﴾ للذين يسألون والذين لا يسألون ، ونظير ذلك قوله سبحانه : ﴿

سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴾ [فصلت : 10] وحسن ذلك لقوة دلالة الكلام على المحذوف ، وقال ابن عطية : إن المراد من السائلين الناس إلا أنه عدل عنه تحضيضاً على تعلم مثل هذه القصة لما فيها من مزيد العبر ، وكلا القولين لا يخلو عن بعد .

وقرأ أهل مكة .

وابن كثير .

ومجاهد آية على الافراد ، وفي مصحف أبي عبرة للسائلين .

﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾

(274/391)

بنيامين وتخصيصه بالإضافة لاختصاصه بالأخوة من جانبي الأم والأب وهي أقوى من الأخوة من أحدهما ، ولم يذكروه باسمه إشعاراً بأن محبة يعقوب عليه السلام له لأجل شقيقه يوسف عليه السلام ، ولذا لم يتعرضوه بشيء مما أوقع بيوسف عليه السلام واللام للابتداء ، ويوسف مبتدأ ﴿ وَأَخُوهُ ﴾ عطف عليه ، وقوله سبحانه : ﴿ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾ خبر ومتعلق به وهو أفعل تفضيل من المبني للمفعول شذوذاً ولذا عدى بإلى حسبما ذكروا من أن أفعل من الحب والبغض يعدى إلى الفاعل معنى بإلى وإلى المفعول باللام .

وفي تقول : زيد أحب إلي من بكر إذا كنت تكثر محبته ؛ ولي وفيّ إذا كان يحبك أكثر من غيره ، ولم يثن مع أن المخبر عنه به إثنان لأن أفعل من كذا لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه ولا بين المذكر وما يقابله بخلاف أخويه فإن الفرق واجب في المحلى جائز في المضاف إذا أريد تفضيله على المضاف إليه وإذا أريد تفضيله مطلقاً فالفرق لازم ، وجيء بلام الابتداء لتحقيق مضمون الجملة وتأكيده أي كثرة حبه لهما أمر ثابت لا شبهة فيه ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي والحال أنا جماعة قادرون على خدمته والجد في منفعته دونهما ، والعصبة والعصابة على ما نقل عن الفراء : العشرة فما زاد سموا بذلك لأن الأمور تعصب بهم أي تشد فتقوى .

وعن ابن عباس أن العصبة ما زاد على العشرة وفي رواية عنه أنها ما بين العشرة والأربعين ، وعن مجاهد أنها من عشرة إلى خمسة عشر .

وعن مقاتل هي عشرة ، وعن ابن جبير ستة .

أو سبعة ، وقيل : ما بين الواحد إلى العشرة ، وقيل : إلى خمسة عشر ، وعن ابن زيد .

والزجاج.

وابن قتيبة هي الجماعة مطلقاً ولا واحد لها من لفظها كالنفر والرهط ، وقيل : الثلاثة نفر وإذا زادوا فهم رهط إلى التسعة فإذا زادوا فهم عصبة ، ولا يقال لأقل من عشرة : عصبة ، وروي النزال بن سبرة عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قرأ بنصب ﴿ عُصْبَةً ﴾ فيكون الخبر محذوفاً ، وعصبة حال من الضمير فيه أي نجتمع عصبة ، وقدر ذلك ليكون في الحال دلالة على الخبر المحذوف لما فيها من معنى الاجتماع .

وزعم ابن المنير أن الكلام على طريقة :

أنا أبو النجم وشعري شعرى ، . . .

والتقدير ونحن نحن عصبة ، وحذف الخبر لمساواته المبتدأ وعدم زيادته عليه لفظاً ففي حذفه خلاص من تكرار اللفظ بعينه مع دلالة السياق على المحذوف ، ولا غرو في وقوع الحال بعد نحن لأنه بالتقدير المذكور كلام تام فيه من الفخامة ما فيه وقدر في ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾

[هود : 78] على قراءة النصب مثل ذلك ، وفيه أن الفخامة إنما تجيء من التكرار فلا يجوز الحذف على أن الدلالة على المحذوف غير بينة .

وعن ابن الأنباري أن ذلك كما تقول العرب : إنما العامري عمته أي يتعهد ذلك ، والدال على المحذوف فيه عمته فإن الفعلة للحالة التي يستمر عليها الشخص فيلزم لا محالة تعهده لها ، والأولى أن يعتبر نظير قول الفرزدق :

يا لهذم حكمك مسمطاً . . .

فإنه أراد كما قال المبرد :

حكمك لك مسمطا . . .

(276/391)

أي مثبت نافذ غير مردود ، وقد شاع هذا فيما بينهم لكن ذكروا أن فيه شذوذاً من وجهين ، والآية على قراءة الأمير كرم الله تعالى وجهه أكثر شذوذاً منه كما لا يخفى على المتدرب في علم العربية ﴿ إِنَّ أَبَانَا ﴾ أي في ترجيحهما علينا في المحبة مع فضلنا عليهما وكونهما بمعزل عن كفاية الأمور ﴿ لَفِى ضلال ﴾ أي خطأ في الرأي وذهاب عن طريق التعديل اللائق من تنزيل كل منا منزلته ﴿ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر الحال ، وجعل الضلال ظرفاً لتمكنه فيه ، ووصفه بالمبين إشارة إلى أن ذلك غير مناسب له بزعمهم والتأكيد لمزيد الاعتناء ، يروى أنه عليه السلام كان أحب إليه لما يرى فيه من أن المخايل وكانت إخوته يحسدونه فلما رأص الرؤيا تضاعفت له المحبة فكان لا يصبر عنه ويضمه كل ساعة إلى صدره ولعله أحس قببه بالفراق فتضاعفت لذلك حسدهم حتى حملهم على ما قص الله تعالى عنهم ، وقال بعضهم : إن سبب زيادة حبه عليه السلام ليوسف وأخيه صغرهما وموت أمهما ، وحب

الصغير أمر مركوز في فطرة البشر فقد قيل : لابنة الحسن : أي بنيك أحب إليك ؟ قالت :

الصغير حتى يكبر .

والغائب حتى يقدم .

والمريض حتى يشفى ، وقد نظم بعض الشعراء في محبة الولد الصغير قديماً وحديثاً ، ومن ذلك ما قاله الوزير أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري من قصيدة بعث بها إلى أولاده وهو في السجن :

وصغيرهم عبد العزيز فانني . . .

أطوى لفرقته جوى لم يصغر

ذاك المقدم في الفؤاد وإن غدا . . .

كفأ لكم في المنتمي والعنصر

إن البنان الخمس أكفاء معا . . .

والحلى دون جميعها للخنصر

وإذا الفتى فقد الشباب سماله . . .

حب البنين ولا كحب الأصغر

وفيه أن منشأ زيادة الحب لو كانت ما ذكر لكان بنيامين أوفر حظاً في ذلك لأنه أصغر يوسف عليه السلام كما يدل عليه قولهم : إن أمهما ماتت في نفاسه ، والآية كما أشرنا إليه مسيرة إلى أن محبته لأجل شقيقه يوسف فالذي ينبغي أن يعول عليه أنه عليه السلام إنما أحبه أكثر منهم لما رأى فيه من مخايل الخير ما لم ير فيهم وزاد ذلك الحب بعد الرؤيا لتأكيدها تلك الامارات عنده ولا لوم على الوالد تفضيله بعض ولده على بعض في المحبة لمثل ذلك ، وقد صرح غير واحد أن المحبة ليست مما تدخل تحت وسع البشر والمرء معذور فيما لم يدخل تحته ، نعم ظن أبناؤه أن ما كان منه عليه السلام إنما كان عن اجتهاد وأنه قد أخطأ في ذلك والمجتهد يخطىء ويصيب وإن كان نبياً ، وبهذا ينحل ما قيل : إنهم إن كانوا قد آمنوا بكون أبيهم رسولاً حقاً من عند الله تعالى فكيف اعترضوا وكيف زيفوا طريقته وطعنوا فيما هو عليه ، وإن كانوا مكذبين بذلك فهو يوجب كفرهم والعياذ بالله تعالى وهو مما لم يقل به أحد ووجه الانحلال ظاهر . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ﴾

أي : في قصتهم وحديثهم : ﴿ آيَاتٌ ﴾ أي : دلائل على قدرته تعالى ، وحكمته في كل شيء : ﴿ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ أي : لمن سأل عن نبئهم . أو آيات على نبوته صلوات الله عليه ، لمن سأل عن نبئهم ، فأخبرهم بالصحة من غير تلق عن بشر أو أخذ عن كتاب .

وقال القاشاني : أي : آيات معظمات لمن يسأل عن قصتهم ويعرفها ، تدلهم أولاً : على أن الاصطفاء المحض أمر مخصوص بمشيئة الله تعالى ، لا يتعلق بسعي ساع ولا إرادة مريد ، فيعلمون مراتب الاستعدادات في الأزل .

وثانياً : على أن من أراد الله به خيراً ، لم يمكن لأحد دفعه . ومن عصمه الله ، لم يمكن لأحد رميه بسوء ، ولا قصده بشر ، فيقوى يقينهم وتوكلهم .

وثالثاً : على أن كيد الشيطان وإغواءه أمر لا يأمن منه أحد ، حتى الأنبياء ، فيكونون منه على حذر . وأقوى من ذلك كله أنها تطلعهم من طريق الفهم ، الذي هو الانتقال الذهني على أحوالهم في البداية والنهاية وما بينهما ، وكيفية سلوكهم إلى الله ، فتثير شوقهم وإرادتهم ، وتشحذ بصيرتهم ، وتقوي عزيمتهم .

﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ وهو بنيامين شقيقه ، وأمهما راحيل بنت لابان خال يعقوب ﴿ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي : والحال أنا جماعة أقوياء ، أحق بالمحبة من

صغيرين ، لا كفاية فيهما . والعصبة والعصابة : الجماعة من الرجال – عشرة فصاعداً – سموا بذلك لكون الأمور تعصب بهم ، أي : تشد فتقوى ، وذكرها ليس لإفادة العدد فقط ، بل للإشعار بالقوة ، ليكون أدخل في الإنكار ؛ لأنهم قادرون على خدمته ، والجد في منفعته ، فكيف يؤثر عليهم من لا يقدر على ذلك ؟ .

(279/391)

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : ذهاب عن طريق الصواب في ذلك لتفضيله المفضول بزعمهم . وغاب عنهم أنه كان يحب يوسف لما يرى فيه من المخايل ، لا سيما بعد تلك الرؤيا . وبنيامين لكونه شقيقه وأصغرهم . ومن المعروف زيادة الميل لأصغر البنين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 159 . 160 ﴾

(280/391)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (7) ﴾

جملة ابتدائية ، وهي مبدأ القصص المقصود ، إذ كان ما قبله كالمقدمة له المنبئة بنباهة شأن صاحب القصة ، فليس هو من الحوادث التي لحقت يوسف عليه السّلام ولهذا كان أسلوب هذه الجملة كأسلوب القصص ، وهو قوله : ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منّا ﴾ [سورة يوسف : 8] نظير قوله تعالى : ﴿ إنْ يوحَى إليّ إلاّ أنّما أنا نذيرٌ مبينٌ إذ قال ربك للملائكة إنّي خالقٌ بشراً من طينٍ ﴾ [سورة ص : 70 ، 71] إلى آخر القصة .

والظرفية المستفاد من في ﴾ ظرفية مجازية بتشبيه مقارنة الدليل للمدلول بمقارنة المظروف للظرف ، أي لقد كان شأن يوسف عليه السّلام وإخوته مقارناً لدلائل عظيمة من العبر والمواعظ ، والتعريف بعظيم صنع الله تعالى وتقديره .

والآيات : الدلائل على ما تتطلب معرفته من الأمور الخفية .

والآيات حقيقة في آيات الطريق ، وهي علامات يجعلونها في المفاوز تكون بادية لا تغمرها الرمال لتكون مرشدة للسائرين ، ثم أطلقت على حجج الصدق ، وأدلة المعلومات الدقيقة .

وجمع الآيات هنا مراعى فيه تعدّدها وتعدّد أنواعها ، ففي قصة يوسف عليه السّلام دلائل على ما للصّبر وحسن الطويّة من عواقب الخير والنصر ، أو على ما للحسد والإضرار بالنّاس من الخيبة والاندحار والهبوط .

وفيها من الدلائل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنّ القرآن وحي من الله ، إذ

جاء في هذه السورة ما لا يعلمه إلاّ أحْبار أهل الكتاب دون قراءة ولا كتاب وذلك من المعجزات.

وفي بلاغة نظمها وفصاحتها من الإعجاز ما هو دليل على أنّ هذا الكلام من صنع الله ألقاه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم معجزة له على قومه أهل الفصاحة والبلاغة.

والسائلون: مراد منهم مَن يُتوقع منه السؤال عن المواعظ والحكم كقوله تعالى: ﴿ في أربعة أيامٍ سواءً للسائلين ﴾ [سورة فصلت: 10].

(281/391)

ومثل هذا يستعمل في كلام العرب للتشويق، والحثّ على تطلب الخبر والقصة.

قال طرفة:

سائلوا عنّا الذي يعرفنا

بقوانا يوم تحلاق اللمم...

وقال السموءل أو عبد الملك الحارثي:

سَلي إن جهلت الناسَ عنّا وعنهم

فليس سواءً عالمٌ وجهول...

وقال عامر بن الطفيل :

طُلِّقتتِ إن لم تَسْألي أيُّ فارس

حَليلك إذ لاَقَى صُداءً وخَثعما . . .

وقال أنيف بن زبان النبهاني :

فلمّا التقينا بين السّيف بيننا

لسائلة عنا حَفي سؤالها . . .

وأكثر استعمال ذلك في كلامهم يكون توجيهه إلى ضمير الأنثى ، لأنّ النساء يُعنين بالسؤال عن الأخبار التي يتحدث الناس بها ، ولّما جاء القرآن وكانت أخباره التي يشوق إلى معرفتها أخبارَ علم وحكمة صُرف ذلك الاستعمال عن التوجيه إلى ضمير النسوة ، ووجّه إلى ضمير المذكّر كما في قوله : ﴿ سَأَلَ سائلٌ بعذابٍ واقعٍ ﴾ [سورة المعارج : 1] وقوله : ﴿ عَمّ يتساءلون ﴾ [سورة النبأ : 1] .

وقيل المراد بـ (السائلين) اليهود إذ سأل فريق منهم النبي عن ذلك .

وهذا لا يستقيم لأنّ السورة مكيّة ولم يكن لليهود مخالطة للمسلمين بمكة .

﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8) ﴾

﴿ إذْ ﴾ ظرف متعلق بـ (كَان) من قوله : ﴿ لقد كَان في يوسف وإخوته آيات للسائلين

﴾ [سورة يوسف : 7] ، فإنّ ذلك الزمان موقع من مواقع الآيات فإن في قولهم ذلك حينئذٍ عبرة من عبر الأخلاق التي تنشأ من حسد الإخوة والأقرباء ، وعبرة من المجازفة في تغليطهم أباهم ، واستخفافهم برأيه غروراً منهم ، وغفلة عن مراتب موجبات ميل الأب إلى بعض أبنائه .

وتلك الآيات قائمة في الحكاية عن ذلك الزمن .

وهذا القول المحكي عنهم قول تآمر وتحاور .

وافتتاحُ المقول بلام الابتداء المفيدة للتّوكيد لقصد تحقيق الخبر .

(282/391)

والمراد : توكيد لازم الخبر إذ لم يكن فيهم من يشك في أنّ يوسف عليه السّلام وأخاه أحبّ إلى أبيهم من بقيّتهم ولكنّهم لم يكونوا سواء في الحسد لهما والغيرة من تفضيل أبيهم إيّاهما على بقيتهم ، فأراد بعضهم إقناع بعض بذلك ليتمالؤوا على الكيد ليوسف عليه السّلام وأخيه ، كما سيأتي عند قوله : ونحن عصبة ﴾ ، وقوله : ﴿ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف ﴾ [سورة يوسف : 10] ؛ فقائل الكلام بعض إخوته ، أي جماعة منهم بقرينة قوله بعد ﴿ اقتلوا يوسف ﴾ [سورة يوسف : 9] وقولهم : ﴿ قال قائل منهم لا تقتلوا

يوسف ﴾ [سورة يوسف : 10] .

وأخو يوسف عليه السّلام أريد به (بنيامين) وإنّما خصّوه بالأخوة لأنّه كان شقيقه ، أمهما (راحيل) بنت (لابان) ، وكان بقية إخوته إخوة للأب ، أمُّ بعضهم (ليئة) بنت (لابان) ، وأمّ بعضهم (بلهة) جارية (ليئة) وهبتْها (ليئة) لزوجها يعقوب عليه السّلام .

n

وأحب ﴾ اسم تفضيل ، وأفعل التفضيل يتعدّى إلى المفضّل بـ (من) ، ويتعدّى إلى المفضّل عنده بـ (إلى) .

ودعواهم أنّ يوسف عليه السّلام وأخاه أحبّ إلى يعقوب عليه السّلام منهم يجوز أن تكون دعوى باطلة أثار اعتقادها في نفوسهم شدّةُ الغيرة من أفضليّة يوسف عليه السّلام وأخيه عليهم في الكمالات وربّما سمعوا ثناء أبيهم على يوسف عليه السّلام وأخيه في أعمال تصدر منهما أو شاهدوه يأخذ بإشارتهما أو رأوا منه شفقة عليهما لصغرهما ووفاة أمّهما فتوهّموا من ذلك أنّه أشدّ حبّاً إيّاهما منهم توهماً باطلاً .

ويجوز أن تكون دعواهم مطابقة للواقع وتكون زيادة محبّته إيّاهما أمراً لا يملك صرفه عن نفسه لأنّه وجدان ولكنّه لم يكن يؤثرهما عليهم في المعاملات والأمور الظاهريّة ويكون أبناؤه قد علموا فرط محبّة أبيهم إيّاهما من التوسّم والقرائن لا من تفضيلهما في المعاملة فلا يكون يعقوب عليه السّلام مؤاخذاً بشيء يفضي إلى التباغض بين الإخوة .

وجملة ﴿ ونحن عصبة ﴾ في موضع الحال من ﴿ أحبُّ ﴾ ، أي ونحن أكثر عدداً .

والمقصود من الحال التعجّب من تفضيلهما في الحبّ في حال أنّ رجاء انتفاعه من إخوتهما أشدّ من رجائه منهما ، بناء على ما هو الشائع عند عامّة أهل البدو من الاعتزاز بالكثرة ، فظنوا مدارك يعقوب عليه السّلام مساوية لمدارك الدّهماء ، والعقولُ قلما تدرك مراقي ما فوقها ، ولم يعلموا أنّ ما ينظر إليه أهل الكمال من أسباب التفضيل غير ما ينظره مَن دونهم .

وتكون جملة ﴿ إنّ أبَانَا لفي ضلال مبين ﴾ تعليلاً للتعجّب وتفريعاً عليه ، وضمير ﴿ ونحن عصبة ﴾ لجميع الإخوة عَدَا يوسف عليه السّلام وأخاه .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ ونحن عصبة ﴾ عطفاً على جملة ﴿ ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا ﴾ .

والمقصود لازم الخبر وهو تجرئة بعضهم بعضاً عن إتيان العمل الذي سيغريهم به في قولهم : ﴿ اقتلوا يوسف ﴾ [سورة يوسف : 9] ، أي إنّا لا يعجزنا الكيد ليوسف عليه السّلام وأخيه فإنّا عصبة والعصبة يهون عليهم العمل العظيم الذي لا يستطيعه العدد القليل كقوله : ﴿ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنّا إذن لخاسرون ﴾ [سورة يوسف : 14] ،

وتكون جملة إنّ أبانا ﴿ تعليلاً للإغراء وتفريعاً عليه .

و"العصبة : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، مثل أسماء الجماعات ، ويقال : العصابة .

قال جمهور اللّغويين : تطلق العصبة على الجماعة من عشرة إلى أربعين" .

وعن ابن عبّاس أنّها من ثلاثة إلى عشرة ، وذهب إليه بعض أهل اللغة وذكروا أنّ في

مصحف حفصة قوله تعالى : "إنّ الذين جاءوا بالإفك عصبة أربعةٌ منكم" .

وكان أبناء يعقوب عليه السّلام اثني عشر ، وهم الأسباط .

وقد تقدّم الكلام عليهم عند قوله تعالى : ﴿ أم يقولون إنّ إبراهيم ﴾ الآية في سورة البقرة (

140) .

والضلال إخطاء مسلك الصّواب .

وإنّما : أراد وأخطأ التّدبير للعيش لا الخطأ في الدين والاعتقاد .

والتخطئة في أحوال الدّنيا لا تنافي الاعتراف للمخطىء بالنبوءة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

الظاهر أن مراد أولاد يعقوب بهذا الضلال الذي وصفوا به أباهم – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام في هذه الآية الكريمة – إنما هو الذهاب عن علم حقيقة الأمر كما ينبغي .

ويدل لهذا ورود الضلال بهذا المعنى في القرآن وفي كلام العرب . فمنه بهذا المعنى قوله تعالى عنهم مخاطبين أباهم : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ [يوسف : 95]

وقوله تعالى في نبينا صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ [الضحى : 7]

أي لست عالماً بهذه العلوم التي لا تعرف إلا بالوحي ، فهداك إليها وعلمكها بما أوحي إليك من هذا القرآن العظيم . ومنه بهذا المعنى قول الشاعر :

وتظن سلمى أنني أبغي بها . . . بدلا أراها في الضلال تهيم

يعني : أنها غير عالمة بالحقيقة في ظنها أنه يبغي بها بدلاً وهو لا يبغي بها بدلاً .

ولي المراد أولاد يعقوب الضلال في الدين ، إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفاراً ، وإنما مرادهم أن اباهم في زعمهم في ذهاب عن إدارك الحقيقة ، وإنزال الأمر منزلته اللائقة به ، حيث آثر اثنين على عشرة ، مع أن العشرة أكثر نفعاً له ، وأقدر على القيام بشؤونه وتدبير أموره .

واعلم أن الضلال أطلق في القرآن إطلاقين آخرين :

أحدهما – الضلال في الدين ، اي الذهاب عن طريق الحق التي جاءت بها الرسل صلوات

الله عليهم وسلامه. وهذا أشهر معانيه في القرآن. ومنه بهذا المعنى ﴿ غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِم وَلَا الضالّين ﴾ [الفاتحة: 7] وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأولين ﴾ [الصافات: 71]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يس: 62] إلى غير ذلك من الآيات.

(285/391)

الثاني – إطلاق الضلال بمعنى الهلاك والغيبة من قول العرب: ضل السمن في الطعام، إذا غاب فيه وهلك فيه، ولذلك تسمي العرب الدفن إضلالاً. لأنه تغيب في الأرض يؤول غلى استهلاك عظام الميت فيها، لأنها تصير رميماً وتمتزج بالأرض. ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وقالوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض ﴾ [السجدة: 10] الآية.

ومن إطلاق الضلال على الغيبة قوله تعالى: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأعراف: 53] أي غاب واضمحل.

ومن إطلاق الضلال على الدفن قول نابغة ذبيان:

فآب مضلوه بعين جلية . . . وغودر بالجولان حزم ونائل

فقوله: مضلوه، يعني دافنيه. وقوله: بعين جلية، أي بخبر يقين. والجولان: جبل دفن عنده

المذكور .

ومن الضلال بمعنى الغيبة والاضمحلال قول الأخطل :

كنت القذى في موج أكدر مزبد . . . قذف الأتى به فضل ضلالا

وقول الآخر :

ألم تسأل فتخبرك الديار . . . عن الحي المضلل أين ساروا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(286/391)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾

أي : أن يوسف صار ظَرْفاً للأحداث ، لأن " في " تدل على الظرفية ، ومعنى الظرفية أن هناك شيئاً يُظْرف فيه شيء آخر ، فكأن يوسف صار ظَرْفاً ستدور حوله الأحداث بالأشخاص المشاركين فيها .

و" يوسف " اسم أعجمي ؛ لذلك فهو "ممنوع من الصرف " أي : ممنوع من التنوين فلا نقول : في يوسفٍ .

و ﴿ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [يوسف : 7]

وهذا يعني أن ما حدث إنما يُلفِت لقدرة الله سبحانه ؛ فقد أُلقِي في الجُبِّ وأُنقِذ ليتربى في أرقى بيوت مصر .

ونعلم أن كلمة آية تطلق على الأمر العجيب الملفت للنظر ، وهي تَرِد بالقرآن بثلاثة معانٍ :

آية كونية : مثل الشمس والقمر والليل والنهار ، تلك الآيات الكونية رصيد للنظر في الإيمان بواجب الوجود وهو الله سبحانه ؛ فساعة ترى الكون منتظماً بتلك الدقة المتناهية ؛ لا بُدَّ أن تفكر في ضرورة وجود خالق لهذا الكون .

والآيات العجيبة الثانية هي المعجزات الخارقة للنواميس التي يأتي بها الرسل ؛ لتدل على صدق بلاغهم عن الله ، مثل النار التي صارت بَرْداً وسلاماً على إبراهيم ، ومثل الماء الذي انفلق وصار كالطور العظيم أمام عصا موسى .

وهناك المعنى الثالث لكلمة آية ، والمقصود بها آيات القرآن الكريم .

وفي قول الحق سبحانه :

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [يوسف : 7] .

نستشف العبرة من كل ما حدث ليوسف الذي كَادَ له إخوته ليتخلصوا منه ؛ لكن كَيْدهم انقلب لصالح يوسف .

وفي كل ذلك سَلْوى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لتثبيت فؤاده ؛ فلا يُعير بالاً

لاضطهاد قومه له، وتآمرهم عليه، ورغبتهم في نَفْيه إلى الشام، ومحاولتهم قَتْله، ومحاولتهم مُقاطعته، وقد صاروا من بعد ذلك يعيشون في ظلال كَنفِه .

إذن : فلا تيأس يا محمد ؛ لأن الله ناصرك بإذنه وقدرته، ولا تستبطئ نصر الله، أنت ومَنْ معك، كما جاء في القرآن . ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البأسآء والضرآء وَزُلْزِلُواْ حتى يَقُولَ الرسول والذين آمَنُواْ مَعَهُ متى نَصْرُ الله ألا إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : 214] .

ويبين لنا الحق سبحانه ما حدث ليوسف بعد القهر الذي أصابه من إخوته، ويمر الوقت إلى أن تتحقق رؤيا الخير التي رآها يوسف عليه السلام .

ويُقال : إن رؤيا يوسف تحققت في فترة زمنية تتراوح بين أربعين سنة وثمانين عاماً .

ولذلك نجد رُؤْيا الخير يطول أَمَدُ تصديقها ؛ ورؤْيا الشر تكون سريعة ؛ لأن من رحمة الله أن يجعل رؤيا الشر يقع واقعاً وينتهي، لأنها لو ظلّتْ دون وقوع لأمد طويل ؛ لوقع الإنسان فريسة تَخيُّل الشر بكُلّ صوره .

والشر لا يأتي إلا على صورة واحدة، ولكن الخير له صور متعددة ؛ فيجعلك الله مُتخيلاً

لما سوف يأتيك من الخير بألوان وتآويل شتى .

والمثل لدعوة الشر هو دعوة موسى على آل فرعون ؛ حين قال : ﴿ رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ [يونس : 88] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [يوسف : 7] فكل يوم من أيام تلك القصة هناك آية وتُجمع آيات .

وهناك قراءة أخرى : " لقد كان في يوسف وإخوته آية للسائلين " أي : أن كل القصة بكل تفاصيلها وأحداثها آية عجيبة .

والحق سبحانه أعطانا في القرآن مثلاً على جَمْع الأكثر من آية في آية واحدة ، مثلما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ [المؤمنون : 50] مع أن كلاًّ منهما آية منفردة .

(288/391)

ولك أن تنظر إلى قصة يوسف كلها على أنها آية عجيبة تشمل كل اللقطات ، أو تنظر إلى كل لقطة على أنها آية بمفردها .

ويقول الحق سبحانه في آخر هذه الآية أن القصة : ﴿ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [يوسف : 7] .

والسائلون هنا إما من المشركين الذين حرَّضهم اليهود على أنْ يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسألة يوسف، وإما من المسلمين الذين يطلبون العِبَر من الأمم السابقة، وجاء الوَحْيُ لينزل على الرسول الأميِّ بتلك السورة بالأداء الرفيع المُعْجِز الذي لا يَقْوَى عليه بشر.

وأنت حين تقرأ السورة؛ قد تأخذ من الوقت عشرين دقيقة، هاتْ أنت أيَّ إنسان ليتكلم ثُلث ساعة، ويظل حافظاً لما قاله؛ لن تجد أحداً يفعل ذلك؛ لكن الحق سبحانه قال لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى: 6].

ولذلك نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يحفظ ما أُنزل إليه من ربه، ويُمليه على صحابته ويصلي بهم؛ ويقرأ في الصلاة ما أُنزِل عليه، ورغم أن في القرآن آياتٍ متشابهات؛ إلا أنه صلى الله عليه وسلم لم يخطئ مرة أثناء قراءته للقرآن.

والأمثلة كثيرة منها قوله الحق: ﴿ واصبر على مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [لقمان: 17].

ومرة أخرى يقول: ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [الشورى: 43] وكذلك قول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الحجر: 45].

وفي موقع آخر يقول الحق: ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ [الطور: 17].

فكيف يتأتَّى لبشر أمي أن يتذكر كل ذلك، لولا أن الذي أنزل عليه الوحي قد شاء له ذلك

.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ . . . ﴾ .

(289/391)

ولا بُدَّ لنا هنا أن ننظر إلى الأخوة بنوعياتها ؛ فقد تكون الأخوة من ناحية الأبوين معاً ؛ وقد تكون من ناحية الأب دون الأم ، أو من ناحية الأم دون الأب ، وكان عدد أبناء يعقوب عليه السلام اثنا عشر : سبعة من واحدة ؛ وأربعة من اثنتين : زلفى وبلهه ؛ واثنين من راحيل هما : يوسف ، وأخوه بنيامين .

وتبدأ الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ ذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا . . ﴾ [يوسف : 8] .

وحرف اللام الذي سبق اسم يوسف جاء للتوكيد ، وكأنهم قالوا : والله إن أبانا يحب يوسف وأخاه أكثر من حُبّه لنا . والتوكيد لا يأتي إلا بصدد إنكار .

وهذا يدل على أنهم مختلفون في أمر يوسف عليه السلام ؛ فأحدهم يريد أن ينتقم من يوسف ، وآخر يقترح تخفيف المسألة بإلقائه في الجب ؛ ثم انتهوا إلى أن يوسف أحبُّ إلى أبيهم منهم .

وفي قولهم لَمْحة من إنصاف ؛ فقد أثبتوا حب أبيهم لهم ؛ ولكن قولهم به بعضٌ من غفلة البشر ؛ لأنهم كان يجب أن يلتمسوا سبب زيادة حُبِّ أبيهم ليوسف وأخيه .

فيوسف وأخوه كانوا صِغَاراً وماتت أمهما ؛ ولم يَعُدْ لهم إلا الأب الذي أحسَّ بضرورة أن يَجتمع فيه تجاههما حنانُ الأب وحنانُ الأم ؛ ولأنهما صغارٌ نجد الأب يحنُو عليهما بما أودعه الله في قلبه من قدرة على الرعاية .

وهذا أمر لا دَخْل ليعقوب فيه ؛ بل هي مسألة إلهية أودعها الله في القلوب بدون اختيار ؛ ويُودعها سبحانه حتى في قلوب الحيوانات .

وقد شاء سبحانه أن يجعل الحنان على قدر الحاجة ؛ فالقطة على سبيل المثال إن اقتربَ أحد من صغارها المولودين حديثاً ؛ تهجم على هذا الذي اقترب من صغارها .

ولذلك نجد العربي القديم قد أجاب على مَنْ سأله " أي أبنائك أحب إليك ؟ " فقال : " الصغير حتى يكبر ؛ والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى " .

(290/391)

وهذه مسألة نراها في حياتنا اليومية ، فنجد امرأة لها ولدان ، واحد أكرمه الله بسعة الرزق ويقوم بكل أمورها واحتياجاتها ؛ والآخر يعيش على الكفاف أو على مساعدة

أخيه له ؛ ونجد قلبها دائما مع الضعيف .

ولذلك نقول : إن الحب مسألة عاطفية لا تخضع إلى التقنين ؛ ولا تكليف بها ؛ وحينما يتعرض القرآن لها فالحق سبحانه يوضح : أن الحب والبغض انفعالات طبيعية ؛ فأَحبِبْ مَنْ شئتَ وأبغِضْ مَنْ شئتَ ؛ ولكن إياك أن تظلم الناس لمن أحببت ؛ أو تظلم مَنْ أبغضت .

اقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ على أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعدلوا هُوَ أَقْرَبُ للتقوى ﴾ [المائدة : 8] .

فأحبب مَنْ شئتَ ، وأبغض مَنْ شئتَ ، ولكن لا تظلم بسبب الحب أو البغض .

وقد يقول قائل : ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

" لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه " .

نقول : اقرأ ما جاء في نفس رواية الحديث ؛ فقد قال عمر رضي الله عنه بوضوحه وصراحته وجراءته ؛ دون نفاق : أحبك يا رسول الله عن مالي وعن ولدي أما عن نفسي ؛ فلا ، فكرر النبي صلى الله عليه وسلم قوله : " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه " .

ففطِنَ عمر رضي الله عنه إلى أن الأمر هو التزام عقديٌّ وتكليفي ؛ وفَهِم أنَ المطلوب هو حُبُّ العقل ؛ لا حب العاطفة .

وحب العقل كما نعلم هو أن تُبصر الأمر النافع وتفعله ؛ مثلما تأخذ الدواء المُرَّ ؛ وأنت تفعل ذلك بحبٍّ عقلي ؛ رغبةً منك في أن يأذن الحق بالشفاء .

والمسلم يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعقله ؛ لأنه يعلم أنه لولا مجيء رسول الله لما عرف حلاوة الإيمان ، وقد يتسامى المسلم في حُبِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يصير حب الرسول في قلبه حباً عاطفياً .

وهكذا نرى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أوضح لنا الخطوط الفاصلة بين مباديء الحب العقلي والحب العاطفي .

(291/391)

والمثال الآخر من سيرة عمر رضي الله عنه في نفس المسألة ؛ حب العقل وحب العاطفة ؛ حين مَرَّ عليه قاتل أخيه ؛ فقال واحد ممَّنْ يجلسون معه : هذا قاتل أخيك . فقال عمر : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟

وصرف عمر وجهه بعيداً عن قاتل أخيه ؛ فجاء القاتل إليه قائلاً : لماذا تزوي وجهك عني ؟ قال عمر : لأِني لا أحبك ، فأنت قاتل أخي . فقال الرجل : أو يمنعني عدم حبك لي من أيِّ حق من حقوقي ؟ قال عمر : لا . فقال الرجل : " لك أن تحب مَنْ تريد ، وتكره مَنْ

تريد ، ولا يبكي على الحب إلا النساء " .

وكان على إخوة يوسف أن ينتبهوا إلى حب والدهم ليوسف وأخيه هو انفعال طبيعي لا يُؤاخَذ به الأب ؛ لأن ظروف الولدين حتمت عليه أن يحبهم مثل هذا الحب .

وتستمر القصة بما فيها من تصعيد للخير وتصعيد للشر ؛ ولسائل أن يسأل : ولماذا أنصبَّ غضبهم على يوسف وحده ؟

ويقال : إنهم لم يرغبوا أنْ يَفْجعوا أباهم في الاثنين يوسف وأخيه أو أن شيئاً من رؤيا يوسف تسرب إليهم .

ومن العجيب أن يقولوا بعد ذلك : ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ [يوسف : 8] .

والعصبة من عدد عشرة فما فوق ؛ والعصبة أيضاً هم المُتكاتفون المُتعصِّبون لبعضهم البعض ؛ وهم الذين يقومون بالمصالح ويقضون الحاجات ؛ وقد تقاعد أبوهم ؛ وترك لهم إدارة أعمال العائلة .

وقالوا : " ما دُمْنَا نقوم بمصالح العائلة ، فكان من الواجب أن يَخُصَّنا أبونا بالحب " ولم يلتفتوا إلى أنهم عُصْبة ، وهذا ما جعل الأب يحبهم ، لكنه أعطى مَنْ ليسوا عصبة مزيداً من الرعاية ، ولكنهم سدروا في غَيِّهم ، ووصلوا إلى نتيجة غير منطقية وهي قولهم :

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : 8] .

وهذا القول هو نتيجة لا تنسجم مع المقدمات ، فيوسف وأخوه طفلان ماتت أمهما ، ولا

بُدَّ أن يعطف عليهم الأب ؛ وحبُّه لهما لم يمنع حبه للأبناء الكبار القادرين على الاعتماد على أنفسهم .

وحين يقولون :

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : 8]

قد يفهم بعض الناس كلمة " ضلال " هنا بالمعنى الواسع لها .

نقول : لا ؛ لأن هناك ضلالاً مقصوداً ، وهو أن يعرف طريق الحق ويذهب إلى الباطل ، وهذا ضلال مذموم .

وهناك ضلال غير مقصود ، مثل : ضلال رجل يمشي فيسلك طرقاً لا يعرفها فيضل عن مقصده ؛ ومثل مَنْ ينسى شيئاً من الحق . وسبحانه القائل : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأخرى . . . ﴾ [البقرة : 282] .

وسبحانه القائل أيضاً : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى ﴾ [الضحى : 7] .

إذن : فالضلال المذموم هو أن تعرف طريق الحق ، وتذهب إلى الضلال .

وهكذا أخطأ إخوة يوسف في تقدير أمر حُبِّ أبيهم ليوسف وأخيه ؛ ووصلوا إلى نتيجة

ضارّة؛ لأن المقدمات التي أقاموا عليها تلك النتيجة كانت باطلة؛ ولو أنهم مَحّصُوا المقدمات تمحيصاً دقيقاً لَمّا وصلوا إلى النتيجة الخاطئة التي قالوها :

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : 8] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(293/391)

فصل

قال الإمام فخر الدين الرازى :

[قصة يعقوب عليه السلام]

[وفيها شبه]

[الأولى] قالوا لم رجح يعقوب عليه السلام يوسف على إخوته في التقريب والمحبة مع علمه إفضاء ذلك الترجيح إلى الحسد والمفاسد العظيمة ؟

[الجواب] من وجهين : [الأول] لا نسلم أنه رجح يوسف على إخوته في الإكرام ، بل كان راجحا في المحبة وميل الطبع وذلك غير مقدور له فلا يكون مكلفا بتركه *

[الثاني] هب أنه عليه السلام رجحه في الاكرام لكن لا نسلم علمه بأداء ذلك الترجيح إلى

المفسدة ، فلعله رأى من سداد إخوته وجميل ظاهرهم ما غلب على ظنه أن ترجيحه لا يفضى إلى شئ من المفاسد فان الحسد وإن كان راسخا في الطبع إلا أن كثيرا من الناس يحترزون منه ويجتنبونه *

* (الشبهة الثانية) * أن إخوة يوسف وصفوا أباهم بالضلال بقوله : (إن أبانا لفى ضلال مبين) * (الجواب) * ليس المراد بالضلال عن الدين بالاجماع بل المراد العدول عن الصواب *

[فإن قلت] لما وصفوه بذلك فقد قدحوا في عصمته واعتقدوا أنه غير مصيب في أحكامه ومن اعتقد في الرسل ذلك كفر فيلزم القول بكفر اخوة يوسف * (قلت) * الحكم بالاسلام والكفر شرعى فلعل ذلك لم يكن كفرا في دينهم ، أو يقال مرادهم وصف يعقوب بالغلو في الحب . وذلك غير مقدور له . فلم يكن وصفهم أباهم بذلك قدحا في عصمته *

[الشبهة الثالثة]

فلم أرسل يوسف مع اخوته مع خوفه عليه منهم بقوله تعالى (وأخاف أن يأكله الذئب) وهل

هذا إلا تغريرا ؟ * (الجواب) * لا يمتنع أن يعقوب عليه السلام لما رأى في بنيه من الايمان والعهود والاجتهاد في حفظ يوسف ظن السلامة وربما ظن أنه لو لم يرسله معهم مع مبالغتهم في اظهار الحب لاعتقدوا في يعقوب عليه السلام أنه يتهمهم على يوسف ويصير ذلك سببا للوحشة العظيمة فلهذه الدعاوى بعثه معهم * *

(الشبهة الرابعة) * لم أسرف يعقوب عليه السلام في الحزن والبكاء حتى ابيضت عيناه ومن شأن الأنبياء التجلد والتصبر ؟ * *

(الجواب) * التجلد على المصائب وكظم الحزن مندوب وليس بواجب ، وترك المندوب ليس بمعصية ، على أن يعقوب عليه السلام انما أبدل من الحزن اليسير من الكثير ، وكان ما يعتبر عليه أكثر وأوسع مما أظهره *

[الشبهة الخامسة]

أن يعقوب عليه السلام كان يعلم برؤيا يوسف أن أمره يفضى إلى العاقبة الحسنة في الدنيا والدين ، فلم لم يتسل بذلك على حزنه ؟

[الجواب] أن علمه بذلك لا يدفع الحزن الحاصل بسبب المفارقة ، على أن يوسف عليه السلام كان حين رأى تلك الرؤيا صبيا فلا جرم لم يقطع يعقوب عليه السلام بصحته . انتهى

انتهى . اهـ ﴿عصمة الأنبياء صـ 51.53﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (7) ﴾

وقرأ ابن كثير " آية " بالإِفراد ، والمرادُ بها الجنسُ ، والباقون بالجمع تصريحاً بالمرادِ لأنها كانت علاماتٍ كثيرة . وزعم بعضُهم أنَّ ثَمَّ معطوفاً محذوفاً تقديرُه : للسائلين ولغيرهم ، ولا حاجةَ إليه . و " للسائلين " متعلقٌ بمحذوف نعتاً لآيات .

قوله تعالى : ﴿ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا ﴾ : " أحبُّ " أفعل تفضيل ، وهو مبنيٌّ مِنْ " حُبَّ " المبني للمفعول وهو شاذ . وإذا بَنَيْتَ أفعل التفضيل مِنْ مادة الحب والبغض تعدَّى إلى الفاعل المعنوي ب " إلى " ، وإلى المفعولِ المعنويّ باللام أو ب " في " ، فإذا قلت : " زيدٌ أحبُ إليَّ مِنْ بكر " يعني أنك تحب زيداً أكثر من بكر فالمتكلم هو الفاعلُ ، وكذلك : " هو أبغض إليَّ منه " أنت المُبْغِض ، وإذا قلت : زيدٌ أحبُّ لي مِنْ عَمْرٍو ، أو أَحَبُّ فيَّ منه ، أي : إنَّ زيداً يحبُّني أكثر من عمرو . وقال امرؤ القيس :

2740 لَعَمْري لَسَعْدٌ حيث حُلَّت ديارُه . . . أحبُّ إلينا منكَ فافرسٍ حَمِرْ

وعلى هذا جاءَتِ الآيةُ الكريمة ، فإنَّ الأبَ هو فاعل المحبَّة . واللام في " ليوسف " لامُ

الابتداء أفادَتْ توكيداً لمضمون الجملة، وقوله: "أحبُّ" خبر المثنى، وإنما لم يطابِقْ لِما عَرَفْتَ مِنْ حكم أفعلَ التفضيل.

(296/391)

والواو في "ونحن عصبةٌ" للحال، فالجملةُ بعدها في محل نصب على الحال. والعامَّةُ على رفع "عُصْبَة" خبراً ل "نحن". وقرأ أمير المؤمنين بنصبها على أن الخبر محذوف، والتقدير: نحن نُرى أو نجتمع فيكون "عصبة" حالاً، إلا أنه قليلٌ جداً، وذلك لأن الحال لا تَسُدُّ مَسَدَّ الخبر إلا بشروطٍ ذكرها النحاة نحو "ضَرْبي زيداً قائماً"، و"أكثر شُرْبي السَّوِيْقَ ملتوتاً". قال ابن الأنباري: "هذا كما تقول العرب: "إنما العامريُّ عِمَّتَه" أي: يتعمَّم عِمَّته".

قال الشيخ: "وليس مثلَه لأنَّ "عصبة" ليس بمصدرٍ ولا هيئةٍ، فالأجودُ أن يكونَ من باب "حُكْمُك مُسَمَّطاً". قلت: ليس مرادُ ابنِ الأنباري إلا التشبيهَ من حيث إنه حَذَفَ الخبر وسَدَّ شيءٌ آخرُ مَسَدَّه في غير المواضع المنقاس فيها ذلك، ولا نَظَرَ لكون المنصوب مصدراً أو غيرَه. وقال المبرد: "هو من باب "حُكْمُك مُسَمَّطاً" أي: /لك حكمُك مُسَمَّطاً، قال الفرزدق: "يا لَهْذَمُ حُكمك مُسَمَّطاً" أراد: لك حكمُك مُسَمَّطاً، قال: "

واسْتُعْمل هذا فَكَثُرَ حتى حُذِف استخفافاً لعلم ما يريد القائل كقولك : " الهلالُ واللَّهِ " أي : هذا الهلال " . والمُسَمَّط : المُرْسَلُ غيرُ المردودِ . وقدَّره غيرُ المبرد : حُكْمُك ثَبَتَ مُسَمَّطاً . وفي هذا المثال نظرٌ ؛ لأنَّ النحويين يجعلون مِنْ شَرْط سَدّ الحال مَسَدَّ الخبرِ أن لا يَصْلُحَ جَعْلُ الحال خبراً لذلك المبتدأ نحو : " ضربي زيداً قائماً " بخلاف : " ضربي زيداً شديدٌ " ، فإنها تُرْفع على الخبرية ، وتَخْرج المسألة من ذلك ، وهذه الحال أعني مُسَمَّطاً يَصْلُحُ جَعْلُها خبراً للمبتدأ ، إذ التقدير : حُكْمُكَ مُرْسَلٌ لا مَرْدُود ، فيكون هذا المَثَلُ على ما قَرَّرْته مِنْ كلامهم شاذاً .

والعُصْبة : ما زاد على عشرة ، عن ابن عباس ، وعنه : ما بين عشرةٍ إلى أربعين . وقيل : الثلاثة نفر ، فإذا زاد على ذلك إلى تسعة فهم رَهْط ، فإذا بلغوا العشرة فصاعداً فعُصْبة . وقيل : ما بين الواحد إلى العشرة . وقيل من عشرة إلى خمسة عشر . وقيل : ستة . وقيل : سبعة . والمادة تدلُّ على الإِحاطة من العِصابة لإِحاطتها بالرأس . انتهى انتهى . اهـ

﴿الدر المصون حـ 6 صـ 441 . 443﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (7) ﴾

يعني لكلِّ ذي مِحنة حتى يعلم كيف يصبر ، ولكلِّ ذي نعمة حتى يعلم كيف يشكر .

ويقال في قصتهم كيفية العفو عن الزَّلة ، وكيفية الخَجْلَةِ لأهل الجفاءِ عند اللقاء .

ويقال في قصتهم دلالاتٌ لطفِ الله سبحانه بأوليائه بالعصمة ، وآياتٌ على أنَّ المحبة (. . . .) من المحنة .

ويقال فيها آياتٌ على أنَّ من صدَقَ في رجائه يُخْتَصُّ - يوماً - ببلائه .

﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8) ﴾

عُرِّفُوا على ما سَتَرُوه من الحَسَدِ ، ولم يحتالوا في إخراج ذلك من قلوبهم بالوقيعة في أبيهم حتى قالوا : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

ويقال لما اعترضوا بقلوبهم على أبيهم في تقديم يوسف في المحبة عاقبهم بأن أمهلهم حتى بسطوا في أبيهم لسانَ الوقيعة فوصفوه بلفظ الضلال ، وإن كان المرادُ منه الذهابَ في حديث يوسف عليه السلام ، ولمَّا حسدوا يوسف على تقديم أبيهم له لم يَرْضَ - سبحانه

- حتى أقامهم بين يدي يوسف عليه السلام ، وخرُّوا له سُجَّداً ليَعلموا أنَّ الحسودَ لا يسود .

ويقال أطولُ الناسِ حُزْنا مَنْ لاقى الناسَ عن مرارةٍ ، وأراد تأخيرَ مَنْ قَدَّمه اللَّهُ أو تقديمَ مَنْ أَخّرَه اللَّهُ ؛ فإخوةُ يوسف - عليه السلام - أرادوا أن يجعلوه في أسفل الجُبِّ فرفعه الله فوق السرير ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 169. 170﴾

(299/391)

قوله تعالى ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (10) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ذلك ، وكان عندهم أن الشاغل الأعظم لأبيهم عنهم إنما هو حب يوسف عليه الصلاة والسلام ، وحب أخيه إنما هو تابع ، كان كأنهم تراجعوا فيما بينهم فقالوا : قد تقرر هذا ، فما أنتم صانعون ؟ فقالوا أو ما شاء الله منهم : ﴿ اقتلوا يوسف ﴾ أصل القتل :

إماتة الحركة بالسكون ﴿ أو اطرحوه أرضاً ﴾ أوصلوا الفعل بدون حرف ونكروها دلالة على أنها منكورة مجهولة بحيث يهلك فيها ، وعنى قائلهم بذلك : إن تورعتم عن مباشرة قتله بأيديكم .

ولما كان التقدير : إن تفعلوا ذلك ، أجابه بقوله : ﴿ يخل لكم ﴾ أي خاصاً بكم ﴿ وجه أبيكم ﴾ أي قصده لكم وتوجهه إليكم وقصدكم ونيتكم .

ولما كان أهل الدين لا يهملون إصلاح دينهم لأنه محط أمرهم ، قالوا : ﴿ وتكونوا ﴾ أي كوناً هو في غاية التمكن ، ولما كانوا عالمين بأن الموت لا بد منه .

فهو مانع من استغراقهم للزمان الآتي ، أدخلوا الجار فقالوا : ﴿ من بعده ﴾ أي يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ قوماً ﴾ أي ذوي نشاط وقوة على محاولة الأمور ﴿ صالحين ﴾ أي عريقين في وصف الصلاح مستقيمين على طريقة تدعو إلى الحكمة بوقوع الألفة بينكم واستجلاب محبة الوالد بالمبالغة في بره وبالتوبة من ذنب واحد يكون سبباً لزوال الموجب لداء الحسد الملزوم لذنوب متصلة من البغضاء والمقاطعة والشحناء ، فعزموا على التوبة قبل وقوع الذنب فكأنه قيل : إن هذا لمن أعجب العجب من مطلق الأقارب فضلاً عن

الإخوة، فماذا قالوا عند سماعه؟ فقيل: ﴿ قال ﴾ ولما كان السياق لأن الأمر كله لله، فهو ينجي من يشاء بما يشاء، لم يتعلق القصد ببيان الذي كانت على يده النجاة، فقال مبهماً إشعاراً بأنه يجب قول النصح من أيّ قائل كان، وأن الإنسان لا يحقر نفسه في بذل النصح على أيّ حال كان: ﴿ قائل ﴾ ثم عينه بعض التعيين فقال: ﴿ منهم ﴾ أي إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ لا بأيديكم ولا بالإلقاء في المهالك، فإن القتل أكبر الكبائر بعد الشرك، وكأنه لم يكن في ناحيتهم تلك غير جب واحد فعرفه فقال: ﴿ وألقوه ﴾ وكأنه كان فيه ماء ومكان يمكن الاستقرار فيه ولا ماء به، فأراده بقوله: ﴿ في غيابت الجب ﴾ أي غوره الغائب عن الأعين، فإن ذلك كافٍ في المقصود، وإنكم إن تفعلوا ﴿ يلتقطْهُ بعض السيارة ﴾ جمع سيار، وهو المبالغ في السير، هذا ﴿ إن كنتم ﴾ ولا بد ﴿ فاعلين ﴾ ما أردتم من تغييبه عن أبيه ليخلو لكم وجهه؛ والجب: البئر التي لم تطو، لأنه قطع عنها ترابها حتى بلغ الماء. انتهى انتهى. ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 13. 14﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾

واعلم أنه لما قوي الحسد وبلغ النهاية قالوا لا بد من تبعيد يوسف عن أبيه : وذلك لا يحصل إلا بأحد طريقين : القتل أو التغريب إلى أرض يحصل اليأس من اجتماعه مع أبيه ولا وجه في الشر يبلغه الحاسد أعظم من ذلك ، ثم ذكروا العلة فيه وهي قولهم : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ والمعنى أن يوسف شغله عنا وصرف وجهه إليه فإذا أفقده أقبل علينا بالميل والمحبة ﴿ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صالحين ﴾ وفيه وجوه : الأول : أنهم علموا أن ذلك الذي عزموا عليه من الكبائر فقالوا : إذا فعلنا ذلك تبنا إلى الله ونصير من القوم الصالحين .

والثاني : أنه ليس المقصود ههنا صلاح الدين بل المعنى يصلح شأنكم عند أبيكم ويصير أبوكم محباً لكم مشتغلاً بشأنكم .

الثالث : المراد أنكم بسبب هذه الوحشة صرتم مشوشين لا تتفرغون لإصلاح مهم ، فإذا زالت هذه الوحشة تفرغتم لإصلاح مهماتكم ، واختلفوا في أن هذا القائل الذي أمر بالقتل من كان ؟ على قولين : أحدهما : أن بعض إخوته قال هذا .

والثاني : أنهم شاوروا أجنبياً فأشار عليهم بقتله ، ولم يقل ذلك أحد من إخوته ، فأما من

قال بالأول فقد اختلفوا فقال وهب : إنه شمعون ، وقال مقاتل : روبيل .

فإن قيل : كيف يليق هذا بهم وهم أنبياء ؟

قلنا : من الناس من أجاب عنه بأنهم كانوا في هذا الوقت مراهقين وما كانوا بالغين ، وهذا ضعيف ، لأنه يبعد من مثل نبي الله تعالى يعقوب عليه السلام أن يبعث جماعة من الصبيان من غير أن يكون معهم إنسان عاقل يمنعهم من القبائح .

(302/391)

وأيضاً أنهم قالوا : ﴿ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صالحين ﴾ وهذا يدل على أنهم قبل التوبة لا يكونون صالحين ، وذلك ينافي كونهم من الصبيان ، ومنهم من أجاب بأن هذا من باب الصغائر ، وهذا أيضاً بعيد لأن إيذاء الأب الذي هو نبي معصوم ، والكذب معه والسعي في إهلاك الأخ الصغير كل واحد من ذلك من أمهات الكبائر ، بل الجواب الصحيح أن يقال : إنهم ما كانوا أنبياء ، وإن كانوا أنبياء إلا أن هذه الواقعة إنما أقدموا عليها قبل النبوة .

ثم إنه تعالى حكى أن قائلاً قال : ﴿ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ ﴾ قيل إنه كان روبيل وكان ابن خالة يوسف وكان أحسنهم رأياً فيه فمنعهم عن القتل ، وقيل يهودا ، وكان أقدمهم في الرأي والفضل والسن .

ثم قال : ﴿ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَةِ الجب ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ نافع ﴿ فِى غَيَابَةِ الجب ﴾ على الجمع في الحرفين ، هذا والذي بعده ، والباقون ﴿ غَيَابَةِ ﴾ على الواحد في الحرفين .

أما وجه الغيابات فهو أن للجب أقطاراً ونواحي ، فيكون فيها غيابات ، ومن وحد قال : المقصود موضوع واحد من الجب يغيب فيه يوسف ، فالتوحيد أخص وأدل على المعنى المطلوب .

وقرأ الجحدري ﴿ فِى غَيَابَةِ الجب ﴾ .

المسألة الثانية :

قال أهل اللغة : الغيابة كل ما غيب شيئاً وستره ، فغيابة الجب غوره ، وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله .

والجب البئر التي ليست بمطوية سميت جباً ، لأنها قطعت قطعاً ولم يحصل فيها غير القطع من طي أو ما أشبه ذلك ، وإنما ذكرت الغيابة مع الجب دلالة على أن المشير أشار بطرحه في موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين فأفاد ذكر الغيابة هذا المعنى إذ كان يحتمل أن يلقى في موضع من الجب لا يحول بينه وبين الناظرين .

المسألة الثالثة :

الألف واللام في الجب تقتضي المعهود السابق ، اختلفوا في ذلك الجب فقال قتادة : هو بئر ببيت المقدس ، وقال وهب : هو بأرض الأردن ، وقال مقاتل : هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب ، وإنما عينوا ذلك الجب للعلة التي ذكروها وهي قولهم : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة ﴾ وذلك لأن تلك البئر كانت معروفة وكانوا يردون عليها كثيراً ، وكان يعلم أنه إذا طرح فيها يكون إلى السلامة أقرب ، لأن السيارة إذا جازوا وردوها ، وإذا وردوها شاهدوا ذلك الإنسان فيها ، وإذا شاهدوه أخرجوه وذهبوا به فكان إلقاؤه فيها أبعد عن الهلاك .

المسألة الرابعة :

الالتقاط تناول الشيء من الطريق ، ومنه : اللقطة واللقيط ، وقرأ الحسن ﴿ تلتقطه ﴾ بالتاء على المعنى ، لأن بعض السيارة أيضاً سيارة ، والسيارة الجماعة الذين يسيرون في الطريق للسفر .

قال ابن عباس : يريد المارة وقوله : ﴿ السيارة إِن كُنتُمْ فاعلين ﴾ فيه إشارة إلى أن الأولى أن لا تفعلوا شيئاً من ذلك ، وأما إن كان ولا بد فاقتصروا على هذا القدر ونظيره قوله تعالى

: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل : 126] يعني الأولى أن لا تفعلوا ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 76 . 77 ﴾

(304/391)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً ﴾

فيه وجهان : أحدهما : اطرحوه أرضاً لتأكله السباع .

الثاني : ليبعد عن أبيه .

﴿ يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنهم أرادوا صلاح الدنيا لا صلاح الدين ، قاله الحسن .

الثاني : أنهم أرادوا صلاح الدين بالتوبة ، قاله السدي .

ويحتمل ثالثاً : أنهم أرادوا صلاح الأحوال بتسوية أبيهم بينهم من غير أثرة ولا تفضيل . وفي هذا دليل على أن توبة القاتل مقبولة لأن الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم .

قوله عز وجل : ﴿ قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف ﴾ اختلف في قائل هذا منهم على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه روبيل وهو أكبر إخوة يوسف وابن خالته ، قاله قتادة .

الثاني : أنه شمعون ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه يهوذا ، قال السدي .

﴿ وألقُوه في غيابة الجُبِّ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني قعر الجب وأسفله .

الثاني : ظلمه الجب التي تغيّب عن الأبصار ما فيها ، قاله الكلبي . فكان رأس الجب ضيقاً وأسفله واسعاً .

أحدهما : لأنه يغيب فيه خبره . وفي تسميته

﴿ غيابة الجب ﴾ وجهان :

الثاني : لأنه يغيب فيه أثره ، قال ابن أحمر :

ألا فالبثا شهرين أو نصف ثالثٍ . . . إلى ذاك ما قد غيبتني غيابيا

وفي ﴿ الجب ﴾ قولان :

أحدهما : أنه اسم بئر في بيت المقدس ، قاله قتادة .

الثاني : أنه بئر غير معينة ، وإنما يختص بنوع من الآبار قال الأعشى :

لئن كنت في جب ثمانين قامة . . . ورقيت أسباب السماء بسلم

وفيما يسمى من الآبار جباً قولان :

أحدهما : أنه ما عظم من الآبار سواء كان فيه ماء أو لم يكن .

الثاني : أنه ما لا طيّ له من الآبار ، قال الزجاج ، وقال : سميت جبًّا لأنها قطعت من الأرض قطعاً ولم يحدث فيها غير القطع .

﴿ يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ معنى يلتقطه يأخذه ، ومنه اللقطة لأنها الضالة المأخوذة .

وفي ﴿ السيارة ﴾ قولان :

أحدهما : أنهم المسافرون سُموا بذلك لأنهم يسيرون .

الثاني : أنهم مارة الطريق ، قاله الضحاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(305/391)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ اُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ الْآيَةَ فَإِنَّهُمْ تَآمَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى أَحَدِ هَذَيْنِ مِنْ قَتْلٍ ، أَوْ تَبْعِيدٍ لَهُ عَنْ أَبِيهِ .

وَكَانَ الَّذِي اسْتَجَازُوا ذَلِكَ وَاسْتَجْرَءُوا مِنْ أَجْلِهِ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ : ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا

صَالِحِينَ ﴾ فَرَجَوْا التَّوْبَةَ بَعْدَ هَذَا الْفِعْلِ ، وَهُوَ نَحْوُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ قِيلَ فِي التَّفْسِيرِ : إنَّهُ يَعْزِمُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ رَجَاءً لِلتَّوْبَةِ بَعْدَهَا فَيَقُولُ : أَفْعَلُ ثُمَّ أَتُوبُ ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ تَوْبَةَ الْقَاتِلِ مَقْبُولَةٌ ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا : ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ وَحَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُمْ وَلَمْ يُنْكِرْهُ عَلَيْهِمْ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾

لَمَّا تَآمَرُوا عَلَى أَحَدِ شَيْئَيْنِ مِنْ قَتْلٍ ، أَوْ إبْعَادٍ عَنْ أَبِيهِ أَشَارَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْقَائِلُ حِينَ قَالُوا لَا بُدَّ مِنْ أَحَدِ هَذَيْنِ بِأَنْقَصِ الشَّرَّيْنِ وَهُوَ الطَّرْحُ فِي جُبٍّ قَلِيلِ الْمَاءِ لِيَأْخُذَهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ، وَهُمْ الْمُسَافِرُونَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 ص ﴾

(306/391)

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ اقتلوا يوسف ﴾ الآية

كانت هذه مقالة بعضهم . ﴿ أو اطرحوه ﴾ معناه : أبعدوه ، ومنه قول عروة بن الورد :

ومن يك مثلي ذا عيال ومقتراً . . . يغرر ويطرح نفسه كل مطرح

والنوى : الطروح البعيدة ، و﴿ أرضاً ﴾ مفعول ثان بإسقاط حرف الجر ، لأن طرح - لا

يتعدى إلى مفعولين إلا كذلك . وقالت فرقة : هو نصب على الظرف - وذلك خطأ لأن الظرف ينبغي أن يكون مبهماً وهذه هنا ليست كذلك بل هي أرض مقيدة بأنها بعيدة أو قاصية ونحو ذلك فزال بذلك إبهامها ، ومعلوم أن يوسف لم يخل من الكون في أرض ، فبين أنها أرض بعيدة غير التي هو فيها قريب من أبيه .

وقوله : ﴿ يخل لكم وجه أبيكم ﴾ استعارة ، أي إذا فقد يوسف رجعت محبته إليكم ، ونحو هذا قول العربي حين أحبته أمه لما قتل إخوته وكانت قبل لا تحبه : الثكل أرأمها ، أي عطفها عليه ، والضمير في ﴿ بعده ﴾ عائد على يوسف أو قتله أو طرحه ، و ﴿ صالحين ﴾ قال السدي ومقاتل بن سليمان : إنهم أرادوا صلاح الحال عند أبيهم ، وهذا يشبه أن يكون قصدهم في تلك الحال ولم يكونوا حينئذ أنبياء ، وقال الجمهور : ﴿ صالحين ﴾ معناه بالتوبة ، وهذا هو الأظهر من اللفظ ، وحالهم أيضاً تعطيه ، لأنهم مؤمنون بثوا على عظيمة وعللوا أنفسهم بالتوبة ؛ والقائل منهم قيل : هو روبيل - أسنهم - قاله قتادة وابن إسحاق ، وقيل : يهوذا أحلمهم ، وقيل شمعون أشجعهم ، قاله مجاهد ، وهذا عطف منه على أخيه لا محالة لما أراد الله من إنفاذ قضائه . و" الغيابة " ما غاب عنك من الأماكن أو غيب عنك شيئاً آخر .

وقرأ الجمهور : " غيابة الجب " ، وقرأ نافع وحده " غيابات الجب " ، وقرأ الأعرج " غيّابات الجب " بشد الياء ، قال أبو الفتح : هو اسم جاء على فعالة ، كان أبو علي يلحقه

بما ذكر سيبويه من الفياد ونحوه ، ووجدت أنا من ذلك : التيار للموج والفجار للخزف .

قال القاضي أبو محمد : وفي شبه غيابة بهذه الأمثلة نظر لأن غيابة جارية على فعل .

وقرأ الحسن : " في غيبة الجب " على وزن فعلة ، وكذلك خطت في مصحف أبي بن كعب ، ومن هذه اللفظة قول الشاعر - وهو المنخل -

فإن أنا يوماً غيبتني غيابتي . . . فسيروا بسيري في العشيرة والأهل

و ﴿ الجب ﴾ البئر التي لم تطو لأنها جبت من الأرض فقط .

وقرأ الجمهور : " يلتقطه بعض " بالياء من تحت على لفظ بعض ، وقرأ الحسن البصري ومجاهد وقتادة وأبو رجاء " تلتقطه " بالتاء ، وهذا من حيث أضيف ﴿ البعض ﴾ إلى ﴿ السيارة ﴾ فاستفاد منها تأنيث العلاقة ، ومن هذا قول الشاعر : [الوافر]

أرى مرّ السنين أخذنْ منّي . . . كما أخذ السرار من الهلال

ومنه قول الآخر : [الطويل]

إذا مات منهم سيد قام سيد . . . فذلت له أهل القرى والكنائس

وقول كعب : [الكامل]

ذلت لوقعتها جميع نزار . . . .

حين أراد بنزار القبيلة ، وأمثلة هذا كثير .

وروي أن جماعة من الأعراب التقطت يوسف عليه السلام : و ﴿ السيارة ﴾ جمع سيار . وهو بناء للمبالغة ، وقيل في هذا ﴿ الجب ﴾ : أنه بئر بيت المقدس . وقيل : غيره : وقيل : لم يكن حيث طرحوه ماء ولكن أخرجه الله فيه حتى قصده الناس للاستقاء : وقيل : بل كان فيه ماء كثير يغرق يوسف فنشز حجر من أسفل الجب حتى ثبت عليه يوسف ، وروي أنهم رموه بحبل فتماسك بيديه حتى ربطوا يديه ونزعوا قميصه ورموه حينئذ ، وهموا برضخه بالحجارة فمنعهم أخوهم المشير بطرحه من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(308/391)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ اقتلوا يُوسُفَ ﴾

في الكلام حذف ؛ أي قال قائل منهم : "اقتلوا يُوسُفَ" ليكون أحسم لمادة الأمر .

﴿ أَوِ اطرحوه أَرْضاً ﴾ أي في أرض ، فأسقط الخافض وانتصب الأرض ؛ وأنشد

سيبويه فيما حذف منه "في" :

لَدْنٌ بهَزِّ الْكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ . . .

فيه كما عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ

قال النحاس : إلا أنه في الآية حسَن كثير ؛ لأنه يتعدّى إلى مفعولين ، أحدهما بحرف ، فإذا حذفت الحرف تعدّى الفعل إليه .

والقائل قيل : هو شمعون ، قاله وهب بن منبّه .

وقال كعب الأحبار ؛ دان .

وقال مقاتل : روبيل ؛ والله أعلم .

والمعنى أرضا تبعد عن أبيه ؛ فلا بدّ من هذا الإضمار لأنه كان عند أبيه في أرض .

﴿ يَخْلُ ﴾ جزم لأنه جواب الأمر ؛ معناه : يخلص ويصفو .

﴿ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ فيقبل عليكم بكليته .

﴿ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد الذنب ، وقيل : من بعد يوسف .

﴿ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ أي تائبين ؛ أي تحدثوا توبة بعد ذلك فيقبلها الله منكم ؛ وفي هذا دليل على أن توبة القاتل مقبولة ، لأن الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم .

وقيل : "صَالِحِينَ" أي يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ

فَاعِلِينَ (10) ﴾

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ القائل هو يهوذا ، وهو أكبر ولد يعقوب ؛ قاله ابن عباس .

وقيل : روبيل ، وهو ابن خالته ، وهو الذي قال : "فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ" (الآية) .

وقيل : شمعون .

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الجب ﴾ قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة "في غيابةِ الجب" .

وقرأ أهل المدينة "فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ" واختار أبو عبيد التوحيد ؛ لأنه على موضع واحد ألقوه فيه ، وأنكر الجمع لهذا .

(309/391)

قال النحاس : وهذا تضييق في اللغة ؛ "وغيابات" على الجمع يجوز (من وجهين) : حكى سيبويه سِيرَ عليه عشيَّاناتٍ وأصيلاناتٍ ، يريد عشِية وأصيلا ، فجعل كل وقت منها عشية وأصيلا ؛ فكذا جعل كل موضع مما يُغيّب غَيابة .

(والآخر أن يكون في الجبّ غيابات (جماعة) .

ويقال : غاب يَغيبُ) غيَبْا وغَيابة وغِيَابا ؛ كما قال الشاعر :

أَلَا فالبَثَا شهرين أو نصفَ ثالثٍ . . .

أَنَا ذَا كُمَا قد غَيَّبتْني غِيَابِيَا

قال الهرويّ : والغَيابة شبه لَجَفٍ أو طاق في البئر فويق الماء ، يغيب الشيء عن العين .

وقال ابن عُزَيْز : كل شيء غيّب عنك شيئاً فهو غَيابة .

قلت : ومنه قيل للقبر غَيابة ؛ قال الشاعر :

فإن أنا يوماً غَيَّبتْنِي غَيَابَتِي . . .

فَسِيروا بسَيْرِي في العَشِيرة والأَهل

والجبّ الرّكيّة التي لم تُطْوَ ، فإذا طُويت فهي بئر ؛ قال الأعشى :

لئن كنتَ في جبّ ثمانين قامةً . . .

ورُقّيتَ أسبابَ السَّماءِ بُسلّمِ

وسمّيت جُبًّا لأنها قُطِعت في الأرض قَطْعاً ؛ وجمع الجبّ جِببة وجباب وأجباب ؛ وجمع بين الغَيابة والجبّ لأنه أراد ألقوه في موضع مظلم من الجبّ حتى لا يلحقه نظر الناظرين .

قيل : هو بئر ببيت المقدس ، وقيل : هو بالأُرْدُن ؛ قاله وهب بن منبّه .

مقاتل : وهو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة ﴾ جزم على جواب الأمر .

وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن وقتادة : "تَلْتَقِطْهُ" بالتاء ، وهذا محمول على المعنى ؛ لأن بعض السيّارة سيّارة ؛ وقال سيبويه : سقطت بعض أصابعه ، وأنشد :

وتَشْرَقَ بالقولِ الّذي قد أَذَعتَه . . .

كما شَرِقتْ صَدْرُ القَنَاةِ من الدَّمِ

وقال آخر :

أَرَى مَرَّ السِّنِينَ أَخَذْنَ منيّ . . .

كَمَا أَخَذَ السَّرَارُ من الهِلالِ

ولم يقل شَرِق ولا أخذت .

(310/391)

والسيّارة الجمع الذي يسيرون في الطريق للسفر ؛ وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاجوا إلى حمله إلى موضع بعيد ويحصل المقصود ؛ فإن من التقطه من السيّارة يحمله إلى موضع بعيد ؛ وكان هذا وجهاً في التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم ، فربما لا يأذن لهم أبوهم ، وربما يطلع على قصدهم .

الثالثة : وفي هذا ما يدلّ على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أوّلاً ولا آخراً ؛ لأن الأنبياء

لا يدبرون في قتل مسلم ، بل كانوا مسلمين ، فارتكبوا معصية ثم تابوا .

وقيل : كانوا أنبياء ، ولا يستحيل في العقل زِلّة نبيّ ، فكانت هذه زلّة منهم ؛ وهذا يرده أن الأنبياء معصومون من الكبائر على ما قدّمناه .

وقيل : ما كانوا في ذلك الوقت أنبياء ثم نبّأهم الله ؛ وهذا أشبه ، والله أعلم .

الرابعة : قال ابن وهب قال مالك : طُرح يوسف في الجبّ وهو غلام ، وكذلك روى ابن القاسم عنه ، يعني أنه كان صغيراً ؛ والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ قال : ولا يُلتقط إلا الصغير ؛ وقوله : ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وذلك (أمر) يختص بالصغار ؛ وقولهم : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

الخامسة : الالتقاط تناول الشيء من الطريق ؛ ومنه اللّقِيط واللُّقْطَة ، ونحن نذكر من أحكامها ما دلّت عليه الآية والسُّنة ، وما قال في ذلك أهل العلم واللغة ؛ قال ابن عرفة : الالتقاط وجود الشيء على غير طلب ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ أي يجده من غير أن يحتسبه .

وقد اختلف العلماء في اللّقيط ؛ فقيل : أصله الحرّية لغلبة الأحرار على العبيد ؛ وروي عن الحسن بن عليّ أنه قضى بأن اللّقِيط حُرٌ ، وتلا ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ وإلى هذا ذهب أشهب صاحب مالك ؛ وهو قول عمر بن الخطاب ، وكذلك روي عن عليّ وجماعة .

وقال إبراهيم النّخَعي : إن نوى رِقه فهو مملوك ، وإن نوى الحِسبة فهو حرّ .

وقال مالك في موطّئه : الأمر عندنا في المنبوذ أنه حرّ ، وأن ولاءه لجماعة المسلمين ، هم يرثونه ويعقلون عنه ، وبه قال الشافعي ؛ واحتج بقوله عليه السلام : " وإنما الوَلاَء لمن أعتق " قال : فنفى الوَلاَء عن غير المعتقِ .

واتفق مالك والشافعي وأصحابهما على أن اللّقيط لا يُوالي أحداً ، ولا يرثه أحد بالوَلاَء .

وقال أبو حنيفة وأصحابه وأكثر الكوفيين : اللّقيط يوالي من شاء ، فمن ولاه فهو يرثه ويعقِل عنه ؛ وعند أبي حنيفة له أن ينتقل بولائه حيث شاء ، ما لم يعقِل عنه الذي والاه ، فإن عقَل عنه جنايةً لم يكن له أن ينتقل عنه بولائه أبداً .

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن عليّ رضي الله عنه : المنبوذ حرّ ، فإن أحبّ أن يوالي الذي التقطه والاه ، وإن أحبّ أن يوالي غيره والاه ؛ ونحوه عن عطاء ، وهو قول ابن شهاب وطائفة من أهل المدينة ، وهو حرّ .

قال ابن العربيّ : إنما كان أصل اللّقيط الحرّية لغلبة الأحرار على العبيد ، فقضى بالغالب ،

كما حكم أنه مسلم أخذاً بالغالب ؛ فإن كان في قرية فيها نصارى ومسلمون قال ابن القاسم : يُحكم بالأغلب ؛ فإن وجد عليه زِيّ اليهود فهو يهوديّ ، وإن وجد عليه زِيّ النصارى فهو نصرانيّ ، وإلا فهو مسلم ، إلا أن يكون أكثر أهل القرية على غير الإسلام .

(312/391)

وقال غيره : لو لم يكن فيها إلا مسلم واحد قضي لِلقيط بالإسلام تغليباً لحكم الإسلام الذي يعلو ولا يُعلَى عليه ، وهو مقتضى قول أشهب ؛ قال أشهب : هو مسلم أبداً ، لأني أجعله مسلماً على كل حال ، كما أجعله حراً على كل حال .

واختلف الفقهاء في المنبوذ تدلّ البيّنة على أنه عبد ؛ فقالت طائفة من أهل المدينة : لا يقبل قولها في ذلك ، وإلى هذا ذهب أشهب لقول عمر : هو حرّ ؛ ومن قضى بحريته لم تقبل البيّنة في أنه عبد .

وقال ابن القاسم : تقبل البيّنة في ذلك ؛ وهو قول الشافعي والكوفي .

السادسة : قال مالك في اللقيط : إذا أنفق عليه الملتقط ثم أقام رجل البيّنة أنه ابنه فإن الملتقط يرجع على الأب إن كان طرحه متعمِّداً ، وإن لم يكن طرحه ولكنه ضلّ منه فلا شيء على الأب ، والملتقِط متطوِّع بالنفقة .

وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على اللّقيط فهو متطوِّع ، إلا أن يأمره الحاكم .

وقال الأوزاعي : كلُّ من أنفق على من لا تجب عليه نفقة رجع بما أنفق .

وقال الشافعي : إن لم يكن للقيط مال وجبت نفقته في بيت المال ، فإن لم يكن ففيه قولان :

أحدهما يستقرض له في ذمته .

والثاني يقسِّط على المسلمين من غير عوض .

السابعة : وأما اللّقطة والضَّوَال فقد اختلف العلماء في حكمهما ؛ فقالت طائفة من أهل العلم : اللقطة والضوال سواء في المعنى ، والحكم فيهما سواء ؛ وإلى هذا ذهب أبو جعفر الطحاوي ، وأنكر قول أبي عُبيد القاسم بن سلاّم أن الضالّة لا تكون إلا في الحيوان واللّقطة في غير الحيوان وقال هذا غلط ؛ واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث الإفك للمسلمين : "إن أمّكم ضلّت قِلادتها" فأطلق ذلك على القِلادة .

(313/391)

الثامنة : أجمع العلماء على أن اللّقطة ما لم تكن تافهاً يسيراً أو شيئاً لا بقاء لها فإنها تُعرَّف حولاً كاملاً ، وأجمعوا أن صاحبها إن جاء فهو أحقّ بها من ملتقطها إذا ثبت له أنه صاحبها ، وأجمعوا أن ملتقطها إن أكلها بعد الحول وأراد صاحبها أن يضمّنه فإن ذلك له ،

وإن تصدّق بها فصاحبها مخيّر بين التضمين وبين أن ينزل على أجرها ، فأي ذلك تخيّر كان ذلك له بإجماع ؛ ولا تنطلق يد ملتقطها عليها بصدقة ، ولا تصرف قبل الحول .

وأجمعوا أن ضالّة الغنم المخوف عليها له أكلها .

التاسعة : واختلف الفقهاء في الأفضل من تركها أو أخذها ؛ فمن ذلك أن في الحديث دليلاً على إباحة التقاط اللّقطة وأخذ الضالّة ما لم تكن إبلاً .

وقال في الشاة : "لكَ أو لأخيكَ أو للذئب" يحضّه على أخذها ، ولم يقل في شيء دعوه حتى يضيع أو يأتيه ربه .

ولو كان ترك اللّقطة أفضل لأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال في ضالّة الإبل ، والله أعلم .

وجملة مذهب أصحاب مالك أنه في سعة ، إن شاء أخذها وإن شاء تركها ؛ هذا قول إسماعيل بن إسحاق رحمه الله .

وقال المَزَنيّ عن الشافعي : لا أحب لأحد ترك اللّقطة إن وجدها إذا كان أميناً عليها ؛ قال : وسواء قليل اللّقطة وكثيرها .

العاشرة : روى الأئمة مالك وغيره عن زيد بن خالد الجهَنيّ قال : " جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن اللّقطة فقال : "اعرف عِفَاصَها ووِكَاءَها ثم عرّفِها سنةً فإن جاء صاحبُها وإلا فشأنُك بها قال : فضالّة الغنم يا رسول الله ؟ قال : "لكَ أو لأخيكَ

أو للذئب" قال: فضالة الإبل؟ قال: "ما لَكَ ولها معها سِقاؤُها وحِذاؤها تَرِدُ الماءَ وتأكل الشجر حتى يلقاها ربُّها" وفي حديث أُبيّ قال: "احفظ عَدَدها ووِعاءَها ووِكاءَها فإن جاء صاحبُها وإلا فاستمتِع بها" ففي هذا الحديث زيادة العدد؛ خرجه مسلم وغيره.

(314/391)

وأجمع العلماء أن عِفاص اللّقطة ووكاءها من إحدى علاماتها وأدلّها عليها؛ فإذا أتى صاحب اللّقطة بجميع أوصافها دُفعت له؛ قال ابن القاسم: يُجبَر على دفعها؛ فإن جاء مستحقٌّ يستحقها ببيّنة أنها كانت له لم يضمن الملتقط شيئاً، وهل يُحَلَّف مع الأوصاف أو لا؟ قولان: الأوّل لأشهب، والثاني لابن القاسم، ولا تلزمه بيّنة عند مالك وأصحابه وأحمد بن حَنْبل وغيرهم.

وقال أبو حنيفة والشافعي: لا تدفع له إلا إذا أقام بينة أنها له؛ وهو بخلاف نَصّ الحديث؛ ولو كانت البيّنة شرطاً في الدفع لما كان لذكر العِفاص والوِكاء والعَدَد معنى؛ فإنه يستحقها بالبيّنة على كل حال؛ ولَمَا جاز سكوت النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فإنه تأخير البيان عن وقت الحاجة.

والله أعلم.

الحادية عشرة : نَصّ الحديث على الإبل والغنم وبين حكمهما ، وسكت عما عداهما من الحيوان .

وقد اختلف علماؤنا في البقر هل تلحق بالإبل أو بالغنم ؟ قولان ؛ وكذلك اختلف أئمتنا في التقاط الخيل والبغال والحمير ، وظاهر قول ابن القاسم أنها تلتقط ، وقال أشهب وابن كنانة : لا تلتقط ؛ وقول ابن القاسم أصح ؛ لقوله عليه السلام : " احفظ على أخيك المؤمن ضالّته " .

الثانية عشرة : واختلف العلماء في النفقة على الضَّوالّ ؛ فقال مالك فيما ذكر عنه ابن القاسم : إن أنفق الملتقط على الدوابّ والإبل وغيرها فله أن يرجع على صاحبها بالنفقة ، وسواء أنفق عليها بأمر السلطان أو بغير أمره ؛ قال : وله أن يحبس بالنفقة ما أنفق عليه ويكون أحقّ به كالرهن .

وقال الشافعي : إذا أنفق على الضوالّ مَن أَخذها فهو متطوع ؛ حكاه عنه الرّبيع .

وقال المُزني عنه : إذا أمره الحاكم بالنفقة كانت دَيْنا ، وما ادّعى قُبِل منه إذا كان مثله قَصْداً .

وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على اللّقطة والإبل بغير أمر القاضي فهو متطوّع ، وإن أنفق بأمر القاضي فذلك دين على صاحبها إذا جاء ، وله أن يحبسها إذا حضر صاحبها ، والنفقة عليها ثلاثة أيام ونحوها ، حتى يأمر القاضي ببيع الشاة وما أشبهها ويقضي بالنفقة .

الثالثة عشرة : ليس في قوله صلى الله عليه وسلم في اللّقطة بعد التعريف : "فاستمتع بها" أو "فشأنك بها" أو "فهي لك" أو "فاستنفقها" أو "ثم كُلْها" أو "فهو مال الله يؤتيه من يشاء" على ما في صحيح مسلم وغيره ، ما يدلّ على التمليك ، وسقوط الضّمان عن الملتقط إذا جاء ربها ؛ فإن في حديث زيد بن خالد الجهَنيّ عن النبي صلى الله عليه وسلم : "فإن لم تعرِف فاستنفِقْها ولتكن وديعة عندك فإن جاء صاحبها يوماً من الدهر فأدها إليه" في رواية "ثم كُلْها فإن جاء صاحبها فأدّها إليه" خرجه البخاريّ ومسلم .

وأجمع العلماء على أن صاحبها متى جاء فهو أحق بها ، إلا ما ذهب إليه داود من أن الملتَقِط يملك اللّقطة بعد التعريف ؛ لتلك الظواهر ، ولا التفات لقوله ؛ لمخالفة الناس ، ولقوله عليه السلام : "فأدّها إليه" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(316/391)

وقال الخازن :

قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم ﴾

لما قوي الحسد وبلغ النهاية قال إخوة يوسف فيما بينهم لا بد من تبعيد يوسف عن أبيه وذلك لا يحصل إلا بأحد طريقين إما القتل مرة واحدة أو التغريب إلى أرض يحصل اليأس من اجتماعه بأبيه بأن تفترسه الأسد والسباع أو يموت في تلك الأرض البعيدة ثم ذكروا العلة في ذلك وهي قوله يخل لكم وجه أبيكم والمعنى أنه قد شغله حب يوسف عنكم فإذا فعلتم ذلك بيوسف أقبل يعقوب بوجهه عليكم وصرف محبته إليكم ﴿ وتكونوا من بعده ﴾ يعني من بعد قتل يوسف أو إبعاده عن أبيه ﴿ قوماً صالحين ﴾ يعني : تائبين فتوبوا إلى الله يعف عنكم فتكونوا قوماً صالحين وذلك أنهم لما علموا أن الذي عزموا عليه من الذنوب والكبائر قالوا نتوب إلى الله من هذا الفعل ونكون من الصالحين في المستقبل ، قوال مقاتل : معناه يصلح لكم أمركم فيما بينكم وبين أبيكم فإن قلت كيف يليق أن تصدر هذه الأفعال منهم وهم أنبياء .

قلت : الجواب ما تقدم أنهم لم يكونوا أنبياء في ذلك الوقت حتى تكون هذه الأفعال قادحة في عصمة الأنبياء وإنما أقدموا على هذه الأفعال قبل النبوة وقيل إن الذي أشار بقتل

يوسف كان أجنبياً شاوروه في ذلك فأشار عليهم بقتله .

﴿ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف ﴾

(317/391)

يعني قال قائل من إخوة يوسف وهو يهوذا ، وقال قتادة : هو روبيل وهو ابن خالته وكان أكبرهم سناً وأحسنهم رأياً فيه فنهاهم عن قتله ، وقال : القتل كبيرة عظيمة والأصح أن قائل هذه المقالة هو يهوذا لأنه كان أقربهم إليه سناً ﴿ وألقوه في غيابت الجب ﴾ يعني ألقوه في أسفل الجب وظلمته والغيابة كل موضع ستر شيئاً وغيبه عن النظر والجب البئر الكبيرة غير مطوية سمي بذلك لأنه جب أي قطع ولم يطو وأفاد ذكر القيامة مع ذكر الجب أن المشير أشار بطرحه في موضع من الجب مظلم لا يراه أحد واختلفوا في مكان ذلك الجب ، فقال قتادة : هو بئر ببيت المقدس ، وقال وهب : هو في أرض الأردن وقال مقاتل هو في أرض الأردن على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وإنما عينوا ذلك الجب للعلة التي ذكروها وهي قولهم ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ وذلك أن هذا الجب كان معروفاً يرد عليه كثير من المسافرين ، والالتقاط أخذ الشيء من الطريق أو من حيث لا يحتسب ، ومنه اللقطة بعض السيارة يعني يأخذه بعض المسافرين فيذهب به إلى ناحية أخرى فتستريحون منه ﴿ إن

كنتم فاعلين ﴾ فيه إشارة إلى ترك الفعل فكأنه قال لا تفعلوا شيئاً من ذلك وإن عزمتم على هذا الفعل فافعلوا هذا القدر إن كنتم فاعلين ذلك .

قال البغوي : كانوا يومئذ بالغين ولم يكونوا أنبياء إلا بعده وقيل لم يكونوا بالغين وليس بصحيح بدليل أنهم قالوا وتكونوا من بعده قوماً صالحين وقالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين والصغير لا ذنب له .

(318/391)

قال محمد بن إسحاق : اشتمل فعلهم هذا على جرائم كثيرة من قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له والغدر بالأمانة وترك العهد والكذب مع أبيهم وعفا الله عن ذلك كله حتى لا ييأس أحد من رحمة الله تعالى وقال بعض أهل العلم عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم ولو فعلوا ذلك لهلكوا جميعاً وكل ذلك كان قبل أن نبأهم الله فلما أجمعوا على التفريق بين يوسف وبين والده بضرب من الحيل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(319/391)

وقال أبو حيان فى الآيات :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾

الطرح للشيء رميه وإلقاؤه ، وطرح عليه الثوب ألقاه ، وطرحت الشيء أبعدته ومنه قول عروة بن الورد :

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا . . .

من المال يطرح نفسه كل مطرح

والنوى : الطروح البعيدة .

الجب : الركية التي لم تطو ، فإذا طويت فهي بئر .

قال الأعشى :

لئن كنت في جب ثمانين قامة . . .

ورقيت أسباب السماء بسلم

ويجمع على جبب وجباب وأجباب ، وسمى جباً لأنه قطع في الأرض ، من جببت أي قطعت .

الالتقاط : تناول الشيء من الطريق ، يقال : لقطه والتقطه .

وقال : ومنهل لقطته التقاطاً .

ومنه : اللقطة واللقيط .

﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ : آيات أي : علامات ودلائل على قدرة الله تعالى وحكمته في كل شيء للسائلين من سأل عنهم وعرف قصتهم .

وقيل : آيات على نبوة النبي (صلى الله عليه وسلم) للذين سألوه من اليهود عنها ، فأخبرهم بالصحة من غير سماع من أحد ، ولا قراءة كتاب .

والذي يظهر أن الآيات الدلالات على صدق الرسول وعلى ما أظهر الله في قصة يوسف من عواقب البغي عليه ، وصدق رؤياه ، وصحة تأويله ، وضبط نفسه وقهرها حتى قام بحق الأمانة ، وحدوث السرور بعد اليأس .

وقيل : المعنى لمن سأل ولمن لم يسأل لقوله : ﴿ سواء للسائلين ﴾ أي سواء لمن سأل ولمن لم يسأل .

وحسن الحذف لدلالة قوة الكلام عليه لقوله : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ أي والبرد .

وقال ابن عطية : وقوله للسائلين ، يقتضي تحضيضاً للناس على تعلم هذه الأنباء لأنه إنما المراد آيات للناس ، فوصفهم بالسؤال ، إذ كل أحد ينبغي أن يسأل عن مثل هذه القصص ، إذ هي مقر العبر والاتعاظ .

وتقدم لنا ذكر أسماء إخوة يوسف منقولة من خط الحسين بن أحمد بن القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني ، ونقلها من خط الشريف النقيب النسابة أبي البركات محمد بن أسعد الحسيني الجوّاني محرّرة بالنقط ، وتوجد في كتب التفسير محرفة مختلفة ، وكان روبيل أكبرهم ، وهو ويهوذا ، وشمعون ، ولاوي ، وزبولون ، ويساخا ، شقائق أمهم ليا بنت ليان بن ناهر بن آزر وهي : بنت خال يعقوب ، وذان ونفتالي ، وكاذ وياشير ، أربعة من سريتين كانتا لليا وأختها راحيل ، فوهبتا هما ليعقوب ، فجمع بينهما ولم يحل الجمع بين الأختين لأحد بعده .

وأسماء السريتين فيما قيل : ليا ، وتلتا ، وتوقيت أم السبعة فتزوج بعدها يعقوب أختها راحيل ، فولدت له يوسف وبنيامين ، وماتت من نفاسه .

وقرأ مجاهد ، وشبل وأهل مكة ، وابن كثير : آية على الإفراد .

والجمهور آيات ، وفي مصحف أبي عبرة للسائلين مكان آية .

والضمير في قالوا عائد على أخوة يوسف وأخوه هو بنيامين ، ولما كانا شقيقين أضافوه إلى

يوسف .

واللام في ليوسف لام الابتداء ، وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة أي : كثرة حبه لهما ثابت لا شبهة فيه .

وأحب أفعل تفضيل ، وهي مبني من المفعول شذوذاً ، ولذلك عدى بإلى ، لأنه إذا كان ما تعلق به فاعلاً من حيث المعنى عدى إليه بإلى ، وإذا كان مفعولاً عدى إليه بفي ، تقول : زيد أحب إلى عمرو من خالد ، فالضمير في أحب مفعول من حيث المعنى ، وعمرو هو المحب .

وإذا قلت : زيد أحب إلى عمرو من خالد ، كان الضمير فاعلاً ، وعمرو هو المحبوب .

ومن خالد في المثال الأول محبوب ، وفي الثاني فاعل ، ولم يبن أحب لتعدّيه بمن .

وكان بنيامين أصغر من يوسف ، فكان يعقوب يحبهما بسبب صغرهما وموت أمهما ، وحب الصغير والشفقة عليه مركوز في فطرة البشر .

وقيل لابنة الحسن : أي بنيك أحب إليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يقدم ، والمريض حتى يفيق .

وقد نظم الشعراء في محبة الولد الصغير قديماً وحديثاً ، ومن ذلك ما قاله الوزير أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري في قصيدته التي بعث بها إلى أولاده وهو في السجن :

وصغيركم عبد العزيز فإنني . . .

أطوي لفرقته جوى لم يصغر

ذاك المقدم في الفؤاد وإن غدا . . .

كفؤاً لكم في المنتمى والعنصر

إن البنان الخمس أكفاء معاً . . .

والحلى دون جميعها للخنصر

وإذا الفتى بعد الشباب سما له . . .

حب البنين ولا كحب الأصغر

ونحن عصبة جملة حالية أي : تفضلهما علينا في المحبة ، وهما ابنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة ، ونحن جماعة عشرة رجال كفاة نقوم بمرافقة ، فنحن أحق بزيادة المحبة منهما .

وروى النزال بن سبرة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ونحن عصبة .

وقيل : معناه ونحن نجتمع عصبة ، فيكون الخبر محذوفاً وهو عامل في عصبة ، وانتصب عصبة على الحال ، وهذا كقول العرب : حكمك مسمطاً حذف الخبر .

قال المبرد : قال الفرزدق :

يا لهذم حكمك مسمطا . . .

أراد لك حكمك مسمطاً ، واستعمل هذا فكثر حتى حذف استخفا ، فالعلم السامع ما يريد القائل كقولك : الهلال والله أي : هذا الهلال ، والمسمط المرسل غير المردود .

وقال ابن الأنباري : هذا كما تقول العرب : إنما العامري عمته ، أي يتعمم عمته انتهى .

وليس مثله ، لأنّ عصبة ليس مصدرا ولا هيئة ، فالأجود أن يكون من باب حكمك مسمطاً .

وقدره بعضهم : حكمك ثبت مسمطاً .

وعن ابن عباس : العصبة ما زاد على العشرة ، وعنه : ما بين العشرة إلى الأربعين ، وعن قتادة : ما فوق العشرة إلى الأربعين ، وعن مجاهد : من عشرة إلى خمسة عشر ، وعن مقاتل : عشرة ، وعن ابن جبير : ستة أو سبعة ، وقيل : ما بين الواحد إلى العشرة ، وقيل : إلى خمسة عشر ، وعن الفراء : عشرة فما زاد ، وعن ابن زيد ، والزجاج ، وابن قتيبة : العصبة ثلاثة نفر ، فإذا زادوا فهم رهط إلى التسعة ، فإذا زادوا فهم عصبة ، ولا يقال لأقل من عشرة عصبة .

والضلال هنا هو الهوى قاله ابن عباس ، أو الخطأ من الرأي قاله ابن زيد ، أو الجور في الفعل قاله ابن كامل ، أو الغلط في أمر الدنيا .

روي أنه بعد إخباره لأبيه بالرؤيا كان يضمه كل ساعة إلى صدره ، وكأن قلبه أيقن بالفراق فلا يكاد يصبر عنه ، والظاهر أنّ اقتلوا يوسف من جملة قولهم ، وقيل : هو من قول قوم استشارهم أخوة يوسف فيما يفعل به فقالوا ذلك .

والظاهر أو اطرحوه هو من قولهم أن يفعلوا به أحد الأمرين ، ويجوز أن تكون أو للتنويع أي : قال بعض : اقتلوا يوسف ، وبعض اطرحوه ، وانتصب أرضاً على إسقاط حرف الجر قاله الحوفي وابن عطية ، أي : في أرض بعيدة من الأرض التي هو فيها ، قريب من أرض يعقوب .

وقيل : مفعول ثان على تضمين اطرحوه معنى أنزلوه ، كما تقول : أنزلت زيداً الدار .

وقالت فرقة : ظرف ، واختاره الزمخشري ، وتبعه أبو البقاء .

قال الزمخشري : أرضاً منكورة مجهولة بعيدة من العمران ، وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الناس ، ولإبهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة .

وقال ابن عطية : وذلك خطأ بمعنى كونها منصوبة على الظرف قال : لأن الظرف ينبغي أن يكون مبهماً ، وهذه ليست كذلك ، بل هي أرض مقيدة بأنها بعيدة أو قاصية ونحو ذلك ، فزال بذلك إبهامها .

ومعلوم أنّ يوسف لم يخل من الكون في أرض فتبين أنهم أرادوا أرضاً بعيدة غير التي هو فيها قريب من أبيه انتهى .

(323/391)

وهذا الردّ صحيح ، لو قلت : جلست داراً بعيدة ، أو قعدت مكاناً بعيداً لم يصح إلا بوساطة في ، ولا يجوز حذفها إلا في ضرورة شعر ، أو مع دخلت على الخلاف في دخلت أهي لازمة أو متعدية .

والوجه هنا قيل : الذات ، أي يخل لكم أبوكم .

وقيل : هو استعارة عن شغله بهم ، وصرف مودته إليهم ، لأنّ من أقبل عليك صرف وجهه إليك وهذا كقول نعامة حين أحبته أمه لما قتل أخوته وكانت قبل لا تحبه .

قال : الثكل أرامها أي : عطفها ، والضمير في بعده عائد على يوسف ، أو قتله ، أو طرحه .

وصلاحهم إما صلاح حالهم عند أبيهم وهو قول مقاتل ، أو صلاحهم بالتوبة والتنصل من هذا الفعل وهذا أظهر ، وهو قول الجمهور منهم الكلبي .

واحتمل تكونوا أن يكون مجزوماً عطفاً على مجزوم ، أو منصوباً على إضمار أنْ .

والقائل : لا تقتلوا يوسف ، روبيل قاله قتادة وابن إسحاق ، أو شمعون قاله مجاهد ، أو يهوذا وكان أحلمهم وأحسنهم فيه رأياً وهو الذي قال : فلن أبرح الأرض قال لهم : القتل عظيم ، قاله السدي ، أوذان : أربعة أقوال ، وهذا عطف منهم على أخيهم .

لما أراد الله من إنفاذ قضائه وإبقاء على نفسه ، وسبب لنجاتهم من الوقوع في هذه الكبيرة وهو إتلاف النفس بالقتل .

قال الهروي : الغيابة في الجب شبه لحف ، أو طاق في البئر فويق الماء يغيب ما فيه عن العيون .

وقال الكلبي : الغيابة كمون في قعر الجب ، لأن أسفله واسع ورأيه ضيق ، فلا يكاد الناظر يرى ما في جوانبه .

وقال الزمخشري : غوره وهو ما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله انتهى .

منه قيل للقبر : غيابة ، قال المتنحل السعدي :

فإن أنا يوماً غيبتني غيابتي . . .

فسيروا بسيري في العشيرة والأهل

وقرأ الجمهور : غيابة على الإفراد ، ونافع : غيابات على الجمع ، جعل كل جزء مما يغيب فيه غيابة .

وقرأ ابن هرمز : غيابات بالتشديد والجمع ، والذي يظهر أنه سمى باسم الفاعل الذي للمبالغة ، فهو وصف في الأصل ، وألحقه أبو علي بالاسم الجائي على فعال نحو ما ذكر سيبويه من الغياد .

قال أبو الفتح : ووجدت من ذلك المبار المبرح والفخار الخزف .

وقال صاحب اللوامح : يجوز أن يكون على فعالات كحمامات ، ويجوز أن يكون على فيعالات كشيطانات في جمع شيطانة ، وكل للمبالغة .

وقرأ الحسن : في غيبة ، فاحتمل أن يكون في الأصل مصدراً كالغلبة ، واحتمل أن يكون جمع غائب كصانع وصنعة .

وفي حرف أبي في غيبة بسكون الياء ، وهي ظلمة الركية .

وقال قتادة في جماعة : الجب بئر بيت المقدس ، وقال وهب : بأرض الأردن ، وقال مقاتل : على ثلاث فراسخ من منزل يعقوب ، وقيل : بين مدين ومصر .

وقرأ الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وأبو رجاء : تلتقطه بتاء التأنيث ، أنث على المعنى كما قال :

إذا بعض السنين تعرقتنا . . .

كفى الأيتام فقد أبى اليتيم

والسيارة جمع سيار ، وهو الكثير السير في الأرض .

والظاهر أن الجب كان فيه ماء ، ولذلك قالوا : يلتقطه بعض السيارة .

وقيل : كان فيه ماء كثير يغرق يوسف ، فنشز حجر من أسفل الجب حتى ثبت يوسف عليه .

وقيل : لم يكن ماء فأخرجه الله فيه حتى قصده الناس .

وروي : أنهم رموه بحبل في الجب ، فتماسك بيديه حتى ربطوا يديه ونزعوا قميصه ورموه ، حينئذ وهموا بعد برضخه بالحجارة فمنعهم أخوهم المشير بطرحه من ذلك .

ومفعول فاعلين محذوف أي : فاعلين ما يحصل به غرضكم من التفريق بينه وبين أبيه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(325/391)

وقال أبو السعود :

﴿ اقتلوا يُوسُفَ أَوِ اطرحوه أَرْضًا ﴾

من جملة ما حُكي بعد قوله إذا قالوا وقد قاله بعضُ منهم مخاطباً للباقين بقضية الصيغة فكأنهم رضُوا بذلك كما يروى أن القائلَ شمعونُ أو دان ، والباقون كانوا راضين إلا من قال :

لا تقتلوا الخ ، فجعلوا كأنهم القائلون وأُدرجوا تحت القولِ المسندِ إلى الجميع أو قاله كلُّ واحدٍ منهم مخاطباً للبقية وهو أدلُّ على مسارعتهم إلى ذلك القولِ . وتنكيرُ أرضاً وإخلاؤها من الوصف للإبهام أي أرضاً منكورةً مجهولة بعيدةً من العُمران ولذلك نصبت نصبَ الظروفِ المُبهمة ﴿ يَخْلُ ﴾ بالجزم جوابٌ للأمر أي يخلصْ ﴿ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ فيُقبل عليكم بكلّيته ولا يلتفتْ عنكم إلى غيركم ولا يساهمكم في محبته أحدٌ فذكرُ الوجه لتصوير معنى إقبالِه عليهم ﴿ وَتَكُونُواْ ﴾ بالجزم عطفاً على يخْلُ أو بالنصب على إضمار أنْ أو الواو بمعنى مع مثل قوله : ﴿ وَتَكْتُمُواْ الحق ﴾ وإيثارُ الخطابِ في لكم وما بعده للمبالغة في حملهم على القبول فإن اعتناءَ المرءِ بشأن نفسِه واهتمامَه بتحصيل منافعِه أتمُّ وأكمل ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ من بعد يوسفَ أي من بعد الفراغِ من أمره أو طرحه ﴿ قَوْمًا صالحين ﴾ تائبين إلى الله تعالى عما جنيتم أو صالحين مع أبيكم بإصلاح ما بينكم وبينه بعذر تمهّدونه أو صالحين في أمور دنياكم بانتظامها بعده بخلوّ وجه أبيكم ﴿ قَالَ قَائِلٌ مّنْهُمْ ﴾ هو يهوذا وكان أحسنَهم فيه رأياً وهو الذي قال : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأرض ﴾ الخ ، وقيل : روبيل وهو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال من سأل وقال : اتفقوا على ما عُرض عليهم من خصلتي الضّيْع أم خالفهم في ذلك أحدٌ فقيل : قال قائل منهم : ﴿ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ ﴾ أظهره في مقام الإضمار استجلاباً لشفقتهم عليه أو استعظاماً لقتله وهو هو ، فإنه يروى أنه

قال لهم : القتلُ عظيمٌ ولم يصرّح بنهيهم عن الخَصلة الأخرى وأحاله على أولوية ما عرضه عليهم بقوله : ﴿ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَةِ الجب ﴾ أي في قعره

وغوره . سُمِّي بها لغَيبته عن عين الناظرِ ، والجبّ البئرُ التي لم تُطْوَ بعدُ لأنها أرضٌ جُبّت جباً من غير أن يُزاد على ذلك شيءٌ ، وقرأ نافعٌ في غيابات الجب في الموضعين كأن لتلك الجبّ غياباتٍ أو أراد بالجب الجنسَ أي في بعض غيابات الجبِّ وقرىء غيابات وغيبة ﴿ يَلْتَقِطْهُ ﴾ يأخذْه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف فإن الالتقاطَ أخذُ شيءٍ مشرف على الضياع ﴿ بَعْضُ السيارة ﴾ أي بعض طائفةٍ تسير في الأرض واللام في السيارة كما في الجب وما فيهما وفي البعض من الإبهام لتحقيق ما يتوخاه من ترويج كلامِه بموافقته لغرضهم الذي هو تنائي يوسفَ عنهم بحيث لا يدرى أثرُه ولا يروى خبرُه وقرىء تلتقطْه على التأنيث لأن بعضَ السيارة سيارةٌ كقوله :

كما شرِقَتْ صدرُ القناةِ من الدمِ . . . ومنه قُطعت بعضُ أصابعه ﴿ إِن كُنتُمْ فاعلين ﴾ بمشورتي ، لم يبُتَّ القول عليهم بل إنما عرض عليهم ذلك تألفاً لقلبهم وتوجيهاً لهم إلى رأيه

وحذراً من نسبتهم له إلى التحكم والافتيات ، أو إن كنتم فاعلين ما أزمعتم عليه من إزالته من عند أبيه لا محالة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(327/391)

وقال الآلوسى :

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾

الظاهر أن هذا من جملة ما حكى بعد قوله سبحانه : ﴿ إِذْ قَالُوا ﴾ [يوسف : 8] وقد قاله بعض منهم مخاطباً للباقين وكانوا راضين بذلك إلا من قال : ﴿ لَا تَقْتُلُوا ﴾ [يوسف : 10] الخ ، ويحتمل أنه قاله كل منهم مخاطباً للبقية ، والاستثناء هو الاستثناء ، وزعم بعضهم أن القائل رجل غيرهم شاوروه في ذلك وهو خلاف الظاهر ولا ثبت له ، والظاهر أن القائل خيرهم بين الأمرين القتل والطرح .

وجوز أن يكون المراد قال بعض : ﴿ اقتلوا يُوسُفَ ﴾ وبعض ﴿ اطرحوه ﴾ والطرح رمي الشيء وإلقاؤه ، ويقال : طرحت الشيء أبعدته ، ومنه قول عروة بن الورد :

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا . . .

من المال يطرح نفسه كل مطرح

ونصب ﴿ أَرْضًا ﴾ على إسقاط حرف الجر كما ذهب إليه الحوفي .

وابن عطية أي ألقوه في أرض بعيدة عن الأرض التي هو فيها ، وقيل : نصب على أنه مفعول ثان لاطرحوه لتضمينه معنى أنزلوه فهو كقوله تعالى : ﴿ أَنزِلْنِى مُنزَلاً مُّبَارَكًا ﴾ [المؤمنون : 29] ، وقيل : منصوب على الظرفية ، ورده ابن عطية .

وغيره بأن ما ينتصب على الظرفية المكانية لا يكون إلا مبهماً وحيث كان المراد أرضاً بعيدة عن أرضه لم يكن هناك إبهام ، ودفع بما لا يخلو عن نظر ، وحاصل المعنى اقتلوه أو غربوه فإن التغريب كالقتل في حصول المقصود مع السلامة من إثمه ، ولعمري لقد ذكروا أمرين مرين فإن الغربة كربة أية كربة ؛ ولله تعالى در من قال

: حسنوا القول وقالوا غربة . . .

إنما الغربة للاحرار ذبح ﴾

(328/391)

يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ بالجزم جواب الأمر ، والوجه الجارحة المعروفة ، وفي الكلام كناية تلويحية عن خلوص المحبة ، ومن هنا قيل : أي يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم ، والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها وينازعهم إياها ، وقد فسر الوجه

بالذات والكناية بحالها خلا أن الانتقال إلى المقصود بمرتبتين : على الأول وبمرتبة على هذا ، وقيل : الوجه بمعنى الذات ، وفي الكلام كناية عن التوجه والتقيد بنظم أحوالهم وتدبير أمورهم لأن خلوه لهم يدل على فراغه عن شغل يوسف عليه السلام فيشتغل بهم وينظم أمورهم ، ولعل الوجه الأوجه هو الأول ﴿ وَتَكُونُواْ ﴾ بالجزم عطفاً على جواب الأمر . وبالنصب بعد الواو باضمار أن أي يجتمع لكم خلو وجهه والكون دمن بَعْدِه ﴾ أي بعد يوسف على معنى بعد الفراغ من أمره .

أو من بعد قتله .

أو طرحه ، فالضمير إما ليوسف أو لأحد المصدرين المفهومين من الفعلين .

﴿ ﴾ أي بعد يوسف على معنى بعد الفراغ من أمره .

أو من بعد قتله .

أو طرحه ، فالضمير إما ليوسف أو لأحد المصدرين المفهومين من الفعلين .

﴿ قَوْمًا صالحين ﴾ بالتوبة والتنصل إلى الله تعالى عما جئتم به من الذنب كما روي عن الكلبي وإليه ذهب الجمهور ، فالمراد بالصلاح الصلاح الديني بينهم وبين الله تعالى ، ويحتمل أن المراد ذلك لكن بينهم وبين أبيهم بالعذر وهو وإن كان مخالفاً للدين لكونه كذباً لكنه موافق له من جهة أنهم يرجون عفو أبيهم وصفحه به ليخلصوا من العقوق على ما قيل ، ويحتمل أن يراد الصلاح الدنيوي أن صالحين في أمر دنياكم فإنه ينتظم لكم بعده بخلو وجه أبيكم ، وإيثار

الخطاب في ﴿ لَكُمْ ﴾ وما بعده للمبالغة في حملهم على القبول فإن اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامه بتحصيل منافعه أتم وأكمل .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾

هو وكان رأيه فيه أهون شراً من رأى غيره وهو القائل : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأرض ﴾ [يوسف : 80] الخ القاله السدى .

(329/391)

وقال قتادة .

وابن إسحاق : هو روبيل ، وعن مجاهد أنه شمعون ، وقيل : دان ، وقال بعضهم : إن أحد هذين هو القائل : ﴿ اقتلوا يُوسُفَ ﴾ الخ ، وأما القائل : ﴿ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : 9] فغيره ، ولعل الأصح أنه يهوذا .

قيل : وإنما لم يذكر أحد منهم باسمه ستراً على المسيء وكل منهم لم يخل عن الإساءة وإن تفاوتت مراتبها ، والقول بأنه على هذا لا ينبغي لأحد أن يعين أحداً منهم باسمه تأسياً بالكتاب ليس بشيء لأن ذلك مقام تفسير وهو فيه أمر مطلوب ، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً كأن سائلاً سأل اتفقوا على ما عرض عليهم من خصلتي الصنيع أم خالفهم في ذلك

أحد ؟ فقيل : قال قائل منهم : ﴿ لَا تَقْتُلُواْ ﴾ الخ ، والاتيان بيوسف دون ضميره لاستجلاب شفقتهم عليه واستعظام قتله وهو هو مانه يروى أنه قال لهم : القتل عظيم ولم يصرح بنهيهم عن الخصلة الأخرى ، وأحاله على أولوية ما عرضه عليهم بقوله : ﴿ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَتِ الجب ﴾ أي في قعره وغوره سمي به لغيبته عن عين الناظر ، ومنه قيل للقبر : غيابة ، قال المنخل السعدي :

إذا أنا يوماً غيبتني (غيابتي) . . .

فسيروا بسيري في العشيرة والأهل

وقال الهروي : الغيابة في الجب شبه كهف .

أو طاق في البئر فوق الماء يغيب ما فيه عن العيون ، والجب الركية التي لم تطو فإذا طويت فهي بئر قال الأعمش :

لئن كنت في جب ثمانين قامة . . .

ورقيت أسباب السماء بسلم

ويجمع على جبب .

وجباب .

وأجباب ، وسمي جباً لأنه جب من الأرض أي قطع ، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى الكلام فيتأنيثه وتذكيره .

وقرى نافع في غيابات في الموضعين كأن لتلك الجب غيابات ، ففيه إشارة إلى سعتها ، أو أراد بالجب الجنس أي في بعض غيابات الجب ، وقرأ ابن هرمز غيابات بتشديد الياء التحتية وهو صيغة مبالغة ، ووزنه على ما نقل صاحب اللوامح يجوز أن يكون فعالات كحمامات ، ويجوز أن يكون فيعالات كشيطانات في جمع شيطانة ، وقرأ الحسن غيبة بفتحات على أنه في الأصل مصدر كالغلبة ، ويحتمل أن يكون جمع غائب كصانع وصنعة ، وفي حرف أبيّ رضي الله تعالى عنه غيبة بسكون الياء التحتية على أنه مصدر أريد به الغائب .

﴿ يَلْتَقِطْهُ ﴾ أي يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف فان الالتقاط أخذ شيء مشرف على الضياع كذا قيل ، وفي مجمع البيان هو أن يجد الشيء ويأخذه من غير أن يحسبه ، ومنه قوله :

ومنهل وردته التقاطاً . . .

﴿ بَعْضُ السيارة ﴾ أي بعض جماعة تسير في الأرض وأل في السيارة كما في الجب وما فيهما ، وفي البعض من الابهام لتحقيق ما يتوخاه من ترويج كلامه بموافقته لغرضهم الذي هو

تنائى يوسف عليه السلام عنهم بحيث لا يدري أثره ولا يروى خبره ، وقرأ الحسن تلتقطه على التأنيث باعتبار المعنى كما في قوله :

إذا بعض السنين (تعرقتنا) . . .

كفى الأيتام فقد أبى اليتيم

وجاء قطعت بعض أصابعه وجعلوا هذا من باب اكتساب المضاف من المضاف إليه التأنيث كقوله :

كما شرقت صدر القناة من الدم . . .

﴿ إِن كُنتُمْ فاعلين ﴾ أي إن كنتم عازمين مصرين على أن تفعلوا به ما يفرق بينه وبين أبيه أو إن كنتم فاعلين بمشورتي ورأيي فألقوه الخ ، ولم يبت القول لهم بل عرض عليهم ذلك تأليفاً لقلوبهم وتوجيهاً لهم إلى رأيه وحذراً من سوء ظنهم به ؛ ولما كان هذا مظنة لسؤال سائل يقول : فما فعلوا بعد ذلك هل قبلوا رأيه أم لا ؟ فأجيب على سبيل الاستئناف على وجه أدرج في تضاعيفه قبولهم له بما شيجيىء إن شاء الله تعالى من قوله سبحانه : ﴿ وأجمعوا

أن يجعلوه في غيابة الجب ﴾ [يوسف : 15] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(332/391)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾

أي : لقد كان في قصتهم علامات دالة على عظيم قدرة الله وبديع صنعه ﴿ لّلسَّائِلِينَ ﴾ من الناس عنها ، وقرأ أهل مكة "آية" على التوحيد ، وقرأ الباقون على الجمع ، واختار قراءة الجمع أبو عبيد .

وقال النحاس : و "آية" ها هنا قراءة حسنة .

وقيل : المعنى لقد كان في يوسف وإخوته آيات دالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم للسائلين له من اليهود ، فإنه روى أنه قال له جماعة من اليهود وهو بمكة : أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر فبكى عليه حتى عمي ، ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ، ولا من يعرف خبر الأنبياء ، وإنما وجهوا إليه من أهل المدينة من يسأله عن هذا ، فأنزل الله سورة يوسف جملة واحدة كما في التوراة .

وقيل : معنى ﴿ آيات للسائلين ﴾ عجب لهم ، وقيل : بصيرة ، وقيل : عبرة .

قال القرطبي : وأسماؤهم يعني : إخوة يوسف : روبيل ، وهو أكبرهم ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، وريالون ، ويشجر ، وأمهم ليا بنت ليان وهي بنت خال يعقوب ، وولد له من سريتين أربعة ، وهم : دان ، ونفتالى ، وجاد ، وآشر ، ثم ماتت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف ، وبنيامين وقال السهيلي : إن أم يوسف اسمها وقفا ، وراحيل ماتت من نفاس بنيامين ، وهو أكبر من يوسف .

(333/391)

﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ أي : وقت قالوا ، والظرف متعلق بكان ﴿ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾ والمراد بقوله : ﴿ وَأَخُوهُ ﴾ هو بنيامين ، وخصوه بكونه أخاه مع أنهم جميعاً إخوته ، لأنه أخوه لأبويه كما تقدم ، ووحد الخبر فقال : ﴿ أحب ﴾ مع تعدد المبتدأ ؛ لأن أفعل التفضيل يستوي فيه الواحد وما فوقه إذا لم يعرّف ، واللام في ﴿ ليوسف ﴾ هي الموطئة للقسم ، وإنما قالوا : هذه ؛ لأنه بلغهم خبر الرؤيا فأجمع رأيهم على كيده ، وجملة ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ في محل نصب على الحال ، والعصبة : الجماعة ، قيل : وهي ما بين الواحد إلى العشرة .

وقيل : إلى الخمسة عشر ، وقيل : من العشرة إلى الأربعين ، ولا واحد لها من لفظها ، بل هي كالنفر والرهط ، وقد كانوا عشرة ، ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : لفي ذهاب عن وجه التدبير بالترجيح لهما علينا ، وإيثارهما دوننا مع استوائنا في الانتساب إليه ، ولا يصح أن يكون مرادهم أنه في دينه في ضلال مبين .

(334/391)

﴿ اقتلوا يُوسُفَ أَوِ اطرحوه أَرْضًا ﴾ أي قالوا : افعلوا به أحد الأمرين : إما القتل ، أو الطرح في أرض ، أو المشير بالقتل بعضه والمشير بالطرح البعض الآخر ، أو كان المتكلم بذلك واحد منهم فوافقه الباقون ، فكانوا كالقائل في نسبة هذا المقول إليهم ، وانتصاب ﴿ أرضاً ﴾ على الظرفية ، والتنكير للإبهام : أي أرضاً مجهولة ، وجواب الأمر ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ أي : يصف ويخلص فيقبل عليكم ويحبكم حباً كاملاً ﴿ وَتَكُونُواْ ﴾ معطوف على ﴿ يخل ﴾ ، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أن ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي : من بعد يوسف ، والمراد بعد الفراغ من قتله أو طرحه ، وقيل : من بعد الذنب الذي اقترفوه في يوسف ﴿ قَوْمًا صالحين ﴾ في أمور دينكم وطاعة أبيكم ، أو صالحين في أمور دنياكم ، لذهاب ما كان يشغلكم عن ذلك ، وهو الحسد ليوسف وتكدّر خواطركم بتأثيره عليكم

هو وأخوه ، أو المراد بالصالحين : التائبون من الذنب .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي : من الإخوة ، قيل : هو يهوذا ، وقيل : روبيل ، وقيل : شمعون ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَةِ الجب ﴾ قيل : ووجه الإظهار في ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ استجلاب شفقتهم عليه .

قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة وأهل الشام : ﴿ في غيابة الجب ﴾ بالإفراد ، وقرأ أهل المدينة (في غيابات) بالجمع ، واختار أبو عبيد الإفراد وأنكر الجمع ، لأن الموضع الذي ألقوه فيه واحد .

قال النحاس : وهذا تضييق في اللغة ، و " غيابات " على الجمع تجوز ، والغيابة : كل شيء غيب عنك شيئاً .

وقيل للقبر : غيابة ، والمراد به هنا غور البئر الذي لا يقع البصر عليه ، أو طاقة فيه ، قال الشاعر :

ألا فالبثا شهرين أو نصف ثالث . . . إلى ذا كما قد غيبتني غيابيا

والجب : البئر التي لم تطو ، ويقال لها قبل الطيّ ركية ، فإذا طويت قيل لها : بئر ، سميت جباً ، لأنها قطعت في الأرض قطعاً ، وجمع الجب جيب وجياب ، وأجباب ، وجمع بين الغيابة والجبّ مبالغة في أن يلقوه في مكان من الجبّ شديد الظلمة حتى لا يدركه نظر الناظرين ، قيل : وهذه البئر ببيت المقدس .

وقيل : بالأردن ، وجواب الأمر : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة ﴾ قرأ مجاهد ، وأبو رجاء ، والحسن ، وقتادة (تلتقطه) بالمثناة الفوقية ، ووجهه أن بعض السيارة سيارة ، وحكي عن سيبويه سقطت بعض أصابعه .

ومنه قول الشاعر :

أرى مرّ السنين أخذن مني . . . كما أخذ السرار من الهلال

وقرأ الباقون " تلتقطه " بالتحتية .

والسيارة : الجمع الذي يسيرون في الطريق ، والالتقاط : هو أخذ شيء مشرف على الضياع ، وكأنهم أرادوا أن بعض السيارة إذا التقطه حمله إلى مكان بعيد ، بحيث يخض عن أبيه ومن يعرفه ، ولا يحتاجون إلى الحركة بأنفسهم إلى المكان البعيد ، فربما أن والدهم لا يأذن لهم بذلك ، ومعنى : ﴿ إِن كُنتُمْ فاعلين ﴾ إن كنتم عاملين بما أشرت به عليكم في أمره ، كأنه لم يجزم بالأمر ، بل وكله إلى ما يجمعون عليه ، كما يفعله المشير مع من استشاره .

وفي هذا دليل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء ، فإن الأنبياء لا يجوز عليهم التواطؤ على

القتل لمسلم ظلماً وبغياً .

وقيل : كانوا أنبياء ، وكان ذلك منهم زلة قدم ، وأوقعهم فيها التهاب نار الحسد في صدورهم واضطرام جمرات الغيظ في قلوبهم .

وردّ بأن الأنبياء معصومون عن مثل هذه المعصية الكبيرة المتبالغة في الكبر ، مع ما في ذلك من قطع الرحم وعقوق الوالد وافتراء الكذب .

وقيل : إنهم لم يكونوا في ذلك الوقت أنبياء ، بل صاروا أنبياء من بعد .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ آيات للسائلين ﴾ قال : عبرة .

وأخرج أيضاً عن قتادة في الآية يقول : من سأل عن ذلك فهو هكذا ما قصّ الله عليكم وأنبأكم به .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك نحوه .

وأخرج ابن جرير عن ابن إسحاق قال : إنما قصّ الله على محمد صلى الله عليه وسلم خبر يوسف وبغي إخوته عليه ، وحسدهم إياه حين ذكر رؤياه لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بغي قومه عليه وحسدهم إياه حين أكرمه الله بنبوّته ليأتسى به .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ يعني : بنيامين هو أخوه لأبيه وأمه ، وفي قوله : ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ قال : العصبة ما بين العشرة إلى الأربعين .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن جرير ، وأبو الشيخ عن ابن زيد قال : العصبة : الجماعة ، ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ قال : لفي خطأ من رأيه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ في قوله : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ ﴾ قال : قاله كبيرهم الذي تخلف ، قال : والجبّ بئر بالشام ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة ﴾ قال : التقطه ناس من الأعراب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَةِ الجب ﴾ يعني : الركية .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : الجبّ البئر .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ قال : هي بئر ببيت المقدس ، يقول في بعض نواحيها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : الجبّ بحذاء طبرية بينه وبينها أميال . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً ﴾

من مقول قولهم المحكي قبل ، وإنما قالوا هذا لأن خبر المنام بلغهم ، ويروى أنه قصه عليهم ، فتشاوروا في كيده ، وقالوا ذلك ، وقالوا : لنرى بعد ما يكون من أحلامه ، سخرية واستهزاء . وتنكير (أرضاً) وإخلاؤها من الوصف للإبهام ، أي : في أرض مجهولة ، لا يعرفها الأب ، ولا يمكن ليوسف أن يعرف طريق الوصول إليه .

وقوله : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ جواب الأمر ، كناية عن خلوص محبته لهم ؛ لأنه بدل على إقباله عليهم بكليته ، وعلى فراغه عن الشغل بيوسف ، فيشتغل بهم ﴿ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي : من بعد الفراغ من قتله أو طرحه : ﴿ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ أي : تائبين إلى الله عما جنيتم ، فيكون صلاحكم فداء عن معصية قتله أو طرحه ، أو تصلح دنياكم ، وتنتظم أموركم بعده بخلو وجه أبيكم .

تنبيهات :

الأول : قال ابن إسحاق : لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير ، الذي لا ذنب له ، و بالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل ، والده ؛

ليفرقوا بينه وبين ابنه على صغر سنه ، وحاجته إلى لطف والده ، وسكونه إليه . يغفر الله لهم .

(338/391)

الثاني : قال ابن كثير : اعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف ، وظاهر السياق يدل على خلاف ذلك . ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك ، وفي هذا نظر ، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل . ولم يذكروا سوى قوله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ [البقرة : من الآية 136] ، وهذا فيه احتمال ؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللعجم شعوب . يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل ، فذكرهم إجمالاً ؛ لأنهم كثيرون ، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف . ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم . والله أعلم .

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ ﴾ أي : صريحاً ورضي به الباقون : ﴿ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ ﴾ أي : لأن القتل من الكبائر التي يخاف معها سد باب الصلاح . وإنما أظهره في مكان الإضمار استجلاباً لشفقتهم عليه ، أو استعظاماً لقتله ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ أي : في غوره

. و (الجب) : البئر التي لا حجارة فيها ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ أي : بعض الأقوام الذي يسيرون في الأرض ، فيتملكه ، فلا يمكنه الرجوع إلى أبيه ، فيحصل مطلوبكم من غير ارتكاب كبيرة يخاف معها سد باب الصلاح .

﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أي : عازمين مصرين على أن تفرقوا بينه وبين أبيه . وقد روي أن القائل هو أخوهم الأكبر ، بكر يعقوب (رؤُوبين) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 160.161 ﴾

(339/391)

وقال ابن عاشور :

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾

جملة مستأنفة استئنافاً بيانيّاً لأنّ الكلام المتقدم يثير سؤالاً في نفوس السّامعين عن غرض القائلين ممّا قالوه فهذا المقصود للقائلين .

وإنّما جعلوا له الكلام السابق كالمقدمة لتتأثّر نفوس السّامعين فإذا ألقي إليها المطلوب كانت سريعة الامتثال إليه .

وهذا فنّ من صناعة الخطابة أن يفتتح الخطيب كلامه بتهيئة نفوس السّامعين لتتأثّر بالغرض

المطلوب .

فإنّ حالةَ تأثّر النفوس تغني عن الخطيب غَناء جمَل كثيرة من بيان العلل والفوائد ، كما قال الحريري في المقامة الحادية عشرة "فلما دَفنوا الميْت ، وفات قول ليت ، أشرف شيخٌ من رِباوة ، متأبّطاً لهراوة ، فقال لمثل هذا فليعمل العاملون" .

وانهلّ في الخطب .

والأمر مستعمل في الإرشاد .

وأرادوا ارتكاب شيء يفرّق بين يوسف وأبيه عليهما السّلام تفرقة لا يحاول من جرّائها اقترابا ً بأن يعدموه أو ينقلوه إلى أرض أخرى فيهلك أو يفْتَرَس .

وهذه آية من عبر الأخلاق السيّئة وهي التّخلّص من مزاحمة الفاضل بفضله لمن هو دونه فيه أو مساويه بإعدام صاحب الفضل وهي أكبر جريمة لاشتمالها على الحسد ، والإضرار بالغير ، وانتهاك ما أمر الله بحفظه ، وهم قد كانوا أهل دين ومن بيت نبوءة وقد أصلح الله حالهم من بعد وأثنى عليهم وسمّاهم الأسباط .

وانتصب ﴿ أرضاً ﴾ على تضمين ﴿ اطْرَحوه ﴾ معنى أوْدعوه ، أو على نزع الخافض ، أو على تشبيهه بالمفعول فيه لأنّ ﴿ أرضاً ﴾ اسم مكان فلما كان غيرَ محدود وزاد إبهاما ً بالتّنكير عومِلَ معاملة أسماء الجهات ، وهذا أضعف الوجوه .

وقد علم أنّ المراد أرض مجهولة لأبيه .

وجَزم ﴿ يَخْلُ ﴾ في جواب الأمر ، أي إنْ فعلتم ذلك يخل لكم وجه أبيكم .

والخلوّ : حقيقته الفراغ .

وهو مستعمل هنا مجازاً في عدم التوجّه لمن لا يرغبون توجّهه له ، فكأنّ الوجه خلا من أشياء كانت حالة فيه .

واللاّم في قوله ﴿ لكم ﴾ لام العلة ، أي يخل وجه أبيكم لأجلكم ، بمعنى أنّه يخلو ممّن عداكم فينفرد لكم .

وهذا المعنى كناية تلويح عن خلوص محبّته لهم دون مشارك .

وعطف ﴿ وتكونوا من بعده ﴾ أي من بعد يوسف عليه السّلام على ﴿ يخل ﴾ ليكون من جملة الجواب للأمر .

فالمراد كونٌ ناشيء عن فعل المأمور به فتعيّن أن يكون المراد من الصلاح فيه الصلاح الدنيوي ، أيْ صلاح الأحوال في عيشهم مع أبيهم ، وليس المراد الصلاح الديني .

وأنّما لم يدبروا شيئاً في إعدام أخي يوسف عليه السّلام شفقةً عليه لصغره .

وإقحام لفظ ﴿ قوماً ﴾ بيْنَ كان وخبرها للإشارة إلى أنّ صلاح الحال صفة متمكّنة فيهم

كأنّه من مقوّمات قوميّتهم .

وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة البقرة (164) وعند قوله تعالى : ﴿ وما تغني الآيات والنّذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ في سورة يونس (101) .

وهذا الأمر صدر من قائله وسامعيه منهم قبل اتّصافهم بالنبوءة أو بالولاية لأنّ فيه ارتكاب كبيرة القتل أو التّعذيب والاعتداء ، وكبيرة العقوق .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾

فصْل جملة ﴿ قال قائل ﴾ جار على طريقة المقاولات والمحاورات ، كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ في سورة البقرة (30) .

وهذا القائل أحد الإخوة ولذلك وصف بأنّه منهم .

والعدول عن اسمه العَلَم إلى التنكير والوصفيّة لعدم الجدوى في معرفة شخصه وإنّما المهمّ أنّه من جماعتهم .

وتجنّباً لما في اسمه العلم من الثقل اللفظي الذي لا داعي إلى ارتكابه .

قيل : إنّه (يهوذا) وقيل : (شمعون) وقيل (روبين) ، والذي في سفر التّكوين من التّوراة أنه (راوبين) صدّهم عن قتله وأن يهوذا دل عليه السيارة كما في الإصحاح 37 .

وعادة القرآن أن لا يذكر إلاّ اسم المقصود من القصّة دون أسماء الذين شملتهم ، مثل قوله :

﴿ وقال رجلٌ مؤمنٌ من آل فرعون ﴾ [سورة غافر : 28] .

والإلقاء : الرمي .

والغيابات : جمع غيابة ، وهي ما غاب عن البصر من شيء .

فيقال : غيابة الجبّ وغيابة القبر والمراد قعر الجبّ .

والجبّ : البئر التي تحفر ولا تطوى .

وقرأ نافع ، وأبو جعفر غيابات بالجمع .

ومعناه جهات تلك الغيابة ، أو يجعل الجمع للمبالغة في ماهية الاسم ، كقوله تعالى : ﴿ أوْ كظلماتٍ في بحرٍ لجّيّ ﴾ [سورة النور : 40] وقرأ الباقون في غيابت الجبّ ﴾ بالإفراد .

والتّعريف في ﴿ الجبّ ﴾ تعريف العهد الذهني ، أي في غيابة جب من الجباب مثل قولهم : ادخل السوق .

وهو في المعنى كالنكرة .

فلعلّهم كانوا قد عهدوا جباباً كائنة على أبعاد متناسبة في طرق أسفارهم يأوون إلى قربها في مراحلهم لسقي رواحلهم وشربهم ، وقد توخوا أنْ تكون طرائقهم عليها ، وأحسب أنّها

كانت ينصب إليها ماء السيول ، وأنّها لم تكن بعيدة القعر حيث علموا أنّ إلقاءه في الجبّ لا يهشّم عظامه ولا ماء فيه فيغرقه .

و ﴿ يلتقطه ﴾ جواب الأمر في قوله : ﴿ وألقوه ﴾ .

والتّقدير : إن تلقوه يلتقطه .

والمقصود من التسبب الذي يفيده جواب الأمر إظهار أنّ ما أشار به القائل من إلقاء يوسف عليه السّلام في غيابة جبّ هو أمثل ممّا أشار به الآخرون من قتله أو تركه بفيفاء مهلكة لأنّه يحصل به إبعاد يوسف عليه السّلام عن أبيه إبعاداً لا يرجى بعدَه تلاقيهما دون إلحاق ضرّ الإعدام بيوسف عليه السّلام ؛ فإنّ التقاط السيّارة إياه أبقى له وأدخل في الغرض من المقصود لهم وهو إبعاده ، لأنّه إذا التقطه السيّارة أخذوه عندهم أو باعوه فزاد بعداً على بعد .

والالتقاط : تناول شيء من الأرض أو الطريق ، واستعير لأخذ شيء مضاع .

والسيّارة : الجماعة الموصوفة بحالة السّير وكثرته ، فتأنيثه لتأويله بالجماعة التي تسير مثل الفلاّحة والبَحّارة .

والتعريف فيه تعريف العهد الذهني لأّنهم علموا أنّ الطريق لا تخلو من قوافل بين الشام ومصر للتّجارة والميرة.

وجملة ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ شرط حذف جوابه لدلالة ﴿ وألقوه ﴾ ، أي إن كنتم فاعلين إبعاده عن أبيه فألْقوه في غيابات الجبّ ولا تقتلوه.

وفيه تعريض بزيادة التريّث فيما أضمروه لعلّهم يرون الرجوع عنه أولى من تنفيذه ، ولذلك جاء في شرطه بحرف الشرط وهو ﴿ إنْ ﴾ إيماء إلى أنّه لا ينبغي الجزم به ، فكانَ هذا القائل أمثل الإخوة رأياً وأقربهم إلى التّقوى ، وقد علموا أنّ السيّارة يقصدون إلى جميع الجباب للاستقاء ، لأنّها كانت محتفرة على مسافات مراحل السفر.

وفي هذا الرأي عبرة في الاقتصاد من الانتقام والاكتفاء بما يحصل به الغرض دون إفراط.

انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾

والقتل هو قمة ما فكّروا فيه من شرّ ؛ ولأنهم من الأسباط هبط الشر إلى مرتبة أقل ؛ فقالوا

: ﴿ أَوِ اطرحوه أَرْضاً ﴾ [يوسف: 9].

فكأنهم خافوا من إثم القتل؛ وظنوا بذلك أنهم سينفردون بحبِّ أبيهم؛ لأنهم قالوا: ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ [يوسف: 9].

والوجه هو الذي تتم به المواجهة والابتسام والحنان، وهو ما تظهر عليه الانفعالات.

والمقصود ب: ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ [يوسف: 9]، هو ألا يوجد عائق بينكم وبين أبيهم.

وقولهم: ﴿ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ [يوسف: 9]، أي: أنهم يُقدِّرون الصلاح؛ ويعرفون أن الذي فكَّروا فيه غيرُ مقبول بموازين الصلاح؛ ولذلك قالوا: إنهم سيتوبون من بعد ذلك.

ولكن: ما الذي أدراهم أنهم سوف يعيشون إلى أن يتوبوا؟ وهم بقولهم هذا نَسُوا أن أمر المَوْت قد أبهم حتى لا يرتكب أحدٌ المعاصيَ والكبائرَ.

أو: أن يكون المقصود ب: ﴿ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ [يوسف: 9]، هو أن يكونوا صالحين لحركة الحياة، ولعدم تنغيص علاقتهم بأبيهم؛ فحين يخلُو لهم وجهه؛ سيرتاحون إلى أن أباهم سيعدل بينهم، ويهبُهم كل حبه فيرتاحون.

أو أن يكون المقصود ب: ﴿ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ [يوسف: 9]، أن تلك المسألة التي تشغل بالهم وتأخذ جزءاً من تفكيرهم إذا ما وجدوا لها حلاً؛ فسيرتاح بالهم فينصلح

حالهم لإدارة شئون دنياهم .

وهكذا نفهم أن سعيهم إلى الصلاح : منوط بمراداتهم في الحياة ، بحسب مفهومهم للصلاح والحياة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ . . . ﴾ .

وهكذا نرى التخفيف في الشر حين يرفض واحد منهم مبدأ القتل ، واستبدله بالإخفاء بإلقائه في الجُبِّ .

ولم يحدد الحق سبحانه لنا اسم القائل حتى يعصمهم جميعاً من سوء الظن بهم .

(344/391)

والجب هو البئر غير المطوي ؛ ونحن نعلم أن الناس حين تحفر بئراً ، فمياه البئر تتدفق طوال الوقت ؛ وقد يأتي الردم فيسُدُّ البئر ؛ ولذلك يبنون حول فُوَّهة البئر بعضاً من الطوب لحمايته من الرَّدْم ؛ ويسمون مثل هذا البئر " بئر مطوي " ، وهكذا تظل المياه في البئر في حالة استطراق .

وكلمة : ﴿ غيابت الجب ﴾ [يوسف : 10] ، أي : المنطقة المخفية في البئر ؛ وعادة ما تكون فوق الماء ؛ وما فيها يكون غائباً عن العيون .

ولسائل أن يقول : وكيف يتأتَّى إلقاؤه في مكان مَخْفِيٍّ مع قول أحد الإخوة : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة ﴾ [يوسف : 10] .

ونقول : إن في مثل هذا القول تنزيلاً لدرجة الشر التي كانت مُتوقّدة في اقتراح بعضهم بقتل يوسف ؛ وفي هذا الاقتراح تخفيض لمسألة القتل أو الطّرْح أرضاً .

وبعد ذلك عاد القائل لحالته العادية ، وصَحَتْ فيه عاطفة الأخوة ؛ وقال :

﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [يوسف : 10] ، أي : أنه توقع عدم رفضهم لاقتراحه .

وهكذا يشرح لنا الحق سبحانه كيف تمَّتْ تصفية هذه المسألة ؛ فلم يقف صاحب هذا الرأي بالعنف ضد اقتراح إخوته بقتل يوسف أو طَرْحه في الأرض ؛ بل أخذ يستدرجهم ليستلَّ منهم ثورة الغضب ؛ فلم يَقُلْ لهم " لا تقتلوه " ، ولكنه قال : " لا تقتلوا يوسف " .

وفي نُطْقِه للاسم تحنين لهم .

ويضيف :

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غيابت الجب يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [يوسف : 10] .

وكأنه يأمل في أن يتراجعوا عن مخططهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (7) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات ﴾ قال عبرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ يقول : من سأل عن ذلك ، فهو كذا ما قص الله عليكم وأنبأكم به .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ قال : من كان سائلاً عن يوسف وإخوته ، فهذا نبؤهم .

وأخرج ابن جرير عن ابن إسحق رضي الله عنه قال : إنما قص الله على محمد صلى الله عليه وسلم خبر يوسف وبغي إخوته عليه ، وحسدهم إياه ، حين ذكر رؤياه . لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بغي قومه عليه وحسدهم إياه ، وحين أكرمه الله بنبوّته ليتأسى به .

إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه قال : كان يعقوب عليه السلام نازلاً بالشام ، وكان ليس له هم إلا يوسف وأخوه بنيامين ، فحسده إخوته مما رأوا من حب أبيه له . ورأى يوسف عليه السلام في النوم رؤيا إن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له ، فحدث أباه بها فقال له يعقوب عليه السلام : ﴿ يا بني ، لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ﴾ فبلغ إخوة يوسف الرؤيا فحسدوه ، فقالوا ﴿ ليوسف وأخوه ﴾ بنيامين ﴿ أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ﴾ -كانوا عشرة- ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ قالوا : في ضلال من أمرنا . ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ يقول : تتوبون مما صنعتم به . ﴿ قال قائل منهم . . . ﴾ وهو يهوذا ﴿ لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ فلما أجمعوا أمرهم على ذلك أتوا أباهم فقالوا له ﴿ يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف ﴾ قال : لن أرسله معكم إني ﴿ أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنّا إذاً لخاسرون ﴾ فأرسله معهم فأخرجوه وبه عليه كرامة . فلما برزوا إلى البرية أظهروا له العداوة فجعل يضربه أحدهم فيستغيث بالآخر فيضربه ، فجعل لا يرى منهم رحيماً ، فضربوه حتى كادوا يقتلونه ، فجعل يصيح ويقول : يا أبتاه ، يا يعقوب ، لو تعلم ما صنع بابنك بنو الإماء . فلما كادوا يقتلونه قال يهوذا : أليس قد

أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه ؟ . . . فانطلقوا به إلى الجب ليطرحوه فيه ، فجعلوا يدلونه في البئر ، فيتعلق بشفير البئر ، فربطوا يديه ونزعوا قميصه ، فقال : يا إخوتاه ، ردوا عليّ قميصي أتوارى به في الجب . فقالوا له : ادع الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر يؤنسوك . قال : فإني لم أر شيئاً . فدلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت ، فكان في البئر ماء ، فسقط فيه فلم يضره ، ثم أوى إلى صخرة في البئر

فقام عليها ، فجعل يبكي فناداه إخوته ، فظن إنها رقة أدركتهم فأجابهم ، فأرادوا أن يرضخوه بصخرة ، فقام يهوذا فمنعهم وقال : قد أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه ، فكان يهوذا يأتيه بالطعام ، ثم إنهم رجعوا إلى أبيهم فأخذوا جدياً من الغنم فذبحوه ونضحوا دمه على القميص ، ثم أقبلوا إلى أبيهم عشاء يبكون ، فلما سمع أصواتهم فزع وقال : يا بني ، ما لكم ؟ هل أصابكم في غنمكم شيء ؟ ! . . . قالوا لا . قال : فما فعل يوسف : ﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ﴾ يعني بمصدق لنا ﴿ ولو كنا صادقين ﴾ فبكى الشيخ وصاح بأعلى صوته ثم قال : أين القميص ؟ ثم جاؤوا بقميصه وعليه دم كذب ، فأخذ القميص وطرحه على وجهه ، ثم

بكى حتى خضب وجهه من دم القميص ، ثم قال : إن هذا الذئب يا بني لرحيم ، فكيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه ؟ ! .

. . وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه فتعلق يوسف عليه السلام بالحبل ، فخرج ، فلما رآه صاحب الدلو ، دعا رجلاً من أصحابه يقال له بشراي فقال : يا بشراي ، هذا غلام . فسمع به إخوة يوسف عليه السلام فجاؤوا فقالوا : هذا عبد لنا آبق ، ورطنوا له بلسانهم فقالوا : لئن أنكرت إنك عبد لنا لنقتلنك ، أترانا نرجع بك إلى يعقوب عليه السلام ، وقد أخبرناه إن الذئب قد أكلك ؟ . . . قال : يا إخوتاه ، ارجعوا بي إلى أبي يعقوب . فأنا أضمن لكم رضاه ولا أذكر لكم هذا أبداً . فأبوا ، فقال الغلام : أنا عبد لهم . فلما اشتراه الرجلان فرقا من الرفقة أن يقولا اشتريناه ، فيسألونهما الشركة فيه ، فقالا : نقول إن سألونا ما هذا ؟ نقول هذه بضاعة استبضعناها على البئر . فذلك قوله ﴿ وأسروه بضاعة ﴾ ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ﴾ – وكانت عشرين درهماً – وكانوا في يوسف من الزاهدين ، فانطلقوا به إلى مصر فاشتراه العزيز – ملك مصر – فانطلق به إلى بيته فقال لامرأته ﴿ أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ فأحبته امرأته فقالت له : يا

يوسف ، ما أحسن شعرك ؟ . . قال : هو أوّل ما يتناثر من جسدي . قالت : يا يوسف ، ما أحسن عينيك ؟ قال : هما أوَّل ما يسيلان إلى الأرض من جسدي . قالت : يا يوسف ، ما أحسن وجهك ؟ قال : هو للتراب يأكله ﴿ قالت هيت لك ﴾ قال هلم لك ؟ - وهي بالقبطية - قال معاذ الله ، إنه ربي ، قال : سيدي أحسن مثواي فلا أخونه في أهله . فلم تزل به حتى أطمعها ، فهمّت به وهمّ بها ، فدخلا البيت ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ فذهب ليحل سراويله فإذا هو بصورة يعقوب عليه السلام قائماً في البيت قد عض على أصبعه يقول : يا يوسف ، لا تواقعها ، فإنما مثلك مثل الطير في جوّ السماء لا يطاق ، ومثلك إذا وقعت عليها مثله إذا مات فوقع على الأرض لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ، ومثلك مثل الثور الصعب الذي لم يعمل عليه ، ومثلك إذا واقعتها مثله إذا مات فدخل الماء في أصل قرنيه لا

يستطيع أن يدفع عن نفسه . فربط سراويله وذهب ليخرج ، فأدركته فأخذت بمؤخر قميصه من خلفه فخرقته حتى أخرجته منه وسقط وطرحه يوسف ، واشتد نحو الباب ، والفيا سيدها جالساً عند الباب هو وابن عم المرأة ، فلما رأته المرأة ﴿ قالت : ما جزاء

من أراد بأهلك سوءاً ؟ إلا أن يسجن ، أو عذاب أليم ﴾ إنه راودني عن نفسي فدفعته عني فشققت قميصه . فقال يوسف : لا بل هي راودتني عن نفسي ، فأبيت وفررت منها فأدركتني فأخذت بقميصي فشقّته علي ، فاقل ابن عمها : في القميص تبيان الأمر ، انظروا إن كان القميص قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قدّ من دُبر فكذبت وهو من الصادقين ، فلما أتي بالقميص وجده قد قدّ من دُبر ، فقال : ﴿ إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم .

يوسف ، أعرض عن هذا . واستغفري لذنبك ﴾ يقول : لا تعودي لذنبك . ﴿ وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حباً ﴾ والشغاف جلدة على القلب يقال لها لسان القلب . يقول دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب – فلما سمعت بمكرهن – يقول بقولهن – أرسلت إليهن واعتدت لهن متكأً يتكئن عليه ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً وأترجاً تأكله وقالت ليوسف : أخرج عليهن . فلما خرج ورأى النسوة يوسف ، أعظمنه وجعلن يحززن أيديهن وهن يحسبن إنهن يقطعن الأترج ، ويقلن : ﴿ حاشا لله ! ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم ﴾ . قالت : ﴿ فذلكن الذي لمتنني فيه

ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ بعدما كان حل سراويله ثم لا أدري ما بدا له . قال يوسف : ﴿ رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ من الزنا . ثم إن المرأة قالت لزوجها : إن العبد العبراني قد فضحني في الناس ، إنه يعتذر إليهم ويخبرهم أني راودته عن نفسه ، ولست أطيق أن أعتذر بعذري ، فإما أن تأذن لي فأخرج فأعتذر كما يعتذر ، وإما أن تحبسه كما حبستني ، فذلك قوله ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات . . . ﴾ وهو شق القميص وقطع الأيدي ﴿ ليسجننه حتى حين ودخل معه السجن فتيان . . . ﴾ غضب الملك على خبّازه ، أنه يريد أن يسمه ، فحبسه وحبس الساقي وظن أنه مالأه على السم ، فلما دخل يوسف عليه السلام السجن قال : إني أعبّر الأحلام قال أحد الفتيين : هلم فَلْنُجَرِّب هذا العبد العبراني ، فتراءيا من غير أن يكونا رأيا شيئاً ، ولكنهما خرصا فعبر لهما يوسف خرصهما فقال الساقي : رأيتني أعصر خمراً . وقال الخباز : رأيتني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه . قال يوسف عليه السلام : لا يأتيكما طعام ترزقانه في النوم إلا نبأتكما بتأويله في اليقظة ، ثم قال : ﴿ يا صاحبي السجن ، أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ﴾ فيعاد على مكانه ، ﴿ وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ﴾ . ففزعا وقالا : والله ما رأينا شيئاً . قال يوسف

عليه السلام : ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ إن هذا كائن لا بد منه ، وقال يوسف عليه السلام للساقي : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ . ثم أن الله أرى الملك رؤيا في منامه هالته ، فرأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر يأكلهن سبع يابسات ، فجمع السحرة والكهنة والعافة – وهم القافة – والحاذة ، – وهم الذين يزجرون الطير – فقصها عليهم فقالوا : أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .

﴿ وقال الذي نجا منهما – وادّكر بعد أمة – أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم يكن السجن في المدينة ، فانطلق الساقي إلى يوسف عليه السلام فقال : ﴿ أفتنا في سبع بقرات . . . ﴾ إلى قوله ﴿ لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴾ تأويلها ﴿ قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله ﴾ قال هو أبقى له ﴿ إلا قليلاً مما تأكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون ﴾ قال : مما ترفعون ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾ قال : العنب فلما أتى الملك الرسول وأخبره قال : ﴿ ائتوني به ، فلما جاءه الرسول ﴾ فأمره أن يخرج إلى الملك ، أبى يوسف وقال : ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ .

قال السدي : قال ابن عباس رضي الله عنهما : لو خرج يوسف يومئذ قبل أن يعلم الملك بشأنه ، ما زالت في نفس العزيز منه حاجة ، يقول هذا الذي راود امرأته . قال الملك ائتوني بهن ، ﴿ قال : ما خطبكن إذ راودتُنَّ يوسف عن نفسه ؟ قلن حاشا لله ، ما علمنا عليه من سوء ﴾ ، ولكن امرأة العزيز أخبرتنا أنها راودته عن نفسه ودخل معها البيت وحل سراويله ثم شده بعد ذلك ، ولا تدري ما بدا له . فقالت امرأة العزيز ﴿ الآن حصحص الحق ﴾ قال تبين . ﴿ أنا راودته عن نفسه ﴾ ، قال يوسف – وقد جيء به – ذلك ليعلم العزيز ﴿ أني لم أخنه بالغيب ﴾ في أهله ، ﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ . فقالت امرأة العزيز : يا يوسف ، ولا حين حللت السراويل ؟ قال يوسف عليه السلام : ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ . فلما وجد الملك له عذراً قال : ﴿ ائتوني به استخلصه لنفسي ﴾ فاستعمله على مصر ، فكان صاحب أمرها هو الذي يلي البيع والأمر ، فأصاب الأرض الجوع وأصاب بلاد يعقوب التي كان فيها ، فبعث بنيه إلى مصر وأمسك بنيامين أخا يوسف ، فلما دخلوا على يوسف ﴿ عرفهم وهم له منكرون ﴾ ، فلما نظر إليهم أخذهم وأدخلهم الدار – دار الملك – وقال لهم : أخبروني ، ما أمركم ؟ فإني أنكر شأنكم . قالوا

: نحن من أرض الشام. قال: فما جاء بكم؟ قالوا نمتار طعاماً. قال: كذبتم، أنتم عيون، كم أنتم؟ قالوا نحن عشرة. قال أنتم عشرة آلاف، كل رجل منكم أمير ألف، فأخبروني خبركم. قالوا: إنا إخوة بنو رجل صديق، وإنا كنا إثني عشر فكان يحب أخاً لنا وأنه ذهب معنا إلى البرية فهلك منا وكان أحبنا إلى أبينا. قال: فإلى من يسكن أبوكم بعده؟... قالوا إلى أخ له أصغر منه. قال: كيف تحدثوني أن أباكم صدّيق وهو يحب الصغير منكم دون الكبير، ائتوني بأخيكم هذا حتى أنظر إليه، ﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون.

(353/391)

قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون ﴾ قال: فإني أخشى أن لا تأتوني به، فضعوا بعضكم رهينة حتى ترجعوا. فارتهن شمعون عنده، فقال لفتيته وهو يكيل لهم: اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم، لعلهم يرجعون إليَّ. فلما رجعٍ القوم إلى أبيهم كلموه فقالوا: يا أبانا، إن ملك مصر أكرمنا كرامة لو كان رجلاً منا من بني يعقوب ما أكرمنا كرامته، وإنه ارتهن شمعون وقال: ائتوني بأخيكم هذا الذي عطف عليه أبوكم بعد أخيكم الذي هلك حتى أنظر إليه، فإن لم تأتوني به فلا تقربوا بلادي أبداً. فقال لهم يعقوب

عليه السلام : إذا أتيتم ملك مصر فاقرؤوه مني السلام وقولوا : إن أبانا يصلي عليك ويدعو لك بما أوليتنا ، ولما فتحوا رحالهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، أتوا أباهم ﴿ قالوا : يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ فقال أبوه حين رأى ذلك : ﴿ لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ﴾ . فحلفوا له ، ﴿ فلما آتوه موثقهم ﴾ قال يعقوب : ﴿ الله على ما نقول وكيل ﴾ . ورهب عليهم أن يصيبهم العين إن دخلوا مصر فيقال هؤلاء لرجل واحد ، قال : ﴿ يا بني ، لا تدخلوا من باب واحد ﴾ – يقول من طريق واحد – فلما دخلوا على يوسف عرف أخاه فأنزلهم منزلاً وأجرى عليهم الطعام والشراب ، فلما كان الليل أتاهم بمثل ، قال : لينم كل أخوين منكم على مثال حتى بقي الغلام وحده ، فقال يوسف عليه السلام : هذا ينام معي على فراشي ، فبات مع يوسف ، فجعل يشم ريحه ويضمه إليه حتى أصبح وجعل يقول روبيل : ما رأينا رجلاً مثل هذا ! إن نحن نجونا منه ، ﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ﴾ ، والأخ لا يشعر ، فلما ارتحلوا ﴿ أذن مؤذّن ﴾ قبل أن يرتحل العير : ﴿ أيتها العير ، إنكم لسارقون ﴾ ، فانقطعت ظهورهم ﴿ وأقبلوا عليهم ﴾ يقولون : ﴿ ماذا تفقدون ﴾ إلى قوله ﴿ فما جزاؤه ﴾ ﴿ قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ﴾

يقول تأخذونه فهو لكم ، ﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ﴾ فلما بقي رحل أخيه الغلام قال : ما كان هذا الغلام ليأخذها . قالوا والله لا يترك حتى تنظروا في رحله ونذهب وقد طابت نفوسكم ، فأدخل يده في رحله فاستخرجها من رحل أخيه . يقول الله ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ يقول صنعنا ليوسف ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ يقول في حكم الملك ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ ولكن صنعنا لشأنهم قالوا فهذا جزاؤه . قال فلما استخرجها من رحل الغلام انقطعت ظهورهم وهلكوا وقالوا : ما يزال لنا منكم بلاء يا بني راحيل ، حتى أخذت هذا الصواع . قال بنيامين : بنو راحيل ، لا يزل لنا منكم بلاء ، ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية وما وضع هذا الصواع في رحلي إلا الذي وضع الدراهم في رحالكم ، قالوا لا تذكر الدراهم فتؤخذ بها ، فوقعوا فيه وشتموه ، فما أدخلوهم على يوسف دعا بالصواع ، ثم نقر فيه ، ثم أدناه من أذنه ثم قال : إن صواعي هذا يخبرني أنكم كنتم إثني عشر أخاً ، وأنكم انطلقتم بأخٍ لكم فبعتموه .

فلما سمع بنيامين قام فسجد ليوسف وقال : أيها الملك ، سل صواعك هذا ، أحيّ أخي ذاك أم لا ؟ فنقرها يوسف ثم قال : نعم هو حي ، وسوف تراه . قال : اصنع بي ما شئت ، فإنه أعلم بي . فدخل يوسف عليه السلام فبكى ثم توضأ ، ثم خرج . فقال بنيامين : أيها الملك ، إني أراك تضرب بصواعك الحق ، فسله من صاحبه ؟ فنقر فيه ثم قال : إن صواعي هذا غضبان ، يقول : كيف تسألني من صاحبي وقد رأيت مع من كنت ، وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا ، فغضب روبيل فقام فقال : أيها الملك ، والله لتتركنا أو لأصِيحَنَّ صيحةً لا تبقى امرأة حامل بمصر إلا طرحت ما في بطنها ، وقامت كل شعرة من جسد روبيل ، فخرجت من ثيابه ، فقال يوسف لابنه مرة : مر إلى جنب روبيل فمسه مسة فذهب غضبه ، فقال روبيل : من هذا ؟ ! . . إن في هذه البلاد لبزراً من بزر يعقوب . قال يوسف عليه السلام : ومن يعقوب ؟ فغضب روبيل فقال : أيها الملك ، لا تذكرَنَّ يعقوب ، فإنه بشرى لله ابن ذبيح الله ابن خليل الله ، فقال يوسف عليه السلام : أنت إذاً كنت صادقاً ، فإذا أتيتم أباكم فاقرؤوا عليه مني السلام وقولوا له : إن ملك مصر يدعو لك أن لا تموت حتى ترى ابنك يوسف ، حتى يعلم أبوكم أن في الأرض صديقين مثله . فلما أيسوا منه وأخرج لهم شمعون وكان قد ارْتَهَنَهُ ، خلوا بينهم نجياً يتناجون بينهم ، قال كبيرهم – وهو روبيل ولم يكن بأكبرهم سناً ولكن كان كبيرهم في العلم – : ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف ؟ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي

أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴾ . فأقام روبيل بمصر ، وأقبل التسعة إلى يعقوب عليه السلام فأخبروه الخبر فبكى وقال : يا بني ما تذهبون من مرو إلا نقصتم واحداً . ذهبتم فنقصتم يوسف ، ثم ذهبتم الثانية فنقصتم شمعون ، ثم ذهبتم الثالثة فنقصتم بنيامين وروبيل ﴿ فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم وتولى عنهم

وقال : يا أسفا على يوسف . وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ﴾ من الغيظ . ﴿ قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين ﴾ الميتين . ﴿ قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ . قال : أتى يوسف جبريل عليه السلام وهو في السجن فسلم عليه وجاءه في صورة رجل حسن الوجه طيب الريح نقي الثياب فقال له يوسف : أيها الملك الحسن الوجه الكريم على ربه ، الطيب ريحه ، حدثني كيف يعقوب ؟ قال حزن عليك حزناً شديداً .

قال فما بلغ من حزنه ، قال حزن سبعين مثكلة . قال فما بلغ من أجره قال أجر سبعين شهيداً . قال يوسف عليه السلام : فإلى من أوى بعدي ؟ قال إلى أخيك بنيامين . قال فتراني ألقاه ؟ قال نعم . فبكى يوسف عليه السلام لما لقي أبوه بعده ثم قال : ما أبالي بما لقيت أن الله أرانيه . قال : فلما أخبروه بدعاء الملك أحست نفس يعقوب وقال : ما يكون في الأرض صديق إلا ابني فطمع قال : لعله يوسف . قال : ﴿ يا بني ، اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ بمصر ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ﴾ . قال : مِنْ فَرَجِ الله أن يرد يوسف ، فلما رجعوا إليه ﴿ قالوا : يا أيها العزيز ، مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل ﴾ بها كما كنت تعطينا بالدراهم الجيدة ، ﴿ وتصدق علينا ﴾ تفضل ما بين الجياد والرديئة . قال لهم يوسف – ورحمهم عند ذلك – : ﴿ ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ قالوا : أئنك لأنت يوسف . قال : أنا يوسف وهذا أخي ﴾ . فاعتذروا إليه ، ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين . قال : لا تثريب عليكم اليوم ﴾ لا أذكر لكم ذنبكم ﴿ يغفر الله لكم ﴾ ، ثم قال ما فعل أبي بعدي ؟ قالوا عمي من الحزن . ﴿ فقال اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ، وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ . قال يهوذا أنا ذهبت بالقميص إلى يعقوب عليه السلام وهو متلطخ بالدماء وقلت : أن يوسف قد أكله الذئب ، وأنا أذهب بالقميص وأخبره أن يوسف عليه

السلام حي فأفرحه كما أحزنته . فهو كان البشير ، فلما ﴿ فصلت العير ﴾ من مصر منطلقة إلى الشام وجد يعقوب عليه السلام ريح يوسف عليه السلام فقال لبني بنيه : ﴿ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ . قال له بنو بنيه ﴿ تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ من شأن يوسف ، ﴿ فلما أن جاء البشير ﴾ وهو يهوذا ، ألقى القميص على وجهه ﴿ فارتد بصيراً ﴾ . قال لبنيه ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟ ! . . . ﴾ ثم حملوا أهلهم وعيالهم فلما بلغوا مصر

كلم يوسف عليه السلام الملك الذي فوقه ، فخرج هو والملك يتلقونهم فلما لقيهم قال : ﴿ ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ . فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه أباه وخالته ورفعهما ﴿ على العرش ﴾ . قال : السرير ، فلما حضر يعقوب الموت أوصى إلى يوسف أن يدفنه عند إبراهيم . فمات فنفخ فيه المر ، ثم حمله إلى الشام وقال يوسف عليه السلام ﴿ رب قد آتيتني من الملك ﴾ إلى قوله : ﴿ توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما هذا أول نبي سأل الله الموت وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم مفرقاً في السورة .

وأخرج ابن جرير ثنا وكيع ثنا عمرو بن محمد العبقري عن أسباط عن السدي وقال ابن أبي حاتم حدثنا عبد الله بن سليمان بن الأشعث ثنا الحسين بن علي ثنا عامر بن الفرات عن أسباط عن السدي به .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه ﴾ يعني بنيامين ، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه . وفي قوله ﴿ ونحن عصبة ﴾ قال العصبة ما بين العشرة إلى الأربعين .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ ونحن عصبة ﴾ قال : العصبة الجماعة . وفي قوله ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ قال : لفي خطأ من رأيه .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (10) ﴾

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه عنه في قوله ﴿ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف ﴾ قال : كنا نحدث أنه روبيل وهو أكبر إخوته ، وهو ابن خالة يوسف .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف ﴾ قال : هو شمعون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب ﴾ قال : قاله كبيرهم الذي تخلف . قال : والجب ، بئر بالشام ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ قال : التقطه ناس من الأعراب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وألقوه في غيابة الجب ﴾ يعني الركية .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه ، قال : الجب البئر .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وألقوه في غيابة الجب ﴾ قال : هي بئر ببيت المقدس . يقول في بعض نواحيها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه قال : الجب الذي جعل فيه يوسف عليه السلام بحذاء طبرية ، بينه وبينها أميال .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه أنه قرأ " تلتقطه بعض السيارة " بالتاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَرْضاً ﴾ : فيه ثلاثة أوجه ، أحدها : أن تكون منصوبة على إسقاط الخافض تخفيفاً أي : في أرضٍ كقوله تعالى : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ﴾ [الأعراف : 16] ، وقوله :

2741 . . . . كما عَسَلَ الطريقَ

الثعلبُ

وإليه ذهب الحوفيُّ وابن عطية . والثاني : النصب على الظرفية . قال الزمخشري : " أرضاً منكورةً مجهولةً بعيدةً من العمران ، وهو معنى تنكيرها وإخلائِها من الناس ، ولإِبهامِها من هذا الوجه نُصِبَتْ نَصْبَ الظروفِ المبهمة " . وقد رَدَّ ابن عطية هذا الوجه فقال : " وذلك خطأ ؛ لأنَّ الظرفَ ينبغي أن يكون مبهماً ، وهذه ليست كذلك بل هي أرضٌ مقيَّدة بأنها بعيدة أو قاصِيَةٌ أو نحو ذلك ، فزال بذلك إبهامُها ومعلومٌ أنَّ يوسفَ لم يَخْلُ مِن الكون في أرضٍ ، فتبيَّن أنهم أرادوا أرضاً بعيدة غيرَ التي هو فيها قريبٌ مِنْ أبيه " .

واستحسن الشيخ هذا الردَ وقال : " وهذا الردُّ صحيح لو قلت : جلست داراً بعيدة أو مكاناً بعيداً لم يصحَّ إلا بواسطة " في " ، ولا يجوز حَذْفُها إلا في ضرورةِ شعرٍ ، أو مع "

دَخَلْت " على الخلاف في " دَخَلْت " أهي لازمةٌ أم متعديةٌ ؟ " .

قلت : وفي الكلامَيْن نظرٌ ؛ إذ الظرفُ المبهم عبارة عَمَّا ليس له حدودٌ تَحْصُره ولا أقطارٌ تحويه ، و " أرضاً " في الآية الكريمة من هذا القبيل .

الثالث : أنها مفعولٌ ثان ، وذلك إنْ تَضَمَّن " اطرحوه " أَنْزِلوه ، وأَنْزِلوه يتعدَّى لاثنين قال تعالى : ﴿ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً ﴾ [المؤمنون : 29] . وتقول : أَنْزَلْت زيداً الدار .

والطَّرْح : الرَّمْي ، ويُعَبَّر به عن الاقتحام في المخاوف . قال عُرْوة بن الورد :

2742 ومَنْ يَكُ مثلي ذا عيالٍ ومُقْتِراً ... من المال يَطْرَحْ نفسَه كلَّ مَطْرَحِ

(361/391)

و " يَخْلُ لكم " جوابُ الأمر ، وفيه الإِدغام والإِظهار ، وقد تقدَّم تحقيقُهما عند قوله تعالى : ﴿ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام ﴾ [آل عمران : 85] .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (10) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فِي غَيَابَةِ ﴾ : قرأ نافع " غَيابات بالجمع في الحرفين مِنْ هذه السورة ، جُعِل ذلك المكانُ أجزاءً ، وسُمِّي كلُّ جزء غَيَابَة ، والباقون بالإِفراد وهو واضحٌ . وابن هرمز

. كنافع إلا أنه شَدَّد الياءَ . والأظهرُ في هذه القراءة أن يكون سُمِّي باسم الفاعل الذي للمبالغة فهو وصفٌ في الأصل . وألحقه الفارسيُّ بالاسم الجائي على فَعَّال نحو ما ذكر سيبويه من "الفَيَّاد" . قال ابن جني : "ووجَدْتُ من ذلك "الفَخَّار" : الخَزَف" . وقال صاحب "اللوامح : "يجوز أن يكون على فَعَّالات كحَمَّامات ، ويجوز أن يكونَ على فَيْعالات كشيطانات جمع شَيْطانة ، وكلٌّ للمبالغة" .

وقرأ الحسن : "غَيَبَة" بفتح الياء ، وفيها احتمالان ، أحدهما : أَنْ تكونَ في الأصل مصدراً كالغَلَبة . والثاني : أن يكونَ جمع غائب نحو : صانع وصَنَعَة . قال الشيخ : "وفي حرف أُبَيّ "غَيْبَة" بسكون الياء ، وهي ظلمة الرَّكِيَّة" . قلت : والضبط أمرٌ حادثٌ فكيف يُعرف ذلك في المصحف ؟ وقد تقدَّم نحوٌ من ذلك فيما تقدم .

والغَيَابة : قال الهرويُّ : "شِبْهُ لَجَفٍ أو طاقٍ في البئر فُوَيْق الماء يغيب ما فيه عن العيون . وقال الكلبي : "الغَيَابة تكون في قَعْر الجُبّ ؛ لأنّ أسفله واسعٌ ورأسَه ضيق فلا يكاد الناظر يرى ما في جوانبه" . وقال الزمخشري : "هي غَوْرُه وما غابَ منه عن عَيْن الناظر وأظلمُ مِنْ أسفله ، قال المنخل : /

2743 فإنْ أنا يَوْماً غَيَّبَتْني غيابتي . . . فسِيْروا بسَيْري في العَشيرة والأهلِ

أراد : غَيابة حُفْرته التي يُدْفن فيها . والجُبُّ : البئر التي لم تُطْوَ ، وتَسْمِيتُه بذلك : إمَّا لكونه محفوراً في جَبُوب الأرض أي : ما غَلُظ منها ، وإمَّا لأنه قُطِعَ في الأرض ، ومنه الجَبُّ في الذَّكَر .

وقال الأعشى :

2744 لَئِنْ كنت في جُبٍّ ثمانين قامَةً . . . ورُمِّيْتَ أَسْبابَ السماء بسُلَّمِ

ويُجْمع على جِبَبَة وجِباب وأَجْباب .

قوله : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ [السيارة] ﴾ قرأ العامَّة "يَلْتَقِطُه" بالياء من تحت وهو الأصل . وقرأ الحسن ومجاهد وأبو رجاء وقتادة بالتاء مِنْ فوق لتأنيث المعنى ، ولإِضافته إلى مؤنث ، وقالوا : "قُطِعت بعض أصابعه" ، وقال الشاعر :

2745 إذا بعضُ السنين تَعَرَّقَتْنا . . . كفى الأيتامَ فَقْدَ أبي اليتيمِ

وقد تقدَّمَ الكلامُ بأوسعَ مِنْ هذا في الأنعام والأعراف . ومفعول "فاعلين" محذوفٌ أي : فاعلين ما يُحَصِّل غَرَضَكم .

والسَّيَّارة ، جمع "سَيَّار" ، وهو مثالُ مبالغة .

والالتقاط : تَناوُلُ الشيءِ المطروحِ ، ومنه : "اللُّقَطة" واللَّقِيط . وقال الشاعر :

2746 ومَنْهَلٍ ورَدْتُهُ التِقاطا . . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 443 .

447 ﴾

(363/391)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ .

أي يخْلُصْ لكم إقبال أبيكم عليكم ، وقديماً قيل : مَنْ طَلَبَ الكلَّ فاتَهُ الكلُّ ؛ فلمَّا أرادوا أن يكون إقبال يعقوب - عليه السلام - بالكلِّيَّة - عليهم قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ [الأعراف : 93] .

ويقال كان قَصْدُهم ألا يكونَ يوسف عليه السلام أمامَ عينه فقالوا : إمَّا القتلُ وإمَّا النَّفيُ ، ولا بأس بما يكونُ بعد ألا يكونَ يوسف عليه السلام .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ .

عَجَّلوا بالحرام ، وعلَّقوا التوبةَ بالتسويف والعزم ، فلم يمحُ ما أجَّلُوا من التوبة ما عجَّلوا من الحَوْبة .

ويقال لم تَطِبْ نفوسُهم بأن يذهبوا عن بابِ اللَّهِ بالكليَّة فدبَّروا لحسْنِ الرجوع قبل ارتكاب ما دعته إليه نُفُوسُهم ، وهذه صفة أهل العرفان بالله .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (10) ﴾

إخوةُ يوسف - وإنْ قابلوه بالجفاء - مَنَعَتْهُم شفقةُ النَّسَبِ وحُرْمةُ القرابةِ من الإقدام على قتله ؛ فقالوا لا تقتلوه وغَيِّبُوا شَخْصَه .

ويقال إنما حمَلَهم على إلقائه مرادُهم أن يخلوَ لهم وجهُ أبيهم ، فلمَّا أرادوا حصولَ مرادهم في تغييبه لم يبالغوا في تعذيبه .

ويقال لمَّا كان المعلومُ له - سبحانه - في أمر يوسف تبليغَه إياه تلك القربةَ ألقى اللهُ في قلبِ قائلهم حتى قال : ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ .

ثم إنه - وإن أبلاه في الحال - سَهَّلَ عليه ذلك في جَنْبِ ما رقَّاه إليه في المآل ، قال قائلهم :

كم مرةٍ حفَّت بِكَ المكاره . . . خارَ لَكَ اللَّهُ - وأنت كاره .

أهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 170 . 171 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والتسعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/392)

الجزء الثاني والتسعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 11 ﴾ من سورة يوسف عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 20 ﴾ من نفس السورة

(4/392)

قوله تعالى ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (12) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (13) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (14) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (15) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

عن أبي عمرو : إن هذا كان قبل أن يكونوا أنبياء ، فكأنه قيل : إن هذا الحسن من حيث إنه صرفهم عن قتله ، فهل استمروا عليه أو قام منهم قائم في استنزالهم عنه بعاطفة الرحم وود القرابة؟ فقيل : بل استمروا لأنهم ﴿ قالوا ﴾ إعمالاً للحيلة في الوصول إليه ، مستفهمين

على وجه التعجب لأنه كان أحس منهم الشر ، فكان يحذرهم عليه ﴿ يا أبانا ما لك ﴾ أيّ أي شيء لك في حال كونك ﴿ لا تأمنا على يوسف و ﴾ الحال ﴿ إنا له لناصحون ﴾ والنصح دليل الأمانة وسببها ، ولهذا قرنا في قوله

﴿ ناصح أمين ﴾ [الأعراف : 68] والأمن : سكون النفس إلى انتفاء الشر ، وسببه طول الإمهال في الأمر الذي يجوز قطعة بالمكروة فيقع الاغترار بذلك الإمهال من الجهال ، وضده الخوف ، وهو انزعاج النفس لما يتوقع من الضر ؛ والنصح : إخلاص العمل من فساد يتعمد ، وضده الغش ، وأجمع القراء على حذف حركة الرفع في تأمن وإدغام نونه بعد إسكانه تبعاً للرسم ، بعضهم إدغاماً محضاً وبعضهم مع الإشمام ، وبعضهم مع الروم ، دلالة على نفي سكون قلبه عليه عليهما الصلاة والسلام بأمنه عليه منهم على أبلغ وجه مع أنهم أهل لأن يسكن إليهم بذلك غاية السكون ، ولو ظهرت ضمة الرفع عند أحد من القراء فات هذا الإيماء إلى هذه النكتة البديعة .

(5/392)

ولما كان هذا موضع أن يقال : لأيّ غرض يكون ذلك ؟ قالوا في جوابه : ﴿ أرسله معنا غداً ﴾ إلى مرعانا ، إن ترسله معنا ﴿ يرتع ﴾ أي نأكل ونشرب في الريف ونتسع في

الخصب ﴿ ويلعب ﴾ أي نعمل ما تشتهي الأنفس من المباحات تاركين الجد ، وهو كل ما فيه كلفة ومشقة ، فإن ذلك له سار ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ أي بليغون في الحفظ ؛ قال أبو حيان : وانتصب ﴿ غداً ﴾ على الظرف ، وهو ظرف مستقبل يطلق على اليوم الذي يلي يومك وعلى الزمن المستقبل من غير تقييد ، وأصل غد غدو ، فحذفت لامه - أنتهى .

(6/392)

فكأنه قيل : ماذا قال لهم ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ ما زاد صدورهم توغراً لأن ما قالوه له هو بحيث يسر به لسرور يوسف عليه الصلاة والسلام به ﴿ إني ليحزنني ﴾ أي حزناً ظاهراً محققاً - بما أشار إليه إظهار النون وإثباته لام الابتداء ﴿ أن تذهبوا به ﴾ أي يتجدد الذهاب به مطلقاً - لأني لا أطيق فراقه - ولا لحظة ، وفتح لهم باباً يحتجون به عند فعل المراد بقوله جامعاً بين مشقتي الباطن ، والبلاء - كما قالوا - مؤكل بالمنطق :

﴿ وأخاف ﴾ أي إذا ذهبتم به واشتغلتم بما ذكرتم ﴿ أن يأكله الذئب ﴾ أي هذا النوع كأنه كان كثيراً بأرضهم ﴿ وأنتم عنه ﴾ أي خاصة ﴿ غافلين ﴾ أي عريقون في الغفلة لإقبالكم على ما يهمكم من مصالح الرعي ؛ والحزن : ألم القلب مما كان من فراق المحبوب ، ويعظم إذا مان فراقه إلى ما يبغض ؛ والأكل : تقطيع الطعام بالمضغ الذي بعده البلع ؛ فكأنه

قيل : إن تلقيهم لمثل هذا لعجب ، فماذا قالوا ؟ فقيل : ﴿ قالوا ﴾ مجيبين عن الثاني بما يلين الأب لإرساله ، مؤكدين ليطيب خاطره ، دالين على القسم بلامه : ﴿ لئن أكله الذئب ونحن ﴾ أي والحال أنا ﴿ عصبة ﴾ أي أشداء تعصب بعضنا لبعض ؛ وأجابوا القسم بما أغنى عن جواب الشرط : ﴿ إنا إذاً ﴾ أي إذا كان هذا ﴿ لخاسرون ﴾ أي كاملون في الخسارة لأنا إذا ضيعنا أخانا فنحن لما سواه من أموالنا أشد تضييعاً ؛ وأعرضوا عن جواب الأول لأنه لا يكون إلا بما يوغر صدره ويعرف منه أنهم من تقديمه في الحب على غاية من الحسد لا توصف ، وأقله أن يقولوا : ما وجه الشح بفراقه يوماً والسماح بفراقنا كل يوم ، وذلك مما يحول بينهم وبين المراد ، فكأنه قيل : إن هذا الكيد عظيم وخطب جسيم ، فما فعل أبوهم ؟ فقيل : أجابهم إلى سؤلهم فأرسله معهم ﴿ فلما ذهبوا ﴾ ملصقين ذهابهم ﴿ به وأجمعوا ﴾ أي كلهم ، وأجمع كل واحد منهم بأن عزم عزماً صادقاً ؛ والإجماع على الفعل : العزم عليه باجتماع الدواعي كلها ﴿ أن يجعلوه ﴾ والجعل : إيجاد ما به يصير الشيء على خلاف ما كان عليه ،

ونظيره التصيير والعمل ﴿في غيابت الجب﴾ فعلوا ذلك من غير مانع ، ولكن لما كان هذا الجواب في غاية الوضوح لدلالة الحال عليه ترك لأنهم إذا أجمعوا عليه علم أنهم لا مانع لهم منه ؛ ثم عطف على هذا الجواب المحذوف لكونه في قوة الملفوظ قوله : ﴿وأوحينا﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿إليه﴾ أي إلى يوسف عليه الصلاة والسلام .

ولما كان في حال النجاة منها بعيدة جداً ، أكد له قوله : ﴿لتنبئنهم﴾ أي لتخبرنهم إخبارا عظيماً على وجه يقل وجود مثله في الجلالة ﴿بأمرهم هذا﴾ أي الذي فعلوه بك ﴿وهم لا يشعرون﴾ - لعلو شأنك وكبر سلطانك وبعد حالك عن أوهامهم ، ولطول العهد المبدل للهيئات المغير للصور والأشكال - أنك يوسف - قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والحسن وابن جريج على ما نقله الرماني ؛ والشعور : إدراك الشيء مثل الشعرة في الدقة ، ومنه المشاعر في البدن ، وكان يوسف عليه الصلاة والسلام حين ألقوه في الجب ابن اثنتي عشرة سنة - قاله الحسن ، قالوا : وتصديق هذا أنهم لما دخلوا عليه ممتارين دعا بالصواع فوضعه على يديه ثم نقره فطن ، فقال : إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف ، وكان أبوكم يدنيه دونكم ، وأنكم انطلقتم به وألقيتموه في غيابة الجب وقلتم لأبيكم : أكله الذئب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 16.14﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾

اعلم أن هذا الكلام يدل على أن يعقوب عليه السلام كان يخافهم على يوسف ولولا ذلك وإلا لما قالوا هذا القول .

واعلم أنهم لما أحكموا العزم ذكروا هذا الكلام وأظهروا عند أبيهم أنهم في غاية المحبة ليوسف وفي غاية الشفقة عليه ، وكانت عادتهم أن يغيبوا عنه مدة إلى الرعي فسألوه أن يرسله معهم وقد كان عليه السلام يحب تطييب قلب يوسف فاغتر بقولهم وأرسله معهم .

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال صاحب "الكشاف" : ﴿ لَا تَأْمَنَّا ﴾ قرىء بإظهار النونين وبالإدغام بإشمام وبغير إشمام ، والمعنى لم تخافنا عليه ونحن نحبه ونريد الخير به .

المسألة الثانية :

في ﴿ يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ خمس قراآت :

القراءة الأولى : قرأ ابن كثير : بالنون ، وبكسر عين نرتع من الارتعاء ، ويلعب بالياء

والارتعاء افتعال من رعيت، يقال: رعت الماشية الكلأ ترعاه رعياً إذا أكلته، وقوله: ﴿ نرتع ﴾ الارتعاء للإبل والمواشي، وقد أضافوه إلى أنفسهم، لأن المعنى نرتع إبلنا، ثم نسبوه إلى أنفسهم لأنهم هم السبب في ذلك الرعي، والحاصل أنهم أضافوا الارتعاء والقيام بحفظ المال إلى أنفسهم لأنهم بالغون كاملون وأضافوا اللعب إلى يوسف لصغره.

القراءة الثانية: قرأ نافع: كلاهما بالياء وكسر العين من يرتع أضاف الارتعاء إلى يوسف بمعنى أنه يباشر رعي الإبل ليتدرب بذلك فمرة يرتع ومرة يلعب كفعل الصبيان.

القراءة الثالثة: قرأ أبو عمرو وابن عامر ﴿ نرتع ﴾ بالنون وجزم العين ومثله نلعب.

(9/392)

قال ابن الأعرابي: الرتع الأكل بشره، وقيل: إنه الخصب، وقيل: المراد من اللعب الإقدام على المباحات وهذا يوصف به الإنسان، وأما نلعب فروي أنه قيل لأبي عمرو: كيف يقولون نلعب وهم أنبياء؟ فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء، وأيضاً جاز أن يكون المراد من اللعب الإقدام على المباحات لأجل انشراح الصدر كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لجابر: "فهلا بكراً تلاعبها وتلاعبك" وأيضاً كان لعبهم الاستباق، والغرض منه تعلم المحاربة والمقاتلة مع الكفار، والدليل عليه قولهم: إنا ذهبنا نستبق وإنما سموه

لعباً لأنه في صورته .

القراءة الرابعة : قرأ أهل الكوفة : كليهما بالياء وسكون العين ، ومعناه إسناد الرتع واللعب إلى يوسف عليه السلام .

القراءة الخامسة : ﴿ غَداً يَرْتَعْ ﴾ بالياء ﴿ وَنَلْعَبُ ﴾ بالنون وهذا بعيد ، لأنهم إنما سألوا إرسال يوسف معهم ليفرح هو باللعب لا ليفرحوا باللعب ، والله أعلم .

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾

اعلم أنهم لما طلبوا منه أن يرسل يوسف معهم اعتذر إليهم بشيئين : أحدهما : أن ذهابهم به ومفارقتهم إياه مما يحزنه لأنه كان لا يصبر عنه ساعة .

والثاني : خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم لقلة اهتمامهم به .

قيل : إنه رأى في النوم أن الذئب شد على يوسف ، فكان يحذره فمن هذا ذكر ذلك ، وكأنه لقنهم الحجة ، وفي أمثالهم البلاء موكل بالمنطق .

وقيل : الذئاب كانت في أراضيهم كثيرة ، وقرىء ﴿ الذئب ﴾ بالهمز على الأصل وبالتفخيف .

وقيل : اشتقاقه من تذاءبت الريح إذا أتت من كل جهة ، فلما ذكر يعقوب عليه السلام هذا الكلام أجابوا بقولهم : ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ الذئب وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَاً لخاسرون ﴾ وفيه سؤالات :

السؤال الأول : ما فائدة اللام في قوله : ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ الذئب ﴾ .

والجواب من وجهين : الأول : أن كلمة إن تفيد كون الشرط مستلزماً للجزاء ، أي إن وقعت هذه الواقعة فنحن خاسرون ، فهذه اللام دخلت لتأكيد هذا الاستلزام .

الثاني : قال صاحب "الكشاف" هذه اللام تدل على إضمار القسم تقديره : والله لئن أكله الذئب لكنا خاسرين .

السؤال الثاني : ما فائدة الواو في قوله : ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ .

الجواب : أنها واو الحال حلفوا لئن حصل ما خافه من خطف الذئب أخاهم من بينهم وحالهم أنهم عشرة رجال بمثلهم تعصب الأمور وتكفي الخطوب إنهم إذاً لقوم خاسرون .

السؤال الثالث : ما المراد من قولهم : ﴿ إِنَّا إِذَاً لخاسرون ﴾ .

الجواب فيه وجوه : الأول : خاسرون أي هالكون ضعفاً وعجزاً ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لخاسرون ﴾ [المؤمنون : 34] أي لعاجزون : الثاني : أنهم يكونون مستحقين لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار وأن يقال خسرهم الله تعالى ودمرهم حين أكل الذئب أخاهم وهم حاضرون .

الثالث : المعنى أنا إن لم نقدر على حفظ أخينا فقد هلكت مواشينا وخسرناها .

الرابع : أنهم كانوا قد أتعبوا أنفسهم في خدمة أبيهم واجتهدوا في القيام بمهماته وإنما تحملوا تلك المتاعب ليفوزوا منه بالدعاء والثناء فقالوا : لو قصرنا في هذه الخدمة فقد أحبطنا كل تلك الأعمال وخسرنا كل ما صدر منا من أنواع الخدمة .

السؤال الرابع : أن يعقوب عليه السلام اعتذر بعذرين فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر ؟

والجواب : أن حقدهم وغيظهم كان بسبب العذر الأول ، وهو شدة حبه له فلما سمعوا ذكر ذلك المعنى تغافلوا عنه .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (15) ﴾

(11/392)

اعلم أنه لا بد من الإضمار في هذه الآية في موضعين : الأول : أن تقدير الآية قالوا : ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ الذئب وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لخاسرون ﴾ فأذن له وأرسله معهم ثم يتصل به قوله : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ ﴾ والثاني : أنه لا بد لقوله : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَةِ الجب ﴾ من جواب إذ جواب لما غير مذكور وتقديره فجعلوه فيها ، وحذف الجواب في القرآن كثير بشرط أن يكون المذكور دليلاً عليه وههنا كذلك .

قال السدي : إن يوسف عليه السلام لما برز مع إخوته أظهروا له العداوة الشديدة ، وجعل هذا الأخ يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ولا يرى فيهم رحيماً فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يقول يا يعقوب لو تعلم ما يصنع بابنك ، فقال يهودا أليس قد أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه فانطلقوا به إلى الجب يدلونه فيه وهو متعلق بشفير البئر فنزعوا قميصه ، وكان غرضهم أن يلطخوه بالدم ويعرضوه على يعقوب ، فقال لهم ردوا علي قميصي لأتوارى به ، فقالوا : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً لتؤنسك ، ثم دلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه ليموت ، وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم آوى إلى صخرة فقام بها وهو يبكي فنادوه فظن أنه رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فقام يهودا فمنعهم وكان يهودا يأتيه بالطعام ، وروي أنه عليه السلام لما ألقي في الجب قال يا شاهداً غير غائب .

ويا قريباً غير بعيد .

ويا غالباً غير مغلوب .

اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً ، وروي أن إبراهيم عليه السلام لما ألقي في النار جرد عن ثيابه فجاءه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وألبسه إياه ، فدفعه إبراهيم إلى إسحق ، وإسحق إلى يعقوب ، فجعله يعقوب في تميمة وعلقها في عنق يوسف عليه السلام فجاء جبريل عليه السلام فأخرجه وألبسه إياه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ قولان : أحدهما : أن المراد منه الوحي والنبوة والرسالة وهذا قول طائفة عظيمة من المحققين ، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أنه عليه السلام هل كان في ذلك الوقت بالغاً أو كان صبياً قال بعضهم : إنه كان في ذلك الوقت بالغاً وكان سنه سبع عشرة سنة ، وقال آخرون : إنه كان صغيراً إلا أن الله تعالى أكمل عقله وجعله صالحاً لقبول الوحي والنبوة كما في حق عيسى عليه السلام .

والقول الثاني : إن المراد من هذا الوحي الإلهام كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمّ موسى ﴾ [القصص : 7] وقوله : ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ﴾ [النحل : 68] والأول : لأن الظاهر من الوحي ذلك .

فإن قيل : كيف يجعله نبياً في ذلك الوقت وليس هناك أحد يبلغه الرسالة ؟

قلنا : لا يمتنع أن يشرفه بالوحي والتنزيل ويأمره بتبليغ الرسالة بعد أوقات ويكون فائدة تقديم الوحي تأنيسه وتسكين نفسه وإزالة الغم والوحشة عن قلبه .

المسألة الثانية :

في قوله : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قولان : الأول : المراد أن الله تعالى أوحى إلى يوسف إنك لتخبرن إخوتك بصنيعهم بعد هذا اليوم وهم لا يشعرون في ذلك الوقت إنك يوسف ، والمقصود تقوية قلبه بأنه سيحصل له الخلاص عن هذه المحنة ويصير مستولياً عليهم ويصيرون تحت قهره وقدرته .

وروي أنهم حين دخلوا عليه لطلب الحنطة وعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ، ثم نقره فطن ، فقال : إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف فطرحتموه في البئر وقلتم لأبيكم أكله الذئب .

(13/392)

والثاني : أن المراد إنا أوحينا إلى يوسف عليه السلام في البئر بأنك تنبىء إخوتك بهذه الأعمال ، وهم ما كانوا يشعرون بنزول الوحي عليه ، والفائدة في إخفاء نزول ذلك الوحي عنهم أنهم لو عرفوه فربما ازداد حسدهم فكانوا يقصدون قتله .

المسألة الثالثة :

إذا حملنا قوله : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ على التفسير الأول ، كان هذا أمراً من الله تعالى نحو

يوسف في أن يستر نفسه عن أبيه وأن لا يخبره بأحوال نفسه ، فلهذا السبب كتم أخبار نفسه عن أبيه طول تلك المدة ، مع علمه بوجد أبيه به خوفاً من مخالفة أمر الله تعالى ، وصبر على تجرع تلك المرارة ، فكان الله سبحانه وتعالى قد قضى على يعقوب عليه السلام أن يوصل إليه تلك الغموم الشديدة والهموم العظيمة ليكثر رجوعه إلى الله تعالى ، وينقطع تعلق فكره عن الدنيا فيصل إلى درجة عالية في العبودية لا يمكن الوصول إليها إلا بتحمل المحن الشديدة . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 77 . 80 ﴾

(14/392)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ﴾

فيه خمسة أوجه :

أحدها : نلهو ونلعب ، قاله الضحاك .

الثاني : نسعى وننشط ، قاله قتادة .

الثالث : نتحارس فيحفظ بعضنا بعضاً ونلهو ، قاله مجاهد .

الرابع : نرعى ونتصرف ، قاله ابن زيد ، ومنه قول الفرزدق .

راحت بمسلمة البغالُ مودعاً . . . فارعي فزارة لا هناك المرتع

الخامس : نطعم ونتنعم مأخوذ من الرتعة وهي سعة المطعم والمشرب ، قاله ابن شجرة

وأنشد قول الشاعر :

أكُفراً بعد رَدّ الموت عنّي . . . وبعد عطائك المائة الرِّتاعا

أي الراتعة لكثرة المرعى .

ولم ينكر عليهم يعقوب عليه السلام اللعب لأنهم عنوا به ما كان مباحاً .

قوله عز وجل : ﴿ قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخافُ أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أنه قال ذلك لخوفه منهم عليه ، وأنه أرادهم بالذئب ، وخوفه إنما كان من قتلهم له فكنى عنهم بالذئب مسايرة لهم ، قال ابن عباس فسماهم ذئاباً .

والقول الثاني : ما خافهم عليه ، ولو خافهم ما أرسله معهم ، وإنما خاف الذئب لأنه أغلب ما يخاف منه من الصحارى .

وقال الكلبي : بل رأى في منامه أن الذئب شدّ على يوسف فلذلك خافه عليه .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾

﴿ وأوحينا إليه ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني وألهمناه ، كما قال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ [القصص : 7] .

الثاني : أن الله تعالى أوحى إليه وهو في الجب ، قاله مجاهد وقتادة .

﴿ لتنبئنهم بأمرهم هذا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه أوحى إليه أنه سيلقاهم ويوبخهم على ما صنعوا ، فعلى هذا يكون الوحي بعد إلقائه في الجب تبشيراً له بالسلامة .

الثاني : أنه أوحى إليه بالذي يصنعون به ، فعلى هذا يكون الوحي قبل إلقائه في الجب إنذاراً له .

﴿ وهم لا يشعرون ﴾ فيه وجهان : أحدهما : لا يشعرون بأنه أخوهم يوسف ، قاله قتادة وابن جريج .

الثاني : لا يشعرون بوحي الله تعالى له بالنبوة ، قاله ابن عباس ومجاهد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال الجصاص :

فَلَمَّا أَبْرَمُوا التَّدْبِيرَ وَعَزَمُوا عَلَيْهِ ثَابُوا لِلتَّلَطُّفِ فِي الْوُصُولِ إلَى مَا أَرَادُوا فَقَالُوا : ﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾ إلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ قِيلَ فِي يَرْتَعْ : "يَرْعَى" وَقِيلَ : إنَّ الرَّتْعَ الِاتِّسَاعُ فِي الْبِلَادِ ، وَيُقَالُ : يَرْتَعُ فِي الْمَالِ أَيْ هُوَ يَتَّسِعُ بِهِ فِي الْبِلَادِ ، وَاللَّعِبُ هُوَ الْفِعْلُ الْمَقْصُودُ بِهِ التَّفَرُّجُ وَالرَّاحَةُ مِنْ غَيْرِ عَاقِبَةٍ لَهُ مَحْمُودَةٍ ، وَلَا قَصْدَ فِيهِ لِفَاعِلِهِ إلَّا حُصُولُ اللَّهْوِ ، وَالْفَرَحِ ، فَمِنْهُ مَا يَكُونُ مُبَاحًا وَهُوَ مَا لَا إثْمَ فِيهِ كَنَحْوِ مُلَاعَبَةِ الرَّجُلِ أَهْلَهُ وَرُكُوبِهِ فَرَسَهُ لِلتَّطَرُّبِ وَالتَّفَرُّجِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ مَحْظُورًا .

وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّعِبَ الَّذِي ذَكَرُوهُ كَانَ مُبَاحًا لَوْلَا ذَلِكَ لَأَنْكَرَهُ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا سَأَلُوهُ إرْسَالَهُ مَعَهُمْ قَالَ : ﴿ إنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ فَذَكَرَ لَهُمْ حُزْنَهُ لِذَهَابِهِمْ بِهِ لِبُعْدِهِ عَنْ مُشَاهَدَتِهِ وَأَنَّهُ خَائِفٌ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ الْحُزْنُ ، وَالْخَوْفُ ، فَأَجَابُوهُ بِأَنَّهُ يَمْتَنِعُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ، وَهُمْ جَمَاعَةٌ وَأَنَّ ذَلِكَ لَوْ وَقَعَ لَكَانُوا خَاسِرِينَ .

قَوْله تَعَالَى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " لَا يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُ يُوسُفُ فِي وَقْتٍ يُنَبِّؤُهُمْ " وَكَذَلِكَ قَالَ الْحَسَنُ : " أَوْحَى اللَّهُ إلَيْهِ وَهُوَ فِي الْجُبِّ فَأَعْطَاهُ النُّبُوَّةَ وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ يُنَبِّئُهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(17/392)

وقال ابن عطية :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾

الآية الأولى تقتضي أن أباهم قد كان علم منهم إرادتهم الخبيثة في جهة يوسف . وهذه أنهم علموا هم منه بعلمه ذلك .

وقرأ الزهري وأبو جعفر " لا تأمنا " بالإدغام دون إشمام . ورواها الحلواني عن قالون ، وقرأ السبعة بالإشمام للضم ، وقرأ طلحة بن مصرف " لا تأمننا " وقرأ ابن وثاب والأعمش " لا تيمنا " بكسر تاء العلامة .

و﴿ غداً ﴾ ظرف أصله : غدو ، فلزم اليوم كله ، وبقي الغدو اسمين لأول النهار ، وقال النضر ابن شميل : ما بين الفجر إلى الإسفار يقال فيه غدوة . وبكرة .

وقرأ أبو عمرو وأبو عامر : " نرتعْ ونلعبْ " بالنون فيهما وإسكان العين والباء ، و" نرتعْ " - على هذا - من الرتوع وهي الإقامة في الخصب والمرعى في أكل وشرب ، ومنه قول الغضبان بن القبعثري : القيد والرتعة وقلة التعتعة . ومنه قول الشاعر : [الوافر]

. . . . وبعد عطائك المائة الرتاعا . . . و" لعبهم " هذا دخل في اللعب المباح كاللعب بالخيل والرمي ونحوه ، فلا وصم عليهم في ذلك ، وليس باللعب الذي هو ضد الحق وقرين اللهو ، وقيل لأبي عمرو بن العلاء : كيف يقولون : نلعب وهم أنبياء ؟ قال : لم يكونوا حينئذ أنبياء .

وقرأ ابن كثير : " نرتعِ ونلعبْ " بالنون فيهما ، وبكسر وجزم الباء ، وقد روي عنه " ويلعب " بالياء ، وهي قراءة جعفر بن محمد . و" نرتعِ " - على هذا - من رعاية الإبل : وقال مجاهد هي من المراعاة : أي يراعي بعضنا بعضاً ويحرسه ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي " يرتع ويلعب " بإسناد ذلك كله إلى يوسف ، وقرأ نافع " يرتعِ " بالياء فيهما وكسر العين وجزم الباء ، ف " يرتعِ " - على هذا - من رعي الإبل ؛ قال ابن زيد : المعنى : يتدرب في الرعي وحفظ المال ؛ ومن الارتعاء قول الأعشى :

ترتعي السفح فالكثيب فذاقا . . . ن فروض القطا فذات الرئال

قال أبو علي : وقراءة ابن كثير – " نرتع " بالنون و" يلعب " بالياء – فنزعها حسن ، لإسناد النظر في المال والرعاية إليهم ، واللعب إلى يوسف لصباه .

وقرأ العلاء بن سيابة ، " يرتع ويلعبُ " برفع الباء على القطع . وقرأ مجاهد وقتادة : " نُرتِع " بضم النون وكسر التاء و" نلعبْ " بالنون والجزم . وقرأ ابن كثير – في بعض الروايات عنه – " نرتعي " بإثبات الياء – وهي ضعيفة لا تجوز إلا في الشعر كما قال الشاعر : [الوافر]

ألم يأتيك والأنباء تنمي . . . بما لاقت لبون بني زياد

وقرأ أبو رجاء " يُرتعْ " بضم الياء وجزم العين و" يلعبْ " بالياء والجزم .

وعللوا طلبه والخروج به بما يمكن أن يستهوي يوسف لصباه من الرتوع واللعب والنشاط .

وقوله تعالى : ﴿ إني ليحزنني ﴾ الآية .

قرأ عاصم وابن كثير والحسن والأعرج وعيسى وأبو عمرو وابن محيصن " لَيَحزُنني " بفتح الياء وضم الزاي ، قال أبو حاتم : وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي والإدغام ، ورواية روش عن نافع : بيان النونين مع ضم الياء وكسر الزاي في جميع القرآن ، وأن الأولى فاعلة والثانية مفعولة ب ﴿ أخاف ﴾ . وقرأ الكسائي وحده : " الذيب " دون همز وقرأ الباقون بالهمز – وهو الأصل منه جمعهم إياه على ذؤبان ، ومنه تذاءبت الريح والذئاب إذا أتت من ها هنا وها هنا . وروى رش عن نافع : " الذيب " بغير همز ، وقال نصر : سمعت أبا عمرو لا

يهمز ، قال : وأهل الحجاز يهمزون .

وإنما خاف يعقوب الذئب دون سواه ، وخصصه لأنه كان الحيوان العادي المنبت في القطر ، وروي أن يعقوب كان رأى في منامه ذئباً يشتد على يوسف .

(19/392)

قال القاضي أبو محمد : وهذا عندي ضعيف لأن يعقوب لو رأى ذلك لكان وحياً ، فإما أن يخرج على وجهه وذلك لم يكن ، وإما أن يعرف يعقوب بمعرفته لعبارة مثال هذا المرئي ، فكان يتشكاه بعينه ، اللهم إلا أن يكون قوله : ﴿ أخاف أن يأكله الذئب ﴾ بمعنى أخاف أن يصيبه مثل ما رأيت من أمر الذئب – وهذا بعيد – وكذلك يقول الربيع بن ضبع : [المنسرح]

والذئب أخشاه . . . . إنما خصصه لأنه كان حيوان قطره العادي ، ويحتمل أن يخصصه يعقوب عليه السلام لصغر يوسف : أي أخاف عليه هذا الحقير فما فوقه ، وكذلك خصصه الربيع لحقارته وضعفه في الحيوان ، وباقي الآية بيّن .

وقوله تعالى : ﴿ فلما ذهبوا به ﴾ الآية ، أسند الطبري إلى السدي قال : ذهبوا بيوسف وبه عليهم كرامة ، فلما برزوا في البرية أظهروا له العداوة ، وجعل أخوه يضربه فيستغيث

بالآخر فيضربه به فجعل لا يرى منهم رحيماً ، فضربوه حتى كادوا يقتلونه ، فجعل يصيح ويقول : يا أبتاه يا يعقوب لو تعلم ما صنع بابنك بنو الإماء ، فقال لهم يهوذا : ألم تعطوني موثقاً أن لا تقتلوه ؟ فانطلقوا به إلى الجب ، فجعلوا يدلونه فيتعلق بالشفير فربطوا يديه ونزعوا قميصه . فقال : يا إخوتاه ردوا عليّ قميصي أتوارى به في الجب ، فقالوا : ادعُ الشمس والقمر والكواكب تؤنسك ؛ فدلوه حتى إذا بلغ نصف الجب ألقوه إرادة أن يموت ، فكان في الجب ماء فسقط فيه ثم قام على صخرة يبكي ، فنادوه ، فظن أنهم رحموه ، فأجابهم ، فأرادوا أن يرضخوه بصخرة ، فمنعهم يهوذا ، وكان يأتيه بالطعام .

وجواب ﴿ لما ﴾ محذوف تقديره : ﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا ﴾ أجمعوا ، هذا مذهب الخليل وسيبويه وهو نص لهما في قول امرىء القيس : [الطويل]

فلما أجزنا ساحية الحي وانتحى . . . . ومثل هذا قول الله تعالى :

(20/392)

﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ [الصافات : 103] - وقال بعض النحاة - في مثل هذا - : إن الواو زائدة - وقوله مردود لأنه ليس في القرآن شيء زائد لغير معنى .

و﴿ أجمعوا ﴾ معناه : عزموا واتفق رأيهم عليه ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم -

في المسافر – " ما لم يجمع مكثاً " ، على أن إجماع الواحد قد ينفرد بمعنى العزم والشروع ، ويتصور ذلك في إجماع إخوة يوسف وفي سائر الجماعات – وقد يجيء إجماع الجماعة فيما لا عزم فيه ولا شروع ولا يتصور ذلك في إجماع الواحد .

والضمير في ﴿ إليه ﴾ عائد إلى يوسف . وقيل على يعقوب ، والأول أصح وأكثر ، ويحتمل أن يكون الوحي حينئذ إلى يوسف برسول ، ويحتمل أن يكون بإلهام أو بنوم – وكل ذلك قد قيل – وقال الحسن : أعطاه الله النبوءة وهو في الجب .

قال القاضي أبو محمد : وهذا بعيد .

وقرأ الجمهور : " لتنبئنهم " بالتاء ، وفي بعض مصاحف البصرة بالياء ، وقرأ سلام بالنون ، وهذا كله في العلامة التي تلي اللام .

وقوله : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ قال ابن جريج : وقت التنبيه إنك يوسف . وقال قتادة : لا يشعرون بوحينا إليه . قال القاضي أبو محمد : فيكون قوله : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ – على التأويل الأول – مما أوحي إليه – وعلى القول الثاني – خبر لمحمد صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا علي يُوسُفَ ﴾

قيل للحسن : أيحسِد المؤمن ؟ قال : ما أنساك ببني يعقوب ! ولهذا قيل : الأب جلاّب والأخ سلاّب ؛ فعند ذلك أجمعوا على التفريق بينه وبين ولده بضرب من الاحتيال .

وقالوا ليعقوب : "يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ" وقيل : لما تفاوضوا وافترقوا على رأي المتكلم الثاني عادوا إلى يعقوب عليه السلام وقالوا هذا القول .

وفيه دليل على أنهم سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى على ما يأتي .

قرأ يزيد بن القَعْقَاع وعمرو بن عُبيد والزّهْريّ "لا تَأْمَنَّا" بالإدغام ، وبغير إشمام وهو القياس ؛ لأن سبيل ما يدغم أن يكون ساكناً .

وقرأ طلحة بن مُصرّف "لا تَأْمَنُنَّا" بنونين ظاهرتين على الأصل .

وقرأ يحيى بن وثّاب وأبو رزين وروي عن الأعمش "لا تِيْمَنَّا" بكسر التاء ، وهي لغة تميم ؛ يقولون : أنت تِضرب ؛ وقد تقدّم .

وقرأ سائر الناس بالإدغام والإشمام ليدل على حال الحرف قبل إدغامه .

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ أي في حفظه (وحيطته) حتى نردّه إليك .

قال مقاتل : في الكلام تقديم وتأخير ؛ وذلك أن إخوة يوسف قالوا لأبيهم : "أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً" الآية ؛ فحينئذ قال أبوهم : "إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ" فقالوا حينئذ جواباً لقوله :

"مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ" الآية.

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً ﴾ إلى الصحراء.

﴿ يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ "غداً" ظرف، والأصل عند سيبويه غَدْوٌ، وقد نطق به على الأصل

؛ قال النّضر بن شميل: ما بين الفجر وصلاة الصبح يقال له غُدوة، وكذا بُكرة.

"نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ" بالنون وإسكان العين قراءة أهل البصرة.

والمعروف من قراءة أهل مكة.

"نَرْتَعِ" بالنون وكسر العين.

وقراءة أهل الكوفة.

"يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ" بالياء وإسكان العين.

(22/392)

وقراءة أهل المدينة بالياء وكسر العين؛ القراءة الأولى من قول العرب رَتَع الإنسان والبعير إذا

أَكَلَا كيف شاءا؛ والمعنى: نتسع في الخِصب؛ وكل مخصِب راتع؛ قال:

فارعَيْ فزارةُ لا هَنَاكِ المَرْتَعْ . . .

وقال آخر:

تَرْتَعُ ما غَفَلَتْ حتى إذا ادّكرتْ . . .

فإنَّما هي إقبالٌ وإدبارُ

وقال آخر :

أكفراً بعد رَدِّ الموتِ عنّي . . .

وبعد عَطائِكَ المائةَ الرِّتّاعَا

أي الراتعة لكثرة المرعى .

وروى مَعْمر عن قَتَادة "ترتع" تسعى ؛ قال النحاس : أخذه من قوله : "إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ"

لأن المعنى : نستبق في العَدْو إلى غاية بعينها ؛ وكذا "يرتع" بإسكان العين ، إلا أنه ليوسف

وحده صلى الله عليه وسلم .

و"يرتع" بكسر العين من رعي الغنم ، أي ليتدرب بذلك ويترجّل ؛ فمرّة يرتع ، ومرة يلعب

لصغره .

وقال القُتَبِيّ "نرتع" نَتَحارس ونَتَحافظ ، ويرعى بعضنا بعضاً ؛ من قولك : رعاك الله ؛ أي

حفظك .

"ونلعب" من اللعب وقيل لأبي عمرو بن العلاء : كيف قالوا "ونلعب" وهم أنبياء ؟ فقال :

لم يكونوا يومئذ أنبياء .

وقيل : المراد باللعب المباح من الانبساط ، لا اللعب المحظور الذي هو ضدّ الحق ؛ ولذلك لم

ينكر يعقوب قولهم "ونلعب" .

ومنه قوله عليه السلام : " فهلاّ بِكْراً تُلاعبها وتُلاعبكَ" وقرأ مجاهد وقَتَادة : "يُرتِع" على معنى يُرتِع مطيته ، فحذف المفعول ؛ "ويَلْعَبُ" بالرفع على الاستئناف ؛ والمعنى : هو ممن يلعب .

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من كل ما تخاف عليه .

ثم يحتمل أنهم كانوا يخرجون ركباناً ، ويحتمل أنهم كانوا رجّالة .

وقد نقل أنهم حملوا يوسف على أكتافهم ما دام يعقوب يراهم ، ثم لما غابوا عن عينه طرحوه ليعدو معهم إضراراً به .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي لِيحزنني أَن تَذْهَبُواْ بِهِ ﴾

في موضع رفع ؛ أي ذهابكم به .

أخبر عن حزنه لغيبته .

(23/392)

﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذئب ﴾ وذلك أنه رأى في منامه أن الذئب شدّ على يوسف ، فلذلك خافه عليه ؛ قاله الكلبي .

وقيل : إنه رأى في منامه كأنه على ذروة جبل ، وكأن يوسف في بطن الوادي ، فإذا عشرة من الذئاب قد احتوشته تريد أكله ، فدرأ عنه واحد ، ثم انشقّت الأرض فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام ؛ فكانت العشرة إخوته ، لما تمالؤوا على قتله ، والذي دافع عنه أخوه الأكبر يهوذا ، وتواريه في الأرض هو مقامه في الجب ثلاثة أيام .

وقيل : إنما قال ذلك لخوفه منهم عليه ، وأنه أرادهم بالذئب ؛ فخوفه إنما كان من قتلهم له ، فكنى عنهم بالذئب مساترة لهم ؛ قال ابن عباس : فسماهم ذئاباً .

وقيل : ما خافهم عليه ، ولو خافهم لما أرسله معهم ، وإنما خاف الذئب ؛ لأنه أغلب ما يخاف في الصحارى .

والذئب مأخوذ من تَذَاءبت الريح إذا جاءت من كل وجه ؛ كذا قال أحمد بن يحيى ؛ قال : والذئب مهموز لأنه يجيء من كل وجه .

وروى ورش عن نافع "الذّيبُ" بغير همز ، لما كانت الهمزة ساكنة وقبلها كسرة فخففها صارت ياء .

﴿ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ أي مشتغلون بالرعي .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذئب وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي جماعة نرى الذئب ثم لا نرده عنه .

﴿ إِنَّا إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴾ أي في حفظنا أغنامنا ؛ أي إذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن

أخينا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا .

وقيل : "لَخَاسِرُونَ" لجاهلون بحقه .

وقيل : لعاجزون .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وأجمعوا أَن يَجْعَلُوهُ ﴾

"أَنْ" في موضع نصب ؛ أي على أن يجعلوه في غيابة الجبّ .

قيل في القصة : إن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقاً غليظاً ليحفظُنّه ، وسلّمه إلى روبيل وقال : يا روبيل ! إنه صغير ، وتعلم يا بنيّ شفقتي عليه ؛ فإن جاع فأطعمه ، وإن عطش فاسقه ، وإن أعْيا فاحمله ثم عَجِّل بردّه إليّ .

قال : فأخذوا يحملونه على أكتافهم ، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر ، ويعقوب يُشيِّعهم ميلا ثم رجع ؛ فلما انقطع بصر أبيهم عنهم رماه الذي كان يحمله إلى الأرض حتى كاد ينكسر ، فالتجأ إلى آخر فوجد عند كل واحد منهم أشدّ مما عند الآخر من الغيظ والعسف ؛ فاستغاث بروبيل وقال : "أنت أكبر إخوتي ، والخليفة من بعد والدي عليّ ، وأقرب الأخوة إليّ ، فارحمني وارحم ضعفي" فلطمه لطمة شديدة وقال : لا قرابة بيني وبينك ، فادع

الأحد عشر كوكباً فلتنجك منا ؛ فعلم أن حقدهم من أجل رؤياه ، فتعلق بأخيه يهوذا وقال : يا أخي ! ارحم ضعفي وعجزي وحداثة سني ، وارحم قلب أبيك يعقوب ؛ فما أسرع ما تناسيتم وصيته ونقضتم عهده ؛ فرقّ قلب يهوذا فقال : والله لا يصلون إليك أبداً ما دمتُ حيّاً ، ثم قال : يا إخوتاه ! إن قتل النفس التي حرم الله من أعظم الخطايا ، فردوا هذا الصبيّ إلى أبيه ، ونعاهده ألا يحدّث والده بشيء مما جرى أبداً ؛ فقال له إخوته : والله ما تريد إلا أن تكون لك المكانة عند يعقوب ، والله لئن لم تدعه لنقتلنّك معه ، قال : فإن أبيتم إلا ذلك فهاهنا هذا الجبّ الموحش القفر ، الذي هو مأوى الحيات والهوام فألقُوه فيه ، فإن أصيب بشيء من ذلك فهو المراد ، وقد استرحتم من دمه ، وإن انفلت على أيدي سيّارة يذهبون به إلى أرض فهو المراد ؛ فأجمع رأيهم على ذلك ؛ فهو قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وأجمعوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الجب ﴾ وجواب "لما" محذوف ؛ أي فلما ذهبوا به وأجمعوا على طرحه في الجب عظمت فتنتهم .

وقيل : جواب "لما" قولهم : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ .

وقيل : التقدير فلما ذهبوا به من عند أبيهم وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب جعلوه فيها ، هذا على مذهب البصريين ؛ وأما على قول الكوفيين فالجواب .

"أوحينا" والواو مقحمة، والواو عندهم تزاد مع لما وحتى؛ قال الله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر: 73] أي فتحت، وقوله: ﴿ حَتَّى إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التنور ﴾ [هود: 40] أي فار.

قال امرؤ القيس:

فَلَمَّا أَجَزْنَا ساحَةَ الحيِّ وانْتَحى . . .

أي انتحى؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ.

وَنَادَيْنَاهُ ﴾ [الصافات: 103-104] أي ناديناه.

وفي قوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾ دليل على نبوّته في ذلك الوقت.

قال الحسن ومجاهد والضّحاك وقَتادة: أعطاه الله النبوّة وهو في الجبّ على حجر مرتفع عن الماء.

وقال الكَلْبيّ: ألقي في الجبّ وهو ابن ثماني عشرة سنة، فما كان صغيراً؛ ومن قال كان صغيراً فلا يبعد في العقل أن يتنبأ الصغير ويوحى إليه.

وقيل: كان وحي إلهام كقوله: ﴿ وأوحى ربُّكَ إلى النحل ﴾ [النحل: 68].

وقيل: كان مناماً، والأوّل أظهر والله أعلم وأن جبريل جاءه بالوحي.

قوله تعالى: ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا ﴾ فيه وجهان: أحدهما أنه أوحى إليه أنه سيلقاهم

ويوبخهم على ما صنعوا ؛ فعلى هذا يكون الوحي بعد إلقائه في الجبّ تقوية لقلبه ، وتبشيراً له بالسلامة .

الثاني أنه أوحي إليه بالذي يصنعون به ؛ فعلى هذا (يكون) الوحيُ قبل إلقائه في الجبّ إنذاراً له .

﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنك يوسف ؛ وذلك أن الله تعالى أمره لما أفضى إليه الأمر بمصر ألا يخبر أباه وإخوته بمكانه .

وقيل : بوحي الله تعالى بالنبوة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد .

وقيل : "الهاء" ليعقوب ؛ أوحى الله تعالى إليه ما فعلوه بيوسف ، وأنه سيعرِّفهم بأمره ، وهم لا يشعرون بما أوحى الله إليه ، والله أعلم .

(26/392)

ومما ذكر من قصته إذ ألقي في الجبّ ما ذكره السدّيّ وغيره أن إخوته لما جعلوا يدلونه في البئر ، تعلق بشفير البئر ، فربطوا يديه ونزعوا قميصه ؛ فقال : يا إخوتاه ! ردّوا عليّ قميصي أتوارى به في هذا الجبّ ، فإن متّ كان كفني ، وإن عشت أواري به عورتي ؛ فقالوا : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً فلتؤنسك وتكسك ؛ فقال : إني لم أر شيئاً ، فدلوه في

البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يسقط فيموت ؛ فكان في البئر ماء فسقط فيه ، ثم آوى إلى صَخْرَةٍ فقام عليها .

وقيل : إن شمعون هو الذي قطع الحبل إرادة أن يتفتت على الصخرة ، وكان جبريل تحت ساق العرش ، فأوحى الله إليه أن أدرك عبدي ؛ قال جبريل : فأسرعت وهبطت حتى عارضته بين الرمي والوقوع فأقعدته على الصخرة سالماً .

وكان ذلك الجبّ مأوى الهوام ؛ فقام على الصّخرة وجعل يبكي ، فنادوه ، فظن أنها رحمة عليه أدركتهم ، فأجابهم ؛ فأرادوا أن يرضخوه بالصخرة فمنعهم يهوذا ، وكان يهوذا يأتيه بالطعام ؛ فلما وقع عرياناً نزل جبريل إليه ؛ وكان إبراهيم حين ألقي في النار عرياناً أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، فكان ذلك عند إبراهيم ، ثم ورثه إسحق ، ثم ورثه يعقوب ، فلما شَبّ يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في تعويذة وجعله في عنقه ، فكان لا يفارقه ؛ فلما ألقي في الجبّ عرياناً أخرج جبريل ذلك القميص فألبسه إياه .

(27/392)

قال وهب : فلما قام على الصخرة قال : يا إخوتاه ! إن لكل ميت وصية ، فاسمعوا وصيتي ، قالوا : وما هي ؟ قال : إذا اجتمعتم كلّكم فآنس بعضكم بعضاً فاذكروا وحشتي

، وإذا أكلتم فاذكروا جوعي ، وإذا شربتم فاذكروا عطشي ، وإذا رأيتم غريباً فاذكروا غربتي ، وإذا رأيتم شاباً فاذكروا شبابي ؛ فقال له جبريل : يا يوسف ! كف عن هذا واشتغل بالدعاء ، فإن الدعاء عند الله بمكان ؛ ثم علمه فقال : قل اللهم يا مؤنس كلّ غريب ، ويا صاحب كلّ وحيد ، ويا ملجأ كلّ خائف ، ويا كاشف كل كربة ، ويا عالم كل نجوى ، ويا منتهى كل شكوى ، ويا حاضر كل ملإ ، يا حيّ يا قيوم ! أسألك أن تقذف رجاءك في قلبي ، حتى لا يكون لي همّ ولا شغل غيرك ، وأن تجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً ، إنك على كل شيء قدير ؛ فقالت الملائكة : إلهنا نسمع صوتاً ودعاء ، الصوت صوت صبيّ ، والدعاء دعاء نبيّ .

وقال الضّحاك : نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو في الجبّ فقال له : ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهن عجل الله لك خروجك من هذا الجب ؟ فقال : نعم ! فقال له : قل يا صانع كلّ مصنوع ، ويا جابر كل كَسِير ، ويا شاهد كل نَجْوى ، ويا حاضر كل ملإ ، ويا مفرّج كل كربة ، ويا صاحب كل غريب ، ويا مؤنس كل وحيد ، ايتني بالفرج والرجاء ، واقذف رجاءك في قلبي حتى لا أرجو أحداً سواك ؛ فرددها يوسف في ليلته مرارا ؛ فأخرجه الله في صبيحة يومه ذلك من الجبّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن:

﴿ قالوا ﴾ يعني: قال إخوة يوسف ليعقوب ﴿ يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف ﴾ بدؤوا بالإنكار عليه في ترك إرسال يوسف معهم كأنهم قالوا: أتخافنا إذا أرسلته معنا ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ المراد بالنصح هنا القيام بالمصلحة، وقيل: البر والعطف والمعنى وإنا لعاطفون عليه قائمون بمصلحته وبحفظه، وقال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير وذلك أنهم قالوا لأبيهم أرسله معنا فقال يعقوب إني ليحزنني أن تذهبوا به فحينئذ قالوا: مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ثم قالوا.

﴿ أرسله معنا غداً ﴾ يعني إلى الصحراء ﴿ يرتع ﴾ الرتع هو الاتساع في الملاذ يقال رتع فلان في ماله إذا أنفقه في شهواته والأصل في الرتع أكل البهائم في الخصب زمن الربيع ويستعار للانسان إذا أريد به الأكل الكثير ﴿ ويلعب ﴾ اللعب معروفة وقال الراغب: يقال لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً سئل أبو عمرو بن العلاء كيف قالوا نلعب وهم الأنبياء فقال كم يكونوا يومئذ أنبياء ويحتمل أن يكون المراد باللعب هنا الإقدام

على المباحات لأجل إنشراح الصدر ومنه قوله (صلى الله عليه وسلم) لجابر " هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك " وأيضاً فإن لعبهم كان الاستباق وهو غرض صحيح مباح لما فيه من المحاربة والإقدام على الأقران الحرب بدليل قوله نستبق وإنما سموه لعباً لأنه في صورة اللعب وقيل في معنى نرتع ونلعب نتنعم ونأكل ونلهو وننشط ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ يعني نجتهد في حفظه غاية الاجتهاد حتى نرده إليك سالماً ﴿ قال ﴾ يعني قال لهم يعقوب ﴿ إني ليحزنني أن تذهبوا به ﴾ أي: ذهابكم به والحزن هنا ألم القلب بفراق المحبوب ومعنى الآية أنه لما طلبوا منه أن يرسل معهم يوسف اعتذر يعقوب بعذرين أحدهما أن ذهابهم به ومفارقته إياهم يحزنه لأنه كان لا يقدر أن يصبر عنه ساعة والثاني قوله ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ يعني إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم وذلك أن يعقوب كان رأى في المنام أن ذئباً شد على يوسف فكان يعقوب يخاف عليه من ذلك وقيل كانت الذئاب في أرضهم كثيرة ﴿ قالوا ﴾ يعني قال إخوة يوسف مجيبين ليعقوب ﴿ لئن أكله الذئب ونحن عصبة ﴾ أي جماعة عشرة رجال ﴿ إنا إذاً لخاسرون ﴾ يعني عجزة ضعفاء وقيل إنهم خافوا أن يدعو عليهم يعقوب بالخسار والبوار وقيل معناه إنا إذا لم نقدر على حفظ أخينا فكيف نقدر على حفظ مواشينا فنحن إذاً خاسرون .

قوله : ﴿ فلما ذهبوا به ﴾ فيه إضمار واختصار تقديره فأرسله معهم فلما ذهبوا به ﴿ وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ﴾ يعني وعزموا على أن يلقوه في غيابة الجب .

ذكر قصة ذهابهم بيوسف

(31/392)

قال وهب ، وغيره من أهل السير والإخبار : إن إخوة يوسف قالوا له أما تشتاق أن تخرج معنا إلى مواشينا فنصيد ونستبق قال بلى قالوا له أنسأل أباك أن يرسلك معنا ، قال يوسف : افعلوا فدخلوا بجماعتهم على يعقوب ، فقالوا : يا أبانا إن يوسف قد أحب أن يخرج معنا إلى مواشينا فقال يعقوب : ما تقول يا بني ؟ قال : نعم يا أبت إني أرى من إخوتي اللين واللطف فأحب أن تأذن لي ، وكان يعقوب يكره مفارقته ويحب مرضاته فأذن له وأرسله معهم فلما خرجوا به من عند يعقوب جعلوا يحملونه على رقابهم ويعقوب ينظر إليه فلما بعدوا عنه وصاروا إلى الصحراء وألقوه على الأرض وأظهروا له ما في أنفسهم من العداوة وأغلظوا له القول وجعلوا يضربونه فجعل كلما جاء إلى واحد منهم واستغاث به ضربه فلما فطن لما عزموا عليه من قتله جعل ينادي يا أبتاه يا يعقوب لو رأيت يوسف وما نزل به من

إخوته لأحزنك ذلك وأبكاك يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك وضيعوا وصيتك وجعل يبكي بكاء شديداً فأخذه روبيل وجلد به الأرض ثم جثم على صدره وأراد قتله ، فقال له يوسف : مهلاً يا أخي لا تقتلني ، فقال له : يا ابن راحيل أنت صاحب الأحلام قل لرؤياك تخلصك من أيدينا ولوى عنقه ، فاستغاث يوسف بيهوذا وقال له اتق الله فيّ وحلّ بيني وبين من يريد قتلي فأدركته رحمة الإخوة ورق له فقال يهوذا يا إخوتي ما على هذا عاهدتموني ألا أدلكم على ما هو أهون لكم وأرفق به فقالوا وما هو قال تلقونه في هذا الجبّ إما أن يموت أو يلتقطه بعض السيارة فانطلقوا به إلى بئر هناك على غير الطريق واسع الأسفل ضيق الرأس فجعلوا يدلونه في البئر فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال يا إخوتاه ردوا عليّ قميصي لأستتر به في الجب فقالوا ادع الشمس والقمر والكواكب تخلصك وتؤنسك فقال إني لم أر شيئاً فألقوه فيها ثم قال لهم يا إخوتاه أتدعوني فيها فريداً وحيداً وقيل جعلوه في دلو ثم أرسلوه فيها ، فلما بلغ نصفها ألقوه إرادة أن

يموت وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم آوى إلى صخرة كانت في البئر فقام عليها وقيل نزل عليه ملك فحل يديه وأخرج له صخرة من البئر فأجلسه عليها ، وقيل إنهم لما ألقوه في الجب

جعل يبكي فنادوه فظن أنها رحمة أدركته فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة ليقتلوه فمنعهم يهوذا من ذلك وقيل إن يعقوب لما بعثه مع إخوته أخرج له قميص إبراهيم الذي كساه الله إياه من الجنة حين ألقي في النار فجعله يعقوب في قصبة فضة وجعلها في عنق يوسف فألبسه الملك إياه حين ألقي في الجب فأضاء له الجب .

(33/392)

وقال الحسن : لما ألقي يوسف في الجب عذب ماؤه فكان يكفيه عن الطعام والشراب ودخل عليه جبريل فأنس به فلما أمسى نهض جبريل ليذهب فقال له إنك إذا خرجت استوحشت فقال له إذا رهبت شيئاً فقل يا صريخ المستصرخين ويا غوث المستغيثين ويا مفرج كرب المكروبين قد ترى مكاني وتعلم حالي ولا يخفى عليك شيء من أمري فلما قالها يوسف حفته الملائكة واستأنس في الجب ، وقال محمد بن مسلم الطائفي : لما ألقي يوسف في الجب قال : يا شاهداً غير غائب ويا قريباً غير بعيد ويا غالباً غير مغلوب اجعل لي فرجاً مما أنا فيه فما بات فيه واختلفوا في قدر عمر يوسف يوم ألقي في الجب فقال الضحاك ست سنين وقال الحسن : اثنتا عشرة سنة ، وقال ابن السائب : سبع عشرة سنة ، وقيل : ثمان عشرة سنة ، وقيل : مكث في الجب ثلاثة أيام وكان إخوته يرعون حوله وكان

يهوذا يأتيه بالطعام فذلك قوله تعالى : ﴿ وأوحينا إليهم لتنبئنهم بأمرهم هذا ﴾ يعني لتخبرن إخوتك قال أكثر المفسرين : إن الله أوحى إليه وحياً حقيقة فبعث إليه جبريل يؤنسه ويبشره بالخروج ويخبره أنه سينبئهم بما فعلوا ويجازيهم عليه هذا قول طائفة عظيمة من المحققين ثم القائلون بهذا القول اختلفوا هل كان بالغاً في ذلك الوقت أو كان صبياً صغيراً فقال بعضهم إنه كان بالغاً وكان عمره خمس عشرة سن وقال آخرون بل كان صغيراً إلا أن الله أكمل عقله ورشده وجعله صالحاً لقبول الوحي والنبوة كما قال في حق عيسى .

فإن قلت كيف جعله نبياً في ذلك الوقت ولم يكن أحد يبلغه رسالة ربه لأن فائدة النبوة والرسالة تبليغها إلى من أرسل إليه .

(34/392)

قلت : لا يمتنع أن الله يشرفه بالوحي ويكرمه بالنبوة والرسالة في ذلك الوقت ، وفائدة ذلك تطييب قلبه وإزالة الهمّ والغمّ والوحشة عنه ثم بعد ذلك يأمره بتبليغ الرسالة في وقتها وقيل إن المراد من قوله وأوحينا إليه وحي إلهام كما في قوله تعالى وأوحى ربك إلى النحل وأوحينا إلى أم موسى والقول الأول وقوله تعالى : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ يعني بإيحائنا إليك وأنت في البئر بأنك ستخبرهم بصنيعهم هذا ، والفائدة في إخفاء ذلك الوحي أنهم إذا

عرفوه فربما ازداد حسدهم له .

وقيل : إن الله تعالى أوحى إلى يوسف لتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا بعد هذا اليوم وهم لا يشعرون بأنك أنت يوسف والمقصود من ذلك تقوية قلب يوسف وأنه سيخلص مما هو فيه من المحنة ويصير مستولياً عليهم ويصيرون تحت أمره وقهره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(35/392)

وقال أبو حيان :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾

ارتعى افتعل من الرعي بمعنى المراعاة وهي الحفظ للشيء ، أو من الرعي وهو أكل الحشيش والنبات ، يقال : رعت الماشية الكلأ ترعاه رعياً أكلته ، والرعي بالكسر الكلأ ، ومثله ارتعى .

قال الأعشى :

ترتعي السفح فالكثيب فذا ق . . .

ر فروض القطا فذات الرمال

رتع أقام في خصب وتنعم ، ومنه قول الغضبان بن القبعثري : القيد ، والمتعة ، وقلة الرتعة .

وقول الشاعر :

أكفراً بعد رد الموت عني . . .

وبعد عطائك المائة الرتاعا

الذئب : سبع معروف ، وليس في صقعنا الأندلسي ، ويجمع على أذؤب وذئاب وذؤبان

قال :

وأزور يمطو في بلاد بعيدة . . .

تعاوى به ذؤبانه وثعالبه

وأرض مذأبة كثيرة الذئاب ، وتذاءبت الريح جاءت من هنا ومن هنا ، فعل الذئب ومنه

الذؤابة من الشعر لكونها تنوس إلى هنا وإلى هنا .

﴿ قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون .

أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون .

قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون قالوا لئن أكله

الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون ﴾ : لما تقرر في أذهانهم التفريق بين يوسف وأبيه ،

أعملوا الحيلة على يعقوب وتلطفوا في إخراجه معهم ، وذكروا نصحهم له وما في إرساله

معهم من انشراح صدره بالارتعاء واللعب ، إذ هو مما يشرح الصبيان ، وذكروا حفظهم له

مما يسوؤه .

وفي قولهم : ما لك لا تأمنا ، دليل على أنهم تقدم منهم سؤال في أنْ يخرج معهم ، وذكروا سبب الأمن وهو النصح أي : لم لا تأمنا عليه وحالتنا هذا ؟ والنصح دليل على الأمانة ، ولهذا قرنا في قوله : ناصح أمين ، وكان قد أحس منهم قبل ما أوجب أنْ لا يأمنهم عليه .

ولا تأمنا جملة حالية ، وهذا الاستفهام صحبة التعجب .

(36/392)

وقرأ زيد بن علي ، وأبو جعفر ، والزهري ، وعمرو بن عبيد : بإدغام نون تأمن في نون الضمير من غير إشمام ومجيئه بعد مالك ، والمعنى : يرشد إلى أنه نفي لا نهي ، وليس كقولهم : ما أحسننا في التعجب ، لأنه لو أدغم لالتبس بالنفي .

وقرأ الجمهور : بالإدغام والإشمام للضم ، وعنهم إخفاء الحركة ، فلا يكون إدغاماً محضاً .

وقرأ ابن هرمز : بضم الميم ، فتكون الضمة منقولة إلى الميم من النون الأولى بعد سلب الميم حركتها ، وإدغام النون في النون .

وقرأ أبي ، والحسن ، وطلحة بن مصرف ، والأعمش : لا تأمننا بالإظهار ، وضم النون على الأصل ، وخط المصحف بنون واحدة .

وقرأ ابن وثاب ، وأبو رزين : لا يتمنا على لغة تميم ، وسهل الهمزة بعد الكسرة ابن وثاب .

وفي لفظة : أرسله ، دليل على أنه كان يمسكه ويصحبه دائماً .

وانتصب غداً على الظرف ، وهو ظرف مستقبل يطلق على اليوم الذي يلي يومك ، وعلى الزمن المستقبل من غير تقييد باليوم الذي يلي يومك .

وأصله : غدو ، فحذفت لامه وقد جاء تاماً .

وقرأ الجمهور : يرتع ويلعب بالياء والجزم ، والإبنان وأبو عمر وبالنون والجزم وكسر العين الحرميان ، واختلف عن قنبل في إثبات الياء وحذفها .

وروي عن ابن كثير : ويلعب بالياء ، وهي قراءة جعفر بن محمد .

وقرأ العلاء بن سيابة : يرتع بالياء وكسر العين مجزوماً محذوف اللام ، ويلعب بالياء وضم الباء خبر مبتدأ محذوف أي : وهو يلعب .

وقرأ مجاهد ، وقتادة ، وابن محيصن : بنون مضمومة من ارتعنا ونلعب بالنون ، وكذلك أبو رجاء ، إلا أنه بالياء فيهما يرتع ويلعب ، والقراءتان على حذف المفعول أي : يرتع المواشي أو غيرها .

وقرأ النخعي : نرتع بنون ، ويلعب بياء ، بإسناد اللعب إلى يوسف وحده لصباه ، وجاء كذلك عن أبي إسحاق ، ويعقوب .

وكل هذه القرآات الفعلان فيها مبنيان للفاعل .

وقرأ زيد بن علي : يرتع ويلعب بضم الياءين مبنياً للمفعول ، ويخرجها على أنه أضمر المفعول الذي لم يسم فاعله وهو ضمير غد ، وكان أصله يرتع فيه ويلعب فيه ، ثم حذف واتسع ، فعدى الفعل للضمير ، فكان التقدير : يرتعه ويلعبه ، ثم بناه للمفعول فاستكن الضمير الذي كان منصوباً لكونه ناب عن الفاعل .

واللعب هنا هو الاستباق والانتضال ، فيدربون بذلك لقتال العدو ، سموه لعباً لأنه بصورة اللعب ، ولم يكن ذلك للهو بدليل قولهم : إننا ذهبنا نستبق ، ولو كان لعب لهو ما أقرهم عليه يعقوب .

ومن كسر العين من يرتع فهو يفتعل .

قال مجاهد : هي من المراعاة أي : يراعي بعضنا بعضاً ويحرسه .

وقال ابن زيد : من رعى الإبل أي يتدرب في الرعي ، وحفظ المال ، أو من رعى النبات والكلأ ، أي : يرتع على حذف مضاف أي : مواشينا .

ومن أثبت الياء .

فقال ابن عطية : هي قراءة ضعيفة لا تجوز إلا في الشعر كقول الشاعر :

ألم يأتيك والأنباء تنمى . . .

بما لاقت لبون بني زياد

انتهى .

وقيل : تقدير حذف الحركة في الياء لغة ، فعلى هذا لا يكون ضرورة .

ومن قرأ بسكون العين فالمعنى : نقم في خصب وسعة ، ويعنون من الأكل والشرب .

وإنا له لحافظون جملة حالية ، والعامل فيه الأمر أو الجواب ، ولا يكون ذلك من باب الإعمال ، لأن الحال لا تضمر ، وبأنّ الإعمال لا بد فيه من الإضمار إذا أعمل الأول ، ثم اعتذر لهم يعقوب بشيئين : أحدهما : عاجل في الحال ، وهو ما يلحقه من الحزن لمفارقته وكان لا يصبر عنه .

والثاني : خوفه عليه من الذئب إن غفلوا عنه برعيهم ولعبهم ، أو بقلة اهتمامهم بحفظه وعنايتهم ، فيأكله ويحزن عليه الحزن المؤبد .

وخص الذئب لأنه كان السبع الغالب على قطره ، أو لصغر يوسف فخاف عليه هذا السبع الحقير ، وكان تنبيهاً على خوفه عليه ما هو أعظم افتراساً .

ولحقارة الذئب خصه الربيع بن ضبع الفزاري في كونه يخشاه لما بلغ من السن في قوله :

والذئب أخشاه إن مررت به . . .

وحدي وأخشى الرياح والمطرا

وكان يعقوب بقوله : وأخاف أن يأكله الذئب لقنهم ما يقولون من العذر إذا جاؤوا وليس معهم يوسف ، فلقنوا ذلك وجعلوه عدة للجواب ، وتقدّم خلاف القراء في يحزن .

وقرأ زيد بن علي ، وابن هرمز ، وابن محيصن : ليحزني بتشديد النون ، والجمهور بالفك .

وليحزنني مضارع مستقبل لا حال ، لأن المضارع إذا أسند إلى متوقع تخلص للاستقبال ، لأنّ ذلك المتوقع مستقبل وهو المسبب لأثره ، فمحال أنْ يتقدم الأثر عليه ، فالذهاب لم يقع ، فالحزن لم يقع .

كما قال :

يهولك أن تموت وأنت ملغ . . .

لما فيه النجاة من العذاب

وقرأ زيد بن علي : تذهبوا به من أذهب رباعياً ، ويخرج على زيادة الباء في به ، كما خرج بعضهم تنبت بالدهن .

في قراءة من ضم التاء وكسر الباء أي : تنبت الدهن وتذهبوه .

وقرأ الجمهور : والذئب بالهمز ، وهي لغة الحجز .

وقرأ الكسائي ، وورش ، وحمزة : إذا وقف بغير همز .

وقال نصر : سمعت أبا عمرو ولا يهمز .

وعدل إخوة يوسف عن أحد الشيئين وهو حزنه على ذهابهم به لقصر مدة الحزن ، وإيهامهم أنهم يرجعون به إليه عن قريب ، وعدلوا إلى قضية الذئب وهو السبب الأقوى في منعه أن تذهبوا به ، فحلفوا له لئن كان ما خافه من خطفة الذئب أخاهم من بينهم ، وحالهم أنهم عشرة رجال بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب .

إنهم إذاً لقوم خاسرون أي : هالكون ضعفاء وجوراً وعجزاً ، أو مستحقون أن يهلكوا ، لأنهم لا غنى عندهم ولا جدوى في حياتهم ، أو مستحقون بأن يدعى عليهم بالخسار والدمار ، وأن يقال : خسرهم الله ودمرهم حين أكل الذئب بعضهم وهم حاضرون .

وقيل : إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا ، إذاً وخسرنا .

وروي أن يعقوب رأى في منامه كأنه على ذروة جبل ، وكان يوسف في بطن الوادي ، فإذا عشرة من الذئاب قد احتوشته يردن أكله ، فدرأ عنه واحد ، ثم انشقت الأرض فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام .

﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ﴾

حكي أنهم قالوا ليوسف : اطلب من أبيك أن يبعثك معنا ، فأقبل على يوسف فقال : أتحب ذلك ؟ قال : نعم .

قال يعقوب : إذا كان غداً أذنت لك ، فلما أصبح يوسف لبس ثيابه وشد عليه منطقته ، وخرج مع أخوته فشيعهم يعقوب وقال : يا بني أوصيكم بتقوى الله وبحبيبي يوسف ، ثم أقبل على يوسف وضمه إلى صدره وقبل بين عينيه ثم قال : استودعتك الله رب العالمين ، وانصرف .

فحملوا يوسف على أكتافهم ما دام يعقوب يراهم ، ثم لما غابوا عن عينه طرحوه ليعدوا معهم إضراراً به .

وذكر المفسرون أشياء كثيرة تتضمن كيفية إلقائه في غيابة الجب ومجاورته لهم بما يلين الصخر ، وهم لا يزدادون إلا قساوة .

ولم يتعرض القرآن ولا الحديث الصحيح لشيء منها ، فيوقف عليها في كتب التفسير .

وبين هذه الجملة والجمل التي قبلها محذوف يدل عليه المعنى تقديره : فأجابهم إلى ما سألوه وأرسل معهم يوسف ، فلما ذهبوا به وأجمعوا أي : عزموا واتفقوا على إلقائه في الجب ، وأن يجعلوه مفعول أجمعوا ، يقال : أجمع الأمر وأزمعه بمعنى العزم عليه ، واحتمل أن يكون الجعل هنا بمعنى الإلقاء ، وبمعنى التصيير .

واختلفوا في جواب لمّا أهو مثبت ؟ أو محذوف ؟ فمن قال : مثبت ، قال : هو قولهم قالوا يا

أبانا إنا ذهبنا نستبق أي : لما كان كيت وكيت ، قالوا وهو تخريج حسن .

وقيل : هو أوحينا ، والواو زائدة ، وعلى هذا مذهب الكوفيين يزاد عندهم بعد لما ، وحتى إذا .

وعلى ذلك خرجوا قوله : فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أي : ناديناه وقوله : حتى إذا جاؤوها وفتحت أي : فتحت .

وقول امرىء القيس :

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى . . .

أي : انتحى .

ومن قال : هو محذوف ، وهو رأي البصريين ، فقدره الزمخشري : فعلوا به ما فعلوا من الأذى ، وحكى الحكاية الطويلة فيما فعلوا به ، وما حاوروه وحاورهم به .

(40/392)

قدره بعضهم : فلما ذهبوا به وأجمعوا أنْ يجعلوه في غيابة الجب عظمت فتنتهم ، وقدّره بعضهم جعلوه فيها ، وهذا أولى إذ يدل عليه قوله : وأجمعوا أن يجعلوه والظاهر أنّ الضمير في وأوحينا إليه عائد على يوسف ، وهو وحي إلهام قاله مجاهد .

وروي عن ابن عباس : أو منام .

وقال الضحاك وقتادة : نزل عليه جبريل في البئر .

وقال الحسن : أعطاه الله النبوة في الجب وكان صغيراً ، كما أوحى إلي يحيى وعيسى عليهما السلام ، وهو ظاهر أوحينا ، ويدل على أنّ الضمير عائد على يوسف قوله لهم قال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون .

وقيل : الضمير في إليه عائد على يعقوب ، وإنما أوحي إليه ليأنس في الظلمة من الوحدة ، وليبشر بما يؤول إليه أمره ، ومعناه : للتخلص مما أنت فيه ، ولتحدثن إخوتك بما فعلوا بك .

وهم لا يشعرون جملة حالية من قوله : لتنبئنهم بهذا أي : غير عالمين أنك يوسف وقت التنبئة قاله ابن جريج ، وذلك لعلو شأنك وعظمة سلطانك ، وبعد حالك عن أذهانهم ، ولطول العمر المبدل للهيئات والأشكال .

وذكر أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون ، دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال : إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له : يوسف ، وكان يدنيه دونكم ، وأنكم انطلقتم به وألقيتموه في غيابة الجب وقلتم لأبيكم : أكله الذئب . وبيع بثمن بخس ، ويجوز أن يكون وهم لا يشعرون حالاً من قوله : وأوحينا أي : وهم لا يشعرون ، قاله قتادة .

أي : بإيحائنا إليك وما أخبرناك به من نجاتك وطول عمرك ، إلى أن تنبئهم بما فعلوا بك .

وقرأ الجمهور لتنبئنهم بتاء الخطاب ، وابن عمر بياء الغيبة ، وكذا في بعض مصاحف البصرة .

وقرأ سلام بالنون .

والذي يظهر من سياق الأخبار والقصص أن يوسف كان صغيراً ، فقيل : كان عمره إذ ذاك سبع سنين .

وقيل : ست ، قاله الضحاك .

(41/392)

وأبعد من ذهب إلى أنه اثنتا عشرة سنة ، وثمان عشرة سنة ، وكلاهما عن الحسن ، أو سبع عشرة سنة قاله ابن السائب .

ويدل على أنه كان صغيراً بحيث لا يدفع نفسه قوله : وأخاف أن يأكله الذئب ويرتع ويلعب وإنا له لحافظون ، وأخذ السيارة له ، وقول الوارد : هذا غلام ، وقول العزيز : عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وما حكى من حملهم إياه واحداً بعد واحد ، ومن كلامه لأخيه يهوذا : ارحم ضعفي وعجزي وحداثة سني ، وارحم قلب أبيك يعقوب .

ومن هو ابن ثمان عشرة سنة لا يخاف عليه من الذئب ولا سيما إن كان في رفقة ، ولا يقال

فيه : وإنا له لحافظون ، لأنه إذ ذاك قادر على التحيل في نجاة نفسه ، ولا يسمى غلاماً إلا بمجاز ، ولا يقال فيه : أو نتخذه ولداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(42/392)

وقال أبو السعود :

ولما كان هذا مظنةً لسؤال سائل يقول : فما فعلوا بعد ذلك قبلوا ذلك منه أو لا ؟

أجيب بطريق الاستئناف على وجه أُدرج في تضاعيفه قبولُهم له بما سيجيء من قوله : ﴿ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَةِ الجب ﴾ فقيل :

﴿ قَالُواْ يا أَبَانَا ﴾

خاطبوه بذلك تحريكاً لسلسلة النسبِ بينه وبينهم وتذكيراً لرابطة الأخوّة بينهم وبين يوسفَ عليه الصلاة والسلام ليتسببوا بذلك إلى استنزاله عليه السلام عن رأية في حفظه منهم لمّا أحس منه بأمارات الحسد والبغي فكأنهم قالوا : ﴿ مَا لَكَ ﴾ أي أيُّ شيء لك ﴿ لاَ تَأْمَنَّا ﴾ أي لا تجعلنا أمناءَ ﴿ على يُوسُفَ ﴾ مع أنك أبونا ونحن بنوك وهو أخونا ﴿ وَإِنَّا لَهُ لناصحون ﴾ مريدون له الخيرَ ومشفقون عليه ليس فينا ما يُخلُّ بالنصيحة والمِقَة قطُّ والقراءة المشهورةُ بالإدغام والإشمام . وعن نافع رضي الله عنه تركُ الإشمام ومن

الشواذ ترك الإدغام ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً ﴾ إلى الصحراء ﴿ يَرْتَعْ ﴾ أي يتسعْ في أكل الفواكه ونحوها فإن الرتع هو الاتساعُ في الملاذ ﴿ وَيَلْعَبْ ﴾ بالاستباق والتناضل ونظائرِهما مما يُعد من باب التأهّب للغزو ، وإنما عبروا عن ذلك باللعب لكونه على هيئَته تحقيقاً لما راموه من استصحاب يوسفَ عليه السلام بتصويرهم له بصورة ما يلائم حاله عليه السلام ، وقرىء نرتعْ ونلعبْ بالنون ، وقرأ ابن كثير نرتع من ارتعى ونافع بالكسر والياء فيه وفي يلعب وقرىء يُرتعْ من أرتع ماشيتَه ويرتعِ بكسر العين ويلعبُ بالرفع على الابتداء ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ من أن يناله مكروهٌ أكدوا مقالتَهم بأصناف التأكيدِ من إيراد الجملة اسميةً وتحليتها بإنّ واللام وإسنادُ الحفظ إلى كلهم وتقديمُ له على الخبر احتيالاً في تحصيل مقصدهم .

(43/392)

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال من يقول : فماذا قال يعقوبُ عليه السلام؟ فقيل : قال : ﴿ إِنّى لَيَحْزُنُنِى ﴾ اللامُ للابتداء كما في قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ ﴿ أَن تَذْهَبُواْ بِهِ ﴾ لشدة مفارقتِه عليّ وقلة صبري عنه ﴿ و ﴾ مع ذلك ﴿ أَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذئب ﴾ لأن الأرض كانت مَذأبة والحزنُ ألمُ القلب بفوت المحبوبِ والخوفُ

انزعاجُ النفسِ لنزول المكروهِ ولذلك أُسند الأول إلى الذهاب به المفوّتِ لاستمرار مصاحبتِه ومواصلتِه ليوسف والثاني إلى ما يُتوقع نزولُه من أكل الذئبِ ، وقيل : رأى في المنام أنه قد شد عليه عليه السلام ذئبٌ وكان يحذَره فقال ذلك ، وقد لقنهم للعلة إن البلاء موكل بالمنطق . . . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، في رواية البزي بالهمزة على الأصل ، وأبو عمرو به وقفاً . وعاصم ، وابنُ عامر ، وحمزةُ درجاً وقيل : اشتقاقه من تذاءبت الريحُ إذا هاجت من كل جانب ، وقال الأصمعي : الأمرُ بالعكس وهو أظهر لفظاً ومعنى ﴿ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافلون ﴾ لاشتغالكم بالرتع واللّعِب أو لقلة اهتمامِكم بحفظه .

﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذئب وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾

(44/392)

أي والحال أُنا جماعةٌ كثيرةٌ جديرةٌ بأن تُعصَّب بنا الأمورُ العظام وتُكفى الخطوبُ بآرائنا وتدبيرِاتنا واللام الداخلة على الشرط موطئةٌ للقسم وقوله : ﴿ إِنَّا إِذَاً لخاسرون ﴾ جوابٌ مُجزىءٌ عن الجزاء أي لها لكون ضعفاً وخوَراً وعجزاً أو مستحقون للهلاك إذ لا غَناء عندنا ولا جدوى في حياتنا أو مستحقون لأن يدعى علينا بالخَسار والدمار ويقال : خسّرهم الله تعالى ودمّرهم حيث أكل الذئبُ بعضهم وهم حضور ، وقيل : إن لم نقدِر على

حفظه وهو أعزُّ شيء عندنا فقد هلكت مواشينا إذن وخسِرناها ، وإنما اقتصروا على جواب خوف يعقوبَ عليه السلام من أكل الذئب لأنه السببُ القوي في المنع دون الحزن لِقصر مدّته بناء على أنهم يأتون به عن قريب ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُوٓاْ ﴾ أي أزمعوا ﴿ أَن يَجْعَلُوهُ ﴾ مفعولٌ لأجمعوا يقال : أجمع الأمرَ ومنه ﴿ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ ﴾ ولا يستعمل ذلك إلا في الأفعال التي قوِيت الدواعي إلى فعلها ﴿ فِى غَيَابَةِ الجب ﴾ قيل : هي بئرٌ بأرض الأردنّ ، وقيل : بين مصرَ ومدينَ ، وقيل : على ثلاثة فراسخَ من منزل يعقوبَ عليه السلام بكنعانَ التي هي من نواحي الأردنّ كما أن مدينَ كذلك ، وأما ما يقال من أنها بئرُ بيتِ المقدس فيردّه التعليلُ بالتقاط السيارةِ ومجيئِهم أباهم عشاءَ ذلك اليومِ فإن بين منزل يعقوبَ عليه السلام وبين بيت المقدس مراحل . وجوابُ لما محذوفٌ إيذاناً بظهوره وإشعاراً بأن تفصيلَه مما لا يحويه فلكُ العبارة ، ومجملُه فعلوا به من الأذية ما فعلوا . يروى أنهم لما برزوا إلى الصحراء أخذوا يُؤذونه ويضربونه حتى كادوا يقتلونه ، فجعل يصيح ويستغيث ، فقال يهوذا : أما عاهدتموني ألا تقتلوه ، فأتوا به إلى البئر فتعلق بثيابهم فنزعوها من يديه فدلّوه فيها فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ، ونزعوا قميصَه لِما عزموا عليه من تلطيخه بالدم احتيالاً لأبيه ، فقال : يا إخوتاه ردوا عليّ قميصي

أتوارى به فقالوا : ادعُ الشمسَ والقمرَ والأحدَ عشر كوكباً تؤنسك ، فدلوه فيها ، فلما بلغ نصفها ألقَوْه ليموت وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكي ، فنادَوه وظن أنها رحمةٌ أدركتهم . فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه فمنعهم يهوذا ، وكان يأتيه بالطعام كلَّ يوم . ويروى أن إبراهيمَ عليه السلام حين ألقي في النار وجُرّد عن ثيابه أتاه جبريلُ عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه فدفعه أبراهيمُ إلى إسحاقَ وإسحاقُ إلى يعقوبَ فجعله يعقوبُ في تميمة وعلقها في عنق يوسفَ ، فجاءه جبريل عليه السلام فأخرجه من التميمة فألبسه إياه .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ عند ذلك تبشيراً له بما يؤول إليه أمره وإزالةً لوحشته وإيناساً له ، قيل : كان ذلك قبل إدراكِه كما أوحي إلى يحيى وعيسى ، وقيل : كان إذ ذاك مدركاً ، قال الحسن رضي الله عنه : كان له سبعَ عشرةَ سنة ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا ﴾ أي لتتخلّصن مما أنت فيه من سوءِ الحالِ وضيقِ المجالِ ولتُحدّثن إخوتَك بما فعلوا بك ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بأنك يوسفُ لتبايُن حالَيك : حالِك هذا وحالِك يومئذ لعلو شأنك وكبرياءِ سلطانِك وبُعد حالِك عن أوهامهم ، وقيل : لبعد العهد المبدّلِ للهيئات المغيّرِ للأشكال ، والأولُ أدخلُ في التسلية ، روي أنهم حين دخلوا عليه ممارين فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصُّواع فوضعه على يده ثم نقره فطنّ ، فقال : إنه ليُخبرني هذا الجامُ أنه كان لكم أخٌ من أبيكم يقال

له يوسفُ وكان يُدْنيه دونكم أونكم انطلقتم به وألقَيتموه في غيابة الجب وقلتم لأبيكم أكله الذئبُ وبعتموه بثمن بخس ، ويجوز أن يتعلق (وهم لا يشعرون) بالإيحاء على معنى أنا آنسناه بالوحي وأزلنا عن قلبه الوحشةَ التي أورثوه إياها وهم لا يشعرون بذلك ويحسبون أنه مرهَقٌ مستوحِشٌ لا أنيس له .

وقرئ لننبئّنهم بالنون على أنه وعيدٌ لهم فقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ متعلق بأوحينا لا غيرُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(46/392)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا ﴾

خاطبوه عليه السلام بذلك تحريكاً لسلسلة النسب وتذكيراً لرابطة الأخوة ليتسببوا بذلك استنزاله عن رأيه في حفظه منهم لما أحس بحسدهم فكأنهم قالوا : ﴿ مالك ﴾ أي أيّ شيء ﴿ لاَ تَأْمَنَّا ﴾ لا تجعلنا أمناء ﴿ دَخَلُواْ على يُوسُفَ ﴾ مع أنك أبونا ونحن بنوك وهو أخونا ﴿ وَإِنَّا لَهُ لناصحون ﴾ مريدون له الخير ومشفقون عليه ليس فينا ما يخل بذلك ، وجملة ﴿ لا تأمنا ﴾ في موضع الحال ، وكذا جملة ﴿ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لناصحون

﴾ والاستفهام بمالك فيه معنى التعجب ، والكلام ظاهر في أنه تقدم منهم سؤال أن يخرج عليه السلام معهم فلم يرض أبوهم بذلك .

وقرأ الجمهور ﴿ لَا تَأْمَنَّا ﴾ بالادغام والإشمام ، وفسر بضم الشفتين من انفراج بينهما إشارة إلى الحركة مع الادغام الصريح كما يكون في الوقف وهو المعروف عندهم وفيه عسر هنا ، ويطلق على إشراب الكسرة شيئاً من الضمة كما قالوا في قيل ، وعلى إشمام أحد حرفين شيئاً من حرف آخر كما قالوا في الصراط ، وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما .

وأبو جعفر .

والزهري .

وعمرو بن عبيد بالادغام من غير إشمام ، وإرادة النفي ظاهرة ، وقرأ ابن هرمز بضم الميم مع الادغام ، وهذه الضمة منقولة إلى الميم من النون الأولى بعد سلب حركتها .

وقرأ أبي .

والحسن .

وطلحة بن مصرف .

والأعمش لا تأمننا بالاظهار وضم النون على الأصل ، وهو خلاف خط المصحف لأنه بنون واحدة ، وقرأ ابن وثاب .

وأبو رزين لا تيمنا بكسر حرف المضارعة على لغة تميم ؛ وسهل الهمزة بعد الكسرة ابن

وثاب ، ولم يسهل أبو رزين .

وأخرج ابن المنذر .

وأبو الشيخ عن عاصم أنه قرأ بذلك بمحضر عبيد بن فضلة فقال له : لحنت ، فقال أبو رزين : مالحن من قرأ بلغة قومه .

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً ﴾

نصب على الظرفية الزمانية وهو يطلق على اليوم الذي يلي يومك ، وعلى الزمن المستقبل مطلقاً ، وأصله غدو فحذفت لامه وقد جاء تاما أي ابعثه معنا غداً إلى الصحراء ﴿ يَرْتَعْ ﴾ أي يتسع في أكب الفواكه ونحوها ، وأصل معنى الرتع أن تأكل وتشرب ما تشاء في خصب وسعة ، ويقال : رتع أقام في خصب وتنعم ، ويسمى الخصب رتعة بسكون التاء وفتحها ، وذكر الراغب أن الرتع حقيقة في أكل البهائم ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير ، وعلى ذلك قوله :

وإذ يخلوله الحمى رتع . . .

> ﴿ وَيَلْعَبْ ﴾ بالاستباق والانتضال ونحوهما مما يتدرب به لقتال العدو ، وليس المراد

لعب لهو وإلا لم يقرّهم عليه يعقوب عليه السلام وإنما عبروا عن ذلك به لكونه على هيئته تحقيقاً لما رموه من استصحاب يوسف عليه السلام بتصويرهم له بصورة ما يلائم حاله عليه السلام من صغر السن ، وقرأ الجمهور ﴿ يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ بالياء والجزم ، والابنان .

وأبو عمرو بالنون والجزم ، وكسر العين الحرميان ، واختلف عن قنبل في إثبات الياء وحذفها ، ويروى عن ابن كثير نرتع بالنون ﴿ وَيَلْعَبْ ﴾ بالياء ، وهي قراءة جعفر بن محمد ، وقرأ العلاء بن سيابة ﴿ يَرْتَعِ ﴾ بالياء وكسر العين مجزوماً محذوف اللام ﴿ وَيَلْعَبُ ﴾ بالياء أيضاً وضم الباء على أنه مستأنف أو خبر مبتدأ محذوف أي وهو يلعب .

وقرأ مجاهد .

وقتادة .

وابن محيصن نرتع بنون مضمونة وعين ساكنة من أرتعنا ونلعب بالنون أيضاً ، وكذلك أبو رجاء إلا أنه بالياء التحتية فيهما ، والقراءتان على حذف المفعول أي نرتع المواشي أو غيرها ، والفعلان في هذه القراآت كلها مبنيان للفاعل .

وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما ﴿ يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ بالياء والبناء للمفعول فيهما ، وخرج ذلك على أن نائب الفاعل ضمير غد ، والأصل يرتع فيه ويلعب فيه ، ثم حذف الجار واتسع فعدى الفعل للضمير فصار يرتعه ويلعبه ، ثم بنى للمفعول فاستتر الضمير الذي كان منصوباً لكونه نائباً عن الفاعل ، ومن كسر العين من الفعل الأول فهو عنده من المراعاة على ما روي عن مجاهد أي يراعى بعضنا بعضاً ويحرسه .

وقال ابن زيد : من رعى الإبل أن نتدرب في الرعي وحفظ المال ، أو من رعى النبات والكلأ ، والمراد نرعى مواشينا إلا أنه أسند ذلك إليهم مجازاً ، أو تجوز عن أكلهم بالرعي ، وضعف ابن عطية القراءة بإثبات الياء ، وقال : إن إثباتها في مثل هذا الموضع لا يجوز إلا في الشعر كقوله :

ألم يأتيك والأنباء تنمي . . .

بما لاقت لبون بني زياد

وقيل : إن تقدير حذف الحركة في الياء ونحوها للجازم لغة وليس من الضرورة في شيء ، وأخرج أبو الشيخ عن مقاتل بن حيان أنه كان يقرأ نلهو ونعلب ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ أي من أن يناله مكروه ، والجملة في موضع الحال والعامل فيها فعل الأمر أو الجواب وليس ذلك من باب الأعمال كما قال أبو حيان لأن الحال لا تضمر ، وذلك الباب لا بد فيه من الإضمار إذا أعمل الأول ، وقد أكدوا مقالتهم بأصناف التأكيد من إيراد الجملة اسمية وتحليتها بأن

واللام ، وإسناد الحفظ إلى كلهم وتقديم ﴿ لَهُ ﴾ على الخبر احتيالاً في تحصيل مقصدهم .

﴿ قَالَ ﴾ استئناف بياني كأن سائلاً يقول : فماذا قال أبوهم لهم ؟ فقيل : قال :

(49/392)

﴿ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَن تَذْهَبُواْ بِهِ ﴾ لشدة مفارقته عليّ وقلة صبري عنه ، واللام الداخلة على خبر إن إذا كان مضارعاً قيل : تقصره على الحال وهو ظاهر كلام سيبويه ، وقيل : تكون له ولغيره ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ [النحل : 124] ، وقيل : إنها للحال إن خلت عن قرينة ومعها تكون لغيره ، وجعلوا من ذلك ما في الآية ، وبعضهم جعلها هنا للحال ، واستشكل بأن الذهاب مستقبل فيلزم تقدم الفعل على فاعله وهو غير جائز لأنه أثره ولا يعقل تقدم الأثر على المؤثر .

وأجيب بأن التقدير قصد .

أو توقع أن تذهبوا به ، فالكلام على تقدير المضاف وهو الفاعل وليس ذاك أمراً مستقبلاً بل حال ، ولا يمتنع في مثل ذلك حذف الفاعل لما صرحوا به أنه إنما يمتنع إذا لم يسدّ مسدّه شيء وهنا قد سدّ ، ولا يجب أن يكون السادّ هو المضاف إليه كما ظن بل لو سدّ غيره

كان الحذف جائزاً أيضاً ، ومن هنا كان تقدير قصدكم أن تذهبوا صحيحاً ، ويحتمل أن يكون ذلك تقدير معنى لا تقدير إعراب ، وقال بعضهم : إنه يمكن دفع الاشكال من غير حاجة إلى تقدير المضاف بأن يقال : إن الذهاب يحزنه باعتبار تصوره كما قيل نظيره في العلة الغائية ، وقال شهاب : ذلك التحقيق أظن أن ما قالوه في توجيه الاشكال مغلطة لا أصل لها فان لزوم كون الفاعل موجوداً عند وجود الفعل إنما هو في الفاعل الحقيقي لا النحوي واللغوي فإن الفعل قد يكون قبله سواء كان حالاً كما فيما نحن فيه .

أو ماضياً كما أنه يصح أن يكون الفاعل في مثله أمراً معدوماً كما في قوله

: ومن سره أن لا يرى ما يسوءه . . .

فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدا

ولم يقل أحد في مثله إنه مجتاج إلى التأويل فان الحزن والغم كالسرور والفرح يكون بالشيء قبل وقوعه كما صرح به ابن هلال في فروقه ، ولا حاجة إلى تأويل .

أو تقدير .

أو تنزيل للوجود الذهني منزلة الخارجي على القول به ، أو الاكتفاء به فإن مثله لا يعرفه أهل العربية .

أو اللسان فإن أبيت إلا اللجاج فيه فليكم من التجوز في النسبة إلى ما يستقبل لكونه سبباً للحزن الآن اه .

وأنت تعلم أنهم صرحوا بأن فعل الفاعل الاصطلاحي إما قائم به أو واقع منه ، وقيام الشيء بما لم يوجد بعد ووقوعه منه غير معقول ، وحينئذ فالتأويل بما يصح القيام أو الوقوع في فاقد ذلك بحسب الظاهر واجب كذا قيل فتدبر ، وقرأ ابن هرمز .

وابن محيصن ليحزني بالادغام ، وبذلك قرأ زيد بن علي رضي الله عنهما ، وقرأ أيضاً تذهبوا به من أذهب رباعياً ، ويخرج كما قال أبو حيان على زيادة الباء في ﴿ بِهِ ﴾ كما خرج بعضهم ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] في قراءة من ضم التاء وكسر الباء الموحدة على ذلك أي ليحزني أن تذهبوه .

﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذئب ﴾ هو يحوان معروف وخصه بالذكر لأن الأرض على ما قيل : كانت مذئبة ، وقيل : لأنه سبع ضعيف حقير فنبه عليه السلام بخوفه عليه السلام عليه منه على خوفه عليه مما هو أعظم منه افتراساً من باب أولى ، ولحقارة الذئب خصه الربيع بن ضبع الفزاري في كونه يخشاه لما بلغ من السن ما بلغ في قوله :

والذئب) أخشاه إن مررت به . . .

وحدي وأخشى الرياح والمطرا

وقيل : لأنه عليه السلام رأى في المنام أن ذئباً قد شد عليه فكان يحذره ، ولعل هذا الحذر لأن الأنبياء عليهم السلام لمناسبتهم التامة بعالم الملكوت تكون واقعاتهم بعينها واقعة ، وإلا فالذئب في النوم يؤول بالعدو .

وادعى بعضهم أنه عليه السلام ورى بالذئب عن واحد منهم فانه عليه السلام أجل قدراً من أن لا يعلم أن رأياه تلك من أي أقسام الرؤيا هي ، فإن منها ما يحتاج للتعبير .

ومنها ما لا يحتاج إليه ، والكامل يعرف ذلك .

(51/392)

وتعقب بأنه يحتمل أن يكون الأمر قد خفي عليه كما قد خفي مثل ذلك على جده إبراهيم عليه السلام وهو بناء على ما ذكره شيخنا ابن العربي قدس سره من أن رؤياه عليه السلام ذبح ولده من الرؤيا المعبرة بذبح كبش لكنه خفي عليه ذلك ولا يخفى ما فيه ، والمذكور في بعض الروايات أنه عليه السلام رأى في منامه كأنه على ذروة جبل وكأن يوسف في بطن الوادي فإذا عشرة من الذئاب قد احتوشته تريد أكله فدرأ عند واحد ثم انشقت الأرض فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام ، وأنا لم أجد لرواية الرؤيا مطلقاً سنداً يعول عليه ولا حاجة

بنا إلى اعتبارها لتكلف الكلام فيها ، وبالجملة ما وقع منه عليه السلام من هذا القول كان تلقينا للجواب من غير قصد وهو على أسلوب قوله سبحانه : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ [الإنفطار : 6] والبلاء موكل بالمنطق .

وأخرج أبو الشيخ .

وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تلقنوا الناس فيكذبوا فان بني يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الناس فلما لقنهم أبوهم كذبوا فقالوا : أكله الذئب " والحزن ألم القلب لفوت المحبوب .

والخوف انزعاج النفس لنزول المكروه ، ولذلك أسند الأول إلى الذهاب به المفوت لاستمرار مصاحبته ومواصلته ليوسع عليه السلام ، والثاني إلى ما يتوقع نزوله من أكل الذئب والذئب أصله الهمزة وهي لغة الحجاز ، وبها قرأ غير واحد .

وقرأ الكسائي .

وخلف .

وأبو جعفر .

وورش .

والأعمش .

وغيرهم بابدالها ياءاً لسكونها وانكسار ما قبلها وهو القياس في مثل ذلك ، وذكر بعضهم

أنه قد همزه على الأصل ابن كثير .

ونافع في رواية قالون .

وأبو عمرو وقفاً ، وابن عامر .

وحمزة درجاً وأبدلا وقفاً ، ولعل ذلك لأن التقاء الساكنين في الوقف وإن كان جائزاً إلا أنه إذا كان الأول حرف مد يكون أحسن .

وقال نصر : سمعت أبا عمرو لا يهمزه ، والظاهر أنه أراد مطلقاً فيكون ما تقدم رواية وهذه أخرى ، ويجمع على أذؤب .

وذئاب .

(52/392)

وذؤبان ، واستقاقه عند الزمخشري من تذاءبت الريح إذا هبت من كل جهة .

وقال الأصمعي : إن اشتقاق تذاءبت من الذب لأن الذئب يفعله في عدوه ، قيل : وهو أنسب ولذا عد تذاءبت الريح من المجاز في الأساس لكن قيل عليه : إن أخذ الفعل من الأسماء الجامدة كابل قليل مخالف للقياس ﴿ وَأَنتُمْ عَنْهُ غافلون ﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب .

أو لقلة اهتمامكم بحفظه .

﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذئب وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾

أي والحال أنا جماعة جديرة بأن تعصب بنا الأمور وتكفي بآرائنا وتدبيراتنا الخطوب ، واللام الداخلة على الشرط موطئة للقسم ، وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا إِذًا لخاسرون ﴾ جواب مجزىء عن الجزاء ، والخسار إما بمعنى الهلاك تجوزاً عن الضعف .

أو استحقاقه ، أو عن استحقاق الدعاء به أي بضعفاء عاجزون .

أو مستحقون للهلاك لاغناء عندنا ولا نفع في حياتنا ، أو مستحقون لأن يدعى علينا بالخسار والدمار فيقال : خسرهم الله تعالى ودمرهم إذ أكل الذئب أخاهم وهم معه ، وجوز أن يكون بمعناه الحقيقي أي إن لم نقدر على حفظه وهو أعز شيء عندنا فقد هلكت مواشينا وخسرناها وإنما اقتصروا على جواب خوف أبيهم عليه السلام من أكل الذئب مع أنه ذكر في وجه عدم مفارقته أمرين : حزنه لمفارقته .

وخوفه عليه من الذئب لأنه السبب القوي في المنع دون الحزن لقصر زمانه بناءاً على سرعة عودهم به ، أو لأن حزنه بالذهاب به إنما هو للخوف عليه ، فنفي الثاني يدل على نفي الأول ، أو لكراهتهم لذلك لأنه سبب حسدهم له فلذلك أعاروه أذناً صماء .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا به وَأَجْمَعُوا ﴾

أي عزموا عزماً مصمماً على ﴿ أَن يَجْعَلُوهُ فِى ﴾ أي عزموا عزماً مصمماً على ﴿ غَيَابَةِ الجب ﴾ قيل : هو بئر على ثلاث فراسخ من مقام يعقوب عليه السلام بكنعان التي هي من نواحي الأردن ، وقيل : هو بين مصر ومدين ، وقيل : بنفس أرض الأردن ، وزعم بعضهم أنها بئر بيت المقدس ، وتعقب بأنه يرده التعليل بالتقاط بعض السيارة ومجيئهم عشاء ذلك اليوم فإن بين منزل يعقوب عليه السلام وبيت المقدس مراحل وجواب لما محذوف إيذاناً بظهوره وإشعاراً بأن تفصيله مما لا يحويه فلك العبارة ومجمله فعلوا ما فعلوا ، وقدره بعضهم عظمت فتنتهم وهو أولى من تقدير وضعوه فيها ، وقيل : لا حذف والجواب أوحينا ، والواو زائدة وليس بشيء .

قال وهب .

وغيره من أهل السير والأخبار : إن إخوة يوسف عليه السلام قالوا : أما تشتاق أن تخرج معنا إلى مواشينا فنتصيد ونستبق ؟ فقال عليه السلام : بلى قالوا : فسل أباك أن يرسلك معنا ، فقال عليه السلام : أفعل فدخلوا بجماعتهم على يعقوب فقالوا : يا أبانا إن يوسف قد

أحب أن يخرج معنا إلى مواشينا ، فقال يعقوب : ما تقول يا نبي ؟ قال : نعم يا أبت إني أرى من إخوتي من اللين واللطف فأحب أن تأذن لي وكان يعقوب يكره مفارقته ويحب مرضاته فأذن له وأرسله معهم فلما خرجوا به جعلوا يحملونه على رقابهم ويعقوب ينظر إليهم فلما بعدوا عنه وصاروا به إلى الصحراء ألقوه إلى الأرض وأظهروا له ما في أنفسهم من العداوة وبسطوا له القول وجعلوا يضربونه فجعل كلما جاء إلى واحد منهم واستغاث به ضربه فلما فطن لما عزموا عليه جعل ينادي يا أبتا لو رأيت يوسف وما نزل به من إخوته لا حزنك ذلك وأبكاك يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك وضيعوا وصيتك وجعل يبكي بكاءاً شديداً فأخذ روبيل فجلد به الأرض ثم جثم على صدره وأراد قتله ، فقال له يوسف : مهلاً يا أخي لا تقتلني ، فقال له : يا ابن راحيل أنت صاحب الاحلام قل لرؤياك تخلصك من أيدينا ولوي عنقه فاستغاث بيهوذا وقال له : اتق الله تعالى فيّ وحل بيني وبين من يريد قتلي فأدركته رحمة الأخوة ورق له فقال : يا إخوتاه ما على هذا عاهدتموني ألا أدلكم على ما هو أهون لكم وأرفق به ؟ قالوا : وما هو ؟ قال : تلقونه في هذا الجب فإما أن يموت أو يلتقطه بعض السيارة فانطلقوا به إلى بئر هناك واسع الاسفل ضيق الرأس فجعلوا يدلونه فيها فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال : يا إخوتاه ردوا على قميصي لأستتر به في الجب فلم يفعلوا ثم ألقوه فيها ، فقال لهم : يا إخوتاه أتدعوني وحيداً ؟ قالوا : أدع الشمس والقمر والكواكب تؤنسك .

(55/392)

وقيل : جعلوه في دلو ثم أدلوه فلما بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم قام على صخرة فيها .

وروي أنهم لما ألقوه في الجب جعل يبكي فنادوه فظن أنها رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا رضخه بصخرة ليقتلوه فمنعهم يهوذا وكان عند يعقوب قميص إبراهيم عليه السلام الذي كساه الله تعالى إياه من الجنة حين ألقى في النار وكان قد جعله في قصبة من فضة وعلقة في عنق يوسف لما خرج مع ءخوته فلما صار في البئر أخرجه ملك وألبسه أياه فأضاء له الجب ، وعن الحسن أنه لما ألقى فيها عذب ماؤها وكان يغنيه عن الطعام والشراب ونزل عليه جبريل عليه السلام يؤنسه فلما أمسى نهض ليذهب فقال له : إني أستوحش إذا ذهبت ، فقال : إذا رمت شيئاً فقل : يا صريخ المستصرخين .

ويا غوث المستغيثين .

ويا مفرج كرب المكروبين قد ترى مكاني وتعلم حالي ولا يخفى عليك شيء من أمري فلما قالها يوسف عليه السلام حفتة الملائكة عليهم السلام واستأنس بهم .

(56/392)

وقال محمد بن مسلم الطائفي : إنه عليه السلام لما ألقى في الجب قال : يا شاهداً غير غائب ويا قريباً غير بعيد ويا غالبا غير مغلوب اجعل لي فرجاً مما أنا فيه ، وقيل : كان يقول : يا إليه إبراهيم وإسحق ويعقوب ارحم ضعفي وقلة حللتي وصغر سني ، وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما ألقى يوسف في الجب أتاه به جبريل عليه السلام فقال : يا غلام من ألقاك في هذا الجب ؟ قال : إخوتي قال : ولم ؟ قال : لمودة أبي إياي حسدوني ، قال : تريد الخروج من ههنا ؟ قال : ذاك إلى إله يعقوب ، قال : قل : اللهم إني أسألك باسمك المكنون المخزون يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام أن تغفر لي وترحمني وأن تجعل من أمري فرجاً ومخرجاً وأن ترزقني من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب فقالها فجعل الله تعالى له من أمره فرجاً ومخرجاً ورزقه ملك مصر من حيث لا يحتسب ثم قال عليه الصلاة والسلام : ألظوا بهؤلاء الكلمات فانهن دعاء المصطفين الاخيار " وروى غير ذلك ، والروايات في كيفية إلقائه .

وما قال .

وما قيل له كثيرة ، وقد تضمنت ما يلين له الصخر لكن ليس فيها ما له سند يعول عليه ، والله تعالى أعلم ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ الضمير ليوسف أي أعلمناه عند ذلك تبشيراً له بما يؤول إليه أمره وإزالة لوحشته وتسلية له ، وكان ذلك على ما روي عن مجاهد بالالهام ؛

وقيل : بالالقاء في مبشرات المنام ، وقال الضحاك .

وقتادة : بارسال جبريل عليه السلام إليه والموحى إليه ما تضمنه قوله سبحانه : ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا ﴾ وهو بشارة له بالخلاص أيضاً أي لتخلصن مما أنت فيه من سوء الحال وضيق المجال ولتخبرن إخوتك بما فعلوا بك ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بأنك يوسف لتباين حاليك : حالك هذا .

(57/392)

وحالك يومئذ بعلو شأنك وكبرياء سلطانك وبعد حالك من أوهامهم ، وقيل : لبعد العهد المبدل للهيآت المغير للاشكال والأول أدخل في التسلية ، أخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون جيء بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن ، فقال : إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف يدنيه دونكم وأنكم انطلقتم به فألقيتموه في غيابة الجب فأتيتم أباكم فقلتم : إن الذئب أكله وجئتم على قميصه بدم كذب ، فقال بعضهم لبعض : إن هذا الجام ليخبره بخبركم ، ثم قال ابن عباس : فلا نرى هذه الآية : ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ ﴾ الخ نزلت إلا في ذلك ، وجوز أن يتعلق ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بالايحار على معنى أنا آنسناه

بالوحي وازلنا عن قلبه الوحشة التي أورثوه إياها وهم لا يشعرون بذلك ويحسبون أنه مستوحش لا أنيس له.

وروي ذلك عن قتادة، وكان هذا الإيحاء وهو عليه السلام ابن ست عند الضحاك.

واثنتي عشرة سنة أو ثماني عشرة سنة عند الحسن.

وسبع عشرة سنة عند ابن السائب وهو الذي يزعمه اليهود وقيل غير ذلك، ومن نظر في الآيات ظهر له أن الراجح كونه عليه السلام لم يبلغ الحلم إذ ذاك، وعلى جميع الأقوال أنه عليه السلام لم يكن بالغاً الأربعين عند الايحاء إليه، نعم أكثر الأنبياء عليهم السلام نبئوا في سن الأربعين وقد أوحى إلى بعضهم كيحيى.

وعيسى عليهما السلام قبل ذلك بكثير.

وزعم بعضهم أن ضمير ﴿ إِلَيْهِ ﴾ يعود على يعقوب عليه السلام وليس بشيء كما لا يخفى، وقرأ ابن عمر رضي الله عنهما لينبئنهم بياء الغيبة وكذا في مصاحف البصرة.

وقرأ سلام بالنون على أنه وعيد لهم، فقوله سبحانه: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ متعلق بأوحينا لا غير على ما قاله الزمخشري.

ومن تبعه ، ونظر فيه بأنه يجوز أن يتعلق أيضاً بقوله تعالى : ﴿ لتنبئنهم ﴾ وأن يراد بانباء الله تعالى إيصال فعلهم به عليه السلام وهم لا يشعرون بذلك ، ودفع بأنه بناءاً على الظاهر وأنه لا يجتمع إنباء الله تعالى مع عدم شعورهم بما أنبأهم به إلا بتأويل كتقدير لنعلمنهم بعظيم ما ارتكبوه قبل وهم لا يشعرون بما فيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 12 صـ ﴾

(59/392)

وقال القاسمى :

﴿ قَالُواْ ﴾ أي : لأبيهم : ﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ أي : لم تخافنا عليه ، ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه ؟ أرادوا بذلك استنزاله عن عادته في حفظه منهم . وفيه دليل على أنه أحس منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه – كذا في " الكشاف " – .

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الرتع) : الأكل والشرب والسعي والنشاط ، حيث يكون الخضر والمياه والزروع . يريدون : أن إلزامك إياه أن يكون بمكانك ، موجب لملاله القاطع لنشاطه على العبادة ، واكتساب الكمالات .

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ يعني :

وإن زعمتم أنكم له حافظون ، فحفظكم إنما يكون ما دمتم ناظرين إليه ، لكن لا يخلو الإنسان عن الغفلة ، فأخاف غفلتكم عنه .

قال الزمخشري : اعتذر إليهم بشيئين :

أحدهما : أن ذهابهم به ، ومفارقته إياه مما يحزنه ؛ لأنه كان لا يصبر عنه ساعة .

والثاني : خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم ، أو قل به اهتمامهم ، ولم تصدق بحفظه عنايتهم .

قال الناصر : وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذئب عليه ، لأنه مظنة هلاكه . وأما حزنه لمفارقته ريثما يرتع ويلعب ويعود سالماً إليه عما قليل ؛ فأمر سهل . فكأنهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه . انتهى أي : فيما حكي عنهم بقوله :

﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي : جماعة أقوياء ، يمكننا أن ننزعه من يد الذئب : ﴿ إِنَّا إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴾ أي : هالكون ضعفاً وجبناً . أو عاجزون ، أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ ﴾ أي : بعد مراجعة أبيهم في شأنه : ﴿ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ فيه تعظيم لما أزمعوا ؛ إذ أخذوه ليكرموه ، ويدخلوا السرور على أبيه ، ومكروا ما مكروا ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا ﴾ أي : أعلمناه بإلقاء في روعه ، أو بواسطة ملك عند ذلك تبشيراً له ، بأنك ستخلص مما أنت فيه ، وتحدثهم بما فعلوا بك .

وقوله : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ إما متعلق بـ (أوحينا) أي : أوحينا إليه ذلك وهم لا يشعرون ؛ إيناساً له ، وإزالة للوحشة ، أو حال من الهاء في (لتنبئنهم) ، أي : لتحدثنهم بذلك وهم لا يشعرون أنك يوسف ، لعلو شأنك ، كما سيأتي في قوله تعالى : ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ [يوسف : من الآية 58] .

روي أنهم نزعوا قميص يوسف الموشى الذي عليه ، وأخذوه ، وطرحوه في البئر ، وكانت فارغة لا ماء بها ، وجلسوا بعدُ يأكلون ويلهون إلى المساء .

وجواب (لما) في الآية محذوف ، مثل فعلوا ما فعلوا ، أو طرحوه فيها . وقيل : الجواب (أوحينا) والواو زائدة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 161 . 163 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾

استئناف بيانيّ لأنّ سوق القصّة يستدعي تساؤل السامع عمّا جرَى بعد إشارة أخيهم عليهم ، وهل رجعوا عمّا بيتوا وصمّموا على ما أشار به أخوهم .

وابتداء الكلام مع أبيهم بقولهم : ﴿ يا أبانا ﴾ يقضي أنّ تلك عادتهم في خطاب الابن أباه .

ولعل يعقوب عليه السّلام كان لا يأذن ليوسف عليه السّلام بالخروج مع إخوته للرعي أو للسّبق خوفاً عليه من أن يصيبه سوء من كيدهم أو من غيرهم ، ولم يكن يصرّح لهم بأنّه لا يأمنهم عليه ولكن حاله في منعه من الخروج كحال من لا يأمنهم عليه فنزّلوه منزلة من لا يأمنهم ، وأتوا بالاستفهام المستعمل في الإنكار على نفي الائتمان .

وفي التّوراة أن يعقوب عليه السّلام أرسله إلى إخوته وكانوا قد خرجوا يرعون ، وإذا لم يكن تحريفاً فلعلّ يعقوب عليه السّلام بعد أن امتنع من خروج يوسف عليه السّلام معهم سمح له بذلك ، أو بعد أن سمع لومهم عليه سمح له بذلك .

وتركيب ﴿ ما لك ﴾ لا تفعل .

تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ في سورة يونس (35) ، وانظر قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا مَا لَكُمْ إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثّاقلتم إلى الأرض ﴾ في سورة بَراءة (38) .

وقوله : ﴿ فما لكم في المنافقين فئتين ﴾ في سورة النساء (88) .

واتفق القرّاء على قراءة ﴿ لا تأمنّا ﴾ بنون مشددة مدغمة من نون أمن ونون جماعة المتكلّمين ، وهي مرسومة في المصحف بنون واحدة .

واختلفوا في كيفية النطق بهذه النون بين إدغام محض ، وإدغام بإشمام ، وإخفاء بلا إدغام ، وهذا الوجه الأخير مرجوح ، وأرجح الوجهين الآخرين الإدغام بإشمام ، وهما طريقتان للكل وليسا مذهبين .

وحرف ﴿ على ﴾ التي يتعدّى بها فعل الأمن المنفي للاستعلاء المجازي بمعنى التمكّن من تعلّق الائتمان بمدخول ﴿ على ﴾ .

(62/392)

والنّصح عمل أو قول فيه نفع للمنصوح ، وفعله يتعدّى باللاّم غالباً وبنفسه .

وتقدّم في قوله تعالى : ﴿ أبلّغكم رسالات ربّي وأنصح لكم ﴾ في سورة الأعراف (62)

.

وجملة ﴿ وإنّا له لناصحون ﴾ معترضة بين جملتي ﴿ ما لك لا تأمنّا ﴾ وجملة ﴿ أرسله ﴾ .

والمعنى هنا : أنهم يعملون ما فيه نفع ليوسف عليه السّلام .

وجملة ﴿ أرسله ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانيّاً لأن الإنكار المتقدّم يثير ترقب يعقوب عليه السّلام لمعرفة ما يريدون منه ليوسف عليه السّلام .

و﴿ يرتَع ﴾ قرأه نافع ، وأبو جعفر ، ويعقوب بياء الغائب وكسر العَين .

وقرأه ابن كثير بنون المتكلّم المشارك وكسر العين وهو على قراءتي هؤلاء الأربعة مضارع ارتَعَى وهو افتعال من الرّعي للمبالغة فيه .

فهو حقيقة في أكل المواشي والبهائم واستعير في كلامهم للأكل الكثير لأنّ الناس إذا خرجوا إلى الرّياض والأرياف للّعب والسّبق تقوى شهوة الأكل فيهم فيأكلون أكلاً ذريعاً فلذلك شبّه أكلهم بأكل الأنعام .

وإنّما ذكروا ذلك لأنّه يسرّ أباهم أن يكونوا فرحين .

وقرأه أبو عمرو ، وابن عامر بنون وسكون العين .

وقرأه عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف بياء الغائب وسكون العين وهو على قراءتي هؤلاء الستة مضارع رتَع إذا أقام في خصب وسعة من الطعام .

والتحقيق أنّ هذا مستعار من رتعت الدّابة إذا أكلت في المرعى حتّى شبعت .

فمفاد المعنى على التأويلين واحد .

واللّعب : فعل أو كلام لا يراد منه ما شأنه أن يراد بمثله نحو الجري والقفز والسّبق والمراماة ،

نحو قول امرئ القيس :

فظلّ العذارى يرتمين بشحمها

يقصد منه الاستجمام ودفع السآمة .

وهو مباح في الشرائع كلّها إذا لم يصر دأباً .

فلا وجه لتساؤل صاحب "الكشاف" على استجازة يعقوب عليه السّلام لهم اللعب .

والذين قرأوا ﴿ نرتع ﴾ بنون المشاركة قرأوا ﴿ ونلعب ﴾ بالنون أيضاً .

وجملة ﴿ وإنّا له لحافظون ﴾ في موضع الحال مثل ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ [سورة يوسف : 10] .

(63/392)

والتّأكيد فيهما للتّحقيق تنزيلاً لأبيهم منزلة الشّاك في أنّهم يحفظونه وينصحونه كما نزّلوه منزلة من لا يأمنهم عليه من حيث إنّه كان لا يأذن له بالخروج معهم للرعي ونحوه .

وتقديم له ﴾ في ﴿ له لناصحون ﴾ و ﴿ له لحافظون ﴾ يجوز أن يكون لأجل الرعاية للفاصلة والاهتمام بشأن يوسف عليه السّلام في ظاهر الأمر ، ويجوز أن يكون للقصر الادّعائي ؛ جعلوا أنفسهم لفرط عنايتهم به بمنزلة من لا يحفظ غيره ولا ينصح غيره .

وفي هذا القول الذي تواطأوا عليه عند أبيهم عبرة من تواطىء أهل الغرض الواحد على التحيّل لنصب الأحابيل لتحصيل غرض دنيء ، وكيف ابتدأوا بالاستفهام عن عدم أمنه إيّاهم على أخيهم وإظهار أنّهم نصحاء له ، وحققوا ذلك بالجملة الاسمية وبحرف التوكيد ، ثمّ أظهروا أنّهم ما حرصوا إلاّ على فائدة أخيهم وأنّهم حافظون له وأكّدوا ذلك أيضاً .

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾

فصل جملة ﴿ قال ﴾ جار على طريقة المحاورة .

أظهر لهم سبب امتناعه من خروج يوسف عليه السّلام معهم إلى الرّيف بأنّه يحزنه لبعده عنه أيّاماً ، وبأنّه يخشى عليه الذئاب ، إذ كان يوسف عليه السّلام حينئذٍ غلاماً ، وكان قد رُبّيَ في دعَة فلم يكن مَرناً بمقاومة الوحوش ، والذئاب تجْتَرىءُ على الذي تحسّ منه ضعفاً في دفاعها .

قال الرّبيع بن ضبع الفزاري يشكو ضعف الشيخوخة:

والذّئب أخشاه إن مررت به . . .

وحدي وأخشى الرياح والمطرا

وقال الفرزدق يذكر ذئباً :

فقلت له لمّا تكشّر ضاحكاً . . .

وقائم سيفي من يدي بمكان

تعش فإن عاهدتني لا تخونني . . .

نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

فذئاب بادية الشّام كانت أشدّ خبثاً من بقية الذئاب ، ولعلّها كانت كذئاب بلاد الرُّوس .

والعرب يقولون : إنّ الذئب إذا حورب ودافع عن نفسه حتّى عضّ الإنسان وأسال دمه أنّه يضرى حين يرى الدمّ فيستأسد على الإنسان ، قال:

(64/392)

فكنت كذئب السّوء حين رأى دماً . . .

بصاحبه يوماً أحال على الدم

وقد يتجمّع سرب من الذئاب فتكون أشدّ خطراً على الواحد من الناس والصغير .

والتعريف في ﴿ الذئب ﴾ تعريف الحقيقة والطبيعة ، ويسمّى تعريف الجنس .

وهو هنا مراد به غير معيّن من نوع الذئب أو جماعة منه ، وليس الحكم على الجنس بقرينة أن الأكل من أحوال الذّوات لا من أحوال الجنس ، لكن المراد أية ذات من هذا الجنس دون تعيين .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ [سورة الجمعة : 5] أي فرد من

الحمير غير معيّن ، وقرينة إرادة الفرد دون الجنس إسناد حمل الأسفار إليه لأنّ الجنس لا يحمل .

ومنه قولهم : (ادخل السوق) إذا أردت فرداً من الأسواق غير معين ، وقولك : ادخل ، قرينة على ما ذكر .

وهذا التّعريف شبيه بالنّكرة في المعنى إلاّ أنّه مراد به فرد من الجنس .

وقريب من هذا التّعريف باللاّم التعريف بعلم الجنس ، والفرق بين هذه اللام وبين المنكّر كالفرق بين علم الجنس والنكرة .

فالمعنى : أخاف أن يأكله الذّئب ، أي يَقتله فيأكل منه فإنّكم تبعدون عنه ، لَما يعلم من إمعانهم في اللّعب والشّغل باللهو والمسابقة ، فتجتري الذئاب على يوسف عليه السّلام .

والذئب : حيوان من الفصيلة الكلبيّة ، وهو كلب بَرّي وحشيّ .

من خلقه الاحتيال والنفورُ .

وهو يفترس الغنم .

وإذا قاتل الإنسان فجرحه ورأى عليه الدم ضرى به فربّما مزّقه .

وإنّما ذكر يعقوب عليه السّلام أنّ ذهابهم به غَدا يحدث به حزناً مستقبلاً ليصرفهم عن الإلحاح في طلب الخروج به لأنّ شأن الابن البار أن يتّقي ما يحزن أباه .

وتأكيد الجملة بحرف التّأكيد لقطع إلحاحهم بتحقيق أنّ حزنه لفراقه ثابت ، تنزيلاً لهم منزلة

من ينكر ذلك ، إذْ رأى إلحاحهم .

ويسري التّأكيد إلى جملة وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ .

فأبوا إلاّ المراجعة قالوا : ﴿ لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنّا إذن لخاسرون ﴾ .

(65/392)

واللاّم في ﴿ لِئن أكله ﴾ موطّئة للقسم ، أرادوا تأكيد الجواب باللاّم .

وإنّ ولام الابتداء وإذن الجوابيّة تحقيقاً لحصول خسرانهم على تقدير حصول الشّرط .

والمراد : الكناية عن عدم تفريطهم فيه وعن حفظهم إيّاه لأنّ المرء لا يرضى أن يوصف بالخسران .

والمراد بالخسران : انتفاء النفع المرجوّ من الرّجال ، استعاروا له انتفاء نفع التاجر من تجره ، وهو خيبة مذمومة ، أي إنّا إذن لمسلوبون من صفات الفتوة من قوة ومقدرة ويقظة .

فكونهم عصبة يحول دون تواطيهم على ما يوجب الخسرانَ لجميعهم .

وتقدم معنى العصبة آنفاً ، وفي هذا عبرة مِن مقدار إظهار الصّلاح مع استبطان الضرّ والإهلاك .

وقرأ الجمهور بتحقيق همزة ﴿ الذئب ﴾ على الأصل .

وقرأه ورش عن نافع ، والسوسي عن أبي عمرو ، والكسائيّ بتخفيف الهمزة ياء .

وفي بعض التفاسير نسب تخفيف الهمزة إلى خلف ، وأبي جعفر ، وذلك لا يعرف في كتب القراءات .

وفي البيضاوي أنّ أبا عَمرو أظهر الهمزة في التوقّف ، وأنّ حمزة أظهرها في الوصل .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾

تفريع حكاية الذّهاب به والعزم على إلقائه في الجبّ على حكاية المحاورة بين يعقوب عليه السّلام وبنيه في محاولة الخروج بيوسف عليه السّلام إلى البادية يؤذن بجمل محذوفة فيها ذكر أنهم ألحوا على يعقوب عليه السّلام حتّى أقنعوه فأذن ليوسف عليه السّلام بالخروج معهم ، وهو إيجاز .

والمعنى : فلمّا أجابهم يعقوب عليه السّلام إلى ما طلبوا ذهبوا به وبلغوا المكان الذي فيه الجب .

وفعل (أجمع) يتعدّى إلى المفعول بنفسه .

ومعناه : صمّم على الفعل ، فقوله : ﴿ أن يجعلوه ﴾ هو مفعول ﴿ وأجمعوا ﴾ .

وجواب (لمّا) محذوف دلّ عليه ﴿ أن يجعلوه في غيابت الجب ﴾ ، والتقدير : جعلوه في الجب .

ومثله كثير في القرآن .

وهو من الإيجاز الخاص بالقرآن فهو تقليل في اللّفظ لظهور المعنى .

(66/392)

وجملة ﴿ وأوحينا إليه ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب ﴾

، لأنّ هذا الموحى من مهمّ عبر القصة .

وقيل : الواو مزيدة وجملة ﴿ أوحينا ﴾ هو جواب (لمّا) ، وقد قيل بمثل ذلك في قوله

امرئ القيس:

فلمّا أجزنا ساحة الحي وانتحى .

البيت .

وقيل به في قوله تعالى : ﴿ فلمّا أسلما وتلّه للجبين وناديناه أنْ يا إبراهيم ﴾ [سورة

الصافات : 103 ، 104] الآية وفي جميع ذلك نظر .

والضمير في قوله : إليه ﴾ عائد إلى يوسف عليه السّلام في قول أكثر المفسّرين مقتصرين

عليه .

وذكر ابن عطية أنه قيل الضمير عائد إلى يعقوب عليه السّلام .

وجملة ﴿ لتنبئنهم بأمرهم هذا ﴾ بيان لجلمة ﴿ أوحينا ﴾ .

وأكّدت باللاّم ونون التوكيد لتحقيق مضمونها سواء كان المراد منها الإخبار عن المستقبل أو الأمر في الحال .

فعلى الأوّل فهذا الوحي يحتمل أن يكون إلهاماً ألقاه الله في نفس يوسف عليه السّلام حين كيدهم له ، ويحتمل أنّه وحي بواسطة المَلك فيكون إرهاصاً ليوسف عليه السّلام قبل النّبوءة رحمة من الله ليزيل عنه كربه ، فأعلمه بما يدل على أن الله سيخلصه من هذه المصيبة وتكون له العاقبة على الذين كادوا له ، وإيذان بأنّه سيؤانسه في وحشة الجب بالوحي والبشارة ، وبأنه سينبىء في المستقبل إخوته بما فعلوه معه كما تؤذن به نون التوكيد إذا اقترنت بالجملة الخبرية ، وذلك يستلزم نجاته وتمكّنه من إخوته لأن الإنباء بذلك لا يكون إلا في حال تمكّن منهم وأمن من شرهم .

ومعنى ﴿ بأمرهم ﴾ : بفعلهم العظيم في الإساءة .

وجملة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ في موضع الحال ، أي لتخبرنهم بما فعلوا بك وهم لا يشعرون أنك أخوهم بل في حالة يحسبونه مطلعاً على المغيبات متكهناً بها ، وذلك إخبار بما وقع بعد سنين مما حكي في هذه السورة بقوله تعالى : ﴿ قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ﴾

[سورة يوسف : 89] الآيتين .

وعلى احتمال عود ضمير إليه ﴾ على يعقوب عليه السّلام فالوحي هو إلقاء الله إليه ذلك بواسطة المَلَك ، والواو أظهر في العطف حينئذٍ فهو معطوف على جملة ﴿ فلما ذهبوا به ﴾ إلى آخرها ﴿ وأوحينا إليه ﴾ قبل ذلك .

و﴿ لتنبئنهم ﴾ أمر ، أي أوحينا إليه نَبِّئْهم بأمرهم هذا ، أي أشعرهم بما كادوا ليوسف عليه السّلام ، إشعاراً بالتعريض ، وذلك في قوله : ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ [سورة يوسف : 13] .

وجملة وهم لا يشعرون ﴾ على هذا التقدير حال من ضمير جمع الغائبين ، أي وهم لا يشعرون أننا أوحينا إليه بذلك .

وهذا الجب الذي ألقي فيه يوسف عليه السّلام وقع في التوراة أنه في أرض (دوثان) ، ودوثان كانت مدينة حصينة وصارت خرابا .

والمراد : أنه كانت حوله صحراء هي مرعى ومربع .

ووصف الجب يقتضي أنه على طريق القوافل .

واتّفق واصفوا الجب على أنه بين (بانياس) و (طبرية) .

وأنه على اثني عشر ميلاً من طبرية مما يلي دمشق ، وأنه قرب قرية يقال لها (سنجل أو سنجيل) .

قال قدامة : هي طريق البريد بين بعلبك وطبرية .

ووصفها المتأخرون بالضبط المأخوذ من الأوصاف التاريخية القديمة أنه الطريق الكبرى بين الشام ومصر .

وكانت تجتاز الأردن تحت بحيرة طبرية وتمر على (دوثان) وكانت تسلكها قوافل العرب التي تحمل الأطياب إلى المشرق ، وفي هذه الطريق جباب كثيرة في (دوثان) .

وجب يوسف معروف بين طبرية وصفد ، بنيت عليه قبة في زمن الدولة الأيوبية بحسب التوسّم وهي قائمة إلى الآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(68/392)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾

أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أوحى إلى يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أنه سينبىء إخوته بهذا الأمر الذي فعلوا به في حال كونهم لا يشعرون .

ثم صرح في هذه السورة الكريمة بأنه جل وعلا أنجز ذلك الوعد في قوله : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ [يوسف : 89] .

وصرح بعدم شعورهم بأنه يوسف في قوله : ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُون ﴾ [يوسف : 58] .

وهذا الذي ذكرنا أن العامل في الجملة الحالية هو قوله : ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ ﴾ اي لتخبرنهم ﴿ بِأَمْرِهِمْ هذا ﴾ في حال كونهم ﴿ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بأنك يوسف هو الظاهر .

وقيل : إن عامل الحال هو قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا آلَيْهِ ﴾ وعليه فالمعنى : أن ذلك الإيحاء وقع في حال كونهم لا يشعرون بأنه أوحى إليه ذلك .

وقرأ هذه الآية جمهور القراء ﴿ غَيَابَةِ الجب ﴾ بالإفراد ، وقرأ نافع « غيابات الجب » بصيغة الجمع ، وكل شيء غيب عنك شيئاً فهو غيابة ، ومنه قيل للقبر غيابة ، ومنه قول الشاعر :

وإن أنا يوماً غيبتني غيابتي . . . فسيروا بسيري في العشيرة والأهل

والجمع في قراءة نافع نظراً إلى تعدد أجزاء قعر الجب التي تغيب الداخل فيها عن العيان .

واختلف العلماء في جواب « لما » من قوله ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ ﴾ أمثبت هو أم محذوف ؟ فقيل : هو مثبت ، وهو قوله : ﴿ قَالُواْ يَاأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ [يوسف : 17] الآية .

أي لما كان كذا وكذا ﴿ قَالُواْ يَاأَبَانَا ﴾ ، واستحسن هذا الوجه أبو حيان .

(69/392)

وقيل جواب « لما » هو قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ ﴾ والواو صلة . وهذا مذهب الكوفيين ، تزاد عندهم الواو في جواب « لما » وحتى ، و « إذا » وعلى ذلك خرجوا قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ ﴾ [الصافات : 103 - 104] الآية . وقوله : ﴿ حتى إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ ﴾ [الزمر : 71] الآية ، وقول امرىء القيس :

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى . . . بنا بطن حقف ذي ركام عقنقل

أي لما أجزنا ساحة الحي انتحى .

وقيل : جواب « لما » محذوف ، وهو قول البصريين . واختلف في تقديره . فقيل : إن تقديره فعلوا به ما فعلوا من الأذى .

وقدره بعضهم : فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب عظمت فتنتهم .

وقدره بعضهم : فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب جعلوه فيها .

واستظهر هذا الأخير أبو حيان . لأن قوله : ﴿ وأجمعوا أَن يَجْعَلُوهُ ﴾ يدل على هذا المقدر . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(70/392)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾

وبعد أن وافقوا أخاهم الذي خفَّف من مسألة القتل ، ووصل بها إلى مسألة الإلقاء في الجب ؛ بدأوا التنفيذ ، فقال واحد منهم مُوجّهاً الكلام لأبيه ، وفي حضور الإخوة : ﴿ قَالُوا يا أبانا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا على يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ [يوسف : 11] .

وساعة تسمع قول جماعة ؛ فاعلم أن واحداً منهم هو الذي قال ، وأَمَّنَ الباقون على كلامه ؛ إما سُكوتاً أو بالإشارة .

ولكي يتضح ذلك اقرأ قول الحق سبحانه عن دعاء موسى عليه السلام على فرعون وكان معه هارون .

قال موسى عليه السلام : ﴿ وَقَالَ موسى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الحياة الدنيا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ [يونس : 88] .

ورد الحق سبحانه على دعاء موسى : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا . . . ﴾ [يونس : 89] .

والذي دعا هو موسى ، والذين أمَّنَ على الدعوة هو هارون عليه السلام .

وهكذا نفهم أن الذي قال :

﴿ يا أبانا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا على يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ [يوسف : 11] .

تلك الكلمات التي وردتْ في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، هو واحد من إخوة يوسف ، وأمَّن بقية الإخوة على كلامه .

وقولهم : ﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا على يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ [يوسف : 11] ، يدل أنه كانت هناك محاولات سابقة منهم في ذلك ، ولم يوافقهم الأب .

وقولهم : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ [يوسف : 11] .

يعني أنهم سوف ينتبهون له ، ولن يحدث له ضرر أو شرّ ؛ وسيعطونه كل اهتمام فلا داعي أن يخاف عليه الأب .

(71/392)

ويستمر عَرْض ما جاء على لسان إخوة يوسف : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً . . . ﴾ .

ولأنهم كانوا يخرجون للرعي والعمل ؛ لذلك كان يجب أن يأتوا بِعلَّة ليأذن لهم أبوهم بخروج يوسف معهم ، ويوسف في أوان الطفولة ؛ واللعب بالنسبة له أمر مُحبَّب ومسموح به ؛ لأنه ما زال تحت سن التكليف ، واللعب هو الشغل المباح لقصد انشراح النفس .

ويُفضِّل الشرع أن يكون اللعب في مجال قد يطلبه الجدُّ مستقبلاً ؛ كأن يتعلمَ الطفلُ السباحةَ ، أو المصارعة ، أو إصابة الهدف ؛ وهي الرماية وهكذا نفهم معنى اللعب : إنه شُغُل لا يُلهِي عن واجب ، أما اللهو فهو شغل يُلهِي عن واجب .

وهناك بعضٌ من الألعاب يمارسها الناس ؛ ويجلسون معاً ؛ ثم يُؤذِّن المؤذن ؛ ويأخذهم الحديث ؛ ولا يلتفون إلى إقامة الصلاة في ميعادها ؛ وهكذا يأخذهم اللهو عن الضرورة ؛ أما لو التفتوا إلى إقامة الصلاة : لَصَار الأمر مجرد تسلية لا ضرر منها .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ قَالَ إِنِّي ليحزنني . . ﴾ .

وكلام الأب هنا لا بُدَّ أن يغيظهم فهو دليل المحبة الفائقة إلى الدرجة التي يخاف فيها من فِراق يوسف لِقلَّة صبره عنه ، وشدة رعايته له ؛ ثم جاء لهم بالحكاية الأخرى ، وهي :

﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذئب وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ [يوسف : 13] وقال بعض الناس : لقد علَّمهم يعقوب الكذبة ؛ ولولا ذلك ما عرفوا أن يكذبوها .

ونلحظ أن يعقوب جعل للأخوة لَحْظاً ؛ فلم يقل : " أخاف أن يأكله الذئب وأنتم قاعدون " بل قال :

﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذئب وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ [يوسف : 13] .

وهذا ليُربِّي فيهم مواجيد الأخوة التي تفترض ألاَّ يتصرفوا مع أخيهم بشرّ ؛ ولا أن يتصرف غيرهم معه بشرّ إلا إذا غفلوا عن أخيهم .

ونلحظ في ردِّهم عجزَهم عن أنْ يردوا على قوله :

﴿ قَالَ إِنِّي ليحزنني أَن تَذْهَبُواْ بِهِ . . ﴾ [يوسف : 13] .

(72/392)

فهذا الحب من يعقوب ليوسف هو الذي دفعهم إلى الحقد على يوسف ، وردُّوا فقط على خوفه من أنْ يأكله الذئب ، وجاء القرآن بما قالوه : ﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ . . . ﴾ .

وهنا يكشف لنا الحق سبحانه محاولاتهم لطمأنة أبيهم ؛ كي يأذن في خروج يوسف معهم ؛ ولهذا استنكروا أن يأكله الذئب وهم مُحِيطون به كعُصْبة ، وأعلنوا أنه إنْ حدث ذلك فهم سيخسرون كرامتهم أمام أنفسهم وأمام قومهم ، وهم لا يقبلون على أنفسهم هذا الهوان .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ . . . ﴾ .

وقول الحق : ﴿ وأجمعوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غيابت الجب . . . ﴾ [يوسف : 15] يدلنا على أن تلك المسألة أخذتْ منهم مناقشة ، فيها أَخْذٌ وردٌّ ، إلى أن استقروا عليها .

وألهم الحق سبحانه يوسف عليه السلام بما سوف يفعلونه ، والوحي كما نعلم هو إعلام بخفاء .

وسوف يأتي في القصة أن يوسف عليه السلام بعد أن تولى الوزارة في مصر ودخلوا عليه

أمسك بقدح ونقر عليه بأصابعه، وقال لهم: اسمعوا ما يقوله القدح؛ إنه يقول: إن لكم أخاً وقد فعلتم به كذا وكذا.

وبعض المفسرين قال: إن الحق سبحانه أوحى له، ولم يَلْحَظ إخوته هذا الوحي.

ونقول: إن الوَحْي إعلام بخفاء، ولا يمكن أن يشعر به غير المُوحَى إليه، وعلى ذلك نرى أنهم لم يعلموا هذا الأمر إلا بعد أن تولى يوسف مقاليد الوزارة في مصر؛ بل إنهم لم يعرفوا أن يوسف أخوهم؛ لأنهم قالوا له لحظتها: ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف: 77].

والمقصود بالوحي في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها هو إيناس الوَحْشة؛ وهو وارد إلهي لا يرده وارد الشيطان؛ والإلهام وارد بالنسبة لمَنْ هم غير أنبياء؛ مثلما أوضحنا الأمر الذي حدث مع أم موسى حين أوحى لها الله أن تلقيه في اليم.

(73/392)

والوارد الإلهي لا يجد له معارضة في النفس البشرية، وقد أوحى الله ليوسف ما يُؤنِس وحشته حين ألقاه إخوته في الجُبِّ الذي ابتعد فيه عن حنان أبيه وأنسه بأخيه، ومفارقته لبلده التي درج فيها وأُنْسه بالبيئة التي اعتاد عليها.

فكان لا بُدَّ أن تعطيه السماء دليلاً على أن ما حدث له ليس جَفْوة لك يا يوسف ؛ ولكنه إعداد لك لتقابل أمراً أهمّ من الذي كنت فيه ؛ وأن غُرمَاءك وهم إخوتك سوف يُضطّرون لدقِّ بابك ذات يوم يطلبون عوْنك ، ويطلبون منك أقواتهم ، وستعرفهم أنت دون أن يعرفوك .

هذا من جهة يوسف ؛ وجهة الجُبِّ الذي ألقوْه فيه ، وبقي أن تعالج القصة أمر الإخوة مع الأب ، فيقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ وجاءوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ . . . ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(74/392)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (12) ﴾

أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن أبي قاسم رضي الله عنه قال : قرأ أبو رزين " ما لك لا تمنا على يوسف " قال له عبيد بن نضلة لحنت قال : ما لحن من قرأ بلغة قومه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله " أرسله معنا غداً نرتع ونلعب " قال : نسعى وننشط ونلهو .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن هرون رضي الله عنه قال : كان أبو عمرو يقرأ ﴿ نرتع ونلعب ﴾ بالنون فقلت لأبي عمرو : كيف يقولون : نرتع ونلعب وهم أنبياء ؟ ! . . قال : لم يكونوا يومئذ أنبياء .

وأخرج ابن جرير عن السدي رضي الله عنه ﴿ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ﴾ هو ، يعني بالياء .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ يرتع ﴾ بالياء وكسر العين . قال يرعى غنمه وينظر ويعقل ، ويعرف ما يعرف الرجل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ نرتع ﴾ بالنون وكسر العين . قال يحفظ بعضنا بعضاً ، نتحارس .

وأخرج أبو الشيخ عن الحكم بن عمر الرعيني قال : بعثني خالد القسري إلى قتادة أسأله عن قوله " نرتع ونلعب " فقال قتادة رضي الله عنه لا " نرتع ونلعب " بكسر العين . ثم قال : الناس لا يرتعون إنما ترتع الغنم .

وأخرج أبو الشيخ عن مقاتل بن حيان رضي الله عنه ؛ أنه كان يقرؤها " أرسله معنا غداً نلهو ونلعب " .

وأخرج ابن الأنباري في المصاحف عن الأعرج رضي الله عنه ؛ أنه قرأ " نرتعي " بالنون والياء ﴿ ويلعب ﴾ بالياء .

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (13) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (14)

(75/392)

أخرج أبو الشيخ وابن مردويه والسلفي في الطيوريات عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تلقنوا الناس فيكذبوا ، فإن بني يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الناس ، فلما لقنهم أبوهم كذبوا فقالوا أكله الذئب " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مجلز رضي الله عنه قال : لا ينبغي لأحد أن يلقن ابنه الشر ، فإن بني يعقوب لم يدروا أن الذئب تأكل الناس حتى قال لهم أبوهم إني ﴿ أخاف أن يأكله الذئب ﴾ .

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (15)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله

﴿ وأوحينا إليه . . . ﴾ الآية . قال : أوحى إلى يوسف عليه السلام وهو في الجب ، لتنبئن إخوتك بما صنعوا وهم لا يشعرون بذلك الوحي .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وأوحينا إليه ﴾ قال : أوحى الله إليه وحْياً وهو في الجب ، أن ستنبئهم بما صنعوا وهم - أي إخوته - لا يشعرون بذلك الوحي ، فهوّن ذلك الوحي عليه ما صنع به .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ قال : لا يشعرون أنه أوحي إليه .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ يقول : لا يشعرون أنه يوسف .

(76/392)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون . جيء بالصواع فوضعه على يده ، ثم نقره فطن فقال : إني ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف ، يدين دينكم ، وأنكم انطلقتم به فألقيتموه في غيابة الجب ، فأتيتم أباكم فقلتم أن الذئب أكله وجئتم على

قميصه بدم كذب . فقال بعضهم لبعض أن هذا الجام ليخبره خبركم . قال ابن عباس رضي الله عنهما : فلا نرى هذه الآية نزلت إلا في ذلك ﴿ لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما ألقي يوسف في الجب أتاه جبريل عليه السلام فقال له : يا غلام ، من ألقاك في هذا الجب ؟ قال : إخوتي . قال : ولم ؟ قال : لمودة أبي إياي حسدوني . قال : تريد الخروج من ههنا ؟ قال : ذاك إلى إله يعقوب . قال : قل اللهم إني أسألك باسمك المخزون والمكنون ، يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والاكرام أن تغفر لي ذنبي وترحمني ، وأن تجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً ، وأن ترزقني من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب . فقالها ، فجعل الله له من أمره فرجا ومخرجاً ورزقه ملك مصر من حيث لا يحتسب ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألظوا بهؤلاء الكلمات ، فإنهن دعاء المصطفين الأخيار " .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي بكر بن عياش رضي الله عنه قال : كان يوسف عليه السلام في الجب ثلاثة أيام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور جـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لاَ تَأْمَنَّا ﴾ : حالٌ وتقدَّم نظيرُه . وقرأ العامَّة " تأمَنَّا " بالإِخفاء ، وهو عبارةٌ عن تضعيفِ الصوت بالحركة والفصل بين النونين ، لا أنَّ النونَ تُسَكَّن رَأْساً ، فيكون ذلك إخفاءً لا إدغاماً . قال الداني : " وهو قول عامَّةِ أئمَّتنا وهو الصوابُ لتأكيد دلالته وصحته في القياس " .

وقرأ بعضُهم ذلك بالإِشمام ، وهو عبارةٌ عن ضمِّ الشفتين إشارةً إلى حركة الفعل مع الإِدغامِ الصريح كما يشير إليها الواقف ، وفيه عُسْرٌ كبير قالوا : وتكون الإِشارة إلى الضمة بعد الإِدغام أو قبل كمالِه ، والإِشمامُ يقع بإزاء معانٍ هذا مِنْ جُمْلتها ، ومنها إشراب الكسرةِ شيئاً مِن الضم نحو : ﴿ قِيلَ ﴾ [البقرة : 11] و ﴿ وَغِيضَ ﴾ [هود : 44] وبابه ، وقد تقدم أولَ البقرة . ومنها إشمامُ أحدِ حرفين شيئاً من الآخر كإشمام الصاد زاياً في ﴿ الصراط ﴾ [الفاتحة : 5] : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ ﴾ [النساء : 78] وبابهما ، وقد تقدم ذلك أيضاً في الفاتحة والنساء . فهذا خَلْطُ حرفٍ بحرف ، كما أنَّ ما قبله خَلْطُ حركة بحركة . ومنها الإِشارةُ إلى الضمة في الوقفِ خاصةً ، وإنما يراه البصير دونَ الأعمى .

وقرأ أبو جعفر بالإِدغامِ الصريح من غير إشمامٍ . وقرأ الحسن ذلك بالإِظهار مبالغةً في بيان إِعراب الفعل وللمحافظة على حركة الإِعراب . اتفق الجمهورُ على الإِخفاء أو الإِشمام كما تقدم تحقيقه .

وقرأ ابن هرمز " لا تَأْمُنَّا " بضم الميم ، نَقَل حركةَ النون الأولى عند إرادةِ إدغامها بعد سَلْب الميمِ حركَتها ، وخطُّ المصحف بنون واحدة ، ففي قراءة الحسن مخالفة لها .

(78/392)

وقرأ أبو رزين وابن وثاب " لا تِيْمَنَّا " بكسر حرف المضارعة ، إلا أنَّ ابنَ وثَّابٍ سَهَّل الهمزةَ . قال الشيخ : " ومجيئُه بعد " مالك " والمعنى يُرْشد إلى أنه نَفْيٌ لا نَهْيٌ وليس كقولهم " ما أَحْسَنَنا " في التعجب ؛ لأنه لو أدغم لالتبسَ بالنفي " . قلت : وما أبعد هذا عن تَوَهُّم النهي حتى يَنُصَّ عليه . وقوله " لالتبس بالنفي " صحيح .

قوله تعالى : ﴿ يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ : فيها أربعَ عَشْرَةَ قراءةً إحداها : قراءةُ نافعٍ بالياء مِنْ تحت وكسرِ العين . الثانية : قراءةُ البزي عن ابن كثير " نَرْتَعِ ونلعب " بالنون وكسر العين . الثالثة : قراءةُ قنبل ، وقد اخْتُلِف عليه فنُقِل عنه ثبوتُ الياء بعد العين وَصْلاً ووَقْفاً وحَذْفُها وصلاً ووقفاً ، فيوافق البزيَّ في أحد الوجهين عنه ، فعنه قراءتان . الخامسة :

قراءة أبي عمرو وابن عامر " نرتَعْ ونلعبْ " بالنون وسكون العين والباء . السادسة : قراءة الكوفيين : " يرتعْ ويلعبْ " بالياء من تحت وسكون العين والباء .

وقرأ جعفر بن محمد " نرتع " بالنون " ويلعب " بالياء ، ورُوِيَتْ عن ابن كثير . وقرأ العلاء بن سيابة "يَرْتَعِ ويلعبُ" بالياء فيهما وكسر العين وضم الباء . وقرأ مجاهد وقتادة وابن محيصن " نُرْتَعْ " بضم النون وسكون العين والباء . وقرأ أبو رجاء كذلك ، إلا أنه بالياء مِنْ تحت فيهما . والنخعي ويعقوب " نرتع " بالنون و " يلعب " بالياء . والفعلان في هذه القراءات كلها مبنيٌّ للفاعل .

وقرأ زيد بن علي "يُرْتَعِ ويُلْعَب" بالياء مِنْ تحت مبنيّين للمفعول . وقرىء " نرتعي ونلعبُ " بثبوت الياء ورفع الباء . وقرأ ابن أبي عبلة " نَرْعي ونلعب " فهذه أربعَ عشرةَ قراءةً ، منها ستٌّ في السبع المتواتِر وثمانٍ في الشاذ .

فَمَنْ قرأ بالنون أسند الفعلَ إلى إخوة يوسف ، ومَنْ قرأ بالياء أسند الفعل إليه دونهم ، ومَنْ كسَرَ العين اعتقد أنه جزم بحذف حرفِ العلة ، وجعله مأخوذاً [مِنْ] يَفْتَعِل من الرَّعْي كيرتمي مِن الرمي . ومَنْ سَكَّن العينَ اعتقد أنه جَزَمَهَ بحذف الحركة وجعله مأخوذاً مِنْ رتع

يَرْتَعُ إذا اتّسع في الخِصْب قال :

2747 . . . . وإذا يَخْلُو له لَحْمي رَتَعْ

ومَنْ سكَّن الباءَ جعله مجزوماً ، ومَنْ رفعها جعله مرفوعاً على الاستئناف أي : وهو يلعب ، ومَنْ غاير بين الفعلين فقرأ بالياء مِنْ تحت في " يلعب " دون " نرتع " فلأنَّ اللعبَ مُناسب للصغار . ومَنْ قَرَأَ : " نُرْتِع " رباعياً جعل مفعوله محذوفاً ، أي : نُرْعي مواشِينَا ، ومَنْ بناها للمفعول فالوجهُ أنه أضمر / المفعولَ الذي لم يُسَمَّ فاعله وهو ضمير الغد ، والأصل : نرتع فيه ونلعب فيه ، ثم اتُّسع فيه فَحُذِفَ حرفُ الجر فتعدَّى إليه الفعلُ بنفسه فصار : نرتعه ونلعبه ، فلمَّا بناه للمفعول قام الضمير المنصوب مقام فاعله فانقلب مرفوعاً واستتر في رافعه ، فهو في الاتساع كقوله :

2748 ويومٍ شَهِدْناه سُلَيْمى وعامراً . . . .

ومَنْ رفع الفعلين جعلَهما حالَيْن ، وتكون حالاً مقدرة . وأمَّا إثبات الياء في " نَرْتَعي " مع جزم " نلعب " وهي قراءةُ قنبل فقد تجرأ بعض الناس وردَّها ، وقال ابن عطية : " هي قراءةٌ ضعيفة لا تجوز إلا في الشعر " وقيل : هي لغة مَنْ يجزم بالحركة المقدرة وأنشد :

2749 ألم يَأْتِيك والأنباءُ تَنْمي . . . .

وقد تقدَّمَتْ هذه المسألةُ مستوفاةً .

و" نَرْتع " يحتمل أنْ يكونَ وزنه تَفْتَعِلِ مِن الرعي وهو أَكْلُ المَرْعَى ، ويكون على حَذْف مضاف : نرتع مواشينا ، أو من المراعاة للشيء قال :

(80/392)

2750 تَرْتَعِي السَّفْحَ فالكَثِيبَ فَذَاقا . . . رِ فَرَوْضَ القطا فَذَاتَ الرِّئالِ

ويحتمل أن يكونَ وزنه نَفْعَل مِنْ : رَتَعَ يَرْتَعُ إذا أقام في خِصْب وسَعَة ، ومنه قول الغضبان بن القبعثرى : " القَيْدُ والرَّتَعَة وقِلَّة المَنَعَة " وقال الشاعر :

2751 أكفراً بعد رَدِّ الموت عني . . . وبعد عطائِك المِئَةَ الرِّتاعا

قوله : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ جملة حالية ، والعامل فيها أحدُ شيئين : إمَّا الأمر ، وإمَّا جوابه . فإن قلت : هل يجوز أن تكون المسألةُ من الإِعمال لأنّ كلاًّ من العاملين يصحُّ تَسَلُّطه على الحال؟ فالجواب : ذلك لا يجوز ، لأن الإِعمال يَسْتَلْزِم الإِضمار ، والحال لا تُضْمر ؛ لأنها لا تكون إلا نكرةً أو مؤولةً بها .

قوله تعالى : ﴿ أَن تَذْهَبُواْ ﴾ : فاعل " يَحْزُنني " ، أي : يَحْزنني ذهابُكم . وفي هذه الآيةِ دلالةٌ على أنَّ المضارعَ المقترن بلام الابتداء لا يكون حالاً ، والنحاةُ جَعَلوها مِن القرائن المخصصة للحال ، ووجه الدلالة أنَّ " أَنْ تَذْهبوا " مستقبلٌ لاقترانه بحرفِ الاستقبال وهي

" أنْ " ، وما في حيزها فاعلٌ ، فلو جعَلْنا " لَيَحْزُنني " حالاً لزم سَبْقُ الفعل لفاعله وهو محالٌ . وأجيب عن ذلك بأنَّ الفاعل في الحقيقة مقدرٌ حُذِف هو وقام المضافُ إليه مَقامه ، والتقدير : ليحزنني تَوَقُّعُ ذهابِكم .

وقرأ زيد بن علي وابن هرمز وابن محيصن : " لَيَحْزُنِّي " بالإِدغام . وقرأ زيد بن علي وحده " تُذْهبوا " بضم التاء مِنْ أذهب ، وهو كقوله : ﴿ تُنْبُتُ بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] في قراءة مَنْ ضم التاء فتكون الباءُ زائدةً أو حالية .

و" الذئب " يُهْمَز ولا يُهمز ، وبعدم الهمزة قرأ السوسي والكسائي وورش ، وفي الوقف لا يهمزه حمزة ، قالوا : وهو مشتقٌّ مِنْ " تذاءَبَت الرِّيح " : إذا هَبَّتْ مِنْ كل جهة لأنه يأتي كذلك ، ويُجْمع على ذِئاب وذُؤْبان وأَذْؤُب قال :

(81/392)

2752 وأَزْوَرَ يَمْطُو في بلادٍ بعيدةٍ . . . تعاوى به ذُؤْبانه وثعالِبُهْ

وأرضٌ مَذْأَبة : كثيرة الذئاب ، وذُؤابة الشعر لتحرُّكها وتَقَلُّبها ، مِنْ ذلك .

وقوله : ﴿ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ جملة حالية العامل فيها " يأكله " .

قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ : جملةٌ حالية أو معترضة ، و ﴿ إِنَّآ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴾

جواب القسم وحُذِف جوابُ الشرط . و " إذن " حرفُ جوابٍ ، وقد تَقَدَّم القولُ في ذلك مُشْبعاً ، ونقل أبو البقاء أنه قُرِىء " عُصْبَةً " بالنصب ، وقدَّر ما قدَّمْتُه في الآية الأولى .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ ﴾ : يجوز في جوابها أوجه ، أحدها : أنه محذوفٌ ، أي : عَرَّفْناه وأَوْصَلْنا إليه الطمأنينة . وقدَّره الزمخشري : " فَعَلُوا به ما فعلوا مِن الأذى " وذكر حكايةً طويلة . وقدَّره غيرُه : عَظُمَتْ فِتْنَتُهم . وآخرون " جَعَلوه فيها " . وهذا أَوْلَى لدلالة الكلام عليه .

الثاني : أنَّ الجوابُ مثبتٌ ، وهو قولُه ﴿ قَالُواْ يا أبانا آإِنَّا ذَهَبْنَا ﴾ ، أي : لَمَّا كان كيت وكيت قالوا . وهذا فيه بُعْدٌ لبُعْدِ الكلامِ مِنْ بعضه .

والثالث : أنَّ الجوابَ هو قولُه " وأَوْحَيْنا " والواو فيه زائدةٌ ، أي : فلمَّا ذهبوا به أَوْحينا ، وهو رأيُ الكوفيين ، وجعلوا مِنْ ذلك قولَه تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ ﴾ [الصافات : 103] ، أي : تلَّه . وقولَه : ﴿ حتى إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ ﴾ [الزمر : 71] وقولَ امرئ القيس :

2753 فلمَّا أَجَزْنا ساحةَ الحيِّ وانتحى . . . بنا بَطْنَ حِقْفٍ ذي رُكامٍ عَقَنْقَلِ

أي : فلمَّا أَجَزْنا انتحى . وهو كثيرٌ عندهم بعدَ " لمَّا " .

وقوله : ﴿ أَن يَجْعَلُوهُ ﴾ مفعول " أَجْمعوا " ، أي : عَزَموا على أن يَجْعلوه ، أو عَزَموا أنْ يجعلوه ، لأنه يتعدى بنفسه وبعلى ، ف " أنْ " يُحْتمل أن تكونَ على حذف الحرف ، وأن لا تكون ، فعلى الأولِ يَحْتمل موضعَها النصبُ والجرُّ ، وعلى الثاني يتعيَّن النصبُ .

والجَعْل يجوز أن يكونَ بمعنى الإِلقاء ، وأن يكونَ بمعنى التصيير ، فعلى الأولِ يتعلَّق " في غيابة " بنفس الفعل قبله ، وعلى الثاني بمحذوفٍ . والفعلُ مِنْ قوله : " وأَجْمعوا " يجوز أن يكونَ معطوفاً على ما قبله ، وأن يكون حالاً ، و " قد " معه مضمرةٌ عند بعضهم .

والضمير في " إليه " الظاهر عَوْدُه على يوسف . وقيل : يعود على يعقوب .

وقرأ العامَّةُ : " لَتُنَبِّئَنَّهُمْ " بتاء الخطاب . وقرأ ابن عمر بياء الغيبة ، أي : اللَّه تعالى . قال الشيخ : " وكذا في بعض مصاحف البصرة " وقد تقدَّم أن النَّقْطَ حادثٌ ، فإن قال : مصحفٌ حادثٌ غيرُ مصحفِ عثمان فليس الكلام في ذلك .

وقرأ سَلاَّم : " لَنُنَبِّئَنَّهم " بالنون . و " هذا " صفةٌ لأَمْرهم . وقيل : بدلٌ . وقيل : بيان .

قوله : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ جملةٌ حالية ، يجوز أن يكونَ العاملُ فيها " أَوْحَيْنا " / ، أي : أوحينا إليه من غير شعور بالوحي ، وأن يكونَ العاملُ فيها " لَنُنَبِّئَنَّهم " ، أي : تُخْبِرهم وهم لا يعرفونك لبُعْد المدَّة وتغيُّرِ الأحوال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 447 .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾

كلامُ الحسودِ لا يُسْمَع ، ووعدُه لا يُقْبل - وإنْ كانا في مَعْرِضِ النُّصحِ ؛ فإِنَّهُ يُطْعِمُ الشَهْدَ وَيسْقِي الصَّاب .

ويقال العَجَبُ من قبول يعقوب - عليه السلام - ما أبدى بنوه له من حفظ يوسف عليه السلام وقد تفرّسَ فيهم قلبه فقال ليوسف : ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ [يوسف : 5] ويكن إذا جاء القضاءُ فالبصيرةُ تصير مسدودةً .

ويقال من قِبَلَ على محبوبه حديثَ أعدائه لَقِيَ ما لَقِي يعقوبُ في يوسف - عليهما السلامُ - من بلائه .

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (12) ﴾

يقال أطمعوا يعقوبَ عليه السلام في تمكينهم من يوسف بما فيه راحةُ نَفْسٍ في اللعب ، فطابَتْ نَفْسُ يعقوب لإذهابهم إياه من بين يديه - وإنْ كان يشَقُّ عليه فراقُه ، ولكنَّ المحبَّ

يؤثِرُ راحةَ محبوبه على محبةِ نَفْسِه.

ويقال ما ركَنَ إلى قولهم: ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ - أي مِنْ قِبَلِهم - حتى قالوا: ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ [يوسف: 17]؛ فَمَنْ أسلم حبيبَه إلى أعدائه غُصَّ بتحسّي بلائه.

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (13) ﴾

يَحْزُنني أن تذهبوا به لأني لا أصْبِر عن رؤيته، ولا أطيق على فُرقِته... هذا إذا كان الحالُ سلامته... فكيف ومع هذا أخاف أن يأكله الذئب؟!

ويقال: لما خاف عليه من الذئب امتُحِنَ بحديث الذئب، ففي الخبر ما معناه: "إنما يُسَلطُ على ابن آدم ما يخافه" وكان في حقه أن يقول أخافُ الله لا الذئب، وإنْ كانت مَحَالُّ الأنبياء - عليهم السلام - محروسةً من الاعتراض عليها.

(84/392)

ويقال لَمَّا جرى على لسان يعقوب - عليه السلام - من حديث الذئب صار كالتلقين لهم، ولو لم يسمعوه ما اهْتَدَوْا إلى الذئب.

﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (14) ﴾

لَحقَ إخوة يوسف عليه السلام ما وصفوا به أنفسهم من الخسران حيث قالوا :

﴿ إِنَّآ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ : لأنَّ مَنْ باع أخاً مثل يوسف بمثل ذلك الثمن حقيقٌ بأن يقال قد خسرت صفقتُه .

ويقال لمَّا عدُّوا القوة في أنفسهم حين قالوا : ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ خُذِلُوا حتى فعلوا .

ويقال لمَّا ركَنَ يعقوبُ – عليه السلام – إلى قولهم : ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ لَقِيَ ما لَقِيَ .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (15) ﴾

الجوابُ فيه مُقَدَّر ؛ ومعناه فلما ذهبوا بيوسف وعزموا على أن يلقوه في البئر فعلوا ما عزموا عليه . أو فلمَّا ذهبوا به وألقوه في غيابة الجُبِّ أوحينا إليه ؛ فتكون الواو صلة . والإشارة فيه أنه لمَّا حَلَّتْ به البلوى عجّلنا له التعريفَ بما ذكرنا من البُشرَى ؛ ليكون محمولاً بالتعريف فيما هو محتَمِلٌ له من البلاء العنيف .

ويقال حين انقطعت على يوسف عليه السلام مراعاةُ أبيه حَصَلَ له الوحيُ مِنْ قِبَل مولاه ، وكذا سُنَّتُه تعالى أنه لا يفتح على نفوس أوليائه باباً من البلاءِ إلا فَتَحَ على قلوبهم أبوابَ الصفاء ، وفنون لطائف الولاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 171 . 173﴾

قوله تعالى ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (16) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (17) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان من المعلوم أنه ليس بعد هذا الفعل إلا الاعتذار ، عطف على الجواب المقدر قوله : ﴿ وجاؤوا أباهم ﴾ دون يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ عشاء ﴾ في ظلمة الليل لئلا يتفرس أبيهم في وجوههم إذا رآها في ضياء النهار ضد ما جاؤوا به من الاعتذار ، وقد قيل : لا تطلب الحاجة بالليل فإن الحياء في العينين ، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار .

والآية دالة على أن البكاء لا يدل على الصدق لاحتمال التصنع ﴿ يبكون ﴾ والبكاء : جريان الدمع في العين عند حال الحزن ، فكأنه قيل : إنهم إذا بكوا حق لهم البكاء خوفاً من الله وشفقة على الأخ ، ولكن ماذا يقولون إذا سألهم أبوهم عن سببه ؟ فقيل : ﴿ قالوا ياأبانا ﴾ .

ولما كانوا عالمين بأنه عليه الصلاة والسلام لا يصدقهم لما له من نور القلب وصدق الفراسة ولما لهم من الريبة ، أكدوا فقالوا : ﴿ إنا ذهبنا نستبق ﴾ أي نوجد المسابقة بغاية الرغبة من كل منا في ذلك ﴿ وتركنا يوسف ﴾ أخانا ﴿ عند متاعنا ﴾ أي ما كان معنا مما نحتاج إليه في ذلك الوقت من ثياب وزاد ونحوه ﴿ فأكله ﴾ أي فتسبب عن انفراده أن أكله ﴿ الذئب وما ﴾ أي والحال أنك ما ﴿ أنت بمؤمن لنا ﴾ أي من التكذيب ، أي بمصدق ﴿ ولو كنا ﴾ أي كوناً هو جبلة لنا ﴿ صادقين ﴾ أي من أهل الصدق والأمانة بعلمك ، لأنك لم تجرب علينا قط كذباً ، ولا حفظت عنا شيئاً منه جداً ولا لعباً .

ولما علموا أنه لا يصدقهم من وجوه منها ما هو عليه من صحة الفراسة لنور القلب وقوة الحدس ، ومنها أن الكذب في نفسه لا يخلو عن دليل على بطلانه ، ومنها أن المرتاب يكاد يعرب عن نفسه ، أعملوا الحيلة في التأكيد بما يقرب قولهم .

(86/392)

فقال تعالى حاكياً عنهم : ﴿ وجاؤوا على قميصه ﴾ أي يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ بدم كذب ﴾ أي مكذوب ، أطلق عليه المصدر مبالغة لأنه غير مطابق للواقع ، لأنهم ادعوا أنه دم يوسف عليه الصلاة والسلام والواقع أنه دم سخلة ذبحوها ولطخوه بدمها –

نقله الرماني عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وعن مجاهد .

قال : والدم : جسم أحمر سيال ، من شأنه أن يكون في عروق الحيوان ، وله خواص تدرك بالعيان من ترجرج وتلزج وسهوكة ، وروي أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أخذ القميص منهم وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال : تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا ، أكل ابني ولم يمزق قميصه ، وكان القميص ثلاث آيات : دلالته على كذبهم ، ودلالته على صدق يوسف عليه الصلاة والسلام في قده من دبر ، وعود البصر إلى أبيه به ، فكأنه قيل : هل صدقهم ؟ فقيل : لا ! لأن العادة جرت في مثله أنه لا يأكله كله ، فلا بد من أن يبقى منه شيء يعرف معه أنه هو ، ولو كان كذلك لأتوا به تبرئة لساحتهم وليد فنوه في جبانتهم مع بقية أسلافهم ، وقد كان قادراً على مطالبتهم بذلك ، ولكنه علم أنهم ما قالوا ذلك إلا بعد عزم صادق على أمور لا تطاق ، فخاف من أن يفتح البحث من الشرور أكثر مما جاؤوا به من المحذور ، بدليل قوله بعد ذلك

﴿ فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ [يوسف : 87] ونحو ذلك ، فكأنه قيل : فماذا قال ؟ فقيل : ﴿ قال بل ﴾ أي لم يأكله الذئب ، بل ﴿ سولت ﴾ أي زينت وسهلت ، من

السول وهو الاسترخاء ﴿ لكم أنفسكم أمراً ﴾ أي عظيماً أبعدتم به يوسف ﴿ فصبر ﴾ أي فتسبب عن ذلك الفادح العظيم أنه يكون صبر ﴿ جميل ﴾ منى ، وهو الذي لا شكوى معه للخلق ﴿ والله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة ﴿ المستعان ﴾ أي المطلوب منه العون ﴿ على ﴾ احتمال ﴿ ما تصفون ﴾ من هلاك يوسف عليه الصلاة والسلام ، ولا يقال : إنهم بهذا أجمعوا أوصاف المنافق " إذا وعد أخلف ، وإذا حدث كذب ، وإذا اؤتمن خان " لأن هذا وقع منهم مرة ، والمنافق يكون ذلك فعله دائماً أو في أغلب أحواله ، ومادتا سول بتقاليبها الخمسة : ولس وسلاً ووسل ولوس وسول ، وسيل بتقاليبها الخمسة : لسي ويسل وسيل وسلي وليس ، تدوران على ما يطمع فيه من المراد ، ويلزمه رغد العيش والزينة وبرد القلب والشدة والرخاوة والعلاج والمخادعة والملازمة ، فمن الرجاء للمراد : السول - بالواو ، وقد يهمز ، وهو المطلوب ؛ والوسيلة : الدرجة والمنزلة عند الملك ، قال القزاز : وقيل : توسلت وتوصلت - بمعنى ، والوسيلة : الحاجة ، ووسل فلان - إذا طلب الوسيلة ؛ واللؤس : الظفر ؛ ومن العمل والعلاج : توسل بكذا - أي تقرب ، واللوس : الأكل ، ولاس الشيء في فيه بلسانه - إذا أداره ، وولست الناقة في مشيتها تلس ولساناً : تضرب من العنق ؛ ومن رغد العيش : فلان في سلوة من العيش ، أي رغد يسليه الهم ، ومنه السلوى ، وهي طائر معروف ، وهي أيضاً العسل ، وأسلي القوم : إذا أمنوا السبع : ومن الزينة : سولت له نفسه كذا ، أي زينته فطلبه ؛ ومن برد القلب : سلوت عن الشيء : إذا تركه

قلبك وكان قد صبا به ، وسقيتني منك سلوة ، أي طيبت نفسي عنك ، واللیس – محركاً : الغفلة ، والأليس : الديوث لا يغار ، والحسن الخلق ، وتلايس عنه : أغمض ؛ ومن الرخاوة : السلي الذي يكون فيه الولد ، وهو يائي تقول منه :

(88/392)

سليت الشاة كرضى سلي : انقطع سلاها ، ومنه السول ، وهو استرخاء في مفاصل الشاة ، والسحاب الأسول : الذي فيه استرخاء لكثرة مائه ، والأسول : المسترخي ، ومنه : ليس أخت كان – لأن الشيء إذا زاد في الرخاوة ربما عد عدماً ، ومنه : سال – بمعنى : جرى ، والسائلة من الغرر : المعتدلة في قصبة الأنف ، وأسال غرار النصل : أطاله ، والسيلان – بالكسر : سنخ قائم السيف ، والسيالة : نبات له شوك أبيض طويل ، إذا نزع خرج منه اللبن ، أو ما طال من السمر ؛ ومن المخادعة : الولس ، وهي الخيانة ، والموالسة : المداهنة ، والتوسل : السرقة ؛ ومن اللزوم : الليس – محركاً والمتلايس : البطيء ، وهو أيضاً من الرخاوة ، والأليس : من لا يبرح منزله ؛ ومن الشدة : الليس – محركاً وهو الشجاعة ، وهو أليس ، والأليس : البعير يحمل ما حمل ، والأسد ، ووقعوا في سلي جمل : أمر صعب ، لأن الجمل لا سلي له ، وانقطع السلي في البطن مثل كبلغ السكين العظم ،

ويمكن أن يكون من الشدة أيضاً : اليسل - بفتح وسكون - وهم يد أي جماعة من قريش الظواهر ، والبسل - بالباء الموحدة : اليد الأخرى ، ولسا : أكل أكلاً شديداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 19.16﴾

(89/392)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾

اعلم أنهم لما طرحوا يوسف في الجب رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء باكين ورواه ابن جني / عشا بضم العين والقصر وقال : عشوا من البكاء فعند ذلك فزع يعقوب وقال : هل أصابكم في غنمكم شيء ؟ قالوا : لا قال : فما فعل يوسف ؟ قالوا : ﴿ ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذئب ﴾ فبكى وصاح وقال : أين القميص ؟ فطرحه على وجهه حتى تخضب وجهه من دم القميص ، وروي أن امرأة تحاكمت إلى شريح فبكت فقال الشعبي : يا أبا أمية ما تراها تبكي ؟ قال : قد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة كذبة لا ينبغي للإنسان أن يقضي إلا بالحق ، واختلفوا في معنى الاستباق قال الزجاج

: يسابق بعضهم بعضاً في الرمي ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : "لا سبق إلا في خف أو نصل أو حافر" يعني بالنصل الرمي ، وأصل السبق في الرمي بالسهم هو أن يرمي اثنان ليتبين أيهما يكون أسبق سهماً وأبعد غلوة ، ثم يوصف المتراميان بذلك فيقال : استبقا وتسابقا إذا فعلا ذلك ليتبين أيهما أسبق سهماً ويدل على صحة هذا التفسير ما روي أن في قراءة عبد الله ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا ﴾ .

والقول الثاني : في تفسير الاستباق ما قاله السدي ومقاتل : ﴿ ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ نشتد ونعدو ليتبين أينا أسرع عدواً .

فإن قيل : كيف جاز أن يستبقوا وهم رجال بالغون وهذا من فعل الصبيان ؟

قلنا : الاستباق منهم كان مثل الاستباق في الخيل وكانوا يجربون بذلك أنفسهم ويدربونها على العدو ولأنه كالآلة لهم في محاربة العدو ومدافعة الذئب إذا اختلس الشاة وقوله : ﴿ فَأَكَلَهُ الذئب ﴾ قيل أكل الذئب يوسف وقيل عرّضوا وأرادوا أكل الذئب المتاع ، والوجه هو الأول .

ثم قالوا : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صادقين ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ليس المعنى أن يعقوب عليه السلام لا يصدق من يعلم أنه صادق ، بل المعنى لو كنا عندك من أهل الثقة والصدق لاتهمتنا في يوسف لشدة محبتك إياه ولظننت أنا قد كذبنا والحاصل أنا وإن كنا صادقين لكنك لا تصدقنا لأنك تتهمنا .

وقيل : المعنى : إنا وإن كنا صادقين فإنك لا تصدقنا لأنه لم تظهر عندك أمارة تدل على صدقنا .

المسألة الثانية :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الإيمان في أصل اللغة عبارة عن التصديق ، لأن المراد من قوله : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ أي بمصدق ، وإذا ثبت أن الأمر كذلك في أصل اللغة وجب أن يبقى في عرف الشرع كذلك ، وقد سبق الاستقصاء فيه في أول سورة البقرة في تفسير قوله : ﴿ الذين يُؤْمِنونَ بالغيب ﴾ [البقرة : 3] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَجَاءوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

إنما جاؤا بهذا القميص الملطخ بالدم ليوهم كونهم صادقين في مقالتهم .

قيل : ذبحوا جدياً ولطخوا ذلك القميص بدمه .

قال القاضي : ولعل غرضهم في نزع قميصه عند إلقائه في غيابة الجب أن يفعلوا هذا توكيداً

لصدقهم ، لأنه يبعد أن يفعلوا ذلك طمعاً في نفس القميص ولا بد في المعصية من أن يقرن بهذا الخذلان ، فلو خرقوه مع لطخه بالدم لكان الإيهام أقوى ، فلما شاهد يعقوب القميص صحيحاً علم كذبهم .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ وَجَاءُوا على قَمِيصِهِ ﴾ أي وجاؤا فوق قميصه بدم كما يقال : جاؤا على جمالهم بأحمال .

المسألة الثالثة :

(91/392)

قال أصحاب العربية وهم الفراء والمبرد والزجاج وابن الأنباري ﴿ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أي مكذوب فيه ، إلا أنه وصف بالمصدر على تقدير دم ذي كذب ولكنه جعل نفسه كذباً للمبالغة قالوا : والمفعول والفاعل يسميان بالمصدر كما يقال : ماء سكب ، أي مسكوب ودرهم ضرب الأمير وثوب نسج اليمن ، والفاعل كقوله : ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ﴾ [الملك : 30] ورجل عدل وصوم ، ونساء نوح ولما سميا بالمصدر سمي المصدر أيضاً بهما فقالوا : للعقل المعقول ، وللجلد المجلود ، ومنه قوله تعالى ﴿ بِأَيِّكُمُ المفتون ﴾ [القلم : 6]

وقوله: ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: 7] قال الشعبي: قصة يوسف كلها في قميصه، وذلك لأنهم لما ألقوه في الجب نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على أبيه، ولما شهد الشاهد قال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ [يوسف: 26] ولما أتي بقميصه إلى يعقوب عليه السلام فألقى على وجهه ارتد بصيراً، ثم ذكر تعالى أن أخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم قال يعقوب عليه السلام: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾.

قال ابن عباس: معناه: بل زينت لكم أنفسكم أمراً.

والتسويل تقدير معنى في النفس مع الطمع في إتمامه قال الأزهري: كأن التسويل تفعيل من سؤال الإنسان، وهو أمنيته التي يطلبها فتزين لطالبها الباطل وغيره.

وأصله مهموز غير أن العرب استثقلوا فيه الهمز وقال صاحب "الكشاف": ﴿سَوَّلَتْ﴾ سهلت من السول وهو الاسترخاء.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿بَلِ﴾ رد لقولهم: ﴿أَكَلَهُ الذئب﴾ كأنه قال: ليس كما تقولون: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ في شأنه ﴿أَمْراً﴾ أي زينت لكم أنفسكم أمراً غير ما تصفون، واختلفوا في السبب الذي به عرف كونهم كاذبين على وجوه: لأول: أنه عرف ذلك بسبب أنه كان يعرف الحسد الشديد في قلوبهم.

والثاني : أنه كان عالماً بأنه حي لأنه عليه الصلاة والسلام قال ليوسف : ﴿ وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ [يوسف : 6] وذلك دليل قاطع على أنهم كاذبون في ذلك .

القول الثالث : قال سعيد بن جبير : لما جاؤا على قميصه بدم كذب ، وما كان متخرقاً ، قال كذبتم لو أكله الذئب لخرق قميصه ، وعن السدي أنه قال : إن يعقوب عليه السلام قال : إن هذا الذئب كان رحيماً ، فكيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه ؟ وقيل : إنه عليه السلام لما قال ذلك قال بعضهم : بل قتله اللصوص ، فقال كيف قتلوه وتركوا قميصه وهم إلى قميصه أحوج منه إلى قتله ؟ فلما اختلفت أقوالهم عرف بسبب ذلك كذبهم .

ثم قال يعقوب عليه السلام : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

منهم من قال : إنه مرفوع بالابتداء ، وخبره محذوف ، والتقدير : فصبر جميل أولى من الجزع ، ومنهم من أضمر المبتدأ قال الخليل : الذي أفعله صبر جميل .

وقال قطرب : معناه : فصبري صبر جميل .

وقال الفراء : فهو صبر جميل .

المسألة الثانية :

كان يعقوب عليه السلام قد سقط حاجباه وكان يرفعهما بخرقة ، فقيل له : ما هذا ؟ فقال

طول الزمان وكثرة الأحزان: فأوحى الله تعالى إليه يا يعقوب أتشكوني ؟ فقال يا رب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي.

وروي عن عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك أنها قالت: والله لئن حلفت لا تصدقوني وإن اعتذرت لا تعذروني، فمثلي ومثلكم كمثل يعقوب وولده ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ والله المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ فأنزل الله عز وجل في عذرها ما أنزل.

المسألة الثالثة:

(93/392)

عن الحسن أنه سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ فقال: "صبر لا شكوى فيه فمن بث لم يصبر" ويدل عليه من القرآن قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثّى وَحُزْنِى إِلَى الله ﴾ [يوسف: 86] وقال مجاهد: فصبر جميل، أي من غير جزع، وقال الثوري: من الصبر أن لا تحدث بوجعك ولا بمصيبتك، ولا تزكي نفسك، وههنا بحث وهو أن الصبر على قضاء الله تعالى واجب فأما الصبر على ظلم الظالمين، ومكر الماكرين فغير واجب، بل الواجب إزالته لا سيما في الضرر العائد إلى الغير، وههنا أن إخوة يوسف لما ظهر كذبهم وخيانتهم فلم صبر يعقوب على ذلك ؟ ولم لم يبالغ في التفتيش والبحث سعياً

منه في تخليص يوسف عليه السلام عن البلية والشدة إن كان في الأحياء وفي إقامة القصاص إن صح أنهم قتلوه ، فثبت أن الصبر في المقام مذموم .

ومما يقوي هذا السؤال أنه عليه الصلاة والسلام كان عالماً بأنه حي سليم لأنه قال له : ﴿ وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ [يوسف : 6] والظاهر أنه إنما قال هذا الكلام من الوحي وإذا كان عالماً بأنه حي سليم فكان من الواجب أن يسعى في طلبه .

وأيضاً إن يعقوب عليه السلام كان رجلاً عظيم القدر في نفسه ، وكان من بيت عظيم شريف ، وأهل العلم كانوا يعرفونه ويعتقدون فيه ويعظمونه فلو بالغ في الطلب والتفحص لظهر ذلك واشتهر ولزال وجه التلبيس فما السبب في أنه عليه السلام مع شدة رغبته في حضور يوسف عليه السلام ، ونهاية حبه له لم يطلبه مع أن طلبه كان من الواجبات ، فثبت أن هذا الصبر في هذا المقام مذموم عقلاً وشرعاً .

والجواب عنه : أن نقول لا جواب عنه إلا أن يقال إنه سبحانه وتعالى منعه عن الطلب تشديداً للمحنة عليه ، وتغليظاً للأمر عليه ، وأيضاً لعله عرف بقرائن الأحوال أن أولاده

أقوياء وأنهم لا يمكنونه من الطلب والتفحص ، وأنه لو بالغ في البحث فربما أقدموا على إيذائه وقتله ، وأيضاً لعله عليه السلام علم أن الله تعالى يصون يوسف عن البلاء والمحنة وأن أمره سيعظم بالآخرة ، ثم لم يرد هتك أستار سرائر أولاده وما رضي بإلقائهم في ألسنة الناس وذلك لأن أحد الولدين إذا ظلم الآخر وقع الأب في العذاب الشديد لأنه إن لم ينتقم يحترق قلبه على الولد المظلوم وإن انتقم فإنه يحترق قلبه على الولد الذي ينتقم منه ، فلما وقع يعقوب عليه السلام في هذه البلية رأى أن الأصوب الصبر والسكوت وتفويض الأمر إلى الله تعالى بالكلية .

المسألة الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ يدل على أن الصبر على قسمين منه ما قد يكون جميلاً وما قد يكون غير جميل ، فالصبر الجميل هو أن يعرف أن منزل ذلك البلاء هو الله تعالى ، ثم يعلم أن الله سبحانه مالك الملك ولا اعتراض على المالك في أن يتصرف في ملك نفسه فيصير استغراق قلبه في هذا المقام مانعاً له من إظهار الشكاية .

والوجه الثاني : أنه يعلم أن منزل هذا البلاء ، حكيم لا يجهل ، وعالم لا يغفل ، عليم لا ينسى رحيم لا يطغى ، وإذا كان كذلك ، فكان كل ما صدر عنه حكمة وصواباً ، فعند ذلك يسكت ولا يعترض .

والوجه الثالث : أنه ينكشف له أن هذا البلاء من الحق ، فاستغراقه في شهود نور المبلى

يمنعه من الاشتغال بالشكاية عن البلاء ولذلك قيل : المحبة التامة لا تزداد بالوفاء ولا تنقص بالجفاء ، لأنها لو ازدادت بالوفاء لكان المحبوب هو النصيب والحظ وموصل النصيب لا يكون محبوباً بالذات بل بالعرض ، فهذا هو الصبر الجميل .

(95/392)

أما إذا كان الصبر لا لأجل الرضا بقضاء الحق سبحانه بل كان لسائر الأغراض ، فذلك الصبر لا يكون جميلاً ، والضابط في جميع الأفعال والأقوال والاعتقادات أن كل ما كان لطلب عبودية الله تعالى كان حسناً وإلا فلا ، وههنا يظهر صدق ما روي في الأثر "استفت قلبك ، ولو أفتاك المفتون" فليتأمل الرجل تأملاً شافياً ، أن الذي أتى به هل الحاصل والباعث عليه طلب العبودية أم لا ؟ فإن أهل العلم لو أفتونا بالشيء مع أنه لا يكون في نفسه كذلك لم يظهر منه نفع ألبتة .

ولما ذكر يعقوب قوله : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ قال : ﴿ والله المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ والمعنى : أن إقدامه على الصبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى ، لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع وهي قوية والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا ، فكأنه وقعت المحاربة بين الصنفين ، فما لم تحصر إعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة ، فقوله : ﴿ فَصَبْرٌ

جَمِيلٌ ﴾ يجري مجرى قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة : 5] وقوله : ﴿ والله المستعان عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ يجري مجرى قوله : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : 5] . انتهى انتهى . ا . هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 81.84 ﴾

(96/392)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قالوا يا أبانا إنّا ذهبنا نستبق ﴾

وهو نفتعل من السباق وفيه أربعة أوجه :

أحدها : معناه ننتصل ، من السباق في الرمي ، قاله الزجاج .

الثاني : أنهم أرادوا السبق بالسعي على أقدامهم .

الثالث : أنهم عنوا استباقهم في العمل الذي تشاغلوا به من الرعي والاحتطاب .

الرابع : أي نتصيد وأنهم يستبقون على اقتناص الصيد .

﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ يحتمل أن يعنوا بتركه عند متاعهم إظهار الشفقة عليه ، ويحتمل أن يعنوا حفظ رحالهم .

﴿ فأكله الذئب ﴾ لما سمعوا أباهم يقول : وأخاف أن يأكله الذئب أخذوا ذلك من فيه

وتحرّموا به لأنه كان أظهر المخاوف عليه .

﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ أي بمصدق لنا .

﴿ ولو كنا صادقين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه لم يكن ذلك منهم تشكيكاً لأبيهم في صدقهم وإنما عنوا : ولو كنا أهل صدق ما صدقتنا ، قاله ابن جرير .

الثاني : معناه وإن كنا قد صدقنا ، قاله ابن إسحاق .

قوله عز وجل : ﴿ وجاءُوا على قميصه بدمٍ كذب ﴾ قال مجاهد : كان دم سخلة . وقال قتادة : كان دم ظبية .

قال الحسن : لما جاءُوا بقميص يوسف فلم ير يعقوب فيه شقاً قال : يا بني والله ما عهدت الذئب حليماً أيأكل ابني ويبقي على قميصه . ومعنى قوله ﴿ بدم كذب ﴾ أي مكذوب فيه ، ولكن وصفه بالمصدر فصار تقديره بدم ذي كذب .

وقرأ الحسن ﴿ بدم كدب ﴾ بالدال غير معجمة ، ومعناه بدم متغير قاله الشعبي .

وفي القميص ثلاث آيات : حين جاءُوا عليه بدم كذب ، وحين قُدَّ قميصه من دُبر ، وحين ألقي على وجه أبيه فارتد بصيراً .

﴿ قال بل سوّلت لكن أنفسكم أمراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بل أمرتكم أنفسكم ، قاله ابن عباس .

الثاني : بل زينت لكم أنفسكم أمراً ، قاله قتادة .

وفي ردّ يعقوب عليهم وتكذيبه لهم ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه كان ذلك بوحي من الله تعالى إليه بعد فعلهم .

الثاني : أنه كان عنده علم بذلك قديم أطلعه الله عليه .

(97/392)

الثالث : أنه قال ذلك حدساً بصائب رأيه وصدق ظنه .

قال ترضيه لنفسه ﴿ فصبر جميل ﴾ فاحتمل ما أمر به نفسه من الصبر وجهين : أحدهما : الصبر على مقابلتهم على فعلهم فيكون هذا الصبر عفواً عن مؤاخذتهم .

الثاني : أنه أمر نفسه بالصبر على ما ابتُلي به من فقد يوسف .

وفي قوله : ﴿ فصبرٌ جميل ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه بمعنى أن من الجميل أن أصبر .

الثاني : أنه أمر نفسه بصبر جميل .

وفي الصبر الجميل وجهان : أحدهما : أنه الصبر الذي لا جزع فيه قاله مجاهد .

الثاني : أنه الصبر الذي لا شكوى فيه .

روى حباب بن أبي حبلة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى ﴿ فصبر جميل ﴾ فقال : " صبر لا شكوى فيه ، ومن بث لم يصبر " .

﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : والله المستعان على الصبر الجميل .

الثاني : والله المستعان على احتمال ما تصفون .

الثالث : يعني على ما تكذبون ، قاله قتادة .

قال محمد بن إسحاق : ابتلى الله يعقوب في كبره ، ويوسف في صغره لينظر كيف عزمهما .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(98/392)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾

رُوِيَ أَنَّ الشَّعْبِيَّ كَانَ جَالِسًا لِلْقَضَاءِ فَجَاءَهُ رَجُلٌ يَبْكِي وَيَدَّعِي أَنَّ رَجُلًا ظَلَمَهُ ، فَقَالَ رَجُلٌ بِحَضْرَتِهِ : يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مَظْلُومًا ، فَقَالَ الشَّعْبِيُّ : إخْوَةُ يُوسُفَ خَانُوا وَظَلَمُوا وَكَذَبُوا وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ فَأَظْهَرُوا الْبُكَاءَ لِفَقْدِ يُوسُفَ لِيُبَرِّئُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ

الْخِيَانَةِ وَأَوْهَمُوهُ أَنَّهُمْ مُشَارِكُونَ لَهُ فِي الْمُصِيبَةِ وَيُلَقِّنُوا مَا كَانَ أَظْهَرَهُ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ مِنْ خَوْفِهِ عَلَى يُوسُفَ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ، فَقَالُوا: ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾، يُقَالُ: نَنْتَضِلُ مِنْ السِّبَاقِ فِي الرَّمْيِ، وَقِيلَ: نَسْتَبِقُ بِالْعَدْوِ عَلَى الرِّجْلِ ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾ يَعْنِي: بِمُصَدِّقٍ وَجَاءُوا بِقَمِيصٍ عَلَيْهِ دَمٌ فَزَعَمُوا أَنَّهُ دَمُ يُوسُفَ.

قَوْله تَعَالَى: ﴿ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ يَعْنِي مَكْذُوبٌ فِيهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ، قَالَ: "لَوْ كَانَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ لَخَرَقَهُ فَكَانَتْ عَلَامَةُ الْكَذِبِ ظَاهِرَةً فِيهِ وَهُوَ صِحَّةُ الْقَمِيصِ مِنْ غَيْرِ تَخْرِيقٍ".

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: "كَانَ فِي قَمِيصِ يُوسُفَ ثَلَاثُ آيَاتٍ: الدَّمُ وَالشَّقُّ وَإِلْقَاؤُهُ عَلَى وَجْهِ أَبِيهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا".

وَقَالَ الْحَسَنُ: "لَمَّا رَأَى الْقَمِيصَ صَحِيحًا قَالَ: يَا بُنَيَّ وَاَللَّهِ مَا عَهِدْت الذِّئْبَ حَلِيمًا".

قَوْله تَعَالَى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ ﴾ أَمْرًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَطَعَ بِخِيَانَتِهِمْ وَظُلْمِهِمْ وَأَنَّ يُوسُفَ لَمْ يَأْكُلْهُ الذِّئْبُ لِمَا اسْتَدَلَّ عَلَيْهِ مِنْ صِحَّةِ الْقَمِيصِ مِنْ غَيْرِ

تَخْرِيقٍ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ بِمَا يَظْهَرُ مِنْ الْعَلَامَةِ فِي مِثْلِهِ فِي التَّكْذِيبِ ، أَوْ التَّصْدِيقِ جَائِزٌ ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَطَعَ بِأَنَّ الذِّئْبَ لَمْ يَأْكُلْهُ بِظُهُورِ عَلَامَةِ كَذِبِهِمْ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ يُقَالُ : إنَّهُ صَبْرٌ لَا شَكْوَى فِيهِ وَفِيهِ الْبَيَانُ عَمَّا تَقْتَضِيهِ الْمُصِيبَةُ مِنْ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاَللَّهِ عِنْدَ مَا يَعْرِضُ مِنْ الْأُمُورِ الْقَطْعِيَّةِ الْمُجْزِيَةِ ، فَحَكَى لَنَا حَالَ نَبِيِّهِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَمَا اُبْتُلِيَ بِفَقْدِ وَلَدِهِ الْعَزِيزِ عِنْدَهُ وَحُسْنِ عَزَائِهِ وَرُجُوعِهِ إلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ إذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ الْآيَةَ ، لِيُقْتَدَى بِهِ عِنْدَ نُزُولِ الْمَصَائِبِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(100/392)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا إنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ بُكَاءَ الْمَرْءِ لَا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ مَقَالِهِ ؛

لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ تَصَنُّعًا ، وَمِنْ الْخَلْقِ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَقْدِرُ .

وَقَدْ قِيلَ : إنَّ الدَّمْعَ الْمَصْنُوعَ لَا يَخْفَى ، كَمَا قَالَ حَكِيمٌ : إذَا اشْتَبَكَتْ دُمُوعٌ فِي خُدُودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى وَالْأَصَحُّ عِنْدِي أَنَّ الْأَمْرَ مُشْتَبِهٌ ، وَأَنَّ مِنْ الْخَلْقِ فِي الْأَكْثَرِ مَنْ يَقْدِرُ مِنْ التَّطَبُّعِ عَلَى مَا يُشْبِهُ الطَّبْعَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ اعْلَمُوا وَفَّقَكُمْ اللَّهُ أَنَّ الْمُسَابَقَةَ شِرْعَةٌ فِي الشَّرِيعَةِ ، وَخَصْلَةٌ بَدِيعَةٌ ، وَعَوْنٌ عَلَى الْحَرْبِ ، وَقَدْ فَعَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَفْسِهِ وَبِخَيْلِهِ ؛ فَرُوِيَ ﴿ أَنَّهُ سَابَقَ عَائِشَةَ فَسَبَقَهَا ، فَلَمَّا كَبِرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَابَقَهَا فَسَبَقَتْهُ ، فَقَالَ لَهَا : هَذِهِ بِتِلْكَ ﴾ .

وَرُوِيَ ﴿ أَنَّهُ سَابَقَ بَيْنَ الْخَيْلِ الَّتِي أُضْمِرَتْ مِنْ الْحَفْيَاءِ ، وَكَانَ أَمَدُهَا ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ ، وَسَابَقَ الْخَيْلَ الَّتِي لَا تُضْمَرُ مِنْ الثَّنِيَّةِ إلَى مَسْجِدِ بَنِي زُرَيْقٍ ، وَأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ كَانَ مِمَّنْ سَابَقَ بِهَا ﴾ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَابَقَ بَيْنَ الْعَضْبَاءِ وَغَيْرِهَا ، فَسَبَقَتْ الْعَضْبَاءُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَلَّا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنْ الدُّنْيَا إلَّا

وَضعَهُ ﷺ .

وَفِي ذَلِكَ فِي الْفَوَائِدِ رِيَاضَةُ النَّفْسِ وَالدَّوَابِّ ، وَتَدْرِيبُ الْأَعْضَاءِ عَلَى التَّصرُّفِ ، وَلَا مُسَابَقَةَ إِلَّا بَيْنَ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ خَاصَّةً الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : يَجُوزُ الِاسْتِبَاقُ مِنْ غَيْرِ سَبَقٍ يُجْعَلُ ، وَيَجُوزُ بِسَبَقٍ ، فَإِنْ أَخْرَجَ أَحَدُ الْمُتَسَابِقِينَ سَبَقًا عَلَى أَنْ يَأْخُذَهُ الْآخَرُ إِنْ سَبَقَ ، وَإِنْ سَبَقَ هُوَ أَخَذَهُ الَّذِي يَلِيهِ ، فَإِنَّهُ جَائِزٌ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ .

وَقَالَ مَالِكٌ .

وَرَوَى ابْنُ مَزِيدٍ عَنْ مَالِكٍ أَنْ يَأْخُذَهُ مَنْ حَضَرَ ، فَذَلِكَ أَيْضًا جَائِزٌ ، وَإِنْ كَانَ عَلَى أَنْ يَأْخُذَهُ الْخَارِجُ إِنْ سَبَقَ فَفِيهِ ثَلَاثُ رِوَايَاتٍ : كَرِهَهُ مَالِكٌ ، وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : لَا خَيْرَ فِيهِ ، وَجَوَّزَهُ ابْنُ وَهْبٍ ، وَبِهِ أَقُولُ ؛ لِأَنَّهُ لَا غَرَرَ فِيهِ ، وَلَا دَلِيلَ يُحَرِّمُهُ .

قَالَ عُلَمَاؤُنَا : وَهَذَا إِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا مُحَلِّلٌ ، عَلَى أَنَّهُ إِنْ سَبَقَ أَخَذَ مِنْهُمَا أَوْ مِنْ أَحَدِهِمَا ، وَإِنْ سَبَقَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ شَيْءٌ جَازَ ، جَوَّزَهُ ابْنُ الْمُسَيِّبِ وَمَالِكٌ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ وَمَنَعَهُ فِي الْآخَرِ ، وَلَا يُشْتَرَطُ فِيهِ مَعْرِفَةُ أَحَدٍ بِحَالِ فَرَسِ صَاحِبِهِ ، بَلْ يَجُوزُ عَلَى الْجَهَالَةِ وَلَهُمَا حُكْمُ الْقَدَرِ ، وَمَسَائِلُ السِّبَاقِ فِي الْفُرُوعِ مُسْتَوْفَاةٌ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاَللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : أَرَادُوا أَنْ يَجْعَلُوا الدَّمَ عَلَامَةً عَلَى صِدْقِهِمْ ، فَرُوِيَ فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَرَنَ بِهَذِهِ الْعَلَامَةِ عَلَامَةً تُعَارِضُهَا ؛ وَهِيَ سَلَامَةُ الْقَمِيصِ فِي التَّلْبِيبِ ؛ وَالْعَلَامَاتُ إذَا تَعَارَضَتْ تَعَيَّنَ التَّرْجِيحُ ، فَيُقْضَى بِجَانِبِ الرُّجْحَانِ ، وَهِيَ قُوَّةُ التُّهْمَةِ لِوُجُوهٍ تَضَمَّنَهَا الْقُرْآنُ ، مِنْهَا طَلَبُهُمْ إيَّاهُ شَفَقَةً ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ فِعْلِهِمْ مَا يُنَاسِبُهَا ، فَيَشْهَدُ بِصِدْقِهَا ، بَلْ كَانَ سَبَقَ ضِدُّهَا ، وَهِيَ تَبَرُّمُهُمْ بِهِ .

وَمِنْهَا أَنَّ الدَّمَ مُحْتَمَلٌ أَنْ يَكُونَ فِي الْقَمِيصِ مَوْضُوعًا ، وَلَا يُمْكِنُ افْتِرَاسُ الذِّئْبِ لِيُوسُفَ ، وَهُوَ لَابِسٌ لِلْقَمِيصِ وَيَسْلَمُ الْقَمِيصُ مِنْ تَخْرِيقٍ ، وَهَكَذَا يَجِبُ عَلَى النَّاظِرِ أَنْ يَلْحَظَ الْأَمَارَاتِ [وَالْعَلَامَاتِ] وَتَعَارُضَهَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : الْقَضَاءُ بِالتُّهْمَةِ إذَا ظَهَرَتْ كَمَا قَالَ يَعْقُوبُ : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ .

وَلَا خِلَافَ فِي الْحُكْمِ بِالتُّهْمَةِ ؛ وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ النَّاسُ [فِي التَّأْثِيرِ فِي] أَعْيَانِ التُّهَمِ حَسْبَمَا يَأْتِي مَنْثُورًا فِي الْمَسَائِلِ الْأَحْكَامِيَّةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ ، وَلِذَلِكَ قَالُوا لَهُ : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ أَيْ تُهْمَتُكَ لَنَا بِعِظَمِ مَحَبَّتِكَ تُبْطِلُ عِنْدَكَ صِدْقَنَا ؛ وَهَذَا كُلُّهُ تَخْيِيلٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : كَانَ فِي قَمِيصِ يُوسُفَ ثَلَاثُ آيَاتٍ : جَاءُوا عَلَيْهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، وَقُدَّ مِنْ دُبُرٍ ، وَأُلْقِيَ عَلَى وَجْهِ يَعْقُوبَ فَارْتَدَّ بَصِيرًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى جـ 3 ص ﴾

(104/392)

وقال ابن عطية :

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾

قرأت فرقة " عشاء " أي وقت العشاء ، وقرأ الحسن : " عشى " على مثال دجى ، أي جمع عاش ، قال أبو الفتح : " عشاة " كماش ومشاة ، ولكن حذفت الهاء تخفيفاً كما حذفت من مألكة ، وقال عدي :

أبلغ النعمان عني مألكاً . . . أنه قد طالب حبسي وانتظاري

قال القاضي أبو محمد : ومعنى ذلك أصابهم عشا من البكاء أو شبه العشا إذ كذلك هي هيئة عين الباكي لأنه يتعاشى ، ومثل شريح في امرأة بكت وهي مبطلة ببكاء هؤلاء وقرأ الآية ، وروي أن يعقوب لما سمع بكاءهم قال : ما بالكم أجرى في الغنم شيء ؟ قالوا : لا ، قال فأين يوسف ؟ قالوا : ﴿ ذهبنا نستبق ﴾ ؛ فبكى وصاح وقال : أين قميصه ؟ - وسيأتي قصص ذلك .

و﴿ نستبق ﴾ معناه : على الأقدام أي نجري غلاباً ، وقيل : بالرمي أي ننتضل . وهو نوع من المسابقة ، قاله الزجاج .

وقولهم : ﴿ وما أنت بمؤمن ﴾ أي بمصدق ؛ ومعنى الكلام : أي لو كنا موصوفين بالصدق ؛ وقيل المعنى : ولو كنت تعتقد ذلك فينا في جميع أقوالنا قديماً لما صدقتنا في هذه النازلة خاصة لما لحقك فيها من الحزن ونالك من المشقة ولما تقدم من تهمتك لنا .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول ذكره الزجاج وغيره ، ويحتمل أن يكون قولهم : ﴿ ولو كنا صادقين ﴾ ، بمعنى : وإن كنا صادقين - وقاله المبرد - كأنهم أخبروا عن أنفسهم أنهم صادقون في هذه النازلة فهو تمادٍ منهم في الكذب ويكون بمنزلة قوله : ﴿ أو لو كنا كارهين ﴾ [الأعراف : 88] بمعنى أو إن كنا كارهين .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا المثال عندي نظر ، وتخبط الرماني في هذا الموضع ، وقال : ألزموا أباهم عناداً ونحو هذا مما لا يلزم لأنهم لم يقولوا : وما أنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين في معتقدك ، بل قالوا : وما أنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين فيما نعتقد نحن ، وأما أنت فقد غلب عليك سوء الظن بنا . ولا ينكر أن يعتقد الأنبياء عليهم السلام صدق الكاذب وكذب الصادق ما لم يوح إليهم ، فإنما هو بشر ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه . . " الحديث . فهذا يقتضي أنه جوز على نفسه أن يصدق الكاذب . وكذلك قد صدق عليه السلام عبد الله بن أبيّ حين حلف على مقالة زيد بن أرقم وكذب زيداً ، حتى نزل الوحي ، فظهر الحق ، فكلام اخوة يوسف إنما هو مغالطة ومحاجة لا إلزام عناد .

وقوله تعالى : ﴿ وجاءو على قميصه بدم كذب ﴾ الآية ، روي أنهم أخذوا سخلة أو جدياً فذبحوه ولطخوا به قميص يوسف ، وقالوا ليعقوب : هذا قميصه ، فأخذه ولطخ به وجهه وبكى ، ثم تأمله فلم ير خرقاً ولا أثر ناب .

فاستدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان الذئب حليماً ، يأكل يوسف ولا يخرق قميصه ؟ - قص هذا القصص ابن عباس وغيره ، وأجمعوا على أنه استدل على كذبهم

لصحة القميص – واستند الفقهاء إلى هذا في إعمال الأمارات في مسائل كالقسامة بها – في قول مالك – إلى غير ذلك .

قال الشافعي : كان في القميص ثلاث آيات : دلالته على كذبهم وشهادته في قده ، ورد بصر يعقوب به . وروي أنهم ذهبوا فأخذوا ذئباً فلطخوا فاه بالدم وساقوه وقالوا ليعقوب ، هذا أكل يوسف ، فدعاه يعقوب فأقعى وتكلم بتكذيبهم .

ووصف الدم ب ﴿ كذب ﴾ إما على معنى بدم ذي كذب ، وإما أن يكون بمعنى مكذوب عليه ، كما قد جاء المعقول بدل العقل في قول الشاعر :

[الكامل]

حتى إذا لم يتركوا لعظامه . . . لحماً ولا لفؤادِهِ معقولا

(106/392)

فكذلك يجيء التكذيب مكان المكذوب .

قال القاضي أبو محمد : هذا كلام الطبري ، ولا شاهد له فيه عندي ، لأن نفي المعقول يقتضي نفي العقل ، ولا يحتاج إلى بدل ، وإنما " الدم الكذب " عندي وصف بالمصدر على جهة المبالغة .

وقرأ الحسن : " بدم كذب " بدال غير معجمة ، ومعناه الطري ونحوه ، وليست هذه القراءة قوية .

ثم قال لهم يعقوب لما بان كذبهم : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ أي رضيت وجعلت سولاً ومراداً . ﴿ أمراً ﴾ أي صنعاً قبيحاً بيوسف . وقوله : ﴿ فصبر جميل ﴾ رفع إما على حذف الابتداء وإما على حذف الخبر : إما على تقدير : فشأني صبر جميل ، وإما على تقدير فصبر جميل أمثل . وذكر أن الأشهب وعيسى بن عمر قرأ بالنصب : " فصبراً جميلاً " على إضمار فعل ، وكذلك هي في مصحف أبيّ ومصحف أنس بن مالك – وهي قراءة ضعيفة عند سيبويه ولا يصلح النصب في مثل هذا إلا مع الأمر ، ولذا يحسن النصب في قول الشاعر [الرجز]

. . . . صبرا جميلاً فكلانا مبتلى . . . وينشد أيضاً بالرفع ويروى " صبر جميل " ، على نداء الجمل المذكور في قوله : [الرجز]

شكى إليّ جملي طول السرى . . . يا جملي ليس إليّ المشتكى

صبر جميل فكلانا مبتلى . . . وإنما تصح قراءة النصب على أن تقدر يعقوب عليه السلام رجع إلى مخاطبة نفسه أثناء مخاطبة بنيه .

وجميل الصبر ألا تقع شكوى إلى بشر ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " من بث لم يصبر صبراً جميلاً " .

وقوله : ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ تسليم لأمر الله تعالى وتوكل عليه ، والتقدير على احتمال ما تصفون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(107/392)

وقال القرطبى :

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (16) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وجاءوا أباهم عِشَآءً ﴾ أي ليلاً ، وهو ظرف يكون في موضع الحال ؛ وإنما جاؤوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة ؛ ولذا قيل : لا تطلب الحاجة بالليل ، فإن الحياء في العينين ، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار ؛ فروي أن يعقوب عليه السلام لما سمع بكاءهم قال : ما بكم ؟ أجرى في الغنم شيء ؟ قالوا : لا .

قال : فأين يوسف ؟ قالوا : ذهبنا نستبق فأكله الذئب ؛ فبكى وصاح وقال : أين قميصه ؟ على ما يأتي بيانه (إن شاء الله) .

وقال السديّ وابن حبّان : إنه لما قالوا أكله الذئب خر مغشياً عليه ، فأفاضوا عليه الماء

فلم يتحرك ، ونادوه فلم يجب ؛ قال وهب : ولقد وضع يهوذا يده على مخارج نَفَس يعقوب فلم يحسّ بنفس ، ولم يتحرّك له عِرق ؛ فقال لهم يهوذا : ويل لنا من ديّان يوم الدّين ! ضيّعنا أخانا ، وقتلنا أبانا ، فلم يفق يعقوب إلا ببرد السّحر ، فأفاق ورأسه في حجر روبيل ؛ فقال : يا روبيل ! ألم آتمنك على ولدي؟ ألم أعهد إليك عهداً ؟ فقال : يا أبت ! كُفّ عنّي بكاءك أخبرك ؛ فكفّ يعقوب بكاءه فقال : يا أبت "إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ" .

الثانية : قال علماؤنا : هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدلّ على صدق مقاله ، لاحتمال أن يكون تصنّعاً ؛ فمن الخلق من يقدر على ذلك ، ومنهم من لا يقدر .

وقد قيل : إن الدمع المصنوع لا يخفى ؛ كما قال حكيم :

إذا اشتبكت دموعٌ في خُدودٍ . . .

تَبيّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (17) ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ نَسْتَبِقُ ﴾ نفتعل ، من المسابقة .

وقيل : أي نَنْتَضِل ؛ وكذا في قراءة عبد الله "إنَّا ذَهَبْنَا نَنْتَضِل" وهو نوع من المسابقة ؛ قاله الزجاج.

وقال الأزهريّ : النِّضال في السِّهام ، والرِّهان في الخيل ، والمسابقة تجمعهما .

قال القُشيريّ أبو نصر : "نَسْتَبِقُ" أي في الرّمي ، أو على الفرس ؛ أو على الأقدام ؛ والغرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العَدْو ، لأنه الآلة في قتال العدوّ ، ودفع الذئب عن الأغنام .

وقال السدّي وابن حبّان : "نَسْتَبِقُ" نشتد جرياً لنرى أيُّنا أسبق .

قال ابن العربي : المسابقة شِرْعة في الشَّريعة ، وخَصْلة بديعة ، وعَون على الحرب ؛ وقد فعلها صلى الله عليه وسلم بنفسه وبخيله ، وسابق عائشة رضي الله عنها على قدميه فسبقها ؛ فلما كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقها فسبقته ؛ فقال لها : "هذه بتلك" .

قلت : وسابق سَلَمة بن الأكوع رجلاً لما رجعوا من ذي قَرَد إلى المدينة فسبقه سَلَمة ؛ خرجه مسلم .

الثانية : وروى مالك عن نافع عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابق بين

الخيل التي قد أُضْمِرت (من الْحَفْيَاء) وكان أمدها ثَنِيَّة الوداع ، وسابق بين الخيل التي لم تُضمَّر من الثَّنِيَّة إلى مسجد بني زُرَيق ، وأن عبد الله بن عمر كان ممن سابق بها ؛ وهذا الحديث مع صحته في هذا الباب تضمن ثلاثة شروط ؛ فلا تجوز المسابقة بدونها ، وهي : أن المسافة لا بد أن تكون معلومة .

الثاني أن تكون الخيل متساوية الأحوال .

الثالث ألا يسابق المضمّر مع غير المضمّر في أمد واحد وغاية واحدة .

والخيل التي يجب أن تَضمَّر ويسابق عليها ، وتقام هذه السنّة فيها هي الخيل المعدّة لجهاد العدوّ لا لقتال المسلمين في الفتن .

(109/392)

الثالثة : وأما المسابقة بالنّصال والإبل ؛ فروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلنا منزلاً فمِنَّا من يصلِح خِباءه ، ومنا من يَنْتَضِل ، وذكر الحديث .

وخرّج النسائيّ عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا سَبَق إلا في نَصْل أو خُفّ أو حافر" وثبت ذكر النّصل من حديث ابن أبي ذئب عن نافع بن أبي نافع عن

أبي هريرة ، ذكره النسائي ؛ وبه يقول فقهاء الحجاز والعراق .

وروى البخاريّ عن أنس قال : كان للنبي صلى الله عليه وسلم ناقة تسمى العَضْباء لا تُسبَق قال حُمَيد : أو لا تكاد تُسبَق فجاء أعرابي على قعود فسبقها ، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه ؛ فقال : " حقّ على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه " .

الرابعة : أجمع المسلمون على أن السَّبَق لا يجوز على وجه الرهان إلا في الخفّ والحافر والنّصل ؛ قال الشافعي : ما عدا هذه الثلاثة فالسَّبَق فيها قِمار .

وقد زاد أبو البَخْتَرِيّ القاضي في حديث الخفّ والحافر والنّصل "أو جَناح" وهي لفظة وضعها للرشيد ، فترك العلماء حديثه لذلك ولغيره من موضوعاته ؛ فلا يكتب العلماء حديثه بحال .

وقد رُوي عن مالك أنه قال : لا سَبَق إلا في الخيل والرمي ، لأنه قوّة على أهل الحرب ؛ قال : وسَبَق الخيل أحبّ إلينا من سَبَق الرمي .

وظاهر الحديث يسوّي بين السّبق على النُّجُب والسَّبَق على الخيل .

وقد منع بعض العلماء الرّهان في كل شيء إلا في الخيل ؛ لأنها التي كانت عادة العرب المراهنة عليها .

ورُوي عن عطاء أن المراهنة في كل شيء جائزة ؛ وقد تُؤُوِّل قوله ؛ لأن حمله على العموم (في كل شيء) يؤدّي إلى إجازة القمار ، وهو محرّم باتفاق .

الخامسة : لا يجوز السَّبَق في الخيل والإبل إلا في غاية معلومة وأمد معلوم ، كما ذكرنا ، وكذلك الرمي لا يجوز السَّبَق فيه إلا بغاية معلومة ورَشْق معلوم ، ونوع من الإصابة ؛ مشترط خَسْقا أو إصابة بغير شرط.

والأسباق ثلاثة : سَبَق يعطيه الوالي أو الرجل غير الوالي من ماله متطوّعاً فيجعل للسابق شيئاً معلوماً ؛ فمن سبق أخذه.

وسَبَق يخرجه أحد المتسابقين دون صاحبه ، فإن سَبَقه صاحبه أخذه ، وإن سَبَق هو صاحبه أخذه ؛ وحسن أن يمضيه في الوجه الذي أخرجه له ، ولا يرجع إلى ماله ؛ وهذا مما لا خلاف فيه.

والسَّبَق الثالث اختلف فيه ؛ وهو أن يخرج كل واحد منهما شيئاً مثل ما يخرجه صاحبه ، فأيهما سَبَق أحرز سبَقه وسبَق صاحبه ؛ وهذا الوجه لا يجوز حتى يُدخِلا بينهما محلِّلاً لا يأمنا أن يسبقهما ؛ فإن سبق المحلِّل أحرز السَّبَقين جميعاً وأخذهما وحده ، وإن سبق أحد المتسابقين أحرز سبَقه وأخذ سبَق صاحبه ، ولا شيء للمحلِّل فيه ، ولا شيء عليه.

وإن سبق الثاني منهما الثالث كان كمن لم يسبق واحد منهما.

وقال أبو علي بن خيران من أصحاب الشافعي : وحكم الفرس المحلل أن يكون مجهولاً جريه ؛ وسمي محِلّلاً لأنه يحّلل السّبَق للمتسابقين أوْلَهُ .

واتفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محلِّل واشترط كل واحد من المتسابقين أنه إن سبق أخذ سبَقه وسبَق صاحبه أنه قمار ، ولا يجوز .

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من أدخل فرساً بين فرسين وهو لا يأمن أن يَسبق فليس بِقمار ومن أدخله وهو يأمن أن يَسبق فهو قِمار " وفي الموطأ عن سعيد بن المسيب قال : ليس برِهان الخيل بأس إذا دخل فيها محلِّل ، فإن سبق أخذ السبق ، وإن سُبق لم يكن عليه شيء ؛ وبهذا قال الشافعي وجمهور أهل العلم .

واختلف في ذلك قول مالك ؛ فقال مرة لا يجب المحلِّل في الخيل ، ولا نأخذ فيه بقول سعيد ، ثم قال : لا يجوز إلا بالمحلل ؛ وهو الأجود من قوله .

السادسة : ولا يحمل على الخيل والإبل في المسابقة إلا محتلم ، ولو ركبها أربابها كان أولى ؛ وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : لا يركب الخيل في السباق إلا أربابها .

وقال الشافعي : وأقل السَبَق أن يسبق بالهادي أو بعضه ، أو بالكَفَل أو بعضه .

والسبق من الرماة على هذا النحو عنده ؛ وقول محمد بن الحسن في هذا الباب نحو قول الشافعي .

السابعة : روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سابق أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلّى أبو بكر وثَلَّث عمر ؛ ومعنى وصلّى أبو بكر : يعني أن رأس فرسه كان عند صَلاَ فرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصَّلَوَان موضع العَجُز .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا ﴾ أي عند ثيابنا وأقمشتنا حارساً لها .

﴿ فَأَكَلَهُ الذئب ﴾ وذلك أنهم لما سمعوا أباهم يقول : "وأخاف أن يأكله الذئب" أخذوا ذلك من فيه فتحرّموا به ؛ لأنه كان أظهر المخاوف عليه .

﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ أي بمصدق .

﴿ وَلَوْ كُنَّا ﴾ أي وإن كنا ؛ قاله المبرد وابن إسحق .

﴿ صَادِقِينَ ﴾ في قولنا ؛ ولم يصدقهم يعقوب لِما ظهر له منهم من قوّة التّهمة وكثرة الأدلة على خلاف ما قالوه على ما يأتي بيانه .

وقيل : "ولو كنا صادِقِين" أي ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا ، ولاتّهمتنا في هذه القضية ، لشدة محبتك في يوسف ؛ قال معناه الطبريّ والزجاج وغيرهما .

قوله تعالى : ﴿ وَجَآءُوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ قال مجاهد : كان دم سخلة أو جَدْيٍ ذبحوه .

(112/392)

وقال قتادة : كان دم ظبية ؛ أي جاءوا على قميصه بدم مكذوب فيه ، فوصف الدم بالمصدر ، فصار تقديره : بدم ذي كذب ؛ مثل : "واسأل الْقَرْيَةَ" والفاعل والمفعول قد يسميان بالمصدر ؛ يقال : هذا ضَرْبُ الأمير ، أي مضروبه ؛ وماء سَكْبٌ أي مسكوب ، وماء غَوْرٌ أي غائر ، ورجل عَدْلٌ أي عادل .

وقرأ الحسن وعائشة : "بِدَمٍ كَدِبٍ" بالدّال غير المعجمة ، أي بدم طرِيّ ؛ يقال للدّم الطريّ الكدب .

وحكى أنه المتغير ؛ قاله الشعبي .

والكدب أيضاً البياض الذي يخرج في أظفار الأحداث ؛ فيجوز أن يكون شبه الدّم في القميص بالبياض الذي يخرج في الظّفْر من جهة اختلاف اللوْنَيْن .

الثانية : قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن

الله بهذه العلامة علامة تعارضها ، وهي سلامة القميص من التَّنْيِيب ؛ إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق ؛ ولما تأمل يعقوب عليه السلام القميص فلم يجد فيه خَرْقاً ولا أثراً استدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص ! قاله ابن عباس وغيره ؛ روى إسرائيل عن سِماك بن حرب عن عِكرمة عن ابن عباس قال : كان الدم دم سَخْلة .

وروى سفيان عن سِماك عن عِكرمة عن ابن عباس قال : لما نظر إليه قال كذبتم ؛ لو كان الذئب أكله لخرق القميص .

وحكى الماورديّ أن في القميص ثلاث آيات : حين جاءوا عليه بدم كذب ، وحين قُدّ قميصه من دبر ، وحين أُلْقِي على وجه أبيه فارتدّ بصيراً .

قلت : وهذا مردود ؛ فإن القميص الذي جاءوا عليه بالدم غير القميص الذي قدّ ، وغير القميص الذي أتاه البشير به .

وقد قيل : إن القميص الذي قدّ هو الذي أتى به فارتدّ بصيراً ، على ما يأتي بيانه آخر السورة إن شاء الله تعالى .

وروي أنهم قالوا له : بل اللصوص قتلوه ؛ فاختلف قولهم ، فاتهمهم ، فقال لهم يعقوب : تزعمون أن الذئب أكله ، ولو أكله لشق قميصه قبل أن يفضي إلى جلده ، وما أرى بالقميص من شق ؛ وتزعمون أن اللصوص قتلوه ، ولو قتلوه لأخذوا قميصه ؛ هل يريدون إلا ثيابه ؟ فقالوا عند ذلك : "وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنا صادِقِين" عن الحسن وغيره ؛ أي لو كنا موصوفين بالصدق لاتهمتنا .

الثالثة : استدل الفقهاء بهذه الآية في إعمال الأَمَارات في مسائل من الفقه كالقَسامة وغيرها ، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام استدل على كذبهم بصحة القميص ؛ وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت ، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح ، وهي قوة التهمة ؛ ولا خلاف بالحكم بها ، قاله ابن العربي .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : روي أن يعقوب لما قالوا له : "فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ" قال لهم : ألم يترك الذئب له عضواً فتأتوني به استأنس به ؟ ألم يترك لي ثوباً أشم فيه رائحته ؟ قالوا : بلى هذا قميصه ملطوخ

بدمه ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَآءُوا على قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف : 18] فبكى يعقوب عند ذلك وقال لبنيه : أروني قميصه ، فأروه فشمه وقبّله ، ثم جعل يقلبه فلا يرى فيه شقاً ولا تمزيقاً ، فقال : والله الذي لا إله إلا هو ما رأيت كاليوم ذئباً أحكم منه ؛ أكل ابني واختلسه من قميصه ولم يمزقه عليه ؛ وعلم أن الأمر ليس كما قالوا ، وأن الذئب لم يأكله ، فأعرض عنهم كالمغضب باكياً حزيناً وقال : يا معشر ولدي ! دلوني على ولدي ؛ فإن كان حياً رددته إليّ ، وإن كان ميتاً كفنته ودفنته ، فقيل قالوا حينئذ : ألم تروا إلى أبينا كيف يكذبنا في مقالتنا تعالوا نخرجه من الجب ونقطعه عضواً عضوا ، ونأت أبانا بأحد أعضائه فيصدقنا في مقالتنا ويقطع يأسه ؛ فقال يهوذا : والله لئن فعلتم لأكوننّ لكم عدواً ما بقيت ، ولأخبرنّ أباكم بسوء صنيعكم ؛ قالوا : فإذا منعتنا من هذا فتعالوا نصطد له ذئباً ، قال : فاصطادوا ذئباً ولطخوه بالدم ، وأوثقوه بالحبال ، ثم جاءوا به يعقوب وقالوا : يا أبانا إن هذا الذئب الذي يحل بأغنامنا ويفترسها ، ولعله الذي أفجعنا بأخينا لا نشك فيه ، وهذا دمه عليه ؛ فقال يعقوب : أطلقوه ؛ فأطلقوه ، وتَبَصْبَصَ له الذئب ، فأقبل يدنو (منه) ويعقوب يقول له : ادن ادن ؛ حتى ألصق خدّه بخدّه فقال له يعقوب : أيها الذئب ! لم فجعتني بولدي وأورثتني حزناً طويلاً ؟ ثم قال اللهم أنطقه ، فأنطقه الله تعالى فقال : والذي اصطفاك نبياً ما أكلت لحمه ، ولا مزقت جلده ، ولا نتفت شعرة من شعراته ، ووالله ! ما

لي بولدك عهد ، وإنما أنا ذئب غريب أقبلت من نواحي مصر في طلب أخ لي فقِد ، فلا أدري أحي هو أم ميت ، فاصطادني أولادك وأوثقوني ، وإن لحوم الأنبياء حرمت

(115/392)

علينا وعلى جميع الوحوش ، وتالله ! لا أقمت في بلاد يكذب فيها أولاد الأنبياء على الوحوش ؛ فأطلقه يعقوب وقال : والله لقد أتيتم بالحجة على أنفسكم ؛ هذا ذئب بهيم خرج يتبع ذِمَام أخيه ، وأنتم ضيعتم أخاكم ، وقد علمت أن الذئب بريء مما جئتم به .

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ أي زينت .

﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ غير ما تصفون وتذكرون .

ثم قال توطئة لنفسه : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ وهي :

الثانية : قال الزجاج : أي فشأني والذي أعتقده صبر جميل .

وقال قُطْرُب : أي فصبري صبر جميل .

وقيل : أي فصبر جميل أولى بي ؛ فهو مبتدأ وخبره محذوف .

ويروى " أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقال : "هو الذي لا شكوى معه "

وسيأتي له مزيد بيان آخر السورة إن شاء الله .

قال أبو حاتم : قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهل بن يوسف "فصبراً جميلاً" قال : وكذا قرأ الأشهب العُقَيْلي ؛ قال وكذا في مصحف أنس وأبي صالح .

قال المبرّد : "فصبر جميل" بالرفع أولى من النصب ؛ لأن المعنى : قال رب عندي صبر جميل ؛ قال : وإنما النصب على المصدر ، أي فلأَصبرنّ صبراً جميلاً ؛ قال :

شكا إليّ جَمَلي طول السُّرَى . . .

صَبْراً جميلاً فكِلاَنا مُبْتَلَى

والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى .

وقيل : المعنى لا أعاشركم على كآبة الوجه وعبوس الجبين ، بل أعاشركم على ما كنت عليه معكم ؛ وفي هذا ما يدل على أنه عفا عن مؤاخذتهم .

وعن حبيب بن أبي ثابت أن يعقوب كان قد سقط حاجباه على عينيه ، فكان يرفعهما بخرقة ؛ فقيل له : ما هذا ؟ قال : طول الزمان وكثرة الأحزان ؛ فأوحى الله إليه أتشكوني يا يعقوب ؟ قال : يا رب ! خطيئة أخطأتها فاغفر لي .

﴿ والله المستعان ﴾ ابتداء وخبر .

﴿ على مَا تَصِفُونَ ﴾ أي على احتمال ما تصفون من الكذب .

الثالثة : قال ابن أبي رفاعة : ينبغي لأهل الرأي أن يتهموا رأيهم عند ظن يعقوب صلى الله عليه وسلم وهو نبيّ ؛ حين قال له بنوه : ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذئب ﴾ [يوسف : 17] قال : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ فأصاب هنا ؛ ثم قالوا له : ﴿ إِنَّ ابنك سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ [يوسف : 81] قال : "بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً" فلم يصب. انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(117/392)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وجاؤوا أباهم عشاء يبكون ﴾

قال المفسرون : لما طرحوا يوسف في الجب رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء ليكونوا في الظلمة أجرأ على الاعتذار بالكذب فلما قربوا من منزل يعقوب جعلوا يبكون ويصرخون فسمع أصواتهم ففزع من ذلك وخرج إليهم فلما رآهم قال بالله سألتكم يا بني هل أصابكم شيء في غنمكم قالوا لا قال فما أصابكم وأين يوسف ﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ﴾ قال

ابن عباس : يعني ننتضل ، وقال الزجاج : يسابق بعضنا بعضاً في الرمي الأصل في السبق الرمي بالسهم وهو التناضل أيضاً وسمي المتراميان بذلك يقال تسابقا واستبقا إذا فعلا ذلك ليتبين أيهما أبعد سهماً .

(118/392)

وقال السدي : يعني نشتد ونعدو والمعنى نستبق على الأقادم ليتبين أينا أسرع عدواً وأخف حركة ، وقال مقاتل : نتصيد والمعنى نستبق إلى الصيد ﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ يعني عند ثيابنا ﴿ فأكله الذئب ﴾ يعني في حال استباقنا وغفلتنا عنه ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ يعني وما أنت بمصدق لنا ﴿ ولو كنا صادقين ﴾ يعني في قولنا والمعنى إنا وإن كنا صادقين لكنك لا تصدق لنا قولاً لشدة محبتك ليوسف عند ثيابنا ﴿ فأكله الذئب ﴾ يعني في حال استباقنا وغفلتنا عنه ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ يعني وما أنت بمصدق لنا ﴿ ولو كنا صادقين ﴾ يعني في قولنا والمعنى إنا وإن كنا صادقين لكنك لا تصدق لنا قولاً لشدة محبتك ليوسف فإنك تتهمنا في قولنا هذا وقيل معناه إنا وإن كنا صادقين فإنك لا تصدقنا لأنه لم تظهر عندك أماة تدل على صدقنا ﴿ وجاؤوا على قميصه ﴾ يعني قميص يوسف ﴿ بدم كذب ﴾ أي مكذوب فيه قال ابن عباس : إنهم

ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف ثم جاؤوا أباهم وفي القصة أنهم لطخوا القميص بالدم ولم يشقوه ، فقال يعقوب لهم : كيف أكله الذئب ولم يشقّ قميصه فاتهمهم بذلك ، وقيل إنهم أتوه بذئب وقالوا هذا أكله فقال يعقوب : أيها الذئب أنت أكلت ولدي وثمرة فؤادي ؟ فأنطقه الله وقال والله ما أكلته ولا رأيت ولدك قط ولا يحل لنا أن نأكل لحوم الأنبياء ، فقال يعقوب فكيف وقعت بأرض كنعان قال جئت لصلة الرحم وهي قرابة لي فأخذوني وأتوا بي إليك فأطلقه يعقوب ولما ذكر إخوة يوسف ليعقوب هذا الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم ، ﴿ قال ﴾ يعقوب ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ يعني بل زينت لكم أنفسكم أمراً ، وأصل التسويل تقدير معنى في النفس مع الطمع في إتمامه ، وقال صاحب الكشاف : سولت سهلت من السول وهو الاسترخاء أي سهلت لكم أنفسكم أمراً عظيماً ركبتموه من يوسف وهوّنتموه في أنفسكم وأعينكم فعلى هذا يكون معنى قوله بل رد لقولهم فأكله الذئب كأنه قال ليس الأمر كما

تقولون أكله الذئب بل سولت لكم أنفسكم أمراً آخر غير ما تصفون ﴿ فصبر جميل ﴾ أي : فشأني صبر جميل ، وقيل : معناه فصبري صبر جميل والصبر الجميل الذي لا شكوى فيه

ولا جزع .

وقيل : من الصبر أن لا تحدث بمصيبتك ولا تزكين نفسك ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ يعني : من القول الكذب ، وقيل : معناه والله المستعان على حمل ما تصفون .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(120/392)

وقال أبو حيان :

﴿ وَجَاءوا أَبَاهُمْ عِشَاء ﴾

وعشاء نصب على الظرف ، أو من العشوة .

والعشوة : الظلام ، فجمع على فعال مثل راع ورعاء ، ويكون انتصابه على الحال كقراءة الحسن عشا على وزن دجى ، جمع عاش ، حذف منه الهاء كما حذفت في مالك ، وأصله مالكة .

وعن الحسن عشياً على التصغير .

قيل : وإنما جاؤوا عشاء ليكون أقدر على الاعتذار في الظلمة ، ولذا قيل : لا تطلب الحاجة بالليل فإنّ الحياء في العينين ، ولا تعتذر في النهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار .

وفي الكلام حذف تقديره : وجاؤوا أباهم دون يوسف عشاء يبكون ، فقال : أين يوسف ؟

قالوا : إنا ذهبنا .

وروي أن يعقوب لما سمع بكاءهم قال : ما لكم ، أجرى في الغنم شيء ؟ قالوا : لا .

قال : فأين يوسف ؟ قالوا : إنا ذهبنا نستبق فأكله الذئب ، فبكى ، وصاح ، وخر مغشياً عليه ، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك ، ونادوه فلم يجب ، ووضع يهوذا يده على مخارج نفسه فلم يحس بنفسه ولا تحرك له عرق فقال : ويل لنا من ديان يوم الدين الذي ضيعنا أخانا وقتلنا أبانا ، فلم يفق لا ببرد السحر .

قال الأعمش : لا يصدق باك بعد أخوة يوسف .

ونستبق .

أي : نترامى بالسهام ، أو نتجارى على الأقدام أينا أشد عدواً ، أو نستبق في أعمال نتوزعها من سقي ورعي واحتطاب ، أو نتصيد .

أربعة أقوال .

عند متاعنا أي : عند ثيابنا ، وما تجردنا له حالة الاستباق ، وهذا أيضاً يدل على صغر يوسف ، إذ لو كان ابن ثمان عشرة سنة أو سبع عشرة لكان يستبق معهم ، فأكله الذئب قد ذكرنا أنهم تلقنوا هذا الجواب من قول أبيهم ، وأخاف أن يأكله الذئب ، لأن أكل الذئب إياه

كان أغلب ما كان خاف عليه .

وما أنت بمؤمن لنا أي : بمصدق لنا الآن ولو كنا صادقين .

أو لست مصدقاً لنا على كل حال حتى في حالة الصدق ، لما غلب عليك من تهمتنا وكراهتنا في يوسف ، وإنا نرتاد له الغوائل ، ونكيد له المكائد ، وأوهموا بقولهم : ولو كنا صادقين أنهم صادقون في أكل الذئب يوسف ، فيكون صدقهم مقيداً بهذه النازلة .

أو من أهل الصدق والثقة عند يعقوب قبل هذه النازلة ، لشدّة محبتك ليوسف ، فكيف وأنت سيىء الظن بنا في هذه النازلة ، غير واثق بقولنا فيه ؟ .

روي أنهم أخذوا سخلة أو جدياً فذبحوه ، ولطخوا قميص يوسف بدمه ، وقالوا : ليعقوب هذا قميص يوسف فأخذه ، ولطخ به وجهه وبكى ، ثم تأمله فلم ير خرقاً ولا ارتاب ، فاستدل بذلك على خلاف ما زعموا وقال لهم : متى كان الذئب حليماً يأكل يوسف ولا يخرق قميصه ؟ قيل : كان في قميص يوسف ثلاث آيات ، كان دليلاً ليعقوب على أن يوسف لم يأكله الذئب ، وألقاه على وجهه فارتد بصيراً ، ودليلاً على براءة يوسف حين قدّ من دبر .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : على قميصه ما محله ؟ (قلت) : محله النصب على الظرف ، كأنه قيل : وجاؤوا فوق قميصه بدم كما تقول : جاء على جماله بأحمال .

(فإن قلت) : هل يجوز أن يكون حالاً مقدمة ؟ (قلت) : لا ، لأن حال المجرور لا يتقدم عليه انتهى .

ولا يساعد المعنى على نصب على على الظرف بمعنى فوق ، لأن العامل فيه إذ ذاك جاؤوا ، وليس الفوق ظرفاً لهم ، بل يستحيل أن يكون ظرفاً لهم .

وقال الحوفي : على متعلق بجاؤوا ، ولا يصح أيضاً .

وأما المثال الذي ذكره الزمخشري وهو جاء على جماله بأحمال فيمكن أن يكون ظرفاً للجائي ، لأنه تمكن الظرفية فيه باعتبار تبدله من جمل على جمل ، ويكون بأحمال في موضع الحال أي : مصحوباً بأحمال .

وقال أبو البقاء : على قميصه في موضع نصب حالاً من الدم ، لأن التقدير : جاؤوا بدم كذب على قميصه انتهى .

وتقديم الحال على المجرور بالحرف غير الزائد في جوازه خلاف ، ومن أجاز استدل على ذلك بأنه موجود في لسان العرب ، وأنشد على ذلك شواهد هي مذكورة في علم النحو ، والمعنى : يرشد إلى ما قاله أبو البقاء .

وقرأ الجمهور : كذب وصف لدم على سبيل المبالغة ، أو على حذف مضاف أي : ذي كذب ، لما كان دالاً على الكذب وصف به ، وإن كان الكذب صادراً من غيره .

وقرأ زيد بن علي : كذباً بالنصب ، فاحتمل أن يكون مصدراً في موضع الحال ، وأن يكون مفعولاً من أجله .

وقرأت عائشة ، والحسن : كدب بالدال غير معجمة ، وفسر بالكدر ، وقيل : الطري ، وقيل : اليابس ، وقال صاحب اللوامح : ومعناه ذي كذب أي : أثر لأن الكذب هو بياض يخرج في أظافير الشبان ويؤثر فيها ، كالنقش ، ويسمى ذلك البياض الفوف ، فيكون هذا استعارة لتأثيره في القميص ، كتأثير ذلك في الأظافير .

قال : بل سولت هنا محذوف تقديره : لم يأكله الذئب ، بل سولت .

قال ابن عباس : أمرتكم أمراً ، وقال قتادة : زينت ، وقيل : رضيت أمراً أي : صنيعاً قبيحاً .

وقيل : سهلت .

فصبر جميل أي : فأمري صبر جميل ، أو فصبر جميل أمثل .

وقرأ أبي ، والأشهب ، وعيسى بن عمر : فصبراً جميلاً بنصبهما ، وكذا هي في مصحف أبيّ ، ومصحف أنس بن مالك .

وروي كذلك عن الكسائي .

ونصبه على المصدر الخبري أي : فاصبر صبراً جميلاً .

قيل : وهي قراءة ضعيفة عند سيبويه ، ولا يصلح النصب في مثل هذا إلا مع الأمر ،

وكذلك يحسن النصب في قوله :

شكا إلي جملي طول السرى . . .

صبراً جميلاً فكلانا مبتلي

ويروى صبر جميل في البيت .

وإنما تصح قراءة النصب على أنْ يقدر أنّ يعقوب رجع إلى مخاطبة نفسه فكأنه قال :

فاصبري يا نفسُ صبراً جميلاً .

وفي الحديث : " أن الصبر الجميل أنه الذي لا شكوى فيه " أي : إلى الخلق .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ وقيل : أتجمل لكم في صبري فلا أعاشركم على كآبة الوجه ، وعبوس الجبين ، بل على ما كنت عليه معكم .

وقال الثوري : من الصبر أنْ لا تحدث بما يوجعك ولا بمصيبتك ولا تبكي نفسك .

والله المستعان أي : المطلوب منه العون على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف ، والصبر على الرزية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(124/392)

وقال أبو السعود :

﴿ وَجَاءوا أَبَاهُمْ عِشَاءً ﴾

آخر النهار وقرىء عُشِيًّا وهو تصغير عشي وعُشىً بالضم والقصر جمع أعشى أي عَشْوا من البكاء ﴿ يَبْكُونَ ﴾ متباكين . روي أنه لما سمع يعقوبُ عليه السلام بكاءهم فزع وقال : ما لكم يا بَنيّ وأين يوسف ؟ ﴿ قَالُواْ يأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أي متسابقين في العدْو والرمي وقد يشترك الافتعال والتفاعل كالانتضال والتناضل ونظائرهما ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا ﴾ أي ما نتمتع به من الثياب والأزواد وغيرِهما ﴿ فَأَكَلَهُ الذئب ﴾ عَقيبَ ذلك من غير مُضيّ زمانٍ يعتاد فيه التفقدُ والتعهدُ . وحيث لا يكاد يُطرح المتاعُ عادة إلا في

مقام يُؤْمن فيه الغوائلُ لم يعُدْ تركُه عليه السلام عنده من باب الغفلة وتركِ الحظ الملتزَم لا سيما إذا لم يبرحوه ولم يغيبوا عنه ، فكأنهم قالوا : إنا لم نقصِّر في محافظته ولم نغفُلْ عن مراقبته بل تركناه في مأمننا ومجمعنا بمرأىً منا لأن ميدانَ السباق لا يكون عادة إلا بحيث يتراءى غاياته وما فارقناه إلا ساعةً يسيرةً بيننا وبينه مسافةٌ قصيرة فكان ما كان ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ بمصدّق لنا في هذه المقالة الدالةِ على عدم تقصيرنا في أمره ﴿ وَلَوْ كُنَّا ﴾ عندك وفي اعتقادك ﴿ صادقين ﴾ موصوفين بالصدق والثقةِ لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيّءُ الظن بنا غيرُ واثقٍ بقولنا ، وكلمة لو في أمثال هذه المواقعِ لبيان تحقق ما يفيده الكلامُ السابق من الحكم الموجَبِ أو المنفيّ على كل حال مفروض من الأحوال المقارنةِ له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدِّها منافاةً له ليظهر بثبوته أو انتفائِه معه ثبوتُه أو انتفاؤه مع غيره من الأحوال بطريق الأولوية ، لِما أن الشيءَ متى تحقق مع المنافي القويّ فلأَنْ يتحققَ مع غيره أولى ، ولذلك لا يُذكر معه شيءٌ من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر الواوِ العاطفةِ للجملة على نظيرتها المقابلةِ لها الشاملةِ لجميع الأحوال المغايرة لها عند

تعدّدِها ، وقد مرّ تفصيله في سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ ﴾ وفي سورة الأعراف عند قوله تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كارهين ﴾

﴿ وَجَاءوا على قَمِيصِهِ ﴾

(126/392)

محلُّه النصبُ على الظرفية من قوله : ﴿ بِدَمٍ ﴾ أي جاءوا فوق قميصِه بدم كما تقول : جاء على جماله بأحمال ، أو على الحالية منه والخلاف في تقدم الحال على المجرور فيما إذا لم يكن الحالُ ظرفاً ﴿ كَذِبٍ ﴾ مصدرٌ وصف به الدمُ مبالغةً ، أو مصدرٌ بمعنى المفعول أي مكذوبٍ فيه أو بمعنى ذي كذب أي ملابِسٍ لكذب ، وقرىء كذباً على أنه حالٌ من الضمير ، أي جاءوا كاذبين أو مفعولٌ له ، وقرأت عائشة رضي الله تعالى عنها بغير المعجمة أي كدر ، وقيل : طريّ ، قال ابن جني : أصلُه من الكدب وهو الفُوف أي البياض الذي يخرج على أظفار الأحداث كأنه دم قد أثر في قميصه . روي أنهم ذبحوا سَخْلةً ولطّخوه بدمها وزلّ عنهم أن يمزقوه ، فلما سمع يعقوبُ بخبر يوسف عليهما السلام صاح بأعلى صوته وقال : أين القميصُ؟ فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضَب وجهَه بدم القميص وقال : تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلمَ من هذا ، أكل ابني ولم يمزِّقْ عليه قميصه . وقيل : كان

في قميص يوسف عليه السلام ثلاثُ آياتٍ كان دليلاً ليعقوب على كذبهم وألقاه على وجهه فارتد بصيراً ودليلاً على براءة يوسف عليه السلام حين قُدّ مِنْ دُبر ﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبني على سؤال فكأنه قيل : ما قال يعقوبُ هل صدقهم فيما قالوا أو لا ؟ فقيل : لم يكن ذلك ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ ﴾ أي زينت وسهّلت قاله ابن عباس رضي الله عنهما والتسويلُ تقديرُ شيءٍ في النفس مع الطمع في إتمامه . قال الأزهري : كأنّ التسويلَ تفعيلٌ من سُؤَلِ الإنسان وهو أمنيتُه التي يطلبها فتزين لطالبها الباطلَ وغيرَه ، وأصله مهموز ، وقيل : من السَّوَل وهو الاسترخاء ﴿ أَمْراً ﴾ من الأمور منْكرا لا يوصف ولا يعرف ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أي فأمري صبرٌ جميلٌ أو فصبرٌ أجملُ أو أمثلُ . وفي الحديث : "الصبرُ الجميلُ الذي لا شكوى فيه " أي إلى الخلق وإلا فقد قال يعقوبُ عليه السلام : إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، وقيل

: سقط حاجباه على عينيه فكان يرفعهما بعصابة ، فقيل له : ما هذا ؟ قال : طولُ الزمان وكثرةُ الأحزان فأوحى الله عز وجل إليه : "يا يعقوبُ أتشكوني ؟" قال : يا رب خطيئةٌ فاغفِرها لي ، وقرأ أُبيّ فصبراً جميلاً ﴿ واللهُ المستعان ﴾ أي المطلوبُ منه العونُ وهو

إنشاءٌ منه عليه السلام للاستعانة المستمرة ﴿ على مَا تَصِفُونَ ﴾ على إظهار حال ما تصفون وبيانِ كونِه كذباً ، وإظهارِ سلامتِه فإنه عَلَم في الكذب قال سبحانه : ﴿ سبحان ربِّكَ ربِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ وهو الأليقُ بما سيجيء من قوله تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ وتفسيرُ المستعانِ عليه باحتمال ما يصفون من هلاك يوسفَ والصبرِ على الرزء فيه يأباه تكذيبُه عليه السلام لهم في ذلك ، ولا تساعدُه الصيغةُ فإنها قد غلَبت في وصف الشيء بما ليس فيه كما أشير إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(128/392)

وقال الآلوسى :

﴿ وَجَاءوا أَبَاهُمْ عِشَاء ﴾

أي في ذلك الوقت .

وهو كما قال الراغب من صلاة المغرب إلى العتمة والعشاآن : المغرب .

والعتمة .

وعن الحسن أنه قرأ عشياً بضم العين وفتح الشين وتشديد الياء منوناً وهو تصغير عشى

وهو من زوال الشمس إلى الصباح ، وعنه أنه قرأ عشى بالضم والقصر كدجى فنصبه على الحال وهو جمع أعشى عند بعض وعاش عند آخرين ، وأصله عشاة كماش ومشاة فحذفت الهاء تخفيفاً ، وأورد عليهما بأنه لا جواز لمثل هذا الحذف وأنه لا يجمع أفعل فعلاء على فعل بضم الفاء وفتح العين بل فعل بسكون العين ، ولذا قيل : كان أصله عشوا فنقلت حركة الواو إلى ما قبلها لكونه حرفاً صحيحاً ساكناً ثم حذفت بعد قلبها ألفاً لالتقاء الساكنين وإن قدر ما بكوا به في ذلك اليوم لا يعشو منه الإنسان ؛ وأجيب عن هذا بأن المقصود المبالغة في شدة البكاء والنحيب لا حقيقته أي كان يضعف بصرهم لكثرة البكاء ، وقيل : هو جمع عشوة مثلث العين وهي ركوب أمر على غير بصيرة يقال : أوطأه عشوة أي أمراً ملتبساً يوقعه في حيرة وبلية فيكون تأكيداً لكذبهم وهو تمييز أو مفعول له ، وجوز أن يكون جمع عشوة بالضم بمعنى شعلة النار عبارة عن سرعتهم لابتهاجهم بما فعلوا من العظيمة وافتعلوا من العضيهة ، وجوز أن يكون ﴿ عشاءً ﴾ في قراءة الجمهور جمع عاش مثل راع ورعاء ويكون نصبه على الحال ، والظاهر الأول ، وإنما جاءوا عشاء إما لأنهم لم يصلوا من مكانهم إلا في ذلك الوقت ، وإما ليكونوا أقدر على الاعتذار لمكان الظلمة التي يرتفع فيها الحياء ، ولذا قيل : لا تطلب الحاجة بالليل فإن الحياء في العينين ولا تعتذر في النهار من ذنب فتلجلج في الاعتذار وهل جاءوا في عشاء اليوم الذي ذهبوا فيه أو في عشاء يوم آخر ؟ ظاهر كلام بعضهم الأول ، وذهب بعضهم إلى الثاني بناءً على ما روي

أنه عليه السلام مكث في الجب ثلاثة أيام وكان إخوته يرعون حواليه وكان يهوذا يأتيه بالطعام .

وفي الكلام على ما في البحر حذف والتقدير ﴿ يَشْعُرُونَ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ ﴾ دون يوسف ﴿ عشاءاً ﴾ ﴿ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ أي متباكين أي مظهرين البكاء بتكلف لأنه لم يكن عن حزن لكنه يشبهه ، وكثيراً ما يفعل بعض الكذابين كذلك ، أخرج ابن المنذر عن الشعبي قال : جاءت امرأة إلى شريح تخاصم في شيء فجعلت تبكي فقالوا : يا أبا أمية أما تراها تبكي ؟! فقال : قد جاء إخوة يوسف أباهم عشاءاً يبكون ، وقال الأعمش : لا يصدق باك بعد إخوة يوسف ، وفي بعض الآثار أن يعقوب عليه السلام لما سمع بكاءهم قال : ما بالكم أجري في الغنم شيء ؟ قالوا : لا قال : فما أصابكم وأين يوسف ؟ .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾

أي متسابقين في العدو على الأقدام على ما روي عن السدى ، أو في الرمي بالسهام كام قال الزجاج ، أو في أعمال نتوزعها من شقي ورعي واحتطاب أو في الصيد وأخذه كما قيل ، ورجح ما قاله الزجاج بقراءة عبد الله إنا ذهبنا ننتضل وأورد على الأول أنه كيف ساغ لهم الاستباق في العدو وهو من أفعال الصبيان التي لا ثمرة فيها ، وأجيب بالمنع وثمرته التدرب في العدو لحاربة العدو ومدافعة الذئب مثلا ؛ وبالجملة ﴿ نَسْتَبِقُ ﴾ بمعنى نتسابق وقد يشترك الافتعال والتفاعل فيكونان بمعنى كالانتضال والتناضل ونظائرهما ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتاعنا ﴾ أي ما يتمتع به من الثياب والازواد وغيرهما ﴿ فَأَكَلَهُ الذئب ﴾ عقيب ذلك من غير مضي زمان يعتاد فيه التفقد والتعهد وحيث لا يكاد يطرح المتاع عادة إلا في مقام يؤمن فيه الغوائل لم يعد تركه عليه السلام عنده من باب الغفلة وترك الحفظ الملتزم لا سيما إذ لم يغيبوا عنه فكأنهم قالوا : إنا لم نقصر في محافظته ولم نغفل عن مراقبته بل تركناه في مأمننا ومجمعنا بمرأى منا وما فارقناه إلا ساعة يسيرة بيننا وبينه مسافة قصيرة فكان ما كان قاله شيخ الإسلام ، والظاهر أنهم لم يريدوا إلا أن الذئب أكل يوسف ولم يقصدوا بذلك تعريضاً فما قيل : إنهم عرضوا وأرادوا أكل الذئب المتاع لا يلتفت إليه لما فيه من الخروج عن الجادة من غير موجب ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لّنَا ﴾ أي ما أنت مصدق لنا في هذه المقالة ﴿ وَلَوْ كُنَّا ﴾ عندك وفي اعتقادك ﴿ صادقين ﴾ أي موصوفين بالصدق والثقة لفرط محبتك فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا ، قيل : ولا بد من هذا التأويل إذ لو

كان المعنى ﴿ وَلَوْ كُنَّا صادقين ﴾ في نفس الأمر لكان تقديره فكيف إذا كنا كاذبين فيه فيلزم اعترافهم بكذبهم فيه ، وقد تقدم أن المراد في مثل ذلك تحقيق الحكم السابق على كل حال فكأنه قيل هنا : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ في حال من الأحوال فتذكر

وتأمل .

﴿ وَجَاءوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾

أي ذي كذب أو وصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه كما يقال للكذاب : هو الكذب بعينه والزور بذاته ، ومن ذلك ما في قوله :

أفيضوا على عزابكم من بناتكم . . .

فما في كتاب الله أن يحرم الفضل

وفيهن فضل قد عرفنا مكانه . . .

فهن به ﴿ جود ﴾ وأنتم به ﴿ مَن بَخِلَ ﴾

> وبعضهم يؤوّل كذب بمكذوب فيه فإن المصدر قد يؤوّل بمثل ذلك ، وقرأ زيد بن على رضي الله عنهما كذباً بالنصب وخرج على أنه في موضع الحال من فاعل ﴿ جاءوا ﴾

بتأويل كاذبين ، وقيل : من دم على تأويل مكذوباً فيه ، وفيه أن الحال من النكرة على خلاف القياس ، وجوز أن يكون مفعولاً من أجله أي جاءوا بذلك لأجل الكذب ، وقرأت عائشة رضي الله تعالى عنها والحسن كدب بالدال المهملة وليس من قلب الذال دالاً بل هو لغة أخرى بمعنى كدر أو طرى أو يابس فهو من الاضداد ، وقال صاحب اللوامح : المعنى ذي كدب أي أثر لأن الكدب بياض يخرج في أظافير الشبان ويؤثر فيها فهو كالنقش ويسمى ذلك الفوق ولم يعتبر بعض المحققين تقدير المضاف وجعل ذلك من التشبيه البليغ أو الاستعارة فإن الدم في القميص يشبه الكذب من جهة مخالفة لونه لون ما هو فيه ، وقوله سبحانه : ﴿ على قَمِيصِهِ ﴾ على ما ذهب إليه أبو البقاء حال من دم ، وفي جواز تقديم الحال على صاحبها المجرور بالحرف غير الزائد خلاف ، والحق كما قال السفاقسي : الجواز لكثرة ذلك في كلامهم ، وفي اللباب ولا تتقدم على صاحبها المجرور على الأصح نحو مررت جالسة بهند إلا أن يكون الحال ظرفاً على أن الحق ما اختاره ابن مالك من جواز التقديم مطلقاً ، وقال الزمخشري .

ومن تبعه : إنه في موضع النصب على الظرفية أي جاءوا فوق قميصه كما تقول : جاء على جماله بأحمال ، وأراد على ما في الكشف أن ﴿ على ﴾ على حقيقة الاستعلاء وهو ظرف لغو ، ومنع في البحر كون العامل فيه المجيء لأنه يقتضي أن الفوقية ظرف للجائين ، وأجيب بأن الظرفية ليست باعتبار الفاعل بل باعتبار المفعول .

وفي بعض الحواشي أن الأولى أن يقال : جاءوا مستولين على قميصه ، وقوله سبحانه : ﴿ بِدَمٍ ﴾ حال من القميص ، وجعل المعنى استولوا على القميص ملتبساً بدم جائين ، وهو على ما قيل : أولى من جاءوا مستولين لما تقرر في التضمين ، والأمر في ذلك سهل فإن جعل المضمن أصلاً والمذكور حالا وبالعكس كل منهما جائز وإذا اقتضى المقام أحدهما رجح ، واستظهر كونه ظرفاً للمجيء المتعدي ، والمعنى أتوا بدم كذب فوق قميصه ولا يخفي استقامته ، هذا ثم إن ذلك الدم كان دم سخلة ذبحوها ولطخوا بدمها القميص كما روي عن ابن عباس .

ومجاهد .

وأخرج ابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ عن قتادة أنهم أخذوا ظبياً فذبحوه فلظخوا بدمه القميص ، ولما جاءوا به جعل يقلبه فيقول : ما أرى به أثر ناب ولا ظفر إن هذا السبع رحيم ، وفي رواية أنه أخذ القميص وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص ، وقال : تالله ما رأيت كاليوم

ذئباً أحلم من هذا أكل ابني ولم يمرق عليه قميصه، وجاء أنه بكى وصاح وخر مغشياً عليه فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك وما دوه فلم يجب ووضع يهوذا يده على مخارج نفسه فلم يحس بنفس ولا تحرك له عرق، فقال: ويل لنا من ديان يوم الدين ضيعنا أخانا وقتلنا أبانا فلم يفق إلا ببرد السحر ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ ﴾ أي زينت وسهلت ﴿ أَمْراً ﴾ من الأمور منكراً لا يوصف ولا يعرف، وأصل التسويل تقدير شيء في النفس مع الطمع في إتمامه.

وقال الراغب: هو تزيين النفس لما تحرص عليه وتصوير القبيح بصورة الحسن.

وقال الأزهري: كأن التسويب تفعيل من سوال الإنسان وهو أمنيته التي يطلبها فتزين لطالبها الباطل وغيره وأصله مهموز، وقيل: من البسول بفتحتين وهو استرخاء في العصب ونحوه كأن المسول لمزيد حرصه استرخى عصبه، وفي الكلام حذف على ما في البحر أي لم يأكله الذئب ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ الخ، وعلمه عليه السلام بكذبهم قيل: حصل من سلامة القميص عن التمزيق وهي إحدى ثلاثة آيات في القميص: ثانيتها عود يعقوب بصيراً بالقائه على وجهه، وثالثتها قده من دبر فانه كان دليلاً على براءة يوسف، وينضم إلى ذلك وقوفه

بالرؤيا الدالة على بلوغه مرتبة علياء تنحط عنها الكواكب ، وقيل : من تناقضهم فانه يروى أنه عليه السلام لما قال : ما تقدم عن قتادة قال بعضهم : بل قتله اللصوص فقال : كيف قتلوه وتركوا قميصه وهم إلى قميصه أحوج منهم إلى قتله ؟! ولعله مع هذا العلم إنما حزن عليه السلام لما خشى عليه من المكروه والشدائد غير الموت ، وقيل : إنما حزن لفراقه وفراق الأحبة مما لا يطاق ، ولذلك قيل :

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت . . .

لها المنايا إلى أرواحنا سبلا

ولا بأس بأن يقال : إنه أحزنه فراقه وخوف أن يناله مكروه ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أي فأمرى صبر جميل ، أو فصبري صبر جميل كما قال قطرب ، أو فالذي أفعله ذلك كما قال الخليل .

أو فهو صبر الخ كما قال الفراء ، وصبر في كل ذلك خبر مبتدأ محذوف .

أو فصبر جميل أمثل وأجمل على أنه مبتدأ خبره محذوف ، وهل الحذف في مثل ذلك واجب .

أو جائز ؟ فيه خلاف ، وكذا اختلفوا فيما إذا صح في كلام واحد اعتبار حذف المبتدأ وإبقاء الخبر واعتبار العكس هل الاعتبار الأول أولى أم الثاني ؟ .

وقرأ أبي .

والأشهب .

وعيسى بن عمر فصبراً جميلاً بنصبهما وكذا في مصحف أنس بن مالك ، وروي ذلك عن الكسائي ، وخرج على أن التقدير فاصبر صبراً على أن اصبر مضارع مسند لضمير المتكلم ، وتعقب بأنه لا يحسن النصب في مثل ذلك إلا مع الأمر ، والتزم بعضهم تقديره هنا بأن يكون عليه السلام قد رجع إلى مخاطبة نفسه فقال : صبراً جميلاً على معنى فاصبري يا نفس صبراً جميلاً ، والصبر الجميل على ما روي الحسن عنه صلى الله عليه وسلم ما لا شكوى فيه أي إلى الخلق وإلا فقد قال يعقوب عليه السلام : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللهِ ﴾ [يوسف : 86] ، وقيل : إنه عليه السلام سقط حاجباه على عينيه فكان يرفعهما بعصابة فسئل عن سبب ذلك فقال : طول الزمان وكثرة الأحزان فأوحى الله تعالى إليه أتشكو إلى غيري ، فقال يا رب خطيئة فاغفرها .

وقيل: المراد من قوله: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أني اتجمل لكم في صبري فلا أعاشركم على كآبة الوجه وعبوس الجبين بل أبقى على ما كنت عليه معكم وهو خلاف الظاهر جداً ﴿ والله المستعان ﴾ أي المطلوب منه العون وهو إنشاء منه عليه السلام للاستعانة المستمرة ﴿ على مَا تَصِفُونَ ﴾ متعلق بالمستعان والوصف ذكر الشيء بنعمته وهو قد يكون صدقاً وقد يكون كذباً، والمراد به هنا الثاني كما في قوله سبحانه: ﴿ سبحان رَبِّكَ رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: 180] بل قيل: إن الصيغة قد غلبت في ذلك ومعنى استعانته عليه السلام بالله تعالى على كذبهم طلبه منه سبحانه إظهار كونه كذباً بسلامة يوسف عليه السلام والاجتماع معه فيكون ذكر الاستعانة هنا نظير ﴿ عَسَى الله أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ [يوسف: 83] بعد قوله فيما بعد: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾، وفي بعض الآثار أن عائشة رضي الله عنها قالت يوم الإفك: والله لئن حلفت لا تصدقوني ولئن اعتذرت لا تعذروني فمثلي ومثلكم كمثل يعقوب وولده والله المستعان على ما تصفون فأنزل الله تعالى في عذرها ما أنزل، وقيل: المراد إنه تعالء المستعان على احتمال ما تصفونه من هلاك يوسف كأنه عليه السلام بعد أن قال: صبر جميل طلب الإعانة منه تعالى على الصبر وذلك لأن الدواعي النفسانية تدعو إلى إظهار الجزع وهي قوية والدواعي الروحانية الصبر الجميل فكأنه وقعت المحاربة بين الصفتين فما لم تحصل المعونة منه جل وعلا لا تحصل الغلبة، فقوله: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ يجرى مجرى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة

: 5] ﴿ واللهُ المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ يَجْرِي مجرى ﴿ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة :

5] ولعل الأول أسلم من القال والقيل ، وللإمام الرازي عليه الرحمة في هذا المقام بحث ،

وهو : أن الصبر على قضاء الله تعالى واجب وأما الصبر على ظلم الظالمين ومكر الماكرين

فغير واجب بل الواجب إزالته

لاسيما في الضرر العائد إلى الغير فكان اللائق بيعقوب عليه السلام التفتيش والسعى في

تخليص يوسف عليه السلام من البلية والشدة إن كان حياً ، وفي إقامة القصاص إن صح

أنهم قتلوه بل قد يقال : إن الواجب المتعين عليه السعي في طلبه وتخليصه لأن الظاهر أنه

كان عالماً بأنه حي سليم لقوله :

﴿ وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الاحاديث ﴾ [يوسف : 6] فإن الظاهر أنه

إنما قاله عن وحي ، وأيضاً إنه عليه السلام كان عظيم القدر جليل الشأن معظماً في النفوس

مشهوراً في الآفاق فلو بالغ في الطلب والتفحص لظهر ذلك واشتهر ولزال وجه التلبيس فما

السبب في تركه عليه السلام الفحص مع نهاية رغبته في حضور يوسف وغاية محبته له ،

وهل الصبر في هذا المقام إلا مذموم عقلاً وشرعاً ؟ ثم قال : والجواب أن نقول : لا جواب

عن ذلك إلا أن يقال : إنه سبحانه وتعالى منعه عن الطلب تشديداً للمحنة وتغليظاً للأمر ، وأيضاً لعله عرف بقرائن الأحوال أن أولاده أقوياء وأنهم لا يمكنونه من الطلب والتفحص وأنه لو بالغ في البحث ربما أقدموا على إيذائه وقتله ، وأيضاً لعله عليه السلام علم أن الله تعالى يصون يوسف عن البلاء والمحنة وأن أمره سيعظم بالآخرة ثم لم يرد هتك ستر أولاده وما رضي بإلقائهم في ألسنة الناس ، وذلك لأن أحد الولدين إذا ظلم الآخر وقع الأب في العذاب الشديد لأنه إن لم ينتقم يحترق قلبه على الولد المظلوم وإن انتقم يحترق على الولد الذي ينتقم منه ، ونظير ذلك ما أشار إليه الشاعر بقوله :

قومي هم قتلوا أميم أخي . . .

فإذا رميت يصيبني سهمي

ولئن عفوت لأعفون جللا . . .

ولئن سطوت لموهن عظمي

فلما وقع يعقوب عليه السلام في هذه البلية رأى أن الأصوب الصبر والسكوت وتفويض الأمر بالكلية إلى الله تعالى لا سيما إن قلنا : إنه عليه السلام كان عالماً بأن ما وقع لا يمكن تلافيه حتى يبلغ الكتاب أجله . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾

لما أجمع رأيهم على أن يلقوه في غيابات الجبّ ، جاءوا إلى أبيهم وخاطبوه بلفظ الأبوة استعطافاً له ، وتحريكاً للحنو الذي جبلت عليه طبائع الآباء للأبناء ، وتوسلاً بذلك إلى تمام ما يريدونه من الكيد الذي دبروه ، واستفهموه استفهام المنكر لأمر ينبغي أن يكون الواقع على خلافه ، ف ﴿ قَالُواْ يأَبَانَا مالك لا تَأْمَنَّا على يُوسُفَ ﴾ أي : أيّ شيء لك لا تجعلنا أمناء عليه ، وكأنهم قد كانوا سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى .

وقرأ يزيد بن القعقاع ، وعمرو بن عبيد ، والزهري " لا تأمنا " بالإدغام بغير إشمام .

وقرأ طلحة بن مصرف : " لا تأمننا " بنونين ظاهرتين على الأصل .

وقرأ يحيى بن وثاب ، وأبو رزين ، والأعمش : " لا تيمنا " وهو لغة تميم كما تقدم .

وقرأ سائر القراء بالإدغام والإشمام ليدلّ على حال الحرف قبل إدغامه ﴿ وَإِنَّا لَهُ لناصحون ﴾ في حفظه وحيطته حتى نردّه إليك ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غداً ﴾ أي : إلى الصحراء التي أرادوا الخروج إليها ، و ﴿ غدا ﴾ ظرف ، والأصل عند سيبويه غدوة ، قال النضر بن شميل : ما بين الفجر وطلوع الشمس يقال له : غدوة ، وكذا يقال له بكرة ﴿ نرتع وَنَلْعَبُ ﴾ هذا جواب الأمر .

قرأ أهل البصرة وأهل مكة وأهل الشام بالنون وإسكان العين، كما رواه البعض عنهم.

وقرءوا أيضاً بالاختلاس، وقرأ الباقون بالنون وكسر العين.

والقراءة الأولى مأخوذة من قول العرب: رتع الإنسان أو البعير إذا أكل كيف شاء، أو المعنى: نتسع في الخصب، وكل مخصب راتع، قال الشاعر:

فارعى فزارة لا هناك المرتع... ومنه قول الشاعر:

ترتع ما رتعت حتى إذا ادّكرت... فإنما هي إقبال وإدبار

والقراءة الثانية مأخوذة من رعي الغنم.

وقرأ مجاهد وقتادة: "يرتع ويلعب" بالتحتية فيهما، ورفع يلعب على الاستئناف، والضمير ليوسف.

وقال القتيبي: معنى ﴿ نرتع ﴾ نتحارس ونتحافظ، ويرعى بعضنا بعضاً، من قولهم: رعاك الله أي: حفظك، و ﴿ نلعب ﴾ من اللعب.

قيل لأبي عمرو بن العلاء: كيف قالوا ونلعب وهم أنبياء؟ فقال: لم يكونوا يومئذٍ أنبياء، وقيل: المراد به اللعب المباح من الأنبياء، وهو مجرّد الانبساط، وقيل هو اللعب الذي

يتعلمون به الحرب ، ويتقوّون به عليه كما في قولهم : ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ لا اللعب المحظور الذي هو ضدّ الحق ، ولذلك لم ينكر يعقوب عليهم لما قالوا : ونلعب ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لجابر : "فهلاّ بكراً تلاعبها وتلاعبك" فأجابهم يعقوب بقوله : ﴿ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَن تَذْهَبُواْ بِهِ ﴾ أي : ذهابكم به ، واللام في ﴿ لَيَحْزُنُنِى ﴾ لام الابتداء للتأكيد ، ولتخصيص المضارع بالحال ، أخبرهم أنه يحزن لغيبة يوسف عنه لفرط محبته له وخوفه عليه ، ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذئب ﴾ أي : ومع ذلك أخاف أن يأكله الذئب .

قال يعقوب : هذا تخوّفاً عليه منهم ، فكنى عن ذلك بالذئب .

وقيل : إنه خاف أن يأكله الذئب حقيقة ؛ لأن ذلك المكان كان كثير الذئاب ، ولو خاف منهم عليه أن يقتلوه لأرسل معهم من يحفظه .

قال ثعلب : والذئب مأخوذ من تذأبت الريح إذا هاجت من كل وجه ، قال : والذئب مهموز ؛ لأنه يجيء من كل وجه .

وقد قرأ ابن كثير ونافع في رواية عنه بالهمز على الأصل ، وكذلك أبو عمرو في رواية عنه وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة .

وقرأ الباقون بالتخفيف .

﴿ وَأَنتُمْ عَنْهُ غافلون ﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب ، أو لكونهم غير مهتمين بحفظه .

﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذئب وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ اللام هي الموطئة للقسم .

والمعنى : واللهِ لئن أكله الذئب ، والحال : إن نحن عصبة أي جماعة كثيرة عشرة ﴿ إِنَّا إِذًا لخاسرون ﴾ أي : إننا في ذلك الوقت ، وهو أكل الذئب له ﴿ لخاسرون ﴾ هالكون ضعفاً وعجزاً ، أو مستحقون للهلاك لعدم الاعتداد بنا ، وانتفاء القدرة على أيسر شيء وأقله ، أو مستحقون لأن يدعى علينا بالخسارة والدّمار .

وقيل : ﴿ لخاسرون ﴾ لجاهلون حقه ، وهذه الجملة جواب القسم المقدّر في الجملة التي قبلها .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ ﴾ من عند يعقوب ﴿ وَأَجْمَعُواْ ﴾ أمرهم ﴿ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَةِ الجب ﴾ قد تقدّم تفسير الغيابة والجب قريباً ، وجواب " لما " محذوف لظهوره ودلالة المقام عليه ، والتقدير : فعلوا به ما فعلوا ، وقيل : جوابه ﴿ قَالُواْ يَاأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ وقيل : الجواب المقدّر جعلوه فيها .

وقيل : الجواب : ﴿ أوحينا ﴾ والواو مقحمة ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وناديناه ﴾ [الصافات : 103 - 104] أي : ناديناه ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ أي : إلى يوسف تيسيراً له وتأنيساً لوحشته مع كونه صغيراً اجتمع على إنزال الضرر به

عشرة رجال من إخوته ، بقلوب غليظة فقد نزعت عنها الرحمة وسلبت منها الرأفة ، فإن الطبع البشري ، - دع عنك الدين - يتجاوز عن ذنب الصغير ، ويغتفره لضعفه عن الدفع ، وعجزه عن أيسر شيء يراد منه ، فكيف بصغير لا ذنب له ، بل كيف بصغير هو أخوله ولهم أب مثل يعقوب ، فلقد أبعد من قال إنهم كانوا أنبياء في ذلك الوقت ، فما هكذا عمل الأنبياء ولا فعل الصالحين ، وفي هذا دليل على أنه يجوز أن يوحي الله إلى من كان صغيراً ويعطيه النبوّة حينئذٍ ، كما وقع في عيسى ويحيى بن زكريا ، وقد قيل : إنه كان في ذلك الوقت قد بلغ مبالغ الرجال ، وهو بعيد جدّاً ، فإن من كان قد بلغ مبالغ الرجال لا يخاف عليه أن يأكله الذئب .

(140/392)

﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا ﴾ أي : لتخبرنّ إخوتك بأمرهم هذا الذي فعلوه معك بعد خلوصك مما أرادوه بك من الكيد ، وأنزلوه عليك من الضرر ، وجملة ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : لا يشعرون بأنك أخوهم يوسف لاعتقادهم هلاكك بإلقائهم لك في غيابة الجبّ ، ولبعد عهدهم بك ، ولكونك قد صرت عند ذلك في حال غير ما كنت عليه وخلاف ما عهدوه منك ، وسيأتي ما قاله لهم عند دخولهم عليه بعد أن

صار إليه ملك مصر .

قوله : ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ ﴿ عشاء ﴾ منتصب على الظرفية ، وهو آخر النهار .

وقيل : في الليل ، و ﴿ يبكون ﴾ في محل نصب على الحال أي : باكين أو متباكين لأنهم لم يبكوا حقيقة ، بل فعلوا فعل من يبكي ترويجاً لكذبهم وتنفيقاً لمكرهم وغدرهم .

فلما وصلوا إلى أبيهم ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أي : نتسابق في العدو أو في الرمي .

وقيل : ننتضل ، ويؤيده قراءة ابن مسعود " ننتضل " ، .

قال الزجاج : وهو نوع من المسابقة .

وقال الأزهري : النضال في السهام ، والرهان في الخيل ، والمسابقة تجمعهما .

قال القشيري : نستبق ، أي : في الرمي أو على الفرس أو على الأقدام .

والغرض من المسابقة التدرّب بذلك في القتال ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ﴾ أي : عند ثيابنا ليحرسها ﴿ فَأَكَلَهُ الذئب ﴾ الفاء للتعقيب أي ، أكله عقب ذلك .

وقد اعتذروا عليه بما خافه سابقاً عليه ، وربّ كلمة تقول لصاحبها دعني .

﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ بمصدّق لنا في هذا العذر الذي أبدينا ، والكلمة التي قلناها ﴿ وَلَوْ كُنَّا ﴾ عندك أو في الواقع ﴿ صادقين ﴾ لما قد علق بقلبك من التهمة لنا في ذلك مع

شدة محبتك له .

قال الزجاج : والمعنى ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدّقتنا في هذه القضية لشدّة محبتك ليوسف ، وكذا ذكره ابن جرير وغيره .

(141/392)

﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ ﴿ على قميصه ﴾ في محل نصب على الظرفية ، أي جاءوا فوق قميصه بدم ، ووصف الدم بأنه كذب مبالغة كما هو معروف في وصف اسم العين باسم المعنى .

وقيل المعنى : بدم ذي كذب أو بدم مكذوب فيه .

وقرأ الحسن وعائشة (بدم كدب) بالدال المهملة أي : بدم طريّ .

يقال للدم الطريّ : كدب .

وقال الشعبي : إنه المتغير ، والكذب أيضاً البياض الذي يخرج في أظفار الأحداث ، فيجوز أن يكون شبه الدم في القميص بالبياض الذي يخرج في الظفر من جهة اللونين .

وقد استدّل يعقوب على كذبهم بصحة القميص ، وقال لهم : متى كان هذا الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص ؟

ثم ذكر الله سبحانه ما أجاب به يعقوب عليهم فقال : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أي : زينت وسهلت .

قال النيسابوري : التسويل تقرير في معنى النفس مع الطمع في تمامه ، وهو تفعيل من السول وهو الأمنية .

قال الأزهري : وأصله مهموز غير أن العرب استثقلوا فيه الهمزة ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ قال الزجاج : أي : فشأني أو الذي أعتقده صبر جميل .

وقال قطرب : أي : فصبري صبر جميل .

وقيل : فصبر جميل أولى بي ، قيل : والصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه .

قال الزجاج : قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهل بن يوسف (فصبراً جميلاً) قال : وكذا في مصحف أنس .

قال المبرد : ﴿ فصبر جميل ﴾ بالرفع أولى من النصب .

لأن المعنى : قال ربّ عندي صبر جميل ، وإنما النصب على المصدر أي : فلأصبرنّ صبراً جميلاً .

قال الشاعر :

شكا إليّ جملي طول السرى . . . صبراً جميلاً فكلانا مبتلى

﴿ والله المستعان ﴾ أي : المطلوب منه العون ﴿ على مَا تَصِفُونَ ﴾ أي : على إظهار

حال ما تصفون ، أو على احتمال ما تصفون ، وهذا منه عليه السلام إنشاء لا إخبار .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً نرتع وَنَلْعَبُ ﴾ قال : نسعى وننشط ونلهو .

(142/392)

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه ، والسلفي في الطيوريات عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تلقنوا الناس فيكذبوا ، فإن بني يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الناس ، فلما لقنهم أبوهم كذبوا ، فقالوا : أكله الذئب " وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ قال : أوحي إلى يوسف وهو في الجبّ لتنبئن إخوتك بما صنعوا وهم لا يشعرون بذلك الوحي .

وأخرج هؤلاء عن قتادة قال : أوحى الله إليه وحياً وهو في الجبّ أن سينبئهم بما صنعوا ﴿ وهم ﴾ أي : إخوته ﴿ لا يشعرون ﴾ بذلك الوحي ، فهوّن ذلك الوحي عليه ما صنع به .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ قال : لم يعلموا بوحي الله إليه .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه قال : لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون جيء بالصواع فوضعه على يده ، ثم نقره فطنّ ، فقال : إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له : يوسف يدنيه دونكم ، وأنكم انطلقتم به فألقيتموه في غيابة الجبّ ، فأتيتم أباكم فقلتم : إن الذئب أكله ، وجئتم على قميصه بدم كذب ، فقال بعضهم لبعض : إن هذا الجام ليخبره بخبركم ، فقال ابن عباس : فلا نرى هذه الآية نزلت إلاّ في ذلك ﴿ لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي بكر بن عياش قال : كان يوسف في الجبّ ثلاثة أيام .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ قال : بمصدّق لنا .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وَجَاءوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ قال : كان دم سخلة .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله .

وأخرج الفريابي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ وَجَاءُوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ قال : لما أتي يعقوب بقميص يوسف فلم ير فيه خرقاً قال : كذبتم لو كان كما تقولون أكله الذئب لخرق القميص .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ يقول : بل زينت لكم أنفسكم أمراً ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ والله المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ أي : على ما تكذبون .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الصبر ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن حبان بن أبي حبلة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ قال : "لا شكوى فيه ، من بثّ لم يصبر" وهو من طريق هشيم عن عبد الرحمن ، عن حبان بن أبي حبلة ، وهو مرسل .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ قال : ليس فيه جزع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(144/392)

وقال القاسمي :

﴿ وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾

بيان لمكرهم بأبيهم بطريق الاعتذار الموهم موته القاطع عنه متمناه ، لتنقطع محبته عنه ، ولو بعد حين ، فيرجع إليهم بالحب الكلي . وقدموا عشاء لكونه وقت الظلمة المانعة من احتشامه في الاعتذار الكذب ، ومن تفرسه من وجوههم الكذب ، وأوهموا ببكائهم وتفجعهم عليه إفراط محبتهم له المانعة من الجرأة عليه . ثم نادوه باسم (الأب) المضاف إليهم ليرحمهم ، فيترك غضبه عليهم ، الداعي إلى تكذيبهم .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أي : في العدو والرمي بالنصل : ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا ﴾ أي : ما يتمتع به من الثياب والأزواد وغيرهما ليحفظه : ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ أي : كما حذرتَ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه . يقولون : ونحن نعلم أنك لا تصدقنا في هذه الحالة ، ولو كنا عندك صادقين , فكيف وأنت تتهمنا ، وغير واثق بقولنا ؟ ! .

وقد استفيد من الآية أحكام :

منها : أن بكاء المرء لا يدل على صدقه ؛ لاحتمال أن يكون تصنعاً – نقله ابن العربي – .

ومنها : مشروعية المسابقة ، وفيه من الطب رياضة النفس والدواب ، وتمرين الأعضاء

على التصرف – كذا في " الإكليل " – .

قال بعض اليمانين : اللعب إن كان بين الصغار جائز بما لا مفسدة فيه ، ولا تشبه بالفسقة ، وأما بين الكبار ، ففيه ثلاثة أقسام :

الأول : أن يكون في معنى القمار ، فلا يجوز .

الثاني : أن لا يكون في معناه ، وفيه استعانة وحث على القوة والجهاد ، كالمناضلة بالقسي ، والمسابقة على الخيل ، فذلك جائز وفاقاً .

الثالث : أن لا يكون فيه عوض كالمصارعة ونحوها . ففي ذلك قولان للشافعية : رجح الجواز ، إن كان بغير عوض ، أو بعوض يكون دفعه على سبيل الرضا ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم صارع يزيد بن ركانة .

(145/392)

وروي أن عائشة قالت : سابقت رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين ، فسبقته في المرة الأولى ، فلما بدنت سُبقني وقال : < هذه بتلك > .

وفي الحديث : < ليس من اللهو ثلاثة : ملاعبة الرجل أهله ، وتأديبه فرسه ، ورميه بقوسه > . انتهى .

﴿ وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾

بيان لما تآمروا عليه من المكيدة ، وهو أنهم أخذوا قميصه الموشى ، وغمسوه في دم معز كانوا ذبحوه . و (كذب) مصدر بتقدير مضاف ، أي : ذي كذب . أو وصف به مبالغة ، كرجل عدل . و (على) ظرف لـ : (جاءوا) مشعر بتضمنه معنى (افتروا) .

وقوله : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ أي : من تغيب يوسف ، وتفريقه عني ، والاعتذار الكاذب .

قال الناصر : وقواه على اتهامهم أنهم ادعوا الوجه الخاص الذي خاف يعقوب ، عليه السلام ، هلاكه بسببه أولاً ، وهو أكل الذئب ، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم : ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وكثيراً ما تتفق الأعذار الباطلة ، من قلق في المخاطب المعتذر إليه ، حتى كان بعض أمراء المؤمنين يلقنون السارق الإنكار . انتهى . وفي " الإكليل " : استنبط من هذا الحكم بالأمارات ، والنظر إلى التهمة ، حيث قال : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ .

لطائف :

قال المهايمي : في الآية من الفوائد أن الجاه يدعو إلى الحسد ، كالمال ، وهو يمنع من المحبة الأصلية من القرابة ونحوها ، بل يجعل عداوتهم أشد من عداوة الأجانب ، وأن الحسد يدعو إلى المكر بالمحسود ، وبمن يراعيه ، وأنه إنما يكون برؤية الماكر نفسه أكمل عقلاً من

الممكور به . وأن الحاسد إذا ادعى النصح والحفظ والمحبة ، بل أظهره فعلاً ؛ لم يعتمد عليه .

(146/392)

وكذا من أظهر الأمانة قولاً وفعلاً يفعل الخيانة . وأن الإذلال والإعزاز بيد الله ، لا الخلق . وأن من طلب مراده بمعصية الله بعد عنه ، وأن الخوف من الخلق يورث البلاء ، وأن الإنسان وإن كان نبياً ، يخلق أولاً على طبع البشرية . وأن إتباع الشهوات يورث الحزن الطويل . وأن القدر كائن ، وأن الحذر لا يغني من القدر .

قيل للهدهد : كيف ترى الماء تحت الأرض ولا ترى الشبكة فوقها ؟ قال : إذا جاء القضاء عمي البصر .

و(التسويل) تزيين النفس للمرء ما يحرص عليه ، وتصوير القبيح بصورة الحسن ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ (صبر) خبر أو مبتدأ ، لكونه موصوفاً ، أي : فشأني صبر جميل . أو فصبر جميل أجمل ، والصبر قوة للنفس على احتمال الآلام كالمصائب إذا عرضت ، والجميل منه هو ما لا شكوى فيه إلى الخلق ولا جزع ، رضا بقضاء الله ، ووقوفاً مع مقتضى العبودية .

﴿ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ أي : المطلوب منه العون على احتمال ما تصفون من

هلاك يوسف – كذا قدروه – وحقق أبو السعود ؛ أن المعنى على إظهار حال ما تصفون وبيان كونه كذباً ، وإظهار سلامته ، فإنه علم في الكذب ، قال سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات : 180] ، وهو الأليق بما سيجيء من قوله تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ﴾ [يوسف : من الآية 18 و 83] ، وتفسير المستعان عليه باحتمال ما يصفون من هلاك يوسف ، والصبر على الرزء فيه ؛ يأباه تكذيبه عليه السلام لهم في ذلك ، ولا تساعده الصيغة ، فإنها قد غلبت في وصف الشيء بما ليس فيه ، كما أشير إليه . انتهى .

وفي قوله : ﴿ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ ﴾ اعتراف بأن تلبسه بالصبر لا يكون إلا بمعونته تعالى .

(147/392)

قال الرازي : لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع ، وهي قوية . والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا . فكأنهما في تحارب وتجالد . فما لم تحصل إعانته تعالى لم تحصل الغلبة ، فقوله : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ يجري مجرى قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ وقوله : ﴿ والله المُستَعَانُ ﴾ يجري مجرى قوله : ﴿ وإِيَّاكَ نَستَعِينُ ﴾ . انتهى . انتهى . ا . هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 163 . 166 ﴾

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ .

هَذَا شُرُوعٌ فِي الْقِصَّةِ بَعْدَ مُقَدِّمَتَيْنِ ، أُولَاهُمَا فِي صِفَةِ الْقُرْآنِ وَكَوْنِهِ تَنْزِيلًا مِنَ اللهِ دَالًّا عَلَى رِسَالَةِ مَنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ ، وَكَوْنِهِ عَرَبِيًّا تَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَى الْعَرَبِ الَّذِينَ يَعْقِلُونَهُ ، وَكَوْنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ مِنْ قَبْلِهِ غَافِلًا عَمَّا جَاءَهُ فِيهِ لَا يَدْرِي مِنْهُ شَيْئًا ، وَنَتِيجَةُ هَاتَيْنِ الْقَضِيَّتَيْنِ تَأْتِي بَعْدَ تَمَامِ الْقِصَّةِ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ 102 إِلَخْ

.

وَالْمُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ : رُؤْيَا يُوسُفَ وَمَا فَهِمَهُ مِنْهَا أَبُوهُ فَهْمًا إِجْمَالِيًّا كُلِّيًّا كَمَا بَيَّنَّاهُ آنِفًا ، وَبَنَى عَلَيْهِ أَنْ حَذَّرَهُ وَأَنْذَرَهُ مَا يُسْتَهْدَفُ لَهُ قَبْلَهُ مِنْ كَيْدِ إِخْوَتِهِ ، وَبَشَّرَهُ بِحُسْنِ عَاقِبَتِهِ ، وَنَتِيجَةُ هَاتَيْنِ الْقَضِيَّتَيْنِ مَا قَالَهُ لِأَبِيهِ بَعْدَ دُخُولِهِمْ عَلَيْهِ وَسُجُودِهِمْ لَهُ : (يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا) 100 إِلَخْ .

فَمِثْلُ هَذَا التَّرْتِيبِ الْمَنْطِقِيِّ الْعَقْلِيِّ الْبَدِيعِ يَتَوَقَّفُ نَظْمُهُ وَسَرْدُهُ عَلَى سَبْقِ الْعِلْمِ بِالْقِصَّةِ وَتَتَبُّعِ حَوَادِثِهَا وَالْإِحَاطَةِ بِدَقَائِقِهَا ، ثُمَّ عَلَى وَضْعِ تَرْتِيبٍ يُنَسَّقُ عَلَيْهِ الْكَلَامُ كَالْقِصَصِ الْفَنِّيَّةِ الْمُتَكَلَّفَةِ ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْمُقَدِّمَةُ وَالْخَاتِمَةُ فِي الْغَايَةِ الَّتِي أُلِّفَتِ الْقِصَّةُ لِأَجْلِهَا ، فَتَجْعَلُ الْأُولَى بَرَاعَةَ مَطْلَعٍ ، وَالْآخِرَةَ بَرَاعَةَ مَقْطَعٍ ، فَقُلْ لِمَنْ جَهِلَ سِيرَةَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَتَارِيخَهُ : إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَكُنْ قَارِئًا وَلَا كَاتِبًا ، وَلَا خَطِيبًا وَلَا شَاعِرًا ، وَلَا مُؤَرِّخًا ، وَلَا رَاوِيًا ، وَلَا حَافِظًا لِلشِّعْرِ وَلَا نَاثِرًا ، بَلْ كَانَ كَمَا قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - غَافِلًا عَنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَكُلِّ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ ، وَكَانَتْ تَنْزِلُ عَلَيْهِ السُّورَةُ الْقَصِيرَةُ فَيُعَجِّلُ بِقِرَاءَتِهَا لِئَلَّا يَنْسَى مِنْهَا شَيْئًا ، فَنُهِيَ عَنْ ذَلِكَ عِنْدَمَا عَرَضَ لَهُ فِي أَثْنَاءِ نُزُولِ سُورَةِ الْقِيَامَةِ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) 75 : 16 - 19 وَبِقَوْلِهِ : وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا 20 : 114 وَقَوْلِهِ : (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى) 87 : 6 وَقَوْلِهِ : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) 15 : 9

فَلَمَّا ضَمِنَ رَبُّهُ لَهُ أَمْنَ ضَيَاعِ شَيْءٍ مِنْهُ بِعَدَمِ حِفْظِهِ عِنْدَ تَلَقِّيهِ ، أَوْ نِسْيَانِهِ بَعْدَهُ ، زَالَ خَوْفُهُ ، وَتَرَكَ الِاسْتِعْجَالَ بِقِرَاءَتِهِ .

وَهَذِهِ السُّورَةُ الطَّوِيلَةُ نَزَلَتْ عَلَيْهِ دُفْعَةً وَاحِدَةً كَأَكْثَرِ السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ حَتَّى الطِّوَالِ مِنْهَا كَسُورَةِ الْأَنْعَامِ ، فَلَمْ يَكُنْ يَدْرِي مِنْ هَذَا التَّرْتِيبِ وَالنَّسَقِ لَهَا وَلَا مِنْ مَوْضُوعِهَا شَيْئًا قَبْلَ وَحْيِهَا ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ إِلَّا أَنْ يُكْمِلَ لَهُ تَلَقِّيَهَا عَنِ الرُّوحِ الْأَمِينِ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَلَكِنَّ الْعَجَبَ أَنْ يَغْفَلَ عَنْهُ أَوْ يَجْهَلَهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ ، فُرْسَانُ الْبَلَاغَةِ الْفَنِّيَّةِ ، وَالْآنَ قَدْ بَيَّنْتُهُ لِقَارِئِ هَذَا التَّفْسِيرِ لِيَفْطِنَ لِدَلَالَةِ السُّورَةِ بِنَظْمِهَا وَبَلَاغَتِهَا عَلَى إِعْجَازِ الْقُرْآنِ اللَّفْظِيِّ ، وَبِمَا فِيهَا مِنَ التَّشْرِيعِ وَعِلْمِ الْغَيْبِ عَلَى إِعْجَازِهِ الْمَعْنَوِيِّ ، وَبِالْإِعْجَازَيْنِ كِلَيْهِمَا عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَرِسَالَتِهِ ،

(151/392)

أَشْرَعُ فِي تَفْسِيرِ الْقِصَّةِ مُتَبَرِّئًا مِنْ حَوْلِي وَقُوَّتِي إِلَى حَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ ، وَهِيَ : لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ أَيْ لَقَدْ كَانَ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ لِأَبِيهِ أَنْوَاعٌ مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنْوَاعٍ مِنْ قُدْرَةِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَتَوْفِيقِ أَقْدَارِهِ وَلُطْفِهِ بِمَنِ اصْطَفَى مِنْ عِبَادِهِ ، وَتَرْبِيَتِهِ لَهُمْ ، وَحُسْنِ عِنَايَتِهِ بِهِمْ ، لِلسَّائِلِينَ عَنْهَا ، مِنَ الرَّاغِبِينَ فِي مَعْرِفَةِ الْحَقَائِقِ وَالِاعْتِبَارِ بِهَا ،

لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَعْقِلُونَ الْآيَاتِ وَيَسْتَفِيدُونَ مِنْهَا ، وَمَنْ فَاتَهُ الْعِلْمُ بِشَيْءٍ أَوْ بِحِكْمَتِهِ أَوْ بِوَجْهِ الْعِبْرَةِ فِيهِ سَأَلَ عَنْهُ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُ ، فَإِنَّ لِلظَّوَاهِرِ غَايَاتٍ لَا تُعْلَمُ حَقَائِقُهَا إِلَّا مِنْهَا ، فَإِخْوَةُ يُوسُفَ لَوْ لَمْ يَحْسُدُوهُ لَمَا أَلْقَوْهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ، وَلَوْ لَمْ يُلْقُوهُ لَمَا وَصَلَ إِلَى عَزِيزِ مِصْرَ ، وَلَوْ لَمْ يَعْتَقِدِ الْعَزِيزُ بِفِرَاسَتِهِ وَأَمَانَتِهِ وَصِدْقِهِ لَمَا أَمِنَهُ عَلَى بَيْتِهِ وَرِزْقِهِ وَأَهْلِهِ ، وَلَوْ لَمْ تُرَاوِدْهُ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ عَنْ نَفْسِهِ وَيَسْتَعْصِمُ لَمَا ظَهَرَتْ نَزَاهَتُهُ وَعُرِفَ أَمْرُهَا ، وَلَوْ لَمْ تَخِبْ فِي كَيْدِهَا وَكَيْدِ صَوَاحِبِهَا مِنَ النِّسْوَةِ لَمَا أُلْقِيَ فِي السِّجْنِ لِإِخْفَاءِ هَذَا الْأَمْرِ ، وَلَوْ لَمْ يُسْجَنْ لَمَا عَرَفَهُ سَاقِي مَلِكِ مِصْرَ وَعَرَفَ بَرَاعَتَهُ وَصِدْقَهُ فِي تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا ، وَلَوْ لَمْ يَعْلَمِ السَّاقِي مِنْهُ هَذَا لَمَا عَرَفَهُ مَلِكُ مِصْرَ وَآمَنَ بِهِ وَلَهُ وَجَعَلَهُ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، وَلَوْ لَمْ

يَتَبَوَّأْ هَذَا الْمَنْصِبَ لَمَا أَمْكَنَهُ أَنْ يُنْقِذَ أَبَوَيْهِ وَإِخْوَتَهُ وَأَهْلَهُمْ أَجْمَعِينَ مِنَ الْمَخْمَصَةِ ، وَيَأْتِي بِهِمْ إِلَى مِصْرَ فَيُشَارِكُوهُ فِي رِيَاسَتِهِ وَمَجْدِهِ ، بَلْ لَمَا تَمَّ قَوْلُ أَبِيهِ لَهُ : (وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ) 6 فَمَا مِنْ حَلْقَةٍ مِنْ هَذِهِ السِّلْسِلَةِ إِلَّا وَكَانَ ظَاهِرُهَا مُحْرِقًا ، وَبَاطِنُهَا مُشْرِقًا ، وَبِدَايَتُهَا شَرًّا وَخُسْرًا ، وَعَاقِبَتُهَا خَيْرًا وَفَوْزًا ، وَصَدَقَ قَوْلُ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - : (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) 7 : 128 .

فَهَذِهِ أَنْوَاعٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي الْقِصَّةِ لِلسَّائِلِينَ عَنْ وَقَائِعِهَا الْحِسِّيَّةِ الظَّاهِرَةِ، وَمَا هُوَ أَعْلَى مِنْهَا مِنْ عُلُومِهَا وَحِكَمِهَا الْبَاطِنَةِ، كَعِلْمِ يَعْقُوبَ بِتَأْوِيلِ رُؤْيَا يُوسُفَ وَعِلْمِهِ بِكَذِبِهِمْ بِدَعْوَى أَكْلِ الذِّئْبِ لَهُ، وَمِنْ شَهَادَةِ اللهِ بِالْعِلْمِ بِقَوْلِهِ: وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ 68، الْآيَةَ، وَمِنْ شَمِّهِ لِرِيحِ يُوسُفَ مُنْذُ فَصَلَتِ الْعِيرُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ قَاصِدَةً أَرْضَ كَنْعَانَ. وَمِنْ عِلْمِ يُوسُفَ بِتَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، وَمِنْ رُؤْيَتِهِ لِبُرْهَانِ رَبِّهِ، وَمِنْ كَيْدِ اللهِ لَهُ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ بِشَرْعِ الْمَلِكِ، ثُمَّ مِنْ عِلْمِهِ بِأَنَّ إِلْقَاءَ قَمِيصِهِ عَلَى

أَبِيهِ يُعِيدُهُ بَصِيرًا بَعْدَ عَمًى سِنِينَ كَثِيرَةٍ، فِي الْقِصَّةِ مَجَالٌ لِسُؤَالِ السَّائِلِينَ عَنْ كُلِّ هَذِهِ الْمَعَانِي مِنَ الْعِلْمِ الرُّوحَانِيِّ، وَهِيَ أَخْفَى مِمَّا قَبْلَهَا، وَأَحَقُّ بِالسُّؤَالِ عَنْهَا.

(153/392)

وَقِيلَ عَنِ الْمُرَادِ بِالسَّائِلِينَ: جَمَاعَةٌ مِنَ الْيَهُودِ جَاءُوا مَكَّةَ وَسَأَلُوا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سُؤَالَ امْتِحَانٍ عَنْ نَبِيٍّ كَانَ بِالشَّامِ أُخْرِجَ ابْنُهُ إِلَى مِصْرَ فَبَكَى عَلَيْهِ حَتَّى عَمِيَ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ - تَعَالَى - عَلَيْهِ سُورَةَ يُوسُفَ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَمَا فِي التَّوْرَاةِ، وَرُوِيَ أَنَّ بَعْضَهُمْ لَقَّنُوا بَعْضَ أَهْلِ مَكَّةَ أَنْ يَسْأَلُوهُ عَنْ قِصَّةِ يُوسُفَ. وَرُوِيَ أَنَّ بَعْضَهُمْ سَأَلُوهُ عَنْ أَسْمَاءِ الْكَوَاكِبِ الْأَحَدَ عَشَرَ الَّتِي رَآهَا يُوسُفُ فِي مَنَامِهِ وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهَا، فَنَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ

فَلَقَّنَهُ إِيَّاهَا فَجَاءَتْ مُوَافِقَةً لِمَا فِي التَّوْرَاةِ ، وَذَكَرُوا هَذِهِ الْأَسْمَاءَ فِي تَفَاسِيرِهِمْ ، فَالْمُرَادُ بِالْآيَاتِ عَلَى هَذَا دَلَائِلُ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَا يَصِحُّ مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ شَيْءٌ بَلْ هِيَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، وَلَيْسَ فِي التَّوْرَاةِ ذِكْرٌ لِأَسْمَاءِ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ ، وَقِصَّةُ يُوسُفَ فِي الْقُرْآنِ مُوَافِقَةٌ لِجُمْلَةِ مَا فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ وَمُخَالِفَةٌ لَهُ فِي بَعْضِ دَقَائِقِهَا ، وَسَنَذْكُرُ مِنْ ذَلِكَ غَيْرَ مَا ذَكَرْنَا آنِفًا .

(154/392)

(إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا) أَيْ إِنَّ فِي قِصَّتِهِمْ لَآيَاتٍ فِي الْوَقْتِ الَّذِي ابْتَدَءُوا فِيهِ بِقَوْلِهِمْ جَازِمِينَ مُقْسِمِينَ : لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ الشَّقِيقُ لَهُ وَاسْمُهُ (بِنْيَامِينَ) ، (أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا) كُلِّنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ أَيْ يُفَضِّلُهُمَا عَلَيْنَا بِمَزِيدِ الْمَحَبَّةِ عَلَى صِغَرِهِمَا وَقِلَّةِ غَنَائِهِمَا ، وَالْحَالُ أَنَّنَا نَحْنُ عُصْبَةٌ عَشَرَةُ رِجَالٍ أَقْوِيَاءَ أَشِدَّاءَ مُعْتَصِبُونَ ، نَقُومُ لَهُ بِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَسْبَابِ الرِّزْقِ وَالْحِمَايَةِ وَالْكِفَايَةِ (إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) إِنَّهُ لَفِي تِيهٍ مِنَ الْمُحَابَاةِ لَهُمَا ضَلَّ فِيهِ طَرِيقَ الْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاةِ ضَلَالًا بَيِّنًا لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ ، إِذْ يُفَضِّلُ غُلَامَيْنِ ضَعِيفَيْنِ مِنْ وَلَدِهِ لَا يَقُومَانِ لَهُ بِخِدْمَةٍ نَافِعَةٍ ، عَلَى الْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ وَالْكَسْبِ وَالنَّجْدَةِ .

وَهَذَا الْحُكْمُ مِنْهُمْ عَلَى أَبِيهِمْ جَهْلٌ مُبِينٌ وَخَطَأٌ كَبِيرٌ ، لَعَلَّ سَبَبَهُ اتِّهَامُهُمْ إِيَّاهُ بِإِفْرَاطِهِ فِي حُبِّ أُمِّهِمَا مِنْ قَبْلُ ، فَيَكُونُ مَثَارُهُ الْأَوَّلُ اخْتِلَافَ

الْأُمَّهَاتِ بِتَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ وَلَا سِيَّمَا الْإِمَاءُ مِنْهُنَّ ، وَهُوَ الَّذِي أَضَلَّهُمْ عَنْ غَرِيزَةِ الْوَالِدَيْنِ فِي زِيَادَةِ الْعَطْفِ عَلَى صِغَارِ الْأَوْلَادِ وَضِعَافِهِمْ

وَكَانَا أَصْغَرَ أَوْلَادِهِ ، فَقَدْ سُئِلَ وَالِدٌ بَلِيغٌ : أَيُّ وَلَدِكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : صَغِيرُهُمْ حَتَّى يَكْبُرَ ، وَغَائِبُهُمْ حَتَّى يَحْضُرَ ، وَمَرِيضُهُمْ حَتَّى يُشْفَى ، وَفَقِيرُهُمْ حَتَّى يُغْنَى (وَأَشُكُّ فِي هَذِهِ الْأَخِيرَةِ) .

(155/392)

وَمِنْ فَوَائِدِ الْقِصَّةِ : وُجُوبُ عِنَايَةِ الْوَالِدَيْنِ بِمُدَارَاةِ الْأَوْلَادِ وَتَرْبِيَتِهِمْ عَلَى الْمَحَبَّةِ وَالْعَدْلِ ، وَاتِّقَاءِ وُقُوعِ التَّحَاسُدِ وَالتَّبَاغُضِ بَيْنَهُمْ ، وَمِنْهُ اجْتِنَابُ تَفْضِيلِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ بِمَا يَعُدُّهُ الْمَفْضُولُ إِهَانَةً لَهُ وَمُحَابَاةً لِأَخِيهِ بِالْهَوَى ، وَقَدْ نَهَى عَنْهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُطْلَقًا ، وَمِنْهُ سُلُوكُ سَبِيلِ الْحِكْمَةِ فِي تَفْضِيلِ مَنْ فَضَّلَ اللَّهُ - تَعَالَى - بِالْمَوَاهِبِ الْفِطْرِيَّةِ كَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَالتَّقْوَى وَالْعِلْمِ وَالذَّكَاءِ . وَمَا كَانَ يَعْقُوبُ بِالَّذِي يَخْفَى عَلَيْهِ هَذَا ، وَمَا نَهَى يُوسُفَ عَنْ قَصِّ رُؤْيَاهُ عَلَيْهِمْ إِلَّا مِنْ عِلْمِهِ بِمَا يَجِبُ فِيهِ . وَلَكِنْ مَا يَفْعَلُ الْإِنْسَانُ

بِغَرِيزَتِهِ وَقَلْبِهِ وَرُوحِهِ ؟ أَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَحُولَ دُونَ سُلْطَانِهَا عَلَى جَوَارِحِهِ ؟ كَلَّا .

دَلَائِلُ الْعِشْقِ لَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ . . . كَحَامِلِ الْمِسْكِ لَا يَخْلُو مِنَ الْعَبَقِ

(اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا) أَيِ اقْتُلُوهُ قَتْلًا لَا مَطْمَعَ بَعْدَهُ وَلَا أَمَلَ فِي لِقَائِهِ ، أَوِ انْبُذُوهُ كَالشَّيْءِ اللُّقَا الَّذِي لَا قِيمَةَ لَهُ فِي أَرْضٍ مَجْهُولَةٍ بَعِيدَةٍ عَنْ مَسَاكِنِنَا أَوْ عَنِ الْعُمْرَانِ ، بِحَيْثُ لَا يَهْتَدِي إِلَى الْعَوْدَةِ إِلَى أَبِيهِ سَبِيلًا إِنْ هُوَ سَلِمَ فِيهَا مِنَ الْهَلَاكِ : (يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ) فَيَكُنْ كُلُّ تَوَجُّهِهِ إِلَيْكُمْ ، وَكُلُّ إِقْبَالِهِ عَلَيْكُمْ ، بِخُلُوِّ الدِّيَارِ مِمَّنْ يَشْغَلُهُ عَنْكُمْ أَوْ يُشَارِكُكُمْ فِي عَطْفِهِ وَحُبِّهِ ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ مِنْ فَرَائِدِ

دُرَرِ الْكَلَامِ الْبَلِيغِ ، بِتَصْوِيرِهَا حَصْرَ الْحُبِّ وَتَوَجُّهَ الْإِقْبَالِ وَالْعَطْفِ بِصُورَةِ الضَّرُورِيَّاتِ الَّتِي لَا اخْتِيَارَ لِلرَّأْيِ وَلَا لِلْإِرَادَةِ فِيهَا ، لَا مِنْ ظَاهِرِ الْحِسِّ ، وَلَا مِنْ وِجْدَانِ النَّفْسِ ، بَعْدَ وُقُوعِ هَذِهِ الْجِنَايَةِ الَّتِي تَقْتَضِي إِعْرَاضَ الْوَجْهِ ، وَأَعْرَاضَ الْكَرَاهَةِ وَالْمَقْتِ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ أَيْ مِنْ بَعْدِ يُوسُفَ ، أَوْ بَعْدَ قَتْلِهِ أَوْ تَغْرِيبِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ تَائِبِينَ إِلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ ، مُصْلِحِينَ لِأَعْمَالِكُمْ بِمَا يُكَفِّرُ إِثْمَهَا ، وَعَدَمِ التَّصَدِّي لِمِثْلِهَا ، فَيَرْضَى عَنْكُمْ أَبُوكُمْ وَيَرْضَى رَبُّكُمْ ، هَكَذَا يُزَيِّنُ الشَّيْطَانُ لِلْمُؤْمِنِ الْمُتَدَيِّنِ مَعْصِيَةَ اللهِ – تَعَالَى – وَلَا يَزَالُ يَنْزِغُ لَهُ

وُيسَوّلُ ، ويَعِدُ ويُمَنّي ويُؤوّلُ ، حَتَّى يُرجّحَ دَاعِيَ الْإِيمَانِ ، أَوْ يُجيبَ دَاعِيَ الشَّيْطَانِ ، وهَذَا الَّذِي غَلَبَ عَلَى إِخْوَةِ يُوسُفَ فكَانَ ، ولَكِنْ بَعْدَ رَأْفَةٍ مُخَفِّفَةٍ لِحُكْمِ الِانْتِقَامِ ، وهُوَ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ الَّتِي أَرَادَهَا اللهُ .

قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ

.

(157/392)

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ) أَبْهَمَهُ الْقُرْآنُ لِأَنَّ تَعْيِينَهُ بِتَسْمِيَتِهِ لَا فَائِدَةَ مِنْهَا فِي عِبْرَةٍ وَلَا حِكْمَةٍ ، وَإِنَّمَا الْفَائِدَةُ فِي وَصْفِهِ بِأَنَّهُ مِنْهُمْ ، وَهِيَ أَنَّهُمْ لَمْ يَجْمَعُوا عَلَى جِنَايَةِ قَتْلِهِ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : إِنَّهُ يَهُوذَا ، وَفِي سِفْرِ التَّكْوِينِ : أَنَّهُ رَأُوبِينُ (لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ) الْجُبُّ الْبِئْرُ غَيْرُ الْمَطْوِيَّةِ ، أَيْ غَيْرُ الْمَبْنِيَّةِ مِنْ دَاخِلِهَا بِالْحِجَارَةِ وَهُوَ مُذَكَّرٌ ، وَالْبِئْرُ مُؤَنَّثَةٌ وَتُسَمَّى الْمَطْوِيَّةُ مِنْهَا طَوِيًّا ، وَغَيَابَتُهُ بِالْفَتْحِ مَا يَغِيبُ عَنْ رُؤْيَةِ الْبَصَرِ مِنْ قَعْرِهِ ، أَوْ حُفْرَةٌ بِجَانِبِهِ تَكُونُ فَوْقَ سَطْحِ الْمَاءِ يَدْخُلُهَا مَنْ يُدْلِي فِيهِ لِإِخْرَاجِ شَيْءٍ وَقَعَ فِيهِ أَوْ إِصْلَاحِ خَلَلٍ عَرَضَ لَهُ ، وَعُلِمَ مِنَ التَّعْرِيفِ أَنَّهُ جُبٌّ مَعْرُوفٌ كَانَ هُنَالِكَ حَيْثُ يَرْعَوْنَ ، وَجَوَابُ أَلْقُوهُ : (يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ) وَهُمْ جَمَاعَةُ الْمُسَافِرِينَ الَّذِينَ يَسِيرُونَ فِي الْأَرْضِ يَقْطَعُونَ الْأَرْضَ مِنْ مَكَانٍ

إِلَى آخَرَ لأَجْلِ التِّجَارَةِ ، فَيَأْخُذُوهُ إِلَى حَيْثُ سَارُوا مِنَ الأَقْطَارِ الْبَعِيدَةِ فَيَتِمُّ لَكُمُ الشِّقُّ الثَّانِي مَا اقْتَرَحْتُمْ وَهُوَ إِبْعَادُهُ عَنْ أَبِيهِ : (إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) مَا هُوَ الصَّوَابُ الْمَقْصُودُ لَكُمْ بِالذَّاتِ فَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ ، وَجِنَايَةُ قَتْلِهِ غَيْرُ مَقْصُودَةٍ لِذَاتِهَا ، فَعَلَامَ إِسْخَاطُ اللهِ بِاقْتِرَافِهَا وَالْغَرَضُ يَتِمُّ بِمَا دُونَهَا ؟ وَفِي سِفْرِ التَّكْوِينِ أَنَّ رَأُوبِينَ مَكَرَ بِهِمْ إِذْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَهُ مِنَ

الْجُبِّ وَيُرْجِعَهُ إِلَى أَبِيهِ ، وَأَنَّهُمْ وَضَعُوهُ فِي الْبِئْرِ وَكَانَتْ فَارِغَةً لَا مَاءَ فِيهَا ، فَمَرَّتْ سَيَّارَةٌ مِنْ تُجَّارِ الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ (الْعَرَبِ) - مُسَافِرَةٌ إِلَى مِصْرَ ، فَاقْتَرَحَ عَلَيْهِمْ يَهُوذَا إِخْرَاجَهُ وَبَيْعَهُ لَهُمْ ، إِذْ لَا فَائِدَةَ لَهُمْ مِنْ قَتْلِهِ وَهُوَ مِنْ لَحْمِهِمْ وَدَمِهِمْ فَفَعَلُوا ، فَهَذَا مَا دَارَ بَيْنَهُمْ وَأَجْمَعُوهُ مِنْ أَمْرِهِمْ .

(قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ) .

هَذَا بَيَانٌ مُسْتَأْنَفٌ لِمَا كَادُوا بِهِ أَبَاهُمْ بَعْدَ ائْتِمَارِهِمْ بِيُوسُفَ لِيُرْسِلَهُ مَعَهُمْ وَهُوَ الْحَقُّ ، وَفِي سِفْرِ التَّكْوِينِ أَنَّ أَبَاهُمْ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ بَعْدَ ذَهَابِهِمْ .

(قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ) يَعْنُونَ: أَيُّ شَيْءٍ عَرَضَ لَكَ مِنَ الشُّبْهَةِ فِي أَمَانَتِنَا فَجَعَلَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ؟ وَكَانُوا قَدْ شَعَرُوا مِنْهُ بِهَذَا بَعْدَ مَا كَانَ مِنْ رُؤْيَا يُوسُفَ، وَيَظْهَرُ أَنَّهُمْ قَدْ عَلِمُوا بِهَا، كَمَا أَنَّهُ شَعَرَ مِنْهُمْ بِالتَّنَكُّرِ لَهُ عَلَى حَدِّ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

كَادَ الْمُرِيبُ بِأَنْ يَقُولَ خُذُونِي

(وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) أَيْ وَالْحَالُ إِنَّا لَنَخُصُّهُ بِالنُّصْحِ الْخَالِصِ مِنْ شَائِبَةِ

التَّفْرِيطِ أَوِ التَّقْصِيرِ، أَكَّدُوا هَذِهِ الدَّعْوَى بِالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ الْمُصَدَّرَةِ بِـ (إِنَّ) وَتَقْدِيمِ (لَهُ) عَلَى خَبَرِهَا وَاقْتِرَانِهِ بِاللَّامِ، وَلَوْلَا شُعُورُهُمْ بِارْتِيَابِهِ فِيهِمْ لَمَا احْتَاجُوا إِلَى كُلِّ هَذَا التَّأْكِيدِ، (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ) أَيْ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدَاةَ غَدٍ إِذْ نَخْرُجُ كَعَادَتِنَا إِلَى مَرَاعِينَا فِي الصَّحْرَاءِ يَرْتَعْ مَعَنَا وَيَلْعَبْ.

وَقُرِئَ فِي الْمُتَوَاتِرِ أَيْضًا (نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ) بِنُونِ الْجَمَاعَةِ، وَهِيَ مَفْهُومَةٌ مِنْ قِرَاءَةِ الْيَاءِ؛ فَإِنَّ الْمُرَادَ مِنْ خُرُوجِهِ مَعَهُمْ مُشَارَكَتُهُ إِيَّاهُمْ فِي رِيَاضَتِهِمْ وَأُنْسِهِمْ وَسُرُورِهِمْ بِحُرِّيَّةِ الْأَكْلِ وَاللَّعِبِ وَالرُّتُوعِ، وَهُوَ

أَكْلُ مَا يَطِيبُ لَهُمْ مِنَ الْفَاكِهَةِ وَالْبُقُولِ، وَأَصْلُهُ رَتَعَ الْمَاشِيَةُ حَيْثُ تَشَاءُ. قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ

فِي الْكَشَّافِ : (نَرْتَعْ) نَتَّسِعْ فِي أَكْلِ الْفَوَاكِهِ وَغَيْرِهَا ، وَأَصْلُ الرَّتْعَةِ الْخِصْبُ وَالسَّعَةِ ، ا هـ .

وَأَمَّا لَعِبُ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَأَكْثَرُهُ السِّبَاقُ وَالصِّرَاعُ وَالرَّمْيُ بِالْعِصِيِّ وَالسِّهَامِ إِنْ وُجِدَتْ . وَسَيَأْتِي أَنَّ لَعِبَهُمْ كَانَ الِاسْتِبَاقَ بِالْعَدْوِ عَلَى الْأَرْجُلِ (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) مَا دَامَ مَعَنَا نَقِيهِ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَأَذًى ، أَكَّدُوا هَذَا الْوَعْدَ كَسَابِقِهِ مُبَالَغَةً فِي الْكَيْدِ .

(160/392)

وَفِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ) قَالَ : نَسْعَى وَنَنْشَطْ وَنَلْهُو ، وَعَنِ ابْنِ زَيْدٍ : (يَرْتَعِي بِالْيَاءِ وَكَسْرِ الْعَيْنِ قَالَ : يَرْعَى غَنَمَهُ وَيَنْظُرُ وَيَعْقِلُ وَيَعْرِفُ مَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ) وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ هَارُونَ قَالَ : كَانَ أَبُو عَمْرٍو يَقْرَأُ (نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ) بِالنُّونِ . فَقُلْتُ لِأَبِي عَمْرٍو : كَيْفَ يَقُولُونَ : (نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ) وَهُمْ أَنْبِيَاءُ ؟ قَالَ : لَمْ يَكُونُوا يَوْمَئِذٍ أَنْبِيَاءَ . قَدْ تَوَسَّعَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَعَدُّوهَا مُشْكِلَةً لِظَنِّهِمْ أَنَّ اللَّعِبَ غَيْرُ جَائِزٍ وُقُوعُهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ . وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ مِنَ اللَّعِبِ مَا هُوَ نَافِعٌ فَهُوَ مُبَاحٌ أَوْ مُسْتَحَبٌّ ، وَمِنْهُ مُلَاعَبَةُ الرَّجُلِ لِزَوْجِهِ وَمُلَاعَبَتُهَا لَهُ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ، وَأَنَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ لَمْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ يَوْمَئِذٍ وَلَا بَعْدَهُ كَمَا حَقَّقْنَاهُ فِي مَحَلِّهِ ، وَأَنَّ مِنَ

التَّنطُّعِ وَالْغَفْلَةِ اسْتِشْكَالَ اللَّعِبِ الْمُبَاحِ فِي نَفْسِهِ مِمَّنْ شَهِدَ اللهُ عَلَيْهِمْ بِالْكَيْدِ لِأَخِيهِمْ وَالِائْتِمَارِ بِقَتْلِهِ وَتَعَمُّدِ إِيذَائِهِ ، وَفَجِيعَةِ أَبِيهِمْ بِهِ وَكَذِبِهِمْ عَلَيْهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كَبَائِرِ الْمَعَاصِي !

(161/392)

(قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ) أَيْ قَالَ أَبُوهُمْ جَوَابًا لَهُمْ : إِنِّي لَيَحْزُنُنِي ذَهَابُكُمْ بِهِ بِمُجَرَّدِ وُقُوعِهِ ، وَالْحُزْنُ أَلَمُ النَّفْسِ مِنْ فَقْدِ مَحْبُوبٍ أَوْ وُقُوعِ مَكْرُوهٍ ، وَفِعْلُهُ مِنْ بَابِ قَفَلَ فِي لُغَةِ قُرَيْشٍ ، وَتَعَدِّيهِ تَمِيمُ بِالْهَمْزَةِ وَاللَّامِ فِي قَوْلِهِ : لَيَحْزُنُنِي لِلِابْتِدَاءِ (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) وَالْخَوْفُ أَلَمُ النَّفْسِ مِمَّا يُتَوَقَّعُ مِنْ مَكْرُوهٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ (وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) أَيْ فِي حَالِ غَفْلَةٍ مِنْكُمْ عَنْهُ وَاشْتِغَالٍ عَنْ مُرَاقَبَتِهِ وَحِفْظِهِ بِلَعِبِكُمْ ، قِيلَ : لَوْ لَمْ يَذْكُرْ خَوْفَهُ هَذَا لَهُمْ لَمَا خَطَرَ بِبَالِهِمْ أَنْ يَقَعَ ، وَلَعَلَّهُ قَالَهُ مِنْ بَابِ الِاحْتِيَاطِ أَوِ الِاعْتِذَارِ بِالظَّوَاهِرِ ، وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ حُسْنَ عَاقِبَتِهِ فِي الْبَاطِنِ ، عَلَى
أَنَّ عِلْمَهُ هَذَا كَانَ مُجْمَلًا مِنْهُمَا وَمُقَيَّدًا بِالْأَقْدَارِ الْمَجْهُولَةِ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ .

(قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ) أَيْ وَاللهِ لَئِنِ اخْتَطَفَهُ الذِّئْبُ مِنْ بَيْنِنَا وَأَكَلَهُ وَالْحَالُ أَنَّنَا جَمَاعَةٌ شَدِيدَةُ الْقُوَى تُعَصَّبُ بِنَا الْأُمُورُ ، وَتُكْفَى بِبَأْسِنَا الْخُطُوبُ (إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ)

وَخَائِبُونَ فِي اعْتِصَابِنَا ، أَوْ لَهَا لِكَوْنِنَا لَا يَصِحُّ أَنْ نُعَدَّ مِنَ الْأَحْيَاءِ الَّذِينَ يُعْتَدُّ بِهِمْ وَيُرْكَنُ إِلَيْهِمْ ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ جَوَابٌ لِلْقَسَمِ أَغْنَى عَنْ جَوَابِ الشَّرْطِ .

(162/392)

أَجَابُوهُ عَمَّا يَخَافُهُ بِمَا يَرْجُونَ أَنْ يُطَمْئِنَهُ ، وَأَمَّا حُزْنُهُ فَلَا جَوَابَ عَنْهُ لِأَنَّهُ فِي حَدِّ ذَاتِهِ لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَيْسَ فِي اسْتِطَاعَتِهِمْ مَنْعُهُ ؛ إِذْ هُوَ لَازِمٌ لِفِرَاقِهِ لَهُ وَلَوْ فِرَاقًا قَلِيلًا فِيهِ مَنْفَعَةٌ لِيُوسُفَ فِي صِحَّتِهِ ، بِتَرْوِيضِ جِسْمِهِ فِي ضُحَى الشَّمْسِ وَهُبُوبِ الرِّيَاحِ وَحَرَكَةِ الْأَعْضَاءِ فِي زَمَنٍ قَصِيرٍ ، يَعُودُ بَعْدَهُ فَيَزُولُ حُزْنُهُ وَيَكُونُ سُرُورُهُ مُضَاعَفًا لَوْ صَدَقُوا .

(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) .

هَذِهِ الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ فِي بَيَانِ مَا نَفَّذُوا بِهِ عَزْمَهُمْ بِالْفِعْلِ ، وَمَا اعْتَذَرُوا بِهِ لِأَبِيهِمْ مِنْ كَذِبٍ ، وَمَا قَابَلَهُمْ مِنْ تَكْذِيبٍ وَصَبْرٍ ، وَاسْتِعَانَةٍ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، قَالَ :

(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ) فِي الْغَدِ مِنْ لَيْلَتِهِمُ الَّتِي اسْتَنْزَلُوا فِيهَا أَبَاهُ عَنْ إِمْسَاكِهِ

(163/392)

عِنْدَهُ : (وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبّ) أَيْ أَزْمَعُوهُ وَعَزَمُوا عَلَيْهِ عَزْمًا إِجْمَاعِيًّا لَا تَرَدُّدَ فِيهِ بَعْدَ مَا كَانَ مِنِ اخْتِلَافِهِمْ قَبْلُ فِي قَتْلِهِ أَوْ تَغْرِيبِهِ ، وَجَوَابُ (لَمَّا) مَحْذُوفٌ لِلْعِلْمِ بِهِ مِمَّا قَبْلَهُ وَمِمَّا بَعْدَهُ ، وَتَقْدِيرُهُ : نَفَّذُوهُ بِأَنْ أَلْقَوْهُ فِي غَيَابَةِ ذَلِكَ الْجُبّ بِالْفِعْلِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ عِنْدَ إِلْقَائِهِ فِيهِ وَحْيًا إِلْهَامِيًّا عَلِمَ أَنَّهُ مِنَّا ، مَضْمُونُهُ : وَرَبِّكَ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا مَعَكَ ، إِذْ يُظْهِرُكَ اللهُ عَلَيْهِمْ

وَيُذِلُّهُمْ لَكَ وَيَجْعَلُ رُؤْيَاكَ حَقًّا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ يَوْمَئِذٍ بِمَا آتَاكَ اللهُ ، أَوِ الْآنَ بِمَا يُؤْتِيكَ فِي عَاقِبَةِ هَذِهِ الْفَعْلَةِ الَّتِي فَعَلُوهَا بِكَ ، أَوْ بِهَذَا الْوَحْيِ فِي الْجُبّ وَهُوَ الْمَرْتَبَةُ الْأُولَى مِنْ مَرَاتِبِ التَّكْلِيمِ الْإِلَهِيّ لِلْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ التَّمْهِيدِ لَهُ بِالرُّؤْيَا الصَّادِقَةِ . وَقَدْ هَوَّنَ اللهُ - تَعَالَى - عَلَى يُوسُفَ مُصِيبَتَهُ بِهِ فَعَلِمَ أَنَّهَا مُصِيبَةٌ فِي الظَّاهِرِ نِعْمَةٌ فِي الْبَاطِنِ ، وَقَدْ نَقَلُوا عَنِ السُّدِّيّ أَنَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ طَغَوْا فِي الْقَسْوَةِ عَلَيْهِ وَالتَّنْكِيلِ بِهِ ، فَقَالُوا وَفَعَلُوا مَا لَا يَصْدُرُ مِثْلُهُ إِلَّا عَنْ رِعَاعِ النَّاسِ وَأَرَاذِلِ الْمُجْرِمِينَ الظَّالِمِينَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا الْإِسْرَائِيلِيَّاتُ الْمُنَفِّرَةُ مِنَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ .

(164/392)

وجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ أَيْ جَاءُوهُ فِي وَقْتِ الْعِشَاءِ إِذْ خَالَطَ سَوَادُ اللَّيْلِ بَقِيَّةَ بَيَاضِ النَّهَارِ فَمَحَاهُ ، حَالَ كَوْنِهِمْ يَبْكُونَ لِيُقْنِعُوهُ بِمَا يَبْغُونَ وَقَدْ بَيَّنَهُ - تَعَالَى - بِقَوْلِهِ : (قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ) أَيْ ذَهَبْنَا مِنْ مَكَانِ اجْتِمَاعِنَا إِلَى السِّبَاقِ يَتَكَلَّفُ كُلٌّ مِنَّا أَنْ يَسْبِقَ غَيْرَهُ ، فَالِاسْتِبَاقُ تَكَلُّفُ السَّبْقِ وَهُوَ الْغَرَضُ مِنَ الْمُسَابَقَةِ ، وَالتَّسَابُقُ بِصِيغَتَيِ الْمُشَارَكَةِ الَّتِي يُقْصَدُ بِهَا الْغَلَبُ ، وَقَدْ يُقْصَدُ لِذَاتِهِ أَوْ لِغَرَضٍ آخَرَ فِي السَّبْقِ . وَمِنْهُ : (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) فَهَذَا يُقْصَدُ بِهِ السَّبْقُ لِذَاتِهِ لَا لِلْغَلَبِ ، وَقَوْلُهُ الْآتِي فِي هَذِهِ السُّورَةِ : (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ) 25 كَانَ يَقْصِدُ بِهِ يُوسُفُ الْخُرُوجَ مِنَ الدَّارِ هَرَبًا مِنْ حَيْثُ تَقْصِدُ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ بِاتِّبَاعِهِ إِرْجَاعَهُ ، وَصِيغَةُ الْمُشَارَكَةِ لَا تُؤَدِّي هَذَا الْمَعْنَى . وَلَمْ يَفْطَنِ الزَّمَخْشَرِيُّ - عَلَّامَةُ اللُّغَةِ - وَمَنْ تَبِعَهُ لِهَذَا الْفَرْقِ الدَّقِيقِ .

(وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا) مِنْ فَضْلِ الثِّيَابِ وَمَاعُونِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ

مَثَلًا يَحْفَظُهُ ، إِذْ لَا يَسْتَطِيعُ مُجَارَاتَنَا فِي اسْتِبَاقِنَا الَّذِي تُرْهَقُ بِهِ قُوَانَا (فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ) إِذْ أَوْغَلْنَا فِي الْبُعْدِ عَنْهُ فَلَمْ نَسْمَعْ صُرَاخَهُ وَاسْتِغَاثَتَهُ (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا) أَيْ بِمُصَدِّقٍ لَنَا

فِي قَوْلِنَا هَذَا ، لِاتِّهَامِكَ إِيَّانَا بِكَرَاهَةِ يُوسُفَ وَحَسَدِنَا لَهُ عَلَى تَفْضِيلِكَ إِيَّاهُ عَلَيْنَا فِي الْحُبِّ وَالْعَطْفِ وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ فِي الْأَمْرِ الْوَاقِعِ أَوْ نَفْسِ الْأَمْرِ ، أَوْ وَلَوْ كُنَّا عِنْدَكَ مِنْ أَهْلِ الثِّقَةِ وَالصِّدْقِ مَا صَدَّقْتَنَا فِي هَذَا الْخَبَرِ لِشِدَّةِ وَجْدِكَ بِيُوسُفَ .

(وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ) الْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ الْفَذَّةِ فِي بَلَاغَتِهَا ، أَنَّهُمْ جَاءُوا بِقَمِيصِهِ مُلَطَّخًا ظَاهِرُهُ بِدَمٍ غَيْرِ دَمِ يُوسُفَ ، يَدَّعُونَ أَنَّهُ دَمُهُ لِيَشْهَدَ لَهُمْ بِصِدْقِهِمْ فَكَانَ دَلِيلًا عَلَى كَذِبِهِمْ ، فَنَكَّرَ الدَّمَ وَوَصَفَهُ بِاسْمِ الْكَذِبِ مُبَالَغَةً فِي ظُهُورِ كَذِبِهِمْ فِي دَعْوَى أَنَّهُ دَمُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ هُوَ الْكَذِبُ بِعَيْنِهِ ، فَالْعَرَبُ تَضَعُ الْمَصْدَرَ مَوْضِعَ الصِّفَةِ لِلْمُبَالَغَةِ كَمَا يَقُولُونَ : شَاهِدٌ عَدْلٌ ، وَمِنْهُ ، فَهُنَّ بِهِ جُودٌ وَأَنْتُمْ بِهِ بُخْلٌ ، وَقَالَ : (عَلَى قَمِيصِهِ) لِيُصَوِّرَ لِلْقَارِئِ وَالسَّامِعِ أَنَّهُ مَوْضُوعٌ عَلَى ظَاهِرِهِ وَضْعًا مُتَكَلَّفًا ، وَلَوْ كَانَ مِنْ أَثَرِ افْتِرَاسِ الذِّئْبِ لَهُ لَكَانَ الْقَمِيصُ مُمَزَّقًا وَالدَّمُ مُتَغَلْغِلًا فِي كُلِّ قِطْعَةٍ مِنْهُ ، وَلِهَذَا كُلِّهِ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا) هَذَا إِضْرَابٌ عَنْ تَكْذِيبٍ صَرِيحٍ تَقْدِيرُهُ : إِنَّ الذِّئْبَ لَمْ يَأْكُلْهُ ، بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ

الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ أَمْرًا إِمْرًا ، وَكَيْدًا نُكْرًا ، وَزَيَّنَتْهُ فِي قُلُوبِكُمْ فَطَوَّعَتْهُ لَكُمْ حَتَّى اقْتَرَفْتُمُوهُ ، أَيْ هَذَا أَمْرُكُمْ . وَأَمَّا أَمْرِي مَعَكُمْ وَمَعَ رَبِّي (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) أَوْ فَصَبْرِي صَبْرٌ جَمِيلٌ لَا يُشَوِّهُ جَمَالَهُ جَزَعُ الْيَائِسِينَ مِنْ رَوْحِ اللهِ ، الْقَانِطِينَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، وَلَا الشَّكْوَى إِلَى غَيْرِ اللهِ (وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) مِنْ هَذِهِ الْمُصِيبَةِ ، لَا أَسْتَعِينُ عَلَى احْتِمَالِهَا غَيْرَهُ أَحَدًا مِنْكُمْ وَلَا مِنْ غَيْرِكُمْ .

هَذَا هُوَ الْفَصْلُ الْأَوَّلُ مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ ، وَهُوَ صَفْوَةُ الْحَقِّ مِنْ أَحْسَنِ الْقَصَصِ بِمَا فِيهِ مِنَ الدِّقَّةِ وَالْعِبْرَةِ ، وَقَدْ شَوَّهَهُ رُوَاةُ الْأَسَاطِيرِ وَالْمُفْتَرَيَاتِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ بِمَا ظَنُّوا أَنَّهُ مِنْ أَخْبَارِ التَّوْرَاةِ وَمَا هُوَ مِنْهَا ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَقْرَأْ هَذَا الْفَصْلَ مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ لِيَرَى الْفَرْقَ الْبَعِيدَ بَيْنَ كَلَامِ اللهِ وَكَلَامِ الْبَشَرِ ، وَلِيَعْلَمَ الْمَغْرُورُ

بِمَا نَقَلَهُ الْمُفَسِّرُونَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ فِيهَا كَالسُّدِّيِّ الْكَبِيرِ الَّذِي هُوَ أَقَلُّ كَذِبًا وَأَكْثَرُ إِتْقَانًا لِأَسَاطِيرِهِ مِنَ السُّدِّيِّ الصَّغِيرِ ، أَنَّ كُلَّ مَا فِيهَا مِنَ الزِّيَادَةِ لَا أَصْلَ لَهُ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَلَا هُوَ مَرْوِيٌّ عَنْ نَبِيِّنَا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَهُوَ كَذِبٌ صُرَاحٌ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 213 . 221 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾

﴿ وجآءوا أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ * قَالُواْ ياأبانا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ متاعنا فَأَكَلَهُ الذئب وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صادقين ﴾ ﴿ وَجَآءُوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾

عطف على جملة ﴿ فلما ذهبوا به ﴾ [سورة يوسف : 15] عطف جزء القصة .

والعشاء : وقت غيبوبة الشفق الباقي من بقايا شعاع الشمس بعد غروبها .

والبكاء : خروج الدموع من العينين عند الحزن والأسف والقهر .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً ﴾ [سورة التوبة : 82] .

وقد أطلق هنا على البكاء المصطنع وهو التباكي .

وإنما اصطنعوا البكاء تمويهاً على أبيهم لئلا يظن بهم أنهم اغتالوا يوسف عليه السّلام ، ولعلّهم كانت لهم مقدرة على البكاء مع عدم وجدان موجبه ، وفي الناس عجائب من التمويه والكيد .

ومن الناس من تتأثر أعصابهم بتخيل الشيء ومحاكاته فيعتريهم ما يعتري الناس بالحقيقة .

وبعض المتظلمين بالباطل يفعلون ذلك ، وفطنة الحاكم لا تنخدع لمثل هذه الحيل ولا تنوط

بها حكماً ، وإنما يناط الحكم بالبينة .

جاءت امرأة إلى شريح تخاصم في شيء وكانت مبطلة فجعلت تبكي ، وأظهر شريح عدم الاطمئنان لدعواها ، فقيل له : أما تراها تبكي ؟ فقال : قد جاء إخوة يوسف عليه السّلام أباهم عشاء يبكون وهم ظَلَمة كَذَبَة ، لا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بالحق .

قال ابن العربي : قال علماؤنا : هذا يدلّ على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله لاحتمال أن يكون تصنّعاً .

ومن الخلق من لا يقدر على ذلك ومنهم من يقدر .

قلت : ومن الأمثال دموع الفاجر بيديه وهذه عبرة في هذه العبرة .

والاستباق : افتعال من السبق وهو هنا بمعنى التسابق قال في الكشاف ﴿ : "والافتعال والتفاعل يشتركان كالانتضال والتناضل ، والارتماء والترامي ، أي فهو بمعنى المفاعلة . ولذلك يقال : السباق أيضاً .

كما يقال النضال والرماء" .

والمراد : الاستباق بالجري على الأرجل ، وذلك من مرح الشباب ولعبهم .

والمتاع : ما يتمتع أي ينتفع به .

وتقدم قي قوله تعالى : ﴿ لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم ﴾ في سورة النساء (102) .

والمراد به هنا ثَقَلهم من الثياب والآنية والزاد .

ومعنى فأكله الذئب ﴾ قتله وأكل منه ، وفعل الأكل يتعلق باسم الشيء .

والمراد بعضه .

يقال أكَله الأسد إذا أكل منه .

قال تعالى : ﴿ وما أكل السّبع ﴾ [سورة المائدة : 3] عطفاً على المنهيات عن أن يؤكل منها ، أي بقتلها .

ومن كلام عمر حين طعنه أبو لؤلؤة أكلني الكلب ، أي عضّني .

والمراد بالذئب جمع من الذئاب على ما عرفت آنفاً عند قوله : ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ [سورة يوسف : 13] ؛ بحيث لم يترك الذئاب منه ، ولذلك لم يقولوا فدفنّاه .

وقوله : وما أنت بمؤمن لنا ﴾ خبر مستعمل في لازم الفائدة .

وهو أن المتكلم علم بمضمون الخبر .

وهو تعريض بأنهم صادقون فيما ادّعوه لأنهم يعلمون أباهم لا يصدقهم فيه ، فلم يكونوا طامعين بتصديقه إياهم .

وفعل الإيمان يعدّى باللام إلى المصدّق بفتح الدال كقوله تعالى : ﴿ فآمن له لوطٌ ﴾ [سورة العنكبوت : 26] .

وتقدم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ فما آمن لموسى إلا ذريةٌ من قومه ﴾ في سورة يونس (83) .

وجملة ولو كنا صادقين ﴾ في موضع الحال فالواو واو الحال .

﴿ ولو ﴾ اتصالية ، وهي تفيد أنه مضمون ما بعدها هو أبعد الأحوال عن تحقق مضمون ما قبلها في ذلك الحال .

والتقدير : وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين في نفس الأمر ، أي نحن نعلم انتفاء إيمانك لنا في الحالين فلا نطمع أن نموّه عليك .

وليس يلزم تقدير شرط محذوف هو ضد الشرط المنطوق به لأن ذلك تقدير لمجرد التنبيه على جعل الواو للحال مع (لو وإن) الوصليتين وليس يستقيم ذلك التقدير في كل موضع ، ألا ترى قول المعري :

وإني وإن كنتُ الأخيّر زمانه

لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل . . .

كيف لا يستقيم تقدير إني إن كنت المتقدم زمانه بل وإن كنت الأخيرَ زمانه .

فشرط (لو) الوصلية و (إن) الوصلية ليس لهما مفهومُ مخالفة ، لأن الشرط معهما ليس للتقييد .

وتقدم ذكر (لَو) الوصلية عند قوله تعالى : ﴿ أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ في سورة البقرة (170) ، وعند قوله تعالى : ﴿ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ﴾ في سورة آل عمران (91) .

وجملة وجاءوا على قميصه ﴾ في موضع الحال .

ولما كان الدم ملطخاً به القميص وكانوا قد جاءوا مصاحبين للقميص فقد جاءوا بالدم على القميص .

ووصف الدم بالكذب وصف بالمصدر ، والمصدر هنا بمعنى المفعول كالخَلْق بمعنى المخلوق ، أي مكذوب كونه دم يوسف عليه السّلام إذ هو دم جدي ، فهو دم حقاً لكنه ليس الدم المزعوم .

ولا شك في أنهم لم يتركوا كيفية من كيفيات تمويه الدم وحالة القميص بحال قميص من يأكله الذئب من آثار تخريق وتمزيق مما لا تخلو عنه حالة افتراس الذئب ، وأنهم أفطن من أن يفوتهم ذلك وهم عصبة لا يعْزُب عن مجموعهم مثل ذلك .

فما قاله بعض أصحاب التفسير من أن يعقوب عليه السّلام قال لأبنائه : ما رأيت كاليوم ذئباً أحلَم من هذا ، أكل ابني ولم يمزق قميصه ، فذلك من تظرفات القصص .

وقوله : ﴿ على قميصه ﴾ حال من (دم) فقدم على صاحب الحال .

حرف الإضراب إبطال لدعواهم أن الذئب أكله فقد صرح لهم بكذبهم .

والتسويل : التسهيل وتزيين النفس ما تحرص على حصوله .

والإبهام الذي في كلمة ﴿ أمراً ﴾ يحتمل عدة أشياء مما يمكن أن يؤذوا به يوسف عليه السّلام : من قتل ، أو بيع ، أو تغريب ، لأنه لم يعلم تعيين ما فعلوه .

وتنكير ﴿ أمراً ﴾ للتهويل .

وفرّع على ذلك إنشاءُ التصبر ﴿ فصبرٌ جميل ﴾ نائب مناب اصبر صبراً جميلاً .

عدل به عن النصب إلى الرفع للدلالة على الثبات والدوام ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قالوا سلاماً قال سلامٌ ﴾ في سورة هود (69) .

ويكون ذلك اعتراضاً في أثناء خطاب أبنائه ، أو يكون تقدير : اصبر صبراً جميلاً ، على أنه خطاب لنفسه .

ويجوز أن يكون فصبر جميل ﴾ خبر مبتدأ محذوف دلّ عليه السياق ، أي فأمْري صبرٌ .

أو مبتدأ خبره محذوف كذلك .

والمعنى على الإنشاء أوقع ، وتقدم الصبر عند قوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ في سورة البقرة (45) .

ووصف ﴿ جميل ﴾ يحتمل أن يكون وصفاً كاشفاً إذ الصبر كله حسن دون الجزع .

كما قال إبراهيم بن كنيف النبهاني :

تصبّر فإنّ الصبر بالحرّ أجمل

وليس على ريب الزمان معوّل . . .

أي أجمل من الجزع .

ويحتمل أن يكون وصفاً مخصصاً .

وقد فسّر الصبر الجميل بالذي لا يخالطه جزع .

والجمال : حسن الشيء في صفات محاسن صنفه ، فجمال الصبر أحسن أحواله ، وهو أن لا يقارنه شيء يقلل خصائص ماهيته .

وفي الحديث الصحيح أن النبي عليه السّلام مر بامرأة تبكي عند قبر فقال لها : " اتقي الله واصبري " فقالت : إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي ولم تعرفه فلما انصرف مرّ بها رجل ، فقال لها : إنه النبيءُ صلى الله عليه وسلم فأتت باب النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : لم

أعرفك يا رسول الله ، فقال : " إنما الصبر عند الصدمة الأولى " أي الصبر الكامل .

وقوله : ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ عطف على جملة ﴿ فصبر جميل ﴾ فتكون محتملة للمعنيين المذكورين من إنشاء الاستعانة أو الإخبار بحصول استعانته بالله على تحمل الصبر على ذلك ، أو أراد الاستعانة بالله ليوسف عليه السّلام على الخلاص مما أحاط به .

والتعبير عما أصاب يوسف عليه السّلام بـ ﴿ ما تصفون ﴾ في غاية البلاغة لأنه كان واثقاً بأنهم كاذبون في الصفة وواثقاً بأنهم ألحقوا بيوسف عليه السّلام ضراً فلما لم يتعيّن عنده المصاب أجمل التعبير عنه إجمالاً موجهاً لأنهم يحسبون أن ما يصفونه هو موته بأكل الذئب إياه ويعقوب عليه السّلام يريد أن ما يصفونه هو المصاب الواقع الذي وصفوه وصفاً كاذباً .

فهو قريب من قوله تعالى : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ [سورة الصافات : 180] .

وإنما فوض يعقوب عليه السّلام الأمر إلى الله ولم يسْعَ للكشف عن مصير يوسف عليه السّلام لأنه علم تعذر ذلك عليه لكبر سنه ، ولأنه لا عضد له يستعين به على أبنائه أولئك .

وقد صاروا هم الساعين في البعد بيْنه وبين يوسف عليه السّلام ، فأيس من استطاعة الكشف عن يوسف عليه السّلام بدونهم ، ألا ترى أنه لما وجد منهم فرصة قال لهم : ﴿ اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه ﴾ [سورة يوسف : 87] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(173/392)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾

وهنا تتجلى لنا قدرة أداء القرآن أداء دقيقاً معبراً عن الانفعالات التي توجد في النفس الإنسانية ، فها هم إخوة خدعوا أباهم ومكروا بأخيهم ، وأخذوه وألقوْه في الجُبِّ مع أنهم يعلمون أن أباه يحبه ، وكان ضنيناً أن يأتمنهم عليه ، فكيف يواجهون هذا الأب ؟

هذا هو الانفعال النفسي الذي لا تستطيع فطرة أن تثبته ؛ فقالوا : نؤخر اللقاء لأبينا إلى العشاء : والعشاء مَحَلُّ الظلمة ، وهو ستر للانفعالات التي توجد على الوجوه من الاضطراب ؛ ومن مناقضة كذب ألسنتهم ؛ لأنهم لن يخبروا الأب بالواقع الذي حدث ؛ بل بحديث مُخْتلق .

وقد تخدعهم حركاتهم ، ويفضحهم تلجلجهم ، وتتكشف سيماهم الكاذبة أمام أبيهم ؛ فقالوا : الليل أخْفَى للوجه من النهار ، وأستَر للفضائح ؛ وحين ندخل على أبينا عِشَاءً ؛ فلن تكشفنا انفعالاتنا .

وبذلك اختاروا الظرف الزمني الذي يتوارون فيه من أحداثهم :

﴿ وجاءوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ [يوسف : 16] .

والبكاء انفعال طبيعي غريزي فطريّ ؛ ليس للإنسان فيه مجال اختيار ؛ ومَنْ يريد أن يفتعله فهو يتباكى ، بأن يَفْرُك عينيه ، أو يأتي ببعض ريقه ويُقرِّبه من عينيه ، ولا يستر ذلك إلا أن يكون الضوء خافتاً ؛ لذلك جاءوا أباهم عشاء يُمثِّلون البكاء .

والحق سبحانه حينما تكلم عن الخصائص التي أعطاها لذاته ، ولم يُعْطِها لأحد من خلقه ؛ أعلمنا أنه سبحانه هو الذي يميت ويحي ، وهو الذي يُضحك ويُبْكي .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ [النجم : 43-44] .

ولا يوجد فَرْق بين ضحك أو بكاء إنسان إنجليزي وآخر عربي ؛ ولا يوجد فرق بين موت أو ميلاد إنسان صيني وآخر عربي أو فرنسي ؛ فهذه خصائص مشتركة بين كل البشر .

وإذا ما افتعل الإنسان الضحك ؛ فهو يتضاحك ؛ وإذا ما افتعل الإنسان البكاء فهو يتباكى ؛ أي : يفتعل الضحك أو البكاء . والذي يفضح كل ذلك هو النهار .

والتاريخ يحمل لنا الكثير من الحكايات عن اتخاذ الليل كستار للمواقف ؛ والمثل في سيدنا الحسين رضي الله عنه وأرضاه ؛ حين جاءت موقعة كربلاء ، ورأى العدو وقد أحاط به ؛ ورأى الناس وقد انفضوا عنه بعد أن دَعَوْهُ ليبايعوه ، ولم يَبْقَ معه إلا قلة ؛ وعَزَّتْ عليه نفسه ؛ وعَزَّ عليه أن يقتل هؤلاء في معركة غير متكافئة صمم هو على دخولها .

فلما أقبل الليل دعا أصحابه وقال لهم :

" إن كنتم قد استحييتم أن تفروا عني نهاراً ، فالليل جاء وقد ستركم ، فَمَنْ شاء فليذهب واتركوني " .

يقص الحق سبحانه ما بدر منهم فَوْرَ أَنْ دخلوا على أبيهم : ﴿ قَالُواْ يا أبانا . . . ﴾ .

كلمة : ﴿ نَسْتَبِقُ ﴾ [يوسف : 17] تعبر عن بيان تفوُّق ذات على ذات في حركة ما ؛ لنرى من سيسبق الآخر ؛ فحين يتسابق اثنان في الجري نرى مَنْ فيهما سبق الآخر ؛ وهذا هو الاستباق .

وقد يكون الاستباق في حركة بآلة ؛ كان يمسك إنسان ببندقية ويُصوِّبها إلى الهدف ؛ ويأتي آخر ويمسك ببندقية أخرى ويحاول أن يصيب الهدف ؛ ومَنْ يسبق منهما في إصابة

الهدف يكون هو المتفوق في هذا المجال .

وقد يكون الاستباق في الرمي بالسهام ؛ ونحن نعرف شكل السهم ؛ فهو عبارة عن غُصْن مَرِنٍ ، يلتوي دون أن ينكسر ؛ ومُثبّت عليه وتر ، ويوضع السهم في منتصف الوتر ، ليشده الرامي فينطلق السهم إلى الهدف .

وتُقَاسُ دقة إصابة الهدف حسب شدة السهم وقوة الرمي ، ويسمى ذلك " تحديد الهدف " .

أما إذا كان التسابق من ناحية طول المسافة التي يقطعها السهم ؛ فهذا لقياس قوة الرامي .

وهكذا نجد الاستباق له مجالات متعددة ؛ وكل ذلك حلال ؛ فهم أسباط وأولاد يعقوب ، ولا مانع أن يلعب الإنسان لُعْبة لا تُلهِيه عن واجبه ؛ وقد تنفعه فيما يَجِدُّ من أمور ؛ فإذا التقى بعدو نفعه التدريب على استخدام السهم أو الرمح أو أداة قتال ؛ واللعب الذي لا يَنْهي عن طاعة ، وينفع وقت الجد هو لَعِب حلال .

وهناك ألعاب قد لا يدرك الناس لها غاية مثل كرة القدم .

وأقول : قد يوجد عَدوّانِ ؛ وبينهما قنبلة موقوتة ؛ ويحاول كل طرف أن يبعدها عن موقعه

، والقوة والحكمة تظهر في محاولة كل فريق في إبعاد الكرة عن مرماه .

ولكن لا بد ألا يُلْهي لعب الكرة عن واجب ؛ فمثلاً حين يؤذن المؤذن للصلاة ، والوَاجب علينا ألا نهمل الصلاة ونواصل اللعب ، وعلى اللاعبين أن يُراعُوا عدم ارتداء ملابس تكشف عن عوراتهم .

وأبناء يعقوب قالوا :

﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا . . . ﴾ [يوسف : 17] .

وفي هذا إخلال بشروط التعاقد مع الأب الذي أذِنَ بخروج يوسف بعد أن قالوا : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ [يوسف : 12] .

وقالوا : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ [يوسف : 11] .

وقالوا : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [يوسف : 12] .

فهل أخذتموه معكم ليرتع ويلعب ، ويأكل من ثمار الأشجار والفاكهة ؛ وتحفظونه ، أم ليحفظ لكم متاعكم وأنتم تستبقون . وهذا أول الكذب الذي كذبوه ؛ وهذه أول مخالفة لشرط إذن والده له بالخروج معكم ؛ ولأن " المريب يكاد يقول خذوني " نجدهم قد قالوا :

﴿ فَأَكَلَهُ الذئب وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف : 17] .

أو : أنهم قالوا ذلك لأنهم يعلمون أن والدهم لن يُصدِّقهم مهما قالوا . ونعلم أن " آمن " إما أن تتعدى إلى المفعول بنفسها مثل " آمنه الله من الجوع " ، أو قوله الحق : ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ

﴾ [قريش : 4] .

أو : تجئ بالباء ، ويُقال " آمن به " أي : صدّق واعتقد .

(176/392)

أو : يُقَال " آمن له " أي : صدّقه فيما يقول .

وهم هنا يتهمون أباهم أنه مُتحَدٍّ لهم ، حتى ولو كانوا صادقين ، وهم يعلمون أنهم غير صادقين ؛ ولكن جاءوا بكلمة الصدق ليداروا كذبهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ وَجَآءُو على قَمِيصِهِ . . . . ﴾ .

كأن قميص يوسف كان معهم . ويُقال : إن يعقوب علِّق على مجيء القميص وعليه الدم الكذب بأن الذئب كان رحيماً ، فأكل لحم يوسف ولم يُمزِّق قميصه ؛ وكأنه قد عرف أن هناك مؤامرة سيكشفها الله له .

ويصف بعض العلماء قصة يوسف بقصة القميص :

فهنا جاء إخوته بقميصه وعليه دم كذب .

وفي أواسط السورة تأتي مسألة قميص يوسف إن كان قد شُقَّ من دُبُرٍ لحظة أنْ جذبتْه امرأة العزيز لتراوده عن نفسه .

وفي آخر السورة يرسل إخوته بقميصه إلى والده فيرتد بصره .

ولهذا أخذ العلماء والأدباء كلمة القميص كرمز لبعض الأشياء ؛ والمثل هو قول الناس عن الحرب بين علي رضي الله عنه ومعاوية رضي الله عنه أن معاوية أمسك بقميص عثمان بن عفان طلباً للثأر من علي ، فقيل " قميص عثمان " رمزاً لإخفاء الهدف عن العيون ، وكان هدف معاوية أن يحكم بدلاً من علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَآءُو على قَمِيصِهِ بدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف : 18] ، وكأن القميص كان معهم ، ووضعوا عليه دماً مكذوباً ، لأن الدم لا يكذب ، إنما كذب من جاء بدم الشاة ووضعه على القميص .

وشاء الحق سبحانه هنا أن يُعطي الوصف المصدري للمبالغة ؛ وكأن الدم نفسه هو الذي كذب ؛ مثلما تقول " فلان عادل " ويمكنك أن تصف إنساناً بقولك " فلان عَدْل " أي : كأن العدل تجسَّد فيه ، أو قد تقول " فلان ذو شر " ، فيرد عليك آخر " بل هو الشر بعينه " ، وهذه مبالغة في الحديث .

وهل كان يمكن أن يُوصف الدم بأنه صادق ؟

نقول : نعم ، لو كان الذئب قد أكل يوسف بالفعل ؛ وتلوَّث قميص يوسف بدم يوسف وتمزق . ولكن ذلك لم يحدث ، بل إن الكذب يكاد يصرخ في تلك الواقعة ويقول " أنا كذب " .

فلو كان قد أكله الذئب فعلاً ؛ كان الدم قد نشع من داخل القميص لخارجه ؛ ولكنهم جاءوا بدم الشاة ولطخوا به القميص من الخارج .

وبالله ، لو أن الذئب قد أكله فعلاً ، ألم تكُنْ أنيابه قد مزَّقَتْ القميص ؟

وحين انكشف أمرهم أمام أبيهم ؛ أشار أحدهم خفية للباقين وقال لهم همساً : قولوا لأبيكم : إن اللصوص قد خرجوا عليه وقتلوه ؛ فسمع يعقوب الهمس فقال : اللصوص أحوجُ لقميصه من دمه ؛ وهذا ما تقوله كتب السير .

وهذا ما يؤكد فراسة يعقوب ، هذه الفراسة التي يتحلى بها أيُّ محقق في قضية قتل ؛ حين يُقلِّب أسئلته للمتهم وللشهود ؛ لأن المحقق يعلم أن الكاذب لن يستوحي أقواله من واقع ؛ بل يستوحي أقواله من خيال مضطرب .

ولذلك يقال : " إن كنت كذوباً فكُنْ ذَكُوراً " .

ويأتي هنا الحق سبحانه بما جاء على لسان يعقوب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ واللهُ المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : 18] .

" والسَّوَل " : هو الاسترخاء ؛ لأن الإنسان حين تكون أعصابه مشدودة ؛ ثم يجب أن يسترخي ، فيستريح قليلاً ، وبعد ذلك يجد في نفسه شيئًا من اليُسْر في بدنه ونبضه .

ونأخذ ﴿ سَوَّلَتْ . . . ﴾ [يوسف : 18] هنا بمعنى يَسَّرت وسهَّلتْ ، وما دامت قد سوَّلَتْ لكم أنفسكم هذا الأمر فسوف أستقبله بما يليق بهذا الوضع ، وهو الصبر .

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ . . . ﴾ [يوسف : 18] .

والذين يحاولون اصطياد خطأ في القرآن يقولون " وهل يمكن أن يكون الصبر جميلاً ؟ " .

نقول : هم لا يعرفون أن الصبر يُقال فيه " اصبر عن كذا " إذا كان الأمر عن شهوة قد تُورِث إيلاماً ؛ كأن يُقال " اصبر عن الخمر " أو " اصبر عن الميسر " أو " اصبر عن الربا " .

(178/392)

ويُقال " اصبر عن كذا " إذا كان الصبر فيه إيلام لك . والصبر يكون جميلاً حينما لا تكون فيه شكوى أو جزع .

والحق سبحانه يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ واهجرهم هَجْراً جَمِيلاً ﴾ [المزمل : 10] .

وهؤلاء الذين يبحثون عن تناقض أو تضارب في القرآن إنما هم قوم لا يعرفون كيفية استقباله

وفهمه ؛ وقد بيَّن لنا يعقوب عليه السلام أن الصبر الجميل هو الصبر الذي لا شكوى فيه ،

وهو القائل : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ . . . ﴾ [يوسف : 86] .

وهكذا نعلم أن هناك فارقاً بين الشكوى للربِّ ؛ وشكوى من قدر الربِّ .

ولذلك يقول يعقوب عليه السلام هنا :

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ . . ﴾ [يوسف : 18] ، ويتبعها : ﴿ والله المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : 18] ، كأن الصبر الجميل أمر شاقٌّ على النفس البشرية ، ولم يكُنْ يعقوب قادراً على أن يُصدِّق ما قاله أبناؤه له ؛ فكيف يُصدِّق الكذب ؟ وكيف يمكن أن يواجه أبناءه بما حدث منهم ؟ وهم أيضاً أبناؤه ؛ لكنه كان غير قادر على أن يكشف لهم كذبهم .

والمثل لذلك ما جاء في التراث العربي حين قِيل لرجل : إن ابنك قد قتل أخاك ، فقال :

أقول لنفسِي تأساء وتعزيةً . . . إحدى يديَّ أصابتْنِي ولم ترُدِ

كِلاهُمَا خلف عَنْ فقْدِ صاحبِه . . . هذا أخي حين أدعُوه وذَا ولدِي

ومثل هذه المواقف تكون صعبة وتتطلب الشفقة ؛ لأن مَنْ يمر بها يحتار بين أمر يتطلب القسوة وموقف يتطلب الرحمة ؛ وكيف يجمع إنسان بين الأمرين ؟

إنها مسألة تعزُّ على خَلْق الله ؛ ولابد أن يفزع فيها الإنسان إلى الله ؛ ولذلك علَّمنا صلى الله عليه وسلم أنه إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة ؛ وحزبه أمر ما يعني : أن مواجهة هذا الأمر

تفوق أسباب الإنسان ؛ فيلجأ إلى المُسبِّب الأعلى ؛ ولذلك قال يعقوب عليه السلام :

﴿ والله المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : 18] .

(179/392)

وقوله : " تصفون " يعني : أنكم لا تقولون الحقيقة ، بل تصفون شيئًا لا يصادف الواقع ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب هذا حَلاَلٌ وهذا حَرَامٌ . . . ﴾ [النحل : 116] .

أي : أن ألسنتكم نفسها تَصِفُ الكلام أنه كذب .

والحق سبحانه يقول : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات : 180] .

وتعني أن هؤلاء الذين قالوا ما قيل عنه أنه وصف قد كذبوا فيما قالوا ؛ وكان مصير كذبهم مفضوحاً .

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ والله المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : 18] .

وهكذا عبّر يعقوب عليه السلام عن نفسه ؛ فالجوارح قد تكون ساكنة ؛ لكن القلب قد

يزدحم بالهموم ويفتقد السكون ؛ لذلك لا بد من الاستعانة بالله .

وقد علَّمنا الحق سبحانه أن نقول في فاتحة الكتاب : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : 5] .

فأنت تقف لعبادة الله وبين يديه ؛ لكن الدنيا قد تشغلك عن العبادة أثناء أداء العبادة نفسها : لذلك تستعين بخالقك لتُخلِص في عبادتك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(180/392)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (16) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (17) ﴾

أخرج ابن المنذر عن الشعبي رضي الله عنه قال : جاءت امرأة إلى شريح رضي الله عنه تخاصم في شيء ، فجعلت تبكي ، فقالوا : يا أبا أمية ، أما تراها تبكي ؟ فقال : قد جاء اخوة يوسف أباهم عشاء يبكون .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ قال : نزلت على كلام العرب . كقولك لا تصدق بالصدق ولو كنت صادقاً .

﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18) ﴾

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وجاؤوا على قميصه بدم كذب ﴾ قال : كان دم سخلة .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ بدم كذب ﴾ قال : كان ذلك الدم كذباً لم يكن دم يوسف ، كان دم سخلة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : أخذوا ظبياً فذبحوه فلطخوا به القميص ، فجعل يعقوب عليه السلام يقلب القميص فيقول : ما أرى أثر أثر ناب ولا ظفر ، إن هذا السبع رحيم . فعرف أنهم كذبوه .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وجاؤوا على قميصه بدم كذب ﴾ قال : لما أتي يعقوب بقميص يوسف عليه السلام فلم ير فيه خرقاً ، قال : كذبتم ، لو كان كما تقولون أكله الذئب لخرق القميص .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه قال : لما جيء بقميص يوسف عليه السلام إلى يعقوب عليه السلام ، جعل يقلبه فيرى أثر الدم ولا يرى فيه شقاً ولا خرقاً ، فقال : يا بني ، والله ما كنت أعهد الذئب حليماً إذا أكل ابني وأبقى قميصه .

وأخرج ابن جرير عن الشعبي رضي الله عنه قال : ذبحوا جدياً ولطخوه بدمه ، فلما نظر يعقوب إلى القميص صحيحاً ، عرف أن القوم كذبوه فقال لهم : ان كان هذا الذئب لحليماً حيث رحم القميص ولم يرحم ابني .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه قال : لما أتوا نبي الله يعقوب بقميصه قال : ما أرى أثر سبع ولا طعن ولا خرق .

وأخرج ابو عبد الله محمد بن إبراهيم الجرجاني في أماليه ، عن ربيعة رضي الله عنه قال : لما أتى يعقوب عليه السلام فقيل : إن يوسف عليه السلام أكله الذئب . دعا الذئب فقال : أكلت قرة عيني وثمرة فؤادي . قال : لم أفعل . قال : فمن أين جئت ، ومن أين تريد ؟ قال : جئت من أرض مصر ، وأريد أرض جرجان . قال : فما يعنيك بها ؟ قال : سمعت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلك يقولون : من زار حميماً أو قريباً ، كتب الله له بكل خطوة ألف حسنة وحط عنه ألف سيئة يرفع له ألف درجة . فدعا بنيه فقال : اكتبوا هذا الحديث ، فأبى أن يحدثهم . فقال : ما لك لا تحدثهم ؟ فقال : إنهم عصاة .

وأخرج أبو الشيخ عن مبارك قال : سئل ابن سيرين عن رجل رأى في المنام أنه يستاك ، كلما أخرج السواك رأى عليه دماً . قال : اتق الله ولا تكذب . وقرأ ﴿ وجاؤوا على قميصه بدم كذب ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً ﴾ قال : أمرتكم أنفسكم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً ﴾ يقول : بل زينت لكم أنفسكم أمراً ﴿ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ أي على ما تكذبون .

(182/392)

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الصبر ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن حيان بن أبي حيلة رضي الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله ﴿ فصبر جميل ﴾ قال : لا شكوى فيه من بث ولم يصبر .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فصبر جميل ﴾ قال ليس فيه جزع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه قال : الصبر الجميل ، الذي ليس فيه شكوى إلا إلى الله .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن الثوري ، عن بعض الصحابة قال : يقال ثلاثة من الصبر : أن لا تحدث بما يوجعك ، ولا بمصيبتك ، ولا تركي نفسك . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(183/392)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (16) ﴾

قوله تعالى : ﴿ عِشَآءً ﴾ : يجوز فيه وجهان ، أحدهما : وهو الذي لا ينبغي أن يُقال غيرُه أنه ظرف زمان ، أي : جاؤوه في هذا الوقت و " يبكون " جملة حالية ، أي : جاؤوه باكين .

والثاني : أن يكون " عشاء " جمع عاش كقائم وقيام . قال أبو البقاء : " ويُقرأ بضم العين ، والأصل : عُشاة مثل غازٍ وغُزاة ، فَحُذِفَتْ الهاءُ وزِيْدت الألف عوضاً منها ، ثم قُلبت الألفُ همزةً ، وفيه كلامٌ قد ذُكر في آل عمران عند قوله : ﴿ أَوْ كَانُوا غُزًّى ﴾ [الآية :

156] ، ويجوز أن يكون جمعَ فاعِل على فُعال ، كما جُمع فعيل على فُعال لقُرْب ما بين الكسر والضم ، ويجوز أن يكون كتُؤام ورُباب وهو شاذّ " . قلت : وهذه القراءة قراءةُ الحسن البصري ، وهي من العِشْوة والعُشْوَة وهي الظلام .

وقرأ الحسن أيضاً : " عُشَا " على وزن دُجَى نحو : غازٍ وغُزاة ، ثم حُذف منه تاءُ التأنيث ، وهذا كما حذفوا تاء التأنيث مِنْ " مَألُكة " ، فقالوا : مَألُك ، وعلى هذه الأوجهِ يكون منصوباً على الحال ، وقرأ الحسن أيضاً " عُشِيّاً " مصغّراً " .

وقوله تعالى : ﴿ نَسْتَبِقُ ﴾ : نَتَسابق ، والافتعال والتفاعل يشتركان نحو قولهم : نَنْتَضِل وتتناضَلُ ، ونَرْتمي ونترامى . و " نَسْتبق " في محل نصب على الحال . و " تَرَكْنا " حال مِنْ " نَسْتبق " و " قد " معه مضمرةٌ عند بعضهم .

قوله : ﴿ وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ جملة حالية ، أي : ما أنت مصدقاً لنا في كل حال حتى في حال صِدْقِنا لِما غَلَبَ على ظنّك في تُهْمتنا ببغضِ يوسفَ وكراهتنا له .

قوله تعالى : ﴿ على قَمِيصِهِ ﴾ : في محل نصب على الحال من " الدم " . قال أبو البقاء : " لأنَّ التقدير : جاؤوا بدمٍ كذبٍ على قميصه " ، يعني أنه لو تأخَّر لكان صفةً للنكرة . وهذا

الوجهُ قد ردَّه الزمخشري فقال : " فإن قلت : هل يجوز أن تكون حالاً متقدمة ؟ قلت : لا ، لأنَّ حال المجرور لا تتقدَّم عليه " . وهذا الذي رَدَّ به الزمخشريُّ أحدُ قولَي النحاة ، وقد صحَّح جماعةٌ جوازَه وأنشدوا :

2754 . . . . فَلَنْ يذهبوا فَرْغاً بقَتْلِ

حِبال

وقولَ الآخر :

2755 لَئِنْ كان بَرْدُ الماءِ هَيْمانَ صادِياً . . . إليَّ حبيباً إنَّها لحبيبُ

وقول الآخر :

2756 غافلاً تَعْرِضُ المنيَّةُ لِلْمَرْ . . . ءِ فيدعى ولاتَ حينَ إباءُ

وقال الحوفي : " إنَّ " على قميصه " متعلقٌ ب " جاؤوا " ، وفيه نظر ؛ لأن مجيئَهم لا يصحُّ أن يكونَ على القميص .

وقال الزمخشري : " فإن قلتَ " على قميصه " ما محلُّه ؟ قلت : محلُّه النصبُ على الظرف ، كأنه قيل : وجاؤوا فوق قميصه بدم ، كما تقول : جاء على جِماله بأَحْمال " . قال الشيخ : " ولا يساعد المعنى على نصب " على " على الظرف بمعنى فوق ، لأنَّ العامل فيه إذ ذاك " جاؤوا " ، وليس الفوقُ ظرفاً لهم ، بل يستحيل أن يكونَ ظرفاً لهم " . وهذا الردُّ هو الذي رَدَدْت به على الحوفي قولَه إنَّ " على " متعلقةٌ ب " جاؤوا " . ثم قال الشيخ : "

وأمّا المثال الذي ذكره الزمخشري وهو " جاء على جماله بأَحْمال " فيمكن أن يكونَ ظرفاً للجائي لأنه تمكَّن الظرف فيه باعتبار تبدُّله مِنْ جملٍ إلى جمل ، وتكون " بأَحْمال " في موضع الحال ، أي : مضموماً بأحمال " .

(185/392)

وقرأ العامَّةُ : "كَذِب " بالذال المعجمة ، وهو من الوصف بالمصادر فيمكن أن يكونَ على سبيل المبالغة نحو : رجل عَدْلٌ أو على حَذْفِ مضافٍ ، أي : ذي كذب ، نَسَبَ فِعْلَ فاعله إليه . وقرأ زيد بن علي "كَذِباً " فاحتمل أن يكون مفعولاً من أجله واحتمل أن يكونَ مصدراً في موضع الحال ، وهو قليل أعني مجيءَ الحالِ من النكرة .

وقرأ عائشة والحسن : "كَدِب " بالدال المهملة . وقال صاحبُ اللوامح : " معناه : ذي كَدِب ، أي : أثر ؛ لأنَّ الكَدِبَ هو بياض يَخْرُجُ في أظافير الشباب ويؤثّر فيها ، فهو كالنقش ، ويسمى ذلك البياضُ " الفُوْف " فيكون هذا استعارةً لتأثيره في القميص كتأثير ذلك في الأظافير " . وقيل : هو الدمُ الكَدِر . وقيل : الطريُّ . وقيل : اليابس .

قوله : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ قبل هذه الجملةِ جملة محذوفة تقديره : لم يأكله الذئب ، بل سَوَّلَتْ

وسوَّلت ، أي : زيَّنَتْ وسَهَّلت .

قوله : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ يجوز أن يكونَ مبتدأً وخبره محذوفٌ ، أي : صبر جميل أَمْثَلُ بي . ويجوز أن يكون خبراً محذوفَ المبتدأ ، أي : أمري صبرٌ جميل . وهل يجب حَذْفُ مبتدأ هذا الخبر / أو خبر هذا المبتدأ ؟ وضابطُه أن يكونَ مصدراً في الأصل بدلاً مِن اللفظ بفعله ، وعبارة بعضِهم تقتضي الوجوبَ ، وعبارة آخرين الجواز . ومن التصريح بخبر هذا النوعِ . ولكنه في ضرورة شعر قولُه :

2757 فقالَتْ على اسمِ اللَّهِ أَمْرُك طاعةٌ . . . وإن كنتُ قد كُلِّفْتُ ما لم أُعَوَّدِ

وقولُ الشاعر :

2758 يَشْكو إليَّ جَمَلي طولَ السُّرى . . . صَبْرٌ جميلٌ فكِلانا مبتلى

يحتمل أن يكونَ مبتدأً أو خبراً كما تقدَّم .

(186/392)

وقرأ أُبَيّ وعيسى بن عمر : " فصبراً جميلاً " [نصباً ، ورُويت عن الكسائي ، وكذلك هي في] مصحف أنس بن مالك ، وتخريجها على المصدر الخبري ، أي : أصبرُ أنا صبراً ، وهذه قراءة ضعيفة إن خُرِّجَتْ هذا التخريجَ ، فإن سيبويه لا ينقاس ذلك عنده إلا في الطلب ،

فالأَوْلى أن يُجعل التقدير : إنَّ يعقوب رَجَعَ وأَمَر نفسَه فكأنه قال : اصبري يا نفسُ صبراً .

ورُوري البيتُ أيضاً بالرفع والنصب على ما تقدَّم ، والأمر فيه ظاهر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 454 . 458 ﴾

(187/392)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وجآءوا أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾ .

تمكينُ الكذَّاب من البكاء سِمَةُ خذلان الله تعالى إياه ، وفي الخبر : " إذا كَمُلَ نفاقُ المرء مَلَكَ عَيْنَه حتى يبكي ما شاء " .

ويقال : لا يَبْعُدُ أَنْ يقال إنهم وإنْ جَنَوْا على يوسف عليه السلام فقد ندموا على ما فعلوا ، فَعَلاَهُمْ البكاءُ لَندمهم – وإن لم يُظْهِروا لأبيهم – وتَقَوَّلُوا على الذّئب .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وجآءوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ .

لم يُؤَثّرْ تزويرُ قَالَبِهم في إيجاب تصديق يعقوب – عليه السلام – لكذبهم بل أخبره قلبُه أَنَّ الأمرَ بخلاف ما يقولونه فقال :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ .

فَعلم على الجملة وإنْ لم يعلمْ على التفضيل . . . وهكذا تقرع قلوبَ الصديقين عواقبُ الأمور على وجه الإجمال ، إلى أنْ تَتَّضحَ لهم تفاصيلُها في المستأنف .

ويقال عوقبوا على ما فعلوه بأن أُغفلوا عن تمزيق قميصه حتى عَلم يعقوب تَقَوُّلَهم فيما وصفوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 174.173 ﴾

(188/392)

قوله تعالى ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تم أمرهم هذا وشبوا على أبيهم عليه السلام نار الحزن ، التفتت النفس إلى الخبر عن يوسف عليه الصلاة والسلام فيما أشار إليه قوله : ﴿ لتنبئنهم ﴾ [يوسف : 15] الآية ، فقال تعالى مخبراً عن ذلك في أسبابه : ﴿ وجاءت سيارة ﴾ أي قوم بليغو السير إلى الأرض

التي ألقوا يوسف عليه الصلاة والسلام في جبها ﴿ فأرسلوا واردهم ﴾ أي رسولهم الذي يرسلونه لأجل الإشراف على الماء إلى الجب ليستقي لهم ﴿ فأدلى ﴾ فيه ﴿ دلوه ﴾ أي أرسلها في البئر ليملأها – وأما " دلى " فأخرجها ملأى – فاستمسك بها يوسف عليه الصلاة والسلام فأخرجه ، فكأنه قيل : ماذا قال حين أدلى للماء فتعلق يوسف بالحبل فأطلعه فإذا هو بإنسان أجمل ما يكون ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ أي الوارد يعلم أصحابه بالبشرى ﴿ يا بشرى ﴾ أي هذا أوانك فاحضري ، فكأنه قيل : لم تدعوا البشرى ؟ فقال : ﴿ هذا غلام ﴾ فأتى به إلى جماعته فسروا به كما سر ﴿ وأسروه ﴾ أي الوارد وأصحابه ﴿ بضاعة ﴾ أي حال كونه متاعاً بزعمهم يتجرون فيه ﴿ والله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة ﴿ عليم ﴾ أي بالغ العلم ﴿ بما يعملون ﴾ وإن أسروه ؛ قال أبو حيان ونعم ما قال : وتعلقه بالحبل يدل على صغره إذ لو كان ابن ثمانية عشر أو سبعة عشر لم يحمله الحبل غالباً ، ولفظة " غلام " ترجع ذلك إذ تطلق عليه ما بين الحولين إلى البلوغ حقيقة ، وقد تطلق على الرجل الكامل – انتهى .

ولما كان سرورهم به - مع ما هو عليه من الجمال والهيبة والجلال - مقتضياً لأن ينافسوا في أمره ويغالوا بثمنه ، أخبر تعالى أنهم لم يفعلوا ذلك ليعلم أن جميع أموره على نسق واحد في خرقها للعوائد فقال : ﴿ وشروه ﴾ أي تمادي السيارة ولجوا في إسرارهم أياه بضاعة حتى باعوه من العزيز ، ولمعنى التمادي عبر ب " شرى " دون " باع " ، ويمكن أن يكون " شرى " بمعنى اشترى ، أي واشتراه السيارة من إخوته ﴿ بثمن ﴾ وهو البدل من الذهب أو الفضة ، وقد يقال على غيره تشبيهاً به ﴿ بخس ﴾ أي قليل ، ومادة " شرى " - يائية بتقاليبها الثلاثة : شرى ، وشير ، وريش ، وواويه بتراكيبها الستة : شور ، وشرو ، ووشر ، وورش ، ورشو ، وروش ، ومهموزة بتراكيبها الثلاثة : أرش ، وأشر ، ورشأ - تدور على اللجاجة ، وهي التمادي في الانتشار ، ويلزمه تبيين ذلك الأمر ، ويلزمها القوة تارة والضعف أخرى ، فمن مطلقة : شريت الشيء ، بمعنى ملكته بالبيع ، وشريته ، بمعنى : أزلت ملكي عنه به ، وكذا اشتريت فيهما ، والاسم الشراء بالمد ويقصر ، فحصل التمادي والانتشار تارة بالإزالة وتارة بالتحصيل ، وكل من ترك شيئاً وتمسك بغيره فقد اشتراه ، وشاراه مشاراه : بايعه ، وشروى الشيء : مثله واوه مبدلة من ياء كأنه مأخوذ من بدل المبيع لأنه يتحرى فيه المماثلة ، وهو أوسع مما لم يوجد له مثل ، وشرى البرق : استطار ، وزيد : غضب ولج حتى استطار غضباً ، والفرس في سيره : بالغ ، واستشرى الرجل : لج ، والبرق : لمع ، والمشاراة : الملاّحة والمجادلة والمبايعة ، والشرية - كغنية : الطريقة والطبيعة ، وكأن

هذا أصل المعنى الذي عنه تفرعت أغصانه ، لأن الطبع مظنة الدجاج ، وشرى الثوب واللحم والإقط : شررها ، أي وضعها على خصفة أو غيرها منشورة لتجف ، وشرى فلاناً : سخر به أو أرغمه ، كأنه تمادى معه حتى قهره ، وشرى بنفسه عن القوم : تقدم بين أيديهم فقاتل عنهم ، أو إلى السلطان فتكلم عنهم ، والشرى – كعلي :

الجبل – لانتشاره علواً ، والطريق – للانتشار فيه ، وطريق بسلمى كثيرة الأسد ، وجبل بتهامه كثير السباع – لانتشارها فيه أو لأن الساتر فيه أقوى الناس وألجهم ، وجبل بنجد لطيىء ، والناحية ، ويمد ، وأشراه : ملاه ، وأماله – لما يلزم من انتشار ما فيه ، وأشرى الجمل : تفلقت عقيقته ، أي صوفه ، وبينهم : أغرى ، وشرى البعير في سيره : أسرع ، وشرى الفرس في لجامه – إذا جذبه ، والشرية كغنية : من النساء اللاتي يلدن الإناث ، كأنها تمادت في الميل مع طبعها : الأنوثة ، فلجت فيه ، أو هو راجع إلى الضعف اللازم للحاجة ، والمشتري : نجم لتلألؤه ، وطائر – للمعه بجناحه وانتشاره ، واشرورى : اضطرب ، وشرى زمام الناقة : كثر اضطرابه ، هو من الانتشار ومن الضعف ، واستشرت الأمور : تفاقمت وعظمت ، وشرى جلده : أصابه بثور صغار حمر حكاكة

مكربة تحدث دفعة غالباً وتشتد ليلاً ، كأنها سميت لانتشارها في جميع البدن وقوتها ، وتشرى القوم : افترقوا ، وتشرى السحاب : تفرق ، والشرى : شجر الحنظل أو الحنظل نفسه ، والنخل ينبت من النواة ، كأنه لنباته بغير سبب آدمي لجوج ، والشريان من شجر القسي ، كأنه لقوته ونشره السهام إذا رميت عنه ، وواحد الشرايين للعروف النابضة ، لقوتها وانتشارها ؛ وشيار - بالكسر : يوم السبت ، لأنه أول يوم ابتدئت فيه الخلائق ، فكأنها انتشرت عنه ؛ والريش بالكسر - من الطائر معروف كالراش - لأنه منتشر في جميع بدنه ، وله قوة نشره متى شاء ، وهو سبب صلاحه وقوته على الانتشار في الهواء ، ومنه الريش والرياش : اللباس الفاخر ، والخصب والمعاش ، وذات الريش : نبات كالقيصوم ، وراش الصديق : أطعمة وسقاه وكساه وأصلح حاله ، وكلأ ريش - كهين وهيّن : كثير الورق ، والريش - محركاً : كثرة الشعر في الأذنين والوجه ، والمريش - كمعظم : البعير الأزب ، ورشت السهم : فوقته ، أي ألزقت عليه الريش عند فوقه ، فكان له بذلك قوة الانتشار ، ورمح راش : خوار شبه

بالريش صعفاً ، والمريش : الرجل الضعيف الصلب ، وهو أيضاً : البرد الموشى ، لتلونه كالريش ، وهو أيضاً : القليل اللحم ، وناقة مريشة : قليلة اللحم ، لأن ذلك أقوى لها على السير ، والمريش أيضاً : الهودج المصلح بالقد ، لأن ذلك سبب قوته ، وهو له كالريش والعصب ، والشوار والشورة والشارة : الحسن والجمال والهيئة واللباس والسمن والزينة ، واستشار فلان : لبس لباساً حسناً ، كأنه من الريش ، ولأنها ملزومة اللجاج والانتشار غالباً ، واستشارات الإبل وأخذت مشوارها : سمنت ، والمشوار - بالكسر : المكان تعرض فيه الدواب ، وشارها : راضها ، أي انتشر بها لتقوى على ما يراد منها ، وشار العسل واستشاره : استخرجه من الوقبة - للمبالغة في ذلك ، والشرو - مقدّم الراء بالفتح ويكسر : العسل ، والمشوار : ما شاره به ، وما أبقت الدابة من علفها - معرب ، كأنه شبه بما يبقى من مشار العسل مما لا يعتد به ، أو أصله : نشوار - بالنون ، فأبدلت منها الميم لتقاربهما ، فإن كان كذلك فهو نشر ، والشوار - مثلثة : متاع البيت ، لانتشاره فيه ، وذكر الرجل وخصياه واسته ، لما ينتشر من كل منها ، وشور بفلان : فعل به فعلاً يستحي منه ، كأنه لج في ذلك حتى قطع انتشاره في الاعتذار ، وتشور الرجل : خجل ، كأنه مطاوع شوّرته ، وشور إليه : أومأ كأشار - لنشر ما أشار به ، وأشار النار : رفعها ، والشوران : العصفر - للمعه ، وجبل قرب عقيق المدينة ، فيه مياه سماء كثيرة ، لقوته على إمساكها وقوة من يقيم فيه بها على الانتشار فيه ، وخيل شياء : سمان حسان ، والشورة - بالضم

الناقة السمينة ، لقوتها على الانتشار ، وبالفتح : الخجلة ، لانتشارها وعلوها ، وأشرت عليه بكذا : أمرته للانتشار في الكلام قبل الإشارة للوقوع على الرأي ، والاسم : المشورة ، أو هو من الإشارة التي هي تحريك اليد أو الحاجب ونحوهما نحو المشار إليه ، والرشوة – مثلثة : الجعل ، ورشاه : أعطاه إياها ، فنشره

(192/392)

للفعل ، ولا يفعل ذلك إلا من لج في الأمر ، ويمكن رده إلى الضعف ، والرائش : السفير بين الراشي والمرتشي ، واسترشى : طلب الرشوة ، والفصيل : طلب الرضاع ، وأرشية اليقطين والحنظل : خيوطهما ، لانتشارها ، وشبهها بالرشاء – بالكسر والمد ، وهو الحبل ، والرشى كغنى ، الفصيل والبعير يقف فيصيح الراعي : ارشه ارشه ، أو أرشه أرشه ، فيحك خورانه ، أي مبعره بيده فيعدو ، وقال ابن فارس : والخوران : مجرى الروث في الدابة ، وأرشى : فعل ذلك ، والقوم في دمه : شركوا ، لأن ذلك انتشار ، وبسلاحهم فيه : أشرعوه ، والرشاة : نبت يشرب للمشي ؛ ومن مهموزه : رشأ : جامع ، ولا ألج من المتهيىء للجماع ، وفيه الانتشار أيضاً ، ورشأت الظبية : ولدت ، والرشأ – بالتحريك اسم للظبي إذا قوي ومشى مع أمه ، فيكون حينئذ أهلاً للانتشار واللجاج في الجري ، والرشأ أيضاً :

شجرة تسمو فوق القامة، وعشبة كالقرنوة، بالقاف، كأنها شديدة الحرافة فشبهت باللجوج، لأن القرنوة يدبغ بها – انتهى المهموز.

(193/392)

ووشر الخشبة بالميشار – غير مهموز، لغة في: أشرها – إذا نشرها، أي فرقها باثنين أو أكثر، والوشر أيضاً: تحديد المرأة أسنانها وترقيقها، وهو من القوة واللمعان والتفريق، والمؤتشرة التي تسأل أن يفعل بها ذلك، وموشر العضدين – ويهمز: الجعل، لأن أعضاده كالمنشرة حزوزاً؛ ومن مهموزه: أشر – بالكسر، أي مرح، أي ازدرى الخلق وعاملهم معاملة المستهين بهم، فظلمهم ولج في عتوه، وناقة مئشير: نشيطة، وأشر الاسنان: تحزيزها – تشبيهاً لها بأسنان المئشار الذي يقطع به الخشب ونحوه قطعاً سريعاً، فهو كفعل اللجوج – انتهى المهموز؛ وورش الطعام: تناوله وأكل شديداً حريصاً، وطمع وأسف لمداق الأمور، لأن ذلك لا يكون إلا عن تمادٍ ولجاج، وورش فلان بفلان: أغراه، وورش عليهم: دخل وهم يأكلون ولم يدع، وورش اسم شيء يصنع من اللبن، لأنه انتشر عن أصل خلقته، والورش – بالتحريك: وجع في الجوف، وككتف: النشيط الخفيف من الإبل وغيرها، وهي بهاء، والتوريش: التحريش، والورشان: طائر.

ومن مهموزه الأرش ، وهي الدية ، لأنها يلج في طلبها والرضى بها وأكثر ما يتعاطى من أمرها ، وهو أيضاً الرشوة ، وما نقص العيب من الشيء – قال في القاموس ، لأنه سبب للارش والخصومة ، وبينهما أرش ، أي اختلاف وخصومة ، والأرش : الإغراء والإعطاء ، لأن المعطي يغلب نفسه ، فكأنه خاصمها فلج حتى غلبها ، والأرش : الخلق ، لأنه منشأ اللجاج ، يقال : ما أدري أي الأرش هو ؟ أي الخلق ، والمأروش : المخلوق ، وآرش – كصاحب : جبل – انقضى المهموز .

(194/392)

والروش : الأكل الكثير ، والأكل القليل – ضد ، وفهو من التمادي والضعف الذي ربما نشأ من التمادي مع شبهه بالريش ، وجمل راش : كثير شعر الأذن ؛ ومن التبيين : شار الدابة – إذا ركبها عند العرض على مشتريها ، وشورها : نظر كيف مشوارها ، أي سيرها ، أو بلاها ينظر ما عندها أو قلبها وكذا الأمة ، واستشار الفحل الناقة : كرفها فنظر إليها ألاقح هي أم لا ؟ واستشار أمر فلان : تبين ، والمستشير : من يعرف الحائل من غيرها ، وهو يرجع إلى التمادي ، لأنه لولاه ما عرف الأمر ؛ ومن الضعف : راشاه : حاباه وصانعه ، وترشاه : لاينه ، وإنك لمسترش لفلان : مطيع له تابع لمسرته ، وهو من الرشوة ، وجمل راش

: ضعيف الصلب ، وكذا رمح راش ، وهي بهاء ، وراشه المرض : ضعفه ، كأنه من الريش ، وكل ذلك يرجع بعد التأمل إلى التمادي – والله أعلم .

ومادة " بخس " بكل ترتيب من بخس وخبس وسبخ وسخب تدور على القلة ، ويلزمها الأخذ بالكف : بخسته حقه : نقصته فجعلته أقل مما كان ، والبخس : فقء العين ، فهو نقص خاص ، والبخس : أرض تنبت بلا سقي ، كأنه لقلة ما نبت بها بالنسبة إلى أرض السقي ، والبخس : المكس ، وسبخت عن فلان : خففت عنه ، والسبخة : أرض ملحة ، لقلة نبتها ونفعها ، وسبخت القطن – إذا قطعته ، فصارت جملته قليلة ؛ والتسبيخ : ما يسقط من ريش الطائر – لنقصه منه ، والتسبيخ : النوم الشديد – لنقصه صاحبه وتخفيفه ما عنده من الثقل ؛ ومن ذلك الخبس ، وهو الأخذ بالكف – وهو لازم للقلة ، ومنه قيل للأسد : الخابس ، لأخذه ما يريده بكفه ؛ والسخاب : قلادة من قرنفل ليس فيها جوهر ولا لؤلؤ .

ولما كان البخس القليل الناقص ، أبدل منه – تأكيداً للمعنى تسفيهاً لرأيهم وتعجيباً من حالهم – قوله : ﴿ دراهم ﴾ أي لا دنانير ﴿ معدودة ﴾ أي أهل لأن تعد ، لأنه لا كثره لها

يعسر معها ذلك ، روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنها كانت عشرين درهماً

﴿ وكانوا ﴾ أي كوناً هو كالجبلة ﴿ فيه ﴾ أي خاصة دون بقية متاعهم ، انتهازاً للفرصة فيه قبل أن يعرف عليهم فينزع من أيديهم ﴿ من الزاهدين ﴾ أي كمال الزهد حتى رغبوا عنه فباعوه بما طف ، والزهد : انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه عند الزاهد ، وهذا يعين أن الضمير للسيارة لأن حال إخوته في أمره فوق الزهد بمراحل ، فلو كان لهم لقيل : وكانوا له من المبعدين أو المبغضين ، ونحو ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 19 ـ 23 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ ﴾

اعلم أنه تعالى بين كيف سهل السبيل في خلاص يوسف من تلك المحنة ، فقال : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ يعني رفقة تسير للسفر .

قال ابن عباس : جاءت سيارة أي قوم يسيرون من مدين إلى مصر فأخطؤا الطريق فانطلقوا

يهيمون على غير طريق ، فهبطوا على أرض فيها جب يوسف عليه السلام ، وكان الجب في قفرة بعيدة عن العمران لم يكن إلا للرعاة ، وقيل : كان ماؤه ملحاً فعذب حين ألقي فيه يوسف عليه السلام فأرسلوا رجلاً يقال له : مالك بن ذعر الخزاعي ليطلب لهم الماء ، والوارد الذي يرد الماء ليستقي القوم ﴿ فأدلى دَلْوَهُ ﴾ ونقل الواحدي عن عامة أهل اللغة أنه يقال : أدلى دلوه إذا أرسلها في البئر ودلاها إذا نزعها من البئر يقال : أدلى يدلي إدلاء إذا أرسل ودلا يدلو دلواً إذا جذب وأخرج ، والدلو معروف ، والجمع دلاء ﴿ قَالَ يَا بُشْرى هذا غُلاَمٌ ﴾ وههنا محذوف ، والتقدير : فظهر يوسف قال المفسرون : لما أدلى الوارد دلوه وكان يوسف في ناحية من قعر البئر تعلق بالحبل فنظر الوارد إليه ورأى حسنه نادى ، فقال : يا بشرى .

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ بُشْرىَ ﴾ بغير الألف وسكون الياء ، والباقون يا بشراي بالألف وفتح الياء على الإضافة .

المسألة الثانية :

في قوله : ﴿ الرياح بُشْرىً ﴾ قولان :

القول الأول : أنها كلمة تذكر عند البشارة ونظيره قولهم : يا عجباً من كذا وقوله : ﴿ فَلَمَّا

دَخَلُواْ على يُوسُفَ ﴾ وعلى هذا القول ففي تفسير النداء وجهان : الأول : قال الزجاج : معنى النداء في هذه الأشياء التي لا تجيب تنبيه المخاطبين وتوكيد القصة فإذا قلت : يا عجباه فكأنك قلت اعجبوا .

الثاني : قال أبو علي : كأنه يقول : يا أيتها البشرى هذا الوقت وقتك ، ولو كنت ممن يخاطب لخوطبت الآن ولأمرت بالحضور .

(197/392)

واعلم أن سبب البشارة هو أنهم وجدوا غلاماً في غاية الحسن وقالوا : نبيعه بثمن عظيم ويصير ذلك سبباً لحصول الغنى .

والقول الثاني : وهو الذي ذكره السدي أن الذي نادى صاحبه وكان اسمه ، فقال يا بشرى كما تقول يا زيد .

وعن الأعمش أنه قال : دعا امرأة اسمها بشرى ﴿ الرياح بُشْرىً ﴾ قال أبو علي الفارسي : إن جعلنا البشرى اسماً للبشارة ، وهو الوجه جاز أن يكون في محل الرفع كما قيل : يا رجل لاختصاصه بالنداء ، وجاز أن يكون في موضع النصب على تقدير : أنه جعل ذلك النداء شائعاً في جنس البشرى ، ولم يخص كما تقول : يا رجلاً ﴿ ياحسرة عَلَى العباد ﴾ [يس :

30].

وأما قوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بضاعة ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

الضمير في ﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ إلى من يعود ؟ فيه قولان : الأول : أنه عائد إلى الوارد وأصحابه أخفوا من الرفقة أنهم وجدوه في الجب ، وذلك لأنهم قالوا : إن قلنا للسيارة التقطناه شاركونا فيه ، وإن قلنا اشتريناه : سألونا الشركة ، فالأصوب أن نقول : إن أهل الماء جعلوه بضاعة عندنا على أن نبيعه لهم بمصر .

والثاني : نقل عن ابن عباس أنه قال : ﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ يعني : إخوة يوسف أسروا شأنه ، والمعنى : أنهم أخفوا كونه أخاً لهم ، بل قالوا : إنه عبد لنا أبق منا وتابعهم على ذلك يوسف لأنهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية ، والأول أولى لأن قوله : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بضاعة ﴾ يدل على أن المراد أسروه حال ما حكموا بأنه بضاعة ، وذلك إنما يليق بالوارد لا بإخوة يوسف .

المسألة الثانية :

البضاعة القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت اللحم إذا قطعته .

قال الزجاج : وبضاعة منصوبة على الحال كأنه قال : وأسروه حال ما جعلوه بضاعة .

ثم قال تعالى : ﴿ والله عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ والمراد منه أن يوسف عليه السلام لما رأى الكواكب والشمس والقمر في النوم سجدت له وذكر ذلك حسده إخوته عليه واحتالوا في إبطال ذلك الأمر عليه فأوقعوه في البلاء الشديد حتى لا يتيسر له ذلك المقصود ، وأنه تعالى جعل وقوعه في ذلك البلاء سبباً إلى وصوله إلى مصر ، ثم تمادت وقائعه وتتابع الأمر إلى أن صار ملك مصر وحصل ذلك الذي رآه في النوم فكان العمل الذي عمله الأعداء في دفعه عن ذلك المطلوب صيره الله تعالى سبباً لحصول ذلك المطلوب ، فلهذا المعنى قال : ﴿ والله عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دراهم مَعْدُودَةٍ ﴾ أما قوله : ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ ففيه قولان :

القول الأول : المراد من الشراء هو البيع ، وعلى هذا التقدير ففي ذلك البائع قولان :

القول الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن إخوة يوسف لما طرحوا يوسف في الجب ورجعوا عادوا بعد ثلاث يتعرفون خبره ، فلما لم يروه في الجب ورأوا آثار السيارة طلبوهم فلما رأوا يوسف قالوا : هذا عبدنا أبق منا فقالوا لهم : فبيعوه منا فباعوه منهم ، والمراد من قوله : ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ أي باعوه يقال : شريت الشيء إذا بعته ، وإنما وجب حمل هذا الشراء على البيع ، لأن الضمير في قوله : ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ وفي قوله : ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ

الزهدين ﴾ عائد إلى شيء واحد لكن الضمير في قوله : ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّهِدِينَ ﴾ عائد إلى الإخوة فكذا في قوله : ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ يجب أن يكون عائداً إلى الإخوة ، وإذا كان كذلك فهم باعوه فوجب حمل هذا الشراء على البيع .

(199/392)

والقول الثاني : أن بائع يوسف هم الذين استخرجوه من البئر ، وقال محمد بن إسحق : ربك أعلم أإخوته باعوه أم السيارة ، وههنا قول آخر وهو أنه يحتمل أن يقال : المراد من الشراء نفس الشراء ، والمعنى أن القوم اشتروه وكانوا فيه من الزاهدين ، لأنهم علموا بقائن الحال أن إخوة يوسف كذابون في قولهم إنه عبدنا وربما عرفوا أيضاً أنه ولد يعقوب فكرهوا شراءه خوفاً من الله تعالى ، ومن ظهور تلك الواقعة ، إلا أنهم مع ذلك اشتروه بالآخرة لأنهم اشتروه بثمن قليل مع أنهم أظهروا من أنفسهم كونهم فيه من الزاهدين ، وغرضهم أن يتوصلوا بذلك إلى تقليل الثمن ، ويحتمل أيضاً أن يقال إن الأخوة لما قالوا : إنه عبدنا أبق صار المشتري عديم الرغبة فيه .

قال مجاهد : وكانوا يقولون استوثقوا منه لئلا يأبق .

ثم اعلم أنه تعالى وصف ذلك الثمن بصفات ثلاث .

الصفة الأولى : كونه بخساً .

قال ابن عباس : يريد حراماً لأن ثمن الحر حرام ، وقال كل بخس في كتاب الله نقصان إلا هذا فإنه حرام ، قال الواحدي سموا الحرام بخساً لأنه ناقص البركة ، وقال قتادة : بخس ظلم والظلم نقصان يقال ظلمه أي نقصه ، وقال عكرمة والشعبي قليل وقيل : ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً ، وقيل كانت الدراهم زيوفاً ناقصة العيار .

قال الواحدي رحمه الله تعالى : وعلى الأقوال كلها ، فالبخس مصدر وضع موضع الاسم ، والمعنى بثمن مبخوس .

الصفة الثانية : قوله : ﴿ دراهم مَعْدُودَةٍ ﴾ قيل تعد عداً ولا توزن ، لأنهم كانوا لا يزنون إلا إذا بلغ أوقية ، وهي الأربعون ويعدون ما دونها فقيل للقليل معدود ، لأن الكثيرة يمتنع من عدها لكثرتها ، وعن ابن عباس كانت عشرين درهماً ، وعن السدي اثنين وعشرين درهماً .

قالوا والإخوة كانوا أحد عشر فكل واحد منهم أخذ درهمين إلا يهوذا لم يأخذ شيئاً .

الصفة الثالثة : قوله : ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزهدين ﴾ ومعنى الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان في كذا إذا لم يرغب فيه وأصله القلة .

يقال : رجل زهيد إذا كان قليل الطمع ، وفيه وجوه : أحدها : أن إخوة يوسف باعوه ، لأنهم كانوا فيه من الزاهدين .

والثاني : أن السيارة الذين باعوه كانوا فيه من الزاهدين ، لأنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي بأي شيء يبيعه أو لأنهم خافوا أن يظهر المستحق فينزعه من يدهم ، فلا جرم باعوه بأوكس الأثمان .

والثالث : أن الذين اشتروه كانوا فيه من الزاهدين ، وقد سبق توجيه هذه الأقوال فيما تقدم ، والضمير في قوله : ﴿ فِيهِ ﴾ يحتمل أن يكون عائد إلى يوسف عليه السلام ، ويحتمل أن يكون عائداً إلى الثمن البخس والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 87.85 ﴾

(201/392)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وجاءت سيارةٌ فأرسلوا واردهم ﴾

وهو الذي يرد أمامهم الماء ليستقي لهم . وذكر أصحاب التواريخ أنه مالك بن ذعر بن حجر

بن يكه بن لخم .

﴿ فأدلى دلوه ﴾ أي أرسلها ليملأها ، يقال أدلاها إذا أرسل الدلو ليملأها ، ودلّاها إذا أخرجها ملأى .

قال قتادة : فتعلق يوسف عليه السلام بالدلو حين أرسلت . والبئر ببيت المقدس معروف مكانها .

﴿ قال يا بشرى هذا غلام ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه ناداهم بالبشرى يبشرهم بغلام ، قاله قتادة .

الثاني : أنه نادى أحدهم ، كان اسمه بشرى فناداه باسمه يعلمه بالغلام ، قاله السدي .

﴿ وأسرُّوه بضاعة ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن إخوة يوسف كانوا بقرب الجب فلما رأوا الوارد قد أخرجه قالوا هذا عبدنا قد أوثقناه فباعوه وأسرّوا بيعه بثمن جعلوه بضاعة لهم ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن الواردين الى الجُب أسرّوا ابتياعه عن باقي أصحابهم ليكون بضاعة لهم كيلا يشركوهم فيه لرخصه وتواصوا أنه بضاعة استبضعوها من أهل الماء ، قاله مجاهد .

الثالث : أن الذين شروه أسرُّوا بيعه على الملك حتى لا يعلم به أصحابهم وذكروا أنه بضاعة لهم .

وحكى جويبر عن الضحاك أنه ألقيَ في الجب وهو ابن ست سنين ، وبقي فيه إلى أن

أخرجته السيارة منه ثلاثة أيام .

وقال الكلبي : ألقي فيه وهو ابن سبع عشرة سنة .

قوله عز وجل : ﴿ وشروه بثمن بخسٍ ﴾ معنى شروه أي باعوه ، ومنه قول ابن مفرغ الحميري .

وشريت برداً ليتني . . . من بعدِ بُرْدٍ كنت هامه

واسم البيع والشراء يطلق على كل واحد من البائع والمشتري لأن كل واحد منهما بائع لما في يده مشترٍ لما في يد صاحبه .

وفي بائعه قولان :

أحدهما : أنهم إخوته باعوه على السيارة حين أخرجوه من الجب فادّعوه عبداً ، قاله ابن عباس والضحاك ومجاهد .

الثاني : أن السيارة باعوه عن ملك مصر ، قاله الحسن وقتادة .

﴿ بثمن بخس ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن البخس ها هنا الحرام ، قاله الضحاك ، قال ابن عطاء : لأنهم أوقعوا البيع على نفس لا يجوز بيعها فكان ثمنه وإن جَلّ بخساً ، وما هو وإن باعه أعداؤه بأعجب منك في بيع نفسك بشهوةٍ ساعةٍ من معاصيك .

الثاني : أنه الظلم ، قاله قتادة .

الثالث : أنه القليل ، قاله مجاهد والشعبي .

﴿ دراهم معدودة ﴾ اختلف في قدرها على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه بيع بعشرين درهماً اقتسموها وكانوا عشرة فأخذ كل واحد منهم درهمين ، قاله ابن مسعود وابن عباس وقتادة وعطية والسدي .

الثاني : باثنين وعشرين درهماً ، كانوا أحد عشر فأخذ كل واحد درهمين ، قاله مجاهد .

الثالث بأربعين درهما ، قاله عكرمة وابن إسحاق . وكان السدي يقول : اشتروا بها خفافاً ونِعالاً .

وفي قوله تعالى ﴿ دراهم معدودة ﴾ وجهان :

أحدهما : معدودة غير موزونة لزهدهم فيه .

الثاني : لأنها كانت أقل من أربعين درهماً ، وكانوا لا يَزِنُون أقل من أربعين درهماً ، لأن أقل الوزن عندهم كان الأوقية ، والأوقية أربعون درهماً .

﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ وفي المعنيّ بهم قولان :

أحدهما : أنهم إخوة يوسف كانوا فيه من الزاهدين حين صنعوا به ما صنعوا .

الثاني : أن السيارة كانوا فيه من الزاهدين حين باعوه بما باعوه به .

وفي زهدهم فيه وجهان :

أحدهما : لعلمهم بأنه حرٌّ لا يباع .

الثاني : أنه كان عندهم عبداً فخافوا أن يظهر عليه مالكوه فيأخذوه .

وفيه وجه ثالث : أنهم كانوا في ثمنه من الزاهدين لاختبارهم له وعلمهم بفضله ، وقال عكرمة أعتق يوسف حين بيع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(203/392)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾

قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ : لَمَّا أَرْسَلَ دَلْوَهُ تَعَلَّقَ بِهَا يُوسُفُ فَقَالَ الْمُدْلِي : يَا بُشْرَايَ هَذَا غُلَامٌ قَالَ قَتَادَةُ : بَشَّرَ أَصْحَابَهُ بِأَنَّهُ وَجَدَ عَبْدًا وَقَالَ السُّدِّيُّ : كَانَ اسْمُ الرَّجُلِ الَّذِي نَادَاهُ بُشْرَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ : " أَسَرَّهُ الْمُدْلِي وَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَاقِي التُّجَّارِ لِئَلَّا يَسْأَلُوهُمْ الشَّرِكَةَ فِيهِ بِرُخْصِ ثَمَنِهِ " .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاس : " أَسَرَهُ إِخْوَتُهُ وَكَتَمُوا أَنَّهُ أَخُوهُمْ وَتَابَعَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِئَلَّا يَقْتُلُوهُ " .

وَالْبِضَاعَةُ الْقِطْعَةُ مِنْ الْمَالِ تُجْعَلُ لِلتِّجَارَةِ .

وَقِيلَ فِي مَعْنَى : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ إِنَّهُمْ اعْتَقَدُوا فِيهِ التِّجَارَةَ .

وَرَوَى شُعْبَةُ عَنْ يُونُسَ عَنْ عُبَيْدٍ عَنْ الْحَسَنِ عَنْ عَلِيٍّ : أَنَّهُ قَضَى بِاللَّقِيطِ أَنَّهُ حُرٌّ ، وَقَرَأَ : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنْ الزَّاهِدِينَ ﴾ وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ سُنَيْنٍ أَبِي جَمِيلَةَ قَالَ : وَجَدْت مَنْبُوذًا عَلَى عَهْدِ عُمَرَ ، فَقَالَ عُمَرُ : عَسَى الْغُوَيْرُ أَبْؤُسًا فَقِيلَ : إِنَّهُ لَا يُتَّهَمُ ، فَقَالَ : هُوَ حُرٌّ وَلَك وَلَاؤُهُ وَعَلَيْنَا رَضَاعُهُ .

(204/392)

فَمَعْنَى قَوْلِهِ : " عَسَى الْغُوَيْرُ أَبْؤُسًا " الْغُوَيْرُ تَصْغِيرُ غَارٍ ، وَهُوَ مَثَلٌ مَعْنَاهُ : عَسَى أَنْ يَكُونَ جَاءَ الْبَأْسُ مِنْ قِبَلِ الْغَارِ فَاتَّهَمَ عُمَرُ الرَّجُلَ وَقَالَ : عَسَى أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ جَاءَ مِنْ قِبَلِك فِي هَذَا الصَّبِيِّ اللَّقِيطِ بِأَنْ يَكُونَ مِنْ مَائِك ، فَلَمَّا شَهِدُوا لَهُ بِالسَّتْرِ أَمَرَهُ بِإِمْسَاكِهِ وَقَالَ : وَلَاؤُهُ لَك .

وَجَائِزٌ أَنْ يُرِيدَ بِالْوَلَاءِ هَهُنَا إمْسَاكَهُ ، وَالْوِلَايَةَ عَلَيْهِ وَإِثْبَاتَ هَذَا الْحَقِّ لَهُ كَمَا لَوْ كَانَ عَبْدًا لَهُ فَأَعْتَقَهُ ؛ لِأَنَّهُ تَبَرَّعَ بِأَخْذِهِ وَإِحْيَائِهِ ، وَالْإِحْسَانِ إلَيْهِ ، وَقَدْ أَخْبَرَ عُمَرُ أَنَّهُ حُرٌّ فَلَا يَخْلُو مِنْ أَنْ

يَكُونُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ

الْإِخْبَارِ بِأَنَّهُ حُرُّ الْأَصْلِ وَلَا رِقَّ عَلَيْهِ، أَوْ إيقَاعِ حُرِّيَّةٍ عَلَيْهِ مِنْ قِبَلِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ عُمَرَ لَمْ يُمَلِّكْهُ وَلَمْ يَكُنْ عَبْدًا لَهُ فَيُعْتِقُهُ، فَعَلِمْنَا أَنَّهُ أَرَادَ الْإِخْبَارَ بِأَنَّهُ حُرٌّ لَا يَجْرِي عَلَيْهِ رِقٌّ، وَإِذَا كَانَ حُرَّ الْأَصْلِ لَمْ يَجُزْ أَنْ يَثْبُتَ وَلَاؤُهُ لِإِنْسَانٍ.

فَعَلِمْنَا أَنَّهُ أَرَادَ بِقَوْلِهِ: "لَك وَلَاؤُهُ" أَيْ لَك وِلَايَتُهُ فِي الْإِمْسَاكِ، وَالْحِفْظِ.

وَمَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ وَعَائِشَةَ أَنَّهُمَا قَالَا فِي، أَوْلَادِ الزِّنَا: "أَعْتِقُوهُمْ وَأَحْسِنُوا إلَيْهِمْ"، فَإِنَّمَا مَعْنَاهُ: احْكُمُوا بِأَنَّهُمْ أَحْرَارٌ.

(205/392)

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدَهُ إلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ ﴾، وَذَلِكَ إخْبَارٌ مِنْهُ بِوُقُوعِ الْعَتَاقِ بِالْمِلْكِ لَا يَحْتَاجُ إلَى اسْتِئْنَافِهِ، وَقَدْ رَوَى الْمُغِيرَةُ عَنْ إبْرَاهِيمَ فِي اللَّقِيطِ يَجِدُهُ الرَّجُلُ قَالَ: "إنْ نَوَى أَنْ يَسْتَرِقَّهُ كَانَ رَقِيقًا وَإِنْ نَوَى الْحِسْبَةَ عَلَيْهِ كَانَ عَتِيقًا"، وَهَذَا لَا مَعْنَى لَهُ؛ لِأَنَّهُ إنْ كَانَ حُرًّا لَمْ يَصِرْ رَقِيقًا بِنِيَّةِ الْمُلْتَقِطِ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا لَمْ يَصِرْ عَتِيقًا بِنِيَّتِهِ أَيْضًا.

وَأَيْضًا أَنَّ الْأَصْلَ فِي النَّاسِ الْحُرِّيَّةُ وَهُوَ الظَّاهِرُ.

أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ وَجَدْنَاهُ يَتَصَرَّفُ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ أَنَّا نَحْكُمُ بِحُرِّيَّتِهِ وَلَا نَجْعَلُهُ عَبْدًا إِلَّا بِبَيِّنَةٍ تَشْهَدُ بِذَلِكَ، أَوْ بِإِقْرَارِهِ؟ وَأَيْضًا، فَإِنَّ اللَّقِيطَ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ وَلَدَ حُرَّةٍ، أَوْ أَمَةٍ، فَإِنْ كَانَ وَلَدَ حُرَّةٍ فَهُوَ حُرٌّ وَغَيْرُ جَائِزٍ اسْتِرْقَاقُهُ، وَإِنْ كَانَ وَلَدَ أَمَةٍ فَهُوَ عَبْدٌ لِغَيْرِ الْمُلْتَقِطِ، فَلَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نُمَلِّكَهُ فَفِي الْوُجُوهِ كُلِّهَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللَّقِيطُ عَبْدًا لِلْمُلْتَقِطِ.

وَأَيْضًا، فَإِنَّ الرِّقَّ طَارِئٌ، وَالْأَصْلُ الْحُرِّيَّةُ، كَشَيْءٍ عَلِمْنَاهُ مِلْكًا لِإِنْسَانٍ وَادَّعَى غَيْرُهُ زَوَالَهُ إِلَيْهِ فَلَا نُصَدِّقُهُ؛ لِأَنَّهُ يَدَّعِي مَعْنًى طَارِئًا، كَذَلِكَ حُكْمُ الْمُلْتَقِطِ فِيمَا يَثْبُتُ لَهُ مِنْ رِقِّ اللَّقِيطِ.

(206/392)

وَأَيْضًا لَمَّا كَانَ لُقَطَةُ الْمَالِ لَا تُوجِبُ لِلْمُلْتَقِطِ مِلْكًا فِيهَا مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ مِلْكٌ فِي الْأَصْلِ، كَانَ الْتِقَاطُ اللَّقِيطِ الَّذِي لَا يُعْلَمُ رِقُّهُ أَحْرَى أَنْ يُوجِبَ لِلْمُلْتَقِطِ مِلْكًا.

وَقَدْ رَوَى حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ «أَنَّ رَجُلًا تَزَوَّجَ امْرَأَةً فَوَلَدَتْ لِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهَا صَدَاقُهَا بِمَا اسْتَحَلَّ مِنْ فَرْجِهَا وَوَلَدُهَا مَمْلُوكٌ لَهُ»، وَهُوَ حَدِيثٌ شَاذٌّ غَيْرُ مَعْمُولٍ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ مَا فِيهِ أَنَّهُ وَلَدُ زِنًا إِذَا كَانَ مِنْ حُرَّةٍ فَهُوَ حُرٌّ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي أَنَّ وَلَدَ الزِّنَا وَاللَّقِيطَ حُرَّانِ.

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ قَالَ الْفَرَّاءُ : الثَّمَنُ مَا يَثْبُتُ فِي الذِّمَّةِ بَدَلًا مِنْ الْبِيَاعَاتِ مِنْ الدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ .

(207/392)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : ظَاهِرُ الْكَلَامِ يَدُلُّ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ سَمَّى الدَّرَاهِمَ ثَمَنًا بِقَوْلِهِ : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ ﴾ وَقَوْلُ الْفَرَّاءِ مَقْبُولٌ مِنْ طَرِيقِ اللُّغَةِ ، فَإِذَا أَخْبَرَ أَنَّ الثَّمَنَ اسْمٌ لِمَا يَثْبُتُ فِي الذِّمَّةِ مِنْ الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَا ثُمَّ سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الدَّرَاهِمَ ثَمَنًا اقْتَضَى ذَلِكَ ثُبُوتَهَا فِي الذِّمَّةِ مَتَى جُعِلَتْ بَدَلًا فِي عُقُودِ الْبِيَاعَاتِ سَوَاءٌ عَيَّنَهَا ، أَوْ أَطْلَقَهَا وَلَمْ يُعَيِّنْهَا ؛ لِأَنَّهَا لَوْ تَعَيَّنَتْ بِالتَّعْيِينِ لَخَرَجَتْ مِنْ أَنْ تَكُونَ ثَمَنًا ؛ إذْ كَانَتْ الْأَعْيَانُ لَا تَكُونُ أَثْمَانًا فِي الْحَقِيقَةِ إلَّا أَنْ يُجْرِيَهَا الْإِنْسَانُ مَجْرَى الْأَبْدَالِ فَيُسَمِّيهَا ثَمَنًا عَلَى مَعْنَى الْبَدَلِ تَشْبِيهًا بِالثَّمَنِ ، وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ وَجَبَ أَنْ لَا تَتَعَيَّنَ الدَّرَاهِمُ وَالدَّنَانِيرُ ؛ لِأَنَّ فِي تَعْيِينِهَا سَلْبُ الصِّفَةِ الَّتِي وَصَفَهَا اللَّهُ بِهَا مِنْ كَوْنِهَا ثَمَنًا ؛ إذْ الْأَعْيَانُ لَا تَكُونُ أَثْمَانًا .

وَالْبَخْسُ النَّقْصُ ، يُقَالُ : بَخَسَهُ حَقَّهُ إذَا نَقَصَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ قَالُوا : "كَانَتْ عِشْرِينَ دِرْهَمًا " وَعَنْ مُجَاهِدٍ : " اثْنَانِ وَعِشْرُونَ دِرْهَمًا " .

وَقِيل : إنَّمَا سَمَّاهَا مَعْدُودَةً لِقِلَّتِهَا .

وَقِيل : عَدُّوهَا وَلَمْ يَزِنُوهَا .

وَقِيل : كَانُوا لَا يَزِنُونَ الدَّرَاهِمَ حَتَّى تَبْلُغَ أُوقِيَّةً وَأُوقِيَّتُهُمْ أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا .

(208/392)

وَقَال ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ : وَإِخْوَتُهُ كَانُوا حُضُورًا فَقَالُوا هَذَا عَبْدٌ لَنَا أَبَقَ فَاشْتَرَوْهُ مِنْهُمْ "

وَقَال قَتَادَةُ : " بَاعَهُ السَّيَّارَةُ " .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنْ الزَّاهِدِينَ ﴾ قِيل إنَّ إخْوَتَهُ كَانُوا فِي الثَّمَنِ مِنْ الزَّاهِدِينَ ، وَإِنَّمَا كَانَ غَرَضُهُمْ أَنْ يُغَيِّبُوهُ عَنْ وَجْهِ أَبِيهِمْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(209/392)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَال يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ

وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : حَدَّثَنِي مَالِكٌ قَالَ : طُرِحَ يُوسُفُ فِي الْجُبِّ وَهُوَ غُلَامٌ ، وَكَذَلِكَ رَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْهُ يَعْنِي أَنَّهُ كَانَ صَغِيرًا .

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ وَلَا يُلْتَقَطُ الْكَبِيرُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وَذَلِكَ أَمْرٌ يَخْتَصُّ بِالصِّغَارِ ؛ فَمِنْ هَاهُنَا أَخَذَ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ غُلَامٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ قِيلَ : الضَّمِيرُ فِي (" أَسَرُّوهُ ") يَرْجِعُ إلَى الْمُلْتَقِطِينَ .

وَقِيلَ : يَرْجِعُ إلَى الْإِخْوَةِ ، فَإِنْ رَجَعَ إلَى الْإِخْوَةِ كَانَ مَعْنَى الْكَلَامِ أَنَّهُمْ كَتَمُوا أُخُوَّتَهُ ، وَأَظْهَرُوا مَمْلُوكِيَّتَهُ ، وَقَطَعُوهُ عَنْ الْقَرَابَةِ إلَى الرِّقِّ .

وَإِنْ عَادَ الضَّمِيرُ إلَى الْمُلْتَقِطِينَ كَانَ مَعْنَى الْكَلَامِ أَنَّهُمْ أَخْفَوْهُ عَنْ أَصْحَابِهِمْ ، وَبَاعُوهُ دُونَ عِلْمِهِمْ بِضَاعَةً اقْتَطَعُوهَا عَنْهُمْ ، وَجَحَدُوهَا مِنْهُمْ ؛ وَسَاعَدَ يُوسُفُ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ تَحْتَ التَّخْوِيفِ وَالتَّهْدِيدِ .

وَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ أَنَّهُ قَضَى بِأَنَّ اللَّقِيطَ حُرٌّ ، وَقَرَأَ : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ

دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ .

وَكَذَلِكَ يُرْوَى عَنْ عَلِيٍّ وَجَمَاعَةٍ .

(210/392)

وَقَالَ إبْرَاهِيمُ : إنْ نَوَى رِقَّهُ فَهُوَ مَمْلُوكٌ ، وَإِنْ نَوَى الْحِسْبَةَ فِيهِ فَهُوَ حُرٌّ .

وَقَدْ رَوَى الزُّهْرِيُّ قَالَ : كُنْت عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ فَحَدَّثَهُ سُنَيْنٌ أَبُو جَمِيلَةَ قَالَ :

وَجَدْت مَنْبُوذًا عَلَى عَهْدِ عُمَرَ ، فَأَخَذْته فَانْطَلَقَ عَرِيفِي ، فَذَكَرَهُ لِعُمَرَ ، فَدَعَانِي عُمَرُ

وَالْعَرِيفُ عِنْدَهُ ، فَلَمَّا رَآنِي مُقْبِلًا قَالَ : عَسَى الْغُوَيْرُ أَبْؤُسًا .

قَالَ الزُّهْرِيُّ : مَثَلٌ كَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَضْرِبُونَهُ .

قَالَ عَرِيفِي : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إنَّهُ لَا يُتَّهَمُ بِهِ .

فَقَالَ لِي : عَلَامَ أَخَذْت هَذَا ؟ قُلْت : وَجَدْته نَفْسًا بِمَضْيَعَةٍ ، فَأَحْبَبْت أَنْ يَأْجُرَنِي اللَّهُ .

قَالَ : هُوَ حُرٌّ وَوَلَاؤُهُ لَك وَرَضَاعَتُهُ عَلَيْنَا .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنْ الزَّاهِدِينَ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : يُقَالُ : شَرَيْت بِمَعْنَى بِعْت ، وَشَرَيْت بِمَعْنَى اشْتَرَيْت لُغَةً .

وَالْبَخْسُ : النَّاقِصُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : وَقِيلَ فِي بَخْسٍ : إنَّهُ بِمَعْنَى حَرَامٍ ، وَلَا وَجْهَ لَهُ ، وَإِنَّمَا الْإِشَارَةُ فِيهِ إلَى أَنَّهُ لَمْ يَسْتَوْفِ ثَمَنَهُ بِالْقِيمَةِ ؛ لِأَنَّ إخْوَتَهُ إنْ كَانُوا بَاعُوهُ فَلَمْ يَكُنْ قَصْدُهُمْ مَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْ ثَمَنِهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ قَصْدُهُمْ مَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْ خُلُوِّ وَجْهِ أَبِيهِمْ عَنْهُ .

(211/392)

وَإِنْ كَانَ الَّذِينَ بَاعُوهُ هُمْ الْوَارِدَةُ فَإِنَّهُمْ أَخْفَوْهُ مُقْتَطَعًا ، أَوْ قَالُوا لِأَصْحَابِهِمْ : أُرْسِلَ مَعَنَا بِضَاعَةً ، فَرَأَوْا أَنَّهُمْ لَمْ يُعْطُوا عَنْهُ ثَمَنًا ، وَأَنَّ مَا أَخَذُوهُ فِيهِ رِبْحٌ كُلُّهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنْ الزَّاهِدِينَ ﴾ إخْوَتُهُ أَوْ الْوَارِدَةُ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ ، لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ أَمْرُهُ عَبِيطًا لَا عِنْدَ الْإِخْوَةِ ؛ لِأَنَّ مَقْصِدَهُمْ زَوَالُ عَيْنِهِ لَا مَالِهِ ، وَلَا عِنْدَ الْوَارِدَةِ ؛ لِأَنَّهُمْ خَافُوا اشْتِرَاكَ أَصْحَابِهِمْ مَعَهُمْ ، وَرَأَوْا أَنَّ الْقَلِيلَ مِنْ ثَمَنِهِ فِي الِانْفِرَادِ أَوْلَى .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ : وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَثْمَانَ كَانَتْ تَجْرِي عِنْدَهُمْ عَدَدًا لَا وَزْنًا ، وَأَصْلُ النَّقْدَيْنِ الْوَزْنُ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا تَبِيعُوا الذَّهَبَ بِالذَّهَبِ وَلَا الْفِضَّةَ بِالْفِضَّةِ إلَّا وَزْنًا بِوَزْنٍ ؛ فَمَنْ زَادَ أَوْ ازْدَادَ فَقَدْ أَرْبَى ﴾ .

وَلِأَنَّهُ لَا فَائِدَةَ فِيهَا إلَّا الْمِقْدَارُ ؛ فَأَمَّا عَيْنُهَا فَلَا مَنْفَعَةَ فِيهِ ، وَلَكِنْ جَرَى فِيهَا الْعَدَدُ تَخْفِيفًا عَنْ الْخَلْقِ ؛ لِكَثْرَةِ الْمُعَامَلَةِ ، فَيَشُقُّ الْوَزْنُ ، حَتَّى لَوْ ضُرِبَتْ مَثَاقِيلَ وَدَرَاهِمَ لَجَازَ بَيْعُ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ عَدَدًا إذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا نُقْصَانٌ [وَلَا رُجْحَانٌ] ؛ لِأَنَّ خَاتَمَ اللَّهِ عَلَيْهَا فِي التَّقْدِيرِ حَتَّى يَنْقُصَ وَزْنُهَا مِنْ نَقْصٍ ، وَيَفُضَّ خَاتَمَ اللَّهِ مَنْ فَضَّ ؛ فَيَعُودُ الْأَمْرُ إلَى الْوَزْنِ ، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ كَانَ كَسْرُهَا أَوْ قَرْضُهَا مِنْ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ، حِينَ كَانَ حُكْمُ جَرَيَانِهَا الْعَدَدُ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : إنَّمَا كَانَ أَصْلُ اللَّقِيطِ الْحُرِّيَّةَ ، لِغَلَبَةِ الْأَحْرَارِ عَلَى الْعَبِيدِ ، فَيُقْضَى بِالْغَالِبِ ، كَمَا حُكِمَ بِأَنَّهُ مُسْلِمٌ أَخْذًا بِالْغَالِبِ .

فَإِنْ كَانَ فِي قَرْيَةٍ فِيهَا نَصَارَى وَمُسْلِمُونَ فَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : يُحْكَمُ بِالْأَغْلَبِ .

وَقَالَ غَيْرُهُ : لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا إلَّا مُسْلِمٌ وَاحِدٌ قُضِيَ لِلَّقِيطِ بِالْإِسْلَامِ ، تَغْلِيبًا لِحُكْمِ الْإِسْلَامِ الَّذِي يَعْلُو وَلَا يُعْلَى [عَلَيْهِ] .

وَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْقَاسِمِ أَوْلَى وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ الْمَسَائِلِ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ﴾

قيل إن " السيارة " جاءت في اليوم الثاني من طرحه في الجب ، ﴿ سيارة ﴾ : جمع سيار ، كما قالوا بغال وبغالة ، وهذا بعكس تمرة وتمر ، و ﴿ سيارة ﴾ : بناء مبالغة للذين يرددون السير في الطرق . وروي أن هذه " السيارة " كانوا قوماً من أهل مدين ، وقيل : قوم أعراب . و " الوارد " هو الذي يأتي الماء ليسقي منه لجماعة ، ويروى أن مدلي الدلو كان يسمى مالك بن ذعر ، ويروى أن هذا الجب كان بالأردن على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب ، ويقال : " أدلى الدلو " : إذا ألقاه في البئر ليستقي الماء . ودلاه يدلوه : إذا استقاه من البئر . وفي الكلام هنا حذف تقديره : فتعلق يوسف بالحبل فلما بصر به المدلي قال : يا بشراي ، وروي أن يوسف كان يومئذ ابن سبع سنين ، ويرجح هذا لفظة ﴿ غلام ﴾ ، فإنه ما بين الحولين إلى البلوغ ، فإن قيلت فيما فوق ذلك فعلى استصحاب حال وتجوز ؛ وقيل : كان ابن سبع عشرة سنة - وهذا بعيد - .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر " يا بشرأيَ " بإضافة البشرى إلى المتكلم وبفتح

الياء على ندائها كأنه يقول : احضري ، فهذا وقتك ، وهذا نحو قوله : ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ [يس : 30] وروى ورش عن نافع "يا بشرأيْ" بسكون الياء ، قال أبو علي : وفيها جمع بين ساكنين على حد دابة وشابة ، ووجه ذلك أنه يجوز أن تختص بها الألف لزيادة المد الذي فيها على المد الذي في أختيها ، كما اختصت في القوافي بالتأسيس ، واختصت في تخفيف الهمزة نحو هباة وليس شيء من ذلك في الياء والواو .

وقرأ أبو الطفيل والجحدري وابن أبي إسحاق والحسن "يا بشريَّ" تقلب الألف ياء ثم تدغم في ياء الإضافة ، وهي لغة فاشية ، ومن ذلك قول أبي ذؤيب : [الكامل]

سبقوا هويّ وأعنقوا لهواهمُ . . . فتخرموا ولكل جنب مصرع

وأنشد أبو الفتح وغيره في ذلك :

يطوّف بيّ كعب في معد . . . ويطعن بالصملة في قفيا

(214/392)

فإن لم تثأروا لي في معد . . . فما أرويتما أبداً صديا

وقرأ حمزة والكسائي "يا بشرِي" ويميلان ولا يضيفان . وقرأ عاصم كذلك إلا أنه يفتح الراء ولا يميل ، واختلف في تأويل هذه القراءة فقال السدي : كان في أصحاب هذا "الوارد

" رجل اسمه بشرى ، فناداه وأعلمه بالغلام ، وقيل : هو على نداء البشرى - كما قدمنا - والضمير في قوله : ﴿ وأسروه ﴾ ظاهر الآيات أنه ل " وارد " الماء ، - قاله مجاهد ، وقال : إنهم خشوا من تجار الرفقة إن قالوا : وجدناه أن يشاركوهم في الغلام الموجود .

قال القاضي أبو محمد : هذا إن كانوا فسقة أو يمنعوهم من تملكه إن كانوا خياراً ، فأسروا بينهم أن يقولوا : أبضعه معنا بعض أهل المصر .

و ﴿ بضاعة ﴾ حال ، و " البضاعة " : القطعة من المال يتجر فيها بغير نصيب من الربح ، مأخوذة من قولهم : بضعت أي قطعت . وقيل : إنهم أسروا في أنفسهم يتخذونه بضاعة لأنفسهم أي متجراً ، ولم يخافوا من أهل الرفقة شيئاً ، ثم يكون الضمير في قوله : ﴿ وشروه ﴾ لهم أيضاً ، أي باعوه بثمن قليل ، إذ لم يعرفوا حقه ولا قدره ، بل كانوا زاهدين فيه ، وروي - على هذا - أنهم باعوه من تاجر . وقال مجاهد : الضمير في ﴿ أسروه ﴾ لأصحاب " الدلو " ، وفي ﴿ شروه ﴾ لإخوة يوسف الأحد عشر ، وقال ابن عباس : بل الضمير في ﴿ أسروه ﴾ و ﴿ شروه ﴾ لإخوة يوسف .

قال القاضي أبو محمد : وذلك أنه روي أن إخوته لما رجعوا إلى أبيهم وأعلموه رجع بعضهم إلى الجب ليتحققوا أمر يوسف ، ويقفوا على الحقيقة من فقده فلما علموا أن الوراد قد أخذوه جاؤوهم فقالوا : هذا عبد أبق لأمنا ووهبته لنا ونحن نبيعه منكم ، فقارهم يوسف على هذه المقالة خوفاً منهم ، ولينفذ الله أمره ؛ فحينئذ أسره إخوته إذ جحدوا

إخوته فأسروها ، واتخذوه ﴿ بضاعة ﴾ أي متجراً لهم ومكسباً ﴿ وشروه ﴾ أيضاً ﴿ بثمن بخس ﴾ ، أي باعوه .

وقوله ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ إن كانت الضمائر لإخوة يوسف ففي ذلك توعد ، وإن كانت الضمائر للواردين ففي ذلك تنبيه على إرادة الله تعالى ليوسف ، وسوق الأقدار بناء حاله ، فهو – حينئذ – بمعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : " يدبر ابن آدم والقضاء يضحك " .

وفي الآية – أيضاً – تسلية للنبي عليه السلام عما يجري عليه من جهة قريش ، أي العاقبة التي للمتقين هي المراعاة والمنتظرة .

و﴿ شروه ﴾ – هنا – بمعنى باعوه ، وقد يقال : شرى ، بمعنى اشترى ، ومن الأول قول يزيد بن مفرغ الحميري : [مجزوء الكامل]

وشريتُ برداً ليتني . . . من بعد بردٍ كنتُ هامَهْ

برد : اسم غلام له ندم على بيعه ، والضمير يحتمل الوجهين المتقدمين ؛ و﴿ البخس ﴾ مصدر وصف به " الثمن " وهو بمعنى النقص – وهذا أشهر معانيه – فكأنه القليل

الناقص 0 وهو قول الشعبي – وقال قتادة : " البخس " هنا بمعنى الظلم ، ورجحه الزجاج من حيث الحر لا يحل بيعه ، وقال الضحاك : وهو بمعنى الحرام ، وهذا أيضاً بمعنى لا يحل بيعه .

وقوله : ﴿ دراهم معدودة ﴾ عبارة عن قلة الثمن لأنها دراهم لم تبلغ أن توزن لقلتها ، وذلك أنهم كانوا لا يزنون ما دون الأوقية ، وهي أربعون درهماً ، واختلف في مبلغ ثمن يوسف عليه السلام : فقيل باعوه بعشرة دراهم ، وقال ابن مسعود : بعشرين ، وقال مجاهد : باثنين وعشرين أخذ منها إخوته درهمين وقال عكرمة : بأربعين درهماً دفعت ناقصة خفافاً ، فهذا كان بخسها .

وقوله : ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ وصف يترتب في " ورّاد " الماء ، أي كانوا لا يعرفون قدره ، فهم لذلك قليل اغتباطهم به ، لكنه أرتب في إخوة يوسف إذ حقيقة الزهد في الشيء إخراج حبه من القلب ورفضه من اليد ، وهذه كانت حال إخوة يوسف في يوسف ، وأما الورّاد فتمسكهم به وتجرهم يمانع زهدهم إلا على تجوز .

وقوله ﴿ فيه ﴾ ليست بصلة ل ﴿ الزاهدين ﴾ – قاله الزجاج وفيه نظر لأنه يقتضي وصفهم بالزهد على الإطلاق وليس قصد الآية هذا ، بل قصدها الزهد الخاص في يوسف ، والظروف يجوز فيها من التقديم ما لا يجوز في سائر الصلات ، وقد تقدم القول في عود ضمير الجماعة الذي في قوله : ﴿ وشروه ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(217/392)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾

أي رفقة مارّة يسيرون من الشام إلى مصر فأخطئوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريباً من الجب ، وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران ، إنما هو للرّعاة والمجتاز ، وكان ماؤه ملحاً فعذب حين ألقي فيه يوسف .

﴿ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ ﴾ فذكر على المعنى ؛ ولو قال : فأرسلت واردها لكان على اللفظ ، مثل "وجاءت" .

والوارد الذي يرد الماء يستقي للقوم ؛ وكان اسمه فيما ذكر المفسرون مالك بن دعر ، من

العرب العاربة .

﴿ فأدلى دَلْوَهُ ﴾ أي أرسله ؛ يقال : أدلى دلوه إذا أرسلها ليملأها ، ودَلَاها أي أخرجها : عن الأصمعي وغيره .

ودلا من ذات الواو يدلو دلواً ، أي جذب وأخرج ، وكذلك أدلى إذا أرسل ، فلما ثقل ردوه إلى الياء ، لأنها أخف من الواو ؛ قاله الكوفيون .

وقال الخليل وسيبويه : لما جاوز ثلاثة أحرف رجع إلى الياء ، اتباعاً للمستقبل .

وجمع دَلْو في أقل العدد أَدْلٍ فإذا كثرت قلت : دُلِيّ ودِلِيّ ؛ فقلبت الواو ياء ، إلا أن الجمع بابه التغيير ، وليفرق بين الواحد والجمع ؛ ودِلاء أيضا .

فتعلق يوسف بالحبل ، فلما خرج إذا غلام كالقمر ليلة البدر ، أحسن ما يكون من الغلمان .

قال صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء من صحيح مسلم : " فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطي شطر الحسن " وقال كعب الأحبار : كان يوسف حسن الوجه ، جعد الشعر ، ضخم العينين ، مستوي الخلق ، أبيض اللون ، غليظ الساعدين والعضدين ، خميص البطن ، صغير السرة ، إذا ابتسم رأيت النور من ضواحكه ، وإذا تكلم رأيت في كلامه شعاع الشمس من ثناياه ، لا يستطيع أحد وصفه ؛ وكان حسنه كضوء النهار عند الليل ، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية .

وقيل : إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة ؛ وكانت قد أعطيت سدس الحسن ؛ فلما رآه مالك بن دعر قال : "يَا بُشْرَايَ هَذَا غُلَامٌ" هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة ؛ إلا ابن أبي إسحق فإنه قرأ "يَا بُشْرَيَّ هَذَا غُلَامٌ" فقلب الألف ياء ، لأن هذه الياء يكسر ما قبلها ، فلما لم يجز كسر الألف كان قلبها عوضاً .

وقرأ أهل الكوفة "يَا بُشْرى" غير مضاف ؛ وفي معناه قولان : أحدهما : اسم الغلام ، والثاني : معناه يا أيتها البشرى هذا حينك وأوانك .

قال قتادة والسديّ : لما أدلى المدلي دلوه تعلق بها يوسف فقال : يا بشرى هذا غلام ؛ قال قتادة : بشر أصحابه بأنه وجد عبدا .

وقال السدي : نادى رجلاً اسمه بشرى قال النحاس : قول قتادة أولى ؛ لأنه لم يأت في القرآن تسمية أحد إلا يسيرا ؛ وإنما يأتي بالكناية كما قال عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾ [الفرقان : 27] وهو عقبة بن أبي معيط ، وبعده ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ [الفرقان : 28] وهو أمية بن خلف ؛ قاله النحاس .

والمعنى في نداء البشرى : التبشير لمن حضر ؛ وهو أوكد من قولك تبشرت ، كما تقول : يا عجباه ! أي يا عجب هذا من أيامك ومن آياتك ، فاحضر ؛ وهذا مذهب سيبويه ، وكذا

قال السُّهيلي .

وقيل : هو كما تقول : واسروراه وأن البشرى مصدر من الاستبشار : وهذا أصحّ ؛ لأنه لو كان اسما علما لم يكن مضافاً إلى ضمير المتكلم ؛ وعلى هذا يكون "بُشْرَايَ" في موضع نصب ؛ لأنه نداء مضاف ؛ ومعنى النداء ها هنا التنبيه ، أي انتبهوا لفرحتي وسروري ؛ وعلى قول السُّدّي يكون في موضع رفع كما تقول : يا زيد هذا غلام .

ويجوز أن يكون محله نصبا كقولك : يا رجلاً ، وقوله : ﴿ ياحسرة عَلَى العباد ﴾ [يس : 30] ولكنه لم ينون "بُشْرَى" لأنه لا ينصرف .

﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ الهاء كناية عن يوسف عليه السلام ؛ فأما الواو فكناية عن إخوته .

(219/392)

وقيل : عن التجار الذين اشتروه ، وقيل : عن الوارد وأصحابه .

"بِضَاعَةً" نصب على الحال .

قال مجاهد : أسرّه مالك بن دُعْر وأصحابه من التجار الذين معهم في الرفقة ، وقالوا لهم : هو بضاعة استبضعناها بعضُ أهل الشام أو أهل هذا الماء إلى مصر ؛ وإنما قالوا هذا

خيفة الشركة .

وقال ابن عباس : أسرّه إخوة يوسف بضاعة لما استخرج من الجبّ ؛ وذلك أنهم جاءوا فقالوا : بئس ما صنعتم ! هذا عبد لنا أَبِق ، وقالوا ليوسف بالعبرانية : إما أن تُقرّ لنا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء ، وإما أن نأخذك فنقتلك ؛ فقال : أنا أقرّ لكم بالعبودية ، فأقرّ لهم فباعوه منهم .

وقيل : إن يهوذا وصىّ أخاه يوسف بلسانهم أن اعترف لإخوتك بالعبودية فإني أخشى إن لم تفعل قتلوك ؛ فلعل الله أن يجعل لك مخرجا ، وتنجو من القتل ، فكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته ؛ فقال مالك : والله ما هذه سمة العبيد ! ، قالوا : هو تربّى في حجورنا ، وتخلق بأخلاقنا ، وتأدّب بآدابنا ؛ فقال : ما تقول يا غلام ؟ قال : صدقوا ! تربيت في حجورهم ، وتخلقت بأخلاقهم ؛ فقال مالك : إن بعتموه مني اشتريته منكم ؛ فباعوه منه ؛ فذلك

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20) ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ يقال : شريت بمعنى اشتريت ، وشريت بمعنى بعت لغة ؛ قال الشاعر :

وشَرَيْتُ بُرْدًا لَيْتَنِي . . .

مِن بَعْدِ بُرْدٍ كنتُ هَامَهُ

أي بعت .

وقال آخر :

فلما شَرَاها فاضتِ العينُ عَبرةً . . .

وفي الصَّدرِ حُزَّازٌ من اللَّوْمِ حَامِزُ

﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ أي نقص ؛ وهو هنا مصدر وضع موضع الاسم ؛ أي باعوه بثمن مبخوس ، أي منقوص .

ولم يكن قصد إخوته ما يستفيدونه من ثمنه ، وإنما كان قصدهم ما يستفيدونه من خلوّ وجه أبيهم عنه .

وقيل : إن يهوذا رأى من بعيد أن يوسف أخرج من الجبّ فأخبر إخوته فجاؤوا وباعوه من الواردة .

وقيل : لا بل عادوا بعد ثلاث إلى البئر يتعرّفون الخبر ، فرأوا أثر السيارة فاتبعوهم وقالوا : هذا عبدنا أبق منا فباعوه منهم .

وقال قتادة : "بَخْسٍ" ظلم .

وقال الضّحاك ومقاتل والسُّدي وابن عطاء : "بَخْسٍ" حرام .

وقال ابن العربي : ولا وجه له ، وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة ؛ لأن إخوته إن كانوا باعوه فلم يكن قصدهم ما يستفيدونه من ثمنه ، وإنما كان قصدهم ما يستفيدون من خلوّ وجه أبيهم عنه ؛ وإن كان الذين باعوه الواردة فإنهم أخفوه مقتَطَعاً ؛ أو قالوا لأصحابهم : أرسل معنا بضاعة فرأوا أنهم لم يُعطُوا عنه ثمناً وأنّ ما أخذوا فيه ربح كلّه .

قلت : قوله "وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة" يدلّ على أنهم لو أخذوا القيمة فيه كاملة كان ذلك جائزاً وليس كذلك ؛ فدلّ على صحة ما قاله السُّديّ وغيره ؛ لأنهم أوقعوا البيع على نفس لا يجوز بيعها ، فلذلك كان لا يحلّ لهم ثمنه .

وقال عِكرمة والشّعبي : قليلٍ .

وقال ابن حيان : زَيْف .

وعن ابن عباس وابن مسعود باعوه بعشرين درهماً أخذ كل واحد من إخوته درهمين ، وكانوا عشرة ؛ وقاله قتادة والسّديّ .

وقال أبو العالية ومقاتل : اثنين وعشرين درهماً ، وكانوا أحد عشر أخذ كل واحد درهمين ؛ وقاله مجاهد .

وقال عِكرمة : أربعين درهماً ؛ وما روي عن الصحابة أولى .

و"بخسٍ" من نعت "ثمنٍ" .

﴿ دَرَاهِمَ ﴾ على البدل والتفسير له .

ويقال : دراهيم على أنه جمع دِرهام ، وقد يكون اسماً للجمع عند سيبويه ، ويكون أيضاً عنده على أنه مدّ الكسرة فصارت ياء ، وليس هذا مثل مدّ المقصور ؛ لأن مدّ المقصور لا يجوز عند البصريين في شعر ولا غيره .

وأنشد النحويون :

تَنْفِي يداها الحَصَى في كلِّ هاجرةٍ . . .

نَفْيَ الدّراهِيمِ تَنْقَادُ الصَّيَارِيفِ

﴿ مَعْدُودَةٍ ﴾ نعت ؛ وهذا يدل على أن الأثمان كانت تجري عندهم عدّاً لا وزناً بوزن .

(221/392)

وقيل : هو عبارة عن قلة الثمن ؛ لأنها دراهم لم تبلغ أن توزن لقلتها ؛ وذلك أنهم كانوا لا يزنون ما (كان) دون الأوقية ، وهي أربعون درهماً .

الثانية : قال القاضي ابن العربي : وأصل النقدين الوزن ؛ قال صلى الله عليه وسلم :

"لا تبيعوا الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة إلا وزناً بوزن من زاد أو ازداد فقد أربى"

والزنة لا فائدة فيها إلا المقدار ؛ فأما عينها فلا منفعة فيه ، ولكن جرى فيها العدّ تخفيفاً عن الخلق لكثرة المعاملة ، فيشق الوزن ؛ حتى لو ضرب مثاقيل أو دراهم لجاز بيع بعضها ببعض عدّاً إذا لم يكن بها نقصان ولا رجحان ؛ فإن نقصت عاد الأمر إلى الوزن ؛ ولأجل ذلك كان كسرها أو قرضها من الفساد في الأرض حسب ما تقدّم .

الثالثة : واختلف العلماء في الدراهم والدنانير هل تتعين أم لا ؟ وقد اختلفت الرواية في ذلك عن مالك : فذهب أشهب إلى أن ذلك لا يتعين ، وهو الظاهر من قول مالك ؛ وبه قال أبو حنيفة .

وذهب ابن القاسم إلى أنها تتعين ، وحكي عن الكَرْخيّ ؛ وبه قال الشافعي .

وفائدة الخلاف أنا إذا قلنا لا تتعيّن فإذا قال : بعتك هذه الدنانير بهذه الدراهم تعلقت الدنانير بذمة صاحبها ، والدراهم بذمة صاحبها ؛ ولو تعينت ثم تلفت لم يتعلق بذمتهما شيء ، وبطل العقد كبيع الأعيان من العروض وغيرها .

الرابعة : رُوي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قضى في اللّقيط أنه حر ، وقرأ : "وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ" وقد مضى القول فيه .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزاهدين ﴾ قيل : المراد إخوته .

وقيل : السيارة .

وقيل : الواردة ؛ وعلى أي تقدير فلم يكن عندهم غبيطاً ، لا عند الإخوة ؛ لأن المقصد

زواله عن أبيه لا ماله ، ولا عند السيارة لقول الأخوة إنه عبد أَبِق منا والزهد قلة الرغبة ولا عند الواردة لأنهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم ، ورأوا أن القليل من ثمنه في الانفراد أولى .

(222/392)

السادسة : في هذه الآية دليل واضح على جواز شراء الشيء الخطير بالثمن اليسير ، ويكون البيع لازماً ؛ ولهذا قال مالك : لو باع درّة ذات خطر عظيم بدرهم ثم قال لم أعلم أنها درّة وحسبتها مَخْشَلَبَة لزمه البيع ولم يلتفت إلى قوله .

وقيل : ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزاهدين ﴾ أي في حسنه ؛ لأن الله تعالى وإن أعطى يوسف شَطْر الحسن صرف عنه دواعي نفوس القوم إليه إكراماً له .

وقيل : "وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ" لم يعلموا منزلته عند الله تعالى .

وحكى سيبويه والكسائي : زَهِدت وزَهَدت بكسر الهاء وفتحها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(223/392)

وقال الخازن :

قوله عز جل : ﴿ وجاءت سيارة ﴾

وهم القوم المسافرون سمّوا سيارة لمسيرهم في الأرض ، وكانوا رفقة من مدين يريدون مصر فأخطؤوا الطريق فنزلوا قريباً من الجب الذي كان فيه يوسف وكان في قفرة بعيدة من العمارة ترده الرعاة والمارة وكان ماؤه ملحاً فلما ألقي يوسف فيه عذب فلما نزلوا أرسلوا رجلاً من أهل مدين يقال له مالك بن ذعر الخزاعي ليطلب لهم الماء فذلك قوله : ﴿ فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ﴾ قال والوارد هو الذي يتقدم الرفقة إلى الماء فيهيئ الأرشية والدلاء يقال أدليت الدلو إذا أرسلتها في البئر ودلوتها إذا أخرجتها قال فتعلق يوسف بالحبال وكان يوسف عليه السلام أحسن ما يكون من الغلمان وذكر البغوي بسند متصل أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " أعطي يوسف شطر الحسن " ويقال إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة وكانت قد أعطيت سدس الحسن قال محمد بن إسحاق : ذهب يوسف وأمه بثلثي الحسن ، وحكى الثعلبي عن كعب الأحبار ، قال : كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوي الخلق أبيض اللوم غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن صغير السرة وكان إذا تبسم رأيت النور في ضواحكه وإذا تكلم

رأيت شعاع النور في ثناياه ، ولا يستطيع أحد وصفه وكان حسنه كضوء النهار عند الليل وكان يشبه آدم يوم خلقه الله وصورته قبل أن يصيب الخطيئة .

(224/392)

قالوا فلما خرج يوسف ورآه مالك بن ذعر كأحسن ما يكون من الغلمان قال يعني الوارد وهو مالك بن ذعر ﴿ يا بشراي ﴾ يعني يقول الوارد لأصحابه أبشروا ﴿ هذا غلام ﴾ وقرئ يا بشرى بغير إضافة ومعناه أن الوارد نادى رجلاً من أصحابه اسمه بشرى كما تقول يا زيد ويقال أن جدران البئر بكت على يوسف حين خرج منها ﴿ وأسروه بضاعة ﴾ قال مجاهد أسره : مالك بن ذعر وأصحابه من التجار الذين كانوا معهم وقالوا إنه بضاعة استبضعناه لبعض أهل المال إلى مصر وإنما قالوا ذلك خيفة أن يطلبوا منهم الشركة فيه ، وقيل : إن إخوة يوسف أسروا شأن يوسف يعني أنهم أخفوا أمر يوسف وكونه أخاً لهم بل قالوا هو عبد لنا أبق وصدقهم يوسف على ذلك لأنهم توعدوه بالقتل سراً من مالك ابن ذعر وأصحابه والقول الأول أصح لأن مالك بن ذعر هو الذي أسره بضاعة وأصحابه ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ يعني من إرادة إهلاك يوسف فجعل ذلك سبباً لنجاته وتحقيقاً لرؤياه أن يصير ملك مصر بعد أن كان عبداً قال أصحاب الأخبار : إن يهوذا كان يأتي

يوسف بالطعام فأتاه فلم يجده في الجب فأخبر إخوته بذلك فطلبوه فإذا هم بمالك بن ذعر وأصحابه نزولاً قريباً من البئر فأتوهم فإذا يوسف عندهم فقالوا لهم هذا عبدنا أبق معنا ويقال إنهم هددوا يوسف حتى يكتم حاله ولا يعرفها وقال لهم مثل قولهم ثم إنهم باعوه منهم.

قوله تعالى: ﴿ وشروه ﴾

(225/392)

أي باعوه وقد يطلق لفظ الشراء على البيع يقال شريت الشيء بمعنى بعته وإنما وجب حمل هذا الشراء على البيع لأن الضمير في وشروه وفي وكانوا فيه من الزاهدين يرجع إلى شيء واحد وذلك أن إخوته زهدوا فيه فباعوه وقيل إن الضمير في وشروه يعود على مالك بن ذعر وأصحابه فعلى هذا القول يكون لفظ الشراء على بابه ﴿ بثمن بخس ﴾ قال الحسن والضحاك ومقاتل والسدي: بخس أي حرام لأن ثمن الحر حرام ويسمى الحرام بخساً لأنه مبخوس البركة يعني منقوصها وقال ابن مسعود وابن عباس: بخس أي زيوف ناقصة العيار وقال قتادة: بخس أي ظلم والظلم نقصان الحق يقال ظلمه إذا نقصه حقه وقال عكرمة والشعبي: بخس أي قليل وعلى الأقوال كلها فالبخس في اللغة هو نقص الشيء على سبيل

الظلم والبخس والباخس الشيء الطفيف ﴿ دراهم معدودة ﴾ فيه إشارة إلى قلة تلك الدراهم لأنهم في ذلك الزمان ما كانوا يزنون أقل من أربعين درهماً إنما كانوا يأخذون ما دونها عدداً فإذا بلغت أربعين درهماً وهي أوقية وزنوها واختلفوا في عدد تلك الدراهم فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة : كانت عشرين درهماً فاقتمسوها درهمين درهمين فعلى هذا القول لم يأخذ أخوه من أمه وأبيه شيئاً منها ، وقال مجاهد : كانت اثنين وعشرين درهماً فعلى هذا أخذ أخوه منها درهمين لأنهم كانوا أحد عشر أخاً وقال عكرمة كانت أربعين درهماً ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ يعني وكان إخوة يوسف في يوسف من الزاهدين وأصل الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان في كذا إذا لم يكن له فيه رغبة والضمير في قوله وكانوا فيه من الزاهدين إن قلنا أنه يرجع إلى أخوة يوسف كان وجه زهدهم فيه أنهم حسدوه وأرادوا إبعاده عنهم ولم يكن قصدهم تحصيل الثمن وإن قلنا إن قوله وشروه وكانوا فيه من الزاهدين يرجع إلى معنى واحد وهو أن الذين شروه كانوا فيه من الزاهدين كان وجه زهدهم فيه إظهار قلة الرغبة فيه ليشتروه بثمن بخس قليل .

ويحتمل أن يقال : إن إخوته لما قالوا إنه عبدنا وقد أبق أظهر المشتري قلة الرغبة فيه لهذا السبب قال أصحاب الأخبار ثم إن مالك بن ذعر وأصحابه لما اشتروا يوسف انطلقوا به إلى مصر وتبعهم إخوته يقولون استوثقوا منه لا يأبق منكم فذهبوا به حتى قدموا مصر فعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير قاله ابن عباس ، وكان قطفير صاحب أمر الملك وكان على خزائن مصر وكان يسمى العزيز وكان الملك بمصر ونواحيها اسمه الريان بن الوليد بن شروان وكان من العماليق ، وقيل : إن هذا الملك لم يمت حتى آمن بيوسف واتبعه على دينه ثم مات ويوسف حي .

قال ابن عباس : لما دخلوا مصر لقي قطفير مالك بن ذعر فاشترى يوسف منه بعشرين ديناراً وزوج نعل وثوبين أبيضين ، وقال وهب بن منبه : قدمت السيارة بيوسف مصر ودخلوا به السوق يعرضونه للبيع فترافع الناس في ثمنه حتى بلغ وزنه ذهباً ووزنه فضة ووزنه مسكاً وحريراً وكان وزنه أربعمائة رطل وكان عمره يومئذ ثلاث عشرة سنة أو سبع عشرة سنة فابتاعه قطفير بهذا الثمن فذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَجَاءتْ ﴾ شروعٌ في بيان ما جرى على يوسف في الجب بعد الفراغِ من ذكر ما وقع بين إخوتِه وبين أبيه ، والتعبيرُ بالمجيء ليس بالنسبة إلى مكانهم فإن كنعانَ ليس بالجانب المصريِّ من مدينَ بل إلى مكان يوسف وفي إيثاره على المرور أو الإتيانِ أو نحوهما إيماءٌ إلى كونه عليه السلام في الكرامة والزلفى عند مليكٍ مقتدرٍ والظاهر أن الجب كان في الأمم المئتاء فإن المتبادر من إسناد المجيء إلى السيارة مطلقاً في قوله عز وجل : ﴿ سَيَّارَةٌ ﴾ أي رفقةٌ تسير من جهة مدينَ إلى مصرَ وقوعُه باعتبار سيرِهم المعتادِ وهو الذي يقتضيه قوله تعالى فيما سلف : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة ﴾ وقد قيل إنه كان في قفرة بعيدةٍ من العُمران لم تُمكن إلا للرعاة فأخطأوا الطريقَ فنزلوا قريباً منه ، وقيل : كان ماؤه مِلْحاً فعذُبَ حين ألقي فيه عليه السلام ﴿ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ ﴾ الذي يرد الماءَ ويستقي لهم وكان ذلك مالك بنُ ذعر الخزاعيّ وإنما لم يُذكر منتهى الإرسالِ كما لم يذكر منتهى المجيءِ أعني الجب للإيذان بأن ذلك معهودٌ لا يُضرب عنه الذكرُ صفحاً ﴿ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ﴾ أي أرسلها إلى الجب والحذفُ لما عرفتَه فتدلى بها يوسف فخرج.

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال يقتضيه الحال ﴿ يا بشرى هذا غُلاَمٌ ﴾ كأنه نادى البُشرى وقال : تعالَيْ ، فهذا أوانُك حيث فاز بنعمة باردةٍ وأيِّ نعمةٍ مكانَ ما يوجد مباحاً من الماء . وقيل : هو اسمُ صاحبٍ له ناداه ليُعينَه على إخراجه ، وقرأ غيرُ الكوفيين يا بشرايَ وأمال فتحةَ الراءِ حمزةُ والكِسائيُّ وقرأ ورشٌ بين اللفظين يا بُشْرَيَّ بالإدغام وهي لغة ، وبشرايْ على قصد الوقف ﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ أي أخفاه الواردُ وأصحابُه عن بقية الرفقة ، وقيل : أخفَوا أمرَه ووجدانَهم له في الجب وقالوا لهم : دفعَه إلينا أهلُ الماء لنبيعه لهم بمصرَ ، وقيل : الضميرُ لإخوة يوسفَ وذلك أن يهوذا كان يأتيه كلَّ يوم بطعام فأتاه يومئذ فلم يجدْه فيها فأخبر إخوتَه فأتَوا الرفقةَ وقالوا : هذا غلامُنا أبَقَ منا فاشترَوه منهم وسكت يوسفُ مخافةَ أن يقتلُوه ولا يخفى ما فيه من البعد ﴿ بضاعة ﴾ نُصب على الحالية أي أخفَوه حال كَونِه بضاعةً أي متاعاً للتجارة فإنها قطعةٌ من المال بُضعت عنه أي قطعت للتجارة ﴿ واللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ وعيدٌ لهم على ما صنعوا من جعلهم مثلَ يوسفَ وهو هو عرضةً للابتذال بالبيع والشراءِ وما دبروا في ذلك من الحيل .

وقال أبو السعود :

﴿ وَشَرَوْهُ ﴾

أي باعوه والضمير للوارد وأصحابه ﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ زيْفٍ ناقصِ العيار ﴿ دراهم ﴾ بدل من ثمن أي لا دنانير ﴿ مَّعْدُودَةٍ ﴾ أي غيرِ موزونة فهو بيانٌ لقلته ونقصانِه مقدا6راً بعد بيان نقصانِه في نفسه إذ المعتادُ فيما لا يبلغ أربعين العدُّ دون الوزن ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها كانت عشرين درهماً وعن السدي رضي الله عنه أنها كانت اثنين وعشرين درهماً ﴿ وَكَانُواْ ﴾ أي البائعون ﴿ فِيهِ ﴾ في يوسف ﴿ مِنَ الزهدين ﴾ من الذين لا يرغبون فيما بأيديهم فلذلك باعوه بما ذكر من الثمن البخْسِ ، وسببُ ذلك أنهم التقطوه ، والملتقطُ للشيء متهاونٌ به ، أو غيرُ واثق بأمره يخاف أن يظهر له مستحِقٌّ فينتزعه منه فيبيعه من أول مُساومٍ بأوكسِ ثمن ، ويجوز أن يكون معنى شرَوه اشتروه من إخوته على ما حُكي وهم غير راغبين في شِراه خشية ذهابِ مالِهم لما ظنّ في آذانهم من الإباق ، والعدولُ على صيغة الافتعال المنبئِة عن الاتخاذ لما مر من أن أخذَهم إنما كان بطريق البضاعةِ دون الاجتباء والاقتناءِ ، وفيه متعلِّق بالزاهدين إن جُعل اللامُ للتعريف وبيانٌ لما زهدوا فيه إن جُعلت موصولة ، كأنه قيل : في أي شيء زهِدوا ؟ فقيل : زهدوا فيه ، لأن ما يتعلق بالصلة لا يتقدم على الموصول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسي :

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾

﴿ وَجَاءَتْ ﴾ شروع فيما جرى على يوسف عليه السلام في الجب بعد الفراغ عن ذكر ما وقع بين إخوته وبين أبيه أي وجاءت إلى الجب ﴿ سَيَّارَةٌ ﴾ رفقة تسير من جهة مدين إلى مصر وكان ذلك بعد ثلاثة أيام مضت من زمن القائه في قول ، وقيل : في اليوم الثاني ، والظاهر أن الجب كان في طريق سيرهم المعتاد .

وقيل : إنه كان في قفرة بعيدة من العمران فأخطأوا الطريق فأصابوه ﴿ فَأَرْسَلُوا ﴾ إليه ﴿ وَارِدَهُمْ ﴾ الذي يريد الماء ويستقي لهم وكان ذلك مالك بن ذعر الخزاعي .

وقال ابن عطية : الوارد هنا يمكن أن يقع على الواحد وعلى الجماعة اه والظاهر الأول ، والتأنيق في ﴿ جَاءَتِ ﴾ والتذكير في ﴿ أُرْسِلُوا فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾ باعتبار اللفظ والمعنى ، وفي التعبير بالمجيء إيماء إلى كرامة يوسف عليه السلام عند ربه سبحانه ، وحذف متعلقة وكذا متعلقة وكذا متعلق الإرسال لظعوره ولذا حذف المتعلق في قوله سبحانه : ﴿ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ﴾ أي أرسلها إلى الجب ليخرج الماء ، ويقال : دلا الدلو إذا

أخرجها ملأى ، والدلو من المؤنثات للسماعية فتصغر على دلية وتجمع على أدل .

ودلاء ودلى .

وقال ابن الشحنة : إن الدلو التي يستقي بها مؤنثة وقد تذكر ، وأما الدلو مصدر دلوت وضرب من السير فمذكر ومثلها في التذكير والتأنيث الجب عند الفراء على ما نقله عنه محمد بن الجهم ، وعن بعضهم أنه مذكر لا غير وأما البئر مؤنثة فقط في المشهور ، ويقال في تضغيرها : بويرة ؛ وفي جمعها آباء .

وأبار .

وأبؤر .

وبئار ، وفي الكلام حذف أي فأدلى دلوه فتدلى بها يوسف فخرج ﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبني على سؤال يقتضيه الحال .

﴿ يا بشرى هذا غلام ﴾ نادى البشرى بشارة لنفسه أو لقومه ورفقته كأنه نزلها منزلة شخص فناداه فهو استعارة مكنية وتخييلية أي يا بشرى تعالى فهذا أوان حضورك ، وقيل : المنادي محذوف كما في ياليت أي يا قومي انظروا واسمعوا بشراي ، وقيل : إن هذه

الكلمة تستعمل للتبشير من غير قصد إلى النداء .

وزعم بعضهم أن بشرى اسم صاحب له ناداه ليعينه على إخراجه ، وروي هذا عن السدى وليس بذاك وقرأ غير الكوفيين يا بشراي بالإضافة ، وأمال فتحة الراء حمزة .

والكسائي ، وقرأ وريش بين اللفظين .

وروي عن نافع أنه قرأ يا بشراي بسكون ياء الإضافة ويلزمه التقاء الساكنين عغلى غيره وحده ، واعتذر بأنه أجري الوصل مجرى الوقف ونظائر ذلك كثيرة في القرآن وغيره ، وقيل : جاز ذلك لأن الألف لمدها تقوم مقام الحركة ، وقرأ أبو الطفيل .

والحسن .

وابن أبي إسحق .

والجحدري ﴿ الرياح بُشْرىً ﴾ بقلب الألف ياءاً وإدغامها في ياء الاضافة وهي لغة لهذيل .

ولناس غيرهم ومن ذلك قول أبي ذؤيب :

سبقوا (هوى) وأعنقوا لهواهم . . .

فتخرموا ولكل جنب مصرع

ويقولون : يا سيدي .

ومولى ، والغلام كثيراً ما يطلق على ما بين الحولين إلى البلوغ ، وقد يطلق على الرجل الكامل

كما في قول ليلى الأخيلية في الحجاج بن يوسف الثقفي :

غلام إذا هز القناة سقاها . . .

والظاهر أن التنوين فيه للتفخيم ، وحق له ذلك فقد كان عليه من أحسن الغلمان ، وذكر البغوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أعطي يوسف شطر الحسن .

"

وقال محمد بن إسحاق : ذهب يوسف وأمه بثلثي الحسن ، وحكى الثعلبي عن كعب الأحبار أنه قال : كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوى الخلق أبيض اللون غليظ الساعدين والساقين خميص البطن صغير السرة وكان إذا تبسم رأيت النور في ضواحكه وإن تكلم رأيت شعاع النور من ثناياه ولا يستطيع أحد وصفه وكان حسنه كضوء النهار عند الليل وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه قبل أن يصيب الخطيئة ، ويحكى أن جوانب الجب بكت عليه حين خرج منها ، ولعله من باب بكت الدار لفقد فلان ، والظاهر أن قول الوارد ﴿ قَالَ يا بشرى هذا غُلاَمٌ ﴾ [يوسف : 91] كان عند وؤيته ، وقيل : إنه حين وروده على أصحابه صاح بذاك ﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ أي أخفاه الوارد

وأصحابه عن بقية الرفقة حتى لا تراه فتطمع فيه ، وقيل : أخفوا أمره وكونه وجد في البئر ، وقالوا لسائر القافلة : دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر ، وقيل : الضمير لإخوة يوسف ، وذلك أن بعضهم رجع ليتحقق أمره فرآه عند السيارة فأخبر إخوته فجاءوا إليهم فقالوا : هذا غلام أبق لنا فاشتروه منا فاشتروه وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ، وفي رواية أنهم قالوا بالعبرانية : لا تنكر العبودية نفتلك فأقر بها واشتروه منهم ، وقيل : كان يهوذا يأتيه بالطعام فأتاه يوم أخرج فلم يجده في الجب ووجده عند الرفقة فأخبر إخوته فأتوهم فقالوا ما قالوا ، وروي كون الضمير للاخوة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قيل : وهو المناسب لإفراد ﴿ قَالَ ﴾ وجمع ضمير أسروا وللوعيد الآتي قريباً إن شاء الله تعالى ، وليس فيه اختلاف في النظم ، ولا يخفى أن الظاهر ما أشير إليه أولا ، ونصب قوله سبحانه : ﴿ بضاعة ﴾ على الحال أي أخفوه حال كونه متاعاً للتجارة ، وفي الفرائد أنه ضمن أسروه معنى جعلوه أي جعلوه بضاعة مسرين إياه فهو مفعول به .

وقال ابن الحاجب : يحتمل أن يكون مفعولاً له أي لأجل التجارة وليس شرطه مفقوداً لاتحاد فاعله وفاعل الفعل المعلل به إذ المعنى كتموه لأجل تحصيل المال به ، ولا يجوز أن

يكون تمييزاً وهو من البضع بمعنى القطع وكأن البضاعة إنما سميت بذلك لأنها تقطع من المال وتجعل للتجارة ، ومن ذلك البضع بالكسر بما بين الثلاث إلى العشرة أو لما فوق الخمس ودون العشرة ، والبضيعة للجزيرة المنقطعة عن البر ، واعتبر الراغب في البضاعة كونها قطعة وافرة من المال تقتني للتجارة ولم يعتبر الكثير كونها وافرة ﴿ وَاللَّهِ عَلِيمُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ لم يخف عليه سبحانه اسرارهم ، وصرح غير واحد أن هذا وعيد لإخوة يوسف عليه السلام على ما صنعوا بأبيهم وأخيهم وجعلهم إياه ، وهو هو عرضة للابتذال بالبيع والشراء .

﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ الضمير المرفوع إما للاخوة فشرى بمعنى باع ، وإما للسيارة فهو بمعنى اشترى كما في قوله

: (وشريت) برداً ليتني . . .

من بعد برد كنت هامه

وقوله

: ولو أن هذا الموت يقبل فدية . . .

(شريت) أبا زيد بما ملكت يدي

وجوز أن يكون على هذا الوجه بمعنى باع بناءاً على أنهم باعوه لما التقطوه من بعضهم ﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ أي نقص وهو مصدر أريد به اسم المفعول أي منقوص ، وجوز الراغب أن

يكون بمعنى باخس أي ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً ، وقال مقاتل : زيف ناقص العيار ، وقال قتادة : بخس ظلم لأنه ظلموه في بيعه ، وقال ابن عباس .

والضحاك في آخرين : البخس الحرام وكان ذلك حراماً لأنه ثمن الحر وسمي الحرام بخسا لأنه مبخوس البركة أي منقوصها ، وقوله سبحانه : ﴿ دراهم ﴾ بدل من ثمن أي لا دنانير ﴿ مَّعْدُودَةً ﴾ أي قليلة وكنى بالعدّ عن القلة لأن الكثير يوزن عندهم وكان عدة هذه الدراهم في كثير من الروايات عشرين درهماً ، وفي رواية عن ابن عباس اثنين وعشرين ، وفي أخرى عنه عشرين وحلة ونعلين ، وقيل : ثلاثين وحلة ونعلين ، وقيل : ثمانية عشر اشتروا بها أخفافاً ونعالاً ، وقيل : عشرة ، وعن عكرمة أنها كانت أربعين درهماً ، ولا يأبى هذا ما ذكره غير واحد من أن عادتهم أنهم لا يزنون إلا ما بلغ أوقية وهي أربعون درهماً إذ ليس فيه نفي أن الأربعين قد تعدّ ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ ﴾ أي في يوسف كما هو الظاهر ﴿ مِنَ الزهدين ﴾ أي الراغبين عنه ، والضمير في ﴿ وَكَانُواْ ﴾ إن كان للإخوة فظاهر وإن كان للرفقة وكانوا بائعين فزهدهم فيه لأنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي بما باعه ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده فيبيعه من أول مساوم بأوكس الثمن وإن كان لهم

وكانوا مبتاعين بأن اشتروه من بعضهم أو من الإخوة فزهدهم لأنهم اعتقدوا فيه أنه آبق فخافوا أن يخاطروا بما لهم فيه ، وقيل : ضمير ﴿ فِيهِ ﴾ للثمن وزهدهم فيه لرداءته أو لأن مقصودهم ليس إلا إبعاد يسوف عليه السلام وهذا ظاهر على تقدير أن يكون ضمير ﴿ كَانُواْ ﴾ للإخوة ، والجار على ما نقل عن ابن مالك متعلق بمحذوف يدل عليه الزاهدين أي كانوا زاهدين فيه من الزاهدين ، وذلك أن اللام في الزاهدين اسم موصول ولا يتقدم ما في صلة الموصول عليه ، ولأن ما بعد الجار لا يعمل فيما قبله ، وهل ﴿ مِنَ الزهدين ﴾ حينئذ صفة لزاهدين المحذوف مؤكدة كما تقول : عالم من العلماء .

أو صفة مبينة أي زاهدين بلغ بهم الزهد إلى أن يعدّوا في الزاهدين لأن الزاهد قد لا يكون عرقياً في الزاهدين حتى يعدّ فيهم إذا عدّوا .

(235/392)

أو يكون خبراً ثانياً ؟ كل ذلك محتمل ، وليس بدلا من المحذوف لوجود ﴿ مِنْ ﴾ معه ، وقدر بعضهم المحذوف أعنى وأنا فيه من الزاهدين ، وقال ابن الحاجب في أماليه : إنه متعلق بالصلة والمعنى عليه بلا شبهة وإنما فروا منه لما فهموا من أن صلة الموصول لا تعمل فيما قبل الموصول مطلقاً ، وبين صلة أل وغيرها فرق فان هذه على صورة الحرف المنزل

منزلة الجزء من الكلمة فلا يمتنع تقديم معمولها عليها فلا حاجة إلى القول بأن تعلقه بالمذكور إنما هو على مذهب المازني الذي جعل أل في مثل ذلك حرف تعريف وكأنه لا يرى تقدم معمول المجرور ممتنعاً وإلا لم يتم بما ذكره ارتفاع المحذور .

وزعم بعضهم أنه يلزم بعد عمل اسم الفاعل من غير اعتماد من الغفلة بمكان لأن محل الخلاف عمله في الفاعل والمفعول به الصريح لا في الجار والمجرور الذي يكفيه رائحة الفعل ؛

وقال بعض المتأخرين : إن الصفة هنا معتمدة على اسم كانوا وهو مبتدأ في الأصل ، والاعتماد على ذلك معتبر عندهم ، ففي الرضى عن ، قول ابن الحاجب : والاعتماد على صاحبه ويعني بصاحبه المبتدأ إما في الحال نحو زيد ضارب أخواه .

أو في الأصل نحو كان زيد ضارباً أخواه .

وظننتك ضارباً أخواك وإن زيداً ضارب غلاماه ، وعلى هذا لا يحتاج في الجواب إلى إخراج الجار والمجرور عن حكم الفاعل والمفعول به الصريح وإن كان له وجه وجيه خلافاً لمن أنكره ، ومن الناس من يتمسك بعموم يتوسع في الظرف والجار والمجرور ما لا يتوسع في غيرهما في دفع ما يورد على تعلق الجار هنا بالصفة المجرور الواقعة صلة لال كائناً ما كان فلفهم .

هذا والشائع أن الباعة إخوته .

والزاهدين هم ، وفي بعض الآثار أنهم حين باعوه قالوا للتاجر : إنه لص آبق فقيده ووكل به عبداً أسود فلما جاء وقت ارتحالهم بكى عليه السلام فقال له التاجر : مالك تبكى ؟ فقال : أريد أن أصل إلى الذين باعوني لأودعهم وأسلم عليهم سلام من لا يرجع إليهم ، فقال التاجر للعبد : خذه واذهب به إلى مواليه ليودعهم ثم ألحقه بالقافلة فما رأيت غلاماً أبر من هذا بمواليه ولا قوماً أجفى منهم فتقدم العبد به إلى إخوته وكان زاحد منهم مستيقظاً يحرس الأغنام فلما وصل إليه يوسف وهو يعثر في قيده انكب عليه وبكى ، فقال له : لماذا جئت ؟ فقال : جئت لأودعكم وأسلم عليكم فصاح عليهم أخوهم قوموا إلى من أتاكم يسلم عليكم سلام من لا يرجو أن يراكم أبداً فويل لكم من هذا الوداع فقاموا فجعل يوسف ينكب على كل واحد منهم ويقبله ويعانقه ، ويقول : حفظكم الله تعالى وإن ضيعتموني آواكم الله تعالى وإن طرتموني رحمكم الله تعالى وإن لم ترحموني .

قيل : إن الأغنام ألقت ما في بطونها من هول هذا التوديع ، ثم أخذه العبد وطلب القافلة فبينما هو على الراحلة إذ مر بقبر أمه راحيل في مقابر كنعان فلما أبصر القبر لم يتمالك أن رمى بنفسه عليه فاعتنقه وجعل يبكي ويقول : يا أماه ارفعي رأسك من التراب حتى ترى ولدك مقيداً يا أماه إخوتي في الجب طرحوني ومن أبي فرقوني وبأبخس الأثمان باعوني ولم

يرقوا لصغر سني ولم يرحموني فأنا أسأل الله تعالى أن يجمع بيني وبين والدي في مستقر رحمته إنه أرحم الراحمين .

(237/392)

فالتفت العبد فلم يره فرجع رآه على القبر فقال : والله لقد صدق مواليك إنك عبد آبق ثم لطمه شديده فغشي عليه ثم أفاق فقال له : لا تؤاخذني هذا قبر أمي نزلت أسلم عليها ولا أعود بعد لما تكرهه أبداً ثم رفع عينيه إلى السماء وقد تمرغ بالتراب والدموع في وجهه فقال : اللهم إن كانت لي خطيئة أخلقت وجهي عندك فبحرمة آبائي الكرام إبراهيم وإسحق ويعقوب أن تعفو عني وترحمني يا أرحم الراحمين فضجت الملائكة إلى الله تعالى عند ذلك فقال تبارك وتعالى : يا ملائكتي هذا نبي وابن أنبيائي وقد استغاث بى وأنا مغيثه ومغيث المستغيثين يا جبريل أدركه فنزل جبريل عليه السلام فقال : يا صديق الله ربك يقرئك السلام ويقول لك : مهلاً عليك فقد أبكيت ملائكة السموات السبع أتريد أن أطبق السماء على الأرض ؟ فقال : لا يا جبريل ارفق بخلق ربي فإنه حليم لا يعجل فضرب الأرض بجناحه فهبت ريح حمراء وكسفت الشمس وأظلمت الغبراء فلم ير أهل القافلة بعضهم بعضاً ، فقال التاجر : انزلوا قبل أن تهلكوا إن لي سنين عديدة أم بهذا الطريق فما رأيت كاليوم فمن

أصاب منكم ذنباً فليتب منه فما أصابنا هذا إلا بذنب اقترفناه فأخبره العبد بما فعل مع يوسف ، وقال يا سيدي : إني لما ضربته رفع عينيه إلى السماء وحرك شفتيه فقال له التاجر : ويحك أهلكتنا وأهلكت نفسك فتقدم إليه التاجر وقال : يا غلام إنا ظلمناك حين ضربناك فإن شئت أن تقتص منها فها نحن بين يديك ؟ فقال يوسف : ما أنا من قوم إذا ظلموا يقتصرون ولكني من أهل بيت إذا ظلموا عفوا وغفروا ولقد عفوت عنكم رجاء أن يعفوا الله تعالى عني فانجلت الظلمة وسكنت الريح وأسفرت الشمس وأضاءت مشارق الأرض ومغاربها فساروا حتى دخلوا مصر آمنين وكان هذا التاجر فيما قيل : مالك بن ذعر الذي أخرجه من الجب ، وقيل : غيره .

وروي أنه حين ورد به مصر باعه بعشرين ديناراً .

وزوجي نعل .

وثوبين أبيضين ، وقيل : أدخل السوق للبيع فترافعوا في ثمنه حتى بلغ وزنه مسكا .

ووزنه ورقا .

ووزنه حريراً فاشتراه بذلك العزيز الذي كان على خزائن مصر عند ملكها ، وقيل : كان

خباز الملك وصاحب شرابه ودوا به صاحب السجن المشهور ، والمعول عليه هو الأول ، واسمه قطفير .

أو اطفير .

أو قنطوراً ، والأول مروى عن ابن عباس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(239/392)

وقال القاسمى :

﴿ وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾

أي : الذي يرد الماء ويستقي لهم : ﴿ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ﴾ أي : أرسلها في الجب ليملأها ، فتعلق بها يوسف للخروج ، فلما رآه : ﴿ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ ﴾ وقرئ (يَا بُشْرَايَ) بالإضافة ، والمنادى محذوف . أو نزلت منزلة من ينادي ، ويقال : إن هذه الكلمة تستعمل للتبشير من غير قصد إلى النداء .

قال الزجاج : معنى النداء في هذه الأشياء التي لا تجيب هو تنبيه المخاطبين ، وتوكيد القصة ، فإذا قلت : يا عجباه ! فكأنك قلت : اعجبوا .

و(الغلام) : الطارّ الشارب ، أو من ولادته إلى أن يشب . والتنوين للتعظيم .

﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ أي : أخفوه متاعاً للتجارة ف : ﴿ بِضاعَةً ﴾ حال . وفي " الفرائد " : أنه ضمن : ﴿ أَسَرُّوهُ ﴾ معنى (جعلوه) أي : جعلوه بضاعة مسرين ، فهو مفعول به ، أو مفعول له . أي : لأجل التجارة . و (البضاعة) من البضع ، وهو القطع ؛ لأنه قطعة وافرة من المال تقتنى للتجارة ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾

الضمير في (أَسَرُّوهُ) و (شَرَوْهُ) للسيارة ؛ لأنها بمعنى القوم السائرين . وقد روي أنهم كانوا تجاراً من بلدة مدين . فلما أصعد واردهم يوسف وضموه إلى بضاعتهم ؛ باعوه لقافلة مرت بهم سائرة إلى مصر بعشرين درهماً من الفضة ، ثم أتوا بيوسف إلى مصر . و (دراهم) بدل من الثمن و (المعدود) ، كناية عن القليل ؛ لأن الكثير يوزن عندهم . و (الزهد) فيه بمعنى الرغبة عنه .

فوائد :

قال في " الإكليل " ، استنبط الناس من هذه الآية أحكام اللقيط ، فأخذوا منها أن اللقيط يؤخذ ولا يترك . ومن قوله : (هذا غلام) أنه كان صغيراً ، وأن الالتقاط خاص به ، فلا يلتقط الكبير ، وكذا قوله : ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ لأن ذلك أمر يختص بالصغار . ومن قوله : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ أن اللقيط يحكم بحريته ، وأن ثمن الحر حرام . قال بعضهم : وجه الاستدلال لأنهم باعوه بثمن حقير لكونه لقيطاً ، وهو لا يملك ؛ إذ لو ملك استوفوا ثمنه .

قال بعض الزيدية : ورد هذا الاستدلال بأن فعلهم ليس شريعة . وأما الآن فلا شبهة أن ظاهر اللقيط الحرية ، كما أن ظاهره الإسلام .

قال المهايمي : ومن الفوائد أن الفرج قد يحصل من حيث لا يحتسب ، وأنه ينتظر للشدة ، وأن من خرج لطلب شيء قد يجد ما لم يكن في خاطره . وأن الشيء الخطير قد يعرض فيه ما يهونه . وأن البشرى قد يعقبها الحزن ، والعزة قد يعقبها الذلة . وبالعكس . انتهى

انتهى . اهـ ﴿محاسن التأويل حـ 9 صـ 166.168 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾

عطف على ﴿ وجاءوا أباهم عشاء يبكون ﴾ [سورة يوسف : 16] عطف قصة على قصة .

وهذا رجوع إلى ما جرى في شأن يوسف عليه السّلام ، والمعنى : وجاءت الجبّ .

و(السّيّارة) تقدم آنفاً .

والوارد : الذي يرد الماء ليستقي للقوم .

والإدلاء : إرسال الدلو في البئر لنزع الماء .

والدلو : ظرف كبير من جلد مخيط له خرطوم في أسفله يكون مطوياً على ظاهر الظرف بسبب شده بحبل مقارن للحبل المعلقة فيه الدلو .

والدلو مؤنثة .

وجملة قال يا بشراي مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن ذكر إدلاء الدلو يهيّىء السامع للسؤال عمّا جرى حينئذٍ فيقع جوابه قال يا بشراي .

والبشرى : تقدمت في قوله تعالى : ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ في سورة يونس (64) .

ونداء البشرى مجاز ، لأنّ البشرى لا تنادى ، ولكنها شبّهت بالعاقل الغائب الذي احتيج

إليه فينادى كأنه يقال له : هذا آن حضورك .

ومنه : يا حسرتَا ، ويا عجباً ، فهي مكنية وحرف النداء تخييل أو تبعية .

والمعنى : أنه فرح وابتهج بالعثور على غلام .

وقرأ الجمهور يا بشرَايَ ﴾ بإضافة البشرى إلى ياء المتكلم .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف بدون إضافة .

واسم الإشارة عائد إلى ذات يوسف عليه السّلام ؛ خاطب الواردُ بقية السيّارة ، ولم يكونوا يرون ذات يوسف عليه السّلام حين أصعده الوارد من الجب ، إذ لو كانوا يرونه لما كانت فائدة لتعريفهم بأنه غلام إذ المشاهدة كافية عن الإعلام ، فتعين أيضاً أنهم لم يكونوا مشاهدين شبح يوسف عليه السّلام حين ظهر من الجب ، فالظاهر أن اسم الإشارة في مثل هذا المقام لا يقصد به الدلالة على ذات معيّنة مرئية بل يقصد به إشعار السامع بأنه قد حصَل شيءٌ فرح به غير مترقب ، كما يقول الصائد لرفاقه : هذا غزال وكما يقول الغائص : هذه صدقة أو لؤلؤة ويقول الحافر للبئر : هذا الماء قال النابغة يصف الصائد وكلابه وفرسه :

يقول راكبه الجنيّ مرتفقاً

هذا لكُنّ ولحم الشاة محجور . . .

وكان الغائصون إذا وجدوا لؤلؤة يصيحون .

قال النابغة :

أو درّة صدفاته غوّاصها

بهج متى يُرها يهلّ ويسجد . . .

والمعنى : وجدت في البئر غلاماً ، فهو لقطة ، فيكون عبداً لمن التقطه .

وذلك سبب ابتهاجه بقوله : ﴿ يا بشراي هذا غلام ﴾ .

والغلام : مَن سنهُ بين العشر والعشرين .

وكان سنّ يوسف عليه السّلام يومئذٍ سبع عشرة سنة .

وكان هؤلاء السيارة من الإسماعيليين كما في التّوراة ، أي أبناء إسماعيل بن إبراهيم .

وقيل : كانوا من أهل مدين وكان مجيئهم الجب للاستقاء منها ، ولم يشعر بهم إخوة يوسف إذ كانوا قد ابتعدوا عن الجب .

ومعنى ﴿ أَسَرُّوه ﴾ أَخْفَوْه .

والضمير للسيارة لا محالة ، أي أخفوا يوسف عليه السّلام ، أي خبر التقاطه خشية أن يكون من ولدان بعض الأحياء القريبة من الماء قد تردّى في الجب ، فإذا علم أهله بخبره

طلبوه وانتزعوه منهم لأنهم توسموا منه مخائل أبناء البيوت ، وكان الشأن أن يعرّفوا من كان قريباً من ذلك الجب ويعلنوا كما هو الشأن في التعريف باللّقطة ، ولذلك كان قوله : ﴿ وأسرّوه ﴾ مشعراً بأن يوسف عليه السّلام أخبرهم بقصته ، فأعرضوا عن ذلك طمعاً في أن يبيعوه .

وذلك من فقدان الدين بينهم أو لعدم العمل بالدين .

و﴿ بضاعةً ﴾ منصوب على الحال المقدّرة من الضمير المنصوب في ﴿ أسرّوه ﴾ ، أي جعلوه بضاعة .

والبضاعة : عروض التجارة ومتاعها ، أي عزموا على بيعه .

وجملة ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ معترضة ، أي والله عليم بما يعملون من استرقاق من ليس لهم حقّ في استرقاقه ، ومن كان حقّه أن يسألوا عن قومه ويبلغوه إليهم ، لأنهم قد علموا خبره ، أو كان من حقهم أن يسألوه لأنه كان مستطيعاً أن يخبرهم بخبره .

وفي عثور السيارة على الجب الذي فيه يوسف عليه السّلام آية من لطف الله به .

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾

معنى ﴿ شروه ﴾ باعوه .

يقال : شرى كما يقال : باع ، ويقال : اشترى كما يقال : ابتاع .

ومثلهما رَهن وارتهن ، وعاوض واعتاض ، وكَرى واكترى .

والأصل في ذلك وأمثاله أن الفعل للحدث والافتعال لمطاوعة الحدث .

ومن فسر ﴿ شروه ﴾ باشتروه أخطأ خطأ أوقعه فيه سوء تأويل قوله : ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ .

وما ادّعاه بعض أهل اللغة أن شرى واشترى مترادفان في معنييهما يغلب على ظني أنه وَهَم إذ لا دليل يدل عليه .

والبخس : أصله مصدر بَخَسه إذا نقصه عن قيمة شيئه .

وهو هنا بمعنى المبخوس كالخلق بمعنى المخلوق .

وتقدم فعل البخس عند قوله تعالى : ﴿ ولا يَبخس منه شيئاً ﴾ في سورة البقرة (282) .

و﴿ دراهم ﴾ بدل من ﴿ ثمن ﴾ وهي جمع درهم ، وهو المسكوك .

وهو معرّب عن الفارسية كما في "صحاح الجوهري" .

وقد أغفله الذين جمعوا ما هو معرب في القرآن كالسيوطي في "الإتقان" .

و﴿ معدودة ﴾ كناية عن كونها قليلة لأن الشيء القليل يسهل عدّه فإذا كثر صار تقديره

بالوزن أو الكيل .

ويقال في الكناية عن الكثرة : لا يعدّ .

وضمائر الجمع كلها للسيّارة على أصح التفاسير .

والزهادة : قلة الرغبة في حصول الشيء الذي من شأنه أن يرغب فيه ، أو قلة الرغبة في عوضه كما هنا ، أي كان السيارة غير راغبين في إغلاء ثمن يوسف عليه السّلام .

ولعل سبب ذلك قلة معرفتهم بالأسعار .

وصوغ الإخبار عن زهادتهم فيه بصيغة ﴿ من الزاهدين ﴾ أشد مبالغة مما لو أخبر بكانوا فيه زاهدين ، لأن جعلهم من فريق زاهدين ينبىء بأنهم جَروا في زهدهم في أمثاله على سنَن أمثالهم البسطاء الذين لا يقدرون قدر نفائس الأمور .

و﴿ فيه ﴾ متعلق بـ ﴿ الزاهدين ﴾ و (أل) حرف لتعريف الجنس ، وليست اسم موصول خلافاً لأكثر النحاة الذين يجعلون (أل) الداخلة على الأسماء المشتقة اسم موصول ما لم يتحقق عهد وتمسكوا بعلل واهية وخالفهم الأخفش والمازني .

وتقديم المجرور على عامله للتنويه بشأن المزهود فيه ، وللتنبيه على ضعف توسمهم وبصارتهم مع الرعاية على الفاصلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾

ولم يَقُلِ الحق سبحانه من أين جاء السيارة ؟ أو إلى أين كانوا ذاهبين ؟

والمقصود بالسيارة هم القوم المحترفون للسير ، مثل مَنْ كانوا يرحلون في رحلة الشتاء والصيف ؛ بهدف التجارة وجَلْب البضائع .

وكانت السيارة لا تنتقل بكامل أفرادها إلى البئر ، بل يذهب واحد منهم إلى البئر ؛ ليأتي لهم بالمياه ويُسمَّى الوارد ، وذهب هذا الوارد إلى البئر ليُحضِر لبقية السيارة الماء وألقى دَلْوه في البئر ؛ ويسمى حبل الدلو الرشاء .

وحين نزل الدلو إلى مستوى يوسف عليه السلام تعلق يوسف في الحبل ؛ فأحسَّ الوارد بثقل ما حمله الرشاء ؛ ونظر إلى أسفل ؛ فوجد غلاماً يتعلق بالدلو فنادى :

﴿ يا بشرى هذا غُلَامٌ ﴾ [يوسف : 19] .

أي : أنه يقول يا بشرى هذا أوانك ؛ وكأنه يبشر قومه بشيء طيب ؛ فلم يحمل الدلو ماء فقط ، بل حمل غلاماً أيضاً .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ [يوسف : 19] .

أي : أنهم أخفوْه وعاملوه كأنه بضاعة ، ولم يتركوه يمشي بجانبهم ؛ خشية أن يكون عبداً آبقاً

ويبحث عنه سيده ؛ وهم يريدون بيعه .

ويذيل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ والله عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف : 19] .

وهذا قول يعود على مَنْ أسرُّوه بضاعة ؛ وهم الذين عرضوه للبيع . ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ . . . ﴾ .

ونعلم أنهم لم يشتروه بل عثروا عليه ؛ ونعلم أن كلمة شراء تدل على البيع أيضاً ، أي : أنهم باعوه بثمن بخس ؛ أي : بثمن زهيد ، وكانت العبيد أيامها مُقوَّمة بالنقود .

والبخس أي : النقص ، وهو إما في الكم أو في الكَيْف ؛ فهو يساوي مثلاً مائة درهم وهم باعوه بعشرين درهماً فقط ؛ وكان العبد في عُمر يوسف يُقوَّم بالنقد ؛ وهم باعوه بالبخْس ، وبثمن أقل قيمة إما كَمّاً وإما كَيْفاً .

ثم أراد الحق سبحانه أن يوضح الأمر أكثر فقال :

﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ [يوسف : 20] ، والزهد هنا هو حيثية الثمن البَخْس ؛ فهُم قد خافوا أن يبحث عنه أبوه أو صاحبه ؛ وكأنهم قالوا لأنفسهم : أي شيء يأتي من ورائه فهو فائدة لنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(246/392)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن الضحاك في الآية قال : جاءت سيارة فنزلت على الجب فأرسلوا واردهم فاستقى من الماء فاستخرج يوسف ، فاستبشروا بأنهم أصابوا غلاماً ، لا يعلمون علمه ولا منزلته من ربه ، فزهدوا فيه فباعوه ، وكان بيعه حراماً وباعوه بدراهم معدودة .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فأرسلوا واردهم ﴾ يقول : فأرسلوا رسولهم فأدلى دلوه ، فتشبث الغلام بالدلو ،

فلما خرج قال : يا بشراي ، هذا غلام تباشروا به حين استخرجوه وهي بئر بيت المقدس معلوم مكانها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي روق في قوله [يا بشراي] قال : يا بشارة .

وأخرج ابن المنذر من طريق أبي عبيد قال : سمعت الكسائي يحدث عن حمزة عن الأعمش وأبي بكر ، عن عاصم أنهما قرآ ﴿ يا بشرى ﴾ بإرسال الياء غير مضاف إليه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ يا بشرى ﴾ قال : كان اسم صاحبه بشرى . قال : يا بشرى ، كما تقول يا زيد .

وأخرج أبو الشيخ عن الشعبي في قوله ﴿ يا بشرى ﴾ قال كان اسمه بشرى .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وأسروه بضاعة ﴾ يعني إخوة يوسف ، أسروا شأنه وكتموا أن يكون أخاهم ، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله ، إخوته ، واختار البيع ، فباعه إخوته بثمن بخس .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وأسروه بضاعة ﴾ قال : أسروا بيعه .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ ، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وأسروه بضاعة ﴾ قال : أسره التجار بعضهم من بعض .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وأسروه بضاعة ﴾ قال : صاحب الدلو ومن معه ، فقالوا : لأصحابهم : إنا استَبْضعناه خفية أن يستشركوكم فيه ان علموا به وأتبعهم إخوته ، يقولون للمدلي وأصحابه : استوثقوا منه لا يأبقن ، حتى وثقوه بمصر فقال : من يبتاعني ويستسر ؟ فابتاعه الملك والملك مسلم .

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وشروه ﴾ قال : إخوة يوسف باعوه حين أخرج المدلي دلوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وشروه ﴾ قال : إخوة يوسف باعوه حين أخرج المدلي دلوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وشروه ﴾ قال : بيع بينهما بثمن بخس . قال : حرام ، لم يحل لهم بيعه ولا أكل ثمنه .

وأخرج ابن جرير عن قتادة ﴿ وشروه بثمن بخس ﴾ قال : هم السيارة .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ، عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ وشروه بثمن بخس ﴾ قال : باعوه بثمن حرام ؛ كان بيعه حراماً وشراؤه حراماً .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وشروه بثمن بخس ﴾ قال : البخس ، هو الظلم . وكان بيع يوسف عليه السلام وثمنه حراماً عليهم ، وبيع بعشرين درهماً .

وأخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ أنه قضى في اللقيط أنه حر ﴿ وشروه بثمن بخس ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن إبراهيم رضي الله عنه ، أنه كره الشراء والبيع للبدوي وتلا هذه الآية ﴿ وشروه بثمن بخس ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ بثمن بخس ﴾ قال : البخس القليل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن الشعبي رضي الله عنه قال : البخس ، القليل .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إنما اشتري يوسف عليه السلام بعشرين درهماً، وكان أهله حين أرسل إليهم بمصر ثلثمائة وتسعين إنساناً، رجالهم أنبياء، ونساؤهم صديقات، والله ما خرجوا مع موسى عليه السلام حتى بلغوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ دراهم معدودة ﴾ قال عشرون درهماً.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ دراهم معدودة ﴾ قال: اثنان وعشرون درهماً لإخوة يوسف، أحد عشر رجلاً.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ، عن نوف الشامي البكالي مثله.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن عطية رضي الله عنه في قوله ﴿ دراهم معدودة ﴾ قال: عشرون درهماً، كانوا عشرة اقتسموا درهمين درهمين.

وأخرج أبو الشيخ، عن نعيم بن أبي هند ﴿ دراهم معدودة ﴾ قال: ثلاثون درهماً.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن عكرمة في قوله ﴿ بثمن بخس ﴾ قال: البخس، القليل. ﴿ دراهم معدودة ﴾ قال: أربعون درهماً.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن الضحاك رضي الله عنه في

قوله ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ قال : إخوته ، زهدوا فيه لم يعلموا بنبوّته ولا بمنزلته من الله ومكانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(249/392)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فأدلى دَلْوَهُ ﴾ : يُقال : أدلى دلْوَه ، أي : أرسلها في البئر . و " دَلاَها " إذا أَخْرجها ملأى ، قال :

2759 لا تَقْلُوها وادْلُواها دَلْوا . . . إنَّ مع اليوم أخاه غَدْوا

والدَّلْوُ مؤنثةٌ فتصغَّر على دُلَيَّة ، وتُجمع على دِلاء وأَدْل والأصل : دِلاو فقُلبت الواوُ همزةً نحو كساء ، وأَدْلُوٌ فأُعِلَّ إعلالَ قاضٍ ، ودُلُوْوٌ بواوين فقُلِبتا ياءَيْن نحو : عِصِيّ .

قوله : ﴿ يابشراى ﴾ قرأ الكوفيون بحذف ياء الإِضافة ، وأمال ألفَ فعلى الأخوان ، وأماها ورش بين بين على أصله ، وعن أبي عمرو الوجهان ، ولكن الأشهرَ عنه عدمُ الإِمالة ، وليس ذلك مِنْ أصله على ما قُرِّر في علم القراءات . وقرأ الباقون " يا بشراي " مضافة

لياء المتكلم، ونداء البشرى على حدّ قولِه: ﴿ يا حسرتى على ﴾ [الزمر: 56] ﴿ يا حسرةً عَلَى العباد ﴾ [يس: 30] كأنه يقول: يا بشرى هذا وقتُ أوانِ أن تُناديْ ويُصاحَ بكِ. ومَنْ زعم أنَّ "بشرى" اسم رجل كالسدّي فقد أَبْعَدَ.

وقرأ ورش عن نافع "يا بُشْرايْ" بسكون الياء، وهو جمعٌ بين ساكنين في الوصل، وهذا كما تقدم في ﴿ ومَحْيَايَ ﴾ [الأنعام: 162]، فعليك بالالتفات إليه. وقال الزمخشري: "وليس بالوجه لما فيه من التقاء الساكنين على غير حَدِّه إلا أن يَقْصِدَ الوقف".

(250/392)

وقرأ الجحدري وابن أبي إسحاق والحسن: "يا بُشْرَيَّ" بقلب الألفِ ياءً وإدغامها في ياء الإِضافة وهي لغة هُذَلِيَّة تقدَّم الكلامُ عليها في البقرة عند قوله: ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَيَّ ﴾ [البقرة: 38]. وقال الزمخشري: "وفي قراءة الحسن يا بُشْرَيَّ بالياء مكان الألف جُعِلَتْ الياءُ بمنزلة الكسرة قبل ياء الإِضافة وهي لغة للعرب مشهورة، سَمعت أهلَ السروات يقولون في دعائهم: يا سيدي ومَوْلَيَّ".

قوله: ﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ الضمير المرفوع الظاهر أنه يعود على "السَّيَّارة". وقيل: هو ضميرُ إخوته. و"بضاعةً" نصب على الحال، أو مفعول ثانٍ على أن يُضمَّن "أَسَرُّوه" معنى

صَيَّروه بالسرِّ . والبضاعة قطعةٌ من المال تُعَدُّ للتجارة مِنْ "بَضَعْت" ، أي : قَطَعْتُ ، ومنه المِبْضع لِما يُقْطَعُ به .

قوله تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ : شرى بمعنى اشترى ، ومنه قول الشاعر :

2760 ولو أنَّ هذا الموتَ يَقْبَلُ فِدْيَةً . . . شَرَيْتُ أبا زيدٍ بما مَلَكَتْ يدي

وبمعنى باع ومنه قولُ الشاعر :

2761 وشَرَيْتُ بُرْداً ليتني . . . مِنْ بعدِ بُرْدٍ كنتُ هامَهْ

فإن جَعَلْنا الضمير في "شَرَوْه" عائداً على إخوة يوسف كان "شرى" بمعنى باع ، وإن جَعَلْناه عائداً على السيارة كانت بمعنى اشتروا .

والبَخْسُ : النَّاقص ، وهو في الأصل مصدرٌ وُصِف به مبالغةً . وقيل : هو بمعنى مفعول .

و "دراهم" بدل مِنْ "بثمن" و "فيه" متعلقٌ بما بعده ، واغْتُفِر ذلك للاتساع في الظروف والجار ، أو بمحذوفٍ وتقدَّم مثلُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 459 ـ 461 ﴾

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19) ﴾

ليس كلُّ من طلب شيئاً يُعطى مرادَه فقط بل ربما يُعْطَى فوق مأموله ؛ كالسيارة كانوا يقنعون بوجود الماء فوجدوا يوسفَ عليه السلام .

ويقال ليس كل مَنْ وَجَدَ شيئاً كان كما وجده السيارة ؛ توهموا أنهم وجدوا عبداً مملوكاً وكان يوسف - في الحقيقة - حُرّاً .

ويقال لمَّا أراد اللَّهُ تعالى خلاصَ يوسف - عليه السلام - من الجُبِّ أزعج خواطر السّيارة في قصد السفر ، وأعدمهم الماءَ حتى احتاجوا إلى الاستقاء لِيَصِلَ يوسف عليه السلام إلى الخلاص ، ولهذا قيل : ألا رُبَّ تشويشٍ يقع في العَالَم ، والمقصودُ منه سكونُ واحدٍ . كما قيل : رُبَّ ساعٍ له قاعد .

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20) ﴾

لم يعرفوا خسرانهم في الحال ولكنهم وقفوا عليه في المآل .

ويقال قد يُبَاعُ مثل يوسف عليه السلام بثمن بخس ، ولكن إذا وقعت الحاجةُ إليه فعند ذلك يعلم ما يلحق من الغَبْن .

ويقال : لم يحتشموا من يوسف – عليه السلام – يوم باعوه بثمن بَخْسٍ ، ولكن لمَّا قال لهم : أنا يوسف وقع عليهم الخجل ، ولهذا قيل : كفى للمقصر الحياء يوم اللقاء .

ويقال لمَّا خرُّوا له سُجَّداً علموا أنَّ ذلك جزاءُ مَنْ باع أخاه بثمنٍ بخسٍ .

ويقال لمَّا وصل الناسُ إلى رفق يوسف عاشوا في نعمته ، واحتاجوا إلى أن يقفوا بين يديه في مقام الذُّلِّ قائلين ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ [يوسف : 88] ، وفي معناه أنشدوا :

ستسمع بي وتذكرني . . . وتطلبني فلا تجدِ

(252/392)

ويقال ليس العَجَبُ ممن يبيع مثلَ يوسف – عليه السلام – بثمنٍ بَخْسٍ إنما العَجَبُ ممن (. . . .) مثل يوسف – عليه السلام – بثمن بخس ، لا سيَّما ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ الخرق لا غاية له ، وكذا العجب لا نباته له .

ويقال ليس العجب ممن يبيع يوسف – عليه السلام – بثمنٍ بخسٍ ، إنما العجب ممن يبيع وقته الذي أعزُّ من الكبريت الأحمر بعَرَضٍ حقيرٍ من أعراض الدنيا .

ويقال إنَّ السيارة لم يعرفوا قيمته فزهدوا في شرائه بدراهم ، والذين وقفوا على جماله وشيءٍ من أحواله غالوا – بمصر – في ثمنه حتى اشتروه بزنته دراهم ودنانير مراتٍ كما في

القصة ، وفي معناه أنشدوا :

إنْ كنتُ عندكَ يا مولاي مُطَّرَحاً . . . فعند غيرِك محمولٌ على الحَدَقِ . انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 175.174 ﴾

(253/392)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20) ﴾

التفسير : قال في الكشاف : ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى ﴿ آيات ﴾ السورة و ﴿ الكتاب المبين ﴾ السورة أي تلك الآيات التي أنزلت إليها في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهم ، أو التي يبين لمن تدبرها أنها من عند الله لا من عند البشر ، أو الواضحة التي لا يشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم ، أو قد أبين فيها ما سألت

اليهود عنه من قصة يوسف ، فقد روي أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين : سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وعن قصة يوسف .

(254/392)

أقول : مدار هذه التفاسير على أن أبان لازم ومتعد يقال : أبان الشيء وأبان هو بنفسه ﴿ إنا أنزلناه ﴾ أي هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف يعني هذه السورة في حال كونه ﴿ قرآناً عربياً ﴾ والقرآن اسم جنس يقع على كله وعلى بعضه . وقوله : ﴿ قرآناً عربياً ﴾ يسمى حالاً موطئة لأن المراد وصفه بالعربية . احتج الجبائي بإنزال القرآن وبكونه عربياً وآيات على أن أنه محدث لأن هذه من أوصاف المحدثات . وأجيب بأنه لا نزاع في حدوث الألفاظ وإنما النزاع في الكلام النفس ومعنى ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ إرادة أن تفهموه وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم لأنه بلغتكم . قال الجبائي : فيه دليل على أنه أراد من المكلفين كلهم أن يعقلوا توحيده وأمر دينه . وأجيب بأن الآية لا تدل إلا على أنه أنزل هذه السورة وأراد منهم معرفة كيفية هذه القصة ، ولا دلالة فيه على أنه أراد من الكل الإيمان العمل الصالح . قال أهل اللغة : القصص اشتقاقه من قص أثره إذا اتبعه لأن الذي يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً ، ومثله التلاوة لأنه يتلو أي يتبع ما حفظ منه آية بعد آية ، ثم إن

كان القصص مصدراً بمعنى الاقتصاص فيكون ﴿ أحسن ﴾ مثله لإضافته إلى المصدر، ويكون المفعول أي المقصوص محذوفاً وهو الوحي لدلالة ﴿ أوحينا ﴾ عليه، أو يكون هذا القرآن مفعوله ومفعول ﴿ أوحينا ﴾ محذوفاً كأنه قيل: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص هذا القرآن بإيحائنا إياه إليك. وعلى هذا فالحسن يرجع إلى المنطق لا إلى القصة. وحسن المنطق كونه على أبدع طريق وأعجب أسلوب لأن هذه الحكاية مقتصة في كتب الأولين وفي كتب التواريخ ولم يبلغ شيء منه إلى حد الإعجاز، وإن أريد بالقصص المقصوص كما يراد بالنبأ والخبر المنبأ والمخبر، فالحسن يرجع إلى القصة ولا سيما فيما يرجع إلى صلاح حال المكلف في الدارين، ووجه حسنها اشتمالها على الغرائب والعجائب والنكت والعبر وأن الصبر مفتاح الفرج، وأن ما قضى الله كائن لا محالة لا

(255/392)

يردّه كيد كائد ولا حسد حاسد. ويروى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملوا فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا. فأنزل الله عز وجل ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً ﴾ [الزمر: 23] ثم إنهم ملوا فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله

﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ كل ذلك يؤمرون بالقرآن ﴿ وإن كنت ﴾ هي المخففة من الثقيلة بدليل اللام الفارقة .

والمعنى وإن الشأن كنت أنت من قبل إيحائنا إليك ﴿ لمن الغافلين ﴾ عن هذ القصة أو عن الدين والشريعة ﴿ إذ قال ﴾ بدل اشتمال من أحسن القصص لأن الوقت مشتمل على القصص فإذاً قص وقته فقد قص المقصوص أو منصوب بإضمار " اذكر " . و ﴿ يوسف ﴾ ليس عربياً على الأصح إذ لا سبب فيه بعد التعريف إلا العجمة فهو اسم عبراني ، ومن ظن أنه من آسف يؤسف بناء على أنه قرىء بكسر السين وبفتحها فيوجد فيه وزن الفعل أيضاً فقد أخطأ ، لأن القراءة المشهورة تأباه ولن يكون الاسم عربياً تارة وأعجمياً أخرى . وهذا الخلاف روي في " يونس " أيضاً . عن النبي صلى الله عليه وسلم " الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم " قال النحويون : التاء في ﴿ يا أبت ﴾ عوض من ياء الإضافة وهي للتأنيث لأنها قد تقلب هاء في الوقف . ويجوز إلحاق التاء بالمذكر نحو " حمامة " ذكر والكسرة فيه لمناسبة الياء التي هي بدل منها . والفتحة إما فتحة الياء فيمن يفتحها أو الفتحة الباقية بعد حذف الألف

من ياء يا أبتا ﴿ إني رأيت ﴾ هو من الرؤيا التي تختص بالمنام لا من الرؤية التي تشمل اليقظة بدليل قول يعقوب له ﴿ ولا تقصص رؤياك ﴾ ولأن ذلك لو كان في اليقظة لكانت آية عظيمة ولم تخف على أحد . من قرأ ﴿ أحد عشر ﴾ بسكون العين فلكراهة توالي المتحركات فيما هو في حكم كلمة ، وكذا الى تسعة عشر إلا اثني عشر لئلا يلتقي ساكنان . قال في الكشاف : روى جابر أن يهودياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد أخبرني عن النجوم التي رآهن يوسف . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل فأخبره بذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم لليهودي : إن أخبرتك هل تسلم ؟ قال : نعم . قال : جربان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين . رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له . فقال اليهودي : إي والله إنها لأسماؤها . وأقول : إن

أكثر هذه الأسماء ليست مما اشتهر عند أهل الهيئة ، فإن صح الخبر فهي من العلوم التي تفرد بها الأنبياء . وإفراد الشمس والقمر من الكواكب بعد ذكرها دليل على شرفهما كقوله ﴿ وملائكته وجبريل وميكائيل ﴾ [البقرة : 98] وإنما كرر الفعل لطول الكلام أو على تقدير

سؤال كأنه قيل له : كيف رأيتها ؟ فقال : رأيتهم لي ساجدين . والظاهر أن هذه السجدة كانت بمعنى وضع الجبهة إذ لا مانع من حملها على الحقيقة لكنها كانت على وجه التواضع .

وإنما أجريت الكواكب مجرى العقلاء في عود الضمير إليها لأن السجود من شأن العقلاء كقوله للأصنام : ﴿ وتراهم ينظرون إليك ﴾ [الأعراف : 198] وعند الفلاسفة هم أحياء ناطقة فلا حاجة إلى العذر . عبر أبوه رؤياه بأن إخوته سيسجدون له وهم أحد عشر ، وكذا أبواه وهما الشمس والقمر . وقيل : هما أبوه وخالته لأن أمه لم تدخل مصر وتوفيت قبل ذلك . وعن وهب أن يوسف رأى - وهو ابن سبع سنين - أن إحدى عشرة عصاً طوالاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدارة التي حول القمر وهي الهالة ، وإذا عصا صغيرة وثبت عليها حتى اقتلعها وغلبتها فوصف ذلك لأبيه فقال : إياك أن تذكر هذا لإخوتك . ثم رأى - وهو ابن اثنتي عشرة سنة - الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال له : لا تقصها عليهم فيبغوا لك الغوائل . وقيل : كان بين رؤيا يوسف ومسير إخوته إليه أربعون سنة . وقيل ثمانون . قال علماء التعبير : إن الرؤيا الردية يظهر أثرها عن قريب كيلا يبقى المؤمن في الغم والحزن ، والرؤيا الجيدة يبطىء أثرها لتكون بهجة

المؤمن أدوم. قوله ﴿ فيكيدوا ﴾ منصوب بإضمار "أن" جواباً للنهي. واللام في ﴿ لك ﴾ لتأكيد الصلة مثل "نصحتك" و "نصحت لك". وقال في الكشاف: ضمن الكيد معنى الاحتيال ليفيد معى الفعلين فيكون أبلغ في التخويف. وقيل: متعلق بالمصدر الذي بعده. ثم إنه وصل بهذه النصيحة شيئاً ن تعبير رؤياه فقال: ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل اجتبائك لهذه الرؤيا الشريفة ﴿ يجتبيك ربك ﴾ لأمور عظام. والاجتباء افتعال من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك، وجبيت الماء في الحوض جمعته، وخصص الحسن الاجتباء بالنبوة. قال في الكشاف ﴿ ويعلمك ﴾ كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه كأنه قيل: وهو يعلمك ويتم نعمته عليك. أقول: ولعل إدخاله في حكم التشبيه ليس بضائر. وفي ﴿ تأويل الأحاديث ﴾ وجوه منها: أنه تأويل أحاديث الناس فيما يرونه في منامهم، سمى التعبير تأويلاً لأنه يؤول أمره إلى ما

رآه في المنام أو يؤول أمر ما رآه في المنام إلى ذلك. والأحاديث اسم جمع للحديث وليس بجمع أحدوثة لأنها التي يتحدث بها الناس. ومنها أنه تبيين معاني كتب الله وسنن الأنبياء لأن المفسر والمحدّث يحدّثان عن الله ورسوله فيقولان: قال الله كذا وقال الرسول كذا.

ومنها أن الحديث بمعنى الحادث والمراد كيفية الاستدلال بالحادث على القديم سبحانه .

وأما إتمام النعمة فيمن فسر الاجتباء بالنبوة فسر الإتمام بالسعادات الدنيوية والأخروية من المال والجاه والعلوم والأخلاق الفاضلة ، ومن فسر ذلك بالدرجات العالية فسر هذا بالنبوة لأن التمام المطلق في حق البشر ليس إلا بالنبوة ، ولأن إتمام النعمة عليه مشبه بإتمامها على إبراهيم وإسحق ، ومن المعلوم أن الامتياز بينهما وبين أقرانهما لم يكن إلا بالنبوة وقد يفسر إتمام النعمة على إبراهيم بالخلة والإنجاء من النار ومن ذبح الولد ، وعلى إسحق بإنجائه من الذبح وفدائه بذبح عظيم وبإخراج يعقوب والأسباط من صلبه ، ويكون وجه التشبيه إنجاءه من السجن والمحن كإنجائهما من النار والذبح .

(260/392)

والمراد بآل يعقوب نسله قيل : علم يعقوب أن يوسف وإخوته أنبياء استدلالاً بضوء الكواكب . واعترض بما فرط منهم في حق يوسف . وأجيب بأن ذلك قبل النبوة . وقيل : إتمام النعمة وصل نعمة الدنيا بنعم الآخرة وذلك أنه جعلهم ملوكاً وأنبياء و ﴿ إبراهيم وإسحاق ﴾ عطف بيان لأبويك لأن أبا الجد في حكم الأب ﴿ إن ربك عليم ﴾ بمن يستحق الاجتباء ﴿ حكيم ﴾ لا يضع الشي إلا في موضعه فلا يجعل الرسالة إلا في نفس

قدسية وجوهر مشرق . قيل : حكم يعقوب بوقوع هذه الأمور دليل على جزمه بها فكيف خاف بعدها على يوسف حتى قال : ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ ؟ والجواب لعل جزمه بذلك كان مشروطاً بعدم كيد إخوته ، ولعل قوله : ﴿ أخاف أن يأكله الذئب ﴾ كيلا يتهاونوا في حفظه فإن للوسائط والأسباب مدخلاً عظيماً في وجود الأشياء وحصولها ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته ﴾ أي في قصتهم وحديثهم ﴿ آيات للسائلين ﴾ لمن سأل عن تلك القصة وعرفها ، أو آيات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم للذين سألوه من اليهود عنها فأخبرهم بها من غير سماع العلم . وفيه أنه صلى الله عليه وسلم يجب أن يصبر على بغي قومه إلى أن يظهر أمره كما فعل يوسف . يروى أن أسامي إخوته : يهوذا وروبيل وشمعون ولاوي وربالون ويشجر ودينة – وهؤلاء من ليا بنت خالة يعقوب – ودان ونفتالي وجاد وآشر – وهم من سريتين زلفة وبلهة – فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف . ﴿ إذ قالوا ﴾ ظرف لكان أو منصوب بإضمار " اذكر " ﴿ ليوسف ﴾ في لام الابتداء تحقيق لمضمون الجملة . ﴿ وأخوه ﴾ أي لأبيه وأمه عنوا بنيامين ﴿ أحب ﴾ إذا كان أفعل التفضيل مستعملاً بمن لم يتصرف فيه ﴿ ونحن عصبة ﴾ الواو للحال والعصبة العشرة فصاعداً لأن الأمور تعصب بكفايتهم أي إنه يفضلهما في المحبة علينا وهما ابنان صغيران . لا كفاية فيهما ولا منفعة ونحن جماعة نكفي مهماته ونقوم بمصالحه ﴿ إن إبانا لفي ضلال مبين ﴾ أرادوا ضلالاً خاصاً وهو البعد عن

طريق الصلاح وحسن المعاشرة مع الأولاد ، ولم يعلموا أن المحبة أمر يتعلق بالقلب وليس لله فيه تكليف ، ولعل يعقوب تفرس في يوسف ما أوجب اختصاصه بمزيد البر . ومن جملة أقوالهم أنهم قالوا لما تشاوروا في أمره ﴿ اقتلوا يوسف ﴾ قيل : الآمر بالقتل شمعون أو دان ورضي به الباقون فجعلوا جميعاً آمرين . والظاهر أنه قال بعضه بذلك بدليل أنه لم يقع القتل ولقولهم ﴿ أو اطرحوه ﴾ فكان بعضهم أشار إلى القتل وبعضهم إلى الطرح ومهما صدر أمر من بعض القوم صح إسناده إليه كقوله

﴿ وإذ قتلتم نفسا ﴾ [البقرة : 72] وانتصب ﴿ أرضاً ﴾ على الظرف كالظروف المبهمة أي أرضاً مجهولة بعيدة عن العمارة ﴿ يخل لكم وجه أبيكم ﴾ تخلص محبته لكم سليمة عن التنازل فيها وكان ذرك الوجه تصويراً لإقباله عليهم بالكلية ، ويجوز أن يراد بالوجه ذاته أو المراد يفرغ لكم من الشغل بيوسف ﴿ وتكونوا ﴾ مجزوم لأنه معطوف على

جواب الأمر ﴿ من بعده ﴾ من بعد قتله أو إطراحه أو من بعد يوسف إذا قتل أو غرب ﴿ قوماً صالحين ﴾ تائبين إلى الله أو إلى أبيه لعذر تمهدونه مما جنيتم عليه ، أو المراد صلاح دنياهم وانتظام أمورهم وتفرغهم لمهماتهم بعد يوسف بفراغ البال ﴿ قال قائل منهم ﴾ هو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأياً وأدباً وهو الذي قال : ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾ [يوسف : 80] ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ لأن القتل عظيم ولا سيما قتل الأخ وخاصة إذا كان القاتل والمقتول من أولاد الأنبياء ﴿ وألقوه في غيابت الجب ﴾ سمى البئر جباً لأنها قطعت قطعاً ولم يحصل فيها شيء سوى القطع للأرض ، والغيابة غور البئر وما غاب منها عن عين الناظر وأظلم من أسفلها . ومن قرأ على الجمع فلأن للجب أقطاراً ونواحي ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ أي الرفقة السائرة قال ابن عباس : أي المارة ، والالتقاط تناول الشيء من الطريق ونحوه يستعمل في الإنسان وغيره ومنه اللقيط للمنبوذ ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ إن لم يكن من فعل هذا الأمر بد فهذا هو الرأي . ثم إن يعقوب كان خائفاً على يوسف من كيدهم وكان يظهر أمارات ذلك على صحائف أعماله وأقواله فلذلك قالوا : ﴿ ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ﴾ ما وجد منا في بابه سوى النصح والإشفاق على الإطلاق ﴿ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ﴾ من قرأ بالجزم فمن الرتعة كالأمنة وهي الخصب والسعة ، ومن قرأ بالكسر فعلى حذف الياء من يرتعي مستعاراً من ارتعاء الإبل

والماشية . واللعب ترك ما ينفع إلى ما لا ينفع . فمن قرأ بالياء فلا إشكال لأن الصبي لا تكليف عليه ، ومن قرأ

(263/392)

بالنون قال كان لعبهم الاستباق والانتضال بدليل قوله ﴿ إنا ذهبنا نستبق ﴾ سمي لعباً لأنه في صورته ، أو اللعب قد يطلق على استعمال المباحات لأجل انشراح الصدر قال صلى الله عليه وسلم لجابر : " فهلا تزوجت بكراً تلاعبها وتلاعبك . " ﴿ قال إني ليحزنني ﴾ لام الابتداء للتأكيد أو لتخصيص المضارع بالحال ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ أصله الهمز ولهذا قال بعضهم : إنه مشتق من تذأبت الريح إذا أتت من كل جهة . قيل : كان أرضهم مذأبة فلذلك قال : ﴿ أخاف ﴾ . وقيل : رأى في النوم أن الذئب قد شد على يوسف وكان يحذره فلقنهم العذر كما جاء في أمثالهم البلاء موكل بالمنطق . قوله : ﴿ إنا إذاً ﴾ جواب للقسم ساد مسد جواب الشرط ، حلفوا له أن كان ما خافه وحالهم أنهم رجال كفاة وحماة فهم إذ ذاك خاسرون عاجزون أو مستحقون للدعاء عليهم بالخسار ، أو المراد إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا وخسرناها .

(264/392)

كان يعقوب قد اعتذر إليهم بأمرين : أحدهما أن ذهابهم به مما يحزنه لأنه كان لا يصبر عنه ساعة ، والثاني خوفه عليه من الذئب فلم يجيبوا عن الأول لأنه هو الذي كان يغيظهم فلم يعبأوا بذلك الكلام فخصوا الجواب بالثاني ، وههنا إضمار والتقدير فأذن لهم وأرسله معهم ﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا ﴾ عزموا على ﴿ أن يجعلوه في غيابت الجب ﴾ قيل : هو بئر ببيت المقدس . وقيل : بأرض الأردن . وقيل : بين مصر ومدين : وقيل : على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوبٍ . ثم إن كان جواب " لما " محذوفاً ففي الآية إضمار آخر كما تقدم في الوقوف . قال السدي : إن يوسف عليه السلام لما برز مع إخوته أظهروا له العداوة وأخذوا يهينونه ويضربونه وكلما استغاث بواحد منهم لم يغثه إلا بالإهانة حتى كادوا يقتلونه ، فجعل يصيح يا أبتاه لو تعلم ما يصنع بابنك أولاد الإماء . فقال يهوذا أما أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه ، فلما أرادوا إلقاءه في الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يده فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم . فقال : يا إخوتاه ردّوا عليّ قميصي أتوارى به فقالوا له : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً حتى ينقذوك ودلوه في البئر ، فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكي فنادوه فظن أنها رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه ليقتلوه فمنعهم يهوذا وكان يهوذا يأتيه بالطعام . وروي أنه عليه السلام لما ألقي في الجب قال : يا

شاهداً غير غائب ، ويا قريباً غير بعيد ، ويا غالباً غير مغلوب ، اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً . وحكي أن إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار جرد عن ثيابه فأتاه جبرائيل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه فدفعه إبراهيم إلى إسحاق وإسحق إلى يعقوب فجعله يعقوب في تميمة علقها في عنق يوسف فجاء جبرائيل فأخرجه وألبسه إياه ﴿ وأوحينا إليه ﴾ في صغر السن كما أوحي إلى

يحيى وعيسى . وقيل : كان إذ ذاك بالغاً وعن الحسن كان له سبع عشر سنة ﴿ لتنبئنهم ﴾ لتحدثن إخوتك بما فعلوا بك ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أنك يوسف لعلو شأنك وبعد حالك عن أوهامهم ولطول العهد المنسي المغير للهيئات والأشكال . يروى أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال : إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم ويقال له يوسف وكان يدنيه دونكم وإنكم انطلقتم به وألقيتموه في غيابة الجب وقلتم لأبيه أكله الذئب وبعتموه بثمن بخس .

ويجوز أن يراد وهم لا يشعرون أنا آنسناه بالوحي وأزلنا الوحشة عن قلبه فتتعلق الجملة بقوله ﴿ وأوحينا ﴾ روي أن امرأة حاكمت إلى شريح فبكت فقال له الشعبي : يا أبا أمية أما تراها تبكي ؟ قال : قد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة وما ينبغي لأحد أن يقضي إلا بما أمر أن يقضي به من السنة المرضية . عن مقاتل : إنما جاءوا عشاء لئلا تظهر أمارة الخجل والكذب على وجوههم . ولما سمع صوتهم يعقوب فزع وقال : ما لكم يا بني هل أصابكم في غنمكم شيء ؟ قالوا لا . قال : فما لكم وأين يوسف ﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ﴾ أي نتسابق في العدو أو في الرمي وقيل ننتضل ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ أي بمصدق لشدة محبتك ليوسف ، وفيه دليل لمن يزعم أن الإيمان هو التصديق ﴿ ولو كنا صادقين ﴾ ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا ﴿ وجاؤوا على قميصه ﴾ نصب على الظرف أي فوق قميصه لا على الحال المتقدمة لأن حال المجرور لا تتقدم عليه ﴿ بدم كذب ﴾ ذي كذب أو دم هو الكذب بعينة مبالغة . يروى أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها ، ويروى أن يعقوب لما سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته وقال : أين القميص ؟ فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص . وقال : تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه . وقيل : كان في قميص يوسف ثلاث آيات آية ليعقوب على كذبهم ، وآية حين ألقاه

البشير على وجهه فارتد بصيراً ، وآية على براءة يوسف حين قدّ من دبر . ولما تبين يعقوب بالآيات المذكورة أو بالوحي أنهم كاذبون قال على سبيل الإضراب . ﴿ بل سوّلت ﴾ قال ابن عباس بل زينت ﴿ لكم أنفسهم أمراً ﴾ في شأنه وهو تفعيل من السول الأمنية . قال الأزهري : وأصله مهموز غير أن العرب استثقلوا فيه الهمزة . وقال في الكشاف : سوّلت سهلت من السول بفتحتين وهو الاسترخاء والتنكير دليل التعظيم ﴿ فصبر جميل ﴾ لا بد من تقدير مبتدأ أو خبر أي فأمري صبر جميل

أو فصبر جميل أمثل . وفي الحديث أنه الذي لا شكوى فيه أي إلى الخلق لقوله : ﴿ إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله ﴾ [يوسف : 86] وقيل : أي لا أعايشكم على كآبة الوجه بل أكون لكم كما كنت . يحكى أنه سقط حاجبا يعقوب على عينيه فكان يرفعهما بعصابة فقيل له : ما هذا ؟ فقال : طول الزمان وكثرة الأحزان . فأوحى الله تعالى إليه يا يعقوب أتشكوني ؟ قال : يا رب خطيئة فاغفرها لي . ثم بين أن الصبر على ما وصفوه من هلاك يوسف لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى فقال : ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ فالقرينتان كقوله :

﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ﴿ الفاتحة : 5] ويعلم من الآية أن الصبر إن كان لأجل الرضا بقضاء الله تعالى أو لاستغراقه في شهود نور الحق بحيث يمنعه من الاشتغال بالشكاية عن البلاء فذلك صبر جميل وإلا فلا . واعترض بأن هذا الصبر كان فيه إعانة الظالمين وإهمال لتخليص المظلوم من المحن والشدائد والترقية فكيف جاز صبر يعقوب حتى لم يبالغ في التفتيش والتنقير ، ولو بالغ لظهر عليه الأمر لشهرته وعظم قدره ؟ وأجيب بأن الله سبحانه لعله منعه عن الطلب تشديداً للمحنة عليه ، أو لعله إن بالغ في البحث أقدموا على قتله ، أو علم أن الله تعالى يصون يوسف وسيعظم أمره بالآخرة فلم يرد هتك ستر أولاده وإلقاءهم في ألسنة الناس كقول القائل :

فإذا رميت يصيبني سهمي . . . فكان الأصوب الصبر والسكوت وتفويض الأمر بالكلية إلى الله تعالى . ثم شرع في حكاية خلاص يوسف فقال : ﴿ وجاءت سيارة ﴾ عن ابن عباس : قوم يسيرون من مدين إلى مصر وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف في الجب فأخطئوا الطريق فنزلوا قريباً منه ، وكان الجب في قفرة بعيدة عن العمران لم يكن إلا للرعاة . وقيل : كان ماؤه ملحاً فعذب حين ألقي فيه يوسف . ﴿ فأرسلوا واردهم ﴾ رجلاً يقال

له مالك بن ذعر الخزاعي ليطلب لهم الماء . ومعنى الوارد الذي يرد الماء ليستقي للقوم ﴿ فأدلى دلوه ﴾ أرسلها في البئر . قال الواحدي : فإذا نزعها وأخرجها قيل دلا يدلو . ﴿ قال يا بشرى ﴾ التقدير فظهر يوسف فقال الوارد : يا بشرى كأنه ينادي البشرى ويقول تعالي فهذا أوانك . ومتى قال الوارد هذا الكلام ؟ قال جمع من المفسرين : حين رأى يوسف متعلقاً بالحبل . وقال آخرون : لما دنا من أصحابه صاح بذلك يبشرهم به . قال السدي : كان للوارد صاحب يقال له بشرى فنادى يا بشرى كما يقال يا زيد . والأكثرون على أنها بمعنى البشارة . فقال أبو علي : يحتمل أن يكون منادى مضموماً مثل يا رجل وأن يكون منصوباً مثل يا رجلاً كأنه جعل ذلك النداء شائعاً في جنس البشرى . ومن قرأ بالإضافة فنصبه ظاهر . والضمير في ﴿ وأسروه ﴾ إما عائد إلى الوارد وأصحابه أي أخفوه من الرفقة لئلا يدعوا المشاركة في الالتقاط ، أو في الشراء إن قالوا اشتريناه . وطريق الإخفاء أنهم كتموه من الرفقة أو قالوا إن أهل الماء جعلوه بضاعة عندنا على أن نبيعه لهم بمصر ، وإما عائد الى إخوة يوسف بناء على ما روي عن ابن عباس أنهم قالوا للرفقة : هذا غلام لنا قد آبق فاشتروه منا ، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ، ولعل الوجه الأول أولى بدليل قوله ﴿ بضاعة ﴾ وهي نصب على الحال أي أخفوه متاعاً للتجارة . وأصل البضع القطع والبضاعة قطعة من المال للتجارة والله تعالى أعلم .

﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ فيه وعيد إما للوارد وأصحابه حيث استبضعوا ما ليس لهم أو لإخوة يوسف وذلك ظاهر ، وفيه أن كيد الأعداء لا يدفع شيئاً مما علم الله من حال المرء . والضمير في قوله : ﴿ وشروه ﴾ إما أن يعود إلى الوارد وأصحابه أي باعوه ﴿ بثمن ﴾ قليل لأن الملتقط للشيء متهاون به ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ ممن يرغب عما في يده . قال أهل اللغة : زهد فيه معناه رغب عنه وزهد عنه معناه رغب فيه ، وإما أن يعود إلى الإخوة والمعنى باعوه ، أو إلى الرفقة والمعنى اشتروه ، وهكذا الضمير في ﴿ وكانوا ﴾ إن عاد إلى الإخوة فقلة رغبتهم في يوسف ظاهرة وإلا لم يفعلوا به ما فعلوا ، وإن عاد إلى الرفقة فذلك أنهم اعتقدوا أنه أبق فخافوا إعطاء الثمن الكثير . عن ابن عباس أن إخوته عادوا إلى الجب بعد ثلاثة أيام يتعرفون خبره ، فلما لم يروه في الجب ورأوا آثار السيارة طلبوهم فلما رأوا يوسف قالوا : هذا عبد أبق منا فقالوا لهم : فبيعوه منا فباعوه منهم ، ولعلهم عرفوا أنه ولد يعقوب فكرهوا اشتراءه خوفاً من الله ومن ظهور تلك الواقعة إلا إنهم مع ذلك اشتروه بالآخرة بثمن بخس أي مبخوس ناقص عن القيمة أو ناقص العيار . وقال ابن عباس : البخس هنا الحرام لأن ثمن الحر حرام دراهم لا دنانير معدودة قليلة تعد عدّاً . ولا توزن لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقية وهي الأربعون . عن ابن عباس كانت عشرين درهماً . وعن السدي اثنين وعشرين أخذ كل واحد من الإخوة درهمين إلا يهوذا فإنه لم

يأخذ شيئاً . ويروى أن إخوته اتبعوهم يقولون استوثقوا منه لا يأبق . والظاهر أن الضمير في ﴿ فيه ﴾ عائد إلى يوسف . ويحتمل أن يعود إلى الثمن البخس أي أخذوا في ثمنه ما ليس يرغب فيه . قال النحويون : قوله : ﴿ فيه ﴾ ليس من متعلقات الزاهدين لأن الألف واللام فيه موصول وزاهدين صلة ، وكما لا تتقدم نفس الصلة فكذا ما هو متعلق به فلا يقال مثلاً : وكانوا زيداً من الضاربين فهو بيان كأنه

قيل في أي شيء زهدوا ؟ فقيل : زهدوا فيه والله تعالى أعلم . انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 63. 72 ﴾

(270/392)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) ﴾

هذا الدرس هو المقدمة ، ثم الحلقة الأولى من القصة ، وتتألف من ستة مشاهد ، وتبدأ من رؤيا يوسف إلى نهاية مؤامرة إخوته عليه ، ووصوله إلى مصر . . وسنواجه النصوص الواردة فيه مباشرة ، بعد ذلك التقديم السابق للسورة ، وفيه غناء :

﴿ الر . تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك

أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ . .

ألف . لام . را . . . ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ . .

هذه الأحرف وما من جنسها وهي قريبة للناس متداولة بينهم . هي هي بعينها تلك الآيات البعيدة المتسامية على الطاقة البشرية . آيات الكتاب المبين . ولقد نزله الله كتاباً عربياً مؤلفاً من هذه الأحرف العربية المعروفة :

﴿ لعلكم تعقلون ﴾ . .

وتدركون أن الذي يصنع من الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون بشراً ، فلا بد عقلاً أن يكون القرآن وحيا . والعقل هنا مدعو لتدبر هذه الظاهرة ودلالتها القاهرة .

ولما كان جسم هذه السورة قصة فقد أبرز ذكر القصص من مادة هذا الكتاب ، على وجه التخصيص :

﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ . .

فبإيحائنا هذا القرآن إليك قصصنا عليك هذا القصص وهو أحسن القصص وهو جزء من القرآن الموحى به .

﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ . .

فقد كنت أحد الأميين في قومك ، الذين لا يتجهون إلى هذا النحو من الموضوعات التي جاء

بها القرآن ، ومنها هذا القصص الكامل الدقيق .

هذه المقدمة إشارة البدء إلى القصة . .

ثم يرفع الستار عن المشهد الأول في الحلقة الأولى ، لنرى يوسف الصبي يقص رؤياه على أبيه :

﴿ إذ قال يوسف لأبيه : يا أبت ، إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر . رأيتهم لي ساجدين . قال : يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك ، فيكيدوا لك كيداً . إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك ، وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم ﴾ . .

كان يوسف صبياً أو غلاماً ؛ وهذه الرؤيا كما وصفها لأبيه ليست من رؤى الصبية ولا الغلمان ؛ وأقرب ما يراه غلام حين تكون رؤياه صبيانية أو صدى لما يحلم به أن يرى هذه الكواكب والشمس والقمر في حجره أو بين يديه يطولها . ولكن يوسف رآها ساجدة له ، متمثلة في صورة العقلاء الذين يحنون رؤوسهم بالسجود تعظيماً . والسياق يروي عنه في

صيغة الإيضاح المؤكدة :

﴿ إذ قال يوسف لأبيه : يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ﴾ . .

ثم يعيد لفظ رأى :

﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ .

لهذا أدرك أبوه يعقوب بحسه وبصيرته أن وراء هذه الرؤيا شأناً عظيماً لهذا الغلام . لم يفصح هو عنه ، ولم يفصح عنه سياق القصة كذلك . ولا تظهر بوادره إلا بعد حلقتين منها . أما تمامه فلا يظهر إلا في نهاية القصة بعد انكشاف الغيب المحجوب . ولهذا نصحه بألا يقص رؤياه على إخوته ، خشية أن يستشعروا ما وراءها لأخيهم الصغير غير الشقيق فيجد الشيطان من هذا ثغرة في نفوسهم ، فتمتلئ نفوسهم بالحقد ، فيدبروا له أمراً يسوؤه :

﴿ قال : يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ﴾ . .

ثم علّل هذا بقوله :

﴿ إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ . .

ومن ثم فهو يوغر صدور الناس بعضهم على بعض ، ويزين لهم الخطيئة والشر .

ويعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وقد أحس من رؤيا ابنه يوسف أن سيكون له شأن، يتجه خاطره إلى أن هذا الشأن في وادي الدين والصلاح والمعرفة؛ بحكم جو النبوة الذي يعيش فيه، وما يعلمه من أن جده إبراهيم مبارك من الله هو وأهل بيته المؤمنون. فتوقع أن يكون يوسف هو الذي يختار من أبنائه من نسل إبراهيم لتحل عليه البركة وتتمثل فيه السلسلة المباركة في بيت إبراهيم. فقال له:

﴿ وكذلك يجتبيك ربك، ويعلمك من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق، إن ربك عليم حكيم ﴾..

واتجاه فكر يعقوب إلى أن رؤيا يوسف تشير إلى اختيار الله له، وإتمام نعمته عليك وعلى آل يعقوب، كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق (والجد يقال له أب).. هذا طبيعي. ولكن الذي يستوقف النظر قوله:

﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾..

والتأويل هو معرفة المآل. فما الأحاديث؟. أقصد يعقوب أن الله سيختار يوسف ويعلمه ويهبه من صدق الحس ونفاذ البصيرة ما يدرك به من الأحاديث مآلها الذي تنتهي إليه، منذ أوائلها. وهو إلهام من الله لذوي البصائر المدركة النافذة، وجاء التعقيب:

﴿ إن ربك عليم حكيم ﴾..

مناسباً لهذا في جو الحكمة والتعليم؟ أم قصد بالأحاديث الرؤى والأحلام كما وقع بالفعل

في حياة يوسف فيما بعد ؟

كلاهما جائز ، وكلاهما يتمشى مع الجو المحيط بيوسف ويعقوب .

وبهذه المناسبة نذكر كلمة عن الرؤى والأحلام وهي موضوع هذه القصة وهذه السورة .

إننا ملزمون بالاعتقاد بأن بعض الرؤى تحمل نبوءات عن المستقبل القريب أو البعيد .

ملزمون بهذا أولاً من ناحية ما ورد في هذه السورة من وقوع مصداق رؤيا يوسف ، ورؤيا صاحبيه في السجن ، ورؤيا الملك في مصر . وثانياً من ناحية ما نراه في حياتنا الشخصية من تحقق رؤى تنبؤية في حالات متكررة بشكل يصعب نفي وجوده . . لأنه موجود بالفعل ! . .

والسبب الأول يكفي . . ولكننا ذكرنا السبب الثاني لأنه حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها إلا بتعنت . .

فما هي طبيعة الرؤيا ؟

تقول مدرسة التحليل النفسي : إنها صور من الرغبات المكبوتة تتنفس بها الأحلام في غياب الوعي .

وهذا يمثل جانباً من الأحلام. ولكنه لا يمثلها كلها. (وفرويد) ذاته على كل تحكمه غير العلمي وتمحله في نظريته يقرر أن هناك أحلاماً تنبؤية.

فما طبيعة هذه الأحلام التنبؤية؟

وقبل كل شيء نقرر أن معرفة طبيعتها أو عدم معرفته لا علاقة له بإثبات وجودها وصدق بعضها. إنما نحن نحاول فقط أن ندرك بعض خصائص هذا المخلوق البشري العجيب، وبعض سنن الله في هذا الوجود.

ونحن نتصور طبيعة هذه الرؤى على هذا النحو. إن حواجز الزمان والمكان هي التي تحول بين هذا المخلوق البشري وبين رؤية ما نسميه الماضي أو المستقبل، أو الحاضر المحجوب. وأن ما نسميه ماضياً أو مستقبلاً إنما يحجبه عنا عامل الزمان، كما يحجب الحاضر البعيد عنا عامل المكان. وأن حاسةً ما في الإنسان لا نعرف كنهها تستيقظ أو تقوى في بعض الأحيان، فتتغلب على حاجز الزمان وترى ما وراءه في صور مبهمة، ليست علماً ولكنها استشفاف، كالذي يقع في اليقظة لبعض الناس، وفي الرؤى لبعضهم، فيتغلب على حاجز المكان أو حاجز الزمان، أو هما معاً في بعض الأحيان. وإن كنا في نفس الوقت لا نعلم شيئاً عن حقيقة الزمان. كما أن حقيقة المكان ذاتها وهي ما يسمى بالمادة ليست معلومة لنا على وجه التحقيق: ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ !

على أية حال لقد رأى يوسف رؤياه هذه، وسنرى فيما بعد ما يكون تأويل الرؤيا.

ويسدل السياق الستار على مشهد يوسف ويعقوب هنا ليرفعه على مشهد آخر : مشهد إخوة يوسف يتآمرون ، مع حركة تنبيه لأهمية ما سيكون :

﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا : ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة . إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين . قال قائل منهم : لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ . .

لقد كان في قصة يوسف وإخوته آيات وأمارات على حقائق كثيرة لمن ينقلب عن الآيات ويسأل ويهتم . وهذا الافتتاح كفيل بتحريك الانتباه والاهتمام . لذلك نشبهه بحركة رفع الستار عما يدور وراءه من أحداث وحركات . فنحن نرى وراءه مباشرة مشهد إخوة يوسف يدبرون ليوسف ما يدبرون .

ترى حدثهم يوسف عن رؤياه كما يقول كتاب " العهد القديم " ؟ إن السياق هنا يفيد أن لا . فهم يتحدثون عن إيثار يعقوب ليوسف وأخيه عليهم . أخيه الشقيق . ولو كانوا قد علموا برؤياه لجاء ذكرها على ألسنتهم ، ولكانت أدعى إلى تلهج ألسنتهم بالحقد عليه . فما

خافه يعقوب لو قص رؤياه على إخوته قد تم عن طريق آخر ، وهو حقدهم عليه لإيثار أبيهم له .

ولم يكن بد أن يتم لأنه حلقة في سلسلة الرواية الكبرى المرسومة ، لتصل بيوسف إلى النهاية المرسومة ، والتي تمهد لها ظروف حياته ، وواقع أسرته ، ومجيئه لأبيه على كبرة . وأصغر الأبناء هم أحب الأبناء ، وبخاصة حين يكون الوالد في سن الكبر . كما كان الحال مع يوسف وأخيه ، وإخوته من أمهات .

﴿ إذ قالوا : ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ﴾ . .

أي ونحن مجموعة قوية تدفع وتنفع . .

﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ . .

إذ يؤثر غلاماً وصبياً صغيرين على مجموعة الرجال النافعين الدافعين !

(275/392)

ثم يغلي الحقد ويدخل الشيطان ، فيختل تقديرهم للوقائع ، وتتضخم في حسهم أشياء صغيرة ، وتهون أحداث ضخام . تهون الفعلة الشنعاء المتمثلة في إزهاق روح . روح غلام بريء لا يملك دفعاً عن نفسه ، وهو لهم أخ . وهم أبناء نبي وإن لم يكونوا هم أنبياء يهون

هذا . وتضخم في أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحب . حتى توازي القتل . أكبر جرائم الأرض قاطبة بعد الشرك بالله :

﴿ اقتلوا يوسف . او اطرحوه ارضاً ﴾ . .

وهما قريب من قريب . فطرحه في أرض نائية مقطوعة مفض في الغالب إلى الموت . .

ولماذا ؟

﴿ يخل لكم وجه أبيكم ﴾ . .

فلا يحجبه يوسف . وهم يريدون قلبه . كأنه حين لا يراه في وجهه يصبح قلبه خالياً من حبه ، ويتوجه بهذا الحب إلى الآخرين ! والجريمة ؟ الجريمة تتوبون عنها وتصلحون ما أفسدتم بارتكابها :

﴿ وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ ! . .

هكذا ينزغ الشيطان ، وهكذا يسول للنفوس عندما تغضب وتفقد زمامها ، وتفقد صحة تقديرها للأشياء والأحداث . وهكذا لما غلا في صدورهم الحقد برز الشيطان ليقول لهم : اقتلوا . . والتوبة بعد ذلك تصلح ما فات ! وليست التوبة هكذا . إنما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلاً جاهلاً غير ذاكر ؛ حتى إذا تذكر ندم ، وجاشت نفسه بالتوبة . أما التوبة الجاهزة ! التوبة التي تعد سلفاً قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة ، فليست بالتوبة ، إنما هي تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان !

ولكن ضميراً واحداً فيهم، يرتعش لهول ما هم مقدمون عليه. فيقترح حلاً يريحهم من يوسف، ويخلي لهم وجه أبيهم، ولكنه لا يقتل يوسف، ولا يلقيه في أرض مهجورة يغلب فيها الهلاك. إنما يلقيه في الجب على طريق القوافل، حيث يرجح أن تعثر عليه إحدى القوافل فتنقذه وتذهب به بعيداً:

﴿ قال قائل منهم: لا تقتلوا يوسف، وألقوه في غيابة الجب، يلتقطه بعض السيارة. إن كنتم فاعلين ﴾..

ونحس من قوله:

﴿ إن كنتم فاعلين ﴾..

(276/392)

روح التشكيك والتثبيط. كأنه يشككهم في أنهم مصرون على إيقاع الأذى بيوسف. وهو أسلوب من أساليب التثبيط عن الفعل، واضح فيه عدم الارتياح للتنفيذ. ولكن هذا كان أقل ما يشفي حقدهم؛ ولم يكونوا على استعداد للتراجع فيما اعتزموه.. نفهم هذا من المشهد التالي في السياق.

.

فها هم أولاء عند أبيهم، يراودونه في اصطحاب يوسف معهم منذ الغداة. وها هم أولاء يخادعون أباهم، ويمكرون به وبيوسف. فلنشهد ولنستمع لما يدور:

﴿ قالوا: يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف؟ وإنا له لناصحون؛ أرسله معنا غدا يرتعْ ويلعبْ، وإنا له لحافظون. قال: إني ليحزنني أن تذهبوا به، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. قالوا: لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون ﴾..

والتعبير يرسم بكلماته وعباراته كل ما بذلوه ليتدسسوا به إلى قلب الوالد المتعلق بولده الصغير الحبيب، الذي يتوسم فيه أن يكون الوارث لبركات أبيه إبراهيم..

﴿ يا أبانا ﴾..

بهذا اللفظ الموحي المذكر بما بينه وبينهم من آصرة.

﴿ مالك لا تأمنا على يوسف؟ ﴾..

سؤال فيه عتب وفيه استنكار خفي، وفيه استجاشة لنفي مدلوله من أبيهم، والتسليم لهم بعكسه وهو تسليمهم يوسف. فهو كان يستبقي يوسف معه ولا يرسله مع إخوته إلى المراعي والجهات الخلوية التي يرتادونها لأنه يحبه ويخشى عليه ألا يحتمل الجو والجهد الذي يحتملونه وهم كبار، لا لأنه لا يأمنهم عليه. فمبادرتهم له بأنه لا يأتمنهم على أخيهم وهو أبوهم، مقصود بها استجاشته لنفي هذا الخاطر؛ ومن ثم يفقد إصراره على احتجاز يوسف. فهي مبادرة ماكرة منهم خبيثة!

﴿ مالك لا تأمنا على يوسف ؟ وإنا له لناصحون ﴾ . .

قلوبنا له صافية لا يخالطها سوء وكاد المريب أن يقول خذوني فذكر النصح هنا وهو الصفاء والإخلاص يشي بما كانوا يحاولون إخفاءه من الدغل المريب . .

﴿ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴾ . .

زيادة في التوكيد ، وتصويراً لما ينتظر يوسف من النشاط والمسرة والرياضة ، مما ينشط والده لإرساله معهم كما يريدون .

ورداً على العتاب الاستنكاري الأول جعل يعقوب ينفي بطريق غير مباشر أنه لا يأمنهم عليه ، ويعلل احتجازه معه بقلة صبره على فراقه وخوفه عليه من الذئاب :

﴿ قال : إني ليحزنني أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ . .

﴿ إني ليحزنني أن تذهبوا به ﴾ . .

إنني لا أطيق فراقه . . ولا بد أن هذه هاجت أحقادهم وضاعفتها . أن يبلغ حبه له درجة الحزن لفراقه ولو لبعض يوم ، وهو ذاهب كما قالوا له للنشاط والمسرة .

﴿ وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ . .

ولا بد أنهم وجدوا فيها عذراً كانوا يبحثون عنه ، أو كان الحقد الهائج أعماهم فلم يفكروا ماذا يقولون لأبيهم بعد فعلتهم المنكرة ، حتى لقنهم أبوهم هذا الجواب !

واختاروا أسلوباً من الأساليب المؤثرة لنفي هذا الخاطر عنه :

﴿ قالوا : لئن أكله الذئب ونحن عصبة ، إنا إذن لخاسرون ﴾ . .

لئن غلبنا الذئب عليه ونحن جماعة قوية هكذا فلا خير فينا لأنفسنا وإننا لخاسرون كل شيء ، فلا نصلح لشيء أبداً !

وهكذا استسلم الوالد الحريص لهذا التوكيد ولذلك الإحراج.

. ليتحقق قدر الله وتتم القصة كما تقتضي مشيئته !

والآن لقد ذهبوا به ، وها هم أولاء ينفذون المؤامرة النكراء . والله سبحانه يلقي في روع الغلام أنها محنة وتنتهي ، وأنه سيعيش وسيذكّر إخوته بموقفهم هذا منه وهم لا يشعرون أنه هو :

﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب . وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ . .

فقد استقر أمرهم جميعاً على أن يجعلوه في غيابة الجب ، حيث يغيب فيه عنهم . وفي لحظة الضيق والشدة التي كان يواجه فيها هذا الفزع ، والموت منه قريب ، ولا منقذ له ولا مغيث . وهو وحده صغير وهم عشرة أشداء . في هذه اللحظة اليائسة يلقي الله في روعة أنه ناج ، وأنه سيعيش حتى يواجه إخوته بهذا الموقف الشنيع ، وهم لا يشعرون بأن الذي يواجههم هو يوسف الذي تركوه في غيابة الجب وهو صغير .

وندع يوسف في محنته في غيابة الجب ، يؤنسه ولا شك ما ألقى الله في روعه ويطمئنه ، حتى يأذن الله بالفرج . ندعه لنشهد إخوته بعد الجريمة يواجهون الوالد المفجوع :

﴿ وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، قالوا : يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ، وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب . وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب . قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون ﴾ . .

لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك الكذبة ، فلو كانوا أهدأ أعصاباً ما فعلوها منذ المرة الأولى التي يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم ! ولكنهم كانوا معجلين لا يصبرون ، يخشون ألا تواتيهم الفرصة مرة أخرى . كذلك كان التقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليلاً على التسرع ، وقد كان أبوهم يحذرهم منها أمس ، وهم ينفونها ، ويكادون يتهكمون بها . فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا في الصباح ليتركوا للذئب الذي

حذرهم أبوهم منه أمس ! وبمثل هذا التسرع جاءوا على قميصه بدم كذب لطخوه به في غير إتقان ، فكان ظاهر الكذب حتى ليوصف بأنه كذب . .

فعلوا هذا .

﴿ وجاءوا أباهم عشاء يبكون قالوا : يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ﴾ . .

ويحسون أنها مكشوفة ، ويكاد المريب أن يقول خذوني ، فيقولون :

﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ . .

أي وما أنت بمطمئن لما نقوله ، ولو كان هو الصدق ، لأنك تشك فينا ولا تطمئن لما نقول .

(279/392)

وأدرك يعقوب من دلائل الحال ، ومن نداء قلبه ، أن يوسف لم يأكله الذئب ، وأنهم دبروا له مكيدة ما . وأنهم يلفقون له قصة لم تقع ، ويصفون له حالاً لم تكن . فواجههم بأن نفوسهم قد حسنت لهم أمراً منكراً وذللته ويسرت لهم ارتكابه ؛ وأنه سيصبر متحملاً متجملاً لا يجزع ولا يفزع ولا يشكو ، مستعيناً بالله على ما يلفقونه من حيل وأكاذيب :

﴿ قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً .

فصبر جميل . والله المستعان على ما تصفون ﴾ .

ثم لنعد سريعاً إلى يوسف في الجب ، لنرى المشهد الأخير في هذه الحلقة الأولى من حلقات القصة :

﴿ وجاءت سيارة ، فأرسلوا واردهم ، فأدلى دلوه قال : يا بشرى . هذا غلام . وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ . .

لقد كان الجب على طريق القوافل ، التي تبحث عن الماء في مظانه ، في الآبار وفي مثل هذا الجب الذي ينزل فيه ماء المطر ويبقى فترة ، ويكون في بعض الأحيان جافاً كذلك :

﴿ وجاءت سيارة ﴾ . .

أي قافلة سميت سيارة من السير الطويل كالكشافة والجوالة والقناصة . . .

﴿ فأرسلوا واردهم ﴾ . .

أي من يرد لهم الماء ويكون خبيراً بمواقعه . .

﴿ فأدلى دلوه ﴾ . .

لينظر الماء أو ليملأ الدلو ويحذف السياق حركة يوسف في التعلق بالدلو احتفاظاً بالمفاجأة القصصية للقارئ والسامع :

﴿ قال : يا بشرى ! هذا غلام ! ﴾ . .

ومرة أخرى يحذف السياق كل ما حدث بعد هذا وما قيل ، وحال يوسف ، وكيف ابتهج للنجاة ، ليتحدث عن مصيره مع القافلة :

﴿ وأسروه بضاعة ﴾ . .

أي اعتبروه بضاعة سرية وعزموا على بيعه رقيقاً . ولما لم يكن رقيقاً فقد أسروه ليخفوه عن الأنظار . ثم باعوه بثمن قليل :

﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ﴾ . . وكانوا يتعاملون في القليل من الدراهم بالعد ، وفي الكثير منها بالوزن . .

﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ . .

لأنهم يريدون التخلص من تهمة استرقاقه وبيعه . .

وكانت هذه نهاية المحنة الأولى في حياة النبي الكريم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 1977.1970 ﴾

(280/392)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ دلالات كتاب المحبوب إلى المحب للهداية إلى طريق الوصال ولهذا كانت أحسن القصص لأنها أتم قصص القرآن مناسبة ومشابهة بأحوال الإنسان ﴿ إذ قال يوسف ﴾ القلب ﴿ لأبيه ﴾ يعقوب الروح ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكباً ﴾ هن الحواس الخمس الظاهرة والخمس الباطنة أي المذكرة والحافظة والمتخيلة والمتوهمة والحس المشترك مع المفكرة ، وبكل من هذه إضاءة أي أدراك للمعنى المناسب له وهم إخوة يوسف القلب لأنهم تولدو بازدواج يعقوب الروح وزوج النفس والشمس والقمر الروح والنفس ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ وهذا مقام كمالية الإنسان أن يصير القلب سلطاناً يسجد له الروح والنفس والحواس والقوى ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ﴾ على سائر المخلوقات وهذا كمال حسن يوسف ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ العلم اللدني المختص بالقلب ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ بأن يتجلى لك ويستوي لك إذ القلب عرش حقيقي للرب ﴿ وعلى آل يعقوب ﴾ أي متولدات الروح من القوى والحواس ﴿ كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم ﴾ السر ﴿ وإسحاق ﴾ الخفي وبهما يستحق القلب لقبول فيض التجلي ، وهناك لله ألطاف خفية لا يتبع الإنسان فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل .

﴿ آيات للسائلين ﴾ عن طريق الوصول إلى الله ﴿ ليوسف ﴾ القلب ﴿ وأخوه ﴾ بنيامين الحس المشترك فإن له اختصاصاً بالقلب ﴿ أحب إلى أبينا منا ﴾ لأن القلب عرض الروح ومحل استوائه عليه ، والحس المشترك بمثابة الكرسي للعرش . ﴿ اقتلوا يوسف ﴾ القلب بسكين الهوى وبسم الميل إلى الدنيا ﴿ أو اطرحوه ﴾ في أرض البشرية ﴿ يخل لكم وجه أبيكم ﴾ يقبل الروح بوجهه إلى الحواس والقوى لتحصيل شهواتها ﴿ وتكونوا ﴾ بعد موت القلب ﴿ قوماً صالحين ﴾ للنعم الحواني والنفساني . ﴿ قال قائل منهم ﴾ هو يهوذا القوة المفكرة ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ القلب ﴿ وألقوه في غيابت الجب ﴾ القالب وسفل البشرية ﴿ يلتقطه بعض ﴾ سيارة الجواذب النفسانية . ﴿ يرتع ﴾ في المراتع البهيمية ﴿ ويلعب ﴾ في ملاعب الدنيا ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ من فتنة الدنيا وآفاتها ﴿ لئن أكله الذئب ﴾ الشيطان ﴿ إنا إذا لخاسرون ﴾ لأن خسران جميع أجزاء الإنسان في هلاك القلب وربحها في سلامة القلب ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ فيه إشارة إلى أن من خصوصية تعلق الروح بالقالب أن يتولد منهما القلب العلوي والنفس السفلية والحواس والقوى فيحصل التجاذب . فإن كانت الغلبة للروح سعد ، وإن كانت للنفس شقي ﴿ وجاؤوا أباهم عشاء ﴾ أي في النصف الآخر من مدّة العمر ﴿ نستبق ﴾ نتشاغل باللهو في أيام الشباب ﴿ وتركنا يوسف ﴾ أي قالب مهملاً معطلاً عن الاستكمال ﴿ فأكله ﴾ ذئب الشيطان . ﴿ وجاؤا على قميصه ﴾ أي قالب القلب ﴿ بدم كذب ﴾ هو آثار

الملكات الردية ، زعموا أنها قد سرت إلى القلب وأزالت نور الإيمان عنه بالكلية . ﴿ قال ﴾ يعقوب الروح ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ﴾ على ما قضى الله وقدر ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ من رين القلب وموته ﴿ وجاءت سيارة ﴾ هي هبوب نفحات ألطاف الحق ﴿ فأرسلوا واردهم ﴾ وارداً من واردات الحق ﴿ فأدلى دلوه ﴾ جذبه من جذبات الرحمن ﴿ قال يا بشرى ﴾ فيه إشارة إلى أن للجذبة بشارة في تعلقها بالقلب كما أن

للقلب بشارة في خلاصة من جب الطبيعة كما قال تعالى : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ [المائدة : 54] ﴿ والله عليم ﴾ بحكمة البشارتين و ﴿ بما يعملون ﴾ من شرائه ﴿ بثمن بخس ﴾ هو الحظوظ الفانية في أيام معدودة ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ لأنهم ما عرفوا قدره وإنما ميلهم إلى استجلاب المنافع الردية العاجلة . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 72 . 74 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والتسعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/393)

الجزء الثالث والتسعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 21 ﴾ من سورة يوسف عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 25 ﴾ من نفس السورة

(4/393)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت العادة جارية بأن القن يمتهن ، أخبر تعالى أنه أكرمه عن هذه العادة فقال منبهاً على أن شراءه كان بمصر : ﴿ وقال الذي اشتراه ﴾ أي أخذه برغبة عظيمة ، ولو توقفوا عليه غالى في ثمنه ﴿ من مصر ﴾ أي البلدة المعروفة ، والتعبير بهذا دون ما هو أخصر منه للتنبيه على أن بيعه ظلم ، وأنه لم يدخل في ملك أحد أصلاً ﴿ لامرأته ﴾ آمراً لها بإكرامه

على أبلغ وجه ﴿ أكرمي مثواه ﴾ أي موضع مقامه ، وذلك أعظم من الأمر بإكرامه نفسه ، فالمعنى : أكرميه إكراماً عظيماً بحيث يكون ممن يكرم كل ما لابسه لأجله ، ليرغب في المقام عندنا .

(5/393)

ولما كانت كأنها قالت : ما سبب إيصائك لي بهذا دون غيره ؟ استأنف قوله : ﴿ عسى أن ﴾ أي إن حاله خليق وجدير بأن ﴿ ينفعنا ﴾ أي وهو على اسم المشتري ﴿ أو نتخذه ﴾ أي برغبة عظيمة إن رأيناه أهلاً ﴿ ولداً ﴾ فأنا طامع في ذلك .

ولما أخبر تعالى بمبدأ أمره ، وكان من المعلوم أن هذا إنما هو لما مكن له في القلوب مما أوجب توقيره وإجلاله وتعظيمه ، أخبر تعالى بمنتهى أمره ، مشبهاً له بهذا المضمون المعلم به فقال : ﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ما مكنا ليوسف بتزهيد السيارة : أهل البدو تارة ، وإكرام مشتريه ومنافسته فيه أخرى ﴿ مكنا ليوسف في الأرض ﴾ أي أرض مصر التي هي كالأرض كلها لكثرة منافعها بالملك فيها لتمكنه من الحكم بالعدل ﴿ و ﴾ بالنبوة ﴿ لنعلمه ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ من تأويل الأحاديث ﴾ أي بترجيعها من ظواهرها إلى بواطنها ، فأشار تعالى إلى المشبه به مع عدم التصريح به لما دل عليه من السياق ، وأثبت التمكين في الأرض ليدل

على لازمه من الملك والتمكين من العدل ، وذكر التعليم ليدل على ملزومه وهو النبوة ، فدل أولاً بالملزوم على اللازم ، وثانيا باللازم على الملزوم ، وهو كقوله تعالى : ﴿ فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ﴾ [آل عمران : 13] فهو احتباك أو قريب منه .

(6/393)

ولما كان من أعجب العجب أن من وقع له التمكين من أن يفعل به مثل هذه الأفعال يتمكن من أرض هو فيها مع كونه غريباً مستبعداً فرداً لا عشيرة له فيها ولا أعوان ، قال تعالى نافياً لهذا العجب : ﴿ والله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ غالب على أمره ﴾ أي الأمر الذي يريده ، غلبة ظاهر أمرها لكل من له بصيرة : أمر يعقوب يوسف عليهما الصلاة والسلام أن لا يقص رؤياه حذراً عليه من إخوته ، فغلب أمره سبحانه حتى وقع ما حذره ، فأراد إخوته قتله فغلب أمره عليهم ، وأرادوا أن يلتقطه بعض السيارة ليندرس اسمه فغلب أمره سبحانه وظهر اسمه واشتهر ، ثم باعوه ليكون مملوكاً فغلب أمره تعالى حتى صار ملكاً وسجدوا بين يديه ، ثم أرادوا أن يغروا أباهم ويطيّبوا قلبه حتى يخلو لهم وجهه فغلب أمره تعالى فأظهره على مكرهم ، واحتالت عليه امراة العزيز لتخدعه عن نفسه فغلب أمره سبحانه فعصمه حتى لم يهم بسوء ، بل هرب منه غاية الهرب ، ثم بذلت جهدها في إذلاله وإلقاء

التهمة عليه فأبى الله إلا إعزازه وبراءته ، ثم أراد يوسف عليه الصلاة والسلام ذكر الساقي له فغلب أمره سبحانه فأنساه ذكره حتى مضى الأجل الذي ضربه سبحانه ، وكم من أمر كان في هذه القصة وفي غيرها يرشد إلى أن لا أمر لغيره سبحانه ! ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ أي الذين هم أهل الاضطراب ﴿ لا يعلمون ﴾ لعدم التأمل أنه تعالى عالٍ على كل أمر ، وأن الحكم له وحده ، لاشتغالهم بالنظر في الظواهر للأسباب التي يقيمها ، فهو سبحانه محتجب عنهم بحجاب الأسباب .

ذكر ما مضى من قصة يوسف عليه الصلاة والسلام من التوراة :

(7/393)

قال في أواخر السفر الثاني منها : كان يوسف بن يعقوب ابن سبع عشرة سنه ، وكان يرعى الغنم مع إخوته ، وكان إسرائيل يحب يوسف أكثر من حبه إخوته ، لأنه ولد على كبر سنه ، فاتخذ له قميصاً ذا كمين ، فرأى إخوته أن والدهم أشد حباً له منهم ، فأبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بالسلام ، فرأى رؤيا قصها على إخوته فقال لهم : اسمعوا هذه الرؤيا التي رأيت ، رأيت كأنا نحزم حزماً من الزرع في الزراعة ، فإذا حزمتي قد انتصبت وقامت ، وإذا حزمكم قد أحاطت بها تسجد لها ، قال له إخوته : أترى تملكنا وتسلط علينا ؟

وازدادوا له بغضاً لرؤياه وكلامه ، فرأى رؤيا أخرى فقال : إني رأيت رؤيا أخرى ، رأيت كأن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً يسجدون لي ، فقصها على أبيه وإخوته ، فزجره أبوه وقال له : ما هذه الرؤيا ؟ هل آتيك أنا وأمك وإخوتك فنسجد لك على الأرض ؟ فحسده إخوته ، وكان أبوه يحفظ هذه الأقاويل .

وانطلق إخوة يوسف يرعون غنمهم في نابلس فقال إسرائيل ليوسف : هو ذا إخوتك يرعون في نابلس ، هلم أرسلك إليهم ! فقال : هاأنذا ! فقال أبوه : انطلق فانظر كيف إخوتك وكيف الغنم ؟ وائتني بالخبر ، فأرسله يعقوب عليه الصلاة والسلام من قاع حبرون ، فأتى إلى نابلس ، فوجده رجل وهو يطوف في الحقل فسأله الرجل وقال : ما الذي تطلب في الحقل ؟ فقال أطلب إخوتي ، دلني عليهم أين يرعون ؟ قال له الرجل : قد ارتحلوا من ها هنا ، وسمعتهم يقولون : ننطلق إلى دوثان ، فتبع يوسف إخوته فوجدهم بدوثان ، فرأوه من بعيد ، ومن قبل أن يقترب إليهم هموا بقتله ، فقال بعضهم لبعض : هو ذا حالم الأحلام قد جاء ، تعالوا نقتله ونطرحه في بعض الجباب ، ونقول : قد افترسه سبع خبيث ، فننظر ما يكون من أحلامه ! فسمع روبيل فأنقذه من أيديهم وقال لهم : لا تقتلوا نفساً ، ولا تسفكوا دماً ، بل ألقوه في هذا الجب الذي في البرية ، ولا تمدوا أيديكم إليه ، وأراد أن ينجيه من أيديهم ويرده إلى أبيه .

فلما أتى يوسف إخوته خلعوا عنه القميص ذا الكمين الذي لابِسَه ، وأخذوه فطرحوه في الجب فارغاً لا ماء فيه ، فجلسوا يأكلون خبزاً فمدوا أبصارهم فرأوا فإذا رفقة من العرب مقبلة من جلعاد – وفي نسخة : من الجرش – وكانت إبلهم موقرة سمناً ولبناً وبطماً ، وكانوا معتمدين إلى مصر فقال يهوذا لإخوته : ما متعتنا بقتل أخينا وسفك دمه ؟ تعالوا نبيعه من العرب ، ولا نبسط أيدينا إليه لأنه أخونا : لحمنا ودمنا ، فأطاعه إخوته ، فمر بهم قوم تجار مدينيون ، فأصعدوا يوسف من الجب وباعوه من الأعراب بعشرين درهماً ، فأتوا به إلى مصر .

فرجع روبيل إلى الجب فإذا ليس فيه يوسف ، فشق ثيابه ورجع إلى إخوته وقال لهم : أين الغلام ؟ إلى أين أذهب أنا الآن ؟ فأخذوا قميص يوسف عليه الصلاة والسلام فذبحوا عتوداً من المعز ولوّثوا القميص بدمه وأرسلوا به مع من أتى به أباهم وقالوا : وجدنا هذا ، أثبته هل هو قميص ابنك أم لا ؟ فعرفه وقال : القميص قميص ابني ، سبع خبيث افترس ابني يوسف افتراساً ، فحزن على ابنه أياماً كثيرة ، فقام جميع بنيه وبناته ليعزوه فأبى أن يقبل العزاء وقال : أنزل إلى القبر وأنا حزين على يوسف ، فبكى عليه أبوه .

وباع المدينيون يوسف من قوطيفر الأمير صاحب شرطة فرعون – انتهى ، وفيه ما يخالف ظاهرة القرآن ويمكن تأويله – والله أعلم .

ولما أخبر تعالى يوسف عما يريد بيوسف عليه الصلاة والسلام بما ختمه بالإخبار عن قدرته ، أتبعه الإعلام بإيجاد ذلك الفعل دلالة على تمام القدرة وشمول العلم فقال : ﴿ ولما بلغ أشده ﴾ أي مجتمع قواه ﴿ آتيناه ﴾ أي بعظمتنا ﴿ حكماً ﴾ أي نبوة أو ملكة يكف بها النفس عن هواها ، من حكمة الفرس ، فلا يقول ولا يفعل إلا أمراً فصلاً تدعو إليه الحكمة ؛ قال الرماني : والأصل في الحكم تبيين ما يشهد به الدليل ، لأن الدليل حكمة من أجل أنه يقود إلى المعرفة ﴿ وعلماً ﴾ أي تبييناً للشيء على ما هو عليه جزاء له لأنه محسن ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الذي جزيناه به ﴿ نجزي المحسنين ﴾ أي العريقين في الإحسان كلهم الذين رأسهم محمد - صلى الله عليه وسلم - الذي أسرى به فأعلاه ما لم يعل غيره ؛ وعن الحسن : من أحسن عبادة الله في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله ، والأشد : كمال القوة ، وهو جمع شدة عند سيبويه مثل نعمة وأنعم ، وقال غيره : جمع شد ؛ قال ابن فارس في المجمل : وبعضهم يقول : لا واحد لها ، ويقال : واحدها شد - انتهى .

قيل : وهذا هو القياس نحو ضب وأضب ، وصك وأصك ، وحظ وأحظ ، وضر وأضر ، وشر وأشر قال الرماني : قال الشاعر :

هل غير أن كثر الأشرّ وأهلكت . . .

حرب الملوك أكاثر الأموال

انتهى .

واختلفوا في حد الأشد فقيل : هو من الحلم ، وروي عن ابن عباس -رضى الله عنهما - أنه من عشرين سنة ، وروى غير ذلك ، والمادة تدور على الصعوبة ، وهي ضد الرخاوة ، ويلزمها القوة ، فالشد على العدو منها ، وشد الحبل وغيره : أحكم فتله ، والشديد والمتشدد : البخيل – لصعوبة البذل عليه ، والشدة : صعوبة الزمان ، وشد النهار : ارتفاعه ، وهو قوته ، وشددت فلاناً : قويت يده ودبرت أمره ، وأشد القوم – إذا كانت دوابهم شداداً فهم مشدون ضد مضعفين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 27.24﴾

(10/393)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ هيت لك ﴾ بضم التاء وفتح الهاء : ابن كثير ﴿ هيت ﴾ بكسر الهاء

وفتح التاء : أبو جعفر ونافع وابن ذكوان والرازي عن هشام مثله ولكن بالهمز ، الحلواني عن هشام مثل هذا لكن بضم التاء ، النجاري عن هشام . والباقون ﴿ هيت لك ﴾ بفتحتين . وسكون الياء ﴿ المخلصين ﴾ بفتح اللام حيث كان : أبو جعفر ونافع وعاصم وحمزة وعلي وخلف ﴿ ربي أحسن ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو وابن كثير ﴿ من قبل ﴾ و ﴿ من دبر ﴾ بالاختلاس : عباس ﴿ قد شغفها ﴾ مدغماً : أبو عمرو وعلي وحمزة وخلف وهشام ﴿ وقالت اخرج ﴾ بكسر التاء : أبو عمرو وسهل ويعقوب وحمزة وعاصم . الآخرون بالضم للإتباع . ﴿ حاشا لله ﴾ وما بعده في الحالين بالألف : أبو عمرو ﴿ ربي السجن ﴾ بفتح السين على أنه مصدر : يعقوب . الباقون . بالكسر .

(11/393)

الوقوف : ﴿ ولداً ﴾ ط ﴿ في الأرض ﴾ ز بناء على أن الواو مقحمة واللام متعلقة ب ﴿ مكنا ﴾ أو هي عطف على محذوف قبله ليتمكن ولنعلمه ، والأظهر أنها تتعلق بمحذوف بعده أي ولنعلمه من تأويل الأحاديث كان ذلك التمكن ﴿ الأحاديث ﴾ ط ﴿ لا يعلمون ﴾ 5 ﴿ وعلماً ﴾ ط ﴿ المحسنين ﴾ 5 ﴿ هيت لك ﴾ ط ﴿

الظالمون ﴾ 5 ﴿ همت به ﴾ ز قد قيل بناء على أن قوله ﴿ وهم ﴾ جواب " لولا "

وليس بصحيح لأن جواب " لولا " لا يتقدم عليه وإنما جوابه محذوف وهو لحقق ما هم به

كذا . قال السجاوندي : وأقول لو وقف للفرق بين الهمين لم يبعد ﴿ وهم بها ﴾ ج ﴿

برهان ربه ﴾ ط ﴿ والفحشاء ﴾ ط ﴿ المخلصين ﴾ 5 ﴿ لدى الباب ﴾ 5 ﴿

أليم ﴾ 5 ﴿ عن نفسي ﴾ لم يذكر الأئمة عليه وقفاً ولعل الوقف عليه حسن كيلا يظن

عطف ﴿ وشهد ﴾ على ﴿ راودتني ﴾ أو على جملة ﴿ هي راودتني ﴾ . ﴿ من

أهلها ﴾ ج على تقدير وقال إن كان ﴿ من الكاذبين ﴾ 5 ﴿ الصادقين ﴾ 5 ﴿ من

كيدكن ﴾ ط ﴿ عظيم ﴾ 5 ﴿ عن هذا ﴾ سكتة للعدول عن مخاطب إلى مخاطب

﴿ لذنبك ﴾ ج لاحتمال التعليل ﴿ الخاطئين ﴾ 5 ﴿ عن نفسه ﴾ ج لأن " قد "

لتحسين الابتداء مع اتحاد القائل ﴿ حباً ﴾ ط ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ عليهن ﴾ ج ﴿ بشراً

﴾ ط ﴿ كريم ﴾ 5 ﴿ فيه ﴾ ط ﴿ فاستعصم ﴾ ط لاحتمال القسم ﴿ الصاغرين

﴾ 5 ﴿ إليه ﴾ ج للشرط مع الواو ﴿ الجاهلين ﴾ 5 ﴿ كيدهن ﴾ ط ﴿ العليم ﴾

5 ﴿ حين ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 74 . 75 ﴾

(12/393)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه ثبت في الأخبار أن الذي اشتراه إما من الإخوة أو من الواردين على الماء ذهب به إلى مصر وباعه هناك .

وقيل إن الذي اشتراه قطفير أو إطفير وهو العزيز الذي كان يلي خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق ، وقد آمن بيوسف ومات في حياة يوسف عليه السلام فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الملك والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة .

وقيل كان الملك في أيامه فرعوه موسى عاش أربعمائة سنة بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بالبينات ﴾ [غافر : 34] وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف ، وقيل اشتراه العزيز بعشرين ديناراً ، وقيل أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه حتى بلغ ثمنه ما يساويه في الوزن من المسك والورق والحرير فابتاعه قطفير بذلك الثمن .

وقالوا : اسم تلك المرأة زليخا ، وقيل راعيل .

واعلم أن شيئاً من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن ، ولم يثبت أيضاً في خبر صحيح وتفسير كتاب الله تعالى لا يتوقف على شيء من هذه الروايات ، فالأليق بالعاقل أن يحترز من ذكرها .

المسألة الثانية :

(13/393)

قوله : ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ﴾ أي منزله ومقامه عندك من قولك ثويت بالمكان إذا أقمت به ، ومصدره الثواء والمعنى : اجعلي منزله عندك كريماً حسناً مرضياً بدليل قوله : ﴿ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَّ ﴾ وقال المحققون : أمر العزيز امرأته بإكرام مثواه دون إكرام نفسه ، يدل على أنه كان ينظر إليه على سبيل الإجلال والتعظيم وهو كما يقال : سلام الله على المجلس العالي ، ولما أمرها بإكرام مثواه علل ذلك بأن قال : ﴿ عسى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ أي يقوم بإصلاح مهماتنا ، أو نتخذه ولداً ، لأنه كان لا يولد له ولد ، وكان حصوراً .

ثم قال تعالى : ﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأرض ﴾ أي كما أنعمنا عليه بالسلامة من الجب مكناه بأن عطفنا عليه قلب العزيز ، حتى توصل بذلك إلى أن صار متمكناً من الأمر

والنهي في أرض مصر .

واعلم أن الكمالات الحقيقية ليست إلا القدرة والعلم وأنه سبحانه لما حاول إعلاء شأن يوسف ذكره بهذين الوصفين ، أما تكميله في صفة القدرة والمكنة فإليه الإشارة بقوله : ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرض ﴾ وأما تكميله في صفة العلم ، فإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الاحاديث ﴾ وقد تقدم تفسير هذه الكلمة .

واعلم أنا ذكرنا أنه عليه السلام لما ألقى في الجب قال تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا ﴾ [يوسف : 15] وذلك يدل ظاهراً على أنه تعالى أوحى إليه في ذلك الوقت .

(14/393)

وعندنا الإرهاص جائز ، فلا يبعد أن يقال : إن ذلك الوحي إليه في ذلك الوقت ما كان لأجل بعثته إلى الخلق ، بل لأجل تقوية قلبه وإزالة الحزن عن صدره ولأجل أن يستأنس بحضور جبريل عليه السلام ، ثم إنه تعالى قال ههنا ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ والمراد منه إرساله إلى الخلق بتبليغ التكاليف ، ودعوة الخلق إلى الدين الحق ، ويحتمل أيضاً أن يقال : إن ذلك الوحي الأول كان لأجل الرسالة والنبوة ويحمل قوله : ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ

الأحاديث ﴾ على أنه تعالى أوحى إليه بزيادات ودرجات يصير بها كل يوم أعلى حالاً مما كان قبله وقال ابن مسعود : أشد النار فراسة ثلاثة : العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا ، والمرأة لما رأت موسى ، فقالت : ﴿ إِحْدَاهُمَا يا أبت استجره ﴾ [القصص : 26] وأبو بكر حين استخلف عمر .

ثم قال تعالى : ﴿ واللهُ غَالِبٌ على أَمْرِهِ ﴾ وفيه وجهان : الأول : غالب على أمر نفسه لأنه فعال لما يريد لا دافع لقضائه ولا مانع عن حكمه في أرضه وسمائه ، والثاني : والله غالب على أمر يوسف ، يعني أن انتظام أموره كان إلهياً ، وما كان بسعيه وإخوته أرادوا به كل سوء ومكروه والله أراد به الخير ، فكان كما أراد الله تعالى ودبر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الأمر كله بيد الله .

واعلم أن من تأمل في أحوال الدنيا وعجائب أحوالها عرف وتيقن أن الأمر كله لله ، وأن قضاء الله غالب .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

وجه النظم أن يقال : بين تعالى أن إخوته لما أساؤا إليه ، ثم إنه صبر على تلك الشدائد والمحن مكنه الله تعالى في الأرض ، ثم لما بلغ أشده آتاه الله الحكم والعلم ، والمقصود بيان أن جميع ما فاز به من النعم كان كالجزاء على صبره على تلك المحن ، ومن الناس من قال : إن النبوة جزاء على الأعمال الحسنة ، ومنهم من قال : إن من اجتهد وصبر على بلاء الله تعالى وشكر نعماء الله تعالى وجد منصب الرسالة .

واحتجوا على صحة قولهم : بأنه تعالى لما ذكر صبر يوسف على تلك المحن ذكر أنه أعطاه النبوة والرسالة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي المحسنين ﴾ وهذا يدل على أن كل من أتى بالطاعات الحسنة التي أتى بها يوسف ، فإن الله يعطيه تلك المناصب ، وهذا بعيد لاتفاق العلماء على أن النبوة غير مكتسبة .

واعلم أن من قال : إن يوسف ما كان رسولاً ولا نبياً ألبتة ، وإنما كان عبداً أطاع الله تعالى فأحسن الله إليه ، وهذا القول باطل بالإجماع .

وقال الحسن : إنه كان نبياً من الوقت الذي قال الله تعالى في حقه : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا ﴾ [يوسف : 15] وما كان رسولاً ، ثم إنه صار رسولاً من هذا الوقت أعني قوله : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [يوسف : 22] ومنهم من قال : إنه

كان رسولاً من الوقت الذي ألقي في غيابة الجب .

المسألة الثانية :

(16/393)

قال أبو عبيدة تقول العرب بلغ فلان أشده إذا انتهى منتهاه في شبابه وقوته قبل أن يأخذ في النقصان وهذا اللفظ يستعمل في الواحد والجمع يقال بلغ أشده وبلغوا أشدهم ، وقد ذكرنا تفسير الأشد في سورة الأنعام عند قوله : ﴿ حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ [الأنعام : 152] وأما التفسير فروى ابن جرير عن مجاهد عن ابن عباس ، ولما بلغ أشده قال ثلاثاً وثلاثين سنة ، وأقول هذه الرواية شديدة الانطباق على القوانين الطبية وذلك لأن الأطباء قالوا إن الإنسان يحدث في أول الأمر ويتزايد كل يوم شيئاً فشيئاً إلى أن ينتهي إلى غاية الكمال ، ثم يأخذ في التراجع والانتقاص إلى أن لا يبقى منه شيء ، فكانت حالته شبيهة بحال القمر ، فإنه يظهر هلالاً ضعيفاً ثم لا يزال يزداد إلى أن يصير بدراً تاماً ، ثم يتراجع إلى أن ينتهي إلى العدم والمحاق .

إذا عرفت هذا فنقول : مدة دور القمر ثمانية وعشرون يوماً وكسر فإذا جعلت هذه الدورة أربعة أقسام ، كان كل قسم منها سبعة أيام ، فلا جرم رتبوا أحوال الأبدان على

الأسابيع فالإنسان إذا ولد كان ضعيف الخلقة نحيف التركيب إلى أن يتم له سبع سنين ، ثم إذا دخل في السبعة الثانية حصل فيه آثار الفهم والذكاء والقوة ثم لا يزال في الترقي إلى أن يتم له أربع عشرة سنة .

فإذا دخل في السنة الخامسة عشرة دخل في الأسبوع الثالث .

(17/393)

وهناك يكمل العقل ويبلغ إلى حد التكليف وتتحرك فيه الشهوة ، ثم لا يزال يرتقي على هذه الحالة إلى أن يتم السنة الحادية والعشرين ، وهناك يتم الأسبوع الثالث ويدخل في السنة الثانية والعشرين ، وهذا الأسبوع آخر أسابيع النشوء والنماء ، فإذا تمت السنة الثامنة والعشرون فقد تمت مدة النشوء والنماء ، وينتقل الإنسان منه إلى زمان الوقوف وهو الزمان الذي يبلغ الإنسان فيه أشده ، وبتمام هذا الأسبوع الخامس يحصل للإنسان خمسة وثلاثون سنة ، ثم إن هذه المراتب مختلفة في الزيادة والنقصان ؛ فهذا الأسبوع الخامس الذي هو أسبوع الشدة والكمال يبتدأ من السنة التاسعة والعشرين إلى الثالثة والثلاثين ، وقد يمتد إلى الخامسة والثلاثين ، فهذا هو الطريق المعقول في هذا الباب ، والله أعلم بحقائق الأشياء .

المسألة الثالثة :

في تفسير الحكم والعلم ، وفيه أقوال :

القول الأول : أن الحكم والحكمة أصلهما حبس النفس عن هواها ، ومنعها مما يشينها ، فالمراد من الحكم الحكمة العملية ، والمراد من العلم الحكمة النظرية .

وإنما قدم الحكمة العملية هنا على العملية ، لأن أصحاب الرياضات يشتغلون بالحكمة العملية ثم يترقون منها إلى الحكمة النظرية .

وأما أصحاب الأفكار العقلية والأنظار الروحانية فإنهم يصلون إلى الحكمة النظرية أولاً ، ثم ينزلون منها إلى الحكمة العملية ، وطريقة يوسف عليه السلام هو الأول ، لأنه صبر على البلاء والمحنة ففتح الله عليه أبواب المكاشفات ، فلهذا السبب قال : ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ .

القول الثاني : الحكم هو النبوة ، لأن النبي يكون حاكماً على الخلق ، والعلم علم الدين .

والقول الثالث : يحتمل أن يكون المراد من الحكم صيرورة نفسه المطمئنة حاكمة على نفسه الأمارة بالسوء مستعلية عليها قاهرة لها ومتى صارت القوة الشهوانية والغضبية مقهورة

ضعيفة فاضت الأنوار القدسية والأضواء الإلهية من عالم القدس على جوهر النفس وتحقيق القول في هذا الباب أن جوهر النفس الناطقة خلقت قابلة للمعارف الكلية والأنوار العقلية ، إلا أنه قد ثبت عندنا بحسب البراهين العقلية وبحسب المكاشفات العلوية أن جواهر الأرواح البشرية مختلفة بالماهيات فمنها ذكية وبليدة ومنها حرة ونذلة ومنها شريفة وخسيسة ، ومنها عظيمة الميل إلى عالم الروحانيات وعظيمة الرغبة في الجسمانيات فهذه الأقسام كثيرة وكل واحد من هذه المقامات قابل للأشد والأضعف والأكمل والأنقص فإذا اتفق أن كان جوهر النفس الناطقة جوهراً مشرقاً شريفاً شديد الاستعداد لقبول الأضواء العقلية واللوائح الإلهية ، فهذه النفس في حال الصغر لا يظهر منها هذه الأحوال ، لأن النفس الناطقة إنما تقوى على أفعالها بواسطة استعمال الآلات الجسدانية وهذه الآلات في حال الصغر تكون الرطوبات مستولية عليها ، فإذا كبر الإنسان واستولت الحرارة الغريزية على البدن نضجت تلك الرطوبات وقلت واعتدلت ، فصارت تلك الآلات البدنية صالحة لأن تستعملها النفس الإنسانية وإذا كانت النفس في أصل جوهرها شريفة فعند كمال الآلات البدنية تكمل معارفها وتقوى أنوارها ويعظم لمعان الأضواء فيها ، فقوله : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ إشارة إلى اعتدال الآلات البدنية ، وقوله : ﴿ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ إشارة إلى استكمال النفس في قوتها العملية والنظرية ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 87 . 90 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر ﴾

وهو العزيز ملكها واسمه إظفير بن رويجب .

﴿ لامرأته ﴾ واسمها راعيل بنت رعاييل ، على ما ذرك ابن إسحاق .

وقال ابن عباس : اسمه قطفير وكان على خزائن مصر ، وكان الملك يومئذ الوليد بن الرّيان من العماليق .

قال مقاتل : وكان البائع له للملك مالك بن ذعر بعشرين ديناراً وزاده حُلة ونعلين .

﴿ أكرمي مثواه ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أجملي منزلته .

الثاني : أجلي منزلته ، قال كثير :

أريد ثواءً عندها وأظُنُّها . . . إذا ما أطَلْنا عندها المكث ملَّت

وإكرام مثواه بطيب طعامه ولين لباسه وتوطئة مبيته .

﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ قيل : في ثمنه إن بعناه . ويحتمل : ينفعنا في الخدمة والنيابة .

﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ إن أعتقناه وتبنيناه .

قال عبد الله بن مسعود : أحسن الناس في فراسة ثلاثة : العزيز في يوسف حين قال لامرأته ﴿ أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا ﴾ وابنة شعيب في موسى حين قالت لأبيها ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ [القصص : 26] وأبو بكر حين استخلف عمر .

﴿ وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بإخراجه من الجب .

الثاني : باستخلاف الملك له .

﴿ ولنعلمه من تأويل الأحاديث ﴾ قد ذكرنا في تأويله وجهين .

﴿ والله غالبٌ على أمره ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : غالب على أمر يوسف حتى يبلغ فيه ما أراده له ، قاله مقاتل .

الثاني : غالب على أمر نفسه فيما يريده ، أن يقول له كن فيكون .

قوله عز وجل : ﴿ ولما بلغ أشدَّه ﴾ يعني منتهى شدته وقوة شبابه . وأما الأشدُّ ففيه ستة أقاويل :

أحدها : ببلوغ الحلم ، قاله الشعبي وربيعة وزيد بن أسلم .

الثاني : ثماني عشرة سنة ، قاله سعيد بن جبير .

الثالث : عشرون سنة ، قاله ابن عباس والضحاك .

الرابع : خمس وعشرون سنة ، قاله عكرمة .

الخامس : ثلاثون سنة ، قاله السدي .

السادس : ثلاث وثلاثون سنة . قاله الحسن ومجاهد وقتادة .

هذا أول الأشد ، وفي آخر الأشد قولان :

أحدهما : أنه أربعون سنة ، قاله الحسن . الثاني : أنه ستون سنة ، حكاه ابن جرير الطبري ، وقال سُحَيْم بن وثيل الرياحي :

أخو خمسين مجتمع أشُدّي . . . وتجذّني مداورة الشئون

وفي المراد ببلوغ الأشد في يوسف قولان :

أحدهما : عشرون سنة ، قاله الضحاك .

الثاني : ثلاثون سنة ، وهو قول مجاهد .

﴿ آتيناه حكماً وعلماً ﴾ في هذا الحكم الذي آتاه خمسة أوجه :

أحدها : العقل ، قاله مجاهد .

الثاني : الحكم على الناس .

الثالث : الحكمة في أفعاله .

الرابع : القرآن ، قاله سفيان .

الخامس : النبوة ، قاله السدي . وفي هذا العلم الذي آتاه وجهان :

أحدهما : الفقه ، قاله مجاهد .

الثاني : النبوة ، قاله ابن أبي نجيح .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : أنه العلم بتأويل الرؤيا .

﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : المطيعين .

الثاني : المهتدين ، قاله ابن عباس . والفرق بين الحكيم والعالم أن الحكيم هو العامل بعلمه ، والعالم هو المقتصر على العلم دون العمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(21/393)

وقال الجصاص :

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾

رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : " أَحْسَنُ النَّاسِ فِرَاسَةً ثَلَاثَةٌ : الْعَزِيزُ حِينَ قَالَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا ، وَابْنَةُ شُعَيْبٍ حِينَ قَالَتْ فِي مُوسَى يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ حِينَ وَلَّى عُمَرَ " .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ قِيلَ فِي مَعْنَى الْأَشُدِّ إنَّهَا الْقُوَّةُ مِنْ ثَمَانِي عَشْرَةَ إلَى سِتِّينَ سَنَةً .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْأَشُدُّ ابْنُ عِشْرِينَ سَنَةً " وَقَالَ مُجَاهِدٌ : " ابْنُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً " .

انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(22/393)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاَللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّبَنِّي كَانَ أَمْرًا مُعْتَادًا عِنْدَ الْأُمَمِ ، وَسَيَأْتِي بَيَانُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : رُوِيَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ : أَفْرَسُ النَّاسِ ثَلَاثَةٌ : عَزِيزُ مِصْرَ ، حِينَ قَالَ لِامْرَأَتِهِ : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ إلَخْ .

الثَّانِي : بِنْتُ شُعَيْبٍ فِي فِرَاسَةِ مُوسَى حِينَ قَالَتْ : ﴿ إنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْت الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ .

الثَّالِثُ : أَبُو بَكْرٍ حِينَ وَلَّى عُمَرَ قَالَ : أَقُولُ لِرَبِّي وَلَّيْتُ عَلَيْهِمْ خَيْرَهُمْ .

قَالَ الْفَقِيهُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : عَجَبًا لِلْمُفَسِّرِينَ فِي اتِّفَاقِهِمْ عَلَى جَلْبِ هَذَا الْخَبَرِ ، وَالْفِرَاسَةُ هِيَ عِلْمٌ غَرِيبٌ ، حَدُّهُ وَحَقِيقَتُهُ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ الِاسْتِدْلَالِ بِالْخَلْقِ عَلَى الْخُلُقِ فِيمَا لَا يَتَعَدَّى الْمُتَفَطِّنُونَ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الصِّيَغِ وَالْأَغْرَاضِ ، فَأَمَّا أَمْرُ الْعَزِيزِ فَيُمْكِنُ أَنْ يُجْعَلَ فِرَاسَةً ؛ لِأَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ عَلَامَةٌ ظَاهِرَةٌ .

وَأَمَّا بِنْتُ شُعَيْبٍ فَكَانَتْ مَعَهَا الْعَلَامَةُ الْبَيِّنَةُ .

أَمَّا الْقُوَّةُ فَعَلَامَتُهَا رَفْعُ الْحَجَرِ الثَّقِيلِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَرْفَعَهُ ، وَأَمَّا الْأَمَانَةُ فَبِقَوْلِهِ لَهَا وَكَانَ يَوْمًا رِيَاحًا : امْشِي خَلْفِي لِئَلَّا تَصِفَكِ الرِّيحُ بِضَمِّ ثَوْبِكِ لَكِ ، وَأَنَا عِبْرَانِيٌّ لَا أَنْظُرُ فِي أَدْبَارِ النِّسَاءِ .

وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فِي وِلَايَةِ عُمَرَ فَبِالتَّجْرِبَةِ فِي الْأَعْمَالِ ، وَالْمُوَاظَبَةِ عَلَى الصُّحْبَةِ [وَطُولِهَا] ، وَالِاطِّلَاعِ عَلَى مَا شَاهَدَ مِنْهُ ، مِنْ

الْعِلْمِ وَالْمُنَّةِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ الْفِرَاسَةِ .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ أَشُدَّهُ ﴾ فِي لُغَتِهِ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ جَمْعٌ لَا وَاحِدَ لَهُ ، كَالْإِصْرِ وَالْأَشُرِّ .

الثَّانِي : أَنَّ وَاحِدَهُ شِدَّةٌ كَنِعْمَةٍ وَأَنْعُمٍ ؛ قَالَهُ سِيبَوَيْهِ .

الثَّالِثُ : وَاحِدُهُ شَدٌّ ، كَقَوْلِكَ قَدٌّ وَأَقُدٌّ .

الرَّابِعُ : قَالَ يُونُسُ : وَاحِدُهُ شَدٌّ ، وَهُوَ يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ .

الْخَامِسُ : أَشُدٌّ بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَالشِّينِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي تَقْدِيرِهِ : وَفِي ذَلِكَ أَقْوَالٌ كَثِيرَةٌ مِنْ الْحُلُمِ إلَى أَرْبَعِينَ سَنَةً ، أُمَّهَاتُهَا

خَمْسٌ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ مِنَ الْحُلُمِ؛ قَالَهُ الشَّعْبِيُّ، وَرَبِيعَةُ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَمَالِكٌ.

الثَّانِي: قَالَ الزَّجَّاجُ: هُوَ مِنْ سَبْعَةَ عَشَرَ عَامًا إِلَى أَرْبَعِينَ؛ وَهُوَ الْأَوَّلُ بِعَيْنِهِ، إِلَّا أَنَّهُ رَأَى أَنَّ الْحُلُمَ مِنْ سَبْعَةَ عَشَرَ عَامًا.

(24/393)

الثَّالِثُ: أَنَّهُ عِشْرُونَ سَنَةً؛ قَالَهُ الضَّحَّاكُ.

الرَّابِعُ: إِنَّهُ بِضْعٌ وَثَلَاثُونَ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ.

الْخَامِسُ: أَنَّهُ أَرْبَعُونَ؛ يُرْوَى عَنْ جَمَاعَةٍ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْحُلُمَ إِلَى خَمْسِينَ سَنَةً؛ فَإِنَّ مِنَ الْحُلُمِ يَشْتَدُّ الْآدَمِيُّ إِلَى خَمْسِينَ ثُمَّ يَأْخُذُ فِي الْقَهْقَرَى قَالَ الشَّاعِرُ: أَخُو خَمْسِينَ مُجْتَمِعٌ أَشُدِّي وَتَجْرِبِي مُدَارَاةُ الشُّؤُونِ

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾: الْحُكْمُ هُوَ الْعَمَلُ بِالْعِلْمِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ مَعْنَى تَرْتِيبِ "حُكْمٍ".

وَالْعَمَلُ بِمُقْتَضَى الْعِلْمِ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ الْبُلُوغِ، وَمَا قَبْلَهُ فِي زَمَانِ عَدَمِ التَّكْلِيفِ فَإِنَّهُ فِيهِ مَعْدُومٌ إِلَّا فِي النَّادِرِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ .

قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : قِيلَ لَهُ ، وَهُوَ صَغِيرٌ : أَلَا تَذْهَبُ تَلْعَبُ ؟ قَالَ : مَا خُلِقْتُ لِلَّعِبِ .

(25/393)

وَهَذَا إنَّمَا بَيَّنَ اللَّهُ بِهِ حَالَ يُوسُفَ مِنْ حِينِ بُلُوغِهِ بِأَنَّهُ آتَاهُ الْعِلْمَ ، وَآتَاهُ الْعَمَلَ بِمَا عَلِمَ ؛ وَخَبَرُ اللَّهِ صَادِقٌ ، وَوَصْفُهُ صَحِيحٌ ، وَكَلَامُهُ حَقٌّ ، فَقَدْ عَمِلَ يُوسُفُ بِمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْ تَحْرِيمِ الزِّنَا وَتَحْرِيمِ خِيَانَةِ السَّيِّدِ أَوْ الْجَارِ أَوْ الْأَجْنَبِيِّ فِي أَهْلِهِ ، فَمَا تَعَرَّضَ لِامْرَأَةِ الْعَزِيزِ ، وَلَا أَنَابَ إلَى الْمُرَاوَدَةِ [بِحُكْمِ الْمُرَاوَدَةِ] ؛ بَلْ أَدْبَرَ عَنْهَا ، وَفَرَّ مِنْهَا ؛ حِكْمَةٌ خُصَّ بِهَا ، وَعَمَلًا بِمُقْتَضَى مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ؛ وَهَذَا يَطْمِسُ وُجُوهَ الْجَهَلَةِ مِنْ النَّاسِ وَالْغَفَلَةِ مِنْ الْعُلَمَاءِ فِي نِسْبَتِهِمْ إلَيْهِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ ، وَأَقَلُّ مَا اقْتَحَمُوا مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ هَتَكَ السَّرَاوِيلَ ، وَهَمَّ بِالْفَتْكِ فِيمَا رَأَوْهُ مِنْ تَأْوِيلٍ ، وَحَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْت عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، بَلْ أُبَرِّئُهُ مِمَّا بَرَّأَهُ مِنْهُ ، فَقَالَ : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الَّذِينَ اسْتَخْلَصْنَاهُمْ .

وَالْفَحْشَاءُ هِيَ الزِّنَا وَالسُّوءُ هُوَ الْمُرَاوَدَةُ وَالْمُغَازَلَةُ ، فَمَا أَلَمَّ بِشَيْءٍ وَلَا أَتَى بِفَاحِشَةٍ .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ .

قُلْنَا : قَدْ تَقَصَّيْنَا عَنْ ذَلِكَ فِي كِتَابِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ شَرْحِ الْمُشْكِلَيْنِ ، وَبَيَّنَّا أَنَّ اللَّهَ [سُبْحَانَهُ] مَا

(26/393)

أَخْبَرَ عَنْهُ أَنَّهُ أَتَى فِي جَانِبِ الْقِصَّةِ فِعْلًا بِجَارِحَةٍ ، وَإِنَّمَا الَّذِي كَانَ مِنْهُ الْهَمُّ ، وَهُوَ فِعْلُ الْقَلْبِ ، فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْمُفَسِّرِينَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ، وَيَقُولُونَ : فَعَلَ ، وَفَعَلَ ؟ وَاَللَّهُ إنَّمَا قَالَ : هَمَّ بِهَا ، لَا أَقَالَهُمْ وَلَا أَقَاتَهُمْ اللَّهُ وَلَا عَالَهُمْ .

كَانَ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ إمَامٌ مِنْ أَئِمَّةِ الصُّوفِيَّةِ ، وَأَيُّ إمَامٍ ، يُعْرَفُ بِابْنِ عَطَاءٍ ، تَكَلَّمَ يَوْمًا عَلَى يُوسُفَ وَأَخْبَارِهِ حَتَّى ذَكَرَ تَبْرِئَتَهُ مِنْ مَكْرُوهِ مَا نُسِبَ إلَيْهِ ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ آخِرِ مَجْلِسِهِ وَهُوَ مَشْحُونٌ بِالْخَلِيقَةِ مِنْ كَانَ طَائِفَةٌ ، فَقَالَ لَهُ : يَا سَيِّدِي ، فَإِذَنْ يُوسُفُ هَمَّ وَمَا تَمَّ .

فَقَالَ : نَعَمْ ؛ لِأَنَّ الْعِنَايَةَ مِنْ ثَمَّ .

فَانْظُرْ إلَى حَلَاوَةِ الْعَالِمِ وَالْمُتَعَلِّمِ ، وَانْظُرْ إلَى فِطْنَةِ الْعَامِّيِّ فِي سُؤَالِهِ ، وَجَوَابِ الْعَالِمِ فِي اخْتِصَارِهِ ، وَاسْتِيفَائِهِ .

وَلِذَلِكَ قَالَ عُلَمَاءُ الصُّوفِيَّةِ : إنَّ فَائِدَةَ قَوْلِهِ : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ أَنَّ

اللَّهُ أَعْطَاهُ الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ إبَّانَ غَلَبَةِ الشَّهْوَةِ لِتَكُونَ لَهُ سَبَبًا لِلْعِصْمَةِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 ص ﴾

(27/393)

وقال ابن عطية :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾

روي أن مبتاع يوسف – وهو الوارد من إخوته أو التاجر من الوراد ، حسبما تقدم من الخلاف – ورد به مصر ، البلد المعروف ، ولذلك لا ينصرف ، فعرضه في السوق ، وكان أجمل الناس ، فوقعت فيه مزايدة حتى بلغ ثمناً عظيماً – فقيل : وزنه من ذهب ومن فضة ومن حرير فاشتراه العزيز ، وكان حاجب الملك وخازنه ، واسم الملك الريان بن الوليد ، وقيل مصعب بن الريان ، وهو أحد الفراعنة ، وقيل : هو فرعون موسى ، عمر إلى زمانه . قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، وذلك أن ظهور يوسف عليه السلام لم يكن في مدة كافر يخدمه يوسف ؛ واسم العزيز المذكور : قطفير ، قاله ابن عباس ، وقيل : أطفير ، وقيل : قنطور ؛ واسم امرأته : راعيل ، قاله ابن إسحاق ، وقيل ربيحة ، وقيل : زليخا ، وظاهر أمر العزيز أنه كان كافراً ، ويدل على ذلك كون الصنم في بيته – حسبما نذكره في البرهان

الذي رأى يوسف - وقال مجاهد : كان العزيز مسلماً .

و" المثوى " مكان الإقامة ، و" الإكرام " إنما هو لذي المثوى ، ففي الكلام استعارة وقوله : ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ ، أي بأن يعيننا في أبواب دنيانا وغير ذلك من وجوه النفع ، وقوله ﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ أي نتبناه ، وكان فيما يقال لا ولد له .

ثم قال تعالى : ﴿ وكذلك ﴾ ، أي كما وصفنا ﴿ مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه ﴾ فعلنا ذلك . و﴿ الأحاديث ﴾ : الرؤيا في النوم - قاله مجاهد - وقيل : أحاديث الأمم والأنبياء .

والضمير في ﴿ أمره ﴾ يحتمل أن يعود على يوسف ، قال الطبري ، ويحتمل أن يعود على الله عز وجل ، قاله ابن جبير ، فيكون إخباراً منبهاً على قدرة الله عز وجل ليس في شأن يوسف خاصة بل عاماً في كل أمر . وكذلك الاحتمال في قول الشاعر : [الطويل]

رأيت أبا بكر - وربك - غالب . . . على أمره يبغي الخلافة بالتمر

وأكثر الناس الذين نفي عنهم العلم هم الكفرة ، وفيهم الذين زهدوا في يوسف وغيرهم ممن جهل أمره ، وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال : أصح الناس فراسة ثلاثة : العزيز حين

قال لامرأته : ﴿ أكرمي مثواه ﴾ ، وابنة شعيب حين قالت : " استأجره ، إن خير من استأجرت القوي الأمين " وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب .

قال القاضي أبو محمد : وفراسة العزيز إنما كانت في نفس نجابة يوسف لا أنه تفرس الذي كان كما في المثالين الآخرين ، فإن ما تفرس خرج بعينه .

و" الأشد " : استكمال القوة وتناهي البأس ، أولهما البلوغ وقد عبر عنه مالك وربيعة ببنية الإنسان ، وهما أشدان : وذكره منذر بن سعيد ، والثاني : الذي يستعمله العرب وقيل : هو من ثماني عشرة سنة إلى ستين سنة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول ضعيف . وقيل : " الأشد " : بلوغ الأربعين ، وقيل : بل ستة وثلاثون . وقيل : ثلاثة وثلاثون .

قال القاضي أبو محمد : وهذا هو أظهر الأقوال –فيما نحسبه – وهو الأسبوع الخامس ، وقيل : عشرون سنة ، وهذا ضعيف . وقال الطبري : " الأشد " لا واحد له من لفظه ، وقال سيبويه : " الأشد " جمع شدة نحو نعمة وأنعم ، وقال الكسائي : " أشد " جمع شد نحو قد وأقد ، وشد النهار : معظمه وحيث تستكمل نهاريته .

وقوله : ﴿ حكماً ﴾ يحتمل أن يريد الحكمة والنبوءة ، وهذا على الأشد الأعلى ، ويحتمل الحكمة والعلم دون النبوءة ، وهذا أشبه إن كانت قصة المراودة بعد هذا . و ﴿ علماً ﴾ يريد تأويل الأحاديث وغير ذلك . ويحتمل أن يريد بقوله : ﴿ حكماً ﴾ أي

سلطاناً في الدنيا وحكماً بين الناس بالحق . وتدخل النبوة وتأويل الأحاديث وغير ذلك في قوله : ﴿ وعلماً ﴾ .

﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ ألفاظ فيها وعد للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلا يهولنك فعل الكفرة بك وعتوهم عليك فالله تعالى يصنع للمحسنين أجمل صنع . انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(29/393)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذي اشتراه مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾

قيل : الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال ؛ إذ لم يكن ذلك عقداً ، مثل : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ [البقرة : 16] .

وقيل : إنهم ظنوه في ظاهر الحال اشتراء ، فجرى هذا اللفظ على ظاهر الظن .

قال الضّحاك : هذا الذي اشتراه ملك مصر ، ولقبه العزيز .

السُّهيلي : واسمه قطفير .

وقال ابن إسحق : إطفير بن رويحب اشتراه لامرأته راعيل ؛ ذكره الماورديّ .

وقيل : كان اسمها زَلِيخَاء .

وكان الله ألقى محبة يوسف على قلب العزيز ، فأوصى به أهله ؛ ذكره القُشيريّ .

وقد ذكر القولين في اسمها الثّعلبيّ وغيره .

وقال ابن عباس : إنما اشتراه قطفير وزير ملك مصر ، وهو الريان بن الوليد .

وقيل : الوليد بن الريان ، وهو رجل من العمالقة .

وقيل : هو فرعون موسى ؛ لقول موسى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بالبينات ﴾ [غافر : 34] وأنه عاش أربعمائة سنة .

وقيل : فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف ، على ما يأتي في "غافر" بيانه .

وكان هذا العزيز الذي اشترى يوسف على خزائن الملك ؛ واشترى يوسف من مالك بن دُعْر بعشرين ديناراً ، وزاده حلة ونعلين .

وقيل : اشتراه من أهل الرّفقة .

وقيل : تزايدوا في ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مِسْكاً وعنبراً وحريراً وورِقاً وذهباً ولآلىء وجواهر لا يعلم قيمتها إلا الله ؛ فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن ؛ قاله وهب بن منبّه .

وقال وهب أيضاً وغيره : ولما اشترى مالك بن دُعْر يوسف من إخوته كتب بينهم وبينه كتاباً : هذا ما اشترى مالك بن دعر من بني يعقوب ، وهم فلان وفلان مملوكاً لهم بعشرين

درهماً ، وقد شرطوا له أنه آبق ، وأنه لا ينقلب به إلا مقيداً مسلسلاً ، وأعطاهم على ذلك عهد الله .

(30/393)

قال : فودّعهم يوسف عند ذلك ، وجعل يقول : حفظكم الله وإن ضيعتموني ، نصركم الله وإن خذلتموني ، رحِمكم الله وإن لم ترحموني ؛ قالوا : فألقت الأغنام ما في بطونها دماً عَبِيطاً لشدّة هذا التوديع ، وحملوه على قتب بغير غطاء ولا وطاء ، مقيداً مكبّلاً مسلسلاً ، فمرّ على مقبرة آل كنعان فرأى قبر أمّه وقد كان وكل به أسود يحرسه فغفل الأسود فألقى يوسف نفسه على قبر أمّه فجعل يتمرّغ ويعتنق القبر ويضطرب ويقول : يا أماه ! ارفعي رأسك تري ولدك مكبلاً مقيداً مسلسلاً مغلولاً ؛ فرّقوا بيني وبين والدي ، فاسألي الله أن يجمع بيننا في مستقرّ رحمته إنه أرحم الراحمين ، فتفقده الأسود على البعير فلم يره ، فقفا أثره ، فإذا هو ببياض على قبر ، فتأمله فإذا هو إياه ، فركضه برجله في التراب ومرغه وضربه ضرباً وجيعاً ؛ فقال له : لا تفعل ! والله ما هربت ولا أبِقت وإنما مررت بقبر أمي فأحببت أن أودّعها ، ولن أرجع إلى ما تكرهون ؛ فقال الأسود : والله إنك لعبد سوء ، تدعو أباك مرة وأمك أخرى ! فهلا كان هذا عند مواليك ؛ فرفع يديه إلى السماء وقال :

اللهم إن كانت لي عندك خطيئة أخلقت بها وجهي فأسألك بحق آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب أن تغفر لي وترحمني ؛ فضجّت الملائكة في السماء ، ونزل جبريل فقال له : يا يوسف ! غُضّ صوتك فلقد أبكيت ملائكة السماء ! أفتريد أن أقلب الأرض فأجعل عاليها سافلها ؟ قال : تثبت يا جبريل ، فإن الله حليم لا يعجل ؛ فضرب الأرض بجناحه فأظلمت ، وارتفع الغبار ، وكسفت الشمس ، وبقيت القافلة لا يعرف بعضها بعضاً ؛ فقال رئيس القافلة : من أحدث منكم حدثاً ؟ فإني أسافر منذ كيت وكيت ما أصابني قطّ مثل هذا فقال الأسود : أنا لطمت ذلك الغلام العبرانيّ فرفع يده إلى السماء وتكلم بكلام لا أعرفه ، ولا أشك أنه دعا علينا ؛ فقال له : ما أردت إلا هلاكنا ايتنا به ، فأتاه به ، فقال له : يا غلام ! لقد لطمك فجاءنا ما رأيت ؛ فإن كنت تقتص فاقتص

(31/393)

ممن شئت ، وإن كنت تعفو فهو الظنّ بك ؛ قال : قد عفوت رجاء أن يعفو الله عني ؛ فانجلت الغبرة ، وظهرت الشمس ، وأضاء مشارق الأرض ومغاربها ، وجعل التاجر يزوره بالغداة والعشي ويكرمه ، حتى وصل إلى مصر فاغتسل في نيلها وأذهب الله عنه كآبة السفر ، وردّ عليه جماله ، ودخل به البلد نهاراً فسطع نوره على الجدران ، وأوقفوه للبيع فاشتراه

قطفير وزير الملك ؛ قاله ابن عباس على ما تقدّم .

وقيل : إن هذا الملك لم يمت حتى آمن واتبع يوسف على دينه ، ثم مات الملك ويوسف يومئذ على خزائن الأرض ؛ فملك بعده قابوس وكان كافراً ، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى .

﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ أي منزله ومقامه بطيب المطعم واللباس الحسن ؛ وهو مأخوذ من ثوى بالمكان أي أقام به ؛ وقد تقدّم في "آل عمران" وغيره .

﴿ عسى أَن يَنفَعَنَا ﴾ أي يكفينا بعض المهمات إذا بلغ .

﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ قال ابن عباس : كان حَصُوراً لا يولد له ، وكذا قال ابن إسحق : كان قطفير لا يأتي النساء ولا يولد له .

فإن قيل : كيف قال "أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا" وهو ملكه ، والوَلَدِيَة مع العبدية تتناقض ؟ قيل له : يعتقه ثم يتخذه ولداً بالتّبنّي ؛ وكان التّبني في الأمم معلوماً عندهم ، وكذلك كان في أوّل الإسلام ، على ما يأتي بيانه في "الأحزاب" إن شاء الله تعالى .

وقال عبد الله بن مسعود : أحسن الناس فراسة ثلاثة ؛ العزيز حين تفرّس في يوسف فقال : ﴿ عسى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ ، وبنت شعيب حين قالت لأبيها في موسى ﴿ استأجره إِنَّ خَيْرَ مَنِ استأجرت القوي الأمين ﴾ [القصص : 26] ، وأبو بكر حين استخلف عمر .

قال ابن العربي : عجباً للمفسرين في اتفاقهم على جلب هذا الخبرا والفراسة هي علم غريب على ما يأتي بيانه في سورة "الحجر" وليس كذلك فيما نقلوه ؛ لأن الصدّيق إنما ولّى عمر بالتجربة في الأعمال ، والمواظبة على الصحبة وطولها ، والاطلاع على ما شاهد منه من العلم والمنّة ، وليس ذلك من طريق الفراسة ؛ وأما بنت شعيب فكانت معها العلامة البينة على ما يأتي بيانه في "القَصَص" ، وأما أمر العزيز فيمكن أن يجعل فراسة ؛ لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك مَكَّنّا لِيُوسُفَ فِي الأرض ﴾ الكاف في موضع نصب ؛ أي وكما أنقذناه من إخوته ومن الجبّ فكذلك مكنا له ؛ أي عطفنا عليه قلب الملك الذي اشتراه حتى تمكن من الأمر والنهي في البلد الذي المِلك مستول عليه .

﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ أي فعلنا ذلك تصديقاً لقول يعقوب : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ [يوسف : 6] .

وقيل : المعنى مكناه لنوحي إليه بكلام منا ، ونعلمه تأويله وتفسيره ، وتأويل الرؤيا ، وتم

الكلام .

﴿ واللهُ غَالِبٌ على أَمْرِهِ ﴾ الهاء راجعة إلى الله تعالى ؛ أي لا يغلب الله شيء ، بل هو الغالب على أمر نفسه فيما يريده أن يقول له : كُنْ فَيَكُونُ .

وقيل : ترجع إلى يوسف ؛ أي الله غالب على أمر يوسف يدّبره ويحوطه ولا يكِله إلى غيره ، حتى لا يصل إليه كيْدُ كائد .

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يطلعون على غيبِهِ .

وقيل : المراد بالأكثر الجميع ؛ لأن أحداً لا يعلم الغيب .

وقيل : هو مجرى على ظاهره ؛ إذ قد يُطلِع من يريد على بعض غيبه .

وقيل : المعنى "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ" أن الله غالب على أمره ، وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقَدَر .

(33/393)

وقالت الحكماء في هذه الآية : ﴿ واللهُ غَالِبٌ على أَمْرِهِ ﴾ حيث أمره يعقوب ألاّ يقصّ رؤياه على إخوته فغلب أمر الله حتى قَصّ ، ثم أراد إخوته قتله فغلب أمر الله حتى صار ملِكاً وسجدوا بين يديه ، ثم أراد الإخوة أن يخلو لهم وجه أبيهم فغلب أمر الله حتى ضاق

عليهم قلب أبيهم، وافتكره بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة، فقال: ﴿ يا أسفى عَلَى يُوسُفَ ﴾ [يوسف: 84] ثم تدبّروا أن يكونوا من بعده قوماً صالحين، أي تائبين فغلب أمر الله حتى نسوا الذنب وأصروّا عليه حتى أقرّوا بين يدي يوسف في آخر الأمر بعد سبعين سنة، وقالوا لأبيهم: "إنَّا كُنَّا خَاطِئِين" ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص (فغلب أمر الله) فلم ينخدع، وقال: "بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً" ثم احتالوا في أن تزول محبته من قلب أبيهم فغلب أمر الله فازدادت المحبة والشوق في قلبه، ثم دَبَّرت امرأة العزيز أنها إن ابتدرته بالكلام غلبته، فغلب أمر الله حتى قال العزيز: ﴿ واستغفري لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخاطئين ﴾ [يوسف: 29]، ثم دَبَّر يوسف أن يتخلّص من السجن بذكر الساقي فغلب أمر الله فنسي الساقي، ولبث يوسف في السجن بِضع سنين.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾

"أَشُدَّهُ" عند سيبويه جمع، واحده شِدّة.

وقال الكسائي: واحده شَدٌّ؛ كما قال الشاعر:

عَهْدِي به شَدَّ النّهارِ كأَنَّما . . .

خُضِبَ اللَّبانُ ورأسُه بالعِظْلِمِ

وزعم أبو عبيد أنه لا واحد له من لفظه عند العرب؛ ومعناه استكمال القوّة ثم يكون

النقصان بعد .

وقال مجاهد وقَتادة : الأَشُدّ ثلاث وثلاثون سنة .

وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك بن أنس : الأَشُدّ بلوغ الحُلُم ؛ وقد مضى ما للعلماء في هذا في "النساء" و "الأنعام" مستوفى .

(34/393)

﴿ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ﴾ قيل : جعلناه المستولي على الحكم ، فكان يحكم في سلطان الملك ؛ أي وآتيناه عِلماً بالحُكْم .

وقال مجاهد : العقل والفهم والنبوة .

وقيل : الحُكْم النبوّة ، والعِلم عِلم الدين ؛ وقيل : علم الرؤيا ؛ ومن قال : أوتي النبوّة صبِياً قال : لما بلغ أشدّه زدناه فهماً وعلماً .

﴿ وكذلك نَجْزِي المحسنين ﴾ يعني المؤمنين .

وقيل : الصابرين على النوائب كما صبر يوسف ؛ قاله الضحاك .

وقال الطبريّ : هذا وإن كان مخرجه ظاهراً على كل محسِن فالمراد به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يقول الله تعالى : كما فعلت هذا بيوسف بعد أن قاسى ما قاسى ثم أعطيته ما

أعطيته ، كذلك أنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة ، وأمكّن لك في الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(35/393)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر ﴾

يعني قطفير من أهل مصر ﴿ لأمرأته ﴾ وكان اسمها راعيل وقيل زليخا ﴿ أكرمي مثواه ﴾ يعني أكرمي منزله ومقامه عندك والمثوى موضع الإقامة وقيل أكرميه في المطعم والملبس والمقام ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ يعني إن أردنا بيعه بعناه بربح أو يكفينا بعض أمورنا ومصالحنا إذا قوي وبلغ ﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ يعني نتبناه وكان حصوراً ليس له ولد ، قال ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة العزيز في يوسف حيث قال لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وابنة شعيب في موسى حيث قالت لأبيها استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين وأبو بكر في عمر استخلفه بعده ﴿ وكذلك مكَّنّا ليوسف في الأرض ﴾ يعني كما مننا على يوسف بأن أنقذناه من القتل وأخرجناه من الجب كذلك مكناه في الأرض يعني أرض مصر فجعلناه على خزائنها ﴿ ولنعلمه من تأويل الأحاديث

﴿ أي مكنا له في الأرض لكي نعلمه من تأويل الأحاديث يعني عبارة الرؤيا وتفسيرها ﴾ والله غالب على أمره ﴾ قيل الكناية في أمره راجعة إلى الله تعالى ومعناه والله غالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا دافع لأمره ولا راد لقضائه ولا يغلبه شيء وقيل هي راجعة إلى يوسف ومعناه أن الله مستولٍ على أمر يوسف بالتدبير والإحاطة لا يكله إلى أحد سواه حتى يبلغ منتهى ما علمه فيه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ يعني ما هو صانع بيوسف وما يريد منه.

﴿ ولما بلغ أشده ﴾

(36/393)

يعني منتهى شبابه وشدته وقوته، وقال مجاهد: ثلاثة وثلاثون سنة، وقال الضحاك: عشرون سنة وقال السدي: ثلاثون سنة، وقال الكلبي: الأشد ما بين ثمان عشرة إلى ثلاثين سنة وسئل مالك عن الأشد فقال: هو الحلم ﴿ آتيناه حكماً وعلماً ﴾ يعني آتينا يوسف بعد بلوغ الأشد نبوة وفقهاً في الدين وقيل حكماً يعني أصابة في القول وعلماً بتأويل الرؤيا وقيل الفرق بين الحكيم والعالم أن العالم هو الذي يعلم الأشياء بحقائقها والحكيم هو الذي يعمل بما يوجبه العلم وقيل الحكمة حبس النفس عن هواها وصونها عما لا ينبغي

والعلم هو العلم النظري ﴿ وكذلك ﴾ يعني وكما أنعمنا على يوسف بهذه النعم كلها كذلك ﴿ نجزي المحسنين ﴾ قال ابن عباس : يعني المؤمنين وعنه أيضاً المهتدين ، وقال الضحاك : يعني الصابرين على النوائب كما صبر يوسف . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(37/393)

وقال أبو حيان فى الآيات :

﴿ وجاءت سيارة ﴾

قيل : كانوا من مدين قاصدين إلى مصر ، وقيل : في الكلام حذف تقديره : وأقام يوسف في الجب ثلاثة أيام ، وكان أخوه يهوذا يأتيه بالطعام خفية من إخوته .

وقيل : جاءت السيارة في اليوم الثاني من طرحه في الجب .

وقيل : كان التسبيح غذاءه في الجب .

قيل : وكانت السيارة تائهة تسير من أرض إلى أرض ، وقيل : سيارة في الطريق أخطؤوه فنزلوا قريباً من الجب ، وكان في قفرة بعيدة من العمران لم تكن إلا للرعاة ، وفيهم مالك بن دعر الخزاعي فأرسلوه ليطلب لهم الماء .

والوارد الذي يرد الماء ليستقي للقوم ، وإضافة الوارد للضمير كإضافته في قوله : ألقيت كاسبهم .

ليست إضافة إلى المفعول ، بل المعنى الذي يرد عليهم والذي يكسب لهم .

والظاهر أن الوارد واحد .

وقال ابن عطية : والوارد هنا يمكن أن يقع على الواحد وعلى جماعة انتهى .

وحمل على معنى السيارة في قوله : فأرسلوا ، ولو حمل على اللفظ لكان الترتيب فأرسلت واردها .

فأدلى دلوه أي : أرسلها ليستقي الماء قال : يا بشراي .

في الكلام حذف تقديره : فتعلق يوسف بحبل الدلو ، فلما بصر به المدلي قال : يا بشراي .

وتعلقه بالحبل يدل على صغره ، إذ لو كان ابن ثمانية عشر أو سبعة عشر لم يحمله الحبل غالباً ، ولفظه غلام ترجح ذلك ، إذ يطلق عليه ما بين الحولين إلى البلوغ حقيقة ، وقد يطلق على الرجل الكامل لقول ليلى الأخيلية في الحجاج بو يوسف :

غلام إذا هز القناة سقاها . . .

وقوله : يا بشراي هو على سبيل السرور والفرح بيوسف ، هذ رأى أحسن ما خلق .

وأبعد السدّي في زعمه أنّ بشرى اسم رجل ، وأضاف البشرى إلى نفسه فكأنه قال تعالى : فهذا من آونتك .

وقرأ يا بشرى بغير إضافة الكوفيون ، وروى ورش عن نافع : يا بشراي : بسكون ياء الإضافة ، وهو جمع بين ساكنين على غير حدة وتقدم تقرير مثله في ﴿ ومحياي ﴾ وقرأ أبو الطفيل ، والحسن ، وابن أبي إسحاق ، والجحدري : يا بشرى بقلب الألف ياء وإدغامها في ياء الإضافة ، وهي لغة لهذيل .

ولناس غيرهم تقدم الكلام عليها في البقرة ، في ﴿ فمن تبع هداي ﴾ قيل : ذهب به الوارد ، فلما دنا من أصحابه صاح بذلك ، فبشرهم به وأسروه .

الظاهر أنّ الضمير للسيارة التي الوارد منهم أي : أخفوه من الرفقة ، أو كتموا أمره من وجدانهم له في الجب وقالوا : دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر .

وقال ابن عباس : الضمير في وأسروه وشروه لإخوة يوسف ، وأنهم قالوا للرفقة : هذا غلام قد أبق لنا فاشتروه منا ، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ، وذلك أنه روي أن بعضهم رجع إلى الجب ليتحققوا أمر يوسف ويقفوا على الحقيقة من فقده ، فلما علموا أن الوارد قد أخذوه ، جاؤوهم وقالوا تلك المقالة .

وانتصب بضاعة على الحال أي : متجراً لهم ومكسباً .

والله عليم بما يعملون أي : لم تخف عليه أسرارهم ، وهو وعيد لهم حيث استبضغوا ما ليس لهم ، أو والله عليم بعمل أخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنع ، وفي ذلك أعظم تذكار بما فعلوا بيوسف .

قيل : أوحى الله إليه في الجب أن لا يطلع أباه ولا غيره على حاله ، لحكمة أراد مضاءها ، وظهر بعد ذلك ما جرى له من جعله على خزائن الأرض ، وإحواج أخواته إليه ، ورفع أبويه على العرش ، وما جرى مجرى ذلك مما كان مكنوناً في القدر .

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20) ﴾

شرى بمعنى باع ، وبمعنى اشترى قال يزيد بن مفرغ الحميري :

وشريت برداً ليتني . . .

من بعد برد كنت هامه

أي بعت برداً ، وبرد غلامه .

وقال الآخر :

ولو أن هذا الموت يقبل فدية . . .

شريت أبا زيد بما ملكت يدي

أي اشتريت أبا زيد .

والظاهر أن الضمير في وشروه عائد على السيارة ، أي : وباعوا يوسف .

ومن قال : إن الضمير في وأسروه عائد على إخوة يوسف جعله عائداً عليهم أي : باعوا أخاهم يوسف بثمن بخس .

وبخس مصدر وصف به بمعنى مبخوس .

وقال مقاتل : زيف ناقص العيار .

وقال عكرمة : والشعبي : قليل .

وهو معنى لزمخشري : ناقص عن القيمة نقصاً ظاهراً .

وقال ابن قتيبة : البخس الخسيس الذي بخس به البائع .

وقال قتادة : بخس ظلم ، لأنهم ظلموه في بيعه .

وقال ابن عباس وقتادة أيضاً في آخرين : بخس حرام .

وقال ابن عطاء : إنما جعله بخساً لأنه عوض نفس شريفة لا تقابل بعوض وإن جل انتهى .

وذلك أن الذين باعوه إن كانوا الواردة فإنهم لم يعطوا به ثمناً ، فما أخذوا فيه ربح كله وإن كانوا إخوته ، فالمقصود خلو وجه أبيهم منه لا ثمنه .

ودراهم بدل من ثمن ، فلم يبيعوه بدنانير .

ومعدودة إشارة إلى القلة ، وكانت عادتهم أنهم لا يزنون إلا ما بلغ أوقية وهي أربعون درهماً

، لأنّ الكثيرة يعسر فيها العد ، بخلاف القليلة .

قال عكرمة في رواية عن ابن عباس وابن إسحاق : أربعون درهماً .

وقيل : ثلاثون درهماً ، ونعلام وحلة .

وقال السدي : كانت اثنين وعشرين درهماً ، كذا نقله الزمخشري عنه ، ونقله ابن عطية عن مجاهد : أخذها إخوته درهمين درهمين ، وصاحب التحرير عنه ، وعن ابن عباس .

وقال ابن مسعود وابن عباس في رواية ، وعكرمة في رواية ، ونوف الشامي ، ووهب ، والشّعبي ، وعطية ، والسدي ، ومقاتل في آخرين : عشرون درهماً .

وعن ابن عباس أيضاً : عشرون ، وحلة ، ونعلان .

وقيل : ثمانية عشر درهماً اشتروا بها أخفافاً ونعالاً .

وقيل : عشرة دراهم ، والظاهر عود الضمير في فيه إلى يوسف أي : لم يعلموا مكانه من الله تعالى قاله : الضحاك ، وابن جريج .

وقيل : يعود على الثمن ، وزهدهم فيه لرداءة الثمن ، أو لقصد إبعاد يوسف لا الثمن .

وهذا إذا كان الضمير في وشروه وكانوا عائداً على إخوة يوسف ، فأما إذا كان عائداً على السيارة فزهدهم فيه لكونهم ارتابوا فيه ، أو لوصف إخوته له بالخيانة والإباق ، أو لعلمهم أنه حر .

وقال الزمخشري : من الزاهدين ، ممن يرغب عما في يده فيبيعه بما طف من الثمن ، لأنهم التقطوه ، والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي بما باعه ، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق فينزعه من يده فيبيعه من أول مساوم بأوكس الثمن .

ويجوز أن يكون معنى وشروه اشتروه ، يعني الرفقة من أخوته .

وكانوا فيه من الزاهدين لأنهم اعتقدوا فيه أنه آبق ، فخافوا أن يخاطروا بما لهم فيه .

ويروى أنّ أخوته اتبعوهم يقولون : استوثقوا منه لا يأبق انتهى .

وفيه تقدم نظيره في ﴿ إني لكما لمن الناصحين ﴾ وأنه خرج تعلق الجار إما باعني مضمره ، أو بمحذوف يدل عليه من الزاهدين .

أي : وكانوا زاهدين فيه من الزاهدين ، أو بالزاهدين لأنه يتسامح في الجار والظرف .

فجوز فيهما ما لا يجوز في غيرهما .

وقال الذي اشتراه من مصر : ذكروا أقوالاً متعارضة فيمن اشتراه ، وفي الثمن الذي اشتراه به ، ولا يتوقف تفسير كتاب الله على تلك الأقوال المتعارضة .

فقيل : اشتراه رجل من العماليق وقد آمن بيوسف ، ومات في حياة يوسف .

قيل : وهو إذ ذاك الملك بمصر ، واسمه الريان بن الوليد بن بروان بن أراشه بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح ، فملك بعده قابوس بن مصعب بن تمر بن السلواس بن فاران بن عمرو المذكور في نسب الريان ، فدعاه يوسف إلى الإيمان فأبى ، فاشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ، وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة ، واستوزره الريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة ، وآتاه الله الحكمة والعلم وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة .

(41/393)

وقيل : كان الملك في أيامه فرعون موسى عاش أربعمائة سنة ، بدليل قوله : ﴿ ولقد جاءكم موسى من قبل بالبينات ﴾ وقيل : فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف ، وقيل : عرض في السوق وكان أجمل الناس ، فوقعت فيه مزايدة حتى بلغ ثمناً عظيماً .

فقيل : وزنه من ذهب ومن فضة ومن حرير ، فاشتراه العزيز وهو كان صاحب الملك وخازنه ، واسم الملك الريان بن الوليد .

وقيل : مصعب بن الريان ، وهو أحد الفراعنة ، واسم العزيز قطفير ، قاله ابن عباس ، وقيل : اطفير ، وقيل : قنطور ، واسم امرأته راعيل ، وقيل : زليخا .

قال ابن عطية : وظاهر أمر العزيز أنه كان كافراً ، ويدل على ذلك كون الصنم في بيته حسبما يذكر .

وقال مجاهد : كان مسلماً ، واسم امرأة العزيز راعيل بنت رعاييل .

وقال السدي : العزيز هو الملك ، واسم امرأته زليخا بنت تمليخا ، ومثواه مكان إقامته وهو كناية عن الإحسان إليه في مأكل ومشرب وملبس .

ولام لامرأته تتعلق بقال فهي للتبليغ ، نحو قلت لك : لا باشتراه عسى أن ينفعنا ، لعله إذا تدرب وراض الأمور وعرف مجاريها نستعين به على بعض ما نحن بصدده ، فينفعنا بكفايته ، أو نتبناه ونقيمه مقام الولد ، وكان قطفير عقيماً لا يولد له ، فتفرس فيه الرشد فقال ذلك .

وكذلك أي : مثل ذلك التمكين من قلب العزيز حتى عطف عليه ، وأمر امرأته بإكرام مثواه .

مكنا ليوسف في الأرض أي : أرض مصر يتصرف فيها بأمره ونهيه ، أي : حكمناه فيها .

ولام ولنعلمه متعلقة بمحذوف ، إما قبله لتملكه ولنعلمه ، وإما بعده أي ولنعلمه من تأويل الأحاديث كان ذلك الإنجاء والتمكين ، أو الواو مقحمة أي : مكنا ليوسف في الأرض لنعلمه وكل مقول .

والأحاديث : الرّؤيا ، قاله مجاهد .

وقيل : أحاديث الأنبياء والأمم .

والضمير في على أمره الظاهر عوده على الله قاله ابن جبير ، لا يمنع عما يشاء ولا ينازع فيما يريد ، ويقضي .

أو على يوسف قاله الطبري ، أي : يديره ولا يكله إلى غيره .

(42/393)

قد أراد إخوته به ما أرادوا ، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره ، وأكثر الناس المنفى عنهم العلم هم الكفار قاله ابن عطية .

وقال الزمخشري : لا يعملون أن الأمر بيد الله ، وقيل : المراد بالأكثر الجميع أي : لا يطلعون على غيبه .

وقيل : المراد بأكثر الناس أهل مصر ، وقيل : أهل مكة .

والأشد عند سيبويه جمع واحد شدة ، وأشد كنعمة وأنعم .

وقال الكسائي : شد وأشد نحو صك وأصك ، وقال الشاعر :

عهدي به شد النهار كأنما . . .

خضب البنان ورأسه بالعظلم

وزعم أبو عبيدة أنه لا واحد له من لفظه عند العرب والأشد بلوغ الحلم قاله : الشعبي ، وربيعة ، وزيد بن أسلم ، أو سبعة عشر عاماً إلى نحو الأربعين قاله الزجاج ، أو ثمانية عشر إلى ستين أو ثمانية عشر قاله عكرمة ، ورواه أبو صالح عن ابن عباس ، أو عشرون قاله الضحاك ، أو إحدى وعشرون سنة أو ثلاثون أو ثلاثة وثلاثون قاله مجاهد وقتادة .

ورواه ابن جبير عن ابن عباس ، أو ثمان وثلاثون حكاه ابن قتيبة ، أو أربعون قاله الحسن .

وسئل الفاضل النحوي مهذب الدين محمد بن علي بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه الخيمي عن الأشد فقال : هو خمس وثلاثون ، وتمامه أربعون .

وقيل : أقصاه اثنان وستون .

والحلم الحكم ، والعلم النبوّة .

وقيل : الحكم بين الناس ، والعلم : الفقه في الدين .

وهذا أشبه لمجيء قصة المراودة بعد هذه القصة ، وكذلك أي : مثل ذلك الجزاء لمن صبر ورضي بالمقادير نجزي المحسنين .

وفيه تنبيه على أن يوسف كان محسناً في عنفوان شبابه فآتاه الله الحكم والعلم جزاء على إحسانه .

وعن الحسن : من أحسن عبادة الله في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله .

وقال ابن عباس : المحسنين المهتدين ، وقال الضحاك : الصابرين على النوائب . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(43/393)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ الذى اشتراه مِن مّصْرَ ﴾

وهو العزيز الذي كان على خزائنه واسمُه قطفيرُ أو إطفير ، وبيانُ كونِه من مصرَ لتربية ما يفرّع عليه من الأمور مع الإشعار بكونه غيرَ من اشتراه من الملتقطين بما ذكر من الثمن البخس ، وكان الملكَ يومئذ الريانُ بنُ الوليد العمليقي ومات في حياة يوسفَ عليه السلام بعد أن آمن به فملَك بعده قابوسُ بنُ مصعب فدعاه إلى الإسلام فأبى ، وقيل : كان الملكُ في أيامه فرعونَ موسى عليه السلام عاش أربعمائة سنةٍ لقوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بالبينات ﴾ وقيل : فرعونُ موسى من أولاد فرعونِ يوسف ، والآية من قبيل خطاب الأولادِ بأحوال الآباء ، واختلف في مقدار ما اشتراه به العزيز فقيل : بعشرين ديناراً وزوجَيْ نعل وثوبين أبيضين . وقيل : أدخلوه في السوق يعرِضونه فترافعوا في ثمنه حتى بلغ ثمنُه وزنَه مِسْكاً ووزنَه حريراً فاشتراه قطفيرُ بذلك المبلغ وكان سنه إذ ذاك سبعَ

عشرةَ سنة وأقام في منزله مع ما مر عليه من مدة لبثه في السجن ثلاثَ عشرةَ سنةً واستوزره الريانُ وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنة وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة ﴿ لِامْرَأَتِهِ ﴾ راعيل أو زليخا ، وقيل : اسمُها هو الأول والثاني لقبُها واللامُ متعلقةٌ بقال لا باشتراه ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ﴾ اجعلي محلَّ إقامتِه كريماً مرضياً والمعنى أحسني تعهّده ﴿ عسى أَن يَنفَعَنَا ﴾ في ضِياعنا وأموالِنا ونستظهر به في مصالحنا ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ أي نتبنّاه وكان ذلك لِما تفرّس فيه من مخايل الرشد والنجابة ، ولذلك قيل : (أفرسُ الناسِ ثلاثةٌ عزيزُ مصرَ وابنةُ شعيبٍ التي قالت : ﴿ إِحْدَاهُمَا يا أبت استجره ﴾ وأبو بكر حين استخلف عمرَ رضي الله عنهما) .

(44/393)

﴿ وكذلك ﴾ نُصب على المصدرية وذلك إشارةٌ إلى ما يفهم من كلام العزيزِ ، وما فيه من معنى البُعد لتفخيمه أي مثل ذلك التمكينِ البديع ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأرض ﴾ أي جعلنا له فيها مكاناً ، يقال : مكّنه فيه أي أثبته فيه ومكّن له فيه ، أي جعل له فيه مكاناً ، ولتقاربهما وتلازمهما يُستعمل كلٌّ منهما في محل الآخر ، قال عز وجل : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مّن قَرْنٍ مكناهم فِى الأرض مَا لَمْ نُمَكّن لَّكُمْ ﴾ أي ما لم نمكنْكم فيها أو مكنّا لهم في

الأرض الخ ، والمعنى كما جعلنا له مثوى كريماً في منزل العزيز أو مكاناً علياً في قبله حتى أمرَ امرأَته دون سائر حواشيه بإكرام مثواه جعلنا له مكانةً رفيعة في أرض مصر ، ولعله عبارةٌ عن جعله وجيهاً بين أهلها ومحبباً في قلوبهم كافة كما في قلب العزيز لأنه الذي يؤدّي إلى الغاية المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الاحاديث ﴾ أي نوفقه لتعبير بعضِ المنامات التي عُمدتُها رؤيا المِلك وصاحبَي السجنِ لقوله تعالى :

﴿ ذلكما مِمَّا عَلَّمَنِى رَبّى ﴾ سواءٌ جعلناه معطوفاً على غاية مقدرة ينساق إليها الكلامُ ويستدعيها النظامُ كأنه قيل : ومثلَ ذلك التمكينِ مكنّا ليوسف في الأرض وجعلنا قلوبَ أهلِها كافة مجالَ محبتِه ليترتب عليه ما ترتب مما جرى بينه وبين امرأةِ العزيز ولنعلمه بعضَ تأويل الأحاديثِ وهو تأويلُ الرؤيا المذكورة فيؤدّي ذلك إلى الرياسة العُظمى ، ولعل ترك المعطوفِ عليه للإشعار بعدم كونه مراداً بالذات أو جعلناه علةً لمعلل محذوفٍ كأنه قيل : ولهذه الحكمةِ البالغةِ فعلنا ذلك التمكينَ دون غيرها مما ليس له عاقبةٌ حميدة . هذا ولا يخفى عليك أن الذي عليه تدور هذه الأمورُ إنما هو التمكينُ في جانب العزيز .

(45/393)

وأما التمكينُ في جانب الناسِ كافةً فتأديتُه إلى ذلك إنما هي باعتبار اشتمالِه على ذلك التمكينِ فإذن الحق أن يكون ذلك إشارةً إلى مصدر قوله تعالى : ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ على أن يكون هو عبارةً عن التمكين في قلب العزيزِ أو في منزله ، وكونُ ذلك تمكيناً في الإرض بملابسة أنه عزيزٌ فيها لا عن تمكين آخرَ يُشبه به كما مر في قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ من أن ذلك إشارةٌ إلى مصدر الفعل المذكورِ بعده لا إلى جعل آخرَ يُقصد تشبيهُ هذا الجعْل به فالكاف مقحم للدلالة على فخامة شأن المشار إليه إقحاماً لا يكاد يترك في لغة العرب ولا في غيرها .

(46/393)

ومن ذلك قولُهم : مثلُك لا يبخل ، وهكذا ينبغي أن يُحقق المقامُ ، وأما التمكينُ بمعنى جعلِه مالكاً يتصرف في أرض مصرَ بالأمر والنهي فهو من آثار ذلك التعليم ونتائجه المتفرّعةِ كما عرفته لا من مباديه المؤديةِ إليه ، فلا سبيل إلى جعله غايةً له ولم يُعهد منه عليه السلام في تضاعيف قضاياه العمل بموجب المناماتِ المنبهة على الحوادث قبل وقوعِها عهداً مصححاً لجعله غايةً لولايته ، وما وقع من التدارك في أمر السنين فإنما هو عملٌ بموجب الرؤيا السابقةِ المعهودة اللهم إلا أن يراد بتعليم تأويلِ الأحاديث ما سبق من تفهيم غوامضِ أسرارِ

الكتبِ الإلهية ودقائقِ سننِ الأنبياء عليهم السلام فيكون المعنى حينئذ مكنا له أرضَ مصر ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه معانيَ كتب الله تعالى وأحكامَها ودقائقَ سنن الأنبياء عليهم السلام فيقضي بها فيما بين أهلها ، والتعليمُ الإجماليُّ لتلك المعاني والأحكام وإن كان غيرَ متأخرٍ عن تمكنه بذلك المعنى ألا أن تعليمَ كلِّ معنى شخصيَ يتفق في ضمن الحوادثِ والإرشادِ إلى الحق في كل نازلةٍ من النوازل متأخرٍ عن ذلك صالحٍ لأن يكون غاية له ﴿ والله غَالِبٌ على أَمْرِهِ ﴾ لا يستعصى عليه أمرٌ ولا يمانعه شيءٌ بل إنما أمرُه لشيء إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكونُ فيدخل في ذلك شؤونُه المتعلقةُ بيوسف دخولاً أولياً ، أو متولَ على أمر يوسفَ لا يكِله إلى غيره وقد أريد به من الفتنة ما أريد مرة غِبَّ مرة فلم يكن إلا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن الأمرَ كذلك فيأتون ويذرون زعماً منهم أن لهم من الأمر شيئاً وأنى لهم ذلك ، وإن الأمرَ كلَّه لله عز وجل ، أو لا يعلمون لطائفَ صنعِه وخفايا فضله .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾

أي منتهى اشتدادِ جسمه وقوتِه وهو سنُّ الوقوف ما بين الثلاثين إلى الأربعين ، وقيل : سنُّ الشباب ومبدأ بلوغِ الحُلُم والأول هو الأظهرُ لقوله تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا ﴾ حِكمةً وهو العلم المؤيَّدُ بالعمل أو حكماً بين الناس وفقهاً أو نبوة ﴿ وَعِلْماً ﴾ أي تفقهاً في الدين ، وتنكيرُهما للتفخيم أي حكماً وعلماً لا يُكتنه كُنهُهما ولا يقادَرُ قدرُهما فهما ما آتاه الله تعالى عند تكاملِ قواه سواءٌ كانا عبارةً عن النبوة والحُكم بين الناس أو غيرِهما ، كيف لا وقد جُعل إيتاؤهما جزاءً لعمله عليه السلام حيث قيل : ﴿ وكذلك ﴾ أي مثلَ الجزاءِ العجيب ﴿ نَجْزِى المحسنين ﴾ أي كلَّ من يُحسِن في عمله فيجب أن يكون ذلك بعد انقضاءِ أعمالِه الحسنةِ التي من جملتها معاناةُ الأحزان والشدائدِ ، وقد فُسّر العلمُ بعلم تأويلِ الأحاديث ، ولا صحةَ له إلا أن يُخصَّ بعلم تأويلِ رؤيا الملِك فإن ذلك حيث كان عند تناهي أيامِ البلاءِ صحّ أن يُعدَّ إيتاؤُه من جملة الجزاء ، وأما رؤيا صاحبَي السجن فقد لبث عليه السلام بعد تعبيرِها في السجن بضعَ سنين . وفي تعليق الجزاءِ المذكورِ بالمحسنين إشعارٌ بعلّية الإحسان له وتنبيهٌ على أنه سبحانه إنما آتاه ما آتاه لكونه محسناً في أعماله متّقياً في عنفوان أمرِه ﴿ هَلْ جَزَاء الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ ﴾

فهذا الشراء غير الشراء السابق الذي كان بثمن بخس ، وزعم اتحادهما ضعيف جداً وإلا ربيقى لقوله : ﴿ مِن مّصْرَ ﴾ كثير جدوى ، وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد العمليقي ومات في حياة يوسف عليه السلام بعد أن آمن به فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه إلى الايمان فأبى .

وقيل : كان الملك في أيامه فرعون موسى عليه السلام عاش أربعمائة سنة بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءكُم موسى بالبينات ﴾ [البقرة : 92] ، وقيل : فرعون موسى عليه السلام من أولاد فرعون يوسف عليه السلام ، والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء وهو الصحيح ، وظاهر أمر العزيز أنه كان كافراً .

واستدل في البحر على ذلك بكون الصنم في بيته حسبما يذكر في بعض الروايات .

وقال مجاهد : كان مؤمناً ، ولعل مراده أنه آمن بعد ذاك وإلا فكونه مؤمناً يوم الاشتراء مما لا يكاد يسلم ، نعم إنه اعتنى بأمر يوسف عليه السلام ولذا قال : ﴿ لِامْرَأَتِهِ ﴾ راعيل بنت رعابيل ، وهو المروى عن مجاهد .

وقال السدى : زليخا بنت تمليخا ، وقيل : اسمها راعيل ولقبها زليخاً ، وقيل : بالعكس ،

والجار الأول كما قال أبو البقاء : متعلق باشتراه كقولك .

اشتريته من بغداد أي فيها أو بها ، أو متعلق بمحذوف وقع حالا من الذي .

أو من الضمير في اشترى أي كائناً من أهل مصر ، والجار الثاني متعلق بقال كما أشرنا إليه لا باشتراه ومقول القول : ﴿ أَكْرِمِى ﴾ أي اجعلي محل ثوائه وإقامته كريما أي حسناً مرضيا ، وهذا كناية عن إكرامه عليه السلام نفسه على أبلغ وجه وأتمه لأن من أكرم المحل بتنظيفه وفرشه ونحو ذلك فقد أكرم ضيفه بسائر ما يكرم به ، وقيل : المثوى مقحم يقال : المجلس العالي .

(49/393)

والمقام السامي ، والمعنى أحسني تعهده والنظر فيما يقتضيه إكرام الضيف ﴿ عسى أَن يَنفَعَنَا ﴾ في قضاء مصالحنا إذا تدرب في الأمور وعرف مجاريها ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ أي نتبناه ونقيمه مقام الولد ، وكان فيما يروى عقيماف ، ولعل الانفصال لمنع الخلو .

وزعم بعضهم أنه لمنع الجمع على معنى عسى أن نبيعه فننتفع بثمنه وليس بشيء ، وكان هذا القول من العزيز لما تفرس فيه من مخايل الرشد والنجابة ، ومن ذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه فيما أخرجه سعيد بن منصور .

والحاكم وصححه .

وجماعة : أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته : ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عسى أَن يَنفَعَنَا ﴾ الخ .

والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها : ﴿ يا أبت استجره ﴾ [القصص : 26] وأبو بكر حين استخلف عمر ﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأرض ﴾ أي جعلنا له فيها مكاناً يقال : مكنه فيه أي أثبته فيه .

ومكن له فيه أي جعل له مكاناً فيه ، ولتقاربهما وتلازمهما يستعمل كل منهما في مقام الآخر قال سبحانه : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مّن قَرْنٍ مكناهم فِى الأرض مَا لَمْ نُمَكّن لَّكُمْ ﴾ [الأنعام : 6] والمراد بالمكان هنا المكانة والمنزلة لا البعد المجرد أو السطح الباطن من الحاوي المماس للسطح الظاهر من المحوى أو غير ذلك مما ذهب إليه من ذهب من الفلاسفة إن حقاً وإن باطلاً ، والإشارة إلى ما يفهم مما تقدم من الكلام وما فيه من معنى البعد لتفخيمه ، والكاف نصب على المصدرية أي كما جعلنا له مثوى كريماً في منزل العزيز أو مكاناً علياً في قلبه حتى أمر امرأته دون سائر حواشيه بإكرام مثواه جعلنا له مكانة رفيعة في أرض مصر ، وفسر الجعل المذكور بجعله وجيهاً فيما بين أهل مصر ومحبباً في قلوبهم بناءاً على أنه الذي يؤدي إلى الغاية المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الاحاديث ﴾ أي بعض تعبير الرؤيا التي عمدتها رؤيا الملك .

وصاحبي السجن ، وروي هذا المعنى عن مجاهد ، وهو الظاهر كما يرشد إليه قوله عليه السلام ﴿ ذلك مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى ﴾ [يوسف : 37] سواء جعل معطوفاً على غاية مقدرة ينساق إليها الكلام ويستدعيها النظام كأنه قيل : ومثل ذلك التمكين البديع مكنا ليوسف في الأرض وجعلنا قلوب أهلها كافة محال محبته ليترتب على ذلك ما يترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز .

ولنعلمه بعض تأويل الأحاديث فيؤدي ذلك إلى الرتبة العليا والرياسة العظمى ، ولعل ترك المعطوف عليه للاشعار بعدم كونه مراداً أو جعل علة لمحذوف كأنه قيل : ولهذه الحكمة البالغة فعلنا ذلك التمكين لا لشيء غيرها مما ليس له عاقبة حميدة .

واختار بعض المحققين كون ذلك إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعده ، والكاف مقحمة للدلالة على تأكيد فخاة شأن المشار إليه على ما ذكروا في ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : 143] والمراد به التمكين في قلب العزيز أو في منزلة وكون ذلك تمكيناً في الأرض بملابسة أنه عزيز فيها لما أن الذي عليه يدور تلك الأمور إنما هو التمكين في جانب

العزيز ، وأما التمكين في جانب الناس كافة فتأديته إليها إنما هي باعتبار اشتماله على ذلك التمكين ، ولا يخفى أن حمل التمكين في الأرض على التمكين في قلب العزيز .

(51/393)

أو في منزله خلاف الظاهر ، وكذا حمله على ما تقدم ، ولعل الظاهر حمله على جعله ملكاً يتصرف في أرض مصر بالأمر والنهي إلا أن في جعل التعليم المذكور غاية له خفاء لأن ذلك الجعل من آثاره ونتائجه المتفرعة عليه دون العكس ولم يعهد منه عليه السلام في تضاعيف قضاياه العمل بموجب الرأيا المنبهة على الحوادث قبل وقوعها عهداً مصححاً لجعله غاية لذلك وام وقع من التدارك في أمر السنين فإنما هو عمل بموجب الرؤيا السابقة المعهودة وإرادة ليظهر تعليمنا له كما ترى ، وكأن من ذهب إلى ذلك لأنه الظاهر أراد بتعليم تأويل الأحاديث تفهيم غوامض أسرار الكتب الإلهية ودقائق سنن الأنبياء عليهم السلام فيكون المعنى حينئذ مكنا له في أرض مصر ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه معاني كتب الله تعالى وأحكامها ودقائق سنن الأنبياء عليهم السلام فيقضي بها بين أهلها ، والتعليم الإجمالي لتلك الأحاديث وإن كان غير متأخر عن تمكينه بذلك المعنى إلا أن تعليم كل معنى

شخصي يتفق في ضمن الحوادث والإرشاد إلى الحق في كل نازلة من النوازل متأخر عن ذلك صالح لأن يكون غاية له ، وأدرج بعضهم الإنجاء تحت الاشارة بذلك ، وفيه بحث فتدبر .

(52/393)

﴿ والله غَالِبٌ على أَمْرِهِ ﴾ لا يمنع عما يشاء ولا ينازع فيما يريد بل إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون ، ويدخل في عموم المصدر المضاف شؤونه سبحانه المتعلقة بيوسف عليه السلام دخولاً أولياً أو متول على أمر يوسف عليه السلام فيدبره ولا يكله إلى غيره ، وإلى رجوع ضمير أمره إلى الله تعالى ذهب ابن جبير ، وإلى رجوعه إلى يوسف عليه السلام ذهب القرطبي ، وأياً مّا كان فالكلام على ما في الكشف تذييل أما على الأول فلجريه مجرى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقاً ﴾ [الإسراء : 81] من سابقه لأنه لما كان غالباً على جميع أموره لا يزاحمه أحد ولا يمتنع عليه مراد كانت إرادته تمكين يوسف وكيت وكيت ، والوقوع رضيعي لبان ، وأما على الثاني فلأن معناه أنه الغالب على أمره يتولاه بلطيف صنعه وجزيل إحسانه وإذا جاء نهر الله تعالى بطل نهر معقل فأين يقع كيد الاخوة وغيرهم كامرؤة العزيز موقعه فهو كقوله

: وعلام أركبه إذا لم أنزل . . .

من سابقه أعنيفدعوا نزال فكنت أول نازل

والآية على الأول صريحة في مذهب أهل السنة ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن الأمر كذلك فيما يأتون ويذرون زعماً منهم أن لهم من الأمر شيئاً ، وأنى لهم ذلك ؟! وأن الأمر كله لله عز وجل ، أو لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا فضله ، والمراد بأكثر الناس قيل : الكفار ، ونقل ذلك عن ابن عطية .

وقيل : أهل مصر ، وقيل : أهل مكة ، وقيل : الأكثر بمعنى الجميع ، والمراد أن جميع الناس لا يطلعون على غيبه تعالى ، والأولى أن يبقى على ما يتبادر منه ولا يقتصر في تفسيره على ما تضمنته الأقوال قبل ، بل يراد به من نفى عنه العلم بما تقدم كائناً ما كان ، ولا يبعد أن يندرج في عمومه أهل الاعتزال .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾

(53/393)

أي بلغ زمان انتهاء اشتداد جسمه وقوته وهو سن الوقوف عن النمو المعتد به أعني ما بين الثلاثين والأربعين ، وسئل القاضي النحوي مهذب الدين محمد بن علي بن علي بن أبي طالب الخيمي عنه ، فقال : هو خمس وثلاثون سنة وتمامه أربعون .

وقال الزجاج : هو سبعة عشر عاماً إلى نحو الأربعين ، وعن مجاهد .

وقتادة ورواه ابن جبير عن ابن عباس أنه ثلاثة وثلاثون .

أو ثلاثون .

أو أحد وعشرون ، وقال الضحاك : عشرون ، وحكى ابن قتيبة أنه ثمان وثلاثون .

وقال الحسن : أربعون ، والمشهور أن الإنسان يقف جمسه عن النمو إذا بلغ ذلك ، وإذا

وقف الجسم وقفت القوى والشمائل والأخلاق ولذا قيل :

إذا المرء وفي الأربعين ولم يكن . . .

له دون ما يهوى حياء ولا ستر

فدعه ولا تنفس عليه الذي مضى . . .

وإن جر أسباب الحياة له العمر

وقيل : أقصى الأشد إثنان وستون ، وإلى كون الأشد منتهى الشباب والقوة قبل أن يؤخذ

في النقصان ذهب أبو عبيدة .

وغيره من ثقات اللغويين ، واستظهره بعض المحققين ، وهو عند سيبويه جمع واحده شدة

كنعمة .

وأنعم وقال الكسائي .

والفراء : إنه جمع شدّ نحو صك .

وأصك ، وفلس .

وأفلس وهذا على ما ذكر أبو حاتم يوجب أن يكون مؤنثاً لأن كل جميع على أفعل مؤنث .

وزعم عن أبي عبيدة أنه لا واحد له من لفظه عند العرب ، وقال الفراء : أهل البصرة

يزعمون أنه اسم واحد لكنه على بناء ندر في المفردات وقلما رأينا اسماً على أفعل إلا وهو

جمع ﴿ ءاتيناه حُكْماً ﴾ أي حكمة وهي في لسان العشر العلم النافع المؤيد بالعمل لأنه

بدونه لا يعتدّ به ، والعمل بخلاف العلم سفه ، أو حكماً بين الناس ﴿ وَعِلْماً ﴾ يعني علم

تأويل الرؤيا ، وخص بالذكر لأنه غير داخل فيما قبله ، أو أفراد بالذكر لأنه مما له شأن

وليوسف عن هواها وصونها عما لا ينبغي .

والعلم هو العلم النظري ، وقيل : أراد بالحكمة الحكم بين الناس .

(54/393)

وبالعلم العلم بوجوه المصالح فإن الناس كانوا إذا تحاكموا إلى العزيز أمره بأن يحكم بينهم لما

رأى من عقله وإصابته في الرأي .

وعن ابن عباس أن الحكم النبوة .

والعلم الشريعة وتنكيرهما للتفخيم أي حكماً وعلماً لا يكتنه كنههما ولا يقادر قدرهما ،

وتعقب كون المراد بالعلم العلم بتأويل الأحاديث بأن قوله سبحانه : ﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿ نَجْزِى المحسنين ﴾ أي كل من يحسن في علمه يأباه لأن ذلك لا يصلح أن يكون جزاءاً لأعماله الحسنة التي من جملتها معاناة الأحزان والشدائد إلا أن يخص بعلم تأويل رؤيا الملك فإن ذلك حيث كان عند تناهي أيام البلاء صح أن يعد إيتاءه من جملة الجزاء ؛ وأما رؤيا صاحبي السجن فقد لبث عليه السلام بعد تعبيرها في السجن بضع سنين ، وفي تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعار بعلية الإحسان له وتنبيه على أنه تعالى إنما آتاه ما آتاه لكونه محسناً في أعماله متقناً في عنفوان أمره ، ومن هنا قال الحسن : من أحسن عبادة الله سبحانه في شبيبته آتاه الله تعالى الحكمة في اكتهاله ، واستشكل ما أفاده تعليق الحكم بالمشتق من العلية على تقدير أن يراد من الحكمة العلم المؤيد بالعمل مثلاً بأن إحسان العمل لا يكون إلا بعد العلم به فلو كان العلم المؤيد به مثلاً علة للإحسان بذلك لزم الدور .

وأجيب بأن إحسان العمل يمكن أن يكون بطريق آخر كالتقليد والتوفيق الإلهي فيكون سبباً للعلم به عن دليل عقلي أو سمعي ، أو المراد الأعمال الغير المتوقفة على السمع فيكون ذلك السبب للعلم بما شرع له من الأعمال ، وقال بعض المحققين : الظاهر تغاير العلمين كما في الأثر " من عمل بما علم يسر الله تعالى له علم ما لم يعلم " وعن الضحاك تفسير (المحسنين) بالصابرين على النوائب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾

هذا شروع في حكاية خلاص يوسف ، وما كان بعد ذلك من خبره ، وقد تقدم تفسير السيارة ، والمراد بها هنا : رفقة مارة تسير من الشام إلى مصر ، فأخطؤا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريباً من الجبّ ، وكان في قفرة بعيدة من العمران .

والوارد : الذي يرد الماء ليستقي للقوم ، وكان اسمه فيما ذكر المفسرون مالك بن ذعر من العرب العاربة ﴿ فأدلى دَلْوَهُ ﴾ أي : أرسله ، يقال : أدلى دلوه إذا أرسلها ليملأها ، ودلاها : إذا أخرجها ، قاله الأصمعي وغيره .

فتعلق يوسف بالحبل ، فلما خرج الدلو من البئر أبصره الوارد فقال " يا بشراي " هكذا قرأ أهل المدينة وأهل مكة وأهل البصرة ، وأهل الشام بإضافة البشرى إلى الضمير .

وقرأ أهل الكوفة ﴿ يا بشرى ﴾ غير مضاف ، ومعنى مناداته للبشرى : أنه أراد حضورها في ذلك الوقت ، فكأنه قال : هذا وقت مجيئك وأوان حضورك .

وقيل : إنه نادى رجلاً اسمه بشرى .

والأوّل أولى .

قال النحاس : والمعنى من نداء البشرى للتبشير لمن حضر ، وهو أوكد من قولك بشرته كما تقول يا عجبا أي : يا عجب هذا من أيامك فاحضر .

قال : وهذا مذهب سيبويه ﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ أي : أسرّ الوارد وأصحابه الذين كانوا معه يوسف فلم يظهروه لهم .

وقيل : إنهم لم يخفوه ، بل أخفوا وجدانهم له في الجبّ ، وزعموا أنه دفعه إليهم أهل الماء ليبيعوه لهم بمصر .

وقيل : ضمير الفاعل في ﴿ أسرّوه ﴾ لإخوة يوسف ، وضمير المفعول ليوسف ، وذلك أنه كان يأتيه أخوه يهوذا كل يوم بطعام ، فأتاه يوم خروجه من البئر فأخبر إخوته فأتوا الرفقة وقالوا : هذا غلام أبق منا فاشتروه منهم ، وسكت يوسف مخافة أن يأخذوه فيقتلوه ، والأوّل أولى .

وانتصاب ﴿ بضاعة ﴾ على الحال : أي أخفوه حال كونه بضاعة أي : متاعاً للتجارة ، والبضاعة : ما يبضع من المال ، أي : يقطع منه ، لأنها قطعة من المال الذي يتجر به ، قيل : قاله لهم الوارد وأصحابه أنه بضاعة استبضعناها من الشام مخافة أن يشاركوهم فيه ، وفي قوله : ﴿ واللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ وعيد شديد لمن كان فعله سبباً لما وقع فيه يوسف من المحن وما صار فيه من الابتذال بجري البيع والشراء فيه ، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم ، كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم في وصفه بذلك .

قوله : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دراهم مَعْدُودَةٍ ﴾ يقال : شراه بمعنى اشتراه ، وشراه بمعنى باعه .

قال الشاعر :

وشريت برداً ليتني . . . من بعد برد كنت هامه

أي : بعته .

وقال آخر :

فلما شراها فاضت العين عبرة . . . أي اشتراها .

والمراد هنا : وباعوه ، أي : باعه الوارد وأصحابه ﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ أي : ناقص ، أو زائف ، وقيل : يعود إلى إخوة يوسف على القول السابق ، وقيل : عائد إلى الرفقة ، والمعنى

: اشتروه .

وقيل : بخس ظلم ، وقيل : حرام .

قيل : باعوه بعشرين درهماً ، وقيل : بأربعين ، و ﴿ دراهم ﴾ بدل من ثمن أي : دنانير ، و ﴿ معدودة ﴾ وصف لدراهم ، وفيه إشارة إلى أنها قليلة تعدّ ولا توزن ؛ لأنهم كانوا لا يزنون ما دون أوقية وهي أربعون درهماً ، ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزاهدين ﴾ يقال : زهدت وزهدت بفتح الهاء وكسرها .

قال سيبويه والكسائي : قال أهل اللغة : يقال : زهد فيه أي رغب عنه ، وزهد عنه أي : رغب فيه .

والمعنى : أنهم كانوا فيه من الراغبين عنه الذين لا يبالون به ، فلذلك باعوه بذلك الثمن البخس ؛ وذلك لأنهم التقطوه ، والملتقط للشيء متهاون به ، والضمير من ﴿ كانوا ﴾ يرجع إلى ما قبله على حسب اختلاف الأقوال فيه .

(57/393)

﴿ وَقَالَ الذى اشتراه مِن مّصْرَ ﴾ هو العزيز الذي كان على خزائن مصر ، وكان وزيراً لملك مصر ، وهو الريان بن الوليد من العمالقة .

وقيل : إن الملك هو فرعون موسى ، قيل : اشتراه بعشرين ديناراً ، وقيل : تزايدوا في ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مسكاً وعنبراً وحريراً وورقاً وذهباً ولآلىء وجواهر ، فلما اشتراه العزيز قال : ﴿ لِامْرَأَتِهِ ﴾ واللام متعلقة ب ﴿ اشتراه ﴾ ، ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ أي : منزله الذي يثوى فيه بالطعام الطيب واللباس الحسن .

يقال : ثوى بالمكان أي : أقام به ﴿ عسى أَن يَنفَعَنَا ﴾ أي : يكفينا بعض المهمات مما نحتاج إلى مثله فيه ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ أي : نتبناه فنجعله ولداً لنا .

قيل : كان العزيز حصوراً لا يولد له ، وقيل : كان لا يأتي النساء ، وقد كان تفرّس فيه أنه ينوب عنه فيما إليه من أمر المملكة .

قوله : ﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ الكاف في محل نصب على أنه نعت مصدر محذوف ، والإشارة إلى ما تقدّم من إنجائه من إخوته وإخراجه من الجبّ ، وعطف قلب العزيز عليه أي : مثل ذلك التمكين البديع مكنا ليوسف حتى صار متمكناً من الأمر والنهي ، يقال : مكنه فيه أي أثبته فيه ، ومكن له فيه أي : جعل له فيه مكاناً ، ولتقارب المعنيين يستعمل كل واحد منهما مكان الآخر .

قوله : ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ هو علة لمعلل محذوف كأنه قيل : فعلنا ذلك التمكين لنعلمه من تأويل الأحاديث ، أو كان ذلك الإنجاء لهذه العلة ، أو معطوف على مقدّر ، وهو أن يقال : مكنا ليوسف ليترتب على ذلك ما يترتب مما جرى بينه وبين امرأة

العزيز ، ﴿ ولنعلمه من تأويل الأحاديث ﴾ ؛ ومعنى تأويل الأحاديث : تأويل الرؤيا ، فإنها كانت من الأسباب التي بلغ بها ما بلغ من التمكن ، وقيل : معنى تأويل الأحاديث فهم أسرار الكتب الإلهية وسنن من قبله من الأنبياء ، ولا مانع من حمل ذلك على الجميع .

(58/393)

﴿ والله غَالِبٌ على أَمْرِهِ ﴾ أي : على أمر نفسه لا يمتنع منه شيء ، ولا يغالبه عليه غيره من مخلوقاته

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [ياس : 82] .

ومن جملة ما يدخل تحت هذا العام كما يفيد ذلك إضافة اسم الجنس إلى الضمير ، ما يتعلق بيوسف عليه السلام من الأمور التي أرادها الله سبحانه في شأنه .

وقيل : معنى ﴿ والله غَالِبٌ على أَمْرِهِ ﴾ أنه كان من أمر يعقوب أن لا يقصّ رؤيا يوسف على إخوته ، فغلب أمر الله سبحانه حتى قصت عليهم حتى وقع منهم ما وقع ، وهذا بعيد جدّاً ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : لا يطلعون على غيب الله وما في طيه من الأسرار العظيمة والحكم النافعة ، وقيل : المراد بالأكثر : الجميع ؛ لأنه لا يعلم الغيب إلاّ الله .

وقيل إن الله سبحانه قد يطلع بعض عبيده على بعض غيبه ، كما في قوله : ﴿ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن : 26 – 27] .

وقيل : المعنى ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الله غالب على أمره ، وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر .

قوله : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ الأشدّ .

قال سيبويه : جمع واحدة شدّة ، وقال الكسائي : واحده شدّ .

وقال أبو عبيد : إنه لا واحد له من لفظه عند العرب ، ويردّه قول الشاعر :

عَهدي به شدَّ النهارِ كأنما . . . خُضِبَ البنانَ ورأسه بالعظْلم

والأشدّ : هو وقت استكمال القوة ، ثم يكون بعده النقصان .

قيل : هو ثلاث وثلاثون سنة ، وقيل بلوغ الحلم ، وقيل : ثماني عشرة سنة ، وقيل غير ذلك مما قد قدمنا بيانه في النساء والأنعام .

والحكم : هو ما كان يقع منه من الأحكام في سلطان ملك مصر ، والعلم : هو العلم بالحكم الذي كان يحكمه ؛ وقيل : العقل والفهم والنبوّة ؛ وقيل : الحكم هو النبوّة ، والعلم : هو العلم بالدين .

وقيل : علم الرؤيا ، ومن قال : إنه أوتي النبوة صبياً قال : المراد بهذا الحكم والعلم الذي آتاه الله هو الزيادة فيهما .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ أي : ومثل ذلك الجزاء العجيب نجزي المحسنين ، فكل من أحسن في عمله أحسن الله جزاءه .

وجعل عاقبة الخير من جملة ما يجزيه به .

وهذا عام يدخل تحته جزاء يوسف على صبره الحسن دخولاً أولياً .

قال الطبري : هذا وإن كان مخرجه ظاهراً على كل محسن فالمراد به محمد صلى الله عليه وسلم ، يقول الله تعالى كما فعل هذا بيوسف ثم أعطيته ما أعطيته كذلك أنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة ، وأمكن لك في الأرض .

والأولى ما ذكرناه من حمل العموم على ظاهره فيدخل تحته ما ذكره ابن جرير الطبري .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ عن الضحاك في قوله : ﴿ وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ ﴾ قال : جاءت سيارة فنزلت على الجبّ ﴿ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ ﴾ فاستسقى الماء فاستخرج يوسف ، فاستبشروا بأنهم أصابوا غلاماً لا يعلمون علمه ولا منزلته من ربه ، فزهدوا فيه فباعوه ، وكان بيعه حراماً ، وباعوه بدراهم معدودة .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ فَأَرْسَلُواْ

وَارِدَهُمْ ﴾ يقول : فأرسلوا رسولهم ﴿ فأدلى دَلْوَهُ ﴾ فنشب الغلام بالدلو ، فلما خرج ﴿ قَالَ هذا غُلَامٌ ﴾ تباشروا به حين استخرجوه ، وهي بئر ببيت المقدس معلوم مكانها .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن السدّي في قوله : ﴿ يا بشراي ﴾ قال : كان اسم صاحبه بشرى كما تقول : يا زيد ، وهذا على ما فيه من البعد لا يتم إلاّ على قراءة من قرأ ﴿ يا بشرى ﴾ بدون إضافة .

وأخرج أبو الشيخ عن الشعبي نحوه .

(60/393)

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بضاعة ﴾ يعني : إخوة يوسف أسرّوا شأنه ، وكتموا أن يكون أخاهم ، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته ، واختار البيع فباعه إخوته بثمن بخس .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن مجاهد قال : أسرّه التجار بعضهم من بعض .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عنه ﴿ وَأَسَرُّوهُ بضاعة ﴾ قال : صاحب الدلو ومن معه ، قالوا لأصحابهم : إنا استبضعناه

خيفة أن يشركوهم فيه إن علموا به ، واتبعهم إخوته يقولون للمدلى وأصحابه : استوثقوا منه لا يأبق حتى وقفوا بمصر ، فقال : من يبتاعني ويبشر ، فابتاعه الملك والملك مسلم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ قال : إخوة يوسف باعوه حين أخرجه المدلي دلوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : بيع بينهم بثمن بخس ، قال : حرام لم يحلّ لهم بيعه ، ولا أكل ثمنه .

وأخرج ابن جرير عن قتادة ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ قال : هم السيارة .

وأخرج أبو الشيخ عن عليّ بن أبي طالب أنه قضى في اللقيط أنه حرّ ، وقرأ ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : البخس القليل .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن الشعبي مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : إنما اشتري يوسف بعشرين درهماً ، وكان أهله حين أرسل إليهم بمصر ثلاثمائة وتسعين إنساناً : رجالهم أنبياء ، ونساؤهم صدّيقات ، والله ما خرجوا مع موسى حتى بلغوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً .

وقد روي في مقدار ثمن يوسف غير هذا المقدار مما لا حاجة إلى التطويل بذكره .

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَقَالَ الذى اشتراه مِن مّصْرَ ﴾ قال: كان اسمه قطفير.

وأخرج أبو الشيخ عن شعيب الجبائي: أن اسم امرأة العزيز زليخا.

(61/393)

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق قال: الذي اشتراه أطيفير بن روحب، وكان اسم امرأته راعيل بنت رعاييل.

وأخرج ابن جرير، وابن إسحاق، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: اسم الذي باعه من العزيز مالك بن زعر.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ﴾ قال: منزلته.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة مثله.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرّس في يوسف، فقال لامرأته: ﴿ أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾، والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها: ﴿ يا أبت استأجره ﴾ [

القصص : 26] ، وأبو بكر حين استخلف عمر .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله : ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ قال : عبارة الرؤيا .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري في كتاب الأضداد ، والطبراني في الأوسط ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ قال : ثلاثاً وثلاثين سنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : أربعين سنة .

وأخرج عن عكرمة قال : خمسا وعشرين سنة .

وأخرج عن السدّي قال : ثلاثين سنة .

وأخرج عن سعيد بن جبير قال : ثماني عشرة سنة .

وأخرج عن ربيعة قال : الحلم .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن الشعبي نحوه .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : عشرين سنة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ قال : هو الفقه والعلم والعقل قبل النبوّة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ قال : المهتدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(62/393)

وقال القاسمى :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾

يخبر تعالى عن لطفه بيوسف ، إذ يسر له من اشتراه في مصر ، فاعتنى به ، وأوصى أهله ، وتوسم فيه الخير والصلاح . ومعنى : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ اجعلي مقامه حسناً مرضياً .

و (المثوى) محل الثواء ، وهو الإقامة .

قال الشهاب : وإكرام مثواه كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمه ؛ لأن من أكرم المحل بإحسان الأسرة ، واتخاذ الفراش ونحوه ، فقد أكرم ضيفه بسائر ما يكرم به . أو (المثوى) مقحم . كما يقال : المقام السامي .

روي أن القافلة لما نزلت مصر اشتراه منهم رئيس الشرط عند ملك مصر ، فأقام في بيت سيده ، والعناية الربانية تحفه ، والنجاح يحوطه ، فكان يرى سيده أن كل ما يأتي به ينجحه الله تعالى على يده ، فنال حظوة لديه ، وأقامه قيما على كل ما يملكه ، وضاعف تعالى

البركة في زرعه وماله وحوزته .

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ أي : كما جعلنا له مثوى كريماً في منزل العزيز وقلبه ، جعلنا له تصرفاً بالأمر والنهي ، ومكانة رفيعة في أرض مصر ، ووجاهة في أهلها ، ومحبة في قلوبهم ، ليكون عاقبة ذلك تعليمه تأويل الرؤيا التي ستقع من الملك ، وتفضي بيوسف إلى الرياسة العظمى .

﴿ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ أي : لا يُمنع عما يشاء ولا يُنازع فيما يريد . أو على أمر يوسف ، أريد به من الفتنة ما أريد غير مرة ، فلم يكن إلا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : أن الأمر كله بيده ، فيأتون ويذورن زعماً أن لهم شيئاً من الأمر . أو لا يعلمون لطائف صنعه ، وخفايا لطفه .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

(63/393)

هذه الآية كالتي قبلها ، تخللت تضاعيف نظم القصة لمعنى بديع ، وهو البدار إلى الإعلام بنتائج صبر يوسف ، وثمرات مجاهداته ، وعجائب صنع الله تعالى في مراداته ، إذ طوى له المنح في تلك المحن ، وذخر له السيادة في تلك العبودية . ومعنى : ﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي :

زمان اشتداد جسمه وقوته .

قال أبو عبيدة : العرب تقول : بلغ فلان أشده ، إذا انتهى منتهاه في شبابه وقوته قبل أن يأخذ في النقصان . و (الحكم) إما الحكمة وهو العلم المؤيد بالعمل ، أو الحكم بين الناس .

قال الزمخشري : وفي قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ تنبيه على أنه كان محسناً في عمله ، متقياً في عنفوان أمره ، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه .

وعن الحسن : من أحسن عبادة ربه في شبيبته ، آتاه الله الحكمة في اكتهاله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 168. 169 ﴾

(64/393)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ) .

هَاتَانِ الْآيَتَانِ فِي اسْتِعْبَادِ قَافِلَةٍ مِنَ التُّجَّارِ لِيُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَالِاتِّجَارِ بِهِ .

(65/393)

(وَجَاءَتْ) ذَلِكَ الْمَكَانَ الَّذِي كَانُوا فِيهِ (سَيَّارَةٌ) صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ مِنَ السَّيْرِ (كَجَوَّالَةٍ ، وَكَشَّافَةٍ) أَيْ جَمَاعَةٌ أَوْ قَافِلَةٌ . وَفِي سِفْرِ التَّكْوِينِ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ أَيْ مِنَ الْعَرَبِ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمُ الْمُخْتَصَّ بِوُرُودِ الْمَاءِ لِلِاسْتِقَاءِ لَهُمْ (فَأَدْلَى دَلْوَهُ) أَيْ أَرْسَلَهُ وَدَلَّاهُ فِي ذَلِكَ الْجُبِّ فَتَعَلَّقَ بِهِ يُوسُفُ ، فَلَمَّا خَرَجَ وَرَآهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ يُبَشِّرُ بِهِ جَمَاعَتَهُ السَّيَّارَةَ قَرَأَهَا الْجُمْهُورُ (يَا بُشْرَايَ) بِالْإِضَافَةِ إِلَى يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ ، وَالْكُوفِيُّونَ بِدُونِهَا ، وَأَمَالَ أَلِفَهَا حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ . وَنِدَاءُ الْبُشْرَى مَعْنَاهُ أَنَّ هَذَا وَقْتُهَا وَمُوجِبُهَا فَقَدْ آنَ لَهَا أَنْ تَحْضُرَ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُمْ : يَا أَسَفَى وَيَا أَسَفِي ، وَيَا حَسْرَتَا وَيَا حَسْرَتِي ، إِذَا وَقَعَ مَا هُوَ سَبَبٌ لِذَلِكَ . فَاسْتَبْشَرَ بِهِ السَّيَّارَةُ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً أَيْ أَخْفَوْهُ مِنَ النَّاسِ لِئَلَّا يَدَّعِيَهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمَكَانِ ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَكُونَ بِضَاعَةً لَهُمْ مِنْ جُمْلَةِ تِجَارَتِهِمْ ، وَالْبِضَاعَةُ مَا يُقْطَعُ مِنَ الْمَالِ وَيُفْرَزُ لِلِاتِّجَارِ بِهِ ، مُشْتَقٌّ مِنَ الْبَضْعِ وَهُوَ الشَّقُّ وَالْقَطْعُ ، وَمِنْهُ الْبِضْعَةُ وَالْبِضْعُ مِنَ الْعَدَدِ وَهِيَ مِنْ ثَلَاثٍ إِلَى تِسْعٍ ، وَالْبَضْعَةُ مِنَ اللَّحْمِ وَهِيَ الْقِطْعَةُ . وَمَا قِيلَ مِنْ أَنَّ الَّذِينَ أَسَرُّوهُ هُمُ الْوَارِدُ الَّذِي اسْتَخْرَجَهُ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ دُونَ سَائِرِ السَّيَّارَةِ ، أَوْ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي : (وَأَسَرُّوهُ) لِإِخْوَةِ يُوسُفَ فَهُوَ خِلَافُ

الظَّاهِرِ (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) أَيْ بِمَا يَعْمَلُهُ هَؤُلَاءِ السَّيَّارَةُ وَمَا يَعْمَلُهُ إِخْوَةُ يُوسُفَ، فَلِكُلٍّ مِنْهُمْ أَرَبٌ فِي يُوسُفَ: السَّيَّارَةُ يَدَّعُونَ بِالْبَاطِلِ أَنَّهُ عَبْدٌ لَهُمْ فَيَتَّجِرُونَ بِهِ، وَإِخْوَةُ يُوسُفَ أَمْرُهُمْ مَعَ أَبِيهِمْ فِي إِخْفَائِهِ وَتَغْرِيبِهِ وَدَعْوَى أَكْلِ الذِّئْبِ إِيَّاهُ مَعْلُومٌ وَأَنَّهُ كَيْدٌ بَاطِلٌ، وَحِكْمَةُ اللَّهِ - تَعَالَى - فِيهِ فَوْقَ كُلِّ ذَلِكَ.

(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ) شَرَى الشَّيْءَ يَشْرِيهِ بَاعَهُ وَاشْتَرَاهُ ابْتَاعَهُ، أَيْ بَاعُوهُ بِثَمَنٍ قَلِيلٍ نَاقِصٍ عَنْ ثَمَنِ مِثْلِهِ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ، هُوَ دَرَاهِمُ لَا دَنَانِيرُ، مَعْدُودَةٌ لَا مَوْزُونَةٌ، وَإِنَّمَا يُعَدُّ الْقَلِيلُ، وَيُوزَنُ الْكَثِيرُ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَزِنُ مَا بَلَغَ الْأُوقِيَّةَ وَهِيَ أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا فَمَا فَوْقَهَا وَتَعُدُّ مَا دُونَهَا، وَلِهَذَا

(67/393)

يُعَبِّرُونَ عَنِ الْقَلِيلَةِ بِالْمَعْدُودَةِ، وَالْبَخْسُ فِي اللُّغَةِ النَّاقِصُ وَالْمَعِيبُ (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) 7: 85 وَرُوِيَ تَفْسِيرُهُ هُنَا بِالْحَرَامِ وَبِالظُّلْمِ لِأَنَّهُ بَيْعُ حُرٍّ، فَيَكُونُ وَصْفُهُ بِدَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ مُسْتَقِلًّا لَا تَفْسِيرًا لِبَخْسٍ، وَظَاهِرُ النَّظْمِ أَنَّ الَّذِينَ شَرَوْهُ هُمُ السَّيَّارَةُ. وَفِي سِفْرِ التَّكْوِينِ أَنَّ إِخْوَتَهُ قَرَّرُوا بَيْعَهُ لِلْإِسْمَاعِيلِيِّينَ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ مِنَ الْجُبِّ جَمَاعَةٌ مِنْ مَدْيَنَ وَبَاعُوهُ لَهُمْ وَقَدْ بَعُدَ ذِكْرُهُمْ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لَفْظُ وَشَرَوْهُ وَقَدِ اسْتُعْمِلَ بِمَعْنَى

اشْتَرَوْهُ وَهُوَ مَسْمُوعٌ ، وَيَكُونُ الْمُرَادُ أَنَّهُمُ اشْتَرَوْهُ مِنْ إِخْوَتِهِ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ثُمَّ بَاعُوهُ فِي مِصْرَ بِثَمَنٍ بَخْسٍ أَيْضًا ، وَهُوَ إِدْمَاجٌ مِنْ دَقَائِقِ الْإِيجَازِ ، وَأَمَّا الثَّمَنُ الْبَخْسُ الَّذِي بِيعَ بِهِ فَفِي سِفْرِ التَّكْوِينِ أَنَّهُ كَانَ عِشْرِينَ (شَاقِلًا) مِنَ الْفِضَّةِ ، وَقَدَّرَ عُلَمَاءُ التَّارِيخِ الْقَدِيمِ الشَّاقِلَ بِخَمْسَةَ عَشَرَ غَرَامًا مِنَ الْوَزْنِ الْعَشْرِيِّ اللَّاتِينِيِّ الْمَعْرُوفِ فِي عَصْرِنَا

(68/393)

فَيَكُونُ ثَمَنُهُ 300 غَرَامٍ مِنَ الْفِضَّةِ ، وَهِيَ تَقْرُبُ مِنْ 94 دِرْهَمًا مِنْ دَرَاهِمِنَا الْيَوْمَ ، وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّهُ عِشْرُونَ دِرْهَمًا وَلَعَلَّهُ سَمِعَهُ عَنِ الْيَهُودِ فَظَنَّ أَنَّ الْعِشْرِينَ عِنْدَهُمْ هِيَ الدَّرَاهِمُ عِنْدَ الْعَرَبِ (وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) أَيْ وَكَانَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ بَاعُوهُ مِنَ الرَّاغِبِينَ عَنْهُ الَّذِينَ يَبْغُونَ الْخَلَاصَ مِنْهُ لِئَلَّا يَظْهَرَ مَنْ يُطَالِبُهُمْ بِهِ لِأَنَّهُ حُرٌّ ، وَالثَّمَنُ لَمْ يَكُنْ مَقْصُودًا لَهُمْ وَلِهَذَا قَنِعُوا بِالْبَخْسِ مِنْهُ .

حَادِثَةُ يُوسُفَ مَعَ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ :

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) .

هَاتَانِ الْآيَتَانِ تَمْهِيدٌ لِلْقِصَّةِ فِي وِجْهَةِ نَظَرِ مُشْتَرِيهِ فِيهِ، وَتَمْكِينِ اللَّهِ لَهُ وَتَعْلِيمِهِ وَغَلَبِهِ عَلَى أَمْرِهِ وَإِيتَائِهِ حُكْمًا وَعِلْمًا وَشَهَادَتِهِ بِإِحْسَانِهِ .

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ) لَمْ يُبَيِّنِ الْقُرْآنُ اسْمَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنَ السَّيَّارَةِ فِي مِصْرَ وَلَا مَنْصِبَهُ وَلَا اسْمَ امْرَأَتِهِ ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ كِتَابَ حَوَادِثَ وَتَارِيخٍ ، وَإِنَّمَا قَصَصُهُ حِكَمٌ وَمَوَاعِظُ وَعِبَرٌ وَتَهْذِيبٌ ، وَلَكِنَّ وَصْفَهُ النِّسْوَةِ فِيمَا يَأْتِي بِلَقَبِ الْعَزِيزِ - وَهُوَ اللَّقَبُ الَّذِي صَارَ لَقَبَ يُوسُفَ بَعْدَ أَنْ تَوَلَّى إِدَارَةَ الْمُلْكِ فِي مِصْرَ - فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَقَبُ أَكْبَرِ وُزَرَاءِ الْمَلِكِ . وَلِلْمُفَسِّرِينَ أَقْوَالٌ فِي اسْمِهِ وَاسْمِ مَلِكِ مِصْرَ لَيْسَ لِلْقُرْآنِ شَأْنٌ فِيهَا . وَفِي سِفْرِ التَّكْوِينِ أَنَّهُ كَانَ رَئِيسَ الشُّرَطِ وَحَامِيَةَ الْمَلِكِ وَنَاظِرَ السُّجُونِ ، وَأَنَّ اسْمَهُ فُوطِيفَارُ ، وَوُصِفَ فِيهِ بِالْخَصِيِّ ، وَلَكِنَّ الْخِصْيَانَ لَا يَكُونُ لَهُمْ أَزْوَاجٌ . فَقِيلَ فِي تَصْحِيحِهِ : لَعَلَّهُ لَقَبٌ لَا يُقْصَدُ بِهِ هَذَا الْمَعْنَى . وَقَدْ تَفَرَّسَ هَذَا الْوَزِيرُ الْكَبِيرُ فِي يُوسُفَ أَصْدَقَ الْفِرَاسَةِ إِذْ وَصَّى امْرَأَتَهُ بِإِكْرَامِ مَثْوَاهُ ، وَالْمَثْوَى : مَصْدَرٌ وَاسْمُ مَكَانٍ مِنْ ثَوَى بِالْمَكَانِ يَثْوِي (كَرَمَى

يَرْمِي ثَوَاءَ أَيْ أَقَامَ ، فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْوَصِيَّةُ إِكْرَامَهُ وَحُسْنَ مُعَامَلَتِهِ فِي كُلِّ مَا يَخْتَصُّ بِإِقَامَتِهِ ، بِحَيْثُ يَكُونُ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ وَلَا يَكُونُ كَالْعَبِيدِ وَالْخَدَمِ ، وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَمَلِهِ وَرَجَائِهِ فِيهِ وَهُوَ : (عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا) بِالْقِيَامِ بِبَعْضِ شُؤُونِنَا الْخَاصَّةِ أَوْ شُؤُونِ الدَّوْلَةِ الْعَامَّةِ لِمَا يَلُوحُ عَلَيْهِ مِنْ مَخَايِلِ الذَّكَاءِ وَالنَّبَاهَةِ (أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) فَيَكُونُ قُرَّةَ عَيْنٍ لَنَا وَوَارِثًا لِمَجْدِنَا وَمَالِنَا ، إِذَا تَمَّ رُشْدُهُ وَصَدَقَتْ فِرَاسَتِي فِي نَجَابَتِهِ ، وَفُهِمَ مِنْ هَذَا الرَّجَاءِ أَنَّ الْعَزِيزَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَمَا كَانَ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ لَهُ ، وَرُوِيَ أَنَّهُ كَانَ عَقِيمًا . وَكَانَ رَجَاؤُهُ هَذَا كَرَجَاءِ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ مُوسَى فِيهِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَكَانَتْ صَالِحَةً مُلْهَمَةً ، وَأَمَّا الْعَزِيزُ فَكَانَ ذَكِيًّا صَادِقَ الْفِرَاسَةِ فَاسْتَدَلَّ مِنْ كَمَالِ خَلْقِ يُوسُفَ وَخُلُقِهِ ، وَذَكَائِهِ وَحُسْنِ خِلَالِهِ ، عَلَى أَنَّ حُسْنَ عِشْرَتِهِ وَكَرَمَ وِفَادَتِهِ وَشَرَفَ تَرْبِيَتِهِ ، خَيْرُ مُتَمِّمٍ لِحُسْنِ اسْتِعْدَادِهِ الْفِطْرِيِّ ، إِذْ لَا يُفْسِدُ أَخْلَاقَ الْأَذْكِيَاءِ إِلَّا الْبِيئَةُ الْفَاسِدَةُ وَسُوءُ

الْقُدْوَةِ ، وَمَا كَانَ إِلَّا صَادِقَ الْفِرَاسَةِ (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) أَيْ وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ مِنَ التَّدْبِيرِ وَالتَّسْخِيرِ جَعَلْنَا لِيُوسُفَ مَكَانَةً عَالِيَةً فِي أَرْضِ مِصْرَ ، كَانَ هَذَا الْعَطْفُ

عَلَيْهِ وَالرَّجَاءُ فِيهِ مِنْ هَذَا الْعَزِيزِ مَبْدَأُهَا ؛ لِيَقَعَ لَهُ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ فِي السِّجْنِ مَا يَقَعُ مِنَ التَّجَارِبِ ، وَالِاتِّصَالِ بِسَاقِي الْمَلِكِ فَيَكُونُ وَسِيلَةً لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ (وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) كَتَعْبِيرِ الرُّؤْيَا وَمَعْرِفَةِ حَقَائِقِ الْأُمُورِ مَا يَنْتَهِي بِهِ إِلَى الْغَايَةِ مِنْ هَذَا التَّمْكِينِ ، وَقَوْلُهُ لِلْمَلِكِ : (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) 55 وَقَوْلُ الْمَلِكِ لَهُ : (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) 54 ، (وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ) أَيْ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ يُرِيدُهُ وَيُقَدِّرُهُ ، فَلَا يُغْلَبُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ بَلْ يَقَعُ كَمَا أَرَادَ ، فَكُلُّ مَا وَقَعَ لِيُوسُفَ مِنْ إِخْوَتِهِ وَمِنْ مُسْتَرِقِّيهِ وَبَائِعِيهِ ، وَمِنْ تَوْصِيَةِ الَّذِي اشْتَرَاهُ لِامْرَأَتِهِ بِإِكْرَامِ مَثْوَاهُ مِمَّا وَقَعَ لَهُ مَعَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ وَفِي السِّجْنِ ، قَدْ كَانَ مِنْ أَسْبَابِ مَا أَرَادَهُ - تَعَالَى - لَهُ مِنْ تَمْكِينِهِ فِي الْأَرْضِ ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِ يُوسُفَ ، فَهُوَ يُدَبِّرُهُ وَيُلْهِمُهُ الْخَيْرَ وَلَا يَكِلُهُ إِلَى تَدْبِيرِ نَفْسِهِ وَاتِّبَاعِ هَوَاهُ (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أَنَّهُ - تَعَالَى - غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ بَلْ يَأْخُذُونَ بِظَوَاهِرِ الْأُمُورِ

، كَمَا اسْتَدَلَّ إِخْوَةُ يُوسُفَ بِإِبْعَادِهِ عَلَى أَنْ يَخْلُوَ لَهُمْ وَجْهُ أَبِيهِمْ وَيَكُونُوا مِنْ بَعْدِ بُعْدِهِ عَنْهُمْ قَوْمًا صَالِحِينَ ، وَيُقَالُ الْأَكْثَرُ فِي هَذَا الْمَقَامِ يَعْقُوبُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ

غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ، وَأَقْوَالُهُ صَرِيحَةٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى عِلْمِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْهَا وَمَا تَأَخَّرَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ ، وَلَكِنَّ عِلْمَهُ كُلِّيٌّ إِجْمَالِيٌّ لَا يُحِيطُ بِتَفْصِيلِ الْجُزْئِيَّاتِ الْمَخْبُوءَةِ فِي مَطَاوِي الْأَقْدَارِ كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ .

بُدِئَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ بِبَيَانِ إِيتَاءِ اللهِ الْحُكْمَ وَالْعِلْمَ لِيُوسُفَ عِنْدَ اسْتِكْمَالِ سِنِّ الشَّبَابِ وَبُلُوغِ الْأَشُدِّ ، وَأَنَّ هَذَا الْعَطَاءَ جَزَاءٌ مِنْهُ - سُبْحَانَهُ - لَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ فِي سِيرَتِهِ مُنْذُ سِنِّ التَّمْيِيزِ لَمْ يَكُنْ مُسِيئًا فِي شَيْءٍ قَطُّ ، وَخُتِمَتْ بِشَهَادَتِهِ - تَعَالَى - بِمَا كَانَ مِنِ اقْتِنَاعِ الْعَزِيزِ بِبَرَاءَتِهِ مِنَ الْخَطِيئَةِ وَالْتِيَاثِ امْرَأَتِهِ بِهَا وَحْدَهَا . قَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ) أَيْ رُشْدَهُ وَكَمَالَ قُوَّتِهِ وَشِدَّتِهِ بِاسْتِكْمَالِ نُمُوِّهِ الْبَدَنِيِّ وَالْعَقْلِ (آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) أَيْ وَهَبْنَاهُ حُكْمًا إِلْهَامِيًّا وَعَقْلِيًّا بِمَا يَعْرِضُ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ

مِنَ النَّوَازِلِ وَالْمُشْكِلَاتِ مَقْرُونًا بِالْحَقِّ وَالصَّوَابِ ، وَعِلْمًا لَدُنِّيًّا وَفِكْرِيًّا بِحَقَائِقِ مَا يَعْنِيهِ مِنَ الْأُمُورِ ، وَهَذِهِ السِّنُّ فِي عُرْفِ الْأَطِبَّاءِ تَتِمُّ فِي خَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً ، وَلِأَهْلِ اللُّغَةِ وَرُوَاةِ التَّفْسِيرِ فِيهَا أَقْوَالٌ : فَعَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهَا خَمْسٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً ، وَلَعَلَّهُ أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِهِ - تَعَالَى - فِي كَمَالِ الْبِنْيَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ : (حَتَّى إِذَا بَلَغَ

أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً) 46 : 15 فجعلها درجتين : بُلوغ الْأَشُدّ ، وبُلوغ الْأَرْبعين وهي سِنّ الاستِوَاء . كما قال في موسى : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) 28 : 140 فالأوّل مَبْدأ اسْتِكمال النُّموّ العضلي والْعصبيّ والثّاني مُسْتَوَاهُ ، وبه يتمّ الاستعدادُ للنّبوّة ووحي الرّسالة . وقد ثبت عن علماء النّفس والاجتماع أنّ الإنسان يظهر استعداده العقليّ والعلميّ بالتّدريج ، حتّى إذا بلغ خمسًا وثلاثين سنةً لا يظهر فيه شيءٌ جديدٌ من العلم الكسبيّ غير ما يظهر من بدء سنّ التّمييز إلى هذه السّنّ ، وإنّما يكمل ما كان ظهر منه إذا هو ظلّ مُزاولًا له ومُشتغلًا بتكميله ، وقد بيّنا ذلك في تفسير قوله تعالى : (فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) 10 : 16 وفصّلناه في كتاب (الوحي

الْمُحمّديّ) وقد ظهر حُكم يوسف وعلمه بعد بُلوغ أشدّه في مصر كما يأتي تفصيله في مواضعه (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) أي وكذلك شأننا وسُنّتنا في جزاء المُتحلّين بصفة الإحسان ، الثّابتين عليه بالأعمال ، الّذين لم يُدنّسوا فطرتهم ولم يُدسّوا أنفسهم بالإساءة في أعمالهم ، نُؤتيهم نصيبًا من الحُكم بالحقّ والعدل ، والعلم الّذي يزيّنه ، ويُظهره القول

الْفَصْلُ ، فَيَكُونُ لِكُلِّ مُحْسِنٍ حَظُّهُ مِنَ الْحُكْمِ الصَّحِيحِ وَالْعِلْمِ النَّافِعِ بِقَدْرِ إِحْسَانِهِ ، وَبِمَا يَكُونُ لَهُ مِنْ حُسْنِ التَّأْثِيرِ فِي صَفَاءِ عَقْلِهِ ، وَجَوْدَةِ فَهْمِهِ وَفِقْهِهِ ، غَيْرَ مَا يَسْتَفِيدُهُ بِالْكَسْبِ مِنْ غَيْرِهِ ، لَا يُؤْتَى مِثْلَهُ الْمُسِيئُونَ بِاتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ وَطَاعَةِ شَهَوَاتِهِمْ . (وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ : وَهَذَا وَإِنْ كَانَ مَخْرَجُ ظَاهِرِهِ عَلَى كُلِّ مُحْسِنٍ فَالْمُرَادُ بِهِ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ لَهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : كَمَا فَعَلْتُ هَذَا بِيُوسُفَ مِنْ بَعْدِ مَا لَقِيَ مِنْ إِخْوَتِهِ مَا لَقِيَ . . . . فَكَذَلِكَ أَفْعَلُ بِكَ فَأُنَجِّيكَ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِكَ الَّذِينَ يَقْصِدُونَكَ بِالْعَدَاوَةِ ، وَأُمَكِّنُ لَكَ فِي الْأَرْضِ) إِلَخْ . وَأَقُولُ : لَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ السُّنَّةَ فِي جَزَاءِ الْمُحْسِنِينَ عَامَّةٌ ، وَلِكُلِّ مُحْسِنٍ مِنْهَا بِقَدْرِ إِحْسَانِهِ . وَإِذَنْ يَكُونُ حَظُّ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَعْظَمَ مِنْ حَظِّ يُوسُفَ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 12 صـ 223.226 ﴾

(75/393)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ الذى اشتراه مِن مّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عسى أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ .

﴿ الذي اشتراه ﴾ مراد منه الذي دفع الثمن فملكه وإن كان لم يتول الاشتراء بنفسه ، فإن

فعل الاشتراء لا يدل إلاّ على دفع العوض ، بحيث إن إسناد الاشتراء لمن يتولى إعطاء الثمن وتسلم المبيع إذا لم يكن هو مالك الثمن ومالك المبيع يكون إسناداً مجازياً ، ولذلك يكتب الموثّقون في مثل هذا أن شراءه لفلان .

والذي اشترى يوسفَ عليه السّلام رجل اسمه (فوطيفار) رئيس شرط ملك مصر ، وهو والي مدينة مصر ، ولقّب في هذه السورة بالعزيز ، وسيأتي .

ومدينة مصر هي (منفيس) ويقال : (منف) وهي قاعدة مصر السفلى التي يحكمها قبائل من الكنعانيين عرفوا عند القبط باسم (الهيكسوس) أي الرعاة .

وكانت مصر العليا المعروفة اليوم بالصعيد تحت حكم فراعنة القبط .

وكانت مدينتها (ثيبة أو طيبة) ، وهي اليوم خراب وموضعها يسمّى الأقصر ، جمع قصر ، لأن بها أطلال القصور القديمة ، أي الهياكل .

وكانت حكومة مصر العليا أيامئذٍ مستضعفة لغلبة الكنعانيين على معظم القطر وأجوده .

وامرأته تسمّى في كتب العرب (زَلِيخا) بفتح الزاي وكسر اللام وقصر آخره وسماها اليهود (راعيل) .

و﴿ من مصر ﴾ صفة ل ﴿ الذي اشتراه ﴾ .

و﴿ لامرأته ﴾ متعلق بـ ﴿ قال ﴾ أو بـ ﴿ اشتراه ﴾ أو يتنازعه كلا الفعلين ، فيكون اشتراه ليهبه لها لتتخذه ولداً .

وهذا يقتضي أنهما لم يكن لهما ولد .

وامرأته : معناه زوجه ، فإن الزوجة يطلق عليها اسم المرأة ويراد منه معنى الزوجة .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وامرأته قائمة فضحكت ﴾ [سورة هود : 71] .

والمثوى : حقيقته المحل الذي يَثوي إليه المرء ، أي يرجع إليه .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ قال النار مثواكم ﴾ في سورة الأنعام (128) .

وهو هنا كناية عن حال الإقامة عندهما لأن المرء يثوَى إلى منزل إقامته .

(76/393)

فالمعنى : اجعلي إقامته عندك كريمة ، أي كاملة في نوعها .

أراد أن يجعل الإحسان إليه سبباً في اجتلاب محبته إياهما ونصحه لهما فينفعهما ، أو يتخذانه ولداً فيبرّبهما وذلك أشد تقريباً .

ولعله كان آيساً من ولادة زوجه .

وإنما قال ذلك لحسن تفرّسه في ملامح يوسف عليه السّلام المؤذنة بالكمال ، وكيف لا يكون رجلاً ذا فراسة وقد جعله الملك رئيس شرطته ، فقد كان الملوك أهل حذر فلا يولون أمورهم غير الأكفاء .

﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الاحاديث والله غَالِبٌ على أَمْرِهِ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

إن أجرينا اسم الإشارة على قياس كثير من أمثاله في القرآن كقوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً ﴾ في سورة البقرة (143) كانت الإشارة إلى التمكين المستفاد من ﴿ مكّنا ليوسف ﴾ تنويهاً بأن ذلك التمكين بلغ غاية ما يطلب من نوعه بحيث لو أريد تشبيهه بتمكين أتم منه لما كان إلا أن يشبّه بنفسه على نحو قول النابغة :

والسفاهة كاسمها

فيكون الكاف في محل نصب على المفعول المطلق .

والتقدير : مكنا ليوسف تمكيناً كذلك التمكين .

وإن أجرينا على ما يحتمله اللفظ كانت لحاصل المذكور آنفاً ، وهو ما يفيده عثور السيارة عليه من أنه إنجاء له عجيب الحصول بمصادفة عدم الإسراع بانتشاله من الجب ، أي مكنا ليوسف عليه السّلام تمكيناً من صنعنا ، مثل ذلك الإنجاء الذي نجيناه ، فتكون الكاف في موضع الحال من مصدر مأخوذ من ﴿ مكّنا ﴾ .

ونظيره ﴿ كذلك زيّنا لكل أمةٍ عملهم ﴾ في سورة الأنعام (108) .

والتمكين في الأرض هنا مراد به ابتداؤه وتقدير أول أجزائه ، فيوسف عليه السّلام بحلوله محل العناية من عزيز مصر قد خُطّ له مستقبل تمكينه من الأرض بالوجه الأتّم الذي أشير له بقوله تعالى بعد : ﴿ وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض يتبوّأ منها حيث يشاء ﴾ [سورة يوسف : 56] ، فما ذكر هنالك هو كردّ العجز على الصدر مما هنا ، وهو تمامه .

وعطف على وكذلك ﴾ علة لمعنى مستفاد من الكلام ، وهو الإيتاء ، تلك العلة هي ﴿ ولنعلّمه من تأويل الأحاديث ﴾ لأن الله لما قدّر في سابق علمه أن يجعل يوسف عليه السّلام عالماً بتأويل الرؤيا وأن يجعله نبيئاً أنجاه من الهلاك ، ومكن له في الأرض تهيئة لأسباب مراد الله .

وتقدم معنى تأويل الأحاديث آنفاً عند ذكر قول أبيه له : ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ [سورة يوسف : 6] أي تعبير الرؤيا .

وجملة والله غالب على أمره ﴾ معترضة في آخر الكلام ، وتذييل ، لأن مفهومها عامّ يشمل غَلَبَ الله إخوةَ يوسف عليه السّلام بإبطال كيدهم ، وضمير ﴿ أمره ﴾ عائد لاسم الجلالة .

وحرف ﴿ على ﴾ بعد مادة الغلب ونحوها يدخل على الشيء الذي يتوقع فيه النزاع ، كقولهم : غلبناهم على الماء .

و ﴿ أمرُ الله ﴾ هو ما قدّره وأراده ، فمن سعى إلى عمل يخالف ما أراده الله فحاله كحال المنازع على أن يحقق الأمر الذي أراده ويمنع حصول مراد الله تعالى ولا يكون إلا ما أراده الله تعالى فشأن الله تعالى كحال الغالب لمنازعه .

والمعنى والله متمم ما قدره ، ولذلك عقّبه بالاستدراك بقوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ استدراكاً على ما يقتضيه هذا الحكم من كونه حقيقة ثابتة شأنها أن لا تجعل لأن عليها شواهد من أحوال الحدثان ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك مع ظهوره .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

هذا إخبار عن اصطفاء يوسف عليه السّلام للنبوءة .

(78/393)

ذكر هنا في ذكر مبدأ حلوله بمصر لمناسبة ذكر منّة الله عليه بتمكينه في الأرض وتعليمه تأويل الأحاديث .

والأشدُّ : القوة .

وفسر ببلوغه ما بين خمس وثلاثين سنة إلى أربعين .

والحكم والحكمة مترادفان ، وهو : علم حقائق الأشياء والعمل بالصالح واجتناب ضده .

وأريد به هنا النبوءة كما في قوله تعالى في ذكر داود وسليمان عليهما السّلام ﴿ وكلاًّ آتينا حكماً وعلماً ﴾ [سورة الأنبياء : 79] .

والمراد بالعلم علم زائد على النبوءة .

وتنكير علماً ﴾ للنوعية ، أو للتعظيم .

والمراد : علم تعبير الرؤيا ، كما سيأتي في قوله تعالى عنه : ﴿ ذلكما مّما علّمني ربي ﴾ [سورة يوسف : 37] .

وقال فخر الدين : الحكم : الحكمةُ العملية لأنها حكمٌ على هدى النفس .

والعلمُ : الحكمةُ النظرية .

والقول في وكذلك نجزي المحسنين ﴾ كالقول في نظيره ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً ﴾ في سورة البقرة (143) .

وفي ذكر المحسنين ﴾ إيماء إلى أنّ إحسانه هو سبب جزائه بتلك النعمة .

وفي هذا الذي دبّره الله تعالى تصريح بآية من الآيات التي كانت في يوسف عليه السّلام وإخوته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(79/393)

وقال الشيخ الشعراوي :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾

وكان للشراء عِلَّة ؛ فهو قد اشتراه لامرأته ليقوم بخدمتها ، وكانت لا تنجب وتكثر في الإلحاح عليه في طلب العلاج ، وتقول أغلب السير : إن من اشتراه كان ضعيفاً من ناحية رغبته في النساء .

وهذه اللقطة تبين لنا الفساد الذي ينشأ في البيوت التي تتبنى طفلاً ، لكنهم لا يحسبون حساب المسألة حين يبلغ هذا الطفل مبلغ الرجال ، وقد تعوَّد أن تحمله ربة البيت وتُقبِّله ، وتغدق عليه من التدليل ما يصعب عليها أن تمتنع عنه ؛ ولأن الطفل يكبر انسيابياً ؛ فقد يقع المحظور وندخل في متاهة الخطيئة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الذي اشتراه مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عسى أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ [يوسف : 21] .

وهذا يعني أن تعتني بالمكان الذي سيقيم فيه ، وبطبيعة الحال فهذا القول يقتضي أن تعتني بالولد نفسه ؛ على رجاء أن ينتفع به الرجل وزوجته .

ولسائل أن يقول : كيف ينتفع به الرجل ؛ وهو عزيز مصر ، والكُلُّ في خدمته ؟

ونقول : إن النفع المقصود هنا هو النفع الموصول بعاطفة مَنْ ينفع ؛ وهو غير نفع الموظفين

العاملين تحت قيادة وإمرة عزيز مصر ، فعندما ينشأ يوسف كابن للرجل وزَوْجه ؛ وكإنسان تربَّى في بيت الرجل ؛ هنا ستختلف المسألة ، ويكون النفع مُحمَّلاً بالعاطفة التي قال عنها الرجل :

﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ [يوسف : 21] .

وقد عَلِمنا من السِّيَر أنهما لم يُرزَقا بأولاد .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث والله غَالِبٌ على أَمْرِهِ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : 21] .

(80/393)

وقد بدأ التمكين في الأرض من لحظة دخوله إلى بيت عزيز مصر ليحيا حياة طيبة ؛ وليعلمه الله تأويل الحديث ؛ بأن يهبه القدرة على تفسير الرُّؤى والأحلام ؛ وليغلب الله على أمره .

ولو نظر إخوته إلى ما آل إليه يوسف عليه السلام فسيعرفون أن مرادهم قد خاب ؛ وأن مراد الله قد غلب ؛ بإكرام يوسف ؛ وهم لو علموا ذلك لَضنّوا عليه بالإلقاء في الجُبِّ ، وهذا شأن الظالمين جميعاً .

ولذلك نقول : إن الظالم لو عَلِم ما أعدَّه الله للمظلوم لَضَنَّ عليه بالظلم .

وساعة يقول الحق سبحانه :

﴿ واللهُ غَالِبٌ على أَمْرِهِ . . . ﴾ [يوسف : 21] .

فهذا قول نافذ ؛ لأنه وحده القادر على أن يقول للشيء كُنْ فيكون ؛ ولا يوجد إله غيره ليرد على مراده .

ولذلك قلنا قديماً : إن الله سبحانه وتعالى قد شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو ؛ وهو يملك الرصيد المطلق المؤكد بأنه لا إله غيره ؛ فهو وحده الذي له المُلْك ، وهو وحده القادر على كل شيء .

ولكن خيبة بعض من الخلق الذين يتوهمون أنهم قادرون على أن يُخطِّطوا ويمكروا ؛ متناسين أو ناسين أن فوقهم قيُّوم ؛ لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولو انتبه هؤلاء لَعلِموا أن الله يُملِّك بحق مَنْ يُظلم فوق إلى ظَلمه .

ورأينا في حياتنا وتاريخنا ظالمين اجتمعوا على ظُلْم الناس ؛ وكان مصيرهم أسوأ من الخيال ؛ وأشد هَوْلاً من مصيرهم لو تحكم فيهم مَنْ ظلموهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ . . . ﴾ .

والبلوغ هو الوصول إلى الغاية ، وقوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ [يوسف : 22] أي : وصل إلى غايته في النُّضْج والاستواء ؛ ومن

كلمة " بلغ " أخذ مصطلح البلوغ ؛ فتكليف الإنسان يبدأ فَوْرَ أن يبلغ أشده ؛ ويصير في قدرة أن ينجب إنساناً مثله .

(81/393)

وحين يبلغ إنسانٌ مثل يوسف أشده ، وهو قد عاش في بيت ممتليء بالخيرات ؛ فهذا البلوغ إنْ لم يكُنْ محروساً بالحكمة والعلم ؛ ستتولد فيه رعونة ؛ ولهذا فقد حرسه الحق بالحكمة والعلم .

والحُكْم هو الفيصل بين قضيتين متعاندتين متعارضتين ؛ حق وباطل ؛ وما دام قد أعطاه الله الحُكْم ، فهو قادر على أن يفصل بين الصواب والخطأ .

وقد أعطاه الله العلم الذي يستطيع أن ينقله إلى الغير ، والذي سيكون منه تأويل الرؤى ، وغير ذلك من العلم الذي سوف يظهر حين يولى على خزانة مصر .

إذن : فهنا بلغ يوسف أشده وحرسه الحق بالحكمة والعلم . ويُذيِّل الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ وكذلك نَجْزِي المحسنين ﴾ [يوسف : 22] .

وكل إنسان يُحسِن الإقامة لِمَا هو فيه ؛ يعطيه الله ثمرة هذا الحُسْن ، والمثل : حين لا يتأبى

فقير على قَدَرِ الله أن جعله فقيراً ، ويحاول أن يُحسن ويُتقِن ما يعمل ، فيوضح الله بحُسْن الجزاء : أنت قبلت قدري ، وأحسنت عملك ؛ فخُذْ الجزاء الطيب . وهذا حال عظماء الدنيا كلهم .

وهكذا نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وكذلك نَجْزِي المحسنين ﴾ [يوسف : 22] .

لا ينطبق على يوسف وحده ؛ بل على كل مَنْ يحسن استقبال قَدَرِ الله ؛ لأنه سبحانه ساعة يأتي بحُكْم من الأحكام ؛ وبعد ذلك يعمِّم الحكم ؛ فهذا يعني أن هذا الحكم ليس خاصاً بل هو عام .

وإذا كان الحق سبحانه يورد هذا في مناسبة بعينها ، فإنه يقرر بعدها أن كل مُحْسِن يعطيه الله الحُكْم والعلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ . . ﴾ [يوسف : 22] .

يوحي لنا أن يوسف عليه السلام كان قد بلغ مرحلة الفتوة ، وهنا بدأت متاعبه في القَصْر ، ففي طفولته نظرتْ إليه امرأة العزيز كطفل جميل ؛ فلم يكُنْ يملك ملامح الرجولة التي تهيج أنوثتها .

أما بعد البلوغ فنجد حالها قد تغيَّر ، فقد بدأت تدرك مفاتنه ؛ وأخذ خيالها يسرح فيما هو أكثر من الإدراك ، وهو التهاب الوجدان بالعاطفة المشبوبة ، وما بعد الإدراك والوجدان يأتي النزوع .

ولو كانت محجوبة عنه ؛ لما حدثت الغواية بالإدراك والوجدان .

وهذا يعطينا عِلَّة غَضِّ البصر عن المثيرات الجنسية ؛ لأنك إنْ لم تغضّ البصر أدركتَ ، وإن أدركتَ وجدتَ ، وإن وجدتَ نزعتَ إلى الزواج أو التعفف بالكبْت في النفس ، وتعيش اضطراب القلق والتوتر ، وإن لم تتعفف عربدتَ في أعراض الناس .

وكذلك أمرنا الحق سبحانه ألا تُبدِي النساء زينتهن إلا لأناس حددهم الحق سبحانه في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَآئِهِنَّ أَوْ آبَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بني إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بني أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التابعين غَيْرِ أُوْلِي الإربة مِنَ الرجال أَوِ الطفل الذين لَمْ يَظْهَرُواْ على عَوْرَاتِ النسآء . . ﴾ [النور : 31] .

أي : الذي بلغ من العمر والشيخوخة حداً لا يجعله يفكر في الرغبة في النساء .

وكانت نظرة امرأة العزيز إلى يوسف عليه السلام وهو في فتوته ، بعد أن بلغ أَشُدَّه نظرةً

مختلفة ، يوضحها الله تعالى في قوله : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ . . . ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(83/393)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (يوسف : 22) وفي سورة القصص : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (القصص : 14) ، للسائل أن يسأل عن ثبوت قوله : ((واستوى)) في سورة القصص ولم يثبت ذلك في سورة يوسف ؟ وهل كان يمكن ورود العكس في الآيتين ؟

(84/393)

والجواب عن ذلك : أن الأشد مختلف فيه من البلوغ إلى استكمال أربعين سنة ، وقد قيل بالزيادة على الأربعين ، وظاهر القرآن أن الأشد يقع على دون الأربعين لقوله تعالى : (حَتَّى

إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً) (الأحقاف : 15) ، فلو كان الأشد الأربعين لأدى إلى عطف الشيء على نفسه ، فإنما الكلام في قوة أن لو قيل : حتى إذا بلغ أشده واستكمل وتم بالزيادة ، والله أعلم ، وإذا كان وقوع الأشد على ما ذكرنا ، ولا يكون إلا على خال من العمر يحسن في الظبط والتدبير ، والإحكام للأمور ، والفهم للخطاب ، وتحقيق مقادير الأمور ، وهذا يجري العادة إنما ابتداؤه عند البلوغ أو قبل البلوغ ، ثم يستحكم إلى الغاية التي إليها انتهاء تمام القوة واستحكام العقل ، وتلك الأربعون ، وعلى رأس الأربعين سنة بعث الله نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم ، ثم أن الله سبحانه قال في قصة يحيى بن زكريا ، عليه السلام : (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) (مريم : 12) ، وهذا ولابد في غير (سن) الأربعين ، وقال تعالى في قصة يوسف ، عليه السلام ، إنما ابتدئ بالوحي وسماع الكلام بعد فراره خوفاً من فرعون ، قال تعالى : (فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ) (الشعراء : 21) وأفصحت آي القرآن أن ذلك كان بعد رجوعه وإنكاح شعيب عليه السلام إياه ابنته ، ولم يخرج من مصر حتى ائتمر به للقتل وبعد وكز الذي كان من عدوه وقضائه عليه ، ومجموع هذا إنما هو بخروجه ، عليه السلام ، عن سن الابتداء إلى استكمال الأشد وهو الاستواء ، فقيل في قصته : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى) (القصص : 14) أي استكمل وانتهى إلى أحسن الحالات في السن ، وأما يوسف ، عليه

السلام ، في الوحي إليه في الجب فحاله وإن بلغ ما يسمى أشداً غير حالة الاستواء ، فامتنع مجيء

(85/393)

الاستواء في قصته وورد في قصة موسى ، وكلام المفسرين إذا تؤمل وإن لم يكن إفصاحاً مشعر بهذا ، فجاء كل على ما يجب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 268.267 ﴾

(86/393)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن محمد بن إسحق رضي الله عنه قال : الذي اشتراه ظيفر بن روحب ، وكان اسم امرأته راعيل بنت رعائيل .

وأخرج ابن إسحق وابن جرير وأبو الشيخ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما باع يوسف صاحبه الذي باعه من العزيز – واسمه مالك بن ذعر – قال حين باعه : من أنت ؟ – وكان مالك من مدين – فذكر له يوسف من هو وابن من هو ، فعرفه فقال : لو كنت أخبرتني لم أبعك . ادع لي ، فدعا له يوسف فقال : بارك الله لك في أهلك . قال : فحملت امرأته اثني عشر بطناً ، في كل بطن غلامان .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ أكرمي مثواه ﴾ قال منزلته .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة مثله .

وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ والحاكم وصححه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته : أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها : يا أبت ، استأجره ، وأبو بكر حين استخلف عمر .

وأخرج عبد الرزاق وأبو الشيخ ، عن قتادة رضي الله عنه قال : بلغنا أن العزيز كان يلي عملاً من أعمال الملك . وقال الكلبي : كان خبازه وصاحب شرابه وصاحب دوائه وصاحب السجن .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ولنعلمه من تأويل الأحاديث ﴾ قال عبارة الرؤيا .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ والله غالب على أمره ﴾ قال فعال .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ والله غالب على أمره ﴾ قال لغة عربية .

(87/393)

وأخرج أبو الشيخ ، عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ والله غالب على أمره ﴾ قال : لما يريد أن يبلغ يوسف .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) ﴾

أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد ، والطبراني في الأوسط ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولما بلغ أشده ﴾ قال : ثلاثاً وثلاثين سنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ بلغ أشده ﴾ قال : خمساً وعشرين سنة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ بلغ أشده ﴾ قال : ثلاثين سنة .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ ولما بلغ أشده ﴾ قال : عشرين سنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ بلغ أشده ﴾ قال عشر سنين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ربيعة في قوله ﴿ بلغ أشده ﴾ قال : الحلم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الشعبي رضي الله عنه قال : لأشد الحلم ، إذا كتبت له الحسنات وكتبت عليه السيئات .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ آتيناه حكماً وعلماً ﴾ قال : هو الفقه والعلم والعقل قبل النبوة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ يقول المهتدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

فصل

قال الإمام فخر الدين الرازى :

[قصة يوسف عليه السلام]

[وفيها شبه]

[الأولى] أنه صبر على الرق ولم يبين الحرية التى فيه وذلك معصية [الجواب] من وجوه [الأول] فلعله لم يكن نبيا في تلك الحالة ، ولما خاف على نفسه القتل جاز ان يصبر على الرق . ومن ذهب إلى هذا الوجه حمل قوله تعالى (واوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا) على وقت آخر [الثاني] أن إظهار الحرية أمر يجوز أن يختلف باختلاف الشرائع ، فلعله أمر بالسكوت عنه امتحانا ، كما امتحن أبويه بنمروذ والذبح (1) [الثالث] لعله عليه السلام أخبرهم بذلك إلا أنهم لم يلتفتوا إليه *

[الشبهة الثانية] تمسكوا بقوله تعالى حاكيا عن يوسف وامرأة العزيز (وراودته التى هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك

---

(1) أي ذبح ولده اسماعيل لا اسحاق (*)

قال معاذ الله انه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) *

[الجواب] قال القاضى أبو طاهر الطوسى رحمه الله تعالى : شهد ببراءة يوسف من الذنب كل من له تعلق بتلك الواقعة من زوج وحاكم ونسوة وملك وادعى يوسف ذلك واعترف له خصمه بصدق ما قاله مرتين ، وشهد بذلك رب العالمين الذى هو اصدق القائلين ، واعترف ابليس فكيف يلتفت إلى قول هؤلاء الحشوية ؟ ! أما شهادة الزوج فقوله تعالى (انه من كيدكن ان كيدكن عظيم يوسف اعرض عن هذا واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين وأما شهادة الحاكم فقوله (وشهد شاهد من اهلها ان كان قميصه قد من دبر) واما شهادة النسوة فقولهن (حاش لله ما علمنا عليه من سوء) اما شهادة الملك فقوله (إنك اليوم لدينا مكين امين) واما ادعاء يوسف عليه السلام ذلك فقوله (هي راودتني عن نفسي) وقوله (رب السجن احب إلى مما يدعونني إليه) وقوله (ذلك ليعلم انى لم أخنه بالغيب) واما اعتراف الخصم فقولها للنسوة (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) وقوله (الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه) واما شهادة رب العالمين فقوله (كذلك لنصرف منه السوء والفحشاء) واما اعتراف ابليس بذلك فقوله تعالى حكاية عنه (لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين) فبين انه يغوى الكل الا المخلصين ويوسف من المخلصين

لقوله تعالى (انه من عبادنا المخلصين) فأية شبهة تبقى مع هذه الشهادات في براءة (م 4 - عصمة الأنبياء)

(90/393)

يوسف عن الذنوب. ثم قال القاضى: وهؤلاء الطاعنون في يوسف ان كانوا من حزب الله فليقبلوا قوله، وان كانوا من حزب الشيطان فيجب ان لا يتركوا قوله (لأغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين) وإذا ظهرت هذه الجملة فلنذكر معنى الآية فنقول * * (الهم) * في اللغة جاء لمعان أربعة * (الأول) * العزم على الفعل لقوله تعالى (إذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم) أي أرادوا ذلك وعزموا عليه [الثاني] خطور الشئ بالبال قال الله تعالى (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما) فانما أراد الله تعالى أن الفشل خطر ببالهم ولو كان المراد هاهنا العزم لما صح أن يكون الله وليا لهم، لان العزم على المعصية معصية ويدل عليه أيضا قول كعب بن زهير: فكم فيهم من سيد متوسع * ومن فاعل للخير قد هم أو عزم [الثالث] أن يستعمل بمعنى المقاربة يقولون هم بكذا أي كاد يفعله قال ذو الرمة: أقول لمسعود بجرعاء مالك * وقد هم دمعى أن يلج أوائله والدمع لا يجوز عليها العزم وانما اراد أنه كاد وقارب *

[الرابع] الشهوة وميل الطباع لان الانسان قد يقول فيما يشتهيه هذا من همى فتثبت أن الهم مستعمل في هذه المعاني . فان حملناه على العزم ففيه وجهان : * (الأول) * أن الهم في ظاهر الآية معلق بذاته وذاتها . وذلك غير جائز لان الذوات لاتراد فلا بد من ترك هذا الظاهر وتعليق الهم بشئ غير الذات : وإذا ثبت

هذا فنقول : ليس تعليقه ببعض الامور أولى من تعليقه بالباقي إلا للدليل فأما همها فكان متعلقا بالفاحشة دون سائر الامور وذلك للنص والاجماع . أما النص فقوله تعالى (وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين) وقوله (وراودته التى هو في بيتها عن نفسه) وقوله تعالى حاكيا عنها (الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين) وفى موضع آخر (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) وأما الاجماع فهو أن المفسرين اتفقوا على أنها همت بالمعصية والفاحشة . وأما همه فقد دللنا على أنه لا يجوز أن يكون متعلقا بالفاحشة وليس في ظاهر الآية ما يقتضيه فلا جرم علقناه بدفعه إياها عن نفسه كما يقول القائل : لقد كنت هممت بفلان أي بأن أوقع به ضربا * لا يقال : فأى فائدة على هذا التأويل في قوله تعالى : (لولا أن رأى

برهان ربه) والدفع لها عن نفسه طاعة لا يصرف البرهان عنه لانا نقول يجوز أن يكون لما هم بدفعها وضربها أرى برهانا على أنه لو قدم على ما هم به أهلكه أهلها وقتلوه ، وانها تدعى عليه المراودة على القبيح وتنسبه إلى أنه دعاها إلى نفسه وضربها لامتناعها منه . فأخبره الله تعالى أنه صرف بالبرهان عنه السوء والفحشاء اللذين هما القتل والمراودة وظن القبح واعتقاده فيه . لا يقال : فهذا يقتضي أن يكون جواب لفظة (لولا) متقدما عليها ويكون التقدير لولا أن رأى برهان ربه لهم بقربها ، وتقدم جواب (لولا) غير جائز . لانا نقول : لا نسلم أن تقدم جواب (لولا) غير جائز وسيأتى تقريره ، سلمنا ذلك ولكن لا حاجة بنا إليه في هذا المقام ، لان العزم على الضرب والهم قد وقع إلا أنه انصرف عن فعله بسبب البرهان . وتقدير الكلام : ولقد همت به وهم بدفعها لولا أن رأى برهان ربه لفعل ذلك . والجواب محذوف مضمر *

[الوجه الثاني] في حمل الهم على العزم أن يحمل الكلام على التقديم والتأخير ، والتقدير : ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها ويجرى ذلك مجرى قولك : قد كنت هلكت لولا أن تداركته ، وقد استبعد الزجاج . وعلى بن عيسى هذا الجواب من وجهين : [الأول

] أنه لا يجوز تقدم جواب لولا * (الثاني) * جوابه يكون باللام كقوله (فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه) * * (والجواب) * انا لا نسلم انه لا يجوز التقديم، والدليل عليه قوله تعالى: (إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها) وأيضا فلو لم يجعل التقديم على (لولا) جوابا لها لكان جوابها محذوفا. وإذا دار الأمر بين أن يكون جوابا محذوفا وبين أن يكون متقدما عليها لا شك أن التقديم أولى *

[فإن قلت] فأى فائدة في قوله: (وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) إذا لم يكن هناك هم ؟ * (قلت) * الفائدة فيه الاخبار على أن ترك الهم به وإجابتها إلى ملتمسها لم يكن من حيث كان غير راغب في النساء لعجز لكنه ترك ذلك لله وفى الله طلبا لثوابه وهربا من أليم عقابه * * (فإن قلت) * فما البرهان الذى رآه يوسف عليه السلام ؟ [قلت] فيه وجوه ثمانية: [الأول] أنه حجة الله في تحريم الزنا والعلم بما على الزانى من العقاب قاله محمد بن كعب * * (الثاني) * ما آتاه الله من آداب أنبيائه من العفاف وصيانة النفس عن الارجاس * (الثالث) * رأى مكتوبا في سقف البيت (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا) * * (الرابع) * عن الصادق النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش *

[الخامس] عن زين العابدين كان في ذلك البيت صنم فألقت المرأة ثوبا عليه وقالت استحى منه . فقال يوسف : تستحى من الصنم فأنا أحق أن استحى من الواحد القهار

* * (السادس) * انه سمع قائلا يقول يا ابن يعقوب لا تكن كالطير فإذا زنا ذهب ريشه [السابع] * سمع قائلا يقول : انت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء *

[الثامن] عن ابن عباس رأى صورة الملك ، وقيل : صورة يعقوب عليه السلام عاضا على أنامله *

[فإن قلت] لو كان البرهان عبارة عن أنه رأى يعقوب عاضا على أصبعه أو نادته الملائكة بالزجر لاقتضى ذلك الالجاء وصار منافيا للتكليف ، ولما استحق يوسف عليه السلام بالبعد عن ذلك الفعل مدحا ولا ثناءا ولا ثوابا *

* (قلت) * أليس إن المعتزلة قالوا في قوله تعالى : (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) إن شيئا منها لا يوجب الالجاء ، وإذا كان كذلك فكيف يلزم من مشاهدة يعقوب وسماع صوت الملائكة حصول الالجاء *

[الشبهة الثالثة] تمسكوا بقوله تعالى (وما أبرئ نفسي إن النفس لامارة بالسوء) [الجواب] من وجهين [الأول] أنه أراد الدعاء والمنازعة ولم يرد العزم على المعصية ، وهو لا يبرئ نفسه عما لا يقوى عنه طباع البشر [الثاني] هو أن هذا من كلام المرأة لا من كلام يوسف عليه السلام بدليل أن هذا مسوق إلى كلام المرأة فانه تعالى قال (وقالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ذلك ليعلم انى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين وما أبرئ نفسي إن النفس لامارة بالسوء) الكلام على كلام المرأة . فقوله تعالى (ذلك ليعلم انى لم أخنه بالغيب) من كلام المرأة لا من كلام يوسف . والمكنى عنه في قوله (لم أخنه) هو يوسف . وهو غائب في السجن ، ولم أقل فيه لما سئلت عن قصتي إلا الحق ، وليس في القرآن ما يدل على أن ذلك من قول يوسف عليه السلام . ومهما جعل ذلك من قول يوسف عليه السلام احتيج إلى حذف طويل من رجوع الرسول إلى يوسف عليه السلام ، وإخباره بما قاله له حتى يجيبه يوسف عليه السلام ، ثم رجوع الرسول إلى الملك ثانيا وإخباره إياه بمقالة يوسف عليه السلام حتى يقول الملك (ائتونى به أستخلصه لنفسي) وهذا محال لا يجوز مثله في القرآن ولا في الشعر . ولو جعلنا ذلك من قول يوسف عليه السلام لم يوجب ذلك إلحاق الفاحشة به ، بل هو أدل دليل على براءة ساحته وذلك لأنه قال

(ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) ولا خيانة أعظم من الهم بامرأته والقعود منها مقعد الرجل من امرأته *

(95/393)

[الشبهة الرابعة] أنهم سجنوا يوسف عليه السلام ، وذلك معصية بالاتفاق وأنه عليه السلام قال (رب السجن أحب إلى مما يدعونني إليه) فيدل ذلك على محبته لتلك المعصية ، ومحبتها معصية * * (الجواب) * من وجهين : (الأول) المراد من الاحب الاخف والاسهل فهذا كمن يخير بين شيئين مكروهين جدا ، فيقول إن كذا أحب إلى ، أي أخف *

[الثاني] أن توطين النفس على تحمل مشقة السجن أحب إلى من مواقعتي المعصية . فأما قوله : (وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين) فهو تصريح بأن شيئا من الطاعات لا يتم إلا بمعونة الله تعالى ولطفه * * (الشبهة الخامسة) * كيف يجوز على يوسف مع نبوته أن يعول على غير الله في الخلاص من السجن في قوله للذى كان معه (اذكرني عند ربك) حتى وردت الروايات أنه إنما طال مقامه في الحبس لأنه عول على غير الله ؟ * (الجواب) * أن الدنيا دار الاسباب ، فالتمسك بالأسباب لا ينافى حقيقة التوكل *

[الشبهة السادسة] ما الحكمة في طلب أخيه من إخوته ، ثم حبسه عن الرجوع إلى أبيه مع علمه بما يلحق أباه من الحزن ؟ وهل هذا إلا ضرر بأبيه ؟ [الجواب] إنما فعل ذلك بوحى من الله تعالى إليه زيادة في امتحان أبيه . والمراد من قوله (سنراود عنه أباه) ليس الخداع والكذب بل اللطف والاحتيال *

[الشبهة السابعة] فما معنى جعل السقاية في رحل أخيه ؟ [الجواب] أما جعل السقاية في رحل أخيه فالغرض منه التسبب إلى احتباس أخيه عنده . ويجوز أن يكون ذلك بأمر الله تعالى . وروى أنه أعلم أخاه بذلك ليجعله طريقا إلى التمسك به . وعلى هذا الوجه لا يكون ذلك سببا لادخال الغم في قلب أخيه *

(96/393)

[فإن قلت] فلا أقل من أن يكون ذلك سببا لتعريض أخيه لتهمة السرقة ؟ [قلت] لا نسلم فان وجود السقاية في رحل أخيه يحتمل وجوها كثيرة ، فمن صرفه إلى السرقة كان هو المقصر . وأما نداء المنادى – أنهم سارقون – ففيه ثلاثة أوجه : [الأول] أنه ما كان بأمره عليه السلام ، بل نادى بذلك واحد من القوم لما فقدوا الصواع *

[الثاني] هب أنه كان بأمره لكنه لم يناد بأنهم سرقوا الصواع بل نادى بأنهم سارقون ، فلعل

المراد أنهم سرقوا يوسف من أبيه *

* (الثالث) * أن الكلام خارج على معنى الاستفهام ، وإن كان ظاهره ظاهر الخبر كأنه قال : أإنكم لسارقون ؟ فأسقط همزة الاستفهام كما أسقطت في قوله (هذا ربى) * * (الشبهة الثامنة) * ما بال يوسف لم يعلم أباه خبره حتى تسكن نفسه ويزول حزنه ؟ * (والجواب) * لعله امتنع عنه بأمر الله تشديدا على يعقوب عليه السلام * * (الشبهة التاسعة) * قال الله تعالى (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا) وكيف رضى بأن يسجدوا له والسجود لا يكون إلا لله ، وكيف رضى باستخدام الابوين ؟ * (الجواب) * المعنى خروا لاجله سجدا لله * * (فإن قلت) * هذا التأويل يفسده قوله تعالى (يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربى حقا) * (قلت) * لا نسلم ، فان تأويل رؤياه : بلوغه أرفع المنازل ، فلما رأى أبويه على أشرف الحالات في الدارين كان ذلك مصدقا لرؤياه المتقدمة * * (الشبهة العاشرة) * ما معنى قوله تعالى حكاية عنه (من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى) [جوابه] أن النزغ الشيطاني كان منهم إليه لا منه إليهم ، وهو كقول القائل : كان بينى وبين فلان شر ، وإن كان من أحدهما دون الثاني * * (الشبهة الحادية عشرة) * ما معنى قوله عليه السلام (اجعلني على خزائن الارض) وكيف يجوز أن يطلب الولاية من قبل

الظالم ؟ [جوابه] إنما التمس بتمكينه من خزائن الأرض ليحكم فيها بالعدل لأنه بسبب نبوته كان مستحقا لذلك وللمستحق أن يتوصل إلى حقه بأى طريق كان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ عصمة الأنبياء صـ 53 . 63 ﴾

(98/393)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِن مّصْرَ ﴾ : يجوز فيه أوجه ، أحدها : أن يتعلق بنفسِ الفعل قبله ، أي : اشتراه مِنْ مصر كقولك : اشتريت الثوب مِنْ بغداد فهي لابتداء الغاية ، وقول أُبي البقاء : " أي : فيها ، أو بها " لا حاجةَ إليه . والثاني : أنه متعلقٌ بمحذوف على أنه حالٌ من " الذي " . والثالث : أنه حالٌ من الضمير المرفوع في " اشتراه " فيتعلّق بمحذوفٍ أيضاً . وفي هذين نظر إذ لا طائل في هذا المعنى . و " لأمرأِته " متعلقٌ ب " قال " فهي للتبليغ ، وليست متعلقةً ب " اشتراه " .

قوله : ﴿ وكذلك ﴾ الكاف كما تقدم في نظائره حال من ضميرِ المصدر أو نعتٌ له ، أي : ومثلَ ذلك الإِنجاء والعطف مكَّنَّا له ، أي : كما أَنْجَيْناه وعَطَفْنا عليه العزيز مكَّنَّا له في أرض مصر .

قوله : ﴿ وِلِنُعَلِّمَهُ ﴾ فيه أوجه ، أحدُها ، أن يتعلق بمحذوف قبله ، أي : وفَعَلْنا ذلك لنعلِّمه . والثاني : أن يتعلَّق بما بعده ، أي : ولنعلِّمه فَعَلْنا كيت وكيت . الثالث : أن يتعلقَ ب " مكَّنَّا " على زيادة الواو والهاء في " أمره " يجوز أن تعود على الجلالة ، وأن تعودَ على يوسف ، فالمعنى على الأول : لا نُمْنَعُ عمَّا نشاء ، ولا نُنازَعُ عَمَّا نريد ، وعلى الثاني : نُدَبِّره ولا نَكِلُه إلى غيره فقد كادوه إخوته فلم يَضُرُّوه بشيء .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَشُدَّهُ ﴾ : فيه ثلاثة أقوال ، أحدها : وهو قول سيبويه أنه جمعُ مفردُه " شِدَّة " نحو : نِعْمة وأَنْعُم . الثاني : قول الكسائي : أن مفردَه " شَدّ " بزنة فَعْل نحو صَكّ وأَصُكّ ، ويؤيِّده قولُ الشاعر :

2762 عَهْدي به شَدَّ النهارِ كأنما . . . خُضِبَ البَنانُ ورأسُه بالعِظْلِمِ

/ الثالث: أنه جمعٌ لا واحدَ له من لفظه قاله أبو عبيدة، وخالفه الناسُ في ذلك، إذ قد سمع "شدَّة" و"شَدَ" وهما صالحان له وهو مِن الشَّدّ وهو الربطُ على الشيء والعقدُ عليه.

قال الراغب: "وقوله تعالى ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ فيه تنبيهُ أن الإِنسان إذا بلغ هذا القَدْرَ يتقوى خُلُقُه الذي هو عليه فلا يكاد يزايله، وما أحسنَ ما تنبَّه له الشاعرُ حيث يقول:

2763 إذا المَرْءُ وافى الأربعينَ ولم يكنْ . . . له دونَ ما يهوى حياءٌ ولا سِتْرُ

فَدَعْه ولا تَنْفِسْ عليه الذي مضى . . . وإنْ جَرَّ أسبابَ الحياةِ له العُمْرُ

وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ إمَّا نعتٌ لمصدر محذوف أو حالٌ من ضمير المصدر وتقدَّم نظائره. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 461.462 ﴾

(100/393)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنْفَعَنَآ أَوْ

تَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ .

لمَّا نودي على يوسف في مصر بالبيع لم يَرْضَ الحقُّ – سبحانه – حتى أصابتهم الضرورةُ ومَسَّتْهُمْ الفاقة حتى باعوا من يوسف – عليه السلام – جميعَ أملاكهم ، ثم باعوا كلُّهم منه أنْفُسَهم – كما في القصة – وفي آخر أمرهم طلبوا الطعام ، فصاروا بأجمعهم عبيدَه ، ثم إنه عليه السلام لما مَلَكَهم مَنَّ عليهم فأعتقهم ؛ فَلَئِنْ مَرَّ عليه بمصر يومٌ نودي فيه عليه بالبيع ؛ فقد أصبح بمصر يوماً آخر وقد ملكَ جميعَ أملاكهم ، ومَلَكَ رقابَ جميعهم ؛ فيومٌ بيومٍ ، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ [الشرح : 5] يومان شَتَّان بينهما !

ثم إنه أعتقهم جميعاً . . . وكذا الكريمُ إذا قدر غفر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ .

أراد مَنْ حَسَدَه ألا تكونَ له فضيلةٌ على إخوته وذويه ، وأراد اللهُ أن يكونَ له مُلْكُ الأرضِ ، وكان ما أراد اللهُ لا ما أراد أعداؤه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ .

أرادوا أن يكونَ يوسفُ عليه السلام في الجُبّ ، وأراد اللَّهُ – سبحانه – أن يكون يوسف على سرير المُلْكِ ؛ فكان ما أراد الله ، والله غالبٌ على أمره . وأرادوا أن يكون يوسفُ عبداً لمن ابتاعوه من السيارة ، وأراد الله أن يكونَ عزيزَ مصر – وكان ما أراد اللَّهُ .

ويقال العِبْرَةُ لا ترى من الحقّ في الحال ، وإنما الاعتبارُ بما يظهر في سِرِّ تقديره في المآل .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) ﴾

(101/393)

من جملة الحُكْمْ الذي آتاه اللَّهُ نفوذ حُكْمِه على نَفْسِه حتى غَلَبَ شهوته ، وامتنع عما رَاوَدَتْه تلك المرأةُ عن نَفْسِه ؛ ومن لا حكم له على نفسه فلا حكْمَ له على غيره .

ويقال إنما قال : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي حين استوى شبابُه واكتملت قُوْته ، وكان وقت استيلاء الشهوة ، وتوفر دواعي مطالبات البشرية آتاه الله الحِكْمَ الذي حبسه على الحقِ وصرَفَه عن الباطل ، وعَلِمَ أنَّ ما يعقب اتباع اللذاتِ من هواجم النَّدم أشدُّ مقاساةً من كلفة الصبر في حال الامتناع عن دواعي الشهوة . . . فآثَرَ مَشَقَّةَ الامتناع على لَذَّةِ الاتباع .

وذلك الذي أشار إليه الحقُّ – سبحانه – من جميل الجزاء الذي اعطاه هو إمدادُه بالتوفيق حتى استقام في التقوى والورع على سَوَاءِ الطريق ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : 69] أي الذين جاهدوا بسلوك طريق المعاملة لنهدينهم سُبُلَ الصبرِ على الاستقامة حتى تتبين لهم حقائقُ المواصلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 176 . 177 ﴾

فصل

قال صاحب الميزان فى الآيات السابقة :

﴿ لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين ﴾ .

(بيان) شروع في القصة بعد ذكر البشارة التى هي كالمقدمة الملوحة إلى اجمال الغاية التى تنتهى إليها القصة والآيات تتضمن الفصل الأول من فصول القصة وفيه مفارقة يوسف ليعقوب (عليه السلام) وخروجه من بيت ابيه إلى استقراره في بيت العزيز بمصر وقد حدث خلال هذه الأحوال ان القاه اخوته في البئر واخرجته السيارة منها وباعه اخوته من السيارة وهم حملوه إلى مصر وباعوه من العزيز فبقى عنده .

قوله تعالى : " لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين " شروع في القصة وفيه التنبيه على ان القصة مشتملة على آيات الهية دالة على توحيد الله سبحانه وانه هو الولى يلى امور عباده المخلصين حتى يرفعهم إلى عرش العزة ويثبتهم في اريكة الكمال فهو تعالى الغالب على امره يسوق الأسباب إلى حيث يشاء لا إلى حيث يشاء غيره ويستنتج منها ما يريد لا ما هو اللائح الظاهر منها .

فهذه اخوة يوسف (عليه السلام) حسدوا اخاهم وكادوه والقوه في قعر بئر ثم شروه من السيارة عبدا يريدون بذلك ان يسوقوه إلى الهلاك فاحياه الله بعين هذا السبب اللائح منه الهلاك وان يذللوه فاعزه الله بعين سبب التذليل ووضعوه فرفعه الله بعين سبب الوضع والخفض وان يحولوا حب ابيهم إلى انفسهم فيخلوا لهم وجه ابيهم فعكس الله الأمر وذهبوا ببصر ابيهم حيث نعوا إليه يوسف بقميصه الملطخ بالدم فأعاد الله إليه بصره بقميصه الذى جاء به إليه البشير والقاه على وجهه .

(103/393)

ولم يزل يوسف ع كلما قصده قاصد بسوء انجاه الله منه وجعل فيه ظهور كرامته وجمال نفسه وكلما سير به في مسير أو ركب في سبيل يهديه إلى هلكة أو رزية هداه الله بعين ذلك السبيل إلى غاية حسنة ومنقبة شريفة ظاهرة وإلى ذلك يشير يوسف (عليه السلام) حيث يعرف نفسه لاخوته ويقول : " انا يوسف وهذا اخى قد من الله علينا انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين " الآية 91 من السورة ويقول لأبيه بحضرة من اخوته " يا ابت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربى حقا وقد احسن بى إذ اخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد ان نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى " ثم تأخذه الجذبة

الإلهية فيقبل بكلية نفسه الوالهة إلى ربه ويعرض عن غيره فيقول : " رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السماوات والأرض انت وليى في الدنيا والاخرة " الآية 101 من السورة .

وفي قوله تعالى : " للسائلين " دلالة على انه كان هناك جماعة سألوا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن القصة أو عما يرجع بوجه إلى القصة فأنزلت في هذه السورة .

قوله تعالى : " إذ قالوا ليوسف واخوه احب إلى ابينا منا ونحن عصبة ان ابانا لفى ضلال مبين " ذكر في المجمع ان العصبة هي الجماعة التى يتعصب بعضها لبعض ويقع على جماعة من عشرة إلى خمسة عشر وقيل ما بين العشرة إلى الاربعين ولا واحد له من لفظه كالقوم والرهط والنفر انتهى .

وقوله : " إذ قالوا ليوسف واخوه احب إلى ابينا منا " القائلون هم ابناء يعقوب ما خلا يوسف واخاه الذى ذكروه معه وكانت عدتهم عشرة وهم رجال اقوياء بيدهم تدبير بيت ابيهم يعقوب وادارة مواشيه وامواله كما يدل عليه قولهم " ونحن عصبة " .

وقولهم : " ليوسف واخوه " بنسبته إلى يوسف مع انهم جميعا ابناء ليعقوب واخوة فيما بينهم يشعر بان يوسف واخاه هذا كانا اخوين لام واحدة واخوين لهؤلاء القائلين لاب فقط الروايات تذكر ان اسم اخى يوسف هذا بنيامين والسياق يشهد انهما كانا صغيرين لا يقومان بشئ من أمر بيت يعقوب وتدبير مواشيه وامواله .

وقولهم : " ونحن عصبة " أي عشرة اقوياء مشدود ضعف بعضنا بقوة بعض وهو حال عن الجملة السابقة يدل على حسدهم وحنقهم لهما وغيظهم على ابيهم يعقوب في حبه لهما اكثر منهم وهو بمنزلة تمام التعليل لقولهم بعده : " ان ابانا لفى ضلال مبين " .

وقولهم : " ان ابانا لفى ضلال مبين " قضاء منهم على ابيهم بالضلال ويعنون بالضلال الاعوجاج في السليقة وفساد السيرة دون الضلال في الدين .

اما اولا : فلان ذلك هو مقتضى ما تذاكروا فيما بينهم انهم جماعة اخوان اقوياء متعاضدون متعصب بعضهم لبعض يقومون بتدبير شؤن ابيهم الحيوية واصلاح معاشه ودفع كل مكروه يواجهه ويوسف واخوه طفلان صغيران لا يقويان من امور الحياة على شئ وليس كل منها الا كلا عليه وعليهم وإذا كان كذلك كان توغل ابيهم في حبهما واشتغاله بكليته بهما دونهم واقباله عليهما بالاعراض عنهم طريقة معوجة غير مرضية فإن حكمة الحياة تستدعى ان يهتم الإنسان بكل من اسبابه ووسائله على قدر ما له من التأثير وقصر الإنسان اهتمامه على من هو كل عليه ولا يغنى عنه طائلا والاعراض عمن بيده مفاتيح

حياته وازمة معاشه ليس الا ضلالا من صراط الاستقامة واعوجاجا في التدبير واما الضلال في الدين فله اسباب اخر كالكفر بالله وآياته ومخالفة أوامره ونواهيه .

(105/393)

واما ثانيا : فلانهم كانوا مؤمنين بالله مذعنين بنبوة ابيهم يعقوب كما يظهر من قولهم : " وتكونوا من بعده قوما صالحين " وقولهم اخيرا " يا ابانا استغفر لنا ذنوبنا " الآية 97 من السورة وقولهم ليوسف اخيرا " تا لله لقد آثرك الله علينا " وغير ذلك ولو ارادوا بقولهم : " ان ابانا لفى ضلال مبين " ضلاله في الدين لكانوا بذلك كافرين .

وهم مع ذلك كانوا يحبون اباهم ويعظمونه ويوقرونه وانما فعلوا بيوسف ما فعلوا ليخلص لهم حب ابيهم كما قالوا : " اقتلوا يوسف أو اطرحوه ارضا يخل لكم وجه ابيكم " فهم كما يدل عليه هذا السياق كانوا يحبونه ويحبون ان يخلص لهم حبه ولو كان خلاف ذلك لانبعثوا بالطبع إلى ان يبدؤا بابيهم دون اخيهم وان يقتلوا يعقوب أو يعزلوه أو يستضعفوه حتى يخلو لهم الجو ويصفو لهم الأمر ثم الشأن في يوسف عليهم اهون .

ولقد جبهوا اباهم اخيرا بمثل قولهم هذا حين قال لهم " انى لاجد ريح يوسف لولا ان تفندون قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم " الآية 95 من السورة ومن المعلوم ان ليس المراد

به الضلال في الدين بل الافراط في حب يوسف والمبالغة في امره بما لا ينبغي .

ويظهر من الآية وما يرتبط بها من الآيات انه كان يعقوب (عليه السلام) يسكن البدو وكان له اثنا عشر ابنا وهم اولاد علة وكان عشرة منهم كبارا هم عصبة اولوقوة وشدة يدور عليهم رحى حياته ويدبر بايديهم امور امواله ومواشيه وكان اثنان منهم صغيرين اخوين لام واحدة في حجر ابيهما وهما يوسف واخوه لامه وابيه وكان يعقوب (عليه السلام) مقبلا اليهما يحبهما حبا شديدا لما يتفرس في ناصيتهما من آثار الكمال والتقوى لا لهوى نفساني فيهما كيف ؟ وهو من عباد الله المخلصين الممدوح بمثل قوله تعالى : " انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار " ص : 46 وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك .

فكان هذا الحب والايثار يثير حسد سائر الاخوة لهما ويؤجج نائرة الاضغان منهم عليهما ويعقوب (عليه السلام) يتفرس ذلك ويبالغ في حبهما وخاصة في حب يوسف وكان يخافهم عليه ولا يرضى بخلوتهم به ولا يأمنهم عليه وذلك يزيد في حسدهم وغيظهم فصار يتفرس من وجوههم الشر والمكر كما مرت استفادته من قوله : " فيكيدوا لك كيدا " حتى رأى يوسف الرؤيا وقصها لأبيه فزاد بذلك اشفاق ابيه عليه وازداد حبه له ووجده فيه

واوصاه ان يكتم رؤياه ولا يخبر اخوته بها لعله يأمن بذلك كيدهم لكن التقدير غلب تدبيره .

فاجتمع الكبار من بنى يعقوب وتذاكروا فيما بينهم ما كانوا يشاهدونه من أمر ابيهم وما يصنعه بيوسف واخيه حيث يشتغل بهما عنهم ويؤثرهما عليهم وهما طفلان صغيران لا يغنيان عنه بطائل وهم عصبة اولوقوة وشدة اركان حياته واياديه الفعالة في دفع كل رزية عادية وجلب منافع المعيشة وادارة الاموال والمواشى وليس من حسن السيرة واستقامة الطريقة ايثار هذين الضعيفين على ضعفهما على اولئك العصبة القوية على قوتهم فذموا سيرة ابيهم وحكموا بأنه في ضلال مبين من جهة طريقته هذه .

ولم يريدوا برمى ابيهم بالضلال الضلال في الدين حتى يكفروا بذلك بل الضلال في مشيته الاجتماعية كما توفرت بذلك شواهد الآيات وقد تقدمت الإشارة إليها .

وبذلك يظهر ما في مختلف التفاسير من الانحراف في تقرير معنى الآية منها ما ذكره بعضهم ان هذا الحكم منهم بضلال ابيهم عن طريق العدل والمساواة جهل مبين وخطأ كبير لعل سببه اتهمهم اياه بافراطه في حب امهما من قبل فيكون مثاره الأول اختلاف الامهات بتعدد الزوجات ولا سيما الاماء منهن (1) وهو الذى اضلهم من غريزة الوالدين في زيادة العطف على صغار الاولاد وضعافهم وكانا اصغر اولاده .

قال ومن فوائد القصة وجوب عناية الوالدين بمداراة الاولاد وتربيتهم على المحبة والعدل وانقاء وقوع التحاسد والتباغض بينهم ومنه اجتناب تفضيل بعضهم على بعض بما يعده المفضول اهانة له ومحاباة لاخيه بالهوى وقد نهى عنه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مطلقا ومنه سلوك سبيل الحكمة في تفضيل من فضل الله تعالى بالمواهب الفطرية كمكارم الاخلاق والتقوى والعلم والذكاء .

وما كان يعقوب بالذي يخفى عليه هذا وما نهى يوسف عن قص رؤياه عليهم الا من علمه بما يجب فيه ولكن ما يفعل الإنسان بغريزته وقلبه وروحه ؟ أيستطيع ان يحول دون سلطانها على جوارحه ؟ كلا انتهى .

اما قوله ان منشأ حسدهم وبغيهم اختلاف الامهات وخاصة الاماء منهن الخ ففيه ان استدعاء اختلاف الامهات اختلاف الاولاد وان كان مما لا يسوغ انكاره ووجود ذلك في المورد محتمل لكن السبب المذكور في كلامه تعالى لذلك غير هذا ولو كان هو السبب الوحيد لفعلوا باخي يوسف ما فعلوا به ولم يقنعوا به .

---

(1) اشارة إلى ما في التوراة ان يعقوب كان له من الاولاد اثنا عشر ولدا ذكرا وهم راوبين وشمعون ولاوى ويهوذا ويساكر وزبولون وهؤلاء من ليئة بنت خاله ويوسف وبنيامين من

راحيل بنت خاله الاخرى .

ودان ونفتالى من بلهة جارية راحيل ، وجاد واشير من زلفة جارية ليئة .

(108/393)

واما قوله وهو الذى اضلهم من غريزة الوالدين في زيادة العطف على صغار الاولاد

وضعافهم ومفاده ان محبة يعقوب ليوسف انما كانت رقة وترحما غريزيا منه لصغرهما كما

هو المشهود من الاباء بالنسبة إلى صغار اولادهم ما داموا صغارا فإذا كبروا انتقلت إلى من

هو اصغر منهم .

ففيه ان هذا النوع من الحب المشوب بالرقة والترحم مما يسلمه الكبار للصغار وينقطعون عن

مزاحمتهم ومعارضتهم في ذلك ترى كبراء الاولاد إذا شاهدوا زيادة اهتمام الوالدين

بصغارهم وضعفائهم واعترضوا بان ذلك خلاف التعديل والتسوية فاجيبوا بانهم صغار

ضعفاء يجب ان يرق لهم ويرحمو ويعانوا حتى يصلحوا للقيام على ساقهم في أمر الحياة

سكتوا وانقطعوا عن الاعتراض واقنعهم ذلك .

فلو كانت صورة حب يعقوب ليوسف واخيه صورة الرقة والرأفة والرحمة لهما لصغرهما

وهى التى يعهدها كل من العصبة في نفسه ويذكرها من ابيه له في حال صغره لم يعيبوها ولم

يذموا اباهم عليها ولكان قولهم " ونحن عصبة " دليلا عليهم يدل على ضلالهم في نسبة ابيهم إلى الضلال لا دليلا لهم يدل على ضلال ابيهم في زيادة حبه لهما .

على انهم قالوا لابيهم حينما كلموا اباهم في أمر يوسف : " ما لك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون " ومن المعلوم ان اكرامه ليوسف وضمه إليه ومراقبته له وعدم امن احد منهم عليه أمر وراء المحبة بالرقة والرحمة له ولصغره وضعفه واما قوله وما كان يعقوب يخفى عليه هذا إلى آخر ما قال ومعناه ان هوى يعقوب في ابنه صرفه عن الواجب في تربية اولاده على علم منه بان ذلك خلاف العدل والانصاف وانه سيدفعه إلى بلوى في اولاده ثم تعذيره بأن مخالفة هوى القلب وعلقة الروح مما لا يستطيعه الإنسان .

ففيه انه افساد للاصول المسلمة العقلية والنقلية التى يستنتج منها حقائق مقامات الأنبياء والعلماء بالله من الصديقين والشهداء والصالحين وما بنى عليه البحث عن كرائم الاخلاق ان الإنسان بحسب فطرته في سعة من التخلق بها ومحق الرذائل النفسانية التى اصلها واساسها اتباع هوى النفس وايثار مرضاة الله سبحانه على كل مرضاة وبغية وهذا أمر نرجوه من كل من ارتاض بالرياضات الخلقية من اهل التقوى والورع فما الظن بالانبياء .

ثم بمثل يعقوب (عليه السلام) منهم .

وليت شعرى إذا لم يكن في استطاعة الإنسان ان يخالف هوى نفسه في امثال هذه الأمور فما معنى هذه الاوامر والنواهي الجمة في الدين المتعلقة بها وهل هي الا مجازفة صريحة . على ان فيما ذكره ازراء لمقامات انبياء الله واوليائه وحطا لمواقفهم العبودية إلى درجة المتوسطين من الناس اسراء هوى انفسهم الجاهلين بمقام ربهم وقد عرف سبحانه انبياء بمثل قوله : " واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم " الأنعام : 87 وقال في يعقوب وابويه إبراهيم واسحاق (عليه السلام) : " وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا واوحينا إليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاء وكانوا لنا عابدين " الأنبياء : 73 وقال فيهم أيضا : " انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار " ص 46 .

فاخبر انه هداهم إلى مستقيم صراطه ولم يقيد ذلك بقيد وانه اجتباهم وجمعهم واخلصهم لنفسه فهم مخلصون بفتح اللام لله سبحانه لا يشاركه فيهم مشارك فلا .

يبتغون الا ما يريده من الحق ولا يؤثرون على مرضاته مرضاة غيره سواء كان ذلك الغير انفسهم أو غيره وقد كرر سبحانه في كلامه حكاية اغواء بنى آدم عن الشيطان واستثنى المخلصين : " لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين " ص : 83 .

فالحق ان يعقوب انما كان يحب يوسف واخاه في الله سبحانه لما كان يتفرس منهما التقوى والكمال ومن يوسف خاصة ما كانت تدل عليه رؤياه ان الله سيجتبيه ويعلمه من تأويل

الاحاديث ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب ولم يكن حبه هوى البتة .

ومنها ما ذكره بعضهم ان مرادهم من قولهم : " ان ابانا لفى ضلال مبين " ضلاله في الدين وقد عرفت ان سياق الآيات الكريمة يدفعه .

ويقابل هذا القول بوجه قول آخرين ان اخوة يوسف كانوا انبياء وانما نسبوا اباهم إلى الضلال في سيرته والعدول في امرهم عن العدل والاستقامة وإذا اعترض عليهم بما ارتكبوه من المعصية والظلم في اخيهم وابيهم اجابوا عنه بأن ذلك كانت معصية صغيرة صدرت عنهم قبل النبوة أو لا بأس به بناء على جواز صدور الصغائر عن الأنبياء قبل

النبوة وربما اجيب بجواز ان يكونوا حين صدور المعصية صغارا مراهقين ومن الجائز صدور امثال هذه الأمور عن الاطفال المراهقين وهذه اوهام مدفوعة وليس قوله تعالى : " واوحينا إلى إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط " النساء : 163 الظاهر في نبوة الاسباط صريحا في اخوة يوسف .

والحق ان اخوة يوسف لم يكونوا انبياء بل كانوا اولاد انبياء حسدو يوسف واذنبوا بما ظلموا يوسف الصديق ثم تابوا إلى ربهم واصلحوا وقد استغفر لهم يعقوب ويوسف (عليه السلام

) كما حكى الله عن ابيهم قوله : " سوف استغفر لكم ربى " الآية 98 من السورة بعد قولهم : " يا ابانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين " وعن يوسف قوله : " يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين " الآية : 92 من السورة بعد اعترافهم له بقولهم : " وان كنا لخاطئين " .

ومنها قول بعضهم ان اخوة يوسف انما حسدوه بعد ما قص عليهم رؤياه وقد كان يعقوب نهاه ان يقص رؤياه على اخوته والحق ان الرؤيا انما اوجبت زيادة حسدهم وقد لحق بهم الحسد قبل ذلك كما مر بيانه .

قوله تعالى : " اقتلوا يوسف أو اطرحوه ارضا يخل لكم وجه ابيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين " تتمة قول اخوة يوسف والآية تتضمن الفصل الثاني من مؤامرتهم في مؤتمرهم الذى عقدوه في أمر يوسف ليرسموا بذلك خطة تريح نفوسهم منه كما ذكره تعالى بقوله : " وما كنت لديهم إذ اجمعوا امرهم وهم يمكرون " الآية 102 من السورة .

وقد ذكر الله سبحانه متن مؤامرتهم في هذه الآيات الثلاث : " قالوا ليوسف واخوه احب إلى ابينا منا ونحن عصبة إلى قوله ان كنتم فاعلين " .

فأوردوا اولا : ذكر مصيبتهم في يوسف واخيه إذ صرفا وجه يعقوب عنهم إلى انفسهما

وجذبا نفسه اليهما عن سائر الاولاد فصار يلتزمها ولا يعبأ بغيرهما ما فعلوا وهذه محنة حالة بهم توعدهم بخطر عظيم في مستقبل الأمر فيه سقوط شخصيتهم وخيبة مسعاهم وذلتهم بعد العزة وضعفهم بعد القوة وهو انحراف من يعقوب في سيرته وطريقته .

ثم تذاكروا ثانيا في طريق التخلص من الزرية بطرح كل منهم ما هيأه من الخطة ويراه من الرأى فأشار بعضهم إلى لزوم قتل يوسف وآخرون إلى طرحه ارضا بعيدة لا يستطيع معه العود إلى ابيه واللحوق بأهله فينسى بذلك اسمه ويمحو رسمه فيخلو وجه ابيهم لهم وينبسط حبه وحبائه فيهم .

ثم اتفقوا على ما يقرب من الراى الثاني وهو ان يلقوه في قعر بئر ليلتقطه بعض السيارة ويذهبوا به إلى بعض البلاد النائية البعيدة فينقطع بذلك خبره ويعفى اثره .

فقوله تعالى : " اقتلوا يوسف " حكاية لاحد الرأيين منهم في امره وفي ذكرهم يوسف وحده وقد ذكروا في مفتتح كلامهم في المؤامرة يوسف واخاه معا : " ليوسف واخوه احب إلى ابينا منا " دليل على انه كان مخصوصا بمزيد حب يعقوب وبلوغ عنايته واهتمامه وان كان اخوه أيضا محبوا بالحب والاكرام من بينهم وكيف لا ؟ ويوسف هو الذى رأى الرؤيا وبشر بأخص العنايات الإلهية والكرامات الغيبية وقد كان اكبرهما والخطر المتوجه من قبله إليهم اقرب مما من قبل اخيه ولعل في ذكر الاخوين معا اشارة إلى حب يعقوب لامهما الموجب لحبه بالطبع لهما وتهييج حسد الاخوة وغيظهم وحقدهم بالنسبة اليهما .

وقوله : " أو اطرحوه ارضا " حكاية رأيهم الثاني فيه والمعنى صيروه أو غربوه في ارض لا يقدر معه على العود إلى بيت ابيه فيكون كالمقتول ينقطع اثره ويستراح من خطره كالقائه في بئر أو تغريبه إلى مكان ناء ونظير ذلك .

والدليل عليه تنكير ارض ولفظ الطرح الذى يستعمل في القاء الإنسان المتاع أو الاثاث الذى يستغنى عنه ولا ينتفع به للاعراض عنه .

وفي نسبة الرأيين بالترديد إليهم دليل على ان مجموع الرأيين كان هو المرضي عند اكثر الاخوة حتى قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف الخ .

وقوله : " يخل لكم وجه ابيكم " أي افعلوا به احد الامرين حتى يخلو لكم وجه ابيكم وهو كناية عن خلوص حبه لهم بارتفاع المانع الذى يجلب الحب والعطف إلى نفسه كأنهم ويوسف إذا اجتمعوا واباهم حال يوسف بينه وبينهم وصرف وجهه إلى نفسه فإذا ارتفع خلا وجه ابيهم لهم واختص حبه بهم وانحصر اقباله عليهم .

وقوله : " وتكونوا من بعده قوما صالحين " أي وتكونوا من بعد يوسف أو من بعد قتله أو نفيه والمال واحد قوما صالحين بالتوبة من هذه المعصية .

وفي هذا دليل على انهم كانوا يرونه ذنبا واثما وكانوا يحترمون أمر الدين ويقدسونه لكن غلبهم الحسد وسولت لهم انفسهم اقتراف الذنب وارتكاب المظلمة وآمنهم من عقوبة الذنب بتلقين طريق يمكنهم من الاقتراف من غير لزوم العقوبة الإلهية وهو ان يقترفوا الذنب ثم يتوبوا .

وهذا من الجهل فان التوبة التى شأنها هذا الشأن غير مقبولة البتة فان من يوطن نفسه من قبل على المعصية ثم التوبة منها لا يقصد بتوبته الرجوع إلى الله والخضوع لمقامه حقيقة بل انما يقصد المكر بربه في دفع ما اوعده من العذاب والعقوبة مع المخالفة لامره أو نهيه فتوبته ذيل لما وطن عليه نفسه اولا : ان يذنب فيتوب فهى في الحقيقة تتمة ما رامه اولا من نوع المعصية وهو الذنب الذى تعقبه توبة وليست رجوعا إلى ربه بالندم على ما فعل وقد تقدم البحث عن معنى التوبة في تفسير قوله تعالى : " انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة " الآية النساء 17 في الجزء الرابع من الكتاب .

وقيل المراد بالصلاح في الآية صلاح الأمر من حيث سعادة الحياة الدنيا وانتظام الأمور فيها والمعنى وتكونوا من بعده قوما صالحين بصلاح امركم مع ابيكم .

قوله تعالى : " قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين " الجب هو البئر التى لم يطو أي لم يبن داخلها بالحجارة وان بني بها سميت البئر طويا والغيابة بفتح الغين المنهبط من الأرض الذى يغيب ما فيه من الانظار وغيابة الجب قعره الذى لا يرى لما فيه من الظلمة .

وقد اختار هذا القائل الرأى الثاني المذكور في الآية السابقة الذى يشير إليه قوله : أو اطرحوه ارضا " الا انه قيده بما يؤمن معه القتل أو أمر آخر يؤدى إلى هلاكه كأن يلقى في بئر ويترك فيها حتى يموت جوعا أو ما يشاكل ذلك فما ابداه من الرأى يتضمن نفى يوسف من الأرض من غير ان يتسبب إلى هلاكه بقتل أو موت أو نقص يشبهه فيكون اهلاكا لذي رحم وهو ان يلقى في بعض الابار التى على طريق المارة حتى يعثروا به عند الاستقاء فيأخذوه ويسيروا به إلى بلاد نائية تعفوا اثره وتقطع خبره والسياق يشهد بأنهم

ارتضوا هذا الراى إذ لم يذكر رد منهم بالنسبة إليه وقد جرى عملهم عليه كما هو مذكور في الآيات التالية .

واختلف المفسرون في اسم هذا القائل بعد القطع بانه كان احد اخوته لقوله تعالى : " قال قائل منهم فقيل هو روبين ابن خالة يوسف وقيل هو يهوذا وقد كان اسنهم واعقلهم وقيل هو لاوى ولا يهمنا البحث فيه بعد ما سكت القرآن عن تعريفه باسمه لعدم ترتب فائدة هامة عليه .

وذكر بعضهم ان تعريف الجب باللام يدل على انه كان جبا معهودا فيما بينهم وهو حسن لو لم يكن اللام للجنس وقد اختلفوا أيضا في ان هذا الجب اين كان هو ؟ على اقوال مختلفة لا يترتب على شئ منها فائدة طائلة .

قوله تعالى : " قالوا يا ابانا ما لك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون " أصل لا تأمنا لا تأمننا ثم ادغم بالادغام الكبير .

والآية تدل على ان الاخوة اجمعوا على قول القائل لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابة الجب واجمعوا على ان يمكروا بابيهم فيأخذوا يوسف ويفعلوا به ما عزموا عليه وقد كان ابوهم لا يأمنهم على يوسف ولا يخليه واياهم فكان من الواجب قبلا ان يزكوا انفسهم عند ابيهم ويجلوا قلبه من كدر الشبهة والارتياب حتى يتمكنوا من اخذه والذهاب به .

ولذلك جاؤا اباهم وخاطبوه بقولهم : " يا ابانا وفيه اثارة للعطف والرحمة وايثار للمودة ما لك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون " أي والحال انا لا نريد به الا الخير ولا نبتغى الا ما يرضيه ويسره .

ثم سألوه ما يريدونه وهو ان يرسله معهم إلى مرتعهم الذى كانوا يخرجون إليه ماشيتهم وغنمهم ليرتع ويلعب هناك وهم حافظون له فقالوا ارسله معنا الخ .

قوله تعالى : " ارسله معنا غدا يرتع ويلعب وانا له لحافظون " الرتع هو توسع الحيوان في الرعى والإنسان في التنزه واكل الفواكه ونحو ذلك .

وقولهم ارسله معنا غدا يرتع ويلعب اقتراح لمسؤلهم كما تقدمت الإشارة إليه

وقولهم : " وانا لحافظون " اكدوه بوجوه التأكيد إن واللام والجملة الاسمية على وزان قولهم : " وانا له لناصحون " كما يدل ان كل واحدة من الجملتين تتضمن نوعا من التطيب لنفس ابيهم كأنهم قالوا : ما لك لا تأمنا على يوسف فان كنت تخاف عليه ايانا معشر الاخوة كأن نقصده بسوء فانا له لناصحون وان كنت تخاف عليه غيرنا مما يصيبه أو يقصده بسوء كأن يدهمه المكروه ونحن مساهلون في حفظه ومستهينون في كلاءته فانا له لحافظون .

فالكلام مسوق على ترتيبه الطبعى ذكروا اولا انه في امن من ناحيتهم دائما ثم سالوا ان يرسله معهم غداة غد ثم ذكروا انهم حافظون له ما دام عندهم وبذلك يظهر ان قولهم : " وانا له لناصحون " تأمين له دائمي من ناحية انفسهم وقولهم : " وانا له لحافظون " تأمين له

موقت من غيرهم .

قوله تعالى : " قال انى ليحزنني ان تذهبوا به واخاف ان ياكله الذئب وانتم عنه غافلون "

هذا ما ذكر ابوهم جوابا لما سألوه ولم ينف عن نفسه انه لا يأمنهم عليه وانما ذكر ما ياخذه من الحالة النفسانية لو ذهبوا به فقال وقد اكد كلامه : " انى ليحزنني ان تذهبوا به " وقد كشف عن المانع انه نفسه التى يحزنها ذهابهم به لا ذهابهم به الموجب لحزنه تلطفا في الجواب معهم ولئلا يهيج ذلك عنادهم ولجاجهم وهو من لطائف النكت .

واعتذر إليهم في ذلك بقوله : " واخاف ان ياكله الذئب وانتم عنه غافلون " وهو عذر موجه فان الصحارى ذوات المراتع التى تأوى إليها المواشى وترتع فيها الاغنام لا تخلو طبعا من ذئاب أو سباع تقصدها وتكمن فيها للافتراس والاصطياد فمن الجائز ان يقبلوا على بعض شانهم ويغفلوا عنه فيأكله الذئب .

قوله تعالى : " قالوا لئن اكله الذئب ونحن عصبة انا إذا لخاسرون " تجاهلوا لابيهم كأنهم لم يفقهوا الا انه يأمنهم عليه لكن يخاف ان ياكله الذئب على حين غفلة منهم فردوه رد منكر مستغرب وذكروا لتطيب نفسه انهم جماعة اقوياء متعاضدون ذوو بأس وشدة واقسموا

بالله ان اكل الذئب اياه وهم عصبة يقضى بخسرانهم ولن يكونوا خاسرين البتة وانما اقسموا كما يدل عليه لام القسم ليطيبوا نفسه ويذهبوا بجزنه فلا يمنعهم من الذهاب به وهذا شائع في الكلام وفي الكلام وعد ضمنى منهم له انهم لن يغفلوا لكنهم لم يلبثوا يوما حتى كذبوا انفسهم فيما اقسموا له واخلفوه ما وعدوه إذ قالوا :

" يا ابانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فاكله الذئب " الآية .

قوله تعالى : " فلما ذهبوا به واجمعوا ان يجعلوه في غيابت الجب " قال الراغب اجمعت على كذا اكثر ما يقال فيما يكون جمعا يتوصل إليه بالفكرة نحو فاجمعوا امركم وشركاءكم قال ويقال اجمع المسلمون على كذا اتفقت آراؤهم عليه انتهى .

وفي المجمع اجمعوا أي عزموا جميعا ان يجعلوه في غيابة الجب أي قعر البئر واتفقت دواعيهم عليه فان من دعاه داع واحد إلى الشئ لا يقال فيه انه اجمع عليه فكأنه ماخوذ من اجتماع الدواعى انتهى والآية تشعر بأنهم اقنعوا اباهم بما قالوا له من القول وارضوه ان لا يمنعهم ان يخرجوا يوسف معهم إلى الصحراء فحملوه معهم لانفاذ ما ازمعوا عليه من القائه في غيابة الجب .

وجواب لما محذوف للدلالة على فجاعة الأمر وفظاعته وهى صنعة شائعة في الكلام ترى المتكلم يصف امرا فظيعا كقتل فجيع يحترق به القلب ولا يطيقه السمع فيشرع في بيان اسبابه والأحوال التى تؤدى إليه فيجرى في وصفه حتى إذا بلغ نفس الحادثة سكت سكوتا

عميقا ثم وصف ما بعد القتل من الحوادث فيدل بذلك على ان صفة القتل بلغت من الفجاعة مبلغا لا يسع المتكلم ان يصرح به ولا يطيق السامع ان يسمعه .

(117/393)

فكأن الذى يصف القصة عز اسمه لما قال : " ولما ذهبوا به واجمعوا ان يجعلوه في غيابة الجب " سكت مليا وامسك عن ذكر ما فعلوا به اسى وأسفا لأن السمع لا يطيق وعى ما فعلوا بهذا الطفل المعصوم المظلوم النبي ابن الأنبياء ولم يأت بجرم يستحق به شيئا مما ارتكبوه فيه وهم اخوته وهم يعلمون مبلغ حب ابيه النبي الكريم يعقوب له فيا قاتل الله الحسد يهلك شقيقا مثل يوسف الصديق بايدى اخوته ويثكل ابا كريما مثل يعقوب بايدى ابنائه ويزين بغيا شنيعا كهذا في اعين رجال ربوا في حجر النبوة ونشؤا في بيت الأنبياء .

ولما حصل الغرض بالسكوت عن جواب لما جرى سبحانه في ذيل القصة فقال : " واوحينا إليه " الخ .

قوله تعالى : " واوحينا إليه لتنبئنهم بامرهم هذا وهم لا يشعرون " الضمير ليوسف وظاهر الوحى انه من وحى النبوة والمراد بامرهم هذا القاؤهم اياه في غيابة الجب وكذا الظاهر ان جملة وهم لا يشعرون حال من الايحاء المدلول عليه بقوله واوحينا الخ ومتعلق لا

يشعرون هو الأمر أي لا يشعرون بحقيقة امرهم هذا أو الايحاء أي وهم لا يشعرون بما اوحينا إليه .

والمعنى والله اعلم واوحينا الى يوسف اقسم لتخبرنهم بحقيقة امرهم هذا وتاويل ما فعلوا بك فانهم يرونه نفيا لشخصك وانساء لاسمك واطفاء لنورك وتذليلا لك وحطا لقدرك وهو في الحقيقة تقريب لك إلى اريكة العزة وعرش المملكة واحياء لذكرك واتمام لنورك ورفع لقدرك وهم لا يشعرون بهذه الحقيقة وستنبؤهم بذلك وهو قوله لهم وقد اتكى على اريكة العزة وهم قيام امامه يسترحمونه بقولهم : " يا ايها العزيز مسنا واهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ان الله يجزى المتصدقين " إذ قال : " هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه إذ انتم جاهلون إلى ان قال انا يوسف وهذا اخى قد من الله علينا " الخ .

(118/393)

انظر إلى موضع قوله هل علمتم فانه اشارة إلى ان هذا الذى تشاهدونه اليوم من الحال هو حقيقة ما فعلتم بيوسف وقوله : " إذ انتم جاهلون " فانه يحاذي من هذه الآية التى نحن فيها قوله : " وهم لا يشعرون " .

وقيل في معنى الآية وجوه اخر : منها انك ستخبر اخوتك بما فعلوا بك في وقت لا يعرفونك وهو الذى اخبرهم به في مصر وهم لا يعرفونه ثم عرفهم نفسه .

ومنها ان المراد بانبائه اياهم مجازاتهم بسوء ما فعلوا كمن يتوعد من اساء إليه فيقول : لانبئنك ولا عرفنك .

ومنها قول بعضهم كما روى عن ابن عباس ان المراد بانبائه اياهم بامرهم ما جرى له مع اخوته بمصر حيث رآهم فعرفهم وهم له منكرون فأخذ جاما فنقره فظن فقال ان هذا الجام يخبرني انكم كان لكم اخ من ابيكم القيتموه في الجب وبعتموه بثمن بخس .

وهذه وجوه لا تخلو من سخافة والوجه ما قدمناه وقد كثر ورود هذه اللفظة في كلامه تعالى في معنى بيان حقيقة العمل كقوله تعالى : " إلى الله مرجعكم جميعا فينبؤكم بما كنتم تعملون " المائدة : 105 وقوله : " وسوف ينبؤهم الله بما كانوا يصنعون " المائدة : 14 وقوله : " يوم يبعثهم الله جميعا فينبؤهم بما عملوا " المجادلة : 6 إلى غير ذلك من الآيات وهى كثيرة .

ومنها قول بعضهم ان المعنى واوحينا إليه ستخبرهم بما فعلوا بك وهم لا يشعرون بهذا الوحى وهذا الوجه غير بعيد لكن الشأن في بيان نكتة لتقييد الكلام بهذا القيد ولا حاجة إليه ظاهرا .

ومنها قول بعضهم ان معنى الآية لتخبرنهم برقى حياتك وعزتك وملكك بامرهم هذا إذ

يظهرك الله عليهم ويذلهم لك ويجعل رؤياك حقا وهم لا يشعرون يومئذ بما آتاك الله .

وعمدة الفرق بين هذا القول وما قدمناه من الوجه ان في هذا القول صرف الانباء عن الانباء الكلامي إلى الانباء بالحال الخارجي والوضع العينى ولا موجب له بعد ما حكاه سبحانه عنه قوله : " هل علمتم ما فعلتم بيوسف " الخ .

(119/393)

قوله تعالى : " وجاؤا اباهم عشاء يبكون العشاء آخر النهار وقيل من صلاة المغرب إلى العتمة وانما كانوا يبكون ليلبسوا الأمر على ابيهم فيصدقهم فيما يقولون ولا يكذبهم .

قوله تعالى : " قالوا يا ابانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فاكله الذئب " إلى آخر الآية قال الراغب في المفردات أصل السبق التقدم في السير نحو والسابقات سبقا والاستباق التسابق وقال انا ذهبنا نستبق واستبقا الباب انتهى وقال الزمخشري في الكشاف نستبق أي نتسابق والافتعال والتفاعل يشتركان كالانتضال والتناضل والارتماء والترامى وغير ذلك والمعنى نتسابق في العدو أو في الرمى انتهى .

وقال صاحب المنار في تفسيره انا ذهبنا نستبق أي ذهبنا من مكان اجتماعنا إلى السباق يتكلف كل منا ان يسبق غيره فالاستباق تكلف السبق وهو الغرض من المسابقة والتسابق

بصيغتي المشاركة التى يقصد بها الغلب وقد يقصد لذاته أو لغرض آخر في السبق ومنه " فاستبقوا الخيرات " فهذا يقصد به السبق لذاته لا للغلب وقوله الاتى في هذه السورة واستبقا الباب كان يقصد به يوسف الخروج من الدار هربا من حيث تقصد امرأة العزيز باتباعه ارجاعه وصيغة المشاركة لا تؤدى هذا المعنى ولم يفطن

الزمخشري علامة اللغة ومن تبعه لهذا الفرق الدقيق انتهى .

(120/393)

اقول والذى مثل به من قوله تعالى : " فاستبقوا الخيرات " من موارد الغلب فان من المندوب شرعا ان لا يؤثر الإنسان غيره على نفسه في الخيرات والمثوبات والقربات وان يتقدم على من دونه في حيازة البركات فينطبق الاستباق حينئذ قهرا على التسابق وكذا قوله تعالى واستبقا الباب فان المراد به قطعا ان كلا منهما كان يريد ان يسبق الاخر إلى الباب هذا ليفتحه وهذه لتمنعه من الفتح وهو معنى التسابق فالحق ان معنيي الاستباق والتسابق متحدان صدقا على المورد وفي الصحاح سابقته فسبقته سبقا واستبقنا في العدو أي تسابقنا انتهى وفي لسان العرب سابقته فسبقته واستبقنا في العدو أي تسابقنا انتهى .

ولعل الوجه في تصادق استبق وتسابق ان نفس السبق معنى اضافي في نفسه وزنة افتعل

تفيد تأكد معنى فعل وامعان الفاعل في فعله واخذه حلية لنفسه كما يشاهد في مثل كسب واكتسب وحمل واحتمل وصبر واصطبر وقرب واقترب وخفي واختفى وجهد واجتهد ونظائرها وطرو هذه الخصوصية على معنى السبق على ما به من الاضافة يفيد جهد الفاعل ان يخص السبق لنفسه ولا يتم الا مع تسابق في المورد .

وقوله " بمؤمن لنا " أي بمصدق لقولنا والإيمان يتعدى باللام كما يتعدى بالباء قال تعالى : " فآمن له لوط " العنكبوت : 26 .

والمعنى انهم حينما جاؤا اباهم عشاء يبكون قالوا لابيهم يا ابانا انا معشر الاخوة ذهبنا إلى البيداء نتسابق في عدو أو رمى ولعله كان في عدو فان ذلك ابلغ في ابعادهم من رحلهم ومتاعهم وكان عنده يوسف على ما ذكروا وتركنا يوسف عند رحلنا ومتاعنا فاكله الذئب ومن خيبتنا ومسكنتنا انك لست بمصدق لنا فيما نقوله ونخبر به ولو كنا صادقين فيه .

وقولهم : " وما انت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين " كلام ياتي بمثله المعتذر إذا انقطع عن الأسباب وانسدت عليه طرق الحيلة للدلالة على ان كلامه غير موجه عند من يعتذر إليه

وعذره غير مسموع هو يعلم بذلك لكنه مع ذلك مضطر ان يخبر بالحق ويكشف عن الصدق وان كان غير مصدق فيه فهو كناية عن الصدق في المقال .

قوله تعالى : " وجاؤا على قميصه بدم كذب " الكذب بالفتح فالكسر مصدر اريد به الفاعل للمبالغة أي بدم كاذب بين الكذب .

وفي الآية اشعار بان القميص وعليه دم وقد نكر الدم للدلالة على هوان دلالته وضعفها على ما وصفوه كان على صفة تكشف عن كذبهم في مقالهم فان من افترسته السباع واكلته لم تترك له قميصا سالما غير ممزق وهذا شان الكذب لا يخلو الحديث الكاذب ولا الاحدوثة الكاذبة من تناف بين اجزائه وتناقض بين اطرافه أو شواهد من اوضاع واحوال خارجية تحف به وتنادى بالصدق وتكشف القناع عن قبيح سريرته وباطنه وان حسنت صورته .

(كلام في ان الكذب لا يفلح) من المجرب ان الكذب لا يدوم على اعتباره وان الكاذب لا يلبث دون ان ياتي بما يكذبه أو يظهر ما يكشف القناع عن بطلان ما اخبر به أو ادعاه والوجه فيه ان الكون يجرى على نظام يرتبط به بعض اجزائه ببعض بنسب واضافات غير متغيرة ولا متبدلة فلكل حادث من الحوادث الخارجية الواقعة لوازم وملزومات متناسبة لا ينفك بعضها من بعض ولها جميعا فيما بينها احكام وآثار يتصل بعضها ببعض ولو اختل

واحد منها لاختل الجميع وسلامة الواحد تدل على سلامة السلسلة وهذا قانون كلى غير قابل لورود الاستثناء عليه .

فلو انتقل مثلا جسم من مكان إلى مكان آخر في زمان كان من لوازمه ان يفارق المكان الأول ويبتعد منه ويغيب عنه وعن كل ما يلازمه ويتصل به ويخلو عنه المكان الأول ويشغل به الثاني وان يقطع ما بينهما من الفصل إلى غير ذلك من اللوازم ولو اختل واحد منها كأن يكون في الزمان المفروض شاغلا للمكان الأول اختلت جميع اللوازم المحتفة به .

وليس في وسع الإنسان ولا أي سبب مفروض إذا ستر شيئا من الحقائق الكونية بنوع من التلبيس ان يستر جميع اللوازمات والملزومات المرتبطة به أو ان يخرجها عن محالها الواقعية أو يحرفها عن مجراها الكونية فان القى سترا على واحدة منها ظهرت الاخرى والا فالثالثة وهكذ .

ومن هنا كانت الدولة للحق وان كانت للباطل جولة وكانت القيمة للصدق وان تعلقت الرغبة احيانا بالكذب قال تعالى : " ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار " الزمر : 3 وقال : " ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب " المؤمن : 28 .

وقال : " ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون " النحل : 116 وقال : " بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج " ق : 5 وذلك انهم لما عدوا الحق كذبا بنوا على الباطل واعتمدوا عليه في حياتهم فوقعوا في نظام مختل يناقض بعض اجزائه بعضا ويدفع طرف منه طرفا .

قوله تعالى : " قال بل سولت لكم انفسكم امرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون " هذا جواب يعقوب وقد فوجئ بنعى ابنه وحبيبه يوسف دخلوا عليه وليس معهم يوسف وهم يبكون يخبرونه ان يوسف قد اكله الذئب وهذا قميصه الملطخ بالدم وقد كان يعلم بمبلغ حسدهم له وهم قد انتزعوه من يده بالحاح واصرار وجاؤا بقميصه وعليه دم كذب ينادى بكذبهم فيما قالوه واخبروا به .

فاضرب عن قولهم : " انا ذهبنا نستبق " الخ بقوله : " بل سولت لكم انفسكم امرا " والتسويل الوسوسة أي ليس الأمر على ما تخبرون بل وسوست لكم انفسكم فيه امرا وابهم الأمر ولم يعينه ثم اخبر انه صابر في ذلك من غير ان يؤاخذهم وينتقم منهم لنفسه انتقاما وانما يكظم ما هجم نفسه كظما .

فقوله : " بل سولت لكم انفسكم امرا " تكذيب لما اخبروا به من أمر يوسف وبيان انه على علم من ان فقد يوسف لا يستند إلى ما ذكروه من افتراس السبع وانما يستند إلى مكر مكروه وتسويل من انفسهم لهم والكلام بمنزلة التوطئة لما ذكره بعد من قوله : " فصبر جميل " إلى آخر الآية .

وقوله : " فصبر جميل " مدح للصبر وهو من قبيل وضع السبب موضع المسبب والتقدير ساصبر على ما اصابني فان الصبر جميل وتنكير الصبر وحذف صفته وابهامها للاشارة إلى فخامة امره وعظم شانه أو مرارة طعمه وصعوبة تحمله .

وقد فرع قوله : " فصبر جميل " على ما تقدم للاشعار بان الأسباب التى احاطت به وافرغت عليه هذه المصيبة هي بحيث لا يسع له معها إلا أن يسلك سبيل الصبر وذلك انه (عليه السلام) فقد احب الناس إليه يوسف وهو ذا يذكر له انه صار اكلة للذئب وهذا قميصه ملطخا بالدم وهو يرى انهم كاذبون فيما يخبرونه به ويرى ان لهم صنعا في افتقاده ومكرا في امره ولا طريق له إلى التحقيق فيما جرى على يوسف والتجسس مما آل إليه امره واين هو ؟ وما حاله ؟ فانما اعوانه على امثال هذه النوائب واعضاده لدفع ما يقصده من المكاره انما هم ابناؤه وهم عصبة اولوا قوة وشدة فإذا كانوا هم الأسباب لنزول النائبة ووقوع المصيبة فبمن يقع فيهم ؟ وبماذا يدفعهم عن نفسه ؟ فلا يسعه الا الصبر .

غير ان الصبر ليس هو ان يتحمل الإنسان ما حمله من الرزية وينقاد لمن يقصده بالسوء انقيادا مطلقا كالارض الميتة التى تطؤها الاقدام وتلعب بها الايدى فان الله سبحانه طبع الإنسان على دفع المكروه عن نفسه وجهزه بما يقدم به على النوائب والرزايا ما استطاع ولا فضيلة في ابطال هذه الغريزة الإلهية بل الصبر هو الاستقامة في القلب وحفظ النظام النفساني الذى به يستقيم أمر الحياة الإنسانية من الاختلال وضبط الجمعية الداخلية من التفرق والتلاشى ونسيان التدبير واختباط الفكر وفساد الراى فالصابرون هم القائمون في النوائب على ساق لا تزيلهم هجمات المكاره وغيرهم المنهزمون عند اول هجمة ثم لا يلوون على شئ .

ومن هنا يعلم ان الصبر نعم السبيل على مقاومة النائبة وكسر سورتها الا انه ليس تمام السبب في اعادة العافية وارجاع السلامة فهو كالحصن يتحصن به الإنسان لدفع العدو المهاجم واما عود نعمة الأمن والسلامة وحرية الحياة فربما احتاج إلى سبب آخر يجر إليه الفوز والظفر وهذا السبب في ملة التوحيد هو الله عز سلطانه فعلى الإنسان الموحد إذا نابته نائبة ونزلت عليه مصيبة ان يتحصن اولا بالصبر حتى لا يختل ما في داخله من النظام العبودي ولا يتلاشى معسكر قواه ومشاعره ثم يتوكل على ربه الذى هو فوق كل سبب راجيا ان يدفع عنه الشر ويوجه امره إلى غاية صلاح حاله والله سبحانه غالب على امره

وقد تقدم شئ من هذا البحث في تفسير قوله تعالى : " واستعينوا بالصبر والصلاة " البقرة : 45 في الجزء الأول من الكتاب .

ولهذا كله لما قال يعقوب (عليه السلام) " فصبر جميل " عقبه بقوله : " والله المستعان على ما تصفون " فتمم كلمة الصبر بكلمة التوكل نظير ما اتى به في قوله في الايات المستقبلة : " فصبر جميل عسى الله ان يأتيني بهم جميعا انه هو العليم الحكيم " الآية : 83 من السورة .

(125/393)

فقوله : " والله المستعان على ما تصفون " وهو من اعجب الكلام بيان لتوكله على ربه يقول انى اعلم ان لكم في الأمر مكرا وان يوسف لم ياكله ذئب لكنى لا اركن في كشف كذبكم والحصول على يوسف بالاسباب الظاهرة التى لا تغنى طائلا بغير اذن من الله ولا اتشحط بينها بل اضبط استقامة نفسي بالصبر واوكل ربى ان يظهر على ما تصفون ان يوسف قد قضى نحبه وصار اكلة لذئب .

فظهر ان قوله : " والله المستعان على ما تصفون " دعاء في موقف التوكل ومعناه اللهم انى توكلت عليك في امرى هذا فكن عونا لى على ما يصفه بنى هؤلاء والكلمة مبنية على

توحيد الفعل فانها مسوقة سوق الحصر ومعناها ان الله سبحانه هو المستعان لا مستعان لى غيره فانه (عليه السلام) كان يرى ان لا حكم حقا الا حكم الله كما قال فيما سيأتي من كلامه : " ان الحكم الا لله عليك توكلت " ولتكميل هذا التوحيد بما هو اعلى منه لم يذكر نفسه فلم يقل ساصبر ولم يقل والله استعين على ما تصفون بل ترك نفسه وذكر اسم ربه وان الأمر منوط بحكمه الحق وهو من كمال توحيده وهو مستغرق في وجده واسفه وحزنه ليوسف غير انه ما كان يحب يوسف ولا يتوله فيه ولا يجد لفقده الا لله وفي الله .

قوله تعالى : " وجاءت سيارة فارسلوا واردهم فادلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام واسروه بضاعة والله عليم بما يعملون " قال الراغب الورود أصله قصد الماء ثم يستعمل في غيره انتهى وقال دلوت الدلو إذا ارسلتها وادليتها إذا اخرجتها انتهى وقيل بالعكس وقال الاسرار خلاف الاعلان انتهى .

وقوله : " قال يا بشرى هذا غلام " ايراده بالفصل مع انه متفرع وقوعا على ادلاء الدلو للدلالة على انه كان امرا غير مترقب الوقوع فان الذى يترقب وقوعه عن الادلاء هو خروج الماء دون الحصول على غلام فكان مفاجئا لهم ولذا قال : " يا بشرى ونداء البشرى كنداء الاسف والويل ونظائرهما للدلالة على حضوره وجلاء ظهوره .

وقوله : " والله عليم بما يعملون " مفاده ذم عملهم والابانة عن كونه معصية محفوظة عليهم سيؤاخذون بها ويمكن ان يكون المراد به ان ذلك انما كان بعلم من الله اراد بذلك ان يبلغ يوسف مبلغه الذى قدر له فانه لو لم يخرج من الجب ولم يسر بضاعة لم يدخل بيت العزيز بمصر فلم يؤت ما اوتيه من الملك والعزة .

ومعنى الآية وجاءت جماعة مارة إلى هناك فارسلوا من يطلب لهم الماء فارسل دلوه في الجب ثم لما اخرجها فاجأهم بقوله يا بشرى هذا غلام وقد تعلق يوسف بالحبل فخرج فاخفوه بضاعة يقصد بها البيع والتجارة والحال ان الله سبحانه عليم بما يعملون يؤاخذهم عليه أو ان ذلك كان بعلمه تعالى وكان يسير يوسف هذا المسير ليستقر في مستقر العزة والملك والنبوة .

قوله تعالى : " وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين " الثمن البخس هو الناقص عن حق القيمة ودراهم معدودة أي قليلة والوجه فيه على ما قيل انهم كانوا إذا كثرت الدراهم أو الدنانير وزنوها ولا يعدون الا القليلة منها والمراد بالدراهم النقود الفضية الدائرة بينهم يومئذ والشراء هو البيع والزهد هو الرغبة عن الشئ أو هو كناية عن الاتقاء .

والظاهر من السياق ان ضميري الجمع في قوله وشروه وكانوا للسيارة والمعنى ان السيارة الذين اخرجوه من الجب واسروه بضاعة باعوه بثمن بخس ناقص وهى دراهم معدودة

قليلة وكانوا يتقون ان يظهر حقيقة الحال فينتزع هو من ايديهم .

ومعظم المفسرين على ان الضميرين لاخوة يوسف والمعنى انهم باعوا يوسف من السيارة بعد ان ادعوا انه غلام لهم سقط في البئر وهم انما حضروا هناك لاخراجه من الجب فباعوه من السيارة وكانوا يتقون ظهور الحال .

(127/393)

أو ان اول الضميرين للاخوة والثانى للسيارة والمعنى ان الاخوة باعوه بثمن بخس دراهم معدودة وكانت السيارة من الراغبين عنه يظهرون من انفسهم الزهد والرغبة لئلا يعلو قيمته أو يرغبون عن اشترائه حقيقة لما يحدسون ان الأمر لا يخلو من مكر وان الغلام ليس فيه سيماء العبيد .

وسياق الآيات لا يساعد على شئ من الوجهين فضمائر الجمع في الآية السابقة للسيارة ولم يقع للاخوة بعد ذلك ذكر صريح حتى يعود ضمير وشروه وكانوا أو احدهما إليهم على ان ظاهر قوله في الآية التالية : " وقال الذى اشتراه من مصر انه اشتراه متحقق بهذا الشراء .

واما ما ورد في الروايات ان اخوة يوسف حضروا هناك واخذوا يوسف منهم بدعوى انه

عبدهم سقط في البئر ثم باعوه منهم بثمن بخس فلا يدفع ظاهر السياق في الآيات ولا انه يدفع الروايات .

وربما قيل ان الشراء في الآية بمعنى الاشتراء وهو مسموع وهو نظير الاحتمالين السابقين مدفوع بالسياق .

قوله تعالى : " وقال الذى اشتراه من مصر لامراته اكرمي مثواه عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولدا " السياق يدل على ان السيارة حملوا يوسف معهم إلى مصر وعرضوه هناك للبيع فاشتراه بعض اهل مصر وادخله في بيته .

وقد اعجبت الآيات في ذكر هذا الذى اشتراه وتعريفه فذكر فيها اولا بمثل قوله تعالى : " وقال الذى اشتراه من مصر " فانبأت انه كان رجلا من اهل مصر وثانيا بمثل قوله : " وألفيا سيدها لدى الباب " فعرفته بانه كان سيدا مصمودا إليه وثالثا : بمثل قوله " وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه " فاوضحت انه كان عزيزا في مصر يسلم له اهل المدينة العزة والمناعة ثم اشارت إلى انه كان له سجن وهو من شؤن مصدرية الأمور والرئاسة بين الناس وعلم بذلك ان يوسف كان ابتيع اول يوم لعزيز مصر ودخل بيت العزة .

وبالجملة لم يعرف الرجل كل مرة في كلامه تعالى الا بمقدار ما يحتاج إليه موقف الحديث من القصة ولم يكن لاول مرة في تعريفه حاجة إلى ازيد من وصفه بانه كان رجلا من اهل مصر وبها بيته فلذا اقتصر في تعريفه بقوله : "وقال الذى اشتراه من مصر" .

وكيف كان الآية تنبئ على ايجازها بان السيارة حملوا يوسف معهم وادخلوه مصر وشروه من بعض اهلها فادخله بيته ووصاه امراته قائلا اكرمي مثواه عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولدا والعادة الجارية تقضى ان لا يهتم السادة والموالي بامر ارقائهم دون ان يتفرسوا في وجه الرقيق آثار الاصالة والرشد ويشاهد في سيماه الخير والسعادة وعلى الخصوص الملوك والسلاطين والرؤساء الذين كان يدخل كل حين في بلاطاتهم عشرات ومآت من احسن افراد الغلمان والجوارى فما كانوا ليتولعوا في كل من اقتنوه ولا ليتولهوا كل من الفوه فكان لامر العزيز باكرام مثواه ورجاء الانتفاع به أو اتخاذه ولدا معنى عميق وعلى الاخص من جهة انه أمر بذلك امراته وسيدة بيته وليس من المعهود ان تباشر الملكات والعزيزات جزئيات الأمور وسفاسفها ولا ان تتصدى السيدات المنيعة مكانا امور العبيد والغلمان .

نعم ان يوسف (عليه السلام) كان ذا جمال بديع يبهر العقول ويوله الألباب وكان قد اوتى مع جمال الخلق حسن الخلق صبورا وقورا لطيف الحركات مليح اللهجة حكيم المنطق كريم النفس نجيب الأصل وهذه صفات لا تنمو في الإنسان الا واعراقها ناجمة فيه ايام صباوته وآثارها لائحة من سيماه من بادئ امره .

فهذه هي التى جذبت نفس العزيز إلى يوسف وهو طفل صغير حتى تمنى ان ينشأ يوسف عنده في خاصة بيته فيكون من اخص الناس به ينتفع به في اموره الهامة ومقاصده العالية أو يدخل في ارومته ويكون ولدا له ولامراته بالتبنى فيعود وارثا لبيته .

ومن هنا يمكن ان يستظهر ان العزيز كان عقيما لا ولد له من زوجته ولذلك ترجى ان يتبنى هو وزوجته يوسف .

فقوله : " وقال الذى اشتراه من مصر " أي العزيز لامراته وهى العزيزة " اكرمي مثواه " أي تصدى بنفسك امره واجعلي له مقاما كريما عندك عسى ان ينفعنا في مقاصدنا العالية وامورنا الهامة أو نتخذه ولدا بالتبنى .

قوله تعالى : " وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الاحاديث والله غالب على امره ولكن اكثر الناس لا يعلمون " قال في المفردات المكان عند اهل اللغة الموضع الحاوى للشئ قال ويقال مكنته ومكنت له فتمكن قال تعالى : " ولقد مكناهم في الأرض " " ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه " " ا ولم نمكن لهم " " ونمكن لهم الأرض " قال قال الخليل : المكان مفعل من الكون ولكثرته في الكلام اجرى مجرى فعال فقيل تمكن وتمسكن

مثل تمنزل انتهى فالمكان هو مقر الشئ من الأرض والامكان والتمكين الاقرار والتقرير في المحل وربما يطلق المكان المكانة لمستقر الشئ من الأمور المعنوية كالمكانة في العلم وعند الناس ويقال امكنته من الشئ فتمكن منه أي اقدرته فقدر عليه وهو من قبيل الكناية .

ولعل المراد من تمكين يوسف في الأرض اقراره فيه بما يقدر معه على التمتع من مزايا الحياة والتوسع فيها بعد ما حرم عليه اخوته القرار على وجه الأرض فالقوه في غيابة الجب ثم شروه بثمن بخس ليسيره به الركبان من ارض إلى ارض ويتغرب عن ارضه ومستقر ابيه .

وقد ذكر تعالى تمكينه ليوسف في الأرض في خلال قصته مرتين احداهما بعد ذكر خروجه من غيابة الجب وتسيير السيارة اياه إلى مصر وبيعه من العزيز وهو قوله في هذه الآية : " ولقد مكنا ليوسف في الأرض " وثانيتهما بعد ذكر خروجه من سجن العزيز واتصا به على خزائن ارض مصر حيث قال تعالى : " وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوء منها حيث يشاء " الآية 56 من السورة والعناية في الموضعين واحدة .

(130/393)

وقوله : " وكذلك مكنا ليوسف في الأرض " الإشارة إلى ما ذكره من اخراجه من الجب وبيعه واستقراره في بيت العزيز فان كان المراد من تمكينه في الأرض هذا المقدار من التمكين

الذى حصل له من دخوله في بيت العزيز واستقراره فيه على اهناء عيش بتوصية العزيز فالتشبيه من قبيل تشبيه الشئ بنفسه ليدل به على غزارة الأوصاف المذكورة له وليس من القسم المذموم من تشبيه الشئ بنفسه كقوله كأننا والماء من حولنا * قوم جلوس حولهم ماء بل المراد ان ما فعلنا به من التمكين في الأرض كان يماثل هذا الذى وصفناه واخبرنا عنه فهو يتضمن من الأوصاف الغزيرة ما يتضمنه ما حدثناه فهو تلطف في البيان بجعل الشئ مثل نفسه بالتشبيه دعوى ليلفت به ذهن السامع إلى غزارة اوصافه واهميتها وتعلق النفس بها كما هو شأن التشبيه .

ومن هذا الباب قوله تعالى : "ليس كمثله شئ" الشورى : 11 وقوله تعالى : "لمثل هذا فليعمل العاملون" الصافات : 61 والمراد ان كل ما اتصف من الصفات بما اتصف به الله سبحانه لا يشبهه ولا يماثله شئ وان كل ما اشتمل من الصفات على ما اشتملت عليه الجنة وماثلها في صفاتها فليعمل العاملون لاجل الفوز به .

وان كان المراد بالتمكين مطلق تمكينه في الأرض فتشبيهه بما ذكر من الوصف من قبيل تشبيه الكلى ببعض افراده ليدل به على ان سائر الافراد حالها حال هذا الفرد أو تشبيه الكل ببعض اجزائه للدلالة على ان الاجزاء الباقية حالها حال ذاك الجزء المذكور فيكون المعنى كان تمكيننا ليوسف في الأرض يجرى على هذا

النمط المذكور في قصة خروجه من الجب ودخوله مصر واستقراره في بيت العزيز على احسن حال فان اخوته حسدوه وحرموا عليه القرار على وجه الأرض عند ابيه فألقوه في غيابة الجب وسلبوه نعمة التمتع في وطنه في البادية وباعوه من السيارة ليغربوه من اهله فجعل الله سبحانه كيدهم هذا بعينه سببا يتوسل به إلى التمكن والاستقرار في بيت العزيز بمصر على احسن حال ثم تعلقت به امرأة العزيز وراودته هي ونسوة مصر ليوردنه في الصبوة والفحشاء فصرف الله عنه كيدهن وجعل ذلك بعينه وسيلة لظهور اخلاصه وصدقه في ايمانه ثم بدا لهم ان يجعلوه في السجن ويسلبوا عنه حرية معاشرة الناس والمخالطة لهم فتسبب الله سبحانه بذلك بعينه إلى تمكينه في الأرض تمكينا يتبوء من الأرض حيث يشاء لا يمنعه مانع ولا يدفعه دافع .

وبالجملة الآية على هذا التقدير من قبيل قوله تعالى : "كذلك يضل الله الكافرين " المؤمن : 74 وقوله : "كذلك يضرب الله الامثال " الرعد : 17 اي إن إضلاله تعالى للكافرين يجري دائما هذا المجرى ، وضربه الامثال ابدا على هذا النحو من المثل المضروب وهو انموذج ينبغي أن يقاس إليه غيره .

وقوله : " ولنعلمه من تأويل الاحاديث " بيان لغاية التمكين المذكور واللام للغاية ، وهو معطوف على مقدر والتقدير : مكنا له في الأرض لنفعل به كذا وكذا ولنعلمه من تأويل

الاحاديث وإنما حذف المعطوف عليه للدلالة على أن هناك غايات اخر لا يسعها مقام التخاطب، ومن هذا القبيل قوله تعالى: " وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين " الأنعام: 75 ونظائره.

وقوله: " والله غالب على أمره ولكن اكثر الناس لا يعلمون " الظاهر أن المراد بالأمر الشأن وهو ما يفعله في الخلق مما يتركب منه نظام التدبير قال تعالى: " يدبر الأمر " يونس: 3 وأنما أضيف إليه تعالى لأنه مالك كل أمر كما قال تعالى: " ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين " الأعراف: 54.

(132/393)

والمعنى أن كل شأن من شؤن الصنع والايجاد من أمره تعالى وهو تعالى غالب عليه وهو مغلوب له مقهور دونه يطيعه فيما شاء، ينقاد له فيما أراد، ليس له أن يستكبر أو يتمرد فيخرج من سلطانه كما ليس له أن يسبقه تعالى ويفوته، قال تعالى: " إن الله بالغ أمره " الطلاق: 3.

وبالجملة هو تعالى غالب على هذه الأسباب الفعالة باذنه يحمل عليها ما يريده فليس لها إلا السمع والطاعة ولكن اكثر الناس لا يعلمون لحسبانهم ان الأسباب الظاهرة مستقلة في

تأثيرها فعالة برؤوسها فإذا ساقت الحوادث إلى جانب لم يحولها عن وجهتها شئ وقد اخطأوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 11 صـ 112.87 ﴾

(133/393)

قوله تعالى ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر تعالى أن سبب النعمة عليه إحسانه ، أتبعه دليله فقال : ﴿ وراودته ﴾ أي راجعته الخطاب ودارت عليه بالحيل ، فهو كناية عن المخادعة التي هي لازم معنى راد يرود - إذا جاء وذهب ﴿ التي ﴾ هي متمكنة منه غاية المكنة بكونه ﴿ هو في بيتها ﴾ وهو في عنفوان الشباب ﴿ عن نفسه ﴾ أي مراودة لم تكن لها سبب إلا نفسه ، لأن المراودة لا يمكن أن تتجاورز نفسه إلاّ بعد مخالطتها - كما تقول : كان هذا عن أمره ، وذلك بأن دارت عليه بكل حيلة ونصبت له أشراك الخداع وأقامت حيناً تفتل له في الذروة والغارب ، وذلك لأن مادة " راد " واوية ويائية بجميع تقاليبها السبعة : رود ، ودور ، وورد ، " ودير "

وردي ، وريد ، ودري – تدور على الدوران ، وهو الرجوع إلى موضع الابتداء ، ويلزم منه القصد والإتيان والإقبال والإدبار والرفق والمهلة وإعمال الحيلة وحسن النظر ، وربما يكون عن غير قصد فتأتي منه الحيرة فيلزم الفساد والهلاك ، يقال : دار فلان يدور – إذا مشى على هيئة الخلقة ، والدهر دواري – لدورانه باهله بالرفع والحط ، والدوار : شبه دوران في الرأس ، ودارة القمر معروفة ، والدائرة : الحلقة والدار تجمع العرصة والبناء – لدوران بنائها وللدوران فيها وللذهاب منها والرجوع إليها ، والداري : الملاح الذي يلي الشراع ، وهو القلع – لأنه يديره على عمود المركب ، أو لأنه يلزم دار السفينة ؛ والرائد : الذي يرتاد الكلأ ، أي يذهب ويجيء في طلبه – لّما لم يكن له مقصد من الأرض معين كأنه يدور فيها ، والذي لا يكذب أهله ، وكل طالب حاجة – قاله ابن دريد .

(134/393)

وراودت الرجل : أردته على فعل ؛ ورائد الرحى : يدها ، أي العود الذي تدار به ويقبض عليه الطاحن ، والرياد : اختلاف الإبل في المرعى مقبلة ومدبرة ، ورادت المرأة – إذا اختلفت إلى بيوت جاراتها ، وراد وساده – إذا لم يستقر ، والرود : الطلب والذهاب والمجيء ، وامش على رود – بالضم ، أي مهل ، وتصغيره رويد ، والمرود : الذي يكتحل

به ، لأنه يدار في العين ، وحديدة تدور في اللجام ، ومحور البكرة من حديد ، والدير : معروف ، ويقال لرجل إذا كان رأس أصحابه : هو رأس الدير - كأنه من إرادة أصحابه به ، وترديت الرداء وارتديت - كأنه من الإدارة ، والرداء : السيف - لأنه يتقلد به في موضع الردى ، والرديان - محركاً : مشى الحمار بين آريه ومتمعكه ، وراديت فلاناً ، مثل : راودته ، وردت الجارية - إذا رفعت إحدى رجليها وقفزت بواحدة ، لأن مشيها حينئذٍ يشبه الدوران ، والريد - بالكسر : الترب ، لأنه يراودك ، أي يمشي معك من أول زمانك ؛ ومن الإتيان : الورود ، وهو إتيان المورد من ماء وطريق ، والوارد : الصائر إلى الماء للاستقاء منه ، وهو الذي ينزل إلى الماء ليتناول منه ، والورد معروف ، ونور كل شجرة ورد ، لأنه يقصد للشم وغيره ، ويخرج هو منها فهو وارد أي آتٍ ، وهو أيضاً مع ذلك مستدير ، والورد - بالكسر : يوم الحمى إذا أخذت صاحبَها لوقت لأنها تأتيه ، وهو من الدوران أيضاً لأنها تدور في ذلك الوقت بعينه ، وهذا كله يصلح للإقبال ، ومنه : أرنبة واردة ، أي مقبلة على السبلة ، والريد : أنف الجبل - قاله ابن فارس ، وقال ابن دريد : والريد : الحيد الناتىء من الجبل ، والجمع ريود ؛ وفي القاموس : الحيد من الجبل شاخص كأنه جناح ، ويسمى الشجاع الوارد ، لإقباله على كل ما يريده واستعلائه عليه ، والوريدان : عرقان مكتنفا صفحتي العنق مما يلي مقدمة غليظان ، والورد : النصيب من القرآن ، لأنه يقصد بالقراءة ويقبل عليه ويدار عليه ، ودريت الشيء : علمته ، فأنت

مقبل عليه وارد إليه ، والدرئة – مهموزة : حلقة يتعلم عليها الطعن والرمي ، والدرية – مهموزة وغير مهموزة : دابة يستتر بها رامي الصيد فيختله ، فهي من الإقبال والخداع ، وإن بني فلان أدوروا مكاناً ، أي اعتمدوا بالغزو والغارة ، والدريّ : شبيه بمدرى الثور وهو قرنه ، لأنه يقصد به الشيء ويقبل به على مراده فيصلحه به ، وما أدري أين ردي ؟ أي أين ذهب ؟ والإرواد : المهلة في الشيء ؛ وامش رويداً : على مهل ، والرادة والريدة : السهلة من الرياح ، فكأنها تأتي على مهل ؛ ومن الحيرة والفساد والهلاك : ردي الرجل – إذا هلك ، وأرداه الله ، وتردى في هوة : تهور فيها ، ورديته بالحجارة : رميته ، والرداة : الصخرة ، يكسر بها الشيء ، والمرادي : المرامي ؛ ومن حسن النظر : أرديت على الخمسين : زدت ، لأنه يلزم حسن النظر الزيادة ، وأراد الشيء على غيره ، أي ربا عليه ، وسيأتي بيان المهموز من هذه المادة في

﴿ سنراود ﴾ [يوسف : 61] من هذه السورة إن شاء الله تعالى ﴿ وغلقت ﴾ أي تغليقاً كثيراً ﴿ الأبواب ﴾ زيادة في المكنة ، قالوا : وكانت سبعة ؛ والإغلاق : إطباق الباب بما يعسر معه فتحه ﴿ وقالت هيت ﴾ أي تهيأت وتصنعت ﴿ لك ﴾ خاصة فأقبل إليّ وامتثل أمري ؛ والمادة - على تقدير إصالة التاء وزيادتها بجميع تقاليبها : يائية وواوية مهموزة وغير مهموزة - تدور على إرادة امتثال الأمر : هيت لك - مثلثة الآخر وقد يكسر أوله ، أي هلم ، وهيت تهييتاً : صاح ودعاه ، وهات - بكسر التاء أعطني - قال في القاموس ، والمهاياة مفاعلة منه ، والهيت : الغامض من الأرض ، كأنه يدعو ذا الهمة إلى الوقوف على حقيقته ، والتيه - بالكسر : الكبرياء والصلف ، فالتائه داع بالقوة إلى امتثال أمره ، والمفازة ، فإنها تقهر سالكها ، والضلال من المفازة - تسمية للشي باسم موضعه ، ومنه : تها - بمعنى غفل ، ومنه : مضى تهواء من الليل - بالكسر ، أي طائفة ، لأنها محل الغفلة ، أو لأنها تدعو ساهرها إلى النوم ونائمها إلى الانتباه ، هذا على تقدير إصالة التاء ، وأما على تقدير أنها زائدة فهاءَ بنفسه إلى المعالي : رفعها ، فهو يراه أهلاً لأن يمتثل أمرها ، والهوء : الهمة والأمر الماضي ، والهوء أيضاً : الظن ، ويضم ، وهؤت به : فرحت ، ولا يكون ذلك إلاّ لفعل ما يشتهي ، فكأنه امتثل أمرك ، وهوىء إليه - كفرح : همّ ، وهاء كجاء : لبى ، أي امتثل الأمر ، وهاء - بالكسر : هات ، وهاء - كجاء ، أي هاك ، بمعنى خذ ، والهيئة : حال الشيء وكيفيته الداعية إلى تركه أو لزومه ، وتهايؤوا : توافقوا

، وهاء إليه : اشتاق ، فكأنه دعاه إلى رؤيته ، وتهيأ للشيء : أخذ له هيئته ، فكأنه صار قابلاً للأمر ، أو لأن يمتثل أمره ، وهيأه : أصلحه ، والهيء - بالفتح والكسر : الدعاء إلى الطعام والشراب ودعاء الإبل للشرب ، وإيه - بكسر الهمزة : كلمة استزاده واستنطاق ، وبإسكان الهاء : زجر بمعنى حسبك ، وهاها : قهقه

(137/393)

في ضحكه ، ولا يكون ذلك إلا بمن امتثل مراده .

ولما قالت ما قالت وفعلت ما فعلت ، مع ما هي عليه من القدرة في نفسها ولها عليه من التسلط وهو عليه من الحسن والشباب ، كان كأنه قيل : إن هذا لموطن لا يكاد ينجو منه أحد ، فماذا كان منه ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ أي يوسف مستعملاً للحكم بالعلم ﴿ معاذ ﴾ أي أعوذ من هذا الأمر معاذ ﴿ الله ﴾ أي ألزم حصن الذي له صفات الكمال وهو محيط بكل شيء علماً وقدرة ، وملجأة الذي ينبغي الاعتصام به واللجاء إليه ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنه ﴾ أي الله ﴿ ربي ﴾ أي موجدي ومدبري والمحسن إليّ في كل أمر ، فأنا أرجو إحسانه في هذا ﴿ أحسن مثواي ﴾ بأن جعل لي في قلب سيدك مكانة عظيمة حتى خولني في جميع ما يملك وائتمنني على كل ما لديه ، فإن خالفت أمر ربي فخنت مَن جعلني

موضعاً للأمانة كنت ظالماً واضعاً للشيء في غير موضعه ، وهذا التقدير – مع كونه أليق بالصالحين المراقبين – أحسن ، لأنه يستلزم نصح العزيز ، ولو أعدنا الضمير على العزيز لم يستلزم التقوى .

ولما كان من المعلوم أن لسان حالها يقول : وإذا كان ظلماً كان ماذا ؟ قال ما تقديره : إني إذن لا أفلح ، وعلله بقوله : ﴿ إنه لا يفلح ﴾ أي لا يظفر بمراده أصلاً ﴿ الظالمون ﴾ أي العريقون في الظلم – وهو وضع الشيء في غير موضعه – الذين صرت في عدادهم على تقدير الفعل ، فيا له من دليل على إحسانه وحكمه وعلمه ، فإنه لما رأى المقام الدحض بادر إلى الاعتصام بمن بيده ملكوت كل شيء ، ثم استحضر إحسانه إليه الموجب للشكر عليه المباعد عن الهفوات ثم مقام الظلم وما يوجب لصاحبه من الحزن بعدم الفلاح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 27. 30 ﴾

(138/393)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾

اعلم أن يوسف عليه السلام كان في غاية الجمال والحسن ، فلما رأته المرأة طمعت فيه ويقال أيضاً إن زوجها كان عاجزاً يقال : راود فلان جاريته عن نفسها وراودته هي عن نفسه إذا حاول كل واحد منها الوطء والجماع ﴿ وَغَلَّقَتِ الأبواب ﴾ والسبب أن ذلك العمل لا يؤتى به إلا في المواضع المستورة لا سيما إذا كان حراماً ، ومع قيام الخوف الشديد وقوله : ﴿ وَغَلَّقَتِ الأبواب ﴾ أي أغلقتها قال الواحدي : وأصل هذا من قولهم في كل شيء تشبث في شيء فلزمه قد غلق يقال : غلق في الباطل وغلق في غضبه ، ومنه غلق الرهن ، ثم يعدى بالألف فيقال : أغلق الباب إذا جعله بحيث يعسر فتحه .

قال المفسرون : وإنما جاء غلقت على التكثير لأنها غلقت سبعة أبواب ، ثم دعته إلى نفسها .

ثم قال تعالى : ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الواحدي : هيت لك اسم للفعل نحو : رويداً ، وصه ، ومه .

ومعناه هلم في قول جميع أهل اللغة ، وقال الأخفش : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ مفتوحة الهاء والتاء ، ويجوز أيضاً كسر التاء ورفعها .

قال الواحدي : قال أبو الفضل المنذري : أفادني ابن التبريزي عن أبي زيد قال : هيت لك بالعبرانية هيالح ، أي تعال عربه القرآن ، وقال الفراء : إنها لغة لأهل حوران سقطت إلى

بكة فتكلموا بها .

قال ابن الأنباري : وهذا وفاق بين لغة قريش وأهل حوران كما اتفقت لغة العرب والروم في "القسطاس" ولغة العرب والفرس في السجيل ولغة العرب والترك في "الغساق" ولغة العرب والحبشة في "ناشئة الليل" .

المسألة الثانية :

(139/393)

قرأ نافع وابن عامر في رواية ابن ذكوان ﴿ هِيْتَ ﴾ بكسر الهاء وفتح التاء ، وقرأ ابن كثير ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ مثل حيث ، وقرأ هشام بن عمار عن أبي عامر ﴿ أَحْلَلْنَا لَكَ ﴾ بكسر الهاء وهمز الياء وضم التاء مثل جئت من تهيأت لك ، والباقون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء ، ثم إنه تعالى قال : إن المرأة لما ذكرت هذا الكلام قال يوسف عليه السلام : ﴿ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَّ ﴾ فقوله : ﴿ مَعَاذَ اللهِ ﴾ أي أعوذ بالله معاذاً ، والضمير في قوله : ﴿ إِنَّهُ ﴾ للشأن والحديث ﴿ رَبّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَّ ﴾ أي ربي وسيدي ومالكي أحسن مثواي حين قال لك : أكرمي مثواه (1) ، فلا يليق بالعقل أن أجازيه على ذلك الإحسان بهذه الخيانة القبيحة ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ الذين يجازون الإحسان

بالإساءة ، وقيل : أراد الزناة لأنهم ظالمون أنفسهم أو لأن عملهم يقتضي وضع الشيء في غير موضعه ، وههنا سؤالات :

السؤال الأول : أن يوسف عليه السلام كان حراً وما كان عبداً لأحد فقوله : ﴿ إِنَّهُ رَبِّى ﴾ يكون كذباً وذلك ذنب وكبيرة .

والجواب : أنه عليه السلام أجرى هذا الكلام بحسب الظاهر وعلى وفق ما كانوا يعتقدون فيه من كونه عبداً له وأيضاً أنه رباه وأنعم عليه بالوجوه الكثيرة فعنى بكونه رباً له كونه مربياً له ، وهذا من باب المعاريض الحسنة ، فإن أهل الظاهر يحملونه على كونه رباً له وهو كان يعني به أنه كان مربياً له ومنعماً عليه .

السؤال الثاني : هل يدل قول يوسف عليه السلام : ﴿ مَعَاذَ اللهِ ﴾ على صحة مذهبنا في القضاء والقدر .

---

(1) هذا قول بعيد جدا والراجح . والله أعلم . أن الضمير فى قوله تعالى "إنه ربى " يعود على الله تعالى وذلك لوجوه :

منها : قوله تعالى قبلها مباشرة ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ والضمير يعود على أقرب مذكور

ومنها : كيف يليق بيسوسف . عليه السلام . أن يذكر إحسان العزيز إليه وينسى إحسان الله تعالى ، ومن ألقى محبته فى قلب العزيز إلا الله

ومنها : كيف يقتصر فى امتناعه عن الفاحشة إكرام العزيز له ، وأين خوفه من الله ، وأين

منصب النبوة، وأين مكانة العصمة؟؟!!!

ومنها: قوله تعالى فى عجز الآية الكريمة ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ ولو كان الضمير يعود إلى العزيز لقال عليه السلام: إنه لا يفلح الخائنون.

ومنها: قوله تعالى بعد ذلك ﴿ لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾

ومنها: قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (33) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34) ﴾

ومنها: أنه عليه السلام خاطب من معه فى السجن بقوله ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ وقال لرسول الملك ﴿ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ وعندما تكلم عن نفسه أثنى على الله تعالى بما هو أهله فقال ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾

ومنها: أن الله تعالى قال ﴿ وَاسُتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ ولم يقل: وألفيا سيدهما لأن يوسف. عليه السلام. ليس له إلا سيد واحد هو الله.

ومنها: قوله تعالى ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ

الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101) ﴾ فلم ينسب الفضل إلا لخالقه جل وعز . والله أعلم .

(140/393)

والجواب : أنه يدل عليه دلالة ظاهرة لأن قوله عليه السلام أعوذ بالله معاذاً ، طلب من الله أن يعيذه من ذلك العمل ، وتلك الإعاذة ليست عبارة عن إعطاء القدرة والعقل والآلة ، وإزاحة الأعذار ، وإزالة الموانع وفعل الألطاف ، لأن كل ما كان في مقدور الله تعالى من هذا الباب فقد فعله ، فيكون ذلك إما طلباً لتحصيل الحاصل ، أو طلباً لتحصيل الممتنع وأنه محال فعلمنا أن تلك الإعاذة التي طلبها يوسف من الله تعالى لا معنى لها ، إلا أن يخلق فيه داعية جازمة في جانب الطاعة وأن يزيل عن قلبه داعية المعصية ، وذلك هو المطلوب ، والدليل على أن المراد ما ذكرناه ما نقل أن النبي صلى الله عليه وسلم لما وقع بصره على زينب قال : " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك " وكان المراد منه تقوية داعية الطاعة ، وإزالة داعية المعصية فكذا ههنا ، وكذا قوله عليه السلام : " قلب المؤمن بين أصبعين من

أصابع الرحمن " فالمراد من الأصبعين داعية الفعل ، وداعية الترك وهاتان الداعيتان لا يحصلان إلا بخلق الله تعالى ، وإلا لافتقرت إلى داعية أخرى ولزم التسلسل فثبت أن قول يوسف عليه السلام : ﴿ مَعَاذَ اللهِ ﴾ من أدل الدلائل على قولنا والله أعلم .

السؤال الثالث : ذكر يوسف عليه السلام في الجواب عن كلامها ثلاثة أشياء : أحدها : قوله : ﴿ مَعَاذَ اللهِ ﴾ والثاني : قوله تعالى عنه : ﴿ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ والثالث : قوله : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ فما وجه تعلق بعض هذا الجواب ببعض ؟

(141/393)

والجواب : هذا الترتيب في غاية الحسن ، وذلك لأن الانقياد لأمر الله تعالى وتكليفه أهم الأشياء لكثرة إنعامه وألطافه في حق العبد فقوله : ﴿ مَعَاذَ اللهِ ﴾ إشارة إلى أن حق الله تعالى يمنع عن هذا العمل ، وأيضاً حقوق الخلق واجبة الرعاية ، فلما كان هذا الرجل قد أنعم في حقي يقبح مقابلة إنعامه وإحسانه بالإساءة ، وأيضاً صون النفس عن الضرر واجب ، وهذه اللذة لذة قليلة يتبعها خزي في الدنيا ، وعذاب شديد في الآخرة ، واللذة القليلة إذا لزمها ضرر شديد ، فالعقل يقتضي تركها والاحتراز عنها فقوله : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ

الظالمون ﴾ إشارة إليه ، فثبت أن هذه الجوابات الثلاثة مرتبة على أحسن وجوه الترتيب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 90.92 ﴾

(142/393)

وقال الماوردى :

﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ﴾

وهي راعيل امرأة العزيز إظفير . قال الضحاك : وكان اسمها زليخا .

قال محمد بن إسحاق : وكان إظفير فيما يحكى لنا رجلاً لا يأتي النساء وكانت امرأته حسناء ، وكان يوسف عليه السلام قد أُعطي من الحسن ما لم يعطه أحد قبله ولا بعده كما لم يكن في النساء مثل حواء حسناً . قال ابن عباس : اقتسم يوسف وحواء الحسن نصفين .

فراودته امرأة العزيز عن نفسه استدعاء له إلى نفسها .

﴿ وغلقت الأبواب ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بتكثير الأغلاق .

الثاني : بكثرة الإيثاق . ﴿ وقالت هيت لك ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : معناه تهيأت لك ، قاله عكرمة وأبو عبد الرحمن السلمي ، وهذا تأويل من قرأ بكسر الهاء وترك الهمز ، وقال الشاعر :

قد رابني أن الكرى أسكتا . . . لو كان معنياً بها لهيتا

الثاني : هلم لك ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة : وأنشد أبو عمرو بن العلاء :

أبلغ أمير المؤمنين أخا . . . العراق إذا أتيتا

أن العراق وأهله . . . عنق إليك ، فهيت هيتا

وهذا تأويل من قرأ هيت لك بفتح الهاء وهي أصح وأفصح ، قال طرفة بن العبد :

ليس قومي بالأبعدين إذا ما . . . قال داع من العشيرة : هيتا

ثم اختلف قائلو هذا التأويل في الكلمة فحكى عطية عن ابن عباس أن ﴿ هيت لك ﴾ كلمة بالقبطية معناها هلم لك ، وقال مجاهد بل هي كلمة عربية هذا معناها وقال الحسن : هي كلمة سريانية .

﴿ قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ﴾ أي أعوذ بالله .

وفي ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ وجهان :

أحدهما : إن الله ربي أحسن مثواي فلا أعصيه ، قاله الزجاج .

الثاني : أنه أراد العزيز إظفير إنه ربي أي سيدي أحسن مثواي فلا أخونه . قاله مجاهد وابن إسحاق والسدي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾

" المراودة " الملاطفة في السوق إلى غرض ، وأكثر استعمال هذه اللفظة إنما هو في هذا المعنى الذي هو بين الرجال والنساء ؛ ويشبه أن يكون من راد يرود إذا تقدم لاختبار الأرض والمراعي ، فكان المراود يختبر أبداً بأقواله وتلطفه حال المراود من الإجابة أو الامتناع.

وفي مصحف وكذلك رويت عن الحسن : و﴿ التي هو في بيتها ﴾ هي زليخا امرأة العزيز . وقوله ﴿ عن نفسه ﴾ كناية عن غرض المواقعة . وقوله : ﴿ وغلقت ﴾ تضعيف مبالغة لا تعدية ، وظاهر هذه النازلة أنها كانت قبل أن ينبأ عليه السلام .

وقرأ ابن كثير وأهل مكة : " هَيْتُ " بفتح الهاء وسكون الياء وضم التاء وقرأ ابن عباس وابن أبي إسحاق وابن محيصن وأبو الأسود وعيسى بفتح الهاء وكسر التاء " هَيتِ " ، وقرأ ابن مسعود والحسن والبصريون " هَيْتَ " بفتح الهاء والتاء وسكون الياء ، ورويت عن ابن عباس وقتادة وأبي عمرو ، قال أبو حاتم : لا يعرف أهل البصرة غيرها وهم أقل

الناس غلواً في القراءة ، قال الطبري : وقد رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقرأ نافع وابن عامر "هِيْتَ" بكسر الهاء وسكون الياء وفتح التاء - وهي قراءة الأعرج وشيبة وأبي جعفر - وهذه الأربع بمعنى واحد ، واختلف باختلاف اللغات فيها ، ومعناه الدعاء أي تعال وأقبل على هذا الأمر ، قال الحسن : معناها هلمَّ ، ويحسن أن تتصل بها ﴿ لك ﴾ إذ حلت محل قولها : إقبالاً أو قرباً ، فجرت مجرى سقياً لك ورعياً لك ، ومن هذا قول الشاعر يخاطب علي بن أبي طالب : [مجزوء الكامل]

أبلغ أمير المؤمنين . . . أخا العراق إذا أتينا

أن العراق وأهله . . . عنق إليك فهيت هيتا

ومن ذلك على اللغة الأخرى قول طرفة : [الخفيف]

ليس قومي بالأبعدين إذا ما . . . قال داع من العشيرة هيت

ومن ذلك أيضاً قول الشاعر : [الرجز]

قد رابني أن الكرى قد أسكتا . . . ولو غدا يعني بنا لهيتا

أسكت : دخل في سكوت ، و" هيت " معناه : قال : هيت ، كما قالوا : أقف إذا قال :

أف أف ، ومنه سبح وكبر ودعدع إذ قال : داع داع .

والتاء على هذه اللغات كلها مبنية فهي في حال الرفع كقبل وبعد ، وفي الكسر على الباب لالتقاء الساكنين ، وفي حال النصب ككيف ونحوها ؛ قال أبو عبيدة : و﴿ هيت ﴾ لا تثنى ولا تجمع ، تقول العرب : ﴿ هيت لك ﴾ ، وهيت لكما ، وهيت لكم .

وقرأ هشام ابن عامر " هِئتُ " ، بكسر الهاء والهمز ، ضم التاء وهي قراءة علي بن أبي طالب ، وأبي وائل ، وأبي رجاء ويحيى ، ورويت عن أبي عمرو ، وهذا يحتمل أن يكون من هاء الرجل يهيء إذا أحسن هيئته – على مثال جاء يجيء – ويحتمل أن يكون بمعنى تهيأت ، كما يقال : فئت وتفيأت بمعنى واحد ، قال الله عز وجل :

﴿ يتفيؤا ظلاله ﴾ [النحل : 48] وقال : ﴿ حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ [الحجرات : 9] .

وقرأ ابن أبي إسحاق – أيضاً – " هِيْت " بتسهيل الهمزة من هذه القراءة المتقدمة . وقرأ ابن عباس – أيضاً – " هيت لك " . وقرأ الحلواني عن هشام " هِئتِ " بكسر الهاء والهمز وفتح التاء قال أبو علي : ظاهر أن هذه القراءة وهم ، لأنه كان ينبغي أن تقول : هئتَ لي ، وسياق الآيات يخالف هذا . وحكى النحاس : أنه يقرأ " هِيْتِ " بكسر الهاء وسكون الياء وكسر التاء . و﴿ معاذَ ﴾ نصب على المصدر ومعنى الكلام أعوذ بالله .

ثم قال : ﴿ إنه ربي ﴾ فيحتمل أن يعود الضمير في ﴿ إنه ﴾ على الله عز وجل ، ويحتمل

أن يريد العزيز سيده ، أي فلا يصلح لي أن أخونه وقد أكرم مثواي وائتمنني ، قال مجاهد ، والسدي ﴿ ربي ﴾ معناه سيدي ، وقاله ابن إسحاق .

قال القاضي أبو محمد : وإذا حفظ الآدمي لإحسانه فهو عمل زاك ، وأحرى أن يحفظ ربه .

ويحتمل أن يكون الضمير للأمر والشأن ، ثم يبتدىء ﴿ ربي أحسن مثواي ﴾ .

(145/393)

والضمير في قوله : ﴿ إنه لا يفلح ﴾ مراد به الأمر والشأن فقط ، وحكى بعض المفسرين : أن يوسف عليه الصلاة والسلام – لما قال : معاذ الله ثم دافع الأمر باحتجاج وملاينة ، امتحنه الله تعالى بالهم بما هم به ، ولو قال لا حول ولا قوة إلا بالله ، ودافع بعنف وتغيير – لم يهم بشيء من المكروه . (1)

وقرأ الجحدري " مثواي " وقرأها كذلك أبو طفيل وروي عن النبي عليه السلام : " فمن تبع هداي " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

---

(1) كلام ساقط لا قيمة له وهل اعتصم عليه السلام إلا بالله ؟ ؟ ! ! !

وقوله عليه السلام " إنه ربى " المراد منه رب العالمين تبارك وتعالى . والله أعلم .

وقال الخازن:

﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ﴾

يعني أن امرأة العزيز طلبت من يوسف الفعل القبيح ودعته إلى نفسها ليواقعها ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ أي أطبقتها وكانت سبعة لأن مثل هذا لفعل لا يكون إلا في ستر وخفية أو أنها أغلقتها لشدة خوفها ﴿ وقالت هيت لك ﴾ أي هلم وأقبل، قال أبو عبيدة: كان الكسائي يقول هي لغة لأهل حوران رفعت إلى الحجاز معناها تعال، وقال عكرمة أيضاً بالحوارنية: هلم، وقال مجاهد وغيره: هي لغة عربية وهي كلمة حث وإقبال على الشيء وقيل هي بالعبرانية وأصلها هيتالج أي تعال فعربت فقيل هيت لك فمن قال إنها بغير لغة العرب يقول إن العرب وافقت أصحاب هذه اللغة فتكلمت بها على وفق لغات غيرهم كما وافقت لغة العرب الروم في القسطاس ولغة العرب الفرس في التنور ولغة العرب الترك في الغساق ولغة العرب الحبشة في ناشئة الليل وبالجملة فإن العرب إذا تكلمت بكلمة صارت لغة لها وقرئ هئت لك بكسر الهاء مع الهمزة ومعناها تهيأت لك ﴿ قال ﴾ يعني يوسف ﴿ معاذ الله ﴾ أي أعوذ بالله وأعتصم به وألجأ إليه فيما دعوتني إليه ﴿ إنه ربي ﴾ يعني

أن العزيز قطفير سيدي ﴿ أحسن مثواي ﴾ أي أكرم منزلتي فلا أخونه وقيل إن الهاء في إنه ربي راجعة إلى الله تعالى والمعنى يقول إن الله ربي أحسن مثواي يعني أنه آواني ومن بلاء الجب نجاني ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ يعني إن فعلت هذا الفعل فأنا ظالم ولا يفلح الظالمون ، وقيل : معناه أنه لا يسعد الزناة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(147/393)

وقال أبو حيان :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾

المراودة الطلب برفق ولين القول ، والرود التأني يقال : أرودني أمهلني ، والريادة طلب النكاح.

ومشى رويداً أي برفق أغلق الباب وأصفده وأقفله بمعنى .

وقال الفرزدق :

ما زلت أغلق أبواباً وأفتحها . . .

حتى أتيت أبا عمرو بن عمار

هيت اسم فعل بمعنى أسرع .

﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون .

ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ : المراودة : المطالبة برفق ، من راد يرود إذا ذهب وجاء ، وهي مفاعلة من واحد نحو : داويت المريض ، وكنى به عن طلب النكاح والمخادعة لأجله . كان المعنى وخادعته عن نفسه ، ولذلك عداه بعن .

وقال التي هو في بيتها ، ولم يصرح باسمها ، ولا بامرأة العزيز ، ستراً على الحرم .

والعرب تضيف البيوت إلى النساء فتقول : ربة البيت ، وصاحبة البيت قال الشاعر :

يا ربة البيت قومي غير صاغرة . . .

وغلقت الأبواب هو تضعيف تكثير بالنسبة إلى وقوع الفعل بكل باب باب .

قيل : وكانت سبعة أبواب هيت اسم فعل بمعنى أسرع .

ولك للتبيين أي : لك أقول ، أمرته بأن يسرع إليها .

وزعم الكسائي والفراء أنها لغة حورانية وقعت إلى أهل الحجاز فتكلموا بها ومعناها : تعال ، وقاله عكرمة .

وقال أبو زيد : هي عبرانية .

هيتلخ أي تعاله فأعربه القرآن ، وقال ابن عباس والحسن : بالسريانية ، وقال السدي :

بالقبطية هلمّ لك ، وقال مجاهد وغيره : عربية تدعوه بها إلى نفسها ، وهي كلمة حث وإقبال انتهى .

ولا يبعد اتفاق اللغات في لفظ ، فقد وجد ذلك في كلام العرب مع لغات غيرهم .

وقال الجوهري : هوت وهيت به صاح به فدعاه ، ولا يبعد أن يكون مشتقاً من اسم الفعل ، كما اشتقوا من الجمل نحو سبح وحمدك .

(148/393)

ولما كان اسم فعل لم يبرز فيه الضمير ، بل يدل على رتبة الضمير بما يتصل باللام من الخطاب نحو : هيت لك ، وهيت لك ، وهيت لكما ، وهيت لكم ، وهيت لكن .

وقرأ نافع ، وابن ذكوان ، والأعرج ، وشيبة ، وأبو جعفر : هيت بكسر الهاء بعدها ياء ساكنة وفتح التاء ، والحلواني عن هشام كذلك إلا أنه همز وعلى ، وأبو وائل ، وأبو رجاء ، ويحيى ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، وطلحة ، والمقري ، وابن عباس ، وأبو عامر في رواية عنهما ، وأبو عمرو في رواية وهشام في رواية كذلك ، إلا أنهم ضموا التاء .

وزيد بن عليّ وابن أبي إسحاق كذلك ، إلا أنهما سهلا الهمزة .

وذكر النحاس : أنه قرىء بكسر الهاء بعدها ياء ساكنة ، وكسر التاء .

وقرأ ابن كثير وأهل مكة : بفتح الهاء وسكون الياء وضم التاء ، وباقي السبعة أبو عمرو ، والكوفيون ، وابن مسعود ، والحسن ، والبصريون ، كذلك ، إلا أنهم فتحوا التاء .

وابن عباس وأبو الأسود ، وابن أبي إسحاق ، وابن محيصن ، وعيسى البصرة كذلك .

وعن ابن عباس : هييت مثل حييت ، فهذه تسع قراءات هي فيها اسم فعل ، إلا قراءة ابن عباس الأخيرة فإنها فعل مبني للمفعول مسهل الهمزة من هيأت الشيء ، وإلا من ضم التاء وكسر الهاء سواء همز أم لم يهمز ، فإنه يحتمل أن يكون اسم فعل كحالها عند فتح التاء أو كسرها ، ويحتمل أن يكون فعلاً واقعاً ضمير المتكلم من هاء الرجل يهيىء إذا أحسن هيئته على مثال : جاء يجيء ، أو بمعنى تهيأت .

يقال : هيت وتهيأت بمعنى واحد .

فإذا كان فعلاً تعلقت اللام به ، وفي هذه الكلمة لغات أخر .

وانتصب معاذ الله على المصدر أي : عياذاً بالله من فعل السوء ، والضمير في إنه الأصح أنه يعود على الله تعالى أي : إن الله ربي أحسن مثواي إذ نجاني من الجب ، وأقامني في أحسن مقام .

وإما أن يكون ضمير الشأن وغني بربه سيده العزيز فلا يصلح لي أن أخونه ، وقد أكرم مثواي وائتمنني قاله : مجاهد ، والسدي ، وابن إسحاق .

ويبعد جداً ، إذ لا يطلق نبي كريم على مخلوق أنه ربه ، ولا بمعنى السيد ، لأنه لم يكن في الحقيقة مملوكاً له .

إنه لا يفلح الظالمون أي المجازون الإحسان بالسوء .

وقيل : الزناة ، وقيل : الخائنون .

وقرأ أبو الطفيل والجحدري مثويّ ، كما قرأ يا بشريّ ، وما أحسن هذا التنصل من الوقوع في السوء .

استعاذ أولاً بالله الذي بيده العصمة وملكوت كل شيء ، ثم نبه على أنّ إحسان الله أو إحسان العزيز الذي سبق منه لا يناسب أن يجازى بالإساءة ، ثم نفى الفلاح عن الظالمين وهو الظفر والفوز بالبغية فلا يناسب أن أكون ظالماً أضع الشيء غير موضعه ، وأتعدى ما حده الله تعالى لي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابن تيمية – رَحِمَهُ اللَّهُ – :

فَصْلٌ :

قَوْلُ يُوسُفَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَالَتْ لَهُ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ : ﴿ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ الْمُرَادُ بِرَبِّهِ فِي أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ هُنَا سَيِّدُهُ وَهُوَ زَوْجُهَا الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ الَّذِي قَالَ لِامْرَأَتِهِ : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . فَلَمَّا وَصَّى بِهِ امْرَأَتَهُ فَقَالَ لَهَا ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ قَالَ يُوسُفُ ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وَالضَّمِيرُ فِي : ﴿ إِنَّهُ ﴾ مَعْلُومٌ بَيْنَهُمَا وَهُوَ سَيِّدُهَا .

(151/393)

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ فَهَذَا خَبَرٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ وَرَبُّهُ هُوَ اللَّهُ كَمَا قَالَ لِصَاحِبَيْ السِّجْنِ : ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ رَبِّي ﴾ مِثْلُ قَوْلِهِ لِصَاحِبِ الرُّؤْيَا : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ قِيلَ أُنْسِيَ يُوسُفُ ذِكْرَ رَبِّهِ لَمَّا قَالَ : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ . وَقِيلَ : بَلْ الشَّيْطَانُ أَنْسَى الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا ذِكْرَ رَبِّهِ وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ فَإِنَّهُ مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ

ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ وَالضَّمِيرُ يَعُودُ إِلَى الْقَرِيبِ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَلِيلٌ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ ؛ وَلِأَنَّ يُوسُفَ لَمْ يَنْسَ ذِكْرَ رَبِّهِ ؛ بَلْ كَانَ ذَاكِرًا لِرَبِّهِ . وَقَدْ دَعَاهُمَا قَبْلَ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا إِلَى الْإِيمَانِ بِرَبِّهِ وَقَالَ لَهُمَا : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . وَقَالَ لَهُمَا قَبْلَ ذَلِكَ ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ﴾ أَيْ فِي الرُّؤْيَا ﴿ إِلَّا

(152/393)

نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ يَعْنِي التَّأْوِيلَ ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فَبِذَا يَذْكُرُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ هَذَا مِمَّا عَلَّمَهُ رَبُّهُ ؛ لِأَنَّهُ تَرَكَ مِلَّةَ قَوْمٍ مُشْرِكِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَإِنْ كَانُوا مُقِرِّينَ بِالصَّانِعِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ آبَائِهِ أَئِمَّةِ الْمُؤْمِنِينَ - الَّذِينَ جَعَلَهُمْ اللَّهُ أَئِمَّةً يَدْعُونَ بِأَمْرِهِ - إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ؛ فَذَكَرَ رَبَّهُ ثُمَّ دَعَاهُمَا إِلَى الْإِيمَانِ بِرَبِّهِ . ثُمَّ بَعْدَ هَذَا عَبَرَ الرُّؤْيَا فَقَالَ : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا

أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ الْآيَةَ ثُمَّ لَمَّا قَضَى تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ فَكَيْفَ يَكُونُ قَدْ أَنْسَى الشَّيْطَانُ يُوسُفَ ذِكْرَ رَبِّهِ ؟ وَإِنَّمَا أَنْسَى الشَّيْطَانُ النَّاجِيَ ذِكْرَ رَبِّهِ أَيْ الذِّكْرَ الْمُضَافَ إلَى رَبِّهِ وَالْمَنْسُوبَ إلَيْهِ وَهُوَ أَنْ يَذْكُرَ عِنْدَهُ يُوسُفَ . وَالَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ الْقَوْلَ قَالُوا : كَانَ الْأَوْلَى أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَلَا يَقُولُ اُذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّك . فَلَمَّا نَسِيَ أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى رَبِّهِ جُوزِيَ بِلُبْثِهِ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ . فَيُقَالُ : لَيْسَ فِي

قَوْلِهِ : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ مَا يُنَاقِضُ التَّوَكُّلَ ؛ بَلْ قَدْ قَالَ يُوسُفُ : ﴿ إنِ الْحُكْمُ إلَّا لِلَّهِ ﴾ كَمَا أَنَّ قَوْلَ أَبِيهِ : ﴿ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ لَمْ يُنَاقِضْ تَوَكُّلَهُ ؛ بَلْ قَالَ :

﴿ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ . و " أَيْضًا " فَيُوسُفُ قَدْ شَهِدَ اللَّهُ لَهُ أَنَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْمُخْلَصِينَ وَالْمُخْلَصُ لَا يَكُونُ مُخْلِصًا مَعَ تَوَكُّلِهِ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ شِرْكٌ وَيُوسُفُ لَمْ يَكُنْ مُشْرِكًا لَا فِي عِبَادَتِهِ وَلَا تَوَكُّلِهِ بَلْ قَدْ تَوَكَّلَ عَلَى رَبِّهِ فِي فِعْلِ نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ فَكَيْفَ لَا يَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ فِي أَفْعَالِ عِبَادِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ مِثْلُ قَوْلِهِ لِرَبِّهِ : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ فَلَمَّا سَأَلَ الْوِلَايَةَ لِلْمَصْلَحَةِ الدِّينِيَّةِ لَمْ يَكُنْ هَذَا مُنَاقِضًا لِلتَّوَكُّلِ وَلَا هُوَ مِنْ سُؤَالِ الْإِمَارَةِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ فَكَيْفَ يَكُونُ قَوْلُهُ لِلْفَتَى : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ مُنَاقِضًا لِلتَّوَكُّلِ وَلَيْسَ فِيهِ إلَّا مُجَرَّدُ إخْبَارِ الْمَلِكِ بِهِ ؛ لِيَعْلَمَ حَالَهُ لِيَتَبَيَّنَ الْحَقُّ وَيُوسُفُ كَانَ مِنْ أَثْبَتِ النَّاسِ . وَلِهَذَا بَعْدَ أَنْ طُلِبَ ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ قَالَ ﴿ ارْجِعْ إلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ فَيُوسُفُ يَذْكُرُ رَبَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ كَمَا ذَكَرَهُ فِي تِلْكَ . وَيَقُولُ : ﴿ ارْجِعْ إلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾ فَلَمْ يَكُنْ فِي قَوْلِهِ لَهُ : ﴿ اذْكُرْنِي

عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ تَرْكُ الْوَاجِبِ وَلَا فِعْلُ الْمُحَرَّمِ حَتَّى يُعَاقِبَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ بِلُبْثِهِ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ وَكَانَ الْقَوْمُ قَدْ عَزَمُوا عَلَى حَبْسِهِ إلَى حِينٍ قَبْلَ هَذَا ظُلْمًا لَهُ مَعَ عِلْمِهِمْ بِبَرَاءَتِهِ مِنْ الذَّنْبِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ وَلُبْثُهُ فِي السِّجْنِ كَانَ كَرَامَةً مِنْ اللَّهِ فِي حَقِّهِ؛ لِيَتِمَّ بِذَلِكَ صَبْرُهُ وَتَقْوَاهُ فَإِنَّهُ بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى نَالَ مَا نَالَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وَلَوْ لَمْ يَصْبِرْ وَيَتَّقِ بَلْ أَطَاعَهُمْ فِيمَا طَلَبُوا مِنْهُ جَزَعًا مِنْ السِّجْنِ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ هَذَا الصَّبْرُ وَالتَّقْوَى وَفَاتَهُ الْأَفْضَلُ بِاتِّفَاقِ النَّاسِ. لَكِنْ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ هَلْ يُمْكِنُ الْإِكْرَاهُ عَلَى الْفَاحِشَةِ عَلَى قَوْلَيْنِ: قِيلَ لَا يُمْكِنُ كَقَوْلِ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَغَيْرِهِمَا قَالُوا: لِأَنَّ الْإِكْرَاهَ يَمْنَعُ الِانْتِشَارَ. وَالثَّانِي: يُمْكِنُ وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَابْنِ عَقِيلٍ وَغَيْرِهِ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد؛ لِأَنَّ الْإِكْرَاهَ لَا يُنَافِي الِانْتِشَارَ فَإِنَّ الْإِكْرَاهَ لَا يُنَافِي كَوْنَ الْفِعْلِ اخْتِيَارًا بَلْ الْمُكْرَهُ يَخْتَارُ دَفْعَ أَعْظَمِ الشَّرَّيْنِ بِالْتِزَامِ

أَدْنَاهُمَا. وَأَيْضًا: فَالِانْتِشَارُ بِلَا فِعْلٍ مِنْهُ؛ بَلْ قَدْ يُقَيَّدُ وَيُضْجَعُ فَتُبَاشِرُهُ الْمَرْأَةُ فَتَنْتَشِرُ شَهْوَتُهُ فَتَسْتَدْخِلُ ذَكَرَهُ. فَعَلَى قَوْلِ الْأَوَّلِينَ لَمْ يَكُنْ يَحِلُّ لَهُ مَا طَلَبَتْ مِنْهُ بِحَالٍ وَعَلَى الْقَوْلِ

الثَّانِي فَقَدْ يُقَالُ الْحَبْسُ لَيْسَ بِإِكْرَاهٍ يُبِيحُ الزِّنَا ؛ بِخِلَافِ مَا لَوْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَهُ أَوْ يُتْلِفُونَ بَعْضَ أَعْضَائِهِ فَالنِّزَاعُ إنَّمَا هُوَ فِي هَذَا وَهُمْ لَمْ يَبْلُغُوا بِهِ إلَى هَذَا الْحَدِّ وَإِنْ قِيلَ كَانَ يَجُوزُ لَهُ ذَلِكَ لِأَجْلِ الْإِكْرَاهِ لَكِنْ يَفُوتُهُ الْأَفْضَلُ . وَأَيْضًا : فَالْإِكْرَاهُ إنَّمَا يَحْصُلُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ثُمَّ يُبَاشِرُ وَتَبْقَى لَهُ شَهْوَةٌ وَإِرَادَةٌ فِي الْفَاحِشَةِ . وَمَنْ قَالَ : الزِّنَا لَا يُتَصَوَّرُ فِيهِ الْإِكْرَاهُ يَقُولُ : فَرَّقَ بَيْنَ مَا لَا فِعْلَ لَهُ - كَالْمُقَيَّدِ - وَبَيْنَ مَنْ لَهُ فِعْلٌ كَمَا أَنَّ الْمَرْأَةَ إذَا أُضْجِعَتْ وَقُيِّدَتْ حَتَّى فُعِلَ بِهَا الْفَاحِشَةُ لَمْ تَأْثَمْ بِالِاتِّفَاقِ وَإِنْ أُكْرِهَتْ حَتَّى زَنَتْ فَفِيهِ قَوْلَانِ هُمَا رِوَايَتَانِ عَنْ أَحْمَد ؛ لَكِنَّ الْجُمْهُورَ يَقُولُونَ لَا تَأْثَمُ وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : فِعْلُ الْمَرْأَةِ لَا يَحْتَاجُ إلَى انْتِشَارٍ فَإِنَّمَا هُوَ كَالْإِكْرَاهِ عَلَى شُرْبِ الْخَمْرِ ؛ بِخِلَافِ فِعْلِ الرَّجُلِ وَبَسْطُ هَذَا لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ .

وَ " الْمَقْصُودُ " أَنَّ يُوسُفَ لَمْ يَفْعَلْ ذَنْبًا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَذْكُرُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ذَنْبًا إلَّا ذَكَرَ اسْتِغْفَارَهُ مِنْهُ وَلَمْ يَذْكُرْ عَنْ يُوسُفَ اسْتِغْفَارًا مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ . كَمَا لَمْ يَذْكُرْ عَنْهُ اسْتِغْفَارًا مِنْ مُقَدِّمَاتِ الْفَاحِشَةِ ؛ فَعُلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَنْبًا فِي هَذَا وَلَا هَذَا ؛ بَلْ هَمَّ هَمًّا تَرَكَهُ لِلَّهِ ؛ فَأُثِيبَ عَلَيْهِ حَسَنَةً كَمَا قَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوْضِعِهِ . وَأَمَّا مَا يُكَفِّرُهُ الِابْتِلَاءُ

مِنْ السَّيِّئَاتِ فَذَلِكَ جُوزِيَ بِهِ صَاحِبُهُ بِالْمَصَائِبِ الْمُكَفِّرَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلَا نَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ وَلَا غَمٍّ وَلَا أَذًى إلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهِ خَطَايَاهُ ﴾ وَلَمَّا ﴿ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ جَاءَتْ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ وَأَيُّنَا لَمْ يَعْمَلْ سُوءًا ؟ فَقَالَ : أَلَسْت تَحْزَنُ ؟ أَلَسْت تَنْصَبُ ؟ أَلَسْت تُصِيبُك اللأوى ؟ فَذَلِكَ مِمَّا تُجْزَوْنَ بِهِ ﴾ . فَتَبَيَّنَ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ أَيْ نَسِّيَ الْفَتَى ذِكْرَ رَبِّهِ أَنْ يَذْكُرَ هَذَا لِرَبِّهِ وَنَسِّيَ ذِكْرُ يُوسُفَ رَبَّهُ وَالْمَصْدَرُ يُضَافُ إلَى الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ وَيُوسُفُ قَدْ ذَكَرَ رَبَّهُ وَنَسِّيَ الْفَتَى ذِكْرَ يُوسُفَ رَبَّهُ وَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَذْكُرَ رَبَّهُ ؛ هَذَا الذِّكْرَ الْخَاصَّ ؛ فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ يَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا فَقَدْ لَا يَخْطُرُ هَذَا الذِّكْرُ بِقَلْبِهِ وَأَنْسَاهُ

الشَّيْطَانُ تَذْكِيرَ رَبِّهِ وَإِذْكَارَ رَبِّهِ لَمَّا قَالَ : ﴿ اُذْكُرْنِي ﴾ أَمَرَهُ بِإِذْكَارِ رَبِّهِ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ إذْكَارَ رَبِّهِ فَإِذْكَارُ رَبِّهِ أَنْ يَجْعَلَهُ ذَاكِرًا فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَجْعَلَ رَبَّهُ ذَاكِرًا لِيُوسُفَ وَالذِّكْرُ هُوَ مَصْدَرٌ وَهُوَ اسْمٌ فَقَدْ يُضَافُ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ اسْمًا ؛ فَيَعُمُّ هَذَا كُلَّهُ ؛ أَيْ أَنْسَاهُ الذِّكْرَ الْمُتَعَلِّقَ بِرَبِّهِ وَالْمُضَافَ إلَيْهِ . وَمِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ الَّذِي نَسِيَ رَبَّهُ هُوَ الْفَتَى لَا يُوسُفُ قَوْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ

: ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ قَدْ نَسِيَ فَادَّكَرَ . فَإِنْ قِيلَ : لَا رَيْبَ أَنَّ يُوسُفَ سَمَّى السَّيِّدَ رَبًّا فِي قَوْلِهِ : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ و ﴿ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ﴾ وَنَحْوَ ذَلِكَ .

وَهَذَا كَانَ جَائِزًا فِي شَرْعِهِ كَمَا جَازَ فِي شَرْعِهِ أَنْ يَسْجُدَ لَهُ أَبَوَاهُ وَإِخْوَتُهُ وَكَمَا جَازَ فِي شَرْعِهِ أَنْ يُؤْخَذَ السَّارِقُ عَبْدًا وَإِنْ كَانَ هَذَا مَنْسُوخًا فِي شَرْعِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ إنْ أَرَادَ بِهِ السَّيِّدَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ ؛ لَكِنْ مَعْلُومٌ أَنَّ تَرْكَ الْفَاحِشَةِ خَوْفًا لِلَّهِ وَاجِبٌ وَلَوْ رَضِيَ سَيِّدُهَا وَيُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَرَكَهَا خَوْفًا مِنْ اللَّهِ .

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا

لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ وَقَالَ يُوسُفُ أَيْضًا : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مَعَهُ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ مَا يَزَعُهُ

عَنْ الْفَاحِشَةِ وَلَوْ رَضِيَ بِهَا النَّاسُ وَقَدْ دَعَا رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ. وَقَوْلُهُ: ﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إلَيْهِ ﴾ بِصِيغَةِ جَمْعِ التَّذْكِيرِ وَقَوْلُهُ: ﴿ كَيْدَهُنَّ ﴾ بِصِيغَةِ جَمْعِ التَّأْنِيثِ وَلَمْ يَقُلْ مِمَّا يَدْعِينَنِي إلَيْهِ دَلِيلٌ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا وَأَنَّهُ كَانَ مِنْ الذُّكُورِ مَنْ يَدْعُوهُ مَعَ النِّسَاءِ إلَى الْفَاحِشَةِ بِالْمَرْأَةِ وَلَيْسَ هُنَاكَ إلَّا زَوْجُهَا وَذَلِكَ أَنَّ زَوْجَهَا كَانَ قَلِيلَ الْغَيْرَةِ أَوْ عَدِيمَهَا وَكَانَ يُحِبُّ امْرَأَتَهُ وَيُطِيعُهَا؛ وَلِهَذَا لَمَّا اطَّلَعَ عَلَى مُرَاوَدَتِهَا قَالَ: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ فَلَمْ يُعَاقِبْهَا وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ يُوسُفَ حَتَّى لَا تَتَمَكَّنَ مِنْ مُرَاوَدَتِهِ وَأَمَرَ يُوسُفَ أَنْ لَا يَذْكُرَ مَا جَرَى لِأَحَدِ مَحَبَّةً مِنْهُ لِامْرَأَتِهِ وَلَوْ كَانَ فِيهِ غَيْرَةٌ لَعَاقَبَ الْمَرْأَةَ. وَمَعَ هَذَا فَشَاعَتْ الْقِصَّةُ وَاطَّلَعَ عَلَيْهَا النَّاسُ مِنْ غَيْرِ جِهَةِ يُوسُفَ حَتَّى تَحَدَّثَتْ بِهَا النِّسْوَةُ

فِي الْمَدِينَةِ وَذَكَرُوا أَنَّهَا تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ وَمَعَ هَذَا: ﴿ أَرْسَلَتْ إلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ

كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ وَأَمَرَتْ يُوسُفَ أَنْ يَخْرُجَ عَلَيْهِنَّ ؛ لِيُقِمْنَ عُذْرَهَا عَلَى مُرَاوَدَتِهِ وَهِيَ تَقُولُ لَهُنَّ : ﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَزَلْ مُتَمَكِّنَةً مِنْ مُرَاوَدَتِهِ وَالْخَلْوَةِ بِهِ مَعَ عِلْمِ الزَّوْجِ بِمَا جَرَى وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الدِّيَاثَةِ ثُمَّ إنَّهُ لَمَّا حُبِسَ فَإِنَّمَا حُبِسَ بِأَمْرِهَا وَالْمَرْأَةُ لَا تَتَمَكَّنُ مِنْ حَبْسِهِ إلَّا بِأَمْرِ الزَّوْجِ فَالزَّوْجُ هُوَ الَّذِي حَبَسَهُ ؛ وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهَا قَالَتْ : هَذَا الْقِبْطِيُّ هَتَكَ عِرْضِي فَحَبَسَهُ ؛ وَحَبَسَهُ لِأَجْلِ الْمَرْأَةِ مُعَاوَنَةً لَهَا عَلَى مَطْلَبِهَا لِدِيَاثَتِهِ وَقِلَّةِ غَيْرَتِهِ فَدَخَلَ هُوَ فِي مَنْ دَعَا يُوسُفَ إلَى الْفَاحِشَةِ . فَعُلِمَ أَنَّ يُوسُفَ لَمْ يَتْرُكْ الْفَاحِشَةَ لِأَجْلِهِ وَلَا لِخَوْفِهِ مِنْهُ بَلْ قَدْ عُلِمَ يَقِينًا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَخَافُ مِنْهُ وَأَنَّ يُوسُفَ لَوْ أَعْطَاهَا مَا طَلَبَتْ لَمْ يَكُنْ الزَّوْجُ يَدْرِي وَلَوْ دَرَى فَلَعَلَّهُ لَمْ يَكُنْ يُنْكِرُ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ دَرَى بِالْمُرَاوَدَةِ وَالْخَلْوَةِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضِيَةٌ لِذَلِكَ فِي الْغَالِبِ فَلَمْ يُنْكِرْ وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ هَمَّ بِعُقُوبَةِ يُوسُفَ فَكَانَتْ هِيَ الْحَاكِمَةَ عَلَى الزَّوْجِ الْقَاهِرَةَ لَهُ . وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَا رَأَيْت مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إحْدَاكُنَّ ﴾ وَلَمَّا رَاجَعْنَهُ فِي إمَامَةِ الصِّدِّيقِ

قَالَ: إِنَّكُنَّ لَأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ ﴾ وَلَمَّا أَنْشَدَهُ الْأَعْشَى

وَهُنَّ شَرٌّ غَالِبٍ لِمَنْ غَلَبَ

اسْتَعَادَ ذَلِكَ مِنْهُ وَقَالَ: وَهُنَّ شَرٌّ غَالِبٍ لِمَنْ غَلَبَ ﴾. فَكَيْفَ لَا تَغْلِبُ مِثْلَ هَذَا الزَّوْجِ وَتَمْنَعُهُ مِنْ عُقُوبَةِ يُوسُفَ؟ وَقَدْ عَهِدَ النَّاسُ خَلْقًا مِنْ النَّاسِ تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ؛ مِنْ نِسَاءِ التتر وَغَيْرِهِمْ يَكُونُ لِامْرَأَتِهِ غَرَضٌ فَاسِدٌ فِي فَتَاهُ أَوْ فَتَاهَا وَتَفْعَلُ مَعَهُ مَا تُرِيدُ وَإِنْ أَرَادَ الزَّوْجُ أَنْ يَكْشِفَ أَوْ يُعَاقِبَ مَنَعَتْهُ وَدَفَعَتْهُ؛ بَلْ وَأَهَانَتْهُ وَفَتَحَتْ عَلَيْهِ أَبْوَابًا مِنْ الشَّرِّ بِنَفْسِهَا وَأَهْلِهَا وَحَشَمِهَا وَالْمُطَالَبَةِ بِصَدَاقِهَا وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ حَتَّى يَتَمَنَّى الرَّجُلُ الْخَلَاصَ مِنْهَا رَأْسًا بِرَأْسٍ مَعَ كَوْنِ الرَّجُلِ فِيهِ غَيْرَةٌ فَكَيْفَ مَعَ ضَعْفِ الْغَيْرَةِ. فَهَذَا كُلُّهُ يُبَيِّنُ أَنَّ الدَّاعِيَ لِيُوسُفَ إلَى تَرْكِ الْفَاحِشَةِ كَانَ خَوْفَ اللَّهِ لَا خَوْفًا مِنْ السَّيِّدِ فَلِهَذَا قَالَ: ﴿ إنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ قِيلَ هَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ مَحَاسِنَ يُوسُفَ وَرِعَايَتَهُ لِحَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ الْمَخْلُوقِينَ وَدَفْعَهُ الشَّرَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِنَّ الزِّنَا بِامْرَأَةِ الْغَيْرِ فِيهِ حَقَّانِ مَانِعَانِ كُلٌّ مِنْهُمَا مُسْتَقِلٌّ بِالتَّحْرِيمِ. فَالْفَاحِشَةُ حَرَامٌ لِحَقِّ اللَّهِ وَلَوْ رَضِيَ الزَّوْجُ وَظُلْمُ الزَّوْجِ فِي امْرَأَتِهِ حَرَامٌ لِحَقِّ بِحَيْثُ لَوْ سَقَطَ حَقُّ اللَّهِ بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ فَحَقُّ هَذَا فِي امْرَأَتِهِ لَا يَسْقُطُ كَمَا لَوْ ظَلَمَهُ وَأَخَذَ مَالَهُ وَتَابَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ لَمْ يَسْقُطْ

حَقُّ الْمَظْلُومِ بِذَلِكَ وَلِهَذَا جَازَ لِلرَّجُلِ إذَا زَنَتْ امْرَأَتُهُ أَنْ يَقْذِفَهَا وَيُلَاعِنَهَا وَيَسْعَى فِي عُقُوبَتِهَا بِالرَّجْمِ بِخِلَافِ الْأَجْنَبِيِّ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ قَذْفُهَا وَلَا يُلَاعِنُ بَلْ يُحَدُّ إذَا لَمْ يَأْتِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِفْسَادُ الْمَرْأَةِ عَلَى زَوْجِهَا مِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ لِزَوْجِهَا وَهُوَ عِنْدَهُ أَعْظَمُ مِنْ أَخْذِ مَالِهِ. وَلِهَذَا يَجُوزُ لَهُ قَتْلُهُ دَفْعًا عَنْهَا بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ إذَا لَمْ يَنْدَفِعْ إلَّا بِالْقَتْلِ بِالِاتِّفَاقِ وَيَجُوزُ فِي أَظْهَرِ الْقَوْلَيْنِ قَتْلُهُ وَإِنْ انْدَفَعَ بِدُونِهِ كَمَا فِي قِصَّةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أَتَاهُ رَجُلٌ بِيَدِهِ سَيْفٌ فِيهِ دَمٌ وَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ رَجُلًا تَفَخَّذَ امْرَأَتَهُ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَأَقَرَّهُ عُمَرُ عَلَى ذَلِكَ وَشَكَرَهُ وَقَبِلَ قَوْلَهُ أَنَّهُ قَتَلَهُ لِذَلِكَ إذْ ظَهَرَتْ دَلَائِلُ ذَلِكَ. وَهَذَا كَمَا لَوْ اطَّلَعَ رَجُلٌ فِي بَيْتِهِ فَإِنَّهُ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَفْقَأَ عَيْنَهُ ابْتِدَاءً وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يُنْذِرَهُ هَذَا أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ لَوْ اطَّلَعَ رَجُلٌ فِي بَيْتِك فَفَقَأْت عَيْنَهُ مَا كَانَ عَلَيْك شَيْءٌ ﴾ وَكَذَلِكَ قَالَ فِي الَّذِي عَضَّ يَدَ غَيْرِهِ فَنَزَعَ يَدَهُ فَانْقَلَعَتْ أَسْنَانُ الْعَاضِّ. وَهَذَا مَذْهَبُ فُقَهَاءِ الْحَدِيثِ. وَأَكْثَرُ السَّلَفِ وَفِي الْمَسْأَلَتَيْنِ نِزَاعٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ؛ إذْ الْمَقْصُودُ أَنَّ الزَّانِيَ بِامْرَأَةِ غَيْرِهِ ظَالِمٌ لِلزَّوْجِ وَلِلزَّوْجِ حَقٌّ عِنْدَهُ وَلِهَذَا ﴿ ذَكَرَ

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ مَنْ

زَنَى بِامْرَأَةِ الْمُجَاهِدِ فَإِنَّهُ يُمَكَّنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حَسَنَاتِهِ يَأْخُذُ مِنْهَا مَا شَاءَ ﴾ . وَفِي

الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ﴿ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ أَنْ تَجْعَلَ

لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَك قُلْت ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَك خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَك قُلْت : ثُمَّ أَيُّ ؟

قَالَ : أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِك ﴾ فَذَكَرَ الزِّنَا بِحَلِيلَةِ الْجَارِ فَعُلِمَ أَنَّ لِلزَّوْجِ حَقًّا فِي ذَلِكَ وَكَانَ

ظُلْمُ الْجَارِ أَعْظَمَ ؛ لِلْحَاجَةِ إلَى الْمُجَاوَرَةِ . وَإِنْ قِيلَ : هَذَا قَدْ لَا يُمْكِنُ زَوْجَ الْمَرْأَةِ أَنْ

يَحْتَرِزَ مِنْهُ وَالْجَارُ عَلَيْهِ حَقٌّ زَائِدٌ عَلَى حَقِّ الْأَجْنَبِيِّ فَكَيْفَ إذَا ظَلَمَ فِي أَهْلِهِ وَالْجِيرَانُ

يَأْمَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَفِي هَذَا مِنْ الظُّلْمِ أَكْثَرُ مِمَّا فِي غَيْرِهِ وَجَارُهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَحْفَظَ

امْرَأَتَهُ مِنْ غَيْرِهِ فَكَيْفَ يُفْسِدُهَا هُوَ . فَلَمَّا كَانَ الزِّنَا بِالْمَرْأَةِ الْمُزَوَّجَةِ لَهُ عِلَّتَانِ كُلٌّ مِنْهُمَا

تَسْتَقِلُّ بِالتَّحْرِيمِ مِثْلَ لَحْمِ الْخِنْزِيرِ الْمَيِّتِ : عَلَّلَ يُوسُفُ ذَلِكَ بِحَقِّ الزَّوْجِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْ

الْأَمْرَيْنِ مَانِعًا لَهُ وَكَانَ فِي تَعْلِيلِهِ بِحَقِّ الزَّوْجِ فَوَائِدُ . " مِنْهَا " أَنَّ هَذَا مَانِعٌ تَعْرِفُهُ الْمَرْأَةُ

وَتَعْذِرُهُ بِهِ بِخِلَافِ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهَا لَا تَعْرِفُ عُقُوبَةَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ . و " مِنْهَا " أَنَّ الْمَرْأَةَ قَدْ

تَرْتَدِعُ بِذَلِكَ فَتَرْعَى حَقَّ زَوْجِهَا إمَّا

خَوْفًا وَإِمَّا رِعَايَةً لِحَقِّهِ فَإِنَّهُ إذَا كَانَ الْمَمْلُوكُ يَمْتَنِعُ عَنْ هَذَا رِعَايَةً لِحَقِّ سَيِّدِهِ فَالْمَرْأَةُ أَوْلَى بِذَلِكَ لِأَنَّهَا خَائِنَةٌ فِي نَفْسِ الْمَقْصُودِ مِنْهَا بِخِلَافِ الْمَمْلُوكِ فَإِنَّ الْمَطْلُوبَ مِنْهُ الْخِدْمَةُ وَفَاحِشَتُهُ بِمَنْزِلَةِ سَرِقَةِ الْمَرْأَةِ مِنْ مَالِهِ. و " مِنْهَا " أَنَّ هَذَا مَانِعٌ مُؤَيِّسٌ لَهَا فَلَا تَطْمَعُ فِيهِ لَا بِنِكَاحِ وَلَا بِسِفَاحِ بِخِلَافِ الْخَلِيَّةِ مِنْ الزَّوْجِ فَإِنَّهَا تَطْمَعُ فِيهِ بِنِكَاحِ حَلَالٍ. و " مِنْهَا " أَنَّهُ لَوْ عَلَّلَ بِالزِّنَا فَقَدْ تَسْعَى هِيَ فِي فِرَاقِ الزَّوْجِ وَالتَّزَوُّجِ بِهِ فَإِنَّ هَذَا إنَّمَا يَحْرُمُ لِحَقِّ الزَّوْجِ خَاصَّةً وَلِهَذَا إذَا طَلَقَتْ امْرَأَتُهُ بِاخْتِيَارِهِ جَازَ لِغَيْرِهِ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا. وَلَوْ طَلَّقَهَا لِيَتَزَوَّجَ بِهَا - كَمَا قَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ إنَّ لِي امْرَأَتَيْنِ فَاخْتَرْ أَيَّتَهُمَا شِئْت حَتَّى أُطَلِّقَهَا وَتَتَزَوَّجَهَا - لَكِنَّهُ بِدُونِ رِضَاهُ لَا يَحِلُّ كَمَا فِي الْمُسْنَدِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَّبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا وَلَا عَبْدًا عَلَى مَوَالِيهِ ﴾ وَقَدْ حَرَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَخْطُبَ الرَّجُلُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ وَيَسْتَامَ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ فَإِذَا كَانَ بَعْدَ الْخِطْبَةِ وَقَبْلَ الْعَقْدِ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَطْلُبَ التَّزَوُّجَ بِامْرَأَتِهِ فَكَيْفَ بَعْدَ الْعَقْدِ وَالدُّخُولِ وَالصُّحْبَةِ. فَلَوْ عَلَّلَ بِأَنَّ هَذَا زِنًا مُحَرَّمٌ رُبَّمَا طَمِعَتْ فِي أَنْ تُفَارِقَ الزَّوْجَ وَتَتَزَوَّجَهُ

فَإِنَّ كَيْدَهُنَّ عَظِيمٌ ؛ وَقَدْ جَرَى مِثْلُ هَذَا . فَلَمَّا عَلَّلَ بِحَقِّ

سَيِّدِهِ وَقَالَ : ﴿ إنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ يَئِسَتْ مِنْ ذَلِكَ وَعَلِمَتْ أَنَّهُ يُرَاعِي حَقَّ الزَّوْجِ فَلَا يُزَاحِمُهُ فِي امْرَأَتِهِ أَلْبَتَّةَ ثُمَّ لَوْ قُدِّرَ مَعَ هَذَا أَنَّ الزَّوْجَ رَضِيَ بِالْفَاحِشَةِ وَأَبَاحَ امْرَأَتَهُ لَمْ يَكُنْ هَذَا مِمَّا يُبِيحُهَا لِحَقِّ اللَّهِ وَلِحَقِّهِ أَيْضًا فَإِنَّهُ لَيْسَ كُلُّ حَقٍّ لِلْإِنْسَانِ لَهُ أَنْ يُسْقِطَهُ وَلَا يَسْقُطُ بِإِسْقَاطِهِ وَإِنَّمَا ذَاكَ فِيمَا يُبَاحُ لَهُ بَذْلُهُ وَهُوَ مَا لَا ضَرَرَ عَلَيْهِ فِي بَذْلِهِ مِثْلَ مَا يُعْطِيهِ مِنْ فَضْلِ مَالٍ وَنَفْعٍ . وَأَمَّا مَا لَيْسَ لَهُ بَذْلُهُ فَلَا يُبَاحُ بِإِبَاحَتِهِ كَمَا لَوْ قَالَ لَهُ : عَلِّمْنِي السِّحْرَ وَالْكُفْرَ وَالْكِهَانَةَ وَأَنْتَ فِي حِلٍّ مِنْ إضْلَالِي أَوْ قَالَ لَهُ : بِعْنِي رَقِيقًا وَخُذْ ثَمَنِي وَأَنْتَ فِي حِلٍّ مِنْ ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ إذَا قَالَ : افْعَلْ بِي أَوْ بِابْنِي أَوْ بِامْرَأَتِي أَوْ بِإِمَائِي الْفَاحِشَةَ لَمْ يَكُنْ هَذَا مِمَّا يُسْقِطُ حَقَّهُ فِيهِ بِإِبَاحَتِهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَهُ بَذْلُ ذَلِكَ وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ يُعَاقِبُهَا عَلَى الْفَاحِشَةِ وَإِنْ تَرَاضَيَا بِهَا ؛ لَكِنَّ الْمَقْصُودَ أَنَّ فِي ذَلِكَ أَيْضًا ظُلْمًا لِهَذَا الشَّخْصِ لَا يَرْتَفِعُ بِإِبَاحَتِهِ كَظُلْمِهِ إذَا جَعَلَهُ كَافِرًا أَوْ رَقِيقًا فَإِنَّ كَوْنَهُ يَفْعَلُ بِهِ الْفَاحِشَةَ أَوْ بِأَهْلِهِ فِيهِ ضَرَرٌ عَلَيْهِ لَا يَمْلِكُ إبَاحَتَهُ كَالضَّرَرِ عَلَيْهِ فِي كَوْنِهِ كَافِرًا وَهُوَ كَمَا لَوْ قَالَ لَهُ : أَزِلْ عَقْلِي وَأَنْتَ فِي حِلٍّ مِنْ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَمْلِكُ بَذْلَ ذَلِكَ بَلْ هُوَ مَمْنُوعٌ مِنْ ذَلِكَ كَمَا يُمْنَعُ السَّفِيهُ مِنْ التَّصَرُّفِ فِي مَالِهِ

(168/393)

أَوْ إسْقَاطِ حُقُوقِهِ وَكَذَلِكَ الْمَجْنُونُ وَالصَّغِيرُ ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مَحْجُورٌ عَلَيْهِمْ لِحَقِّهِمْ .

(169/393)

وَلِهَذَا لَوْ أَذِنَ لَهُ الصَّبِيُّ أَوْ السَّفِيهُ فِي أَخْذِ مَالِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ وَمَنْ أَذِنَ لِغَيْرِهِ فِي تَكْفِيرِهِ أَوْ تَجْنِينِهِ أَوْ تَخْنِيثِهِ وَالْإِفْحَاشِ بِهِ وَبِأَهْلِهِ فَهُوَ مِنْ أَسْفَهِ السُّفَهَاءِ وَهَذَا مِثْلُ الرِّبَا فَإِنَّهُ وَإِنْ رَضِيَ بِهِ الْمُرَابَى وَهُوَ بَالِغٌ رَشِيدٌ لَمْ يُبَحْ ذَلِكَ ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ ظُلْمِهِ ؛ وَلِهَذَا لَهُ أَنْ يُطَالِبَهُ بِمَا قَبَضَ مِنْهُ مِنْ الزِّيَادَةِ وَلَا يُعْطِيهِ إلَّا رَأْسَ مَالِهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ بَذَلَهُ بِاخْتِيَارِهِ وَلَوْ كَانَ التَّحْرِيمُ لِمُجَرَّدِ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى لَسَقَطَ بِرِضَاهُ وَلَوْ كَانَ حَقُّهُ إذَا أَسْقَطَهُ سَقَطَ لَمَا كَانَ لَهُ الرُّجُوعُ فِي الزِّيَادَةِ وَالْإِنْسَانُ يَحْرُمُ عَلَيْهِ قَتْلُ نَفْسِهِ أَعْظَمُ مِمَّا يَحْرُمُ عَلَيْهِ قَتْلُ غَيْرِهِ . فَلَوْ قَالَ لِغَيْرِهِ : اُقْتُلْنِي لَمْ يَمْلِكْ مِنْهُ أَعْظَمَ مِمَّا يَمْلِكُ هُوَ مِنْ نَفْسِهِ . وَلِهَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَظَلَّمُ مِنْ الْأَكَابِرِ وَهُمْ لَمْ يُكْرِهُوهُمْ عَلَى الْكُفْرِ بَلْ بِاخْتِيَارِهِمْ كَفَرُوا . قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾ ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا

فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا

(170/393)

أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ .
وَكَذَلِكَ النَّاسُ يَلْعَنُونَ الشَّيْطَانَ وَإِنْ كَانَ لَمْ يُكْرِهْهُمْ عَلَى الذُّنُوبِ ؛

(171/393)

بَلْ هُمْ بِاخْتِيَارِهِمْ أَذْنَبُوا . فَإِنْ قِيلَ : هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ لِشَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ : نَحْنُ لَمْ نَكُنْ نَعْلَمُ أَنَّ فِي هَذَا عَلَيْنَا ضَرَرًا وَلَكِنْ أَنْتُمْ زَيَّنْتُمْ لَنَا هَذَا وَحَسَّنْتُمُوهُ حَتَّى فَعَلْنَاهُ وَنَحْنُ كُنَّا جَاهِلِينَ بِالْأَمْرِ . قِيلَ : كَمَا نَعْلَمُ أَنَّ الْجَاهِلَ بِمَا عَلَيْهِ فِي الْفِعْلِ مِنْ الضَّرَرِ لَا عِبْرَةَ بِرِضَاهُ وَإِذْنِهِ وَإِنَّمَا يَصِحُّ الرِّضَاءُ وَالْإِذْنُ مِمَّنْ يَعْلَمُ مَا يَأْذَنُ فِيهِ وَيَرْضَى بِهِ وَمَا كَانَ عَلَى الْإِنْسَانِ فِيهِ ضَرَرٌ رَاجِحٌ لَا يَرْضَى بِهِ إلَّا لِعَدَمِ عِلْمِهِ وَإِلَّا فَالنَّفْسُ تَمْتَنِعُ بِذَاتِهَا مِنْ الضَّرَرِ الرَّاجِحِ . وَلِهَذَا

كَانَ مَنْ اشْتَرَى الْمَعِيبَ وَالْمُدَلَّسَ وَالْمَجْهُولَ السِّعْرِ وَلَمْ يَعْلَمْ بِحَالِهِ غَيْرَ رَاضٍ بِهِ ؛ بَلْ لَهُ الْفَسْخُ بَعْدَ ذَلِكَ ؛ كَذَلِكَ الْكُفْرُ وَالْجُنُونُ وَالْفَاحِشَةُ بِالْأَهْلِ لَا يَرْضَى بِهَا إلَّا مَنْ لَمْ يَعْلَمْ بِمَا فِيهَا مِنْ الضَّرَرِ عَلَيْهِ فَإِذَا أَذِنَ فِيهَا لَمْ يَسْقُطْ حَقُّهُ ؛ بَلْ يَكُونُ مَظْلُومًا وَلَوْ قَالَ : أَنَا أَعْلَمُ مَا فِيهَا مِنْ الْعِقَابِ وَأَرْضَى بِهِ كَانَ كَذِبًا ؛ بَلْ هُوَ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ بِمَا يَقُولُهُ . وَلِهَذَا لَوْ تَكَلَّمَ بِكَلَامِ لَا يَفْهَمُ مَعْنَاهُ وَقَالَ نَوَيْت مُوجَبَهُ عِنْدَ اللَّهِ لَمْ يَصِحَّ ذَلِكَ فِي أَظْهَرِ الْقَوْلَيْنِ مِثْلَ أَنْ يَقُولَ : " بِهِشْمِ " وَلَا يَعْرِفُ مَعْنَاهَا أَوْ يَقُولَ : أَنْتِ طَالِقٌ إنْ دَخَلْت الدَّارَ وَيَنْوِي مُوجَبَهَا

(172/393)

مِنْ الْعَرَبِيَّةِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ النِّيَّةَ وَالْقَصْدَ وَالرِّضَا مَشْرُوطٌ بِالْعِلْمِ فَمَا لَمْ يَعْلَمْهُ لَا يَرْضَى بِهِ إلَّا إذَا كَانَ رَاضِيًا بِهِ مَعَ الْعِلْمِ وَمَنْ كَانَ يَرْضَى بِأَنْ يَكْفُرَ وَيُجَنَّ وَتُفْعَلَ الْفَاحِشَةُ بِهِ وَبِأَهْلِهِ . فَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَا عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ مِنْ الضَّرَرِ ؛ بَلْ هُوَ سَفِيهٌ . فَلَا عِبْرَةَ بِرِضَاهُ وَإِذْنِهِ ؛ بَلْ لَهُ حَقٌّ عِنْدَ مَنْ ظَلَمَهُ وَفَعَلَ بِهِ ذَلِكَ غَيْرُ مَا لِلَّهِ مِنْ الْحَقِّ . وَإِنْ كَانَ حَقُّ هَذَا دُونَ حَقِّ الْمُنْكِرِ الْمَانِعِ . وَلِهَذَا قَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ إنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ يَقُولُ : مَتَى أَفْسَدْت امْرَأَتَهُ كُنْت ظَالِمًا بِكُلِّ حَالٍ وَلَيْسَ هَذَا جَزَاءَ إحْسَانِهِ إلَيَّ .

وَالنَّاسُ إذَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ أَبْغَضَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَإِنْ كَانُوا فَعَلُوهُ بِتَرَاضِيهِمْ قَالَ

طَاوُوسٌ: مَا اجْتَمَعَ رَجُلَانِ عَلَى غَيْرِ ذَاتِ اللَّهِ إلَّا تَفَرَّقَا عَنْ تَقَالٍ وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ إنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ وَهَؤُلَاءِ لَا يَكْفُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِمُجَرَّدِ كَوْنِهِ عَصَى اللَّهَ؛ بَلْ لِمَا حَصَلَ لَهُ بِمُشَارَكَتِهِ وَمُعَاوَنَتِهِ مِنْ الضَّرَرِ وَقَالَ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴾

(173/393)

أَيْ يَلُومُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وَقَالَ: ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾.

فَالْمُخَالَّةُ إذَا كَانَتْ عَلَى غَيْرِ مَصْلَحَةِ الِاثْنَيْنِ كَانَتْ عَاقِبَتُهَا عَدَاوَةً وَإِنَّمَا تَكُونُ عَلَى مَصْلَحَتِهِمَا إذَا كَانَتْ فِي ذَاتِ اللَّهِ فَكُلٌّ مِنْهُمَا وَإِنْ بَذَلَ لِلْآخَرِ إعَانَةً عَلَى مَا يَطْلُبُهُ وَاسْتَعَانَ بِهِ بِإِذْنِهِ فِيمَا يَطْلُبُهُ فَهَذَا التَّرَاضِي لَا اعْتِبَارَ بِهِ؛ بَلْ يَعُودُ تَبَاغُضًا وَتَعَادِيًا وَتَلَاعُنًا وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَقُولُ لِلْآخَرِ: لَوْلَا أَنْتَ مَا فَعَلْتُ أَنَا وَحْدِي هَذَا؛ فَهَلَّا كَانَ مِنِّي وَمِنْك. وَالرَّبُّ لَا يَمْنَعُهُمَا مِنْ التَّبَاغُضِ وَالتَّعَادِي وَالتَّلَاعُنِ فَلَوْ كَانَ أَحَدُهُمَا ظَالِمًا لِلْآخَرِ فِيهِ لَنُهِيَ عَنْ ذَلِكَ وَيَقُولُ كُلٌّ مِنْهُمَا لِلْآخَرِ: أَنْتَ لِأَجْلِ غَرَضِك أَوْقَعْتنِي فِي هَذَا؛ كَالزَّانِيَيْنِ كُلٌّ مِنْهُمَا يَقُولُ

لِلْآخَرِ لِأَجْلِ غَرَضِك فَعَلْت مَعِي هَذَا . وَلَوْ امْتَنَعْت لَمْ أَفْعَلْ أَنَا هَذَا ؛ لَكِنْ كُلٌّ مِنْهُمَا لَهُ عَلَى الْآخَرِ مِثْلُ مَا لِلْآخَرِ عَلَيْهِ ؛ فَتَعَادَلَا . وَلِهَذَا إذَا كَانَ الطَّلَبُ وَالْمُرَاوَدَةُ مِنْ أَحَدِهِمَا أَكْثَرَ كَانَ الْآخَرُ يَتَظَلَّمُهُ وَيَلْعَنُهُ أَكْثَرَ وَإِنْ تَسَاوَيَا فِي الطَّلَبِ تَقَاوَمَا ؛ فَإِذَا رَضِيَ الزَّوْجُ بِالدِّيَاثَةِ فَإِنَّمَا هُوَ لِإِرْضَاءِ الرَّجُلِ أَوْ الْمَرْأَةِ لِغَرَضِ لَهُ آخَرَ ؛ مِثْلَ أَنْ يَكُونَ مُحِبًّا لَهَا ؛ وَلَا تُقِيمُ مَعَهُ إلَّا عَلَى هَذَا الْوَجْهِ فَهُوَ يَقُولُ لِلزَّانِي بِهَا : أَنْتَ لِغَرَضِك أَفْسَدْت عَلَيَّ امْرَأَتِي وَأَنَا إنَّمَا رَضِيت لِأَجْلِ غَرَضِهَا فَأَنْتَ لَمَّا أَفْسَدْت

عَلَيَّ امْرَأَتِي وَظَلَمْتنِي

فَعَلْت مَعِي مَا فَعَلْت . وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ قَالَ : إنِّي أَخَافُ اللَّهَ أَنْ يُعَاقِبَنِي وَنَحْوَ ذَلِكَ لَقَالَتْ : أَنْتَ إنَّمَا تَتْرُكُ غَرَضِي لِغَرَضِك فِي النَّجَاةِ وَأَنَا سَيِّدَتُك فَيَنْبَغِي أَنْ تُقَدِّمَ غَرَضِي عَلَى غَرَضِك فَلَمَّا قَالَ : ﴿ إنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ عَلَّلَ بِحَقِّ سَيِّدِهِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهَا رِعَايَةُ حَقِّهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 15 صـ 111.130 ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ﴾

رجوعٌ إلى شرح ما جرى عليه في منزل العزيزِ بعد ما أمر امرأتَه بإكرام مثواه . وقوله تعالى : ﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ إلى هنا اعتراضٌ جيء به أُنموذجاً للقصة ليعلم السامعُ من أول الأمر أن ما لقِيه عليه السلام من الفتن التي ستحكى بتفاصيلها له غايةٌ جميلةٌ وعاقبةٌ حميدةٌ وأنه عليه السلام محسِنٌ في جميع أعمالِه لم يصدُر عنه في حالتي السراءِ والضراءِ ما يُخِلُّ بنزاهته ، ولا يخفى أن مدارَ حسنِ التخلصِ إلى هذا الاعتراضِ قبل تمام الآيةِ الكريمةِ إنما هو التمكينُ البالغُ المفهومُ من كلام العزيز ، فإدراجُ الإنجاءِ السابق تحت الإشارةِ بذلك في قوله تعالى : ﴿ وكذلك مَكَّنَّا ﴾ كما فعله الجمهورُ ناءٍ من التقريب فتأملْ . والمراودةُ المطالبةُ من راد يرود إذا جاء وذهب لطلب شيءٍ ومنه الرائدُ لطالب الماءِ والكلأ ، وهي مفاعلةٌ من واحد نحوُ مطالبةِ الدائنِ ومماطلةِ المديونِ ومداواةِ الطبيب ونظائرِها مما يكون من أحد الجانبين الفعلُ ومن الآخر سببُه فإن هذه الأفعالَ وإن كانت صادرةً عن أحد الجانبين لكن لما كانت أسبابُها صادرةً عن الجانب الآخر جُعلت كأنها صادرةٌ عنهما وهذا بابٌ لطيفُ المسلك مبنيٌّ على اعتبار دقيقٍ ، تحقيقُه أن سببَ الشيء يقام مُقامَه ويطلق عليه اسمُه كما في قولهم : كما تدين تدان أي كما تجزي تجزى ، فإن فعل البادي وإن لم يكن

جزاءً لكنه لكونه سبباً للجزاء أُطلق عليه اسمُه وكذلك إرادةُ القيامِ إلى الصلاة وإرادةُ قراءةِ القرآنِ حيث كانتا سبباً للقيام والقراءة عُبِّر عنهما بهما فقيل : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا ﴾ ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرءان ﴾ وهذه قاعدةٌ مطردةٌ مستمرة ، ولمّا كانت أسبابُ الأفعالِ المذكورة فيما نحن فيه صادرةً عن الجانب المقابِلِ لجانب فاعِلِها فإن مطالبةَ الدائنِ للمماطلة التي هي من جانب الغريم وهي منه للمطالبة التي هي من جانب الدائنِ وكذا مداواةُ الطبيب للمرض الذي

هو من جانب المريض وكذلك مراودتُها فيما نحن فيه لجمال يوسفَ عليه السلام ، نُزِّل صدورُها عن محالها بمنزلة صدور مسبباتِها التي هي تلك الأفعال فبُني الصيغةُ على ذلك وروعيَ جانبُ الحقيقةِ بأن أُسند الفعلُ إلى الفاعل وأُوقع على صاحب السبب فتأملِ ، ويجوز أن يراد بصيغة المغالبةِ مجردُ المبالغة ، وقيل : الصيغةُ على بابها بمعنى أنها طلَبت منه الفعلَ وهو منها الترك ، ويجوز أن يكون من الرُوَيد وهو الرفقُ والتحمّلُ ، وتعديتُها بعن لتضمينها معنى المخادعة فالمعنى خادعته .

﴿ عَن نَّفْسِهِ ﴾ أي فعلت ما يفعل المخادِع لصاحبه عن شيء لا يريد إخراجَه من يده وهو يحتال أن يأخذه منه وهي عبارةٌ عن التمحّل في مواقعته إياها ، والعدولُ عن التصريح باسمها للمحافظة على السر أو للاستهجان بذكره ، وإيرادُ الموصول لتقرير المراودةِ فإن كونَه في بيتها مما يدعو إلى ذلك ، قيل لواحدةٍ : ما حملك على ما أنت عليه مما لا خيرَ فيه ؟ قالت : قربُ الوساد وطولُ السواد ، ولإظهار كمالِ نزاهته عليه السلام فإن عدمَ ميلِه إليها مع دوام مشاهدتِه لمحاسنها واستعصاءه عليها مع كونه تحت ملَكتِها ينادي بكونه عليه السلام في أعلى معارج العفة والنزاهة ﴿ وَغَلَّقَتِ الابواب ﴾ قيل : كانت سبعةً ولذلك جاء الفعل بصيغة التفعيل دون الإفعال ، وقيل : للمبالغة في الإيثاق والإحكام ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ قرئ بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وبناؤه كبناء أينَ وعيط ، وهيتِ كجَيرِ وهَيتُ كحيث اسم فعل معناه أَقبلْ وبادر ، واللام للبيان أي لك أقول هذا كاللام في هلم لك وقرئ هِئتُ لك على صيغة الفعل بمعنى تهيأتُ ، يقال : هاء يهيءُ كجاء يجيء إذا تهيأ وهُيِّئْتُ لك واللام صلة للفعل ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللهِ ﴾ أي أعوذ بالله مَعاذاً مما تدعينني إليه وهذا اجتنابٌ منه على أتم الوجوه وإشارةٌ إلى التعليل بأنه منكرٌ هائلٌ يجب أن يُعاذ بالله تعالى للخلاص منه وما ذاك إلا لأنه عليه السلام قد شاهده بما أراه الله تعالى من البرهان النيّر على ما هو عليه في حد ذاتِه من غاية القُبح ونهايةِ السوء ، وقولُه عز وجل : ﴿ إِنَّهُ

رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ تعليلٌ للامتناعِ ببعضِ الأسبابِ الخارجيةِ مما عسى يكون مؤثراً عندها وداعياً لها إلى اعتبارِه بعد التنبيهِ على سببه الذاتي الذي لا تكاد تقبله لما سوّلتْه لها نفسُها ، والضميرُ للشأن ومدارُ وضعه موضعَه ادعاءُ شهرتِه المُغْنيةِ عن ذكره ، وفائدةُ تصديرِ الجملةِ به الإيذانُ بفخامة مضمونها مع

(178/393)

ما فيه من زيادة تقريرِه في الذهن ، فإن الضميرَ لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأنٌ مبهمٌ له خطرٌ فيبقى الذهنُ مترقباً لما يعقُبه فيتمكن عند ورودِه له فضلُ تمكّنٍ ، فكأنه قيل : إن الشأنَ الخطيرَ هذا وهو ربي أي سيدي العزيزُ أحسنَ مثواي أي أحسن تعهّدي حيث أمرك بإكرامي فكيف يمكن أن أُسيء إليه بالخيانة في حرَمه وفيه إرشادٌ لها إلى رعاية حقِ العزيزِ بألطف وجهٍ ، وقيل : الضميرُ لله عز وجل وربي خبرُ إن وأحسن مثواي خبرٌ ثانٍ أو هو الخبرُ والأولُ بدلٌ من الضمير ، والمعنى أن الحالَ هكذا فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشةِ الكبيرةِ وفيه تحذيرٌ لها من عقاب الله عز وجل ، وعلى التقديرين ففي الاقتصار على ذكر هذه الحالةِ من غير تعرّضٍ لاقتضائها الامتناعَ عما دعته إليه إيذانٌ بأن هذه المرتبةَ من البيان كافيةٌ في الدلالة على استحالته وكونه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلاً وقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظالمون ﴾ تعليلٌ للامتناع المذكورِ غِبَّ تعليل ، والفلاحُ الظفرُ وقيل : البقاءُ في الخير ومعنى أفلح دخل فيه كأصبح وأخواتِه ، والمرادُ بالظالم كلُّ من ظلم كائناً من كان فيدخل في ذلك المجازون للإحسان بالإساءة والعصاةُ لأمر الله تعالى دخولاً أولياً ، وقيل : الزناةُ لأنهم ظالمون لأنفسهم وللمَزْنيِّ بأهله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(179/393)

وقال الآلوسى :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ التى هُوَ فِى بَيْتِهَا ﴾

رجوع إلى شرح ما جرى عليه عليه السلام في منزل العزيز بعد ما أمر امرأته بإكرام مثواه ، وقوله سبحانه : ﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ [يوسف : 21] إلى هنا اعتراض جيء به أنموذجاً للقصة ليعلم السامع من أول الأمر أن ما لقيه عليه السلام من الفتن التي ستحكي بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة وأنه عليه السلام محسن في أعماله لم يصدر عنه ما يخل بنزاهته ، والمراودة المطالبة برفق من راد يرود إذا ذهب وجاء لطلب شيء ، ومنه الرائد لطالب الكلأ والماء ، وباعتبار الرفق قيل : رادت الإبل في مشتيها ترود رودانا ،

ومنه بنى المرود ؛ ويقال : أرود يرود إذا رفق ، ومنه بني رويد ، والإرادة منقولة من راد يرود إذا سعى في طلب شيء وهي مفاعلة من واحد نحو مطالبة الدائن ومماطلة المديون . ومداواة الطبيب .

وغير ذلك مما يكون من أحد الجانبين الفعل ومن الآخر سببه فإن هذه الأفعال وإن كانت صادرة عن أحد الجانبين لكن لما كانت أسبابها صادرة عن الجانب الآخر جعلت كأنها صادرة عنهما ، قال شيخ الإسلام : وهذا باب لطيف المسلك مبني على اعتبار دقيق تحقيقه أن سبب الشيء يقوم مقامه ويطلق عليه اسمه كما في قولهم : كما تدين تدان . أي كما تجزي تجزى ، فإن فعل البادئ وإن لم يكن جزاء لكنه لكونه سبباً للجزاء أطلق عليه اسمه ، وكذلك إرادة القيام إلى الصلاة وإرادة قراءة القرآن حيث كانتا سبباً للقيام .

(180/393)

والقراءة عبر عنهما بهما فقيل : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة ﴾ [المائدة : 6] ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرءان ﴾ [النحل : 98] وهذه قاعدة مطردة مستمرة ، ولما كانت أسباب الأفعال المذكورة فيما نحن فيه صادرة عن الجانب المقابل لجانب فاعلها فإن مطالبة الدائن للماطلة التي هي من جانب الغريم وهي منه للمطالبة التي من جانب الدائن ، وكذا مداواة الطبيب

للمرض الذي هو من جانب المريض ، وكذلك مرادوتها فيما نحن فيه لجمال يوسف عليه السلام نزل صدورها عن محالها بمنزلة صدور مسبباتها التي هي تلك الأفعال فبنى الصيغة على ذلك وروعي جانب الحقيقة بأن أسند الفعل إلى الفاعل وأوقع على صاحب السبب فتأمل اه .

وكأنه أشار بالأمر بالتأمل إلى ما فيه مما لا يخفى على ذويه ، وفي "الكشف" المراودة منازعة في الرود بأن يكون له مقصد مجيئًا وذهابًا وللمفاعل مقصد آخر يقابله فيهما ، ومعنى المفاعلة ههنا إما المبالغة في رودها أو الدلالة على اختلافهما فيه فإنها طلبت منه الفعل وهو طلب منها الترك وهذا أبلغ ولما كان منازعة جيء بعن في قوله تعالى : ﴿ عَن نَّفْسِهِ ﴾ كما تقول : جاذبته عن كذا دلالة على الأبعاد وتحصيل الجذب البالغ ، ولهذا قال في الأساس : ومن المجاز راوده عن نفسه خادعه عنها .

وقال الزمخشري هنا : أي فعلت ما يفعل المخادع بصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده ، ولا شك أن هذا إنما يحصل من المنازعة في الرود ، ولهذه النكتة جعل كناية عن التمحل لموافقته إياها ، والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على الستر ما أمكن .

أو للاستهجان بذكره ، وإيراد الموصول دون امرأة العزيز مع أنه أخصر وأظهر لتقرير المراودة فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام فإن عدم ميله إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصائه عليها مع كونه تحت يدها ينادي بكونه عليه السلام في أعلى معارج العفة ، وإضافة البيت إلى ضميرها لما أن العرب تضيف البيوت إلى النساء باعتبار أنهن القائمات بمصالحة أو الملازمات له ، وخرج على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب : 33] وكثر في كلامهم صاحبة البيت .

وربة البيت للمرة ، ومن ذلك

: يا ربة البيت قومي غير صاغرة . . .

﴿ وَغَلَّقَتِ ﴾ أي أبواب البيت ، وتشديد الفعل للتكثير في المفعول إن قلنا : إن الأبواب كانت سبعة كما قيل ، فإن لم نقل به فهو لتكثير الفعل فكأنه غلق مرة بعد مرة أو بمغلاق بعد مغلاق ، وجمع ﴿ لَّهُمُ الابواب ﴾ حينئذٍ إما لجعل كل جزء منه كأنه باب أو لجعل تعدد إغلاقه بمنزلة تعدده ، وزعم بعضهم أنه لم يغلق إلا بابان : باب الدار ، وباب الحجرة التي هما فيها .

وادعى بعض المتأخرين أن التشديد للتعدية وأن كونه للتكثير وهم معللاً ذلك بأن ﴿ لَّهُمُ الابواب ﴾ غلقاً لغة رديئة متروكة حسبما ذكره الجوهري ، ورد بأن إفادة التعدية لا تنافي

إفادة التكثير معها فإن مجرد التعدية يحصل بباب الأفعال فاختيار التفعيل عليه لأحد الأمرين ، ولذا قال الجوهري أيضاً : ﴿ وَغَلَّقَتِ الابواب ﴾ شدد للتكثير اه .

وفي "الحواشي الشهابية" أنه لم يتنبه الراد لأن ما نقله عليه لا له لأن الردىء الذي ذكره اللغويون إنما هو استعمال الثلاثي منه لا أن له ثلاثياً لازماً حتى يتعين كون التفعيل للتعدية فتعديه لازم في الثلاثي وغيره سواء كان رديئاً أو فصيحاً فتعين أنه للتكثير ، وقد قال بذلك غير واحد ، فالواهم ابن أخت خالة الموهم فافهم .

(182/393)

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ أي أسرع فهي اسم فعل أمر مبني على الفتح كأين ، وفسرها الكسائي .

والفراء بتعال ، وزعما أنها كلمة حورانية وقعت إلى أهل الحجاز فتكلموا بها ؛ وقال أبو زيد : هي عبرانية ، وعن ابن عباس .

والحسن هي سريانية ، وقال السدي : هي قبطية .

وقال مجاهد .

وغيره .

هي عربية تدعوه بها إلى نفسها وهي كلمة حث وإقبال ، واللام للتبيين كالتي في سقيا لك

فهي متعلقة بمحذوف أي إرادتي كائنة لك .

أو أقول لك ، وجوز كونها اسم فعل خبري كهيهات ، واللام متعلقة بها والمعنى تهيأت لك ،

وجعلها بعضهم على هذا للتبيين متعلقة بمحذوف أيضاً لأن اسم الفعل لا يتعلق به الجار ،

والتاء مطلقاً من بنية الكلمة ، وليس تفسيرها بتهيأت لكون الدال على التكلم التاء ليرد

أنها أنها إذا كانت بمعنى تهيأت لا تكون اسم فعل بل تكون فعلاً مسنداً إلى ضمير المتكلم

بل لأنه لما بينت التهيؤ بأنه له لزم كونها هي المتهيأة كما إذا قيل لك : قربني منك فقلت :

هيهات فإنه يدل على معنى بعدت بالقرينة .

وقرأ ابن كثير .

وأهل مكة ﴿ هَيْتَ ﴾ بفتح الهاء وسكون الياء وضم التاء تشبيهاً له بحيث .

وقرأ أبو الأسود .

وابن أبي إسحاق .

وابن محيصن .

وعيسى البصرة ؛ وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ﴿ هَيْتَ ﴾ بفتح

الهاء وسكون الياء وكسر التاء تشبيهاً له بجير ، والكلام فيها على هاتين القراءتين كالكلام

فيها على القراءة السابقة .

وقرأ نافع .

وابن عامر .

وابن ذكوان .

والأعرج .

وشيبة .

(183/393)

وأبو جعفر ﴿ هَيْتَ ﴾ بكسر الهاء بعدها ياء ساكنة وتاء مفتوحة ، وحكى الحلواني عن هشام أنه قرأ كذلك إلا أنه همز ، وتعقب ذلك الداني تبعاً لأبي علي الفارسي في الحجة ، وقد تبعه أيضاً جماعة بأن فتح التاء فيما ذكر وهم من الراوي لأن الفعل حينئذٍ من التهيؤ ، ويوسف عليه السلام لم يتهيأ لها بدليل ﴿ وَرَاوَدَتْهُ ﴾ الخ فلا بدّ من ضم التاء ، ورد ذلك صاحب النشر بأن المعنى على ذلك تهيأ لي أمرك لأنها لم يتيسر لها الخلوة به قبل .

أو حسنت هيئتك ، و ﴿ لَكَ ﴾ على المعنيين للبيان ، والرواية عن هشام صحيحة جاءت من عدة طرق ، وروي عنه أيضاً أنه قرأ بكسر الهاء والهمزة وضم التاء ، وهي رواية أيضاً عن ابن عباس .

وابن عامر .

وأبي عمرو أيضاً ، وقرأ كذلك أبو رجاء .

وأبو وائل .

وعكرمة .

ومجاهد .

وقتادة .

وطلحة وآخرون .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما .

وابن أبي إسحاق كذلك إلا أنهما سهلا الهمزة ، وذكر النحاس أنه قرىء بكسر الهاء بعدها ياء ساكنة وكسر التاء ، وقرىء أيضاً هيا بكسر الهاء وفتحها وتشديد الياء ، وهي على ما قال ابن هشام : لغة في ﴿ هَيْتَ ﴾ ، وقال بعضهم : إن القراءات كلها لغات وهي فيها اسم فعل بمعنى هلم ، وليست التاء ضميراً ؛ وقال آخر : إنها لغات والكلمة عليها اسم فعل إلا على قراءة ضم التاء مع الهمز وتركه فإن الكلمة عليها تحتمل أن تكون فعلاً رافعاً لضمير المتكلم من هاء الرجل يهيء كجاء يجيء إذا حسنت هيئته .

أو بمعنى تهيأت ، يقال : هئت وتهيأت بمعنى ، وإذا كانت فعلاً تعلقت اللام بها ، ونقل عن ابن عباس أيضاً أنه قرأ هييت مثل حببت وهي في ذلك فعل مبني للمفعول مسهل الهمزة من

هيأت الشيء كأن أحداً هيأها له عليه السلام ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ نصب على المصدر

يقال: عذت عوذاً.

وعياذاً.

وعياذة.

(184/393)

ومعاذاً أي أعوذ بالله عز وجل معاذاً مما تريدين مني، وهذا اجتناب منه عليه السلام على أتم الوجوه وإشارة إلى التعليل بأنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله جل وعلا للخلاص منه، وما ذلك إلا لأنه قد علم بما أراه الله تعالى ما هو عليه في حد ذاته من غاية القبح ونهاية السوء، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ تعليل ببعض الأسباب الخارجية مما عسى يكون مؤثراً عندها وداعياً لها إلى اعتباره بعد التنبيه على سببه الذاتي التي لا تكاد تقبله لما سولته لها نفسها، والضمير للشأن، وفي تصدير الجملة به من الإيذان بفخامة مضمونها ما فيه مع زيادة تقريره في الذهن أي إن الشأن الخطير هذا أي هو ربي أي سيدي العزيز أحسن تعهدي حيث أمرك بإكرامي على أكمل وجه فكيف يمكن أن أسيء إليه بالخيانة في حرمه؟! وفيه إرشاد لها إلى رعاية حق العزيز بألطف وجه، وإلى هذا المعنى

ذهب مجاهد .

والسدي .

(185/393)

وابن أبي إسحاق ، وتعقب بأن فيه إطلاق الرب على غيره تعالى فإن أريد به الرب بمعنى الخالق فهو باطل لأنه لا يمكن أن يطلق نبي كريم على مخلوق ذلك ، وإذا أريد به السيد فهو عليه السلام في الحقيقة مملوك له ، ومن هنا وإن كان فيما ذكر نظر ظاهر اختار في "البحر" أن الضمير لله تعالى ، و﴿ رَبِّى ﴾ خبر إن ، و﴿ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ خبر ثان ، أو هو الخبر ، والأول بدل من الضمير أي إنه تعالى خالقي أحسن مثواي بعطف قلب من أمرك بإكرامي علي فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة ؟! وفيه تحذير لها عن عقاب الله تعالى ، وجوز على تقدير أن يكون الرب بمعنى الخالق كون الضمير للشأن أيضاً ، وأياً مّا كان ففي الاقتصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض لاقتضائها الامتناع عما دعته إليه إيذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية في الدلالة على استحالته وكونه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلاً ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ تعليل غب تعليل للامتناع المذكور ، والفلاح الظفر وإدراك البغية ، وذلك ضربان : دنيوي .

وأخروي ، فالأول : الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا وهو البقاء .

والغنى .

والعز ، والثاني : أربعة أشياء : بقاء بلا فناء .

وغنى بلا فقر .

وعز بلا ذل .

وعلم بلا جهل ، ولذلك قيل : لا عيش إلا عيش الآخرة ، ومعنى أفلح دخل في الفلاح كأصبح وأخواته ، ولعل المراد به هنا الفلاح الأخروي ، وبالظالمين كل من ظلم كائناً من كان فيدخل في ذلك المجازون للإحسان بالإساءة والعصاة لأمر الله تعالى دخولاً أولياً ، وقيل : الزناة لأنهم ظالمون لأنفسهم ، وللمزني بأهله ، وقيل : الخائنون لأنهم ظالمون لأنفسهم أيضاً ولمن خانوه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(186/393)

وقال القاسمى :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

هذا رجوع إلى شرح ما جرى على يوسف في منزل العزيز بعد ما أمر امرأته بإكرام مثواه ، من مراودتها له وإبائه . والمراودة : المطالبة . أي : طلبت منه أن يواقعها . وتعديتها بـ (عن) لتضمينها معنى المخادعة . والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السر والستر ، وإيراد الموصول دون امرأة العزيز ، لتقرير المراودة . فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك .

قيل لامرأة : ما حملك على ما لا خير فيه ؟ قالت : قرب الوساد ، وطول السواد .

ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام - كما سيأتي - .

و(هَيْتَ) قرئت كـ : (ليت وقيل وحيث) ، وبكسر الهاء وبهمزة ساكنة بعدها ، وفتح التاء وضمها . وهي في هذه اللغات اسم فعل بمعنى (تعال) . واللام لتبيين المفعول أي : المخاطب . ونقل عن الفراء أنها لغة لأهل حوران سقطت إلى مكة فتكلموا بها .

قال ابن الأبياري : هذا وفاقٌ بين لغة قريش وأهل حوران ، كما اتفقت لغة العرب والروم في (القسطاس) ونحوه .

و: ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ منصوب على المصدر . أي : أعوذ بالله معاذاً مما تدعينني إليه ، لكونه زنى وخيانة فيما اؤتمنت عليه ، وضراً لمن توقع النفع ، وإساءة إلى المحسن .

قال أبو السعود : وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه ، وإشارة إلى التعليل بأنه منكر هائل ! يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه ، وما ذاك إلا لأنه عليه السلام قد شاهد بما أراه الله تعالى من البرهان النير على ما هو عليه في حد ذاته من غاية القبح ، ونهاية السوء .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ تعليل للامتناع ببعض الأسباب الخارجية ، مما عسى أن يكون مؤثراً عندها ، وداعياً لها إلى اعتباره بعد التنبيه على سببه الذاتي الذي تكاد تقبله لما سولته لها نفسها . والضمير للشأن . وفائدة تصدير الجملة به ؛ الإيذان بفخامة مضمونها ، مع ما فيه من زيادة تقريره في الذهن ، فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر ، فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه ، فيتمكن عند وروده له فضل تمكن . فكأنه قيل : إن الشأن الخطير هذا ، وهو ربي ، أي : سيدي العزيز ، أحسن مثواي ، أي : تعهدي ، حيث أمرك بإكرامي ، فكيف يمكن أن أسيء إليه بالخيانة في حرمه ؟ وفيه إرشاد لها إلى رعاية حق العزيز بألطف وجه . وقيل : الضمير لله عز وجل ، و : ﴿ رَبِّي ﴾ خبر ، و : ﴿ إِنَّ ﴾ ، و : ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ خبر ثاني . أو هو الخبر ، والأول بدل من الضمير . والمعنى : أن الحال هكذا ، فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة ؟ وفيه تحذير لها من عقاب الله عز وجل . وعلى التقديرين ، ففي الاقتصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض للامتناع عما دعته إليه ؛ إيذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية في الدلالة على استحالته ، وكونه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلاً .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ تعليل للامتناع المذكور ، غبّ تعليل . و (الفلاح) الظفر ، أو البقاء في الخير . ومعنى (أفلح) دخل فيه ، كأصبح وأخواته . والمراد بـ : (الظالمين) كل من ظلم ، كائناً من كان ، فيدخل في ذلك المجازون للإحسان بالإساءة ، والعصاة لأمر الله تعالى ، دخولاً أولياً . وقيل : الزناة ، لأنهم ظالمون لأنفسهم ، وللمزني بأهله . انتهى .

وقال بعض اليمانين : ثمرات هذه الآية ثلاث :

الأولى : أن الواجب عند الدعاء إلى المعصية الاستعاذة بالله من ذلك ، ليعصمه منها ، ويدخل فيه دعاء الشيطان ، ودعاء شياطين الإنس ، ودعاء هوى النفس .

الثانية : أن السيد والمالك يسمى (رباً) .

الثالثة : أنه يجوز ترك القبيح لقبحه ، ورعاية حق غيره ، وخشية العار ، أو الفقر ، أو الخوف ، ونحو ذلك . ولا يقال : التشريك غير مفيد في كونه تاركاً للقبيح ، وأنه لا يثاب . وتدل أيضاً على لزوم حسن المكافأة بالجميل ، وأن من أخل بالمكافأة عليه كان ظالماً .

انتهى . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 169 . 171 ﴾

وقال المظهرى :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ ﴾

المراودة من راد يرود إذا جاء وذهب لطلب شيء ومنه الرائد - وقيل طلب الشيء برفق ومنه رويد بمعنى أمهل لمعنى الرفق والمهلة فيه - والمراد ها هنا طلبته منه بالحيل الَّتِي هُوَ يعنى يوسف فِي بَيْتِهَا يعنى زليخا امراة العزيز عَنْ نَفْسِهِ أى احتالت ليواقعها وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ أى اطبقتها وكانت سبعة والتشديد للتكثير أو للمبالغة فى الاستيناف وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قرأ نافع وابن ذكوان بكسر الهاء من غير همز وفتح التاء - وهشام كذلك الا انه يهمز - وقد روى عنه ضم التاء - وابن كثير بفتح الهاء وضم التاء والباقون بفتحهما - وقرا قتادة والسلمى بكسر الهاء وضم التاء كما روى عن هشام - ومعناه تهيّئت لك نفسى واللام حينئذ للصلة - وأنكره أبو عمرو والكسائي قالا لم يحك هذا عن العرب والاول هو المعروف عند العرب - قال ابن مسعود رضى اللّه عنه أقرأني النبي صلى اللّه عليه وسلم هيت لك بفتح الهاء والتاء - قال أبو عبيدة كان الكسائي يقول هى لغة لاهل حوران وقعت إلى الحجاز ومعناه تعال - وقال عكرمة أيضا هى بالحورانية هلم - قال

مجاهد وغيره هى لغة عربية وهى كلمة حث واقبال على الشيء - فهو اسم فعل مبنى على الفتح كاين - واللام للتبئين كالتى فى سقيا لك - ومن قراءه بضم التاء قراءه تشبيها له بحيث - وهى لا تثنى ولا تجمع ولا تؤنث كذا قال أبو عبيدة - قال فى القاموس هيت مثلثة الاخر وقد يكسر اوله بمعنى هلم قال لها يوسف عند ذلك مَعاذَ اللَّهِ أى أعوذ بالله معاذا واعتصم به ممّا دعوتنى إليه إِنَّهُ رَبِّي قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بسكونها أَحْسَنَ مَثْوايَ الضمير للشأن يعنى ان الشان ان سيدى قطفير أحسن منزلى وتعهّدى - حيث قال لك أكرمي مثواه فما جزاؤه أن أخونه فى اهله - وجاز ان يكون الضمير راجعا إلى قطفير يعنى إن زوجك قطفير سيدى أحسن مثواى - وقيل الضمير لله تعالى

(190/393)

يعنى إنه تعالى خالقى وأحسن منزلتى حيث عطف علىّ قلب قطفير فلا أعصيه إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) المجازون الحسن بالسيئ - وقيل يعنى الزناة فان الزنى ظلم على نفسه وعلى المزني بأهله -

قال السدى وابن إسحاق لما أرادت امراة العزيز مراودة يوسف عن نفسه جعلت تذكر له

محاسن نفسه وشوّقته « 1 » إلى نفسها – فقالت يا يوسف ما احسن شعرك قال هى أول ما ينتثر من جسدى – قالت ما احسن عينك قال هما أول ما يسيل على وجهى – قالت ما احسن وجهك قال هو للتراب تأكله – وقيل انها قالت ان فراش الحرير مبسوط فقم فاقض حاجتى – قال إذا يذهب نصيبى من الجنة – فلم تزل تطمعه وتدعوه إلى اللذة وهو شابّ يجد شبق الشباب ما يجد الرجل عند مراودة امراة حسناء جميلة فذلك قوله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المظهرى حـ 5 صـ 152.153 ﴾

(191/393)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾

عطف قصة على قصة ، فلا يلزم أن تكون هذه القصة حاصلة في الوجود بعد التي قبلها .

وقد كان هذا الحادث قبل إيتائه النبوءة لأن إيتاء النبوءة غلب أن يكون في سن الأربعين .

والأظهر أنه أوتي النبوءة والرسالة بعد دخول أهله إلى مصر وبعد وفاة أبيه .

وقد تعرضت الآيات لتقرير ثبات يوسف عليه السّلام على العفاف والوفاء وكرم الخلق .

فالمراودة المقتضية تكرير المحاولة بصيغة المفاعلة ، والمفاعلة مستعملة في التكرير .

وقيل : المفاعلة تقديرية بأن اعتبر العمل من جانب والممانعة من الجانب الآخر من العمل بمنزلة مقابلة العمل بمثله .

والمراودة : مشتقة من راد يرود ، إذا جاء وذهب .

شبه حال المحاول أحداً على فعل شيء مكرراً ذلك .

بحال من يذهب ويجيء في المعاودة إلى الشيء المذهوب عنه ، فأطلق راود بمعنى حاول .

و﴿ عن ﴾ للمجاوزة ، أي راودته مباعدة له عن نفسه ، أي بأن يجعل نفسه لها .

والظاهر أن هذا التركيب من مبتكرات القرآن ، فالنفس هنا كناية عن غرض المواقعة ، قاله ابن عطية ، أي فالنفس أريد بها عفافه وتمكينها منه لما تريد ، فكأنها تراوده عن أن يسلم إليها إرادته وحكمه في نفسه .

وأما تعديته بـ (على) فذلك إلى الشيء المطلوب حصوله .

ووقع في قول أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم يراود عمه أبا طالب على الإسلام : وفي حديث الإسلاء "فقال له موسى : قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه" .

والتعبير عن امرأة العزيز بطريق الموصولية في قوله : ﴿ التي هو في بيتها ﴾ لقصد ما تؤذن به الصلة من تقرير عصمة يوسف عليه السّلام لأن كونه في بيتها من شأنه أن يطوّعه لمرادها .

و﴿ بيتها ﴾ بيت سكناها الذي تبيت فيه .

فمعنى ﴿ هو في بيتها ﴾ أنه كان حينئذٍ في البيت الذي هي به ، ويجوز أن يكون المراد بالبيت : المنزل كله ، وهو قصر العزيز .

(192/393)

ومنه قولهم : ربة البيت ، أي زوجة صاحب الدار ويكون معنى ﴿ هو في بيتها ﴾ أنه من جملة أتباع ذلك المنزل .

وغلق الأبواب : جَعْل كل باب سادّاً للفرجة التي هو بها .

وتضعيف ﴿ غلّقت ﴾ لإفادة شدة الفعل وقوته ، أي أغلقت إغلاقاً محكماً .

والأبواب : جمع باب .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ ادخلوا عليهم الباب ﴾ [سورة المائدة : 23] .

وهَيت َ﴾ اسم فعل أمر بمعنى بَادرْ .

قيل أصلها من اللغة الحَوْرانية ، وهي نبطية .

وقيل : هي من اللغة العبرانية .

واللام في ﴿ لك ﴾ لزيادة بيان المقصود بالخطاب ، كما في قولهم : سقياً لك وشكراً لك .

وأصله : هيتَك .

ويظهر أنها طلبت منه أمراً كان غير بدع في قصورهم بأن تستمتع المرأة بعبدها كما يستمتع الرجل بأمته ، ولذلك لم تتقدم إليه من قبل بترغيب بل ابتدأته بالتمكين من نفسها .

وسيأتي لهذا ما يزيده بياناً عند قوله تعالى : ﴿ قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴾ .

وفي ﴿ هيت ﴾ لغات .

قَرأ نافع ، وابن ذكوان عن ابن عامر ، وأبو جعفر بكسر الهاء وفتح المثناة الفوقية .

وقرأه ابن كثير بفتح الهاء وسكون التحتية وضم الفوقية .

وقرأه الباقون بفتح الهاء وسكون التحتية وضم التاء الفوقية ، والفتحة والضمة حركتا بناء .

و﴿ مَعاذ ﴾ مصدر أضيف إلى اسم الجلالة إضافة المصدر إلى معموله .

وأصله : أعوذ عَوذاً بالله ، أي أعتصم به مما تحاولين .

وسيأتي بيانه عند قوله : ﴿ قال معاذ الله أن نأخذ ﴾ [سورة يوسف : 79] في هذه السورة .

و(إنّ) مفيدة تعليل ما أفاده معاذ الله ﴾ من الامتناع والاعتصام منه بالله المقتضي أن الله أمر بذلك الاعتصام .

وضمير ﴿ إنه ﴾ يجوز أن يعود إلى اسم الجلالة ، ويكون ﴿ ربي ﴾ بمعنى خالقي .

ويجوز أن يعود إلى معلوم من المقام وهو زوجها الذي لا يرضى بأن يمسها غيره ، فهو معلوم بدلالة العرف ، ويكون ﴿ ربي ﴾ بمعنى سيدي ومالكي .

(193/393)

وهذا من الكلام الموجّه توجيهاً بليغاً حكي به كلام يوسف عليه السّلام إمّا لأن يوسف عليه السّلام أتى بمثل هذا التركيب في لغة القِبط ، وإما لأنه أتى بتركيبين عُذرين لامتناعه فحكاهما القرآن بطريقة الإيجاز والتوجيه .

وأياً ما كان فالكلام تعليل لامتناعه وتعريض بها في خيانة عهدها .

وفي هذا الكلام عبرة عظيمة من العفاف والتقوى وعصمة الأنبياء قبل النبوءة من الكبائر .

وذُكِرَ وصف الرب على الاحتمالين لما يؤذن به من وجوب طاعته وشكره على نعمة الإيجاد بالنسبة إلى الله ، ونعمة التربية بالنسبة لمولاه العزيز .

وأكدَ ذلك بوصفه بجملة ﴿ أحسن مثواي ﴾ ، أي جعل آخرتي حسنى ، إذ أنقذني من الهلاك ، أو أكرم كفالتي .

وتقدم آنفاً تفسير المثوى .

وجملة ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ تعليل ثان للامتناع .

والضمير المجعول اسماً ل (إن) ضميرُ الشأن يفيد أهمية الجملة المجعولة خبراً عنه لأنها موعظة جامعة .

وأشار إلى أن إجابتها لما راودته ظلم ، لأن فيها ظلم كليهما نفسه بارتكاب معصية مما اتفقت الأديان على أنها كبيرة ، وظلم سيده الذي آمنه على بينه وآمنها على نفسها إذ اتخذها زوجاً وأحصنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(194/393)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾

وساعة تسمع " راود " فافهم أن الأمر فيه منازعة مثل : " فَاعَلَ " أو " تَفاعل " ومثل : " شارك محمد علياً " أي : أن علياً شارك محمداً ؛ ومحمد شارك علياً ؛ فكل منهم مفعول مرة ، وفاعل مرة أخرى .

والمُرَاودة مطالبةٌ برفق ولين بستر ما تريده مِمَّنْ تريده ؛ فإنْ كان الأمر مُسهَّلاً ، فالمُراودة تنتهي إلى شيء ما ، وإنْ تأبَّى الطرف الثاني بعد أن عرفَ المراد ؛ فلن تنتهي المراودة إلى الشيء الذي كنت تصبو إليه .

وهكذا راودتْ امرأة العزيز يوسف عليه السلام ، أي : طالبته برفق ولين في أسلوب يخدعه لِيُخرِجه عمَّا هو فيه إلى ما تطلبه .

ومن قبْل كان يوسف يخدمها ، وكانت تنظر إليه كطفل ، أما بعد أن بلغ أَشُده فقد اختلف الأمر ، ولنفرض أنها طالبته أن يُحضر لها شيئاً ؛ وحين يقدمه لها تقول له " لماذا تقف بعيداً ؟ " وتَدعوه ليجلس إلى جوارها ، وهو لن يستطيع الفكاك ؛ لأنه في بيتها ؛ وهي مُتمكِّنة منه ؛ فهي سيدة القصر .

وهكذا نجد أن المسألة مجموعة عليه من عدة جهات ؛ فهو قد تربَّى في بيتها ؛ وهي التي تتلطف وترقُّ معه ، وفَهِم هو مرادها .

وهكذا شرح الحق سبحانه المسألة من أولها إلى آخرها بأدب رَاقٍ غير مكشوف ، فقال تعالى :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ التي هُوَ في بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأبواب . . . ﴾ [يوسف : 23] .

وكلمة : ﴿ وَغَلَّقَتِ الأبواب . . . ﴾ [يوسف : 23] .

توضح المبالغة في الحدث ؛ أو لتكرار الحَدث ، فهي قد أغلقت أكثر من باب . ونحن حين نحرك المزلاج لنؤكد غَلْق الباب ، ونحرك المفتاح ، وندير لتأكيد غَلْق الباب .

فهذه عملية أكبر من غَلْق الباب ؛ وإذا أضفنا مِزْلاجاً جديداً نكون قد أكثرنا الإغلاق لباب واحد ؛ وهكذا يمكن أن نَصِفَ ما فعلنا أننا غلَّقنا الباب .

وامرأة العزيز قامت بأكثر من إغلاق لأكثر من باب ، فَقُصور العظماء بها أكثر من باب ، وأنت لا تدخل على العظيم من هؤلاء في بيته لتجده في استقبالك بعد أول باب ، بل يجتاز الإنسان أكثر من باب لِيَلقى العظيم الذي جاء ليقابله .

يحمل لنا التاريخ قصة ذلك الرجل الذي رفض أن يبايع معاوية في المدينة ، فأمر معاوية باستدعائه إلى قصر الحكم في دمشق .

هذا القصر الذي سبق أن زاره عمر بن الخطاب ؛ ووجد فيه أبهة زائدة بررها له معاوية بحيلة الأريب أنها أُبهة ضرورية لإبراز مكانة العرب أمام الدولة الرومانية المجاورة ، فسكتَ عنها عمر .

وحين استدعى معاوية الرجل ، دخل بصحبة الحرس من باب ، وظن أنه سوف يلقى معاوية فَوْر الدخول ؛ لكن الحرس اصطحبه عبر أكثر من باب ؛ فلم ينخلع قلب الرجل ، بل دخل بثبات على معاوية وضَنَّ عليه بمناداته كأمير المؤمنين ، وقال بصوت عال :

" السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

ففطن معاوية إلى أن الرجل يرفض مبايعته .

ونعود إلى الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ فنجد أن امرأة العزيز قد غلَّقتْ الأبواب ؛ لأن مَنْ يفعل الأمر القبيح يعلم قُبْح ما يفعل ، ويحاول أن يستر فِعْله ، وهي قد حاولتْ ذلك بعيداً عن مَنْ يعملون أو يعيشون في القصر ، وحدثتْ المراودة وأخذتْ وقتاً ، لكنه فيما يبدو لم يَستجبْ لها .

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ . . . ﴾ [يوسف : 23] أي : أنها انتقلتْ من مرحلة المُراودة إلى مرحلة الوضوح في طلب الفعل ؛ بأن قالت : تهيأتُ لك ؛ وكان ردُّه :

﴿ قَالَ مَعَاذَ الله . . . ﴾ [يوسف : 23] .

والمَعَاذ هو مَنْ تستعيذ به ، وأنت لا تستعيذ إلا إذا خارتْ أسبابك أمام الحدث الذي تمرُّ به عَلَّك تجد مَنْ ينجدك ؛ فكأن المسألة قد عزَّتْ عليه ؛ فلم يجد مَعَاذاً إلا الله .

ولا أحد قادر على أن يتصرف هكذا إلا مَنْ حرسه الله بما أعطاه له من الحكمة والعلم ؛ وجعله قادراً على التمييز بين الحلال والحرام .

(196/393)

ولبيان خطورة وقوة الاستعاذة نذكر ما ترويه كتب السيرة من " أن النبي صلى الله عليه وسلم عقد على ابنة ملكٍ ؛ كانت شديدة الجاذبية ، وشعرت بعض من نساء النبي بالغيرة

منها ، وقالت واحدة منهن لعلها عائشة رضي الله عنها : إن تزوجها ودخل بها قد يفضلها عنَّا . وقالت للعروس : إن النبي يحب كلمة ما ، ويحب مَنْ يقولها . فسألت الفتاة عن الكلمة ، فقالت لها عائشة : إن اقترب منك قولي " أعوذ بالله منكِ " .

فغادرها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " قد عُذْتِ بمعاذ " وسرَّحها السراح الجميل " .

وهناك في قضية السيدة مريم عليها السلام ، نجدها قد قالت لحظة أن تمثَّل لها الملاك بشراً سوياً : ﴿ إني أَعُوذُ بالرحمن مِنكَ إن كُنتَ تَقِيّاً ﴾ [مريم : 18] .

فهي استعاذت بمَنْ يقدر على إنقاذها .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ قَالَ مَعَاذَ الله إِنَّهُ ربي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ [يوسف : 23] ،

وأعطانا هذا القول معنيين اثنين :

الأول : أنه لم يوافق على طلبها بعد أن أوضحتْ ما تريد .

والمعنى الثاني : أنه طلب المعونة من الله ، وهو سبحانه مَنْ أنجاه من كيد إخوته ؛ ونجَّاه من الجُبِّ ؛ وهيّأ له أفضل مكان في مصر ، ليحيا فيه ومنحه العلم والحكمة مع بلوغه لأشُدَّه .

وبعد كل هذا أيستقبل كل هذا الكرم بالمعصية ؟ طبعاً لا .

أو : أنه قال : ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ [يوسف : 23] .

لِيُذكِّر امرأة العزيز بأن لها زوجاً ، وأن هذا الزوج قد أحسن ليوسف حين قال لها : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عسى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ [يوسف : 21] .

فالصعوبة لا تأتي فقط من أنها تدعوه لنفسها ؛ بل الصعوبة تزداد سوء لأن لها زوجاً فليست خالية ، وهذا الزوج قد طلب منها أن تُكرِم يوسف ، وتختار له مكانَ إقامةٍ يليق بابن ، ولا يمكن أن يُستقَبل ذلك بالجحود والخيانة .

(197/393)

وهكذا يصبح قول يوسف : ﴿ إِنَّهُ ربي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ [يوسف : 23] .

قد يعود على الله سبحانه ؛ وقد يعود على عزيز مصر .

وتلك مَيْزة أسلوب القرآن ؛ فهو يأتي بعبارة تتسع لكل مناطات الفهم ، فما دام الله هو الذي يُجازي على الإحسان ، وهو مَنْ قال في نفس الموقف : ﴿ وكذلك نَجْزِي المحسنين ﴾ [يوسف : 22] فمعنى ذلك أن مَنْ يسيء يأتي الله بالضد ؛ فلا يُفلح ؛ لأن القضيتين متقابلتان : ﴿ وكذلك نَجْزِي المحسنين ﴾ [يوسف : 22] .

و﴿ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ [يوسف : 23] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ وراودته التي هو في بيتها ﴾ قال : هي امرأة العزيز .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ﴾ قال : حين بلغ مبلغ الرجال .

وأخرج عبد الرزاق والبخاري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه ، عن أبي وائل رضي الله عنه قال : قرأها عبد الله ﴿ هيت لك ﴾ بفتح الهاء والتاء ، فقلنا له : إن ناساً يقرؤونها ﴿ هيت لك ﴾ فقال : دعوني ، فإني أقرأ كما اقرئت أحب إلي .

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أنه قرأ ﴿ هيت لك ﴾ بنصب الهاء والتاء ولا يهمز .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ هيت لك ﴾ يعني " هلم لك " .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه كان يقرأ كما يقرأ عبد الله ﴿ هيت لك ﴾ وقال : هلم لك ، تدعوه إلى نفسها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ هيت لك ﴾ قال : هلم لك ، وهي بالحورانية .

وأخرج ابن جرير عن السدي رضي الله عنه ﴿ هيت لك ﴾ قال : هلم لك وهي بالقبطية هنا .

وأخرج ابن جرير عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ هيت لك ﴾ قال : تعال .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ هيت لك ﴾ قال : ألقت نفسها واستقلت له ، ودعته إلى نفسها ، وهي لغة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ هيت لك ﴾ قال : ألقت نفسها واستلقت له ، لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وأبو الشيخ عن يحيى بن وثاب أنه قرأها ﴿ هيت لك ﴾ يعني بكسر الهاء وضم التاء يعني تهيأت لك .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ ﴿ هئت لك ﴾ مكسورة الهاء مضمومة التاء مهموزة . قال : تهيأت لك .

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنه ، أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ هيت لك ﴾ قال : تهيأت لك . قم فاقض حاجتك . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت أحيحة الأنصاري وهو يقول :

به أحمى المصاب إذا دعال . . . إذا ما قيل للأبطال هيتا

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي وائل رضي الله عنه ، أنه كان يقرأ ﴿ هئت لك ﴾ رفع ، أي تهيأت لك .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة عن زر بن حبيش رضي الله عنه ، أنه كان يقرأ ﴿ هيت لك ﴾ نصباً ، أي هلم لك . وقال أبو عبيد كذلك . كان الكسائي يحكيها قال : هي لغة لأهل نجد ، وقعت إلى الحجاز معناها : تعال .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن عبد الله بن عامر اليحصبي رضي الله عنه ، أنه قرأ ﴿ هيت لك ﴾ بكسر الهاء وفتح التاء .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ إنه ربي ﴾ قال: سيدي، يعني زوج المرأة.

وأخرج ابن المنذر عن أبي بكر بن عياش رضي الله عنه في قوله ﴿ إنه ربي ﴾ قال: يعني زوجها. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الدر المنثور جـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ ﴾: أي: طالَبَتْه برفقٍ ولينِ قول، والمُراوَدَةُ المصدر، والرِّيادة: طَلَبُ النِّكاح، ومشى رُوَيْدًا، أي: ترفَّق في مِشْيته، والرَّوْدُ، الرِّفْقُ في الأمور والتَّأنِّي فيها، ورادَتِ المرأةُ في مَشْيها تَرُوْدُ رَوَدَانًا من ذلك، والمِرْوَدُ هذه الآلةُ منه، والإرادةُ منقولةٌ مِنْ راد يرود إذا سعى في طلب حاجة، وقد تقدَّم ذلك في البقرة، وتعدى هنا ب " عن " لأنه ضُمِّن معنى خادَعَتْ، أي: خادَعَتْه عن نفسه، والمفاعلةُ هنا من الواحد نحو: داوَيْتُ المريض، ويحتمل أن تكون على بابها، فإنّ كلاًّ منهما كان يطلبُ مِنْ صاحبه شيئاً برفق،

هي تطلُب منه الفعلَ وهو يطلبُ منها الترك . والتشديد في " غَلَّقَتْ " للتكثير لتعدُّد المجال .

قوله : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ اختلف أهلُ النحو في هذه اللفظة : هل هي عربيةٌ أم معرَّبةٌ ، فقيل : معربةٌ من القبطية بمعنى هلمَّ لك ، قاله السدي . وقيل : من السريانية ، قاله ابن عباس والحسن . وقيل : هي من العبرانية وأصلها هَيْتَلَخ ، أي : تعالَه فأعربه القرآن ، قاله أبو زيد الأنصاري . وقيل : هل لغة حَوْرانية وقعت إلى أهل الحجاز فتكلَّموا بها ومعناها تعال ، قاله الكسائي والفراء ، وهو منقولٌ عن عكرمة . والجمهور على أنها عربية ، قال مجاهد : " هي كلمة حَثٍّ وإقبال ، ثم هي في بعض اللغات تَتَعَيَّن فعليَّتُها ، وفي بعضها اسميتُها ، وفي بعضها يجوز الأمران ، وستعرف ذلك من القراءات المذكورة فيها :

(201/393)

فقرأ نافع وابن ذكوان " هِيْتَ " بكسر الهاء وياء ساكنة وتاء مفتوحة . وقرأ " هَيْتُ " بفتح الهاء وياءٍ ساكنةٍ وتاء مضمومة ابن كُثير . وقرأ " هِئْتَ " بكسر الهاء وهمزةٍ ساكنة وتاءٍ مفتوحةٍ أو مضمومةٍ هشامٌ . وقرأ " هَيْتَ " بفتح الهاء وياءٍ ساكنةٍ وتاءٍ مفتوحةٍ الباقون ، فهذه خمس قراءات في السبع .

وقرأ ابن عباس وأبو الأسود والحسن وابن محيصن بفتح الهاء وياء ساكنة وتاء مكسورة . وحكى النحاس أنه قُرِئ بكسر الهاء والتاء بينهما ياء ساكنة . وقرأ ابن عباس أيضاً " هُيِئْتُ " بضم الهاء وكسر الياء بعدها ياء ساكنة ثم تاء مضمومة بزنة حُيِيْتُ . وقرأ زيد بن علي وابن أبي إسحاق بكسر الهاء وياء ساكنة وتاء مضمومة . فهذه أربع في الشاذ فصارت تسع قراءات . فيتعيَّن كونُها اسمَ فعل في غير قراءة ابن عباس " هُيِئْتُ " بزنة حُيِيْتُ . وفي غيرِ قراءة كسر الهاء سواءً كان ذلك بالياء أم بالهمز : فَمَنْ فَتَحَ التاء بناها على الفتح تخفيفاً نحو : أينَ وكَيْفَ ، ومَنْ ضَمَّها كابن كثير فتشبيهاً ب " حيث " ، ومَنْ كسر فعلى أصلِ التقاء الساكنين كجَيْرِ ، وفَتْحُ الهاء وكَسْرُها لغتان .

ويَتَعَيَّنُ فعليَّتُها في قراءة ابن عباس " هُيِئْتُ " بزنة " حُيِيْت " فإنها فيها فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمفعول مسندٌ لضمير المتكلم مِنْ هَيَّأْتُ الشيءَ ، ويحتمل الأمرين في قراءةِ مَنْ كسر الهاء وضمَّ التاء ، فيحتمل أُنْ تكونَ فيه اسمَ فعلٍ بُنِيَتْ على الضمِّ كحَيْثُ ، وأن تكونَ فعلاً مسنداً لضمير المتكلم مِنْ هاءَ الرجلُ يَهِيْءُ كجاء يَجِيء وله حينئذٍ معنيان ، أحدهما : أن يكون بمعنى حَسُنَ هَيْئَةً .

والثاني : أن يكونَ بمعنى تهيَّأ ، يُقال : هِئْتُ ، أي : حَسُنَتْ هيئَتي أو تهيَّأْتُ . وجوَّز أبو البقاء أن تكون " هِئْتُ " هذه مِنْ : هاءَ يَهاء ، كشاء يشاء .

وقد طعن جماعةٌ على قراءة هشام التي بالهمز وفتح التاء ، فقال الفارسي : " يشبه أن [يكون] الهمز وفَتْحُ التاء وَهْماً من الراوي ، لأنَّ الخطاب مِن المرأة ليوسف ولم يتهيَّأْ لها بدليل قوله : " وراوَدَتْه " و ﴿ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ [يوسف : 52] وتابعه على ذلك جماعة . وقال مكي بن أبي طالب : " يجب أن يكون اللفظ " هِئْتِ لي " ولم يَقْرأ بذلك أحدٌ " وأيضاً فإن المعنى على خلافِه لأنه لم يَزَلْ/يَفِرُّ منها ويتباعد عنها ، وهي تراوِدُه وتطلبه وتَقُدُّ قميصه ، فكيف يُخْبِر أنها تهيَّأ لها ؟

وقد أجاب بعضهُم عن هذين الإِشكالين بأن المعنى : تهيَّأ لي أمرُك ، لأنها لم تكنْ تقدِر على الخَلْوَة به في كل وقت ، أو يكون المعنى : حَسُنَتْ هيئتك .

و " لك " متعلقٌ بمحذوف على سبيل البيان كأنها قالت : القول لك أو الخطاب لك ، كهي في " سقياً لك ورعياً لك " . قلت : واللامُ متعلقةٌ بمحذوف على كل قراءة إلا قراءةً ثبت فيها كونُها فعلاً ، فإنها حينئذٍ تتعلَّقُ بالفعل ، إذ لا حاجةَ إلى تقديرِ شيءٍ آخَرَ .

وقال أبو البقاء : " والأشبهُ أن تكونَ الهمزةُ بدلاً من الياء ، أو تكونَ لغةً في الكلمة التي هي اسم للفعل ، وليست فعلاً لأن ذلك يوجب أن يكونَ الخطابُ ليوسف عليه السلام ، وهو فاسدٌ لوجهين ، أحدهما : أنه لم يتهيَّأ لها وإنما هي تهيَّأَتْ له . والثاني : أنه قال لك ، ولو أرادَ الخطابَ لكان هِئْتَ لي " . قلت : قد تقدَّم جوابُه . وقوله : " إن الهمزة بدلٌ من الياء " هذا عكسُ لغة العرب إذ قد عَهِدْنا هم يُبْدلون الهمزة الساكنة ياءً إذا انكسر ما قبلها نحو : بِير وذِيب ، ولا يَقْبلون الياءَ المكسورَ ما قبلها همزةً نحو : مِيل ودِيك ، وأيضاً فإن غيره جعل الياءَ الصريحة مع كسر الهاء كقراءة نافع وابن ذكوان محتملةً لأَنْ تكونَ بدلاً من الهمزة ، قالوا : فيعود الكلام فيها كالكلام في قراءة هشام . واعلم أنَّ القراءةَ التي استشكلها الفارسي هي المشهورةُ عن هشام ، وأمَّا ضمُّ التاءِ فغيرُ مشهورٍ عنه ، وهذا قد أَتْقَنْتُه في شرح " حِرْز الأماني " .

قوله : ﴿ مَعَاذَ اللهِ ﴾ منصوبٌ على المصدر بفعلٍ محذوف ، أي : أعوذُ باللَّه مَعاذاً : يُقال : عاذ يَعُوذ عِياذاً وعِياذة ومَعاذاً وعَوْذاً ، قال :

2764 معاذَ الإِله أن تكونَ كظَبْيَةٍ . . . ولا دُمْيَةٍ ولا عَقِيْلَةِ رَبْرَبِ

قوله : ﴿ إنَّهُ ﴾ يجوز أن تكونَ الهاءُ ضميرُ الشأن وما بعده جملةٌ خبريةٌ له ، ومرادُه بربه سيِّدُه ، ويحتمل أن تكونَ الهاء ضمير الباري تعالى . و " ربِّي " يحتمل أن يكونَ خبرَها ، و " أَحْسَنَ " جملةٌ حاليةٌ لازمة ، وأن تكون مبتدأً ، و " أحسن " جملة خبرية له ، والجملةُ

خبرُل "إنَّ" . وقد أنكر جماعةٌ الأولَ ، قال مجاهد والسدي وابن إسحاق . يبعد جداً أن يُطْلِق نبيٌّ كريمٌ على مخلوقٍ أنه ربه ، ولا بمعنى السيد لأنه ليس مملوكاً في الحقيقة .

وقرأ الجحدري وأبو الطفيل الغنوي "مَثْوَيَّ" بقَلْبِ الألف ياءً وإدغامها كبُشْرَيّ وهُدَيّ .

و ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ ﴾ هذه الهاءُ ضميرُ الشأن ليس إلا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 462ـ466 ﴾

(204/393)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) ﴾

لما غَلَّقَتْ عليه أبوابَ المسكنِ فتحَ الله عليه باب العصمة ، فلم يَضِرْه ما أُغْلِقَ بعد إكرامه بما فُتِحَ .

وفي التفسير أنه حفظ حُرْمةَ الرجل الذي اشتراه ، وهو العزيز .

وفي الحقيقة أشار بقوله : ﴿ إِنَّهُ رَبِى ﴾ إلى ربِّه الحقّ تعالى : هو مولاي الحق تعالى ، وهو

الذي خلَّصني من الجُبِّ ، وهو الذي جعل في قلب العزيز لي محلاً كبيراً فأكرم مثواي فلا ينبغي أَنْ أُقْدِمَ على عصيانه – سبحانه – وقد غمرني بجميل إحسانه .

ويقال إن يوسف عليه السلام قال لها : إن العزيز أمرني أَنْ أنفعه . ﴿ عَسَى أَن يَنفَعَنَا ﴾ فلا أَخُونُه في حُرْمَتِه بظهر الغيب .

ويقال لَمَّا حفظ حُرْمَة المخلوقِ بظهر الغيب أكرمه الحقُّ سبحانه بالإمداد بالعصمة في الحال ومَكَّنَه من مواصلتها في المآل على وجه الحَلاَل . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 177.178 ﴾

(205/393)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان هذا الفعل لا يتم حسنه إلاّ إذا كان عند غلبة الهوى وترامي الشهوة كما هو شأن الرجولية ، قال تعالى رداً على من يتوهم ضد ذلك : ﴿ ولقد همت به ﴾ أي أوقعت الهم ،

وهو القصد الثابت والعزم الصادق المتعلق بمواقعته، ولا مانع لها من دين ولا عقل ولا عجز فاشتد طلبها ﴿ وهمَّ بها ﴾ كما هو شأن الفحول عند توفر الأسباب ﴿ لولا أن رءا ﴾ أي بعين قلبه ﴿ برهان ربه ﴾ الذي آتاه إياه من الحكم والعلم، أي لهمّ بها، لكنه لما كان البرهان حاضراً لديه حضور من يراه بالعين، لم يغطه وفور شهوة ولا غلبة هوى، فلم يهم أصلاً مع كونه في غاية الاستعداد لذلك لما آتاه الله من القوة مع كونه في سن الشباب، فلولا المراقبة لهمّ بها التوفر الدواعي غير أن نور الشهود محاها أصلاً، وهذا التقدير هو اللائق بمثل مقامه مع أنه هو الذي تدل عليه أساليب هذه الآيات من جعله من المخلصين والمحسنين المصروف عنهم السوء، وأن السجن أحب إليه من ذلك، مع قيام القاطع على كذب ما تضمنه قولها ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴾ [يوسف : 25] – الآية، من مطلق الإرادة، ومع ما تحتم تقدير ما ذكر بعد "لولا" في خصوص هذا التركيب من أساليب كلام العرب، فإنه يجب أن يكون المقدر بعد كل شرط من معنى ما دل عليه ما قبله، وهذا مثل قوله تعالى

﴿إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها﴾ [القصص : 10] أي لأبدت به ، وأما ما ورد عن السلف مما يعارض ذلك فلم يصح منه شيء عن أحد منهم مع أن الأقوال التي رويت عنهم إذا جمعت تناقضت فتكاذبت ، ولا يساعد على شيء منها كلام العرب لأنهم قدروا جواب "لولا" المحذوف بما لا دليل عليه من سابق الكلام ولا لاحقه - نبه على ذلك الإمام أبو حيان ، وسبقه إلى ذلك الإمام الرازي وقال : إن هذا قول المحققين من المفسرين ، وأشبع في إقامة الدلائل على هذا بما يطرب الأسماع ، وقدم ما يدل على جواب الشرط ليكون أول ما يقرع السمع ما يدل على أنه كان في غاية القدرة على الفعل ، وأنه ما منعه منه إلاّ العلم بالله ، فكأنه قيل : إن هذا التثبيت عظيم ، فقيل إشارة إلى أنه لازم له كما هو شأن العصمة : ﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك التثبيت نثبته في كل أمر ﴿لنصرف عنه السوء﴾ أي الهمّ بالزنا وغيره ﴿والفحشاء﴾ أي الزنا وغيره ، فكأنه قيل : لِمَ فعل به هذا ؟ فقيل ﴿إنه من عبادنا﴾ أي الذين عظمناهم بما لنا من العظمة ﴿المخلصين﴾ أي هو في عداد الذين هم خير صرف ، لا يخالطهم غش ، ومن ذريتهم أيضاً ، وهذا مع قول إبليس ﴿لأغوينهم أجمعين إلاّ عبادك منهم المخلصين﴾ [ص : 83] شهادة من إبليس أن يوسف عليه الصلاة والسلام بريء من الهمّ في هذه الواقعة ؛ قال الإمام : فمن نسبه إلى الهمّ إن كان من أتباع دين الله فليقبل شهادة الله ، وإن كان من أتباع إبليس وجنوده فليقبل شهادة إبليس بطهارته ، قال : ولعلهم يقولون : كنا تلامذة إبليس ثم زدنا عليه - كما قيل :

وكنت فتى من جند إبليس فارتقى . . .

من الأمر حتى صار إبليس من جندي

فلو مات قبلي كنت أحسن بعده . . .

طرايق فسق ليس يحسنها بعدي. انتهى انتهى. ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 30.

31﴾

(207/393)

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة:

الإسرائيليات في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾

ومن الإسرائيليات المكذوبة التي لا توافق عقلا ولا نقلا: ما ذكر ابن جرير في تفسيره، وصاحب: "الدر المنثور" وغيرهما من المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ فقد ذكروا في هم يوسف عليه الصلاة والسلام ما ينافي عصمة الأنبياء وما يخجل القلم من تسطيره، لولا أن المقام مقام بيان وتحذير من الكذب على الله وعلى رسله، وهو من أوجب الواجبات على أهل العلم.

فقد رووا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن هم يوسف عليه السلام ما بلغ ؟ قال : حل الهميان –يعني السراويل– وجلس منها مجلس الخائن ، فصيح به : يا يوسف : لا تكن كالطير له ريش ، فإن زنى قعد ليس له ريش ، ورووا مثل هذا عن على رضي الله عنه وعن مجاهد وعن سعيد بن جبير .

ورووا أيضا في البرهان الذي رآه ، ولولاه لوقع في الفاحشة بأنه نودي : أنت مكتوب في الأنبياء ، وتعمل عمل السفهاء وقيل : رأى صورة أبيه يعقوب في الحائط ، وقيل : في سقف الحجرة وأنه رآه على إبهامه ، وأنه لم يتعظ بالنداء ، حتى رأى أباه على هذه الحال ، بل أسرف واضعو هذه الإسرائيليات الباطلة ، فزعموا أنه لما لم يرعو من رؤية

صورة أبيه عاضا على أصابعه ، ضربه أبوه يعقوب ، فخرجت شهوته من أنامله ، ولأجل أن يؤيد هؤلاء الذين افتروا على الله ونبيه يوسف هذا الافتراء ، يزعمون أيضا أن كل أبناء يعقوب قد ولد له اثنا عشر ولدا ما عدا يوسف ، فإنه نقص بتلك الشهوة التي خرجت من أنامله ولدا ، فلم يولد له غير أحد عشر ولدا ، بل زعموا أيضا في تفسير البرهان ، فما روي عن ابن عباس أنه رأى ثلاث آيات من كتاب الله : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ،

كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ وقيل : رأي : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ ! ! ، ومن البديهي أن هذه الآيات بهذا اللفظ العربي لم تنزل على أحد قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وإن كان الذين افتروا هذا لا يعدمون جوابا ، بأن يقولوا : رأى ما يدل على معاني هذا الآيات بلغتهم التي يعرفونها ، بل قيل في البرهان : إنه أري تمثال الملك ، وهو العزيز ،

(209/393)

وقيل خياله1 ، وكل ذلك مرجعه إلى أخبار بني إسرائيل وأكاذيبهم التي افتجروها على الله وعلى رسله ، وحمله إلى بعض الصحابة والتابعين : كعب الأحبار ووهب بن منبه ، وأمثالهما .

وليس أدل على هذا : مما روي عن وهب بن منبه قال : "لما خلا يوسف ، وامرأة العزيز ، خرجت كف بلا جسد بينهما ، مكتوب عليها بالعبرانية : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ، ثم انصرفت الكف ، وقاما مقامهما ، ثم رجعت الكف بينهما ، مكتوب

عليها بالعبرانية : ﴿ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ، كِرَامًا كَاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، ثم انصرفت الكف ، وقاما مقامهما ، فعادت الكف الثالثة مكتوب عليها : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ وانصرفت الكف ، وقاما مقامهما فعادت الكف الرابعة مكتوب عليها بالعبرانية : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ، فولى يوسف عليه السلام هاربا 2 .

---

1 تفسير الطبري : ج12 ص 108 - 114 ، الدر المنثور : ج4 ص 13 ، 14 ، وتفسير ابن كثير والبغوي : ج4 ص 430-432 .

2 الدر المنثور : ج4 ص 14 .

وقد كان وهب أو من نقل عنه وهب ذكيًا بارعًا حينما زعم أن ذلك كان مكتوبا بالعبرانية ، وبذلك أجاب عما استشكلته ، ولكن مع هذا لن يجوز هذا الكذب إلا على الأغرار والسذج من أهل العلم ولا أدرى أي معنى يبقى للعصمة بعد أن جلس بين فخذيها ، وخلع سرواله ؟ ! وما امتناعه عن الزنا عن مروياتهم المفتراة إلا وهو مقهور مغلوب ؟ !

ولو أن عربيدا رأى صورة أبيه بعد مماته تحذره من معصية لكف عنها ، وانزجر ، فأي فضل

ليوسف إذاً ، وهو نبي من سلالة أنبياء ؟ ! !

ثم ما هذا الاضطراب الفاحش في الروايات ؟ ! أليس الاضطراب الذي لا يمكن التوفيق بينه كهذا من العلل التي رد المحدثون بسببها الكثير من المرويات ؟ ! لأنه أمارة من أمارات الكذب والاختلاق ، والباطل لجلج ، وأما الحق فهو أبلج .

ثم كيف يتفق ما حيك حول نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام وقول الحق تبارك عقب ذكر الهم : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾[1] ، فهل يستحق هذا الثناء من حل التكة ، وخلع السروال ، وجلس بين رجليها ؟ ! ولا أدرى أنصدق الله تبارك وتعالى ، أم نصدق كذبة بني إسرائيل ومخرفيهم ؟ ! !

بل كيف يتفق ما روى هو وما حكاه الله عز وجل عن زليخا بطلة المراودة ، حيث قالت : ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ 2 وهو اعتراف صريح للبطلة التي أعيتها الحيل عن طريق التزين حينا ، والتودد إليه بمعسول القول ، حينا آخر ،

---

1 قرئ في السبع بضم الميم وفتح اللام ، أي : الذين اصطفاهم واختارهم لنبوته ورسالته ، وقرئ بكسر اللام ، أي : الذين أخلصوا لله التوحيد والعبادة ، والمعنى الثاني لازم للأول ، فمن اصطفاه الله لا بد أن يكون مخلصا .

2 يوسف : 51 .

والإرهاب والتخويف حينا ثالثا ، فلم تفلح : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ ،

وانظر ماذا كان جواب السيد العفيف ، الكريم ابن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم :

يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم صلوات الله وسلامه : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ، وقصده عليه السلام بقوله : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ : تبرؤ من الحول والطول ، وأن الحول والقوة إنما هما من الله ، وسؤال منه لربه ، واستعانة به على أن يصرف عنه كيدهن ، وهكذا : شأن الأنبياء .

بل قد شهد الشيطان نفسه ليوسف عليه السلام في ضمن قوله كما حكاه الله سبحانه عنه بقوله : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ 3 ويوسف بشهادة الحق السالفة من المخلصين .

وكذلك شهد ليوسف شاهد من أهلها (1) ، فقال : ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ

فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ، وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ، وقد أسفر التحقيق عن براءة يوسف وإدانة زليخا : امرأة العزيز .

فكيف تتفق كل هذه الشهادات الناصعة الصادقة ، وتلك الروايات المزورة ؟ ! ! وقد ذكر الكثير من هذه الروايات ابن جرير الطبري ، والثعلبي ، والبغوي ، وابن كثير ، والسيوطي ، وقد مر بها ابن كثير بعد أن نقلها حاكيا من غير أن ينبه إلى زيفها ، وهو الناقد البصير ! !

---

(1) قيل : كان رجلا عاقلا حكيما مجربا من خاصة الملك ، وكان من أهلها ، وقيل : كان صبيا في المهد وكان ذلك إرهاصا بين يدي نبوة يوسف ، إكراما له .

ومن العجيب حقا : أن الإمام ابن جرير على جلالة قدره يحاول أن يضعف في تفسيره مذهب الخلف الذين ينفون هذا الزور والبهتان ، ويفسرون الآيات على حسب ما تقتضيه اللغة ، وقواعد الشرع ، وما جاء في القرآن والسنة الصحيحة الثابتة ، ويعتبر هذا المرويات التي سُقْتُ لك زروًا منها آنفا ، هي : قول جميع أهل العلم بتأويل القرآن الذين يؤخذ

عنهم[1] ! ! ! وكذلك تابعه على مقالته تلك الثعلبي والبغوي في تفسيريهما[2] ! !

وهذا المرويات الغثة المكذوبة التي يأباها النظم الكريم ، ويجزم العقل والنقل باستحالتها على الأنبياء عليهم السلام هي التي اعتبرها الطبري ومن تبعه أقوال السلف ! !

بل يسير في خط اعتبار هذا المرويات ، فيورد على نفسه سؤالا فيقول : فإن قال قائل : وكيف يجوز أن يوصف يوسف بمثل هذا وهو لله نبي ؟ ! ثم أجاب بما لا طائل تحته ، ولا يليق بمقام الأنبياء[3] قاله الواحدى في تفسيره : "البسيط" .

وأعجب من ذلك : ما ذهب إليه الواحدي في : "البسيط" قال : قال المفسرون الموثوق بعلمهم ، المرجوع إلى روايتهم ، الآخذون للتأويل ، عمن شاهدوا التنزيل : هَمَّ يوسف عليه السلام بهذه المرأة هما صحيحا وجلس منها مجلس الرجل من المرأة ، فلما رأى البرهان من ربه زالت كل شهوة منه .

وهي غفلة شديدة من هؤلاء الأئمة لا نرضاها ، ولولا أني أنزه لساني وقلمي عن الهجر من القول ، وأنهم خلطوا في مؤلفاتهم عملا صالحا وآخر سيئا لقسوت عليهم ، وحق لي هذا ، لكني أسأل الله لي ولهم العفو والمغفرة .

وهذه الأقوال التي أسرف في ذكرها هؤلاء المفسرون : إما إسرائيليات وخرافات وضعها زنادقة أهل الكتاب القدماء ، الذي أرادوا بها النيل من الأنبياء والمرسلين ، ثم

---

1 تفسير الطبري : ج12 ص 110 .

2 تفسير البغوي على هامش تفسير ابن كثير : ج 4 ص 43 .

3 تفسير الطبري : ج 12 ص 109 ، 110 .

(213/393)

حملها معهم أهل الكتاب الذين أسلموا وتلقاها عنهم بعض الصحابة ، والتابعين ، بحسن نية ، أو اعتمادا على ظهور كذبها وزيفها .

وإما أن تكون مدسوسة على هؤلاء الأئمة ، دسها عليهم أعداء الأديان ، كي تروج تحت هذا الستار ، وبذلك يصلون إلى ما يريدون من إفساد العقائد ، وتعكير صفو الثقافة الإسلامية الأصيلة الصحيحة ، وهذا ما أميل إليه ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات صـ 220. 225 ﴾

(214/393)

ثم قال الدكتور محمد أبو شهبة رحمه الله :

التفسير الصحيح لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾

والصحيح في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ أن الكلام تم عند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ وليس من شك في أن همها كان بقصد الفاحشة ، ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ .

الكلام من قبيل التقديم والتأخير ، والتقدير : ولولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها ، فقوله تعالى : ﴿ وهم بها ﴾ ، جواب "لولا" مقدم عليها ومعروف في العربية أن "لولا" حرف امتناع لوجود ، أي : امتناع الجواب لوجود الشرط ، فيكون الهم ممتنعا لوجود البرهان الذي ركزه الله في فطرته ، والمقدم إما الجواب ، أو دليله على الخلاف في هذا بين النحويين ، والمراد بالبرهان : هو حجة الله الباهرة الدالة على قبح الزنا وهو شيء مركوز في فطر الأنبياء ، ومعرفة ذلك عندهم وصل إلى عين اليقين ، وهو ما نعبر عنه بالعصمة ، وهي التي تحول بين الأنبياء والمرسلين وبين وقوعهم في المعصية ، ويرحم الله الإمام : جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما حيث قال : البرهان : النبوة التي أودعها الله في صدره ، حالت بينه وبين ما يسخط الله عز وجل .

وهذا هو القول الجزل الذي يوافق ما دل عليه العقل من عصمة الأنبياء ، ويدعو إليه السابق واللاحق ، وأما كون جواب لولا لا يجوز أن يتقدم عليها فهذا أمر ليس ذا خطر ، حتى نعدل عن هذا الرأي الصواب ، إلى التفسيرات الأخرى الباطلة ، لهم يوسف عليه السلام والقرآن هو أصل اللغة ، فورود أي أسلوب في القرآن يكفي في كونه أسلوبا عربيا فصيحًا ، وفي

تأصيل أي قاعدة من القواعد النحوية فلا يجوز لأجل الأخذ بقاعدة نحوية أن نقع في محظور لا يليق بالأنبياء كهذا .

(215/393)

وقد قال الإمام الآلوسي في تفسيره في الرد على المبرد في تشنيعه على قراءة حمزة –أحد القراء السبعة– في قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامِ ﴾ 1 بجر لفظ الأرحام عطفا على الضمير المجرور من غير إعادة حرف الجر ، وهو أحد القراء السبعة الذين قال أساطين الدين : إن قراءتهم متواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع هذا ، لم يقرأ به وحده ، بل قرأ به جماعة من غير السبعة ، كابن مسعود ، وابن عباس ، وإبراهيم النخعي ، والحسن البصري ، وقتادة ومجاهد وغيرهم كما نقله ابن يعيش فالتشنيع على هذا الإمام في غاية الشناعة ، ونهاية الجسارة والبشاعة وربما يخشى منه الكفر ، وما ذكر من امتناع العطف على الضمير المجرور ، هو مذهب البصريين ، ولسنا متعبدين باتباعهم ، وقد أطال أبو حيان في "البحر" الكلام في الرد عليهم ، وادعى أن ما ذهبوا إليه غير صحيح ، بل الصحيح ما ذهب إليه الكوفيون من الجواز ، وورد ذلك في لسان العرب نثرا ونظما ، وإلى ذلك ذهب ابن مالك"2 .

وقيل : إن ما حصل من هَمِّ يوسف كان خطرة ، وحديث نفس بمقتضى الفطرة البشرية ، ولم يستقر ، ولم يظهر له أثره ، قال البغوي في تفسيره : "قال بعض أهل الحقائق : الهَمُّ هَمَّان : همٌّ ثابت ، وهو إذا كان معه عزم ، وعقد ، ورضا ، مثل هم امرأة العزيز ، والعبد مأخوذ به ، وهمٌّ عارض ، وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ، ولا عزم مثل هم يوسف عليه السلام والعبد غير مأخوذ به ، ما لم يتكلم به أو يعمل"3 ، وقيل : همت به هم شهوة وقصد للفاحشة ، وهم هو بضربها ، ولا أدري

---

1 النساء : 1 .

2 تفسير الآلوسي : ج4 ص 184 ، وانظر البحر المحيط عند تفسير هذه الآية .

3 تفسير البغوي على هامش تفسير ابن كثير : ج4 ص 431 .

كيف يتفق هذا القول وقوله تعالى : ﴿ لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ .

والقول الجزل الفحل هو ما ذكرناه أولا ، والسر في إظهاره في هذا الأسلوب والله أعلم : تصوير المشهد المثير المغرى العرم ، الذي هيأته امرأة العزيز لنبي الله يوسف ، وأنه لولا عصمة الله له ، وفطرته النبوية الزكية ، لكانت الاستجابة لها ، والهم بها أمرا محققا ، وفي

هذا تكريم ليوسف ، وشهادة له بالعفة البالغة ، والطهارة الفائقة . انتهى . ا هـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات صـ 227 . 229 ﴾

(217/393)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾

اعلم أن هذه الآية من المهمات التي يجب الاعتناء بالبحث عنها وفي هذه الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في أنه عليه السلام هل صدر عنه ذنب أم لا ؟ وفي هذه المسألة قولان : الأول : أن يوسف عليه السلام هم بالفاحشة .

قال الواحدي في كتاب "البسيط" قال المفسرون : الموثوق بعلمهم المرجوع إلى روايتهم هم يوسف أيضاً بهذه المرأة هما صحيحاً وجلس منها مجلس الرجل من المرأة ، فلما رأى البرهان من ربه زالت كل شهوة عنه . (1)

قال جعفر الصادق رضي الله عنه بإسناده عن علي عليه السلام أنه قال : طمعت فيه

وطمع فيها فكان طمعه فيها أنه هم أن يحل التكة ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حل الهميان وجلس منها مجلس الخائن وعنه أيضاً أنها استلقت له وجلس بين رجليها ينزع ثيابه ، ثم إن الواحدي طول في كلمات عديمة الفائدة في هذا الباب ، وما ذكر آية يحتج بها ولا حديثاً صحيحاً يعول عليه في تصحيح هذه المقالة ، وما أمعن النظر في تلك الكلمات العارية عن الفائدة روي أن يوسف عليه السلام لما قال : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ [يوسف : 52] قال له جبريل عليه السلام ولا حين هممت يا يوسف فقال يوسف عند ذلك : ﴿ وَمَا أُبَرّىء نَفْسِى ﴾ [يوسف : 53] ثم قال والذين أثبتوا هذا العمل ليوسف كانوا أعرف بحقوق الأنبياء عليهم السلام وارتفاع منازلهم عند الله تعالى من الذين نفوا لهم عنه ، فهذا خلاصة كلامه في هذا الباب .

والقول الثاني : أن يوسف عليه السلام كان بريئاً عن العمل الباطل ، والهم المحرم ، وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين ، وبه نقول وعنه نذب .

واعلم أن الدلائل الدالة على وجوب عصمة الأنبياء عليهم السلام كثيرة ، ولقد استقصيناها في سورة البقرة في قصة آدم عليه السلام فلا نعيدها إلا أنا نزيد ههنا وجوهاً :

---

(1) يكفى فى دحض هذه الفرية ودفع هذا الافتراء أن الله تعالى مدح يوسف . عليه السلام . فى أول الآيات بقوله ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) ﴾

وفى آخرها بقوله ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾

أيمدح على همه ومسارعته لارتكاب الفاحشة أم على العفة والامتناع

ومنها : قوله عليه السلام فى أول الأمر ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾

أيتصور أن يضعف أمام الشهوة ولا يفى بما قطعه على نفسه وينسى اللجوء إلى الله ، حاشاه أن يفعل وهو الذى قال ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ وكان بإمكانه أن يسأل الله تعالى المعافاة .

وأترك المجال لسادتنا المفسرين لدحض ما ذكر من إسرائيليات وأساطير لا تليق بآحاد المتقين فكيف بنبى كيوسف عليه السلام الذى أخبر عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ صلى الله وسلم وبارك عليهم وعلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ـ والله أعلم وأحكم .

(218/393)

فالحجة الأولى : أن الزنا من منكرات الكبائر والخيانة في معرض الأمانة أيضاً من منكرات الذنوب ، وأيضاً مقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموجبة للفضيحة التامة والعار الشديد أيضاً من منكرات الذنوب ، وأيضاً الصبي إذا تربى في حجر إنسان وبقي مكفي المؤنة

مصون العرض من أول صباه إلى زمان شبابه وكما قوته فإقدام هذا الصبي على إيصال أقبح أنواع الإساءة إلى ذلك المنعم المعظم من منكرات الأعمال.

إذا ثبت هذا فنقول: إن هذه المعصية التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام كانت موصوفة بجميع هذه الجهات الأربع ومثل هذه المعصية لو نسبت إلى أفسق خلق الله تعالى وأبعدهم عن كل خير لاستنكف منه، فكيف يجوز إسنادها إلى الرسول عليه الصلاة والسلاما المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة.

ثم إنه تعالى قال في غير هذه الواقعة: ﴿ كذلك لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوء والفحشاء ﴾ [يوسف: 24] وذلك يدل على أن ماهية السوء والفحشاء مصروفة عنه، ولا شك أن المعصية التي نسبوها إليه أعظم أنواع وأفحش أقسام الفحشاء فكيف يليق برب العالمين أن يشهد في عين هذه الواقعة بكونه بريئاً من السوء مع أنه كان قد أتى بأعظم أنواع السوء والفحشاء.

وأيضاً فالآية تدل على قولنا من وجه آخر، وذلك لأنا نقول هب أن هذه الآية لا تدل على نفي هذه المعصية عنه، إلا أنه لا شك أنها تفيد المدح العظيم والثناء البالغ، فلا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكى عن إنسان إقدامه على معصية عظيمة ثم إنه يمدحه ويثني عليه بأعظم الدمائح والأثنية عقيب أن حكى عنه ذلك الذنب العظيم، فإن مثاله ما إذا حكى

السلطان عن بعض عبيده أقبح الذنوب وأفحش الأعمال ثم إنه يذكره بالمدح العظيم والثناء البالغ عقيبه ، فإن ذلك يستنكر جداً فكذا ههنا والله أعلم .

الثالث : أن الأنبياء عليهم السلام متى صدرت منهم زلة ، أو هفوة استعظموا ذلك وأتبعوها بإظهار الندامة والتوبة والتواضع ، ولو كان يوسف عليه السلام أقدم ههنا على هذه الكبيرة المنكرة لكان من المحال أن لا يتبعها بالتوبة والاستغفار ولو أتى بالتوبة لحكى الله تعالى عنه إتيانه بها كما في سائر المواضع وحيث لم يوجد شيء من ذلك علمنا أنه ما صدر عنه في هذه الواقعة ذنب ولا معصية .

الرابع : أن كل من كان له تعلق بتلك الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام من المعصية .

واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة يوسف عليه السلام ، وتلك المرأة وزوجها ، والنسوة والشهود ورب العالمين شهد ببراءته عن الذنب ، وإبليس أقر ببراءته أيضاً عن المعصية ، وإذا كان الأمر كذلك ، فحينئذ لم يبق للمسلم توقف في هذا الباب .

أما بيان أن يوسف عليه السلام ادعى البراءة عن الذنب فهو قوله عليه السلام : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ [يوسف : 26] وقوله عليه السلام : ﴿ رَبِّ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : 33] وأما بيان أن المرأة اعترفت بذلك فلأنها قالت للنسوة : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فاستعصم ﴾ [يوسف : 32] وأيضاً قالت : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ ﴾ [يوسف : 51] وأما بيان أن زوج المرأة أقر بذلك ، فهو قوله : ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا واستغفري لِذَنبِكِ ﴾ [يوسف : 28 ، 29] وأما الشهود فقوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكاذبين ﴾ [يوسف : 26] وأما شهادة الله تعالى بذلك فقوله : ﴿ كذلك لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوء والفحشاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين ﴾ [يوسف : 24] فقد شهد الله تعالى في هذه الآية على طهارته أربع مرات : أولها : قوله : ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوء ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة .

والثاني : قوله : ﴿ والفحشاء ﴾ أي كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء .

والثالث : قوله : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ مع أنه تعالى قال : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] والرابع : قوله :

﴿ المخلصين ﴾ وفيه قراءتان : تارة باسم الفاعل وأخرى باسم المفعول فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتياً بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص .

(221/393)

ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته ، وعلى كلا الوجهين فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهاً عما أضافوه إليه ، وأما بيان أن إبليس أقر بطهارته ، فلأنه قال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ [ص : 82 ، 83] فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين ويوسف من المخلصين لقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين ﴾ فكان هذا إقراراً من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريقة الهدى ، وعند هذا نقول هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة إن كانوا من أتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته ولعلهم يقولون كنا في أول الأمر تلامذة إبليس إلى أن تخرجنا عليه فزدنا عليه في السفاهة كما قال الخوارزمي :

وكنت امرأ من جند إبليس فارتقى . . بي الدهر حتى صار إبليس من جندي

فلو مات قبلي كنت أحسن بعده . . طرائق فسق ليس يحسنها بعدي

فثبت بهذه الدلائل أن يوسف عليه السلام بريء عما يقوله هؤلاء الجهال .

وإذا عرفت هذا فنقول : الكلام على ظاهر هذه الآية يقع في مقامين :

المقام الأول : أن نقول لا نسلم أن يوسف عليه السلام هم بها .

والدليل عليه : أنه تعالى قال : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ وجواب ﴿ لَوْلا ﴾ ههنا مقدم ، وهو كما يقال : قد كنت من الهالكين لولا أن فلاناً خلصك ، وطعن الزجاج في هذا الجواب من وجهين : الأول : أن تقديم جواب ﴿ لَوْلا ﴾ شاذ وغير موجود في الكلام الفصيح .

الثاني : أن ﴿ لَوْلا ﴾ يجاب جوابها باللام ، فلو كان الأمر على ما ذكرتم لقال : ولقد همت ولهم بها لولا .

وذكر غير الزجاج سؤالاً ثالثاً وهو أنه لو لم يوجد الهم لما كان لقوله : ﴿ لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ فائدة .

واعلم أن ما ذكره الزجاج بعيد ، لأنا نسلم أن تأخير جواب ﴿ لَوْلا ﴾ حسن جائز ، إلا أن جوازه لا يمنع من جواز تقديم هذا الجواب ، وكيف ونقل عن سيبويه أنه قال : إنهم يقدمون

الأهم فالأهم ، والذي هم بشأنه أعنى فكان الأمر في جواز التقديم والتأخير مربوطاً بشدة الاهتمام .

وأما تعيين بعض الألفاظ بالمنع فذلك مما لا يليق بالحكمة ، وأيضاً ذكر جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ باللام جائز .

أما هذا لا يدل على أن ذكره بغير اللام لا يجوز ، ثم إنا نذكر آية أخرى تدل على فساد قول الزجاج في هذين السؤالين ، وهو قوله تعالى :

﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا ﴾ [القصص : 10] .

وأما السؤال الثالث : وهو أنه لو لم يوجد الهم لم يبق لقوله : ﴿ لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ فائدة .

فنقول : بل فيه أعظم الفوائد ، وهو بيان أن ترك الهم بها ما كان لعدم رغبته في النساء ، وعدم قدرته عليهن بل لأجل أن دلائل دين الله منعته عن ذلك العمل ، ثم نقول : إن الذي يدل على أن جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ ما ذكرناه أن ﴿ لَوْلَا ﴾ تستدعي جواباً ، وهذا المذكور يصلح جواباً له ، فوجب الحكم بكونه جواباً له لا يقال إنا نضمر له جواباً ، وترك الجواب كثير في القرآن ، لأنا نقول : لا نزاع أنه كثير في القرآن ، إلا أن الأصل أن لا يكون محذوفاً .

وأيضاً فالجواب إنما يحسن تركه وحذفه إذا حصل في اللفظ ما يدل على تعينه ، وههنا بتقدير أن يكون الجواب محذوفاً فليس في اللفظ ما يدل على تعين ذلك الجواب ، فإن ههنا

أنواعاً من الإضمارات يحسن إضمار كل واحد منها ، وليس إضمار بعضها أولى من إضمار الباقي فظهر الفرق .

والله أعلم .

(223/393)

المقام الثاني : في الكلام على هذه الآية أن نقول : سلمنا أن الهم قد حصل إلا أنا نقول : إن قوله : ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ لا يمكن حمله على ظاهره لأن تعليق الهم بذات المرأة محال لأن الهم من جنس القصد والقصد لا يتعلق بالذوات الباقية ، فثبت أنه لا بد من إضمار فعل مخصوص يجعل متعلق ذلك الهم وذلك الفعل غير مذكور فهم زعموا أن ذلك المضمر هو إيقاع الفاحشة بها ونحن نضمر شيئاً آخر يغاير ما ذكروه وبيانه من وجوه : الأول : المراد أنه عليه السلام هم بدفعها عن نفسه ومنعها عن ذلك القبيح لأن الهم هو القصد ، فوجب أن يحمل في حق كل أحد على القصد الذي يليق به ، فاللائق بالمرأة القصد إلى تحصيل اللذة والتنعيم والتمتع واللائق بالرسول المبعوث إلى الخلق القصد إلى زجر العاصي عن معصيته وإلى الأمر بالمعروف النهي عن المنكر ، يقال : هممت بفلان أي بضربه ودفعه .

فإن قالوا : فعلى هذا التقدير لا يبقى لقوله : ﴿ لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ فائدة .

قلنا : بل فيه أعظم الفوائد وبيانه من وجهين : الأول : أنه تعالى أعلم يوسف عليه السلام أنه لو هم بدفعها لقتلته أو لكانت تأمر الحاضرين بقتله ، فأعلمه الله تعالى أن الامتناع من ضربها أولى صوناً للنفس عن الهلاك ، والثاني : أنه عليه السلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه فربما تعلقت به ، فكان يتمزق ثوبه من قدام ، وكان في علم الله تعالى أن الشاهد يشهد بأن ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن ، ولو كان ثوبه ممزقاً من خلف لكانت المرأة هي الخائنة ، فالله تعالى أعلمه بهذا المعنى ، فلا جرم لم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولى هارباً عنها ، حتى صارت شهادة الشاهد حجة له على براءته عن المعصية .

الوجه الثاني : في الجواب أن يفسر الهم بالشهوة ، وهذا مستعمل في اللغة الشائعة .

يقول القائل : فيما لا يشتهيه ما يهمني هذا ، وفيما يشتهيه هذا أهم الأشياء إلي ، فسمى الله تعالى شهوة يوسف عليه السلام هماً ، فمعنى الآية : ولقد اشتهته واشتهاها لولا أن رأى برهان ربه لدخل ذلك العمل في الوجود .

الثالث : أن يفسر الهم بحديث النفس ، وذلك لأن المرأة الفائقة في الحسن والجمال إذا تزينت وتهيأت للرجل الشاب القوي فلا بد وأن يقع هناك بين الحكمة والشهوة الطبيعية وبين النفس

والعقل مجاذبات ومنازعات ، فتارة تقوى داعية الطبيعة والشهوة وتارة تقوى داعية العقل والحكمة .

فالهم عبارة عن جواذب الطبيعة ، ورؤية البرهان عبارة عن جواذب العبودية ، ومثال ذلك أن الرجل الصالح الصائم في الصيف الصائف ، إذا رأى الجلاب المبرد بالثلج فإن طبيعته تحمله على شربه ، إلا أن دينه وهداه يمنعه منه ، فهذا لا يدل على حصول الذنب ، بل كلما كانت هذه الحالة أشد كانت القوة في القيام بلوازم العبودية أكمل ، فقد ظهر بحمد الله تعالى صحة هذا القول الذي ذهبنا إليه ولم يبق في يد الواحدي إلا مجرد التصلف وتعديد أسماء المفسرين ، ولو كان قد ذكر في تقرير ذلك القول شبهة لأجبنا عنها إلا أنه ما زاد على الرواية عن بعض المفسرين .

واعلم أن بعض الحشوية روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما كذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات " فقلت الأولى أن لا نقبل مثل هذه الأخبار فقار على طريق الاستنكار فإن لم نقبله لزمنا تكذيب الرواة فقلت له : يا مسكين إن قبلناه لزمنا الحكم بتكذيب إبراهيم عليه السلام وإن رددناه لزمنا الحكم بتكذيب الرواة ولا شك أن صون إبراهيم عليه السلام عن الكذب أولى من صون طائفة من المجاهيل عن الكذب .

إذا عرفت هذا الأصل فنقول للواحدي : ومن الذي يضمن لنا أن الذين نقلوا هذا القول عن

هؤلاء المفسرين كانوا صادقين أم كاذبين ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

(225/393)

في أن المراد بذلك البرهان ما هو أما المحققون المثبون للعصمة فقد فسروا رؤية البرهان بوجوه : الأول : أنه حجة الله تعالى في تحريم الزنا والعلم بما على الزاني من العقاب والثاني : أن الله تعالى طهر نفوس الأنبياء عليهم السلام عن الأخلاق الذميمة .

بل نقول : إنه تعالى طهر نفوس المتصلين به عنها كما قال :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرجس أَهْلَ البيت وَيُطَهّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب : 33] فالمراد برؤية البرهان هو حصول تلك الأخلاق وتذكير الأحوال الرادعة لهم عن الإقدام على المنكرات .

والثالث : أنه رأى مكتوباً في سقف البيت ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 32] والرابع : أنه النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش ، والدليل عليه أن الأنبياء عليهم السلام بعثوا لمنع الخلق عن القبائح والفضائح فلو أنهم منعوا الناس عنها ، ثم أقدموا على أقبح أنواعها وأفحش أقسامها لدخلوا تحت قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا

الذين ءامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : 2 ، 3] وأيضاً أن الله تعالى عير اليهود بقوله : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَاس بالبر وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : 44] وما يكون عيباً في حق اليهود كيف ينسب إلى الرسول المؤيد بالمعجزات .

وأما الذين نسبوا المعصية إلى يوسف عليه السلام فقد ذكروا في تفسير ذلك البرهان أموراً :

الأول : قالوا إن المرأة قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب فقال يوسف : لم فعلت ذلك ؟ قالت : أستحي من إلهي هذا أن يراني على معصية ، فقال يوسف : أتستحين من صنم لا يعقل ولا يسمع ولا أستحي من إلهي القائم على كل نفس بما كسبت فوالله لا أفعل ذلك أبداً قالوا : فهذا هو البرهان .

الثاني : نقلوا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه تمثل له يعقوب فرآه عاضاً على أصابعه ويقول له : أتعمل عمل الفجار وأنت مكتوب في زمرة الأنبياء فاستحى منه .

قال وهو قول عكرمة ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك ومقاتل وابن سيرين قال سعيد بن جبير : تمثل له يعقوب فضرب في صدره فخرجت شهوته من أنامله .

والثالث : قالوا إنه سمع في الهواء قائلاً يقول يا ابن يعقوب لا تكن كالطير يكون له ريش فإذا زنا ذهب ريشه .

والرابع : نقلوا عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يوسف عليه السلام لم ينزجر برؤية صورة يعقوب حتى ركضه جبريل عليه السلام فلم يبق فيه شيء من الشهوة إلا خرج ، ولما نقل الواحدي هذه الروايات تصلف وقال : هذا الذي ذكرناه قول أئمة التفسير الذين أخذوا التأويل عمن شاهد التنزيل فيقال له : إنك لا تأتينا ألبتة إلا بهذه التصلفات التي لا فائدة فيها فأين هذا من الحجة والدليل ، وأيضاً فإن ترادف الدلائل على الشيء الواحد جائز ، وأنه عليه الصلاة والسلام كان ممتنعاً عن الزنا بحسب الدلائل الأصلية ، فلما انضاف إليها هذه الزواجر قوي الانزجار وكمل الاحتراز والعجب أنهم نقلوا أن جرواً دخل حجرة النبي صلى الله عليه وسلم وبقي هناك بغير عمله قالوا : فامتنع جبريل عليه السلام من الدخول عليه أربعين يوماً ، وههنا زعموا أن يوسف عليه السلام حال اشتغاله بالفاحشة ذهب إليه جبريل عليه السلام ، والعجب أنهم زعموا أنه لم يمتنع عن ذلك العمل بسبب حضور جبريل عليه السلام ، ولو أن أفسق الخلق وأكفرهم كان مشتغلاً بفاحشة فإذا دخل عليه رجل

على زي الصالحين استحيا منه وفر وترك ذلك العمل ، وههنا أنه رأى يعقوب عليه السلام

عض على أنامله فلم يلتفت إليه ، ثم إن جبريل عليه السلام على جلالة قدره دخل عليه فلم

يمتنع أيضاً عن ذلك القبيح بسبب حضوره حتى احتاج جبريل عليه السلام إلى أن يركضه

على ظهره فنسأل الله أن يصوننا عن الغي في الدين ، والخذلان في طلب اليقين فهذا هو

الكلام المخلص في هذه المسألة والله أعلم .

المسألة الثالثة :

في الفرق بين السوء والفحشاء وفيه وجوه : الأول : أن السوء جناية اليد والفحشاء هو

الزنا .

الثاني : السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة والفحشاء هو الزنا .

(228/393)

أما قوله : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين ﴾ أي الذين أخلصوا دينهم لله تعالى ومن فتح اللام

أراد الذين خلصهم الله من الأسواء ، ويحتمل أن يكون المراد أنه من ذرية إبراهيم عليه

السلام الذي قال الله فيهم : ﴿ إِنَّا أخلصناهم بِخَالِصَةٍ ﴾ [ص : 46] .

المسألة الرابعة :

قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ﴿ المخلصين ﴾ بكسر اللام في جميع القرآن والباقون بفتح اللام. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 92.97 ﴾

(229/393)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى بُرهان ربه ﴾

أما همها به ففيه قولان :

أحدهما : أنه كان هَمَّ شهوة.

الثاني : أنها استلقت له وتهيأت لمواقعته.

وأما همّه بها ففيه ستة أقاويل :

أحدها : أنه همّ بها أن يضربها حين راودته عن نفسه ولم يهم بمواقعتها قاله بعض المتأخرين.

الثاني : أن قوله ولقد همت به كلام تام قد انتهى، ثم ابتدأ الخبر عن يوسف فقال ﴿ وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ ومعنى الكلام لولا أن رأى برهان ربه لهَمَّ بها، قاله قطرب.

الثالث : أن همها كان شهوة، وهمه كان عفة.

الرابع : أن همه بها لم يكن عزماً وإرادة وإنما كان تمثيلاً بين الفعل والترك ، ولا حرج في حديث النفس إذا لم يقترن به عزم ولا فعل ، وأصل الهم حديث النفس حتى يظهر فيصير فعلاً ، ومنه قول جميل :

هممت بهمٍّ من بثينة لو بدا . . . شفيت غليلات الهوى من فؤاديا

الخامس : أنه همه كان حركة الطباع التي في قلوب الرجال من شهوة النساء وإن كان قاهراً له وهو معنى قول الحسن .

السادس : أنه هم بمواقعتها وعزم عليه .

قال ابن عباس : وحل الهميان يعني السراويل وجلس بين رجليها مجلس الرجل من المرأة ، وهو قول جمهور المفسرين . (1)

فإن قيل : فكيف يجوز أن يوصف يوسف بمثل هذا الفعل وهو نبي الله عز وجل ؟

قيل : هي منه معصية ، وفي معاصي الأنبياء ثلاثة أوجه :

أحدها : أن كل نبي ابتلاه الله بخطيئة إنما ابتلاء ليكون من الله تعالى على وجل إذا ذكرها فيجدّ في طاعته إشفاقاً منها ولا يتكل على سعة عفوه ورحمته .

الثاني : أن الله تعالى ابتلاهم بذلك ليعرفهم موقع نعمته عليهم بصفحه عنهم وترك عقوبتهم في الآخرة على معصيتهم .

الثالث : أنه ابتلاهم بذلك ليجعلهم أئمة لأهل الذنوب في رجاء رحمة الله وترك الإياس في

عفوه عنهم إذا تابوا .

---

(1) قول فى غاية البعد والفساد يرده ما قبله وما بعده من الآيات ويجعلنا نجزم بعدم صحة نسبة هذا القول السخيف إلى ابن عباس -رضى الله عنهما - والله أعلم .

وفي قوله تعالى ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ ستة أقاويل :

أحدها : أن برهان ربه الذي رآه أن نودي بالنهي عن مواقعة الخطيئة ، قال ابن عباس : نودي اي ابن يعقوب تزني فيكون مثلك مثل طائر سقط ريشه فذهب يطير فلم يستطع .

الثاني : أنه رأى صورة يعقوب وهو يقول : يا يوسف أتهمُّ بفعل السفهاء وأنت مكتوب في الأنبياء ؟ فخرجت شهوته من أنامله ، قاله قتادة ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير .

قال مجاهد : فولد لكل واحد من أولاد يعقوب اثنا عشر ذكراً إلا يوسف فلم يولد له إلا غلامان ونقص بتلك الشهوة ولده .

الثالث : أن البرهان الذي رآه ما أوعد الله تعالى على الزنى ، قال محمد بن كعب القرظي : رأى كتاباً على الحائط :

﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ [الإسراء : 32] .

الرابع : أن البرهان الذي رآه . الملك إظفير سيده ، قاله ابن إسحاق .

الخامس : أن البرهان الذي رآه هو ما آتاه الله تعالى من آداب آبائه في العفاف والصيانة وتجنب الفساد والخيانة ، قاله ابن بحر .

السادس : أن البرهان الذي رآه أنه لما همت به وهم بها رأى ستراً فقال لها : ما وراء هذه الستر ؟ فقالت : صنمي الذي أعبده أستره استحياء منه . فقال : إذا استحيت مما لا يسمع ولا يبصر فأنا أحق أن أستحي من إلهي وأتوقاه ، قاله الضحاك .

﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : أن السوء الشهوة ، والفحشاء المباشرة .

الثاني : أن السوء عقوبة الملك العزيز . والفحشاء مواقعة الزنى .

﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر المخلِصين بكسر اللام ، وتأويلها الذين أخلصوا طاعة الله تعالى .

وقرأ الباقون بفتح اللام ، وتأويلها الذين أخلصهم الله برسالته ، وقد كان يوسف عليه السلام بهاتين الصفتين لأنه كان مخلصاً في طاعة الله تعالى ، مستخلصاً لرسالة الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾

رُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ : " هَمَّتْ بِهِ بِالْعَزِيمَةِ وَهَمَّ بِهَا مِنْ جِهَةِ الشَّهْوَةِ وَلَمْ يَعْزِمْ " .

وَقِيلَ : هَمَّا جَمِيعًا بِالشَّهْوَةِ ؛ لِأَنَّ الْهَمَّ بِالشَّيْءِ مُقَارَبَتُهُ مِنْ غَيْرِ مُوَاقَعَةٍ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ هَمَّ يُوسُفَ بِهَا لَمْ يَكُنْ مِنْ جِهَةِ الْعَزِيمَةِ ، وَإِنَّمَا كَانَ مِنْ جِهَةِ دَوَاعِي الشَّهْوَةِ قَوْلُهُ : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ فَكَانَ ذَلِكَ إخْبَارًا بِبَرَاءَةِ سَاحَتِهِ مِنْ الْعَزِيمَةِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ .

وَقِيلَ : إنَّ ذَلِكَ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ ، وَمَعْنَاهُ : لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ هَمَّ بِهَا ، وَذَلِكَ لِأَنَّ جَوَابَ " لَوْلَا " لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَقَدَّمَهُ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُجِيزُونَ أَنْ نَقُولَ : " قَدْ أَتَيْتُك لَوْلَا زَيْدٌ " وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ عَلَى تَقْدِيرِ تَقْدِيمِ " لَوْلَا " .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَالْحَسَنُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ : " رَأَى صُورَةَ يَعْقُوبَ عَاضًّا عَلَى أَنَامِلِهِ " وَقَالَ قَتَادَةُ : " نُودِيَ يَا يُوسُفُ أَنْتَ مَكْتُوبٌ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَتَعْمَلُ عَمَلَ السُّفَهَاءِ " وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : " أَنَّهُ رَأَى الْمَلَكَ " .

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ : " هُوَمَا عَلِمَهُ مِنْ الدَّلَالَةِ عَلَى عِقَابِ الزِّنَا " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(232/393)

وقال ابن عطية :

وقوله : ﴿ ولقد همت به ﴾ الآية

لا شك أن " هم " زليخا كان في أن يواقعها يوسف ، واختلف في " هم " يوسف عليه السلام ، فقال الطبري : قالت فرقة : كان مثل " همها " ، واختلفوا كيف يقع من مثل يوسف وهو نبي ؟ فقيل ذلك ليريه الله تعالى موقع العفو والكفاية ، وقيل الحكمة في ذلك أن يكون مثالاً للمذنبين ليروا أن توبتهم ترجع بهم إلى عفو الله كما رجعت بمن هو خير منهم ولم يوبقه القرب من الذنب ، وهذا كله على أن هم يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجلي زليخا وأخذ في حل ثيابه وتكته ونحو هذا ، وهي قد استلقت له ؛ قاله ابن عباس وجماعة من السلف .

وقالت فرقة في " همه " إنما كان بخطرات القلب التي لا يقدر البشر عن التحفظ منها ، ونزع عند ذلك ولم يتجاوزه ، فلا يبعد هذا على مثله عليه السلام ، وفي الحديث :

"إن من هم بسيئة ولم يعملها فله عشر حسنات " وفي حديث آخر " حسنة " ، فقد يدخل يوسف في هذا الصنف .

وقالت فرقة : كان " هم " يوسف بضربها ونحو ذلك .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف البتة ، والذي أقول في هذه الآية : إن كون يوسف نبياً في وقت هذه النازلة لم يصح ولا تظاهرت به رواية ، وإذا كان ذلك فهو مؤمن قد أوتي حكماً وعلماً ويجوز عليه الهم الذي هو إرادة الشيء دون مواقعته ، وأن يستصحب الخاطر الردي‌ء على ما في ذلك من الخطيئة ؛ وإن فرضناه نبياً في ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندي إلا الهم الذي هو الخاطر ، ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حل تكة ونحو ذلك ، لأن العصمة مع النبوة ، وما روي من أنه قيل له : تكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء ، فإنما معناه العدة بالنبوة فيما بعد ، والهم بالشيء مرتبتان : فالواحدة الأولى تجوز عليه مع النبوة ، والثانية الكبرى لا تقع إلا من غير نبي ، لأن استصحاب خاطر المعصية والتلذذ به معصية تكتب ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به نفوسها ما لم تنطق به أو تعمل " معناه من الخواطر ، وأما استصحاب الخاطر فمحال أن

يكون مباحاً ، فإن وقع فهو خطيئة من الخطايا لكنه ليس كمواقعة المعصية التي فيها الخاطر ، ومما يؤيد أن استصحاب الخاطر معصية قول النبي صلى الله عليه وسلم : "إنه كان حريصاً على قتل صاحبه" .

وقوله الله تعالى : ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾ [الحجرات : 12] وهذا منتزع من غير موضع من الشرع ، والإجماع منعقد أن الهم بالمعصية واستصحاب التلذذ بها غير جائز ولا داخل في التجاوز .

واختلف في "البرهان" الذي رأى يوسف ، وقيل : نودي . واختلف فيما نودي به ، فقيل ناداه جبريل : يا يوسف ، تكون في ديوان الأنبياء . وتفعل فعل السفهاء ؟ وقيل : نودي : يا يوسف ، لا تواقع المعصية فتكون كالطائر الذي عصى فتساقط ريشه فبقي ملقى – ناداه بذلك يعقوب – ، وقيل غير هذا مما في معناه ، وقيل : كان "البرهان" كتاباً رآه مكتوباً ، فقيل : في جدار المجلس الذي كان فيه ، وقيل : بين عيني زليخا ، وقيل : في كف من الأرض خرجت دون جسد ؛ واختلف في المكتوب ، فقيل : قوله تعالى : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ [الرعد : 33] ، وقيل : قوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان

فاحشة وساء سبيلاً ﴾ [الإسراء : 32] وقيل غير هذا . وقيل : كان البرهان أن رأى يعقوب عليه السلام ممثلاً معه في البيت عاضاً على إبهامه وقيل : على شفته . وقيل بل انفرج السقف فرآه كذلك . وقيل : إن جبريل قال له : لئن واقعت المعصية لأمحونك من ديوان النبوة ، وقيل : إن جبريل ركضه فخرجت شهوته على أنامله .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، وقيل : بل كان " البرهان " فكرته في عذاب الله ووعيده على المعصية ، وقيل : بل كان البرهان الذي اتعظ به أن زليخا قالت له : مكانك حتى أستر هذا الصنم - لصنم كان معها في البيت - فإني أستحيي منه أن يراني على هذه الحال ؛ وقامت إليه فسترته بثوب فاتعظ يوسف وقال : من يسترني أنا من الله القائم على كل شيء ، وإذا كنت أنت تفعلين هذا لما لا يعقل فإن أولى أن أستحيي من الله .

و" البرهان " في كلام العرب الشيء الذي يعطي القطع واليقين ، كان مما يعلم ضرورة أم بخبر قطعي أو بقياس نظري ، فهذه التي رويت فيما رآه يوسف براهين .

و ﴿ أن ﴾ في قوله : ﴿ لولا أن رأى ﴾ في موضع رفع ، التقدير : لولا رؤيته برهان ربه ، وهذه ﴿ لولا ﴾ التي يحذف معها الخبر ، تقديره : لفعل أو لارتكب المعصية . وذهب قوم

إلى أن الكلام تم في قوله : ﴿ ولقد همت به ﴾ وأن جواب ﴿ لولا ﴾ في قوله : ﴿ وهم بها ﴾ وأن المعنى : لولا أن رأى البرهان لهمَّ أي فلم يهم عليه السلام ، وهذا قول يرده لسان العرب وأقوال السلف . قال الزجّاج : ولو كان الكلام : ولهمَّ بها لولا ، لكان بعيداً ، فكيف مع سقوط اللام ! .

والكاف من قوله : ﴿ كذلك ﴾ متعلقة بمضمر تقديره : جرت أفعالنا وأقدارنا ﴿ كذلك لنصرف ﴾ ، ويصح أن تكون الكاف في موضع رفع بتقدير : عصمتنا له كذلك لنصرف .

وقرأ الجمهور " لنصرف " بالنون ، وقرأ الأعمش " ليصرف " بالياء – على الحكاية عن الغائب – ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والحسن بن أبي الحسن وأبو رجاء " المخلِصين " بكسر اللام في كل القرآن ، وكذلك ﴿ مخلصاً ﴾ [مريم : 51] في سورة مريم . وقرأ نافع ﴿ مخلصاً ﴾ [الزمر : 2-11-14 ، مريم : 51] كذلك بكسر اللام ، وقرأ سائر القرآن " المخلَصين " بفتح اللام ، وقرأ حمزة والكسائي وجمهور من القراء " المخلَصين " بفتح اللام و " مخلصاً " كذلك في كل القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى فى الآيتين :

قوله تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾

وهي امرأة العزيز ، طلبت منه أن يواقعها .

وأصل المراودة الإرادة والطلب برفق ولين .

والرَّوْد والرِّياد طلب الكلأ ؛ وقيل : هي من رويد ؛ يقال : فلان يمشي رُوَيْداً ، أي برفق ؛ فالمراودة الرفق في الطلب ؛ يقال في الرجل : راودها عن نفسها ، وفي المرأة راودته عن نفسه .

والرّود التأنِّي ؛ يقال : أَرْوَدَني أمهلني .

﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبواب ﴾ غلّق للكثير ، ولا يقال : غَلَّق البابَ ؛ وأَغلقَ يقع للكثير والقليل ؛ كما قال الفَرَزْدق في أبي عمرو بن العلاء :

ما زلتُ أُغلق أبواباً وأفتحُهَا . . .

حتى أتيتُ أبا عمرو بن عمّارِ

يقال : إنها كانت سبعة أبواب غلّقتها ثم دعته إلى نفسها .

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ أي هَلُمَّ وأَقْبِلْ وتَعالَ ؛ ولا مصدر له ولا تصريف .

قال النحاس : فيها سبع قراءات ؛ فمن أجلّ ما فيها وأصحّه إسناداً ما رواه الأعمش عن أبي وائل قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقرأ "هَيْتَ لَكَ" قال فقلت : إن قوماً يقرؤونها

"هِيتَ لك" فقال: إنما أقرأ كما عُلِّمت.

قال أبو جعفر: وبعضهم يقول عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولا يبعد ذلك؛ لأن قوله: إنما أقرأ كما علِّمت يدلّ على أنه مرفوع، وهذه القراءة بفتح التاء والهاء هي الصحيحة من قراءة ابن عباس وسعيد بن جُبير والحسن ومجاهد وعكرمة؛ وبها قرأ أبو عمرو بن العلاء وعاصم والأعمش وحمزة والكسائيّ.

قال عبد الله بن مسعود: لا تقطعوا في القرآن؛ فإنما هو مثل قول أحدكم: هَلمّ وتَعالَ.

وقرأ ابن أبي إسحق النحوي "قَالَتْ هَيْتِ لَكَ" بفتح الهاء وكسر التاء.

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَميّ وابن كثير "هَيْتُ لَكَ" بفتح الهاء وضم التاء؛ قال طَرَفة:

ليس قومي بالأبعَدِين إذا ما . . .

قال داعٍ من العَشيرة هَيْتُ

فهذه ثلاث قراءات الهاء فيهنّ مفتوحة.

(237/393)

وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع "وَقَالَتْ هِيتَ لَكَ" بكسر الهاء وفتح التاء.

وقرأ يحيى بن وثّاب "وَقَالَت هِيْتُ لَكَ" بكسر الهاء وبعدها ياء ساكنة والتاء مضمومة.

ورُوي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عباس ومجاهد وعكرمة : "وَقَالَتْ هِئْتُ لَكَ" بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة والتاء مضمومة .

وعن ابن عامر وأهل الشام : "وَقَالَتْ هِئْتَ" بكسر الهاء وبالهمزة وبفتح التاء ؛ قال أبو جعفر : "هِئْتَ لَكَ" بفتح التاء لالتقاء الساكنين ، لأنه صوت نحو مَهْ وصَهْ يجب ألّا يعرب ، والفتح خفيف ؛ لأن قبل التاء ياء مثل أينَ وكيفَ ؛ ومَن كسر التاء فإنما كسرها لأن الأصل الكسر ؛ لأن الساكن إذا حرّك حرّك إلى الكسر ، ومن ضم فلأن فيه معنى الغاية ؛ أي قالت : دعائي لك ، فلما حذفت الإضافة بني على الضم ؛ مثل حيثُ وبعدُ .

وقراءة أهل المدينة فيها قولان : أحدهما أن يكون الفتح لالتقاء الساكنين كما مرّ .

والآخر أن يكون فعلاً من هاءَ يَهِيء مثل جاء يجيء ؛ فيكون المعنى في "هِئْتَ" أي حسنت هيئتك ، ويكون "لَكَ" من كلام آخر ، كما تقول : لكَ أعني .

ومن همز وضم التاء فهو فعل بمعنى تهيأتُ لك ؛ وكذلك من قرأ "هِيتُ لَكَ" .

وأنكر أبو عمرو هذه القراءة ؛ قال أبو عبيدة مُعْمَر بن المُثَنَّى : سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء وضم التاء مهموزاً فقال أبو عمرو : باطل ؛ جعلها من تهيأت ! اذهب فاستعرِض العربَ حتى تنتهي إلى اليمن هل تعرف أحداً يقول هذا ؟! وقال الكسائي أيضاً : لم تُحكَ "هِئْتُ" عن العرب .

قال عِكرمة : "هِئْتُ لَكَ" أي تهيأت لك وتزينت وتحسنت ، وهي قراءة غير مرضية ،

لأنها لم تسمع في العربية .

قال النحاس : وهي جيِّدة عند البصريين ؛ لأنه يقال : هَاءَ الرجل يَهاء ويَهِيء هيأةً فهاء يَهِيء مثل جاء يجيء وهِئتُ مثل جئت .

وكسر الهاء في "هيت" لغة لقوم يؤثرون كسر الهاء على فتحها .

(238/393)

قال الزجاج : أجود القراءات "هَيْتَ" بفتح الهاء والتاء ؛ قال طَرَفة :

ليس قومي بالأبعدين إذا ما . . .

قال داعٍ من العشيرة هَيْتَ

بفتح الهاء والتاء .

وقال الشاعر في علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

أَبلغْ أمير المؤم . . .

نينَ أخا العراقِ إذا أَتيتَا

إنّ العراقَ وأهلُه . . .

سِلْمٌ إليك فهَيْتَ هَيْتَا

قال ابن عباس والحسن : "هيت" كلمة بالسريانية تدعوه إلى نفسها .

وقال السُّديّ : معناها بالقبطية هلمّ لك .

قال أبو عبيد : كان الكسائي يقول : هي لغة لأهل حَوْران وقعت إلى أهل الحجاز معناه تعالَ ؛ قال أبو عبيد : فسألت شيخاً عالماً من حَوْرَان فذكر أنها لغتهم ؛ وبه قال عِكْرمة .

وقال مجاهد وغيره : هي لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها ، وهي كلمة حثّ وإقبال على الأشياء ؛ قال الجوهريّ : يقال هَوَّتَ به وهَيَّتَ به إذا صاح به ودعاه ؛ قال :

قد رابَنِي أَنَّ الْكريَّ أَسْكَتَا . . .

لو كان مَعْنِيًّا بها لَهَيَّتَا

أي صاح ؛ وقال آخر :

يَحْدو بها كلُّ فتًى هَيَّاتِ . . .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللهِ ﴾ أي أعوذ بالله وأستجير به مما دعوتني إليه ؛ وهو مصدر ، أي أعوذ بالله مَعاذا ؛ فيحذف المفعول وينتصب المصدر بالفعل المحذوف ، ويضاف المصدر إلى اسم الله كما يضاف المصدر إلى المفعول ، كما تقول : مررت بزيد مرورَ عمرو أي كمروري بعمرو .

﴿ إِنَّهُ ربي ﴾ يعني زوجها ، أي هو سيّدي أكرمني فلا أخونه ؛ قاله مجاهد وابن إسحق والسدّي .

وقال الزجاج: أي إن الله ربي تولاني بلطفه، فلا أركب ما حرّمه.

﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وفي الخبر أنها قالت له: يا يوسف! ما أحسن صورة وجهك! قال: في الرَّحِم صوّرني رَبِّي؛ قالت: يا يوسف ما أحسن شَعْرك! قال: هو أول شيء يَبْلَى منّي في قبري؛ قالت: يا يوسف! ما أحسن عينيك؟ قال: بهما أنظر إلى ربيّ. قالت: يا يوسف! ارفع بصرك فانظر في وجهي، قال: إني أخاف العمى في آخرتي.

قالت يا يوسف! أدنو منك وتتباعد مني؟ قال: أريد بذلك القرب من ربيّ.

قالت: يا يوسف القَيْطون (فرشته لك) فادخل معي، قال: القَيْطُون لا يسترني من ربيّ.

قالت: يا يوسف فراش الحرير قد فرشته لك، قم فاقض حاجتي، قال: إذاً يذهب من الجنة نصيبي؛ إلى غير ذلك من كلامها وهو يراجعها؛ إلى أن همّ بها.

وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يَمِلْن إلى يوسف مَيْل شهوة حتى نبأه الله، فألقى عليه هيبة النبوّة؛ فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه.

واختلف العلماء في همّه؛ ولا خلاف أن همّها كان المعصية، وأما يوسف فهمّ بها ﴿ لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ ولكن لما رأى البرهان ما همّ؛ وهذا لوجوب العصمة للأنبياء؛ قال

الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوء والفحشآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين ﴾ فإذاً في الكلام تقديم وتأخير ؛ أي لولا أن رأى برهان ربه همّ بها .

قال أبو حاتم : كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيت على قوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ الآية ، قال أبو عبيدة : هذا على التقديم والتأخير ؛ كأنه أراد ولقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها .

وقال أحمد بن يحيى : أي همت زليخاء بالمعصية وكانت مصِرّة ، وهمّ يوسف ولم يواقع ما همّ به ؛ فبين الهمتين فرق ، ذكر هذين القولين الهرويّ في كتابه .

قال جميل :

هَمَمْتُ بِهَمٍّ من بُثَينة لو بَدَا . . .

شَفَيتُ غَليلاتِ الهوَى من فؤاديَا

آخر :

هَمَمْتُ ولم أفعلْ وكدتُ وليتني . . .

تَركتُ على عثمان تبكي حلائلُهُ

فهذا كله حديث نفس من غير عزم .

وقيل : همّ بها تمنى زوجيتها .

وقيل : همّ بها أي بضربها ودفعها عن نفسه ، والبرهان كفه عن الضرب ؛ إذ لو ضربها لأوهم أنه قصدها بالحرام فامتنعت فضربها .

وقيل : إن همّ يوسف كان معصية ، وأنه جلس منها مجلس الرجل من امرأته ؛ وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وعامتهم ، فيما ذكر القُشيريّ أبو نصر ، وابن الأنباريّ والنحاس والماورديّ وغيرهم .

قال ابن عباس : حلّ الهِمْيان وجلس منها مجلس الخاتن ، وعنه : استلقت على قفاها وقعد بين رجليها ينزع ثيابه .

وقال سعيد بن جُبير : أطلق تِكَّة سراويله .

وقال مجاهد : حلّ السراويل حتى بلغ الأليتين ، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته .

قال ابن عباس : ولما قال : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ [يوسف : 52] قال له جبريل : ولا حين هممت بها يا يوسف ؟! فقال عند ذلك : ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نفسي ﴾ [يوسف : 53] .

قالوا : والانكفاف في مثل هذه الحالة دالٌّ على الإخلاص ، وأعظم للثواب .

قلت: وهذا كان سبب ثناء الله تعالى على ذي الكِفل حسب ما يأتي بيانه في "صا" إن شاء الله تعالى.

وجواب "لولا" على هذا محذوف؛ أي لولا أن رأى برهان ربه لأمضى ما همّ به؛ ومثله ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين ﴾ [التكاثر: 5] وجوابه لم تتنافسوا؛ قال ابن عطية: روي هذا القول عن ابن عباس وجماعة من السلف، وقالوا: الحكمة في ذلك أن يكون مثلاً للمذنبين ليروا أن توبتهم ترجع إلى عفو الله تعالى كما رجعت ممن هو خير منهم، ولم يوبقه القرب من الذنب، وهذا كله على أن همّ يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجلي زليخاء وأخذ في حلّ ثيابه وتِكّته ونحو ذلك، وهي قد استلقت له؛ حكاه الطبريّ.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلاّم: وابن عباس ومن دونه لا يختلفون في أنه همّ بها، وهم أعلم بالله وبتأويل كتابه، وأشدّ تعظيماً للأنبياء من أن يتكلموا فيهم بغير علم.

وقال الحسن: إن الله عز وجل لم يذكر معاصي الأنبياء ليعيرهم بها؛ ولكنه ذكرها لكيلا تيأسوا من التوبة.

قال الغزنويّ : مع أن لزلة الأنبياء حِكَماً : زيادة الوجل ، وشدّة الحياء بالخجل ، والتخلّي عن عجب العمل ، والتلذذ بنعمة العفو بعد الأمل ، وكونهم أئمة رجاء أهل الزلل .

قال القُشيريّ أبو نصر : وقال قوم جرى من يوسف همّ ، وكان ذلك (الهم) حركة طبع من غير تصميم للعقد على الفعل ؛ وما كان من هذا القبيل لا يؤخذ به العبد ، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد ، وتناول الطعام اللذيذ ، فإذا لم يأكل ولم يشرب ، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما هجس في النفس ؛ والبرهان صرفه عن هذا الهمّ حتى لم يصر عزماً مصمماً .

قلت : هذا قول حسن ؛ وممن قال به الحسن .

قال ابن عطية : الذي أقول به في هذه الآية إن كون يوسف نبياً في وقت هذه النازلة لم يصح ، ولا تظاهرت به رواية ؛ وإذا كان كذلك فهو مؤمن قد أوتي حُكماً وعلماً ، ويجوز عليه الهمّ الذي هو إرادة الشيء دون مواقعته وأن يستصحب الخاطر الرديء على ما في ذلك من الخطيئة ؛ وإن فرضناه نبياً في ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندي إلا الهمّ الذي هو خاطر ، ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حلّ تِكّته ونحوه ؛ لأن العصمة مع النبوّة .

وما روي من أنه قيل له : "تكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء" فإنما معناه العِدَة بالنبوّة فيما بعد .

قلت : ما ذكره من (هذا) التفصيل صحيح ؛ لكن قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ يدلّ على أنه كان نبيًّا على ما ذكرناه ، وهو قول جماعة من العلماء ؛ وإذا كان نبيّا فلم يبق إلاّ أن يكون الهمّ الذي همّ به ما يخطر في النفس ولا يثبت في الصدر ؛ وهو الذي رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق ، إذ لا قدرة للمكلّف على دفعه ؛ ويكون قوله : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نفسي ﴾ إن كان من قول يوسف أي من هذا الهمّ ، أو يكون ذلك منه على طريق التواضع والاعتراف ، لمخالفة النفس لما زكّي به قبل وبريء ؛ وقد أخبر الله تعالى عن حال يوسف من حين بلوغه فقال : "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً" على ما تقدّم بيانه ، وخبر الله تعالى صدق ، ووصفه صحيح ، وكلامه حق ؛ فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزّنى ومقدماته ، وخيانة السيد والجار والأجنبي في أهله ؛ فما تعرّض لامرأة العزيز ، ولا أجاب إلى المراودة ، بل أدبر عنها وفرّ منها ؛ حكمة خص بها ، وعملاً بمقتضى ما علّمه الله .

وفي صحيح مسلم عن أبي هُريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال : ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جرّاي " وقال عليه السلام مخبراً عن ربه : " إذا همّ عبدي بسيئة فلم يعملها كتبت حسنة " فإن كان ما يهم به العبد من

السيئة يكتب له بتركها حسنة فلا ذنب؛ وفي الصحيح: "إن الله تجاوز لأمتي عما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تَكلّم به" وقد تقدّم.

قال ابن العربي: كان بمدينة السلام إمام من أئمة الصوفية، وأيّ إمام يعرف بابن عطاء! تكلّم يوماً على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما نسب إليه من مكروه؛ فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة فقال: يا شيخ! يا سيدنا فإذاً يوسف همّ وما تَمَّ؟ قال: نعم! لأن العناية من ثَمَّ.

فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلم، وانظر إلى فطنة العامي في سؤاله، وجواب العالم في اختصاره واستيفائه؛ ولذلك قال علماء الصوفية: إن فائدة قوله: "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلماً" إنما أعطاه ذلك إبان غلبة الشهوة لتكون له سبباً للعصمة.

قلت: وإذا تقررت عصمته وبراءته بثناء الله تعالى عليه فلا يصح ما قال مُصْعَب بن عثمان: إن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهاً، فاشتاقته امرأة فسامته نفسها فامتنع عليها وذكّرها، فقالت: إن لم تفعل لأشهرنك؛ فخرج وتركها، فرأى في منامه يوسف الصديق عليه السلام جالساً فقال: أنت يوسف؟ فقال: أنا يوسف الذي هممتُ

، وأنت سليمان الذي لم تهمّ ؟ فإن هذا يقتضي أن تكون درجة الولاية أرفع من درجة النبوّة وهو محال ؛ ولو قدّرنا يوسف غير نبي فدرجته الولاية ، فيكون محفوظاً كهو ؛ ولو غلقت على سليمان الأبواب ، وروجع في المقال والخطاب ، والكلام والجواب مع طول الصحبة لخيف عليه الفتنة ، وعظيم المحنة ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لولا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ ("أن" في موضع رفع أي لولا رؤية برهان ربه) والجواب محذوف لعلم السامع ؛ أي لكان ما كان .

وهذا البرهان غير مذكور في القرآن ؛ فرُوي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن زليخاء قامت إلى صنم مكلّل بالدرّ والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب ، فقال : ما تصنعين ؟ قالت : أستحي من إلهي هذا أن يراني في هذه الصورة ؛ فقال يوسف : أنا أولى أن أستحي من الله ؛ وهذا أحسن ما قيل فيه ، لأن فيه إقامة الدليل .

وقيل : رأى مكتوباً في سقف البيت ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 32] .

وقال ابن عباس : بدت كفّ مكتوب عليها ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ [الانفطار : 10

] وقال قوم: تذكر عهد الله وميثاقه.

وقيل: نودي يا يوسف أنت مكتوب في (ديوان) الأنبياء وتعمل عمل السفهاء؟! وقيل: رأى صورة يعقوب على الجدران عاضاً على أنملته يتوعده فسكن، وخرجت شهوته من أنامله؛ قاله قَتادة ومجاهد والحسن والضّحاك وأبو صالح وسعيد بن جُبير.

وروى الأعمش عن مجاهد قال: حلّ سراويله فتمثل له يعقوب، وقال له: يا يوسف! فولّى هارباً.

وروى سفيان عن أبي حصين عن سعيد بن جُبير قال: مثل له يعقوب فضرب صدره فخرجت شهوته من أنامله؛ قال مجاهد: فولد لكل واحد من أولاد يعقوب اثنا عشر ذكراً إلا يوسف لم يولد له إلا غلامان، ونقص بتلك الشهوة ولده؛ وقيل غير هذا.

وبالجملة: فذلك البرهان آية من آيات الله أراها الله يوسف حتى قوي إيمانه، وامتنع عن المعصية.

قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوء والفحشآء ﴾ الكاف من "كَذَٰلِكَ" يجوز أن تكون رفعاً، بأن يكون خبر ابتداء محذوف، التقدير: البراهين كذلك، ويكون نعتاً لمصدر محذوف؛ أي أريناه البراهين رؤية كذلك.

والسوء الشهوة، والفحشاء المباشرة.

وقيل: السوء الثناء القبيح، والفحشاء الزنى.

وقيل : السوء خيانة صاحبه ، والفحشاء ركوب الفاحشة .

وقيل : السوء عقوبة الملك العزيز .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر "المخلِصين" بكسر اللام ؛ وتأويلها الذين أخلصوا طاعة الله .

وقرأ الباقون بفتح اللام ، وتأويلها : الذين أخلصهم الله لرسالته ؛ وقد كان يوسف صلى الله عليه وسلم بهاتين الصفتين ؛ لأنه كان مخلِصاً في طاعة الله تعالى ، مستخلَصاً لرسالة الله تعالى . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(245/393)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ولقد همّت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ الآية

هذه الآية الكريمة مما يجب الاعتناء بها والبحث عنها والكلام عليها في مقامين الأول في ذكر أقوال المفسرين في هذه الآية

قال المفسرون : الهمّ هم المقاربة من الفعل من غير دخول فيه ، وقيل : اللهم مصدر هممت بالشيء إذا أردته وحدثتك نفسك به وقاربته من غير دخول فيه فمعنى قوله ولقد همّت به

أي أرادته وقصدته فكان همهما به عزمها على المعصية والزنا ،

وقال الزمخشري : همَّ بالأمر إذا قصده وعزم عليه قال الشاعر وهو عمرو بن ضابئ البرجمي :

هممت ولم أفعل وكدت وليتني . . .

تركت على عثمان تبكي حلائله

وقوله : ولقد همَّت به : معناه ولقد همت بمخالطته وهم بها أي وهم بمخالطتها لولا أن رأى برهان ربه جوابه محذوف تقديره لولا أن رأى برهان ربه لخالطها قال البغوي وأما همه بها فروي عن ابن عباس أنه قال حلّ الهميان وجلس منها مجلس الخائن ، وقال مجاهد : حل سراويله وجعل يعالج ثيابه ، وهذا قول أكثر المفسرين منهم سعيد بن جبير والحسن وقال الضحاك : جرى الشيطان بينهما فضرب بيده إلى جيد يوسف وبيده الأخرى إلى جيد المرأة حتى جمع بينهما ، قال أبو عبيده القاسم بن سلام : وقد أنكر قوم هذا القول قال البغوي : والقول ما قاله قدماء هذه الأمة وهم كانوا أعلم بالله أن يقولوا في الأنبياء من غير علم ، قال السدي وابن إسحاق : لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه جعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوقه إلى نفسها فقالت : يا يوسف ما أحسن شعرك ، قال : هو أول ما ينتثر عن جسدي ، قالت : ما أحسن عينيك ، قال : هي أول ما يسيل على خدي في قبري ، قالت : ما أحسن وجهك ، قال : هو للتراب يأكله .

وقيل : إنها قالت له إن فراش الحرير مبسوط قم فاقض حاجتي قال : إذن يذهب نصيبي من الجنة .

فلم تزل تطمعه وتدعوه إلى اللذة وهو شاب يجد من شبق الشباب ما يجده الرجل وهي امرأة حسناء جميلة حتى لان لها لما يرى من كلفها به فهم بها ثم إن الله تدارك عبده يوسف بالبرهان الذي ذكره وسيأتي الكلام على تفسير البرهان الذي رآه يوسف فهذا ما قاله المفسرون في هذه الآية أما المقام الثاني في تنزيه يوسف عن هذه الرذيلة وبيان عصمته من هذه الخطيئة التي ينسب إليها .

قال بعض المحققين : الهم همان فهم ثابت وهو ما كان معه عزم وقصد وعقيدة رضا مثل هم امرأة العزيز فالعبد مأخوذ به وهم عارض وهو الخطرة في القلب وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف فالعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل به ويدل على صحة هذا ما روي عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : يقول الله تبارك وتعالى :

" إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكتبوها عليه سيئة واحدة وإذا هم

بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها له عشرة " لفظ مسلم وللبخاري بمعناه (ق) .

(247/393)

عن ابن عباس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال فيما يرويه عن ربه قال " إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هم بها وعملها كتبها الله له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ومن همّ بسيئة ولم يعملها كتبها الله له عنده حسنة وإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عليه سيئة واحدة " زاد في رواية أو محاها " ولن يهلك على الله إلا هالك " قال القاضي عياض في كتابه الشفاء فعلى مذهب كثير من الفقهاء المحدثين إن هم النفس لا يؤاخذ به وليس سيئة وذكر الحديث المتقدم فلا معصية في هم يوسف إذن وأما على مذهب المحققين من الفقهاء والمتكلمين فإن الهم إذا وطنت عليه النفس كان سيئة وأما ما لم توطن عليه النفس من همومها وخواطرها فهو المعفو عنه هذا هو الحق فيكون إن شاء الله هم يوسف من هذا ويكون قوله وما أبرئ نفسي الآية أي ما أبرئها من هذا الهم أو يكون ذلك على طريق التواضع والاعتراف بمخالفة النفس لما زكي قبل وبرئ فكيف وحكى أبو حاتم عن

عبيدة أن يوسف لم يهم وأن الكلام فيه تقديم وتأخير أي ولقد همت به ولولا أن أري برهان ربه لهمّ بها وقال تعالى حاكياً عن المرأة ولقد راودته عن نفسه فاستعصم وقال تعالى : كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، وقال تعالى : وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله الآية وقيل في قوله وهم بها أي بزجرها ووعظها وقيل هم بها أي همه امتناعه وقيل هم بها أي نظر إليها وقيل هم بضربها ودفعها وقيل هذا كله كان قبل نبوته وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يملن إلى يوسف ميل شهوة زليخا حتى نبأه الله فألقى عله هيبة النبوة فشغلت هيبته كل من رآه عن حسه هذا آخر كلام القاضي عياض رحمه الله ، وأما الإمام فخر الدين فذكر في هذا المقام كلاماً طويلاً مبسوطاً وأنا أذكر بعضه ملخصاً ، فأقول قال الإمام فخر الدين الرازي : إن يوسف كان بريئاً من العمل الباطل

(248/393)

والهم المحرم وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين وبه نقول وعنه نذب فإن الدلائل قد دلت على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا يلتفت إلى ما نقله بعض المفسرين عن الأئمة المتقدمين فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متى صدرت منهم زلة أو هفوة استعظموها وأتبعوها فإظهار الندامة والتوبة والاستغفار كما ذكر عن آدم عليه السلام في

قوله ظلمنا أنفسنا الآية وقال في حق داود فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب وأما يوسف فلم يحك عنه شيئاً في ذلك في هذه الواقعة لأنه لو صدر منه شيء لأتبعه بالتوبة والاستغفار ولو أتى بالتوبة لحكى الله ذلك عنه في كتابه كما ذكر عن غيره من الأنبياء وحيث لم يحك عنه شيئاً علمنا براءته مما قيل فيه ولم يصدر عنه شيء كما نقله أصحاب الأخبار ويدل على ذلك أيضاً أن كل من كان له تعلق بهذه الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام عما نسب إليه واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة يوسف والمرأة وزوجها والنسوة واللاتي قطعن أيديهن والمولود الذي شهد على القميص شهدوا ببراءته والله تعالى شهد ببراءته من الذنب أيضاً .

أما بيان أن يوسف ادعى براءته مما نسب إليه فقوله هي راودتني عن نفسي ، وقوله : رب السجن أحبّ إليّ مما يدعونني إليه .

وأما بيان أن المرأة اعترفت ببراءة يوسف ونزاهته فقولها : أنا راودته عن نفسه فاستعصم ، وقولها : الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين .

وأما بيان أن زوج امرأة اعترف أيضاً ببراءة يوسف فقوله : إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين .

وأما شهادة المولود ببراءته فقوله : وشهد شاهد من أهلها الآية وأما شهادة الله له بذلك فقوله تعالى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ومن كان كذلك فليس للشيطان عليه سلطان بدليل قوله لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين وبطل بهذا قول من قال إن الشيطان جرى بينهما حتى أخذ بجيده وجيد المرأة حتى جمع بينهما فإنه قول منكر لا يجوز لأحد أن يقول ذلك .

وأما ما روي عن ابن عباس : إنه جلس منها مجلس الخائن فحاش ابن عباس أن يقول مثل هذا عن يوسف ولعل بعض أصحاب القصص وأصحاب الأخبار وضعوه عن ابن عباس ، وكذلك ما روي عن مجاهد وغيره أيضاً فإنه لا يكاد يصح بسند صحيح وبطل ذلك كله وثبت ما بيناه من براءة يوسف من هذه الرذيلة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه وما صدر من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام .

فإن قلت : فعلى هذا التقدير لا يبقى لقوله لولا أن رأى برهان ربه فائدة .

قلت : فيه أعظم الفوائد وبيانه من وجهين أحدهما : أنه تعالى أعلم يوسف أنه لو همّ بدفعها لقتلته فأعلمه بالبرهان أن الامتناع من ضربها أولى صوناً للنفس عن الهلاك الوجه ، الثاني : أنه لو اشتغل بدفعها عن نفسه لتعلقت به فكان في ذلك أن يتمزق ثوبه من قدام وكان في علم الله أن الشاهد يشهد بأنه ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن وذا تمزق من

خلف كانت هي الخائنة فأعلمه الله بالبرهان هذا المعنى فلم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولى هارباً فأثبت بذلك الشاهد حجة له لا عليه وأما تفسير البرهان على ما ذكره المفسرون في قوله تعالى ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ فقال قتادة وأكثر المفسرين : إن يوسف رأى صورة يعقوب عليه السلام وهو يقول له يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب من الأنبياء .

وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك : انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عاضاً على أصبعه ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : مثل له يعقوب فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله وقال السدي نودي يا يوسف أتواقعها إنما مثلك لما لم تواقعها مثل الطير في جو السماء لا يطاق عليه وإن مثلك إن واقعتها كمثله إذا وقع على الأرض لا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيئاً ومثلك ما لم يتواقعها مثل الثور الصعب الذي لا يطاق ومثلك إن واقعتها كمثله إذا مات ودخل النمل في قرنه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه وقيل إنه رأى معصماً بلا عضد عليه مكتوب ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ فولى هارباً ثم رجع فعاد المعصم وعليه مكتوب ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان

فاحشة وساء سبيلا ﴾ فولى هارباً ثم عاد فرأى ذلك الكف وعليه مكتوب ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ الآية ثم عاد فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام أدرك عبدي يوسف قبل ان يصيب الخطيئة فانحط جبريل عاضاً على أصبعه يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله من الأنبياء وقيل إنه مسه بجناحه فخرجت شهوته من أنامله قال محمد بن كعب القرظي رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت فرأى كتاباً في حائط فيه ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ وفي رواية عن ابن عباس أن رأى مثال ذلك الملك ، وعن علي بن الحسين قال : كان في البيت صنم فقامت المرأة إليه وسترته بثوب فقال لها يوسف عليه السلام لم فعلت هذا قالت استحييت منه أن يراني على معصية فقال لها يوسف أتستحيين مما لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه شيئاً فأنا أحق أن أستحيي من ربي فهرب فذلك قوله لولا أن رأى برهان ربه أما المحققون فقد فسروا البرهان بوجوه الأول ، قال جعفر بن محمد الصادق : البرهان هو النبوة التي جعلها الله تعالى في قلبه حالت بينه وبين ما يسخط الله الثاني البرهان حجة الله على العبد في تحريم الزنا والعلم بما

على الزاني من العقاب الثالث إن الله طهر نفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الأخلاق الذميمة والأفعال الرذيلة وجبلهم على الأخلاق الشريفة الطاهرة المقدسة فتلك الأخلاق الطاهرة الشريفة تحجزهم عن فعل ما لا يليق فعله ﴿ كذلك ﴾ يعني كما رأيناه البرهان كذلك ﴿ لنصرف عنه السوء ﴾ يعني الإثم ﴿ والفحشاء ﴾ يعني الزنا ، وقيل : السوء مقدمات الفحشاء وقيل السوء الثناء القبيح فصرف الله عنه ذلك كله وجعله من عباده المخلصين وهو قوله ﴿ إنه ﴾ يعني يوسف ﴿ من عبادنا المخلصين ﴾ قرئ بفتح اللام ومعناه أنه من عبادنا الذين اصطفيناهم بالنبوة واخترناهم على غيرهم وقرئ بكسر اللام ومعناه أنه من عبادنا الذين أخلصوا الطاعة لله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(252/393)

وقال أبو حيان :

﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾

طول المفسرون في تفسير هذين الهمين ، ونسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفساق .

والذي أختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همّ بها ألبتة ، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان كما تقول : لقد قارفت لولا أن عصمك الله ، ولا تقول : إنّ جواب لولا متقدم عليها وإنْ كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك ، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها ، وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون ، ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري ، وأبو العباس المبرد .

بل نقول : إن جواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه ، كما تقول جمهور البصريين في قول العرب : أنت ظالم إن فعلت ، فيقدرونه إن فعلت فأنت ظالم ، ولا يدل قوله : أنت ظالم على ثبوت الظلم ، بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل .

وكذلك هنا التقدير لولا أن رأى برهان ربه لهم بها ، فكان موجداً الهم على تقدير انتفاء رؤية البرهان ، لكنه وجد رؤية البرهان فانتفي الهم .

ولا التفات إلى قول الزجاج .

ولو كان الكلام ولهم بها كان بعيداً فكيف مع سقوط اللام ؟ لأنه يوهم أن قوله : وهمّ بها هو جواب لولا ، ونحن لم نقل بذلك ، وإنما هو دليل الجواب .

وعلى تقدير أن يكون نفس الجواب فاللام ليست بلازمة لجواز أن ما يأتي جواب لولا إذا كان بصيغة الماضي باللام ، وبغير لام تقول : لولا زيد لأكرمتك ، ولولا زيد أكرمتك .

فمن ذهب إلى أن قوله : وهم بها هو نفس الجواب لم يبعد ، ولا التفات لقول ابن عطية إنّ قول

من قال : إن الكلام قد تم في قوله : ولقد همت به ، وإن جواب لولا في قوله وهم بها ، وإن المعنى لولا أن رأى البرهان لهمّ بها فلم يهم يوسف عليه السلام قال ، وهذا قول يرده لسان العرب وأقوال السلف انتهى .

(253/393)

أما قوله : يرده لسان العرب فليس كما ذكر ، وقد استدل من ذهب إلى جواز ذلك بوجوده في لسان العرب قال الله تعالى : ﴿ إن كانت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ﴾ فقوله : إنْ كادت لتبدي به ، إما أن يتخرج على أنه الجواب على ما ذهب إليه ذلك القائل ، وإما أن يتخرج على ما ذهبنا إليه من أنه دليل الجواب ، والتقدير : لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدى به .

وأما أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك ، لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضاً ، مع كونها قادحة في بعض فساق المسلمين ، فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة .

والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب ، لأنهم قدروا جواب لولا محذوفاً ، ولا يدل عليه دليل ، لأنهم لم يقدروا لهم بها .

ولا يدل كلام العرب إلا على أن يكون المحذوف من معنى ما قبل الشرط، لأنّ ما قبل الشرط دليل عليه، ولا يحذف الشيء لغير دليل عليه.

وقد طهرنا كتابنا هذا عن نقل ما في كتب التفسير مما لا يليق ذكره، واقتصرنا على ما دل عليه لسان العرب، ومساق الآيات التي في هذه السورة مما يدل على العصمة، وبراءة يوسف عليه السلام من كل ما يشين.

ومن أراد أن يقف على ما نقل عن المفسرين في هذه الآية فليطالع ذلك في تفسير الزمخشري، وابن عطية، وغيرهما.

والبرهان الذي رآه يوسف هو ما آتاه الله تعالى من العلم الدال على تحريم ما حرمه الله، والله لا يمكن الهم به فضلاً عن الوقوع فيه.

كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء.

قال الزمخشري: الكاف منصوب المحل أي: مثل ذلك التثبيت ثبتناه أو مرفوعة أي: الأمر مثل ذلك.

وقال ابن عطية: والكاف من قوله: كذلك، متعلقة بمضمر تقديره: جرت أفعالنا وأقدارنا كذلك لنصرف.

ويصح أن تكون الكاف في موضع رفع بتقدير عصمته، كذلك لنصرف.

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير تقديره : همت به وهم بها كذلك ، ثم قال : لولا أن رأى برهان ربه ، لنصرف عنه ما هم به انتهى .

وقال الحوفي : كذلك الكاف للتشبيه في موضع نصب أي : أريناه البراهين كذلك .

وقيل : في موضع رفع أي : أمر البراهين كذلك ، والنصب أجود لمطالبة حروف الجر للأفعال أو معانيها .

وقال أبو البقاء : كذلك في موضع رفع أي الأمر كذلك .

وقيل : في موضع نصب أي : نراعيه كذلك ، انتهى .

وأقول : إن التقدير مثل تلك الرؤية ، أو مثل ذلك الرأي ، نرى براهيننا لنصرف عنه ، فتجعل الإشارة إلى الرأي أو الرؤية ، والناصب للكاف ما دل عليه قوله : لولا أن رأى برهان ربه .

ولنصرف متعلق بذلك الفعل الناصب للكاف .

ومصدر رأى رؤية ورأي قال :

ورأى عيني الفتى أباكا . . .

يعطي الجزيل فعليك ذاكا

وقرأ الأعمش : ليصرف ، بياء الغيبة عائداً على ربه .

وقرأ العربيان ، وابن كثير : المخلصين إذا كان فيه إلى حيث وقع بكسر اللام ، وباقي السبعة بفتحها .

وفي صرف السوء والفحشاء عنه وكونه من المخلصين دليل على عصمته . انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(255/393)

وقال الثعالبى فى الآيتين :

قوله سبحانه : ﴿ وراودته التي هُوَفِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ : المراودة : الملاطفة في السَّوق إِلى غرضٍ ، و ﴿ التي هُوَفِي بَيْتِهَا ﴾ هي زُلَيْخَا امرأةُ العزيز ، وقوله : ﴿ عَن نَّفْسِهِ ﴾ : كنايةٌ عن غرض المواقعة ، وظاهرُ هذه النازلة أنها كانَتْ قبل أنْ ينبَّأَ عليه السلام ، وقولها : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ : معناه : الدُّعاء ، أيْ : تعال وأَقْبِلْ عَلَى هذا الأَمْرِ ، قال الحَسَن : معناها : هَلُمَّ ، قال البخاريُّ : قال عكرمة : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ بالحُورَانيَّةِ : هَلُمَّ .

وقال ابن جُبير : تَعَالَهْ ، انتهى .

وقرأ هشام عن ابن عامرٍ : «هِئْتُ لَكَ» - بكسر الهاءِ والهمزِ وضمِّ التاء - ، ورويت عن أَبي عَمْرو ، وهذا يحتمل أنْ يكون من هاءَ الرجُل يَهِيءُ ، إِذا حَسُن هيئته ، ويحتمل أنْ

يكون بمعنى: تَهَيَّأْتُ، و ﴿ مَعَاذَ ﴾: نصب على المصدر، ومعنى الكلام: أعوذ باللَّهِ، ثم قال: ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾، فيحتمل أن يعود الضمير في «إنه» على اللَّهِ عزَّ وجلّ، ويحتمل أنْ يريد العزيزَ سيِّدَهُ، أي: فلا يصلح لي أنْ أخونه، وقد أَكْرَمَ مثواي، وائتمنني، قال مجاهد وغيره: «رَبِّي» معناه سَيِّدي وإذا حفظ الآدميّ لإِحسانه فهو عمل زَاكٍ، وأحرى أن يحفظ ربه، والضمير في قوله: ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ ﴾ مرادٌ به الأمر والشأن فقطْ، وحكى بعض المفسِّرين أنَّ يوسُفَ عليه السلام لَمَّا قال: مَعَاذَ اللَّهِ، ثم دافَعَ الأَمْرَ باحتجاج وملاينةٍ، امتحنه الله تعالى بالهَمِّ بما هَمَّ به، ولو قال: لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلا باللَّهِ، ودافَعَ بِعُنْفٍ وتغييرٍ، لم يَهِمَّ بشيء من المَكْروه.

وقوله سبحانه: ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾: اختلف في هَمِّ يوسُفُ.

(256/393)

قال ع*: والذي أقول به في هذه الآية: أنَّ كَوْنَ يوسُفَ عليه السلام نبيًّا في وقت هذه النازلة لم يصحَّ، ولا تظاهَرَتْ به روايةٌ، فإذا كان ذلك، فهو مؤمنٌ قد أوتِيَ حكماً وعلماً، ويجوز عَلَيْه الهَمُّ الذي هو إرادةُ الشيْءِ دون مواقَعَتِهِ، وأنْ يستصحب الخَاطِرَ الرديءَ؛ عَلَى ما في ذلك من الخطيئة، وإن فرضْنَاه نبيًّا في ذلك الوقْتِ، فلا يجوز عليه عندي إلاَّ

الهَمُّ الذي هو الخاطرُ، ولا يصحُّ عندي شيْءٌ مما ذكر من حَلِّ تكَّةٍ، ونحوِ ذلك؛ لأنَّ العِصْمة مع النبوَّة، وللهمِّ بالشيْءِ مرتبتانِ، فالخاطرُ المجرَّد دون استصحاب يجوزُ عليه، ومع استصحابٍ لا يَجُوزُ عليه؛ إذِ الإجماع منعقدٌ أَنَّ الهمَّ بالمعصية واستصحابَ التلذُّذ بها غير جائزٍ، ولا داخِلٍ في التجاوُزِ.

* ت *: قال عياضٌ: والصحيحُ إنْ شاء اللَّه تنزيهُهُمْ أيضاً قبل النبوَّة مِنْ كُلِّ عيْبٍ، وعصمتُهُم مِنْ كُلِّ ما يوجبُ الرِّيَبَ، ثم قال عياضٌ بعد هذا: وأما قولُ اللَّه سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾، فعلى طريق كثيرٍ من الفقهاء والمحدِّثين؛ أنَّ همَّ النفْس لا يؤاخذ به، وليس بسيِّئة، لقوله عليه السلام عن ربّه:

(257/393)

"إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ"؛ فَلاَ مَعْصِيَةَ في همه إذَنْ، وأما على مذهب المحقِّقين من الفقهاء والمتكلِّمين، فإنِ الهمَّ إذا وُطِّنَتْ عليه النفْسُ سيئةٌ، وأَما ما لم توطَّن عليه النفس مِنْ همومها وخواطرها، فهو المعفُوُّ عنه، وهذا هو الحقُّ، فيكون إنْ شاء اللَّه همُّ يوسُفَ من هذا، ويكونُ قوله: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي. . . ﴾ [يوسف: 53]: أي: مِنْ هذا الهَمِّ، أو يكون ذلك مِنْهُ على طريق التواضعُ. انتهى.

واختلف في البُرْهَان الذي رآه يوسُفُ ، فقيل : ناداه جبريلُ : يا يوسُفُ ، تَكُونُ في ديوانِ الأنبياءِ ، وتفعل فِعْلَ السفهاءِ ، وقيل : رأى يعقوبَ عَاضًّا على إبهامه ، وقيل غير هذا ، وقيل : بل كان البرهَانُ فِكْرَتَهُ في عذابِ اللَّهِ ووَعِيدِهِ على المعصية ، والبرهانُ في كلام العرب : الشيء الذي يُعْطِي القطْعَ واليَقِينَ ، كان مما يَعلَمُ ضرورةً أو بخبرٍ قطعيٍّ أو بقياسٍ نظريٍّ «وأنْ» في قوله : ﴿ لَوْلا أَن رَّأَى ﴾ في موضع رفعٍ ، تقديره : لولا رؤيته برهانَ رَبِّه ، لَفَعَلَ ، وذَهَبَ قومٌ إلى أَنَّ الكلامَ تَمَّ في قوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ ، وأن جواب «لولا» في قوله : ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ، وأن المعنى : لولا أنْ رأى البرهان لَهَمَّ ، أي : فلم يهمَّ عليه السلام ، وهذا قولٌ يردُّه لسانُ العرب ، وأقوالُ السلَفِ * ت * : وقد ساق عياضٌ هذا القولَ مساق الاحتجاج به متَّصلاً بما نقَلْناه عنْه آنفاً ، ولفظه : فكيف ، وقَدْ حكَى أبو حاتمٍ عن أبي عُبَيْدة ، أن يوسف لم يَهِمَّ ، وأنَّ الكلام فيه تقديمٌ وتأخير ، أي : ولقد همَّتْ به ، ولولا أنْ رأى برهانَ ربه لَهَمَّ بها ، وقد قال اللَّه تعالى عن المرأة : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاستعصم ﴾ [يوسف : 32] ، وقال تعالى : ﴿ كذلكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوء والفحشاء ﴾ ، وقال : ﴿ مَعَاذَ اللهِ . . . ﴾ الآية . انتهى . وكذا نقله الداودي ولفظه : وقد قال

سعيدُ بْنَ الحَدّاد : في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ ، ومعناه : أنه لولا أنْ رأى برهان ربّه لَهَمَّ بها ، فلمّا رأى البرهان لم يَهِمَّ ، انتهى . قال ابن العربيّ في «أَحكامه» : وقد أخبر اللَّه سبحانه عن حالِ يوسُفَ من حين بلوغه بأنه آتاه حكماً وعلماً ، والحُكْم : هو العمل بالعلم ، وكلامُ اللَّه صادِقٌ ، وخبره صحيحٌ ، ووصفه حَقٌّ ، فقد عَمِلَ يوسُفُ بما عَلَّمه اللَّه من تحريم الزنا ،

(259/393)

وتحريم خيانةِ السيِّد في أهْله ، فما تعرّض لامرأةِ العزيز ، ولا أناب إلى المُرَاودة ، بل أَدْبَرَ عنها ، وفَرَّ منها ؛ حِكْمَةً خُصَّ بها ، وعملٌ بما علّمه اللَّه تعالى ، وهذا يطمس وُجُوهَ الجَهَلَةِ مِنَ النّاس والغَفَلَةِ من العلماءِ في نسْبتهم إلى الصِّدّيق ما لا يليقُ ، وأقلُّ ما اقتحموا مِنْ ذلك هَتْكُ السراويلِ ، والهمُّ بالفَتْكِ فيما رَأَوْهُ من تأويلٍ ، وحاشاه من ذلك ، فما لهؤلاء المفسّرين لا يكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ؛ يقولون : فَعَلَ فَعَلَ ، واللَّه تعالى إنما قال هَمَّ بها ، قال علماء الصوفيّة : إن فائدة قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا . . . ﴾ [يوسف : 22] أن اللَّه عزّ وجلّ أعطاه العلْمَ والحكْمة ؛ بأن غلب الشهوة ؛ ليكون ذلك سبباً للعصْمَة ، انتهى .

والكافُ من قوله تعالى : ﴿ كذلكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوءَ ﴾ : متعلّقةٌ بمضمرٍ ، تقديره : جَرَتْ أفعالنا وأقدارنا كذلك ؛ لنصرفَ ، ويصحُّ أن تكون الكافُ في موضعِ رفعٍ بتقدير عصمَتَنا له كَذَلَكَ ، وقرأ ابن كثير وغيره : «المُخْلِصِينَ» – بكسر اللامِ – في سائر القرآن ، ونافع وغيره بفَتْحها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(260/393)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾

بمخالطته إذِ الهمُّ لا يتعلق بالأعيان أي قصدتْها وعزمت عليها عزماً جازماً لا يَلويها عنه صارفٌ بعد ما باشرت من مباديها وفعلت ما فعلت من المراودة وتغليقِ الأبواب ودعوتِه عليه السلام إلى نفسها بقولها : هيتَ لك ، ولعلها تصدّت هنالك لأفعال أُخَرَ من بسط يدِها إليه وقصدِ المعانقة وغيرِ ذلك مما يَضْطره عليه السلام إلى الهرب نحوَ الباب ، والتأكيدُ لدفع ما عسى يُتوهم من احتمال إقلاعِها عما كانت عليه بما في مقالته عليه السلام من الزواجر ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ بمخالطتها أي مال إليها بمقتضى الطبيعةِ البشرية وشهوةِ الشباب وكونه ميلاً جبلياً لا يكاد يدخل تحت التكليفِ لا أنه قصدها قصداً اختيارياً ، ألا يُرى إلى

ما سبق من استعصامه المُنْبىءِ عن كمال كراهيته له ونفرته عنه وحُكمه بعدم إفلاح الظالمين وهل هو إلا تسجيلٌ باستحالة صدور الهمِّ منه عليه السلام تسجيلاً محكماً وأنه عبر عنه بالهمّ لمجرد وقوعه في صحبة همّها في الذكر بطريق المشاكلة لا لشَبَهه به كما قيل، ولقد أشير إلى تباينهما حيث لم يُلزّا في قَرن واحد من التعبير بأن قيل: ولقد همّا بالمخالطة أو همّ كلٌّ منهما بالآخر، وصُدّر الأولُ بما يقرر وجودَه من التوكيد القسمي وعُقّب الثاني بما يعفو أثرَه من قوله عز وجل: ﴿ لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ أي حجتَه الباهرةَ الدالة على كمال قبحِ الزنى وسوءِ سبيله، والمرادُ برؤيته لها كمالُ إيقانِه بها ومشاهدتِه لها مشاهدةً واصلة إلى مرتبة عينِ اليقين الذي تتجلى هناك حقائقُ الأشياء بصورها الحقيقيةِ وتنخلع عن صورها المستعارة التي بها تظهر في هذه النشأة على ما نطق به قولُه عليه السلام: " حُفّت الجنةُ بالمكاره وحفت النار بالشهوات " وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنى بموجب ذلك البرهانِ النيّر على ما هو عليه في حد ذاتِه أقبحَ ما يكون وأوجبَ ما يجب أن يُحذر منه ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام

والحُكمِ بعدم إفلاحِ من يرتكبه ، وجوابُ لولا محذوفٌ يدل عليه الكلام أي لولا مشاهدتُه برهانَ ربه في شأن الزنى لجَرى على موجب ميلِه الجِبليّ ولكنه حيث كان مشاهداً له من قبلُ استمر على ما هو عليه من قضية البرهان ، وفائدةُ هذه الشرطيةِ بيانُ أن امتناعَه عليه السلام لم يكن لعدم مساعدةٍ من جهة الطبيعة بل لمحض العفةِ والنزاهة مع وفور الدواعي الداخلية وترتبِ المقدّمات الخارجيةِ الموجبةِ لظهور الأحكام الطبيعية .

هذا وقد نص أئمةُ الصناعة على أن لولا في أمثال هذه المواقعِ جارٍ من حيث المعنى لا من حيث الصيغة مُجرى التقييدِ للحُكم المطلقِ كما في مثل قوله تعالى : ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾

فلا يتحقق هناك همٌّ أصلاً . وقد جوز أن يكون (وهم بها) جوابَ لولا جرياً على قاعدة الكوفيين في جواز التقديم فالهمُّ حينئذ على معناه الحقيقي ، فالمعنى لولا أنه قد شاهد برهانَ ربه لهَمَّ بها كما همت به ولكن حيث انتفى عدم المشاهدة بدليل استعصامِه وما يتفرع عليه انتفى الهمُّ رأساً ، هذا وقد فُسّر همُّه عليه السلام بأنه عليه السلام حلّ الهَمَيان وجلس مجلسَ الخِتان وبأنه حل تِكّة سراويله وقعد بين شُعَبها ، ورؤيتُه للبرهان بأنه سمع

صوتاً : إياك وإياها فلم يكترثْ ثم وثم إلى أن تمثّل له يعقوبُ عليه السلام عاضّاً على أنملته وقيل : ضرب على صدره فخرجت شهوتهُ من أنامله ، وقيل : بدت كفٌّ فيما بينهما ليس فيها عضدٌ ولا مِعصمٌ مكتوبٌ فيها : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين * كِرَاماً كاتبين ﴾ فلم ينصرف ، ثم رأى فيها : ﴿ وَلاَ تقربُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً ﴾ فلم ينتهِ ثم رأى فيها : ﴿ واتقوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله ﴾ فلم يَنْجع ، فقال الله عز وجل لجبريل : "أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة" فانحط جبريل عليه السلام وهو يقول : يا يوسفُ أتعملُ عملَ السفهاء وأنت مكتوبٌ في ديوان الأنبياء ؟ وقيل : رأى تمثال العزيزِ ، وقيل : إنْ كلَّ ذلك إلا خرافاتٌ وأباطيل تمجُّها الآذانُ وتردُّها العقول والأذهانُ ويلٌ لمن لاكها ولفّقها أو سمعها وصدّقها .

﴿ كذلك ﴾ الكافُ منصوبُ المحلِّ وذلك إشارةٌ إلى الإراءة المدلول عليها بقوله تعالى : ﴿ لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبّهِ ﴾ أي مثلَ ذلك التبصيرِ والتعريفِ عرفناه برهاننا فيما قبل ، أو إلى التثبيت اللازمِ له أي مثلَ ذلك التثبيتِ ثبتناه ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوء ﴾ على الإطلاق فيدخل فيه خيانةُ السيِّد دخولاً أولياً ﴿ والفحشاء ﴾ والزنى لأنه مفرِطٌ في القبح وفيه

آيةٌ بينةٌ وحجةٌ قاطعةٌ على أنه عليه السلام لم يقع منه همٌّ بالمعصية ولا توجّه إليها قط ، وإلا لقيل : لنصرِفَه عن السوء والفحشاء ، وإنما توجه إليه ذلك من خارجٍ فصرَفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفةِ والعصمةِ فتأمل . وقرىء ليَصرِف على إسناد الصرْف إلى ضمير الرب ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ تعليلٌ لما سبق من مضمون الجملةِ بطريق التحقيقِ ، والمخلصون هم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته بأن عصمهم عما هو قادحٌ فيها ، وقرىء على صيغة الفاعل وهم الذين أخلصوا دينهم لله سبحانه وعلى كلا المعنيين فهو منتظمٌ في سلكهم داخلٌ في زمرتهم من أول أمره بقضية الجملةِ الاسميةِ لا أن ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك فانحسم مادةُ احتمالِ صدورِ الهمّ بالسوء منه عليه السلام بالكلية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(264/393)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾

أي بمخالطته إذ الهم سواء استعمل بمعنى القصد والإرادة مطلقاً أو بمعنى القصد الجازم والعقد الثابت كما هو المراد ههنا .

لا يتعلق بالأعيان .

والمعنى أنها قصدت المخالطة وعزمت عليها عزماً جازماً لا يلويها عنه صارف بعد ما باشرت مباديها وفعلت ما فعلت مما قص الله تعالى ، ولعلها تصدت هنالك لأفعال أخر من بسط يدها إليه وقصد المعانقة وغير ذلك مما اضطره عليه السلام إلى الهرب نحو الباب ، والتأكيد لدفع ما عسى يتوهم من احتمال إقلاعها عما كانت عليه بما في مقالته عليه السلام من الزواجر ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ أي مال إلى مخالطتها بمقتضى الطبيعة البشرية كميل الصائم في اليوم الحار إلى الماء البارد ، ومثل ذلك لا يكاد يدخل تحت التكليف لا أنه عليه السلام قصدها قصداً اختيارياً لأن ذلك أمر مذموم تنادي الآيات على عدم اتصافه عليه السلام به ، وإنما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه في صحبة همها في الذكر بطريق المشاكلة لا لشبهه به كما قيل ، وقد أشير إلى تغايرهما كما قال غير واحد : حيث لم يلزا في قرن واحد من التعبير بأن قيل : ولقد هما بالمخالطة أو هم كل منهما بالآخر وأكد الأول دون الثاني .

﴿ لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ أي حجته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنا وسوء سبيله ، والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها ومشاهدته لها مشاهدة واصلة إلى مرتبة عين اليقين ،

وقيل : المراد برؤية البرهان حصول الأخلاق وتذكر الأحوال الرادعة عن الإقدام على المنكر ، وقيل : رؤية ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 32] مكتوباً في السقف ، وجواب ﴿ لَوْلَا ﴾ محذوف يدل عليه الكلام أي لولا مشاهدته البرهان لجرى على موجب ميله الجبلي لكنه حيث كان مشاهداً له استمر على ما هو عليه من قضية البرهان ، هذا ما ذهب إليه بعض المحققين في معنى الآية وهو قول بإثبات هم له عليه السلام إلا أنه هم غير مذموم .

وفي "البحر" أنه لم يقع منه عليه السلام هم بها ألبتة بل هو منفي لوجود رؤية البرهان كما تقول : قارفت الذنب لولا أن عصمك الله تعالى ولا نقول : إن جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ متقدم عليها وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها ، وقد ذهب إلى الجواز الكوفيون .

ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري .

وأبو العباس المبرد بل نقول : إن جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه كما يقول جمهور البصريين في قول العرب : أنت ظالم إن فعلت كذا فيقدرونه إن فعلت فأنت ظالم ، ولا

يدل قولهم : أنت ظالم على ثبوت الظلم بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل ، وكذلك ههنا التقدير ﴿ لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ لهم بها فكان يوجد الهمّ على تقدير انتفاء رؤية البرهان لكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهم ، والمراد بالبرهان ما عنده عليه السلام من العلم الدال على تحريم ما همت به وأنه لا يمكن الهم فضلاً عن الوقوع فيه ، ولا التفات إلى قول الزجاج : ولو كان الكلام ولهم بها كان بعيداً فكيف مع سقوط اللام لأنه توهم أن قوله تعالى : ﴿ هَمَّ بِهَا ﴾ هو جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ ونحن لم نقل بذلك ، وإنما قلنا إنه دليل الجواب على أنه على تقدير أن يكون نفس الجواب قد يقال : إن اللام ليست بلازمة بل يجوز أن يأتي جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ إذا كانت بصيغة الماضي باللام وبدونها فيقال : لولا زيد لأكرمتك ولولا زيد أكرمتك ، فمن ذهب إلى أن المذكور هو نفس الجواب لم يبعد ، وكذا لا التفات أيضاً لقول ابن عطية : إن قول من قال إن الكلام قد تم في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ وأن جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ في قوله سبحانه : ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ وأن المعنى ﴿ لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ لهمّ بها فلم يهم يوسف عليه السلام يرده لسان العرب ، وأقوال السلف لما في قوله : يرده لسان العرب من البحث .

وقد استدل من ذهب إلى الجواز بوجوده في لسان العرب فقد قال سبحانه : ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا ﴾ [القصص : 10] فقوله سبحانه : ﴿ إِن كَادَتْ ﴾ الخ إما أن يكون هو الجواب على ما ذهب إليه ذلك القائل ، وإما أن يكون دليل الجواب على ما قررناه ، وأما أقوال السلف فالذي نعتقده أنه لم يصح منها شيء عنهم لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضاً مع كونها قادحة في بعض فساق المسلمين فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة على أن ما روي لا يساعد عليه كلام العرب لأنه يقتضي كون الجواب محذوفاً لغير دليل لأنهم لم يقدروا بناءاً على ذلك لهمّ بها وكلام العرب لا يدل إلا على أن يكون المحذوف من معنى ما قبل الشرط لأنه الدليل عليه ، هذا وممن ذهب إلى تحقق الهمّ القبيح منه عليه السلام الواحدي فإنه قال في كتاب "البسيط" : قال المفسرون الموثوق بعلمهم المرجوع إلى روايتهم الآخذون للتأويل عمن شاهد التنزيل : هم يوسف عليه السلام أيضاً بهذه المرأة هما صحيحا وجلس منها مجلس الرجل من المرأة فلما رأى البرهان من ربه زال كل شهوة عنه . قال أبو جعفر الباقر : رضي الله تعالى عنه بإسناده عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال : "طمعت فيه وطمع فيها" وكان طمعه فيها أن هم أن يحل التكة .

وعن ابن عباس أنه حل الهميان وجلس منها مجلس الخاتن ، وعنه أيضاً أنها استلقت له وقعد بين رجليها ينزع ثيابه ، ورووا في البرهان روايات شتى : منها ما أخرجه أبو نعيم في "الحلية" عن علي كرم الله تعالى وجهه أنها قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت في ناحية البيت فسترته بثوب أبيض بينها وبينه ، فقال عليه السلام : أي شيء تصنعين ؟ فقالت : أستحي من إلهي أن يراني على هذه السوأة فقال : تستحين من صنم لا يأكل ولا يشرب ولا أستحي أنا من إلهي الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟! ثم قال : لا تناليها مني أبداً وهو البرهان الذي رأى ، ومنها ما أخرجه ابن جرير .

وغيره عن ابن عباس أنه عليه السلام مثل له يعقوب عليه السلام فضرب بيده على صدره ، ومنها ما أخرجه عن قتادة أنه قال : ذكر لنا أنه مثل له يعقوب عاضاً على إصبعيه وهو يقول : يا يوسف أتهم بعمل السفهاء وأنت مكتوب من الأنبياء ، ومنها ما أخرجه عن القاسم بن أبي بزة قال : نودي يا ابن يعقوب لا تكونن كالطير له ريش فإذا زنى قعد ليس له ريش فلم يعرض للنداء وقعد فرفع رأسه فرأى وجه يعقوب عاضاً على إصبعه فقام مرعوباً استحياءاً من أبيه إلى غير ذلك ، وتعقب الإمام الرازي ما ذكر بأن هذه المعصية التي

نسبوها إلى يوسف وحاشاه من أقبح المعاصي وأنكرها ، ومثلها لو نسب إلى أفسق خلق الله تعالى وأبعدهم عن كل خير لاستنكف منه ، فكيف يجوز إسناده إلى هذا الصديق الكريم ؟ وأيضاً إن الله سبحانه شهد بكون ماهية السوء وماهية الفحشاء مصر وفتين عنه ، ومع هذه الشهادة كيف يقبل القول بنسبة أعظم السوء والفحشاء إليه عليه السلام ، وأيضاً إن هذا الهم القبيح لو كان واقعاً منه عليه السلام كما زعموا وكانت الآية متضمنة له لكان تعقيب ذلك بقوله تعالى : ﴿ كذلك لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوء والفحشاء ﴾ خارجاً عن الحكمة لأنا لو سلمنا أنه لا يدل على نفي المعصية فلا أقل من أن يدل على المدح العظيم ، ومن المعلوم أنه لا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكي إقدامه على معصية عظيمة ثم إنه يمدحه ويثني عليه بأعظم المدائح واوثنية ، وأيضاً إن الأكابر كالأنبياء متى صدرت عنهم زلة أو هفوة استعظموا ذلك وأتبعوه بإظهار الندامة والتوبة والتخضع والتنصل فلو كان يوسف عليه السلام أقدم على هذه الفاحشة المنكرة لكان من المحال أن لا يتبعها بذلك ، ولو كان قد أتبعها لحكى وحيث لم يكن علمنا أنه ما صدر عنه في هذه الواقعة ذنب أصلاً ، وأيضاً جميع من له تعلق بهذه الواقعة قد أفصح ببراءة يوسف عليه السلام عن المعصية كما لا يخفى على من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، ومن نظر في قوله

سبحانه : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين ﴾ رآه أفصح شاهد على براءته عليه السلام ،

ومن ضم إليه قول إبليس :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ص : 82 ، 83] وجد إبليس مقراً بأنه لم يغوه ولم يضله عن سبيل الهدى كيف وهو عليه السلام من عباد الله تعالى المخلصين بشهادة الله تعالى ، وقد استثناهم من عموم ﴿ لأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وعند هذا يقال للجهلة الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام تلك الفعلة الشنيعة : إن كانوا من أتباع الله سبحانه فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته عليه السلام ، وإن كانوا من أتباع إبليس فليقبلوا شهادته ، ولعلهم يقولون كنا في أول الأمر من تلامذته إلى أن تخرجنا فزدنا عليه في السفاهة كما قال الحريري :

وكنت امرءاً من جند إبليس فانتهى . . .

بي الحال حتى صار إبليس من جندي

فلو مات قبلي كنت أحسن بعده . . .

طرائق فسق ليس يحسنها بعدي

ومن أمعن النظر في الحجج وأنصف جزم أنه لم يبق في يد الواحدي ومن وافقه إلا مجرد التصلف وتعديد أسماء المفسرين ولم يجد معهم شبهة في دعواهم المخالفة لما شهد له

الآيات البينات سوى روايات واهيات .

وقد ذكر الطيبي طيب الله تعالى ثراه بعد أن نقل ما حكاه محيي السنة عن بعض أهل الحقائق من أن الهم همان : هم ثابت وهو ما كان معه عزم وعقد ورضا مثل هم امرأة العزيز .

وهم عارض وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف عليه السلام أن هذا التفسير هو الذي يجب أن نذهب إليه ونتخذه مذهباً ، وإن نقل المفسرون ما نقلوا لأن متابعة النص القاطع وبراءة المعصوم عن تلك الرذيلة وإحالة التقصير على الرواة أولى بالمصير إليه على أن أساطين النقل المتقنين لم يرووا في ذلك شيئاً مرفوعاً في كتبهم ، وجل تلك الروايات بل كلها مأخوذ من مسألة أهل الكتاب اه ، نعم قد صحح الحاكم بعضاً من الروايات التي استند إليها من نسب تلك الشنيعة إليه عليه السلام لكن تصحيح الحاكم محكوم عليه بعدم الاعتبار عند ذوي الاعتبار .

وفي إرشاد العقل السليم بعد نقل نبذة منها إن كل ذلك إلا خرافات وأباطيل تمجها الآذان وتردها العقول والأذهان ويل لمن لاكها ولفقها أو سمعها وصدقها ، ثم إن الإمام عليه الرحمة ذكر في تفسير الآية الكريمة بعد أن منع دلالتها على الهم ما حاصله : إنا سلمنا أن الهم قد

حصل إلا أنا نقول : لا بد من ءضمار فعل مخصوص يجعل متعلق الهم إذ الذوات لا تصلح له ولا يتعين ما زعموه من إيقاع الفاحشة بها بل نضمره شيئاً آخر يغاير ما أضمروه ، فنقول : المراد هم بدفعها عن نفسه ومنعها عن ذلك القبيح لأنه الذي يستدعيه حاله عليه السلام ، وقد جاء هممت بفلان أي قصدته ودفعته ويضمر في الأول المخالطة والتمتع ونحو ذلك لأنه اللائق بحالها ، فإن قالوا : لا يبقى حينئذٍ لقوله سبحانه : ﴿ لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ فائدة ؟ قلنا : بل فيه أعظم الفوائد وبيانه من وجهين :

الأول : أنه تعالى أعلم يوسف أنه لو هم بدفعها لفعلت معه ما يوجب هلاكه فكان في الامتناع عن ذلك صون النفس عن الهلاك ، الثاني : أنه لو اشتغل بدفعها فلربما تعلقت به فكان يتمزق ثوبه من قدام ؛ وكان في علم الله تعالى أن الشاهد يشهد بأن ثوبه لو كان متمزقاً من قدام لكان هو الجاني .

(272/393)

ولو كان متمزقاً من خلف لكانت هي الجانية فأعلمه هذا المعنى فلا جرم لم يشتغل بدفعها وفرعنها حتى صارت الشهادة حجة له على براءته عن المعصية ، وإلى تقدير الدفع ذهب بعض السادة الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم ففي "الجواهر والدرر" للشعراني : سألت

شيخنا عن قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ما هذا الهم الذي أبهم فقد تكلم الناس فيه بما لا يليق برتب الأنبياء عليهم السلام؟ فقال: لا أعلم، قلت: قد ذكر الشيخ الأكبر قدس سره أن مطلق اللسان يدل على أحدية المعنى، ولكن ذلك أكثري لا كلي فالحق أنها همت به عليه السلام لتقهره على ما أرادته منه، وهم هو بها ليقهرها في الدفع عما أرادته منه فالاشتراك في طلب القهر منه ومنها والحكم مختلف، ولهذا قالت: ﴿ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ [يوسف: 51] وما جاء في السورة أصلاً أنه راودها عن نفسها اه، وجوز الإمام أيضاً تفسيراً لهم بالشهوة، وذكر أنه مستعمل في اللغة الشائعة فإنه يقول القائل فيما لا يشتهيه: لا يهمني هذا، وفيما يشتهيه: هذا أهم الأشياء إلي، وهو ما أشرنا إليه أولاً إلا أنه عليه الرحمة حمل الهم في الموضعين على ذلك فقال بعد: فمعنى الآية ولقد اشتهته واشتهاها ولولا أن رأى برهان ربه لفعل وهو مما لا داعي إليه إذ لا محذور في نسبة الهم المذموم إليها، والظاهر أن الهم بهذا المعنى مجاز كما نص عليه السيد المرتضى في درره لا حقيقة كما يوهمه ظاهر كلام الإمام، وقد ذهب إلى هذا التأويل أبو علي الجبائي.

وغيره ، وروي ذلك عن الحسن ، وبالجملة لا ينبغي التعويل على ما شاع في الأخبار والعدول عما ذهب إليه المحققون الأخيار ، وإياك والهم بنسبة تلك الشنيعة إلى ذلك الجناب بعد أن كشف الله سبحانه عن بصر بصيرتك فرأيت برهان ربك بلا حجاب ﴿ كذلك لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوء ﴾ قيل : خيانة السيد ﴿ والفحشاء ﴾ الزنا لأنه مفرط القبح ، وقيل : ﴿ السوء ﴾ مقدمات الفحشاء من القبلة والنظر بشهوة .

وقيل : هو الأمر السيء مطلقاً فيدخل فيه الخيانة المذكورة وغيرها ، والكاف على ما قيل : في محل نصب ، والإشارة إلى التثبيت اللازم للإراءة المدلول عليها بقوله سبحانه : ﴿ لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه ﴿ لِنَصْرِفَ ﴾ الخ ، وقال ابن عطية : إن الكاف متعلقة بمضمر تقديره جرت أفعالنا وأقدارنا ﴿ كذلك لِنَصْرِفَ ﴾ ، وقدر أبو البقاء نراعيه كذلك ، والحوفي أريناه البراهين كذلك ، وجوز الجميع كونه في موضع رفع فقيل : أي الأمر أو عصمته مثل ذلك لكن قال الحوفي : إن النصب أجود لمطالبة حروف الجر للأفعال أو معانيها ، واختار في "البحر" كون الإشارة إلى الرؤية المفهومة من رأى أو الرأي المفهوم ، وقد جاء مصدر الرأي كالرؤية كما في قوله :

ورأى عيني الفتى أباكا . . .

يعطي الجزيل فعليك ذاكا

والكاف في موضع نصب بما دل عليه قوله سبحانه : ﴿ لَوْلا أَن رَّأَى ﴾ الخ ، وهو أيضاً

متعلق ﴿ لِنَصْرِفَ ﴾ أي مثل الرؤية أو الرأي يرى براهيننا (لنصرف) الخ ، وقيل غير ذلك ، ومما لا ينبغي أن يلتفت إليه ما قيل : إن الجار والمجرور متعلق بهم ، وفي الكلام تقديم وتأخير وتقديره ولقد همت به وهم بها كذلك لولا أن رأى برهان ربه لنصرف عنه الخ ، ولا يخفى ما في التعبير بما في النظم الجليل دون لنصرفه عن السوء والفحشاء من الدلالة على رد من نسب إليه ما نسب والعياذ بالله تعالى .

وقرأ الأعمش ليصرف بياء الغيبة وإسناد الصرف إلى ضمير الرب سبحانه ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين ﴾ تعليل لما سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق ، والمخلصون هم الذين أخلصهم الله تعالى واختارهم لطاعته بأن عصمهم عما هو قادح فيها ، والظاهر أن المراد الحكم عليه بأنه مختار لطاعته سبحانه ، ويحتمل على ما قيل : أن يكون المراد أنه من ذرية إبراهيم عليه السلام الذين قال فيهم جل وعلا : ﴿ إِنَّا أَخلصناهم بِخَالِصَةٍ ﴾ [ص : 46] .

وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو .

وابن عامر المخلصين إذا كان فيه أل حيث وقع بكسر اللام وهم الذين أخلصوا دينهم لله تعالى ، ولا يخفى ما في التعبير بالجملة الاسمية من الدلالة على انتظامه عليه السلام في سلك أولئك العباد الذين هم هم من أول الأمر لا أنه حدث له ذلك بعد أن لم يكن ، وفي هذا عند دوي الألباب ما ينقطع معه عذر أولئك المتشبثين بأذيالها تيك الأخبار التي ما أنزل الله تعالى بها من كتاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(275/393)

وقال القاسمى :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾

(الهم) يكون بمعنى القصد والإرادة ، ويكون فوق الإرادة ودون العزم ، إذا أريد به اجتماع النفس على الأمر والإزماع عليه ، وبالعزم : القصد إلى إمضائه ، فهو أول العزيمة . وهذا معنى قولهم : الهم همان : همٌّ ثابت معه عزم وعقد ورضا ، وهو مذموم مؤاخذ به . وهمٌّ بمعنى خاطر ، وحديث نفس ، من غير تصميم ، وهو غير مؤاخذ به . لأنه خطور المناهي

في الصدور ، وتصورها في الأذهان ، لا مؤاخذة بها ما لم توجد في الأعيان .

روى الشيخان وأهل السنن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : < إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ، ما لم تتكلم به ، أو تعمل به > . ورواه الطبراني عن عِمْرَان بن حصين رضي الله عنهما .

فمعنى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ أي : بمخالطته ، أي : قصدتها وعزمت عليها عزماً جازماً ، لا يلويها عنه صارف ، بعد ما باشرت مبادئها من المراودة ، وتغليق الأبواب ، ودعوته إلى الإسراع إليها بقولها : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ مما اضطره إلى الهرب إلى الباب .

ومعنى قوله : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ أي : لولا رؤيته برهان ربه لهمَّ بها ، كما همت به ، لتوفر الدواعي . ولكنه رأى من تأييد الله له بالبرهان ما صرف عنه السوء والفحشاء .

قال أبو حيان : ونظيره (قارفت الإثم لولا الله عصمك) . ولا نقول : إن جواب (لولا) يتقدم عليها ، وإن لم يقم دليل على امتناعه ، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف فيها ، حتى ذهب الكوفيون وأعلام البصريين إلى جواز تقدمه ، بل نقول : هو محذوف لدلالة ما قبله عليه . لأن المحذوف في الشرط يقدر من الجنس ما قبله . انتهى .

فالآية حينئذ ناطقة بأنه لم يهمّ أصلاً . وقيل : جواب (لولا) لغشيها ونحوه . فمعنى (الهم) حينئذ ما قاله الإمام الرازي : من أنه خطور الشيء بالبال ، أو ميل الطبع . كالصائم في الصيف . يرى الماء البارد ، فتحمله نفسه على الميل إليه ، وطلب شربه ، ولكن يمنعه دينه عنه . وكالمرأة الفائقة حسناً وجمالاً ، تتهيأ للشاب النامي القوي ، فتقع بين الشهوة والعفة ، وبين النفس والعقل ، مجاذبة ومنازعة . (فالهم) هنا عبارة عن جواذب الطبيعة ، ورؤية البرهان جواذب الحكمة ، وهذا لا يدل على حصول الذنب ، بل كلما كانت هذه الحال أشد كانت القوة على لوازم العبودية أكمل . انتهى .

وكذا قال أبو السعود : إن همه بها بمعنى ميله إليها ، بمقتضى الطبيعة البشرية ، وشهوة الشباب وقرمه ، ميلاً جبلياً ، لا يكاد يدخل تحت التكليف ، لا أنه قصدها قصداً اختيارياً ، ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه المنبئ عن كمال كراهيته له ، ونفرته عنه ، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين ، وهل هو إلا تسجيل باستحالة صدور الهم منه – عليه السلام – تسجيلاً محكماً ؟ وإنما عبر عنه بالهم ؛ لمجرد وقوعه في صحبة همها في الذكر ، بطريق المشاكلة ، لا لشبهه به كما قيل . ولقد أشير إلى تباينهما ، حيث لم يُلزا في قرن واحد من التعبير ، بأن قيل : ولقد هما بالمخالطة ، أو هم كل منهما بالآخر . وصُدِّر الأول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمي ، وعقب الثاني بما يعفو أثره من قوله عز وجل : ﴿ لَوْلا أَن

رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ أي : حجته الباهرة ، الدالة على كمال قبح الزنى ، وسوء سبيله . والمراد برؤيته لها كمال إيقانه ، ومشاهدته لها مشاهدة واصلة إلى مرتبة عين اليقين . وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنى بموجب ذلك البرهان النير ، على ما هو عليه في حد ذاته أقبح ما يكون ، وأوجب ما يجب أن يحذر منه ، ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام ، والحكم بعدم إفلاح من يرتكبه .

(277/393)

وجواب (لولا) محذوف ، يدل عليه الكلام . أي : لولا مشاهدة برهان ربه في شأن الزنى لجرى على موجب ميله الجبلي ، ولكن حيث كان مشاهداً له من قبل ؛ استمر على ما هو عليه من قضية البرهان . وفائدة هذه الشرطية بيان أن امتناعه عليه السلام ، لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة ، بل لمحض العفة والنزاهة ، مع وفور الدواعي الداخلية ، وترتيب المقدمات الخارجية ، الموجبة لظهور الأحكام الطبيعية . انتهى .

فاتضح أن لا شبهة فيها على عصمة يوسف عليه السلام ، فإن الأنبياء ليسوا بمعصومين من حديث النفس ، وخواطر الشهوة الجبلية ، ولكنهم معصومون من طاعتها ، والانقياد إليها . ولو لم توجد عندهم دواع جبلية لكانوا إما ملائكة أو عالماً آخر ، ولَمَا كانوا مأجورين

على ترك المناهي ؛ لأنهم يكونون مقهورين على تركها طبعاً . والعنين لا يؤجر ويثاب على ترك الزنى ؛ لأن الأجر لا يكون إلا على عمل ، والترك بغير داعية ليس عملاً ، وأما الترك مع الداعية ، فهو كف النفس عما تتشوف إليه فهو عمل نفسي .

وحقيقة عصمة الأنبياء هي نزاهتهم ، وبعدهم عن ارتكاب الفواحش والمنكرات التي بعثوا لتزكية الناس منها ؛ لئلا يكونوا قدوة سيئة ، مفسدين للأخلاق والآداب ، وحجة للسفهاء على انتهاك حرمات الشرائع . وليس معناها أنهم آلهة منزهون عن جميع ما يقتضيه الطبع البشري .

هذا وقد ألصق هنا بعض المفسرين الولعين بسرد الروايات ، ما تلقفوه من أهل الكتب ، ومن المتصولحين ، من تلك الأقاصيص المختلقة على يوسف عليه السلام ، في همه ، التي أنزه تأليفي عن نقلها بردها . وكلها – كما قال العلامة أبو السعود – خرافات وأباطيل ، تمجها الآذان ، وتردها العقول والأذهان ، وبل لمن لاكها ولفقها ، أو سمعها وصدقها . وسبقه الزمخشري ، فجود الكلام في ردها ، فلينظر ، فإنه مما يسر الواقف عليه .

و(السوء) : المنكر والفجور والمكروه . (والفحشاء) : ما تناهى قبحه .

قال أبو السعود : وفي قوله تعالى : ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ﴾ الخ آية بينة وحجة قاطعة على أنه عليه الصلاة والسلام لم يقع منه هم بالمعصية ، ولا توجه إليها قط ، وإلا لقيل : لنصرفه عن السوء والفحشاء . وإنما توجه إليه ذلك من خارج ، فصرفه الله تعالى بما فيه من موجبات العفة والعصمة . فتأمل .

و(المخلصين) قرئ بكسر اللام ، بمعنى الذين أخلصوا دينهم لله ، وبالفتح أي : الذين أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم .

قال الشهاب : قيل : إن كل من له دخل في هذه القصة شهد ببراءته عليه السلام . فشهد الله تعالى بقوله : ﴿ لِنَصرفِ ﴾ الخ ، وشهد هو على نفسه بقول : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي ﴾ ونحوه ، وشهدت امرأة العزيز بقولها : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ وسيدها بقوله : ﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ وإبليس بقوله : ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ فتضمن إخباره بأنه لم يُغوه . ومع هذا كله لم يبرئه أهل القصص . انتهى . عفا الله عنهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 171. 174 ﴾

(279/393)

وقال المظهرى :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ ﴾

زليخا بِهِ أى بيوسف يعنى قصدت أن يواقعها وَهَمَّ يوسف بِهَا أى مال طبعه إليها واشتهاها مع كفه نفسه عنها كما يدل عليه قوله مَعَاذَ اللَّهِ إلخ وليس المراد القصد الاختياري وذلك الميلان الطبعي وشهوة النفس مما لا يدخل تحت التكليف – بل الحقيق بالمدح والاجر الجزيل فان السبب لا فضلية البشر على الملائكة كف النفس عن الفعل عند قيام هذا الهمّ – قال الشيخ أبو منصور الماتريدى همّ يوسف بها همّ خطرة ولا صنع للعبد فيما يخطر بالقلب ولا مؤاخذة عليه – ولو كان همّه كهمنا لما مدحه اللّه تعالى بانّه مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ – وقال بعض أهل الحقائق الهمّ همان همّ ثابت وهو ما إذا كان معه عزم وعقد ورضى مثل همّ امراة العزيز فالعبد مأخوذ به – وهمّ عارض مثل الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل همّ يوسف عليه السلام والعبد غير ماخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال اللّه تعالى إذا تحدث عبدى بان يعمل حسنة فانا اكتبها له حسنة ما لم يعملها – فإذا عملها فانا اكتبها له بعشرة أمثالها – وإذا تحدث بان يعمل سيئة فانا اغفرها ما لم يعملها فإذا عملها فانا اكتبها له بمثلها – رواه البغوي من حديث أبى هريرة وفى الصحيحين وجامع الترمذي عنه بلفظ إذا همّ عبدى بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة – فان عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف – وإذا هم بسيئة

ولم يعملها لم اكتبها عليه فان عملها كتبتها سيئة واحدة – وجاز ان يكون معنى هم بها شارف على الهم – وما قيل فى تفسير قوله تعالى همّ بها انه حل الهميان وجلس منها مقعد الرجل من المرأة وما قيل انه حل سراويله وجعل يعالج ثيابه – وأسند هذا القول إلى سعيد بن جبير وغيره

من المتقدمين يأبى عنه سياق كلام اللّه تعالى فانه تعالى قال لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ – لان السوء هو الصغيرة وما ذكر فهو من الصغائر ألبتة – ولو كان كذلك لذكرت توبته واستغفاره (كما ذكر لآدم ونوح وذى النون وداود عليهم السلام مع كون كل ما صدر منهم عليهم السلام من غير قصد منهم بالمعصية – كما ذكر كل ذلك فى موضعه) ولم يذكر بل ذكر تبرية نفسه حيث قال هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي – وقال ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وقال إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ – وقال اللّه تعالى إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ – لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ جواب لو لا محذوف تقديره لجامعها – وقيل جواب لو لا مقدم عليه تقديره لو لا أن رآى برهان ربّه لهمّ بها – لكنه راى البرهان فلم يهم وأنكره النحاة لان لو لا فى حكم أدوات الشرط فلا يتقدم عليها جوابها – وجاز ان يكون همّ بها

المذكور قبلها دليلا على جوابها يعنى لهمّ بها – ومعنى الهم المذكور على هذا شارف الهم

– فهو كقوله قتلته لو لم أخف اللّه – تقديره شارفت على قتله لو لم أخف اللّه لقتلته –

واختلفوا فى ذلك البرهان فقال جعفر بن محمّد الصادق رضى اللّه عنهما البرهان النبوة

الّتي أودع اللّه فى صدره حالت بينه وبين ما يسخط اللّه عز وجل – وهذا أصوب الأقوال

عندى – وقال قتادة واكثر المفسرين انه راى صورة يعقوب وهو يقول له يا يوسف تعمل

عمل السفهاء وأنت مكتوب فى الأنبياء – وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد

وعكرمة والضحاك انفرج له سقف البيت فراى يعقوب عليه السلام عاضّا على إصبعه –

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل يعقوب فضرب بيده فى صدره فخرجت شهوته

من أنامله – وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمّد بن سيرين قال مثل له

يعقوب عاضّا على إصبعه يقول يوسف بن

يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم خليل الرّحمن اسمك فى الأنبياء وتعمل عمل السفهاء –

وقال السدى نودى يا يوسف تواقعها انما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير فى جو السماء لا

يطاق – ومثلك إذا واقعتها مثله إذا مات ووقع فى الأرض لا يستطيع ان يدفع عن نفسه

شيئًا – ومثلك ما لم تواقعها مثل الثور الصعب الّذي لا يطاق – ومثلك ان واقعتها مثل الثور يموت فيدخل النمل فى اصل قرنية لا يستطيع ان يدفع عن نفسه – وأخرج ابن جرير عن القاسم بن أبى نزة قال نودى

يا ابن يعقوب لا تكونن كالطير له ريش فإذا زنى فغدا ليس له ريش فلم يعرض للنداء – فرفع رأسه فراى وجه يعقوب عاضاّ على إصبعه – فقام مرعوبا استحياء من أبيه – وفى رواية عن مجاهد عن ابن عباس انه انحط جبرئيل عاضاّ على إصبعه يقول يا يوسف تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند اللّه فى الأنبياء – وروى انه مسحه بجناحه فخرجت شهوته من أنامله – وقال محمّد بن كعب القرظي رفع يوسف عليه السلام راسه إلى سقف البيت حين همّ فراى كتابا فى حائط البيت لا تَقْرَبُوا الزّنِى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلًا – وروى عطية عن ابن عباس رضى اللّه عنهما فى البرهان انه راى مثال الملك – وعن على بن الحسين رضى اللّه عنهما قال كان فى البيت صنم فقامت المراة وسترته بثوب – فقال لها يوسف لم فعلت هذا قالت استحييت منه ان يرانى على المعصية فقال أتستحيين ممّن لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه فانا أحق ان استحيى من ربى وهرب كَذلِكَ أى الأمر مثل ذلك أو

فعلنا كذلك لِنَصْرِفَ عَنْهُ أي عن يوسف السُّوءَ أي المعصية الصغيرة وَالْفَحْشاءَ أي الكبيرة يعنى الزنى إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24) قرأ نافع والكوفيون بفتح اللام حيث وقع معرفا باللام يعنى مختارين للنبوة أخلصهم اللّه تعالى لنفسه والباقون بكسر اللام أى مخلصين لله الطاعة والعبادة - . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المظهرى حـ 5 صـ 153.155 ﴾

(283/393)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾

والهم : العزم على الفعل .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وهمّوا بما لم ينالوا ﴾ في سورة براءة (74) .

وأكد همّها بـ ﴿ قد ﴾ ولام القسم ليفيد أنها عزمت عزماً محققاً .

وجملة ﴿ ولقد همت به ﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً .

والمقصود : أنها كانت جادة فيما راودته لا مختبرة .

والمقصود من ذكر هَمّها به التمهيد إلى ذكر انتفاء همه بها لبيان الفرق بين حاليهما في الدين فإنه معصوم .

وجملة ﴿ وهَمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ معطوفة على جملة ﴿ ولقد همت به ﴾ كلها .

وليست معطوفة على جملة ﴿ همت ﴾ التي هي جواب القسم المدلول عليه باللام ، لأنه لما أردفت جملة ﴿ وهمّ بها ﴾ بجملة شرط ﴿ لولا ﴾ المتمحض لكونه من أحوال يوسف عليه السّلام وحْده لا من أحوال امرأة العزيز تعين أنه لا علاقة بين الجملتين ، فتعين أن الثانية مستقلة لاختصاص شرطها بحال المسند إليه فيها .

فالتقدير : ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمّ بها ، فقدم الجواب على شرطه للاهتمام به .

ولم يقرن الجواب باللاّم التي يكثر اقتران جواب ﴿ لولا ﴾ بها لأنه ليس لازماً ولأنه لمّا قُدم على ﴿ لولا ﴾ كُره قرنه باللام قبل ذكر حرف الشرط ، فيحسن الوقف على قوله : ﴿ ولقد همت به ﴾ ليظهر معنى الابتداء بجملة ﴿ وهَمّ بها ﴾ واضحاً .

وبذلك يظهر أن يوسف عليه السّلام لم يخالطه همّ بامرأة العزيز لأن الله عصمه من الهمّ بالمعصية بما أراه من البرهان .

قال أبو حاتم : كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيت على قوله : ﴿ ولقد همّت به وهمّ بها ﴾ الآية قال أبو عبيدة : هذا على التقديم والتأخير ، أي تقديم الجواب وتأخير الشرط ، كأنه قال : ولقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمّ بها .

وطعن في هذا التأويل الطبري بأن جواب ﴿ لولا ﴾ لا يتقدم عليها .

ويدفع هذا الطعن أن أبا عبيدة لما قال ذلك علمنا أنه لا يرى منع تقديم جواب ﴿ لولا ﴾ ، على أنه قد يجعل المذكور قبل ﴿ لولا ﴾ دليلاً للجواب والجواب محذوفاً لدلالة ما قبل ﴿ لولا ﴾ عليه.

ولا مفرّ من ذلك على كل تقدير فإن ﴿ لولا ﴾ وشرطها تقييد لقوله : ﴿ وهمّ بها ﴾ على جميع التأويلات ، فما يقدر من الجواب يقدّر على جميع التأويلات.

وقال جماعة : هَمّ يوسف بأن يجيبها لما دعته إليه ثم ارعوى وانكفّ على ذلك لما رأى برهان ربه.

قاله ابن عباس ، وقتادة ، وابن أبي مليكة ، وثعْلب.

وبيان هذا أنه انصرف عمّا همّ به بحفظ الله أو بعصمته ، والهمّ بالسيئة مع الكف عن إيقاعها ليس بكبيرة فلا ينافي عصمة الأنبياء من الكبائر قبل النبوءة على قول من رأى عصمتهم منها قبل النبوءة ، وهو قول الجمهور ، وفيه خلاف ، ولذلك جوز ابن عباس ذلك على يوسف.

وقال جماعة : هَمّ يوسف وأخذ في التهيّؤ لذلك فرأى برهاناً صرفه عن ذلك فأقلع عن

ذلك .

وهذا قول السديّ ، ورواية عن ابن عباس .

وهو يرجع إلى ما بيناه في القول الذي قبله .

وقد خبط صاحب "الكشاف" في إلصاق هذه الروايات بمن يسميهم الحشوية والمجْبرة ، وهو يعني الأشاعرة ، وغض بصره عن أسماء من عزيت إليهم هذه التّأويلات (رمتني بدائها وانسلت) ولم يتعجب من إجماع الجميع على محاولة إخوة يوسف عليه السّلام قتلَه والقتلُ أشد .

والرؤية : هنا عِلمية لأن البرهان من المعاني التي لا ترى بالبصر .

والبرهان : الحجة .

وهذا البرهان من جملته صرفهُ عن الهمّ بها ، ولولا ذلك لكان حال البشرية لا يسلم من الهمّ بمطاوعتها في تلك الحالة لتوفّر دواعي الهمّ من حسنها ، ورغبتها فيه ، واغتباط أمثاله بطاعتها ، والقرب منها ، ودواعي الشباب المسولة لذلك ، فكان برهان الله هو الحائل بينه وبين الهمّ بها دون شيء آخر .

واختلف المفسرون في ما هو هذا البرهان ، فمنهم من يشير إلى أنه حجة نظرية قبّحت له

هذا الفعل ، وقيل : هو وحي إلهي ، وقيل : حفظ إلهي ، وقيل : مشاهدات تمثلت له .

والإشارة في قوله : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ إلى شيء مفهوم مما قبله

بتضمنه قوله : ﴿ رأى برهان ربّه ﴾ ، وهو رأي البرهان ، أي أريناه كذلك الرأي لنصرف

عنه السوء .

والصرف : نقل الشيء من مكان إلى مكان ، وهو هنا مجاز عن الحفظ من حلول الشيء

بالمحل الذي من شأنه أن يحل فيه .

عبر به عن العصمة من شيء يوشك أن يلابس شيئاً .

والتعبير عن العصمة بالصرف يشير إلى أن أسباب حصول السوء والفحشاء موجودة

ولكن الله صرفهما عنه .

والسوء : القبيح ، وهو خيانة من ائتمنه .

والفحشاء : المعصية ، وهي الزنى .

وتقدم السوء والفحشاء عند قوله تعالى : ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ﴾ في سورة

البقرة (169) .

ومعنى صرفهما عنه صرف ملابسته إياهما .

وجملة ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ تعليل لحكمة صرفه عن السوء والفحشاء الصرف

الخارق للعادة لئلا ينتقص اصطفاء الله إياه في هذه الشدة على النفس .

قرأ نافع ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر ، وخلف ﴿ المخلَصين ﴾ بفتح اللام أي الذين أخلصهم الله واصطفاهم .

وقرأه ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، ويعقوب بكسر اللام على معنى المخلصين دينهم لله .

ومعنى التعليل على القراءتين واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(286/393)

وقال الشيخ الشنقيطى :

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لولا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ الآية .

ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام هم بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همت هي به منه . ولكن القرآن العظيم بين براءته عليه الصلاة والسلام من الوقوع فيما لا ينبغي حيث بين شهادة كل من له تعلق بالمسألة ببراءته ، وشهادة الله له بذلك واعتراف إبليس به .

أما الذين لهم تعلق بتلك الواقعة فهم : يوسف ، والمرأة ، وزوجها ، والنسوة ، والشهود .

أما حزم يوسف بأنه بريء من تلك المعصية فذكره تعالى في قوله :

﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ [يوسف : 26] وقوله ﴿ قَالَ رَبِّ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يدعونني إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : 33] الآية .

وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها للنسوة : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فاستعصم ﴾ [يوسف : 32] وقولها : ﴿ الآن حَصْحَصَ الحق أَنَاْ رَاوَدْتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصادقين ﴾ [يوسف : 51] .

وأما اعتراف زوج المرأة ففي قوله : ﴿ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا واستغفري لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخاطئين ﴾ [يوسف : 28-29] .

وأما اعتراف الشهود بذلك ففي قوله : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكاذبين ﴾ [يوسف : 26] الآية .

وأما شهادة الله جل وعلا ببراءته ففي قوله : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوء والفحشآء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين ﴾ [يوسف : 24] .

قال الفخر الرازي في تفسيره : قد شهد الله تعالى في هذه الآية الكريمة على طهارته أربع مرات :

أولها - ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوء ﴾ [يوسف : 24] واللام للتأكيد والمبالغة .

والثاني – قوله : ﴿ والفحشآء ﴾ [يوسف : 24] أي وكذلك لنصرف عنه الفحشاء .

والثالث – قوله : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [يوسف : 24] مع أنه تعالى قال : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] .

والرابع – قوله : ﴿ المخلصين ﴾ [يوسف : 24] وفيه قراءتان : قراءة باسم الفاعل . وأخرى باسم المفعول .

فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتياً بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص .

وروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه ، واصطفاه لحضرته .

وعلى كلا الوجهين : فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهاً عما أضافوه إليه . اه من تفسير الرازي .

ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ ربي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ [يوسف : 23] .

وأما إقرار إبليس بطهارة يوسف ونزاهته ففي قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ص : 82 – 83] فأقر بأنه لا يمكنه إغواء

المخلصين ولا شك أن يوسف من المخلصين، كما صرح تعالى به في قوله: ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين ﴾ [يوسف: 24] فظهرت دلالة القرآن من جهات متعددة على براءته مما لا ينبغي.

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية ما نصه: وعند هذا نقول: هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة، إن كانوا من أتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته، وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فلبقبلوا شهادة إبليس على طهارته.

ولعلهم يقولون: كنا في أول الأمر تلامذة إبليس، إلى أن تخرجنا عليه فزدنا في السفاهة عليه. كما قال الخوارزمي:

وكنت أمرأ من جند إبليس فارتقى... بي الدهر حتى صار إبليس من جندي

فلو مات قبلي كنت أحسن بعده... طرائق فسق ليس يحسنها بعدي

(288/393)

فثبت بهذه الدلائل: أن يوسف عليه السلام بريء مما يقول هؤلاء الجهال. اه كلام الرازي.

ولا يخفى ما فيه من قلة الأدب مع من قال تلك المقالة من الصحابة وعلماء السلف الصالح!

وعذر الرازي في ذلك هو اعتقاده أن ذلك لم يثبت عن أحد من السلف الصالح .

وسترى في آخر هذا المبحث أقوال العلماء في هذه المسألة إن شاء الله تعالى .

فإن قيل : قد بينتم دلالة القرآن على براءته عليه السلام مما لا ينبغي في الآيات المتقدمة .

ولكن ماذا تقولون في قوله تعالى : ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ؟

فالجواب من وجهين :

الأول – إن المراد بهم يوسف بها خاطر قلبي صرف عنه وازع التقوى . وقال بعضهم : هو الميل الطبيعي والشهوة الغريزية المزمومة بالتقوى ، وهذا لا معصية فيه . لأنه أمر جبلي لا يتعلق به التكليف . كما في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول :

" اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما لا أملك " يعني ميل القلب الطبيعي .

ومثال هذا ميل الصائم بطبعه إلى الماء البارد ، مع أن تقواه تمنعه من الشرب وهو صائم .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : " ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة " لأنه ترك ما تميل إليه نفسه بالطبع خوفاً من الله ، وامتثالاً لأمره ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى ﴾ [النازعات : 40 – 41] .

وهم بني حارثة وبني سلمة بالفرار يوم أحد ، كهم يوسف هذا ، بدليل قوله : ﴿ إِذْ هَمَّتْ

طَآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ [آل عمران : 122] لأن قوله : ﴿ والله وَلِيُّهُمَا ﴾ يدل على أن ذلك الهم ليس معصية ، لأن اتباع المعصية بولاية الله لذلك العاصي إغراء على المعصية .

والعرب تطلق الهم وتريد به المحبة والشهوة ، فيقول الإنسان فيما لا يحبه ولا يشتهيه : هذا ما يهمني ، ويقول فيما يحبه ويشتهيه : هذا أهم الأشياء إلي ، بخلاف هم امرأة العزيز ، فإنه هم عزم وتصميم ، بدليل أنها شقت قميصه من دبر وهو هارب عنها ، ولم يمنعها من الوقوع فيما لا ينبغي إلا عجزها عنه .

ومثل هذا التصميم على المعصية : معصية يؤاخذ بها صاحبها ، بدليل الحديث الثات في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم من حديث أبي بكرة :

" إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار " قالوا يا رسول الله قد عرفنا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : " إنه كان حريصاً على قتل صاحبه " فصرح صلى الله عليه وسلم بأن تصميم عزمه على قتل صاحبه معصيه أدخله الله بسببها النار .

وأما تأويلهم هم يوسف بأنه قارب الهم ولم يهم بالفعل ، كقول العرب : قتلته لو لم أخف الله ،

أي قاربت أن اقتله ، كما قاله الزمخشري .

وتأويل الهم بأنه هم بضربها ، أو هم بدفعها عن نفسه ، فكل ذلك غير ظاهر ، بل بعيد من الظاهر ولا دليل عليه .

والجواب الثاني – وهو اختيار أبي حيان : أن يوسف لم يقع منه هم أصلاً ، بل هو منفى عنه لوجود البرهان .

قال مقيدة عفا الله عنه : هذا الوجه الذي اختاره أبو حيان ةغيره هو أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية ، لأن الغالب في القرآن وفي كلام العرب : أن الجواب المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه ، كقوله : ﴿ فَعَلَيْهِ توكلوا إن كُنْتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس : 84] اي إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه ، فالأول : دليل الجواب المحذوف لا نفس الجواب ، لأن جواب الشروط وجواب ﴿ لَوْلَا ﴾ لا يتقدم ، ولكن يكون المذكور قبله دليلاً عليه كالآية المذكورة . وكقوله : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : 111] أي إن كنتم صادقين فهاتوا برهانكم .

وعلى هذا القول : فمعنى الآية ، وهم بها لولا رأى برهان ربه ، أي لولا أن رآه هم بها . فما قبل ﴿ لولا ﴾ هو دليل الجواب المحذوف ، كما هو الغالب في القرآن واللغة .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لولا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا ﴾ [القصص : 10] فما قبل ﴿ لَوْلاَ ﴾ دليل الجواب . أي لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به .

واعلم أن جماعة من علماء العربية أجازوا تقديم جواب ﴿ لولا ﴾ وتقديم الجواب في سائر الشروط : وعلى هذا القول يكون جواب ﴿ لَوْلاَ ﴾ في قوله : ﴿ لولا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ هو ما قبله من قوله : ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ .

وإلى جواز التقديم المذكور ذهب الكوفيون ، ومن أعلام البصريين : ابو العباس المبرد ، وأبو زيد الأنصاري .

وقال الشيخ أبو حيان في البحر المحيط ما نصه : والذي اختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم بها ألبتة ، بل هو منفى لوجود رؤية البرهان . كما تقولك لقد قارفت لولا أن عصمك الله . ولا نقول : إن جواب ﴿ لولا ﴾ متقدم عليها ، وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك ، بل صريح أدوات الشروط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها . وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون ، ومن أعلام البصريين : أبو زيد الأنصاري ، وأبو العباس المبرد .

بل نقول : إن جواب ﴿ لَولاَ ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه ، كما يقول جمهور البصريين في قول العرب : انت ظالم إن فعلت .

فيقدرونه إن فعلت فأنت ظالم. ولا يدل قوله أنت ظالم على ثبوت الظلم. بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل، وكذلك هنا التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، فكان وجود الهم على تقدير انتفاء رؤية البرهان، لكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهم، ولا التفات إلى قول الزجاج. ولو كان الكلام: ولهم بها كان بعيداً، فكيف مع سقوط اللام؟ لأنه يوهم أن قوله: ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ هو جواب ﴿ لولا ﴾ ونحن لم نقل بذلك، وإنما هو دليل الجواب. وعلى تقدير أن يكون نفس الجواب فاللام ليست بلازمة، لجواز أن يأتي جواب ﴿ لولا ﴾ إذا كان بصيغة الماضي بالام. وبغير لام تقول: لولا زيد لأكرمتك. ولولا زيد أكرمتك. فمن ذهب إلى أن قوله: ﴿ هَمَّ بِهَا ﴾ نفس الجواب لم يبعد. ولا التفات لقول ابن عطية: إن قول من قال: إن كلام قد تم في قوله: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ ﴾ وإن جواب ﴿ لولا ﴾ في قوله: ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ وإن المعنى: لولا أن راى برهان ربه لهم بها، فلم يهم يوسف عليه السلام. قال: وهذا قول يرده لسان العرب وأقوال السلف اه. أما قوله: يرده لسان العرب فليس كما ذكرز وقد استدل من ذهب إلى جواز ذلك بوجوده في لسان العرب، قال الله تعالى: إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لولا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ المؤمنين [القصص: 10]

فقوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ [القصص: 10]: إما أن يتخرج على أن الجواب على ما ذهب إليه ذلك القائل، وإما أن يتخرج على ما ذهبنا إليه من أنه دليل الجواب، والتقدير: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به.

وأما أقوال السلف: فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك، لأنها اقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضاً، مع كونها قادحة في بعض فساق المسلمين فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة.

والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب. لأنهم قدروا جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ محذوفاً ولا يدل عليه دليل. لأنهم لم يقدروا لهم بها ولا يدل كلام العرب إلى على أن يكون المحذوف من معنى ما قبل الشرط. لأن ما قبل الشرط دليل عليه اه. محل الغرض من كلام أبي حيان بلفظه.

وقد قدمنا أن هذا القول هو أجرى الأقوال على لغة العرب، وإن زعم بعض العلماء خلاف ذلك.

فبهذين الجوابين نعلم أن يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بريء من الوقوع فيما لا

ينبغي ، وأنه إما أن يكون لم يقع منه أصلاً بناء على أن الهم معلق بأداة الامتناع التي هي ﴿ لَوْلاَ ﴾ على انتفاء رؤية البرهان ، وقد رأى البرهان فانتفى المعلق عليه ، وبانتفائه ينتفي المعلق الذي هو همه بها كما تقدم إيضاحه

في كلام أبي حيان .

وإما أن يكون همه خاطرا قلبياً صرف عنه وازع التقوى ، أو هو الشهوة والميل الغريزي المزموم بالتقوى كما أوضحناه . فيهذا يتضح لك أن قوله : ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ لا يعارض ما قدمنا من الآيات على براءة يوسف من الوقوع فيما لا ينبغي .

فإذا علمت مما بينا دلالة القرآن العظيم على براءته مما لا ينبغي ، فسنذكر لك أقوال العلماء الذين قالوا : إنه وقع منه بعض ما لا ينبغي ، وأقوالهم في المراد (بالبرهان) فنقول :

قال صاحب الدر المنثور في التفسير بالمأثور : اخرج عبد الرزاق ، والفريابين وسعيد بن منصور وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما همت به تزينت ثم استلقت على فراشها ، وهم بها جلس بين رجليها يحل تبانه نودي من السماء " يا ابن يعقوب ، لا تكن كطائر ينتف ريشه

فيبقى لا ريش له " فلم يتعظ على النداء شيئاً ، حتى رأى برهان ربه جبريل عليه السلام في صورة يعقوب غاصاً على أصبعيه . ففزع فخرجت شهوته من أنامله ، فوثب إلى الباب فوجده مغلقاً ، فرفع يوسف رجله فضرب بها الباب الأدنى فانفرج له ، واتبعته فأدركته ، فوضعت يديها في قميصه فشقته حتى بلغت عضلة ساقه ، فألفيا سيدها لدى الباب .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، وأبو نعيم في الحلية ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه سئل عن هم يوسف عليه السلام ما بلغ ؟ قال : حل الهيمان – يعني السراويل – وجلس منها مجلس الخاتن ، فصيح به ، يا يوسف لا تكن كالطير له ريش ، فإذا زنى قعد ليس له ريش ! !

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ قال : طمعت فيه وطمع فيها ، وكان من الطمع أن هم بحل التكة ، فقامت إلى صنم مكلل بالدر واليواقيت في ناحية البيت فسترته بثوب أبيض بينها وبينه ، فقال لك أي شيء تصنعين ؟ فقالت : استحيي من إلهي أن يراني على هذه الصورة . فقال يوسف عليه السلام : تستحين من صنم لا يأكل ولا يشرب ، ولا أستحي أنا من إلهي الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت ! ثم قال : لا تناليها مني أبداً – وهو البرهان الذي رأى .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ قال : حل سراويله حتى بلغ ثنته ، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته ، فمثل له يعقوب عليه السلام فضرب بيده على صدره فخرجت شهوته من أنامله .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لولا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ قال : رأى صورة أبيه يعقوب في وسط البيت عاضاً على إبهامه ، فأدبر هارباً وقال : وحقك يا أبت لا أعود أبداً .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن عكرمة ، وسعيد بن جبير في قوله : ﴿ لولا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ قالا : حل السراويل وجلس منها مجلس الخاتن ، فرأى صورة فيها وجه يعقوب عاضاً على أصابعه ، فدفع صدره فخرجت الشهوة من أنامله ، فكل ولد يعقوب قد ولد له اثنا عشر ولداً إلا يوسف عليه السلام ، فإنه نقص بتلك الشهوة ولداً فلم يولد له غير أحد عشر ولداً .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ لولا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ قال : تمثل له يعقوب عليه السلام فضرب في صدر يوسف فطارت شهوته من

أطراف أنامله ، فولد لكل ولد يعقوب اثنا عشر ذكراً ، غير يوسف لم يولد له إلا غلامان .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه ، في قوله : ﴿ لولا أن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ قال : رأى يعقوب غاصاً على أصابعه يقول : يوسف ! يوسف ! .

وأخرج ابن جرير وابن أبي جاتم ، وأبي الشيخ عن قتادة رضي الله عنه ، في الآية قال : رأى يية من آيات ربه حجزه الله بها عن معصيته . ذكر لنا أنه مثل له يعقوب غاصاً على أصبعيه ، وهو يقول له : يا يوسف ! أتهم بعمل السفهاء ، وأنت مكتوب في الأنبياء ! فذلك البرهان . فانتزع الله كل شهوة كانت في مفاصله .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن محمد بن سرين رضي الله عنه ، في قوله : لولا أن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ . قال : مثل له يعقوب – عليه السلام – غاصاً على اصبعيه يقول : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ، اسمك مكتوب في الأنبياء ، وتعمل عمل السفهاء .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير ، وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ، قالك رأى صورة

يعقوب – عليه السلام – في الجدار .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن الحسن رضي الله عنه ، قال : زعموا أن سقف البيت انفرج ، فرأى يعقوب غاصاً على أصبعيه .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، عن الحسن رضي الله عنه ، في قوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لولا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ . قال : إنه لما هم قيل له ارفع رأسك يا يوسف ، فرفع رأسه فإذا هو بصورة في سقف البيت تقول : يا يوسف ! يا يوسف ! أنت مكتوب في الأنبياء : فعصمه الله عز وجل .

وأخرج أبو عبيد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن أبي صال رضي الله عنه ، قال : رأى صورة يعقوب في سقف البيت تقول : يوسف ! يوسف ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(296/393)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾

والهَمُّ هو حديث النفس بالشيء ؛ إما أن يأتيه الإنسان أو لا يأتيه . ومن رحمة ربنا بخلْقه

أن مَنْ هَمَّ بسيئة وحدّثتْه نفسه أن يفعلها ؛ ولم يفعلها كُتِبتْ له حسنة .

وقد جاءت العبارة هنا في أمر المراودة التي كانت منها ، والامتناع الذي كان منه ، واقتضى ذلك الأمر مفاعلة بين اثنين يصطرعان في شيء .

فأحد الاثنين امرأة العزيز يقول الله في حقها :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ [يوسف : 24] .

وسبق أن أعلن لنا الحق سبحانه في الآية السابقة موقفها حين قالت : " هيت لك " وكذلك بيَّن موقف يوسف عليه السلام حين قال يوسف " معاذ الله " .

وهنا يبين لنا أن نفسه قد حدثته أيضاً ؛ وتساوى في حديث النفس ؛ لكن يوسف حدث له أن رأى برهان ربه .

ويكون فَهْمُنا للعبارة : ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها ؛ لأننا نعلم أن " لولا " حرف امتناع لوجود ؛ مثلما نقول : لولا زيد عندك لأتيتك .

ولقائل أن يقول : كيف غابت قضية الشرط في الإيجاد والامتناع عن الذين يقولون : إن الهم قد وُجِد منه ؟

ولماذا لم يَقُل الحق : لقد همَّتْ به ولم يهم بها ؛ حتى نخرج من تلك القضية الصعبة ؟

ونقول : لو قال الحق ذلك لما أعطانا هذا القولُ اللقطةَ المطلوبة ؛ لأن امرأة العزيز هَمَّتْ به لأن عندها نوازع العمل ؛ وإنْ لم يَقُلْ لنا أنه قد هَمَّ بها لظننا أنه عِنّين أو خَصَاه موقف أنها

سيدته فخارتْ قواه .

إذن : لو قال الحق سبحانه : إنه لم يَهِمّ بها ؛ لكان المانع من الهَمِّ إما أمر طبيعي فيه ، أو أمر طاريء لأنها سيدته فقد يمنعه الحياء عن الهَمِّ بها .

ولكن الحق سبحانه يريد أن يوضح لنا أن يوسف كان طبيعياً وهو قد بلغ أَشُدَّه ونُضْجه ؛ ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها .

(297/393)

وهكذا لم يَقُمْ يوسف عليه السلام بما يتطلبه ذلك لنقص فيه ؛ ولا لأن الموقف كان مفاجأة ضَيَّعَتْ رجولته بغتة ؛ مثل ما يحدث لبعض الشباب في ليلة الزفاف ، حين لا يستطيع أن يَقربَ عروسه ؛ وتمر أيام إلى أن يستعيد توازنه . ويقرب عروسه .

إذن : لو أن القرآن يريد عدم الهَمِّ على الإطلاق ؛ ومن غير شيء ، لَقَال : ولقد هَمَّتْ به ولم يَهِم بها .

ولكن مثل هذا القول هو نَفْيٌ للحدث بما لا يستلزم العفة والعصمة ، لجواز أن يكون عدم الهَمِّ راجعاً إلى نقص ما ؛ وحتى لا يتطرق إلينا تشبيهه ببعض الخدم ؛ حيث يستحي الخادم أن ينظر إلى البنات الجميلات للأسرة التي يعمل عندها ؛ ويتجه نظره إلى الخادمة التي تعمل في

المنزل المجاور ، لأن للعواطف التقاءات .

ومن لُطْفِ الله بالخلق أنه يُوجِد الالتقاءات التفاعلية في المتساويات ، فلا تأتي عاطفة الخادم في بعض الأحيان ناحية بنات البيت الذي يعمل عنده ؛ وقد يطلب من أهل البيت أن يخرج لشراء أي شيء من خارج المنزل ، لعله يحظى بلقاء عابر من خادمة الجيران .

ويجوز أن الخادم قد فكر في أنه لو هَمَّ بواحدة من بنات الأسرة التي يعمل لديها ؛ فقد تطرده الأسرة من العمل ؛ بينما هو يحيا سعيداً مع تلك الأسرة .

وهكذا يشاء الحق سبحانه أن يوزع تلك المسائل بنظام وتكافؤات في كثير من الأحيان .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لولا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف : 24] .

إذن : فبرهان ربه سابق على الهَمِّ ، فواحد هَمّ ولم يرتكب ما يتطلبه الهمّ ؛ لأن برهان ربه في قلبه ، وقد عرف يوسف برهان ربه من البداية .

وبذلك تنتهي المسألة ، ولذلك فلا داعي أن يدخل الناس في متاهات أنه هَمّ وجلس بين شعبتيها ، ولم يرتعد إلا عندما تمثّل له وجه والده يعقوب ونهاه عن هذا الفعل ؛ فأفسقُ الفُسّاق ولو تمثّل له أبوه وهو في مثل هذا الموقف لأصيب بالإغماء .

وحين تناقش مَنْ رأى هذا الرأي ؛ يردّ بأن هدفه أن يثبت فحولة يوسف ؛ لأن الهمّ وجد وأنه قد نازع الهمّ .

ونقول لصاحب هذا الرأي : أتتكلم عن الله ، أم عن الشيطان ؟ .

أنت لو نظرتَ إلى أبطال القصة تجدهم : امرأة العزيز ؛ ويوسف والعزيز نفسه ؛ والشاهد على أن يوسف قد حاول الفِكَاك من ذلك الموقف ، ثم النسوة اللاتي دَعتْهُنَّ امرأة العزيز ليشاهدوا جماله ؛ والله قد كتب له العصمة .

فكُلُّ هؤلاء تضافروا على أن يوسف لم يحدث منه شيء .

وقال يوسف نفسه : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ [يوسف : 26] وامرأة العزيز نفسها قالت مُصدّقة لِمَا قال : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فاستعصم ﴾ [يوسف : 32] .

وقالت : ﴿ الآن حَصْحَصَ الحق أَنَاْ رَاوَدْتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصادقين * ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ [يوسف : 51-52] .

وعن النسوة قال يوسف : ﴿ مَا بَالُ النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 50] .

وقال يوسف لحظتها : ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجاهلين ﴾ [يوسف : 33] .

والصَّبْوة هي حديث النفس بالشيء ؛ وهو ما يثبت قدرة يوسف عليه السلام على الفعل ، وحماه الله من الصبوة ؛ لأن الحق سبحانه قد قال : ﴿ فَصرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ [يوسف : 34] .

وانظر إلى لقطة النسوة اللاتي تهامسْنَ بالنميمة عن امرأة العزيز وحكايتها مع يوسف ، ألم يَقُلْنَ : ﴿ مَا هذا بَشَراً إِنْ هاذآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : 31] ، فحين دخل عليهن اتجهت العيون له ، وللعيون لغات ؛ وللانفعال لغات ؛ وإلا لماذا قال يوسف : ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ [يوسف : 33] .

(299/393)

وهكذا نعلم أنه قد حدثت مُقدِّمات تدل على أن النسوة نَوَيْنَ له مثل ما نَوَتْه امرأة العزيز ؛ وظَنَنَّ أن امرأة العزيز سوف تطرده ؛ فيتلقفنه هُنَّ ؛ وهذا دَأب البيوت الفاسدة .

وهل هناك أفسد من بيت العزيز نفسه ، بعد أن حكم الشاهد أنها هي التي راودتْ يوسف عن نفسه ؛ فيدمدم العزيز على الحكاية ، ويقول : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا واستغفري لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخاطئين ﴾ [يوسف : 29] .

وكان هدف العزيز أن يحفظ مكانته من القيل والقال .

وحين سأل الشاهد النسوة ، بماذا أَجبْنَ ؟

يقول الحق سبحانه أن النسوة قُلْنَ : ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سواء ﴾ [يوسف : 51] .

وقد صرف الله عنه الشيطان الذي يتكفل دائماً بالغُواية ، وهو لا يدخل أبداً في معركة مع الله ؛ ولكنه يدخل مع خَلْق الله ؛ لأن الحق سبحانه يورد على لسانه : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ص : 82-83] .

فالشيطان نفسه يُقِرُّ أن مَنْ يستخلصه الله لنفسه من العباد إنما يعجز هو كشيطان عَن غوايته ، ولا يجرؤ على الاقتراب منه .

والشاهد الذي من أهل امرأة العزيز ، واستدعاه العزيز ليتعرف على الحقيقة قال : ﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف : 27] .

وبعد كل هذه الأدلة فليس من حَقِّ أحد أن يتساءل : هل هَمَّ يوسف بامرأة العزيز ، أم لم يَهِمّ ؟

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، يقول الحق سبحانه :

﴿ لولا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف : 24] .

والبرهان هو الحجة على الحكم . والحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه : ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء : 165] .

أي : لا بُدَّ أن يبعث الحقُّ رسولاً للناس مُؤيداً بمعجزة تجعلهم يُصدِّقون المنهج الذي يسيرون عليه ؛ كي يعيشوا حياتهم بانسجام إيماني ، ولا يعذبهم الله في الآخرة .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السوء والفحشآء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين ﴾ [يوسف : 24]

.

والفحشاء هي الزنا والإتيان ؛ والسوء هي فكرة الهَمِّ ، وبعض المعتدلين قالوا : إنها بعد أن راودْته عن نفسه ؛ وخرجت بالفعل إلى مرحلة السُّعَار لحظة أن سبقها إلى الباب ؛ فكَّرتْ في أن تقتله ؛ وحاول هو أن يدافع عن نفسه وأن يقتلها ، ولو قتلها فلسوف يُجازى كقاتل .

فصرف الحق عنه فكرة القتل ؛ وعنى بها هنا قوله الحق " السوء " ؛ ولكني اطمئن إلى أن السوء هو فكرة الهَمِّ ، وهي مُقدِّمات الفعل .

ويقرر الحق سبحانه أن يوسف عليه السلام من عباده المُخْلصين ، وفي هذا رد على

الشيطان ؛ لأن الشيطان قال : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ص : 83] .

وقوله الحق هنا :

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين ﴾ [يوسف : 24] يؤكد إقرار الشيطان أنه لن يَقْرب عباد الله المخلصين . وهناك " مُخْلِصِين " . و " مُخْلَصِين " والمخلِص هو مَنْ جاهد فكسب طاعة الله ، والمُخْلَص هو مَنْ كسَب فجاهد وأَخلصه الله لنفسه .

وهناك أُناس يَصِلُون بطاعة الله إلى كرامة الله ، وهناك أُناس يكرمهم الله فيطيعون الله ولله المثل الأعلى مُنزّه عن كل تشبيه ، أنت قد يطرق بابك واحد يسألك من فضل الله عليك ؛ فتستضيفه وتُكرمه ، ومرة أخرى قد تمشي في الشارع وتدعو واحداً لتعطيه من فضل الله عليك ، أي : أن هناك مَنْ يطلب فتأذن له ، وهناك مَنْ تطلبه أنت لتعطيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(301/393)

وقال صاحب التفسير الواضح :

هكذا كانت محنة يوسف في طيها منة عليه ، ورب محنة ولكن في طيها منن . . دخل دار العزيز وأراد سيده أن يكون رئيسا للخدم وأن يحسن معاملته أو أن يتخذه ولدا وأمر امرأته

بتنفيذ ذلك . وأراد اللّه – سبحانه – فوق ذلك كله أشياء واللّه بالغ أمره ، وأرادت امرأة العزيز غير ذلك ، أرادت أن يكون يوسف عشيقا لها ، وراودته عن نفسه ، وطلبت منه ذلك بالحيلة والمكر لتصرفه عن رأيه ، راودته عن نفسه لأجل أن يريد منها ما تريد هي منه مخالفا لإرادته هو وإرادة ربه ، وأعدت العدة لذلك وغلقت باب مخدعها وأبواب البهو المحيط به لتأمن الطارق والزائر وقالت ليوسف : هلم أقبل ونفذ ما أريده منك ! ! قال يوسف : أعوذ بالله وحده أن أكون من الجاهلين ! يا هذه إن زوجك سيدي وقد أحسن مثواي وأكرم وفادتي واستأمنني على نفسه وبيته فكيف أخونه ؟ ! ! يا هذه إنه لا يفلح الظالمون أبدا الذين يظلمون أنفسهم بارتكاب المعاصي ومخالفة القانون الإلهى . . ترى يوسف – عليه السلام – أجابها معتزا بالإيمان بالله وبالأمانة لسيده وأنه لا يفلح الظالمون والخائنون ، لقد ردها يوسف ردا عنيفا وصادمها في عواطفها في وقت هي فيه ثائرة ثورة جنسية عاصفة وهي سيدته وهو خادمها إنه شيء يخرج الشخص عن صوابه .

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ .

وللعلماء في هذا الموضوع آراء واتجاهات كثيرة يجمل بنا أن نذكر الأقرب إلى الصواب الملتئم مع النسق العام للقرآن في نظرنا واللّه أعلم بمراده قال بعضهم : لقد همت به ليفعل بها ، ولولا أن رأى برهان ربه وتذكر جلاله وأمره ومراقبته لهمّ بها وفعل . . ترى أنه لم يهم بها قط لأن رؤيته برهان ربه قد سبق الهم ومنعه .

وقال البعض : إن أساليب اللغة قد تمنع مثل هذا الفهم في الآية (إذ جواب لولا لا بد أن يؤخر عنها) ولنا أن نجيب عن هذا بأن الجواب مقدر بقوله : لفعل ولفظ هم المتقدمة دليل الجواب . لا الجواب . . وبعضهم قال : إنما الرأي أن هذه الحادثة وقعت ليوسف قبل النبوة والرسالة على أن الهم الذي حصل إنما هو بمقتضى الطبيعة والفطرة الإنسانية البشرية ويوسف وقتئذ شاب يافع قوى فتى على أنه هم ولم يفعل إذ ما أن هم بمقتضى الطبيعة حتى تذكر ربه فكف نفسه بعد أن أثارتها الطبيعة ، والعيب أن يرتكب الإنسان الخطيئة لا أن يهم بها فيمنعه دينه ولذا يقولون : إنه هم وما ألم ، ومن هم بسيئة فلم يفعلها كتبها اللّه له عنده حسنة كاملة .

وخلاصة الرأيين ، أن الكل متفق على أن يوسف لم يفعل سيئة قط وإنما الرأى الأول يقول إنه ما أهم لرؤية برهان ربه فرؤية البرهان منعت الهم والرأى الثاني أنه هم بدواعى الطبيعة ثم جاء الكف والمنع من وقوع المعصية برؤية البرهان وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا [سورة الإسراء آية 74] .

وللمفسرين أقوال وأحاديث وروايات منقولة عن الإسرائيليين وغيرهم كثيرة وتتنافى مع

مقام النبوة وشرف الرسالة أردنا أن نعرض عنها حتى تموت في بطون أصحابها .

مثل ذلك فعلنا وتصرفنا مع يوسف لأنا نعده لتحمل أعباء الرسالة في المستقبل ولنصرف عنه السوء يا سبحان اللّه لم يقل القرآن لنصرفه عن السوء إذ فرق العبارتين كبير ! !

ولنصرف عنه الفحشاء ، إنه من عبادنا المصطفين الأخيار الذين اختارهم ربهم وأخلصهم من شوائب المعاصي ﴿ وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ . إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ ﴾ [سورة ص 45 – 47] .

(303/393)

وللشيخ رشيد رضا – رحمه اللّه – وأجزل ثوابه رأى في هذه الآية خلاصته : ولقد همت بإيذائه وضربه بعد عصيانه أمرها وطلبها بلطف ولين وهذا شأن المرأة همت بضربه والبطش به لعصيانه أمرها وإفساده حيلها وهم هو برد الاعتداء وبمقابلته بالمثل لو لا أن رأى برهان ربه ، واستبقا الباب كل يريد أن يصل إليه فطلبه يوسف ليفر منها وطلبته لتمنعه من الفرار ، ونشأ عن ذلك أن قدت قميصه من الخلف ووجدا سيدها وزوجها لدى الباب ، وروى أنه كان معه قريب لها ، وهنا يظهر لؤم الطبع وفساد النية وصحة قولهم

: ضربني وبكى وسبقني واشتكى ، قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ؟

ولم تعينه لأمر في نفسها ما جزاؤه إلا أن يسجن لتقتص من رجل أهان كبرياءها ومنعها من تنفيذ مؤامرتها الدنيئة لتريه أن في يدها إعزازه وإهانته ، وما علمت أن ذلك كله سلسلة محكمة الأطراف وطريق موصل إلى غاية الله يعلمها ، ويعد يوسف لها إلا أن يسجن أو يعذب عذابا مؤلما موجعا .

ولكن يوسف إزاء هذا لم ير بدا من إخبار زوجها وسيده بما حصل غير عابئ بما سيكون ما دام يرضى ربه ولم يخالفه .

وقال يوسف هي راودتني عن نفسي وسلكت في ذلك كل الطرق الممكنة وغير الممكنة واحتالت بأساليب الخداع والمكر ما شاء الله لها .

وشهد شاهد من أهلها في هذه القضية التي تحير قاضيها . . امرأته وزوجه تدعى دعوى ، وغلامه وفتاه يناقضها ، وهي دعوى تتعلق بالشرف والعرض شهد فيها شاهد قريب لها كان مع زوجها قائلا : إن كان قميص يوسف قد قدّ من قبل تكون صادقة في دعواها أنه أراد بها سوءا ، فإنه لما وثب عليها ودفعته مزق القميص من قدام ، وإن كان قميصه قد من الخلف تكون كاذبة في دعواها بالهجوم عليها ، وهو من الصادقين في قوله أنها راودته وهو فر منها ، فلما رأى سيده أن قميصه قد من دبر قال حاكما بهذا الحكم الذي يدل على ضعف الرجولة وذهاب الشهامة .

(304/393)

إنه من كيدكن أيها النساء إن كيدكن عظيم ، فمحاولة التخلص بالاتهام من كيدك أيتها المرأة .

يا يوسف أعرض عن هذا الخبر لا تخبر أحدا أبدا وأنت استغفري ربك لذنبك ، وتوبي من عملك إنك كنت من الخاطئين المذنبين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التفسير الواضح حـ 2 صـ 172.170 ﴾

(305/393)

بحث بعنوان :

** عصمة الأنبياء ***

للشيخ محمود غريب

سيدّنا يوسف عليه الصّلاة والسّلام

قال تعالى في سورة يوسف آية - 24 -

((وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك . قال معاذ الله إنه

ربي أحسن مثواي إنه لايفلح الظالمون))

وقال تعالى : --

((ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه . . .

كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين))-

25-. يوسف

مـــــع . .

. . . . قصة . . . . . . الطهر . . . . الخالدة

ومـــــع

النبيّ المظلوم

سيدّنا يوسف عليه الصّلاة والسّلام

نعيش هذا اللقاء

((وراودته التي هو في بيتها عن نفسه))

لم يذكر القرآن اسمها وعبر عنها بقوله تعالى ((التي هو في بيتها))

لماذا ؟

أولا :--- لأن المقصود هو الجانب الرمزي في القصة

وأعني به صراع الخطيئة والعفاف . . .

ثانيا :ــــ ليعلمنا القرآن أدب الحديث

فنذكر أسماء العظماء ونعرض عن أسماء الخاطئين

حتى لا نفضحهم

فتموت جرائمهم في مهدها .

ثالثا :ــــ إشارة من القرآن إلى أن يوسف في بيتها

وهي آمرة له وناهية .

فإذا عصى أمرها فيما يغضب الله

كان هذا فخرا للأخلاق ودرّة في تاجها . . .

((وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك . . . قال معاذ الله انه ربي أحسن

مثواي انه لا يفلح الظالمون)) . .

لم يكن تغليقها للأبواب هو أول ما خطر لها

ولكن ذلك جاء بعد صراع طويل عاشته امرأة العزيز

بين كبرياء منصبها

ورغبة جسدها . . .

فإذا أعلنت عن رغبتها السافرة

فقد انهزم كبرياؤها

ولم يبقى سوى متعة الجسد

لذلك تجمع كل وسائل الأغراء

وتقدمها بلا سبب إلى شباب يوسف . . .

((هيت لك)) . . . . هيئت لك .

(قال معاذ الله) أعيذ نفسي بالله أن افعل ما يغضبه .

((انه ربي أحسن مثواي))

فكيف أقابل نعمه بالمعصية . ؟ ؟ ؟

((انّه لا يفلح الظالمون))

الذين يحاربون الله بنعمه . . .

وهنا شعرت امرأة العزيز أنها خسرت كل شئ

لذلك دخلت مع يوسف مرحلة أخرى

أرادت بها أن تتخلص منه

أو ترغمه على طلبها بعنف . . .

((ولقد همّت به . . . وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك

لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين)) . . .

بقي أمام امرأة العزيز سلاح القوة

فهمّت بيوسف تريد الانتقام منه .

وهمّ بها يريد الانتقام لكرامته .

((لولا أن رأى برهان ربه)) . . . .

لقتلها

هذا الفهم مقبول لأنه يصّور حال امرأة العزيز النفسية

ولأن اللغة العربية – لغة القرآن –

تؤيده لأنّها تستعمل كلمة همّ فلان بفلان أي أراد قتله

قال تعالى :–

((إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم))

– 11 – المائدة

وفي الحديث الشريف . . . . . فهمّ الصحابة بالرجل

أي . . . . . أرادوا . . . . . . قتله

فمنعهم النبيّ

صلّ يا ربّ عليه وآله وبارك وسلّم كما تحبه وترضاه

وفي الشعر :----

فليت رجالا فيك قد نذروا دمي

(وهمّوا بقتلي) يا بثين لقوني

وهناك فهم آخر للآية الكريمة - ارتاح له -

علينا أن نعرف كلمة

همّ

فإذا عرفناها معرفة صحيحة فهمنا الآية الكريمة بكل يسر فما معنى

((همّ)) ؟

الهمّ أيها القارئ الكريم - هو درجة من درجات الخواطر النفسية

والخواطر النفسية خمس درجات :-------------

1) الهواجس

2) الخواطر

3) حديث النفس

4) الهمّ

5) العزم

وكلها انفعالات نفسية

لا دخل للإنسان فيها

ولا يحاسب عليها

إلا إذا قام بتنفيذها بعد ذلك

ننظر إلى الآية الكريمة فنرى المرأة همّت به

ثم نفذت همّها

بل وأصرت على طلبها

فقالت للنسوة :------

((ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ

وليكونن من الصاغرين)) - يوسف -32

فهي لم تقف عند الهمّ

ولكنّها شرعت في التنفيذ

وأصرت على موقفها

أمّا يوسف

فهمّه شعور في نفسه

أعقبه اعتصام بالله

ولجوء إليه . . .

((قال رب السّجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه))- يوسف /33

فالفارق بين الهمـين

كبير

أمّا برهان الله فقد تأثر كثير من المفسرين بما نقلوه من

الإسرائيليات

ففسروا برهان الله على أهوائهم

فقالوا :----------

رأى يوسف جبريل عليه السّلام يضربه على صدره

ويقول له لا تفعل فعل السّفهاء . . .

وقالوا :-----------

انّه رأى صورة يعقوب عليه السّلام يعض على إصبعه .

وقالوا :-----------

انّه رأى لوحة كتب عليها .

((لا تقربوا الزنا انّه كان فاحشة وساء سبيلا)) .

كل هذه الآراء لا دليل لها . . .

والذي ارتاح له . . .

أن برهان الله تعالى

هو النور الذي يقذفه في قلوب المؤمنين

يفرقون به بين الحق والباطل

قال تعالى :---

((يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا)) الأنفال

/ 29.

فالبرهان هو الفرقان . . .

ومعنى رؤية البرهان أي العلم به .

وذلك لان القرآن يستعمل الرؤيا في العلم في بعض الآيات .

قال تعالى :---

((الم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض

والشمس والقمر)) -الحج /18-

وقال تعالى :-----

((ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض)) المجادلة - 7-

وواضح من هذه الآيات أن معنى قوله تعالى

ألم تر أي ألم تعلم

فما علينا لو فسرنا القرآن وتركنا تلك الأقوال التي لا دليل عليها

ولا سلطان . . . وذلك

حتى لا نخطئ فهم القرآن . . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ سلسلة : حتى لا نخطئ فهم القرآن . . . للشيخ محمود غريب ﴾

(308/393)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24) ﴾

أخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما همت به ، تزينت ثم استلقت على فراشها ، وهم بها وجلس بين رجليها يحل تبانه ، نودي من السماء : يا بن يعقوب ، لا تكن كطائر ينتف ريشه ، فبقي لا ريش له ، فلم يتعظ على النداء شيئاً حتى رأى برهان ربه جبريل عليه السلام في صورة يعقوب عاضاً على اصبعيه ، ففزع فخرجت شهوته من أنامله ، فوثب إلى الباب فوجده مغلقاً ، فرفع يوسف رجله فضرب بها الباب الأدنى فانفرج له ، واتبعته فأدركته ، فوضعت يديها في قميصه فشقته حتى بلغت عضلة ساقه ، فألفيا سيدها لدى الباب .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه سئل عن هم يوسف عليه السلام ، ما بلغ ؟ قال : حل الهميان – يعني السراويل – وجلس منها مجلس الخاتن ، فصيح به يا يوسف ، لا تكن كالطير له ريش ، فإذا زنى قعد ليس له ريش .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله ﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾ قال : طمعت فيه وطمع فيها ، وكان من الطمع أن هم بحل التكة ، فقامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت في ناحية البيت ، فسترته بثوب أبيض بينها وبينه ، فقال : أي شيء تصنعي ؟ ! فقالت : استحي من الهي أن يراني على هذه الصورة . فقال يوسف

عليه السلام : تستحين من صنم لا يأكل ولا يشرب ، ولا استحي أنا من إلهي الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ ! . . . ثم قال : لا تنالينها مني أبداً . وهو البرهان الذي رأى .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وهم بها ﴾ قال : حل سراويله حتى بلغ ثنته ، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته ، فمثل له يعقوب عليه السلام ، فضرب بيده على صدره فخرجت شهوته من أنامله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ قال : رأى صورة أبيه يعقوب في وسط البيت عاضاً على ابهامه ، فأدبر هارباً وقال : وحقك يا أبت لا أعود أبداً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة وسعيد بن جبير في قوله ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ قال : حل السراويل وجلس منها مجلس الخاتن ، فرأى صورة فيها وجه يعقوب عاضاً على أصابعه ، فدفع صدره فخرجت الشهوة من أنامله ، فكل ولد يعقوب قد ولد له اثنا عشر ولداً ، إلا يوسف عليه السلام فإنه نقص بتلك الشهوة ولداً ولم يولد له

غير أحد عشر ولداً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ قال : تمثل له يعقوب عليه السلام فضرب في صدر يوسف عليه السلام ، فطارت شهوته من أطراف أنامله ، فولد لكل ولد يعقوب اثنا عشر ذكراً ، غير يوسف لم يولد له إلا غلامان .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ قال : رأى يعقوب عاضاً على أصابعه يقول : يوسف يوسف .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : رأى آية من آيات ربه ، حجزه الله بها عن معصيته . ذكر لنا أنه مثل له يعقوب عاضاً على أصبعيه وهو يقول له : يا يوسف ، أتهم بعمل السفهاء وأنت مكتوب في الأنبياء ؟ فذلك البرهان ، فانتزع الله كل شهوة كانت في مفاصله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن سيرين رضي الله عنه في قوله ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ قال : مثل له يعقوب عليه السلام عاضاً على أصبعيه يقول :

يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن ، اسمك في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء ؟! . . .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه قال : رأى صورة يعقوب عليه السلام في الجدار .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه قال : زعموا أن سقف البيت انفرج ، فرأى يعقوب عاضاً على أصبعيه .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ قال : إنه لما هم قيل له : يوسف ، ارفع رأسك . فرفع رأسه فإذا هو بصورة في سقف البيت تقول : يا يوسف ، أنت مكتوب في الأنبياء ، فعصمه الله عز وجل .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر عن أبي صالح رضي الله عنه قال : رأى صورة يعقوب في سقف البيت تقول : يوسف ، يوسف .

وأخرج ابن جرير من طريق الزهري ، أن حميد بن عبد الرحمن أخبره أن البرهان الذي رأى يوسف عليه السلام ، هو يعقوب .

وأخرج ابن جرير عن القاسم بن أبي بزة قال : نودي : يا ابن يعقوب ، لا تكونن كالطير له ريش ، فإذا زنى قعد ليس له ريش . فلم يعرض للنداء ، وقعد فرفع رأسه فرأى وجه

يعقوب عاضاً على أصبعه ، فقام مرعوباً استحياء من أبيه .

وأخرج ابن جرير عن علي بن بديمة قال : كان يولد لكل رجل منهم اثنا عشر ، اثنا عشر ، إلا يوسف عليه السلام ولد له أحد عشر ، من أجل ما خرج من شهوته .

وأخرج ابن جرير عن شمر بن عطية قال : نظر يوسف إلى صورة يعقوب عاضاً على أصبعه يقول : يا يوسف ، فذاك حيث كف وقام .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه قال : يزعمون أنه مثل له يعقوب عليه السلام ، فاستحيا منه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الأوزاعي قال : كان ابن عباس . رضي الله عنهما يقول : في قوله ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ قال : رأى آية من كتاب الله فنهته ، مثلت له في جدار الحائط .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه قال : البرهان الذي رأى يوسف عليه السلام ، ثلاث آيات من كتاب الله ﴿ وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون ﴾ [الإنفطار ، 10-11-12] وقول الله ﴿ وما تكون في

شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً . إذ تفيضون فيه . . .

﴾ [يونس : 61-62] وقول الله ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت . . . ﴾ [الرعد : 33] .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن محمد بن كعب قال : رأى في البيت في ناحية الحائط مكتوباً ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ [الإسراء : 32] .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : لما خلا يوسف وامرأة العزيز ، خرجت كف بلا جسد بينهما ، مكتوب عليه بالعبرانية ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت . . . ﴾ [الرعد : 33] ثم انصرفت الكف وقاما مقامهما ، ثم رجعت الكف بينهما ، مكتوب عليها بالعبرانية ﴿ ان عليكم لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون ﴾ [الإنفطار : 10-11-12] ثم انصرفت الكف وقاما مقامهما ، فعادت الكف الثالثة ، مكتوب عليها ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ [الإسراء : 32] وانصرفت الكف وقاما مقامهما ، فعادت الكف الرابعة ، مكتوب عليها بالعبرانية ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ [البقرة : 281] فولى يوسف عليه السلام هارباً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ قال : آيات ربه ، رأى تمثال الملك .

وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم في الحلية عن جعفر بن محمد رضي الله عنه قال : لما دخل يوسف عليه السلام معها البيت ، وفي البيت صنم من ذهب قالت : كما أنت ، حتى أغطي الصنم ، فإني أستحي منه . فقال يوسف عليه السلام : هذه تستحي من الصنم ، أنا أحق أن أستحي من الله . فكف عنها وتركها .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر رضي الله عنه في قوله ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ قال : الزنا والثناء القبيح .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ قال : الذين لا يعبدون مع الله شيئاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لولا أَن رَّأَى ﴾ : جوابُ لولا : إمَّا متقدِّمٌ عليها وهو قوله : " وَهَمَّ بها " عند مَنْ يُجيز تقديمَ جوابِ أدواتِ الشرط عليها ، وإمَّا محذوفٌ لدلالة هذا عليه عند مَنْ لا يرى ذلك ، وقد تقدَّم تقريرُ المذهبين ومَنْ عُزِيا إليه غيرَ مرة كقولهم : " أنت ظالمٌ إن فعلْتَ " ، أي : إنْ فَعَلْتَ فأنت ظالمٌ ، ولا تقول : إنَّ " أنت ظالمٌ " هو الجوابُ بل دالٌّ عليه ، وعلى هذا فالوقفُ عند قوله : " برهان ربه " والمعنى : لولا رؤيتُه برهانَ ربه لهمَّ بها لكنه امتنع هَمُّه بها لوجودِ رؤيةِ برهان ربه ، فلم يَحْصُل منه هَمٌّ البتة كقولك : " لولا زيدٌ لأكرمتك " فالمعنى أن الإِكرام ممتنعٌ لوجود زيد ، بهذا يُتَخَلَّص من الأشكال الذي يورَدُ وهو : كيف يليق بنبيٍّ أن يَهُمَّ بامرأة ؟ .

قال الزمخشري : فإن قلت : قوله " وهمَّ بها " داخلٌ تحت القَسَم في قوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ أم خارجٌ عنه ؟ قلت : الأمران جائزان ، ومِنْ حقِّ القارىء إذا قَصَدَ خروجَه من حكم القَسَم وجَعَلَه كلاماً برأسه أن يَقِفَ على قوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ ويبتدىء قوله : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لولا أن رأى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ وفيه أيضاً إشعارٌ بالفرق بين الهَمَّيْن . فإن قُلْتَ : لِمَ جَعَلْتَ جوابَ " لولا " محذوفاً يدلُّ عليه " وهَمَّ بها " وهَلاَّ جَعَلْتَه هو الجوابَ مقدَّماً .

قلت . لأنَّ " لولا " لا يتقدَّم عليها جوابُها مِنْ قِبَلِ أنه في حكم الشرط ، وللشرط صدرُ الكلام وهو [مع] ما في حيِّزه من الجملتين مثل كُلمةٍ واحدة ، ولا يجوز تقديمُ بعضِ الكلمة على بعض ، وأمَّا حَذْفُ بعضها إذا دلَّ عليه الدليل فهو جائز " .

(314/393)

قلت : قوله " وأمَّا حَذْفُ بعضها " إلى آخره جواب عن سؤالٍ مقدر وهو : فإذا كان جوابُ الشرط مع الجملتين بمنزلِة كلمةٍ فينبغي أنْ لا يُحْذَفَ منهما شيءٌ ، لأن الكلمةَ لا يُحذف منها شيءٌ . فأجاب بأنه يجوز إذا دلَّ دليلٌ على ذلك . وهو كما قال .

ثم قال : " فإن قلت : لِمَ جَعَلْتَ " لولا " متعلقةً ب " هَمَّ بها " وحدَه ، ولم تَجْعَلْها متعلقةً بجملةِ قوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ؟ لأنَّ الهمَّ لا يتعلَّق بالجواهر ولكن بالمعاني ، فلا بد من تقدير المخالطة ، والمخالطةُ لا تكون إلا بين اثنين معاً ، فكأنه قيل : / ولقد هَمَّا بالمخالطة لولا أنْ مَنَعَ مانعُ أحدِهما . قلت : نِعْمَ ما قلت ، ولكن اللَّهَ سبحانه قد جاء بالهمَّين على سبيل التفصيل حيث قال : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ .

قلت : والزَّجَّاج لم يرتضِ هذه المقالة ، أعني كون قوله : " لولا " متعلقةً ب " همَّ بها " فإنه قال : " ولو كان الكلامُ " ولهمَّ بها " لكان بعيداً ، فكيف مع سقوط اللام " ؟ يعني الزجاج أنه لا

جائزٌ أن يكونَ " وهمَّ بها " جواباً ل " لولا " ؛ لأنه لو كان جوابَها لاقترن باللام لأنه مثبت ، وعلى تقدير أنه كان مقترناً باللام كان يَبْعُدُ مِنْ جهةٍ أخرى وهي تقديمُ الجوابِ عليها . وجواب ما قاله الزجاج ما قدَّمْتُه عن الزمخشري من أنَّ الجوابَ محذوف مدلولٌ عليه بما تقدَّم . وأمَّا قولُه : " ولو كان الكلام " ولهمَّ بها " فغيرُ لازمٍ " ؛ لأنه متى كان جوابُ " لو " و " لولا " مثبتاً جاز فيه الأمران : اللامُ وعدَمُها ، وإن كان الإتيانُ باللامِ وهو الأكثر .

(315/393)

وتابع ابنُ عطية الزجاجَ أيضاً في هذا المعنى فقال : " قولُ مَنْ قال : إنَّ الكلام قد تَمَّ في قوله : { وَلَقَدْ هَمَّتَ بِهِ } وإنَّ جوابَ " لولا " في قوله : " وهمَّ بها " ، وإن المعنى : لولا أن رأى البرهانَ لَهَمَّ بها ، فلم يَهُمَّ يوسفُ عليه السلام " قال : " وهذا قول يردُّه لسان العرب وأقوال السلف " أمَّا قولُه : " يردُّه لسان العرب " فليس كذا ؛ لأنَّ وِزانَ هذه الآية وِزانُ قولِه : { إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لولا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا } [القصص : 10] فقوله إن كادَتْ : إمَّا أن يكون جواباً عند مَنْ يرى ذلك ، وإمَّا أن يكونَ دالاًّ على الجواب ، وليس فيه خروجٌ عن كلام العرب . هذا معنى ما ردَّ به عليه الشيخ . قلت : وكأن ابن عطية إنما يعني بالخروج عن لسانِ العرب تجرُّدَ الجوابِ من اللام على تقدير جواز تقديمِه ، والغرض أن اللامَ لم تُوْجد

.

قوله : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ ﴾ في هذه الكافِ أوجهٌ أحدُها : أنَّها في محلِّ نصب ، فقدَّره الزمخشري : " مثل ذلك التثبيت ثبَّتناه " . وقَدَّره الحوفي : " أَرَيْناه البراهين بذلك " وقَدَّره ابن عطية : " جرَتْ أفعالُنا وأقدارُنا كذلك لِنَصْرِفَ " ، وقدَّره أبو البقاء " نُراعيه كذلك "

.

الثاني : أن الكاف في محلِّ رفعٍ ، فقدَّره الزمخشري وأبو البقاء : " الأمر مثل ذلك " . وقدَّره ابن عطية " عِصْمَتُه كذلك " . وقال الحوفي : " أَمْرُ البراهين كذلك " ، ثم قال : " والنصبُ أجودُ لمطالبة حروف الجرِّ للأفعال أو معانيها " .

الثالث : أنَّ في الكلام تقديماً وتأخيراً ، تقديره : هَمَّتْ به وهمَّ بها كذلك ، ثم قال : " لولا أن رأى برهان ربه لنصرِفَ عنه ما همَّ بها " هذا نصُّ ابن عطية . وليس بشيءٍ ، إذ مع تسليمِ جواز التقديم والتأخير لا معنى لِما ذكره .

وقال الشيخ : " وأقول إن التقدير : مثلَ تلك الرؤية أو مثل ذلك الرأي نُرِي براهينَنا لِنَصْرِفَ عنه ، فتجعل الإِشارة إلى الرأي أو الرؤية ، والناصبُ للكاف ممَّا دَلَّ عليه قولُه : ﴿ لولا أَن

رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ ولِنَصْرِفَ متعلِّقٌ بذلك الفعلِ الناصب للكاف .

ومصدرُ " رأى " رُؤْية ورَأْي . قال :

2765 ورأْيُ عَيْنَيَّ الفتى أباكا . . . يُعطي الجَزيلَ فعليك ذاكا "

وقرأ الأعمش " لِيَصْرِفَ " بياء الغَيبة ، والفاعلُ هو اللَّه تعالى .

قوله : ﴿ المخلصين ﴾ قرأ هذه اللفظةَ حيث وَرَدَتْ إذا كانت معرَّفةً ب أل مكسورةَ اللامِ ابنُ كثير وأبو عمرو وابن عامر ، والباقون بفتحها ، فالكسرُ على اسم الفاعل ، والمفعولُ محذوف تقديره : المخلِصين أنفسَهم أو دينَهم ، والفتح على أنه اسم مفعول مِنْ أَخْلَصهم اللَّه ، أي : اجتباهم واختارهم ، أو أَخْلَصهم مِنْ كل سوء .

وقرأ الكوفيون في مريم ﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصاً ﴾ [مريم : 51] بفتح اللام بالمعنى المتقدم ، والباقون بكسرها بالمعنى المتقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 466 . 470 ﴾

(317/393)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى هم)

الهَمُّ : الحَزَنُ ، والجمع هُمُومٌ ؛ وما هَمَّ به الإِنسان .

وقد هَمَّهُ الأَمْرُ هَمّاً ، ومَهَمَّةً ، وأَهْمَّه : حَزَنَه .

وهَمَّ السُّقْمُ جِسْمَه : أَذابَه وأَذْهَبَ لَحْمه .

وهم الشحْمَ فَانْهَمَّ : أَذَابَهُ فذاب .

وهَمَّ الغزْوُ الناقَةَ : جَهَدَها .

وهمَّ به : قَصَدَ ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ وأَهَمَّنِى كذا : حَمَلَنى على أَنْ أَهُمَّ به ، قال الله تعالى : ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ .

وهذا رجل هَمُّكَ وهِمَّتُكَ من رَجُل ، أَى حَسْبُكَ من رَجُل .

والهِمَّة والهَمَّة بالكسر والفتح : ما هَمَّ من أَمْرٍ لِيُفْعَل .

قال المحقّقون : الهِمَّةُ : فِعْلَةٌ من الهَمّ ، وهو مبدأُ الإِرادة ، ولكن حصولها بنهاية الإِرادة .

والهَمُّ مبدؤها .

والهِمَّةُ نِهايتُها .

وفى بعض الآثار الإِلهيّة : إِنّى لا أَنظر إِلى كلام الحَكيم وإِنَّما أَنظر إِلى هِمّته .

والعامّة تقول : فهِمّة كلّ امرئ ما يُحْسِنُه .

والخاصّة تقول : فهِمّة كلِّ امرئ ما يَطْلُب .

يريد أن قيمة المرءِ هِمّتُه ومَطْلُبه .

قال الشيخ عبد الله الأنصاريّ : الهِمّةُ ما يَمْلِك الانْبعاثَ للمقصود صِرْفاً ، لا يَتمالك صاحبُها ولا يلتفت عنها .

وقوله : تَمْلِك الانبعاثَ للمقصود ، أى يستَوْلِى عليه كاستيلاءِ المالِكِ على المملوك ، وصِرْفاً أَى خالِصاً .

والمراد أَنّ هِمّة العبْدِ إذا تعلّقَت بالحقِ تعالى طَلَبه خالصاً صادقاً ومَحْضاً ، فتملِكُ الهِمّةُ العاليةُ التى لا يَتمالك صاحِبُها ، أَى لا يقدر على المُهْلَة ، ولا يتمالك لِغَلَبة سلطان الهِمّة وشدّة إلزامِها إيّاه بطَلَب المقصود ولا يلتفتُ عنها إلى ما سِوَى أَحكامها ، وصاحبُ هذه الهمّة سريعٌ وصولُه وظَفَرُه بمطلوبه ما لم تَعُقْهُ العوائق ، وتقطعه العلائق .

وهى على ثلاث درجات :

(318/393)

الدّرجةُ الأُولى : هِمّةٌ تصونُ القلبَ عن وَحْشةِ الرَّغبة فى الدّنيا وما عليها ، فيزهد القلبُ فيها وفى أَهلها .

وسُمِّيت الرغبةُ فيها وَحْشةً لأَنّها وأَهلَها تُوحِش القلبَ والرّاغبين فيها ، فأَرواحُهم

وقلوبُهم فى وَحْشة من أجسامهم إذْ فاتَها ما خُلِقت له .

وأمّا الزاهدون فيها فإنَّهم يرَوْنَها مُوحِشةً لهم ؛ لأنَّها تحول بينهم وبين مطلوبهم ومحبوبهم ، ولا شىءَ أوحشَ عند القلب من شىءٍ يحول بينه وبين مطلوبه ومحبوبه ، ولذلك كان مَنْ نازع النّاس أموالَهم وطلَبها منهم أوْحَشَ شىءٍ إليهم وأبْغَضَه .

وأيضاً فالزاهدون فيها إنما ينظرون إليها بالبصائر ، والرّاغبون ينظرون إليها بالأبصار ، فيَتَوحَّش الزَّاهد ممّا يأنسُ به الراغِبُ كما قيل :

*وإذا أَفاقَ القَلْبُ واندَمَل الهوَى * رَأَتِ القُلُوبُ ولم تَرَ الأَبصارُ*

ولذلك [فإنَّ] الهمّة تحملُه على الرَّغبة فى الباقى لذاته ، وهو الحقّ سبحانه ، والباقى بإبقائه وهو الدّارُ الآخرة ، وتُخلّصه وتُمَحّصه من آفات الفُتور والتَّوانى وكُدوراتها التى هى سبب الإضاعة والتفريط .

والدّرجة الثانية : هِمّةٌ تورث أَنَفَةً من المبالاة بالعِلَل والنُّزُول على العمل ، والثّقة بالأَمل .

والعِلَل ها هُنا الاعتمادُ على الأَعمال ورؤية ثمراتها ونحو ذلك ، فإنَّها عندهم عِلَلٌ ، فصاحبُ هذه الهِمّة تأْنفُ هِمّتُه وقَلْبُه من أن يُبالِىَ بالعِلَل ، فإنَّ همّته/ فوقَ ذلك ، ففكرتُه فيها ومبالاتُه بها نزولٌ من الهمّة .

وعدمُ هذه المبالاة إمّا لأنَّ العِلَل لم تحصل له ؛ لأنَّ علوَّ هِمّته حال بينه وبينها فلايُبالى بما لا يحصل له ، وإمّا لأنّ همّته وسعَة مطلبه وعلوّه تأْتى على تلك العِلَل وتستأْصلها ، فإنَّه إذا

عَلَّق همّته بما هو أَعلَى منها تضمّنَتها الهمّة العالية ، واندرج حكمُها فى حكم الهمّة العالية .

وهذا محلّ عزيز جدّاً .

(319/393)

وأَمّا الأَنَفة من النُّزول على العمل فمعناه أَنّ العالِىَ الْهِمَّة مَطْلُبه فوق مطلَب العُمّال والعُبّاد وأَعلى منه ، فهو يَأْنفُ أَن ينزل من سماءِ مطلَبه العالِى إلى مجرّد العَمَل والعِبادة دون السّفر بالقلب إلى الله ليحصلَ له ويفوزَ به فإنّه طالبٌ لربّه تعالى طلباً تامّاً بكلّ مَعْنَىً واعتبار فى عَمَله ، وعِبادتِه ومناجاتِه ، ونَوْمِه ويَقَظَته ، وحَرَكَته وسكُونه ، وعُزلته وخُلْطته وسائر أَحواله ، فقد انصبغ قلبُه بالتوجُّه إلى الله تعالى أَىّ ما صِبْغَة .

وهذا الأَمر إنما يكون لأَهل المحبّة الصّادقة ، فهم لا يقنعون بمجرّد رُسوم الأَعمالِ وبالاقتصار على الطلب حال العَمَل فقط .

وأَمّا أَنَفَتُه من الثّقة بالأَمَل ، فإن الثقة توجب الفُتور والتّوانى ، وصاحبُ هذه الهمّة من أَهل ذلك ، كيف وهو طائرٌ لا يُصاد .

والدّرجة الثالثة : هِمّة تتصاعد عن الأَحوال والمعاملات ، وتزول بالأَعواض والدّرجات ،

وتَنْحُو عن النُّعوتِ نحو الذات .

والتَّصاعُد عن المعاملات ليس المراد به تعطيلها بل القيام بها مع عدم الالتفات إِليها .

ومعنى الكلام أَنَّ صاحب هذه الهمَّة لا يقف على عِوَض ولا درجة ، فإِنَّ ذلك نزولٌ من هِمَّته ، ومطلَبُه أَعلَى من ذلك .

فإِن صاحبَ هذه الهمّة قد قَصَر همّتَه على المطلب الأَعلَى الَّذى لا شىء أَعلى منه ، والأَعواضُ والدرجات دونه ، وهو يعلم إِذا حصل هناك حصل له كلُّ درجة عالية ، وأَعْواضٌ شَتَىّ .

وأَمّا نَحْوُها نَحْوَ الذات ، فالمراد به أَنَّ صاحب هذه الهمّة لا يقتصر على شُهودِ الأَفْعال ولا الأَسْماءِ والصِفات بل ينحو نَحْوَ الذَّات الجامعة لمتفرّقات الأَسماءِ والصّفات والأَفعال .

أُنْشِدنا لبعض الأَفاضل :

*وقائلةٍ لِمْ غَيّرتْكَ الهمومُ * وأَمْرُك مُمْتَثَلٌ فى الأُمَمْ*

*فقلتُ ذَرينى على غُصَّتِى * فإِنَّ الهُمومَ بقَدْرِ الهِمَمْ*

وفى الحديث : "مَنْ هَمَّ بذنْب ثمّ تركَهُ كانت له به حَسَنَة" وقال أيضا : "من اهْتَمّ لأَمْر دينه كَفاه الله أَمْرَ دُنْياه" ، وقال : "من أَصْبَحَ وأَكْثر هَمّه الدُّنيا فلَيْسَ من الله فى شىءٍ" .

وقيل : الطَّيْرُ يطير ، بجَنَاحِه والمرءُ يطير بهِمَّته وقال :

*أَهُمّ بشىءٍ والليالى كأَنَّها * تُطارِدُنى عن كَوْنِها وأُطارِدُ*

*فَريدٌ عن الخِلاَّن فى كلّ بلدة * إِذا عَظُم المَطْلُوب قَلَّ المُساعِدُ*

وقد ذُكر الهمّ فى القرآن فى ثمانية مواضع : ﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ ، ﴿ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﴾ ، ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ ، ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ ﴾ ، ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ ﴿ لَهَمَّتْ طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 345.349 ﴾

(321/393)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ

مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24) ﴾

ما ليس بفعل الإنسان مما يعتريه – بغير اختياره ولا بِكَسْبه – كان مرفوعاً لأنه لا يدخل تحت التكليف ، فلم يكن " الهمُّ " منه ولا منها زلّةً ، وإنما الزَّلّةُ من المرأة كانت من حيث عَزَمَتْ على ما هَمَّتْ ، فأمّا نفسُ الهمّ فليس مما يَكْسِبُه العبد .

ويقال اشتركا في الهمِّ وأُفْرِد – يوسف عليه السلام – بإشهاده البرهان .

وفي تعيين ذلك البرهان – ما الذي كان ؟ – تكلُّفٌ غيرُ محمودٍ إذا لا سبيل إليه إلا بالخَبَرِ المقطوع به .

وفي الجملة كان البرهانُ تعريفاً من الحقِّ إياه بآية من آيات صُنْعِه ، قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى الْأَفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِم حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : 53] .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ صَرَفَ عنه السُّوءَ حتى لم يوجَد منه العزمُ على ذلك الفعل – وإنْ كان منه همٌّ – إلا أن ذلك لم يكن جُرْماً كما ذكرنا .

والصَّرْفُ عن الطريق بعد حصول الهمِّ – كشفٌ ، والسوءُ المصروفُ عنه هو العزمُ على الزنا والفحشاء أو نفْسُ الزنا ، وقد صرفها الله تعالى عنه .

قوله : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ : لم تكن نجاتُه في خلاصه ، ولكن في صرفِ السوء عنه واستخلاصه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 178. 179 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ثم ذكر سبحانه وتعالى مبالغته في الامتناع بالجد في الهرب دليلاً على إخلاصه وأنه لم يهمّ أصلاً فقال : ﴿ واستبقا الباب ﴾ أي أوجد المسابقة بغاية الرغبة من كل منهما ، هذا للهرب منها ، وهذه لمنعه ، فأوصل الفعل إلى المفعول بدون " إلى " ، دليلاً على أن كلا منهما بذل أقصى جهده في السبق ، فلحقته عند الباب الأقصى مع أنه كان قد سبقها بقوة الرجولية وقوة الداعية إلى الفرار إلى الله ، ولكن عاقة إتقانها للمكر بكون الأبواب كانت مغلقة ، فكان يشتغل بفتحها فتعلقت بأدنى ما وصلت إليه من قميصه ، وهو ما كان من ورائه خوف فواته ، فاشتد تعلقها به مع إعراضه هو عنها وهربه منها ، ففتحه وأراد الخروج فمنعته ﴿ و ﴾ لم تزل تنازعه حتى ﴿ قدت قميصه ﴾ وكان القد ﴿ من دبر ﴾ أي الناحية الخلف منه ، وانقطعت منه قطعة فبقيت في يدها ﴿ وألفيا ﴾ أي وجدا مع ما بهما من الغبار والهيئة التي لا تليق بهما ﴿ سيدها ﴾ أي زوجها ، ولم يقل : سيدهما ، لأن يوسف عليه الصلاة والسلام لم يدخل في رق - كما مضى - لأن المسلم لا يملك وهو السيد

﴿ لدا ﴾ أي عند ذلك ﴿ الباب ﴾ أي الخارج، على كيفية غريبة جداً ، هكذا ينبغي أن يفهم هذا المقام لأن السيد لا يقدر على فتحه فضلاً عن الوصول إلى غيره لتغليق الجميع .

ولما علم السامع أنهما ألفياه وهما على هذه الحالة كان كأنه قيل : فما اتفق ؟ فقيل : ﴿ قالت ﴾ مبادرة من غير حياء ولا تلعثم ﴿ ما ﴾ نافية ، ويجوز أن تكون استفهامية ﴿ جزاء من أراد ﴾ أي منه ومن غيره كائناً من كان ، لما لك من العظمة ﴿ بأهلك سوءاً ﴾ أي ولو أنه غير الزنا ﴿ إلا أن يسجن ﴾ أي يودع في السجن إلى وقت ما ، ليحكم فيه بما يليق ﴿ أو عذاب أليم ﴾ أي دائم ثابت غير السجن ؛ والجزاء : مقابلة العمل بما هو حقه ، هذا كان حالها عند المفاجأة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 31 . 32 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عنها أنها ﴿ هَمَّتْ ﴾ أتبعه بكيفية طلبها وهربه فقال :

﴿ واستبقا الباب ﴾ والمراد أنه هرب منها وحاول الخروج من الباب وعدت المرأة خلفه لتجذبه إلى نفسها ، والاستباق طلب السبق إلى الشيء ، ومعناه تبادر إلى الباب يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه فإن سبق يوسف فتح الباب وخرج ، وإن سبقت المرأة أمسكت الباب لئلا يخرج ، وقوله : ﴿ واستبقا الباب ﴾ أي استبقا إلى الباب كقوله : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً ﴾ [الأعراف : 155] أي من قومه .

واعلم أن يوسف عليه السلام سبقها إلى الباب وأراد الخروج والمرأة تعدو خلفه فلم تصل إلا إلى دبر القميص فقدته ، أي قطعته طولاً ، وفي ذلك الوقت حضر زوجها وهو المراد من قوله ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لدى الباب ﴾ أي صادفا بعلها تقول المرأة لبعلها سيدي ، وإنما لم يقل سيدهما لأن يوسف عليه السلام ما كان مملوكاً لذلك الرجل في الحقيقة ، فعند ذلك خافت المرأة من التهمة فبادرت إلى أن رمت يوسف بالفعل القبيح ، وقالت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ والمعنى ظاهر .

وفي الآية لطائف : إحداها : أن "ما" يحتمل أن تكون نافية ، أي ليس جزاؤه إلا السجن ،

ويجوز أيضاً أن تكون استفهامية يعني أي شيء جزاؤه إلا أن يسجن كما تقول : من في الدار إلا زيد .

وثانيها : أن حبها الشديد ليوسف حملها على رعاية دقيقتين في هذا الموضع وذلك لأنها بدأت بذكر السجن ، وأخرت ذكر العذاب ، لأن المحب لا يسعى في إيلام المحبوب ، وأيضاً أنها لم تذكر أن يوسف يجب أن يعامل بأحد هذين الأمرين ، بل ذكرت ذلك ذكراً كلياً صوناً للمحبوب عن الذكر بالسوء والألم ، وأيضاً قالت : ﴿إِلا أَن يُسْجَنَ﴾ والمراد أن يسجن يوماً أو أقل على سبيل التخفيف .

فأما الحبس الدائم فإنه لا يعبر بهذه العبارة ، بل يقال : يجب أن يجعل من المسجونين ألا ترى أن فرعون هكذا قال حين تهدد موسى عليه السلام في قوله : ﴿لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِى لأجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين﴾ [الشعراء : 29] وثالثها : أنها لما شاهدت من يوسف عليه السلام أنه استعصم منها أنه كان في عنفوان العمر وكمال القوة ونهاية الشهوة ، عظم اعتقادها في طهارته ونزاهته فاستحيت أن تقول إن يوسف عليه السلام قصدني بالسوء ، وما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب على سبيل التصريح بل اكتفت بهذا التعريض

، فانظر إلى تلك المرأة ما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب وأن هؤلاء الحشوية يرمونه بعد قريب من أربعة آلاف سنة بهذا الذنب القبيح .

ورابعها : أن يوسف عليه السلام أراد يضربها ويدفعها عن نفسه ، وكان ذلك بالنسبة إليها جارياً مجرى السوء فقولها : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ ﴾ جارياً مجرى التعريض فلعلها بقلبها كانت تريد إقدامه على دفعها ومنعها وفي ظاهر الأمر كانت توهم أنه قصدني بما لا ينبغي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 18 صـ 97 . 98 ﴾

(326/393)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ واستبقا الباب ﴾

أي أسرعا إليه ، أما يوسف فأسرع إليه هرباً ، وأما امرأة العزيز فأسرعت إليه طلباً .

﴿ وقَدت قميصه من دبر ﴾ لأنها أدركته وقد فتح بعض الأغلاق فجذبته من ورائه فشقت قميصه إلى ساقه ، قال ابن عباس : وسقط عنه وتبعته .

﴿ وألفيا سيدها لَدى الباب ﴾ أي وجدا زوجها عند الباب . قال أبو صالح : والسيد هو الزوج بلسان القبط .

﴿ قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلاّ أن يسجن أو عذابٌ أليمٌ ﴾ هذا قولها لزوجها لتدفع الريبة عن نفسها بإلقائها على يوسف، ولو صدق حبها لم تفعل ذلك به ولآثرته على نفسها، ولكنها شهوة نزعت ومحبة لم تصف. وذلك أنه لما اقترن شدة حبها بالشهوة طلبت دفع الضرر بالتكذيب عليه، ولو خلص من الشهوة لطلبت دفع الضرر عنه بالصدق. انتهى انتهى. اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(327/393)

وقال ابن عطية:

قوله تعالى: ﴿ واستبقا الباب ﴾ الآية

﴿ واستبقا ﴾ معناه سابق كل واحد منهما صاحبه إلى الباب، هي لترده إلى نفسها وهو ليهرب عنها؛ فقبضت في أعلى قميصه من خلفه، فتخرق القميص عند طوقه، ونزل التخريق إلى أسفل القميص. و"لقد": القطع، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولاً، "والقط" يستعمل فيما كان عرضاً، وكذلك هي اللفظة في قول النابغة:

تقد السلوقي... فإن قوله: توقد بالصفاح يقتضي أن القطع بالطول. و﴿ ألفيا ﴾: وجدا، و"السيد" الزوج، قاله زيد بن ثابت ومجاهد. فيروى أنهما وجدا العزيز ورجلاً

من قرابة زليخا عند الباب الذي استبقا إليه قاله السدي . فلما رأت الفضيحة فزعت إلى مطالبة يوسف والبغي عليه ، فأرت العزيز أن يوسف أرادها ، وقالت : ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ وتكلمت في الجزاء ، أي أن الذنب ثابت متقرر . وهذه الآية تقتضي بعظم موقع السجن من النفوس لا سيما بذوي الأقدار ، إذ قرن بأليم العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(328/393)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واستبقا الباب وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ .

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ واستبقا الباب ﴾ قالت العلماء : وهذا من اختصار القرآن المعجز الذي يجتمع فيه المعاني ؛ وذلك أنه لما رأى برهان ربه هرب منها فتعاديا ، هي لتردّه إلى نفسها ، وهو ليهرب عنها ، فأدركته قبل أن يخرج.

﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ أي من خَلْفه ؛ قبضت في أعلى قميصه فتخرّق القميص عند طوقه ، ونزل التخريق إلى أسفل القميص .

والاستباق طلب السّبق إلى الشيء ؛ ومنه السّباق .

والقدّ القطع ، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولاً ؛ قال النابغة :

تَقُدُّ السَّلُوقِيَّ المُضَاعَفَ نَسْجُهُ . . .

وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُبَاحِبِ

والقَطُّ بالطاء يستعمل فيما كان عَرْضاً .

وقال المفضّل بن حرب : قرأت في مصحف "فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ عُطَّ مِنْ دُبُرٍ" أي شُقّ .

قال يعقوب : العَطّ الشّق في الجلد الصحيح والثوب الصحيح .

وحذفت الألف من "استبقا" في اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها ؛ كما يقال : جاءني عبدَ الله في التثنية ؛ ومن العرب من يقول : جاءني عبدا الله بإثبات الألف بغير همز ، يجمع بين ساكنين ؛ لأن الثاني مدغم ، والأوّل حرف مدّ ولين .

ومنهم من يقول : عبدا الله بإثبات الألف والهمز ، كما تقول في الوقف .

الثانية : في الآية دليل على القياس والاعتبار ، والعمل بالعرف والعادة ؛ لما ذكر من قدّ القميص مقبلاً ومدبراً ، وهذا أمر انفرد به المالكية في كتبهم ؛ وذلك أن القميص إذا جُبِذ من خلف تمزّق من تلك الجهة ، وإذا جُبِذ من قدّام تمزق من تلك الجهة ، وهذا هو الأغلب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى البَاب ﴾ أي وجدا العزيز عند الباب ، وعُنِيَ بالسيّد الزوج ؛ والقبط يسّمون الزوج سيّداً .

يقال : ألفاه وصادفه ووارطه ووالطه ولاطه كله بمعنى واحد ؛ فلما رأت زوجها طلبت وجهاً للحيلة وكادت ف ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سوءا ﴾ أي زنًى .

﴿ إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تقول : يُضرب ضرباً وجيعاً .

و"مَا جَزَاءُ" ابتداء ، وخبره "أَنْ يُسْجَنَ" .

"أَوْ عَذَابٌ" عطف على موضع "أَنْ يُسْجَنَ" لأن المعنى : إلا السّجن .

ويجوز أو عذاباً أليماً بمعنى : أو يعذّب عذاباً أليماً ؛ قاله الكسائي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ واستبقا الباب ﴾

وذلك أن يوسف لما رأى البرهان قام هارباً مبادراً إلى الباب وتبعته المرأة لتمسك عليه

الباب حتى لا يخرج والمسابقة طلب السبق فسبق يوسف وأدركته المرأة فتعلقت بقميصه من خلفه وجذبته إليها حتى لا يخرج فذلك قوله : ﴿ وقدت قميصه من دبر ﴾ يعني شقته من خلف فغلبها يوسف فخرج وخرجت معه ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ يعني فلما خرجا وجدا زوج المرأة قطفير وهو العزيز عند الباب جالساً مع ابن عم المرأة فلما رأته المرأة هابته وخافت التهمة فسبقت يوسف بالقول ﴿ قالت ﴾ يعني لزوجها ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴾ يعني الفاحشة ثم خافت عليه أن يقتله وذلك لشدة حبها له فقالت ﴿ إلا أن يسجن ﴾ أي يحبس في السجن ويمنع التصرف ﴿ أو عذاب أليم ﴾ يعني الضرب بالسياط وإنما بدأ بذكر السجن دون العذاب لأن الحب لا يشتهي إيلام المحبوب وإنما أرادت أن يسجن عندها يوماً أو يومين ولم ترد السجن الطويل وهذه لطيفة فافهمها فلما سمع يوسف مقالتها أراد أن يبرهن عن نفسه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(331/393)

وقال أبو السعود :

﴿ واستبقا الباب ﴾

متصل بقوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ وقوله : كذلك إلى آخره ، اعتراضٌ جيء به بين المعطوفَيْن تقريراً لنزاهته عليه السلام كقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إبراهيم مَلَكُوتَ السموات والأرض ﴾ والمعنى لقد همت به وأبى هو واستبقا الباب أي تسابقا إلى الباب البراني الذي هو المخلص ، ولذلك وُحّد بعد الجمع فيما سلف وحُذف حرفُ الجر وأوصل الفعل إلى المجرور نحو وإذا كالوهم ، أو ضُمِّن الاستباقُ معنى الابتدار ، وإسناد السبق في ضمن الاستباق إليها مع أن مرادَها مجردُ منع يوسف وذا لا يوجب الانتهاء إلى الباب لأنها لما رأته يسرع إلى الباب ليتخلص منها أسرعت هي أيضاً لتسبقَه إليه وتمنعه عن الفتح والخروج ، أو عبر عن إسراعها إثْرَه بذلك مبالغة .

(332/393)

﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ اجتذبتْه من ورائه فانشق طولاً وهو القَدّ كما أن الشقّ عرضاً هو القطّ ، وقد قيل في وصف عليّ رضي الله عنه : "إنه كان إذا اعتلى قدّ وإذا اعترض قطّ" وإسنادُ القدِّ إليها خاصة مع أن لقوة يوسفَ أيضاً دخلاً فيه إما لأنها الجزءُ الأخيرُ للعلة التامةِ وإما للإيذان بمبالغتها في منعه عن الخروج وبذل مجهودِها في ذلك لفَوْت المحبوب أو لخوف الافتضاح ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا ﴾ أي صادفا زوجها وإذْ لم يكن مُلكه

ليوسف عليه السلام صحيحاً لم يقل سيدهما . قيل : ألفياه مقبلاً وقيل : كان جالساً مع ابن عمَ للمرأة ﴿ لدى الباب ﴾ أي البراني كما مر . روى كعب رضي الله عنه أنه لما هرب يوسفُ عليه السلام جعل فَراشُ القفلِ يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب ﴿ قَالَتْ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال سائل يقول : فماذا كان حين ألفيا العزيزَ عند الباب ؟ فقيل : قالت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ من الزنى ونحوه ﴿ إِلا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ما نافية أي ليس جزاؤه إلا السجنُ أو العذابُ الأليم ، قيل : المرادُ به الضربُ بالسياط ، أو استفهامية أي أيُّ شيءٍ جزاؤه غيرُ ذاك أو ذلك ، ولقد أتت في تلك الحالةِ التي تُدهش فيها الفَطِنَ حيث شاهدها العزيزُ على تلك الهيئة المُريبة بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما تبرئةُ ساحتِها مما يلوح من ظاهر الحالِ واستنزال يوسف عن رأيه في استعصائه عليها وعدمِ مواتاته على مرادها بإلقاء الرعبِ في قلبه من مكرها طمعاً في مواقعته لها كرهاً عند يأسِها عن ذلك اختياراً كما قالت : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصاغرين ﴾ ثم إنها جعلت صدورَ الإرادة المذكورةِ عن يوسف عليه السلام أمراً محققاً مفروغاً عنه غنياً عن الإخبار بوقوعه وأن ما هي عليه من الأفاعيل لأجل تحقيق جزائها فهي تريد إيقاعَه حسبما

يقتضيه قانونُ الإيالة ، وفي إيهام المُريد تهويلٌ لشأن الجزاء المذكور بكونه قانوناً مطرداً في حق كل أحدٍ كائناً من كان ، وفي ذكر نفسها بعنوان أهلية العزيزِ إعظامٌ للخطب وإغراءٌ له على تحقيق ما تتوخاه بحكم الغضب والحمية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(334/393)

وقال الآلوسى :

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾

متصل بقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ [يوسف : 24] الخ ، وقوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ [يوسف : 24] الخ اعتراض جيء به بين المعطوفين تقريراً لنزاهته عليه السلام ، والمعنى لقد همت به وأبى هو واستبقا أي تسابقا إلى الباب على معنى قصد كل من يوسف عليه السلام وامرأة العزيز سبق الآخر إليه فهو ليخرج وهي لتمنعه من الخروج ؛ وقيل : المراد من السبق في جانبها الإسراع إثره إلا أنه عبر بذلك للمبالغة ، ووحد الباب هنا مع جمعه أولاً لأن المراد الباب البراني الذي هو المخلص ؛ واستشكل بأنه كيف يستبقان

إليه ودونه أبواب جوانيه بناءاً على ما ذكروا من أن الأبواب كانت سبعة .

وأجيب بأنه روى عن كعب أن أقفال هاتيك الأبواب كانت تتناثر إذا قرب إليها يوسف عليه السلام وتتفتح له ؛ ويحتمل أنه لم تكن تلك الأبواب المغلقة على الترتيب باباً فباباً بل كانت في جهات مختلفة كلها منافذ للمكان الذي كانا فيه فاستبقا إلى باب يخرج منه ، ونصب الباب على الاتساع لأن أصل استبق أن يتعدى بإلى لكن جاء كذلك على حد ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ ﴾ [المطففين : 3] ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً ﴾ [الأعراف : 155] ، وقيل : إنه ضمن الاستباق معنى الابتدار فعدى تعديته ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على ﴿ استبقا ﴾ ، ويحتمل أن يكون في موضوع الحال كما قال أبو حيان أي وقدقدت ، والقدّ القطع والشق وأكثر استعماله فيما كان طولاً وهو المراد هنا بناءاً على ما قيل : إنها جذبته من وراء فانخرق القميص إلى أسفله ، ويستعمل القط فيما كان عرضاً ، وعلى هذا جاء ما قيل في وصف علي كرم الله تعالى وجهه : إنه كان إذا اعتلى قدّ وإذا اعترض قط ، وقيل ، القدّ هنا مطلق الشق ، ويؤيده ما نقل عن ابن عطية أنه قرأت فرقة وقط وقد وجد ذلك في مصحف المفضل بن حرب .

وعن يعقوب تخصيص القدّ بما كان في الجلد والثوب الصحيحين ، والقميص معروف ،

وجمعه أقمصة .

وقمص .

وقمصان ، وإسناد القدّ بأي معنى كان إليها خاصة مع أن لقوة يوسف عليه السلام أيضاً دخلا فيه إما لأنها الجزء الأخير للعلة التامة ، وإما للائيذان بمبالغتها في منعه عن الخروج وبذل مجهودها في ذلك لفوت المحبوب أو لخوف الافتضاح ﴿ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا ﴾ أي وجدا ، وبذلك قرأ عبد الله ﴿ سَيِّدَهَا ﴾ أي زوجها وهو فيعل من ساد يسود ، وشاع إطلاقه على المالك وعلى الرئيس ، وكانت المرأة إذ ذاك على ما قيل : تقول لزوجها سيدي ، ولذا لم يقل سيدهما ، وفي البحر إنما لم يضف إليهما لأنه لم يكن مالكاً ليوسف حقيقة لحريته ﴿ لَدَّا الباب ﴾ أي عند الباب البراني ، قيل : وجداه يريد أن يدخل مع ابن عمر لها ﴿ قَالَتْ ﴾ استئناف مبني على سؤال يقول : فماذا كان حين ألفيا السيد عند الباب ؟ فقيل .

قالت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ من الزنا ونحوه .

﴿ إِلا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الظاهر أن ﴿ مَا ﴾ نافية ، و﴿ جَزَاءُ ﴾ مبتدأ ، و﴿ مِنْ ﴾ موصولة أو موصوفة مضاف إليه ، والمصدر المؤول خبر ، و﴿ أَوْ ﴾ للتنويع خبر المبدأ وما بعد معطوف على ذلك المصدر أي ليس جزاؤه إلا السجن أو العذاب الأليم ، والمراد به على ما قيل : الضرب بالسوط ، وعن ابن عباس أنه القيد ، وجوز أن تكون ﴿

مَا ﴾ استفهامية فجزاء مبتدأ أو خبر أي أي شيء جزاؤه غير ذلك أو ذلك ، ولقد أتت في تلك الحالة التي يدهش فيها الفطن اللوذعي حيث شاهدها زوجها على تلك الهيئة بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر الحال .

واستنزال يوسف عليه السلام عن رأيه في استعصائه عليها وعدم مواتاته لها على مرادها بإلقاء الرعب في قلبه من مكرها طمعاً في مواقعته لها مكرهاً عند يأسها عن ذلك مختاراً كما قالت : ﴿ لَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وليكونا مِنَ الصاغرين ﴾ [يوسف : 32] ثم إنها جعلت صدور الإرادة المذكورة عن يوسف عليه السلام أمراً محققاً مفروغاً عنه غنياً عن الأخبار بوقوعه وإن ما هي عليه من الأفاعيل لأجل تحقيق جزائرها ، ولم تصرح بالاسم بل أتت بلفظ عام تهويلاً للأمر ومبالغة في التخويف كأن ذلك قانون مطرد في حق كل أحد كائناً من كان ، وذكرت نفسها بعنوان أهلية العزيز إعظاماً للخطب وإغراءاً له على تحقيق ما يتوخاه بحكم الغضب والحمية كذا قرره غيره واحد .

وذكر الإمام في تفسيره ما فيه نوع مخالف لذلك حيث قال : إن في الآية لطائف : أحدها : أن حبها الشديد ليوسف عليه السلام حملها على رعاية دقيقتين في هذا الموضوع وذلك لأنها

بدأت بذكر السجن وأخرت ذكر العذاب لأن المحب لا يسعى في إسلام المحبوب ، وأيضاً إنها لم تذكر أن يوسف عليه السلام يجب أن يقابل بأحد هذين الأمرين بل ذكرت ذلك ذكراً كلياً صوناً للمحبوب عن الذكر بالشر والألم ، وأيضاً قالت : ﴿ إِلاَّ أَن يُسْجَنَ ﴾ والمراد منه أن يسجن يوماً .

أو أقل على سبيل التخفيف ، فأما الحبس الدائم فإنه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال : يجب أن يجعل من المسجونين ، ألا ترى أن فرعون كيف قال حين هدد موسى عليه السلام : ﴿ لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِى لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ﴾ [الشعراء : 29] .

(337/393)

وثانيها : أنها لما شاهدت من يوسف عليه السلام أنه استعصم منها مع أنه كان في عنفوان الشباب وكمال القوة ونهاية الشهوة عظم اعتقادها في طهارته ونزاهته فاستحيت أن تقول : إن يوسف قصدني بسوء وما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب على سبيل التصريح بل اكتفت بهذا التعريض ، وليت الحشوية كانوا يكتفون بمثل ما اكتفت به ، ولكنهم لم يفعلوه ووصفوه بعد قريب من أربعة آلاف سنة بما وصفوه من القبيح وحاشاه .

وثالثها : أن يوسف عليه السلام أراد أن يضربها ويدفعها عن نفسه وكان ذلك بالنسبة إليها

جاريا ًمجرى السوء فقولها ﴿ مَا جَزَاء ﴾ الخ جار مجرى التعريض فلعلها بقلبها كانت تقريد إقدامه على دفعها ومنعها ، وفي ظاهر الأمر كانت توهم أنه قصدني بما لا ينبغي انتهى المراد منه ، وفيه من الانظار ما فيه .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما أو عذاباً أليماً بالنصب على المصدرية كما قال الكسائي : أي أو يعذب عذاباً أليماً إلا أنه حذف ذلك لظهوره ، وهذه القراءة أوفق بقوله تعالى : ﴿ أَن يُسْجَنَ ﴾ ولم يظهر لي في سر اختلاف التعبير على القراءة المشهورة ما يعول عليه ، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه فتدبر . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(338/393)

وقال القاسمى :

﴿ وَاسُتَبَقَا الْبَابَ ﴾ متصل بقوله : ﴿ وَلَقَد هَمَّتْ بِهِ ﴾ الخ ، وقوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ الخ ، اعتراف جيء به بين المعطوفين تقريراً لنزاهته . والمعنى : ولقد همت به ، وأبى هو ، واستبقا الباب ، أي : قصد كلٌّ سَبْقَ الآخر إلى الباب ؛ فيوسف عليه السلام ليخرج ، وهي لتمنعه من الخروج ، ووحد (الباب) هنا مع جمعه أولاً ؛ لأن المراد بالباب البراني

الذي منه المخلص .

﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ أي : اجتذبته من خلفه فانقد ، أي : انشق قميصه .

﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ أي : صادفا بعلها ثمة قادماً .

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تبرئة لساحتها ، وإغراء عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 174 ﴾

(339/393)

وقال ابن عاشور :

قوله تعالى ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾

والاستباق : افتعال من السبْق .

وتقدم آنفاً ، وهو هنا إشارة إلى تكلفهما السبق ، أي أن كل واحد منهما يحاول أن يكون هو السابق إلى الباب .

وانتصب ﴿ الباب ﴾ على نزع الخافض .

وأصله : واستبقا إلى الباب ، مثل ﴿ واختار موسى قومَه سبعين رجلاً ﴾ [سورة الأعراف : 155] ، أي من قومه ، أو على تضمين استبقا ﴾ معنى ابتدرا .

والتعريف في (الباب) تعريف الجنس إذ كانت عدة أبواب مغلقة .

وذلك أن يوسف عليه السّلام فرّ من مراودتها إلى الباب يريد فتحه والخروج وهي تريد أن تسبقه إلى الباب لتمنعه من فتحه .

وجملة ﴿ وقدّت قميصه ﴾ في موضع الحال .

و﴿ قدت ﴾ أي قطعت ، أي قطعت منه قداً ، وذلك قبل الاستباق لا محالة .

لأنه لو كان تمزيق القميص في حال الاستباق لم تكن فيه قرينة على صدق يوسف عليه السّلام أنها راودته ، إذ لا يدل التمزيق في حال الاستباق على أكثر من أن يوسف عليه السّلام سبقها مسرعاً إلى الباب ، فدل على أنها أمسكته من قميصه حين أعرض عنها تريد إكراهه على ما راودته فجذب نفسه فتخرق القميص من شدة الجذبة .

وكان قطع القميص من دبر لأنه كان مولياً عنها معْرضاً فأمسكته منه لرده عن إعراضه .

وقد أبدع إيجاز الآية في جمع هذه المعاني تحت جملة ﴿ استبقا الباب وقَدت قميصه ﴾ .

وصادف أن ألفيا سيدها ، أي زوجها ، وهو العزيز ، عند الباب الخارجي يريد الدخول إلى البيت من الباب الخارجي .

وإطلاق السيد على الزوج قيل : إن القرآن حكى به عادة القبط حينئذٍ ، كانوا يدعون الزوج سيداً .

والظاهر أنه لم يكن ذلك مستعملاً في عادة العرب ، فالتعبير به هنا من دقائق التاريخ مثل

قوله الآتي ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ [سورة يوسف : 76] .

ولعل الزواج في مصر في ذلك العهد كان بطريق الملك غالباً .

(340/393)

وقد علم من الكلام أن يوسف عليه السّلام فتح الأبواب التي غَلّقتها زليخا باباً باباً حتى بلغ الخارجي ، كل ذلك في حال استبَاقهما ، وهو إيجاز .

والإلفاء : وجدان شيء على حالة خاصة من غير سعي لوجدانه ، فالأكثر أن يكون مفاجئاً ، أو حاصلاً عن جهل بأول حصول ، كقوله تعالى : ﴿ قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾ [سورة البقرة : 170] .

وجملة قالت ما جزاء ﴾ الخ مستأنفة بيانياً ، لأن السامع يسأل : ماذا حدث عند مفاجأة سيدها وهما في تلك الحالة .

وابتدرته بالكلام إمعاناً في البهتان بحيث لم تتلعثم ، تخيل له أنها على الحق ، وأفرغت الكلام في قالب كلي ليأخذ صيغة القانون ، وليكون قاعدة لا يعرف المقصود منها فلا يسع المخاطب إلا الإقرار لها .

ولعلها كانت تخشى أن تكون محبة العزيز ليوسف عليه السّلام مانعة له من عقابه ، فأفرغت

كلامها في قالب كلي .

وكانت تريد بذلك أن لا يشعر زوجها بأنها تهوى غير سيدها ، وأن تخيف يوسف عليه السّلام من كيدها لئلا يمتنع منها مرة أخرى .

ورددت يوسف عليه السّلام بين صنفين من العقاب ، وهما : السجن ، أي الحبس .

وكان الحبس عقاباً قديماً في ذلك العصر ، واستمر إلى زمن موسى عليه السّلام ، فقد قال فرعون لموسى عليه السّلام : ﴿ لَئِن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ [سورة الشعراء : 29] .

وأما العذاب فهو أنواع ، وهو عقاب أقدمُ في اصطلاح البشر .

ومنه الضرب والإيلام بالنار وبقطع الأعضاء .

وسيأتي ذكر السجن في هذه السورة مراراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(341/393)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾

وعرفنا أن كلاهما حاول الوصول إلى الباب قبل الآخر ؛ وتسابقا في هذا الاستباق ، ونلحظ أن الحق سبحانه يذكر هنا باباً واحداً ؛ وكانت امرأة العزيز قد غلَّقَتْ من قبل أكثر من باب .

لكن قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الباب ﴾ [يوسف : 25] .

يدلنا على أنها لحقتْ بيوسف عند الباب الأخير ؛ وهي قد استبقتْ مع يوسف إلى الأبواب كلها حتى الباب الأخير ؛ لأنها تريد أن تغلق الباب لتسد أمامه المنفذ الأخير ، وهذا الاستباق يختلف باختلاف الفاعل فهي تريده عن نفسه ، وهو يريد الفرار من الموقف ، ثم قدّتْ قميصه من دُبر .

هذا دليل على أنه قد سبقها إلى الباب ؛ فشدّته من قميصه من الخلف ، وتمزّق القميص في يدها ، وقد محّص الشاهد الذي هو من أهلها تلك المسألة ليستنبط من الأحداث حقيقة ما حدث .

وقوله تعالى :

﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الباب ﴾ [يوسف : 25] .

أي : حدثت لهما المفاجأة ، وهي ظهور عزيز مصر أمامهما ؛ وصار المشهد ثلاثياً : امرأة العزيز ؛ ويوسف ؛ وزوجها .

وهنا ألقت المرأة الاتهام على يوسف عليه السلام في شكل سؤال تبريري للهروب من تبعية الطلب، وإلقاء التهم على يوسف:

﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سوءا ﴾ [يوسف: 25].

ثم حددت العقاب:

﴿ إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف: 25].

ويأتي الحق سبحانه بقول يوسف عليه السلام: ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ [يوسف: 26].

وهنا وجد عزيز مصر نفسه بين قولَيْنِ مختلفين؛ قولها هي باتهام يوسف؛ وقوله هو باتهامها، ولا بُدَّ أن يأتي بمَن يفصل بين القولين، وأن يكون له دِقَّة استقبال وفَهْم الأحداث. انتهى

انتهى. اهـ ﴿تفسير الشعراوى صـ ﴾

(342/393)

" فصل "

قال السيوطى:

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25) ﴾

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ واستبقا الباب ﴾ قال : استبق هو والمرأة الباب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة رضي الله عنه قال : في قراءة عبد الله [ووجدا سيدها] .

وأخرج ابن جرير عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : السيد ، الزوج .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وألفيا سيدها ﴾ قال : زوجها . ﴿ لدى الباب ﴾ قال : عند الباب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن نوف الشامي رضي الله عنه قال : ما كان يوسف عليه السلام يريد أن يذكره ، حتى ﴿ قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً . . . ﴾ فغضب يوسف عليه السلام وقال ﴿ هي راودتني عن نفسي . . . ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ قال : القيد .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : عثر يوسف عليه السلام ثلاث عثرات : حين هم بها فسجن ، وحين قال : اذكرني عند ربك ، فلبث في السجن بضع

سنين فأنساه الشيطان ذكر ربه ، وحين قال : إنكم لسارقون . قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(343/393)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ واستبقا الباب ﴾ : منصوب : إمَّا على إسقاط الخافض اتِّساعاً ، إذ أصل " استبق " أن تتعدَّى ب إلى ، وإمَّا على تضمين " استبقا " معنى " ابتدرا " فتنصب مفعولاً به .

قوله : ﴿ وَقَدَّتْ ﴾ يحتمل أن تكون الجملة نسقاً على " استبقا " ، أي : اسْتَبَقَا وقَدَّتْ ، ويحتمل أن تكون في محل نصب على الحال ، أي : وقد قَدَّتْ . والقَدُّ : الشَّقُّ مطلقاً . وقال بعضهم : " القَدُّ فيما كان يُشَقُّ طولاً ، والقَطُّ فيما كان يُشَقُّ عَرْضاً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 470 . 471 ﴾

(344/393)

وقال الشيخ المراغى فى الآيات السابقة :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾

تفسير المفردات

راودته على الأمر مراودة : طلبت منه فعله مع المخادعة ، فالمراود يتلطف فى طلبه تلطف المخادع ويحرص عليه ، وقال الراغب : المراودة أن تنازع غيرك فى الإرادة فتريد منه غير ما يريد كما قال إخوة يوسف (سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ) أي نحتال عليه ونخدعه عن إرادته ليرسل بنيامين معنا ، وهيت لك بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وضمها أي أي هلم أقبل وبادر ، وقد روى أنها لغة عرب حوران ، واختيرت لأنها أخص ما يؤدى المراد مع النزاهة الكاملة ، ومعاذ اللّه : أي أعوذ وأتحصن باللّه من أن أكون من الجاهلين الفاسقين ، وهمت به : أي همت لتبطش به لعصيانه أمرها ، وهمّ بها ليقهرها فى الدفع عما أرادته ويرد عنفها بمثله ، وبرهان ربه : إما النبوة التي تلى الحكم والعلم اللذين آتاه اللّه إياهما بعد بلوغ الأشد ، وإما مراقبة اللّه تعالى ورؤية ربه متجليا له ناظرا إليه كما

جاء فى الحديث فى تفسير الإحسان « أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »

والمخلصون : هم الذين اجتباهم اللّه واختارهم لطاعته ، واستبقا الباب :

أى تسابقا إلى الباب وقصد كل منهما سبق الآخر إليه ، فهو ليخرج وهى لتمنعه من الخروج ، وقدّت قميصه من دبر : أي قطعته طولا من خلف ، وألفيا : أي وجدا .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر سبحانه وصية العزيز لامرأته بإكرام مثواه ، وعلل ذلك بحسن الرجاء فيه ثم بين عنايته سبحانه به وتمهيد سبل كماله بتمكينه فى الأرض - ذكر هنا مراودة امرأته له ونظرها إليه بغير العين التي نظر بها زوجها إليه وأرادت منه غير ما أراده هو وما أراد اللّه من فوقهما وأعدت العدة لذلك فغلقت الأبواب فهرب منها إلى باب المخدع فقدّت قميصه من خلف ووجدا زوجها بالباب الخارجي فبادرت إلى اتهامه بالسوء إلى أن استبانت براءته .

الإيضاح

(وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ) أي وخادعت امرأة العزيز يوسف عن نفسه وراوغته ، ليريد منها ما تريد هى منه مخالفا لإرادته وإرادة ربه ، واللّه غالب على أمره ، قال فى الكشاف : كأن المعنى خادعته عن نفسه ، أي فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه

عن شىء لا يريد إخراجه من يده وهو يحتال أن يأخذه منه ، وهى عبارة عن التمحل فى مواقعته إياها اه .

(وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ) أي وأحكمت إغلاق باب المخدع الذي كانا فيه وباب البهو الذي يكون أمام الغرف فى بيوت العظماء وباب الدار الخارجي وربما كان هناك غيرها .

(وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ) أي وقالت هلمّ أقبل ، وزيدت كلمة (لَكَ) لبيان المخاطب كما يقولون : سقيا لك ورعيا لك ، وهذا الأسلوب هو الغاية فى الاحتشام فى التعبير ، وقد يكون هناك ما زادته من إغراء وتهييج مما تقتضيه الحال . وما نقل من الإسرائيليات عنها وعنه من الوقاحة فكذب ، فمثل هذا لا يعلم إلا من اللّه أو من الرواية الصحيحة عنها أو عنه ، ولا يستطيع أحد أن يدّعى ذلك .

(346/393)

(قالَ مَعاذَ اللَّهِ)

أي أعوذ باللّه عز وجل وألتجئ إليه مما تريدين منى فهو يعيذنى أن أكون من الجاهلين كما سيأتى من قوله « وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ » .

(إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ) أي إنه سيدى المالك لرقبتى ، قد أحسن معاملتى فى إقامتى

عندك وأوصاك بإكرام مثواى ، فلا أجزيه بالإحسان إساءة وأخونه فى أهله ، ثم علل ما صنع بقوله :

(إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) أي إنه تعالى لا يفلح الظالمين لأنفسهم والظالمين للناس بخيانة وتعدّ على الأعراض لا فى الدنيا ببلوغ الإمامة والرياسة ولا فى الآخرة بالوصول إلى رضوان اللّه تعالى ودخول جنات النعيم .

وفى هذا إيماء إلى الاعتزاز به ، والأمانة لسيده ، والتعريض بخيانة امرأته ، واحتقارها بما أضرم نار الغيظ فى صدرها .

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) أي ولقد همت بأن تبطش به ، إذ عصى أمرها وخالف مرادها وهى سيدته وهو عبدها ، وقد استذلت له بدعوته إلى نفسها بعد أن احتالت عليه بمراودته عن نفسه ، وكلما ألحّت عليه ازداد عتوّا واستكبارا ، معتزا عليها بالديانة والأمانة ، والترفع عن الخيانة ، وحفظ شرف سيده وهو سيدها ، ولا علاج لهذا إلا تذليله بالانتقام ، وهذا ما شرعت فى تنفيذه أو كادت بأن همت بالتنكيل به .

(وَهَمَّ بِها) لدفع صيالها عنه وقهرها بالبعد عما أرادته .

(لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ) أي ولكنه رأى من ربه فى سريرة نفسه ما جعله يمتنع من مصاولتها واللجوء إلى الفرار منها .

والخلاصة – إن الفارق بين همها وهمه، أنها أرادت الانتقام منه شفاء لغيظها إذ فشلت فيما تريد، وأهينت بعتوه واستكباره وإبائه لما أرادت، وأراد هو الاستعداد الدفاع عن نفسه، وهمّ بها حين رأى أمارة وثوبها عليه، فكان موقفهما موقف المواثبة والاستعداد للمضاربة، ولكنه رأى من برهان ربه وعصمته ما لم تر مثله إذ ألهمه أن الفرار من هذا الموقف هو الخير الذي به تتم حكمته فيما أعده له، فاستبقا باب الدار وكان من أمرهما ما يأتى بيانه فيما بعد، هذا خلاصة رأى نقله ابن جرير وأيده الفخر الرازي وأبو بكر الباقلاني.

ويرى غيرهم من المفسرين أن المعنى أنها همت بفعل الفاحشة ولم يكن لها معارض ولا ممانع، وهمّ هو بمثل ذلك، ولولا أن رأى برهان ربه لاقترفها.

وقد فنّده بعض العلماء لوجوه:

(1) إن الهم لا يكون الا بفعل للهامّ، والوقاع ليس من أفعال المرأة حتى تنهم به، وإنما نصيبها منه قبوله ممن يطلبه منها بتمكينه منه.

(2) إن يوسف لم يطلب منها هذا الفعل حتى يسمى قبولها لطلبه ورضاها بتمكينه همّا لها، فالآيات قبل هذه وبعدها تبرئه من ذلك بل من وسائله ومقدماته.

(3) إنه لو وقع ذلك لوجب أن يقال (ولقد هم بها وهمت به) لأن الهم الأول هو المقدم

بالطبع وهو الهم الحقيقي والهم الثاني متوقف عليه .

(4) إنه قد علم من هذه القصة أن هذه المرأة كانت عازمة على ما طلبته طلبا جازما ومصرّة عليه ، فلا يصح أن يقال إنها همت به ، إذ الهم مقاربة الفعل المتردد فيه ، بل الأنسب فى معنى الهمّ هو ما فسرناه به أوّلا ، وذلك لإرادة تأديبه بالضرب .

(348/393)

وقد رووا هنا أخبارا من الإسرائيليات عن تهتك المرأة وتبذلها مما لا يقع مثله من أوقح الفساق الذين تجردوا من جلابيب الحياء فضلا عمن ابتلى بالمعصية أول مرة من سليمى الفطرة الذين لم تغلبهم ثورة الشهوة الجامحة على حيائهم الفطري وحيائهم من نظر ربهم إليهم (كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ) أي جرت أفعالنا وأقدارنا كذلك لنصرف عنه دواعى ما أرادت به من السوء وما راودته عليه قبله من الفحشاء - بعصمة منا تحول دون تأثير دواعيهما الطبيعية فى نفسه ، حتى لا يخرج من جماعة المحسنين إلى جماعة الظالمين الذين ذمهم وشهد هو فى رده عليها بأنهم لا يفلحون ، وقال : لنصرف عنه السوء والفحشاء ، ولم يقل لنصرفه عن السوء والفحشاء ، لأنه لم يعزم عليهما بل لم يتوجه إليهما فيصرف عنهما .

(إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ) أي إنه من جماعة المخلصين وهم آباؤه الذين أخلصهم بهم وصفّاهم من الشوائب وقال فيهم « وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ . إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ » .

(وَاسْتَبَقَا الْبابَ) أي تسابقا إلى الباب ففر يوسف من أمامها هاربا إليه طالبا النجاة منها مرجحا الفرار على الدفاع الذي لا تعرف عاقبته ، وتبعته هى تبغى إرجاعه حتى لا يفلت من يدها ، وهى لا تدرى إذا هو خرج إلى أين يذهب ، ولا ماذا يقول ولا ما يفعل ؟ لكنها أدركته .

(وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ) أي جذبته من ردائه وشدت قميصه فانقدّ .

(وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ) أي وجدا زوجها عند الباب ، وقد كان النساء فى مصر يلقبن الزوج بالسيد ، ولم يقل سيدهما لأن استرقاق يوسف غير شرعى ، وهذا كلام ربه العليم بأمره ، لا كلام من استرقّه .

(349/393)

(قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ)

أي وحينئذ خرجت مما هى فيه بمكرها وكيدها ، وقالت لزوجها متنصلة من جرمها

وقاذفة يوسف :

ما جزاء من أراد بأهلك شيئا يسوءك صغيرا كان أو كبيرا إلا سجن يعاقب به ، أو عذاب مؤلم موجع يؤد به ويلزمه الطاعة .

قال الرازي : وفى هذا القول ضروب من الحيل .

(1) إيهام زوجها أن يوسف قد اعتدى عليها بما يسوءها ويسوءه .

(2) إنها لم تصرح بجرمه حتى لا يشتد غضبه ويقسو فى عقابه . كأن يبيعه أو يقصيه عن الدار ، وذلك غير ما تريد .

(3) إنها هددت يوسف وأنذرته بما يعلم منه أن أمره بيدها ليخضع لها ويطيعها .

(4) إنها قالت . إلا أن يسجن والمراد منه أن يسجن يوما أو أقل على سبيل التخويف فحسب ، أما الحبس الدائم فكان يقال فيه : (يجب أن يجعل من المسجونين) ألا ترى أن فرعون حين هدد موسى قال (لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) .

وجملة القول فى هذا – أن يوسف عليه السلام كان قوى الإرادة لا يمكّن غيره أن يحتال عليه ويصرفه عن رأيه ويجعله خاضعا له ، ومن ثم لم تستطع امرأة العزيز أن تحوّل إرادته إلى ما

تريد بمراودتها ، ولا عجب فى ذلك فهو فى وراثته الفطرية والمكتسبة ومقام النبوة عن آبائه الأكرمين ، وما اختصه به ربه من تربيته والعناية به وما شهد له به من العرفان والإحسان والاصطفاء ، وما صرف عنه من دواعى السوء والفحشاء - فى مكان مكين وحرز حصين من أن تتطلع نفسه إلى اجتراح السيئات ، وارتكاب المنكرات ، فكل ما صوّروه به من الصور البشعة الدالة على الميل إلى الفجور إنما هو من فعل زنادقة اليهود ، ليلبسوا على المسلمين دينهم ، ويشوّهوا به تفسير كلام ربهم ولا يغرّنّك إسناد تلك الروايات إلى بعض الصحابة والتابعين فهى موضوعة عليهم ، ولا ينبغى أن يعتدّ بها ، لأن نصوص الدين تنبذها ، إلى أنه من علم الغيب فى قصة لم يعلم اللّه رسوله غير ما قصه عليه فى هذه السورة ، وكفى بهذا دلالة على وضعها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 12 صـ 128 . 133 ﴾

(351/393)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى قد)

القَدّ : الشق طُولاً .

قددت السَّيْرَ وغيره أَقُدّه قدًّا ، قال الله تعالى : ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ ﴾ ، ومنه حديث علي رضي الله عنه : إِذا تطاول قدّ ، وإِذا تقاصر قطّ .

والقَدّ : المقدود ، ومنه قيل لقامة الإِنسان : قدُّه كقولك : تقطيعه .

والقِدّ - بالكسر - : النعل لم تجرّد من الشَّعَر ، والسّير يُقَدّ من جلد مدبوغ ، ومنه الحديث : "ولقابُ قوسِ أَحدكم من الجنّة أَو موضعُ قِدّه خير من الدّنيا وما فيها" ، أَراد بالقِدّ السّوط لأَنه يُتّخذ من القِدّ .

والقِدّ : الطَّريقة ، والفِرقة من الناس إِذا كان هوى كلّ واحد على حِدَة ، قال الله تعالى : ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ ، أَي فِرَقاً مختلفة أَهواؤُها .

ومعنى ﴿ قِدَدًا ﴾ : متفرقين يعني في اختلاف الأَهواءِ .

وقد - مخفَّفة - : حرف لا يدخل إِلا على الأَفعال ، وهو جواب لقولك : لمّا يفعلْ .

وزعم الخليل أَن هذا لمن ينتظر الخبر ، يقول : قد مات فلان ، ولو أَخبره وهو لا ينتظره لم يقل : قد مات ، ولكن يقول : مات فلان .

وقد يكون بمعنى ربّما ، قال .

*قد أَترك القِرْن مُصْفرًّا أَنامله * كأَنَّ أَثوابه مُجّت بفرصاد *

فإِن جعلتها اسما شدّدتها ، قلت : كتبت قَدّا حسنة .

وكذلك كى ، وهو ، ولَوْ ، لأَنَّ هذه الحروف لا دليل على [ما] نقص منها ، فيجب أَن يزاد فى آخرها ما هو من جنسها ويدغم ، إِلاَّ فى الأَلف فإِنَّك تهمزها .

ولو سمَّيت رجلا بـ (لا) و (ما) ثم زدت فى آخره أَلِفا همزت ؛ لأَنك تحرك الثانية ، والأَلف إِذا تحركت صارت همزة .

فأَمَّا قولهم : قَدْك بمعنى حسبُك ، وقدنى بمعنى حَسْبى ، فاسم ، تقول : قَدِى وقَدْنى / أَيضاً بالنون على غير قياس ؛ لأَنَّ هذه النُّون إِنَّما تزاد فى الأَفعال وقاية لها ، مثل : ضربنى وشتمنى .

قال ابن عَتَّاب الطَّائىّ :

*فناولته من رِسْل كَوْماءَ جَلْدة * وأَغضيت عنه الطَّرْف حتى تضلَّعا *

(352/393)

---

*إِذا قال : قدنى ، قلت : بالله حلفة * لَتُغْنِنَّ عنىّ ذا إِنائك أَجمعا *

وفى رواية أَبى زيد فى نوادره :

*إِذا هو آلى حلْفَة قلت مثلها * لتُغْنِنَّ عنىِّ ذا إِنائك أَجمعا *

وقد : كلمة لا يكون الماضى حالا إِلاَّ بإِضمارها أَو بإِظهارها معه ، وذلك مثل قول الله

تعالى : ﴿ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ ، لا يكون ﴿ حصرت ﴾ حالاً إلا باضمار قَدْ ، فيكون تقدير الكلام : حَصِرةً صدورهم .

وقال الفرّاءُ في قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً ﴾ ، المعنى : وقد كنتم ، ولولا إضمار قد لم يجز مثله في الكلام ؛ ألا ترى أنّ قوله تعالى في سورة يوسف ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ ﴾ معناه فقد صدقت .

وأمّا الحال في المضارع فشائعة دون قد ظاهرة أو مضمرة .

وقَدْ تقرّب الماضي من الحال ، إذا قلت قد فعل ، ومنه قول المؤذّن : قد قامت الصَّلاة .

ويجوز الفصل بينها وبين الفعل بالقَسَم ، كقولك : قد واللهِ أحسنتَ ، وقد لعمري بتُّ ساهرا .

ويجوز طرح الفعل بعدها إذا فُهِم كقول النابغة الذبيانيّ :

*أَفِدَ الترحُّلُ غيرَ أَنَّ ركابنا * لَمَّا تَزُلْ برحَالِنا وكأَنْ قَدِ*

أَي كأَن قد زالت .

وإذا دخلت قد على فعل ماض فإنما تدخل على كلّ فعل متجدّد ، نحو قوله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ﴾ ، ولذلك لا يصحّ أَن تستعمل في أَوصاف الله تعالى الذاتيّة ، نحو قد كان الله عليماً حكيماً .

وقوله : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى ﴾ متناول للمرض في المعنى ؛ كما أَن النفي في

قولك : ما علم الله زيدا يخرج ، وهو للخروج ، وتقدير ذلك : قد يمرضون فيما علم الله ، وما يخرج زيد فيما عِلم الله .

وإذا دخل قَدْ على الفعل المستقبل من الفعل فذلك الفعل يكون فى حالة دون حالة ، نحو : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ ﴾ أى قد يتسللون فيما علم الله .

والله أَعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 240 . 242 ﴾

(353/393)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ .

استبقا ، هذا ليَهْرَبَ ، وهذه للفعلة التي كانت تطلب .

ولم يضر يوسفَ – عليه السلام – أَنْ قَدَّتْ قميصه وهو لِبَاسُ دنياه بعد ما صحّ عليه قميصُ تقواه .

ويقال لم تَقْصِدْ قَدَّ القميصِ وإنما تَعَلَّقَتْ به لِتَحْبسَه على نفسها ، وكان قصدُها بقاءَ يوسف – عليه السلام – معها ، ولكن صار فعلُها وَبالاً على نَفْسِها ، فكان بلاؤها من

حيث طَلَبَتْ راحتها وشفاءَها .

ويقال تولَّد انخراقُ القميصِ من قبضها عليه وكان في ذلك افتضاح أمرها ؛ لأن قَبْضَها على قميصه كان مزجوراً عنه . . ليُعْلَمَ أنَّ الفاسِدَ سَعْيُه فاسدٌ .

ويقال لشدة استيلاء الهوى عليها لم تعلم في الحالِ أنها تقدُّ قميصه من ورائه أو من قُدّامِه . . كذلك صاحبُ البلاءِ في الهوى مسلوبُ التمييز .

ويقال لمّا لم تَصِلْ ولم تتمكن من مرادها من يوسف خَرَقَتْ قميصَه ليكونَ لها في إلقائها الذَّنبَ على يوسف – عليه السلام – حُجَّةٌ ، فَقَلَبَ اللَّهُ الأمرَ حتى صار ذلك عليها حجة ، وليوسف دلالة صدق ، قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيىءُ إلاَّ بأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : 43] .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا البَابِ ﴾ : لمَّا فتَحَا البابَ وجدا سيدها لدى الباب ، والإشارة فيه إلى أن ربك بالمرصاد ؛ إذا خَرَجَ العبدُ عن الذي هو عليه من التكليف في الحال وقع في ضِيق السؤال .

ويقال قال : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا ﴾ ولم يقل سيدهما لأن يوسف في الحقيقة كان حراً ولم يكن العزيزُ له سيداً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

شَغَلَتْهُ بإغرائها إياه بيوسف عن نَفْسِها بأن سَبَقَتْ إلى هذا الكلام .

ويقال لقنته حديث السجن أو العذاب الأليم لئلا يقصد قتلَه ؛ ففي عين ما سَعَتْ به نظرت له وأَبْقتْ عليه .

ويقال قالت ما جزاء من فعل هذا إلا السجن فإن لم ترضَ بذلك ، وستزيد ؛ فالعذاب الأليم يعني الضّرب المُبَرِّح . . كأنما ذكرت حديث العقوبة بالتدريج .

ويقال أوقعت السجن الذي يبقى مؤجّلاً في مقابلة الضرب الأليم المعجل ليُعْلَم أَنّ السجنَ الطويل – وإنْ لم يكن فيه في الظاهر ألم – فهو في مقابلة الضرب الشديد الموجعِ ؛ لأنه – وإنْ اشتدّ فلا يقابله .

ويقال قالت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً ﴾ فذِكْرُ الأهل ها هنا غاية تُهييج الحميّة وتذكيرٌ بالأَنَفةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 179 . 180 ﴾

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman
Bin Mohammed
AL-QAMMASH

20